الحاوي في التفسير

الشيخ

عبد الرحمن بن محمد القماش

المجلد الرابع والعشرون

الاجزاء من ٤٥٣ الى ٤٧١

الحَاوِي فِي التَّفسِير

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ ٭

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
453	سورة الاسراء	الآية 18 الى الآية 22	2
454	=	الآية 23 الى الآية 30	444
455	=	الآية 31 الى الآية 36	786
456	=	الآية 37 الى الآية 44	1195
457	=	الآية 45 الى الآية 49	1466
458	=	الآية 50 الى الآية 55	1873
459	=	الآية 56 الى الآية 60	2218
460	=	الآية 61 الى الآية 69	2517
461	=	الآية 70 الى الآية 76	2872
462	=	الآية 77 الى الآية 81	3159
463	=	الآية 82 الى الآية 87	3433
464	=	الآية 88 الى الآية 104	4079
465	=	الآية 105 الى الآية 111	4540
466	سورة الكهف	فصول مهمة	5162
467	=	فصل في الوقف والابتداء	5479
468	=	الآية 1 الى الآية 12	5797
469	=	الآية 13 الى الآية 21	6241
470	=	الآية 22 الى الآية 28	6673
471	=	الآية 29 الى الآية 31	7113

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والخمسون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/453)

الجزء الثالث والخمسون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 18 ﴾ من سورة الإسراء

وحتى الآية ﴿ 22 ﴾ من نفس السورة

(4/453)

قوله تعالى ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (21) لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تقرر أنه سبحانه خبير بذنوبهم بعد تزهيده في الدنيا بما ذكر من مصارع الأولين ، أتبعه الإخبار بأنه يعاملهم على حسب علمه على وجه معرف بعلمه بجميع طوياتهم من خير وشر ، مرغب في الآخرة ، مرهب من الدينا ، لأنها المانعة من اتباع الرسل والتقيد بطاعتهم

، خوفاً من نقص الحظ من الدينا بزوال ما هو فيه من الرئاسة والمال والانهماك في اللذة جهلاً بأن ما قدر لا يكون غيره سواء كان صاحبه في طاعة أو معصيته فقال تعالى : ﴿ من كان يريد ﴾ أي إرادة هو فيها في غاية الإمعان بما اقتضاه طبعه المشار إليه بفعل الكون .

ولما كان مدار مقصود السورة على الإحسان الذي هو العبادة على المشاهدة ، وكان ذلك منافياً لحال من يلتفت إلى الدنيا ، عبر بقوله تعالى : ﴿ العاجلة ﴾ أي فقط ﴿ عجلنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ له فيها ﴾ أي العاجلة ﴿ ما نشاء ﴾ مما يريده لا جميع ما يريده ؛ ثم أبدل من " له " قوله تعالى : ﴿ لمن نريد ﴾ أي لا لكل من أراد ذلك ، تنبيهاً على أن ذلك بقوتنا لا بقوة ذلك المريد ﴿ ثم جعلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ له ﴾ أي لظاهره وباطنه ﴿ جهنم ﴾ أي الدركة النارية التي تلقى بالتجهم من كان يلقى الدنيا وأهلها بالتبسم ﴿ يصلاها ﴾ في الآخرة ﴿ مذموماً ﴾ أي مفعولاً به الذم ، وهو ضد المدح ﴿ مدحوراً ﴾ مدفوعاً مطروداً مبعداً ، فينبغي لمريد الدنيا أن لا يزال على حذر لأنه لا ينفك من عذاب الآخرة ، فإن لم يعط شيئاً من مناه - كما أشار إليه ﴿ لمن نريد ﴾ اجتمع له العذابان كاملين : فقر الدنيا وعذاب الآخرة ، وإن أعطى فهو لا يعطي كل ما يريد - بما أشار إليه " ما نشاء " - فيجتمع له عذاب ما منعه منها مع عذاب الآخرة .

ولما ذكر الجاهل ذكر العالم العامل فقال تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة ﴾ أي مطلق إرادة – بما أشار إليه التجريد ﴿ من كان ﴾ ﴿ وسعى ﴾ أي وضم إلى نيته العمل بأن سعى ﴿ لها سعيها ﴾ أي الذي هو لها ، وهو ما كانت جديرة به من العمل بما يرضي الله بما شرعه في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، لا أي سعي كان بما لم يشهد ظاهر الكتاب والسنة ، إعلاماً بأن النية لا تنفع إلا مع العمل ، إما بالفعل عند التمكن ، وإما بالقوة عند عدمه ؛ ثم ذكر شرط السعي الذي لا يقبل إلا به ، فقال تعالى : ﴿ وهو مؤمن ﴾ أي راسخ في هذا الوصف كما جاء عن بعض السلف : من لم يكن له ثلاث لم ينفعه عمله : إيمان ثابت ، ونية صادقة ، وعمل مصيب – وتلا هذه الآية ، وهذا الرسوخ هو الإحسان الذي يدور عليه مقصود السورة ؛ ثم رتب عليه الجزاء فقال : ﴿ فأولئك ﴾ أي العالو الرتبة لجمعهم الشرائط الثلاثة ﴿ كان ﴾ أي كوناً لا بد منه ﴿ سعيهم مشكوراً ﴾ أي مقبولاً مثاباً عليه بالتضعيف مع أن بعضهم نفتح عليه أبواب الدنيا كداود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ونستعمله فيها بما يحب ، وبعضهم نزويها عنه كرامة له لا هواناً ، فالحاصل أنها إن وجدت عند الوالي لم تشرفه ، وإن عدمت عنه لم تحقره ، وإنما الشرف وغيره عند الله بالأعمال .

ولما أخبر عن نفسه الشريفة بما يشير إلى التوسعة على من يريد من أهل الباطل ، أخبر بأنه قضى بذلك في الأزل تفضلاً فقال تعالى : ﴿ كلاًّ ﴾ أي من الفريقين : مريد الدنيا ومريد الآخرة ﴿ نمد ﴾ أي بالعطاء ؛ ثم أبدل من ﴿ كلاًّ ﴾ قوله تعالى : ﴿ هؤلاء ﴾ أي الذين طلبوا الدنيا نمد ﴿ وهؤلاء ﴾ الذين طلبوا الآخرة نمد ﴿ من عطاء ربك ﴾ أي المحسن إليه بجميع قضائه ، إن ضيق على مؤمن فبالحماية من الدنيا الفانية التي إنما هي لهو ولعب ، وإن وسع فبالاستعمال فيها على حسب ما يرضيه ويعلي كلمته ﴿ وما كان عطاء ربك ﴾ أي الموجد لك المدبر لأمرك ﴿ محظوراً ﴾ أي ممنوعاً في الدنيا عن مؤمن ولا كافر ، بل هو ملء السهل والجبل من الذهب والفضة والحديد والنحاس والجواهر والثمار وأقوات الناس والبهائم ، وغير ذلك مما لا يحصيه إلا الله حتى لو اجتمع كل الناس على جمعه ليلاً ونهاراً ، ولم يكن لهم شغل سوى ذلك ، لأعياهم ولم يقدروا عليه ، فسبحان الجواد الواسع المعطي المانع ، ثم أمر بالنظر في عطائه هذا على وجه مرغب في الآخرة مزهد في الدنيا ، فقال تعالى آمراً بالاعتبار : ﴿ انظر ﴾ وبين أن حالهم لغرابته أهل لأن يسأل عنه فقال تعالى : ﴿ كيف فضلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة القاهرة ﴿ بعضهم على بعض ﴾ في هذه الحياة

الدنيا بالعطاء ، فصار الفاضل يسخر المفضول ، والمفضول يرغب في خدمة المفضل ويتشرف بالتقرب إليه ، مع أن رزق الله – وهو عطاءه – بالنسبة إلى الكل على حد سواء ، خلق ما هو موجود في هذه الدنيا للبر والفاجر ، وكل حريصون على أن يأخذوا فوق كفايتهم من الأرزاق التي هي أكثر منهم ، فما كان هذا التفاضل إلا بقسر قادر قهرهم على ذلك ، وهو من تنزه عن النقص وحاز على كمال ، فاستحق أن لا توجه رغبة راغب إلا إليه .

(7/453)

ولما نبه على أن ما نراه من التفضيل إنما هو بمحض قدرته ، أخبر أن ما بعد الموت كله كذلك من غير فرق فقال : ﴿ وللآخرة ﴾ أكد الإخبار عما فيها المستلزم لتأكيد الإعلام بوجودها لهم من إنكاره ﴿ أكبر درجات ﴾ من هذه الحياة الدنيا ﴿ وأكبر تفضيلاً ﴾ أولاً بالجنة والنار أنفسهما ، وثانياً بالدرجات في الجنة والدركات في النار ؛ ولما كان العلم هنا مقيداً بالذنوب ، ذكر بعد المفاضلة في الدنيا ، ولعل في ذلك إشارة إلى أن أكثر من يزاد في الدنيا تكون زيادته نقصاً من آخرته بسبب ذنب اكتسبه أو تقصير ارتكبه ، ولما كان العلم فيما يأتي في قوله تعالى : ﴿ وربك أعلم ﴾ مطلقاً ، طوى بعده الرذائل ، وعطف على ذلك

المطوي الفضائل ، فقال تعالى : ﴿ ولقد فضلنا بعض ، النبيين على بعض ﴾ الآية ، فمن كانت له نفس أبيه وهمة علية كان عليه أن يزهد في علو فانٍ لأجل العلو الباقي .

ولما تقرر بما مضى أن له سبحانه الأمر كله ، وأنه متصف بجميع الكمال منزه عن شوائب النقص ، أنتج أنه لا إله غيره ، فقال تعالى يخاطب الرأس لأن ذلك أوقع في أنفس الأتباع ، وإشارة إلى أنه لا يوحده حق توحيده سواه ، ويجوز أن يكون خطاباً عاماً لكل من يصح أن يخاطب به : ﴿ لا تجعل مع الله ﴾ الذي له جميع صفات الكمال ﴿ إلهاً ﴾ وسيأتي قريباً سر قوله : ﴿ ءاخر ﴾ أنه مفهوم من المعية ﴿ فتقعد ﴾ أي فيتسبب عن ذلك أن تقعد أي تصير في الدنيا قبل الآخرة ﴿ مذموماً ﴾ .

ولما كان الذم قد يحتمله بعض الناس مع بلوغ الأمل ، بين أنه مع الخيبة فقال تعالى :

﴿ مخذولاً ﴾ أي غير منصور فيما أردته من غير أن يغني عنك أحد بشفاعة أو غيرها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 371 . 373 ﴾

(8/453)

فصل

قال الفخر :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال القفال رحمه الله : هذه الآية داخلة في معنى قوله : ﴿ وَكُلَّ إِنسانٍ أَلزَمناه طائِرَهُ فِى عُنُقِهِ ﴾ [الإسراء : 13] ومعناه : أن الكمال في الدنيا قسمان ، فمنهم من يريد بالذي يعمله الدنيا ومنافعها والرياسة فيها ، فهذا يأنف من الانقياد للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والدخول في طاعتهم والإجابة لدعوتهم ، إشفاقاً من زوال الرياسة عنه ، فهذا قد جعل طائر نفسه شؤماً لأنه في قبضة الله تعالى فيؤتيه الله في الدنيا منها قدراً لا كما يشاء ذلك الإنسان ، بل كما يشاء الله إلا أن عاقبته جهنم يدخلها فيصلاها بحرها مذموماً ملوماً مدحوراً منفياً مطروداً من رحمة الله تعالى .

وفي لفظ هذه الآية فوائد .

الفائدة الأولى : أن العقاب عبارة عن مضرة مقرونة بالإهانة والذم بشرط أن تكون دائمة وخالية عن شوب المنفعة ، فقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يصلاها ﴾ إشارة إلى المضرة العظيمة ، وقوله : ﴿ مَذْمُومًا ﴾ إشارة إلى الإهانة والذم ، وقوله : ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ إشارة إلى البعد والطرد عن رحمة الله ، وهي تفيد كون تلك المضرة خالية عن شوب النفع والرحمة

وتفيد كونها دائمة وخالية عن التبدل بالراحة والخلاص .

الفائدة الثانية : أن من الجهال من إذا ساعدته الدنيا اغتر بها وظن أن ذلك لأجل كرامته على الله تعالى ، وأنه تعالى بين أن مساعدة الدنيا لا ينبغي أن يستدل بها على رضا الله تعالى ، لأن الدنيا قد تحصل مع أن عاقبتها هي المصير إلى عذاب الله وإهانته ، فهذا الإنسان أعماله تشبه طائر السوء في لزومها له وكونها سائقة له إلى أشد العذاب .

(9/453)

الفائدة الثالثة : قوله تعالى : ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ يدل على أنه لا يحصل الفوز بالدنيا لكل أحد ، بل كثير من الكفار والضلال يعرضون عن الدين في طلب الدنيا ، ثم يبقون محرومين عن الدنيا وعن الدين ، وهذا أيضاً فيه زجر عظيم لهؤلاء الكفار الضلال الذين يتركون الدين لطلب الدنيا ، فإنه ربما فاتتهم الدنيا فهم الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

وأما القسم الثاني : وهو قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فشرط تعالى فيه شروطاً ثلاثة :

الشرط الأول : أن يريد بعمله الآخرة أي ثواب الآخرة ، فإنه إن لم تحصل هذه الإرادة ، وهذه

النية لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإنسانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ [النجم : 39]
ولقوله عليه الصلاة والسلام : " إنما الأعمال بالنيات " ولأن المقصود من الأعمال استنارة القلب بمعرفة الله تعالى ومحبته ، وهذا لا يحصل إلا إن نوى بعمله عبودية الله تعالى وطلب طاعته .

والشرط الثاني : قوله : ﴿ وسعى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ وذلك هو أن يكون العمل الذي يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة من الأعمال التي بها ينال ثواب الآخرة ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان من باب القرب والطاعات ، وكثير من الناس يتقربون إلى الله تعالى بأعمال باطلة ، فإن الكفار يتقربون إلى الله تعالى بعبادة الأوثان ، ولهم فيه تأويلان :

التأويل الأول : يقولون : إله العالم أجل وأعظم من أن يقدر الواحد منا على إظهار عبوديته وخدمته فليس لنا هذا القدر والدرجة ولكن غاية قدرنا أن نشتغل بعبودية بعض المقربين من عباد الله تعالى ، مثل أن نشتغل بعبادة كوكب أو عبادة ملك من الملائكة ، ثم إن الملك والكوكب يشتغلون بعبادة الله تعالى ، فهؤلاء يتقربون إلى الله تعالى بهذا الطريق ، إلا أنه لما كان فاسداً في نفسه لا جرم لم يحصل الانتفاع به .

(10/453)

والتأويل الثاني لهم : أنهم قالوا : نحن اتخذنا هذه التماثيل على صور الأنبياء والأولياء ، ومرادنا من عبادتها أن تصير أولئك الأنبياء والأولياء شفعاء لنا عند الله تعالى .

وهذا الطريق أيضاً فاسد ، وأيضاً نقل عن الهند : أنهم يتقربون إلى الله تعالى بقتل أنفسهم تارة وبإحراق أنفسهم أخرى ويبالغون في تعظيم الله تعالى ، إلا أنه لما كان الطريق فاسداً لا جرم لم ينتفع به ، وكذلك القول في جميع فرق المبطلين الذين يتقربون إلى الله تعالى بمذاهبهم الباطلة وأقوالهم الفاسدة وأعمالهم المنحرفة عن قانون الصدق والصواب .

والشرط الثالث : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ وهذا الشرط معتبر ، لأن الشرط في كون أعمال البر موجبة للثواب تقدم الإيمان ، فإذا لم يوجد الشرط لم يحصل المشروط ، ثم إنه تعالى أخبر أن عند حصول هذه الشرائط يصير السعي مشكوراً والعمل مبروراً .

واعلم أن الشكر عبارة عن مجموع أمور ثلاثة : اعتقاد كونه محسناً في تلك الأعمال ، والثناء عليه بالقول ، والإتيان بأفعال تدل على كونه معظماً عن ذلك الشاكر ، والله تعالى يعامل المطيعين بهذه الأمور الثلاثة ، فإنه تعالى عالم بكونهم محسنين في تلك الأعمال ، وأنه تعالى يثني عليهم بكلامه وأنه تعالى يعاملهم بمعاملات دالة على كونهم معظمين عند الله تعالى ، وإذا كان مجموع هذه الثلاثة حاصلاً كانوا مشكورين على طاعاتهم من قبل الله تعالى ، ورأيت في كتب المعتزلة أن جعفر بن حرب حضر عنده واحد من أهل السنة وقال : الدليل

على أن الإيمان حصل بخلق الله تعالى أنا نشكر الله على الإيمان ، ولو لم يكن الإيمان حاصلاً بإيجاده لامتنع أن نشكره عليه ، لأن مدح الإنسان وشكره على ما ليس من عمله قبيح .

(11/453)

قال الله تعالى : ﴿ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ﴾ [آل عمران : 188] فعجز الحاضرون عن الجواب ، فدخل ثمامة بن الأشرس وقال : إنما نمدح الله تعالى ونشكره على ما أعطانا من القدرة والعقل .

وإنزال الكتب وإيضاح الدلائل ، والله تعالى يشكرنا على فعل الإيمان .

قال تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ قال فضحك جعفر بن حرب وقال : صعب المسألة فسهلت .

واعلم أن قولنا : مجموع القدرة مع الداعي يوجب الفعل كلام واضح ، لأنه تعالى هو الذي أعطى الموجب التام لحصول الإيمان فكان هو المستحق للشكر ، ولما حصل الإيمان للعبد وكان الإيمان موجباً للسعادة التامة صار العبد أيضاً مشكوراً ولا منافاة بين الأمرين .

المسألة الثانية :

اعلم أن كل من أتى بفعل فإما أن يقصد بذلك الفعل تحصيل خيرات الدنيا ، أو تحصيل

خيرات الآخرة ، أو يقصد به مجموعهما ، أو لم يقصد به واحداً منهما ، هذا هو التقسيم الصحيح ، أما إن قصد به تحصيل الدنيا فقط أو تحصيل الآخرة فقط ، فالله تعالى ذكر حكم هذين القسمين في هذه الآية .

أما القسم الثالث : فهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، لأنه إما أن يكون طلب الآخرة راجحاً أو مرجوحاً ، أو يكون الطلبان متعادلين .

(12/453)

أما القسم الأول : وهو أن يكون طلب الآخرة راجحاً ، فهل يكون هذا العمل مقبولاً عند الله تعالى فيه بحث ، يحتمل أن يقال : إنه غير مقبول لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم حكى عن رب العزة أنه قال : " أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشريكه " وأيضاً فطلب رضوان الله إما أن يقال : إنه كان سبباً مستقلاً بكونه باعثاً على ذلك الفعل أو داعياً إليه ، وإما أن يقال : ما كان كذلك ، فإن كان الأول امتنع أن يكون لغيره مدخل في ذلك البعث والدعاء ، لأن الحكم إذا حصل مسنداً إلى سبب تام كامل امتنع أن يكون لغيره مدخل فيه ، وإن كان الثاني فحينئذ يكون الحامل على ذلك الفعل والداعي إليه ذلك المجموع ، وذلك المجموع ليس هو طلب رضوان الله تعالى ، لأن المجموع

الحاصل من الشيء ومن غيره يجب كونه مغايراً لكل واحد من جزئيه فهذا القسم التحق بالقسم الذي كان الداعي إليه مغايراً لطلب رضوان الله تعالى فوجب أن يكون مقبولاً ، ويمكن أن يقال لما كان طلب الآخرة راجحاً على طلب الدنيا تعارض المثل بالمثل فيبقى القدر الزائد داعية خالصة لطلب الآخرة فوجب كونه مقبولاً ، وأما إذا كان طلب الدنيا وطلب الآخرة متعادلين ، أو كان طلب الدنيا راجحاً فهذا قد اتفقوا على أنه غير مقبول إلا أنه على كل حال خير مما إذا كان طلب الدنيا خالياً بالكلية عن طلب الآخرة .

وأما القسم الرابع : وهو أن يقال إنه أقدم على ذلك الفعل من غير داع فهذا بناء على أن صدور الفعل من القادر هل يتوقف على حصول الداعي أم لا ؟ فالذين يقولون إنه متوقف قالوا هذا القسم ممتنع الحصول ، والذين قالوا : إنه لا يتوقف قالوا : هذا الفعل لا أثر له في الباطن وهو محرم في الظاهر لأنه عبث ، والله أعلم .

(13/453)

ثم قال تعالى : ﴿ كُلاًّ ﴾ أي كل واحد من الفريقين ، والتنوين عوض من المضاف إليه : ﴿ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبّكَ ﴾ أي أنه تعالى يمد الفريقين بالأموال ويوسع عليهما في الرزق مثل الأموال والأولاد ، وغيرهما من أسباب العز والزينة في الدنيا ، لأن عطاءنا ليس

يضيق عن أحد مؤمناً كان أو كافراً لأن الكل مخلوقون في دار العمل ، فوجب إزاحة العذر وإزالة العلة عن الكل وإيصال متاع الدنيا إلى الكل على القدر الذي يقتضيه الصلاح فبين تعالى أن عطاءه ليس بمحظور ، أي غير ممنوع يقال حظره يحظره ، وكل من حال بينه وبين شيء فقد حظره عليك .

ثم قال تعالى : ﴿ انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ﴾ وفيه قولان :

القول الأول : المعنى : انظر إلى عطائنا المباح إلى الفريقين في الدنيا ، كيف فضلنا بعضهم على بعض فأوصلناه إلى مؤمن .

وقبضناه عن مؤمن آخر ، وأوصلناه إلى كافر ، وقبضناه عن كافر آخر ، وقد بين تعالى وجه الحكمة في هذا التفاوت فقال : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِى الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ درجات لّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ [الزخرف : 32] وقال في آخر سورة الأنعام : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ درجات لّيَبْلُوَكُمْ فِيمَا ءاتاكم ﴾ [الأنعام : 165] .

ثم قال : ﴿ وَلَلأَخِرَةُ أَكْبَرُ درجات وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ والمعنى : أن تفاضل الخلق في درجات منافع الدنيا محسوس ، فتفاضلهم في درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم ، فإن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا ، فإذا

كان الإنسان تشتد رغبته في طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته في طلب فضيلة الآخرة أولى .

(14/453)

القول الثاني : أن المراد أن الآخرة أعظم وأشرف من الدنيا ، والمعنى أن المؤمنين يدخلون الجنة ، والكافرين يدخلون النار ، فيظهر فضل المؤمنين على الكافرين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَصحاب الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان : 24] .

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في بيان وجه النظم .

فنقول : إنه تعالى لما بين أن الناس فريقان منهم من يريد بعمله الدنيا فقط وهم أهل العقاب والعذاب ، ومنهم من يريد به طاعة الله وهم أهل الثواب .

ثم شرط ذلك بشرائط ثلاثة : أولها : إرادة الآخرة .

وثانيها : أن يعمل عملاً ويسعى سعياً موافقاً لطلب الآخرة .

وثالثها : أن يكون مؤمناً لا جرم فصل في هذه الآية تلك المجملات فبدأ أولاً بشرح حقيقة الإيمان ، وأشرف أجزاء الإيمان هو التوحيد ونفي الشركاء والأضداد فقال : ﴿ لَّا تَجْعَل مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ ثم ذكر عقيبه سائر الأعمال التي يكون المقدم عليها ، والمشتغل بها ساعياً سعياً يليق بطلب الآخرة ، وصار من الذين سعد طائرهم وحسن بختهم وكملت أحوالهم .

المسألة الثانية :

قال المفسرون : هذا في الظاهر خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن في المعنى عام لجميع المكلفين كقوله : ﴿ يأَيُّهَا النبى إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾ [الطلاق : 1] ويحتمل أيضاً أن يكون الخطاب للإنسان كأنه قيل : أيها الإنسان لا تجعل مع الله إلهاً آخر ، وهذا الاحتمال عندي أولى ، لأنه تعالى عطف عليه قوله : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إياه ﴾ إلى قوله : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ [الإسراء : 23] وهذا لا يليق بالنبي عليه السلام ، لأن أبويه ما بلغا الكبر عنده فعلمنا أن المخاطب بهذا هو نوع الإنسان .

المسألة الثالثة :

معنى الآية أن من أشرك بالله كان مذموماً مخذولاً ، والذي يدل على أن الأمر كذلك وجوه :

الأول : أن المشرك كاذب والكاذب يستوجب الذم والخذلان .

الثاني : أنه لما ثبت بالدليل أنه لا إله ولا مدبر ولا مقدر إلا الواحد الأحد ، فعلى هذا التقدير تكون جميع النعم حاصلة من الله تعالى ، فمن أشرك بالله فقد أضاف بعض تلك النعم إلى غير الله تعالى ، مع أن الحق أن كلها من الله ، فحينئذ يستحق الذم ، لأن الخالق تعالى استحق الشكر بإعطاء تلك النعم فلما جحد كونها من الله ، فقد قابل إحسان الله تعالى بالإساءة والجحود والكفران فاستوجب الذم وإنما قلنا إنه يستحق الخذلان ، لأنه لما أثبت شريكاً لله تعالى استحق أن يفوض أمره إلى ذلك الشريك ، فلما كان ذلك الشريك معدوماً بقي بلا ناصر ولا حافظ ولا معين .

وذلك عين الخذلان .

الثالث : أن الكمال في الوحدة والنقصان في الكثرة ، فمن أثبت الشريك فقد وقع في جانب النقصان واستوجب الذم والخذلان ، واعلم أنه لما دل لفظ الآية على أن المشرك مذموم مخذول وجب بحكم الآية أن يكون الموحد ممدوحاً منصوراً ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

القعود المذكور في قوله : ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ فيه وجوه : الأول : أن معناه : المكث أي فتمكث في الناس مذموماً مخذولاً ، وهذه اللفظة مستعملة في لسان العرب

والفرس في هذا المعنى ، فإذا سأل الرجل غيره ما يصنع فلان في تلك البلدة فيقول المجيب : هو قاعد بأسوأ حال معناه : المكث سواء كان قائماً أو جالساً .

الثاني : إن من شأن المذموم المخذول أن يقعد نادماً متفكراً على ما فرط منه .

(16/453)

الثالث : أن المتمكن من تحصيل الخيرات يسعى في تحصيلها ، والسعي إنما يتأتى بالقيام ، وأما العاجز عن تحصيلها فإنه لا يسعى بل يبقى جالساً قاعداً عن الطلب فلما كان القيام على الرجل أحد الأمور التي بها يتم الفوز بالخيرات ، وكان القعود والجلوس علامة على عدم تلك المكنة والقدرة لا جرم جعل القيام كناية عن القدرة على تحصيل الخيرات .

والقعود كناية عن العجز والضعف .

المسألة الخامسة :

قال الواحدي : قوله : (فتقعد) انتصب لأنه وقع بعد الفاء جواباً للنهي وانتصابه بإضمار "أن" كقولك لا تنقطع عنا فنجفوك ، والتقدير : لا يكن منك انقطاع فيحصل أن نجفوك فما بعد الفاء متعلق بالجملة المتقدمة بحرف الفاء التي هي حرف العطف .

وإنما سماه النحويون جواباً لكونه مشابهاً للجزاء في أن الثاني مسبب عن الأول ، ألا ترى أن

المعنى إن انقطعت جفوتك كذلك تقدير الآية إن جعلت مع الله إلهاً آخر قعدت مذموماً مخذولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 142. 147 ﴾

(17/453)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ كُلاًّ نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربِّكَ ﴾

يعني البر والفاجر من عطاء ربك في الدنيا دون الآخرة .

﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : منقوصاً ، قاله قتادة .

الثاني : ممنوعاً ، قاله ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(18/453)

وقال ابن عطية :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾

المعنى من كان يريد الدنيا العاجلة ولا يعتقد غيرها ولا يؤمن بآخرة فهو يفرغ أمله ومعتقده للدنيا ، فإن الله يعجل لمن يريد من هؤلاء ما يشاء هذا المريد أو ما يشاء الله على قراءة من قرأ " نشاء " بالنون ، وقوله ﴿ لمن يريد ﴾ شرط كاف على القراءتين ثم يجعل الله جهنم لجميع مريدي العاجلة على جهة الكفر من أعطاه فيها ما يشاء ومن حرمه ، قال أبو إسحاق الفزاري المعنى لمن نريد هلكته ، وقرأ الجمهور : " نشاء " بالنون ، وقرأ نافع أيضاً " يشاء " بالياء ، و" المدحور " المهان المبعد المذلل المسخوط عليه ، وقوله ﴿ ومن أراد الآخرة ﴾ الآية ، المعنى ومن أراد الآخرة إرادة يقين بها وإيمان بها وبالله ورسالاته .

(19/453)

قال القاضي أبو محمد : وذلك كله مرتبط متلازم ثم شرط في مريد الآخرة أن يسعى لها سعيها وهو ملازمة أعمال الخير وأقواله على حكم الشرع وطرقه ، فأولئك يشكر الله سعيهم ولا يشكر الله عملاً ولا سعياً إلا أثاب عليه وغفر بسببه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الرجل الذي سقى الكلب العاطش فشكر الله له فغفر له ، وقوله ﴿ كلاًّ نمد ﴾ الآية نصب ﴿ كلاًّ ﴾ ب ﴿ نمد ﴾ ، وأمددت الشيء إذا زدت فيه من غيره نوعه ، ومددته إذا زدت فيه من نوعه ، وقيل هما بمعنى واحد ، يقال مد وأمد . و ﴿

هؤلاء ﴾ بدل من قوله ﴿ كلاًّ ﴾ فهو في موضع نصب ، وقوله ﴿ من عطاء ربك ﴾ يحتمل أن يريد من الطاعات لمريدي الآخرة والمعاصي لمريدي العاجلة ، وروي هذا التأويل عن ابن عباس ، ويحتمل أن يريد ب " العطاء " رزق الدنيا ، وهذا تأويل الحسن بن أبي الحسن وقتادة ، أي إن الله تعالى يرزق في الدنيا مريدي الآخرة المؤمنين ومريدي العاجلة من الكافرين ويمدهم بعطائه منها وإنما يقع التفاضل والتباين في الآخرة ، ويتناسب هذا المعنى مع قوله ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ ، أي إن رزقه في الدنيا لا يضيق عن مؤمن ولا كافر ، وقلما تصلح هذه العبارة لمن يمد بالمعاصي التي توبقه ، و" المحظور " الممنوع . وقوله ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ ، آية تدل دلالة ما على أن العطاء في التي قبلها هو الرزق ، وفي ذلك يترتب أن ينظر محمد عليه السلام إلى تفضيل الله لبعض على بعض في الرزق ، ونحوه من الصور والشرف والجاه والحظوظ وبين أن يكون التفضيل الذي ينظر إليه النبي عليه السلام إن أعطى الله قوماً الطاعات المؤدية إلى الجنة وأعطى آخرين الكفر المؤدي إلى النار ، وهذا قول الطبري : وهذا إنما هو النظر في تفضيل فريق على فريق ، وعلى التأويل الآخر فالنظر في تفضيل شخص على شخص من المؤمنين ومن الكافرين كيفما قرنتهما ثم أخبر عز وجل أن التفضيل الأكبر إنما يكون في الآخرة .

وقوله ﴿ أكبر درجات ﴾ ليس في اللفظ من أي شيء لكنه في المعنى ولا بد ، أي ﴿ أكبر درجات ﴾ من كل ما يضاف بالوجود أو بالفرض إليها ، وكذلك قوله ﴿ أكبر تفضيلاً ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وروى بعض العلماء أن هذه الدرجات والتفضيل إنما هو فيما بين المؤمنين ، وأسند الطبري في ذلك حديثاً نصه أن بين أعلى الجنة وأسفلها درجة كالنجم يرى في مشارق الأرض ومغاربها .

قال القاضي أبو محمد : ولكن قد رضي الله الجميع فما يغبط أحد أحداً ، ولا يتمنى ذلك بدلاً ، وقوله ﴿ لا تجعل ﴾ الآية ، الخطاب لمحمد عليه السلام ، والمراد لجميع الخلق قاله الطبري وغيره ، والذم هنا لاحق من الله تعالى ومن ذوي العقول في أن يكون الإنسان يجعل عوداً أو حجراً أفضل من نفسه ، ويخصه بالكرامة وينسب إليه الألوهية ويشركه مع الله الذي خلقه ورزقه وأنعم عليه ، و" الخذلان " في هذا يكون بإسلام الله وأن لا يكفل له بنصر ، و" المخذول " الذي لا ينصره من يجب أن ينصره . والخاذل من الظبا التي تترك ولدها ، ومن هذه اللفظة قول الراعي :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما . . . وسعى فلم أر مثله مخذولا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة ﴾

يعني : من كان يريد بعمله الدنيا ، فعبَّر بالنعت عن الاسم ، ﴿ عجلنا له فيها ما نشاء ﴾

من عَرَض الدنيا ، وقيل : من البسط والتقتير ، ﴿ لمن نريد ﴾ فيه قولان .

أحدهما : لمن نريد هَلَكته ، قاله أبو إِسحاق الفزاري .

والثاني : لمن نريد أن نعجل له شيئاً ، وفي هذا ذم لمن أراد بعمله الدنيا ، وبيان أنه لا ينال مع

ما يقصده منها إِلاَّ ما قُدِّرَ له ، ثم يدخل النار في الآخرة .

وقال ابن جرير : هذه الآية لمن لا يوقن بالمعاد .

وقد ذكرنا معنى "جنهم" في [البقرة : 206] ، ومعنى "يصلاها" في سورة [النساء :

10] ، ومعنى ﴿ مذموماً مدحوراً ﴾ في [الأعراف : 18] .

قوله تعالى : ﴿ ومَن أراد الآخرة ﴾ يعني : الجنة ﴿ وسعى لها سعيها ﴾ أي : عمل لها

العمل الذي يصلح لها ، وإِنما قال : ﴿ وهو مؤمن ﴾ لأن الإِيمان شرط في صحة الأعمال ،

﴿ فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ أي : مقبولا .

وشكر الله عزَّ وجل لهم: ثوابه إياهم، وثناؤُه عليهم.

قوله تعالى: ﴿ كُلاًّ نمد هؤلاء ﴾

قال الزجاج: "كلاً" منصوب ب "نُمِدُّ"، "هؤلاء" بدل من "كل"، والمعنى: نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك.

قال المفسرون: كُلاًّ نعطي من الدنيا، البَرَّ والفاجرَ، والعطاء هاهنا: الرزق، والمحظور: الممنوع، والمعنى: أن الرزق يعم المؤمن والكافر، والآخرة للمتقين خاصة.

﴿ أنظُر ﴾ يا محمد ﴿ كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ وفيما فضِّلوا فيه قولان.

أحدهما: الرزق، منهم مقلٌّ، ومنهم مُكثر.

والثاني: الرزق والعمل، فمنهم موفَّق لعمل صالح، ومنهم ممنوع من ذلك.

قوله تعالى: ﴿ لا تجعل مع الله إِلها آخر ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمعنى عام لجميع المكلفين.

والمخذول: الذي لا ناصر له، والخذلان: ترك العون.

قال مقاتل: نزلت حين دعَوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إِلى ملة آبائه. انتهى ا. هـ ﴿زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة ﴾

يعني الدنيا ، والمراد الدار العاجلة ؛ فعبّر بالنعت عن المنعوت .

﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ أي لم نعطه منها إلا ما نشاء ثم نؤاخذه بعمله ، وعاقبته دخولُ النار .

﴿ مَذْمُوماً مَّدْحُوراً ﴾ أي مطروداً مبعداً من رحمة الله .

وهذه صفة المنافقين الفاسقين ، والمرائين المداجين ، يلبسون الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها ، فلا يقبل ذلك العمل منهم في الآخرة ولا يُعطون في الدنيا إلا ما قُسم لهم .

وقد تقدّم في "هود" أن هذه الآية تقيّد تلك الآيات المطلقة ؛ فتأمْله .

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخرة ﴾ أي الدار الآخرة .

﴿ وسعى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي عمِل لها عملها من الطاعات .

﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ لأن الطاعات لا تقبل إلا من مؤمن .

﴿ فَأُولَـٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ أي مقبولاً غير مردود .

وقيل : مضاعَفاً ؛ أي تضاعف لهم الحسنات إلى عشر ، وإلى سبعين وإلى سبعمائة ضعف

، وإلى أضعاف كثيرة ؛ كما روي " عن أبي هريرة وقد قيل له : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله ليَجْزي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة" ؟ فقال سمعته يقول : "إن الله ليَجْزي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة" "

قوله تعالى : ﴿ كُلاًّ نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾

أعلم أنه يرزق المؤمنين والكافرين .

﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ أي محبوساً ممنوعاً ؛ من حَظَرَ يَحْظُرُ حَظْراً وحظاراً .

ثم قال تعالى : ﴿ انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ﴾ في الرزق والعمل ؛ فمن مُقِلٍّ ومكثر .

﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ أي للمؤمنين ؛ فالكافر وإن وُسِّع عليه في الدنيا مرة ، وقُتِّر على المؤمن مَرّة فالآخرة لا تقسم إلا مرة واحدة بأعمالهم ؛ فمن فاته شيء منها لم يستدركه فيها .

وقوله ﴿ لَّا تَجْعَل مَعَ اللَّهِ إلهاً آخَرَ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته.

وقيل: الخطاب للإنسان.

﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ أي تبقى.

﴿ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾ لا ناصر لك ولا وَلِياً. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(24/453)

وقال أبو حيان:

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ﴾

و﴿ العاجلة ﴾ هي الدنيا ومعنى إرادتها إيثارها على الآخرة، ولا بد من تقدير حذف دل عليه المقابل في قوله: ﴿ من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ﴾ فالتقدير: من كان يريد العاجلة وسعى لها سعيها وهو كافر.

وقيل: المراد ﴿ من كان يريد العاجلة ﴾ بعمل الآخرة كالمنافق والمرائي والمهاجر للدنيا والمجاهد للغنيمة والذكر كما قال عليه السلام: " ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه " وقال عليه الصلاة والسلام: " من طلب الدنيا

بعمل الآخرة فما له في الآخرة من نصيب "

وقيل : نزلت في المنافقين وكانوا يغزون مع المسلمين للغنيمة لا للثواب ، و﴿ من ﴾ شرط وجوابه ﴿ عجلنا له فيها ما نشاء ﴾ فقيد المعجل بمشيئته أي ما يشاء تعجيله .

و﴿ لمن نريد ﴾ بدل من قوله : ﴿ له ﴾ بدل بعض من كل لأن الضمير في ﴿ له ﴾ عائد على من الشرطية ، وهي في معنى الجمع ، ولكن جاءت الضمائر هنا على اللفظ لا على المعنى ، فقيد المعجل بإرادته فليس من يريد العاجلة يحصل له ما يريده ، ألا ترى أن كثيراً من الناس يختارون الدنيا ولا يحصل لهم منها إلاّ ما قسمه الله لهم ، وكثيراً منهم يتمنون النزر اليسير فلا يحصل لهم ، ويجمع لهم شقاوة الدنيا وشقاوة الآخرة .

وقرأ الجمهور ﴿ ما نشاء ﴾ بالنون وروي عن نافع ما يشاء بالياء .

فقيل الضمير في يشاء يعود على الله ، وهو من باب الالتفات فقراءة النون والياء سواء .

وقيل يجوز أن يعود على من العائد عليها الضمير في ﴿ له ﴾ وليس ذلك عاماً بل لا يكون له ما يشاء إلاّ آحاد أراد الله لهم ذلك ، والظاهر أن الضمير في ﴿ لمن نريد ﴾ يقدر مع تقديره مضاف محذوف يدل عليه ما قبله ، أي لمن نريد تعجيله له أي تعجيل ما نشاء .

وقال أبو إسحاق الفزاري المعنى لمن نريد هلكته وما قاله لا يدل عليه لفظ في الآية .

و ﴿ جعلنا ﴾ بمعنى صيرنا ، والمفعول الأول ﴿ جهنم ﴾ والثاني له لأنه ينعقد منهما مبتدأ وخبر ، فنقول : جهنم للكافرين كما قال هؤلاء للنار وهؤلاء للجنة و﴿ يصلاها ﴾ حال من جهنم .

وقال أبو البقاء : أو من الضمير الذي في ﴿ له ﴾ .

وقال صاحب الغنيان : مفعول ﴿ جعلنا ﴾ الثاني محذوف تقديره مصيراً أو جزاءً انتهى .

﴿ مذموماً ﴾ إشارة إلى الإهانة .

﴿ مدحوراً ﴾ إشارة إلى البعد والطرد من رحمة الله ﴿ ومن أراد الآخرة ﴾ أي ثواب الآخرة بأن يؤثرها على الدنيا ، ويعقد إرادته بها ﴿ وسعى ﴾ فيما كلف من الأعمال والأقوال ﴿ سعيها ﴾ أي السعي المعد للنجاة فيها .

﴿ وهو مؤمن ﴾ هو الشرط الأعظم في النجاة فلا تنفع إرادة ولا سعي إلا بحصوله . وفي الحقيقة هو الناشىء عنه إرادة الآخرة والسعي للنجاة فيها وحصول الثواب ، وعن بعض المتقدّمين من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله : إيمان ثابت ، ونية صادقة ، وعمل مصيب ، وتلا هذه الآية ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من اتصف بهذه الأوصاف وراعى معنى من فلذلك كان بلفظ الجمع ، والله تعالى يشكرهم على طاعتهم وهو تعالى المشكور

على ما أعطى من العقل وإنزال الكتب وإيضاح الدلائل ، وهو المستحق للشكر حقيقة ومعنى شكرة تعالى المطيع الإثناء عليه وثوابه على طاعته .

وانتصب ﴿ كلا ﴾ بنمد والإمداد المواصلة بالشيء ، والمعنى كل واحد من الفريقين ﴿ نمد ﴾ كذا قدره الزمخشري : وأعربوا ﴿ هؤلاء ﴾ بدلاً من ﴿ كلا ﴾ ولا يصح أن يكون بدلاً من كل على تقدير كل واحد لأنه يكون إذ ذاك بدل كل من بعض ، فينبغي أن يكون التقدير كل الفريقين فيكون بدل كل من كل على جهة التفصيل .

(26/453)

والظاهر أن هذا الإمداد هو في الرزق في الدنيا وهو تأويل الحسن وقتادة ، أي إن الله يرزق في الدنيا مريدي العاجلة الكافرين ، ومريدي الآخرة المؤمنين ويمد الجميع بالرزق ، وإنما يقع التفاوت في الآخرة ويدل على هذا التأويل ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ أي إن رزقه لا يضيق عن مؤمن ولا كافر .

وعن ابن عباس أن معنى ﴿ من عطاء ربك ﴾ من الطاعات لمريد الآخرة والمعاصي لمريد العاجلة ، فيكون العطاء عبارة عما قسم الله للعبد من خير أو شر ، وينبوا لفظ العطاء على الإمداد بالمعاصي .

والظاهر أن ﴿ انظر ﴾ بصرية لأن التفاوت في الدنيا مشاهد و﴿ كيف ﴾ في موضع نصب بعد حذف حرف الجر ، لأن نظر يتعدى به ، فانظر هنا معلقة .

ولما كان النظر مفضياً وسبباً إلى العلم جاز أن يعلق ، ويجوز أن يكون ﴿ انظر ﴾ من نظر الفكر فلا كلام في تعليقه إذ هو فعل قلبي .

والتفضيل هنا عبارة عن الطاعات المؤدّية إلى الجنة ، والمفضل عليهم الكفار كأنه قيل : انظر في تفضيل فريق على فريق ، وعلى التأويل الأول كأنه قيل في تفضيل شخص على شخص من المؤمنين والكافرين ، والمفضول في قوله : ﴿ أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ محذوف تقديره من درجات الدنيا ومن تفضيل الدنيا .

وروي أن قوماً من الأشراف ومن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله عنه ، فخرج الإذن لبلال وصهيب فشق على أبي سفيان فقال سهيل بن عمر : وإنما أتينا من قبلنا أنهم دعوا ودعينا ، يعني إلى الإسلام فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة ، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة أكثر .

وقرىء أكثر بالثاء المثلثة .

وقال ابن عطية : وقوله : ﴿ أكبر درجات ﴾ ليس في اللفظ من أي شيء لكنه في المعنى ، ولا بد ﴿ أكبر درجات ﴾ من كل ما يضاف بالوجود أو بالفرض ، ورأى بعض العلماء أن هذه الدرجات والتفضيل إنما هو فيما بين المؤمنين .

وأسند الطبري في ذلك حديثاً " أن أنزل أهل الجنة وأسفلهم درجة كالنجم يرى في مشارق الأرض ومغاربها وقد أرضى الله الجميع فما يغبط أحد أحداً " والخطاب في ﴿ لا تجعل ﴾ للسامع غير الرسول .

وقال الطبري وغيره : الخطاب لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، والمراد لجميع الخلق .

﴿ فتقعد ﴾ قال الزمخشري : من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة ، بمعنى صارت .

يعني فتصير جامعاً على نفسك الذم وما يتبعه من الهلاك من الذل والخذلان والعجز عن النصرة ممن جعلته شريكاً له انتهى .

وما ذهب إليه من استعمال ﴿ فتقعد ﴾ بمعنى فتصير لا يجوز عند أصحابنا ، وقعد عندهم بمعنى صار مقصورة على المثل ، وذهب الفراء إلى أنه يطرد جعل قعد بمعنى صار ، وجعل من ذلك قول الراجز :

لا يقنع الجارية الخضاب . . .

ولا الوشاحان ولا الجلباب

من دون أن تلتقي الأركاب . . .

ويقعد الأير له لعاب

وحكى الكسائي : قعد لا يسأل حاجة إلاّ قضاها بمعنى صار ، فالزمخشري أخذ في الآية بقول الفراء ، والقعود هنا عبارة عن المكث أي فيمكث في الناس ﴿ مذموماً مخذولاً ﴾ كما تقول لمن سأل عن حال شخص هو قاعد في أسوأ حال ، ومعناه ماكث ومقيم ، وسواء كان قائماً أم جالساً ، وقد يراد القعود حقيقة لأن من شأن المذموم المخذول أن يقعد حائراً متفكراً ، وعبر بغالب حاله وهي القعود .

وقيل : معنى ﴿ فتقعد ﴾ فتعجز ، والعرب تقول : ما أقعدك عن المكارم والذمّ هنا لا حق من الله تعالى ، ومن ذوي العقول في أن يكون الإنسان يجعل عوداً أو حجراً أفضل من نفسه ويخصه بالكرامة وينسب إليه الألوهية ويشركه مع الله الذي خلقه ورزقه وأنعم عليه ، والخذلان في هذا يكون بإسلام الله ولا يكفل له بنصر ، والمخذول الذي لا ينصره من يحب أن ينصره .

وانتصب ﴿ مذموماً مخذولاً ﴾ على الحال ، وعند الفراء والزمخشري على أنه خبر

لتقعد كلا لمذكرين مثنى معنى اتفاقاً مفرداً لفظاً عند البصريين على وزن فعل كمعي فلامه ألف منقلبة عن واو عند الأكثر ، مثنى لفظاً عند الكوفيين ، وتبعهم السهيلي فألفه للتثنية لا أصل ولامه لام محذوفة عند السهيلي ولا نص عن الكوفيين فيها ، ويحتمل أن تكون موضوعة على حرفين على أصل مذهبهم ، ولا تنفك عن الإضافة وإن أضيف إلى مظهر فألفه ثابتة مطلقاً في مشهور اللغات ، وكنانة تجعله كمشهور المثنى أو إلى مضمر ، فالمشهور قلب ألفه ياء نصباً وجراً ، والذي يضاف إليه مثنى أو ما في معناه .

وجاء التفريق في الشعر مضافاً فالظاهر وحفظ الكوفيون كلاي وكلاك قاما ويستعمل تابعاً توكيداً ومبتدأ ومنصوباً ومجروراً ، ويخبر عنه إخبار المفرد فصيحاً ، وربما وجب ، وإخبار المثنى قليلاً وربما وجب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(29/453)

وقال أبو السعود :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ﴾

بأعماله التي يعملها سواءٌ كان ترتُّبُ المراد عليها بطريق الجزاءِ كأعمال البِرّ أو بطريق ترتبِ

المعلولات على العلل كالأسباب ، أو بأعمال الآخرة فالمرادُ بالمريد على الأول الكفرةُ وأكثرُ الفسقة ، وعلى الثاني أهلُ الرياء والنفاق والمهاجِرُ للدنيا والمجاهدُ لمحض الغنيمة ﴿ العاجلة ﴾ فقط من غير أن يريد معها الآخرةَ كما ينبىء عنها الاستمرارُ المستفادُ من زيادة كان هاهنا مع الاقتصار على مطلق الإرادةِ في قسيمه ، والمرادُ بالعاجلة الدارُ الدنيا وبإرادتها إرادةُ ما فيها من فنون مطالبِها كقوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا ﴾ ويجوز أن يراد الحياةُ العاجلة كقوله عز وجل : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا ﴾ لكن الأول أنسبُ بقوله : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا ﴾ أي في تلك العاجلةِ فإن الحياةَ واستمرارها من جملة ما عُجِّل له ، فالأنسبُ بذلك كلمةُ من كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ ﴿ مَا نَشَاء ﴾ أي ما نشاء تعجيلَه له من نعيمها لا كلَّ ما يريد ﴿ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ تعجيلَ ما نشاء له وهو بدلٌ من الضمير في له بإعادة الجارِّ بدلَ البعض ، فإنه راجعٌ إلى الموصول المنبىءِ عن الكثرة ، وقرىء لمن يشاء على أن الضميرَ لله سبحانه ، وقيل : هو لِمَن فيكون مخصوصاً بمن أراد به ذلك ، وهو واحدٌ من الدهماء ، وتقييدُ المعجَّل والمعجَّل له بما ذُكر من المشيئة والإرادة لما أن الحِكمةَ التي عليها يدور فلكُ التكوين لا تقتضي وصولَ كلِّ طالبٍ إلى مرامه ولا استيفاءَ كلِّ واصلٍ لما يطلُبه بتمامه ، وأما ما يتراءى من قوله تعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ من نيل كلِّ مؤمِّلٍ لجميع آماله ووصولِ كلِّ عاملٍ إلى نتيجة أعمالِه ، فقد أُشير إلى تحقيق القولِ فيه في سورة هود بفضل الله تعالى ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ ﴾ مكان ما عجلنا له ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ وما فيها من أصناف العذاب ﴿ يصلاها ﴾ يدخُلها وهو حالٌ من الضمير المجرور أو من جهنم أو استئنافٌ ﴿ مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ مطروداً من رحمة الله تعالى ، وقيل : الآية في المنافقين كانوا يُراؤون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضُهم إلا مساهمتَهم في الغنائم ونحوِها ، ويأباه ما يقال إن السورةَ مكيةٌ سوى آياتٍ معينة .

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ﴾ بأعماله ﴿ الأخرة ﴾ الدارَ الآخرةَ وما فيها من النعيم المقيم ﴿ وسعى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي السعْيَ اللائقَ بها وهو الإتيانُ بما أُمر والانتهاءُ عما نُهي لا التقرّبُ بما يخترعون بآرائهم ، وفائدةُ اللام اعتبارُ النيةِ والإخلاص ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ إيماناً صحيحاً لا يخالطه شيءٌ قادحٌ فيه ، وإيرادُ الإيمانِ بالجملة الحالية للدِلالة على اشتراط مقارنتِه لما ذُكر في حيّز الصلة ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى الموصولِ بعنوان اتصافِه بما في حيز الصلةِ ، وما في ذلك من معنى البعدِ للإشعار بعلو درجتِهم وبُعد منزلِتهم ، والجمعيةُ لمراعاة جانب المعنى إيماءً إلى أن الإثابة المفهومةَ من الخبر تقع على وجه الاجتماعِ أي أولئك الجامعون لما مر من الخصال الحميدةِ ، أعني إرادةَ الآخرةِ والسعيَ الجميلَ لها والإيمانَ ﴿ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا

﴿ مقبولاً عند الله تعالى أحسنَ القَبول مُثاباً عليه ، وفي تعليق المشكوريّةِ بالسعْي دون قرينَيْهِ إشعارٌ بأنه العمدةُ فيها .

(31/453)

﴿ كَلاًّ ﴾ التنوين عوضٌ عن المضاف إليه أي كلَّ واحد من الفريقين لا الفريقِ الأخير المريد للخير الحقيقِ بالإسعاف فقط ﴿ نُّمِدُّ ﴾ أي نزيد مرة بعد مرة بحيث يكون الآنِفُ مدداً للسالف ، وما به الإمدادُ ما عُجّل لأحدهما من العطايا العاجلة وما أعد للآخر من العطايا الآجلةِ المشارِ إليها بمشكورية السعي ، وإنما لم يصرحْ به تعويلاً على ما سبق تصريحاً وتلويحاً واتكالاً على ما لِحق عبارةً وإشارة كما ستقف عليه ، وقوله تعالى : ﴿ هَؤُلاء ﴾ بدل من كلاًّ ﴿ وَهَؤُلاء ﴾ عطف عليه أي نُمد هؤلاء المعجَّلَ لهم وهؤلاءِ المشكورَ سعيُهم ، فإن الإشارةَ متعرّضةٌ لذات المشارِ إليه بما له من العنوان لا للذات فقط كالإضمار ، ففيه تذكيرٌ لما به الإمدادُ وتعيينٌ للمضاف إليه المحذوفِ دفعاً لتوهّم كونِه أفرادَ الفريقِ الأخير ، وتأكيدٌ للقصر المستفادِ من تقديم المفعول وقوله تعالى : ﴿ مِنْ عَطَاء رَبّكَ ﴾ أي من العطاء الواسعِ الذي لا تناهيَ له متعلقٌ بنُمد ، ومغْنٍ عن ذكر ما به الإمدادُ ومنبّهٌ على أن الإمدادَ المذكورَ ليس بطريق الاستيجابِ بالسعي والعمل بل بمحض التفضل ﴿ وَمَا

كَانَ عَطَاء ربّكَ ﴾ أي دنيوياً كان أو أخروياً ، وإنما أُظهر إظهاراً لمزيد الاعتناءِ بشأنه وإشعاراً بعليّته للحكم ﴿ مَحْظُورًا ﴾ ممنوعاً ممن يريده بل هو فائضٌ على مَن قُدّر له بموجب المشيئةِ المبنيةِ على الحكمة وإن وُجد منه ما يقتضي الحظرَ كالكافر وهو في معنى التعليل لشمولِ الأمدادِ للفريقين ، والتعرضُ لعنوان الربوبية في الموضعين للإشعار بمبدئيتها لما ذُكر من الإمداد وعدم الحظر .

﴿ انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ﴾

(32/453)

كيف في محل النصبِ بفضّلنا على الحالية والمرادُ توضيحُ ما مر من الإمداد وعدمِ محظوريةِ العطاء بالتنبيه على استحضار مراتبِ أحد العطاءين والاستدلالِ بها على مراتب الآخر ، أي انظر بنظر الاعتبار كيف فضلنا بعضهم على بعض فيما أمددناهم به من العطايا العاجلة ، فمِنْ وضيع ورفيع وضَالعٍ وضليع ومالكٍ ومملوكٍ ومُوسرٍ وصُعلوكٍ تعرِفْ بذلك مراتبَ العطايا الآجلةِ ودرجاتِ تفاضل أهلِها على طريقة الاستشهاد بحال الأدنى على حال الأعلى كما أفصح عنه قوله تعالى : ﴿ وَلَلأَخِرَةُ أَكْبَرُ ﴾ أي هي وما فيها أكبرُ من الدنيا ، وقرىء أكثرُ ﴿ درجات وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ لأن التفاوتَ فيها بالجنة ودرجاتِها

العالية التي لا يقادر قدرُها ولا يُكتنه كُنهُها ، كيف لا وقد عُبّر عنه بما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطَر على قلب بشر . هذا ويجوز أن يراد بما به الإمدادُ العطايا العاجلة فقط ويُحمل القصرُ المذكورُ على دفع توهم اختصاصِها بالفريق الأول ، فإن تخصيصَ إرادتهم لها ووصولَهم إليها بالذكر من غير تعرض لبيان النسبةِ بينها وبين الفريق الثاني إرادةً ووصولاً مما يُوهم اختصاصَها بالأولين ، فالمعنى كلَّ واحد من الفريقين نُمِد بالعطايا العاجلة لا مَنْ ذكرنا إرادتَه لها فقط من الفريق الأول من عطاء ربك الواسعِ وما كان عطاؤُه الدنيويُّ محظوراً من أحد ممن يريده وممن يريد غيره ، انظر كيف فضلنا في ذلك العطاءِ بعضَ كلَ من الفريقين على بعض آخرَ منهما وللآخِرةُ . . الآية . واعتبارُ عدم المحظورية بالنسبة إلى الفريق الأولِ تحقيقاً لشمول الإمدادِ له كما فعله الجمهور حيث قالوا : لا يمنعه مِن عاصٍ لعصيانه يقتضي كونَ القصر لدفع توهم اختصاصِ الإمداد الدنيويّ بالفريق الثاني مع أنه لم يسبِقْ في الكلام ما يوهم ثبوتَه له فضلاً عن إيهام اختصاصِه .

(33/453)

﴿ لاَّ تَجْعَل مَعَ اللهِ إلها ﴾ الخطابُ للرسول عليه الصلاة والسلام والمرادُ به أمتُه وهو من باب التهييجِ والإلهاب ، أو لكلِّ أحد ممن يصلح للخطاب ﴿ ءاخَرَ فَتَقْعُدَ ﴾ بالنصب

جواباً للنهي ، والقعودُ بمعنى الصيرورة من قولهم : شحذ الشفرةَ حتى قعَدتْ كأنها خَرِبة ، أو بمعنى العجز ، مِن قعد عنه أي عجز عنه ﴿ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ خبران أو حالان أي جامعاً على نفسك الذمَّ من الملائكة والمؤمنين والخِذلانَ من الله تعالى ، وفيه إشعارٌ بأن الموحِّدَ جامعٌ بين المدح والنُّصرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(34/453)

وقال الآلوسى :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ﴾

أي بعلمه كما أخرجه ابن أبي حاتم عن الضحاك (العاجلة) فقط من غير أن يريد معها الآخرة كما ينبيء عنه الاستمرار المستفاد من زيادة (كان) هنا مع الاقتصار على مطلق الإرادة في قسيمه وقيل لو لم يقيد صدق على مريد العاجلة والآخرة والقسمة تنافي الشركة ودلالة الإرادة على ذلك لأنها عقد القلب بالشيء وخلوص همه فيه ليس بذاك والمراد بالعاجلة الدار الدنيا كما روى الضحاك أيضا وبإرادتها إرادة ما فيها من فنون مطالبها كقوله تعالى (من كان يريد حرث الدنيا) وجوز أن يراد الحياة العاجلة كقوله تعالى (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) ورجح الأول بأنه أنسب بقوله تعالى (عجلنا له فيها) أي في تلك

العاجلة فإن تلك الحياة واستمرارها من جملة ما عجل فالأنسب في ذلك كلمة من كما في قوله عز وجل (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها) (ما نشاء) أي ما نشاء تعجيله له من نعيمها لا كل ما يريد (لمن نريد) تعجيل ما نشاء له وقال أبو إسحاق الفزاري أي لمن نريد هلكته ولا يدل عليه لفظ في الآية والجار والمجرور بدل من الجار والمجرور السابق أعني له فلا يحتاج إلى رابط لأنه في بدل المفردات أو المجرور بدل من الضمير المجرور بإعادة العامل وتقديره لمن نريد تعجيله له منهم والضمير راجع إلى من وهي موصولة أو شرطية وعلى التقديرين هي منبئة عن الكثرة فهو بدل بعض من كل وعن نافع أنه قرأ (ما يشاء) بالياء فقيل الضمير فيه لله تعالى فيتطابق القراءتان وقيل هو لمن فيكون مخصوصا بمن أراد الله تعالى به ذلك كشمروذ وفرعون ممن ساعده الله تعالى على ما أراده استدراجا له واستظهر هذا بأنه يلزم أن يكون على الأول التفات ووقوع الالتفات في جملة واحدة إن لم يكن ممنوعا فغير مستحسن كما فصله في عروس الأفراح وتقييد المعجل ولمعجل له بما ذكر من المشيئة والارادة لما أن الحكمة التي يدور عليها فلك التكوين ولا تقتضي وصول كل طالب إلى مرامه ولا استيفاء كل واصل لما

يطلبه بتمامه وليس المراد بأعمالهم في قوله تعالى (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) أعمال كلهم ولا كل أعمالهم وقد تقدم الكلام في ذلك فتذكر وذكر المشيئه في أحدهما والارادة في الآخر إن قيل بترادفهما تفنن (ثم جعلنا له) مكان ما عجلنا له (جهنم يصليها) يقاسي حرها كما قال الخليل أو يدخلها كما قيل والجملة كما قال أبو البقاء حال من الهاء في (له) وقال أبو حيان إنها حال من (جهنم) وهي مفعول أول لجعلناه و (له) الثاني

(36/453)

وجوز أن تكون الجملة مستأنفة وقال صاحب الغينان مفعول جعلنا الثاني محذوف والتقدير مصيرا أو جزاء ولا حاجة إلى ذلك (مذموما) حال من فاعل يصلى وهو من الذم ضد المدح وفعله ذم وذمته ذيما ودأمته دأما بمعناه (مدحورا) أي مطرودا مبعدا من رحمة الله تعالى قال الإمام إن العقاب عبارة عن مضرة مقرونة بالإهانة والذم بشرط أن تكون دائمة وخالية عن المنفعة فقوله تعالى (جعلنا له جهنم يصلاها) إشارة إلى البعد والطرد من رحمته تعالى فيفيد ذلك أن تلك المضرة خالية عن شوب النفع والرحمة وتفيد كونها دائمة وخالية عن التبدل بالراحة والخلاص اه ولا يخفى أن هذا ظاهر في أن الآية تدل

على الخلود وحينئذ يتعين عندنا أن يكون ذلك المريد من الكفرة وفي إرشاد العقل السليم من كان يريد أي بأعماله التي يعملها سواء كان ترتب المراد عليها بطريق الجزاء كأعمال البر أو بطريق ترتب المعلولات على العلل كالأسباب أو بأعمال الآخرة فالمراد بالمريد على الأول الكفرة وأكثر الفسقة وعلى الثاني أهل الرياء والنفاق والمهاجر للدنيا والمجاهد للغنيمة وأنت تعلم أن إدراج الفاسق والمهاجر للدنيا والمجاهد للغنيمة إذا كان مؤمنا في التمثيل على القول بدلالة الآية على الخلود مما لا يستقيم على أصولنا نعم يصح على أصول المعتزلة وقد أدرج الزمخشري الفاسق في ذلك ودسائس الاعتزال منه عامله الله تعالى بعدله أكثر من أن تحصى وظاهر كلام أبي حيان اختيار كون المريد من الكفرة حيث قال العاجلة هي الدنيا ومعنى إرادتها إيثارها على الآخرة ولابد من تقدير محذوف دل عليه المقابل في قوله تعالى (ومن أراد الآخرة) إلخ أي من كان يريد العاجلة وسعى لها سعيها وهو كافر عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد وقيل المراد من كان يريد العاجلة بعمل الآخرة كالمنافق والمرائي والمجاهد للغنيمة والذكر والمهاجر للدنيا إلى آخر ما قال فحكى غير القول الأول والذي يكون يتعين عليه كون المريد من الكفرة

بعد أن قدمه بقيل ويؤيده تفسير كثير من كان يريد العاجلة بمن كان همه مقصورا عليها لا يريد غيرها أصلا فإن ذلك مما لا يكاد يصدق على مؤمن فاسق فإنه لو لم يكن له إرادة للآخرة ما آمن بها وعلى القول بدخول الفاسق ونحوه ممن لا يحكم له عندنا بالخلود يمنع القول بدلالة الآية على الخلود ويقال لمن أدخل النار مبعد من رحمة الله تعالى ما دام فيها فيصدق على الفاسق ما دام فيها كما يصدق على الكافر المخلد

وزعم بعضهم أن المريد هو المنافق الذي يغزو مع المسلمين للغنيمة لا للثواب فإن الآية نزلت فيه وفيه أنه يأبى ذلك ما سبق من أن السورة مكية غير آيات معينة ليست هذه منها على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فافهم

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ﴾ الظاهر على طبق ما مر عن الضحاك أن يراد بعمله أيضاً ﴿ الآخرة ﴾ أي الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم ﴿ وسعى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي الذي يحق ويليق بها كما تنبىء عنه الإضافة الاختصاصية سواء كان السعي مفعولاً به على أن المعنى عمل عملها أو مصدرا مفعولاً مطلقاً ويتحقق ذلك بالإتيان بما أمر الله تعالى والانتهاء عما نهى سبحانه عنه فيخرج من يتعبد من الكفرة بما يخترعه من الآراء ويزعم أنه يسعى لها وفائدة اللام سواء كانت للأجل أو للاختصاص اعتبار النية والإخلاص لله تعالى في العمل ،

واختار بعضهم ولا يخلو عن حسن أنه لا حاجة إلى ما اعتبره الضحاك بل الأولى عدم

اعتباره لمكان ﴿ وسعى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ وحينئذٍ لا يعتبر فيما سبق أيضاً ويكون في الآية على هذا من تحقير أمر الدنيا وتعظيم شأن الآخرة ما لا يخفى على من تأمل.

(38/453)

﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ إيماناً صحيحاً لا يخالطه قادح، وإيراد الإيمان بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنته لما ذكر في حيز ﴿ مَنْ ﴾ فلا تنفع إرادة ولا سعى بدونه وفي الحقيقة هو الناشىء عنه إرادة الآخرة والسعي للنجاة فيها وحصول الثواب، وعن بعض المتقدمين من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله إيمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا هذه الآية ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى ﴿ مَنْ ﴾ بعنوان اتصافه بما تقدم، وما في ذلك من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم، والجمعية لمراعاة جانب المعنى إيماءً إلى أن الإثابة المفهومة من الخبر تقع على وجه الاجتماع أي فأولئك الجامعون لما مر من الخصال الحميدة أعني إرادة الآخرة والسعي الجميل لها والإيمان ﴿ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ مثاباً عليه مقبولاً عنده تعالى بحسن القبول، وفسر بعضهم السعي ههنا بالعمل الذي يعبر عنه بفعل فيشمل جميع ما تقدم وهذا غير السعي السابق، وقال بعضهم: هو هو؛ وعلق المشكورية به دون قرينيه إشعاراً بأنه العمدة فيها، وأصل السعي كما قال الراغب المشي السريع وهو

دون العدو ويستعمل للجد في الأمر خيراً كان أو شراً وأكثر ما يستعمل في الأفعال المحمودة

قال الشاعر :

إن أجز علقمة بن سعد سعيه . . .

لا أجزه ببلاء يوم واحد

﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) ﴾

(39/453)

﴿ كَلاً ﴾ التنوين فيه على المشهور عند النحاة عوض عن المضاف إليه لا تنوين تمكين أي كل الفريقين وهو مفعول ﴿ نُمِدُّ ﴾ مقدم عليه أي نزيد مرة بعد مرة بحيث يكون الآنف مدداً للسالف وما به الإمداد ما عجل لأحدهما من العطايا العاجلة وما أعد للآخر من العطايا الآجلة المشار إليها بمشكورية السعي وإنما لم يصرح به تعويلاً على ما سبق تصريحاً وتلويحاً واتكالاً على ما لحق عبارة وإشارة ، وقوله تعالى : ﴿ هَؤُلاء وَهَؤُلاء ﴾ بدل من ﴿ كَلاً ﴾ بدل كل على جهة التفصيل أي نمد هؤلاء المعجل لهم وهؤلاء المشكور سعيهم فإن الإشارة متعرضة لذات المشار إليه بما له من العنوان لا للذات فقط كالإضمار ففيه تذكير لما به الإمداد وتعيين للمضاف إليه المحذوف دفعاً لتوهم كونه أفراد الفريق الأخير

المريد للخير الحقيق بالإسعاف فقط وتأكيد للقصر المستفاد من تقديم المفعول ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ عَطَاء رَبِّكَ ﴾ أي من معطاه الواسع الذي لا تناهي له فهو اسم مصدر واقع موقع اسم المفعول متعلق بنمد مغن عن ذكر ما به الإمداد ومنبه على أن الإمداد المذكور ليس بطريق الاستيجاب بالسعي والعمل به بمحض التفضل كما قيل : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ ﴾ أي دنيوياً كان أو أخروياً .

والإظهار في موضع الإضمار لمزيد الاعتناء بشأنه والإشعار بعليته للحكم ﴿ مَحْظُورًا ﴾ ممنوعاً عمن يريده بل هو فائض على من قدر له بموجب المشيئة المبنية على الحكمة وإن وجد فيه ما يقتضي الحظر كالكفر ، وهذا في معنى التعليل لشمول الإمداد للفريقين ، والتعرض لعنوان الربوبية للإشعار بمبدئيتها لكل من الإمداد وعدم الحظر .

﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾

كيف في محل النصب بفضلنا على الحال وليست مضافة للجملة كما توهم ، والجملة بتمامها في محل نصب بانظر وهو معلق هنا ، والمراد كما قال شيخ الإسلام توضيح ما مر من الإمداد وعدم محظورية العطاء بالتنبيه على استحضار مراتب أحد العطاءين

والاستدلال بها على مراتب الآخر أي انظر بنظر الاعتبار كيف فضلنا بعضهم على بعض فيما أمددناهم من العطايا العاجلة فمن وضيع ورفيع وظالع وضليع ومالك ومملوك وموسر وصعلوك تعرف بذلك مراتب العطايا الآجلة وتفاوت أهلها على طريقة الاستدلال بحال الأدنى على حال الأعلى كما أفصح عنه قوله تعالى : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ درجات وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ أي أكبر من درجات الدنيا وتفضيلها لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها العالية لا يقادر قدرها ولا يكتنه كنهها .

وفي بعض الآثار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن بين أعلى أهل الجنة وأسفلهم درجة كالنجم يرى في مشارق الأرض ومغاربها وقد أرضى الله تعالى الجميع فما يغبط أحد أحدا " وعن الضحاك الأعلى يرى فضله على من هو أسفل منه والأسفل لا يرى أن فوقه أحداً ، وصح أن الله تعالى أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وروى ابن عبد البر في الاستيعاب عن الحسن قال : حضر جماعة من الناس باب عمر رضي الله تعالى عنه وفيهم سهيل بن عمرو وبلال وأهل بدر وكان يحبهم وكان قد أوصى لهم فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا فقال سهيل : وكان أعقلهم أيها القوم أني والله قد أرى الذي في وجوهكم فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم دعى القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتاً من باب هذا الذي تنافسون عليه .

وفي "الكشاف" أنه قال : إنما أتينا من قبلنا أنهم دعوا ودعينا فأسرعوا وأبطأنا وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة ولئن حسد توهم على باب عمر لما أعد الله تعالى لهم في الجنة أكبر .

وقرىء ﴿ أَكْثَرَ تَفْضِيلاً ﴾ بالثاء المثلثة ، هذا وجوز أن يراد بما به الإمداد العطايا العاجلة فقط ، وحمل القصر المذكور على دفع توهم اختصاصها بالفريق الأول فإن تخصيص إرادتهم لها ووصلهم إليها بالذكر من غير تعرض لبيان النسبة بينها وبين الفريق الثاني إرادة ووصولاً مما يوهم اختصاصها بالأولين فالمعنى كل الفريقين نمد بالعطايا العاجلة لا من ذكرنا إرادته لها فقط من الفريق الأول من عطاء ربك الواسع وما كان عطاؤه الدنيوي محظوراً من أحد ممن يريد وممن يريد غيره انظر كيف فضلنا في ذلك العطاء بعض كل من الفريقين على بعض آخر منهما وللآخرة الخ ، وإلى نحو هذا ذهب الحسن .

وقتادة فقد روى عنهما أنهما قالا : في معنى الآية إن الله تعالى يرزق في الدنيا مريدي العاجلة الكافرين ومريدي الآخرة المؤمنين ويمد الجميع بالرزق ، وذكر الرزق من بين ما به الإمداد قيل على سبيل التمثيل ، وقيل تخصيص لدلالة السياق .

وجوز أن يكون المراد به معناه اللغوي فيتناول الجاه ونحوه كما يقال السعادة أرزاق ، واعتبر الجمهور عدم المحظورية بالنسبة إلى الفريق الأول تحقيقاً لشمول الإمداد له حيث قالوا : لا يمنعه من عاص لعصيانه .

واعترض بأنه يقتضي كون القصر لدفع توهم اختصاص الإمداد الدنيوي بالفريق الثاني مع أنه لم يسبق في الكلام ما يوهم ثبوته له فضلاً عن إيهام اختصاصه وفيه تأمل ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن معنى ﴿ مِنْ عَطَاء رَبِّكَ ﴾ من الطاعات ويمد بها مريد الآخرة والمعاصي ويمد بها مريد العاجلة فيكون العطاء عبارة عما قسم الله تعالى للعبد من خير أو شر ، وأنت تعلم أنه يبعد غاية البعد إرادة المعاصي من العطاء ولعل نبة ذلك للحبر غير صحيحة فلا تغفل .

(42/453)

واعلم أن التقسيم الذي تضمنته الآية غير حاصر وذلك غير مضر والتقسيم الحاصر أن كل فاعل إما أن يريد بفعله العاجلة فقط أو يريد الآخرة فقط أو يريدهما معاً أو لم يرد شيئاً والقسمان الأولان قد علم حكمهما من الآية ، والقسم الثالث ينقسم إلى ثلاثة أقسام لأنه إما تكون إرادة الآخرة ارجح أو تكون مرجوحة أو تكون الإرادتان متعادلتين ، وفي قبول

العمل في القسم الأول بحث عند الإمام قال : يحتمل عدم القبول لما روى عن رب العزة جل شأنه : ﴿ أنا أغني الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه ﴾ .

ويمكن أن يقال : إذا كانت إرادة الآخرة راجحة على إرادة الدنيا تعارض المثل بالمثل فيبقى القدر الزائد خالصاً للآخرة يجب كونه مقبولاً ، وإلى عدم القبول ذهب العز بن عبد السلام ، ومال إلى القول بأصل الثواب حجة الإسلام الغزالي حيث قال : لو كان إطلاع الناس مرجحاً أو مقوياً لنشاطه ولو فقد لم تترك العبادة ولو انفرد قصد الرياء لما أقدم فالذي نظنه والعلم عند الله تعالى أنه لا يحبط أصل الثواب ولكنه يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب ، وهذا ظاهر في أن الرياء ولو محرماً لا يمنع أصل الثواب عنده إذا كان باعث العبادة أغلب ، وذكر ابن حجر أن الذي يتجه ترجيحه أنه متى كان المصاحب بقصد العبادة رياء مباحاً لم يقتضى إسقاط ثوابها من أصله بل يثاب على مقدار قصد العبادة وإن ضعف أو محرماً اقتضى سقوطه من أصله للاخبار ، وقوله تعالى :

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ [الزلزلة له : 7] قد لا يعكر على ذلك لأن تقصيره بقصد المحرم اقتضى سقوط قصد الأجر فلم تبق له ذرة من خير فلم تشمله الآية ، واتفقوا على عدم قبول ما ترجح فيه باعث الدنيا أو كان الباعثان فيه متساويين ، وخص الغزالي الأحاديث الدالة بظاهرها على عدم القبول مطلقاً بهذين القسمين ، وتمام الكلام في هذا المقام في "الزواجر" عن "اقتراف الكبائر" ، وأما القسم الرابع عند القائلين بأن صدور الفعل من القادر يتوقف على حصول الداعي فهو ممتنع الحصول والذين قالوا إنه لا يتوقف قالوا ذلك الفعل لا أثر له في الباطن وهو فمحرم في الظاهر لأنه عبث والله تعالى .

(44/453)

﴿ لَّا تَجْعَل مَعَ اللهِ إِلهاً ءاخَرَ ﴾

الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته على حد إياك أعني فاسمعي يا جارة أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب على حد ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا ﴾ [الأنعام : 27] ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ بالنصب على النهي ، والقعود قيل بمعنى المكث كما تقول هو قاعد في أسوأ حال أي ماكث ومقيم سواء كان قائماً أم جالساً ، وقيل بمعنى العجز والعرب تقول : ما أقعدك عن المكارم أي ما أعجزك عنها ، وقيل : بمعنى الصيرورة من قولهم : شحذ الشفرة

حتى قعدت كأنها حربة أي صارت.

وتعقب هذا أبو حيان بأن مجيء قعد بمعنى صار مقصور عند الأصحاب على ذا المثل ولا يطرد ، وقال بعضهم : إن اطرد فإنما يطرد في مثل الموضع الذي استعملته العرب فيه أولاً يعني القول المذكور فلا يقال : قعد كاتباً بمعنى صار بل قعد كأنه سلطان لكونه مثل قعدت كأنها حربة ، ولعل من فسر القعود هنا بمعنى الصيرورة ذهب مذهب الفراء فإنه كما قال أبو حيان وغيره يقول باطراد ذلك وجعل منه قول الراجز المذكور في "البحر والحواشي الشهابية" ولا حجة فيه.

وحكى الكسائي قعد لا يسأل حاجة إلا قاها واستعمال البغداديين على هذا ، ثم أنهم اختلفوا في القعود بمعنى العجز فقيل هو مجاز من القعود ضد القيام كالمقعد بمعنى العاجز عن القيام ثم تجوز به عن مطلق العجز ، وقيل هو كناية عن العجز فإن من أراد أخذ شيء يقوم له ومن عجز قعد وأما القعود بمعنى الزمانة فحقيقة والإقعاد مجاز كأن مرضه أقعده وجعل هذا القعود بمعنى المكث حقيقة.

وتعقب بأن فيه نظراً إلا أن يريد حقيقة عرفية لا لغوية لأنه ضد القيام وإذا جعل القعود هنا بمعنى العجز فالفعل لازم ومتعلقه محذوف أي فتعجز عن الفوز بالمقصود مثلاً و ﴿ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ إما خبران لتقعد على القول الأخير وإما حالان مترادفان أي فتقعد جامعاً على نفسك الخذلان من الله تعالى والذم من الملائكة والمؤمنين أو من ذوي العقول حيث اتخذت محتاجاً مفتقراً مثلك لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلهاً ونسبت إليه ما لا يصلح له وجعلته شريكاً لمن له الكمال الذاتي وهو الذي خلقك ورزقك وأنعم عليك على ما داه ، وجوز أبو حيان أن يراد بالقعود حقيقته لأن من شأن المذموم المخذول أن يقعد حائراً متفكراً وهو من باب التعبير بالحال الغالبة ، وفي الآية إشعار بأن الموحد جامع بين المدح والنصرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(46/453)

وقال القاسمى :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ .

أي من كان طلبه الدنيا العاجلة ، ولها يعمل ويسعى ، وإياها يبتغي ؛ لا يوقن بمعاد ولا يرجو ثواباً ولا عقاباً من ربه على علمه : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ أي : ما نشاؤه

من بسط الدنيا عليه أو تقتيرها لمن أراد الله أن يفعل به ذلك . أو من إهلاكه بما يشاء تعالى من عقوباته المعجلة . ثم يصلى جهنم في الآخرة : ﴿ مَذْمُوماً ﴾ على قلة شكره لمولاه ، وسوء صنيعه فيما سلف له : ﴿ مَّدْحُوراً ﴾ مطروداً من الرحمة ، مبعداً مقصيّاً في النار . ومن أراد الآخرة وإياها طلب ، ولها عمل عملها الذي هو طاعة الله وما يرضيه عنه ، فأولئك كان عملهم مشكوراً بحسن الجزاء .

تنبيه :

قال القفال رحمه الله : هذه الآية داخلة في معنى قوله : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ فالآية الأولى تشير إلى من جعل طائر نفسه شؤماً . والثانية لمن جعله يمناً وخيراً . وفي قوله تعالى : ﴿ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي : ما يحق ويليق بها من الأعمال الصالحة ، تبيين لقوله : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ ﴾ بأن إرادتها هو بالسعي والنصب في مغالبة الباطل وإعلاء شأن الحق مع التلبس بالإيمان الصحيح ، بفعل المأمور واجتناب المنهي عنه .

وقوله تعالى : ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ ﴾ أي : كل واحد من الفريقين . وقوله : ﴿ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ ﴾ بدل من (كلاًّ) : ﴿ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ أي : فضله . فيرزقهما جميعاً من رزقه إلى

بلوغهما الأمد واستيفائهما الأجل ، ما كتب لهما . ثم تختلف بهما الأحوال بعد الممات ، وتفترق بهما بعد الورود المصادرُ . ففريق مريدي العاجلة ، إلى جهنم مصدرهم . وفريق مريدي الآخرة ، إلى الجنة مآبهم : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ أي : ممنوعاً لا يمنعه من عاص لعصيانه . والجملة كالتعليل لشمول الإمداد للفريقين .

﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي : في الرزق في الدنيا : ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ لأن فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ثم أشار تعالى إلى ما به تنال درجات الآخرة من البراءة من الشرك ، ومن الاعتصام بالإيمان وشعبه ، بقوله : ﴿ لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾ أي : لا تجعل معه شريكاً في عبادته فتصير مذموماً ملوماً على الشرك ، مخذولاً من الله ، يكلك إلى ذاك الشريك ولا ينصرك : ﴿ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 160] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 472.471 ﴾

(48/453)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾

هذا بيان لجملة ﴿ من اهتدى فإنما يهتدي ﴾ [الإسراء : 15] وهو راجع أيضاً إلى جملة ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ [الإسراء : 13] تدريجاً في التبيان للناس بأن أعمالهم من كسبهم واختيارهم ، فابتدئوا بأن الله قد ألزمهم تبعة أعمالهم بقوله : وكل إنسان ألزمناه طائره ثم وكل أمرهم إليهم ، وأن المسيء لا يضر بإساءته غيره ولا يحملها عنه غيره فقال : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴾ الآية [الإسراء : 15] .

ثم أعذر إليهم بأنه لا يأخذهم على غرة ولا يأخذهم إلا بسوء أعمالهم بقوله : وما كنا معذبين إلى قوله : ﴿ خبيراً بصيراً ﴾ [الإسراء : 15 17] .

ثم كشف لهم مقاصدهم من أعمالهم ، وأنهم قسمان:

قسم لم يرد إلا الدنيا فكانت أعماله لمرضاة شهواته معتقداً أن الدنيا هي قصارى مراتع النفوس لا حظ لها إلا ما حصل لها في مدة الحياة لأنه لا يؤمن بالبعث فيقصر عمله على ذلك .

وقسم علم أن الفوز الحق هو فيما بعد هذه الحياة فعمل للآخرة مقتفياً ما هداه الله إليه من الأعمال بواسطة رسله وأن الله عامل كل فريق بمقدار همته .

فمعنى كان يريد العاجلة ﴾ أنه لا يريد إلا العاجلة ، أي دون الدنيا بقرينة مقابلته بقوله :

﴿ ومن أراد الآخرة ﴾ لأن هذه المقابلة تقوم مقام الحصر الإضافي إذ ليس الحصر الإضافي سوى جملتين إثبات لشيء ونفي لخلافه .

والإتيان بفعل الكون هنا مؤذن بأن ذلك ديدنه وقصارى همه ، ولذلك جعل خبر (كان) فعلاً مضارعاً لدلالته على الاستمرار زيادة تحقيق لتمحض إرادته في ذلك .

و﴿ العاجلة ﴾ صفة موصوف محذوف يعلم من السياق ، أي الحياة العاجلة ، كقوله : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ﴾ [هود : 15] .

(49/453)

والمراد من التعجيل التعجيل العرفي وهو المبادرة المتعارفة ، أي أن يعطى ذلك في الدنيا قبل الآخرة ، فذلك تعجيل بالنسبة إلى الحياة الدنيا ، وقرينة ذلك قوله : فيها ﴾ .

وإنما زاد قيدي ﴿ ما نشاء لمن نريد ﴾ لأن ما يعطاه من أرادوا العاجلة يعطاه بعضهم بالمقادير التي شاء الله إعطاءها .

والمشيئة : الطواعية وانتفاء الإكراه .

وقوله : ﴿ لمن نريد ﴾ بدل من قوله : ﴿ له ﴾ بدل بعض من كل بإعادة العامل ، فضمير ﴿ له ﴾ عائد إلى ﴿ من ﴾ باعتبار لفظه ، وهو عام لكل مريد العاجلة فأبدل منه بعضه

، أي عجلنا لمن نريد منكم ، ومفعول الإرادة محذوف دل عليه ما سبقه ، أي لمن نريد التعجيل له ، وهو نظير مفعول المشيئة الذي كثر حذفه لدلالة كلام سابق .

وفيه خصوصية البيان بعد الإبهام .

ولو كان المقصود غير ذلك لوجب في صناعة الكلام التصريح به .

والإرادة : مرادف المشيئة ، فالتعبير بها بعد قوله : ﴿ ما نشاء ﴾ تفنن .

وإعادة حرف الجر العامل في المبدل منه لتأكيد معنى التبعية وللاستغناء عن الربط بضمير المبدل منهم بأن يقال : من نريد منهم .

والمعنى : أن هذا الفريق الذي يريد الحياة الدنيا فقط قد نعطي بعضهم بعض ما يريد على حسب مشيئتنا وإرادتنا لأسباب مختلفة .

ولا يَخلو أحد في الدنيا من أن يكون قد عجل له بعض ما يرغبه من لذات الدنيا .

وعطف جملة ﴿ جعلنا له جهنم ﴾ بحرف (ثم) لإفادة التراخي الرتبي .

و﴿ له ﴾ ظرف مستقر هو المفعول الثاني ل ﴿ جعلنا ﴾ ، قدم على المفعول الأول للاهتمام .

وجملة ﴿ يصلاها مذموماً مدحوراً ﴾ بيان أو بدل اشتمال لجملة ﴿ جعلنا له جهنم ﴾ و ﴿ مذموماً مدحوراً ﴾ حالان من ضمير الرفع في ﴿ يصلاها ﴾ يقال : صلى النار إذا أصابه حرقها .

والذم الوصف بالمعائب التي في الموصوف .

والمدحور : المطرود .

يقال : دحره ، والمصدر : الدحور ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً ﴾ في سورة [الأعراف : 18] .

(50/453)

والاختلاف بين جملة من كان يريد العاجلة ﴾ وجملة ﴿ ومن أراد الآخرة ﴾ بجعل الفعل مضارعاً في الأولى وماضياً في الثانية للإيماء إلى أن إرادة الناس العاجلة متكررة متجددة .

وفيه تنبيه على أن أمور العاجلة متقضية زائلة ، وجعل فعل إرادة الآخرة ، ماضياً لدلالة المضي على الرسوخ تنبيهاً على أن خير الآخرة أولى بالإرادة ، ولذلك جردت الجملة من (كان) ومن المضارع ، وما شرط في ذلك إلا أن يسعى للآخرة سعيها وأن يكون مؤمناً .

وحقيقة السعي المشي دون العَدْوِ ، فسعي الآخرة هو الأعمال الصالحة لأنها سبب الحصول على نعيم الآخرة ، فالعامل للصالحات كأنه يسير سيراً سريعاً إلى الآخرة ليصل إلى مرغوبه منها .

وإضافته إلى ضمير الآخرة من إضافة المصدر إلى مفعوله في المعنى ، أي السعي لها ، وهو

مفعول مطلق لبيان النوع.

وفي الآية تنبيه على أن إرادة خير الآخرة من غير سعي غرور وأن إرادة كل شيء لا بد لنجاحِها من السعي في أسباب حصوله.

قال عبد الله بن المبارك:

تَرجو النجاة ولم تَسلُك مسالكها

إن السفينة لا تجري على اليَبَس...

وجملة ﴿ وهو مؤمن ﴾ حال من ضمير ﴿ وسعى ﴾.

وجيء بجملة ﴿ وهو مؤمن ﴾ اسمية لدلالتها على الثبات والدوام، أي وقد كان راسخ الإيمان، وهو في معنى قوله: ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد: 17] لما في (كان) من الدلالة على كون الإيمان ملكة له.

والإتيان باسم الإشارة في فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ للتنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما سيخبر به عنهم لأجل ما وُصفوا به قبل ذِكر اسم الإشارة.

والسعي المشكور هو المشكور ساعيه ، فوصفه به مجاز عقلي ، إذ المشكور المرضي عنه ، وإذ المقصود الإخبار عن جزاء عمل من أراد الآخرة وسعى لها سعيها لا عن حسن عمله لأنه قسيم لجزاء من أراد العاجلة وأعرض عن الآخرة ، ولكن جعل الوصف للعمل لأنه أبلغ في الإخبار عن عامله بأنه مرضي عنه لأنه في معنى الكناية الراجعة إلى إثبات الشيء بواسطة إثبات ملزومه .

والتعبير بـ ﴿ كان ﴾ في ﴿ كان سعيهم مشكوراً ﴾ للدلالة على أن الوصف تحقق فيه من قبل ، أي من الدنيا لأن الطاعة تقتضي ترتب الشكر عاجلاً والثواب آجلاً .

وقد جمع كونه مشكوراً خيرات كثيرة يطول تفصيلها لو أريد تفصيله .

﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) ﴾

تذييل لآية ﴿ من كان يريد العاجلة إلى آخرها ﴾ [الإسراء : 18] .

وهذه الآية فذلكة للتنبيه على أن الله تعالى لم يترك خلقه من أثر رحمته حتى الكفرة منهم الذين لا يؤمنون بلقائه فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قدر لهم وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة .

وذلك مصداق قوله : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ [الأعراف : 156] وقوله فيما رواه عنه نبيُّه إن رحمتي سبقت غضبي .

وتنوين كلا ﴾ تنوين عوض عن المضاف إليه ، أي كل الفريقين ، وهو منصوب على المفعولية

لفعل ﴿ نمد ﴾ .

وقوله : ﴿ هؤلاء وهؤلاء ﴾ بدل من قوله : ﴿ كلا ﴾ بدل مفصل من مجمل .

ومجموع المعطوف والمعطوف عليه هو البدل كقول النبي صلى الله عليه وسلم "اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر" .

والمقصود من الإبدال التعجيب من سعة رحمة الله تعالى .

والإشارة بـ ﴿ هؤلاء ﴾ في الموضعين إلى من كان يريد العاجلة ومن أراد الآخرة .

والأصل أن يكون المذكور أولَ عائداً إلى الأول إلا إذا اتصل بأحد الاسمين ما يعين معاده .

وقد اجتمع الأمران في قول المتلمس:

ولا يقيم على ضَيم يراد به . . .

إلا الأذلان عير الحي والوَتد

(52/453)

هذا على الخسْف مربوط برُمته . . .

وذا يشج فلا يرثي له أحد

والإمداد : استرسال العطاء وتعاقبه .

وجعل الجديد منه مدداً للسالف بحيث لا ينقطع .

وجملة ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ اعتراض أو تذييل ، وعطاء ربك جنس العطاء ، والمحظور : الممنوع ، أي ما كان ممنوعاً بالمرة بل لكل مخلوق نصيب منه .

﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (21) ﴾

لما كان العطاء المبذول للفريقين هو عطاء الدنيا وكان الناس مفضلين فيه على وجه يدركون حكمته لفت الله لذلك نظر نبيه عليه الصلاة والسلام لَفْتَ اعتبار وتدبر ، ثم ذَكَّرَهُ بأن عطاء الآخرة أعظم عطاء ، وقد فضل الله به المؤمنين .

والأمر بالنظر موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ترفيعاً في درجات علمه ويحصل به توجيه العبرة إلى غيره .

والنظر حقيقته توجه آلة الحس البَصري إلى المبصر .

وقد شاع في كلام العرب استعماله في النظر المصحوب بالتدبر وتكرير مشاهدة أشياء في غرض ما ، فيقوم مقام الظن ويستعمل استعماله بهذا الاعتبار ، ولذلك شاع إطلاق النظر في علم الكلام على الفكر المؤدي إلى علم أو ظن ، وهو هنا كذلك .

وقد تقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب ﴾ في [النساء : 50] .

(و (كيف] اسم استفهام مستعمل في التنبيه ، وهو معلّق فعلَ (انظر) عن العمل في

المفعولين .

والمراد التفضيل في عطاء الدنيا ، لأنه الذي يدركه التأمل والنظر وبقرينة مقابلته بقوله : وللآخرة أكبر درجات ﴾ .

والمقصود من هذا التنظير التنبيه إلى أن عطاء الدنيا غير منوط بصلاح الأعمال ؛ ألا ترى إلى ما فيه من تفاضل بين أهل العمل المتحد ، وقد يفضل المسلم فيه الكافر ، ويفضل الكافر المسلم ، ويفضل بعض المسلمين بعضاً ، وبعض الكفرة بعضاً ، وكفاك بذلك هادياً إلى أن مناط عطاء الدنيا أسباب ليست من وادي العمل الصالح ولا مما يساق إلى النفوس الخيرة .

(53/453)

ونصب ﴿ درجات ﴾ و ﴿ تفضيلاً ﴾ على التمييز لنسبة ﴿ أكبر ﴾ في الموضعين ، والمفضل عليه هو عطاء الدنيا .

والدرجات مستعارة لعظمة الشرف ، والتفضيل : إعطاء الفضل ، وهو الجدة والنعمة ، وفي الحديث : " ويتصدقون بفضول أموالهم " والمعنى : النعمة في الآخرة أعظم من نعم الدنيا .

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22) ﴾

تذييل هو فذلكة لاختلاف أحوال المسلمين والمشركين ، فإن خلاصة أسباب الفوز ترك الشرك لأن ذلك هو مبدأ الإقبال على العمل الصالح فهو أول خطوات السعي لمريد الآخرة ، لأن الشرك قاعدة اختلال التفكير وتضليل العقول ، قال الله تعالى في ذكر آلهة المشركين ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ [هود : 101] .

والخطاب للنبيء تبعٌ لخطاب قوله : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ [الإسراء : 21] .

والمقصود إسماعُ الخطاب غيره بقرينة تحقق أن النبي قائم بنبذ الشرك ومُنْح على الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر .

وتقعد ﴾ مستعار لمعنى المكث والدوام .

أريد بهذه الاستعارة تجريد معنى النهي إلى أنه نهي تعريض بالمشركين لأنهم متلبسون بالذم والخذلان .

فإن لم يقلعوا عن الشرك داموا في الذم والخذلان .

والمذموم : المذكور بالسوء والعيب .

والمخذول : الذي أسلمه ناصره .

فأما ذمه فمن ذوي العقول ، إذ أعظم سُخرية أن يتخذ المرء حجراً أو عُوداً رباً له ويعبده ،

كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ [الصافات : 95] ، وذمهُ من اللّهِ على لسان الشرائع .

(54/453)

وأما خذلانه فلأنه اتخذ لنفسه وليا لا يغني عنه شيئاً ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ [فاطر : 14] ، وقال إبراهيم عليه السلام ﴿ يا أبتِ لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا ﴾ [مريم : 42] ، وخذلانه من الله لأنه لا يتولى من لا يتولّاه قال : ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن لكافرين لا مولى لهم ﴾ [محمّد : 11] وقال ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ [غافر : 50] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(55/453)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي عم لها عملها الذي تنال به ، وهو امتثال أمر الله ، واجتناب نهيه بإخلاص على الوجه المشروع ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ اي موحد لله جل وعلا ، غير مشرك به ولا كافر له ، فإن الله يشكر سعيه ، بأن يثيبه الثواب الجزيل عن عمله القليل .

وفي الآية الدليل على أن الأعمال الصالحة لا تنفع إلا مع الإيمان بالله . لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة ، لأنه شرط في ذلك قوله ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ .

وقد أوضح تعالى هذا في آيات كثيرة . كقوله : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات مِن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾ [النساء : 124] ، وقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 97] وقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر : 40] إلى غير ذلك من الآيات .

ومفهوم هذه الآيات – أن غير المؤمنين إذا أطاع الله بإخلاث لا ينفعه ذلك . لفقد شرط القبول الذي هو الإيمان بالله جل وعلا .

وقد أوضح جل وعلا هذا المفهوم في آيات آخر . كقوله في أعمال غير المؤمنين : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] ، وقوله : ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم : 18] الاية ، وقوله : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ [النور : 39] الآية ، إلى غير من الآيات .

وقد يبن جل وعلا في مواضع أخر : أن عمل الكافر الذي يتقرب به إلى الله يجازى به في الدنيا ، ولا حظّ له منه في الآخرة . كقوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ أولئك الذين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلاَّ النار وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : 15-16] ، وقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20] .

وثبت عن النّبي صلى الله عليه وسلم نحو ما جاءت به هذه الآيات : كم انتفاع الكافر بعمله في الدنيا من حديث أنس ، قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثنا أبو بكر بن ابي شيبة ، وزهير بن حرب – واللفظ لزهير – قالا : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا همام بن يحيى ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن

الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة . وأَمَّا الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها لله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها " .

(57/453)

حدثنا عاصم بن النضر التيمي ، حدثنا معتمر قال : سمعت أبي ، حدثنا قتادة عن أنس بن مالك : أنه حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الكافر إذا عمل حسنة أُطعم بها طعمة من الدنيا . وأَما المؤمن فإِن الله يدخر له حسناته في الآخرة ، ويعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته " .

حدثنا محمد بن عبد الله الرزي ، أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن انس عن النّبي صلى الله عليه وسلم بمثل حديثهما .

واعلم أن هذا الذي ذكرنا أدلته من الكتاب والسنة من أن الكافر ينتفع بعمله الصالح في الدنيا : كبر الوالدين ، وصلة الرحم ، وإكرام الضيف والجار ، والتنفيس عن المكروب ونحو ذلك ، كله مقيد بمشيئة الله تعالى . كما نص على ذلك بقوله : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء : 18] الآية .

فهذه الآية الكريمة مقيدة لما ورد من الآيات والأحاديث . وقد تقرر في الأصول أن المقيد

يقضي على المطلق، ولا سيما إذا اتحد الحكم والسبب كما هنا. وأشار له في " مراقي السعود " بقوله:

وحمل مطلق على ذاك وجل . . . إن فيهما اتحد حكم والسبب

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22) ﴾

الظاهر أن الخطاب في هذه الآية الكريمة متوجه إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم. ليشرع لأمته على لسانه إخلاص التوحيد في العبادة له جل وعلا، لأنه صلى الله عليه وسلم معلوم أنه لا يجعل مع الله إلها آخر، وأنه لا يقعد مذموماً مخذولاً.

ومن الآيات الدالة دلالة واضحة على أنه صلى الله عليه وسلم يوجه إليه الخطاب، والمراد بذلك التشريع لأمته لا نفس خطابه هو صلى الله عليه وسلم - . انتهى انتهى. ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(58/453)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) ﴾

الحق تبارك وتعالى قبل أن يخلق الإنسان الذي جعله خليفة له في أرضه ، خلق له الكون كُلّه بما فيه ، وخلق له جميع مُقوّمات حياته ، ووالى عليه نِعَمه إيجاداً من عدم ، وإمداداً من عُدم ، وجعل من مُقوّمات الحياة ما ينفعل له وإنْ لم يُطلب منه ، كالشمس والقمر والهواء والمطر . . الخ فهذه من مُقوّمات حياتك التي تُعطيك دون أنْ تتفاعلَ معها .

ومن مُقوّمات الحياة مَا لا ينفعل لك ، إلا إذا تفاعلتَ معه ، كالأرض مثلاً لا تعطيك إلا إذا حرثتها ، وبذرت فيها البذور فتجدها قد انفعلتْ لك ، وأعطتْك الإنتاج الوفير .

والمتأمل في حضارات البشر وارتقاءاتهم في الدنيا يجدها نتيجة لتفاعل الناس مع مُقوّمات الحياة بجوارحهم وطاقاتهم ، فتتفاعل معهم مُقوِّمات الحياة ، ويحدث التقدم والارتقاء .

وقد يرتقي الإنسان ارتقاءً آخر ، بأن يستفيد من النوع الأول من مُقوّمات الحياة ، والذي يعطيه دون أنْ يتفاعل معه ، استفادة جديدة ، ومن ذلك ما توصّل إليه العلماء من استخدام الطاقة الشمسية استخدامات جديدة لم تكن موجودة من قبل .

إذن : فهذه نواميس في الكون ، الذي يُحسِن استعمالها تُعطيه النتيجة المرجوة ، وبذلك يُثري الإنسان حياته ويرتقي بها ، وهذا ما أَسْمَيناه سابقاً عطاء الربوبية الذي يستوي فيه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ . . ﴾ [الإسراء : 18]

أي : عطاء الدنيا ومتعها ورُقيها وتقدّمها .

﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ . . ﴾ [الإسراء: 18]

أجبْنَاه لُه لما يريد من متاع الدنيا .

(59/453)

ولا بُدَّ لنا أنْ نتنبه إلى أن عطاء الربوبية الذي جعله الله للمؤمن والكافر ، قد يغفل عنه المؤمن ويترك مُقوّمات الحياة وأسبابها يستفيد منها الكافر ويتفاعل معها ويرتقي بها ، ويتقدم على المؤمن ، ويمتلك قُوته ورغيف عيشه ، بل وجميع متطلبات حياتهم ، ثم بالتالي تكون لهم الكلمة العليا والغلبة والقهر ، وقد يفتنونك عن دينك بما في أيديهم من أسباب الحياة .

وهذا حال لا يليق بالمؤمن ، ومذلة لا يقبلها الخالق سبحانه لعباده ، فلا يكفي أن نأخذ عطاء الألوهية من أمر ونهي وتكليف وعبادة ، ونغفل أسباب الحياة ومُقوّماتها المادية التي لا قِوامَ للحياة إلا بها .

في حين أن المؤمن أَوْلَى بمقوّمات الحياة التي جعلها الخالق في الكون من الكافر الذي لا يؤمن بإله .

إذن: فمن الدين ألاَّ تمكِّن أعداء الله من السيطرة على مُقومِّات حياتك ، وألاَّ تجعلَهم

يتفوقون عليك.

وقوله: ﴿ مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ . . ﴾ [الإسراء: 18]

أي: أن تفاعل الأشياء معك ليس مُطْلقاً، بل للمشيئة تدخُّلٌ في هذه المسألة، فقد تفعل، ولكن لا تأخذ لحكمة ومراد أعلى، فليس الجميع أمام حكمة الله سواء، وفي هذا دليل على طلاقة القدرة الإلهية.

ومعنى ﴿ مَا نَشَآءُ . . ﴾ للمعجَّل و ﴿ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ للمعجَّل له.

وما دام هذا يريد العاجلة، ويتطلع إلى رُقيِّ الحياة الدنيا وزينتها، إذن: فالآخرة ليستْ في باله، وليست في حُسْبانه؛ لذلك لم يعمل لها، فإذا ما جاء هذا اليوم وجد رصيده صِفْراً لا نصيب له فيها؛ لأن الإنسان يأخذ أجره على ما قدّم، وهذا قدَّم للدنيا وأخذ فيها جزاءه من الشهرة والرقيّ والتقدّم والتكريم.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور: 39]

والسراب ظاهرة طبيعية يراها مَنْ يسير في الصحراء وقت الظهيرة ، فيرى أمامه شيئاً يشبه الماء ، حتى إذا وصل إليه لم يجدْهُ شيئاً ، كذلك إنْ عمل الكافرُ خيراً في الدنيا فإذا أتى الآخرة لم يجدْ له شيئاً من عمله ؛ لأنه أخذ جزاءه في الدنيا .

ثم تأتي المفاجأة: ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ ﴾ [النور: 39]

وفي آية أخرى يصفه القرآن بقوله: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَالِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: 18]

فمرة يُشبِّه عمل الكافر بالماء الذي يبدو في السراب ، ومرة يُشبِّهه بالرماد ؛ لأن الماء إذا اختلط بالرماد صار طيناً ، وهو مادة الخِصْب والنماء ، وهو مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة .

ووصفه بقوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 264]

والحق تبارك وتعالى في هذه الآية يُجسِّم لنا خَيْبة أمل الكافر في الآخرة في صورة مُحسَّة ظاهرة ، فمثَلُ عمل الكافر كحجر أملس أصابه المطر ، فماذا تنتظر منه ؟ وماذا وراءه من الخير ؟

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً ﴾ [الإسراء: 18]

أي: أعددناها له، وخلقناها من أجله يُقاسي حرارتها ﴿ مَذْمُوماً ﴾ أي: يذمُّه الناس، والإنسان لا يُذَمّ إلا إذا ارتكب شيئاً ما كان يصحّ له أنْ يرتكبه.

و﴿ مَّدْحُوراً ﴾ [الإسراء: 18] وبعد أنْ أعطانا الحق سبحانه صورة لمن أراد العاجلة وغفل عن الآخرة، وما انتهى إليه من العذاب، يعطينا صورة مقابلة، صورة لمن كان أعقل وأكيس، ففضَّل الآخرة.

يقول الحق سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾.

(61/453)

المتأمل في أسلوب القرآن الكريم يجده عادة يُعطي الصورة ومقابلها؛ لأن الشيء يزداد وضوحاً بمقابله، والضِّد يظهر حُسْنه الضّد، ونرى هذه المقابلات في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى كما في: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: 13-14]

وهنا يقول تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ.. ﴾ [الإسراء: 19] في مقابل: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ.. ﴾ [الإسراء: 18]

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا . . ﴾ [الإسراء: 19]

أي: أراد ثوابها وعمل لها .

﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ . . ﴾ [الإسراء: 19]

لأن الإيمان شَرْط في قبول العمل ، وكُلُّ سعي للإنسان في حركة الحياة لا بُدَّ فيه من الإيمان ومراعاة الله تعالى لكي يُقبَل العمل ، ويأخذ صاحبه الأجر يوم القيامة ، فالعامل يأخذ أجره ممّنْ عمل له .

فالكفار الذين خدموا البشرية باختراعاتهم واكتشافاتهم ، حينما قدّموا هذا الإنجازات لم يكُنْ في بالهم أبداً العمل لله ، بل للبشرية وتقدُّمها ؛ لذلك أخذوا حقهم من البشرية تكريماً وشهرة ، فأقاموا لهم التماثيل ، وألّفوا فيهم الكتب . . الخ .

إذن: انتهت المسألة: عملوا وأخذوا الأجر ممن عملوا لهم .

وكذلك الذي يقوم ببناء مسجد مثلاً ، وهذا عمل عظيم يمكن أن يُدخل صاحبه الجنة إذا توافر فيه الإيمان والإخلاص لله ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة " .

ولكن سرعان ما نقرأ على باب المسجد لافتة عريضة تقول: أنشأه فلان ، وافتتحه فلان . . الخ مع أنه قد يكون من أموال الزكاة ! ! وهكذا يُفسد الإنسان على نفسه العمل ،

ويُقدم بنفسه ما يُحبطه ، إذن: فقد فعل ليقال وقد قيل . وانتهت القضية .

وقوله تعالى: ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً . . ﴾ [الإسراء: 19]

(62/453)

وهذا جزاء أهل الآخرة الذين يعملون لها ، ومعلوم أن الشكر يكون لله استدراراً لمزيد نِعَمه ، كما قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ . . ﴾ [إبراهيم: 7]

فما بالك إنْ كان الشاكر هو الله تعالى ، يشكر عبده على طاعته؟

وهذا يدل على أن العمل الإيماني يُصادف شُكْراً حتى من المخالف له ، فاللص مثلاً إنْ كان لديه شيء نفيس يخاف عليه ، فهل يضعه أمانة عند لصٍّ مثله ، أم عند الأمين الذي يحفظه؟

فاللصّ لا يحترم اللص ، ولا يثق فيه ، في حين يحترم الأمين مع أنه مخالف له ، وكذلك الكذاب يحترم الصادق ، والخائن يحترم الأمين .

ومن هنا كان كفار مكة رغم عدائهم للنبي صلى الله عليه وسلم وكفرهم بما جاء به إلا أنهم كانوا يأتمنونه على الغالي والنفيس عندهم؛ لأنهم واثقون من أمانته ، ويلقبونه " بالأمين " ، رغم ما بينهما من خلاف عقديّ جوهري ، فهم فعلاً يكذبونه ، أما عند حفْظ الأمانات

فلن يغشُّوا أنفسهم، لأن الأحفظ لأماناتهم محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد ضربنا لذلك مثلاً بشاهد الزور الذي تستعين بشهادته ليُخرجك من ورطة، أو قضية، فرغم أنه قضى لك حاجتك وأخرجك من ورطتك، إلا أنه قد سقط من نظرك، ولم يعُدْ أهلاً لثقتك فيما بعد.

لذلك قالوا: مَنِ استعان بك في نقيصة فقد سقطْتَ من نظره، وإنْ أعنْتَه على أمره كشاهد الزور ترتفع الرأس على الخصم بشهادته وتدوس القدم على كرامته.

ثم يقول الحق سبحانه عن كلا الفريقين: ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ. . .

﴾.

(63/453)

﴿ كُلاًّ ﴾ أي: كلاَ الفريقين السابقين: مَن أراد العاجلة، ومَن أراد الآخرة: ﴿ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ. . ﴾ [الإسراء: 20]

أي: أن الله تعالى يمدُّ الجميع بمُقوّمات الحياة، فمنهم مَنْ يستخدم هذه المقومات في الطاعة، ومنهم مَنْ يستخدمها في المعصية، كما لو أعطيتَ لرجلين مالاً، فالأول تصدّق بماله، والآخر شرب بماله خمراً.

إذن: فعطاء الربوبية مددٌ ينال المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، أما عطاء الألوهية المتمثل في منهج الله: افعل ولا تفعل، فهو عطاء خاصٌّ للمؤمنين دون غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً .. ﴾ [الإسراء: 20]

أي: ممنوعاً عن أحد؛ لأن الجميع خَلْقه تعالى، المؤمن والكافر، وهو الذي استدعاهم إلى الحياة، وهو سبحانه المتكفّل لهم بمُقوّمات حياتهم، كما تستدعي ضيفاً إلى بيتك فعليك أنْ تقومَ له بواجب الضيافة.

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه اختار التعبير بقوله: ﴿ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ .. ﴾ [الإسراء: 20]

لأن العطاء المراد هنا عطاء ربوبية، وهو سبحانه ربّ كل شيء. أي: مُربّيه ومتكفّل به، وشرف كبير أن يُنسبَ العطاء إلى الرب تبارك وتعالى.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... ﴾.

(64/453)

الحق تبارك وتعالى أعطانا قضايا إيمانية نظرية، ويريد مِنّا أنْ ننظر في الطبيعة والكون، وسوف نجد فيه صِدْق ما قال.

يقول تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ . . ﴾ [الإسراء: 21]

والمتأمل يجد أن الله تعالى جعل التفضيل هنا عامّاً ، فلم يُبيِّن مَن المفضَّل ومَنِ المفضّل عليه ، فلم يقُلْ: فضلت الأغنياء على الفقراء ، أو: فضلت الأصحاء على المرضى .

إذن: فما دام في القضية عموم في التفضيل ، فكلُّ بعض مُفضَّل في جهة ، ومُفضّل عليه في جهة أخرى ، لكن الناس ينظرون إلى جهة واحدة في التفضيل ، فيفضلون هذا لأنه غني ، وهذا لأنه صاحب منصب . . الخ .

وهذه نظرة خاطئة فيجب أن ننظر للإنسان من كُلِّ زوايا الحياة وجوانبها ؛ لأن الحق سبحانه لا يريدنا نماذج مكررة ، ونُسَخاً مُعَادة ، بل يُريدنا أُناساً متكاملين في حركة الحياة ، ولو أن الواحد مِنّا أصبح مَجْمعاً للمواهب ما احتاج فينا أحدٌ لأحد ، ولتقطعت بيننا العَلاقات .

فمن رحمة الله أن جعلك مُفضَّلاً في خَصْلة ، وجعل غيرك مُفضَّلاً في خصال كثيرة ، فأنت محتاج لغيرك فيما فُضِّل فيه ، وهم محتاجون إليك فيما فُضِّلْتَ فيه ، ومن هنا يحدث التكامل في المجتمع ، وتسلَمْ للناس حركة الحياة .

ونستطيع أن نخرج من هذه النظرة بقضية فلسفية تقول: إن مجموع مواهب كل إنسان تساوي مجموع مواهب كل إنسان ، فإنْ زِدْتَ عني في المال فربما أزيد عنك في الصحة ، وهكذا تكون المحصّلة النهائية متساوية عند جميع الناس في مواهب الدنيا ، ويكون

التفاضل الحقيقي بينهم بالتقوى والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: 13]

لذلك يجب على المسلم أن يلتزمَ أدب الإسلام في حِفْظ مكانة الآخرين، فمهما كنت مُفضَّلاً فلا تحتقر غيرك، واعلم أن لهم أيضاً ما يفضلون به، وسوف يأتي اليوم الذي تحتاج إليهم فيه.

(65/453)

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالعظيم الوجيه الذي قد تضطره الظروف وتُحوِجه لسباك أو عامل بسيط ليؤدي له عملاً لا يستطيع هو القيام به، فالعامل البسيط في هذا الموقف مُفضِّل على هذا العظيم الوجيه. ولك أنْ تتصورَ الحال مثلاً إذا أضرب الكناسون عدة أيام عن العمل.

إذن: مهما كان الإنسان بسيطاً، ومهما كان مغموراً فإن له مهمة يفضّل بها عن غيره من الناس.

خُذ الخياط مثلاً، وهو صاحب حرفة متواضعة بين الناس، ولا يكاد يُجيد عملاً إلا أن يخيطَ للناس ثيابهم، فإذا ما كانت ليلة العيد وجدته من أهم الشخصيات، الجميع يقبلون عليه، ويتمنون أن يتكرم عليهم ويقضي حاجتهم من خياطة ثيابهم وثياب أولادهم.

وبهذا نستطيع أن نفهم قَوْلَ الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

[الزخرف: 32]

فكل منا مُسخَّر لخدمة الآخرين فيما فُضِّل فيه، وفيما نبغ فيه.

وصدق الشاعر حين قال: النَّاسُ لِلناس مِنْ بَدْوٍ ومِنْ حَضَرٍ بَعْضٌ لبعْضٍ وإن لم يشعروا خَدَمُ إذن: في التفاضل يجب أن ننظر إلى زوايا الإنسان المختلفة؛ لأن الجميع أمام الله سواء، ليس مِنّا مَن هو ابن الله، وليس مِنّا مَنْ بينه وبين الله نسَبٌ أو قرابة، ولا تجمعنا به سبحانه إلا صلة العبودية له عز وجل، فالجميع أمام عطائه سواء، لا يوجد أحد أَوْلَى من أحد.

(66/453)

فالعاقل حين ينظر في الحياة لا ينظر إلى تميُّزه عن غيره كموهبة، بل يأخذ في اعتباره مواهب الآخرين، وأنه محتاج إليها وبذلك يندك غروره، ويعرف مدى حاجته لغيره. وكما أنه نابغ في مجال من المجالات، فغيره نابغ في مجال آخر؛ لأن النبوغ يأتي إذا صادف العمل الموهبة،

فهؤلاء البسطاء الذين تنظر إليهم نظرة احتقار ، وترى أنهم دونك يمكن أن يكونوا نا بغين لو صادف عملهم الموهبة .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا . . ﴾ [الإسراء: 21]

فإنْ كان التفاضل بين الناس في الدنيا قائماً على الأسباب المخلوقة لله تعالى ، فإن الأمر يختلف في الآخرة ؛ لأنها لا تقوم بالأسباب ، بل بالمسبب سبحانه ، فالمفاضلة في الآخرة على حسبها .

ولو تأملتَ حالك في الدنيا ، وقارنتَه بالآخرة لوجدتَ الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ، فعمرك في الدنيا موقوت ، وسينتهي إلى الموت ؛ لأن عمرك في الدنيا مدة بقائك فيها ، فإنْ بقيْت من بعدك فهي لغيرك ، وكذلك ما فُضِّلْتَ به من نعيم الدنيا عُرْضَةَ للزوال ، حيث تناله الأغيار التي تطرأ على الإنسان .

فالغنيّ قد يصير فيقراً ، والصحيح سقيماً ، كما أن نعيم الدنيا على قَدْر إمكانياتك وتفاعلك مع الأسباب ، فالدنيا وما فيها من نعيم غير مُتيقّنة وغير موثوق بها .

وهَبْ أنك تنعَّمْتَ في الدنيا بأعلى درجات النعيم ، فإن نعيمك هذا يُنغِّصه أمران: إما أن تفوت هذا النعيم بالموت ، وإما أنْ يفوتَك هو بما تتعرّض له من أغيار الحياة .

أما الآخرة فعمرك فيها مُمتدّ لا ينتهي ، والنعمة فيها دائمة لا تزول ، وهي نعمة لا حدودَ لها ؛ لأنها على قَدْر إمكانيات المنعِم عز وجل ، في دار خلود لا يعتريها الفناء ، وهي مُتيقنة

موثوق بها .

فأيهما أفضل إذن ؟ لذلك الحق سبحانه يدعونا إلى التفكُّر والتعقُّل: ﴿ انظُرْ ﴾ أيَّ الصفقتين الرابحة ، فتاجر فيها ولا ترضى بها بديلاً .

(67/453)

إذن: فالآخرة أعظم وأكبر ، ولا وجهَ للمقارنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة . وأذكر أننا سافرنا مرة إلى (سان فرانسيسكو) فأدخلونا أحد الفنادق ، لا للإقامة فيه ، ولكن لمشاهدة ما فيه من روعة وجمال ومظاهر الرقي والرفاهية .

وفعلاً كان هذا الفندق آية من آيات الإبداع والجمال ، فرأيتُ رفاقي وكانوا من علية القوم مبهورين به ، مأخوذين بروعته ، فقلت لهم عبارة واحدة: هذا ما أعد البشر للبشر ، فكيف بما أعدّه ربُّ البشر للبشر ؟

فنعيم الدنيا ومظاهر الجمال فيها يجب أنْ تثير فينا الشوق لنعيم دائم في الجنة ؛ لا أنْ يثير فينا الحقد والحسد ، يجب أن نأخذ من مظاهر الترف والنعيم عند الآخرين وسيلة للإيمان بالله ، وأن نُصعِّد هذا الإيمان بالفكر المستقيم ، فإنْ كان ما نراه من ترف وتقدم ورُقيّ وعمارة في الدنيا من صُنْع مهندس أو عامل ، فكيف الحال إنْ كان الصانع هو الخالق

سبحانه وتعالى؟

ويجب ألاَّ نغفلَ الفرْق بين نعيم الدنيا الذي أعدّه البشر ونعيم الآخرة الذي أعدّه الله تعالى، فقصارى ما توصل إليه الناس في رفاهية الخدمة أن تضغط على زر فيأتي لك منه الشاي مثلاً، وتضغط على زر آخر فيأتي لك منه القهوة.

وهذه آلة تستجيب لك إنْ تفاعلتَ معها، لكن مهما ارتقى هؤلاء ومهما تقدَّمت صناعتهم فلن يصلوا إلى أنْ يقدموا لك الشيء بمجرد أن يخطر على بالك؛ لأن هذا من نعيم الجنة الذي أعده الخالق سبحانه لعباده الصالحين.

إذن: فما دام كذلك، وسلَّمنا بأن الآخرة افضل وأعظم، فما عليك إلاَّ أنْ تبادر وتأخذ الطريق القويم، وتسلك طريق ربك من أقصر اتجاه، وهو الاستقامة على منهج الله الواحد والالتزام به.

فيقول الحق سبحانه: ﴿ لاَّ تَجْعَل مَعَ اللَّهِ إِلَاهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾.

(68/453)

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22)

لأنه سبحانه أعطاك في الدنيا، وأمدّك بالأسباب، وبمقوّمات حياتك، أوجدك من عدم،

وأمدك من عُدْمٍ، حتى وإنْ كنت كافراً، ثم أعدَّ لك في الآخرة الدرجات العالية والنعيم المقيم الذي لا يَفْنى ولا يزول.

وهذه هي الحيثيات التي ينبغي عليك بعدها أن تعرفه سبحانه، وتتوجّه إليه، وتلتحم به وتكون في معيته، ولا تجعل معه سبحانه إلهاً آخر؛ لأنك إنْ فعلتَ فلن تجد من هذا النعيم شيئاً، لن تجد إلا المذمّة والخُذْلان في الدنيا والآخرة.

وسوف تُفَاجأ في القيامة بربك الذي دعاك للإيمان به فكفرْتَ. ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ.. ﴾ [النور: 39]

ساعتها ستندم حين لا ينفعك الندم، بعد أن ضاعت الفرصة من يديك.

ويقول تعالى: ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾ [الإسراء: 22]

والقعود ليس أمراً عادياً هنا، بل هو أنكَى ما يصير إليه الإنسان؛ لأن الإنسان لا يقعد إلا إذا أصبح غيرَ قادر على القيام، ففيها ما يُشعر بإنهاك القوة، وكأنه سقط إلى الأرض، بعد أنْ أصبحتْ رِجلاه غير قادرتين على حَمْله، ولم تَعُد به قوة للحركة.

ونلاحظ في تعبير القرآن عن هذا الذي خارتْ قواه، وانتهت تماماً، أنه يختار له وَضْع القعود خاصة، ولم يَقُلْ مثلاً: تنام، لأن العذاب لا يكون مع النوم، ففي النوم يفقد الإنسان الوعي فلا يشعر بالعذاب، بل قال (فتقعد) هكذا شاخص يقاسي العذاب؛ لأن العذاب ليس للجوارح والمادة، بل للنفس الواعية التي تُحِسّ وتألم.

ولذلك يلجأ الأطباء إلى تخدير المريض قبل إجراء العمليات الجراحية ؛ لأن التخدير يُفقِده الوعي فلا يشعر بالألم .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء: 95]

وقال: ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَآءِ اللَّاتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً . . ﴾ [النور: 60]

فالقعود يدل على عدم القدرة ، وفي الوقت نفسه لا يرتاح بالنوم ، فهو في عذاب مستمر .

وفي مجال الذم قال الشاعر: دَعِ المكَارِمَ لاَ ترحَلِ لِبُغْيتِهَا واقْعُدْ فإنكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسيوقوله: ﴿ مَذْمُوماً . . ﴾ [الإسراء: 22] لأنه أتى بعمل يذمه الناس عليه .

﴿ مَّخْذُولاً . . ﴾ [الإسراء: 22] من الخذلان ، وهو عدم النُّصْرة ، فالأبعد في موقف لا ينصره فيه أحد ، ولا يدافع عنه أحد ، لذلك يقول تعالى لهؤلاء: ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصافات: 25-26] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن الضحاك رضي الله عنه في قوله : ﴿ من كان يريد العاجلة ﴾ قال : من كان يريد بعمله الدنيا ، ﴿ عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ ذاك به .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ من كان يريد العاجلة ﴾ قال : من كانت همه ورغبته وطلبته ونيته عجل الله له فيها ما يشاء ، ثم اضطره إلى جهنم ﴿ يصلاها مذموماً ﴾ في نقمة الله ﴿ مدحوراً ﴾ في عذاب الله . وفي قوله : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك سعيهم مشكوراً ﴾ قال : شكر الله له اليسير ، وتجاوز عنه الكثير وفي قوله : ﴿ كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ﴾ أي : أن الله قسم الدنيا بين البر والفاجر ، والآخرة : خصوصاً عند ربك للمتقين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ كلاً نمد ﴾ الآية . قال : كلاً نرزق في الدنيا البر والفاجر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء ﴾

يقول : نمد الكفار والمؤمنين ﴿ من عطاء ربك ﴾ يقول : من الرزق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ كلاًّ نمد ﴾ الآية قال : نرزق من أراد الدنيا ، ونرزق من أراد الآخرة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿ كلاًّ نمد هؤلاء وهؤلاء ﴾ قال : هؤلاء أصحاب الدنيا ، وهؤلاء أصحاب الآخرة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿ كلاًّ نمد هؤلاء وهؤلاء ﴾ هؤلاء أهل الدنيا ، وهؤلاء أهل الآخرة ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ قال ممنوعاً .

(71/453)

واخرج ابن أبي حاتم ، عن الضحاك رضي الله عنه في قوله : ﴿ محظوراً ﴾ قال ممنوعاً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ أي في الدنيا : ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ وإن للمؤمنين في الجنة منازل وإن لهم فضائل بأعمالهم . وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " بين أعلى أهل الجنة وأسفلهم درجة كالنجم يرى في مشارق الأرض ومغاربها " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الضحاك رضي الله عنه في قوله : ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ قال : إن أهل الجنة بعضهم فوق بعض درجات ، الأعلى يرى فضله على من هو أسفل منه ، والأسفل لا يرى أن فوقه أحداً .

وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية ، عن سلمان رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم – قال : " ما من عبد يريد أن يرتفع في الدنيا درجة فارتفع ، إلا وضعه الله في الآخرة درجة أكبر منها وأطول " ثم قرأ ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وهناد وابن أبي الدنيا في صفة الجنة والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لا يصيب عبد من الدنيا شيئاً ، إلا نقص من درجاته عند الله ، وإن كان على الله كريماً .

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ مذموماً ﴾ يقول ملوماً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله : ﴿ فتقعد مذموماً ﴾ يقول : في نقمة الله ﴿ مخذولاً ﴾ في عذاب الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَّن كَانَ ﴾ : " مَنْ " شرطيةٌ ، و " عَجَّلْنا " جوابُه ، و " ما يشاء " مفعولُه ، و " لِمَنْ نريدُ " بدلُ بعضٍ من كل ، من الضمير في " له " بإعادةِ العاملِ ، و " لِمَنْ نريد " تقديرُه : لِمَنْ نريدُ تعجيلَه له .

قوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ ﴾ " جَعَلَ " هنا تصييريةٌ .

قوله : " يَصْلاها " الجملةُ حالٌ : إمَّا من الضمير في " له " وإمَّا مِنْ " جهنَّم " ، و " مَذْمُوماً " حالٌ مِنْ فاعلِ " يَصْلاها " . قيل : وفي الكلامِ حَذْفٌ ، وهو حَذْفُ المقابِلِ ؛ إذ الأصل : مَنْ كان يريد العاجلةَ وسَعَى لها سَعْيَها وهو كافرٌ لدلالةِ ما بعده عليه . وقيل : بل الأصل : مَنْ كان يريد العاجلة بعمله للآخرةِ كالمنافِق .

وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19)

قوله تعالى : ﴿ سَعْيَهَا ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنه مفعولٌ به لأنَّ المعنى : وعَمِل لها

عملَها . والثاني : أنه مصدرٌ ، و " لها " ، أي : مِنْ أجلِها .

قوله ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ هذه الجملةُ حالٌ مِنْ فاعل " سعى " .

(73/453)

﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) ﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هؤلاء ﴾ : "كُلاًّ" منصوب ب "نُمِدُّ" و " هؤلاء " بدلٌ ، " وهؤلاء " عطفٌ عليه ، أي : كلَّ فريق نُمِدُّ هؤلاء الساعين بالعاجلة ، وهؤلاء الساعين للآخرة ، وهذا تقديرٌ جيد . وقال الزمخشري في تقديره : "كلَّ واحد من الفريقين نُمِدُّ " .

قال الشيخ : "كذا قدَّره الزمخشريُّ ، وأعربوا " هؤلاء " بدلاً مِنْ "كُلاًّ" ولا يَصِحُّ أن يكونَ بدلاً مِنْ "كل" على تقدير : كلَّ واحد ، لأنه إذ ذاك بدلُ من بعض ، فينبغي أن يكونَ التقدير : كلَّ الفريقين .

و ﴿ مِنْ عَطَآءِ ﴾ متعلقٌ ب "نُمِدُّ" . والعطاءُ اسمُ مصدرٍ واقعٌ موقعَ اسم المفعول .

والمَحْظور : الممنوعُ ، وأصله مِن الحَظْر وهو : جَمْعُ الشيءِ في حَظيرة ، والحَظيرة : ما يُعْمل مِنْ شجرٍ ونحوه لتَأْوي الغنم ، والمُحْتَظِر : مَنْ يعمل الحظيرة .

انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (21)

قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ فَضَّلْنَا ﴾ : "كيف" نصبٌ : إمَّا على التشبيه بالظرف ، وإمَّا على الحال ، وهي معلَّقةٌ "انظرْ" بمعنى فكِّرْ ، أو بمعنى أبصرْ .

قوله : " وأكثر تَفْضيلاً " ، أي : من درجاتِ الدنيا ، ومِنْ تفضيلِ الدنيا .

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ : يجوز أن تكونَ على بابها ، فينتصِبَ ما بعدها على الحال ، ويجوز أَنْ تكونَ بمعنى " صار " فينتصبَ على الخبرية ، وإليه ذهب الفراء والزمخشري ، وأنشدوا في ذلك :

3043- لا يُقْنِعُ الجاريةَ الخِضابُ . . . ولا الوِشاحان ولا الجِلْبابُ

من دون أن تلتقي الأَرْكابُ . . . ويَقْعُدَ الأَيرُ له لُعابُ

أي : ويَصير . والبصريون لا يَقيسون هذا ، بل يَقْتَصِرون به على المَثَل في قولهم : " شَحَذَ شفرتَه حتى قَعَدَتْ كأنها حَرْبَةٌ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 331 ـ 333 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) ﴾

مَنْ رَضِيَ بالحظ الخسيس من عاجل الدنيا بَقِيَ عن نفيس الآخرة ، ثم لا يحظى إلا بِقَدْرِ ما اشْتَمَّهُ ، ثم يكون آنسَ ما به قلباً وأشدَّ ما يكون به سكوناً . . . ثم يُخْتَطَفُ عن نعمته ، ولا يخصه بشيءٍ مما جمع من كرائمه ، ويمنعه من قربه في الآخرة . . ولقد قيل :

يا غافلاً عن سماع الصوتْ . . . إنْ لم تبادِرْ فهو الفوتْ

مَنْ لم تَزُلْ نعمته عاجلاً . . . أزاله عن نعمته الموتْ

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19) ﴾

علامة مَنْ أراد الآخرةَ – على الحقيقة – أن يسعى لها سَعْيَها ؛ فإرادةُ الآخرة إذا تجرَّدَتْ عن العمل لها كانت مجرَّد إرادة ، ولا يكون السعيُ مشكوراً . قوله : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ : أي من المآل كما أنه مؤمِنٌ في الحال . ويقال وهو مؤمن أنَّ نجاته بفضله لا بسببه .

﴿ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ أي مقبولاً ، ومع القبول بكون التضعيف والتكثير ؛ فكما أن الصدقة يُرْبِيها كذلك طاعةُ العبدِ يُكْثِّرُها ويُنَمِّيها .

﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) ﴾

يجازي كلاًّ بِقَدْرِه ؛ فَلِقَوْمٍ نجاة ولقومٍ درجات ، ولقوم سلامة ولقومٍ كرامة ، ولقومٍ مثوبتُه ، ولقومٍ قربتُه .

(75/453)

﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (21) ﴾

التفضيلُ على أقسام ، فالعُبَّاد فَضَّلَ بعضَهم على بعض ولكن في زكاء أعمالهم ، والعارفون فَضَّلَ بعضَهم على بعض ولكن في صفاء أحوالهم ، وزكاء الأعمال بالإخلاص ، وصفاء الأحوال بالاستخلاص ؛ فقومٌ تفاضلوا بصدق القَدَمِ ، وقوم تفاضلوا بعلوّ الهِمَم . والتفضيل في الآخرة أكبر : فالعُبَّادُ تفاضلهم بالدرجات ، قال صلى الله عليه وسلم : " إنكم لَتَرَوْنَ أهلَ عِلِّيين كما ترون الكوكبَ الدريَّ في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم " .

وأهلُ الحضرةِ تفاضلُهم بلطائفهم من الأُنْس بنسيم القربة بما لا بيانَ يصفه ولا عبارة ، ولا رمز يدركه ولا إشارة . منهم من يشهده ويراه مرةً في الأسبوع ، ومنهم من لا يغيب من الحضرة لحظة ، فهم يجتمعون في الرؤية ويتفاوتون في نصيب كلِّ أحد ، وليس كلُّ مَنْ يراه بالعين التي بها يراه صاحبه ، وأنشد بعضهم :

لو يسمعون - كما سمعتُ حديثها . . . خرّوا لِعزّةَ رُكَّعاً وسجودا

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22) ﴾

الذي أشرك بالله أصبح مذموماً من قِبَلِ الله ، ومخذولاً من قِبَلِ مَنْ عَبَدَه من دون الله .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 342 . 343 ﴾

(76/453)

من فوائد الإمام الجصاص فى الآيات السابقة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ رُوِيَ عَنْ أُمِّ هَانِئٍ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُسْرِيَ بِهِ مِنْ بَيْتِهَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ﴾ لِأَنَّ الْحَرَمَ كُلَّهُ مَسْجِدٌ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَلِكَ فِيمَا سَلَفَ وَقَالَ : الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ : مَعْنَاهُ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ نَفْسُهُ فَأُسْرِيَ بِهِ .

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ فَإِلَيْهَا ، كَمَا يُقَالُ : أَحْسَنَ إلَى نَفْسِهِ وَأَسَاءَ إلَى نَفْسِهِ وَحُرُوفُ الْإِضَافَةِ يَقَعُ بَعْضُهَا مَوْضِعَ بَعْضٍ إذَا تَقَارَبَتْ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ بِأَنَّ رَبَّك أَوْحَى لَهَا ﴾ وَالْمَعْنَى : أَوْحَى إلَيْهَا .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾ يَعْنِي جَعَلْنَاهَا لَا يُبْصَرُ بِهَا كَمَا لَا يُبْصَرُ بِمَا يُمْحَى مِنْ

الْكِتَابِ وَهُوَ فِي نِهَايَةِ الْبَلَاغَةِ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " مَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ : السَّوَادُ الَّذِي فِي الْقَمَرِ " .

قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾

(77/453)

قِيلَ : إِنَّمَا أَرَادَ بِهِ عَمَلَهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي الطَّائِرِ الَّذِي يَجِيءُ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ فَيَتَبَرَّكُ بِهِ وَالطَّائِرُ الَّذِي يَجِيءُ مِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ فَيُتَشَاءَمُ بِهِ ، فَجَعَلَ الطَّائِرَ اسْمًا لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ جَمِيعًا فَاقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِهِ دُونَ ذِكْرِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى حِيَالِهِ لِدَلَالَتِهِ عَلَى الْمَعْنَيَيْنِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ فِي عُنُقِهِ كَالطَّوْقِ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ وَيُلَازِمُهُ مُبَالَغَةً فِي الْوَعْظِ وَالتَّحْذِيرِ وَاسْتِدْعَاءً إِلَى الصَّلَاحِ وَزَجْرًا عَنْ الْفَسَادِ .

قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(78/453)

قِيلَ : فِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ فِيمَا كَانَ طَرِيقُهُ السَّمْعَ دُونَ الْعَقْلِ إلَّا بِقِيَامِ حُجَّةِ السَّمْعِ فِيهِ مِنْ جِهَةِ الرَّسُولِ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ وَلَمْ يَسْمَعْ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَنَحْوِهَا مِنْ الشَّرَائِعِ السَّمْعِيَّةِ أَنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ قَضَاءُ شَيْءٍ مِنْهَا إذَا عَلِمَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَازِمًا لَهُ إلَّا بَعْدَ قِيَامِ حُجَّةِ السَّمْعِ عَلَيْهِ ، وَبِذَلِكَ وَرَدَتْ السُّنَّةُ فِي قِصَّةِ أَهْلِ قُبَا حِينَ أَتَاهُمْ آتٍ أَنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ حُوِّلَتْ وَهُمْ فِي الصَّلَاةِ فَاسْتَدَارُوا إلَى الْكَعْبَةِ وَلَمْ يَسْتَأْنِفُوا لِفَقْدِ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِنَسْخِ الْقِبْلَةِ وَكَذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا فِيمَنْ أَسْلَمَ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَلَمْ يَعْلَمْ بِوُجُوبِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا قَضَاءَ عَلَيْهِ فِيمَا تَرَكَ ، قَالُوا : وَلَوْ أَسْلَمَ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَعْلَمْ بِفَرْضِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ فَعَلَيْهِ الْقَضَاءُ اسْتِحْسَانًا وَالْقِيَاسُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ الْأَوَّلِ لِعَدَمِ قِيَامِ حُجَّةِ السَّمْعِ عَلَيْهِ ، وَحُجَّةُ الِاسْتِحْسَانِ أَنَّهُ قَدْ رَأَى النَّاسَ يُصَلُّونَ فِي الْمَسَاجِدِ بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ وَذَلِكَ دُعَاءٌ إلَيْهَا فَكَانَ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَمُخَاطَبَةِ الْمُسْلِمِينَ إيَّاهُ بِلُزُومِ فَرْضِهَا ، فَلَا يُسْقِطُهَا عَنْهُ تَضْيِيعُهُ إيَّاهَا وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَ الِاسْتِئْصَالِ إلَّا بَعْدَ قِيَامِ حُجَّةِ السَّمْعِ بِالرَّسُولِ ، وَأَنَّ مُخَالَفَةَ مُوجِبَاتِ أَحْكَامِ الْعُقُولِ قَبْلَ وُرُودِ السَّمْعِ مِنْ جِهَةِ

الرَّسُولِ لَا تُوجِبُ فِي حُكْمِ اللَّهِ عَذَابَ الِاسْتِئْصَالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ قَالَ سَعِيدٌ: "أُمِرُوا بِالطَّاعَةِ فَعَصَوْا".

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: "كُنَّا نَقُولُ لِلْحَيِّ إِذَا كَثُرُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَدْ أَمِرَ بَنُو فُلَانٍ".

وَعَنْ الْحَسَنِ وَابْنِ سِيرِينَ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَعِكْرِمَةَ وَمُجَاهِدٍ: ﴿ أَمَرْنَا ﴾ أَكْثَرْنَا.

وَمَعْنَاهُ عَلَى هَذَا أَنَّا إِذَا كَانَ فِي مَعْلُومِنَا إِهْلَاكُ قَرْيَةٍ أَكْثَرْنَا مُتْرَفِيهَا، وَلَيْسَ الْمَعْنَى وُجُودَ الْإِرَادَةِ مِنْهُ لِإِهْلَاكِهِمْ قَبْلَ الْمَعْصِيَةِ لِأَنَّ الْإِهْلَاكَ عُقُوبَةٌ وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَجُوزُ أَنْ يُعَاقِبَ مَنْ لَمْ يَعْصِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾ لَيْسَ الْمَعْنَى وُجُودَ الْإِرَادَةِ مِنْهُ وَإِنَّمَا هُوَ أَنَّهُ فِي الْمَعْلُومِ أَنَّهُ سَيَنْقَضُّ.

وَخَصَّ الْمُتْرَفِينَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمْ الرُّؤَسَاءُ وَمَنْ عَدَاهُمْ تَبَعٌ لَهُمْ، وَكَمَا أَمَرَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمُهُ تَبَعٌ لَهُمْ، وَكَمَا ﴿ كَتَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى قَيْصَرَ أَسْلِمْ وَإِلَّا فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ ﴾ ﴿ وَكَتَبَ إِلَى كِسْرَى: فَإِنْ لَمْ تُسْلِمْ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْأَكَّارِينَ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْ الْقُرُونِ ﴾ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى: أَنَّ الْقَرْنَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ الْمَازِنِيُّ: مِائَةُ سَنَةٍ.

وَقِيلَ: الْقَرْنُ أَرْبَعُونَ سَنَةً.

(80/453)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ الْعَاجِلَةُ : الدُّنْيَا ، كَقَوْلِهِ : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ مَنْ كَانَ هَمُّهُ مَقْصُورًا عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ عَجَّلَ لَهُ مِنْهَا مَا يُرِيدُ ، فَعَلَّقَ مَا يُؤْتِيهِ مِنْهَا بِمَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : قَوْلُهُ : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ ﴾ فَلِذَلِكَ اسْتَثْنَى فِي الْمُعْطَى ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ مِقْدَارَهُ وَجِنْسَهُ وَإِدَامَتَهُ أَوْ قَطْعَهُ ، ثُمَّ أَدْخَلَ عَلَيْهِ اسْتِثْنَاءً آخَرَ فَقَالَ : ﴿ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ فَلِذَلِكَ اسْتَثْنَى فِي الْمُعْطِينَ وَأَنَّهُ لَا يُعْطَى الْجَمِيعُ مِمَّنْ يَسْعَى لِلدُّنْيَا بَلْ يُعْطِي مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ وَيَحْرِمُ مَنْ شَاءَ ، فَأَدْخَلَ عَلَى إرَادَةِ الْعَاجِلَةِ فِي إعْطَاءِ الْمُرِيدِ مِنْهَا اسْتِثْنَاءَيْنِ لِئَلَّا يَثِقَ الطَّالِبُونَ لِلدُّنْيَا بِأَنَّهُمْ لَا مَحَالَةَ سَيَنَالُونَ بِسَعْيِهِمْ مَا يُرِيدُونَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ فَلَمْ يَسْتَثْنِ شَيْئًا بَعْدَ وُقُوعِ السَّعْيِ مِنْهُمْ عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ ، وَشَرَطَ فِي السَّعْيِ لِلْآخِرَةِ أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا وَمُرِيدًا لِثَوَابِهَا .

(81/453)

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَجْلَانَ : مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ ثَلَاثُ خِلَالٍ لَمْ يَدْخُلْ الْجَنَّةَ : نِيَّةٌ صَحِيحَةٌ وَإِيمَانٌ صَادِقٌ وَعَمَلٌ مُصِيبٌ ، قَالَ : فَقُلْت : عَمَّنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : عَنْ كِتَابِ اللَّهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فَعَلَّقَ سَعْيَ الْآخِرَةِ فِي اسْتِحْقَاقِ الثَّوَابِ لَهُ بِأَوْصَافٍ وَلَمْ يَسْتَثْنِ فِي الْمَقْصُودِ شَيْئًا وَلَمْ يُخَصِّصْ إرَادَةَ الْعَاجِلَةِ بِوَصْفٍ بَلْ أَطْلَقَهَا وَاسْتَثْنَى فِي الْعَطِيَّةِ وَالْمُعْطَى مَا قَدَّمْنَا .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّك ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ مُرِيدِ الْعَاجِلَةِ وَالسَّاعِي لِلْآخِرَةِ وَحُكْمُ مَا يَنَالُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِقَصْدِهِ وَإِرَادَتِهِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ نِعَمَهُ جَلَّ وَتَعَالَى مَبْسُوطَةٌ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهَا خَاصَّةٌ لِلْمُتَّقِينَ فِي الْآخِرَةِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ سَائِرَ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِمَا فِيهَا مِنْ الْمَنَافِعِ وَالْهَوَاءِ وَالْمَاءِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ الْمَأْكُولَةِ وَالْأَغْذِيَةِ وَالْأَدْوِيَةِ وَصِحَّةِ الْجِسْمِ وَالْعَافِيَةِ إلَى مَا لَا يُحْصَى مِنْ النِّعَمِ شَامِلَةٌ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ؟ وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(82/453)

ومن فوائد ابن العربى فى الآيات :

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي ﴿ سُبْحَانَ ﴾ : وَفِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ ؛ قَالَهُ سِيبَوَيْهِ وَالْخَلِيلُ .

وَمَنَعَهُ عِنْدَهُمَا مِنْ الصَّرْفِ كَوْنُهُ مَعْرِفَةً فِي آخِرِهِ زَائِدَانِ .

وَذَكَرَ سِيبَوَيْهِ أَنَّ مِنْ الْعَرَبِ مَنْ يَصْرِفُهُ وَيُصَرِّفُهُ .

الثَّانِي : قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : هُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى النِّدَاءِ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ مَوْضُوعٌ مَوْضِعَ الْمَصْدَرِ مَنْصُوبٌ لِوُقُوعِهِ مَوْقِعَهُ .

الرَّابِعُ : أَنَّهَا كَلِمَةٌ رَضِيَهَا اللَّهُ لِنَفْسِهِ ؛ قَالَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، و مَعْنَاهَا عِنْدَهُمْ بَرَاءَةُ اللَّهِ مِنْ السُّوءِ ، وَتَنْزِيهُ اللَّهِ مِنْهُ قَالَ الشَّاعِرُ : أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الْفَاخِرِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : أَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ مَصْدَرٌ فَلِأَنَّهُ جَارٍ عَلَى بِنَاءِ الْمَصَادِرِ ، فَكَثِيرًا مَا يَأْتِي عَلَى

فُعْلَانَ .

وَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ اسْمٌ وُضِعَ لِلْمَصْدَرِ فَلِأَنَّهُمْ رَأَوْهُ لَا يَجْرِي عَلَى الْفِعْلِ الَّذِي هُوَ سَبَّحَ .

(83/453)

وَأَمَّا قَوْلُ أَبِي عُبَيْدَةَ بِأَنَّهُ مُنَادَى فَإِنَّهُ يُنَادَى فِيهِ بِالْمَعْرِفَةِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ، وَهُوَ كَلَامٌ جُمِعَ فِيهِ بَيْنَ دَعْوَى فَارِغَةٍ لَا بُرْهَانَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ لَا يَعْصِمُهُ ذَلِكَ مِنْ أَنْ يُقَالَ لَهُ : هَلْ هُوَ اسْمٌ أَوْ مَصْدَرٌ ؟ وَمَا زَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُجْرِي فِي الْمَنْقُولِ طَلْقَهُ حَتَّى إذَا جَاءَ الْمَعْقُولُ عَقَلَهُ الْعِيُّ وَأَغْلَقَهُ .

وَقَدْ جَمَعَ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَرَفَةَ جُزْءًا قَرَأْنَاهُ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ ، وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ فِيهِ عَنْ التَّقْصِيرِ سَلَامٌ ، وَالْقَدْرُ الَّذِي أَشَارَ إلَيْهِ سِيبَوَيْهِ فِيهِ يَكْفِي ، فَلْيَأْخُذْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ وَيَكْتَفِي .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : لَوْ كَانَ لِلنَّبِيِّ اسْمٌ أَشْرَفَ مِنْهُ لَسَمَّاهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ الْعَلِيَّةِ بِهِ ، وَفِي مَعْنَاهُ تُنْشِدُ الصُّوفِيَّةُ : يَا قَوْمِ قَلْبِي عِنْدَ زَهْرَاءَ يَعْرِفُهَا السَّامِعُ وَالرَّائِي لَا تَدْعُنِي إلَّا بِيَا عَبْدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي وَقَالَ الْأُسْتَاذُ جَمَالُ الْإِسْلَامِ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ هَوَازِنَ : لَمَّا رَفَعَهُ إلَى حَضْرَتِهِ السَّنِيَّةِ ، وَأَرْقَاهُ فَوْقَ الْكَوَاكِبِ الْعُلْوِيَّةِ ، أَلْزَمَهُ اسْمَ الْعُبُودِيَّةِ لَهُ ، تَوَاضُعًا لِلْإِلَهِيَّةِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَضَى اللَّهُ بِحِكْمَتِهِ وَحُكْمُهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ النَّاسُ ، هَلْ أُسْرِيَ بِجَسَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْ بِرُوحِهِ ؟ وَلَوْلَا مَشِيئَةُ رَبِّنَا السَّابِقَةُ بِالِاخْتِلَافِ لَكَانَتْ الْمَسْأَلَةُ أَبْيَنَ عِنْدَ الْإِنْصَافِ ؛ فَإِنَّ الْمُنْكِرَ لِذَلِكَ لَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ مُلْحِدًا يُنْكِرُ الْقُدْرَةَ ، وَيَرَى أَنَّ الثَّقِيلَ لَا يَصْعَدُ عُلُوًّا ، وَطَبْعُهُ اسْتِفَالٌ فَمَا بَالُهُ يَتَكَلَّمُ مَعَنَا فِي هَذَا الْفَرْعِ ، وَهُوَ مُنْكِرٌ لِلْأَصْلِ ؛ وَهُوَ وُجُودُ الْإِلَهِ وَقُدْرَتُهُ ، وَأَنَّهُ يُصَرِّفُ الْأَشْيَاءَ بِالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ ، لَا بِالطَّبِيعَةِ .

وَإِنْ كَانَ الْمُنْكِرُ مِنْ أَغْبِيَاءِ الْمِلَّةِ يُقِرُّ مَعَنَا بِالْإِلَهِيَّةِ وَالْعِلْمِ ، وَالْإِرَادَةِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى التَّصْرِيفِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّقْدِيرِ ، فَيُقَالُ لَهُ : وَمَا الَّذِي يَمْنَعُ مِنْ ارْتِقَاءِ النَّبِيِّ فِي الْهَوَاءِ بِقُدْرَةِ خَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ؟ فَإِنْ قَالَ : لِأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ .

قُلْنَا لَهُ : قَدْ وَرَدَ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ عَلَى لِسَانِ كُلِّ فَرِيقٍ ، مِنْهُمْ أَبُو ذَرٍّ ؛ قَالَ أَنَسٌ : قَالَ أَبُو ذَرٍّ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي ، وَأَنَا بِمَكَّةَ ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ، فَفَرَجَ صَدْرِي ، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي ، ثُمَّ أَطْبَقَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ : افْتَحْ .

قَالَ: مَنْ هَذَا ؟ قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ.

قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَعِي مُحَمَّدٌ.

فَقَالَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ فَقَالَ: نَعَمْ.

فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَإِذَا رَجُلٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ، وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَالِابْنِ الصَّالِحِ.

قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَذَا ؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الْأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ عَنْ شِمَالِهِ بَكَى.

ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَقَالَ لِخَازِنِهَا: افْتَحْ، فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ لَهُ الْأَوَّلُ، فَفَتَحَ.

قَالَ أَنَسٌ: فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَاءِ آدَمَ، وَإِدْرِيسَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَإِبْرَاهِيمَ.

﴿ وَلَمْ يُثْبِتْ كَيْفَ مَنَازِلُهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَإِبْرَاهِيمَ فِي

السَّمَاءِ السَّادِسَةِ .

قَالَ أَنَسٌ : ﴿ فَلَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ جِبْرِيلَ بِإِدْرِيسَ ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ، وَالْأَخِ الصَّالِحِ .

فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا إِدْرِيسُ .

ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ .

قُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : مُوسَى .

ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ .

قُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : عِيسَى .

ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ .

قُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : إِبْرَاهِيمُ ﴾ .

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ : فَأَخْبَرَنِي ابْنُ حَزْمٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَبَا حَبَّةَ الْأَنْصَارِيَّ كَانَا يَقُولَانِ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ ﴾ .

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ ، وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ فَفَرَضَ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً ، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَرْتُ بِمُوسَى ، فَقَالَ : مَاذَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِكَ ؟ قُلْتُ : فَرَضَ خَمْسِينَ صَلَاةً .

قَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ؛ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ،

فَرَاجَعَنِي ، فَرَجَعْتُ ، فَوَضَعَ شَطْرَهَا ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى ، قُلْتُ : وَضَعَ شَطْرَهَا .

فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ .

فَرَجَعْتُ ، فَوَضَعَ شَطْرَهَا ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، فَرَاجَعْتُهُ ، فَقَالَ : هِيَ خَمْسٌ ، وَهِيَ خَمْسُونَ لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ .

فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى ، فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ، فَقُلْتُ : قَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي .

قَالَ : ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ ﴾ .

(87/453)

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

﴿ بَيْنَا أَنَا بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ .

﴿ وذكر حديث الإسراء بطوله، إلى أن قال: ﴿ ثم استيقظت، وأنا في المسجد الحرام ﴾.

قلنا: عنه أجوبة؛ منها: أن هذا اللفظ رواه شريك عن أنس، وكان تغير بآخرة فيعول على روايات الجميع.

الثاني: أنه يحتمل أنه أرى النبي صلى الله عليه وسلم الإسراء رؤيا منام، وطده الله بها، ثم أراه إياها رؤيا عين، كما فعل به حين أراد مشافهته بالوحي؛ ﴿ أرسل إليه الملك في المنام بنمط من ديباج فيه: اقرأ باسم ربك، وقال له: اقرأ.

فقال: ما أنا بقارئ، فغطه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله، فقال: اقرأ.

قال: ما أنا بقارئ ﴾ إلى آخر الحديث.

فلما كان بعد ذلك جاءه الملك في اليقظة بمثل ما أراده في المنام.

وكانت الحكمة في ذلك أن أراه الله في المنام ما أراه من ذلك توطيدا وتثبيتا لنفسه، حتى لا يأتيه الحال فجأة، فتقاسي نفسه الكريمة منها شدة، لعجز القوى الآدمية عن مباشرة الهيئة الملكية.

وقَدْ ثَبتَ فِي الصَّحِيحِ وغَيْرِه مِنْ طُرُقٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ ؛ ولَوْ كَانَتْ رُؤْيَا مَنَامٍ مَا افْتُتِنَ بِهَا أَحَدٌ ، ولَا أَنْكَرَهَا ؛ فَإِنَّهُ لَا يُسْتَبْعَدُ عَلَى أَحَدٍ أَنْ يَرَى نَفْسَهُ يَخْتَرِقُ السَّمَوَاتِ ، ويَجْلِسُ عَلَى الْكُرْسِيِّ ، ويُكَلِّمُهُ الرَّبُّ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ كَانَ فَرْضُ الصَّلَاةِ ؛ وَقَدْ رُوِيَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي قَبْلَ الْإِسْرَاءِ صَلَاةَ الْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ ، ويَتَنَفَّلُ فِي الْجُمْلَةِ ولَمْ يَثْبُتْ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقٍ صَحِيحَةٍ حَتَّى رَفَعَهُ اللَّهُ مَكَانًا عَلِيًّا ، وفَرَضَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ ، ونَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ فَعَلَّمَهُ أَعْدَادَهَا وصِفَاتِهَا ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ : ﴿ أَمَّنِي جِبْرِيلُ عِنْدَ الْبَيْتِ مَرَّتَيْنِ ، وَصَلَّى بِي الظُّهْرَ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ حِينَ زَالَتْ الشَّمْسُ ، وَصَلَّى بِي الْعَصْرَ عِنْدَمَا صَارَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ ، وَصَلَّى بِي الْمَغْرِبَ حِينَ غَرُبَتْ الشَّمْسُ ، وصَلَّى بِي الْعِشَاءَ عِنْدَمَا غَابَ الشَّفَقُ ، وَصَلَّى بِي الصُّبْحَ حِينَ بَرَقَ الْفَجْرُ وحَرُمَ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ عَلَى الصَّائِمِ .

ثُمَّ صَلَّى بِي الظُّهْرَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي حِينَ صَارَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ لِوَقْتِ الْعَصْرِ بِالْأَمْسِ ، وَصَلَّى بِي الْعَصْرَ حِينَ صَارَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَيْهِ ، وَصَلَّى بِي الْمَغْرِبَ حِينَ غَرُبَتْ الشَّمْسُ لِوَقْتِهَا بِالْأَمْسِ ، وَصَلَّى بِي الْعِشَاءَ حِينَ ثُلُثِ اللَّيْلِ ، وَصَلَّى بِي الصُّبْحَ وَقَائِلٌ يَقُولُ : أَطَلَعَتْ الشَّمْسُ ؟ لَمْ تَطْلُعْ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، هَذَا وَقْتُك ، وَوَقْتُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَك ، وَالْوَقْتُ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ ﴾ .

وَقَدْ مَهَّدْنَا الْقَوْلَ فِي الْحَدِيثِ فِي شَرْحِ الصَّحِيحَيْنِ ، وَبَيَّنَّا مَا فِيهِ مِنْ عُلُومٍ ، عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا مِنْ حَدِيثٍ وَطُرُقِهِ ، وَلُغَةٍ وَتَصْرِيفِهَا ، وَتَوْحِيدٍ وَعَقْلِيَّاتٍ ، وَعِبَادَاتٍ وَآدَابٍ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ فِيمَا نَيَّفَ عَلَى ثَلَاثِينَ وَرَقَةً ، فَلْيُنْظَرْ هُنَالِكَ ، فَفِيهِ الشِّفَاءُ مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ فِيهَا مَسْأَلَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ أَمَرْنَا ﴾ : فِيهَا مِنْ الْقِرَاءَاتِ ثَلَاثُ قِرَاءَاتٍ : الْقِرَاءَةُ الْأُولَى : أَمَرْنَا بِتَخْفِيفِ الْمِيمِ .

الْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ : بِتَشْدِيدِهَا .

الْقِرَاءَةُ الثَّالِثَةُ : آمَرْنَا بِمَدٍّ بَعْدَ الْهَمْزَةِ وَتَخْفِيفِ الْمِيمِ .

فَأَمَّا الْقِرَاءَةُ الْأُولَى: فَهِيَ الْمَشْهُورَةُ، وَمَعْنَاهُ أَمَرْنَاهُمْ بِالْعَدْلِ، فَخَالَفُوا، فَفَسَقُوا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، فَهَلَكُوا بِالْكَلِمَةِ السَّابِقَةِ الْحَاقَّةِ عَلَيْهِمْ.

وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ: بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ: فَهِيَ قِرَاءَةُ عَلِيٍّ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَأَبِي عَمْرٍو، وَأَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ، وَمَعْنَاهُ كَثَّرْنَاهُمْ، وَالْكَثْرَةُ إِلَى التَّخْلِيطِ أَقْرَبُ عَادَةً.

وَأَمَّا قِرَاءَةُ الْمَدِّ فِي الْهَمْزَةِ وَتَخْفِيفِ الْمِيمِ فَهِيَ قِرَاءَةُ الْحَسَنِ، وَالْأَعْرَجِ، وَخَارِجَةَ عَنْ نَافِعٍ.

وَيَكُونُ مَعْنَاهُ الْكَثْرَةَ؛ فَإِنَّ أَفْعَلَ وَفَعَّلَ يَنْظُرَانِ فِي التَّصْرِيفِ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ الْإِمَارَةِ، أَيْ جَعَلْنَاهُمْ أُمَرَاءَ، فَإِمَّا أَنْ يُرِيدَ مَنْ جَعْلِهِمْ وُلَاةً فَيَلْزَمُهُمْ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ، فَيُقَصِّرُونَ فِيهِ فَيَهْلِكُونَ.

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ أَنَّ كُلَّ مَنْ مَلَكَ دَارًا وَعِيَالًا وَخَادِمًا فَهُوَ مَلِكٌ وَأَمِيرٌ، فَإِذَا صَلَحَتْ أَحْوَالُهُمْ أَقْبَلُوا عَلَى الدُّنْيَا وَآثَرُوهَا عَلَى الْآخِرَةِ فَهَلَكُوا، وَمِنْهُ الْأَثَرُ: ﴿ خَيْرُ الْمَالِ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ وَمُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ ﴾: أَيْ كَثِيرَةُ النِّتَاجِ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ قَوْلُهُ: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إمْرًا ﴾.

أَيْ عَظِيمًا.

وَالْقَوْلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مُتَقَارِبٌ مُتَدَاخِلٌ؛ وَقَدْ قَدَّمْنَا الْقَوْلَ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ

عَنْ الْمُنْكَرِ بِمَا يُغْنِي عَنْ

إِعَادَتِهِ.

(91/453)

وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ هَذَا الْفِسْقُ وَأَعْظَمُهُ فِي الْمُخَالَفَةِ الْكُفْرُ أَوْ الْبِدْعَةُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي نَظِيرِهِ: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.

فَهَؤُلَاءِ قَوْمٌ عَصَوْا وَكَفَرُوا، وَهَذِهِ صِفَةُ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ فِي قَصَصِ الْقُرْآنِ، وَأَخْبَارِ مَنْ مَضَى مِنْ الْأُمَمِ.

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْله تَعَالَى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾.

قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، وَبَيَّنَّا أَنَّ مَنْ أَرَادَ غَيْرَ اللَّهِ فَهُوَ مُتَوَعَّدٌ،

وَأَوْضَحْنَا أَنَّ آيَةَ الشُّورَى مُطْلَقَةٌ فِي أَنَّ مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا يُؤْتِيهِ اللَّهُ مِنْهَا ، وَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ وَهَذِهِ مُقَيَّدَةٌ فِي أَنَّهُ إنَّمَا يُؤْتَى حَقَّهُ فِي الدُّنْيَا مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ ذَلِكَ .

وَلَيْسَ الْوَعْدُ بِذَلِكَ عَامًّا لِكُلِّ أَحَدٍ ، وَلَا يُعْطَى لِكُلِّ مُرِيدٍ ، لِقَوْلِهِ : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا ﴾ الْآيَةَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(92/453)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) ﴾

قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ يقول : عجبٌ من أمر الله الذي أسرى .

ويقال : تنزيه لله تعالى .

وروى موسى بن طلحة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبحان .

فقال : "نَزَّهَ الله نَفْسَهُ عَنِ السُّوءِ" .

وروي عن عليّ بن أبي طالب ، أن ابن أبي الْكَوَّاء سأله عن سبحان ، فقال عليّ : كلمة الله

لنفسه .

ويقال : معناه سبحوا الله ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ أي : أدلج برسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَيْلاً ﴾ أي : في ليلة .

ويقال : ﴿ أسرى ﴾ يعني : سار بعبده ليلاً ﴿ مّنَ المسجد الحرام ﴾ أي : مكة .

وقال ابن عباس : من بيت أم هانىء ﴿ إلى المسجد الاقصى ﴾ يعني : إلى بيت المقدس .

قال الفقيه : أخبرني الثقة بإسناده عن أبي سعيد الخدري .

قال : حدثنا النبي صلى الله عليه وسلم عن الليلة التي أسرى به فيها ، فقال : " أُوتِيتُ بِدَابَّةٍ هِيَ أَشْبَهُ الدَّوَابِّ بِالبَغْلِ وَهُوَ البُرَاقُ ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَرْكَبُهُ الأَنْبِيَاءِ " .

قال : " فَانْطَلَقَ بِي يَضَعُ يَدَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى بَصَرِهِ ، فَسَمِعْتُ نِدَاءً عَنْ يَمِينِي : يا مُحَمَّدُ عَلَى رِسْلِكَ .

فَمَضَيْتُ وَلَمَّا أعرِجْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ سَمِعْتُ نِدَاءً عَنْ شِمَالِي فَمَضَيْتُ .

ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْنِي امْرَأَةٌ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةٍ ، فَمَدَّتْ يَدَيْهَا ، وَقَالَتْ : عَلَى رِسْلِكَ فَمَضَيْتُ .

وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهَا .

ثُمَّ أَتَيْتُ البَيْتَ المَقْدِسَ .

أَوْ قَالَ المَسْجِدَ فَنَزَلْتُ وَأَوْثَقْتُهُ بِالحَلَقَةِ الَّتِي كَانَتِ الأَنْبِيَاءُ يُوثِقُونَ بِهَا ، ثُمَّ دَخَلْتُ ، المَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ ، فَقُلْتُ : يا جِبْرِيلُ سَمِعْتُ نِدَاءً عَنْ يَمِينِي ، فَقَالَ : ذَاكَ دَاعِي اليَهُودِيَّةِ ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ وَقَفْتَ عَلَيْهِ لَتَهَوَّدَتْ أُمَّتُكَ .

فَقُلْتُ : وَسَمِعْتُ نِدَاءً عَنْ شِمَالِي .

قَالَ : كَانَ ذَلِكَ دَاعِيَ النَّصَارَى ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ وَقَفْتَ عَلَيْهِ لَتَنَصَّرَتْ أُمَّتُكَ وَأَمَّا المَرْأَةُ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزَيَّنَتْ لَكَ .

أَمَا إِنَّكَ لَوْ وَقَفْتَ عَلَيْهَا لاخْتَارَتْ أُمَّتُكَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ .

قَالَ : ثُمَّ أُوتِيتَ بِإِنَاءَيْنِ أَحَدُهُمَا فِيهِ لَبَنٌ ، وَالآخَرُ فِيهِ خَمْرٌ .

فَقَالَ لِي : اشْرَبْ أَيُّهُمَا شِئْتَ فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ وَشَرِبْتُ .

فَقَالَ أَصَبْتَ الفِطْرَةَ ، أَيْ أُعْطِيتَ أُمَّتُكَ الإِسْلَامَ .

أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الخَمْرَةَ لَغَوَتْ أُمَّتُكَ .

ثُمَّ جِيءَ بِالمِعْرَاجِ الَّذِي تَعْرُجُ فِيهِ أَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ .

فَإِذَا هُوَ أَحْسَنُ مَا رَأَيْتُ فَعُرِجَ بِنَا فِيهِ " .

وذكر قصة طويلة فنزل ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم من أول الليل من المسجد الحرام .

يقول : من الحرم من بيت أم هانئ بنت أبي طالب ، إلى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى أي : الأبعد .

يعني : إلى مسجد إيلياء وهو بيت المقدس ﴿ الذى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ بالماء ، والأشجار ، وهو المدائن التي حوله مثل دمشق ، والأردن ، وفلسطين .

﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ ءاياتنا ﴾ أي : لكي نريه من آياتنا .

أراه الله تعالى في تلك الليلة من عجائب السموات والأرض .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لمقالة أهل مكة وإنكارهم ﴿ البصير ﴾ أي : العليم بهم .

وذلك أنه لما أخبرهم عن قصة تلك الليلة ، أنكروا .

(94/453)

وروى الزهري عن عروة قال : إنه لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى ، فأخبر الناس بذلك ، فارتد ناس كثير ممن كان صدقه ، وفتنوا بذلك ، وكذبوا به ، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر ، فقالوا له : هذا صاحبك يزعم أنه قد أُسري به الليلة إلى بيت المقدس ، ثم رجع من ليلته .

فقال أبو بكر : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم .

قال : فإني أشهد إن كان قال ذلك أنه قد صدق .

فقالوا : أتصدقه بأنه جاء إلى الشام في ليلة واحدة : ورجع قبل أن يصبح .

فقال أبو بكر : نعم .

إني أصدقه في أبعد من ذلك .

أصدقه بخبر السماء غدوة وعشية .

فبذلك سمي أبا بكر الصديق .

قال الزهري : أخبرني أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم فرضت عليه الصلاة ليلة أسري به خمسين ، ثم نقصت إلى خمس ، ثم نودي يا محمد ما يبدل القول لدي ، وإن لك بالخمس خمسين .

﴿ وَءاتَيْنَا مُوسَى الكِتَاب ﴾ أي التوراة جملةً واحدةً ﴿ وجعلناه ﴾ أي : الكتاب ﴿ هُدًى لِّبَنِى إسراءيل ﴾ أي : بياناً لهم من الضلالة .

أي : دللناهم به على الهدى ﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلاً ﴾ يعني : ألاَّ تعبدوا من دوني ربّاً .

قوله : ﴿ ذُرِّيَّةِ ﴾ يعني : بالذرية ﴿ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ في السفينة ، في أصلاب الرجال ، وأرحام النساء .

ويقال : معناه ألاّ تعبدوا ذُريةً من حملنا مع نوح مثل عيسى وعزير .

قرأ أبو عمرو ﴿ يَتَّخِذُواْ ﴾ بالياء على معنى المغايبة .

والخبر عنهم أي: أعطيناك الكتاب لكيلا يتخذوا إلها غيري.

وقرأ الباقون: بالتاء على معنى المخاطبة.

أي: قل لهم لا تتخذوا إلها غيري.

ثم أثنى على نوح فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ أي: كان يحمد الله إذا شرب، وأكل، واكتسى.

ويقال: الشكور هو المبالغ في الشكر.

أي: كان شاكراً في الأحوال كلها.

(95/453)

قوله: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَاءِيلَ ﴾ يقول: أعلمنا وبينّا كقوله: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ ﴾ أي: أعلمناه، وبينّاه ﴿ فِي الْكِتَابِ ﴾ يعني: أخبرناهم في التوراة ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ أي: لتعصن ﴿ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ والعلو العتو على الله تعالى، والجراة.

وهذا قول ابن عباس.

وقال مقاتل: يعني: لتهلكن في الأرض مرتين ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ يعني: لتقهرن قهراً

شديداً .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة أنه قال : أما المرة الأولى فسلط الله عليهم جالوت ، حتى بعث الله طالوت ، ومعه داود ، فقتله داود .

ثم رُدَّت الكرة لبني إسرائيل .

ثم جاء وعد الآخرة من المرتين ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المسجد كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ [الإسراء : 7] أي : يقبحوا وجوهكم ، وليدمروا تدميراً ، وهو بُخْتَنَصَّر .

وإن عدتم عدنا .

فعادوا ، فبعث الله عليهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فهم يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : وَعْدُ أُولاهُمَا جاءتهم فارس معهم بختنصر ، ثم رجعت فارس يعني : أهل فارس ولم يكن قتال ، ونصرت بنو إسرائيل عليهم .

فذلك وعد الأولى .

فإذا جاء وَعْدُ الآخرة ، جاءهم بختنصر ، ودمر عليهم .

وروى أسباط عن السدي ، أن وعد الأولى كان ملك النبط ، فجاسوا خلال الديار .

ثم إن بني إسرائيل تجهزوا ، وغزوا النبط ، فأصابوا منهم ، واستنقذوا ما في أيديهم ، فردت الكرة عليهم .

وكان بختنصر في ذلك الوقت يتيماً في ذلك العسكر ، وخرج ليسأل شيئاً .

فلما رأى كبر جمع الجيوش ، وجاء بهم ، وخوفهم ، وخرب البلدة .

(96/453)

قال القتبي : إن بختنصر غزاهم ، فرغبوا إلى الله ، وتابوا ، فردَّ الله عنهم بعد أن فتحوا المدينة ، وجالوا في أسواقها ، ثم أحدثوا ، فبعث الله إليهم أرميا النبي عليه السلام فقام فيهم بوحي الله ، فضربوه ، وقيدوه ، وحبسوه ، فبعث الله تعالى إليهم عند ذلك بختنصر ، ففعل ما فعل .

وقال الكلبي : لما عصوا الله ، وهو أول الفسادين ، سلط الله عليهم بختنصر ، خرج من بابل فأتاهم بالشام ، وظهر على بيت المقدس ، فقتل منهم أربعين ألفاً ممن كان يقرأ التوراة ، وأدخل بقيتهم أرضه .

فمكثوا كذلك سبعين سنة حتى مات ثم إن رجلاً من أهل همدان يقال له : كورش غزا أهل بابل ، فظهر عليهم ، وسكن الدار ، وتزوج امرأة من بني إسرائيل ، وطلبت إلى زوجها أن

يرد قومها إلى أرضهم ، ففعل ، فردهم إلى أرض بيت المقدس ، فمكثوا فيها ، فرجعوا إلى أحسن ما كانوا عليه .

ثم عادوا فعصوا المرة الثانية ، فسلط الله عليهم ملكاً من ملوك الروم يقال له : إسبسيانوس ، فحاصرهم سنين ثم مات .

فبعث الله عليهم ابنه ططيوس بن إسبسيانوس ، فحاصرهم سنين .

ثم فتحها بعد ذلك ، فقتل منهم مائة ألف ، وثمانين ألفاً حتى قتل يحيى بن زكريا ، وحبس منهم مثل ذلك ، وخرب بيت المقدس فلم يزل خراباً حتى بناه المؤمنون في زمن عمر رضي الله عنه .

فذلك قوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أولاهما ﴾ يقول : أول الفسادين ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ ﴾ أي : سلطنا عليكم ﴿ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعني : ذوي قتال شديد ﴿ فَجَاسُواْ خلال الديار ﴾ يقول : قتلوكم وسط الأزقة .

وقال القتبي ﴿ فَجَاسُواْ ﴾ أي : عاثوا ، وأفسدوا .

ويكون جاسوا بمعنى دخلوا بالفساد ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ يعني : كائناً لئن فعلتم ، لأفعلن بكم .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة عَلَيْهِمْ ﴾ يقول : أعطيناكم الدولة .

ويقال : الرجعة عليهم .

قوله : ﴿ وأمددناكم بأموال وَبَنِينَ وجعلناكم أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ يعني : أكثر رجالاً وعدداً .

وقال القتبي : أصله من نفر ، ينفر مع الرجل من عشيرته ، وأهل بيته ، والنفير والنافر مثل القدير والقادر .

قوله : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ ﴾ يقول : إن وحدتم الله وأطعتموه ﴿ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أي : يثاب لكم الجنة ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ ﴾ أي : أشركتم بالله ﴿ فَلَهَا ﴾ ويقال : في الآية مضمر .

ومعناه : وإن أسأتم فلها رب يغفر لها ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخرة ﴾ أي : آخر الفسادين ﴿ لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ أخذ من السوء أي : بعثناهم إليكم ، ليقبحوا وجوهكم بالقتل ، والسبي .

قرأ حمزة ، وابن عامر ، وعاصم ، في رواية أبي بكر : ﴿ لِيَسُوءَ ﴾ بالياء ، وفتح الهمزة .

يعني : الوعد .

ويقال : يعني الملك سلط عليهم .

وقرأ الكسائي ﴿ لنَسُوءَ ﴾ بالنون ، ونصب الواو .

فيكون الفعل لله تعالى .

وقرأ الباقون ﴿ الآخرةِ لِيَسُوءوا ﴾ بالياء ، وضم الهمزة ، بلفظ الجماعة .

يعني : إن القوم يفعلون ذلك ﴿ وَلِيَدْخُلُواْ المسجد كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ يعني : بيت المقدس ﴿ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴾ يقول : وليخربوا ما ظهروا عليه تخريباً .

وقال الكلبي : أي ليدمروا ، وليخربوا ، ﴿ مَا عَلَوْاْ ﴾ .

أي : ما ظهروا ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ أي : إهلاكاً .

وقال الزجاج : يقال لكل شيء متكسر من الحديد ، والذهب ، والفضة ، والزجاج تبر ،

ومعنى ما علوا أي : وليدمروا في حال علوهم .

قوله : ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ بعد هذين الموتين .

فرحمهم وعادوا إلى ما كانوا عليه وبعث فيهم الأنبياء ، وكانوا رحمة لهم ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ أي : إن ﴿ عُدتُّمْ ﴾ إلى المعصية ﴿ عُدْنَا ﴾ ، إليكم بالعذاب .

ويقال : ﴿ إن عُدتُّمْ ﴾ إلى تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم كما كذبتم سائر الأنبياء ﴿ عُدْنَا ﴾ يعني : سلطناه عليكم ، فيعاقبكم بالقتل ، والجزية في الدنيا .

﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ للكافرين حَصِيرًا ﴾ أي : سجناً ومحبساً .

قال الحسن : أي سجناً .

وقال قتادة : أي وحبساً يحبسون فيها .

وقال مقاتل : أي محبساً ينحبسون فيها ، ولا يخرجون أبداً ، كقوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الذين أُحصِرُواْ ﴾ ويقال : هذا فعيل بمعنى فاعل .

وقال الزجاج : ﴿ حَصِيرًا ﴾ أي حبيساً .

أخذ من قوله : حصرت الرجل إذا حبسته ، وهو محصور ، والحسير المنسوج وإنما سمي ﴿ حَصِيرًا ﴾ لأنه حصرت طاقاته بعضها فوق بعض .

ثم قال : ﴿ إِنَّ هذا القرءان يِهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ أي : يدعو ، ويدل ، ويرشد إلى التي هي أقوم .

وهو توحيد الله تعالى ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والإيمان برسله ، والعمل بطاعته .

هذه صفة الحال التي هي أقوم ، ﴿ وَيُبَشّرُ المؤمنين ﴾ يعني : القرآن بشارة للمؤمنين ﴿ الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ في الجنة ﴿ وأَنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ أي : لا يصدقون بالبعث ﴿ أَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾ أي هيّأنا لهم ﴿ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ أي : وجيعاً .

قرأ حمزة والكسائي : ﴿ وَيُبَشّرُ ﴾ بنصب الياء ، وجزم الباء ، والتخفيف .

وقرأ الباقون : ﴿ وَيُبَشّرُ ﴾ بضم الياء والتشديد .

قوله : ﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر ﴾ وأصله في اللغة .

ويدعو بالواو إلا أنه حذف الواو في الكتابة ، لأن الضمة تقوم مقامه مثل قوله : ﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ [العلق : 18] وأصله سندعو أي : يدعو الإنسان باللعن على نفسه ، وأهله ، وولده ، وماله ، وخدمه ، ﴿ دُعَاءهُ بالخير ﴾ أي : دعاءه بالرزق ، والعافية ، والرحمة ، وما يستجاب له .

فلو استجيب له إذا دعا باللعن ، كما يستجاب له بالخير هلك .

(99/453)

ويقال : نزلت في النضر بن الحارث حيث قال : ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا مّنَ السماء ﴾ ﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ يستعجل .

يعني : إن آدم عجل بالقيام ، قبل أن يتم فيه الروح .

وكذلك النضر بن الحارث يستعجل بالدعاء على نفسه ، ويستعجل بالعذاب .

ويروي الحكم ، عن إبراهيم ، عن سلمان أنه قال : لما خلق الله تعالى آدم ، بدأ بأعلاه قبل أسفله .

فجعل آدم ينظر ، وهو يخلق ، فلما كان بعد العصر ، قال : يا رب عجّل قبل الليل .

فذلك قوله : ﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ قال ابن عباس : لما جعل فيه الروح ، فإذا جاوز

عن نصفه ، أراد أن يقوم فسقط ، فقيل له : لا تعجل ، فذلك قوله : ﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار ءايَتَيْنِ ﴾ يعني : خلقنا الشمس والقمر علامتين يدلان على أن خالقهما واحد ﴿ فَمَحَوْنَا ءايَةَ الليل ﴾ يعني : ضوء القمر ، وهو السواد الذي في جوف القمر .

وقال محمد بن كعب : كانت شمس بالليل ، وشمس بالنهار ، فمحيت شمس الليل .

وقال ابن عباس : كان في الزمان الأول لا يعرف الليل من النهار .

فبعث الله جبريل ، فمسح جناحه بالقمر ، فذهب ضوءه ، وبقي علامة جناحه وهو السواد الذي في القمر ، فذلك قوله : ﴿ فَمَحَوْنَا ءايَةَ الليل ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار ءايَتَيْنِ ﴾ أي : وتركنا علامة النهار مضيئة مبينة ﴿ لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مّن رَّبّكُمْ ﴾ أي : لكي تطلبوا رزقاً من ربّكم في النهار ﴿ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ أي : حساب الشهور والأيام ﴿ وَكُلَّ شَىْء فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ أي : بيناه في القرآن .

قوله : ﴿ وَكُلَّ إنسان أَلْزمناه طَئِرَهُ فِى عُنُقِهِ ﴾ قال ابن عباس : أي خيره وشره مكتوب عليه لا يفارقه .

وقال قتادة : سعادته ، وشقاوته .

قال الفقيه : حدثنا محمد بن الفضل .

قال : حدثنا محمد بن جعفر .

قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف.

قال: حدثنا يزيد بن ربيع عن يونس عن الحسن.

قال: في قوله: ﴿ وَكُلَّ إنسان أَلزمناه طَٰئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِ ﴾ طائره عمله، وإليه هداه أُمِّيًّا كان أو غير أمي.

وروى الحكم عن مجاهد أنه قال: ما من مولود إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد.

وقال الضحاك: ﴿ طَٰئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِ ﴾ الشقاوة، والسعادة، والأجل، والرزق.

﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ القيامة كِتَابًا يلقاه مَنْشُوراً ﴾ أي: مفتوحاً.

قرأ ابن عامر: ﴿ يلقاه ﴾ بضم الياء، وتشديد القاف.

يعني: يعطاه.

والباقون ﴿ يلقاه ﴾ أي: يراه.

وقوله: ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أي: شاهداً.

ويقال: محاسباً.

لما ترى فيه كل حسنة ، وسيئة محصاة عليك .

قال ابن عباس : فإن كان مؤمناً ، أعطي كتابه بيمينه وهي صحيفة يقرأ سيئاته في باطنها ، وحسناته في ظاهرها .

فيجد فيها : عملت كذا وكذا وصنعت كذا وكذا ، وقلت كذا وكذا ، في سنة كذا وكذا ، في شهر كذا وكذا ، وفي يوم كذا وكذا ، وفي ساعة كذا وكذا ، وفي مكان كذا وكذا .

فإذا انتهى إلى أسفلها ، قيل له : قد غفرها الله لك .

اقرأ ما في ظهرها فيقرأ حسناته ، فيسره ما يرى فيها ، ويشرق لونه ، عند ذلك يقول : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابه بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقرؤا كتابيه ﴾ [الحاقة : 19] .

قال : ويعطى الكافر بشماله ، ويقرأ حسناته في باطنها ، وسيئاته في ظاهرها .

فإذا انتهى إلى آخره ، قيل له : هذه حسناتك قد ردت عليك .

اقرأ ما في ظهرها .

فيرى فيها سيئاته ، قد حفظت عليه كل صغيرة وكبيرة فيسوءه ذلك ، ويسود وجهه ، وتزرق عيناه ، ويقول عند ذلك : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابه بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ ياليتنى لَمْ أُوتَ كتابيه ﴾ [الحاقة : 25] وهو قوله : ﴿ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أي : حفيظاً .

وقال مقاتل : وذلك حين جحد ، فختم على لسانه ، وتكلمت جوارحه .

فشهدت جوارحه على نفسه ، وذلك قوله : ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أي : شهيداً .

فلا شاهد عليك أفضل من نفسك .

قوله : ﴿ مَّنِ اهْتَدَى ﴾ يعني : من اجتهد حتى اهتدى ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ يعني : فثوابه لنفسه ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ أي : ومن تغافل حتى ضل ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي : إثمه على نفسه ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أي : لا تؤاخذ نفس بذنب نفس أخرى . ثم قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ حجة عليهم مع علمه أنهم لا يطيعون ، وينذرهم ما هم عليه من المعصية ، فإن أجابوا وإلاّ عذبوا .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾ يعني : أهل قرية ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ أي : أكثرنا جبابرتها ، يقال : أَمَرَ إذا أكثر وآمَرَ أيضاً .

هما لغتان .

وروي عن زينب بنت جحش أنها قالت : دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا

وحلق إبهامه بالتي تليها .

قالت : قلت يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : نعم إذا كثر الخبث .

ويقال : أمَرَ وآمر مثل فعل وأفعل يعني : أكثر .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " خير المال مهرة مأمورة " أي : خيل كثير النتاج قرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين ونافع في إحدى الروايتين وابن كثير في إحدى الروايتين "أَمَّرْنَا" بالتشديد بغير مد ، وفي إحدى الروايتين عن ابن كثير ونافع "آمَرْنَا" بالمد والتخفيف .

وقرأ الباقون بالتخفيف بغير مد .

فمن قرأ بالتشديد فمعناه : سلطنا جبابرتها ، ومن قرأ بالمد يعني : أكثرنا جبابرتها .

(102/453)

ومن قرأ بالتخفيف له معنيان : أحدهما : أكثرنا جبابرتها وأشرافها ، ومعنى آخر : أمرناهم بالطاعة وخذلناهم حتى تركوا الأمر وعصوا الله تعالى ﴿ فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ أي : عصوا فيها ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا القول ﴾ أي : وجب عليها السخط بالعذاب ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ أي : أهلكناها بالعذاب إهلاكاً .

قوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ القرون مِن بَعْدِ نُوحٍ وكفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

يعني : إن الله تعالى عالم بذنوبهم قادر على أخذهم ومجازاتهم ، فيه تهديد لهذه الأمة لكي يطيعوا الله تعالى ولا يعصوه فيصيبهم مثل ما أصابهم ، قوله : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ أي : من كان يريد بعمله الذي افترض الله عليه ثواب الدنيا ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ ﴾ أي : أعطينا له ﴿ فِيهَا مَا نَشَاء ﴾ من عرض الدنيا ﴿ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ أن نهلكه ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ ﴾ أي : أوجبنا له جهنم ﴿ يصلاها ﴾ أي : يدخلها ﴿ مَذْمُومًا ﴾ ملوماً في عمله ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ أي : مطروداً مقصيّاً من كل خير قوله : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ ﴾ من المؤمنين بعمله الذي افترض الله عليه ﴿ وسعى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ يعني : عمل للآخرة عملها ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ يعني : عملهم مقبولاً ويقال : معناه : من كان غرضه وقصده وعزمه الدنيا وحطامها وزهرتها عجلنا له فيها أي للمزيد في الدنيا ما نشاء لمن نريد يعني لمن نريد أن نعطيه بإرادتنا لا بإرادته ومن كان قصده وعزمه الآخرة فنعطي له ما نريد من الآخرة .

قوله : ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء ﴾ يعني : كلا الفريقين من المؤمنين والكافرين نعطي هؤلاء من أهل المعصية ﴿ وَهَؤُلاء ﴾ من أهل الطاعة ﴿ مِنْ عَطَاء رَبِّكَ ﴾ أي : من رزق ربك .

وقال الحسن : كلاًّ نمد .

نعطي من الدنيا البر والفاجر ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ يعني : محبوساً عن البر والفاجر في الدنيا .

﴿ انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ﴾ في الدنيا بالمال ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ درجات ﴾ يقول : ولفضائل الآخرة أرفع درجات مما فضلوا في الدنيا ﴿ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ أي : وأرفع في الثواب .

وقال الضحاك : "وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ" في الجنة ، الأعلى يرى فضله على من هو أسفل منه والأسفل لا يرى أن فوقه أحداً .

وقال مقاتل : فضل المؤمنين في الآخرة على الكفار أكبر من فضل الكفار على المؤمنين في المال في الدنيا ، وقال بعض الحكماء : إذا أردت هذه الدرجات وهذا التفضيل فاستعمل هذه الخصال التي ذَكَرَ في هذه الآيات إلى قوله ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ .

وروي عن ابن عباس أنه قال : هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح موسى عليه السلام حيث كتب الله له فيها ، أنزلها الله تعالى على نبيه محمد عليه السلام وهي كلها في التوحيد وهي في الكتب كلها موجودة لم تنسخ قط وهو قوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجْعَل مَعَ الله إلها ءاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا ﴾ يعني : تبقى شقياً مذموماً يذمك الله ويذمك الناس بفعلك ﴿ مَّخْذُولاً ﴾ يعني : يخذلك الذي تعبده .

ويقال: فتبقى في النار يذمك الله ويذمك الناس وتذم نفسك مخذولاً أي: يخذلك معبودك ولا ينصرك. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 299. 306 ﴾

(104/453)

وقال الثعلبى:

﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾.

"عن طلحة بن عبيد الله قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير سبحان الله. قال: تنزيه الله عن كل سوء" ويكون سبحان بمعنى التعجب.

قال الأعشى:

أقول لما جاءني فخر... سبحان من علقمة الفاخر

وفي بعض الحديث تفسير سبحان الله: براءة الله من السوء.

فالآية متضمنة للمعنين جميعاً.

﴿ مِّنَ المسجد الحرام ﴾. اختلفوا فيه: قال بعضهم: كان اسراء رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد مكة.

يدل عليه ما روى قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

" بينما أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبرئيل بالبراق . . " وذكر حديث المعراج.

وقال الآخرون : عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم من دار أم هاني بنت أبي طالب أخت علي (رضي الله عنه) وزوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي .

وقالوا : معنى قوله ﴿ مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ من الحرم، لأن الحرم كله مسجد .

يدل عليه ما روى الكلبي عن أبي صالح عن باذان " عن أم هاني بنت أبي طالب أنها كانت تقول : ما أسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ وهو في بيتي نائم عندي تلك الليلة فصلى في بيتي العشاء الآخرة فصليت معه ، ثمّ قمت فنمت وتركته في مصلاه فلم انتبه حتّى أنبهني لصلاة الغداة ، قال : " قومي يا أم هاني أُحدثك العجب " .

(105/453)

فقلت : كل حديثك العجب بأبي أنت وأمي فقام وصلى الغداة فصليت معه فلما إنصرف قال : " يا أم هاني لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بعد نومك ثمّ أتاني جبرئيل وأنا في مُصلاي هذا فقال : يا محمّد أخرج فخرجت إلى الباب فإذا بملك راكب على دابة فقال لي : اركب فركبت فسارت بي إلى بيت المقدس ، فإذا أتيت على واد طالت يدا

الدابة وقصرت رجلاها ، فإذا أتيت على عقبة طالت رجلاها وقصرت يداها حتّى إذا أنتهيت إلى بيت المقدس فصليت فيه ثمّ صليت صلاة الغداة معكم الآن كما تروني " " .

قال مقاتل : كانت ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة .

﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ يعني بيت المقدس ، سمّي أقصى لأنه أبعد المساجد التي تزار

﴿ الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ بالماء والأنهار والأشجار والثمار .

وقال مجاهد : سمّاه مباركاً لأنه مَقَرّ الأنبياء ، وفيه مهبط الملائكة والوحي ، وهو الصخرة ، ومنه يحشر الناس يوم القيامة .

﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ عجائب أمرنا ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع البصير ﴾ .

وأما حديث المسرى ، فأقتصرت به على الأخبار المأثورة المشهورة دون المناكير والأحاديث الواهية الأسانيد وجمعتها على نسق واحد مختصر ، ليكون أعلى في الاستماع وأدنى إلى الانتفاع ، وهو ما ورى الزهري عن ابن سلمة بن عبد الرحمن قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى السدي عن محمّد بن السائب عن باذان عن ابن عبّاس عن النبي صلى الله عليه وسلم دخل كلام بعضهم في بعض قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" لما كانت ليلة أسري بي وأنا بمكة بين النائم واليقظان ، جاءني جبرئيل (عليه السلام) فقال يا محمّد قم فقمت فإذا جبرئيل ومعه ميكائيل فقال جبرئيل لميكائيل : أئتني بطشت من ماء زمزم لكيما [وعطر قلبه] وأشرح له صدره قال : فشق بطني فغسله ثلاث مرات واختلف إليه ميكائيل بثلاث طشات من ماء زمزم ، فشرح صدري ونزع ما كان فيه من غل وملاه حلماً وعلماً وإيماناً وختم بين كتفيّ بخاتم النبوة ، ثمّ أخذ جبرئيل بيدي حتّى انتهى بي إلى سقاية زمزم فقال لملك : ائتني بنور من ماء زمزم ومن ماء الكوثر ، فقال : توضأ فتوضأت ثمّ قال لي : انطلق يا محمّد . قلت : إلى اين ؟ قال : إلى ربك ورب كل شيء ، فأخذ بيدي وأخرجني من المسجد فإذا أنا بالبراق دابة فوق الحمار ودون البغل خدّه كخد الانسان وذنبه كذنب البعير وعرفه كعرف الفرس وقوائمه كقوائم الابل وأظلافه كأظلاف البقر وصدره كأنه ياقوتة حمراء وظهره كأنه درة بيضاء عليه رحل من رحائل الجنة ، وله جناحان في فخذيه يمّر مثل البرق خطوة منتهى طرفه فقال لي : إركب ، وهي دابة إبراهيم التي كان يزور عليها البيت الحرام .

قال : فلما وضعت يديَّ عليه شمس واستعصى عليَّ ، فقال جبرئيل : مه يا براق ، فقال البراق : يا جبرئيل [مس ظهري] فقال جبرئيل : هل مسستَ [ظهراً] قال : لا والله إلاّ إني مررت يوماً على [نصاب إبل] فمسحت يدي على رؤسهما وقلت : إن قوماً يعبدونكما من دون الله ضلال . فقال جبرئيل : يا براق أما تستحي فوالله ما ركبك مذ كنت قط نبي أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وسلم قال : فأرتعش البراق وأنصب عرقاً حياءً مني ، ثمّ خفض لي حتى لزق بالأرض ، فركبته واستويت عليه قام بي جبرئيل نحو المسجد الأقصى يخطوا البراق مدَّ البصر يرسل إلى جنبي لا يفوتني ولا أفوته حيناً أنا في مسيري إذا جاءني نداء عن يميني قال : يا محمّد على رسلك أسلك بقولها ثلاثاً فلم أرفق عليه ثمّ مضيت حتّى جاوزته ، فإذا أنا بامرأة عجوز رفعت لي عليها من كل زينة وبهجة تقول : يا محمّد إليَّ ، فلم ألتفت إليها وقلت : يا جبرئيل من هذا الذي ناداني عن يميني ؟ فقال : داعية اليهود والذي نفسي بيده لو أجبته لتهودت أُمتك من بعدك والذي ناداك من يسارك داعية النصارى ، والذي نفسي بيده لو أجبت لتنصّرت أُمتك من بعدك ، فأما التي رفعت لك بهجتها وزينتها فهي الدنيا لو التويت إليها لاختارت أُمتك الدنيا على الآخرة . ثمّ أتيت بإنائين أحدهما اللبن والآخر خمرة فقيل لي : اشرب ايهما شئت ، فأخذت اللبن فشربته . فقال لي جبرئيل : أصبت الفطرة أنت وأمتك ، أما إنك لو أخذت الخمر لخمرت أمتك من بعدك قال : ثمّ سار رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار معه جبرئيل فأتى

على قوم يزرعون ويحصدون في يوم واحد ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم من هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء المهاجرون في سبيل الله يضاعف لهم الحسنة سبعمائة ضعف ، وما انفقوا من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين .

(108/453)

قال : ثمّ أتى على قوم يرضخ رؤسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيئاً . قال : ما هؤلاء يا جبرئيل ؟ قال : هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة . ثمّ أتى على قوم إقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع فيسرحون كما تسرح الأنعام إلى الضريع ، والزقوم قد صف جهنم وحجارتها فقال : ما هؤلاء يا جبرئيل ؟ فقال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] ثمّ أتى على قوم بين ايديهم لحم في قدر نضيج طيب ولحم آخر خبيث ، فجعلوا يأكلون الخبيث ويدعون النضيج الطيب ، قال : ما هؤلاء يا جبرئيل ؟ فقال : هذا الرجل من يكون عنده المرأة حلالاً طيباً فأتى امرأه خبيثة فيبيت معها حتّى يصبح ، فالمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي الرجل الخبيث فتبيت معه حتّى تصبح ، ثمّ أتى على [إمرأة] في الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء آخر إلا فتّته . فقال : ما هذا

ياجبرئيل ؟ قال : هذا مثل أمتك يقعدون على الطريق فيقطعون بمثلاً ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ [الأعراف : 86] الآية ثمّ أتى على رجل جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها فقال : ما هذا ياجبرئيل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك عليه أمانات الناس لايقدر على أدائها وهو يزيد عليها ، ثمّ أتى على قوم يقرض السنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت . قال : ما هؤلاء ياجبرئيل ؟ قال هؤلاء خطباء الفتنة ، ثمّ أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع .

(109/453)

قال : ما هذا ؟ قال : هذا الرجل من أمتك يتكلم الكلمة العظيمة ثمّ يندم عليها ولا يستطيع أن يردها . قال : ثمّ أتى واد فوجد ريحاً طيبة باردة وصوتاً . قال : ما هذه الريح الطيبة وما هذا الصوت ؟ قال : هذا صوت الجنة ، فقال : ربّ أرني بما وعدتني فقد كثر غُرَفي واستبرقي وحريري وسندسي وعبقري ولؤلؤي ومرجاني وفضتي وذهبي وأكوابي وصحافي وأباريقي وفواكهي وعسلي ولبني وخمري ومائي ، فأتني بما وعدتني . فقال : لك كل مؤمن ومؤمنة من آمن بي وبرسلي وعمل صالحاً ولم يشرك بي ولم يتخذ من دوني أنداداً ،

ومن خشيني فهو آمن ومن سألني أعطيته ومن أقرضني جزيته ومن توكل عليّ كفيته ، إني أنا الله لا إله إلاّ أنا لا أخلف الميعاد قد أفلح المؤمنين تبارك الله أحسن الخالقين قال : قد رضيت . قال ثمّ أتى على واد فسمع صوتاً منكراً ووجد ريحاً منتنة فقال : ماهذا يا جبرئيل ؟ قال : هذا صوت جهنم تقول : [يا ربّ آتني] ما وعدتني فقد كثرت سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وضريعي وغساقي وعذابي ، وقد بعد قعري واشتد حرّي إئتني بما وعدتني ، قال : لك كل مشرك ومشركة وكافر وكافرة وكل خبيث وخبيثة وكل جبار لايؤمن بيوم الحساب .

(110/453)

قالت : قد رضيت يارب ، ثمّ سار ومعه جبرئيل فقال له جبرئيل : إنزل فصل . قال : فنزلت وصليت ، فقال : أتدري أين صليت ؟ صليت بطيبة وإليها المهاجرة إلى الله . ثمّ قال : إنزل فصلّ قال فنزلت فصليت فقال : أتدري أين صليت صليت بطور سيناء حيث كلّم الله موسى ثمّ قال : إنزل فصل ، قال : فنزلت فصليت . فقال : أتدري أين صليت ؟ صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى (عليه السلام) قال : ثمّ مضينا حتّى أتينا بيت المقدس فلما انتهيت إليه إذا أنا بملائكة قد نزلوا من السماء يتلقوني بالبشارة والكرامة من

عند رب العزة يقولون : السلام عليك يا أول ويا آخر ويا حاشر ، قال : قلت يا جبرئيل ما تحيتهم إياي ؟ قال : إنك أول من تنشر عنه الأرض وعن أمتك ، وأول شافع وأول مشفع وإنك آخر الأنبياء وإن الحشر لك وبأمتك يعني حشر يوم القيامة" .

قال صلى الله عليه وسلم " ثمّ جاوزناهم حتّى انتهينا إلى باب المسجد ، فأنزلني جبرئيل وربط البراق بالحلقة الي كانت تربط بها الأنبياء (عليه السلام) بخطام عليه من حرير الجنة ، فلما دخلت الباب إذا أنا بالأنبياء والمرسلين " .

وفي حديث أبي العالية : " " أرواح الأنبياء والمرسلين الذين بعثهم الله قبلي من لدن إدريس ونوح إلى عيسى قد جمعهم الله عزّ وجلّ ، فسلموا عليَّ وحيوني بمثل تحية الملائكة قلت : يا جبرئيل من هؤلاء ؟ قال : أخوتك الأنبياء ، زعمت قريش أن لله شريكاً ، واليهود والنصارى أن لله ولداً ، سل هؤلاء المرسلين هل لله شريك ؟

وذلك قوله تعالى ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : 45] فأقرّوا بالربوبية لله تعالى ثمّ جمعهم والملائكة صفوفاً فقدمني وأمرني أن أُصلي بهم فصليت بهم ركعتين . ثمّ إن الأنبياء أثنوا على ربهم فقال

إبراهيم (عليه السلام) الحمد لله الذي إتخذني خليلاً وأعطاني مُلكاً عظيماً وجعلني أُمة قانتاً يؤتم بي وأنقذني من النار وجعلها عليّ برداً وسلاماً . ثمّ إن موسى (عليه السلام) أثنى على ربّه فقال : الحمد لله رب العالمين الذي كلمني تكليماً وجعل هلاك فرعون منه ونجاة بني إسرائيل على يديّ ، وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون . ثمّ إن داود (عليه السلام) أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذي جعل لي ملكاً عظيماً وعلمني الزبور وألاَنَ لي الحديد وسخر لي الجبال يسبحن والطير وأعطاني الحكمة وفصل الخطاب . ثمّ إن سليمان (عليه السلام) أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذي سخر لي الرياح وسخر لي جنود الشياطين يعملون لي ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان كالجواني وقدور راسيات ، وعلمني منطق الطير وآتاني من كل شيء فضلاً وآتاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدي وجعل ملكي ملكاً طيباً ليس عليّ فيه حساب .

ثمّ إن عيسى (عليه السلام) أثنى على ربه فقال : الحمد لله ربّ العالمين الذي جعلني كلمة منه وجعلني أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وجعلني أبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ورفعني وطهرني وأعاذني وأُمّي من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان علينا سبيل .

ثمّ إن محمداً صلى الله عليه وسلم قال : كلكم قد أثنى على ربه وأنا مثن على ربي فقال : الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً وأنزل عليّ القرآن (فيه بيان كل شيء) وجعل أُمتي ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 110] وجعل أُمتي ﴿ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ [البقرة : 143] وجعل أُمتي هم الأولون والآخرون وشرح لي صدري ووضع عني وزري ورفع لي ذكري وجعلني فاتحاً وخاتماً .

فقال إبراهيم (عليه السلام) : بهذا أفضلكم محمّد ، ثمّ أتى بآنية ثلاثة مغطاة أفواهها : إناء فيه ماء فقيل له : إشرب فشرب منه يسيراً ، ثمّ دفع إليه إناء آخر فيه لبن فقيل له : إشرب فشرب منه حتّى روى ، ثمّ دفع إليه إناء آخر فيه خمر فقيل له : إشرب ، فقال : لا أريده قد رويت . فقال له جبرئيل : قد أصبت أما إنها ستحرم على أُمتك ، ولو شربت منها لم يتبعك من أُمتك إلاّ قليل ، ولو رويت من الماء لغرقت وغرقت أمتك ثمّ أخذ جبرئيل (عليه السلام) بيدي فانطلق بي إلى الصخرة فصعد بي إليها فإذا معراج إلى السماء لم أرَ مثله حسناً وجمالاً لم ينظر الناظرون إلى شيء قط أحسن منه . ومنه تعرج الملائكة اصله على صخرة بيت المقدس ورأسه ملتصق بالسماء إحدى عارضيه ياقوتة حمراء والأخرى زبرجدة خضراء درجة من فضة ودرجة من ذهب ودرجة من زمرد مكلل بالدر والياقوت وهو المعراج الذي ينطلق منه ملك الموت لقبض الأرواح [لمغاراتهم فيمنكم

شخص أسرعت] عنه المعرفة إذا عاينه لحسنهُ ، فاحتملني جبرئيل حتّى وضعني على جناحه ثمّ ارتفع بي إلى سماء الدنيا من ذلك المعراج ، فقرع الباب فقيل : مَن ؟ قال : أنا جبرئيل . قال : ومن معك ؟ قال : محمّد .

(113/453)

قال : أوَقد بعث محمّد ؟ قال : نعم . قال : مرحباً به حيّاهُ الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ففتح الباب ودخلنا . قال : فبينما أنا أسير في السماء الدنيا إذ رايت ديكاً له زغب أخضر ورأس أبيض بياض ريشه كأشد بياض ما رأيته قط ، وزغب أخضر تحت ريشه كأشد خضرة ما رأيتها قط وإذا رجلاه في تخوم الأرض السابعة السفلى ورأسه عند العرش مثنيّ عنقه تحت العرش له جناحان من منكبيه إذا نشرهما جاوز المشرق والمغرب فإذا كان في بعض [الميل] نشر جناحيه وخفق بهما ، وصرخ بالتسبيح لله عزّ وجلّ يقول سبحان الملك القدوس الكبير المتعال لا إله إلاّ هو الحي القيوم ، فإذا فعل ذلك سبّحت ديكة الأرض كلها وخفقت بأجنحتها وأخذت في الصراخ فإذا سكن ذلك الديك في السماء سكنت ديكة الأرض كلها ، ثمّ إذا هاج بنحو ما فعلوا في السماء صاحت ديكة الأرض جواباً له بالتسبيح لله عزّ وجلّ بنحو قوله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لم أزل منذ رأيت ذلك الديك مشتاقاً إليه أن أراه ثانية " .

قال : ثمّ مررت بملك نصف جسده مما يلي رأسه نار والنصف الآخر ثلج وما بينهم رتق ، فلا النار يذيب الثلج ولا الثلج يطفيء النار ، وهو قائم ينادي بصوت له حسن رفيع : اللهم مؤلف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين .

فقلت : يا جبرئيل من هذا ؟ قال : ملك من الملائكة يقال له حبيب وكّله الله بأكناف السماوات وأطراف الأرضين ، ما أنصحه لأهل الأرض هذا قوله منذ خلقه الله تعالى .

قال : ثمّ مررت بملك آخر جالس على كرسي قد جمع الدنيا بين ركبتيه ، وفي يديه لوح مكتوب من نور ينظر فيه لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ينظر فيه كهيئة الحزين . فقلت : من هذا ياجبرئيل ؟ مامررت أنا بملك أنا أشد خوفاً منه شيء من هذا ؟ قال : وما يمنعك كلّنا بمنزلتك ، هذا ملك الموت دائب في قبض الأرواح وهو أشد الملائكة عملاً وأدأبهم . قلت : يا جبرئيل كل من مات نظر إلى هذا ؟ قال : نعم . قلت : كفى بالموت من طامة . فقال : يا محمّد ما بعد الموت أطمّ وأعظم ، قلت : يا جبرئيل أُدنني من ملك الموت أسلم عليه وأساله

فأدناني منه فسلمت عليه فأومى إليَّ فقال له جبرئيل : هذا محمّد نبي الرحمة ورسول العرب فرحب بي وحياني وأحسن بشارتي وإكرامي . وقال : أبشر يا محمّد فإني ارى الخير كله في أمتك . فقلت : الحمد لله المنان بالنعم ، ما هذا اللوح الذي بين يديك ؟ قال : مكتوب فيه آجال الخلائق .

قلت : فأين أسماء من قبضت أرواحهم في الدهور الخالية ؟ قال : تلك في لوح آخر قد علمت خلقها ، ولذلك أصنع بكل ذي روح إذا قبضت روحه خَلّفت عليها ، فقلت : يا ملك الموت سبحان الله كيف تقدر على قبض أرواح جميع أهل الأرض وأنت في مكانك هذا لا تبرح ؟ قال : ألا ترى أن الدنيا كلها بين ركبتي وجميع الخلائق بين عيني ويداي يبلغان المشرق والمغرب وخلقهما فإذا نفد أجل عبد من عباد الله نظرت إليه وإلى أعواني فإذا نظر أعواني من الملائكة اليَّ فنظرت إليه عرفوا أنه مقبوض فعمدوا إليه يعالجون نزع روحه فإذا بلغ الروح الحلقوم علمت ذلك ولا يخفى عليّ شيء من أمري ، أمددت يدي إليه فقبضته فلا يلي قبضه غيري ، فذلك أمري وأمر ذوي الأرواح من عباد الله .

قال : إنما أبكاني حديثه وأنا عنده ثمّ جاوزنا فمررنا بملك آخر ما رأيت من الملائكة خلقاً مثله عابس الوجه كريه المنظر شديد البطش ظاهر الغضب ، فلما نظر رغبت منه شيئاً وسألته فقلت : يا جبرئيل من هذا ؟ فإني رعبت منه رعباً شديداً قال : فلا تعجب أن ترعب منه كلنا بمنزلتك في الرعب منه ، هذا مالك خازن النار لم يتبسم قط ولم يزل منذ ولاّه الله عزّ وجلّ جهنم يزداد كل يوم غضباً وغيظاً على أعداء الله عزّ وجلّ وأهل معصيته لينتقم منهم ، قلت : ادنني منه . فأدناني منه فسلم عليه جبرئيل فلم يرفع رأسه فقال جبرئيل : يا مالك هذا محمّد رسول العرب فنظر اليَّ وحياني وبشرني بالخير . فقلت : مُذّ كم أنت واقف على جهنم ؟ فقال : مذ خلقت حتّى الآن وكذلك إلى أن تقوم الساعة فقلت : يا جبرئيل مره ليريني طرفاً من النار فأمره ففعل فخرج منه لهب ساطع أسود معه دخان مكدر مظلم إمتلأ منه الآفاق فرايت هولا عظيماً وأمراً فظيعاً أعجز عن صفته لكم فغشيّ عليَّ وكاد يذهب نفسي ، فضمّني جبرئيل وأمر أن يرد النار فردّها .

(116/453)

قال صلى الله عليه وسلم " فجاوزناها فمررنا بملائكة كثيرة لا يحصى عدتهم إلاّ الله عزّ وجلّ منهم وجوه بين كتفيه ووجوه في صدره في كل وجه أفواه والسن ، فهو يحمد الله

ويسبحه بتلك الألسن ورأيت من أجسامهم وخلقهم وعبادتهم أمراً عظيماً ، ثمّ جاوزناها فإذا برجل تام الخلق لم ينقص من خلقه شيء كما ينقص من خليقة الناس عن يمينه باب تخرج منه ريح طيبة وعن شماله باب تخرج منه ريح خبيثة إذا نظر إلى الباب الذي عن يمينه ضحك فإذا نظر إلى الباب الذي عن شماله بكى بحزن ، فقلت : يا جبرئيل من هذا وما هذان البابان ؟ قال : هذا أبوك آدم (عليه السلام) هذا الباب عن يمينه باب الجنة إذا نظر إلى من يدخل من ذريته الجنة ضحك واستبشر ، والباب الذي عن شماله باب جهنم إذا نظر إلى من يدخل من ذريته جهنم بكى وحزن قال : ثمّ صعدنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبرئيل (عليه السلام) فقيل : من هذا ؟ قال : جبرئيل . قيل ومَن معك ؟ قال : محمّد ، قيل : وقد أرسله الله .

قال : نعم . قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنِعم الأخ ونِعم الخليفة ونعم المجيء ، فدخلنا فاذا بشابين فقلت : يا جبرئيل من هذان الشابان ؟ فقال : هذا عيسى ويحيى أبناء الخالة . قال : ثمّ صعدت إلى السماء الثالثة فاستفتح فقالوا : من هذا ؟ قال : جبرئيل . قيل ومَن معك ؟ قال : محمّد . قالوا : وقد أُرسل محمّد ؟ قال : نعم . قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنِعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، فدخلنا فإذا برجل قد فُضّل على الناس بالحسن كأفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب قلت : من هذا يا جبرئيل ؟ قال : هذا أخوك يوسف (عليه السلام) " .

قال صلى الله عليه وسلم " ثمّ صعد بي إلى السماء الرابعة فاستفتح قالوا : من هذا ؟ قال : جبرئيل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : محمّد . قالوا : وقد أُرسل محمّد ؟ قال : نعم . قالوا : حيّاه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، فدخلنا فإذا برجل من حاله [كذا] فقلت : من هذا يا جبرئيل ؟ قال : " هذا إدريس رفعه الله مكاناً علياً وهو مسند ظهره إلى دواوين الخلائق التي فيها أمورهم .

قال : ثمّ صعد بي إلى السماء الخامسة فإستفتح قالوا : من هذا ؟ قال : جبرئيل . قالوا : من معك ؟ قال : محمّد قالوا : وقد أُرسل محمّد ؟ قال : نعم . قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء .

قال : ثمّ دخلنا فإذا برجل جالس وحوله قوم يقصُّ عليهم فقلت : يا جبرئيل من هذا ؟ ومن هؤلاء الذين حوله ؟ قال : هذا هارون [المحبب] وهؤلاء الذين حوله بنو إسرائيل " .

قال " ثمّ صعدنا إلى السماء السادسة فإستفتح فقالوا : من هذا ؟ قال : جبرئيل . قالوا : ومن معك ؟ قال : محمّد ؟ قالوا : وقد أُرسل محمّد ؟ قال : نعم قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، ثمّ دخلنا فإذا برجل جالس فجاوزناه

فبكى الرجل فقلت : يا جبرئيل من هذا ؟ قال : هذا موسى . قلت : فماله يبكي ؟ قال : يزعم بنو إسرائيل أني أكرم بني آدم على الله عزّ وجلّ ، وهذا رجل من بني آدم وقد خلفني في دنياه وأنا في أخرتي فلو أنه بنفسه لم أبال ولكن مع كل نبي أمته " .

(118/453)

قال : " ثمّ صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح فقيل من هذا ؟ قال : جبرئيل . قيل ومن معك ؟ قال : محمّد . قالوا : وقد أرسل محمّد ؟ قال : نعم . قالوا : حيّاه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، ثمّ دخلنا فإذا برجل [أشمط] جالس على كرسي عند باب الجنة وعنده قوم جلوس [بيض] الوجوه أمثال القراطيس ، وقوم في ألوانهم شيء [. . .] فقام الذين في ألوانهم شيء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا منه وقد خلص من ألوانهم شيء ، ثمّ دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم وصارت مثل ألوان أصحابهم فجاءوا فجلسوا إلى جنب أصحابهم فقلت : يا جبرئيل من هذا الأشمط ومن هؤلاء وما هذه الأنهار ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم (عليه السلام) أوّل من شمط على الأرض ، وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، فأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيء فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فتابوا فتاب الله

عليهم ، وأما الأنهار الثلاثة فأولها رحمة الله والثاني نعمة الله والثالث سقاهم ربهم شراباً طهوراً قال : فإذا إبراهيم مستند إلى بيت فسالت جبرئيل ، فقال : هذا البيت المعمور يدخل فيه كل يوم سبعون الف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخر ما عليهم . قال : فاتي بي جبرئيل حتّى إنتهينا إلى سدرة المنتهى فإذا أنا بشجرة لها أوراق الواحدة منها مغطية الدنيا بما فيها وإذا شقها مثل هلال هجر تخرج من أصلها أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فسألت عنها جبرئيل فقال : أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهرين فالنيل والفرات ويخرج أيضاً من أصلها ﴿ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد : 15] وهي على حد السماء السابعة مما الجنة وعروقها وأغصانها تحت الكرسي .

(119/453)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنتهيت إلى سدرة المنتهى وأنا أعرف أنها سدرة المنتهى وأعرف ورقها وثمرها فغشيها من نور الله ما غشيها وغشيتها الملائكة كأنهم جراد من ذهب من خشية الله تعالى فلما غشيها ما غشيها تحولت حتّى ما يستطيع أحد منعها ، قال : وفيها ملائكة لا يعلم عدّتهم إلاّ الله عزّ وجلّ ، ومقام جبرئيل في وسطها فلما إنتهيت

إليها قال لي جبرئيل : تقدم . فقلت : أقدم من ؟ تقدم أنت يا محمّد فإنك أكرم على الله مني ، فتقدمت وجبرئيل على أثري حتّى انتهى بي إلى حجاب فراس الذهب فحرك الحجاب . فقال : من ذا ؟ قال : أنا جبرئيل ومعي محمّد . قال الملك : الله أكبر فأخرج يده من تحت الحجاب فاحتملني وخلف جبرئيل فقلت له : إلى أين ؟ قال : يا محمّد وما منا إلاّ له مقام معلوم إن هذا منتهى الخلائق ، وإنما أذن لي في الدنو إلى الحجاب لاحترامك وجلالك " .

قال : " فإنطلق بي الملك أسرع من طرفة عين إلى حجاب اللؤلؤ فحرك الحجاب . قال الملك : من وراء الحجاب : من هذا ؟قال : أنا صاحب فراس الذهب وهذا محمّد رسول العرب معي .

فقال الملك : الله اكبر وأخرج يده من تحت الحجاب فأحتملني حتّى وضعني بين يديه فلم أزل كذلك من حجاب إلى حجاب حتّى جاوزوا بي سبعين حجاباً غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام وما بين الحجاب إلى الحجاب مسيرة خمسمائة عام ، ثمّ دلّى لي رفرف أخضر يغلب ضوءه ضوء الشمس فألتمع بصري ووضعت على ذلك الرفرف ثمّ إحتملني حتّى وصلني إلى العرش فلما رأيت العرش إتضح كل شيء عند العرش فقربني الله إلى سند

العرش وتدلى لي قطرة من العرش فوقف على لساني فما ذاق الذائقون شيئاً قط أحلى منها فأنباني الله عزّ وجلّ بها نبأ الأولين والآخرين وأطلق الله لساني بعد ما كلّ من هيبة الرحمن ، فقلت : التحيات لله والصلوات الطيبات . فقال الله تعالى : سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فقلت : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فقال : يا محمّد هل تعلم فيم اختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت : أنت أعلم يا رب بذلك وبكل شيء وأنت علام الغيوب .

قال : اختلفوا في الدرجات والحسنات ، فهل تدري يا محمّد ما الدرجات وما الحسنات ؟

قلت : أنت أعلم يا رب . قال : الدرجات إسباغ الوضوء في المكروهات والمشي على الأقدام إلى الجماعات وإنتظار الصلوات بعد الصلاة والحسنات إفشاء السلم وإطعام الطعام والتهجد بالليل والناس نيام ثمّ قال : يا محمّد آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ؟ قلت : نعم أي رب . قال : ومن ؟

قلت : والمؤمنين ﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وملائكته وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة : 285] كما فرقت اليهود والنصارى . فقال : ماذا قالوا ؟

قلت : قالوا : سمعنا قولك وأطعنا أمرك . قال : صدقت فسل تعط . قال : فقلت : ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المصير ﴾ [البقرة : 285] قال : قد غفرت لك ولأمتك سل تعطه ؟

فقلت : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : 286] قال : قد رفعت الخطأ والنسيان عنك وعن أمتك وما استكرهوا عليه ، قلت : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ [البقرة : 286] قال : قد فعلت ذلك بك وبأمتك . قلت ربنا ﴿ واعف عَنَّا ﴾ [البقرة : 286] من الخسف ﴿ واغفر لَنَا ﴾ [البقرة : 286] من القذف ﴿ وارحمنآ ﴾ [البقرة : 286] من المسخ ﴿ أَنتَ مَوْلَانَا فانصرنا عَلَى القوم الكافرين ﴾ [البقرة : 286] قال : قد فعلت ذلك لك ولأُمتك ، ثمّ قيل : لي سل .

فقلت : يا رب إنك إتخذت إبراهيم خليلاً ، وكلمت موسى تكليماً ، ورفعت إدريس مكاناً علياً ، وآتيت سليمان ملكاً عظيماً ، وآتيت داود زبوراً ، فمالي يا رب ؟

قال ربي : يا محمّد اتخذتك خليلي كما اتخذت إبراهيم خليلاً وكلمتك كما كلمت موسى تكليماً وأعطيتك فاتحة الكتاب وخواتيم البقرة وكانا من كنوز العرش ولم أعطها نبياً قبلك ، وأرسلتك إلى أهل الأرض جميعاً أبيضهم وأسودهم وإنسهم وجنّهم ولم أرسل إلى جماعتهم نبياً قبلك وجعلت الارض كلها برّها وبحرها طهوراً ومسجداً لك ولأمتك وأطعمتك وأمتك الفيء ولم أطعمه أمة قبلهم ونصرتك بالرعب على عدوك مسيرة شهر ، وأنزلت عليك سيد الكتب كلها ومهيمناً عليها قرآناً فرقناه ورفعت لك ذكرك فتذكر كلما ذكرت في شرائع ديني ، وأعطيتك مكان التوراة المثاني ومكان الانجيل المبين ومكان الزبور

الحواميم ، وفضلتك بالمفصّل وشرحت لك صدرك ووضعت عنك وزرك وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس وجعلهم أمة وسطاً وجعلتهم الأولين وهم الآخرون فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين " .

(122/453)

قال صلى الله عليه وسلم " ثمّ فوّض لي بعهد بعدها أمور لم يؤذن لي أن أخبركم بها ثمّ فرضت عليَّ وعلى أُمتي في كل يوم وليلة خمسون صلاة فلما شهد اليَّ بعهده وتركني عنده ما شاء قال لي : إرجع إلى قومك فبلغهم عني فَحملني الرفرف الأخضر الذي كنت عليه يخفضني ويرفعني حتّى أهوى بي إلى سدرة المنتهى فإذا أنا بجبرئيل (عليه السلام) أبصره خلفي بقلبي كما أبصر بعيني أمامي ، فقال لي جبرئيل : ابشر يا محمّد فإنك خير خلق الله وصفوته من النبيين حياك الله بما لم يحيي به أحداً من خلقه لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً ولقد وضعك مكاناً لم يصل إليه أحد من أهل السماوات والأرض فهنّاك الله كرامته وما حباك من المنزلة الأثيرة والكرامة الفائقة ، فخذ ذلك وإشكر فإن الله منعم يحب الشاكرين .

فحمدت الله على ذلك ثمّ قال لي جبرئيل : إنطلق يا محمّد إلى الجنة حتّى أُريك مالكَ فيها

فتزداد بذلك في الدنيا زهادة إلى زهادتك وفي الآخرة رغبة إلى رغبتك فسرنا نهوي منقضين أسرع من السهم والريح حتّى وصلنا بإذن الله إلى الجنة فهدأت نفسي [وثاب] إليّ فؤادي وأنشأت أسأل جبرئيل عما كنت رأيت [في الجنة] من البحور والنار والنور وغيرها ، فقال : سبحان الله تلك سرادقات عرش رب العزة التي أحاطت بعرشه فهي سترة الخلائق من نور الحجب ونور العرش لولا ذلك لأحرق نور العرش ونور الحجب من تحت العرش من خلق الله وما لم تره أكثر وأعجب ، قلت : سبحان الله ما أكثر عجائب خلقه .

قلت : يا جبرئيل ومن الملائكة الذين رأيتهم في تلك البحور الصفوف بعد الصفوف كأنهم بنيان مرصوص ؟

قال : يا رسول الله هم الروحانيون الذين يقول الله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ ﴾ [النبأ : 38] ومنهم الروح الأعظم ، ثمّ بعد ذلك قلت : يا جبرئيل فمن الصف الواحد الذين في البحر الأعلى فوق الصفوف كلها قد أحاطوا بالعرش ؟ قال : هم الكروبيون أشراف الملائكة وعظمائهم ولا يجتري أحد من الملائكة أن ينظر إلى ملك من الكروبيين وهم أعظم

شأنا من أن أصف صفتهم لك وكفى ما رأيت منهم ، ثمّ طاف بي جبرئيل في الجنة بإذن الله فما نزل منها مكاناً إلاّ رأيته وأخبرني عنه فرأيت القصور من الدر والياقوت والاستبرق والزبرجد ورأيت الأشجار من الذهب الأحمر قضبانهم اللؤلؤ وعروقهن الفضة راسخة في المسك فلأنا أعرف بكل قصر وبيت وغرفة وخيمة ونهر وثمر في الجنة مني بما في مسجدي هذا .

قال : ورأيت نهراً يخرج من أصله ماء أشد بياضاً من اللبن واحلى من العسل على رضراض دُرّ وياقوت ومسك أذفر . فقال جبرئيل : هذا الكوثر الذي أعطاك الله عزّ وجلّ وهو التسنيم يخرج من دورهم وقصورهم وبيوتهم وغرفهم يمزجون بها أشربتهم من اللبن والعسل والخمر فذلك قوله ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ [المطففين : 27] ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ ﴾ [الإنسان : 6] الآية .

(124/453)

ثمّ انطلق بي يطوف في الجنة حتّى انتهينا إلى شجرة لم أر شجرة مثلها ، فلما وقفت تحتها رفعت رأسي فإذا أنا لا أرى شيئاً من خلق ربي غيرها لعظمها وتفرق اغصانها ووجدت فيها ريحاً طيبة لم أشم في الجنة ريحاً أطيب منها فقلّبت بصري فيها فإذا ورقها حلل

طرايف من ثياب الجنة من بين أبيض وأحمر وأخضر وثمارها أمثال القلال العظام من كل ثمرة خلقها الله في السماوات والأرضين من ألوان شتى وطعوم شتى وريح شتى ، فعجبت من تلك الشجرة وما رأيت من حسنها . قلت : ياجبرئيل ما هذه الشجرة؟ قال : هذه التي ذكرها الله عز وجل وبشرى لهم ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ [الرعد : 29 ، ص : 25 ، 40] ولكثير من أمتك ورهطك في ظلها حسن مقيل ونعيم طويل ورأيت في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كل ذلك مفروغ عنه معدّ إنما ينتظر به صاحبه من أولياء الله عزّ وجلّ وما غمني الذي رأيت قلت : لمثل هذا فليعمل العاملون .

ثمّ عرض عليَّ النار حتّى نظرت إلى أغلالها وسلاسلها وحيّاتها وعقاربها وغساقها ويحمومها ، فنظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل وقد وكلّ بهم من يأخذ بمشافرهم ، ثمّ يجعل في أفواههم صخراً من نار تخرج من أسافلهم . قلت : يا جبرئيل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً . ثمّ انطلقت فإذا أنا بنفر لهم بطون كأنها البيوت وهم على سابلة آل فرعون فإذا مرَّ بهم آل فرعون ثاروا فيميل بأحدهم بطنه فيقع فيتوطأهم آل فرعون بأرجلهم وهم يعرضون على النار غدواً وعشياً . قلت : من هؤلاء ياجبرئيل ؟

قال : هؤلاء أكلة الربا ومثلهم كمثل ﴿ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشيطان مِنَ المس ﴾ [البقرة :

275] ثمّ إنطلقت فإذا أنا بنساء معلقات بثديهن منكسات أرجلهن . قلت : من هؤلاء ياجبرئيل ؟ قال : هن اللاتي يزنين ويقتلن أولادهن .

(125/453)

ثمّ أخرجني من الجنة فمررنا بالسموات منحدراً من السماء إلى السماء حتّى أتيت على موسى فقال : فما فرض الله عليك وعلى أمتك ؟ قلت : خمسين صلاة . فقال موسى : أنا أعلم بالناس منك وأني [سرت] الناس بني إسرائيل وعالجتهم أشد المعالجة وأن أمتك أضعف الأمم فارجع إلى ربك واسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لن تطيق ذلك . قال : فرجعت إلى ربي " .

وفي بعض الأخبار : " " فرجعت فأتيت سدرة المنتهى فخررت ساجداً ، قلت : يا رب فرضت عليَّ وعلى امتي خمسين صلاة ولن أستطيع أن أقوم بها ولا أمتي فخفّف عني عشراً . فرجعت إلى موسى فسألني فقلت : خفف عني عشراً . قال : ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف فإن أمتك أضعف الأمم فإني قد لقيت من بني إسرائيل شدة . قال : فرجعت فردّها إلى ثلاثين فما زلت بين ربي وبين موسى (عليه السلام) حتى جعلها خمس صلوات فأتيت موسى (عليه السلام) فقال : إرجع إلى ربك فأسأله التخفيف . فقلت :

فإني قد رجعت إلى ربي حتّى استحيت وما أنا براجع إليه ، قال : فنوديت أني يوم خلقت السماوات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلوات ، ولا يبدل القول لدي فخمسة بخمسين فقم بها أنت وأمتك إني قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي وأجزي بالحسنة عشر أمثالها لكل صلاة عشر صلوات . قال : فرضيَّ محمد صلى الله عليه وسلم كل الرضا وكان موسى (عليه السلام) من أشدهم عليه حين مرَّ به وخيرهم لهم حين رجع إليه .

ثمّ انصرفت مع صاحبي وأخي جبرئيل لايفوتني ولا أفوته حتّى انصرف بي إلى مضجعي وكان كل ذلك ليلة واحدة من لياليكم هذه فأنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وإليَّ مفاتيح الجنة يوم القيامة ولا فخر ، وأنا مقبوض عن قريب بعد الذي رأيت فإني رأيت من آيات ربي الكبرى ما رأيت وقد أحببت اللحوق بربي عزّ وجلّ ولقاء من رأيت من إخواني ، وما رأيت من ثواب الله لأوليائه ﴿ وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وأبقى ﴾ [القصص : 60] .

(126/453)

قال : فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أُسري به وكان بذي طوى قال : " يا جبرئيل إن قومي لا يصدقونني " .

قال : يصدقك أبو بكر وهو الصديق (رضي الله عنه) " .

قال ابن عبّاس وعائشة رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " " لما كانت ليلة أُسري بي وأصبحت بمكة قطعت بأمري وعرفت إن الناس تكذبني " .

قال : فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم معتزلاً حزيناً فمرَّ به أبو جهل عدو الله فأتاه فجلس إليه ، وقال كالمستهزي : هل إستقدت من شيء ؟ قال : " نعم إني أُسري بي الليلة " قال : إلى أين ؟ قال : " إلى بيت المقدس " قال : ثمّ أصبحت بين ظهرانينا . قال : " نعم " فكان أبو جهل ينكر مخافة أن يجحده ، الحديث . قال : أتحدث قومك ما حدثتني ؟قال : " نعم " قال أبو جهل : يا معشر بني كعب بن لؤي هلمّوا .

قال : فأنتقضت المجالس فجاءوا حتّى جلسوا اليهما . قال : حدِّث قومك ما حدثتني . قال : " نعم إنّي أُسري بي الليلة " . قالوا : إلى أين ؟ قال : " إلى بيت المقدس " . قال : ثمّ أصبحت بين ظهرانينا قال : " نعم " . قال : فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب ، فإرتد ناس ممن كان آمن به وصدقه وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر (رضي الله عنه) فقالوا : هل لك في صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس ؟ .

قال : أوقد قال ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : تصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس في ليلة وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في عدوه وروحه . فلذلك سمي أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) .

قال : وفي القوم من قد سافر هناك ومن قد اتى المسجد ، فقالوا : هل تستطيع أن تصف لنا المسجد ؟ قال : "نعم" .

قال : فذهبت أنعت وأنعت فما زلت أنعت حتّى إلتبس عليَّ .

(127/453)

قال : فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتّى وضع دون دار عقيل أو عقال فنعت المسجد وأنا أنظر إليه . فقال القوم : أما النعت فوالله قد أصاب .

ثمّ قالوا : يا محمّد أخبرنا عن عيرنا فهي أهم إلينا من قولك ، هل لقيت فيها شيئاً ؟ قال : " نعم مررت على عير بني فلان وهي بالروجاء وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه وفي رحالهم قعب من ماء فعطشت فأخذته فقربته ثمّ وضعته كما كان فاسألوهم هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا إليه " .

قالوا : إن هذه آية واحدة . قال : " ومررت بعير فلان وفلان وفلان راكبان قعوداً لهما ببني مرة ففرا بكرهما مني فرمى بفلان فإنكسرت يده فسلوهما عن ذلك .

قالوا : وهذه آية أخرى .

قالوا : أخبرنا عن عيرنا نحن ؟ قال : " مررت بها بالنعيم " . قالوا : فما عدتها وأحمالها وغنمها ؟ قال : "كنت في شغل من ذلك ثمّ مثلت لي فكأنه بالجزورة وبعدتها وأحمالها وهيئتها ومن فيها " فقال : " نعم هيئتها كذا وكذا وفيها فلان وفلان تقدمها جعل أورق عليه خزارتان مخيطتان يطلع عليكم عند طلوع الشمس " .

قالوا : وهذه آية ، ثمّ خرجوا يشدّون نحو [الثلاثة] وهم يقولون : والله لقد قص محمّد شيئاً وبيّنه حتّى أتوا كداً فجلسوا عليه فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبون ، إذ قال قائل منهم : هذا الشمس قد طلعت . وقال الآخر : وهذه الإبل قد طاعت يتقدمها بعير أورق فيها فلان وفلان كما قال لهم ، فلم يؤمنوا ولم يفلحوا وقالوا : ما سمعنا بهذا قط إن هذا إلاّ سحر مبين " .

آخر المعراج ولله الحمد والمنة .

فإن قيل : إنما قال الله ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا ﴾ فَلِمَ قال : إنه أسرى إلى السماء .

فالجواب أنه قال : إنما قال : ﴿ أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا ﴾ كان ابتدأ أمر المعراج كان المسري ، والعروج كان بعد الاسراء ، وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدق ، والحكمة فيه والله أعلم أنه لو أخبر إبتدأ بعروجه إلى السماء لاشتد إنكارهم وعظم ذلك في قلوبهم ولم يصدقوه ، فأخبر بيت المقدس بها فلما تمكن ذلك في قلوبهم وبَان لهم صدقة وقامت الحجة عليهم له ، أخبر بصعوده إلى السماء العليا وسدرة المنتهى وبقرينة حتّى دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الكتاب ﴾ كما أسرينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الآية يعني ﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ ربّاً وشريكاً وكفيلاً .

قرأه العامّة : يتخذوا بالياء ، يعني قلنا لهم لا يتخذوا .

وقرأ ابن عبّاس ومجاهد وأبو عمر : بالياء واختاره أبو عبيد قال : لأنه خبر عنهم ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ فأنجيناهم من الطوفان ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ .

قال المفسرون : كان نوح (عليه السلام) إذا لبس ثوباً يأكل طعاماً أو شرب شراباً . قال : الحمد لله ، فسمّي عمداً شكوراً .

روى النظر بن شقي عن عمران بن سليم قال : إنما سمي نوح (عليه السلام) عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل طعاماً قال : الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء أجاعني ، فإذا شرب قال :

الحمد لله الذي سقاني ولو أشاء أظمأني وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذي كساني ولو أشاء أعراني ، فإذا اهتدى قال : الحمد لله الذي هداني ولو أشاء لما هداني فإذا قضى حاجته قال : الحمد لله الذي أخرج عني الأذى في عافية ولو شاء لحبسه .

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ إلى قوله ﴿ حَصِيرًا ﴾ .

(129/453)

روى سفيان بن سهيل عن منصور بن المعتمر عن ربعي بن خراش قال : " سمعت حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن بني إسرائيل لما إعتدوا وعتوا وقتلوا الأنبياء بعث الله عليهم ملك فارس بخت نصر ، وكان الله ملكه سبعمائة سنة فسار اليهم حتّى دخل بيت المقدس فحاصرها ففتحها وقتل على دم يحيى بن زكريا (عليه السلام) سبعين ألف ، ثمّ سبى أهلها وسلب حلي بيت المقدس واستخرج منها سبعين ألفاً ومائة عجلة من حلي [حتى أورده بابل] " .

قال حذيفة : يا رسول الله لقد كانت بيت المقدس عظيماً عند الله قال : " أجل بناه سليمان ابن داود من ذهب وياقوت وزبرجد ، وكان بلاطه ذهباً وبلاطه فضة وبلاطه من ذهباً أعطاه الله ذلك وسخر له الشياطين يأتونه بهذه الأشياء في طرفة عين فسار بخت

نصر بهذه الأشياء حتّى نزل بها بابل وأقام بنو إسرائيل في يديه مائة سنة يستعبدهم المجوس وأبناء المجوس فهم الأنبياء وابناء الأنبياء ، ثمّ إن الله تعالى رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس يقال له كورس وكان مؤمناً أن سر إلى بقايا ببني إسرائيل حتّى يستنقذهم فسبا كورش بني إسرائيل وحلي بيت المقدس حتّى رده إليه ، فأقام بنو إسرائيل مطيعين لله مائة سنة ثم إنهم عادوا في المعاصي فسلط عليهم ملكاً يقال له : إنطياخوش فغزا بني إسرائيل حتّى أتى بهم بيت المقدس فسبا أهلها وأحرق بيت المقدس وقال لهم : يا بني إسرائيل ان عدتم في المعاصي عدنا عليكم بالسبي ، فعادوا في المعاصي فسلط الله عليهم ملكا رومية يقال له : ماقسير بن إسبيانوس فغزاهم في البر والبحر فسباهم وسبا حلي بيت المقدس وأحرق بيت المقدس " .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فهذا من صفة حلي بيت المقدس ويرده المهدي إلى بيت المقدس وهو الف سفينة وسبعمائة سفينة يرمى بها على يافا حتّى ينقل إلى بيت المقدس هديها يجمع الله الأولين والآخرين " .

وقال محمّد بن إسحاق بن يسار : كان مما أنزل الله على موسى في خبر عن بني إسرائيل في أحداثهم وما هم فاعلون بعده ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ إلى قوله ﴿ حَصِيرًا ﴾ فكانت بنوا إسرائيل وفيهم الأحداث والذنوب ، وكان الله في ذلك متجاوزاً عنهم متعطفاً عليهم محسناً اليهم ، فكان أول ما أنزل بهم بسبب ذنوبهم من تلك الوقائع كما أخبر على لسان موسى (عليه السلام) أن ملكاً منهم كان يدعى صديقة كان الله عزّ وجلّ إذا ملك الملك عليهم بعث الله نبياً يسدده ويرشده ويكون فيما بينه وبين الله تعالى ، فيتحدث إليهم في أمرهم لأنزل عليهم الكتب ، إنما يؤمرون بإتباع التوراة والأحكام التي فيها وينهونهم عن المعصية ويدعونهم إلى ما تركوا من الطاعة ، فلما ملك الله ذلك الملك بعث الله شعياء بن أمصيا وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى ، وشعياء هو الذي بشّر بعيسى ومحمّد صلى الله عليه وسلم فقال : ابشروا [.

. .] الآن يأتيك راكب الحمار ومن بعده راكب البعير ، فملك ذلك الملك بني إسرائيل وبيت المقدس زماناً ، فلما إنقضى ملكه عظمت الأحداث وشعياء معه ، بعث الله عليهم سنحاريب ملك بابل مع ستمائة ألف راية ، فأقبل سائراً حتّى أقبل حول بيت المقدس والملك مريض في ساقه قرحة فجاء إليه شعياء فقال : يا ملك بني إسرائيل إن نحاريب ملك بابل قد نزل هو وجنوده بستمائة الف قد هابهم الناس وفرقوا منهم ، فكبر ذلك على الملك

. فقال : يانبي الله هل أتاك وحي من الله فيما حدث فتخبرنا به كيف يفعل الله بنا وبسنحاريب وجنوده .

(131/453)

فقال له النبي (عليه السلام) : لم يأت وحي فبيناهم إلى ذلك أوحى الله تعالى إلى شعياء النبي (عليه السلام) أن أيت ملك بني إسرائيل فمره أن يوصي بوصيته ويستخلف على ملكه من شاء من أهل بيته ، فأتى شعياء صدّيقة وقال له : إن ربك قد أوحى إليك إن أمرك أن توصي بوصيتك وتستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك فإنك ميت . فلما قال ذلك شعياء لصديقة أقبل على القبلة وصلى ودعا وبكى فقال وهو يصلي ويتضرع إلى الله تعالى بقلب مخلص متوكل رصين وظن صادق : اللهُمَّ رب الأرباب وإله الألهه قدوس المتقدس يا رحمن يا رحيم يا رؤوف الذي لا تأخذه سنة ولا نوم أكرمتني بعملي وفعلي وحسن قضائي على بني إسرائيل وذلك كله كان منك وأنت أعلم به مني بسري وعلانيتي لك وأن الرحمن استجاب له وكان عبداً صالحاً ، فأوحى الله إلى شعياء وأمره أن يخبر صديقة الملك أن ربه قد استجاب له وقبل منه ورحمه وقد أخر أجله خمس عشر سنة فأنجاه من عدوه سنحاريب ملك بابل وجنوده فأتاه شعياء النبي (عليه السلام)

وأخبره بذلك ، فلما قال ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الحزن وخر ساجداً وقال : يا إلهي وإله آبائي لك سجدت وسبّحت وكرمت وعظمت ، أنت الذي تعطي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، عالم الغيب والشهادة أنت الأوّل والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين ، أنت الذي أجبت دعوتي ورحمت ضري فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعياء أن قل للملك صديقه فيأمر عبداً من عبيده فيأتيه بالتين فيجعله على قرحه فيشفى ويصبح قديراً ، ففعل ذلك فشفى ، وقال الملك لشعياء : سل ربك أن يجعل لنا علماً بما هو صانع بعدونا هذا .

فقال الله لشعياء : قل له إني قد كفيتك عدوك وأنجيتك منهم وأنهم سيصبحون موتى كلهم إلاّ سنحاريب وخمسة نفر من كُتّابه .

فلما أصبحوا جاءه صارخ فصرخ على باب المدينة : يا ملك بني إسرائيل إن الله قد كفاك عدوك فاخرج فإن سنحاريب ومن معه هلكوا ، فلما خرج الملك التمس سنحاريب فلم يوجد في الموتى فبعث الملك في طلبه فأدركه الطلب في مفازة ومعه خمسة من كُتّابه أحدهم بخت نصّر ، فجعلوهم في الجوامع ثمّ أتوا بهم ملك بني إسرائيل فلما رآوهم خرّ ساجداً حين

طلعت الشمس إلى العصر ، ثمّ قال لسنحاريب : كيف ترى فعل ربنا بكم ؟ ألم نقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون ؟ فقال سنحاريب : قد أتاني خبر ربكم ونصره إياكم ورحمته التي رحمكم بها قبل أن أخرج من بلادك فلم أطع مرشداً ولم يلقني في الشقوة إلاّ قلة عقلي ولو سمعت وأطعت ما غزوتكم ولكن الشقوة غلبت عليّ وعلى من معي . فقال صديقه : الحمد لله ربّ العزة الذي [كفاناكم] بما شاء أن يبقك لي من معك لكرامة لك عليه وإنما أبقاك ومن معك ليزدادوا شقوة في الدنيا وعذاباً في الآخرة ولتخبروا من ورائكم بما رايتم من فعل ربنا ، فلذلك وذم من معك [آتون] على الله من دم قراد لو قتلت ، ثمّ إن ملك بني إسرائيل أمر أمير جيشه فقذف في رقابهم الجوامع وطاف بهم سبعين ما حول بيت المقدس [وامليا] وكان يرزقهم في كل يوم خبزتين من الشعير لكل رجل منهم .

فقال سنحاريب لملك بني إسرائيل : القتل خير مما يفعل بنا فأفعل ما أُمرت ، فأمر بهم الملك إلى سجن القتل فأوحى الله إلى شعياء النبي (عليه السلام) : أن قل لملك بني إسرائيل ليرسل سنحاريب ومن معه لينذروا من ورائهم وليكرمهم ويحملهم حتى يبلغوا بلادهم ، فبلغ شيعا [للملك ذلك] ففعل ، فخرج سنحاريب ومن معه حتّى قدموا بابل فلمّا قدموا

جمع الناس فأخبرهم كيف فعل الله بجنوده ، فقال له كهانته وسحرته : يا ملك [بابل] قد كنا نقص عليك خبر ربهم وخبر نبيهم ووحي الله إلى نبيهم فلم تطعنا ، وهي أمة لا يستطيعها أحد مع ربهم ، وكان أمر سنحاريب مما خوفوا ، ثمّ كفاهم الله إياه تذكرة وعبرة ثمّ لبث سنحاريب بعد ذلك سبع سنين ثمّ مات ، واستخلف [بعده] ابن إبنه على ما كان عليه ، فعمل فيهم بمثل عمل جده وقضى في الملك حتّى قتل بعضهم [بعضاً عليه] ونبيهم شعياء معهم لا يذعنون إليه ولا يقبلون منه ، فلما فعلوا ذلك قال الله لشعياء : قم في قومك أوحِ على لسانك .

(134/453)

فلما قام النبي (عليه السلام) أطلق الله لسانه بالوحي ، فقال : ياسماء استمعي ويا أرض انصتي حتّى فإن الله يريد أن يقص شأن بني إسرائيل الذين رباهم بنعمة واسطنعهم لنفسه وخصهم بكرامته وفضلهم على عباده واستقبلهم بالكرامة وهم كالغنم الضائعة التي لا راعي لها ، فآوى شاردتها وجمع ضالتها وجبر كسرها وداوى مريضها وأسمن مهزولها وحفظ سمينها ، فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها فقتل بعضهم بعضاً حتّى لم يبق منها عظم صحيح يجبر إليه آخر كسير ، فويل لهذه الأُمة الخاطئة الذين لايدرون من أين

جاءهم الخير ، أن البعيد مما يذكر وطنه فينتابه وأن الحمار مما يذكر الآري الذي يشبع عليه فيراجعه وأن الثور مما يذكر المرج الذي سمن فيه فينتابه وأن هؤلاء القوم لا يدرون من أين جاءهم الخير وهم أولوا الألباب والعقول ليسوا بقراً ولا حميراً ، وإني ضارب لهم مثلاً فليستمعوا ، قل لهم : كيف ترون في أرض كانت خواء زماناً خربة مواتاً لا عمران فيها وكان لها رب حكيم قوي ، فأقبل عليها بالعمارة وكره أن تخرب أرضه فأحاط عليها جداراً وشيّد فيها قصراً وأنبط نهراً وصنف فيها غراساً من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وألوان الثمار كلها ، وولى ذلك واستحفظه قيماً ذا رأي وهمة ومتعة حفيظاً قوياً أميناً وانتظرها فلما أطلعت جاء طلعها خروباً قالوا : بئست الأرض هذه ، نرى أن يهدم جدارها وقصورها ويدفن نهرها ويقبض قيّمها ويحرق غرسها حتّى تصير كما كانت أول مرة خراباً مواتاً لا عمران فيها .

(135/453)

قال الله لهم : فإن الجدار ذمتي وإن القصر شريعتي وإن النهر كتابي وإن القيّم نبيّ وإن الغرّاس هم وإن الخروب الذي أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة وإني قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم ، وإنهم مثل ضُربه الله تعالى لهم يتقربون إليّ بذبح البقر والغنم وليس ينالني اللحم ولا

أكله ، ويدعون أن يتقربون إليّ بالتقوى والكف عن ذبح الأنفس التي حرمّتها فأيديهم مخضوبة منها ، وثيابهم متزملة بدمائها ، يشيدون لي البيوت مساجداً ويطهرون أجوافها وينجسون قلوبهم وأجسادهم ويدنسونها ، فأي حاجة إلى تشييد البيوت ولست أسكنها ، أم أي حاجة إلى تزويق المساجد ولست أدخلها إنما أُمرت برفعها لأُذكر فيها وأُسبّح ولتكون مَعْلَماً لمن أراد أن يصلي فيها ، يقولون : لو كان الله يقدر على أن يجمع أُلْفَتَنا لجمعها ، ولو كان الله يقدر على [أن] يفقّه قلوبنا لفقهها فأعمد إلى عودين يابسين ، ثمّ ائت بهما ناديهما في أجمع ما يكونون فقل للعودين : إن الله يأمركما أن تكونا عوداً واحداً ففعل ، ذلك في مجلسه إختلطا فصارا واحداً ، فقال الله لهم : إني قد قدرت على أن أفقه العيدان اليابسة وعلى أن أؤالف بينهما فكيف لا أقدر على أن أجمع إلفهتم إن شئت ، أم كيف لا أقدر على أن أفقّه قلوبهم وأنا الذي صورتها .

يقولون : صمنا فلم يرفع صيامنا وصلينا فلم تقبل صلاتنا وتصدقنا فلم تزك صدقاتنا ، ودعونا بمثل [حنين الحمام] وبكينا مثل عواء الذئب في مكان ذلك لا نسمع ولا يستجاب لنا قال الله : فاسألهم ما الذي يمنعني أن أستجيب لهم ، ألست أسمع السامعين وأُبصر

الناظرين وأُقرب المجيبين وأرحم الراحمين ؟ الآن ذلّت يدي ؟ قلت : كيف ويداي مبسوطتان بالخير أُنفق كيف أشاء ومفاتح الخزائن عندي لا يفتحها غيري أو لأن رحمتي ضاقت فكيف ورحمتي وسعت كل شيء ، إنما يتراحم المتراحمون بفضلها أو لأن [البخل يعتريني] أو لست أكرم الأكرمين والفتاح بالخيرات ؟ أجود من أعطي وأكرم من سئل لو أن هؤلاء القوم نظروا لأنفسهم بالحكمة التي نورت في قلوبهم فنبذوها وإشتروا بها الدنيا إذاً لأبصروا من حيث أتو وإذاً لأيقنوا أن أنفسهم [هي] أعدى العُداة فيهم ، فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بقول الزور [ويتقوون] عليه بطعمة الحرام ؟ وكيف أُنور صلاتهم وقلوبهم صاغية إلى من يحاربني وينتهك محارمي ، أم كيف تزكوا عندي صدقاتهم ؟ وهم يتصدقون بأموال غيرهم وإنما أُوجر عليها أهلها المغصوبين ، أم كيف أستجيب لهم دعاءهم ؟ وإنما هو قول بألسنتهم والفعل من ذلك بعيد وإنما أستجيب للداع اللين وأنا أسمع قول المستضعف المسكين ، وإن من علامة رضاي رضا المساكين ، فلو رحموا المساكين وقربوا الضعفاء وأنصفوا المظلوم ونصروا المغصوب والمغلوب وأعدلوا الغائب [وأدوا] إلى اليتيم والأرملة والمسكين وكل ذي حق حقه ، ثمّ لو كان ينبغي أن أكلم البشر إذاً لكلّمتهم ، وإذاً لكنت نور أبصارهم وسمع آذانهم ومعقول قلوبهم وإذاً لدعمت أركانهم وكنت قوة أيديهم وأرجلهم ، وإذاً لبثت ألسنتهم وعقولهم .

يقولون : لمّا سمعوا كلامي وبلغتهم رسالاتي : إنها أقاويل متقولة وأحاديث متوارثة وتأليف كما يؤلف السحرة والكهنة ، وزعموا أنهم لو شاؤوا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا وأن يطلعوا على علم الغيب ، لاطلعوا بما توحي إليهم الشياطين وكلمهم ويستخفى بالذي يقول ويسرّ وهم يعملون أني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما يبدون وما كنتم يكتمون وإني قد قضيت يوم خلقت السماء والارض قضاء أثبته على نفسي وجعلت دونه أجلاً مؤجلاً لابد أنه واقع ، فإن صدَّقوا بما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أنفذه أو في أي زمان يكون وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاؤون فليأتوا بمثل القدرة التي بها أمضيت فإني مظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وإن كانوا يقدرون على أن يقولوا مايشاؤون فليألفوا مثل الحكمة التي أُدبّر بها أمر ذلك القضاء إن كنتم صادقين فإنّي قد قضيت يوم خلقت السماوات والأرض أن أجعل النبوة في الإجراء وأن أجعل الملك في الدعاء والعز في الأذلاء والقوة في الضعفاء والغنى في الفقراء والثروة في الأقلاء [والمدائن في الفلوات] والأجام في المغوز والبردة في الغيطان ، والعلم في

الجهلة والحِكَم في الأميين فسلهم متى هذا ومن القيّم بها وعلى يد مَن أسنّه ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره إن كانوا يعلمون ، فإني باعث لذلك نبيّا أُحياً أحياً ليس أعمى من عميان ولا ضالا من ضالين وليس بفظ ولا غليظ ولا [بصخاب] في الأصوات [ولا متزين بالفحش] ولا قوال للخنى أُسدده لكل جميل أهب له كل خلق [كريم] أجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقولة والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل والمعروف سيرته والحق شريعته والهدى امامه والاسلام ملته وأحمد اسمه أهدي به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة ، ثمّ أرفع به بعد [الخمالة] وأشهر به بعد النكرة وأكثر به بعد القلة وأغني به بعد المعيلة وأجمع به بعد الفرقة وأولف به قلوباً مختلفة وأهواء متشتتة وأُمماً متفرقة وأجعل أمته خيرا أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر إيماناً بي وتوحيداً لي وإخلاصاً بي يصلون لي قياماً وقعوداً وركعاً وسجوداً ويقاتلون في سلبي صفوفاً وزحوفاً ويخرجون من ديارهم وأموالهم إبتغاء رضواني ، ألهمتهم التكبير والتوحيد والتسبيح والحمد والمدحة والتمجيد لي في مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم ، يكبرون ويهللون ويقدسون على رؤوس الأسواق ويطهرون لي الوجوه والأطراف ويعقدون في الأنصاف ، قربانهم دماؤهم وأناجيلهم في صدورهم رهابين في الليل ليوث في النهار ، ذلك فضلي أُدتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم .

فلما فرغ نبيهم شعياء اليهم من مقالته عَدَوْا عليه ليقتلوه فهرب منهم فلقيت شجرة وانفلقت له فدخل فيها [وأدركه الشيطان الشجرة] فأخذ بهدبة من ثوبه فأرآهم إياها فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتّى قطعوعها وقطعوه في وسطها ، [فاستخلف الله] على بني إسرائيل بعد قتلهم شعياء رجلاً منهم يقال له ناشية بن أموص وبعث لهم الخضر نبياً واسم الخضر ارميا بن حلفيا وكان من سبط هارون بن عمران فأما سمي الخضر لانه جلس على فروة بيضاء فقام [عنها وهي تهتز] خضراء ، فقال الله لارميا حين بعثه نبياً إلى بني إسرائيل : يا أرميا من قبل أن أخلقك إخترتك ، ومن قبل أن أصورك في بطن أمك قدستك ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك ، وذكر الحديث بطوله في خطبة أرميا لقومه وفتياه التي أفتى به ، ودخول بُخت نصر وجنوده بيت المقدس فوطىء الشام كما ذكرنا في سورة البقرة .

فلما رأى ارميا ذلك طار حتّى خالط الوحش ودخل بخت نصّر وجنوده بيت المقدس فوطىء الشام وقتل بني إسرائيل حتّى أفناهم وخرب بيت المقدس ، ثمّ أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم قربته تراب ثمّ يقذفه في بيت المقدس فقذفوا فيه التراب حتّى ملؤه ، ثم إنصرف راجعاً إلى أرض بابل وإحتمل معه سبايا بني إسرائيل وأمرهم أن يجمعوا من كان

في بيت المقدس كلهم فجمعوا عنده كل صغير وكبير من بني إسرائيل فاختار منهم بسبعين ألف صبي.

(140/453)

فلما خرجت غنائم جنده وأراد أن يقسمهم فيهم قالت له الملوك الذين كانوا معه : أيها الملك لك غنائمنا كلها [وأقسم بيننا] فلولا الصبيان الذين إخترتهم من بني إسرائيل ، ففعل فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمة وكان من أولئك الغلمان دانيال ، وحنانيا ، وعزاريا ، وماشايل وسبعة آلاف من أهل بيت داود وأحد عشر ألفاً من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه ابن يامين ، وثمانية ألف من سبط أشر بن يعقوب ، وأربعة عشر الفاً من سبط زبالون بن يعقوب [ونفتال] بن يعقوب وأربعة الف من سبط [يهوذا] بن يعقوب [وأربعة] ألف من سبط [روبيل ولاوي] إبني يعقوب ومن بقي من بني إسرائيل وجعلهم بخت نصر ثلاث فرق : فثلثا أقر بالشام وثلثاً سُبي وثلثا قتل .

وذهب بأبيه بيت المقدس حتّى أقدمها بابل وذهبت بالصبيان التسعين الألف حتّى أقدمهم بابل ، فكانت هذه الواقعة الأولى التي أنزل الله ببني إسرائيل بأحداثهم وظلمهم وذلك قول الله ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾

يعني بخت نصر وأصحابه .

ما يروى عن حجاج عن ابن جريج عن يعلي بن مسلم عن سعيد بن جبير قال : كان رجل من بني إسرائيل يقرأ حتّى إذا بلغ ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ بكى وفاضت عيناه ثمّ أطبق المصحف وقال : أي رب أرني هذا الرجل الذي جعلت هلاك بني إسرائيل على يديه فأُري في المنام مسكيناً ببابل يقال له : بخت نصر فانطلق بمال [وبأعبد له] وكان رجلاً موسراً [وقيل له أين] تريد ؟

قال : أريد التجارة حتّى نزل داراً ببابل [فأستكبر] إلهاً ليس فيها أحد غيره فجعل يدعو المساكين ويتلطف بهم حتى لا يأتيه أحد فقال : هل بقيَّ غيركم مسكين ؟ قالوا : نعم مسكين [يفتح الفلان مريض] يقال له : بخت نصر ، فقال لغلمانه : انطلقوا حتى أتاه ، فقال : ما أسمك ؟ قال : بخت نصر ، فقال لغلمانه إحتملوه فنقل عليه فمرّضه حتّى برأ فكساه وأعطاه نفقة ثمّ أذن الاسرائيلي بالرحيل فبكى بخت نصر ، فقال الاسرائيلي : ما يبكيك ؟ قال : أبكي إنك فعلت بي مافعلت ولا أجد شيئاً أجزيك ، قال : بلى شيئاً يسراً إن ملكت أطعتني فجعل لا يتبعه فيما سأل فقال : تستهزيء بي ولا يمنعه أن يعطيه ما سأل إلاّ

أنه يرى أنه يستهزيء به قبلي الاسرائيلي ، فقال : لقد علمت ما يمنعك أن تعطيني ما سألتك إلاّ أن الله يريد أن ينفذ ما قد قضى وكتب في كتابه وضرب الدهر من ضربه .

قال صيحورا ملك فارس ببابل : لو إنا بعثنا طليعة إلى الشام قالوا : وما ضرك لو فعلت ؟ قال فمن ترون قال : فلان فبعث رجلاً وأعطاه مائة ألف وخرج بخت نصر في مطبخه لا يخرج إلاّ ليأكل في مطبخه .

فلما قدم الشام رأى صاحب الطليعة أكثر أرض الله فرساً ورجالاً [جاء وقد كسر] ذلك في ذرعه فلم يسأل قال : فجعل بخت نصر يجلس مجالس أهل الشام فيقول : ما يمنعكم أن تغزوا بابل فإذا غزوتموها مادون بيت مالها شيء .

قالو : لا نحسن القتال ، قال : ولو أنكم غزوتهم قالوا : لا نحسن القتال ولا نقاتل حتّى أنفذ مجالس أهل الشام ، ثمّ رجعوا فأخبر الطليعة ملكهم بما رأى وجعل بخت نصر يقول لفوارس الملك : لو دعاني الملك لأخبرته غير ما أخبره فلان ، فرفع ذلك إليه فدعاه فأخبره الخبر وقال : إن فلاناً لما رأى أكثر أرض الله فرساً ورجالا جلداً كبر ذلك في روعه ولم يسألهم عن شيء ، قال : لم أدع مجلساً شيئاً بالشام [الاجال واصله] فقلت لهم : كذا وكذا ، فقالوا لي : كذا وكذا .

قال سعيد بن جبير : وقال صاحب الطليعة لبخت نصر : إن صحبتني أعطي لك مائة الف وتنزع عما قلت . قال : لو أعطيتني بيت مال بابل لما نزعت فضرب الدهر من ضربة ، فقال الملك : لو بعثنا جريدة خيل إلى الشام ، فإن وجدوا مساغاً وإلا انثنوا ما قدورا عليه ، قال : وما ضرّك لو فعلت ، قال : فمن ترون ؟ قالوا : فلان . قال : هل الرجل الذي [أخبرني بما أخبرني] فدعا بخت نصر فأرسله وانتخب معه أربعمائة ألف من فرسانهم فانطلقوا ﴿ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الديار ﴾ [فسبوا] ما شاء الله ولم [يخرّبوا] ولم يقتلوا ، ومات [صيحون فقالوا] : استخلفوا رجلاً ، قالوا : على رسلكم حتّى يأتي أصحابكم فإنهم فرسانكم لن ينقضوا عليكم شيئاً ، أمهلوا فأمهلوا حتّى جاء بخت نصر [بالسبي] وما معه فقسمه في الناس ، فقالوا : ما رأينا أحداً أحق بالملك من هذا فملكوه .

وقال السدي بإسناده : إن رجلاً من بني إسرائيل رأى في النوم أن خراب بيت المقدس هلاك بني إسرائيل [خلي إليَّ] غلام يتيم ابن أرملة من أهل بابل يدعى بخت نصر وكانوا يصدقون فيصدق ، فأقبل يسأل عنه حتّى [نزل على أبيه] وهو يحتطب فلما جاءوا على رأسه حزمة من حطب ألقاها ثمّ قعد في جانب من البيت فكلمه ثمّ أعطاه ثلاثة دراهم ، فقال : اشتر بهذا طعاماً وشراباً وإشتري بدرهم لحماً وبدرهم خبزاً وبدرهم خمراً ، فأكلوا وشربوا حتّى كان اليوم الثاني فعل به مثل ذلك ، حتّى إذا كان اليوم الثالث فعل به ذلك ، ثمّ

قال : إني أحب أن [تكتب لي أمانا] إن كانت ملكت يوماً من الدهر ، فقال : أتسخر مني ؟ قال : إني لا أسخر بك [ولكن ما عليك لن تتخذ] بها عندي مريدا فكلمته أية ، فقالت : يا ملك إن كان مالاً لم ينقصك شيئاً فيكتب به أماناً ، فقال : أرأيت إن جئت والناس حولك قد حالوا بيني وبينك فاجعل لي أية تعرفني بها ، قال : ترفع صحيفتك على قصبة فأعرفك بها فكساه وأعطاه .

ثمّ إن ملك بني إسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريا (عليهما السلام) ويدني مجلسه ويستشيره في أمره ولا يقطع أمراً دونه [فإنه هوى] أن يتزوج ابنت إمرأة له ، فسأل عن ذلك يحيى فنهاه عن نكاحها ، قال : لست أرضاها لك ، فبلغ ذلك أمها فحقدت على [يحيى] حين نهاه أن يتزوج ابنتها [فذهبت إلى جارية] حين حس الملك على شرابه ، فألبستها ثياباً رقاقاً خضراء وطيبتها والبستها من الحلي والبستها فوق ذلك كساء أسود فأرسلتها إلى الملك وأمرتها أن تسقيه وأن تتعرض له فإن راودها عن نفسها أتت عليه حتّى يعطيها ما سألته ، فإذا أعطاها ذلك سألته أن يأتي برأس يحيى بن زكريا (عليهما السلام) في طشت ،

ففعلت فجعلت تسقيه وتعرض له فلما أخذ منه الشراب راودها عن نفسها ، فقالت : لا [

أقبل] حتّى تعطيني ما أسألك ، قال : ما تسألين ؟ قالت : أسألك أن تبعث إليّ يحيى بن زكريا فتأتي برأسه في هذا الطشت ، فقال الملك : سليني غير هذا .

قالت : ما أُريد إلاّ هذا ، فلما أبت عليه بعث إليه فأتى برأسه [والرأس يتكلم] في الطشت حين وضع بين يديه وهي تقول [لا يحل لك] ، فلما أصبح إذا دمه يغلي فأمر بتراب فألقى عليه فرمى الدم فوقه فلم يزل يلقي عليه من التراب حتّى بلغ سور المدينة وهو يغلي وبلغ صيحا بين فثار في الناس وأراد أن يبعث إليهم جيشاً أو يؤمر عليهم رجلاً .

(144/453)

فأتاه بخت نصر فكلمه وقال : إن الذي كنت أرسلته تلك المرة ضعيف وأني قد دخلت المدينة وسمعت كلام أهلها [فأبعثني] فبعثه فسار بخت نصر حتّى إذا بلغوا ذلك المكان [تحصنوا] منه في مدائنهم فلم يطقهم فلما اشتّد عليهم المقام وجاع أصحابه أرادوا الرجوع ، فخرجت إليه عجوزاً من عجائز بني إسرائيل فقالت : أين أمير الجند ؟ فأتى بها إليه فقالت له : إنه قد بلغني أنك تريد [. . . . .] ثمّ ترجع بجندك قبل أن تفتح هذه المدينة ، قال : نعم ، قد طال مقامي وجاع أصحابي فلست أستطيع المقام فوق الذي كان مني ، فقالت : أرأيتك إن فتحت لك المدينة أتعطيني ما أسألك [فتقتل] من أمرتك بقتله وتكف إن

أمرتك أن تكف ؟ قال لها : نعم ، قالت : إذا أصبحت فأقسم جندك أربعة أرباع ثمّ أقم على كل زاوية ربعاً ثمّ إرفعوا أيديكم إلى السماء فنادوا : إنا نستفتحك يا الله بدم يحيى بن زكريا فإنها سوف تساقط ، ففعلوا فتساقطت المدينة ودخلوا من جوانبها فقالت له : كف يدك وأقبل على هذا الدم حتّى يسكن وإنطلقت به إلى دم يحيى وهو على [تراب كثيرة] فقتل عليه حتّى سكن فقتل سبعين ألفاً فلما سكن الدم ، قالت له : كف يدك فإن الله تعالى إذا قتل نبي لم يرض حتّى يقتل من قتله ومن رضى قتله ، وأتاه صاحب الصحيفة بصحيفة فكف عنه وعن أهل بيته وخرب بيت المقدس وأمر أن يطرح الجيفة فيه ، وقال : من طرح جيفة فيه فله جزيته تلك السنة وأعانه الله على خرابة الروم من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى .

فلما خربه بخت نصر ذهبت معه بوجوه بني إسرائيل وأشرافهم وذهب بدانيال وعليا وعزاريا وميشائيل هؤلاء كلهم من أولاد الأنبياء وذهب معه برأس جالوت ، فلما قدم أرض بابل وجد صحايين قد مات فملك مكانه وكان أكرم الناس عليه دانيال وأصحابه حسدهم المجوس على ذلك فوشوا بهم إليه وقالوا : إن دانيال وأصحابه لا يعبدون إلهك

وإنما يعبدون غيره ولا يأكلون ذبيحتك فدعاهم فسألهم فقالوا : أجل إن لنا رباً نعبده ولسنا نأكل من ذبيحتكم فأمر بجد فخدّ لهم فألقوا فيه وهم ستة وألقى معهم سبعاً ضارياً ليأكلهم ، ففعلوا ذلك فانطلقوا ليأكلوا ويشربوا فذهبوا فأكلوا وشربوا ثمّ راحوا فوجدوهم جلوساً والسبع معترش ذراعيه بينهم لم يخدش منهم أحداً ولم ينكأه شيئاً ووجدوا معهم رجلاً فعدوهم فوجدوهم سبعة فقالوا : ما بال هذا السابع وإنما كانوا ستة فخرج إليهم السابع وكان ملكاً من الملائكة فلطمهُ لطمة فصار في الوحش ومسخه الله سبع سنين فيه .

ثمّ إن بخت نصر رأى رؤيا عبّرها له دانيال (عليه السلام) ، وهو ما روى إسماعيل بن عبد الكريم عن عبد الصمد بن معقل أنه سمع راهباً يقول : إن بخت نصر رأى في آخر زمانه صنماً رأسه من ذهب وصدره من فضة وبطنه من نحاس وفخذاه من حديد وساقاه من فخار ، ثمّ رأى حمراً من السماء وقع عليه قذفه ثمّ أتاه الحجر حتّى ربا فملىء ما بين المشرق والمغرب ، ورأى شجرة أصلها في الارض وفروعها في السماء ثمّ رأى رجلاً بيده فأس ، وسمع منادياً ينادي : اضرب بجذعها لتفرق الطير من فروعها وتفرق الدواب والسباع من تحتها ، وأنزل [. . . . . .] عبرها له دانيال (عليه السلام) .

قال : أما الصنم الذي رأيت فأتيت الرأس الذهب فأنت أفضل الملوك ، وأما الصدر الذي [رأيت] من فضة فإبنك يملك من [بعدك] ، وأما البطن الذي رأيت من نحاس فذلك يكون من بعد (إبنك) وأما رأيت من الفخذ من حديد فهو ملك أهل فارس يكون ملكهم شديداً مثل الحديد ، وأما الرجل من فخار فتفرق أهل فارس فرقتين ولا يكون فيهم حينئذ قوام كما لم يلين قوام الصنم على رجلين من فخار ، وأما الحجر الذي ربا حتّى ملأ ما بين المشرق والمغرب فنبي يبعثه الله في آخر الزمان فيفرق ملكهم كله فيربوا ملكه حتّى يكون ما بين المشرق والمغرب .

وأما الشجر الذي رأيت والطير الذي عليها والسباع والدواب التي تحتها وما أمر [بقطعها فيذهب] ملكك فيردك الله طائراً يكون شراً ملك الطير ثمّ يردك ثوراً ملك الدواب ثمّ يردك الله أسداً ملك السباع والوحش سبع سنين كان مسخه كله سبع سنين .

في ذلك كله قلبك قلب إنسان حتّى تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وهو يقدر على الأرض ومن عليها ، وما رأيت أصلها [قائماً] فإن ملكك قائم ، فمسخ بخت نصر نسراً من الطير وثوراً من الدواب واسداً من السباع ثمّ ردّ الله إليه ملكه فأمن ودعا الناس إلى الله .

[وسئل وهب بن منبه] أكان مؤمناً ؟ قال : وجدت أهل الكتاب قد اختلفوا فيه ، فمنهم

من قال : مات مؤمناً ، ومنهم قال : أحرق بيت الله وكتبه وقيد الأنبياء ، وغضب الله عليه غضباً ، فلم يقبل منه حينئذ توبته .

(147/453)

وقال بخت نصر لما رجع إلى صورته ثانية بعد المسخ [فرّد الله] إليه ملكه : كان دانيال وأصحابه أكرم الناس عليه فحسدتهم المجوس وقالوا لبخت نصر : إن دانيال إذا شرب الخمر لم يملك نفسه أن يبول ، وكان ذلك فيهم عاراً فجعل لهم بخت نصر طعاماً فأكلوا وشربوا وقال للبواب : أنظر أول من يخرج عليك ليبول فاضربه بالطبرزين وإن قال : أنا بخت نصر ، فقل : كذبت بخت نصر أمرني به فحبس الله عن دانيال البول وكان أول من قام من القوم يريد البول بخت نصر وكان مدلاً وكان ليلاً ، فقام يسحب ثيابه فلما رآه البوّاب شد عليه فقال : أنا بخت نصر قال : كذبت بخت نصر أمرني أن أقتل أول من يخرج فضربه فقتله .

وأما محمّد بن إسحاق بن يسار فإنه قال : في هلاك بخت نصر غير ما قال السدي ، وذلك أنه قال بإسناده : لما أراد الله [. . . . .] ليبعث فقال لمن كان في [. . . . . .] وكان يعذبه من بني إسرائيل : أن أتمم هذا البيت الذي خربته وهؤلاء الناس الذين قلت من

هم وما هذا البيت ، فقالوا : هذا بيت الله ومسجد من مساجده وهؤلاء أهله ، كانوا من [ذراري الأنبياء] وظلموا [وتعذروا] وعصوا عليهم بذنوبهم وكان ربهم رب السماوات والأرض ورب الخلق كلهم يكرههم ويمنعهم [ويحرمهم] ، فلما فعلوا ما فعلوا أهلكهم الله وسلط عليهم غيرهم .

(148/453)

قال : فأخبروني ما الذي يطلع بي إلى السماء العليا لعلي أطلع عليها فأقبل من فيها واتخذها ملكاً فإني قد [فرغت] من الأرض ومن فيها ، قالوا : ما يقدر عليه أحد من الخلائق ، قال : لتفعلن [أو لأقتلنكم عن آخركم] فبكوا إلى الله وتضرعوا إليه ، فبعث الله عليه بقدرته بعوضة ليرى ضعفه وهوانه فدخلت في منخره ثمّ سلفت في منخره حتّى عضت بأم الدماغ ، فما كان [يقر ولا يسكن] حتّى توجأ له رأسه على أم دماغه فلما عرف الموت قال لخاصته من أهله : إذا مت فشقوا رأسي وانظروا ما هذا الذي قتلني ، فلما مات شق رأسه فوجد البعوضة عاضة بأم دماغه ، ليرى الله العباد قدرته وسلطانه ويحيى الله من كان بقي في يديه من بني إسرائيل وترحم عليهم وردهم إلى إيليا والشام فبنوا فيها وأربوا وكثروا حتّى كانوا على أحسن ما كانوا عليه .

ويزعمون أن الله تعالى اختار توليت الموتى الذين قتلوا ولحقوا بهم ، ثمّ إنهم لما رجعوا إلى الشام وقد أحرق التوراة [وليس معهم عهد] من الله جدد الله توراته وردها عليهم على لسان عزير (عليه السلام) وقد مضت القصة ، فهذا الذي ذكرت جميع أمر بخت نصر على ما جاء في التفسير المعتمد في أخبار الأنبياء ، إلاّ أن رواية من روى أن بخت نصر هو الذي غزا بني إسرائيل عند [قتلهم] يحيى بن زكريا غلط [أهل السير] والأخبار والعلم بأُمور الماضين من أهل الكتاب والمسلمين ، ذلك أنهم مجمعون على أن بخت نصر غزا بني اسرائيل عند قتلهم نبيهم شعياء وفي عهد أورميا بن حلفيا (عليه السلام) وهي الوقعة الأولى التي قال الله ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعني بخت نصر وجنوده ، قالوا ومن عهد أروميا وتخريب بخت نصر بيت المقدس إلى عهد يحيى بن زكريا أربعمائة وإحدى وستون سنة ، وذلك أنهم يعدون من لدن تخريب بخت نصر بيت المقدس إلى حين [عمارته في عهد كوسك] سبعين سنة ، ثمّ من بعد عمرانه إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس وحيازة ملكها إلى مملكة الإسكندر ثمانية وثمانين سنة

، ثمّ من بعد مملكة الاسكندر إلى موت يحيى بن زكريا (عليه السلام) بثلثمائة وثلاث وستون ، ويروى بثلاثمائة سنة وثلاث سنين .

(150/453)

وإنما الصحيح من ذلك ماذكر محمّد بن إسحاق بن يسار قال : كثر عن بني إسرائيل بعد ما عمرت الشام وعادوا إليها بعد اخراب بخت نصر إياها وسبيهم منها ، فجعلوا بعد ذلك يحدثون الأحداث بعد مهلك عزير (عليه السلام) ويتوب الله عليهم وبعث الله فيهم الأنبياء وفريقاً يكذبون وفريقاً يقتلون حتّى كان آخر من بعث الله فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى وكانوا من بيت آل داود ، فمات زكريا وقتل يحيى بسبب رغبة الملك عن نكاح ابنته ، في قول عبد الله ابن الزبير وابنت أخته في قول السدي وابنت أخيه في قول ابن عبّاس .

وهو الأصح إن شاء الله ، لِما روى الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير قال : بعث عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا في إثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس ، وكان مما نهوهم نكاح بنت الأخ ، قال : وكانت لملكهم ابنت أخ تعجبه يريد أن يتزوجها وكانت لها في كل يوم حاجة يقضيها ، وذكر الحديث بطوله في مقتل يحيى .

رجعنا إلى حديث ابن إسحاق ، فلما رفع الله موسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى بن زكريا ، وبعض الناس يقول : قتلوا زكريا انبعث عليهم ملك من ملوك بابل يقال له : خردوس فسار إليهم بأهل بابل حتّى دخل عليهم الشام ، فلما ظهر عليهم أمر رأساً من رؤوس جنوده يدعى [نبور زاذان] صاحب القتل فقال له : إني قد كنت حلفت بإلهي لئن أنا ظهرت على أهل بيت المقدس لأقتلنهم حتّى تسيل دماؤهم في وسط عسكري ، إلاّ أني لا أجد أحداً أقتله ، فأمره ان يقتلهم حتّى يبلغ ذلك منهم نبور زاذان ، فدخل بيت المقدس وكان في البقعة التي كانوا يقربون فيها قربانهم [فوجد فيها دماً يغلي] فسألهم عنه ، قالوا : هذا دم قربان قربناه فلم يقبل منا فلذلك هو يغلي كما تراه ولقد قربنا منذ ثمانمائة سنة القربان فتقبل منا إلاّ هذا القربان ، قال : ما صدقتموني الخبر قالوا له : لو كان كأول زماننا لقبل منا ولكنه قد انقطع منا الملك والنبوة والوحي فلذلك لم يتقبل منا فذبح منهم [نبور زاذان] على ذلك الدم سبعمائة وسبعون رأساً من رؤسائهم فلم يهدأ فأمر بسبعة آلاف من شيعهم وأزواجهم فذبحهمعلى الدم فلم يبرد ولم يهدأ فلما رأى نبور زاذان أن الدم لا يهدأ قال لهم : ويلكم يا بني إسرائيل أصدقوني واصبروا على أمر ربكم [فقد طال] ما ملكتم في الأرض ، تفعلون فيها

ما شئتم قبل أن لا أترك نافخ نار لا أنثى ولا ذكر إلا قتلته فلما [رأوا الجهد] وشدة القتل صدقوهُ القول فقالوا له : إن هذا دم نبي منا كان ينهاها عن أمور كثيرة من سخط الله فلو أطعناه فيها لكان أرشد لنا وكان يخبرنا بالملك فلم نصدقه فقتلناه فقال لهم نبور زاذان : ما كان اسمه ؟ قال : يحيى بن زكريا ، قال : وهل صدقتموني ، بمثل هذا ينتقم منكم ربكم ، فلما رأى نبور زاذان أنهم قد صدقوه خرَّ ساجداً وقال لمن حوله : اغلقوا أبواب المدينة واجمعوا من كان هاهنا من جيش خردوس وخلا في بني إسرائيل .

(152/453)

قال : يا يحيى بن زكريا قد علم ربي وربك ما قد أصاب قومك من أجلك وما قتل منهم من أجلك فاهدأ بأذن الله قبل أن لا يبقي من قومك أحد ، فهدأ دم يحيى بن زكريا بإذن الله ، ورفع نبور زاذان عنهم القتل [وقال : آمنت بما آمنت به بنو إسرائيل وصدقت به وأيقنت أنه لا رب غيره ، ولو كان معه آخر لم يصلح ولو كان له شريك لم تستمسك السموات والأرض ، ولو كان له ولد لم يصلح ، فتبارك وتقدس وتسبح وتكبر وتعظم ملك الملوك الذي له ملك السموات السبع والأرض وما فيهن وما بينهن ، وهو على كل شيء قدير فله الحكم والعلم والعزة والجبروت وهو الذي بسط الأرض وألقى فيها رواسي لئلا تزول ، فكذلك ينبغي

لربي أن يكون ويكون ملكه] فأوحى الله تعالى إلى رؤس من رؤوس بقية الأنبياء أن نبور زاذان حبور صدوق .

وأن نبور زاذان قال لبني إسرائيل : يا بني إسرائيل إن عدو الله خردوس أمرني أن أقتل منكم حتّى تسيل دماءكم وسط عسكره وإني لست أستطيع أن أعصيه قالوا له : إفعل ما أُمرت به فأمرهم فحفروا خندقاً وأمر بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم فذبحها حتّى سال الدم في العسكر وأمر بالقتلى الذين كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم حتّى كانوا فوقهم ، فلم يظن خردوس إلا أن ما كان في الخندق من بني إسرائيل فلما بلغ الدم عسكره أرسل إلى نبور زاذان أن أرفع عنهم القتل فقد بلغني دماؤهم [وقد انتقمت منهم لما فعلوا] ثمّ إنصرف عنهم إلى بابل وقد أفنى بني إسرائيل أو كاده ، وهو الوقعة الاخيرة التي أنزل الله ببني إسرائيل في قوله ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ الآيات .

(153/453)

وكانت الوقعة الأولى : بخت نصر وجنوده ثمّ ردّ الله لهم الكرة عليهم وكانت الوقعة الاخيرة خردوس وجنوده فلم [. . . . .] همام بعد ذلك [. . . . .] . فانتقل

الملك بالشام ونواحيها إلى الروم واليونان ، ثم إن بني إسرائيل كثروا وانتشروا بعد ذلك وكانت لهم ببيت المقدس [بزواجها] على غير وجه الملك وكانوا في أُهبة ومِنْعَة إلى أن بدلوا وأحدثوا الأحداث وانتهكوا المحارم وضربوا الحدود فسلط الله عليهم ططوس بن سيبانو الرومي ، فأخرب بلادهم وطردهم عنها ونزع الله عنهم الملك والرئاسة وضرب عليهم الذلة ، فليسوا في أمة من الأمم إلاّ وعليهم [الصغار] والملك في غيرهم وبقي بيت المقدس خراباً إلى أيام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عمّره المسلمين بأمره .

وروى أبو عوانة عن أبي بشير قال : سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكتاب ﴾ الآيات ، فقال : أما الذين ﴿ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الديار ﴾ فكان مرحا بن الجزري فإذا جاء إلى قوله ﴿ تَتْبِيراً ﴾ فكان جالوت الجزري شعبة من [. . . . . . .] .

ثمّ قال : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة ﴾ إلى قوله ﴿ تَتْبِيراً ﴾ قال : هذا بخت نصر الذي خرب بيت المقدس .

ثمّ قال لهم بعد ذلك ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ [على هذا ثمّ] ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ قال فعادوا فعيد عليهم فبعث الله عليهم ملك الروم ثمّ عادوا أيضا فعيد عليهم فبعث الله عليهم ملك [. . . . .] ثمّ عادوا أيضاً فعيد عليهم سابور ذو الأكتاف .

قتادة في هذه الآية (وقضينا) قضى على القوم كما تسمعون فبعث عليهم في الأولى جالوت ، فسبى وقتل وخرب ﴿ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الديار ﴾ ، ثمّ رددنا لكم يعني يا بني إسرائيل الكرة عليهم والملك في زمان داود (عليه السلام) ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة ﴾ آخر الكرتين بعث الله عليهم بخت نصر أبغض خلق الله ، فسبى وقتل وخرب بيت المقدس وسامهم سوم العذاب ، ثمّ قال ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ فعاد الله إليهم برحمته ثمّ عاد [الله إليهم بشر] بما عذبهم ، فبعث الله عليهم ما شاء أن يبعث من آفته وعقوبته ، ثمّ بعث الله عليهم هذا الحي من العرب كما قال :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القيامة مَن يَسُومُهُمْ سواء العذاب ﴾ [الأعراف : 167] [. . . . .] .

﴿ وَقَضَيْنَآ إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكتاب ﴾ أي أخبرناهم وعلمناهم في ما آتيناهم من الكتب .

وقال ابن عبّاس وقتادة : يعني وقضينا عليكم ، وعلى هذا التأويل يكون (إلى) بمعنى (على) وبمعنى بالكتاب اللوح المحفوظ ، ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ قيل : لام القاسم مجازة : والله لتفسدن في الأرض مرتين بالعاصي ﴿ وَلَتَعْلُنَّ ﴾ ولتستكبرن ولتظلمن الناس ﴿ عُلُوّاً كَبِيراً * فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا ﴾ يعني أولي المرتين واختلفوا فيها فعلى قول قتادة :

إفسادهم في المرة الأولى ما خالفوا من أحكام التوراة [وحكموا] ربهم ولم يحفظوا أمر نبيهم موسى (عليه السلام) وركبوا المحارم وتعدوا على الناس .

وقال السدي : في خبر ذكره عن أبي مالك وأبي جهل عن ابن عبّاس وعن أمية الهمذاني عن ابن مسعود : إن أول الفسادين قتل زكريا .

وقال ابن إسحاق : إن إفسادهم في المرة الأولى قتلهم شعياء بن أمصيا في عهد أرمياء في الشجرة .

وقال ابن إسحاق : إن بعض أهل العلم أخبره أن زكريا مات موتاً ولم يقتل وأن المقتول هو شعياء (عليه السلام) .

﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ ﴾ يعني [جالوت الجزري] وجنوده وهو الذي قتله داود .

قال قتادة : وهي رواية العوفي عن ابن عبّاس ، وقال أبو المعلى ويعلى عن سعيد بن جبير : هم صحاريب من أهل نينوى ، وهي الموصل .

أبو بشير عنه : صرخان الخزري ، وقال : ابن إسحاق : بخت نصر البابلي وأصحابه .

﴿ أُوْلِي بَأْسٍ ﴾ يعني بطش ، وفي الحرب ﴿ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ ﴾ أي خافوا وداروا .

قال ابن عبّاس : مشوا ، الفراء : قتلوكم بين بيوتكم .

وأنشد لحسان :

ومنا الذي لاقي بسيف محمّد . . . فجاس به الأعداء عرض العساكر

أبو عبيدة : طلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أي يطلبها .

القتيبي : [عاشوا وقتلوا] وأفسدوا .

ابن جرير : طافوا من الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين فجمع التأويلات .

وقرأ ابن عبّاس : فجاسوا بالهاء ومعناها واحد .

﴿ خِلاَلَ الديار وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً ﴾ قضاء كائناً لا خلف فيه ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة ﴾ الرجعة والدولة ﴿ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ عدداً .

قال القتيبي : والنفير من نفر مع الرجل من عشيرته وأهل بيته ، يقال : النفير والنافر ، وأصله القدير والقادر .

﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ ﴾ يا بني إسرائيل ﴿ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ ﴾ لها ثواباً ونفعها ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أي فعليها كقوله ﴿ فَسَلاَمٌ لَّكَ ﴾ [الواقعة : 91] أي عليك .

وقال محمّد بن جرير : قالها كما قال ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 5] أي إليها ، وقيل : فلها الجزاء والعقاب .

وقال الحسين بن الفضل : يعني فلها رب يغفر الإساءة .

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة ﴾ أي المرة الآخرة من إفسادكم وذلك على قصدهم قتل عيسى (عليه السلام) يحيى حين رُفع ، وقتلهم يحيى بن زكريا (عليه السلام) فسلط الله عليهم الفُرس والروم [.

(156/453)

. . . .] قتلوهم وسبوهم ونفوهم عن بلادهم وأخذوا بلادهم وأموالهم فذلك قوله ﴿ لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ أي ليحزن ، واختلف القراء فيه ، فقرأ الكسائي : لنسؤ بالنون وفتح الهمزة على التعظيم اعتبارا ً ، وقضينا وبعثنا ورددنا وأمددنا وجعلنا .

وروى ذلك عن علي (رضي الله عنه) : وتصديق هذه القراءة قرأ أُبي بن كعب : لنسؤنّ وجوهكم بالنون وحرف التأكيد .

وقرأ أهل الكوفة : بالياء على التوحيد ، ولها وجهان : أحدهما ليسؤ الله وجوهكم ، والثاني ليسؤ [العدو] وجوهكم .

وقرأ الباقون : ليسؤ وجوهكم بالياء وضم الهمزة على الجمع ، بمعنى ليسؤ العباد أولي بأس شديد وجوهكم ﴿ وَلِيَدْخُلُواْ المسجد ﴾ يعني بيت المقدس ونواحيه ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ

أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ﴾ وليهلكوا أو ليدمروا ﴿ مَا عَلَوْا ﴾ غلبوا عليه [تدميرا] ﴿ تَتْبِيرًا

* عسى ﴾ لعلّ ربكم يا بني إسرائيل ﴿ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ بعد انتقامهم منكم ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ .

قال ابن عبّاس : وإن عدتم إلى المعصية عدنا إلى العقوبة ، فعادوا فبعث الله عليهم محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ معيناً سجناً ومحبساً من الحصر وهو الحبس ، والعرب تسمى [النخيل] حصوراً والملك حصيراً [لأنه محجوب محبوس] عن الناس .

قال لبيد :

وقماقم غلب الرقاب كأنهم . . . جن لدى باب الحصير قيام

أي باب الملك ومنه : انحصر في الكلام إذا [احتبس عليه] وأعياه ، والرجل الحصور عن النساء وحصر الغائط . قال الحسن ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ أي فراشاً ومهاداً ، ذهب إلى الحصير الذي يفرش ، وذلك أن العرب تسمي البساط الصغير حصيراً ، وهو وجه حسن وتأويل صحيح .

قال لبيد :

وقماقم غلب الرقاب كأنهم . . . جن لدى باب الحصير قيام

أي باب الملك ومنه : انحصر في الكلام إذا [احتبس عليه] وأعياه ، والرجل الحصور عن النساء وحصر الغائط .

قال الحسن ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ أي فراشاً ومهاداً ، ذهب إلى الحصير الذي يفرش ، وذلك أن العرب تسمي البساط الصغير حصيراً ، وهو وجه حسن وتأويل صحيح .

﴿ إِنَّ هذا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ أي الطريقة التي [هي أسد وأعدل وأصوب] ﴿ وَيُبَشِّرُ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾ وهو الجنة ﴿ وأَنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ وهي النار ﴿ وَيَدْعُ الإنسان ﴾ حذفت الواو هنا في اللفظ والخط ولم يحذف في المعنى لأنها في موضع رفع وكان حذفها باستقالتها اللام الساكنة كقوله ﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ [العلق : 18] ﴿ وَيَمْحُ الله الباطل ﴾ [الشورى : 24] ، و ﴿ يُؤْتِ الله المؤمنين ﴾ [النساء : 146] (وينادي المنادي) ﴿ فَمَا تُغْنِ النذر ﴾ [القمر : 5] ومعنى الآية ويدع الانسان على [ماله وولده ونفسه بالسوء] وقوله عند الضجر والغضب : اللهم العنه اللهم أهلكه ﴿ دُعَآءَهُ بالخير ﴾ أي كدعائه ربه أن يهب له العافية والنعمة ويرزقه السلامة في نفسه وماله وولده [بالشر لهلك] ولكن الله بفضله لا يستجيب له في ذلك ، نظيره قوله تعالى ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلنَّاسِ الشر

استعجالهم بالخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس : 11] ﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ عجلاً بالدعاء على مايكره أن يستجاب له فيه .

قال مجاهد وجماعة من المفسرين ، وقال ابن عبّاس : [يريد] ضجراً لا صبراً له على سراء ولا ضرّاء .

وقال قوم من المفسرين : أراد الانسان آدم .

(158/453)

قال سلمان الفارسي : أول ما خلق الله من آدم رأسه ، فجعل ينظر وهو يخلق جسده فلما كان عند العصر بقيت رجلاه لو يبث فيها الروح ، فقال : يارب عجّل قبل الليل فذلك قوله ﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ .

وروى الضحاك عن ابن عبّاس قال : لما خلق الله رأس آدم نظر إلى جسده فأعجبه ، فذهب لينهض فلم يقدر ، فهو قول الله ﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ [وقيل : المراد آدم فإنه لما اهتدى للصح إلى سترته ذهب لينهض فسقط ، يروى أنه علم وقع أسيراً إلى سودة بنت زمعة فرحمته لأنينه فأرخت من كتافه فهرب فدعا النبي عليها بقطع اليد ثم ندم فقال : اللهم إنما أنا بشر فمن دعوت عليه فاجعل دعائي رحمة له فنزلت هذه الآية]

﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار آيَتَيْنِ ﴾ دلالتين وعلامتين على وحدانيتنا ووجودنا وكمال علمنا وقدرتنا وعدد السنين والحساب ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ الليل ﴾ قال أبو الطفيل : سأل ابن الكواء علياً (رضي الله عنه) فقال : ما هذا السواد في القمر ؟ فقال علي : ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ الليل وَجَعَلْنَا آيَةَ النهار مُبْصِرَةً ﴾ وهو المحو .

وقال ابن عباس : الله نور الشمس سبعين جزءاً ونور القمر سبعين جزءاً فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءاً فجعله مع نور الشمس فالشمس على مائة وتسعة وثلاثين جزءاً والقمر على جزء واحد .

﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النهار ﴾ وهي الشمس ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ [منيرة مضيئة] .

وقال أبو عمرو بن العلا : يعني بصرها .

قال الكسائي : هو من قول العرب أبصر النهار إذا أضاء وصار بحالة يبصرها .

وقال بعضهم : هو كقولهم : [رجل خبيث مخبث إذا كان أصحابه خبثاء ورجل مضعف إذا كانت دوابه ضعافاً فكذلك النهار مبصراً إذا كان أهله بصراء] .

﴿ لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ بيّناه تبييناً .

مقاتل بن علي عن عكرمة عن ابن عبّاس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله تعالى لما أبرم خلقه فلم يبق من خلقه غير آدم خلق شمساً من نور عرشه وقمراً فكانا جميعاً شمسان فأما ما كان في سابق علم الله أن يدعها شمساً فإنه خلقها مثل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها وأما ما كان في سابق علمه أن يطمسها فيحولها قمراً فخلقها دون الشمس من العظيم ولكن إنما يرى صغرهما من شدة ارتفاع السماء وبعدها من الأرض، فلو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل ولا كان يدرك الأجير إلى متى يعمل ومتى يأخذ أجره ولا يدري الصائم إلى متى يصوم ومتى يفطر، ولا تدري المرأة كيف تعتد ولا يدري المسلمون متّى وقت صلاتهم ومتى وقت حجهم، ولا يدري الديان متّى يحل دينهم ولا تدري الناس متى يبذرون ويزرعون لمعاشهم ومتى يسكنون لراحة أبدانهم فكان الرب سبحانه أنظر لعباده وأرحم بهم فأرسل جبرائيل (فأمّر) جناحه على وجه القمر وهو يومئذ شمس فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور، فذلك قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا اليل والنهار آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اليل وَجَعَلْنَا آيَةَ النهار مُبْصِرَةً ﴾ [والسواد] الذي ترونه في جوف القمر يشبه الخطوط، فهو أثر المحو.

﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ قال ابن عباس: وما قدر عليه [من خير وشر] فهو ملازمه أينما كان.

الكلبي ومقاتل: خيره وشره معه لا يفارقه حتّى يحاسب به [وتلا الحسن: ﴿ عَنِ الْيَمِينِ

وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾] ثمّ قال يا بن آدم بسطت لك صحيفتك ووكل بك ملكان أحدهما عن يمينك والآخر [عن يسارك فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسنا تك ، وأما الذين عن شمالك فيحفظ سيئا تك فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً] .

(160/453)

مجاهد : عمله ورزقه ، وعنه : ما من مولود يولد إلاّ وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد .

وقال أهل المعاني : أراد بالطائر ما قضى عليه [أنه] عامله في ما هو صائر إليه من سعادة أو شقاوة ، وإنّما عبر عنه بالطائر على عادة العرب كما كانت تتفاءل به أو تتشاءم من سوانح الطير وبوارحها .

أبو عبيد والعيني : أراد بالطائر حظه من الخير والشر عن قولهم طار منهم فلان بكذا أيّ جرى له الطائر بكذا .

وقرأ الحسن ومجاهد وأبو رجاء : طائره في عنقه بغير ألف وإنّما خص عنقه دون سائر أعضائه ، لأن العنق موضع السمات وموضع القلائد والأطراف وغير ذلك مما يشين أو يزين

، فجرى كلام العرب [بنسبة الأشياء اللازمة] إلى الأعناق فيقولون هذا في عنقي حتّى أخرج منه وهذا الشيء [لازم صليت] عنقه .

﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتَاباً ﴾ قرأ الحسن ومجاهد وابن محيصن ويعقوب : ويخرج بفتح الياء وضم الراء على معنى ويخرج له الطائر يوم القيامة كتاباً نصب كتاباً على الحال ، ويحتمل أن يكون معناه ويخرج له الطائر فيصير كتاباً .

وقرأ أبو جعفر : ويخرج بضم الياء وفتح الراء على غير تسمية الفاعل ومجازه ويخرج له الطائر كتاباً .

وقرأ يحيى بن وثاب : ويخرج أيّ ويخرج الله .

وقرأ الباقون : بنون مضمومة وكسر الراء على معنى ونحن نخرج له يوم القيامة كتاباً ونصب كتاباً بإيقاع الاخراج عليه واحتج أبو عمرو لهذه القراءة بقوله الزمناه .

﴿ يَلْقَاهُ ﴾ قرأ أبو عامر وأبو جعفر : تلقاه بضم التاء وتشديد القاف يعني تلقى الانسان ذلك الكتاب أي [يؤتا] . وقرأ الباقون : بفتح الياء أي يراه .

﴿ مَنْشُوراً ﴾ نصب على الحال .

عن بسطام بن مسلم قال : سمعت أبا النباج يقول سمعت أبا السوار العدوي يقرأ هذه الآية ثمّ قال : نشرتان وعليه ما حييت يا بن آدم فصحيفتك منشورة فاعمل فيها ما شئت ، فإذا مت طويت ثمّ إذا بعثت نشرت .

﴿ اقرأ كتابك ﴾ يعني فيقال له إقرأ كتابك ﴿ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ محاسباً مجازياً .

قتادة : سيقرأ يومئذ كل من لم يكن في الدنيا [مُجَازِياً] .

وقال الحسن : [قد عدل والله عليك] من جعلك حسيب نفسك .

﴿ مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ ﴾ لها نوليه ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ لأن عليها عقابه ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ ولا يحمل حامله عمل أخر من الآثام ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ إقامة للحجة عليهم بالآيات التي تقطع عذرهم ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ .

قرأ عثمان النهدي وأبو رجاء العطاردي وأبو العالية [وأبو جعفر] ومجاهد : أمّرنا بتشديد الميم أيّ خلطنا [شرارها] فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم .

وقرأ الحسن وقتادة وأبو حياة الشامي ويعقوب : أمرنا ممدودة أي أكثرنا .

وقرأ الباقون : بكسر الميم ، أي أمرناهم بالطاعة فعصوا ، ويحتمل أن يكون بمعنى جعلناهم أمراً لأن العرب تقول أمر غير مأمور أي غير مؤمر ، ويجوز أن يكون بمعنى أكثر ما يدل عليه

قول النبي صلى الله عليه وسلم " خير المال مهرة مأمورة أو سكة مأبورة " أراد بالمأمورة كثرة النسل ويقال للشيء الكثير : أمر ، والفعل منه أمر يأمرون أمراً إذا كثروا .

وقال لبيد :

كل بني حرة مصيرهم . . . قل وإن أكثرت من العدد

إن يغبطوا يهبطوا وإن أمروا ، . . . يوماً يصيروا للهلك والنفذ

وإختاره أبو عبيد وأبو حاتم وقرأه العامّة .

وقال أبو عبيد : إنما إخترنا هذه القراءة ، لأن المعاني الثلاثة تجتمع فيها يعني الأمر والأمارة والكثرة ، ﴿ مُتْرَفِيهَا ﴾ [. . . . .] وهم أغنياؤها ورؤساءها ﴿ فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَولُ ﴾ يوجب عليها العذاب ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ فجزيناهم [وأهلكناهم إهلاكاً بأمر فيه أُعجوبة] .

(162/453)

روى معمر عن الزهري قال : " دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على [زينب] وهو يقول : " لا إله إلاّ الله ويلٌ للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه " قالت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ، قال : " نعم إذا كثر الخبث " " .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ القرونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ تخوف كفار مكة ﴿ وكفى بِرَبِّكَ بِذنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرَاً بَصِيرا ﴾ وقد اختلفوا في مبلغ مدة القرن :

قال عبد الله بن أُبي : وفي القرن عشرون ومائة سنة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول قرن كان وآخرهم يزيد بن معاوية .

وروى محمّد بن القاسم " عن عبد الله بن بشير المازني أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع يده على رأسه وقال : سيعيش هذا الغلام قرناً " فقلت : كم القرن ؟ قال : "مائة سنة " .

قال محمّد بن القاسم : مازلنا نعدّ له حتّى (تمت) مائة سنة ثمّ مات .

وقال الكلبي : القرن ثمانون سنة .

وروى عمر بن شاكر عن ابن سيرين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " القرن أربعون سنة " .

(163/453)

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة ﴾ يعني الدنيا فعبرنا بحرف عن الاسم ، أراد بالدار العاجلة ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ ﴾ من البسط والتقدير ﴿ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ أن يفعل به ذلك [أوّل] إهلاكه ، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ ﴾ في الآخرة ﴿ يَصْلاهَا ﴾ يدخلها ﴿ مَذْمُوماً

مَّدْحُوراً ﴾ مطروداً مبعداً ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ وعمل لها عملها ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ مقبولاً غير مكفور ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هؤلاء وهؤلاء ﴾ أيّ نمد كل الفريقين، من يريد العاجلة ومن يريد الآخرة فيرزقهما جميعاً ﴿ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ ثمّ يختلف بهما الحال في المال ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ ممنوعاً [محبوساً] عن عباده ﴿ انظر ﴾ يا محمّد ﴿ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ﴾ في الرزق والعمل، يعني طالب العاجلة وطالب الآخرة ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً * لاَّ تَجْعَل مَعَ الله إلها آخَرَ ﴾ الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ فتبقى ﴿ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 92.54 ﴾

(164/453)

وقال الزمخشرى :

سورة الإسراء

(مكية [إلا الآيات 26 و32 و33 و57 ، ومن آية 73 إلى غاية آية 80 فمدنية] وآياتها 111 [نزلت بعد القصص]) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الإسراء (17) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1)

سُبْحانَ علم للتسبيح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره، تقديره: أسبح الله سبحان، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسدّه، ودل على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله «1». وأَسْرى وسرى لغتان. ولَيْلًا نصب على الظرف.

فإن قلت: الإسراء لا يكون إلا بالليل، فما معنى ذكر الليل؟ «2» قلت: أراد بقوله لَيْلًا بلفظ التنكير: تقليل مدّة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشأم مسيرة أربعين ليلة، وذلك أنّ التنكير فيه قد دلّ على معنى البعضية. ويشهد لذلك قراءة عبد الله

---

(1). قوله «القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله» يريد بهم أهل السنة القائلين بأنه تعالى هو الخالق لجميع الحوادث من أفعال العباد وغيرها، خيراً كانت أو شراً، خلافا للمعتزلة في قولهم: إن العبد هو الخالق لفعل نفسه حتى يكون مقدوراً له، فيصح تكليفه به، ولكن استند أهل السنة لمثل قوله تعالى اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ وهذا لا

ينافي اختيار العباد في أفعالهم، لأنهم أثبتوا لهم الكسب فيها، كما تقرر في علم التوحيد.

(ع)

(2). قال محمود: «فان قلت: الاسراء لا يكون إلا بالليل، فما معنى ذكر الليل . . . الخ» ؟ قال أحمد وقد قرن الاسراء بالليل في موضع لا يليق الجواب عنه بهذا، كقوله فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وكقوله تعالى فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا فالظاهر - والله أعلم - أن الغرض من ذكر الليل وإن كان الاسراء يفيده تصوير السير بصورته في ذهن السامع، وكأن الاسراء لما دل على أمرين، أحدهما: السير، والآخر: كونه ليلا. أريد إفراد أحدهما بالذكر تثبيتا في نفس المخاطب، وتنبيها على أنه مقصود بالذكر. ونظيره في إفراد أحد ما دل عليه اللفظ المتقدم مضموما لغيره قوله تعالى وَقالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ، إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فالاسم الحامل للتثنية دال عليها وعلى الجنسية، وكذلك المفرد، فأريد التنبيه لأن أحد المعنيين وهو التثنية مراد مقصود، وكذلك أريد الإيقاظ، لأن الوحدانية هي المقصودة في قوله إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ ولو اقتصر على قوله إِنَّما هُوَ إِلهٌ لأوهم أن المهم إثبات الالهية له، والغرض من الكلام ليس إلا الإثبات للوحدانية، والله أعلم.

وحذيفة : من الليل ، أي : بعض الليل ، كقوله وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً يعني الأمر بالقيام في بعض الليل . واختلف في المكان الذي أسرى منه فقيل : هو المسجد الحرام بعينه ، وهو الظاهر .

وروى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم «بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل عليه السلام بالبراق «1»» وقيل : أسرى به من دار أم هانئ بنت أبي طالب والمراد بالمسجد الحرام : الحرم ، لإحاطته بالمسجد والتباسه به .

وعن ابن عباس : الحرم كله مسجد . وروى أنه كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسرى به «2» ورجع من ليلته ، وقص القصة على أم هانئ ، وقال : مثل لي النبيون فصليت بهم وقام ليخرج إلى المسجد فتشبثت أم هانئ بثوبه فقال : مالك ؟ قالت : أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم ، قال : وإن كذبوني ، فخرج فجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بحديث الإسراء ، فقال أبو جهل :

يا معشر بني كعب بن لؤي ، هلم فحدّثهم ، فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً .

وارتد ناس ممن كان قد آمن به ، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي اللّه عنه فقال : إن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : أتصدقه على ذلك ؟ قال : إني لأصدقه على أبعد من ذلك ، فسمى الصدّيق .

وفيهم من سافر إلى ما ثمّ ، فاستنعتوه المسجد فجلى له بيت المقدس ، فطفق ينظر إليه وينعته لهم ، فقالوا : أمّا النعت فقد أصاب ، فقالوا : أخبرنا عن عيرنا ، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها ، وقال :

تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس ، يقدمها جمل أورق ، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية ، فقال قائل منهم : هذه واللّه الشمس قد شرقت ، فقال آخر : وهذه واللّه العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ، ثم لم يؤمنوا وقالوا : ما هذا إلا سحر مبين ، وقد عرج به إلى السماء في تلك الليلة ، وكان العروج به من بيت المقدس وأخبر قريشا أيضا بما رأى في السماء من العجائب وأنه لقى الأنبياء وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى واختلفوا في وقت الإسراء فقيل كان قبل الهجرة بسنة . وعن أنس والحسن أنه كان قبل البعث واختلف في أنه كان في اليقظة أم في المنام فعن عائشة رضى اللّه عنها أنها قالت «واللّه ما فقد جسد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولكن عرج بروحه» «3» وعن معاوية : إنما عرج بروحه . وعن الحسن ، كان في المنام رؤيا رآها . وأكثر

---

(1) . متفق عليه من حديث مالك بن صعصعة مطولا .

(2) . ذكره الثعلبي عن ابن عباس بغير سند . وكأنه من رواية الكلبي عن أبى صالح عنه ، ثم رأيته من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس . أخرجه الحاكم والبيهقي عنه . لكن لم يسبق لفظه ، وقد رواه النسائي باختصار عن هذا من رواية عوف عن زرارة بن أوفى

عن ابن عباس. وأورده ابن سعد وأبو يعلى والطبراني من حديث أم هانئ مطولا.

(3). قال ابن إسحاق في المغازي: حدثني بعض آل أبى بكر عن عائشة بهذا «لكن أسرى» بدل «عرج» قال ابن إسحاق: وحدثني يعقوب بن عتبة عن ابن معاوية قال: كانت رؤيا من اللّه صادقة.

(166/453)

الأقاويل بخلاف ذلك. والمسجد الأقصى: بيت المقدس، لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد بارَكْنا حَوْلَهُ يريد بركات الدين والدنيا، لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى ومهبط الوحى، وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة. وقرأ الحسن: ليريه بالياء، ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم «فقيل: أسرى ثم باركنا ثم ليريه، على قراءة الحسن، ثم من آياتنا، ثم إنه هو، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لأقوال محمد الْبَصِيرُ بأفعاله، العالم بتهذبها وخلوصها، فيكرمه ويقرّبه على حسب ذلك.

[سورة الإسراء (17): الآيات 2 إلى 3]

وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً (2) ذُرِّيَّةَ

مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً (3)

أَلَّا تَتَّخِذُوا قرئ بالياء على: لئلا يتخذوا، وبالتاء على: أى لا تتخذوا، كقولك: كتبت إليه أن أفعل كذا وَكِيلًا ربا تكلون إليه أموركم ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا نصب على الاختصاص. وقيل: على النداء فيمن قرأ «لا تتخذوا» بالتاء على النهى، يعنى: قلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلا يا ذرية من حملنا مَعَ نُوحٍ وقد يجعل وَكِيلًا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مفعولي تتخذوا، أى لا تجعلوهم أربابا كقوله وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً ومن ذرية المحمولين مع نوح عيسى وعزير عليهم السلام. وقرئ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا بالرفع بدلا من واو تَتَّخِذُوا وقرأ زيد بن ثابت: ذرية، بكسر الذال. وروى عنه أنه قد فسرها بولد الولد، ذكرهم اللّه النعمة في إنجاء آبائهم من الغرق إِنَّهُ إن نوحا كانَ عَبْداً شَكُوراً قيل: كان إذا أكل قال: الحمد للّه الذي أطعمنى، ولو شاء أجاعنى. وإذا شرب قال: الحمد للّه الذي سقاني، ولو شاء أظمأنى. وإذا اكتسى قال: الحمد للّه الذي كسانى، ولو شاء أعرانى. وإذا احتذى قال: الحمد للّه الذي حذانى، ولو شاء أحفانى. وإذا قضى حاجته قال: الحمد للّه الذي أخرج عنى أذاه في عافية، ولو شاء حبسه. وروى أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به، فإن وجده محتاجا آثره به. فإن قلت: قوله إنه كان عبداً شكوراً ما وجه ملاءمته لما قبله؟ قلت: كأنه قيل: لا تتخذوا من دوني وكيلا، ولا تشركوا بى، لأنّ نوحا عليه السلام كان عبدا شكورا، وأنتم ذرية من آمن به

وحمل معه، فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم.

ويجوز أن يكون تعليلا لاختصاصهم والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح، فهم متصلون به، فاستأهلوا لذلك الاختصاص. ويجوز أن يقال ذلك عند ذكره على سبيل الاستطراد.

(167/453)

[سورة الإسراء (17) : الآيات 4 إلى 6]

وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً (4) فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً (5) ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (6)

وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ وأوحينا إليهم وحيا مقضيا، أى مقطوعا مبتوتا بأنهم يفسدون في الأرض لا محالة، ويعلون، أى: يتعظمون ويبغون فِي الْكِتابِ في التوراة، ولَتُفْسِدُنَّ جواب قسم محذوف. ويجوز أن يجرى القضاء المبتوت مجرى القسم، فيكون لَتُفْسِدُنَّ جوابا له، كأنه قال: وأقسمنا لتفسدن. وقرئ: لتفسدنّ، على البناء للمفعول.

ولتفسدن ، بفتح التاء من فسد مَرَّتَيْنِ أولاهما : قتل زكريا وحبس أرميا حين أنذرهم سخط اللّه ، والآخرة : قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى ابن مريم عِباداً لَنا وقرئ عبيداً لنا . وأكثر ما يقال :

عباد اللّه وعبيد الناس : سنحاريب وجنوده « 1 » وقيل بخت نصر . وعن ابن عباس : جالوت . قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة ، وخربوا المسجد ، وسبوا منهم سبعين ألفاً .

فإن قلت : كيف جاز أن يبعث اللّه الكفرة «2» على ذلك ويسلطهم عليه «3» . قلت : معناه خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم ، على أنّ اللّه عزّ وعلا أسند بعث الكفرة عليهم إلى نفسه ، فهو كقوله تعالى وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ وكقول الداعي . وخالف بين كلمهم . وأسند الجوس وهو التردّد خلال الديار بالفساد إليهم ، فتخريب المسجد وإحراق التوراة من جملة الجوس المسند إليهم . وقرأ طلحة «فحاسوا» بالحاء . وقرئ : فجوّسوا . وخلل الديار . فإن قلت :

ما معنى وَعْدُ أُولاهُما ؟ قلت : معناه وعد عقاب أولاهما وَكانَ وَعْداً مَفْعُولًا يعنى : وكان وعد العقاب وعدا لا بد أن يفعل ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ أى الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو . قيل : هي قتل بخت نصر واستنقاذ بنى إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم ، وقيل : هي قتل داود جالوت أَكْثَرَ نَفِيراً مما كنتم .

---

(1) . قوله «سنحاريب وجنوده» كان ملك بابل ، وبخت نصر هو ابن ابنه ، وكان من كتابه . وكذا في الخازن . (ع)

(2) . قوله «فان قلت : كيف جاز أن يبعث اللّه الكفرة على ذلك» مبنى على أنه تعالى لا يفعل الشر ولا يريده ، وهو مذهب المعتزلة . وعند أهل السنة كل كائن فهو فعله ومراده ولو شرا ، فلا سؤال . (ع)

(3) . قال محمود : «إن قلت كيف جاز أن يبعث اللّه الكفرة . . . الخ» قال أحمد : هذا السؤال إنما يتوجه على قدرى يوجب على اللّه تعالى بزعمه رعاية ما يتوهمه بعقله مصلحة ، وأما السنى إذا سئل هذا السؤال أجاب عنه بقوله لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ واللّه الموفق .

(168/453)

والنفير ، من ينفر مع الرجل من قومه ، وقيل : جمع نفر كالعبيد والمعيز .

[سورة الإسراء (17) : آية 7]

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً (7)

أى الإحسان والإساءة : كلاهما مختص بأنفسكم ، لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم .

وعن عليّ رضى اللّه عنه : ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه ، وتلاها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْمرّة الْآخِرَةِ بعثناهم «1» لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ حذف لدلالة ذكره أوّلا عليه. ومعنى لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها ، كقوله سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وقرئ : ليسوء والضمير للّه تعالى ، أو للوعد ، أو للبعث. ولنسوء : بالنون. وفي قراءة علىّ : لنسوأنّ : وليسوأنّ وقرئ لنسوأن ، بالنون الخفيفة. واللام في لِيَدْخُلُوا على هذا متعلق بمحذوف وهو :

وبعثناهم ليدخلوا. ولنسوأن : جواب إذا جاء ما عَلَوْا مفعول ليتبروا ، أى ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه. أو بمعنى : مدة علوّهم.

[سورة الإسراء (17) : آية 8]

عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً (8)

عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ بعد المرّة الثانية إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عن المعاصي وَإِنْ عُدْتُمْ مرة ثالثة عُدْنا إلى عقوبتكم وقد عادوا ، فأعاد اللّه إليهم النقمة بتسليط الأكاسرة وضرب الأتاوة عليهم. وعن الحسن : عادوا فبعث اللّه محمدا ، فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون. وعن قتادة : ثم كان آخر ذلك أن بعث اللّه عليهم هذا الحىّ من العرب ، فهم منهم في عذاب إلى يوم القيامة حَصِيراً محبسا يقال للسجن محصر وحصير. وعن الحسن :

بساطا كما يبسط الحصير المرمول «2»

---

(1) . قوله : فَإِذا جاءَ وَعْدُ المرة الْآخِرَةِ بعثناهم : أى عبادنا وهم في هذه المرة ، الفرس والروم ، بعث اللّه عليهم ملكا من ملوك بابل يقال له خروش . حتى دخل الشام بجنود فقتل وسبى ، حتى كاد يفنى بنى إسرائيل ، وبقي منهم بقايا حتى كثروا ، وكانت لهم الرياسة في بيت المقدس إلى أن بدلوا وأحدثوا الأحداث فسلط اللّه عليهم ططوس بن أسبيانوس الرومي فخرب بلادهم وطردهم عنها ، وبقي بيت المقدس خرابا إلى خلافة عمر بن الخطاب ، فعمره المسلمون بأمره . اه من الخازن . (ع)

(2) . قوله كما يبسط الحصير المرمول» أى المنسوج ، أفاده الصحاح . (ع)

[سورة الإسراء (17) : الآيات 9 إلى 10]

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (10)

لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدّها . أو للملة . أو للطريقة . وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف ، لما في إبهام الموصوف بحذفه من

فخامة تفقد مع إيضاحه. وقرئ: ويبشر، بالتخفيف، فإن قلت: كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة؟ قلت: كان الناس حينئذ إما مؤمن تقى، وإما مشرك، وإنما حدث أصحاب المنزلة «1» بين المنزلتين بعد ذلك. فإن قلت: علام عطف وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ؟ قلت:

على أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً على معنى: أنه بشر المؤمنين ببشارتين اثنتين: بثوابهم، وبعقاب أعدائهم ويجوز أن يراد: ويخبر بأن الذين لا يؤمنون معذبون.

[سورة الإسراء (17): آية 11]

وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً (11)

أى: ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله، كما يدعوه لهم بالخير، كقوله وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ. وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله، لا يتأنى فيه تأنى المتبصر. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دفع إلى سودة بنت زمعة أسيرا، فأقبل يئن بالليل، فقالت له: مالك تئن؟ فشكا ألم «2» القدّ، فأرخت من كتافه، فلما نامت أخرج يده وهرب، فلما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم دعا به فأعلم بشأنه، فقال صلى الله عليه وسلم «اللهم اقطع يديها» فرفعت سودة يديها تتوقع الإجابة، وأن يقطع الله يديها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنى سألت الله أن يجعل لعنتي ودعائي على من لا يستحق من أهلى رحمة لأنى بشر أغضب كما

يغضب البشر فلتردّ سودة يديها «3»» ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر، وأنه يدعو بالعذاب استهزاء ويستعجل به، كما يدعو بالخير إذا مسته الشدّة. وكان

---

(1) . قوله «وإنما حدث أصحاب المنزلة» يعنى الفسقة. وإثبات الواسطة مذهب المعتزلة دون أهل السنة، فان الفسق لا يزيل الايمان عندهم. (ع)

(2) . قوله «فشكا ألم القد» في الصحاح «القد» بالكسر: سير يقد من جلد غير مدبوغ. (ع) [.....]

(3) . لم أجده من هذه الجهة. وقد أخرجه الواقدي في المغازي من رواية ذكوان عن عائشة، أن النبي صلى اللّه عليه وسلم دخل عليها بأسير، وقال لها: احتفظي به. قالت: فلهوت مع امرأة فخرج ولم أشعر. فدخل يسأل عنه فقلت واللّه ما أدرى. فقال: قطع اللّه يدك، فذكر نحوما تقدم. ورويناه في الجزء التاسع من حديث المخلص تخريج البقال. قال: حدثنا ابن أبى داود حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن أبى فديك عن ابن أبى ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ذكوان بهذا.

الإنسان عجولا : يعنى أن العذاب آتيه لا محالة ، فما هذا الاستعجال ، وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هو النضر بن الحرث قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية ، فأجيب له ، فضربت عنقه صبرا .

[سورة الإسراء (17) : آية 12]

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً (12)

فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد أن الليل والنهار آيتان في أنفسهما ، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار للتبيين ، كإضافة العدد إلى المعدود ، أى : فمحونا الآية التي هي الليل وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة . والثاني : أن يراد : وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين ، يريد الشمس والقمر . فمحونا آية الليل : أى جعلنا الليل ممحوّ الضوء مطموسه مظلما ، لا يستبان فيه شيء كما لا يستبان ما في اللوح الممحوّ ، وجعلنا النهار مبصرا أى تبصر فيه الأشياء وتستبان . أو فمحونا آية الليل التي هي القمر حيث لم يخلق لها شعاعا كشعاع الشمس ، فترى به الأشياء رؤية بينة ، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ لتتوصلوا ببياض النهار إلى استبانة أعمالكم والتصرف في معايشكم وَلِتَعْلَمُوا باختلاف الجديدين عَدَدَ السِّنِينَ وجنس الْحِسابَ وما تحتاجون إليه منه ولولا ذلك لما علم أحد حسبان الأوقات ، ولتعطلت الأمور وَكُلَّ شَيْءٍ مما تفتقرون إليه

في دينكم ودنياكم فَصَّلْناهُ بيناه بيانا غير ملتبس، فأزحنا عللكم، وما تركنا لكم حجة علينا.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 13 إلى 14]

وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً (13) اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (14)

طائِرَهُ عمله وقد حققنا القول فيه في سورة النمل. وعن ابن عيينة: هو من قولك: طار له سهم، إذا خرج، يعنى: ألزمناه ما طار من عمله. والمعنى أنّ عمله لازم له لزوم القلادة أو الغل لا يفك عنه، ومنه مثل العرب: تقلدها طوق الحمامة. وقولهم: الموت في الرقاب. وهذا ربقة في رقبته. عن الحسن: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة إذا بعثت قلدتها في عنقك: وقرئ فِي عُنُقِهِ بسكون النون. وقرئ نُخْرِجُ بالنون. ويخرج، بالياء، والضمير لله عز وجل.

ويخرج، على البناء للمفعول. ويخرج من خرج، والضمير للطائر. أى: يخرج الطائر كتابا، وانتصاب كِتاباً على الحال. وقرئ: يلقاه، بالتشديد مبنيا للمفعول. ويَلْقاهُ مَنْشُوراً

صفتان للكتاب. أو يَلْقاهُ صفة ومَنْشُوراً حال من يلقاه اقْرَأْ على إرادة القول. وعن قتادة: يقرأ ذلك اليوم من لم يكن في الدنيا قارئا. وبِنَفْسِكَ فاعل كفى. وحَسِيباً تمييز وهو بمعنى حاسب كضريب القداح بمعنى ضاربها وصريم بمعنى صارم ذكرهما سيبويه. وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا. ويجوز أن يكون بمعنى الكافي وضع موضع الشهيد فعدّى بعلى لأنّ الشاهد يكفى المدّعى ما أهمه. فإن قلت: لم ذكر حسيبا؟ قلت: لأنه بمنزلة الشهيد والقاضي والأمير، لأنّ الغالب أنّ هذه الأمور يتولاها الرجال، فكأنه قيل: كفى بنفسك رجلا حسيبا. ويجوز أن يتأوّل النفس بالشخص، كما يقال: ثلاثة أنفس. وكان الحسن إذا قرأها قال: يا ابن آدم، أنصفك والله من جعلك حسيب نفسك.

[سورة الإسراء (17): آية 15]

مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (15)

أى: كل نفس حاملة وزرا، فإنما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ وما صحّ منا صحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب «1» قوما إلا بعد أن نَبْعَثَ إليهم رَسُولًا فتلزمهم الحجة. فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل، لأنّ معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف، والعمل بها لا

يصح إلا بعد الايمان . قلت : بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة ، لئلا يقولوا :

كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولا ينبهنا على النظر في أدلة العقل .

[سورة الإسراء (17) : آية 16]

وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً (16)

---

(1) . قال محمود : «معناه وما صح مناصحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب قوما حتى تلزمهم الحجة ببعث الرسول . . .

الخ» قال أحمد : وهذا السؤال أيضاً إنما يتوجه على قدرى يزعم أن العقل يرشد إلى وجوب النظر وإلى كثير من أحكام اللّه تعالى ، وإن لم يبعث رسول فيكلف بعقله ويرتب على ترك امتثال التكليف استيجاب العذاب ، إذ العقل كاف عندهم في إيجاب المعرفة بل في جميع الأحكام ، بناء على قاعدة التحسين والتقبيح العقليين . وأما السنى فلا يتوجه عليه هذا السؤال ، فان العقل عنده شرط في وجوب عموم الأحكام ، ولا تكليف عنده قبل ورود الشرائع وبعث الأنبياء ، وحينئذ يثبت الحكم وتقوم الحجة ، كما أنبأت عنه هذه الآية التي يروم الزمخشري تحريفها فتعتاص عليه وتسد طرق الحيل بين يديه ، لأنه الكتاب العزيز الذي

لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، نعم العقل عمدة في حصول المعرفة لا في وجوبها ، وبين الحصول والوجوب بون بعيد ، واللّه الموفق .

(172/453)

وَإِذا أَرَدْنا

وإذا دنا وقت إهلاك قوم ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل ، أمرناهم «1» فَفَسَقُوا أى أمرناهم بالفسق ففعلوا ، والأمر مجاز ، لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم : افسقوا ، وهذا لا يكون فبقى أن يكون مجازاً «2» ، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صباً ، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات ، فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه ، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبرّ ، كما خلقهم أصحاء أقوياء ، وأقدرهم على الخير والشرّ ، وطلب منهم إيثار الطاعة على المعصية فآثروا الفسوق ، فلما فسقوا حق عليهم القول وهو كلمة العذاب فدمّرهم . فإن قلت : هلا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا ؟ قلت : لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز ، فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه ، وذلك أن المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه ، وهو كلام مستفيض .

يقال : أمرته فقام ، وأمرته فقرأ لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة ، ولو ذهبت تقدّر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب ، ولا يلزم على هذا قولهم : أمرته فعصاني ، أو فلم يمتثل أمرى . لأنّ ذلك مناف للأمر مناقض له ، ولا يكون ما يناقض الأمر مأموراً به ، فكان محالا أن يقصد أصلا حتى يجعل دالا على المأمور به ، فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي ، لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوى لأمره مأموراً به ، وكأنه يقول : كان منى أمر فلم تكن منه طاعة ، كما أن من يقول : فلان يعطى ويمنع ، ويأمر وينهى ، غير قاصد إلى مفعول . فإن قلت : هلا كان ثبوت العلم بأن اللّه لا يأمر بالفحشاء وإنما يأمر بالقصد والخير ، دليلا على أن المراد أمرناهم بالخير ففسقوا ؟ قلت : لا يصحّ ذلك ، لأن قوله فَفَسَقُوا

يدافعه ، فكأنك أظهرت شيئاً وأنت تدعى إضمار خلافه ، فكان صرف الأمر إلى المجاز هو الوجه ، ونظير «أمر» شاء : في أن مفعوله استفاض فيه الحذف ، لدلالة ما بعده عليه ، تقول : لو شاء لأحسن إليك ، ولو شاء لأساء إليك . تريد : لو شاء الإحسان ولو شاء الإساءة ، فلو ذهبت تضمر خلاف ما أظهرت – وقلت : قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان أو من أهل الاساءة ، فاترك الظاهر المنطوق به وأضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة – لم تكن على سداد . وقد فسر بعضهم أَمَرْنا بكثرنا ، وجعل أمرته فأمر من باب فعلته

---

(1) . قوله «أمرناهم ففسقوا» في النسفي : أمرنا مترفيها : متنعميها وجبابرتها . (ع)

(2) . قال محمود : «حقيقة أمرهم أن يقول لهم : افسقوا . ولا يكون هذا ، فتعين أن يكون مجازا . . . الخ» قال أحمد : نص حسن إلا قوله أنهم خولوا النعم ليشكروا ، فانه فرعه ، على قاعدة وجوب إرادة اللّه تعالى للطاعة . والحق أنهم خولوها وأمروا بالشكر ، ففسقوا وكفروا على خلاف الأمر ، والأمر غير الارادة على قاعدة أهل الحق ، واللّه الموفق .

(173/453)

ففعل . كثرته فثبر . وفي الحديث : «خير المال سكة «1» مأبورة ومهرة مأمورة «2»» أى كثيرة النتاج . وروى أن رجلا من المشركين قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إنى أرى أمرك هذا حقيرا ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : إنه سيأمر «3» . أى سيكثر وسيكبر .

[سورة الإسراء (17) : آية 17]

وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (17)

وقرئ : آمرنا من أمر وأمره غيره . وأمّرنا بمعنى أمرنا ، أو من أمر إمارة ، وأمره اللّه .

أى : جعلناهم أمراء وسلطناهم كَمْ مفعول أَهْلَكْنا ومِنَ الْقُرُونِ بيان لكم وتمييز له ، كما

يميز العدد بالجنس ، يعنى عاد وثمودا وقرونا بين ذلك كثيرا . ونبه بقوله وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً على أن الذنوب هي أسباب الهلكة لا غير ، وأنه عالم بها ومعاقب عليها .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 18 إلى 19]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً (18) وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (19)

من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة «4» ، تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد ، فقيد الأمر تقييدين ، أحدهما : تقييد المعجل بمشيئته . والثاني : تقييد المعجل له بإرادته ، وهكذا الحال : ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضاً منه ، وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه ، فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة ، وأمّا

---

(1) . قوله «كثبرته فثبر ، وفي الحديث خير المال سكة مأبورة» في الصحاح «ثبرته» أى حبسته . وفيه «السكة» الطريقة من النخل . وفيه «أبر نخله» أى لقحه وأصلحه . (ع)

(2) . أخرجه حميد وإسحاق وابن أبى شيبة والحرث والطبراني وأبو عبيد من رواية مسلم بن بديل عن إياس بن زهير عن سويد بن هبيرة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال

«خير مال المرء ميرة مأمورة أو سكة مأثورة. قال ابن إسحاق ومعه النضر بن شميل وغيره يرفعه.

(3). لم أجده.

(4). قال محمود: «أى من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة... الخ» قال أحمد: ومثل ذلك التقييد ورد في الآية الأخرى، وهو قوله تعالى مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ فأدخل «من» المبعضة على حرث الدنيا، ونحل الطالب حرث الآخرة مراده، وزاد عليه.

(174/453)

المؤمن التقى فقد اختار مراده وهو غنى الآخرة، فما يبالى: أوتى حظا من الدنيا أو لم يؤت فإن أوتى فيها وإلا فربما كان الفقر خيرا له وأعون على مراده. وقوله لِمَنْ نُرِيدُ بدل من له، وهو بدل البعض من الكل، لأن الضمير يرجع إلى «من» وهو في معنى الكثرة. وقرئ: يشاء. وقيل: الضمير للّه تعالى، فلا فرق إذاً بين القراءتين في المعنى ويجوز أن يكون للعبد، على أنّ للعبد ما يشاء من الدنيا، وأن ذلك لواحد من الدهماء «1» يريد به اللّه ذلك.

وقيل : هو من يريد الدنيا بعمل الآخرة ، كالمنافق ، والمرائى ، والمهاجر للدنيا ، والمجاهد للغنيمة والذكر ، كما قال صلى اللّه عليه وسلم «فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله فهجرته إلى اللّه ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه «2»» مَدْحُوراً مطرودا من رحمة اللّه سَعْيَها حقها من السعى وكفاءها من الأعمال الصالحة. اشترط ثلاث شرائط في كون السعى مشكورا : إرادة الآخرة بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور ، والسعى فيما كلف من الفعل والترك ، والإيمان الصحيح الثابت. وعن بعض المتقدّمين : من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله : إيمان ثابت ، ونية صادقة ، وعمل مصيب. وتلا هذه الآية. وشكر اللّه :

الثواب على الطاعة.

[سورة الإسراء (17) : آية 20]

كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (20)

كُلًّا كل واحد من الفريقين ، والتنوين عوض من المضاف إليه نُمِدُّ هم : نزيدهم من عطائنا ، ونجعل الآنف منه مددا للسالف لا نقطعه ، فنرزق المطيع والعاصي جميعا على وجه التفضل وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ وفضله مَحْظُوراً أى ممنوعا ، لا يمنعه من عاص لعصيانه

[سورة الإسراء (17) : آية 21]

انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (21)

انْظُرْ بعين الاعتبار كَيْفَ جعلناهم متفاوتين في التفضل. وفي الآخرة التفاوت أكبر، لأنها ثواب وأعواض وتفضل، وكلها متفاوتة. وروى أن قوما من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضى اللّه عنه، فخرج الإذن لبلال وصهيب، فشق على أبى سفيان، فقال سهيل بن عمرو: إنما أُتينا من قبلنا، إنهم دعوا ودعينا يعنى إلى الإسلام، فأسرعوا وأبطأنا، وهذا باب عمر، فكيف التفاوت في الآخرة، ولئن حسدتموهم على باب عمر

---

(1). قوله «لواحد من الدهماء» في الصحاح «دهماء الناس» جماعتهم. (ع)

(2). متفق عليه من حديث عمر.

لما أعدّ اللّه لهم في الجنة أكثر. وقرئ: وأكثر تفضيلا. وعن بعضهم: أيها المباهي بالرفع منك في مجالس الدنيا، أما ترغب في المباهاة بالرفع في مجالس الآخرة وهي أكبر وأفضل؟

[سورة الإسراء (17): آية 22]

لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (22)

فَتَقْعُدَ من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت، كأنها حربة بمعنى صارت، يعنى: فتصير

جامعا على نفسك الذم وما يتبعه من الهلاك من إلهك ، والخذلان والعجز عن النصرة ممن جعلته شريكا له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 646 . 657 ﴾

(176/453)

وقال الخازن :

قوله ﴿ سبحان الذين أسرى بعبده ليلاً ﴾

روى ابن الجوزي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه سئل عن تفسير سبحان الله فقال : " تنزيه الله عن كل شيء " هكذا ذكره بغير سند وقال النحويون : سبحان اسم علم على التسبيح يقال سبحت الله تسبيحاً فالتسبيح هو المصدر وسبحان الله علم للتسبيح وتفسير سبحان الله ، تنزيه الله عن كل سوء ونقيصة وأصله في اللغة التباعد فمعنى سبحان الله بعده ونزاهته عن كل ما لا يبغي ﴿ الذي أسرى ﴾ يقال سري به وأسري به لغتان ﴿ بعده ﴾ أجمع المفسرون والعلماء والمتكلمون ، أن المراد به محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يختلف أحد من الأمة في ذلك ، وقوله بعبده إضافة تشريف وتعظيم وتبجيل وتفخيم وتكريم ومنه قول بعضهم .

لا تدعني إلا بيا عبدها . . .

فإنه أشرف أسمائي

قيل : لما بلغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الدرجات العالية والرتب الرفيعة ليلة المعراج ، أوحى الله إليه يا محمد بم شرفتك ؟ قال : رب حيث نسبتني إلى نفسك بالعبودية .

فانزل الله سبحانه وتعالى : سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً .

فإن قلت : الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل .

(177/453)

قلت : أراد بقوله ليلاً بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء وأنه أسري به في بعض ليلة من مكة إلى الشام مسيرة شهر أو أكثر ، فدل تنكير الليل على البعضية ﴿ من المسجد الحرام ﴾ قيل كان الإسراء من نفس مسجد مكة وفي حديث مالك بن صعصعة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر " وذكر حديث المعراج ، وسيأتي بكماله فيما بعد وقيل عرج به من دار أم هانىء بنت أبي طالب وهي بنت عمه أخت علي رضي الله تعالى عنه ، فعلى هذا أراد بالمسجد الحرام الحرم ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ يعني إلى بيت المقدس سمي أقصى لبعده عن المسجد الحرام أو لأنه لم يكن

حينئذ وراءه مسجد ﴿ الذي باركنا حوله ﴾ يعني الأنهار والأشجار والثمار ، وقيل سماه مباركاً لأنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة والوحي وقبلة الأنبياء قبل نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) وإليه تحشر الخلق يوم القيامة .

فإن قلت : ظاهر الآية يدل على أن الإسراء كان إلى بيت المقدس والأحاديث الصحيحة تدل على أنه عرج به إلى السماء فكيف الجمع بين الدليلين ، وما فائدة ذكر المسجد الأقصى فقط ؟ قلت : قد كان الإسراء على ظهر البراق إلى المسجد الإقصى ، ومنه كان عروجه إلى السماء على المعراج وفائدة ذكر المسجد الأقصى فقط أنه (صلى الله عليه وسلم) لو أخبر بصعوده إلى السماء أولاً لاشتد إنكارهم لذلك فلما أخبر أنه أسرى به إلى بيت المقدس ، وبان لهم صدقه فيما أخبر به من العلامات التي فيه وصدقوه عليها أخبر بعد ذلك بعروجه إلى السماء ، فجعل الإسراء إلى المسجد الأقصى كالتوطئة لمعراجه إلى السماء .

وقوله تعالى : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ يعني من عجائب قدرتنا فقد رأى محمد (صلى الله عليه وسلم) في تلك الليلة الأنبياء وصلى بهم ورأى الآيات العظام .

فإن قلت لفظة من قوله من آياتنا تقتضي التبعيض وقال في حق إبراهيم عليه السلام وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وظاهر هذا يدل على فضيلة إبراهيم عليه السلام على محمد (صلى الله عليه وسلم) ولا قائل به فما وجهه .

قلت : ملكوت السموات والأرض من بعض آيات الله أيضاً ولآيات الله أفضل من ذلك وأكثر والذي أراه محمداً (صلى الله عليه وسلم) من آياته وعجائبه تلك الليلة كان أفضل من ملكوت السموات والأرض ، فظهر بهذا البيان فضل محمد (صلى الله عليه وسلم) على إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) ﴿ إنه هو السميع ﴾ لأقواله ودعائه ﴿ البصير ﴾ لأفعاله الحافظة له في ظلمة الليل وقت إسرائه وقيل إنه هو السميع لما قالته له قريش حين أخبرهم بمسراه إلى بيت المقدس ﴿ البصير ﴾ بما ردوا عليه من التكذيب .

وقيل : إنه هو السميع لأقوال جميع خلقه البصير بأفعالهم فيجازي كل عامل بعمله .

وحمله على العموم أولى .

فصل

في ذكر حديث المعراج وما يتعلق به من الأحكام ، وما قال العلماء فيه (ق) حدثنا قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبي الله (صلى الله عليه وسلم) حدثهم عن ليلة أسري به قال : " بينما أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجعاً ، ومنهم من قال بين النائم واليقظان إذ أتاني آت فقد قال وسمعته يقول : فشق ما بين هذه إلى هذه فقلت للجارود وهو إلى جنبي ما يعني به قال من ثغرة نحره إلى شعرته سمعته يقول من قصته إلى شعرته ، فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً ، فغسل قلبي ثم حشى ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض فقال له الجارود : أهو البراق يا أبا حمزة ؟ قال أنس : نعم يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه ، فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى أتى المساء الدنيا فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل : وقد أرسل إليه قال : نعم قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال : هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح .

قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال : محمد قيل : وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة قال : هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا ثم قالا : مرحباً بالأخ الصالح ، والنبي الصالح .

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل : ومن معك قال محمد

قيل وقد أرسل إليه قال : نعم قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت إذا يوسف ، قال : هذا يوسف فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح .

(180/453)

ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل : ومن معك ؟ قال : محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت ، فإذا إدريس قال : هذا إدريس فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحباً فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا هارون قال : هذا هارون فسلم عليه فسلمت فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح .

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قال مرحباً فنعم المجيء فلما خلصت فإذا موسى قال : هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح

فلما تجاوزت بكى قيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل : ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء لما خلصت فإذا إبراهيم قال : هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة قال : هذه سدرة المنتهى فإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران ، فقلت : ما هذان يا جبريل قال : أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ، ثم رفع لي البيت المعمور ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فأخذت اللبن فقال : هي الفطرة أنت عليها وأمتك ثم فرضت على الصلوات خمسين صلاة كل يوم فرجعت ، فمررت على موسى فقال بم أمرت قلت : أمرت بخمسين صلاة كل يوم .

قال : إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم وإني والله قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فرجعت

فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم ، فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى ، قال : بم أمرت ؟ قلت : بخمس صلوات كل يوم قال : إن أمتك لا تستيع خمس صلوات كل يوم وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك قال سألت : ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم قال : فلما جاوزت نادى منادي أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي "

(182/453)

زاد في رواية أخرى " وأجزي بالحسنة عشراً " وفي رواية أخرى " بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان وفيه ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملىء إيماناً وحكمة ، وفيه فرفع إلى البيت المعمور فسألت جبريل فقال هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا لم يعودوا مرة أخرى " (ق) " عن أنس بن مالك قال : كان أبو ذر يحدث أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ، ففرج صدري

ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً ، فأفرغها في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء الدنيا : افتح قال من هذا قال هذا جبريل قيل هل معك أحد قال : نعم معي محمد (صلى الله عليه وسلم) قال : فأرسل إليه قال نعم فافتح ففتح قال : فلما علونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة قال فإذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح ، قال : قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى ، قال : ثم عرج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية فقال لخازنها : افتح .

فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح .

قال أنس بن مالك : فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وعيسى وموسى وإبراهيم ، ولم يثبت كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه قد وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة ، قال : لما مر جبريل ورسول الله بإدريس قال مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح ، قال : ثم مر فقلت من هذا قال هذا إدريس قال : ثم مررت بموسى فقال مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح قال : فقلت من هذا قال : هذا موسى .

قال ثم مررت بعيسى فقال مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح قلت من هذا قال : عيسى ابن مريم قال ثم مررت بإبراهيم فقال مرحباً بالنبي الصالح والإبن الصالح قال فقلت من هذا قال هذا إبراهيم .

قال ابن شهاب : وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام .

قال ابن حزم وأنس بن مالك قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ففرض الله على أمتي خمسين صلاة قال : فرجعت بذلك حتى مررت بموسى فقال موسى : ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت : فرض عليهم خمسين صلاة .

قال لي موسى : فراجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك قال فراجعت ربي فوضع شطرها .

قال فرجعت إلى موسى فأخبرته قال : راجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك قال : فراجعت ربي فقال : هي خمس وهن خمسون لا يبدل القول لدي قال فرجعت إلى موسى فقال : راجع ربك فقلت قد استحييت من ربي قال : ثم انطلق بي جبريل حتى أتى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي ؟ قال : ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك "

(ق) عن شريك بن أبي نمر " أنه سمع أنس بن مالك يقول ليلة أسري برسول الله (صلى الله عليه وسلم) من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام .

(184/453)

فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم هو خيرهم فقل آخرهم خذوا خيرهم فكانت تلك الليلة ، فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم ، فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ، ثم أتى بطست من ذهب فيه نور من ذهب محشواً إيماناً ، وحكمة فحشا به صدره ولغاد يده يعني عروق حلقه ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا ، فضرب باباً من أبوابها فناداه أهل السماء من هذا فقال جبريل قالوا : ومن معك قال معي محمد قالوا : وقد بعث إليه قال نعم قالوا : مرحباً به وأهلاً يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء ما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم فوجد في السماء الدنيا آدم عليه السلام فقال له جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه ورد عليه السلام وقال : مرحباً وأهلاً اي بني نعم

الابن أنت فإذا هو في السماء الدنيا ، بنهرين يطردان فقال : ما هذان النهران يا جبريل ؟ قال : هذان النيل والفرات عنصر هما ثم مضى به في السماء ، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر قال ما هذا يا جبريل قال : هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك ثم عرج إلى السماء الثانية فقالت الملائكه له مثل ما قالت له الأولى من هذا ؟ قال جبريل قالوا : ومن معك قال محمد قالوا : وقد بعث إليه قال : نعم قالوا : مرحباً به وأهلاً ثم عرج به إلى السماء الثالثة .

وقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية .

ثم عرج به إلى الرابعة فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء الخامسة .

فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء السادسة .

فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء السابعه .

فقالوا له مثل ذلك .

كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس في الثانية وهارون في الرابعة ، وآخر في الخامسة ولم أحفظ أسمه وإبراهيم في السادسة وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله فقال موسى : رب لم أظن أن يرفع علي أحد ، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى فكان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى الله فيما أوحى إليه خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ، ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال : يا محمد ماذا عهد إليك ربك قال عهد إلي خمسين صلاة كل يوم وليلة قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم فالتفت النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت فعلا به إلى الجبار تعالى ، فقال : وهو مكانه يا رب خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت خمس صلوات ، ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال : يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا ، فضعفوا فتركوه فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً ، فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى جبريل عليه السلام ليشير عليه ، فلا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال : يا رب إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم ، فخفف عنا .

فقال الجبار : يا محمد .

قال : لبيك وسعديك قال : إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب قال :

فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك فرجع إلى موسى

فقال : كيف فعلت ؟ قال : خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها .

قال موسى : قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ارجع إلى ربك

فليخفف عنك أيضاً قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : يا موسى قد والله

استحييت من ربي مما اختلفت إليه .

(186/453)

قال : فاهبط بسم الله فاستيقظ وهو في المسجد الحرام "

هذا لفظ حديث البخاري وأدرج مسلم حديث شريك بن أنس الموقوف عليه في حديث

ثابت البناني المسند ، فذكر من أول حديث شريك طرفاً ثم قالك وساق الحديث نحو

حديث ثابت قال مسلم ، وقدم وأخر وزاد ونقص وليس في حديث ثابت من هذه الألفاظ

إلا ما نورده على نصه ، أخرجه مسلم وحده وهو حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني

عن أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " قال أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل

فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عن منتهى طرفه .

قال : فركبته حتى أتيت بيت المقدس قال فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء ، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل عليه السلام اخترت الفطرة قال ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ، قال : قد بعث إليه ففتح لنا ، فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة ، فاسستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل ، قيل ومن معك قال محمد ، قيل : وقد بعث إليه ، قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام فإذا هو قد أعطى شطر الحسن ، قال : فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة .

فاستفتح جبريل فقيل : من هذا ؟ قال جبريل قيل : ومن معك ؟ قال : محمد قيل وقد بعث إليه قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب ودعا لي بخير ، قال الله تعالى ورفعناه مكاناً علياً ثم عرج بنا إلى الخامسة .

فاستفتح جبريل فقيل : من هذا قال : جبريل قيل : ومن معك قال محمد قيل : وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل ، فقيل من هذا قال جبريل قيل : ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل : من هذا قال : جبريل قيل : ومن معك ؟ قال محمد قيل : وقد بعث إليه قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى وإذا ورقها كأذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلائل فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، فأوحى إلي ما أوحى ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى فقال : ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم قال : فرجعت إلى ربي فقلت : يا رب خفف على أمتي فحط عني خمساً فرجعت إلى موسى فقلت : قد حط عني خمساً قال : إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف قال : فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى حتى قال يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك

خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً ، فإن عملها كتبت واحدة قال فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه "

هذه رواية مسلم وأخرجه الترمذي مختصراً وفيه " أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أتى بالبراق ليلة أسرى به ملجماً مسرجاً ، فاستصعب عليه فقال له جبريل أبمحمد تفعل هكذا ما ركبك أحد أكرم على الله منه فارفض عرقاً " وأخرجه النسائي مختصراً ، والمعنى واحد وفي آخره قال : فرجعت إلى ربي فسألته التخفيف فقال إني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فخمس بخمسين فقم بها أنت وأمتك فعرفت أن أمر الله جرى بقول حتم فلم أرجع .

فصل

قال البغوي : قال بعض أهل الحديث ما وجدنا للبخاري ومسلم في كتابيهما شيئاً لا يحتمل مخرجاً إلا حديث شريك بن أبي نمر عن أنس ، وأحال الأمر فيه على شريك وذلك أنه ذكر

فيه إن ذلك كان قبل الوحي ، واتفق أهل العلم على أن المعراج كان بعد الوحي بنحو من اثنتي عشرة سنة وفيه أن الجبار تبارك وتعالى دنا فتدلى وذكرت عائشة أن الذي دلى هو جبريل عليه السلام .

قال البغوي : وهذا الاعتراض عندي لا يصح لأن هذا كان رؤيا في النوم أراه الله ذلك قبل أن يوحى إليه بدليل آخر الحديث ، فاستيقظ وهو في المسجد الحرام ثم عرج به في اليقظة بعد الوحي ، وقبل الهجرة بسنة تحقيقاً لرؤياه التي رآها من قبل كما أنه رأى فتح مكة في المنام عام الحديبية سنة ست من الهجرة ثم كان تحقيقها سنة ثمان ، ونزل قوله سبحانه وتعالى : لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق .

وقال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى في كتابه شرح مسلم : قد جاء في رواية شريك في هذا الحديث أوهام أنكرها عليه العلماء وقد نبه مسلم على ذلك بقوله قدم وأخر وزاد ونقص منه قوله وذلك قبل أن يوحى إليه وهو غلط لم يوافق عليه فإنه الإسراء أقل ما قيل فيه أنه كان بعد مبعثه (صلى الله عليه وسلم) بخمسة عشر شهراً .

وقال الحربي : كانت ليلة الإسراء ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة

، وقال الزهري : كان ذلك بعد مبعثه (صلى الله عليه وسلم) بخمس سنين .

وقال ابن إسحاق : أسري به (صلى الله عليه وسلم) وقد فشا الإسلام بمكة والقبائل .

قال الشيخ محيي الدين : وأشبه الأقوال قول الزهري وابن إسحاق وأما قوله في رواية شريك وهو نائم وفي الرواية الأخرى بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان ، فقد يحتج به من يجعلها رؤيا نوم ، ولا حجة فيه إذ قد يكون ذلك حالة أول وصول الملك إليه ، وليس في الحديث ما يدل على كونه نائماً في القصة كلها هذا كلام القاضي عياض ، وهذا الذي قاله في رواية شريك وأن أهل العلم قد أنكروها قد قاله غيره ، وقد ذكر البخاري في رواية شريك هذه عن أنس في كتاب التوحيد من صحيحه ، وأتى بالحديث مطولاً .

قال الحافظ من رواية شريك بن أبي نمر عن أنس قد زاد فيه زيادة مجهولة ، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة وقد روى حديث الإسراء جماعة من الحفاظ المتقنين ، والأئمة المشهورين كابن شهاب وثابت البناني وقتادة يعني عن أنس فلم يأت أحد منهم بما أتى شريك ، وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث قال : والأحاديث التي تقدمت قبل هذا هي المعمول عليها .

فصل

في شرح بعض ألفاظ حديث المعراج وما يتعلق به ، كانت ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة يقال كانت في رجب ويقال في رمضان وقد تقدم زيادة على هذا القدر في الفصل الذي قبل هذا واختلف الناس في الإسراء برسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقيل : إنما كان ذلك في المنام والحق الذي عليه أكثر الناس ، ومعظم السلف وعامة الخلف من المتأخرين والفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسري بروحه وجسده (صلى الله عليه وسلم) ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ ولفظ العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد ، والأحاديث الصحيحة التي تقدمت تدل على صحة هذا القول لمن طالعها ، وبحث عنها وحكى محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن حذيفة أنه قال : كل ذلك كان رؤيا وأنه ما فقد جسد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإنما أسري بروحه . وحكي هذا القول عن عائشة أيضاً وعن معاوية ونحوه والصحيح ما عليه جمهور العلماء من السلف والخلق والله أعلم قوله صلى الله عليه سلم أتيت بالبراق هو اسم للدابة التي ركبها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليلة أسري به واشتقاقه من البرق لسرعته ، أو لشدة صفائه وبياضه ولمعانه وتلألؤه ونوره والحلقة باسكان اللام ، ويجوز فتحها والمراد بربط البراق بالحلقة الأخذ بالاحتياط في الأمور وتعاطي الأسباب ، وإن ذلك لا يقدح في التوكل إذا كان الاعتماد على الله تعالى وقوله جاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن

فاخترت اللبن فيه اختصار والتقدير ، قال لي اختر فاخترت اللبن وهو قول جبريل اخترت الفطرة يعني فطرة الإسلام ، وجعل اللبن علامة للفطرة الصحيحة السليمة لكونه سهلاً طيباً سائغاً للشاربين وأنه سليم العاقبة ، بخلاف الخمر فإنها أم الخبائث وجالبة لأنواع الشر .

(191/453)

قوله : ثم عرج بي حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل : من أنت قال : جبريل فيه بيان الأدب لمن استأذن وأن يقول : أنا فلان ولا يقول : أنا فإنه مكروه وفيه أن للسماء أبواباً وبوابين وأن عليها حرساً وقول بواب السماء وقد أرسل إليه ، وفي الرواية الأخرى وقد بعث إليه معناه للإسراء وصعوده السماء وليس مراده الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة ، فإن ذلك لا يخفى عليه إلى هذه المدة هذا هو الصحيح في معناه ، وقيل غيره وقوله فإذا أنا بآدم وذكر جماعة من الأنبياء فيه استحباب لقاء أهل الفضل والصلاح بالبشر والترحيب والكلام اللين الحسن ، وإن كان الزائر أفضل من المزور وفيه جواز مدح الإنسان في وجهه إذا أمن عليه من الإعداب وغيره من أسباب الفتنة وقوله فإذا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور فيه دليل على جواز الاستناد إلى القبلة ، وتحويل ظهره إليها .

وقوله ثم ذهب بي إلى السدرة هكذا ، وقع في هذه الرواية السدرة الألف واللام وفي باقي الروايات إلى سدرة المنتهى قال ابن عباس وغيره من المفسرين : سميت بذلك لأن علم الملائكة ينتهي إليها .

ولم يجاوزها أحد غير رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال ابن مسعود : سميت بذلك لكونها ينتهي إليها ما يهبط من فوقها ، وما يصعد من تحتها من أمر الله وقوله وإذا ثمرها كالقلال ، هو بكسر القاف جمع قلة بضمها ، وهي الجرة الكبيرة التي تسع قربتين أو أكثر قوله فرجعت إلى ربي .

قال الشيخ محيي الدين النووي : معناه رجعت إلى الموضع الذي ناجيته فيه أولاً فناجيته فيه ثانياً وقوله : فلم أزل أرجع بين موسى وبين ربي معناه وبين موضع مناجاة ربي .

قلت : وأما الكلام على معنى الرؤية وما يتعلق بها فإنه سيأتي إن شاء الله تعالى في تفسير سورة النجم ، عند قوله تعالى ثم دنا فتدلى قوله ففرض الله سبحانه وتعالى على أمتي خمسين صلاة إلى قوله فوضع شطرها وفي الرواية الأخرى فوضع عني عشراً وفي الأخرى خمساً ليس بين هذه الرواية منافاة ، لأن المراد بالشطر الجزء وهو الخمس ، وليس المراد منه

التصنيف ، وأما رواية العشر فهي رواية شريك ورواية الخمس رواية ثابت البناني وقتادة ، وهما أثبت من شريك فالمراد حط عني خمساً إلى آخره ثم قال : خمس وهن خمسون يعني خمسين في الأجر والثواب لأن الحسنة بعشر أمثالها ، واحتج العلماء بهذا الحديث على جواز نسخ الشيء قبل فعله وفي أول الحديث أنه شق صدره (صلى الله عليه وسلم) ليلة المعراج ، وقد شق أيضاً في صغره وهو عند حليمة التي كانت ترضعه ، فالمراد بالشق الثاني زيادة التطهير لمن يراد به من الكرامة ليلة المعراج .

وقوله : أتيت بطست من ذهب ، قد يتوهم متوهم أنه يجوز استعمال إناء الذهب لنا وليس الأمر كذلك لأن هذا الفعل من فعل الملائكة ، وهو مباح لهم استعمال الذهب أو يكون هذا قد كان قبل تحريمه وقوله ممتلىء إيماناً وحكمة فأفرغها في صدري .

فان قلت الحكمة والإيمان معان والإفراغ صفة الإجسام ، فما معنى ذلك ؟ قلت : يحتمل أنه جعل في الطست شيء يحصل به كمال الإيمان والحكمة وزيادتهما ، فسمي إيماناً وحكمة لكونه سبباً لهما وهذا من أحسن المجاز .

وقوله في صفة آدم عليه السلام : فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة هو جمع سواد ، وقد فسره في الحديث بأنه نسم بنيه يعني أرواح بنيه وقد اعترض على هذا ، بأن أرواح المؤمنين في السماء وأرواح الكفار تحت الأرض السفلى فكيف تكون في السماء

والجواب عنه أنه يحتمل أن أرواح الكفار ، تعرض على آدم عليه السلام ، وهو في السماء فوافق وقت عرضها على آدم مرور النبي (صلى الله عليه وسلم) فأخبر بما رأى .

(193/453)

وقوله : فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر عن شماله بكى فيه شفقة الوالد على أولاده وسروره وفرحه بحسن حال المؤمن منهم ، وحزنه على سوء حال الكفار منهم .

وقوله في إدريس مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح قد اتفق المؤرخون على إن إدريس ، هو أخنوخ وهو جد نوح عليهما السلام فيكون جد النبي (صلى الله عليه وسلم) كما أن إبراهيم جده ، فكان ينبغي أن يقول بالنبي الصالح والابن الصالح كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام : فالجواب عن هذا أنه قيل : إن إدريس المذكور هنا هو إلياس ، وهو من ذرية إبراهيم فليس هو جد نوح هذا جواب القاضي عياض .

قال الشيخ محيي الدين : ليس في الحديث ما يمنع كون إدريس أباً لنبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) وإن قوله : الأخ الصالح يحتمل إن يكون قاله تلطفاً وتأدباً ، وهو أخ وإن كان أباً لأن الأنبياء إخوة المؤمنون إخوة والله أعلم .

فصل

في ذكر الآيات التي ظهرت بعد المعراج الدالة على صدقه (صلى الله عليه وسلم) وسياق أحاديث تتعلق بالإسراء قال البغوي؛ روي أنه لما رجع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليلة أسرى به وكان بذي طوى قال: يا جبريل إن قومي لا يصدقون.

قال: يصدقك أبو بكر وهو الصديق.

قال ابن عباس وعائشة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: " لما كانت ليلة أسري بي إلى السماء أصبحت بمكة فضقت بأمري وعرفت أن الناس يكذبوني فروي أنه (صلى الله عليه وسلم) قعد معتزلاً حزيناً، فمر به أبو جهل فجلس إليه فقال كالمستهزىء هل استفدت من شيء؟ قال: نعم أسري بي الليلة قال إلى إين قال إلى بيت المقدس قال: ابو جهل: ثم أصبحت بين أظهرنا؟ قال: نعم فلم يرد أبو جهل أن ينكر ذلك مخافة أن يجحده الحديث، ولكن قال: أتحدث قومك بما حدثتني به.

قال: نعم.

قال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هلموا، فانقضت المجالس وجاؤوا حتى جلسوا إليهما قال: حدث قومك بما حدثتني قال: نعم أسري بي الله قالوا إلى أين؟ قال: إلى بيت

المقدس قالوا ثم أصبحت بين أظهرنا ؟ قال : نعم قال فبقي الناس بين مصفق وبين واضع يده على رأسه متعجباً وارتد أناس ممن كان قد آمن به وصدقه ، وسعى رجل من المشركين إلى أبي بكر فقال له هل لك في صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس قال : أو قد قال ذلك قال نعم قال لئن كان قال ذلك لقد صدق قالوا : أو تصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء في ليلة قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إني أصدقه بما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة فلذلك سمي أبو بكر الصديق .

قال : وكان في القوم من أتى المسجد الأقصى .

قالوا : هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد قال : نعم قال فذهبت أنعت حتى التبس علي قال فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل فنعت المسجد وأنا أنظر إليه ، فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب فيه ثم قالوا يا محمد أخبرنا عن عيرنا فهي أهم إلينا هل لقيت منها شيئاً ؟ قال : نعم مررت بعير بني فلان وهي بالروحاء وقد أضلوا بعيراً وهم في طلبه ، وفي رحالهم قدح من ماء فعطش فأخذته فشربته ، ثم وضعته كما كان فسلوا هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا قالوا : هذه آية قال ومررت بعير بني فلان وفلان راكبان قعوداً لهما بذي طوى فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان فانكسرت يده فسلوهما عن ذلك قالوا وهذه آية أخرى قالوا : فأخبرنا عن عيرنا قال مررت بها بالتنعيم قالوا فما عدتها وأحمالها وهيئتها ؟ فقال : كنت في شغل عن ذلك ثم مثلت له بعدتها وأحمالها

وهيئتها ومن فيها وكانوا بالحزورة قال : نعم هيئتها كذا وكذا وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس "

قالوا : وهذه آية .

(195/453)

ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون والله لقد قص محمد شيئاً وبينه حتى أتوا كداء فجلسوا عليه فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه إذ قال قائل منهم : هذه الشمس قد طلعت .

وقال آخر : وهذه العير قد طلعت يقدمها بعير أورق فيه فلان وفلان كما قال : فلم يؤمنوا وقالوا : هذا سحر مبين (م) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط .

قال : فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي فإذا رجل ضرب جعداً كأنه من رجال شنوءة وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلي أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا إبراهيم قائم يصلي

أشبه الناس به صاحبكم يعني به نفسه صلى الله عليه سلم فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت من الصلاة قال لي قائل : يا محمد يا محمد هذا مالك صاحب النار ، فسلم عليه فالتفتُّ إليه فبدأني بالسلام " (ق) عن جابر أنه سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " لما كذبتني قريش قمت إلى الحجر فجلى الله إلي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه زاد البخاري في رواية : لما كذبني قريش حين أسري بي إلى المقدس " وذكر الحديث (م) عن أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " أتيت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر ، فإذا هو قائم يصلي في قبره " عن بريدة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لما انتهينا إلى بيت المقدس قال جبريل كذا بأصبعه فخرق به الحجر وشد به البراق " أخرجه الترمذي .

فإن قلت : كيف رأى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) موسى يصلي في قبره وكيف صلى بالأنبياء في بيت المقدس ثم وجدهم على مراتبهم في السموات ، وسلموا عليه وترحبوا به وكيف تصح الصلاة من الأنبياء بعد الموت ، وهم في الدار الآخرة ؟ قلت أما صلاته (صلى الله عليه وسلم) بالأنبياء في بيت المقدس يحتمل أن الله سبحانه وتعالى ،

جمعهم له ليصلي بهم ويعرفوا فضله وتقدمه عليهم ثم إن الله سبحانه وتعالى ، أراه إياهم في السموات على مراتبهم ليعرف هو مراتبهم وأما مروره بموسى ، وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر ، فيحتمل أنه كان بعد رجوعه من المعراج ، وأما صلاة الأنبياء وهم في الدار الآخرة فهم في حكم الشهداء بل أفضل منهم ، وقد قال الله سبحانه وتعالى : ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء فالأنبياء أحياء بعد الموت ، وأما حكم صلاتهم فيحتمل أنها الذكر والدعاء وذلك من أعمال الآخرة فإن الله تعالى قال ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم ﴾ وورد في الحديث أنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ، ويحتمل أن الله سبحانه وتعالى خصّهم بخصائص في الآخرة كما خصهم في الدنيا بخصائص لم يخص بها غيرهم .

منها أنه (صلى الله عليه وسلم) أخبر أنه رآهم يلبون ، ويحجون ، فكذلك الصلاة والله أعلم بالحقائق .

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾

﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة ﴿ هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا ﴾ يعني وقلنا لهم : لا تتخذوا ﴿ من دوني وكيلاً ﴾ يعني رباً كفيلاً ﴿ ذرية ﴾ يعني يا ذرية ﴿ من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾ يعني أن نوحاً كان كثير الشكر ، وذلك أنه كان إذا أكل طعاماً أو شرب شراباً ولبس ثوباً قال : الحمد لله فسماه الله عبداً شكوراً لذلك .

(198/453)

وقوله ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب ﴾ : يعني أعلمناهم وأخبرناهم فيما آتيناهم من الكتاب أنهم سيفسدون وهو قوله تعالى ﴿ لتفسدن في الأرض مرتين ﴾ وقال ابن عباس : وقضينا عليهم في الكتاب فإلى بمعنى على ، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ واللام في لتفسدن لام القسم تقديره والله لتفسدن في الأرض يعني بالمعاصي والمراد بالأرض أرض الشام ، وبيت المقدس ﴿ ولتعلن ﴾ يعني ولتستكبرن ولتظلمن الناس ﴿ علواً كبيراً فإذا جاء وعد أولاهما ﴾ يعني أولى المرتين قيل : إفسادهم في المرة الأولى هو ما خالفوا من أحكام التوراة ، وركبوا من المحارم وقيل : إفسادهم في المرة الأولى قتلهم شعياء في الشجرة وارتكابهم المعاصي ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا ﴾ يعني جالوت وجنوده ، هو الذي قتله

داود وقيل : هو سنحاريب وهو من أهل نينوى وقيل هو بختنصر البابلي وهو الأصح ﴿ أولي بأس شديد ﴾ يعني ذوي بطش وقوة في الحرب ﴿ فجاسوا خلال الديار ﴾ يعني طافوا بين الديار وسطها يطلبونكم ليقتلونكم ﴿ وكان وعداً مفعولاً ﴾ يعني قضاء كائناً لازماً لا خلف فيه ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ﴾ يعني رددنا لكم الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم ، وحين تبتم من ذنوبكم ورجعتم عن الفساد ﴿ وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً ﴾ يعني أكثر عدداً ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾ يعني لها ثواباً وجزاء إحسانها ﴿ وإن أسأتم فلها ﴾ يعني فعليها إساءتها ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ يعني المرة الآخرة من إفسادكم وهو قصدكم قتل عيسى فخلصه الله منهم ، ورفعه إليه ، وقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام ، فسلط عليهم الفرس والروم فسبوهم وقتلوهم وهو قوله تعالى ﴿ ليسوءوا وجوهكم ﴾ يعني ليحزنوكم وقرىء بالنون أي ليسوء الله وجوهكم ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾ يعني بيت المقدس ونواحيه ﴿ كما دخلوه أول مرة ﴾ يعني وقت إفسادهم الأول ﴿ وليتبروا ما علوا تتبيراً ﴾ يعني وليهلكوا ما غلبوا عليه من بلاد بني

إسرائيل إهلاكاً .

ذكر القصة في هذه الآية

قال محمد بن إسحاق : كانت بنو إسرائيل فيهم الأحداث والذنوب وكان الله في ذلك متجاوزاً عنهم ومحسناً إليهم وكان أول ما نزل بسبب ذنوبهم أن ملكاً منهم كان يدعى صديقة وكان الله إذا ملّك عليهم الملك بعث معه نبياً ليسدده ويرشده ، ولا ينزل عليهم كتاباً إنما يؤمرون اتباع التوراة والأحكام التي فيها ، فلما ملك صديقة بعث الله معه شعياء وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وشعياء هو الذي بشر بعيسى ومحمد (صلى الله عليه وسلم) فقال : أبشري أورشليم الآن يأتيك راكب الحمار ومن بعده صاحب البعير .

فملك ذلك الملك يعني صديقة بني إسرائيل وبيت المقدس زماناً ، فلما انقضى ملكه عظمت الأحداث فيهم وكان معه شعياء فبعث الله سنجاريب ملك بابل ومعه ستمائة ألف راية ، فلم يزل سائراً حتى نزل حول بيت المقدس ، والملك مريض من قرحة كانت في ساقه ، فجاء شعياء النبي إليه ، وقال : يا ملك بني إسرائيل إن سنحاريب ملك بابل ، قد نزل بك هو وجنوده ؟ بستمائة ألف راية ، وقد هابهم الناس وفرقوا منهم فكبر ذلك على الملك وقال : يا نبي الله هل أتاك من الله وحي فيما حدث فتخبرنا به وكيف يفعل الله بنا وبسنجاريب وجنوده فقال شعياء : لم يأتني وحي في ذلك فبينما هم على ذلك أوحى الله إلى شعياء النبي ، أن أئت ملك بني إسرائيل فمره أن يوصي وصيته ، ويستخلف على ملكه

من يشاء من أهل بيته فأتى شعياء ملك بني إسرائيل وقال : إن ربك قد أوحى إلي أن آمرك أن توصي وصيتك وتستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك فإنك ميت ، فلما قال ذلك شعياء لصديقة الملك أقبل على القبلة فصلى ودعا فقال وهو يبكي ويتضرع إلى الله تعالى بقلب مخلص : اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يا قدوس يا متقدس يا رحمن يا رحيم يا رؤوف ، يا من لا تأخذه سنة ولا نوم اذكرني بعملي وفعلي وحسن قضائي على بني إسرائيل ، وذلك كله كان منك وأنت أعلم به مني سري وعلانيتي لك .

فاستجاب الله له وكان عبداً صالحاً فأوحى الله إلى شعياء أن يخبر صديقة أن ربه قد استجاب له ورحمه ، وأخر أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنجاريب فأتاه شعياء فأخبره ، فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الحزن وخر ساجداً لله وقال : إلهي وإله آبائي لك سجدت وسبحت وكبرت وعظمت أن الذي تعطي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء على الغيب والشهادة أنت الأول والآخر والظاهر والباطن ، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين أنت الذي أجبت دعوتي ورحمت تضرعي ، فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعياء أن قل للملك

صديقة فيأمر عبداً من عبيده ، فيأتيه بماء التين فيجعله على قرحته فيشفى فيصبح وقد برأ ففعل ذلك فشفي فقال الملك لشيعاء : سل ربك أن يجعل لنا علماً بما هو صانع بعدونا هذا .

قال الله لشعياء : قل له إني قد كفيتك عدوك وأنجيتك منهم ، وأنهم سيصبحون موتى كلهم إلا سنحاريب ، وخمسة نفر من كتابه أحدهم بختنصر .

(201/453)

فلما أصبحوا جاء صارخ يصرخ على باب المدينة يا ملك بني إسرائيل إن الله كفاك عدوك ، فاخرج فإن سنحاريب ومن معه هلكوا فخرج الملك ، والتمس سنحاريب فلم يوجد في الموتى فبعث الملك في طلبه فأدركه الطلب في مفازة ومعه خمسة نفر من كتابه ، أحدهم بختنصر فجعلوهم في الجوامع ثم أتوا بهم الملك فلما رآهم خر ساجداً لله تعالى ، من حين طلعت الشمس إلى العصر ثم قال لسنحاريب : كيف رأيت فعل ربنا بكم ألم يقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون ؟ فقال سنجاريب : قد أتاني خبر ربكم ونصره إياكم ورحمته التي يرحمكم بها قبل أن أخرج من بلادي فلم أطع مرشداً ولم يلقني في الشقوة إلا قلة عقلي ولو سمعت أو عقلت ما غزوتكم فقال الملك صديقة : الحمد لله رب العالمين الذي كفاناكم بما

شاء ، وإن ربنا لم يمتعك ومن معك لكرامتك عليه ، ولكنه إنما أبقاك ومن معك لتزدادوا شقوة في الدنيا وعذاباً في الآخرة ولتخبروا من وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا بكم ، فتنذروا من بعدكم ولولا ذلك لقتلك ومن معك ولدمك ودم من معك أهون على الله من دم قراد لو قتلت .

ثم إن ملك بني إسرائيل أمر أمير حرسه أن يقذف في رقابهم الجوامع ، ففعل وطاف بهم سبعين يوماً حول بيت المقدس وإيلياء ، وكان يرزقهم في كل يوم خبزين من شعير لكل رجل منهم فقال سنحاريب للملك صديقة : القتل خير مما نحن فيه وما تفعل بنا فأمر بهم إلى السجن فأوحى الله إلى شعياء النبي أن قل لملك بني إسرائيل يرسل سنحاريب ومن معه لينذروا من وراءهم وليكرمهم وليحملهم حتى يبلغوا بلادهم .

فبلغ ذلك شعياء للملك ففعل وخرج سنحاريب ومن معه ، حتى قدموا بابل فلما قدم جمع الناس فأخبرهم كيف فعل الله تعالى بجنوده فقال له كهانه وسحرته : يا ملك بابل قد كنا نقص عليك خبر ربهم وخبر نبيهم ووحي الله إلى نبيهم ، فلم تطعنا وهي أمة لا يستطيعها أحد مع ربهم وكان أمر سنحاريب تخويفاً لبني إسرائيل ، ثم كفاهم الله تعالى ذلك تذكره

وعبرة ثم إن سنحاريب لبث بعد ذلك سبع سنين ، ثم مات ، واستخلف على ملكه بختنصر ابن عمه فعمل بعمله وقضى بقضائه فلبث سبع عشر سنة ثم قبض الله ملك بني إسرائيل صديقة فمرج أمر بني إسرائيل وتنافسوا الملك حتى قتل بعضهم بعضاً ، وشعياء نبيهم معهم لا يقبلون منه فلما فعلوا ذلك ، قال الله لشعياء : قم في قومك حتى أوحي على لسانك .

فلما قام أطلق الله لسانه بالوحي فقال : يا سماء استمعي ويا أرض أنصتي ، فإن الله يريد أن يقص شأن بني إسرائيل الذين رباهم بنعمته واصطفاهم لنفسه وخصهم بكرامته ، وفضلهم على عباده وهم كالغنم الضائعة التي لا راعي لها ، فآوى شاردتها وجمع ضالتها وجبر كسيرها وداوى مريضها ، وأسمن مهزولها وحفظ سمينها ، فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها فقتل بعضها بعضاً ، حتى لم يبق منها عظم صحيح يجبر إليه آخر ، فويل لهذه الأمة الخاطئة الذين لا يدرون أنى جاءهم الحين .

إن البعير مما يذكر وطنه فينتابه وأن الحمار مما يذكر الأرى الذي يشبع عليه فيراجعه وأن الثور مما يذكر المرج الذي سمن فيه فينتابه وإن هؤلاء القوم لا يذكرون من حيث جاءهم

الخير ، وهم أولو الألباب والعقول ليسوا ببقر ولا حمير وإني ضارب لهم مثلاً فليسمعوه ، قل كيف ترون في أرض كان خراباً زماناً لا عمران فيها ، وكان لها رب حكيم قوي فأقبل عليها بالعمارة ، وكره أن تخرب أرضه وهو قوي أو يقال : ضيع وهو حكيم فأحاط عليها جداراً وشيد فيها قصراً وأنبط فيها نهراً وصفّ فيه غراساً من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وألوان الثمار كلها ، وولى ذلك واستحفظه قيّماً ذا رأي وهمة حفيظاً قوياً فلما أطلعت جاء طلعها خروباً .

فقالوا : بئست الأرض هذه فنرى أن يهدم جدارها وقصرها ويدفن نهرها ، ويقبض قيّمها ويحرق غراسها حتى تصير كما كانت أول مرة خراباً مواتاً ، لا عمران فيها قال الله تعالى : قل لهم الجدار ديني والقصر شريعتي وإن النهر كتابي وأن القيّم نبيي وأن الغراس هم ، وأن الخروب الذي أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة وإني قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم ، وأنه مثل ضربته لهم يتقربون إليّ بذبح البقر والغنم ، وليس ينالني اللحم ولا آكله ويدّعون أن يتقربوا إلي بالتقوى والكف عن ذبح الأنفس التي حرمتها ، وأيديهم مخضوبة منها وثيابهم متزملات بدمائها يشيدون لي البيوت مساجد ، ويطهرون أجوافها وينجسون قلوبهم وأجسادهم ، ويدنسونها ويزوقون لي المساجد ويزينونها ، ويخربون عقولهم وأخلاقهم ويفسدونها فأي حاجة لي إلى تشييد البيوت ولست أسكنها ، وأي حاجة إلى تزويق المساجد ولست أدخلها إنما أمرت برفعها لأذكر وأسبح فيها .

يقولون : صمنا فلم يرفع صيامنا وصلينا فلم تنور صلاتنا ، وتصدقنا فلم تزكَّ صدقتنا ، ودعونا بمثل حنين الحمام وبكينا بمثل عواء الذئاب في كل ذلك لا يستجاب لنا ، قال الله : فاسألهم ما الذي يمنعني أن أستجيب لهم ألست أسمع السامعين ، وأبصر الناظرين وأقرب المجيبين وأرحم الراحمين فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بقول الزور ، ويتقوون عليه بطعمة الحرام أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم صاغية إلى من يحاربني ويحادني وينتهك محارمي ، أم كيف تزكو عندي صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غيرهم إنما آجر عليها أهلها المغصوبين أم كيف أستجيب لهم دعاءهم وإنما هو قولهم بألسنتهم ، والفعل من ذلك بعيد وإنما أستجيب للداعي اللين ، وإنما أستمع قول المستضعف المستكين ، وان من علامة رضاي رضى المساكين يقولون لما سمعوا كلامي وبلغتهم رسالتي : إنها أقاويل منقولة ، وأحاديث متواترة وتآليف مما تؤلف السحرة والكهنة ، وزعموا أنهم لو شاؤوا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا ، ولو شاؤوا أن يطلعوا على علم الغيب بما توحي إليهم الشياطين اطلعوا ، وإني قد قضيت يوم خلقت السموات والأرض قضاء أثبته وحتمته على نفسي وجعلت دونه أجلاً مؤجلاً لا بد أنه واقع فإن صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب ، فليخبروك متى

أنفذه أو في أي زمان يكون وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاؤون فليأتوا بمثل هذه القدرة التي بها أمضيت فإني مظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وإن كانوا يقدرون على أن يؤلفوا ما يشاؤون فيؤلفوا مثل هذه الحكمة التي أدبر بها ذلك القضاء ، إن كانوا صادقين وإني قد قضيت يوم خلقت السماء والأرض ، أن أجعل النبوة في الأجراء ، وأن أجعل الملك في الرعاء والعز في الأذلاء والقوة في الضعفاء والغنى في الفقراء ، والعلم في الجهلة والحكمة في الأميين فسلهم متى هذا ومن القائم بهذا ، ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره إن كانوا يعلمون وإني باعث لذلك نبياً أمياً ليس أعمى من عميان ، ولا

(205/453)

ضالاً من ضالين وليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا متزين بالفحش ، ولا قوال للخنا أسدده بكل جميل وأهب له كل خلق كريم أجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقولة والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته والحق شريعته والهدى إمامه والإسلام ملته وأحمد اسمه أهدي به بعد الضلالة ، وأعلم به بعد الجهالة وأرفع به بعد الخمالة وأشهر به بعد النكرة ، وأكثر به القلة وأغني به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتتة وأمم

متفرقة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر توحيداً لي وإيماناً بي وإخلاصاً لي يصلون قياماً وقعوداً ، وركعاً وسجوداً ، ويقاتلون في سبيلي صفوفاً وزحوفاً ، ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاتي ألهمهم التكبير ، والتوحيد والتسبيح والتحميد والتهليل والمدحة والتمجيد لي في مسيرهم ومجالسهم ، ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم يكبرون ويهللون ويقدسون على رؤوس الأشراف يطهرون لي ، الوجوه والأطراف ويعقدون لي الثياب على الأنصاف قربانهم دماؤهم ، وأناجيلهم في صدورهم رهبان بالليل ليوث بالنهار ذلك فضلي أوتيه من أشاء أنا ذو الفضل العظيم .

(206/453)

فلما فرغ شعياء من مقالته عدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم فلقيته شجرة ، فانفلقت له فدخل فيها فأدركه الشيطان ، فأخذ بهدبة من ثوبه فأراهم إياها فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها ، وقطعوه في وسطها واستخلف الله على بني إسرائيل بعد ذلك رجلاً منهم يقال : ناشة بن أموص وبعث لهم أرمياء بن حلقيا نبياً ، وكان من سبط هرون بن عمران ، وذكر ابن إسحاق أنه الخضر واسمه أرمياء الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فقام عنه وهي تهتز خضراء فبعث الله أرمياء إلى ذلك الملك ليسدده ويرشده ، ثم

عظمت الأحداث في بني إسرائيل ، وركبوا المعاصي واستحلوا المحارم فأوحى الله إلى أرمياء ، أن ائت قومك من بني إسرائيل فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمي وعرفهم بأحداثهم .

فقال أرمياء : يا رب إني ضعيف إن لم تقوني عاجز إن لم تبلغني مخذول إن لم تنصرني قال الله تعالى : أو لم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتي وأن القلوب والألسنة بيدي ، أقلبها كيف شئت إني معك ، ولن يصل إليك شيء معي فقام أرمياء فيهم ، ولم يدر ما يقول فألهمه الله في الوقت خطبة بليغة بين لهم فيها ثواب الطاعة ، وعقاب المعصية وقال في آخرها : عن الله حلفت بعزتي لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ، ولأسلطن عليهم جباراً قاسياً ألبسه الهيبة ، وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم ، ثم أوحى الله إلى أرمياء أني مهلك بني إسرائيل بيافث ويافث من أهل بابل فسلط عليهم بختنصر فخرج من ستمائة ألف راية ودخل بيت المقدس بجنوده ووطىء الشام وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم وخرب بيت المقدس وأمر جنده أن يملأ كل رجل منهم ترسه تراباً ، يقذفه في بيت المقدس ففعلوا ذلك حتى ملؤوه .

ثم أمرهم أن يجمعوا من بلدان بيت المقدس كلهم ، فاجتمع عنده كل صغير وكبير من بني إسرائيل فاختار منهم سبعين ألف صبي ، فلما خرجت غنائم جنده وأراد أن يقسمها فيهم ، قالت له الملوك الذين كانوا معه : أيها الملك لك غنائمنا كلها واقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذي اخترتهم من بني إسرائيل ، فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمان ، وفرق من بقي من بني إسرائيل ثلاث فرق ثلثاً أقرهم بالشام وثلثاً سباهم وثلثاً قتلهم وذهب بآنات بيت المقدس ، وبالصبيان السبعين ألفاً حتى أقدمهم بابل فكانت هذه الوقعة الأولى التي أنزل الله ببني إسرائيل بظلمهم فذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَالَ الدِّيارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾ .

﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عباداً لنا أولي بأس شديد ﴾ يعني بختنصر وأصحابه ، ثم إن بختنصر أقام في سلطانه ما شاء ثم رأى رؤيا عجيبة إذا رأى شيئاً أصابه فأنساه

الذي رأى فدعا دانيال وحنانيا وعزاريا ومشائيل وكانا من ذراري الأنبياء ، وسألهم عنها فقالوا : أخبرنا بها نخبرك بتأويلها فقال : ما أذكرها ولئن لم تخبرني بها وبتأويلها لأنزعن أكتافكم فخرجوا من عنده ، فدعوا الله وتضرعوا إليه فأعلمهم الله بالذي سألهم عنه فجاؤوه فقالوا : رأيت تمثالاً قدماه وساقاه من فخار وركبتاه وفخذاه من نحاس وبطنه من فضة وصدره من ذهب ، ورأسه وعنقه من حديد قال : صدقتم قالوا : فبينما أنت تنظر إليه وقد أعجبك أرسل الله صخرة من السماء فدقته فهي التي أنستكها قال : صدقتم فما تأويلها قالوا : تأويلها أنك رأيت الملوك بعضهم كان ألين ملكاً ، وبعضهم ، كان أحسن ملكاً وبعضهم كان أشد ملكاً ، والفخار أضعفه ثم فوقه النحاس أشد منه ثم فوق النحاس الفضة أحسن من ذلك وأفضل والذهب أحسن من الفضة ، وأفضل ثم الحديد ملكك فهو أشد وأعزمما قبله ، والصخرة التي رأيت أرسل الله من السماء فدقته فنبي يبعثه الله من السماء فيدق ذلك أجمع ويصير الأمر إليه ، ثم إن أهل بابل قالوا لبختنصر : أرأيت هؤلاء الغلمان من بني إسرائيل الذين سألناك أن تعطيناهم ففعلت فإنا قد أنكرنا نساءنا منذ كانوا معنا ، لقد رأينا نساءنا انصرفت وجوههن عنا إليهم فأخرجهم من بين أظهرنا أو اقتلهم فقال شأنك بهم فمن أحب منكم أن يقتل من كان في يده ، فليفعل فلما قربوهم للقتل بكوا وتضرعوا إلى الله ، وقالوا : يا ربنا أصابنا البلاء بذنوب غيرنا فوعدهم الله أن يحييهم فقتلوا إلا من كان منهم مع بختنصر منهم دانيال وحنانيا وعزاريا وميشائيل ، ثم لما أراد الله هلاك

بختنصر انبعث فقال لمن في يده من بني إسرائيل : أرأيتم هذا البيت الذي خربت والناس الذي قتلت منكم ، وما هذا البيت ؟ قالوا هو بيت الله

(209/453)

وهؤلاء أهله كانوا من ذراري الأنبياء فظلموا وتعدوا فسلطت عليهم بذنوبهم وكان ربهم رب السموات والأرض ورب الخلائق كلهم يكرمهم ويعزهم ، فلما فعلوا أهلكهم وسلط عليهم غيرهم فاستكبر وتجبر ، وظن أنه بجبروته فعل ذلك ببني إسرائيل ، قال فأخبروني كيف لي أن أطلع إلى السماء العليا ، فأقتل من فيها وأتخذها لي ملكاً فإني قد فرغت من أهل الأرض ، قالوا : ما يقدر عليها أحد من الخلائق قال : لتفعلن أو لأقتلنكم عن آخركم فبكوا وتضرعوا إلى الله تعالى فبعث الله عليه بقدرته بعوضة ، فدخلت منخره حتى عضت أم دماغه فما كان يقر ولا يسكن ، حتى يوجأ له رأسه على أم دماغه فلما مات شقوا رأسه فوجدوا البعوضة عاضة على أم دماغه ، ليري العباد قدرته ونجى الله من بقي من بني إسرائيل في يده ، وردهم إلى الشام فبنوا فيه وكثروا حتى كانوا على أحسن ما كانوا عليه ، ويزعمون أن الله سبحانه وتعالى أحيا أولئك الذين قتلوا فلحقوا بهم ثم إنهم لما دخلوا الشام دخلوها ، وليس معهم من الله عهد .

كانت التوراة قد احترقت وكان عزير من السبايا الذين كانوا ببابل ، فلما رجع إلى الشام جعل يبكي ليله ونهاره ، وخرج عن الناس فبينما هو كذلك إذ جاءه رجل فقال له : يا عزير ما يبكيك ؟ قال : أبكي على كتاب الله وعهده الذي كان بين أظهرنا الذي لا يصلح ديننا وآخرتنا غيره .

(210/453)

قال : أفتحب أن يرد إليك قال : نعم قال : ارجع فصم وتطهر وطهر ثيابك ثم موعدك هذا المكان غداً فرجع عزير فصام وتطهر وطهر ثيابه ثم عمد إلى المكان الذي وعده ، فجلس فيه فأتاه ذلك الرجل بإناء فيه ماء وكان ملكاً بعثه الله إليه فسقاه من ذلك الإناء ، فمثلت التوراة في صدره فرجع إلى بني إسرائيل فوضع لهم التوراة ، فأحبوه حباً لم يحبوا حبه شيئاً قط ، ثم قبضه الله تعالى وجعلت بنو إسرائيل بعد ذلك يحدثون الأحداث ، ويعود الله عليهم ، ويبعث فيهم الرسل فريقاً يكذبون وفريقاً يقتلون حتى كان آخر من بعث إليهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ، وكانوا من بيت آل داود فزكريا مات ، وقيل قتل وقصدوا عيسى ليقتلوه فرفعه الله من بين أظهرهم وقتلوا يحيى ، فلما فعلوا ذلك بعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له خردوش ، فسار إليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم

الشام ، فلما ظهر عليهم أمر رأساً من رؤساء جنوده يقال له بيورزاذان صاحب القتل فقال له : إني قد كنت حلفت بإلهي لئن أنا ظفرت على أهل بيت المقدس لأقتلنهم حتى يسيل الدم في وسط عسكري ، إلا أن لا أجد أحداً أقتله فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ، ثم إن بيورزاذان دخل بيت المقدس فقام في البقعة التي كانوا يقربون فيها قربانهم ، فوجد فيها دماً يغلي فسألهم عنه فقال : يا بني إسرائيل ما شأن هذا الدم يغلي ؟ أخبروني خبره .

(211/453)

فقالوا : هذا دم قربان لنا قرّبناه فلم يقبل منا فلذلك يغلي ولقد قربنا القربان من ثمانمائة سنة ، فتقبل منا إلا هذا فقال : ما صدقتموني فقالوا لو كان كأول زماننا لتقبل منا ، ولكن قد انقطع منا الملك والنبوة والوحي فلذلك لم يقبل منا فذبح بيورزاذان منهم على ذلك الدم سبعمائة وسبعين روحاً ، من رؤوسهم فلم يهدأ الدم فأمر سبعمائة غلام من غلمانهم ، فذبحهم على الدم فلم يهدأ فأمر بسبعة آلاف من شيبهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ ، فلما رأى بيورزاذان أن الدم لا يهدأ قال لهم : يا بني إسرائيل ويلكم أصدقوني وأصبروا على أمر ربكم فقد طالما ملكتم في الأرض تفعلون ما شئتم قبل أن لا أترك منكم نافخ نار من ذكر ولا أنثى إلا قتلته ، فلما رأوا الجهد وشدة القتل صدقوه الخبر فقالوا : إن

هذا دم نبي كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله تعالى فلو كنا أطعناه كنا أرشدنا .

وكان يخبرنا عن أمركم فلم نصدقه فقتلناه فهذا دمه فقال لهم بيوروزاذان ما كان اسمه قالوا : يحيى بن زكريا قال : الآن صدقتموني لمثل هذا ينتقم ربكم منكم فلما علم بيوروزاذان أنهم صدقوه خر ساجداً وقال لمن حوله : أغلقوا ابواب المدينة ، وأخرجوا من كان هاهنا من جيش خردوش ، وخلا في بني إسرائيل ثم قال : يا يحيى بن زكريا قد علم ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك ، ومن قتل منهم فاهدأ باذن ربك قبل أن لا أبقي من قومك أحداً إلا قتلته فهدأ الدم باذن الله تعالى ، ورفع بيوروزاذان عنهم القتل وقال : آمنت بما آمنت به بنو إسرائيل ، وأيقنت أنه لا رب غيره .

وقال لبني إسرائيل : إن خردوش أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره ، وإني لا أستطيع أن أعصيه قالوا له افعل ما أمرت به ، فأمرهم فحفروا خندقاً ، وأمرهم بأموالهم من الخيل والبغال الحمير والإبل والبقر والغنم فذبحها حتى سال الدم في العسكر ، وأمر بالقتلى الذي قتلوا قبل ذلك فطرحوه على ما قتل من المواشي ، فلم يظن خردوش إلا أن ما في الخندق من دماء بني إسرائيل فلما بلغ الدم عسكره ، أرسل إلى بيوروزاذان أن ارفع

عنهم القتل ثم انصرف إلى بابل وقد أفنى بني إسرائيل أو كاد يفنيهم ونهى الوقعة الأخيرة التي أنزل الله ببني إسرائيل في قوله لتفسدن في الأرض مرتين فكانت الوقعة الأولى بختنصر وجنوده ، والأخرى خردوش وجنوده وكانت أعظم الوقعتين ، فلم تقم لهم بعد ذلك راية وانتقل الملك بالشام ونواحيها إلى الروم اليونانيين ، إلا أن بقايا بني إسرائيل كثروا وكانت لهم الرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك ، وكانوا في نعمة إلى أن بدلوا وأحدثوا الأحداث فسلط الله عليهم ططوس المقدس ابن أسبيانيوس الرمي ، فخرب بلادهم وطردهم عنها ، ونزع الله عنهم الملك والرياسة وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، فما لبثوا في أمة إلا وعليهم الصَّغار والجزية وبقي بيت المقدس خراباً إلى خلافة عمر بن الخطاب فعمره المسلمون بأمره ، وقيل في سبب قتل يحيى عليه السلام : أن ملك بني إسرائيل كان يكرمه ويدني مجلسه ، وأن الملك هوى بنت امرأته ، وقال ابن عباس ابنة أخيه فسأل يحيى تزويجها فنهاه عن نكاحها ، فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحيى وعمدت حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثياباً رقاقاً حمراً وطيبتها وألبستها الحلي ، وأرسلتها إلى الملك وأمرتها أن تسقيه فإن هو راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما سألته فإذا أعطاها ما سألت سألت رأس يحيى بن زكريا ، وأن يؤتى به في طست ففعلت فلما راودها قالت : لا أفعل حتى تعطيني ما أسألك قال فما تسأليني قالت : رأس

يحيى بن زكريا في هذا الطست فقال ويحك سليني غير هذا .

قالت : ما أريد غير هذا فلما أبت عليه ، بعث فأتي برأسه حتى وضع بين يديه والرأس يتكلم يقول : لا يحل لك فلما أصبح إذا دمه يغلي ، فأمر بتراب فألقي عليه فرقى الدم يغلي فلا زال يغلي ، ويلقى عليه التراب ، وهو يغلي حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يرقى ويغلي وسلط الله عليهم ملك بابل فخرب بيت المقدس ، وقتل سبعين ألفاً حتى سكن دمه .

﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ يعني يا بني إسرائيل بعد انتقامه منكم فيرد الدولة إليكم ﴿ وإن عدتم ﴾ أي إلى المعصية ﴿ عدنا ﴾ أي إلى العقوبة .

قال قتادة فعادوا فبعث الله محمداً (صلى الله عليه وسلم) : فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ أي سجناً ومحبساً من الحصر الذي هو مجلس الحبس ، وقيل : فراشاً من الحصير الذي يبسط ويفترش .

قوله تعالى ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ أي إلى الطريقة التي هي أصوب وقيل : إلى الكلمة التي هي أعدل وهي شهاة أن لا إله إلا الله ﴿ ويبشر ﴾ يعني القرآن ﴿ المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ يعني الجنة ﴿ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ يعني النار في الآخرة ﴿ ويدع الإنسان ﴾ أي على نفسه وولده

وماله ﴿ بالشر ﴾ يعني قوله عند الغضب : اللهم أهلكه اللهم العنه ونحو ذلك ﴿ دعاءه بالخير ﴾ أي كدعائه ربه أن يهب له النعمة والعافية ولو استجاب الله دعاءه على نفسه لهلك ، ولكن الله لا يستجيب بفضله وكرمه ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ أي بالدعاء على ما يكره أن يستجاب له فيه ، وقال ابن عباس : ضجراً لا صبر له على سّراء ولا ضراء .

(214/453)

قوله تعالى ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ﴾ أي علامتين دالتين على وحدانيتنا وقدرتنا وفي معنى الآية قولان : أحدهما : أن يكون المراد من الآيتين نفس الليل والنهار ، وهو أنه جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدنيا والدين ، أما في الدين فلأن كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير مع كونهما متعاقبين على الدوام ففيه أقوى دليل على أن لهما مدبراً يدبرهما ، ويقدرهما بالمقادير المخصوصة وأما في الدنيا ، فلأن مصالح العباد لا تتم إلا بهما ففي الليل يحصل السكون ، والراحة وفي النهار يحصل التصرف في المعاش والكسب .
والقول الثاني : أن يكون المراد وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ أي جعلنا الليل ممحو الضوء مطموساً مظلماً لا يستبان فيه شيء ﴿

وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ أي تبصر فيه الأشياء رؤية بينة .

قال ابن عباس : جعل الله نور الشمس سبعين جزءاً ونور القمر كذلك فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءاً ، فجعلها مع نور الشمس وحكي أن الله أمر جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات ، فطمس عليه الضوء وبقي فيه النور وسأل ابن الكواء علياً عن السواد الذي في القمر ، فقال هو أثر المحو ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ أي لتتوصلوا ببياض النهار إلى استبانة أعمالكم ، والتصرف في معايشكم ﴿ ولتعلموا ﴾ أي باختلاف الليل والنهار ﴿ عدد السنين والحساب ﴾ أي ما يحتاجون إليه ولولا ذلك ، لما علم أحد حساب الأوقات ولتعطلت الأمور ، ولو ترك الله الشمس والقمر ، كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولم يدر الصائم متى يفطر ، ولم يعرف وقت الحج ولا وقت حلول الديون المؤجلة .

واعلم أن الحساب يبنى على أربع مراتب : الساعات والأيام والشهور والسنين ، فالعدد للسنين والحساب لما دونها من الشهور والأيام والساعات ، وليس بعد هذه المراتب الأربعة إلا التكرار ﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ يعني وكل شيء تفتقرون إليه من أمر دينكم

ودنيا كم قد بيّناه بيانا ً شافيا ً واضحا ً غير ملتبس قيل : إنه سبحانه وتعالى لما ذكر أحوال آيتي الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان من الله تعالى على أهل الدنيا ، وكل ذلك تفضل منه فلا جرم قال ، وكل شيء فصلناه تفصيلاً قوله ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ قال ابن عباس : عمله وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان .

وقيل : خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به .

وقيل : ما من مولود إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد ، وقيل : أراد بالطائر ما قضى عليه أنه عامله وما هو صائر إليهم من سعادة أو شقاوة ، وقيل : هو من قولك طار له سهم إذا خرج يعني ألزمناه ما طار له من عمله لزوم القلادة أو الغل ، لا ينفك عنه والعنق في قوله في عنقه كناية عن اللزم كما يقال : جعلت هذا في عنقك أي قلدتك هذا العمل ، وألزمتك الاحتفاظ به وإنما خص العنق من بين سائر الأعضاء لأنه موضع القلائد والأطواق والغل مما يزين أو يشين فإن كان عمله خيرا ً كان له كالقلادة أو الحلي في العنق وهو ما يزينه ، وإن كان عمله شرا ً كان له كالغلّ في عنقه وهو ما يشينه ويخرج له بقول تبارك وتعالى ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتابا ً يلقاه منشورا ً ﴾ قيل : بسطت للإنسان صحيفتان وووكل به ملكان يحفظان عليه حسناته وسيئاته .

فإذا مات طويت الصحيفتان ، وجعلتا معه في عنقه فلا ينشران إلا يوم القيامة ﴿ اقرأ كتابك ﴾ أي يقال له : اقرأ كتابك قيل يقرأ يوم القيامة من لم يكن قارئاً ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ أي محاسباً قال الحسن : لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك ، وقيل : يقول الكافر إنك لست بظلام للعبيد فاجعلني أحاسب نفسي .

فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ يعني أن ثواب العمل الصالح مختص بفاعله ، وعقاب الذنب مختص بفاعله أيضاً ، ولا يتعدى منه إلى غيره وهو قوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى من الآثام ، ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد بل كل أحد مختص بذنبه ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ لإقامة الحجة وقطعاً للعذر وفيه دليل على أن ما وجب إنما وجب بالسمع لا بالعقل .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ﴾ في معنى الآية قولان : أحدهما : أن المراد منه الأمر بالفعل ، ثم إن لفظ الآية يدل على أنه تعالى بماذا أمرهم فقال أكثر المفسرين : معناه أنه تعالى أمرهم بالأعمال الصالحة ، وهي الإيمان والطاعة وفعل الخير والقوم خالفوا ذلك الأمر وفسقوا .

والقول الثاني : أمرنا مترفيها أي كثرنا فساقها .

يقال أمر القوم إذا كثروا وأمرهم الله إذا كثرهم ، ومنه الحديث " خير المال مهرة مأمورة " أي كثيرة النتاج والنسل فعلى هذه قوله تعالى أمرنا ليس من الأمر بالفعل .

والمترف هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش ﴿ ففسقوا فيها ﴾ أي خرجوا عما أمرهم الله به من الطاعة ﴿ فحق عليها القول ﴾ أي وجب عليها العقاب ﴿ فدمرناها تدميراً ﴾ أي أهلكناها إهلاك استئصال والدمار الهلاك والخراب (ق) ، عن أم المؤمنين زينب بنت جحش أن النبي (صلى الله عليه وسلم) دخل عليها فزعاً يقول : " لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها .

قالت زينب : قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال : نعم إذا كثر الخبث " قوله : ويل للعرب .

ويل كلمة تقال : لمن وقع في هلكة ، أو أشرف أن يقع فيها وقوله إذا كثر الخبث أي الشر قوله تعالى ﴿ وكم أهلكنا من القرون ﴾ أي المكذبة ﴿ من بعد نوح ﴾ وهم عاد وثمود

وغيرهم من الأمم الخالية يخوف الله بذلك كفار قريش .

قال عبد الله بن أبي أوفى : القرن عشرون ومائة سنة فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أول قرن ويزيد بن معاوية في آخره .

وقيل : القرن مائة سنة وروي عن محمد بن القاسم بن عبد الله بن بشر المازني أن النبي (صلى الله عليه وسلم) وضع يده على رأسه وقال : " سيعيش هذا الغلام قرناً " قال محمد ابن القاسم : ما زلنا نعد له حتى تمت له مائة سنة ثم مات .

وقيل : القرن ثمانون سنة .

وقيل : أربعون ﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ يعني أنه عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات لا يخفى عليه شيء من أحوال الخلق .

قوله ﴿ من كان يريد العاجلة ﴾ أي الدار العاجلة يعني الدنيا ﴿ عجلنا له فيها ما نشاء ﴾ أي من البسط أو التقتير ﴿ لمن نريد ﴾ أن نفعل به ذلك أو إهلاكه ، وقيل في معنى الآية .

عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد أي القدر الذي نشاء نعجله له في الدنيا ، الذي يشاء هو ولمن نريد أن نعجل له شيئاً ، قدرناه له هذا ذم لمن أراد بعمله ظاهر الدنيا ومنفعتها وبيان أن من أرادها لا يدرك منها إلا ما قدر له ، ﴿ ثم جعلنا له ﴾ أي في الآخرة ﴿ جهنم يصلاها ﴾ أي يدخلها ﴿ مذموماً مدحوراً ﴾ أي مطروداً مباعداً .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ﴾ أي عمل لها عملها ﴿ وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ أي مقبولاً قيل : في الآية ثلاث شرائط في كون السعي مشكوراً إرادة الآخرة بعمله بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور ، والسعي فيما كلف من الفعل والترك ، والإيمان الصحيح الثابت ، وعن بعض السلف الصالح .

من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ، إيمان ثابت ، ونية صادقة ، وعمل مصيب .

قوله : ﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء ﴾ أي نمد كلا الفريقين من يريد الدنيا ، ومن يريد الآخرة ﴿ من عطاء ربك ﴾ يعني يرزقها جميعاً ثم يختلف الحال بهما في المآل ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ أي ممنوعاً عن عباده والمراد بالعطاء العطاء في الدنيا إذ لا حظ للكافر في الآخرة ﴿ انظر ﴾ يا محمد ﴿ كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ أي في الرزق والعمل يعني طالب العاجلة وطالب الآخرة ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ يعني أن تفاضل الخلق في درجات منافع الدنيا محسوس فتفاضلهم في درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم فإن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا ، كنسبة

الآخرة إلى الدنيا فإذا كان الإنسان تشتد رغبته في طلب الدنيا فلأن تقوى وتشتد رغبته في طلب الآخرة أولى ، لأنها دار المقامة .

قوله تعالى ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾ الخطاب مع النبي (صلى الله عليه وسلم) والمراد غيره وقيل معناه لا تجعل أيها الإنسان مع الله إلهاً آخر وهذا أولى ﴿ فتقعد مذموماً ﴾ أي من غير حمد ﴿ مخذولاً ﴾ أي بغير ناصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 154.127 ﴾

(219/453)

وقال النسفى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) ﴾

﴿ سُبْحَانَ ﴾ تنزيه الله عن السوء وهو علم للتسبيح كعثمان للرجل ، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره أسبح الله سبحان ، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسده ودل على التنزيه البليغ ﴿ الَّذِي أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم وسرى وأسرى لغتان ﴿ لَيْلاً ﴾ نصب على الظرف وقيده بالليل والإسراء لا يكون إلا بالليل

للتأكيد ، أو ليدل بلفظ التنكير على تقرير مدة الإسراء وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ﴿ مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ قيل : أسري به من دار أم هانىء بنت أبي طالب .

والمراد بالمسجد الحرام الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الحرم كله مسجد .

وقيل : هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر ، فقد قال عليه السلام : " بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق وقد عرج بي إلى السماء في تلك الليلة " وكان العروج به من بيت المقدس وقد أخبر قريشاً عن عيرهم وعدد جمالها وأحوالها ، وأخبرهم أيضاً بما رأى في السماء من العجائب ، وأنه لقي الأنبياء عليهم السلام وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى ، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة وكان في اليقظة ، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : والله ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه .

وعن معاوية مثله .

وعلى الأول الجمهور إذ لا فضيلة للحالم ولا مزية للنائم ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ هو بيت المقدس لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ يريد بركات الدين والدنيا لأنه متعبد الأنبياء عليهم السلام ومهبط الوحي وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة ﴿ لِنُرِيَهُ ﴾ أي محمداً عليه السلام ﴿ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ الدالة على وحدانية الله وصدق نبوته برؤيته السماوات وما فيها من الآيات ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ للأقوال ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ بالأفعال ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقيل ﴿ أسرى ﴾ ثم ﴿ باركنا ﴾ ثم ﴿ إنه هو ﴾ وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة .

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أي الكتاب وهو التوراة ﴿ هُدًى لبني إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا ﴾ أي لا تتخذوا .

وبالياء : أبو عمرو أي لئلا يتخذوا ﴿ مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ رباً تكلون إليه أموركم ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ نصب على الاختصاص أو على النداء فيمن قرأ ﴿ لا تتخذوا ﴾ بالتاء على النهي أي قلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا ذرية من حملنا مع نوح ﴿ إِنَّهُ ﴾ إن نوحاً عليه السلام ﴿ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ في السراء والضراء ، والشكر مقابلة النعمة بالثناء على المنعم ، وروي أنه كان لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس إلا قال الحمد لله ، وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم ، وآية رشد الأبناء صحة

الاقتداء بسنة الآباء وقد عرفتم حال الآباء هنالك فكونوا أيها الأبناء كذلك .

﴿ وقضينا إلى بني إِسْرَآءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ ﴾ وأوحينا إليهم وحياً مقضياً أي مقطوعاً مبتوتاً بأنهم يفسدون في الأرض لا محالة .

(221/453)

والكتاب التوراة ، ولتفسدن جواب محذوف أو جرى القضاء المبتوت مجرى القسم فيكون ﴿ لتفسدن ﴾ جواباً له كأنه قال وأقسمنا لتفسدن في الأرض ﴿ مَرَّتَيْنِ ﴾ أولاهما قتل زكرياء عليه السلام وحبس أرمياء عليه السلام حين أنذرهم سخط الله ، والأخرى قتل يحيى بن زكرياء عليهما السلام وقصد قتل عيسى عليه السلام ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيرًا ﴾ ولتستكبرن عن طاعة الله من قوله ﴿ إِن فرعون علا في الأَرض ﴾ [القصص : 4] والمراد به البغي والظلم وغلبة المفسدين على المصلحين .

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا ﴾ أي وعد الله عقاب أولاهما ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ ﴾ سلطنا عليكم ﴿ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أشداء في القتال يعني سنجاريب وجنوده أو بختنصر أو جالوت ، قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفاً ﴿ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ ﴾ ترددوا للغارة فيها .

قال الزجاج: الجوس طلب الشيء بالاستقصاء ﴿ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً ﴾ وكان وعد العقاب وعداً لا بد أن يفعل ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ ﴾ أي الدولة والغلبة ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو.

قيل: هي قتل بختنصر واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم.

وقيل أعدنا لكم الدولة بملك طالوت وقتل داود جالوت ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ مما كنتم وهو تمييز جمع نفر وهو من ينفر مع الرجل من قومه.

﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ قيل اللام بمعنى "على" كقوله: ﴿ وعليها ما اكتسبت ﴾ [البقرة: 286] والصحيح أنها على بابها لأن اللام للاختصاص والعامل مختص بجزاء عمله، حسنة كانت أو سيئة يعني أن الإحسان والإساءة كلاهما مختص بأنفسكم لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم.

وعن علي رضي الله عنه: ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه وتلاها ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ ﴾ وعد المرة الآخرة بعثناهم ﴿ لِيَسُوؤُوا ﴾ أي هؤلاء ﴿ وُجُوهَكُمْ ﴾ وحذف لدلالة ذكره أولاً عليه أي ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها كقوله ﴿

سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ [الملك : 27] ﴿ ليسوء ﴾ شامي وحمزة وأبو بكر ، والضمير لله عز وجل أو للوعد أو للبعث .

﴿ لنسوء ﴾ علي .

﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾ بيت المقدس ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴾

﴿ ما علوا ﴾ مفعول ل ﴿ يتبروا أي ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه ، أو بمعنى مدة علوهم

.

﴿ عسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ﴾ بعد المرة الثانية إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عن المعاصي ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ ﴾ مرة ثالثة ﴿ عُدْنَا ﴾ إلى عقوبتكم وقد عادوا فأعاد الله عليهم النقمة بتسليط الأكاسرة وضرب الإتاوة عليهم .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : سلط عليهم المؤمنون إلى يوم القيامة ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ محبساً .

يقال : للسجن محصر وحصير .

﴿ إِنَّ هذا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها وهي توحيد الله والإيمان برسله والعمل بطاعته أو للملة أو للطريقة ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ ويَبْشر حمزة وعلي ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ بأن لهم ﴿ أَجْراً كَبِيراً ﴾ أي

الجنة ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ ﴾ وبأن الذين ﴿ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا ﴾ أي أعددنا قلبت تاء ﴿ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ يعني النار .

(223/453)

والآية ترد القول بالمنزلة بين المنزلتين حيث ذكر المؤمنين وجزاءهم ، والكافرين وجزاءهم ، ولم يذكر الفسقة ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ أي ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله وولده كما يدعو لهم بالخير ، أو يطلب النفع العاجل وإن قل بالضرر الآجل وإن جل ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله لا يتأنى فيه تأني المتبصر ، أو أريد بالإنسان الكافر وأنه يدعو بالعذاب استهزاء ويستعجل به كما يدعو بالخير إذا مسته الشدة ، ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ يعني أن العذاب آتيه لا محالة فما هذا الاستعجال ؟ وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هو النضر بن الحارث قال : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ [الأنفال : 32] الآية .

فأجيب فضربت عنقه صبراً .

وسقوط الواو من ﴿ يدع ﴾ في الخط على موافقة اللفظ ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ

فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ أي الليل والنهار آيتان في أنفسهما فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار للتبيين كإضافة العدد إلى المعدود أي فمحونا الآية التي هي الليل وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة أو جعلنا نيري الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر .

فمحونا آية الليل التي هي القمر حيث لم نخلق له شعاعاً كشعاع الشمس فترى الأشياء به رؤية بينة ، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء ﴿ لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ لتتوصلوا ببياض النهار إلى التصرف في معايشكم ﴿ وَلِتَعْلَمُوا ﴾ باختلاف الجديدين ﴿ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ يعني حساب الآجال ومواسم الأعمال ، ولو كانا مثلين لما عرف الليل من النهار ولا استراح حراص المكتسبين والتجار ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴾ مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم ﴿ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ بيناه بياناً غير ملتبس فأزحنا عللكم وما تركنا لكم حجة علينا .

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ ﴾ عمله ﴿ فِي عُنُقِهِ ﴾ يعني أن عمله لازم له لزوم القلادة أو الغل للعنق لا يفك عنه ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ ﴾ هو صفة ل ﴿ كتاباً ﴾ .

يُلقَّاه شامي ﴿ مَنْشوراً ﴾ حال من ﴿ يلقاه ﴾ يعني غير مطوي ليمكنه قراءته أو هما صفتان للكتاب ونقول له ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ ﴾ أي كتاب أعمالك وكلٌّ يُبعث قارئاً ﴿ كفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ ﴾ الباء زائدة أي كفى نفسك ﴿ حَسِيباً ﴾ تمييز وهو بمعنى حاسب وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا أو بمعنى الكافي .

وضع موضع الشهيد فعدي "بعلى" لأن الشاهد يكفي المدعى ما أهمه ، وإنما ذكر حسيباً لأنه بمنزلة الشهيد والقاضي والأمير إذا الغالب أن يتولى هذه الأمور الرجال فكأنه قيل : كفى نفسك رجلاً حسيباً ، أو تؤوّل النفس بالشخص .

(225/453)

﴿ مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي فلها ثواب الاهتداء وعليها وبال الضلال ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ أي كل نفس حاملة وزراً فإنما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ وما صح منا أن نعذب قوماً عذاب استئصال في الدنيا إلا بعد أن نرسل إليهم رسولاً يلزمهم الحجة ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾ أي أهل قرية ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ متنعميها وجبابرتها بالطاعة عن أبي عمرو والزجاج ﴿ فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ أي خرجوا عن الأمر كقولك "أمرته فعصى" أو

﴿ أمرنا ﴾ كثرنا ، دليله قراءة يعقوب أمرنا ومنه الحديث " خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة " أي كثيرة النسل ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾ فوجب عليها الوعيد ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ فأهلكناها إهلاكاً ﴿ وَكَمْ ﴾ مفعول ﴿ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ ﴾ بيان لكم ﴿ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ يعني عاداً وثموداً وغيرهما ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ وإن أخفوها في الصدور ﴿ بَصِيرًا ﴾ وإن أرخوا عليها الستور .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ ﴾ لا ما يشاء ﴿ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ بدل من ﴿ له ﴾ بإعادة الجار وهو بدل البعض من الكل إذ الضمير يرجع إلى ﴿ من ﴾ أي من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد ، فقيد المعجل بمشيئته والمعجل له بإرادته وهكذا الحال ، ترى كثيراً من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضاً منه ، وكثيراً منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة ، وأما المؤمن التقي فقد اختار غنى الآخرة فإن أوتي حظاً من الدنيا فبها ، وإلا فربما كان الفقر خيراً له ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ ﴾ في الآخرة ﴿ يَصْلاهَا ﴾ يدخلها ﴿ مَذْمُوماً ﴾ ممقوتاً ﴿ مَّدْحُوراً ﴾ مطروداً من رحمة الله .

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وسعى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ هو مفعول به أو حقها من السعي وكفاءها من الأعمال الصالحة ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ مصدق لله في وعده ووعيده ﴿ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ مقبولاً عند الله مثاباً عليه.

(227/453)

عن بعض السلف : من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله : إيمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا الآية : فإنه شرط فيها ثلاث شرائط في كون السعي مشكوراً : إرادة الآخرة والسعي فيما كلف والإيمان الثابت ﴿ كُلاًّ ﴾ كل واحد من الفريقين والتنوين عوض عن المضاف إليه وهو منصوب بقوله ﴿ نُّمِدُّ هَؤُلآءِ ﴾ بدل من ﴿ كلاًّ ﴾ أي نمد هؤلاء ﴿ وهؤلاءآء ﴾ أي من أراد العاجلة ومن أراد الآخرة ﴿ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ رزقه و"من" تتعلق "بنمد" والعطاء اسم للمعطي أي نزيدهم من عطائنا ونجعل الآنف منه مدداً للسالف لا نقطعه فنرزق المطيع والعاصي جميعاً على وجه التفضل ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ ممنوعاً عن عباده وإن عصوا ﴿ انظُرْ ﴾ بعين الاعتبار ﴿ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ﴾ في المال والجاه والسعة والكمال ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ روي أن قوماً من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله عنه

فخرج الإذن لبلال وصهيب فشق على أبي سفيان فقال سهيل بن عمرو : إنما أتينا من قبلنا .

إنهم دعوا ودعينا يعني إلى الإسلام فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة ، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة أكثر .

﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾ فتصير جامعاً على نفسك الذم والخذلان .

وقيل : مشتوماً بالإهانة محروماً عن الإعانة ، إذ الخذلان ضد النصر والعون .

دليله قوله تعالى : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ﴾ [آل عمران : 160] حيث ذكر الخذلان بمقابلة النصر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 306. 311 ﴾

(228/453)

وقال البيضاوى :

﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾

سبحان اسم بمعنى التسبيح ﴿ الذى ﴾ هو التنزيه يستعمل علماً له فيقطع عن الإضافة

ويمنع عن الصرف قال :

قَدْ قُلْتُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ . . . سبحان من علقمة الفاخر

(229/453)

وانتصابه بفعل متروك إظهاره ، وتصدير الكلام به للتنزيه عن العجز عما ذكر بعد . و ﴿ أسرى ﴾ وسرى بمعنى ، و ﴿ لَيْلاً ﴾ نصب على الظرف . وفائدته الدلالة بتنكيره على تقليل مدة الإسراء ، ولذلك قرئ : من "الليل" . أي بعضه كقوله : ﴿ وَمِنَ اليل فَتَهَجَّدْ بِهِ ﴾ ﴿ مِّنَ المسجد الحرام ﴾ بعينه لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال : " بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق " أو "من الحرم" وسماه المسجد الحرام لأنه كله مسجد أو لأنه محيط به ، أو ليطابق المبدأ المنتهى . لما روي أنه صلى الله عليه وسلم كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسرى به ورجع من ليلته ، وقص القصة عليها وقال : " مثل لي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فصليت بهم " ثم خرج إلى المسجد الحرام وأخبر به قريشاً فتعجبوا منه استحالة ، وارتد ناس ممن آمن به ، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فقال : إن كان قال لقد صدق ، فقالوا : أتصدقه على ذلك ، قال : إني لأصدقه على أبعد من ذلك فسمي

الصديق ، واستنعته طائفة سافروا إلى بيت المقدس فجلى له فطفق ينظر إليه وينعته لهم ، فقالوا : أما النعت فقد أصاب فقالوا أخبرنا عن عيرنا ، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق ، فخرجوا يشتدون إلى الثنية فصادفوا العير كما أخبر ، ثم لم يؤمنوا وقالوا ما هذا إلا سحر مبين وكان ذلك قبل الهجرة بسنة . واختلف في أنه كان في المنام أو في اليقظة بروحه أو بجسده ، والأكثر على أنه أسرى بجسده إلى بيت المقدس ، ثم عرج به إلى السموات حتى انتهى إلى سدرة المنتهى ، ولذلك تعجب قريش واستحالوه ، والاستحالة مدفوعة بما ثبت في الهندسة أن ما بين طرفي قرص الشمس ضعف ما بين طرفي كرة الأرض مائة ونيفاً وستين مرة ، ثم إن طرفها الأسفل يصل موضع طرفها الأعلى في أقل من ثانية ، وقد برهن في الكلام أن

الأجسام متساوية في قبول الأعراض وأن الله قادر على كل الممكنات فيقدر أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة في بدن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو فيما يحمله ، والتعجب من لوازم المعجزات . ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ بيت المقدس لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد . ﴿ الذى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ ببركات الدين والدنيا لأنه مهبط الوحي ومتعبد

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من لدن موسى عليه الصلاة والسلام ، ومحفوف بالأنهار والأشجار . ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ ءاياتنا ﴾ كذهابه في برهة من الليل مسيرة شهر ومشاهدته بيت المقدس وتمثل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام له ، ووقوفه على مقاماتهم ، وصرف الكلام من الغيبة إلى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات . وقرىء "ليريه" بالياء . ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لأقوال محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ البصير ﴾ بأفعاله فيكرمه ويقربه على حسب ذلك .

﴿ وَءاتَيْنَآ مُوسَى الكتاب وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِى إسراءيل أَلاَّ تَتَّخِذُواْ ﴾ على أن لا تتخذوا كقولك : كتبت إليك أن أفعل كذا . وقرأ أبو عمرو بالياء على "أن لا يتخذوا" . ﴿ مِن دُونِى وَكِيلاً ﴾ رباً تكلون إليه أموركم غيري .

(231/453)

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ نصب على الاختصاص أو النداء أن قرىء "أن لا تتخذوا" بالتاء على النهي يعني : قلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلاً ، أو على أنه أحد مفعولي ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ ﴾ و ﴿ مِن دُونِى ﴾ حال من ﴿ وَكِيلاً ﴾ فيكون كقوله : ﴿ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الملائكة والنبيين أَرْبَابًا ﴾ وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو بدل من

واو ﴿ تَتَّخِذُوا ﴾ ، و﴿ ذُرِّيَّةَ ﴾ بكسر الذال . وفيه تذكير بأنعام الله تعالى عليهم في إنجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح عليه السلام في السفينة . ﴿ إِنَّهُ ﴾ إن نوحاً عليه السلام . ﴿ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ يحمد الله تعالى على مجامع حالاته ، وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره ، وحث للذرية على الاقتداء به . وقيل الضمير لموسى عليه الصلاة والسلام .

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَاءِيلَ ﴾ وأوحينا إليهم وحياً مقضياً مبتوتاً . ﴿ فِي الْكِتَابِ ﴾ في التوراة . ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ ﴾ جواب قسم محذوف ، أو قضينا على إجراء القضاء المبتوت مجرى القسم . ﴿ مَرَّتَيْنِ ﴾ إفسادتين أولاهما مخالفة أحكام التوراة وقتل شعياء وقيل أرمياء . وثانيهما قتل زكريا ويحيى وقَصْدُ قتل عيسى عليهم السلام . ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ ولتستكبرن عن طاعة الله تعالى أو لتظلمن الناس .

(232/453)

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾ وعد عقاب أولاهما . ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا ﴾ بختنصر عامل لهراسف على بابل وجنوده . وقيل جالوت الجزري . وقيل سنحاريب من أهل نينوى . ﴿ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ذوي قوة وبطش في الحرب شديد . ﴿ فَجَاسُوا ﴾

فترددوا لطلبكم . وقرئ بالحاء المهملة وهما أخوان . ﴿ خلال الديار ﴾ وسطها للقتل والغارة فقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم وحرقوا التوراة وخربوا المسجد . والمعتزلة لما منعوا تسليط الله الكافر على ذلك أولوا البعث بالتخلية وعدم المنع . ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ وكان وعد عقابهم لا بد أن يفعل .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة ﴾ أي الدولة والغلبة . ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على الذين بعثوا عليكم ، وذلك بأن ألقى الله في قلوب بهمن بن اسفنديار لما ورث الملك من جده كشتاسف بن لهراسف شفقة عليهم ، فرد أسراهم إلى الشام وملك دانيال عليهم فاستولوا على من كان فيها من أتباع بختنصر ، أو بأن سلط الله داود عليه الصلاة والسلام على جالوت فقتله ﴿ وأمددناكم بأموال وَبَنِينَ وجعلناكم أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ مما كنتم ، والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر وهم المجتمعون للذهاب إلى العدو .

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ ﴾ لأن ثوابه لها . ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ فإن وباله عليها ، وإنما ذكرها باللام ازدواجاً . ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخرة ﴾ وعد عقوبة المرة الآخرة . ﴿ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ أي بعثناهم ﴿ لِيَسُوءوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أي يجعلوها بادية

آثار المساءة فيها ، فحذف لدلالة ذكره أولاً عليه . وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر "ليسوء" على التوحيد ، والضمير فيه للوعد أو للبعث أو لله ، ويعضده قراءة الكسائي بالنون .

وقرئ "لنسوأن" بالنون والياء والنون المخففة والمثقلة ، و"لنسوأن" بفتح اللام على الأوجه الأربعة على أنه جواب إذا واللام في قوله : ﴿ وَلِيَدْخُلُواْ المسجد ﴾ متعلق بمحذوف هو بعثناهم . ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ ﴾ ليهلكوا . ﴿ مَا عَلَوْاْ ﴾ ما غلبوه واستولوا عليه أو مدة علوهم . ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ ذلك بأن سلط الله عليهم الفرس مرة أخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه جودرز ، وقيل حردوس قيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دماً يغلي فسألهم عنه فقالوا : دم قربان لم يقبل منا فقال : ما صدقوني فقتل عليه ألوفاً منهم فلم يهدأ الدم ، ثم قال إن لم تصدقوني ما تركت منكم أحداً ، فقالوا : إنه دم يحيى فقال لمثل هذا ينتقم ربكم منكم ، ثم قال يا يحيى قد علم ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك ، فاهدأ بإذن الله تعالى قبل أن لا أبقي أحداً منهم فهدأ .

﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ بعد المرة الآخرة . ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ ﴾ نوبة أخرى . ﴿ عُدْنَا ﴾ مرة ثالثة إلى عقوبتكم وقد عادوا بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم ، وقصد قتله فعاد الله تعالى بتسليطه عليهم فقتل قريظة وأجلى بني النضير ، وضرب الجزية على

الباقين هذا لهم في الدنيا . ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ للكافرين حَصِيرًا ﴾ محبساً لا يقدرون على الخروج منها أبد الآباد . وقيل بساطاً كما يبسط الحصير .

(234/453)

﴿ إِنَّ هذا القرءان يِهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ للحالة أو الطريقة التي هي أقوم الحالات أو الطرق . ﴿ وَيُبَشّرُ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ وقرأ حمزة والكسائي ﴿ وَيُبَشّرُ ﴾ بالتخفيف .

﴿ وأَنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ عطف على ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ ، والمعنى أنه يبشر المؤمنين ببشارتين ثوابهم وعقاب أعدائهم ، أو على ﴿ يُبَشّرُ ﴾ بإضمار يخبر .

﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر ﴾ ويدعو الله تعالى عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله ، أو يدعوه بما يحسبه خيراً وهو شر . ﴿ دُعَاءهُ بالخير ﴾ مثل دعائه بالخير . ﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ يسارع إلى كل ما يخطر بباله لا ينظر عاقبته . وقيل المراد آدم عليه الصلاة والسلام فإنه لما انتهى الروح إلى سرته ذهب لينهض فسقط . روي : أنه عليه السلام دفع أسيراً إلى سودة بنت زمعة فرحمته لأنينه فأرخت كتافه ، فهرب فدعا عليها بقطع اليد

ثم ندم فقال عليه السلام : اللهم إنما أنا بشر فمن دعوت عليه فاجعل دعائي رحمة له فنزلت . ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر وبالدعاء استعجاله بالعذاب استهزاء كقول النضر بن الحارث : اللهم انصر خير الحزبين ، ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ ﴾ الآية . فأجيب له فضرب عنقه صبراً يوم بدر .

﴿ وَجَعَلْنَا اليل والنهار ءايَتَيْنِ ﴾ تدلان على القادر الحكيم بتعاقبهما على نسق واحد بإمكان غيره . ﴿ فَمَحَوْنَا ءايَةَ اليل ﴾ أي الآية التي هي الليل ، بالإشراق والإضافة فيهما للتبيين كإضافة العدد إلى المعدود . ﴿ وَجَعَلْنَا ءايَةَ النهار مُبْصِرَةً ﴾ مضيئة أو مبصرة للناس من أبصره فبصر ، أو مبصراً أهله كقولهم : أجبن الرجل إذا كان أهله جبناء . وقيل الآيتان القمر والشمس ، وتقدير الكلام وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين ، أو جعلنا الليل والنهار ذوي آيتين ومحو آية الليل التي هي القمر جعلها مظلمة في نفسها مطموسة النور ، أو نقص نورها شيئاً فشيئاً إلى المحاق ، وجعل آية النهار التي هي الشمس مبصرة جعلها ذات شعاع تبصر الأشياء بضوئها . ﴿ لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مّن رَّبّكُمْ ﴾ لتطلبوا في بياض النهار أسباب معاشكم وتتوصلوا به إلى استبانة أعمالكم . ﴿ وَلِتَعْلَمُواْ ﴾ باختلافهما أو

بحركاتهما . ﴿ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ وجنس الحساب . ﴿ وَكُلَّ شىْء ﴾ تفتقرون إليه في أمر الدين والدنيا . ﴿ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ بيناه بياناً غير ملتبس .

(236/453)

﴿ وَكُلَّ إنسان ألزمناه طَٰئِرَهُ ﴾ عمله وما قدر له كأنه طير إليه من عش الغيب ووكر القدر ، لما كانوا يتيمنون ويتشاءمون بسنوح الطائر وبروحه ، استعير لما هو سبب الخير والشر من قدر الله تعالى وعمل العبد . ﴿ فِى عُنُقِهِ ﴾ لزوم الطوق في عنقه . ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً ﴾ هي صحيفة عمله أو نفسه المنتقشة بآثار أعماله ، فإن الأعمال الاختيارية تحدث في النفس أحوالاً ولذلك يفيد تكريرها لها ملكات ، ونصبه بأنه مفعول أو حال من مفعول محذوف ، وهو ضمير الطائر ويعضده قراءة يعقوب ، و"يخرج" من خرج و"يخرج" وقرىء و"يخرج" أي الله عز وجل ﴿ يلقاه مَنْشُوراً ﴾ لكشف الغطاء ، وهما صفتان للكتاب ، أو ﴿ يلقاه ﴾ صفة و ﴿ مَنْشُوراً ﴾ حال من مفعوله . وقرأ ابن عامر "يلقاه" على البناء للمفعول من لقيته كذا .

﴿ اقرأ كتابك ﴾ على إرادة القول . ﴿ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أي كفى نفسك ، والباء مزيدة و ﴿ حَسِيباً ﴾ تمييز وعلى صلته لأنه إما بمعنى الحاسب كالصريم

بمعنى الصارم وضريب القداح بمعنى ضاربها من حسب عليه كذا أو بمعنى الكافي فوضع موضع الشهيد ، لأنه يكفي المدعي ما أهمه ، وتذكيره على أن الحساب والشهادة مما يتولاه الرجال أو على تأويل النفس بالشخص .

﴿ مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ لا ينجي اهتداؤه غيره ولا يردي ضلاله سواه . ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ ولا تحمل نفس حاملة وزراً وزر نفس أخرى ، بل إنما تحمل وزرها . ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ يبين الحجج ويمهد الشرائع فيلزمهم الحجة ، وفيه دليل على أن لا وجوب قبل الشرع .

(237/453)

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾ وإذا تعلقت إرادتنا بإهلاك قوم لإنفاذ قضائنا السابق ، أو دنا وقته المقدر كقولهم : إذا أراد المريض أن يموت ازداد مرضه شدة . ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ متنعميها بالطاعة على لسان رسول بعثناه إليهم ، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده ، فإن الفسق هو الخروج عن الطاعة والتمرد في العصيان ، فيدل على الطاعة من طريق المقابلة ، وقيل أمرناهم بالفسق لقوله : ﴿ فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ كقولك أمرته فقرأ ، فإنه لا يفهم منه إلا الأمر بالقراءة على أن الأمر مجاز من الحمل عليه ، أو التسبب له بأن صب عليهم من

النعم ما أبطرهم وأفضى بهم إلى الفسوق ، ويحتمل أن لا يكون له مفعول منوي كقولهم : أمرته فعصاني . وقيل معناه كثرنا يقال : أمرت الشيء وآمرته فأمر إذا كثرته ، وفي الحديث " خير المال سكة مأبورة ، ومهرة مأمورة " أي كثيرة النتاج . وهو أيضاً مجاز من معنى الطلب ، ويؤيده قراءة يعقوب "آمرنا" ورواية ﴿ أَمْرُنَا ﴾ عن أبي عمرو ، ويحتمل أن يكون منقولاً من أمر بالضم أمارة أي جعلناهم أمراء ، وتخصيص المترفين لأن غيرهم يتبعهم ولأنهم أسرع إلى الحماقة وأقدر على الفجور . ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا القول ﴾ يعني كلمة العذاب السابقة بحلوله ، أو بظهور معاصيهم أو بانهماكهم في المعاصي . ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريب ديارهم .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ وكثيراً أهلكنا . ﴿ مّنَ القرون ﴾ بيان لكم وتمييز له . ﴿ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ كعاد وثمود . ﴿ وكفى بِرَبّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرَا بَصِيرًا ﴾ يدرك بواطنها وظواهرها فيعاقب عليها ، وتقديم الخبير لتقدم متعلقه .

(238/453)

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة ﴾ مقصوراً عليها همه . ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ﴾ قيد المعجل والمعجل له بالمشيئة والإرادة لأنه لا يجد كل متمن ما يتمناه ، ولا كل واجد

جميع ما يهواه وليعلم أن الأمر بالمشيئة والهم فضل . ﴿ وَلِمَن نُّرِيدُ ﴾ بدل من له بدل البعض . وقرىء "ما يشاء" والضمير فيه لله تعالى حتى يطابق المشهورة . وقيل ﴿ لِمَنْ ﴾ فيكون مخصوصاً بمن أراد الله تعالى به ذلك . وقيل الآية في المنافقين كانوا يراءون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم إلا مساهمتهم في الغنائم ونحوها . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يصلاها مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ مطروداً من رحمة الله تعالى .

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ حقها من السعي وهو الإتيان بما أمر به ، والانتهاء عما نهى عنه لا التقرب بما يخترعون بآرائهم . وفائدة اللام اعتبار النية والإخلاص . ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ إيماناً صحيحاً لا شرك معه ولا تكذيب فإنه العمدة . ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ الجامعون للشروط الثلاثة . ﴿ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ من الله تعالى أي مقبولاً عنده مثاباً عليه ، فإن شكر الله الثواب على الطاعة .

﴿ كُلاًّ ﴾ كل واحد من الفريقين ، والتنوين بدل من المضاف إليه . ﴿ نُّمِدُّ ﴾ بالعطاء مرة بعد أخرى ونجعل آنفه مدداً لسالفه . ﴿ هَؤُلاء وَهَؤُلاء ﴾ بدل من ﴿ كُلاًّ ﴾ . ﴿ مِنْ عَطَاء رَبّكَ ﴾ من معطاه متعلق ب ﴿ نُّمِدُّ ﴾ . ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبّكَ مَحْظُورًا ﴾ ممنوعاً لا يمنعه في الدنيا من مؤمن ولا كافر تفضلاً .

﴿ انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ﴾ في الرزق ، وانتصاب ﴿ كَيْفَ ﴾ ب ﴿

فَضَّلْنَا ﴾ على الحال . ﴿ وَلَلأَخِرَةُ أَكَبَرُ درجات وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ أي التفاوت في الآخرة أكبر ، لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودركاتها .

(239/453)

﴿ لاَّ تَجْعَل مَعَ اللهِ إلها ءاخرَ ﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته أو لكل أحد . ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ فتصير من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة ، أو فتعجز من قولهم قعد عن الشيء إذا عجز عنه . ﴿ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ جامعاً على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله تعالى ، ومفهومه أن الموحد يكون ممدوحاً منصوراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 429.438 ﴾

(240/453)

وقال ابن جزى :

﴿ سبحان الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾

معنى سبحان تنزه ، وهو مصدر غير منصرف ، وأسرى وسرى لغتان ، وهو فعل غير

متعدّ ، واختار ابن عطية أن يكون أسرى هنا متعدياً أي أسرى الملائكة بعبده وهو بعيد ، والعبد هنا هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما وصفه بالعبودية تشريفاً له وتقريباً ﴿ لَيْلاً ﴾ إن قيل : ما فائدة قوله ليلاً مع أن السرى هو بالليل ؟ فالجواب : أنه أراد بقوله : ليلاً بلفظ التنكير تقليل مدّة الإسراء ، وأنه أسرى به في بعض الليل مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أبلغ في الأعجوبة ﴿ مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا ﴾ يعني بالمسجد الحرام مسجد مكة المحيط بالكعبة ، وقد روي في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال : " بينما أنا نائم في الحجر إذ جاءني جبريل " وقيل : كان النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء في بيته ، فالمسجد الحرام على هذا مكة أي بلد المسجد الحرام ؛ وأما المسجد الأقصى فهو بيت المقدس الذي بإيلياء ، وسُمِّيَ الأقصى لأنه لم يكن وراءه حينئذ مسجد ، ويحتمل أن يريد بالأقصى الأبعد ؛ فيكون المقصد إظهار العجب في الإسراء إلى هذا الموضع البعيد في ليلة ، واختلف العلماء في كيفية الإسراء ، فقال الجمهور : كان بجسد النبي صلى الله عليه وسلم وروحه ، وقال قوم : كان بروحه خاصة وكانت رؤيا نوم حق ، فحجة الجمهور ؛ أنه لو كان مناماً لم تنكره قريش ، ولم يكن في ذلك ما يكذب به الكفار ، ألا ترى قول أم هانئ له : لا تخبر بذلك فيكذبك قومك ، وحجة من قال : أن الإسراء كان مناماً قوله تعالى : وما جعلنا الرؤيا التي أريناك ، وإنما يقال الرؤيا في المنام ، ويقال فيما يرى بالعين رؤية ، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال : بينما أنا بين النائم واليقظان وذكر

الإسراء ، وقال في آخر الحديث : فاستيقظت وأنا في المسجد الحرام ، وجمع بعض الناس بين الأدلة فقال : الإسراء كان مرتين : أحدهما بالجسد والآخر بالروح ، وأن الإسراء بالجسد كان من مكة إلى بيت المقدس ،

(241/453)

وهو الذي أنكرته قريش ، وأن الإسراء بالروح كان إلى السموات السبع ، ليلة فرضت الصلوات الخمس ، ولقي الأنبياء في السموات ﴿ الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ صفة للمسجد الأقصى ، والبركة حوله بوجهين : أحدهما : ما كان فيه وفي نواحيه من الأنبياء ، والآخر : كثرة ما فيه من الزروع والأشجار التي خص الله بها الشام ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَآ ﴾ أي لنري محمداً صلى الله عليه وسلم تلك الليلة من العجائب ، فإنه رأى السموات والجنة والنار وسدرة المنتهى والملائكة والأنبياء ، وكلمه الله تعالى حسبما ورد في أحاديث الإسراء ، وهي في مصنفات الحديث فأغنى ذلك عن ذكرها هنا .

﴿ وجعلناه هُدًى ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على الكتاب أو على موسى ﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ أي رباً تكلون إليه أمركم ، وأن يحتمل أن تكون مصدرية أو مفسرة ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ نداء ، وفي ندائهم بذلك تلطف وتذكير بنعمة الله ، وقيل : هي

مفعول تتخذوا ، ويتعين معنى ذلك على قراءة من قرأ يتخذ بالياء ويعني بمن حملنا مع نوح أولاده الثلاثة وهم سام وحام ويافث ، ونساؤهم ، ومنهم تناسل الناس بعد الطوفان ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ أي كثير الشكر كان يحمد الله على كل حال ، وهذا تعليل لما تقدم أي كونوا شاكرين كما كان أبوكم نوح .

(242/453)

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ قيل : إن قضينا هنا بمعنى علمنا وأخبرنا ، كما قيل في ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر ﴾ [الحجر : 66] ، والكتاب على هذا التوراة ، وقيل : قضينا إليه من القضاء والقدر ، والكتاب على هذا اللوح المحفوظ ، الذي كتبت فيه مقادير الأشياء ، وإلى بمعنى على ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ ﴾ هذه الجملة بيان للمقضي ، وهي في وضع جواب قضينا إذا كان من القضاء والقدر ، لأنه جرى مجرى القسم ، وإن كان بمعنى أعلمنا فهو جواب قسم محذوف ، تقديره : والله لتفسدن ، والجملة في موضع معمول قضينا ، والمرتان المشار إليهما ؛ إحداهما : قتل زكريا والأخرى قتل يحيى عليهما السلام ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ من العلو وهو الكبر والتخيل ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ ﴾ معناه أنهم إذا أفسدوا في المرة الأولى بعث الله

عليهم عباداً له لينتقم منهم على أيديهم ، واختلف في هؤلاء العبيد فقيل : جالوت وجنوده وقيل بختنصر ملك بابل ﴿ فَجَاسُواْ خلال الديار ﴾ أي ترددوا بينهما بالفساد ، وروي أنهم قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة . وخربوا المساجد وسبوا منهم سبعين ألفاً ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة عَلَيْهِمْ ﴾ أي الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم ، ويعني رجوع الملك إلى بني إسرائيل ، واستنقاذ أسراهم ، وقبل بختنصر ، وقيل : قتل داود لجالوت ﴿ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ أي أكثر عدداً ، وهو مصدر من قولك : نفر الرجل إذا خرج مسرعاً ، أو جمع نفر .

(243/453)

﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ ﴾ أحسنتم الأول بمعنى الحسنات ، والثاني : بمعنى الإحسان كقولك : أحسنت إلى فلان ، ففيه تجنيس ، واللام فيه بمعنى إلى ، وكذلك اللام في قوله : وإن سألتم فلها ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ يعني إذا أفسدوا في المرة الأخيرة ، بعث الله عليهم أولئك العباد للانتقام منهم ، فالآخرة صفة للمرة ، ومعنى يسوؤا : يجعلونها تظهر فيها آثار الشر والسوء كقوله : سيئت وجوه الذين كفروا ، واللام لام كي وهي تتعلق ببعثنا المحذوف لدلالة الأول عليه ، وقيل : هي لام الأمر ﴾

وَلِيَدْخُلُواْ الْمسجد ﴾ يعني بيت المقدس ﴿ وَلِيُتَبِّرُواْ ﴾ من التبار ، وهو الإهلاك وشدّة الفساد ﴿ مَا عَلَوْاْ ﴾ ما مفعول ليتبروا : أي يهلكوا ما غلبوا عليه من البلاد ، وقيل إن ما ظرفية أي يفسدوا مدة علوهم .

﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ خطاب لبني إسرائيل ومعناه ترجية لهم بالرحمة إن تابوا بعد الرحمة الثانية ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ خطاب لبني إسرائيل : أي إن عدتم إلى الفساد عدنا إلى عقابكم ، وقد عادوا فبعث الله عليهم محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته يقتلونهم ويذلونهم إلى يوم القيامة . ﴿ حَصِيراً ﴾ أي سجناً وهو من الحصر ، وقيل : أراد به ما يفرش ويبسط كالحصير المعروف .

﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ أي الطريقة والحالة التي هي أقوم ، وقيل : يعني لا إله إلا الله ، واللفظ أعم من ذلك ﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير ﴾ المعنى ذم ، وعتاب لما يفعله الناس عند الغضب من الدعاء على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، وأنهم يدعون بالشر في ذلك الوقت كما يدعون بالخير وفي وقت التثبت ، وقيل : إن الآية نزلت في النضر بن الحارث حين قال : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ ﴾ [الأنفال : 32] الآية ، وقد تقدم

أن الصحيح في قائلها أنه أبو جهل ﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ الإنسان هنا وفي الذي قبله اسم جنس ، وقيل : يعني هنا آدم وهو بعيد .

﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اليل ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أن يراد أن الليل والنهار آيتان في أنفسهما ، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار كقولك : مسجد الجامع أي الآية التي هي الليل ، والآية التي هي النهار ومحو آية الليل على هذا كونه مظلماً . والوجه الثاني : أن يراد بآية الليل القمر ، وآية النهار الشمس ، ومحو آية الليل على هذا كون القمر لم يجعل له ضوء الشمس ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النهار مُبْصِرَةً ﴾ يحتمل أن يريد النهار بنفسه أو الشمس ، ومعنى مبصرة تبصر فيها الأشياء ﴿ لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي لتتوصلوا بضوء النهار إلى التصرف في معايشكم ﴿ وَلِتَعْلَمُواْ ﴾ باختلاف الليل والنهار أو بمسير الشمس والقمر ﴿ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ الأشهر والأيام ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فصلناه تَفْصِيلاً ﴾ انتصب كل بفعل مضمر ، والتفصيل البيان .

﴿ وَكُلَّ إنسان ألزمناه طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ انتصب كل بفعل مضمر ، والطائر هنا العمل ، والمعنى أن عمله لازم له ، وقيل : إن طائره ما قدر عليه ، وله من خير وشر ، والمعنى على

هذا ؛ أن كل ما يلقى الإنسان قد سبق به القضاء ، وإنما عبر عن ذلك بالطائر ، لأن العرب كانت عادتها التيمن والتشاءم بالطير ، وقوله في عنقه أي : هو كالقلادة أو الغل لا ينفك عنه ﴿ كتابا يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ﴾ يعني صحيفة أعماله بالحسنات والسيئات ﴿ اقرأ كتابك ﴾ تقديره يقال له : إقرأ ﴿ حَسِيباً ﴾ أي محاسباً أو من الحساب بمعنى العدد .

﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ معناه حيث وقع لا يؤاخذ أحد بذنب أحد ، والوزر في اللغة الثقل والحمل ، ويراد به هنا الذنوب ، ومعنى تزر تحمل وزر أخرى : أي وزر نفس أخرى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ قيل : إن هذا في حكم الدنيا ، أي أن الله لا يهلك أمة إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسول إليهم ، وقيل : هو عام في الدنيا والآخرة ، وأن الله لا يعذب قوماً في الآخرة إلا وقد أرسل إليهم رسولاً فكفروا به وعصوه ، ويدل على هذا قوله : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بلى ﴾ [تبارك : 8-9] ومن هذا يؤخذ حكم أهل الفترات ، واستدل أهل السنة بهذه الآية على أن التكليف لا يلزم العباد إلا من الشرع ، لا من مجرد العقل .

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ في تأويل أمرنا هنا ثلاثة أوجه : أحدهما : أن يكون في الكلام حذف تقديره : أمرنا مترفيها بالخير والطاعة فعصوا وفسقوا ، والثاني : أن يكون أمرنا عبارة عن القضاء عليهم بالفسق أي قضينا عليهم ففسقوا ، والثالث : أن يكون أمرنا بمعنى كثرنا واختاره أبو علي الفارسي ، وأما على قراءة آمرنا بمدّ الهمزة فهو بمعنى كثرنا ، وأما على قراءة أمّرنا بتشديد الميم ، فهو من الإمارة أي جعلناهم أمراء ففسقوا ، والمترف : الغني المنعّم في الدنيا ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا القول ﴾ أي القضاء الذي قضاه الله ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ القرون ﴾ القرن مائة سنة ، وقيل أربعون .

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة ﴾ الآية : في الكفار الذين يريدون الدنيا ، ولا يؤمنون بالآخرة ، على أن لفظها أعم من ذلك ، والمعنى أنهم يعجل الله لهم حظاً من الدنيا بقيدين : أحدهما تقييد المقدار المعجل بمشيئة الله ، والآخر : تقييد الشخص المعجل له بإرادة الله ، ولمن نريد بدل من له ، وهو بدل بعض من كل ﴿ مَّدْحُوراً ﴾ أي مبعداً أو مهاناً ﴿ وسعى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي عمل لها عملها ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ ﴾ انتصب كلاً بنمد وهو من المدد ومعناه : نزيدهم من عطائنا ﴿ هؤلاء وهؤلاء ﴾ بدل من كلاً ، والإشارة إلى الفريقين المتقدمين ﴿ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ يعني رزق الدنيا ، وقيل : من الطاعات لمن أراد الآخرة ، ومن المعاصي لمن اراد الدنيا ، والأول أظهر ﴿ مَحْظُوراً ﴾ أي ممنوعا ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ ﴾ يعني في رزق الدنيا ﴿ لاَّ تَجْعَل ﴾ خطاب لواحد ، والمراد به جميع الخلق ، لأن المخاطب غير

معين ﴿ مَذْمُوماً ﴾ أي يذمه الله وخيار عباده ﴿ مَّخْذُولاً ﴾ أي غير منصور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 166.169 ﴾

(247/453)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الإسراء

وتسمى سبحان وبني إسرائيل مكية

إلا ﴿ وإن كادوا ﴾ الآيات الثمان مائة وعشر آيات أو إحدى عشرة وألف وخمسمائة وثلاث وثلاثون كلمة وعدد حروفها ستة آلاف وأربعمائة وستون حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ الملك المالك لجميع الأمر ﴿ الرحمن ﴾ لكل ما أوجده بما رباه ﴿ الرحيم ﴾ لمن خصه بالتزام العمل بما يرضاه . وقوله تعالى:

﴿ سبحان ﴾ اسم بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه وقد يستعمل علماً له فيقطع عن الإضافة ويمنع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون قال الأعشى في مدحه عامر بن الطفيل:

*قد قلت لما جاءني فخره

** سبحان من علقمة الفاخر

أي: العجب منه إذ يفخر والعرب تقول سبحان من كذا إذا تعجبوا منه الشاهد في سبحان حيث جعله علماً على التنزيه فمنعه الصرف وعلقمة المذكور صحابيّ قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شيخ فأسلم وبايع واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على حوران فمات بها ﴿ الذي أسرى بعبده ﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو أشرف عباده على الإطلاق وأحقهم بالإضافة إليه . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي أسرى بالإمالة محضة وورش بين بين والباقون بالفتح وقوله تعالى : ﴿ ليلاً ﴾ نصب على الظرف والإسراء سير الليل .

وفائدة ذكره الإشارة بتنكيره إلى تقليل مدّته فكان هذا الأمر الجليل في جزء يسير من الليل وإلى أنه عليه الصلاة والسلام لم يحتج في الإسراء والعروج إلى سدرة المنتهى وسماع الكلام من العليّ الأعلى إلى رياضة بصيام ولا غيره بل كان مهيأ لذلك متأهلاً له فأقامه تعالى من الفرش إلى العرش ﴿ من المسجد الحرام ﴾ أي : بعينه وهو الذي يدل عليه ظاهر لفظ القرآن . وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند

البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق" وقيل كان نائماً في الحطيم ، وقيل في بيت أمّ هانئ بنت أبي طالب قال البقاعي : وهو قول الجمهور ، والمراد بالمسجد حينئذ الحرم لأنه فناء المسجد . ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ أي : بيت المقدس الذي هو بعيد المسافة حينئذٍ وأبعد المسجدين الأعظمين مطلقاً من مكة المشرّفة بينهما أربعون ليلة فصلى بالأنبياء كلهم إبراهيم وموسى ومن سواهما على جميعهم أفضل الصلاة والسلام ورأى من آياتنا الكبرى ما قدرنا له كما سيأتي في حديث المعراج ، ورجع بين أظهركم إلى المسجد الأقرب منكم في ذلك الجزء اليسير من الليل ، وأنتم تضربون أكباد الإبل في هذه المسافة شهراً ذهاباً وشهراً إياباً .

ثم وصفه تعالى بما يقتضي تعظيمه ، وأنه أهل للقصد بقوله تعالى : ﴿ الذي باركنا حوله ﴾ أي : بما لنا من العظمة بالمياه والأشجار . وقال مجاهد : سماه مباركاً لأنه مقرّ الأنبياء ومهبط الملائكة والوحي ومنه يحشر الناس يوم القيامة وموطن العبادات ومعدن الفواكه والأرزاق والبركات ، وبارك تعالى حوله لأجله فما ظنك به نفسه فهو أبلغ من باركنا فيه ، ثم منه إلى السموات العلا إلى سدرة المنتهى إلى ما لم ينله بشر غيره صلى الله عليه وسلم قال

البقاعي : ولعل حذف ذكر المعراج من القرآن هنا لقصور أفهامهم عن إدراك أدلته ، لو أنكروه بخلاف الإسراء فإنه أقام دليله عليهم بما شاهدوه من الأمارات التي وصفها لهم وهم قاطعون بأنه صلى الله عليه وسلم لم يرها قبل ذلك فلما بان صدقه بما ذكر من الأمارات أخبر بعد ذلك من أراد الله تعالى بالمعراج.

(250/453)

ثم ذكر سبحانه وتعالى الغرض من الإسراء بقوله تعالى : ﴿ لنريه ﴾ بعينه وقلبه ﴿ من آياتنا ﴾ أي : عجائب قدرتنا السماوية والأرضية كما أرينا أباه الخليل عليه السلام ملكوت السموات والأرض. ﴿ إنه ﴾ أي : الله ﴿ هو السميع ﴾ لجميع الأقوال ﴿ البصير ﴾ أي : العالم بأحوال عباده فيكرم ويقرّب من شاء منهم وقيل : إنه أي : هذا العبد الذي اختصصناه بالإسراء هو أي : خاصة السميع أي : أذناً وقلباً بالإجابة لنا والإذعان لأوامرنا البصير بصراً وبصيرة بدليل ما أخبر به من الآيات وصدقه من الدلالات حتى نعت ما سألوه عنه من بيت المقدس ومن أمر عيرهم وغيرهما مما هو مشهور في قصة الإسراء . واختلف هل أسري بروحه أو بجسده صلى الله عليه وسلم فعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها كانت تقول ما فقدت جسد النبيّ صلى الله عليه وسلم ولكن أسري

بروحه ، والأكثرون على أنه أسري بجسده في اليقظة وتواترت الأخبار الصحيحة على ذلك منها قوله صلى الله عليه وسلم "أوتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة التي تربط فيها الأنبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن ، قال جبريل عليه السلام : أصبت الفطرة . قال صلى الله عليه وسلم ثم عرج بي إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . فقيل : من معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير . ثم عرج بي إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ فقال : جبريل . فقيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : قد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بخير . ثم عرج بي إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . فقيل : ومن معك ؟ قال محمد . فقيل : وقد أرسل

إليه ؟ قال : قد أرسل إليه

ففتح لنا فإذا أنا بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بي إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بي إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: من معك؟ قال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بي إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم فإذا هو مستند إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن

يصفها من حسنها . قال صلى الله عليه وسلم فأوحى إلى عبده ما أوحى وفرض عليّ في كل يوم وليلة خمسين صلاة ، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال : ما فرض ربك على أمّتك ؟ قلت : خمسين صلاة في كل يوم وليلة . قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإنّ أمّتك لا تطيق ذلك ، وإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم . قال : فرجعت إلى ربي فقلت له : أي : رب خفف عن أمّتي فحط عني خمساً فرجعت إلى موسى فقال : ما فعلت ؟ فقلت : قد حط عني خمساً . قال : إنّ أمّتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، لأنّ أمّتك لا تطيق ذلك . قال : فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى ويحط عني خمساً خمساً حتى قال : يا محمد ، هي خمس صلوات في

كل يوم وليلة بكل صلاة

عشر فتلك خمسون صلاة ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب فإن عملها كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك فإن أمّتك لا تطيق فقلت : قد رجعت إلى ربي حتى استحييت" رواه الشيخان . وروي أنه قال بعد

ذلك : "ولكن أرضى وأسلم فلما جاوزت نادى مناد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي ، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك" .

وروي أنه لما وصل إلى سدرة المنتهى فإذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت : "ما هذان يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات ، ثم رفع إليّ البيت المعمور ثم أوتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فاخترت اللبن فقال : هي الفطرة التي أنت عليها وأمّتك قال : ثم فرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة يوم فرضت فمررت على موسى وساق الحديث" . ومنها ما رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "رأيت ربي عز وجل" . قال : هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به إلى بيت المقدس . قال : والشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الزقوم .

ومنها ما رواه قتادة عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم حدّثهم عن ليلة الإسراء به قال : "بينا أنا في الحطيم وربما قال في الحجر ، مضطجع ومنهم من قال : بين النائم واليقظان ، وذكر بين رجلين وأتيت بطشت من ذهب مملوءة حكمة وإيماناً فشق من النحر إلى مراق البطن واستخرج قلبي فغسل ثم حشي ثم أعيد" ، وقال سعيد وهشام : ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملئ إيماناً وحكمة "ثم أتيت بالبراق وهو دابة

أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته وساق بقية الحديث" .

ومنها ما روي أنه صلى الله عليه وسلم كان نائماً في بيت أمّ هانئ بعد صلاة العشاء فأسري به ، ورجع من ليلته ، وقص القصة على أمّ هانئ . وقال : "مثل لي النبيون فصليت بهم وقام ليخرج إلى المسجد فتشبثت أمّ هانئ بثوبه فقال : ما لك ؟ قالت : أخشى أن يكذبك الناس وقومك إن أخبرتهم . قال : وإن كذبوني فخرج إليهم" . وروي أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به ، فكان بذي طوى قال : "يا جبريل إنّ قومي لا يصدّقوني . قال : يصدّقك أبو بكر الصدّيق" . قال ابن عباس وعائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "لما كانت ليلة أسري بي فأصبحت بمكة قطعت بأمري وعرفت أنّ الناس يكذبوني" . فروي "أنه عليه الصلاة والسلام قعد معتزلاً حزيناً فمرّ به أبو جهل فجلس إليه فقال كالمستهزئ : هل استفدت من شيء ؟ قال : نعم ، أسري بي الليلة . قال : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس . قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم . فقال أبو جهل : يا معشر بني كعب بن لؤيّ هلموا فانفضت إليه المجالس فجاؤوا حتى جلسوا إليهما

قال : حدّث قومك بما حدّثتني . قال : نعم ، إني قد أسري بي الليلة . قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس . قالوا : ثم أصبحت بين أظهرنا ؟ قال : نعم فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً وارتدّ ناس ممن كان آمن به وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله عنه . فقالوا له : هل لك في صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قد قال ؟ قالوا : نعم . قال : إن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : تصدّقه على ذلك ؟ قال : إني لأصدّقه على أبعد من ذلك أصدّقه على خبر السماء في غدوة أو روحة فسمي الصدّيق . قال : وفي القوم من كان يأتي المسجد الأقصى ، فقالوا : فهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد الأقصى قال : نعم . قال : فذهبت أنعت وأنعت فما زلت أنعت حتى التبس عليّ . قال : فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل ، فنعت المسجد وأنا أنظر إليه فقال القوم :

أما النعت فوالله لقد أصاب ثم

قالوا : يا محمد أخبرنا عن عيرنا فهي أهمّ إلينا هل لقيت منها شيئاً قال : نعم مررت على عير بني فلان وهي بالروحاء وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه وفي رحالهم قدح من ماء

فعطشت فأخذته وشربته ثم وضعته كما كان فاسألوهم هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا إليه . قالوا هذه آية قال : ومررت بعير بني فلان وفلان وفلان راكبان قعوداً لهما فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان فانكسرت يده فاسألوهما عن ذلك . قالوا : وهذه آية . قالوا : فأخبرنا عن عيرنا متى تجيء قال : مررت بها بالتنعيم قالوا : فما عدّتها وما حملها وما أحمالها ومن فيها . فقال : هيئتها كذا وكذا وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا : وهذه آية ، ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون : والله لقد قص محمد شيئاً وبينه حتى أتوا كداء فجلسوا عليه فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه إذ قال قائل منهم : هذه الشمس والله قد أشرقت فقال آخر : والله وهذه العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا وقالوا ما هذا إلا سحر مبين" والأورق من الإبل الذي في لونه بياض إلى سواد وهو أطيب الإبل لحماً قاله الجوهري .

ومنها ما روي عن أنس بن مالك قال : كان أبو ذرّ يحدث أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم ،

وجاء بطشت من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغها في صدري ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدي وعرج بي إلى السماء فلما جئنا إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء : افتح . قال : ومن هذا ؟ قال جبريل . قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم معي محمد . قال : فأرسل إليه ؟ قال : نعم ففتح ، قال : فلما علونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى ، فقال : مرحباً بالابن الصالح والنبيّ الصالح . قال : قلت : يا جبريل من هذا ؟ قال : هذا آدم ، وهذه الأسودة التي عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار وإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى ، ثم عرج بي جبريل حتى أتى إلى السماء الثانية فقال لخازنها : افتح ، فقال له خازنها : مثل ما قال خازن السماء الدنيا .

فقال أنس بن مالك فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم ولم يبين كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة . قال : فلما مرّ جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم بإدريس فقال : مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح . قال : فقلت : من هذا ؟ قال : إنه إدريس . قال : ثم مررت بموسى فقال : مرحباً بالنبيّ الصالح والأخ الصالح . قال : قلت : من هذا ؟ قال : هذا موسى فقال : ثم مررت بعيسى فقال : مرحباً بالنبيّ الصالح والأخ الصالح . قال : فقلت من هذا ؟ قال : عيسى ، ثم مررت بإبراهيم فقال : مرحباً بالابن الصالح والنبيّ الصالح . قال :

فقلت : من هذا ؟ قال : هذا إبراهيم . قال ابن شهاب : أخبرني ابن حزم أنّ ابن عباس كان يقول كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه

(257/453)

صرير الأقلام" .

وروى معمر عن قتادة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم "أتى بالبراق ليلة أسري به مسرجاً ملجماً فاستصعب عليه فقال جبريل أبمحمد تفعل هذا فما ركبك أحد أكرم على الله منه فارفض عرقاً وقال ابن زيد عن أبيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهيت إلى بيت المقدس قال جبريل بأصبعه فخرق بها حجراً وشد به البراق وفي رواية أنه جاء جبريل بالبراق إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له يا محمد اركب فركبه صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل وطار به البراق في الهواء فاخترق به الجو فعطش صلى الله عليه وسلم واحتاج إلى الشراب فأتاه جبريل باناءين إناء من لبن وإناء من خمر وذلك قبل تحريم الخمر فعرضهما عليه فتناول اللبن فقال له جبريل عليه السلام أصبت الفطرة أصاب الله تعالى بك أمّتك ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يتأوّل اللبن بالعلم فلما وصل إلى السماء الدنيا استفتح إلى أن قال ثم عرج بي إلى سدرة المنتهى وأخبره جبريل أن أعمال بني آدم تنتهي إلى

تلك السدرة وأنها مقر الأرواح فهي نهاية لما ينزل مما فوقها ونهاية لما يعرج إليها مما هو دونها وبها مقام جبريل عليه السلام فنزل صلى الله عليه وسلم عن البراق وجيء إليه بالرفرف وهو نظير المحفة عندنا فقعد عليه وسلمه جبريل إلى الملك النازل بالرفرف فسأله الصحبة ليأنس به فقال له : لا أقدر لو خطوت خطوة لاحترقت فما منا إلا له مقام معلوم وما أسرى الله بك يا محمد إلا ليريك من آياته فلا تغفل ، فودّعه وانصرف مع ذلك الملك والرفرف ، والملك يمشي به إلى أن ظهر لمستوى سمع فيه صرير الأقلام في الألواح وهي تكتب ما يجريه الله تعالى في خلقه وما تنسخه الملائكة من أعمال عباده قال تعالى : ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ (الجاثية ،)

(258/453)

ثم زج بي في النور زجة فأفرده الملك الذي كان معه وتأخر عنه فلم يره معه فعلم أن الرفرف ما تدلى إلا لكون البراق له مكان لا يتعدّاه كجبريل ، لما بلغ إلى المكان الذي لا يتعدّاه وقف وكذلك الرفرف لما وصل إلى مقام لا يتعدّاه زج به في النور فغمره النور من جميع نواحيه وأعطي علماً آخر لم يكن يعلمه قبل ذلك عن وحي من حيث لا يدري وجهته" :

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لقد رأيتني وأنا في الحجر

وقريش تسألني عن مسراي : فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط فرفعه الله إليّ لأنظر إليه فما سألوني عن شيء إلا أنبئتهم به وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا بموسى قائم يصلي فإذا رجل جعد كأنه من رجال شنوءة وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلي أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا إبراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم يعني به نفسه صلى الله عليه وسلم فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت قال قائل : يا محمد هذا مالك خازن النار فسلم عليه فالتفت إليه فبدأني بالسلام" . وعن جابر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لما كذبني قريش قمت إلى الحجر فجلّى الله لي بيت المقدس" وذكر الحديث . وعن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أتيت موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره" .

فإن قيل : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى يصلي في قبره وكيف تصلي الأنبياء بعد الموت وهم في دار الآخرة ؟

أجيب : بأن صلاته صلى الله عليه وسلم بالأنبياء عليهم السلام ببيت المقدس يحتمل أن الله تعالى جمعهم له ليصلي بهم ويعرفوا فضله وتقدّمه عليهم ، ثم إن الله تعالى أراه إياهم في السموات على مراتبهم ليعرف هو مراتبهم وفضلهم ، وأما مروره بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر فيحتمل أنه كان بعد رجوعه من المعراج ، وأما حكم صلاة الأنبياء وهم في الدار الآخرة فهم في حكم الشهداء بل هم أفضل منهم ، وقد قال تعالى :

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء ﴾ (آل عمران ،)

فالأنبياء بعد الموت أولى ، وأمّا حكم صلاتهم فيحتمل أنها بالذكر والدعاء وذلك من أعمال الآخرة . قال تعالى : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهمّ ﴾ (يونس ،)

وورد في الحديث أنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ، ويحتمل أن الله تعالى خصهم بخصائص في الآخرة كما خصهم في الدنيا بخصائص لم يخص بها غيرهم . منها أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أنه رآهم يلبون ويحجون فكذلك الصلاة والله أعلم بحقائق الأمور .

وروي عن شريك بن عبد الله قال : سمعت أنس بن مالك يقول : "ليلة أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة أنه جاء ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في

المسجد الحرام فقال أوّلهم : أيهم هو . قال أوسطهم : هو خيرهم فقال آخرهم : خذوا خيرهم" وساق حديث المعراج بقصته . قال : "فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان قال : ما هذان يا جبريل ؟ قال : هذان النيل والفرات عنصرهما ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه نهر من لؤلؤ وزبرجد فضرب يده فإذا هو مسك أذفر . قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هو الكوثر الذي خبأ لك ربك" وذكر في آخر حديثه أنه صلى الله عليه وسلم قال في آخر الحديث : "ثم علا بي حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار ورب العزة فتدلى فكان منه كقاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه" وذكرت عائشة أنّ الذي دنا فتدلى جبريل عليه السلام وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى في سورة النجم .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ (الإسراء ،)

يدلّ على أنه تعالى ما أراه إلا بعض الآيات لأنّ كلمة من تفيد التبعيض وقال في حق إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ (الأنعام ،)

أي : ملكهما فيلزم أن يكون معراج إبراهيم أفضل من معراج محمد عليهما الصلاة والسلام ؟

أجيب : بأنه لما أضيفت تلك الآيات إلى الله تعالى دلّ على أنها أفضل مما رآه إبراهيم . تنبيه : قال النووي في شرح مسلم قد جاء في رواية شريك في حديثه أوهام أنكر عليه العلماء فيها منها قوله وذلك قبل أن يوحى إليه وهو غلط لم يوافق عليه وإنّ الإسراء أقل ما قيل فيه أنه كان بعد مبعثه بخمسة عشر شهراً . وقال الطبراني : كان ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة ، وقال الزهري : كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمس سنين قال ابن إسحق أسرى به صلى الله عليه وسلم وقد فشا الإسلام بمكة والقبائل وقيل كان الإسراء في رجب ويقال في رمضان قال النووي وأشبه الأقوال قول الزهري وابن إسحق ومما يدل على أنه أسري بجسده صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ أسرى بعبده ﴾ ولفظ العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد .

وقوله صلى الله عليه وسلم : "أتيت بالبراق" وهو اسم للدابة وهي التي ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به واشتقاقه من البرق لسرعته أو لشدة صفائه وبياضه ولمعانه وتلألؤ نوره والحلقة بإسكان اللام ويجوز فتحها والمراد بربط البراق بالحلقة الأخذ بالاحتياط في الأمور وتعاطي الأسباب وأنّ ذلك لا يقدح في التوكل إذا كان الاعتماد على

الله تعالى وقوله جاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فيه اختصار والتقدير قال لي اختر فاخترت اللبن وقول جبريل اخترت الفطرة يعني فطرة الإسلام وجعل اللبن علامة الفطرة الصحيحة السليمة لكونه سهلاً طيباً سائغاً للشاربين وإنه سليم العاقبة بخلاف الخمر فإنها أم الخبائث وجالبة لأنواع الشرّ وقوله : ثم عرج بي حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . فيه بيان الأدب لمن استأذن أن يقول أنا فلان ، ولا يقول أنا فقط فإنه مكروه ، وفيه أن للسماء أبواباً وبوّابين عليها حرساً وقول بوّاب السماء وقد أرسل إليه وفي الرواية الأخرى ، وقد بعث إليه معناه للاستواء وصعود السماء وليس مراده الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة فإنّ ذلك لا يخفى عليه إلى هذه المدّة ، وقوله فإذا أنا بآدم وذكر جماعة من الأنبياء فيه استحباب لقاء أهل الفضل والصلاح بالبشر والترحيب والكلام الحسن وإن كان الزائر أفضل من المزور وفيه جواز مدح الإنسان في وجهه ، إذا أمن عليه من الإعجاب وغيره من أسباب الفتنة وقوله فإذا أنا بإبراهيم مسند ظهره إلى البيت المعمور فيه دليل على جواز الاستناد إلى القبلة وتحويل ظهره إليها .

وقوله ذهب بي إلى السدرة المنتهى هكذا وقع في هذه الرواية بالألف واللام وفي باقي الروايات إلى سدرة المنتهى . قال ابن عباس وغيره من المفسرين : سميت بذلك لأنّ علم الملائكة ينتهي إليها ولم يجاوزها أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن مسعود : سميت بذلك لكونه ينتهي إليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله عز وجل . وقوله وإذا ثمرها مثل القلال هو بكسر القاف جمع قلة بضمها وهي الجرّة الكبيرة التي تسع قربتين أو أكثر وقوله فرجعت إلى ربي . قال النووي : معناه رجعت إلى الموضع الذي ناجيته منه أولاً فناجيته فيه ثانياً وقوله فلم أزل أرجع بين موسى وبين ربي معناه ربي موضع مناجاة ربي . وقوله ففرض على أمتي خمسين صلاة إلى قوله فوضع عني خمساً وفي رواية شطرها وفي رواية عشراً ليس بين هذه الروايات منافاة لأنّ المراد بالشطر الجزء وهو الخمس وليس المراد منه التنصيف وأمّا رواية العشر فهو رواية شريك ورواية الخمس رواية قتادة وهو أثبت من شريك والمراد حط عني خمساً إلى آخره ، ثم قال : هي خمس وهنّ خمسون يعني خمسين في الأجر والثواب لأنّ الحسنة بعشر أمثالها ، واحتج العلماء بهذا الحديث على جواز نسخ الشيء قبل فعله وفي الحديث أنه شق صدره ليلة المعراج وقد شق صدره أيضاً في صغره وهو عند حليمة التي كانت ترضعه فالمراد بالشق الثاني زيادة التطهير لما يراد به من الكرامة ليلة المعراج وقوله : أتيت بطشت من ذهب قد يتوهم أنه يجوز استعمال الذهب لنا وليس الأمر كذلك لأنّ هذا الفعل من فعل الملائكة وهم مباح لهم

استعمال الذهب ، أو لعل هذا كان قبل تحريمه . وقوله ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغها في صدري قد يقال الحكمة والإيمان من المعاني والإفراغ صفة الأجسام فما معنى ذلك أجيب بأنه يحتمل أنه جعل في الطشت شيء يحصل به كمال الإيمان والحكمة وزيادتهما تسمى إيماناً وحكمة لكونه سبباً لها ، وهذا من أحسن المجاز . وقوله في صفة آدم : فإذا

(264/453)

رجل عن

يمينه أسودة وعن يساره أسودة هو جمع سواد وقد فسره في الحديث بأنه نسم بنيه يعني أرواح بنيه .

فإن قيل : أرواح المؤمنين في السماء وأمّا أرواح الكفار فتحت الأرض السفلى فكيف تكون في السماء ؟

أجيب : بأنه يحتمل أنّ أرواح الكفار تعرض على آدم عليه السلام وهو في السماء فوافق وقت عرضها على آدم مرور النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبر بما رأى .

وقوله : إذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى ، ففيه شفقة الوالد على أولاده وسروره وفرحه بحسن حال المؤمن منهم وحزنه على حال الكافر منهم وقوله في إدريس

مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح ، قد اتفق المؤرخون أنه هو أخنوخ جدّ نوح فيكون جدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كما أنّ إبراهيم جدّه فكان ينبغي أن يقول بالنبيّ الصالح والابن الصالح كما قال آدم وإبراهيم ؟ وأجيب : بأنه قيل إنّ إدريس المذكور هنا هو إلياس وهو من ذرية إبراهيم فليس هو جدّ نوح قاله القاضي عياض . وقال النووي : ليس في هذا الحديث ما يمنع كون إدريس أباً لنبينا صلى الله عليه وسلم وأنّ قوله : الأخ الصالح يحتمل أن يكون قاله تلطفاً وتأدّباً وهو أخ وإن كان ابناً لأنّ الأنبياء إخوة والمؤمنون إخوة انتهى . وإنما أطلت في بيان ذلك لأنّ الكلام مع الأحبة يحلو ولولا خوف الملل ما اقتصرت على ذلك . فقد قال بعض المفسرين لا أعلم في الكتاب العزيز سورة تضمنت من خصائصه التي فضل بها كافة الأنبياء ما تضمنته هذه السورة ولكن في هذا القدر كفاية لأولي الألباب . ولما ثبت بهذه الخارقة ما أخبر به صلى الله عليه وسلم عن نفسه المقدّسة من عظيم القدرة وما جاءه صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات في هذا الوقت اليسير أتبعه ما منح في السير من مصر إلى الأرض المقدّسة من الآيات في مدد طوال موسى عليه الصلاة والسلام الذي كان أعظم الأنبياء بركة على هذه الأمّة ليلة الإسراء لما أرشد النبيّ صلى الله عليه وسلم إليه من مراجعة الله تعالى في

تخفيف الصلاة حتى رجعت من خمسين إلى خمس مع أجر خمسين فقال: ﴿ وآتينا ﴾ أي: بعظمتنا ﴿ موسى الكتاب ﴾ أي: التوراة ﴿ وجعلناه ﴾ أي: الكتاب بما لنا من العظمة ﴿ هدى لبني إسرائيل ﴾ بالحمل على العدل في التوحيد والأحكام وأسرينا بموسى عليه السلام وبقومه من مصر إلى بلاد المسجد الأقصى، فأقاموا سائرين إليها أربعين سنة ولم يصلوا ومات كل من خرج إلا المتقين الموفين بالعهد فقد بان الفضل بين الإسراءين كما بان الفضل بين الكتابين، فذكر الإسراء أوّلاً دليل على حذف مثله أوّلاً فالآية من الاحتباك ثم نبه على أنّ المراد من ذلك كلمة التوحيد اعتقاداً وعبادة بقوله تعالى: ﴿ أنّ لا ﴾ أي: لئلا ﴿ يتخذوا ﴾ على قراءة أبي عمرو بالياء على الغيبة، وقرأ غيره بالتاء على أن لا تتخذوا كقولك كتبت إليه أن أفعل كذا. ﴿ من دوني وكيلاً ﴾ أي: ربا تكلون إليه أموركم، وذلك هو التوحيد فلا معراج أعلى ولا درجة أشرف ولا نعمة أعظم من أن يصير المرء غريقاً في بحر التوحيد وأن لا يعوّل في أمر من الأمور إلا على الله تعالى، فإن نطق نطق بذكر الله، وإن تفكر تفكر في دلائل تنزيه الله وإن طلب طلب من الله، فيكون كله لله وبالله وإلى الله.

وقوله تعالى:

﴿ ذرية ﴾ نصب على الاختصاص في قراءة أبي عمرو وعلى النداء عند الباقين أي: يا ذرّية ﴿ من حملنا ﴾ أي: في السفينة بعظمتنا على ظهر ذلك الماء الذي طبق ما تحت أديم

السماء ونبه تعالى على شرفهم وتمام نعمتهم بقوله تعالى : ﴿مع نوح﴾ ففي ذلك تذكير بإنعام الله تعالى عليهم وإنجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح في السفينة . قال قتادة : الناس كلهم من ذرّية نوح لأنه كان معه في السفينة ثلاث بنين سام وحام ويافث ، فالناس كلهم من ذرّية أولئك .

قال البقاعي : لأنّ الصحيح أنّ من كان معه من غير ذرّيته ماتوا ولم يعقبوا ولم يقل ذرّية نوح ليعلم أنهم عقب أولاده المؤمنين لتكون تلك منة أخرى .

(266/453)

ثم إنه تعالى أثنى على نوح حثاً على الاقتداء به في التوحيد كما اقتدى به آباؤهم في ذلك بقوله تعالى : ﴿إنه كان عبداً شكوراً﴾ أي : مبالغاً في الشكر الذي هو صرف العبد جميع ما أنعم الله تعالى به عليه لما خلق له . روي أنه عليه الصلاة السلام كان إذا أكل قال : "الحمد لله الذي أطعمني ، ولو شاء أجاعني" وفي رواية "أنه يسمي إذا أكل ويحمد إذا فرغ ، وإذا شرب قال : الحمد لله الذي سقاني ولو شاء أظمأني . وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذي كساني ولو شاء أعراني . وإذا احتذى قال : الحمد لله الذي حداني ولو شاء أحفاني . وإذا قضى حاجته قال : الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية ولو شاء

حبسه" . وفي رواية أنه كان يقول : "الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقى منفعته في جسدي وأخرج عني أذاه" . وفي رواية : أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من مرّ به فإن وجده محتاجاً آثره به . ولما ذكر تعالى إنعامه على بني إسرائيل بإنزال التوراة عليهم ، وبأنه جعل التوراة هدى لهم بين أنهم ما اهتدوا بهداه بل وقعوا في الفساد بقوله تعالى :

﴿ وقضينا ﴾ أي : أوحينا ﴿ إلى بني إسرائيل ﴾ أي : إلى بني عبدنا يعقوب عليه السلام الذي كان أطوع أهل زمانه وحياً مقطوعاً مثبوتاً ﴿ في الكتاب ﴾ أي : التوراة التي قد أوصلناها إليهم على لسان موسى عليه السلام وقيل : المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ، وقوله تعالى : ﴿ لتفسدنّ ﴾ جواب قسم محذوف ويجوز أن يجري القضاء المثبوت مجرى القسم فيكون لتفسدنّ جواباً له كأنه قال : وأقسمنا لتفسدنّ ﴿ في الأرض ﴾ أي : أرض الشام قاله السيوطي . وقال الرازي : أرض مصر ويوافق الأوّل قول البقاعي أي : المقدّسة التي كأنها لشرفها هي الأرض . ﴿ مرّتين ﴾ أي : إفسادتين . قال في "الكشاف" : أولاهما قتل زكريا عليه السلام وحبس أرميا حين أنذرهم بسخط الله تعالى ، والأخرى قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى ابن مريم . وقال البيضاوي : الأولى مخالفة أحكام التوراة وقتل

شعيا أو قتل أرميا . وثانيتهما قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم السلام .

﴿ ولتعلنّ ﴾ أي : بما صرتم إليه من البطر لنسيان المنعم ﴿ علوّاً كبيراً ﴾ بالظلم والتمرّد لأنه يقال لكل متجبر قد علا وتعظم ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما ﴾ أي : أولى مرّتي الفساد وهو الوقت الذي جدّدنا لهم الانتقام فيه ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا ﴾ أي : لا يدان لكم بهم كما قال تعالى : ﴿ أولي بأس شديد ﴾ أي : أصحاب قوّة في الحرب . واختلف فيهم فقال في "الكشاف" : سنحاريب وجنوده ، وقيل بختنصر . وقال ابن عباس : جالوت قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وخرّبوا المساجد وسبوا منهم سبعين ألفاً . وقال البيضاوي : عباداً لنا بختنصر عامل لهراسف على بابل وجنوده ، وقيل : جالوت الحزري وهو بجاء فزاي : مفتوحتين فراء نسبة إلى الحزر وهو ضيق العين وصغرها ، وهو الذي قتله داود أو جيل من الناس . وذكر الرازي في ذلك قولين : الأوّل : أنّ الله تعالى سلط عليهم بختنصر فقتل منهم أربعين ألفاً ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية إلى أرض نفسه ، فبقوا هناك في الذل . الثاني : أنّ الله تعالى

ألقى الرعب من بني إسرائيل

في قلوب المجوس ، فلما كثرت المعاصي فيهم أزال الله ذلك الرعب عن قلوب المجوس فقصدوهم وبالغوا في قتلهم وإفنائهم وإهلاكهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية قال : أفسدوا المرّة الأولى ، فأرسل الله عليهم جالوت فقتلهم وأفسدوا المرّة الثانية فقتلوا يحيى بن زكريا فبعث الله عليهم بختنصر . وعن ابن مسعود قال : كان أوّل الفساد من قتل زكريا فبعث الله عليهم ملك القبط . وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : الأولى قتل زكريا والأخرى قتل يحيى . قاله الرازي . واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض في معرفة أولئك الأقوام بأعيانهم بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصي سلط الله عليهم أقواماً فقتلوهم وأفنوهم .

ثم قال الله تعالى : ﴿ فجاسوا ﴾ أي : تردّدوا لطلبكم ﴿ خلال الديار ﴾ أي : وسطها للقتل والغارة . قال البيضاوي : فقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم وحرّقوا التوراة وخرّبوا المسجد ، والمعتزلة لما منعوا تسليط الله الكافر على ذلك أولوا البعث بالتخلية انتهى .

وفي ذلك تعريض بالزمخشري فإنه قال في "كشافه" : فإن قلت كيف جاز أن يبعث الله تعالى الكفرة على ذلك ويسلطهم عليه . قلت : معناه خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم على أنّ الله عز وجل أسند بعث الكفرة عليهم إلى نفسه فهو كقوله تعالى : ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾ (الأنعام ،)

. ﴿ وكان ﴾ أي : ذلك البعث ووعد العقاب به ﴿ وعداً مفعولاً ﴾ أي : قضاء كائناً لازماً لا شك في وقوعه ولا بدّ أن يفعل .

(269/453)

﴿ ثم رددنا لكم الكرّة ﴾ أي : الدولة والغلبة ﴿ عليهم ﴾ حتى تبتم عن ذنوبكم ورجعتم عن الفساد في زمن داود بقتله جالوت وذلك بعد مائة سنة ﴿ وأمددناكم بأموال ﴾ تستعينون بها على قتال عدوّكم ﴿ وبنين ﴾ تتقوّون بهم ﴿ وجعلناكم أكثر ﴾ من عدوّكم ﴿ نفيراً ﴾ أي : عشيرة تنفر معكم عند إرادة القتال وغيره من المهمات والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل : جمع نفر ، وهم المجتمعون للذهاب إلى العدوّ . ولما حكى الله تعالى عنهم أنهم لما عصوا سلط الله عليهم أقواماً قصدوهم بالقتل والنهب والسبي ولما تابوا أزال عنهم تلك المحنة ، وأعاد عليهم الدولة فعند ذلك ظهر أنهم إن أطاعوا الله فقد أحسنوا إلى أنفسهم ، وإن أصرّوا على المعصية فقد أساؤوا على أنفسهم وقد تقرّر في العقول أنّ الإحسان إلى النفس حسن مطلوب وأنّ الإساءة إليها قبيحة فلهذا المعنى قال تعالى : ﴿ إن أحسنتم ﴾ أي : بفعل الطاعة على حسب الأمر في الكتاب الداعي إلى العدل والإحسان ﴿ أحسنتم لأنفسكم ﴾ أي : لأنّ ثوابها لها ﴿ وإن أسأتم ﴾ بارتكاب

المحرّمات والإفساد ﴿ فلها ﴾ أي : الإساءة لأنّ وبالها عليها . قال النحويون : وإنما قال : ﴿ وإن أسأتم فلها ﴾ للتقابل ، والمعنى فإليها أو فعليها كما مرّ مع أنّ حروف الإضافة يقوم بعضها مقام بعض كقوله تعالى : ﴿ يومئذٍ تحدّث أخبارها بأن ربك أوحى لها ﴾ (الزلزلة : ،)

أي : إليها . تنبيه : قال أهل الإشارات هذه الآية تدل على أن رحمة الله غالبة على غضبه بدليل أنه تعالى لما حكى عنهم الإحسان ذكره مرّتين فقال تعالى : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾ ولما حكى عنهم الإساءة اقتصر على ذكرها مرّة واحدة فقال تعالى : ﴿ وإن أساأتم فلها ﴾ ولولا أن جانب الرحمة غالب وإلا لما كان كذلك ثم قال:

(270/453)

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ أي : ثانية في الإفساد وهو الوقت الذي حدّدنا له الانتقام فيه . ﴿ ليسوءوا ﴾ أي : بعثنا عليكم عباداً لنا ليسوءوا ﴿ وجوهكم ﴾ أي : بجعل آثار الإساءة بائنة فيها وحذف متعلق اللام لدلالة الأوّل عليه . وقرأ الكسائي بعد اللام بنون مفتوحة على التوحيد والضمير فيه لله والباقون بالياء مفتوحة ، وأمّا الهمزة التي بعد الواو والتي بعد السين فقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص بضم الهمزة ومدّها والباقون

بفتح الهمزة ولا مدّ وقوله تعالى : ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾ عطف على ليسوءوا والمراد بالمسجد الأقصى الذي سقناكم إليه من مصر في تلك المدد الطوال وأعطيناكم بلاده بالتدريج وجعلناه محل عزكم وأمنكم ثم جعلناه محلاً لإكرام أشرف خلقنا بالإسراء إليه وجمع أرواح النبيين كلهم فيه وصلاته بهم ، وهذا تعريض بتهديد لقريش بأنهم إن لم يرجعوا بدل الله أمنهم في الحرم خوفاً وعزهم ذلاً ، وأدخل عليهم جنوداً لا قبل لهم بها ، وقد فعل ذلك عام الفتح لكنه فعل إكرام لا إهانة ببركة هذا النبيّ الكريم صلى الله عليه وسلم ﴿ كما دخلوه ﴾ أي : الأعداء ﴿ أوّل مرّة ﴾ بالسيف ويقهروا جميع جنودكم دفعة واحدة ﴿ وليتبروا ﴾ أي : يهلكوا ويدمروا مع التقطيع والتفريق ﴿ ما علوا ﴾ أي : عليه من ذلك وقيل ما مصدرية أي : مدّة علوهم ﴿ تتبيراً ﴾ أي : إهلاكاً . قال الزجاج : وكل شيء جعلته مكسراً مفتتاً فقد تبرته ومنه قيل تبر الزجاج ، وتبر الذهب لمكسره ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنّ هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ (الأعراف ،)

. قال الرازي : وهذه المرّة الأخيرة هي إقدامهم على قتل زكريا ويحيى عليهما السلام . قال البيضاوي : وذلك بأن سلط عليهم الفرس مرّة أخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف

اسمه حردون، وقيل جردوس، قيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم جمع قربان فوجد فيه دماً يغلي فسألهم عنه فقالوا: دم قربان لم يقبل منا فقال: ما صدقتموني فقتل عليه ألوفاً منهم فلم يهدأ الدم، ثم قال إن لم تصدقوني ما تركت منكم أحداً فقالوا إنه دم يحيى فقال لمثل هذا ينتقم ربكم منكم، ثم قال: يا يحيى أي: خطاباً لدمه قد علم ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ بإذن الله قبل أن لا يبقى أحد منهم فهدأ أي: سكن. ا.

وقال الواحدي: فبعث الله تعالى عليهم بختنصر البابلي المجوسي أبغض خلقه إليه فسبى بني إسرائيل وخرب بيت المقدس. قال الرازي: أقوال التواريخ تشهد أنّ بختنصر كان قبل وقت عيسى ويحيى وزكريا بسنين متطاولة، ومعلوم أنّ الملك الذي انتقم من اليهود ملك الروم يقال له قسطنطين الملك والله أعلم بأحوالهم ولا يتعلق غرض من أغراض تفسير القرآن بمعرفة أعيان هؤلاء الأقوام انتهى. ولما انقضى ذلك كان كأنه قيل هل بقي لهم نصرة على عدوّهم؟ فقال تعالى:

يا بني إسرائيل بعد انتقامه منكم فترد الدولة إليكم ثم بعد أن أطمعهم فزعهم بقوله تعالى: ﴿وإن عدتم﴾ أي: إلى المعصية ﴿عدنا﴾ أي: إلى صب البلاء عليكم في الدنيا مرّة أخرى. قال القفال: إنما حملنا هذه الآية على عذاب الدنيا لقوله تعالى في سورة الأعراف

خبراً عن بني إسرائيل : ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ (الأعراف ،)

(272/453)

. ثم قال وإنهم قد عادوا إلى فعل ما لا ينبغي وهو التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم وكتمان ما ورد في التوراة والإنجيل فعاد الله تعالى عليهم بالتعذيب على أيدي العرب فجرى على بني النضير وقريظة وبني قينقاع ويهود خيبر ما جرى من القتل والجلاء ثم الباقي منهم مقهورون بالجزية لا ملك لهم ولا سلطان ثم قال تعالى ﴿ وجعلنا ﴾ أي : بعد ذلك بعظمتنا ﴿ جهنم ﴾ أي : التي تلقى داخلها بالتجهيم والكراهة ﴿ للكافرين ﴾ وذكر الوصف الظاهر موضع الضمير لبيان تعلق الحكم به على سبيل الرسوخ سواء في ذلك هم وغيرهم وقوله تعالى ﴿ حصيرا ﴾ يحتمل أن يكون فعيلاً بمعنى الفاعل أي : جعلنا جهنم حاصراً لهم ويحتمل أن يكون بمعنى مفعول أي : جعلناها موضعاً محصوراً لهم والمعنى أنّ عذاب الدنيا وإن كان شديداً قوياً إلا أنه قد ينقلب بعض الناس عنه والذي يقع في ذلك العذاب يتخلص منه إمّا بالموت وإمّا بطريق آخر ، وأمّا عذاب الآخرة فإنه يكون حاصراً للإنسان محيطاً به لا رجاء في الخلاص عنه فهؤلاء الأقوام لهم من عذاب الدنيا ما وصفناه ويكون لهم

بعد ذلك من عذاب الآخرة ما يكون محيطاً بهم من جميع الجهات ولا يتخلصون منه أبداً .

ولما بين سبحانه وتعالى كتاب موسى عليه السلام الذي أنزل عليه فيما بين مصر وبيت المقدس في تلك المدّة المتطاولة وجعله هدى لبني إسرائيل صادق الوعد والوعيد بين تعالى كتاب محمد صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه منه في سبب مسيره إليه في ذلك ، ووصفه بثلاثة أنواع من الصفات الأولى قوله تعالى:

﴿ إنّ هذا القرآن ﴾ أي : الجامع لكل حق والفارق بين كل ملتبس ﴿ يهدي للتي ﴾ أي : إلى الطريق التي ﴿ هي أقوم ﴾ أي : أصوب من كل طريق فقوله تعالى : ﴿ للتي هي أقوم ﴾ نعت لموصوف محذوف كما تقرّر ويصح أن يقدّر الملة والشريعة أي : يهدي إلى الملة والشريعة التي هي أقوم الملل والشرائع ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال في القرآن كقوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ (المؤمنون ،)

وقيل إلى الكلمة التي هي أعدل وهي شهادة أن لا إله إلا الله . تنبيه : لفظ افعل قد جاء بمعنى الفاعل كقولنا الله أكبر أي : الله الكبير وكقولنا الأشج والناقص أعدلا بني مروان ، فأقوم يحتمل أن يكون كذلك وأن يبقى على ظاهره . الصفة الثانية قوله تعالى : ﴿ ويبشر

المؤمنين ﴾ أي : الراسخين في هذا الوصف ولهذا قيدهم بياناً لهم بقوله : ﴿ الذين ﴾ أي : يصدّقون إيمانهم بأنهم ﴿ يعملون ﴾ أي : على سبيل التجديد والاستمرار والبناء على العلم ﴿ الصالحات ﴾ من التقوى والإحسان ﴿ أنّ لهم أجراً كبيراً ﴾ هو الجنة والنظر إلى وجه الله تعالى . وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم الياء وفتح الباء الموحدة وكسر الشين مشدّدة . فإن قيل : قال هنا ﴿ أجراً كبيراً ﴾ وفي الكهف ﴿ أجراً حسناً ﴾ (الكهف ،)

أجيب : بوقوع ذلك لموافقة الفواصل قبل وبعد في كل منهما . الصفة الثالثة قوله تعالى: ﴿ وأنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا ﴾ أي : أحضرنا وهيأنا ﴿ لهم عذاباً أليماً ﴾ وهو النار في الآخرة وهو عطف على أنّ لهم أجراً كبيراً ، والمعنى أنه تعالى بشر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب أعدائهم ، نظيره قولك بشرت زيداً بأنه سيعطى وبأنّ عدوّه سيمنع . فإن قيل : كيف يليق لفظ البشارة بالعذاب ؟

أجيب : بأنّ هذا مذكور على سبيل التهكم أو أنه من باب إطلاق أحد الضدّين على الآخر كقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ (الشورى ،)

أو على يبشر بإضمار يخبر. فإن قيل: هذه الآية واردة في شرح أحوال اليهود وهم ما كانوا ينكرون الإيمان بالآخرة؟

أجيب: بأنّ أكثر اليهود ينكرون الثواب والعقاب الجسمانيين وبأنّ بعضهم قال: ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ (آل الأعراف،)

فهم بذلك صاروا كالمنكرين للآخرة. ولما بين سبحانه وتعالى أنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، والإنسان قد يقدم على ما لا فائدة فيه بينه بقوله تعالى:

﴿ ويدع الإنسان بالشرّ ﴾ عند ضجره على نفسه وأهله وماله ﴿ دعاءه ﴾ أي: مثل دعائه ﴿ بالخير ﴾ ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك. روي أنه صلى الله عليه وسلم دفع إلى سودة بنت زمعة أسيراً فأقبل يئنّ في الليل فقالت له: ما لك؟ فبكى وشكا فرحمته فأرخت كتافه فهرب، فلما أصبح النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا به فأعلم بشأنه فقال صلى الله عليه وسلم "اللهمّ اقطع يدها فرفعت سودة يدها تتوقع أن يقطع الله تعالى يدها، فندم النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال: اللهم إنما أنا بشر أغضب كما يغضبون فمن دعوت عليه فاجعل دعائي رحمة له وقيل المراد النضر بن الحرث حيث قال: اللهمّ انصر خير الحزبين اللهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك إلى آخره فأجاب الله تعالى دعاءه وضربت رقبته يوم بدر صبراً. وكان بعضهم يقول: ﴿ ائتنا بعذاب الله ﴾

(العنكبوت ،)

وآخرون يقولون : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ (يونس ،)

(275/453)

وإنما فعلوا ذلك للجهل ولاعتقاد أنّ محمداً كاذب فيما يقول ، وقيل المراد أنّ الإنسان قد يبالغ في الدعاء طالباً لشيء قد يعتقد أنّ خيره فيه مع أنّ ذلك الشيء منبع لشرّه وضرره وهو يبالغ في طلبه لجهله بحال ذلك الشيء وإنما يقدّم على مثل هذا العمل لكونه عجولاً مغترّاً بظواهر الأمور غير متفحص عن حقائقها وأسرارها ، كما قال تعالى : ﴿ وكان الإنسان ﴾ أي : الجنس ﴿ عجولاً ﴾ أي : يسارع إلى كل ما يخطر بباله ولا ينظر إلى عاقبته وقيل المراد آدم عليه السلام لما انتهى الروح إلى سرّته ذهب لينهض فسقط . تنبيه : حذفت واو ويدع أي : التي هي لام الفعل خطأً في جميع المصاحف ولا موجب لحذفها لفظاً في العربية لكنها لما كانت لا تظهر في اللفظ حذفت في الخط ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ سندع الزبانية ﴾ (العلق ،)

و ﴿ سوف يؤت الله المؤمنين ﴾ (النساء ،)

و ﴿ يوم يناد المنادي ﴾ (ق ،)

﴿ فما تغن النذر ﴾ (القمر ،)

. قال الفراء : ولو كان ذلك بالواو والياء لكان صواباً . وقال الرازي : أقول هذا يدل على أنه سبحانه وتعالى قد عظم هذا القرآن المجيد عن التحريف والتغيير فإنّ إثبات الواو والياء في أكثر ألفاظ القرآن وعدم إثباتها في هذه المواضع المعدودة يدل على أنّ هذا القرآن نقل كما سمع وأن أحداً لم يتصرف فيه بمقدار فهمه وقوّة عقله . ولما بيّن تعالى ما أوصل من نعم الدين وهو القرآن أتبعه بما وصل إليهم من نعم الدنيا فقال:

﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ﴾ دالتين على تمام العلم وشمول القدرة آية الليل كالآيات المتشابهة وآية النهار كالمحكمة فكما أنّ المقصود من التكليف لا يتم إلا بذكر المحكم والمتشابه فكذلك الزمان لا يتيسر الانتفاع به إلا بهاتين الآيتين ﴿ فمحونا ﴾ أي : بعظمتنا الباهرة ﴿ آية الليل ﴾ أي : طمسنا نورها بالظلام ليسكنوا فيه فجعلناها لا يبصر فيها المرئيات كما لا يبصر الكتاب إذا محي . ﴿ وجعلنا ﴾ مما لنا من القدرة . ﴿ آية النهار مبصرة ﴾ أي : مبصراً فيها بالضوء فلا تزال هذه الدار الناقصة في تنقل من نور إلى ظلمة ومن الظلمة إلى النور كما أن الإنسان بعجلته التي يدعو إليها طبعه وتأنيه الداعي إليه عقله

من انتقال من نقصان إلى كمال ومن كمال إلى نقصان ، كما أن القمر الذي هو أنقص من الشمس كذلك . قال ابن عباس : جعل الله نور الشمس سبعين جزءاً ونور القمر كذلك فمحى من نور القمر تسعة وستين جزءاً فجعلها مع نور الشمس . وحكي أن الله تعالى أمر جبريل فأمر بجناحه على وجه القمر ثلاث مرّات فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور .

وسأل ابن ذكوان علياً رضي الله عنه عن السواد الذي في القمر قال هو أثر المحو . تنبيه : المراد من الآيتين بعض الليل والنهار فالإضافة للبيان أي : أنه تعالى جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا ، أمّا الدين فلأن كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير له مع كونهما متعاقبين على الدوام وهو من أقوى الدلائل على أنهما غير موجودين بذاتهما بل لا بدّ لهما من فاعل يدبرهما ويقدّرهما بالمقادير المخصوصة ، وأمّا في الدنيا فلأن مصالح الدنيا لا تتم إلا بالليل والنهار فلولا الليل ما حصل السكون والراحة ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرّف وقيل الليل والنهار ظرفان والتقدير وجعلنا آيتين في الليل والنهار والمراد بالآيتين على هذا إمّا الشمس والقمر وإمّا تكوير هذا على هذا وهذا على هذا ثم ذكر تعالى بعض المنافع المرتب على ذلك بقوله تعالى :

﴿ لتبتغوا ﴾

أي : تطلبوا طلباً شديداً ﴿ فضلاً من ربكم ﴾ أي : المحسن إليكم فيهما بضياء هذا تارة ونور هذا أخرى ﴿ ولتعلموا ﴾ بفصل هذا عن هذا ﴿ عدد السنين والحساب ﴾ لأن الحساب يبنى على أربع مراتب الساعات والأيام والشهور والسنين ، والعدد للسنين والحساب لما دون السنين وهي الشهور والأيام والساعات وبعد هذه المراتب الأربعة لا يحصل إلا التكرار كأنهم رتبوا العدد على أربع مراتب الآحاد والعشرات والمئات والألوف وليس بعدها إلا التكرار . ولما ذكر تعالى أحوال آيتي الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان عظيمتان من الله تعالى على أهل الدنيا ، وقد ذكر تعالى في آيات كثيرة منافعهما كقوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً ﴾ (النبأ : ،)

. وكقوله تعالى : ﴿ جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ (القصص ،)

وشرح تعالى حالهما وفصل ما فيهما من وجوه الدلالة على الخالق ، ومن وجوه النعم العظيمة على الخلق ، كان ذلك تفصيلاً نافعاً وتبياناً كاملاً فلا جرم ، قال تعالى : ﴿ وكل شيء ﴾ أي : لكم إليه حاجة في مصالح دينكم ودنياكم ﴿ فصلناه تفصيلاً ﴾ أي : بيناه تبييناً ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ما فرّطنا في الكتاب من شيء ﴾ (الأنعام ،)

وكقوله تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ (النحل ،)

وقوله : ﴿ تدمّر كل شيء بأمر ربها ﴾ (الأحقاف ،)

. وإنما ذكر تعالى تفصيلاً لأجل توكيد الكلام وتقريره ، فكأنه قال : فصلناه حقاً . ولما بين تعالى أنه أوصل إلى الخلق أصناف الأشياء النافعة لهم في الدنيا والدين مثل آيتي الليل والنهار وغيرهما كان منعماً عليهم بوجود النعم وذلك يقتضي وجوب اشتغالهم بخدمته وطاعته فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فإنه يكون مسؤولاً عن أعماله وأقواله كما قال تعالى:

﴿ وكل إنسان ألزمناه ﴾ أي : بعظمتنا ﴿ طائره ﴾ أي : عمله الذي قدرناه عليه من خير وشرّ ، لأن العرب كانوا إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم إلى خير أو إلى عمل شرّ اعتبروا أحوال الطير وهو أنه يطير بنفسه أو يحتاج إلى إزعاجه وإذا طار فهو يطير متيامناً أو متياسراً أو صاعداً إلى الجو إلى غير ذلك من الأحوال التي كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة فلما كثر ذلك منهم سموا نفس الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه

فقوله تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ (الإسراء ،)

أي : وكل إنسان ألزمناه عمله ﴿ في عنقه ﴾ الذي هو محل التزين بالقلادة ونحوها ومحل الشين بالغل ونحوه فإن كان عمله خيراً كان كالقلادة والحلي في العنق وهذا مما يزينه وإن كان عمله شرّاً كان كالغل في عنقه وهو مما يشينه وقال مجاهد ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد ، قال الرازي : والتحقيق في هذا الباب أنه تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والفهم والعلم والعمر والرزق والسعادة والشقاوة والإنسان لا يمكنه أن يتجاوز ذلك المقدار وإن كان ينحرف عنه بل لا بدّ وأن يصل إليه ذلك القدر بحسب الكمية والكيفية فتلك الأشياء المقدرة كأنها تطير إليه وتصير إليه فلهذا المعنى لا يبعد أن يعبر عن تلك الأحوال المقدّرة بلفظ الطائر فقوله تعالى ﴿ ألزمناه طائره في عنقه ﴾ (الإسراء ،)

كناية عن كل ما قدّره الله ومعنى في عنقه حصوله له فهو لازم له واصل إليه غير منحرف عنه وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم "جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة" انتهى ملخصاً . ثم قال تعالى:

﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً ﴾ أي : مكتوباً فيه عمله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . قال الحسن : بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك ، فأمّا الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأمّا الذي عن شمالك فيحفظ لك سيئاتك ، حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك في قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ يلقاه منشوراً ﴾ صفتان لكتاباً وقرأ ابن عامر بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف على البناء للمفعول من لقيته كذا أي : استقلبته به والباقون بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف ، وأمال الألف بعد القاف حمزة والكسائي محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح ثم إنه إذا لقي كتابه يوم القيامة يوم العرض قيل له : ﴿ اقرأ كتابك ﴾ أي : بنفسك ﴿ كفى بنفسك اليوم ﴾ الذي تكشف فيه الستور وتظهر جميع الأمور ﴿ عليك حسيباً ﴾ أي : حساباً بليغاً فإنك تعطى القدرة على قراءته أمياً كنت أو قارئاً ولا ترى فيه زيادة ولا نقصاناً ولا تقدر أن تنكر منه حرفاً وإن أنكره لسانك شهدت عليك أركانك فيا لها من قدرة باهرة وقوّة قاهرة ونصفة ظاهرة . قال الحسن : عدل والله في حقك من جعلك حسيب نفسك . وقال السدي : يقول الكافر يومئذٍ إنك قضيت أنك لست بظلام للعبيد فاجعلني أحاسب نفسي فيقال له : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ فإن قيل : قد قال تعالى : ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ فكيف الجمع في ذلك ؟

أجيب : بأنّ المراد بالحسيب هنا الشهيد أي : كفى بشخصك اليوم شاهداً عليك أو أنّ القيامة مواقف مختلفة ففي موقف يكل الله تعالى حسابهم إلى أنفسهم وعلمه محيط بهم وفي آخر يحاسبهم هو . وقوله تعالى:

﴿ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴾ لأنّ ثواب اهتدائه له لا ينجي غيره ﴿ ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ أي : إثمه عليها فلا يضرّ في ضلاله سواه ، كما قال الكلبي دلالة على أنّ العبد متمكن من الخير والشرّ وإنه غير مجبور على عمل بعينه أصلاً لأنّ قوله تعالى : ﴿ من اهتدى ﴾ إلى آخره إنما يليق بالقادر على الفعل المتمكن منه كيف شاء وأراد ، أمّا المجبور على أحد الطرفين الممنوع عن الطرف الثاني فهذا لا يليق به ، هذا مذهب أهل السنة والجماعة فاتبعه ترشد ثم إنه تعالى أعاد تقرير أنّ كل أحد مختص بأثر عمل نفسه بقوله تعالى : ﴿ ولا تزر ﴾ أي : نفس ﴿ وازرة ﴾ أي : آثمة أي : لا تحمل ﴿ وزر ﴾ نفس ﴿ أخرى ﴾ بل إنما تحمل وزرها فقط . فإن قيل : ورد أنّ المظلوم يأخذ من حسنات الظالم فإذا لم يوف يؤخذ من سيآت المظلوم وتطرح على الظالم ؟

أجيب : بأنّ ذلك بسببه فهو كفعله . فإن قيل : قد ورد أن الميت يبكاء أهله ؟

أجيب : بأنّ ذلك محمول على ما إذا أوصى بذلك وكان ذلك الفعل كقول طرفة بن العبد :

*إذا مت فانعيني بما أنا أهله

** وشقي عليّ الجيب يا ابنة معبد

وعليه حمل الجمهور الأخبار الواردة بتعذيب الميت على ذلك . فإن قيل : ذنب الميت فيما إذا أوصى أو أمر بذلك فلا يختلف عذابه بامتثالهم وعدمه ؟

أجيب : بأنّ الذنب على السبب يعظم بوجود المسبب وشاهده "من سن سنة سيئة" الخ وقال الشيخ أبو حامد : إنّ ما ذكر محمول على الكافر وغيره من أهل الذنوب . ثم قال تعالى:

﴿ وما كنا ﴾ أي : على ما لنا من القدرة ﴿ معذبين ﴾ أحداً ﴿ حتى نبعث رسولاً ﴾ يبين له ما يجب عليه فمن بلغته دعوته فخالف أمره واستكبر عن اتباعه عذبناه بما يستحقه وهذا أمر قد تحقق بإرسال آدم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء الكرام عليهم السلام في جميع الأمم قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمّة رسولاً ﴾ (النحل ،)

. وقال تعالى : ﴿ وإن من أمّة إلا خلا فيها نذير ﴾ (فاطر ،)

فإنّ دعوتهم إلى الله تعالى قد انتشرت وعمت الأقطار واشتهرت . فإن قيل : الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسول لأنّ معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله تعالى وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه ، واستحقاقهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم ، وكفرهم لذلك لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف ، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان ؟

أجيب : بأنّ بعثة الرسول من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة لئلا يقولوا : ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ (الأعراف ،) ، فهلا بعثت إلينا رسولاً ينبهنا على النظر في أدلة العقل ، وفي الآية دليل على أن لا وجوب قبل الشرع .

فائدة : في حكم أهل الفترتين بين نوح وإدريس وبين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة عشر قسماً ؛ ستة سعداء وأربعة أشقياء وثلاثة تحت المشيئة ، فأمّا السعداء فقسم وحّد الله تعالى بنور وجده في قلبه كقس بن ساعدة فإنه كان يقول إذا سئل هل لهذا العالم إله ؟ قال : البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام يدل على المسير . وقسم وحد الله تعالى بما تجلى لقلبه من النور الذي لا يقدر على دفعه ، وقسم ألقى في نفسه واطلع من كشفه على منزلة محمد صلى الله عليه وسلم فآمن من به في عالم الغيب ، وقسم اتبع ملة

حق ممن تقدمة ، وقسم طالع في كتب الأنبياء فعرف شرف محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به وقسم آمن بنبيه الذي أرسل إليه وأدرك رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وآمن به فله أجران . وأما الأشقياء فقسم عطل لا عن نظر بل عن تقليد ، وقسم عطل بعدما أثبت لا عن استقصاء بنظر ، وقسم أشرك عن تقليد محض ، وقسم علم الحق وعانده ، وأما الذي تحت المشيئة فقسم عطل فلم يقر بوجوده عن نظر قاصر لضعف في مزاجه ، وقسم أشرك عن نظر أخطأ فيه ، وقسم عطل بعدما أثبت لا عن نظر بلغ فيه أقصى القوّة هكذا قسم محيي الدين بن عربي في الباب العاشر من الفتوحات المكية نقل ذلك عن شيخ وقته الشيخ عبد الوهاب الشعراني ، ونقل عن السيوطي أنّ أبوي النبيّ صلى الله عليه وسلم لم تبلغهما الدعوة والله تعالى يقول : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ وحكم من لم تبلغه الدعوة أنه يموت ناجياً ولا يعذب ويدخل الجنة . قال : وهذا مذهب لا خلاف فيه بين المحققين من أئمتنا الشافعية في الفقه والأشاعرة في الأصول ، ونص على ذلك الإمام الشافعيّ رضي الله عنه ، وتبعه على ذلك الأصحاب ، قال السيوطي : وقد ورد في الحديث أن الله تعالى أحيا أبويه حتى آمنا به ، وعلى ذلك جماعة من الحفاظ منهم الخطيب البغدادي وأبو القاسم بن عساكر وأبو حفص بن شاهين والسهيلي والقرطبي والطبري وابن المنير وابن سيد الناس وابن ناصر

الدين

الدمشقي والصفدي وغيرهم والأولى لنا الإمساك عن ذلك فإنّ الله تعالى لم يكلفنا بذلك ونكل الأمر في ذلك إلى الله تعالى ، ونقول كما قال النووي لما سئل عن طائفة ابن عربي

﴿ تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون ﴾

(البقرة ،)

. ولما أشار تعالى إلى عذاب المخالفين قرّر أسبابه وعرف أنها بقدره وأن قدره لا يمنع حقوق العذاب بقوله تعالى:

r

﴿ وإذا أردنا ﴾ أن نحيي قرية الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة ألقينا في قلوب أهلها امتثال أو أمرنا والتقييد باتباع رسلنا وإذا أردنا ﴿ أن نهلك قرية ﴾ في الزمن المستقبل ﴿ أمرنا ﴾ أي : بما لنا من القدرة التامّة الشاملة ﴿ مترفيها ﴾ أي : منعميها الذين لهم الأمر والنهي قال الأكثرون : أمرهم الله تعالى بالطاعة والخير على لسان رسله ﴿ ففسقوا فيها ﴾ أي : خرجوا عن طاعة الله ورسوله . وقال صاحب "الكشاف" : ظاهر اللفظ يدل على أنه تعالى يأمرهم بالفسق فيفسقون إلا أنّ هذا مجاز ، ومعناه أنه يفتح عليهم أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا . قال : والدليل على أنّ ظاهر اللفظ يقتضي ما

ذكرناه أن المأمور به إنما حذف لأنّ قوله ففسقوا يدل عليه يقال أمرته فقام وأمرته فقرأ لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام وقراءة فكذا هنا لما قال: ﴿ أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ﴾ وجب أن يكون المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا لا يقال يشكل هذا بقولهم أمرته فعصاني وخالفني فإنّ هذا كلام لا يفهم منه أني أمرته بالمعصية والمخالفة لأنّا نقول: إنّ المعصية منافية للأمر ومناقضة له فيكون كونها مأموراً بها مخالفاً فلهذه الضرورة تركنا هذا الظاهر انتهى.

(284/453)

قال الرازي: ولقائل أن يقول كما أنّ قوله أمرته فعصاني يدل على أنّ المأمور به شيء غير المعصية من حيث إنّ المعصية منافية للأمر ومناقضة له فكذلك قوله أمرته ففسق يدل على أنّ المأمور به غير الفسق لأن الفسق عبارة عن الإتيان به فكونه فسقاً ينافي كونه مأموراً به كما أنّ كونه معصية ينافي كونها مأموراً بها فوجب أن يدل هذا اللفظ على أنّ المأمور به ليس بفسق وهذا الكلام في غاية الظهور ولم أدر لم أصرّ صاحب "الكشاف" على قوله مع ظهور فساده فثبت أنّ الحق ما ذكر الكل وهو أن المعنى أمرناهم بالأعمال الصالحة وهي الإيمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الأمر عناداً وأقدموا على الفسق ﴿ فحق عليها القول ﴾ أي: الذي توعدناهم به على لسان رسولنا ﴿ فدمرناها تدميراً ﴾ أي:

أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريب ديارهم، وخص المترفين بالذكر لأنّ غيرهم يتبعهم ولأنهم أسرع إلى الحماقة وأقدر على الفجور، وقيل معناه كثرنا وروى الطبراني وغيره حديثاً: "خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة" أي: كثيرة النتاج. والسكة بكسر السين وتشديد الكاف الطريقة المصطفة من النخل، والمأبورة الملقحة قال ذلك الجوهري. وروي أنّ رجلاً من المشركين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إني أرى أمرك هذا حقيراً؟ فقال صلى الله عليه وسلم "إنه سيأمر" أي: سيكثر وسيكبر. وعن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعاً يقول: "لا إلى إلا الله ويل للعرب من شرّ قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بين إصبعيه الإبهام والتي تليها. قالت زينب قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث" أي: الشرّ. وويل يقال لمن وقع في مهلكة أو أشرف أن يقع فيها. وقوله تعالى:

﴿ وكم أهلكنا ﴾ أي: بما لنا من العظمة وبين مدلول كم بقوله تعالى: ﴿ من القرون ﴾ أي: المكذبين ﴿ من بعد نوح ﴾ كعاد وثمود من الأمم الماضية يخوّف به الكفار أي: كفار مكة قال عبد الله بن أبي أوفى: القرن عشرون ومائة سنة. وقيل: مائة سنة. روي عن محمد

بن القاسم عن عبد الله بن بشر المازني أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وضع يده على رأسه وقال : "سيعيش هذا الغلام قرناً" . قال محمد بن القاسم : ما زلنا نعدّ له حتى تمت له مائة سنة ، ثم مات . وقال الكلبي : القرن ثمانون سنة وقيل أربعون . ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ وكفى بربك ﴾ أي : المحسن إليك ﴿ بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ أي : عالماً ببواطنها وظواهرها فكم من إنسان كنتم ترونه من أكابر الصالحين ثم استقرّت عاقبته على خلاف ذلك وكم من شخص ترونه مجتهداً في العبادة فإذا خلا بارز ربه بالعظائم ، وتقديم الخبر لتقديم متعلقه . ولما قرّر أنه سبحانه وتعالى عالم ببواطن عباده وظواهرهم قسمهم إلى قسمين الأوّل : قوله تعالى:

﴿ من كان يريد العاجلة ﴾ أي : الدنيا مقصوراً عليها همه ﴿ عجلنا له فيها ﴾ أي : العاجلة بأن نفيض عليه من منافعها ﴿ ما نشاء ﴾ أي : من البسط والتقتير ﴿ لمن نريد ﴾ أي : أن نفعل به ذلك فقيد تعالى الأمر بقيدين أحدهما تقييد المعجل بإرادته ومشيئته . والثاني : تقييد المعجل له بإرادته وهكذا الحال ترى كثيراً من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا

يعطون إلا بعضاً منه وكثير منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة. تنبيه : لمن نريد بدل بعض من كل من الضمير في له بإعادة العامل تقديره لمن نريد تعجيله له ويقال إنّ الآية في المنافقين كانوا يراؤون المسلمين ويقرؤون معهم ولم يكن غرضهم إلا مساهمتهم في الغنائم ونحوها وهذا هو المناسب لقوله تعالى : ﴿ ثم جعلنا له جهنم يصلاها ﴾ أي : في الآخرة ﴿ مذموماً ﴾ أي : مفعولاً به الذم ﴿ مدحوراً ﴾ أي : مدفوعاً مطروداً مبعداً وإن ذكره البيضاوي بصيغة قيل. ثم ذكر تعالى القسم الثاني وشرط فيه ثلاثة شروط : الأوّل : قوله تعالى:

﴿ ومن أراد الآخرة ﴾ أي : أراد بعمله ثواب الآخرة فإنه إن لم ينو ذلك لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ (النجم ،)

. وقوله صلى الله عليه وسلم "إنما الأعمال بالنيات". الثاني : قوله تعالى : ﴿ وسعى لها سعيها ﴾ وذلك يقتضي أن يكون ذلك العمل من باب القرب والطاعات وكثير من الضلال يتقرّبون بعبادة الأوثان ولهم فيها تأويلات ، أحدها أنهم يقولون إله العالم أجل وأعظم من أن يقدر الواحد منا على إظهار عبوديته وخدمته ولكن غاية قدرتنا أن نشتغل بعبادة بعض

المقرّبين من عباد الله بأن يشتغل بعبادة كوكب أو ملك من الملائكة ثم إن الملك أو الكوكب يشتغل بعبادة الله تعالى فهؤلاء يتقرّبون إلى الله تعالى بهذا الطريق وهذه طريقة فاسدة فلا جرم أنه لم ينتفع بها. ثانيها أنهم قالوا اتخذنا هذه التماثيل على صورة الأنبياء والأولياء والمراد من عبادتها أن تصير تلك الأنبياء والأولياء شفعاء لنا عند الله وهذا الطريق أيضاً فاسد فلا جرم لم ينتفع بها. ثالثها: أنه نقل عن أهل الهند أنهم يتقرّبون إلى الله بقتل أنفسهم تارة أخرى أنفسهم أخرى وهذه الطريقة أيضاً فاسدة فلا جرم لم ينتفع بها. وكذا القول في جميع الفرق المبطلين الذين يتقرّبون إلى الله تعالى بمذاهبهم الباطلة.

الثالث: قوله تعالى: ﴿ وهو مؤمن ﴾ لأنّ الشرط في كون أعمال البرّ مقتضية للثواب هو الإيمان فإن لم يوجد لم يحصل المشروط، وعن بعض المتقدّمين من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله إيمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب، وتلا هذه الآية. ثم إنه تعالى أخبر عند وجود هذه الشروط بقوله تعالى: ﴿ فأولئك ﴾ أي: العالو الرتبة لجمعهم الشرائط الثلاثة ﴿ كان سعيهم مشكوراً ﴾ أي: مقبولاً مثاباً عليه بالتضعيف وبعضهم يفتح له أبواب الدنيا مع ذلك كداود وسليمان عليهما السلام ويستعمله فيها بما فيه مرضاة الله تعالى وبعضهم يزويها عنه كرامة له لا هواناً به فربما كان الفقر خيراً له وأعون على مراده، فالحاصل أنها إن وجدت عند الولي لم تشرفه وإن عدمت عنه لم تحقره، وإنما التشريف وغيره عند الله تعالى بالأعمال.

تنبيه : كل من أتى بفعل إما أن يقصد به تحصيل خيرات الدنيا ، وإمّا أن يقصد به خيرات الآخرة ، وإمّا أن يقصد به مجموعهما ، وإمّا أن لا يقصد به واحداً منهما . فإن قصد به تحصيل الدنيا فقط أو تحصيل الآخرة فقط فالله ذكر حكم هذين القسمين في هذه الآية .

وأمّا القسم الثالث فيقسم إلى ثلاثة أقسام : إمّا أن يكون طلب الآخرة راجحاً أو مرجوحاً أو يكون الطلبان متعادلين ، فإن كان طلب الآخرة راجحاً فهل يكون هذا العمل مقبولاً عند الله تعالى ؟ فيه رأيان:

أحدهما أنه غير مقبول لقوله صلى الله عليه وسلم حاكياً عن الله تعالى أنه قال : "أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه" . وأيضاً طلب رضوان الله إمّا أن يكون سبباً مستقلاً لكونه باعثاً لهم على ذلك الفعل وداعياً إليه ، وإمّا أن لا يكون ، فإن كان الأوّل امتنع أن يكون لغيره مدخل في ذلك البعث والدعاء لأنّ الحكم إذا أسند لسبب تام كامل امتنع أن يكون لغيره مدخل فيه ، وإن كان الثاني فيكون الداعي إلى ذلك الفعل هو المجموع ، وذلك المجموع ليس هو طلب رضوان الله لأنّ المجموع الحاصل من الشيء ومن غيره يجب أن يكون مغايراً لطلب رضوان الله فوجب أن لا يكون مقبولاً .

الرأي الثاني : أنه مقبول لأنّ طلب الآخرة لما كان راجحاً على طلب الدنيا تعارض المثل بالمثل فبقي القدر الزائد داعية خالصة لطلب الآخرة فوجب كونه مقبولاً ، وأمّا إذا كان طلب الدنيا وطلب الآخرة متعادلين أو كان طلب الدنيا راجحاً فقد اتفقوا على أنه غير مقبول إلا أنه على كل حال خير مما إذا كان طلب الدنيا خالياً بالكلية عن طلب الآخرة .

(289/453)

وأمّا القسم الرابع وهو الإقدام على الفعل من غير داع فهذا مبنّي على أنّ صدور الفعل من القادر هل يتوقف على حصول الداعي أم لا فالذين يقولون إنه يتوقف على حصول الداعي قالوا هذا القسم ممتنع الحصول والذين قالوا لا يتوقف قالوا هذا الفعل لا أثر له في الباطن وهو محرم في الظاهر لأنه عبث . ثم إنه تعالى قال:

﴿ كلاًّ ﴾ أي : من الفريقين مريد الدنيا ومريد الآخرة ﴿ نمدّ ﴾ أي : بالعطاء ثم أبدل من كلاًّ قوله تعالى ﴿ هؤلاء ﴾ أي : الذين طلبوا الدنيا نمدّ ﴿ وهؤلاء ﴾ أي : الذين طلبوا الآخرة نمدّ ﴿ من عطاء ربك ﴾ أي : المحسن إليك إن ضيق على مؤمن فبالحماية من الدنيا الفانية التي إنما هي لعب ولهو وإن وسع فبالاستعمال فيها على حسب ما يرضيه ﴿ وما كان عطاء ربك ﴾ أي : الموجد لك المدبر لأمرك ﴿ محظوراً ﴾ أي : ممنوعاً في

الدنيا عن مؤمن ولا كافر بل هو ملء السهل والجبل من الذهب والفضة والحديد والنحاس والجواهر والثمار وأقوات الناس والبهائم وغير ذلك مما لا يحصيه إلا الله تعالى حتى لو اجتمع كل الناس على جمعه ليلاً ونهاراً ولم يكن لهم شغل سوى ذلك لأعياهم ولم يقدروا عليه فسبحان الجواد المعطي المانع ثم إنه تعالى أمر بالنظر في عطائه هذا على وجه مرغب في الآخرة مزهد في الدنيا بقوله تعالى:

﴿ انظر ﴾ أي: أيها الإنسان أو يا محمد ﴿ كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ فأوسعنا على مؤمن وقترنا على مؤمن آخر وأوسعنا على كافر وقترنا على كافر آخر وبين سبحانه وتعالى وجه الحكمة في التفاوت في سورة الزخرف بقوله تعالى: ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ﴾ (الزخرف،) الآية. وقال تعالى في آخر سورة الأنعام: ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ (الأنعام،)

. تنبيه: كيفَ: نصب إمّا على التشبيه بالظرف وإما على الحال وهي معلقة لانظر بمعنى فكر أو أبصر. ولما نبه تعالى على أن ما نراه من التفضيل إنما هو بمحض قدرته أخبر أنّ ما

بعد الموت كذلك بقوله تعالى: ﴿ وللآخرة أكبر ﴾ أي: أعظم ﴿ درجاتٍ وأكبر تفضيلاً ﴾ من درجات الدنيا ومن تفضيلها فإنّ نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا فإن كان الإنسان تشتدّ رغبته في طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته في طلب الآخرة أحرى لأنها دار المقامة. روي أنّ قوماً من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله تعالى عنه فخرج الأذن لبلال وصهيب فشق على أبي سفيان فقال سهيل بن عمرو: إنما أوتينا من قبلنا أنهم دعوا ودعينا يعني إلى الإسلام فأسرعوا وأبطأنا وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة. ولما بيّن تعالى أنّ الناس فريقان منهم من يريد بعمله الدنيا فقط وهم أهل العذاب ومنهم من يريد طاعة الله وهم أهل الثواب، ثم شرط في ذلك ثلاثة شروط فصل تلك المجملات وبدأ أولاً بشرح حقيقة الإيمان وأشرف أجزاء الإيمان هو التوحيد ونفي الشريك والأضداد بقوله تعالى: ﴿ لا تجعل مع الله ﴾ أي: الذي له جميع صفات الكمال ﴿ إلهاً آخر ﴾ قيل الخطاب مع النبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد غيره، والأولى أنه للإنسان فيكون خطاباً عامّاً لكل من يصلح أن يخاطب به. ﴿ فتقعد ﴾ أي: فيتسبب عن ذلك أن تقعد أي: تصير في الدنيا قبل الآخرة ﴿ مذموماً مخذولاً ﴾ لأنّ المشرك كاذب والكاذب يستوجب الذمّ والخذلان ولأنه قد ثبت بالدليل أنه لا إله ولا مدبر إلا الله تعالى فحينئذ تكون جميع النعم حاصلة من

الله تعالى فمن أشرك بالله فقد أضاف بعض تلك النعم إلى غير الله فاستحق الذمّ

والخذلان . تنبيه : قال الواحدي : قوله تعالى : ﴿ فتقعد ﴾

(291/453)

انتصب لأنه وقع بعد الفاء جواباً للنهي وانتصابه بإضمار أن كقولك لا تنقطع عنا فنجفوك

والتقدير لا يكن منك انقطاع فيحصل أن نجفوك فما بعد الفاء متعلق بالجملة المتقدّمة

بحرف الفاء وإنما سماه النحويون جواباً لكونه مشابهاً للجزاء وأنّ الثاني مسبب عن الأوّل

كما تقرّر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 394 . 421 ﴾

(292/453)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا

حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) ﴾

التفسير : لما عزم على نبيه في خواتيم النحل جوامع مكارم الأخلاق حكى طرفاً مما خصة

به من المعجزات فقال : ﴿ سبحان الذي ﴾ وهو اسم علم للتسبيح وقد مر إعرابه في قوله : ﴿ سبحانك لاعلم لنا إلاَّ ما علمتنا ﴾ [البقرة : 32] والمراد تنزيه الله من كل مالا يليق بجلاله ﴿ وأسرى ﴾ وسرى لغتان . يروى أنه لما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المراتب العلية في معراجه أوحى الله إليه يا محمد : بم أشرِّفك ؟ فقال : يا رب تنسبني إلى نفسك بالعبودية . فأنزل فيه : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ وقوله : ﴿ ليلاً ﴾ نصب على الظرف وفيه تأكيد الإسراء ، وفي تنكيره تقليل مدة الإسراء لأن التنكير فيه معنى البعضية ، أخبر أنه أسرى به في بعض الليل ﴿ من المسجد الحرام ﴾ عن النبي صلى الله عليه وسلم : بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق . وقيل : المراد بالمسجد الحرام الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به . وعن ابن عباس : الحرم كله مسجد وإلى هذا القول ذهب الأكثرون . قالوا : إنه أسرى به من دار أم هانيء بنت أبي طالب قبل الهجرة بسنة . وعن أنس والحسن أنه كان قبل البعثة .

﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ هو بيت المقدس بالإتفاق سمي بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام ولم يكن حينئذ وراءه مسجد . ﴿ الذي باركنا حوله ﴾ يري بركات الدين والدنيا لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى عليه السلام ، ومهبط الوحي وهو محفوف

بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة. وقوله: ﴿ أسرى ﴾ مع قوله: ﴿ باركنا ﴾ سلوك لطريقة الالتفات ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ بيان لحكمة الإسراء.

(293/453)

سؤال: أرى إبراهيم عليه السلام ملكوت السموات والأرض، وأرى محمداً صلى الله عليه وسلم بعض آياته فيلزم أن يكون معراج إبراهيم أفضل؟

الجواب: لعل بعض الآيات المضافة إلى الله تعالى أشرف وأجل من ملكوت السموات والأرض كلها ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ إنه هو السميع ﴾ لأقوال محمد ﴿ البصير ﴾ بأفعاله المهذبة الخالصة فيكرمه على حسب ذلك.

واعلم أن الأكثرين من علماء الإسلام اتفقوا على أنه أسري بجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأقلون على أنه ما أسرى إلا بروحه. حكى محمد بن جرير الطبريّ في تفسيره عن حذيفة أنه قال: كان ذلك رؤيا وأنه ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه عرج بروحه. وحكى هذا القول عن عائشة أيضاً. وقد احتج بعض العقلاء على هذا القول بوجوه منها: أن الحركة الجسمانية البالغة في السرعة إلى هذا الحد غير معقولة: ومنها أن صعوده إلى السموات يوجب انخراق الفلك. ومنها أنه لو صح ذلك لكان

من أعظم معجزاته فوجب أن يكون بمحضر من الجم الغفير حتى يستدلوا بذلك على صدقه ، وما الفائدة في إسرائه ليلاً على حين غفلة من الناس . ومنها أن الإنسان عبارة عن الروح وحده لأنه باقٍ من أول عمره إلى آخره ، والأجزاء البدنية في التغير والانتقال والباقي مغاير للمتغير ، ولأن الإنسان يدرك ذاته حين ما يكون غافلاً عن جميع جوارحه وأعضائه . ومنها قوله سبحانه . ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلاَّ فتنة للناس ﴾ [الإسراء : 60] وما تلك الرؤيا إلاَّ حديث المعراج . وإنما كانت فتنة للناس لأن كثيراً ممن آمن به حين سمعها ارتد وكفر به . ومنها أن حديث المعراج الجسماني اشتمل على أشياء بعيدة عن العقل كشق بطنه وتطهيره بماء زمزم وركوب البراق وإيجاب خمسين صلاة ، فإن ذلك يقتضي نسخ الحكم قبل حضور وقته ، وأنه يوجب البداء .

(294/453)

أجاب الأكثرون عن الأول بأنه حركة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى فوق الفلك الأعظم لم يكن إلاّ نصف قطر الفلك ، ونسبة نصف القطر إلى نصف الدور نسبة الواحد إلى ثلاثة أمثال وسبع هي نصف حركة الفلك في يوم بليلته ، وإذا كان الأكثر واقعاً فالأقل بالإمكان أولى ، ولو كان القول بمعراج محمد صلى الله عليه وسلم في ليلة واحدة ممتنعاً لكان

القول بنزول جبريل من العرش إلى مكة في لحظة واحدة ممتنعاً ، لأن الملائكة أيضاً أجسام عند جمهور المسلمين ، وكذا القول في حركات الجن والشياطين وقد سخر الله تعالى لسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر ، وقد

﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ [النمل : 40] . وكان عرش بلقيس في أقصى اليمن وسليمان في الشام . وعلى قول من يقول إن الإبصار بخروج الشعاع فإنما ينتقل شعاع العين من البصر إلى الكواكب الثابتة في آن واحد ، فيثبت أن المعراج أمر ممكن في نفسه . أقصى ما في الباب الاستبعاد وخرق العادة ولكنه ليس مخصوصاً بهذه الصورة وإنما ذلك أمر حاصل في جميع المعجزات . وعن الثاني أن انخراق الأفلاك عند حكماء الإسلام جائز . وعن الثالث أن فائدة الإسراء قد عادت إليه حيث شاهد العالم العلوي والعرش والكرسي وما فيها وعليها فحصل في قلبه زيادة قوة وطمأنينة ، بها انقطعت تعلقاته عن الكونين ولم يبق مشغول القلب بشيء من أمور الدنيا والآخرة . وعن الرابع أن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد . وعن الخامس أن تلك الرؤيا هي غير حكاية المعراج كما سيجيء في تفسيره ، ولو سلم أنها هي المعراج فالرؤيا بمعنى الرؤية .

وعن السادس أنه لا اعتراض على الله تعالى في شيء من أفعاله وأنه على كل شيء قدير .

واعلم أنه ليس في الآية دلالة على العروج من بيت المقدس إلى السموات وإلى ما فوق العرش إلاَّ أنه ورد الحديث به ، ومنهم من استدل على ذلك بأول سورة النجم أو بقوله ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ [الانشقاق : 19] وتفسيرهما مذكور في موضعه .

يروى أنه صلى الله عليه وسلم نائماً في بيت أم هانىء بعد صلاة العشاء فأسري به ورجع من ليلته وقص القصة على أم هانىء وقال : مثل لي النبيون وصليت بهم . وقام ليخرج إلى المسجد فتشبثت أم هانىء بثوبه فقال : مالك ؟ قالت : أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم قال : وإن كذبوني . فخرج فجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث الإسراء به وأنه أسري به من مكة إلى بيت المقدس ومنه عرج إلى السماء ورأى ما فيها من العجائب ولقي الأنبياء وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى . فقال أبو جهل : يا معشر بني كعب بن لؤي هلم فحدثهم ، فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً ، وارتد ناس ممن كان آمن به . وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال : إن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : أتصدقه على ذلك ؟ قال : إني لأصدقه على

أبعد من ذلك فسمي الصديق . وكان فيهم من سافر إلى الشام فاستنعتوه المسجد فجلى له صلى الله عليه وسلم بيت المقدس فطفق ينظر إليه وينعته لهم فقالوا : أما النعت فقد أصاب . فقالوا : أخبرنا عن عيرنا فأخبرهم بعدد جمالهم وأحوالها وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق ، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم : هذه والله الشمس قد شرقت ، وقال آخر : وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم لم يؤمنوا وقالوا : ما هذا إلاَّ سحر مبين .

ولما حكى طرفاً من إكرام محمد صلى الله عليه وسلم ذكر شيئاً من إكرام موسى فقال : ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ أي التوراة ﴿ وجعلناه هدى لبني إسرائيل ﴾ أخرجناهم بواسطته من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والدين ﴿ ألا تتخذوا ﴾ من قرأ على الغيبة ف " أَنْ " ناصبة ولام العاقبة محذوفة أي لئلا يتخذوا ، ومن قرأ على الخطاب فَ " أَنْ " مفسرة معناها أي لا تتخذوا كقولك : كتبت إليه أن افعل كذا ، وزائدة والقول مضمر يعني قلنا لهم لا تتخذوا ﴿ من دوني وكيلاً ﴾ رباً تكلون إليه أمركم يا ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ قال قتادة : الناس كلهم ذرية نوح عليه السلام لأنه كان معه في السفينة ثلاثة بنين :

سام وحام ويافث ، والناس كلهم من ذرية أولئك . فقوله " يا ذرية " قائم مقام قوله : ﴿ يا أيها الناس ﴾ وعلى القراءة الأولى انتصب ﴿ ذرية ﴾ على الاختصاص ، وعلى القراءتين احتمل أن ينتصب على أنه مفعول آخر ليتخذوا أي لا تجعلوهم أرباباً كقوله : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ﴾ [آل عمران : 80] من ذرية المحمولين مع نوح وعيسى وعزير . ثم علل النهي عن الإشراك بقوله : ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾ أي أنتم ذرية من آمن به وحمل معه فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم في الشكر لله وعدم اتخاذ الشريك له . ويجوز أن يكون تعليلاً لاختصاص بني إسرائيل والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح فهم متصلون به ، فلهذا استأهلوا الاختصاص . وجوز في الكشاف أن يكون ثناء على نوح بطريق الاستطراد . يروى من شكره أنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء أجاعني ، وإذا شرب قال : الحمد لله الذي سقاني ولو شاء أظمأني ، وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذي كساني ولو شاء أعراني ، وإذا احتذى قال : الحمد لله الذي حذاني ولو شاء أحفاني ، وإذا قضى حاجته قال : الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية ولو شاء حبسه ، وكان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على

من آمن به فإن وجده محتاجاً آثر به . ثم ذكر أن كثيراً من بني إسرائيل ما اهتدوا بهدى التوراة فقال : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل ﴾ أوحينا إليهم وحياً مقضياً مقطوعاً به في الكتاب الذي هو التوراة . وقول : ﴿ لتفسدن ﴾ جواب قسم محذوف ، أو أجرى القضاء المبتوت مجرى القسم كأنه قيل : وأقسمنا لتفسدن ﴿ في الأرض ﴾ أرض مصر ﴿ مرتين ولتعلن ﴾ لتعظمن وتستولن على الناس ﴿ علواً كبيراً ﴾ تسلطاً عظيماً وبغياً شديداً ﴿ فإذا جاء وعد ﴾ عقاب ﴿ أولاهما ﴾ أولى المرتين ﴿ بعثنا ﴾ أرسلنا وسلطنا ﴿ عليكم عباد لنا أولي بأس شديد ﴾ أصحاب نجدة وشدة قتال ﴿ فجاسوا ﴾ ترددوا للمارة ﴿ خلال الديار ﴾ أوساطها وفرجها يعني ديار بيت المقدس ﴿ وكان ﴾ وعد العقاب ﴿ وعداً مفعولاً ﴾ لا بد من وقوعه ﴿ ثم رددنا لكم الكرة ﴾ الدولة والغلبة ﴿ عليهم ﴾ على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو : ﴿ وجعلناكم أكثر نفيراً ﴾ مما كنتم .

والنفير من ينفر مع الرجل من قومه . احتجت الأشاعرة بقوله سبحانه : ﴿ قضينا ﴾ بعثنا ﴿ وكان وعداً مفعولاً ﴾ على صحة القضاء والقدر وأن الفساد والنهب والقتل والأسر كلها بفعله . وأجابت المعتزلة بأن المراد أنه خلى بينهم وبين ما فعلوا ولم يمنعهم عن تخريب بيت المقدس وإحراق التوراة وقتل حفاظها . وضعف بأن تفسير البعث بالتخلية

وعدم المنع خلاف الظاهر ، على أن الدليل الكلي العقلي قد دل على وجوب انتهاء الكل إليه .

(299/453)

ولما حكى عنهم أنهم حين عصوا سلط عليهم أعداءهم مهد قاعدة كلية في الإحسان والإساءة قائلاً ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ لم يقل فعليها أو فإليها للتقابل ، مع أن حروف الإضافة بعضها يقوم مقام البعض . قال أهل الإشارة : إنه أعاد الإحسان ولم يذكر الإساءة إلا مرة ففيه دليل على أن جانب الرحمة أغلب ﴿ فإذا جاء وعد ﴾ عقاب المرة ﴿ الآخرة ﴾ بعثناهم حذف جواب " إذاً " لدلالة ذكره أولاً عليه . ومعنى ﴿ ليسوؤا وجوهكم ﴾ ليجعلها الله ، أو الوعد ، أو البعث ، أو ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها لأن آثار الأعراض النفسانية الحاصلة في القلب إنما تظهر على الوجه ﴿ وليتبروا ما علوا ﴾ ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه ، ويجوز أن يكون " ما " بمعنى المدة أي ما دام سلطانهم جارياً على بني إسرائيل . وقوله : ﴿ تتبيراً ﴾ ذكر المصدر إزالة للشك وتحقيقاً للخبر . وروى أن بني إسرائيل تعظموا وتكبروا واستحلوا المحارم وقتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء وذلك أول الفسادين ، فسلط الله عليهم بختنصر أو

سنجاريب وجنوده أو جالوت . عن ابن عباس : قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وسبوا منهم سبعين ألفاً وبقوا في الذل إلى أن قيض الله ملكاً آخر من أهل بابل وتزوج بامرأة من بني إسرائيل وطلبت من ذلك الملك أن يرد بني إسرائيل إلى بيت المقدس ففعل ، وبعد مدة قامت فيهم الأنبياء ورجعوا إلى أحسن ما كانوا عليه ، ثم أقدموا على قتل زكريا ويحيى عليهما السلام وقصدوا قتل عيسى ابن مريم عليه السلام ، وهذا ثاني الإفسادين فانتقم من اليهود بسبب هؤلاء ملك من الروم يقال له قسطنطين الملك . وقال صاحب الكشاف : المرة الأولى قتل زكريا وحبس أرميا ، والآخرة قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى . واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض بمعرفة أعيان هؤلاء الأقوام ، والمقصود الأصلي الذي دل عليه القرآن هو أنهم كلما عصوا وأفسدوا سلط الله عليهم أعداءهم .

وفيه تحذير للعقلاء من مخالفة أوامر الله ونواهيه ، ثم قال : ﴿ عسى ربكم ﴾ يا بني إسرائيل ﴿ أن يرحمكم ﴾ بعد إنتقامه منكم في المرة الثانية ﴿ وإن عدتم ﴾ للثالثة ﴿ عدنا ﴾ لها . قال أهل السير : ثم إنهم قد عادوا إلى فعل ما لا ينبغي . وهو تكذيب محمد وكتمان ما ورد من نعته في التوراة والإنجيل . فعاد الله عليهم بالتعذيب على أيدي العرب ،

فجرى على بني النضير وقريظة وبني قينقاع ويهود خيبر ما جرى من القتل والإجلاء ، ثم الباقون منهم مقهورون بالجزية لا حشمة لهم ولا عزة فيهم إلى يوم القيامة ، وأما بعد ذلك فهو قوله ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ أي محبساً حاصراً ومحصوراً لا يتخلصون منه أبداً . وعن الحسن : بساطاً كما يبسط الحصير المنسوج.

(301/453)

ثم لما شرح فعله في حق عباده المخلصين كمحمد صلى الله عليه وسلم وموسى عليه السلام وفي حق عبيدة العاصين كأكثر بني إسرائيل ، وكان في ذلك تنبيه على أن طاعة الله توجب كل خير وكرامة ومعصيته تقتضي كل شر وغرامة ، عظم شأن القرآن المبين للأحكام الهادي للأنام فقال : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي ﴾ أي للحالة أو الشريعة أو الطريقة التي ﴿ هي أقوام ﴾ وفي حذف الموصوف فخلفه بعرفها أهل البلاغة لعموم الاعتبار وذهاب الوهم كل مذهب . قيل : هذا الشيء أقوم من ذلك . إنما يصح في شيئين يشتركان في معنى الاستقامة ، ثم يكون للأول على الآخر . وكيف يتصور في غير هذا الدين شيء من الاستقامة حتى يستقيم هذا التفضيل ؟ وأجيب بأن " أفعل " ههنا بمعنى الفاعل كقولنا " الله أكبر " هو الكبير . وكقولهم " الناقص والأشج أعدلا بني مروان " أي عادلا بني

مروان . ويمكن أن يقال : لا شيء من الأديان إلا وفيه نوع من الاستقامة كالاعتراف بالله الواجب بالذات ، والالتزام لأصول الأخلاق ومكارم العادات وقوانين السياسات إلا أن بعض الخلل أبطل الكل فالكل ينهدم بانهدام الجزء . ثم إن كون القرآن هادياً إلى الاعتقاد الأصوب والعمل الأصلح له نتيجة وأثر وذلك هو البشارة بالأجر الكبير لأهل الإيمان والعمل الصالح وبالعذاب الأليم لغيرهم ، وأنت خبير بأن لفظ البشارة بمعنى الإنذار يستعمل للتهكم إذ البشارة مطلق الخبر المغير للبشرة فكأنه قيل : ويخبر الذي لا يؤمنون بالآخرة أن لهم عذاباً . ويجوز أن يبشر المؤمنين ببشارتين : إحداهما بثوابهم والأخرى بعذاب أعدائهم . قال في الكشاف : كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة ؟ وأجاب على أصول الاعتزال بأن الناس كانوا حينئذ إما من أهل التقوى وإما من أهل الشرك ، وإنما حدث أصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك . قلت : هذا الجواب منه عجيب ، فإن هذا الصنف لو سلم أنه لم يكن موجوداً في ذلك العصر إلا أن حكمه يجب أن يذكر في القرآن

الذي فيه أصول الأحكام، على أن ذكر الفساق من الأمة في القرآن المكي والمدني موجودة قال تعالى:

﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ﴾ [لقمان: 32] ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ [الزمر: 52] ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ﴾ [آل عمران: 135]. وإذا كان ذكرهم في القرآن وارداً وأنه تعلى يعدد ههنا أوصاف القرآن على جهة المدح فأي مقام أدعى إلى ذكر هذا الوصف من ههنا. والجواب الحق أن الفسقة جعلوا بالعين أهل الإيمان والله أعلم. قيل: هذه الآية واردة في شرح أحوال اليهود وهم ما كانوا ينكرون الإيمان بالآخرة. والجواب المنع من الخصوص ولو سلم فإيمانهم بالآخرة كلا إيمان، فبعضهم أنكروا المعاد الجسماني وبعضهم قالوا: لن تمسنا النار إلاّ أياماً. واعلم أنه سبحانه قال ههنا: ﴿ أجراً كبيراً ﴾ وفي أول الكهف ﴿ أجراً حسناً ﴾ [الآية: 2]، رعاية للفاصلة وإلا فالأجر الكبير والأجر الحسن كلاهما الجنة.

ولما بين أن القرآن كافٍ في الهداية ذكر أن الإنسان قد يعدل عن التمسك بأحكامه فقال:

﴿ ويدع الإنسان ﴾ أي جنس الكافر. وقد ذكر جمع من المفسرين أنه النضر بن الحرث

دعا ﴿ اللَّهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ [الأنفال : 32] ، الآية فأجاب الله دعاءه وضربت رقبته صبراً . وكان بعضهم يقول : ائتنا بعذاب الله ، وآخرون متى هذا الوعد جهلاً منهم واعتقاداً أن محمداً صلى الله عليه وسلم كاذب . وقيل : المراد أنه يدعو الله عند غضبه وضجره فيعلن نفسه وولده وماله ، ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك . ويروى أنه صلى الله عليه وسلم دفع إلى سودة بنت زمعة أسيراً فأقبل يئن بالليل فقالت له : مالك تئن ؟ فشكا ألم القد فأرخت من كتافه ، فلما نامت أخرج يده وهرب . فلما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم دعا به فأعلم بشأنه فقال صلى الله عليه وسلم : اللَّهم اقطع يديها فرفعت سودة يديه تتوقع الإجابة وأن يقطع الله يديها قال النبي صلى الله عليه وسلم : إني سألت الله أن يجعل لعنتي ودعائي على من لا يستحق من أهلي رحمة لأني بشر أغضب كما يغضب البشر فلترد سودة يديها . ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ يستعجل بالعذاب مع أنه آتيه أو يتسرع إلى طلبه كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله معتقداً أن خيره فيه وإن كان ذلك عند التأمل مضراً له . وقيل : أراد بهذا الإنسان آدم ، وذلك أنه لما انتهى الروح إلى سرته نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى فذهب لينهض فلم يقدر . وليس هذا القول بالحقيقة مغايراً للأول لأن أصل الآدمي إذا كان كذلك كان كل فرد منه متصفاً به لا محالة . قال أهل النظم : لما ذكر نعمة الدين وهو القرآن أردفها بنعمة الدنيا فقال : ﴿

وجعلنا الليل والنهار آيتين ﴾ وفيه أن القرآن لا يتم المقصود منه إلا بنوعية المحكم والمتشابه ، فكذا الزمان لا يكمل الانتفاع به إلا بجزئيه الليل والنهار .

(304/453)

فالمحكم كالنهار في وضوحه ، والمتشابه بمنزلة الليل في خفائه . وبوجه آخر لما ذكر دلائل النبوة والتوحيد أكدها بدليل آخر من عجائب الزمان . وبوجه آخر لما وصف الإنسان بكونه عجولاً أي منتقلاً من حالة إلى حالة ومن صفة إلى صفة بين أن كل أحوال هذا العالم كذلك فينتقل الهواء من الإنارة إلى الظلام وبالعكس ، وينتقل القمر من النقصان إلى الامتلاء وبالضد . ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ هي من إضافة الشيء إلى نفسه للبيان كقولك " نفس الشيء أو ذاته " أي فمحونا الآية التي هي الليل أي جعلنا الليل ممحوّ الضوء مطموساً مظلماً لا يستبان فيه شيء كما لا يستبان ما في اللوح الممحو ﴿ وجعلنا ﴾ الآية . التي هي ﴿ النهار مبصرة ﴾ ذات إبصار وذلك باعتبار من فيها أي تبصر فيها الأشياء وتستبان ، أو أريد بالإبصار الإضاءة لأنها سببه . وقيل : المضاف محذوف والتقدير وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل التي هي القمر حيث لم يخلق له شعاع كشعاع الشمس فترى به الأشياء رؤية غير بينة ، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء ﴿ لتبتغوا

فضلاً من ربكم ﴾ لتتواصلوا ببياض النهار أو بشعاع الشمس المستلزم للنهار إلى التصرف في وجوه معايشكم . ﴿ ولتعلموا ﴾ باختلاف الجديدين أو بزيادة ضوء القمر ونقصانه ﴿ عدد السنن ﴾ الشمسية أو القمرية المركبة من الشهور ﴿ و ﴾ لتعلموا جنس ﴿ الحساب ﴾ المبني على الساعات والأيام والشهور والسنين والأدوار . وقيل : أراد بمحو القمر الكلف الذي هو وجهه . وسببه في الشرع ما روي أن الشمس والقمر كانا سواء في النور والضوء فأرسل الله تعالى جبريل فأمر جناحه على وجه القمر فأذهب عنه أثر الضياء . وسببه عند الفلاسفة أنه ارتكز في وجه القمر أجسام قليلة الضوء كارتكاز الكواكب في أجرام الأفلاك ، ولما كانت تلك الأجرام أقل ضوءاً من جرم القمر لا جرم شوهدت تلك الأجرام في وجه القمر كالكلف في وجه الإنسان . ونحن قد ذكرنا له وجهاً آخر في الهيئة

، قال أهل التجارب : إن اختلاف أحوال القمر في مقادير النور له أثر عظيم في أحوال هذا العالم ومصالحه لا سيما في أحوال البحار والبحارين على ما يذكره الأطباء ، إلا أن الكلف ليس له مدخل في ابتغاء فضل الله وفي معرفة الحسابات تفصيلاً . نعم لو قيل : إن الكلف

نقص من نور القمر حتى لم يقو على إزالة ظلام الليل بالكلية فبقي في وقت السكون والراحة بحالة ووقت التردد في طلب المعاش بحالة ، وصار تعاقب الليل والنهار سبباً لمعرفة الأيام وما يتركب منها كان متجهاً .

ثم قال : ﴿ وكل شيء ﴾ مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم ﴿ فصلناه تفصيلاً ﴾ بيناه بياناً غير ملتبس حتى انزاحت العلل وزالت الأعذار فلا يهلك من يهلك إلا عن بينة فلذلك قال : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره ﴾ أي عمله ﴿ في عنقه ﴾ وبوجه آخر لما شرح أحوال الشمس والقمر والنهار والليل لابتغاء المعاش وللدعة والراحة ولمعرفة المواقيت ، وكان الغرض الأصلي من الكل هو الاشتغال بخدمة المعبود وتهذيب الأفعال وإصلاح الأقوال ، ذكر أن الإنسان مؤاخذ في عرصة القيامة بأقواله وأفعاله وسائر أحواله ليظهر أنه هل أتى بما هو المقصود من خلقه أم لا .

قال أكثر أهل اللغة : إن العرب إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال اعتبروا أحوال الطائر أنه يطير بنفسه أو يحتاج إلى إزعاجه ، وإذا طار فهل يطير متيامناً أو متياسراً أو صاعداً في الجو إلى غير ذلك من الأحوال التي كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها

على ما يسوقهم عملهم إليه من خير أو شر ، فإطلاق الطائر على العمل تسمية للنبي باسم لازمه . وقال أبو عبيدة : الطائر عند العرب الحظ ويقال له البخت . فالطائر ما وقع للشخص في الأزل مما هو نصيبه من العقل والعلم والعمر والرزق والسعادة والشقاوة كأنه طائر يطير إليه من وكر الأزل وظلمات عالم الغيب طيراناً لا نهاية له ولا غاية إلا إن انتهى إلى ذلك الشخص في وقته المقدر من غير خلاص ولا مناص وفي هذا دليل على أنه لا يظهر في الأبد إلا ما حكم الله به في الأزل ، والكفاية الأبدية لا تتم إلا بالعناية الأزلية . وإنه سبحانه أكد هذا المعنى بإضافة الإلزام على نفسه ثم بقوله : ﴿ في عنقه ﴾ . يقال : جعلت هذا الأمر في عنقك أي قلدتكه والزمتك الاحتفاظ به . فإن كان خيراً يزينه كان كالطوق ، وإن كان شراً يشينه كان كالغل . ومن أمثال العرب " تقلدها طوق الحمامة " ﴿ ونخرج له ﴾ من قرأ بالنون فظاهر . وقوله : ﴿ يلقاه منشوراً ﴾ صفتان للكتاب أو ﴿ يلقاه ﴾ صفة ﴿ منشوراً ﴾ حال من مفعول يلقاه . ومن قرأ بالياء مجهولاً أو لازماً فالضمير للطائر ﴿ وكتاباً ﴾ حال منه ، يقال : لقيت الشيء ولقانيه غيري . عن الحسن : يا ابن آدم بسطت الصحيفة وطويت في قبرك معك ، ثم إذا بعثت قلدتها في عنقك ﴿ اقرأ كتابك ﴾ على إضمار القول . قال قتادة : يقرأ في ذلك اليوم من لم يكن قارئاً و ﴿ وبنفسك ﴾ فاعل كفى و ﴿ حسيباً ﴾ تمييز بمعنى حاسب وإنه كثير من فعل بالضم كقريب وبعيد ، ولكنه من

فعل بالفتح غريب ، منه ما قال سيبويه : ضريب القداح بمعنى ضاربها ، وصريم بمعنى صارم . " وعلى " متعلق بحسيب من قولك حسب عليه كذا ، ويجوز أن

يكون الحسيب بمعنى الكافي ثم وضع . موضع الشهيد فعدي بعلى لأن الشاهد يكفي المدعي ما أهمه .

وذكر حسيباً بمعنى رجلاً حسيباً لأنه بمنزلة الشهيد ، والغالب أن الشهادة يتولاها الرجال كالقضاء والإمارة والنفس مؤوّل بالشخص ، أو حمل " فعيل " بمعنى " فاعل " على " فعيل " بمعنى " مفعول " كقتيل ، ويجوز أن يكون الحسيب بمعنى المحاسب . قال الحسن : عدل الله في حقك من جعلك حسيب نفسك . وقال السدي : يقول الكافر يومئذٍ إنك قضيت أنك لست بظلام للعبيد فاجعلني أحاسب نفسي فيقال له : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ وروي أن يؤتى المؤمن يوم القيامة صحيفته وحسناته في ظهرها يغبطه الناس عليها وسيئاته في جوف صحيفته وهو يقرؤها ، حتى إذا ظن أنها قد أوبقته قال الله تعالى له : فقد غفرتها لك فيما بيني وبينك فيعظم سروره ويصير من الذين قال الله في حقهم ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ﴾ [عبس : 38 ، 39] قال

الحكيم : التكرار يوجب تقرير الآثار ، فكل عمل يصدر من الإنسان خيراً أو شراً فإنه يحصل منه في جوهر روحه أثر مخصوص إلا أن ذلك الأثر يخفى ما دام الروح متعلقاً بالبدن مشتغلاً بواردات الحواس والقوى ، فإذا انقطعت علاقته عن البدن قامت قيامته لأن النفس كأنها كانت ساكنة مستقرة في الجسد وعند ذلك قامت وتوجهت نحو الصعود إلا العالم العلوي ، فيزول الغطاء وتنكشف الأحوال ويظهر على لوح النفس نقش كل شيء عمله في مدة عمره ، وهذا معنى الكتابة والقرآءة بحسب العقل ، وإنه لا ينافي ما ورد في النقل .

(308/453)

ثم بين أن ثواب العمل الصالح وعقاب ضده مختص بفاعله لا يتعدى منه إلى غيره فقال : ﴿ من اهتدى ﴾ إلى قوله : ﴿ وزر أخرى ﴾ . قال الجبائي : فيها دلالة على أن الأطفال لا يعذبون بكفر آبائهم ، وأن الوزر والإثم ليس من فعل الله وإلا لم يؤاخذ العبد به كما لا يؤاخذ بوزر غيره بل كان يجب أن لا وزر أصلاً لأن الصبي لا يوصف بالوزر لأنه غير مختار .

وجواب الأشاعرة أن الوزر مختص بأفعال المكلفين من الثقلين ، وقدحت عائشة بذلك في صحة ما رواه ابن عمر " إنّ الميت ليعذب ببكاء أهله " واستدل به جماعة من الفقهاء في

الامتناع من ضرب الدية على العاقلة . ويمكن أن يجاب بأنه ما من عام إلا وقد خصص .

أما قوله : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ فقد استدل به الأشاعرة في أن وجوب شكر المنعم لا يثبت بالعقل بل بالسمع لأن الوجوب لا تتقرر ما هيته إلا بترتيب العقاب على الترك ولا عقاب قبل الشرع بحكم هذه الآية . أجاب الخصم بأنه لو لم يثبت الوجوب العقلي لم يثبت الوجوب الشرعي لأن النبي إذا جاء وادعى المعجزة فهل يجب على المستمع قبول قوله والتأمل في معجزته أو لا يجب ، والثاني باطل بالاتفاق ، وعلى الأوّل إن وجب بالعقل فهو المدعي ، وإن وجب بالشرع فذلك الشارع إن كان ذلك النبي لزم إثبات الشيء ، وإن كان غيره دار أو تسلسل .

ويوجه آخر إذا أوجب النبي بعض الأفعال وحرم بعضها فلا معنى لذلك إلا ترتب العقاب على الترك أو الفعل . ثم إنه يجب على المكلف أن يحترز عن العقاب أو لا يجب لا سبيل إلى الثاني بالاتفاق ، وعلى الأول يلزم الوجوب العقلي وإلا لزم الدور أو التسلسل . ثم إن مذهب أهل السنة جواز العفو عن عقاب الكبيرة فتكون ماهية الوجوب حاصلة مع عدم العقاب ، ولا ذم مع جواز العفو فلم يبق إلا أن ماهية الواجب إنما تتقرر بسبب حصول

الخوف من العقاب ، ولا يكون هذا الخوف إلا بمحض العقل فثبت أن الوجوب العقلي لا يمكن دفعه . فأما أن تجري الآية على ظاهرها يقال : العقل هو رسول الله إلى الخلق ، بل هو الرسول الذي لولاه لما تقررت رسالة أحد من الرسل ومجيء الأنبياء كالتنبيه على النظر وكالإيقاظ من رقدة الغفلة والحجة وإن كانت لازمة لهم قبل بعثة الرسل إلا أنها بعد البعثة ألزم . وإما أن يخصص عموم الآية فيقال : المراد وما كنا معذبين في الأعمال التي لا سبيل إلى معرفة وجوبها إلا بالشرع إلا بعد مجيء الشرع . ومما ارتضاه الإمام فخر الدين الرازي أن مجرد العقل سبب في أنه يجب عليها فعل ما ينتفع به وترك ما يستضر به ، أما مجرد العقل فلا يدل على أنه يجب على الله شيء وذلك أنا مجبولين على طلب النفع والاحتراز عن الضرر ، والله تعالى منزه عن ذلك . ولقائل أن يقول : إنه سبحانه منزه عن الانتفاع والاستضرار إلا أنه حكيم جواد فلم لا يقبح من الحكيم الجواد ترك ما ينتفع به غيره وفعل ما يستضر به ، وإذا قبح منه ذلك حسن منه ضده ، والحكيم لا يترك الأحسن . فصدور ذلك الأحسن منه ألبته هو الذي لك أن تسميه وجوباً كما وصف به نفسه في قوله : ﴿ كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ [مريم : 71] ولكم من آية في القرآن دالة على أن الفعل قد يصدر منه صدوراً لا يحتمل النقيض من ذلك قوله : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ﴾ .

وللمفسرين في معنى ﴿ أمرنا ﴾ قولان : الأول أن المراد به الأمر الذي هو نقيض النهي وعلى هذا اختلفوا في المأمور به ، فالأكثرون على أن الطاعة والخير . وقال في الكشاف : معناه وإذا دنا وقت إهلاك قوم ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل أمرناهم بالفسق ففسقوا . ولما كان من أصول الاعتزال أنه تعالى لا يأمر بالفحشاء ذكر أن الأمر بالفسق ههنا مجاز ، ووجهه أنه صب عليهم النعمة صباً فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات ، فكان إيتاء النعمة سبباً لإيثارهم الفسوق على الائتمار فكأنهم مأمورون بذلك .

ثم إنه جعل تقدير أمرناهم بالطاعة ففسقوا عن قبيل التكاليف بعلم الغيب ، ولم يجوّز أن تكون من قبيل "أمرته فعصاني" فإنه يفهم منه أن المأمور به طاعته ولكنه حكم بأنه مثل أمرته فقام أو أمرته فقرأ فإنه لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة . ولقائل أن يقول : كما أن قوله "أمرته فعصاني" يدل على أن المأمور به شيء غير المعصية من حيث إن المعصية منافية للأمر ومناقضة له فكذلك قوله : "أمرته ففسق" يدل على أن المأمور به شيء غير الفسق لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به ، فكونه فسقاً ينافي كونه مأموراً به كما

أن كونها معصية ينافي كونها مأموراً بها ، وهذا ظاهر فلا أدري لم أصرّ جار الله على قوله مع ضعفه ومخالفته أصله. القول الثاني إن معنى : ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ أكثرنا فساقها . قال الواحدي : تقول العرب : أمر القوم . إذا كثروا ، وأمرهم الله إذا كثرهم ، وآمرهم أيضاً بالمد واحتج أبو عبيدة على صحة هذه اللغة بقوله صلى الله عليه وسلم " خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة " فالسكة النخيل المصطفة ، والمهرة المأمورة كثيرة النتاج. وقد حمل بعضهم الحديث على الأمر ضد النهي أي قال الله لها : كوني كثيرة النسل فكانت ، " وروي أن رجلاً من المشركين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أرى أمرك هذا حقيرا ً. فقال صلى الله عليه وسلم : إنه سيأمر " أي سيكثر وسيكبر. والمترف في اللغة المنعم الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش : ﴿ ففسقوا فيها ﴾ خرجوا عما أمرهم الله ﴿ فحق عليها القول ﴾ استوجبت العذاب ﴿ فدمرناها تدميراً ﴾ أهلكناها على سبيل الاستئصال. قال الأشاعرة : ظاهرة الآية يدل على أنه تعالى أراد إهلاكهم ابتداء ، ثم توسل إلى إهلاكهم بهذا الطريق ويؤيده قوله : ﴿ فحق عليها القول ﴾ أي بالكفر ثم التعذيب. وقال الكعبي : إن سائر الآيات دلت على أنه تعالى لا يبتدىء بالتعذيب كقوله : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما

بأنفسهم ﴾ [الرعد : 11] وقوله : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ فتلك الآيات محكمة وهذه المتشابهات فيجب حمل هذه على تلك .

قال في التفسير الكبير : أحسن الناس كلاماً في تأويل هذه الآية القفال فإنه ذكر وجهين :

الأول أخبر الله أنه لا يعذب أحداً بما علمه منه ما لم يعمل به أي لا يجعل علمه حجة على من علم أنه إن أمره عصاه بل يأمره حتى يظهر عصيانه للناس فحينئذ يعاقبه ومعنى الآية وإذا أردنا إمضاء ما سبق من القضاء بإهلاك قوم . الثاني أن نقول : وإذا أردنا إهلاك قوم بسبب ظهور العصيان منهم لم نعالجهم بالعذاب في أوّل ظهور المعصية منهم ، بل أمرنا مترفيها بالرجوع عن تلك المعاصي .

(313/453)

وخص المترفين بذلك لأن نعمة الله عليهم أكثر فكان الشكر عليهم أوجب ، فإذا لم يرجعوا وأصروا صب عليهم البلاء صباً . وزعم الجبائي أن المراد بالإرادة الدنو والمشارفة كقولك إذا أراد المريض أن يموت ازداد مرضه شدة ، وإذا أراد التاجر يريد ان يفتقر أتاه الخسران من كل جهة . ليس المعنى أن المريض يريد أن يموت والتاجر يريد أن يفتقر ، وإنما عنيت أنه

سيصير إلى ذلك ، فمعنى الآية وإذا قرب وقت إهلاك قرية . وقد نقلنا مثله عن صاحب الكشاف ، ولا يخفى أنه عدول عن الظاهر . ثم ذكر عادته الجارية مع القرون الخالية فقال : ﴿ وكم أهلكنا ﴾ ف ﴿ كم ﴾ مفعول ﴿ أهلكنا ﴾ و ﴿ من القرون ﴾ بيان لكم وتمييز له أراد بهم عاداً وثمود ونحوهما . ثم خاطب رسوله بما هو ردع للناس كافة قائلاً ﴿ وكفى بربك ﴾ الآية . قال الفراء : إنما يجوز إدخال الباء في المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يذم كقولك "كفاك به" "وأكرم به رجلاً" "وطاب بطعامك طعاماً" ولا يقال : قام بأخيك وأنت تريد قام أخوك . وفي الآية بشارة عظيمة لأهل الطاعة وإنذار شديد لغيرهم لأن العلم التام مع القدرة الكاملة والحكمة الشاملة يقتضي إيصال الجزاء إلى كل أحد بقدر استحقاقه . ثم أكد المعاني المذكورة من قوله : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره ﴾ ومن قوله : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴾ بقوله : ﴿ من كان يريد العاجلة ﴾ أي المنفعة أو الدار العاجلة ﴿ عجلنا له فيها ﴾ ثم قيد المعجل بقيدين : أحدهما قوله : ﴿ ما نشاء ﴾ ولهذا ترى كثيراً من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضاً منه . وثانيهما قوله : ﴿ لمن نريد ﴾ وهو بدل من ﴿ له ﴾ بدل البعض من الكل لأن الضمير يرجع إلى "من" وهو للمعلوم ، ولهذا ترى كثيراً منهم يتمنون البعض اليسير من الدنيا ولا يؤتون فيجتمع عليهم فقر الدنيا وحرمان الآخرة بل عذابها لقوله : ﴿ ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ﴾ مطروداً من رحمة الله . ﴿ ومن أراد الآخرة ﴾

بأن يعقد بها همته ويتجافى عن دار الغرور ﴿ وسعى لها سعيها ﴾ أي حق السعي لأجلها وذلك أن يكون العمل الذي يتوسل به إلى الفوز بثواب الآخرة من جملة القرب والطاعات وعلى قوانين الشرع والعقل لا البدعة والهوى ﴿ وهو مؤمن ﴾ لأن شيئاً من صور الأعمال الصالحة لا يوجب الثواب إلا بعد تقديم الإيمان ﴿ فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ قال العلماء : الشكر عبارة عن مجموع أمور ثلاثة : اعتقاد كونه محسناً في تلك الأعمال ، والثناء عليه بالقول ، والإتيان بأفعال تدل على كونه معظماً عند ذلك الشاكر . والله سبحانه تعالى ، يعامل المطيعين بهذه الأمور الثلاثة لأنه يعلم كونهم محسنين في تلك الأعمال وأنه يثني عليهم بكلامه ويعاملهم المعاملات الدالة على كونهم معظمين عند الله .

وفي قوله : ﴿ من كان يريد العاجلة ﴾ دون أن يقول : " من أراد العاجلة " كما قال : ﴿ ومن أراد الآخرة ﴾ إشارة إلى أن مريد نفع الدنيا لا يكون مذموماً إلا إذا كان غالباً في ذلك

ثابت القدم فسيح الأمل ، ومريد الآخرة يكون محموداً بأدنى التفاتة بعد وجود الشرط . قالت الأشاعرة : إن مجموع القدرة مع الداعي هو الموجب للفعل ونحن نشكر الله على الإيمان لأنه أعطى القدرة والداعية ، ولكنه حين حصل الإيمان للعبد واستتبع السعادات الباقية صار العبد أيضاً مشكوراً ، ولا منافاة بين الأمرين . وقالت المعتزلة : نحن لا نشكر الله على الإيمان لأن المدح على عمل لم يعمله الممدوح قبيح . قال تعالى : ﴿ ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴾ ولكنا نشكره على ما أعطانا من القدرة والعقل وإنزال الكتب وإيضاح الدلائل . واعلم أنه تعالى ذكر صنفين من الناس : قاصد خيرات الدنيا وقاصد خيرات الآخرة . وههنا ثلاثة أقسام أخر : الأوّل أن يكون طلب الآخرة في عمله راجحاً فقيل إنه غير مقبول أيضاً لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال حكاية عن رب العزة : " أنا أغنى الأغنياء عن الشكر من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه " وقيل : يعارض المثل بالمثل ويبقى القدر الزائد داعية خالصة لطلب الآخرة فيقع في حيز القبول . الثاني أن يكون طلب الدنيا وطلب الآخرة متعادلين . الثالث أن يكون طلب الدنيا راجحاً . واتفقوا على أن هذين القسمين أيضاً لا يقبلان إلا أنهما على كل حال خير من الرياء المحض . ثم بين كمال رأفته وشمول رحمته فقال : ﴿ كلا ﴾ أي كل واحد من الفريقين ﴿ نمد ﴾ أي نزيدهم من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع بالمعصية . وقوله : ﴿ هؤلاء وهؤلاء ﴾ بدل من كل و ﴿ من عطاء ربك ﴾ متعلق ب ﴿ نمد ﴾ ﴿ وما كان

عطاء ربك محظوراً ﴾ ممنوعاً من المكلف بسبب عصيانه ﴿ أنظر ﴾ يا محمد أو يا من له أهلية النظر والاعتبار إلى عطائنا المباح للفريقين في الدنيا ﴿ كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾

(316/453)

فأوصلناه إلى مؤمن وقبضناه عن مؤمن آخر ، وأوصلناه إلى كافر وقبضناه عن كافر آخر ليكون بعضهم تحت تسخير بعض . ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ لأن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا . وقيل : المراد أن المؤمنين يدخلون الجنة والكافرين يدخلون النار فيظهر فضل المؤمنين على الكافرين . وعن بعضهم : أيها المباهي بالرفع منك في مجالس الدنيا ، أما ترغب في المباهاة بالرفع في مجالس الآخرة وهي أكبر وأفضل ؟ ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 322. 336 ﴾

(317/453)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) ﴾

تبدأ السورة بتسبيح الله ، أليق حركة نفسية تتسق مع جو الإسراء اللطيف ، وأليق صلة بين العبد والرب في ذلك الأفق الوضيء .

وتذكر صفة العبودية : ﴿ أسرى بعبده ﴾ لتقريرها وتوكيدها في مقام الإسراء والعروج إلى الدرجات التي لم يبلغها بشر ؛ وذلك كي لا تنسى هذه الصفة ، ولا يلتبس مقام العبودية ، بمقام الألوهية ، كما التبسا في العقائد المسيحية بعد عيسى عليه السلام ، بسبب ما لابس مولده ووفاته ، وبسبب الآيات التي أعطيت له ، فاتخذها بعضهم سبباً للخلط بين مقام العبودية ومقام الألوهية . . وبذلك تبقى للعقيدة الإسلامية بساطتها ونصاعتها وتنزيهها للذات الإلهية عن كل شبهة من شرك أو مشابهة ، من قريب أو من بعيد .

والإسراء من السرى : السير ليلاً . فكلمة ﴿ أسرى ﴾ تحمل معها زمانها . ولا تحتاج إلى ذكره . ولكن السياق ينص على الليل ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ للتظليل والتصوير على طريقة القرآن الكريم فيلقي ظل الليل الساكن ، ويخيم جوه الساجي على النفس ، وهي تتملى حركة الإسراء اللطيفة وتتابعها .

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير ، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، إلى محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً . وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله ، واشتمال رسالته على هذه المقدسات ، وارتباط رسالته بها جميعاً . فهي رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان ؛ وتشمل آماداً وآفاقاً أوسع من الزمان والمكان ؛ وتتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تتكشف عنها للنظرة الأولى .

ووصف المسجد الأقصى بأنه ﴿ الذي باركنا حوله ﴾ وصف يرسم البركة حافةً بالمسجد ، فائضة عليه . وهو ظل لم يكن ليلقيه تعبير مباشر مثل : باركناه . أو باركنا فيه . وذلك من دقائق التعبير القرآني العجيب .

والإسراء آية صاحبتها آيات : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ والنقلة العجيبة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في البرهة الوجيزة التي لم يبرد فيها فراش الرسول صلى الله عليه وسلم أياً كانت صورتها وكيفيتها . . آية من آيات الله ، تفتح القلب على آفاق عجيبة في هذا الوجود ؛ وتكشف عن الطاقات المخبوءة في كيان هذا المخلوق البشري ، والاستعدادات اللدنية التي يتهيأ بها لاستقبال فيض القدرة في أشخاص المختارين من هذا الجنس ، الذي كرمه

الله وفضله على كثير من خلقه، وأودع فيه هذه الأسرار اللطيفة.. ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾.. يسمع ويرى كل ما لطف ودق، وخفي على الأسماع والأبصار من اللطائف والأسرار.

(319/453)

والسياق يتنقل في آية الافتتاح من صيغة التسبيح لله: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ إلى صيغة التقرير من الله: ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ إلى صيغة الوصف لله: ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ وفقاً لدقائق الدلالات التعبيرية بميزان دقيق حساس. فالتسبيح يرتفع موجها إلى ذات الله سبحانه. وتقرير القصد من الإسراء يجيء منه تعالى نصاً. والوصف بالسمع والبصر يجيء في صورة الخبر الثابت لذاته الإلهية. وتجتمع هذه الصيغ المختلفة في الآية الواحدة لتؤدي دلالاتها بدقة كاملة.

هذا الإسراء من آيات الله. وهو نقلة عجيبة بالقياس إلى مألوف البشر. والمسجد الأقصى هو طرف الرحلة. والمسجد الأقصى هو قلب الأرض المقدسة التي أسكنها الله بني إسرائيل ثم أخرجهم منها. فسيرة موسى وبني إسرائيل تجيء هنا في مكانها المناسب من سياق السورة في الآيات التالية:

﴿ وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً ؛ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا . وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولاً . ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها . فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيراً . عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ . .

وهذه الحلقة من سيرة بني إسرائيل لا تذكر في القرآن إلا في هذه السورة . وهي تتضمن نهاية بني إسرائيل التي صاروا إليها ؛ ودالت دولتهم بها . وتكشف عن العلاقة المباشرة بين مصارع الأمم وفشو الفساد فيها ، وفاقاً لسنة الله التي ستذكر بعد قليل في السورة ذاتها . وذلك أنه إذا قدر الله الهلاك لقرية جعل إفساد المترفين فيها سبباً لهلاكها وتدميرها . ويبدأ الحديث في هذه الحلقة بذكر كتاب موسى التوراة وما اشتمل عليه من إنذار لبني

إسرائيل وتذكير لهم بجدهم الأكبر نوح العبد الشكور ، وآبائهم الأولين الذين حملوا معه في السفينة ، ولم يحمل معه إلا المؤمنون :

﴿ وآتينا موسى الكتاب ، وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً ، ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾ . .

ذلك الإنذار وهذا التذكير مصداق لوعد الله الذي يتضمنه سياق السورة كذلك بعد قليل . وذلك إلا يعذب الله قوماً حتى يبعث إليهم رسولاً ينذرهم ويذكرهم .

وقد نص على القصد الأول من إيتاء موسى الكتاب : ﴿ هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً ﴾ فلا يعتمدوا إلا على الله وحده ، ولا يتجهوا إلا إلى الله وحده . فهذا هو الهدى ، وهذا هو الإيمان . فما آمن ولا اهتدى من اتخذ من دون الله وكيلاً .

ولقد خاطبهم باسم آبائهم الذين حملهم مع نوح ، وهم خلاصة البشرية على عهد الرسول الأول في الأرض . خاطبهم بهذا النسب ليذكرهم باستخلاص الله لآبائهم الأولين ، مع نوح العبد الشكور ، وليردهم إلى هذا النسب المؤمن العريق .

ووصف نوحاً بالعبودية لهذا المعنى ولمعنى آخر ، هو تنسيق صفة الرسل المختارين وإبرازها . وقد وصف بها محمداً صلى الله عليه وسلم من قبل . على طريقة التناسق القرآنية في جو السورة وسياقها .

في ذلك الكتاب الذي آتاه الله لموسى ليكون هدى لبني إسرائيل، أخبرهم بما قضاه عليهم من تدميرهم بسبب إفسادهم في الأرض. وتكرار هذا التدمير مرتين لتكرر أسبابه من أفعالهم. وأنذرهم بمثله كلما عادوا إلى الإفساد في الأرض، تصديقاً لسنة الله الجارية التي لا تتخلف:

﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ﴾..

وهذا القضاء إخبار من الله تعالى لهم بما سيكون منهم، حسب ما وقع في علمه الإلهي من مآلهم؛ لا أنه قضاء قهري عليهم، تنشأ عنه أفعالهم. فالله سبحانه لا يقضي بالإفساد على أحد ﴿ قل: إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ إنما يعلم الله ما سيكون علمه بما هو كائن. فما سيكون بالقياس إلى علم الله كائن، وإن كان بالقياس إلى علم البشر لم يكن بعد، ولم يكشف عنه الستار.

ولقد قضى الله لبني إسرائيل في الكتاب الذي آتاه لموسى أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، وأنهم سيعلون في الأرض المقدسة ويسيطرون. وكلما ارتفعوا فاتخذوا الارتفاع وسيلة للإفساد سلط عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ويدمرهم تدميرا:

﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً ﴾.

فهذه هي الأولى : يعلون في الأرض المقدسة ، ويصبح لهم فيها قوة وسلطان ، فيفسدون فيها .

فيبعث الله عليهم عباداً من عباده أولي بأس شديد ، وأولي بطش وقوة ، يستبيحون الديار ، ويروحون فيها ويغدون باستهتار ، ويطأون ما فيها ومن فيها بلا تهيب ﴿ وكان وعداً مفعولاً ﴾ لا يخلف ولا يكذب .

(322/453)

حتى إذا ذاق بنو إسرائيل ويلات الغلب والقهر والذل ؛ فرجعوا إلى ربهم ، وأصلحوا أحوالهم وأفادوا من البلاء المسلط عليهم . وحتى إذا استعلى الفاتحون وغرتهم قوتهم ، فطغوا هم الآخرون وأفسدوا في الأرض ، أدال الله للمغلوبين من الغالبين ، ومكن للمستضعفين من المستكبرين : ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً ﴾ . .

ثم تتكرر القصة من جديد !

وقبل أن يتم السياق بقية النبوءة الصادقة والوعد المفعول يقرر قاعدة العمل والجزاء :

﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ . .

القاعدة التي لا تتغير في الدنيا وفي الآخرة ؛ والتي تجعل عمل الإنسان كله له ، بكل ثماره ونتائجه . وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل ، منه تنتج ، وبه تتكيف ؛ وتجعل الإنسان مسؤولاً عن نفسه ، إن شاء أحسن إليها ، وإن شاء أساء ، لا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء .

فإذا تقررت القاعدة مضى السياق يكمل النبوءة الصادقة :

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيراً ﴾ . .

ويحذف السياق ما يقع من بني إسرائيل بعد الكرة من إفساد في الأرض ، اكتفاء بذكره من قبل : ﴿ لتفسدن في الأرض مرتين ﴾ ويثبت ما يسلطه عليهم في المرة الآخرة : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم ﴾ بما يرتكبونه معهم من نكال يملأ النفوس بالإساءة حتى تفيض على الوجوه ، أو بما يجبهون به وجوههم من مساءة وإذلال . ويستبيحون المقدسات ويستهينون بها : ﴿ وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ﴾ ويدمرون ما يغلبون عليه من مال وديار ﴿ وليتبروا ما علوا تتبيراً ﴾ . . وهي صورة للدمار الشامل الكامل الذي يطغى على كل شيء ، والذي لا يبقي على شيء .

ولقد صدقت النبوءة ووقع الوعد ، فسلط على بني إسرائيل من قهرهم أول مرة ، ثم سلط عليهم من شردهم في الأرض ، ودمر مملكتهم فيها تدميرا .

ولا ينص القرآن على جنسية هؤلاء الذين سلطهم على بني إسرائيل ، لأن النص عليها لا يزيد في العبرة شيئاً . والعبرة هي المطلوبة هنا . وبيان سنة الله في الخالق هو المقصود .

ويعقب السياق على النبوءة الصادقة والوعد المفعول ، بأن هذا الدمار قد يكون طريقاً للرحمة : ﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ إن أفدتم منه عبرة .

فأما إذا عاد بنوا إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ . .

ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها . ثم عادوا إلى الإفساد فسلط عليهم عباداً آخرين ، حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم " هتلر " .

. ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة " إسرائيل " التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات . وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، تصديقاً لوعد الله القاطع ، ووفاقاً لسنته التي لا تتخلف . . وإن غداً لناظره قريب !

ويختم السياق الآية بمصير الكافرين في الآخرة لما بينه وبين مصير المفسدين من مشاكلة :

﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ . . تحصرهم فلا يفلت منهم أحد ؛ وتتسع لهم فلا يند عنها أحد .

ومن هذه الحلقة من سيرة بني إسرائيل ، وكتابهم الذي آتاه الله لموسى ليهتدوا به فلم يهتدوا ؛ بل ضلوا فهلكوا . . ينتقل السياق إلى القرآن . القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم :

﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ . .

﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ . .

هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم ، فيشمل الهدى أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان ؛ ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق ، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان .

يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور ، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض ، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة ، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء ، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق

واتساق .

ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله ، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم ، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض ، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله ، ولو كان هذا العمل متاعا واستمتاعاً بالحياة .

ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة ، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء . ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار . ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال .

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض : أفراداً وأزواجاً ، وحكومات وشعوباً ، ودولاً وأجناساً ، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى ؛ ولا تميل مع المودة والشنآن ؛ ولا تصرفها المصالح والأغراض . الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه ، وهو أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل ، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان .

ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها ، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام .

﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ . . ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ فهذه هي قاعدته الأصيلة في العمل والجزاء . فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه . فلا إيمان بلا عمل ، ولا عمل بلا إيمان . الأول مبتور لم يبلغ تمامه ، والثاني مقطوع لا ركيزة له . وبهما معاً تسير الحياة على التي هي أقوم . . وبهما معاً تتحقق الهداية بهذا القرآن .

فأما الذين لا يهتدون بهدي القرآن ، فهم متروكون لهوى الإنسان . الإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره ، المندفع الذي لا يضبط انفعالاته ولو كان من ورائها الشر له :

﴿ ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً ﴾ . .

ذلك أنه لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها . ولقد يفعل الفعل وهو شر ، ويعجل به على نفسه وهو لا يدري . أو يدري ولكنه لا يقدر على كبح جماحه وضبط زمامه . . فأين هذا من هدى القرآن الثابت الهادئ الهادي ؟

ألا إنهما طريقان مختلفان : شتان شتان . هدى القرآن وهوى الإنسان !

ومن الإشارة إلى الإسراء وما صاحبه من آيات ؛ والإشارة إلى نوح ومن حملوا معه من

المؤمنين ؛ والإشارة إلى قصة بني إسرائيل وما قضاه الله لهم في الكتاب ، وما يدل عليه هذا القضاء من سنن الله في العباد ، ومن قواعد العمل والجزاء ؛ والإشارة إلى الكتاب الأخير الذي يهدي للتي هي أقوم . .

من هذه الإشارات إلى آيات الله التي أعطاها للرسل ينتقل السياق إلى آيات الله الكونية في هذا الوجود ، يربط بها نشاط البشر وأعمالهم ، وجهدهم وجزاءهم ، وكسبهم وحسابهم ، فإذا نواميس العمل والجزاء والكسب والحساب مرتبطة أشد ارتباط بالنواميس الكونية الكبرى ، محكومة بالنواميس ذاتها ، قائمة على قواعد وسنن لا تتخلف ، دقيقة منظمة دقة النظام الكوني الذي يصرف الليل والنهار ؛ مدبرة بإرادة الخالق الذي جعل الليل والنهار :

﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ، لتبتغوا فضلاً من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً ؛ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً . من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة

وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً . وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً . من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ؛ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا .

كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ . .

فالناموس الكوني الذي يحكم الليل والنهار ، يرتبط به سعي الناس للكسب . وعلم السنين والحساب . ويرتبط به كسب الإنسان من خير وشر وجزاؤه على الخير والشر . وترتبط به عواقب الهدى والضلال ، وفردية التبعة فلا تزر وازرة وزر أخرى . ويرتبط به وعد الله ألا يعذب حتى يبعث رسولاً . وترتبط به سنة الله في إهلاك القرى بعد أن يفسق فيها مترفوها . وترتبط به مصائر الذين يطلبون العاجلة والذين يطلبون الآخرة وعطاء الله لهؤلاء وهؤلاء في الدنيا والآخرة . . كلها تمضي وفق ناموس ثابت وسنن لا تتبدل ، ونظام لا يتحول . فليس شيء من هذا كله جزافاً .

﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ . .

والليل والنهار آيتان كونيتان كبيرتان تشيان بدقة الناموس الذي لا يصيبه الخلل مرة واحدة ، ولا يدركه التعطل مرة واحدة ، ولا يني يعمل دائباً بالليل والنهار . فما المحو المقصود هنا وآية الليل باقية كآية النهار ؟ يبدو والله أعلم أن المقصود به ظلمة الليل التي تخفى فيها الأشياء وتسكن فيها الحركات والأشباح . . فكأن الليل ممحو إذا قيس إلى ضوء النهار وحركة الأحياء فيه والأشياء ؛ وكأنما النهار ذاته مبصر بالضوء الذي يكشف كل شيء فيه للأبصار .

ذلك المحو لليل والبروز للنهار ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ . . فالليل للراحة والسكون والجِمام ، والنهار للسعي والكسب والقيام ، ومن المخالفة بين الليل والنهار يعلم البشر عدد السنين ، ويعلمون حساب المواعيد والفصول والمعاملات .

﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ فليس شيء وليس أمر في هذا الوجود متروكاً للمصادفة والجزاف . ودقة الناموس الذي يصرف الليل والنهار ناطقة بدقة التدبير والتفصيل ، وهي عليه شاهد ودليل .

بهذا الناموس الكوني الدقيق يرتبط العمل والجزاء .

﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ .

(328/453)

وطائر كل إنسان ما يطير له من عمله ، أي ما يقسم له من العمل ، وهو كناية عما يعمله . وإلزامه له في عنقه تصوير للزومه إياه وعدم مفارقته ؛ على طريقة القرآن في تجسيم المعاني وإبرازها في صورة حسية . فعمله لا يتخلف عنه وهو لا يملك التملص منه ، وكذلك التعبير بإخراج كتابه منشوراً يوم القيامة . فهو يصور عمله مكشوفاً ، لا يملك إخفاءه ، أو تجاهله أو المغالطة فيه . ويتجسم هذا المعنى في صورة الكتاب المنشور ، فإذا هو أعمق أثراً في النفس وأشد تأثيراً في الحس ؛ وإذا الخيال البشري يلاحق ذلك الطائر ويلحظ هذا الكتاب في فزع طائر من اليوم العصيب ، الذي تتكشف فيه الخبايا والأسرار ، ولا يحتاج إلى شاهد أو حسيب : ﴿ اقرأ كتابك .

كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ .

وبذلك الناموس الكوني الدقيق ترتبط قاعدة العمل والجزاء :

﴿ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ . .

فهي التبعة الفردية التي تربط كل إنسان بنفسه ؛ إن اهتدى فلها ، وإن ضل فعليها . وما من نفس تحمل وزر أخرى ، وما من أحد يخفف حمل أحد . إنما يسأل كل عن عمله ، ويجزي كل بعمله ولا يسأل حميم حميما . .

وقد شاءت رحمة الله ألا يأخذ الإنسان بالآيات الكونية المبثوثة في صفحات الوجود ، وألا يأخذه بعهد الفطرة الذي أخذه على بني آدم في ظهور آبائهم ، إنما يرسل إليهم الرسل منذرين ومذكرين : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ وهي رحمة من الله أن يعذر إلى العباد قبل أن يأخذهم بالعذاب .

كذلك تمضي سنة الله في إهلاك القرى وأخذ أهلها في الدنيا ، مرتبطة بذلك الناموس الكوني الذي يصرف الليل والنهار :

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ .

والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة ، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة ، حتى تترهل نفوسهم وتأسن ، وترتع في الفسق والمجانة ، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات ، وتلغ في الأعراض والحرمات ، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً ، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها ، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها . ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي ، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها ، فتهلك وتطوى صفحتها .

والآية تقرر سنة الله هذه . فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك ، فكثر فيها المترفون ، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم ، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها ، فعم فيها الفسق ، فتحللت وترهلت ، فحقت عليها سنة الله ، وأصابها الدمار والهلاك . وهي المسؤولة عما يحل بها لأنها لم تضرب على أيدي المترفين ، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين . فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا ، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك ، وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك .

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف ، وسنناً لا تتبدل ، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحق كلمته . والله لا يأمر بالفسق ، لأن الله لا يأمر بالفحشاء . لكن وجود المترفين في ذاته ، دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها ، وسارت

في طريق الانحلال ، وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقاً .

وهي التي تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة .

(330/453)

فالإرادة هنا ليست إرادة للتوجية القهري الذي ينشئ السبب ، ولكنها ترتب النتيجة على السبب . الأمر الذي لا مفر منه لأن السنة جرت به . والأمر ليس أمراً توجيهياً إلى الفسق ، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين وهي الفسق .

وهنا تبرز تبعة الجماعة في ترك النظم الفاسدة تنشئ آثارها التي لا مفر منها . وعدم الضرب على أيدي المترفين فيها كي لا يفسقوا فيها فيحق عليها القول فيدمرها تدميراً .

هذه السنة قد مضت في الأولين من بعد نوح ، قرناً بعد قرن ، كلما فشت الذنوب في أمة انتهت بها إلى ذلك المصير ، والله هو الخبير بذنوب عباده البصير :

﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ .

وبعد فإن من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها ، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التي يعيش فيها ، فإن الله يعجل له حظه في الدنيا حين يشاء ، ثم تنتظره في الآخرة جهنم عن استحقاق . فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض يتلطخون بوحلها ودنسها

ورجسها ، ويستمتعون فيها كالأنعام ، ويستسلمون فيها للشهوات والنزعات . ويرتكبون في سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدي بهم إلى جهنم :

﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ﴾ .

﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ .

والذي يريد الآخرة لا بد أن يسعى لها سعيها ، فيؤدي تكاليفها ، وينهض بتبعاتها ، ويقيم سعيه لها على الإيمان . وليس الإيمان بالتمني ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل . والسعي للآخرة لا يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة ، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية . ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه ، فلا يكون عبداً لهذا المتاع .

وإذا كان الذي يريد العاجلة ينتهي إلى جهنم مذموماً مدحوراً ، فالذي يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ينتهي إليها مشكوراً يتلقى التكريم في الملأ الأعلى جزاء السعي الكريم لهدف كريم ، وجزاء التطلع إلى الأفق البعيد الوضيء .

إن الحياة للأرض حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام.

فأما الحياة للآخرة فهي الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله، الذي خلقه فسواه، وأودع روحه ذلك السر الذي ينزع به إلى السماء وإن استقرت على الأرض قدماه.

على أن هؤلاء وهؤلاء إنما ينالون من عطاء الله. سواء منهم من يطلب الدنيا فيعطاها ومن يطلب الآخرة فيلقاها. وعطاء الله لا يحظره أحد ولا يمنعه، فهو مطلق تتوجه به المشيئة حيث تشاء:

﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك. وما كان عطاء ربك محظورا ﴾.

والتفاوت في الأرض ملحوظ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم وأعمالهم، ومجال الأرض ضيق ورقعة الأرض محدودة. فكيف بهم في المجال الواسع وفي المدى المتطاول. كيف بهم في الآخرة التي لا تزن فيها الدنيا كلها جناح بعوضة؟

﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾.

فمن شاء التفاوت الحق، ومن شاء التفاضل الضخم، فهو هناك في الآخرة. هنالك في الرقعة الفسيحة، والآماد المتطاولة التي لا يعلم حدودها إلا الله. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون لا في متاع الدنيا القليل الهزيل.. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الظلال حـ 4 ص 2219.2210 ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسا بورى :

التأويل : نزه نفسه بقوله : ﴿ سبحان ﴾ عن الاتحاد الكلي ، ولكن أخبر عن مقام وصول حبيبه . فقوله : ﴿ أسرى ﴾ إشارة إلى الجذبة الخفية عن الأغيار ، وقوله ﴿ بعبده ﴾ إشارة إلى مقام تصحيح نسبة العبدية التي هي آخر مقامات السالكين ، وقوله : ﴿ ليلاً ﴾ رمز إلى أن ذلك الجذب كاد يكون خفياً عن المجذوب إذا كان ذاهلاً عن أنانيته .

وقوله : ﴿ من المسجد الحرام ﴾ هو مقام يحرم فيه الالتفات إلى ما سوى الله . ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ هو مقام الفناء في الله ﴿ الذي باركنا حوله ﴾ بالبقاء بالله ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ التي لم تسمع إذن ولا أبصرت عين ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ فلا يصل أحد إليه إلا إذا سمع به وأبصر به . هذا ما خطر ببال هذا الضعيف في تأويل هذه الآية فإن كان صواباً فمن فضل الله وعطائه ، وإلا فمني ومن الشيطان ﴿ فجاسوا خلال الديار ﴾ الجسدانية بالقتل وفك التركيب وخلال الديار المعنوية حين استولت الصفات الذميمة على

الخصال الحميدة لتخريب بيت مقدس القلب ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ﴾ باستيلاء داود القلب وقتل جالوت النفس ﴿ وأمددناكم بأموال ﴾ الطاعات ﴿ وبنين ﴾ الإيمان والإيقان ﴿ وإذا جاء وعد الآخرة ﴾ حين ارتد عن الطريقة ﴿ ليسوؤا ﴾ وجوه قلوبكم بحجب سوء أعمالكم ﴿ وإن عدتم ﴾ إلى الجهل ﴿ عدنا ﴾ إلى الفضل ، أو وإن عدتم إلى الندم عدنا إلى الكرم ، أو وإن عدتم إلى العبودية عدنا إلى الربوبية ، أو إن عدتم إلى التقربات عدنا إلى الجذبات ﴿ وجعلنا ليل ﴾ البشرية ونهار الروحانية ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ وهي قمر القلب فني في نور العقل حين تطلع شمس شهود الحق وهي آية النهار ، فإذا طلع الصباح استغنى عن المصباح ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ وهو تجلي ذاته وصفاته ، وقد اختص الإنسان به من بين المخلوقات . ﴿ ولتعلموا ﴾ أيام الطلب وحساب الترقي من مقام إلى مقام وكل شيء يحتاج إليه السالك بيناه بالإشارات ﴿ من كان يريد العاجلة ﴾ فيه أن قلب الإنسان بين أصبعي قهر الرحمن ولطفه وبحسب ذلك يحوّل وجهه الى الدنيا حتى يؤل أمره إلى درجات البعد أو يحوّله إلى الآخرة حتى يصل إلى درجات الوصال والله المستعان على ما تصفون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 336 . 337 ﴾

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [الإسراء : 1] .

فيه أربع إشارات .

إشارة التقديس سبحان فهو تنزيه له تعالى عن اللواحق المادية والنقائص التشبيهية وعن جميع ما يرتسم في الأذهان .

وإشارة الغيرة بعدم ذكر الاسم الظاهر من أسمائه الحسنى عزت أسمائه وكذا بعدم ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم .

وإشارة الغيب بذكر ضمير الغائب .

وإشارة السر بذكر الليل فإنه محل السر والنجوى ، وعن بعض الأكابر لولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا ، وذكر غير واحد أن في اختيار عنوان العبودية إشارة إلى أنها أعلى المقامات وقد أشير إلى ذلك فيما سلف ، وأصلها الذل والخضوع وحيث أن الذل لشيء لا يكون إلا بعد معرفته دلت العبودية لله تعالى على معرفته سبحانه وكمالها على كمالها ،

ومن هنا فسر ابن عباس قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] بقوله : إلا ليعرفون وهي تسعة وتسعون سهماً بعدد الأسماء الإلهية التي من أحصاها دخل الجنة لكل اسم إلهي عبودية مختصة به يتعبد له من يتعبد من المخلوقين ولم يتحقق بهذا المقام على كمال مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان عبداً محضاً زاهداً في جميع الأحوال التي تخرجه عن مرتبة العبودية وشهد الله تعالى له بأنه عبد مضاف إليه من حيث هويته هنا واسمه الجامع في قوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ ﴾ [الجن : 19] ولما أمر صلى الله عليه وسلم بتعريف مقامه يوم القيامة قيد ذلك فقال عليه الصلاة والسلام : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " بالراء أو الزاي على اختلاف الروايتين وهي لما علمت من معناها لا يمكن أن تكون نعتاً إلهياً أصلاً بل هي صفة خاصة لا اشتراك فيها فقد قال أبو يزيد البسطاني : ما وجدت شيئاً يتقرب به إليه تعالى إذ رأيت كل نعت يتقرب به للألوهية فيه مدخل فقلت : يا رب بماذا أتقرب إليه ؟ قال : تقرب إلى بما ليس لي قلت : يا رب وما الذي ليس لك ؟ قال : الذلة والافتقار .

وذكر أن العبد مع الحق في حال عبوديته كالظل مع الشخص في مقابلة السراج كلما قرب إلى السراج عظم الظل ولا قرب من الله تعالى إلا بما هو لك وصف أخص لإله سبحانه وكلما بعد عن السراج صغر الظل فإنه ما يبعدك عن الحق إلا خروجك عن صفتك التي تستحقها وطمعك في صفته تعالى ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار وهما صفتان لله تعالى و﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] وهما كذلك وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ أَعُوذُ بِكَ مِنكَ ﴾ وأول بعضهم الليل بظلمة الغواشي البدنية والتعلقات الطبيعية وقال : إن الترقي والعروج لا يكون إلا بواسطة البدن وقد صرحوا بأنه صلى الله عليه وسلم أسرى به وكذا عرج يقظة لم يفارق بدنه إلا أن العارف الجامي قال : إن ذلك إلى المحدد ثم ألقى البدن هناك وقد تقدم ذلك ، وفي أسرار القرآن أن عليه الصلاة والسلام أسرى به من رؤية أفعاله إلى رؤية صفاته ومن رؤية صفاته إلى رؤية ذاته فرأى الحق بالحق وكانت صورته روحه وروحه عقله وعقله قلبه وقلبه سره وكأنه أراد أنه صلى الله عليه وسلم حصل له هذا الإسراء وإلا فإرادة أن الإسراء الذي في الآية هو هذا مما لا ينبغي .

ولا يخفى أن الإسراء غير المعراج نعم قد يطلقون الإسراء على المعراج بل قيل إنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا ، وقد ذكروا أن الجميع الوارثين معراجاً إلا أنه معراج أرواح لا أشباح وإسراء أسرار لا أسوار ورؤية جنات لا عيان وسلوك ذوق وتحقيق لا سلوك مسافة وطريق إلى سموات معنى لا مغنى ، وهذا المعراج متفاوت حسب تفاوت مراتب الرجال ، وقد ذكر الشيخ الأكبر قدس سره في معراجه ما يحير الألباب ويقضي منه العجب العجاب ولم يستبعد ذلك منه بناء على أنه ختم الولاية المحمدية عندهم ، ومن عجائب ما اتفق في زماننا أن رجلاً يدعى بعبد السلام نائب القاضي في بغداد وكان جسوراً على الحكم بالباطل شرع في ترجمة معراج الشيخ قدس سره بالتركية مع شرح بعض مغلقاته ولم يكتمن خبايا هاتيك الزوايا فقبل أن يتم مرامه ابتلى والعياذ بالله تعالى بآكلة في فمه فأكلته إلى أذنيه فمات وعرج بروحه إلى حيث شاء الله تعالى نسأل الله سبحانه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة ، ونقل عن الشيخ قدس سره أن الإسراء وقع له صلى الله عليه وسلم ثلاثين مرة ، وفي كلام الشيخ عبد الوهاب الشعراني أن أسراً آته عليه الصلاة والسلام كان أربعاً وثلاثين واحد منها بجسمه والباقي بروحه ، وقد صرحوا أن الأول من خصائصه صلى الله عليه وسلم .

وفي الخصائص الصغرى وخص عليه الصلاة والسلام بالإسراء وما تضمنه من خرق السموات السبع والعلو إلى قاب قوسين ووطئه مكاناً ما وطئه نبي مرسل ولا ملك مقرب وأن

قطع المسافة الطويلة في الزمن القصير مما يكون كرامة للولي ، والمشهور تسمية ذلك بطي المسافة وهو من أعظم خوارق العادات ؛ وأنكر ثبوته للأولياء الحنفية ومنهم ابن وهبان قال :

ومن لولي قال طي مسافة . . .

يجوز جهول ثم بعض يكفر

(338/453)

وهذا منهم مع قولهم إذا ولد لمغربي ولد من امرأته المشرقية مثلاً يلحق به وإن لم يلتقيا ظاهراً غريب ، والكتب ملأى من حكايات الثقات هذه الكرامة لكثير من الصالحين ، وكأن مجهل قائلها بني تجهيله على أن في ذلك قولاً بتداخل الجواهر وقد أحاله المتكلمون خلافاً للنظام وبرهنوا على استحالته بما لا مزيد عليه وادعى بعضهم الضرورة في ذلك ، وأنت تعلم أن قطع المسافة الطويلة في الزمن القصير لا يتوقف على تداخل الجواهر لجواز أن يكون بالسرعة كما قالوا في الإسراء فليثبت للأولياء على هذا النحو على أن الكرامات كالمعجزات مجهولة الكيفية فنؤمن بما صح منها ونفوض كيفيته إلى من لا يعجزه شيء سبحانه وتعالى ، ومثل طي المسافة ما يحكمونه من نشر الزمان وأنا مؤمن ولله تعالى الحمد

بما يصح نقله من الأمرين والمكفر جهول والمجهول ليس برسول والله تعالى الموفق للصواب إليه المرجع والمآب ؛ وأول المسجد الحرام بمقام القلب المحترم عن أن يطوف به مشركو القوى البدنية ويرتكب فيه فواحشها وخطاياها ، والمسجد الأقصى بمقام الروح الأبعد من العالم الجسماني ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ ءايَاتِنَا ﴾ [الإسراء : 1] أي آيات صفاتنا من جهة أنها منسوبة إلينا ونحن المشاهدون بها والأفاصل مشاهدة الفات في مقام القلب ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء : 8] قال سهل : أي إن عدتم إلى المعصية عدنا إلى المغرفة وإن عدتم إلى الإعراض عنا عدنا إلى الإقبال عليكم وإن عدتم إلى الفرار منا عدنا إلى أخذ الطريق عليكم لترجعوا إلينا .

وقال الوراق : إن عدتم إلى الطاعة عدنا إلى التيسير والقبول ، وقيل : غير ذلك ﴿ إِنَّ هذا القرءان يِهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] الآية أي إن هذا القرآن يعرف أهله بنوره أقوم الطرق إلى الله تعالى وهو طريق الطاعة والاقتداء بمن أنزل عليه عليه الصلاة والسلام فإنه لا طريق يوصل إلا ذلك ولله تعالى در من قال :

وأنت باب الله أي امرىء . . .

أتاه من غيرك لا يدخل

وذكروا أن القرآن يرشد بظاهره إلى معاني باطنه وبمعاني باطنه إلى نور حقيقته وبنور حقيقته إلى أصل الصفة وبالصفة إلى الذات فطوبى لمن استرشد بالقرآن فإنه يدل على الله تعالى وقد أحسن من قال :

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا . . .

كفى لمطايانا بنورك هادياً

ويبشر أهله الذين يتبعونه أن لهم أجر المشاهدة وكشفها بلا حجاب ﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَاءهُ بالخير وكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾

(340/453)

[الإسراء : 11] فيه إشارة إلى أدب من آداب الدعاء وهو عدم الاستعجال فينبغي للسالك أن يصبر حتى يعرف ما يليق بحاله فيدعو به ، وقال سهل : أسلم الدعوات الذكر وترك الاختيار لأن في الذكر الكفاية وربما يسأل الإنسان ما فيه هلاكه ولا يشعر ، وفي الأثر يقول الله تعالى شأنه من شغله ذكري عن مسألتين أعطيه أفضل ما أعطى السائلين ﴿ وَجَعَلْنَا الليل ﴾ أي ليل الكون وظلمة البدن ﴿ والنهار ﴾ أي نهار الإبداع والروح ﴾

ءايَتَيْنِ ﴾ يتوصل بهما إلى معرفة الذات والصفات ﴿ فَمَحَوْنَا ءايَةَ الليل ﴾ بالفساد والفناء ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار ءايَتَيْنِ ﴾ منيرة باقية بكمالها تبصر بنورها الحقائق ﴿ لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مّن رَّبّكُمْ ﴾ وهو كمالكم الذي تستعدونه ﴿ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ أي لتحصوا عدد المراتب والمقامات من بدايتكم إلى نهايتكم بالترقي فيها وحساب أعمالكم وأخلاقكم وأحوالكم فتبدلوا السيء من ذلك بالحسن ﴿ وَكُلَّ شَىْء ﴾ من العلوم والحكم ﴿ فَصَّلْنَاهُ ﴾ بنور عقولكم الفرقانية الحاصلة لكم عند الكمال ﴿ تفصيلاً ﴾ [الإسراء : 12] لا إجمالاً فيه كما في مرتبة العقل القرآني الحاصل عند البداية ﴿ وَكُلَّ إنسان أَلْزَمناه طَئِرَهُ فِى عُنُقِهِ ﴾ [الإسراء : 13] الآية تقدم ما يصلح أن يكون من باب الإشارة فيها ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] للصوفية في هذا الرسول كغيرهم قولان، فمنهم من قال إنه رسول العقل، ومنهم من قال رسول الشرع ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ [الإسراء : 16] الآية فيها إشارة إلى أنه سبحانه إذا أراد أن يخرب قلب المريد سلط عليه عساكر هوى نفسه وجنود شياطينه فيخرب بسنابك خيول الشهوات وآفات الطبعيات نعوذ بالله تعالى من ذلك ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة ﴾ لكدورة استعداده وغلبة هواه وطبيعته ﴾

عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصلاها مَذْمُومًا ﴾ عن ذوي العقول ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء : 18] في سخط الله تعالى وقهره ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخرة ﴾ لصفاء استعداده وسلامة فطرته ﴿ وسعى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ اللائق بها وهو السعي على سبيل الاستقامة وما ترضيه الشريعة ، وقال بعضهم : السعي إلى الدنيا بالأبدان والسعي إلى الآخرة بالقلوب والسعي إلى الله تعالى بالهمم ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ثابت الإيمان لا تزعزعه عواصف الشبه ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء : 19] مقبولاً مثاباً عليه ، وعن أبي حفص أن السعي المشكور ما لم يكن مشوباً بريء ولا بسمعة ولا برؤية نفس ولا بطلب عوض بل يكون خالصاً لوجهه تعالى لا يشاركه في ذلك شيء فلا تغفل ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ ﴾ لا تأثير لإرادتهم وسعيهم في ذلك وإنما هي معرفات وعلامات لما قدرنا لهم من العطاء ، ورأيت في الفتوحات المكية أن هذه الآية نحو قوله تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 8] وهو نحو ما تقدم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقد سمعت ما فيه ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء : 20] عن أحد مطيعاً كان أو عاصياً لأن شأنه تعالى شأنه الإفاضة حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ﴾ في الدنيا بمقتضى المشيئة والحكمة ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ درجات وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : 21] فهناك ما لا عين رأيت ولا أذن

سمعت ولا خطر على قلب بشر رزقنا الله تعالى وإياكم ذلك أنه سبحانه الجواد المالك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسِلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والخمسون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/454)

الجزء الرابع والخمسون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 23 ﴾ من سورة الإسراء

وحتى الآية ﴿ 30 ﴾ من نفس السورة

(4/454)

قوله تعالى ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قرع الأسماع بهذا النهي المحتم لتوحيده ، أتبعه الإخبار بالأمر بذلك جمعاً في ذلك بين

صريحي الأمر والنهي تصريحاً بعد التنزيه له عن الشريك بالإفراد له في العبادة في أسلوب الخبر، إعلاماً بعظم المقام فقال تعالى: ﴿وقضى﴾ أي نهاك عن ذلك وأمر ﴿ربك﴾ أي المحسن إليك أمراً حتماً مقطوعاً به ماضياً لا يحتمل النزاع؛ ثم فسر هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿ألا تعبدوا﴾ أي أنت وجميع أهل دعوتك، وهم جميع الخلق ﴿إلا إياه﴾ فإن ذلك هو الإحسان.

ولما أمر بمعرفة الحق المحسن المطلق منبهاً على وجوب ذلك باسم الرب، أتبعه الأمر بمعرفة الحق لأول المربين من الخلق فقال: ﴿وبالوالدين﴾ أي وأحسنوا، أي أوقعوا الإحسان بهما ﴿إحساناً﴾ بالإتباع في الحق إن كانا حنيفين شاكرين لأنعمه كإبراهيم ونوح عليهما السلام فإن ذلك يزيد في حسناتهما، وبالبراءة منهما في الباطل فإن ذلك يخفف من وزرهما واللطف بهما ما لم يجر إلى فساد ليكون الله معكم فإنه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

(5/454)

ولما كان سبحانه عليماً بما في الطباع من ملال الولد لهما عند أخذهما في السن، قال تعالى: ﴿إما﴾ مؤكداً بإدخال "ما" على الشرطية لزيادة التقرير للمعنى اهتماماً بشأن الأبوين ﴿يبلغن عندك﴾ أي بأن يضطر إليك فلا يكون لهما كافل غيرك ﴿الكبر﴾ ونفى كل

احتمال يتعلق به المتعنت بقوله تعالى : ﴿ أحدهما أو كلاهما ﴾ فيعجزا بحيث يكونان في كفالتك ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ أي لا تتضجر منهما ، وفي سورة الأحقاف ما ينفع كثيراً هنا ؛ ثم صرح بما ينهى عنه الكلام من باب الأولى تعظيماً للمقام فقال : ﴿ ولا تنهرهما ﴾ فيما لا ترضاه ؛ والنهر : زجر بإغلاظ وصياح.

وقال الأستاذ أبو الحسن الحرالي رحمه الله في كتابه في أصول الفقه : وقد أولع الأصوليون بأن يذكروا في جملة هذا الباب - أي باب الاستدلال بالملزوم على اللازم والأدنى على الأعلى - قوله تعالى : ﴿ ولا تقل لهما أف ﴾ بناء على أن التأفيف عندهم أقل شيء يعق به الأب ، وذلك حائد عن سنن البيان ووجه الحكمة ، لأنه ليس في العقوق شيء أشد من التأفيف لأنه إنما يقال للمستقذر المسترذل ، ولذلك عطف عليه ﴿ ولا تنهرهما ﴾ لأنه لا يلزم منه لزوم سواء ولا لزوم أحرى ، ولا يصلح فيما يقع أدنى أن يعطف عليه ما يلزمه سواء أو أحرى ، كما لو قال قائل : من يعمل ذرة خيراً يره ، ومن يعمل قيراطاً يره ، لم يصلح عطفه عليه لإفادة الأول إياه ، ولعل ذلك شيء وهل فيه واهل فسلك إثره من غير اعتبار لقوله - انتهى.

ولما نهاه عن عقوقهما تقديماً لما تدرأ به المفسدة ، أمره ببرهما جلباً للمصلحة ، فقال تعالى :

﴿ وقل لهما ﴾ أي بدل النهر وغيره ﴿ قولاً كريماً ﴾ أي حسناً جميلاً يرضاه الله ورسوله

مع ما يظهر فيه من اللين والرقة والشفقة وجبر الخاطر وبسط النفس ، كما يقتضيه حسن

الأدب وجميل المروءة ، ومن ذلك أنك لا تدعوهما بأسمائهما ، بل بيا أبتاه ويا أمتاه - ونحو

هذا ﴿ واخفض لهما ﴾ ولما كان الطائر يخفض جناحه عند الذل ، استعار لتعطفه

عليهما رعياً لحقوقهما قوله تعالى : ﴿ جناح الذل ﴾ أي جناح ذلّك ، وبين المراد بقوله تعالى

: ﴿ من الرحمة ﴾ أي لا من أجل امتثال الأمر والنواهي وما تقدم لهما من من أجل الرحمة

لهما ، بأن لا تزال تذكر نفسك بالأوامر والنواهي وما تقدم لهما من الإحسان إليك ، فصارا

مفتقرين إليك وقد كنت أفقر خلق الله إليهما ، حتى يصير ذلك خلقاً لازماً لك فإن النفس

لأمارة بالسوء ، وإن لم تقد إلى الخير بأنواع الإرغاب والإرهاب والإمعان في النظر في حقائق

الأمور وعجائب المقدور ، ولذلك أتبعه قوله تعالى آمراً بأن لا يكتفي برحمته التي لا بقاء لها

، فإن ذلك لا يكافىء حقهما بل يطلب لهما الرحمة الباقية : ﴿ وقل رب ﴾ أي أيها المحسن

إليّ بعطفهما عليّ حتى ربياني وكانا يقدماني على أنفسهما ﴿ ارحمهما ﴾ بكرمك

برحمتك الباقية وجودك كما رحمتهما أنا برحمتي القاصرة مع بخلي وما فيّ من طبع اللوم

﴿ كما ربياني ﴾ برحمتهما لي ﴿ صغيراً ﴾ وهذا مخصوص بالمسلمين بآية ﴿ ما كان

للنبي ﴾ لا منسوخ ، ولقد أبلغ سبحانه في الإيصاء بهما حيث بدأه بأن شفع الإحسان

إليهما بتوحيده ونظمه في سلكه ، وختمه بالتضرع في نجاتهما ، جزاء على فعلهما وشكراً لهما ، وضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى شيء من امتهانهما ، مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد يدخل الصبر إليها في حد الاستطاعة إلا بتدريب كبير .

(7/454)

ولما كان ذلك عسراً جداً حذر من التهاون به بقوله تعالى : ﴿ ربكم ﴾ أي المحسن إليكم في الحقيقة ، فإنه هو الذي عطف عليكم من يربيكم وهو الذي أعانهم على ذلك ﴿ أعلم ﴾ أي منكم ﴿ بما في نفوسكم ﴾ من قصد البر بهما وغيره ، فلا يظهر أحدكم غير ما يبطن ، فإن ذلك لا ينفعه ولا ينجيه إلا أن يحمل نفسه على ما يكون سبباً لرحمتهما ﴿ إن تكونوا ﴾ أي كوناً هو جبلة لكم ﴿ صالحين ﴾ أي متقين أو محسنين في نفس الأمر ؛ والصلاح : استقامة الفعل على ما يدعو إليه الدليل ، وأشار إلى أنه لا يكون ذلك إلا بمعالجة النفس وترجيعها كرة بعد فرة بقوله تعالى : ﴿ فإنه كان للأوابين ﴾ أي الرجاعين إلى الخير مرة إثر مرة بعد جماع أنفسهم عنه ﴿ غفوراً ﴾ أي بالغ الستر ، تنبيهاً لمن وقع منه تقصير ، فرجع عنه على أنه مغفور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 373 .

375﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ يبلغان ﴾ مثنى : حمزة وعلي وخلف ﴿ أف ﴾ بالجر والتنوين : أبو جعفر ونافع وحفص ﴿ أف ﴾ بالفتح : ابن كثير وابن ذكوان وابن عامر وسهل ويعقوب غير مجاهد والمفضل . والباقون بالكسر . ﴿ تبصطها كل البصط ﴾ مثل : ﴿ بصطة ﴾ ﴿ خطأ ﴾ بفتحتين من غير مد : يزيد وابن ذكوان غير ابن مجاهد ﴿ خطأ ﴾ بالفتح ثم السكون : ابن مجاهد عن ابن ذكوان ﴿ خطاء ﴾ بالكسر والمد : ابن كثير . الباقون بالكسر ثم السكون ﴿ فلا تسرف ﴾ على الخطاب : حمزة وعلي وخلف وابن مجاهد والنقاش عن ابن ذكوان . ﴿ بالقسطاس ﴾ مكسور القاف حيث كان : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد والمفضل . وقرأ أبو نشيط والشموني غير النقاد بالصاد ﴿ سيئه ﴾ على إضافة سيء إلى ضمير ﴿ كل ﴾ : حمزة وعلي وخلف وعاصم وابن عامر وسهل . الآخرون ﴿ سيئة ﴾ علم التأنيث .

الوقوف : ﴿ مخذولاً ﴾ 5 ﴿ إحساناً ﴾ ، ط ﴿ كريماً ﴾ 5 ﴿ صغيراً ﴾ ، ط ﴾

في نفوسكم ﴾ ط ﴿ غفوراً ﴾ 5 ﴿ تبذيراً ﴾ 5 ﴿ الشياطين ﴾ ط ﴿ كفوراً ﴾ ، ﴿ ميسوراً ﴾ 5 ﴿ محسوراً ﴾ 5 ﴿ ويقدر ﴾ ، ط ﴿ بصيراً ﴾ 5 ﴿ إملاق ﴾ ط ﴿ وإياكم ﴾ ط ﴿ كبيراً ﴾ 5 ﴿ فاحشة ﴾ ط ﴿ سبيلاً ﴾ 5 ﴿ إلا بالحق ﴾ ط لأن الشرط في أمر قد يقع نادراً خارجاً عن النهي . ﴿ في القتل ﴾ ط ﴿ منصوراً ﴾ 5 ﴿ أشده ﴾ ز ﴿ بالعهد ﴾ ج على تقدير فإن . ﴿ مسئولاً ﴾ 5 ﴿ المستقيم ﴾ ط ﴿ تأويلا ﴾ 5 ﴿ به علم ﴾ ط ﴿ مسئولاً ﴾ 5 ﴿ مرحاً ﴾ ج لاحتمال إضمار الفاء أو اللام ﴿ طولا ﴾ 5 ﴿ مكروهاً ﴾ 5 ﴿ الحكمة ﴾ ط ﴿ مدحوراً ﴾ 5 ﴿ إناثاً ﴾ ط ﴿ عظيماً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 337 . 338﴾

(9/454)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

اعلم أنه لما ذكر في الآية الأولى ما هو الركن الأعظم في الأيمان ، أتبعه بذكر ما هو من شعائر

الإيمان وشرائطه وهي أنواع :

النوع الأول : أن يكون الإنسان مشتغلاً بعبادة الله تعالى ، وأن يكون محترزاً عن عبادة غير الله تعالى ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : القضاء معناه الحكم الجزم البت الذي لا يقبل النسخ .

والدليل عليه أن الواحد منا إذا أمر غيره بشيء فإنه لا يقال : إنه قضى عليه ، أما إذا أمره أمراً جزماً وحكم عليه بذلك الحكم على سبيل البت والقطع ، فهنا يقال : قضى عليه ولفظ القضاء في أصل اللغة يرجع إلى إتمام الشيء وانقطاعه .

وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس أنه قال : في هذه الآية كان الأصل ووصى ربك فالتصقت إحدى الواوين بالصاد فقرىء : ﴿ وقضى رَبُّكَ ﴾ ثم قال : ولو كان على القضاء ما عصى الله أحد قط ، لأن خلاف قضاء الله ممتنع ، هكذا رواه عنه الضحاك وسعيد بن جبير ، وهو قراءة علي وعبد الله .

واعلم أن هذا القول بعيد جداً لأنه يفتح باب أن التحريف والتغيير قد تطرق إلى القرآن ، ولو جوزنا ذلك لارتفع الأمان عن القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك أنه طعن عظيم في الدين .

البحث الثاني : قد ذكرنا أن هذه الآية تدل على وجوب عبادة الله تعالى وتدل على المنع عن عبادة غير الله تعالى وهذا هو الحق ، وذلك لأن العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام ، ونهاية الإنعام عبارة عن إعطاء الوجود والحياة ، والقدرة والشهوة والعقل ، وقد ثبت بالدلائل أن المعطي لهذه الأشياء هو الله تعالى لا غيره ، وإذا كان المنعم بجميع النعم هو الله لا غيره ، لا جرم كان المستحق للعبادة هو الله تعالى لا غيره ، فثبت بالدليل العقلي صحة قوله : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إياه ﴾ .

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى أمر بعبادة نفسه ، ثم أتبعه بالأمر ببر الوالدين وبيان المناسبة بين الأمر بعبادة الله تعالى وبين الأمر ببر الوالدين من وجوه :

الوجه الأول : أن السبب الحقيقي لوجود الإنسان هو تخليق الله تعالى وإيجاده ، والسبب الظاهري هو الأبوان ، فأمر بتعظيم السبب الحقيقي ، ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري .

الوجه الثاني : أن الموجود إما قديم وإما محدث ، ويجب أن تكون معاملة الإنسان مع الإله

القديم بالتعظيم والعبودية ، ومع المحدث بإظهار الشفقة وهو المراد من قوله عليه السلام : " التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله "

وأحق الخلق بصرف الشفقة إليه هو الأبوان لكثرة إنعامهما على الإنسان فقوله : ﴿ وقضى ربُّكَ ألاَّ تَعْبُدُواْ إلاَّ إياه ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله وقوله : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله .

الوجه الثالث : أن الاشتغال بشكر المنعم واجب ، ثم المنعم الحقيقي هو الخالق سبحانه وتعالى .

وقد يكون أحد من المخلوقين منعماً عليك ، وشكره أيضاً واجب لقوله عليه السلام : " من لم يشكر الناس لم يشكر الله " وليس لأحد من الخلائق نعمة على الإنسان مثل ما للوالدين وتقريره من وجوه : أحدها : أن الولد قطعة من الوالدين ، قال عليه السلام : " فاطمة بضعة مني " وثانيها : أن شفقة الأبوين على الولد عظيمة وجدهما في إيصال الخير إلى الولد كالأمر الطبيعي واحترازهما عن إيصال الضرر إليه كالأمر الطبيعي ، ومتى كانت الدواعي إلى إيصال الخير متوفرة ، والصوارف عنه زائلة لا جرم كثر إيصال الخير ، فوجب أن تكون نعم

الوالدين على الولد كثيرة أكثر من كل نعمة تصل من إنسان إلى إنسان .

وثالثها : أن الإنسان حال ما يكون في غاية الضعف ونهاية العجز ، يكون في إنعام الأبوين فأصناف نعمهما في ذلك الوقت واصلة إليه ، وأصناف رحمة ذلك الولد واصلة إلى الوالدين في ذلك الوقت ، ومن المعلوم أن الإنعام إذا كان واقعاً على هذا الوجه كان موقعه عظيماً .

ورابعها : أن إيصال الخير إلى الغير قد يكون لداعية إيصال الخير إليه وقد يمتزج بهذا الغرض سائر الأغراض ، وإيصال الخير إلى الولد ليس لهذا الغرض فقط .

فكان الإنعام فيه أتم وأكمل ، فثبت أنه ليس لأحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد ، فبدأ الله تعالى بشكر نعمة الخالق وهو قوله : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إياه ﴾ ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ والسبب فيه ما بينا أن أعظم النعم بعد إنعام الإله الخالق نعمة الوالدين .

فإن قيل : الوالدان إنما طلبا تحصيل اللذة لنفسيهما فلزم منه دخول الولد في الوجود وحصوله في عالم الآفات والمخافات ، فأي إنعام للأبوين على الولد ؟ حكي أن واحداً من المتسمين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول : هو الذي أدخلني في عالم الكون والفساد .

وعرضني للموت والفقر والعمى والزمانة ، وقيل لأبي العلاء المعري : ماذا نكتب على قبرك ؟ قال اكتبوا عليه :

هذا جناه أبي علي . . وما جنيت على أحد

وقال في ترك التزوج والولد :

وتركت أولادي وهم في نعمة ال . . عدم التي سبقت نعيم العاجل

ولو أنهم ولدوا لعانوا شدة . . ترمي بهم في موبقات الآجل

وقيل للإسكندر : أستاذك أعظم منة عليك أم والدك ؟ فقال : الأستاذ أعظم منة ، لأنه تحمل أنواع الشدائد والمحن عند تعليمي أرتعني في نور العلم ، وأما الوالد فإنه طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه ، وأخرجني إلى آفات عالم الكون والفساد ، ومن الكلمات المشهورة المأثورة ، خير الآباء من علمك .

والجواب : هب أنهما في أول الأمر طلبا لذة الوقاع إلا أن الاهتمام بإيصال الخيرات ، وفي دفع الآفات من أول دخوله في الوجود إلى وقت بلوغه الكبر أليس أنه أعظم من جميع ما يتخيل من جهات الخيرات والمبرات ، فسقطت هذه الشبهات ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ بالوالدين إحسانا ﴾ قال أهل اللغة : تقدير الآية وقضى ربك ألا تعبدوا إلا الله

وأن تحسنوا ، أو يقال : وقضى ألا تعبدوا إلا إياه وأحسنوا بالوالدين إحساناً .

قال صاحب "الكشاف" : ولا يجوز أن تتعلق الباء في ﴿ وبالوالدين ﴾ بالإحسان لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته ثم لم يذكر دليلاً على أن المصدر لا يجوز أن تتقدم عليه صلته .

وقال الواحدي في "البسيط" : الباء في ﴿ وبالوالدين ﴾ من صلة الإحسان وقدمت عليه كما تقول بزيد فامرر ، وهذا المثال الذي ذكره الواحدي غير مطابق ، لأن المطلوب تقديم صلة المصدر عليه ، والمثال المذكور ليس كذلك .

المسألة الثالثة :

قال القفال : لفظ الإحسان قد يوصل بحرف الباء تارة ، وبحرف إلى أخرى ، وكذلك الإساءة ، يقال : أحسنت به وإليه .

وأسأت به وإليه .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بَى ﴾ [يوسف : 100] وقال القائل :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة . . لدينا ولا مقلية إن تقلت

وأقول لفظ الآية مشتمل على قيود كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة في الإحسان إلى الوالدين : أحدها : أنه تعالى قال في الآية المتقدمة : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء : 19] ثم إنه تعالى أردفه بهذه الآية المشتملة على الأعمال التي بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة فذكر من جملتها البر بالوالدين ، وذلك يدل على أن هذه الطاعة من أصول الطاعات التي تفيد سعادة الآخرة .

وثانيها : أنه تعالى بدأ بذكر الأمر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى ، وثلث بالبر بالوالدين وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة في تعظيم هذه الطاعة .

وثالثها : أنه تعالى لم يقل : وإحساناً بالوالدين ، بل قال : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام .

ورابعها : أنه قال : ﴿ إحسانا ﴾ بلفظ التنكير والتنكير يدل على التعظيم ، والمعنى : وقضى ربك أن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً عظيماً كاملاً ، وذلك لأنه لما كان إحسانهما إليك قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسانك إليهما كذلك ، ثم على جميع التقديرات فلا تحصل المكافأة ، لأن إنعامهما عليك كان على سبيل الابتداء ، وفي الأمثال المشهورة أن البادي بالبر لا يكافأ .

ثم قال تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

لفظ "إما" لفظة مركبة من لفظتين : إن ، وما .

أما كلمة إن فهي للشرط ، وأما كلمة (ما) فهي أيضاً للشرط كقوله تعالى :

(14/454)

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءايَةٍ ﴾ [البقرة : 106] فلما جمع بين هاتين الكلمتين أفاد التأكيد في معنى الاشتراط ، إلا أن علامة الجزم لم تظهر مع نون التوكيد ، لأن الفعل يبنى مع نون التأكيد وأقول لقائل أن يقول : إن نون التأكيد إنما يليق بالموضع الذي يكون اللائق به تأكيد ذلك الحكم المذكور وتقريره وإثباته على أقوى الوجوه ، إلا أن هذا المعنى لا يليق بهذا الموضع ، لأن قول القائل : الشيء إما كذا وإما كذا ، فالمطلوب منه ترديد الحكم بين ذينك الشيئين المذكورين ، وهذا الموضع لا يليق به التقرير والتأكيد فكيف يليق الجمع بين كلمة إما وبين نون التأكيد ؟

وجوابه : أن المراد أن هذا الحكم المتقرر المتأكد إما أن يقع وإما أن لا يقع ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

قرأ الأكثرون : ﴿ أَمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ وعلى هذا التقدير فقوله : ﴿ يَبْلُغَنَّ ﴾ فعل وفاعله هو قوله : ﴿ أَحَدُهُمَا ﴾ وقوله : ﴿ أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ عطف عليه

كقولك: ضرب زيد أو عمرو: ولو أسند قوله: ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿كِلاَهُمَا﴾ جاز لتقدم الفعل، تقول قال رجل، وقال رجلان، وقالت الرجال، وقرأ حمزة والكسائي:

﴿يبلغان﴾ وعلى هذه القراءة فقوله: ﴿أَحَدُهُمَا﴾ بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين و ﴿كلاهما﴾ عطف على ﴿أحدهما﴾ فاعلاً أو بدلاً.

فإن قيل: لو قيل (إما يبلغان كلاهما) كان (كلاهما) توكيداً لا بدلاً، فلم زعمتم أنه بدل؟

قلنا: لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيداً للاثنين فانتظم في حكمه، فوجب أن يكون مثله في كونه بدلاً.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال قوله: ﴿أَحَدُهُمَا﴾ بدل، وقوله: ﴿أَوْ كِلاَهُمَا﴾ توكيد، ويكون ذلك عطفاً للتوكيد على البدل.

قلنا: العطف يقتضي المشاركة فجعل ﴿أحدهما﴾ بدلاً والآخر توكيداً خلاف الأصل، والله أعلم.

المسألة الثالثة:

قال أبو الهيثم الرازي ، وأبو الفتح الموصلي ، وأبو علي الجرجاني : إن كلاً اسم مفرد يفيد معنى التثنية ووزنه فعل ولامه معتل بمنزلة لام حجي ورضي وهي كلمة وضعت على هذه الخلقة يؤكد بها الاثنان خاصة ولا تكون إلا مضافة .

والدليل عليه أنها لو كانت تثنية لوجب أن يقال في النصب والخفض مررت بكلي الرجلين بكسر الياء كما تقول : بين يدي الرجل و ﴿ من ثلثي الليل ﴾ [المزمل : 20] .

و ﴿ يا صاحبي السجن ﴾ [يوسف : 39 ، 41] .

و ﴿ طرفي النهار ﴾ [هود : 114] ولما لم يكن الأمر كذلك ، علمنا أنها ليست تثنية بل هي لفظة مفردة وضعت للدلالة على التثنية كما أن لفظة كل اسم واحد موضوع للجماعة ، فإذن أخبرت عن لفظة كما تخبر عن الواحد كقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ القيامة فَرْداً ﴾ [مريم : 95] وكذلك إذا أخبرت عن كلا أخبرت عن واحد فقلت كلا إخوتك كان قائماً قال الله تعالى :

﴿ كِلْتَا الجنتين آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ [الكهف : 33] ولم يقل آتتا ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ معناه : أنهما يبلغان إلى حالة الضعف والعجز فيصيران عندك في آخر العمر كما كنت عندهما في أول العمر .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الجملة فعند هذا الذكر كلف الإنسان في حق الوالدين بخمسة

أشياء :

النوع الأول : قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الزجاج : فيه سبع لغات : كسر الفاء وضمها وفتحها ، وكل هذه الثلاثة بتنوين وبغير تنوين فهذه ستة واللغة السابعة أفي بالياء قال الأخفش : كأنه أضاف هذا القول إلى نفسه فقال قولي هذا وذكر ابن الأنباري : من لغات هذه اللفظة ثلاثة زائدة على ما ذكره الزجاج : ﴿ إفّ ﴾ بكسر الألف وفتح الفاء وافه بضم الألف وادخال الهاء و ﴿ أُفّ ﴾ بضم الألف وتسكين الفاء .

المسألة الثانية :

(16/454)

قرأ ابن كثير وابن عامر : بفتح الفاء من غير تنوين ، ونافع وحفص : بكسر الفاء والتنوين ، والباقون : بكسر الفاء من غير تنوين وكلها لغات ، وعلى هذا الخلاف في سورة الأنبياء ﴿ أُفّ لَّكُمْ ﴾ [الأنبياء : 67] وفي الأحقاف : ﴿ أُفّ لَّكُمَا ﴾ [الأحقاف : 17]

وأقول : البحث المشكل ههنا أنا لما نقلنا عشرة أنواع من اللغات في هذه اللفظة ، فما

السبب في أنهم تركوا أكثر تلك اللغات في قراءة هذه اللفظة ، واقتصروا على وجوه قليلة منها ؟

المسألة الثالثة :

ذكروا في تفسير هذه اللفظة وجوهاً : الأول : قال الفراء : تقول العرب جعل فلان يتأفف من ريح وجدها ، معناه يقول : أف أف .

الثاني : قال الأصمعي : الأف وسخ الأذن .

والتف وسخ الظفر .

يقال ذلك عند استقذار الشيء ، ثم كثر حتى استعملوا عند كل ما يتأذون به .

الثالث : قال بعضهم أف معناه قلة ، وهو مأخوذ من الأفيف وهو الشيء القليل وتف أتباع له ، كقولهم : شيطان ليطان خبيث نبيث .

الرابع : روى ثعلب عن ابن الأعرابي : الأف الضجر .

الخامس : قال القتبي : أصل هذه الكلمة أنه إذا سقط عليك تراب أو رماد نفخت فيه لتزيله والصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قولك أف ، ثم إنهم توسعوا فذكروا هذه اللفظة عند كل مكروه يصل إليهم .

السادس : قال الزجاج : أف معناه النتن وهذا قول مجاهد ، لأنه قال معنى قوله : ﴿ وَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفّ ﴾ أي لا تتقذرهما كما أنهما لم يتقذراك كنت تخرأ أو تبول ، وفي رواية أخرى عن

مجاهد أنه إذا وجدت منهما رائحة تؤذيك فلا تقل لهما أف .

المسألة الرابعة :

قول القائل : لا تقل لفلان أف ، مثل يضرب للمنع من كل مكروه وأذية وإن خف وقل .

واختلف الأصوليون في أن دلالة هذا اللفظ على المنع من سائر أنواع الإيذاء دلالة لفظية أو دلالة مفهومة بمقتضى القياس .

(17/454)

قال بعضهم : إنها دلالة لفظية ، لأن أهل العرف إذا قالوا : لا تقل لفلان أف عنوا به أنه لا يتعرض له بنوع من أنواع الإيذاء والايحاش ، وجرى هذا مجرى قولهم فلان لا يملك نقيراً ولا قطميراً في أنه بحسب العرف يدل على أنه لا يملك شيئاً .

والقول الثاني : أن هذا اللفظ إنما يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء بحسب القياس الجلي ، وتقريره أن الشرع إذا نص على حكم صورة وسكت عن حكم صورة أخرى ، فإذا أردنا إلحاق الصورة المسكوت عن حكمها بالصورة المذكور حكمها فهذا على ثلاثة أقسام :

أحدها : أن يكون ثبوت ذلك الحكم في محل السكوت أولى من ثبوته في محل الذكر مثل هذه الصورة ، فإن اللفظ إنما دل على المنع من التأفيف ، والضرب أولى بالمنع من التأفيف .

وثانيها : أن يكون الحكم في محل السكوت مساوياً للحكم في محل الذكر ، وهذا هو الذي يسميه الأصوليون القياس في معنى الأصل ، وضربوا لهذا مثلاً وهو قوله عليه السلام : " من أعتق نصيباً له من عبد قوم عليه الباقي " فإن الحكم في الأمة والعبد متساويان .

وثالثها : أن يكون الحكم في محل السكوت أخفى من الحكم في محل الذكر وهو أكبر القياسات .

إذا عرفت هذا فنقول : المنع من التأفيف إنما يدل على المنع من الضرب بواسطة القياس الجلي الذي يكون من باب الاستدلال بالأدنى على الأعلى .

(18/454)

والدليل عليه : أن التأفيف غير الضرب ، فالمنع من التأفيف لا يكون منعاً من الضرب ، وأيضاً المنع من التأفيف لا يستلزم المنع من الضرب عقلاً ، لأن الملك الكبير إذا أخذ ملكاً عظيماً كان عدواً له ، فقد يقول للجلاد إياك وأن تستخف به أو تشافهه بكلمة موحشة لكن اضرب رقبته ، وإذا كان هذا معقولاً في الجملة علمنا أن المنع من التأفيف مغاير للمنع من الضرب وغير مستلزم للمنع من الضرب عقلاً في الجملة ، إلا أنا علمنا في هذه الصورة أن المقصود من هذا الكلام المبالغة في تعظيم الوالدين بدليل قوله : ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا

واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة ﴾ فكانت دلالة المنع من التأفيف على المنع من الضرب من باب القياس بالأدنى على الأعلى ، والله أعلم .

النوع الثاني : من الأشياء التي كلف الله تعالى العباد بها في حق الأبوين قوله : ﴿ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا ﴾ يقال : نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره .

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا السائل فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ [الضحى : 10] .

فإن قيل : المنع من التأفيف يدل على المنع من الانتهار بطريق الأولى ، فلما قدم المنع من التأفيف كان ذكر المنع من الانتهار بعده عبثاً .

أما لو فرضنا أنه قدم المنع من الانتهار ثم أتبعه بالمنع من التأفيف كان مفيداً حسناً ، لأنه يلزم من المنع من الانتهار المنع من التأفيف ، فما السبب في رعاية هذا الترتيب ؟

قلنا : المراد من قوله : ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفّ ﴾ المنع من إظهار الضجر بالقليل أو الكثير ، والمراد من قوله : ﴿ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا ﴾ المنع من إظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليه والتكذيب له .

النوع الثالث : قوله تعالى : ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ واعلم أنه تعالى لما منع الإنسان بالآية المتقدمة عن ذكر القول المؤذي الموحش .

والنهي عن القول المؤذي لا يكون أمراً بالقول الطيب ، لا جرم أردفه بأن أمره بالقول الحسن والكلام الطيب فقال : ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ والمراد منه أن يخاطبه بالكلام المقرون بأمارات التعظيم والاحترام .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : هو أن يقول له : يا أبتاه يا أماه ، وسئل سعيد بن المسيب عن القول الكريم فقال : هو قول العبد المذنب للسيد الفظ ، وعن عطاء أن يقال : هو أن تتكلم معه بشرط أن لا ترفع عليهما صوتك ولا تشد إليهما نظرك ، وذلك لأن هذين الفعلين ينافيان القول الكريم .

فإن قيل : إن إبراهيم عليه السلام كان أعظم الناس حلماً وكرماً وأدباً ، فكيف قال لأبيه يا آزر على قراءة من قرأ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم لأَبِيهِ ءازَرَ ﴾ بالضم : ﴿ إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : 74] فخاطبه بالاسم وهو إيذاء ، ثم نسبه ونسب قومه إلى الضلال وهو أعظم أنواع الإيذاء ؟

قلنا : إن قوله تعالى : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ يدل على أن حق الله تعالى مقدم على حق الأبوين ، فإقدام إبراهيم عليه السلام على ذلك الإيذاء إنما كان تقديماً لحق الله تعالى على حق الأبوين .

النوع الرابع : قوله : ﴿ واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة ﴾ والمقصود منه المبالغة في

التواضع ، وذكر القفال رحمه الله في تقريره وجهين : الأول : أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه ، ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية ، فكأنه قال للولد : اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك .

والثاني : أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه .

فصار خفض الجناح كناية عن فعل التواضع من هذا الوجه .

فإن قيل : كيف أضاف الجناح إلى الذل والذل لا جناح له ؟

قلنا : فيه وجهان : الأول : أنه أضيف الجناح إلى الذل كما يقال : حاتم الجود فكما أن المراد هناك حاتم الجواد فكذلك ههنا المراد ، واخفض لهما جناحك الذليل ، أي المذلول .

والثاني : أن مدار الاستعارة على الخيالات فههنا تخيل للذل جناحاً وأثبت لذلك الجناح ضعفاً تكميلاً لأمر هذه الاستعارة كما قال لبيد :

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها . . فأثبت للشمال يداً ووضع زمامها في يد الشمال فكذا ههنا وقوله : ﴿ مِنَ الرحمة ﴾ معناه : ليكن خفض جناحك لهما بسبب فرط رحمتك

لهما وعطفك عليهما بسبب كبرهما وضعفهما .

والنوع الخامس : قوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارحمهما كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : قال القفال رحمه الله تعالى : إنه لم يقتصر في تعليم البر بالوالدين على تعليم الأقوال بل أضاف إليه تعليم الأفعال وهو أن يدعو لهما بالرحمة فيقول : ﴿ رَّبِّ ارحمهما ﴾ ولفظ الرحمة جامع لكل الخيرات في الدين والدنيا .

ثم يقول : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ يعين رب افعل بهما هذا النوع من الإحسان كما أحسنا إلي في تربيتهما إياي ، والتربية هي التنمية ، وهي من قولهم ربا الشيء إذا انتفع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء اهتزت وَرَبَتْ ﴾ [فصلت : 39] .

البحث الثاني : اختلف المفسرون في هذه الآية على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ والذين ءامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : 113] فلا ينبغي للمسلم أن يستغفر لوالديه إذا كانا مشركين ، ولا يقول : رب ارحمهما .

والقول الثاني : أن هذه الآية غير منسوخة ، ولكنها مخصوصة في حق المشركين ، وهذا أولى من القول الأول لأن التخصيص أولى من النسخ .

والقول الثالث : أنه لا نسخ ولا تخصيص لأن الوالدين إذا كانا كافرين فله أن يدعو لهما بالهداية والإرشاد ، وأن يطلب الرحمة لهما بعد حصول الإيمان .

البحث الثالث : ظاهر الأمر للوجوب فقوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارحمهما ﴾ أمر وظاهر الأمر لا يفيد التكرار فيكفي في العمل بمقتضى هذه الآية ذكر هذا القول مرة واحدة ، سئل سفيان : كم يدعو الإنسان لوالديه ؟ أفي اليوم مرة أو في الشهر أو في السنة ؟ فقال : نرجو أن نجزئه إذا دعا لهما في أواخر التشهدات كما أن الله تعالى قال : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : 56] فكانوا يرون أن التشهد يجزي عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكما أن الله تعالى قال : ﴿ واذكروا الله فِى أَيَّامٍ معدودات ﴾ [البقرة : 203] فهم يكررون في أدبار الصلوات .

ثم قال تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صالحين ﴾ والمعنى أنا قد أمرناكم في هذه الآية بإخلاص العبادة لله تعالى وبالإحسان بالوالدين ، ولا يخفى على الله ما تضمرونه في أنفسكم من الإخلاص في الطاعة وعدم الإخلاص فيها ، فاعلموا أن الله تعالى مطلع على ما في نفوسكم بل هو أعلم بتلك الأحوال منكم بها ، لأن علوم البشر قد يختلط بها السهو والنسيان وعدم الإحاطة بالكل ، فأما علم الله فمنزه عن كل هذه الأحوال ، وإذا كان الأمر كذلك كان عالماً بكل ما في قلوبكم والمقصود منه التحذير عن ترك الإخلاص .

(22/454)

ثم قال تعالى : ﴿ إِن تَكُونُواْ صالحين ﴾ أي إن كنتم برآء عن جهات الفساد في أحوال قلوبكم كنتم أوابين ، أي رجاعين إلى الله منقطعين إليه في كل الأعمال وسنة الله وحكمه في الأوابين أنه غفور لهم يكفر عنهم سيآتهم ، والأواب هو الذي من عادته وديدنه الرجوع إلى أمر الله تعالى والالتجاء إلى فضله ولا يلتجىء إلى شفاعة شفيع كما يفعله المشركون الذين يعبدون من دون الله جماداً يزعمون أنه يشفع لهم ، ولفظ الأواب على وزن فعال ، وهو يفيد المداومة والكثرة كقولهم : قتال وضراب والمقصود من هذه الآية أن الآية الأولى لما دلت على وجوب تعظيم الوالدين من كل الوجوه ثم إن الولد قد يظهر منه نادرة مخلة بتعظيمهما فقال : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ﴾ يعني أنه تعالى عالم بأحوال قلوبكم فإن كانت تلك الهفوة ليست لأجل العقوق بل ظهرت بمقتضى الجبلة البشرية كانت في محل الغفران ، والله أعلم . انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 147. 154 ﴾

(23/454)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وقضى ربُّك ألاّ تبعدوا إلاّ إياه ﴾

معناه وأمر ربك ، قاله ابن عباس والحسن وقتادة . وكان ابن مسعود وأبيّ بن كعب يقرآن ﴿ ووصى ربك ﴾ قاله الضحاك ، وكانت في المصحف : ﴿ ووصى ربك ﴾ لكن ألصق الكاتب الواو فصارت ﴿ وقضى ربك ﴾ .

﴿ وبالوالدين أحساناً ﴾ معناه ووصى بالوالدين إحساناً ، يعني أن يحسن إليهما بالبر بهما في الفعل والقول .

﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يبلغن كبرك وكما عقلك .

الثاني : يبلغان كبرهما بالضعف والهرم .

﴿ فلا تقل لهما أفٍّ ﴾ يعني حين ترى منهما الأذى وتميط عنهما الخلا ، وتزيل عنهما القذى فلا تضجر ، كما كانا يميطانه عنك وأنت صغير من غير ضجر .

وفي تأويل ﴿ أف ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه كل ما غلظ من الكلام وقبح ، قاله مقاتل .

الثاني : أنه استقذار الشيء وتغير الرائحة ، قاله الكلبي .

الثالث : أنها كلمة تدل على التبرم والضجر ، خرجت مخرج الأصوات المحكية . والعرب

أف وتف ، فالأف وسخ الأظفار ، والتُّف ما رفعته من الأرض بيدك من شيء حقير .

﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ليناً .

والآخر : حسناً . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية والآية التي بعدها في سعد بن أبي وقاص .

قوله عز وجل : ﴿ . . . إنه كان للأوّابين غفوراً ﴾

فيهم خمسة أقاويل :

أحدها : أنهم المحسنون ، وهذا قول قتادة .

والثاني : أنهم الذين يصلّون بين المغرب والعشاء ، وهذا قول ابن المنكدر يرفعه .

الثالث : هم الذي يصلون الضحى ، وهذا قول عون العقيلي .

والرابع : أنه الراجع عن ذنبه الذي يتوب ، وهذا قول سعيد بن جبير ومجاهد .

والخامس : أنه الذي يتوب مرة بعد مرة ، وكلما أذنب بادر بالتوبة وهذا قول سعيد بن المسيب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

﴿ قضى ﴾ في هذه الآية هي بمعنى أمر وألزم وأوجب عليكم وهكذا قال الناس ، وأقول إن المعنى ﴿ وقضى ربك ﴾ أمره ﴿ ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ وليس في هذه الألفاظ الأمر بالاقتصار على عبادة الله فذلك هو المقضي لا نفس العبادة ، وقضى في كلام العرب أتم المقضي محكماً ، والمقضي هنا هو الأمر ، وفي مصحف ابن مسعود " ووصى ربك " وهي قراءة أصحابه ، وقراءة ابن عباس والنخعي وسعيد بن جبير وميمون بن مهران وكذلك عند أبي بن كعب ، وقال الضحاك تصحف على قوم وصى ب " قضى " حين اختلطت الواو بالصاد وقت كتب المصحف .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف وإنما القراءة مروية بسند ، وقد ذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثل قول الضحاك ، وقال عن ميمون بن مهران : إنه قال إن على قول ابن عباس لنوراً ، قال الله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ﴾ [الشورى : 13] ثم ضعف أبو حاتم أن يكون ابن عباس قال ذلك ، وقال لو قلنا هذا لطعن الزنادقة في مصحفنا ، والضمير في ﴿ تعبدوا ﴾ لجميع الخلق ، وعلى هذا التأويل مضى السلف والجمهور ، وسأل الحسن بن أبي الحسن رجل فقال له : إنه طلق امرأته ثلاثاً فقال له الحسن : عصيت ربك وبانت منك امرأتك ، فقال له الرجل قضي ذلك علي ، فقال له

الحسن وكان فصيحاً ، ما قضى الله أي ما أمر الله ، وقرأ هذه الآية ، فقال الناس : تكلم الحسن في القدر .

(25/454)

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن تكون ﴿ قضى ﴾ على مشهورها في الكلام ، ويكون الضمير في قوله ﴿ تعبدوا ﴾ للمؤمنين من الناس إلى يوم القيامة ، لكن على التأويل الأول يكون قوله : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ عطفاً على ﴿ أن ﴾ الأولى أي أمر الله ألا تعبدوا إلا إياه وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً ، وعلى هذا الاحتمال الذي ذكرناه يكون قوله ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ مقطوعاً من الأول كأنه أخبرهم بقضاء الله ثم أمرهم بالإحسان إلى الوالدين ، و﴿ إما ﴾ شرطية ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر " يبلغنّ " ، وروي عن ابن ذكوان " يبلغنَ " بتخفيف النون ، وقرأ حمزة والكسائي " يبلغان " وهي قراءة أبي عبد الرحمن ويحيى وطلحة والأعمش والجحدري ، وهي النون الثقيلة دخلت مؤكدة وليست بنون تثنية فعلى القراءتين الأوليين يكون قوله ﴿ أحدهما ﴾ فاعلاً ، وقوله ﴿ أو كلاهما ﴾ معطوفاً عليه ، وعلى هذه القراءة الثانية يكون قوله ﴿ أحدهما ﴾ بدلاً

من الضمير في يبلغان وهو بدل مقسم كقول الشاعر : [الطويل]

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة . . . ورجل رمى فيها الزمان فشلَّت

(26/454)

ويجوز أن يكون ﴿ أحدهما ﴾ فاعلاً وقوله ﴿ أو كلاهما ﴾ عطف عليه ويكون ذلك على لغة من قال أكلوني البراغيث ، وقد ذكر هذا في هذه الآية بعض النحويين وسيبويه لا يرى لهذه اللغة مدخلاً في القرآن ، وقرأ أبو عمرو " أفِّ " بكسر الفاء وترك التنوين ، وهي قراءة حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر وقرأ نافع والحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة وعيسى " أفٍّ " بالكسر والتنوين ، وقرأ ابن كثير وابن عامر " أفَّ " بفتح الفاء ، وقرأ أبو السمال " أفُّ " بضم الفاء ، وقرأ ابن عباس " أف " خفيفة ، وهذا كله بناء إلا أن قراءة نافع تعطي التنكير كما تقول آية ، وفيها لغات لم يقرأ بها " أف " بالرفع والتنوين على أن هارون حكاها قراءة ، " وأفّاً " بالنصب والتنوين " وأفي " بياء بعد الكسرة حكاها الأخفش الكبير ، " وأفاً " بألف بعد الفتحة ، " وأفّْ " بسكون الفاء المشددة " وأَف " مثل رب ، ومن العرب من يميل " أفاً " ، ومنهم من يزيد فيها هاء السكت فيقول " أفاه " .

قال القاضي أبو محمد : ومعنى اللفظة أنها اسم فعل كأن الذي يريد أن يقول أضجر أو

أتقذر أو أكره أو نحو هذا يعبر إيجازا بهذه اللفظة ، فتعطي معنى الفعل المذكور ، وجعل الله تعالى هذه اللفظة مثالاً لجميع ما يمكن أن يقابل به الآباء مما يكرهون ، فلم ترد هذه في نفسها ، وإنما هي مثال الأعظم منها ، والأقل فهذا هو مفهوم الخطاب الذي المسكوت عنه حكمه حكم المذكور ، والانتهار إظهار الغضب في الصوت واللفظ ، والقول الكريم الجامع للمحاسن من اللين وجودة المعنى وتضمن البر ، وهذا كما تقول ثوب كريم تريد أنه جم المحاسن ، و" الألف " وسخ الأظفار ، فقالت فرقة إن هذه اللفظة التي في الآية مأخوذة من ذلك وقال مجاهد في قوله ﴿ ولا تقل لهما أف ﴾ معناه إذا رأيت منهما في حال الشيخ الغائط والبول الذي رأياه في حال الصغر فلا تستقذرهما . وتقول ﴿ أف ﴾ .

(27/454)

قال القاضي أبو محمد : والآية أعم من هذا القول وهو داخل في جملة ما تقتضيه ، وقال أبو الهدَّاج النجيبي : قلت لسعيد بن المسيب كل ما في القرآن من بر الوالدين قد عرفته إلا قوله ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ ما هذا القول الكريم ؟ قال ابن المسيب : قول العبد المذنب للسيد الفظّ ، وقوله ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ استعارة أي اقطعهما جانب الذل منك ودمث لهما نفسك وخلقك ، وبولغ بذكر ﴿ الذل ﴾ هنا ولم يذكر في

قوله ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ [الشعراء : 215] وذلك بحسب عظم الحق هنا ، وقرأ الجمهور " الذُّل " بضم الذال ، وقرأ سعيد بن جبير وابن عباس وعروة بن الزبير " الذِل " بكسر الذال ، ورويت عن عاصم بن أبي النجود ، و" الذل " في الدواب ضد الصعوبة ومنه الجمل الذلول ، والمعنى يتقارب وينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذلة في أقواله واستكانته ونظره ولا يحد إليهما بصره فإن تلك هي نظرة الغاضب والحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(28/454)

" أبعده الله وأسحقه " قالوا من يا رسول الله ؟ قال : " من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يغفر له " وقوله ﴿ من الرحمة ﴾ ، ﴿ من ﴾ هنا لبيان الجنس أي إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة في النفس لا بأن يكون ذلك استعمالاً ، ويصح أن يكون لابتداء الغاية ، ثم أمر الله عبادة بالترحم على آبائهم وذكر منتهما عليه في التربية ليكون تذكر تلك الحالة مما يزيد الإنسان إشفاقاً لهما وحناناً عليهما ، وهذا كله في الأبوين المؤمنين ، وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أولي قربى ، وذكر عن ابن عباس هنا لفظ النسخ ، وليس هذا موضع نسخ ، وقوله ﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم ﴾ أي من اعتقاد

الرحمة بهما والحنو عليهما أو من غير ذلك ، ويجعلون ظاهر برهما رياء ، ثم وعد في آخر الآية بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة إلى طاعة الله ، واختلفت عبارة الناس في ﴿ الأوابين ﴾ ، فقالت فرقة هم المصلحون ، وقال ابن عباس : هم المسبحون ، وقال أيضاً : هم المطيعون المحسنون ، وقال ابن المنكدر : هم الذين يصلون العشاء والمغرب ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الصلاة في ذلك الوقت فقال : " تلك صلاة الأوابين " ، وقيل غير هذا من المستغفرين ونحوه ، وقال عون العقيلي : هم الذين يصلون صلاة الضحى ، وحقيقة اللفظة أنه من آب يؤوب إذا رجع ، وهؤلاء كلهم لهم رجوع أبداً إلى طاعة الله تعالى ، ولكنها لفظة لزم عرفها أهل الصلاح ، قال ابن المسيب هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب ، وفسر الجمهور ﴿ الأوابين ﴾ بالرجاعين إلى الخير ، وقال ابن جبير : أراد بقوله غفوراً للأوابين الزلة والفلتة تكون من الرجل إلى أحد أبويه ، وهو لم يصر عليها بقلبه ولا علمها الله من نفسه ، وقالت فرقة " خفض الجناح " هو ألا يمتنع من شيء يريدانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ﴾

روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : أمَر ربك .

ونقل عنه الضحاك أنه قال : إنما هي "ووصى ربك" فالتصقت إحدى الواوين ب "الصاد" ، وكذلك قرأ أُبيّ بن كعب ، وأبو المتوكل ، وسعيد بن جبير : "ووصى" ، وهذا على خلاف ما انعقد عليه الإجماع ، فلا يلتفت إليه .

وقرأ أبو عمران ، وعاصم الجحدري ، ومعاذ القارىء : "وقضاءُ ربك" بقاف وضاد بالمد والهمز والرفع وخفض اسم الرب .

قال ابن الأنباري : هذا القضاء ليس من باب الحتم والوجوب ، لكنه من باب الأمر والفرض ، وأصل القضاء في اللغة : قطع الشيء باحكام وإتقان ، قال الشاعر يرثي عمر :

قَضَيْتَ أُمُوْراً ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا . . .

بَوائِقَ في أَكْمَامِهَا لَمْ تُفَتَّقِ

أراد : قطعتَها محكِماً لها .

قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ أي : وأمر بالوالدين إحسانا ، وهو البِرُّ والإكرام ، وقد ذكرنا هذا في [البقرة : 83] .

قوله تعالى : ﴿ إما يبلغن ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر :

"يبلغنَّ" على التوحيد .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : "يبلغانِّ" على التثنية .

قال الفراء : جعلت "يبلغن" فعلاً لأحدهما وكرَّت عليهما "كلاهما" .

ومن قرأ "يبلغانِّ" فإنه ثنَّى ، لأن الوالدين قد ذُكرا قبل هذا ، فصار الفعل على عددهما ، ثم قال : ﴿ أحدهما أو كلاهما ﴾ على الاستئناف ، كقوله : ﴿ فعموا وصموا ﴾ [المائدة : 71] ثم استأنف فقال : ﴿ كثيرٌ منهم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فلا تقل لهما أفٍّ ﴾ قرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "أُفِّ" بالكسر من غير تنوين .

وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، ويعقوب ، والمفضل : "أُفَّ" بالفتح من غير تنوين .

وقرأ نافع ، وحفص عن عاصم : "أُفٍّ" بالكسر والتنوين .

وقرأ أبو الجوزاء ، وابن يعمر : "أُفٌّ" بالرفع والتنوين وتشديد الفاء .

وقرأ معاذ القارىء ، وعاصم ، الجحدري ، وحميد بن قيس : "أَفّاً" مثل "تعساً" .

وقرأ أبو عمران الجوني ، وأبو السماك العدوي : "أُفُّ" بالرفع من غير تنوين مع تشديد الفاء

، وهي رواية الأصمعي عن أبي عمرو.

وقرأ عكرمة، وأبو المتوكل، وأبو رجاء، وأبو الجوزاء: "أُفْ" بإسكان الفاء وتخفيفها؛ قال الأخفش: وهذا لأن بعض العرب يقول: أفْ لك، على الحكاية، والرفع قبيح، لأنه لم يجيء بعده لام.

وقرأ أبو العالية، وأبو حصين الأسدي: "أُفِّي" بتشديد الفاء وبياء.

وروى ابن الأنباري أن بعضهم قرأها: "إِفِ" بكسر الهمزة.

وقال الزجاج: فيها سبع لغات، الكسر بلا تنوين، وبتنوين، والضم بلا تنوين، وبتنوين، والفتح بلا تنوين، وبتنوين، واللغة السابعة لا تجوز في القراءة: "أُفِّي" بالياء، هكذا قال الزجاج.

وقال ابن الأنباري: في "أُفّ" عشرة أوجه.

"أُفَّ" لك، بفتح الفاء، و"أُفِّ" بكسرها، "وأُفٍّ"، و"أُفًّا" لك بالنصب والتنوين على مذهب الدعاء كما تقول: "ويلاً" للكافرين، و"أُفٌّ" لك، بالرفع والتنوين، وهو رفع باللام، كقوله تعالى: ﴿ ويل للمطففين ﴾ [المطففون: 1]، و"أفهٍ" لك، بالخفض والتنوين، تشبيهاً بالأصوات، كقولك: "صهٍ" و"مهٍ"، و"أفهاً" لك، على مذهب الدعاء أيضاً، و"أُفِّي" لك، على الإضافة إلى النفس، و"أُفْ" لك، بسكون الفاء، تشبيهاً بالأدوات، مثل: "كم" و"هل" و"بل"، و"إِفْ" لك، بكسر الألف.

وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي، قال: وتقول: "أُفِ" منه، و"أُفَ"، و"أُفُ"، و"أُفٍ"، و"أُفاً"، و"أفٌ"، و"أُفّي" مضاف، و"أفها"، و"أفاً" بالألف، ولا تقل: "أُفي" بالياء فإنه خطأٌ.

فأما معنى "أف" ففيه خمسة أقوال.

أحدها: أنه وسخ الظفر، قاله الخليل.

والثاني: وسخ الأذن، قاله الأصمعي.

والثالث: قلامة الظفر، قاله ثعلب.

(31/454)

والرابع: أن "الأف" الاحتقار والاستصغار، من "الأَفف"، والأَفف عند العرب: القِلَّة، ذكره ابن الأنباري.

والخامس: أن "الأُفَّ" ما رفعته من الأرض من عود أو قصبة، حكاه ابن فارس اللغوي.

وقرأت على شيخنا أبي منصور قال: معنى "الأف": النَّتَن، والتضجر، وأصلها: نفخك الشيء يسقط عليك من تراب ورماد، وللمكان تريد إِماطة الأذى عنه، فقيلت لكل مستثقَل.

قال المصنف : وأما قولهم : "تُف" ، فقد جعلها قوم بمعنى "أف" ، فروي عن أبي عبيد أنه قال : أصل "الأُفِّ" و"التُفِّ" : الوسخ على الأصابع إذا فتلته .

وحكى ابن الأنباري فرقاً ، فقال : قال اللغويون : أصل "الأُفِّ" في اللغة : وسخ الأذن ، و"التُّفِّ" : وسخ الأظفار ، فاستعملتهما العرب فيما يكره ويستقذر ويُضجر منه .

وحكى الزجاج فرقاً آخر ، فقال : قد قيل : إن "أف" : وسخ الأظفار ، و"التف" : الشيء الحقير ، نحو وسخ الأذن ، أو الشظية تؤخذ من الأرض ، ومعنى "أُف" : النَّتْنُ ، ومعنى الآية : لا تقل لهما كلاماً تتبرَّم فيه بهما إذا كَبِرَا وأسَنَّا ، فينبغي أن تتولَّى من خدمتهما مثل الذي توليا من القيام بشأنك وخدمتك ، ﴿ ولا تنهرهما ﴾ أي : لا تكلمهما ضَجِراً صائحاً في وجوههما .

وقال عطاء بن أبي رباح : لا تنفض يدك عليهما ، يقال : نَهَرْتُهُ أَنْهَرُهُ نَهْراً ، وانتهَرْتُه انتهاراً ، بمعنى واحد .

وقال ابن فارس : نهرتُ الرجُل وانتهرتُه ، مثل : زجرتُه .

قال المفسرون : وإنما نهى عن أذاهما في الكِبَر ، وإن كان منهياً عنه على كلِّ حالة ، لأن حالة الكِبَر يظهر فيها منهما ما يُضجر ويؤذي ، وتكثر خدمتهما .

قوله تعالى : ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ أي : ليِّناً لطيفاً أحسن ما تجد .

وقال سعيد بن المسيّب : قولَ العبد المذنِب للسَّيد الفظّ .

قوله تعالى : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ أي : أَلِنْ لهما جانبك متذللاً لهما من رحمتك إِياهما .

(32/454)

وخفضُ الجَناح قد شرحناه في [الحجر : 88] .

قال عطاء : جناحك : يداك ، فلا ترفعهما على والديك .

والجمهور يضمون الذال من "الذُّلّ" .

وقرأ أبو رزين ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وعاصم الجحدري ، وابن أبي عبلة : بكسر الذال .

قال الفراء : الذِّل : أن تتذلَّل لهما ، من الذِّل ، والذُّل : أن تتذلل ولست بذليل في الخدمة ، والذُّل والذلة : مصدر الذليل ، والذِّل ، بالكسر : مصدر الذَّلول ، مثل الدابة والأرض .

قال ابن الأنباري : من قرأ "الذِّل" ، بكسر الذال ، جعله بمعنى الذُّل ، بضم الذال ، والذي عليه كُبَراء أهل اللغة أن الذُّل من الرجل : الذليل ، والذِّل من الدابة : الذَّلول .

قوله تعالى : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ أي : مثل رحمتهما إِياي في صغري حتى ربياني .

وقد ذهب قوم إلى أن هذا الدعاء المطلق نُسخ منه الدعاء لأهل الشرك بقوله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ [التوبة : 113] ، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، ومقاتل .

قال المصنف : ولا أرى هذا نسخاً عند الفقهاء ، لأنه عامّ دخله التخصيص ، وقد ذَكَرَ قريباً مما قلتُه ابن جرير .

قوله تعالى : ﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم ﴾ أي : بما تُضمرون من الْبِرِّ والعقوق ، فمن بدرت منه بادرة وهو لا يُضمِر العقوق ، غفر له ذلك ، وهو قوله : ﴿ إِن تكونوا صالحين ﴾ أي : طائعين لله ، [وقيل] بارِّين ، وقيل : توّابين ، ﴿ فإنه كان للأوابين غفوراً ﴾ في الأوّاب عشرة أقوال :

أحدها : أنه المسلِم ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنه التواب ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وأبو عبيدة .

وقال ابن قتيبة : هو التائب مُرَّةً بعد مَرَّة .

وقال الزجاج : هو التوّاب المُقْلِع عن جميع ما نهاه الله عنه ، يقال : قد آب يؤوب أَوْباً : إِذا رجع .

والثالث : أنه المسبِّح ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والرابع : أنه المطيع لله تعالى ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والخامس : أنه الذي يَذْكر ذَنْبه في الخلاء ، فيستغفر اللهَ منه ، قاله عُبيد بن عُمير .

والسادس : أنه المُقْبل إلى الله تعالى بقلبه وعمله ، قاله الحسن .

والسابع : المصلِّي ، قاله قتادة .

والثامن : هو الذي يصلِّي بين المغرب والعشاء ، قاله ابن المنكدِر .

والتاسع : الذي يصلِّي صلاة الضُّحى ، قاله عَون العُقيلي .

والعاشر : أنه الذي يُذْنِب سِرّاً ويتوب سِرّاً ، قاله السُّدِّي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(34/454)

وقال القرطبى :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

فيه ست عشرة مسألة :

الأولى ﴿ وقضى ﴾ أي أمر وألزم وأوجب .

قال ابن عباس والحسن وقتادة : وليس هذا قضاء حُكْم بل هو قضاء أمر .

وفي مصحف ابن مسعود "ووصَّى" وهي قراءة أصحابه وقراءة ابن عباس أيضاً وعليّ وغيرهما ، وكذلك عند أُبيّ بن كعب .

قال ابن عباس : إنما هو "ووصى ربك" فالتصقت إحدى الواوين فقرئت "وقضى ربك" إذ لو كان على القضاء ما عصى الله أحد .

وقال الضحاك : تصحفت على قوم "وصى بقضى" حين اختلطت الواو بالصاد وقت كَتْب المصحف .

وذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثلَ قول الضحاك .

وقال عن ميمون بن مهْران أنه قال : إن على قول ابن عباس لنورا ؛ قال الله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدينِ مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابن عباس قال ذلك .

وقال : لو قلنا هذا لطعن الزنادقة في مصحفنا ، ثم قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم القضاء يستعمل في اللغة على وجوه : فالقضاء بمعنى الأمر ؛ كقوله تعالى : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ معناه أمر .

والقضاء بمعنى الخلق ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت :

12] يعني خلقهن .

والقضاء بمعنى الحكم ؛ كقوله تعالى : ﴿ فاقض مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ [طه : 72] يعني احكم ما أنت تحكم .

والقضاء بمعنى الفراغ ؛ كقوله : ﴿ قُضِيَ الأمر الذي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف : 41] أي فُرغ منه ؛ ومنه قوله تعالى ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَّنَاسِكَكُمْ ﴾ [البقرة : 200] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة ﴾ [الجمعة : 10] .

والقضاء بمعنى الإرادة ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 47] .

(35/454)

والقضاء بمعنى العهد ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر ﴾ [القصص : 44] .

فإذا كان القضاء يحتمل هذه المعاني فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصي بقضاء الله ؛ لأنه إن أريد به الأمر فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك ، لأن الله تعالى لم يأمر بها ، فإنه لا يأمر بالفحشاء .

وقال زكريا بن سلام : جاء رجل إلى الحسن فقال إنه طلّق امرأته ثلاثا .

فقال : إنك قد عصيت ربك وبانَتْ منك .

فقال الرجل : قضى الله ذلك علي فقال الحسن وكان فصيحاً : ما قضى الله ذلك ! أي ما أمر الله به ، وقرأ هذه الآية : ﴿ وقضى ربُّكَ ألَّا تعبدوا إلَّا إيَّاهُ ﴾ .

الثانية أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده ، وجعل برّ الوالدين مقروناً بذلك ، كما قَرَن شكرهما بشكره فقال : "وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" .

وقال : ﴿ أَنِ اشكر لي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المصير ﴾ [لقمان : 14] .

وفي صحيح البخاريّ" عن عبد الله قال : سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم أيّ العمل أحبّ إلى الله عز وجل ؟ قال : "الصلاة على وقتها" قال : ثم أيّ ؟ قال : "ثم بِرُّ الوالدين" قال ثم أيّ ؟ قال : "الجهاد في سبيل الله" "

فأخبر صلى الله عليه وسلم أن برّ الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام .

ورتّب ذلك ب "ثُمّ" التي تعطي الترتيب والمهلة .

الثالثة من البِرِّ بهما والإحسانِ إليهما ألاّ يتعرض لسَبّهما ولا يَعقُهُّما ؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف ، وبذلك وردت السنة الثابتة ؛ ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن من الكبائر شَتْمَ الرجلِ والديه قالوا : يا رسول

الله ، وهل يَشْتُم الرجل والديه ؟ قال "نعم .

يسبّ الرجل أُبا الرجل فيَسُبّ أباه ويَسُبُّ أُمّه فيسب أمّه" " .

(36/454)

الرابعة عقوق الوالدين مخالفتهما في أغراضهما الجائزة لهما ؛ كما أن بِرّهما موافقتهما على أغراضهما .

وعلى هذا إذا أمرا أو أحدُهما ولدَهما بأمر وجبت طاعتهما فيه ، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية ، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله ، كذلك إذا كان من قبيل المندوب .

وقد ذهب بعض الناس إلى أن أَمرَهما بالمباح يصيّره في حق الولد مندوباً إليه وأمرُهما بالمندوب يزيده تأكيداً في ندْبيّته .

الخامسة روى الترمذي "عن ابن عمر قال : كانت تحتي امرأة أحبّها ، وكان أبي يكرهها فأمرني أن أطلقها فأَبَيْتُ ، فذكرت ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا عبد الله بن عمر طَلّق امرأتك " قال هذا حديث حسن صحيح .

السادسة روى الصحيح عن أبي هريرة قال : " جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم

فقال: مَن أحقّ الناس بحسن صحابتي؟ قال: "أمُّك" قال: ثم مَن؟ قال: "ثم أمُّك" قال: ثم من؟ قال: "ثم أمك" قال: ثم من؟ قال: "ثم أبوك" " فهذا الحديث يدلّ على أن محبة الأم والشفقةَ عليها ينبغي أن تكون ثلاثةَ أمثال محبة الأب؛ لذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم الأمَّ ثلاث مرات وذِكْرِ الأب في الرابعة فقط.

وإذا توصّل هذا المعنى شهد له العِيان.

وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب؛ فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب.

ورُوِي عن مالك أن رجلاً قال له: إن أبي في بلد السودان، وقد كتب إليّ أن أقدَم عليه، وأمِّي تمنعني من ذلك؛ فقال له: أطع أباك، ولا تَعْص أمك.

فدلّ قول مالك هذا أن برِّهما متساوٍ عنده.

وقد سئل الليث عن هذه المسألة فأمره بطاعة الأم؛ وزعم أن لها ثلثي البر.

وحديث أبي هريرة يدل على أن لها ثلاثة أرباع البر؛ وهو الحجة على من خالف.

وقد زعم المحاسِبِي في (كتاب الرعاية) له أنه لا خلاف بين العلماء أن للأم ثلاثةَ أرباع البر وللأب الربع ؛ على مقتضى حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

والله أعلم .

السابعة لا يختص برّ الوالدين بأن يكونا مسلمين ، بل إن كانا كافِرَين يَبرّهما ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد ؛ قال الله تعالى : ﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ [الممتحنة : 8] .

وفي صحيح البخارِيّ " عن أسماء قالت : قَدِمتْ أمّي وهي مشركة في عهد قريش ومدّتهم إذ عاهدوا النبيّ صلى الله عليه وسلم مع أبيها ، فاستفتيتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت : إن أمّي قَدِمت وهي راغبة أفأصِلُها ؟ قال : نعم صِلِي أمّكِ " وروي أيضاً " عن أسماء قالت : أتتني أميّ راغبة في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم فسألت النبيّ صلى الله عليه وسلم أأصلها ؟ قال : "نعم" " قال ابن عُيينة : فأنزل الله عز وجل فيها : ﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلوكُمْ فِي الدين ﴾ [الممتحنة : 8] الأوّل معلّق والثاني مسند .

الثامنة من الإحسان إليهما والبِرّ بهما إذا لم يتعيّن الجهاد ألاّ يجاهد إلا بإذنهما .

روى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال : " جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد فقال : "أحَيٌّ والداك" ؟ قال نعم .

قال : ففيهما فجاهد " لفظ مسلم .

في غير الصحيح قال : نعم ؛ وتركتهما يبكيان .

قال : " اذهب فأضحكهما كما أبكيتهما " وفي خبر آخر أنه قال : " نومك مع أبويك على فراشهما يضاحكانك ويلاعبانك أفضل لك من الجهاد معي " ذكره ابن خُوَيْز منداد .

(38/454)

ولفظ البخاريّ في كتاب بِرّ الوالدين : أخبرنا أبو نعيم أخبرنا سفيان عن عطاء بن السَّائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال : " جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يبايعه على الهجرة ، وتَرَكَ أبويه يبكيان فقال : ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما " قال ابن المنذر : في هذا الحديث النّهيُ عن الخروج بغير إذن الأبوين ما لم يقع النَّفِير ؛ فإذا وقع وجب الخروج على الجميع .

وذلك بَيِّنٌ في حديث أبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيش الأمراء .

. .

؛ فذكر قصة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وابن رَوَاحة وأن منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى بعد ذلك : أن الصلاة جامعة ؛ فاجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أيها الناس ، اخرجوا فأمِدّوا إخوانكم ولا يتخلفن أحد " فخرج الناس مشاةً

وركبانا في حَرٍّ شديد .

فدلّ قوله " اخرجوا فأمدوا إخوانكم " أن العذر في التخلف عن الجهاد إنما هو ما لم يقع النفير ؛ مع قوله عليه السلام : " فإذا استنفرتم فانْفُروا " قلت : وفي هذه الأحاديث دليل على أن الفروض أو المندوبات متى اجتمعت قُدّم الأهم منها .

وقد استوفى هذا المعنى المحاسبيُّ في كتاب الرعاية .

التاسعة واختلفوا في الوالدين المشركَيْن هل يخرج بإذنهما إذا كان الجهاد من فروض الكفاية ؛ فكان الثَّوْرِيّ يقول : لا يغزو إلا بإذنهما .

وقال الشافعيّ : له أن يغزو بغير إذنهما .

قال ابن المنذر : والأجداد آباء ، والجدّات أمهات فلا يغزو المرء إلا بإذنهم ، ولا أعلم دلالة توجب ذلك لغيرهم من الإخوة وسائر القرابات .

وكان طاوس يرى السّعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله عز وجل .

العاشرة من تمام بِرّهما صِلة أهل وُدّهما ؛ ففي الصحيح عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن من أبَرّ البر صلَة الرجل أهل وُدّ أبيه بعد أن يُوَلِّيَ " "

وروى أبو أسَيد وكان بَدْرِيًّا قال: كنت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم جالساً فجاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر والديّ من بعد موتهما شيء أبَرّهما به؟

قال: نعم.

الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما بعدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما فهذا الذي بقي عليك" وكان صلى الله عليه وسلم يُهدي لصدائق خديجة بِرًّا بها ووفاء لها وهي زوجته، فما ظنّك بالوالدين.

الحادية عشرة قوله تعالى: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ خصّ حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بِرّه لتغيّر الحال عليهما بالضّعف والكبر؛ فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كَلاًّ عليه، فيحتاجان أن يَلِيَ منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يَلِيَا منه؛ فلذلك خصّ هذه الحالة بالذكر.

وأيضاً فطول المكث للمرء يوجب الاستثقال للمرء عادة ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتنتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالّة البنوّة وقلّة الديانة، وأقلّ المكروه ما يظهره بتنفسه المتردّد من الضجر.

وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم عن كل عيب فقال: "فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً".

روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رَغِمَ أَنْفُهُ رغم أنفه رغم أنفه" قيل : مَن يا رسول الله ؟ قال : مَن أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كلَيْهما ثم لم يدخل الجنة " وقال البخاري في كتاب بر الوالدين : حدّثنا مسدّد حدّثنا بشر بن المفضل حدّثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن أبي سعيد المَقْبُرِيّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال :

" رَغِم أنف رجل ذُكرت عنده فلم يصلّ عليّ .

رَغِمَ أنفُ رجل أدرك أبويه عند الكبر أو أحدَهما فلم يدخلاه الجنة .

ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغفر له "

حدّثنا ابن أبي أُوَيْس حدّثني أخي عن سليمان بن بلال عن محمد بن هلال عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عُجْرَةَ السالميّ عن أبيه رضي الله عنه قال : إن كعب بن عُجْرة رضي الله عنه قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أحضروا المنبر فلما خرج رَقِيَ (إلى) المنبر ، فرقي في أوّل درجة منه قال آمين ثم رقي في الثانية فقال آمين ثم لما رقي في الثالثة قال آمين ،

فلما فرغ ونزل من المنبر قلنا : يا رسول الله ، لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه منك ؟ قال : "وسمعتموه" ؟ قلنا نعم .

(41/454)

قال : إن جبريل عليه السلام اعترض قال : بَعُد من أدرك رمضان فلم يغفر له فقلت آمين فلما رَقِيت في الثانية قال بَعُدَ من ذُكرتَ عنده فلم يصل عليك فقلت آمين فلما رقيت في الثالثة قال بَعُدَ من أدرك عنده أبواه الكبرَ أو أحدُهما فلم يُدخلاه الجنة قلت آمين " حدّثنا أبو نعيم حدّثنا سلمة بن وردان سمعت أنساً رضي الله عنه يقول : " ارتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر درجة فقال آمين ثم ارتقى درجة فقال آمين ثم ارتقى الدرجة الثالثة فقال آمين ، ثم استوى وجلس فقال أصحابه : يا رسول الله ، علام أمّنت ؟ قال : أتاني جبريل عليه السلام فقال رَغِم أنف من ذُكرتَ عنده فلم يصلّ عليك فقلت آمين ورغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخل الجنة فقلت آمين " الحديث .

فالسعيد الذي يبادر اغتنام فرصة بِرّهما لئلا تفوته بموتهما فيندم على ذلك .

والشقيّ من عقّهما ، لا سيما من بلغه الأمر ببرّهما .

الثانية عشرة قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ أي لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرّم .

وعن أبي رجاء العُطَارِدِيّ قال : الأُفُّ الكلام القَذَع الرديء الخفيّ .

وقال مجاهد : معناه إذا رأيت منهما في حال الشيَخ الغائطَ والبول الذي رأياه منك في الصغر فلا تَقْذَرَهْهما وتقول أُفّ .

والآية أعمّ من هذا .

والأُفّ والتُّفّ وسخ الأظفار .

ويقال لكل ما يُضجر ويستثقل : أفّ له .

قال الأزهري : والتُّفّ أيضاً الشيء الحقير .

وقرىء "أُفٍّ" منوّناً مخفوضاً ؛ كما تُخفض الأصوات وتُنَوّن ، تقول : صَهٍ ومهٍ .

وفيه عشر لغات : أفَّ ، وأفُّ ، وأفِّ ، وأُفّاً وأُفٍّ ، وأُفٌّ ، وأُفَّهْ ، وإفْ لك (بكسر الهمزة) ، وأُفْ (بضم الهمزة وتسكين الفاء) ، وأُفاً (مخففة الفاء) .

وفي الحديث : " فألقى طرف ثوبه على أنفه ثم قال أف أف " قال أبو بكر : معناه استقذار لما شَمّ .

وقال بعضهم : معنى أف الاحتقار والاستقلال ؛ أُخذ من الأَفَف وهو القليل .

وقال القُتَبِيّ : أصله نفخك الشيء يَسقط عليك من رماد وتراب وغير ذلك ، وللمكان تريد إماطة شيء لتقعد فيه ؛ فقيلت هذه الكلمة لكل مستثقل .

وقال أبو عمرو بن العَلاء : الأفّ وسخ بين الأظفار ، والتُّفّ قُلامتها .

وقال الزجاج : معنى أف النّتْن .

وقال الأصْمَعِيّ : الأف وسخ الأذن ، والتّف وسخ الأظفار ؛ فكثر استعماله حتى ذكر في كل ما يُتأذّى به .

وروي من حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو علم الله من العقوق شيئاً أردأ من "أف" لذكره فليعمل البارّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار .

وليعمل العاقّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة " قال علماؤنا : وإنما صارت قوله "أف" للأبوين أردأ شيء لأنه رفضهما رفض كفر النعمة ، وجحد التربية وردّ الوصية التي أوصاه في التنزيل .

و"أفّ" كلمة مقولة لكل شيء مرفوض ؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه : ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ [الأنبياء : 67] أي رَفْض لكم ولهذه الأصنام معكم .

الثالثة عشرة قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا ﴾ النّهر : الزجر والغِلظة .

﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴾ أي لَيِّنا لطيفاً ، مثل : يا أبتاه ويا أمّاه ، من غير أن يسميهما أو

يُكَنِّيهما ؛ قاله عطاء .

وقال أبو الهدّاج التُّجِيبيّ : قلت لسعيد بن المسيّب كلّ ما في القرآن من برّ الوالدين قد عرفته إلا قول : ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴾ ما هذا القول الكريم ؟ قال ابن المسيّب : قولُ العبد المذنب للسيد الفَظّ الغليظ .

الرابعة عشرة قوله تعالى : ﴿ واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة ﴾ هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلّل الرعية للأمير والعبيد للسادة ؛ كما أشار إليه سعيد بن المسيّب .

وضرب خَفْضَ الجناح ونصبه مثلاً لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده .

والذل : هو اللين .

(43/454)

وقراءة الجمهور بضم الذال ، من ذَلّ يَذِلّ ذُلاًّ وذِلّة ومَذلة فهو ذالّ وذليل .

وقرأ سعيد بن جُبير وابن عباس وعروة بن الزبير "الذِّل" بكسر الذال ، ورُويت عن عاصم ؛ من قولهم : دابّة ذَلول بينة الذِّل .

والذِّل في الدواب المنقاد السهل دون الصعب .

فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذِلة ، في أقواله وسكناته ونظره ، ولا يُحِدّ إليهما بصره فإن تلك هي نظرة الغاضب .

الخامسة عشرة الخطاب في هذه الآية للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته ؛ إذ لم يكن له عليه السلام في ذلك الوقت أبوان .

ولم يذكر الذلّ في قوله تعالى : ﴿ واخفض جنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ [الشعراء : 215] وذكره هنا بحسب عظم الحق وتأكيده .

و"مِن" في قوله : ﴿ مِنَ الرحمة ﴾ لبيان الجنس ، أي إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنّة في النفس ، لا بأن يكون ذلك استعمالاً .

ويصح أن يكون لانتهاء الغاية ، ثم أمر تعالى عباده بالترحّم على آبائهم والدعاء لهم ، وأنْ ترحمهما كما رحماك وتَرْفُق بهما كما رَفَقا بك ؛ إذ وَلِيَاك صغيراً جاهلاً محتاجاً فآثراك على أنفسهما ، وأسهرا ليلهما ، وجاعا وأشبعاك ، وتعرّيا وكَسَوَاك ، فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحدَّ الذي كنت فيه من الصغر ، فتَلِي منهما ما وَلِيَا منك ، ويكون لهما حينئذ فضل التقدّم .

قال صلى الله عليه وسلم : " لا يَجْزِي ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشترِيَه فيُعْتِقه " وسيأتي في سورة "مريم" الكلام على هذا الحديث .

السادسة عشرة قوله تعالى : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي ﴾ خصّ التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة

الأبوين وتعبهما في التربية ، فيزيده ذلك إشفاقاً لهما وحناناً عليهما ، وهذا كله في الأبوين المؤمنين .

وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أولي قُربى ، كما تقدم .

(44/454)

وذُكر عن ابن عباس وقتادة أن هذا كله منسوخ بقوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : 113] إلى قوله أَصْحَابُ الجحِيم" فإذا كان والدا المسلم ذِمّيّين استعمل معهما ما أمره الله به ها هنا ؛ إلا الترحم لهما بعد موتهما على الكفر ؛ لأن هذا وحده نسخ بالآية المذكورة .

وقيل : ليس هذا موضع نسخ ، فهو دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حيّين ، كما تقدم .

أو يكون عموم هذه الآية خُصّ بتلك ، لا رحمة الآخرة ، لا سيما وقد قيل إن قوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارحمهما ﴾ نزلت في سعد بن أبي وَقّاص ، فإنه أسلم ، فألقت أُمُّه نفسها في الرّمْضَاء متجرِّدة ، فذكر ذلك لسعد فقال : لِتَمُت ، فنزلت الآية .

وقيل : الآية خاصة في الدعاء للأبوين المسلمين .

والصواب أن ذلك عموم كما ذكرنا ، وقال ابن عباس قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من أمسى مُرْضِياً لوالدَيْه وأصبح أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة وإن واحداً فواحداً .

ومن أمسى وأصبح مُسْخطاً لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار وإن واحداً فواحداً " فقال رجل : يا رسول الله ، وإن ظلماه ؟ قال : " وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه " وقد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : " جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن أبي أخذ مالي .

(45/454)

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم للرجل : "فأتني بأبيك" فنزل جبريل عليه السلام على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شيء قاله في نفسه ما سمِعته أذناه فلما جاء الشيخ قال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما بال ابنك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله ؟" فقال : سله يا رسول الله ، هل أنفقه إلا على إحدى عمّاته أو خالاته أو على نفسي ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إيهِ ، دعنا من هذا .

أخبرني عن شيء قلتَه في نفسك ما سمِعَتْه أذناك ؟ فقال الشيخ : والله يا رسول الله ، ما زال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا ، لقد قلتُ في نفسي شيئاً ما سمعته أذناي .

قال : "قل وأنا أسمع" قال قلت : "

غَذَوْتُكَ مولودا ومُنْتُك يافِعا . . .

تُعَلّ بما أَجْنِي عليك وتُنْهَلُ

إذا ليلةٌ ضافَتك بالسُّقم لم أَبِتْ . . .

لسُقْمك إلا ساهراً أتململُ

كأني أنا المطروق دونك بالذي . . .

طُرِقتَ به دوني فعَيْنِي تَهْمُلُ

تخاف الرّدَى نفسي عليك وإنها . . .

لتعلم أن الموت وقتٌ مؤجل

فلما بلغتَ السنّ والغايةَ التي . . .

إليها مَدَى ما كنتُ فيك أؤمّلُ

جعلتَ جزائي غِلظة وفظاظة . . .

كأنك أنت المُنْعِمُ المتفضّلُ

فليتَك إذ لم ترْعَ حقّ أبوّتي . . .

فعلتَ كما الجار المُصَاقِب يفعل

فأَوْليتني حقّ الجِوار ولم تكن . . .

عليّ بمال دون مالك تَبْخَلُ

" قال : فحينئذ أخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم بتلابيب ابنه وقال : "أنت ومالك لأبيك"

" قال الطبراني : اللَّخْمِيُّ لا يروى يعني هذا الحديث عن ابن المنكدر بهذا التمام والشعر إلا بهذا الإسناد ؛ وتفرّد به عبيد الله بن خلصة .

والله أعلم .

(46/454)

قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾

أي من اعتقاد الرحمة بهما والحنوّ عليهما ، أو من غير ذلك من العقوق ، أو من جعل ظاهر برّهما رياء .

وقال ابن جُبير : يريد البادرة التي تبذر ، كالفَلْتة والزَّلة ، تكون من الرجل إلى أبويه أو أحدهما ، لا يريد بذلك بأساً ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ ﴾ أي صادقين في نية البرّ بالوالدين فإن الله يغفر البادرة .

وقوله : ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ وعد بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة إلى طاعة الله سبحانه وتعالى .

قال سعيد بن المسيّب : هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : الأوّاب : الحفيظ الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها .

وقال عُبيد بن عُمير : هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء ثم يستغفرون الله عز وجل .

وهذه الأقوال متقاربة .

وقال عَوْن العُقَيْليّ : الأوّابون هم الذين يصلون صلاة الضحا .

وفي الصحيح : " صلاة الأوّابين حين تَرْمَضُ الفِصال " .

وحقيقة اللفظ أنه من آب يؤوب إذا رجع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(47/454)

وقال أبو حيان :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

﴿ أف ﴾ اسم فعل بمعنى أتضجر ولم يأت اسم فعل بمعنى المضارع إلاّ قليلاً نحو : أف

وأوه بمعنى أتوجع ، وكان قياسه أن لا يبنى لأنه لم يقع موقع المبني .

وذكر الزناتي في كتاب الحلل له : إن في أف لغات تقارب الأربعين ونحن نسردها مضبوطة كما رأيناها وهي : أف أفِ أفُ أفَّ أفِّ أفُّ أفا أفّ أفّ أفا أفٍ أفٌ أفٌّ أف أفء أفّي بغير إمالة أفّي بالإمالة المحضة أفي بالإمالة بين بين أفْي أفْو أفْه أفّه أفّه أفه فهذا اثنان وعشرون مع الهمزة المضمومة إفْ أفّ إف إفٍ إفّ إفا إفّ إفٌّ إفُا إفِّي بالإمالة إفْي فهذه إحدى عشرة مع الهمزة المكسورة أفْ أفّ آفّ آفٍّ أفّي .

وذكر ابن عطية أفاه بهاء السكت وهي تمام الأربعين .

النهر الزجر بصياح وإغلاظ .

قال العسكريّ : وأصله الظهور ، ومنه النهر والانتهار ، وأنهر الدم أظهره وأساله ، وانتهر الرجل أظهر له الإهانة بقبح الزجر والطرد .

وقال ابن عطية : الانتهار إظهار الغضب في الصوت واللفظ .

وقال الزمخشري : النهي والنهر والنهم أخوات .

التبذير الإسراف قاله أبو عبيدة يعني في النفقة ، وأصله التفريق ومنه سمي البذر بذراً لأنه يفرق في المزرعة .

وقال الشاعر :

ترائب يستضيء الحلي فيها . . .

كجمر النار بذر بالظلام

ويروى بدد أي فرق .

المحسور قال الفراء : تقول العرب بعير محسور إذا انقطع سيره ، وحسرت الدابة حتى انقطع سيرها ، ويقال حسير فعيل بمعنى مفعول ويجمع على حسرى .

قال الشاعر :

بها جيف الحسرى فأما عظامها . . .

فبيض وأما جلدها فصليب

القسطاس بضم القاف وكسرها وبالسين الأولى والصاد .

قال مؤرج السدوسي : هي الميزان بلغة الروم وتأتي أقوال المفسرين فيه .

المرح شدّة الفرح ، يقال : مرح يمرح مرحاً .

الطول ضد القصر ، ومنه الطول خلاف العرض .

الحجاب ما ستر الشيء عن الوصول إليه .

الرفات قال الفراء : التراب .

وقيل : الذي بولغ في دقه حتى تفتت ، ويقال : رفت الشيء كسره يرفته بالكسر والرفات الأجزاء المتفتتة من كل شيء مكسر ، وفعال بناء لهذا المعنى كالحطام والفتات والرضاض والدقاق .

﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوّابين غفوراً ﴾ .

قرأ الجمهور ﴿ وقضى ﴾ فعلاً ماضياً من القضاء .

وقرأ بعض ولد معاذ بن جبل : وقضاء ربك مصدر ﴿ قضى ﴾ مرفوعاً على الابتداء و ﴿ أن لا تعبدوا ﴾ الخبر .

وفي مصحف ابن مسعود وأصحابه وابن عباس وابن جبير والنخعي وميمون بن مهران من التوصية .

وقرأ بعضهم : وأوصى من الإيصاء ، وينبغي أن يحمل ذلك التفسير لأنها قراءة مخالفة لسواد المصحف والمتواتر هو ﴿ وقضى ﴾ وهو المستفيض عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهم في أسانيد القراء السبعة .

﴿ وقضى ﴾ هنا قال ابن عباس والحسن وقتادة بمعنى أمر .

وقال ابن مسعود وأصحابه : بمعنى وصى .

وقيل : أوجب وألزم وحكم .

وقيل : بمعنى أحكم .

وقال ابن عطية : وأقول أن المعنى ﴿ وقضى ربك ﴾ أمره ﴿ أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ وليس في هذه الألفاظ إلاّ أمر بالاقتصار على عبادة الله ، فذلك هو المقضي لا نفس العبادة ، والمقضي هنا هو الأمر انتهى .

كأنه رام أن يترك قضى على مشهور موضوعها بمعنى قدر ، فجعل متعلقه الأمر بالعبادة لا العبادة لأنه لا يستقيم أن يقضي شيئاً بمعنى أن يقدر إلاّ ويقع ، والذي فهم المفسرون غيره أن متعلق قضى هو ﴿ أن لا تعبدوا ﴾ وسواء كانت ﴿ أن ﴾ تفسيرية أم مصدرية .

وقال أبو البقاء : ويجوز أن تكون في موضع نصب أي ألزم ربك عبادته و ﴿ لا ﴾ زائدة انتهى .

(49/454)

وهذا وهم لدخول ﴿ إلا ﴾ على مفعول ﴿ تعبدوا ﴾ فلزم أن يكون منفياً أو منهياً والخطاب بقوله ﴿ لا تعبدوا ﴾ عامّ للخلق .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون ﴿ قضى ﴾ على مشهورها في الكلام ويكون الضمير في ﴿ تعبدوا ﴾ للمؤمنين من الناس إلى يوم القيامة انتهى .

قال الحوفي : الباء متعلقة بقضى ، ويجوز أن تكون متعلقة بفعل محذوف تقديره وأوصى ﴿ بالوالدين إحساناً ﴾ و﴿ إحساناً ﴾ مصدر أي تحسنوا إحساناً .

وقال ابن عطية : قوله ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ عطف على أن الأولى أي أمر الله ﴿ أن لا تعبدوا إلا أياه ﴾ وأن تحسنوا ﴿ بالوالدين إحساناً ﴾ وعلى هذا الاحتمال الذي ذكرناه يكون قوله : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ مقطوعاً من الأول كأنه أخبرهم بقضاء الله ، ثم أمرهم بالإحسان إلى الوالدين .

وقال الزمخشري : لا يجوز أن تتعلق الباء في ﴿ بالوالدين ﴾ بالإحسان لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته .

وقال الواحدي في البسيط : الباء في قوله ﴿ بالوالدين ﴾ من صلة الإحسان ، وقدمت عليه كما تقول : بزيد فامرر ، انتهى .

وأحسن وأساء يتعدى بإلى وبالباء قال تعالى : ﴿ وقد أحسن بي ﴾ وقال الشاعر :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة . . .

وكأنه تضمن أحسن معنى لطف ، فعدّي بالباء و﴿ إحساناً ﴾ إن كان مصدراً ينحل لأن والفعل فلا يجوز تقديم متعلقه به ، وإن كان بمعنى أحسنوا فيكون بدلاً من اللفظ بالفعل

نحو ضربا زيداً ، فيجوز تقديم معموله عليه ، والذي نختاره أن تكون ﴿ أن ﴾ حرف تفسير و﴿ لا تعبدوا ﴾ نهي و﴿ إحساناً ﴾ مصدر بمعنى الأمر عطف ما معناه أمر على نهي كما عطف في :

يقولون لا تهلك أسى وتجملِ . . .

(50/454)

وقد اعتنى بالأمر بالإحسان إلى الوالدين حيث قرن بقوله : ﴿ لا تعبدوا ﴾ وتقديمهما اعتناء بهما على قوله : ﴿ إحساناً ﴾ ومناسبة اقتران برّ الوالدين بإفراد الله بالعبادة من حيث إنه تعالى هو الموجد حقيقة ، والوالدان وساطة في إنشائه ، وهو تعالى المنعم بإيجاده ورزقه ، وهما ساعيان في مصالحه .

وقال الزمخشري : ﴿ إما ﴾ هي الشرطية زيدت عليها ما توكيداً لها ، ولذلك دخلت النون المؤكدة في الفعل ، ولو أفردت لم يصح دخولها لا تقول أن تكرمنّ زيداً يكرمك ، ولكن إما تكرمنّه انتهى .

وهذا الذي ذكره مخالف لمذهب سيبويه لأن مذهبه أنه يجوز أن يجمع بين إما ونون التوكيد ، وأن يأتي بأن وحدها ونون التوكيد ، وأن يأتي بإما وحدها دون نون التوكيد .

وقال سيبويه في هذه المسألة : وإن شئت لم تقحم النون كما أنك إن شئت لم تجيء بما يعني مع النون وعدمها ، وعندك ظرف معمول ليبلغن ، ومعنى العندية هنا أنهما يكونان عنده في بيته وفي كنفه لا كافل لهما غيره لكبرهما وعجزهما ، ولكونهما كلاًّ عليه وأحدهما فاعل ﴿ يبلغن ﴾ و ﴿ أو كلاهما ﴾ معطوف على ﴿ أحدهما ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ يبلغن ﴾ بنون التوكيد الشديدة والفعل مسند إلى ﴿ أحدهما ﴾ .

وروي عن ابن ذكوان بالنون الخفيفة .

وقرأ الأخوان : إما يبلغان بألف التثنية ونون التوكيد المشدّدة وهي قراءة السلمي وابن وثاب وطلحة والأعمش والجحدري .

فقيل الألف علامة تثنية لا ضمير على لغة أكلوني البراغيث ، وأحدهما فاعل و ﴿ أو كلاهما ﴾ عطف عليه ، وهذا لا يجوز لأن شرط الفاعل في الفعل الذي لحقته علامة التثنية أن يكون مسند المثنى أو معرف بالعطف بالواو ، ونحو قاما أخواك أو قاما زيد وعمرو على خلاف في هذا الأخير هل يجوز أو لا يجوز ، والصحيح جوازه و ﴿ أحدهما ﴾ ليس مثنى ولا هو معرف بالعطف بالواو مع مفرد .

وقيل : الألف ضمير الوالدين و ﴿ أحدهما ﴾ بدل من الضمير و ﴿ كلاهما ﴾ عطف على ﴿ أحدهما ﴾ والمعطوف على البدل بدل .

وقال الزمخشري .

فإن قلت : لو قيل إما يبلغان ﴿ كلاهما ﴾ كان ﴿ كلاهما ﴾ توكيداً لا بدلاً ، فما لك زعمت أنه بدل ؟ قلت : لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيداً للاثنين فانتظم في حكمه فوجب أن يكون مثله .

فإن قلت : ما ضرك لو جعلته توكيداً مع كون المعطوف عليه بدلاً وعطفت التوكيد على البدل ؟ قلت : لو أريد توكيد التثنية لقيل ﴿ كلاهما ﴾ فحسب فلما قيل ﴿ أحدهما أو كلاهما ﴾ علم أن التوكيد غير مراد فكان بدلاً مثل الأول .

وقال ابن عطية : وعلى هذه القراءة الثالثة يعني يبلغانّ يكون قوله ﴿ أحدهما ﴾ بدلاً من الضمير في يبلغان وهو بدل مقسم كقول الشاعر :

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة . . .

وأخرى رمى فيها الزمان فشُلَّتِ

انتهى .

ويلزم من قوله أن يكون ﴿ كلاهما ﴾ معطوفاً على ﴿ أحدهما ﴾ وهو بدل ، والمعطوف على البدل بدل ، والبدل مشكل لأنه يلزم منه أن يكون المعطوف عليه بدلاً ، وإذا جعلت ﴿ أحدهما ﴾ بدلاً من الضمير فلا يكون إلاّ بدل بعض من كل ، وإذا عطفت عليه ﴿

كلاهما ﴾ فلا جائز أن يكون بدل بعض من كل ، لأن ﴿ كلاهما ﴾ مرادف للضمير من حيث التثنية ، فلا يكون بدل بعض من كل ، ولا جائز أن يكون بدل كل من كل لأن المستفاد من الضمير التثنية وهو المستفاد من ﴿ كلاهما ﴾ فلم يفد البدل زيادة على المبدل منه .

وأما قول ابن عطية وهو بدل مقسم كقول الشاعر : وكنت كذي رجلين .

البيت .

فليس من بدل التقسيم لأن شرط ذلك العطف بالواو ، وأيضاً فالبدل المقسم لا يصدق المبدل فيه على أحد قسميه ، و ﴿ كلاهما ﴾ يصدق عليه الضمير وهو المبدل منه ، فليس من المقسم .

ونقل عن أبي علي أن ﴿ كلاهما ﴾ توكيد وهذا لا يتم إلاّ بأن يعرب ﴿ أحدهما ﴾ بدل بعض من كل ، ويضمر بعده فعل رافع الضمير ، ويكون ﴿ كلاهما ﴾ توكيداً لذلك الضمير ، والتقدير أو يبلغا ﴿ كلاهما ﴾ وفيه حذف المؤكد .

(52/454)

وقد أجازه سيبويه والخليل قال : مررت بزيد وإياي أخوه أنفسهما بالرفع والنصب ، الرفع على تقديرهما صاحباي أنفسهما ، والنصف على تقدير أعينهما أنفسهما ، إلاّ أن المنقول

عن أبي علي وابن جنيّ والأخفش قبلهما أنه لا يجوز حذف المؤكد وإقامة المؤكد مقامه ، والذي نختاره أن يكون ﴿ أحدهما ﴾ بدلاً من الضمير و﴿ كلاهما ﴾ مرفوع بفعل محذوف تقديره أو يبلغ ﴿ كلاهما ﴾ فيكون من عطف الجمل لا من عطف المفردات ، وصار المعنى أن يبلغ أحد الوالدين أو يبلغ ﴿ كلاهما ﴾ ﴿ عندك الكبر ﴾ .

وجواب الشرط ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ وتقدم مدلول لفظ أف في المفردات واللغات التي فيها ، وإذا كان قد نهى أن يستقبلهما بهذه اللفظة الدالة على الضجر والتبرم بهما فالنهي عما هو أشدّ كالشتم والضرب هو بجهة الأولى ، وليست دلالة أف على أنواع الإيذاء دلالة لفظية خلافاً لمن ذهب إلى ذلك .

وقال ابن عباس : ﴿ أف ﴾ كلمة كراهة بالغ تعالى في الوصية بالوالدين ، واستعمال وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال حتى لا تقول لهما عند الضجر هذه الكلمة فضلاً عما يزيد عليها .

قال القرطبي : قال علماؤنا : وإنما صار قول ﴿ أف ﴾ للوالدين أردأ شيء لأن رفضهما رفض كفر النعمة ، وجحد التربية ، وردّ وصية الله .

و﴿ أف ﴾ كلمة منقولة لكل شيء مرفوض ولذلك قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾ أي رفض لكم ولهذه الأصنام معكم انتهى .

وقرأ الحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة وعيسى ونافع وحفص ﴿ أف ﴾ بالكسر

والتشديد مع التنوين .

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر كذلك بغير تنوين .

وقرأ ابن كثير وابن عامر بفتحها مشدّدة من غير تنوين .

وحكى هارون قراءة بالرفع والتنوين .

وقرأ أبو السمال ﴿ أف ﴾ بضم الفاء من غير تنوين .

وقرأ زيد بن عليّ أفاً بالنصب والتشديد والتنوين .

وقرأ ابن عباس ﴿ أف ﴾ خفيفة فهذه سبع قراءات من اللغات التي حكيت في ﴿ أف ﴾ .

(53/454)

وقال مجاهد : إن معناه إذا رأيت منهما في حال الشيخ الغائط والبول اللذين رأيا منك في حال الصغر فلا تقذِّرهما وتقول ﴿ أف ﴾ انتهى .

والآية أعم من ذلك .

ولما نهاه تعالى أن يقول لهما ما مدلوله أتضجر منكما ارتقى إلى النهي عما هو من حيث الوضع أشد من ﴿ أف ﴾ وهو نهرهما ، وإن كان النهي عن نهرهما يدل عليه النهي عن

قول ﴿ أف ﴾ لأنه إذا نهى عن الأدنى كان ذلك نهياً عن الأعلى بجهة الأولى ، والمعنى ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك ﴿ وقل لهما ﴾ بدل قول أف ونهرهما ﴿ قولاً كريماً ﴾ أي جامعاً للمحاسن من البر وجودة اللفظ .

قال ابن المسيب : قول العبد المذنب للسيد اللفظ .

وقيل : ﴿ قولاً كريماً ﴾ أي جميلاً كما يقتضيه حسن الأدب .

وقال عمر : أن تقول يا أبتاه يا أمّاه انتهى .

كما خاطب إبراهيم لأبيه يا أبت مع كفره ، ولا تدعوهما بأسمائهما لأنه من الجفاء وسوء الأدب ولا بأس به في غير وجهه كما قالت عائشة نحلني أبو بكر كذا .

ولما نهاه تعالى عن القول المؤذي وكان لا يستلزم ذلك الأمر بالقول الطيب أمره تعالى بأن يقول لهما القول الطيب السار الحسن ، وأن يكون قوله دالاً على التعظيم لهما والتبجيل .

وقال عطاء : تتكلم معهما بشرط أن لا ترفع إليهما بصرك ولا تشد إليهما نظرك لأن ذلك ينافي القول الكريم .

وقال الزجاج قولاً سهلاً سلساً لا شراسة فيه ، ثم أمره تعالى بالمبالغة في التواضع معهما بقوله : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ .

وقال القفال في تقريره وجهان .

أحدهما : أن الطائر إذا ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه ، فخفض الجناح كناية عن

حسن التدبير وكأنه قيل للولد اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك.

الثاني: أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه، وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه فصار خفض الجناح كناية عن فعل التواضع من هذا الوجه.

وقال ابن عطية: استعارة أي اقطعهما جانب الذل منك ودمث لهما نفسك وخلقك، وبولغ بذكر الذل هنا ولم يذكر في قوله: ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ وذلك بسبب عظم الحق انتهى.

وبسبب شرف المأمور فإنه لا يناسب نسبة الذل إليه.

وقال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى ﴿ جناح الذل ﴾؟ قلت: فيه وجهان.

أحدهما: أن يكون المعنى واخفض لهما جناحك كما قال: ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ فاضافه إلى الذل أو الذل كما أضيف حاتم إلى الجود على معنى واخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول.

والثاني: أن يجعل لذله أو لذله جناحاً خفيضاً كما جعل لبيد للشمال يداً، وللقرة زماناً

مبالغة في التذلل والتواضع لهما انتهى .

والمعنى أنه جعل اللين ذلاً واستعار له جناحاً ثم رشح هذا المجاز بأن أمر بخفضه .

وحكي أن أبا تمام لما نظم قوله :

لا تسقني ماء الملام فإنني . . .

صب قد استعذبت ماء بكائيا

جاءه رجل بقصعة وقال له اعطني شيئاً من ماء الملام ، فقال له : حتى تأتيني بريشة من جناح الذل .

وجناحا الإنسان جانباه ، فالمعنى واخفض لهما جانبك ولا ترفعه فعل المتكبر عليهما .

وقال بعض المتأخرين فأحسن :

أراشوا جناحي ثم بلوه بالندى . . .

فلم أستطع من أرضهم طيرانا

وقرأ الجمهور ﴿ من الذل ﴾ بضم الذال .

وقرأ ابن عباس وعروة بن جبير والجحدري وابن وثاب بكسر الذال وذلك على الاستعارة في الناس لأن ذلك يستعمل في الدواب في ضد الصعوبة ، كما أن الذل بالضم في ضد الغير من الناس ، ومن الظاهر أنها للسبب أي الحامل لك على خفض الجناح هو رحمتك لهما إذ صارا مفتقرين لك حالة الكبر كما كنت مفتقراً إليهما حالة الصغر .

قال أبو البقاء : ﴿ من الرحمة ﴾ أي من أجل الرحمة ، أي من أجل رفقك بهما فمن متعلقة باخفض ، ويجوز أن يكون حالاً من جناح .

(55/454)

وقال ابن عطية : من الرحمة هنا لبيان الجنس أي إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة في النفس لا بأن يكون ذلك استعمالاً ، ويصح أن يكون ذلك لابتداء الغاية انتهى .

ثم أمره تعالى بأن يدعو الله بأن يرحمهما رحمته الباقية إذ رحمته عليهما لا بقاء لها .

ثم نبَّه على العلة الموجبة للإحسان إليهما والبر بهما واسترحام الله لهما وهي تربيتهما له صغيراً ، وتلك الحالة مما تزيده إشفاقاً ورحمة لهما إذ هي تذكير لحالة إحسانهما إليه وقت أن لا يقدر على الإحسان لنفسه .

وقال قتادة : نسخ الله من هذه الآية هذا اللفظ يعني ﴿ وقل ربِّ ارحمهما ﴾ بقوله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ وقيل : هي مخصوصة في حق المشركين .

وقيل لا نسخ ولا تخصيص لأن له أن يدعو الله لوالديه الكافرين بالهداية والإرشاد وأن يطلب الرحمة لهما بعد حصول الإيمان ، والظاهر أن الكاف في ﴿ كما ﴾ للتعليل أي ﴿

رب ارحمهما ﴾ لتربيتهما لي وجزاء على إحسانهما إليّ حالة الصغر والافتقار .

وقال الحوفي : الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف تقديره رحمة مثل تربيتي صغيراً .

وقال أبو البقاء : ﴿ كما ﴾ نعت لمصدر محذوف أي رحمة مثل رحمتهما .

وسرد الزمخشري وغيره أحاديث وآثاراً كثيرة في بر الوالدين يوقف عليها في كتبهم .

ولما نهى تعالى عن عبادة غيره وأمر بالإحسان إلى الوالدين ولا سيما عند الكبر وكان الإنسان ربما تظاهر بعبادة وإحسان إلى والديه دون عقد ضمير على ذلك رياء وسمعة ، أخبر تعالى أنه أعلم بما انطوت عليه الضمائر من دون قصد عبادة الله والبر بالوالدين .

ثم قال : ﴿ إن تكونوا صالحين ﴾ أي ذوي صلاح ثم فرط منكم تقصير في عبادة أو بر وأبتم إلى الخير فإنه غفور لما فرط من هِناتكم .

والظاهر أن هذا عام لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها ، ويندرج فيه من جنى على أبويه ثم تاب من جنايته .

وقال ابن جبير : هي في المبارزة تكون من الرجل إلى أبيه لا يريد بذلك إلاّ الخير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وقضى ربُّكَ ﴾

أي أمر أمراً مُبْرماً ، وقرىء وأوصى ربُّك "ووصّى ربك" ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ ﴾ أي بأن لا تعبدوا ﴿ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ على أنّ "أنْ" مصدريةٌ ولا نافيةٌ أو أي لا تعبدوا على أنها مفسرةٌ ولا ناهيةٌ لأن العبادة غايةُ التعظيمِ فلا تحِقُّ إلا لمن له غايةُ العظمة ونهايةُ الإنعام وهو كالتفصيل للسعي للآخرة ﴿ وبالوالدين ﴾ أي وبأن تُحسِنوا بهما أو وأحسنوا بهما ﴿ إحسانا ﴾ لأنهما السببُ الظاهرُ للوجود والتعيش ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ إما مركبةٌ من إن الشرطية وما المزيدةِ لتأكيدها ولذلك دخل الفعلَ نونُ التأكيد ، ومعنى عندك في كنفك وكفالتك وتقديمُه على المفعول مع أن حقه التأخرُ عنه للتشويق إلى وروده فإن مدارَ تضاعف الرعايةِ الإحسانُ وأحدُهما فاعل للفعل وتأخيره عن الظرف والمفعولِ لئلا يطولَ الكلامُ به وبما عُطف عليه . وقرىء يبلغان فأحدُهما بدلٌ من ضمير التثنية وكلاهما عطفٌ عليه ولا سبيل إلى جعل (كلاهما) تأكيداً للضمير ، وتوحيدُ ضمير الخطاب في عندك وفيما بعده مع أن ما سبق على الجمع للاحتراز عن التباس المرادِ فإن المقصودَ نهيُ كلِ أحد عن تأفيف والديه ونهرِهما ، ولو قوبل الجمعُ بالجمع أو بالتثنية لم يحصل هذا المرام ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَا ﴾ أي لواحد منهما حالتي الانفراد والاجتماع ﴿ أُفّ

﴾ وهو صوتٌ ينبىء عن تضجر ، أو اسمُ فعلٍ هو أتضجر ، وقرىء بالكسر بلا تنوين وبالفتح والضم منوناً وغيرَ مُنوّن أي لا تتضجرْ بهما تستقذرُ منهما وتستثقل من مُؤَنهما وبهذا النهي يُفهم النهيُ عن سائر ما يؤذيهما بدلالة النصّ ، وقد خُص بالذكر بعضُه إظهاراً للاعتناء بشأنه فقيل : ﴿ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا ﴾ أي لا تزجُرهما عما لا يعجبك بإغلاظ ، قيل : النهيُ والنهرُ والنهْمُ أخواتٌ ﴿ وَقُل لَّهُمَا ﴾ بدلَ التأفيف والنهر ﴿ قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ ذا كرمٍ أو هو وصفٌ له بوصف صاحبِه أي قولاً

(57/454)

صادراً عن كرم ولطفٍ ، وهو القولُ الجميلُ الذي يقتضيه حسنُ الأدب ويستدعيه النزولُ على المروءة مثلُ أن يقول : يا أباه ويا أماه ، كدأب إبراهيمَ عليه السلام إذ قال لأبيه : يا أبتِ مع ما به من الكفر ، ولا يدعوهما بأسمائهما فإنه من الجفاء وسوءِ الأدب وديدنُ الدُعّار . وسئل الفضيلُ بنُ عياض عن بر الوالدين فقال : أن لا تقوم إلى خدمتهما عن كسل ، وقيل : أن لا ترفعَ صوتَك عليهما ولا تنظُرَ إليهما شزْراً ولا يَرَيا منك مخالفةً في ظاهر ولا باطن وأن تترحّم عليهما ما عاشا وتدعوَ لهما إذا ماتا وتقومَ بخدمة أودّائهما من بعدهما ، فعن النبي عليه الصلاة والسلام : " إنّ مِنْ أَبرّ البرِ أنْ يصلَ الرجلُ أهلَ ودِّ أبيه " .

﴿ واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل ﴾ عبارةٌ عن الإنة الجانبِ والتواضعِ والتذلل لهما ، فإن إعزازَهما لا يكون إلا بذلك فكأنه قيل : واخفض لهما جناحَ الذليل أو جُعل لذله جَناحٌ كما جَعل لبيدٌ في قوله

وغداةِ ريحٍ قد كشفْت وقَرّة . . . إذ أصبحت بيد الشمالِ زمامُها

(58/454)

للقَرة زماماً وللشمال يداً تشبيهاً له بطائر يخفض جناحَه لأفراخه تربيةً لها وشفقةً عليها ، وأما جعلُ خفض الجناحِ عبارةً عن ترك الطيران كما فعله القفالُ فلا يناسب المقام ﴿ مِنَ الرحمة ﴾ من فرْط رحمتِك وعطفِك عليهما ورِقّتك لافتقارهما اليوم إلى مَنْ كان أفقرَ خلق الله تعالى إليهما ولا تكتفِ برحمتك الفانية بل ادعُ الله لهما برحمته الواسعة الباقية ﴿ وَقُل رَّبّ ارحمهما ﴾ برحمتك الدنيوية والأخرويةِ التي من جملتها الهدايةُ إلى الإسلام فلا ينافي ذلك كفرَهما ﴿ كَمَا رَبَّيَانِى ﴾ الكاف في محل النصب على أنه نعتٌ لمصدر محذوف أي رحمةً مثلَ تربيتهما لي أو مثل رحمتهما لي على أن التربيةَ رحمةٌ ويجوز أن يكون لهما الرحمةُ والتربية معاً وقد ذُكر أحدُهما في أحد الجانبين والآخرُ كما يلوح به التعرّضُ لعنوان الربوبيةِ في مطلع الدعاء كأنه قيل : رب ارحمهما وربِّهما كما رحِماني وربّياني ﴿ صَغِيرًا ﴾

ويجوز أن تكون الكافُ للتعليل أي لأجل تربيتهما لي كقوله تعالى : ﴿ واذكروه كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ ولقد بالغ عز وجل في التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفَع الإحسانَ إليهما بتوحيده سبحانه ونظمَهما في سلك القضاءِ بهما معاً ثم ضيّق الأمرَ في باب مراعاتهما حتى لم يرخّصْ في أدنى كلمةٍ تنْفلت من المتضجر مع ما له من موجبات الضجر ما لا يكاد يدخل تحت الحصر ، وختمَها بأن جعل رحمتَه التي وسعت كلَّ شيء مُشْبَهةٌ بتربيتهما . وعن النبي عليه الصلاة والسلام : " رِضى الله في رضى الوالدين وسخطُه في سخطهما " وروي (يفعل البارُّ ما يشاء أن يفعل فلن يدخُل النارَ ويفعل العاقُّ ما يشاء أن يفعل فلن يدخُل الجنة) وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبويَّ بلغا من الكِبَر أني أَلي منهما ما وَلِيا مني في الصغر فهل قضيتُهما حقهما ؟ قال : " لا فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يُحبّان بقاءَك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما " وروي أن شيخاً

أتى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : إن ابني هذا له مال كثير وإنه لا ينفق عليَّ من ماله ، فنزل جبريلُ عليه السلام وقال : إن هذا الشيخَ قد أنشأ في ابنه أبياتاً ما قُرِعَ سمعٌ بمثلها فاستنشَدَها الشيخَ فقال

غذوتك مولوداً ومُنْتك يافعا . . . تَعُلُّ بما أَجني عليك وتنهل

إذا ليلةٌ ضافتْك بالسُّقم لم أبت . . . لسُقمك إلا باكياً أتململ

كأني أنا المطروقُ دونك بالذي . . . طُرِقَتْ به دوني وعينَي تهمُل

فلما بلغتَ السنَّ والغايةَ التي . . . إليها مدى ما كنتُ فيك أؤمل

جعلتَ جزائي غِلظةً وفظاظة . . . كأنك أنت المنعمُ المتفضّل

فليتك إذْ لم ترْعَ حقَّ أُبوتي . . . فعلتَ كما الجارُ المجاورُ يفعل

فغضب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال : " أنتَ ومالُكَ لأبيك " .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ﴾

من البر والعقوق ﴿ إِن تَكُونُواْ صالحين ﴾ قاصدين للصلاح والبِرِّ دون العقوقِ والفساد

﴿ فَإِنَّهُ ﴾ تعالى ﴿ كَانَ لِلأَوَّابِينَ ﴾ أي الرجّاعين إليه تعالى عما فرَط منهم مما لا يكاد

يخلو عنه البشر ﴿ غَفُوراً ﴾ لما وقع منهم من نوعِ تقصير أو أذيةٍ فعليةٍ أو قولية ، وفيه ما لا

يخفى من التشديد في الأمر بمراعاة حقوقِهما ، ويجوز أن يكون عاماً لكل تائب ويدخُل فيه

الجاني على أبويه دخولاً أولياً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(60/454)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ ﴾

أخرج ابن جرير .

وابن المنذر من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال : أي أمر ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ أي بأن لا تعبدوا الخ على أن مصدرية والجار قبلها مقدر ولا نافية والمراد النهي ، ويجوز أن تكون ناهية كما مر ولا ينافيه التأويل بالمصدر كما أسلفناه أو أي لا تعبدوا الخ على أن أن مفسرة لتقدم ما تضمن معنى القوى دون حروفه ولا ناهية لا غير ، وجوز بعضهم أن تكون أن مخففة واسمها ضمير شأن محذوف ولا ناهية أيضاً وهو كما ترى وجوز أبو البقاء أن تكون أن مصدرية ولا زائدة والمعنى الزم ربك عبادته وفيه أن الاستثناء يأبى ذلك .

وفي "الكشاف" تفسير قضى بأمر أمراً مقطوعاً به وجعل ذلك غير واحد من باب التضمين وجعل المضمن أصلاً والمتضمن قيداً وقال بعضهم : أراد أن القضاء مجاز عن الأمر المبتوت الذي لا يحتمل النسخ ولو كان ذلك من التضمين لكان متعلق القضاء الأمر دون المأمور به وإلا لزم أن لا يعبد أحد غير الله تعالى فيحتاج إلى تخصيص الخطاب بالمؤمنين فيرد عليه بأن جميع أوامر الله تعالى بقضائه فلا وجه للتخصيص .

وتعقب بأن ما ذكر متوجه لو أريد بالقضاء أخو القدر أما لو أريد به معناه اللغوي الذي هو

البت والقطع المشار إليه فلا يرد ما ذكره، ثم إن لزوم أن لا يعبد أحد غير الله تعالى ادعاه ابن عباس فيما يروى للقضاء من غير تفصيل، فقد أخرج أبو عبيد.

وابن منيع، وابن المنذر.

وابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال: أنزل الله تعالى هذا الحرف على لسان نبيكم ﴿ ووصى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إياه ﴾ فلصقت إحدى الواوين بالصاد فقرأ الناس ﴿ وقضى رَبُّكَ ﴾ ولو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد،

وأخرج مثل ذلك عنه جماعة من طريق سعيد بن جبير.

وابن أبي حاتم من طريق الضحاك ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود.

(61/454)

وأبي بن كعب رضي الله تعالى عنهما أيضاً وهذا إن صح عجيب من ابن عباس لاندفاع المحذور بحمل القضاء على الأمر ولا أقل كما هو مروي عنه أيضاً نعم قيل إن ذلك معنى مجازي للقضاء وقيل إنه حقيقي.

وفي مفردات الراغب القضاء فصل الأمر قولاً كان أو فعلاً وكل منهما إلهي وبشري فمن القول الإلهي قوله تعالى: ﴿ وقضى رَبُّكَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إياه ﴾ أي أمر ربك إلى آخر ما

قال ، ثم إن هذا الأمر عند البعض بمعنى مطلق الطلب ليتناول طلب ترك العبادة لغيره تعالى ، ويغني عن هذا التجوز كما قيل إن معنى لا تعبدوا غيره اعبدوه وحده فهو أمر باعتبار لازمه ، وإنما اختير ذلك للإشارة إلى أن التخلية بترك ما سواه مقدمة مهمة هنا ، وأمر سبحانه أن لا يعبدوا غيره تعالى لأن العبادة غاية التعظيم وهي لا تليق إلا لمن كان في غاية العظمة منعماً بالنعم العظام وما غير الله تعالى كذلك ، وهذا وما عطف عليه من الأعمال الحسنة كالتفصيل للسعي للآخرة .

﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ أي وبأن تحسنوا بهما أو أحسنوا بهما إحساناً ، ولعله إذا نظر إلى توحيد الخطاب فيما بعد قدر وأحسن بالتوحيد أيضاً ، والجار والمجرور متعلق بالفعل المقدر وهو الذي ذهب إليه الزمخشري ومنع تعلقه بالمصدر لأن صلته لا تتقدم عليه ، وعلقه الواحدي به فقال الحلبي : إن كان المصدر منحلاً بأن والفعل فالوجه ما ذهب إليه الزمخشري وإن جعل نائباً عن الفعل المحذوف فالوجه ما قاله الواحدي ، ومذهب الكثير من النحاة جواز تقديم معموله إذا كان ظرفاً مطلقاً لتوسعهم فيه والجار والمجرور أخوه .

﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ إما مركبة من إن الشرطية وما المزيدة لتأكيدها .

قال الزمخشري : ولذا صح لحوق النون المؤكدة للفعل ولو أفردت إن لم يصح لحوقها واختلف

في لحاقها بعد الزيادة فقال أبو إسحاق بوجوبه ، وعن سيبويه القول بعدم الوجوب ويستشهد له بقول أبي حية النميري :

(62/454)

فأما ترى لمتي هكذا . . .

فقد أدرك الفتيات الخفارا

وعليه قول ابن دريد :

أما ترى رأسي حاكي لونه . . .

طرة صبح تحت أذيال الدجى

ومعنى ﴿ عِندَكَ ﴾ في كنفك وكفالتك ، وتقديمه على المفعول مع أن حقه التأخير عنه للتشويق إلى وروده فإنه مدار تضاعف الرعاية والإحسان ، و﴿ أَحَدُهُمَا ﴾ فاعل للفعل ، وتأخيره عن الظرف والمفعول لئلا يطول الكلام به وبما عطف عليه و﴿ كِلاَهُمَا ﴾ معطوف عليه .

وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ أَمَّا ﴾ فأحدهما على ما في "الكشاف" بدل من ألف الضمير لا فاعل

والألف علامة التثنية على لغة أكلوني البرغيث فإنه رد بأن ذلك مشروط بأن يسند الفعل للمثنى نحو قاما أخواك أو لمفرق بالعطف بالواو خاصة على خلاف فيه نحو قاما زيد وعمرو وما هنا ليس كذلك .

واستشكلت البدلية بأن ﴿ رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا ﴾ على ذلك بدل بعض من كل لأكل من كل لأنه ليس عينه و﴿ كِلاَهُمَا ﴾ معطوف عليه فيكون بدل كل من كل لكنه خال عن الفائدة على أن عطف بدل الكل على غيره مما لم نجده .

وأجيب بأنا نسلم أنه لم يفد البدل زيادة على المبدل منه لكنه لا يضر لأنه شأن التأكيد ولو سلم أنه لا بد من ذلك ففيه فائدة لأنه بدل مقسم كما قاله ابن عطية فهو كقوله :

فكنت كذي رجلين رجل صحيحة . . .

وأخرى رمى فيها الزمان فشلت

وتعقب بأنه ليس من البدل المذكور لأنه شرطه العفط بالواو وأن لا يصدق المبدل منه على أحد قسميه وهنا قد صدق على أحهدما ، وبالجملة هذا الوجه لا يخلو عن القيل والقال ، وعن أبي علي الفارسي أن ﴿ أَحَدُهُمَا ﴾ بدل من ضمير التثنية و﴿ كِلاَهُمَا ﴾ تأكيد

للضمير ، وتعقب بأن التأكيد لا يعطف على البدل كما لا يعطف على غيره وبأن أحدهما لا يصلح تأكيداً للمثنى ولا غيره فكذا ما عطف عليه وبأن بين إبدال بدل البعض منه وتوكيده تدافعاً لأن التأكيد يدفع إرادة البعض منه ، ومن هنا قال في "الدر المصون" لا بد من إصلاحه بأن يجعل أحدهما بدل بعض من كل ويضمر بعده فعل رافع لضمير تثنية و ﴿ كِلاَهُمَا ﴾ توكيد له والتقدير أو يبلغان كلاهما وهو من عطف الجمل حينئذ لكن فيه حذف المؤكد وأبقاء تأكيده وقد منعه بعض النحاة وفيه كلام في مفصلات العربية ، ولعل المختار إضمار فعل لم يتصل به ضمير التثنية وجعل ﴿ كِلاَهُمَا ﴾ فاعلاً له فإنه سالم عما سمعت في غيره ولذا اختاره في البحر ، وتوحيد ضمير الخطاب في ﴿ عِندَكَ ﴾ وفيما بعده مع أن ما صرح به فيما سبق على الجمع للاحتراز عن التباس المراد وهو نهي كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما فإنه لو قوبل الجمع بالجمع أو التثنية بالتثنية لم يحصل ذلك ، وذكر أنه وحد الخطاب في ﴿ لاَ تَجْعَلْ ﴾ [الإسراء : 22] للمبالغة وجمع في ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِياه ﴾ لأنه أوفق لتعظيم أمر القضاء ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَا ﴾ أي لواحد منهما حخالتي الانفراد والاجتماع ﴿ أُفّ ﴾ هو اسم صوت ينبىء عن التضجر أو اسم فعل هو أتضجر واسم الفعل بمعنى المضارع وكذا بمعنى الماضي قليل والكثير بمعنى الأمر وفيه نحو من أربعين لغة والوارد من ذلك في القراآت سبع ثلاث متواترة وأربع شاذة .

فقرأ نافع .

وحفص بالكسر والتنوين وهو للتنكير فالمعنى أتضجر تضجرا ما وإذا لم ينون دل على تضجر مخصوص .

وقرأ ابن كثير .

(64/454)

وابن عامر بالفتح دون تنوين ، والباقون بالكسر دون تنوين وهو على أصل التقاء الساكنين والفتح للخفة ولا خلاف بينهم في تشديد الفاء .

وقرأ نافع في رواية عنه بالرفع والتنوين ، وأبو السمال بالضم للاتباع من غير تنوين ، وزيد بن علي رضي الله تعالى عنه بالنصب والتنوين ، وابن عباس رضي الله تعالى عنهما بالسكون ، ومحصل المعنى لا تتضجر مما يستقذر منهما وتستثقل من مؤنهما ، والنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياساً جلياً لأنه يفهم بطريق الأولى ويسمى مفهوم الموافقة ودلالة النص وفحوى الخطاب ، وقيل يدل على ذلك حقيقة ومنطوقاً في عرف اللغة كقولك : فلان لا يملك النقير والقطمير فإنه يدل كذلك على أنه لا يملك شيئاً قليلاً أو كثيراً ، وخص بعض أنواع الإيذاء بالذكر في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ للاعتناء بشأنه ، والنهر كما قال الراغب الزجر بأغلاظ ، وفي "الكشاف" النهي والنهر والنهم أخوات أي لا تزجرهما

عما يتعاطيانه مما لا يعجبك .

وقال الإمام : المراد من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴾ المنع من إظهار الضجر القليل والكثير والمراد من قوله سبحانه ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ المنع من إظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما ولذا روعي هذا الترتيب وإلا فالمنع من التأفيف يدل على المنع من النهر بطريق الأولى فيكون ذكره بعده عبثاً فتأمل .

(65/454)

﴿ وَقُل لَّهُمَا ﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿ قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أي جميلاً لا شراسة فيه ، قال الراغب : كل شيء يشرف في بابه فإنه يوصف بالكرم ، وجعل ذلك بعض المحققين من وصف الشيء باسم صاحبه أي قولاً صادراً عن كرم ولطف ويعود بالآخرة إلى القول الجميل الذي يقتضيه حسن الأدب ويستدعيه النزول على المروءة مثل أن يقول يا أبتاه ويا أماه ولا يدعوهما بأسمائهما فإنه من الجفاء وسوء الأدب ، وليس القول الكريم مخصوصاً بذلك كما يوهمه اقتصار الحسن فيما أخرجه عنه ابن أبي حاتم عليه فإنه من باب التمثيل ، وكذا ما أخرج عن زهير بن محمد أنه قال فيه : إذا دعواك فل لبيكما وسعديكم .

وأخرج هو وابن جرير .

وابن المنذر عن أبي الهداج أنه قال : قلت لسعيد بن المسيب كل ما ذكر الله تعالى في القرآن من الوالدين فقد عرفته إلا قوله سبحانه : ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ ما هذا القول الكريم ، فقال ابن المسيب قول العبد المذنب للسيد الفظ .

﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾

أي تواضع لهما وتذلل وفيه وجهان .

الأول : أن يكون على معنى جناحك الذليل ويكون ﴿ جَنَاحَ الذل ﴾ بل خفض الجناح تمثيلاً في التواضع وجاز أن يكون استعارة في المفرد وهو الجناح ويكون الخفض ترشيحاً تبعياً أو مستقلاً ، الثاني أن يكون من قبيل قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة . . .

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

فيكون في الكلام استعارة مكنية وتخييلية بأن يشبه الذل بطائر منحط من علو تشبيهاً مضمراً ويثبت له الجناح تخييلاً والخفض ترشيحاً فإن الطائر إذا أراد الطيران والعلو نشر جناحيه ورفعهما ليرتفع فإذا ترك ذلك خفضهما ، وأيضاً هو إذا رأى جارحاً يخافه لصق

بالأرض وألصق جناحيه وهي غاية خوفه وتذلله ، وقيل المراد بخفضهما ما يفعله إذا ضم فراخه للتربية وأنه أنسب بالمقام ، وفي "الكشف" أن في الكلام استعارة بالكناية ناشئة من جعل الجناح الذل ثم المجموع كما هو مثل في غاية التواضع ولما أثبت لذله جناحه أمره بخفضه تكميلاً وما عسى يختلج في بعض الخواطر من أنه لما أثبت لذله جناحاً فالأمر برفع ذلك الجناح أبلغ في تقوية الذل من خفضه لأن كمال الطائر عند رفعه فهو ظاهر السقوط إذا جعل المجموع تمثيلاً لأن الغرض تصوير الذل كأنه مشاهد محسوس ، وأما على الترشيح فهو وهم لأن جعل الجناح المخفوض للذل يدل على التواضع وأما جعل الجناح وحده فليس بشيء ولهذا جعل تمثيلاً فيما سلف .

وقرأ سعيد بن جبير ﴿ مِّنَ الذل ﴾ بكسر الذال وهو الانقياد وأصله في الدواب والنعت منه ذلول وأما الذل بالضم فأصله في الإنسان وهو ضد العز والنعت منه ذليلاً ﴿ مِنَ الرحمة ﴾ أي من فرط رحمتك عليهما فمن ابتدائية على سبيل التعليل ، قال في "الكشف" ولا يحتمل البيان حتى يقال لو كان كذا لرجعت الاستعارة إلى التشبيه إذ جناح الذل ليس من الرحمة أبداً بل خفض جناح الذل جاز أن يقال إنه رحمة وهذا بين ، واستفادة المبالغة من جعل جنس الرحمة مبدأ للتذلل فإنه لا ينشأ إلا من رحمة تامة ، وقيل من كون التعريف للاستغراق وليس بذاك ، وإنما احتاجا إلى ذلك لافتقارهما إلى من كان أفقر الخلق إليهما واحتياج المرء إلى من كان محتاجاً إليه غاية الضراعة والمسكنة فيحتاج إلى أشد

رحمة ، ولله تعالى در الخفاجي حيث يقول :

يا من أتى يسأل عن فاقتي . . .

ما حال من يسأل من سائله ما ذلة السلطان إلا إذا

(67/454)

أصبح محتاجاً إلى عامله . . .

﴿ وَقُل رَّبّ ارحمهما ﴾ وادع الله تعالى أن يرحمهما برحمته الباقية وهي رحمة الآخرة ولا تكتف برحمتك الفانية وهي ما تضمنها الأمر والنهي السالفان ، وخصت الرحمة الأخروية بالإرادة لأنها الأعظم المناسب طلبه من العظيم ولأن الرحمة الدنيوية حاصلة عموماً لكل أحد ؛ وجوز أن يراد ما يعم الرحمتين ، وأياً ما كان فهذه الرحمة التي في الدعاء قيل إنها مخصوصة بالأبوين المسلمين ، وقيل عامة منسوخة بآية النهي عن الاستغفار ، وقيل عامة ولا نسخ لأن تلك الآية بعد الموت وهذه قبله ومن رحمة الله تعالى لهما أن يهديهما للإيمان فالدعاء بها مستلزم للدعاء به ولا ضير فيه ، والقول بالنسخ أخرجه البخاري في الأدب المفرد .

وأبو داود .

وابن جرير .

وابن المنذر من طرق عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿ كَمَا رَبَّيَانِى ﴾ الكاف للتشبيه ، والجار والمجرور صفة مصدر مقدر أي رحمة مثل تربيتهما لي أو مثل رحمتهما لي على أن التربية رحمة ، وجوز أن يكون لهما الرحمة والتربية معاً وقد ذكر أحدهما في أحد الجانبين والآخر في الآخر كما يلوح به التعرض لعنوان الربوبية في مطلع الدعاء كأنه قيل : رب ارحمهما وربهما كما رحماني وربياني ﴿ صَغِيرًا ﴾ وفيه بعد .

(68/454)

وجوز أن تكون الكاف للتعليل أي لأجل تربيتهما لي وتعقب بأنه مخالف لمعناها المشهور مع إفادة التشبيه ما أفاده التعليل ، وقال الطيبي : إن الكاف لتأكيد الوجود كأنه قيل رب ارحمهما رحمة محققة مكشوفة لا ريب فيها كقوله تعالى : ﴿ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : 23] قال في "الكشف" وهو وجه حسن وأما الحمل على أن ما المصدرية جعلت حيناً أي ارحمهما في وقت أحوج ما يكونان إلى الرحمة كوقت رحمتهما عليّ في حال الصغر وأنا كلحم علي وضم وليس ذلك إلا في القيامة والرحمة هي الجنة والبت بأن هذا هو التحقيق فليت شعري الاستقامة وجهه في العربية ارتضاه أم لطباقه للمقام وفخامة

معناه اه ، وهو كما أشار إليه ليس بشيء يعول عليه ، والظاهر أن الأمر للوجوب فيجب على الولد أن يدعو لوالديه بالرحمة ، ومقتضى عدم إفادة الأمر التكرار أنه يكفي في الامتثال مرة واحدة ، وقد سئل سفيان كم يدعو الإنسان لوالديه في اليوم مرة أو في الشهر أو في السنة ؟ فقال : نرجو أن يجزيه إذا دعا لهما في آخر التشهدات كما أن الله تعالى قال : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : 56] فكانوا يرون التشهد يكفي في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وكما قال سبحانه : ﴿ واذكروا الله فِى أَيَّامٍ معدودات ﴾ [البقرة : 203] ثم يكبرون في ادبار الصلاة ، هذا وقد بالغ عز وجل في التوصية بهما من وجوه لا تخفى ولو لم يكن سوى أن شفع الإحسان إليهما بتوحيده سبحانه ونظمهما في سلك القضاء بهما معاً لكفى ، وقد روى ابن حبان .

والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رضا الله تعالى في رضا الوالدين وسخط الله تعالى في سخط الوالدين "

(69/454)

وصح أن رجلاً جاء يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد معه فقال : أحي والداك ؟ قال : نعم قال : ففيهما فجاهد وجاء أنه عليه الصلاة والسلام قال : " لو علم الله

تعالى شيئاً أدنى من الأف لنهى عنه فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار " .

ورأى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما رجلاً يطوف بالكعبة حاملاً أمه على رقبته فقال : يا ابن عمر أتراني جزيتها ؟ قال : لا ولا بطلقة واحدة ولكنك أحسنت والله تعالى يثيبك على القليل كثيراً .

وروى مسلم وغيره " لا يجزى ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه " وروى البيهقي في الدلائل .

والطبراني في الأوسط والصغير بسند فيه من لا يعرف عن جابر قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن أبي أخذ مالي فقال النبي عليه الصلاة والسلام : " فاذهب فأتني بأبيك فنزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله تعالى يقرئك السلام ويقول : إذا جاءك الشيخ فسله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه فلما جاء الشيخ قال له النبي صلى الله عليه وسلم : "ما بال ابنك يشكوك تريد أن تأخذ ماله ؟ قال : سله يا رسول الله هل أنفقته إلا على عماته وخالاته أو على نفسي فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ايه دعنا من هذا أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك فقال الشيخ : والله يا رسول الله ما يزال الله تعالى يزيدنا بك يقيناً لقد قلت في نفسي شيئاً ما سمعته أذناي فقال : قل وأنا أسمع فقال : قلت

غذوتك مولوداً ومنتك يافعا

تعل بما أجني عليك وتنهل

إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت

لسقمك إلا ساهراً أتملل

كأني أنا المطروق دونك بالذي

طرقت به دوني فعيني تهمل

تخاف الردى نفسي عليك وإنها

لتعلم أن الموت وقت مؤجل

فلما بلغت السن والغاية التي

إليها مدى ما كنت فيها أؤمل

جعلت جزائي غلظة وفظاظة

كأنك أنت المنعم المتفضل

فليتك إذ لم ترع حق أبوتي

فعلت كما الجار المجاور يفعل

تراه معداً للخلاف كأنه

برد على أهل الصواب موكل

قال : فحينئذٍ أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بتلابيب ابنه وقال : "أنت ومالك لأبيك"

والأم مقدمة في البر على الأب فقد روى الشيخان يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : "أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أبوك"

ولا يختص البر بالحياة بل يكون بعد الموت أيضاً .

فقد روى ابن ماجه "يا رسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ فقال : نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإيفاء عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما" ورواه ابن حبان في صحيحه بزيادة "قال الرجل : ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيبه قال : فاعمل به" .

وأخرج البيهقي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن العبد ليموت والداه أو أحدهما وإنه لهما لعاق فلا يزال يدعو لهما ويستغفر لهما حتى يكتبه الله تعالى باراً .

وأخرج عن الأوزاعي قال: بلغني أن من عق والديه في حياتهما ثم قضى ديناً إن كان عليهما واستغفر لهما ولم يستسب لهما كتب باراً ومن بر والديه في حياتهما ثم لم يقض ديناً إن كان عليهما ولم يستغفر لهما واستسب لهما كتب عاقاً" وأخرج هو أيضاً وابن أبي الدنيا عن محمد بن النعمان يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب براً".

وروى مسلم أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما لقيه رجل بطريق مكة فسلم عليه ابن عمر وحمله على حمار كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه فقال ابن دينار فقلت له: أصلحك الله تعالى إنهم الأعراب وهم يرضون باليسير فقال: إن أبا هذا كان وداً لعمر بن الخطاب وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه".

وأخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي بردة رضي الله تعالى عنه قال: قدمت المدينة فأتاني عبد الله بن عمر فقال: أتدري لم أتيتك؟ قال: قلت لا قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من أحب أني صل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه من بعده"

وإنه كان بين أبي عمر وبين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذلك .

وقد ورد في فضل البر ما لا يحصى كثرة من الأحاديث ، وصح عد العقوق من أكبر الكبائر وكونه منها هو ما اتفقوا عليه وظاهر كلام الأكثرين بل صريحه أنه لا فرق في ذلك بين أن يكون الوالدان كافرين وإن يكونا مسلمين ، والتقييد بالمسلمين في الحديث الحسن أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن الكبائر فقال : تسع أعظمهن الإشراك وقتل النفس المؤمنة بغير حق والفرار من الزحف وقذف المحصنة والسحر وأكل مال اليتيم وأكل الربا وعقوق الوالدين المسلمين ، إما لأن عقوقهما أقبح والكلام هناك في ذكر الأعظم على أحد التقديرين في عطف وقتل المؤمن وما بعده وإما لأنهما ذكراً للغالب كما في نظائر أخر .

وللحليمي ههنا تفصيل مبني على رأي له ضعيف وهو أن العقوق كبيرة فإن كان معه نحو سب ففاحشة وإن كان عقوقه هو استثقاله لأمرهما ونهيهما والعبوس في وجوههما والتبرم بهما مع بذل الطاعة ولزوم الصمت فصغيرة فإن كان ما يأتيه من ذلك يلجئهما إلى أن ينقبضا فيتركا أمره ونهيه ويلحقهما من ذلك ضرر فكبيرة .

وبينهم في حد العقوق خلاف ففي فتاوى البلقيني مسألة قد ابتلى الناس بها واحتيج إلى بسط الكلام عليها وإلى تفاريعها ليحصل المقصود في ضمن ذلك وهي السؤال عن ضابط الحد الذي يعرف به عقوق الوالدين إذ الإحالة على العرف من غير مثال لا يحصل المقصود إذ الناس تحملهم أغراضهم على أن يجعلوا ما ليس بعرف عرفاً فلا بد من مثال ينسج على منواله وهو أنه مثلاً لو كان له على أبيه حق شرعي فاختار أن يرفعه إلى الحاكم ليأخذ حقه منه ولو حبسه فهل يكون ذلك عقوقاً أولاً ؟ أجاب هذا الموضع قال فيه بعض الأكابر : إنه يعسر ضبطه وقد فتح الله تعالى بضابط أرجو من فضل الفتاح العليم أن يكون حسناً فأقول : العقوق لأحد الوالدين هو أن يؤذيه بما لو فعله مع غيره كان محرماً من جملة الصغائر فينتقل بالنسبة إليه إلى الكبائر أو أن يخالف أمره أو نهيه فيما يدخل منه الخوف على الولد من فوت نفسه أو عضو من أعضائه ما لم يتهم الوالد في ذلك أو أن يخالفه في سفر يشق على الوالد وليس بفرض على الولد أو في غيبة طويلة فيما ليس بعلم نافع ولا كسب فيه أو فيه وقيعة في العرض لها وقع .

وبيان هذا الضابط أن قولنا : أن يؤذي الولد أحد والديه بما لو فعله مع غير والديه كان محرماً فمثاله لو شتم غير أحد والديه أو ضربه بحيث لا ينتهي الشتم أو الضرب إلى الكبيرة فإنه يكون المحرم المذكور إذا فعله الولد مع أحد والديه كبيرة ، وخرج بقولنا : أن يؤذي ما لو أخذ فلساً أو شيئاً يسيراً من مال أحد والديه لا يتأذى بمثل ذلك لما عنده من الشفقة والحنو فإن أخذ مالاً كثيراً بحيث يتأذى المأخوذ منه من الوالدين بذلك فإنه يكون كبيرة في حق الأجنبي فكذلك هنا لكن الضابط فيما يكون حراماً صغيرة بالنسبة إلى غير الوالدين ، وخرج بقولنا : ما لو فعله مع غير أحد الوالدين كان محرماً نحو ما إذا طالب بدين فإن هذا لا يكون عقوقاً لأنه إذا فعله مع غير الوالدين لا يكون محرماً فافهم ذلك فإنه من النفائس ، وأما الحبس فإن فرعناه على جواز حبس الوالد بدين الولد كما صححه جماعة فقد طلب ما هو جائز فلا عقوق وإن فرعنا على منع حبسه المصحح عند آخرين فالحاكم إذا كان معتقده ذلك لا يجيب إليه ولا يكون الولد بطلب ذلك عاقاً إذا كان معتقداً الوجه الأول فإن اعتقد المنع وأقدم عليه كان كما لو طلب حبس من لا يجوز حبسه من الأجانب لإعسار ونحوه فإذا حبسه الولد واعتقاده المنع كان عاقاً لأنه لو فعله مع غير والده حيث لا يجوز كان حراماً ، وأما مجرد الشكوى الجائزة والطلب الجائز فليس من العقوق في شيء ، وقد شكا بعض ولد الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينهه عليه الصلاة والسلام وهو الذي لا يقر على باطل ، وأما إذا نهر أحد والديه فإنه إذا فعل ذلك مع غير الوالدين وكان محرماً كان في

حق أحد الوالدين كبيرة وإن لم يكن محرماً ، وكذا أف فإن ذلك يكون صغيرة في حق أحد الوالدين ولا يلزم من النهي عنهما والحال ما ذكر أن يكونا من الكبائر ؛ وقولنا أو أن يخالف أمره ونهيه فيما يدخل منه الخوف الخ أردنا به السفر للجهاد ونحوه من الأسفار الخطرة لما

يخاف من فوات نفس الولد أو عضو من أعضائه لشدة تفجع الوالدين على ذلك ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عبد الله بن عمرو في الرجل الذي جاء يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم للجهاد أنه عليه الصلاة والسلام قال له : أحي والداك ؟ قال : نعم قال : ففيهما فجاهد ، وفي رواية ارجع إليهما ففيهما المجاهدة ، وفي أخرى جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبوي يبكيان فقال : ارجع فاضحكهما كما أبكيتهما ، وفي إسناده عطاء بن السائب لكن من رواية سفيان عنه .

وروى أبو سعيد الخدري أن رجلاً هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل لك أحد باليمن ؟ قال : أبواي قال : أذنا لك قال : لا قال : فارجع فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما .

ورواه أبو داود وفي إسناده من اختلف في توثيقه ، وقولنا : ما لم يتهم الوالد في ذلك أخرجنا به ما لو كان الوالد كافراً فإنه لا يحتاج الولد إلى إذنه في الجهاد ونحوه ، وحيث اعتبرنا إذن الوالد فلا فرق بين أن يكون حراً أو عبداً ، وقولنا : أو أن يخالفه في سفر الخ أردنا به السفر لحج التطوع حيث كان فيه مشقة وأخرجنا بذلك حج الفرض وإذا كان فيه ركوب البحر يجب ركوبه عند غلبة السلامة فظاهر الفقه أنه لا يجب الاستئذان ولو قيل بوجوبه لما عند الوالد من الخوف في ركوب البحر وإن غلبت السلامة لم يكن بعيداً ، وأما سفره للعلم المتعين أو لفرض الكفاية فلا منع منه وإن كان يمكنه التعلم في بلده خلافاً لمن اشترط ذلك لأنه قد يتوقع في السفر فراغ قلب وإرشاد أستاذ ونحو ذلك فإن لم يتوقع شيئاً من ذلك احتاج إلى الاستئذان وحيث وجبت النفقة للوالد على الولد وكان في سفره تضييع للواجب فللوالد المنع ، وأما إذا كان الولد بسفره يحصل وقيعة في العرض لها وقع بأن يكون أمرد ويخاف من سفره تهمة فإنه يمنع من ذلك وذل في الأنثى أولى ، وأما مخالفة أمره ونهيه فيما لا يدخل على الولد فيه ضرر بالكلية وإنما هو مجرد إشارة للولد فلا تكون عقوقاً وعدم المخالفة أولى اه كلام البلقيني وذكر بعض المحققين : أن العقوق فعل ما يحصل منه لهما أو لأحدهما إيذاءً ليس بالهين عرفاف .

ويحتمل أن العبرة بالمتأذي لكن لو كان الوالد مثلاً في غاية الحمق أو سفاهة العقل فأمر أو نهى ولده بما لا يعد مخالفته فيه في العرف عقوقاً لا يفسق ولده بمخالفته حينئذٍ لعذره وعليه فلو كان متزوجاً بمن يحبها فأمره بطلاقها ولو لعدم عفتها فلم يمتثل لأمره لا إثم عليه ، نعم الأفضل طلاقها امتثالاً لأمر والده ، فقد روى ابن حبان في صحيحيه أن رجلاً أتى أبا الدرداء فقال : إن أبي لم يزل بي حتى زوجني امرأة وإنه الآن يأمرني بفراقها قال : ما أنا بالذي آمرك أن تعق والديك ولا بالذي آمرك أن تطلق زوجتك غير أنك إن شئت حدثتك بما سمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته يقول : " الوالد أوسط أبواب الجنة " فحافظ على ذلك إن شئت أو دع .

وروى أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في صحيحه وقال الترمذي حديث حسن صحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال كان تحتي امرأة أحبها وكان عمر يكرهها فقال لي طلقها فأبيت فأتى عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : طلقها ، وكذا سائر أوامره التي لا حامل لها إلا ضعف عقله وسفاهة رأيه ولو عرضت على أرباب العقول لعدوها متساهلاً فيها ولرأوا أنه لا إيذاء

بمخالفتها ثم قال : هذا هو الذي يتجه في تقرير الحد .

وتعقب ما نقل عن البقيني بأن تخصيصه العقوق بفعل المحرم الصغيرة بالنسبة للغير فيه وقفة بل ينبغي أن المدار على ما ذكر من أنه لو فعل معه ما يتأذى به تأذياً ليس بالهين عرفاً كان كبيرة وإن لم يكن محرماً لو فعله مع الغير كأن يلقاه فيقطب في وجهه أو يقدم عليه في ملأ فلا يقوم إليه ولا يعبأ به ونحو ذلك مما يقضي أهل العقل والمروءة من أهل العرف بأنه مؤذ إيذاءً عظيماً فتأمل .

(77/454)

ثم إن السبب في تعظيم أمر الوالدين أنهما السبب الظاهري في إيجاده وتعيشه ولا يكاد تكون نعمة أحد من الخلق على الولد كنعمة الوالدين عليه ، لا يقال عليه : إن الوالدين إنما طلبا تحصيل اللذة لأنفسهما فلزم منه دخول الولد في الوجود ودخوله في عالم الآفات والمخافات فأي إنعام لهما عليه ، وقد حكى أن واحداً من المتسمين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول : هو الذي أدخلني في عالم الكون والفساد وعرضني للموت والفقر والعمى والزمانة ، وقيل لأبي العلاء المعري ولم يكن ذا ولد : ما نكتب على قبرك فقال : اكتبوا عليه :

هذا جناه أبي علي . . .

وما جنيت على أحد وقال في ترك التزوج وعدم الولد : وتركت فيهم نعمة العدم التي سبقت وصدت عن نعيم العاجل ولو أنهم ولدوا لنالوا شدة . . .

ترمى بهم في موبقات الآجل

وقال ابن رشيق :

قبح الله لذة لشقانا . . .

نالها الأمهات والآباء نحن لولا الوجود لم نألم الفق

د فإيجادنا علينا بلاء . . .

وقيل للإسكندر : أستاذك أعظم منة عليك أم والدك ؟ فقال : الأستاذ أعظم منة لأنه تحمل أنواع الشدائد والمحن عند تعليمي حتى أوقفني على نور العلم وأما الوالد فإنه طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه فأخرجني إلى عالم الكون والفساد لأنا نقول : هب أنه في أول الأمر كان المطلوب لذة الواقع إلا أن الاهتمام بإيصال الخيرات ودفع الآفات من أول دخول الولد في الوجود إلى وقت بلوغه الكبر أعظم من جميع ما يتخيل من جهات الخيرات والمبرات ، وقد يقال : لو كان الإدخال في عالم الكون والفساد والتعريض للأكدار والأنكاد دافعاً لحق الوالدين لزم أن يكون دافعاً لحق الله تعالى لأنه سبحانه الفاعل الحقيقي ، وأيضاً يعارض ذلك التعريض التعريض للنعيم المقيم والثواب العظيم كما لا يخفى على ذي العقل السليم ،

ولعمري أن إنكار حقهما إنكار لأجلى الأمور ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ﴾

(78/454)

من قصد البر إليهما وانعقاد ما يجب من التوقير لهما ، وهو على ما قيل تهديد على أن يضمر لهما كراهة واستثقالاً ، وفي "الكشف" أنه كالتعليل لما أكد عليهم من الإحسان إلى الوالدين بأن الله تعالى أعلم بما في ضمائرهم من ذلك فمجازيهم على حسبه ، والظاهر أنه وعد لمن أضمر البر ووعيد لغيره لكن غلب ذلك الجانب لأن الكلام بالأصالة فيه ﴿ إِن تَكُونُواْ صالحين ﴾ قاصدين الصلاح والبر دون العقوق والفساد ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ تعالى شأنه ﴿ كَانَ لِلأَوَّابِينَ ﴾ أي الراجعين إليه تعالى التائبين عما فرط منهم مما لا يكاد يخلو منه البشر ﴿ غَفُوراً ﴾ لما وقع منهم من نوع تقصير أو أذية ، وهذا كما في الكشف تيسير بعد التأكيد والتعسير مع تضييق وتحذير وذلك أنه شرط في البادرة التي تقع على الندرة قصد الصلاح وعبر عنه بنفس الصلاح ولم يصرح بصدورها بل رمز إليه بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ لدلالة المغفرة على الذنب والأواب أيضاً فإن التوبة عن ذنب يكون بشرط قصد الصلاح وأن يتوب عنه مع ذلك التوبة البالغة ، وهو استئناف ثان يقتضيه مقام

التأكيد والتشديد كأنه قيل : كيف نقوم بحقهما وقد يندر بوادر ؟ فقيل إذا بنيتم الأمر على الأساس وكان المستمر ذلك ثم اتفق بادرة من غير قصد إلى المساءة فلطف الله تعالى يحجز دون عذابه قائماً بالكلاءة ، وكون الآية في البادرة تكون من الرجل إلى والديه مروى عن ابن جبير ، وجوز أن تكون عامة لكل تائب ويندرج الجاني على أبويه التائب من جنايته اندراجاً أولياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(79/454)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ ﴾

أي : أمر كل مكلف أمراً مقطوعاً به فضمن قضى معنى أمر وجعل المضمن أصلاً والمضمن فيه قيداً له لأن المقضي يجب وقوعه ولم يقع من بعض المخاطبين التوحيد .

وفي "التأويلات النجمية" : وإنما قال ربك أراد به النبي لأنه مخصوص بالتربية أصالة والأمة تبع له في هذا الشأن وقوله : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ ﴾ أي : حكم وقدر في الأزل ﴿ أَن لا تَعْبُدُوا ﴾ أي : بأن لا تعبدوا على أن أن مصدورية ولا نافية ﴿ إِلا إِيَّاهُ ﴾ لأن العبادة غاية التعظيم فلا تحق إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإنعام ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أي : بأن

تحسنوا بهما إحساناً لأنهما السبب الظاهري للوجود والتعيش والله تعالى هو السبب الحقيقي فأخبر تعظيم السبب الحقيقي ثم اتبعه بتعظيم السبب الظاهري يعني الله تعالى قرن إحسان الوالدين بتوحيده لمناسبتهما لحضرة الألوهية والربوبية في سببيتهما لوجودك وتربيتهما إياك عاجزاً صغيراً وهما أول مظهر ظهر فيهما آثار صفات الله تعالى من الإيجاد والربوبية والرحمة والرأفة بالنسبة إليك ومع ذلك فهما محتاجان إلى قضاء حقوقهما والله غني عن ذلك.

(80/454)

فأهم الواجبات بعد التوحيد إحسانهما وفي الحديث: "بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله" ذكره الإمام ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا﴾

قوله: إما مركبة من أن الشرطية وما المزيدة لتأكيدها ولذلك حل الفعل نون التأكيد ومعنى عندك في كنفك وكفالتك وأحدهما فاعل للفعل وتوحيد ضمير الخطاب في عندك وفيما بعده مع أن ما سبق على الجمع للاحتراز عن التباس المراد فإن المقصود نهي كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما ولو قوبل الجمع بالجمع أو بالتثنية لم يحصل هذا المراد، قال في

ي "الأسئلة المقحمة" : إن قلت كيف خص الله حال الكبر بالإحسان إلى الوالدين وهو واجب في حقهما على العموم والجواب أن هذا وقت الحاجة في الغالب وعند عدم الحاجة إجابتهما ندب وفي حالة الحاجة فرض انتهى ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ ﴾ أي : لواحد منهما حالتي الانفراد والاجتماع ﴿ أُفٍّ ﴾ هو صوت يدل على تضجر واسم للفعل الذي هو الضجر وقرىء بحركات الفاء فالتنوين على قصد التنكير كصه ومه وايه وغاق وتركه على قصد التعريف والكسر على أصل البناء إن بني على الكسر لالتقاء الساكنين وهما الفاآن والفتح على التخفيف والضم للاتباع كمنذ وهو بالشاذ .

(81/454)

والمعنى لا تضجر بما تستقذر منهما وتستثقل من مؤونتهما وهو عام لكل أذى لكن خص بعضه بالذكر اعتناء بشأنه فقيل : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ أي : لا تزجرهما بإغلاظ إذا كرهت منهما شيئاً ﴿ وَقُل لَّهُمَا ﴾ بدل التأفيف ﴿ قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ ذا كرم وهو القول الجميل الذي يقتضيه حسن الأدب ويستدعيه النزول على المروءة مثل أن تقول : يا أبتاه ويا أماه كدأب إبراهيم عليه السلام إذ قال لأبيه : يا أبت مع ما به من الكفر ولا يدعوهما بأسمائهما فإنه من الجفاء وسوء الأدب وديدن الدعاء إلا أن يكون في غير وجههما كما قالوا ولا يرفع صوته

فوق صوتهما ولا يجهر لهما بالكلام بل يكلمهما بالهمس والخضوع إلا لضرورة الصمم والإفهام ولا يسب والدي رجل فيسب ذلك الرجل والديه ولا ينظر إليهما بالغضب .

﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾

جناح الذل استعارة بالكناية جعل الذل والتواضع بمنزلة طائر فأثبت له الجناح تخييلاً أي : تواضع لهما ولين جانبك وذلك أن الطائر إذا قصد أن ينحط خفض جناحه وكسره وإذا قصد أن يطير رفعه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب .

قال القاضي وأمره بخفضه مبالغة في إيجاب الذل وترشيحاً للاستعارة .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كن مع الوالدين كالعبد المذنب الذليل الضعيف للسيد الفظ الغليظ أي : في التواضع والتملق ﴿ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ من ابتدائية أو تعليلية أي : من فرط رحمتك عليهما لافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما قالوا : ينظر إليهما بنظر المحبة والشفقة والترحم وفي الحديث "ما من ولد ينظر إلى الوالد وإلى والدته نظر مرحمة إلا كان له بها حجة وعمرة" قيل : وإن نظر في اليوم ألف مرة قال : "وإن نظر في اليوم مائة ألف" كما في "خالصة الحقائق" ويقبل رجل أمه تواضعاً .

حكي. أن رجلاً جاء إلى الأستاذ أبي إسحاق فقال: رأيت البارحة في المنام أن لحيتك مرصعة بالجواهر واليواقيت فقال: صدقت فإني البارحة مسحت لحيتي تحت قدم والدتي قبل أن نمت فهذا من ذاك ويباشر خدمتهما بيده ولا يفوضها إلى غيره لأنه ليس بعار للرجل أن يخدم معلمه وأبويه وسلطانه وضيفه ولا يؤمه للصلاة وإن كان أفقه منه أي: أعلم بالفقه من الأدب ولا يمشي أمامهما إلا أن يكون لإماطة الأذى عن الطريق ولا يتصدر عليهما في المجلس ولا يسبق عليهما في شيء أي: في الأكل والشرب والجلوس والكلام وغير ذلك.

قال الفقهاء: لا يذهب بأبيه إلى البيعة وإذا بعث إليه منها ليحمله فعل ولا يناوله الخمر ويأخذ الإناء منه إذا شربها.

وعن أبي يوسف إذا أمره أن يوقد تحت قدره وفيها لحم الخنزير أوقد كما في "بحر العلوم" ولا ينسب إلى غير والديه استنكافاً منهما فإنه يستوجب اللعنة قال عليه السلام: "فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً" أي: نافلة وفريضة كما في "الأسرار المحمدية".

قال في "القاموس": الصرف في الحديث التوبة والغدل الفدية أو هو النافلة والعدل الفريضة أو بالعكس أو هو الوزن والعدل الكيل أو هو الاكتساب والعدل الفدية ﴿وَقُل رَّبِّ

ارْحَمْهُمَا ﴾ وادع الله أن يرحمهما برحمته الباقية ولا تكتف برحمتك الفانية وإن كانا كافرين لأن من الرحمة أن يهديهما إلى الإسلام.

(83/454)

قال ابن عباس: ما زال إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه حتى مات فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه يعني ترك الدعاء ولم يستغفر له بعدما مات على الكفر كذا في "تفسير أبي الليث" وفي الحديث: "إذا ترك العبد الدعاء للوالدين ينقطع عنه الرزق في الدنيا" سئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت فقال: كل ذلك واصل إليه ولا شيء أنفع له من الاستغفار ولو كان شيء أفضل منه لأمرت به في الأبوين ويعضده قوله عليه السلام: "إن الله ليرفع درجة العبد في الجنة فيقول: يا رب أنى لي هذا؟ فيقول: باستغفار ولدك" وفي الحديث: "من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة كان باراً"

﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

الكاف في محل النصب على أنه نعت مصدر محذوف أي: رحمة مثل رحمتهما عليّ وتربيتهما وإرشادهما لي في حال صغري وفاء بوعدك للراحمين.

جزء: 5 رقم الصفحة: 147

.روي.أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم إن أبوي بلغا من الكبر أني ألي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتهما حقهما ؟ قال : "لا فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما" .

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ﴾ بما في ضمائركم من قصد البر والتقوى وكأنه تهديد على أن يضمر لهما كراهة واستثقالاً ﴿ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴾ قاصدين الصلاح والبر دون العقوق والفساد ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ تعالى ﴿ كَانَ لِلأوَّابِينَ ﴾ أي : الرجاعين إليه تعالى مهما فرط منهم مما لا يكاد يخلو عنه البشر ﴿ غَفُورًا ﴾ لما وقع منهم من نوع تقصير أو أذية فعلية أو قولية .

قال الإمام الغزالي رحمه الله : أكثر العلماء على أن طاعة الوالدين واجبة في الشبهات ولم تجب في الحرام المحض لأن ترك الشبهة ورع ورضى الوالدين حتم أي : واجب .

(84/454)

قيل : إذا تعذر مراعاة حق الوالدين جميعاً بأن يتأذى أحدهما بمراعاة الآخر يرجح حق الأب فيما يرجع إلى التعظيم والاحترام لأن النسب منه ويرجح حق الأم فيما يرجع إلى الخدمة والإنعام حتى لو دخلا عليه يقوم للأب ولو سألا منه شيئاً يبدأ في الإعطاء بالأم كما

في "منبع الآداب" .

قال الفقهاء تقدم الأم على الأب في النفقة إذا لم يكن عند الولد إلا كفاية أحدهما لكثرة تعبها عليه وشفقتها وخدمتها ومعاناة المشاق في حمله ثم وضعه ثم إرضاعه ثم تربيته وخدمته ومعالجة أوساخه وتمريضه وغير ذلك

(85/454)

.وشكا .رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم أباه وأنه يأخذ ماله فدعا به فإذا شيخ يتوكأ على عصا فسأله فقال : إنه كان ضعيفاً وأنا قوي وفقيراً وأنا غني فكنت لا أمنعه شيئاً من مالي واليوم أنا ضعيف وهو قوي وأنا فقير وهو غني ويبخل عليّ بماله فبكى عليه السلام فقال : "ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى" ثم قال للولد "أنت ومالك لأبيك" وفي الحديث : "رغم أنفه" فقيل : من يا رسول الله ؟ قال : "من أدرك والداه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة" يعني بسبب برهما وإحسانهما : وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : "لولا أني أخاف تغير الأحوال عليكم بعدي لأمرتكم أن تشهدوا لأربعة أصناف بالجنة : أولهما امرأة وهبت صداقها من زوجها لأجل الله تعالى وزوجها راضٍ ، والثاني : ذو عيال

كثير يجهد في المعيشة لأجلهم حتى يطعمهم الحلال ، والثالث التائب على أن لا يعود إليه أبداً كاللبن لا يعود إلى الثدي ، والرابع البار بوالديه" ويجب على الأبوين أن لا يحملا الولد على العقوق بسوء المعاملة والجفاء ويعيناه على البر .

.وحكي.عن بعض العرفاء أنه قال : إن لي ابناً منذ ثلاثين سنة ما أمرته بأمر مخافة أن يعصيني فيحق عليه العذاب .

يقول الفقير : فسد الزمان وتغير الإخوان ولنبككِ على أنفسنا من سوء الأخلاق وقد كانت الصحابة.رضي الله عنهم.وهم هم يبكون دماً من أخلاق النفس فما لنا لا نبكي ونحن منغمسون في بحر الخطايا والذنوب متورطون في بئر القبائح والعيوب لا إنصاف لنا في حق أنفسنا ولا في حق الغير ونعم ما قال الحافظ حكاية لهذا التغير الناشيء من النفس الأمارة بالسوء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 5 صـ 174.178 ﴾

(86/454)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة ﴾ هذا تأكيد لما سلف من جملة ﴿ كل إنسان ألزمناه ﴾ ، ومن جملة ﴿ من اهتدى ﴾ ، والمراد بالعاجلة : المنفعة العاجلة ، أو الدار العاجلة .

والمعنى : من كان يريد بأعمال البرّ أو بأعمال الآخرة ذلك ، فيدخل تحته الكفرة والفسقة والمراءون والمنافقون ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ ﴾ أي : عجلنا لذلك المريد ﴿ فِيهَا ﴾ : أي : في تلك العاجلة ، ثم قيد المعجل بقيدين : الأوّل : قوله : ﴿ مَا نَشَاء ﴾ أي : ما يشاء الله سبحانه تعجيله له منها ، لا ما يشاؤه ذلك المريد ، ولهذا ترى كثيراً من هؤلاء المريدين للعاجلة يريدون من الدنيا ما لا ينالون ، ويتمنون ما لا يصلون إليه ، والقيد الثاني قوله : ﴿ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ أي : لمن نريد التعجيل له منهم ما اقتضته مشيئتنا ، وجملة : ﴿ لمن نريد ﴾ بدل من الضمير في " له " بإعادة الجار بدل البعض من الكل .

لأن الضمير يرجع إلى " من " وهو للعموم ، وهذه الآية تقيد الآيات المطلقة كقوله سبحانه :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ [الشورى : 20] .

وقوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴾ [هود : 15] .

وقد قيل : إنه قرىء (ما يشاء) بالياء التحتية ، ولا ندري من قرأ بذلك من أهل الشواذ ، وعلى هذه القراءة فقيل : الضمير لله سبحانه ، أي : ما يشاؤه الله ، فيكون معناها معنى القراءة بالنون ، وفيه بعد لمخالفته لما قبله ، وهو ﴿ عجلنا ﴾ وما بعده وهو ﴿ لمن نريد ﴾ .

وقيل : الضمير راجع إلى ﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ﴾ فيكون ذلك مقيداً بقوله

﴿ لمن نريد ﴾ : أي : عجلنا له ما يشاؤه ، لكن بحسب إرادتنا فلا يحصل لمن أراد العاجلة ما يشاؤه إلاّ إذا أراد الله له ذلك .

(87/454)

ثم بعد هذا كله فمن وراء هذه الطلبة الفارغة التي لا تأثير لها إلاّ بالقيدين المذكورين عذاب الآخرة الدائم ، ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ ﴾ أي : جعلنا له بسبب تركه لما أمر به من العمل للآخرة وإخلاصه عن الشوائب عذاب جهنم على اختلاف أنواعه ﴿ يصلاها ﴾ في محل نصب على الحال أي : يدخلها ﴿ مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ أي : مطروداً من رحمة الله مبعداً عنها ، فهذه عقوبته في الآخرة ، مع أنه لا ينال من الدنيا إلاّ ما قدره الله سبحانه له ، فأين حال هذا الشقيّ من حال المؤمن التقيّ ؟ فإنه ينال من الدنيا ما قدّره الله له وأراده بلا هلع منه ولا جزع ، مع سكون نفسه واطمئنان قلبه وثقته بربه ، وهو مع ذلك عامل للآخرة منتظر للجزاء من الله سبحانه ، وهو الجنة ، ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخرة ﴾ أي : أراد بأعماله الدار الآخرة ﴿ وسعى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي : السعي الحقيق بها اللائق بطالبها ، وهو الإتيان بما أمر به ، وترك ما نهى عنه خالصاً لله غير مشوب ، وكان الإتيان به على القانون الشرعي من دون ابتداع ولا هوى ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ بالله إيماناً صحيحاً ، لأن

العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه إلاّ إذا كان من المؤمنين :

﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المتقين ﴾ [المائدة : 27] ، والجملة في محل نصب على الحال ، والإشارة بقوله : ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إلى المريدين للآخرة الساعين لها سعيها وخبره ﴿ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ عند الله ، أي : مقبولاً غير مردود ، وقيل : مضاعفاً إلى أضعاف كثيرة ، فقد اعتبر سبحانه في كون السعي مشكوراً أموراً ثلاثة : الأول : إرادة الآخرة ، الثاني : أن يسعى لها السعي الذي يحق لها ، والثالث : أن يكون مؤمناً .

(88/454)

ثم بين سبحانه كمال رأفته وشمول رحمته فقال : ﴿ كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبّكَ ﴾ التنوين في "كلاًّ" عوض عن المضاف إليه ، والتقدير كل واحد من الفريقين نمدّ ، أي : نزيده من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع ، نرزق المؤمنين والكفار ، وأهل الطاعة وأهل المعصية ، لا تؤثر معصية العاصي في قطع رزقه ، وما به الإمداد هو ما عجله لمن يريد الدنيا ، وما أنعم به في الأولى والأخرى على من يريد الآخرة ، وفي قوله : ﴿ مِنْ عَطَاء رَبّكَ ﴾ إشارة إلى أن ذلك بمحض التفضل وهو متعلق ب ﴿ نمد ﴾ ، ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبّكَ مَحْظُورًا ﴾ أي : ممنوعاً ، يقال : حظره يحظره حظراً : منعه ، وكل ما حال بينك وبين

شيء ، فقد حظره عليك ، و ﴿ هؤلاء ﴾ بدل من "كلا" وهؤلاء معطوف على البدل .

قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أنه يعطي المسلم الكافر وأنه يرزقهما جميعاً الفريقين فقال :

﴿ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ ﴾ .

﴿ انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ﴾ الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ،

ويحتمل أن يكون لكل من له أهلية النظر والاعتبار ، وهذه الجملة مقرّرة لما مرّ من الإمداد

وموضحة له ، والمعنى : انظر كيف فضلنا في العطايا العاجلة بعض العباد على بعض ، فمن

غني وفقير ، وقوي وضعيف ، وصحيح ومريض ، وعاقل وأحمق ، وذلك لحكمة بالغة

تقصر العقول عن إدراكها .

﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ درجات وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ وذلك لأن نسبة التفاضل في درجات الآخرة

إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا ، وليس للدنيا بالنسبة إلى الآخرة

مقدار ، فلهذا كانت الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ، وقيل : المراد : أن المؤمنين

يدخلون الجنة ، والكافرين يدخلون النار ، فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين .

وحاصل المعنى أن التفاضل في الآخرة ودرجاتها فوق التفاضل في الدنيا ومراتب أهلها

فيها من بسط وقبض ونحوهما .

ثم لما أجمل سبحانه أعمال البرّ في قوله : ﴿ وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أخذ في تفصيل ذلك مبتدئاً بأشرفها الذي هو التوحيد فقال : ﴿ لاَّ تَجْعَل مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته ، تهييجاً وإلهاباً ، أو لكل متأهل له صالح لتوجيهه إليه ، وقيل : هو على إضمار القول ، والتقدير : قل لكل مكلف : لا تجعل ، وانتصاب ﴿ تقعد ﴾ على جواب النهي ، والتقدير : لا يكون منك جعل فقعود ؛ ومعنى ﴿ تقعد ﴾ : تصير ، من قولهم : شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها خربة ، وليس المراد حقيقة القعود المقابل للقيام ؛ وقيل : هو كناية عن عدم القدرة على تحصيل الخيرات ، فإن السعي فيه إنما يتأتى بالقيام ، والعجز عنه يلزمه أن يكون قاعداً عن الطلب ؛ وقيل : إن من شأن المذموم المخذول أن يقعد نادماً مفكراً على ما فرط منه ، فالقعود على هذا حقيقة ، وانتصاب ﴿ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ على خبرية تقعد أو على الحال : أي فتصير جامعاً بين الأمرين : الذم لك من الله ومن ملائكته ، ومن صالحي عباده ، والخذلان لك منه سبحانه ، أو حال كونك جامعاً بين الأمرين .

ثم لما ذكر ما هو الركن الأعظم وهو التوحيد ، أتبعه سائر الشعائر والشرائع فقال : ﴿ وقضى رَبُّكَ ﴾ أي : أمر أمراً جزماً ، وحكماً قطعاً ، وحتماً مبرماً ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ ﴾ أي : بأن لا تعبدوا ، فتكون "أن" ناصبة ، ويجوز أن تكون مفسرة ، و "لا" نهي .

وقرىء (ووصى ربك) أي : وصى عباده بعبادته وحده ، ثم أردفه بالأمر ببرّ الوالدين فقال : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ أي : وقضى بأن تحسنوا بالوالدين إحسانا ، أو وأحسنوا بهما إحساناً ، ولا يجوز أن يتعلق ﴿ بالوالدين ب ﴿ إحسانا ﴾ ، لأن المصدر لا يتقدّم عليه ما هو متعلق به .

(90/454)

قيل : ووجه ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد عبادة الله سبحانه أنهما السبب الظاهر في وجود المتولد بينهما ، وفي جعل الإحسان إلى الأبوين قريناً لتوحيد الله وعبادته من الإعلان بتأكد حقهما والعناية بشأنهما ما لا يخفى ، وهكذا جعل سبحانه في آية أخرى شكرهما مقترناً بشكره فقال : ﴿ أَنِ اشكر لِى ولوالديك ﴾ [لقمان : 14] .

ثم خص سبحانه حالة الكبر بالذكر ، لكونها إلى البر من الولد أحوج من غيرها ، فقال : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ : " إما " مركبة من " إن " الشرطية و " ما " الإبهامية لتأكيد معنى الشرط ، ثم أدخلت نون التوكيد في الفعل لزيادة التقرير ، كأنه قيل : إن هذا الشرط مما سيقع ألبتة عادة .

قال النحويون : إن الشرط يشبه النهي من حيث الجزم وعدم الثبوت ، فلهذا صح دخول

النون المؤكدة عليه .

وقرأ حمزة والكسائي (يبلغان) .

قال الفراء : ثنى لأن الوالدين قد ذكرا قبله ، فصار الفعل على عددهما ، ثم قال : ﴿ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ على الاستئناف ، وأما على قراءة ﴿ يبلغن ﴾ فأحدهما فاعل بالاستقلال .

وقوله : ﴿ أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ فاعل أيضاً ، لكن لا بالاستقلال ، بل بتبعية العطف ، والأولى أن يكون أحدهما على قراءة (يبلغان) بدل من الضمير الراجع إلى الوالدين في الفعل ، ويكون ﴿ كلاهما ﴾ عطفاً على البدل ، ولا يصحّ جعل ﴿ كلاهما ﴾ تأكيداً للضمير ، لاستلزام العطف المشاركة ، ومعنى ﴿ عندك ﴾ في كنفك وكفالتك ، وتوحيد الضمير في ﴿ عندك ﴾ و ﴿ لا تقل ﴾ وما بعدهما للإشعار بأن كل فرد من الأفراد منهيّ بما فيه النهي ، ومأمور بما فيه الأمر ، ومعنى ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفّ ﴾ : لا تقل لواحد منهما في حالتي الاجتماع والانفراد ، وليس المراد حالة الاجتماع فقط .

وفي ﴿ أف ﴾ لغات : ضم الهمزة مع الحركات الثلاث في الفاء ، وبالتنوين وعدمه ، وبكسر الهمز والفاء بلا تنوين ، وأفى ممالاً ، وأفه بالهاء .

قال الفراء : تقول العرب : فلان يتأفف من ريح وجدها ، أي : يقول أف أف .

وقال الأصمعي : الأف وسخ الأذن ، والتف : وسخ الأظفار ، يقال ذلك : عند استقذار الشيء ، ثم كثر حتى استعملوه في كل ما يتأذون به .

وروى ثعلب عن ابن الأعرابيّ أن الأفف : الضجر ، وقال القتيبي : أصله : أنه إذا سقط عليه تراب ونحوه نفخ فيه ليزيله ، فالصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قول القائل : أفّ ، ثم توسعوا فذكروه عند كل مكروه يصل إليهم .

وقال الزجاج : معناه النتن .

وقال أبو عمرو بن العلاء : الأف : وسخ بين الأظفار ، والتف : قلامتها .

والحاصل أنه اسم فعل ينبىء عن التضجر والاستثقال ، أو صوت ينبىء عن ذلك ، فنهى الولد عن أن يظهر منه ما يدل على التضجر من أبويه أو الاستثقال لهما ، وبهذا النهي يفهم النهي عن سائر ما يؤذيهما بفحوى الخطاب أو بلحنه كما هو متقرر في الأصول .

﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ النهر : الزجر والغلظة ، يقال : نهره وانتهره : إذا استقبله بكلام يزجره . قال الزجاج : معناه لا تكلمهما ضجراً صائحاً في وجوههما .

﴿ وَقُل لَّهُمَا ﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿ قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أي : ليناً لطيفاً أحسن ما يمكن

التعبير عنه من لطف القول وكرامته مع التأدب والحياء والاحتشام ﴿ واخفض لهما جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة ﴾ ذكر القفال في معنى خفض الجناح وجهين : الأول : أن الطائر إذا أراد ضم فراخه إليه للتربية خفض لها جناحه ، فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير ، فكأنه قال للولد : أكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك في حال صغرك .

(92/454)

والثاني : أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه ، وإذا أراد النزول خفض جناحه ، فصار خفض الجناح كناية عن التواضع وترك الارتفاع ؛ وفي إضافة الجناح إلى الذلّ وجهان : الأوّل : أنها كإضافة حاتم إلى الجود في قولك : حاتم الجود ، فالأصل فيه : الجناح الذليل ، والثاني : سلوك سبيل الاستعارة كأنه تخيل للذلّ جناحاً ، ثم أثبت لذلك الجناح خفضاً .

وقرأ الجمهور (الذل) بضم الذال من ذلّ يذلّ ذلاً وذلة ومذلة فهو ذليل .

وقرأ سعيد بن جبير ، وعروة بن الزبير بكسر الذال ، وروي ذلك عن ابن عباس وعاصم ، من قولهم : دابة ذلول ، بنية الذل ، أي : منقادة سهلة لا صعوبة فيها ، و ﴿ من الرحمة ﴾

فيه معنى التعليل ، أي : من أجل فرط الشفقة والعطف عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم لمن كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس ، ثم كأنه قال له سبحانه : ولا تكتف برحمتك التي لا دوام لها ولكن ﴿ قُل رَّبِّ ارحمهما كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ والكاف في محل نصب على أنه صفة لمصدر محذوف ، أي : رحمة مثل تربيتهما لي ، أو مثل رحمتهما لي ، وقيل : ليس المراد رحمة مثل الرحمة ، بل الكاف لاقترانهما في الوجود ، فلتقع هذه كما وقعت تلك . والتربية : التنمية ، ويجوز أن يكون الكاف للتعليل ، أي : لأجل تربيتهما ، لي كقوله : ﴿ واذكروه كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ [البقرة : 198] .

ولقد بالغ سبحانه في التوصية بالوالدين مبالغة تقشعرّ لها جلود أهل العقوق وتقف عندها شعورهم .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة ﴾ قال : من كان يريد بعمله الدنيا ، ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ ذاك به .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو نعيم في الحلية عن الحسن في قوله : ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ ﴾ الآية ، قال : كل يرزق الله في الدنيا البرّ والفاجر .

(93/454)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال : يرزق الله من أراد الدنيا ، ويرزق من أراد الآخرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : ﴿ مَحْظُورًا ﴾ ممنوعاً .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن زيد مثله .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من عبد يريد أن يرتفع في الدنيا درجة ، فارتفع بها إلاّ وضعه الله في الآخرة درجة أكبر منها وأطول ، ثم قرأ ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ درجات وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ " ، وهو من رواية زاذان عن سلمان .

وثبت في الصحيحين : " أن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما يرون الكوكب الغابر في أفق السماء " وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَذْمُومًا ﴾ يقول : ملوماً .

وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن الأنباري في المصاحف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قرأ : (ووصى ربك) ، مكان ﴿ وقضى ﴾ ، وقال : التزقت الواو والصاد ، وأنتم تقرءونها : (وقضى ربك) .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عنه مثله .

وأخرج أبو عبيد ، وابن منيع ، وابن المنذر ، وابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عنه

أيضاً مثله ، وزاد " ولو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد " .

وأقول : إنما يلزم هذا لو كان القضاء بمعنى الفراغ من الأمر ، وهو وإن كان أحد معاني مطلق القضاء ، كما في قوله : ﴿ قُضِىَ الامر الذى فِيهِ تَسْتَفْتِيَان ﴾

[يوسف : 41] .

وقوله : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مناسككم ﴾ [البقرة : 200] .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصلاة ﴾ [النساء : 103] .

(94/454)

ولكنه ها هنا بمعنى الأمر ، وهو أحد معاني القضاء ، والأمر لا يستلزم ذلك ، فإنه سبحانه قد أمر عباده بجميع ما أوجبه ، ومن جملة ذلك إفراده بالعبادة وتوحيده ، وذلك لا يستلزم أن لا يقع الشرك من المشركين ، ومن معاني مطلق القضاء معانٍ أخر غير هذين المعنيين ، كالقضاء بمعنى : الخلق ، ومنه ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات ﴾ [فصلت : 12] .

وبمعنى الإرادة كقوله : ﴿ إِذَا قضى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 47] .

وبمعنى العهد كقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربى إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأمر ﴾ [القصص : 44] .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ وقضى ربُّكَ ﴾ قال : أمر .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في الآية قال : عهد ربك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ يقول : برّاً .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفّ ﴾ لما تميط عنهما من الأذى : الخلاء ، والبول كما كانا لا يقولانه فيما كانا يميطان عنك من الخلاء والبول .

وأخرج الديلمي عن الحسين بن عليّ مرفوعاً : لو علم الله شيئاً من العقوق أدنى من أف لحرّمه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد في قوله : ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ قال : إذا دعواك فقل : لبيكما وسعديكما .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية ، قال : قولاً ليناً سهلاً .

وأخرج البخاري في الأدب ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن عروة في قوله : ﴿ واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل ﴾ قال : يلين لهما حتى لا يمتنع من شيء أحبّاه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في الآية ، قال : اخضع لوالديك كما يخضع العبد للسيد الفظ الغليظ .

(95/454)

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارحمهما ﴾ ثم أنزل الله بعد هذا ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ والذين ءامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِى قربى ﴾ [التوبة : 113] .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد ، وأبو داود ، وابن جرير ، وابن المنذر من طرق عنه نحوه ، وقد ورد في برّ الوالدين أحاديث كثيرة ثابتة في الصحيحين وغيرهما ، وهي معروفة في كتب الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(96/454)

وقال القاسمى :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ ﴾

أي : أمر أمراً مقطوعاً به : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أي : وبأن تحسنوا بالوالدين إحساناً . قال القاشانِيّ : قرن سبحانه وتعالى إحسان الوالدين بالتوحيد

وتخصيصه بالعبادة ؛ لكونهما مناسبين للحضرة الربوبية ؛ لتربيتها إياك عاجزاً صغيراً ضعيفاً لا قدرة لك ولا حراك بك . وهما أول مظهر ظهر فيه آثار صفات الله تعالى من الإيجاد والربوبية ، والرحمة والرأفة بالنسبة إليك . ومع ذلك فإنهما محتاجان إلى قضاء حقوقهما ، والله غني عن ذلك . فأهم الواجبات بعد التوحيد إذاً ؛ إكرامهما والقيام بحقوقهما ما أمكن : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ في هذا من المبالغة في إكرام الوالدين وبرهما ما لا يخفى . و : ﴿ إمَّا ﴾ هي (إن) الشرطية زيدت عليها (ما) تأكيداً لها . و : ﴿ أَحَدُهُمَا ﴾ فاعل (يبلغن) و : ﴿ كِلاهُمَا ﴾ عطف عليه . ومعنى : ﴿ عِنْدَكَ ﴾ هو أن يكبرا ويعجزا ، وكانا كلاًّ على ولدهما ، ولا كافل لهما غيره ، فهما عنده في بيته وكنفه . وذلك أشق عليه وأشد احتمالاً وصبراً . وربما تولى منهما ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة . فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال ، حتى لا يقول لهما ، إذا أضجره ما يستقذر منهما ، أو يستثقل من مؤنهما : ﴿ أُفٍّ ﴾ فضلاً عما يزيد عليه . أفاده الزمخشري .

﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ أي : تزجرهم عما لا يعجبك ، بغلظة : ﴿ وَقُل لَّهُمَا ﴾ بدل التأفيف والنهر : ﴿ قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أي : حسناً كما يقتضيه حسن الأدب معهما . ومعنى قوله : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾ تذلل لهما وتواضع . وفيه استعارة مكنية وتخييلية . فشبه الذل بطائر تشبيهاً مضمراً ، وأثبت له الجناح تخييلاً ، والخفض ترشيحاً . و (خفضه) ما يفعله إذا ضم أفراخه للتربية . أو استعارة تصريحية في المفرد وهو الجناح ، والخفض ترشيح . و (الجناح) الجانب كما يقال (جناحا العسكر) وخفضه مجاز ، كما يقال (لِيّنْ الجانب) و (منخفض الجانب) . وإضافة الجناح إلى الذل للبيان ؛ لأنه صفة مبيّنة . أي : جناحك الذليل . وفيه مبالغة لأنه وصف بالمصدر . فكأنه جعل عين الذل . أو التركيب استعارة تمثيلية . فيكون مثلاً لغاية التواضع . وسر ذكر الجناح وخفضه ، تصوير الذل كأنه مشاهد محسوس . و : ﴿ مِنَ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ ابتدائية على سبيل التعليل . أي : من فرط رحمتك لهما ، وعطفك عليهما ، لكبرهما وافتقارهما اليوم ، إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس . وافتقارُ المرء إلى من كان مفتقراً له ، غايةٌ في الضراعة والمسكنة ، فيرحمه أشد رحمة . كما قال الخفاجي :

~يا من أتى يسأل عن فاقتي ما حال من يسأل من سائله ؟

~ما ذلة السلطان إلا إذا أصبح محتاجاً إلى عامله

وقوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ أي : رب ! تعطف عليهما برحمتك ومغفرتك ، كما تعطفا عليَّ في صغري ، فرحماني وربياني صغيراً حتى استقللت بنفسي ، واستغنيت عنهما .

قال الزمخشري : أي : لا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها ، وادع الله بأن يرحمهما رحمته الباقية . واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك . والكاف للتعليل . أي : لأجل تربيتهما لي .

(98/454)

قال الطيبي : الكاف لتأكيد الوجود . كأنه قيل : رب ارحمهما رحمة محققة مكشوفة لا ريب فيهما ، كقوله : ﴿ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ [الذاريات : 23] ، وهو وجه حسن .

تنبيه :

استحب بعض السلف أن يدعو المرء لوالديه في أواخر التشهد قبيل السلام ؛ لأنه وقت فاضل . وقد جمعت من الأدعية المأثورة للوالدين المتوفين أو أحدهما ، جملة ضممتها لكتابي "الأوراد المأثورة" . لا أزال أدعو لهما بما في السحر أو بين أذان الفجر وإقامة صلاته ؛ لما أرى من مزية هذا الوقت على غيره .

وقوله تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نفُوسِكُمْ ﴾ أي : ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين والعقوق : ﴿ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ ﴾ أي : قاصدين للصلاح والبر دون العقوق : ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ ﴾ أي : التوابين الرجاعين إليه تعالى بالندم عما فرط منهم ، والاستقامة على المأمور : ﴿ غفوراً ﴾ أي : لهم ما اكتسبوا . ولا يخفى ما في صدر الآية من الوعد لمن أضمر البر . والوعيد لمن أضمر الكراهة والاستثقال والعقوق .

قيل : الآية استئناف يقتضيه مقام التأكيد والتشديد . كأنه قيل : كيف يقوم بحقهما وقد تبدر بوادر ؟ فقيل : إذا بنيتم الأمر على الأساس ، وكان المستمر ذلك ، ثم اتفقت بادرة من غير قصد إلى المساءة ، فلطف الله يحجز دون عذابه . ويجوز - كما قال الزمخشري - أن يكون هذا عاماً لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها . ويندرج تحته الجاني على أبويه ، التائب من جنايته ؛ لوروده على أثره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 474.472 ﴾

(99/454)

وقال ابن عاشور :

﴿ وقضى ربُّكَ ألَّا تعبدوا إلَّا إياه ﴾ .

عطف على الكلام السابق عطف غرض على غرض تخلصاً إلى أعمدة من شريعة الإسلام بمناسبة الفذلكة المتقدمة تنبيهاً على أن إصلاح الأعمال متفرع على نبذ الشرك كما قال تعالى : ﴿ فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد : 1713] .

وقد ابتُدىء تشريع للمسلمين أحكاماً عظيمة لإصلاح جامعتهم وبناء أركانها ليزدادوا يقيناً بارتفاعهم على أهل الشرك وبانحطاط هؤلاء عنهم ، وفي جميعها تعريض بالمشركين الذين كانوا منغمسين في المنهيات .

وهذه الآيات أول تفصيل للشريعة للمسلمين وقع بمكة ، وأن ما ذكر في هذه الآيات مقصود به تعليم المسلمين .

ولذلك اختلف أسلوبه عن أسلوب نظيره في سورة الأنعام الذي وُجه فيه الخطاب إلى المشركين لتوقيفهم على قواعد ضلالتهم .

فمن الاختلاف بين الأسلوبين أن هذه الآية افتتحت بفعل القضاء المقتضي الإلزام ، وهو مناسب لخطاب أمة تمتثل أمر ربها ، وافتتح خطاب سورة [الأنعام : 151] بـ ﴿ تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ كما تقدم هنالك .

ومنها أن هذه الآية جعلت المقضي هو توحيد الله بالعبادة ، لأنه المناسب لحال المسلمين فحذرهم من عبادة غير الله .

وآية الأنعام جعلت المحرم فيها هو الإشراك بالله في الإلهية المناسب لما كانوا عليه من الشرك إذ لا عبادة لهم.

وأن هذه الآية فصل فيها حكم البر بالوالدين وحكم القتل وحكم الإنفاق ولم يفصل ما في آية الأنعام.

وكان ما ذكر في هذه الآيات خمسة عشر تشريعاً هي أصول التشريع الراجع إلى نظام المجتمع.

وأحسب أن هذه الآيات اشتهرت بين الناس في مكة وتناقلها العرب في الآفاق، فلذلك أَلَمّ الأعشى ببعضها في قصيدته المروية التي أعدها لمدح النبي صلى الله عليه وسلم حين جاء يريد الإيمان فصدته قريش عن ذلك، وهي القصيدة الدالية التي يقول فيها:

أجدّك لم تسمع وَصاة محمد . . .

نبيء الإله حين أوصى وأشهدا

فإياك والميتاتتِ لا تأكلنها . . .

ولا تأخذنْ سهماً حديداً لتفصدا

وذا النُصُب المنصوب لا تنسكنه . . .

ولا تَعبد الشيطانَ والله فاعبدا

وذا الرحم القربى فلا تقطعنه . . .

لفاقته ولا الأسيرَ المقيدا

ولا تسخرن من بائس ذي ضرارة . . .

ولا تَحسبن المال للمرء مخلدا

ولا تقربَنّ جارةً إن سرها . . .

عليك حَرام فانكحَنّ أو تأبّدا

وافتتحت هذه الأحكام والوصايا بفعل القضاء اهتماماً به وأنه مما أمر الله به أمراً جازماً وحكماً لازماً ، وليس هو بمعنى التقدير كقوله : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب ﴾ [الإسراء : 4] لظهور أن المذكورات هنا مما يقع ولا يقع .

و(أنْ) يجوز أن تكون تفسيرية لما في (قضى) من معنى القول .

ويجوز أن تكون مصدرية مجرورة بباء جر مقدرة ، أي قضى بأن لا تعبدوا .

وابتدىء هذا التشريع بذكر أصل التشريعة كلها وهو توحيد الله ، فذلك تمهيد لما سيذكر بعده من الأحكام .

وجيء بخطاب الجماعة في قوله : ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ لأن النهي يتعلق بجميع الناس وهو

تعريض بالمشركين .

والخطاب في قوله : ﴿ ربك ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم كالذي في قوله قبل : ﴿ من عطاء ربك ﴾ [الإسراء : 20] ، والقرينة ظاهرة .

ويجوز أن يكون لغير معين فيعم الأمة والمآل واحد .

وابتدىء التشريع بالنهي عن عبادة غير الله لأن ذلك هو أصل الإصلاح ، لأن إصلاح التفكير مقدم على إصلاح العمل ، إذ لا يشاق العقل إلى طلب الصالحات إلا إذا كان صالحاً .

وفي الحديث : " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " وقد فصلت ذلك في كتابي المسمى أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ﴾ .

هذا أصل ثانٍ من أصول الشريعة وهو بر الوالدين .

وانتصب ﴿ إحساناً ﴾ على المفعولية المطلقة مصدر نائباً عن فعله .

والتقدير : وأحسنوا إحساناً بالوالدين كما يقتضيه العطف على ﴿ ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ أي وقضى إحساناً بالوالدين .

﴿ وبالوالدين ﴾ متعلق بقوله؛ ﴿ إحساناً ﴾ ، والباء فيه للتعدية يقال: أحسن بفلان كما يقال أحسن إليه ، وقد تقدم قوله تعالى: ﴿ وقد أحسن بي ﴾ في سورة [يوسف : 100].

وتقديمه على متعلقه للاهتمام به ، والتعريف في الوالدين للاستغراق باعتبار والدي كل مكلف ممن شملهم الجمع في ألا تعبدوا ﴾ .

وعطف الأمر بالإحسان إلى الوالدين على ما هو في معنى الأمر بعبادة الله لأن الله هو الخالق فاستحق العبادة لأنه أوجد الناس.

ولما جعل الله الأبوين مظهرَ إيجاد الناس أمر بالإحسان إليهما ، فالخالق مستحق العبادة لغناه عن الإحسان ، ولأنها أعظم الشكر على أعظم منة ، ، وسببُ الوجود دون ذلك فهو يستحق الإحسان لا العبادة لأنه محتاج إلى الإحسان دون العبادة ، ولأنه ليس بمُوجد حقيقي ، ولأن الله جبل الوالدين على الشفقة على ولدهما ، فأمر الولد بمجازاة ذلك بالإحسان إلى أبويه كما سيأتي ﴿ وقل رب أرحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ .

وشمل الإحسان كل ما يصدق فيه هذا الجنس من الأقوال والأفعال والبذل والمواساة.

وجملة ﴿ إما يبلغن ﴾ بيان لجملة ﴿ إحساناً ﴾ ، و ﴿ إما ﴾ مركبة من (إن) الشرطية و (ما) الزائدة المهيئة لنون التوكيد ، وحقها أن تكتب بنون بعد الهمزة وبعدها (

ما) ولكنهم راعوا حالة النطق بها مدغمة فرسموها كذلك في المصاحف وتبعها رسم الناس غالباً ، أي إن يبلغ أحدُ الوالدين أو كلاهما حد الكبَر وهما عندك ، أي في كفالتك فَوَطّىء لهما خُلُقك ولين جانبك .

والخطاب لغير معين فيعم كل مخاطب بقرينة العطف على ﴿ ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ وليس خطاباً للنبيء صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن له أبوان يومئذٍ .

وإيثار ضمير المفرد هنا دون ضمير الجمع لأنه خطاب يختص بمن له أبوان من بين الجماعة المخاطبين بقوله : ﴿ ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ فكان الإفراد أنسب به وإن كان الإفراد والجمع سواء في المقصود لأن خطاب غير المعين يساوي خطاب الجمع .

(102/454)

وخص هذه الحالة بالبيان لأنها مظنة انتفاء الإحسان بما يلقى الولد من أبيه وأمّه من مشقة القيام بشؤونهما ومن سوء الخلق منهما .

ووجه تَعدد فاعل ﴿ يبلغن ﴾ مُظهراً دون جعله بضمير التثنية بأن يقال إما يبلغَانِّ عندك الكبر ، الاهتمام بتخصيص كل حالة من أحوال الوالدين بالذكر ، ولم يستغن بإحدى الحالتين عن الأخرى لأن لكل حالة بواعث على التفريط في واجب الإحسان إليهما ، فقد تكون

حالة اجتماعهما عند الابن تستوجب الاحتمال منهما لأجل مراعاة أحدهما الذي الابن أشد حُبّاً له دون ما لو كان أحدهما منفرداً عنده بدون الآخر الذي ميله إليه أشد ، فالاحتياج إلى ذكر أحدهما في هذه الصورة للتنبيه على وجوب المحافظة على الإحسان له .

وقد تكون حالة انفراد أحد الأبوين عند الابن أخف كلفة عليه من حالة اجتماعهما ، فالاحتياج إلى ﴿ أو كلاهما ﴾ في هذه الصورة للتحذير من اعتذار الابن لنفسه عن التقصير بأن حالة اجتماع الأبوين أحرَج عليه ، فلأجل ذلك ذكرت الحالتان وأجري الحكم عليهما على السواء ، فكانت جملة ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ بتمامها جواباً لـ (إما) .

وأكد فعل الشرط بنون التوكيد لتحقيق الربط بين مضمون الجواب ومضمون الشرط في الوجود .

وقرأ الجمهور ﴿ إما يبلغن ﴾ على أن ﴿ أحدهما ﴾ فاعل ﴿ يبلغن ﴾ فلا تلحق الفعل علامة لأنّ فاعله اسم ظاهر .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ يبلغان ﴾ بألف التثنية ونون مشددة والضمير فاعل عائد إلى الوالدين في قوله : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ ، فيكون ﴿ أحدهما أو كلاهما ﴾ بدلاً من ألف المثنى تنبيهاً على أنه ليس الحكم لاجتماعهما فقط بل هو للحالتين على التوزيع .

والخطاب بـ ﴿ عندك ﴾ لكل من يصلح لسماع الكلام فيعم كل مخاطب بقرينة سبق قوله : ﴿ ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ ، وقوله اللاحق ﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم ﴾ [الإسراء : 25] .

﴿ أف ﴾ اسم فعل مضارع معناه أتضخر .

وفيه لغات كثيرة أشهرها كلها ضم الهمزة وتشديد الفاء ، والخلاف في حركة الفاء ، فقرأ نافع ، وأبو جعفر ، وحفص عن عاصم بكسر الفاء منونة .

وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، ويعقوب بفتح الفاء غيرَ منونة .

وقرأ الباقون بكسر الفاء غير منونة .

وليس المقصود من النهي عن أن يقول لهما ﴿ أف ﴾ خاصة ، وإنما المقصود النهي عن الأذى الذي أقله الأذى باللسان بأوْجز كلمة ، وبأنها غير دالة على أكثر من حصُول الضجر لقائلها دون شتم أو ذم ، فيفهم منه النهي مما هو أشد أذى بطريق فحوى الخطاب بالأوْلى .

ثم عطف عليه النهي عن نهرهما لئلا يُحسب أن ذلك تأديب لصلاحهما وليس بالأذى .

والنهر الزجر ، يقال : نهره وانتهره .

ثم أمر بإكرام القول لهما .

والكريم من كل شيء : الرفيع في نوعه .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ومغفرة ورزق كريم ﴾ في سورة [الأنفال : 4] .

وبهذا الأمر انقطع العذر بحيث إذا رأى الولد أن ينصح لأحد أبويه أو أن يحذر مما قد يضر به أدى إليه ذلك بقول لين حسن الوقع .

ثم ارتقى في الوصاية بالوالدين إلى أمر الولد بالتواضع لهما تواضعاً يبلغ حد الذل لهما لإزالة وحشة نفوسهما إن صارا في حاجة إلى معونة الولد ، لأن الأبوين يبغيان أن يكونا هما النافعين لولدهما .

والقصد من ذلك التخلق بشكره على أنعامهما السابقة عليه .

وصيغ التعبير عن التواضع بتصويره في هيئة تذلل الطائر عندما يعتريه خوف من طائر أشد منه إذ يخفض جناحه متذللاً .

ففي التركيب استعارة مكنية والجناح تخييل بمنزلة تخييل الأظفار للمنية في قول أبي ذُؤْيبَ:

وإذا المنية أنشبت أظفارها . . .

ألفيتَ كل تميمة لا تنفع

وبمنزلة تخييل اليد للشمال بفتح الشين والزمام للقرة في قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقِرةٍ . . .

إذْ أصبحت بيد الشمال زِمامها

ومجموع هذه الاستعارة تمثيل .

وقد تقدم في قوله : ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ في سورة [الحجر : 88] .

(104/454)

والتعريف في ﴿ الرحمة ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أي من رحمتك إياهما .

و(من) ابتدائية ، أي الذل الناشىء عن الرحمة لا عن الخوف أو عن المداهنة .

والمقصود اعتياد النفس على التخلق بالرحمة باستحضار وجوب معاملته إياهما بها حتى يصير له خلقاً ، كما قيل:

إن التخلق يأتي دونه الخلق . . .

وهذه أحكام عامة في الوالدين وإن كانا مشركين ، ولا يُطاعان في معصية ولا كفر كما في آية سورة العنكبوت .

ومقتضى الآية التسوية بين الوالدين في البر وإرضاؤهما معاً في ذلك ، لأن موردها لفعل يصدر من الولد نحو والديه وذلك قابل للتسوية .

ولم تتعرض لما عدا ذلك مما يختلف فيه الأبوان ويتشاحان في طلب فعل الولد إذا لم يمكن

الجمع بين رغبتيهما بأن يأمره أحد الأبوين بضد ما يأمره به الآخر .

ويظهر أن ذلك يجري على أحوال تعارض الأدلة بأن يسعى إلى العمل بطلبيهما إن استطاع .

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة : "أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم مَن أحقّ الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك .

قال : ثم مَن ؟ قال : ثم أمُّك .

قال : ثم مَن ؟ قال : ثم أمُّك .

قال : ثمّ من ؟ قال : ثم أبوك"

وهو ظاهر في ترجيح جانب الأم لأن سؤال السائل دل على أنه يسأل عن حسن معاملته لأبويه .

وللعلماء أقوال:

أحدها : ترجيح الأم على الأب وإلى هذا ذهب الليث بن سعد ، والمحاسبي ، وأبو حنيفة .

وهو ظاهر قول مالك ، فقد حكى القرافي في الفرق 23 عن مختصر الجامع أن رجلاً سأل مالكاً فقال : إن أبي في بلد السودان وقد كتب إليّ أن أقدم عليه وأمي تمنعني من ذلك ؟

فقال مالك : أَطِعْ أباك ولا تعْص أمك .

وذكر القرافي في المسألة السابعة من ذلك الفرق أن مالكاً أراد منع الابن من الخروج إلى

السودان بغير إذن الأم .

الثاني : قول الشافعية أن الأبوين سواء في البر .

وهذا القول يقتضي وجوب طلب الترجيح إذا أمرا ابنهما بأمرين متضادين .

وحكى القرطبي عن المحاسبي في كتاب "الرعاية" أنه قال : لا خلاف بين العلماء في أن للأم ثلاثة أرباع البر وللأب الربع .

وحكى القرطبي عن الليث أن للأم ثلثي البر وللأب الثلث ، بناء على اختلاف رواية الحديث المذكور أنه قال : ثم أبوك بعد المرة الثانية أو بعد المرة الثالثة .

والوجه أن تحديد ذلك بالمقدار حوالة على ما لا ينضبط وأن محمل الحديث مع اختلاف روايتيه على أن الأم أرجح على الإجمال .

ثم أمر بالدعاء لهما برحمة الله إياهما وهي الرحمة التي لا يستطيع الولد إيصالها إلى أبويه إلا بالابتهال إلى الله تعالى .

وهذا قد انتُقل إليه انتقالاً بديعاً من قوله : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾

فكان ذكر رحمة العبد مناسبة للانتقال إلى رحمة الله ، وتنبيهاً على أن التخلق بمحبة الولد

الخير لأبويه يدفعه إلى معاملته إياهما به فيما يعلمانه وفيما يخفى عنهما حتى فيما يصل إليهما بعد مماتهما .

وفي الحديث " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم بثه في صدور الرجال ، وولد صالح يدعو له بخير "

وفي الآية إيماء إلى أن الدعاء لهما مستجاب لأن الله أذن فيه .

والحديث المذكور مؤيد ذلك إذ جعل دعاء الولد عملاً لأبويه .

وحكم هذا الدعاء خاص بالأبوين المؤمنين بأدلة أخرى دلت على التخصيص كقوله : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ [التوبة : 113] الآية .

والكاف في قوله : كما ربياني صغيراً ﴾ للتشبيه المجازي يعبر عنه النحاة بمعنى التعليل في الكاف ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ [البقرة : 198] ، أي ارحمهما رحمة تكافىء ما ربياني صغيرا .

وصغيراً ﴾ حال من ياء المتكلم .

والمقصود منه تمثيل حالة خاصة فيها الإشارة إلى تربية مكيفة برحمة كاملة فإن الأبوة تقتضي رحمة الولد ، وصغر الولد يقتضي الرحمة به ولو لم يكن ولداً فصار قوله : ﴿ كما ربياني صغيراً ﴾ قائماً مقام قوله كما ربياني ورحماني بتربيتهما .

فالتربية تكملة للوجود ، وهي وحدها تقتضي الشكر عليها .

والرحمة حفظ للوجود من اجتناب انتهاكه وهو مقتضى الشكر ، فجمع الشكر على ذلك كله بالدعاء لهما بالرحمة .

والأمر يقتضي الوجوب .

وأما مواقع الدعاء لهما فلا تنضبط وهو بحسب حال كل امرىء في أوقات ابتهاله .

وعن سفيان بن عيينة إذا دعا لهما في كل تشهد فقد امتثل .

ومقصد الإسلام من الأمر ببر الوالدين وبصلة الرحم ينحل إلى مقصدين:

أحدهما : نفساني وهو تربية نفوس الأمة على الاعتراف بالجميل لصانعه ، وهو الشكر ، تخلقاً بأخلاق الباري تعالى في اسمه الشكور ، فكما أمر بشكر الله على نعمة الخلق والرزق أمر بشكر الوالدين على نعمة الإيجاد الصوري ونعمة التربية والرحمة .

وفي الأمر بشكر الفضائل تنويه بها وتنبيه على المنافسة في إسدائها .

والمقصد الثاني عمراني ، وهو أن تكون أواصر العائلة قوية العُرى مشدودة الوثوق فأمر بما يحقق ذلك الوثوق بين أفراد العائلة ، وهو حسن المعاشرة ليربي في نفوسهم من التحاب والتواد ما يقوم مقام عاطفة الأمومة الغريزية في الأم ، ثم عاطفة الأبوة المنبعثة عن إحساسٍ بعضه غريزي ضعيف وبعضه عقلي قوي حتى أن أثر ذلك الإحساس

ليساوي بمجموعه أثر عاطفة الأم الغريزية أو يفوقها في حالة كبر الابن .

ثم وزع الإسلام ما دعا إليه من ذلك بين بقية مراتب القرابة على حسب الدنو في القرب النسبي بما شرعه من صلة الرحم ، وقد عزز الله قابلية الانسياق إلى تلك الشرعة في النفوس .

جاء في الحديث : " أن الله لما خلق الرحم أخذت بقائمة من قوائم العرش وقالت : هذا مقام العائذ بكَ من القطيعة .

فقال الله : أما تَرْضَيْنَ أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك " وفي الحديث : " إن الله جعل الرحم من اسمه الرحيم " .

(107/454)

وفي هذا التكوين لأواصر القرابة صلاح عظيم للأمة تظهر آثاره في مواساة بعضهم بعضاً ، وفي اتحاد بعضهم مع بعض ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ [الحجرات : 13] .

وزاده الإسلام توثيقاً بما في تضاعيف الشريعة من تأكيد شد أواصر القرابة أكثر مما حاوله كل دين سلف .

وقد بينا ذلك في بابه من كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية ﴾ .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (25) ﴾

تذييل لآية الأمر بالإحسان بالوالدين وما فصل به ، وما يقتضيه الأمر من اختلاف أحوال المأمورين بهذا الأمر قبل وروده بين موافق لمقتضاه ومفرط فيه ، ومن اختلاف أحوالهم بعد وروده من محافظ على الامتثال ، ومقصر عن قصد أو عن بادرة غفلة .

ولما كان ما ذكر في تضاعيف ذلك وما يقتضيه يعتمد خلوص النية ليجري العمل على ذلك الخلوص كاملاً لا تكلف فيه ولا تكاسل ، فلذلك ذيله بأنه المطلع على النفوس والنوايا ، فوعد الولد بالمغفرة له إن هو أدى ما أمره الله به لوالديه وافياً كاملاً .

وهو مما يشمله الصلاح في قوله : ﴿ إن تكونوا صالحين ﴾ أي ممتثلين لما أمرتم به .

وغير أسلوب الضمير فعاد إلى ضمير جمع المخاطبين لأن هذا يشترك فيه الناس كلهم فضمير الجمع أنسب به .

ولما شمل الصلاح الصلاح الكامل والصلاح المشوب بالتقصير ذيله بوصف الأوابين المفيد بعمومه معنى الرجوع إلى الله ، أي الرجوع إلى أمره وما يرضيه ، ففهم من الكلام معنى احتباك بطريق المقابلة .

والتقدير إن تكونوا صالحين أوابين إلى الله فإنه كان للصالحين محسناً وللأوابين غفوراً .

وهذا يعم المخاطبين وغيرهم ، وبهذا العموم كان تذييلاً .

وهذا الأوْب يكون مطرداً ، ويكون معرضاً للتقصير والتفريط ، فيقتضي طلب الإقلاع عما يخرمه بالرجوع إلى الحالة المرضية ، وكل ذلك أوْب وصاحبه آيِب ، فصيغ له مثال المبالغة (أواب) لصلوحية المبالغة لقوة كيفية الوصف وقوة كميته .

فالملازم للامتثال في سائر الأحوال المراقب لنفسه أواب لشدة محافظته على الأوبة إلى الله ، والمغلوب بالتفريط يؤوب كلما راجع نفسه وذكر ربه ، فهو أواب لكثرة رجوعه إلى أمر ربه ، وكل من الصالحين .

وفي قوله : ﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم ﴾ ما يشمل جميع أحوال النفوس وخاصة حالة التفريط وبوادر المخالفة .

وهذا من رحمة الله تعالى بخلقه .

وقد جمعت هذه الآية مع إيجازها تيسيراً بعد تعسير مشوباً بتضييق وتحذير ليكون المسلم على نفسه رقيباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴾ .

لأن معنى قوله ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ ﴾ الآية : اي إن يبلغ عندل والدك أو أحدهما الكبر فلا تقل لهما أف . ومعلوم أن والديه قد ماتا قبل ذلك بزمن طويل . فلا وجه لاشتراط بلوغهما أو أحدهما الكبر بعد أن ماتا منذ زمن طويل ، إلا أن المراد التشريع لغيره صلى الله عليه وسلم . ومن أساليب اللغة العربية خطابهم إنساناً والمراد بالخطاب غيره . ومن الأمثلة السائرة في ذلك قوله الراجز ، وهو سهل بن مالك الفزاري :

إياك أعني واسمعي يا جاره . . . وسبب هذا المثل : أنه زار حارثة بن لأم الطائي فوجده غائباً . فأنزلته وأكرمته ، وكانت جميلة . فأعجبه جمالها ، فقال مخاطباً لأخرى غيرها ليسمعها هي :

يا أخت خير البدو والحضارة . . . كيف ترين في فتى فزاره

أصبح يهوى حرة معطاره . . . إياك أعني واسمعي يا جاره

ففهمت المرأة مراده ، وأجابته بقولها :

إني اقول يا فتى فزاره . . . لا أبتغي الزوج ولا الدعاره

ولا فراق أهل هذي الحاره . . . فارحل إلى أهلك باستحاره

والظاهر أن قولها " باستحارة " أن أصله استفعال من المحاورة بمعنى رجع الكلام بينهما – أي ارحل إلى أهلك بالمحاورة التي وقعت بيني وبينك ، وهي كلامك وجوابي له ، ولا تحصل مني على غير ذلك ! والهاء في " الاتحارة " عوض من العين الساقطة بالإعلال . كما هو معروف في فن الصرف .

(110/454)

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الخطاب في قوله : ﴿ لَّا تَجْعَل مَعَ اللهِ إلها آخَرَ ﴾ [الإسراء : 22] ونحو ذلك من الآيات – متوجه إلى المكلف . ومن أساليب اللغة العربية : غفراد الخطاب مع قصد التعميم . كقول طرفة بن العبد في معلقته :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً . . . ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقال الفراء ، والكسائي ، والزمخشري : ومعنى قوله ﴿ فتقعد ﴾ أي تصير . زجعل الفراء مه قول الراجز :

لا يقنع الجارية الخضاب . . . ولا الوشاحان ولا الجلباب

من دون أن تلتقي الأركاب . . . ويقعد الأير له لعاب

أي يصير له لعاب .

وحكى الكسائي : قعد لا يسأل حاجة إلا قضاها . بمعنى صار . قاله أبو حيان في البحر .

ثم قال أيضاً : والقعود هنا عبارة عن المكث ، أي فتمكث في الناس مذموماً مخذولاً . كما تقول لمن سأل عن حال شخص : هو قاعد في أسوأ حال . ومعناه ماكث ومقيم . سوء كان قائماً أم جالساً . وقد يراد القعود حقيقة . لأن من شأن المذموم المخذول أن يقعد حائراً متفكراً ، وعبر بغالب حالة وهو القعود . وقيل : معنى ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ [الإسراء : 22] فتعجز . والعرب تقول : ما أقعدك عن المكارم اه محل الغرض من كلام أبي حيان .

والمذموم هنا : هو ن يلحقه الذم من الله ومن العقلاء من الناس .

حيث أشرك بالله ما لا ينفع ولا يضر ، ولا يقدر على شيء .

والمخذول : هرة الذي لا ينصره من كان يؤمل منه النصر . ومنه قوله :

إن المرء ميتاً بانقضاء حياته . . . ولكن بأن يبغي عليه فيخذلا

قوله تعالى : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ وبالوالدين إِحْسَاناً ﴾

أمر جل وعلا في هذه الآية الكريمة بإخلاص العبادة له وحده ، وقرن بذلك الأمر بالإحسان إلى الوالدين .

(111/454)

وجعله بر الوالدين مقروناً بعبادته وحده جل وعلا المذكور هنا ذكره في آيات أخر . كقوله في "النساء " : ﴿ واعبدوا الله ولَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وبالوالدين إِحْسَانًا ﴾ [النساء : 36] الآية ، وقوله في البقرة : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا الله وبالوالدين إِحْسَانًا ﴾ [البقرة : 83] الآية ، وقوله في سورة لقمان : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المصير ﴾ [لقمان : 14] ، وبين في موضع آخر أن برهما لازم ولو كانا مشركين داعيين إلى شركهما . كقلوه في " لقمان " : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ على أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان : 15] وقوله في العنكبوت : : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ [العنكبوت : 8] الآية .

وذكره جل وعلا في هذه الآيات : بر الوالدين مقروناً بتوحيده جل وعلا في عبادته ، يدل على شدة تأكد وجوب بر الواليدن . وجاءت عن النّبي صلى الله عليه وسلم في ذلك أحاديث كثيرة .

(112/454)

وقوله جل وعلا في الآيات المذكورة : ﴿ وبالوالدين إِحْسَانا ً ﴾ بينة بقوله تعالى : ﴿ وقضى ربُّكَ ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاه وبالوالدين إحْسَانا ً إمَّا يَبْلُغَنَّ عِندكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة وَقُل رَّبِّ ارحمهما كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [الإسراء : 23-24] لأن هذا من الإحسان إليهما المذكور في الآيات . وسيأتي إن شاء الله تعالى إيضاح معنى خفض الجناح ، وإضافته إلى الذل في سورة الشعراء " وقد أوضحنا ذلك غاية الإيضاح في رسالتنا المسماة " منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز " .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وقضى ربُّكَ ﴾ معناه : أمر وألزم ، وأوجب ووصى ألا تبعدوا إلا إياه .

وقال الزمخشري : ﴿ وقضى ربُّكَ ﴾ أي أمر أمراً مقعطوعاً له . واختار أبو حيان في " البحر المحيط " أن إعراب قوله ﴿ إِحْسَانا ﴾ أنه مصدر نائب عن فعله . فهو بمعنى الأمر ، وعطف الأمر المعنوي أو الصريح على النهي معروف . كقوله :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم . . . يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقال الزمخشري في الكشف : ﴿ وبالوالدين إِحْسَانا ً ﴾ أي وأحسنوا بالوالدين إحساناً . أو بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

بعد أنْ وجَّهنا الله تعالى إلى القضية العقدية الكبرى: ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ . .

﴾[الإسراء: 22]

أراد سبحانه أنْ يُبيّن لنا أن العقيدة والإيمان لا يكتملان إلا بالعمل ، فلا يكفي أن تعرف الله وتتوجّه إليه ، بل لا بُدَّ أنْ تنظر فيما فرضه عليك ، وفيما كلّفك به ؛ لذلك كثيراً ما نجد في آيات الكتاب الكريم الجمع بين الإيمان والعمل الصالح ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ

﴾[العصر: 3]

لأن فائدة الإيمان وثمرته العمل الصالح ، وما دُمْتَ ستسلك هذا الطريق فانتظر مواجهة أهل الباطل والفساد والضلال ، فإنهم لن يدعُوك ولن يُسالموك ، ولا بُدَّ أن تُسلِّح نفسك بالحق والقوة والصبر ، لتستطيع مواجهة هؤلاء .

ودليل آخر على أن الدين ليس الإيمان القوليّ فقط ، أن كفار مكة لم يشهدوا أن لا إله إلا الله ،

فلو كانت المسألة مسألةَ الإيمان بإله واحد وتنتهي القضية لَكانوا قالوا وشهدوا بها ، إنما هم يعرفون تماماً أن للإيمان مطلوباً ، ووراءه مسئولية عملية ، وأن من مقتضى الإيمان بالله أن تعمل بمراده وتأخذ بمنهجه .

(114/454)

ومن هنا رفضوا الإيمان بإله واحد ، ورفضوا الانقياد لرسوله صلى الله عليه وسلم الذي جاء ليُبلِغهم مراد الله تعالى ، وينقل إليهم منهجه ، فمنهج الله لا ينزل إلا على رسول يحمله ويُبلّغه للناس ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: 51]

وها هي أول الأحكام في منهج الله: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ . . ﴾ [الإسراء: 23]

وقد آثر الحق سبحانه الخطاب بـ ﴿ رَبُّكَ ﴾ على لفظ (الله) ؛ لأن الربَّ هو الذي خلقك وربّاك ، ووالى عليك بنعمه ، فهذا اللفظ أَدْعَى للسمع والطاعة ، حيث يجب أن يخجل الإنسان من عصيان المنعِم عليه وصاحب الفضل .

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ . . ﴾ [الإسراء: 23]

الخطاب هنا مُوجّه إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه هو الذي بلغ المرتبة العليا في التربية والأدب ، وهي تربية حقّة ؛ لأن الله تعالى هو الذي ربّاه ، وأدّبه احسن تأديب .

وفي الحديث الشريف: " أدّبني ربي فأحسن تأديبي " .

قضى: معناها : حكم ؛ لأن القاضي هو الذي يحكم ، ومعناها أيضاً : أمر ، وهي هنا جامعة للمعنييْن ، فقد أمر الله ألاّ تعبدوا إلا إيّاه أمراً مؤكداً ، كأنه قضاء وحكم لازم .

وقد تأتي قضى بمعنى: خلق . كما في قوله تعالى: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ . . ﴾ [فصلت: 12]

وتأتي بمعنى: بلغ مراده من الشيء ، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا . . ﴾ [الأحزاب: 37]

وقد تدل على انتهاء المدة كما في:

﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ . . ﴾ [القصص: 29]

وتأتي بمعنى: أراد كما في: ﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [غافر: 68]

إذن: قضى لها معانٍ مُتعدّدة ، لكن تجتمع كلها لتدل على الشيء اللازم المؤكّد الذي لا نقص فيه .

وقوله: ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ . . ﴾ [الإسراء: 23]

العبادة: هي إطاعة آمر في أمره ونهيه، فتنصاع له تنفيذاً للأمر، واجتناباً للنهي، فإنْ ترك لك شيئاً لا أمر فيه ولا نهي فاعلم أنه ترك لك الاختيار، وأباح لك: تفعل أو لا تفعل.

لذلك، فالكفار الذين عبدوا الأصنام والذين أتوا بها حجارةً من الصحراء، وأعملوا فيها المعاول والأدوات لينحتوها، وتكسرت منهم فعالجوها، ووقعت فأقاموها، وهم يرون كم هي مهينة بين أيديهم لدرجة أن أحدهم رأى الثعلب يبول برأس أحد الأصنام فقال مستنكراً حماقة هؤلاء الذين يعبدونها: أَرَبٌّ يبولُ الثُّعلبانُ برأْسِهِ لقدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْه الثَّعَالِبُ فإذا ما تورطوا في السؤال عن آلهتهم هذه قالوا: إنها لا تضر ولا تنفع، وما نعبدها إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى، كيف والعبادة طاعة أمر واجتناب نهي. فبأيّ شيء أمرتكم الأصنام؟ وعن أيّ شيء نهتْكُمْ؟! إذن: كلامُكم كذاب في كذب.

وفي قوله تعالى: ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ . . ﴾ [الإسراء: 23]

أسلوب يسمونه أسلوب قَصْر، يفيد قصر العبادة وإثباتها لله وحده، بحيث لا يشاركه فيها أحد. فلو قالت الآية: وقضى ربك أن تعبدوه . . فلقائل أن يقول: ونعبد غيره لأن باب العطف هنا مفتوح لم يُغْلَق، كما لو قُلْت: ضربتُ فلاناً وفلاناً وفلاناً . . هكذا باستخدام العطف. إنما لو قلت، ما ضربن إلا فلاناً فقد أغلقت باب العطف.

إذن: جاء التعبير بأسلوب القصر ليقول: اقصروا العبادة عليه سبحانه، وانفوها عن غيره.

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى التكليف والأمر الثاني بعد عبادته: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . . ﴾ [الإسراء: 23]

وقد قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [النساء: 36]

(116/454)

وقال: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . . ﴾ [الأنعام: 151]

وقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت: 8]

لكن، لماذا قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين؟ أتريد أن نقرب الأولى بالثانية، أم نقرب الثانية بالأولى؟

نقول: لا مانع أن يكون الأمران معاً؛ لأن الله تعالى غَيْب، والإيمان به يحتاج إلى إعمال عقل وتفكير، لكن الوالدين بالنسبة للإنسان أمر حسيّ، فهما سِرُّ وجوده المباشر، وهما ربّياه

ووفَّرا له كل متطلبات حياته، وهما مصدر العطف والحنان.

إذن: التربية والرعاية في الوالدين مُحسّة، أما التربية والرعاية من الله فمعقولة، فأمْر الله لك بالإحسان إلى الوالدين دليل على وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، فهو سبحانه الذي خلقك، وهو سبب وجودك الأول، وهو مُربّيك وصاحب رعايتك، وصاحب الفضل عليك قبل الوالدين، وهل رباك الوالدان بما أوجداه هما، أما بما أوجده الله سبحانه؟

إذن: لابد أن يلتحم حَقُّ الله بحقِّ الوالدين، وأن نأخذ أحدهما دليلاً على الآخر.

ونلاحظ أن الحق تبارك وتعالى حين أمرنا بعبادته جاء بأسلوب النفي: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ.. ﴾ [الإسراء: 23]

يعني نهانا أن نعبد غيره سبحانه، أما حين تكلم عن الوالدين فلم يقل مثلاً: لا تسيئوا للوالدين، فيأتي بأسلوب نفي كسابقه، لماذا؟

قالوا: لأن فضل الوالدين واضح لا يحتاج إلى إثبات، ولا يحتاج إلى دليل عقليّ، وقولك: لا تسيئوا للوالدين يجعلهما مَظنّة الإساءة، وهذا غير وارد في حقّهما، وغير مُتصوَّر منهما، وأنت إذا نفيتَ شيئاً عن مَنْ لا يصح أن ينفي عنه فقد ذمَمْته، كأن تنفي عن أحد الصالحين المشهورين بالتقوى والورع، تنفي عنه شرب الخمر مثلاً فهل هذا في حقه مدح أم ذم؟

لأنك ما قلتَ: إن فلاناً لا يشرب الخمر إلا إذا كان الناس تظنّ فيه ذلك. ومن هنا قالوا: نَفْي العيب عَمَّنْ لا يستحق العيب عَيْب.

إذن: لم يذكر الإساءة هنا؛ لأنها لا تَرِد على البال، ولا تُتصوّر من المولود لوالديه.

وبعد ذلك، ورغم ما للوالدين من فضل وجميل عليك فلا تنسَ أن فضل الله عليك أعظم؛ لأن والديك قد يَلدانِك ويُسْلِمانك إلى الغير، أما ربك فلن يُسلمك إلى أحد.

وقوله تعالى: ﴿ إِحْسَاناً.. ﴾ [الإسراء: 23]

كأنه قال: أحْسِنوا إليهم إحساناً، فحذف الفعل وأتى بمصدره للتأكيد.

وقوله تعالى: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴾ [الإسراء: 23]

الحق سبحانه وتعالى حينما يوصينا بالوالدين، مرة تأتي الوصية على إطلاقها، كما قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً.. ﴾ [الأحقاف: 14]

ومرّة يُعلّل لهذه الوصية، فيقول: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ.. ﴾ [لقمان: 14]

والذي يتأمل الآيتين السابقتين يجد أن الحق سبحانه ذكر العِلّة في برِّ الوالدين، والحيثيات التي استوجبت هذا البِرّ، لكنها خاصة بالأم، ولم تتحدث أبداً عن فضل الأب، فقال: ﴿

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ . . ﴾ [لقمان: 14]

فأين دَوْر الأب ؟ وأين مجهوداته طوال سنين تربية الأبناء ؟

المتتبع لآيات بر الوالدين يجد حيثية مُجْملة ذكرت دور الأب والأم معاً في قوله تعالى: ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً . . ﴾ [الإسراء: 24]

لكن قبل أن يُربّي الأب، وقبل أن يبدأ دوره كان للأم الدور الأكبر؛ لذلك حينما تخاصم الأب والأم لدى القاضي على ولد لهما ، قالت الأم: لقد حمله خِفّاً وحملتُه ثقلاً ، ووضعه شهوة ووضعتُه كرهاً .

(118/454)

لذلك ذكر القرآن الحيثيات الخاصة بالأم؛ لأنها تحملتها وحدها لم يشاركها فيها الزوج؛ ولأنها حيثيات سابقة لإدراك الابن فلم يشعر بها ، فكأنه سبحانه وتعالى أراد أنْ يُذكّرنا بفضل الأم الذي لم ندركه ولم نُحِسّ به .

وذلك على خلاف دور الأب فهو محسوس ومعروف للابن ، فأبوه الذي يوفر له كل ما يحتاج إليه ، وكلما طلب شيئاً قالوا: حينما يأتي أبوك ، فدَوْر الأب ـ إذن ـ معلوم لا يحتاج إلى بيان .

والآية هنا أوصتْ بالوالدين في حال الكِبَر ، فلماذا خَصَّتْ هذه الحال دون غيرها ؟

قالوا : لأن الوالدين حال شبابهما وقُوتهما ليسا مظنّة الإهانة والإهمال ، ولا مجال للتأفف والتضجُّر منهما ، فهما في حال القوة والقدرة على مواجهة الحياة ، بل العكس هو الصحيح نرى الأولاد في هذه الحال يتقربون للآباء ، ويتمنون رضاهما ، لينالوا من خيرهما .

لكن حالة الكِبَر ، ومظهر الشيخوخة هو مظهر الإعالة والحاجة والضعف ، فبعد أنْ كان مُعْطياً أصبح آخذاً ، وبعد أنْ كان عائلاً أصبح عالة .

لذلك ، فالنبي صلى الله عليه وسلم في حديث الآمينات والمراغم ، وكان على المنبر ، فسمعه الصحابة يقول: آمين . ثم سكت برهة . وقال: آمين وسكت . ثم قال: آمين . فلما نزل قالوا : يا رسول الله سمعناك تقول: آمين ثلاثاً . فقال: " جاءني جبريل فقال: رغم أنف مَنْ ذُكِرْتَ عنده ولم يُصَلّ عليك ، قل: آمين . فقلت: آمين ، ورغم أنف مَنْ أدرك رمضان فلم يُغفر له ، قل: آمين . فقلت: آمين ، ورغم أنف مَنْ أدرك والديه .أو أحدهما فلم يدخل بهما الجنة ، قل: آمين . فقلت: آمين"

فخصَّ الحق سبحانه حال الكِبَر ، لأنه حال الحاجة وحال الضعف ؛ لذلك قال أحد الفلاسفة: خَيْر الزواج مبكره ، فلما سُئِل قال: لأنه الطريق الوحيد لإنجاب والد يعولك في طفولة شيخوختك ، وشبّه الشيخوخة بالطفولة لأن كليهما في حال ضعف وحاجة للرعاية والاهتمام .

وصدق الحق سبحانه حين قال: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً . . ﴾ [الروم: 54]

فَمنْ تزوّج مبكراً فسوف يكون له من أولاده مَنْ يُعينه ويساعده حال كِبَره .

والمتأمل في قوله تعالى: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ . . ﴾ [الإسراء: 23]

لم تَأْتِ صِفَةُ الكِبَر على إطلاقها ، بل قيّدها بقوله: ﴿ عِندَكَ ﴾ فالمعنى: ليس لهما أحد غيرك يرعاهما ، لا أخ ولا أخت ولا قريب يقوم بهذه المهمة ، وما دام لم يَعُدْ لهما غيرك فلتكُنْ على مستوى المسئولية ، ولا تتنصّل منها ؛ لأنك أَوْلَى الناس بها .

ويمتد البِرُّ بالوالدين إلى ما بعد الحياة بالاستغفار لهما ، وإنجاز ما أحدثاه من عهد ، ولم يتمكّنا من الوفاء به ، وكذلك أن نصِلَ الرحم التي لا تُوصَل إلا بهما من قرابة الأب والأم ، ونَصِل كذلك أصدقاءهما وأحبابهما ونُودّهم .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يودّ صاحبات السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ وكان يستقبلهن ويكرمهن .

وانظر إلى سُمُوِّ هذا الخلق الإسلامي ، حينما يُعدّي هذه المعاملة حتى إلى الكفار ، فقد

جاءت السيدة أسماء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله في أمها التي أتْتها .

وأظهرت حاجة مع أنها كافرة ، فقال لها : "صِلِي أمك" .

بل وأكثر من ذلك ، إنْ كان الوالدان كافرين ليس ذلك فحسب بل ويدعوان الابن إلى الكفر ، ويجاهدانه عليه ، ومع هذا كله يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً . . ﴾[لقمان: 15]

فهذه ارتقاءات برّ الوالدين توضّح عظمة هذا الدين ورحمة الخالق سبحانه بالوالدين حتى في حال كفرهما ولَدَدهما في الكفر .

(120/454)

ويُرْوَى أن خليل الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ جاءه ضيف بلبل ، وأراد أن ينزل في ضيافته ، فسأله إبراهيم ـ عليه السلام ـ عن دينه فقال: مجوسي فأعرض عنه وتركه يذهب .

فَسرْعان ما أوحى الحق سبحانه إلى إبراهيم مُعاتباً إياه في أمر هذا الضيف: يا إبراهيم لقد وَسعْتُه في مكي أعواماً عديدة ، أطعمه وأسقيه وأكسوه وهو كافر بي ، وأنت تُعرض عنه وتريد أنْ تُغيّر دينه من أجل ليلة يبيتها عندك ، فأسرع الخليل خلف الضيف حتى لحق به ، وحكى له ما حدث ، فقال الرجل . نِعْم الرب ربٌّ يعاتب أحبابه في أعدائه ، وشهد أن لا

إله إلا الله ، وأنَّ إبراهيم رسول الله .

وقد رأى المستشرقون لضيق أُفُقهم وقلّة فقْههم لأسلوب القرآن الكريم ، رَأَوْا تناقضاً بين قوله تعالى: ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً . . ﴾ [لقمان: 15]

وبين قوله تعالى: ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُواْ آبَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: 22]

فكيف يأمر القرآن بمصاحبة الوالدين وتقديم المعروف لهما ، في حين ينهي عن مودّة مَنْ حَادّ الله ورسوله؟

ولو فَهِم هؤلاء مُعْطيات الأسلوب العربي الذي جاء به القرآن لعلموا أن المعروف غير الودّ؛ لأن المعروف يصنعه الإنسان مع من يحب ، ومع من يكره ، مع المؤمن ومع الكافر ، تُطعمه إذا جاع ، وتسقيه إذا عطش ، وتستره إنْ كان عرياناً ، أما المودة فلا تكون إلا لَمنْ تحب؛ لأنها عمل قلبيّ .

وقوله تعالى: ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً . . ﴾ [الإسراء: 23]

وهذا توجيه وأدب إلهيّ يُراعي الحالة النفسية للوالدين حال كِبَرهما ، وينصح الأبناء أن يكونوا على قدر من الذكاء والفطْنة والأدب والرِّفْق في التعامل مع الوالدين في مثل هذا السن .

الوالد بعد أَنْ كان يعطيك وينفق عليك أصبح الآن مُحتاجاً إليك، بعد أنْ كان قوياً قادراً على السعي والعمل أصبح الآن قعيدَ البيت أو طريحَ الفراش، إذن: هو في وَضْع يحتاج إلى يقظة ولباقة وسياسة عالية، حتى لا نجرح مشاعره وهي مُرْهفة في هذا الحال. وتأمل قول الله تعالى: ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ.. ﴾ [الإسراء: 23]

وهي لفظة بسيطة أقلّ ما يقال، وهذه لفظة قَسْرية تخرج من صاحبها قهراً دون أن تمر على العقل والتفكير، وكثيراً ما نقولها عند الضيق والتبرُّم من شيء، فالحق سبحانه يمنعك من هذا التعبير القَسْري، وليس الأمر الاختياري.

و ﴿ أُفٍّ ﴾ اسم فعل مضارع بمعنى: أتضجر، وهذه الكلمة تدل على انفعال طبيعي، ولكن الحق سبحانه يُحذِرك منه، ويأمرك بأن تتمالكَ مشاعرك، وتتحكّم في عواطفك، ولا تنطق بهذه اللفظة.

ومعلومة أنه سبحانه إذا نهاني عن هذه فقط نهاني عن غيرها من باب أَوْلى، وما دامتْ هي أقلّ لفظة يمكن أنْ تُقال. إذن: نهاني عن القول وعن الفعل أيضاً.

ثم أكّد هذا التوجيه بقوله: ﴿ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا.. ﴾ [الإسراء: 23]

والنهر هو الزَّجْر بقسوة، وهو انفعال تَالٍ للتضجُّر وأشدّ منه قسوة، وكثيراً ما نرى مثل هذه المواقف في الحياة، فلو تصوَّرنا الابن يعطي والده كوباً من الشاي مثلاً فارتعشت يده فأوقع

الكوب فوق سجادة ولده الفاخرة ، وسريعاً ما يتأفّف الابن لما حدث لسجادته ، ثم يقول للوالد من عبارات التأنيب ما يؤلمه ويجرح مشاعره .

إذن: كُنْ على حذر من التأفف ، ومن أن تنهر والديك ، كُنْ على حذر من هذه الألفاظ التي تسبق إلى اللسان دون فِكْر ، ودون تعقّل .

ثم بعد أن هذا النهي المؤكد يأتي أمر جديد ليؤكد النهي السابق: ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً . . ﴾ [الإسراء: 23]

(122/454)

وفي هذا المقام تُرْوَى قصة الشاب الذي أوقع أبوه إناء الطعام على ثيابه ، فأخذ الولد يلعق الطعام الذي وقع على ثوبه وهو يقول لوالده: أطعمك الله كما أطعمتني ، فحوّل الإساءة إلى جميل يُحمَد عليه .

والآخر الذي ذهب يتمرّغ تحت أقدام أمه ، فقال له: كفى يا بني ، فقال: إنْ كنتِ تُحبّينني حقاً فلا تمنعيني من عمل يُدخِلني الجنة .

والقول الكريم هنا نوع من التصرُّف واللباقة في معاملة الوالدين خاصة حال الشيخوخة التي قد تُقعِد صاحبها ، أو المرض الذي يحتاج إلى مساعدة الغير ، والأولاد هم أَوْلَى الناس

بإعالة الوالدين في هذه الظروف، حيث سيبدو من الإنسان مَا لا يصح الإطلاع عليه إلا لأولاده وأقرب الناس إليه.

وَهَبْ أن الوالد المريض أو الذي بلغ من الكِبَر عتيا يريد أنْ يقضي حاجته، ويحتاج لمن يحمله ويُقعِده ويُريحه، وينبغي هنا أن يقول الابن لأبيه: هَوِّن عليك يا والدي، وأعطني فرصة أردّ لك بعض جميلك عليّ، فلكَمْ فعلتَ معي أكثر من هذا.

وهو مع ذلك يكون مُحبّاً لوالده، رفيقاً به، حانياً عليه لا يتبرّم به، ولا يتضجر منه، هذا هو القول الكريم الذي ينتقيه الأبناء في المواقف المختلفة.

فمثلاً: قد يزورك أبوك في بيتك وقد يحدث منه أنْ يكسر شيئاً من لوازم البيت، فتقول له في هذا الموقف: فِدَاكَ يا والدي، أو تقول: لا عليك لقد كنت أفكر في شراء واحدة أحدث منها. أو غيره من القول الكريم الذي يحفظ للوالدين كرامتهما، ولا يجرح شعورهما.

وكثيراً ما يأتي المرض مع كِبَر السن، فترى الوالد طريحَ الفراش أو مشلولاً ـ عافنا الله وإياكم ـ لذلك فهو في أمس الحاجة لمن يُخفّف عنه ويُواسيه، ويفتح له باب الأمل في الشفاء ويُذكّره أن فلاناً كان مثله وشفاه الله، وفلاناً كان مثله وأخذ الله بيده، وهو الآن بخير، وهكذا.

ومع هذا ، كُنْ على ذِكْر لفضل الوالدين عليك ، ولا تَنْسَ ما كان عندهما حال طفولتك من عاطفة الحب لك والحنان عليك ، وأن الله تعالى جعل هذه العاطفة الأبوية تقوى مع ضعفك ، وتزيد مع مرضك وحاجتك ، فترى الابن الفقير محبوباً عن أخيه الغني ، والمريض أو صاحب العاهة محبوباً عن الصحيح ، والغائب محبوباً عن الحاضر ، والصغير محبوباً عن الكبير ، وهكذا على قَدْر حاجة المرَبَّي يكون حنان المربِّي .

إذن: نستطيع أن نأخذَ من هذا إشارة دقيقة يجب ألاَّ نغفل عنها ، وهي: إنْ كان بر الوالدين واجباً عليك في حال القوة والشباب والقدرة ، فهو أوجب حال كِبَرهما وعجزهما ، أو حال مرضهما .

(124/454)

﴿ وَاخْفِضْ ﴾: الخفْض ضد الرّفْع .

﴿ جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾: الطائر معروف أنه يرفع جناحه ويُرفْرِف به ، إنْ أراد أن يطير ، ويخفضه إنْ أراد أن يحنوَ على صغاره ، ويحتضنهم ويغذيهم .

وهذه صورة مُحسَّة لنا ، يدعونا الحق سبحانه وتعالى أن نقتدي بها ، وأن نعامل الوالدين هذه المعاملة ، فنحنو عليهم ، ونخفض لهم الجناح ، كنايةً عن الطاعة والحنان والتواضع

لهما ، وإياك أن تكون كالطائر الذي يرفع جناحيه ليطير بهما مُتعالياً على غيره .

وكثيراً ما يُعطينا الشرع الحكيم أمثلة ونماذج للرأفة والرحمة في الطيور ، ويجعلها قدوة لنا بني البشر . والذي يرى الطائر يحتضن صغاره تحت جناحه ، ويزقّهم الغذاء يرى عجباً ، فالصغار لا يقدرون على مضغ الطعام وتكسيره ، وليس لديهم اللعاب الذي يساعدهم على أنْ يزدردوا الطعام فيقوم الوالدان بهذه المهمة ثم يناولانهم غذاءهم جاهزاً يسهل بَلْعه ، وإنْ تيسر لك رؤية هذا المنظر فسوف ترى الطائر وفراخه يتراصون فرحة وسعادة .

إذن: قوله تعالى: ﴿ جَنَاحَ الذُّلِّ . . ﴾ [الإسراء: 24]

كناية عن الخضوع والتواضع ، والذُّل قد يأتي بمعنى القهر والغلبة ، وقد يأتي بمعنى العطف والرحمة ، يقول تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . . ﴾ [المائدة: 54]

فلو كان الذّلة هنا بمعنى القهر لقال: أذلة للمؤمنين ، ولكن المعنى: عطوفين على المؤمنين .

وفي المقابل ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ . . ﴾ [المائدة: 54]

أي: أقوياء عليهم قاهرين لهم .

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . ﴾ [الفتح: 29]

لأن الخالق سبحانه لم يخلق الإنسان رحيماً على الإطلاق ولا شديداً على الإطلاق ، بل خلق في المؤمن مرونة تمكّنه أن يتكيف تبعاً للمواقف التي يمر بها ، فإنْ كان على الكافر كان عزيزاً ، وإنْ كان على المؤمن كان ذليلاً متواضعاً .

ونرى وضوحَ هذه القضية في سيرة الصِّدّيق أبي بكر والفاروق عمر رضي الله عنهما ، وقد عُرِف عن الصِّدّيق اللين ورِقّة القلب والرحمة ، وعُرِف عن عمر الشدة في الحق والشجاعة والقوة ، فكان عمر كثيراً ما يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تصادم بأحد المعاندين: " إئذن لي يا رسول الله أضرب عنقه " .

وعندما حدثت حروب الردة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كان لكل منهما موقف مغاير لطبيعته ، فكان مِنْ رأي عمر ألاّ يحاربهم في هذه الفترة الحرجة من عمر الدعوة ، في حين رأى الصديق محاربتهم والأخْذ على أيديهم بشدة حتى يعودوا إلى ساحة الإسلام ، ويُذعنوا لأمر الله تعالى فقال: " والله ، لو منعوني عقالاً كانوا يُؤدُّونه لرسول الله لجالدتهم عليه بالسيف ، والله لو لم يَبْق إلا الزرع " .

وقد جاء هذا الموقف من الصِّديق والفاروق لحكمة عالية ، فلو قال عمر مقالة أبي بكر لكان شيئاً طبيعياً يُنْسب إلى شدة عمر وجرأته ، لكنه أتى من صاحب القلب الرحيم الصِّدّيق - رضي الله عنه - ليعرف الجميع أن الأمر ليس للشدة لذاتها ، ولكن للحفاظ على

الدين والدفاع عنه .

وكأن الموقف هو الذي صنع أبا بكر ، وتطلب منه هذه الشدة التي تغلبت على طابع اللين السائد في أخلاقه .

فيقول تعالى: ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ . . ﴾ [الإسراء: 24]

إذن: الذلّة هنا ذِلّة تواضع ورحمة بالوالدين ، ولكن رحمتك أنت لا تكفي ، فعليك أن تطلب لهما الرحمة الكبرى من الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً . . ﴾ [الإسراء: 24]

(126/454)

لأن رحمتك بهما لا تَفِي بما قدّموه لك ، ولا ترد لهما الجميل ، وليس البادئ كالمكافئ ، فهم أحسنوا إليك بداية وأنت أحسنتَ إليهما ردّاً ؛ لذلك ادْعُ الله أنْ يرحمهما ، وأنْ يتكفل سبحانه عنك برد الجميل ، وأن يرحمهما رحمة تكافئ إحسانهما إليك .

وقوله تعالى: ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً . . ﴾ [الإسراء: 24]

كما: قد تفيد التشبيه ، فيكون المعنى: ارحمهما رحمة مثل رحمتهما بي حين ربياني صغيراً . أو تفيد التعليل: أي ارحمهما لأنهما ربياني صغيراً ، كما قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوهُ

كَمَا هَدَاكُمْ . . ﴾ [البقرة: 198]

و ﴿ رَبَّيَانِي ﴾ هذه الكلمة أدخلت كل مُربٍّ للإنسان في هذا الحكم ، وإنْ لم يكُنْ من الوالدين ، لأن الولد قد يُربّيه غير والديه لأيّ ظرف من الظروف ، والحكم يدور مع العلة وجوداً وعَدماً ، فإنْ ربّاك غير والديك فلهما ما للوالدين من البِرّ والإحسان وحُسْن المعاملة والدعاء .

وهذه بشرى لمن ربّى غير ولده ، ولاسيما إنْ كان المربَّى يتيماً ، أو في حكم اليتيم .

وفي: ﴿ رَبَّيَانِي صَغِيراً . . ﴾ [الإسراء: 24] اعتراف من الابن بما للوالدين من فضل عليه وجميل يستحق الرد .

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه في تذييل هذا الحكم بقضية تشترك فيها معاملة الابن لأبويه مع معاملته لربه عز وجل ، فيقول تعالى: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ .

(127/454)

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (25)

وقد سبق أنْ تكلّمنا عن الإيمان والنفاق ، وقلنا : إن المؤمن منطقيّ مع نفسه ؛ لأنه آمن بقلبه

ولسانه، وأن الكافر كذلك منطقيّ لأنه كفر بقلبه ولسانه، أما المنافق فغير منطقيّ مع نفسه؛ لأنه آمن بلسانه وجحد بقلبه.

وهذه الآية تدعونا إلى الحديث عن النفاق؛ لأنه ظاهرة من الظواهر المصاحبة للإيمان بالله، وكما نعلم فإن النفاق لم يظهر في مكة التي صادمتْ الإسلام وعاندته، وضيقتْ عليه، بل ظهر في المدينة التي احتضنتْ الدين، وانساحت به في شتى بقاع الأرض، وقد يتساءل البعض: كيف ذلك؟

نقول: النفاق ظاهرة صحية إلى جانب الإيمان؛ لأنه لا يُنافَق إلا القوي، والإسلام في مكة كان ضعيفاً، فكان الكفار يُجابهونه ولا ينافقونه، فلما تحوّل إلى المدينة اشتد عوده، وقويتْ شوكته وبدأ ضِعَاف النفوس ينافقون المؤمنين.

لذلك يقول أحدهم: كيف وقد ذمَّ الله أهل المدينة، وقال عنهم: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ ﴾ [التوبة: 101]

نقول: لقد مدح القرآن أهل المدينة بما لا مزيدَ عليه، فقال تعالى في حقهم: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ ﴾ [الحشر: 9]

وكأنه جعل الإيمان مَحلاًّ للنازلين فيه. ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: 9]

فإنْ قال بعد ذلك: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ ﴾ [التوبة: 101]

فالنفاق في المدينة ظاهرة صحية للإيمان ؛ لأن الإيمان لو لم يكن قوياً في المدينة لما نافقه المنافقون .

(128/454)

ومن هنا جعل الله المنافقين في الدرْكِ الأسفل من النار ، لأنه مُندَسٌّ بين المؤمنين كواحد منهم ، يعايشهم ويعرف أسرارهم ، ولا يستطيعون الاحتياط له ، فهو عدو من الداخل يصعُب تمييزه . على خلاف الكافر ، فعداوته واضحة ظاهرة معلنة ، فيمكن الاحتياط له وأخذ الحذر منه .

ولكن لماذا الحديث عن النفاق ونحن بصدد الحديث عن عبادة الله وحده وبِرِّ الوالدين ؟ الحق سبحانه وتعالى أراد أنْ يُعطينا إشارة دقيقة إلى أن النفاق كما يكون في الإيمان بالله ، يكون كذلك في برِّ الوالدين ، فنرى من الأبناء مَنْ يبرّ أبويْه نفاقاً وسُمْعة ورياءً ، لا إخلاصاً لهما ، أو اعترافاً بفضلهما ، أو حِرْصاً عليهما .

ولهؤلاء يقول تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ . . ﴾ [الإسراء: 25]

لأن من الأبناء مَنْ يبرّ أبويه ، وهو يدعو الله في نفسه أنْ يُريحه منهما ، فجاء الخطاب بصيغة الجمع: ﴿ رَّبُّكُمْ ﴾ أي: رب الابن ، وربّ الأبوين ؛ لأن مصلحتكم عندي سواء ، وكما

ندافع عن الأب ندافع أيضاً عن الابن ، حتى لا يقعَ فيما لا تُحمد عُقباه .

وقوله: ﴿ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ . . ﴾ [الإسراء: 25]

أيْ: إن توفّر فيكم شَرْط الصلاح ، فسوف يُجازيكم عليه الجزاء الأوفى . وإنْ كان غَيْر ذلك وكنتم في أنفسكم غير صالحين غير مخلصين ، فارجعوا من قريب ، ولا تستمروا في عدم الصلاح ، بل عودوا إلى الله وتوبوا إليه .

﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ [الإسراء: 25]

والأوابون هم الذين اعترفوا بذنوبهم ورجعوا تائبين إلى ربهم .

وقد سبق أنْ أوضحنا أن مشروعية التوبة من الله للمذنبين رحمةٌ من الخالق بالخلق ؛ لأن العبد إذا ارتكب سيئة في غفلة من دينه أو ضميره ، ولم تشرع لها توبة لوجدنا هذه السيئة الواحدة تطارده ، ويشقى بها طِوَال حياته ، بل وتدعوه إلى سيئة أخرى ، وهكذا يشقى به المجتمع .

لذلك شرع الخالقُ سبحانه التوبة ليحفظ سلامة المجتمع وأَمْنه ، وليُثرِي جوانب الخير فيه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(129/454)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

أخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وقضى ربك ألَّا تعبدوا إلا إياه ﴾ قال : التزقت الواو بالصاد ، وأنتم تقرؤونها ﴿ وقضى ربك ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك ، عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وأخرج أبو عبيد وابن منيع وابن المنذر وابن مردويه من طريق ميمون بن مهران ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أنزل الله هذا الحرف على لسان نبيكم - صلى الله عليه وسلم - " ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه " فالتصقت إحدى الواوين بالصاد ، فقرأ الناس ﴿ وقضى ربك ﴾ ولو نزلت على القضاء ، ما أشرك به أحد .

وأخرج الطبراني ، عن الأعمش قال : كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقرأ " ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه " .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر ، عن الضحاك بن مزاحم - رضي الله عنه - أنه قرأها " ووصى ربك " قال : إنهم ألصقوا إحدى الواوين بالصاد فصارت قافاً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس رضي الله

عنهما في قوله : ﴿ وقضى ربك ﴾ قال : أمر .

وأخرج ابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ قال : عهد ربك ألا تعبدوا إلا إياه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ يقول : براً .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ﴾ فيما تميط عنهما من الأذى الخلاء والبول ، كما كانا لا يقولانه ، فيما كانا يميطان عنك من الخلا والبول .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في الآية قال : ﴿ لا تقل لهما أف ﴾ فما سواه .

وأخرج الديلمي ، عن الحسن بن علي – رضي الله عنهما – مرفوعاً ، لو علم الله شيئاً من العقوق أدنى من ﴿ أف ﴾ لَحَرَّمَهُ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عروة رضي الله

عنه في قوله : ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ قال : لا تمنعهما شيئاً أرادا .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، عن الحسن – رضي الله عنه – أنه سئل ما برّ الوالدين ؟ قال : أن تبذل لهما ما ملكت ، وأن تطيعهما فيما أمراك به ، إلا أن يكون معصية .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن الحسن – رضي الله عنه – أنه قيل له : إلام ينتهي العقوق ؟ قال : أن يحرمهما ويهجرهما ويحد النظر إلى وجههما .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ قال : يقول : يا أبت ، يا أمه ، ولا يسميهما بأسمائهما .

وأخرج ابن مردويه ، عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : أتى رجل رسول الله – صلى الله عليه وسلم ومعه شيخ فقال : " " من هذا معك ؟ " قال : أبي . قال : " لا تمشين أمامه ، ولا تقعدن قبله ، ولا تدعه باسمه ، ولا تستب له " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد رضي الله عنه في قوله : ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ قال : إذا دعواك فقل لهما لبيكما وسعديكما .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ قال : قولاً ليناً سهلاً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي الهداج التجيبي قال : قلت لسعيد بن المسيب – رضي الله عنه – كل ما ذكر الله في القرآن من بر الوالدين فقد عرفته إلا قوله :

﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ ما هذا القول الكريم؟ قال ابن المسيب: قول العبد المذنب للسيد الفظ.

وأخرج البخاري في الأدب المفرد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن عروة في قوله: ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ قال: تلين لهما حتى لا يمتنعا من شيء أحباه.

(131/454)

وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله: ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ يقول اخضع لوالديك كما يخضع العبد للسيد الفظ الغليظ.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن عطاء بن أبي رباح رضي الله عنهما في قوله: ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ قال: لا ترفع يديك عليهما إذا كلمتهما.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن عروة رضي الله عنه في قوله: ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ قال: إن أغضباك، فلا تنظر إليهما شزراً، فإنه أوّل ما يعرف غضب المرء بشدة نظره إلى من غضب عليه.

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان، عن عائشة – رضي الله عنها – قالت:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما برّ أباه من حدّ إليه الطرف " .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن زهير بن محمد - رضي الله عنه - في قوله : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ قال : إن سباك أو لعناك ، فقل رحمكما الله غفر الله لكما .

وأخرج ابن جرير ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ واخفض لهما جناح الذل ﴾ بكسر الذال .

وأخرج ، عن عاصم الجحدري رضي الله عنه مثله .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد ، عن أبي مرة مولى عقيل : أن أبا هريرة - رضي الله عنه - كانت أمه في بيت وهو في آخر ، فكان يقف على بابها ويقول : السلام عليك يا أمتاه ورحمة الله وبركاته فتقول : وعليك يا بني ، فيقول : رحمك الله كما ربيتني صغيراً ، فتقول : رحمك الله كما بررتني كبيراً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق علي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ ثم أنزل الله بعد هذا ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ [التوبة : 113] .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر من طرق ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وإما يبلغن عندك الكبر ﴾ إلى قوله : ﴿ كما ربياني صغيراً ﴾ قد نسختها الآية التي في براءة ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ [التوبة : 113] الآية .

وأخرج ابن المنذر والنحاس وابن الأنباري في المصاحف ، عن قتادة رضي الله عنه قال : نسخ من هذه الآية حرف واحد ، لا ينبغي لأحد من المسلمين أن يستغفر لوالديه إذا كانوا مشركين ، ولم يقل ﴿ رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ ولكن ليخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وليقل لهما قولاً معروفاً . قال الله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله : ﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم ﴾ قال : تكون البادرة من الولد إلى الوالد ، فقال الله : ﴿ إن تكونوا صالحين ﴾ أي تكون النية صادقة ببرهما ﴿ فإنه كان للأوّابين غفوراً ﴾ للبادرة التي بدرت منه .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله : ﴿ إنه كان للأوّابين غفوراً ﴾ قال : الرجاعين إلى الخير .

وأخرج سعيد بن منصور وهناد وابن أبي حاتم والبيهقس عن الضحاك – رضي الله عنه

- في قوله : ﴿ إنه كان للأوّابين ﴾ قال : الرجاعين من الذنب إلى التوبة ، ومن السيئات إلى الحسنات .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ للأوّابين ﴾ قال : للمطيعين المحسنين .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ للأوّابين ﴾ قال : للتوّابين .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه - قال : الأوّاب ، التوّاب .

(133/454)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سألت النبي - صلى الله عليه وسلم - أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : " " الصلاة على وقتها " قلت : ثم أي ؟ قال : " ثم بر الوالدين " قلت : ثم أي ؟ قال : " ثم الجهاد في سبيل الله " " .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : رضا الله

في رضا الوالد ، وسخط الله في سخط الوالد .

وأخرج أحمد والبخاري في الأدب المفرد وأبو داود والترمذي وحسنه والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده قال : قلت يا رسول الله ، من أبر ؟ قال : " أمك . قلت : من أبر ؟ قال : أمك . قلت : من أبر ؟ قال : أمك . قلت : من أبر ؟ قال : أباك ، ثم الأقرب فالأقرب " .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد والبيهقي ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه أتاه رجل فقال : إني خطبت امرأة فأبت أن تنكحني ، وخطبها غيري فأحبت أن تنكحه ، فغرت عليها فقتلتها ، فهل لي من توبة ؟ قال : أمك حية ؟ قال : لا . قال : تب إلى الله ، وتقرب إليه ما استطعت . فذهبت فسألت ابن عباس – رضي الله عنهما – لم سألت عن حياة أمه ؟ فقال : إني لا أعلم عملا أقرب إلى الله من بر الوالدة .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن ماجة والبيهقي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى رجل نبي الله – صلى الله عليه وسلم – قال : ما تأمرني ؟ قال : " بر أمك ، ثم عاد فقال : بر أمك ، ثم عاد فقال : بر أمك ، ثم عاد الرابعة فقال : بر أباك " وأخرج البخاري في الأدب المفرد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما من مسلم له والدان يصبح إليهما محسناً إلا فتح الله له بابين – يعني من الجنة – وإن كان واحداً فواحد ، وإن

أغضب أحدهما ، لم يرض الله عنه ، حتى يرضى عنه . قيل : وإن ظلماه ؟ ؟ قال : وإن ظلماه .

(134/454)

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري في الأدب المفرد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن المنذر والبيهقي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم – قال : " لا يجزي ولد والده ، إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف والبخاري في الأدب والحاكم وصححه والبيهقي ، عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال : جاء رجل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – يبايعه على الهجرة ، وترك أبويه يبكيان قال : " فارجع إليهما وأضحكهما كما أبكيتهما " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبخاري ومسلم ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – يريد الجهاد ، فقال : " ألك والدان ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد " .

وأخرج البخاري في الأدب ومسلم والبيهقي ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي

صلى الله عليه وسلم - قال :

" رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه قالوا يا رسول الله من ؟ قال : من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما فدخل النار " .

وأخرج البخاري في الأدب والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان ، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " من بر والديه طوبى له زاد الله في عمره " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف والبخاري في الأدب والبيهقي ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه أبصر رجلين ، فقال : لأحدهما ما هذا منك ؟ فقال أبي ، فقال : لا تسمه . وفي لفظ لا تدعه باسمه ، ولا تمش أمامه ، ولا تجلس قبله حتى يجلس ، ولا تستب له .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " رضا الله في رضا الوالدين ، وسخط الله في سخط الوالدين " .

وأخرج سعيد وابن أبي شيبة وأحمد والنسائي وابن ماجة والحاكم وصححه والبيهقي ، عن معاوية بن جابر ، عن أبيه قال : أتيت النبي - صلى الله عليه وسلم أستشيره في الجهاد

، فقال : " ألك والدة ؟ قال نعم . قال : اذهب فالزمها فإن الجنة عند رجليها " .

وأخرج عبد الرزاق ، عن طلحة رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : " يا رسول الله ، إني أريد الغزو ، وقد جئت إليك أستشيرك ؟ فقال : " هل لك من أم ؟ قال : نعم . قال : فالزمها فإن الجنة عند رجليها ، ثم الثانية ، ثم الثالثة " " كمثل ذلك .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي ، عن أنس – رضي الله عنه – " أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه ، فقال : " هل بقي أحد من والديك ؟ قال : أمي ، قال : فاتق الله فيها ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد ، فإذا دعتك أمك فاتق الله وبرّها " " .

وأخرج البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " لنومك على السرير بين والديك تضحكهما ويضحكانك أفضل من جهادك بالسيف في سبيل الله " .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم والبيهقي ، عن خداش بن سلامة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أوصي امرأ بأمه ثلاث مرار ، وأوصي امرأ بأبيه مرتين ، وأوصي امرأً بمولاه الذي يليه ، وإن كان عليه منه أذى يؤذيه .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه والبيهقي ، عن أبي الدرداء – رضي الله عنه –

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الوالد وسط أبواب الجنة ، فاحفظ ذلك الباب ، أو ضَيِّعْهُ " .

وأخرج البيهقي ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني أراني في الجنة ، فبينا أنا فيها إذ سمعت صوت رجل بالقرآن ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : حارثة بن النعمان ، كذلك البر كذلك البر " .

(136/454)

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم " " نمت فرأيتني في الجنة ، فسمعت قارئاً ، يقرأ ، فقلت من هذا ؟ " قالوا : حارثة بن النعمان ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "كذلك البر كذلك البر كذلك البر " قال : وكان أبر الناس بأمه " .

وأخرج البيهقي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : مر رجل له جسم – يعني خلقاً – فقالوا : لو كان هذا في سبيل الله ! فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – " لعله يكد على أبوين شيخين كبيرين ، فهو في سبيل الله . لعله يكد على صبية صغار ، فهو في سبيل الله . لعله يكد على نفسه ليغنيها عن الناس ، فهو في سبيل الله " .

وأخرج البيهقي ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أحب أن يمد الله في عمره ، ويزيد في رزقه ، فليبر والديه وليصل رحمه " .

وأخرج البيهقي ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " ما من ولد بار ينظر إلى والديه نظرة رحمة ، إلا كتب الله له بكل نظرة حجة مبرورة قالوا : وإن نظر كل يوم مائة مرة ؟ قال : نعم . الله أكبر وأطيب " .

وأخرج البيهقي ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " " إذا نظر الولد إلى والده – يعني – فسرّ به ، كان للولد عتق نسمة " قيل : يا رسول الله ، وإن نظر ثلاثمائة وستين نظرة ؟ قال : " الله أكبر من ذلك " " .

وأخرج البيهقي ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : النظر إلى الوالد عبادة ، والنظر إلى الكعبة عبادة ، والنظر إلى المصحف عبادة ، والنظر إلى أخيك ؛ حباً له في الله عبادة .

وأخرج البيهقي وضعفه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قبل بين عيني أمه كان له ستراً من النار " .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي ، عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني أذنبت ذنباً عظيماً فهل لي من توبة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألك والدان قال : لا . قال : ألك خالة ؟ قال : نعم . قال : فبرها إذن " " .

وأخرج البيهقي عن أم أيمن رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بعض أهل بيته فقال : " لا تشرك بالله وإن عذبت وإن حرقت ، وأطع ربك ووالديك وإن أمراك أن تخرج من كل شيء فاخرج ، ولا تترك الصلاة متعمداً ؛ فإنه من ترك الصلاة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله ، إياك والخمر ، فإنها مفتاح كل شر ، وإياك والمعصية ؛ فإنها تسخط الله ، لا تنازِعَنَّ الأمر أهله ؛ وإن رأيت أنه لك ، لا تفر من الزحف ؛ وإن أصاب الناس موت ، وأنت فيهم فاثبت ، أنفق على أهلك من طولك ، ولا ترفع عصاك عنهم وأخفهم في الله عز وجل " .

وأخرج أحمد والبخاري في الأدب وأبو داود وابن ماجة والحاكم وصححه والبيهقي ، عن أبي أسيد الساعدي رضي الله عنه قال : كنا عند النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال رجل : " يا رسول الله ، هل بقي علي من بر أبوي شيء بعد موتهما أبرهما به ؟ قال : نعم . خصال أربع : الدعاء لهما ، والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما " .

وأخرج البخاري في الأدب ومسلم وأبو داود والترمذي وابن حبان والبيهقي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أبر البر أن يصل الرجل أهل ودّ أبيه بعد أن يولي الأب " .

وأخرج البخاري في الأدب ، عن عبد الله بن سلام – رضي الله عنه – قال : والذي بعث محمداً بالحق ، إنه لفي كتاب الله ، لا تقطع من كان يصل أباك ، فتطفئ بذلك نورك .

(138/454)

وأخرج الحاكم والبيهقي من طريق محمد بن طلحة ، عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق : أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لرجل من العرب كان يصحبه – يقال له عفير – يا عفير ، كيف سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول في الودّ ؟ قال : سمعته يقول : " الودّ يتوارث ، والعداوة كذلك " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري والحاكم والبيهقي ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يدخل الجنة عاق ، ولا ولد زنا ، ولا مدمن خمر ، ولا منان " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة والنسائي والبيهقي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ،

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل الجنة عاق والديه ، ولا منان ، ولا ولد زنية ، ولا مدمن خمر ، ولا قاطع رحم ، ولا من أتى ذات رحم " .

وأخرج البيهقي وضعفه ، عن طلق بن علي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" لو أدركت والدي أو أحدهما وأنا في صلاة العشاء ، وقد قرأت فيها بفاتحة الكتاب ، فنادى يا محمد ، لأجبتهما لبيك " .

وأخرج البيهقي وضعفه من طريق الليث بن سعد حدثني يزيد بن حوشب الفهري ، عن أبيه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لو كان جريج الراهب فقيهاً عالماً ، لعلم أن إجابته أمه أفضل من عبادته ربه " .

وأخرج البيهقي عن مكحول قال : إذا دعتك والدتك وأنت في الصلاة فأجبها ، وإذا دعاك أبوك فلا تجبه حتى تفرغ من صلاتك .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن محمد بن المنكدر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دعتك أمك في الصلاة فأجبها ، وإذا دعاك أبوك فلا تجبه " .

وأخرج أحمد والبيهقي ، عن أبي مالك رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك ، فأبعده الله وأسحقه " .

وأخرج أحمد والبيهقي ، عن سهل بن معاذ ، عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " " من العباد عباد لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولا يطهرهم " قيل : من أولئك يا رسول الله ؟ قال : " المتبرئ من والديه رغبة عنهما ، والمتبرئ من ولده ، ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم " .

وأخرج البيهقي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً ، أو قتله نبي ، أو قتل أحد والديه ، والمصوّرون ، وعالم لم ينتفع بعلمه " .

وأخرج الحاكم وصححه وتعقبه الذهبي والبيهقي والطبراني والخرائطي في مساوئ الأخلاق من طريق بكار بن عبد العزيز بن أبي بكرة ، عن أبيه عن جده أبي بكرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة ، إلا عقوق الوالدين ، فإنه يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات ، ومن رايا رايا الله به ، ومن سمع سمع الله به " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف والبيهقي ، عن طاوس رضي الله عنه قال : إن من السنة أن توقر أربعة : العالم ، وذو الشيبة ، والسلطان ، والوالد . قال : ويقال أن من الجفاء : أن يدعو الرجل والده باسمه .

وأخرج عبد الرزاق والبيهقي ، عن كعب – رضي الله عنه – أنه سئل عن العقوق ما تجدونه في كتاب الله عقوق الوالدين ؟ قال : إذا أقسم عليه لم يبره ، وإذا سأله لم يعطه ، وإذا ائتمنه خان ، فذلك العقوق .

وأخرج البيهقي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ثلاث دعوات مستجابات : دعاء الوالد على ولده ، ودعوة المظلوم ، ودعوة المسافر " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي ، عن محمد بن النعمان يرفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برّاً " .

(140/454)

وأخرج البيهقي ، عن محمد بن سيرين رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو لهما من بعدهما ، فيكتبه الله من البارين " .

وأخرج البيهقي ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن العبد يموت والداه أو أحدهما ، وإنه لهما لعاق فلا يزال يدعو لهما ويستغفر لهما حتى

يكتبه الله باراً " .

وأخرج البيهقي عن الأوزاعي رضي الله عنه قال : بلغني أن من عق والديه في حياتهما ثم قضى ديناً إن كان عليهما واستغفر لهما ولم يستسب لهما كتب باراً ، ومن بر والديه في حياتهما ثم لم يقض ديناً إذا كان عليهما ولم يستغفر لهما واستسب لهما كتب عاقاً " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " " من أصبح مطيعاً لله في والديه أصبح له بابان مفتوحان من الجنة ، وإن كان واحداً فواحداً ، ومن أمسى عاصياً لله في والديه أصبح له بابان مفتوحان من النار ، وإن كان واحداً فواحداً " قال رجل : وإن ظلماه ؟ قال : " وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه " " .

وأخرج البيهقي ، عن المنكدر بن محمد بن المنكدر رضي الله عنه قال : كان أبي يبيت على السطح يروح على أمه ، وعمي يصلي إلى الصباح ، فقال له أبي ما يسرني أن ليلتي بليلتك .

وأخرج ابن سعد وأحمد في الزهد والبيهقي ، عن عبد الله بن المبارك قال : قال محمد بن المنكدر ، بات عمر أخي يصلي ، وبت أغمز رجل أمي ، وما أحب أن ليلتي بليلته .

وأخرج ابن سعد ، عن محمد بن المنكدر : أنه كان يضع خده على الأرض ثم يقول لأمه : يا أمه ، قومي فضعي قدمك على خدي .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف والبيهقي ، عن طاوس قال : كان رجل له أربعة بنين فمرض فقال أحدهم : إما أن تمرضوه ، وليس لكم من ميراثه شيء ، وأما أن أمرضه وليس لي من ميراثه شيء ، قالوا : بل مرضه وليس لك من ميراثه شيء ، فمرضه حتى مات ولم يأخذ من ماله شيئاً ، فأتي في النوم فقيل له : ائت مكان كذا وكذا ، فخذ منه مائة دينار ، فقال في نومه أفيها بركة ؟ قالوا : لا . فأصبح فذكر ذلك لامرأته ، فقالت له خذها ، فإن من بركتها : أن تكتسي منها وتعيش بها ، فأبى ، فلما أمسى أتي في النوم فقيل له : ائت مكان كذا وكذا فخذ منه عشرة دنانير ، فقال : فيها بركة ؟ قالوا : لا : فأصبح فذكر ذلك لامرأته ، فقالت له مثل ذلك ، فأبى أن يأخذها ، فأتي في النوم في الليلة الثالثة : أن ائت مكان كذا وكذا فخذ منه ديناراً ، فقال : أفيه بركة ؟ قالوا : نعم .

فذهب فأخذ الدينار ، ثم خرج به إلى السوق ، فإذا هو برجل يحمل حوتين ، فقال بكم هذان ، فقال بدينار ، فأخذهما منه بالدينار ، ثم انطلق بهما ، فلما دخل بيته شق الحوتين فوجد في بطن كل واحد منهما درة لم ير الناس مثلها ، فبعث الملك بدرة ليشتريها ، فلم توجد إلا عنده ، فباعها بوقر ثلاثين بغلاً ذهباً ، فلما رآها الملك قال : ما تصلح هذه إلا

بأخت ، فاطلبوا مثلها وإن أضعفتم . قال : فجاؤوا فقالوا : عندك أختها نعطيك ضعف ما أعطيناك ؟ قال : أو تفعلون ؟ قالوا : نعم . فأعطاهم أختها بضعف ما أخذوا الأولى .

(142/454)

وأخرج عبد الرزاق في المصنف والبيهقي ، عن يحيى بن أبي كثير رضي الله عنه قال : لما قدم أبو موسى وأبو عامر على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فبايعوه وأسلموا . قال : " ما فعلت امرأة منكم تدعى كذا وكذا ؟ قالوا تركناها في أهلها . قال : فإنها قد غفر لها . قالوا : بم يا رسول الله ؟ قال : ببرها والدتها قال : كانت لها أم عجوز كبيرة ، فجاءهم النذير : إن العدو يريد أن يغير عليكم الليلة ، فارتحلوا ليلحقوا بعظيم قومهم ، ولم يكن معها ما تحتمل عليه ، فعمدت إلى أمها ، فجعلت تحملها على ظهرها ، فإذا أعيت وضعتها ، ثم ألصقت بطنها ببطن أمها ، وجعلت رجليها تحت رجلي أمها من الرمضاء حتى نجت " .

وأخرج البيهقي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " بينما نحن مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذ طلع شاب فقلنا : لو كان هذا الشاب جعل شبابه ونشاطه وقوته في سبيل الله ، فسمع النبي صلى الله عليه وسلم مقالتنا . فقال : " وما في سبيل الله ، إلا من قتل ، ومن سعى على والديه ، فهو في سبيل الله ، ومن سعى على عياله ، فهو في سبيل الله ، ومن

سعى على نفسه يغنيها فهو في سبيل الله تعالى " " .

وأخرج الحاكم ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ، أي الناس أعظم حقاً على المرأة . قال : " زوجها . قلت : فأي الناس أعظم حقاً على الرجل . قال : أمه " .

وأخرج الحاكم عن علي رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لعن الله من ذبح لغير الله ، ثم تولى غير مولاه ، ولعن الله العاق لوالديه ، ولعن الله من نقض منار الأرض " .

وأخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً " عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم ، وبروا آبائكم تبركم أبناؤكم ، ومن أتاه أخوه متنصلاً فليقبل ذلك منه محقاً كان أو مبطلاً ، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض " .

وأخرج الحاكم ، عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً " بروا آباءكم " .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : إن رجلاً هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن فقال له رسول الله – صلى الله عليه

وسلم : " قد هاجرت من الشرك - ولكنه الجهاد - هل لك أحد باليمن ؟ قال : أبواي قال : أذنا لك ؟ قال : لا . قال : فارجع فاستأذنهما ، فإن أذنا لك مجاهد ، وإلاّ ، فبرّهما " .

وأخرج أحمد في الزهد ، عن وهب بن منبه رضي الله عنه أن موسى - عليه الصلاة والسلام - سأل ربه عز وجل فقال : يا رب ، بم تأمرني ؟ قال : " بأن لا تشرك بي شيئًا " قال : وبم ؟ قال : " وتبر والدتك " قال : وبم ؟ قال : وبوالدتك قال : وبم ؟ قال : بوالدتك ؟ قال وهب رضي الله عنه : إن البر بالوالدين يزيد في العمر ، والبر بالوالدة ينبت الأصل .

وأخرج أحمد في الزهد ، عن عمرو بن ميمون رضي الله عنه قال : رأى موسى عليه السلام رجلاً عند العرش ، فغبطه بمكانه ، فسأل عنه فقالوا : نخبرك بعمله ، لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، ولا يمشي بالنميمة ، ولا يعق والديه . قال : " أي رب ، ومن يعق والديه " ؟ قال : " يستسب لهما حتى يسبا " .

وأخرج أحمد والترمذي وصححه وابن ماجة ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه : " أن رجلاً أتاه فقال : إن امرأتي بنت عمي وإني أحبها ، وإن والدتي تأمرني أن أطلقها ، فقال : لا آمرك أن تطلقها ، ولا آمرك أن تعصي والدتك ، ولكن أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سمعته يقول : " إن الوالدة أوسط باب من أبواب الجنة " فإن شئت فأمسك وإن شئت فدع " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن الحسن رضي الله عنه قال : للأم ثلثا البر وللأب الثلث .

وأخرج أحمد وابن ماجة ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل الجنة عاق ولا مدمن خمر ولا مكذب بقدر " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بر الوالدين يجزئ من الجهاد " .

(144/454)

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قيل له : ما حق الوالد على الولد ؟ قال : لو خرجت من أهلك ومالك ما أديت حقهما .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد ، عن علي بن أبي طالب قال : إذا مالت الأفياء ، وراحت الأرواح ، فاطلبوا الحوائج إلى الله ، فإنها ساعة الأوّابين ، وقرأ ﴿ فإنه كان للأوّابين غفوراً ﴾ .

وأخرج هناد ، عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه في قوله : ﴿ فإنه كان للأوّابين غفوراً ﴾ قال : الأوّاب الذي يذنب ، ثم يستغفر ، ثم يذنب ، ثم يستغفر ، ثم يذنب ثم يستغفر .

وأخرج هناد ، عن عبيد بن عمير رضي الله عنه في قوله : ﴿ فإنه كان للأوّابين غفوراً ﴾

قال : الأوّاب الذي يتذكر ذنوبه في الخلاء ، فيستغفر منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(145/454)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاهُ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ " أنْ " مفسِّرةً ؛ لأنها بعد ما هو بمعنى القول ، و " لا " ناهيةٌ . ويجوز أَنْ تكونَ الناصبة ، و " لا " نافيةٌ ، أي : بأنْ لا ، ويجوز أن تكونَ المخففةَ ، واسمُها ضميرُ الشأن ، و " لا " ناهيةٌ أيضاً ، والجملةُ في مثل هذا إشكالٌ : من حيث وقوعُ الطلبِ خبراً لهذا الباب . ومثلُه في هذا الإِشكالِ قولُه : ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النار ﴾ [النمل : 8] ، وقوله : ﴿ أَنَّ غَضَبَ الله عَلَيْهَآ ﴾ [النور : 9] لكونِه دعاءً وهو طَلَبٌ أيضاً ، ويجوز أَنْ تكونَ الناصبةَ و " لا " زائدة . قال أبو البقاء : ويجوز أَنْ يكونَ في موضع نصب ، [أي :] أَلْزَمَ ربُّك عبادَته و " لا " زائدةٌ " . قال الشيخ : " وهذا وهمٌ لدخولِ " إلا " على مفعولِ " تَعْبدوا " فَلَزِمَ أن يكونَ نَفْياً أو نهياً " .

وقرأ الجمهور " قَضَى " فعلاً ماضياً ، فقيل : هي على موضوعِها الأصلي : قال ابنُ عطية : " ويكون الضميرفي " تَعْبُدوا " للمؤمنين من الناسِ إلى يومِ القيامةِ " وقيل : هي بمعنى أَمَر . وقيل : بمعنى أَوْحَى ، وقيل : بمعنى حَكَم ، وقيل : بمعنى أَوْجَبَ أو ألزم .

وقرأ بعضُ وَلَد معاذِ بن جَبَل " وقضاء " /اسماً مصدراً مرفوعاً بالابتداء ، و ﴿ أَلاَّ تعبدوا ﴾ خبرُه .

قوله : ﴿ وبالوالدين إِحْسَاناً ﴾ قد تقدَّم نظيرُه في البقرة . وقال الحوفي : الباءُ متعلقةٌ ب " قضى " ، ويجوز أن تكونَ متعلقةً بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه : وأَوْصى بالوالدين إحساناً ، وإحساناً مصدر ، أي : يُحْسِنون بالوالدين إحساناً " .

(146/454)

وقال الواحديُّ : " الباءُ مِنْ صلةِ الإِحسانِ فَقُدِّمَتْ عليه كما تقول : بزيدٍ فانْزِلْ " . وقد مَنَعَ الزمخشريُّ هذا الوجهَ قال : " لأنَّ المصدرَ لا يتقدَّمُ عليه معمولُه " . قلت : والذي ينبغي أن يُقال : إن هذا المصدرَ إنْ عَنَى به أنه يَنْحَلُّ لحرفٍ مصدريٍّ وفِعْلٍ فالأمرُ على ما ذَكَرَ الزمخشريُّ ، وإن كان بدلاً مِنَ اللفظ بالفعلِ فالأمرُ على ما قال الواحديُّ ، فالجوازُ والمنعُ بهذين الاعتبارين .

وقال ابنُ عطية : " قوله وبالوالدَيْن إحساناً عطف على " أنْ " الأولى ، أي : أَمَرَ اللهُ أَنْ لا تعبدوا إلا إياه ، وأن تُحْسِنوا بالوالدَيْن إحساناً " . واختار الشيخُ أَنْ يكون " إحساناً " مصدراً واقعاً موقعَ الفعلِ ، وأنَّ " أنْ " مفسرةٌ ، و " لا " ناهيةٌ . قال : فيكون قد عَطَفَ ما هو بمعنى الأمرِ على نَهْيٍ كقولِه :

3044- . . . . يقولون : لا

تَهْلِكْ أَسَىً وتَجَمَّلِ

قلت : وأَحْسَنَ " و " أساء " يتعدَّيان بإلى وبالباء . قال تعالى : { وَقَدْ أَحْسَنَ بي } [يوسف : 100] وقال كُثَيِّر عَزَّة :

3045- أَسِيْئي بنا أو أَحْسِنِي لا مَلومةٌ . . . .

. . . . . .

وكأنه ضُمِّن " أَحْسَنَ " لمعنى " لَطُفَ " فتعدَّى تعديتَه .

(147/454)

قوله : { إِمَّا يَبْلُغَنَّ } قرأ الأخوان " يَبْلُغانِّ " بألفِ التثنيةِ قبل نونِ التوكيدِ المشدَّدةِ المكسورةِ ، والباقون دونَ ألفٍ وبفتحِ النون . فأمَّا القراءةُ الأولى ففيها أوجهٌ ، أحدها : أن

الألف ضميرُ الوالدين لتقدُّم ذكرهما ، و " أَحَدُهما " بدلٌ منه ، و " أو كِلاهما " عطفٌ عليه . وإليه نحا الزمخشريُّ وغيرُه . واستشكله بعضُهم بأنَّ قولَه " أحدُهما " بدلُ بعضٍ مِنْ كل ، لا كلٍّ من كل ، لأنه غيرُ وافٍ بمعنى الأول ، وقوله بعد ذلك " أو كِلاهما " عطفٌ على البدلِ ، فيكونُ بدلاً ، وهو مِنْ بدل الكلِّ من الكل ؛ لأنه مرادفٌ لألف التثنية . لكنه لا يجوز أن يكونَ بدلاً لعُرُوِّه عن الفائدة ؛ إذ المستفادُ من ألفِ التثنيةِ هو المستفادُ مِنْ "كِلاهما " فلم يُفِدِ البدلُ زيادةً على المبدلِ منه .

قلت : هذا معنى قولِ الشيخِ . وفيه نظرٌ ؛ إذ لقائلٍ أن يقول : مُسَلَّمٌ أنه لم يُفِدِ البدلُ زيادةً على المبدلِ منه ، لكنه لا يَضُرُّ لأنه شأنُ التأكيد ، ولو أفاد زيادةً أخرى غيرَ مفهومةٍ من الأولِ كان تأسيساً لا تأكيداً . وعلى تقدير تسليمِ ذلك فقد يُجابُ عنه بما قال ابنُ عطية فإنه قال بعد ذِكْره هذا الوجهَ " وهو بدلٌ مُقَسَّمٌ كقولِ الشاعرِ :

3045- وكنت كذي رِجْلَيْنِ رجلٍ صحيحةٍ . . . ورِجْلٍ رَمَى فيها الزمانُ فَشَلَّتِ

إلا أنَّ الشيخ تعقَّب كلامَه فقال : " أمَّا قولُه بدلٌ مُقَسَّمٌ كقوله : " وكنتُ . . . . " فليس كذلك ؛ لأنَّ شرطَه العطفُ بالواو ، وأيضاً فشرطُه : ان لا يَصْدُقَ المُبْدَلُ منه على أحدِ قِسْميه ، لكنْ هنا يَصْدُقُ على أحدِ قسمَيْه ، ألا ترى أنَّ الألفَ وهي المبدلُ منه يَصْدُقُ على أحدِ قِسْمَيْها وهو "كلاهما " فليس من البدلِ المقسّمِ " . ومتى سُلِّم له الشرطان لزم ما قاله .

الثاني : أن الألفَ ليست ضميراً بل علامة تُثنيةٍ و " أحدُهما " فاعلٌ بالفعلِ قبلَه ، و " أو كلاهما " عطفٌ عليه . وقد رُدَّ هذا الوجهُ : بأن شرطَ الفعلِ المُلْحَقِ به علامة تثنيةٍ أن يكون مسنداً لمثنَّى نحو : قاما أخواك ، أو إلى مُفَرَّق بالعطف بالواو خاصةً على خلاف فيه نحو : " قاما زيد وعمرو " ، لكنَّ الصحيحَ جوازُه لورودِه سماعاً كقوله :

3046- . . . . وقد أَسْلماه

مُبْعَدٌ وحميم

والفعلُ هنا مسندٌ إلى " أحدُهما " وليس مثنى ولا مفرَّقاً بالعطف بالواو .

الثالث : نُقِل عن الفارسيِّ أنَّ/ "كلاهما " توكيدٌ ، وهذا لا بدَّ من إصلاحِه بزيادةٍ ، وهو أن يُجْعَلَ " أحدُهما " بدلَ بعضٍ من كل ، ويُضْمَرَ بعدَه فعلٌ رافعٌ لضمير تثنية ، ويقع "كلاهما " توكيداً لذلك الضميرِ تقديرُه : أو يَبْلُغا كلاهما ، إلا أنَّ فيه حَذْفَ المؤكَّد وإبقاءَ التوكيد ، وفيها خلافٌ ، أجازها الخليل وسيبويه نحو : " مررت بزيدٍ ورأيت أخاك أنفسهما " بالرفع والنصب ، فالرفعُ على تقديرِ : هما أنفسُهما ، والنصبُ على تقدير أَعْنِيهما أنفسَهما ، ولكنْ في هذا نظرٌ : من حيث إن المنقولَ عن الفارسيِّ مَنَعَ حَذْفَ المؤكَّد وإبقاءَ توكيدِه ،

فكيف يُخَرِّجُ قولَه على أصلٍ لا يُجيزُه؟

وقد نصَّ الزمخشريُّ على مَنْعِ التوكيدِ فقال: فإنْ قلت: لو قيل: "إمَّا يَبْلُغانِّ كلاهما "كان" كلاهما" توكيداً لا بدلاً، فما لك زَعَمْتَ أنه بدلٌ؟ قلت: لأنَّه معطوفٌ على ما لا يَصِحُّ أن يكون توكيداً للاثنين، فانتظم في حكمِه، فوجَبَ أن يكونَ مثلَه".

قلت: يعني أنَّ "أحدُهما: لا يَصْلُحُ أن يقعَ توكيداً للمثنى ولا لغيرِهما، فكذا ما عُطِفَ عليه لأنه شريكُه.

ثم قال: "فإنْ قلتَ: ما ضرَّكَ لو جَعَلْتُه توكيداً مع كونِ المعطوفِ عليه بدلاً، وعَطَفْتَ التوكيدَ على البدل؟ قلت: لو أُريد توكيدُ التثنيةِ لقيل: "كلاهما" فحسبُ، فلمَّا قيل: "أحدهما أو كلاهما" عُلِمَ أنَّ التوكيدَ غيرُ مرادٍ فكان بدلاً مثلَ الأول".

الرابع: أَنْ يرتفعَ "كلاهما" بفعلٍ مقدَّر تقديرُه: أو يبلغ كلاهما، ويكون "إحداهما" بدلاً من ألفِ الضمير بدلَ بعضٍ من كل. والمعنى: إمَّا يَبْلُغُنَّ عندك أحدُ الوالدَيْن أو يبلغُ كلاهما.

وأمَّا القراءةُ الثانية فواضحةٌ، و"إن ما": هي "إنْ" الشرطية زِيْدَتْ عليها "ما" توكيداً

، فَأُدْغِم أحدُ المتقاربين في الآخر بعد ان قُلب إليه ، وهو إدغامٌ واجب . قال الزمخشري :

" هي إنْ الشرطيةُ زِيْدَتْ عليها " ما " توكيداً لها ولذلك دَخَلَتْ النون ، ولو أُفْرِدَتْ " إنْ " لم يَصِحَّ دخولُها ، لا تقول : إن تُكْرِمَنَّ زيداً يُكْرِمْكَ ، ولكن : إمَّا تُكْرِمَنَّه .

وهذا الذي قاله أبو القاسم نصَّ سيبويهِ على خلافِه ، قال سيبويه : " وإن شِئْتَ لم تُقْحِمِ النونَ ، كما أنك إن شِئْتَ لم تَجِيْءْ ب " ما " . قال الشيخ : " يعني مع النون وعَدَمِها " .

وفي هذا نظرٌ ؛ لأنَّ سيبويه إنما نصَّ على أن نونَ التوكيد لا يجبُ الإتيانُ بها بعد " أمَّا " ، وإن كان أبو إسحاقَ قال بوجوبِ ذلك . وقوله بعد ذلك " كما أنَّك إنْ شِئْتَ لم تجيءْ ب " ما " ، ليس فيه دليلٌ على جواز توكيدِ الشرط مع إنْ وحدها .

و " عندك " ظرفٌ ل " يَبْلُغَنَّ " و " كِلا " مثنَّاةٌ معنىً من غيرِ خلافٍ ، وإنما اختلفوا في تثنيتِها لفظاً : فمذهبُ البصريين أنها مفردةٌ لفظاً ، ووزنُها على فِعَل ك " مِعَى " وألفُها منقلبةٌ عن واوٍ بدليل قلبِها تاءً في " كِلْتا " مؤنث " كِلا " هذا هو المشهور .

(150/454)

وقيل : ألفُها عن ياء وليس بشيءٍ . وقال الكوفيون - وتبعهم السهيليُّ مستدِلِّين على ذلك بقوله :

3047- في كلتِ رِجْلَيْها سُلامى واحدَه . . . .

فَنَطَق بمفرِدها - : هي مثنّاة لفظاً ، ولذلك تُعْرَبُ بالألفِ رفعاً والياء نصباً وجراً ، فألفُها زائدةٌ على ماهية الكلمة كألف " الزيدان " ، ولامُها محذوفةٌ عند السهيليّ ، ولم يأتِ عن الكوفيين نصٌّ في ذلك ، فاحتمل أن يكونَ الأمرُ كما قال السهيليُّ ، وأن تكونَ موضوعةً على حرفَيْن فقط ، لأنّ مِنْ مذهبِهم جوازَ ذلك في الأسماءِ المعربة .

وحكمها أنها متى أُضيفت إلى مضمرٍ أعْرِبت إعرابَ المثنى ، أو إلى ظاهرٍ أُعْرِبَتْ إعرابَ المقصورِ عند جمهورِ العربِ ، وبنو كنانةَ يُعْرِبونها إعرابَ المثنى مطلقاً فيقولون : رأيت كِلَيْ أخَوَيْك ، وكونُها جرَتْ مَجْرى المثنى مع المضمرِ دونَ الظاهر يضيق الوقتُ عن ذكره فإنّي حَقَّقْتُه في " شرح التسهيل " .

ومن أحكامِها : أنها لا تُضاف إلا إلى مثنى لفظاً ومعنى نحو : "كِلا الرجلين " ، أو معنىً لا لفظاً نحو : ، "كِلانا " ، ولا تُضاف إلى مُفَرّقَيْن بالعطفِ نحو : "كِلا زيد وعمرو " إلا في ضرورةٍ كقوله :

3048- كِلا السيفِ والسّاقِ الذي ذهبَتْ به . . . على مَهَلٍ باثنين ألقاه صاحبُهْ

وكذا لا تُضافُ إلى مفردٍ مرادٍ به التثنيةُ إلا في ضرورةٍ كقوله :

3049- إنّ للخيرِ والشرِّ مَدَى . . . وكِلا ذلك وَجْهٌ وقَبَلْ

والأكثرُ مطابَقَتُها فيُفْرَدُ خبرُها وضميرُها نحو: كلاهما قائمٌ، وكلاهما ضربتُه، ويجوز في قليل: قائمان، وضربتُهما، اعتبارا بمعناها، وقد جَمَعَ الشاعرُ بينهما في قوله:

3050- كلاهما حينَ جَدَّ الجَرْيُ بينهما . . . قد أقلعا وكِلا أَنْفَيْهما رابي

(151/454)

وقد يَتَعَيَّنُ اعتبارُ اللفظِ نحو: كِلانا كفيلُ صاحبِه، وقد يتعيَّنُ اعتبارُ المعنى، ويُستعمل تابعاً توكيداً، وقد لا يَتْبَعُ فيقع مبتدأً ومفعولاً به ومجروراً. و "كلتا" في جميعِ ما ذُكِرَك "كِلا"، وتاؤُها بدلٌ عن واو، وألفُها للتأنيث، ووزنُها فِعْلى كذكرى. وقال يونس: ألفُها أصلٌ تاؤُها مزيدةٌ، ووزنُها فِعْتَل. وقد رَدَّ عليه الناس، وله موضعٌ غيرُ هذا. والنسب إليها عند سيبويه: كِلَوِيّ كمذكَّرِها، وعند يونس: كِلْتَوِيّ لئلا تَلْتَبِسَ، وهذا القَدْرُ كافٍ في هاتين اللفظتين.

قوله: "أُفّ" "أُفّ" اسمُ فعلٍ مضارعٍ بمعنى أتضجَّر، وهو قليلٌ؛ فإنَّ أكثرَ بابِ أسماء الأفعال أوامرُ، وأقلُّ منه اسمُ الماضي، وأقلُّ منه اسمُ المضارعك "أُفّ" وأَوَّه، أي: أتوجَّع، ووَيْ، أي: أَعْجَبُ. وكان مِنْ حقِّها أَنْ تُعْرَبَ لوقوعِها موقعَ مُعْرَبٍ، وفيها لغاتٌ كثيرة وصلها الرُّمَّاني إلى تسع وثلاثين، وذكر ابنُ عطية لفظةً، بها تمت الأربعون، وهي

اثنان وعشرون مع الهمزةِ المضمومةِ : أُفُّ ، أُفَّ ، أُفِّ ، بالتشديدِ مع التنوين وَعَدَمِه ، أُفُ ، أُفَ ، أُفِ ، بالتخفيف مع التنوين وعدمه ، أُفْ بالسكون والتخفيف ؛ أُفّْ بالسكون والتشديد ، أُفُّهْ أُفَّهْ أُفِّهْ ، أُفَّا من غيرِ إمالة ، وبالإِمالة المحضة ، وبالإِمالة بين بين ، أُفُّو أُفِّي : بالواو والياء وإحدى عشرة مع كسرِ الهمزة إِفَّ إِفِّ : بالتشديد مع التنوينِ وعدِمه ، إِفُ إِفَ إِفِ بالتخفيفِ مع التنوينِ وعدمِه ، إِفَّا بالإِمالة .

(152/454)

وستٌ مع فتح الهمزة : أَفَّ أَفِّ ، بالتشديد مع التنوينِ وعدِمه ، أَفْ بالسكون ، أَفا بالألف . فهذه تسعٌ وثلاثون لغةً ، وتمامُ الأربعين " أَفَاهْ " بهاء السكت . وفي استخراجها بغيرِ هذا الضابطِ الذي ذكرته عُسْرٌ ونَصَبٌ يُحتاج في استخراجه من كتب اللغة ، ومن كلامِ أهلِها ، إلى تتبُّعٍ كثيرٍ ، والشيخ لم يَزِدْ على أنْ قال : " ونحن نَسْرُدُها مضبوطةً كما رأيناها " فذكرها ، والنسَّاخُ خالفوه في ضبطِه ، فمِنْ ثَمَّ جاء فيه الخَلَلُ ، فعَدَلْتُ إلى هذا الضابطِ المذكورِ ولله الحمدُ .

وقد قُرِئ من هذه اللغاتِ بسبعٍ : ثلاثٍ في المتواتر ، وأربعٍ في الشاذ ، فقرأ نافعٌ وحفصٌ بالكسر والتنوين ، وابن كثير وابنُ عامر بالفتحِ دون تنوين ، والباقون بالكسر دون تنوين ،

ولا خلافَ بينهم في تشديدِ الفاء . وقرأ نافعٌ في روايةٍ : أُفٌ بالرفع والتنوين ، وأبو السَّمَّال بالضمِّ مِنْ غير تنوين ، وزيد بن علي بالنصب والتنوين ، وابنُ عباس : " أفْ " بالسكون .

وقوله : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ ، أي : لا تَزْجُرْهما ، والنَّهْرُ : الزَّجْرُ بصياحٍ وغِلْظة/ وأصلُه الظهورُ ، ومنه " النَّهْر " لظهوره . وقال الزمخشري : " النَّهْيُ والنَّهْرُ والنَّهْمُ أخواتٌ " .

﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) ﴾

(153/454)

قوله تعالى : ﴿ جَنَاحَ الذل ﴾ : هذه استِعارةٌ بليغة ، قيل : وذلك أنَّ الطائرَ إذا أراد الطيرانَ نَشَرَ جناحَيْه ورفَعَهما ليرتفعَ ، وإذا أراد تَرْكَ الطيران خَفَضَ جناحيه ، فجعل خَفْضَ الجناحِ كنايةً عن التواضعِ واللِّين . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : ما معنى جَناح الذُّل؟ قلت : فيه وجهان ، أحدُهما : أن يكونَ المعنى : واخفِضْ لهما جناحَك كما قال : " واخفِضْ جناحَك للمؤمنين " فأضافه إلى الذُّل أو الذِّل كما أُضيف حاتمٌ إلى الجودِ على معنى : واخفِضْ لهما جناحَك الذليلَ أو الذَّلول . والثاني : أن تَجعلَ لذُلِّه أو لذِلِّه جناحاً خفيضاً ، كما جعل لبيد للشَّمال يداً وللقَرَّة زِماماً - في قوله :

3051- وغداةِ ريحٍ قد كَشَفْتُ وقَرَّةٍ . . . إذ أصبحَتْ بيدِ الشَّمال؟ زِمامُها

مبالَغةً في التذلُّل والتواضع لهما " انتهى . يعني أنه عبَّر عن اللينِ بالذُّل ، ثم استعار له جناحاً ، ثم رشَّح هذه الاستعارةَ بأَنْ أمرَه بخفضِ الجَناح .

ومِنْ طريفِ ما يُحكى : أن أبا تمام لَمَّا نظَم قوله :

3052- لا تَسْقِني ماءَ المَلامِ فإنني . . . صَبٌّ قد اسْتَعْذَبْتَ ماء بكائي

جاءه رجلٌ بقَصْعةٍ وقال له : أَعْطني شيئاً من ماء المَلام . فقال : حتى تأتيني بريشةٍ مِنْ جَناحِ الذُّلِّ " يريد أن هذا مجازُ استعارةٍ كذاك . وقال بعضهم :

3053- أراشُوا جَناحِيْ ثم بَلُّوه بالنَّدى . . . فلم أَسْتَطِعْ مِنْ أَرْضِهِم طَيَرانا

وقرأ العامَّةُ " الذُّلّ " بضم الذَّال ، وابن عباس في آخرين بكسرها ، وهي استعارةٌ ؛ لأنَّ الذِّلَّ في الدوابِّ لأنه ضدُّ الصعوبة ، فاستعير للأناسيِّ ، كما أن الذُّلَّ بالضمِّ ضدُّ العِزّ .

(154/454)

قوله : { مِنَ الرحمة } فيه أربعةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنها للتعليل فتتعلق ب " اخفِضْ " ، أي : اخفِضْ مِن أجل الرحمة . والثاني : أنها لبيانِ الجنس . قال ابنُ عطية : " أي : إنَّ هذا الخفضَ يكون من الرحمة المستكنَّة في النفس " . الثالث : أن تكونَ في محلِّ نصبٍ على الحالِ مِنْ " جَناح " . الرابع : أنها لابتداءِ الغاية . قوله : { كَمَا رَبَّيَانِي } في هذه الكافِ

قولان، أحدهما: أنها نعتٌ لمصدرٍ محذوف، فقدَّره الحوفيُّ: "ارْحَمْهما رحمةً مثلَ تربيتِهما لي". وقدَّره أبو البقاء: "رحمةً مثلَ رحمتِهما"، كأنه جعل التربيةَ رحمةً. الثاني: أنها للتعليل، أي: ارْحَمْهما لأجلِ تربيتِهما كقولِه: ﴿ واذكروه كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ [البقرة: 198]. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 333.344 ﴾

(155/454)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

أَمَرَ بإفراده – سبحانه – بالعبادة، وذلك بالإخلاص فيما يستعمله العبدُ منها، وأن يكون مغلوباً باستيلاء سلطانِ الحقيقةِ عليه بما يَحْفَظُه عن شهودِ عبادته.

وأَمَرَ بالإحسان إلى الوالدين ومراعاةِ حقّهما، والوقوفِ عند إشارتهما، والقيام بخدمتهما، وملازمة ما كان يعود إلى رضاهما وحُسْن عشرتهما ورعاية حُرْمَتهما، وألا يبديَ شواهدَ الكسلِ عند أوامرهما، وأن يَبْذُل المُكْنَةَ فيما يعود إلى حفظ قلوبهما... هذا في حال حياتهما، فأمَّا بعد وفاتهما فبِصِدْقِ الدعاء لهما، وأداءِ الصَدَقَةِ عنهما، وحِفْظِ

وصيتهما على الوجه الذي فَعلاَه ، والإحسان إلى مَنْ كان مِنْ أهل ودّهما ومعارفهما .

ويقال إنّ الحقّ أَمَرَ العبادَ بمراعاة حقّ الوالدين وهما من جنس العبد . . فَمَنْ عجز عن القيام بحّق جنسه أَنَّى له أن يقومَ بحق ربه ؟

﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) ﴾

﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾ بحسن المداراة ولين المنطق ، والبدار إلى الخدمة ، وسرعة الإجابة ، وترك البَرَم بمطالبهما ، والصبر على أمرهما ، وألا تَدَّخِرَ عنهما ميسوراً .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (25) ﴾

إذا عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ قلبِ عبدٍ أَمَدَّه بحسن الأمجاد ، وأكرمه بجميل الامتداد ، ويسَّرَ عليه العسيرَ من الأمور ، وحفظه عن الشرور ، وعطف عليه قلوب الجمهور . انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 343 . 344 ﴾

(156/454)

قوله تعالى ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (28) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ

وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (30) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما حث على الإحسان إليهما بالخصوص ، عم بالأمر به لكل ذي رحم وغيره ، فقال تعالى : ﴿ وءات ذا القربى ﴾ من جهة الأب أو الأم وإن بعد ﴿ حقه و ﴾ آت ﴿ المسكين ﴾ وإن لم يكن قريباً ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المنقطع عن ماله لتكون متقياً محسناً .

(157/454)

ولما رغب في البذل ، وكانت النفس قلما يكون فعلها قواماً بين الإفراط والتفريط ، أتبع ذلك قوله تعالى : ﴿ ولا تبذر ﴾ بتفريق المال سرفاً ، وهو بذله فيما لا ينبغي ، وفي قوله ﴿ تبذيراً ﴾ تنبيه على أن الارتقاء نحو ساحة التبذير أولى من الهبوط إلى مضيق الشح والتقتير ؛ والتبذير : بسط اليد في المال على حسب الهوى جزافاً ، وأما الجود فبمقدار معلوم ، لأنه اتباع أمر الله في الحقوق المالية ، ومنها معلوم بحسب القدر ، ومنها معلوم بحسب الوصف كمعاضدة أهل الملة وشكر أهل الإحسان إليك ونحو ذلك ، وقد سئل ابن

مسعود ـ رضى الله عنهم ـ عن التبذير فقال : إنفاق المال من غير حقه ، وعن مجاهد ـ رضى الله عنهم ـ : لو أنفق الإنسان ماله كله في الحق ما كان تبذيراً ، ولو أنفق مداً في باطل كان تبذيراً .

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إن المبذرين ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ كانوا ﴾ أي كوناً هم راسخون فيه ﴿ إخوان الشياطين ﴾ أي كلهم ، البعيدين من الرحمة ، المحترقين في اللعنة ، فإن فعلهم فعل النار التي هي أغلب أجزائهم ، وهو إحراق ما وصلت إليه لنفع وغير نفع ، فإذا لم يجدوا أخذوا ما ليس لهم ، والعرب تقول لكل ملازم سنة قوم وتابع أمرهم : هو أخوهم .

ولما كان الاقتصاد أدعى إلى الشكر ، والتبذير أقود إلى الكفر ، قال تعالى : ﴿ وكان الشيطان ﴾ أي هذا الجنس البعيد من كل خير ، المحترق من كل شر ﴿ لربه ﴾ أي الذي أحسن إليه بإيجاده وتربيته ﴿ كفوراً ﴾ أي ستوراً لما يقدر على ستره من آياته الظاهرة ، ونعمه الباهرة ، مع الحجة .

ولما أمر بما هو الأولى في حالة الوجدان ، أمر بمثل ذلك حالة العدم ، فقال مؤكداً تنبيهاً على أنه ينبغي أن يكون الإعراض عنهم في حيز الاستبعاد والاستنكار : ﴿ وإما تعرضن

عنهم ﴾ أي عن جميع من تقدم ممن أمرت بالبذل له ، لأمر اضطرك إلى ذلك لا بد لك منه ، لكونك لا تجد ما تعطيه ، فأعرضت حياء لا لإرادة المنع ، بل ﴿ ابتغاء ﴾ أي طلب ﴿ رحمة ﴾ أي إكرام وسعة ﴿ من ربك ﴾ الكثير الإحسان ﴿ ترجوها ﴾ فإذا أتتك واسيتهم فيها ﴿ فقل لهم ﴾ في حالة الإعراض ﴿ قولاً ميسوراً ﴾ أي ذا يسر يشرح صدورهم ، ويبسط رجاءهم ، لأن ذلك أقرب إلى طريق المتقين المحسنين الذين أنا معهم ؛ قال أبو حيان : وروي أنه عليه الصلاة والسلام كان بعد نزول هذه الآية إذا لم يكن عنده ما يعطي وسئل قال : يرزقنا الله وإياكم من فضله - انتهى .

وقد وضع هنا الابتغاء موضع الفقر لأنه سببه ، فوضع المسبب موضع السبب .

ولما أمر بالجود الذي هو لازم الكرم ، نهى عن البخل الذي هو لازم اللوم ، في سياق ينفر منه ومن الإسراف ، فقال ممثلاً بادئاً بمثال الشح : ﴿ ولا تجعل يدك ﴾ بالبخل ﴿ مغلولة ﴾ أي كأنها بالمنع مشدودة بالغل ﴿ إلى عنقك ﴾ لا تستطيع مدها ﴿ ولا تبسطها ﴾ بالبذل ﴿ كل البسط ﴾ فتبذر ﴿ فتقعد ﴾ أي توجد كالمقعد ، بالقبض ﴿ ملوماً ﴾ أي بليغ الرسوخ فيما تلام بسببه عند الله ، لأن ذلك مما نهى عنه ، وعند الناس ، وبالبسط ﴿ محسوراً ﴾ منقطعاً بك لذهاب ما تقوى به وانحساره عنك ، وكل من الحالتين مجاوز لحد الاعتدال .

ولما كان سبب البخل خوف الفقر ، وسبب البسط محبة إغناء المعطي ، قال مسلياً لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما كان يرهقه من الإضافة عن التوسعة على من يسأله بأن ذلك إنما هو لتربية العباد بما يصلحهم ، لا لهوان بالمضيق عليه ، ولا لإكرام للمسوع عليه :

﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ البسط له دون غيره ﴿ ويقدر ﴾ أي يضيق كذلك سواء قبض يده أو بسطها ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ [الشورى : 27] ولكنه تعالى لا يبلغ بالمبسوط له غاية مراده ، ولا بالمقبوض عنه أقصى مكروهه ، فاستنوا في إنفاقكم على عباده بسنته في الاقتصاد ﴿ إنه كان ﴾ أي كوناً هو في غاية المكنة ﴿ بعباده خبيراً ﴾ أي بالغ الخبر ﴿ بصيراً ﴾ أي بالغ البصر بما يكون من كل القبض والبسط لهم مصلحة أو مفسدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 376 ـ 377 ﴾

(160/454)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) ﴾

اعلم أن هذا هو النوع الرابع من أعمال الخير والطاعة المذكورة في هذه الآيات وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ وَءَاتِ ﴾ خطاب مع من ؟ فيه قولان :

القول الأول : أنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم فأمره الله أن يؤتي أقاربه الحقوق التي وجبت لهم في الفيء والغنيمة ، وأوجب عليه أيضاً إخراج حق المساكين وأبناء السبيل أيضاً من هذين المثالين .

والقول الثاني : أنه خطاب للكل والدليل عليه أنه معطوف على قوله : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إياه ﴾ [الإسراء : 23] والمعنى : أنك بعد فراغك من بر الوالدين ، يجب أن تشتغل ببر سائر الأقارب الأقرب فالأقرب ، ثم بإصلاح أحوال المساكين وأبناء السبيل .

واعلم أن قوله تعالى : ﴿ وَءَاتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ مجمل وليس فيه بيان أن ذلك الحق ما هو ؟ وعند الشافعي رحمه الله أنه لا يجب الإنفاق إلا على الولد والوالدين ، وقال قوم : يجب الإنفاق على المحارم بقدر الحاجة واتفقوا على أن من لم يكن من المحارم كأبناء العم فلا حق لهم إلا الموادة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة في السراء والضراء .

أما المسكين وابن السبيل فقد تقدم وصفهما في سورة التوبة في تفسير آية الزكاة .

ويجب أن يدفع إلى المسكين ما يفي بقوته وقوت عياله ، وأن يدفع إلى ابن السبيل ما يكفيه

من زاده وراحلته إلى أن يبلغ مقصده .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ والتبذير في اللغة إفساد المال وإنفاقه في السرف .

قال عثمان بن الأسود : كنت أطوف في المساجد مع مجاهد حول الكعبة فرفع رأسه إلى أبي قبيس وقال : لو أن رجلاً أنفق مثل هذا في طاعة الله لم يكن من المسرفين ، ولو أنفق درهماً واحداً في معصية الله كان من المسرفين .

(161/454)

وأنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر فقيل له لا خير في السرف فقال : لا سرف في الخير ، وعن عبد الله بن عمر قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال : ما هذا السرف يا سعد ؟ فقال : أو في الوضوء سرف ؟ قال : نعم : وإن كنت على نهر جارٍ

ثم نبه تعالى على قبح التبذير بإضافته إياه إلى أفعال الشياطين فقال : ﴿ إِنَّ المبذرين كَانُواْ إخوان الشياطين ﴾ والمراد من هذه الأخوة التشبه بهم في هذا الفعل القبيح ، وذلك لأن العرب يسمون الملازم للشيء أخاً له ، فيقولون : فلان أخو الكرم والجود ، وأخو السفر إذا كان مواظباً على هذه الأعمال ، وقيل قوله : ﴿ إخوان الشياطين ﴾ أي قرناءهم في الدنيا والآخرة كما قال : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾]

الزخرف : 36] وقال تعالى : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وأزواجهم ﴾

[الصافات : 22] أي قرناءهم من الشياطين ، ثم إنه تعالى بين صفة الشيطان فقال :

﴿ وَكَانَ الشيطان لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾ ومعنى كون الشيطان كفوراً لربه ، هو أنه يستعمل بدنه في المعاصي والإفساد في الأرض ، والإضلال للناس .

وكذلك كل من رزقه الله تعالى مالاً أو جاهاً فصرفه إلى غير مرضاة الله تعالى كان كفوراً لنعمة الله تعالى ، والمقصود : أن المبذرين إخوان الشياطين ، بمعنى كونهم موافقين للشياطين في الصفة والفعل ، ثم الشيطان كفور لربه فيلزم كون المبذر أيضاً كفوراً لربه ، وقال بعض العلماء : خرجت هذه الآية على وفق عادة العرب وذلك لأنهم كانوا يجمعون الأموال بالنهب والغارة ثم كانوا ينفقونها في طلب الخيلاء والتفاخر ، وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله ، وإعانة أعدائه فنزلت هذه الآية تنبيهاً على قبح أعمالهم في هذا الباب .

(162/454)

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابتغاء رَحْمَةٍ مّن رَّبّكَ تَرْجُوهَا ﴾ والمعنى : أنك إن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من التصريح بالرد بسبب الفقر

والقلة : ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ أي سهلاً ليناً وقوله : ﴿ ابتغاء رَحْمَةٍ مّن رَّبّكَ تَرْجُوهَا ﴾ كناية عن الفقر ، لأن فاقد المال يطلب رحمة الله وإحسانه .

فلما كان فقد المال سبباً لهذا الطلب ولهذا الابتغاء أطلق اسم السبب على المسبب فسمى الفقر بابتغاء رحمة الله تعالى ، والمعنى : أن عند حصول الفقر والقلة لا تترك تعهدهم بالقول الجميل والكلام الحسن ، بل تعدهم بالوعد الجميل وتذكر لهم العذر وهو حصول القلة وعدم المال ، أو تقول لهم : الله يسهل ، وفي تفسير القول الميسور وجوه : الأول : القول الميسور هو الرد بالطريق الأحسن .

والثاني : القول الميسور اللين السهل قال الكسائي : يسرت أيسر له القول أي لينته له .

الثالث : قال بعضهم : القول الميسور مثل قوله : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ [البقرة : 263] قالوا : والميسور هو المعروف ، لأن القول المتعارف لا يحوج إلى تكلف ، والله أعلم .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29) ﴾

اعلم أنه تعالى لما أمره بالإنفاق في الآية المتقدمة علمه في هذه الآية أدب الإنفاق ، واعلم أنه تعالى شرح وصف عبادة المؤمنين في الإنفاق في سورة الفرقان فقال : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ [الفرقان : 67] فههنا أمر رسوله بمثل ذلك الوصف فقال : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ أي لا تمسك عن الإنفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات ، والمعنى : لا تجعل يدك في انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط : ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ أي ولا تتوسع في الإنفاق توسعاً مفرطاً بحيث لا يبقى في يدك شيء .

وحاصل الكلام : أن الحكماء ذكروا في كتب "الأخلاق" أن لكل خلق طرفي إفراط وتفريط وهما مذمومان ، فالبخل إفراط في الإمساك ، والتبذير إفراط في الإنفاق وهما مذمومان ، والخلق الفاضل هو العدل والوسط كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ [البقرة : 143] .

ثم قال تعالى : ﴿ فتقعد ملوما محسورا ﴾ أما تفسير تقعد ، فقد سبق في الآية المتقدمة . وأما كونه ﴿ ملوما ﴾ فلأنه يلوم نفسه .

وأصحابه أيضاً يلومونه على تضييع المال بالكلية وإبقاء الأهل والولد في الضر والمحنة ، وأما كونه ﴿ محسوراً ﴾ فقال الفراء : تقول العرب للبعير : هو محسور إذا انقطع سيره وحسرت الدابة إذا سيرها حتى ينقطع سيرها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : 4] وجمع الحسير حسرى مثل قتلى وصرعى ، وقال القفال : المقصود تشبيه حال من أنفق كل ماله ونفقاته بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته ، لأن ذلك المقدار من المال كأنه مطية يحمل الإنسان ويبلغه إلى آخر الشهر أو السنة ، كما أن ذلك البعير يحمله ويبلغه إلى آخر المنزل فإذا انقطع ذلك البعير بقي في وسط الطريق عاجزاً متحيراً فكذلك إذا أنفق الإنسان مقدار ما يحتاج إليه في مدة شهر بقي في وسط ذلك الشهر عاجزاً متحيراً ومن فعل هذا لحقه اللوم من أهله والمحتاجين إلى إنفاقه عليهم بسبب سوء تدبيره وترك الحزم في مهمات معاشه .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ والمقصود أنه عرف رسوله صلى الله عليه وسلم كونه رباً .

والرب هو الذي يربي المربوب ويقوم بإصلاح مهماته ودفع حاجاته على مقدار الصلاح والصواب فيوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض .

والقدر في اللغة التضييق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق : 7] وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ [الفجر : 16] أي ضيق وإنما

وسع على البعض لأن ذلك هو الصلاح لهم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرزقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الأرض ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ [الشورى : 27] .

(165/454)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ يعنى أنه تعالى عالم بأن مصلحة كل إنسان في أن لا يعطيه إلا ذلك القدر ، فالتفاوت في أرزاق العباد ليس لأجل البخل ، بل لأجل رعاية المصالح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 154 . 157 ﴾

(166/454)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وإما تعرضَنَّ عنهم ابتغاء رحمةٍ من ربّك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾

فيه تأويلان : أحدهما : معناه إذا أعرضت عمن سألك ممن تقدم ذكره لتعذره عندك ﴿ ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ﴾ أي انتظاراً للرزق منه ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ أي

عِدْهم خيراً ورد عليهم رداً جميلاً ، وهذا قول الحسن ومجاهد . الثاني : معناه إذا أعرضت عمن سألك حذراً أن ينفقه في معصية فمنعته ابتغاء رحمة له فقل لهم قولاً ميسوراً ، أي ليناً سهلاً ، وهذا قول ابن زيد .

قوله عز وجل : ﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾

أي ويقتر ويقلل .

﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : خبيراً بمصالحهم بصيراً بأمورهم .

والثاني : خبيراً بما أضمروا بصيراً بما عملوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(167/454)

وقال ابن عطية :

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) ﴾

اختلف المتأولون في " ذي القربى " ، فقال الجمهور : الآية وصية للناس كلهم بصلة قرابتهم ، خوطب بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد الأمة ، وألحق في هذه الآية ما يتعين له

من صلة الرحم وسد الخلة والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه، قال بنحو هذا الحسن وعكرمة وابن عباس وغيرهم، وقال علي بن الحسين في هذه: هم قرابة النبي عليه السلام، أمر النبي عليه السلام بإعطائهم حقوقهم من بيت المال.

(168/454)

قال القاضي أبو محمد: والقول الأول أبين، ويعضده العطف ب ﴿ المسكين وابن السبيل ﴾. ﴿ وابن السبيل ﴾ هنا يعم الغني والفقير إذ لكل واحد منهما حق وإن اختلفا، " وابن السبيل " في آية الصدقة أخص، و" التبذير " إنفاق المال في فساد أو في سرف في مباح، وهو من البذر، ويحتمل قوله تعالى: ﴿ المبذرين ﴾ أن يكون اسم جنس، ويحتمل أن يعني أهل مكة معينين، وذكره النقاش، وقوله تعالى: ﴿ إخوان ﴾ يعني أنهم في حكمهم، إذ المبذر ساع في فساد والشيطان أبداً ساع في فساد، و﴿ إخوان ﴾ جمع أخ من غير النسب، وقد يشذ، ومنه قوله تعالى في سورة النور ﴿ أو إخوانهن أو بني إخوانهن ﴾ [النور: 31] والإخوة جمع أخ في النسب ومقد يشذ، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ [الحجرات: 10] وقرأ الحسن والضحاك " إخوان الشيطان " على الإفراد، وكذلك في مصحف أنس بن مالك، ثم ذكر تعالى كفر الشيطان ليقع التحذير من

التشبه به في الإفساد مستوعباً بيناً ، وقوله تعالى : ﴿ وإما تعرض ﴾ ، الضمير في ﴿ عنهم ﴾ عائد على من تقدم ذكره من المساكين وبني السبيل ، فأمر الله تعالى نبيه في هذه الآية إذا سأله منهم أحد ، فلم يجد عنده ما يعطيه فقابله رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإعراض تأدباً منه في أن لا يرده تصريحاً ، وانتظار الرزق من الله تعالى يأتي فيعطي منه ، أن يكون يؤنسه بالقول الميسور ، وهو الذي فيه الترجية بفضل الله تعالى والتأنيس بالميعاد الحسن والدعاء في توسعة الله تبارك وتعالى وعطائه ، وروي أنه عليه السلام كان يقول بعد نزول هذه الآية ، إذا لم يكن عنده ما يعطي : يرزقنا الله وإياكم من فضله ، ف " الرحمة " على هذا التأويل الرزق المنتظر ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة ، وقال ابن زيد " الرحمة " الأجر والثواب ، وإنما نزلت الآية في قوم كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأبى أن يعطيهم لأنه عليه الصلاة والسلام كان

يعلم منهم نفقة المال في فساد ، فكان يعرض عنهم رغبة الأجر في منعهم لئلا يعينهم على فسادهم ، فأمره الله تعالى بأن يقول لهم ﴿ قولاً ميسورا ﴾ يتضمن الدعاء في الفتح لهم والإصلاح .

قال القاضي أبو محمد : وقال بعض أهل التأويل الأول ، نزلت الآية في عمار بن ياسر وصنفه ، و" الميسور " مفعول من لفظة اليسر ، تقول يسرت لك كذا إذا أعدَدته ، وقوله ﴿ ولا تجعل يدك ﴾ الآية ، روي عن قالون "كل البصط " بالصاد ، ورواه الأعشى عن أبي بكر ، واستعير لليد المقبوضة جملة عن الإنفاق المتصفة بالبخل " الغل إلى العنق " ، واستعير لليد التي تستنفد جميع ما عندها غاية البسط ضد الغل ، وكل هذا في إنفاق الخير ، وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام ، وهذه الآية ينظر إليها قول النبي صلى الله عليه وسلم : " مثل البخيل والمتصدق " ، والحديث بكامله ، والعلامة هنا لاحقة ممن يطلب من المستحقين فلا يجد ما يعطي ، و" المسحور " المنفه الذي قد استنفدت قوته تقول حسرت البعير إذا أتعبته حتى لم تبق له قوة فهو حسير ، ومنه قول الشاعر : [الطويل]

لهن الوجى لم كن عوناً على السرى . . . ولا زال منها ظالع وحسير

ومنه البصر الحسير وهو الكال ، وقال ابن جريج وغيره في معنى هذه الآية ، لا تمسك عن النفقة فيما أمرتك به من الحق ، ولا تبسطها كل البسط فيما نهيتك عنه ، وقال قتادة : " التبذير " النفقة في معصيه الله ، وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله في حق لم يكن تبذيراً ، ولو أنفق مداً في باطل تبذيراً .

قال القاضي أبو محمد : وهذا فيه نظر ، ولا بعض البسط لم يبح فيما نهى عنه . ولا يقال في المعصية ولا تبذر ، وإنما يقال ولا تنفق ولو باقتصاد وقوام ، ولله در ابن عباس وابن مسعود فإنهما قالا : التبذير الإنفاق وفي غير حق ، فهذه عبارة تعم المعصية والسرف في المباح ، وإنما نهت هذه الآية عن استفراغ الوجد فيما يطرأ أولاً من سؤال المؤمنين لئلا يبقى من يأتي بعد ذلك لا شيء له أو لئلا يضيع المنفق عيالاً ونحوه ، ومن كلام الحكمة : ما رأيت قط سرفاً إلا ومعه حق مضيع ، وهذه من آيات فقه الحال ، ولا يبين حكمها إلا باعتبار شخص من الناس ، وقوله ﴿ إن ربك يبسط ﴾ الآية ، والمعنى كن أنت يا محمد على ما رسم لك من الاقتصاد وإنفاق القوام ولا يهمنك فقر من تراه كذلك فإنه بمرأى من الله ومسمع وبمشيئة ، ﴿ ويقدر ﴾ معناه ويضيف ، وقوله تعالى : ﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ أي يعلم مصلحة قوم في الفقر ومصلحة آخرين في الغنى ، وقال بعض المفسرين وحكاه الطبري : إن الآية إشارة إلى حال العرب التي كانت يصلحها الفقر ، وكانت إذا شبعت طغت وقتلت غيرها وأغارت ، وإذا كان الجوع والقحط شغلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وآت ذا القربى حقَّه ﴾

فيه قولان .

أحدهما : أنه قرابة الرجل من قبَل أبيه وأُمِّه ، قاله ابن عباس ، والحسن ، فعلى هذا في حقهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المراد به : بِرُّهم وصِلَتهم .

والثاني : النَّفقة الواجبة لهم وقت الحاجة .

والثالث : الوصيَّة لهم عند الوفاة .

والثاني : أنهم قرابة الرسول ، قاله علي بن الحسين عليهما السلام ، والسدي .

فعلى هذا ، يكون حقهم : إِعطاؤهم من الخُمس ، ويكون الخطاب للوُلاة .

قوله تعالى : ﴿ والمسكينَ وابنَ السبيل ﴾ قال القاضي أبو يعلى : يجوز أن يكون المراد : الصدقات الواجبة ، يعني : الزكاة ، ويجوز أن يكون الحق الذي يَلزمه إِعطاؤه عند الضرور إِليه .

وقيل : حق المسكين ، من الصدقة ، وابن السبيل ، من الضيافة .

قوله تعالى : ﴿ ولا تبذِّر تبذيراً ﴾ في التبذير قولان .

أحدهما : أنه إِنفاق المال في غير حق ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس .

وقال مجاهد : لو أنفق الرجل ماله كلَّه في حقٍّ ، ما كان مبذِّراً ، ولو أنفق مُدّاً في غير حق ، كان مبذِّراً .

قال الزجاج : التبذير : النفقة في غير طاعة الله ، وكانت الجاهلية تنحر الإِبل وتبذِّر الأموال تطلب بذلك الفخر والسُّمعة ، فأمر الله عز وجل بالنفقة في وجهها فيما يقرِّب منه .

والثاني : أنه الإِسراف المتلفِ للمال ، ذكره الماوردي .

وقال أبو عبيدة : المبذِّر : هو المُسرف المُفسد العائث .

قوله تعالى ﴿ إِن المبذِّرين كانوا إِخوان الشياطين ﴾ لأنهم يوافقونهم فيما يدعونهم إِليه ، ويشاكلونهم في معصية الله ، ﴿ وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ أي : جاحداً لِنعَمه .

وهذا يتضمن أن المسرف كفور للنِّعم .

قوله تعالى : ﴿ وإِما تعرضَنَّ عنهم ﴾ في المشار إِليهم أربعة أقوال .

أحدها : أنهم الذين تقدَّم ذِكْرُهم من الأقارب والمساكين وأبناء السبيل ، قاله الأكثرون ، فعلى هذا في علَّة هذا الإِعراض قولان .

أحدهما : الإِعسار ، قاله الجمهور .

والثاني : خوف إِنفاقهم ذلك في معصية الله ، قاله ابن زيد .

وعلى هذا في الرحمة قولان .

أحدهما : الرزق ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه الصلاح والتوبة ، هذا على قول ابن زيد .

والثاني : أنهم المشركون ، فالمعنى : وإِما تعرضَنَّ عنهم لتكذيبهم ، قاله سعيد بن جبير .

فتحتمل إذاً الرحمة وجهين .

أحدهما : انتظار النصر عليهم .

والثاني : الهداية لهم .

والثالث : " أنهم ناس من مُزينة جاؤوا يستحملون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : "لا أجد ما أحملكم عليه" ، فبكَوا " ، فنزلت هذه الآية ، قاله عطاء الخراساني .

والرابع : أنها نزلت في خبَّاب ، وبلال ، وعمَّار ، ومِهجَع ، ونحوهم من الفقراء ، كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يجد ما يعطيهم ، فيُعرض عنهم ويسكت ، قاله مقاتل .

فعلى هذا القول والذي قبله تكون الرحمة بمعنى الرِّزق .

قوله تعالى : ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ قال أبو عبيدة : ليِّناً هيِّناً ، وهو من اليُسْر .

وللمفسرين فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه العِدَة الحسنة ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد .

والثاني : أنه القول الجميل ، مثل أن يقول : رزقنا الله وإِياك ، قاله ابن زيد ؛ وهذا على ما تقدّم من قوله .

والثالث : أنه المداراة لهم باللسان ، على قول مَن قال : هم المشركون ، قاله أبو سليمان الدمشقي ؛ وعلى هذا القول ، تحتمل الآية النسخ .

قوله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إِلى عنقك ﴾

سبب نزولها : " أن غلاماً جاء إِلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ، إِن أُمِّي تسألك كذا وكذا ، قال : "ما عندنا اليوم شيء" ، قال : فتقول لك : اكْسُني قميصك ، قال : فخلع قميصه فدفعه إِليه ، وجلس في البيت حاسراً " ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن مسعود .

(173/454)

وروى جابر بن عبد الله نحو هذا ، فزاد فيه ، فأذَّن بلال للصلاة ، وانتظروه فلم يخرج ، فشغل قلوب الصحابة ، فدخل عليه بعضهم ، فرأوه عُرياناً ، فنزلت هذه الآية ، والمعنى : لا تمسك يدك عن البذل كلَّ الإِمساك حتى كأنها مقبوضة إِلى عنقك ، ﴿ ولا تبسطها كلَّ

البسط ﴾ في الإعطاء والنفقة ﴿ فتقعُدَ ملوماً ﴾ تلوم نفسك ويلومك الناس ، ﴿ محسوراً ﴾ قال ابن قتيبة : تَحْسِرُكَ العطيةُ وتقطعك كما يَحْسِرُ السفرُ البعيرَ فيبقى منقطعاً به .

قال الزجّاج : المحسور : الذي قد بلغ الغاية في التعب والإعياء ، فالمعنى : فتقعدَ وقد بلغتَ في الحَمْل على نفسك وحالك حتى صِرتَ بمنزلة من قد حَسَرَ .

قال القاضي أبو يعلى : وهذا الخطاب أُريدَ به غيرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يكن يدَّخِرُ شيئاً لغدٍ ، وكان يجوع حتى يشُدَّ الحجَرَ على بطنه ، وقد كان كثير من فضلاء الصحابة ينفقون جميع ما يملكون ، فلم ينههم الله ، لصحة يقينهم ، وإِنما نهى من خِيف عليه التحسُّر على ما خرج من يده ، فأما من وثق بوعد الله تعالى ، فهو غير مراد بالآية .

قوله تعالى : ﴿ إِن ربَّك يبسُط الرِّزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي : يوسع على من يشاء ويضيّق ، ﴿ إِنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ حيث أجرى أرزاقهم على ما علم فيه صلاحهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ أي كما راعيت حق الوالدَيْن فصِل الرحم ، ثم تصدّق على المسكين وابن السبيل .

وقال عليّ بن الحسين في قوله تعالى "وآتِ ذا القُرْبَى حَقّه" : هم قرابة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أمر صلى الله عليه وسلم بإعطائهم حقوقَهم من بيت المال ، أي من سهم ذَوِي القربى من الغَزْو والغنيمة ، ويكون خطاباً للولاة أو من قام مقامهم .

والحق في هذه الآية ما يتعين من صلة الرحم ، وسَدّ الخَلّة ، والمواساة عند الحاجة بالمال ، والمعونة بكل وجه .

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ ﴾ أي لا تُسرف في الإنفاق في غير حق .

قال الشافعيّ رضي الله عنه : والتبذير إنفاق المال في غير حقه ، ولا تبذير في عمل الخير . وهذا قول الجمهور .

وقال أشهب عن مالك : التبذير هو أخذ المال من حقه ووضعُه في غير حقه ، وهو الإسراف ، وهو حرام لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ المبذرين كانوا إِخْوَانَ الشياطين ﴾ وقوله "إخوان" يعني أنهم في حكمهم ؛ إذ المبذِّر ساعٍ في إفساد كالشياطين ، أو أنهم يفعلون ما

تسوّل لهم أنفسهم ، أو أنهم يُقرَنون بهم غدا في النار ؛ ثلاثة أقوال .

والإخوان هنا جمع أخٍ من غير النسب ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ [لحجرات : 10] .

وقوله تعالى : ﴿ وكَانَ الشيطان لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾ أي احذروا متابعته والتشبه به في الفساد .

والشيطان اسم الجنس .

وقرأ الضحاك "إخوان الشيطان" على الانفراد ، وكذلك ثبت في مصحف أنس بن مالك رضي الله عنه .

الثالثة من أنفق ماله في الشهوات زائداً على قدر الحاجات وعَرّضه بذلك للنفاد فهو مبذّر .

ومن أنفق رِبْح ماله في شهواته وحَفِظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذّر .

(175/454)

ومن أنفق درهماً في حرام فهو مبذّر ، ويُحجر عليه في نفقته الدرهم في الحرام ، ولا يحجر عليه إن بذله في الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد .

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (28) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : وهو أنه سبحانه وتعالى خصّ نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابتغآء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ .

وهو تأديب عجيب وقول لطيف بديع ؛ أي لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الغنى والقدرة فتَحْرِمهم .

وإنما يجوز أن تُعرض عنهم عند عجزٍ يَعْرِض وعائق يعوق ، وأنت عند ذلك ترجو من الله سبحانه وتعالى فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل ، فإن قعد بك الحال فقُلْ لهم قولاً ميسوراً .

الثانية : في سبب نزولها ؛ قال ابن زيد : نزلت الآية في قوم كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأبَى أن يعطيهم ؛ لأنه كان يعلم منهم نفقة المال في فساد ، فكان يُعرض عنهم رغبة في الأجر في منعهم لئلا يعينهم على فسادهم .

وقال عطاء الخراسانِيّ في قوله تعالى ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابتغآء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ قال : ليس هذا في ذكر الوالدين ، جاء ناسٌ من مُزَيْنَة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستحملونه ؛ فقال : "لا أجد ما أحملكم عليه" فتولَّوْا وأعينهم تَفِيض من الدمع حَزَناً ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابتغآء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ .

والرحمة الفَيْءُ .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴾ أمره بالدعاء لهم ، أي يَسِّر فقرهم عليهم

بدعائك لهم .

وقيل : ادع لهم دعاءً يتضمّن الفتح لهم والإصلاح .

(176/454)

وقيل : المعنى "وإما تعرضن" أي إن أعرضت يا محمد عن إعطائهم لضيق يدٍ فقل لهم قولاً ميسوراً ؛ أي أحسن القول وابسط العذر ، وادع لهم بسعَة الرزق ، وقل إذا وجدتُ فعلتُ وأكرمتُ ؛ فإن ذلك يعمل في مَسَرّة نفسه عمل المواساة .

وكان عليه الصلاة والسلام إذا سئل وليس عنده ما يُعطِي سكت انتظاراً لرزق يأتي من الله سبحانه وتعالى كراهة الردّ ، فنزلت هذه الآية ، " فكان صلى الله عليه وسلم إذا سئل وليس عنده ما يعطي قال : يرزقنا الله وإياكم من فضله " فالرحمة على هذا التأويل الرزق المنتظر .

وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة .

والضمير في "عنهم" عائد على من تقدّم ذكرهم من الآباء والقرابة والمساكين وأبناء السبيل .

و"قولا ميسورا" أي ليّناً لطيفاً طيباً ، مفعول بمعنى الفاعل ، من لفظ اليسر كالميمون ، أي

وعداً جميلاً ، على ما بيناه .

ولقد أحسن من قال :

إلاّ تكن ورِقٌ يوما أجود بها . . .

للسائلين فإني ليّن العُودِ

لا يَعْدَم السائلون الخيرَ من خلقي . . .

إمّا نَوالي وإمّا حسنُ مردودي

تقول : يَسّرت لك كذا إذا أعددته .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ هذا مجاز عبّر به عن البخيل الذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله ؛ فضرب له مثل الغَلّ الذي يمنع من التصرف باليد .

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مَثَل البخيل والمتصدّق كمثل رجلين عليهما جُبّتَان من حديد قد اضطرت أيدِيَهما إلى ثُديِّهِمَا وتَراقِيهما فجعل المتصدِّق كلما تصدّق بصدقة انبسطت عنه حتى

تَغْشَى أنامِلَه وتَعْفُوَ أثره وجعل البخيل كُلما همّ بصدقة قَلَصت وأخذت كلُّ حَلْقة بمكانها .

(177/454)

قال أبو هريرة رضي الله عنه : فأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بأصبعيه هكذا في جيْبه فلو رأيته يُوَسّعها ولا توسّع .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ ضرب بَسْطَ اليد مثلاً لذهاب المال ، فإن قبض الكف يحبس ما فيها ، وبسطها يذهب ما فيها .

وهذا كله خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ، وكثيراً ما جاء في القرآن ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما كان سيّدَهم وواسطتهم إلى ربّهم عَبّر به عنهم على عادة العرب في ذلك .

وأيضاً فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدّخر شيئًا لغد ، وكان يجوع حتى يشدّ الحجر على بطنه من الجوع .

وكان كثير من الصحابة ينفقون في سبيل الله جميع أموالهم ، فلم يعنّفهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليهم لصحة يقينهم وشدّة بصائرهم .

وإنما نهى الله سبحانه وتعالى عن الإفراط في الإنفاق، وإخراج ما حوْته يده من المال مَن خِيف عليه الحسرة على ما خرج من يده، فأما من وثق بموعود الله عز وجل وجزيل ثوابه فيما أنفقه فغير مراد بالآية، والله أعلم.

وقيل: إن هذا الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم في خاصّة نفسه، علّمه فيه كيفية الإنفاق، وأمره بالاقتصاد.

قال جابر وابن مسعود: "جاء غلام إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: إن أمّي تسألك كذا وكذا.

فقال: "ما عندنا اليوم شيء".

قال: فتقول لك اكْسُنِي قميصَك؛ فخلع قميصه فدفعه إليه وجلس في البيت عُرياناً.

وفي رواية جابر: فأذّن بلال للصلاة وانتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج، واشتغلت القلوب، فدخل بعضهم فإذا هو عار"؛ فنزلت هذه الآية.

وكل هذا في إنفاق الخير.

وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام، كما تقدّم.

الثالثة: نهت هذه الآية عن استفراغ الوجد فيما يطرأ أوّلاً من سؤال المؤمنين؛ لئلا يبقى من يأتي بعد ذلك لا شيء له، أو لئلا يضيّع المنفِق عياله.

ونحوُه من كلام الحكمة : ما رأيت قطُّ سَرَفاً إلا ومعه حق مضيَّع .

وهذه من آيات فقه الحال فلا يُبيَّن حكمها إلا باعتبار شخص من الناس .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾ قال ابن عرفة : يقول لا تسرف ولا تُتلف مالك فتبقى محسوراً منقطعاً عن النفقة والتصرف ؛ كما يكون البعير الحسير ، وهو الذي ذهبت قوته فلا انبعاث به ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : 4] أي كليل منقطع .

وقال قتادة : أي نادماً على ما سلف منك ؛ فجعله من الحسرة ؛ وفيه بُعْدٌ ؛ لأن الفاعل من الحسرة حَسِر وحسران ولا يقال محسور .

والملوم : الذي يلام على إتلاف ماله ، أو يلومه من لا يعطيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(179/454)

وقال أبو حيان :

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) ﴾

لما أمر تعالى ببر الوالدين أمر بصلة القرابة .

قال الحسن : نزلت في قرابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، والظاهر أنه خطاب لمن خوطب بقوله ﴿ إمّا يبلغنّ عندك الكبر ﴾ وألحق هنا ما يتعين له من صلة الرحم ، وسد الخلة ، والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه .

قال نحوه ابن عباس وعكرمة والحسن وغيرهم .

وقال عليّ بن الحسين فيها : هم قرابة الرسول عليه السلام ، أمر بإعطائهم حقوقهم من بيت المال ، والظاهر أن الحق هنا مجمل وأن ﴿ ذا القربى ﴾ عام في ذي القرابة فيرجع في تعيين الحق وفي تخصيص ذي القرابة إلى السنة .

وعن أبي حنيفة : إن القرابة إذا كانوا محارم فقراء عاجزين عن التكسب وهو موسر حقهم أن ينفق عليهم .

وعند الشافعي : ينفق على الولد والوالدين فحسب على ما تقرر في كتب الفقه .

ونهى تعالى عن التبذير وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها وتبذر أموالها في الفخر والسمعة وتذكر ذلك في أشعارها ، فنهى الله تعالى عن النفقة في غير وجوه البر وما يقرب منه تعالى .

وعن ابن مسعود وابن عباس : التبذير إنفاق المال في غير حق .

وقال مجاهد : لو أنفق ماله كله في حق ما كان مبذراً .

وذكر الماوردي أنه الإسراف المتلف للمال ، وقد احتج بهذه الآية على الحجر على المبذر ، فيجب على الإمام منعه منه بالحَجْر والحيلولة بينه وبين ماله إلاّ بمقدار نفقة مثله ، وأبو حنيفة لا يرى الحجر للتبذير وإن كان منهياً عنه .

وقال القرطبي : يحجر عليه إن بذله في الشهوات وخيف عليه النفاد ، فإن أنفق وحفظ الأصل فليس بمبذر وإخوة الشياطين كونهم قرناءهم في الدنيا وفي النار في الآخرة ، وتدل هذه الأخوة على أن التبذير هو في معصية الله أو كونهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف في الدنيا .

وقرأ الحسن والضحاك إخوان الشيطان على الإفراد وكذا ثبت في مصحف أنس ، وذكر كفر الشيطان لربه ليحذر ولا يطاع لأنه لا يدعو إلى خير كما قال إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير .

﴿ وإما تعرضنّ ﴾ .

قيل : " نزلت في ناس من مزينة استحملوا الرسول فقال : "لا أجد ما أحملكم عليه" . فبكوا " وقيل في بلال وصهيب وسالم وخباب : سألوه ما لا يجد فأعرض عنهم .

وروي أنه عليه السلام كان بعد نزول هذه الآية إذا لم يكن عنده ما يعطي وسئل قال : " يرزقنا الله وإياكم من فضله " فالرحمة على هذا الرزق المنتظر وهو قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة .

وقال ابن زيد : الرحمة الأجر والثواب وإنما نزلت الآية في قوم كانوا يسألون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيأبى أن يعطيهم لأنه كان يعلم منهم نفقة المال في فساد ، فكان يعرض عنهم وعنه في الأجر في منعهم لئلا يعينهم على فسادهم ، فأمره الله تعالى أن يقول لهم : ﴿ قولاً ميسوراً ﴾ يتضمن الدعاء في الفتح لهم والإصلاح انتهى من كلام ابن عطية .

وقال الزمخشري : وإن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ ولا تتركهم غير مجابين إذا سألوك ، وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا سئل شيئاً وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء ، ويجوز أن يكون معنى ﴿ وإما تعرضنّ عنهم ﴾ وإن لم تنفعهم وترفع خصاصتهم لعدم الاستطاعة ، ولا يريد الإعراض بالوجه كناية بالإعراض عن ذلك لأن من أبى أن يعطي أعرض بوجهه انتهى .

والذي يظهر أنه تعالى لما أمر بإيتاء ذي القربى حقه ومن ذكر معه ونهاه عن التبذير ، قال : وإن لم يكن منك إعراض عنهم فالضمير عائد عليهم ، وعلل الإعراض بطلب الرحمة وهي كناية عن الرزق والتوسعة وطلب ذلك ناشىء عن فقدان ما يجود به ويؤتيه من سأله ،

وكأن المعنى وإن تعرض عنهم لإعسارك فوضع المسبب وهو ابتغاء الرحمة موضع السبب وهو الإعسار .

(181/454)

وأجاز الزمخشري أن يكون ﴿ ابتغاء رحمة من ربك ﴾ علة لجواب الشرط فهو يتعلق به ، وقدم عليه أي فقل لهم قولاً سهلاً ليناً وعدهم وعداً جميلاً رحمة لهم وتطييباً لقلوبهم ابتغاء رحمة من ربك ، أي ابتغِ رحمة الله التي ترجوها برحمتك عليهم انتهى .

وما أجازه لا يجوز لأن ما بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبله لا يجوز في قولك أن يقم فاضرب خالداً أن تقول : إن يقم خالداً فاضرب ، وهذا منصوص عليه فإن حذفت الفاء في مثل إن يقم يضرب خالداً فمذهب سيبويه والكسائي الجواز ، فتقول : إن يقم خالداً نضرب ، ومذهب الفراء المنع فإن كان معمول الفعل مرفوعاً نحو إن تفعل يفعل زيد فلا يجوز تقديم زيد على أن يكون مرفوعاً بيفعل ، هذا وأجاز سيبويه أن يكون مرفوعاً بفعل يفسره يفعل كأنك قلت : إن تفعل يفعل زيد يفعل ، ومنع ذلك الكسائي والفراء .

وقال ابن جبير : الضمير في ﴿ عنهم ﴾ عائد على المشركين ، والمعنى ﴿ وإما تعرضنّ عنهم ﴾ لتكذيبهم إياك ابتغاء رحمة أي نصر لك عليهم أو هداية من الله لهم ، وعلى هذا

القول الميسور المداراة لهم باللسان قاله أبو سليمان الدمشقي ويسر يكون لازماً ومتعدّياً فميسور من المتعدّي تقول : يسرت لك كذا إذا أعددته .

قال الزمخشري : يقال يسر الأمر وعسر مثل سعد ونحس فهو مفعول انتهى .

ولمعنى هذه الآية أشار الشاعر في القصيدة التي تسمى باليتيمة في قوله :

ليكن لديك لسائلٍ فرجٌ . . .

إن لم يكن فليحسن الردّ

وقال آخر

إن لم يكن ورق يوماً أجود به . . .

للسائلين فإني لين العود

لا يعدم السائلون الخير من خلقي . . .

إما نوَالي وإما حسن مردودي

﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ الآية .

قيل : نزلت في إعطائه (صلى الله عليه وسلم) قميصه ولم يكن له غيره وبقي عرياناً .

وقيل : أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وعيينة مثل ذلك ، والعباس بن مرداس خمسين ثم كملها مائة فنزلت ، وهذه استعارة استعير فيها المحسوس للمعقول ، وذلك أن البخل معنى قائم بالإنسان يمنعه من التصرف في ماله فاستعير له الغل الذي هو ضم اليد إلى العنق فامتنع من تصرف يده وإجالتها حيث تريد ، وذكر اليد لأن بها الأخذ والإعطاء ، واستعير بسط اليد لإذهاب المال وذلك أن قبض اليد يحبس ما فيها ، وبسطها يذهب ما فيها ، وطابق في الاستعارة بين بسط اليد وقبضها من حيث المعنى لأن جعل اليد مغلولة هو قبضها ، وغلها أبلغ في القبض وقد طابق بينهما أبو تمام .

فقال في المعتصم :

تعوّد بسط الكف حتى لوانّه . . .

ثناها لقبضٍ لم تجبه أنامله

وقال الزمخشري : هذا تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف ، أمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والإقتار انتهى .

والظاهر أنه مراد بالخطاب أمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإلاّ فهو (صلى الله عليه وسلم) كان لا يدّخر شيئاً لغد ، وكذلك من كان واثقاً بالله حق الوثوق كأبي بكر حين تصدّق بجميع ماله .

وقال ابن جريج وغيره : المعنى لا تمسك عن النفقة فيما أمرتك به من الحق ﴿ ولا تبسطها

﴿ فيما نهيتك عنه وروي عن قالون : كل البصط بالصاد فتقعد جواب للهيئتين باعتبار الحالين ، فالملوم راجع لقوله : ﴿ ولا تجعل يدك ﴾ .

كما قال الشاعر :

إن البخيل ملوم حيث كان . . .

ولكن الجواد على علاّته هرم

(183/454)

والمحسور راجع لنوله ﴿ ولا تبسطها ﴾ وكأنه قيل فتلام وتحسر ، ثم سلاه تعالى عما كان يلحقه من الإضافة بأن ذلك ليس بهوان منك عليه ولا لبخل به عليك ، ولكن لأن بسط الرزق وتضييقه إنما ذلك بمشيئته وإرادته لما يعلم في ذلك من المصلحة لعباده ، أو يكون المعنى القبض والبسط من مشيئة الله ، وأما أنتم فعليكم الاقتصاد وختم ذلك بقوله ﴿ خبيراً ﴾ وهو العلم بخفيات الأمور و ﴿ بصيراً ﴾ أي بمصالح عباده حيث يبسط لقوم ويضيق على قوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(184/454)

وقال أبو السعود :

﴿ وَءاتِ ذَا القربى ﴾

أي ذا القرابةِ ﴿ حَقَّهُ ﴾ توصيةٌ بالأقارب إثرَ التوصية ببرّ الوالدين ، ولعل المرادَ بهم المحارمُ وبحقهم النفقةُ كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ والمساكين وابن السبيل ﴾ فإن المأمورَ به في حقهما المواساةُ المالية لا محالةُ أي وآتِهما حقَّهما مما كان مفترَضاً بمكةَ بمنزلة الزكاة ، وكذا النهيُ عن التبذير وعن الإفراط في القبض والبسْطِ فإن الكلَّ من التصرفات المالية ﴿ وَلاَ تُبَذّرْ تَبْذِيرًا ﴾ نهيٌ عن صرف المال إلى من سواهم ممن لا يستحقه فإن التبذيرَ تفريقٌ في غير موضعه مأخوذٌ من تفريق حباتٍ وإلقائِها كيفما كان من غير تعهّدٍ لمواقعه ، لا عن الإكثار في صرفه إليهم وإلا لناسبه الإسرافُ الذي هو تجاوزُ الحدّ في صرفه ، وقد نُهي عنه بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلاَ تَبْسُطْهَا ﴾ وكلاهما مذموم .

﴿ إِنَّ المبذرين كَانُواْ إخوان الشياطين ﴾

تعليلٌ للنهي عن التبذير ببيان أنه يجعل صاحبَه ملزوزاً في قَرن الشياطين ، والمرادُ بالأخوة المماثلةُ التامةُ في كلِّ ما لا خيرَ فيه من صفات السوءِ التي من جملتها التبذيرُ أي كانوا بما فعلوا من التبذير أمثالَ الشياطين ، أو الصداقةُ والملازمةُ أي كانوا أصدقاءَهم وأتباعَهم فيما ذُكر من التبذير والصرْفِ في المعاصي فإنهم كانوا ينحَرون الإبلَ ويتياسرون عليها ويبذّرون أموالَهم في السمعة وسائرِ ما لا خير فيه من المناهي والملاهي ، أو المقارنةُ أي قرناءَهم في النار على سبيل الوعيد ﴿ وَكَانَ الشيطان لِرَبّهِ كَفُوراً ﴾ من تتمة التعليل أي مبالِغاً في كفران نعمتِه تعالى لأن شأنه أن يصرِفَ جميع ما أعطاه الله تعالى من القُوى والقدر إلى غير ما خُلقت هي له من أنواع المعاصي والإفسادِ في الأرض وإضلالِ الناس وحملِهم على الكفر بالله وكفرانِ نعَمه الفائضةِ عليهم وصرفِها إلى غير ما أمر الله تعالى به ، وتخصيصُ هذا الوصفِ بالذكر من بين سائر أوصافِه القبيحة للإيذان بأن التبذيرَ الذي هو عبارةٌ عن صرف نِعَم الله تعالى إلى غير مصْرِفها من باب الكفرانِ المقابلِ للشكر الذي هو عبارةٌ عن صرفها إلى ما خُلقت هي له . والتعرضُ لوصف الربوبيةِ للإشعار بكمال عُتوّه فإن كفرانَ نعمةِ الربِّ مع كون الربوبية من أقوى الدواعي إلى شكرها غايةُ الكُفران ونهايةُ الضلال والطغيان .

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ أي إن اعتراك أمرٌ اضطرّكَ إلى أن تُعرِض عن أولئك المستحقين ﴿ ابتغاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي لفقد رزقٍ من ربك ، إقامةٌ للمسبّب مُقام السبب فإن الفقدَ سببٌ للابتغاء ﴿ تَرْجُوهَا ﴾ من الله تعالى لتُعطيَهم وكان عليه السلام إذا سُئل شيئاً وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياءً فأُمر بتعهّدهم بالقول الجميل لئلا تعتريَهم الوَحشةُ بسكوته عليه السلام ، فقيل : ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴾ سهلاً ليّناً وعِدْهم وعداً جميلاً ، من يسُر الأمرُ نحوُ سعِد ، أو قل لهم رزَقنا الله وإياكم من فضله على أنه دعاءٌ لهم ييّسر عليهم فقرَهم .

﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ تمثيلان لمنع الشحيحِ وإسرافِ المبذِّرِ زجراً لهما عنهما وحملاً على ما بينهما من الاقتصاد

كلا طَرَفَيْ قصدِ الأمورِ ذميمُ . . . وحيث كان قبحُ الشحّ مقارِناً له معلوماً من أول الأمر رُوعيَ ذلك في التصوير بأقبح الصور ، ولمّا كان غائلةُ الإسراف في آخره بُيِّن قبحُه في أثره فقيل : ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُوماً ﴾ أي فتصيرَ ملوماً عند الله تعالى وعند الناسِ وعند نفسك إذا احتجتَ وندِمْت على ما فعلت ﴿ مَّحْسُوراً ﴾ نادماً أو منقطعاً بك لا شيءَ عندك من حسَره السفرُ إذا بلغ منه .

وما قيل من أنه روي عن جابر رضي الله عنه أنه قال: بينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قاعدٌ إذ أتاه صبيٌّ فقال: إن أمي تستكْسيك دِرعاً فقال عليه السلام: "من ساعة إلى ساعة فعُد إلينا" فذهب إلى أمه فقالت له: قل: إن أمي تستكسيك الدرعَ الذي عليك، فدخل صلى الله عليه وسلم داره ونزَع قميصه وأعطاه وقعد عُرْياناً، وأذّن بلالٌ، وانتظروا فلم يخرُجْ للصلاة فنزلت. فيأباه أن السورة مكيةٌ خلا آياتٍ في آخرها، وكذا ما قيل إنه عليه السلام أعطى الأقرعَ بنَ حابس من الإبل وكذا عُيينةَ بنَ حصنٍ الفزاريَّ فجاء عباسُ بنُ مِرداس فأنشد يقول

أتجعل نهبي ونهبَ العُبَي . . . د بيْنَ عُيَيْنَةَ والأَقْرَعِ

وما كان حِصْنٌ ولا حابس . . . يفوقان مِرداسَ في مجمع

وما كنتُ دون امرىء منهما . . . ومَنْ تَضعِ اليومَ لا يُرفعِ

فقال عليه السلام: "يا أبا بكر اقطعْ لسانه عنّي، أعطه مائةً من الإبل" وكانوا جميعاً من المؤلفة القلوب فنزلت.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ تعليلٌ لما مر أي يوسّعه على بعض ويضيّقه على آخرين حسبما تتعلق به مشيئتُه التابعةُ للحِكمة فليس ما يَرْهقُك من الإضافة التي تحوجُك إلى الإعراض عن السائلين أو نفادُ ما في يدك إذا بسطتَها كلَّ البسْطِ إلا لمصلحتك ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ تعليلٌ لما سبق أي يعلم سرَّهم وعلَنَهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ، ويجوز أن يراد أن البسطَ والقبضَ من أمر الله العالم بالسرائر والظواهرِ الذي بيده خزائنُ السمواتِ والأرض ، وأما العبادُ فعليهم أن يقتصدوا ، وأن يراد أنه تعالى يبسُط تارةً ويقبضُ أخرى فاستنّوا بسنته فلا تقبضوا كلَّ القبض ولا تبسُطوا كل البسط ، وأن يراد أنه تعالى يبسُط ويقدِر حسب مشيئتِه فلا تبسُطوا على من قُدِر عليه رزقُه ، وأن يكون تمهيداً لقوله : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(189/454)

وقال الآلوسى :

﴿ وَءاتِ ذَا القربى ﴾

أي ذا القرابة منك ﴿ حَقَّهُ ﴾ الثابت له ، قيل ولعل المراد بذي القربى المحارم وبحقهم النفقة عليهم إذا كانوا فقراء عاجزين عن الكسب عما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ والمساكين وابن السبيل ﴾ فإن المأمور به في حقهما المساواة المالية أي وآتهما حقهما مما كان مفترضاً بمكة بمنزلة الزكاة وكذا النهي عن التذير وعن الإفراط في القبض والبسط فإن الكل من التصرفات المالية ، واستدل بعضهم بالآية على إيجاب نفقة المحارم المحتاجين وإن لم يكونوا أصلاً كالوالدين ولا فرعا كالولد ، والكلام من باب التعميم بعد التخصيص فإن ذا القربى يتناول الوالدين لغة وإن لم يتناوله عرفاً فلذا قالوا في باب الوصية المبنية على العرف : لو أوصى لذوي قرابته لا يدخلان .

وفي المعراج عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قال لأبيه قربني فقد عقه " والغرض من ذلك تناول غيرهما من الأقارب والتوصية بشأنه .

وفي "الكشف" أن الحق أن إيتاء الحق عام والمقام يقتضي الشمول فيتناول الحق المالي وغيره من الصلة وحسن المعاشرة فلا تنتهض الآية دليلاً على إيجاب نفقة المحارم ، وتعقب أن قوله تعالى : ﴿ حَقَّهُ ﴾ يشعر باستحقاق ذلك لاحتياجه مع أنه إذا عم دخل فيه المالي وغيره فكيف لا تنتهض الآية دليلاً وأنا ممن يقول بالعموم وعدم اختصاص ذي القربى بذي القرابة الولادية ، والعطف وكذا ما بعده لا يدل على تخصيص قطعاً فتدبر ، وقيل : المراد بذي القربى أقارب الرسول صلى الله عليه وسلم وروي ذلك عن السدي ، وأخرج ابن جرير

عن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما أنه قال لرجل من أهل الشام : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم قال : أفما قرأت في بني إسرائيل فآت ذا القربى حقه ؟ قال : وإنكم القرابة الذي أمر الله تعالى أن يؤتى حقه ؟ قال : نعم ، ورواه الشيعة عن الصادق رضي الله تعالى عنه وحقهم توقيرهم وإعطاؤهم الخمس .

(190/454)

وضعف بأنه لا قرينة على التخصيص ، وأجيب بأن الخطاب قرينة وفيه نظر ، وما أخرجه البزار وأبو يعلى .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري من أنه لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة فأعطاها فدكاً لا يدل على تخصيص الخطاب به عليه الصلاة والسلام على أن في القلب من صحة الخبر شيء بناءً على أن السورة مكية وليست هذه الآية من المستثنيات وفدك لم تكن إذ ذاك تحت تصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بل طلبها رضي الله تعالى عنها ذلك إرثاً بعد وفاته عليه الصلاة والسلام كما هو المشهور يأبى القول بالصحة كما لا يخفى ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ نهى عن صرف المال إلى من لا يستحقه فإن

التذير إنفاق في غير موضعه مأخوذ من تفريق البذر وإلقائه في الأرض كيفما كان من غير تعهد لمواقعه ، وقد أخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والطبراني .

والحاكم وصححه .

والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود أنه قال : التذير إنفاق المال في غير حقه .

وفي "مفردات الراغب" وغيره أن أصله القاء البذر وطرحه ثم استعير لتضييع المال ، وعد من ذلك بعضهم تشييد الدار ونحوه ، وفرق الماوردي بينه وبين الإسراف بأن الإسراف تجاوز في الكمية وهو جهل بمقادير الحقوق والتبذير تجاوز في موقع الحق وهو جهل بالكيفية وبمواقعها وكلاهما مذموم والثاني أدخل في الذم .

وفسر الزمخشري التبذير هنا بتفريق المال فيما لا ينبغي وإنفاقه على وجه الإسراف ، وذكر أن فيه إشارة إلى أن التبذير شامل للإسراف في عرف اللغة ويراد منه حقيقة وإن فرق بينهما بما فرق ، وفي "الكشف" بعد نقل الفرق والنص على أن الثاني أدخل في الذم أن

الزمخشري لم يغب ذلك عليه لأن الاشتقاق يرشد إليه وإنما أراد أنه في الآية يتناول الإسراف أيضاً بطريق الدلالة إذ لا يفترقان في الأحكام لا سيما وقد عقبه سبحانه بالحث على الاقتصاد المناسب لاعتبار الكمية المرشد إلى إرادته من النص ، وتعقب بأنه إذا كان التبذير أدخل في الذم من الإسراف كيف يتناوله بطريق الدلالة والنهي عن الإسراف فيما بعد يبعد إرادته ههنا فتأمل .

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾

تعليل للنهي عن التبذير ببيان أنه يجعل صاحبه ملزوزاً في قرن الشياطين ، والإخوان جمع أخ والمراد به المماثل مجازاً أي أنهم مماثلون لهم في صفات السوء التي من جملتها التذير أو الصديق والتابع مجازاً أيضاً أي أنهم أصدقاؤهم وأتباعهم فيما ذكر من التذير والصرف في المعاصي فإنهم كانوا ينحرون الإبل ويتياسرون عليها ويبذرون أموالهم في السمعة وسائر ما لا خير فيه من المناهي والملاهي أو القرين كما سبق أيضاً أي أنهم قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد .

﴿ وَكَانَ الشيطان لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ من تتمة التعليل أي مبالغاً في كفران نعمه تعالى لأن شأنه صرف جميع ما أعطاه الله تعالى من القوى والقدر إلى غير ما خلقت له من أنواع المعاصي والإفساد في الأرض وإضلال الناس وحملهم على الكفر بالله تعالى وكفران نعمه الفائضة عليهم وصرفها إلى غير ما أمر الله تعالى به .

وفي تخصيص هذا الوصف بالذكر من بين صفاته القبيحة إيذان بأن التبذير الذي هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى إلى غير مصرفها من باب الكفران المقابل للشكر الذيهو صرفها إلى ما خلقت له ، وفي التعرض لعنوان الربوبية إشعار بكمال عتوه كما لا يخفى .

ويشعر كلام بعضهم بجواز حمل الكفر هنا على ما يقابل الإيمان وليس بذاك .

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾

أي عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل على ما هو الظاهر ، وقيل عن السائلين مطلقاً ، والإعراض في الأصل إظهار العرض أي الناحية فمعنى أعرض عنه ولى مبدياً عرضه ، والمراد به هنا حقيقته على ما قيل بناءً على ما روي من أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا سئل شيئاً ليس عنده صرف وجهه الشريف وسكت فنزلت ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ ﴿ ابتغاء رَحْمَةٍ مّن رَّبّكَ تَرْجُوهَا ﴾ والخطاب عام له صلى الله عليه وسلم ولغيره ، والمراد بالرحمة على ما أخرج ابن جرير عن ابن عباس .

ومجاهد .

والضحاك الرزق ، ونصب ﴿ ابتغاء ﴾ على أنه مفعول له .

قال في "الكشف" قد أقيم ابتغاء الرزق مقام فقدانه وفيه لطف فكان ذلك الإعراض لأجل السعي لهم وهو من وضع المسبب موضع السبب كما أوضحه في "الكشاف" ، وقد يفسر الابتغاء بالانتظار ويجوز جعله في موضع الحال من ضمير ﴿ تُعْرِضَنَّ ﴾ أي مبتغياً ، وجعله حالاً من الضمير المجرور بعيد .

وجوز أن يكون الإعراض كناية عن عدم النفع وترك الإعطاء لأنه لازمه عرفاً والابتغاء مجازاً عن عدم الاستطاعة والتعلق أيضاً بالشرط وأيد ذلك بما أخرجه سعيد بن منصور .

(193/454)

وابن المنذر عن عطاء الخراساني قال : جاء ناس من مزينة يستحملون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً " ظنوا ذلك من غضب رسول الله عليه الصلاة والسلام عليهم فأنزل الله سبحانه : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ الآية وفسر الرحمة بالفىء لكن أنت تعلم إن هذا غير ظاهر بناءً على ما سمعت من أن هذه السورة مكية والآية المذكورة ليست من المستثنيات ، وكأنه لهذا قيل : إن المعنى إن ثبت وتحقق في المستقبل أنك أعرضت عنهم في الماضي ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل الخ والمراد سببية الثبوت للأمر بالقول فتأمل .

وجوز أن يتعلق ﴿ ابتغاء ﴾ بجواب الشرط أعني قوله تعالى : ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ﴾ أي إما تعرضن عنهم فقل لهم ذلك ابتغاء رحمة من ربك ، وقدم هذا الوجه على سائر الأوجه الزمخشري .

واعترض بأن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها في غير باب اما ويلحق بها .

وأجيب بأنه ذكره على المذهب الكوفي المجوز للعمل مطلقاً أراد التعلق المعنوي فيضمر ما ينصبه ويجعل المذكور جارياً مجرى التفسير ، والإعراض على هذا على حقيقته ، واحتمال كونه كناية مختص بتعلقه بالشرط على ما زعمه الطيبي والحق عدم الاختصاص كما لا يخفى .

وجملة ﴿ تَرْجُوهَا ﴾ على سائر الأوجه يحتمل أن تكون وصفاً لرحمة وأن تكون حالاً من الفاعل و﴿ مِن رَّبّكَ ﴾ متعلق بترجوها .

وجوز أن يكون صفة لرحمة ، والميسور اسم مفعول من يسر الأمر بالبناء للمجهول مثل سعد الرجل ومعناه السهل أي فقل لهم قولاً سهلاً ليناً وعدهم وعداً جميلاً ، قال الحسن : أمر أن يقول لهم نعم وكرامة وليس عندنا اليوم فإن يأتنا شيء نعرف حقكم ، وقيل الميسور

مصدر وجعل صفة مبالغة أو بتقدير مضاف أي قولاً ذا ميسور أي يسر والمراد به القول المشتمل على الدعاء باليسر مثل أغناكم الله تعالى ويسر لكم ، وفسره ابن زيد برزقنا الله تعالى وإياكم بارك الله تعالى فيكم .

وتعقب ذلك بأن الميسور معناه ذا يسر ولهذا وقع صفة لقول فأي ضرورة في أن يجعل مصدراً ثم يؤول بذا ميسور ، ودفع بأنه إذا أريد القول المشتمل على الدعاء لا يكون القول حينئذٍ ميسوراً بل ميسر لما أرادوه .

وميسور مصدراً مما ثبت في اللغة من غير تكلف فجعله صفة مبالغة أو بتقدير مضاف له وجه وجيه وفيه تأمل .

والحق أن اعتباره مصدراً خلاف الظاهر ، وفي الآية على القول الأخير دلالة على أن الدعاء للسائل مما لا بأس به ، وعن الإمام مالك رحمه الله تعالى أنه كان لا يرى أن يقال للسائل إذا لم يعط شيئاً : رزقك الله تعالى ونحوه قائلاً إن ذلك مما يثقل عليه ويكره سماعه ، ولا ينبغي أن يذكر اسم الله تعالى لمن لا يهش له ، ولعمري إنه مغزى بعيد ، وأفاد بعضهم أن في الآية دليلاً على النهي عن الإعراض بالمعنى الأول فإن المعنى إن أردت الإعراض عنهم فقل لهم قولاً ميسوراً ولا تعرض له وجه وجيه لا يخفى على من له بصر حديد .

واستشكل العز بن عبد السلام جعل ﴿ ابتغاء ﴾ من متعلقات الشرط بأنا مأمورون بالرد الجميل إن انتظرنا شيئاً يحصل لنا أو لم ننتظر .

وأجاب بأن المراد بالقول الميسور الوعد بالعطاء فيكون مفاد الآية لا تعدوا إلا إذا كنتم على رجاء من حصول ما تعدون به فالتقييد بالابتغاء في غاية المناسبة للشرط لأنه لا يحسن الوعد عند عدم الرجاء لما أنه يؤدي إلى الإخلاف وهو كما ترى .

(195/454)

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبذر زجراً لهما عنهما وحملا على ما بينهما من الاقتصاد والتوسط بين الإفراط والتفريط وذلك هو الجود الممدوح فخير الأمور أوساطها وأخرج أحمد وغيره عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما عال من اقتصد " وأخرج البيهقي عن ابن عمر قال قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : " الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة " وفي رواية عن أنس مرفوعاً " التدبير نصف المعيشة والتودد نصف العقل والهم نصف الهرم وقلة العيال أحد اليسارين " وكان يقال حسن التدبير مع العفاف خير من الغنى مع الإسراف ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا ﴾ أي فتصير ملوماً عند الله تعالى وعند الناس ﴿ مَّحْسُوراً ﴾ نادماً مغموماً أو منقطعاً بك لا شيء عندك من حسرة السفر أعياه وأوقفه حتى انقطع عن رفقته ، قال الراغب : يقال للمعي حاسر ومحصور أما الحاسر فتصور أنه

قد حصر بنفسه قواه وأما المحسور فتصور أن التعب قد حسره وهذا بيان قبح الإسراف المفهوم من النهي الأخير ، وبين في أثره لأن غائلة الإسراف في رخره وحيث كان قبح الشح المفهوم من النهي الأول مقارناً له معلوماً من أول الأمر روعي ذلك في التصور بأقبح الصور ولم يسلك فيه مسلك ما بعده كذا قيل ، وفي أثر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أخرجه عنه ابن جرير .

وابن أبي حاتم ما يقتضيه ، وقال بعض المحققين : الأولى : أن يكون ذلك بياناً لقبح الأمرين ويعتبر التوزيع ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ منصوب في جواب النهيين والملوك راجع إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ كما قيل :

إن البخيل ملوم حيثما كانا . . .

والمحسور راجع إلى قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا ﴾ وليس ببعيد .

(196/454)

وفي "الكشاف" عن جابر " بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ أتاه صبي فقال : إن أمي تستكسيك درعاً فقال : من ساعة إلى ساعة يظهر فعد إلينا فذهب إلى أمه فقالت : قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك فدخل صلى الله عليه وسلم داره

ونزع قميصه وأعطاه وقعد عرياناً وأذن بلال وانتظر فلم يخرج عليه الصلاة والسلام إلى الصلاة فنزلت " وأنت تعلم أنه يأبى هذا كون السورة مكية والآية ليست من المستثنيات ولعل الخبر لم يثبت فعن ولي الدين العراقي أنه لم يجده في شيء من كتب الحديث أي بهذا اللفظ وإلا فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : جاء غلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أمي تسألك كذا وكذا فقال : ما عندنا اليوم شيء قال : فتقول لك اكسني قميصك فخلع عليه الصلاة والسلام قميصه فدفعه إليه وجلس في البيت حاصراً فنزلت ، وأخرج ابن أبي حاتم عن المنهال ابن عمرو ونحوه وليس في شيء منهما حديث أذان بلال وما بعده ، وقيل : إنه عليه الصلاة والسلام أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن الفزاري فجاء عباس بن مرداس فأنشأ يقول :

أتجعل نهبي ونهب العبي . . .

د بين عيينة والأقرع

وما كان حصن ولا حابس . . .

يفوقان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرء منهما . . .

ومن يخفض اليوم لم يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر اقطع لسانه عني أعطه مائة من الإبل وكانوا جميعاً من

المؤلفة قلوبهم فنزلت ، وفيه الآباء السابق كما لا يخفى ، وكذا ما أخرجه سعيد بن منصور .

وابن المنذر عن سيار أبي الحكم قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بز من العراق وكان معطاء كريماً فقسمه بين الناس فبلغ ذلك قوماً من العرب فقالوا : نأتي النبي صلى الله عليه وسلم نسأله فوجدوه قد فرغ منه فأنزل الله تعالى الآية .

(197/454)

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ تعليل لقوله سبحانه ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ [الإسراء : 28] الخ كأنه قيل : إن أعرضت عنهم لفقد الرزق فقل لهم قولاً ميسوراً ولا تهتم لذلك فإن ذلك ليس لهوإن منك عليه تعالى بل لأن بيده جل وعلا مقاليد الرزق وهو سبحانه يوسعه على بعض ويضيقه على بعض حسبما تتعلق به مشيئته التابعة للحكمة فما يعرض لك في بعض الأحيان من ضيق الحال الذي يحوجك إلى الإعراض ليس إلا لمصلحتك فيكون قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ ﴾ [الإسراء : 29] الخ معترضاً تأكيداً لمعنى ما تقتضيه حكمته عز وجل من القبض والبسط ، وقوله تعالى : ﴿ أَنَّهُ ﴾ سبحانه ﴿ كَانَ ﴾ لم يزل ولا يزال ﴿ بِعِبَادِهِ ﴾ جميعهم ﴿ خَبِيراً ﴾ عالماً بسرهم ﴿

بَصِيراً ﴾ عالماً بعلنهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم تعليل لسابقه ، وجوز أن يكون ذلك تعليلاً للأمر بالاقتصاد المستفاد من النهيين إما على معنى أن البسط والقبض أمران مختصان بالله تعالى وأما أنت فاقتصد واترك ما هو مختص به جل وعلا أو على معنى أنكم إذا تحققتم شأنه تعالى شأنه وأنه سبحانه يبسط ويقبض وأمعنتم النظر في ذلك وجدتموه تعالى مقتصداً فاقتصدوا أنتم واستنوا بسنته ، وجعله بعضهم تعليلاً لجميع ما مر وفيه خفاء كما لا يخفى ، وجوز كونه تعليلاً للنهي الأخير على معنى أنه تعالى يبسط ويقبض حسب مشيئته فلا تبسطوا على من قدر عليه رزقه وليس بشيء .

وجوز أيضاً كونه تمهيداً لقوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدكُمْ خَشْيَةَ إِملاقٍ ﴾ واستبعد بأن الظاهر حينئذ فلا . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(198/454)

وقال القاسمى :

ثم وصى تعالى بغير الوالدين من الأقارب ، بعد الوصية بهما ، بقوله سبحانه :

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ أي : من صلته وحسن المعاشرة والبر له بالإنفاق عليه .

قال المهايمي : لم يقل (القريب) لأن المطلق ينصرف إلى الكامل . والإضافة لما كانت لأدنى

الملابسة ، صدق (ذو القربى) على كل من له قرابة ما : ﴿ وَالْمِسْكِينَ ﴾ أي : الفقير من الأباعد . وفي الأقارب مع الصدقة صلة الرحم ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ أي : المسافر المنقطع به . أي : أعنه وقوِّه على قطع سفره . ويدخل فيه ما يعطاه من حمولة أو معونة أو ضيافة ، فإن ذلك كله من حقه : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ أي : بوجه من الوجوه ، بالإنفاق في محرم أو مكروه ، أو على من لا يستحق ، فتحسبه إحساناً إلى نفسك أو غيرك . أفاده المهايمي .

وفي " الكشاف " : كانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها ، وتبذر أموالها في الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك في أشعارها . فأمر الله بالنفقة في وجوهها ، مما يقرب منه ويزلف .

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ أي : أمثالهم في كفران نعمة المال بصرفه فيما لا ينبغي . وهذا غاية المذمة ؛ لأن لا شر من الشيطان . أو هم إخوانهم أتباعهم في المصادقة والإطاعة . كما يطيع الصديق صديقه والتابع متبوعه ، أو هم قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد . والجملة تعليل المنهي عنه عن التبذير ، ببيان أنه يجعل صاحبه مقروناً معهم .

وقوله : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ من تتمة التعليل . قال أبو السعود : أي : مبالغاً في كفران نعمته تعالى ؛ لأن شأنه أن يصرف جميع ما أعطاه الله تعالى من القوى ، أي : مبالغاً

في كفران نعمته تعالى ؛ لأن شأنه أن يصرف جميع ما أعطاه الله تعالى من القوى إلى غير ما خلقت له من أنواع المعاصي ، والإفساد في الأرض ، وإضلال الناس ، وحملهم على الكفر بالله ، وكفران نعمه الفائضة عليهم ، وصرفها إلى غير ما أمر الله تعالى به . وتخصيص هذا الوصف بالذكر ، من بين سائر أوصافه القبيحة ؛ للإيذان بأن التبذير ، الذي هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى إلى غير مصرفها ، من باب الكفران ، المقابل للشكر الذي هو عبارة عن صرفها إلى ما خلقت هي له . والتعرض لوصف الربوبية ؛ للإشعار بكمل عتّوه . فإن كفران نعمة الرب ، مع كون الربوبية من أقوى الدواعي إلى شكرها ، غاية الكفران ونهاية الضلال والطغيان . انتهى .

وقد استدل بالآية من منع إعطاء المال كله في سبيل الخير ، ومن منع الصدقة بكل ماله .

(200/454)

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴾ أي : وإن أنت أعرضت عن ذوي القربى والمسكين وابن السبيل ، حياء من الرد ، لانتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك فتعطيه ، فلا تؤيسهم وقل لهم قولاً ليناً سهلاً ، وعدهم وعداً جميلاً .

قال في " الكشف " : (ابتغاء) أقيم مقام فقدانه ، وفيه لطف . فكأن ذلك الإعراض

لأجل السعي لهم . وهو من وضع المسبب موضع السبب . فإن الفقد سبب للابتغاء .

قال السيوطي في " الإكليل " : في هذه الآية الأمر بالقول اللين عند عدم وجود ما يعطى منه ، وفسره ابن زيد : بالدعاء . والحسن وابن عباس : بالعدة . انتهى .

وظاهر ، أن القول الميسور يشمل الكل . وذهب المهايمي إلى أن الآية في منعهم خوفاً من أن يصرفوه فيما لا ينبغي . قال : أي : وإن تحقق إعراضك عمن تريد الإحسان إليهم ، طلب رحمة من ربك في المنع عنهم ؛ لئلا يقعوا في التبذير ، بصرف المعطي إلى شرب الخمر أو الزنى ، لما عرفت من عاداتهم ، فقل لهم في الدفع قولاً سهلاً عليهم ، إحساناً إليهم بدل العطاء . انتهى .

ولم أره لغيره ، والنظم الكريم يحتمله .

﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ أي : لا تمسك يدك عن النفقة والعطية لمن له حق ممن تقدم ، بمنزلة المشدودة يده إلى عنقه ، الذي لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء : ﴿ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ أي : بالتبذير والسرف . قال ابن كثير : أي : لا تسرف في الإنفاق ، فتعطي غير طاقتك وتخرج أكثر من دخلك : ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ أي : فتبقى : ﴿ مَلُوماً ﴾

يلومك الفقراء والقرابة : ﴿ مَّحْسُوراً ﴾ أي : نادماً ، من (الحسرة) أو منقطعاً بك لا شيء عندك ، من (حسره السفر) إذا بلغ منه الجهد وأثر فيه .

وفي النهيين استعارتان تمثيليتان شبه في الأولى فعل الشحيح في منعه ، بمن يده مغلولة لعنقه ، بحيث لا يقدر على مدّها .

وفي الثانية شبه السرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئاً . وهو ظاهر . وجعل ابن كثير قوله تعالى : ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾ من باب اللف والنشر المرتب . قال : أي : فتقعد ، إن بخلت ، ملوماً يلومك الناس ويذمونك ، ويستغنون عنك ، كما قال زهير في المعلقة :

~ومن كان ذا مال فيبخل بماله على قومه يُسْتغنَ عنه ويُذْمم

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك ، قعدت بلا شيء تنفقه ، فتكون كالحسير ، وهي الدابة التي عجزت عن السير ، فوقفت ضعفاً وعجزاً .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ أي : يوسعه ويضيقه ، حسب مشيئته وحكمته ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾ أي : خبيراً ببواطنهم ، بصيراً بظواهرهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 474 . 477 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾

القرابة كلها متشعبة عن الأبوة فلا جرم انتقل من الكلام على حقوق الأبوين إلى الكلام على حقوق القرابة .

وللقرابة حقّان : حق الصلة ، وحق المواساة .

وقد جمعهما جنس الحق في قوله ؛ ﴿ حقه ﴾ .

والحوالة فيه على ما هو معروف وعلى أدلة أخرى .

والخطاب لغير معين مثل قوله : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر ﴾ [الإسراء : 23] .

والعدول عن الخطاب بالجمع في قوله : ﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين ﴾ [الإسراء : 25] الآية إلى الخطاب بالإفراد بقوله : ﴿ وآت ذا القربى ﴾ تفنن لتجنب كراهة إعادة الصيغة الواحدة عدة مرات ، والمخاطب غير معين فهو في معنى الجمع .

والجملة معطوفة على جملة ﴿ ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [الإسراء : 23] لأنها من جملة ما قضى الله به .

والإيتاء : الإعطاء .

وهو حقيقة في إعطاء الأشياء ، ومجاز شائع في التمكين من الأمور المعنوية كحسن المعاملة

والنصرة .

ومنه قول النبي : ورجل آتاه الله الحِكمة فهو يقضي بها الحديث .

وإطلاق الإيتاء هنا صالح للمعنيين كما هي طريقة القرآن في توفير المعاني وإيجاز الألفاظ .

وقد بينت أدلّة شرعية حقوق ذي القربى ومراتبها : من واجبة مثل بعض النفقة على بعض القرابة مبينة شروطها عند الفقهاء ، ومن غير واجبة مثل الإحسان .

وليس لهاته تعلق بحقوق قرابة النبي لأن حقوقهم في المال تقررت بعد الهجرة لما فرضت الزكاة وشرعت المغانم والأفياء وقسمتها .

ولذلك حمل جمهور العلماء هذه الآية على حقوق قرابة النسب بين الناس .

وعن علي زين العابدين أنها تشمل قرابة النبي .

والتعريف في القربى ﴿ تعريف الجنس ، أي القربى منك ، وهو الذي يعبر عنه بأن (ال) عوض عن المضاف إليه .

وبمناسبة ذكر إيتاء ذي القربى عطف عليه من يماثله في استحقاق المواساة .

وحق المسكين هو الصدقة .

قال تعالى : ﴿ ولا تحضون على طعام المسكين ﴾ [الفجر : 18] وقوله : ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ﴾ [البلد : 14 16] .

وقد بينت آيات وأحاديث كثيرة حقوق المساكين وأعظمها آية الزكاة ومراتب الصدقات الواجبة وغيرها .

وابن السبيل ﴾ هو المسافر يمر بحي من الأحياء ، فله على الحي الذي يمر به حق ضيافته .

وحقوق الأضياف جاءت في كلام النبي صلى الله عليه وسلم كقوله : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جايزته يوم وليلة " وكانت ضيافة ابن السبيل من أصول الحنيفية مما سنّه إبراهيم عليه السلام قال الحريري : "وحُرمة الشيخ الذي سَن القِرى" .

وقد جعل لابن السبيل نصيب من الزكاة .

وقد جمعت هذه الآية ثلاث وصايا مما أوصى الله به بقوله : ﴿ وقضى ربك ﴾ الآيات [الإسراء : 23] .

فأما إيتاء ذي القربى فالمقصد منه مقارب للمقصد من الإحسان للوالدين رعياً لاتحاد المنبت القريب وشداً لآصرة العشيرة التي تتكون منها القبيلة .

وفي ذلك صلاح عظيم لنظام القبيلة وأمنها وذبها عن حوزتها .

وأما إيتاء المسكين فلمقصد انتظام المجتمع بأن لا يكون من أفراده من هو في بؤس وشقاء ،

على أن ذلك المسكين لا يعدو أن يكون من القبيلة في الغالب أقعده العجز عن العمل والفقر عن الكفاية.

وأما إيتاء ابن السبيل فلإكمال نظام المجتمع، لأن المارّ به من غير بنيه بحاجة عظيمة إلى الإيواء ليلاً ليقيه من عوادي الوحوش واللصوص، وإلى الطعام والدفء أو التظلل وقاية من إضرار الجوع والقر أو الحر.

لما ذكر البذل المحمود وكان ضده معروفاً عند العرب أعقبه بذكره للمناسبة.

(204/454)

ولأن في الانكفاف عن البذل غير المحمود الذي هو التبذير استبقاء للمال الذي يفي بالبذل المأمور به، فالانكفاف عن هذا تيسير لذاك وعون عليه، فهذا وإن كان غرضاً مهماً من التشريع المسوق في هذه الآيات قد وقع موقع الاستطراد في أثناء الوصايا المتعلقة بإيتاء المال ليظهر كونه وسيلة لإيتاء المال لمستحقيه، وكونه مقصوداً بالوصاية أيضاً لذاته.

ولذلك سيعود الكلام إلى إيتاء المال لمستحقيه بعد الفراغ من النهي عن التبذير بقوله: ﴿ وإما تعرضن عنهم ﴾ الآية، [الإسراء: 28] ثم يعود الكلام إلى ما يبين أحكام التبذير بقوله: ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ [الإسراء: 29].

وليس قوله : ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ الخ .

.

لأنّ التبذير لا يوصف به بذل المال في حقّه ولو كان أكثر من حاجة المعطى (بالفتح) .

فجملة ﴿ ولا تبذر تبذيرا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [الإسراء :

23] لأنها من جملة ما قضى الله به ، وهي معترضة بين جملة وآت ذا القربى حقه ﴾ الآية

وجملة ﴿ وإما تعرضن عنهم ﴾ الآية [الإسراء : .

2] ، فتضمنت هذه الجملة وصية سادسة مما قضى الله به .

والتبذير : تفريق المال في غير وجهه ، وهو مرادف الإسراف ، فإنفاقه في الفساد تبذير ، ولو كان المقدار قليلاً ، وإنفاقه في المباح إذا بلغ حد السرف تبذير ، وإنفاقه في وجوه البر والصلاح ليس بتبذير .

وقد قال بعضهم لمن رآه ينفق في وجوه الخير : لا خير في السرف ، فأجابه المنفق : لا سرف في الخير ، فكان فيه من بديع الفصاحة محسن العكس .

ووجه النهي عن التبذير هو أن المال جُعل عوضاً لاقتناء ما يحتاج إليه المرء في حياته من ضروريات وحاجيات وتحسينات .

وكان نظام القصد في إنفاقه ضَامِنَ كفايته في غالب الأحوال بحيث إذا أنفق في وجهه على ذلك الترتيب بين الضروري والحاجي والتحسيني أَمِن صاحبه من الخصاصة فيما هو إليه أشد احتياجاً ، فتجاوز هذا الحد فيه يسمى تبذيراً بالنسبة إلى أصحاب الأموال ذات الكفاف ، وأما أهل الوفر والثروة فلأن ذلك الوفر ءَاتتٍ من أبواب اتسعت لأحد فضاقت على آخر لا محالة لأن الأموال محدودة ، فذلك الوفر يجب أن يكون محفوظاً لإقامة أود المعوزين وأهل الحاجة الذين يزداد عددهم بمقدار وفرة الأموال التي بأيدي أهل الوفر والجدة ، فهو مرصود لإقامة مصالح العائلة والقبيلة وبالتالي مصالح الأمة .

فأحسن ما يبذل فيه وفر المال هو اكتساب الزلفى عند الله ، قال تعالى : ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ [التوبة : 41] ، واكتساب المحمدة بين قومه .

وقديماً قال المثل العربي نعم العون على المروءة الجِدة .

وقال . . .

اللهم هب لي حمداً ، وهب لي مجداً ، فإنه لا حَمد إلا بِفعال ، ولا فِعال إلا بمال .

والمقصد الشرعي أن تكون أموال الأمة عُدة لها وقوة لابتناء أساس مجدها والحفاظ على مكانتها حتى تكون مرهوبة الجانب مرموقة بعين الاعتبار غير محتاجة إلى من قد يستغل حاجتها فيبتز منافعها ويدخلها تحت نِير سلطانه .

ولهذا أضاف الله تعالى الأموال إلى ضمير المخاطبين في قوله : ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً ﴾ [النساء : 5] ولم يقل أموالهم مع أنها أموال السفهاء ، لقوله بعده : ﴿ فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ [النساء : 6] فأضافها إليهم حين صاروا رشداء .

وما مُنع السفهاء من التصرف في أموالهم إلا خشية التبذير .

ولذلك لو تصرف السفيه في شيء من ماله تصرف السداد والصلاح لمضى .

(206/454)

وذكر المفعول المطلق تبذيراً ﴾ بعد ﴿ ولا تبذر ﴾ لتأكيد النهي كأنه قيل : لا تبذر ، لا تبذر ، مع ما في المصدر من استحضار جنس المنهي عنه استحضاراً لما تُصور عليه تلك الحقيقة بما فيها من المفاسد .

وجملة ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ تعليل للمبالغة في النهي عن التبذير .

والتعريف في ﴿ المبذرين ﴾ تعريف الجنس ، أي الذين عرفوا بهذه الحقيقة كالتعريف في قوله : ﴿ هدى للمتقين ﴾ [البقرة : 2] .

والإخوان جمع أخ ، وهو هنا مستعار للملازم غير المفارق لأن ذلك شأن الأخ ، كقولهم :

أخو العلم ، أي مُلازمه والمتصف به ، وأخو السفَر لمن يُكثر الأسفار .

وقول عدي بن زيد :

وأخو الحَضْر إذ بناه وإذ دجْ

لة تُجبَى إليه والخا بُور . . .

يريد صاحب قَصر الحَضْر ، وهو مَلك بلد الحَضْر المسمى الضَيْزَن بنَ معاوية القضاعي الملقّب السيْطرون .

والمعنى : أنهم من أتباع الشياطين وحُلفائهم كما يتابع الأخُ أخاه .

وقد زيد تأكيد ذلك بلفظ كانوا ﴾ المفيد أن تلك الأخوة صفة راسخة فيهم ، وكفى بحقيقة الشيطان كراهة في النفوس واستقباحاً .

ومعنى ذلك : أن التبذير يدعو إليه الشيطان لأنه إما إنفاق في الفساد وإما إسراف يستنزف المال في السفاسف واللذات فيعطل الإنفاق في الخير وكل ذلك يرضي الشيطان ، فلا جرم أن كان المتصفون بالتبذير من جند الشيطان وإخوانه .

وهذا تحذير من التبذير ، فإن التبذير إذا فعله المرء اعتاده فأدمن عليه فصار له خلقاً لا يفارقه شأن الأخلاق الذميمة أن يسهل تعلقها بالنفوس كما ورد في الحديث " إن المرء لا يزال يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً "

، فإذا بذر المرء لم يلبث أن يصير من المبذرين ، أي المعروفين بهذا الوصف ، والمبذرون

إخوان الشياطين، فليحذر المرء من عمل هو من شأن إخوان الشياطين، وليحذر أن ينقلب من إخوان الشياطين.

(207/454)

وبهذا يتبين أن في الكلام إيجازَ حذف تقديره: ولا تبذر تبذيراً فتصير من المبذرين إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين.

والذي يدل على المحذوف أن المرء يصدق عليه أنه من المبذرين عندما يبذر تبذيرة أو تبذيرتين.

ثم أكد التحذير بجملة ﴿ وكان الشيطان لربه كفورا ﴾.

وهذا تحذير شديد من أن يفضي التبذير بصاحبه إلى الكفر تدريجاً بسبب التخلق بالطبائع الشيطانية، فيذهب يتدهور في مهاوي الضلالة حتى يبلغ به إلى الكفر، كما قال تعالى: ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ [الأنعام: 121].

ويجوز حمل الكفر هنا على كفر النعمة فيكون أقرب درجات إلى حال التخلق بالتبذير، لأن التبذير صرف المال في غير ما أمر الله به فهو كفر لنعمة الله بالمال.

فالتخلق به يفضي إلى التخلق والاعتياد لكفران النعم .

وعلى الوجهين فالكلام جار على ما يعرف في المنطق بقياس المساواة ، إذ كان المبذر مؤاخياً للشيطان وكان الشيطانُ كفوراً ، فكانَ المبذّر كفوراً بالمآل أو بالدرجة القريبة .

وقد كان التبذير من خُلق أهل الجاهلية ، ولذلك يتمدحون بصفة المتلاف والمُهلك المال ، فكان عندهم الميسر من أسْباب الإتلاف ، فحذر الله المؤمنين من التلبس بصفات أهل الكفر ، وهي من المذام ، وأدبهم بآداب الحكمة والكمال .

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (28) ﴾

عطف على قوله : ﴿ وآت ذا القربى والمسكين ﴾ [الإسراء : 26] لأنه من تمامه .

والخطاب لغير معين ليعم كل مخاطب .

(208/454)

والمقصود بالخطاب النبي لأنه على وزان نظم قوله : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [الإسراء : 23] فإن المواجهة بـ﴿ ربك ﴾ في القرآن جاءت غالباً لخطاب النبي صلى الله عليه وسلم ويعدله ما روي أن النبي كان إذا سأله أحد مالاً ولم يكن عنده ما يعطيه يعرض عنه حياء فنبهه الله إلى أدب أكمل من الذي تعهده من قبل ويحصل من ذلك تعليم لسائر

الأمة .

وضمير ﴿ عنهم ﴾ عائد إلى ذي القُربى والمسكين وابن السبيل .

والإعراض : أصله ضد الإقبال مشتق من العُرض بضم العين أي الجانب ، فأعرض بمعنى أعطى جانبه ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ﴾ [الإسراء : 83] ، وهو هنا مجاز في عدم الإيتاء أو كناية عنه لأن الإمساك يلازمه الإعراض ، أي إن سألك أحدهم عطاءً فلم تجبه إليه أو إن لم تفتقدهم بالعطاء المعروف فتباعدتَ عن لقائهم حياءً منهم أن تلاقيهم بيد فارغة فقل لهم قولاً ميسوراً .

والميسور : مفعول من اليُسر ، وهو السهولة ، وفعله مبني للمجهول .

يقال : يُسِر الأمرُ بضم الياء وكسر السين كما يقال : سُعِد الرجل ونُحِس ، والمعنى : جُعِل يسيراً غير عسير ، وكذلك يقال : عُسِر .

والقول الميسور : اللين الحسن المقبول عندهم ؛ شبه المقبول بالميسور في قبول النفس إياه لأن غير المقبول عسير .

أمر الله بإرفاق عدم الإعطاء لعدم الموجدة بقول لين حسن بالاعتذار والوعد عند الموجدة ، لئلا يُحمل الإعراض على قلة الاكتراث والشح .

وقد شرط الإعراض بشرطين : أن يكون إعراضاً لابتغاء رزق من الله ، أي إعراضاً لعدم الجدة لا اعتراضاً لبخل عنهم ، وأن يكون معه قول لين في الاعتذار .

وعلم من قوله : ابتغاء رحمة من ربك ﴾ أنه اعتذار صادق وليس تعللاً كما قال بشار :

وللبخيل على أمواله علل

رزق العيون عليها أوجه سود . . .

فقوله : ﴿ ابتغاء رحمة من ربك ﴾ حال من ضمير ﴿ تعرضن ﴾ مصدر بالوصف ،

أي مبتغياً رحمة من ربك .

و﴿ ترجوها ﴾ صفة ل ﴿ رحمة ﴾ .

(209/454)

والرحمة هنا هي الرزق الذي يتأتى منه العطاء بقرينة السياق .

وفيه إشارة إلى أن الرزق سبب للرحمة لأنه إذا أعطاه مستحقه أثيب عليه ، وهذا إدماج .

وفي ضمن هذا الشرط تأديب للمؤمن إن كان فاقداً ما يبلغ به إلى فعل الخير أن يرجوَ من الله تيسير أسبابه ، وأن لا يحمله الشح على السرور بفقد الرزق للراحة من البذل بحيث لا يَعدِم البذلَ الآن إلا وهو راجٍ أن يسهل له في المستقبل حرصاً على فضيلته ، وأنه لا ينبغي أن يعرض عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل إلا في حال رجاء حصول نعمة فإن حصلت أعطاهم .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29) ﴾

عود إلى بيان التبذير والشح ، فالجملة عطف على جملة ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ [الإسراء : 26] .

ولولا تخلل الفصل بينهما بقوله : ﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ﴾ [الإسراء : 28] الآية لكانت جملة ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك غَيْر مقترنة بواو العطف لأن شأن البيان أن لا يعطف على المبين ، وأيضاً على أن في عطفها اهتماماً بها يجعلها مستقلة بالقصد لأنها مشتملة على زيادة على البيان بما فيها من النهي عن البخل المقابل للتبذير .

وقد أتت هذه الآية تعليماً بمعرفة حقيقة من الحقائق الدقيقة فكانت من الحكمة .

وجاء نظمها على سبيل التمثيل فصيغت الحكمة في قالب البلاغة .

فأما الحكمة فإذ بينت أن المحمود في العطاء هو الوسط الواقع بين طرفي الإفراط والتفريط ، وهذه الأوساط هي حدود المحامد بين المذام من كل حقيقة لها طرفان .

وقد تقرر في حكمة الأخلاق أن لكل خلق طرفين ووسطاً ، فالطرفان إفراط وتفريط وكلاهما مقر مفاسد للمصدر وللمورد ، وأن الوسط هو العدل ، فالإنفاق والبذل حقيقة أحد طرفيها الشح وهو مفسدة للمحاويج ولصاحب المال إذ يجر إليه كراهية الناس إياه وكراهيته إياهم .

والطرف الآخر التبذير والإسراف ، وفيه مفاسد لذي المال وعشيرته لأنه يصرف ماله عن مستحقه إلى مصارف غير جديرة بالصرف ، والوسط هو وضع المال في مواضعه وهو الحد الذي عبر عنه في الآية بنفي حالين بين (لا ولا) .

وأما البلاغة فبتمثيل الشح والإمساك بغل اليد إلى العُنق ، وهو تمثيل مبني على تخيل اليد مصدراً للبذل والعطاء ، وتخيُّل بَسطها كذلك وغلها شحاً ، وهو تخيل معروف لدى البلغاء والشعراء ، قال الله تعالى : وقالت اليهود يد الله مغلولة ثم قال : ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ [المائدة : 64] وقال الأعشى :

يَداكِ يدَا صدق فكف مفيدة

وكف إذا ما ضُن بالمال تنفق . . .

ومن ثم قالوا : له يدُ على فلان ، أي نعمة وفضل ، فجاء التثميل في الآية مبنياً على التصرف في ذلك المعنى بتمثيل الذي يشح بالمال بالذي غُلّت يده إلى عنقه ، أي شدت بالغُلّ ، وهو القيد من السير يشد به يد الأسير ، فإذا غُلت اليد إلى العنق تعذر التصرف بها فتعطل الانتفاع بها فصار مصدر البذل معطلاً فيه ، وبضده مُثِّلَ المسرف بباسط يده غاية البسط

ونهايته وهو المفاد بقوله : كل البسط ﴾ أي البسطَ كله الذي لا بسط بعده ، وهو معنى النهاية .

وقد تقدم من هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ﴾ إلى قوله : ﴿ بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ في سورة العقود [المائدة : 64] .

هذا قالب البلاغة المصوغةُ في تلك الحكمة .

وقوله : فتقعد ملوما محسوراً ﴾ جواب لكلا النهيين على التوزيع بطريقة النشر المرتب ، فالملوم يرجع إلى النهي عن الشح ، والمحسور يرجع إلى النهي عن التبذير ، فإن الشحيح ملوم مذموم .

وقد قيل :

إن البخيل ملوم حيثما كانا

وقال زهير

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله . . .

على قومه يُستغن عنه ويذمم

والمحسور : المنهوك القوى .

يقال : بعير حسير ، إذا أتعبه السير فلم تبق له قوة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ [الملك : 4] ، والمعنى : غير قادر على إقامة شؤونك .

والخطاب لغير معين .

وقد مضى الكلام على تقعد آنفاً .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (30) ﴾

موقع هذه الجملة موقع اعتراض بالتعليل لما تقدم من الأمر بإيتاء ذي القربى والمساكين ، والنهي عن التبذير ، وعن الإمساك المفيد الأمرَ بالقصد ، بأن هذا واجب الناس في أموالهم وواجبهم نحو قرابتهم وضعفاء عشائرهم ، فعليهم أن يمتثلوا ما أمرهم الله من ذلك .

وليس الشح بمبق مال الشحيح لنفسه ، ولا التبذير بمغنٍ من يبذر فيهم المال فإن الله قدر لكل نفس رزقها .

فيجوز أن يكون الكلام جارياً على سنن الخطاب السابق لغير معين .

ويجوز أن يكون قد حُول الكلام إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم فَوُجّه بالخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الأولى بعلم هذه الحقائق العالية ، وإن كانت أمته مقصودة بالخطاب تبعاً له ، فتكون هذه الوصايا مخللة بالإقبال على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ ويقدر ﴾ ضد ﴿ يبسط ﴾ .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ في سورة [الرعد : 26] .

وجملة ﴿ إنه كان بعباده خبيرا بصيرا تعليل لجملة إن ربك يبسط الرزق ﴾ إلى آخرها ، أي هو يفعل ذلك لأنه عليم بأحوال عباده وما يليق بكل منهم بحسب ما جبلت عليه نفوسهم ، وما يحف بهم من أحوال النظم العالمية التي اقتضتها الحكمة الإلهية المودعة في هذا العالم .

والخبير : العالم بالأخبار .

والبصير : العالم بالمبصرات .

وهذان الاسمان الجليلان يرجعان إلى معنى بعض تعلق العلم الإلهي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(212/454)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (28) ﴾

الضمير في قوله ﴿ عَنْهُمُ ﴾ راجع إلى المذكورين قبله في قوله : ﴿ وَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ والمسكين وابن السبيل ﴾ [الإسراء : 26] الآية . ومعنى الآية : إن تعرض عن هؤلاء المذكورين فلم تعطهم شيئاً لأنه ليس عندك . وإعراضك المذكور عنهم ﴿ ابتغآء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ أي رزق حلال . كالفيء يرزقكة الله فتعطيهم منه ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورا ﴾ أي ليناً لطيفاً طيباً . كالدعء لهم بالغنى وسعة الرزق ، ووعدهم بأن الله إذا يسر من فضله رزقاً أنك تعطيهم منه .

وهذا تعليم عظيم من الله لنبيه لمكارم الأخلاق ، وأنه إن لم يقدر على الإعطاء الجميل فليتجمل في عدم الإعطاء . لأن الرد الجميل خير من الإعطاء القبيح .

وهذا الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة ، صرح به الله جل وعلا في سورة " البقرة " في قوله : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾ [البقرة : 236] الآية ، ولقد أجاد من قال :

إلا تكن روق يوماً أجود بها . . . لسائلين فإني لين العود

لا يعدم السائلون الخير من خلقي . . . إما نوالى وإما حسن مردودي

والآية الكريمة تشير إلى أنه صلى الله عليه وسلم لا يعرض عن الإعطاء إلا عتد عدم ما يعطى منه ، وأن الرزق المنتظر إذا يسره الله فإنه يعطيهم منه ، ولا يعرض عنهم . وهذا هو غاية الجود وكرم الأخلاق . وقال القرطبي : قولاً ﴿ مَّيْسُوراً ﴾ مفعول بمعنى الفاعل من

لفظ اليسر كالميمون.

وقد علمت مما قررنا أن قوله: ﴿ ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ متعلق بفعل الشرط الذي هو ﴿ تُعْرِضَنَّ ﴾ لا بجزاء الشرط.

(213/454)

وأجاز الزمخشري في الكشاف تعلقه بالجزاء وتقديمه عليه. ومعنى ذلك: فقل لهم قولاً ميسوراً ﴿ ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾. اي يسر عليهم والطف بهم. لابتغائك بذلك رحمة الله. ورد ذلك عليه ابو حيان في "البحر المحيط" بأن ما بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبله. قال: لا يجوز في قولك إن يقم فاضرب خالداً – أن تقول: إن يقم خالداً فاضرب. وهذا منصوص عليه – انتهى.

عن سعيد بن جبير رحمه الله: أن الضمير في قوله ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُم ﴾ [الإسراء: 28] راجع للكفار. اي إن تعرض عن الكفار ابتغاء رحمة من ربك، أي نصر لك عليهم، أو هداية من الله لهم. وعلى هذا فالقول الميسور: المداراة باللسان. قاله أبو سليمان الدمشقي، انتهى من البحر. ويسر بالتخفيف يكون لازماً ومتعدياً، وميسور من

المتعدي. تقول: يسرت لك كذا إذا أعددته. قاله أبو حيان أيضاً. انتهى انتهى. ا هـ

﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(214/454)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) ﴾

الحق سبحانه بعد أنْ حنَّن الإنسان على والديْه صعَّد المسألة فحنّنه على قرابة أبيه وقرابة أمه، فقال: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ.. ﴾ [الإسراء: 26]

﴿ حَقَّهُ ﴾ لأن الله تعالى جعله حَقّاً للأقارب إنْ كانوا في حاجة، وإلا فلو كانا غير محتاجين، فالعطاء بينهما هدية متبادلة، فكل قريب يُهادي أقرباءه ويهادونه. والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُشيعَ في المجتمع روح التكافل الاجتماعي.

لذلك كان بعض فقهاء الأندلس إذا منع الرجل زكاةً تقرُب من النّصاب أمر بقطع يده، كأنه سرقه؛ لأن الله تعالى أسماه (حقاً) فَمْن منع صاحب الحق من حقه، فكأنه سرقه منه.

وقد سلك فقهاء الأندلس هذا المسلك، لأنهم في بلاد ترف وغنى، فتشدّدوا في هذه المسألة؛ لأنه لا عُذْر لأحد فيها.

لذلك ، لما جاء أحد خلفائهم إلى المنذر بن سعيد ، وقال: لقد حُلفت يميناً ، وأرى أن أُكَفِّر عنه فأفتاه بأن يصوم ثلاثة أيام ، فقال أحدهم: لقد ضيّقتَ واسعاً فقد شرع الله للكفارة أيضاً إطعامَ عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فرد عليه المنذر قائلاً: أو مثل أُمير المؤمنين يُزْجَر بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم؟ إنه يفعل ذلك في اليوم لأُلْف وأكثر ، وإنما يزجره الصوم ، وهكذا أخذوا الحكم بالروح لا بالنص ؛ ليتناسب مع مقدرة الخليفة ، ويُؤثِّر في رَدْعه وزَجْره .

وكلمة (حق) وردت في القرآن على معنيين:

الأول: في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ [المعارج: 24]

والحق المعلوم هو الزكاة .

(215/454)

أما الحق الآخر فحقٌّ غير معلوم وغير موصوف ، وهو التطوع والإحسان ، حيث تتطوَّع لله بجنس ما فرضه عليك ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: 16-19]

ولم يقل: " معلوم ": لأنه إحسان وزيادة عَمَّا فرضه الله علينا .

ويجب على من يُؤْتى هذا الحق أن يكون سعيداً به ، وأن يعتبره مَغْنماً لا مَغْرماً ؛ لأن الدنيا كما نعلم أغيار تتحول وتتقلب بأهلها ، فالصحيح قد يصير سقيماً ، والغني قد يصير فقيراً وهكذا ، فإعطاؤك اليوم ضمانٌ لك في المستقبل ، وضمان لأولادك من بعدك ، والحق الذي تعطيه اليوم هو نفسه الذي قد تحتاجه غداً ، إنْ دارتْ عليك الدائرة .

إذن: فالحق الذي تدفعه اليوم لأصحابه تأمين لك في المستقبل يجعلك تجابه الحياة بقوة ، وتجابه الحياة بغير خور وبغير ضعف ، وتعلم أن حقك محفوظ في المجتمع ، وكذلك إنْ تركتَ أولادك في عوزٍ وحاجة ، فالمجتمع مُتكفِّل بهم .

وصدق الله تعالى حين قال: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً ﴾ [النساء: 9]

ولذلك ، فالناس أصحاب الارتقاء والإثراء لورعهم لا يعطون الأقارب من أموال الزكاة ، بل يخصُّون بها الفقراء الأباعد عنهم ، ويُعْطون الأقارب من مالهم الخاص مساعدة وإحساناً .

و ﴿ الْمَسَاكِينَ ﴾ هو الذي يملك وله مال ، لكن لا يكفيه ، بدليل قوله الحق سبحانه: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ . . ﴾ [الكهف: 79]

أما الفقير فهو الذي لا يملك شيئاً ، وقد يعكس البعض في تعريف المسكين والفقير ، وهذا

فهم خاطئ.

و﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ . . ﴾ [الإسراء: 26]

(216/454)

السبيل هو الطريق، والإنسان عادةً يُنْسَب إلى بلده، فنقول: ابن القاهرة، ابن بورسعيد، فإنْ كان منقطعاً في الطريق وطرأتْ عليه من الظروف ما أحوجه للعون والمساعدة، وإن كان في الحقيقة صاحب يسارٍ وغِنىً، كأن يُضيع ماله فله حَقٌّ في مال المسلمين بقدر ما يُوصّله إلى بلده.

وابن السبيل إذا طلب المساعدة لا تسأله عن حقيقة حاله، لأن له حقاً واجباً فلا تجعله في وضع مذلّة أو حرج.

﴿ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴾ [الإسراء: 26]

كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: 141]

فالتبذير هو الإسراف، مأخوذ من البذر، وهو عملية يقوم بها الفلاح فيأخذ البذور التي يريد زراعتها، وينثرها بيده في أرضه، فإذا كان متقناً لهذه العملية تجده يبذر البذور

بنسب متساوية ، بحيث يوزع البذور على المساحة المراد زراعتها ، وتكون المسافة بين البذور متساوية .

وبذلك يفلح الزرع ويعطي المحصول المرجو منه ، أما إنْ بذرَ البذور بطريقة عشوائية وبدون نظام نجد البذور على مسافات غير متناسبة ، فهي كثيرة في مكان ، وقليلة في مكان آخر ، وهذا ما نُسمِّيه تبذيراً ، لأنه يضع الحبوب في موضع غير مناسب ؛ فهي قليلة في مكان مزدحمة في آخر فَيُعاق نموّها .

لذلك ، فالحق سبحانه آثر التعبير عن الإسراف بلفظ (التبذير) ؛ لأنه يضيع المال في غير موضعه المناسب ، وينفق هكذا كلما اتفق دون نظام ، فقد يعطي بسخاء في غير ما يلزم ، في حين يمسك في الشيء الضروري .

إذن: التبذير: صَرْف المال في غير حِلّه ، أو في غير حاجة ، أو ضرورة .

(217/454)

والنهي عن التبذير هنا قد يُراد منه النهي عن التبذير في الإيتاء ، يعني حينما تعطي حَقّ الزكاة ، فلا تأخذك الأَريحية الإيمانية فتعطي أكثر مما يجب عليك ، وربما سمعتَ ثناء الناس وشكرهم فتزيد في عطائك ، ثم بعد ذلك وبعد أن تخلوَ إلى نفسك ربما ندمتَ على ما

فعلتَ، ولُمْتَ نفسك على هذا الإسراف.

وقد يكون المعنى: أعْطِ ذا القربى والمساكين وابن السبيل، ولكن لا تُبذِّر في الأمور الأخرى، فالنهي هنا لا يعود إلى الإيتاء، بل إلى الأمور التافهة التي يُنفَق فيها المال في غير ضرورة.

(218/454)

إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27)

كلمة (أخ) تُجمع على إخْوة وإخْوان..

وإخوة: تدلّ على أُخوّة النسب، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ.. ﴾ [يوسف: 58]

وتدل أيضاً على أخوة الخير والورع والتقوى، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ.. ﴾ [الحجرات: 10]

ومنها قوله تعالى عن السيدة مريم: ﴿ يَاأُخْتَ هَارُونَ.. ﴾ [مريم: 28]

والمقصود: هارون أخو موسى ـ عليهما السلام ـ وبينهما زمن طويل يقارب أحد عشر جيلاً، ومع ذلك سماهما القرآن إخوة أي أخوّة الورع والتقوى.

أما: إخوان: فتدل على أن قوماً اجتمعوا على مبدأ واحد، خيراً كان أو شراً، فتدلّ على الاجتماع في الخير، كما في قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران: 103]

وقد تدل على الاجتماع في الشر، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الإسراء: 27]

فكأن المبذرين اجتمعوا مع الشياطين في هوية واحدة، وودٍّ واحد، وانتظمتهما صفات واحدة من الشر.

(219/454)

إذن: كلمة (إخْوَة) تدل على أُخُوّة النسب، وقد تتسامى لتدل على أُخوّة الإيمان التي تنهار أمام قوتها كل الأواصر. ونذكر هنا ما حدث في غزوة بدر بين أخويْنِ من أسرة واحدة هما "مصعب بن عمير" بعد أن آمن وهاجر إلى المدينة وخرج مع جيش المسلمين إلى بدر وأخوه "أبو عزيز" وكان ما يزال كافراً، وخرج مع جيش الكفار من مكة، والتقى الأخوان: المؤمن والكافر. "ومعلوم أن "مصعب بن عمير" كان من أغنى أغنياء مكة، وكان لا يرتدي إلا أفخر الثياب وألينها، ويتعطر بأثمن العطور حتى كانوا يسمونه مُدلَّل مكة

، ثم بعد أنْ آمنَ تغيّر حاله وآثر الإيمان بالله على كل هذا الغنى والنعيم ، ثم بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ليعلّم الناس أمور دينهم ، وفي غزوة أحد رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتدي جلد شاة ، فقال: "انظروا ما فعل الإيمان بأخيكم "" .

فماذا حدث بين الأخويْنِ المؤمن والكافر ؟ وأيّ الصلات كانت أقوى: صلة الإيمان بالله ، أم صلة النسب ؟

لما دارتْ المعركة نظر مصعب ، فإذا بأخيه وقد أَسَرَهُ أحد المسلمين اسمه "أبو اليَسرَ" فالتفتَ إليه . وقال: يا أبا اليَسَر أشدد على أسيرك ، فأُمّه غنية ، وسوف تفديه بمال كثير .

فنظر إليه "أبو عزيز" وقال: يا مصعب ، أهذه وصاتك بأخيك ، فقال له مصعب: هذا أخي دونك .

فأخوة الدين والإيمان أقوى وأمتن من أخوة النسب ، وصدق الله تعالى حين قال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . . ﴾ [الحجرات: 10] قوله: ﴿ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ . . ﴾ [الإسراء: 27]

أي: أن الحق تبارك وتعالى جعلهما شريكين في صفة واحدة هي التبذير والإسراف، فإنْ كان المبذّر قد أسرف في الإنفاق ووضْع المال في غير حِلّه وفي غير ضرورة. فإن الشيطانَ أسرف في المعصية، فلم يكتفِ بأن يكون عاصياً في ذاته، بل عدّى المعصية إلى غيره وأغوى بها وزيّنها؛ لذلك وصفه الحق سبحانه بقوله: ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾ [الإسراء: 27]

ليس كافراً فحسب، بل (كفور) وهي صيغة مبالغة من الكفر؛ لأنه كَفَر وعمل على تكفير غيره.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا . . . ﴾ .

(221/454)

ولنا أنْ نسأل: عَمَّنْ يكون الإعراض؟ فقد سبق الحديث عن الوالدين والأقارب والمسكين وابن السبيل، والإعراض عن هؤلاء لا يتناسب مع سياق الآية لأنه إعراض عن طاعة الله، بدليل قوله: ﴿ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا . . ﴾ [الإسراء: 28]

فالله تعالى في ذهنك، وتبتغي من وراء هذا الإعراض رحمة الله ورزقه وسِعَته. إذن: الإعراض هنا ليس معصية أو مخالفة. فماذا إذن الغرض من الإعراض هنا؟

نقول: قد يأتيك قريب أو مسكين أو عابر سبيل ويسألك حاجة وأنت لا تملكها في هذا الوقت فتخجل أنْ تواجهه بالمنع، وتستحي منه، فما يكون منك إلا أنْ تتوجه إلى ربّك عز وجل وتطلب منه ما يسدُّ حاجتك وحاجة سائلك، وأن يجعل لك من هذا الموقف مَخْرجاً.

فالمعنى: إما تُعرِضنّ عنهم خجلاً وحياءً أنْ تواجههم، وليس عندك ما يسدُّ حاجتهم، وأنت في هذا الحال تلجأ إلى الله أنْ يرحمك رحمةً تسعك وتسعهم.

وقوله تعالى: ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴾ [الإسراء: 28]

كما قال في موضع آخر في مثل هذا الموقف: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى.. ﴾ [البقرة: 263]

فحتى في حال المنع يجب على المسلم أن يلتزم الأدب، ولا يجرح مشاعر السائل، وأنْ يردّه بلين ورِفْق، وأنْ يُظهر له الحياء والخجل، وألاّ يتكبر أو يتعالى عليه، وأن يتذكر نعمة الله عليه بأنْ جعله مسئولاً لا سائلاً.

إذن: فالعبارات والأعمال الصالحة في مثل هذا الموقف لا يكفي فيها أن تقول: ما عندي، فقد يتهمك السائل بالتعالي عليه، أو بعدم الاهتمام به، والاستغناء عنه، وهنا يأتي دور الارتقاءات الإيمانية والأريحية للنفس البشرية التي تسمو بصاحبها إلى أعلى المراتب.

وتأمل هذا الارتقاء الإيماني في قوله تعالى عن أصحاب الأعذار في الجهاد: ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ [التوبة: 92]

هذه حكاية بعض الصحابة الذين أتوا رسول الله ليخرجوا معه إلى الجهاد، ويضعوا أنفسهم تحت أمره وتصرّفه، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذر لهم، فليس لديه من الركائب ما يحملهم عليه إلى الجهاد.

فماذا كان من هؤلاء النفر المؤمنين؟ هل انصرفوا ولسان حالهم يقول: لقد فعلنا ما علينا ويفرحون بما انتهوا إليه؟ لا، بل: ﴿ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ [التوبة: 92]

وهكذا يرتقي الإيمان بأهله، ويسمو بأصحابه، فإذا لم يقدروا على الأعمال النزوعية، فالأعمال القولية، فإذا لم يقدروا على هذه أيضاً فلا أقلّ من الانفعال العاطفي المعبِّر عن حقيقة الإيمان الذي يفيض دمع الحزن لضيق ذات اليد.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾.

تحدّث الحق سبحانه وتعالى في آية سابقة عن المبذِّرين، وحذّرنا من هذه الصفة، وفي هذه الآية يقيم الحق سبحانه موازنة اقتصادية تحفظ للإنسان سلامة حركته في الحياة.

فقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ.. ﴾ [الإسراء: 29]

واليد عادة تُستخدم في المنح والعطاء، تقول: لفلان يد عندي، وله عليَّ أيادٍ لا تُعَد، أي: أن نعمه عليّ كثيرة؛ لأنها عادة تُؤدّي باليد، فقال: لا تجعل يدك التي بها العطاء (مَغْلُولَةً) أي: مربوطة إلى عنقك، وحين تُقيّد اليد إلى العنق لا تستطيع الإنفاق، فهي هنا كناية عن البُخْل والإمساك.

وفي المقابل: ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ.. ﴾ [الإسراء: 29]

فالنهي هنا عن كل البَسْط، إذن: فيُباح بعض البسْط، وهو الإنفاق في حدود الحاجة والضرورة. وبَسْط اليد كناية عن البَذْل والعطاء، وهكذا يلتقي هذا المعنى بمعنى كل من بذَر ومعنى بذَّر الذي سبق الحديث عنه.

فبذّر: أخذ حفنة من الحبّ، وبَسَط بها يده مرة واحدة، فأحدثتْ كومةً من النبات الذي يأكل بعضه بعضاً، وهذا هو التبذير المنهيّ عنه، أما الآخر صاحب الخبرة في عملية البذْر

فيأخذ حفنة الحبِّ، ويقبض عليها بعض الشيء بالقدر الذي يسمح بتفلّت حبات التقاوي واحدة بعد الأخرى، وعلى مسافات متقاربة ومتساوية أي [بَذَرَ].

وهذا هو حدّ الاعتدال المرغوب فيه من الشرع الحكيم، وهو الوسط، وكلا طرفيه مذموم.

وقد أتى هذا المعنى أيضاً في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان: 67]

أي: اعتدال وتوسُّط.

إذن: لا تبسط يدك كل البَسْط فتنفق كل ما لديْك، ولكن بعض البَسْط الذي يُبقِي لك سيئاً تدخره، وتتمكن من خلاله أنْ ترتقيَ بحياتك.

(224/454)

وقد سبق أنْ أوضحنا الحكمة من هذا الاعتدال في الإنفاق، وقلنا: إن الإنفاق المتوازن يُثري حركة الحياة، ويُسهم في إنمائها ورُقيِّها، على خلاف القَبْض والإمساك، فإنه يُعرقِل حركة الحياة، وينتج عنه عطالة وبطالة وركود في الأسواق وكساد يفسد الحياة، ويعوق حركتها.

إذن: لا بُدَّ من الإنفاق لكي تساهم في سَيْر عجلة الحياة، ولا بُد أن يكون الإنفاق معتدلاً حتى تُبقِي على شيء من دَخْلك، تستطيع أن ترتقي به، وترفع من مستواك المادي في دنيا الناس.

فالمبذر والمسْرف تجده في مكانه، لا يتقدم في الحياة خطوة واحدة، كيف وهو لا يُبقِي على شيء؟ وبهذا التوجيه الإلهي الحكيم نضمن سلامة الحركة في الحياة، ونُوفِّر الارتقاء الاجتماعي والارتقاء الفردي.

ثم تأتي النتيجة الطبيعية للإسراف والتبذير: ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾ [الإسراء: 29]

وسبق أنْ أوضحنا أن وَضْع القعود يدلّ على عدم القدرة على القيام ومواجهة الحياة، وهو وَضْع يناسب مَنْ أسرف حتى لم يَعُدْ لديه شيء.

وكلمة ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ تفيد انتقاص حركة الحياة؛ لأن حركة الحياة تنشأ من القيام عليها والحركة فيها؛ لذلك قال تعالى: ﴿ لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.. ﴾ [النساء: 95]

﴿ مَلُوماً ﴾ أي: أتى بفعل يُلاَم عليه، ويُؤنَّب من أجله، وأول مَنْ يلوم المسرف أولاده وأهلُه، وكذلك الممسِك البخيل، فكلاهما مَلُوم لتصرُّفه غير المتزن.

﴿ مَّحْسُوراً ﴾ أي: نادماً على ما صِرْتَ فيه من العدم والفاقة، أو من قولهم: بعير

محسور . أي: لا يستطيع القيام بحمله . وهكذا المسرف لا يستطيع الارتقاء بحياته أو القيام بأعبائها وطموحاتها المستقبل له ولأولاده من بعده .

فإنْ قبضتَ كل القَبْض فأنت مَلُوم ، وإنْ بسطتَ كُلَّ البسْط فتقعد محسوراً عن طموحات الحياة التي لا تَقْوى عليها .

(225/454)

إذن: فكلا الطرفين مذموم ، ويترتب عليه سوء لا تُحمد عُقْباه في حياة الفرد والمجتمع .

إذن: فما القصد ؟

القصد أن يسير الإنسان قواماً بين الإسراف والتقتير ، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان: 67]

فالقرآن يضع لنا دستوراً حاسماً وَسَطاً ينظّم الحركة الاقتصادية في حياة المجتمع ، فابْسُط يدك بالإنفاق لكي تساهم في سَيْر عجلة الحياة وتنشيط البيع والشراء ، لكن ليس كل البسط ، بل تُبقِي من دخلك على شيء لتحقق طموحاتك في الحياة ، وكذلك لا تمسك وتُقتّر على نفسك وأولادك فيلومونك ويكرهون البقاء معك ، وتكون عضواً خاملاً في مجتمعك ، لا تتفاعل معه ، ولا تُسهم في إثراء حركته .

والحق سبحانه وتعالى وهو صاحب الخزائن التي لا تنفذ ، وهو القائل: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ . . ﴾ [النحل: 96]

ولو أعطى سبحانه جميع خَلْقه كُلّ ما يريدون ما نقص ذلك من مُلْكه سبحانه ، كما قال في الحديث القدسي: "يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وحيّكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم ، وإنسكم وجنكم ، اجتمعوا في صعيد واحد ، فسألني كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندي إلا كمغرز إبرة أحدكم إذا غمسه في البحر ، ذلك أنِّي جوَاد واجد ماجد ، عطائي كلام وعذابي كلام ، إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون" .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾ .

(226/454)

الله الذي لا تنفد خزائنه يعطي خلْقه بقدَرٍ ، فلا يبسط لهم الرزق كل البَسْط ، ولا يقبضه عنهم كُلَّ القَبْض ، بل يبسط على قوم ، ويقبض على آخرين لتسير حركة الحياة ؛ لأنه سبحانه لو بسط الرزق ووسَّعه على جميع الناس لاستغنى الناس عن الناس ، وحدثت بينهم مقاطعة تُفسد عليهم حياتهم .

إنما حركة الحياة تتطلب أنْ يحتاج صاحب المال إلى عمل ، وصاحب العمل إلى مال ، فتلتقي حاجات الناس بعضهم لبعض ، وبذلك يتكامل الناس ، ويشعر كل عضو في المجتمع بأهميته ودوره في الحياة .

وسبق أن ذكرنا أن الحق سبحانه لم يجعل إنساناً مَجْمعاً للمواهب ، بل المواهب مُوزَّعة بين الخَلْق جميعهم ، فأنت صاحب موهبة في مجال ، وأنا صاحب موهبة في مجال آخر وهكذا ، ليظل الناس يحتاج بعضهم لبعض .

فالغني صاحب المال الذي ربما تعالى بماله وتكبَّر به على الناس يُحوِجه الله لأقل المهن التي يستنكف أن يصنعها ، ولا بُدّ له منها لكي يزاول حركة الحياة .

والحق سبحانه لا يريد في حركة الحياة أن يتفضّل الناس على الناس ، بل لا بُدَّ أن ترتبط مصالح الناس عند الناس بحاجة بعضهم لبعض .

فإذا كان الحق تبارك وتعالى لا يبسط لعباده كل البَسْط ، ولا يقبض عنهم كل القَبْض ، بل يقبض ويبسط ، فوراء ذلك حكمة لله تعالى بالغة ؛ لذلك ارتضى هذا الاعتدال منهجاً لعباده ينظم حياتهم ، وعلى العبد أن يرضى بما قُسِم له في الحالتين ، وأن يسير في حركة حياته سَيْراً يناسب ما قدَّره الله له من الرزق .

يقول تعالى: ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ آتَاهُ اللَّهُ . . ﴾ [الطلاق: 7]

أي: مَنْ ضُيِّق عليه الرزق فلينفق على قَدْره ، ولا يتطلع إلى ما هو فوق قدرته وإمكاناته ، وهذه نظرية اقتصادية تضمن للإنسان الراحة في الدنيا ، وتوفر له سلامة العيش .

ورحم الله امرءاً عرف قَدْر نفسه ؛ لأن الذي يُتْعِب الناس في الحياة ويُشقيهم أن ترى الفقير الذي ضُيِّق عليه في الرزق يريد أنْ يعيش عيشة الموسَّع عليه رزقه ، ويتطلّع إلى ما فضّل الله به غيره عليه .

فلو تصورنا مثلاً زميلين في عمل واحد يتقاضيان نفس الراتب:

الأول: غنيٌّ وفي سَعَةٍ من العيش قد يأخذ من أبيه فوق راتبه .

والآخر: فقير ربما يساعد أباه في نفقات الأسرة .

فإذا دخلا محلاً لشراء شيء ما ، فعلى الفقير ألاَّ ينظر إلى وَضْعه الوظيفي ، بل إلى وضعه ومستواه المادي ، فيشتري بما يتناسب معه ، ولا يطمع أن يكون مثل زميله ؛ لأن لكل منهما قدرةً وإمكانية يجب ألاَّ يخرج عنها .

هذه هي النظرية الاقتصادية الدقيقة ، والتصرُّف الإيماني المتزن ؛ لذلك فالذي يحترم قضاء الله ويَرْضَى بما قَسَمه له ويعيش في نطاقه غير متمرد عليه ، يقول له الحق سبحانه: لقد

رضيت بقدري فيك فسوف أرفعك إلى قدري عندك ، ثم يعطيه ويُوسّع عليه بعد الضيق .

وهذا مُشَاهَد لنا في الحياة ، والأمثلة عليه واضحة ، فكم من أُناس كانوا في فقر وضيق عيش ، فلما رَضُوا بما قَسَمه الله ارتقتْ حياتهم وتبدّل حالهم إلى سَعَة وتَرَف .

فالحق سبحانه يبسط الرزق لمَنْ يشاء ويقدر ؛ لأنه سبحانه يريد أن يضع الإنسانُ نفسه دائماً في مقام الخلافة في الأرض ، ولا ينسى هذه الحقيقة ، فيظن أنه أصيل فيها .

والخيبة كل الخيبة أن ينسى الإنسان أنه خليفة لله في الأرض ، ويسير في حركة الحياة على أنه أصيل في الكون ، فأنت فقط خليفة لمن استخلفك ، مَمْدود مِمَّنْ أمدّك ، فإياك أنْ تغتر ، وإياك أنْ تعيش في مستوى فوق المستوى الذي قدّره الله لك .

فإن اعتبرتَ نفسك أصيلاً ضَلَّ الكون كله ؛ لأن الله تعالى جعل الدنيا أغياراً وجعلها دُوَلاً ، فالذي وُسّع عليه اليوم قد يُضيّق عليه غداً ، والذي ضُيِّق عليه اليوم قد يُوسَّع عليه غداً .

وهذه سُنة من سُنَنَ الله في خَلْقه لِيَدكَّ في الإنسان غرور الاستغناء عن الله .

فلو متَّع اللهُ الإنسانَ بالغنى دائماً لما استمتع الكون بلذة: يا رب ارزقني ، ولو متَّعة بالصحة دائماً لما استمتع الكون بلذة: يا رب اشفني . لذلك يظل الإنسان موصولاً بالمنعِم سبحانه محتاجاً إليه داعياً إياه .

وقد قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: 6-7]

فالحاجة هي التي تربط الإنسان بربه ، وتُوصله به سبحانه .

فالبَسْط والتضييق من الله تعالى له حكمة ، فلا يبسط لهم الرزق كل البسط ، فيعطيهم كُلَّ ما يريدون ، ولا يقبض عنهم كل القبض فيحرمهم ويُريهم ما يكرهون ، بل يعطي بحساب وبقدر ؛ لتستقيم حركة الحياة ، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ . . ﴾ [الشورى: 27]

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: 30]

لأن الحق سبحانه لو لم يوزع الرزق هذا التوزيع الحكيم لاختلَّ ميزان العالم ، فَمنْ بُسِط له يستغني عن غيره فيما بُسِط له فيه ، ومَنْ ضُيِق عليه يتمرد على الكون ويحقد على الناس ، ويحسدهم ويعاديهم .

إنما إذا علم الجميع أن هذا بقدر الله وحكمته فسوف يظل الكون المخلوق موصولاً بالمُكوِّن الخالق سبحانه .

وفي قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ . . ﴾ [الإسراء: 30]

ملمح لطيف: أي ربك يا محمد وأنت أكرم الخلق عليه، ومع ذلك بَسَطَ لك حتى صِرْت تعطي عطاء مَنْ لا يخشى الفقر، وقبض عنك حتى تربط الحجر على بطنك من الجوع.

فإن كانت هذه حاله صلى الله عليه وسلم فلا يستنكف أحد منا إنْ ضيّق الله عليه الرزق، ومَنْ منّا ربط الحجر على بطنه من الجوع؟!

(229/454)

وبعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن فرع من فروع الحياة وهو المال، ورسم لنا المنهج الذي تستقيم الحياة به ويسير الإنسان به سيراً يُحقّق له العيش الكريم والحياة السعيدة، ويضمن له الارتقاءات والطموحات التي يتطلع إليها. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(230/454)

"فصل"

قال السيوطى:

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) ﴾

أخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ قال : أمره بأحق الحقوق ، وعلمه كيف يصنع إذا كان عنده ، وكيف يصنع إذا لم يكن ، فقال : ﴿ وإما تعرضن عنهم إبتغاء رحمة من ربك ﴾ قال : إذا سألوك وليس عندك شيء انتظرت رزقاً من الله ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ يقول : إن شاء الله يكون شبه العدة . قال : سفيان رحمه الله والعدة من النبي صلى الله عليه وسلم دين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ الآية . قال : هو أن تصل ذا القرابة ، وتطعم المسكين ، وتحسن إلى ابن السبيل .

وأخرج ابن جرير ، عن علي بن الحسين رضي الله عنه أنه قال لرجل من أهل الشام : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال : أفما قرأت في بني إسرائيل ؟ ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ قال : وإنكم للقرابة الذي أمر الله أن يؤتى حقه ؟ قال : نعم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في الآية . قال : كان ناس من بني عبد المطلب يأتون النبي صلى الله عليه وسلم يسألونه ، فإذا صادفوا عنده شيئاً أعطاهم ، وإن لم يصادفوا عنده شيئاً سكت لم يقل لهم نعم ، ولا ، لا . والقربى ، قربى بني عبد المطلب .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ وآت ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل ﴾ قال : هو أن توفيهم حقهم إن كان يسيراً ، وإن لم يكن عندك ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ وقل لهم الخير .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وآت ذى القربى حقه ﴾ الآية . قال : بدأ فأمره بأوجب الحقوق ، ودله على أفضل الأعمال إذا كان عنده شيء . فقال : ﴿ وآت ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل ﴾ وعلمه إذا لم يكن عنده شيء كيف يقول . فقال : ﴿ وإما تعرضن عنهم إبتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ عدة حسنة كأنه قد كان ، ولعله أن يكون إن شاء الله ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ لا تعطي شيئاً ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ تعطي ما عندك ﴿ فتقعد ملوماً ﴾ يلومك من يأتيك بعد ، ولا يجد عندك شيئاً ﴿ محسوراً ﴾ قال : قد حسرك من قد أعطيته .

وأخرج البخاري في الأدب ، عن كليب بن منفعة رضي الله عنه قال : قال جدي يا رسول الله ، من أبر ؟ قال : " أمك وأباك وأختك وأخاك ومولاك الذي يلي ذاك حق واجب

ورحم موصولة " .

وأخرج أحمد والبخاري والبخاري في الأدب وابن ماجة والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان ، عن المقدام بن معديكرب – رضي الله عنه – أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بآبائكم ، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب " .

وأخرج البخاري في الأدب ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ما أنفق الرجل نفقة على نفسه وأهله يحتسبها ، إلا آجره الله فيها ، وابدأ بمن تعول ، فإن كان فضل فالأقرب الأقرب ، وإن كان فضل فناول .

وأخرج البخاري في الأدب والبيهقي في شعب الإيمان واللفظ له ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " احفظوا أنسابكم تصلوا أرحامكم ، فإنه لا بعد للرحم إذا قربت ، وإن كانت بعيدة ، ولا قرب لها إذا بعدت ، وإن كانت قريبة ، وكل رحم آتية يوم القيامة امام صاحبها تشهد له بصلته إن كان وصلها ، وعليه بقطيعته إن كان قطعها " .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن أعرابياً قال : " يا رسول الله ، إني رجل موسر ، وإن لي أماً وأباً وأختاً وأخاً وعماً وعمة وخالاً وخالة ، فأيهم أولى بصلتي ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك أدناك " " .

وأخرج أحمد والحاكم والبيهقي ، عن أبي رمثة التيمي تيم الرباب قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب ويقول : " يد المعطي العليا أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك " .

وأخرج الطبراني والحاكم والشيرازي في الألقاب والبيهقي ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عز وجل ليَعْمر للقوم الديار ويُكثر لهم الأموال وما نظر إليهم منذ خلقهم بغضاً قيل يا رسول الله ، وبم ذلك : قال : بصلتهم أرحامهم " .

وأخرج البيهقي وابن عدي وابن لال في مكارم الأخلاق وابن عساكر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أهل البيت إذا تواصلوا أجرى الله عليهم الرزق ، وكانوا في كنف الرحمن عز وجل " .

وأخرج البيهقي وابن جرير والخرائطي في مكارم الأخلاق من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونون فجاراً ، فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا

الرحم ، وإن أعجل المعصية عقاباً ، البغي ، واليمين الفاجرة ، تذهب المال ، وتعقم الرحم ، وتدع الديار بلاقع " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن ثعلبة بن زهدم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب : " يد المعطي العليا ، ويد السائل السفلى ، وابدأ بمن تعول ، أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك فأدناك " .

(233/454)

وأخرج البزار وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وآت ذي القربى حقه ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة فأعطاها فدك .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ وآت ذي القربى حقه ﴾ أقطع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فاطمة فدكا .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يعطي وكيف يعطي وبمن يبدأ فأنزل الله ﴿ وآت ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل ﴾ فأمر الله أن يبدأ بذي القربى ، ثم بالمسكين وابن السبيل ومن بعدهم . قال :

﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ يقول الله عز وجل : ولا تعط مالك كله فتقعد بغير شيء . قال : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ فتمنع ما عندك ، فلا تعطي أحداً ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ فنهاه أن يعطي إلا ما يبن له . وقال له : ﴿ وأما تعرضن عنهم ﴾ يقول : تمسك عن عطائهم ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ يعني قولاً معروفاً ، لعله أن يكون ، عسى أن يكون .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه ، عن أنس أن رجلاً قال : " يا رسول الله إني ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة ، فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع ؟ قال : " تخرج الزكاة المفروضة ، فإنها مطهرة تطهرك ، وتصل أقاربك ، وتعرف حق السائل ، والجار والمسكين " فقال : يا رسول الله ، أقلل لي ؟ قال : ﴿ فآت ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ﴾ قال : حسبي رسول الله " .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبخاري في الأدب وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ قال : التبذير ، إنفاق المال في غير حقه .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – نتحدث أن التبذير النفقة في غير حقه .

وأخرج سعيد بن منصور والبخاري في الأدب وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إن المبذرين ﴾ قال : هم الذين ينفقون المال في غير حقه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ يقول : لا تعط مالك كله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : من السرف ، أن يكتسي الإنسان ويأكل ويشرب مما ليس عنده ، وما جاوز الكفاف فهو التبذير .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير ، وما تصدقت فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة ، فذلك حظ الشيطان .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن عطاء الخراساني رضي الله عنه قال : جاء ناس من مزينة يستحملون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "لا أجد ما أحملكم عليه " ﴿ تولوا وأعينهم تفيض من الدمع ﴾ [التوبة : 92] حزناً ظنوا ذلك ، من غضب

رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأنزل الله تعالى ﴿ وإما تعرضن عنهم إبتغاء رحمة من ربك ﴾ الآية. قال: الرحمة، الفيء.

وأخرج ابن جرير من طريق الخراساني، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ إبتغاء رحمة ﴾ قال: رزق.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ وإما تعرضن عنهم إبتغاء رحمة من ربك ترجوها ﴾ قال: انتظار رزق الله.

وأخرج ابن جرير، عن الضحاك رضي الله عنه في قوله: ﴿ وإما تعرضن عنهم ﴾ يقول: لا تجد شيئاً تعطيهم ﴿ ابتغاء رحمة من ربك ﴾ يقول: انتظار رزق الله من ربك، نزلت فيمن كان يسأل النبي – صلى الله عليه وسلم – من المساكين.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن الحسن رضي الله عنه في قوله: ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ قال: لينا سهلاً، سيكون إن شاء الله تعالى فأفعل، سنصيب إن شاء الله فأفعل.

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ يقول : قل لهم نعم وكرامة ، وليس عندنا اليوم ، فإن يأتنا شيء نعرف حقكم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿ قولاً ميسوراً ﴾ قال : قولاً جميلاً ، رزقنا الله وإياك بارك الله فيك .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ قال : العدة . قال سفيان : والعدة من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – دين ، والله أعلم .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29) ﴾

أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن يسار بن الحكم رضي الله عنه قال : أتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بزمن العراق ، وكان معطاء كريماً ، فقسمه بين الناس ، فبلغ ذلك قوماً من العرب ، فقالوا : أنأتي النبي صلى الله عليه وسلم فنسأله ؟ فوجدوه قد فرغ منه ، فأنزل الله ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ قال : محبوسة ﴿ ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً ﴾ يلومك الناس ﴿ محسوراً ﴾ ليس بيدك شيء .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن المنهال بن عمرو قال : بعثت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم بابنها فقالت : قل له اكسني ثوباً ، فقال : ما عندي شيء ، فقال : ارجع إليه فقل له اكسني

قميصك ، فرجع إليه فنزع قميصه فأعطاه إياه . فنزلت ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : " جاء غلام إلى النبي – صلى الله عليه وسلم فقال : إن أمي تسألك كذا وكذا ؟ فقال : ما عندنا اليوم شيء " قال : فتقول لك اكسني قميصك ، فخلع قميصه فدفع إليه ، فجلس في البيت حاسراً " فأنزل الله ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة ﴾ الآية .

(236/454)

وأخرج ابن مردويه ، عن أبي أمامة رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : وضرب بيده ، " أنفقي ما ظهر [7] كفى " قالت : إذاً لا يبقى شيء . قال ذلك : ثلاث مرات ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة ﴾ قال : يعني بذلك البخل .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ قال : هذا في النفقة . يقول : لا تجعلها مغلولة ، لا تبسطها بخير ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ يعني التبذير ﴿ فتقعد ملوماً ﴾ يلوم نفسه على ما فاته من

ماله . ﴿ محسوراً ﴾ ذهب ماله كله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ قال نهاه عن السرف والبخل .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ قال : ملوماً عند الناس محسوراً من المال .

وأخرج الطستي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ ملوماً محسوراً ﴾ قال مستحياً خجلاً قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول الشاعر :

ما فاد من مني يموت جوادهم . . . إلا تركت جوادهم محسوراً

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" الرفق في المعيشة خير من نض التجارة " .

وأخرج ابن عدي والبيهقي ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من فقه الرجل أن يصلح معيشته " قال : " وليس من حبك الدنيا طلب ما يصلحك " .

وأخرج ابن عدي والبيهقي ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من فقهك رفقك في معيشتك " .

(237/454)

وأخرج البيهقي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الإقتصاد في التفقه نصف المعيشة " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبيهقي ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله عليه وسلم : " ما عال من اقتصد " .

وأخرج ابن عدي والبيهقي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما عال مقتصد قط " .

وأخرج البيهقي ، عن عبد الله بن شبيب رضي الله عنه قال : يقال حسن التدبير مع العفاف خير من الغنى مع الإسراف .

وأخرج البيهقي ، عن مطرف رضي الله عنه قال : خير الأمور أوسطها .

وأخرج الديلمي ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " التدبير نصف المعيشة ، والتودّد نصف العقل ، والهم نصف الهرم ، وقلة العيال أحد

اليسارين " .

وأخرج أحمد في الزهد ، عن يونس بن عبيد رضي الله عنه قال : كان يقال : التودّد إلى الناس نصف العقل ، وحسن المسألة نصف العلم ، والاقتصاد في المعيشة يلقي عنك نصف المؤنة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد رضي الله عنه قال : ثم أخبرنا كيف يصنع بنا فقال : ﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ ثم أخبر عباده أنه لا يرزؤه ولا يؤوده أن لو بسط الرزق عليهم ، ولكن نظراً لهم منه فقال تبارك وتعالى ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾ قال : والعرب إذا كان الخصب وبسط عليهم أسروا وقتل بعضهم بعضاً ! وجاء الفساد وإذا كان السنة شغلوا عن ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ قال : ينظر له ، فإن كان الغنى خيراً له اغناه ، وإن كان الفقر خيراً له أفقره .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ قال : يبسط لهذا مكراً به ، ويقدر لهذا نظراً له .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن زيد قال : كل شيء في القرآن يقدر فمعناه يقلل . انتهى ا . هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(238/454)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُبَذِّرْ ﴾ : التَّبْذِيرُ : التفريق ومنه : البَذْرُ " لأنه يُفَرّق في الأرض للزراعة . قال :

3054- ترائبُ يَسْتَضِيءُ الحَلْيُ فيها . . . كجَمْرِ النارِ بُذِّرَ بالظَّلامِ

ثم غَلَبَ في الإِسرافِ في النفقةِ .

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (28) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ابتغآء رَحْمَةٍ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مفعولاً من أجله ، ناصبُه " تُعْرِضَنَّ " وهو مِنْ وَضْعِ المُسَبَّب موضعَ السببِ ، وذلك أن الأصل : وإمَّا تُعْرِضَنَّ عنهم لإِعسارِك .

وجعله الزمخشريُّ منصوباً بجوابِ الشرطِ ، أي : فقل لهم قولاً سهلاً ابتغاء رحمةٍ . وردَّ

عليه الشيخ : بأنَّ ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها نحو : " إن يَقُمْ زيدٌ عمراً فاضرِبْ " فإنْ حَذَفْتَ الفاءَ جاز عند سيبويهِ والكسائي نحو : " إنْ يَقُمْ زيدٌ عمرا يَضْرِبْ " . فإن كان الاسمُ مرفوعاً نحو " إن تَقُمْ زيدٌ يَقُمْ " جاز ذلك عند سيبويهِ على أنَّه مرفوعٌ بفعلٍ مقدرٍ يُفَسِّره الظاهرُ بعده ، أي : إنْ تَقُمْ يَقُمْ زيدٌ يقمْ . ومنع مِنْ ذلك الفراءُ وشيخُه .

وفي الردّ نظرٌ ؛ لأنه قد ثبت ذلك ، لقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ [الضحى : 9] الآية . لأنَّ " اليتيمَ " وما بعده منصوبان بما بعدَ فاءِ الجواب .

الثاني : أنه موضعِ الحالِ مِنْ فاعلِ " تُعْرِضَنَّ " .

قوله : " من ربِّك " يجوز أن يكونَ/ صفةً ل " رحمةٍ " ، وأَنْ يكونَ متعلِّقاً ب " تَرْجُوها " ، أي : تَرْجُوها مِنْ جهةِ ربِّك ، على المجاز .

قوله : " تَرْجُوها " يجوز أن يكونَ حالاً مِنْ فاعلِ " تُعْرِضَنَّ " ، وأَنْ يكونَ صفةً ل " رحمةٍ " .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29) ﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلَّ البسط ﴾ : نصبٌ على المصدر لإضافتِها إليه . و " فَتَقْعُدَ " نصبُه على جواب النهي . و " مَلُوماً " : إمَّا حالٌ ، وإمَّا خبرٌ ، كما تقدَّم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 344.346 ﴾

(240/454)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الكل)

الكُلّ اسم لجميع الأَجزاءِ ، يستوى فيه الذكر والأُنثى ، وقد يقال كلّ رجل وكُلَّة امرأَة .

وقد جاءَ كُلّ بمعنى بعض ، فهو من الأَضداد ، ولا يدخلهما (أَلْ) فى فصيح الكلام .

وجمع كُلّ لأَجزاءِ الشىءِ على ضربين : أَحدهما : الجامع لذات الشىءِ وأَحواله المختصّة به ، ويفيد معنى التمام ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ ؛ والثانى : الجامع للذوات .

وقيل : كلٌّ لاستغراق أَفراد المنكَّر ، نحو : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ ؛ ولاستغراق المعرّف المجموع ، نحو : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ؛ ولاستغراق أَجزاءِ المفرد المعَرَّف ،

نحو : كُلّ زيد حسن .

فإذا قلت : أَكلت كلّ رغيف لزيد كانت لعموم الأَفراد .

فإن أَضفت الرّغيف إلى زيد صارت لعموم أَجزاءِ فرد واحد ، ومن هنا وجب فى قراءَة غير أَبى عمرو وابن ذَكْوان : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ بترك تنوين قلب ثم تقدير كلّ بعد (قلب) ليعمّ أَفراد القلوب ، كما عمّ كلّ أَجزاءِ القلب .

وترد كُلَّ باعتبار كلّ واحد ممّا قبلها وما بعدها على ثلاثة أَوجه :

فأَمّا أَوجهها باعتبار ما قبلها :

فأَحدها : أَن يكون نعتاً لنكرة أَو معرفة ، فيدلّ على كماله ؛ ويجب إِضافته إِلى اسم ظاهر يماثله لفظاً ومعنى ، نحو : أَطعمنا شاة كُلَّ شاة ، وقوله :

*وإِن الذى حانت بفَلْج دماؤُهم * هم القومُ كلّ القوم يا أُمَّ خالد *

والثانى : أَن يكون توكيدًا لمعرفة ، وفائدته العموم ، ويجب إِضافتها إِلى اسم مضمر راجع إِلى المؤَكَّد ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ ﴾ وقد يخلفه الظاهر ، كقوله :

*كم قد ذكرتكِ لو أُجزَى بذكركم * يا أَشبه الناس كلِّ الناس بالقمر*

وأَجاز الفراءُ والزمخشرىّ أَن تقطع كلّ المؤَكّد بها عن الإِضافة لفظاً ؛ تمسّكاً بقراءَة بعضهم : ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ .

والثالث : أَلاَّ تكون تابعة بل تالية للعوامل ، فتقع مضافة إِلى الظاهر ، نحو : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ ؛ وغير مضافة نحو : ﴿ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ ﴾ .

وأَمَّا أَوجهها باعتبار ما بعدها فثلاثة :

الأَول : أَن تضاف إِلى ظاهر ؛ وحكمها أَن يعمل فيها جميع العوامل نحو : أَكرمت كلّ بنى تميم .

الثانى : أَن تضاف إِلى ضمير محذوف .

ومقتضى كلام النحويين أَن حكمها كالتى قبلها ؛ ومقتضى كلام ابن جِنِّى خلافه ، وأَنها لا يسبقها عامل فى اللَّفظ .

الثالث : أَن تضاف إِلى ضمير ملفوظ به .

وحكمها أَلاَّ يعمل فيها غالباً إِلاَّ الابتداء ، نحو : ﴿ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ فى مَنْ رفع كلاًّ ، ونحو : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ ﴾ ، لأَن الابتداء عامل معنوىّ .

ومن القليل قول الشاعر :

* فيصدر عنها كُلُّهَا وهو ناهل *

واعلم أَن معنى كلّ بحسب ما يضاف إليه ، فإن كانت مضافة إلى نكرة وجب مراعاة معناها ، فلذلك جاءَ الضمير مفردًا مذكَّرا فى نحو قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ ، ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ ﴾ ، وقول أَبى بكر وكعب ولَبيد :

*كلُّ امرِئٍ مُصَبّح فى أَهْلِه * والموْت أَدْنى من شِرَاكِ نَعْلِه*

* * *كلّ ابن أُنْثى وإِنْ طالت سلامَتُه * يومًا على آلةٍ حَدْباءَ مَحْمُول*

* * *أَلاَ كلّ شىءٍ ما خلا الله بَاطِل * وكُلُّ نَعِيم لا محالَةَ زائلُ*

وقال السموءَل بن عادياء :

*إِذا المرءُ لم يَدْنَس من اللُّؤم عِرضُه * فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلُ*

وإِن كانت مضافة إلى معرفة فقالوا : يجوز مراعاة لفظها ، ومراعاة معناها ، نحو : كلّهم قائمون أَو قائم .

وقد اجتمعا فى قوله تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَانِ عَبْداً * لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً ﴾ .

قال ابن هشام : الصواب أَن الضمير لا يعود إِليها من خبرها إِلاَّ مفردًا مذكرًا على لفظها ،

نحو :

﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ ﴾ الآية .

وقوله تعالى فيما يرويه عنه نبيّه صلّى الله عليه وسلم : "يا عبادى / كلكم جائع إلاّ من أَطعمته" الحديث بطوله ، وقوله صلى الله عليه وسلم : "كُلُّ الناس يَغْدُو فبائع نفسه فمعتقها أَو موبقها" ، "كلكم راعٍ وكُلكم مسئول عن رعيّته" ، "وكُلُّنا لك عَبْد" ، ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَائِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ .

وإِن قُطِعت عن الإِضافة لفظاً فالمقدّر قد يكون مفردًا نكرةً فيجب الإِفراد ، ويكون جمعاً معرّفاً فيجب الجمع ؛ تنبيهاً على حال المحذوف فيهما .

فالأَول نحو : ﴿ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ ، ﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ ، ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ ، إِذ التقدير كلّ أَحد .

والثانى : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ ، ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ، ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ ، ﴿ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ .

وقال البيانيّون : إِذا وقعت كلٌّ فى حيّز النفى كان النفى موجّهاً إِلى إِلى الشمول خاصّة ، وأَفاد مفهومُه ثبوتَ الفعل لبعض الأَفراد ؛ كقولك : ما جاءَ كلّ القوم ، ولم آخذ كلَّ الدراهم ، وكُلُّ الدّراهم لم آخذ ،

وقوله :

* ما كلّ رأْيِ الفتى يدعو إِلى رشد *

وقوله : * ما كلّ ما يتمنى المرءُ يدركه *

وإِن وقع النفى فى حيّزها اقتضى السّلب عن كل فرد ، كقوله صلى الله عليه وسلم لما قال له ذو اليدين : أَنسيت أَم قَصُرت الصلاة : "كلُّ ذلك لم يكن" .

ومنه قول أَبى النجم :

*قد أَصبحت أَمّ الخيار تدَّعِى * علىّ ذنباً كلُّه لم أَصنع*

(243/454)

وأَمّا كُلّ فى نحو : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ ﴾ [فهى] منصوبة على الظَّرفيّة بالاتِّفاق ، وناصبها الفعل الذى هو جواب فى المعنى ، مثل (قالوا) فى الآية ، وجاءَته المصدريّة من جهة (ما) ، فإِنها إِمّا أَن تكون اسما نكرة بمعنى وقت ، أَو تكون حرفاً مصدريًّا والجملة بعده صلة ؛ والأَصل : كل وقت رزْق ، ثم عُبّر عن معنى المصدر بما . والله أَعلم .

والكلالة : الرجل لا والد له ولا ولد .

وقيل : ما لم يكن من النسب لَحًا ، وقيل : الوراثة كلهم سوى الوالدين والأَولاد .

وقيل : من تكلَّل نسبُه بنسبك ، كابن العمّ وشبهه .

وقيل : هى الإِخوة للأُمّ .

وقيل : هى من العَصَبة مَن ورث معه الإِخوة للأُمّ .

وقيل : هم بنو العمّ الأَباعد .

وقال ابن عباس : هى اسم لما عدا الوالد .

ورُوى أَن النبىّ صلى الله عليه وسلَّم سئل عن الكلالة فقال : "من مات وليس له ولَد ولا والد" ، فجعله اسم الميّت ، وهو صحيح أَيضاً ؛ فإِن الكلالة مصدر يجمع الوارث والموروث جميعاً .

وقيل : اسم لكلّ وارث . . والإِكليل : شِبه التاج ، سمّى لإِطافته بالرأْس .

والكَلْكل والكَلْكَال : الصّدر .

وقيل : ما بين التَرْقُوتَين .

وقيل : باطِن الزَوْر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 369 . 374 ﴾

(244/454)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) ﴾

إيتاءُ الحقِّ يكون من المال ومن النَّفْس ومن القول ومن الفعل ، ومَنْ نَزَل على اقتضاء حقِّه ، وبذل الكُلَّ لأجل ما طالبه به من حقوق . فهو القائم بما ألزمه الحقُّ سبحانه بأمره .

والتبذيرُ مجاوزةُ الحدِّ عمَّا قدَّره الأمرُ والإذنُ . وما يكون لحظِّ النَّفْسِ – وإن كان سمسمة – فهو تبذيرٌ ، وما كان له – وإن كان الوفاءَ بالنَّفْس – فهو تقصيرٌ .

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27) ﴾

إنما كانوا إخوانَ الشياطين لأنهم أنفقوا على هواهم ، وجَرَوْا في طريقهم على دواعي الشياطين ووساوسهم ، ولمَّا أفضى بهم ذلك إلى المعاصي فقد دعاهم إخوانَ الشياطين .

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (28) ﴾

إن لم يُساعِدْكَ الإمكانُ على ما طالبوكَ من الإحسان فاصرِفْهم عنكَ بوعدٍ جميلٍ إن لم تُسْعِفهم بنقدٍ جزيل . . وإنَّ وَعْدَ الكرام أَهْنأُ من نقد اللئام .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29) ﴾

لا تُمْسِكْ عن الإعطاء فَتُكْدِي ، ولا تُسرِفْ في البذلِ بكثرة ما تُسْدِي ، واسْلُكْ بين

الأمرين طريقاً وَسَطاً .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (30) ﴾

إذا بَسَطَ لا تَبْقَى فاقة ، وإذ قبض استنفد كلَّ طاقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 344 . 345 ﴾

(245/454)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والخمسون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/455)

الجزء الخامس والخمسون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 31 ﴾ من سورة الإسراء

وحتى الآية ﴿ 36 ﴾ من نفس السورة

(4/455)

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (33) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أتم سبحانه ما أراد من الوصية بالأصول وما تبع ذلك ، وختمه بما قرر من أن قبض الرزق وبسطه منه من غير أن ينفع في ذلك حيلة ، أوصاهم بالفروع ، لكونهم في غاية الضعف وكانوا يقتلون بناتهم خوف الفقر ، وكان اسم البنت قد صار عندهم لطول ما استهجنوه موجباً للقسوة ، فقال في النهي عن ذلك مواجهاً لهم ، إعلاماً ببعده صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن هذا الخلق قبل الإسلام وبعده : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم ﴾ معبراً بلفظ الولد هو داعية إلى الحنو والعطف ﴿ خشية إملاق ﴾ أي فقر متوقع لم يقع بعد ؛ ثم وصل بذلك استئنافاً قوله : ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ مقدماً ضمير الأولاد لكون الإملاق مترقباً من الإنفاق عليهم غير حاصل في حال القتل ، بخلاف آية الأنعام فإن سياقها يدل على أن الإملاق حاصل عند القتل ، والقتل للعجز عن الإنفاق ، ثم علل ذلك بما هو أعم منه فقال تعالى : ﴿ إن قتلهم ﴾ أي مطلقاً لهذا أو غيره ﴿ كان خطأً ﴾ أي إثماً ﴿ كبيراً ﴾ قال الرماني : والخطأ - أي بكسر ثم سكون - لا يكون إلا تعمداً إلى خلاف الصواب ، والخطأ - أي محركاً - قد يكون من غير تعمد .

(5/455)

ولما كان في قتل الأولاد حظ من البخل ، وفي فعل الزنا داعٍ من الإسراف ، أتبعه به فقال تعالى : ﴿ ولا تقربوا ﴾ أي أدنى قرب بفعل شيء من مقدماته ولو بإخطاره بالخاطر ﴿ الزنى ﴾ مع أن السبب الغالب في فعل النساء له الحاجة وطلب التزيد ، وفيه معنى قتل الولد بتضييع نسبه ، وفيه تسبب في إيجاد نفس الباطل ، كما أن القتل تسبب في إعدامها بالباطل ، وعبر بالقربان تعظيماً له لما فيه من المفاسد الجارّة إلى الفتن بالقتل وغيره ؛ ثم علله بقوله مؤكداً إبلاغاً في التنفير عنه لما للنفس من شدة الداعية إليه : ﴿ إنه كان ﴾ أي كوناً لا ينفك عنه ﴿ فاحشة ﴾ أي زائدة القبح ، وقد نهاكم عن الفحشاء في آية العدل والإحسان ﴿ وساء ﴾ الزنا ﴿ سبيلاً ﴾ أي ما أسوأه من طريق ! والتعبير عنه بالسبيل يدل على كثرة متعاطيه بالدلالة على سعة منهجه .

(6/455)

ولما أتم النهي عن هذين الأمرين المتحدين في وصف الفحش وفي السبب على تقدير ، وفي إهلاك الولد بالقتل وما في معناه ، أتبعهما مطلق القتل الذي من أسبابه تحصيل المال فقال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا النفس ﴾ أي بسبب ما جعل خالقها لها من النفاسة ﴿ التي حرم الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الأمر كله بالإسلام أو العهد ﴿ إلا بالحق ﴾ أي بأمر يحل

الله به تلك الحرمة التي كانت ، فصارت الأسباب المنهي عنها بتحريم مسبباتها منع الموجود بخلاً ثم بذله إسرافاً ثم تحصيل المفقود بغياً ؛ ثم عطف على ما أفهم السياق تقديره وهو : فمن قتل نفساً بغير حق فقد عصى الله ورسوله ﴿ ومن قتل ﴾ أي وقع قتله من أيّ قاتل كان ﴿ مظلوماً ﴾ أي بأيّ ظلم كان ، من غير أن يرتكب إحدى ثلاث : الكفر ، والزنا بعد الإحصان ، وقتل المؤمن عمداً ، عدواناً ﴿ فقد جعلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ لوليه ﴾ أي سواء كان قريباً أو سلطاناً ﴿ سلطاناً ﴾ أي أمراً متسلطاً ﴿ فلا يسرف ﴾ الولي ، أو فلا تسرف أيها الولي ﴿ في القتل ﴾ بقتل غير القاتل ، ولا يزد على حقه بوجه ﴿ إنه ﴾ أي القتيل ﴿ كان منصوراً ﴾ في الدنيا بما جبل الله في الطباع من فحش القتل ، وكراهة كل أحد له ، وبغض القاتل والنفرة منه ، والأخذ على يده ، وفي الآخرة بأخذ حقه منه من غير ظلم ولا غفلة ، فمن وثق بذلك ترك الإسراف ، فإنه لخوف الفوت أو للتخويف من العود . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 377.379 ﴾

(7/455)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31)
﴾

هذا هو النوع الخامس من الطاعات المذكورة في هذه الآيات وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في تقرير النظم وجوه :

الوجه الأول : أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أنه هو المتكفل بأرزاق العباد حيث قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ [الإسراء : 30] أتبعه بقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إملاق نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ .

الوجه الثاني : أنه تعالى لما علم كيفية البر بالوالدين في الآية المتقدمة علم في هذه الآية كيفية البر بالأولاد ، ولهذا قال بعضهم : إن الذين يسمون بالأبرار إنما سموا بذلك لأنهم بروا الآباء والأبناء وإنما وجب بر الآباء مكافأة على ما صدر منهما من أنواع البر بالأولاد .

وإنما وجب البر بالأولاد لأنهم في غاية الضعف ولا كافل لهم غير الوالدين .

الوجه الثالث : أن امتناع الأولاد من البر بالآباء يوجب خراب العالم ، لأن الآباء إذا علموا ذلك قلت رغبتهم في تربية الأولاد ، فيلزم خراب العالم من الوجه الذي قررناه ، فثبت أن عمارة العالم إنما تحصل إذا حصلت المبرة بين الآباء والأولاد من الجانبين .

الوجه الرابع : أن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو سوء ظن بالله ، وإن كان لأجل الغيرة

على البنات فهو سعي في تخريب العالم، فالأول ضد التعظيم لأمر الله تعالى، والثاني: ضد الشفقة على خلق الله تعالى وكلاهما مذموم، والله أعلم.

الوجه الخامس: أن قرابة الأولاد قرابة الجزئية والبعضية، وهي من أعظم الموجبات للمحبة.

فلو لم تحصل المحبة دل ذلك على غلظ شديد في الروح، وقسوة في القلب، وذلك من أعظم الأخلاق الذميمة، فرغب الله في الإحسان إلى الأولاد إزالة لهذه الخصلة الذميمة.

المسألة الثانية:

(8/455)

العرب كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب، وقدرة البنين عليه بسبب إقدامهم على النهب والغارة، وأيضاً كانوا يخافون أن فقرها ينفر كفأها عن الرغبة فيها فيحتاجون إلى إنكاحها من غير الأكفاء، وفي ذلك عار شديد فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ﴾ وهذا لفظ عام للذكور والإناث، والمعنى: أن الموجب للرحمة والشفقة هو كونه ولداً، وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور وبين الإناث.

وأما ما يخاف من الفقر من البنات فقد يخاف مثله في الذكور في حال الصغر، وقد يخاف

أيضاً في العاجزين من البنين .

ثم قال تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ يعني الأرزاق بيد الله تعالى فكما أنه تعالى فتح أبواب الرزق على الرجال ، فكذلك يفتح أبواب الرزق على النساء .

المسألة الثالثة :

الجمهور قرؤا ﴿ إن قتلهم كان خطأ كبيراً ﴾ ، أي إثماً كبيراً يقال خطىء يخطأ خطأ مثل أثم يأثم إثماً قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا خاطئين ﴾ [يوسف : 97] أي آثمين ، وقرأ ابن عامر (خطأ) بالفتح يقال : أخطأ يخطىء إخطاء وخطأ إذا أتى بما لا ينبغي من غير قصد ، ويكون الخطأ اسماً للمصدر ، والمعنى : على هذه القراءة أن قتلهم ليس بصواب .

قال القفال رحمه الله ، وقرأ ابن كثير : ﴿ خطاء ﴾ بكسر الخاء ممدودة ولعلهما لغتان مثل دفع ودفاع ولبس ولباس .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) ﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر بالأشياء الخمسة التي تقدم ذكرها ، وحاصلها يرجع إلى شيئين : التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، أتبعها بذكر النهي عن أشياء .

أولها : أنه تعالى نهى عن الزنا فقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزنا ﴾ قال القفال : إذا قيل للإنسان لا تقربوا هذا فهذا آكد من أن يقول له لا تفعله ثم إنه تعالى علل هذا النهي بكونه : ﴿ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً ﴾ .

واعلم أن الناس قد اختلفوا في أنه تعالى إذا أمر بشيء أو نهى عن شيء فهل يصح أن يقال إنه تعالى إنما أمر بذلك الشيء أو نهى عنه لوجه عائد إليه أم لا ؟ فقال القائلون بتحسين العقل وتقبيحه الأمر كذلك .

وقال المنكرون : لتحسين العقل وتقبيحه ليس الأمر كذلك ، احتج القائلون بتحسين العقل وتقبيحه على صحة قولهم بهذه الآية قالوا إنه تعالى نهى عن الزنا ، وعلل ذلك النهي بكونه فاحشة فيمتنع أن يكون كونه فاحشة عبارة عن كونه منهيا ًعنه .

وإلا لزم تعليل الشيء بنفسه وهو محال ، فوجب أن يقال : كونه فاحشة وصف حاصل له باعتبار كونه زنا ، وذلك يدل على أن الأشياء تحسن وتقبح لوجوه عائدة إليها في أنفسها ، ويدل أيضاً على أن نهي الله تعالى عنها معلل بوقوعها في أنفسها على تلك الوجوه ، وهذا الاستدلال قريب ، والأولى أن يقال : إن كون الشيء في نفسه مصلحة أو مفسدة أمر ثابت لذاته لا بالشرع ، فإن تناول الغذاء الموافق مصلحة ، والضرب المؤلم مفسدة ، وكونه كذلك أمر ثابت بالعقل لا بالشرع .

وإذا ثبت هذا فنقول : تكاليف الله تعالى واقعة على وفق مصالح العالم في المعاش والمعاد

فهذا هو الكلام الظاهري ، وفيه مشكلات هائلة ومباحث عميقة نسأل الله التوفيق لبلوغ الغاية فيها .

إذا عرفت هذا فنقول : الزنا اشتمل على أنواع من المفاسد : أولها : اختلاط الأنساب واشتباهها فلا يعرف الإنسان أن الولد الذي أتت به الزانية أهو منه أو من غيره ، فلا يقوم بتربيته ولا يستمر في تعهده ، وذلك يوجب ضياع الأولاد ، وذلك يوجب انقطاع النسل وخراب العالم.

وثانيها : أنه إذا لم يوجد سبب شرعي لأجله يكون هذا الرجل أولى بهذه المرأة من غيره لم يبق في حصول ذلك الاختصاص إلا التواثب والتقاتل ، وذلك يفضي إلى فتح باب الهرج والمرج والمقاتلة ، وكم سمعنا وقوع القتل الذريع بسبب إقدام المرأة الواحدة على الزنا .

(10/455)

وثالثها : أن المرأة إذا باشرت الزنا وتمرنت عليه يستقذرها كل طبع سليم ، وكل خاطر مستقيم ، وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة ولا يتم السكن والإزدواج ، ولذلك فإن المرأة إذا اشتهرت بالزنا تنفر عن مقارنتها طباع أكثر الخلق .

ورابعها : أنه إذا انفتح باب الزنا فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة ، وكل رجل يمكنه

التواثب على كل امرأة شاءت وأرادت .

وحينئذ لا يبقى بين نوع الإنسان وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب .

وخامسها : أنه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة بل أن تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل وإعداد مهماته من المطعوم والمشروب والملبوس ، وأن تكون ربة البيت وحافظة للباب وأن تكون قائمة بأمور الأولاد والعبيد ، وهذه المهمات لا تتم إلا إذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد منقطعة الطمع عن سائر الرجال ، وذلك لا يحصل إلا بتحريم الزنا وسد هذا الباب بالكلية .

وسادسها : أن الوطء يوجب الذل الشديد ، والدليل عليه أن أعظم أنواع الشتم عند الناس ذكر ألفاظ الوقاع ، ولولا أن الوطء يوجب الذل ، وإلا لما كان الأمر كذلك ، وأيضاً فإن جميع العقلاء لا يقدمون على الوطء إلا في المواضع المستورة ، وفي الأوقات التي لا يطلع عليهم أحد ، وأن جميع العقلاء يستنكفون عن ذكر أزواج بناتهم وأخواتهم وأمهاتهم لما يقدمون على وطئهن ، ولولا أن الوطء ذل ، وإلا لما كان كذلك .

وإذا ثبت هذا فنقول : لما كان الوطء ذلاً كان السعي في تقليله موافقاً للعقول ، فاقتصار المرأة الواحدة على الرجل الواحد سعي في تقليل ذلك العمل ، وأيضاً ما فيه من الذل يصير مجبوراً بالمنافع الحاصلة في النكاح ، أما الزنا فإنه فتح باب لذلك العمل القبيح ولم يصر مجبوراً

بشيء من المنافع فوجب بقاؤه على أصل المنع والحجر ، فثبت بما ذكرنا أن العقول السليمة تقضي على الزنا بالقبح .

(11/455)

وإذا ثبت هذا فنقول : إنه تعالى وصف الزنا بصفات ثلاثة كونه فاحشة ، ومقتاً في آية أخرى : ﴿ وَسَاء سَبِيلاً ﴾ أما كونه فاحشة فهو إشارة إلى اشتماله على فساد الأنساب الموجبة لخراب العالم وإلى اشتماله على التقاتل والتواثب على الفروج وهو أيضاً يوجب خراب العالم .

وأما المقت : فقد ذكرنا أن الزانية تصير ممقوتة مكروهة ، وذلك يوجب عدم حصول السكن والازدواج وأن لا يعتمد الإنسان عليها في شيء من مهماته ومصالحه .

وأما أنه ساء سبيلاً ، فهو ما ذكرنا أنه لا يبقى فرق بين الإنسان وبين البهائم في عدم اختصاص الذكران بالإناث ، وأيضاً يبقى ذل هذا العمل وعيبه وعاره على المرأة من غير أن يصير مجبوراً بشيء من المنافع ، فقد ذكرنا في قبح الزنا ستة أوجه ؛ والله تعالى ذكر ألفاظاً ثلاثة ، فحملنا كل واحد من هذه الألفاظ الثلاثة على وجهين من تلك الوجوه الستة ، والله أعلم بمراده .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

هذا هو النوع الثاني مما نهى الله عنه في هذه الآية ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

لقائل أن يقول : إن أكبر الكبائر بعد الكفر بالله القتل ، فما السبب في أن الله تعالى بدأ أولاً بذكر النهي عن الزنا وثانياً بذكر النهي عن القتل .

وجوابه : أنا بينا أن فتح باب الزنا يمنع من دخول الإنسان في الوجود ، والقتل عبارة عن إبطال الإنسان بعد دخوله في الوجود .

ودخوله في الوجود مقدم على إبطاله وإعدامه بعد وجوده ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى الزنا أولاً ثم ذكر القتل ثانياً .

المسألة الثانية :

اعلم أن الأصل في القتل هو الحرمة المغلظة ، والحل إنما يثبت بسبب عارضي ، فلما كان الأمر كذلك لا جرم نهى الله عن القتل مطلقاً بناء على حكم الأصل ، ثم استثنى عنه الحالة التي يحصل فيها حل القتل وهو عند حصول الأسباب العرضية فقال : ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ /

فنفتقر ههنا إلى بيان أن الأصل في القتل التحريم ، والذي يدل عليه وجوه : الأول : أن القتل ضرر والأصل في المضار الحرمة لقوله : ﴿ مَّا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : 78] ﴿ ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة : 185] " ولا ضرر ولا ضرار " .

الثاني : قوله عليه السلام : " الآدمي بنيان الرب ملعون من هدم بنيان الرب " الثالث : أن الآدمي خلق للاشتغال بالعبادة لقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] ولقوله عليه السلام : " حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً " والاشتغال بالعبادة لا يتم إلا عند عدم القتل .

الرابع : أن القتل إفساد فوجب أن يحرم لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ ﴾ [الأعراف : 85] .

الخامس : أنه إذا تعارض دليل تحريم القتل ودليل إباحته فقد أجمعوا على أن جانب الحرمة راجح ، ولولا أن مقتضى الأصل هو التحريم وإلا لكان ذلك ترجيحاً لا لمرجح وهو محال .

السادس : أنا إذا لم نعرف في الإنسان صفة من الصفات إلا مجرد كونه إنساناً عاقلاً حكمنا فيه بتحريم قتله ، وما لم نعرف شيئاً زائداً على كونه إنساناً لم نحكم فيه بحل دمه ، ولولا أن أصل الإنسانية يقتضي حرمة القتل ، وإلا لما كان كذلك فثبت بهذه الوجوه أن الأصل في القتل هو التحريم .

وأن حله لا يثبت إلا بأسباب عرضية .

وإذا ثبت هذا فنقول : إنه تعالى حكم بأن الأصل في القتل هو التحريم فقال : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التى حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق ﴾ فقوله : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ ﴾ نهي وتحريم ، وقوله : ﴿ حَرَّمَ الله ﴾ إعادة لذكر التحريم على سبيل التأكيد ، ثم استثنى عنه الأسباب العرضية الاتفاقية فقال : ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ ثم ههنا طريقان :

الطريق الأول : أن مجرد قوله : ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ مجمل لأنه ليس فيه بيان أن ذلك الحق ما هو وكيف هو ؟ ثم إنه تعالى قال : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيّهِ سلطانا ﴾ أي في استيفاء القصاص من القاتل ، وهذا الكلام يصلح جعله بياناً لذلك المجمل ، وتقريره كأنه تعالى قال : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التى حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق ﴾ وذلك الحق هو أن من قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً في استيفاء القصاص .

وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الحق هذه الصورة فقط ، فصار تقدير الآية : ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا عند القصاص ، وعلى هذا التقدير فتكون الآية نصاً صريحاً في تحريم القتل إلا بهذا السبب الواحد ، فوجب أن يبقى على الحرمة فيما سوى هذه الصورة الواحدة .

والطريق الثاني : أن نقول : دلت السنة على أن ذلك الحق هو أحد أمور ثلاثة : وهو قوله عليه السلام : "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق"

واعلم أن هذا الخبر من باب الآحاد .

(14/455)

فإن قلنا : إن قوله : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سلطانا ﴾ تفسير لقوله : ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ كانت الآية صريحة في أنه لا يحل القتل إلا بهذا السبب الواحد ، فحينئذ يصير هذا الخبر مخصصاً لهذه الآية ويصير ذلك فرعاً لقولنا : إنه يجوز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد ، وأما إن قلنا : إن قوله : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سلطانا ﴾ ليس تفسيراً لقوله : ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ فحينئذ يصير هذا الخبر مفسراً للحق المذكور في الآية ، وعلى هذا التقدير لا يصير هذا فرعاً على مسألة جواز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد .

فلتكن هذه الدقيقة معلومة ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

ظاهر هذه الآية أنه لا سبب لحل القتل إلا قتل المظلوم ، وظاهر الخبر يقتضي ضم شيئين آخرين إليه : وهو الكفر بعد الإيمان ، والزنا بعد الإحصان ، ودلت آية أخرى على حصول سبب رابع وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الذين يُحَارِبُونَ الله وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الأرض فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ﴾ [المائدة : 33] ودلت آية أخرى على حصول سبب خامس وهو الكفر .

قال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله وَلاَ باليوم الآخر ﴾ [التوبة : 29] وقال : ﴿ واقتلوهم حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [النساء : 89] والفقهاء تكلموا واختلفوا في أشياء أخرى فمنها : أن تارك الصلاة هل يقتل أم لا ؟ فعند الشافعي رحمه الله يقتل ، وعن أبي حنيفة رحمه الله لا يقتل .

وثانيها : أن فعل اللواط هل يوجب القتل ؟ فعند الشافعي يوجب ، وعند أبي حنيفة لا يوجب .

وثالثها : أن الساحر إذا قال : قتلت بسحري فلاناً فعند الشافعي يوجب القتل ، وعند أبي حنيفة لا يوجب .

ورابعها : أن القتل بالمثقل هل يوجب القصاص ؟ فعند الشافعي يوجب .

وعند أبي حنيفة لا يوجب .

وخامسها : أن الامتناع من أداء الزكاة هل يوجب القتل أم لا ؟ اختلفوا فيه في زمان أبي بكر .

(15/455)

وسادسها : أن إتيان البهيمة هل يوجب القتل ، فعند أكثر الفقهاء لا يوجب ، وعند قوم يوجب ، حجة القائلين بأنه لا يجوز القتل في هذه الصور هو أن الآية صريحة في منع القتل على الإطلاق ، إلا لسبب واحد وهو قتل المظلوم ، ففيما عدا هذا السبب الواحد ، وجب البقاء على أصل الحرمة ، ثم قالوا : وهذا النص قد تأكد بالدلائل الكثيرة الموجبة لحرمة الدم على الإطلاق ، فترك العمل بهذه الدلائل لا يكون إلا لمعارض ، وذلك المعارض إما أن يكون نصاً متواتراً أو نصاً من باب الآحاد أو يكون قياساً ، أما النص المتواتر فمفقود ، وإلا لما بقي الخلاف ، وأما النص من باب الآحاد فهو مرجوح بالنسبة إلى هذه النصوص المتواترة الكثيرة ، وأما القياس فلا يعارض النص .

فثبت بمقتضى هذا الأصل القوي القاهر أن الأصل في الدماء الحرمة إلا في الصور المعدودة ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سلطانا فَلاَ يُسْرِف ﴾ فيه بحثان :

البحث الأول : أن هذه الآية تدل على أنه أثبت لولي الدم سلطاناً ، فأما بيان أن هذه السلطنة تحصل فيما ذا فليس في قوله : ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سلطانا ﴾ دلالة عليه ثم ههنا طريقان : الأول : أنه تعالى لما قال بعده : ﴿ فَلاَ يُسْرِف فِي القتل ﴾ عرف أن تلك السلطنة إنما حصلت في استيفاء القتل ، وهذا ضعيف لاحتمال أن يكون المراد : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سلطانا ﴾ فلا ينبغي أن يسرف الظالم في ذلك القتل ، لأن ذلك المقتول منصور بواسطة إثبات هذه السلطنة لوليه .

(16/455)

والثاني : أن تلك السلطنة مجملة ثم صارت مفسرة بالآية والخبر ، أما الآية فقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص فِي القتلى ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فاتباع بالمعروف وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بإحسان ﴾ [البقرة : 178] وقد بينا في تفسير هذه الآية أنها تدل على أن الواجب هو كون المكلف مخيراً بين القصاص وبين الدية .

وأما الخبر فهو قوله عليه السلام يوم الفتح : " من قتل قتيلاً فأهله بين خيرتين إن أحبوا قتلوا

وإن أحبوا أخذوا الدية" وعلى هذا الطريق فقوله : ﴿ فَلَا يُسْرِف فِي الْقَتْلِ ﴾ معناه : أنه لما حصلت له سلطنة استيفاء القصاص إن شاء ، وسلطنة استيفاء الدية إن شاء .

قال بعده : ﴿ فَلَا يُسْرِف فِي الْقَتْلِ ﴾ معناه أن الأولى أن لا يقدم على استيفاء القتل وأن يكتفي بأخذ الدية أو يميل إلى العفو وبالجملة فلفظة "في" محمولة على الباء ، والمعنى : فلا يصير مسرفاً بسبب إقدامه على القتل ويصير معناه الترغيب في العفو والاكتفاء بالدية كما قال :

﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [البقرة : 237] .

البحث الثاني : أن في قوله : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ ذكر كونه مظلوماً بصيغة التنكير ، وصيغة التنكير على ما عرف تدل على الكمال ، فالإنسان المقتول ما لم يكن كاملاً في وصف المظلومية لم يدخل تحت هذا النص .

(17/455)

قال الشافعي رحمه الله : قد دللنا على أن المسلم إذا قتل الذمي لم يدخل تحت هذه الآية ، بدليل أن الذمي مشرك والمشرك يحل دمه ، إنما قلنا : إنه مشرك لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : 116] حكم بأن ما سوى

الشرك مغفور في حق البعض ، فلو كان كفر اليهودي والنصراني شيئاً مغايراً للشرك لوجب أن يصير مغفوراً في حق بعض الناس بمقتضى هذه الآية ، فلما لم يصر مغفوراً في حق أحد دل على أن كفرهم شرك ، ولأنه تعالى قال : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الذين قَالُواْ إِنَّ الله ثالث ثلاثة ﴾ [البقرة : 73] فهذا التثليث الذي قال به هؤلاء ، إما أن يكون تثليثاً في الصفات وهو باطل ، لأن ذلك هو الحق وهو مذهب أهل السنة والجماعة فلا يمكن جعله تثليثاً للكفر ، وإما أن يكون تثليثاً في الذوات ، وذلك هو الحق ولا شك أن القائل به مشرك ، فثبت أن الذمي مشرك ، وإنما قلنا : إن المشرك يجب قتله لقوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ [التوبة : 5] ومقتضى هذا الدليل إباحة دم الذمي فإن لم تثبت الإباحة فلا أقل من حصول شبهة الإباحة .

وإذا ثبت هذا فنقول : ثبت أنه ليس كاملاً في المظلومية فلم يندرج تحت قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيّهِ سلطانا ﴾ وأما الحر إذا قتل عبداً فهو داخل تحت هذه الآية إلا أنا بينا أن قوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص فِي القتلى الحر بالْحُرّ والعبد بالعبد ﴾ [البقرة : 178] يدل على المنع من قتل الحر بالعبد من وجوه كثيرة وتلك الآية أخص من قوله : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيّهِ سلطانا ﴾ والخاص مقدم على العام ، فثبت أن هذه الآية لا يجوز التمسك بها في مسألة أن موجب العمد هو القصاص ولا في مسألة أنه يجب قتل المسلم بالذمي ، ولا في مسألة أنه يجب قتل الحر بالعبد ، والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ فَلَا يُسْرِف فِي الْقَتْلِ ﴾ ففيه مباحث :

البحث الأول : فيه وجوه : الأول : المراد هو أن يقتل القاتل وغير القاتل ، وذلك لأن الواحد منهم إذا قتل واحداً من قبيلة شريفة فأولياء ذلك المقتول كانوا يقتلون خلقاً من القبيلة الدنيئة فنهى الله تعالى عنه وأمر بالاقتصار على قتل القاتل وحده .

الثاني : هو أن لا يرضى بقتل القاتل فإن أهل الجاهلية كانوا يقصدون أشراف قبيلة القاتل ثم كانوا يقتلون منهم قوماً معينين ويتركون القاتل .

والثالث : هو أن لا يكتفي بقتل القاتل بل يمثل به ويقطع أعضاؤه .

قال القفال : ولا يبعد حمله على الكل ، لأن جملة هذه المعاني مشتركة في كونها إسرافاً .

البحث الثاني : قرأ الأكثرون : ﴿ فَلَا يُسْرِف ﴾ بالياء وفيه وجهان : الأول : التقدير : فلا ينبغي أن يسرف الولي في القتل .

الثاني : أن الضمير للقاتل الظالم ابتداء ، أي فلا ينبغي أن يسرف ذلك الظالم وإسرافه عبارة عن إقدامه على ذلك القتل الظلم ، وقرأ حمزة والكسائي : ﴿ فَلا تسرف ﴾ بالتاء على الخطاب ، وهذه القراءة تحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون الخطاب للمبتدىء القاتل ظلماً

كأنه قيل له : لا تسرف أيها الإنسان ، وذلك الإسراف هو إقدامه على ذلك القتل الذي هو ظلم محض ، والمعنى : لا تفعل فإنك إن قتلته مظلوماً استوفى القصاص منك .

والآخر : أن يكون الخطاب للولي فيكون التقدير : لا تسرف في القتل أيها الولي ، أي اكتف باستيفاء القصاص ولا تطلب الزيادة .

وأما قوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ ففيه ثلاثة أوجه : الأول : كأنه قيل للظالم المبتدىء بذلك القتل على سبيل الظلم لا تفعل ذلك ، فإن ذلك المقتول يكون منصوراً في الدنيا والآخرة ، أما نصرته في الدنيا فبقتل قاتله ، وأما في الآخرة فبكثرة الثواب له وكثرة العقاب لقاتله .

(19/455)

والقول الثاني : أن هذا الولي يكون منصوراً في قتل ذلك القاتل الظالم فليكتف بهذا القدر فإنه يكون منصوراً فيه ولا ينبغي أن يطمع في الزيادة منه ، لأن من يكون منصوراً من عند الله يحرم عليه طلب الزيادة .

والقول الثالث : أن هذا القاتل الظالم ينبغي أن يكتفي باستيفاء القصاص وأن لا يطلب الزيادة .

واعلم أن على القول الأول والثاني ظهر أن المقتول وولي دمه يكونان منصورين من عند الله

تعالى وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قلت لعلي بن أبي طالب عليه السلام وأيم الله ليظهرن عليكم ابن أبي سفيان ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سلطانا ﴾ وقال الحسن : والله ما نصر معاوية على علي عليه السلام إلا بقول الله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سلطانا ﴾ ، والله أعلم . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 157.163 ﴾

(20/455)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ ﴾

يعني وأد البنات أحياء خيفة الفقر .

﴿ نحن نرزقهم وإياكم إنّ قتلهم كان خطئاً كبيرا ﴾

والخِطءُ العدول عن الصواب بعمد ، والخطأ العدول عنه بسهو ، فهذا الفرق بين الخِطْءِ والخطأ ، وقد قال الشاعر :

الخِطْءُ فاحشةٌ والبِرُّ نافِلةٌ . . . كعَجْوةٍ غرسَتْ في الأرض تؤتَبرُ

الثاني : أن الخطء ما كان إثماً ، والخطأ ما لا إثم فيه ، وقرأ الحسن خطاء بالمد .

قوله عز وجل : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحق ﴾ يعني إلا بما تستحق به القتل .

﴿ ومَن قُتِل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه القود ، قاله قتادة .

الثاني : أنه الخيار بين القود أو الدية أو العفو ، وهذا قول ابن عباس والضحاك .

الثالث : فقد جعلنا لوليه سلطاناً ينصره وينصفه في حقه .

﴿ فلا يُسْرِف في القَتل ﴾ فيه قولان :

أحدهما : فلا يسرف القاتل الأول في القتل تعدياً وظلماً ، إن وليّ المقتول كان منصوراً ، قاله مجاهد .

الثاني : فلا يسرف وليّ المقتول في القتل .

وفي إسرافه أربعة أوجه :

أحدها : أن يقتل غير قاتله ، وهذا قول طلق بن حبيب .

الثاني : أن يمثل إذا اقتص ، قاله ابن عباس .

الثالث : أن يقتل بعد أخذ الدية ، قاله يحيى .

الرابع : أن يقتل جماعة بواحد ، قاله سعيد بن جبير وداود .

﴿ إنه كان منصوراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الولي كان منصوراً بتمكينة من القود ، قاله قتادة . الثاني : أن المقتول كان منصوراً بقتل قاتله ، قاله مجاهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(21/455)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

قرا الأعمش وابن وثاب " ولا تقتّلوا " بتضعيف الفعل ، وهذه الآية نهي عن الوأد الذي كانت العرب تفعله ، وهو قوله تعالى : ﴿ وإذا الموءودة سئلت ﴾ [التكوير : 8] ، ويقال كان جهلهم يبلغ أن يغدو أحدهم كلبه ويقتل ولده ، و﴿ خشية ﴾ نصب على المفعول من أجله ، و" الإملاق " الفقر وعدم الملك ، أملق الرجل لم يبق له إلا الملقات وهي الحجارة العظام الملس السود ، وقرأ الجمهور " خِطْئاً " بكسر الخاء وسكون الطاء وبالهمز والقصر ، وقرأ ابن عامر " خطئاً " بفتح الخاء والطاء والهمزة مقصورة ، وهي قراءة أبي جعفر ، وهاتان قراءتان مأخوذتان من خطىء إذا أتى الذنب على عمد ، فهي كحذر وحذر ومثل ومثل وشبه وشبه اسم ومصدر ، ومنه قول الشاعر : [البسيط]

الخطء فاحشة والبر نافلة . . . كعجوة غرست في الأرض تؤتبر

قال الزجاج يقال خطىء الرجل يخطأ خطأً مثل أثم إثماً فهذا هو المصدر وخطأ اسم منه ، وقال بعض العلماء خطىء معناه واقع الذنب عامداً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ [الحاقة : 37] ، وأخطأ واقع الذنب عن غير تعمد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن نسينا أو أخطأنا ﴾ [البقرة : 286] ، وقال أبو علي الفارسي : وقد يقع هذا موضع هذا ، وهذا موضع هذا ، فأخطأ بمعنى تعمد في قول الشاعر : [الوافر]

عبادك يخطئون وأنت رب . . . كريم لا يليق بك الذموم

وخطىء بمعنى لم يتعمد في قول الآخر : [الكامل]

والناس يلحون الأمير إذا هم . . . خطئوا الصواب ولا يلام المرشد

(22/455)

وقد روي عن ابن عامر " خَطأً " بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة ، وقرأ ابن كثير " خِطَاء " بكسر الخاء وفتح الطاء ومد الهمزة ، وهي قراءة الأعرج بخلاف ، وطلحة وشبل والأعمش وعيسى وخالد بن إياس وقتادة والحسن بخلاف عنه ، قال النحاس ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً ، وكذلك جعلها أبو حاتم غلطاً . قال أبو علي الفارسي : هي مصدر من خاطأ يخاطىء وإن كنا لم نجد خاطَأ ولا كنا وجدنا تخاطأ وهو مطاوع خاطأ ، فدلنا

عليه ، فمنه قول الشاعر : [المتقارب]

تخاطأت النبْل احشاءه . . . وخر يومي فلم أعجل

وقول الآخر في صفة كماة : [الطويل]

تَخَاطَأَهُ القنّاص حتى وجدته . . . وخرطومه في مَنْقَع الماء راسب

فكأن هؤلاء الذين يقتلون أولادهم يخاطئون الحق والعدل ، وقرأ الحسن فيما روي عنه " خَطَاء " بفتح الخاء والطاء والمد في الهمزة قال أبو حاتم : لا يعرف هذا في اللغة ، وهو غلط غير جائز وليس كما قال أبو حاتم ، قال أبو الفتح : الخطاء من اخْطَأت بمنزلة العطاء من أعطيت ، هو اسم يعني المصدر ، وقرأ الحسن بخلاف " خَطاً " بفتح الخاء والطاء منونة من غير همز ، وقرأ أبو رجاء والزهري " خِطاً " بكسر الخاء وفتح الطاء كالتي قبلها ، وهاتان مخففتان من خطأ وخطاء ، وقوله ﴿ ولا تقربوا الزنى ﴾ تحريم .

و﴿ الزنى ﴾ يمد ويقصر فمن قصره الآية ، وهي لغة جميع كتاب الله ، ومن مده قول الفرزدق : [الطويل]

أبا حَاضر من يزن يعرف زناؤه . . . ومن يشرب الخرطوم يصبح مسكّرا

ويروى أبا خالد ، و" الفاحشة " ما يستتر به من المعاصي لقبحه ، و﴿ سبيلا ﴾ نصب على التمييز ، التقدير وساء سبيله سبيلاً ، أي لأنه يؤدي إلى النار ، وقوله ﴿ ولا تقتلوا ﴾ وما قبله من الأفعال جزم بالنهي ، وذهب الطبري إلى أنها عطف على قوله ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا ﴾ [الإسراء : 23] والأول أصوب وأبرع للمعنى ، والألف واللام التي في ﴿ النفس ﴾ هي للجنس ، و﴿ الحق ﴾ الذي تقتل به النفس هو ما فسره النبي صلى الله عليه سلم في قوله : " لا يُحل دمَ المسلم إلا إحدى ثلاث خصال ، كفر بعد إيمان ، أو زنى بعد إحصان ، أو قتل نفس أخرى " .

(24/455)

قال القاضي أبو محمد : وتتصل بهذه الأشياء هي راجعة إليها ، فمنها قطع الطريق ، لأنه في معنى قتل النفس وهي الحرابة ، ومن ذلك الزندقة ، ومسألة ترك الصّلاة لأنها في معنى الكفر بعد الإيمان ، ومنه قتل أبي بكر رضي الله عنه منعة الزكاة ، وقتل من امتنع في المدن من فروض الكفاية ، وقوله تعالى : ﴿ مظلوماً ﴾ نصب على الحال ، ومعناه بغير هذه الوجوه المذكورة ، و" الولي " القائم بالدم وهو من ولد الميت أو ولده الميت أو جمعه وأباه أب ، ولا مدخل للنساء في ولاية الدم عند جماعة من العلماء ، ولهن ذلك عند أخرى ، و"

السلطان " الحجة والملك الذي جعل إليه من التخير في قبول الدية أو العفو ، قال ابن عباس والضحاك . وقال قتادة : " السلطان " القود ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم " فلا يسرف " بالياء ، وهي قراءة الجمهور ، أي الولي لا يتعدى أمر الله ، والتعدي هو أن يقتل غير قاتل وليه من سائر القبيل ، أو يقتل اثنين بواحد ، وغير وذلك من وجوه التعدي ، وهذا كله كانت العرب تفعله ، فلذلك وقع التحذير منه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من أعتى الناس على الله ثلاثة ، رجل قتل غير قاتل وليه ، أو قتل بدحل الجاهلية ، أو قتل في حرم الله " ، وقالت فرقة : المراد بقوله ﴿ فلا يسرف ﴾ القاتل الذي يتضمنه الكلام ، والمعنى فلا يكن أحد من المسرفين بأن يقتل نفساً فإنه يحصل في ثقاف هذا الحكم ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي " فلا تسرف في القتل " بالتاء من فوق ، وهو قراءة حذيفة ويحيى بن وثاب ومجاهد بخلاف والأعمش وجماعة ، قال الطبري : على معنى الخطاب للنبي عليه السلام والأئمة بعده ، أي فلا تقتلوا غير القاتل .

قال القاضي أبو محمد : ويصح أن يراد به الولي أي فلا تسرف أيها الولي في قتل أحد يتحصل في هذا الحكم ، وقرأ أبو مسلم السراج صاحب الدعوة العباسية ، " فلا يسرفُ " بالياء

بضم الفاء على معنى الخبر لا على معنى النهي ، والمراد هذا التأويل فقط .

قال القاضي أبو محمد : وفي الاحتجاج بأبي مسلم في القراءة نظر ، وفي قراءة أبي بن كعب : " فلا تسرفوا في القتل إن ولي المقتول كان منصوراً ، والضمير في قوله ﴿ إنه ﴾ عائد على الولي ، وقيل على المقتول ، وهو عندي أرجح الأقوال ، لأنه المظلوم ، ولفظة النصر تقارن أبداً الظلم كقوله عليه السلام : " ونصر المظلوم وإبرار القسم " ، وكقوله " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " ، إلى كثير من الأمثلة : وقيل على القتل ، وقال أبو عبيد على القاتل لأنه إذا قتل في الدنيا وخلص بذلك من عذاب الآخرة فقد نصر ، وهذا ضعيف بعيد المقصد ، وقال الضحاك هذه أول ما نزل من القرآن في شأن القتل وهي مكية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(26/455)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خَشية إِملاق ﴾

قد فسرناه في [الأنعام : 151] .

قوله تعالى : ﴿ كان خِطْئاً كبيراً ﴾ قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي

: "خِطْءاً" مكسورة الخاء ساكنة الطاء مهموزة مقصورة.

وقرأ ابن كثير، وعطاء: "خِطاءً" مكسورة الخاء ممدودة مهموزة.

وقرأ ابن عامر: "خَطَأً" بنصب الخاء والطاء وبالهمز من غير مدّ.

وقرأ أبو رزين كذلك، إلاّ أنه مَدّ وقرأ الحسن، وقتادة: "خَطْءاً" بفتح الخاء وسكون الطاء مهموز مقصور.

وقرأ الزهري، وحميد بن قيس: "خِطاً" بكسر الخاء وتنوين الطاء من غير همز ولا مَدّ.

قال الفراء: الخِطء: الإثم، وقد يكون في معنى "خَطَأ" كما قالوا: "قِتْبٌ" و"قَتَبٌ" و"حِذْرٌ" و"حَذَرٌ" و"نِجْسٌ" و"نَجَسٌ"، والخِطء، والخِطاء، والخَطَاء، ممدود: لغات.

وقال أبو عبيدة: خَطِئْتُ وأَخْطَأْتُ، لغتان.

وقال أبو علي: قراءة ابن كثير "خِطاءً"، يجوز أن تكون مصدرَ "خاطأ" وإن لم يسمع "خاطأَ" ولكن قد جاء ما يدل عليه، أنشد أبو عبيدة:

الخِطءُ والخَطء والخَطاء . . .

وقال الأخفش: خَطِئَ يَخْطَأُ بمعنى "أَذْنَبَ" وليس بمعنى "أَخطأَ"، لأن "أخطأ": فيما لم يصنعه عمداً، تقول فيما أتيتَه عمداً: "خَطِئْتُ"، وفيما لم تتعمده: "أخطأتُ".

وقال ابن الأنباري: "الخِطء": الإثم، يقال: قد خَطِئَ يَخْطَأُ: إذا أثم، وأَخْطَأَ يُخطِئ: إذا فارق الصواب.

وقد شرحنا هذا في [يوسف : 91] عند قوله : ﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنا ﴾

وقرأ أبو رزين ، وأبو الجوزاء ، والحسن : بالمد .

قال أبو عبيدة : وقد يمد "الزنا" في كلام أهل نجد ، قال الفرزدق :

أبا حَاضِرٍ مَنْ يَزْنِ يُعْرَفْ زناؤه . . . .

ومَنْ يَشْرَبِ الخُرْطُومَ يُصْبِحْ مُسَكَّرا

وقال أيضاً :

أخضبتَ فِعْلَك للزّنَاءِ ولم تكُنْ . . . .

(27/455)

يَوْمَ اللّقَاءِ لتَخْضِبَ الأبطَالا

وقال آخر :

[كانت فريضةُ ما تقول] كَمَا . . . .

كَانَ الزّنَاءُ فَرِيْضَةَ الرَّجْمِ

قوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله ﴾ قد ذكرناه في [الأنعام : 151] .

قوله تعالى : ﴿ فقد جعلنا ﴾ قال الزجاج : الأجود إدغام الدال مع الجيم ، والإظهار جيد بالغ ، إلا أنّ الجيم من وسط اللسان ، والدال من طرف اللسان ، والإدغام جائز ، لأن حروف وسط اللسان تقرب من حروف طرف اللسان .

ووليُّه : الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه ، فإن لم يكن له وليٌّ ، فالسُّلطان وليُّه .

وللمفسرين في السُّلطان قولان .

أحدهما : أنه الحُجَّة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه الوالي ، والمعنى : ﴿ فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾ ينصره ويُنْصِفه في حَقِّه ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ فلا يُسرف في القتل ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم : "فلا يسرف" بالياء .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : بالتاء .

وفي المشار إليه في الآية قولان .

أحدهما : أنه وليُّ المقتول .

وفي المراد بإسرافه خمسة أقوال .

أحدها : أن يَقتُل غير القاتل ، قاله ابن عباس ، والحسن .

والثاني : أن يقتُل اثنين بواحد ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : أن يقتل أشرف مِن الذي قُتل ، قاله ابن زيد .

والرابع : أن يمثِّل ، قاله قتادة .

والخامس : أن يتولى هو قتل القاتل دون السلطان ، ذكره الزجّاج .

والثاني : أن الإِشارة إِلى القاتل الأول ، والمعنى : فلا يسرف القاتل بالقتل تعدّياً وظلماً ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ إِنه كان منصوراً ﴾ أي : مُعاناً عليه .

وفي هاء الكناية أربعة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إِلى الولي ، فالمعنى : إِنه كان منصوراً بتمكينه من القَوَد ، قاله قتادة ، والجمهور .

والثاني : أنها ترجع إِلى المقتول ، فالمعنى : إِنه كان منصوراً بقتل قاتله ، قاله مجاهد .

(28/455)

والثالث : أنها ترجع إِلى الدم ، فالمعنى : إِن دم المقتول كان منصوراً ، أي : مطلوباً به .

والرابع : أنها ترجع إِلى القتل ، ذكر القولين الفراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قد مضى الكلام في هذه الآية في الأنعام ، والحمد لله .

والإملاق : الفقر وعدم الملك .

أملق الرجل أي لم يبق له إلا الملَقات ؛ وهي الحجارة العظام الملْس .

قال الهُذَلِي يصف صائداً :

أُتِيحَ لها أُقَيْدِرُ ذو حَشِيف . . .

إذا سامَتْ على المَلَقَات ساما

الواحدة مَلَقة .

والأُقَيْدر تصغير الأقدر ، وهو الرجل القصير .

والحَشِيف من الثياب : الخَلَق .

وسامت مرّت .

وقال شَمِر : أملق لازمٌ ومتعدٍّ ، أملق إذا افتقر ، وأملق الدهر ما بيده .

قال أوْس :

وأَمْلق ما عندي خطوب تَنَبَّلُ . . .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ خِطْئًا ﴾ "خطأ" قراءة الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وبالهمزة والقصر .

وقرأ ابن عامر "خَطَأً" بفتح الخاء والطاء والهمزة مقصورة ، وهي قراءة أبي جعفر يزيد .

وها تان قراءتان مأخوذتان من "خطئ" إذا أتى الذنب على عمد .

قال ابن عرفة : يقال خَطِئ في ذنبه خَطَأً إذا أَثِم فيه ، وأخطأ إذا سلك سبيلَ خطأ عامداً أو غير عامد .

قال : ويقال خَطِئ في معنى أخطأ .

وقال الأزهري : يقال خَطِئ يخطأ خِطْئًا إذا تعمّد الخطأ ؛ مثل أُثِم يأثم إثماً .

وأخطأ إذا لم يتعمّد ، إخطاء وخطأ .

قال الشاعر :

دَعِيني إنما خطَئي وصَوْبي . . .

عليّ وإنّ ما أهلكتُ مالُ

والخطأ الاسم يقوم مقام الإخطاء ، وهو ضدّ الصواب .

وفيه لغتان: القصر وهو الجيد، والمدّ هو قليل.

وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما "خَطْأً" بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة.

وقرأ ابن كَثِير بكسر الخاء وفتح الطاء ومدّ الهمزة.

قال النحاس: ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً، ولذلك جعلها أبو حاتم غلطاً.

قال أبو عليّ: هي مصدر من خاطأ يخاطئ، وإن كنا لا نجد خاطأ، ولكن وجدنا

تخاطأ، وهو مطاوع خاطأ، فدلنا عليه؛ ومنه قول الشاعر:

تَخَاطَأَت النّبْلُ أحشاءَه . . .

وأَخّر يومِي فلم أَعْجَلِ

وقول الآخر في وصف مَهاة:

تخاطأه القَنّاص حتى وجدتُه . . .

وخرطومُه في مَنْقع الماء راسبُ

الجوهري: تخاطأه أي أخطأه؛ وقال أوْفَى بن مطر المازني:

ألاَ أبلغا خُلّتي جابراً . . .

بأنّ خليلك لم يُقتَل

تخاطأت النّبل أحشاءه . . .

وأخّرَ يومي فلم يَعْجَل

وقرأ الحسن "خَطَاء" بفتح الخاء والطاء والمد في الهمزة.

قال أبو حاتم: لا يعرف هذا في اللغة وهي غلط غير جائز.

وقال أبو الفتح: الخطأ من أخطأت بمنزلة العطاء من أعطيت، هو اسم بمعنى المصدر،

وعن الحسن أيضاً "خَطًى" بفتح الخاء والطاء مُنوّنة من غير همزة.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) ﴾

فيه مسألة واحدة:

قال العلماء: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزنى ﴾ أبلغ من أن يقول: ولا تزنوا؛ فإن معناه لا تدنوا من الزنى.

والزنى يمد ويقصر، لغتان.

قال الشاعر:

كانت فريضة ما تقول كما . . .

كان الزِّناء فريضةَ الرّجْمِ

و﴿ سَبِيلاً ﴾ نصب على التمييز؛ التقدير: وساء سبيله سبيلاً.

أي لأنه يؤدّي إلى النار .

والزنى من الكبائر ، ولا خلاف فيه وفي قبحه لا سيما بحليلة الجار .

وينشأ عنه استخدام ولد الغير واتخاذه ابنا وغير ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط المياه .

وفي الصحيح " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أتَى بامرأة مُجِحٍّ على باب فسطاط فقال : "لعله يريد أن يُلِمّ بها" فقالوا : نعم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد هَمَمْتُ أن أَلْعَنه لَعْناً يدخل معه قبرَه كيف يُوَرِّثه وهو لا يَحِلّ له كيف يستخدمه وهو لا يَحِلّ له " .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق ﴾

قد مضى الكلام فيه في الأنعام .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي القتل إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً ﴾ أي بغير سبب يوجب القتل .

﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ ﴾ أي لمستحِق دمه .

قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : الوِلِيّ يجب أن يكون ذكراً ؛ لأنه أفرده بالولاية بلفظ التذكير .

وذكر إسماعيل بن إسحاق في قوله تعالى : "فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ" ما يدل على خروج المرأة عن مطلق لفظ الوليّ ، فلا جَرَم ، ليس للنساء حق في القصاص لذلك ولا أثر لعَفْوِها ، وليس لها الاستيفاء .

وقال المخالف : إن المراد ها هنا بالولي الوارث ؛ وقد قال تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : 71] ، وقال : ﴿ والذين آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُمْ مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنفال : 72] ، وقال : ﴿ وَأُوْلُواْ الأرحام بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ الله ﴾ [الأنفال : 75] فاقتضى ذلك إثبات القود لسائر الورثة ؛ وأمّا ما ذكروه من أن الولي في ظاهره على التذكير وهو واحد ، كأن ما كان بمعنى الجنس يستوي المذكر والمؤنث فيه ، وتتمته في كتب الخلاف .

﴿ سُلْطَاناً ﴾ أي تسليطاً إن شاءَ قتل وإن شاء عفا ، وإن شاء أخذ الدِّية ؛ قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والضحاك وأشهب والشافعي .

وقال ابن وهب قال مالك : السلطانُ أمر الله .

ابن عباس : السلطان الحجة .

وقيل: السلطان طلبه حتى يدفع إليه.

قال ابن العربي: وهذه الأقوال متقاربة، وأوضحها قول مالك: إنه أمر الله.

ثم إن أمر الله عز وجل لم يقع نصًّا فاختلف العلماء فيه؛ فقال ابن القاسم عن مالك وأبي حنيفة: القتل خاصّةً.

وقال أشهب: الخيرة؛ كما ذكرنا آنفاً، وبه قال الشافعيّ.

وقد مضى في سورة "البقرة" هذا المعنى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ﴾ فيه ثلاثة أقوال: لا يقتل غير قاتله؛ قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير.

(32/455)

الثاني: لا يقتل بدل وَلِيّه اثنين كما كانت العرب تفعله.

الثالث: لا يمثّل بالقاتل؛ قاله طَلْق بن حبيب، وكله مراد لأنه إسراف منهيٌّ عنه.

وقد مضى في "البقرة" القول في هذا مستوفًى.

وقرأ الجمهور "يُسْرِف" بالياء، يريد الولي، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي "تسرف" بالتاء من فوق، وهي قراءة حُذيفة.

وروى العلاء بن عبد الكريم عن مجاهد قال : هو للقاتل الأوّل ، والمعنى عندنا فلا تسرف أيها القاتل .

وقال الطبريّ : هو على معنى الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والأئمة من بعده .

أي لا تقتلوا غير القاتل .

وفي حرف أُبَيٍّ "فلا تسرِفوا فِي القتلِ" .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾ أي مُعاناً ، يعني الوليّ .

فإن قيل : وكم من وَلِيّ مخذول لا يصل إلى حقّه .

قلنا : المعونة تكون بظهور الحجة تارة وباستيفائها أخرى ، وبمجموعهما ثالثة ، فأيّها كان فهو نصر من الله سبحانه وتعالى .

وروى ابن كثير عن مجاهد قال : إن المقتول كان منصوراً .

النحاس : ومعنى قوله إن الله نصره بوليّه .

وروي أنه في قراءة أبَيٍّ "فلا تسرِفوا فِي القتلِ إِن وَلِيّ المقتولِ كان منصوراً" .

قال النحاس : الأبينُ بالياء ويكون للوليّ ؛ لأنه إنما يقال : لا يسرف إن كان له أن يقتل ، فهذا للوليّ .

وقد يجوز بالتاء ويكون للوليّ أيضاً ، إلا أنه يحتاج فيه إلى تحويل المخاطبة .

قال الضحاك : هذا أوّل ما نزل من القرآن في شأن القتل ، وهي مكية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(33/455)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾

لما بيّن تعالى أنه هو المتكفل بأرزاق العباد حيث قال ﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أتبعه بالنهي عن قتل الأولاد ، وتقدم تفسير نظير هذه الآية ، والفرق بين ﴿ خشية إملاق ﴾ ومن إملاق وبين قوله : ﴿ نرزقهم ﴾ ونرزقكم .

وقرأ الأعمش وابن وثاب : ﴿ ولا تقتلوا ﴾ بالتضعيف .

وقرىء ﴿ خشية ﴾ بكسر الخاء ، وقرأ الجمهور ﴿ خطأً ﴾ بكسر الخاء وسكون الطاء .

وقرأ ابن كثير بكسرها وفتح الطاء والمدّ ، وهي قراءة طلحة وشبل والأعمش ويحيى وخالد بن إلياس وقتادة والحسن والأعرج بخلاف عنهما .

وقال النحاس : لا أعرف لهذه القراءة وجهاً ولذلك جعلها أبو حاتم غلطاً .

وقال الفارسي : هي مصدر من خاطأ يخاطىء وإن كنا لم نجد خاطأ ولكن وجدنا تخاطأ وهو مطاوع خاطأ ، فدلنا عليه فمنه قول الشاعر :

تخاطأت النبل أخشاه . . .

وأخر يومي فلم يعجل

وقول الآخر في كمأة

تخاطأه القناص حتى وجدته . . .

وخرطومه في منقع الماء راسب

فكان هؤلاء الذين يقتلون أولادهم يخاطئون الحق والعدل .

وقرأ ابن ذكوان ﴿ خطأ ﴾ على وزن نبأ .

وقرأ الحسن خطاء بفتحهما والمد جعله اسم مصدر من أخطأ كالعطاء من أعطى قاله ابن جنّي .

وقال أبو حاتم : هي غلط غير جائز ولا يعرف هذا في اللغة ، وعنه أيضاً خطى كهوى خفف الهمزة فانقلبت ألفاً وذهبت لالتقائهما .

وقرأ أبو رجاء والزهري كذلك إلاّ أنهما كسرا الخاء فصار مثل ربا وكلاهما من خطىء في الدين وأخطأ في الرأي ، لكنه قد يقام كل واحد منهما مقام الآخر وجاء عن ابن عامر ﴿

خطأ ﴾ بالفتح والقصر مع إسكان الطاء وهو مصدر ثالث من خطيء بالكسر .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) ﴾

(34/455)

لما نهى تعالى عن قتل الأولاد نهى عن التسبب في إيجاده من الطريق غير المشروعة ، فنهى عن قربان الزنا واستلزم ذلك النهي عن الزنا ، والزنا الأكثر فيه القصر ويمد لغة لا ضرورة ، هكذا نقل اللغويون .

ومن المدّ قول الشاعر وهو الفرزدق :

أبا حاضر من يزن يعرف زناؤه . . .

ومن يشرب الخرطوم يصبح مسكرا

ويروى أبا خالد .

وقال آخر :

كانت فريضة ما تقول كما . . .

كان الزناء فريضة الرجم

وكان المعنى لم يزل أي لم يزل ﴿ فاحشة ﴾ أي معصية فاحشة أي قبيحة زائدة في القبح

﴿ وساء سبيلاً ﴾ أي وبئس طريقاً طريقه لأنها سبيل تؤدّي إلى النار .

وقال ابن عطية : و﴿ سبيلاً ﴾ نصب على التمييز التقدير ، وساء سبيله انتهى .

وإذا كان ﴿ سبيلاً ﴾ نصباً على التمييز فإنما هو تمييز للمضمر المستكن في ﴿ ساء ﴾ ، وهو من المضمر الذي يفسره ما بعده ، والمخصوص بالذم محذوف ، وإذا كان كذلك فلا يكون تقديره وساء سبيله سبيلاً لأنه إذ ذاك لا يكون فاعله ضميراً يراد به الجنس مفسراً بالتمييز ، ويبقى التقدير أيضاً عارياً عن المخصوص بالذم ، وتقدّم تفسير قوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ﴾ في أواخر الأنعام قال الضحاك : هذه أول ما نزل من القرآن في شأن القتل انتهى .

ولما نهى عن قتل الأولاد وعن إيجادهم من الطريق غير المشروعة نهى عن قتل النفس فانتقل من الخاص إلى العام ، والظاهر أن هذه كلها منهيات مستقلة ليست مندرجة تحت قوله : ﴿ وقضى ربك ﴾ كاندراج ﴿ أن لا تعبدوا ﴾ وانتصب ﴿ مظلوماً ﴾ على الحال من الضمير المستكن في ﴿ قتل ﴾ والمعنى أنه قتل بغير حق ، ﴿ فقد جعلنا لوليه ﴾ وهو الطالب بدمه شرعاً ، وعند أبي حنيفة وأصحابه اندراج من يرث من الرجال والنساء والصبيان في الولي على قدر مواريثهم ، لأن الولي عندهم هو الوارث هنا .

وقال مالك : ليس للنساء شيء من القصاص ، وإنما القصاص للرجال .

وعن ابن المسيب والحسن وقتادة والحكم : ليس إلى النساء شيء من العفو والدم وللسلطان التسلط على القاتل في الاقتصاص منه أو حجة يثبت بها عليه قاله الزمخشري .

وقال ابن عطية : والسلطان الحجة والملك الذي جعل إليه من التخيير في قبول الدم أو العفو قاله ابن عباس والضحاك .

وقال قتادة : السلطان القود وفي كتاب التحرير السلطان القوة والولاية .

وقال ابن عباس : البيِّنة في طلب القود .

وقال الحسن القود .

وقال مجاهد الحجة .

وقال ابن زيد : الوالي أي والياً ينصفه في حقه ، والظاهر عود الضمير في ﴿ فلا يسرف ﴾ على الولي ، والإسراف المنهي عنه أن يقتل غير القاتل قاله ابن عباس والحسن ، أو يقتل اثنين بواحد قاله ابن جبير ، أو أشرف من الذي قتل قاله ابن زيد ، أو يمثل قاله قتادة ، أو يتولى القاتل دون السلطان ذكره الزجاج .

وقال أبو عبد الله الرازي : السلطنة مجملة يفسرها ﴿ كتب عليكم القصاص ﴾ الآية ويدل عليه أنه مخير بين القصاص والدية وقوله عليه السلام يوم الفتح : " من قتل قتيلاً فأهله بين خيرتين إن أحبوا قتلوا وإن أحبوا أخذوا الدية " فمعنى ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ لا

يقدم على استيفاء القتل ، ويكتفي بأخذ الدية أو يميل إلى العفو ولفظة في محمولة على الباء أي فلا يصير مسرفاً بسبب إقدامه على القتل ، ويكون معناه الترغيب في العفو كما قال ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ انتهى ملخصاً .

ولو سلم أن ﴿ في ﴾ بمعنى الباء لم يكن صحيح المعنى ، لأن من قتل بحق قاتل موليه لا يصير مسرفاً بقتله ، وإنما الظاهر والله أعلم النهي عما كانت الجاهلية تفعله من قتل الجماعة بالواحد ، وقتل غير القاتل والمثلة ومكافأة الذي يقتل من قتله .

وقال مهلهل حين قتل بجير بن الحارث بن عباد : بؤ بشسع نعل كليب .

(36/455)

وأبعد من ذهب إلى أن الضمير في ﴿ فلا يسرف ﴾ ليس عائداً على الولي ، وإنما يعود على العامل الدال عليه ، ومن قتل أي ﴿ لا يسرف ﴾ في القتل تعدياً وظلماً فيقتل من ليس له قتله .

وقرأ الجمهور ﴿ فلا يسرف ﴾ بياء الغيبة .

وقرأ الإخوان وزيد بن عليّ وحذيفة وابن وثاب والأعمش ومجاهد بخلاف وجماعة ، وفي نسخة من تفسير ابن عطية وابن عامر وهو وهم بتاء الخطاب والظاهر أنه على خطاب

الولي فالضمير له .

وقال الطبري : الخطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) والأئمة من بعده أي فلا تقتلوا غير القاتل انتهى .

قال ابن عطية : وقرأ أبو مسلم السرّاج صاحب الدعوة العباسية .

وقال الزمخشري قرأ أبو مسلم صاحب الدولة .

وقال صاحب كتاب اللوامح أو مسلم العجلي مولى صاحب الدولة : ﴿ فلا يسرف ﴾ بضم الفاء على الخبر ، ومعناه النهي وقد يأتي الأمر والنهي بلفظ الخبر .

وقال ابن عطية في الاحتجاج بأبي مسلم في القراءة نظر ، وفي قراءة أبيّ فلا تسرفوا في القتل إن ولي المقتول كان منصوراً انتهى .

رده على ولا تقتلوا والأولى حمل قوله إن ولي المقتول على التفسير لا على القراءة لمخالفته السواد ، ولأن المستفيض عنه ﴿ إنه كان منصوراً ﴾ كقراءة الجماعة والضمير في ﴿ أنه ﴾ عائد على الولي لتناسق الضمائر ونصره إياه بأن أوجب له القصاص ، فلا يستزاد على ذلك أو نصره بمعونة السلطان وبإظهار المؤمنين على استيفاء الحق .

وقيل : يعود الضمير على المقتول نصره الله حيث أوجب القصاص بقتله في الدنيا ، ونصره بالثواب في الآخرة .

قال ابن عطية : وهو أرجح لأنه المظلوم ، ولفظة النصر تقارن الظلم كقوله عليه السلام : "

ونصر المظلوم وإبرار القسم " وكقوله : " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " إلى كثير من الأمثلة .

وقيل : على القتل .

وقال أبو عبيد : على القاتل لأنه إذا قتل في الدنيا وخلص بذلك من عذاب الآخرة فقد نصر

، وهذا ضعيف بعيد القصد .

(37/455)

وقال الزمخشري : وإنما يعني أن يكون الضمير في أنه الذي بقتله الولي بغير حق ويسرف في

قتله فإنه منصور بإيجاب القصاص على المسرف انتهى .

وهذا بعيد جداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(38/455)

وقال أبو السعود :

قوله : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِملاق ﴾ .

أي مخافةَ فقر ، وقرىء بكسر الخاء ، كانوا يئِدون بناتِهم مخافةَ الفقر فنُهوا عن ذلك ﴿ نَّحْنُ

نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ لا أنتم فلا تخافوا الفاقةَ بناء على علمكم بعجزكم عن تحصيل رزقِهم وهو ضمانٌ لرزقهم وتعليلٌ للنهي المذكور بإبطال موجبه في زعمهم ، وتقديمُ ضميرِ الأولاد على المخاطَبين على عكس ما وقع في سورة الأنعام للإشعار بأصالتهم في إفاضة الرزقِ أو لأن الباعثَ على القتل هناك الإملاقُ الناجزُ ولذلك قيل : من إملاق وهاهنا الإملاقُ المتوقع ، ولذلك قيل : خشيةَ إملاقٍ فكأنه قيل : نرزقُهم من غير أن ينتقص من رزقكم شيءٌ فيعتريكم ما تخشَوْنه وإياكم أيضاً رزقاً إلى رزقكم ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً ﴾ تعليلٌ آخرُ ببيان أن المنهيَّ عنه في نفسه منكرٌ عظيم ، والخِطْءُ الذنبُ والإثمُ يقال : خطِىءَ خِطْأً كأثِم إثماً ، وقرىء بالفتح والسكون وبفتحتين بمعناه كالحِذْر والحذَر ، وقيل : بمعنى ضد الصواب ، وبكسر الخاء والمد وبفتحها ممدوداً وبفتحها وحذف الهمزة وبكسرها كذلك .

(39/455)

﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ ﴾ بمباشرة مباديه القريبةِ أو البعيدة فضلاً عن مباشرته وإنما نهى عن قُربانه على خلاف ما سبق ولحِق من القتل للمبالغة في النهي عن نفسه لأن قربانه داعٍ إلى مباشرته . وتوسيطُ النهي عنه بين النهي عن قتل الأولادِ والنهي عن قتل النفسِ المحرمة

على الإطلاق باعتبار أنه قتلٌ للأولاد لِما أنه تضييعٌ للأنساب فإن من لم يثبُتْ نسبُه ميِّتٌ حكماً ﴿ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ فَعلةً ظاهرةَ القبح متجاوزةً عن الحد ﴿ وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ أي بئس طريقاً طريقُه ، فإن غصبُ الأبضاعِ المؤدّي إلى اختلال أمر الأنسابِ وهيَجانِ الفتن ، كيف لا وقد قال النبي عليه السلام : " إذا زنى العبدُ خرجَ منه الإيمانُ فكانَ على رأسه كالظُّلّةِ فإذا انقطع رجعَ إليه " وقال عليه السلام : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن " وعن حذيفة رضي الله عنه أنه قال عليه السلام : " إياكم والزنى فإن فيه ستَّ خصال ثلاثٌ في الدنيا وثلاثٌ في الآخرة فأما التي في الدنيا فذهابُ البهاء ودوامُ الفقر وقِصرُ العمر ، وأما التي في الآخرة فسخطُ الله تعالى وسوءُ الحساب والخلودُ في النار " .

﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التى حَرَّمَ الله ﴾

(40/455)

قتْلَها بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ إلا بإحدى ثلاث : كفرٍ بعد إيمان ، وزناً بعد إحصان ، وقتلِ نفسٍ معصومةٍ عمداً ، فالاستثناءُ مفرَّغٌ أي لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحقّ أو ملتبسين أو ملتبسةً بشيء من الأشياء ، ويجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوفٍ أي لا تقتلوها قتلاً ما إلا قتلاً متلبساً بالحق ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ بغير

حق يوجب قتلَها أو يُبيحه للقاتل حتى إنه لا يُعتبر إباحتُه لغير القاتل فإن من عليه القصاصُ إذا قتله غيرُ من له القِصاصُ يُقتصّ له، ولا يفيده قولُ الوليّ: أنا أمرتُه بذلك ما لم يكن الأمرُ ظاهراً ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ ﴾ لمن يلي أمرَه من الوارث أو السلطانِ عند عدم الوارث ﴿ سلطانا ﴾ تسلّطاً واستيلاءً على القاتل يؤاخذه بالقصاص أو بالدية حسبما تقتضيه جنايتُه، أو حجةً غالبة ﴿ فَلاَ يُسْرِف ﴾ وقرىء لا تسرفْ ﴿ فِّى القتل ﴾ أي لا يُسرف الوليُّ في أمر القتل بأن يتجاوز الحدّ المشروعَ بأن يزيد عليه المُثْلةَ أو بأن يقتُل غيرَ القاتل من أقاربه، أو بأن يقتلَ الاثنين مكانَ الواحد كما يفعله أهلُ الجاهلية أو بأن يقتل القاتلَ في مادة الديّة وقرىء بصيغة النفي مبالغةً في إفادة معنى النهي ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ تعليلٌ للنهي والضميرُ للولي على معنى أنه تعالى نصره بأن أوجب له القِصاصَ أو الديةَ وأمَر الحكامَ بمعونته في استيفاء حقِه فلا يبْغِ ما وراء حقِه ولا يستزِدْ عليه ولا يخرُجْ من دائرة أمرِ الناصر. أو للمقتول ظلماً على معنى أنه تعالى نصره بما ذُكر فلا يسرف وليُّه في شأنه أو للذي يقتله الوليُّ ظلماً وإسرافاً، ووجهُ التعليل ظاهرٌ، وعن مجاهد أن الضميرَ في لا يسرفْ للقاتل الأول ويعضده قراءةُ فلا تسرفوا والضميران في التعليل عائدان إلى الولي أو المقتول، فالمرادُ بالإسراف حينئذ إسرافُ القاتل على نفسه بتعريضه لها للهلاك العاجل

والآجلِ لا الإسرافُ وتجاوزُ الحد في القتل أي لا يسرف على نفسه في شأن القتل كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أهل عِبَادِي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(42/455)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾

والإملاق الفقر كما روى عن ابن عباس وأنشد له قول الشاعر :

وإني على الإملاق يا قوم ماجد . . .

أعد لأضيافي الشواء المصهبا

وظاهر اللفظ النهي عن جميع أنواع قتل الأولاد ذكروا كانوا أو إناثاً مخافة الفقر والفارقة لكن روى أن من أهل الجاهلية من كان يئد البنات مخافة العجز عن النفقة عليهن فنهى في الآية عن ذلك فيكون المراد بالأولاد البنات وبالقتل الوأد ، والخشية في الأصل خوف يشوبه تعظيم ، قال الراغب : وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه .

وقرى بكسر الخاء ، والظاهر أن هذا النهي معطوف على ما تقدم من نظيره ، وجوز الطبرسي أن يكون عطفه على قوله سبحانه : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : 23] وحينئذ فيحتمل أن يكون الفعل منصوباً بأن كما في الفعل السابق .

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ ضمان لرزقهم وتعليل للنهي المذكور بإبطال موجبه في زعمهم أي نحن نرزقهم لا أنتم فلا تخافوا الفقر بناء على علمكم بعجزهم عن تحصيل رزقهم ، وتقديم ضمير الأولاد على ضمير المخاطبين على عكس ما وقع في سورة الأنعام للإشعار بأصالتهم في إفاضة الرزق ، وعارض هذه النكتة هناك تقدم ما يستدعي الاعتناء بشأن المخاطبين من الآيات كذا قيل .

وجوز المولى شيء الإسلام كون ذلك لأن الباعث على القتل هناك الإملاك الناجز ولذلك قيل ﴿ من إملاق ﴾ [الأنعام : 151] وههنا الإملاق المتوقع ولذلك قيل : خشية إملاق فكأنه قيل : نرزقهم من غير أن ينقص من رزقكم شيء فيعتريكم ما تخشونه وإياكم أيضاً رزقاً إلى رزقكم .

﴿ إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ تعليل آخر ببيان أن المنهي عنه في نفسه منكر عظيم لما فيه من قطع التناسل وقطع النوع ، والخطء كالإثم لفظاً ومعنى وفعلهما من باب علم .

وقرأ أبو جعفر .

وابن ذكوان عن عامر ﴿ خطأ ﴾ بفتح الخاء والطاء من غير مد ، وخرج ذلك الزجاج على وجهين ، الأول : أن يكون اسم مصدر من أخطأ يخطىء إذا لم يصب أي إن قتلهم كان غير صواب ، والثاني : أن يكون لغة في الخطا بمعنى الإثم مثل مثل ومثل وحذر وحطر فمن استشكل هذه القراءة بأن الخطأ ما لم يتعمد وليس هذا محله فقد نادى على نفسه بقلة الإطلاع .

وقرأ ابن كثير ﴿ خطأ ﴾ بكسر الخاء وفتح الطاء والمد وخرج على وجهين أيضاً .

الأول : أن يكون لغة في الخطء بمعنى الإثم مثل دبغ ودباغ ولبس ولباس .

والثاني : أن يكون مصدر خاطأ يخاطىء خطاء مثل قاتل يقاتل قتالاً .

قال أبو علي الفارسي وإن كنا لم نجد خاطأ لكن وجد تخطأ مطاوعه فدلنا عليه وذلك في قولهم : تخطأت النبل أحشاءه ، وأنشد محمد بن السوي في وصف كماءة كما في مجمع البيان :

وأشعث قد ناولته أحرش الفرى . . .

أدرت عليه المدجنات الهواضب

تخطأه القناص حتى وجدته . . .

وخرطومه في منقع الماء راسب

والمعنى على هذا إن قتلهم كان عدولاً عن الحق والصواب فقول أبي حاتم إن هذه القراءة غلط غلط .

وقرأ الحسن ﴿ خطاء ﴾ بفتح الخاء والطاء مع المد وهو اسم مصدر أخطى ء كالعطاء اسم مصدر أعطى ، وقرأ الزهري .

وأبو رجاء ﴿ خطا ﴾ بكسر الخاء وفتح الطاء وألف في آخره مبدلة من الهمزة وليس من قصر الممدود لأنه ضرورة لا داعي إليه ، وفي رواية عن ابن عامر أنه قرأ ﴿ خطا ﴾ كعصا .

﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى ﴾ بمباشرة مباديه القريبة أو البعيدة فضلاً عن مباشرته ، والنهي عن قربانه على خلاف ما سبق ولحق للمبالغة في النهي عن نفسه ولأن قربانه داع إلى مباشرته ، وفسره الراغب بوطء المرأة من غير عقد شرعي ، وجاء في المد والقصر وإذا مد يصح أن يكون مصدر المفاعلة ، وتوسيط النهي عنه بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس المحرمة مطلقاً كما قال شيخ الإسلام باعتبار أنه قتل للأولاد لما أنه تضييع للأنساب فإن من لم يثبت نسبه ميت حكماً .

﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ فعلة ظاهرة القبح زائد ته ﴿ وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ أي وبئس السبيل سبيلاً لما فيه من اختلال أمر الأنساب وهيجان الفتن ، وقد روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن " وجاء في غير رواية أنه إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة فإن تاب ونزع رجع إليه وهو من الكبائر ، وفاحشة مطلقاً على ما أجمع عليه المحققون بل في الحديث الصحيح أنه بحليلة الجار من أكبر الكبائر ، وزعم الحليمي أنه فاحشة إن كان بحليلة الجار أو بذات الرحم أو بأجنبية في شهر رمضان أو في البلد الحرام وكبيرة إن كان مع امرأة الأب أو حليلة الابن أو مع أجنبية على سبيل القهر والإكراه وإذا لم يوجب حدا يكون صغيرة ، ولا يخفى رده وضعف مبناه ، والآية ظاهرة في أنه فاحشة مطلقاً نعم أفحش أنواعه الزنا بحليلة الجار ، وقال بعضهم : أعظم الزنا على الإطلاق الزنا بالمحارم فقد صحح الحاكم أنه صلى الله عليه وسلم قال : " من وقع على ذات محرم فاقتلوه " وزنا الثيب أقبح من زنا البكر بدليل اختلاف حديهما ، وزنا الشيخ لكمال عقله أقبح من زنا الشاب ، وزنا الحر والعالم لكمالهما أقبح من زنا القن والجاهل ، وهل هو أكبر من اللواط أم لا ؟ فيه خلاف وفي الأحياء أنه أكبر منه لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم الضرر ، ومنه اختلاط الأنساب بكثرته ، وقد يعارض بأن حده أغلظ بدليل قول مالك وآخرين برجم اللوطي ولو غير محصن بخلاف الزاني .

وقد يجاب بأن المفضول قد يكون فيه مزية ، وفيه ما فيه ، وبالغ بعضهم فقال : إنه مطلقاً يلي الشرك في الكبر ، والأصح أن الذي يلي الشرك هو القتل ثم الزنا ، وخبر الغيبة أشد من ثلاثين زنية في الإسلام الظاهر كما قال ابن حجر الهيثمي أنه لا أصل له ، نعم روى الطبراني .

والبيهقي .

وغيرهما الغيبة أشد من الزنا إلا أن له ما يبين معناه وهو ما رواه ابن أبي الدنيا .

وأبو الشيخ عن جابر .

وأبي سعيد رضي الله تعالى عنهما إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا أن الرجل ليزنى فيتوب الله تعالى عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه فعلم منه أن أشدية الغيبة من الزنا ليست على الإطلاق بل من جهة أن التوب الباطنة المستوفية لجميع

شروطها من الندم من حيث المعصية والإقلاع وعزم أن لا يعود مع عدم الغرغرة وطلوع الشمس من مغربها مكفرة لإثم الزنا بمجردها بخلاف الغيبة فإن التوبة وإن وجدت فيها هذه الشروط لا تكفرها بل لا بد وأن ينضم إليها استحلال صاحبها مع عفو فكانت الغيبة أشد من هذه الحيثية لا مطلقاً فلا يعكر الحديث على الأصح ، وعلم منه أيضاً أن الزنا لا يحتاج في التوبة منه إلى استحلال وهو ما صرح به غير واحد من المحققين وهو مع ذلك من الحقوق المتعلقة بالآدمي كيف لا وهو من الجناية على الإعراض والأنساب ، ومعنى قولهم إن الزنا لا يتعلق به حق آدمي أي من المال ونحوه وعدم اشتراط الاستحلال لا يدل على أنه ليس من الحقوق المتعلقة بالآدمي مطلقاً ، وإنما لم يشترط الاستحلال لما يترتب على ذكره من زيادة العار والظن الغالب بأن نحو الزوج أو القريب إذا ذكر له ذلك يبادر إلى قتل الزاني أو المزني بها أو إلى قتلهما معاً ومع ما ذكر كيف يمكن القول باشتراطه ، وقد صرح بنحو ذلك حجة الإسلام الغزالي في منهاج العابدين فقال في ضمن تفصيل قال الأذرعي : إنه في غاية الحسن والتحقيق أما الذنب في الحرم فإن خنته في أهله وولده فلا وجه للاستحلال والإظهار لأنه يولد فتنة وغيظاً بل تتضرع إلى الله سبحانه ليرضيه عنك ويجعل له خيراً كثيراً في مقابلته فإن أمنت الفتنة والهيج وهو نادر فتستحل منه ، وقد ق الأذرعي في مواضع في الحسد والتوبة منه : ويشبه أن يحرم الإخبار به إذا غلب على ظنه أن لا يحلله

وأنه يتولد منه عداوة وحقد وأذى للمخبر ، ثم قال : ويجوز أن ينظر إلى المحسود فإن كان حسن الخلق بحيث يظن أنه يحلله تعين أخباره

(47/455)

ليخرج من ظلامته بيقين وإن غلب على ظنه أن إخباره يجر شراً وعداوة حرم إخباره قطعاً وإن تردد فالظاهر ما ذكره النووي من عدم الوجوب والاستحباب فإن النفس الزكية نادرة وربما جر ذلك شراً وعداوة وإن حلله بلسانه اه ، فإذا كان هذا في الحسد مع سهولته عند أكثر الناس وعدم مبالاتهم به ون ثم أطلق النووي عدم الإخبار فقال : المختار بل الصواب أنه لا يجب إخبار المحسود بل لا يستحب ولو قيل يكره لم يبعد فما بالك في الزنا المستلزم أن الزوج والقريب يقتل فيه بمجرد التوهم فكيف مع التحقق ويعلم من الأخبار أن ثمرات الزنا قبيحة منها أنه يورد النار والعذاب الشديد وأنه يورث الفقر وذهاب البهاء وقصد العمر وأنه يؤخذ بمثله من ذرية الزاني ، ولما قيل لبعض الملوك ذلك أراد تجربته بابنة له وكانت غاية في الحسن فأنزلها مع امرأة وأمرها أن لا تمنع أحداً أراد التعرض لها بأي شيء شاء وأمرها بكشف وجهها فطافت بها في الأسواق فما مرت على أحد إلا وأطرق حياء وخجلاً منها فلما طافت بها المدينة كلها ولم يمد أحد نظره إليها رجعت بها إلى دار الملك

فلما أرادت الدخول أمسكها إنسان وقبلها ثم ذهب عنها فادخلتها على الملك وذكرت له القصة فسجد شكراً وقال: الحمد لله تعالى ما وقع مني في عمري قط إلا قبلة وقد قوصصت بها نسأل الله سبحانه أن يعصمنا وذرارينا ومن ينسب إلينا من الفواحش ما ظهر منها وما بطن بحرمة النبي صلى الله عليه وسلم.

وقرأ أبي بن كعب كما أخرجه عنه ابن مردويه ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزِنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً إِلاَّ مَن تَابَ فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ فذكر لعمر رضي الله تعالى عنه فأتاه فسأله فقال أخذتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لك عمل إلا الصفق بالنقيع وهذا إن صح كان قبل العرضة الأخيرة.

﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ النفس التى حَرَّمَ اللهُ ﴾

(48/455)

أي حرمها الله تعالى، والمراد حرم قتلها بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ متعلق بلا تقتلوا والباء للسببية والاستثناء مفرغ أي لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق، ويجوز أن يكون الاً من الفاعل أو المفعول أي لا تقتلوا إلا ملتبسين بالحق أو لا تقتلوها إلا ملتبسة بالحق، وجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف أي لا تقتلوها قتلاً ما إلا

قتلاً ملتبساً بالحق والأول أظهر ، وأما تعلقه بجرم فبعيد وإن صح ، وفسر الحق بما رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود لا يحل دم امرىء يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بإحدى ثلاث النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة ، ونقض الحصر بدفع الصائل فإن ذلك ربما أدى إلى القتل ، ودفع بأن المراد ما يكون بنفسه مقصوداً به القتل وما ذكر المقصود به الدفع وقد يفضي إليه في الجملة ، والحق عدم انحصار الحق فيما ذكر وهو في الخبر ليس بحقيقي ، وقد ذهب الشافعية إلى أن ترك الصلاة كسلاً مبيح للقتل وكذا اللواطة عند جمع من الأجلة .

﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ بغير حق يوجب قتله أو يبيحه للقاتل حتى أنه لا يعتبر إباحته لغير القاتل فقد نص علماؤنا أن من عليه القصاص إذا قتله غير من له القصاص يقتص له ولا يفيد قول الولي أنا أمرته بذلك إلا أن يكون الأمر ظاهراً ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ ﴾ لمن يلي أمره من الوارث أو السلطان عند عدم الوارث ، واقتصار البعض على الأول رعاية للأغلب ﴿ سلطانا ﴾ أي تسلطاً واستيلاء على القاتل بمؤاخذته بأحد أمرين القصاص أو الدية ، وقد تتعين الدية كما في القتل الخطا والمقتول خطا مقتول ظلماً بالمعنى الذي أشير إليه وإن قلنا لا إثم في الخطا لحديث " رفع عن أمتي الخطا " وشرع الكفارة فيه لعدم التثبت واجتناب ما يؤدي إليه فليتأمل .

واستدل بتفسير الولي بالوارث على أن للمرأة دخلاً في القصاص .

وقال القاضي إسماعيل: لا تدخل لأن لفظه مذكر ﴿ فَلَا يُسْرِف ﴾ أي الولي ﴿ فّى القتل ﴾ أي فلا يتجاوز الحد المشروع فيه بأن يقتل اثنين مثلاً والقاتل واحد كعادة الجاهلية فإنهم كانوا إذا قتل منهم واحد قتلوا قاتله وقتلوا معه غيره، ومن هنا قال مهلهل:

كل قتيل في كليب غره...

حتى ينال القتل آل مره

وإلى هذا ذهب ابن جبير وأخرجه المنذر من طريق أبي صالح عن ابن عباس أو بأن يقتل غير القاتل ويترك القاتل.

وروى هذا عن زيد بن أسلم؛ فقد أخرج البيهقي في سننه عنه أن الناس ف يالجاهلية إذا قتل من ليس شريفاً شريفاً لم يقتلوه به وقتلوا شريفاً من قومه فنهى عن ذلك بأن يزيد على القتل المثلة كما قيل.

وأخرج ابن جرير وغيره عن طلق بن حبيب أنه قال: لا يقتل غير قاتله ولا يمثل به، وقيل بأن يقتل القاتل والمشروع عليه الدية.

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره عن قتادة أنه قال في الآية: من قتل بحديدة قتل بحديدة ومن قتل

بخشبة قتل بخشبة ومن قتل بحجر قتل بحجر ولا يقتل غير القاتل .

وفيه القول بأن القتل بالمثقل يوجب القصاص وهو خلاف مذهبنا .

وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ فَلا ﴾ بالخطاب للولي التفاتاً ، وقرأ أبو مسلم صاحب الدولة ﴿ سلطانا فَلاَيُسْرِف ﴾ بالرفع على أنه خبر في معنى الأمر وفيه مبالغة ليس في الأمر ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ تعليل للنهي ، والضمير للولي أيضاً على معنى أنه تعالى نصره بأن أوجب القصاص أو الدية وأمر الحكام بمعونته في استيفاء حقه فلا يبغ ما وراء حقه ولا يخرج من دائرة أمرة الناصر .

وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

(50/455)

وابن أبي حاتم عن مجاهد أن الضمير للمقتول على معنى أن الله تعالى نصره في الدنيا بأخذ القصاص أو الدية وفي الأخرى بالثواب فلا يسرف وليه في شأنه ، وجوز أن يعود على الذي أسرف به الولي أي أنه تعالى نصره بإيجاب القصاص والتعزيز والوزر على من أسرف في

شأنه ، وقيل ضمير يسرف للقاتل أي مريد القتل ومباشرة ابتداء ونسبه في "الكشاف" إلى مجاهد ، والضميران في التعليل عائدان على الولي أو المقول ، وأيد بقراءة أبي ﴿ فَلا تُسْرِفُواْ ﴾ لأن القاتل متعدد في النظم في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ ﴾ والأصل توافق القراءتين ، ولم تعينه لأن الولي عام في الآية فهو في معنى الأولياء فيجوز جمع ضميره بهذا الاعتبار ويكون التفاتاً ، وتوافق القراءتين ليس بلازم ، والمعنى فلا يسرف على نفسه في شأن القتل بتعريضها للهلاك العاجل والآجل .

وفي "الكشف" أنه ردع للقاتل على أسلوب ﴿ وَلَكُمْ فِي القصاص حياة ﴾ [البقرة : 179] والنهي عن الإسراف لتصوير أن القتل بغير حق كيف ما قدر إسراف ، ومعناه فلا يقتل بغير حق وأنت تعلم أن هذا الوجه غير وجيه فلا ينبغي التعويل عليه ، وهذه الآية كما أخرج غير واحد عن الضحاك أول آية نزلت في شأن القتل وقد علمت الأصح أنه أكبر الكبائر بعد الشرك ، وكون القتل العمد العدوان من الكبائر مجمع عليه ، وعد شبه العمد منها هو ما صرح به الهروي وشريح الروياني ، وأما الخطأ فالصواب أنه ليس بمعصية فضلاً عن كونه ليس بكبيرة فليحفظ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(51/455)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (25) ﴾

قوله : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ﴾ أي : بما في ضمائركم من الإخلاص وعدمه في كل الطاعات ، ومن التوبة من الذنب الذي فرط منكم أو الإصرار عليه ، ويندرج تحت هذا العموم ما في النفس من البرّ والعقوق اندراجاً أوّلياً ؛ وقيل : إن الآية خاصة بما يجب للأبوين من البرّ ، ويحرم على الأولاد من العقوق ، والأوّل أولى اعتباراً بعموم اللفظ ، فلا تخصصه دلالة السياق ولا تقيده ﴿ إِن تَكُونُواْ صالحين ﴾ قاصدين الصلاح ، والتوبة من الذنب ، والإخلاص للطاعة فلا يضركم ما وقع من الذنب الذي تبتم عنه .

﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ أي : الرجاعين عن الذنوب إلى التوبة ، وعن عدم الإخلاص إلى محض الإخلاص .

غفوراً لما فرط منهم من قول أو فعل أو اعتقاد ، فمن تاب تاب الله عليه ، ومن رجع إلى الله رجع الله إليه .

ثم ذكر سبحانه التوصية بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما فقال : ﴿ وَءاتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ والخطاب إما لرسول الله صلى الله عليه وسلم تهييجاً وإلهاباً لغيره من الأمة ، أو لكل من هو صالح لذلك من المكلفين كما في قوله : ﴿ وقضى رَبُّكَ ﴾ [الإسراء : 23] والمراد بذي القربى : ذو القرابة ، وحقهم هو صلة الرحم التي أمر الله بها ، وكرّر

التوصية فيها .

والخلاف بين أهل العلم في وجوب النفقة للقرابة ، أو لبعضهم كالوالدين على الأولاد .

والأولاد على الوالدين معروف ، والذي ينبغي الاعتماد عليه وجوب صلتهم بما تبلغ إليه القدرة وحسبما يقتضيه الحال ﴿ والمساكين ﴾ معطوف على ﴿ ذا القربى ﴾ ، وفي هذا العطف دليل على أن المراد بالحق الحق المالي ﴿ وابن السبيل ﴾ معطوف على المسكين ، والمعنى : وآت من اتصف بالمسكنة ، أو بكونه من أبناء السبيل حقه .

(52/455)

وقد تقدّم بيان حقيقة المسكين وابن السبيل في البقرة ، وفي التوبة ، والمراد في هذه الآية التصدّق عليهما بما بلغت إليه القدرة من صدقة النفل ، أو مما فرضه الله لهما من صدقة الفرض ، فإنهما من الأصناف الثمانية التي هي مصرف الزكاة .

ثم لما أمر سبحانه بما أمر به ها هنا ، نهى عن التبذير فقال : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ التبذير : تفريق المال كما يفرّق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه ، وهو الإسراف المذموم لمجاوزته للحدّ المستحسن شرعاً في الإنفاق ، أو هو الإنفاق في غير الحق ، وإن كان يسيراً .

قال الشافعي : التبذير : إنفاق المال في غير حقه ، ولا تبذير في عمل الخير .

قال القرطبيّ بعد حكايته القول الشافعي هذا : وهذا قول الجمهور .

قال أشهب عن مالك : التبذير هو أخذ المال من حقه ، ووضعه في غير حقه ، وهو الإسراف ، وهو حرام لقوله : ﴿ إِنَّ المبذرين كَانُواْ إخوان الشياطين ﴾ فإن هذه الجملة تعليل للنهي عن التبذير ، والمراد بالأخوة المماثلة التامة ، وتجنب مماثلة الشيطان ولو في خصلة واحدة من خصاله واجب ، فكيف فيما هو أعمّ من ذلك كما يدلّ عليه إطلاق المماثلة ، والإسراف في الإنفاق من عمل الشيطان ، فإذا فعله أحد من بني آدم فقد أطاع الشيطان واقتدى به ﴿ وَكَانَ الشيطان لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ أي : كثير الكفران عظيم التمرّد عن الحق ، لأنه مع كفره لا يعمل إلاّ شراً ، ولا يأمر إلاّ بعمل الشرّ ، ولا يوسوس إلاّ بما لا خير فيه . وفي هذه الآية تسجيل على المبذرين بمماثلة الشياطين ، ثم التسجيل على جنس الشيطان بأنه كفور ، فاقتضى ذلك أن المنذر مماثل للشيطان ، وكل مماثل للشيطان له حكم الشيطان ، وكل شيطان كفور ، فالمبذر كفور .

(53/455)

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ قد تقدّم قريباً أن أصل "إما" هذه مركب من " إن " الشرطية و " ما " الإبهامية ، وأن دخول نون التأكيد على الشرط لمشابهته للنهي ؛ أي : إن أعرضت

عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل لأمر اضطرك إلى ذلك الإعراض ﴿ ابتغاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي لفقد رزق من ربك ، ولكنه أقام المسبب الذي هو ابتغاء رحمة الله مقام السبب الذي هو فقد الرزق ، لأن فاقد الرزق مبتغٍ له ، والمعنى : وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح الله به عليك ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ﴾ أي : قولاً سهلاً ليناً كالوعد الجميل أو الاعتذار المقبول .

قال الكسائي : يسرت له القول أي : لينته .

قال الفراء : معنى الآية إن تعرض عن السائل إضاقة وإعساراً ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ : عدهم عدة حسنة .

ويجوز أن يكون المعنى : وإن تعرض عنهم ولم تنفعهم لعدم استطاعتك فقل لهم قولاً ميسوراً ، وليس المراد هنا الإعراض بالوجه .

وفي هذه الآية تأديب من الله سبحانه لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون .

ربما يردّون ، ولقد أحسن من قال :

إنْ لا يَكنْ وَرِقٌ يَوْماً أَجُودُ بها . . . لِلسائِلين فإنِّي لينُ العُودِ

لا يَعْدم السائِلونَ الخَيْرَ مِنْ خُلقي . . . إمَّا نَوالٌ وإمَّا حُسنُ مَرْدُودِ

لما ذكر سبحانه أدب المنع بعد النهي عن التبذير بيّن أدب الإنفاق فقال : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ وهذا النهي يتناول كل مكلف ، سواء كان

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تعريضاً لأمته وتعليماً لهم، أو الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين.

والمراد: النهي للإنسان بأن يمسك إمساكاً يصير به مضيقاً على نفسه وعلى أهله، ولا يوسع في الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه، بحيث يكون به مسرفاً، فهو نهى عن جانبي الإفراط والتفريط.

ويتحصل من ذلك مشروعية التوسط، وهو العدل الذي ندب الله إليه:

ولا تك فيها مُفْرِطاً أو مفرِّطا . . . كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقد مثّل الله سبحانه في هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة إلى عنقه، بحيث لا يستطيع التصرّف بها، ومثّل حال من يجاوز الحدّ في التصرف بحال من يبسط يده بسطاً لا يتعلق بسببه فيها شيء مما تقبض الأيدي عليه، وفي هذا التصوير مبالغة بليغة.

ثم بيّن سبحانه غائلة الطرفين المنهيّ عنهما فقال: ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا ﴾ عند الناس بسبب ما أنت عليه من الشح ﴿ مَّحْسُوراً ﴾ بسبب ما فعلته من الإسراف، أي: منقطعاً عن المقاصد بسبب الفقر، والمحسور في الأصل: المنقطع عن السير، من حسره السفر إذا بلغ

منه ، والبعير الحسير : هو الذي ذهبت قوّته فلا انبعاث به ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : 4] .

أي : كليل منقطع ؛ وقيل : معناه نادماً على ما سلف ، فجعله هذا القائل من الحسرة التي هي الندامة ، وفيه نظر ، لأن الفاعل من الحسرة : حسران .

ولا يقال محسور إلاّ للملوم .

ثم سلى رسوله والمؤمنين بأن الذين يرهقهم من الإضافة ليس لهوانهم على الله سبحانه ، ولكن لمشيئة الخالق الرازق فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : يوسعه على بعض ويضيقه على بعض لحكمة بالغة لا لكون من وسع له رزقه مكرماً عنده ، ومن ضيقه عليه هائناً لديه .

قيل : ويجوز أن يراد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذي لا تفنى خزائنه .

فأما عباده فعليهم أن يقتصدوا .

ثم علل ما ذكره من البسط للبعض والتضييق على البعض بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أي : يعلم ما يسرون وما يعلنون ، لا يخفى عليه من ذلك خافية ، فهو الخبير

بأحوالهم ، البصير بكيفية تدبيرهم في أرزاقهم ، وفي هذه الآية دليل على أنه المتكفل بأرزاق عباده ، فلذلك قال بعدها : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ أملق الرجل : لم يبق له إلاّ الملقات ، وهي الحجارة العظام الملس ، قال الهذلي يصف صائداً :

أتيح لها أقيدر ذو خشيف . . . إذا سامت على الملقات ساما

الأقيدر تصغير الأقدر : وهو الرجل القصير ، والخشيف من الثياب : الخلق ، وسامت : مرّت ، ويقال : أملق : إذا افتقر وسلب الدهر ما بيده .

قال أوس :

وأملق ما عندي خطوب تنبل . . . نهاهم الله سبحانه عن أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر ، وقد كانوا يفعلون ذلك ، ثم بيّن لهم أن خوفهم من الفقر حتى يبلغوا بسبب ذلك إلى قتل الأولاد لا وجه له ، فإن الله سبحانه هو الرازق لعباده ، يرزق الأبناء كما يرزق الآباء ، فقال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ ولستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع ، وقد مرّ مثل هذه الآية في الأنعام ثم علل سبحانه النهي عن قتل الأولاد لذلك بقوله : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ .

قرأ الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وبالهمز المقصور .

وقرأ ابن عامر (خطأ) بفتح الخاء والطاء والقصر في الهمز ، يقال : خطىء في دينه خطئاً : إذا أثم ، وأخطأ : إذا سلك سبيل خطأً عامداً أو غير عامد .

قال الأزهري ، خطئ يخطأ خطئًا ، مثل : أثم يأثم إثماً ، إذا تعمد الخطأ ، وأخطأ : إذا لم يتعمد إخطاء وخطأ ، قال الشاعر :

دَعِيني إنَّما خَطْئِي وصَوْبِي . . . عليَّ وأَنَّ مَا أهلكتُ ، مالُ

والخطأ : الاسم يقوم مقام الأخطاء ، وفيه لغتان : القصر ، وهو الجيد ، والمدّ وهو قليل .

وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومد الهمز .

(56/455)

قال النحاس : ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً ، وكذلك جعلها أبو حاتم غلطاً .

وقرأ الحسن (خطا) بفتح الخاء والطاء منوّنة من غير همز .

ولما نهى سبحانه عن قتل الأولاد المستدعي لإفناء النسل ، ذكر النهي عن الزنا المفضي إلى ذلك لما فيه من اختلاط الأنساب فقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزنى ﴾ وفي النهي عن قربانه بمباشرة مقدماته نهي عنه بالأولى ، فإن الوسيلة إلى الشيء إذا كانت حراماً كان المتوسل إليه حراماً بفحوى الخطاب ، والزنى فيه لغتان : المد ، والقصر .

قال الشاعر :

كَانَتْ فَرِيضَةُ مَا تَقولُ كَمَا . . . كان الزناء فريضةَ الرَّجْمِ

ثم علل النهي عن الزنا بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ أي : قبيحاً متبالغاً في القبح ، مجاوزاً للحدّ ﴿ وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ أي : بئس طريقاً طريقه ، وذلك لأنه يؤدي إلى النار ، ولا خلاف في كونه من كبائر الذنوب .

وقد ورد في تقبيحه والتنفير عنه من الأدلة ما هو معلوم .

ولما فرغ من ذكر النهي عن القتل لخصوص الأولاد ، وعن النهي عن الزنا الذي يفضي إلى ما يفضي إليه قتل الأولاد ، من اختلاط الأنساب ، وعدم استقرارها ، نهى عن قتل الأنفس المعصومة على العموم فقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النفس التى حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق ﴾ .

والمراد بالتي حرّم الله : التي جعلها معصومة بعصمة الدين أو عصمة العهد .

والمراد بالحق الذي استثناه : هو ما يباح به قتل الأنفس المعصومة في الأصل ، وذلك كالردّة ، والزنا من المحصن ، وكالقصاص من القاتل عمداً عدواناً ، وما يلتحق بذلك .

والاستثناء مفرّغ ، أي : لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلاّ بسبب متلبس بالحق ، أو إلاّ متلبسين بالحق ، وقد تقدّم الكلام في هذا في الأنعام .

ثم بين حكم بعض المقتولين بغير حق فقال : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ أي : لا بسبب من الأسباب المسوّغة لقتله شرعاً ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سلطانا ﴾ أي : لمن يلي أمره من ورثته إن كانوا موجودين ، أو ممن له سلطان إن لم يكونوا موجودين ، والسلطان : التسلط على القاتل ، إن شاء قتل ، وإن شاء عفا ، وإن شاء أخذ الدية .

ثم لما بيّن إباحة القصاص ، لمن هو مستحق لدم المقتول ، أو ما هو عوض عن القصاص نهاه عن مجاوزة الحدّ فقال : ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّى القتل ﴾ أي : لا يجاوز ما أباحه الله له ، فيقتل بالواحد اثنين أو جماعة ، أو يمثل بالقاتل أو يعذبه .

قرأ الجمهور ﴿ لا يسرف ﴾ بالياء التحتية ، أي : الولي ، وقرأ حمزة والكسائي (تسرف) بالتاء الفوقية ، وهو خطاب للقاتل الأوّل ، ونهي له عن القتل أي : فلا تسرف أيها القاتل بالقتل فإن عليك القصاص مع ما عليك من عقوبة الله وسخطه ولعنته .

وقال ابن جرير : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللأئمة من بعده ، أي : لا تقتل يا محمد غير القاتل ، ولا يفعل ذلك الأئمة بعدك .

وفي قراءة أبي : ولا تسرفوا ، ثم علل النهي عن السرف فقال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ أي : مؤيداً معاناً ، يعني : الولي ، فإن الله سبحانه قد نصره بإثبات القصاص له بما أبرزه من الحجج ، وأوضحه من الأدلة ، وأمر أهل الولايات بمعونته والقيام بحقه حتى يستوفيه ،

ويجوز أن يكون الضمير راجعاً إلى المقتول ، أي : إن الله نصره بوليّه ، قيل : وهذه الآية من أوّل ما نزل من القرآن في شأن القتل لأنها مكية .

(58/455)

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ إِن تَكُونُواْ صالحين ﴾ قال : تكون البادرة من الولد إلى الوالد ، فقال الله : ﴿ إِن تَكُونُواْ صالحين ﴾ إن تكن النية صادقة ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ للبادرة التي بدرت منه ، وأخرج ابن أبي الدنيا ، والبيهقي في الشعب عنه في قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ قال : الرجاعين إلى الخير .

وأخرج سعيد بن منصور ، وهناد ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي عن الضحاك في الآية ، قال : الرجاعين من الذنب إلى التوبة ، ومن السيئات إلى الحسنات .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لِلأَوَّابِينَ ﴾ قال : للمطيعين المحسنين .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عنه ، قال : للتوابين .

وأخرج البخاري في تاريخه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَءاتِ ذَا

القربى حَقَّهُ ﴾ قال : أمره بأحقّ الحقوق ، وعلمه كيف يصنع إذا كان عنده ، وكيف يصنع إذا لم يكن عنده ، فقال : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابتغاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ قال : إذا سألوك وليس عندك شيء انتظرت رزقاً من الله ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ﴾ يكون إن شاء الله يكون شبه العدة .

قال سفيان : والعدة من النبي صلى الله عليه وسلم دين .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال : هو أن تصل ذا القرابة ، وتطعم المسكين ، وتحسن إلى ابن السبيل .

وأخرج ابن جرير عن علي بن الحسين أنه قال لرجل من أهل الشام : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم ، قال : فما قرأت في بني إسرائيل : ﴿ وَءاتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ ؟ قال : وإنكم للقرابة التي أمر الله أن يؤتي حقهم ؟ قال : نعم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في الآية ، قال : والقربى : قربى بني عبد المطلب .

(59/455)

وأقول : ليس في السياق ما يفيد هذا التخصيص ، ولا دلّ على ذلك دليل ، ومعنى النظم القرآني واضح ، إن كان الخطاب مع كل من يصلح له من الأمة ، لأن معناه أمر كل مكلف

متمكن من صلة قرابته بأن يعطيهم حقهم وهو الصلة التي أمر الله بها .

وإن كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فإن كان على وجه التعريض لأمته فالأمر فيه كالأوّل ، وإن كان خطاباً له من دون تعريض ، فأمته أسوته ، فالأمر له صلى الله عليه وسلم بإيتاء ذي القربى حقه ، أمر لكل فرد من أفراد أمته ، والظاهر أن هذا الخطاب ليس خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم بدليل ما قبل هذه الآية ، وهي قوله : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إياه ﴾ [الأسراء : 23] وما بعدها ، وهي قوله : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ المبذرين كَانُواْ إخوان الشياطين ﴾ .

وفي معنى هذه الآية الدالة على وجوب صلة الرحم أحاديث كثيرة .

وأخرج أحمد ، والحاكم وصححه عن أنس : أن رجلاً قال : يا رسول الله إني ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة ، فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع ؟ قال : " تخرج الزكاة المفروضة ، فإنها طهرة تطهرك وتصل أقاربك وتعرف حقّ السائل والجار والمسكين " ، فقال : يا رسول الله أقلل لي ؟ قال : " فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً " قال : حسبي يا رسول الله .

وأخرج البزار ، وأبو يعلى ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَءَاتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة فأعطاها فدك .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ وَءاتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة فدك .

قال ابن كثير بعد أن ساق حديث أبي سعيد هذا ما لفظه : وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده ، لأن الآية مكية ، وفدك إنما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة ، فكيف يلتئم هذا مع هذا ؟ انتهى .

(60/455)

وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، والبخاري في الأدب ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم ، وصححه ، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَلاَ تُبَذّرْ تَبْذِيرًا ﴾ قال : التبذير إنفاق المال في غير حقه .

وأخرج ابن جرير عنه قال : كنا - أصحاب محمد - نتحدّث أن التبذير : النفقة في غير حقه .

وأخرج سعيد بن منصور ، والبخاري في الأدب ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ المبذرين ﴾ قال : هم الذين ينفقون المال في غير حقه .

وأخرج البيهقي في الشعب عن عليّ قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ﴾ قال : العدة .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر عن يسار أبي الحكم قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم برّ من العراق ، وكان معطاء كريماً ، فقسمه بين الناس ، فبلغ ذلك قوماً من العرب ، فقالوا : إنا نأتي النبي صلى الله عليه وسلم نسأله ، فوجدوه وقد فرغ منه ، فأنزل الله ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ قال : محبوسة ﴿ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط فَتَقْعُدَ مَلُومًا ﴾ يلومك الناس ﴿ مَّحْسُوراً ﴾ ليس بيدك شيء .

أقول : ولا أدري كيف هذا ؟ فالآية مكية ، ولم يكن إذ ذاك عرب يقصدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يحمل إليه شيء من العراق ولا مما هو أقرب منه ، على أن فتح العراق لم يكن إلاّ بعد موته صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير عن المنهال بن عمرو : بعثت امرأة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بابنها فقالت : قل له : اكسني ثوباً ، فقال : " ما عندي شيء " ، فقالت : ارجع إليه فقل له : اكسني قميصك ، فرجع إليه ، فنزع قميصه فأعطاها إياه ، فنزلت ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً ﴾ الآية .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه .

وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة وضرب بيده : " أنفقي ما على ظهر كفي " ، قالت : إذن لا يبقى شيء .

قال ذلك ثلاث مرات ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً ﴾ الآية ، ويقدح في ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لم يتزوّج بعائشة إلاّ بعد الهجرة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً ﴾ قال : يعني بذلك : البخل .

وأخرجا عنه في الآية قال : هذا في النفقة ، يقول : لا تجعلها مغلولة لا تبسطها بخير ، ولا تبسطها كل البسط ، يعني : التبذير ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا ﴾ ، يلوم نفسه على ما فاته من ماله ﴿ مَّحْسُوراً ﴾ ذهب ماله كله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ قال : ينظر له ، فإن كان الغنى خيراً له ، أغناه ، وإن كان الفقر خيراً له ، أفقره .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ خَشْيَةَ إملاق ﴾ قال : مخافة الفقر والفاقة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه في قوله : ﴿ خطأ ﴾ قال : خطيئة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنا ﴾ قال : يوم نزلت هذه الآية لم يكن حدود ، فجاءت بعد ذلك الحدود في سورة النور .

(62/455)

وأخرج أبو يعلى ، وابن مردويه عن أبيّ بن كعب أنه قرأ : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنا إِنَّهُ كَانَ فاحشة وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً إِلاَّ مَن تَابَ فَإِنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ فذكر لعمر ، فأتاه فسأله ، فقال : أخذتها من فيّ رسول الله ، وليس لك عمل إلاّ الصفق بالبقيع .

وقد ورد في الترهيب عن فاحشة الزنا أحاديث كثيرة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن الضحاك في قوله : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس .

..

﴾ الآية ، قال : هذا بمكة ونبي الله صلى الله عليه وسلم بها ، وهو أوّل شيء نزل من القرآن في شأن القتل ، كان المشركون من أهل مكة يغتالون أصحاب رسول الله صلى الله

عليه وسلم فقال الله : من قتلكم من المشركين ، فلا يحملنكم قتله إياكم على أن تقتلوا له أباً أو أخاً أو واحداً من عشيرته وإن كانوا مشركين ، فلا تقتلوا إلاّ قاتلكم ، وهذا قبل أن تنزل براءة ، وقبل أن يؤمر بقتال المشركين ، فذلك قوله : ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ يقول : لا تقتل غير قاتلك ، وهي اليوم على ذلك الموضع من المسلمين لا يحل لهم أن يقتلوا إلاّ قاتلهم .

وأخرج البيهقي في سننه عن زيد بن أسلم أن الناس في الجاهلية كانوا إذا قتل الرجل من القوم رجلاً لم يرضوا حتى يقتلوا به رجلاً شريفاً ، إذا كان قاتلهم غير شريف لم يقتلوا قاتلهم وقتلوا غيره ، فوعظوا في ذلك بقول الله سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النفس . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سلطانا ﴾ قال : بينة من الله أنزلها ، يطلبها وليّ المقتول ، القود أو العقل ، وذلك السلطان .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق مجاهد عنه ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ ﴾ قال : لا يكثر في القتل .

وأخرج ابن المنذر من طريق أبي صالح عنه أيضاً : لا يقاتل إلاّ قاتل رحمه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ فتح القدير جـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمي :

قال المهايمي : ولما وجب إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ، لحفظ أرواحهم ، فالأولاد بحفظ الأرواح أولى ، لذلك قال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾

نهي لهم عما كانوا يفعلونه في الجاهلية من قتلهم أولادهم . وهو وأدهم بناتهم . أي : دفنهن في الحياة . كانوا يئدونهن خشية الفاقة وهي الإملاق والفقر ، بالإنفاق عليهم إذا كبروا . فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم بقوله : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ ﴾ أي : نحن المختصون بإعطاء رزقهم في الصغر والكبر ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي : الآن بإغنائكم . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ ﴾ أي : للإملاق الحاضر والخشية في المستقبل : ﴿ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ أي : لإفضائه إلى تخريب العالم . وأي خطأ أكبر من ذلك .

تنبيه :

دل قوله تعالى : ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ على أن ذلك هو الحامل لهم على الوأد ، لا خوف

العار كما زعموا . قال المبرد في " الكامل " : كانت العرب في الجاهلية تئد البنات ، ولم يكن هذا في جميعها . إنما كان في تميم بن مرّ ، وقيس ، وأسد ، وهذيل ، وبكر بن وائل .

(64/455)

ثم قال : ودل على ما من أجله قتلوا البنات فقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ وقال : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ [الممتحنة : 12] ، فهذا خبر بيِّنٌ أن ذلك للحاجة . وقد روى بعضهم : أنهم إنما فعلوا ذلك أنفة . وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى ؛ أن تميماً منعت النعمان الإتاوة . فوجه إليهم أخاه الريان بن المنذر ، فاستاق النعم وسبى الذراري . فوفدت إليه بنو تميم . فلما رآها أحب البقيا . فأناب القوم وسألوه النساء . فقال النعمان : كل امرأة اختارت أباها ردت إليه ، وإن اختارت صاحبها تركت عليه . فكلهن اختار أباها ، إلا ابنة القيس بن عاصم فإنها اختارت صاحبها عَمْرو بن المشمرج . فنذر قيس ألا تولد له ابنة إلا قتلها . فهذا شيء يعتّل به من وأد ، ويقول : فعلناه أنفة ، وقد أكذب ذلك بما أنزل الله تعالى في القرآن .

وقال ابن عباس رحمه الله (في تأويل هذه الآية) : وكانوا لا يورثون ولا يتخذون إلا من

طاعن بالرمح ومنع الحريم . يريد : الذكران . والخطأ كالإثم ، لفظاً ومعنى .

ولما نهى عن قتل الأولاد ، نهى عن قطع النسل بقوله سبحانه :

(65/455)

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ أي : فعلة قبيحة متناهية في القبح . توجب النفرة عن صاحبه ، والتفرقة بين الناس : ﴿ وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ أي : بئس طريقاً طريقه . فإنه غصب الأبضاع المؤدي إلى اختلاف أمر الأنساب ، وهيجان الفتن غصباً من غير سبب ، والسبب ممكن ، وهو الصهر الذي شرعه الله . وقال المهايمي : ﴿ سَاءَ سَبِيلاً ﴾ لقضاء الشهوة [في المطبوع الشهرة] التي خلقت لطلب النسل ، بتضييعه . ثم ذكر ما هو أعظم في التنفير والتفرقة فقال تعالى مجده :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ أي : قتلها ، وهي نفس الإنسان : ﴿ إِلَّا بِالحَقِّ ﴾ أي : إلا بسبب الحق ، فيتعلق بـ : ﴿ لَا تَقْتُلُوا ﴾ أو حال من فاعل (لا تقتلوا) أو من مفعوله . وجوّز تعلقه بـ (حرّم) أي : حرَّم قتلها إلا بالحق ، وحقها أن لا تقتل إلا بكفر بعد إسلام ، أو زنى بعد إحصان ، أو قوداً بنفس : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾ أي : ومن قتل بغير حق ، مما تقدم ، فقد

جعلنا لوليه، الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه: ﴿ سُلْطَاناً ﴾ أي: تسلطاً على القاتل في الاقتصاص منه. أو حجة يثب بها عليه، وحينئذ فلا يسرف في القتل. أي: فلا يقتل غير القاتل ولا اثنين، والقاتل واحد، كعادة الجاهلية. كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة. وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾ تعليل للنهي. والضمير للولي. يعني: حسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له القصاص، فلا يستزد على ذلك. انتهى. اهـ

﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 448.477 ﴾

(66/455)

وقال ابن عاشور:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31) ﴾

عطف جملة حكم على جملة حكم للنهي عن فعل ينشأ عن اليأس من رزق الله.

وهذه الوصية السابعة من الأحكام المذكورة في آية ﴿ وقضى ربك ﴾ الآية [الإسراء: 23].

وغُيِّر أسلوب الإضمار من الإفراد إلى الجمع لأن المنهي عنه هنا من أحوال الجاهلية زجراً

لهم عن هذه الخطيئة الذميمة ، وتقدم الكلام على نظير هذه الآية في سورة الأنعام ؛ ولكن بين الآيتين فرقاً في النظم من وجهين:

الأول : ﴾ أنه قيل هنا ﴿ خشية إملاق ﴾ وقيل في آية الأنعام ﴿ من إملاق ﴾ [الأنعام : 151] .

ويقتضي ذلك أن الذين كانوا يئدون بناتهم يئدونهن لغرضين:

إما لأنهم فقراء لا يستطيعون إنفاق البنت ولا يرجون منها إن كبرت إعانة على الكسب فهم يئدونها لذلك ، فذلك مورد قوله في الأنعام من إملاق ﴾ ، فإن (من) التعليلية تقتضي أن الإملاق سبب قتلهن فيقتضي أن الإملاق موجود حين القتل .

وإما أن يكون الحامل على ذلك ليس فقر الأب ولكن خشية عروض الفقر له أو عروض الفقر للبنت بموت أبيها ، إذ كانوا في جاهليتهم لا يورثون البنات ، فيكون الدافع للوأد هو توقع الإملاق ، كما قال إسحاق بن خلف ، شاعر إسلامي قديم:

إذا تذكرت بنتي حين تندبني . . .

فاضت لعبرة بنتي عبرتي بدم

أحاذر الفقر يوماً أن يلم بها . . .

فيهتك السترَ عن لحم على وضم

تهوَى حياتي وأهوَى موتها شفقا . . .

والموتُ أكرم نزّال على الحُرم

أخشى فظاظة عمّ أو جفاء أخ. . .

وكنتُ أخشى عليها من أذى الكلم

فلتحذير المسلمين من آثار هذه الخواطر ذكروا بتحريم الوأد وما في معناه.

وقد كان ذلك في جملة ما تؤخذ عليه بيعة النساء المؤمنات كما في آية سورة الممتحنة.

ومن فقرات أهل الجاهلية: دفن البنات.

من المكرَمات.

(67/455)

وكلتا الحالتين من أسباب قتل الأولاد تستلزم الأخرى وإنما التوجيه للمنظور إليه بادىء ذي بدء.

الوجه الثاني: فمن أجل هذا الاعتبار في الفَرْق للوجه الأول قيل هنالك ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ بتقديم ضمير الآباء على ضمير الأولاد، لأن الإملاق الدافع للوأد المحكي به في آية الأنعام هو إملاق الآباء فقدم الإخبار بأن الله هو رازقهم وكمل بأنه رازق بناتهم.

وأما الإملاق المحكي في هذه الآية فهو الإملاق المخشي وقوعه.

والأكثر أنه توقع إملاق البنات كما رأيت في الأبيات ، فلذلك قُدم الإعلام بأن الله رازق الأبناء وكُمل بأنه رازق آبائهم .

وهذا من نكت القرآن .

والإملاق : الافتقار .

وتقدم الكلام على الوأد عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ﴾ في سورة [الأنعام : 137] .

وجملة نحن نرزقهم ﴾ معترضة بين المتعاطفات .

وجملة ﴿ إن قتلهم كان خطأ كبيراً ﴾ تأكيد للنهي وتحذير من الوقوع في المنهي ، وفعل ﴿ كان ﴾ تأكيد للجملة .

والمراد بالأولاد خصوص البنات لأنهن اللاتي كانوا يقتلونهن وأداً ، ولكن عبر عنهن بلفظ الأولاد في هذه الآية ونظائرها لأن البنت يقال لها : ولد .

وجرى الضمير على اعتبار اللفظ في قوله ﴿ نرزقهم ﴾ .

و(الخِطء) بكسر الخاء وسكون الطاء مصدر خطىء بوزن فرح ، إذا أصاب إثماً ، ولا يكون الإثم إلا عن عمد ، قال تعالى : ﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ [القصص : 8] وقال : ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ [العلق : 16] .

وأما الخَطَأ بفتح الخاء والطاء فهو ضد العمد .

وفعله : أخطأ .

واسم الفاعل مُخطىء ، قال تعالى : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ﴾ [الأحزاب : 5] .

وهذه التفرقة هي سر العربية وعليها المحققون من أيمتها .

وقرأ الجمهور خطأ ﴿ بكسر الخاء وسكون الطاء بعدها همزة ، أي إثماً .

وقرأه ابن ذكوان عن ابن عامر ، وأبو جعفر ﴿ خَطَأً ﴾ بفتح الخاء وفتح الطاء .

(68/455)

والخطأ ضد الصواب ، أي أن قتلهم محض خَطَأ ليس فيه ما يعذر عليه فاعله .

وقرأه ابن كثير ﴿ خِطَاءً ﴾ بكسر الخاء وفتح الطاء وألف بعد الطاء بعده همزة ممدوداً .

وهو فعال من خَطِىء إذا أجرم ، وهو لغة في خِطْء ، وكأن الفعال فيها للمبالغة .

وأكد بـ (إن) لتحقيقه رداً على أهل الجاهلية إذ كانوا يزعمون أن وأد البنات من السداد ، ويقولون : دفن البنات من المَكرمات .

وأكد أيضاً بفعل (كان) لإشعار (كان) بأن كونه إثماً أمراً استقر .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) ﴾

عطف هذا النهي على النهي عن وأد البنات إيماء إلى أنهم كانوا يعدون من أعذارهم في وأد البنات الخشية من العار الذي قد يلحق من جراء إهمال البنات الناشىء عن الفقر الرامي بهن في مهاوي العهر، ولأن في الزنى إضاعة نسب النسل بحيث لا يعرف للنسل مرجع يأوي إليه وهو يشبه الوأد في الإضاعة.

وجرى الإضمار فيه بصيغة الجمع كما جرى في قوله: ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ [الإسراء: 31] لمثل ما وجه به تغيير الأسلوب هنالك فإن المنهي عنه هنا كان من غالب أحوال أهل الجاهلية.

وهذه الوصية الثامنة من الوصايا الإلهية بقوله تعالى: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [الإسراء: 23].

والقرب المنهي عنه هو أقل الملابسة، وهو كناية عن شدة النهي عن ملابسة الزنا، وقريب من هذا المعنى قولهم: ما كاد يفعل.

والزنى في اصطلاح الإسلام مجامعة الرجل امرأة غير زوجة له ولا مملوكةٍ غير ذات الزوج.

وفي الجاهلية الزنى: مجامعة الرجل امرأة حرة غير زوج له وأما مجامعة الأمة غير المملوكة للرجل فهو البغاء.

وجملة إنه كان فاحشة ﴾ تعليل للنهي عن ملابسته تعليلاً مبالغاً فيه من جهات بوصفه بالفاحشة الدال على فَعلة بالغة الحد الأقصى في القبح ، وبتأكيد ذلك بحرف التوكيد ، وبإقحام فعل (كان) المؤذن بأن خبره وصف راسخ مستقر ، كما تقدم في قوله : ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ [الإسراء : 27] .

والمراد : أن ذلك وصف ثابت له في نفسه سواء علمه الناس من قبل أم لم يعلموه إلا بعد نزول الآية .

وأتبع ذلك بفعل الذم وهو ساء سبيلا ﴾ ، والسبيل : الطريق .

وهو مستعار هنا للفعل الذي يلازمه المرء ويكون له دأباً استعارة مبنية على استعارة السير للعمل كقوله تعالى : ﴿ سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ [طه : 21] ، فبني على استعارة السير للعمل استعارة السبيل له بعلاقة الملازمة .

وقد تقدم نظيرها في قوله : ﴿ إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا ﴾ في سورة [النساء : 22] .

وعناية الإسلام بتحريم الزنى لأن فيه إضاعة النسب وتعريض النسل للإهمال إن كان الزنى بغير متزوجة وهو خلل عظيم في المجتمع ، ولأن فيه إفساد النساء على أزواجهن والأبكار على أوليائهن ، ولأن فيه تعريضَ المرأة إلى الإهمال بإعراض الناس عن تزوجها ، وطلاق

زوجها إياها ، ولما ينشأ عن الغيرة من الهرج والتقاتل ، قال امرؤ القيس :

عليّ حراصا لو يسرون مقتلي

فالزنى مئنة لإضاعة الأنساب ومَظَنّة للتقاتل والتهارج فكان جديراً بتغليظ التحريم قصداً وتوسلاً .

ومن تأمل ونظر جزم بما يشتمل عليه الزنى من المفاسد ولو كان المتأمل ممن يفعله في الجاهلية فقبحه ثابت لذاته ، ولكن العقلاء متفاوتون في إدراكه وفي مقدار إدراكه ، فلما أيقظهم التحريم لم يبق للناس عذر .

وقد زعم بعض المفسرين أن هذه الآية مدنية كما تقدم في صدر السورة ولا وجه لذلك الزعم .

وقد أشرنا إلى إبطال ذلك في أول السورة .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

معلومة حالة العرب في الجاهلية من التسرع إلى قتل النفوس فكان حفظ النفوس من أعظم القواعد الكلية للشريعة الإسلامية .

ولذلك كان النهي عن قتل النفس من أهم الوصايا التي أوصى بها الإسلام أتباعه في هذه الآيات الجامعة .

وهذه هي الوصية التاسعة .

والنفس هنا الذات كقوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء : 29] وقوله : ﴿ أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ﴾ [المائدة : 32] وقوله : ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ [لقمان : 34] .

وتطلق النفس على الروح الإنساني وهي النفس الناطقة .

والقتل : الإماتة بفعل فاعل ، أي إزالة الحياة عن الذات .

وقوله : حرم الله ﴾ حُذف العائد من الصلة إلى الموصول لأنه ضمير منصوب بفعل الصلة وحذفه كثير .

والتقدير : حرمها الله .

وعلق التحريم بعين النفس ، والمقصود تحريم قتلها .

ووصفت النفس بالموصول والصلة بمقتضى كون تحريم قتلها مشهوراً من قبلِ هذا النهي ، إما لأنه تقرر من قبل بآيات أُخرى نَزلت قبل هذه الآية وقبل آية الأنعام حكماً مفرقاً وجمعت الأحكام في هذه الآية وآية الأنعام ، وإما لتنزيل الصلة منزلة المعلوم لأنها مما لا ينبغي جهله فيكون تعريضاً بأهل الجاهلية الذين كانوا يستخفون بقتل النفس بأنهم جهلوا ما كان عليهم

أن يعلموه ، تنويهاً بهذا الحكم .

وذلك أن النظر في خلق هذا العالم يهدي العقول إلى أن الله أوجد الإنسان ليعمرُ به الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ [هود : 61] ، فالإقدام على إتلاف نفس هدم لما أراد الله بناءه ، على أنه قد تواتر وشاع بين الأمم في سائر العصور والشرائع من عهد آدم صون النفوس من الاعتداء عليها بالإعدام ، فبذلك وصفت بأنها التي حرم الله ، أي عُرفت بمضمون هذه الصلة .

(71/455)

واستثني من عموم النهي القتل المصاحب للحق ، أي الذي يشهد الحق أن نفساً معينة استحقت الإعدام من المجتمع ، وهذا مجمل يفسره في وقت النزول ما هو معروف من أحكام القَود على وجه الإجمال .

ولما كانت هذه الآيات سيقت مساق التشريع للأمة وإشعاراً بأن سيَكون في الأمة قضاء وحُكم فيما يستقبل أبقي مجملاً حتى تفسره الأحكام المستأنفة من بعد ، مثل آية وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً إلى قوله : ﴿ وأعد له عذاباً عظيماً ﴾ [النساء : 92 93] .

فالباء في قوله : بالحق ﴾ للمصاحبة ، وهي متعلّقة بمعنى الاستثناء ، أي إلا قتلاً ملابساً للحق .

والحق بمعنى العدل ، أو بمعنى الاستحقاق ، أي حَق القتل ، كما في الحديث : " " فإذا قالوها (أي لا إله إلا الله) عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها " .

ولما كان الخطاب بالنهي لجميع الأمة كما دل عليه الفعل في سياق النهي كان تعيين الحق المبيح لقتل النفس موكولاً إلى من لهم تعيين الحقوق .

ولما كانت هذه الآية نازلة قبل الهجرة فتعيين الحق يجري على ما هو متعارف بين القبائل ، وهو ما سيذكر في قوله تعالى عقب هذا : ﴿ ومن قتل مظلوماً ﴾ الآية .

وحين كان المسلمون وقت نزول هذه الآية مختلطين في مكة بالمشركين ولم يكن المشركون أهلاً للثقة بهم في الطاعة للشرائع العادلة ، وكان قد يعرض أن يعتدي أحد المشركين على أحد المسلمين بالقتل ظلماً أمر الله المسلمين بأن المظلوم لا يظلِم ، فقال : ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا ﴾ أي قد جَعل لولي المقتول تصرفاً في القاتل بالقود أو الدية .

والسلطان : مصدر من السلطة كالغُفران ، والمراد به ما استقر في عوائدهم من حكم القود .

وكونه حقاً لولي القتيل يأخذ به أو يعفو أوْ يأخذ الدية ألهمهم الله إليه لئلا ينزوا أولياء القتيل

على القاتل أو ذويه ليقتلوا منهم من لم تجْن يداه قتلاً .

وهكذا تستمر الترات بين أخذ ورد ، فقد كان ذلك من عوائدهم أيضاً .

(72/455)

فالمراد بالجعل ما أرشد الله إليه أهلَ الجاهلية من عادة القود .

والقود من جملة المستثنى بقوله : ﴿ إلا بالحق ﴾ ، لأن القود من القاتل الظالم هو قتل للنفس بالحق .

وهذه حالة خصها الله بالذكر لكثرة وقوع العدوان في بقية أيام الجاهلية ، فأمر الله المسلمين بقبول القود .

وهذا مبدأ صلاح عظيم في المجتمع الإسلامي ، وهو حمل أهله على اتباع الحق والعدل حتى لا يكون الفساد من طرفين فيتفاقم أمره ، وتلك عادة جاهلية .

قال الشميذر الحارثي:

فلسنا كمن كنتم تصيبون سَلّة . . .

فنقبَل ضيماً أو نحكم قاضيا

ولكن حكم السيف فينا مسلط . . .

فنرضَى إذا ما أصبح السيف راضيا

فنهى الله المسلمين عن أن يكونوا مثالاً سيئاً يقابلوا الظلم بالظلم كعادة الجاهلية بل عليهم أن يتبعوا سبيل الإنصاف فيقبلوا القود ، ولذلك قال : ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ .

والسرف : الزيادة على ما يقتضيه الحق ، وليس خاصاً بالمال كما يفهم من كلام أهل اللغة .

فالسرف في القتل هو أن يقتل غير القاتل ، أما مع القاتل وهو واضح كما قال المُهلهل في الأخذ بثأر أخيه كليب:

كل قتيل في كليب غُرّة . . .

حتى يعُمّ القتل آلَ مُرّة

وأما قتل غير القاتل عند العجز عن قتل القاتل فقد كانوا يقتنعون عن العجز عن القاتل بقتل رجل من قبيلة القاتل .

وكانوا يتكايلون الدماء ، أي يجعلون كيلها متفاوتاً بحسب شرف القتيل ، كما قالت كبشة بنتُ معديكرب:

فيقتلَ جَبْرا بامرىءٍ لم يكن له

بَواءً ولكن لا تكايُل بالدم

البواء : الكفء في الدم .

تريد فيقتلَ القاتلَ وهو المسمّى جبراً ، وإن لم يكن كفؤاً لعبد الله أخيها ، ولكن الإسلام أبطل

التكايل بالدم.

وضمير ﴿ يسرف ﴾ بياء الغيبة، في قراءة الجمهور، يعود إلى الولي مظنة السرف في القتل بحسب ما تعودوه.

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف بتاء الخطاب أي خطاب للولي.

(73/455)

وجملة ﴿ إنه كان منصوراً ﴾ استئناف، أي أن ولي المقتول كان منصوراً بحكم القود فلماذا يتجاوز الحد من النصر إلى الاعتداء والظلم بالسرف في القتل.

حذرهم الله من السرف في القتل وذكرهم بأنه جعل للولي سلطاناً على القاتل.

وقد أكد ذلك بحرف التوكيد وبإقحام (كانَ) الدال على أن الخبر مستقر الثبوت.

وفيه إيماء إلى أن من تجاوز حد العدل إلى السرف في القتل لا ينصر.

ومن نكت القرآن وبلاغته وإعجازه الخفي الإتيان بلفظ (سلطان) هنا الظاهر في معنى المصدر، أي السلطة والحق والصالح لإرادة إقامة السلطان، وهو الإمام الذي يأخذ الحقوق من المعتدين إلى المعتدَى عليهم حين تنتظم جامعة المسلمين بعد الهجرة.

ففيه إيماء إلى أن الله سيجعل للمسلمين دولة دائمة، ولم يكن للمسلمين يوم نزول الآية

سلطان .

وهذا الحكم منوط بالقتل الحادث بين الأشخاص وهو قتل العدوان ، فأما القتل الذي هو لحماية البيضة والذب عن الحوزة ، وهو الجهاد ، فله أحكام أخرى .

وبهذا تعلم التوجيه للإتيان بضمير جماعة المخاطبين على ما تقدم في قوله تعالى ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ [الإسراء : 31] وما عطف عليه من الضمائر .

واعلم أن جملة ومن قتل مظلوماً ﴾ معطوفة على جملة ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم اللَّه إلا بالحق ﴾ عطف قصة على قصة اهتماماً بهذا الحكم بحيث جعل مستقلاً ، فعُطف على حكم آخر ، وإلا فمقتضى الظاهر أن تكون مفصولة ، إما استئنافاً لبيان حكم حالة تكثر ، وإما بدل بعضٍ من جملة ﴿ إلا بالحق ﴾ .

و(مَن) موصولة مبتدأ مراد بها العموم ، أي وكل الذي يقتل مظلوماً .

وأُدخلت الفاء في جملة خبر المبتدأ لأن الموصول يعامل معاملة الشرط إذا قصد به العموم والربط بينه وبين خبره .

وقوله تعالى : ﴿ فقد جعلنا لوليه سلطانا ﴾ هو في المعنى مقدمة للخبر بتعجيل ما يُطمِئن نفسَ ولي المقتول .

والمقصود من الخبر التفريع بقوله تعالى : ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ ، فكان تقديم قوله تعالى : ﴿ فقد جعلنا لوليه سلطانا ﴾ تمهيداً لقبول النهي عن السرف في القتل ، لأنه إذا كان قد جُعل له سلطان فقد صار الحكم بيده وكفاه ذلك شفاءً لغليله .

ومن دلالة الإشارة أن قوله : ﴿ فقد جعلنا لوليه سلطانا ﴾ إشارة إلى إبطال تولي ولي المقتول قتلَ القاتل دون حكم من السلطان ، لأن ذلك مظنة للخطأ في تحقيق القاتل ، وذريعة لحدوث قتل آخر بالتدافع بين أولياء المقتول وأهل القاتل ، ويجر إلى الإسراف في القتل الذي ما حدث في زمان الجاهلية إلا بمثل هذه الذريعة ، فضمير ﴿ فلا يسرف ﴾ عائد إلى "وليه" .

وجملة ﴿ إنه كان منصوراً ﴾ تعليل للكف عن الإسراف في القتل ، والضمير عائد إلى "وليه" .

و(في) من قوله : ﴿ في القتل ﴾ للظرفية المجازية ، لأن الإسراف يجول في كسب ومال ونحوه ، فكأنه مظروف في جملة ما جال فيه .

ولما رأى بعض المفسرين أن الحكم الذي تضمنته هذه الآية لا يناسب إلا أحوال المسلمين الخالصين استبعد أن تكون الآية نازلة بمكة فزعم أنها مدنية ، وقد بينا وجه مناسبتها

وأبطلنا أن تكون مكية في صدر هذه السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(75/455)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي القتل إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾ .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن منقتل مظلوماً فقد جعل الله لوليه سلطاناً ، ونهاه عن الإسراف في القتل ، ووعده بأنه منصور .

والنهي عن الإسراف في القتل هنا شامل ثلاث صور :

الأولى – أن يقتل اثنين أو أكثر بواحد ، كما كانت العرب تفعله في الجاهليه . كقول مهلهل بن ربيعة لما قتل بجير بن الحارث بن عباد في حرب البسوس المشهورة : بؤبشسع نعل كليب .

فغضب الحارث بن عباد ، وقال قصيدته المشهورة :

قربا مربط النعامة مني . . . لقحت حرب وائل عن حيال

قربا مربط النعامة مني . . . إن بيع الكرام بالشسع غالي – إلخ

وقال مهلهل ايضاً :

كل قتيل في كليب غره . . . حت ينال القتل آل مره

ومعلوم أن قتل الجماعة بواحد لم يشتركوا في قتله : إسراف في القتل داخل في النهي المذكور في الآية الكريمة .

الثانية – أن يقتل بالقتيل واحداً فقط ولكنه غير القاتل . لأن قتل البريء بذنب غيره إسراف في القتل ، منهي عنه في الآية أيضاً .

الثالثة – أن يقتل نفس القاتل ويمثل به . فإن زيادة المثلة إسراف في القتل أيضاً .

وهذا هو التحقيق في معنى الآية الكريمة – فما ذكره بعض أهل العلم ، ومال إليه الرازي في تفسيره بعض الميل ، من أن معنى الآية : فلا يسرف الظالم الجامي في القتل . تخويفاً له من السلطان . والنصر الذي جعله الله لولي المقتول لا يخفى ضعفه ، وأنه لا يلتئم مع قوله بعده ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾ .

وهذا السلطان الذي جعله الله لولي المقتول لم يبينه هنا بياناً مفصلاً ، ولكنه أشار في موضعين إلى أن هذا السلطان : هو ما جعله الله من السلطة لولي المقتول على القاتل ، من تمكينه من قتله إن أحب . ولا ينافي ذلك أنه إن شاء عفا على الدية أو مجاناً .

الأول – قوله هنا ﴿ فَلاَ يُسْرِف فِّي القَتل ﴾ بعد ذكر السلطان المذكور ، لأ ، النهي عن الإسراف في القتل مقترناً بذكر السلطام المذكور يدل على أن السلطان المذكور هو ذلك القتل المنهي عن الإسراف فيه .

الموضع الثاني – قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص فِي القتلى ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ ياأولي الألباب ﴾ [البقرة : 178–179] الآية . فهو يدل على أن السلطان المذكور هو ما تضمنته آية القصاص هذه ، وخير ما يبين به القرآن القرآن .

مسائل

تتعلق بهذه الآية الكريمة .

المسألة الأولى – يفهم من قوله ﴿ مّظْلُوماً ﴾ أن من قتل غير مظلوم ليس لوليه سلطان على قاتله ، وهو كذلك ، لأن من قتل بحق فدمه حلال ، ولا سلطان لوليه في قتله . كما قدمنا بذلك حديث بان مسعود المتفق عليه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول لله – صلى الله عليه وسلم – إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة " كما تقدم إيضاحه في سورة " المائدة " .

وبينا هذا المفهوم في قوله ﴿ مَظْلُوماً ﴾ يظهر به بيان المفهوم في قوله أيضاً : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ

النفس التي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بالحق ﴾ [الأنعام: 151].

واعلم - أنه قد رود في بعض الأدلة أسباب أخر لإباحة قتل المسلم غير الثلاث المذكورة، على اختلاف ذلك بين العلماء. من ذلك: المحاربون إذا لم يقتلوا أحداً. عند من يقول بأن الإمام مخير بين الأمور الأربعة المذكورة في قوله ﴿ أَن يقتلوا أَوْ يصلبوا ﴾ [المائدة: 33] الآية. كما تقدم إيضاحه مستوفى في سورة "المائدة".

ومن ذلك قتل الفاعل والمفعول به في فاحشى اللواط، وقد قدمنا الأقوال في ذلك وأدلتها بإيضاح في سورة "هود".

(77/455)

وأما قتل السحار فلا يبعد دخوله في قتل الكافر المذكور في قوله "التارك لدينه المفارق للجماعة" لدلالة القرآن على كفر الساحر في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكن الشياطين كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ الناس السحر ﴾ [البقرة: 102] الآية، وقوله: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ [البقرة: 102] لآية. وقوله: ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشتراه مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ ﴾ [البقرة: 102].

وأما قتل مانع الزكاة – فإنه إن أنكر وجوبها فهو كافر مرتد داخل في " التارك لدينه المفارق للجماعة " . وأما إن منعها وهو مقر بوجوبها فالذي يجوز فيه : القتال لا القتل ، وبين القتال والقتل فرق واضح معروف .

وأما ما ذكره بعض أهل العلم من : أن من أتى بهيمة يقتل هو وتقتل البهيمة معه لحديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه " قال الهيثمي في " مجمع الزوائد " : رواه أبو يعلى ، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة ، وحديثه حسن ، وبقية رجاله ثقات . ورواه ابن ماجه من طريق داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً .

وأكثر أهل العلم على أنه لا يقتل . لأن حصر ما يباح به دم المسلم في الثلاث المذكورة في حديث ابن مسعود المتفق عليه أولى بالتقديم من هذا الحديث ، مع التشديد العظيم في الكتاب والسنة في قتل المسلم بغير حق ، إلى غير ذلك من المسائل المذكورة في الفروع .

قال مقيده عفا الله عنه : هذا الحصر في الثلاث المذكورة في حديث ابن مسعود الثابت في الصحيح لا ينبغي أن يزاد عليه ، إلا ما ثبت بوحي ثبوتاً لا مطعن فيه ، لقوته .

والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثانية – قد جاءت آيات أخر تدل على أن المقتول خطأ لا يدخل في هذا الحكم.

كقوله: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأحزاب: 5] الآية. وقوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: 286] لما ثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأها، قال الله نعم قد فعلت. وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ﴾ [النساء: 92]، ثم بين ما يلزم القاتل خطأ بقوله: ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا ﴾ [النساء: 92] الآية. وقد بين صلى الله عليه وسلم الدية قدراً جنساً كما هو معلوم في كتب الحديث والفقه كما سيأتي إيضاحه.

المسألة الثالثة – يفهم من إطلاق قوله تعالى: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ أن حكم الآية يستوي فيه القتل بمحدد كالسلاح وبغير محدد كرضخ الراس بحجر ونحو ذلك. لأن الجميع يصدق عليه اسم القتل ظلماً فيجب القصاص.

وهذا قول جمهور العلماء، منهم مالك، والشافعي، وأحمد في اصح الروايتين.

وقال النووي في "شرح مسلم": هو مذهب جماهير العلماء.

وخالف في هذه المسالة الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى فقال: لا يجب القصاص لا في القتل بالمحدد خاصة، سواء كان من حديد، أو حجر، أو خشب، أو فيما كان معروفاً بقتل

الناس كالمنجنيق ، والإلقاء في النار .

واحتج الجمهور على أن القاتل عمداً بغير المحدد يتقص منه بأدلة :

الأول – ما ذكرنا من إطلاق النصوص في ذلك .

(79/455)

الثاني – حديث انس بن مالك المشهور الذي أخرجه الشيخان ، وباقي الجماعة : أن يهودياً قتل جارية على أوضاح لها ، فرضخ رأسها بالحجارة ، فاعترف بذلك فقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بين حجرين ، رض رأسه بهما .

وهذا الحديث المتفق عليه نص صريح في محل النزاع تقوم به الحجة على الإمام أبي حنيفة رحمه الله ، ولا سيما على قوله : باستواء دم المسلم والكافر المعثوم الدم كالذمي .

الثالث – ما أخرجه أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه وغيرهما ، عن حمل بن مالك من القصاص في القتل بالمسطح . قال النسائي : أخبرنا يوسف بن سعيد ، قال حدثنا حجاج بن محمد ، عن ابن جريج ، قال أخبرني عمرو بن دينا : أنه سمع طاوساً يحدث عن ابن عباس ، عن عمر رضي الله عنه : أنه نشد قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك . فقام حمل بن مالك فقال : كنت بين حجرتي امرأتين . فضربت إحداهما الأخرى

بمسطح فقتلتها وجنينها . فقضى النّبي صلى الله عليه وسلم في جنينها بغرة ، وأن تقتل بها . وقال أو داود : حدثنا محمد بن مسعود المصيصي ، حدثنا أبو عاصم ، عن ابن جريج قال : أخبرني عمرو بن دينار : أنه سمع طاوساً عن ابن عباس ، عم عمر : أنه سأل في قضية النّبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فقام حمل بن مالك بن النابغة فقال : كنت بين امرأتين ، فضربت إحداهما الأخرى بمسطح فقتلتها وجنينها .

(80/455)

فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنينها بغرة ، وأن تقتل . قال أبو داود : قال النضر بن شميل : المسطح هو الصولج . قال أبو داود : وقال عبيدة : المسطح عود من أعواد الخباء . وقال ابن ماجه : حدثنا أحمد بن سعيد الدارمي ، ثنا أبو عاصم ، أخبرني ابن جريج ، حدني عمرو بن دينارك أنه سمع طاوساً ، عن ابن عباس ، عن عمر بن الخطاب أنه نَشّدَ الناس قضاء النّبي صلى الله عليه وسلم في ذلك (يعني في الجنين) فقام حمل بن مالك بن النابغة فقال : كنت بين امرأتين لي ، فضربت إحداهما الأخرى بمسطح فتلتها وقتلت جنينها . فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنين بغرة عبد ، وأن تقتل بها . انتهى من السنن الثلاث بألفاظها .

ولا يخفى أن هذا الإسناد صحيح . فرواية أبي داود ، عن محمد بن مسعود المصيصي وهو ابن مسعود بن يوسف النيسابوري ، ويقال له المصيصي أبو جعفر العجمي نزيل طرسوس والمصيصة ، وهو ثقة عارف . ورواية ابن ماجه عن أحمد بن سعيد الدارمي ، وهو ابن سعيد بن صخر الدارمي أبو جعفر وهو ثقة حافظ ، وكلاهما (أعني محمد بن مسعود المذكور عند أبي داود ، وأحمد بن سعيد المذكور عند ابن ماجه) روي هذا الحديث عن أبي عاصم وهو الضحاك بن مخلد بن الضحاك بن مسلم الشيباني ، وهو أبو عاصم النَّبيل ، وهو ثقة ثبت . والضحاك رواه عن ابن جريج ، وهو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج وهو ثقة فقيه فاضل ، وكان يدلس ويرسل . إلا أن هذا الحديث صرح فيه بالتحديث والاخبار عن عمرو بن دينا وهو ثقة ثبت ، عن طاوس وهو ثقة فقيه فاضل ، ان ابن عباس ، عن حمل ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم .

(81/455)

وأما رواية النسائي فهي عن يوسف بن سعيد ، وهو ابن سعيد بن مسلم المصيصي ثقة حافظ ، عن حجاج ابن محمد ، وهو ابن محمد المصيصي الأعور أبو محمد الترمذي الأصل نزيل بغداد ثم المصيصة ثقة ثبت . لكنه اختلط في أخر عمره لما قدم بغداد بل موته ، عن

ابن جريج ، غلى آخر السند المذكور عند أبي داود وابن ماجه . وهذا الحديث لم يخلط فيه حجاج المذكور في روايته له عن ابن جريج . بدليل رواية أبي عاصم له عند داود وابن ماجه ، عن ابن جريج كرواية حجاج المذكور فيروايته له عن ابن جريج . بدليل رواية أب عاصم له عند أبي داود وابن ماجه ، عن ابن جريج كرواية حجاج المذكور عند النسائي . وأبو عاصم ثقة ثبت .

ورواه البيهقي عن عبد الرزاق ، عن ابن جريج . وحزم بصحة هذا الإسناد ابن حجر في الإصابه في ترجمة حمل المذكور . وقال البيهقي في " السنن الكبرى " في هذا الحديث : وهذا إسناد صحيح وفيما ذكر أبو عيسى الترمذي في كتاب " العلل " قال : سالت محمداً (يعني البخاري) عن هذا الحديث فقال : هذا حديث صحيح ، رواه ابن جريج ، عن عمرو بن دينا ، عن ابن عباس هذا حديث صحيح ، رواه ابن جريج ، عن عمرو بن دينا ، عن ابن عباس . وابن جريج حافظ اه .

فهذا الحديث نص قوي في القصاص في القتل بغير المحدد ، لأن المسطح عمود . قال الجوهري في صحاحه : والمسطح أيضاً عمود الخباء . قال الشاعر هو مالك بن عوف النصري :

تعرض ضطار وخزاعة دوننا . . . وما خير ضيطار يقلب مسطحا

يقول : تعرض لنا هؤلاء القوم ليقاتلونا وليسوا بشيء . لأنهم لا سلاح معهم سوى المسطخ والضيطار ، هو الرجل الضخم الذس لا غناء عنده .

(82/455)

الرابع – ظواهر آيات من كتاب الله تدل على القصاص في القتل بغير المحدد . كقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : 194] الآية ، وقوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل : 126] ، وقوله : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] ، وقوله : ﴿ ذلك وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ [الحج : 60] الآية ، وقوله : ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ فأولئك مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس ﴾ [الشورى : 41–42] الآية .

وفي الموطأ ما نصه : وحدثني يحيى عن مالك ، عن عمر بن حسين مولى عائشة بنت قدامة : أن عبد الملك بن مروان أقاد ولي رجل على رجل قتله بعصاً فقتله وليه بعصاً .

قال مالك : والأمر المجتمع عليه الذي لا اختلاف فيه عندنا : أن الرجل إذا ضرب الرجل أو رماه بحجر ، أو ضربه عمداً فمات من ذلك . فإن هذا هو العمد وفيه القصاص .

قال مالك : فقتل العمد عندنا أن يعمد الرجل إلى الرجل فيضربه حتى تفيض نفسه اه محل الغرض عنه .

وقد قدمنا أن هذا القول بالقصاص في القتل بالمثقل هو الذي عليه جمهور العلماء . منهم الأئمة الثلاثة ، والنخعي ، والزهري ، وابن سرين ، وحماد ، وعمرو بن دينار ، وابن ابي ليلى ، وإسحاق ، وأبو يوسف ، ومحمد ، نقله عنهما ابن قدامة في المغني .

وخالف في ذلك أبو حنيفة ، والحسن ، والشعبي ، وابن المسيب ، وعطاء ، وطاوس رحمهم الله فقالوا : لا قصاص في القتل بالمثقل . واحتج لهم بأدلة :

(83/455)

منها – أن القصاص يشترط له العمد ، والعمد من أفعال القلوب ، ولا يعلم إلا بالقرائن الجازمة الدالة عليه . فإن كان القتل بآلة القتل كالمحدد ، علم أنه عامد قتله . وإن كان بغير ذلك لم يعلم عمده للقتل . لاحتمال قصده أن يشجه أو يؤلمه من غير قصد قتله فيؤول إلى شبه العمد .

ومنها – ما رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنين امرأة من بني لحيان يقط ميتاً بغرة عبد أو أمة . ثم

إن المرأة التي قضى عليها بالغرة توفيت . فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن ميراثها لبنيها وزوجها . وأن العقل على عصبتها " .

وفي رواية " اقتتلت امرأتان من هذيل . فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها . فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى أن دية جنينها غرة عبد أو وليدة ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها " .

قالوا : فهذا حديث متفق عليه يدل على عدم القصاص في القتل بغير المحدد . لأن رزايات هذا الحديث تدل على القتل بغير محدد ، لأن في بعضها أنها قتلتها بعمود ، وفي بعضها أنها قتلتها بحجر .

ومنها – ما روي عن النعمان بن بشير ، وأبي هررة ، وعلي ، وأبي بكرة رضي الله عنهم مرفوعاً : أن النّبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا قود إلا بحديدة " وفي بعض رواياته " كل شيء خطأ إلا السيف ، ولكل خطأ أرش " .

وقد حاول بعض من نصر هذا القول من الحنفية رد حجج مخالفيهم . فزعم أن رض النَبي صلى الله عليه وسلم رأس اليهودي بين الحجرين إنما وقع بمجرد دعوى الجارية التي قتلها . وأن ذلك دليل على أنه كان معروفاً بالإفساد في الأرض . ولذلك فعل به صلى الله عليه وسلم ما فعل .

ورد رواية ابن جريج عن طاوس عن ابن عباس المتقدمة – بأنها مخالفة للروايات الثابتة في

صحيح البخاري ومسلم وعيرهما : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قضى بالدية على عاقلة المرأة لا بالقصاص .

(84/455)

قال البيهقي في (السنن الكبرى) بعد أن ذكر صحة إسناد الحجيث عن ابن عباس بالقصاص من المرأة التي قتلت الأخرى بمسطح كما تقدم ما نصه : إلا أن في لفظ الحديث زيادة لم أرها في شيء من طرق هذا الحديث ، وهي قتل المرأة بالمرأة . وفي حديث عكرمة عن ابن عباس موصولاً ، وحديث ابن طاوس عن أبيه مرسلاً ، وحديث جابر وأبي هريرة موصولاً ثابتاً – أنه قضى بديتها على العاقلة . انتهى محل الغرض من كلان البيهقي بلفظه .

وذكر البيهقي أيضاً : أن عمرو بن دينار روجع في هذا الحديث بأن ابن طاوس عن أبيه على خلاف رواية عمرو ، فقال للذي راجعه : شككتني .

وأجيب من قبل الجمهور عن هذه الاحتجاجات : بأن رضه رأسه اليهودي قصاص . ففي رواية ثابتة في الصحيحين وغيرهما : ن النَّبي صلى الله عليه وسلم لم يقتله حتى اعترف بأنه قتل الجارية . فهو قتل قصاص باعتراف القاتل ، وهو نص متفق عليه ، صريح في محل النزاع ، ولا سيما عند من يقول باستواء دم المسلم والكافر كالذمي كأبي حنيفة رحمه الله .

وأجابوا عن كون العمد من أفعال القلوب ، وأنه لا يعلم كونه عامداً إلا إذا ضرب بالآلة المعهودة للقتل – بأن المثقل كالعمود والصخرة الكبيرة من آلا القتل كالسيف . لأن المشذوخ راسه بعمود أو صخرة كبيرة يموت من ذلك حالاً عادة كما يموت المضروب بالسيف .

وذلك يكفي من القرينة على قصد القتل .

وأجابوا عما ثبت من قضاء النَّبي صلى الله عليه وسلم على عاقلة المرأة القاتلة بعمود أو حجر بالدية – من ثلاثة أوجه :

الأول : أنه معارض بالرواية الصحيحة التي قدمناها عند أبي داود ، والنسائي ، وابن ماجه من حديث حمل ابن مالك وهو كصاحب القصة . لأن القاتلة والمقتولة زوجتاه – من كونه صلى الله عليه وسلم قضى فيها بالقصاص لا بالدية .

(85/455)

الثاني : ما ذكره النووي في شرح مسلم وغيره قال : وهذا محمول على حجر صغير وعمود صغير لا يقصد به القتل غالباً . فيكون شبه عمد تجب فيه الدية على العاقلة ، ولا يجب فيه قصاص ولا دية على الجاني . وهذا مذهب الشافعي والجماهير اه كلام النووي رحمه الله .

قال مقيده عفا الله عنه : وهذا الجواب غير وجيه ندي : لأن في بعض الروايات الثابتة في الصحيح : أنها قتلت بعمود فسطاط ، وحمله على الصغير الذي لا يقتل غالباً بعيد .

الثالث : هو ما ذكره ابن حجر في " فتح الباري " من أن مثل هذه المرأة لا تقصد غالباً قتل الأخرى . قال ما نصه :

وأجاب من قال به – يعني القصاص في القتل بالمثقل – بأن عمود الفسطاط يختلف بالكبر والصغر ، بحيث يقتل بعضه غالباً ولا يقتل بعضه غالباً . وطرد المماثلة في القصاص إنما يشرع فيما إذا وقعت الجناية بما يقتل غالباً .

وفي هذا الجواب نظر ، فإن الذي يظهر أنه إنما لم يجب فيه القود لأنها لم يقصد مثلها وشرط القود العمد ، وهذا إنما هو شبه العمد ، فلا حجة فيه للقتل بالمثقل ولا عكسه . انتهى كلام بان حجر بلفظه .

قال مقيده عفا الله عنه : والدليل القاطع على أن قتل هذه المرأة لضرتها خطأ في القتل شبه العمد . لقصد الضرب دن القتل بما لا يقتل غالباً – تصريح الروايات المتفق عليها : بأن صلى الله عليه وسلم جعل الدية على العاقلة ، والعاقلة لا تحمل العمد بأجماع المسلمين .

وأحابوا عن حديث " لا قود إلا بحديدة " بأنه لم يثبت .

قال البيهقي في " السنن الكبرى " بعد أن ساق طرقه عن النعمان بن بشير ، وأبي بكرة ، وأبي هريرة ، وعلي رضي الله عنهم ما نصه :

وهذا الحديث لم يثبت له إسناد ، معلى بن هلال الطحان متروك ، وسليمان بن أرقم ضعيف ، ومبارك بن فضالة لا يحتج به ، وجابر بن يزيد الجعفي مطعون فيه اه .

وقال ابن حجر " في فتح الباري في باب إذا قتل بحجر أو عصا " ما نصه :

(86/455)

وخالف الكوفيون فاحتجوا بحديث " لا قود إلا بالسيف " وهو حديث ضعيف أخرجه البزار ، وابن عدي من حديث أبي بكرة . وذكر البزار الاختلاف فيه مع ضعف إسماده :

وقال ابن عدي : طرقه كلها ضعيفة . وعلى تقدير ثبوته فإنه على خلاف قاعدتهم في : أن السنة لا تنسخ الكتاب ولا تخصصه .

واحتجوا أيضاً بالنهي عن المثلة ، وهو صحيح ولكنه محمول عند الجمهور على غير المثلة في القصاص جمعاً بين الدليلين – انتهى الغرض من كلام بان حجر بلفظه .

وقال العلامة الشوكاني رحمه الله تعالى في " نيل الأوطار " ما نصه :

وذهبت العترة والكوفيون ، ومنهم أبو حنيفة وأصحابه – إلى أن الاقتصاص لا يكون إلا بالسيف . واستدلوا بحديث النعمان بن بشير عند ابن ماجه ، والزار ، والطحاوي ، والطرباني والبيهقي ، بألفاظ مختلفة منها " لا قود إلا بالسيف " . وأخرجه ابن ماجه أيضاً

، والزار ، والبيهقي من حديث أبي بكرة . وأخرجه الدارقطني ، والبيهقي ، من حديث أبي هريرة . وأخرجه الدار قطني من حديث علي . أخرجه البيهقي ، والطبراني من حديث ابن مسعود . وأخرجه ابن أبي شيبة عن الحسن مرسلاً .

وهذه الطرق كلها لا تخلوا واحدة منها من ضعيف أو متروك . حتى قال أبو حاتك : حديث منكر . وق لعبد الحق وابم الجوزي : طرقه كلها ضعيفة . وقال البيهقي : لم يثبت له إسناد . انتهى محل الغرض من كلام الشوكاني رحمه الله تعالى

ولا شكل في ضعف هذا الحديث عند أهل العلم بالحديث . وقد حاول الشيخ ابن التركماني تقويته في "حاشيته على سنن البيهقي" بدعوى تقوية جابر بن يزيد الجعفي ، ومبارك بن فضالة . مع أن جابراً ضعيف رافضي ، ومبارك يدلس تدليس التسوية .

(87/455)

قال مقيدة عفا الله عنه : الذي يقتضي الدليل رجحانه عندي : هو القصاص مطلقاً في القتل عمداً بمثقل كان أو بمحدد . لما ذكرنا من الأدلة ، ولقوله جل وعلا : ﴿ وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ ﴾ [البقرة : 179] الآية . لأن القاتل بعمود أو صخرة كبيرة إذا علم أنه لا يقتص منه جرأه ذلك على القتل . فتنفي بذلك الحكمة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ

فِي القصاص حَيَاة ﴾ [البقرة : 179] الآية . والعلم عند الله تعالى .

المسألة الرابعة – جمهور العلماء على أن السلطان الذي جعله الله في هذه الآية لولي المقتول ظلماً يستلزم الخيار بين ثلاثة أشياء : وهي القصاص ، والعفو على الدية جبراً على الجاني ، والعفو مجاناً في غير مقابل – وهو أحد قوله الشافعي .

قال النووي في شرح مسلم : وبه قال سعيد بن المسيب ، وابن سرين وأحمد ، وإسحاق ، وأبو ثور . وعزاه ابن حجر في الفتح إلى الجمهور . وخالف في ذلك مالك ، وأبو حنيفة ، والثوري رحمهم الله فقالوا : ليس للولي إلا القصاص ، أو العفو مجاناً .

فلو عفا على الدية وقال الجامي : لا أرضى إلا القتل ، او العفو مجاناً ، ولا أرضى الدية . فليس لولي المقتول إلزامه الدية جبراً .

واعلم أن الذين قالوا : إن الخيار للولي يين القصاص والدية اختلفوا في عين ما يوجبه القتل عمداً إلى قولين : أحدهما – أنه القود فقط . وعليه فالدية بدل منه . والثاني – أنه أحد شيئينك هما القصاص والدية .

وتظهر ثمرة هذا الخلاف فيما لو عفا عن الجاني عفواً مطلقاً ، لم يصرح فيه بإرادة الدية ولا العفو عنها . فعلى أن الواجب عينا القصاص فإن الدية تسقط بالعفو المطلق . وعلى أن الواجب أحد الأمرين فإن الدية تلزم مع العفو المطلق . أما لو عفا على الدية فهي لازمة ، ولو

لم يرض الجاني عند أهل هذا القول. الخالف المذكور روايتان عن الشافعي، وأحمد رحمهما الله.

(88/455)

واحتج من قال: بأن الخيار بين القصاص والدية لولي المقتول بقوله صلى الله عليه وسلم: " من قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يفدى، وإما أن يقتل" أخرجه الشيخان، والإمام أحمد، وأصحاب السنن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. لكن لفظ الترمذي: "إما أن تعفوا وإما أن يقتل" ومعنى "يفدى" في بعض الروايات، "ويودى" في بعضها: يأخذ الفداء بمعنى الدية. وقوله "يقتل" بالبناء للفاعل: أي يقتل قاتل وليه.

قالوا: فها الحديث المتفق عليه نص في محل النزاع، مصرح بأن ولي المقتلو مخير بين القصاص وأخذ الدية. وأن له إجبار الجاني على اي الأمرين شاء. وهذا الدليل قوي دلالة ومتناً كما ترى.

واحتجوا أيضاً بقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فاتباع بالمعروف وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة: 178]. قالوا: إن اله جلو علا رتب الاتباع بالدية بالفاء على العفو في قوله: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فاتباع بالمعروف ﴾ الآية. وذلك دليل

واضح على أنه بمجرد العفو تلزم الدية ، وهو دليل قرآني قوي أيضاً .

واحتج بعض العلماء للمخالفين في هذا . كمالك وأبي حنيفة رحمهما الله بأدلة . منها ما قاله الطحاوي : وهو أن الحجة لهم حديث أنس في قصة الربيع عمته فقال النّبي صلى الله عليه وسلم . "كتاب الله قصاص" فإنه حكم بالقصاص ولم يخير . ولو كان الخيار لأعلمهم النّبي صلى الله عليه وسلم . إذ لا يجوز للحاكم أن يتحكم لمن ثبت له أحد شيئين بأحدهما من قبل أن يعلمه بأن الحق له في أحدهما . فلما حكم بالقصاص وجب ان يحمل عليه قوله " فهو بخير النظرين " اي ولي المقتول مخير بشرط ان يرضى الجاني أن يغرم الدية اه .

وتعقب ابن حجر في " فتح الباري " احتجاج الطحاوي هذا بما نصه : وتعقب بأنه قوله صلى الله عليه وسلم :

"كتاب الله القصاص" إنما وقع عند طلب أولياء المجني عليه في العمد القود . فأعلم أن كتاب الله نزل على أن المجني إذا طلب القود أجيب إليه . وليس فما ادعاه من تأخير البيان .

الثاني – ما ذكره الطحاوي أيضاً : من أنهم أجمعوا على أن الولي لو قال للقائل : رضيت ان

تعطيني كذا على ألا أقتلك - ان القاتل لا يجبر على ذلك . ولا يؤخذ منه كرهاً ، وإن كان يجب عليه أن يحقن دم نفسه .

الثالث - أن قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المذكور " فهو بخير النظرين . . " الحديث جار مجرى الغالب فلا مفهوم مخالفة له . وقد تقرر في الأصول : أن النص إذا جرى على الغالب لا يكون له مفهوم مخالفة لاحتمال قصد نفس الأغلبية دون قصد إخراج المفهوم عن حكم المنطوق . ولذا لم يعتبر جمهور العلماء مفهوم المخالفة في قوله تعالى : ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللاتي فِي حُجُورِكُمْ ﴾ [النساء : 23] الآية . لجرية على الغالب ، وقد ذكرنا هذه المسالة في هذا الكتاب المبارك مراراً .

وإيضاح ذلك في الحديث - أن مفهوم قوله " فهو بخير النظرين " أن الجاني لو امتنع من قبول الدية وقدم نفسه للقتل ممتنعاً من إعطاء الدية - أنه يجبر على إعطائها . لأن هذا أحد النظرين اللذين خير الشارع ولي المقتول بينهما . والغالب أن الإنسان يقدم نفسه على ماله فيفدى بماله من القتل . وجريان الحديث على هذا الأمر الغالب يمنع من اعتبار مفهوم مخالفته كما ذكره أهل الأصول ، وعقده في " مراقي السعود " بقوله في موانع اعتبار دليل الخطاب ، أعني مفهوم المخالفة :

أو جهل الحكم أو النطق انجلب . . . للسؤال أو جري على الذي غلب

ومحل الشاهد قوله " أو جري على الذي غلب " إلى غير ذلك من الأدلة التي احتجوا بها .

قال مقيده عفا الله عنه : الذي يظهر لي رجحانه بالدليل في هذه المسالة : أنّ ولي المقتول هو المخير بين الأمرين ، فو اراد الدية وامتنع الجاني فله إجباره على دفعها . لدلالة الحديث المتفق عليه على ذلك ، ودلالة الآية المتقدمة عليه ، ولأن الله يقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النساء : 29] الآية ، ويقول : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : 195] .

ومن الأمر الواضح أنه إذا أراد إهلاك نفسه صوناً لماله للوارث – أن الشارع يمنعه من هذا التصرف الزائغ عن طريق الصواب ، ويجبره على صون دمه بماله .

وما احتج به الطحاوي من الإجماع على أنه لو قال له : أعطني كذا على ألا أقتلك لا يجبر على ذلك – يجاب عنه بأنه لو قال : أعطني الدية المقررة في قتل العمد فإن يجبر على ذلك . لنص الحديث ، والآية المذكورين .

ولو قال له : أعطني كذا غير الدية لم يجبر .

لأنه طلب غير الشيء الذي أوجبه الشارع ، والعلم عند الله تعالى .

المسألة الخامسة – جمهور العلماء على أن القتل له ثلاث حالات :

الأولى: العمد، وهو الذي فيه السلطان المذكور في الآية كما قدمنا.

والثانية: شبه العمد، والثالثة: الخطأ.

وممن قال بهذا الأئمة الثلاثة: أبو حنيفة، وأحمد، والشافعي. ونقله في المغني عن عمر، وعلي رضي الله عنهما، والشعبي والنخعي، وقتادة، وحماد، وأهل العراق، والثوري، وغيرهم.

وخالف الجمهور مالك رحمه الله فقال: القتل له حالتان فقط. الأولى – العمد والثانية – الخطأ. وما يسميه غيره شبه العمد جعله من العمد.

(91/455)

واستدل رحمه الله بأن الله لم يجعل في كتابه العزيز واسطة بين العمد والخطأ. بل ظاهر القرآن أنه لا واسطة بينهما. كقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ [النساء: 92] الآية. ثم قال في العمد: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ﴾ [النساء: 93] الآية، فلم يجعل بين الخطأ والعمد واسطة، وكقوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأحزاب: 5] الآية. فلم

يجعل فيها بين الخطأ والعمد واسطة وإن كانت في غير القتل .

واحتج الجمهو على أن هناك واسطة بين الخطأ والمحض ، والعمد المحض ، تسمى خطأ شبه عمد بأمرين :

الأول – أن هذا هو عين الواقع في نفس الأمر لأن من ضرب بعصا صغيرة أو حجر صغير لا يحصل به القتل غالباً وهو قاصد للضرب معتقداً أن المضروب لا يقتله ذلك الضرب . ففعله هذا شبه العمد من جهة قصده أصل الضرب وهو خطأ في القتل . لأنه ما كان يقصد القتل ، بل وقع القتل من غير قصده إياه .

والثاني – حديث دل على ذلك ، وهو ما رواه أبو داود في سننه : حدثنا سليمان بن حرب ، ومسدد المعنى قالا : حدثنا حماد ، عن خالد ، عن القاسم بن ربيعة ، عن عقبة بن أوس ، عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم – قال مسدد : خطب يوم الفتح بمكة ، فكبر ثلاثاً ثم قال : " لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده " [إلى ها هنا حفظته عن مسدد ، ثم اتفقا] : " ألا أن كل مأثرة كانت في الجاهلية تذكر وتدعى من دم أو مال تحت قدميَّ ، إلا ما كان من سقاية الحاج أو سدانة

البيت " – ثم قال – " ألا إن دية الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا مائة من الإبل ، منها أربعون في بطونها أولادها " ، وحديث مسدد أتم .

حدثنا موسى بن إسماعيل ، ثنا وهيب ، عن خالد بهذا الإسناد نحو معناه .

حدثنا مسدد ، ثنا عبد الوارث ، عن علي بن زيد ، عن القاسم بن ربيعة ، ان ابن عمر ، عن النّبي صلى الله عليه وسلم بمعناه قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح – أو فتح مكة – على درجة البيت أو الكعبة .

قال أو داود : كذا رواه ابن عيينة أيضاً عن علي بن زيد ، عن القاسم بن ربيعة ، عن ابن عمر ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم .

رواه ايوب السختيانين عن القاسم بن ربيعة ، عن عبد الله بن عمر مثل حديث خالد ورواه حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يعقول الدّوسي ، عن عبد الله بن عمرة ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم اه محل الغرض من سنن أبي داود .

وأخرج النسائي نحوه ، وذكر الاختلاف على ايوب في حديث القاسم بن ربيعة فيه ، وذكر الاختلاف على خالد الحذاء فيه وأطال الكلام في ذلك . وقد تركنا لفظ كلامه لطوله .

وقال ابن ماجه رحمه اله في سننه : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ومحمد بن جعفر قالا : حدثنا شعبة ، عن أيوب : سمعت القاسم بن ربيعة ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " قتيل الخطأ شبه العمد قتيل السوط والعصاء مائة من الإبل : أربعون منها خلفة في بطونها أولادها " .

حدثنا محمد بن يحيى ، ثنا سليمان بن حرب ، ثنا حماد بن زيد ، عن خالد الحذَّاء عن القاسم بن ربيعة ، عن عقبة بن أوس ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم نحوه .

حدثنا عبد الله بن محمد الزهري ، ثنا سفيان بن عيينة ، عن ابن جدعان ، سمعه من القاسم بن رعة عن ابن عمرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يوم فتح مكة وهو على درج الكعبة ، فحمد الله وأثنى عليه فقال : " الحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . إلا إنّ الخطأ قتيل السوط والعصا فيه مائة من الإبل : منها أربعون خلفة في بطونها أولادها " اه .

وساق البيهقي رحمه الله طرق هذا الحديث ، وقال بعد أن ذكر الرواية عن ابن عمر التي في إسنادها على بن زيد بن جدعان : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال : سمعت محمد بن إسماعيل السكري يقول : سمعت محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول : حضرت مجلس المزني يوماً وساله سائل من العراقيين عن شبه العمد . فقال السائل : إن الله تبارك وتعالى وصف

القتل في كتابه صفتين : عمداً وخطأ . فلم قلتم إنه على ثلاثة أصناف ؟ ولم قلتم شبه العمد ؟

فاحتج المزني بهذا الحديث فقال له مناظره : أتحتج بعلي بن زيد بن جدعان ؟ فسكت المزني . فقلت لمناظره : قد روى هذا الخبر غير علي ين زيد .

(94/455)

فقال : ومن رواه غير علي ؟ قلت : رواه أيوب السختياني وخالد الحذَّاء . قال لي : فمن عقبة بن أوس ؟ فقلت : عقبة بن أوس رجل من أهل البصرة ، وقد رواه عنه محمد بن سرين مع جلالته . فقال للمزني : أنت تناظر ! أو هذا ؟ فقال : إذا جاء الحديث فهو يناظر . لأنه أعلم بالحديث مني ، ثم أتكلم أنا أه ثم شرع البيهقي يسوق طرق الحديث المذكور .

قال مقيدة عفا الله عنه : لا يخفى على من له أدنى معرفة بالأسانيد . ان الحديث ثابت من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأن الرواية عن ابن عمر وهم ، وآفتها من علي بن زيد بن جدعان . لأنه ضعيف .

والمعروف في علوم الحديث : أن الحديث إذا جاء صحيحاً من وجه لا يعل بإتيانه من وجه

آخر غير صحيح . والقصة التي ذكرها البيهقي في مناظرة محمد بن إسحاق بن خزيمة للعراقي الذي ناظر المزني ، تدل على صحة الاحتجاج بالحديث المذكور عند ابن خزيمة .

قال مقيده عفا الله عنه : إذا عرفت الاختلاف بين العلماء في حالات القتل : هل هي ثلاث ، أو اثنتان ؟ وعرفت حجج الفريقين – فاعلم أن الذي يقتضي الدليل رجحانه ما ذهب إليه الجمهور من أنا ثلاث حالات : عمد محض ، وخطأ محض ، وشبه عمد . لدلالة الحديث الذي ذكرنا على ذلك ، ولأنه ذهب إليه الجمهور من علماء المسلمين . والحديث إنما أثبت شيئاً سكت عنه القرآن ، فغاية ما في الباب زيادة أمر سكت عنه القرآن بالسنة ، وذلك لا إشكال فيه على الجاري على أصول الأئمة إلا أبا حنيفة رحمه الله . لأن المقرر في اصوله أن الزيادة على النص نسخ ، وأن المتواتر لا ينسخ بالحاد . كما تقدم إيضاحه في سورة " الأنعام " . ولكن الإمام أبا حنيفة رحمه الله وافق الجمهور في هذه المسألة ، خلافاً لمالك كما تقدم .

فإذا تقرر ما ذكرنا من أن حالات القتل ثلاث – فاعلم أن العمد المحض فيه القصاص . وقد قدمنا حكم العفو فيه . والخطأ شبه العمد . والخطأ المحض فيهما الدية على العاقلة .

واختلف العلماء في أسنان الدية فيهما . وسنبين إن شاء الله تعالى مقادير الدية في العمد المحض إذا وقع العفو على الدية ، وفي شبه العمد . وفي الخطأ المحض .

اعلم أن الجمهور على ان الدية في العمد المحض وشبه العمد سواء . واختلفوا في أسنانها فيهما . فذهب جماعة من أهل العلم إلى أنها تكون أرباعاً : خمس وعشرون بنت مخاض ، وخمس وعشرون بنت لبون ، وخمس وعشرون حقة ، وخمس وعشرون جذعة .

وهذا هو مذهب مالك وأبي حنيفة ، والوراية المشهورة عن أحمد ، وهو قولالزهري ، وربيعة ، وسليمان ابن يسار ، ويروى عن ابن مسعود . كما نقله عنهم ابن قدامى في المغني .

وذهبت جماعة إخرى إلى أنها ثلاثون حقة ، وثلاثون جذعة ، وأربعون في بطونها أولادها .

وهذا مذهب الشافعي ، وبه قال عطاءن ومحمد بن الحسن ، وروي عن عمر ، وزيد ، وأبي موسى ، والمغيرة. ورواه جماعة عن الإمام أحمد .

قال مقيدة عفا الله عنه : وهذا القول هو الذي يقتضي الدلي رجحانهز لما تقدم من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص عند أبي داود ، والنسائي ، وابن ماجه : من أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " منها أربعون خلفة في بطونها أولادها " وبعض طرقه صحيح كما تقدم .

وقال البيهقي في بيان الستين التي لم تيعرض لها هذا الحديث : (باب صفة الستين التي مع الأربعين) ثم ساق أسانيده عن عمر ، وزيد بن ثابت ، والمغيرة بن شعبة ، وأبي موسى الأشعري ، وعثمان بن عفان ، وعلي في إحدى روايتيه عنه أنها ثلاثون حقة ، وثلاثون جذعة .

(96/455)

وقال ابن قدامة في المغني مستدلاً لهذا القول : ودليله هو ما رواه عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قتل مؤمناً متعمداً دفع إلى أولياء المقتول فإن شاؤوا قتلوه ، وإن شاؤوا أخذوا الدية وهي ثلاثون حقة ، وثلاثون جذعة ، وأربعون خلفة ، وما صولحوا فهم لهم " وذلك لتشديد القتل . رواه الترمذي وقال : هو حديث حسن غريب اه محل الغرض منه بلفظه ، ثم ساق حديث عبد الله بن عمرو بن العاص الذي قدمنا .

ثم قال مستدلاً للقول الأول : ووجه الأول ما روى الزهري عن السائب بن يزيد قال : " كانت الدية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أرباعاً : خمساً وعشرين جذعة ، وخمساً وعشرين بنت لبون ، وخمساً وغشرين بنت مخاض " وهو قول ابن مسعود اه منه .

وفي الموطأ عن مالك : أن ابن شهاب كان يقول في دية العمد إذا قبلت : خمس وعشرون بنت مخاض ، وخمس وعشرون بنت لبون ، وخمس وعشرون حقه ، وخمس وعشرون جذعة . وقد قدمنا : ان دية العمد ، ودية شبه العمد سواء عند الجمهور .

وفي دية شبه العمد للعلماء أقوال غير ما ذكرنا . منها ما رواه البيهقي ، وأبو داود عن علي رضي الله عنه أنه قال : الدية في شبه العمد أثلاث : ثلاث وثلاثون حقة ، وثلاث وثلاثون جذعة ، وأربع وثلاثون ثنية إلى بازل عامها ، وكلها خلفة .

بومنها ما رواه البيهقي وغيره عن ابن مسعود أيضاً : أنها ارباع : ربع بنات لبون ، وربع حقاق وربع جذعة ، وأربعين خلفة في بطونها أولادها .

وقد قال البيهقي رحمه الله في السنن الكبرى بعد ان ساق الأقوال المذكورة ما نصه : قد اختلفوا هذا الاختلاف ، وقوله من يوافق سنة النّبي صلى الله عليه وسلم المذكورة في الباب قبلة أولى بالاتباع ، وبالله التوفيق .

تنبيه

اعلم أن الدية في العمد الحض غذا عفا أولياء المقتول : إنما هي في مال الجاني ، ولا تحملها العاقلة إجماعاً .

وأظهر القولين : أنها حالة غير منجمة في سنين . وهو قول جمهور أهل العلم . وقيل بتنجيمها .

وعند أبي حنيفة أن العمد ليس فيه دية مقررة أصلاً . بلا الواجب فيه ما اتفق عليه الجاني وأولياء المقتول ، قليلاً كان أو كثيراً ، وهو حال عنده .

أما الديو في شبه العمد فهي منجمة في ثلاث سنين ، يدفع ثلثها في آخر كل سنة من السنين الثلاث ، ويعتبر ابتداء السنة من حين وجوب الدية .

وقال بعض أهل العلم : ابتداؤها من حين حكم الحاكم بالدية ، وهي على العقلة لما قدمناه في حديث أبي هريرة المتفق عليه من كونها على العاقلة . وهو مذهب الأئمة الثلاثة : ابي حنيفة ، والشافعي ، وأحمد رحمهم الله . وبه قال الشعبي والنخعي ، والحكم ، والثوري ، وبان المنذر وغيرهم . كما نقله عنهم صاحب المغني – وهذا القول هو الحق .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الدية في شبة العمد في مال الجاني لا على العاقلة . لقصده الضرب وإن لم يقصد القتل . وبهذا قال ابن سرين ، والزهري ، والحارث العكلي ، وابن شبرمة ، وقتادة ، وأبو ثور ، واختاره أبو بك عبج العزيز اه من " المغني " لاين قدامة . وقد علمت أن الصواب خلافه . لدلالة الحديث المتفق عليه على ذلك .

أما مالك رحمه الله فلا يقول بشبه العمد أصلاً . فهي عنده عمد محض كما تقدم .

وأما الدية في الخطأ المحض فهو أخماس في قوله أكثر أهل العلم .

واتفق أكثرهم على السن والصنف في أربع منها ، واختلفوا في الخامس . أما الأربع التي هي محل اتفاق الأكثر فهي عشرون جذعة ، وعشرون حقة ، وهشرون بنت لبون ، وعشرون بنت مخاض . وأما الخامس الذي هو محل الخلاف فبعض أهل العلم يقول : هو عشرون ابن مخاض ذكراً . وهو مذهب أحمد ، وأبي حنيفة ، وبه قال ابن مسعود ، والنخعي وابن المنذر . واستدل أهل هذا القول بحديث ابن مسعود الوادر بذلك .

(98/455)

قال أبو داود في سننه : حدثنا مسدد ، حدثنا عبد الواحد ، ثنا الحجاج عن زيد بن جبير ، عن خشف بن مالك الطائي ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " في دية الخطأ عشرون حقة ، وعشرون جذعة ، وعشرون بنت مخاض ، وعشرون بنت لبون ، وعشرون ابن مخاض ذكراً " وهو قوله عبد الله – انتهى منه بلفظه .

وقال النسائي في سننه : أخبرنا علي بن سعيد بن مسروق قال : حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، عن حجاج ، عن زيد بن جبير ، عن خشف بن مالك الطائي قال : سمعت ابن مسعود يقول : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم دية الخطأ عشرين بنت مخاض ،

وعشرين ابن مخاض ذكوراً ، وعشرين بنت لبون ، وعشرين جَذَعة ، وعشرين حِقَّة .

وقال ابن ماجة في سننه : حدثنا عبد السلام بن عاصم ، ثنا الصبَّاح بن محارب ، ثنا حجاج بن أرطاة ، ثنا زيد بن جبير ، عن خشف بن مالك الطائي ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" في دية الخطأ عشرون حقة ، وعشرون جذعة ، وعشرون بنت مخاض ، وعشرون بنت لبون ، وعشرون بني مخا ذكوراً " ونحو هذا أخرجه الترمذي ايضاً عن ابن مسعود .

وأخرج الجار قطني عنه نحوه . إلا أن فيه : وعشرون بني لبون بدل بني مخاض .

وقال الحافظ في " بلوغ المرام " : إن إسناده أقوى من إسناد الأربعة . وقال : وأخرجه ابن أبي شيبة من وجه آخر موقوفاً ، وهو أصح من المرفوع .

وأما القول الثاني في هذا الاخامس المختلف فيه – فهو أنه عشرون ابن لبون ذكراً ، مع عشرين جذعة ، وعشرين حقة ، وعشرين بنت لبون ، وعشرين بنت مخاض . وهذا هو مذهب مالك والشافعي . وبه قال عمر بن عبد العزيز ، وسليمان بن يسار ، والزهري ، والليث ، وربيعة . كما نقله عنهم ابن قدامة في " المغني " وقال : رواه سعيد في سننه عن النخعي ، عن ابن مسعود .

وقال الخطابي : روي أنا لنَّبي صلى الله عليه وسلم " ودى الذي قتل بخيبر بمائة من إبل الصدقة " وليس في أسنان الصدقة ابن مخاض .

وقال البيهقي في السنن الكبرى : وأخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف الرفاء البغدادي ، أنبأ أبو عمرو عثمان بن محمد بن بشر ، ثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي ، ثنا إسماعيل بن أبي أويس وعيسى بن مينا قالا : حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد ، ان أباه قال : كان من أدركت من فقهائنا الذي ينتهي إلى قولهم . منهم سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وعبيد الله بن عبد اله بن عتبة ، وسليمان بن يسار ، في مشيخة جلة سواهم من نظرائهم ، وربما اختلفوا في الشيء فأخذنا بقول أكثرهم وأفضلهم رأياً ، وكانوا يقولون : العقل في الخطأ خمسة أخماس : فخمس جذاع ، وخمس حقاق ، وخمس بنات لبون ، وخمس بنات مخاض ، وخمس بنو لون ذكور ، والسن في كل جرح قل أو كثر خمسة أخماس على هذه الصفة – انتهى كلام البيهقي رحمه الله .

قال مقدية عفا الله عنه : جعل بعضهم أقرب القولين دليلاً قول من قال : إن الصنف الخامس من أبناء المخاض الذكور لا من أبناء اللبون . لحديث عبد الله بن مسعود المرفوع المصرح بقضاؤ النَّبي صلى الله عليه وسلم بذلك . قال : والحديث المذكور وإن كان فيه ما فيه أولى

من الأخذ بغيره من الرأي .

وسند أبي داود ، والنسائي رجاله كلهم صالحون للاحتجاج. إلا الحجاج بن أرطاة فإن فيه كلاماً كثيراً واختلافاً بين العلماء . فمنهم من يوثقه ، ومنهم من يضعفه .

وقد قدمنا في هذا الكتاب المبارك تضعيف بعض أهل العلم له .

وقال فيه ابن حجر في التقريب : صدوق كثير الخطأ والتدليس .

قال مقيدة عفا الله عنه : حجاج المذكور من رجال مسلم . واعل أبو داود والبيهقي وغيرهما الحديث بالوقف على ابن مسعود ، قالوا : رفعه إلى النّبي صلى الله عليه وسلم خطأ ، وقد أشرنا إلى ذلك قريباً .

أما وجه صلاحية بقية رجال السنن – فلاطبقة الأولى من سنده عند أبي داود مسدد وهو ثقة حافظ . وعند النسائي سعيد بن علي بن سعيد بن مسروق الكندي الكفي وهو صدوق .

والطبقة الثانية عند أبي داود عبد الواحد وهو ابن زياد العبدي مولاهم البصري ثقة ، في حديثه عن الأعمش وحده مقال . وعند النسائي يحيى بن زكريا بن ابي زائدة وهو ثقة

متقن .

والطبقة الثالثة عندهما حجاج بن أرطاة المذكور .

والطبقة الرابعة عندهما زيد بن جبير وهو ثقة .

والطبقة الخامسة عندهما خشف بن مالك الطائي وثقة النسائي .

والطبقة السادسة عندهما عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم .

والطبقة الأولى عند ابن كاجه عبد السلام بن عاصم الجعفي الهسنجاني الرازي وهو مقبول .

والطبقة الثانية عنده الصباح بن محارب التيمي الكوفي نزيل الري وهو صدوق ، ربما خالف .

والطبقة الثالثة عنده حجاج بن أرطاة إلى آخر السند المذكور .

والحاصل – أن الحديث متكلم فيه من جهتين : الأولى من قبل حجاج بن أرطاة ، وقد ضعفه الأكثر ، ووثقه بعضهم ، وهو من رجال مسلم . والثانية إعلاله بالوقف ، وما احتج به الخطابي من أن النَّبي صلى الله عليه وسلم " ودى الذي قتل بخيبر من إبل الصدقة " وليس في أسنان الصدقة ابن مخاض . يقال فيه : إن الذي قتل في خيبر قتل عمداً وكلامنا في الخطأ . وحجة من قال يجعل أبناء اللبون بدل أبناء المخاض رواية الدارقطني المرفوعة

التي قال ابن حجر : غن سندها اصح من رواية أبنا الخاض ، وكثرة من قال بذلك من العلماء .

وفي دية الخطأ للعلماء أقوال أخر غير ما ذكرنا . واستدلوا لها بأحاديث أخرى انظهر في " سنن النسائي ، وأبي داود ، والبيهقي " وغيرهم .

واعلم أن الدية على أهل الذهب الف دينار ، وعلى أهل الورق عشر ألف درهم عند الجمهور .

وقال أبو حنيفة : عشرة آلاف درهم . وعلى أهل البقر مائتا بقرة . وعلى أهل الشاء ألفا شاة . وعلى أهل الحلل مائتا حلة .

قال أبو داود في سننه : حدثنا يحيى بن حكيم ، حدثنا عبد الرحمن بن عثمان ، ثنا حسين المعلم ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده قال : كانت قيمة الدية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانمائة دينا ، أو ثمانية آلاف درهم . ودية أهل الكتاب يومئذ النصف من دية المسلمين .

قال : فكان ذلك كذلك ، حتى استخلف عمر رحمه الله تعالى فقام خطيباً فقال : ألا إن

الإبل قد غلت ، قال : ففرضها على أهل الذهب ألف دينا ، وعلى أهل الورق اثني عشر ألفاً ، وعلى أهل البقر مائتي بقرة ، وعلى أل لشاء ألفي شاة ، وعلى أهل الحلل مائتي حلة ، وعلى أهل القمح شيئاً لم يحفظه محمد " .

قال أبو داود : قرأت على سعيد بن يعقوب الطالقاني قال : ثنا أبو تميلة ، ثنا محمد بن إسحاث قال : ذكر عطاء عن جابر بن عبد الله قال : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فذكر مثل حديث موسى – وقال : وعلى أهل الطعام شيئاً لم أحفظه اه . وقال النسائي في سننه : أخبرنا أحمد بن سليمان قال : حدثنا يزيد بن هارون ، قال : أنبأنا محمد بن راشد عن سليمان بن موسى ، عن عمرو بن شعيب ، عن اأبيه عن جده : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قتل خطأ فديته مائة من الإبل : ثلاثون بنت مخاض ، وثلاثون بنت لبون ، وثلاثون حقة ، وعشرة بني لبون ذكور " .

قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقومها على أهل القرى أربعمائة دينار ، أو عدلها من الورق . ويقومها على أهل الإبل إذا غلت رفع قيمتها وإذا هانت نقص من قيمتها – هلى نحو الزمان ما كان . فبلغ قيمتها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين الأربعمائة دينان إلى ثمانمائة دينا أو عدلها من الورق .

قال : وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من كان عقله في البقر : على أهل البقر مائتي بقرة. ومن كان عقله في الشاء : ألفي شاة. وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم " أن العقل ميراث بين ورثة القتيل على فرائضهم ، فما فضل فللعصبة " وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم " أن يعقل على المرأة عصبتها من كانوا ولا يرثون منها إلا ما فضل عن ورثتها . وإن قتلت فعقلها بين ورثتها وهم يقتلون قاتلها " .

وقال النسائي في سننه : أخبرنا محمد بن المثنى ، عن معاذ بن هانىء قال : حدثني محمد بن مسلم ، عن عمرو بن دينار (ح) وأخبرنا أبو داود قال : حدثنا معاذ بن هانىء قالك حدثنا محمد بن مسلم ، عن عمرو بن دينا ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قتل رجل رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجعل النَّبي صلى الله عليه وسلم ديته اثني عشر ألفاً – وذكر قوله : ﴿ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [التوبة : 74] في أخذهم الدية واللفظ لأبي داود : أخبرنا محمد بن ميموم قال : حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم " قضى باثني عشر ألفاً " يعني في الدية – انتهى كلام النسائي رحمه الله .

وقال أبو داود في سننه أيضاً : حدثنا محمد بن سليمان الأنباري ، ثنا زيد بن الحباب ، عن محمد بن مسلم ، عن عمرو بن دينا عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن رجلاً من بني عدي

قتل . فجعل النَّبي صلى الله عليه وسلم ديته اثني عشر ألفاً . قال أبو داود : رواه ابن عيينة ، عن عمرو ، عن عكرمة ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ولم يذكر ابن عباس .

(103/455)

وقال ابن ماجه في سننه : حدثنا العباس بن جعفر ، ثنا محمد بن سنان ، ثنا محمد بن مسلم ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : " جعل الدية عشر ألفاً " قال : وذلك قوله : ﴿ وَمَا نقموا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ الله وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [التوبة : 74] قال : بأخذهم الدية .

وفي الموطأ عن مالك : أنه بلغه أن عمر بن الخطاب قوم الدية على أهل القرى فجعلها على أهل الذهب ألف دينار ، وعلى أهل الورق اثني عشر ألف درهم . قال مالك : فأهل الذهب أهل الشام وأهل مصر ، وأهل الورق أهل العراق .

وعن مالك في الموطأ أيضاً : انه سمع أن الدية تقطع في ثلاث سنين أو أربع سنين . قال مالك : والثلاث أحب ما سمعت إلي في ذلك .

قال مالك : الأمر المجتمع عليه عندنا أنه لا يقبل من أهل القرى في الدية الإبل ، ولا من أهل العمود الذهب ولا الورق ، ولا من أهل الذهب الورق ، ولا من أهل الورق الذهب .

فروع تتعلق بهذه المسألة .

الأول - جمهور أهل العلم على أن الدية في الخطأ وشبه العمد مؤجلة في ثلاث سنين ، يدفع ثلثها في كل واحد من السنين الثلاث .

قال ابن قدامة في " المغني " : ولا خلاف في أها مؤجلة في ثلاث سنين . فإن عمر وعلياً رضي الله عنهما جعلا دية الخطأ على العاقلة في ثلاث سنين ، ولا نعرف لهما في الصحابة مخالفاً . فاتبعهم على ذلك أهل العلم اه .

قال مقيده عفا الله عنه : ومثل هذا يسمى إجماعاً سكوتياً ، وهو حجة ظنية عند جماعة من أهل الأصول ، وأشار إلى ذلك صاحب " مراقي السعود " مع بيان شرط الاحتجاج به عند من يقول بذلك بقوله :

وجعل من سكت مثل من أقر . . . فيه خلاف بينهم قد اشتهر

فالاحتجاج بالسكوتي نما . . . تفريعه عليه من تقدما

وهو بفقد السخط والضد حرى . . . مع مضي مهلة للنظر

وتأجليها في ثلاث سنين هو قول أكثر أهل العلم .

الفرع الثاني -اختلف العلماء في نفس الجاني . هل يلزمه قسط من دية الخطأ كواحد من العاقلة ، أو لا .

فمذهب أب حنيفة ، ومشهور مذهب مالك : أن الجاني يلزمه قسط من الدية كواحد من العاقلة .

وذهب الإمام أحمد والشافعي : إلى أنه لا يلزمه من الدية شيء ، لظاهر حديث ابي هريرة المتفق عليه المتقدم : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم " قضى بالدية على عاقلة المرأة " وظاهره قضاؤه بجميع الدية على العاقلة . وحجة القول الآخر : أن أصل الجناية عليه وهم معينون له . فيتحمل عن نفسه مثل ما يتحمل رجل من عاقلته .

الفرع الثالث - اختلف العلماء في تعيين العاقلة التي تحمل عن الجاني دية الخطأ .

فمذهب الأمام أبي حنيفة رحمه الله : أن العاقلة هم أهل ديوان القاتل إن كان القاتل من أهل ديوان ، وأهل الديوان أهل الرايات ، وهم الجيش الذين كتبت أسماؤهم في الديوان لمناصرة بعضهم بعضاً ، تؤخذ الدية من عطاياهم في ثلاث سنين . وإن لم يكن أهل ديوان فعاقلته قبيلته ، وتقسم عليهم في ثلاث سنين . فإن لم تتسع القبيلة لذلك ضم إليهم أقرب القبائل نسباً على ترتيب العصبات .

ومذهب مالك رحمه الله - البداءة بأهل الديوان أيضاً . فتؤخذ من عطاياهم في ثلاث سنين . فإن لم يكن عطاءهم قائماً فعاقلته عصبته الأقرب فالأقرب . ولا يحمل النساء ولا

الصبيان شيئاً من العقل .

وليس لأموال العاقلة حد إذا بلغته عقلوا ، ولا لما يؤخذ منهم حد . ولا يكلف أغنياؤهم الأداء عن فقرائهم .

ومن لم تكن له عصبة فعقله في بيت مال المسلمين .

والموالي بمنزلة العصبة من القرابة . ويدخل في القرابة الابن والأب .

قال سحنون : إن كان العاقلة ألفاً فهم قليل ، يضم إليهم أقرب القبائل إليهم .

(105/455)

ومذهب أحمد والشافعي : أن أهل الديوان لا مدخل لهم في العقل إلا إذا كانوا عصبة .

ومذهبهما رحمهما الله : أن العاقلة هي العصبة ، إلا أنهم اختلفوا هل يدخل في ذلك الأبناء والآباء ؟ فعن أحمد في إحدى الروايتين : أنهم داخلون في العصبة . لأنهم أقرب العصبة .

وعن أحمد رواية أخرى والشافعي : أنهم لا يدخلون في العاقلة . لظاهر حديث أبي هريرة المتفق عليه المتقدم : " أن ميراث المرأة لولدها ، والدية على عاقلتها " وظاهره عدم دخول أولادها . فقيس الآباء على الأولاد .

وقال ابن قدامة في " المغني " : واختلف أهل العلم فيما يحمله كل واحد منهم .

فقال أحمد . يحملون على قدر ما يطيقون . هذا لا يتقدر شرعاً . وإنما يرجع فيه إلى اجتهاد الحاكم . فيفرض على كل واحد قدراً يسهل ولا يؤذي ، وهذا مذهب مالك . لأن التقدير لا يثبت إلا بتوقيف . ولا يثبت بالرأي والتحكم . ولا نص في هذه المسألة فوجب الرجوع فيها إلى اجتهاد الحاكم كمقادير النفقات .

وعن أحمد رواية أخرى : أنه يفرض على المسر نصف مثقال . لأنه أقل مال يتقدر في الزكاة فكان معبراً بها . ويجب على المتوسط ربع مثقال ، لأن ما دون ذلك تافه لكون اليد لا تقطع فيه . وقد قالت عائشة رضي الله عنها : لا تقطع اليد في الشيء التافه ، وما دون ربع دينار لا تقطع فيه .

وهذا اختيار أبي بكر ، ومذهب الشافعي .

وقال أبو حنيفة : أكثر ما يحمل على الواحد أربعة دراهم ، وليس لأقله حد اه كلام صاحب " المغني " .

وهو الذي نقل عن أبي حنيفة هو معنى ما قدّمناه عنه لأنّ درهماً وثلثا في كل سنة من السنين الثلاث أربعة دراهم .

الفرع الرابع – لا تحمل العاقلة شيئاً من الكفارة المنصوص عليها في قوله ﴿ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء : 92] بل هي في مال الجاني إجماعاً . وشذ من قال : هي في بيت

المال .

والكفارة في قتل الخطأ واجبة إجماعاً بنص الآية الكريمة الصريحة في ذلك .

(106/455)

واختلفوا في العمد ، واختلافهم فيه مشهور ، وأجرى القولين على القياس عندي قول من قال : لا كفارة في العمد ، لأن العمد في القتل أعظم من أن يكفره العتق . لقوله تعالى في القاتل عمداً : ﴿ فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ [النساء : 93] فهذا الأمر أعلى وأفخم أن يكفر بعتق رقبة . والعلم عند الله تعالى .

والدية لا تحملها العاقلة إن كان القتل خطأ ثابتاً بإقرار الجاني ولم يصدقوه ، بل إنما تحملها إن ثبت القتل ببينة ، كما ذهب إلى هذا عامة أهل العلم ، منهم ابن عباس ، والشعبي ، وعمر بن عبد العزيز ، والحسن ، والزهري ، وسليمان بن موسى ، والثوري ، والأوزاعي ، وإسحاق . وبه قال الشافعي ، وأحمد ، ومالك ، وأبو حنيفة وغيرهم . والعلم عند الله تعالى .

الفرع الخامس – جمهور العلماء على أن دية المرأة الحرة المسلمة نصف دية الرجل الحر المسلم على ما بينا .

قال ابن المنذر ، وابن عبد البر : أجمع أهل العلم على أن دية المرأة نصف دية الرجل .

وحكى غيرهما عن ابن عليه والأصم أنهما قالا : ديتها كدية الرجل . وهذا قول شاذ ، مخالف لإجماع الصحابة كما قاله صاحب المغني .

وجراح المراة تساوي جراح الرجل إلى ثلث الدية ، فإن بلغت الثلث فعلى النصف . قال ابن قدامة في " المغني " : وروي هذا عن عمر ، وابن عمر ، وزيد بن ثابت . وبه قال سعيد بن المسيب . وعمر بن عبد العزيز وعروة بن الزبير ، والزهري وقتادة ، والأعرج ، وربيعة ، ومالك .

قال ابن عبد البرك هو قول فقهاء المدينة السبعة . وجمهور أهلا مدينة وحكي عن الشافعي في القديم .

(107/455)

وقال الحسن : يستويان إلى النصف . وروي عن علي رضي الله عنه : أنه على النصف فيما قل أو أكثر . وروي ذلك عن ابن سرين . وبه قال الثوري ، والليث ، وابن أبي ليلى ، وابن شبرمة ، وأبو حنيفة وأصحابه . وأبو الثور ، والشافعي في ظاهر مذهبه ، واختاره ابن المنذر . لأنهم شخصان تختلف ديتهما فاختلف ارش أرافهما اه ووهذا قول أقيس .

قال مقيده عفا الله عنه : كلام ابن قدامة والخرقي صريح في أن ما بلغ ثلث الدية يستويان فيهن وا ، تفضيله عليها بنصف الدية إنما هو فيما زاد على الثلث .

فمقتضى كلامهما أن دية جائفة المرأة ومأمومتها كدية جائفة الرجل ومأمومته . لأن في كل من الجائفة والمأمومة ثلث الدية ، وأن عقلها لا يكون على النصف من علقه إلا فيما زاد على الثلث ، كديه أربعة أصابع من اليد ، فإن فيها أربعين من الإبل ، إذ في كل إصبع عشر ، والأربعون أكثر من ثلث المائة . وكلام مالك في الموطأ وغيره صريح في أن ما بلغ الثلث كالجائفة والمأمومة تكون دية المرأة فيه على النصف من دية الرجل ، وأن محل استوائها إنما هو فيما دون الثلث خاصة كالموضحة والمنقلة ، والإصبع والإصبعين والثلاثة . وهما قولا معروفان لأهل العلم . وأصحهما هو ما ذكرناه عن مالك ، ورجحه ابن قدامه في آخر كلامه بالحديث الآتي إن شاء الله تعالى .

قال مقيده عفا الله عنه : وهذا القول مشكل جداً لأنه يقتضي ان المرأة إن قطعت من يدها ثلاثة أصابع كان ديتها ثلاثين من الإبل كأصبع الرجل لأنها دون الثلث . وإن قطعت من يدها أربعة أصابع كانت ديتها عشرين من الإبل ، لأنها زادت على الثلث فصارت على النصف من دية الرجل . وكون دية الأصابع الثلاثة ثلاثين من الإبل ، ودية الأصابع الأربعة عشرين في غاية الإشكال كما ترى .

وقد استشكل هذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، على سعيد بن المسيب ، فأجابه بأه هذا هو السنة . ففي موطأ مالك رحمه الله عن مالك عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال : سألت سعيد بن المسيب كم في إصبع المرأةظ قال : عشر من الإبل . فقلت : كم في إصبعين ؟ قال : عشرون من الإبل . فقلت كم في ثلاث ؟ فقال : ثلاثون من الإبل . فقلت : كم في أربع ؟ قال : عشرون من الإبل . فقلت : حين عظم جرحها ، واشتدت مصيبته نقص عقلها ؟ فقال سعيد : أعراقي أنت ؟ فقلت . بل عالم متثبت ، أو جاهل متعلم . فقال سعيد : هي السنة يا بن أخي !

وظاهر كلام سعيد هذا : أن هذا من سنة النَّبي صلى الله عليه وسلم . ولو قلنا : أن هذا له حكم الرفع فإنه مرسل ، لأن سعيداً لم يدرك زمن النَّبي صلى الله عليه وسلم . ومراسيل بن المسيب قد قدمنا الكلام عليها مستوفى في سورة " الأنعام " مع أن بعض أهل العلم قال : إن مراده بالسنة هنا سنة أهل المدينة .

وقال النسائي رحمه الله في سننه : أخبرنا عيسى بن يونس قال : حدثنا حمزة ، عن إسماعيل بن عياش ، عن ابن جريج ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عقل المرأة مثل عقل الرجل حتى يبلغ الثلث من ديتها " اه وهذا يعضد قول سعيد .

إن هذا هو السنة .

قال مقيده عفا الله عنه : إسناد النسائي هذا ضعيف فيما يظهر من جهتين .

إحداهما - أن اسماعيل بن عياش رواه عن ابن جريج ، ورواية إسماعيل المذكور عن غير الشاميين ضعيفة كما قدمنا إيضاحه . وابن جريج ليس بشامين بل هو حجازي مكي .

(109/455)

الثانية - أن ابن جريج عنهنه عن عمر بن شعيب ، وابن جريج رحمه الله مدلس ، وعنعنة المدلس لا يحتج بها ما لم يثبت السماع من طريق أخرى كما تقرر في علوم الحديث . ويؤيد هذا الإعلال ما قاله الترمذي رحمه الله : من أن محمد بن إسماعيل يعني البخاري قال . إن ابن جريج لم يسمع من عمرو بن شعيب ، كما نقله عنه ابن حجر في " تهذيب التهذيب " في ترجمة ابن جريج المذكور .

وبما ذكرنا تعلم أن تصحيح ابن خزيمة لهذا الحديث غير صحيح . وإن نقله عنه ابن حجر في " بلوغ المرام " وسكت عليه . والله أعلم . وهذا مع ما تقدم من كون ما تضمنه هذا الحديث يلزمه أن يكن في ثلاثة اصابع من أصابع المرأة ثلاثون ، وفي أربعة اصابع عشرون . وهذا مخالف لما عهد من حكمة هذا الشرع الكريم كما ترى . اللهم إلا أن يقال : إن جعل

المرأة على النصف من الرجل فيما بلغ الثالث فصاعداً أنه في الزائد فقط. فيكون في أربعة أصابع من أصابعها خمس وثلاثون، فيكون النقص في العشرة الرابعة فقط. وهذا معقول وظاهر، والحديث محتمل له، والله أعلم.

ومن الأدلة على أن دية المرأة على النصف من دية الرجل - ما رواه البيهقس في السنن الكبرى من وجهين عن عبادة بن نُسِي، عن ابن غنم، عن معاذ بن جبل قال قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دية المرأة على النصف من دية الرجل" ثم قال البيهقي رحمه اله: وروي من وجه آر عن عبادة بن نسي وفيه ضعف. ومعلوم أن عبادة بن نُسَي ثقة فاضل. فالضعف الذي يعنيه البيهقي من غيره. وأخرج البيهقي أيضاً عن علي مرفوعاً "دية المرأة على النصف من دية الرجل في الكل" وهو من رواية إبراهيم النخعي عنه وفيه انقطاع. وأخرجه ابن أبي شيبة من طريق الشعبي عنه، وأخرجه أيضاً من وجه آخر عنه وعن عمر - قاله الشوكاني رحمه الله.

(110/455)

الفرع السادس - اعلم أن أصح الأقوال وأظهرها دليلاً: أن دية الكافر الذمي على النصف من دية المسلم. كما قدمنا عن أبي داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي

الله عنهما : أن دية أهل الكتاب كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف من دية المسلمين ، وأن عمر لم يرفعها فيما رفع عند تقويمه الدية لما غلت الإبل .

وقال أبو داود أيضاً في سننه : حدثنا يزيد بن خالد بن موهب الرملي ، ثنا هيسر بن يونس ، عن محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده ، عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال " دية المعاهد نصف دية الحر " قال أبو داود : ورواه أسمامة بن زيد الليثي ، وعبد الرحمن بن الحارث ، عن عمرو بن شعيب مثله اه .

وقال النسائي في سنه : أخبرنا عمرو بن علي قال : حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن راشد ، عن سليمان بن موسى . . – وذكر كلمة معناها – عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عقل أهل الذمة نصف عقل المسلمين – وهم اليهود والنصارى " أخبرنا أحمد بن عمرو بن السرح قالك أنبأنا ابن وهب قال : أخبرني اسامة بن زيد ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " عقل الكافر نصف عقل المؤمن "

وقال ابن ماجه رحمه الله في سننه : حدثنا هشان بن عمار ، ثنا حاتم بن إسماعيل ، عن عبد الرحمن بن عياش ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " قضى أن عقل أهل الكتابين نصف عقل المسلمين ، وهم اليهود والنصارى " .

وأخرج نحوه الإمام أحمد ، والترمذي ، عن عمرو عن أبيه عن جده .

قال الشوكاني في "نيل الأوطار" . وحديث عمرو بن شعيب هذا حسن الترمذي ، وصححه ابن الجارود . وبهذا تعلم أن هذا القول أولى من قول من قال : دية أهل لذمة كدية المسلمين . كأبي حنيفة ومن وافقه . ومن قال : إنا قدر ثلث دية المسلم . كالشافعي ومن وافقه . والعلم عند الله تعالى .

واعلم أن الروايات التي جاءت بأن دية الذمي والمعاهد كدية المسلم ضعيفة لايحتج بها . وقد بين البيهقي رحمه الله تعالى ضعفها في "السنن الكبرى" وقد حاول ابن التركماني رحمه الله في حاشيته على سنن البيهقي أن يجعل تلك الروايات صالحة للاحتجاج ، وهي ليس فيها شيء صحيح .

أما الاستدلال بظاهر قوله تعالى : ﴿ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ ﴾ [النساء : 92] فيقال فيه : هذه دلالة اقتران ، وهي غير معتبرة عند الجمهور . وغاية ما في الباب : أن الآية لم تبين قدر دية المسلم ولا الكافر ، والسنة بينت أن دية الكافر على النصف من دية المسلم . وهذا لا إشكال فيه .

أما استواؤهما في قدر الكفارة فلا دليل فيه على الدية . لأنها مسألة أخرى .

والأدلة التي ذكرنا دلالتها أنها على النصف من دية المسلم أقوى ، ويؤيد هاك أن في الكتاب الذي كتبه النَّبي صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم :

" وفي النفس المؤمنة مائة من الإبل " فمفهوم قوله " المؤمنة " أن النفس الكافرة ليست كذلك . على أن المخالف في هذا الإمام أبو حنيفة رحمه الله ، والمقرر في أصول : أنه لا يعتبر دليل الخطاب أعني مفهوم المخالفة كما معلوم عنه . ولا يقول بحمل المطلق على المقيد . فيستدل بإطلاق النفس عن قيد الإيمان في الأدلة الأخرى على شمولها للكافر . والقول بالفرق بين الكافر المقتول عمداً فتكون ديته كدية المسلم ، وبين المقتول خطأ فتكون على النصف من دية المسلم – لا نعلم له مستنداً من كتاب ولا سنة . والعلم عند الله تعالى .

(112/455)

وأما دية المجوسي – فأكثر أهل العلم على أنها ثلث خمس دية المسلم . فهي ثمانمائة درهم . ونساؤهم على النصف من ذلك .

وهذا قول مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وأكثر أهل العلم . منهم عمر وعثمان ، وابن مسعود رضي الله عنهم ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وعطاء ، وعكرمة ، والحسن ، وإسحاق .

وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : ديته نصف دية المسلم كدية الكتابي .

وال النخعي ، والشعبي : ديته كدية المسلم . وهذا هو مذهب ابي حنيفة رحمه الله .

والاستدلال على أن دية المجوسي كدية الكتابي بحديث "سنُّوا بهم سنَّة أهل الكتاب" لا يتجه . لأنا لو فرضنا صلاحية الحديث للاحتجاج ، فالمراد به أخذ الجزية منهم فقط . بدليل أن نساءهم لا تحل ، وذبائحهم لا تؤكل اه .

وقال ابن قدامة في "المغني" : إن قول من ذكرنا من الصحابة : إن دية المجوسي ثلث خمس دية المسلم ، لم يخالفهم فيه أحد من الصحابة فصار إجماعاً سكوتياً . وقد قدمنا قول من قال : إنه حجة .

وقال بعض أهل العلم : دية المرتد إن قتل قبل الاستتابة كدية المجوسي . وهو مذهب مالك . وأما الحربيون فلا دية لهم مطلقاً . والعلم عند الله تعالى .

الفرع السابع – اعلم أن العلماء اختلفوا في موجب التغليظ في الدية . وبم تغلظ . فذهب جماعة من أهل العلم إلى أنها تغلظ بثلاثة أشياء : وهي القتل في الحرم ، وكون المقتول محرماً بحج أو عمرة ، أو في الأشهر الحرم . فتغلظ الدية في كل واحد منها بزيادة ثلثها .

فمن قتل محرماً فعليه دية وثلث . ومن قتل محرماً في الحرم فدية وثلثان . ومن قتل محرماً في الحرم في الشهر الحرام فديتان .

وهذا مذهب الإمام أحمد رحمه الله . وروي نحو عن عمر ، وعثمان ، وابن عباس رضي الله عنهم . نقله عنهم البيهقي وغيره .

(113/455)

وممن روى عنه هذا القول سعيد بن المسيب ، وسعبد بن جبير ، وعطاء ، وطاوس ، والشعبي ، ومجاهد ، وسليمان بن يسار ، وجابر بن زيد . وقتادة ، والأوزاعي ، وإسحاق ، وغيرهم . كما نقله عنهم صاحب المغني .

وقال أصحاب الشافعي رحمه الله : تغلظ الدية بالحرم ، والأشهر الحرم ، وذي الرحم المحرم ، وفي تغليظها بالإحرام عنهم وجهان .

وصفة التغليظ عند الشافعي : هي أن تجعل دية العمد في الخطأ . ولا تغلظ الدية عند مالك رحمه الله في قتل الوالد ولده قتلاً شبه عمد . كما فعل المدلجي بأبيه . والجد والأم عنده كالأب .

وتغليظها عنده : هو تثليثها بكونها ثلاثين حقة ، وثلاثين جذعة ، وأربعين خلفة في بطونها أولادها ، لا يبالي من اي الأسنان كانت . ولا يرث الأب عنده في هذه الصورة من دية الولد ولا من ماله شيئاً .

وظاهر الأدلة أن القتل لا يرث مطلقاً من دية ولا غيرها ، سواء كان القتل عمداً أو خطأ .

وفرق المالكيو في الخطأ بين الدية وغيرها . فمنعوا ميراثه من الدية دون غيرها من مال التركة . والإطلاق أظهر من هذا التفصيل ، والله أعلم .

وقصة المدلجي : هي ما رواه مالك في الموطأ ، عن يحيى بن سعيد ، عن عمرو بن شعيب : ان رجلاً من بني مدلج يقال له " قتادة " حذف ابنه بالسيف . فأصاب ساقه فنزى في جرحه فمات . فقدم سراقة بن جعشم على عمر بن الخطاب فذكر ذلك له . قال له عمر : أعدد على ماء قديد عشرين ومائة بعير حتى اقدم عليك . فلما قدم إليه عمر بن الخطاب أخذ من تلك الإبل ثلاثين حقة ، وثلاثين جذعة وأربعين خلفة وقال : اين أخو المقتول ؟ قال : ها أنذا . قال : خذها . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس لقاتل شيء " .

الفرع الثامن – اعلم أن دية المقتول ميراث بين ورثته . كسائر ما خافه من تركته .

ومن الأدلة الدالة على ذلك ، ما روي عن سعيد بن المسيب : أن عمر رضي الله عنه قال : الدية للعاقلة ، لا ترث المرأة من دية زوجها . حتى أخبره الضحاك بن سفيان الكلابي : ان

رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أن أورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها .

رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي وصححه . ورواه مالك في الموطأ من رواية ابن شهاب عن عمر وزاد : قال ابن شهاب : وكان قتلهم أشيم خطأ : وما روي عن الضحاك بن سفيان رضي الله عنه . روي نحوه عن الغيرة بم شعبة وزرارة بن جري . كما ذكره الزرقاني في شرح الموطأ .

ومنها ما رواه عمر بن شعيب عن أبيه عن جده : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم " قضى أن العقل ميراث بين ورثة القتيل على فرائضهم " رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه . وقد قدمنا نص هذا الحديث عند النسائي في حديث طويل .

وهذا الحديث قواه ابن عبد البر ، وأعله النسائي . قاله الشوكاني . وهو معتضد بما تقدم وبما يأتي ، وبإجماع الحجة من أهل العلم على مقتضاه .

ومناه ما رواه البخاري في تاريخ عن قرة بن دعموص النميري قال : أتيت النَّبي صلى الله عليه وسلم أنا وعمي ، فقلت : يا رسول الله ، عند هذا دية أبي فمره يعطنيها وكان قتل في الجاهلية .

فقال : " أعطه دية أبيه " فقلت : هل لأمي فيها حقظ قال : " نعم " وكانت ديته مائة من الإبل .

وقد ساقه البخاري في التاريخ هكذا : قال قيس بنن حفص : أنا الفضيل بن سليمان

النميري قال : أنا عائذ ابن ربيعة بن قيس النميري قال : حدثني قرة بن دعموص قال : أتيت النَّبي صلى الله عليه وسلم أنا وعمي – إلى آخر الحديث باللفظ الذي ذكرنا . وسكت عليه البخاري رحمه الله . ورجال إسناده صالحون للاحتجاج . إلا عائذ بن ربيعة بن قيس النميري فلم نر من جرحه ولا من عدله .

وذكر له البخاري في تاريخه ، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ترجمة ، وذكر أنه سمع قرة بن دعموص – ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً .

(115/455)

وظاهر هذه الأدلة يقتضي أن دية المقتول تقسم كسائر تركته على فرائض الله ، وهو الظاهر . سواء كان القتل عمداً أو خطأ . ولا يخلو ذلك من خلاف .

وروي عن علي رضي الله عنه أها ميراث كقوله الجمهور ، وعنه رواية أخرى : أن الدية لا يرثها إلا العصبة الذين يعقلون عنه ، وكان هذا هو رأي عمر ، وقد رجع عنه لما أخبره الضحاك بأمر النَّبي صلى الله عليه وسلم إياه : أن يورث زوجة أشيم المذكور من دية زوجها .

وقال ابو ثور : هي ميراث ، ولكنها لا تقضى منها ديونه . ولا تنفذ منها وصاياه . وعن

أحمد رواية بذلك .

قال ابن قدامة في " المغني " : وقد ذكر الخرقي فيمن أوصى بثلث ماله لرجل فقتل وأخذت ديته . فللموصى له بالثلث ثلث الدية – في أحدى الروايتين .

والأخرى ليس لمن أوصى له بالثلث من الدية شيء .

ومبنى هذا : على أن الدية ملك للميت ، أو على ملك الورثة ابتداء . وفيه روايتان :

إحداهما أنها تحدث على ملك الميت . لأنها بدل نفسه ، فيكون بدلها له كدية أطرافه المقطوعة منه في الحياة ، ولأنه لو أسقطها عن القاتل بعد جرحه إياه كان صحيحاً وليس له إسقاط حق الورثة ، ولأنها مال موروث فاشتبهت سائر أمواله . والأخرى أنها تحدث على ملك الورثة ابتداء . لأنها إنما تحستحق بعد الموت وبالموت تزول أملاك الميت الثابتة له ، ويخرج عن أن يكون أهلاً لذلك ، وإنما يثبت الملك لورثته ابتداء . ولا أعلم خلافاً في أن الميت يجهز منها اه محل الغرض من كلام ابن قدامة رحمه الله .

قال مقيدة عفا الله عنه : أظهر القولين عندي : أنه يقرر ملك الميت لديته عند موته فتورث كسائر أملاكه . لتصريح النَّبي صلى الله عليه وسلم للضحاك في الحديث المذكور بتوريث امرأة أشيم الضبابي من ديته . والميراث لا يطلق شرعاً إلا على ما كان مملوكاً للميت ، والله تعالى أعلم .

المسألة السادسة – اختلف العلماء في تعيين ولي المقتول الذي جعل الله له هذا السلطان المذكور في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً ﴾ [الإسراء : 33] الآية .

فذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المراد بالولي في الآية : الورثة من ذوي الأنساب والأسباب ، والرجال والنساء ، والصغار والكبائر . فإن عفا من له ذلك منهم صح عفوه وسقط به القصاص ، وتعينت الدية لمن لم يعف .

وهذا مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، والإمام أبي حنيفة والإمام الشافعي رحمهم الله تعالى .

وقال ابن قدامة في " المغني " : هذا قول أكثر أهل العلم . منهم عطاء ، والنخعي ، والحكم ، وحماد والثوري ، وابو حنيفة ، والشافعي . وروي معنى ذلك عن عمر ، وطاوس ، والشعبي ، وقال الحسن ، وقتادة ، والزهري ، وابن شبرمة ، والليث ، والأوزاعي : ليس للنساء عفو . اي فهن لا يدخلن عندهم في اسم الولي الذي له سلطان في الآية .

ثم قال ابن قدامة : والمشهور عن مالك أنه موروث للعصبات خاصة . وهو وجه لأصحاب الشافعي .

قال مقيده عفا الله عنه : مذهب مالك في هذه المسألة فيه تفصيل : فالولي الذي له

السلطان المذكور في الآية الذي هو استيفاء القصاص أو العفو – عنده هو أقرب الورثة العصبة الذكور ، والجد والإخوة في ذلك سواء . وهذا هومعنى قول خليل في مختصره والاستيفاء للعاصب كالولاء ، غلا الجد والإخوة فسيان اه .

وليس للزوجين عنده حق في القصاص ولا العفو ، وكذلك النساء غير الوارثات : كالعمات ، وبنات الإخوة ، وبنات العم .

أما النساء الوراثات : كالبنات . والأخوات ، والأمهات فلهن القصاص . وهذا فيما إذا لم يوجد عاصب مساو لهن في الدرجة . وهذا هو معنى قول خليل في مختصره : وللنساء إن ورثن ولم يساوهن عاصب .

فمفهوم قوله " إن ورثن " أن غير الوارثات لا حق لهن ، وهو كذلك .

ومفهوم قوله : " ولم يساوهن عاصب " أنهن إن ساواهن عاصب : كبنين ، وبنات ، وإخوة اخوات ، فلا كلام للإناث مع الذكور . وأما إن كان معهن عاصب غير مساو لهن : كبنات ، وإخوة . فثالث الأقوال هو مذهب المدونة : أن لكل منهما قصاص ولا يصح العفو عنه لا باجتماع الجميع . أعني ولو عفا بعض هؤلاء ، وبعض هؤلاء . وهذا هو معنى قول خليل في

مختصره : ولكل القتل ولا عفو إلا باجتماعهم . يعني ولو بعض هؤلاء وبعض هؤلاء .

قال مقيده عفا الله عنه : الذي يقتضي الدليل رجحانه عندي في هذه المسألة : ان الولي في هذه الآية هم الورثة ذكورا كانوا أو إناثاً . ولا مانع من إطلاق الولي على الأنثى . لأن المراد جنس الولي الشامل لكل من انعقد بينه وبين غيره سبب يجعل كلاً منهما يوالي الآخر . كقوله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : 71] ، وقوله : ﴿ وَأُوْلُوا الأرحام بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ ﴾

[الأنفال : 75] الآية .

والدليل على شمول الولي في الآية للوارثات من النساء ولو بالزوجية – الحديث الوراد بذلك ، قال أبو داود في سننه : (باب عفو النساء عن الدم) حدثنا داود بن رشيد ، ثنا الوليد عن الأوزاعي : أنه سمع حصنا ، أنه سمع أبا سلمة يخبر عن عائشة رضي الله عنها ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " على المقتتلين أن ينحجزوا الأول فالأول وإن كانت امرأة " .

قال أبو داود : بلغني أن عفر النساء في القتل جائز إذا كانت إحدى الأولياء . وبلغني عن أبي عبيدة في قوله " ينحجزوا " يكفوا عن القود .

وقال النسائي رحمه الله في سننه : أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال : حدثنا الوليد عن الأوزاعي قال : حدثني حصن قال : حدثني أبو سلمة (ح) وأنبأنا الحسين بن حريث قال : حدثنا الوليد قال : حدثنا الأوزاعي قال حدثني حصن : أنه سمع أبا سلمة يحدث عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " وعلى المقتتلين أن ينحجزوا الأول فالأول وإن كانت امرأة " اه.

وهذا الإناد مقارب. لأن رجاله صالحون للاحتجاج، إلا حصناً المذكور فيه ففيه كلام.

فطبقته الأولى عند أبي داود : هي داود بن رشيد الهاشمي مولاهم الخوارزمي نزيل بغداد وهو ثقة. وعند النسائي حسين بن حريث، وإسحاق بن إبراهيم. وحسين بن حريث الخزاعي مولاه أبو عمار المروزي ثقة.

والطبقة الثانية عندهما : هي الوليد بن مسلم القرشي مولاهم أبو العباس الدمشقي ثقة، لكنه كثير التدليس والتسوية، وهو من رجال البخاري ومسلم وباقي الجماعة.

والطبقة الثالثة عندهما : هي الإمام الأوزاعي وهو عبد الرحمن بن عمرو بن أبي عمرو أبو عمر الأزواعي، وهو الإمام الفقيه المشهور، ثقة جليل.

والطبقة الرابعة عندهما : هي حصن المذكور وهو ابن عبد الرحمن، أو ابن محصن التراغمي أبو حذيفة الدمشقي، قال فيه ابن حجر في " التقريب " : مقبول. وقال فيه في "

تهذيب التهذيب " : قال الدارقطني شيخ يعتبر به ، له عند أبي داود والنسائي حديث واحد " على المقتتلين أن ينحجزوا الأول فالأول وإن كانت امرأة " (قلت) : وذكره ابن حبان في الثقات . وقال ابن القطان لا يعرف حاله (اه) وتوثيق ابن حبان له لم يعارضه شيء مان من قبوله . لأن من أطلع على أنه ثقة ما لم يحفظه مدعي أنه مجهول لا يعرف حاله . وذكر ابن حجر في " تهذيب التهذيب " عن ابي حاتم ويعقوب بن سفيان أنهما قالا : لا نعلم أحداً روى عنه غير الأوزاعي .

والطبقة الخامسة عندهما : أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، وهو ثقة مشهور .

والطبقة السادسة عندهما : عائشة رضي الله عنها عن النَّبي صلى الله عليه وسلم . فقد رأيت أ ، ابن حبان رحمه الله ذكر حصنا المذكور في الثقات .

وأن بقية السند كلها صالح للاحتجاج . والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

إذا كان بعض أولياء الدم صغيراً أو مجنوناً ، أو غائباً ، فهل للبالغ الحاضر العاقل : القصاص

قبل قدوم الغائب ، وبلوغ الصغير ، وإفاقة المجنون ؟ أو يجب انتظار قدوم الغائب ، وبلوغ الصغير . . ! الخ .

فإن عفا الغائب بعد قدومه ، أو الصغير بعد بلوغه مثلاً القصاص ووجبت الدية . في ذلك خلاف مشهور بين أهل العلم .

فذهبت جماعة من أهل العلم إلى أنه لا بد من انتظار بلوغ الصغير ، وقدوم الغائب ، وإفاقة المجنون .

وهذا هو ظاهر مذهب الإمام أحمد . قال ابن قدامو : وبهذا قال ابن شبرمة ، والشافعي ، وأبو يوسف ، وإسحاق ، ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله . وعن أحمد رواية أخرى للكبار العقلاء استيفاؤه . وبه قال حماد ، ومالك ، والأوزاعي ، والليث ، وأبو حنيفة اه محل الغرض من كلام صاحب المغني .

وذكر صاحب المغني أيضاً : أنه لا يعلم خلافاً في وجوب انتظار قدوم الغائب . ومنع استبداد الحاضر دونه .

قال مقيده عفا الله عنه : إن كانت الغيبة قريبة فهو كما قال . وإن كانت بعيدة ففيه خلاف معروف عند المالكية . وظاهر المدونة لانتظار ولو بعدي غيبته .

وقال بعض علماء المالكية منهم سحنون : لا ينتظر بعيد الغيبة . وعليه درج خليل بن

إسحاق في مختصره في مذهب مالك ، الذي قال في ترجمته مبيناً لما به الفتوى بقوله : (وانتظر غائب لم تبعد غيبته . لا مطبق وصغير لم يتوقف الثبوت عليه) .

(120/455)

وقال ابن قدامة في " المغني " ما نصه : والدليل على أن للصغير والمجنون فيه حقاً أربعة أمور : أحدها – أنه لو كان منفرداً لاستحقه . ولو نافاه الصغر مع غيره لنافاه منفرداً كولاية النكاح . والثاني – أنه لو بلغ لاستحق . ولو لم يكن مستحقاً عند الموت لم يكن مستحقاً بعده . كالرقيق إذا عتق بعد موت أبيه . والثالث – أنه لو صار الأمر إلى المال لاستحق ، ولو لم يكن مستحقاً للقصاص لما استحق بدله كالأجنبي . والرابع – أنه لو مات الصغير لاستحقه ورثته ، ولو لم يكن حقاً لم يرثه كسائر ما لم يستحقه .

واحتج من قالك إنه لا يلزم انتظار بلوغ الصبي ولا إفاقة المجنون المطبق بأمرين :

أحدهما – أن القصاص حق من حقوق القاصر ، غلا أنه لما كان عاجزاً عن النظر لنفسه كان غيره يتولى النظر في ذلك كسائر حقوقه فإن النظر فيها لغيره ، ولا ينتظر بلوغه في جميع التصرف بالمصلحة في جميع حقوقه . وأولى من ينوب عنه في القصاص الورثة المشاركون له فيه . وهذا لا يرد عليه شيء من الأمور الأربعة التي ذكرها صاحب المغني . لأنه يقال فيه

بموجبها فيقال فيه : هو مستحق لكنه قاصر في الحال ، فيعمل غيره بالمصلحة في حقه في القصاص كسائر حقوقه .

ولا سيما شريكه الذي يتضرر بتعطيل حقه في القصاص إلى زمن بعيد .

الأمر الثاني – أن الحسن بن علي رضي الله عنه قتل عبد الرحمن بن ملجم المرادي قصاصاً بقتله علياً رضي الله عنه ، وبعض أولاد علي إذ ذاك صغار ، ولم ينتظر بقتله بلوغهم ، ولم ينكر عليه ذلك أحد من الصحابة ولا غيرهم . وقد فعل ذلك بأمر علي رضي الله عنه كما هو مشهور في كتب التاريخ . ولو كان انتظار بلوغ الصغير واجباً لانتظره .

(121/455)

وأجيب عن هذا من قبل المخالفين بجوابين : أحدهما – أن ابن ملجم كافر . لأنه مستحل دم علي ، ومن استحل دم مثل على رضي الله عنه فهو كافر . وإذا كان كافراً فلا حجو في قتله . الثاني – أنه ساع في الأرض بالفساد ، فهو محارب ، والمحارب إذا قتل وجب قتله على كل حال لو عفا أولياء الدم كما قدمناه في سورة " المائدة " وإذن فلا داعي للانتظار .

قال : البيهقي في السنن الكبرى ما نصه : قال بعض أصحابنا : إنما استبد الحسن بن علي رضي الله عنهما بقتله قبل بلوغ الصغار من ولد علي رضي الله عنه . لأنه قتله حداً لكفره

لا قصاصاً .

وقال ابن قدامة في " المغني " : فأما ابن ملجم فقد قيل إنه قتله بكفره . لأ ، ه قتل علياً مستحلاً لدمه ، معتقداً كفره ، متقرباً بذلك إلى الله تعالى . وقيل : قتله لسعيه في الأرض بالفساد وإظهار السلاح ، فيكون كقاطع الطريق إذا قتل ، وقتله متحتم ، و هو إلى الإمام . والحسن هو الإمام ، ولذلك لم ينتظر الغائبين من الورثة . ولا خلاف بيننا في وجوب انتظارهم وإن قدر أنه قتله قصاصاً فقد اتفقنا على خلافه . فكيف يحتج به بعضنا على بعض . انتهى كلام صاحب المغني .

وقال ابن كثير في تاريخه ما نصه : قال العلماء : ولم ينتظر بقتله بلوغ العابس بن علي . فإنه كان صغيراً يوم قتل أبوه . قالوا : لأنه كان قتل محاربة لا قصاصاً . والله أعلم اه .

واستدل القائلون بأن ابن ملجم كافر بالحديث الذي رواه علي عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أشقى الأولين ؟ " قلت : عاقر الناقة . قال : " صدقت . فمن أشقى الآخرين ؟ " قلت : لا علم لي يا رسول الله . قال : " الذي يضربك على هذا – وأشار بيده على يافوخه – فيخضب هذه من هذه – يعني لحيته – من دم رأسه " قال : فكان يقول : وددت أنه قد انبعث أشقاكم " وقد ساق طرق هذا الحديث ابن كثير رحمه الله في تاريخه ، وابن عبد البر في " الاستيعاب " وغيرهما .

قال مقيده عفا الله عنه : الذي عليه أهل التاريخ والأخبار – والله تعالى أعلم – أن قتل ابن ملجم كان قصاصاً لقتله علياً رضي لله عنه .

لا لكفر ولا حرابة . وعلي رضي الله عنه لم يحكم بكفر الخوارج . ولما سئل عنهم قال : من الكفر فروا . فقد ذكر المؤرخون أن علياً رضي الله عنه أمرهم أن يحبسوا ابن ملجم ويحسنوا إساره ، وإنه إن مات قتلوه به قصاصاً ، وإن حيي فهو ولي دمه . كما ذكره ابن جرير ، وابن الأثير ، وابن كثير وغيرهم في تواريخهم .

وذكره البيهقي في سننه ، وهو المعروف عند الإخباريين . ولا شك أن الن ملجم متأول – قبحه الله – ولكنه تأويل بعيد فاسد ، مورد صاحبه النار ، ولما ضرب علياً رضي الله عنه قال : الحكم لله يا علي ، لا لك ولا لأصحابك ! ومراده أن رضاه بتحكيم الحكمين : ابي موسى ، وعمرو بن العاص – كفر بالله لأن الحكم لله وحده . لقوله : ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ ﴾ [الأنعام : 57] .

ولما أراد أولاد علي رضي الله عنه أن يتشفوا منع فقطعت يداه ورجلاه لم يجزع ، ولا فتر عن الذكر . ثم كحلت عيناه وهو في ذلك يذكر الله ، وقرأ سورة ﴿ اقرأ باسم رَبِّكَ ﴾ [العلق : 1] إلى آخرها ، وإن عينيه لتسيلان على خديه . ثم حاولوا لسانه ليقطعوه فجزع من ذلك جزعاً شديداً . فقيل له في ذلك ؟ فقال : إني أخاف أن أمطث فواقاً لا أذكر الله (

ه) ذكره ابن كثير وغيره.

ولأجل هذا قال عمران بن حطان السدوسي يمدح ابن ملجم - قبحه الله - في قتله أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه:

يا ضربة من تقي ما أراد بها . . . إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره يوماً فأحسبه . . . أوفى البرية عند الله ميزانا

وجزى الله خيراً الشاعر الذي يقول في الرد عليه:

قل لابن ملجم الأقدار غالبة . . . هدمت ويلك للإسلام أركانا

قتلت أفضل منيمشي على قدم . . . وأول الناس إسلاماً وإيماناً

وأعلم الناس بالقرآن ثم بما . . . سن الرسول لنا شرعاً وتبياناً

صهر النّبي ومولاه وناصره . . . أضحت مناقبه نوراً وبرهانا

وكان منه على رغم الحسود له . . . مكان هارون من موسى بن عمرانا

ذكرت قاتله والدمع منحدر . . . فقلت: سبحان رب العرش سبحانا

إني لأحسبه ما كان من بشر . . . يخشر المعاد ولكن كان شيطانا

كعاقر الناقة الأولى التي جلبت . . . على ثمود بأرض الحجر خسرانا

قد كان يخبرهم أن سوف يخضبها . . . قبل المنية أزمانا فأزمانا

فلا عفا الله عنه ما تحمله . . . ولا سقى قبر عمران بن حطانا

لقوله في شقي ظل مجترما . . . ونال ما ناله ظلماً وعدواناً

"يا ضربة من تقى ما أراد بها . . . إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا "

بل ضربة من غوى أوردته لظى . . . فسوف يلقى بها الرحمن غضبانا

كأنه لم يرد قصداً بضربته . . . إلا ليصلى عذاب الخلد نيرانا

ومما ذكرنا – تعلم أن قتل الحسن بن علي رضي الله عنه لابن ملجم قبل بلوغ الصّغار من أولاد علي يقوي حجة من قال بعدم انتظار بلوغ الصغير .

وحجة من قال أيضاً بكفره قوية : للحديث الدال على أنه أشقى الآخرين . مقروناً بقاتل ناقة صالح المذكور في قوله : ﴿ إِذِ انبعث أَشْقَاهَا ﴾ [الشمس : 12] وذلك يدل على كفره . والعلم عند الله تعالى .

المسألة السابعة – اعلم أن هذا القتل ظلماً ، الذي جعل الله بسببه هذا السلطان والنصر المذكورين في هذه الآية الكريمة ، التي هي قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً ﴾ [الإسراء : 33] الآية ، يثبت بواحد من ثلاثة أشياء : اثنان منها متفق عليهما ، وواحد مختلف فيه .

أم الاثنان المتفق على ثبوته بهما : فهما الإقرار بالقتل ، والبينة الشاهدة عليه .

وأما الثالث المختلف فيه : فهو أيمان القسامة مع وجود اللوث ، وهذه أدلة ذلك كله .

(124/455)

أما الإقرار بالقتل – فقد دلت أدلة على لزوم السلطان المذكور في الآية الكريمة به . قال البخاري في صحيحه : " باب إذا أقر بالقتل مرة قتل به " حدثني إسحاق ، أخبرنا حبان ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة حدثنا أنس بن مالك : أن يهودياً رض رأس جارية بين حجرين . فقيل لها : من فعل بك هذا ؟ أفلان . أفلان ؟ حتى سمي اليهودي . فأومأت براسها ، فجيء باليهودي فاعترف ، فأمر النّبي صلى الله عليه وسلم فرضّ رأسه بالحجارة . وقد قال همام : بحجرين .

وقد قال البخاري أيضاً : (باب سؤال القاتل حتى يقر) ثم ساق حديث أنس هذا وقال فيه : فلم يزل به حتى أقر فرض رأسه بالحجارة . وهو دليل صحيح واضح على لزوم السلطان المذكور في الآية الكريمة بإقرار القاتل . وحديث أنس هذا أخرجه ايضاً مسلم ، وأصحاب السنن ، والإمام أحمد .

ومن الأدلة الدالة على ذلك ما رواه مسلم في صحيحه : حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري

، حدثنا أبي ، حدثنا أبو يونس عن سماك بن حرب : أن علقمة بن وائل حدثه أن أباه حدثه قال : إني لقاعدٌ مع النّضبي صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل يقود آخر بنسعة فقال : يا رسول الله ، هذا قتل أخي ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أقتلته ؟ " فقال : إنه لو لم يعترف أقمت عليه البينة . قال نعم قتلته . قال : "كيف قتلته ؟ " قال كنت : أنا وهو نختبط من شجرة . فسبني فأغضبني فضربته بالفأس على قرنه فقتلته . فقال له النَّبي صلى الله عليه وسلم : " هل لك من شيء تؤديه عن نفسك ؟ " قال : ما لي مال إلا كسائي وفأسي . قال : " فترى قومك يشترونك " قال : أنا أهون عليهم من ذاك ! فرمى إليه بنسعته وقال :

" دونك صاحبك . . " الحديث . وفيه دلالة الواضحة على ثبوت السلطان المذكور في الآية الكريمة بالإقرار .

ومن الأدلة على ذلك إجماع المسلمين عليه . وسيأتي إن شاء الله إيضاح إلزام الإنسان ما أقر به على نفسه في سورة " القيامة " .

وأما البينة الشاهدة بالقتل عمداً عدواناً – فقد دل الدليل أيضاً على ثبوت السلطان المذكور في الآية الكريمة بها . قال أبو داود في سننهك حدثنا الحسن بن علب بن راشد ، اخبرنا هشيم ، عن أبي حيان التيمي ، ثنا عباية بن رفاعة ، عن رافع بن خديج قال : اصبح رجل من الأنصار مقتولا بخيبر . فانطلق أولياؤه إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له ، فقال : "لكم شاهدان يشهدان على قتل صاحبكم ؟" قال : يا رسول الله ، لم يكن ثمَّ أحد من المسلمين ، وإنما هو يهود ، وقد يجترؤون على أعظم من هذا ، قال : "فاختاروا منهم خمسين فاستحلفوهم فأبوا" فوداه النَّبي صلى الله عليه وسلم من عنده اه .

فقول النَّبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث : "لكم شاهدان على قتل صاحبكم" فيه دليل واضح على ثبوت السلطان المذكور في الآية بشهادة شاهدين على القتل .

وهذا الحديث سكت عليه أبو داود ، والمنذري . ومعلوم أن رجال هذا لإسناد كلهم رجال الصحيح . إلا الحسن بن علي بن راشد وقد وثق . وقال فيه ابن حجر في "التقريب" : صدوق رمي بشيء من التدليس .

وقال انسائي في سننه : أخبرنا محمد بن معمر قال : حدثنا رح بن عبادة ، قال : حدثنا عبيد الله بن الأخنس ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن ابن محيصةَ الأصغر اصبح قتيلاً على أبواب خيبر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أقم شاهدين

على من قتله أدفعه إليكم برمته " قال : يا رسول الله ، ومن أين أصيب شاهدين ، وإما أصبح قتيلاً على أبوابهم . قال : " فتحلف خمسين قسامة " قال : يا رسول الله ، وكيف احلف على ما لا أعلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فتستحلف منهم خمسين قسامةً " فقال : يا رسول الله ، كيف نستحلفهم وهم اليهود فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ديته عليهم وأعانهم بنصفها اه .

(126/455)

فقوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث : " أقم شاهدين على من قتله أدفعه إليكم برمته " – دليل واضح على ثبوت السلطان المذكور في الآين الكريمة بشهادة شاهدين .

واقل درجات هذا الحديث الحسن . وقال فيه ابن حجر في " الفتح " : هذا السند صحيح حسن .

ومن الأدلة الدالة على ذلك – إجماع المسلمين على ثبوت القصاص بشهادة عدلين على القتل عمداً عدواناً .

وقد قدمنا قول من قال من العلماء : إن أخبار الآحاد تعتضد بموافقة الإجماع لها حتى تصير قطيعة كالمتواتر ، لاعتضادها بالمعصوم وهو إجماع المسلمين .

وأكثر الأصول يقولون : إن اعتضاد خبر الآحاد بالإجماع لا يصير قطعياً . وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود في مبحث أخبار الآحاد :

ولا يفيد القطع ما يوافق ال . . . إجماع والبعض بقطع ينطق

وبعضهم يفيد حيث عولا . . . عليه وانفه إذا ما قد خلا

مع دواعي رده من مبطل . . . كما يدل خلافة علي

وقوله : وانفه إذا ما قد هلا . . الخ - مسألة أخرى غير التي نحن بصددها . وإنما ذكرناها لارتباط بعض الأبيات ببعض .

فممن قال بوجوب القود بالقسامة : مالك وأصحابه ، وأحمد ، وهو أحد قولي الشافعي ، وروي عن ابن الزبير ، وعمر بن عبد العزيز . والظاهر أن عمر بن عبد العزيز رجع عنه . وبه قال أبو ثور ، وابن المنذر ، وهو قول الزهري ، وربيعة ، وأبي الزناد ، والليث ، والأوزاعي ، وإسحاق ، وداود .

وقضى بالقتل بالقسامة عبد الملك بن مروان ، وأبوه مروان ، وقال أبو الزناد : قلنا بها وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون ، إني لأرى أنهم الف رجل فما اختلف منهم اثنان .

وقال ابن حجر (في فتح الباري) . إنما نقل ذلك أبو الزناد عن خارجة بن زيد بن ثابت .

كما أخرجه سعيد بن منصور والبيهقي من رواية علد الرحمن بن ابي الزناد عن أبيه ، وإلا فأبوا الزناد لا يثبت أنه رأى عشرين من الصحابة فضلاً عن ألف .

وممن قال بان القسامة تجب بها الدية ولا يجب بها القود : الشافعي في أصح قوليه ، وهو مذهب أبي حنيفة ، وروى عن أبي بكر وعمر وابن عباس ومعاوية رضي الله عنهم .

وهو مروي عن الحسن البصري ، والشعبي ، والنخعي ، وعثمان البتي ، والحسن بن صالح ، وغيرهم . وعن معاوية : القتل بها أيضاً .

وذهبت جماعة أخرى إلى أن القسامة لا يثبت بها حكم من قصاص ولا ديتز وهذا مذهب الحكم بن عتيبة ، وأبي قلابة ، وسلام بن عبد الله ، وسليمان بن يسار ، وقتادة ، ومسلم بن خالد ، وإبراهيم بن علية . وإليه يحو البخاري ، وروي عن عمر بن عبد العزيز باختلاف عنه .

وروي عن علد الملك بن مروان أنه ندم على قتله رجلاً بالقسامة ، ومحا أسماء الذين حلفوا أيمانهم من الديوان ، وسيرهم إلى الشام . قاله البخاري في صحيحه .

فإذا عرفت أقوال لهم أهل العلم في القسامة فدونك أدلتهم على أقوالهم في هذه المسألة :

أما الذين قالوا بالقصاص بالقسامة فاستدلوا على ذلك بما ثبت في بعض روايات حديث سهل بن أبي حثمة في صحيح مسلم وغيره: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قتل عبد الله بن سهل الأنصاري بخيبر، مخاطباً لأولياء المقتول: "يقسم خمسون منكم على رجل منهم فيدفع برمته.. " الحديث. فقوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الثابت في صحيح مسلم وغيره "فيدفع برمته" معناه: أنه يسلم لهم ليقتلوه بصاحبهم.

وهو نص صحيح صريح في القود بالقسامة.

ومن أدلتهم على ذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند النسائي الذي قدمناه قريباً. وقد قدمنا عن ابن حجر أنه قال فيه: صحيح حسن. فقول النَّبي صلى الله عليه وسلم فيه: "اقم الشاهدين على من قتله أدفعه إليكم برمته" صريح ايضاً في القود بالقسامة. وادعاة أن معنى دفعه إليهم برمته: أي ليأخذوا منه الدية - بعيد جداً كما ترى.

ومن أدلتهم ما ثبت في رواية متفق عليها في حديث سهل المذكور: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأولياء المقتول: "تحلفون خمسين يميناً وتستحقون قاتلكم أو

صاحبكم . . " الحديث . قالوا : فعلى أن الرواية " قاتلكم " فهي صريح في القود بالقسامة . وعلى أ ، ها " صاحبكم " فهي محتملة لذلك احتمالاً قوياً . وأجيب من جهة المخالف بأن هذه الرواية لا يصح الاحتجاج بها للشك في اللفظ الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو فرضنا أن لفظ الحديث في نفس الأمر " صاحبكم " لا حتمل أن بكون المراد به المقتول ، وأن المعنى : تستحقون ديته . والاحتمال المساوي يبطل الاستدلال كما هو معروف في الأصول . لأن مساواة الاحتمالين يصير بها اللفظ مجملاً ، والمجمل يجب التوقف عنه حتى يرد دليل مبين للمراد منه .

ومن أدلتهم ما جائ في رواية عند الإمام أحمد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتحلفون وتستحقون دم صاحبكم " قالوا : معنى " دم صاحبكم " قتل القاتل .

وأجيب من جهة المخالف باحتمال أن المارد " بدم صاحبكم " الدية ، وهو احتمال قوي ايضاً . لأن العرب تطلق الدم علىلدية . ومنه قوله :

أكلت دماً إن لم أرعك بضرة . . . بعيدة مهو القرط طيبة النشر

ومن أدلتهم ما رواه أبو داود في سننه : حدثنا محمود بن خالد وكثير بن عبيد قالا : حدثنا الوليد (ح) وحدثنا محمد بن الصباح بن سفيان ، أخبرنا الوليد غن أبي عمرو ، عم عمرو بن شعيب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنه قتل القسامة رجلاً من بني نصر بن مالك ببحرة الرغاء على شطِ لِيَّة البحرة قال القاتل والمقتول منهم . وهذا لفظ محمود ببحرة أقامه محمود وحده على شط لية اه وانقطاع سند هذا الحديث واضح في قوله : " عن عمرو بن شعيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "كما ترى . وقد ساق البيهقي في السنن الكبرى حديث أبي داود هذا وقال : هذا منقطع ، ثم اقل : وروى أبو داود ايضاً في المراسيل عن موسى بن إسماعيل ، عن حماد عن قتادة ، وعامر الأحول عن أبي المغيرة : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم " اقاد بالقسامة الطائف " وهو أيضاً منقطعز وروى البيهقي ي سننه عن أبي الزناد قال : أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت ، أن رجلاً من الأنصار قتل وهو سكران رجلاً ضربه بشويق ، ولم يكن على ذلك بينة قاطعة إلا لطخ أو شبيه ذلك ، وفي الناس يومئذ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن فقهاء الناس ما لا يحصى ، وما اختلف اثنان منهم أن يحلف ولاة المقتول ويقتلوا أو يستحيواز فحلفوا خمسين يميناً وقتلوا ، وكان يخبرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالقسامة ، ويرونها للذي ياتي به من اللطخ أو الشبهة أقوى مما يأتي به خصمه ، ورأوا ذلك في الصهيبي حين قتله الحاطبيون وفي غيره .

ورواه ابن وهب عن أبي الزناد وزاد فيه : ان معاوية كتاب إلى سعيد بن العاص : أن كان ما ذكرنا له حقاً أن يحلفنا على القاتل ثم يسلمه إلينا .

(130/455)

وقال البيهقي في سننه ايضاً : أخبرنا أو سعيد بن أبي عمرو ، ثنا أبو العباس الأصم ، ثنا بحر بن نصر ، ثنا عبد الله بن وهب ، أخبرني عبد الرحمن بن أبي الزناد : أن هشام بن عروة أخبره : أن رجلاً من آل حاطب بن أبي بلتعة كانت بينه وبين رجل من آل صهيب منازعة . . فذكر الحديث في قتله قال : فركب بحية بن عبد الرحمن بن حاطب إلى عبد الملك بن مروان في ذلك . فقضى بالقسامة على ستة نفر من آل حاطب ، فنى عليهم الأيمان ، فطلب أل حاطب أن يحلفوا على اثنين ويقتلوهما . فأبى عبد الملك إلا أن يحلفوا على واحد فيقتلوه . فحلفو على الصهيبي فقتلوه . قال هشام : فلم ينكر ذلك عروة ، ورأى أن قد اصيب فيه الحق ، وروينا فيه عن الزهري وربيعة .

ويذكر عن ابن أبي ملكية عن عمر بن عبد العزيز وابن الزبير : أنهما أقادا بالقسامة .

ويذكر عن عمر بن عبد العزيز أنه رجع عن ذلك وقال : إن وجد اصحابه بينة وإلا فلا تظلم الناس . فإن هذا لا يقضى فيه إلى يوم القيامة انتهى كلام البيهقي رحمه الله .

هذه هي أدلة من أوجب القود بالقسامة .

وأما حجج من قال : لا يجب بها غلا الدية – فمنها ما ثبت في بعض روايات حديث سهل المذكور عند مسلم وغيره : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " إما أن يدوا صاحبكم ، وإما أن يؤذنوا بحرب " .

قال النووي في شرح مسلم : معناه إن ثبت القتل عليهم بقسامتكم فإما أن يدوا صاحبكم – أي يدفعوا إليكم ديته – وإما أم يعلمونا أنهم ممتنعون من التزام أحكامنا . فينتقض عهدهم ، ويصيرون حرباً لنا .

وفيه دليل لمن يقول : الواجب بالقسامة الدية دون القصاص اه كلام النووي ، رحمه الله .

ومنها ما ثبت في بعض روايات الحديث المذكور في صحيح البخاري وغيره : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " أفتسحقون الدية بإيمان خمسين منكم " قالوا : هذه الرواية الثابتة في صحيح البخاري صريحة في أن المستحق بأيمان القسامة إنما هو الدية لا القصاص .

ومن أدلتهم أيضاً ما ذكره الحافظ (في فتح الباري) قال : وتمسك من قال : لا يجب فيها إلا الدية بما أخرجه الثوري في جامعه ، وابن أبي شيبة ، وسعيد بن منصور بسند صحيح إلى

الشعبي قال : وجد قتيل بين حيين من العرب فقال عمرك قسوا ما بينهما فأيهما وجدتموه إليه أقرب فأحلفوهم خمسين يميناً ، وأغرموهم الدية . وأخرجه الشافعي عن سفيان بن عيينة ، عن منصور ، عن الشعبي : أن عمر كتب في قتيل وجد بين خيران ووادعة أن يقاي ما بين القريتين . فإلى ايهما كان أقرب أخرج غليه منها خمسون رجلاً حتى يوافوه في مكة ، فأدخلهم الحجر فأحلفهمن ثم قضى عليهم الدية . فقال : " حقنتم بأيمانكم دماءكم ، ولا يطل دم رجل مسلم " .

قال الشافعي : إنما أخذه الشعبي عن الحارث الأعور ، والحارث غير مقبول . انتهى . وله شاهد مرفوع من حديث أبي سعيد عند أحمد : أن قتيلاً وجد بين حيين فأمر النّبي صلى الله عليه وسلم طأن يقاس إلى أيهما اقرب فالقى ديته على الأقرب " ولكن سنده ضعيف .

وقال عبد الرزاق في مصنفه : قلت لعبد الله بن عمر العمريك أعلمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقاد بالقسامة ؟ قال : لا قلت : فأبوبكر ؟ قال : لا . قلت : فعمر ؟ قال لا . قلت : فلم تجترؤو عليها ؟ فسكت .

وأخرج البيهقي من طريق القاسم بن عبد الرحمن : أن عمر قال : في القسامة : توجب العقل ولا تسقط الدم . انتهى كلام ابن حجر رحمه الله .

فهذه هي أدلّة من قال : إنّ القسامة توجب الدية ولا توجب القصاص .

وأما حجة من قال : إن القسامة لا يلزم بها حكم – فهي أن الذين يحلفون أيمان القسامة إنما

يحلفون على شيء لم يحضروه، ولم يعلموا أحق هو أم باطل، وحلف الإنسان على شيء لم يره دليل على أنه كاذب.

(132/455)

قال البخاري في صحيحه: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا أبو بشر إسماعيل بن إبراهيم الأسدي، حدثنا الحجاج بن أبي عثمان، حدثنا أبو رجاء من آل أبي قلابة، حدثني أبو قلابة: أن عمر بن عبد العزيز أبرز سريره يوماً للناس، ثم أذن لهم فدخلوا، فقال: ما تقولون في القسامة؟ قال: نقول القسامة القود بها حق، وقد اقادت بها الخلفاء. قال لي: ما تقول يا أبا قلابة؟ نصبني للناس. فقلت: يا أمير المؤمنين، عند رؤوس الأجناد وأشراف العرب! أرأيت لو أن خمسين منهم شهدوت على رجل محصن بدمشق أه قد زنى لم يروه، أكنت ترجمه؟ قال لا.

قلت: أرأيت لو أن خمسين منهم شهدوا على رجل بحمص أنه سرق، أكنت تقطعه ولم يروه؟ قال لا. قلت: فوالله ما قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً قط إلا في إحدى ثلاث خصال: رجل قتل بجريرة نفسه فقتل أو رجل زنى بعد إحصان. أو رجل حارب الله ورسوله وارتد عن الإسلام.. إلى آخر حديثه.

ومراد أبي قلابة واضح ، وهو أنه كيف يقتل بإيمان قوم يحلفون على شيء لم يروه ولم يحضروه !

هذا هو حاصل كلام أهل العلم في القود بالقسامة ، وهذه حججهم .

قال مقيده عفا الله عنه : أظهر الأقوال عندي دليلاً – القود القسامة . لأن الرواية الصحيحة التي قدمنا فيها أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنهم إن حلفوا أيمان القسامة دفع القاتل برمته إليهم " وهذا معناه القتل بالقسامة كما لا يخفى . ولم يثبت ما يعارض هذا . القسامة أصل وردت به لسنة ، فلا يصح قياسه على غيره من رجم أو قطع . كما ذهب إليه أبو قلابة في كلامه المار آنفاً . لأن القسامة أصل من أصول الشرع مستقل بنفسه . شرع لحياة الناس وردع المعتدين ، ولم تمكن فيه أولياء المقتول من أيمان القسامة إلا مع حصول لوث يغلب على الظن به صدقهم في ذلك .

تنبيه

اعلم – أن رواية سعيد بن عبيد ، عن بشير بن يسار ، عن سهل بن ابي حثمة التي فيها : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم " لما سأل أولياء المقتول هل لهم بينة " وأخبروه بأنهم ليس لهم

بينه قال : " يحلفون " يعني اليهود المدعى عليهم ، وليس فيها ذكر حلف أولياء المقتول أصلاً - لا دليل فيها لمن نفى القود بالقسامة . لأن سعيد بن عبيد وهم فيها ، فأسقط من السياق تبدئة المدعين باليمين . لكونه لم يذكر في روايته رد اليمين . ورواه يحيى بن سعيد عن بشير بن يسار فذكر ان النّبي صلى الله عليه وسلم عرض الأيمان أولاً على أولياء المقتول ، فلما أبوا عرض عليهم رد الأيمان على المدعى عليهم . فاشتملت رواية يحيى بن سعيد على زيادة من ثقة حافظ فوجب قبولها . وقد ذكر البخاري رحمه الله رواية سعيد بن عبيد (في باب القسامة) ، وذكر رواية يحيى بن سعيد (في باب الموادعة والمصالحة مع المشركين) وفيها : " تحلفون وتستحقون قاتلكم " أو صاحبكم الحديث . والخطاب في قوله " تحلفون وتستحقون ، لأولياء المقتول " .

وجزم بما ذكرنا من تقديم رواية يحيى بن سعيد المذكورة على رواية سعيد بن عبيد - ابن حجر في الفتح وغير واحد . لأنها زيادة من ثقة حافظ لم يعارضها غيرها فيجب قبولها . كما هو مقرر في علم الحديث وعلم الأصول .

وقال القرطبي في تفسيره في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضربوه بِبَعْضِهَا ﴾ [البقرة : 73] الآية : وقد أسند حديث سهل أن النّبي صلى الله عليه وسلم بدأ المدعينك يحيى بن سعيد ، وابن عيينةن وحماد بن زيد ، وعبد الوهاب الثقفي ، وعيسى بن حماد ، وبشر

بن المفضل . فهؤلاء سبعة . وإن كان أرسله مالك فقد وصله جماعة الحفاظ وهو أصح من حديث سعيد بن عبيد .

وقال مالك رحمه الله (في الموطأ) بعد أن ساق رواية يحيى بن سعيد المذكورة : الأمر المجتمع عليه عندنا ، والذي سمعته ممن أرضى في القسامة ، والذي اجتمعت عليه الأئمة في القديم والحديث : أن يبدأ بالأيمان المعون في القسامة فيحلفون اه محل الغرض منه .

واعلم أن العلماء أجمعوا على أن القسامة يشترط لها لوث ، ولكنهم اختلفوا في تعيين اللوث الذي تحلف تخلف معه إيمان القسامو . فذهب مالك رحمه الله إلى أنه أحد الأمرين :

الأول – أن يقول المقتول : دمي عند فلانز وهل يكفي شاهد واحد على قوله ذلك ، أو لا بد من اثنين ؟ خلاف عندهم .

والثاني – أن تشهد بذلك بينة لا يثبت بها القتل كاثنين غير عدلين .

قال مالك في الموطأ : الأمر المجتمع عليه عندنا والذي سمعته ممن أَرْضَى في القسامة والذي اجتمعت عليه الأئمة في القديم والحديث – أن يبدأ بالإيمان المدعون في القسامة فيحلفون ، وأن القسامة لا تجب إلا بأحد أمرين : إما أن يقول المقتول دمي عند فلان ، أو يأتي ولاة الدم

بلوث من بينة وإن لم تكن قاطعة على الذي يدعى عليه الدم . فهذا يوجب القسامة لمدعي الدم على من ادعوه عليه . ولا تجب القسامة عندنا إلا بأحد هذين الوجهين - اه محل الغرض منه ، هكذا قال في الموطأ ، وستأتي زيادة عليه إن شاء الله .

واعلم أن كثيراً ن أهل العم أنكروت على مالك رحمه الله إيجابه القسامة بقول المقتول قتلني فلان . قالوا : هذا قتل مؤمن بالإيمان على دعوى مجردة .

واحتج مالك رحمه الله بأمرين :

(135/455)

الأول - أن المعروف من طبع الناس عند حضور الموت : الإنابة والتوبة والندم على ما سلف من العمل السيء . وقد دلت على ذلك آيات قرآنية . كقوله ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الموت فَيَقُولُ رَبِّ لولا أخرتني إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصالحين ﴾ [المنافقون : 10] ، وقوله : ﴿ حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن ﴾ [النساء : 18] ، وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قالوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر : 84] إلى غير ذلك من الآيات .

فهذا معهود من طبع الإنسان ، ولا يعمل من عادته أن يدع قاتله ويعدل إلى غيره ، وما خرج

عن هذا نادر في الناس لا حكم له .

الأمر الثاني – إن قصة قتيل بني إسرائيل تدل على اعتبار قول المقتول دمي عند فلان .

فقد استدل مالك بقصة القتيل المذكور على صحة القول بالقسامة بقوله قتلني فلان ، أو دمي عند فلان – في رواية ابن وهب وابن القاسم .

ورد المخالفون هذا الاستدلال بأن إحياء معجزة لنبي الله موسى ، وقد أخبر الله تعالى أنه يحييه ، وذلك يتضمن الإخبار بقاتله خبراً جزماً لا يدخله احتمال – فافترقا .

ورد ابن العربي المالكي هذا الاعتراض بأن المعجزة إنما كانت في إحياء المقتول ، فلما صار حياً كان كلامه كسائر كلام الناس كلهم في القبول والرد .

(136/455)

قال : وهذا فن دقيق من العلم لم يتفطن له إلا مالك ، وليس في القرآن أنه إذا أخبر وجب صدقه . فلعله أمرهم بالقسامة معه اه كلام ابن العربي . وهو غير ظاهر عندي . لأن سياق القرآن يقتضي أن القتيل إذا ضرب ببعض البقرة وحيي أخبرهم بقاتله ، فانقطع بذلك النزاع المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادارأتم فِيهَا ﴾ [البقرة : 72] .

فالغرض الأساسي من ذبح البقرة قطع النزاع بمعرف القاتل بإخبار المقتول إذا ضرب

ببعضها فحيي والله تعالى أعلم .

والشاهد العدل لوث عند مالك في رواية ابن القاسم . وروى اشهب عن مالك : أنه يقسم مع الشاهد غير العدل مع المرأة وروى ابن وهب : أن شهادة النساء لوث . وذكر محمد عن ابن القاسم : ان شهادة المرأتين لوث . دون شهادة المرأة الواحدة .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي : اختلف في اللوث اختلافاً كثيراً . ومشهور مذهب مالك : أنه الشاهد العدل . وقال محمد : هو أحب إلي ، قال : وأخذ به ابن القاسم وابن عبج الحكم .

وممن أوجب القسامة بقوله دمي عند فلان : الليث بن سعد وروي عن عبد الملك بن مروان .

والذين قالوا بالقسامة بقول المقتول دمي عند فلا ، منهم من يقول : يشترط في ذلك أن يكون به جراح . ومنهم من أطلق .

والذي به الحكم وعليه العمل عند المالكية : أنه لا بد في ذلك من أثر جرح او ضرب بالمقتول ، ولا يقبل قوله بدون وجود أثر الضرب .

واعلم أنه بقيت صورتان من صور القسامة عند مالك .

الأولى – أن يشهد عدلان بالضرب ، ثم يعيش المضروب بعده أياماً ثم يموت منه من غير تخلل إفاقة . وبه قال الليث أيضاً .

وقال الشافعي : يجب في هذه الصورة القصاص بتلك الشهادة على الضرب . وهومروي أيضاً عن أبي حنيفة .

(137/455)

الثانية – أن يوجد مقتول وعنده أو بالقرب منه من بيده آلة القتل ، وعليه أثر الدم مثلاً ، ولا يوجد غيره فتشرع القسامة عند مالك . وبه قال الشافعي . ويلحق بهذا أن تفترق جماعة عن قتيل . وفي رواية عن مالك في القتيل يوجد بين طائفتين مقتتلتين : أن القسامة على الطائفة التي ليس منها القتيل إن كان من أحدى الطائفتين . إما إن كان من غيرهما فلاقسامة عليهما . والجمهور على أن القسامة عليهما معاً مطلقاً .

قاله ابن حجر في الفتح .

وأما اللوث الذي تجب به القسامة عند الإمام أبي حنيفة فهو أن يوجد قتيل في محله أو قبيلة لم يدر قاتله ، فيحلف خمسون ، رجلاً من أهل تلك المحلة التي وجد بها القتيل يتخيرهم الولي – ما قتلنا ولا علمنا له قاتلاً . ثم إذا حلفوا غرم أهل المحلة الدية ولا يحلف الولي ، وليس في مذهب أبي حنيفة رحمه الله قسامة إلا بهذه الصورة .

وممن قال بأن وجود القتيل بمحله لوث يوجب القسامة : الثوري والأوزاعي . وشرط هذا

عند القائلين به إلا الحنيفة : أن يوجد بالقتل أثر . وجمهور أهل العلم على أن وجود القتيل بمحله لا يوجب القسامة ، بل يكون هدراً لأنه قد يقتل ويلقى في المحلة لتلصق بهم التهمة . وهذا ما لم يكونوا أعداء للمقتول ولم يخالطهم غيرهم وإلا وجبت القسامة . كقصة اليهود مع الأنصاري .

وأما الشافعي رحمه الله فإن القسامة تجب عنده بشهادة من لا يثبت القتل بشهادته . كالواحد أو جماعة غير عدول . وكذلك تجب عنده بوجود المقتول يتشحط في دمه ، وعنده أو بالقرب منه من بيده آله القتل وعيله أثر دم مثلاً ولا يوجد غيره ، ويلحق به افتراق الجماعة عن قتيل .

وقد قدمنا قول الجمهور في القتيل يوجد بين الطائفتين المقتتلتين . والذي يظهر لي أنه إن كان من إحدى الطائفتين المقتتلتين : أن القسامة فيه تكون على الطائفة الأخرى دون طائفته التي هو منها وكذلك تجب عنده فيما كقصة اليهودي مع الأنصاري .

وأما الإمام أحمد فاللوث الذي تجب به القسامة عنده فيه روايتان .

الأولى – أن اللوث هو العداوة الظاهرة بين المقتول والمدعي عليه ، كنحو ما بين الأنصار

واليهود ، وما يين القبائل والأحياء وأهل القرى لذين بينهم الدماء والحروب وما جرى مجرى ذلك . ولا يشترط عنده على الصحيح الا يخالطهم غيرهم – نص على ذلك الإمام أحمد في رواية مهنأ . واشترط القاضي الا يخالطهم غيرهم كمذهب الشافعي . قاله في المغني .

والرواية الثانية عن أحمد رحمه الله – ان اللوث هو ما يغلب به على ا لظن صدق المدعي ، وذلك من وجوه .

أحدها : العدواة المذكورة .

والثاني : أن يترق جماعة عن قتيل فيكون ذلك لوثاً في حق كل واحد منهم . فإن ادعى الولي على واحد فأنكر كونه مع الجماعة فالقول قوله مع يمينه – ذكره القاضي ، وهو مذهب الشافعي .

والثالث : أن يوجد المقتول ويوجد بقربه رجل معه سكين أو سيف ملطخ بالدم ، ولا يوجد غيره .

الرابع : أن تقتتل فئتان فبفترقون عن قتيل أحدهما ، فاللوث على الأخرى . ذكره القاضي . فإن كانوا بحيث لا تصل سهام بعضهم بعضاً فاللوث على طائفة القتيل . وهذا قول الشافعي . وروي عن أحمد : أن عقل القتيل على الذين نازعوهم فيما إذا اقتتلت الفئتان إلا أن يدعوا على واحد بعينه .

وهذا قول مالك . وقال ابن أبي ليلى : على الفريقين جميعاً ، لأنه يحتمل أنه مات من فعل

أصحابه فاستوى الجميع فيه . وقد قدمنا عن ابن حجر أن هذا قول الجمهور .

الخامس : أن يشهد بالقتل عبيد ونساء . فعن أحمد هو لوث لأنه يغلب على الظن صدق المدعي . وعنه ليس بلوث ، لأنها شهادة مردودة فلم يكن لها أثر .

(139/455)

فأما القتيل الذي يوجد في الزحام كالذي يموت من الزحام يوم الجمعة أو عند الجمرة – فظاهر كلام أحمد أن ذلك ليس بلوث ، فإن قال فيمن مات بالزحام يوم الجمعة : ديته في بيت المال . وهذا قول غسحاق ، وروي عن عمر وعلي ، فإن سعيداً روى في سننه عن إبراهيم قال : قتل رجل في زحام الناس بعرفة . فجاء أهله إلى عمر فقال بينتكم على من قتله ؟ فقال علي : يا أمير المؤنين ، لا يطل دم امرىء مسلم إن علمت قاتله ، وإلا فأعطهم ديته من بيت المال . انتهى من المغني .

وقد قال ابن حجر في الفتح (في باب إذا مات في الزحام أو قتل به) في الكلام على قتل المسلمين يوم أحد اليمان والد حذيفة رضي الله عنهما ما نصه : وحجته (يعني إعطاء ديته من بيت مال المسلمين) ما ورد في بعض طرق قصة حذيفة ، وهو ما أخرجه أبو العباس السراج في تاريخه من طريق عكرمة : أن والد حذيفة قتل يوم أحد قتله بعض

المسلمين وهو يظن أنه من المشركين ، فوداه رسول الله صلى الله عليه وسم وقد تقدم له شاهد مرسل ايضاً (في باب العفو عن الخطأ) وروى مسدد في مسنده من طريق يزيد بن مذكور : أن رجلاً زحم يوم الجمعة فمات فوداه علي من بيت المال .

وفي المسالة مذاهب أخرى (منها) قول الحسن البصري : أن ديته تجب على جميع م حضر ، وهو أخص من الذي قبله . وتوجيهه : أنه مات بفعلهم فلا يتعداهم إلى غيرهم . (منها) قول الشافعي ومنتبعه : أنه يقال لوليه ادَّعِ على من شئت واحلف . فإن حلفت استحقت الدية ، وإن نكلت حلف المدعى عليه على النفي وسقطت المطالبة .

وتوجيهه : أن الدم لا يجب إلا بالطلب .

(ومنها) قول مالك : دمه هدر . وتوجيهه : أنه إذا لم يعلم قاتله بعينه استحال أن يؤخذ به أحد . وقد تقدمت الإشارة إلى الراجح من هذه المذاهب (في باب العفو عن الخطأ) - انتهى لام ابن حجر رحمه الله .

والترجيح السابق الذي أشار له هو قوله في قول حذيفة رضي الله عنه مخاطباً للمسلمين الذين قتلوا أباه خطأ : غفر الله لكم " استدل به من قال : إن ديته وجبت على من حضر .

لأن معنى قوله " غفر الله لكم " عفوت عنكم ، وهو لا يعفو إلا عن شيء استحق أن يطالب به .

انتهى محل الغرض منه . فكأن ابن حجر يميل إلى ترجيح قول الحسن البصري رحمه الله .

قال مقيده عفا الله عنه : أظهر الأقوال عندي في اللوث الذي تجب القسامة به : أنه كل ما يغلب به على الظن صدق أولياء المقتول في دعواهم . لأن جانبهم يترجح بذلك فيحلفون معه . وقد تقرر في الأصول " أن المعتبر في الروايات والشهادات ما تحصل به غلبة الظن "

وعقده صاحب مراقي السعود بقوله في شوط الرواي :

بغالب الظن يدور المعتبر . . . فاعتبر الإسلام كل من غبر -الخ

فروع تتعلق بهذه المسألة

الفرع الأول - لا يحلف النساء ولا الصبيان في القسامة ، وإنما يحلف فيها الرجال . وبهذا قال أبو حنيفة وأحمد ، والثوري والأوزاعي وربيعة والليث ، ووافقهم مالك في قسامة العمد ، وأجاز حلف النساء الوارثات في قسامة الخطإ خاصة . وأما الصبي فلا خلاف بين العلماء في أنه لا يحلف أيمان القسامة . وقال الشافعي : يحلف في القسامة كل وارث بالغ ذكراً كان و أنثى ، عمداً كان أو خطأً .

واحتج القائلون بأ ، ه لا يحلف إلا الرجال بأن في بعض روايات الحديث في القسامة يقسم خمسون رجلاً منكم . قالوا : ويفهم منه أن غير الرجال لا يقسم .

واحتج الشافعي ومن وافقه بقوله صلى الله عليه وسلم " تحلفون خمسين يميناً فتستحقون دم صاحبكم " فجعل الحالف هو المستحق للدية والقصاص . ومعلوم أن غير الوراث لا يستحق شيئاً – فدل على أن المراد حلف من يستحق الدية .

(141/455)

وأجاب الشافعية عن حجة الأولين بما قاله النووي في شرح مسلم فإنه قال في شرحه لقوله صلى الله عليه وسلم : " يقسم خمسون منكم على رجل منهم " ما نصه : هذا مما يجب تأويله . لأن اليمين إنما تكون على الوراث خاصة لا على غيره من القبيلة . وتأويله عند أصحابنا : أن معناه يؤخذ منكم خمسون يميناً والحالف هم الورثة ، فلا يحلف أحد من الأقارب غير الورثة ، يحلف كل الورثة ذكوراً كانوا أو إناثاً ، سواء كان القتل عمداً أو خطأً – هذا مذهب الشافعي ، وبه قال أبو ثور وابن المنذر . ووافقنا مالك فيما إذا كان القتل خطأً ، وأما في العمد فقال : يحلف الأقارب خمسين يميناً . ولا تحلف النساء ولا الصبيان . ووافقه ربيعة والليث ، والأوزاعي وأحمد وداود وأهل الظاهر – انتهى الغرض من كلا النووي رحمه الله .

ومعلوم أن هذا التأويل الذي أولوا به الحديث بعيد من ظاهر اللفظ . ولا سيما على الرواية

التي تصرح بتمييز الخمسين بالرجل عند أبي داود وغيره .

الفرع الثاني –قد علمت أن المبدأ بأيمان القسامة أولياء الدم على التحقيق كما تقدم إيضاحه . فإن حلفوا استحقوا القود أو الدية على الخلاف المتقدم . وإن نكلوا ردت الأيمان على المدعى عليهم . فإن حلفوها برؤوا عند الجمهور ، وهو الظاهر لقوله صلى الله عليه وسلم :

" فتبرئكم يهود بأيمان خمسين منهم " أي يبرؤون منكم بذلك . وهذا قول مالك والشافعي ، والرواية المشهورة عن أحمد ، وبه قال يحيى بن سعيد الأنصاري وربيعة وأبو الزناد والليث وأبو ثور ، كما نقله عنهم صاحب المغني .

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنهم إن حلفوا لزم أهل لالمحلة التي وجد بها القتيل أن يغرموا الدية . وذر نحوه أبو الخطاب . رواية عن أحمد . وقد قدمنا أن عمر ألزمهم الدية بعد أن حلفوا . ومعلوم أن المبدأ بالأيمان عند أبي حنيفة المدعى عليهم ، ولا حلف على الأولياء عنده كما تقدم .

الفرع الثالث – إن امتنع المدعون من الحف ولم يرضوا بأيمان المدعى عليهم – فالظاهر أن الإمام يعطي ديته من بيت المال. لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم فعل لك، والله تعالى يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: 21].

الفرع الرابع – إن ردت الأيمان على المدعى عليهم فقد قال بعض أهل العلم: لا يبرأ أحد منهم حتى يحلف بانفراده خمسين يميناً ولا توزع الأيمان عليهم بقدر عددهم.

قال مالك في الموطأ: وهذا أحسن ما سمعت في ذلك. وهو مذهب الإمام أحمد.

وقال بعض علماء الحنابلة: تقسم الأيمان بينهم على عددهم بالسوية. لأن المدعى عليهم متساوون. وللشافعي قولان كالمذهبين اللذين ذكرنا. فإن امتنع المدعى عليهم من اليمسن فقيل يحسبون حتى يحلفوا. وهو قول أبي حنيفة، ورواية عن أحمد، وهو مذهب مالك أيضاً. إلا أن المالكية يقولون: إن طال حبسهم ولم يحلفوا تركوا، وعلى كل واحد منهم جلد مائة وحبس سنة. ولا أعلم لهذا دليلاً. وأظهر الأقوال عندي: أنهم تلزمهم الدية بنكولهم عن الإيمان، ورواه حرب بن إسماعيل عن أحمد، وهو اختيار أبي بكر. لأنه حكم ثبت بالنكور فثبت في حقهم ها هنا كسائر الدعاوى. قال في المغني: وهذا القول هو الصحيح، والله تعالى أعلم.

الفرع الخامس – اختلف العلماء في أقل العدد الذي يصح أن يحلف أيمان القسامة . فذهب مالك وأصحابه إلى أنه لا يصح أن يحلف أيمان القسامة في العمد أقل من رجلين من العصبة . فلو كان للمقتول ابن واحد مثلاً استعان برجل آخر من عصبة المقتول ولو غير وارث يحلف معه أيمانها . وأظهر الأقوال دليلاً هو صحة استعانة الوارث بالعصبة غير الوارثين في إيمان القسامة . لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لحويصة ومحيصة : " يحلف خمسون منكم . . " الحديث . وهم ابنا عم المقتول ، ولا يرثان فيه لوجود أخيه . وقد قال لهم " يحلف خمسون منكم " وهو يعلم أنه لم يكن لعبد الله بن سهل المقتول عشرون رجلاً وارثون . لأ ، ه لا يرثه إلا أخوه ومن هو في درجته أو أقرب منه نسباً .

وأجاب المخالفون : بأن الخطاب للمجموع مراداً به بعضهم ، وهو الوارثون منهم دون غيره ولا يخفى بعده .

فإن كانوا خمسين حلف كل واحد منهم يميناً . وإن كانوا أقل من ذلك وزعت عليهم بحسب استحقاقهم في الميراث . فإن نلك بعضهم رد نصيبه على الباقين إن كان الناكل معيناً لا وارثاً . فإن كان وارثاً يصح عفوه عن الدم سقط القود بنكوله ، وردت الأيمانن على المدعى عليهم على نحو ما قدمنا . هذا مذهب مالك رحمه الله .

وأما القسامة في الخطأ عند مالك رحمه الله – فيحلف أيمانها الوراثون على قدر

أنصبائهم . فإن لم يوجد إلا واحد ولو امرأة حلف الخمسين يميناً كلها واستحق نصيبه من الدية .

وأما الشافعي رحمه الله فقال : لا يجل الحق حتى يحلف الورثة خاصة خمسين يميناً سواء قلوا أم كثروا . فإن كان الورثة خمسين حلف كل واحد منهم يميناً واستحلق حتى لو كان من يرث بالفرض والتعصب أو بالنسب والولاء حلف واستحق .

وقد قدمنا – أن الصحيح في مذهب الشافعي رحمه الله : أن القسامة إنما تستحق بها الدية لا القصاص .

وأما الإمام أحمد فعنه في هذه المسألة روايتان :

الأولى – أنه يحلف خمسون رجلاً من العصبة خمسين يميناً ، كل رجل يحلف يميناً واحدة . فإن وجت الخمسون من ورثة المقتول فذلك ، وإلا كملت الخمسون من العصبة الذي لا يرثون ، الأقرب منهم فالأقرب حتى تتم الخمسون . وهذا قول لمالك أيضاً ، وهذا هو ظاهر بعض روايات حديث سهل الثابتة في الصحيح .

والرواية الأخى عن الإمام أحمد – أنه لا يحلف أيمان القسامة إلا الورثة خاصة ، وتوزع

عليهم على قدر ميراث كل واحد منهم . فإن لم يكن إلا واحد حلف الخمسين واستحق . إلا أن النساء لا يحلفن أيمان القسامة عند أحمد . فالمراد بالورثة عنده الذكور خاصة . وهذه الرواية هي ظاهر كلام الخرقي ، واختيار أبي حامد .

وأما الإمام أبو حنيفة رحمه الله – فقد قدمنا أن أيمان القسامة عنده لا يحلفها إلا خمسون رجلاً من أهل المحلة التي وجد بها القتيل . فيقسمون أنهم ما قتلوه ولا علموا له قاتلاً .

تنبيه

قد علمت كلام العلماء فين يحلف أيمان القسامة . فإذا وزعت على عدد أقل من الخمسين ووقع فيها انكسار فإن تساووا جبر الكسر عليهم . كما لو خلف المقتول ثلاثة بنين . فإن على كل واحد منهم ثلث الخمسين يميناً وهو ست عشرة وثلثان ، فيتمم الكسر على كل واحد منهم . فيحلف كل واحد منهم سبع عشرة يميناً .

فإن قيل : يلزم على ذلك خلاف الشرع في زيادة الأيمان على خمسين يميناً . لأنها تصير بذلك إحدى وخمسين يميناً .

فالجواب – أن نقص الأيمان عن خمسين لا يجوز ، وتحميل بعض الورثة زيادة على الآخرين لا يجوز . فعلم استواؤهم في جبر الكسر . فإذا كانت اليمين المنكسرة لم يستوِ في قدر كسرها الحالفون ، كأن كان على أحدهم نصفها ، وعلى آخر ثلثها ، وعلى آخر سدسها ، حلفها من عليه نصفها تغليباً للأكثر ، ولا تجبر على صاحب الثلث والسدس .

وهذا هو مذهب مالك وجماعة من أهل العلم . وقال غيرهم : تجبر على الجميع . والله تعالى أعلم .

وقال بعض أهل العلم : يحلف كل واحد من المدعين خمسين يميناً ، سواء تساووا في الميراث أو اختلفوا فيه . واحتج من قال بهذا بأن الواحد منهم لو انفرد لحلف الخمسين يميناً كلها . قال : وما يحلفه منفرداً يحلفه مع غيره كاليمين الواحدة في سائر الدعاوى .

قاق مقيده عفا الله عنه : وهذا القول بعيد فيما يظهر . لأن الأحاديث الورادة في القسامة تصرح بأن عدد أيمانها خمسون فقط ، وهذا القول قد تصير به مئات كما ترى . والعلم عند الله تعالى .

الفرع السادس – لا يقتل بالقسامة عند من يوجب القود بها إلا واحد . وهذا قول أكثر القائلين بالقود بها ، منهم مالك وأحمد والزهري ، وبعض أصحاب الشافعي وغيرهم .

وهذا القول هو الصواب ، وتدل عليه الرواية الصحيحة التي قدمناها عند مسلم وغيره : " يقسم خمسون منكم على رجل منهم فيدفع برمته . . " الحديث . فقوله صلى الله عليه وسلم في معرض بيان حكم الواقعة : "يقسم خمسون منكم على رجل منهم" يدل على

أنهم ليس لهم أن يقسموا على غير واحد . وقيل : يستحق بالقسامة قتل الجماعة . لأنها بينة موجبة للقود ، فاستوى فيها الواحد والجماعة كالبينه . وممن قال بهذا أبو ثور : قاله ابن قدامة في المغني .

وهل تسمع الدعوى في القسامة على غير معين أو لا ؟ وهل تسمع على أكثر من واحد أو لا . فقال بعض أهل العلم : تسمع على غير معين . وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله مستدلاً بقصة الأنصاري المقتول بخيبر . لأن أولياءه ادعوا على يهود خيبر . وذهبت جماعة من أهل العلم إلى أن الدعوى فيها لا تسمع إلا على معين ، قالوا : ولا دليل في قصة اليهود والأنصاري . لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال فيها " يقسم خمسون منكم على رجل منهم " فبين أن المدعى عليه لا بد أن يعين .

وقال بعض من اشترط كونها على معين : لا بد أن تكون على واحد ، وهو قول أحمد ومالك .

(146/455)

وقال بعض من يشترط كونها على معين : يجوز الحلف على جماعة معينين ، وقد قدمنا اختلافهم : هل يجز قتل الجماعة أو لا يقتل إلا واحد ، وهو ظاهر الحديث ، وهو الحق إن

شاء الله .

وقال أشهب صاحب مالك لهم أن يحلفوا على جماعة ويختاروا واحداً للقتل ، ويسجن الباقون عاماً ، ويضربون مائة .

قال ابن حجر في الفتح . وهو قوله لم يسبق إليه . والعلم عند اله تعالى .

الفرع السابع - اعلم أن أيمان القسامة تحلف على البت ، ودعوى القتل أيضاً على البت .

فإن قيل : كيف يحلف الغائب على أمر لم يحضره ، وكيف يأذن الشارع في هذه اليمين التي هي من الأيمان على غير معلوم ؟

فالجواب - أن غلبة الظن تكفي في مثل هذا ، فإن غلب على ظنه غلبة قوية أنه قله حلف على ذلك . وإن لم يغلب على ظنه غلبة قويه فلا يجوز له الإقادم على الحلف .

الفرع الثامن - إن مات مستحق الأيمان قبل أن يحلفها انتقل إلى وراثه ما كان عليه من الأيمان ، وكانت بينهم على حسب مواريثهم ، ويجبر الكسر فيها عليهم كما يجبر في حق ورثة القتيل على نحو ما تقدم . لأن من مات عن حق انتقل إلى وارثه .

ولنكتف لما ذكرنا من أحكام القسامة خوف الإطالة المملة ، ولأن أحكامها كثيرة متشعبة جداً ، وقد بسط العلماء عليها الكلام في كتب الفروع .

غريبة تتعلق بهذه الآية الكريمة

وهي أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما استنبط من هذه الآية الكريمة التي نحن

بصددها : ايام النزاع بين علي رضي الله عنه وبين معاوية رضي الله عنه – أن السلطنة والملك سيكونان لمعاوية ، لأن من أولياء عثمان رضي الله عنه وهو مقتول ظلماً ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً ﴾ الآية . وكان الأمر كما قال ابن عباس .

وهذا الاستنباط عنه ذكره ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة ، وساق الحديث في ذلك بسنده عند الطبراني في معجمه . وهو استنباط غريب عجيب . ولنكتف بما ذكرنا من الأحكام المتعلقة بهذه الآية الكريمة خوف الإطالة المملة . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(147/455)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31) ﴾

وواضحٌ الصلة بين هذه الآية وسابقتها ؛ لأن الكلام هنا ما يزال في الرزق ، والخالق سبحانه يُحذِّرنا : إياكم أنْ تُدخِلوا مسألة الرزق في حسابكم ؛ لأنكم لم تخلقوا أنفسكم ، ولم تخلقوا

أولادكم ولا ذريتكم .

بل الخالق سبحانه هو الذي خلقكم وخلقهم ، وهو الذي استدعاكم واستدعاهم إلى الوجود ، وما دام هو سبحانه الذي خلق ، وهو الذي استدعى إلى الوجود فهو المتكفّل برزق الجميع ، فإياك أنْ تتعدَّى اختصاصك ، وتُدخِل أنفك في هذه المسألة ، وخاصة إذا كانت تتعلق بالأولاد .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ . . ﴾ [الإسراء: 31]

القتل: إزهاق الحياة ، وكذلك الموت . ولكن بينهما فَرْق يجب ملاحظته:

فالقتل: إزهاق الحياة بنَقْض البِنْية ؛ لأن الإنسان يتكوّن من بنية بناها الخالق سبحانه وتعالى ، وهي أجهزة الجسم ، ثم يعطيها الروح فتنشأ فيها الحياة .

فإذا ضرب إنسانٌ إنساناً آخر على رأسه مثلاً ، فقد يتلف مخه فتنتهي حياته ، لكن تنتهي بنقْض البنية التي بها الحياة ، لأن الروح لا تبقى إلا في جسم له مواصفات خاصة ، فإذا ما تغيرت هذه الصفات فارقتْه الروح.

أما الموت: فيبدأ بمفارقة الروح للجسد ، ثم تُنقَض بنيته بعد ذلك . وتَتلَفُ أعضاؤه ، فالموت يتم في سلامة الأعضاء .

وما أشبه هذه المسألة بلمبة الكهرباء التي لا تُضيء ، إلا إذا توافرتْ لها مواصفات خاصة: من مُولّد أو مصدر للكهرباء ، وسلك مُوصل ولمبة كهرباء ، فإذا كُسِرَتْ هذه اللمبة يذهب

النور ، لماذا ؟

لأنك نقضتَ شيئاً أساسياً في عملية الإنارة هذه . وكذلك إذا صوَّب واحد رصاصة مثلاً في قلب الآخر فإنه يموت وتفارقه الروح ؛ لأنك نقضْتَ عنصراً أساسياً من بنية الإنسان ، ولا تستمر الروح في جسده بدونها .

(148/455)

لذلك ليس في الشرع عقوبة على الموت. ونقصد به هنا الموت الطبيعي الذي يبدأ بخروج الروح من الجسد .لكن توجد عقوبة على القتل ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ملعون من هدم بنيان الله " .

لأن حياة كل منا هي بناء أقامه الخالق تبارك وتعالى ، وهو مِلْك لخالقه لا يجوز حتى لصاحبه أن ينقضه ، وإلا فلماذا حرَّم الإسلامُ الانتحار ، وجعله كفراً بالله ؟ !

إذن: المنهي عنه في الآية القتل ؛ لأنه من عمل البشر ، وليس الموت . وقد أوضح القرآن الكريم هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران: 144]

فالقتل غير الموت ، القتل اعتداء على بِنْية إنسان آخر وهَدْم لها . وقوله تعالى: ﴿

أَوْلَادَكُمْ . . ﴾ [الإسراء: 31]

الأولاد تُطلق على الذكر والأنثى، ولكن المشهور في استقصاء التاريخ أنهم كانوا يَئِدون البنات خاصة دون الذكور، وفي القرآن الكريم: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير: 8-9]

لأنهم في هذه العصور كانوا يعتبرون الذكور عَوْناً وعُدَّةً في مُعْترك الحياة، وما يملؤها من هجمات بعضهم على بعض، كما يَروْن فيهم العِزْوة والامتداد.

في حين يعتبرون البنات مصدراً للعار، خاصة في ظِلّ الفقر والعوَزِ والحاجة، فلربما يستميل البنت ذو غِنىً إلى شيء من المكروه في عِرْضها، وبهذا الفهم يؤول المعنى إلى الرزق أيضاً.

وقوله: ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ . . ﴾ [الإسراء: 31]

أي: خَوْفاً من الفقر، والإملاق: مأخوذة من مَلَق وتملّق، وكلها تعود إلى الافتقار؛ لأن الإنسان لا يتملَّق إنساناً إلا إذا كان فقيراً لما عنده محتاجاً إليه، فيتملَّقه ليأخذ منه حاجته.

وقوله: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم . . ﴾ [الإسراء: 31]

وفي هذه الآية مَلْمح لطيف يجب التّنبه إليه وفَهْمه لنتمكن من الردّ على أعداء القرآن الذين يتهمونه بالتناقض.

الحق سبحانه وتعالى يقول هنا: ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ..﴾ [الإسراء: 31]

أي: خَوْفاً من الفقر، فالفقر -إذن- لم يَأْتِ بعد، بل هو مُحْتمل الحدوث في مستقبل الأيام، فالرزق موجود وميسور، فالذي يقتل أولاده في هذه الحالة غير مشغول برزقه، بل مشغول برزق أولاده في المستقبل؛ لذلك جاء الترتيب هكذا: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ..﴾ [الإسراء: 31]

أولاً: لأن المولود يُولَد ويُولَد معه رزقه، فلا تنشغلوا بهذه المسألة؛ لأنها ليستْ من اختصاصكم.

ثم: ﴿وَإِيَّاكُم..﴾ [الإسراء: 31]

أي: أن رِزْق هؤلاء الأبناء مُقدَّم على رزقكم أنتم، ويمكن أن يُفْهَم المعنى على أنه: لا تقتلوا أولادكم خَوْفاً من الفقر، فنحن نرزقكم من خلالهم، ومن أجلهم.

ونهتمّ بتوضيح هذه المسألة؛ لأن أعداء الدين الذين يُنقّبون في القرآن عن مَأْخذ يروْنَ تعارضاً أو تكراراً بين هذه الآية التي معنا وبين آية أخرى تقول: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ..﴾ [الأنعام: 151]

ونقول لهؤلاء: لقد استقبلتم الأسلوب القرآني بغير المَلَكَة العربية في فَهْمه، فأسلوب القرآن

ليس صناعة جامدة ، بل هو أسلوب بليغ يحتاج في فَهْمه وتدبُّره إلى ذَوْق وحِسٍّ لغُويٍّ .

وإذا استقبلتم كلام الله استقبالاً سليماً فلن تجدوا فيه تعارضاً ولا تكراراً ، فليست الأولى أبلغَ من الثانية ، ولا الثانية أبلغ من الأولى ، بل كل آية بليغة في موضوعها ؛ لأن الآيتين وإنْ تشابهتَا في النظرة العَجْلَى لكنْ بينهما فَرْق في المعنى كبير ، فآية الإسراء تقول: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم . . ﴾ [الإسراء: 31]

وقد أوضحنا الحكمة من هذا الترتيب: نرزقهم وإياكم .

أما في آية الأنعام: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ . . ﴾ [الأنعام: 151]

(150/455)

فلا بُدَّ أن نلاحظ أن للآية صدراً وعَجُزاً ، ولا يصح أن تفهم أحدهما دون الآخر ، بل لا بُدَّ أن تجمع في فَهْم الآية بين صدرها وعجزها ، وسوف يستقيم لك المعنى ويُخرجك من أي إشكال .

وما حدث من هؤلاء أنهم نظروا إلى عَجُزَيْ الآيتين ، وأغفلوا صَدريهما ، ولو كان الصدر واحداً في الآيتين لكان لهم حق فيما ذهبوا إليه ، ولكنّ صَدْري الآيتين مختلفان:

الأولى: ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ . . ﴾ [الإسراء: 31]

والأخرى:

﴿ مِّنْ إِمْلَاقٍ . . ﴾ [الأنعام: 151]

والفرْق واضح بين التعبيرين: فالأول: الفقر غير موجود ؛ لأن الخشية من الشيء دليل أنه لم يحدث ، ولكنه مُتوقَّع في المستقبل ، وصاحبه ليس مشغولاً برزقه هو ، بل برزق مَنْ يأتي من أولاده .

أما التعبير الثاني: ﴿ مِّنْ إِمْلَاقٍ . . ﴾ [الأنعام: 151]

فالفقر موجود وحاصل فعلاً ، والإنسان هنا مشغول برزقه هو لا برزق المستقبل ، فناسب هنا أنْ يُقدِّم الآباء في الرزق عن الأبناء .

وما دام الصَّدْر مختلفاً ، فلا بُدَّ أن يختلف العَجُز ، فأَيْنَ التعارضُ إذن؟ وهناك مِلْحَظ آخر في الآية الكريمة ، وهو أن النهي مُخَاطَبٌ به الجمع: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَادَكُمْ . . ﴾ [الإسراء: 31]

فالفاعل جمع ، والمفعول به جمع ، وسبق أن قلنا : إن الجمع إذا قُوبل بالجمع تقتضي القسمة آحاداً ، فالمعنى: لا يقتل كل واحد منكم ولده . كما يقول المعلم للتلاميذ : أخرجوا كُتبكم ، والمقصود أنْ يُخرج كل تلميذ كتابه .

فإنْ قال قائل: إن الآية تنهي أنْ يقتلَ الأب ولده خَوْفاً من الفقر ، لكنها لا تمنع أنْ يقتل الأبُ ولد غيره مجاملةً له ، وهو الآخر يقتل ولد غيره مجاملة له .

نقول: لا . . لأن معنى الآية ألاَّ يقتل كل الآباء كل الأولاد ، فينسحب المعنى على أولادي وأولاد غيري ، وهذا هو المراد بمقابلة الجمع بالجمع . أما لو قُلْنا : إن المعنى: تجاملني وتقتل لي ابني ، وأجاملك وأقل لك ابنك ، فهذا لا يستقيم ؛ لأن المقابلة هنا ليس مقابلة جمع بجمع .

(151/455)

وقوله تعالى: ﴿ إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً ﴾ [الإسراء: 31]

خِطْئاً مثل خطأ ، وهو الإثم والذنب العظيم . وتأتي بالكسر وبالفتح كما نقول: خُذوا حِذْركم ، وخذوا حَذَركم .

وكلمة: ﴿ خِطْئاً . . ﴾ [الإسراء: 31]

الخاء والطاء والهمزة تدل على عدم موافقة الصواب ، لكن مرة يكون عدم موافقة الصواب لأنك لم تعرف الصواب ، ومرة أخرى لم توافق الصواب لأنك عرفتَ الصواب ، ولكنك تجاوزْتَه .

فالمعلِّم حينما يُصوِّب للتلاميذ أخطاءهم أثناء العام الدراسي نجده يُوضِّح للتلميذ ما أخطأ فيه ، ثم يُصوب له هذا الخطأ ، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن أعلمَ تلميذه بالقاعدة التي

يسير عليها ، ولكن التلميذ قد يغفل عن هذه القاعدة فيقع في الخطأ .

وهنا لا مانع أنْ نُصوِّب له خَطَأه ونُرشده ؛ لأنه ما يزال في زمن الدرس والتعلُّم والترويض والتدريب .

لكن الأمر يختلف إنْ كانت هذه الأسئلة في امتحان آخر العام ، فالمعلِّم يُبيِّن الخطأ ، ولكنه لا يُصحّحه ، بل يُقدّره بالدرجات التي تُحسَب على التلميذ ، وتنتهي المسألة بالنجاح لِمَنْ أصاب ، وبالفشل لمن أخطأ ؛ لأن آخر العام أصبح لديه قواعد مُلْزمة ، عليه أنْ يسيرَ عليها .

وكلمة (خطْئاً أو خطأ) مأخوذة من خطا خطوة ، وتعني الانتقال بالحركة ، فإذا كان الصواب هو الشيء الثابت الذي استُقِرّ عليه وتعارف الناس عليه ، ثم تجاوزتَه وانتقلتَ عنه إلى غيره ، فهذا هو الخطأ أي: الخطوة التي جعلتك تتجاوز الصواب .

ومنه قوله تعالى:

﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ . . ﴾ [البقرة: 168]

لأنه ينقلكم عن الشيء الثابت المستقر في شريعة الله .

والشيء الثابت هنا هو أن الخالق سبحانه خلق الإنسان وكرَّمه ليكون خليفة له في الأرض ليعمرها ، ويقيم فيها بمنهج الخالق سبحانه ، فكيف يستخلفك الخالق سبحانه ، وتأتي أنت لتقطع هذا الاستخلاف بما تُحدِثه من قَتْل الأولاد ، وهم بذُور الحياة في المستقبل ؟

حتى لو أخذنا بقول مَنْ ذهب إلى أن ﴿ أَوْلادَكُمْ ﴾ المراد بها البنون دون البنات ، وسَلَّمنا معه جدلاً أنك تُميت البنات ، وتُبقى على الذكور ، فما الحال إذا كَبِر هؤلاء الذكور وطلبوا الزواج؟ ! وكيف يستمر النسل بذكر دون أنثى ؟ !

إذن: هذا فَهْمٌ لا يستقيم مع الآية الكريمة ، لأن النهي هنا عن قتل الأولاد ، وهم البنون والبنات معاً .

وقد وصف الحق سبحانه الخطأ هنا بأنه كبير ، فقال: ﴿ خِطْئاً كَبِيراً ﴾ [الإسراء: 31]

ذلك لأنه خطأ من جوانب مُتعدِّدة:

أولهما : أنك بالقتل هدمتَ بنيان الله ، ولا يهدم بنيان الله إلا الله .

ثانيها : أنك قطعت سلسلة التناسل في الأرض ، وقضيتَ على الخلافة التي استخلفها الله في الأرض .

ثالثها : أنك تعديتَ على غريزة العطف والحنان ؛ لأن ولدك بعض مِنْك ، وقتله يُجرِّدك من كل معاني الأُبوة والرحمة ، بل والإنسانية .

وهكذا وضع الحق سبحانه لنا ما يضمن بقاء النسل واستمرار خلافة الإنسان لله في أرضه، بأنْ نهى كل والد أن يقتل ولده، ونهى كل الآباء أنْ يقتلوا كل الأولاد.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾.

(153/455)

بعد أن تحدّث الحق سبحانه عما يحفظ النسل ويستبقي خلافة الله في الأرض، أراد سبحانه أن يحمي هذا النسل من الضياع، ويوفر له الحياة الكريمة. والإنسان منّا حينما يُرزَق بالولد أو البنت يطير به فرحاً، ويُؤثره على نفسه، ويُخرج اللقمة من فيه ليضعها في فم ولده، ويسعى جاهداً ليُوفر له رفاهية العيش، ويُؤمّن له المستقبل المُرْضِي، وصدق الشاعر حين قال: إنما أَوْلاَدُنَا أكبادُنَا تَمْشي عَلَى الأَرْضِ إنْ هَبّتْ الريحُ على بَعْضِهِم امتنعَتْ عَيْني عَنِ الغُمْضِ لكن هذا النظام التكافليّ الذي جعله الحق سبحانه عماداً تقوم عليه الحياة الأسرية سرعان ما ينهار من أساسه إذا ما دَبَّ الشكُّ إلى قلب الأب في نسبة هذا الولد إليه، فتتحوّل حياته إلى جحيم لا يُطاق، وصراع داخلي مرير لا يستطيع مواجهته أو النطق به؛ لأنه طَعْن في ذاته هو.

لذلك يُحذِّرنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ من هذه الجريمة النكْراء؛ ليحفظ على الناس أنسابهم،

ويطمئن كل أب إلى نسبة أبنائه إليه، فيحنو عليهم ويرعاهم، ويستعذب ألم الحياة ومتاعبها في سبيل راحتهم.

فيقول تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى .. ﴾ [الإسراء: 32]

والمتأمل في آي القرآن الكريم يجد أن الحق سبحانه حينما يُكلِّمنا عن الأوامر يُذيِّل الأمر بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا .. ﴾ [البقرة: 229]

والحديث هنا عن أحكام الطلاق، فقد وضع له الحق سبحانه حدوداً، وأمرنا أن نقف عندها لا نتعداها، فكأنه سبحانه أوصلنا إلى هذا الحد، والممنوع أن نتعداه.

وأما في النواهي، فيُذيلها بقوله: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا .. ﴾ [البقرة: 187]

والنهي هنا عن مباشرة النساء حال الاعتكاف، وكأن الحق سبحانه يريد ألاّ نصل إلى الحدِّ المنهي عنه، وأنْ يكون بيننا وبينه مسافة، فقال ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ لنظلّ على بُعْدٍ من النواهي، وهذا احتياط واجب حتى لا نقترب من المحظور فنقع فيه.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه".

فالحق سبحانه خالق الإنسان، وهو أعلم به لا يريد له أنْ يقترب من المحظور؛ لأن له بريقاً

وجاذبية كثيراً ما يضعف الإنسان أمامها ؛ لذلك نهاه عن مجرد الاقتراب ، وفَرْقٌ بين الفعل وقُرْبان الفعل ، فالمحرّم المحظور هنا هو الفِعْل نفسه ، فلماذا إذن حرَّم الله الاقتراب أيضاً ، وحذّر منه ؟

نقول: لأن الله تعالى يريد أنْ يرحَم عواطفك في هذه المسألة بالذات ، مسألة الغريزة الجنسية ، وهي أقوى غرائز الإنسان ، فإنْ حُمْتَ حولها توشك أن تقعَ فيها ، فالابتعاد عنها وعن أسبابها أسلَمُ لك .

وحينما تكلَّم العلماء عن مظاهر الشعور والعلم قسَّموها إلى ثلاث مراحل: الإدراك ، ثم الوجدان ، ثم النزوع .

فلو فرضنا أنك تسير في بستان فرأيتَ به وردة جميلة ، فلحظة أنْ نظرتَ إليها هذا يُسمَّى " الإدراك " ؛ لأنك أدركتَ وجودها بحاسة البصر ، ولم يمنعك أحد من النظر إليها والتمتُّع بجمالها .

فإذا ما أعجبتك وراقك منظرها واستقر في نفسك حُبُّها فهذا يسمى " الوجدان " أي: الانفعال الداخلي لما رأيتَ ، فإذا مددتَ يدك لتقطفها فهذا " نزوع " أي: عمل فعلي .

ففي أي مرحلة من هذه الثلاث يتحكَّم الشرع ؟

الشرع يتحكم في مرحلة النزوع ، ولا يمنعك من الإدراك ، أو من الوجدان ، إلا في هذه المسألة " مسألة الغريزة الجنسية " فلا يمكن فيها فَصْل النزوع عن الوجدان ، ولا الوجدان

عن الإدراك ، فهي مراحل ملتحمة ومتشابكة ، بحيث لا تقوى النفس البشرية على الفَصْل بينها .

فإذا رأى الرجل امرأة جميلة ، فإن هذه الرؤية سرعان ما تُولِّد إعجاباً وميلاً ، ثم عِشْقاً وغريزة عنيفة تدعوه أنْ تمتدَّ يده ، ويتولد النزوع الذي نخافه ، وهنا إما أنْ ينزعَ ويُلبي نداء غريزته ، فيقع المحرم ، وإما أنْ يعف ويظل يعاني مرارة الحرمان .

(155/455)

والخالق سبحانه أعلم بطبيعة خَلْقه ، وبما يدور ويختلج داخلهم من أحاسيس ومشاعر ؛ لذلك لم يُحرِّم الزنا فحسب ، بل حرَّم كل ما يؤدي إليه بداية من النظر ، فقال تعالى: ﴿ قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ . . ﴾[النور: 30]

لأنك لو أدركتَ لوجدتَ ، ولو وجدتَ لنزعتَ ، فإنْ أخذتَ حظَّك من النزوع أفسدتَ أعراض الناس ، وإنْ عففتَ عِشْتَ مكبوتاً تعاني عِشْقاً لن تناله ، وليس لك صبر عنه .

إذن: الأسلم لك وللمجتمع ، والأحفظ للأعراض وللحرمات أنْ تغُضَّ بصرك عن محارم الناس فترحم أعراضهم وترحم نفسك .

لكن هذه الحقيقة كثيراً ما تغيب عن الأذهان ، فيغشّ الإنسانُ نفسه بالاختلاط المحرم ،

وإذا ما سُئل ادَّعى البراءة وحُسْن النية وأخذ من صلة الزمالة إلى القرابة أو الجوار ذريعة للمخالطة والمعاشرة وهو لا يدري أنه واهم في هذا كله ، وأن خالقه سبحانه أدرى به وأعلم بحاله ، وما أمره بغضِّ بصره إلا لما يترتب عليه من مفاسد ومضار ، إما تعود على المجتمع ، أو على نفسه .

لذلك قال صلى الله عليه وسلم: " النظرة سَهْم مسموم من سهام إبليس ، مَنْ تركها من مخافتي أبدلتُه إيماناً يجد حلاوته في قلبه " .

ومن هنا نفهم مراده سبحانه من قوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ . . ﴾ [الإسراء: 32]

ولم يقل: لا تزنوا . لأن لهذه الجريمة مقدمات تؤدي إليها فاحذر أنْ تجعلَ نفسك على مقربة منها ؛ لأن مَنْ حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ودَعْك ممَّنْ ينادون بالاختلاط والإباحية ؛ لأن الباطل مهما عَلاَ ومهما كَثُر أتباعه فلن يكون حقاً في يوم من الأيام .

وأحذر ما يشيع على الألسنة من قولهم هي بنت عمه ، وهو ابن خالها ، وهما تربَّيا في بيت واحد ، إلى آخر هذه المقولات الباطلة التي لا تُغيِّر من وجه الحرام شيئاً ، فطالما أن الفتاة تحل لك فلا يجوز لك الخلوة بها .

وفي الحديث النبوي: " لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما " .

إذن: ما حرَّمَ الإسلام النظر لمجرد النظر، وما حرّم الخُلْوة في ذاتها ولكن حَرَّمهما؛ لأنهما من دوافع الزنا وأسبابه. فيقول تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ .. ﴾ [الإسراء: 32] أبلغ في التحريم وأحوط وأسلم من: لا تزنوا.

ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى في تحريم الخمر: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: 90]

ومع ذلك يخرج علينا مَنْ يقول: ليس في القرآن آية واحدة تحرم شرب الخمر.. سبحان الله، فأيُّهما أبلغ وأشدّ في التحريم أن نقول لك: لا تشرب الخمر، أم اجتنب الخمر؟

لا تشرب الخمر: نَهْي عن الشُّرْب فقط. إذن: يُبَاحُ لك شراؤها وبيعُها وصناعتها ونقلها.. الخ. أما الاجتناب فيعني: البعد عنها كُلية، وعدم الالتقاء بها في أي مكان، وعلى أية صورة.

فالاجتناب ـ إذن ـ أشدّ من مجرد التحريم.

وكيف نقول بأن الاجتناب أقل من التحريم، وقد قال تعالى في مسألة هامة من مسائل العقيدة: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُواْ الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ [الزمر: 17]

فهل تقول في هذه: إن الاجتناب أقلّ من التحريم؟ وهل عبادة الطاغوت ليست محرمة؟!

ثم يقول تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً .. ﴾ [الإسراء: 32]

الفاحشة: هي الشيء الذي اشتدّ قبْحه. وقد جعل الحق سبحانه الزنا فاحشة؛ لأنه سبحانه وتعالى حينما خلق الزوجين: الذكر والأنثى، وقدّر أن يكون منهما التناسل والتكاثر قدّر لهما أصولاً يلتقيان عليها، ومظلّة لا يتم الزواج إلا تحتها، ولم يترك هذه المسألة مشَاعاً يأتيها مَنْ يأتيها؛ ليحفظ للناس الأنساب، ويحمي طهارة النساء، فيطمئن كل إنسان إلى سلامة نسبه ونسب أولاده.

والمراد من الأصول التي يلتقي عليها الزوجان عقد القِران الذي يجعهما بكلمة الله وعلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

(157/455)

وهَبْ أن لك بنتاً بلغت سنَّ الزواج، وعلمتَ أن شاباً ينظر إليها، أو يحاول الاقتراب منها، أو ما شابه ذلك، ماذا سيكون موقفك؟ لا شكّ أن نار الغيرة ستشتعل بداخلك، وربما تعرَّضْتَ لهذا الشاب، وأقمْتَ الدنيا ولم تُقعِدْها.

لكن إذا ما طرق هذا الشاب بابَك، وتقدَّم لخطبة ابنتك فسوف تقابله بالترْحَاب وتسعد به، وتدعو الأهل، وتقيم الزينات والأفراح.

إذن: فما الذي حدث؟ وما الذي تغيَّر؟ وما الفرق بين الأولى والثانية؟

الفرق بينهما هو الفرق بين الحلال والحرام ؛ لذلك قيل: "جدع الحلال أنف الغيرة" .

فالذي يغَارُ على بناته من لمسة الهواء تراه عند الزواج يُجَهِز ابنته ، ويُسلمها بيده إلى زوجها ؛ لأنهما التقيا على كلمة الله ، هذه الكلمة المقدسة التي تفعل في النفوس الأعاجيب .

مجرد أن يقول وليُّ الزوجة: زوجتُكَ ، ويقول الزوج: وأنا قبلتُ . تنزل هذه الكلمة على القلوب بَرْداً وسلاماً ، وتُحدِث فيها انبساطاً وانشراحاً ؛ لأن لهذه الكلمة المقدسة عملاً في التكوين الذاتي للإنسان ، ولها أثر في انسجام ذراته ، وفي كل قطرة من دمه .

ومن آثار كلمة الله التي يلتقي عليها الزوجان ، أنها تُحدِث سيالاً بينهما ، هو سِيَال الاستقبال الحسن ، وعدم الضَّجَر ، وعدم الغيرة والشراسة ، فيلتقيان على خير ما يكون اللقاء .

ولذلك حينما يُشرّع لنا الحق تبارك وتعالى العِدَّة ، نجد عدة المطلقة غير عِدَّة المتوفَّى عنها زوجها ، وفي هذا الاختلاف حكمة ؛ لأن الحق سبحانه يعلم طبيعة النفس البشرية وما يُؤّثر فيها .

ولو كانت الحكمة من العدة مجرد استبراء الرحم لكفى شهر واحد وحَيْضة واحدة ، إنما الأمر أبعد من ذلك ، فعند المرأة اعتبارات أخرى ومازالت تحت تأثير الزواج السابق ؛ لأن سيال الحال فيه التقاء الإيجاب والسلب من الرجل والمرأة ، وقد تعودتْ المرأة على الإيجاب الحلال والسلب الحلال .

فإذا طُلِّقَت المرأة فلا يحلّ لها الزواج قبل انقضاء العدة التي حددها الشرع بثلاثة أشهر ، وهي المدة التي يهدأ فيها سِيَال الحلال في نفسها ويجمد ، وبذلك تكون صالحة للالتقاء بزوج آخر .

أما في حالة المتوفّى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشرة ، والحكمة من الفارق بين العِدَّتين أن المطلقة غالباً ما يكون بين الزوجين كُرْه ، هذا الكُرْه بينهما يساعد على موت السَّيال ؛ لأنها بطبيعة الحال نافرة عنه غير راغبة فيه . أما المتوفَّى عنها زوجها فقد فارقها دون كُرْه ، فرغبتها فيه أشدّ ؛ لذلك تحتاج إلى وقت أطول للتخلُّص من هذا السيال .

والحق سبحانه هنا يُراعِي طبيعة المرأة ومشاعرها ، وعواطف الميل والرغبة في زوجها ، ويعلم سبحانه أن هذا الميلَ وهذه الرغبة تحتاج إلى وقت ليهدأ هذه العواطف لدى المرأة ، وتستعد نفسياً للالتقاء بزوج آخر ؛ لأن لقاء الزوج بزوجته مسألة لا يحدث الانسجام فيها بالتكوين العقلي ، بل الانسجام فيها بالتكوين العاطفي الغريزي الذي يعتمد بالدرجة الأولى على توافق الذرات بين الذكر والأنثى .

هذا التوافق هو الذي يُولّد ذرات موجبة ، وذرات سالبة ، فيحدث التوافق ، ويحدث

الحب والعِشْق الذي يجمعهما ويمتزجان من خلاله .

وهذا ـ كما قلنا ـ أثر من آثار كلمة الله التي اجتمعا عليها وتحت ظلها .

وهكذا يلتقي الزوجان في راحة وهدوء نفسي ، ويسكن كل منهما للآخر ؛ لأن ذراتهما انسجمت وتآلفت ؛ ويفرح الأهل ويسعد الجميع ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال في وصيته بالنساء : " إنما استحللتم فروجهن بكلمة الله "

وهذه الكلمة من الله تعالى الذي خلق الإنسان ويعلم ما يُصلحه ولك أنْ تتصورَ الحال إنْ تَمَّ هذا اللقاء فيما حَرَّم الله ، وبدون هذه الكلمة وما يحدث فيه من تنافر الذرات وعدم انسجام ونكَدٍ ومرارة لا تنتهي ، ما بقيتْ فيهما أنفاس الحياة .

(159/455)

لذلك سمَّاه القرآن فاحشةً ، والدليل على فُحْشه أن الموصوم به يحب ألاَّ يُعرف ، وأن تظل جرائمه خِلْسة من المجتمع ، وأن الذي يقترف هذه الفاحشة يكره أن تُفعلَ في محارمه ، ويكفيها فُحْشاً أن الله تعالى سماها فاحشة ، وشرع لها حداً يُقام على مرتكبها علانية أمام أعين الجميع .

وقد عالج رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الداء ، حينما أتاه شاب يشتكي ضعفه

أمام غريزته الجنسية ، ويقول له: يا رسول الله ائذن لي في الزنا ، والنبي صلى الله عليه وسلم أتى بقضايا دينيه عامة للجميع ، ولكن حين يعالج داءات المجتمع يعالج كل إنسان بما يناسبه ، وعلى حَسْب ما فيه من داءات الضعف أمام شهوات نفسه .

ويتضح لنا هذا المنهج النبوي في جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سُئِل كثيراً عن أفضل الأعمال ، فقال لأحدهم: " الصلاة لوقتها " .

وقال لآخر: " أن تلقى أخاك بوجه طلق " .

وقال لآخر: " أن تبر أخاك " .

وهكذا تعددتْ الإجابات ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يصف مزيجاً عاماً يعطيه للجميع ، بل يعطي لكل سائل الجرعة التي تُصلِح خللاً في إيمانه ، كالطبيب الذي يهتم بعلاج مريضه ، فيُجرى له التحاليل والفحوصات اللازمة ؛ ليقف على موضع المرض ويصِف العلاج المناسب .

فكيف استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الشاب الذي جاءه يقول: يا رسول الله إني أصلي وأصوم ، وأفعل كل أوامر الدين إلا أنني لا أقدر على مقاومة هذه الغريزة ؟ هل نهره واعتبره شاذاً ، وأغلق الباب في وجهه ؟ لا والله ، بل اعتبره مريضاً جاء يطلب العلاج بعد أن اعترف بمرضه ، والاعتراف بالمرض أولى خطوات الشفاء والعافية .

وهذا الشاب ما جاء لرسول الله إلا وهو كاره لمرضه ، وأول ظاهرة في العافية أن تعترف بمرضك ، ولا تتكبر عليه ، فإنْ تكبَّرتَ عليه استفحلَ واستعصى على العلاج.

(160/455)

وقد اعتبر النبي صلى الله عليه وسلم شكوى هذا الشاب ظاهرة صحية في إيمانه ؛ لأنه ما جاء يشكو إلا وهو كاره لهذه الجريمة ، ويجد لها شيئاً في نفسه ، وانظر كيف عالجه النبي صلى الله عليه وسلم: " أجلسه ، ثم قال له: " يا أخا العرب أتحب هذا لأمك ؟ " فانتفض الشاب ، وتغيَّر وجهه وقال: لا يا رسول الله جُعِلْتُ فِدَاك ، فقال: " أتحبه لأختك ؟ أتحبه لزوجتك ؟ أتحبه لبناتك ؟ " والشاب يقول في كل مرة: لا يا رسول الله جُعِلْتُ فِدَاك .

ثم قال صلى الله عليه وسلم: " وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ولا لأخواتهم ولا لزوجاتهم ولا لبناتهم " ثم وضع يده الشريفة على صدر هذا الشاب ودعا له: " اللهم نَقِّ صدره ، وحَصِّن فَرْجه " " .

وانصرف الشاب وهو يقول: لقد خرجتُ من عند رسول الله وليس أكرَهَ عندي من الزنا ، ووالله ما همَمْتُ بشيء من ذلك إلا وذكرْتُ أمي وأختي وزوجتي وبناتي .

وما أشبه طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في علاج هذا الشاب بما يفعله أهل

الصيدلة ، فعندهم مصطلح يسمونه " برشمة المر " ، فإن كان الدواء مُرًّا ولا يستسيغه المريض غَلَّفوه بمادة سكرية حتى يمرَّ من منطقة التذوق ، فلا يشعر المريض بمرارته .

وقد جعل الخالق سبحانه منطقة التذوق في اللسان فحسب ، دون غيره من الأعضاء التي يمرُّ بها الطعام ، واللسان آية من آيات الله في خَلْق الإنسان ، ومظهر من مظاهر قدرته سبحانه ، حيث جعل فيه حلمات دقيقة يختصّ كل منها بتذوُّق نوع من الطعام: فهذه للحلو ، وهذه للمر ، وهذه للحرِّيف ، وهكذا ، مع أنها مُتراصّة ومُلْتصقة بعضها ببعض .

وكما تحدث برشمة الدواء الحسيِّ المر ، كذلك يحدث في العلاجات الأدبية المعنوية ، فيُغلِّف الناصح نصيحته ليقبلها المتلقي ويتأثر بها ؛ لذلك قالوا : النصح ثقيل ، فاستعيروا له خِفَّة البيان .

وقالوا : الحقائق مُرّة ، فلا ترسلوها جبلاً ، ولا تجعلوها جدلاً .

وعلى الناصح أن يراعي حال المنصوح ، وأنْ يرفقَ به ، فلا يجمع عليه قسوة الحرمان مما أَلِف مع قسوة النصيحة . وقد وضع لنا الحق سبحانه المنهج الدعوي الذي يجب أن نسير عليه في قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ . . ﴾ [النحل:

[125]

ومن أدب النصيحة أيضاً الذي تعلّمناه من النبي صلى الله عليه وسلم أن تكون سِرّاً ، فليس من مصلحة أحد أنْ تُذاعَ الأسرار ؛ لأن لها أثراً سلبياً في حياة المجتمع كله وفي المنصوح نفسه ، فإنْ سترْتَ عليه في نصيحتك له كان أدعى إلى قبوله لما تقوله ، وقديماً قالوا : مَنْ نصح أخاه سراً فقد ستره وزَانَه ، ومَنْ نصحه جَهْراً فقد فضحه وشَانَهُ .

ثم يقول تعالى: ﴿ وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: 32]

والسبيل هو الطريق الموصل لغاية ، وغاية الحياة أننا مُسْتخلفون في الأرض ، خلقنا الله لعمارتها والسعي فيها بما يُسعدنا جميعاً ، ويعود علينا بالخير والصلاح ، فإذا ضَلَّ الإنسانُ وانحرف عَمّا رسمه له ربه أفسد هذه الخلافة ، وأشقى الدنيا كلها بدل أنْ يُسعدها .

وأعتقد أن ما نشاهده الآن في بيئات الانحلال والانحراف ، وما امتدَّ منهم إلى بلاد الإسلام من التفزيع والرعب يجعلنا نؤمن بأن الزنا فعلاً ساء سبيلاً ، وساء طريقاً ومسلكاً ، يقضي على سلامة المجتمع وأَمْنه وسعادته .

ويكفي أنك إذا خرجتَ من بيتك في مهمة تستلزم المبيت تأخذ جميع لوازمك وأدواتك الشخصية ، وتخاف من شبح العدوى الذي يطاردك في كل مكان ، في الحجرة التي تدخلها ، وفي السرير الذي تنام عليه ، وفي دورة المياه التي تستعملها ، الجميع في رُعْب وفي هلع ، والإيدز ينتشر انتشار النار في الهشيم ، وأصبح لا يسلَم منه حتى الأسوياء الأطهار .

وما حدث هذا الفزع إلا نتيجة لخروج الإنسان عن منهج الله خروجاً جعل هذه المسألة فوضى لا ضابطَ لها ، فأحدث الله لهم من الأمراض والبلايا بقدْر فجورهم وعصيانهم ، وما داموا لم يأتُوا بالحسنى فليأتوا راغمين مُفزَّعين .

لذلك العالم كله الآن يباشر مشروعات عِفَّة وطهارة ، لا عن إيمان بشرع الله ، ولكن عن خَوْف وهَلَع من أمراض شتَّى لا ترحم ولا تُفرِّق بين واحد وآخر .

إذن : الزنا فاحشة وساء سبيلاً ، وها هي الأحداث والوقائع تُثبت صِدْق هذه الآية ، وتثبت أن أيّ خروج من الخَلْق عن منهج الخالق لن يكون وراءه إلا نَكَدُ الدنيا قبل أن ينتظرهم في الآخرة .

والآن وقد ضمنّا سلامة الأعراض ، وضمنّا طهارة النسل ، وأصبح لدينا مجتمع طاهر سليم ، يأْمَنُ فيه الإنسان على هذا الجانب ، فلا بُدَّ إذن أن نحافظَ فيه على الأرواح ، فلا يعتدي أحد على أحد ، فيقول تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ . . . ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ. . ﴾ [الإسراء: 33]

كان القياس أنْ يُقابل الجمع بالجمع، فيقول: لا تقتلوا النفوس التي حرَّم الله، لكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن قَتْل النفس الواحد مسئوليةُ الجميع، لا أنْ يسأل القاتل عن النفس التي قتلها، بل المجتمع كله مسئول عن هذه الجريمة.

﴿ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ. . ﴾ [الإسراء: 33] أي: جعلها محرّمة لا يجوز التعدي عليها؛ لأنها بنيان الله وخلْقته وصناعته، وبنيان الله لا يهدمه أحد غيره. أو نقول: ﴿ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ. . ﴾ [الإسراء: 33] أي: حرَّم الله قتلها.

﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الإسراء: 33] هذا الاستثناء من الحكم السابق الذي قال: لا تقتلوا النفس التي حرم الله ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي: ولكن اقتلوها بالحق، والحق هنا المراد به ثلاثة أشياء:

- القصَاص من القاتل.

- الردّة عن الإسلام.

- زِنَا المحصَن أو المحصَنة.

وهذه أسباب ثلاثة تُوجِب قَتْل الإنسان، والقتْل هنا يكون بالحق أي: بسبب يستوجب القتل.

وقد أثار أعداء الإسلام ضَجَّة كبيرة حول هذه الحدود وغيرها ، واتهموا الإسلام بالقسوة والوحشية ، وحُجَّتهم أن هذه الحدود تتنافى وإنسانية الإنسان وآدميته ، وتتعارض مع الحرية الدينية التي يقول بها الإسلام في قوله تعالى: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ . . ﴾ [البقرة: 256]

ففي القصاص قالوا: لقد خَسِر المجتمع واحداً بالقتل ، فكيف نُزيد من خسارته بقتْل الآخر؟

نقول: لا بُدَّ أن نستقبلَ أحكام الله بفْهم واعٍ ونظرة متأمّلة ، فليس الهدف من تشريع الله للقصاص كثرة القتل ، إنما الهدف ألاّ يقع القتل ، وألاَّ تحدث هذه الجريمة من البداية .

(164/455)

فحين يُخبرك الحق سبحانه أنك إنْ قتلتَ فسوف تُقتَل ، فهو يحمي حياتك وحياة الآخرين . وليس لدى الإنسان أغلى من حياته ، حتى القاتل لم يقتل إلا لأنه يحب الحياة ، وقتل من أجلها مَنْ قتل؛ لأنه ربما خدش عِزّته أو كرامته ، وربما لأنه عدو له أقوى منه .

ولا شكَّ أن حياته أغلى من هذا كله ، فحين نقول له: إنْ قتلتَ ستُقتل ، فنحن نمنعه أنْ يُقدِم على هذه الجريمة ، ونُلوّح له بأقسى ما يمكن من العقوبة . ولذلك قالوا: القتْل أَنْفَى

للقتل.

وقال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولِي الأَلْبَابِ.. ﴾ [البقرة: 179]

وهذا نداء لأصحاب الأفهام والعقول الواعية، ليس القصاص كما يظنُّ البعض، بل فيه الحياة وفيه سلامة المجتمع وحَقْن الدماء.

ويجب أن يكون عندنا يقظة استقبال لأحكام الله؛ لأن القاتل ما قتل إلا حينما غفل عن الحكم، ويجب أيضاً أن ننظر إلى حكم القصاص نظرة موضوعية، لأنه كما حَمى غيري من قَتْلي له حماني أيضاً من قَتْل غيري لي، وما دامت المسألة: لك مثل ما عليك، وحظك منها كحظِّ الناس جميعاً، فلماذا الاعتراض؟

وكذلك في السرقة، حينما يقول لك: لا تسرق، فأنت ترى أن هذا الأمر قد قيّد حريتك أنت، لكن الحقيقة أنه أيضاً قيّد حرية الآخرين بالنسبة للسرقة منك.

والذي يتأمل هذه الحدود يجدها في صالح الفرد؛ لأنها تُقيِّد حريته وهو فرد واحد، وتُقيِّد من أجله حرية المجتمع كله.

وفي الزكاة، حينما يُوجب عليك الشارع الحكيم أنْ تُخرِج قَدْراً معلوماً من مالك للفقراء، فلا تَقُلْ: هذا مالي جمعتُه بجُهْدي وعَرقي. ونقول لك: نعم هو مالك، ولكن لا تنسَ أن الأيام دُوَلٌ وأغيار، والغنيّ اليوم قد يفتقر غداً، فحين تعضّك الأيام فسوف تجد مَنْ يعطيك، ويَكيل لك بنفس الكَيْل الذي كِلْتَ به للناس.

إذن: يجب أن نكون على وَعْي في استقبال الأحكام عن الله تعالى ، وأن ننظر إليها نظرة شمولية ، فنرى ما لنا فيها وما علينا ، وما دامت هذه الأحكام تعطينا بقدر ما تأخذ مِنّا فهي أحكام عادلة .

وحُكْم القصاص يجعل الإنسان حريصاً على نفسه ، ويمنعه أنْ يُقدِم على القَتْل ، فإنْ غفل عن هذا الحكم وارتكب هذه الجريمة فلا بُدَّ أن يقتصّ منه ؛ فإن أخذتنا الشهامة وتشدَّقْنا بالإنسانية والكرامة والرحمة الزائفة ، وعارضنا إقامة الحدود فليكُنْ معلوماً لدينا أن مَنْ يعارض في إعدام قاتل فسوف يتسبب في إعدام الملايين ، وسوف يفتح الباب لفوضى الخلافات والمنازعات ، فكلّ من اختلف مع إنسان سارع إلى قَتْله ؛ لأنه لا يوجد رادع يُردِعه عن القتل .

إذن: لكي نمنع القتل لا بُدَّ أن نُنفِّذ حكم الله ونُقيم شَرعه ولو على أقرب الناس ؛ لأن هذه الأحكام ما نزلتْ لتكون كلاماً يُتلَى وفقط ؛ بل لتكون منهجاً عملياً يُنظِّم حياتنا ، ويحمي سلامة مجتمعنا .

لذلك جعل الحق سبحانه وتعالى تنفيذ هذه الأحكام علانية أمام الجميع ، وعلى مَرْأى

ومَسْمع المجتمع كله ؛ ليعلموا أن أحكام الله ليست شفوية ، بل ها هي تُطبّق أمامهم ،

وصدق الله تعالى حين قال: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: 2]

والذين اعترضوا على القصاص اعترضوا أيضاً على إقامة حَدّ الردَّة ، ورأوا فيه وحشية وكَبْتاً للحرية الدينية التي كفلها الإسلام في قوله تعالى: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ . . ﴾ [البقرة: 256]

والحقيقة أن الإسلام حينما شرع حَدّ الردة ، وقال بقتل المرتد عن الدين أراد أن يُصعّب على غير المسلمين الدخول في الإسلام ، وأن يُضيّق عليهم هذا الباب حتى لا يدخل في الإسلام إلا مَنْ أخلص له ، واطمأنّ قلبه إليه ، وهو يعلم تماماً أنه إنْ تراجع عن الإسلام بعد أن دخل فيه فجزاؤه القتل .

(166/455)

فهذه تُحسَب للإسلام لا عليه ؛ لأنه اشترط عليك أولاً ، وأوضح لك عاقبة ما أنت مُقدِم عليه .

أما حرية الدين والعقيدة فهي لك قبل أن تدخل الإسلام دخولاً أولياً ، لا يجبرك أحد عليه ، فلك أنْ تظلَّ على دينك كما تحب ، فإنْ أردتَ الإسلام فتفكّر جيداً وتدبّر الأمر وابحثه

بكل طاقات البحث لديك .

فليس في دين الله مجالٌ للتجربة ، إنْ أعجبكَ تظلّ في ساحته ، وإنْ لم يَرُق لك تخرج منه ، فإنْ علمتَ هذه الشروط فليس لك أنْ تعترضَ على حدِّ الردّة بعد ذلك . ولتعلم أن دين الله أعزّ وأكرم من أنْ يستجدي أحداً للدخول فيه .

ثم يقول تعالى: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً . . ﴾ [الإسراء: 33]

وهذا حكم نفي ، المفروض ألاَّ يحدث . ومعنى ﴿ مَظْلُوماً ﴾ أي: قُتِل دون سبب من الأسباب الثلاثة السابقة أي: دون حق ، فعلى فَرْض أن هذا القتل وقع بالفعل ، فما الحكم ؟

يقول تعالى: ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ . . ﴾ [الإسراء: 33]

وليه: أي وليّ المقتول ، وهو مَنْ يتولى أمره من قرابته: الأب أو الأخ أو الابن أو العم . . الخ فهو الذي يتولّى أمر المطالبة بدمه .

﴿ سُلْطَاناً . . ﴾ [الإسراء: 33]

أي: شرعنا له ، وأعطيناه الحقَّ والقوة في أنْ يقتل القاتل ، والسلطان يكون في خدمة التنفيذ ، ويُمكّنه منه ، وكذلك المؤمنون أيضاً يقفون إلى جواره ، ويساعدونه في تنفيذ هذا الحكم ؛ لأن الأمر من الله قد يكون رادعه في ذات النفس ، لكن إنْ ضَعُفَتْ النفس فلا بُدَّ لرادع

من الخارج، وهنا يأتي دور السلطان ودور المجتمع الإيماني الذي يُعين على إقامة هذا الحكم.

(167/455)

إذن: جعل الحق سبحانه وتعالى سلطان القصاص لوليّ الدم، فإنْ لم يكن له وليّ فإن السلطان ينتقل للحاكم العام ليتولى إقامة هذا الحكم، لكن ما يُتعِب الدنيا - حينما ينتقل حَقُّ القصاص إلى الحاكم العام - طُول الإجراءات التي تُخرج الحكم عن المراد منه، وتُذْكِي نار الحقد والغِلّ والتِّرَة في نفسِ وليِّ الدم.

فوليّ الدم وحده الذي يُعاني طول فترة التقاضي مع أناس لا يعنيهم أن تطولَ هذه الفترة أو تقصُر؛ لأن طول فترة التقاضي تأتي في صالح القاتل، حيث بمرور الأيام - بل والسنين - تبْرُد شراسة الجريمة في نفوس الناس، وتأخذ طريقاً إلى طيّات النسيان.

وبهذا تبهت الجريمة وتُنسَى بشاعتها، وبدل أنَ يقف المجتمع ويفكر في القاتل وفي القصاص منه، تتحول الأنظار والعواطف إلى النفس الجديدة التي ستُقتل، وبذلك يتعاطف الناس معه بدل أن يتعاطفوا في إقامة القصاص عليه.

لكن يجب أنْ يُقامَ القصاص قبل أنْ تبُردَ شراسة الجريمة في النفوس، وتبهت وتفقد

حرارتها .

والحق سبحانه وتعالى كما شرع القصاص ، وجعله في يد وليّ الدم ، أراد في الوقت نفسه ألاّ يحرم المجتمع من طموحات العفو الذي يُنهي أصول الخلاف ، فيقول تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ . . ﴾[البقرة: 178]

ففي جوِّ القتل وثورة الدماء التي تغلي بالثأر يتكلم الحق سبحانه عن العفو والأخوة والمعروف والإحسان ، فمهما كان الأمر فالمؤمنون إخوة ، وباب العفو والإحسان مفتوح.

ولوليّ الدم بعد أن أعطيناه حقَّ القصاص ندعوه إلى العفو ، وله أن يأخذ الدية وتنتهي المسألة ، وله أن يعفوَ عن بعضها أو عنها كلها .

(168/455)

إذن: فإعطاء الحق مَنع عن المقتول له ذِلّة التسلُّط من القاتل ؛ لأن الله تعالى أعطاه حقّ القصاص منه ، فإذا ما عفا عنه علم القاتل أن حياته أصبحت هبة من ولي الدم ، وما دام الأمر كذلك فسوف تتلاشى بينهما الضغائن والأحقاد ، ويحل محلها الوفاق والمحبة والسلام ، ونُنهي تسلسل الثارات الذي لا ينتهي .

وقد اشتهر في صعيد مصر ـ وكان مثالاً للأخذ بالثأر ـ أن القاتل يأخذ كفنه في يده ،

ويذهب به إلى وليّ الدم ويُسلِّم نفسه إليه معترفاً بجريمته ، معطياً لولي الدم حرية التصرف فيه . فما يكون من ولي الدم أمام هذا الاستسلام إلاّ أن يعفوَ ويصفح ، وبذلك تُقتَلع الضغائن من جذورها .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ . . ﴾ [الإسراء: 33]

أي: طالما أن الله أعطاك حَقّ القصاص فليكُنْ القصاص بقَدْره دون زيادة أو تعدٍّ أو مجاوزة للحدِّ ، والإسراف في القتل يكون بأوجه عدة:

فقد يكون القاتل غير ذي شأن في قومه ، فلا يرضى وليّ الدم بقتْله ، بل يتطلع إلى قتل إنسان آخر ذي مكانة وذي شأن ، فيقتل إنساناً بريئاً لا ذنبَ له ، وهذا من الإسراف في القتل ، وهو إسرافٌ في ذات المقتول .

وقد يكون الإسراف في الكَمِّ ، فإنْ قُتِل واحد فلا يكتفي وليّ الدم بأن يقتل القاتل ، بل يحمله الغِلّ وثورة الدم إلى أنْ يقتل به أكثر من واحد .

وقد يكون الإسراف بأنْ يُمثِّل بجثة المقتول ، ولا يكفيه قتله ، والمفروض ألاَّ يحملك الغضب على تجاوز الحدِّ المشروع لك . وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يفعلها في قاتل حمزة ، فنهاه الله عن ذلك .

ثم يقول تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾ [الإسراء: 33]

أي: لا يجوز له أنْ يُسرف في القتل ؛ لأننا لم نتخلّ عنه ، بل وقفنا بجانبه وأعطيناه حقّ

القصاص ومكنّاه منه ، إذن: فهو منصور ليس متروكاً ، فيجب أن يقف عند حَدِّ النُّصْرة لا يتجاوزها ؛ لأنه إن تجاوزها بقتل غير القاتل ، فسوف يُقتل هو الآخر قصاصاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(169/455)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ أي خشية الفاقة . وكان أهل الجاهلية يقتلون البنات خشية الفاقة ، فوعظهم الله في ذلك وأخبرهم أن رزقهم ورزق أولادهم على الله فقال : ﴿ نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيراً ﴾ أي إثماً كبيراً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ خشية إملاق ﴾ قال : مخافة الفاقة والفقر .

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ خشية إملاق ﴾ قال : مخافة الفقر . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت الشاعر وهو يقول :

وإني على الاملاق يا قوم ماجد . . . اعدّ لأضيافي الشواء المطهيا

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : ﴿ خطأ ﴾ قال : خطيئة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ خطأ كبيراً ﴾ مهموزة من قبل الخطا والصواب .

وأخرج أحمد وأبو يعلى ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من كانت له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات اتقى الله وقام عليهن كان معي في الجنة هكذا وأشار بأصابعه الأربع " .

وأخرج أحمد وابن منيع ، عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من كن له ثلاث بنات يمونهن ويرحمهن ويكفلهن وجبت له الجنة ألبتة " قيل : يا رسول الله ، فإن كن اثنتين ؟ قال : وإن كن اثنتين " .

وأخرج أحمد والترمذي ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : " لا يكون لأحد ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان أو أختان فيتقي الله فيهن ويحسن إليهن إلا دخل الجنة " .

(170/455)

وأخرج أحمد والطبراني والحاكم ، عن سراقة بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : " " يا سراقة ألا أدلك على أعظم الصدقة ؟ " قال : بلى يا رسول الله . قال : " إن ابنتك مردودة إليك ليس لها كاسب غيرك " " .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا تقربوا الزنا ﴾ قال : يوم نزلت هذه الآية لم تكن حدود ، فجاءت بعد ذلك الحدود في سورة النور .

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه ، عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قرأ " ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً إلا من تاب فإن الله كان غفاراً رحيماً " فذكر لعمر رضي الله عنه فأتاه فسأله فقال : أخذتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لك عمل ، إلا الصفق بالبقيع .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة

✾ قال قتادة ، عن الحسن – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " " لا يزني العبد حين يزني وهو مؤمن ، ولا ينتهب حين ينتهب وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يغل حين يغل وهو مؤمن " قيل : يا رسول الله ، والله إن كنا لنرى أنه يأتي ذلك وهو مؤمن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا فعل شيئاً من ذلك نزع الإيمان من قلبه فإن تاب تاب الله عليه " " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع المؤمنون إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن " .

وأخرج أبو داود والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه : " إذا زنى المؤمن خرج منه الإيمان فكان عليه كالظلة ، فإذا انقلع منها رجع إليه الإيمان " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : الإيمان نور فمن زنى فارقه الإيمان فمن لام نفسه فراجع راجعه الإيمان .

وأخرج البيهقي وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الإيمان سربال يسربله الله من يشاء ، فإذا زنى العبد نزع منه سربال الإيمان ، فإن تاب رد عليه " .

وأخرج البيهقي ، عن أبي صالح رضي الله عنه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه وسأله عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن " فأين يكون الإيمان منه ؟ قال أبو هريرة – رضي الله عنه – يكون هكذا عليه ، وقال : بكفه فوق رأسه ، فإن تاب ونزع رجع إليه .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة والبيهقي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما – أنه كان يسمي عبيده بأسماء العرب : عكرمة وسميع وكريب وقال لهم : تزوّجوا ، فإن العبد إذا زنى نزع منه نور الإيمان رد الله عليه بعد أو أمسكه .

وأخرج البيهقي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا شباب قريش ، احفظوا فروجكم لا تزنوا ، ألا من حفظ الله له فرجه دخل الجنة " .

وأخرج الطبراني والحاكم والبيهقي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : " إذا ظهر الزنا والربا في قرية ، فقد أحلوا بأنفسهم كتاب الله " .

وأخرج الطبراني والحاكم وابن عدي والبيهقي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الزنا يورث الفقر " .

(172/455)

وأخرج الحاكم وصححه ، عن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما نقض قوم العهد إلا كان القتل بينهم ، ولا ظهرت فاحشة في قوم قط إلا سلط الله عليهم الموت ، ولا منع قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر " .

وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائي رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له " .

وأخرج أحمد ، عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من قوم يظهر فيهم الزنا إلا أخذوا بالسنة ، وما من قوم يظهر فيهم الرشا إلا أُخذوا بالرعب " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لم يزن

عبد قط إلا نزع الله نور الإيمان منه : إن شاء رده وإن شاء منعه .

وأخرج الحكيم الترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ، ولا يقتل وهو مؤمن ، فإذا فعل ذلك نزع منه نور الإيمان كما ينزع منه قميصه ، فإن تاب تاب الله عليه " .

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عائشة رضي الله عنها : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب حين يشرب وهو مؤمن " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن أسامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما تركت على أمتي بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لم يكن كفر من مضى إلا من قبل النساء ، وهو كائن كفر من بقي من قبل النساء .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن أبان بن عثمان رضي الله عنه قال : تعرف الزناة بنتن فروجهن يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن أبي صالح رضي الله عنه قال : بلغني أن أكثر ذنوب أهل النار النساء .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (33) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن الضحاك رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ الآية . قال : كان هذا بمكة والنبي صلى الله عليه وسلم بها ، وهو أول شيء نزل من القرآن في شأن القتل .

كان المشركون من أهل مكة يغتالون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " من قتلكم من المشركين ، فلا يحملنكم قتله إياكم على أن تقتلوا له أباً ، أو أخاً ، وأحداً من عشيرته ، وإن كانوا مشركين فلا تقتلوا إلا قاتلكم " وهذا قبل أن تنزل براءة ، وقبل أن يؤمروا بقتال المشركين . فذلك قوله : ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ يقول : لا تقتل غير قاتلك ، وهي اليوم على ذلك الموضع من المسلمين ، لا يحل لهم أن يقتلوا إلا قاتلهم .

وأخرج البيهقي في سننه ، عن زيد بن أسلم رضي الله عنه : أن الناس في الجاهلية كانوا إذا قتل الرجل من القوم رجلاً ، لم يرضوا حتى يقتلوا به رجلاً شريفاً ، إذا كان قاتلهم غير شريف ، لم يقتلوا قاتلهم وقتلوا غيره ، فوعظوا في ذلك بقول الله : ﴿ ولا تقتلوا النفس ﴾ إلى قوله ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ .

(174/455)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾ قال : بينة من الله أنزلها يطلبها ولي المقتول القود أو العقل ، وذلك السلطان .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ قال : لا يكثر من القتل .

وأخرج ابن المنذر من طريق أبي صالح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ قال : لا يقتل إلا قاتل رحمه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه ، عن طلق بن حبيب في قوله : ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ قال : لا يقتل غير قاتله ، ولا يمثل به .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله : ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ قال : لا يقتل اثنين بواحد .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ قال : لا يقتل غير قاتله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ قال : من قَتَلَ بحديدة قُتِلَ بحديدة ، ومن قَتَلَ بخشبة قُتِلَ بخشبة ، ومن قَتَلَ بحجر قُتِلَ بحجر ، ولا يقتل غير قاتله .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة ، عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود وابن ماجة ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعق الناس قتلة أهل الإيمان " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود ، عن سمرة بن جندب وعمران بن حصين قالا : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المثلة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن يعلى بن مرة – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله : " لا تمثلوا بعبادي " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ﴾ يقول : ينصره السلطان حتى ينصفه من ظالمه . ومن انتصر لنفسه دون السلطان ، فهو عاص مسرف قد عمل بحمية أهل الجاهلية ، ولم يرض بحكم الله تعالى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ إنه كان منصوراً ﴾ قال : إن المقتول كان منصوراً .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر ، عن الكسائي قال : هي قراءة أبي بن كعب " فلا تسرفوا في القتل ان وليه كان منصوراً " .

وأخرج الطبراني وابن عساكر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إنه لما كان من أمر هذا الرجل ، ما كان ، يعني عثمان ، قلت لعلي رضي الله عنه اعتزل ، فلو كنت في جحر طلبت حتى تستخرج ، فعصاني ، وايم الله ليتأمرن عليكم معاوية ، وذكر أن الله تعالى يقول : ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31) ﴾

قوله تعالى : ﴿ خِطْئاً ﴾ : قرأ ابن ذكوان : " خَطَأً " بفتح الخاءِ والطاءِ مِنْ غيرِ مَدّ ، وابنُ كثير بكسرِ الخاء والمدّ ، ويلزمُ منه فتحُ الطاء ، والباقون بالكسرِ وسكونِ الطاء .

فأمّا قراءةُ ابنِ ذكوان فَخَرَّجها الزجّاج على وجهين : أحدهما : أن يكونَ مصدر مِنْ أَخطأ يُخْطِىء خَطَأً ، أي : إخطاءً ، إذا لم يُصِبْ . والثاني : أن يكونَ مصدرَ خَطِئَ يَخْطَأُ خَطَأً ، إذا لم يُصِبْ أيضاً ، وأنشد :

3055- والناسُ يَلْحَوْن الأميرَ إذا هُمُ . . . خَطِئوا الصوابَ ولا يُلامُ المُرْشِدُ

والمعنى على هذين الوجهين : أنَّ قَتْلَهم كان غيرَ صواب . واستبعد قومٌ هذه القراءةَ قالوا : لأن الخطأ ما لم يُتَعَمَّدْ فلا يَصِحُّ معناه ههنا .

قلت : وخفي عنهم أن يكونَ بمعنى أخطأ ، أو أنه يقال : " خَطِئ " إذا لَمْ يُصِبْ .

وأمّا قراءةُ ابنِ كثير فهي مصدرُ خاطأَ يُخاطِئ خِطاءً مثل : قاتَل يُقاتِل قِتالاً . قال أبو علي : " هي مصدرُ خاطأَ يُخاطِئ ، وإنْ كنّا لم نجدْ " خاطأَ " ولكنْ وَجَدْنا تخاطأَ وهو مطاوِعُ " خاطأَ " فَدَلَّنا عليه ، ومنه قولُ الشاعر :

3056- تخاطَأَتِ النَّبْلُ أُحْشاءَه . . . وأخَّرَ يَوْمِي فلم يَعْجَلِ

وقال الآخر :

3057- تخاطأه القَنّاصُ حتى وَجَدْتُه . . . وخُرْطُوْمُه في مَنْقَعِ الماءِ راسِبُ

فكأنَّ هؤلاء الذين يَقْتُلون أولادَهم يُخاطِئُون الحقَّ والعَدل .

وقد طَعَنَ قومٌ على هذه القراءةِ حتى قال أبو جعفر : " لا أَعْرِفُ لهذه القراءةِ وجهاً " ، ولذلك جعلها أبو حاتم غَلَطاً . قلت : قد عَرَفَه غيرُهما ولله الحمدُ .

(177/455)

وأمّا قراءةُ الباقين فهي جيدةٌ واضحةٌ لأنها مِنْ قولهم : خَطِئَ يَخْطَأُ خِطْئاً ، كأَثِمَ يَأْثُمُ إثْماً ، إذا تَعَمَّد الكذبَ .

وقرأ الحسن : " خَطاء " بفتح الخاء والمدّ وهو اسمُ مصدر " أَخْطَأَ " كالعَطاء اسمٌ للإِعطاء .

وقرأ أيضاً " خَطا " بالقصرِ ، وأصلُه " خَطَأً " كقراءةِ ابن ذَكْوان ، إلا أنه سَهَّل الهمزةَ بإبدالها ألفاً فَحُذِفت كعَصا .

وأبو رجاءٍ والزُّهْرِيُّ كذلك ، إلا أنهما كسرا الخاء ك " زِنَى " وكلاهما مِنْ خَطِئ في الدِّين ، وأَخْطأ في الرأي ، وقد يُقام كلٌّ منهما مقامَ الآخرَ .

وقرأ ابنُ عامرٍ في روايةٍ " خَطْئًا " بالفتح والسكون والهمزِ ، مصدرُ " خَطِئ " بالكسرِ .

وقرأ ابنُ وثاب والأعمشُ " تُقَتِّلوا " ، و " خِشْية " بكسرِ الخاء .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الزنى ﴾ : العامَّةُ على قصرِه وهي اللغة الفاشية ، وقُرِئ بالمدِّ وفيه وجهان ، أحدُهما : أنه لغةٌ في المقصور . والثاني : أنه مصدر زاني يُزاني ، كقاتل يُقاتل قِتالاً ؛ لأنَّه يكونُ بين اثنتين ، وعلى المدِّ قولُ الفرزدق :

3058- أبا خالدٍ مَنْ يَزْنِ يُعْرَفْ زِناؤُه . . . ومن يَشْرَبِ الخُرْطومَ يُصْبِحْ مُسَكَّراً

وقول الآخر :

3059- كانت فريضةُ ما تقول كما . . . كان الزِّناءُ فريضةَ الرَّجْمِ

وليس ذلك من بابِ الضرورةِ لثبوتِه قراءةً في الجملة .

قوله : ﴿ وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ تقدَّم نظيره . قال ابنُ عطيةَ : " وسبيلاً : نصبٌ على التمييز ، أي : وساء سبيلاً سبيلُه " . وردَّ الشيخ : هذا : بأنَّ قولَه " منصوبٌ على التمييز " ينبغي

أن يكونَ الفاعل ضميراً مُفسَّراً بما بعده من التمييز فلا يصحُّ تقديرُه : ساء سبيلُه سبيلاً ؛ لأنه ليس بمضمر لاسم جنس .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

(178/455)

قوله تعالى : ﴿ إلاَّ بالحق ﴾ : أي : إلا بسببِ الحق ، فيتعلَّقُ ب ﴿ لا تقتُلُوا ﴾ ويجوز أن يكونَ حالاً مِنْ فاعل ﴿ لا تَقْتُلُوا ﴾ أو مِنْ مفعولِه ، أو : لا تَقْتُلُوا إلا ملتبسين بالحق أو إلا ملتبسةً بالحقِّ ، ويجوز أن يكونَ نعتاً / لمصدرٍ محذوفٍ ، أي : إلا قَتْلاً ملتبساً بالحق .

قوله : " مَظْلُوماً " حال مِنْ مرفوع " قُتِل " .

قوله : ﴿ فَلاَ يُسْرِف ﴾ [قرأ] الأخَوان بالخطاب ، على إرادةِ الوليّ ، وكان الوليُّ [يَقْتُل] الجماعةَ بالواحد ، أو السلطانِ رجَعَ لمخاطبته بعد أن اتى به غائباً .

والباقون بالغَيْبة ، وهي تحتمل ما تقدَّم في قراءةِ الخطاب .

وقرأ أبو مسلم برفعِ الفاءِ على أنه خبرٌ في معنى النهيِ كقولِه : ﴿ فَلاَ رَفَثَ ﴾ [البقرة : 197] . وقيل : " في " بمعنى الباء ، أي : بسببِ القتل .

قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ﴾ ، أي : إنَّ الوليَّ ، أو إنَّ السلطان ، أو إنَّ القاتل ، أي : أنه إذا عُوقِب

في الدنيا نُصِر في الآخرة ، أو إلى المقتولِ ، أو إلى الدمِ أو إلى الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 346. 350 ﴾

(179/455)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31) ﴾

مَنْ عَرَفَ أَنَّ الرازقَ هو الله خفَّ عن قلبه همُّ العيال - وإنْ كَثُروا ، ومن خفي عليه أنه قَسَّمَ - قبل الخَلْقِ - أرزاقَهم تطوح في متاهات مغاليطه ، فيقع فيها بالقلب والبَدَنِ ثم لا يكون غير ما سبق به التقدير .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) ﴾

ترَجَّحَ الزنا على غيره من الفواحش لأن فيه تضييعَ حُرْمَةِ الحقّ ، وهتكَ حُرْمَةِ الخَلْق ، ثم لِمَا فيه من الإخلال بالنَّسَب ، وإفسادِ ذات البين من مقتضى الأَنَفَةِ والغضب .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

لا يجوز قَتْلُ نَفْسِ الغير بغير الحق ، ولا للمرء أن يقتل نَفْسَه أيضاً بغير الحق . وكما أنَّ قتل النَّفْس بالحديد وما يقوم مقامه من الآلات مُحَرَّمٌ فكذلك القَصْدُ إلى هلاكِ المرءِ مُحَرَّمٌ .

ومن انهمك في مخالفة ربه فقد سعى في هلاك نفسه . ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً ﴾ : أي تسلطاً على القاتل في الاقتصاص منه ، وعلى معنى الإشارة : إلى النصرة مِنْ قِبَلِ الله : ومنصورُ الحقِّ لا تنكسر سِنَانُه ، ولا تطيشُ سِهَامُه . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 346 ﴾

(180/455)

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نهى عن الإغارة على الأرواح والأبضاع التي هي سببها ، أتبعه النهي عن نهب ما هو

عديلها ، لأن به قوامها ، وهو الأموال ، وبدأ بأحق ذلك بالنهي لشدة الطمع فيه لضعف مالكه فقال تعالى : ﴿ ولا تقربوا ﴾ أي فضلاً عن أن تأكلوا ﴿ مال اليتيم ﴾ فعبر بالقربان الذي هو قبل الأخذ تعظيماً للمقام ﴿ إلا بالتي هي أحسن ﴾ من طرائق القربان ، وهو التصرف فيه بالغبطة تثميراً لليتيم ﴿ حتى يبلغ ﴾ اليتيم ﴿ أشده ﴾ وهو إيناس الرشد منه بعد بلوغه .

ولما كانت الوصية نوعاً من أنواع العهد ، أمر بوفاء ما هو أعم منها فقال تعالى :

﴿ وأوفوا ﴾ أي أوقعوا هذا الجنس في الزمان والمكان ، وكل ما يتوقف عليه الأمر المعاهد عليه ويتعلق به ﴿ بالعهد ﴾ أي بسببه ليتحقق الوفاء به ولا يحصل فيه نقص ما ، وهو العقد الذي يقدم للتوثق .

ولما كان العلم بالنكث والوفاء متحققاً ، كان العهد نفسه كأنه هو المسؤول عن ذلك ، فيكون رقيباً على الفاعل به ، فقال تعالى مرهباً من المخالفة : ﴿ إن العهد كان ﴾ أي كوناً مؤكداً عنه ﴿ مسؤولاً ﴾ أي عن كل من عاهد هل وفى به ؟ أو مسؤولاً عنه من كل من يتأتى منه السؤال .

ولما كان التقدير بالكيل أو الوزن من جملة الأمانات الخفية كالتصرف لليتيم ، وكان الائتمان عليه كالمعهود فيه ، أتبعه قوله : ﴿ وأوفوا الكيل ﴾ أي نفسه فإنه أمر محسوس لا يقع فيه إلباس واشتباه ؛ ولما كان صالحاً لمن أعطى ومن أخذ ، قال : ﴿ إذا كلتم ﴾ أي لغيركم ، فإن اكتلتم لأنفسكم فلا جناح عليكم إن نقصتم عن حقكم ولم توفوا الكيل ﴿ وزنوا ﴾ أي وزناً متلبساً ﴿ بالقسطاس ﴾ أي ميزان العدل الذي هو أقوم الموازين ، وزاد في تأكيد معناه فقال تعالى : ﴿ المستقيم ﴾ دون شيء من الحيف على ما مضى في الكيل سواء ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العالي الرتبة الذي أمرناكم به ﴿ خير ﴾ لكم في الدنيا والآخرة وإن تراءى لكم أن غيره خير ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ أي عاقبة في الدارين ، وهو تفعيل من الأول وهو الرجوع ، وأفعل التفضيل هنا لاستعمال النصفة لإرخاء العنان ، أي على تقدير أن يكون في كل منهما خير ، فهذا الذي أزيد خيراً والعاقل لا ينبغي أن يرضى لنفسه بالدون .

ولما كان ذلك مما تشهد القلوب بحسنه ، وأضداده مما تتحقق النفوس قبحه ، لأن الله تعالى جبل الإنسان على ذلك كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : " البر ما سكن إليه القلب واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك المفتون

وأفتوك " وقال : " إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستحي فاصنع ما شئت " وكان قد جمع الضمائر سبحانه ، تلاه سبحانه بما يعمه وغيره فقال تعالى مفرداً الضمير ليصوب النهي إلى كل من الجمع والإفراد في حالتي الاجتماع والانفراد على حد سواء : ﴿ ولا ﴾ أي افعلوا ما أمرتم به من ذلك ، وانتهوا عما نهيتم عنه منه ، لما تقرر في الجبلات من العلم الضروري بخيريته وحسنه ، ولا ﴿ تقف ﴾ أي تتبع أيها الإنسان مجتهداً بتتبع الآثار ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ من ذلك وغيره ، كل شيء بحسبه ، لا سيما البهت والقذف ، فما كان المطلوب فيه القطع لم يقنع فيه بدونه ، وما اكتفى فيه بالظن وقف عنده ؛ ثم علل ذلك مخوفاً بقوله : ﴿ إن السمع والبصر ﴾ وهما طريقا الإدراك ﴿ والفؤاد ﴾ الذي هو آلة الإدراك ؛ ثم هوّل الأمر بقوله تعالى : ﴿ كل أولئك ﴾ أي هذه الأشياء العظيمة ، العالية المنافع ، البديعة التكوين ، وأولاء وجميع أسماء الإشارة يشار بها للعاقل وغيره كقوله :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى . . .

والعيش بعد أولئك الأيام

﴿ كان ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿ عنه ﴾ أي وحده ﴿ مسؤولاً ﴾ بسؤال يخصه ، هل استعمله صاحبه في طلب العلم مجتهداً في ذلك ، ليعمل عند الوقوف على الحقائق بما يرضي الله ، ويجتنب ما يسخطه أو لا ؟ وأول حديث النفس السابح ثم الخاطر ثم الإرادة

والعزيمة ، فيؤاخذ بالإرادة والعزيمة لدخولهما تحت الاختيار فيتعلق بهما التكليف ، ولعدم دخول الأولين خفف عنا بعدم المؤاخذة بهما ، كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : " إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسهم ما لم تعمل به أو تكلم " . انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 379 . 381﴾

(183/455)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثالث من الأشياء التي نهى الله عنها في هذه الآيات .

اعلم أنا ذكرنا أن الزنا يوجب اختلاط الأنساب .

وذلك يوجب منع الاهتمام بتربية الأولاد وذلك يوجب انقطاع النسل ، وذلك يوجب المنع من دخول الناس في الوجود ، وأما القتل فهو عبارة عن إعدام الناس بعد دخولهم في الوجود ، فثبت أن النهي عن الزنا والنهي عن القتل يرجع حاصله إلى النهي عن إتلاف النفوس ، فلما ذكر الله تعالى ذلك أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال ، لأن أعز الأشياء بعد النفوس

الأموال ، وأحق الناس بالنهي عن إتلاف أموالهم هو اليتيم ، لأنه لصغره وضعفه وكمال عجزه يعظم ضرره بإتلاف ماله ، فلهذا السبب خصهم الله تعالى بالنهي عن إتلاف أموالهم فقال : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بالمعروف ﴾ [النساء : 6] وفي تفسير قوله : ﴿ إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وجهان : الأول : إلا بالتصرف الذي ينميه ويكثره .

الثاني : المراد هو أن تأكل معه إذا احتجت إليه ، وروى مجاهد عن ابن عباس قال : إذا احتاج أكل بالمعروف فإذا أيسر قضاه ، فإن لم يوسر فلا شيء عليه .

واعلم أن الولي إنما تبقى ولايته على اليتيم إلى أن يبلغ أشده وهو بلوغ النكاح ، كما بينه الله تعالى في آية أخرى وهو قوله : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إِذَا بَلَغُواْ النكاح فَإِنْ ءانَسْتُم مّنْهُمْ رُشْداً فادفعوا إِلَيْهِمْ أموالهم ﴾ [النساء : 6] والمراد بالأشد بلوغه إلى حيث يمكنه بسبب عقله ورشده القيام بمصالح ماله ، وعند ذلك تزول ولاية غيره عنه وذلك حد البلوغ ، فأما إذا بلغ غير كامل العقل لم تزل الولاية عنه ، والله أعلم .

وبلوغ العقل هو أن يكمل عقله وقواه الحسية والحركية ، والله أعلم .

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) ﴾

اعلم أنه تعالى أمر بخمسة أشياء أولاً ، ثم أتبعه بالنهي عن ثلاثة أشياء وهي النهي عن الزنا ، وعن القتل إلا بالحق ، وعن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ، ثم أتبعه بهذه الأوامر الثلاثة فالأول قوله : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ .

واعلم أن كل عقد تقدم لأجل توثيق الأمر وتوكيده فهو عهد فقوله : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ نظير لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءامَنُوا أَوْفُوا بالعقود ﴾ [المائدة : 1] فدخل في قوله : ﴿ أَوْفُوا بالعقود ﴾ كل عقد من العقود كعقد البيع والشركة ، وعقد اليمين والنذر ، وعقد الصلح ، وعقد النكاح.

(185/455)

وحاصل القول فيه : أن مقتضى هذه الآية أن كل عقد وعهد جرى بين إنسانين فإنه يجب عليهما الوفاء بمقتضى ذلك العقد والعهد ، إلا إذا دل دليل منفصل على أنه لا يجب الوفاء به فمقتضاه الحكم بصحة كل بيع وقع التراضي به وبصحة كل شركة وقع التراضي بها ، ويؤكد هذا النص بسائر الآيات الدالة على الوفاء بالعهود والعقود كقوله : ﴿ والموفون بِعَهْدِهِمْ إِذَا

عاهدوا ﴾ [البقرة : 177] وقوله : ﴿ والذين هُمْ لأماناتهم وَعَهْدِهِمْ راعون ﴾ [المؤمنون : 8] وقوله : ﴿ وَأَحَلَّ اللهُ البيع ﴾ [البقرة : 275] وقوله : ﴿ لاَ تَأْكُلُواْ أموالكم بَيْنَكُمْ بالباطل إِلاَّ أَن تَكُونَ تجارة عَن تَرَاضٍ مّنْكُمْ ﴾ [النساء : 29] وقوله : ﴿ وَأَشْهِدُواْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ [البقرة : 282] وقوله عليه السلام : " لا يحل مال امرىء مسلم إلا عن طيبة من نفسه " وقوله : " إذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم يداً بيد " وقوله : " من اشترى شيئاً لم يره فهو بالخيار إذا رآه " فجميع هذه الآيات والأخبار دالة على أن الأصل في البيوعات والعهود والعقود الصحة ووجوب الالتزام .

إذا ثبت هذا فنقول : إن وجدنا نصاً أخص من هذه النصوص يدل على البطلان والفساد قضينا به تقديماً للخاص على العام ، وإلا قضينا بالصحة في الكل ، وأما تخصيص النص بالقياس فقد أبطلناه ، وبهذا الطريق تصير أبواب المعاملات على طولها وأطنابها مضبوطة معلومة بهذه الآية الواحدة ، ويكون المكلف آمن القلب مطمئن النفس في العمل ، لأنه لما دلت هذه النصوص على صحتها فليس بعد بيان الله بيان ، وتصير الشريعة مضبوطة معلومة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ العهد كَانَ مسؤلا ﴾ وفيه وجوه : أحدها : أن يراد صاحب العهد كان مسؤلاً فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه كقوله : ﴿ وَاسأَلِ القرية ﴾ [

يوسف : 82] .

وثانيها : أن العهد كان مسؤلاً أي مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي به .

(186/455)

وثالثها : أن يكون هذا تخييلاً كأنه يقال للعهد لم نكثت وهلا وفي بك تبكيتاً للناكث كما يقال للموؤدة : ﴿ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : 9] وكقوله : ﴿ ءأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى وَأُمّيَ إلهين ﴾

[المائدة : 116] الآية فالمخاطبة لعيسى عليه السلام والإنكار على غيره .

النوع الثاني : من الأوامر المذكورة في هذه الآية قوله : ﴿ وَأَوْفُوا الكيل إِذا كِلْتُمْ ﴾ والمقصود منه إتمام الكيل وذكر الوعيد الشديد في نقصانه في قوله : ﴿ وَيْلٌ لّلْمُطَفّفِينَ * الذين إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين : 31] .

النوع الثالث : من الأوامر المذكورة في هذه الآية قوله : ﴿ وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم ﴾ فالآية المتقدمة في إتمام الكيل ، وهذه الآية في إتمام الوزن ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ [الرحمن : 9] وقوله : ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ [هود : 85] .

واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل، والوزن قليل.

والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم، فوجب على العاقل الاحتراز منه، وإنما عظم الوعيد فيه لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء، وقد يكون الإنسان غافلاً لا يهتدي إلى حفظ ماله، فالشارع بالغ في المنع من التطفيف والنقصان، سعياً في إبقاء الأموال على الملاك، ومنعاً من تلطيخ النفس بسرقة ذلك المقدار الحقير، والقسطاس في معنى الميزان إلا أنه في العرف أكبر منه، ولهذا اشتهر في ألسنة العامة أنه القبان.

وقيل أنه بلسان الروم أو السرياني.

(187/455)

والأصح أنه لغة العرب وهو مأخوذ من القسط، وهو الذي يحصل فيه الاستقامة والاعتدال، وبالجملة فمعناه المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الجانبين، وأجمعوا على جواز اللغتين فيه، ضم القاف وكسرها، فالكسر قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم والباقون بالضم.

ثم قال تعالى: ﴿ ذلك خَيْرٌ ﴾ أي الإيفاء بالتمام والكمال خير من التطفيف القليل من حيث أن الإنسان يتخلص بواسطته عن الذكر القبيح في الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة:

﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ والتأويل ما يؤل إليه الأمر كما قال في موضع آخر : ﴿ خَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ [مريم : 76] ﴿ خَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف : 44] ﴿ خَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف : 46] وإنما حكم تعالى بأن عاقبة هذا الأمر أحسن العواقب ، لأنه في الدنيا إذا اشتهر بالاحتراز عن التطفيف عول الناس عليه ومالت القلوب إليه وحصل له الاستغناء في الزمان القليل ، وكم قد رأينا من الفقراء لما اشتهروا عند الناس بالأمانة والاحتراز عن الخيانة أقبلت القلوب عليهم وحصلت الأموال الكثيرة لهم في المدة القليلة .

وأما في الآخرة فالفوز بالثواب العظيم والخلاص من العقاب الأليم .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما شرح الأوامر الثلاثة ، عاد بعده إلى ذكر النواهي فنهى عن ثلاثة أشياء :

أولها : قوله : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ وقوله : ﴿ تَقْفُ ﴾ مأخوذ من قولهم :

قفوت أثر فلان أقفو قفواً وقفواً إذا اتبعت أثره ، وسميت قافية الشعر قافية لأنها تقفو البيت ، وسميت القبيلة المشهورة بالقافة ، لأنهم يتبعون آثار أقدام الناس ويستدلون بها على أحوال الإنسان ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا على ءاثارهم بِرُسُلِنَا ﴾ [الحديد : 27] وسمي القفا قفا لأنه مؤخر بدن الإنسان كأنه شيء يتبعه ويقفوه فقوله : ﴿ وَلاَ تَقْفُ ﴾ أي ولا تتبع ولا تقتف ما لا علم لك به من قول أو فعل ، وحاصله يرجع إلى النهي عن الحكم بما لا يكون معلوماً ، وهذه قضية كلية يندرج تحتها أنواع كثيرة ، وكل واحد من المفسرين حمله على واحد من تلك الأنواع وفيه وجوه :

الوجه الأول : المراد نهي المشركين عن المذاهب التي كانوا يعتقدونها في الإلهيات والنبوات بسبب تقليد أسلافهم ، لأنه تعالى نسبهم في تلك العقائد إلى اتباع الهوى فقال : ﴿ إِنْ هِىَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءابَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ الله بِهَا مِن سلطان إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ [النجم : 23] وقال في إنكارهم البعث : ﴿ بَلِ اداركَ عِلْمُهُمْ فِى الأَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكّ مّنْهَا بَلْ هُم مّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل : 66] وحكي عنهم أنهم قالوا : ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية : 32] وقال : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتبع هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مّنَ الله ﴾ [القصص : 50] وقال : ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب هذا حلال وهذا حَرَامٌ ﴾ [النحل : 116] الآية وقال : ﴿ هَلْ عِندَكُم مّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ [الأنعام : 148] .

والقول الثاني : نقل عن محمد بن الحنفية أن المراد منه شهادة الزور ، وقال ابن عباس : لا تشهد إلا بما رأته عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك .

والقول الثالث : المراد منه : النهي عن القذف ورمي المحصنين والمحصنات بالأكاذيب ، وكانت عادة العرب جارية بذلك يذكرونها في الهجاء ويبالغون فيه .

القول الرابع : المراد منه النهي عن الكذب .

قال قتادة : لا تقل سمعت ولم تسمع ورأيت ولم تر وعلمت ولم تعلم .

والقول الخامس : أن القفو هو البهت وأصله من القفا ، كأنه قول يقال خلفه وهو في معنى الغيبة وهو ذكر الرجل في غيبته بما يسوءه .

وفي بعض الأخبار من قفا مسلماً بما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال ، واعلم أن اللفظ عام يتناول الكل فلا معنى للتقليد ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا : القياس لا يفيد إلا الظن والظن مغاير للعلم ، فالحكم في دين الله بالقياس حكم بغير المعلوم ، فوجب أن لا يجوز لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ

بِهِ عِلْمٌ ﴾ .

أجيب عنه من وجوه : الأول : أن الحكم في الدين بمجرد الظن جائز بإجماع الأمة في صور كثيرة : أحدها : أن العمل بالفتوى عمل بالظن وهو جائز .

وثانيها : العمل بالشهادة عمل بالظن وأنه جائز .

وثالثها : الاجتهاد في طلب القبلة لا يفيد إلا الظن وأنه جائز .

ورابعها : قيم المتلفات وأروش الجنايات لا سبيل إليها إلا بالظن وأنه جائز .

وخامسها : الفصد والحجامة وسائر المعالجات بناء على الظن وأنه جائز .

وسادسها : كون هذه الذبيحة ذبيحة للمسلم مظنون لا معلوم ، وبناء الحكم عليه جائز .

وسابعها : قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فابعثوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : 35] وحصول ذلك الشقاق مظنون لا معلوم .

وثامنها : الحكم على الشخص المعين بكونه مؤمناً مظنون ثم نبني على هذا الظن أحكاماً كثيرة مثل حصول التوارث ومثل الدفن في مقابر المسلمين وغيرهما .

وتاسعها : جميع الأعمال المعتبرة في الدنيا من الأسفار ، وطلب الأرباح والمعاملات إلى

الآجال المخصوصة والاعتماد على صداقة الأصدقاء وعداوة الأعداء كلها مظنونة وبناء الأمر على تلك الظنون جائز .

وعاشرها : قال عليه السلام : " نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر " وذلك تصريح بأن الظن معتبر في هذه الأنواع العشرة فبطل قول من يقول : إنه لا يجوز بناء الأمر على الظن .

والجواب الثاني : أن الظن قد يسمى بالعلم .

والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أَعْلَمُ بإيمانهن فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مؤمنات فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار ﴾ [الممتحنة : 10] ومن المعلوم أنه إنما يمكن العلم بإيمانهن بناء على إقرارهن ، وذلك لا يفيد إلا الظن ، فههنا الله تعالى سمى الظن علماً .

والجواب الثالث : أن الدليل القاطع لما دل على وجوب العمل بالقياس ، وكان ذلك الدليل دليلاً على أنه متى حصل ظن أن حكم الله في هذه السورة يساوي حكمه في محل النص ، فأنتم مكلفون بالعمل على وفق ذلك الظن ، فههنا الظن وقع في طريق الحكم ، فأما ذلك الحكم فهو معلوم متيقن .

أجاب نفاة القياس عن السؤال الأول فقالوا : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ عام دخله التخصيص في الصور العشرة المذكورة ، فيبقى هذا العموم فيما وراء هذه الصور حجة ، ثم نقول : الفرق بين هذه الصور العشر وبين محل النزاع أن هذه الصور العشر مشتركة

في أن تلك الأحكام أحكام مختصة بأشخاص معينين في أوقات معينة ، فإن الواقعة التي يرجع فيها الإنسان المعين إلى المعنى المعين واقعة متعلقة بذلك الشخص المعين ، وكذلك القول في الشهادة وفي طلب القبلة وفي سائر الصور .

(191/455)

والتنصيص على وقائع الأشخاص المعينين في الأوقات المعينة يجري مجرى التنصيص على ما لا نهاية له ، وذلك متعذر ، فلهذه الضرورة اكتفينا بالظن .

أما الأحكام المثبتة بالأقيسة فهي أحكام كلية معتبرة في وقائع كلية وهي مضبوطة قليلة ، والتنصيص عليها ممكن ولذلك فإن الفقهاء الذين استخرجوا تلك الأحكام بطريق القياس ضبطوها وذكروها في كتبهم .

إذا عرفت هذا فنقول : التنصيص على الأحكام في الصور العشر التي ذكرتموها غير ممكن فلاجرم اكتفى الشارع فيها بالظن ، أما المسائل المثبتة بالطرق القياسية التنصيص عليها ممكن فلم يجز الاكتفاء فيها بالظن فظهر الفرق .

وأما الجواب الثاني : وهو قولهم الظن قد يسمى علماً فنقول : هذا باطل فإنه يصح أن يقال هذا مظنون وغير معلوم ، وهذا معلوم وغير مظنون ، وذلك يدل على حصول المغايرة ، ثم

الذي يدل عليه قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ [الأنعام : 148] نفي العلم ، وإثبات للظن ، وذلك يدل على حصول المغايرة ، وأما قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مؤمنات ﴾ [الممتحنة : 10] فالمؤمن هو المقر ، وذلك الإقرار هو العلم .

وأما الجواب الثالث : فهو أيضاً ضعيف ، لأن ذلك الكلام إنما يتم لو ثبت أن القياس حجة بدليل قاطع وذلك باطل لأن تلك الحجة إما أن تكون عقلية أو نقلية ، والأول باطل لأن القياس الذي يفيد الظن لا يجب عقلاً أن يكون حجة ، والدليل عليه أنه لا نزاع أن يصح من الشرع أن يقول : نهيتكم عن الرجوع إلى القياس ولو كان كونه حجة أمراً عقلياً محضاً لامتنع ذلك .

(192/455)

والثاني : أيضاً باطل ، لأن الدليل النقلي في كون القياس حجة إنما يكون قطعياً لو كان منقولاً نقلاً متواتراً وكانت دلالته على ثبوت هذا المطلوب دلالة قطعية غير محتملة النقيض ولو حصل مثل هذا الدليل لوصل إلى الكل ولعرفه الكل ولارتفع الخلاف ، وحيث لم يكن كذلك علمنا أنه لم يحصل في هذه المسألة دليل سمعي قاطع ، فثبت أنه لم يوجد في إثبات كون

القياس حجة دليل قاطع ألبتة ، فبطل قولكم كون الحكم المثبت بالقياس حجة معلوم لا مظنون ، فهذا تمام الكلام في تقرير هذا الدليل .

وأحسن ما يمكن أن يقال في الجواب عنه إن التمسك بهذه الآية التي عولتم عليها تمسك بعام مخصوص ، والتمسك بالعام المخصوص لا يفيد إلا الظن ، فلو دلت هذه الآية على أن التمسك بالظن غير جائز لدلت على أن التمسك بهذه الآية غير جائز ، فالقول بكون هذه الآية حجة يفضي ثبوته إلى نفيه فكان تناقضاً فسقط الاستدلال به ، والله أعلم .

وللمجيب أن يجيب فيقول : نعلم بالتواتر الظاهر من دين محمد صلى الله عليه وسلم أن التمسك بآيات القرآن حجة في الشريعة ويمكن أن يجاب عن هذا الجواب بأن كون العام المخصوص حجة غير معلوم بالتواتر ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مسؤلا ﴾ فيه بحثان :

البحث الأول : أن العلوم إما مستفادة من الحواس ، أو من العقول .

أما القسم الأول : فإليه الإشارة بذكر السمع والبصر ، فإن الإنسان إذا سمع شيئاً ورآه فإنه يرويه ويخبر عنه ، وأما القسم الثاني : فهو العلوم المستفادة من العقل وهي قسمان : البديهية والكسبية ، وإلى العلوم العقلية الإشارة بذكر الفؤاد .

البحث الثاني : ظاهر الآية يدل على أن هذه الجوارح مسؤولة وفيه وجوه :

الوجه الأول : أن المراد أن صاحب السمع والبصر والفؤاد هو المسؤول لأن السؤال لا يصح إلا ممن كان عاقلاً ، وهذه الجوارح ليست كذلك ، بل العاقل الفاهم هو الإنسان ، فهو كقوله تعالى : ﴿ واسألِ القرية ﴾ [يوسف : 82] والمراد أهلها يقال له لم سمعت ما لا يحل لك سماعه ، ولم نظرت إلى ما لا يحل لك النظر إليه ، ولم عزمت على ما لا يحل لك العزم عليه .

والوجه الثاني : أن تقرير الآية أن أولئك الأقوام كلهم مسؤولون عن السمع والبصر والفؤاد فيقال لهم استعملتم السمع فيماذا أفي الطاعة أو في المعصية ؟ وكذلك القول في بقية الأعضاء ، وذلك لأن هذه الحواس آلات النفس ، والنفس كالأمير لها والمستعمل لها في مصالحها فإن استعملتها النفس في الخيرات استوجبت الثواب ، وإن استعملتها في المعاصي استحقت العقاب .

والوجه الثالث : أنه ثبت بالقرآن أنه تعالى يخلق الحياة في الأعضاء ثم إنها تشهد على الإنسان والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور : 24] ولذلك لا يبعد أن يخلق الحياة والعقل والنطق في هذه الأعضاء .

ثم إنه تعالى يوجه السؤال عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 163 . 169 ﴾

(194/455)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن ﴾

وإنما خص اليتيم بالذكر لأنه إلى ذلك أحوج ، والطمع في ماله أكثر . وفي قوله ﴿ إلاّ بالتي هي أحسن ﴾ قولان :

أحدهما : حفظ أصوله وتثمير فروعه ، وهو محتمل .

الثاني : أن التي هي أحسن التجارة له بماله .

﴿ حتى يَبْلُغَ أَشدَّه ﴾ وفي الأشد وجهان : أحدهما : أنه القوة .

الثاني : المنتهى .

وفي زمانه ها هنا قولان :

أحدهما : ثماني عشرة سنة .

والثاني : الاحتلام مع سلامة العقل وإيناس الرشد .

﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنها العقود التي تنعقد بين متعاقدين يلزمهم الوفاء بها ، وهذا قول أبي جعفر الطبري .

الثاني : أنه العهد في الوصية بمال اليتيم يلزم الوفاء به .

الثالث : أنه كل ما أمر الله تعالى به أو نهى فهو من العهد الذي يلزم الوفاء به .

﴿ إن العهد كان مسئولاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن العهد كان مطلوباً ، قاله السدي .

الثاني : أن العهد كان مسئولا عنه الذي عهد به ، فيكون ناقض العهد هو المسئول .

الثالث : أن العهد نفسه هو المسئول بم نقِضت ، كما تُسأل الموءُودة بأي ذنب قتلت .

قوله عز وجل : ﴿ . . . وزنُوا بالقسطاس المستقيم ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه القبان . قاله الحسن .

الثاني : أنه الميزان صغر أو كبر ، وهذا قول الزجاج .

الثالث : هو العدل .

واختلف من قال بهذا على قولين :

أحدهما : أنه رومي ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه عربي مشتق من القسط ، قاله ابن درستويه .

﴿ ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أحسن باطناً فيكون الخير ما ظهر ، وحسن التأويل ما بطن .

الثاني : أحسن عقابة ، تأويل الشيء عاقبته .

قوله عز وجل : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به عِلْمٌ ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : معناه لا تقل ما ليس لك به علم فلا تقل رأيت ، ولم تر ، ولا سمعت ، ولم تسمع ، ولا علمت ولم تعلم . وهذا قول قتادة .

(195/455)

الثاني : معناه ولا ترم أحد بما ليس لك به علم ، وهذا قول ابن عباس . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " نحن بني النضر كنانة لا نقْفُو أمنا ولا ننتفي من أبينا

" . الثالث : أنه من القيافة وهو اتباع الأثر ، وكأنه يتبع قفا المتقدم ، قال الشاعر :

ومِثْلُ الدُّمى شُمُّ العَرَنِينِ سَاكِنٌ . . . بهِنَّ الْحَيَاءُ لا يُشِعْنَ التَّقَافِيَا

أي التقاذف .

﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أُولُّئك كان عنه مسئولاً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون الإنسان هو المسئول عن السمع والبصر والفؤاد لأنه يعمل بها إلى الطاعة والمعصية .

الثاني : أن السمع والبصر والفؤاد تُسأل عن الإنسان ليكونوا شهوداً عليه ، وله ، بما فعل من طاعة وما ارتكب من معصية ، ويجوز أن يقال أولئك لغير الناس ، كما قال جرير :

ذُمِّ المنازِلِ بَعْدَ منزِلةِ اللّوى . . . والْعَيْشَ بَعْدَ أُولَئكَ الأَيَّامِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(196/455)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾

الخطاب في هذه الآية للأوصياء الذين هم معدون لقرب مال اليتامى ، ثم لمن تلبس بشيء من أمر يتيم من غير وصي ، و﴿ اليتيم ﴾ الفرد من الأبناء ، واليتم الانفراد ، يقال يتم الصبي ييتم إذا فقد أباه ، قال ابن السكيت : اليتم في البشر من قبل الأب ، وفي البهائم من قبل الأم ، وفي كتاب الماوردي ، أن اليتم في البشر من قبل الأم أيضاً ، وجمعه أيتام كشريف وأشراف وشهيد وأشهاد ، ويجمع يتامى كأسير وأسارى كأنهما الأمور المكروهة التي

تدخل على المرء غلبة ، قال ابن سيده : وحكى ابن الأعرابي يتمان في يتيم ، وأنشد في ذلك : [الطويل]

فبت أشوي ظبيتي وحليلتي . . . طربا وجرو الذيب يتمان جائع

ويجوز أن يكون يتامى جمع يتمان ، وفي الحديث "لا يتم بعد حلم" وقوله ﴿ إلا بالتي هي أحسن ﴾ يريد إلا بأحسن الحالات .

(197/455)

قال القاضي أبو محمد : وذلك في الوصي الغني ، أن يثمر المال ويحوطه ولا يمسّ منه شيئاً على جهة الانتفاع به ، هذا هو الورع والأولى الا أن يكون يشتغل في مال اليتيم ويشح فله بالفقه أن تفرض له أجرة ، وأما الوصي الفقير الذي يشغله مال اليتيم عن معاشه ، فاختلف الناس في أكله منه بالمعروف كيف هو ؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يتسلف منه ، فإذا أيسر رد فيه ، وقال ابن المسيب ، لا يشرب الماء من مال اليتيم ، قيل له فما معنى ﴿ فليأكل بالمعروف ﴾ [النساء : 6] ؟ قال : إنما ذلك لخدمته وغسل ثوبه ، وقال مجاهد : لا يقرب إلا التجارة ولا يستقرض منه ، قال : قوله ﴿ فليأكل بالمعروف ﴾ [ذاته] معناه من مال نفسه ، وقال أبو يوسف : لعل قوله ﴿ فليأكل بالمعروف ﴾ [ذاته] منسوخ بقوله

﴿ لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [البقرة : 188] [النساء : 29] وقال ابن عباس : يأكل منه الشربة من اللبن والطرفة من الفاكهة ونحو هذا مما يخدمه ، ويلط الحوض ويجد النخل ، وينشد الضالة فليأكل غير مضر بنسل ولا ناهك في الحلب ، وقال زيد بن أسلم : يأكل منه بأطراف أصابعه بلغة من العيش بتعبه .

(198/455)

قال القاضي أبو محمد : وهذه استعارة للتقلل ، وقال مالك رحمه الله وغيره . يأخذ منه أجره بقدر تعبه ، فهذه كلها تدخل فيما هو أحسن ، وكمال تفسير هذه المعاني في سورة النساء بحسب ألفاظ تلك الآيات ، وفي الخبر عن قتادة أن هذه الآية لما نزلت شقت على المسلمين وتجنبوا الأكل معهم في صحفة ونحوه ، فنزلت ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ [البقرة : 220] وقوله ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ غاية الإمساك عن مال اليتيم ، ثم ما بعد الغاية قد بينته آية أخرى ، وما بعد هذه الغايات أبداً موقوف حتى يقوم فيه دليل شرعي أو يقتضي ذلك الاتفاق في النازلة ، ومثل هذا قول عائشة رضي الله عنها أنا فتلت قلائد هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ، وبعث بها ، فلم يحرم علي رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء أحله الله له حتى نحر الهدي ، و" الأشد

"جمع شد عند سيبويه ، وقال أبو عبيدة : لا واحد له من لفظه ، ومعناها قواه في العقل والتجربة والنظر لنفسه ، وذلك لا يكون إلا مع البلوغ ، ف " الأشد " في مذهب مالك أمران ، البلوغ بالاحتلام أو ما يقوم مقامه حسب الخلاف في ذلك ، والرشد في المال ، واختلف هل من شروط ذلك الرشد في الدين على قولين ، فابن القاسم لا يراعيه إذا كان ضابطاً لماله ، وراعاه غيره من بعض أصحاب مالك ، ومذهب أبي حنيفة أن الأشد هو البلوغ فقط فلا حجر عنده على بالغ إلا أن يعرف منه السفه .

(199/455)

قال القاضي أبو محمد : ولست من هذا التقييد في قوله على ثقة ، وقال أبو إسحاق الزجاج " الأشد " في قوله أن تأتي على الصبي ثمان عشرة سنة ، وإنما أراد أنها بعض ما قيل في حد البلوغ لمن لا يحتلم ، وأما أن يكون بالغ رشيد تقي لا يدفع إليه ماله حتى يبلغ هذه المدة فشيء لا أحفظ من يقوله ، وقوله ، وقوله ﴿ بالعهد ﴾ لفظ عام لكل عهد وعقد بين الإنسان وبين ربه أو بينه وبين المخلوقين في طاعة ، وقوله ﴿ إن العهد كان مسؤولاً ﴾ أي مطلوباً ممن عهد إليه أو عوهد هل وفى به أم لا ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل ﴾ الآية ، أمر الله تعالى في هذه الآية أهل التجر والكيل

والوزن أن يعطوا الحق في كيلهم ووزنهم ، ورُوي عن ابن عباس أنه كان يقف في السوق ويقول : يا معشر الموالي إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم ، هذا المكيال وهذا الميزان .

قال القاضي أبو محمد : وتقتضي هذه الآية أن الكيل على البائع ، لأن المشتري لا يقال له أوف الكيل ، هذا ظاهر اللفظ والسابق منه ، و ﴿ القسطاس ﴾ قال الحسن هو القبان ، ويقال القفان وهو القلسطون ، ويقال القرسطون ، وقيل : " القسطاس " الميزان صغيراً كان أو كبيراً ، وقال مجاهد ﴿ القسطاس ﴾ العدل ، وكان يقول هي لغة رومية ، فكأن الناس قيل لهم زنوا بمعدلة في وزنكم ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر " القُسطاس " بضم القاف ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم " القِسطاس " بكسر القاف ، وهما لغتان ، واللفظة منه للمبالغة من القسط ، والمراد بها في الآية جنس الموازين المعدّلة على أي صفة كانت ، قال أبو حاتم إنما قرأ بكسر القاف أهل الكوفة ، وكل قراءة لا تجاوز الكوفة إلى الحرمين والبصرة فاقرأ بغيرها ، وقرأت فرقة " القصطاس " بالصاد .

قال القاضي أبو محمد : وكان مذهب مجاهد في هذا وفي ميزان القيامة ، وكل ذلك أنها استعارات للعدل ، وقوله : في ميزان القيامة مردود ، وعقيدة أهل السنة أنه ميزان له عمود وكفتان .

وسمعت أبي رضي الله عنه يقول رأيت الواعظ أبا الفضل الجوهري في جامع عمرو بن العاص يعظ الناس في الوزن فقال في جملة كلامه إن هيئة اليد بالميزان عظة وذلك أن الأصابع تجيء منها صورة المكتوبة ألف ولامان وهاء فكأن الميزان يقول الله الله .

قال القاضي أبو محمد : وهذا وعظ جميل ، و" التأويل " في هذه الآية المآل . قاله قتادة ، ويحتمل أن يكون " التأويل " مصدر تأول أي يتأول عليكم الخير في جميع أموركم إذا أحسنتم في الكيل والوزن ، والفرض من أمر الكيل والوزن تحري الحق ، فإن غلب الإنسان تعد تحريه شيء يسير من تطفيف شاذاً لم يقصده بذلك نزر موضوع عنه إثمه ، وذلك ما لا يكون الانفكاك عنه في وسع ، وقوله ﴿ ولا تقف ﴾ معناه ولا تقل ولا تتبع .

قال القاضي أبو محمد : لكنها لفظة تستعمل في القذف والعضه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " نحن بنو النضر لا نقفو أمنا ولا ننتفي من أبينا " ، وتقول فلان قفوتي أي موضع تهمتي ، وتقول العرب رب سامع عذرتي ولم يسمع قفوتي أي ما رميت به ، وهذا مثل للذي يفشي سره ويعتذر من ذنب لم يسمعه المعتذر إليه ، وقد قال ابن عباس أيضاً ومجاهد : ﴿ ولا تقف ﴾ معناه ، ولا ترم ، ومن هذه اللفظة قول الشاعر :

ومثل الدمى شم العرانين ساكن . . . بهن الحياء لا يشعن التقافيا

وقال الكميت : [الوافر]

ولا أرم البرى بغير ذنب . . . ولا أقفو الحواضن إن قفينا

وأصل هذه اللفظة من اتباع الأثر ، تقول قفوت الأثر ، ويشبه أن هذا من القفا مأخوذ ، ومنه قافية الشعر لأنها تقفو البيت ، وتقول قفت الأثر ، ومن هذا : هو القائف ، وتقول فقوت الأثر بتقديم الفاء على القاف ، ويشبه أن يكون هذا من تلعب العرب في بعض الألفاظ ، كما قالوا وعمري في لعمري وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت قفا وقاف مثل عثا وعاث ، فمعنى الآية ، ولا تتبع لسانك من القول ما لا علم لك به ، وذهب منذر بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثل جبذ وجذب فهذه الآية بالجملة تنهى عن قول الزور والقذف وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة الردية ، وقرأ الجمهور " ولا تقف " ، وقرأ بعض الناس فيما حكى الكسائي " ولا تقُفْ " بضم القاف وسكون الفاء ، وقرأ الجراح " والفآد " بفتح الفاء وهي لغة ، وأنكرها أبو حاتم وغيره ، وعبر عن ﴿ السمع والبصر والفؤاد ﴾ ب ﴿ أولئك ﴾ لأنها حواس لها إدراك ، وجعلها في هذه الآية مسؤولة ، فهي حالة من يعقل ، فلذلك عبر عنها ب

﴿ أولئك ﴾ ، وقد قال سيبويه رحمه الله في قوله تعالى :

﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ [يوسف : 4] إنه إنما قال رأيتهم في نجوم لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعل من يعقل ، عبر عنها بكناية من يعقل ، وحكى الزجاج أن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل ب " أولئك " ، وأنشد هو والطبري : [الكامل] .

ذم المنازل بعد منزلة اللوى . . . والعيش بعد أولئك الأيام

(202/455)

فأما حكاية أبي إسحاق عن اللغة فأمر يوقف عنده ، وأما البيت فالرواية فيه الأقوام ، والضمير في ﴿ عنه ﴾ يعود على ما ليس للإنسان به علم ، ويكون المعنى أن الله تعالى يسأل سمع الإنسان ، وبصره ، وفؤاده عما قال مما لا علم له به ، فيقع تكذيبه من جوارحه وتلك غاية الخزي ، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿ عنه ﴾ على كل التي هي للسمع والبصر والفؤاد ، والمعنى أن الله تعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصر وفؤاده ، فكأنه قال كل هذه كان الإنسان عنه مسؤولاً ، أي عما حصل لهؤلاء من الإدراكات ووقع منها من الخطأ ، فالتقدير عن أعمالها مسؤولاً ، فهو على حذف مضاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾

قد شرحناه في [الأنعام : 152] .

قوله تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ وهو عامّ فيما بين العبد وبين ربه ، وفيما بينه وبين الناس .

قال الزجاج : كلُّ ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد .

قوله تعالى : ﴿ كان مسؤولاً ﴾ قال ابن قتيبة : أي : مسؤولاً عنه .

قوله تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل إِذا كِلْتُم ﴾ أي : أَتِمُّوه ولا تَبْخَسوا منه .

قوله تعالى : ﴿ وَزِنوا بالقسطاس ﴾ فيه خمس لغات .

أحدها : "قُسطاس" ، بضم القاف وسينين ، وهذه قراءة ابن كثير ، ونافع ، وأبي عمرو ، وابن عامر ، وأبي بكر عن عاصم هاهنا وفي [الشعراء : 182] .

والثانية : كذلك ، إِلاَّ أن القاف مكسورة ، وهذه قراءة حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم .

قال الفراء : هما لغتان .

والثالثة : "قصطاص" ، بصادين .

والرابعة : "قصطاس" ، بصاد قبل الطاء وسين بعدها ، وهاتان مرويتان عن حمزة .

والخامسة : "قِسطان" ، بالنون .

قرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي عن ابن دريد قال : القسطاس : الميزان ، روميٌّ معرَّب ، ويقال : "قُسطاس" و"قِسطاس" .

قوله تعالى : ﴿ ذلك خير ﴾ أي : ذلك الوفاء خير عند الله وأقرب إليه ، ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ أي : عاقبة في الجزاء .

قوله تعالى : ﴿ ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم ﴾ قال الفراء : أصل "تَقْفُ" من القيافة ، وهي : تتبُّع الأثر ، وفيه لغتان : قَفَا يقْفُو ، وقاف يقوف ، وأكثر القراء يجعلونها مِنْ "قفوتُ" ، فيحرك الفاء إلى الواو ويجزم القاف كما تقول : لا تَدْعُ .

وقرأ معاذ القارىء : "لا تقُفْ" ، مثل : تقُلْ ؛ والعرب تقول : قُفْتُ أَثَرَه ، وقَفَوت ، ومثله : عاث وعثا ، وقاعَ الجملُ الناقة ، وقعاها : إذا ركبها .

قال الزجاج : من قرأ بإسكان الفاء وضم القاف مِنْ : قاف يقوف ، فكأنه مقلوب مِنْ قفا يقفو ، والمعنى واحد ، تقول : قفوتُ الشيءَ أقفُوه قفواً : إذا تبعت أثره .

وقال ابن قتيبة : "لا تقف" ، أي : لا تُتْبِعه الظنُّون والحَدْسَ ، وهو من القفاء مأخوذ ، كأنك تقفوا الأمور ، أي : تكون في أقفائها وأواخرها تتعقَّبها ، والقائف : الذي يعرف الآثار ويتبعها ، فكأنه مقلوب عن القافي .

وللمفسرين في المراد به أربعة أقوال .

أحدها : لا ترمِ أحداً بما ليس لك به علم ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : لا تقل : رأيتُ ، ولم ترَ ، ولا سمعتُ ، ولم تَسمع ، رواه عثمان بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

والثالث : لا تُشرك بالله شيئاً ، رواه عطاء أيضاً عن ابن عباس .

والرابع : لا تشهد بالزور ، قاله محمد بن الحنفية .

قوله تعالى : ﴿ إِن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك ﴾ قال الزجاج : إِنما قال : ﴿ كل ﴾ ، ثم قال : ﴿ كان ﴾ ، لأن كلاًّ في لفظ الواحد ، وإِنما قال : ﴿ أولئك ﴾ لغير الناس ، لأن كلَّ جمع أشرتَ إِليه من الناس وغيرهم من الموات ، تشير إِليه بلفظ "أولئك" ، قال جرير :

ذمُّ المَنَازِلِ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللّوى . . .

والعَيْشَ بَعْدَ أُولئِكَ الأَيَّامِ

قال المفسرون : الإِشارة إِلى الجوارح المذكورة ، يُسأل العبد يوم القيامة فيما إِذا استعملها ، وفي هذا زجر عن النظر إِلى ما لا يَحِلُّ ، والاستماع إِلى ما يحرم ، والعزم على ما لا يجوز . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسيرـ 5 ص ﴾

(205/455)

وقال القرطبى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ قد مضى الكلام فيه في الأنعام .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ بالعهد ﴾ قد مضى الكلام فيه في غير موضع .

قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونَهى عنه فهو من العهد .

﴿ إِنَّ العهد كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ عنه ، فحذف ؛ كقوله : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ به وقيل : إن العهد يسأل تبكيتاً لناقضه فيقال : نقضت ، كما تسأل المَوْءُودة تبكيتاً لوائدها .

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الكيل إِذا كِلْتُمْ ﴾ تقدم الكلام فيه أيضاً في الأنعام.

وتقتضي هذه الآية أن الكيل على البائع ، وقد مضى في سورة "يوسف" فلا معنى للإعادة.

والقُسطاس (بضم القاف وكسرها) : الميزان بلغة الروم؛ قاله ابن عُزيز.

وقال الزجاج : القسطاس : الميزان صغيراً كان أو كبيراً.

وقال مجاهد : القسطاس العدل ، وكان يقول : هي لغة رومية ، وكأن الناس قيل لهم : زِنوا بِمَعْدِلِهِ في وزنكم.

وقرأ ابن كَثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر "القُسطاس" بضم القاف.

وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم القسطاس (بكسر القاف) وهما لغتان.

الثانية : قوله تعالى : ﴿ ذلك خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ أي وفاءُ الكيل وإقامة الوزن خير عند ربك وأبرك.

"وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً" أي عاقبة.

قال الحسن : ذُكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقدر رجل على حرام ثم

يَدَعُه ليس لديه إلا مخافة الله تعالى إلا أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك " .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْفُ ﴾ أي لا تتبع ما لا تعلم ولا يَعْنِيك .

قال قتادة : لا تقل رأيتُ وأنت لم تر ، وسمعتُ وأنت لم تسمع ، وعلمتُ وأنت لم تعلم ؛ وقاله ابن عباس رضي الله عنهما .

قال مجاهد : لا تَذُمّ أحداً بما ليس لك به علم ؛ وقاله ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً .

وقال محمد بن الحنفية : هي شهادة الزور .

وقال القُتَبيّ : المعنى لا تتبع الحَدْس والظنون ؛ وكلها متقاربة .

وأصل القَفْو البُهْتُ والقذفُ بالباطل ؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " نحن بنو النضر بن كنانة لا نَقفو أُمّنا ولا ننتفي من أبينا " أي لا نَسُبّ أمنا .

وقال الكُمَيت :

فلا أرمي البريء بغير ذنب . . .

ولا أَقْفُو الحواصن إن قُفينا

يقال : قَفَوْتُه أَقْفُوه ، وقُفْتُه أَقُوفُه ، وقَفّيته إذا اتبعت أثره .

ومنه القافة لتتبعهم الآثار وقافية كلِّ شيء آخره ، ومنه قافية الشِّعر ؛ لأنها تقفو البيت .

ومنه اسم النبيّ صلى الله عليه وسلم المُقَفِّي ؛ لأنه جاء آخر الأنبياء .

ومنه القائف ، وهو الذي يتبع أثر الشَّبَه .

يقال : قاف القائف يقوف إذا فعل ذلك .

وتقول : فَقَوْت الأثر ، بتقديم الفاء على القاف .

ابن عطية : ويشبه أن يكون هذا من تلعّب العرب في بعض الألفاظ ، كما قالوا : رَعَمْلي في لَعَمْرِي .

وحكى الطبريّ عن فرقة أنها قالت : قفا وقاف ، مثل عتا وعات .

وذهب منذر بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثل جُبَذ وجَذَب .

وبالجملة فهذه الآية تنهى عن قول الزور والقذف ، وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والرديئة .

وقرأ بعض الناس فيما حكى الكسائي "تَقُفْ" بضم القاف وسكون الفاء .

وقرأ الجراح "والفَآد" بفتح الفاء ، وهي لغة لبعض الناس ، وأنكرها أبو حاتم وغيره .

(207/455)

الثانية : قال ابن خُوَيْزِمنداد : تضمنت هذه الآية الحكم بالقافة ؛ لأنه لما قال : "وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ" دلَّ على جواز ما لنا به علم ، فكلّ ما علمه الإنسان أو غلب على ظنه جاز أن يحكم به ، وبهذا احتججنا على إثبات القُرْعة والخَرْص ؛ لأنه ضرب من غلبة الظن ، وقد يُسَمَّى علماً اتساعا .

فالقائف يُلحق الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما كما يلحق الفقيه الفرع بالأصل من طريق الشبه .

وفي الصحيح عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليّ مسرورا تَبْرُق أسارير وجهه فقال : "ألم تَرَيْ أن مُجزِّزاً نظر إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد عليهما قطيفة قد غَطّيا رؤوسهما وبَدَتْ أقدامهما فقال إن بعض هذه الأقدام لَمِن بعض " .

وفي حديث يونس بن يزيد : " وكان مُجزِّز قائفاً " .

الثالثة : قال الإمام أبو عبد الله المازَري : كانت الجاهلية تقدح في نسب أسامة لكونه أسود

شديد السواد ، وكان زيد أبوه أبيضَ من القطن ، هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح .

قال القاضي عِيَاض : وقال غير أحمد كان زيد أزهرَ اللون ، وكان أسامة شديد الأُدْمة ؛ وزيد بن حارثة عربيّ صريح من كَلْب ، أصابه سِباء ، حسبما يأتي في سورة "الأحزاب" إن شاء الله تعالى .

الرابعة : استدل جمهور العلماء على الرجوع إلى القافة عند التنازع في الولد ، بسرور النبيّ صلى الله عليه وسلم بقول هذا القائف ؛ وما كان عليه السلام بالذي يُسَرّ بالباطل ولا يعجبه .

ولم يأخذ بذلك أبو حنيفة وإسحاق والثّوْرِيّ وأصحابهم متمسّكين بإلغاء النبيّ صلى الله عليه وسلم الشبه في حديث اللّعان : على ما يأتي في سورة "النور" إن شاء الله تعالى .

(208/455)

الخامسة : واختلف الآخذون بأقوال القافة ، هل يؤخذ بذلك في أولاد الحرائر والإماء أو يختص بأولاد الإماء ، على قولين ؛ فالأوّل : قول الشافعيّ ومالك رضي الله عنهما في رواية ابن وهب عنه ، ومشهورُ مذهبه قَصْرُه على ولد الأَمَة .

والصحيح ما رواه ابن وهب عنه وقاله الشافعيّ رضي الله عنه ؛ لأن الحديث الذي هو

الأصل في الباب إنما وقع في الحرائر ، فإن أسامة وأباه حُرّان فكيف يُلْغَى السبب الذي خُرّج عليه دليل الحكم وهو الباعث عليه ، هذا مما لا يجوز عند الأصوليين .

وكذلك اختلف هؤلاء ، هل يكتفى بقول واحد من القافة أو لا بُدّ من اثنين لأنها شهادة ؛ وبالأوّل قال ابن القاسم وهو ظاهر الخبر بل نصّه .

وبالثاني قال مالك والشافعيّ رضي الله عنهما .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ أي يسأل كل واحد منهم عما اكتسب ، فالفؤاد يسأل عما افتكر فيه واعتقده ، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع .

وقيل : المعنى أن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده ؛ ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم : "كلّكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته " فالإنسان راع على جوارحه ؛ فكأنه قال كل هذا كان الإنسان عنه مسؤولا ، فهو على حذف مضاف .

والمعنى الأول أبلغ في الحجة ؛ فإنه يقع تكذيبه من جوارحه ، وتلك غاية الخزي ؛ كما قال : ﴿ اليوم نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [ياس : 65] ، وقوله : ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت : 20] .

وعبّر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك لأنها حواس لها إدراك ، وجعلها في هذه الآية مسؤولة ، فهي حالة من يعقل ، فلذلك عبر عنها بأولئك .

(209/455)

وقال سيبويه رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ إنما قال : "رأيتهم" في نجوم ، لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعل مَن يعقل عبّر عنها بكناية مَن يعقل ؛ وقد تقدّم.

وحكى الزجاج أن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك ، وأنشد هو والطبري :

ذُمّ المنازل بعد منزلة اللِّوَى . . .

والعيش بعد أولئك الأيام

وهذا أمر يوقف عنده .

وأما البيت فالرواية فيه "الأقوام" والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(210/455)

وقال أبو حيان :

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدَّه ﴾

لما نهى عن إتلاف النفوس نهى عن أخذ الأموال كما قال : " فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم " لما كان اليتيم ضعيفاً عن أن يدفع عن ماله لصغره نص على النهي عن قربان ماله ، وتقدم تفسير هذه الآية في أواخر الأنعام .

﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ عام فيما عقده الإنسان بينه وبين ربه ، أو بينه وبين ربه ، أو بينه وبين آدمي في طاعة ﴿ إن العهد كان مسؤولاً ﴾ ظاهره أن العهد هو المسؤول من المعاهد أن يفي به ولا يضيعه أو يكون من باب التخييل ، كأنه يقال للعهد : لم نكثت ، فمثل كأنه ذات من الذوات تسأل لم نكثت دلالة على المطاوعة بنكثه وإلزام ما يترتب على نكثه ، كما جاء ﴿ وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت ﴾ فيمن قرأ بسكون اللام وكسر التاء التي للخطاب .

وقيل : هو على حذف مضاف أي إن ذا العهد كان مسؤولاً عنه إن لم يف به .

ثم أمر تعالى بإيفاء الكيل وبالوزن المستقيم ، وذلك مما يرجع إلى المعاملة بالأموال .

وفي قوله ﴿ وأوفوا الكيل ﴾ دلالة على أن الكيل هو على البائع لأنه لا يقال ذلك للمشتري .

وقال الحسن : ﴿ القسطاس ﴾ القبان وهو القلسطون ويقال القرسطون .

وقال مجاهد : ﴿ القسطاس ﴾ العدل لا أنه آلة .

وقرأ الإخوان وحفص بكسر القاف ، وباقي السبعة بضمها وهما لغتان .

وقرأت فرقة بالإبدال من السين الأولى صاداً .

قال ابن عطية : واللفظية للمبالغة من القسط انتهى .

ولا يجوز أن يكون من القسط لاختلاف المادتين لأن القسط مادته ق س ط ، وذلك مادته ق س ط س إلاّ إن اعتقد زيادة السين آخراً كسين قدموس وضغبوس وعرفاس ، فيمكن لكنه ليس من مواضع زيادة السين المقيسة والتقييد بقوله : ﴿ إذا كلتم ﴾ أي وقت كيلكم على سبيل التأكيد ، وأن لا يتأخر الإيفاء بأن يكيل به بنقصان مّا ثم يوفيه بعد فلا يتأخر الإيفاء عن وقت الكيل .

﴿ ذلك خير ﴾ أي الإيفاء والوزن لأن فيه تطييب النفوس بالاتسام بالعدل والإيصال للحق ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ أي عاقبة ، إذ لا يبقى على الموفى والوازن تبعة لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وهو من المآل وهو المرجع كما قال : خير مرداً ، خير عقباً ، خير أملاً وإنما

كانت عاقبته أحسن لأنه اشتهر بالاحتراز عن التطفيف ، فعوِّل عليه في المعاملات ومالت القلوب إليه .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) ﴾

لما أمر تعالى بثلاثة أشياء ، الإيفاء بالعهد ، والإيفاء بالكيل ، والوزن بالقسطاس المستقيم أتبع ذلك بثلاثة أمّناه : ﴿ ولا تقف ﴾ ﴿ ولا تمش ﴾ ﴿ ولا تجعل ﴾ .

ومعنى ﴿ ولا تقف ﴾ لا تتبع ما لا علم لك به من قول أو فعل ، نهى أن نقول ما لا نعلم وأن نعمل بما لا نعلم ، ويدخل فيه النهي عن اتباع التقليد لأنه اتباع بما لا يعلم صحته .

وقال ابن عباس : معناه لا ترم أحداً بما لا تعلم .

وقال قتادة لا تقل رأيت ولم تره وسمعت ولم تسمعه وعلمت ولم تعلمه .

وقال محمد بن الحنيفة : لا تشهد بالزور .

وقال ابن عطية : ولا تقل لكنها كلمة تستعمل في القذف والعضة انتهى .

وفي الحديث : " من قفا مؤمناً بما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال حتي يأتى بالمخرج "

وقال في الحديث أيضاً : " نحن بنو النضر بن كنانة لا تقفو منا ولا ننتفي من أبينا " ومنه قول النابغة الجعدي :

ومثل الدمى شم العرانين ساكن . . .

بهنّ الحيا لا يتبعن التقافيا

وقال الكميت

فلا أرمي البريء بغير ذنب . . .

ولا أقفو الحواضن إن قفينا

وحاصل هذا أنه نهى عن اتباع ما لا يكون معلوماً ، وهذه قضية كلية تندرج تحتها أنواع .

فكل من القائلين حمل على واحد من تلك الأنواع .

قال الزمخشري : وقد استدل به مبطل الاجتهاد ولم يصح لأن ذلك نوع من العلم ، وقد أقام الشرع غالب الظنّ مقام العلم وأمر بالعمل به انتهى .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولا تقف ﴾ بحذف الواو للجزم مضارع قفا .

وقرأ زيد بن عليّ ولا تقفو بإثبات الواو .

كما قال الشاعر :

هجوت زبان ثم جئت معتذراً . . .

من هجو زبان لم تهجو ولم تدع

وإثبات الواو والياء والألف مع الجازم لغة لبعض العرب وضرورة لغيرهم .

وقرأ معاذ القارىء : ﴿ ولا تقف ﴾ مثل تقل ، من قاف يقوف تقول العرب : قفت أثره وقفوت أثره وهما لغتان لوجود التصاريف فيهما كجبذ وجذب ، وقاع الجمل الناقة وقعاها إذا ركبها ، وليس قاف مقلوباً من قفا كما جوّزه صاحب اللوامح .

وقرأ الجرّاح العقيلي : ﴿ والفؤاد ﴾ بفتح الفاء والواو قلبت الهمزة واواً بعد الضمة في الفؤاد ثم استصحب القلب مع الفتح وهي لغة في ﴿ الفؤاد ﴾ وأنكرها أبو حاتم وغيره وبه لا تتعلق بعلم لأنه يتقدّم معموله عليه .

قال الحوفي : يتعلق بما تعلق به ﴿ لك ﴾ وهو الاستقرار وهو لا يظهر وفي قوله : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد ﴾ دليل على أن العلوم مستفادة من الحواس ومن العقول ، وجاء هذا على الترتيب القرآني في البداءة بالسمع ، ثم يليه البصر ، ثم يليه الفؤاد .

و﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى ﴿ السمع والبصر والفؤاد ﴾ وهو اسم إشارة للجمع المذكر والمؤنث العاقل وغيره .

وتخيل ابن عطية أنه يختص بالعاقل .

فقال : وعبر عن ﴿ السمع والبصر والفؤاد ﴾ بأولئك لأنها حواس لها إدراك ، وجعلها في هذه الآية مسؤولة فهي حالة من يعقل ، ولذلك عبر عنها بأولئك .

وقد قال سيبويه رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ إنما قال : رأيتهم في

نجوم لأنه إنما وصفها بالسجود وهو من فعل من يعقل عبر عنها بكناية من يعقل .

وحكى الزجّاج أن العرب تعبر عمن يعقل وعما لا يعقل بأولئك ، وأنشد هو والطبري :

ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى . . .

والعيش بعد أولئك الأيام

وأما حكاية أبي إسحاق عن اللغة فأمر يوقف عنده ، وأما البيت فالرواية فيه الأقوام

انتهى .

وليس ما تخيله صحيحاً ، والنحاة ينشدونه بعد أولئك الأيام ولم يكونوا لينشدوا إلاّ ما روي ، وإطلاق أولاء وأولاك وأولئك وأولالك على ما لا يعقل لا نعلم خلافاً فيه ، و﴿ كل ﴾ مبتدأ والجملة خبره ، واسم ﴿ كان ﴾ عائد على ﴿ كل ﴾ وكذا الضمير في ﴿ مسؤولاً ﴾ .

والضمير في ﴿ عنه ﴾ عائد على ما من قوله ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ فيكون المعنى أن كل واحد من ﴿ السمع والبصر والفؤاد ﴾ يسأل عما لا علم له به أي عن انتفاء ما لا علم له به .

وهذا الظاهر .

وقال الزجاج : يستشهد بها كما قال ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ﴾

وقال القرطبي في أحكامه : يسأل الفؤاد عما اعتقده ، والسمع عما سمع ، والبصر عما رأى .

وقال ابن عطية : إن الله تعالى يسأل سمع الإنسان وبصره وفؤاده عما قال مما لا علم له به ، فيقع تكذيبه من جوارحه وتلك غاية الخزي .

وقيل : الضمير في ﴿ كان ﴾ و ﴿ مسؤولاً ﴾ عائدان على القائف ما ليس له به علم ، والضمير في ﴿ عنه ﴾ عائد على ﴿ كل ﴾ فيكون ذلك من الالتفات إذ لو كان على الخطاب لكان التركيب كل أولئك كنت عنه مسؤولاً .

وقال الزمخشري : و ﴿ عنه ﴾ في موضع الرفع بالفاعلية ، أي كل واحد منها كان مسؤولاً عنه ، فمسؤول مسند إلى الجار والمجرور كالمغضوب في قوله ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ يقال للإنسان : لم سمعت ما لا يحل لك سماعه ؟ ولم نظرت ما لم يحل لك النظر إليه ؟ ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه ؟ انتهى .

وهذا الذي ذهب إليه من أن ﴿ عنه ﴾ في موضع الرفع بالفاعلية ، ويعني به أنه مفعول لم يسم فاعله لا يجوز لأن الجار والمجرور وما يقام مقام الفاعل من مفعول به ومصدر وظرف بشروطهما جار مجرى الفاعل ، فكما أن الفاعل لا يجوز تقديمه فكذلك ما جرى مجراه

وأقيم مقامه ، فإذا قلت غضب على زيد فلا يجوز على زيد غضب بخلاف غضبت على زيد فيجوز على زيد غضبت .

(214/455)

وقد حكي الاتفاق من النحويين على أنه لا يجوز تقديم الجار والمجرور الذي يقام مقام الفاعل على الفعل أبو جعفر النحاس ذكر ذلك في المقنع من تأليفه ، فليس ﴿ عنه مسؤولاً ﴾ كالمغضوب عليهم لتقدّم الجار والمجرور في ﴿ عنه مسؤولاً ﴾ وتأخيره في ﴿ المغضوب عليهم ﴾ وقول الزمخشري : ولم نظرت ما لم يحل لك أسقط إلى ، وهو لا يجوز إلاّ إن جاء في ضرورة شعر لأن نظر يتعدّى بإلى فكان التركيب ، ولم نظرت إلى ما لم يحل لك كما قال النظر إليه فعداه بإلى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(215/455)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم ﴾

نهيٌ عن قربانه لما ذكر من المبالغة في النهي عن التعرض له ومن إفضاء ذلك إليه وللتوسل إلى الاستثناء بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي إلا بالخَصلة والطريقة التي هي أحسنُ الخِصال والطرائق وهي حفظُه واستثماره ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ غايةٌ لجواز التصرف ِعلى الوجه الأحسن المدلول عليه بالاستثناء لا للوجه المذكور فقط ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِالْعَهْدِ ﴾ سواءٌ جرى بينكم وبين ربّكم أو بينكم وبين غيرِكم من الناس ، والإيفاءُ بالعهد والوفاءُ به هو القيامُ بمقتضاه والمحافظةُ عليه ولا يكاد يُستعمل إلا بالباء فرقاً بينه وبين الإيفاء الحسيّ كإيفاء الكيل والوزن ﴿ إِنَّ العهد ﴾ أُظهر في مقام الإضمارِ إظهاراً لكمال العنايةِ بشأنه ، أو لأن المرادَ مطلقُ العهد المنتظمِ للعهد المعهود ﴿ كَانَ مَسْـُٔولاً ﴾ أي مسؤولاً عنه على حذف الجارِّ وجعْلِ الضمير بعد انقلابه مرفوعاً مستكناً في اسم المفعولِ كقوله تعالى :

﴿ وذلك يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ أي مشهودٌ فيه ، ونظيرُه ما في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءايات الكتاب الحكيم ﴾ على أن أصلَه الحكيمُ قائلُه فحذف المضافُ وجُعل الضمير مستكناً في الحكيم بعد انقلابه مرفوعاً ، ويجوز أن يكون تخييلاً كأنه يقال للعهد : لِمَ نكثْتَ وهلاّ وفّى بك تبكيتاً للناكث كما يقال للموؤدة : بأي ذنبٍ قُتلت .

﴿ وَأَوْفُوا الكيل ﴾ أي أتموه ولا تُخسِروه ﴿ إذا كِلْتُمْ ﴾ أي وقت كيلِكم للمشترين وتقييدُ الأمر بذلك لما أن التطفيفَ هناك يكون وأما وقت الاكتيالِ على الناس فلا حاجة إلى الأمر بالتعديل قال تعالى : ﴿ إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ ﴾ الآية ﴿ وَزِنُواْ بالقسطاس ﴾ وهو القرسطون ، وقيل : كلُّ ميزان صغيراً كان أو كبيراً ، روميٌّ معرّب ولا يقدح ذلك في عربية القرآن لانتظام المعرَّبات في سلك الكلمِ العربية وقرىء بضم القاف ﴿ المستقيم ﴾ أي العدْلِ السويّ ولعل الاكتفاءَ باستقامته عن الأمر بإيفاء الوزن لما أن عند استقامتِه لا يتصور الجَوْرُ غالباً بخلاف الكيل فإنه كثيراً ما يقع التطفيفُ مع استقامة الآلة كما أن الاكتفاءَ بإيفاء الكيل عن الأمر بتعديله لما أن إيفاءَه لا يُتصوَّر بدون تعديل المكيالِ وقد أُمر بتقويمه أيضاً في قوله تعالى : ﴿ أَوْفُواْ الكيل والميزان بالقسط ﴾ ﴿ ذلك ﴾ أي إيفاءُ الكيلِ والوزن بالميزان السوي ﴿ خَيْرٌ ﴾ في الدينا إذ هو أمانةٌ توجب الرغبةَ في معاملته والذكرَ الجميلَ بين الناس ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ عاقبةً ، تفعيلٌ من آل إذا رجع والمرادُ ما يؤول إليه .

﴿ وَلاَ تَقْفُ ﴾ ولا تتبعْ من قفا أثرَه إذا تبعه ، وقرىء ولا تقُفْ من قاف أثرَه أي قفاه ، ومنه القافةُ في جمع القائف ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي لا تكن في اتباع ما لا علمَ لك به من قول أو فعل كمن يتّبعُ مسلكاً لا يدري أنه يوصله إلى مقصِده ، واحتج به من منع اتباعَ الظنِّ

وجوابُه أن المرادَ بالعلم هو الاعتقادُ الراجحُ المستفادُ من سند قطعياً كان أو ظنيًّا واستعمالُه بهذا المعنى مما لا يُنكَر شيوعُه ، وقيل : إنه مخصوصٌ بالعقائد ، وقيل : بالرمي وشهادةِ الزورِ ويؤيده قولُه عليه الصلاة والسلام : " مَنْ قفا مؤمناً بما ليس فيه حبَسه الله تعالى في رَدْغة الخَبال حتى يأتيَ بالمخرج " ومنه قول الكميت

ولا أرمي البريءَ بغير ذنب . . . ولا أقفو الحواصِنَ إن رُمينا

﴿ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد ﴾ وقرىء بفتح الفاءِ والواو المقلوبةِ من الهمزة عند ضم الفاء ﴿ كُلُّ أولئك ﴾ أي كلُّ واحد من تلك الأعضاءِ فأُجريت مُجرى العقلاءِ لما كانت مسؤولةً عن أحوالها شاهدةً على أصحابها . هذا وإن أولاء وإن غلب في العقلاء لكنه من حيث إنه اسمٌ لذا الذي يعُمّ القَبيلين جاء لغيرهم أيضاً قال

ذمَّ المَنازلَ بعد مَنزلَة اللّوى . . . والعيشَ بعدَ أولئكَ الأيامِ

﴿ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ أي كان كلٌّ من تلك الأعضاء مسؤولاً عن نفسه ، على أن اسمَ كان ضميرٌ يرجِعُ إلى كلَ وكذا الضميرُ المجرورُ ، وقد جُوّز أن يكون الاسمُ ضميرَ القافي بطريق الالتفات إذ الظاهرُ أن يقال : كنتَ عنه مسؤولاً ، وقيل : الجارُّ والمجرور في محل الرفع

قد أُسند إليه مسؤولاً معللاً بأن الجارَّ والمجرور لا يلتبس بالمبتدأ وهو السببُ في منع تقديمِ الفاعلِ وما يقوم مقامَه.

ولكن النحاسَ حكى الإجماعَ على عدم جواز تقديمِ القائم مقامَ الفاعل إذا كان جاراً ومجروراً، ويجوز أن يكون من باب الحذفِ على شريطة التفسيرِ، ويحذف الجارّ من المفسر ويعود الضميرُ مستكناً كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ وجُوّز أن يكون مسؤولاً مسنداً إلى المصدر المدلولِ عليه بالفعل وأن يكون فاعلُه المصدرَ وهو السؤالُ وعنه في محل النصب. وسأل ابن جني أبا علي عن قولهم: فيك يُرغب، وقال: لا يرتفع بما بعده، فأين المرفوع؟ فقال: المصدرُ أي فيك يُرغب الرغبة بمعنى تُفعل الرغبة، كما في قولهم: يُعطي ويمنع أي يفعل الإعطاء والمنع، وجُوز أن يكون اسمُ كان أو فاعله ضميرَ كلٌّ بحذف المضافِ أي كان صاحبه عنه مسؤولاً أو مسؤولاً صاحبُه. انتهى. ا هـ

﴿ تفسير أبي السعود حـ 5 صـ ﴾

(218/455)

وقال الآلوسي:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴾

نهى عن قربانه لما ذكر سابقاً من المبالغة في النهي عن التعرض له وللتوسل إلى الاستثناء بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي إلا بالخصلة والطريقة التي هي أحسن الخصال والطرائق وهي حفظه واستثماره ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ غاية لجواز التصرف على الوجه الأحسن المدلول عليه بالاستثناء لا للوجه المذكور فقط ، والأشد قيل جمع شد كالأضر جمع ضر والشد القوة وهو استحكام قوة الشباب والسن كما أن شد النهار ارتفاعه ، قال عنترة :

عهدي به شد النهار كأنما . . .

خضب البنان ورأسه بالعظلم

وقيل هو جمع شدة مثل نعمة وأنعم ، وقال بعض البصريين ، وهو واحد مثل الآنك : والمراد ببلوغه الأشد بلوغه إلى حيث يمكنه بسبب عقله ورشده القيام بمصالح ماله ثم التصرف بمال اليتيم بنحو الأكل على غير الوجه المأذون فيه من الكبائر ، وتردد ابن عبد السلام بتقييده بنصاب السرقة فقال في القواعد : قد نص الشرع على أن شهادة الزور وأكل مال اليتيم من الكبائر فإن وقعاً في مال خطير فهو ظاهر وإن وقعا في مال حقير كزبيبة وتمرة فيجوز أن يجعلا من الكبائر فطاما عن جنس هذه المفسدة كالقطرة من الخمر وإن لم تتحقق المفسدة ويجوز أن يضبط ذلك بنصاب السرقة اه .

وقد يفرق بينهما بأن في شهادة الزور مع الجراءة على انتهاك حرمة المال المعصوم جراءة على الكذب في الشهادة بخلاف القليل من مال اليتيم فلا يستبعد التقييد به بخلافها كذا قيل .

والحق إن الآيات والأخبار الواردة في وعيد أكل مال اليتيم مطلقة فتتناول القليل والكثير فلا يجوز تخصيصها إلا بدليل سمعي وحيث لا دليل كذلك فالتخصيص غير مقبول فالوجه أنه لا فرق بين أكل القليل وأكل الكثير في كونه كبيرة يستحق فاعله الوعيد الشديد ، نعم الشيء التافه الذي تقتضي العادة بالمسامحة به لا يبعد كون أكله ليس من الكبائر والله تعالى أعلم ، وقد توصل القضاة اليوم إلى أكل مال اليتيم في صورة حفظه عاملهم الله تعالى بعدله وأذاق خائنهم في الدارين جزاء فعله ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ ﴾ ما عاهدم الله تعالى عليه من التزام تكاليفه وما عاهدتم عليه غيركم من العباذ ويدخل في ذلك العقود .

وجوز أن يكون المراد ما عاهدكم الله تعالى عليك وكلفكم به ، والإيفاء بالعهد والوفاء به هو القيام بمقتضاه والمحافظة عليه وعدم نقضه واشتقاق ضده وهو الغدر يدل على ذل وهو الترك ولا يكاد يستعمل إلا بالباء فرقاً بين وبين الإيفاء الحسي كإيفاء الكيل والوزن ﴿ إِنَّ العهد ﴾ أظهر في مقام الإضمار إظهاراً لكمال العناية بشأنه وقيل دفعاً لتوهم عود

الضمير إلى الإيفاء المفهوم من ﴿ أَوْفُواْ ﴾ ﴿ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ أي مسؤولاً عنه على حذف الجار وجعل الضمير بعد انقلابه مرفوعاً مستكناً في اسم المفعول ويسمى الحذف والإيصال وهو شائع .

وجوز أن يكون الكلام على حذف مضاف أي إن صاب العهد كان مسؤولاً ، وقيل لا حذف أصلاً والكلام على التخييل كأنه يقال للعهد لم نكثت وهلا في بك تبكيتاً للناكث كما يقال للموؤدة ﴿ بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : 9] وقد يعتبر فيه الاستعارة المكنية والتخييلية ، وزعم بعضهم أنه يجوز أن يجعل العهد متمثلاً على هيئة من يتوجه عليه السؤال كما تجسم الحسنات والسيآت لتوزن .

(220/455)

وجوز أن يكون ﴿ مسؤلاً ﴾ بمعنى مطلوباً من سألت كذا إذا طلبت ، وإسناد المطلوبية إليه مجاز والمراد مطلوب عدم إضاعته ، ويجوز أن يكون في الكلام مضاف محذوف ارتفع الضمير واستتر بعد حذفه ، والأصل ما أشرنا إليه وقد سمعت آنفاً أن مثل ذلك شائع ، وليس في ذلك تعليل الشيء بنفسه فإن المآل إلى أن يقال : أوفوا بالعهد فإن عدم إضاعته لم تزل مطلوبة من كل أحد فتطلب منكم أيضاً ، ثم إن الإخلال بالوفاء بالعهد على ما تقتضيه

الأحاديث الصحيحة قيل كبيرة ، وقد جاء عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه عند من الكبائر نكث الصفقة أي الغدر بالمعاهد بل صرح شيخ الإسلام العلائي بأنه جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سماه كبيرة ، وقال بعض المحققين : إن في إطلاق كون الإخلال المذكور كبيرة نظراً بناء على أن العهد هو التكليفات الشرعية فإن من الإخلال ما يكون كبيرة ومنه ما يكون صغيرة وينظر في ذلك إلى حال المكلف به ، ولعل من قال : إن الإخلال بالعهد كبيرة أراد بالعهد مبايعة الإمام وبالإخلال بذلك نقض بيعته والخروج عليه لغير موجب ولا تأويل ولا شبه في أن ذلك كبيرة فليتأمل .

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ ﴾

(221/455)

أتموه ولا تخسروه ﴿ إِذا كِلْتُمْ ﴾ أي وقت كيلكم للمشترين ، وتقييد الأمر به لما أن التطفيف يكون هناك ، وإما وقت الاكتيال على الناس فلا حاجة إلى الأمر بالتعديل قال تعالى : ﴿ إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ ﴾ [المطففين : 2] الآية ﴿ وَزِنُواْ بالقسطاس ﴾ هو القبان على ما روى عن الضحاك ويقال له القرسطون بلغة أهل الشام كما قال الأزهري ، وقال الزجاج : والميزان صغيراً كان أو كبيراً من موازين الدراهم وغيرها ، وقال

الليث : هو أقوم الموازين ، وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أنه العدل ، وعن الحسن أنه الحديد وهو رمي معرب كما قال ابن دريد لفقد مادته في العربية ، وقيل : إنه عربي وروى القول بتعريبه وأنه الميزان في اللغة الرومية عن ابن جبير وجماعة ، وقيل : هو مركب من كلمتين القسط وهو العدل وطاس وهو كفة الميزان لكنه حذف أحد الطائين لأن التركيب محل تخفيف وهو كما ترى ، وعلى القول بأنه رومي معرب وهو الصحيح لا يقدح استعماله في القرآن في عربيته المذكورة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف : 2] لأنه بعد التعريب والسماع في فصيح الكلام يصير عربياً فلا حاجة إلى إنكار تعريبه أو ادعاء التغليب أو أن المراد عربي الأسلوب .

وقد قرأه الكوفيون بكسر القاف والباقون بضمها ، وقد تبدل السين الأولى صاداً كما أبدلت الصاد سيناً في الصراط .

﴿ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي العدل السوي ، وهو يبعد تفسير القسطاس بالعدل ، ولعل الاكتفاء باستقامته عن الأمر بإيفاء الوزن كما قال شيخ ازسلام لما أن عند استقامته لا يتصور الجور غالباً بخلاف الكيل فإنه كثيرما يقع التطفيف مع استقامة الآلة كما أن الاكتفاء بإيفاء الكيل

عن الأمر بتعديله لما أن إيفاءه لا يتصور بدون تعديل المكيال وقد أمر بتقويمه أيضاً في قوله تعالى : ﴿ أَوْفُوا المكيال والميزان بالقسط ﴾ [هود : 85] ﴿ ذلك ﴾ أي إيفاء الكيل والوزن بالقسطاط المستقيم ﴿ خَيْرٌ ﴾ في الدنيا لأنه سبب لرغبة الناس في معاملة فاعله وجلب الثناء الجميل عليه ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ أي عاقبة لما يترتب عليه من الثواب في الآخرة ، والتأويل تفعيل من آل إذا رجع وأصله رجوع الشيء إلى الغاية المرادة منه علماً كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ﴾ [آل عمران : 7] أو فعلاً كما في قوله سبحانه ﴿ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ ﴾ [الأعراف : 53] وقول الشاعر :

وللنوي قبل يوم البين تأويل . . .

وقيل : المراد ذلك خير في نفسه لأنه أمانة وهي صفة كمال وأحسن عاقبة في الدنيا لأنه سبب لميل القلوب والرغبة في المعاملة والذكر الجميل بين الناس ويفضي ذلك إلى الغنى وفي الآخرة لأنه سبب للخلاص من العذاب والفوز بالثواب ، وقيل : أحسن تأويلاً أي أحسن معنى وترجمة ، ثم إن إيفاء الكيل والوزن واجب إجماعاً ونقص ذلك من الكبائر مطلقاً على ما يقتضيه الوعيد الشديد لفاعله الوارد في الآيات والأحاديث الصحيحة ولا فرق بين القليل والكثير ، نعم قال بعضهم : إن التطفيف بالشيء التافه الذي يسامح به أكثر الناس ينبغي أن يكون صغيرة ، فإن قلت ذكروا في الغصب أن غصب ما دون ربع دينار لا يكون

كبيرة وقضيته أن يكون التطفيف كذلك قلت قيل ذلك مشكل فلا يقاس عليه بل حكى الإجماع على خلافه .

(223/455)

وقال الأذرعي إنه تحديد لا مستند له انتهى ، وعلى التنزيل فقد يفرق بأن الغصب ليس مما يدعو قليله إلى كثيره لأنه إنما يكون على سبيل القهر والغلبة بخلاف التطفيف فتعين التنفير عنه بأن كلاًّ من قليله وكثيره كبيرة أخذاً مما قالوه في شرب القطرة من الخمر من أنه كبيرة وأن لم يوجد فيها مفسدة الخمر لأن قليله يدعو إلى كثيره ، ومثل التطفيف في الكيل والوزن النقص في الذرع ولا يكاد يسلم كيال أو وزان أو ذراع في هذه الأعصار من نقص الأمن عصمه الله تعالى .

﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ ولا تتبع ، وأصل معنى قفا اتبع قفاه ثم استعمل في مطلق الاتباع وصار حقيقة فيه .

وقرىء ﴿ وَلَا ﴾ بإثبات حرف العلة مع الجازم وهو شاذ ، وقرىء أيضاً ﴿ تَأْوِيلاً وَلَا تَقْفُ ﴾ بضم القاف وسكون الفاء كتقل على أنه أجوف مجزوم بالسكون وماضيه قاف يقال قاف أثره يقوفه إذا قصده واتبعه ومنه القيافة وأصلها ما يعلم من الإقدام وأثرها ، وعن

أبي عبيدة أن قاف مقلوب قفا كجذب وجبذ .

وتعقب بأن الصحيح خلافه .

﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي لا تتبع ما لا علم لك به من قول أو فعل ، وحاصله يرجع إلى

النهي عن الحكم بما لا يكون معلوماً ويندرج في ذلك أمور .

وكل من المفسرين اقتصر على شيء فقيل المراد نهي المشركين عن القول في الإلهيات

والنبوات تقليداً للإسلاف واتباعاً للهوى ، وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

عن محمد بن الحنفية أن المراد النهي عن شهادة الزور ، وقيل : المراد النهي عن القذف

ورمي المحصنين والمحصنات ، ومن ذلك قول الكميت :

ولا أرمي البري بغير ذنب . . .

ولا اقفوا لحواصن أن رمينا

وروى البيهقي في شعب الإيمان .

وأبو نعيم في الحلية من حديث معاذ بن أنس " من قفا مؤمناً بما ليس فيه يريد شينه به حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال " وقيل : المراد النهي عن الكذب ، أخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أنه قال في الآية : لا تقل سمعت ولم تسمع ورأيت ولم تر ، واختار الإمام العموم قال : إن اللفظ عام يتناول الكل فلا معنى للتقييد ، واحتج بالآية نفاة القياس لأنه قفو للظن وحكم به .

وأجيب بانهم أجمعوا على الحكم بالظن والعمل به في صور كثيرة فمن ذلك الثلاة على الميت ودفنه في مقابر المسلمين وتوريث المسلم منه بناء على أنه مسلم وهو مظنون والتوجه إلى القبلة في الصلاة وهو مبني على الاجتهاد بإمارات لا تفيد إلا الظن وأكل الذبيحة بناء على أنها دبيحة مسلم وهو مظمنون والشهادة فإنها ظنية وقيم المتلفات واروش الجنايات فإنها لا سبيل إليها الا الظن ، ومن نظر ولو بمؤخر العين رأى أن جميع الأعمال المعتبرة في الدنيا من الأسفار وطلب الأرباح والمعاملات إلى الآجل المخصوصة والاعتماد على صداقة الأصدقاء وعداوة الأعداء كلها مظنونة وقد قال صلى الله عليه وسلم : " نحن نحكم بالظاهر والله تعالى يتولى السرائر " فالنهي عن اتباع ما ليس بعلم قطعي مخصوص بالعقائد وبأن الظن قد يسمى علماً كما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن اللهُ أَعْلَمُ بإيمانهن فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مؤمنات فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار ﴾ [الممتحنة : 10] فإن العلم بإيمانهن إنما يكون بإقرارهن وهو لا يفيد إلا الظن ، وبأن

الدليل القاطع لما دل على وجوب العمل بالقياس كان ذلك الدليل دليلاً على أنه متى حصل ظن أن حكم الله تعالى في هذه الصورة يساوي حكمه في محل النص فانتم مكلفون بالعلم على وفق ذلك الظن فههنا الظن واقع في طريق الحكم وأما ذلك الحكم فهو معلوم متيقن .

وأجاب النفاة عن الأول بأن قوله تعالى : ﴿ لا تَقْفُ ﴾ الآية عام دخله التخصيص فيما يذكرون فيه العمل بالظن فيبقى العموم فيما وراءه على أن بين ما يذكرونه من الصور وبين محل النزاع فرقاً لأن الأحكام المتعلقة بالأول مختصة باشخاص معينين في أوقات معينة فالتنصيص على ذلك متعذر فاكتفى بالظن للضرورة بخلاف الثاني فإن الأحكام المثبتة بالأقيسة كلية معتبرة في وقائع كلية وهي مضبوطة والتنصيص عليها ممكن فلم يجز الاكتفاء فيها بالظن ، وعن الثاني بأن المغايرة بين العلم والظن مما لا شبهة فيه ويدل عليها قوله تعالى : ﴿ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظن ﴾ [الأنعام : 148] والمؤمن هو المقر وذلك الإقرار هو العلم فليس في الآية تسمية الظن علماً ، وعن الثالث بأنه إنما يتم لو ثبت حجية القياس بدليل قاطع وليس فليس ، واحسن ما يمكن أن يقال في الجواب على ما قال الإمام أن التمسك بالآية تمسك بعام مخصوص وهو لا يفيد إلا الظن فلو دلت على أن

التمسك بالظن غير جائز لدلت على أن التمسك بها غير جائز فالقول بحجيتها يفضي إلى نفيه وهو باطل ، وللمجيب أن يقول : نعلم بالتواتر الظاهر من دين النبي صلى الله عليه وسلم أن التمسك بآيات القرآن حجة في الشريعة ، ويمكن أن يجاب عن هذا بأن كون العام المخصوص حجة غير معلوم بالتواتر فتأمل ﴿ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك ﴾ أي كل هذه الأعضاء وأشير إليها بأولئك على القول بأنها مختصة بالعقلاء تنزيلاً لها منزلتهم لما كانت مسؤولة عن أحوالها شاهدة على أصحابها .

وقال بعضهم : إنها غالبة في العقلاء وجاءت لغيرهم من حيث أنها اسم جمع لذا وهو يعم القبيلين ومن ذلك قول جرير على ما رواه غير واحد :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى . . .

والعيش بعد أولئك الأيام

(226/455)

وعلى هذا لا حاجة إلى التنزيل وارتكاب الاستعارة فيما تقدم ﴿ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ كل الضمائر ﴿ كُلُّ ﴾ أي كان كل من ذلك مسؤولاً عن نفسه فيقال له : هل استعملك صاحبك فيما خلقت له أم لا ؟ وذلك بعد جعله أهلا للخطاب والسؤال .

وجوز أن يكون ضمير ﴿ عَنْهُ ﴾ لكل وما عداه للقافي فهناك التفات إذ الظاهر كنت عنه مسؤولاً .

وقال الزمخشري : ﴿ عَنْهُ ﴾ نائب فاعل ﴿ مَسْؤُولاً ﴾ فهو مسند إليه ولا ضمير فيه نحو دغير المغضوب عليهم ﴾ .

ورده أبو البقاء وغيره بأن القائم مقام الفاعل حكمه حكمه في أنه لا يجوز تقدمه على عامله كأصله .

وذكر أنه حكى ابن النحاس الإجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل إذا كان جاراً ومجروراً فليس ذلك نظير ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ [الفاتحة : 7] ورده أبو البقاء وغيره بأن القائم مقام الفاعل حكمه حكمه في أنه لا يجوز تقدمه على عامله كأصله .

وذكر أنه حكى ابن النحاس الإجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل إذا كان جاراً ومجروراً فليس ذلك نظير ﴿ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِمْ ﴾ وليس لقائل أن يقول : إنه على رأي الكوفيين في تجويزهم تقديم الفاعل إلا أن ينازع في صحة الحكاية ، ونقل عن صاحب التقريب أنه إنما جاز تقديم ﴿ عَنْهُ ﴾ مع أنه فاعل لمحا لاصالة ظرفيته لا لعروض فاعليته ولأن الفاعل لا يتقدم لالتباسه بالمبتدأ والا التباس ههنا ولأنه ليس بفاعل حقيقة اه .

والانصاف أنه مع هذا لا يقال لما ذهب إليه شيخ العربية إنه غلط .

وذكر في شرح نحو المفتاح أنه مرتفع بمضمر يفسره الظاهر ، وجوز إخلاء المفسر عن الفاعل

إذا لم يكن فعلا معللا باصالة الفعل في رفع الفاعل فلا يجوز خلوه عنه بخلاف اسمي الفاعل والمفعول تشبيهاً بالجوامد .

(227/455)

وتعقبه في الكشف بأن فيه نظراً نقلاً وقياسا ؛ أما الأول فلتفرده به ، وأما الثاني فلأن الاحتياج إليه من حيث أنه إذا جرى على شيء لا بد من عائد إليه ليرتبط به ويكون هو الذات القائم هو بها إن كان فاعلا أو لابساً لتلك الذات وليس كالجوامد في ارتباطها بالسوابق بنفس الحمل لأنها لا تدل على معنى متعلق بذات فالوجه أن يقال حذف الجار واستتر الضمير بعده في الصفة ، وقد سمعت عن قرب أن هذا من باب الحذف والإيصال وأنه شائع ، وجوز أن يكون مرفوع ﴿ مَسْؤُولاً ﴾ المصدر وهو السؤال و ﴿ عَنْهُ ﴾ في محل النصب .

وسأل ابن جنى أبا علي عن قولهم : فيك يرغب وقال لا يرتفع بما بعده فأين المرفوع ؟ فقال : المصدر أي فيك يرغب الرغب بمعنى تفعل الرغبة كما في قولهم : يعطي ، يمنع أي يفعل الإعطاء والمنع ، وجوز أن يكون اسم كان أو فاعله ضمير ﴿ كُلُّ ﴾ محذوف المضاف أي كان صاحبه عنه مسؤولاً أو كان عنه مسؤولاً صاحبه فيقال له لم استعملت السمع فيما لا

يحل ولم صرفت البصر إلى كذا والفؤاد إلى كذا ؟ وقرأ الجراح العقيلي ﴿ والفواد ﴾ بفتح الفاء وإبدال الهمزة واواً ، وتوجيهها أنه أبدلت الهمزة واواً لوقوعها مع ضمة في المشهور ثم فتحت الفاء تخفيفاً وهي لغة في ذلك ، ولا عبرة بإنكار أبي حاتم لها ، واستدل بالآية على أن العبد يؤاخذ بفعل القلب كالتصميم على المعصية والأدواء القلبية كالحقد والحسد والعجب وغير ذلك نعم صرحوا بأن الهم بالمعصية من غير تصميم لا يؤاخذ به للخبر الصحيح في ذلك ثم إن اتباع الظن يكون كبيرة ويكون صغيرة حسب أنواعه وأصنافها ومنه ما هو أكبر الكبائر كما لا يخفى نسأل الله تعالى أن يعصمنا عن جميع ذلك . انتهى ا . هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(228/455)

وقال القاسمى :

﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

أي : لا تتصرفوا في ماله إلا بالطريقة التي هي أحسن ، وهي حفظه عليه وتثميره وإصلاحه . وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ غاية جواز التصرف على الوجه الحسن ، أي : حتى يبلغ وقت اشتداده في العقل وتدبير ماله وصلاح حاله في دينه : ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ ﴾

أي : العقد الذي تعاقدون به الناس في الصلح بين أهل الحرب والإسلام ، وفيما بينكم أيضاً . والبيوع والأشربة والإجارات ونحوها : ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ أي : مطلوباً ، يطلب من المعاهد الثبات عليه ، وعدم إضاعته . أو : صاحبه مسؤول عن نقضه إياه .

والمعنى : لا تنقضوا العهود الجائزة بينكم وبين من عاهدتموهم ، فتخفروها وتغدروا بمن أعطيتموه إياها .

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ أي : أتموه إذا كلتم لغيركم ولا تبخسوه : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أي : بالميزان السوي ؛ بلا اعوجاج ولا خديعة : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ أي : لكم في معاشكم لانتظام أموركم بالعدل ، وإيفاء الحقوق أربابها : ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ أي : عاقبة ومآلاً ؛ إذ ليس معه مظلمة يطالب بها يوم القيامة . ثم أمر تعالى برعاية القسطاس المعنوي .

﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي : لا تتبعه في قول أو فعل ، تسنده إلى سمع أو بصر أو عقل . من : (قفا أثره) إذا تبعه .

قال الزمخشري : والمراد النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، وأن يعمل بما لا يعلم . ويدخل

فيه النهي عن التقليد دخولاً ظاهراً ؛ لأنه إتباع لما لا يعلم صحته من فساده . انتهى .

ولا يخفى ما يندرج تحت هذه الآية من أنواع كثيرة . كمذاهب الجاهلية في الإلهيات والتحريم والتحليل ، وكشهادة الزور ، والقذف ، ورمي المحصنات الغافلات ، والكذب ، وما شاكلها : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ أي : كان صاحبها مسؤولاً عما نسب إليها يوم القيامة . أو تُسأل نفس الأعضاء لتشهد على صاحبها .

قال المهايمي : قدم السمع ؛ لأن أكثر ما ينسب الناس أقوالهم إليه . وأخر الفؤاد ؛ لأنه منتهى الحواس . ولم يذكر بقيتها ؛ لأنه لا يخالفها قول أو فعل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 479 . 480 ﴾

(230/455)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾

هذا من أهم الوصايا التي أوصى الله بها في هذه الآيات ، لأن العرب في الجاهلية كانوا يستحلون أموال اليتامى لضعفهم عن التفطن لمن يأكل أموالهم وقلة نصيرهم لإيصال حقوقهم

، فحذر الله المسلمين من ذلك لإزالة ما عسى أن يبقى في نفوسهم من أثر من تلك الجاهلية .

وقد تقدم القول في نظير هذه الآية في سورة الأنعام .

وهذه الوصية العاشرة .

والقول في الإتيان بضمير الجماعة المخاطبين كالقول في سابقيه لأن المنهي عنه من أحوال أهل الجاهلية .

أمروا بالوفاء بالعهد .

والتعريف في ﴿ العهد ﴾ للجنس المفيد للاستغراق يشمل العهد الذي عاهدوا عليه النبي ، وهو البيعة على الإيمان والنصر .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وإوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾ في سورة النحل (91) وقوله : ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ في سورة الأنعام (152 .

(وهذا التشريع من أصول حرمة الأمة في نظر الأمم والثقة بها للانزواء تحت سلطانها .

وقد مضى القول فيه في سورة الأنعام .

والجملة معطوفة على التي قبلها .

وهي من عداد ما وقع بعد (أن) التفسيرية من قوله : ﴿ ألا تعبدوا ﴾ الآيات [الإسراء : 23] .

وهي الوصية الحادية عشرة .

وجملة إن العهد كان مسؤولا ﴾ تعليل للأمر، أي للإيجاب الذي اقتضاه، وإعادة لفظ ﴿ العهد ﴾ في مقام إضماره للاهتمام به، ولتكون هذه الجملة مستقلة فتسري مسرى المثل.

وحُذف متعلق ﴿ مسؤولا ﴾ لظهوره، أي مسؤولاً عنه، أي يسألكم الله عنه يوم القيامة.

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) ﴾

هذان حكمان هما الثاني عشر والثالث عشر من الوصايا التي قضى الله بها.

وتقدم القول في نظيره في سورة الأنعام.

(231/455)

وزيادة الظرف في هذه الآية وهو ﴿ إذا كلتم ﴾ دون ذكر نظيره في آية الأنعام لما في (إذا) من معنى الشرطية فتقتضي تجدد ما تضمنه الأمر في جميع أزمنة حصول مضمون شرط (إذا) الظرفية الشرطية للتنبيه على عدم التسامح في شيء من نقص الكيل عند كل مباشرة له.

ذلك أن هذا خطاب للمسلمين بخلاف آية الأنعام فإن مضمونها تعريض بالمشركين في سوء شرائعهم وكانت هنا أجدر بالمبالغة في التشريع.

وفعل (كال) يدل على أن فاعله مباشرُ الكيل ، فهو الذي يدفع الشيء المكيل ، وهو بمنزلة البائع ، ويقال للذي يقبض الشيء المكيل : مكتال .

وهو من أخوات باع وابتاع ، وشرى واشترى ، ورهن وارتهن ، قال تعالى : ﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ [المطففين : 2 ، 3] .

والقُسطاس بضم القاف في قراءة الجمهور .

وقرأه بالكسر حفص ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف .

وهما لغتان فيه ، وهو اسم للميزان أي آلة الوزن ، واسم للعدل ، قيل : هو معرب من الرومية مركب من كلمتين قسط ، أي عدل ، وطاس وهوَ كفة الميزان .

وفي صحيح البخاري ﴿ "وقال مجاهد : القُسطاس : العدل بالرومية" .

ولعل كلمة قسط اختصار لقسطاس لأن غالب الكلمات الرومية تنتهي بحرف السين .

وأصله في الرومية مضموم الحرف الأول وإنما غيَّره العرب بالكسر على وجه الجواز لأنهم لا يتحرون في ضبط الكلمات الأعجمية .

ومن أمثالهم "أعجمي فالعَب به ما شئت" .

ومعنى العدل والميزان صالحان هنا ، لكن التي في الأنعام جاء فيها ﴿ بالقِسط ﴾ فهو العدل لأنها سيقت مساق التذكير للمشركين بما هم عليه من المفاسد فناسب أن يذكروا بالعدل ليعلموا أن ما يفعلونه ظلم .

والباء هنالك للملابسة .

وهذه الآية جاءت خطاباً للمسلمين فكانت أجدر باللفظ الصالح لمعنى آلة الوزن ، لأن شأن التشريع بيان تحديد العمل مع كونه يومىء إلى معنى العدل على استعمال المشترك في معنييه .

(232/455)

فالباء هنا ظاهرة في معنى الاستعانة والآلة ، ومفيدة للملابسة أيضاً .

والمستقيم : السوي ، مشتق من القَوام بفتح القاف وهو اعتدال الذات .

يقال : قومته فاستقام .

ووصف الميزان به ظاهر .

وأما العدل فهو وصف له كاشف لأن العدل كله استقامة .

وجملة ﴿ ذلك خير ﴾ مستأنفة .

والإشارة إلى المذكور وهو الكيل والوزن المستفاد من فعلي ﴿ كلتم ﴾ و ﴿ زنوا ﴾ .

و﴿ خير ﴾ تفضيل ، أي خير من التطفيف ، أي خير لكم .

فضل على التطفيف تفضيلاً لخير الآخرة الحاصل من ثواب الامتثال على خير الدنيا

الحاصل من الاستفضال الذي يطففه المطفف ، وهو أيضاً أفضل منه في الدنيا لأن انشراح النفس الحاصل للمرء من الإنصاف في الحق أفضل من الارتياح الحاصل له باستفضال شيء من المال .

والتأويل : تفعيل من الأول ، وهو الرجوع .

يقال : أَوّلَه إذا أرجعه ، أي أحسن إرجاعاً ، إذا أرجعه المتأمل إلى مراجعه وعواقبه ، لأن الإنسان عند التأمل يكون كالمتنقل بماهية الشيء في مواقع الأحوال من الصلاح والفساد فإذا كانت الماهية صلاحاً استقر رأي المتأمل على ما فيها من الصلاح ، فكأنه أرجعها بعد التطواف إلى مكانها الصالح بها وهو مقرها ، فأطلق على استقرار الرأي بعد التأمل اسم التأويل على طريقة التمثيل ، وشاع ذلك حتى ساوى الحقيقة .

ومعنى كون ذلك أحسنَ تأويلاً : أن النظر إذا جال في منافع التطفيف في الكيل والوزن وفي مضار الإيفاء فيهما ثم عاد فجال في مضار التطفيف ومنافع الإيفاء استقر وآل إلى أن الإيفاء بهما خير من التطفيف ، لأن التطفيف يعود على المطفف باقتناء جزء قليل من المال ويكسبه الكراهية والذم عند الناس وغضب الله والسحتَ في ماله مع احتقار نفسه في نفسه ، والإيفاء بعكس ذلك يكسبه ميل الناس إليه ورضَى الله عنه ورضاه عن نفسه والبركة في ماله فهو أحسن تأويلاً .

وتقدم ذكر التأويل بمعانيه في المقدمة الأولى من مقدمات هذا التفسير .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) ﴾

القفو: الاتباع، يقال: قَفَاه يقفوه إذا اتبعه، وهو مشتق من اسم القفا ، وهو ما وراء العُنق.

واستعير هذا الفعل هنا للعمل.

والمراد بـ ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ الخاطر النفساني الذي لا دليل عليه ولا غلبة ظن به.

ويندرج تحت هذا أنواع كثيرة.

منها خلةٌ من خلال الجاهلية، وهي الطعن في أنساب الناس، فكانوا يرمون النساء برجال ليسوا بأزواجهن، ويليطون بعض الأولاد بغير آبائهم بهتاناً، أو سوءَ ظن إذا رأوا بعداً في الشبه بين الابن وأبيه أو رأوا شَبَهه برجل آخر من الحي أو رأوا لوناً مخالفاً للون الأب أو الأم، تخرصاً وجهلاً بأسباب التشكل، فإن النسل ينزع في الشبه وفي اللون إلى أصول من سلسلة الآباء أو الأمهات الأدنَيْن أو الأبعدِين، وجهلا بالشبه الناشىء عن الوحَم.

وقد جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن امرأتي ولدت ولداً أسودَ (يريد أن ينتفي منه) فقال له النبي: " هل لك من إبل؟ قال: نعم.

قال : ما ألوانهن ؟ قال : وُرْق .

قال : وهل فيها من جمل أسود ؟ قال : نعم .

قال : فمن أين ذلك ؟ قال : لعله عِرق نزَعَه .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم فلعل ابنك نزعه عِرق " ، ونهاه عن الانتفاء منه .

فهذا كان شائعاً في مجتمعات الجاهلية فنهى الله المسلمين عن ذلك .

ومنها القذف بالزنى وغيره من المساوي بدون مشاهدة ، وربما رموا الجيرة من الرجال والنساء بذلك .

وكذلك كان عملهم إذا غاب زوج المرأة لم يلبثوا أن يلصقوا بها تهمة ببعض جيرتها ، وكذلك يصنعون إذا تزوج منهم شيخ مُسِنٌّ امرأة شابة أو نصفاً فولدت له ألصقوا الولد ببعض الجيرة .

ولذلك لمّا قال النبي صلى الله عليه وسلم يوماً "سلوني" أكثر الحاضرون أن يسأل الرجل فيقول : مَن أبي ؟ فيقول : أبوك فلان .

وكان العرب في الجاهلية يطعنون في نسب أسامة بن زيد من أبيه زيد بن حارثة لأن أسامة كان أسود اللون وكان زيد أبوه أبيض أزهر ، وقد أثبت النبي صلى الله عليه وسلم أن أسامة بن زيد بن حارثة .

فهذا خلق باطل كان متفشياً في الجاهلية نهى الله المسلمين عن سوء أثره .

ومنها تجنب الكذب .

قال قتادة : لا تقف : لا تقل : رأيتُ وأنتَ لم تر ، ولا سمعتُ وأنت لم تسمع ، وعلمت وأنت لم تعلم .

ومنها شهادة الزور وشملها هذا النهي ، وبذلك فسر محمد بن الحنفية وجماعة .

وما يشهد لإرادة جميع هذه المعاني تعليل النهي بجملة ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ .

فموقع الجملة موقع تعليل ، أي أنك أيها الإنسان تُسأل عما تسنده إلى سمعك وبصرك وعقلك بأن مراجع القفو المنهي عنه إلى نسبة لسمع أو بصر أو عقل في المسموعات والمبصرات والمعتقدات .

وهذا أدب خُلقي عظيم ، وهو أيضاً إصلاح عقلي جليل يعلم الأمة التفرقة بين مراتب الخواطر العقلية بحيث لا يختلط عندها المعلوم والمظنون والموهوم .

ثم هو أيضاً إصلاح اجتماعي جليل يجنب الأمة من الوقوع والإيقاع في الأضرار والمهالك من

جراء الاستناد إلى أدلة موهومة.

وقد صيغت جملة ﴿ كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ على هذا النظم بتقديم (كل) الدالة على الإحاطة من أول الأمر.

وأتي باسم الإشارة دون الضمير بأن يقال: كلها كان عنه مسؤولاً، لما في الإشارة من زيادة التمييز.

وأقحم فعل (كان) لدلالته على رسوخ الخبر كما تقدم غير مرة.

و﴿ عنه ﴾ جار ومجرور في موضع النائب عن الفاعل لاسم المفعول، كقوله: ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ [الفاتحة: 7].

وقدم عليه للاهتمام، وللرعي على الفاصلة.

والتقدير: كان مسؤولاً عنه، كما تقول: كان مسؤولاً زيد.

ولا ضير في تقديم المجرور الذي هو في رتبة نائب الفاعل وإن كان تقديم نائب الفاعل ممنوعاً لتوسع العرب في الظروف والمجرورات، ولأن تقديم نائب الفاعل الصريح يصيّره مبتدأ ولا يصلح أن يكون المجرور مبتدأ فاندفع مانع التقديم.

والمعنى : كلّ السمع والبصر والفؤاد كان مسؤولاً عن نفسه ، ومحقوقاً بأن يبين مستند صاحبه من حسه .

والسؤال : كناية عن المؤاخذة بالتقصير وتجاوز الحق ، كقول كعب :

وقيلَ إنك منسوب ومَسؤول

أي مؤاخذ بما اقترفت من هجو النبي والمسلمين .

وهو في الآية كناية بمرتبة أخرى عن مؤاخذة صاحب السمع والبصر والفؤاد بكذبه على حواسه .

وليس هو بمجاز عقلي لمنافاة اعتباره هنا تأكيدَ الإسناد بـ (إن) وب (كل) وملاحظة اسم الإشارة و (كان) .

وهذ المعنى كقوله : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ [النّور : 24] أي يسأل السمع : هل سمعت ؟ فيقول : لم أسمع ، فيؤاخذ صاحبه بأن أسند إليه ما لم يبلِّغه إياه وهكذا .

والاسم الإشارة بقوله : أولئك ﴾ يعود إلى السمع والبصر والفؤاد وهو من استعمال اسم الإشارة الغالب استعماله للعامل في غير العاقل تنزيلاً لتلك الحواس منزلة العقلاء لأنها جديرة بذلك إذ هي طريق العقل والعقل نفسه .

على أن استعمال (أولئك) لغير العقلاء استعمال مشهور قيل هو استعمال حقيقي أو لأن

هذا المجاز غلب حتى ساوى الحقيقة ، قال تعالى : ﴿ ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض ﴾ [الإسراء : 102] وقال :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى

والعيش بعد أولئك الأيام . . .

وفيه تجريد الإسناد مسؤولا ﴾ إلى تلك الأشياء بأن المقصود سؤال أصحابها ، وهو من نكت بلاغة القرآن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(236/455)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) ﴾

نهى جل علا في هذه الآية الكريمة عن اتباع الإنسان ما ليس له به علم . ويشمل ذلك قوله : رايت ولم ير ، وسمعت ولم يسمع ، وعلمت ولم يعلم . ويدخل فيه كل قول بلا علم – وأن يعمل الإنسان بما لا يعلم . وقد اشار جل وعلا إلى هذا المعنى في آيات أخر . كقوله : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بالسوء والفحشآء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 169]

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإثم والبغي بِغَيْرِ الحق وَأَن تُشْرِكُواْ بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 33]، وقوله: ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مِّنَ الظن إِنَّ بَعْضَ الظن إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: 12] الآية، وقوله: ﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: 59]، وقوله: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ [النجم: 28] وقوله: ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتباع الظن ﴾ [النساء: 157]، والآيات بمثل هذا في ذم اتباع غير العلم المنهي عنه في هذه الآية الكريمة كثيرة جداً. وفي الحديث: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث".

تنبيه

أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية الكريمة منع التقليد، قالوا: لأنه اتباع غير العلم.

(237/455)

قال مقيده عفا الله عنه: لا شك أن التقليد الأعمى الذي ذم الله به الكفار في آيات من كتابه تدل على هذه الآية وغيرها من الآيات على منعه، وكفر متبعه. كقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَآ أَنزَلَ الله قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ

يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 170]، وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرسول قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: 104]، وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السعير ﴾ [لقمان: 21]، وقوله: ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ قَلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ [الزخرف: 21–24]، وقوله: ﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [إبراهيم: 10] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

(238/455)

أما استدلال بعض الظاهرية كابن حزم ومن تبعه بهذه الآية التي نحن بصددها وأمثالها من الآيات – على منع الاجتهاد في الشرع مطلقاً، وتضليل القائل به، ومنه التقليد من أصله، فهو من وضع القرآن في غير موضعه، وتفسيره بغير معناه، كما هو كثير في الظاهرية، لأن مشروعية سؤال الجاهل للعامل وعمله بفتياه أمر معلوم من الدين بالضرورة.

ومعلوم أنه كان العامي يسأل بعض أصحاب النّبي صلى الله عليه وسلم فيفتيه فيعمل بفتياه ، ولم ينكر ذلك أحد من المسلمين . كما أنه من المعلوم أن المسألة أن لم يوجد فيها نص من كتاب الله أو سنة نبيّه صلى الله عليه وسلم . فاجتهاد العالم حينئذ بقدر طاقته في تفهم كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ليعرف حكم المسكوت عنه من النطوق به – لا وجه لمنعه ، وكان جارياً بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينكره أحد من المسلمين . وسنوضح غاية الإيضاح إن شاء الله تعالى " في سورة الأنبياء ، والحشر " مسألة الاجتهاد في الشرع ، واستنباط حكم المسكوت عنه من المنطوبه بإلحاقه به قياساً كان الإلحاق أو غيره . ونبين أدلة ذلك ، ونوضح رد شبه المخالفين كالظاهرية والنظامن ومن قال بقولهم في احتجاجهم بأحاديث وآيات من كتاب الله على دعواهم ، وبشبه عقلية حتى يتضح بطلان جميع ذلك .

وسنذكر هنا طرفاً قليلاً من ذلك يعرف به صحة القول بالاجتهاد والقياس فيما لا نص فيه ، وأن إلحاق النظير بنظيره المنصوص عليه غير مخالف للشرع الكريم .

اعلم أولاً – أن إلحاق المسكوت عنه بالمنطوق به بنفي الفارق بينهما لا يكان ينكره إلامكابر ، وهو نوع من القياس الجلي ، ويسميه الشافعي رحمه الله " القياس في معنى الأصل " وأكثر أهل الأصول لا يطلقون عليه اسم القياس ، مع أنه إلحاق مسكوت عنه بمنطوق به لعدم الفرق بينها . أعني الفرق المؤثر في الحكم .

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴾ [الإسراء : 23] فإن لا يشك عاقل في أن النهي عن التأفيف المنطوق به يدل على النهي عن الضرب المسكوت عنه .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7–8] فإنه لا شك أيضاً في أن التصريح بالمؤاخذة بمثال الذرة والإثابة عليه المنطوق به يدل على المؤاخذة والإثابة بمثقال الجبل المسكوت عنه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَي عَدْلٍ ﴾ [الطلاق : 2] الآية . لا شك في أنه يدل على أن شهادة أربعة عدول مقبولة وإن كانت شهادة الأربعة مسكوتاً عنها .

ونهيه صلى الله عليه وسلم عن التضحية بالعوراء يدل على النهي عن التضحية بالعمياء ، مع أن ذلك مسكوت عنه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليتامى ﴾ [النساء : 10] الآية . لا شك في أنه يدل على منع إحراق مال اليتيم وإغراقه . لأن الجميع إتلاف له بغير حق .

وقوله صلى الله عليه وسلم : " من أعتق شركاً له في عبد فكان له مال يبلغ ثمن العبد قوم عليه قيمة عدل ، فأعطى شركاؤه حصصهم وعتق عليه العبد ، وإلا فقد عتق منه ما

عتق "

يدل على أن من أعتق شركاً له في أمة فحكمه ذلك. لما عرف من استقراء الشرع أن الذكورة والأنوثة بالنسبة غلى العتق وصفان طرديان لا تاثير لهما في أحكام العتق وإن كانا غير طرديين في غير العتق كالشهادة والميراث وغيرهما .

وقوله صلى الله عليه وسلم : "لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان" لا شك في أنه يدل على منع قضاء الحكم في كل حال يحصل بها التشويش المانع من استيفاء النظر. كالجوع والعطش المفرطين، والسرور والحزن المفرطين، والحقن الحقب المفرطين.

ونهيه صلى الله عليه وسلم عن البول فيا لماء الراكد ، لا شك في أنه يدل على النهي عن البول في قارورة وصب البول من القارورة في الماء الراكد . إذ لا فرق يؤثر في الحكم بين البول فيه مباشرة وصبه فيه من قارورة ونحوها ، وأمثال هذا كثيرة جداً ، ولا يمكن أن يخالف فيها إلا مكابر . ولا شك أن في ذلك كله استدلالاً بمنطوق به على مسكوت عنه . وكذلك نوع الاجتهاد المعروف في اصطلاح أهل الأصول "بتحقيق المناط" لا يمكن أن ينكره إلا مكابر ، ومسائلة التي لا يمكن الخلاف فيها من غير مكابر لا يحيط بها الحصر ، وسنذكر

أمثلة منها . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ [المائدة : 95] فكون الصيد المقتول يماثله النوع المعين من النعم اجتهاد في تحقيق مناط هذا الحكم ، نص عليه جل وعلا في محكم كتابه . وهو دليل قاطع على بطلان قول من يجعل الاجتهاد في الشرع مستحيلاً من أصله . والإنفاق على الزوجات واجب ، وتحديد القدر اللازم لا بد فيه من نوع من الاجتهاد في تحقيق مناط ذلك الحكم . وقيم المتلفات واجبة على من أتلف ، وتحديد القدر الواجب لا بد فيه من اجتهاد . والزكاة لا تصرف إلا في مصرفها ، كالفقير ولا يعلم فقهر إلا بأمارات ظنية يجتهد في الدلالة عليها بالقرائن لأن حقيقة الباطن لا يعلمها إلا الله . ولا يحكم إلا بقول العدل ، وعدالته إنما تعلم بأمارات ظنية يجتهد في معرفتها بقرائن الأخذ والإعطاء وطول المعاشرة . وكذلك الاجتهاد من المسافرين في جهة القبلة بالأمارات ، إلى غير ذلك مما لا يحصى .

ومن النصوص الدالة على مشروعية الاجتهاد في مسائل الشرع – ما ثبت في الصحيح عن النّبي صلى الله عليه وسلم في ذلك ، قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى التميمي ، أخبرنا عبد العزيز بن محمد ، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن

الهاد ، عن محمد بن إبراهيم ، عن بسر بن سعيد ، عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص ، عن عمرو بن العص : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر " .

وحدثني إسحاق بن إبراهيم ، ومحمد بن أبي عمر كلاهما عن عبد العزيز بن محمد بهذا الإسناد مثله ، وزاد في عقب الحديث : قال يزيد : فحدثت هذا الحديث أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم فقال : هكذا حدثني أبو سلمة علن أبي هريرة ، وحدثني علد الله بن عبد الرحمن الدارمي : أخبرنا مروان يعني ابن محمد الدمشقي ، حدثنا الليث بن سعد ، حدثني يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد الليثي بهذا الحديث ، مثل رواية عبد العزيز بن محمد بالإسنادين جميعاً – انتهى .

فهذا نص صحيح من النبي صلى الله عليه وسلم ، صريح في جواز الاجتهاد في الأحكام الشرعية ، وحصول الأجر على ذلك وإن كان المجتهد مخطئاً في اجتهاده . وهذا يقطع دعوى الظاهرية : منع الاجتهاد من أصله ، وتضليل فاعله والقائل به قطعاً باتاً كما ترى .

وقال النووي في شرح هذا الحديث : قال العلماء : أجمع المسلمون على أن هذا الحديث في حاكم عالم أهل للحكم . فإن أصاب فله أجران : أجر باجتهاده ، وأجر بإصابته ، وإن أخطأ فله أجر باجتهاده . وفي الحديث محذوف تقديره : إذا أراد الحاكم أن يحكم فاجتهد . قالوا : فأما من ليس بأهل للحكم فلا يحل له الحكم . فإن حكم فلا أجر له بل هو آثم . ولا ينعقد حكمه سواء وافق الحق أم لا ، وهي مردودة كلها ، ولا يعذر في شيء من ذلك . وقد جاء في الحديث في السنن : " القضاة ثلاثة : قاض في الجنة ، واثنان في النار . قاض عرف الحق فقضى به في الجنة ، وقاض عرف الحق فقضى بخلافه فهو في النار ، وقاض قضى على جهل فهو في النار " انتهى الغرض من كلام النووي .

فإن قيل : الاجتهاد المذكور في الحديث هو الاجتهاد في تحقيق المناط دون غيره من أنواع الاجتهاد .

فالجواب – أن هذا صرف لكلامه صلى الله عليه وسلم عن ظاهره من غير دليل يجب الرجوع إليه ، وذلك ممنوع .

وقال البخاري في صحيحه : بابت أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ . حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا حيوة ، حدثني يزيد بن عبد الله بن الهاد ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث ، عن بسر بن سعيد ، عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص ، عن عمرو بن العص : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله

أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر " قال : فحدثت بهذا الحديث ابا بكر بن عمرو بن حزم فقال : هكذا حدثني أبوسلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة . وقال عبد العزيز بن المطلب ، عن عبد الله بن أبي بكر ، عن أبي سلمة عن النّبي صلى الله عليه وسلم مثله اه .

فهذا الحديث المتفق عليه يدل على بطلان قول من منع الاجتهاد من أصله في الأحكام الشرعية . ومحاولة ابن حزم تضعيف هذا الحديث المتفق عليه ، الذي رأيت أنه في أعلى درجات الصحيح لاتفاق الشيخين عليه لا تحتاج إلى إبطالها لظهور سقوطها كما ترى . لأنه حديث متفق عليه مروي باسانيد صحيحة عن صحابيين جليلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النّبي صلى الله عليه وسلم .

ومن الأدلة الدالة على ذلك ما روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه : أن النّبي صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن قال له : " فبم تحكم ؟ " قال : بكتاب الله . قال : " فإن لم تجد ؟ " قال : بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : " فإن لم تجد " قال : أجتهد رأيي . قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدره وقال : " الحمد لله الذي

وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

قال ابن كثير رحمه الله في مقدمة تفسيره بعد أن ذكر هذا الحديث : قالوا هذا الحديث يرويه الحارث بن عمرو عن رجال من أهل حمص ، والحارث والرجال مجهولون . قاله الترمذي . قلنا : قد رواه عبادة بن نسي عن عبد الرحمن بن غنم ، عن معاذ رضي الله عنه . انتهى .

(244/455)

ومراد ابن قدامه ظاهر . لأن رد الظاهرية لهذا الحديث بجهالة من رواه عن معاذ مردود بأنه رواه عبادة بن نسي عن عبد الرحمن بن غنم عنه . وهذه الرواية ليست هي مراده ابن كثير بقوله : هذا الحديث في المسند والسنن بإسناد جيد لأنها ليست في المسند ولا في السنن ، ولعل مراده بجودة هذا الإسناد أن الحارث ابن أخي المغيرة بن شعبة وثقة ابن حبان ، وان أصحاب معاذ يراهم عدولاً ليس فيهم مجروح ولا متهم ، وسيأتي استقصاء البحث في طرق هذا الحديث في سورة الأنبياء . ومعلوم أن عبادة بن نسي ثقة فاضل كما قدمنا . وعبد الرحمن بن غنم قيل صحابي ، وذكره العجلي في كبار ثقات التابعين ، قاله في التقريب . وحديث معاذ هذا تلقته الأمة قديماً وحديثاً بالقبول . وسيأتي إن شاء الله " في سورة الأنبياء " ، و " سورة الحشر " ما استدل به أهل العلم على هذا من آيات القرآن

العظيم .

ومن الأدلة الدالة على أن إلحاق النظير بنظيره في الشرع جائز : ما أخرجه الشيخان في صحيحها عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاءت امرأة إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن أمي ماتت وعليها صوم نذر ، أفأصوم عنها ؟ قال : " أفرأيت لو كان على أمك دين فقضيته ، أكان يؤدي ذلك عنها ؟ "

قالت : نعم . قال : " فصومي عن أمك " وفي رواية لهما عنه قال : جاء رجل إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن أمي ماتت وعليها صوم شهر ، أفأقضيه عنها ؟ قال : " لو كان على أمك يدن ، أكنت قاضيه عنها ؟ " قال : نعم . قال : " فدين الله أحق أن يقضى " انتهى .

واختلاف الرواية في هذا الحديث لا يعد اضطراباً ، لأنها وقائع متعددة : سألته امرأة فأفتاها ، وسأله رجل فأفتاه بمثل ما أفتى به المرأة ، كما نبه عليه غير واحد .

وهذا نص صحيح عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، صريح في مشروعية إلحاق النظير بنظيره المشارك له في علة الحكم . لأنه صلى الله عليه وسلم بين إلحاق دين الله تعالى بدين

الآدمي ، بجتمع أن الكل حق مطالب به تسقط المطالبة به بأدائه إلى مستحقه . وهو واضح في الدلالة على القياس كما ترى .

ومن الأدلة الدالة على ذلك ايضاً : ما رواه الشيخان في صحيحهما أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل من بني فزارة إلى النّبي صلى الله عليه فقال : إن امرأتي ولدت غلاماً أسود ! فقال النّبي صلى الله عليه وسلم : " هل لك إبل ؟ " قال نعم . قال : " فما ألوانها ؟ " قال : حمر . قال : " فهل يكون فيها من أورق ؟ " قال : إن فيها لورقاً . قال : " فأنى أتاها ذلك ؟ " قال : عسى أن يكون نزعه عرق . قال : " وهذا علسى أن يكون نزعه عرق " اه .

فهذا نص صحيح عن النّبي صلى الله عليه وسلم صريح في قياس النظير . وقد ترتب على هذا القياس حكم شرعي ، وهو كون سواد الولد مع بياض أبيه وأمه ، ليس موجباً للعان . فلم فلم يجعل سواده قرينة على أنها زنت بإنسان اسود ، لإمكان أن يكون في أجداده من هو أسود فنزعه إلى السواد سواد ذلك الجد . كما أن تلك الإبل الحمر فيها جمال ورق يمكن أن لها أجداداً روقاً نزعت ألوانها إلى الورقة . وبهذا اقتنع السائل .

ومن الأدلة الدالة على إلحاق النظير بنظيره : ما رواه أبو داود ، والإمام أحمد ، والنسائي ، عن عمر رضي الله عنه قال : هششت يوماً فقبلت وأنا صائم . فأتيت النّبي صلى الله عليه وسلم فقلت : صنعت اليوم أمراً عظيماً ! قبلت وأنا صائم ! ؟ فقال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : " أرأيت لو تمضمضت بماء وأنت صائم ؟ " فقلت : لا بأس بذلك . فقال صلى الله عليه وسلم " فمه " اه .

فإن قيل : هذا الحديث قال فيه النسائي : مكر .

قلنا : صححه ابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم . قاله الشوكاني في نيل الأوطار .

(246/455)

قال مقيده عا الله عنه : هذا الحديث ثابت وإسناده صحيح . قال : أبو داود في سننه : حدثنا أحمد بن يونس ثنا الليث (ح) وثنا عيس بن حماد ، أخبرنا الليث بن سعد ، عن بكير بن عبد الله ، عن عبد الملك بن سعيد ، عن جابر بن عبد الله قال : قال عمر بن الخطاب : هششت فقبلت .

. إلى آخر الحديث بلفظه المذكر آنفاً . ولا يخفى أن هذا الإسناد صحيح ، فإن طبقته الأولى أحمد بن يونس وعيس بن حماد . أما أحمد فهو ابن عبد الله بن يونس الكوفي التميمي اليربوعي ثقة حافظ . وعيسى بن حماد بن مسلم التجيبي أبو موسى الأنصاري الملقب زغبة ، ثقة . وطبقته الثانية الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي أبو الحارث المصري ثقة ثبت ، فقيه إمام مشهور . وطبقته الثالثة بكير بن عبد الله بن الأشج مولى بني مخزوم أبو

عبد الله، أو أبو يوسف المدني نزيل مصر ثقة. وطبقته الرابعة عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري المدني ثقة. وطبقته الخامسة جابر بن عبد الله عن عمر بن الخطاب عن النَّبي صلى الله عليه وسلم. فهذا إسناد صحيح رجاله ثقات كما ترى. فهو نص صحيح صريح في أنه صلى الله عليه وسلم قاس القبة على المضمضة. لأن المضمضة مقدمة الشرب، والقبلة مقدمة الجماع. فالجامع بينهما أن كلاً منهما مقدمة المفطر، وهي لا تفطر بالنظر لذاتها.

فهذه الأدلة التي ذكرنا فيه الدليل الواضح على أن إلحاق النظير بنظيره من الشرع لا مخالف له. لأنه صلى الله عليه وسلم فعله، والله يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: 21] وهو صلى الله عليه وسلم لم يفعله إلا لينبه الناس له.

فإن قيل: إنما فعله صلى الله عليه وسلم لأن الله أوحى إليه ذلك.

قلنا: فعله حجة في فعل مثل ذلك الذي فعل، ولو كان فعله بوحي كسائر أقواله وأفعاله وتقريراته، فكلها تثبت بها الحجة، وإن كان هو صلى الله عليه وسلم فعل ما فعل من ذلك بوحي من الله تعالى.

مسألة

قال بان خويز منداد من علماء المالكية : تضمنت هذه الآية الحكم بالقافة . لأنه لما قال : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ دل على جواز ما لنا به علم . فكل ما علمه الإنسان او غلب على ظنه جاز أن يحكم به . وبهذا احتججنا على إثبات القرعة والخرص . لأنه ضرب من غلبة الظن ، وقد يسمى علماً اتساعاً . فالقائف يلحق الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما ، كما يلحق الفقيه الفرع بالأصل عن طريق الشبه . وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل علي مسروراً تبرق أسارير وجهه فقال : " ألم ترى أن مجززاً المدلجي نظر آنفاً إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد عليها قطيفة ، قد غطيا رؤوسهما وبدت اقدامهما فقال : إن بعض هذا الأقدام لمن بعض " وفي ديث ينس بن يزيد : وكان مجزز قائفاً اه بواسطة نقل القرطبي في تفسيره .

قال مقيدخ عفا الله عنه : من المعلوم أن العلماء اختلفوا في اعتبار أقوال القافة . فذهب بعضهم إلى عدم اعتبارها . واحتج من قال بعدم اعتبارها بقصة الأنصارية التي لاعنت زوجها وجاءت بولد شبيه جداً بمن رميت به ولم يعتبر هذا الشبه النّبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يحكم بأن الولد من زنى ولم يجلد المرأة .

قالوا : فلو كان الشبه تثت به الأنساب لأثبت النّبي صلى الله عليه وسلم به أن ذلك الولد من ذلك الرجل الذي رميت به . فيلزم على ذلك إقامة الحد عليها ، والحكم بان الولد ابن زنى

، ولم يفعل النَّبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من ذلك كما يأتي إيضاحه (في سورة النور) إن شاء الله تعالى .

وهذا القول بعدم اعتبار اقوال القافة مروي عن ابي حنيفة وإسحاق والثوري وأصحابهم .

وذهب جمهور أهل العلم إلى اعتبار أقوال القافة عند التنازع في الولد ، محتجين بما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم سر بقول مجزز بن الأعور المدلجي : إن بعض هذه الأقدام من بعض ، حتى برقت أساوير وجهه من السرور .

(248/455)

قالوا : وما كان صلى الله عليه وسلم ليسر بالباطل ولا يعجبه ، بل سروره بقول القائف دليل على أنه من الحق لا من الباطل ، لأن تقديره وحده كاف في مشروعية ما قرر عليه ، وأخرى من ذلك ما لو زاد السرور بالأمر على التقرير عليه ، وهو واضح كما ترى .

واعلم أن الذين قالوا باعتبار أقوال القافة اختلفوا فمنهم من قال لا يقبل ذلك غلا في أولاد الإماء دون أولاد الحرائر . ومنهم من قال : يقبل ذلك في الجميع .

قال مقيده عفا الله عنه : التحقيق باعتبار ذلك في أولاد الحرائر والإماء لأن سرور النَّبي

صلى الله عليه وسلم وقع في ولد حرة ، وصورة سبب النزول قطعية الدخول ، وعقدة صاحب مراقي السعود بقوله :

واجزم بإدخال ذوات السبب . . . وارو عن الإمام ظناً تصب

تنبيهان

الأول – لا تعتبر أقوال القافة في شبه مولود برجل إن كانت أمه فراشاً لرجل آخر . لأن النّبي صلى الله عليه وسلم رأى شدة شبه الولد الذي اختصم فيه سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة بعتبة بن أبي وقاص ولم يؤثر عنده هذا الشبه في النسب لكون أو الولد فراشاً لزمعة . فقال صلى الله عليه وسلم " الولد للفراش وللعاهر الحجر " ولكنه صلى الله عليه وسلم اعتبر هذا الشبه من جهة أخرى غير النسب . فقال لسودة بنت زمعة رضي الله عنها " احتجبي عنه " مع أنه ألحقه بأبيها فلم ير سودة قط . وهذه المسألة أصل عند المالكية في مراعاة الخلاف كما هو معلوم عندهم .

التنبيه الثاني : قال بعض علماء العربية : أصل القفو البهت والقذف بالباطل . ومنه الحديث الي روي عن النّبي صلى الله عليه وسلم : " نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا ننتفي من أبينا " أخرج الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما من حديث الأشعث بن قيس . وساق طرق هذا الحديث ابن كثير في تاريخه . وقوله " لا نقفوا أمنا " أي لا نقذف أمنا نسبها ، ومنه قول الكيمت :

فلا أرمي البزيء بغير ذنب . . . ولا أقفوا الواصن إن قفينا

وقول النابغة الجعدي :

(249/455)

ومثل الدمى شم العرانين ساكن . . . بهن الحياء لا يشعن التقافيا

والذي يظهر لنا أن أصل القفو في لغة العرب : الاتباع كما هو معلوم من اللغة . ويدخل في اتباع المساوي كما ذكره من قال : إن أصله القذف والبهت .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ فيه وجهان من التفسير :

الأول – أن معنى الآية – أن الإنسان يسأل يوم القيامة عن أفعال جوارحه فيقال له : لم سمعت ما لا يحل لك سماعه ؟ ولم نظرت إلى ما لا يحل لك النظر فيه ! ؟ ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه ! ؟

ويدل لهذا المعنى ىيات من كتاب الله تعالى ، كقوله : ﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 93] ، وقوله ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : 92-93] ، ونحو ذلك من الآيات .

والوجه الثاني – أن الجوارح هي التي تسأل عن أفعال صاحبها ، فتشهد عليه جوارحه بما فعل .

قال القرطبي في تفسيره : وهذا المعنى أبلغ في الحجة . فإنه يقع تكذيبه من جوارحهن وتلك غاية الخزي كما قال : ﴿ اليوم نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يس : 65] ، وقوله : ﴿ حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت : 20] .

قال مقيده عفا الله عنه : والقول الأول أظهر عندي ، وهو قول الجمهور .

(250/455)

وفي الآية الكريمة نكتة نبه عليه في مواضع أخر . لأن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ يفيد تعليل النهي في وقله : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ بالسؤال عن الجوارح المذكورة ، لما تقرر في الأصول في مسلك الإيماء والتنبيه : أن "إن" المكسورة من حروف التعليل . وإيضاحه : أن المعنى انته عما لا يحل لك لأن الله أنعم عليك بالسمع والبصر والعقل لتشكره ، وهو مختبرك بذلك وسائلك عنه ، فلا تستعمل نعمه في معصيته .

ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: 78]، ونحوها من الآيات.

والإشارة في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة بقوله ﴿ أولئك ﴾ راجعة إلى ﴿ السمع والبصر والفؤاد ﴾ وهو دليل على الإشارة " بأولئك " لغير العقلاء وهو الصيحي. ومن شواهده في العربية قول الشاعر وهو العرجي:

يا ما أمليح عزلانا شدن لنا... من هؤلياء كن الضال والسمر

وقول جرير:

ذم المنازل بعد منزلة اللوى... والعيش بعد أولئك الأيام

خلافاً لمن زعم أن بيت جرير لا شاهد فيه، وأن الرواية فيه " بعد أولئك الأقوام " والعلم عند الله تعالى. انتهى انتهى. ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(251/455)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34) ﴾

وهنا أيضاً يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ . . ﴾ [الإسراء: 34]

ولم يقل: ولا تأكلوا مال اليتيم ليحذرنا من مجرد الاقتراب، أو التفكير في التعدّي عليه؛ لأن اليُتْم مظهر من مظاهر الضعف لا صح أنْ تجترئَ عليه.

و﴿ الْيَتِيمِ ﴾ هو مَنْ مات أبوه وهو لم يبلغ مبلغ الرجال وهو سِنّ الرُّشْد، وما دام قد فقد أباه ولم يَعُدْ له حاضن يرعاه، فسوف يضجر ويتألم ساعة أنْ يرى غيره من الأولاد له أب يحنو عليه، وسوف يحقد على القدَر الذي حرمه من أبيه.

فيريد الحق سبحانه وتعالى أولاً أنْ يستلّ من قلب اليتيم وفكره هذه المشاعر؛ لذلك يُوصِي المجتمع به ليشعر أنه وإنْ فقد أباه فالمؤمنون جميعاً له آباء، وفي حُنوّهم وعطفهم عِوَض له عن وفاة والده.

وكذلك حينما يرى الإنسانُ أن اليتيم مُكرّم في مجتمع إيماني يكفله ويرعاه، ويعتبره كل فرد فيه ابناً من أبنائه، يطمئن قلبه ولا تُفزِعه أحداث الحياة في نفسه، ولا يقلق إنْ قُدِّر له أن يُيَتَّم أولاده، فسوف يجدون مثل هذه الرعاية، ومثل هذا الحنان من المجتمع الإيماني.

إذن: إنْ وجد اليتيم في المجتمع عِوَضاً عن أبيه عَطْفاً وحناناً ورعاية يرضى بما قُدِّر له، ولا يتأبَّى على قدر الله، وكذلك تطمئن النفس البشرية إنْ قُدِّر عليها اليُتْم في أولادها.

ثم يقول تعالى: ﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . . ﴾ [الإسراء: 34]

أي: لا تنتهز يُتْم اليتيم، وأنه ما يزال صغيراً ضعيف الجانب فتطمع في ماله، وتأخذه دون

وجه حق .

وقوله: ﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . . ﴾ [الإسراء: 34] استثناء من الحكم السابق ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا . . ﴾ يبيح لنا أن نقرب مال اليتيم ، ولكن بالتي هي أحسن .

(252/455)

و ﴿ أَحْسَنُ ﴾ أفعل تفضيل تدل على الزيادة في الإحسان فكأن لدينا صفتين ممدوحتين: حسنة وأحسن ، وكأن المعنى: لا تقربوا مال اليتيم بالطريقة الحسنة فحسب ، بل بالطريقة الأحسن . فما الطريقة الحسنة؟ وما الطريقة الأحسن ؟

الطريقة الحسنة: أنك حين تقرب مال اليتيم لا تُبدده ولا تعدّى عليه . لكن الأحسن: أنْ تُنمي له هذا المال وتُثمّره وتحفظه له ، إلى أن يكون أَهْلاً للتصرّف فيه .

لذلك فالحق سبحانه حينما تكلم عن هذه المسألة قال: ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾ [النساء: 5]

ولم يقل: وارزقوهم منها ؛ لأن الرزق منها يُنقِصها ، لكن معنى: ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾ [النساء: 5] أي: من ريعها وربحها ، وليس من رأس المال .

وإلاَّ لو تصوّرنا أن أحد الأوصياء على الأيتام عنده مال ليتيم ، وأخذ ينفق عليه من هذا

المال ، ويُخرج منه الزكاة وخلافه ، فسوف ينتهي هذا المال ويبلغ اليتيم مبلغ الرُّشْد فَلا يجد من ماله شيئاً يُعتَدُّ به .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول : حقِّقوا الحسن أولاً بالمحافظة على مال اليتيم ، ثم قدِّموا الأحسن بتنميته له وزيادته زيادة تتسع لنفقات حياته ، وإلاَّ فسوف يشبّ الصغير ، وليس أمامه من ماله شيء .

والحق سبحانه وتعالى يريد ألاَّ يحرم اليتيم من خبرة أصحاب الخبرة والصلاحية الاقتصادية وإدارة الأموال ، فقد يكون من هؤلاء مَنْ ليس لديه مال يعمل فيه ، فليعمل في مال اليتيم ويُديره له ويُنمّيه ، وليأكل منه بالمعروف ، وإنْ كان غنياً فليستعفف عنه ؛ لأنه لا يحلّ له ، يقول تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ . . ﴾ [النساء : 6]

لأن الإنسان إذا كان عنده خبرة في إدارة الأموال ولديْه الصلاحية فلا نُعطِّل هذه الخبرة ، ولا نحرم منها اليتيم ، وهكذا نوفر نفقة صاحب الخبرة الذي لا يجد مالاً ، ونفقة اليتيم الذي لا يستطيع إدارة أمواله ، وبذلك يتم التكامل في المجتمع الإيماني .

ثم يقول تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ.. ﴾ [الإسراء: 34]

أي: حتى يكبر ويبلغ مبلغ الرجال، ولكن هل هذه الصفة كافية لكي نُعطِي لليتيم ماله وقد بلغ سِنّ الرُّشْد والتكليف؟

في الحقيقة أن هذه الصفة غير كافية لنُسلّم له ماله يتصرف فيه بمعرفته؛ لأنه قد يكون مع كِبَر سِنّه سفيهاً لا يُحسِن التصرُّف، فلا يجوز أن نتركَ له المال لِيُبدّده، بدليل قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ.. ﴾ [النساء: 6]

وقال في آية أخرى: ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَآءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ [النساء: 5]

ولم يقل: أموالهم، لأن السفيه ليس له مال، وليس له ملكية، والمال مال وليه الذي يحافظ عليه ويُنمّيه له.

إذن: فالرُّشْد وهو سلامة العقل وحُسْن التصرُّف، شرط أساسي في تسليم المال لليتيم؛ لأنه أصبح بالرُّشْد أهْلاً للتصرُّف في ماله.

وكلمة: ﴿ أَشُدَّهُ.. ﴾ [الإسراء: 34] أي: يبلغ شِدّة تكوينه، ويبلغ الأشدّ أي: تستوي ملكاته استواءً لا زيادة عليه، فأعضاء الإنسان تنمو وتتربى مع نموه على مَرّ الزمن، إلى أن يصل سِنّ الرشد ويصبحَ قادراً على إنجاب مثله، وهذه سِنّ الأشُدّ أي: الاستواء.

لذلك أجّلَ الله تعالى التكليف للإنسان إلى سِنّ البلوغ؛ لأنه لو كلّفه قبل أن يبلغ ثم طرأ عليه

البلوغ بعد التكليف لاحتجّ بما طرأ عليه في نفسه من تغيرات لم تكن موجودة حال التكليف.

(254/455)

ثم يقول تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: 34] ﴿ الْعَهْدَ ﴾ ما تعاقد الإنسان عليه مع غيره عقداً اختيارياً يلتزم هو بنتائجه ومطلوباته، وأول عقد أُبرِمَ هو العَقْد الإيماني الذي أخذه الله تعالى علينا جميعاً، وأنت حُرٌّ في أن تدخل على الإيمان بذاتك مختاراً أو لا تدخل، لكن حين تدخل إلى الإيمان مُخْتاراً يجب أن تلتزم بعهد الإيمان؛ لأن الله لا يريد منّا قوالب تخضع، ولكن يريد مِنّا قلوباً تخشع، ولو أراد الله منّا قوالب تخضع ما استطاع واحد مِنّا أنْ يشذّ عن الإيمان بالله.

لذلك خاطب الحق تبارك وتعالى رسوله بقوله:

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء: 3-4]

فالله لا يريد أعناقاً، وإنما يريد قلوباً، لكن يخلط كثير من الناس إنْ أمرته بأمر من أمور الدين فيقول: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ.. ﴾ [البقرة: 256]

نقول له: أنت لم تحسن الاستدلال، المراد: لا إكراه في أنْ تدخل الدين، ولكن إذا دخلتَ فعليك الالتزام بمطلوباته.

ومن باطن هذا العهد الإيماني تنشأ كل العقود، لذلك يجب الوفاء بالعهود؛ لأن الوفاء بها جزء من الإيمان، فأنت حُرٌّ أن تقابل فلاناً أولا تقابله، إنما إذا عاهدتَه على المقابلة فقد أصبحتَ مُلْزماً بالوفاء؛ لأن المقابل لك قد رتَّبَ نفسه على أساس هذا اللقاء، فإنْ أخلفتَ معه العهد فكأنك أطلقتَ لنفسه حرية الحركة، وقيَّدتَ حركة الآخر.

وهذه صفة لا تليق أبداً بالمؤمنين، وقد جعلها النبي صلى الله عليه وسلم من صفات المنافقين.

وقوله: ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء: 34]

قد يكون المعنى: أي مسئولاً عنه، فيسأل كل إنسان عن عهده أوفَّى به أم أخلفه؟

وقد يراد ﴿ مَسْؤُولاً ﴾ أي: مسئول ممَّنْ تعاقد عليه أنْ يُنفّذه، وكأنه عدَّى المسئولية إلى العهد نفسه، فأنا حُرٌّ وأنت حُرٌّ، والعهد هو المسئول.

والحق سبحانه وتعالى يستعمل اسم المفعول في مواضع تقول للوهلة الأولى أنه في غير موضعه

، ولكن إذا دققتَ النظر تجده في موضعه بليغاً غايةَ البلاغة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ [الإسراء: 45]

هكذا بصيغة اسم المفعول، والحجاب في الحقيقة ساتر وليس مستوراً، ولكن الحق سبحانه يريد أنْ يجعلَ الحجاب صفيقاً، كأنه نفسه مستور بحجاب الغير، كما يصنع بعض المترفين ستائر البيوت من طبقتين، فتصبح الستارة نفسها مستورة، وكما في قوله تعالى: ﴿ ظِلاًّ ظَلِيلاً . . ﴾ [النساء: 57] أي: أن الظل نفسه مُظَلّلٌ.

وانظر إلى حال المجتمع إذا لم تُراعَ فيه العهود، ولم تُحترمَ المواثيق، مجتمع يستهين أهله بالوفاء وشرف الكلمة، فسوف تجده مجتمعاً مُفكّكاً فُقِدت فيه الثقة بين الناس، وإذا ما فُقِدت الثقة وضاع الوفاء وشرف الكلمة الذي تُدار به حركة الحياة فاعلم أنه مجتمع فاشل، وليس أَهْلاً لرقيٍّ أو تقدُّم.

ولأهمية العهد في الإسلام نجده ينعقد بمجرد الكلمة، وليس من الضروري أن يُسجّل في سجلات رسمية؛ لأن المؤمن تثق في كلمته حتى إن لم تُوثَّق وتكتب.

ومن هنا وُجِد ما يسمونه بالحق القضائي وبالحق الديني، فيقولون: هذا قضاءً وهذا ديانة، والفرق واضح بينهما، ويمكن أن نضرب له هذا المثل:

هَبْ أنك أخذت دَيْناً من صديق لك ، وكتب له مستنداً بهذا الدين ليطمئن قلبه ، ثم قابلته بعد أن تيسَّر لك السداد ووفَّيت له بديْنه . لكنه اعتذر لعدم وجود المستند معه الآن ، فقلت له: لا عليك أرسله لي متى شئتَ ، فلو تصوَّرنا أنه أراد الغدر بك وأنكر سداد الدين ، فالقضاء يقول: له الحق في أخذ دَيْنه ، أما ديانة فليس له شيء .

إذن: العهد الذي نعقده مع الناس يدخل تحت المسئولية الدينية وليس القضائية .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . . . ﴾ .

(257/455)

تنتقل بنا الآيات إلى قضية من أخطر قضايا المجتمع ، هذه القضية هي التي تضمن للإنسان نتيجة عرقه وثمار جهده وتعبه في الحياة ، ويطمئن أنها عائدة عليه لا على هذه الطبقة الطفيلية المتسلطة التي تريد أن تعيش على أكتاف الآخرين وتتغذى على دمائهم .

وبذلك ييأس الكسول الخامل ، ويعلم أنه ليس له مكان في مجتمع عامل نشيط ، وأنه إنْ تمادى في خموله فلن يجد لقمة العيش فيأخذ من ذلك دافعاً للعمل ، وبذلك تزداد طاقة العمل ويَرْقى المجتمع ويسعد أفراده .

صحيح في المجتمع الإيماني إيثار ، لكنه الإيثار الإيجابي النابع من الفرد ذاته ، أما الخطف والسرقة والاختلاس والغَصب فلا مجال لها في هذا المجتمع ؛ لأنه يريد لحركة الحياة أن تستوعب الجميع فلا يتطفل أحد على أحد .

وإن كنا نحارب الأمراض الطفيلية التي تتغذى على دماء الإنسان فإن محاربة الطفيليات الآدمية أَوْلَى بهذه المحاربة . فما دُمْتَ قادراً على العمل فيجب أن تعمل ، أما غير القادرين من أصحاب الأعذار فهم على العين والرأس ، ولهم حَقٌّ مكفول في الدولة وفي أعناق المؤمنين جميعاً ، وهذا هو التأمين الذي يكفله الإسلام لكل محتاج.

لذلك نقول للغني الذي يسهم في سَدِّ حاجة الفقير: لا تتأفف ولا تضجر إنْ أخذنا منك اليوم ؛ لأن الطاقة التي عملت بها واجتهدتَ وجمعتَ هذا المال طاقة وقدرة ليست ذاتية فيك ، بل هي هِبَة من الله يمكن أنْ تُنزعَ منك في أي وقت ، وتتبدّل قوتك ضعفاً وغِنَاك حاجة ، فإنْ حدث لك ذلك فسوف نعطيك ونُؤمِّن لك مستقبلك .

لذلك على الإنسان أن يعيش في الحياة إيجابياً ، يعمل ويكدح ويُسهِم في رُقيّ الحياة وإثرائها ، ولا يرضى لنفسه التقاعس والخمول ؛ لأن المجتمع الإيماني لا يُسوِّي بين العامل والقاعد ، ولا بين النشيط والمتكاسل .

وهَبْ أن شقيقين اقتسما ميراثاً بينهما بالتساوي ؛ الأول عاش في ماله باقتصاد وأمانة وسَعَى فيه بجدّ وعمل على تنميته ، أما الآخر فكان مُسْرفاً مُنحرفاً بدّد كل ما يملك وقعد مُتحسّراً على ما مضى ، فلا يجوز أنْ نُسوّي بين هذا وذاك ، أو نأخذ من الأول لنُعطيَ للآخر ، إياك أن تفعل هذا لأن الإنسان وكذلك الدول . إذا أخذتْ ما ليس لها حمّلها الله ما ليس عليها .

ولذلك لا يجوز أن نحقد على الغني طالما أن غِنَاه ثمرة عمله وكَدِّه ونتيجة سعيه ، وطالما أنه يسير في ماله سَيْراً معتدلاً ويؤدي ما عليه من حقوق للمجتمع ، ولندعه يعمل بكل ما يملك من طاقات ومواهب ، وبكل ما لديه من طموحات الحياة ؛ لأن الفقير سوف يستفيد منه ومن طموحاته شاء أم أبى . فدَعْه يجتهد ، وإنْ كان اجتهاده في الظاهر لنفسه فإنه في الحقيقة يعود عليك أيضاً ، والخير في المجتمع تعود آثاره على الجميع .

لنفرض أن أحد هؤلاء الأغنياء أراد أن يبني مصنعاً أو عمارة أو مشروعاً كبيراً ، فكم من العمال والصناع ، وكم من الموظفين والمهندسين سيستفيدون من هذا المشروع ؟ إن الغني لن يملك مثل هذه الإنجازات إلا بعد أن يصبح ثمنها قُوتاً في بطون الفقراء وكسوة على أجساد الفقراء .

إذن : علينا أنْ ندعَ الغني يجتهد ويسعى ؛ لأن المجتمع سوف يستفيد من سَعْيه واجتهاده ،

وما عليك إلا أن تراقبه، فإنْ كان سعيُه في الحق فبها ونعمتْ، وإنْ كان في غير الحق فلتضرب على يده.

وإليك ما يضمن لك سعادة الحياة وسلامة الحركة فيها، يقول تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ.. ﴾ [الإسراء: 35]

والحديث هنا لا يخصُّ الكيْل فقط، بل جميع المقادير المستخدمة في حركة الحياة مثل المقادير الطولية مثلاً، والتي تُقدّر بالملليمتر أو السنتيمتر أو المتر أو الكيلو متر وتُقاس بها الأشياء كُلٌّ على حَسْبه، فالكتاب مثلاً يُقَاس بالسنتيمتر، والحجرة تُقَاس بالمتر، أما الطريق فيُقَاس بالكيلومتر وهكذا.

إذن: فالتقدير الطُّولي يجب أن تتناسب وحدة القياس فيه مع الشيء الذي نقيسه. هذا في الطوليات، أما في المساحات فيأتي الطول والعرض، وفي الأحجام: الطول والعرض والارتفاع. وفي الكُتَل يأتي الميزان.

إذن: فالحياة محكومة في تقديرات الأشياء بالكيْل الذي يُبيِّن الأحجام، وبالميزان الذي يُبيّن الكتلة؛ لأن الكيْل لا دخلَ له في الكتلة، إنما الكتلة تُعرف بالميزان، بدليل أن كيلو القطن

مثلاً أكبر بكثير من كيلو الحديد .

ومعنى ذلك أن ميزان التقدير يجب أن يكون سليماً ؛ لذلك يقول تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ . . ﴾ [الإسراء: 35] يعني: أعطوا المقادير على قدر المطلوب من الطرفين دون نقص .

وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين: 1-3]

ومعنى المطففين الذين يزيدون ، وهؤلاء إذا اكتالوا على الناس ، أي: أخذوا منهم . أخذوا حَقَّهم وافياً ، وهذا لا لَوْم عليه ، وإنما اللوم على: ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين: 3]

أي: إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ﴿ يُخْسِرُونَ ﴾ أي: ينقصون . هذا هو موضع الذمّ ومجال اللوْم في الآية ؛ لأن الإنسان لا يُلام على أنه استوفى حَقَّه ، بل يُلام على أنه لم يُسَوِّ بينه وبين الآخرين ، ولم يعامل الناس بمثل ما يحب أنْ يُعاملوه به .

ونلاحظ أن الكثيرين يفهمون أن التطفيف يكون في الكَيْل والميزان فحسب ، لكنه أيضاً في السعر ، فالبائع الذي ينقصك الكيلو عشرين جراماً مثلاً فقد بخسَك في الوزن ، وطفَّف عليك في الثمن أيضاً .

ثم يقول تعالى: ﴿ وَزِنُوا۟ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . . ﴾ [الإسراء: 35] أي: اجعلوا الوزن دقيقاً مستقيماً لا جَوْرَ فيه.

(260/455)

والمتأمل يجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد دقة الأحجام في تعاملات الناس أمرهم بإيفاء الكيل حَقَّه، هكذا: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ . . ﴾ [الإسراء: 35]

أما في الوزن فقد ركز على دِقّته، وجَعَله بالقسطاس، ليس القسطاس فحسب بل المستقيم، إذن: لماذا هذه الدّقة في الميزان بالذات؟

لو نظرتَ إلى عملية الكيْل لوجدتها واضحة مكشوفة، قلَّما يستطيع الإنسان الغِشّ فيها، وكثيراً ما ينكشف أمره ويُعلَم تلاعبه؛ لأن الكيْل أمام الأعين والتلاعب فيه مكشوف.

أما الوزن فغير ذلك، الوزن مجال واسع للتلاعب، ولدى التجار ألف طريقة وطريقة يبخسون بها الوزن دون أن يدري بهم أحد؛ لأن الميزان كما نعلم رافعة من النوع الأول، عبارة عن محور ارتكاز في الوسط، وكِفّة القوة في ناحية، وكِفّة المقاومة في الناحية الأخرى، فأيّ نَقْص في الذراعين يفسد الميزان، وأيّ تلاعب في كِفة القوة أو المقاومة يفسد الميزان.

ولو تحدثنا عن ألاعيب البائعين في أسواقنا لطال بنا المقام ؛ لذلك أكد الحق سبحانه وتعالى على الدقة في الميزان خاصة ؛ لأنه مجال واسع للغشِّ والخداع وأَكْل أموال الناس .

وسبق أن أوضحنا أن ميزان كُلِّ شيء بحسبه ، ويتناسب مع قيمته ونفاسته ، فالذي يزن الجير مثلاً غير الذي يزن اللوز ، غير الذي يزن الذهب أو الألماس ؛ لذلك من معاني (القسطاس المستقيم) أن يتناسب الميزان مع قيمة الموزون ، فالذي يبيع الذهب مثلاً يزن أشياء ثمينة مهما كانت قليلة في الميزان ؛ فإنها تساوي الكثير من المال .

لذلك فإن أهل الخبرة في هذه المسألة يقولون : احذر أن يُدخِل البائع رأسه قريباً من الميزان ؛ لأنه قد ينفخ في كِفَّة الميزان ، ولاشكّ أنك ستخسر كثيراً من جرَّاء هذه النفخة ! !

(261/455)

لذلك نقول لهؤلاء الذين أخذت أيديهم على الغش والخداع في البيع والشراء : أنت تبيع للناس شيئاً واحداً وتغشهم فيها ، وفي الوقت نفسه تشتري أشياء كثيرة من متطلبات الحياة ، فاعلم جيداً أنك إنْ غششْتَ الناس في سلعة واحدة فسوف تُغشّ في مئات السلع ، وأنت بذلك خاسر لا محالة . مهما دارت بك الأوهام والظنون فحسبت أن المسألة في صالحك .

ولا تنسَ أن فوقك قيُّوماً ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا تخفي عليه من أمرك خافية ، وسوف يُسلِّط عليك مَنْ يسقيك بنفس كأسك إلى أنْ تتبينَ لك حقيقة هذه الصفقة الخاسرة ؛ لأنك إن عَمَّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمِّي على قضاء السماء ، وسوف تذهب هذه الأموال التي اختلستها من أقوات الناس من حيث أتت ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من أصاب مالاً من مهاوش أذهبه الله في نهابر " .

وكذلك في المقابل: مَنْ صدق الناس ، ووفَّى لهم في بيعه وشرائه وتعاملاته يسَّر الله له مَنْ يُوفِّي له ويصدُق معه .

ثم يقول تعالى: ﴿ ذَالِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [الإسراء: 35]

﴿ ذَالِكَ ﴾ أي: الوزن بالقسطاس المستقيم خير وأحسن ﴿ تَأْوِيلاً ﴾ أي: عاقبة ، ومعنى ذلك أن المقابل له ليس خيراً ولا أحسن عاقبة . فالذي يغش الناس ويخدعهم يظن أنه بغشِّه يزيد في ماله ويجلب الخير لنفسه .

نقول له: أنت واهم ، فليس في الغش والبخس خير سيُجرِّئ الناس عليك فيغشوك ، هذه واحدة ثم لا يلبث الناس أن يكتشفوا تلاعبك في الكيل والميزان فينصرفون عنك ويقاطعونك .

إذن: عدم الوزن بالقِسْطاس المستقيم لا هو خَيْر ، ولا هو أحسن عاقبة .

أما التاجر الصادق الذي يُوفِي الكَيْل والميزان ، فإن الله تعالى ييسر له من يوفي له الكيل

والميزان، وكذلك يشتهر بين الناس بصدقه وأمانته، فيقبلون عليه ويحرصون على التعامل معه. وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ ذَالِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [الإسراء: 35] أي: احسن عاقبة..

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ... ﴾ .

(262/455)

ينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى قضية أخرى تُنظِّم حركة الحياة والإنسان الذي استخلفه الله في الأرض ووهَبه الحياة وأمدَّه بالطاقات وبمُقوِّمات الحياة وضرورياتها .

وبعد أنْ تكفَّل له بالضروريات، دلَّه على الترقِّي في الحياة بالبحث والفكر، واستخدام العقل المخلوق لله، والمادة المخلوقة لله بالطاقات المخلوقة لله، فيُرقِّي ويُثرِي حياته ومجتمعه.

وحركة الترقِّي والإثراء هذه لا تتمّ إلا على قضية ثابتة واضحة، فإذا تحركتَ في الحياة بناءً على هذه القضية فسوف تصل إلى النتيجة المرجوّة.

فمثلاً، الطالب الذي يرغَب في دخول كلية الحقوق مثلاً، لديه قضية واضحة مجزوم بها، فعندما يلتحق بالحقوق يجتهد، ويصل من خلالها إلى طموحاته؛ لأنه سار على ضوْء

قضية اقتنع بها .

إذن: لا بُدَّ أن تُبْنَى حركة الحياة على قضايا ثابتة ، هذه القضايا الثابتة تجعل المتحرِّك في أيّ حركة واثقاً من أن حركته ستُؤدّي إلى النتيجة المطلوبة ، فلو أردتَ مثلاً الذهاب إلى الإسكندرية أو إلى أسوان ، فلن تتحرّك إلا إذا تأكدتَ أن هذا الطريق هو الموصِّل إلى غايتك ، وكذلك حركة الحياة لا يمكن أنْ تتمَّ إلا بناءً على قضايا حقيقية مضبوطة في الكون ، وهذا ما نسميه (العلم) .

وقد سبق أن أوضحنا معنى القضية ، وأنها المقولة التي يُحكَم على قائلها بالصدق أو الكذب ، كأن تقول: الأرض كُروية ، أو الشمس مضيئة ، أو القمر منير ، وهذه القضايا تعطيني قضية علمية مجزوماً بها وواقعة ، ويمكن أنْ نُدلِّل عليها . وهذا هو العلم .

أما الجهل فأنْ تجزم بقضية ليست واقعية فهي قضية كاذبة ، وليس الجهل عدم العلم كما يعتقد البعض ؛ لأن عدم العلم أمية ، والأميّ ليس عنده قضية لا صادقة ولا كاذبة .

لذلك تجد الأميّ أطوعَ في التعلم من الجاهل ؛ لأن الأمي بمجرد أنْ تُعلِّمه قضية ما يأخذها ويتعلمها ، أما الجاهل فيلزمك أولاً أن تُخرِج من ذهنه القضية المخالفة ، ثم تُعلّمه القضية الصادقة .

وقضايا الحياة يمكن أنْ تُقسّم إلى قسمين:

قضايا تختلف فيها الأهواء .

وقضايا تتفق فيها الأهواء .

فالقضايا التي تختلف فيها الأهواء: هي القضية التي يخدم بها كل قائل لها فكرةً عنده فقط ، وإنْ كانت ضارة بغيره ، فما دام الأمر قائماً على الأهواء فلا بُدَّ أنْ تختلفَ ، فكُلٌّ له هواه الخاص ، فلو أن لكل واحد قضية ما التقينا على شيء أبداً .

وصدق الحق تبارك وتعالى حين قال: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ . . ﴾ [المؤمنون: 71]

إذن: فما المخرج من هذا الاختلاف والتباُين؟ المخرَج أن يخرج كل واحد مِنّا من هوى نفسه أولاً ، ثم نرد القضية التي اختلفتْ فيها أهواؤنا إلى مَنْ لا هوى له .

وربُّكَ سبحانه وتعالى هو وحده الذي لا هَوى له ، ونحن جميعاً خَلْقه ، وكلنا عنده سواء ، ليس منا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة ، فشرع الله واحد للجميع ، ولا غضاضة فالكل خاضع لهذا الشرع مُتّبِع له ؛ لأنه شَرْع الخالق سبحانه لا شَرْع أحد من الناس .

لذلك اشتهر قولهم: " اللي الشرع يقطع صباعه مَيْخُرش دم " .

فأنا لم أخضع لك ، وأنت لم تخضع لي ، بل الجميع خاضع لله تعالى مُنصَاع لأمره . إذن: اتركوا

قضايا الأهواء لله تعالى يُشرّعها لكم لكي ترتاحوا من تسلُّط بعضكم على بعض .

أما القضايا التي تتفق فيها الأهواء فهي القضايا المادية القائمة على المادة الصمَّاء التي لا تُجامِل أحداً على حساب أحد ، ولا مانعَ أن تتبعوا الآخرين فيها ؛ لأنكم سوف تلتقون عليها قَهْراً ورَغْماً عنكم ، فالمعمل الذي تدخله لتجري التجارب التي توصلك لقضية ما مادية أو كيماوية معمل محايد لا يجامل أحداً .

وقد سبق أن قلنا : إن الكهرباء أو الكيمياء ليس فيها روسي وأمريكي ؛ لأن هذه أشياء مادية لا خلافَ عليها ، أما الذي جعل المعسكر الشرقي يختلف والمعسكر الغربي هي القضايا الأهوائية ، فهذا شيوعي ، وهذا رأسمالي .

(264/455)

لذلك ، فالنبي صلى الله عليه وسلم وضع بنفسه هذا المبدأ في الوجود الإيماني حينما رأى الناس يُؤبّرون النخل ، فأشار عليهم بعدم تأبيره ، فأطاعوه ولم يؤبروا النخل في هذا العام ، وكانت النتيجة أن شاص النخل ولم يثمر ، وأثبتتْ التجربة الطبيعية أن ما أشار به رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس صواباً .

يأتي هذا مِمّنْ ؟ من محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله ، الذي يحرص على أن تأتي كل

قضاياه صادقة صائبة، وما كان منه إلا أن قال: "أنتم أعلم بشئون دنياكم".

ليضع بذلك أُسْوة لعلماء الدين ألاَّ يضعوا أنوفهم في قضايا الماديات، وقد قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ [البقرة: 60]

ويقول صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به".

فإنْ أردتَ أنْ تتحرّك في الحياة حركة سليمة مجدية، وحركة متساندة مع إخوانك غير متناقضة؛ فالحق سبحانه يقول: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ.. ﴾ [الإسراء: 36] لكي تسير في حركة الحياة على هُدىً وبصيرة.

﴿ لاَ تَقْفُ ﴾ أي: لا تتبع ولا تدخل فيما لا عِلْم لك به، كمَنْ يدَّعي مثلاً العلم بإصلاح التليفزيون وهو لا يعلم، فربما أفسد أكثر مما يُصلح.

ومن هنا قال أهل الفقه: مَنْ قال لا أدري فقد أفتى؛ لأنه بإعلان عدم معرفته صرف السائل إلى مَنْ يعلم، أما لو أجاب خطأ، فسوف يترتّب على إجابته مَا لا تُحمد عُقْباه، والذي يسلك هذا المسلك في حياته تكون حركته في الحياة حركة فاشلة.

والفعل (يَقفْو) مأخوذ من القفا وهو المؤخرة، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا ﴾ [الحديد: 27] أي: أتبعناهم.

ويقفو أثره أي: يسير خَلْفه.

وحينما نصح أحدهم رجلاً يريد أنْ يتزوج قال له: لا تتخذها حنَّانة ، ولا منَّانة ، ولا عُشْبة الدار ، ولا كبة القفا . فالحنانة التي لها ولد من غيرك يذكرها دائماً بأبيه فتحِنّ إليه ، والمنّانة التي لديها مال تَمنّ به عليك ، وعُشْبة الدار هي المرأة الحسناء في المنبَتِ السوء والمستنقع القذر ، وكبَّة القفا هي التي لا تعيب الإنسان في حضوره ، وتعيبه وتذمه في غيبته .

والعلم هنا يُراد به العلم المطلق ؛ لأن الكثير من الناس كان يعتقد أن العلم يعني العلم الديني فقط ، لكن العلم هو كل ما يُثري حركة الحياة ، والعلم علمان:

.علم ديني ، وهو الذي يقضي على الأهواء ، ويُوحّدها إلى هوىً واحد هو الهَوى الإيماني .

وهذا العلم يتولاّه الخالق سبحانه ، وليس لنا دَخْل فيه ؛ لأن الصانع أَدْرى بصنعته ، وهو الذي يضع لها قانون صيانتها ؛ لأنه يعلم مَا يصلحها ومَا يفسدها .

وكما أنك لا تذهب إلى الجزار ليضع لك قانون صيانة الإنسان إلا من خالقه عز وجل: ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: 14]

وهذا النوع من العلم قال الله تعالى عنه: ﴿ وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ . . ﴾ [الحشر: 7]

.فليس لنا أنْ نتدخَّل فيه ، أو نزيد عليه ؛ لأنه منهج الله الذي جاء بـ " افعل ولا تفعل " ،

وهو منهج لا يقبل الزيادة أو التعديل ، فما كان فيه أمر ونهي فعليك الالتزام به ، وإلا لو خرجت عن هذا الإطار الذي رسمه لك ربك وخالقك فسوف تحدث في الكون فساداً بترك الأمر أو بإتيان النهي . أما الأمور التي تركها الخالق سبحانه ولم يرد في شأنها أمر أو نهي فأنت حر فيها ، تفعل أو لا تفعل .

(266/455)

والمتأمل في شرع الخالق سبحانه يجد أمور التكليف بافعل ولا تفعل قليلة إذا ما قيست بالأمور التي ترك لك الحرية فيها ، إذن: فدع لربك وخالقك والأعلم بك مجالاً يحكم من خلاله حياتك وينظمها لك ، ألا يجد بنا ونحن عباده وصنعته أن نُحكّمه في أمور ديننا ، ونُخرِج أنوفنا مما اختص به سبحانه ؟

.أما النوع الآخر من العلم ، فهو العلم المادي التجريبي الذي لا يخضع للأهواء ، فقد جعله الخالق سبحانه مجالاً للبحث والتسابق ، ومضماراً يجري فيه الجميع ؛ لأنهم في النهاية سيلتقون فيه قَهْراً ورَغْماً عنهم . وقد أعطانا الحق سبحانه وتعالى مثالاً لهذا النوع من العلم ، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ

وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ . . ﴾ [فاطر: 27-28]

فذكر الحق سبحانه أجناس الوجود كلها: الإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد. ثم ختم ذلك بقوله:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ . . ﴾ [فاطر: 28]

فهذه ظواهر الكون، اربَع فيها كما شئت بحثاً ودراسة، وإنْ أحسنتَ الإمعان فيها فسوف تُوصِلك إلى ظواهر أخرى تُثري حياتك وتُرقّيها، فالذي اكتشف عصر البخار، والذي اكتشف العجلة والكهرباء والجاذبية وغيرها لم يخلق جديداً في كَوْن الله، إنما أحسن النظر والتأمّل فتوصّل إلى ما يُريح المجتمع ويُسعده.

لذلك، فالحق سبحانه وتعالى يُحذرنا أن نمرّ على ظواهر الكون في إعراض وغفلة ودون تمعُّن فيها: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: 105]

والذين عبَّروا عن هذه الإنجازات العلمية بكلمة (الاكتشافات) كانوا أمناء في التعبير عن الواقع الفعلي، فهم لم يخلقوا جديداً في الكون، فكلُّ هذه الأشياء موجودة، والفضل لهم في

الاهتداء إليها واكتشافها ، ومن هنا فكلمة (اختراع) ليست دقيقةً في التعبير عن هذه الاكتشافات .

فإذا كان الحق سبحانه نهانا عن تتبُّع ما ليس لنا به علم ، فماذا نتبع ؟ نتبع ما نعلمه وما نتيقن منه من علوم ، فإنْ كانت في الدين تركناها للخالق سبحانه يُقنّنها لنا ، وإنْ كانت في أمور الدنيا أعملنا فيها عقولنا بما ينفعنا ويُثرِي حياتنا ؛ لذلك تكلّم الحق سبحانه بعد ذلك عن وسائل إدراك العلم ، فقال: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولائِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: 36]

وما دام الحق سبحانه قد نهانا عن تتبع مَا لا نعلم ، وأمرنا أن نسير على ضوء ما نعلم من العلم اليقيني فلا بُدّ أنْ يسأل المرءُ عن وسائل العلم هذه ، لأنه لولا وسائل الإدراك هذه ما عَلم الإنسانُ شيئاً ، وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: 78]

وهل يشكر الإنسان إلا على حصيلة أخذها ؟ هذه الحصيلة هي العلم .

وهذه الحواس تُؤدِّي عملها في الإنسان بمجرد أنْ تنشأ فيه ، وبعد أنْ يخرج إلى الحياة ، والبعض يظنّ أن الطفل الصغير لا يفهم إلا عندما يكبر ويستطيع الكلام والتفاهم مع الآخرين ، والحقيقة أن الطفل يدرك ويعي من الأيام الأولى لولادته .

ولذلك، فإن علماء وظائف الأعضاء يقولون: إن الطفل يُولَد ولديْه ملكَاتٌ إدراكية سمّاها العلماء احتياطاً "الحواس الخمس الظاهرة"، وقد كان احتياطهم في محله لأنهم اكتشفوا بعد ذلك حواس أخرى، مثل حاسة العضل مثلاً التي نُميِّز بها بين الخفيف والثقيل.

(268/455)

وإنْ كانت حواس الإنسان كثيرة فإن أهمها: السمع والبصر، وقد وردت في القرآن بهذا الترتيب، السمع أولاً، ثم البصر لأن السمع يسبق البصر، فالإنسان بمجرد أنْ يُولَد تعمل عنده حاسّة السمع، أما البصر فإنه يتخلّف عن السمع لعدة أيام من الولادة، إذن: فهو أسبق في أداء مهمته، هذه واحدة.

الأخرى: أن السمع هو الحاسّة الوحيدة التي تُؤدّي مهمتها حتى حال النوم، وفي هذا حكمة بالغة للخالق سبحانه، فبالسمع يتم الاستدعاء من النوم.

وقد أعطانا الخالق سبحانه صورة واضحة لهذه المسألة في قصة أهل الكهف، فلما أراد سبحانه أن يناموا هذه السنين الطوال ضرب على آذانهم وعطّل حاسة السمع لديهم، وإلاّ لَمَا تمكَّنوا من النوم الطويل، ولأزعجتهم الأصوات من خارج الكهف. فقال تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾[الكهف: 11]

ولم يسبق البصر السمع إلا في آية واحدة في كتاب الله تعالى وهي: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا . . ﴾ [السجدة: 12]

والحديث هنا ليس عن الدنيا ، بل عن الآخرة ، حيث يفزع الناس من هَوْلها فيقولون: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً . . ﴾ [السجدة: 12] لأنهم في الآخرة أبصروا قبل أن يسمعوا .

فالسمع أوّل الحواس ، وهو أهمها في إدراك المعلومات ، حتى الذي يأخذ معلوماته بالقراءة سمع قبل أن يقرأ ، فتعلّم أولاً بالسماع ألف باء ، فالسمع أولاً في التعلُّم ، ثم يأتي دَوْر البصر . والذي يتتبع الآيات التي ورد فيها السمع والبصر سيجدها جاءت بإفراد السمع وجمع البصر ، مثل قوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ . . ﴾ [السجدة: 9] إلا في هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها جاءت: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: 36]

لماذا ؟ وما الحكمة من إفرادها هنا بالذات ؟

وقبل أن نُوضّح الحكمة هنا يجب أن نعي أن المتكلم هو الله تعالى، وما دام المتكلم هو الله فلا بُدَّ أن تجد كل كلمة دقيقة في موضعها، بليغة في سياقها.

فالسمع جاء بصيغة الإفراد؛ لأنه لا يتعدد فيه المسموع بالنسبة للسامع، فإذا حدث الآن صوت نسمعه جميعاً، فهو واحد في جميع الآذان.

أما البصر فهو خلاف ذلك؛ لأن أمامنا الآن مرائيَ متعددة ومناظر مختلفة، فأنت ترى شيئاً، وأنا أرى شيئاً آخر، فَوحْدة السمع لا تنطبق على البصر؛ لذلك أفرد السمع وجاء البصر بصيغة الجمع.

أما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ.. ﴾ [الإسراء: 36] فقد ورد البصر هنا مفرداً؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يتحدث عن المسئولية، مسئولية كل إنسان عن سَمْعه وبصره، والمسئولية أمام الحق سبحانه وتعالى فردية لا يُسأل أحد عن أحد، بل يُسأل عن نفسه فحَسْب، فناسب ذلك أنْ يقول: السمع والبصر؛ لأنه سيُسأل عن بصر واحد وهو بصره.

فالإنسان - إذن - مسئول عن سَمْعه وبصره وفؤاده من حيث التلقِّي، تلقّي القضايا العلمية التي سنسير عليها في حركة حياتنا، وكذلك من حيث الإعطاء، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول للأذن: لا تسمعي إلا خيراً، ولا تتلقيْ إلا طيّباً، ويا مُربِّي النشء لا تُسْمِعه إلا ما يدعو إلى فضيلة، ولا تعط لأذنه إلا ما يصلح حياته ويُثريها.

ويقول للعين: لا ترَىْ إلا الحلال لا يهيج غرائزك إلى الشهوات ، ويا مُرِبِّي النشء احجب عنه ما يثير الغرائز ويفسد الحياة ؛ وبذلك نربي في المجتمع المعلومات الصحيحة التي تنبني عليها حركة حياته .

وما دُمْتَ مسئولاً عن أعضائك هذه المسئولية ، ومحاسباً عنها ، فإياك أنْ تقولَ: سمعت وأنت لم تسمع ، وإياك أنْ تقولَ: رأيت وأنت لم ترَ ، إياك أنْ تتعرّض لشهادة تُدلي فيها بغير ما تعلم وتتيقن . أو تتبنّى قضية خاطئة وتبني عليها حركة حياتك ؛ لأن المبنّي على مقدمات فاسدة ينتج عنه نتائج فاسدة ، وما بُني على مقدمات صحيحة أنتج النتيجة الصحيحة .

وجماع هذا كله في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . . ﴾ [الإسراء: 36]

لماذا ؟ لأنك محاسب على علمك هذا وعلى وسائل إدراكه لديك: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَائِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: 36] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34) ﴾

وأخرج ابن جرير ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ قال : كانوا لا يخالطونهم في مال ، ولا مأكل ، ولا مركب ، حتى نزلت ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ [البقرة : 220] .

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً ﴾ قال : يوم أنزلت هذه كان إنما يسأل عنه ، ثم يدخل الجنة ، فنزلت ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ﴾ [آل عمران : 77] .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله : ﴿ إن العهد كان مسؤولاً ﴾ قال : يسأل الله ناقض العهد عن نقضه .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله : ﴿ إن العهد كان مسؤولاً ﴾

قال : لا يسأل عهده من أعطاه إياه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ميمون بن مهران رضي الله عنه قال : ثلاث تُؤدى إلى البر والفاجر ، العهد يوفى إلى البر والفاجر ، وقرأ ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن كعب الأحبار رضي الله عنه قال : من نكث بيعة ، كانت ستراً بينه وبين الجنة . قال : وإنما تهلك هذه الأمة بنكثها عهودها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ﴾ يعني لغيركم ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ يعني الميزان . وبلغة الروم الميزان القسطاس ﴿ ذلك خير ﴾ يعني وفاء الكيل والميزان خير من النقصان ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ عاقبة .

(272/455)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ أي خير ثواباً وعاقبة . وأخبرنا أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقول : يا معشر الموالي ، إنكم وليتم أمرين : بهما هلك الناس قبلكم ، هذا المكيال ، وهذا الميزان . قال : وذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : " لا

يقدر رجل على حرام ، ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله ، إلا أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك " .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه قال : ﴿ القسطاس ﴾ العدل بالرومية .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن قتادة ﴿ وزنوا بالقسطاس ﴾ قال : العدل .

وأخرج ابن المنذر ، عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ وزنوا بالقسطاس ﴾ قال : القبان .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن رضي الله عنه ﴿ وزنوا بالقسطاس ﴾ قال : بالحديد والله أعلم .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولا تقْفُ ﴾ قال : لا تقل .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ يقول : لا ترم أحداً بما ليس لك به علم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن الحنفية – رضي الله عنه – في قوله : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ قال : شهادة الزور .

وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي رضي الله عنه في قوله: ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ قال: هذا في الفرية. يوم نزلت الآية لم يكن فيها حد، إنما كان يسأل عنه يوم القيامة، ثم يغفر له حتى نزلت هذه آية الفرية جلد ثمانين.

(273/455)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه في قوله: ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ يقول: سمعه وبصره يشهد عليه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر، عن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ قال: لا تقل سمعت، ولم تسمع، ولا تقل: رأيت، ولم تر، فإن الله سائلك عن ذلك كله.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن عمرو بن قيس رضي الله عنه في قوله: ﴿ كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ قال: يقال للأذن يوم القيامة هل سمعت؟ ويقال للعين: هل رأيت؟ ويقال للفؤاد: مثل ذلك.

وأخرج الفريابي، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ قال: يوم القيامة، يقال أكذاك كان أم لا؟.

وأخرج الحاكم وصححه ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة وهو منها بريء ، كان حقاً على الله أن يذيبه يوم القيامة في النار ، حتى يأتي بنفاذ ما قال " .

وأخرج أبو داود وابن أبي الدنيا في الصمت ، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : " من حمى مؤمناً من منافق ، بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن قفا مؤمناً بشيء يريد شينه ، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(274/455)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إنَّ العهد كانَ مَسْؤُولاً ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّ الأصلَ على حَذْفِ مضافٍ ، أي : إن ذا العهدِ كان مسؤولاً عن الوفاءِ بعهده . والثاني : أن الضميرَ يعود على

العهدِ ، ونَسَبَ السؤالَ إليه مجازاً كقوله : ﴿ وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ ﴾ [التكوير : 8] .

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) ﴾

قوله تعالى : ﴿ بالقسطاس ﴾ : قرأ الأخوانِ وحفصٌ بكسر القافِ هنا وفي سورة الشعراء بكسر القاف ، والباقون بضمّها فيهما ، وهما لغتان مشهورتان ، وهو القَرَسْطُون . وقيل : هو كل ميزان . قال ابن عطية : " واللفظةُ للمبالغة من القِسْط " . وردَّه الشيخ باختلافِ المادتين ، ثم قال : " إلا أَنْ يَدَّعيَ زيادةَ السين آخراً كقُدْموس ، وليس من مواضع زيادتها " . ويقال بالسين والصاد . قال بعضُهم : هو روميٌّ معرَّبٌ .

والمَحْسُور : المنقطعُ السيرِ ، حَسَرْتُ الدابة : قَطَعْتُ سيرَها ، وحَسير : أي : كليل تعبانُ بمعنى مَحْسُور ، والجمع " حَسْرى قال :

3060- بها جِيَفُ الحَسْرى فأمَّا عِظَامُها . . . فبِيْضٌ وأمَّا جِلْدُها فَصَلِيْبُ

وحَسَرَ عن كذا : كشف عنه ، كقوله :

3061- . . . . يَحْسِرُ الماءُ تارةً . . . .

. . . .

قوله : " تأويلاً " منصوب على التفسير . والتأويلُ : المَرْجِعُ مِنْ آلَ يؤول ، أي : أحسن عاقبةً .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْفُ ﴾ : العامَّةُ على هذه القراءةِ ، أي : لا تَتَّبِعْ ، مِنْ قفاه يقفوه إذا تتبَّع أثرَه ، قال النابغة :

3062- ومثل الدُّمى شُمُّ العَرانينِ ساكنٌ . . . بهنَّ الحياءُ لا يُشِعْنَ التَّقافيا

وقال الكميت :

3063- فلا أَرْمي البريْءَ بغيرِ ذنبٍ . . . ولا أَقْفو الحواصِنَ إنْ قُفِيْنا

وقرأ زيدُ بن عليّ : " ولا تَقْفُو " بإثباتِ الواو ، وقد تقدَّم أن إثباتَ حرفِ العلةِ جزماً لغةُ قوم ، وضرورةٌ عندهم غيرهم كقوله :

3064- . . . . مِنْ هَجْوِ

زَبَّانَ لم تَهْجُو ولم تَدَعِ

وقرأ معاذ القارئ " ولا تَقُفْ " بزنةِ تَقُلْ ، مِنْ قاف يَقُوف ، أي : تَتَبَّع أيضاً ، وفيه قولان : أحدُهما : أنه مقلوبٌ مِنْ قفا يَقْفُو ، والثاني - وهو الأظهرُ - أنه لغةٌ مستقلةٌ جيدة كجَبَذَ

وجَذَب ، لكثرة الاستعمالين ، ومثله : قَعا الفحلُ الناقةَ وقاعَها .

قوله : " والفُؤادَ " قرأ الجَرَّاح العقيلي بفتح الفاء وواوٍ خالصة . وتوجيهُها : أنه أبدل الهمزةَ واواً بعد الضمة في القراءةِ المشهورة ، ثم فتح فاءَ الكلمة بعد البدلِ لأنها لغةٌ في الفؤاد ، يقال : فُؤَاد وفَآد ، وأنكرها أبو حاتمٍ ، أعني القراءةَ ، وهو معذورٌ .

والباء في " به " متعلقةٌ بما تَعَلَّق به " لك " ولا تتعلَّق ب " عِلْم " لأنه مصدر ، إلا عند مَنْ يتوسَّع في الجارّ .

قوله : " أولئك " إشارة إلى ما تقدَّم من السمعِ والبصر والفؤادِ كقوله :

3065- ذُمَّ المنازلَ بعد منزلةِ اللِّوَى . . . والعيشَ بعد أولئك الأيامِ

(276/455)

ف " أولئك " يُشار به إلى العقلاءِ وغيرِهم من الجموع . واعتذر ابنُ عطيةَ عن الإشارةِ به لغير العقلاءِ فقال : " وعَبَّر عن السمعِ والبصَرِ والفؤاد ب " أولئك " لأنها حواسُّ لها إدراكٌ ، وجعلها في هذه الآيةِ مسؤولةً فهي حالةُ مَنْ يَعْقِلُ ، ولذلك عَبَّر عنها بكنايةِ مَنْ يَعْقِلُ ، وقد قال سيبويه - رحمه الله - في قوله ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] إنما قال " رأيتُهم " في نجوم ؛ لأنه لَمَّا وصفها بالسجود - وهو فِعْلُ مَنْ يَعْقِل - عَبَّر عنها بكنايةِ مَنْ

يَعْقِلُ . وحكى الزجاج أنَّ العرب تُعَبِّر عَمَّن يَعْقِل وعَمَّن لا يَعْقِل ب " أولئك " ، وأنشد هو والطبري :

- ذمَّ المنازلَ بعد منزلةِ اللَّوى . . . والعيشَ بعد أولئكَ الأيامِ

وأمَّا حكايةُ أبي إسحاقَ عن اللغةِ فأمرٌ يُوْقَفُ عنده ، وأمَّا البيتُ فالروايةُ فيه " الأقوامِ " . ولا حاجةَ إلى هذا الاعتذارِ لما عرفْتَ . وأمَّا قولُه : إنَّ الروايةَ : " الأقوامِ " فغيرُ معروفةٍ والمعروفُ إنما هو " الأيَّام " .

قوله : ﴿ كُلُّ أولئك ﴾ مبتدأٌ ، والجملةُ مِنْ "كان " خبرُه ، وفي اسمِ "كان " وجهان ، أحدُهما : أنه عائدٌ على "كل " باعتبارِ لفظِها ، وكذا الضميرُ في " عنه " ، و " عنه " متعلقٌ ب " مَسْؤولاً " ، و " مسؤولاً " خبرُها .

والثاني : أنَّ اسمَها ضميرٌ يعود على القافي ، وفي " عنه " يعودُ على "كل " وهو من الالتفاتِ ؛ إذ لو جرَى على ما تقدَّم لقيل : كنتَ عنه مسؤولاً . وقال الزمخشريُّ : و " عنه " في موضع الرفع بالفاعلية/ ، أي : كلُّ واحدٍ كان مسؤولاً عنه ، فمسؤول مسندٌ إلى الجارِّ والمجرور كالمغضوب في قوله : ﴿ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِم ﴾ [الفاتحة : 7] . انتهى . وفي تسميته مفعولَ ما لم يُسَمَّ فاعله فاعلاً خلافُ الاصطلاح .

وقد رَدَّ الشيخ عليه قولَه : بأنّ القائمَ مقامَ الفاعلِ حكمُه حكمُه ، فلا يتقدَّم على رافعِه كأصلِه . وليس لقائلٍ أَنْ يقولَ : يجوز على رأيِ الكوفيين فإنَّهم يُجيزون تقديمَ الفاعلِ ؛ لأنَّ النحاس حكى الإِجماعَ على عدمِ جوازِ تقديمِ القائمِ مقامَ الفاعل إذا كان جارّاً ومجروراً ، فليس هو نظيرَ قولِه ﴿ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِم ﴾ فحينئذٍ يكون القائمُ مقامَ الفاعلِ الضميرَ المستكنَّ العائدَ على "كل" أو على القافي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 354.350 ﴾

(278/455)

فصل

قال القرطبى :

باب ما يسأل عنه العبد وكيفية السؤال

قال الله تعالى : إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا

وقال : ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون وقال قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم أي ما عملتموه . وقال فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره

أي يسأل عن ذلك ويجازي عليه والآيات في هذا المعنى كثيرة وقال ثم لتسألن يومئذ عن النعيم .

الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية لتسألن يومئذ عن النعيم قال الناس يا رسول الله : عن أي نعيم نسأل فإنما هما الأسودان والعدو حاضر وسيوفنا على عواتقنا ؟ قال : إن ذلك سيكون وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة يعني العبد أن يقال له ألم أنصح لك جسمك ونرويك من الماء البارد قال الترمذي : حديث غريب .

وخرج أبو نعيم الحافظ من حديث الأعمش ، عن أبي وائل شفيق عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من عبد يخطو خطوة إلا سئل عنها ما أراد بها

مسلم عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ؟ وعن جسده فيما أبلاه ؟ وعن عمله ما عمل فيه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيما أنفقه ؟ خرجه الترمذي ، وقال فيه : حديث حسن صحيح ، رواه عن ابن عمر عن ابن مسعود رضي الله عنهما عن النبي ، وقال فيه : حديث غريب لا أعرفه إلا من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا من حديث الحسين بن قيس ، والحسين يضعف في الحديث .

وفي الباب عن أبي برزة وأبي سعيد ، قلت : ومعاذ بن جبل أخبرناه الشيخ الراوية أبو محمد

عبد الوهاب بثغر الإسكندرية قراءة عليه ، قال : قرأ على البيهقي وأنا أسمع قال : حد ثنا الحاجب أبو الحسن علي بن محمد بن علي العلاف ببغداد سنة أربع و

سبعين وأربعمائة ، قال : أخبرنا أبو القاسم عبد الملك بن محمد بن بشران المعدل ، قال : حد ثنا أبو بكر محمد بن الحسين الآجري بمكة في شوال سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة قال : أخبرنا أبو سعيد الفضل بن محمد الجندي إملاء في المسجد الحرام سنة تسع وتسعين ومائتين قال : أخبرنا صامت بن معاذ الجندي ، أخبرنا عبد الحميد ، عن سفيان بن سعيد الثوري ، عن صفوان بن سليم ، عن عدي بن عدي ، عن الصالحي ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ؟ وعن شبابه فيما أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيما أنفقه ؟ وعن عمله ماذا عمل فيه ؟ .

وخرج الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب ، أخبرنا أحمد بن خالد الحلبي ، أخبرنا يوسف بن يونس الأفطس قال : أخبرنا سليمان بن بلال ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا كان

يوم القيامة دعا الله بعبد من عباده فيوقفه بين يديه فيسأله عن جاهه كما يسأله عن عمله .

مسلم عن صفوان بن محرز قال : قال رجل لابن عمر رضي الله عنه . كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى ؟ قال : سمعته يقول : يدنى المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه ، فيقول هل تعرف ؟ فيقول : رب أعرف . قال فيقول : إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . قال : فيعطى صحيفة حسناته ، وأما الكفار والمنافقون ، فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله . أخرجه البخاري وقال في آخره : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين .

وروي من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم القيامة خلا الله عز وجل بعبده المؤمن يوقفه على ذنوبه ذنباً ذنباً ، ثم

يغفر الله له لا يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل وستر عليه من ذنوبه ما يكرهه أن يقف عليها ثم يقول لسيئاته كوني حسنات .

قال المؤلف : خرجه مسلم بمعناه وسيأتي آنفاً إن شاء الله تعالى .

وخرج أبو القاسم إسحاق بن إبراهيم الختلي في كتاب الديباج له . حدثنا هارون بن عبد

الله قال : حدثنا سيار قال : قال جعفر قال : حدثنا أبو عمران الجوني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : يدني الله العبد منه يوم القيامة ويضع عليه كفنه فيستره من الخلائق كلها ويدفع إليه كتابه في ذلك الستر فيقول له : اقرأ يا ابن آدم كتابك قال : فيمر بالحسنة فيبيض لها وجهه ، ويمر بالسيئة فيسود لها وجهه ، قال : فيقول الله تعالى له : أتعرف يا عبدي ؟ قال : فيقول نعم يا رب أعرف ، قال : فيقول : إني أعرف بها منك ، قد غفرتها لك ، قال : فلا تزال حسنة تقبل فيسجد وسيئة تغفر فيسجد ، فلا يرى الخلائق منه إلا ذلك حتى ينادي الخلائق بعضها بعضاً طوبى لهذا العبد الذي لم يعص قط ولا يدرون ما قد لقي فيما بينه وبين الله تعالى مما قد وقفه عليه .

قلت : نسخة من هنا إلى الفصل قوله لا يزول ، أخبرنا الشيخ الراوية القرشي عبد الوهاب قراءة عليه بثغر الإسكندرية حماه الله ، قال : قرئ على الحافظ السلفي ، وأنا أسمع . قال : حدثنا الحاجب أبو الحسن بن العلاء ، وقال : أخبرنا أبو القاسم بن بشران ، أخبرنا الأجري ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن موسى السونيطي ، حدثنا أحمد بن أبي رجاء المصيصي ، حدثنا وكيع بن الجراح ، حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وتخبأ كبارها ، فيقال له : عملت يوم كذا وكذا كذا

وكذا ثلاث مرات ، قال : وهو يقر ليس ينكر قال : وهو مشفق من الكبائر أن تجيء قال : فإذا أراد الله به خيراً قال : أعطوه مكان كل سيئة

حسنة ، فيقول حين طمع : يا رب إن لي ذنوباً ما رأيتها ها هنا ، قال : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه . ثم تلا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات خرجه مسلم في صحيحه عن محمد بن عبد الله بن نمير قال : حدثنا الأعمش فذكره .

فصل : قوله لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل : عام لأنه نكرة في سياق النفي لكنه مخصوص بقوله عليه السلام ، يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب على ما يأتي .

وبقوله تعالى لمحمد عليه السلام : أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن ، وقد تقدم الحديث .

وبقوله تعالى : يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام .

قوله عليه السلام : وعن عمله ما عمل فيه .

قلت : هذا مقام مخوف لأنه لم يقل وعن عمله ما قال فيه ، وإنما قال ما عمل فيه فلينظر العبد

ما عمل فيما علمه هل صدق الله في ذلك وأخلصه حتى يدخل فيمن أثنى الله عليه بقوله : أولئك الذين صدقوا أو خالف علمه بفعله فيدخل في قوله تعالى : فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب الآية وقوله تعالى : أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب وقوله : يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . والأخبار في هذا المعنى كثيرة ، وسيأتي ذكرها في أبواب النار إن شاء الله تعالى ، قوله : حتى يضع عليه كنفه أي ستره ولطفه وإكرامه فيخاطب خطاب الملاطفة ويناجيه مناجاة المصافاة والمحادثة فيقول : هل تعرف ؟ فيقول : رب أعرف ، فيقول الله تعالى : ممتنا عليه ومظهراً فضله لديه : فإني قد سترتها عليك في الدنيا أي لم أفضحك بها فيها ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم قيل هذه الذنوب تاب منها . كما ذكره أبو نعيم عن الأوزاعي عن هلال بن سعد قال : إن الله يغفر الذنوب ولكن لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقفه عليها يوم القيامة وإن تاب منها .

قال المؤلف : و

لا يعارض هذا ما في التنزيل والحديث من أن السيئات تبدل بالتوبة حسنات ، فلعل ذلك يكون بعد ما يوقفه عليها والله أعلم .

وقيل في صغائر اقترفها ، وقيل كبائر بينه وبين الله تعالى اجترحها ، وأما ما كان بينه وبين العباد فلا بد فيها من القصاص بالحسنات والسيئات على ما يأتي ، وقيل : ما خطر بقلبه ما لم يكن في وسعه ويدخل تحت كسبه ، ويثبت في نفسه وإن لم يعلمه ، وهذا اختيار الطبري والنحاس وغير واحد من العلماء جعلوا الحديث مفسراً لقوله تعالى : وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فتكون الآية على هذا محكمة غير منسوخة والله أعلم .

وقد بينا في كتاب جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة ، وآي القرأن والحمد لله .

وروي عن ابن مسعود أنه قال : ما ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستر الله عليه في الآخرة ، وهذا مأخوذ من حديث النجوى ، ومن قوله عليه السلام : يستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة خرجه مسلم .

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : [من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة] ، وروى [من ستر على مسلم عورته ، ستر الله عورته يوم القيامة] ، قال أبو حامد : فهذا إنما يرجوه عبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تقصيرهم . ولم يحرك لسانه بذكر مساوئ الناس ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه

، فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة .

فصل : وفي قوله : [سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم] نص منه تعالى على صحة قول أهل السنة في ترك إنفاذ الوعيد على العصاة من المؤمنين ، والعرب تفتخر بخلف الوعيد حتى قال قائلهم :

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتي ولا أختشى من روعة المتهدد

وإني متى أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

قال ابن العربي : إنه كذلك عند العرب ، وأما ملك الملوك القدوس الصادق فلا

يقع أبداً خبره إلا على وفق مخبره كان ثوابا أو عقاباً ، فالذي قال المحققون في ذلك قول بديع ، وهو أن الآيات وقعت مطلقة في الوعد والوعيد عامة فخصصتها الشريعة ، وبينها الباري تعالى في كتابه في آيات أخر ، كقوله : إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله تعالى : وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم الآية وكقوله تعالى : حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا

هو وبالشفاعة التي أكرم الله بها صلى الله عليه وسلم ومن شاء من الخلق من بعده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التذكرة فى أحوال الموتى صـ 299 . 204 ﴾

(284/455)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34) ﴾

لَمَّا لم يكن لليتيم مَنْ يهتم بشأنه أَمَرَ - سبحانه - الأجنبيَّ الذي ليس بينه وبين اليتيم سَبَبٌ أَنْ يتولَّى أمرَه ، ويقومَ بشأنِ ، وأوصاه في بابه ؛ فالصبيُّ قاعد بصفة الفراغ والهوينى ، والوليُّ ساعٍ بمقاساة العنا .

فأَمْرُ الحقّ - سبحانه - للوليّ أَحْظَى للصبيّ مِنْ شفقةِ آله عليه في حال حياتهم .

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) ﴾

كما تدين تدان ، وكما تعامِل تُجازَى ، وكما تكيل يُكَال لكَ ، وكما تكونون يكون عليكم ، ومَنْ وَفَى وفَوْا له ، ومَنْ خان خانوا معه ، وأنشدوا :

أسَأْنا فساءوا . . عَدْلٌ بلا حيفٍ . . . ولو عَدَلْنا لَخَلَّصْنا من المِحَنِ

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) ﴾

إذا غَلَبتْ عليكَ مُجوّزَاتُ الظنونِ ، ولم يُطْلِعْكَ الحقُّ على اليقين فلا تتكلف الوقوف عليه من غير برهان ، وإذا أُشْكِلَ عليك شيءٌ من أحكام الوقت فارجعْ إلى الله ، فإِنْ لاحَ لقلبك وَجْهٌ من الدليل على حَدِّ الالتباس فَكِلْ عِلْمَه إلى الله ، وقِفْ حيثما وقفت .

ويقال الفرق بين من قام بالعلم وبين من قام بالحق أَنَّ العلماءَ يعرفون الشيءَ أولاً ثم يعلمون بعلمهم ، وأصحابُ الحقِّ يجْري عليهم بحكم التصريف شيءٌ لا عِلْمَ لهم به على التفصيل ، وبعد ذلك يُكشَفُ لهم وجهُه ، وربما يجري على ألسنتهم شيءٌ لا يدرون وَجْهَه ، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهانُ ما قالوه ، ودليلُ ما نطقوا به من شواهد العلم .

(285/455)

قوله : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ ﴾ هذه أمانة الحق – سبحانه – عند العبد ، وقد تقدم في بابها بما أوضحته ببراهين الشريعة .

ومَنْ استعمل هذه الجوارح في الطاعات ، وصانها عن استعمالها في المخالفات فقد سَلَّم

الأمانة علة وصف السلامة ، واستحق المدحَ والكرامة . مَنْ دَنَّسَها بالمخالفات فقد ظهرت عليه الخيانة ، واستوجب الملامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 348.347 ﴾

(286/455)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والخمسون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/456)

الجزء السادس والخمسون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 37 ﴾ من سورة الإسراء

وحتى الآية ﴿ 44 ﴾ من نفس السورة

(4/456)

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (39) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الكبر والأنفة أعظم موقف عن العلم الداعي إلى كل خير ، ومرض بمرض الجهل الحامل على كل شر ، قال تعالى : ﴿ ولا تمش ﴾ أي مشياً ما ، وحقق المعنى بقوله تعالى : ﴿ في الأرض ﴾ أي جنسها ﴿ مرحاً ﴾ وهو شدة الفرح التي يلزمها الخيلاء ، لأن ذلك من رعونات النفس بطيش الهوى وداعي الشهوة وما طبعت عليه من النقائص ، فإنه لا يحسن إلا بعد بلوغ جميع الآمال التي تؤخذ بالجد ولن يكون ذلك لمخلوق ، ولذلك علله بقوله تعالى : ﴿ إنك لن تخرق ﴾ أي ولو بأدنى الوجوه ﴿ الأرض ﴾ أي تقطعها سيراً من مكانك إلى طرفها ﴿ ولن تبلغ ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ الجبال طولاً ﴾ أي طول الجبال كلها بالسير فيها ، فإذا كنت تعجز في قدرتك وعلمك عن خط مستقيم من عرض الأرض مع الجد والاجتهاد وعن التطاول على أوتادها فبماذا تفخر ؟ وبأيّ شيء تتكبر حتى تتبختر ؟ وذلك من فعل من بلغ جميع ما أمل ؛ ثم عظم جميع ما مضى من المنهيات وأضداد المأمورات بقوله تعالى : ﴿ كل ذلك ﴾ أي الأمر البعيد من المكارم ﴿ كان ﴾ أي كوناً غير مزايل .

(5/456)

ولما كانت السيئة قد صارت في حكم الأسماء كالإثم والذنب وزال عنها حكم الصفات ، حملها على المذكر ووصفها به فقال تعالى : ﴿ سيئه ﴾ وزاد بشاعته بقوله تعالى :

﴿ عند ربك ﴾ أي المحسن إليك إحساناً لا ينبغي أن يقابل عليه إلا بالشكر ﴿ مكروهاً ﴾ أي يعامله معاملة المكروه من النهي عنه والذم لفاعله والعقاب ، والعاقل لا يفعل ما يكرهه المحسن إليه حياء منه ، فإن لم يكن فخوفاً من قطع إحسانه ، وخضوعاً لعز سلطانه ، ويجوز أن يكون المراد بهذا الإفراد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إشارة إلى أنه لا يقدر أحد غيره على امتثال هذا المعنى على ما ينبغي ، لأنه لا يعلم أحد العلم على ما هو عليه سواء ، ولأن الرأس إذا خوطب بشيء كان الأتباع له أقبل وبه أعنى .

ولما تمت هذه الأوامر والزواجر على هذا الوجه الأحكم والنظام الأقوم ، أشار إلى عظيم شأنه ومحكم إتقانه بقوله على طريق الاستئناف ، تنبيهاً للسامع على أن يسأل عنه :

﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العالي جداً ﴿ مما أوحى ﴾ أي بعث في خفية ﴿ إليك ربك ﴾ أي المحسن إليك ﴿ من الحكمة ﴾ التي لا يستطاع نقضها ولا الإتيان بمثلها من الدعاء إلى الخير والنهي عن الشر ، ومن حكمة هذه الأشياء المشار إليها من الأوامر والنواهي أنها لم تقبل النسخ في شريعة من الشرائع ، بل كانت هكذا في كل ملة .

ولما بين أن الجهل سبب لكل سوء ، وكان الشرك أعظم جهل ، أتبعه – ليكون النهي عنه بدءاً وختاماً ، دلالة على فرط شناعته عطفاً على ما مضى من النواهي – قوله تعالى :

﴿ ولا تجعل ﴾ أو يقدر له ما يعطف عليه نحو : فالزمه ولا تجعل ﴿ مع الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الأمر كله ﴿ إلهاً ﴾ .

ولما كانوا لتعنتهم ربما جعلوا تعداد الأسماء تعداداً للمسميات كما ورد في سبب نزول ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ قال تعالى مع إفهام المعية للغيرية : ﴿ ءاخر ﴾ فإن ذلك أعظم الجهل الذي نهى عن قفوه ﴿ فتلقى ﴾ أي فيفعل بك في الآخرة في الحبس ﴿ في جهنم ﴾ من الإسراع فيه وعدم القدرة على التدارك فعل من ألقى من عال ، حال كونك ﴿ ملوماً ﴾ أي معنفاً على ما فعلت بعد الذم ﴿ مدحوراً ﴾ أي مطروداً بعد الخذلان ، فهذان الوصفان أشنع من وصفي الذم والخذلان في الآية الأولى كما هي سنته تعالى أن يبدأ بالأخف تسليكاً لعباده ، وإنما كان الشرك أجهل الجهل لأن من الواضح أن الإله لا يكون إلا واحداً بالذات فلا ينقسم ، وبالاعتبار فلا يجانس ؛ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح موسى عليه السلام أولها ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً ءاخر ﴾ وهي عشر آيات في التوراة ، جعل فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك ، لأن التوحيد رأس كل حكمة وملاكها ، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذ فيها الحكماء ، وحك بيافوخه السماء ، ما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم ، وهم عن دين الله أضلُّ من النَّعَم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 381.382 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) ﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من الأشياء التي نهى الله عنها في هذه الآيات وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

المرح شدة الفرح يقال : مرح يمرح مرحاً فهو مرح ، والمراد من الآية النهي عن أن يمشي الإنسان مشياً يدل على الكبرياء والعظمة .

قال الزجاج : لا تمش في الأرض مختالاً فخوراً ونظيره قوله تعالى في سورة الفرقان : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ [الفرقان : 63] وقال في سورة لقمان : ﴿ واقصد فِى مَشْيِكَ واغضض مِن صَوْتِكَ ﴾ [لقمان : 19] وقال أيضاً فيها : ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِى الأرض مَرَحاً إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : 18] .

المسألة الثانية :

قال الأخفش : ولو قرئ : ﴿ مَرِحاً ﴾ بالكسر كان أحسن في القراءة .

قال الزجاج : مرحاً مصدر ومرحاً اسم الفاعل وكلاهما جائز ، إلا أن المصدر أحسن ههنا وأوكد ، تقول جاء زيد ركضاً وراكضاً فركضاً أوكد لأنه يدل على توكيد الفعل ، ثم إنه تعالى أكد النهي عن الخيلاء والتكبر فقال : ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً ﴾ والمراد من الخرق ههنا نقب الأرض ، ثم ذكروا فيه وجوهاً : الأول : أن المشي إنما يتم بالارتفاع والانخفاض فكأنه قيل : إنك حال الانخفاض لا تقدر على خرق الأرض ونقبها ، وحال الارتفاع لا تقدر على أن تصل إلى رؤوس الجبال ، والمراد التنبيه على كونه ضعيفاً عاجزاً فلا يليق به التكبر .

الثاني : المراد منه أن تحتك الأرض التي لا تقدر على خرقها .

(8/456)

وفوقك الجبال التي لا تقدر على الوصول إليها فأنت محاط بك من فوقك وتحتك بنوعين من الجماد ، وأنت أضعف منهما بكثير ، والضعيف المحصور لا يليق به التكبر فكأنه قيل له : تواضع ولا تتكبر فإنك خلق ضعيف من خلق الله المحصور بين حجارة وتراب فلا تفعل فعل المقتدر القوي :

ثم قال تعالى : ﴿ كُلُّ ذلك كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبّكَ مَكْرُوهًا ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الأكثرون قرؤا ﴿ سيئة ﴾ بضم الهاء والهمزة وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ سيئة ﴾ منصوبة أما وجه قراءة الأكثرين فظاهر من وجهين :

الوجه الأول : قال الحسن : إنه تعالى ذكر قبل هذا أشياء أمر ببعضها ونهى عن بعضها ، فلو حكم على الكل بكونه سيئة لزم كون المأمور به سيئة وذلك لا يجوز ، أما إذا قرأناه بالإضافة كان المعنى أن ما كان من تلك الأشياء المذكورة سيئة فهو مكروه عند الله واستقام الكلام .

والوجه الثاني : أنا لو حكمنا على كل ما تقدم ذكره بكونه سيئة لوجب أن يقال : إنها مكروهة وليس الأمر كذلك لأنه تعالى قال : ﴿ مَكْرُوهًا ﴾ أما إذا قرأناه بصيغة الإضافة كان المعنى أن سيىء تلك الأقسام يكون مكروهاً ، وحينئذ يستقيم الكلام .

أما قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو : فيها وجوه : الأول : أن الكلام ، تم عند قوله : ﴿ ذلك خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [الإسراء : 35] ثم ابتدأ وقال : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : 36] ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِى الأرض مَرَحًا ﴾ [الإسراء : 37] .

ثم قال : ﴿ كُلُّ ذلك كَانَ سَيّئُهُ ﴾ والمراد هذه الأشياء الأخيرة التي نهى الله عنها .

والثاني : أن المراد بقوله : ﴿ كُلُّ ذلك ﴾ أي كل ما نهى الله عنه فيما تقدم .

وأما قوله : ﴿ مَكْرُوهًا ﴾ فذكروا في تصحيحه على هذه القراءة وجوهاً : الأول : التقدير : كل ذلك كان سيئة وكان مكروهاً .

(9/456)

الثاني : قال صاحب "الكشاف" : السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه ، ولا فرق بين من قرأ سيئة ومن قرأ سيئه .

ألا ترى أنك تقول : الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة ، فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومؤنث .

الثالث : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : كل ذلك كان مكروهاً وسيئة عند ربك .

الرابع : أنه محمول على المعنى لأن السيئة هي الذنب وهو مذكر .

المسألة الثانية :

قال القاضي : دلت هذه الآية على أن هذه الأعمال مكروهة عند الله تعالى ، والمكروه لا يكون مراداً له ، فهذه الأعمال غير مرادة لله تعالى فبطل قول من يقول : كل ما دخل في الوجود فهو مراد لله تعالى .

وإذا ثبت أنها ليست بإرادة الله تعالى وجب أن لا تكون مخلوقة له لأنها لو كانت مخلوقة لله

تعالى لكانت مرادة له لا يقال : المراد من كونها مكروهة أن الله تعالى نهى عنها ، وأيضاً معنى كونها مكروهة أن الله تعالى كره وقوعها وعلى هذا التقدير فهذا لا يمنع أن الله تعالى أراد وجودها ، لأن الجواب عن الأول أنه عدول عن الظاهر ، وأيضاً فكونها سيئة عند ربك يدل على كونها منهياً عنها فلو حملنا المكروه على النهي لزم التكرار .

والجواب عن الثاني : أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية في معرض الزجر عن هذه الأفعال ، ولا يليق بهذا الموضع أن يقال : إنه يكره وقوعها هذا تمام هذا الاستدلال .

والجواب : أن المراد من المكروه المنهي عنه ولا بأس بالتكرير لأجل التأكيد ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

قال القاضي : دلت هذه الآية على أنه تعالى كما أنه موصوف بكونه مريداً فكذلك أيضاً موصوف بكونه كارهاً .

وقال أصحابنا : الكراهية في حقه تعالى محمولة إما على النهي أو على إرادة العدم ، والله أعلم .

﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾

اعلم أنه تعالى جمع في هذه الآية خمسة وعشرين نوعاً من التكاليف .

فأولها : قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلها ءاخرَ ﴾ [الإسراء : 22] وقوله : ﴿ وقضى ربُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إياه ﴾ [الإسراء : 23] مشتمل على تكليفين : الأمر بعبادة الله تعالى ، والنهي عن عبادة غير الله ، فكان المجموع ثلاثة .

وقوله : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ [الإسراء : 23] هو الرابع ، ثم ذكر في شرح ذلك الإحسان خمسة أخرى وهي : قوله : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة وَقُل رَّبّ ارحمهما ﴾ [الإسراء : 23 ، 24] فيكون المجموع تسعة ، ثم قال : ﴿ وَءاتِ ذَا القربى حَقَّهُ والمسكين وابن السبيل ﴾ وهو ثلاثة فيكون المجموع إثني عشر .

ثم قال : ﴿ وَلَا تُبَذّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء : 26] فيصير ثلاثة عشر .

ثم قال : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابتغاء رَحْمَةٍ مّن رَّبّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ وهو الرابع عشر ثم قال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء : 28 ، 29] إلى آخر الآية وهو الخامس عشر ، ثم قال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ ﴾ [الإسراء : 31] وهو السادس عشر ، ثم قال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النفس التى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بالحق ﴾ وهو السابع عشر ثم قال : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيّهِ سلطانا ﴾ وهو الثامن عشر ، ثم قال :

﴿ فَلَا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ ﴾ [الإسراء : 33] وهو التاسع عشر ، ثم قال : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ [الإسراء : 34] وهو العشرون .

(11/456)

ثم قال : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ وهو الحادي والعشرون ، ثم قال : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ [الإسراء : 35] وهو الثاني والعشرون ، ثم قال : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : 36] وهو الثالث والعشرون ، ثم قال : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [الإسراء : 37] وهو الرابع والعشرون ، ثم قال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءاخَرَ ﴾ وهو الخامس والعشرون ، فهذه خمسة وعشرون نوعاً من التكاليف بعضها أوامر وبعضها نواه جمعها الله تعالى في هذه الآيات وجعل فاتحتها قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ [الإسراء : 22] وخاتمتها قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءاخَرَ فَتلقى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ إذا عرفت هذا فنقول : ههنا فوائد :

الفائدة الأولى : قوله : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى كل ما تقدم ذكره من التكاليف وسماها حكمة ، وإنما سماها بهذا الاسم لوجوه : أحدها : أن حاصلها يرجع إلى الأمر بالتوحيد وأنواع

الطاعات والخيرات والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة ، والعقول تدل على صحتها .

فالآتي بمثل هذه الشريعة لا يكون داعياً إلى دين الشيطان بل الفطرة الأصلية تشهد بأنه يكون داعياً إلى دين الرحمن ، وتمام تقرير هذا ما نذكره في سورة الشعراء في قوله : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ على مَن تَنَزَّلُ الشياطين * تَنَزَّلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾

[الشعراء : 221 ، 222] .

وثانيها : أن الأحكام المذكورة في هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية في جميع الأديان والملل ولا تقبل النسخ والإبطال ، فكانت محكمة وحمكة من هذا الاعتبار .

(12/456)

وثالثها : أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، فالأمر بالتوحيد عبارة عن القسم الأول وسائر التكاليف عبارة عن تعليم الخيرات حتى يواظب الإنسان عليها ولا ينحرف عنها ، فثبت أن هذه الأشياء المذكورة في هذه الآيات عين الحكمة ، وعن ابن عباس : أن هذه الآيات كانت في ألواح موسى عليه الصلاة والسلام : أولها : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ الله إلها ءاخَرَ ﴾ [الإسراء : 22] قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الألواح

مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : 145] .

والفائدة الثانية : من فوائد هذه الآية أنه تعالى بدأ في هذه التكاليف بالأمر بالتوحيد ، والنهي عن الشرك وختمها بعين هذا المعنى ، والمقصود منه التنبيه على أن أول كل عمل وقول وفكر وذكر يجب أن يكون ذكر التوحيد ، وآخره يجب أن يكون ذكر التوحيد ، تنبيهاً على أن المقصود من جميع التكاليف هو معرفة التوحيد والاستغراق فيه ، فهذا التكرير حسن موقعه لهذه الفائدة العظيمة ثم إنه تعالى ذكر في الآية الأولى أن الشرك يوجب أن يكون صاحبه مذموماً مخذولاً ، وذكر في الآية الأخيرة أن الشرك يوجب أن يلقي صاحبه في جهنم ملوماً مدحوراً ، فاللوم والخذلان يحصل في الدنيا ، وإلقاؤه في جهنم يحصل يوم القيامة ويجب علينا أن نذكر الفرق بين المذموم المخذول ، وبين الملوم المدحور .

فنقول : أما الفرق بين المذموم وبين الملوم ، فهو أن كونه مذموماً معناه : أن يذكر له أن الفعل الذي أقدم عليه قبيح ومنكر ، فهذا معنى كونه مذموماً ، وإذا ذكر له ذلك فبعد ذلك يقال له لم فعلت مثل هذا الفعل ، وما الذي حملك عليه ، وما استفدت من هذا العمل إلا إلحاق الضرر بنفسك ، وهذا هو اللوم .

فثبت أن أول الأمر هو أن يصير مذموماً ، وآخره أن يصير ملوماً ، وأما الفرق بين المخذول وبين المدحور فهو أن المخذول عبارة عن الضعيف يقال : تخاذلت أعضاؤه أي ضعفت ، وأما المدحور فهو المطرود .

والطرد عبارة عن الاستخفاف والإهانة قال تعالى : ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴾ [الفرقان : 69] فكونه مخذولاً عبارة عن ترك إعانته وتفويضه إلى نفسه ، وكونه مدحوراً عبارة عن إهانته والاستخفاف به ، فثبت أن أول الأمر أن يصير مخذولاً ، وآخره أن يصير مدحوراً ، والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 169 . 172 ﴾

(14/456)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولا تمش في الأرض مَرَحاً ﴾

فيه خمسة أوجه :

أحدها : أن المرح شدة الفرح بالباطل .

الثاني : أنه الخيلاء في المشي ، قاله قتادة .

الثالث : أنه البطر والأشر .

الرابع : أنه تجاوز الإنسان قدره .

الخامس : التكبر في المشي .

﴿ إنّك لن تخرِقَ الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إنك لن تخرق الأرض من تحت قدمك ولن تبلغ الجبال طولاً بتطاولك زجراً له عن تجاوزه الذي لا يدرك به غرضاً .

الثاني : أنه مثل ضربه الله تعالى له ، ومعناه كما أنك لن تخرق الأرض في مشيك ، ولن تبلغ الجبال طولاً فإنك لا تبلغ ما أردت بكبرك وعجبك ، إياساً له من بلوغ إرادته . انتهى .

اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(15/456)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾

قرأ الجمهور " مرَحاً " بفتح الراء مصدر من مرِح يمرَح إذا تسبب مسروراً بدنياه مقبلاً على راحته ، فهذا هو المرح ، فنهي الإنسان في هذه الآية أن يكون مشيه في الأرض على هذا الوجه ، ثم قيل له إنك لن تقطع الأرض وتمسحها بمشيك ، ولن تبلغ أطوال الجبال فتنالها

طولاً ، فإذا كنت لا تستوي في الأرض بمشيك فَقَصْرُكَ نفسك على ما يوجبه الحق من المشي والتصرف أولى وأحق ، وخوطب النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآية والمراد الناس كلهم .

قال القاضي أبو محمد : وإقبال الناس على الصيد ونحوه تنزهاً دون حاجة إلى ذلك داخل في هذه الآية ، وأما الرجل يستريح في اليوم النادر أو الساعة من يومه يجم بها نفسه في التفرج والراحة ليستعين بذلك على شغل من البر كقراءة علم أو صلاة ، فليس ذلك بداخل في هذه الآية ، وقرأت فرقة فيما حكى يعقوب " مرِحاً " بكسر الراء على بناء اسم الفاعل ، وهذا المعنى يترتب على هذه القراءة ، ولكن يحسن معها معنى آخر ذكره الطبري مع القراءة الأولى وهو بهذه القراءة أليق ، وهو أن قوله ﴿ لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ أراد به أنك أيها المرح المختال الفخور لا تخرق الأرض ولا تطاول الجبال بفخرك وكبرك ، وذهب بالألفاظ إلى هذا المعنى ، ويحسن ذلك مع القراءة بكسر الراء من المرح ، لأن الإنسان نهي حينئذ عن التخلق بالمرح في كل أوقاته ، إذ المشي في الأرض لا يفارقه ، فلم ينه إلا عن يكون مرحاً ، وعلى القراءة الأخرى إنما نهي من ليس بمرح عن أن يمشي في بعض أوقاته مرحاً فيترتب في " المرِح " بكسر الراء أن يؤخذ بمعنى المتكبر المختال ، وخرق الأرض قطعها ، والخرق الواسع من الأرض ومنه قول الشاعر : [المتقارب]

وخرق تجاوزت مجهوله . . . بوجناء خرق تشكى الكلالا

ويقال لثقب الأرض ، وليس هذا المعنى في الآية ، ومنه قول رؤبة بن العجاج :

(16/456)

وقاتم الأعماق خاوي المخترق . . . وقرأ الجراح الأعرابي " تخرُق " بضم الراء ، وقال أبو حاتم : لا تعرف هذه اللغة ، وقوله تعالى : ﴿ كل ذلك كان سيئة ﴾ الآية ، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ، وأبو جعفر والأعرج " سيئة " ، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي والحسن ومسروق " سيئه " على إضافة سيىء إلى الضمير ، والإشارة على القراءة الأولى إلى ما تقدم ذكره مما نهي عنه كقول أف وقذف الناس والمرح وغير ذلك ، والإشارة على القراءة الثانية إلى جميع ما ذكر في هذه الآيات من بر ومعصية ، ثم اختص ذكر السيىء منه بأنه مكروه عند الله تعالى ، فأما من قرأ " سيئه " بالإضافة إلى الضمير فإعراب قراءته بين : وسيىء اسم ﴿ كان ﴾ و ﴿ مكروهاً ﴾ خبرها ، وأما من قرأ " سيئة " فهي الخبر ل ﴿ كان ﴾ ، واختلف الناس في إعراب قوله ﴿ مكروهاً ﴾ ، فقالت فرقة هو خبر ثان ل ﴿ كان ﴾ حمله على لفظ كل ، و" سيئة " محمول على المعنى في جميع هذه الأشياء المذكورة قبل ، وقال بعضهم هو نعت ل ﴿ سيئة ﴾ لأنه لما كان

تأنيثها غير حقيقي جاز أن توصف بمذكر .

قال القاضي أبو محمد : وضعف أبو علي الفارسي هذا ، وقال إن المؤنث إذا ذكر فإنما ينبغي أن يكون ما بعده وفقه ، وإنما التساهل أن يتقدم الفعل المسند إلى المؤنث وهو في صيغة ما يسند إلى المذكر ألا ترى أن قول الشاعر : [المتقارب] .

فلا مزنة ودقت ودقها . . . ولا أرض أبقل إبقالها

(17/456)

مستقبح عندهم ، ولو قال قائل ، أبقل أرض لم يكن قبيحاً ، قال أبو علي ولكن يجوز في قوله ﴿ مكروهاً ﴾ أن يكون بدلاً من ﴿ سيئة ﴾ ، قال ويجوز أن يكون حالاً من الذكر الذي في قوله ﴿ عند ربك ﴾ ويكون قوله ﴿ عند ربك ﴾ في موضع الصفة ل ﴿ سيئة ﴾ ، وقرا عبد الله بن مسعود "كان سيئاته" ، وروي عنه "كان سيئات" بغير هاء ، وروي عنه "كان خبيثة" ، وذهب الطبري إلى أن هذه النواهي كلها معطوفة على قوله أولاً : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [الإسراء : 23] وليس ذلك بالبين ، قوله ﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك ﴾ الآية . الإشارة ب ﴿ ذلك ﴾ إلى هذه الآداب التي تضمنتها هذه الآيات المتقدمة أي هذه من الأفعال المحكمة التي تقتضيها حكمة الله في عباده وخلقه لهم

محاسن الأخلاق ، و ﴿ الحكمة ﴾ قوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة ، ثم عطف قوله ﴿ ولا تجعل ﴾ على ما تقدم من النواهي ، والخطاب للنبي عليه السلام ، والمراد كل من سمع الآية من البشر ، و" المدحور " ، المهان المبعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(18/456)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولا تمش في الأرض مرَحاً ﴾

وقرأ الضحاك ، وابن يعمر : "مَرِحاً" بكسر الراء ، قال الأخفش : والكسر أجود ، لأن "مَرِحاً" اسم الفاعل ؛ قال الزجاج : وكلاهما في الجودة سواء ، غير أن المصدر أوكد في الاستعمال ، تقول : جاء زيد ركْضاً ، وجاء زيد راكِضاً ، ف "ركضاً" أوكد في الاستعمال ، لأنه يدل على توكيد الفعل ، وتأويل الآية : لا تمش في الأرض مختالاً فخوراً ، والمرح : الأشر والبطر .

وقال ابن فارس : المرح : شدة الفرح.

قوله تعالى : ﴿ إِنَّك لن تَخْرِقَ الأرض ﴾ فيه قولان .

أحدهما : لن تقطعها إلى آخرها .

والثاني : لن تنفذها وتنقُبها .

قال ابن عباس : لن تَخرق الأرضَ بكِبْرِك ، ولن تبلغ الجبال طولاً بعظَمتك .

قال ابن قتيبة : والمعنى : لا ينبغي للعاجز أن يَبْذَخ ويستكبر .

قوله تعالى : ﴿ كل ذلك كان سَيِّئه ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : "سَيِّئَةً" منوناً غير مضاف ، على معنى : كان خطيئةً ، فعلى هذا يكون قوله : ﴿ كلُّ ذلك ﴾ إشارة إلى المنهيّ عنه من المذكور فقط .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "سَيِّئُهُ" مضافاً مذكَّراً ، فتكون لفظة ﴿ كلّ ﴾ يُشار بها إلى سائر ما تقدم ذِكْره .

وكان أبو عمرو لا يرى هذه القراءة .

قال الزجاج : وهذا غلط من أبي عمرو ، لأن في هذه الأقاصيص سَيِّئاً وحَسَناً ، وذلك أن فيها الأمر ببرِّ الوالدين ، وإيتاء ذي القربى ، والوفاء بالعهد ، ونحو ذلك ، فهذه القراءة أحسن من قراءة مَنْ نصب السَّيِّئة ، وكذلك قال أبو عبيدة : تدبرت الآيات من قوله تعالى :

﴿ وقضى ربك . . .

﴾ فوجدت فيها أموراً حسنة .

وقال أبو علي : من قرأ "سَيِّئَةً" رأى أن الكلام انقطع عند قوله : ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ ، وأن قوله : ﴿ ولا تقف ﴾ لا حُسْنَ فيه.

(19/456)

قوله تعالى : ﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك ﴾ يشير إلى ما تقدم من الفرائض والسنن ، ﴿ من الحكمة ﴾ ، أي : من الأمور المُحْكَمة والأدب الجامع لِكُلِّ خير.

وقد سبق معنى "المدحور" [الأعراف : 18]. انتهى انتهى . ا هـ ﴿زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(20/456)

وقال القرطبى :

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأرض مَرَحاً ﴾ هذا نَهْيٌ عن الخُيَلاء وأمرٌ

بالتواضع .

والمَرَح : شدّة الفرح .

وقيل : التكبر في المشي .

وقيل : تجاوز الإنسان قدره .

وقال قتادة : هو الخيلاء في المشي .

وقيل : هو البطر والأَشَر .

وقيل : هو النشاط .

وهذه الأقوال متقاربة ولكنها منقسمة قسمين : أحدهما مذموم والآخر محمود ؛ فالتكبّر والبَطَر والخُيَلاء وتجاوز الإنسان قدره مذموم والفرح والنشاط محمود .

وقد وصف الله تعالى نفسه بأحدهما ؛ ففي الحديث الصحيح : " لَلَّهُ أفرح بتوبة العبد من رجل . . .

" الحديث .

والكسل مذموم شرعاً والنشاط ضدّه .

وقد يكون التكبر وما في معناه محموداً ، وذلك على أعداء الله والظلمة .

أسند أبو حاتم محمد بن حِبّان عن ابن جابر بن عتيك عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مِن الغَيْرة ما يبغض الله عز وجل ومنها ما يحب الله عز وجل ومن

الخُيَلاء ما يحب الله عز وجل ومنها ما يبغض الله فأما الغيرة التي يحب الله الغَيْرَةُ في الدِّين والغيرة التي يبغض الله الغيرةُ في غير دينه والخيلاء التي يحب الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدقة والاختيال الذي يبغض الله الخيلاء في الباطل" وأخرجه أبو داود في مصنَّفه وغيره.

وأنشدوا:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً . . .

فكم تحتها قوم هُمو منك أرفع

وإن كنتَ في عزٍّ وحِرْزٍ ومَنْعة . . .

فكم مات من قوم هُمو منك أمنع

الثانية: إقبال الإنسان على الصيد ونحوه ترفُّعاً دون حاجة إلى ذلك داخل في هذه الآية، وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنًى.

وأما الرجل يستريح في اليوم النادر والساعة من يومه، يجُمّ فيها نفسه في التطرّح والراحة ليستعين بذلك على شغل من البر، كقراءة علم أو صلاة، فليس بداخل في هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ مَرَحاً ﴾ قراءة الجمهور بفتح الراء.

وقراءة فرقة فيما حكى يعقوب بكسر الراء على بناء اسم الفاعل .

والأوّل أبلغ ، فإن قولك : جاء زيد ركْضاً أبلغ من قولك : جاء زيد راكضاً ؛ فكذلك قولك مَرَحاً .

والمرح المصدر أبلغ من أن يقال مَرِحاً .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرضَ ﴾ يعني لن تتولّج باطنها فتعلم ما فيها ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الجبالَ طُولاً ﴾ أي لن تساوي الجبال بطولك ولا تطاولك .

ويقال : خرق الثوب أي شقه ، وخرق الأرض قطعها .

والخَرْق : الواسع من الأرض .

أي لن تخرق الأرض بكبرك ومشيك عليها .

﴿ وَلَن تَبْلُغَ الجبالَ طُولاً ﴾ بعظمتك ، أي بقدرتك لا تبلغ هذا المبلغ ، بل أنت عبد ذليل ، محاط بك من تحتك ومن فوقك ، والمحاط محصور ضعيف ؛ فلا يليق بك التكبر .

والمراد بخرق الأرض هنا نقبها لا قطعها بالمسافة ؛ والله أعلم .

وقال الأزهري : معناه لن تقطعها .

النحاس : وهذا أبين ؛ لأنه مأخوذ من الخرق وهي الصحراء الواسعة .

ويقال : فلان أخرق من فلان ، أي أكثر سفراً وعزة ومَنعة .

ويروى أن سَبَأ دوّخ الأرض بأجناده شرقاً وغرباً وسَهْلاً وجبلاً ، وقتل سادة وسبى وبه سُمِّي سَبأ ودان له الخلق ، فلما رأى ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيام ثم خرج إليهم فقال : إني لما نلت ما لم ينل أحد رأيت الابتداء بشكر هذه النعم ، فلم أر أوقع في ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت ، فسجدوا لها ، وكان ذلك أوّلَ عبادة الشمس ؛ فهذه عاقبة الخُيَلاء والتكبر والمرَح ، نعوذ بالله من ذلك .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ كُلُّ ذلك كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً ﴾ "ذلك" إشارة إلى جملة ما تقدّم ذكره مما أمر به ونَهى عنه .

و "ذلك" يصلح للواحد والجمع والمؤنث والمذكر .

وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ومسروق "سيئُهُ" على إضافة سَيِّء إلى الضمير ، ولذلك قال : "مَكْرُوهاً" نصب على خبر كان .

والسيِّىء : هو المكروه ، وهو الذي لا يرضاه الله عز وجل ولا يأمر به .

(22/456)

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآي من قوله : "وقَضَى ربُّك إلى قوله كان سيِّئُه" مأمورات بها ومنهيات عنها ، فلا يخبر عن الجميع بأنه سيّئة فيدخل المأمور به في المنهيّ

عنه .

واختار هذه القراءة أبو عبيد .

ولأن في قراءة أُبَيّ "كلُّ ذلِك كان سيئاته" فهذه لا تكون إلا للإضافة .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو "سيئةً" بالتنوين ؛ أي كل ما نهى الله ورسوله عنه سيئة .

وعلى هذا انقطع الكلام عند قوله : "وأَحْسَنُ تَأْوِيلاً" ثم قال : "وَلاَ تَقْفُ ما ليس لَكَ بِهِ عِلْمٌ" ، "وَلاَ تَمْشِ" ، ثم قال : ﴿ كُلُّ ذلك كَانَ سَيِّئَةً ﴾ بالتنوين .

وقيل : إن قوله : "ولا تقتلوا أولادكم" إلى هذه الآية كان سيئةً لا حسنة فيه ، فجعلوا "كلا" محيطاً بالمنهيّ عنه دون غيره .

وقوله : "مكروهاً" ليس نعتاً لسيئة ، بل هو بدل منه ؛ والتقدير : كان سيئة وكان مكروهاً .

وقد قيل : إن "مكروهاً" خبر ثان لكان حمل على لفظة كلّ ، و"سيئة" محمول على المعنى في جميع هذه الأشياء المذكورة قبلُ .

وقال بعضهم : هو نعت لسيئة ؛ لأنه لما كان تأنيثها غير حقيقي جاز أن توصف بمذكر .

وضعّف أبو علي الفارسيّ هذا وقال : إن المؤنث إذا ذُكّر فإنما ينبغي أن يكون ما بعده مذكراً ، وإنما التساهل أن يتقدّم الفعل المسند إلى المؤنث وهو في صيغة ما يسند إلى المذكّر ؛ ألا ترى قولَ الشاعر :

فلا مزنة ودَقَتْ وَدْقَها . . .

ولا أرضَ أبقل إبقالها

مستقبح عندهم .

ولو قال قائل : أبقل أرض لم يكن قبيحاً .

قال أبو عليّ : ولكن يجوز في قوله "مكروهاً" أن يكون بدلاً من "سيئة" .

ويجوز أن يكون حالاً من الضمير الذي في "عند ربك" ويكون "عند ربك" في موضع الصفة لسيئة .

الخامسة : استدلّ العلماء بهذه الآية على ذمّ الرّقْص وتعاطيه .

قال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل : قد نصّ القرآن على النّهي عن الرقص فقال : "ولا تمش في الأرض مَرَحاً" وذم المختال .

والرقصُ أشد المرح والبطر .

(23/456)

أو لسنا الذين قِسْنا النبيذ على الخمر لاتفاقهما في الإطراب والسكر ، فما بالنا لا نقيس القضيب وتلحين الشّعر معه على الطُّنبور والمِزمار والطّبل لاجتماعهما .

فما أقبح من ذي لِحْية ، وكيف إذا كان شيبةً ، يرقص ويصفّق على إيقاع الألحان والقضبان ، وخصوصاً إن كانت أصواتُ لنسوان ومردان ، وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط ، ثم هو إلى إحدى الدّارين ، يَشْمُس بالرقص شمس البهائم ، ويصفّق تصفيق النسوان ، والله لقد رأيت مشايخ في عمري ما بان لهم سِنّ من التبسّم فضلاً عن الضحك مع إدمان مخالطتي لهم .

وقال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله : ولقد حدّثني بعض المشايخ عن الإمام الغزالي رضي الله عنه أنه قال : الرقص حماقة بين الكتفين لا تزول إلا باللعب .

وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في "الكهف" وغيرها إن شاء الله تعالى .

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾

الإشارة ب"ذلك" إلى هذه الآداب والقصص والأحكام التي تضمنتها هذه الآيات المتقدمة التي نزل بها جبريل عليه السلام .

أي هذه من الأفعال المحكمة التي تقتضيها حكمة الله عز وجل في عباده ، وخلقها لهم من محاسن الأخلاق والحكمة وقوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة .

ثم عطف قوله "ولا تجعل" على ما تقدّم من النواهي .

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمرادُ كلُّ من سمع الآية من البشر .

والمدحور : المُهان المبعد المُقْصَى .

وقد تقدّم في هذه السورة .

ويقال في الدعاء : اللهم ادحر عنا الشيطان ؛ أي أبعده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(24/456)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلاَ تَمْشِ فِى الأرض مَرَحًا ﴾

وانتصب ﴿ مرَحاً ﴾ على الحال أي ﴿ مرَحاً ﴾ كما تقول : جاء زيد ركضاً أي راكضاً أو على حذف مضاف أي ذا مرح ، وأجاز بعضهم أن يكون مفعولاً من أجله أي ﴿ ولا تمش في الأرض ﴾ للمرح ولا يظهر ذلك ، وتقدم أن المرح هو السرور والاغتباط بالراحة والفرح وكأنه ضمن معنى الاختيال لأن غلبة السرور والفرح يصحبها التكبر والاختيال ، ولذلك بقوله علل ﴿ إنك لن تخرق الأرض ﴾ .

وقرأت فرقة فيما حكي يعقوب : ﴿ مرحاً ﴾ بكسر الراء وهو حال أي لا تمش متكبراً مختالاً .

قال مجاهد : لن تخرق بمشيك على عقبيك كبراً وتنعماً ، ﴿ ولن تبلغ الجبال ﴾ بالمشي

على صدور قدميك تفاخراً و﴿ طولاً ﴾ والتأويل أن قدرتك لا تبلغ هذا المبلغ فيكون ذلك وصلة إلى الاختيال .

وقال الزجاج : ﴿ لا تمش في الأرض ﴾ مختالاً فخوراً ، ونظيره : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ و﴿ اقصد في مشيك ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ وقال الزمخشري : ﴿ لن تخرق الأرض ﴾ لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها وشدّة وطئك ، ﴿ ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ بتطاولك وهو تهكُّم بالمختال .

وقرأ الجراح الأعرابي : ﴿ لن تخرق ﴾ بضم الراء .

قال أبو حاتم : لا تعرف هذه اللغة .

وقيل : أشير بذلك إلى أن الإنسان محصور بين جمادين ضعيف عن التأثير فيهما بالخرق وبلوغ الطول ومن كان بهذه المثابة لا يليق به التكبر .

وقال الشاعر :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا . . .

فكم تحتها قوم هم منك أرفع

والأجود انتصاب قوله ﴿ طولاً ﴾ على التمييز ، أي لن يبلغ طولك الجبال .

وقال الحوفي : ﴿ طولاً ﴾ نصب على الحال ، والعامل في الحال ﴿ تبلغ ﴾ ويجوز أن يكون العامل تخرق ، و﴿ طولاً ﴾ بمعنى متطاول انتهى .

وقال أبو البقاء : ﴿ طولاً ﴾ مصدر في موضع الحال من الفاعل أو المفعول ، ويجوز أن يكون تمييزاً ومفعولاً له ومصدراً من معنى تبلغ انتهى .

(25/456)

وقرأ الحرميان وأبو عمرو وأبو جعفر والأعرج سيئة بالنصب والتأنيث .

وقرأ باقي السبعة والحسن ومسروق ﴿ سيئة ﴾ بضم الهمزة مضافاً لهاء المذكر الغائب .

وقرأ عبد الله سيئاته بالجمع مضافاً للهاء ، وعنه أيضاً سيئات بغيرها ، وعنه أيضاً كان خبيثه .

فأما القراءة الأولى فالظاهر أن ذلك إشارة إلى مصدري النهيين السابقين ، وهما قفو ما ليس له به علم ، والمشي في الأرض مرحاً .

وقيل : إشارة إلى جميع المناهي المذكورة فيما تقدم في هذه السورة ، وسيئة خبر كان وأنث ثم قال مكروهاً فذكر .

قال الزمخشري : السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب ، والاسم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه ، ولا فرق بين من قرأ سيئة ومن قرأ سيئاً ، ألا تراك تقول : الزنا سيئة كما

تقول السرقة سيئة، فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومؤنث انتهى.

وهو تخريج حسن.

وقيل: ذكر ﴿ مكروهاً ﴾ على لفظ ﴿ كل ﴾ وجوزوا في ﴿ مكروهاً ﴾ أن يكون خبراً ثانياً لكان على مذهب من يجيز تعداد الأخبار لكان، وأن يكون بدلاً من سيئة والبدل بالمشتق ضعيف، وأن يكون حالاً من الضمير المستكن في الظرف قبله والظرف في موضع الصفة.

قيل: ويجوز أن يكون نعتاً لسيئة لما كان تأنيثها مجازياً جاز أن توصف بمذكر، وضعف هذا بأن جواز ذلك إنما هو في الإسناد إلى المؤنث المجازي إذا تقدم، أما إذا تأخر وأسند إلى ضميرها فهو قبيح، تقول: أبقل الأرض إبقالها فصيحاً والأرض أبقل قبيح، وأما من قرأ ﴿ سيئة ﴾ بالتذكير والإضافة فسيئة اسم ﴿ كان ﴾ و ﴿ مكروهاً ﴾ الخبر، ولما تقدم من الخصال ما هو سيء وما هو حسن أشير بذلك إلى المجموع وأفرد سيئة وهو المنهي عنه، فالحكم عليه بالكراهة من قوله لا تجعل إلى آخر المنهيات.

وأما قراءة عبد الله فتخرج على أن يكون مما أخبر فيه عن الجمع إخبار الواحد المذكر وهو قليل نحو قوله:

فإن الحوادث أودى بها . . .

لصلاحية الحدثان مكان الحوادث وكذلك هذا أيضاً كان ما يسوء مكان سيئاته ذلك إشارة إلى جميع أنواع التكاليف من قوله ﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر ﴾ إِلَى قَوله ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ وهي أربعة وعشرون نوعاً من التكاليف بعضها أمر وبعضها نهي بدأها بقوله ﴿ لا تجعل ﴾ .

واختتم الآيات بقوله ﴿ ولا تجعل ﴾ وقال : مما أوحى لأن ذلك بعض مما أوحي إليه إذا أوحى إليه بتكاليف أخر ، و ﴿ مما أوحى ﴾ خبر عن ذلك ، و ﴿ من الحكمة ﴾ يجوز أن يكون متعلقاً بأوحى وأن يكون بدلاً من ما ، وأن يكون حالاً من الضمير المنصوب المحذوف العائد على ما وكانت هذه التكاليف حكمة لأن حاصلها يرجع إلى الأمر بالتوحيد وأنواع الطاعات والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة ، والعقول تدل على صحتها وهي شرائع في جميع الأديان لا تقبل النسخ .

وعن ابن عباس : إن هذه الآيات كانت في ألواح موسى عليه السلام ، أولها ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾ قال تعالى : ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾ وكرر تعالى النهي عن الشرك ، ففي النهي الأول .

﴿ فتقعد مذموماً مخذولاً ﴾ وفي الثاني ﴿ فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ والفرق بين مذموم وملوم أن كونه مذموماً أن يذكر أن الفعل الذي أقدم عليه قبيح منكر ، وكونه ملوماً أن

يقال له بعد الفعل وذمّه لم فعلت كذا وما حملك عليه وما استفذت منه إلاّ إلحاق الضرر بنفسك ، فأول الأمر الذم وآخره اللوم ، والفرق بين مخذول ومدحور أن المخذول هو المتروك إعانته ونصره والمفوض إلى نفسه ، والمدحور المطرود المبعد على سبيل الإهانة له والاستخفاف به ، فأول الأمر الخذلان وآخره الطرد مهاناً .

وكان وصف الذم والخذلان يكون في الدنيا ووصف اللوم والدحور يكون في الآخرة ، ولذلك جاء ﴿ فتلقى في جهنم ﴾ والخطاب بالنهي في هذه الآيات للسامع غير الرسول .

(27/456)

وقال الزمخشري : ولقد جعل الله عز وعلا فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها ، ومن عدِمَه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذّ فيها الحكماء وحك بيافوخه السماء ، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أضل من النعم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(28/456)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلاَ تَمْشِ فِى الأرض ﴾

التقييدُ لزيادة التقرير والإشعارِ بأن المشيَ عليها مما لا يليق بالمرح ﴿ مَرَحاً ﴾ تكبراً وبطراً واختيالاً وهو مصدرٌ وقع موقعَ الحال أي ذا مرحٍ أو تمرح مرحاً أو لأجل المرح ، وقرىء بالكسر ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض ﴾ تعليلٌ للنهي ، وفيه تهكّم بالمختال وإيذانٌ بأن ذلك مفاخرةٌ مع الأرض وتكبرٌ عليها أي لن تخرِقَ الأرض بدَوْسك وشدة وطأتك ، وقرى بضم الراء ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الجبال ﴾ التي هي بعضُ أجزاء الأرض ﴿ طُولاً ﴾ حتى يمكن لك أن تتكبر عليها إذ التكبرُ إنما يكون بكثرة القوة وعِظَم الجثة وكلاهما مفقودٌ ، وفيه تعريضٌ بما عليه المختالُ من رفع رأسه ومشيِه على صدور قدميه .

(29/456)

﴿ كُلُّ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما علم في تضاعيف ذكر الأوامرِ والنواهي من الخِصال الخمس والعشرين ﴿ كَانَ سَيّئُهُ ﴾ الذي نُهي عنه وهي اثنتا عشرة خصلة ﴿ عِنْدَ رَبّكَ مَكْرُوهًا ﴾ مبغضاً غيرَ مَرْضيّ أو غيرَ مراد بالإرادة الأولية لا غيرَ مرادٍ مطلقاً لقيام الأدلةِ القاطعة على أن جميع الأشياء واقعةٌ بإرادته سبحانه وهو تتمةٌ لتعليل الأمور المنهيّ عنها

جميعاً ، ووصفُ ذلك بمطلق الكراهة مع أن البعضَ من الكبائر للإيذان بأن مجردَ الكراهة عنده تعالى كافيةٌ في وجوب الانتهاءِ عن ذلك ، وتوجيهُ الإشارةِ إلى الكل ثم تعيينُ البعض دون توجيهها إليه ابتداءً لما أن البعض المذكورَ ليس بمذكور جملةً بل على وجه الاختلاطِ ، وفيه إشعارٌ بكون ما عداه مرضياً عنده تعالى وإنما لم يصرح بذلك إيذاناً بالغنى عنه ، وقيل : الإضافةُ بيانيةٌ كما في آية الليل وآية النهار ، وقرىء سيئةً على أنه خبرُ كان وذلك إشارةٌ إلى ما نُهي عنه من الأمور المذكورة ومكروهاً بدلٌ من سيئةً أو صفةٌ لها محمولةٌ على المعنى فإنه بمعنى سيئاً ، وقد قرىء به أو مُجرى على موصوف مذكر أي أمراً مكروهاً أو مُجرى مَجرى الأسماءِ زال عنه معنى الوصفية ، ويجوز كونه حالاً من المستكنّ في كان أو في الظرف على أنه صفةُ سيئه ، وقرىء سيئاته ، وقرىء شأنُه .

(30/456)

﴿ ذلك ﴾ أي الذي تقدم من التكاليف المفصلة ﴿ مِمَّا أوحى إِلَيْكَ رَبُّكَ ﴾ أي بعضٌ منه أو من جنسه ﴿ مِنَ الحكمة ﴾ التي هي علمُ الشرائعِ أو معرفةُ الحق لذاته والعملُ به ، أو من الأحكام المحكمة التي لا يتطرق إليها النسخُ والفساد . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآياتِ الثمانيَ عشرةَ كانت في ألواح موسى عليه السلام أولها : ﴿ لاَّ تَجْعَل

مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الالواحِ مِن كُلّ شَىْء مَّوْعِظَةً ﴾ وهي عشرُ آياتٍ في التوراة . ومِنْ إما متعلقةٌ بأوحى على أنها تبعيضيةٌ أو ابتدائيةٌ ، وإما بمحذوف وقع حالاً من الموصول أو من ضميره المحذوفِ في الصلة أي كائناً من الحِكمة ، وإما بدلٌ من الموصول بإعادة الجار .

﴿ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ الخطابُ للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد غيرُه ممن يتصور منه صدورُ المنهيِّ عنه ، وقد كُرر للتنبيه على أن التوحيد مبدأُ الأمرِ ومنتهاه وأنه رأسُ كل حكمةٍ وملاكُها ، ومن عدِمه لم تنفعْه علومُه وحكمتُه وإن بذّ فيها أساطينَ الحكماء وحكّ بيافوخه عنان السماء ، وقد رتب عليه ما هو عائدُ الإشراك أولاً حيث قيل : فتقعدَ مذموماً مخذولاً ورُتّب عليه ها هنا نتيجتُه في العقبى فقيل : ﴿ فَتُلْقَى فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا ﴾ من جهة نفسِك ومن جهة غيرك ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ مبعَداً من رحمة الله تعالى ، وفي إيراد الإلقاءِ مبنياً للمفعول جريٌ على سنن الكبرياء وازدراءٌ بالمشرك وجعلٌ له من قبيل خشبةٍ يأخذها آخذٌ بكفه فيطرحها في التنور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسي :

﴿ وَلَا تَمْشِ فِى الأَرضِ مَرَحًا ﴾

أي فخراً وكبراً قاله قتادة ، وقال الرغب : المرح شدة الفرح والتوسع فيه والأول أنسب ، وهو مصدر وقع موقع الحال والكلام في مثله إذا وقع حالاً أو خبراً أو صفة شائع ، وجوز أن يكون منصوباً على المصدرية لفعل محذوف أي تمرح مرحاً وأن يكون مفعولاً له أي لأجل المرح ، وقرىء ﴿ مَرِحاً ﴾ بكسر الراء عن أنه صفة مسبهة ونصبه على الحالية لا غير ، قيل وهذه القراءة باعتبار الحكم أبلغ من قراءة المصدر المفيد للمبالغة بجعله عين المرح نظير ما قيل في زيد عدل لأن الوصف واقع في حيز النهي الذي هو في معني النفي ونفي أصل الاتصاف أبلغ من نفي زيادته ومبالغته لأنه ربما يشعر ببقاء أصله في الجملة ، وجعل المبالغة راجعة إلى النفي دون المنفى كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] بعيد هنا ، والقول بأن الصفة المشبهة تدل على الثبوت فلا يقتضي نفي ذلك نفي أصله كما قيل في المصدر مغالطة نشأت من عدم معرفة معنى الثبوت في الصفة فإن المراد به أنه لا تدل على تجدد وحدوث لا انها تدل على الددوام .

والأخفش فضل القراءة بالمصدر لما فيه من التأكيد ولم ينظر إلى أن ذلك في الإثبات لا في النفي وأما في حكمه .

وأورد على ما قيل أن فيه تفضيل القراءة الشاذة على المتواترة وهو كما ترى .

ولذا فضل بعضهم القراءة بالمصدر كالأخفش وجعل المبالغة المستفادة منه راجعة إلى النهي ومنع كون ذلك بعيداً ، وقيل إذا جعل التقدير في المتواترة ذا مرح تتحد مع الشاذة .

(32/456)

وتعقب بان ذا مرح أبلغ من مرحا صفة لما فيه من الدلالة على أنه صاحب مرح وملازم له كانه مالك إياه وفيه توقف كما لا يخفى ، والتقييد بالأرض لا يصح أن يقال للاحتراز عن المشي في الهواء أو على الماء لأن هذا خارق ولا يحترز عنه بل للتذكير بالمبدأ والمعاد وهو أردع عن المشي مشية الفاخر المتكبر وادعى لقبول الموعظة كأنه قيل : لا تمش فيما هو عنصرك الغالب عليك الذي خلقت منه وإليه تعود والذي قد ضم من أمثالك كثيراً مشية الفاخر المتكبر ، وقيل للتنصيص على أن النهي عن المشي مرحاً في سائر البقع والأماكن لا يختص به أرض دون أرض ، والأول ألطف .

﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض ﴾ تعليل للنهي وقيه تهكم بالمختال أي إنك لن تقدر أن تجعل فيها خرقاً بدوسك وشدة وطاتك ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الجبال ﴾ التي عليها ﴿ طُولاً ﴾ بتعاظمك ومد قامتك فاين أنت والتكبر عليها إذا التكبر إنما يكون بكثرة القوم وعظم الجثة وكلاهما مفقود فيك أوانك لن تقدر على ذلك فانت أضعف من كل واحد من هذين

الجمادين فكيف يليق بك التكبر ، وقال بعض المحققين : مآل النهي والتعليل لا تفعل ذلك فإنه لا جدوى فيه وهو وجه حسن ، ونصب ﴿ طُولاً ﴾ على أنه تمييز ، وجوز أن يكون مفعولاً له ، وقيل : يشير كلام بعضهم إلى أنه منصوب على نزع الخافض وهو بمعنى التطاول أي لن تبلغ الجبال بتطاولك ولا يخفى بعده ، وإيثار الاظهار على الإضمار حيث لم يقل لن تخرقها لزيادة الإيقاظ والتقريع ، ثم إن الاختيال في المشي كبيرة كما تدل عليه الأحاديث الصحيحة وهذا فيما عدا بين الصفين أما بينهما فهو مباح لخبر صح فيه ، ويكفي ما في الآية من التهكم والتقريع زاجراً لمن اعتاده حيث لا يباح ككثير من الناس اليوم .

(33/456)

وفي الانتصاف قد حفظ الله تعالى عوام زماننا من هذه المشية وتورط قراؤنا وفقهاؤنا بينا أحدهم قد عرف مسألتين أو أجلس بين يديه طالبين أو نال طرفا من رياسة الدنيا إذ هو يمشي خيلاء ولا يرى أنه يطاول الجبال ولكن يرى أنه يحك بيافوخه عنان السماء كأنهم على هذه الآية لا يمرون أو يمرون عليها وهم عنها معرضون اه .

وإذا كان هذا حال قراء زمانه وفقهائه فماذا أقول أنا في قراء زماني وفقهائهم سوى لا كثر الله تعالى أمثالهم ولا ابتلانا بشيء من أفعالهم وجعلها أفعى لهم .

﴿ كُلُّ ذلك ﴾ المذكور في تضاعيف الأوامر والنواهي السابقة من الخصال المنحلة إلى نيف وعشرين ﴿ كَانَ سَيِّئُهُ ﴾ وهو ما نهى عنه منها من الجعل مع الله سبحانه إلهاً آخر وعبادة غيره تعالى والتأفيف والنهر والتبذير وجعل اليد مغلولة إلى العنق وبسطها كل البسط وقتل الأولاد خشية إملاق وقتل النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق وإسراف الولي في القتل وقفو ما ليس بمعلوم والمشي في الأرض مرحاً فالإضافة لامية من إضافة البعض إلى الكل ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ أي مبغضاً وإن كان مراداً له تعالى بالإرادة التكوينية وإلا لما وقع كما يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم "ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ يكن" وغير ذلك، وليست هذه الإرادة مرادفة أو ملازمة للرضا ليلزم اجتماع الضدين الإرادة المذكورة والكراهة كما يزعمه المعتزلة، وهذا تتميم لتعليل الأمور المنهى عنها جميعاً، ووصف ذلك بمطلق الكراهة مع أن أكثره من الكبائر للإيذان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية في وجوب الكف عن ذلك، وتوجيه الإشارة إلى الكل ثم تعيين البعض دون توجيهها إليه ابتداء لما قيل: من أن البعض المذكور ليس بمذكور جملة بل على وجه الاختلاط لنكتة اقتضته، وفيه إشعار بكون ما عداه مرضياً عنده سبحانه وإنما لم يصرح بذلك إيذاناً

بالغني عنه، وقيل اهتماماً بشأن التنفير عن النواهي لما قالوا من أن التخلية أولى من التحلية ودرء المفاسد أهم من جلب الصالح، وجوز أن تكون الإضافة بيانية و ﴿ ذلك ﴾ إما إشارة إلى جميع ما تقدم ويؤخذ من المامورات أضدادها وهي منهى عنها كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وبالوالدين إِحْسَانًا ﴾ [الأنعام : 151] بعد قوله سبحانه ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام : 151] وإما إشارة إلى ما نهى عنه صريحاً فقط.

(35/456)

وقرأ الحجازيان والبصريان ﴿ سَيِّئَةً ﴾ بفتح الهمزة وهاء التأنيث والنصب على أنه خبر كان، والإشارة إلى ما نهى عنه صريحاً وضمنا أو صريحا فقط، و ﴿ مَكْرُوهًا ﴾ قيل بدل من ﴿ سَيِّئَةً ﴾ والمطابقة بين البدل منه غير معتبرة.

وضعف بأن بدل المشتق قليل، وقيل: صفة ﴿ سَيِّئَةً ﴾ محمولة على المعنى فإنها بمعنى سيئاً وقد قرىء به أو أن السيئة قد زال عنها معنى الوصفية وأجريت مجرى الجوامد فإنها بمعنى الذنب أو تجري الصفة على موصوف مذكر أي أمراً مكروهاً، وقيل: إنه خبر لكان أيضاً ويجوز تعدد خبرها على الصحيح، وقيل: حال من المستكن في ﴿ كَانَ ﴾ أو في

الظرف بناء على جعله صفة ﴿ سَيِّئَةٌ ﴾ لا متعلقاً بمكروهاً فيستتر فيه ضميرها ،

والحال على هذا مؤكدة.

وأنت تعلم أن ضمير السيئة المستتر مؤنث فجعل مكروهاً حالاً منه كجعله صفة ﴿ سَيِّئَةٌ ﴾ في الاحتجاج إلى التأويل.

واضمار مذكراً كما في قوله:

ولا أرض أبقل ابقالها . . .

لا يخفى ما فيه.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ شأنه ﴾ .

﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (39) ﴾

(36/456)

﴿ يَفْعَلْ ذلك ﴾ المتقدم في التكاليف المفصلة ﴿ مِمَّا أوحى إِلَيْكَ رَبُّكَ ﴾ أي بعض منه أو منه جنسه ﴿ مِنَ الحكمة ﴾ التي هي علم الشرائع أو معرفة الحق سبحانه لذاته والخير للعمل به أو الأحكام المحكمة التي لا يتطرق إليها النسخ والفساد ، وفي الكشاف عن ابن

عباس هذه الثماني عشرة آية يعني من ﴿ لَّا تَجْعَل ﴾ [الإسراء : 22] فيما مر إلى ﴿ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ بعد كانت في ألواح موسى عليه السلام وهي عشر آيات في التوراة ، وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن التوراة كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل ثم تلا ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءاخَرَ ﴾ وهذا أعظم مدحاً للقرآن الكريم ما في الكشاف ، و﴿ مِنْ ﴾ اما متعلقة بأوحى على أنها تبعيضية أو ابتدائية وإما بمحذوف وقع حالا من الموصول أو عائده المحذوف أي من الذي أوحاه إليك ربك كائناً من الحكمة ، وجوز أن يكون الجار والمجرور بدلاً من ما ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءاخَرَ ﴾ الخطاب نظير الخطاب السابق كرر للتنبيه على أن التوحيد مبدى الأمر ومنتهاه وأنه رأس كل حكمة وملاكها ، ورتب عليه أولا ما هو عائدة الشرك في الدنيا حيث قال ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ [الإسراء : 22] ورتب عليه ههنا نتيجته في العقبى فقيل ﴿ فتلقى فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا ﴾ من جهة نفسك ومن جهة غيرك ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ مبعدا من رحمة الله تعالى .

وفي التفسير الكبير الفرق بين المذموم والملوم أن المذموم هو الذي يذكر أن الفعل الذي أقدم عليه قبيح ومنكر والملوم هو الذي يقال له لم فعلت مثل هذا الفعل وما الذي حملك عليه وما استفدت منه إلا إلحاق الضرر بنفسك .

ومن هذا يعلم أن الذم يكون أولاً واللوم آخراً ، والفرق بين المخذول والمدحور أن المخذول عبارة عن الضعيف يقال تخاذلت أعضاؤه أي ضعفت ، والمراد به من تركت اعانته وفوض إلى نفسه والمدحور المطرود والمراد به المهان والمستخف به انتهى .

وفي إيراد الالقاء مبنياً للمفعول جرى على سنن الكبرياء وازدراء بالمشرك وجعل له كخشبة يأخذها من كان فيلقيها في التنور ، هذا وقد وحد الخطاب في بعض هذه الأوامر والنواهي وجمع في بعض آخر منها ولم يظهر لي سر اختار كل من التوحيد والجمع فيما اختير فيه على وجه يسلم من القيل والقال ويهش له كمل الرجال ، وقد ذكرت ذلك لبعض أحبابي من اجلة المحققين ورؤساء المدرسين وطلبت منه أن يحرر ما يظهر له حيث إنه محقق كماله وفضله فكتب ما نصه أقول معترفاً بالقصور محترزا عن الغرور معتذراً بالقول المأثور المأمور معذور يخطر على خاطر الفقير لتغيير أسلوب الخطاب وجوه تسعة لا تدخل في الحساب .

الأول الأشعار بانقسام هذه التكاليف إلى أقسام ثلاثة قسم أهل الكل خوطب به الأمة مرتين مرة تصريحاً بخطاب أنفسهم ومرة تعريضاً بخطاب رسولهم صلى الله عليه وسلم وهذا الأهم هو التوحيد ، وقسم مهم جداً لكن دون الأول خوطبوا به واحدة تصريحاً وهو أمور سبعة ، الأول مطلق الإحسان بالوالدين فإن انتفاءه بأن لا يحسن إليهما أصلاً من أشد مراتب العقوق ، والثاني ترك قتل الأولاد ، والثالث الزنا ، والرابع ترك قتل النفس المحرمة إلا

بالحق ، والخامس ترك التصرف في مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ، والسادس الإيفاء بالعهد ، والسابع الوزن بالقسطاس المستقيم .

وقسم ثالث دون الأولين في المهمية خوطبوا به واحدة تعريضاً وهو أيضاً أمور أحد عشر .

(38/456)

الأول ترك قول أف للوالدين ، والثاني ترك النهر فإن التأفيف والنهر من أهون مراتب العقوق بخلاف ترك الإحسان مطلقاً ، والثالث قول القول الكريم لهما ، والرابع خفض الجناح من الرحمة ، والخامس الدعاء برحمة الله تعالى وهذه الثلاثة تركها ليس كترك مطلق الإحسان مثلا ؛ والسادس ترك إيتاء حق ذي القربى والمساكين وابن السبيل وظاهر أن عدم القيام بإيتاء مجموع الحقوق الثلاثة أهون من ترك الأمور المذكورة في القسم الثاني ، والسابع ترك التبذير ؛ والثامن قول القول الميسور ، والتاسع العدل في المنع والعطاء ، والعاشر ترك القفو لما ليس به علم الصادق على القول بموجب الظن مثلاً ، والحادي عشر ترك المشي مرحاً وترك واحد من هذه الخمسة أيها كان لا يبلغ ترك واحد من الأمور المكلف بها المذكورة في القسم الثاني كما لا يخفى .

والثاني من تلك الوجوه الإيمان باقتران خطاب الأمة في النهي عن كبائر خطيرة مثلاً بخطابه

صلى الله عليه وسلم عما ليس في خطرها إلى أن الذنوب تزداد عظماً بعظم مرتكبها فرضاً كما يدل عليه آية ﴿ لَوْلا أَنْ ثبتناك لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ قَلِيلاً إِذاً لأذقناك ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ الممات ﴾ [الإسراء : 74 ، 75] وكريمة ﴿ يا نساء النبى مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بفاحشة مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العذاب ضِعْفَيْنِ ﴾ [الأحزاب : 30] وكما اشتهر أن حسنات الأبرار سيئات المقربين أو ن المقربين على خطر عظيم لكن لم تراع هذه النكتة في النهى عن الشرك إشارة إلى أنه في غاية العظم بحيث لا ينبغي أن يتصور في عظمه ازدياد وتفاوت الأفراد ، أو نقول : لما عارضت هذه النكتة نكتة أخرى رجحت لكونها بالرعاية أحرى وهي الإشارة إلى أن الشرك كان عند الله سبحانه عظيماً فكرر الخطاب بالنهي عنه تخصيصاً وتعميماً ، وهكذا نقول في عدم رعاية نكتة الوجوه الآتية في التكليف بالتوحيد ولا نعيد .

(39/456)

والثالث من تلك الوجوه التنبيه بتعميم الخطاب في النهي عن بعض المعاصي والأمر ببعض الطاعات على أن فتنة فعل تلك المعاصي وترك تلك الطاعات لا تصيب الذين ظلموا خاصة .

والرابع منها الإشارة بتعميم الخطاب فيما عمم فيه من المنهيات والمأمورات إلى أن تلك المنهيات كما يجب على كل مكلف الانكفاف عنها يجب عليه كف الغير بحيث لو تركه لكان كفاعله في أنه اقترف كبيرة نهى عنها نهى تلك المنهيات وإلى أن تلك المأمورات كما يجب على الكل أداؤها يجب اجبار التارك على أدائها بحيث لو لم يجبر لكان كتاركها في أنه ترك واجباً أمر به تلك المأمورات وبتخصيص الخطاب فيما خصص فيه إلى أنه ليس بتلك المقابة فإنه وإن وجب إجبار الغير على بعض تكاليفه لكن عسى أن لا يكون تركه كبيرة.

والخامس الرمز بتوحيد الخطاب فيما وحد فيه أن تلك الطاعة لا تصدر إلا من الآحاد لأنها لا يوفي حقها إلا المتورعون الصالحون وقليل ما هم بخلاف غيرها فإنه مضبوط.

والسادس: الإشعار بأن التكاليف التي خوطب بها النبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته لا يقوم بها حق القيام إلا هو أو من يقتدي بأنواره ويقتفي لآثاره ويسعى في اتباع سننه القويم ويجتهد، في التخلق بخلقه الكريم بخلاف غيرها مما خوطبوا به صريحاً فإنها تأتي من أغلبهم.

والسابع : أنه صرف الخطاب عنه صلى الله عليه وسلم في النهي عن قتل الأولاد والزنا وقتل النفس المحرمة إلا بالحق والتصرف في مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن إشارة إلى أن تلك الشنائع لا يأتيها النبي عليه الصلاة والسلام وإن لم ينه عنها لأن فطرته وفطنته وسلام طبعه اللطيفة واستقامة مزاجه الشرف كانت كافية في كفه عنها ، وكذا صرف عنه الخطاب في الأمر بالإحسان بالوالدين والإيفاء بالعهد والوزن بالقسطاس المستقيم إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم يأتي بهذه الأمور وإن لم يؤمر بها لأن ترك مطلق الإحسان بالوالدين لو بلغا لديه الكبر مثلا يلزمه من الفظاظة وغلظة القلب وجفاء الطبع ما كان يأباه طبيعته صلى الله عليه وسلم وكذا الغدر والتطفيف كانا تأباهما أخلاقه الكريمة لكن خوطب بالنهي عن الشرك لأنه ليس للطبع والخلق في التوحيد والشرك دخل .

والثامن : أنه تعالى إجلالاً لحبيبه صلى الله عليه وسلم لم يخاطبه بنهيه عن فواحش قتل الولد والزنا وقتل النفس بغير حق لئلا يوهم أنه وحاشاه يأتيها قبل النهي ، وكذا لم يخاطبه بأمره بالإيفاء بالعهد ، والوزن بالقسطاس المستقيم لئلا يوهم أنه كان وحاشاه يتركها قبل هذا ، وهذا الايهام ادعى للاعتناء بدفعه من الإيهام فيما خوطب به وحده ، وخوطب بالنهي عن الشرك لأن معهودية دعوته صلى الله عليه وسلم للخاص والعام مدى الليالي والأيام كفته هذا الإيهام .

والتاسع: لعل التكاليف التي خوطب صلى الله عليه وسلم بها كترك القفو لما ليس له به علم وترك المشي في الأرض مرحاً لم تكن في غير دينه من سائر الأديان أو لم تكن مصرحاً بها منصوصاً عليها في الكتب السماوية ما عدا القرآن فوجه الخطاب إليه وحده تلويحاً بأنها من خصائص دينه أو بأن التصريح بها والتنصيص عليها من خصائص كتابه، ويؤيد هذا الوجه قوله تعالى بعد النهي عن القفو بلا علم والمشي مرحاً ﴿ ذلك مِمَّا أوحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحكمة ﴾ ثم إني لا أدعي في هذا بل وفي سائر الوجوه البت والجزم ولا أقفو ما ليس لي به علم بل أقول هذا خطر ببالي الكسير والعلم عند اللطيف الخبير اه.

ويرد على قوله في الأول فإن انتفاءه بأن لا يحسن إليهما أصلاً من أشد مراتب العقوق أن العقوق الذي هو كبيرة فعل ما يتأذى به من فعل معه من الوالدين تأذيا ليس بالهين عرفا كما سمعت وعدم الإحسان أصلاً قد لا يكون من ذلك، قال العلامة ابن حجر في أثناء الكلام على الفرق بين العقوق وقطع الرحم: إنه لو فرض أن قريبه لم يصل إليه إحسان ولا إساءة قط لم يفسق بذلك لأن الأبوين إذا فرض ذلك في حقهما من غير أن يفعل معهما ما يقتضي التأذي العظيم لغناهما مثلا لم يكن كبيرة فأولى بقية الأقارب اه.

وكأنه أحسن الله تعالى إليه ظن أنه إذا تحقق عدم الإحسان تحققت الإساءة وهو بمعزل عن الصواب، ويرد أيضاً على قوله: وظاهر أن عدم القيام بإيتاء مجموع الحقوق الثلاثة أهون من

ترك الأمور المذكورة في القسم الثاني أنه إن أراد أنه أهون من ترك مجموع تلك الأمور فلا شك إن بعض ما عده في القسم الثالث كالوزن بالقسطاس المستقيم ترك القيام به أهون من ترك مجموع التكليفات فما معنى هذا التخصيص وإن أراد أنه أهون من ترك كل واحد من ترك الأمور المذكورة فهو ممنوع كيف لا ويكون في ذلك قطيعة رحم وقاطعها ملعون في كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع .

(42/456)

وروى أحمد بإسناد صحيح أن من أربا الربا الاستطالة بغير حق وإن هذه الرحم شجنه من الرحمن فمن قطعها حرم الله تعالى عليه الجنة ؛ ومنع زكاة أيضاً وقد قال تعالى في حم السجدة [6 ، 7] وهي مكية كهذه السورة ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ وإن نوقش فيما ذكر قلنا : إن عدم القيام بإيتاء ما ذكر صادق على منع حقوق ثلاثة أصناف ولا شك أن منع ذي الحق حقه ظلم له فيتعدد الظلم فيما نحن فيه ولا أظن أن ذلك أهون من التطفيف وإن كان ظلماً أيضاً : "

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة

على القلب من وقع الحسام المهند "

ومما ذكرنا يعلم أن قوله ظاهر غير ظاهر ، ويرد أيضاً على قوله : وترك واحد من هذه

الخمسة الخ أن قوله سبحانه

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : 36] نهى على ما اختاره الإمام عن كبائر

لا شك في أن بعضها أعظم بكثير من بعض ما في القسم الثاني كالقول في الالهيات والنبوات

نحو ما يقوله المشركون تقليداً للاسلاف واتباعاً للهوى وإن أبيت إلا تخصيصه ببعض ما قاله

المفسرون ونقله الإمام مما هو أهون أفراده كالكذب قيل لك إن في كونه أهون من انتفاء

الإحسان مطلقاً مع كونه قد لا يكون كبيرة منعاً ظاهراً كما لا يخفى .

وكذا في كون المسي مرحاً دون كل واحد من الأمور السابقة بحث .

وقد أخرج الشيخان " بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه مرجل مختال في مشيته إذ

خسف الله تعالى به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة " وروي أحمد وابن ماجه .

(43/456)

والحاكم " ما من رجل يتعاظم في نفسه ويختال في مشيته إلا لقي الله تعالى وهو عليه غضبان

" وصح " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر " إلى غير ذلك من الأحاديث التي

لم يجيء مثلها فيمن لم يحسن إلى والديه نعم جاء ذلك فيمن عق والديه ، وبين عقوقهما وعدم

الإحسان إليهما عموم وخصوص مطلق وعلى هذا فلا يخفى حال كما لا يخفى ، ويرد على الوجه الثاني على ما فيه أنه غير واف بالغرض ، وعلى الثالث أنه مجرد دعوى لم تساعدها الآثار ، نعم ورد في بعض ما ذكر أن فتنته لا تصيب الظالم فقط ما يؤيده ، ومن ذلك ما أخرجه البيهقي وغيره " يا معشر المهاجرين خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلت بكم أعوذ بالله تعالى أن تدركوهن لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يلعنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا المطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولا نقضوا عهد الله تعالى وعهد رسوله صلى الله عليه وسلم إلا سلط الله تعالى عليهم عدوا من غيرهم فيأخذوا بعض ما في أيديهم وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله تعالى إلا جعل الله تعالى بأسهم بينهم " وإن كان في عدم إيتاء المسكين وابن السبيل حقهما منع الزكاة فأمر الإيماء المذكور لا يخفي حاله فإن الأخبار قد تظافرت بعموم شؤم ذلك ، فقد صح " ما منع قوم الزكاة إلا حبس الله تعالى عنهم القطر " وفي رواية صحيحة " إلا ابتلاهم الله تعالى بالسنين " إلى غير ذلك ، ويرد على الوجه الرابع أن بعضهم قد أطلق القول بأن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كبيرة .

وصرح صاحب العدة بأن الغيبة نفسها صغيرة وترك النهي عنها كبيرة ، وقال بعض المتأخرين ونقله الجلال البلقيني ينبغي أن يفصل في النهي عن المنكر فيقال : إن كان كبيرة فالسكوت عليه مع إمكان دفعه كبيرة وإن كان صغيرة فالسكوت عليه صغيرة ، ويقاس ترك المأمور بهذا إذا قلنا : إن الواجبات تتفاوت وهو الظاهر اه .

(45/456)

وقد علمت أن فيما وحد الخطاب فيه من الأوامر ما تركه كبيرة ومن النواهي ما فعله كذلك فلم يتحقق ما رجا سلمه الله تعالى على أن في تعبيره بالإجبار فيما عبر فيه ما لا يخفى ، ويرد على الخامس أن في كون الطاعات التي وحد فيها الخطاب لا تصدر إلا من الآحاد لأنها لا يوفى حقها إلا المتورعون منعاً ظاهراً فإن أكثر الناس صالحهم وطالحهم لا يمشي في الأرض مرحاً ومثل ذلك الدعاء للوالدين بالرحمة فانا نسمعه على أتم وجه من كثير ممن لا يعرف الورع أي شيء هو ، وكذا في قوله : بخلاف غيرها فإنه مضبوط فإن ترك التصرف في مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ممن له ولاية عليه أمر شاق لا يكاد يقوم به إلا الأفراد ، قال في رد المحتار حاشية الدر المختار : لا ينبغي للموصى إليه أن يقبل لصعوبة

العدل جداً ، ومن هنا قال أبو يوسف : الدخول في الوصاية أول مرة غلط وثاني مرة خيانة وثالث مرة سرقه ، ومن هذا يعلم ما في الوجه السادس ، ويرد على السابع أيضاً أن المشي في الأرض مرحاً كالأمور التي صرف الخطاب في النهي عنها عنه صلى الله عليه وسلم في أن فطرته وفطنته وسلامة طبعه اللطيف واستقامة مزاجه الشريف كافية في الكف عنه فإن الكبر من البشر لا ينشأ إلا عن جهل وبلادة وقد جبل عليه الصلاة والسلام على أكمل ما يكون من التواضع بل وسائر الصفات التي هي كمال في النوع الإنساني ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 4] مع أنه لم يصرف الخطاب فيه وأنه حيث اعتبر الفطنة في الكافي عن الكف لم ينفعه الاعتذار عن توحيد الخطاب في النهي عن الشرك بما اعتذر به فإن للفطنة دخلاً تاماً في التوحيد كما لا يخفى على فطن ، ويرد على قوله في الثامن : وهذا الإيهام الخ منع ظاهر فلا يخفى حاله كما لا يخفى ، ويرد على التاسع أنه لا يساعده نقل ولا عقل بل جاء في النقل ما يخالفه كما سمعت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وإن اعتبر النهي عن الشرك من تلك

التكليفات فهو كاف في تزييف هذا الوجه لأن النهي عن الشرك جاء به كل رسول ونطق به كل كتاب وما ذكره مؤيداً لغرضه بمعزل عن التأييد ، هذا وبقيت إيرادات أخر على هذه الوجوه أعرضنا عنها وتركناها للذكي الفطن حذراً من التطويل فتأمل ذاك والله يتولى هداك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(47/456)

وقال القاسمى :

﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ﴾

أي : مختالاً ، أي : مشية المعجب المتكبر ؛ إذ لا يفيدك قوةً ولا علواً . كما قال سبحانه :

﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ ﴾ أي : لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها ، وشدة وطأتك : ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ أي : لن تحاذيها بتطاولك ومد قامتك ، كما يفعله المختال تكلفاً .

وفي هذا تهكم بالمختال ، وإيذان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض وبعض أجزائها .

قال الناصر : وفي هذا التهكم والتقريع لمن يعتاد هذه المشية ، كفاية في الانزجار عنها .

ولقد حفظ الله عوام زماننا عن هذه المشية ، وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا . بينا أحدهم قد عرف مسألتين أو أجلس بين يديه طالبين ، أو شدَّ طرفاً من رياسة الدنيا ، إذا هو

يتبختر في مشيه ، ويترجع ولا يرى أنه يطاول الجبال ، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء ، كأنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون . وماذا يفيده أن يقرأ القرآن أو يُقرأ عليه ، وقلبه عن تدبره على مراحل . والله ولي التوفيق .

﴿ كُلُّ ذَلِكَ ﴾ أي : المنهي عنه من قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ إلى هذه الغاية : ﴿ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ قال المهايمي : أما الشرك فلإخلاله بالكمال المطلق الذي لا يتصور مع الشرك . وأما عبادة الغير فلما فيها من تعظيمه المخصوص بذي الكمال المطلق ، فهو في معنى الشرك . وأما العقوق فلأنه كفران نعمة الأبوين في التربية ، أحوج ما يكون المرء إليها . ومنع الحقوق بالبخل تفريط ، والتبذير والبسط إفراط . وهما مذمومان . والذميم مكروه . والقتل يمنع الحكمة من بلوغها إلى كمالها . . . والزنى وإتلاف مال اليتيم في معناه . ونقض العهد مخلٌّ بنظام العالم . وكذا اقتفاء ما لا يعلم . والتكبر من خواص الحق . وعادة الملوك كراهة أن يأخذ أحد من خواصه شيئاً .

﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ أي : مما يحكم العقل بصحته ، وتصلح النفس بأسوته .

قال المهايمي : أي : من العلم المحكم الذي لا يتغير بشبهة : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ كرره للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه . وأنه رأس كل حكمة وملاكها . ومن عدمه لم ينفعه علومه وحكمه .

قال أبو السعود : وقد رتب عليه ما هو عائدة الإشراك أولاً حيث قيل : ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾ ورتب عليه ها هنا نتيجة في العقبى فقيل : ﴿ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً ﴾ أي : بالجهل العظيم : ﴿ مَّدْحُوراً ﴾ أي : مبعداً مطروداً من الرحمة . وفي إيراد الإلقاء ، مبنياً للمفعول ، جري على سنن الكبرياء ، وازدراء بالمشرك وجعلٌ له ، من قبيل خشبة يأخذها آخذ بكفه ، فيطرحها في التنور . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 480 . 481 ﴾

(48/456)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) ﴾

نهي عن خصلة من خصال الجاهلية ، وهي خصلة الكبرياء ، وكان أهل الجاهلية يتعمدونها .

وهذه الوصية الخامسة عشرة .

والخطاب لغير معين ليعم كل مخاطب ، وليس خطاباً للنبيء صلى الله عليه وسلم إذ لا يناسب ما بعده .

والمَرح بفتح الميم وفتح الراء : شدة ازدهاء المرء وفرحه بحاله في عظمة الرزق .

و﴿ مرحاً ﴾ مصدر وقع حالاً من ضمير ﴿ تمش ﴾ .

ومجيء المصدر حالاً كمجيئه صفة يرد منه المبالغة في الاتصاف .

وتأويله باسم الفاعل ، أي لا تمش مارحاً ، أي مشية المارح ، وهي المشية الدالة على كبرياء الماشي بتمايل وتبختُر .

ويجوز أن يكون ﴿ مرحاً ﴾ مفعولاً مطلقاً مبيناً لفعل ﴿ تمش ﴾ لأن للمشي أنواعاً ، منها : ما يدلّ على أن صاحبه ذو مَرح .

فإسناد المرح إلى المشي مجاز عقلي .

والمشي مرحاً أن يكون في المشي شدة وطْء على الأرض وتطاول في بَدن الماشي .

وجملة ﴿ إنك لن تخرق الأرض ﴾ استئناف ناشىء عن النهي بتوجيه خطاب ثانٍ في هذا المعنى على سبيل التهكم ، أي أنك أيها الماشي مرَحاً لا تخرق بمشيك أديم الأرض ، ولا تبلغ بتطاولك في مشيك طول الجبال ، فماذا يغريك بهذه المِشية .

والخَرْق : قطع الشيء والفصل بين الأديم ، فخرق الأرض تمزيق قشر التراب .

والكلام مستعمل في التغليط بتنزيل الماشي الواطىء الأرض بشدة منزلة من يبتغي خرق وجه الأرض وتنزيله في تطاوله في مشيه إلى أعلى منزلة من يريد أن يبلغ طول الجبال .

والمقصود من التهكم التشنيع بهذا الفعل .

فدل ذلك على أن المنهي عنه حرام لأنه فساد في خلق صاحبه وسوء في نيته وإهانة للناس بإظهار الشفوف عليهم وإرهابهم بقوته .

(49/456)

وعن عمر بن الخطاب : أنه رأى غلاماً يتبختر في مشيته فقال له : "إن البخترة مشية تُكره إلا في سبيل الله" يعني لأنها يرهب بها العَدو إظهاراً للقوة على أعداء الدين في الجهاد .

وإظهار اسم (الأرض) في قوله : ﴿ لن تخرق الأرض ﴾ دون إضمار ليكون هذا الكلام مستقلاً عن غيره جارياً مجرى المثل .

﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38) ﴾

تذييل للجمل المتقدمة ابتداء من قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [الإسراء : 23] باعتبار ما اشتملت عليه من التحذيرات والنواهي .

فكل جملة فيها أمرٌ هي مقتضية نهياً عن ضده ، وكل جملة فيها نهي هي مقتضية شيئاً منهياً عنه ، فقوله : ﴿ ألا تعبدوا إلا إياه يقتضي عبادةً مذمومة منهياً عنها ﴾ ، وقوله : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ [الإسراء : 23] يقتضي إساءة منهياً عنها ، وعلى هذا القياسُ .

وقرأ الجمهور ﴿ سَيِّئَةً ﴾ بفتح الهمزة بعد المثناة التحتية وبهاء تأنيث في آخره، وهي ضد الحسنة.

فالذي وصف بالسيئة وبأنه مكروه لا يكون إلا منهياً عنه أو مأموراً بضده إذ لا يكون المأمور به مكروهاً للآمر به، وبهذا يظهر للسامع معان اسم الإشارة في قوله: ﴿ كل ذلك ﴾.

وإنما اعتبر ما في المذكورات من معاني النهي لأن الأهم هو الإقلاع عما يقتضيه جميعها من المفاسد بالصراحة أو بالالتزام، لأن درء المفاسد أهم من جلب المصالح في الاعتبار وإن كانا متلازمين في مثل هذا.

وقوله: ﴿ عند ربك ﴾ متعلق بـ ﴿ مكروهاً ﴾ أي هو مذموم عند الله.

وتقديم هذا الظرف على متعلقه للاهتمام بالظرف إذ هو مضاف لاسم الجلالة، فزيادة ﴿ عند ربك مكروها ﴾ لتشنيع الحالة، أي مكروهاً فعلُه من فاعله.

وفيه تعريض بأن فاعله مكروه عند الله.

وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف ﴿ كان سيئة ﴾ بضم الهمزة وبهاء ضمير في آخره.

والضمير عائد إلى ﴿ كل ذلك ﴾ ، و ﴿ كل ذلك ﴾ هو نفس السيء فإضافة (سيىء) إلى ضميره إضافة بيانية تفيد قوة صفة السيء حتى كأنه شيئان يضاف أحدهما إلى الآخر.

وهذه نكتة الإضافة البيانية كلما وقعت ، أي كان ما نهى عنه من ذلك مكروهاً عند الله.

وينبغي أن يكون ﴿ مكروهاً ﴾ خبراً ثانياً ل (كان) لأنه المناسب للقراءتين.

﴿ ذلك مِمَّا أوحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحكمة ﴾

عدل عن مخاطبة الأمة بضمائر جمع المخاطبين وضمائر المخاطَب غير المعين إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم ردًّا إلى ما سبق في أول هذه الآيات من قوله : ﴿ وقضى ربك ﴾ الخ [الإسراء : 23].

وهو تذييل معترض بين جمل النهي.

والإشارة إلى جميع ما ذكر من الأوامر والنواهي صراحةً من قوله : ﴿ وقضى ربك ﴾ [الإسراء : 23].

وفي هذا التذييل تنبيه على أنّ ما اشتملت عليه الآيات السبع عشرةَ هو من الحكمة ، تحريضاً على اتباع ما فيها وأنه خير كثير.

وفيه امتنان على النبي بأن الله أوحى إليه ، فذلك وجه قوله : مما أوحى إليك تنبيهاً على أن

مثل ذلك لا يصل إليه الأميون لولا الوحي من الله ، وأنه علمه ما لم يكن يعلم وأمره أن يعلمه الناس .

والحكمة : معرفة الحقائق على ما هي عليه دون غلط ولا اشتباه ، وتطلق على الكلام الدال عليها .

ونقدم في قوله تعالى : ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ﴾ [البقرة : 269] .

عطف على جمل النهي المتقدمة ، وهذا تأكيد لمضمون جملة ﴿ ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [الإسراء : 23] ، أعيد لقصد الاهتمام بأمر التوحيد بتكرير مضمونه وبما رتب عليه من الوعيد بأن يجازى بالخلود في النار مهانا .

والخطاب لغير معين على طريقة المنهيات قبله ، وبقرينة قوله عقبه : ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين ﴾ الآية [الإسراء : 40] .

والإلقاء : رمْي الجسم من أعلى إلى أسفل ، وهو يؤذن بالإهانة .

والملوم : الذي يُنكر عليه ما فعله .

والمدحور : المطرود ، أي المطرود من جانب الله ، أي مغضوب عليه ومبعد من رحمته في الآخرة .

وتُلقى منصوب في جواب النهي بفاء السببية والتسبب على المنهي عنه ، أي فيتسبب على جعلك مع الله إلهاً آخر إلقاؤك في جهنَم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(52/456)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) ﴾

نهى الله جل وعلا الناس في هذه الآية الكريمة عن التجبر والتبختر في المشية . وقوله ﴿ مَرَحاً ﴾ مصدر منكر ، وهو حال على حد قول ابن مالك في الخلاصة :

ومصدر منكر حالا يقع . . . بكثرة كبغتة زيد طلع

وقرىء " مرحاً " بكسر الراء على أنه الوصف من مح (بالكسر) يمرح (بالفتح) اي لا تمش في الأرض حال كونك متبختراً متمايلاً مشي الجبارين .

وقد أوضح جل وعلا هذا المعنى في مواضع أخر . كقوله عن لقمان مقرراً له ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ

خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الأرض مَرَحاً إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ واقصد فِي مَشْيِكَ ﴾ [لقمان : 18-19] الآية ، وقوله : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ [الفرقان : 63] الآية ، إلى غير ذلك من الايات .

واصل المرح في اللغة : شدة الفرح والنشاط ، وإطلاقه على مشي الإنسان متبختراً مشي المتكبرين ، لأن ذلك من لوازم شدة الفرح والنشاط عادة .

وأظهر القولين عندي في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض ﴾ أن معناه لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها وشدة وطئك عليها ، ويدل لهذا المعنى قوله بعده ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً ﴾ أي انت إيها المتكبر المختال : ضعيف حقير عاجز محصور بين جمادين ! أنت عاجز عن التأثير فيهما . فالأرض التي تحتك لا تقدر أن تؤثر فيها فتخرقها بشدة وطئك عليها ، والجبال الشامخة فوقك لا يبلغ طولك طولها . فاعرف قدرك ! ولا تتكبر ، ولا تمش في الأرض مرحاً .

القول الثاني - أن معنى ﴿ لَن تَخْرِقَ الأرض ﴾ لن تقطعها بمشيك . قاله ابن جرير ، واستشهد له بقول رؤبة بن العجاج :

وقاتم الأعماق خاوي المخترق . . . مشبه الأعلام لماع الخفق

لأن مراده بالمخترق : مكان الاختراق . أي المشي والمرور به . وأجود الأعاريب في قوله ﴿ طُولاً ﴾ أنه تمييز محول عن الفاعل ، أي لن يبلغ طولك الجبال . خلافاً لمن أعربه حالاً ومن أعربه مفعولاً من أجله . وقد أجاد من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً . . . فكم تحتها قوم هم منك أرفع

وإن كنت في عز وحرز ومنعة . . . فكم مات من قوم هو منك أمنع

واستدل بعض اهل العلم بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ﴾ على منع الرقص وتعاطيه . لأن فاعله ممن يمشي مرحاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(54/456)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) ﴾

ما زالت الآيات تسير في خطٍّ واحد ، وترسم لنا طريق التوازن الاجتماعي في مجتمع المسلمين ، فالمجتمع المتوازن يصدر في حركته عن إله واحد ، هو صاحب الكلمة العليا وصاحب التشريع .

والمتتبع لهذه الآيات يجد بها منهجاً قويماً لبناء مجتمع متماسك ومتوازن، يبدأ بقوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ .. ﴾ [الإسراء: 22]

وهذه قضية القمة التي لا تنتظم الأمور إلا في ظلّها، ثم قسّم المجتمع إلى طبقات، فأوصى بالطبقة الكبيرة التي أدَّت مهمتها في الحياة، وحان وقت إكرامها وردِّ الجميل لها، فأوصى بالوالدين وأمر ببّرهما.

ثم توجّه إلى الطبقة الصغيرة التي تحتاج إلى رعاية وعناية، فأوصى بالأولاد، ونهى عن قتلهم خَوْفَ الفقر والعوز، وخَصَّ بالوصية اليتيم؛ لأنه ضعيف يحتاج إلى مزيد من الرعاية والعناية والحنو والحنان.

ثم تكلم عن المال، وهو قوام الحياة، واختار فيه الاعتدال والتوسُّط، ونهى عن طرفَيْه: الإسراف والإمساك. ثم نهى عن الفاحشة، وخصَّ الزنا الذي يُلوِّث الأعراض ويُفسد النسل، ونهى عن القتل وسَفْك الدماء.

ثم تحدث عمَّا يحفظ للإنسان ماله، ويحمي تعبه ومجهوداته، فأمر بتوفية الكيل والميزان، ونهى عن الغش فيهما والتلاعب بهما، ثم حَثَّ الإنسان على الأمانة العلمية، حتى لا يقول بما لا يعلم، وحتى لا يبني حياته على نظريات خاطئة.

ألم ترَ أنه منهج وأسلوب حياة يضمن سلامة المجتمع، وسلامة المجتمع ناشئة من سلامة

حركة الإنسان فيه، إذن: الإنسان هو مدار هذه الحركة الخلافية في الأرض؛ لذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أنْ يضع له توازناً اجتماعياً.

(55/456)

وأوّل شيء في هذا التوازن الاجتماعي أننا جميعاً عند الله سواء، وكلنا عبيده، وليس منا مَنْ بينه وبين الله قرابة أو نَسَب، فالجميع عند الله عبيد كأسنان المشط، لا فَرْق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح.

وإنْ تفاوتت أقدارنا في الحياة فهو تفاوت ظاهري شكلي؛ لأنك حينما تنظر إلى هذا التفاوت لا تنظر إليه من زاوية واحدة فتقول مثلاً: هذا غني، وهذا فقير.

ومعظم الناس يهتمون بهذه الناحية من التفاوت، ويَدَعُون غيرها من النواحي الأخرى، وهذا لا يصح، بل انظر إلى الجوانب الأخرى في حياة الإنسان، وإلى الزوايا المختلفة في النفس الإنسانية، ولو سلكتَ هذا المسلك فسوف تجد أن مجموع كل إنسان يساوي مجموع كل إنسان، وأن الحصيلة واحدة، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ.. ﴾ [الحجرات: 13]

وما دام المجتمع الإيماني على هذه الصورة فلا يصح لأحد أنْ يرفعَ رأسه في المجتمع ليعطي

لنفسه قداسةً أو منزلة فوق منزلة الآخرين، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً .. ﴾ [الإسراء: 37]

أي: فخراً واختيالاً، أو بَطَراً أو تعالياً؛ لأن الذي يفخر بشيء ويختال به، ويظن أنه أفضل من غيره، يجب أن يضمن لنفسه بقاء مَا افتخر به، بمعنى أن يكون ذاتياً فيه، لا يذهب عنه ولا يفارقه، لكن من حكمة الله سبحانه أنْ جعل كل ما يمكن أن يفتخر به الإنسان هِبةً له، وليست أصيلة فيه.

كل أمور الإنسان بداية من إيجاده من عدم إلى الإمداد من عُدم هي هبة يمكن أنْ تسترد في يوم من الأيام، وكيف الحال إذا تكبَّرْتَ بمالك، ثم رآك الناس فقيراً، أو تعاليت بقوتك ثم رآك الناس عليلاً؟

(56/456)

إذن: فالتواضع والأدب أليَقُ بك، والتكبُّر والتعالي لا يكون إلا للخالق سبحانه وتعالى، فكيف تنازعه سبحانه صفة من صفاته؟ وقد نهانا الحق سبحانه عن ذلك؛ لأنه لا يستحق هذه الصفة إلا هو سبحانه وتعالى، وكَوْنُ الكبرياء لله تعالى يعصمنا من الاتضاع للكبرياء الكاذب من غيرنا.

ومَنْ أحب أن يرى مساواة الخَلْق أمام الخالق سبحانه ، فلينظر إلى العبادات ، ففيها استطراق العبودية في الناس ، فحينما يُنادَى للصلاة مثلاً ترى الجميع سواسية: الغني والفقير ، والرئيس والمرؤوس ، الوزير مثلاً والخفير ، الكل راكع أو ساجد ، الكل خاضع لله مُتذلّل لله فقير لله ، الكل عبيد لله بعد أنْ خلعوا أقدارهم ، عندما خلعوا نعالهم ، ففي ساحة الرحمن يتساوى الجميع ، وتتجلى لنا هذه المساواة بصورة أوضح في مناسك الحج .

والأهم من هذا أن الرئيس أو الكبير لا يأنف ، ولا يرى غضاضة في أن يراه مرؤوسه وهو في هذا الموقف وفي هذا الخضوع والتذلُّل ، لماذا ؟ لأن الخضوع هنا والتذلُّل لله ، وهذا عين العِزَّة والشرف والكرامة .

ثم يقول تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ [الإسراء: 37]

في هذه العبارة نلحظ إشارة توبيخ وتقريع ، كأن الحق سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء المتكبرين ، ولأصحاب الكبرياء الكاذب: كيف تتكبرون وتسيرون فخراً وخيلاء بشيء موهوب لكم غير ذاتي فيكم ؟

فأنتم بهذا التكبُّر والتعالي لن تخرقوا الأرض ، بل ستظل صلبة تتحداكم ، وهي أدنى أجناس الوجود وتُداس بالأقدام ، وكذلك الجبال وهي أيضاً جماد ستظل أعلى منكم قامةً ولن تطاولوها . والحق سبحانه وتعالى يُوبِّخ عبده المؤمن المكرم ليبقى له على التكريم في:

﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً . . ﴾ [الإسراء: 37]

وحينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُوبِّخ أهل التكبُّر الكاذب أتى بأَدْنى أجناس الوجود بالأرض والجبال وهي جماد ؛ لكنه قد يسمو على الإنسان ويفضُل عليه .

(57/456)

والناظر لأجناس الكون: الجماد والنبات والحيوان والإنسان ، يجد الإنسان ينتفع بكل هذه الأجناس ، فالجماد ينفع النبات ، والحيوان والنبات ينفع الحيوان والإنسان ، والحيوان ينفع الإنسان ، وهكذا جميع الأجناس مُسخرة في خدمة الإنسان ، فما وظيفتك أنت أيها الإنسان ؟ ومَنْ تخدم ؟

لا بُدَّ أنْ يكون لك دَوْر في الكون ووظيفة في الحياة ، وإلا كانت الأرض والحجر أفضل منك ، فابحثْ لك عن مهمة في الوجود .

وفي فلسفة الحج أمر عجيب ، فالجماد الذي هو أَدْنى الأجناس نجد له مكانة ومنزلة ، فالكعبة حجر يطوف الناس من حوله ، وفي ركنها الحجر الأسعد الذي سَنَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تقبيله وهو حجر ، وعليه يتزاحم الناس ويتشرَّفون بتقبيله والتمسُّح به .

وهذا مظهر من مظاهر استطراق العبودية في الكون ، فالإنسان المخدوم الأعلى لجميع

الأجناس يرى الشرف والكرامة في تقبيل حجر .

وكذلك النبات يحْرُم قطعة ، وإياك أن تمتدَّ يدك إليه ، وكذلك الحيوان يحرُم صيْدَه ، فهذه الأشياء التي تخدمني أتى الوقت الذي أخدمها وأُقدّسها ، وجعلها الحق سبحانه وتعالى مرة في العمر لنلمح الأصل ، ولكي لا يغترَّ الإنسان بإنسانيته ، وليعلم أن العبودية لله تعالى تَسْري في الكون كله .

فإياك أنها الإنسان أن تخدش هذا الاستطراق العبوديّ في الكون بمرح أو خُيَلاء أو تعالٍ .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً ﴾ .

(58/456)

أي: كُلُّ ما تقدّم من وصايا وتوجيهات بداية من قوله تعالى: ﴿ لاَّ تَجْعَل مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ . . ﴾ [الإسراء: 22]

وهذه الأمور التي تقدَّمَتْ ، والتي تحفظ للمجتمع توازنه وسلامته فيها السيئ وفيها الحسن ، والسيئ هو المكروه من الله تعالى ، والله تعالى لا يكره إلا ما خالف منهج العبودية له سبحانه ، أما الإنسان فيكره ما يخالف هواه ، ولا يتفق ومزاجه .

وهذه الأوامر والنواهي التي تقدّمتْ يقولون: إنها الوصايا العَشْر التي نزلت على موسى .

عليه السلام. والمقصود في قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا . . ﴾ [الأعراف: 145]

ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ . . . ﴾ .

(59/456)

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي: ما تقدّم من الوصايا .

﴿ الْحِكْمَةِ ﴾ هي: وَضعْ الشيء في مَوْضِعه المؤدّي للغاية منه ، لِتظلَّ الحكمة سائدة في المجتمع تحفظه من الخلل والحمْق والسَّفَه والفساد .

وقوله: ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ . . ﴾ [الإسراء: 39]

لسائل أنْ يسأل: لماذا كرّر هذا النهي ، وقد سبق أنْ ذُكِر في استهلال المجموعة السابقة من الوصايا ؟

الحق سبحانه وتعالى وضع لنا المنهج السليم الذي يُنظِّم حياة المجتمع ، وقد بدأه بأن الإله واحد لا شريكَ له ، ثم عدّل نظام المجتمع كله بطبقاته وطوائفه وأَرْسى قواعد الطُّهْر والعِفّة ليحفظ سلامة النسل ، ودعا إلى تواضع الكُلِّ للكل .

فالحصيلة النهائية لهذه الوصايا أنْ يستقيم المجتمع، ويسعد أفراده بفضل هذا المنهج الإلهي.

إذن: فإياك أنْ تجعلَ معه إلهاً آخر، وكرَّر الحق سبحانه هذا النهي: ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَاهاً آخَرَ.. ﴾ [الإسراء: 39]

لأنه قد يأتي على الناس وقت يُحْسِنون الظن بعقول بعض المفكرين، فيأخذون بأقوالهم ويسيرون على مناهجهم، ويُفضّلونها على منهج الحق تبارك وتعالى، فيفتنون الناس عن قضايا دينهم الحق إلى قضايا أخرى يُوهِمون الناس أنها أفضل مما جاء به الدين.

إذن: لا يكفي أن تؤمن أولاً، ولكن احذر أنْ يُزحزِك أحد عن دينك فلا تجعل مع الله إلهاً آخر يفتنك عن دينك، فتكون النتيجة: ﴿ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً ﴾ [الإسراء: 39] ﴿ مَلُوماً ﴾: لأنك أتيتَ بما تُلاَم عليه، ﴿ مَّدْحُوراً ﴾: أي: مطرود مُبْعَداً من رحمة الله، وهذا الجزاء في الآخرة.

أما الذي لا يؤمن بها، فلا بُدَّ لكي نستطيع العيش معه في الدنيا، أن يُذيقه الله بعض العذاب، ويُعجِّله له في الدنيا قبل عذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ

يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً . . ﴾ [طه: 123-124] أي: في الدنيا .

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى في قصة ذي القرنين: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً * قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً ﴾ [الكهف: 86-87]

فقوله: ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ . . ﴾ [الكهف: 87] لأنه مُمكّن في الأرض، ومَنُوط به حِفْظ ميزان الحياة واستقامتها ، حتى عند الذين لا يُؤمنون بالآخرة، وإلا فلو أخّرْنا العذاب عن هؤلاء إلى الآخرة لأفسدوا على الناس حياتهم، وعاثوا في الأرض يُعربدون ويُفسِدون .

ولذلك لا يموت ظلوم في الكون حتى ينتقمَ الله منه ، ويذيقه عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، ولا بُدَّ أنْ يراه المظلوم ليعلم أن عاقبة الظلم وخيمة ، في حين أن المظلوم في رعاية الله وتأييده ينصره بما يشاء من نعمه وفضله ، حتى أن الظالم لو علم بما أعدَّه الله للمظلوم لَضَنَّ عليه بالظلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(61/456)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا تمش في الآرض مرحاً ﴾ قال : لا تمش فخراً وكبراً ، فإن ذلك لا يبلغ بك الجبال ، ولا أن تخرق الأرض بفخرك وكبرك .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التواضع ، عن محبس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا مشيت أمتي المطيطا وخدمتهم فارس والروم سلط بعضهم على بعض " .

وأخرج ابن أبي الدنيا ، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه رأى رجلاً يخطر في مشيه فقال : إن للشيطان إخواناً .

وأخرج ابن أبي الدنيا ، عن خالد بن معدان رضي الله عنه قال : إياكم والخطر فإن الرجل قد تنافق يده من دون سائر جسده .

﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عبد الله بن كثير رضي الله عنه أنه كان يقرأ " كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها " على واحد يقول : هذه الأشياء التي نهيت عنها ، كل سيئة .

﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (39) ﴾

أخرج ابن جرير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل ، ثم تلا ﴿ ولا تجعل مع الله إلها آخر ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي رضي الله عنه ، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : ﴿ مدحوراً ﴾ قال مطروداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(62/456)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَرَحاً ﴾ : العامَّةُ على فتح الراء وفيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحالِ ، أي : مَرِحا بكسر الراء ، ويدلُّ عليه قراءةُ بعضِهم فيما حكاه يعقوبُ " مَرِحاً " بالكسر . الثاني : أنَّه حَذْفِ مضافٍ ، أي : ذا مَرَحٍ ، الثالث : أنه مفعولٌ مِنْ أجله .

والمَرَحُ: شِدَّةُ السرورِ والفرحِ . مَرِح يَمْرَح مَرَحاً فهو مَرِحٌ كَفَرِح يَفْرَح فَرَحاً فهو فَرِحٌ .

قوله : " طُوْلاً " يجوز أَنْ يكونَ حالاً مِنْ فاعل " تَبْلُغ " أو مِنْ مفعولِه ، أو مصدراً مِنْ معنى " تَبْلُغ " أو تمييزاً أو مفعولاً له . وهذان ضعيفان جداً لعدمِ المعنى .

وقرأ أبو الجرَّاح : " لن تَخْرُق " بضمِّ الراءِ ، وأنكرها أبو حاتمٍ ، وقال " لا نَعْرِفُها لغةً البتةَ " .

﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38) ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَانَ سَيِّئُهُ ﴾ : قرأ ابنُ عامرٍ والكوفيون بضمِّ الهمزةِ والهاء ، والتذكيرِ ، وتَرْكِ التنوين . والباقون بفتح الهمزةِ وتاءِ التأنيث منصوبةً منونةً . فالقراءةُ الأُولى أشير فيها بذلك إلى جميعِ ما تقدَّم ، ومنه السَّيِّىءُ والحَسَنُ ، فأضاف السَّيِّىءَ إلى ضميرِ ما تقدَّم ، ويؤيِّدها ما قرأ به عبدُ الله : " كلُّ ذلك كان سَيِّآته " بالجمعِ مضافاً للضمير ، وقراءةُ أُبَيّ " خبيثُه " والمعنى : كلُّ ما تقدَّم ذِكْرُه مِمَّا أُمِرْتُمْ به ونُهِيْتُمْ [عنه] كان سَيِّئُه - وهو ما نُهِيْتُمْ عنه خاصةً - أمراً مكروهاً . هذا أحسنُ ما يُقَدَّر في هذا المكان .

(63/456)

وأمَّا ما استشكله بعضُهم من أنَّه يصيرِ المعنى : كلُّ ما ذُكِر كان سَيِّئةً ، ومِنْ جملةِ كلِّ ما ذُكِر : المأمورُ به ، فَيَلْزَمُ أن يكونَ فيه سيِّءٌ ، فهو استشكالٌ واهٍ ؛ لِما ذَكَرْتُ من تقدير معناه .

و" مكروهاً " خبر "كان" ، وحُمِل الكلامُ كلُّه على لفظِ "كل" فلذلك ذكَّر الضميرَ في " سَيِّئُهُ" ، والخبرُ وهو : مكروه .

وأمَّا قراءةُ الباقين : فتحتمل أن تقعَ الإشارةُ فيها ب " ذلك" إلى مصدري النَّهْيَيْنِ المتقدِّمَيْن قريباً وهما : قَفْوُ ما ليس به عِلْمٌ ، والمَشْيُ في الأرض مَرَحاً . والثاني : أنه أُشيرَ به إلى جميع ما تقدَّم مِنَ المناهي . و " سَيِّئَةً" خبرُ كان ، وأُنِّثَ حَمْلاً على معنى "كُل" ، ثم قال " مَكْرُوهاً " حَمْلاً على لفظها .

وقال الزمخشريُّ كلاماً حسناً وهو : أنَّ " السيئة في حكمِ الأسماءِ بمنزلةِ الذَّنْبِ والإثمِ زال عنه حكمُ الصفاتِ ، فلا اعتبارَ بتأنيثِه ، ولا فرقَ بين مَنْ قرأ " سَيِّئة " ومَنْ قرأ " سَيِّئاً " ألا ترى أنَّك تقول : الزِّنَى سيئة ، كما تقول : السرقة سيئةٌ ، فلا تُفَرِّق بين إسنادِها إلى مذكر ومؤنث " .

وفي نَصْبِ " مكروهاً " أربعةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه خبرٌ ثانٍ ل "كان" ، وتعدادُ خبرِها جائزٌ على الصحيح . الثاني : أنه بدلٌ مِنْ " سيئة " . وضعّف هذا : بأنَّ البدلَ بالمشتق قليلٌ . الثالث : أنه حالٌ من الضمير المستتر في ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ لوقوعِه صفةً ل " سَيِّئة " . الرابع : أنه نعتٌ ل " سيئةٍ " ، وإنما ذكّر لأن تأنيثَ موصوفِه مجازيٌّ . وقد رُدَّ هذا : بأن ذلك إنَّما يجوز حيث أُسْنِد إلى المؤنثِ المجازيِّ ، أمَّا إذا أُسْنِدَ إلى ضميرِه فلا ، نحو : " الشمسُ طالعةٌ " ، لا يجوز : " طالعٌ " إلا في ضرورةٍ كقوله :

3066- . . . . ولا أرض أبقلَ

إبقالها

(64/456)

وهذا عند غيرِ ابن كَيْسان ، وأمّا ابن كَيْسان فيُجيز في الكلام : " الشمسُ طَلَع ، وطالعٌ "

.

وأمّا قراءةُ عبدِ الله فهي ممّا أُخْبِر فيها عن الجمعِ إخبارَ الواحدِ لسَدّ الواحدِ مَسَدَّه كقوله :

3067- فإمّا تَرَيْني ولِي لِمَّةٌ . . . فإنّ الحوادثَ أَوْدَى بها

لو قال : فإنَّ الحَدَثان / لصَحَّ من حيث المعنى ، فَعَدَلَ عنه لِيَصِحَّ الوزنُ .

وقرأ عبدُ الله أيضاً " كان سَيِّئاتٍ " بالجمعِ من غير إضافةٍ وهو خبرُ " كان " ، وهي تؤيد قراءةَ الحَرَمِيّين وأبي عمرو .

﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (39) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِمَّآ أوحى ﴾ : مبتدأ أو خبر ، و " ذلك " إشارةٌ إلى جميع ما تقدَّم من التكاليفِ وهي أربعةٌ وعشرون نوعاً ، أولها قولُه : ﴿ لاَّ تَجْعَل مَعَ الله إلها آخَرَ ﴾ [

الإِسراء : 22] ، وآخرُها : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الأَرضِ مَرَحاً ﴾ [الإِسراء : 37] . ﴿ مِمَّآ أَوحى ﴾ " مِنْ " للتبعيضِ ؛ لأنَّ هذه بعضُ ما أَوحاه اللهُ تعالى إلى نبيِّه .

قوله : ﴿ مِنَ الحِكمة ﴾ يجوز فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أن يكونَ حالاً مِنْ عائدِ الموصولِ المحذوف تقديرُهُ : مِن الذي أوحاه حال كَونِه من الحكمة ، أو حالٌ من نفسِ الموصولِ .

الثاني : أنه متعلق بأَوْحى ، و " مِنْ " إمَّا تبعيضيةٌ ؛ لأنَّ ذلك بعضُ الحكمةِ وإمَّا للابتداءِ ، وإمَّا للبيان . وحينئذٍ تتعلَّق بمحذوفٍ . الثالث : أنها مع مجرورِها بدلٌ مِنْ ﴿ مِمَّآ أَوحى ﴾ . انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 354.358 ﴾

(65/456)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) ﴾

الخُيَلاءُ والتجبُّر ، والمدح والتكبُّر - كل ذلك نتائجُ الغيبة عن الذكر ، والحجبة عن شهود الحقِّ ؛ " فإنَّ اللَّهَ إذا تجلَّى لشيءٍ خشع له " بذلك وَرَدَ الخبر . فأمَّا في حال حضور القلبِ واستيلاءِ الذكر وسلطان الشهود . فالقلبُ مُطْرِقٌ ، وحُكْمُ الهيبة غالِبٌ . ونعتُ المدحِ

وصفةُ الزَّهْوِ وأسبابُ التفرقة – كل ذلك ساقط .

والناسُ – في الخلاص من صفة التكبر – أصنافٌ : فأصحابُ الاعتبارِ إذْ عرفوا أنهم مخلوقونَ من نطلفةٍ أمشاج ، وما تحمله أبدانهم مما يترشح من مسامهم من بقايا طعامهم وشرابهم . . تعلو هِمَمُهم عن التضييق والتدنيق ، ويَبْعُدُ عن قلوبهم قيامُ أَخْطارٍ للأشياء ، ولا يخطر على داخلهم إلا ما يزيل عنهم التكبر ، وينزع عنهم لباس التجبُّر .

وأمّا أرباب الحضور فليس في طلوع الحق إلا انخناس النَّفْس ، وفي معناه قالوا :

إذا ما بدا لي تعاظَمْتُه . . . فأصدر في حال من لم يرد

﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38) ﴾

إذا سَعِدَتْ الأقدامُ بحضور ساحاتِ الشهود ، وعَطِرَتْ الأسرارُ بنسيم القُرْب تجرَّدَتْ الأوقاتُ عن الحجبة ، واستولى سلطان الحقيقة ، فيحصل التنفِّي من هذه الأوصاف المذمومة .

وقال تعالى لنبيّه : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ : بالوحي والإعلام ، ولأوليائه تعريف بحكم الإلهام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 348 .

349 ﴾

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22) ﴾

في الدرس الماضي ربطت قواعد العمل والجزاء ، والهدى والضلال ، والكسب والحساب . . إلى الناموس الكوني الذي يصرف الليل والنهار . وفي هذا الدرس تربط قواعد السلوك والآداب والتكاليف الفردية والاجتماعية إلى العقيدة في وحدة الله ، كما تربط بهذه العروة الوثقى جميع الروابط وتشد إليها كل الوشائج ، في الأسرة وفي الجماعة وفي الحياة .

وفي الدرس الماضي ورد ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ وورد : ﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ ففي هذا الدرس يعرض شيئاً من أوامر هذا القرآن ونواهية ، مما يهدي للتي هي أقوم ، ويفصل شيئاً مما اشتمل عليه من قواعد السلوك في واقع الحياة .

يبدأ الدرس بالنهي عن الشرك ، وبإعلان قضاء الله بعبادته وحده . ومن ثم تبدأ الأوامر والتكاليف : بر الوالدين ، وإيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ، في غير إسراف ولا تبذير . وتحريم قتل الذرية ، وتحريم الزنا ، وتحريم القتل . ورعاية مال اليتيم ، والوفاء بالعهد ، وتوفية الكيل والميزان ، والتثبت من الحق ، والنهي عن الخيلاء والكبر . . . وينتهي

بالتحذير من الشرك . فإذا الأوامر والنواهي والتكاليف محصورة بين بدء الدرس وختامه ، مشدودة إلى عقيدة التوحيد التي يقوم عليها بناء الحياة .

﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموماً مخذولا ﴾ .

(67/456)

إنه النهي عن الشرك والتحذير من عاقبته ، والأمر عام ، ولكنه وجه إلى المفرد ليحس كل أحد أنه أمر خاص به ، صادر إلى شخصه . فالاعتقاد مسألة شخصية مسؤول عنها كل فرد بذاته ، والعاقبة التي تنتظر كل فرد يحيد عن التوحيد أن ﴿ يقعد ﴾ ﴿ مذموماً ﴾ بالفعلة الذميمة التي أقدم عليها ، ﴿ مخذولاً ﴾ لا ناصر له ، ومن لا ينصره الله فهو مخذول وإن كثر ناصروه . ولفظ ﴿ فتقعد ﴾ يصور هيئة المذموم المخذول وقد حط به الخذلان فقعد ، ويلقي ظل الضعف فالقعود هو أضعف هيئات الإنسان وأكثرها استكانة وعجزاً ، وهو يلقي كذلك ظل الاستمرار في حالة النبذ والخذلان ، لأن القعود لا يوحي بالحركة ولا تغير الوضع ، فهو لفظ مقصود في هذا المكان .

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ . .

فهو أمر بتوحيد المعبود بعد النهي عن الشرك . أمر في صورة قضاء . فهو أمر حتمي حتمية

القضاء . ولفظة ﴿ قضى ﴾ تخلع على الأمر معنى التوكيد ، إلى جانب القصر الذي يفيده النفي والاستثناء ﴿ ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ فتبدو في جو التعبير ظلال التوكيد والتشديد .

فإذا وضعت القاعدة ، وأقيم الأساس ، جاءت التكاليف الفردية والاجتماعية ، ولها في النفس ركيزة من العقيدة في الله الواحد ، توحد البواعث والأهداف من التكاليف والأعمال .

والرابطة الأولى بعد رابطة العقيدة ، هي رابطة الأسرة ، ومن ثم يربط السياق بر الوالدين بعبادة الله ، إعلاناً لقيمة هذا البر عند الله :

﴿ وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما : أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ .

بهذه العبارات الندية ، والصور الموحية ، يستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء . ذلك أن الحياة وهي مندفعة في طريقها بالأحياء ، توجه اهتمامهم القوي إلى

الأمام . إلى الذرية . إلى الناشئة الجديدة . إلى الجيل المقبل . وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء . إلى الأبوة . إلى الحياة المولية . إلى الجيل الذاهب ! ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف ، وتتلفت إلى الآباء والأمهات .

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد . إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات . وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات ، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر ؛ كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هما شيخوخة فانية إن أمهلهما الأجل وهما مع ذلك سعيدان !

فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله ، ويندفعون بدورهم إلى الأمام . إلى الزوجات والذرية . . وهكذا تندفع الحياة .

ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء . إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقة كله حتى أدركه الجفاف !

وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد ، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله .

ثم يأخذ السياق في تظليل الجو كله بأرق الظلال ؛ وفي استجاشة الوجدان بذكريات الطفولة ومشاعر الحب والعطف والحنان :

﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ﴾ . . والكبر له جلاله ، وضعف الكبر له إيحاؤه ؛ وكلمة ﴿ عندك ﴾ تصور معنى الالتجاء والاحتماء في حالة الكبر والضعف . . ﴿ فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ﴾ وهي أول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب ألا يند من الولد ما يدل على الضجر والضيق ، وما يشي بالإهانة وسوء الأدب . . ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ وهي مرتبة أعلى إيجابية أن يكون كلامه لهما بشيء بالإكرام والاحترام . . ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ وهنا يشف التعبير ويلطف ، ويبلغ شغاف القلب وحنايا الوجدان . فهي الرحمة ترق وتلطف حتى لكأنها الذل الذي لا يرفع عيناً ، ولا يرفض أمراً . وكأنما للذل جناح يخفضه إيذاناً بالسلام والاستسلام . ﴿ وقل : رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ فهي الذكرى الحانية . ذكرى الطفولة الضعيفة يرعاها الولدان ، وهما اليوم في مثلها من الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان . وهو التوجه إلى الله أن يرحمهما فرحمة الله أوسع ، ورعاية الله أشمل ، وجناب الله أرحب . وهو أقدر على جزائهما بما بذلا من دمهما وقلبهما مما لا يقدر على جزائه الأبناء .

قال الحافظ أبو بكر البزار بإسناده عن بريدة عن أبيه :

" أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها فسأل النبي صلى الله عليه وسلم هل أديت حقها ؟ قال : لا . ولا بزفرة واحدة " .

ولأن الانفعالات والحركات موصولة بالعقيدة في السياق ، فإنه يعقب على ذلك برجع الأمر كله لله الذي يعلم النوايا ، ويعلم ما وراء الأقوال والأفعال :

﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم ، إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا ﴾ .

وجاء هذا النص قبل أن يمضي في بقية التكاليف والواجبات والآداب ليرجع إليه كل قول وكل فعل ؛ وليفتح باب التوبة والرحمة لمن يخطئ أو يقصر ، ثم يرجع فيتوب من الخطأ والتقصير .

وما دام القلب صالحاً ، فإن باب المغفرة مفتوح . والأوابون هم الذين كلما أخطأوا عادوا إلى ربهم مستغفرين .

(70/456)

ثم يمضي السياق بعد الوالدين إلى ذوي القربى أجمعين ؛ ويصل بهم المساكين وابن السبيل ، متوسعاً في القرابات حتى تشمل الروابط الإنسانية بمعناها الكبير :

﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً ؛ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ، فقل لهم قولاً ميسورا ﴾ .

والقرآن يجعل لذي القربى والمسكين وابن السبيل حقاً في الأعناق يوفى بالإنفاق . فليس هو تفضيلاً من أحد على أحد ؛ إنما هو الحق الذي فرضه الله ، ووصله بعبادته وتوحيده . الحق الذي يؤديه المكلف فيبرئ ذمته ، ويصل المودة بينه وبين من يعطيه ، وإن هو إلا مؤد ما عليه لله .

وينهى القرآن عن التبذير كما يفسره ابن مسعود وابن عباس الإنفاق في غير حق . وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ، ولو أنفق مُدًّا في غير حق كان مبذراً .

فليست هي الكثرة والقلة في الإنفاق . إنما هو موضع الإنفاق . ومن ثم كان المبذرون إخوان الشياطين ، لأنهم ينفقون في الباطل ، وينفقون في الشر ، وينفقون في المعصية . فهم رفقاء الشياطين وصحابهم ﴿ وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ لا يؤدي حق النعمة ، كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حق النعمة ، وحقها أن ينفقوها في الطاعات والحقوق ، غير متجاوزين ولا مبذرين .

فإذا لم يجد إنسان ما يؤدي به حق ذوي القربى والمساكين وابن السبيل واستحيا أن يواجههم ، وتوجه إلى الله يرجو أن يرزقه ويرزقهم ، فليعدهم إلى ميسرة ، وليقل لهم قولاً ليناً ، فلا يضيق بهم صدره ، ولا يسكت ويدعهم فيحسوا بالضيق في سكوته ، ففي القول الميسور عوض وأمل وتجمل .

وبمناسبة التبذير والنهي عنه يأمر بالتوسط في الإنفاق كافة :

﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا ﴾ .

(71/456)

والتوازن هو القاعدة الكبرى في النهج الإسلامي ، والغلو كالتفريط يخل بالتوازن . والتعبير هنا يجري على طريقة التصوير ؛ فيرسم البخل يداً مغلولة إلى العنق ، ويرسم الإسراف يداً مبسوطة كل البسط لا تمسك شيئاً ، ويرسم نهاية البخل ونهاية الإسراف قعدة كقعدة الملوم المحسور .

والحسير في اللغة الدابة تعجز عن السير فتقف ضعفاً وعجزاً . فكذلك البخيل يحسره بخله فيقف . وكذلك المسرف ينتهي به سرفه إلى وقفة الحسير . ملوماً في الحالتين على البخل وعلى السرف ، وخير الأمور الوسط .

ثم يعقب على الأمر بالتوسط بأن الرازق هو الله . هو الذي يبسط في الرزق ويوسع ، وهو الذي يقدر في الرزق ويضيق . ومعطي الرزق هو الآمر بالتوسط في الأنفاق :

﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيراً بصيرا ﴾ .

يبسط الرزق لمن يشاء عن خبرة وبصر ، ويقدر الرزق لمن يشاء عن خبرة وبصر . ويأمر

بالقصد والاعتدال ، وينهى عن البخل والسرف ، وهو الخبير البصير بالأقوام في جميع الأحوال ؛ وقد أنزل هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم في جميع الأحوال .

وكان بعض أهل الجاهلية يقتلون البنات خشية الفقر والإملاق ؛ فلما قرر في الآية السابقة أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، أتبعه بالنهي عن قتل الأولاد خشية الإملاق في المكان المناسب من السياق . فما دام الرزق بيد الله ، فلا علاقة إذن بين الإملاق وكثرة النسل أو نوع النسل ؛ إنما الأمر كله إلى الله . ومتى انتفت العلاقة بين الفقر والنسل من تفكير الناس ، وصححت عقيدتهم من هذه الناحية فقد انتهى الدافع إلى تلك الفعلة الوحشية المنافية لفطرة الأحياء وسنة الحياة :

﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطأً كبيرا ﴾ . .

(72/456)

إن انحراف العقيدة وفسادها ينشئ آثاره في حياة الجماعة الواقعية ، ولا يقتصر على فساد الاعتقاد والطقوس التعبدية . وتصحيح العقيدة ينشئ آثاره في صحة المشاعر وسلامتها ، وفي سلامة الحياة الاجتماعية واستقامتها . وهذا المثل من وأد البنات مثل بارز على آثار العقيدة في واقع الجماعة الإنسانية . وشاهد على أن الحياة لا يمكن إلا أن تتأثر بالعقيدة ،

وأن العقيدة لا يمكن أن تعيش في معزل عن الحياة .

ثم نقف هنا لحظة أمام مثل من دقائق التعبير القرآني العجيبة .

ففي هذا الموضع قدم رزق الأبناء على رزق الآباء : ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ وفي سورة الأنعام قدم رزق الآباء على رزق الأبناء : ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ وذلك بسبب اختلاف آخر في مدلول النصين . فهذا النص : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾ : والنص الآخر ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾ هنا قتل الأولاد خشية وقوع الفقر بسببهم فقدم رزق الأولاد . وفي الأنعام قتلهم بسبب فقر الآباء فعلاً . فقدم رزق الآباء . فكان التقديم والتأخير وفق مقتضى الدلالات التعبيرية هنا وهناك .

ومن النهي عن قتل الأولاد إلى النهي عن الزنا :

﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ .

.

وبين قتل الأولاد والزنا صلة ومناسبة وقد توسط النهي عن الزنا بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس لذات الصلة وذات المناسبة .

إن في الزنا قتلاً من نواحي شتى . إنه قتل ابتداء لأنه إراقة لمادة الحياة في غير موضعها ، يتبعه غالباً الرغبة في التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلق ، قبل مولده أو بعد مولده فإذا ترك الجنين للحياة ترك في الغالب لحياة شريرة ، أو حياة مهينة ، فهي حياة مضيعة في المجتمع على نحو من الأنحاء . . وهو قتل في صورة أخرى . قتل للجماعة التي يفشو فيها ، فتضيع الأنساب وتختلط الدماء ، وتذهب الثقة في العرض والولد ، وتتحلل الجماعة وتتفكك روابطها ، فتنتهي إلى ما يشبه الموت بين الجماعات .

وهو قتل للجماعة من جانب آخر ، أذ أن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها ، ويجعل الأسرة تبعة لا داعي إليها ، والأسرة هي المحضن الصالح للفراخ الناشئة ، لا تصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فيه .

وما من أمة فشت فيها الفاحشة إلا صارت إلى انحلال ، منذ التاريخ القديم إلى العصر الحديث . وقد يغر بعضهم أن أوربا وأمريكا تملكان زمام القوة المادية اليوم مع فشو هذه الفاحشة فيهما . ولكن آثار هذا الانحلال في الأمم القديمة منها كفرنسا ظاهرة لا شك فيها . أما في الأمم الفتية كالولايات المتحدة ، فإن فعلها لم تظهر بعد آثاره بسبب حداثة هذا الشعب واتساع موارده كالشاب الذي يصرف في شهواته فلا يظهر أثر الإسراف في بنيته وهو شاب ولكنه سرعان ما يتحطم عندما يدلف إلى الكهولة فلا يقوى على احتمال آثار

السن ، كما يقوى عليها المعتدلون من أنداده !

والقرآن يحذر من مجرد مقاربة الزنا . وهي مبالغة في التحرز . لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة ، فالتحرز من المقاربة أضمن . فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان .

(74/456)

ومن ثم يأخذ الإسلام الطريق على أسبابه الدافعة ، توقياً للوقوع فيه . . يكره الاختلاط في غير ضرورة . ويحرم الخلوة . وينهى عن التبرج بالزينة . ويحض على الزواج لمن استطاع ، ويوصي بالصوم لمن لا يستطيع . ويكره الحواجز التي تمنع من الزواج كالمغالاة في المهور . وينفي الخوف من العيلة والإملاق بسبب الأولاد . ويحض على مساعدة من يبتغون الزواج ليحصنوا أنفسهم . ويوقع أشد العقوبة على الجريمة حين تقع ، وعلى رمي المحصنات الغافلات دون برهان . . إلى آخر وسائل الوقاية والعلاج ، ليحفظ الجماعة الإسلامية من التردي والانحلال .

ويختم النهي عن قتل الأولاد وعن الزنا بالنهي عن قتل النفس إلا بالحق :

﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل ، إنه كان منصوراً ﴾ .

.

والإسلام دين الحياة ودين السلام ، فقتل النفس عنده كبيرة تلي الشرك بالله ، فالله واهب الحياة ، وليس لأحد غير الله ان يسلبها إلا بإذنه وفي الحدود التي يرسمها . وكل نفس هي حرم لا يمس ، وحرام إلا بالحق ، وهذا الحق الذي يبيح قتل النفس محدد لا غموض فيه ، وليس متروكاً للرأي ولا متأثراً بالهوى . وقد جاء في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزاني المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة " .

(75/456)

فأما الأولى فهي القصاص العادل الذي إن قتل نفساً فقد ضمن الحياة لنفوس ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ حياة بكف يد الذين يهمون بالاعتداء على الأنفس والقصاص ينتظرهم فيردعهم قبل الإقدام على الفعلة النكراء . وحياة بكف يد أصحاب الدم أن تثور نفوسهم فيثأروا ولا يقفوا عند القاتل ، بل يمضوا في الثأر ، ويتبادلوا القتل فلا يقف هذا الفريق وذاك حتى تسيل دماء ودماء . وحياة بأمن كل فرد على شخصه واطمئنانه إلى عدالة القصاص ، فينطلق آمناً يعمل وينتج فإذا الأمة كلها في حياة .

وأما الثانية فهي دفع للفساد القاتل في انتشار الفاحشة ، وهي لون من القتل على النحو الذي بيناه .

وأما الثالثة فهي دفع للفساد الروحي الذي يشيع الفوضى في الجماعة ، ويهدد أمنها ونظامها الذي اختاره الله لها ، ويسلمها إلى الفرقة القاتلة . والتارك لدينه المفارق للجماعة إنما يقتل لأنه اختار الإسلام لم يجبر عليه ، ودخل في جسم الجماعة المسلمة ، واطلع على أسرارها ، فخروجه بعد ذلك عليها فيه تهديد لها . ولو بقي خارجها ما أكرهه أحد على الإسلام . بل لتكفل الإسلام بحمايته إن كان من أهل الكتاب وبإجارته وإبلاغه مأمنه إن كان من المشركين . وليس بعد ذلك سماحة للمخالفين في العقيدة .

﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ . . ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ﴾ . .

تلك الأسباب الثلاثة هي المبيحة للقتل ، فمن قتل مظلوماً بغير واحد من تلك الأسباب ، فقد جعل الله لوليه وهو أقرب عاصب إليه سلطاناً على القاتل ، إن شاء قتله وإن شاء عفا على الدية ، وإن شاء عفا عنه بلا دية . فهو صاحب الأمر في التصرف في القاتل ، لأن دمه له .

وفي مقابل هذا السلطان الكبير ينهاه الإسلام عن الإسراف في القتل استغلالاً لهذا السلطان الذي منحه إياه. والإسراف في القتل يكون بتجاوز القاتل إلى سواه ممن لا ذنب لهم كما يقع في الثأر الجاهلي الذي يؤخذ فيه الآباء والأخوة والأبناء والأقارب بغير ذنب إلا أنهم من أسرة القاتل ويكون الإسراف كذلك بالتمثيل بالقاتل، والولي مسلط على دمه بلا مثله.

فالله يكره المثلة والرسول قد نهى عنها.

﴿ فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا ﴾ يقضي له الله، ويؤيده الشرع، وينصره الحاكم. فليكن عادلاً في قصاصه، وكل السلطات تناصره وتأخذ له بحقه.

وفي تولية صاحب الدم على القصاص من القاتل، وتجنيد سلطان الشرع وسلطان الحاكم لنصرته تلبية للفطرة البشرية، وتهدئة للغليان الذي تستشعره نفس الولي. الغليان الذي قد يجرفه ويدفعه إلى الضرب يميناً وشمالاً في حمى الغضب والانفعال على غير هدى. فأما حين يحس أن الله قد ولاه على دم القاتل، وأن الحاكم مجند لنصرته على القصاص، فإن ثائرته تهدأ ونفسه تسكن ويقف عند حد القصاص العادل الهادئ.

والإنسان إنسان فلا يطالب بغير ما ركب في فطرته من الرغبة العميقة في القصاص. لذلك يعترف الإسلام بهذه الفطرة ويلبيها في الحدود المأمونة، ولا يتجاهلها فيفرض التسامح فرضاً. إنما هو يدعو إلى التسامح ويؤثره ويحبب فيه، ويأجر عليه. ولكن بعد أن يعطي

الحق . فلولي الدم أن يقتص أو يصفح . وشعور ولي الدم بأنه قادر على كليهما قد يجنح به إلى الصفح والتسامح ، أما شعوره بأنه مرغم على الصفح فقد يهيج نفسه ويدفع به إلى الغلو والجماح !

وبعد أن ينتهي السياق من حرمة العرض وحرمة النفس ، يتحدث عن حرمة مال اليتيم ، وحرمة العهد .

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ، حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا ﴾ . .

والإسلام يحفظ على المسلم دمه وعرضه وماله ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم "كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله" ولكنه يشدد في مال اليتيم ويبرز النهي عن مجرد قربه إلا بالتي هي أحسن . ذلك أن اليتيم ضعيف عن تدبير ماله ، ضعيف عن الذود عنه ، والجماعة الإسلامية مكلفة برعاية اليتيم وماله حتى يبلغ أشده ويرشد ويستطيع أن يدبر ماله وأن يدفع عنه .

ومما يلاحظ في هذه الأوامر والنواهي أن الأمور التي يكلف بها كل فرد بصفته الفردية جاء

الأمر أو النهي فيها بصيغة المفرد ؛ أما الأمور التي تناط بالجماعة فقد جاء الأمر أو النهي فيها بصيغة الجمع ، ففي الإحسان للوالدين وإيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ، وعدم التبذير ، والتوسط في الإنفاق بين البخل والسرف ، وفي التثبت من الحق والنهي عن الخيلاء والكبر . . كان الأمر أو النهي بصيغة المفرد لما لها من صبغة فردية . وفي النهي عن قتل الأولاد وعن الزنا وعن قتل النفس ، والأمر برعاية مال اليتيم والوفاء بالعهد ، وإيفاء الكيل والميزان كان الأمر أو النهي بصيغة الجمع لما لها من صبغة جماعية .

ومن ثم جاء النهي عن قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن في صيغة الجمع ، لتكون الجماعة كلها مسؤولة عن اليتيم وماله ، فهذا عهد عليها بوصفها جماعة .

ولأن رعاية مال اليتيم عهد على الجماعة ألحق به الأمر بالوفاء بالعهد إطلاقاً . ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا ﴾ . . يسأل الله جل جلاله عن الوفاء به ، ويحاسب من ينكث به وينقضه .

(78/456)

وقد أكد الإسلام على الوفاء بالعهد وشدد . لأن هذا الوفاء مناط الاستقامة والثقة والنظافة في ضمير الفرد وفي حياة الجماعة . وقد تكرر الحديث عن الوفاء بالعهد في صور

شتى في القرآن والحديث ؛ سواء في ذلك عهد الله وعهد الناس . عهد الفرد وعهد الجماعة وعهد الدولة . عهد الحاكم وعهد المحكوم . وبلغ الإسلام في واقعه التاريخي شأوا بعيدا في الوفاء بالعهود لم تبلغه البشرية إلا في ظل الإسلام .

ومن الوفاء بالعهد إلى إيفاء الكيل والميزان :

﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم . ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ . . والمناسبة بين الوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والميزان ظاهرة في المعنى واللفظ ، فالانتقال في السياق ملحوظ التناسق .

وإيفاء الكيل والاستقامة في الوزن ، أمانة في التعامل ، ونظافة في القلب ، يستقيم بهما التعامل في الجماعة ، وتتوافر بهما الثقة في النفوس ، وتتم بهما البركة في الحياة . ﴿ ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ . . خير في الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ، ليس به إلا مخافة الله ، إلا أبدله الله به في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير من ذلك " .

والطمع في الكيل والوزن قذارة وصغار في النفس ، وغش وخيانة في التعامل تتزعزع بهما الثقة ، ويتبعها الكساد ، وتقل بهما البركة في محيط الجماعة ، فيرتد هذا على الأفراد ؛ وهم يحسبون أنهم كاسبون بالتطفيف .

وهو كسب ظاهري ووقتي ، لأن الكساد في الجماعة يعود على الأفراد بعد حين .

وهذه حقيقة أدركها بعيدو النظر في عالم التجارة فاتبعوها ، ولم يكن الدافع الأخلاقي ، أو الحافز الديني هو الباعث عليها ؛ بل مجرد إدراكها في واقع السوق بالتجربة العملية .

(79/456)

والفارق بين من يلتزم إيفاء الكيل والميزان تجارة ، ومن يلتزمه اعتقاداً . . أن هذا يحقق أهداف ذاك ؛ ويزيد عليه نظافة القلب والتطلع في نشاطه العملي إلى آفاق أعلى من الأرض ، وأوسع في تصور الحياة وتذوقها .

وهكذا يحقق الإسلام دائماً أهداف الحياة العملية وهو ماض في طريقه إلى آفاقه الوضيئة وآماده البعيدة ، ومجالاته الرحيبة .

والعقيدة الإسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة . فلا يقوم شيء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ . .

وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجاً كاملاً للقلب والعقل ، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثاً جداً ، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله ، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة !

فالتثبت من كل خير ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق .

ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة . ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل . ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم .

والأمانة العلمية التي يشيد بها الناس في العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعتها الكبرى ، ويجعل الإنسان مسؤولاً عن سمعه وبصره وفؤاده ، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد . .

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب . أمانة يسأل عنها صاحبها ، وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعاً . أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الإنسان رواية ، وكلما أصدر حكماً على شخص أو أمر أو حادثة .

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ . . ولا تتبع ما لا تعلمه علم اليقين ، وما لم تتثبت من صحته : من قول يقال ورواية تروى . من ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل . ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية .

وفي الحديث : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث " . وفي سنن أبي داود : " بئس مطية الرجل : زعموا " وفي الحديث الآخر " إن أفرى الفري أن يُريَ الرجل عينيه ما لم تريا " .

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث على تقرير ذلك المنهج الكامل المتكامل الذي لا يأخذ العقل وحده بالتحرج في أحكامه ، والتثبت في استقرائه : إنما يصل ذلك التحرج بالقلب في خواطره وتصوراته ، وفي مشاعره وأحكامه ، فلا يقول اللسان كلمة ولا يروي حادثة ولا ينقل رواية ، ولا يحكم العقل حكماً ولا يبرم الإنسان أمراً إلا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة ، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في صحتها . ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ حقاً وصدقاً . .

وتختم هذه الأوامر والنواهي المرتبطة بعقيدة التوحيد بالنهي عن الكبر الفارغ والخيلاء الكاذبة :

﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً . إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ . .

والإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده تأخذه الخيلاء بما يبلغه من

ثراء أو سلطان ، أو قوة أو جمال . ولو تذكر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأنه ضعيف أمام حول الله ، لطامن من كبريائه ، وخفف من خيلائه ، ومشى على الأرض هوناً لا تيهاً ولا مرحاً .

والقرآن يجبه المتطاول المختال المرح بضعفه وعجزه وضآلته : ﴿ إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ فالإنسان بجسمه ضئيل هزيل ، لا يبلغ شيئاً من الاجسام الضخمة التي خلقها الله .

إنما هو قوي بقوة الله ، عزيز بعزة الله ، كريم بروحه الذي نفخه الله فيه ، ليتصل به ويراقبه ولا ينساه .

(81/456)

ذلك التطامن والتواضع الذي يدعو إليه القرآن بترذيل المرح والخيلاء ، أدب مع الله ، وأدب مع الناس . أدب نفسي وأدب اجتماعي . وما يترك هذا الأدب إلى الخيلاء والعجب إلا فارغ صغير القلب صغير الاهتمامات . يكرهه الله لبطره ونسيان نعمته ، ويكرهه الناس لانتفاشه وتعاليه .

وفي الحديث : " من تواضع لله رفعه فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير . ومن استكبر

وضعه الله ، فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير . حتى لهو أبغض إليهم من الكلب والخنزير " .

وتنتهي تلك الأوامر والنواهي والغالب فيها هو النهي عن ذميم الفعال والصفات بإعلان كراهية الله للسيئ منها :

﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴾ .

فيكون في هذا تلخيصاً وتذكيراً بمرجع الأمر والنهي وهو كراهية الله للسيئ من تلك الأمور . ويسكت عن الحسن المأمور به ، لأن النهي عن السيئ هو الغالب فيها كما ذكرنا .

ويختم الأوامر والنواهي كما بدأها بربطها بالله وعقيدة التوحيد والتحذير من الشرك .

وبيان أنها بعض الحكمة التي يهدي إليها القرآن الذي أوحاه الله إلى الرسول :

﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ .

وهو ختام يشبه الابتداء . فتجيء محبوكة الطرفين ، موصولة بالقاعدة الكبرى التي يقيم عليها الإسلام بناء الحياة ، قاعدة توحيد الله وعبادته دون سواه . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 4 صـ 2220 . 2228 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (41) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (42) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (43) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ادعاءهم أن الملائكة بنات الله ادعاء لأن له مناسباً ومجانساً في أخص الصفات وهي الإلهية ، وكانت عبادتهم لهم تحقيقاً لذلك ، وكان ذلك أزيد من مجرد الشرك في الجهل ، ساقه مساق التقريع والتوبيخ تنبيهاً على ظهور فساده متصلاً بما مضى من النهي عن الشرك بالعطف بفاء السبب على ﴿ ما ﴾ بعد الاستئناف بهمزة الإنكار ، فكان كأنه قيل : لا تفعل ذلك كما فعل هؤلاء الذين أفرطوا في الجهل فنسبوا إليه من خلقه أدنى الجزءين كما تقدم في النحل في قوله تعالى ﴿ ويجعلون لله البنات ﴾ [النحل : 54] ثم عبدوا ذلك الجزء وهم لا يرضونه لأنفسهم ؛ ثم التفت إليهم مخاطباً بما دل على تناهي الغضب فقال : ﴿ أفأصفاكم ربكم ﴾ أي أخلق المحسن إليكم بنين وبنات فأصفاكم إحساناً إليكم وأنتم

تكفرون به ﴿ بالبنين ﴾ الذين هم أفضل صنفي الأولاد ، ﴿ و ﴾ لم يحسن إلى نفسه بأن شاركتكم في البنين ، بل ﴿ اتخذ ﴾ عبر بالافتعال لأن من عدل إلى أحد الصنفين مع التمكن من الآخر لا يكون إلا شديد الرغبة فيما عدل إليه ﴿ من الملائكة ﴾ الذين هم أقرب عباده أولاداً ، ثم ما كفاه نقص الولدية ومعالجة أسبابها حتى جعل ما اتخذه ﴿ إناثاً ﴾ فرضي لنفسه - وهو إلهكم الخالق الرازق - با لا ترضونه لأنفسكم ، ووصلتم في كراهته في بعض الحالات إلى القتل ، فصار مشاركاً لكم في البنات مخصصاً لكم دونه بالبنين ، وذلك خلاف عادتكم ، فإنه العبيد لا يؤثرون بالأجود ويكون الأدون للسادات ، وعبر أولاً بالبنين دون الذكور لأن اسم الابن ألذ في السمع ، مرض لمن بشر به من غير نظر في العاقبة ، وقد يكون أنثى الأفعال ، ولأن اسم الذكر مشترك المعنى ، وعبر في الثاني بالإناث لإفهام الرخاوة بمدلول اللفظ ، ولأنهن بنات بالمعادلة ، ويمكن أن تنزل الآية على الاحتباك ، فيكون التقدير : بالبنين ورضي لنفسه بالبنات ، وخصكم في نوعكم الذي هو أضعف ما يكون بالذكور ، واتخذ من الملائكة الذين منهم من يقدر على حمل الأرض وقلب

أسفلها على أعلاها إناثاً في غاية الرخاوة، ولذلك استأنف الإنكار عليهم معظماً لذلك بقوله تعالى: ﴿إنكم لتقولون﴾ وأكده لما لهم من التهاون له والاجتراء عليه بقوله تعالى: ﴿قولاً﴾ وزاد في ذلك بقوله: ﴿عظيماً﴾ أي في الجهل والإفك، عليه وعلى ملائكة الذين لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فتضيفون إليه الأولاد وهم من خصائص الأجسام ثم تفضلون أنفسكم عليه فتجعلون له ما تكرهون.

ولما كان في هذا من البيان ما لا يخفى على الإنسان ولم يرجعوا، أشار إلى أن لهم أمثال هذا الإعراض عن أمثال هذا البيان فقال تعالى: ﴿ولقد صرفنا﴾ أي طرقنا تطريقاً عظيماً بأنواع طرق البيان من العبر والحكم، والأمثال والأحكام، والحجج والأعلام، في قوالب الوعد والوعيد، والأمر والنهي، والمحكم والمتشابه - إلى غير ذلك ﴿في هذا القرءان﴾ من هذه الطرق ما لا غبار عليه، ونوعناه من جهة إلى جهة، ومن مثال إلى مثال؛ والتصريف لغة: صرف الشيء من جهة إلى أخرى، ثم صار كناية عن التبيين - قاله أبو حيان.

ولما كان ذلك مركوزاً في الطباع ، وله في العقول أمثال تبرز عرائسها من خدورها بأدنى التفات من النفس ، سمي الوعظ بها تذكيراً بما هو معلوم فقال تعالى : ﴿ ليذكروا ﴾ أي نوعاً من التذكير - بما أشار إليه الإدغام ، فإنه سبحانه كريم يرضى باليسير - هذا في قراءة الجماعة ، وقرأ حمزة والكسائي بإسكان الذال وضم الكاف إشارة إلى أن جميع ما في القرآن لا يخرج شيء منه عن العقل ، بل هو مركوز في الطباع ، وله شواهد في الأنفس والآفاق ، يستحضرها الإنسان بأدنى إشارة وأيسر تنبيه ، إذا أزيل عنها ما سترها عن العقل من الحظوظ والشواغل ، وأتبعه قوله تعالى معجباً منهم : ﴿ وما يزيدهم ﴾ التصريف ﴿ إلا نفوراً ﴾ عن السماع فضلاً عن التذكير ، لاعتقادهم أن ذلك ليس ببراهين ، بل هو شبه وخيل إلى صرفهم عما هم فيه مما ألفوه وتلقوه عن آبائهم وتمادت عليهم الدهور في اعتقاد كونه حقاً ، فكأنه قيل : فما يفعل بهم ؟ فقال تعالى : ﴿ قل ﴾ لهم ولا تيأس من رجوع بعضهم : ﴿ لو كان معه ﴾ أي ربكم الذي تقدم وصفه بالإحسان والتنزيه ﴿ ءالهة كما يقولون ﴾ من هذه الأقوال التي لو قالها أعظمكم في حق أدناكم وهو يريد بها حقيقتها لصار ضحكة للعباد ﴿ إذاً لابتغوا ﴾ أي طلبوا طلباً عظيماً ﴿ إلى ذي العرش ﴾ أي صاحب السرير الأعظم المحيط الذي من ناله كان منفرداً بالتدبير ﴿ سبيلاً ﴾ أي طريقاً سالكاً يتوصلون به إليه ليقهروه ويزيلوا ملكه كما ترون من فعل ملوك الدنيا بعضهم مع بعض ، أو ليتخذوا عنده يداً تقربهم إليه ، وصرح بالعرش تصويراً لعظمته وتعييناً للمبتغي

والمبتغى ؛ ثم نزه نفسه تعظيماً عن ذلك وعن كل نقص فقال تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزه التنزه الأعظم عن كل شائبة نقص ﴿ وتعالى ﴾ أي علا أعظم العلو بصفات الكمال ﴿ عما يقولون ﴾ من هذه النقائض التي لا يرضاها لنفسه أحد من عقلاء خلقه فضلاً عن رئيس من رؤسائكم ، فكيف بالعلي الأعلى ! وأتى بالمصدر المجرد في قوله تعالى : ﴿ علواً ﴾ إيذاناً بأن الفعل

(85/456)

مجرد في الحقيقة وإن أتى به على صيغة التفاعل إيذاناً بالمبالغة ﴿ كبيراً ﴾ لا تحتمل عقولكم الوقوف على حقيقته ولا تدركون منه أكثر من مفهوم هذا الوصف عندكم بحسب ما تتعارفونه :

والأمر أعظم من مقالة قائل . . .

إن رقق البلغاء أو إن فخموا

ثم استأنف بيان عظمة هذا التنزيه مقروناً بالوصف بالكمال فقال تعالى : ﴿ تسبح ﴾ أي توقع التنزيه الأعظم ﴿ له ﴾ أي الإله الأعظم الذي تقدم وصفه بالجلال والإكرام خاصة ﴿ السماوات السبع ﴾ كلها ﴿ والأرض ﴾ أيضاً ﴿ ومن فيهن ﴾ من ذوي العقول

﴿ وإن ﴾ أي وما ، وأعرق في النفي فقال تعالى : ﴿ من شيء ﴾ أي ذي عقل وغيره ﴿ إلا يسبح ﴾ أي ينزه له متلبساً ﴿ بحمده ﴾ أي بوصفه بما له من صفات الكمال بما له تعالى في ذلك الشيء من الآيات الدالة على كل من السلب والإيجاب ، وهذا تسبيح بلسان المقال ممن يصح منه ، وبلسان الحال منه ومن غيره ، كما قال الجدار للوتد : لم تشقني ؟ فقال : سل من يدقني .

وهو تسبيح من جهات شتى ليسمعها العارفون بسمع الفهم وصفاء الذهن من جهة ذاتها في خلقها ثم في معنى صفتها بحاجتها من جهة حدوثها إلى صانع أحدثها قديم غير مصنوع ، ومن جهة إتقانها إلى كونه مدبراً حكيماً ، ومن جهة فنائها إلى كونه مع ذلك قادراً مختاراً ، قاهراً جباراً - إلى غير ذلك ، بخلاف ما لو قصر التسبيح على لسان المقال فإنه يكون من نوع واحد ، وأوضح مرشداً إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ ولكن لا تفقهون ﴾ دون " تسمعون " ﴿ تسبيحهم ﴾ لإعراضكم عن النظر ونفوركم عن سماع الذكر الذي هو أعظم أسبابه ، على أن هذا إنما هو بالنسبة لعامة الخلق ، وأما الخاصة فإنهم يسمعون تسبيح الجمادات ؛ روى البخاري عن عبد الله ـ رضى الله عنهم ـ قال : كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها

تخويفاً ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في سفر فقل الماء فقال : اطلبوا فضلة من ماء ، فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل : فأدخل يده في الإناء وقال : حيّ على الطهور المبارك والبركة من الله ، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم – وشرف وكرم وبجل وعظم – ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . وتسبيح الحصى مشهور ، وفي زبور داود عليه السلام تكرير كثير لهذه الآية وحث على تأملها ، قال في المزمور الثامن والستين : تسبح له السماوات والأرض والبحار وكل ما يدب فيها .

وفي المزمور الخامس والثمانين : فليس مثلك يا ربي وإلهي ولا مثل أعمالك ، لأن جميع الأمم الذين خلقت يأتون ويسجدون أمامك يا رب ويسبحون لاسمك ، لأنك عظيم صانع الآيات .

وفي الثامن والثمانين : بذراعك العزيزة فرقت أعداءك ، لك السماوات ولك الأرض ، أنت أسست الدنيا بكمالها ، خلقت البر والبحر ، تابور وحرمون باسمك يسبحان ، لك القوة والجبروت ، تعتز يدك ، وتعلو يمينك ، بالعدل والحكم أتقنت كرسيك ، الرحمة والعدل ينطلقان أمامك ، طوبى للشعب الذي يعرف تسبيحك .

وفي الخامس والتسعين : سبحوا الرب تسبيحاً جديداً ، الأرض كلها تسبح الرب ، اسجدوا للرب في هيا كل قدسه لأن جميع الأرض تتزلزل بين يديه ، قولوا في الشعوب : إن الله هو الملك أتقن الدنيا لكيلا تزول ، يقضي بين الشعوب بالعدل ، تفرح السماوات وتبتهج الأرض ، ينقلب البحر في عمقه ، تتهلل البقاع وما فيها ، هنالك يسبح جميع شجر الغياض قدام الرب .

وفي السابع والتسعين : ولله تسبح كل الأرض ، مجدوا وهللوا وسبحوا الرب .

وفي الثامن والأربعين بعد المائة : سبحوا الرب من السماوات ، سبحوه من العلى يا جميع ملائكته ! وكل جنوده تسبحه ، الشمس والقمر يسبحانه ، وجميع الكواكب والنور تسبحه ، يسبح الرب سماء الدنيا والمياه التي فوق السماوات ، تسبح جميعاً اسم الرب لأنه قال فكانوا ، وأمر فخلقوا ، وأقامهم إلى الأبد والدهر ، جعل لها مقدراً لا تتجاوزه ، يسبح الرب من في الأرض : التنانين وجميع الأعماق ، النار والبرد والثلج والجليد والريح العاصفة عملت كلمته ، الجبال وكل الآكام ، الشجر المثمرة وجميع الأرز ، السباع وكل البهائم والوحوش وكل حيوان وكل طائر ذي جناح ، ملوك الأرض وسائر الشعوب العظماء وجميع حكام الأرض ، الشبان والعذارى والشيوخ والصبيان يسبحون اسم الرب ، لأن اسمه قد تعالى وحده .

وفي الخمسين بعد المائة : سبحوا الله في كل قديسيه ، سبحوه في جلد قوته ، سبحوه كمثل جبروته ، سبحوه بكثرة عظمته ، سبحوه بصوت القرن ، وسبحوه بأصوات عالية ، كل نسمة تسبح الرب .

(88/456)

ولما كان تسبيح جميع المخلوقات أمراً واضح الفهم ظاهر الشأن ، فكانوا مستحقين للعقاب في عدم فهمه بعدم التأمل في المصنوعات حق التأمل ، نبههم على أن عافيتهم إنما هي لحلمه عنهم ، فهو ينظرهم إلى المدة التي ضربها لهم لأنه لا يعجل لتنزهه عن شوائب النقص الذي نطق كل شيء بتنزيهه عنها فقال تعالى : ﴿ إنه كان حليماً ﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة على إعراضكم عن صرف الأفكار فيما أمركم بصرفها إليه .

ولما كان الغالب على أحوال البشر أن حليمهم إذا غضب لا يغفر ، وإن عفا كان عفوه مكدراً ، قال تعالى : ﴿ غفوراً ﴾ مشيراً بصيغة المبالغة إلى أنه على غير ذلك ترغيباً في التوبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 382 . 386 ﴾

(89/456)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ليذكروا ﴾ من الذكر وكذلك في " الفرقان " : حمزة وعلي وخلف . الآخرون بتشديد الذال والكاف من التذكر . ﴿ كما يقولون ﴾ على الغيبة : ابن كثير وحفص ﴿ عما تقولون ﴾ على الخطاب : حمزة وعلي وخلف . ﴿ تسبح ﴾ بتاء التأنيث : أبو عمرو وسهل ويعقوب وحمزة وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد والمفضل والخزاز عن هبيرة . الآخرون على التذكير ﴿ أئذا ﴾ ﴿ أئنا ﴾ القول فيه كما مر في " الرعد " وكذلك في آخر هذه السورة وفي سورة " قد أفلح " وفي سورة السجدة .

الوقوف : ﴿ ليذكروا ﴾ ط ﴿ نفوراً ﴾ 5 ﴿ سبيلاً ﴾ 5 ﴿ كبيراً ﴾ 5 ﴿ فيهن ﴾ ط ﴿ تسبيحهم ﴾ ط ﴿ غفوراً ﴾ 5 ﴿ مستوراً ﴾ لا للعطف ﴿ وقراً ﴾ ط ﴿ نفوراً ﴾ ط ﴿ مسحوراً ﴾ 5 ﴿ سبيلاً ﴾ 5 ﴿ جديداً ﴾ 5 ﴿ حديداً ﴾ لا ﴿ صدوركم ﴾ ج للفاء مع أن السين للاستئناف ﴿ بعيدنا ﴾ ط ﴿ أوّل مرة ﴾ ج لما قلنا ﴿ متى هو ﴾ ط ﴿ قريباً ﴾ 5 ﴿ قليلاً ﴾ 5 ﴿ أحسن ﴾ ط ﴿ بينهم ﴾ ط ﴿ مبيناً ﴾ 5 ﴿ أعلم بكم ﴾ 5 ﴿ يعذبكم ﴾ ط ﴿ وكيلاً ﴾ ط ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ زبوراً ﴾ 5 ﴿ شديداً ﴾ ط 5 ﴿ مسطوراً ﴾ 5 ﴿ الأوّلون ﴾

ط لأن الواو للاستئناف ﴿ فظلموا بها ﴾ ط ﴿ تخويفاً ﴾ 5 ﴿ بالناس ﴾ ط ﴿ في القرآن ﴾ ط الكل لما مر . ﴿ ونخوّفهم ﴾ لا لصحة عطف المستقبل على المستقبل ﴿ كبيراً ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 352 ﴾

(90/456)

فصل

قال الفخر :

وأما قوله : ﴿ أفأصفاكم ربُّكم بالبنين واتخذ مِنَ الملئكة إِنَاثًا ﴾

فاعلم أنه تعالى لما نبه على فساد طريقة من أثبت لله شريكاً ونظيراً نبه على طريقة من أثبت له الولد وعلى كمال جهل هذه الفرقة ، وهي أنهم اعتقدوا أن الولد قسمان ؛

فأشرف القسمين البنون ، وأخسهما البنات .

ثم إنهم أثبتوا البنين لأنفسهم مع علمهم بنهاية عجزهم ونقصهم وأثبتوا البنات لله مع علمهم بأن الله تعالى هو الموصوف بالكمال الذي لا نهاية له والجلال الذي لا غاية له ، وذلك يدل على نهاية جهل القائل بهذا القول ونظيره قوله تعالى :

﴿ أَمْ لَهُ البنات وَلَكُمُ البنون ﴾ [الطور : 39] وقوله : ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى ﴾ [

النجم : 21] وقوله : ﴿ أفأصفاكم ﴾ يقال أصفاه بالشيء إذا آثر به ، ويقال للضياع التي يستخصها السلطان بخاصية الصوافي .

قال أبو عبيدة في قوله : ﴿ أفأصفاكم ﴾ أفخصكم ، وقال المفضل : أخلصكم .

قال النحويون هذه الهمزة همزة تدل على الإنكار على صيغة السؤال عن مذهب ظاهر الفساد لا جواب لصاحبه إلا بما فيه أعظم الفضيحة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ وبيان هذا التعظيم من وجهين : الأول : أن إثبات الولد يقتضي كونه تعالى مركباً من الأجزاء والأبعاض ، وذلك يقدح في كونه قديماً واجب الوجود لذاته .

وذلك عظيم من القول ومنكر من الكلام .

والثاني : أن بتقدير ثبوت الولد فقد جعلتم أشرف القسمين لأنفسكم وأخس القسمين لله .

وهذا أيضاً جهل عظيم .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (41) ﴾

اعلم أن التصريف في اللغة عبارة عن صرف الشيء من جهة إلى جهة ، نحو تصريف الرياح وتصريف الأمور هذا هو الأصل في اللغة ، ثم جعل لفظ التصريف كناية عن التبيين ، لأن من حاول بيان شيء فإنه يصرف كلامه من نوع إلى نوع آخر ومن مثال إلى مثال آخر ليكمل الإيضاح ويقوي البيان فقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أي بينا ومفعول التصريف محذوف وفيه وجوه : أحدها : ولقد صرفنا في هذا القرآن ضروباً من كل مثل .

وثانيها : أن تكون لفظة "في" زائدة كقوله : ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِى ذُرِّيَّتِى ﴾ [الأحقاف : 15] أي أصلح لي ذريتي .

أما قوله : ﴿ لِّيَذْكُرُواْ ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ الجمهور ﴿ لِّيَذْكُرُواْ ﴾ بفتح الذال والكاف وتشديدهما ، والمعنى : ليتذكروا فأدغمت التاء في الذال لقرب مخرجيهما ، وقرأ حمزة والكسائي ﴿ ليذكروا ﴾ ساكنة الذال مضمومة الكاف ، وفي سورة الفرقان مثله من الذكر قال الواحدي : والتذكر ههنا أشبه من الذكر ، لأن المراد منه التدبر والتفكر ، وليس المراد منه الذكر الذي يحصل بعد النسيان .

ثم قال : وأما قراءة حمزة والكسائي ففيها وجهان : الأول : أن الذكر قد جاء بمعنى التأمل والتدبر كقوله تعالى : ﴿ خُذُواْ مَا ءاتيناكم بِقُوَّةٍ واذكروا مَا فِيهِ ﴾ [البقرة : 63] والمعنى

: وافهموا ما فيه .

والثاني : أن يكون المعنى صرفنا هذه الدلائل في هذا القرآن ليذكروه بألسنتهم فإن الذكر باللسان قد يؤدي إلى تأثر القلب بمعناه .

المسألة الثانية :

قال الجبائي : قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هذا القرءانِ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ يدل على أنه تعالى إنما أنزل هذا القرآن ، وإنما أكثر فيه من ذكر الدلائل لأنه تعالى أراد منهم فهمها والإيمان بها ، وهذا يدل على أنه تعالى يفعل أفعاله لأغراض حكمية ، ويدل على أنه تعالى أراد الإيمان من الكل سواء آمنوا أو كفروا ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ وفيه مسألتان :

(92/456)

المسألة الأولى :

قال الأصم : شبههم بالدواب النافرة ، أي ما ازدادوا من الحق إلا بعداً وهو كقوله : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا ﴾ [التوبة : 125] .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى ما أراد الإيمان من الكفار ، وقالوا : إنه تعالى عالم بأن تصريف القرآن لا يزيدهم إلا نفوراً ، فلو أراد الإيمان منهم لما أنزل عليهم ما يزيدهم نفرة ونبوة عنه ، لأن الحكيم إذا أراد تحصيل أمر من الأمور وعلم أن الفعل الفلاني يصير سبباً لمزيد النفرة والنبوة عنه ، فإنه عندما يحاول تحصيل ذلك المقصود يحترز عما يوجب مزيد النفرة والنبوة .

فلما أخبر تعالى أن هذا التصريف يزيدهم نفوراً ، علمنا أنه ما أراد الإيمان منهم ، والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي العرش سَبِيلاً ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في تفسيره وجهان :

الوجه الأول : أن المراد من قوله : ﴿ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي العرش سَبِيلاً ﴾ هو أنا لو فرضنا وجود آلهة مع الله تعالى لغلب بعضهم بعضاً ، وحاصله يرجع إلى دليل التمانع وقد شرحناه في سورة الأنبياء في تفسير قوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءالِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] فلا فائدة في الإعادة .

الوجه الثاني : أن الكفار كانوا يقولون ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3

] ، فقال الله لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى لطلبت لأنفسها أيضاً قربة إلى الله تعالى وسبيلاً إليه ولطلبت لأنفسها المراتب العالية ، والدرجات الشريفة من الأحوال الرفيعة ، فلما لم تقدر أن تتخذ لأنفسها سبيلاً إلى الله فكيف يعقل أن تقربكم إلى الله .

المسألة الثانية :

(93/456)

قرأ ابن كثير ﴿ كما يقولون ﴾ و ﴿ عما يقولون ﴾ و ﴿ يسبح ﴾ بالياء في هذه الثلاثة ، والمعنى كما يقول المشركون من إثبات الآلهة من دونه فهو مثل قوله : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران : 12] وقرأ حمزة والكسائي كلها بالتاء ، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم في الأول بالتاء على الخطاب ، وفي الثاني والثالث بالياء على الحكاية ، وقرأ حفص عن عاصم الأولين بالياء ، والأخير بالتاء ، وقرأ أبو عمرو الأول والأخير بالتاء والأوسط بالياء .

ثم قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيرًا ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

لما أقام الدليل القاطع على كونه منزهاً عن الشركاء .

وعلى أن القول بإثبات الآلهة قول باطل ، أردفه بما يدل على تنزيهه عن هذا القول الباطل فقال : ﴿ سبحانه ﴾ وقد ذكرنا أن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ، ثم قال : ﴿ وتعالى ﴾ والمراد من هذا التعالي الارتفاع وهو العلو ، وظاهر أن المراد من هذا التعالي ليس هو التعالي في المكان والجهة ، لأن التعالي عن الشريك والنظير والنقائص والآفات لا يمكن تفسيره بالتعالي بالمكان والجهة ، فعلمنا أن لفظ التعالي في حق الله تعالى غير مفسر بالعلو بحسب المكان والجهة .

المسألة الثانية :

جعل العلو مصدر التعالي فقال تعالى : ﴿ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ وكان يجب أن يقال تعالى تعالياً كبيراً إلا أن نظيره قوله تعالى : ﴿ والله أَنبَتَكُمْ مّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] .

فإن قيل : ما الفائدة في وصف ذلك العلو بالكبير ؟

(94/456)

قلنا : لأن المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثبوت الصاحبة والولد والشركاء والأضداد والأنداد منافاة بلغت في القوة والكمال إلى حيث لا تعقل الزيادة عليها ، لأن

المنافاة بين الواجب لذاته والممكن لذاته ، وبين القديم والمحدث ، وبين الغني والمحتاج منافاة لا تعقل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير .

ثم قال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السموات والأرض وَمَن فِيهِنَّ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

اعلم أن الحي المكلف يسبح لله بوجهين : الأول : بالقول كقوله باللسان سبحان الله .

والثاني : بدلالة أحواله على توحيد الله تعالى وتقديسه وعزته ، فأما الذي لا يكون مكلفاً مثل البهائم ، ومن لا يكون حياً مثل الجمادات فهي إنما تسبح لله تعالى بالطريق الثاني ، لأن التسبيح بالطريق الأول لا يحصل إلا مع الفهم والعلم والإدراك والنطق وكل ذلك في الجماد محال ، فلم يبق حصول التسبيح في حقه إلا بالطريق الثاني .

واعلم أنا لو جوزنا في الجماد أن يكون عالماً متكلماً لعجزنا عن الاستدلال بكونه تعالى عالماً قادراً على كونه حياً وحينئذ يفسد علينا باب العلم بكونه حياً وذلك كفر فإنه يقال : إذا جاز في الجمادات أن تكون عالمة بذات الله تعالى وصفاته وتسبحه مع أنها ليست بأحياء فحينئذ لا يلزم من كون الشيء عالماً قادراً متكلماً كونه حياً فلم يلزم من كونه تعالى عالماً

قادراً كونه حياً وذلك جهل وكفر ، لأن من المعلوم بالضرورة أن من ليس بحي لم يكن عالماً قادراً متكلماً ، هذا هو القول الذي أطبق العلماء المحققون عليه ، ومن الناس من قال : إن الجمادات وأنواع النبات والحيوان كلها تسبح الله تعالى ، واحتجوا على صحة قولهم بأن قالوا : دل هذا النص على كونها مسبحة لله تعالى ولا يمكن تفسير هذا التسبيح بكونها دلائل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته لأنه تعالى قال : ﴿ ولكن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ فهذا يقتضي أن تسبيح هذه الأشياء غير معلوم لنا .

ودلالتها على وجود قدرة الله وحكمته معلوم ، والمعلوم مغاير لما هو غير معلوم فدل على أنها تسبح الله تعالى وأن تسبيحها غير معلوم لنا ، فوجب أن يكون التسبيح المذكور في هذه الآية مغايراً لكونها دالة على وجود قدرة الله تعالى وحكمته .

والجواب عنه من وجوه :

الوجه الأول : أنك إذا أخذت تفاحة واحدة فتلك التفاحة مركبة من عدد كثير من الأجزاء التي لا تتجزأ ، وكل واحد من تلك الأجزاء دليل تام مستقل على وجود الإله ، ولكل واحد من تلك الأجزاء التي لا تتجزأ صفات مخصوصة من الطبع والطعم واللون والرائحة والحيز والجهة ، واختصاص ذلك الجوهر الفرد بتلك الصفة المعينة من الجائزات فلا يحصل ذلك الاختصاص إلا بتخصيص مخصص قادر حكيم .

إذا عرفت هذا فقد ظهر أن كل واحد من أجزاء تلك التفاحة دليل تام على وجود الإله وكل صفة من الصفات القائمة بذلك الجزء الواحد فهو أيضاً دليل تام على وجود الإله تعالى ، ثم عدد تلك الأجزاء غير معلوم ، وأحوال تلك الصفات غير معلومة ، فلهذا المعنى قال تعالى : ﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ .

والوجه الثاني : هو أن الكفار وإن كانوا يقرون بألسنتهم بإثبات إله العالم إلا أنهم ما كانوا يتفكرون في أنواع الدلائل ، ولهذا المعنى قال تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِن ءايَةٍ فِي السموات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105] فكان المراد من قوله : ﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ هذا المعنى .

والوجه الثالث : أن القوم وإن كانوا مقرين بألسنتهم بإثبات إله العالم إلا أنهم ما كانوا عالمين بكمال قدرته .

ولذلك فإنهم استبعدوا كونه تعالى قادراً على الحشر والنشر فكان المراد ذلك .

وأيضاً فإنه تعالى قال لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءالِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذاً لأَبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً ﴾ فهم ما كانوا عالمين بهذا الدليل فلما ذكر هذا الدليل قال : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السموات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ ﴾ فتسبيح السموات والأرض ومن فيهن يشهد بصحة هذا الدليل وقوته وأنتم لا تفقهون هذا الدليل ولا تعرفونه ، بل نقول : إن القوم

كانوا غافلين عن أكثر دلائل التوحيد والعدل، والنبوة والمعاد، فكان المراد من قوله: ﴿ ولكن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ذلك ومما يدل على أن الأمر كما ذكرناه قوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ فذكر الحليم والغفور ههنا يدل على أن كونهم بحيث لا يفقهون ذلك التسبيح جرم عظيم صدر عنهم وهذا إنما يكون جرماً إذا كان المراد من ذلك التسبيح كونها دالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته، ثم إنهم لغفلتهم وجهلهم ما عرفوا وجه دلالة تلك الدلائل.

أما لو حملنا هذا التسبيح على أن هذه الجمادات تسبح الله بأقوالها وألفاظها لم يكن عدم الفقه لتلك التسبيحات جرماً ولا ذنباً، وإذا لم يكن ذلك جرماً ولا ذنباً لم يكن قوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ لائقاً بهذا الموضع، فهذا وجه قوي في نصرة القول الذي اخترناه.

واعلم أن القائلين بأن هذه الجمادات والحيوانات تسبح الله بألفاظها أضافوا إلى كل حيوان نوعاً آخر من التسبيح.

وقالوا: إنها إذا ذبحت لم تسبح مع أنهم يقولون إن الجمادات تسبح الله، فإذا كان كونه جماداً لا يمنع من كونه مسبحاً، فكيف صار ذبح الحيوان مانعاً له من التسبيح، وقالوا أيضاً

: إن غصن الشجرة إذا كسر لم يسبح ، وإذا كان كونه جماداً لم يمنع من كونه مسبحاً فكسره كيف يمنع من ذلك ، فعلم أن هذه الكلمات ضعيفة ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السموات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ ﴾ تصريح بإضافة التسبيح إلى السموات والأرض وإلى المكلفين الحاصلين فيهن وقد دللنا على أن التسبيح المضاف إلى الجمادات ليس إلا بمعنى الدلالة على تنزيه الله تعالى وإطلاق لفظ التسبيح على هذا المعنى مجاز ، وأما التسبيح الصادر عن المكلفين وهو قولهم : سبحان الله ، فهذا حقيقة ، فيلزم أن يكون قوله : ﴿ تُسَبِّحُ ﴾ لفظاً واحداً قد استعمل في الحقيقة والمجاز معاً ، وأنه باطل على ما ثبت دليله في أصول الفقه ، فالأولى أن يحمل هذا التسبيح على الوجه المجازي في حق الجمادات لا في حق العقلاء لئلا يلزم ذلك المحذور ، والله أعلم . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 172.176 ﴾

(98/456)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : كررنا في هذا القرآن من المواعظ والأمثال .

الثاني : غايرنا بين المواعظ باختلاف أنواعها .

﴿ ليذكروا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ليذكروا الأدلة . الثاني : ليهتدوا إلى الحق .

﴿ وما يزيدهم الا نفوراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : نفوراً عن الحق والاتباع له .

الثاني : عن النظر والاعتبار . وفي الكلام مضمر محذوف ، وتقديره ولقد صرفنا الأمثال في هذا القرآن .

قوله عز وجل : ﴿ قل لو كان مَعَهُ آلهةٌ كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : لطلبوا إليه طريقاً يتصلون به لأنهم شركاء ؛ قاله سعيد بن جبير .

الثاني : ليتقربوا إليه لأنهم دونه ، قاله قتادة .

قوله عز وجل : ﴿ وإن من شيءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : وإن من شيء من الأحياء الا يسبح بحمده ، فأما ما ليس بحي فلا ، قاله الحسن .

الثاني : إن جميع المخلوقات تسبح له من حي وغير حي حتى صرير الباب ، قاله إبراهيم .

الثالث : أن تسبيح ذلك ما يظهر فيه من لطيف صنعته وبديع قدرته الذي يعجز الخلق عن مثله فيوجب ذلك على من رآه تسبيح الله وتقديسه ، كما قال الشاعر :

تُلْقِي بِتَسْبِيحَةٍ مِنْ حَيْثُمَا انْصَرَفَتْ . . . وَتَسْتَقِرُّ حَشَا الرَّائِي بِإِرْعَادِ

كَأَنَّمَا خُلِقَتْ مِنْ قِشْرِ لُؤْلُؤَةٍ . . . فَكُلُّ أَكْنَافِهَا وَجْهٌ لِمِرْصَادِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(99/456)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ أفأصفاكم ﴾ الآية ،

خطاب للعرب التي كانت تقول الملائكة بنات الله ، فقررهم الله على هذه الحجة ، أي أنتم أيها البشر لكم الأعلى من النسل ولله الإناث ؟ فلما ظهر هذا التباعد الذي في قولهم عظم الله عليهم فساد ما يقولونه وشنعته ، ومعناه عظيماً في المنكر والوخامة ، و" أصفاكم " معناه جعلكم أصحاب الصفوة ، وحكى الطبري عن قتادة عن بعض أهل العلم أنه قال :

نزلت هذه الآية في اليهود لأنهم قالوا هذه المقالة من أن الملائكة بنات الله .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (41) ﴾

(100/456)

قرأ الجمهور " صرّفنا " بتشديد الراء على معنى صرّفنا فيه الحكم والمواعظ ، وقرأ الحسن " صرَفنا " بتخفيف الراء على معنى صرَفنا فيه الناس إلى الهدى بالدعاء إلى الله ، وقال بعض من شدد الراء : إن قوله ﴿ في ﴾ زائد ، والتقدير ولقد صرفنا هذا القرآن ، وهذا ضعيف ، وقرأ الجمهور " ليذَّكَّروا " وقرأ حمزة والكسائي " ليذْكُروا " بسكون الذال وضم الكاف ، وهي قراءة طلحه ويحيى والأعمش ، وما في ضمن الآية من ترج وطماعية فهو في حق البشر وبحسب ظنهم فيمن يفعل الله معه هذا ، و" النفور " عبارة عن شدة الإعراض تشبيهاً بنفور الدابة ، وهو في هذه الآية مصدر لا غير ، وروي أن في الإنجيل في معنى هذه الآية : يا بني إسرائيل شوقناكم فلم تشتاقوا ونحنا لكم فلم تبكوا . وقوله تعالى : ﴿ قل لو كان معه آلهة ﴾ الآية إحبار بالحجة ، واختلف الناس في معنى قوله ﴿ لا تبتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ فحكى الطبري وغيره من المفسرين أن معناه لطلب هؤلاء الآلهة الزلفى إلى ذي العرش والقربة إليه بطاعته ، فيكون السبيل على هذا التأويل بمعناها في قوله ﴿

فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ [المزمل : 19] ، وقال سعيد بن جبير وأبو علي الفارسي والنقاش وقاله المتكلمون أبو منصور وغيره ، إن معنى الكلام ، لابتغوا إليه سبيلاً في إفساد ملكه ومضاهاته في قدرته ، وعلى هذا التأويل تكون الآية بياناً للتمانع ، وجارية مع قوله ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء : 22] .

(101/456)

قال القاضي أبو محمد : ونقتضب شيئاً من الدليل على أنه لا يجوز أن يكون مع الله تبارك وتعالى غيره ، وذلك على ما قال أبو المعالي وغيره . إنا لو فرضناه لفرضنا أن يريد أحدهما تسكين جسم والآخر تحريكه ، ومستحيل أن تنفذ الإرادتان ، ومستحيل أن لا تنفذ جميعاً ، فيكون الجسم لا متحركاً ولا ساكناً ، فإن صحت إرادة أحدهما دون الآخر فالذي لم تتم إرادته ليس بإله ، فإن قيل نفرضهما لا يختلفان ، قلنا اختلافهما جائز غير ممتنع عقلاً ، والجائز في حكم الواقع ، ودليل آخر ، إنه لو كان الاثنان لم يمتنع أن يكونوا ثلاثة ، وكذلك إلى ما لا نهاية ، ودليل آخر أن الجزء الذي لا يتجزأ من المخترعات لا تتعلق به إلا قدرة واحدة ، لا يصح فيها اشتراك ، والآخر كذلك دأباً ، فكل جزء إنما يخترعه واحد ، وهذه نبذة شرحها بحسب التقصي يطول ، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم "كما يقولون

" بالياء من تحت ، وقرأ الجمهور "كما تقولون " و ﴿ سبحانه ﴾ مصدر بفعل متروك إظهاره ، فهو بمعنى التنزيه ، موضعه هنا موضع تنزه ، فلذلك عطف الفعل عليه في قوله ﴿ وتعالى ﴾ ، والتعالي تفاعل أما في الشاهد والأجرام فهو من اثنين ، لأن الإنسان إذ صعد في منزله أو في جبل فكأن ذلك يعاليه ، وهو يعالي ويرتقي ، وأما في ذكر الله تعالى فالتعالي هو بالقدر لا بالإضافة إلى شيء آخر ، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو " عما يقولون " بالياء ، وقرأ حمزة والكسائي " تقولون " بالتاء من فوق ، .

(102/456)

و ﴿ علواً ﴾ ، مصدر على غير الفعل ، فهو كقوله ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ [نوح : 17] وهذا كثير ، وقوله تعالى : ﴿ تسبح له السماوات ﴾ الآية ، المعنى ينزهه عن هذه المقالة التي لكم ، والاشتراك الذي أنتم بسبيله ، ﴿ السماوات السبع والأرض ﴾ ، ثم أعاد على السماوات والأرض ضمير من يعقل لما أسند إليها فعل العاقل ، وهو التسبيح ، وقوله ﴿ من فيهن ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن ، ثم عم بعد ذلك الأشياء كلها ، في قوله ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ أي ينزه الله ويحمده ويمجده ، واختلف أهل العلم في التسبيح ، فقالت فرقة هو تجوز ، ومعناه إن كل شيء تبدو فيه صنعة الصانع الدالة

عليه فتدعو رؤية ذلك إلى التسبيح من المعتبر ، ومن حجة هذا التأويل قوله تعالى : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن ﴾ [ص : 18] وقالت فرقة ﴿ من شيء ﴾ لفظ عموم ، ومعناه الخصوص في كل حي ونام ، وليس ذلك في الجمادات البحتة ، فمن هذا قول عكرمة : الشجرة تسبح والأسطوانة لا تسبح ، وقال يزيد الرقاشي للحسن وهما في طعام ، وقد قدم الخوان : أيسبح هذا الخوان يا أبا سعيد ؟ فقال قد كان يسبح مرة ، يريد أن الشجرة في زمان نموها واغتذائها تسبح ، فمذ صارت خواناً مدهوناً أو نحوه صارت جماداً ، وقالت فرقة : هذا التسبيح حقيقة ، وكل شيء على العموم يسبح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهه ، ولو كان التسبيح ما قاله الآخرون من أنه أثر الصنعة لكان أمراً مفقوهاً ، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقه .

(103/456)

قال القاضي أبو محمد : وينفصل عن هذا الاعتراض بأن يراد بقوله ﴿ لا تفقهون ﴾ الكفار والغفلة ، أي إنهم يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله تعالى في الأشياء وقال الحسن : بلغني أن معنى هذه الآية في التوراة ذكر فيه ألف شيء مما يسبح سبحت له السماوات ، سبحت له الأرض ، سبح كذا ، سبح كذا ، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم في

رواية أبي بكر وابن عامر : "يسبح له" بالياء ، وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية حفص وحمزة والكسائي "تسبح" بالتاء ، والقراءتان حسنتان ، وقرأ عبد الله بن مسعود وطلحة والأعمش "سبحت له السماوات" ، وقوله ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ فيه تنيه على إملائه لهم وصفحه عنهم في الدنيا وإمهاله لهم مع شنيع هذه المقالة ، أي تقولون قولاً ينزهه عنه كل شيء من المخلوقات ، ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ فلذلك أمهلكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(104/456)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين ﴾

قال مقاتل : نزلت في مشركي العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الرحمن .

وقال أبو عبيدة : ومعنى ﴿ أفأصفاكم ﴾ : اختصكم .

وقال المفضل : أخلصكم .

وقال الزجاج : اختار لكم صفوة الشيء .

وهذا توبيخ للكفار ، والمعنى : اختار لكم البنين دونه ، وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه

، فاختصكم بالأعلى وجعل لنفسه الأدون ؟ !

قوله تعالى : ﴿ ولقد صَرَّفْنا ﴾

معنى التصريف هاهنا : التبيين ، وذلك أنه إنما يصرِّف القول ليبيِّن .

وقال ابن قتيبة : "صرّفنا" بمعنى : وجّهنا ، وهو من قولك : صرفت إليك كذا ، أي : عدلت به إليك ، وشُدِّدَ للتكثير ، كما تقول : فَتَّحْتُ الأبواب .

قوله تعالى : ﴿ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : "لِيَذَّكَّروا" مشدّد .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : "لِيَذْكُرُوا" مخفف ، وكذلك قرؤوا في [الفرقان : 50] .

والتذكُّر : الاتعاظ والتدبر .

﴿ وما يزيدهم ﴾ تصريفنا وتذكيرنا ﴿ إِلاَّ نُفوراً ﴾ قال ابن عباس : ينفرون من الحق ويتبعون الباطل .

قوله تعالى : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون ﴾

قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "تقولون" بالتاء .

وقرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم : "يقولون" بالياء .

قوله تعالى : ﴿ إِذاً لَابْتَغَوْا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : لَابتَغَوا سبيلاً إِلى ممانعته وإِزالة ملكه ، قاله الحسن ، وسعيد بن جبير .

والثاني : لَابتَغَوا سبيلاً إِلى رضاه ، لأنهم دونه ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ عَمَّا يقولون ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر ، وحفص عن عاصم : "يقولون" بالياء .

وقرأ حمزة ، والكسائي : بالتاء .

قوله تعالى : ﴿ تسبِّح له السموات السبع ﴾ قرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : "تسبِّح" بالتاء .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو بكر [عن] عاصم : "يسبِّح" بالياء .

قال الفراء : وإِنما حَسُنَت "الياء" هاهنا ، لأنه عدد قليل ، وإِذا قلَّ العدد من المؤنَّث والمذكَّر ، كانت الياء فيه أحسن من التاء ، قال عز وجل في المؤنث القليل : ﴿ وقال نسوة ﴾ [يوسف : 30] ، وقال في المذكَّر : ﴿ فإذا انسلخ الأشهرُ الحُرُم ﴾ [التوبه : 5] .

قال العلماء : والمراد بهذا التسبيح : الدلالة على أنه الخالق القادر .

قوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ﴾ "إن" بمعنى "ما" .

وهل هذا على إطلاقه ، أم لا ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنه على إطلاقه ، فكلُّ شيء يسبِّحُهُ حتى الثوب والطعام وصرير الباب ، قاله إبراهيم النخعي .

والثاني : أنه عامّ يراد به الخاصّ .

ثم فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كل شيء فيه الروح ، قاله الحسن ، وقتادة والضحاك .

والثاني : أنه كُلُّ ذي روح ، وكل نامٍ من شجرٍ أو نبات ؛ قال عكرمة : الشجرة تسبّح ، والأسطوانة لا تسبّح .

وجلس الحسن على طعام فقدّموا الخِوان ، فقيل له : أيسبّح هذا الخِوان ؟ ، فقال : قد كان يسبّح مرة .

والثالث : أنه كل شيء لم يغيَّر عن حاله ، فإذا تغيَّر انقطع تسبيحه ؛ روى خالد بن معدان عن المقدام بن معدي كرب قال : إنَّ التراب ليسبّح ما لم يبتلّ ، فإذا ابتلّ ترك التسبيح ، وإن الورقة تسبّح ما دامت على الشجرة ، فإذا سقطت تركت التسبيح ، وإن الثوب ليسبّحُ ما دام جديداً ، فإذا توسخ ترك التسبيح .

فأما تسبيح الحيوان الناطق ، فمعلوم ، وتسبيح الحيوان غير الناطق ، فجائز أن يكون

بصوته ، وجائز أن يكون بدلالته على صانعه .

وفي تسبيح الجمادات ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه تسبيح لا يعلمه إلاَّ الله .

والثاني : أنه خضوعه وخشوعه لله .

والثالث : أنه دلالته على صانعه ، فيوجب ذلك تسبيح مُبْصِره .

فإن قلنا : إنه تسبيح حقيقة ، كان قوله : ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ لجميع الخلق ؛

وإن قلنا : إنه دلالته على صانعه ، كان الخطاب للكفار ، لأنهم لا يستدلُّون ، ولا يعتبرون .

وقد شرحنا معنى "الحليم" و"الغفور" في [البقرة : 225] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40) ﴾

هذا يردّ على من قال من العرب : الملائكة بنات الله ، وكان لهم بنات أيضاً مع البنين ، ولكنه أراد : أفأخلص لكم البنين دونه وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه .

﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ أي في الإثم عند الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أي بيّنا .

وقيل كررنا .

﴿ فِي هذا القرآن ﴾ قيل "في" زائدة ، والتقدير : ولقد صرفنا هذا القرآن ؛ مثل : ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذريتي ﴾ [الأحقاف : 15] أي أصلح ذريتي .

والتصريف : صرف الشيء من جهة إلى جهة .

والمراد بهذا التصريف البيان والتكرير .

وقيل : المغايرة ؛ أي غايرنا بين المواعظ ليذّكروا ويعتبروا ويتّعظوا .

وقراءة العامة "صرّفنا" بالتشديد على التكثير حيث وقع .

وقرأ الحسن بالتخفيف .

وقوله "في هذا القرآن" يعني الأمثال والعِبَر والحِكَم والمواعظ والأحكام والإعلام .

قال الثعلبي : سمعت أبا القاسم الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبي الطيب : لقوله تعالى

"صرفنا" معنيان : أحدهما لم يجعله نوعاً واحداً بل وعداً ووعيداً ومُحْكَما ومتشابهاً ونهيا وأمراً وناسخاً ومنسوخاً وأخباراً وأمثالاً ؛ مثل تصريف الرياح من صَبَا ودُبور وجنوب وشمال ، وتصريف الأفعال من الماضي والمستقبل والأمر والنّهي والفعل والفاعل والمفعول ونحوها .

والثاني أنه لم ينزل مرة واحدة بل نجوماً ؛ نحو قوله ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ ﴾ [الإسراء : 106] ومعناه : أكثرنا صرف جبريل عليه السلام إليك .

﴿ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ قراءة يحيى والأعمش وحمزة والكسائي "لِيَذْكُروا" مخفّفاً ، وكذلك في الفرقان ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ [الفرقان : 50] .

الباقون بالتشديد .

واختاره أبو عبيد ؛ لأن معناه ليتذكروا وليتعظوا .

قال المَهْدَوِيّ : من شدّد "لِيَذَّكّروا" أراد التدبر .

وكذلك من قرأ "لِيَذْكُروا" ونظير الأول ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القول لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : 51] والثاني : ﴿ واذكروا مَا فِيهِ ﴾ [البقرة : 62] .

﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أي التصريف والتذكير .

﴿ إِلَّا نُفُوراً ﴾ أي تباعدا عن الحق وغفلة عن النظر والاعتبار ؛ وذلك لأنهم اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ ﴾

هذا متصل بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ ﴾ وهو ردّ على عُبّاد الأصنام .

﴿ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ قرأ ابن كَثير وحفص "يقولون" بالياء .

الباقون "تقولون" بالتاء على الخطاب .

﴿ إِذاً لَّابْتَغَوْا ﴾ يعني الآلهة .

﴿ إلى ذِي العرش سَبِيلاً ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : لطلبوا مع الله منازعة وقتالاً كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض .

وقال سعيد بن جُبير رضي الله تعالى عنه : المعنى إذاً لطلبوا طريقاً إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه ، لأنهم شركاؤه .

وقال قَتادة : المعنى إذاً لابْتَغَتْ الآلهة القُرْبة إلى ذي العرش سبيلاً ، والتمست الزُّلْفة عنده لأنهم دونه ، والقوم اعتقدوا أن الأصنام تقرّبهم إلى الله زلفى ، فإذا اعتقدوا في الأصنام أنها محتاجة إلى الله سبحانه وتعالى فقد بطل أنها آلهة .

﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ نزّه سبحانه نفسه وقدّسه ومجده عما لا يليق

به .

والتسبيح : التنزيه .

وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ ﴾

أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل ، لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح .

وقوله : ﴿ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن ، ثم عمّ بعد ذلك الأشياء كلّها في

قوله : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ .

(109/456)

واختلف في هذا العموم ، هل هو مخصّص أم لا ؛ فقالت فرقة : ليس مخصوصاً والمراد به

تسبيح الدلالة ، وكل محدَث يشهد على نفسه بأن الله عز وجل خالق قادر .

وقالت طائفة : هذا التسبيح حقيقة ، وكلّ شيء على العموم يسبّح تسبيحاً لا يسمعه

البشر ولا يفقهه ، ولو كان ما قاله الأوّلون من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمراً مفهوماً ،

والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يُفقه .

وأجيبوا بأن المراد بقوله : "لا تفقهون" الكفارُ الذين يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون

حكمة الله سبحانه وتعالى في الأشياء .

وقالت فرقة : قوله : "مِنْ شَيْءٍ" عموم ، ومعناه الخصوص في كل حَيٍّ ونامٍ ، وليس ذلك في الجمادات .

ومن هذا قول عكرمة : الشجرة تسبح والأسطوان لا يسبّح .

وقال يزيد الرِّقَاشِيّ للحسن وهما في طعام وقد قُدِّمِ الخِوان : أيسبّح هذا الخِوان يا أبا سعيد ؟ فقال : قد كان يسبح مرّة ؛ يريد أن الشجرة في زمن ثمرها واعتدالها كانت تسبّح ، وأما الآن فقد صار خِواناً مدهوناً .

قلت : ويستدلّ لهذا القول من السُّنّة بما ثبت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما "أن النبيّ صلى الله عليه وسلم مَرّ على قبرين فقال : إنهما لَيُعَذَّبان وما يُعَذَّبان في كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنَّميمة وأما الآخر فكان لا يستبرىء من البول قال : فدعا بعَسيب رَطْب فشقّه اثنين ، ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً ثم قال : لعلّه يخفّف عنهما ما لم يَيْبَسَا" فقوله عليه الصلاة والسلام .

"ما لم ييبسا" إشارة إلى أنهما ما داما رطبين يسبّحان ، فإذا يبسا صارا جماداً .

والله أعلم .

وفي مسند أبي داود الطّيالسي : "فوضع على أحدهما نصفا وعلى الآخر نصفاً وقال : "لعله أن يهوّن عليهما العذاب ما دام فيهما من بلولتهما شيء" قال علماؤنا : ويستفاد من

هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور ، وإذا خُفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن .

(110/456)

وقد بينا هذا المعنى في (كتاب التذكرة) بياناً شافياً ، وأنه يصل إلى الميت ثواب ما يُهْدَى إليه .

والحمد لله على ذلك .

وعلى التأويل الثاني لا يحتاج إلى ذلك ؛ فإن كل شيء من الجماد وغيره يسبح .

قلت : ويستدلّ لهذا التأويل وهذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأيد إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعشي والإشراق ﴾ [ص : 17-18] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [البقرة : 74] على قول مجاهد ، وقوله : ﴿ وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً ﴾ [مريم : 90-91] .

وذكر ابن المبارك في (دقائقه) أخبرنا مِسعر عن عبد الله بن واصل عن عوف بن عبد الله قال : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : إن الجبل يقول للجبل : يا فلان ، هل مر بك

اليوم ذاكرٌ لله عز وجل ؟ فإن قال نعم سُرّ به .

ثم قرأ عبد الله ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ الآية .

قال : أفتراهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير .

وفيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ما من صباح ولا رواح إلا تنادي بقاع الأرض بعضها بعضاً : يا جاراه ، هل مَرّ بك اليوم عبد فصلى لله أو ذكر اللَّهَ عليك ؟ فمِن قائلة لا ، ومن قائلة نعم ، فإذا قالت نعم رأت لها بذلك فضلاً عليها .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يَسمع صوتَ المؤذن جنٌّ ولا إنس ولا شجر ولا حَجَر ولا مَدَر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة" رواه ابن ماجه في سننه ، ومالك في موطّئه من حديث أبي سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه .

وخرّج البخاريّ عن عبد الله رضي الله عنه قال : لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل .

في غير هذه الرواية عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : كنا نأكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيحه .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن سَمُرَة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن " قيل : إنه الحجر الأسود ، والله أعلم .

والأخبار في هذا المعنى كثيرة ؛ وقد أتينا على جملة منها في اللّمع اللؤلؤية في شرح العشرنيات النبوية للفاداري رحمه الله ، وخبر الجذع أيضاً مشهور في هذا الباب خرّجه البخاري في مواضع من كتابه .

وإذا ثبت ذلك في جماد واحد جاز في جميع الجمادات ، ولا استحالة في شيء من ذلك ؛ فكل شيء يسبح للعموم .

وكذا قال النّخَعِيّ وغيره : هو عام فيما فيه روح وفيما لا روح فيه حتى صرِير الباب .

واحتجّوا بالأخبار التي ذكرنا .

وقيل : تسبيح الجمادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول : سبحان الله ! لعدم الإدراك منها .

وقال الشاعر :

تُلْقَى بتسبيحة من حيث ما انصرفت . . .

وتَستقر حَشَا الرائي بتَرْعَادِ

أي يقول من رآها : سبحانَ خالِقها .

فالصحيح أن الكل يسبّح للأخبار الدالة على ذلك ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأيّ تخصيص لداود ، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا .

وقد نصّت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء فالقول به أَوْلى .

والله أعلم .

وقرأ الحسن وأبو عمرو ويعقوب وحفص وحمزة والكسائي وخَلَف "تفقهون" بالتاء لتأنيث الفاعل .

الباقون بالياء ، واختاره أبو عبيد ، قال : للحائل بين الفعل والتأنيث .

﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً ﴾ عن ذنوب عباده في الدنيا .

﴿ غَفُوراً ﴾ للمؤمنين في الآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(112/456)

وقال أبو حيان :

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40) ﴾

لما نبه تعالى على فساد من أثبت لله شريكاً ونظيراً أتبعه بفساد طريقة من أثبت لله ولداً ، والاستفهام معناه الإنكار والتوبيخ والخطاب لمن اعتقد أن الملائكة بنات الله ومعنى ﴿

أفأصفاكم ﴾ آثركم وخصكم وهذا كما قال : أله البنات ولكم البنون ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم ، فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ويكون أردؤها وأدونها للسادات .

ومعنى ﴿ عظيماً ﴾ مبالغاً في المنكر والقبح حيث أضفتم إليه الأولاد ثم حيث فضلتم عليه تعالى أنفسكم فجعلتم له ما تكرهون ، ثم نسبة الملائكة الذين هم من شريف ما خلق إلى الأنوثة .

ومعنى ﴿ صرّفنا ﴾ نوّعنا من جهة إلى جهة ومن مثال إلى مثال ، والتصريف لغة صرف الشيء من جهة إلى جهة ثم صار كناية عن التبيين .

وقرأ الجمهور ﴿ وصرّفنا ﴾ بتشديد الراء .

فقال : لم نجعله نوعاً واحداً بل وعداً ووعيداً ، ومحكماً ومتشابهاً ، وأمراً ونهياً ، وناسخاً ومنسوخاً ، وأخباراً وأمثالاً مثل تصريف الرياح من صبا ودبور وجنوب وشمال ، ومفعول ﴿ صرّفنا ﴾ على هذا المعنى محذوف وهي هذه الأشياء أي : صرّفنا الأمثال والعبر والحكم والأحكام والأعلام .

وقيل : المعنى لم ننزله مرة واحدة بل نجوماً ومعناه أكثرنا صرف جبريل إليك والمفعول محذوف أي ﴿ صرّفنا ﴾ جبريل .

وقيل : ﴿ في ﴾ زائدة أي ﴿ صرّفنا ﴾ ﴿ هذا القرآن ﴾ كما قال ﴿ وأصلح لي في ذريتي ﴾ وهذا ضعيف لأن في لا تزاد .

(113/456)

وقال الزمخشري : يجوز أن يريد بهذا القرآن إبطال إضافتهم إلى الله البنات لأنه مما صرفه وكرر ذكره ، والمعنى ولقد ﴿ صرّفنا ﴾ القول في هذا المعنى ، وأوقعنا التصريف فيه وجعلناه مكاناً للتكرير ، ويجوز أن يشير بهذا ﴿ القرآن ﴾ إلى التنزيل ، ويريد ولقد صرفناه يعني هذا المعنى في مواضع من التنزيل ، فترك الضمير لأنه معلوم انتهى .

فجعل التصريف خاصاً بما دلت عليه الآية قبله وجعل مفعول ﴿ صرفنا ﴾ أما القول في هذا المعنى أو المعنى وهو الضمير الذي قدره في صرفناه وغيره جعل التصريف عامّاً في أشياء فقدر ما يشمل ما سيق له ما قبله وغيره .

وقرأ الحسن بتخفيف الراء .

فقال صاحب اللوامح : هو بمعنى العامة يعني بالعامة قراءة الجمهور ، قال : لأن فعل وفعل ربما تعاقبا على معنى واحد .

وقال ابن عطية : على معنى صرفنا فيه الناس إلى الهدى بالدعاء إلى الله .

وقرأ الجمهور ﴿ ليذّكروا ﴾ أي ليتذكروا من التذكير، أدغمت التاء في الذال.

وقرأ الأخوان وطلحة وابن وثاب والأعمش ليذكروا بسكون الذال وضم الكاف من الذكر أو الذكر، أي ليتعظوا ويعتبروا وينظروا فيما يحتج به عليهم ويطمئنوا إليه ﴿ وما يزيدهم ﴾ أي التصريف ﴿ إلاّ نفوراً ﴾ أي بعداً وفراراً عن الحق كما قال: ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ وقال: ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حُمر مستنفرة ﴾ والنفور من أوصاف الدواب الشديدة الشماس، ولما ذكر تعالى نسبة الولد إليهم ورد عليهم في ذلك ذكر قولهم إنه تعالى معه آلهة وردّ عليهم.

وقرأ ابن كثير وحفص ﴿ كما يقولون ﴾ بالياء من تحت، والجمهور بالتاء.

ومعنى ﴿ لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ إلى مغالبته وإفساد ملكه لأنهم شركاؤه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض.

وقال هذا المعنى أو مثله ابن جبير وأبو عليّ الفارسي والنقاش والمتكلمون أبو منصور وغيره، وعلى هذا تكون الآية بياناً للتمانع كما في قوله ﴿ لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا ﴾ ويأتي تفسيرها إن شاء الله تعالى.

وقال قتادة ما معناه : لابتغوا إلى التقرب إلى ذي العرش والزلفى لديه ، وكانوا يقولون : إن الأصنام تقربهم إلى الله فإذا علموا أنها تحتاج إلى الله فقد بطل كونها آلهة ، ويكون كقوله ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ أيهم أقرب ، والكاف من ﴿ كما ﴾ في موضع نصب .

وقال الحوفي : متعلقة بما تعلقت به مع وهو الاستقرار و ﴿ معه ﴾ خبر كان .

وقال أبو البقاء : كوناً لقولكم .

وقال الزمخشري : و ﴿ إذاً ﴾ دالة على أن ما بعدها وهو ﴿ لابتغوا ﴾ جواب عن مقالة المشركين وجزاء للو انتهى .

وعطف ﴿ وتعالى ﴾ على قوله ﴿ سبحانه ﴾ لأنه اسم قام مقام المصدر الذي هو في معنى الفعل ، أي براءة الله وقدر تنزه وتعالى يتعلق به على سبيل الأعمال إذ يصح لسبحان أن يتعلق به عن كما في قوله ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ والتعالي في حقه تعالى هو بالمكانة لا بالمكان .

وقرأ الإخوان : عما تقولون بالتاء من فوق وباقي السبعة بالياء .

وانتصب ﴿ علوّاً ﴾ على أنه مصدر على غير الصدر أي تعالياً ووصف تكبيراً مبالغة في معنى البراءة والبعد عما وصفوه به لأن المنافاة بين الواجب لذاته والممكن لذاته ، وبين القديم والمحدث ، وبين الغني والمحتاج منافاة لا تقبل الزيادة ، ونسبة التسبيح للسموات

والأرض ومن فيهن من ملك وإنس وجن حمله بعضهم على النطق بالتسبيح حقيقة ، وأن ما لا حياة فيه ولا نمو يحدث الله له نطقاً وهذا هو ظاهر اللفظ ، ولذلك جاء ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

وقال بعضهم : ما كان من نام حيوان وغيره يسبح حقيقة ، وبه قال عكرمة قال : الشجرة تسبّح والأسطوانة لا تسبّح .

(115/456)

وسئل الحسن عن الخوان أيسبّح ؟ فقال : قد كان تسبّح مرة يشير إلى أنه حين كان شجرة كان يسبّح ، وحين صار خواناً مدهوناً صار جماداً لا يسبّح .

وقيل : التسبيح المنسوب لما لا يعقل مجاز ومعناه أنها تسبّح بلسان الحال حيث يدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته وكماله ، فكأنها تنطق بذلك وكأنها تنزه الله عما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها .

ويكون قوله : ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ خطاباً للمشركين ، وهم وإن كانوا معترفين بالخالق أنه الله لكنهم لما جعلوا معه آلهة لم ينظروا ولم يقروا لأن نتيجة النظر الصحيح والإقرار الثابت خلاف ما كانوا عليه ، فإذا لم يفقهوا التسبيح ولم يستوضحوا الدلالة على

الخالق فيكون التسبيح المسند إلى السموات والأرض ومن فيهن على سبيل المجاز قدراً مشتركاً بين الجميع ، وإن كان يصدر التسبيح حقيقة ممن فيهن من ملك وإنس وجان ولا يحمل نسبته إلى السموات والأرض على المجاز ، ونسبته إلى الملائكة والثقلين على الحقيقة لئلا يكون جمعاً بين المجاز والحقيقة بلفظ واحد .

وقال ابن عطية ثم أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح انتهى .

ويعنى بالضمير في قوله ﴿ ومن فيهن ﴾ وكأنه تخيل أن هن لا يكون إلاّ لمن يعقل من المؤنثات وليس كما تخيل بل هن يكون ضمير الجمع المؤنث مطلقاً .

وقرأ النحويان وحزة وحفص : تسبّح بالتاء من فوق وباقي السبعة بالياء ، وفي بعض المصاحف سبّحت له السموات بلفظ الماضي وتاء التأنيث وهي قراءة عبد الله والأعمش وطلحة بن مصرف .

﴿ إنه كان حليماً ﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة على سوء نظركم ﴿ غفوراً ﴾ إن رجعتم ووحدتم الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ أفأصفاكم ربُّكُم بالبنين واتخذ مِنَ الملائكة إِنَاثًا ﴾

خطاب للقائلين بأن الملائكةَ بنات الله سبحانه ، والإصفاءُ بالشيء جعلُه خالصاً ، والهمزةُ للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر يفسرّه المذكورُ ، أي أَفَضّلَكم على جنابه فخصّكم بأفضل الأولاد على وجه الخُلوص وآثر لذاته أخسّها وأدناها كما في قوله سبحانه : ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الانثى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُ البنات وَلَكُمُ البنون ﴾ وقد قُصد هاهنا بالتعرض لعنوان الربوبية تشديدُ النكير وتأكيدُه وأشير بذكر الملائكة عليهم السلام ، وإيرادِ الإناث مكانَ البنات إلى كفْرة لهم أخرى وهي وصفُهم لهم عليهم السلام بالأنوثة التي هي أخسُّ صفات الحيوان كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا ﴾ ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ ﴾ بمقتضى مذهبِكم الباطل الذي هو إضافةُ الولدِ إليه سبحانه ﴿ قَوْلاً عَظِيمًا ﴾ لا يقادَر قدرُه في استتباعِ الإثم وخَرْقِه لقضايا العقول بحيث لا يجترىء عليه أحدٌ ، حيث يجعلونه تعالى من قبيل الأجسامِ المتجانسةِ السريعةِ الزوال وليس كمثله شيءٌ وهو الواحدُ القهارُ الباقي بذاته ، ثم تضيفون إليه ما تكرهون من أخس الأولادِ وتفضّلون عليه أنفسكم بالبنين ثم تصِفون الملائكةَ الذين هم من أشرف الخلائقِ بالأنوثة التي هي أخسُّ أوصاف الحيوانِ ، فيا لها من ضَلّة ما أقبحَها وكَفْرةٍ ما أشنعها وأفظعها .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ هذا المعنى وكررناه ﴿ فِى هذا القرءان ﴾ على وجوه من التصريف في مواضعَ منه ، وإنما ترك الضميرُ تعويلاً على الظهور ، وقرىء بالتخفيف ﴿ لّيَذْكُرُواْ ﴾ ما فيه ويقفوا على بطلان ما يقولونه ، والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان باقتضاء الحالِ أن يُعرَض عنهم ويحكى للسامعين هَناتُهم . وقرىء بالتخفيف من الذكر بمعنى التذكر ، ويجوز أن يراد بهذا القرآنِ ما نطق ببُطلان مقالِتهم المذكورةِ من الآيات الكريمةِ الواردةِ على أساليب مختلفةٍ ، ومعنى التصريفِ فيه جعلُه مكاناً له أي أوقعنا فيه التصريفَ كقوله يجرح في عراقيبها نَصْلي . . . وقد جُوّز أن يراد به إبطالُ إضافتهم إليه تعالى البناتِ ، وأنت تعلم أن إبطالَها من آثار القرآن ونتائجها ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أي والحال أنه ما يزيدهم ذلك التصريفُ البالغ ﴿ إِلاَّ نُفُورًا ﴾ عن الحق وإعراضاً عنه فضلاً عن التذكر المؤدِّي إلى معرفة بُطلانِ ما هم عليه من القبائح .

(118/456)

﴿ قُلْ ﴾ في إظهار بطلانِ ذلك من جهة أخرى ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُ ﴾ تعالى ﴿ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً ﴾ أي المشركون قاطبةً ، وقرىء بالتاء خطاباً لهم من قِبَل النبي عليه الصلاة والسلام ،

والكافُ في محل النصب على أنها نعتٌ لمصدر محذوف أي كوناً مشابهاً لما يقولون ، والمرادُ بالمشابهة الموافقةُ والمطابقة ﴿ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا ﴾ جوابٌ عن مقالتهم الشنعاءِ وجزاءٌ "لِلَوْ" أي لطلبوا ﴿ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ ﴾ أي إلى من له المُلك والربوبيةُ على الإطلاق ﴿ سَبِيلًا ﴾ بالمغالبة والممانعة كما هو دَيدنُ الملوكِ بعضِهم مع بعض طريقة قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ وقيل : بالتقرب إليه تعالى كقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ والأولُ هو الأظهرُ الأنسبُ لقوله : ﴿ سبحانه ﴾ فإنه صريحٌ في أن المراد بيانُ أنه يلزم مما يقولونه محذورٌ عظيم من حيث لا يحتسبون ، وأما ابتغاءُ السبيل إليه تعالى بالتقرب فليس مما يختص بهذا التقرير ، ولا هو مما يلزمهم من حيث لا يشعرون بل هو أمرٌ يعتقدونه رأساً ، أي تنزّه بذاته تنزّهاً حقيقاً به ﴿ وتعالى ﴾ متباعداً ﴿ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ من العظيمة التي هي أن يكون معه آلهةٌ وأن يكون له بناتٌ ﴿ عُلُوًّا ﴾ تعالياً كقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ ﴿ كَبِيرًا ﴾ لا غايةَ وراءه ، كيف لا وإنه سبحانه في أقصى غاياتِ الوجود وهو الوجوبُ الذاتيُّ ، وما يقولونه من أن له تعالى شركاءَ وأولاداً في أبعد مراتبِ العدمِ أعني الامتناعَ ، لا لأنه تعالى في أعلى مراتب الوجودِ لذاته واتخاذُ الولد من أدنى مراتبه فإنه من خواصِّ ما يمتنع بقاؤُه كما قيل ، فإن ما يقولونه ليس مجردَ اتخاذِ الولد بل اتخاذِه تعالى له وأن يكون معه آلهةٌ ، ولا ريب في أن ذلك ليس بداخل في حد الإمكان فضلاً عن دخولِه تحت الوجود ، وكونُه من

أدنى مراتب الوجودِ إنما هو بالنسبة إلى من شأنه ذلك .

﴿ تُسَبّحُ ﴾ بالفَوقانية ، وقرىء بالتّحتانية ، وقرىء سبّحت ﴿ لَهُ السموات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ ﴾ من الملائكة والثقلين ، على أن المرادَ بالتسبيح معنًى منتظمٌ لما ينطِق به لسانُ المقال ولسانُ الحال بطريق عمومِ المجاز ﴿ وَإِن مّن شَىْء ﴾ من الأشياء حيواناً كان أو نباتاً أو جماداً ﴿ إِلاَّ يُسَبّحُ ﴾ ملتبساً ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ أي ينزّهه تعالى بلسان الحالِ عما لا يليق بذاته الأقدس من لوازم الإمكانِ ولواحق الحدوثِ ، إذ ما من موجود إلا وهو بإمكانه وحدوثِه يدل دَلالةً واضحة على أن له صانعاً عليماً قادراً حكيماً واجباً لذاته قطعاً للسّلسلة ﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أيها المشركون لإخلالكم بالنظر الصحيحِ الذي به يفهم ذلك ، وقرىء لا يُفَقَّهون على صيغة المبني للمفعول من باب التفعيل ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا ﴾ ولذلك لم يعاجلْكم بالعقوبة مع ما أنتم عليه من موجباتها من الإعراض عن التدبر في الدلائل الواضحةِ الدالةِ على التوحيد ، والانهماك في الكفر والإشراكِ ﴿ غَفُوراً ﴾ لمن تاب منكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ﴾

خطاب للقائلين بأن الملائكة بنات الله سبحانه ، والإصفاء بالشيء جعله خالصاً ، والهمزة للإنكار وهي داخلة على مقدر على أحد الرأيين والفاء للعطف على ذلك المقدر أي أفضلكم على جنابه فخصكم بأفضل الأولاد على وجه الخلوص وآثر لذاته أخسها وأدناها ، والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد النكير وتأكيده ، وعبر بالإناث إظهاراً للخسة.

وقال شيخ الإسلام : أشير بذكر الملائكة عليهم السلام وإيراد الإناث مكان البنات إلى كفرة لهم أخرى وهي وصفهم لهم عليهم السلام بالأنوثة التي هي أخس صفات الحيوان كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا ﴾ [الزخرف : 19] وفي "الكشف" أنه تعالى لما نهى عن الشرك ودل على فساده أتى بالفاء الواصلة وأنكر عليهم ذلك دليلاً على مكان التعكيس وأنهم بعد ما عرفوا أنه سبحانه بريء من الشريك بدليل العقل والسمع نسبوا إليه تعالى ما هو شرك ونقص وازدراء بمن اصطفاه من عباده فياله من كفرة شنيعة ولذا قيل :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ ﴾ بمقتضى مذهبكم الباطل ﴿ قَوْلاً عَظِيمًا ﴾ لا يقادر قدره في استتباع الإثم وخرقه لقضايا العقول بحيث لا يجترىء عليه ذو عقل حيث تجعلونه سبحانه

من قبيل الأجسام السريعة الزوال المحتاجة إلى بقاء النوع بالتوالد وليس كمثله شيء وهو الواحد القهار الباقي بذاته ثم تضيفون إليه تعالى ما تكرهون من أخس الأولاد وتفضلون عليه سبحانه أنفسكم بالبنين ثم تصفون الملائكة عليهم السلام بما تصفون.

(121/456)

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ من التصريف وهو كثرة صرف الشيء من حال إلى حال، ومفعوله هنا محذوف للعلم به أي صرفناه أي هذا المعنى والمراد عبرنا عنه بعبارات وقررناه بوجوه من التقريرات ﴿ فِى هذا القرءان ﴾ العظيم أي في مواضع منه فالمراد بالقرآن مجموع التنزيل وجوز أن يراد به البعض المشتمل على إبطال إضافة البنات إليه سبحانه ومفعول ﴿ صَرَفْنَا ﴾ محذوف أيضاً أي صرفنا القول المشتمل على إبطال الإضافة المذكورة في هذا المعنى، وإيقاع القرآن على المعنى وجعله ظرفاً للقول إما بإطلاق اسم المحل على الحال لما اشتهر أن الألفاظ قوالب المعاني أو بالعكس كما يقال الباب الفلاني في كذا وهذه الآية في تحريم كذا أي في بيانه، ويجوز تنزيل الفعل منزلة اللازم وتعديته بفي كما في قوله:

يجرح في عراقيبها نصلي...

أي أوقعنا التصريف فيه.

وقرىء ﴿ صَرَفْنَا ﴾ بالتخفيف والصرف كالتصريف إلا في التكثير ﴿ لِّيَذْكُرُواْ ﴾ أي ليتذكروا ويتعظوا ويطمئنوا له فإن التكرار يقتضي الإذعان واطمئنان النفس ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ ذلك التصريف ﴿ إِلاَّ نُفُورًا ﴾ عن الحق وإعراضاً عنه وهو تعكيس.

وقرأ حمزة.

والكسائي هنا وفي الفرقان ﴿ لِّيَذْكُرُواْ ﴾ [الفرقان : 50] من الذكر الذي هو بمعنى التذكر ضد النسيان والغفلة، والتذكر على القراءة الأولى بمعنى الاتعاظ كما أشير إليه، والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء الحال أن يعرض عنهم ويحكي للسامعين هناتهم.

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آَلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (42) ﴾

﴿ قُلْ ﴾ في إظهار بطلان ذلك من جهة أخرى ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُ ﴾ سبحانه وتعالى في الوجود ﴿ ءالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ أي المشركون قاطبة.

وقرأ حمزة.

والكسائي.

وخلف بالتاء ثالث الحروف خطاباً لهم والأمران في مثل هذا المقام شائعان ، وذلك أنه إذا أمر أحد بتبليغ كلام لأحد فالمبلغ له في حال تكلم الآمر غائب ويصير مخاطباً عند التبليغ فإذا لوحظ الأول حقه الغيبة وإذا لوحظ الثاني حقه الخطاب وكذا قرؤا فيما بعد .

وقرأ نافع .

وابن عامر .

وأبو بكر عن عاصم هنا بالتاء وهناك بالياء آخر الحروف على أنه تنزيه منه سبحانه لنفسه ابتداءً من غير أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله لهم ، والكاف في محل النصب على أنها نعت لمصدر محذوف أي كونا مشابهاً لما يقولون والمراد بالمشابهة على ما قيل الموافقة والمطابقة .

﴿ إِذًا لَّٱبۡتَغَوۡاْ ﴾ جواب عن قولهم : إن مع الله سبحانه آلهة وجزاء للوأى لطلب الآلهة ﴿ إلى ذِى العرش ﴾ أي إلى من له الملك والربوبية على الإطلاق ﴿ سَبِيلاً ﴾ بالمغالبة والممانعة كما اطردت العادة بين الملوك ، وهي إشارة إلى برهان التمانع كقوله تعالى : ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] وذلك بتصوير قياس استثنائي استثنى فيه نقيض التالي لينتج نقيض المقدم المطلوب ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تقريره في محله ، وإلى هذا ذهب سعيد ابن جبير كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم ، وعن مجاهد .

وقتادة أن المعنى إذاً لطلبوا الزلفى إليه تعالى والتقرب بالطاعة لعلمهم بعلوه سبحانه عليهم

وعظمته وهذا كقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة ﴾ [الإسراء : 57] وهو إشارة إلى قياس اقتراني هكذا لو كان كما زعمتم آلهة لتقربوا إليه تعالى وكل من كان كذلك ليس إلهاً فهم ليسوا بآلهة .

قيل و ﴿ لَوْ ﴾ على الأول امتناعية وعلى هذا شرطية ، والقياس مركب من مقدمتين شرطية اتفاقية وحملية .

واختار المحققون الوجه الأول لأنه الأظهر الأنسب بقوله سبحانه :

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (43) ﴾

(123/456)

﴿ سبحانه ﴾ فإنه ظاهر في أن المراد بيان أنه يلزم ما يقولونه محذور عظيم من حيث لا يحتسبون .

وأما ابتغاء السبيل إليه تعالى بالتقرب فليس مما يختص بهذا التقدير ولا مما يلزمهم من حيث لا يشعرون بل هو أمر يعتقدونه رأساً أي ينزه بذاته تنزيهاً حقيقاً به سبحانه ﴿ وتعالى ﴾ متباعداً ﴿ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ من العظيمة التي هي أن يكون معه تعالى آلهة وأن يكون له بنات ﴿ عَلَوّاً ﴾ أي تعاليا فهو مصدر من غير فعله كقوله تعالى : ﴿ أَنبَتَكُمْ مّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾

[نوح: 17] ﴿ كَبِيراً ﴾ بعيد الغاية بل لا غاية وراءه كيف لا وأنه تعالى في أقصى غايات الوجود وهو الوجوب الذاتي وما يقولونه من أن معه آلهة وأن له أولاداً في أدنى مراتب العدم وهو الامتناع الذاتي.

وقيل لأنه تعالى في أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود والبقاء لذاته واتخاذ الولد من أدنى مراتبه فإنه من خواص ما يمتنع بقاؤه.

وتعقب بأن ما يقولونه ليس مجرد اتخاذ الولد بل مع ما سمعت ولا ريب في أن ذلك ليس بداخل في حد الإمكان فضلاً عن دخوله تحت الوجود، وكونه من أدنى مراتب الوجود إنما هو بالنسبة إلى من من شأنه ذلك، واعتذر بأنه من باب التنبيه بحال الأدنى على حال الأعلى ولا يخفى أن ذكر العلو بعد عنوانه بذي العرش في أعلى مراتب البلاغة.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

﴿ تُسَبِّحُ ﴾ بالفوقانية وهي قراءة أبي عمرو.

والأخوين.

وحفص ، وقرأ الباقون بالتحتانية لأن تأنيث الفاعل مجازي مع الفصل وقرىء ﴿ سبحت ﴾ ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ ﴾ أي من الملائكة والثقلين ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ ﴾ من الأشياء حيواناً كان أو نباتاً أو جماداً ﴿ إِلاَّ يُسَبِّحُ ﴾ ملتبساً ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ تعالى ، والمراد من التسبيح الدلالة بلسان الحال أي تدل بإمكانها وحدوثها دلالة واضحة على وجوب وجوده تعالى ووحدته وقدرته وتنزهه من لوازم الإمكان وتوابع الحدوث كما يدل الأثر على مؤثره ففي الكلام استعارة تبعية كما في نطقت الحال .

وجوز أن يعتبر فيه استعارة تمثيلية ولا يأبى حمل التسبيح على ذلك قوله تعالى : ﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ بناءً على أن كثيراً من العقلاء فهم تلك الدلالة لما أن الخطاب للمشركين والكفرة لا للناس على العموم لأنه تقدم ذكر قبائحهم من نسبتهم إليه تعالى شأنه ما لا يليق بجلاله فإن الله سبحانه وصف ذاته بالنزاهة عنه وبالغ فيه ما بالغ ثم عقبه بما ذكر دلالة على أن كل الأكوان شاهدة بتلك النزاهة مبالغة على مبالغة فلو كان الخطاب مع غير هؤلاء المنكرين وأضرابهم لم يتلاءم الكلام ويخرج عن النظام .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ تذييل من تتمة الإنكار على الوجه الأبلغ أي إنه سبحانه حليم ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة لإخلالكم بالنظر الصحيح الموصل إلى التوحيد ولو تبتم ونظرتم لغفر لكم ما صدر منكم من التقصير فإنه غفور لمن يتوب، وظن ابن المنير أن هذا التذييل يأبى كون الخطاب للمشركين قال: لأنه سبحانه لا يغفر لهم ولا يتجاوز عن جهلهم وإشراكهم، والظاهر أن المخاطب المؤمنون وعدم فقههم للتسبيح الصادر من الجمادات كناية والله تعالى أعلم عن عدم العمل بمقتضى ذلك فإن الإنسان لو تيقظ حق التيقظ إلى أن النملة والبعوضة وكل ذرة من ذرات الكون يقدس الله تعالى وينزهه ويشهد بجلاله وكبريائه وقهره وعمر خاطره بهذا الفهم لشغله ذلك عن الطعام فضلاً عن فضول الأفعال والكلام والعاكف على الغيبة التي هي فاكهتنا في زماننا لو استشعر حال إفاضته فيها أن كل ذرة من ذرات لسانه الذي يلقلقه في سخط الله تعالى عليه مشغولة مملوءة بتقديس الله تعالى وتسبيحه وتخويف عقابه وإنذار جبروته وتيقظ لذلك حق التيقظ لكاد يبكم بقية عمره، فالظاهر أن الآية إنما وردت خطاباً على الغالب من أحوال الغافلين وإن كانوا مؤمنين اه، وليس بسديد لخروج الكلام على ذلك من النظام، ووجه التذييل ما سمعت فلا إباء كما لا يخفى على ذوي الأفهام.

وجوز أن يراد بالتسبيح الدلالة على تنزيه البارىء سبحانه عن لوازم الإمكان وتوابع الحدوث مطلقاً سواء كانت حالية أو مقالية على أنه من عموم المجاز أو بالجمع بين المعنى

الحقيقي والمجازي على رأي من يجوزه فتسبيح بعض قالي وتسبيح بعض آخر حالي.

وتعقبه بأنه لا يلائمه ﴿ لَّا تَفْقَهُونَ ﴾ لأن من ذلك التسبيح ما يفقهه المشركون وغيرهم وهو التسبيح القالي.

وأجيب بأن المشركين لعدم تدبرهم له وانتفاعهم به كان فهمهم بمنزلة العدم أو أنهم لعدم فهمهم بعض المراد من التسبيح جعلوا ممن لا يفهم الجميع تغليباً.

(126/456)

وذهب بعض الظاهرية وارتضاه الراغب وقال في تفسير الخازن أنه الأصح على أن التسبيح على معناه الحقيقي فالكل يسبح بلسان القال حتى الجمادات ولم يرتض ذلك الإمام لأن هذا التسبيح لا يحصل إلا مع العلم وهو مما لا يتصور في الجماد لفقد شرطه العقلي وهو الحياة ولو لم يكن ذلك شرطاً عقلياً لانسد باب العلم بكونه سبحانه وتعالى حياً؛ وأيضاً التذييل السابق يأبى ذلك لدلالته على أن عدم فقه التسبيح المذكور جرم ولا شك أن عدم فقه تسبيح الجمادات بألفاظها ليس بجرم وإنما الجرم عدم فقه دلالتها للغفلة وقصور النظر ومن تتبع الأحاديث والآثار رأى فيها ما يشهد بما ذهب إليه هذا البعض شهادة لا تكاد تقبل التأويل فقد صح سماع تسبيح الحصا في كفه صلى الله عليه وسلم.

وأخرج أبو الشيخ عن أنس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بطعام ثريد فقال : إن هذا الطعام يسبح فقالوا : يا رسول الله وتفقه تسبيحه ؟ قال : نعم ثم قال لرجل أدن هذه القصعة من هذا الرجل فأدناها فقال : نعم يا رسول الله هذا الطعام يسبح فقال : أدنها من آخر فأدناها منه فقال : يا رسول الله هذا الطعام يسبح ثم قال : ردها فقال رجل : يا رسول الله لو أمرت على القوم جميعاً فقال : لا إنها لو سكتت عند رجل لقالوا : من ذنب ردها فردها .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : كنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفاً بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس معنا ماء فقال لنا : اطلبوا من معه فضل ماء فأتى بماء فوضعه في إناء ثم وضع يده فيه فجعل الماء يخرج من بين أصابعه ثم قال : حي على الطهور المبارك والبركة من الله تعالى فشربنا منه قال عبد الله : كنا نسمع صوت الماء وتسبيحه وهو يشرب .

وأخرج أحمد .

وابن مردويه عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنيه : آمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء ، وأخرج أحمد عن معاذ بن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم : اركبوها سالمة ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكر الله تعالى منه ، وأخرج النسائي .

وأبو الشيخ .

وابن مردويه عن ابن عمر قال : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفدع وقال نقيقها تسبيح .

وأخرج ابن أبي الدنيا .

وابن أبي حاتم .

والبيهقي في الشعب عن أنس بن مالك قال : ظن داود عليه السلام في نفسه أن أحداً لم يمدح خالقه بما مدحه وإن ملكاً نزل وهو قاعد في المحراب والبركة إلى جانبه فقال يا داود افهم إلى ما تصوت به الضفدع فانصت داود فإذا الضفدع تمدحه بمدحة لم يمدحه بها فقال له الملك : كيف ترى يا داود أفهمت ما قالت ؟ قال : نعم قال : ماذا قالت ؟ قال : قالت سبحانك وبحمدك منتهى علمك يا رب قال داود : لا والذي جعلني نبيه أني لم أمدحه بهذا .

وأخرج أحمد في الزهد .

وأبو الشيخ عن شهر بن حوشب من حديث طويل أن داود عليه السلام أتى البحر في ساعة فصلى فنادته ضفدعة يا داود إنك حدثت نفسك أنك قد سبحت في ساعة ليس يذكر الله تعالى فيها غيرك وأني في سبعين ألف ضفدع كلها قائمة على رجل نسبح الله تعالى ونقدسه .

(128/456)

وأخرج الخطيب عن أبي ضمرة قال : كنا عند علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما فمر بنا عصافير يصحن فقال : أتدرون ما تقول هذا العصافير ؟ قلنا : لا قال : أما أني ما أقول أنا نعلم الغيب ولكن سمعت أبي يقول سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الطير إذا أصبحت سبحت ربها وسألته قوت يومها وإن هذه تسبح ربها وتسأله قوت يومها .

وأخرج ابن راهويه في مسنده من طريق الزهري قال : أتى أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه بغراب وافر الجناحين فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما صيد صيد ولا عضدت عضاه ولا قطعت وشيجة إلا بقلة التسبيح " .

وأخرج أبو نعيم في الحلية .

وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام ما صيد من صيد ولا وشج من وشج إلا بتضييعه التسبيح .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الدرداء .

وابن مردويه عن ابن مسعود مثل ذلك مرفوعاً أيضاً .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن لولا ما غم عليكم من تسبيح ما معكم من البيوت ما تقاررتم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن لوط بن أبي لوط قال : "بلغني أن تسبيح سماء الدنيا سبحان ربي الأعلى والثانية سبحانه وتعالى والثالثة سبحانه وبحمده والرابعة سبحانه لا حول ولا قوة إلا به والخامسة سبحان محيي الموتى وهو على كل شيء قدير والسادسة سبحان الملك القدوس والسابعة سبحان الذي ملأ السموات السبع والأرضين السبع عزة ووقاراً" إلى ما لا يكاد يحصى من الأخبار والآثار وهي بمجموعها متعاضدة في الدلالة على أن التسبيح قالي كما لا يخفى وهو مذهب الصوفية ، وذكروا أن السالك عند وصوله إلى بعض المقامات يسمع تسبيح الأشياء بلغات شتى .

وقد روي عن بعض السلف سماعه لتسبيح بعض الجمادات ، واختلف القائلون بهذا التسبيح فقال بعضهم : بثبوته للأشياء مطلقاً ، وقيل إن التراب يسبح ما لم يبتل فإذا ابتل ترك التسبيح وإن الخرزة تسبح ما لم ترفع من موضعها فإذا رفعت تركت وإن الورقة تسبح ما دامت على الشجرة فإذا سقطت تركت وإن الثوب يسبح ما لم يتسخ فإذا اتسخ ترك وإن الوحش والطير تسبح إذا صاحت وإذا سكتت تركت ، وعلى هذا ما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال : جلس الحسن مع أصحابه على مائدة فقال بعضهم : هذه المائدة تسبح الآن فقال الحسن : كلا إنما ذاك كل شيء على أصله .

وأخرج عن السدي أنه قال : ما من شيء على أصله الأول لم يمت إلا وهو يسبح بحمده تعالى ، ولعله أراد بالموت خروجه عن أصله الأول .

وأخرج عبد الرزاق .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وغيرهم عن قتادة أنه قال في الآية : كل شيء فيه الروح يسبح من شجرة وحيوان ، وكون الشجرة ذات روح مبني على قول الناس فيها إذا يبست ماتت ، واستثنى بعضهم بعض الحيوانات من عموم كل شيء لما أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس أنه قال : كل شيء يسبح إلا الحمار والكلب .

ولا أرى لاستثناء ما ذكر وجهاً وفي القلب من صحة الرواية عن الخبر شيء ، وكذا للتقييد بعد أن لم تكن الجمادية مانعة عن التسبيح والأخبار الظاهرة في عدم التقييد أكثر ، ولا أظن أن لما يخالفها امتيازاً عليها في الصحة .

ويشكل على هذا القول ما تقدم عن الإمام من إباء التذييل عنه وعدم وجود العلم الذي يستدعيه التسبيح القالي في الجمادات ، وتفضي بعضهم عن هذا بالتزام أن لكل شيء حياة وعلماً لائقين به ولا يطلع على حقيقة ذلك إلا الله تعالى اللطيف الخبير فكل ما في العالم عند هذا الملتزم حي عالم لكنه متفاوت المراتب في العلم والحياة .

(130/456)

ونقل الشعراني عن الخواص أنه قال : كل جماد يفهم الخطاب ويتألم كما يتألم الحيوان ، وقال الشيخ الأكبر قدس سره : أن المسمى بالجماد والنبات له عندنا أرواح بطنت عن إدراك غير الكشف إياها في العادة فالكل عندنا حي ناطق غير أن هذا المزاج الخاص يسمى إنساناً لا غير بالصورة ووقع التفاصيل بين الخلائق في المزاج والكل يسبح الله تعالى كما نطقت الآية به ولا يسبح إلا حي عاقل عالم عارف بمسبحه ، وقد ورد أن المؤذن يشهد له مدى صوته من رطب ويابس ، والشرائع والنبوات مشحونة بما هو من هذا القبيل ونحن

زدنا مع الإيمان بالأخبار الكشف إلى آخر ما قال.

واستدل بعضهم في هذا المقام بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه قال في دعائه للحمى: يا أم ملدم إن كنت آمنت بالله تعالى فلا تأكلي اللحم ولا تشربي الدم ولا تفوري من الفم وانتقلي إلى من يزعم أن مع الله تعالى آلهة أخرى فإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، وجاء عن السجاد رضي الله تعالى عنه في الصحيفة في مخاطبة القمر ما هو ظاهر في أن له شعوراً، واستفاض عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كتب للنيل كتاباً يخاطبه فيه بما يخاطبه وضرب الأرض بالدرة حين تزلزلت وقال لها: إني أعدل عليك.

وكم وكم في الأخبار نحو ذلك قيل ولا داعي لتأويلها إذ لا أحد يقول: إن شعور الجمادات كشعور الحيوانات الظاهرة بحيث يدركه كل أحد حتى يكون العمل بظاهر اللفظ خلاف حس العقلاء فيجب ارتكاب التأويل والتجوز، ومن علم عظم قدرة الله عز وجل وأنه سبحانه لا يعجزه شيء وأن المخلوقين على اختلاف مراتبهم لا سيما المنغمسين في أوحال العلائق والعوائق الدنيوية والمسجونين في سجين الطبيعة الدنية لم يقفوا على عشر العشر مما

أودع في عالم الإمكان ونقش بيد الحكمة على برود الأعيان سلم ما جاء به الصادق عليه الصلاة والسلام وإن خالف ما عنده نسب القصور إلى نفسه فرب فكر يظنه المرء حقاً وهو من الأوهام كما لا يخفى على من أنصف ولم يتعسف.

وعلى هذا الذي ذكروه لا تحتاج إعادة ضمير ذوي العلم في ﴿ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ على ما تقدم إلى توجيه وتفصى آخر عن الأول بأن قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ متعلق بقوله سبحانه: ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ ولا يخفى ما في هذا التفصي، ولعل الأولى فيه أن يلتزم حمل التسبيح على ما هو الأعم من الحالي والقالي ويثبت كلا النوعين لكل شيء، والتذييل باعتبار القصور في فقه الحالي لا باعتبار القصور في فقه الآخر، ويشكل أيضاً أن من أفراد من نسب إليه التسبيح الجحد فضلاً عن الساكت فالحمل على المجاز واجب.

وأجيب بأن استثناء أولئك معلوم بقرينة السباق واللحاق، وزعم من زعم أن الجاحد مقدس أيضاً وأنشدوا للحلاج:

جحودي لك تقديس...

وعقلي فيك منهوس فما آدم الاك

وما في الكون إبليس...

وأنت تعلم أن مثل هذا الحلج والندف صار سبباً لما لاقى من الحتف فماذا عسى أقول سوى حسبنا الله ونعم الوكيل.

وقرىء ﴿ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ على صيغة المبني للمفعول من باب التفعيل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(132/456)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34) ﴾

لما ذكر سبحانه النهي عن إتلاف النفوس ، أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال ، وكان أهمها بالحفظ والرعايا مال اليتيم فقال : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم ﴾ .

والنهي عن قربانه مبالغة في النهي عن المباشرة له وإتلافه .

ثم بيّن سبحانه أن النهي عن قربانه ، ليس المراد منه النهي عن مباشرته فيما يصلحه ويفسده ، بل يجوز لوليّ اليتيم أن يفعل في مال اليتيم ما يصلحه ، وذلك يسلتزم مباشرته ، فقال : ﴿ إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي : إلاّ بالخصلة التي هي أحسن الخصال ، وهي حفظه وطلب الربح فيه والسعي فيما يزيد به .

ثم ذكر الغاية التي للنهي عن قربان مال اليتيم فقال : ﴿ حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي : لا تقربوه إلاّ

بالتي هي أحسن حتى يبلغ اليتيم أشدّه ، فإذا بلغ أشدّه كان لكم أن تدفعوه إليه ، أو تتصرفوا فيه بإذنه .

وقد تقدّم الكلام على هذا مستوفى في الأنعام ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ قد مضى الكلام فيه في غير موضع .

قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه ، فهو من العهد ، فيدخل في ذلك ما بين العبد وربه ، وما بين العباد بعضهم البعض .

والوفاء بالعهد : هو القيام بحفظه على الوجه الشرعي والقانون المرضي ، إلاّ إذا دلّ دليل خاص على جواز النقض ﴿ إِنَّ العهد كَانَ مَسْئُولاً ﴾ أي : مسؤلاً عنه ، فالمسئول هنا : هو صاحبه ، وقيل : إن العهد يسأل تبكيتاً لناقضه .

﴿ وَأَوْفُوا الكيل إِذا كِلْتُمْ ﴾ أي : أتموا الكيل ولا تخسروه وقت كيلكم للناس .

﴿ وَزِنُوا بالقسطاس المستقيم ﴾ .

قال الزجاج : هو ميزان العدل أيّ : ميزان كان من موازين الدراهم وغيرها ، وفيه لغتان : ضم القاف ، وكسرها ، وقيل هو القبّان المسمى بالقرسطون ؛ وقيل هو العدل نفسه ،

وهي لغة الروم ، وقيل : لغة سريانية .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم في رواية أبي بكر (القُسطاس) بضم القاف ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بكسر القاف ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى إيفاء الكيل والوزن ، وهو مبتدأ ، وخبره ﴿ خَيْرٌ ﴾ أي : خير لكم عند الله وعند الناس ، يتأثر عنه حسن الذكر وترغيب الناس في معاملة من كان كذلك ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ أي : أحسن عاقبة ، من آل إذا رجع .

ثم أمر سبحانه بإصلاح اللسان والقلب فقال : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي : لا تتبع ما لا تعلم ، من قولك : قفوت فلاناً : إذا اتبعت أثره ، ومنه قافية الشعر ، لأنها تقفو كل بيت ، ومنه القبيلة المشهورة بالقافة ، لأنهم يتبعون آثار أقدام الناس .

وحكى ابن جرير عن فرقة أنها قالت : قفا وقاف ، مثل عثا وعاث .

قال منذر بن سعيد البلوطي : قفا وقاف ، مثل جذب وجبذ .

وحكى الكسائي عن بعض القراء أنه قرأ (تَقُفْ) بضم القاف وسكون الفاء .

وقرأ الفراء بفتح القاف وهي لغة لبعض العرب ، وأنكرها أبو حاتم وغيره .

ومعنى الآية : النهي عن أن يقول الإنسان ما لا يعلم ، أو يعمل بما لا علم له به ، وهذه قضية كلية ، وقد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بأمور : فقيل : لا تذم أحداً بما ليس لك به علم ؛ وقيل : هي في شهادة الزور ؛ وقيل : هي في القذف .

وقال القتيبي : معنى الآية : لا تتبع الحدس والظنون ، وهذا صواب ، فإن ما عدا ذلك هو العلم ؛ وقيل : المراد بالعلم هنا : هو الاعتقاد الراجح المستفاد من مستند قطعياً كان أو ظنياً .

قال أبو السعود في تفسيره : واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه .

وأقول : إن هذه الآية قد دلت على عدم جواز العمل بما ليس بعلم ، ولكنها عامة مخصصة بالأدلة الواردة بجواز العمل بالظنّ كالعمل بالعامّ ، وبخبر الواحد ، والعمل بالشهادة ، والاجتهاد في القبلة وفي جزاء الصيد ونحو ذلك ، فلا تخرج من عمومها ومن عموم ﴿ إِنَّ الظن لَا يُغْنِي مِنَ الحق شَيْئًا ﴾ [يونس : 36] .

إلاّ ما قام دليل جواز العمل به ، فالعمل بالرأي في مسائل الشرع إن كان لعدم وجود الدليل في الكتاب والسنّة ، فقد رخص فيه النبي صلى الله عليه وسلم كما في قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ لما بعثه قاضياً : "بم تقضي ؟ قال بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ، قال : فبسنّة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ، قال : أجتهد رأيي" .

وهو حديث صالح للاحتجاج به كما أوضحنا ذلك في بحث مفرد .

وأما التوثب على الرأي مع وجود الدليل في الكتاب أو السنّة ، ولكنه قصر صاحب الرأي عن البحث فجاء برأيه فهو داخل تحت هذا النهي دخولاً أوّلياً ، لأنه محض رأي في شرع الله ، وبالناس عنه غنىً بكتاب الله سبحانه وبسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم ولم تدع إليه حاجة ، على أن الترخيص في الرأي عند عدم وجود الدليل إنما هو رخصة للمجتهد يجوز له أن يعمل به ، ولم يدل دليل على أنه يجوز لغيره العمل به ، وينزله منزلة مسائل الشرع ، وبهذا يتضح لك أتّم اتضاح ، ويظهر لك أكمل ظهور أن هذه الآراء المدوّنة في الكتب الفروعية ليست من الشرع في شيء ، والعامل بها على شفا جرف هار ، فالمجتهد المستكثر من الرأي قد قفا ما ليس له به علم ، والمقلد المسكين العامل برأي ذلك المجتهد قد عمل بما ليس له به علم ولا لمن قلده ﴿ ظلمات بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ [النور : 40] .

وقد قيل : إن هذه الآية خاصة بالعقائد ولا دليل على ذلك أصلاً .

(135/456)

ثم علل سبحانه النهي عن العمل بما ليس بعلم بقوله : ﴿ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ إشارة إلى الأعضاء الثلاثة ، وأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسئولة عن أحوالها شاهدة على أصحابها .

وقال الزجاج: إن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل ب: أولئك، وأنشد ابن جرير مستدلاً على جواز هذا قول الشاعر:

ذم المنازل بعد منزلة اللوى . . . والعيش بعد أولئك الأيام

واعترض بأن الرواية بعد أولئك الأقوام، وتبعه غيره على هذا الخطأ كصاحب الكشاف.

والضمير في ﴿ كان ﴾ من قوله: ﴿ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ يرجع إلى "كل"، وكذا الضمير في "عنه"، وقيل: الضمير في ﴿ كان ﴾ يعود إلى القافي المدلول عليه بقوله: ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾.

وقوله: "عنه" في محل رفع لإسناد ﴿ مسئولاً ﴾ إليه، ورد بما حكاه النحاس من الإجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل إذا كان جاراً أو مجروراً.

قيل: والأولى أن يقال: إنه فاعل ﴿ مسئولاً ﴾ المحذوف، والمذكور مفسر له.

ومعنى سؤال هذه الجوارح: أنه يسأل صاحبها عما استعملها فيه لأنها آلات، والمستعمل لها: هو الروح الإنساني، فإن استعملها في الخير استحق الثواب، وإن استعملها في الشرّ استحق العقاب؛ وقيل: إن الله سبحانه ينطق الأعضاء هذه عند سؤالها فتخبر عما فعله صاحبها.

﴿ وَلَا تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا ﴾ المرح: قيل: هو شدّة الفرح، وقيل: التكبر في المشي؛ وقيل: تجاوز الإنسان قدره؛ وقيل: الخيلاء في المشي؛ وقيل: البطر والأشر، وقيل:

النشاط.

والظاهر أن المراد به هنا : الخيلاء والفخر ، قال الزجاج في تفسير الآية : لا تمش في الأرض مختالاً فخوراً ، وذكر الأرض مع أن المشي لا يكون إلاّ عليها ، أو على ما هو معتمد عليها تأكيداً وتقريراً ، ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلاّ تواضعا . . . فكم تحتها قوم هم منك أرفع

(136/456)

وإن كنت في عزّ وحرز ومنعة . . . فكم مات من قوم هم منك أمنع

والمرح مصدر وقع حالاً ، أي : ذا مرح.

وفي وضع المصدر موضع الصفة نوع تأكيد .

وقرأ الجمهور ﴿ مرحاً ﴾ بفتح الراء على المصدر .

وحكى يعقوب عن جماعة كسرها على أنه اسم فاعل ثم علل سبحانه هذا النهي فقال :

﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض ﴾ يقال : خرق الثوب أي : شقه ، وخرق الأرض : قطعها ، والخرق : الواسع من الأرض ، والمعنى : أنك لن تخرق الأرض بمشيك عليها تكبراً ، وفيه تهكم بالمختال المتكبر ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً ﴾ أي : ولن تبلغ قدرتك إلى أن تطاول

الجبال حتى يكون عظم جثتك حاملاً لك على الكبر والاختيال ، فلا قوّة لك حتى تخرق الأرض بالمشي عليها ، ولا عظم في بدنك حتى تطاول الجبال ، فما الحامل لك على ما أنت فيه ؟ .

و ﴿ طولاً ﴾ مصدر في موضع الحال ، أو تمييز ، أو مفعول له ؛ وقيل : المراد بخرق الأرض نقبها ، لا قطعها بالمسافة .

وقال الأزهري : خرقها : قطعها ، قال النحاس : وهذا أبين كأنه مأخوذ من الخرق ، وهو : الفتحة الواسعة ، ويقال : فلان أخرق من فلان : أي أكثر سفراً ، والإشارة بقوله : ﴿ كُلُّ ذلك ﴾ إلى جميع ما تقدّم ذكره من الأوامر والنواهي ، أو إلى ما نهى عنه فقط من قوله : ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ ﴿ وَلَا تَمْشِ ﴾ .

قرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، ومسروق (سيئه) على إضافة سيء إلى الضمير ، ويؤيد هذه القراءة قوله : ﴿ مَكْرُوهًا ﴾ فإن السيء هو المكروه .

ويؤيدها أيضاً قراءة أبيّ : (كان سيئاته) ، واختار هذه القراءة أبو عبيد .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو (سيئة) على أنها واحدة السيئات ، وانتصابها على خبرية كان ، ويكون ﴿ مكروهاً ﴾ صفة ل "سيئة" على المعنى ، فإنها بمعنى "سيئاً" ، أو هو بدل من "سيئة" ؛ وقيل : هو خبر ثانٍ ل "كان" حملاً على لفظ ﴿ كل ﴾ ، ورجح أبو علي الفارسي البدل ، وقد قيل في توجيهه بغير هذا مما فيه تعسف لا يخفى .

قال الزجاج : والإضافة أحسن ، لأن ما تقدّم من الآيات فيها سيء وحسن ، فسيئه المكروه .

ويقوّي ذلك التذكير في المكروه ، قال : ومن قرأ بالتنوين جعل ﴿ كل ذلك ﴾ إحاطة بالمنهيّ عنه دون الحسن .

المعنى : كل ما نهى الله عنه كان سيئة وكان مكروهاً .

قال : والمكروه على هذه القراءة بدل من السيئة ، وليس بنعت .

والمراد بالمكروه عند الله : هو الذي يبغضه ولا يرضاه ، لا أنه غير مراد مطلقاً ، لقيام الأدلة القاطعة على أن الأشياء واقعة بإرادته سبحانه ، وذكر مطلق الكراهة مع أن في الأشياء المتقدّمة ما هو من الكبائر إشعاراً بأن مجرّد الكراهة عنده تعالى يوجب انزجار السامع واجتنابه لذلك .

والحاصل : أن في الخصال المتقدّمة ما هو حسن وهو المأمور به ، وما هو مكروه وهو المنهيّ عنه ، فعلى قراءة الإضافة تكون الإشارة بقوله : ﴿ كُلُّ ذلك ﴾ إلى جميع الخصال حسنها ومكروهها ، ثم الإخبار بأن ما هو سيء من هذه الأشياء وهو المنهي عنه مكروه عند الله

، وعلى قراءة الإفراد من دون إضافة تكون الإشارة إلى المنهيات ، ثم الإخبار عن هذه المنهيات بأنها سيئة مكروهة عند الله .

﴿ ذلك مِمَّا أوحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحكمة ﴾ الإشارة إلى ما تقدّم ذكره من قوله : ﴿ لاَّ تَجْعَل ﴾ إلى هذه الغاية ، وترتقي إلى خمسة وعشرين تكليفاً ، ﴿ مِمَّا أوحى إِلَيْكَ رَبُّكَ ﴾ أي : من جنسه أو بعض منه ، وسمي حكمة لأنه كلام محكم ، وهو ما علمه من الشرائع ، أو من الأحكام المحكمة التي لا يتطرق إليها الفساد ، وعند الحكماء : أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته ، و ﴿ من الحكمة ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً ، أي : كائناً من الحكمة ، أو بدل من الموصول بإعادة الجار ، أو متعلق ب ﴿ أوحى ﴾ .

﴿ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ الله إلها ءاخَرَ ﴾ كرر سبحانه النهي عن الشرك تأكيداً وتقريراً وتنبيهاً عن أنه رأس خصال الدين وعمدته .

قيل : وقد راعى سبحانه في هذا التأكيد دقيقة ، فرتب على الأوّل كونه مذموماً مخذولاً ، وذلك إشارة إلى حال الشرك في الدنيا ، ورتب على الثاني أنه يلقى ﴿ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ وذلك إشارة إلى حاله في الآخرة ، وفي القعود هناك ، والإلقاء هنا إشارة إلى

أن للإنسان في الدنيا صورة اختيار بخلاف الآخرة، وقد تقدّم تفسير الملوم والمدحور.

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَاثًا ﴾ قال أبو عبيدة: ﴿ أصفاكم ﴾: خصكم، وقال الفضل: أخلصكم، وهو خطاب للكفار القائلين بأن الملائكة بنات الله، وفيه توبيخ شديد، وتقريع بالغ لما كان يقوله هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضل، والفاء للعطف على مقدّر، كنظائره مما قد كررناه.

﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ ﴾ يعني: القائلين بأن لهم الذكر ولله الإناث ﴿ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ بالغاً في العظم والجراءة على الله إلى مكان لا يقادر قدره.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هذا القرءان ﴾ أي: بينا ضروب القول فيه من الأمثال وغيرها، أو كررنا فيه؛ وقيل.

"في" زائدة، والتقدير ولقد صرفنا هذا القرآن.

والتصريف في الأصل: صرف الشيء من جهة إلى جهة؛ وقيل: معنى التصريف: المغايرة ،أي: غايرنا بين المواعظ ليتذكروا ويعتبروا، وقراءة الجمهور ﴿ صرّفنا ﴾ بالتشديد، وقرأ الحسن بالتخفيف، ثم علل تعالى ذلك فقال: ﴿ لِّيَذْكُرُواْ ﴾ أي: ليتعظوا ويتدبروا بعقولهم ويتفكروا فيه حتى يقفوا على بطلان ما يقولونه.

قرأ يحيى بن وثاب ، والأعمش ، وحمزة ، والكسائي (ليذكروا) مخففاً ، والباقون بالتشديد ، واختارها أبو عبيد لما تفيده من معنى التكثير ، وجملة ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : والحال أن هذا التصريف والتذكير ما يزيدهم إلاّ تباعداً عن الحق وغفلة عن النظر في الصواب ، لأنهم قد اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر ، وهم لا ينزعون عن هذه الغواية ولا وازع لهم يزعهم إلى الهداية .

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة في قوله : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ قال : كانوا لا يخالطونهم في مال ولا مأكل ولا مركب حتى نزلت ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فإخوانكم ﴾ [البقرة : 220] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ إِنَّ العهد كَانَ مَسْئُولاً ﴾ قال : يسأل الله ناقض العهد عن نقضه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية ، قال : يسأل عهده من أعطاه إياه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وَأَوْفُوا الكيل إِذا كِلْتُمْ ﴾ يعني : لغيركم ﴿ وَزِنُواْ بالقسطاس ﴾ يعني : الميزان ، وبلغة الروم : الميزان : القسطاس : ﴿ ذلك خَيْرٌ ﴾ يعني : وفاء الكليل والميزان خير من النقصان ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ عاقبة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، والفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : القسطاس : العدل بالرومية .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك قال : القسطاس : القبّان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : الحديد .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ قال : لا تقل .

وأخرج ابن جرير عنه قال : لا ترم أحداً بما ليس لك به علم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن الحنفية في الآية قال : شهادة الزور .

(140/456)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَّسْئُولاً ﴾ يقول : سمعه وبصره وفؤاده تشهد عليه .

وأخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله : ﴿ كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَّسْئُولاً ﴾ قال : يوم القيامة أكذلك كان أم لا ؟ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى الأرض مَرَحًا ﴾ قال : لا تمش فخراً وكبراً ، فإن ذلك لا يبلغ بك الجبال ولا أن تخرق الأرض بفخرك وكبرك .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : إن التوارة في خمس عشرة آية من بني إسرائيل ثم تلا ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ قال : مطروداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(141/456)

وقال القاسمى :

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ .

خطاب للذين قالوا من مشركي العرب : (الملائكة بنات الله) والهمزة للإنكار . قال الزمخشري : والمعنى : أفخصكم ربكم ، على وجه الخلوص والصفاء ، بأفضل الأولاد وهم الذكور ، ولم يجعل فيهم نصيباً لنفسه ، واتخذ أدونهم ، وهن البنات ، وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم ، بل تئدونهن وتقتلونهن . فهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم . فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء ، وأصفاها من الشوب ، ويكون أردؤها وأدونها للسادات . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ أي : بإضافة الأولاد إليه ، وهي خاصة المحدثات . ثم بإيثاركم أنفسكم عليه ، حيث تجعلون له ما تكرهون .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ أي : كررنا للناس البيان بوجوه كثيرة ، وبينا فيه من كل مثل : ﴿ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ أي : ليتعظوا ويطمئنوا إلى ما يحتج به عليهم : ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أي : التصريف المذكور : ﴿ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ أي : عن الحق وبعداً عنه ، الذي يقربه وجوه البيان .

وقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ أي : قل لهؤلاء المشركين (الزاعمين أن لله شركاء من خلقه ، العابدين معه غيره ، ليقربهم إليه زلفى) : لو كان الأمر كما تقولون ، وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه ؛ لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ، ويبتغون الزلفى والطاعة لديه ، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه . ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه . فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه . بل يكرهه ويأباه . وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه . هذا ما اختاره ابن كثير ، وسبقه إليه ابن جرير .

وحاصله : أن السبيل بمعنى الوسيلة الموصلة إليه . وفيه إشارة إلى قياس اقتراني تقريره هكذا : ولو كان كما زعمتم معه آلهة لتقربوا إليه . وكل من كان كذلك ليس إلهاً ، فهم ليسوا بآلهة . وقيل : معنى : ﴿ لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ أي : لطلبوا إليه سبيلاً بالمغالبة والممانعة ، كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض ، على طريقة قوله تعالى : ﴿ لَوْ

كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] وهذا الوجه قدمه الزمخشري على الأول . وقال أبو السعود : إنه الأظهر الأنسب لقوله :

(142/456)

﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ فإنه صريح في أن المراد بيان أنه يلزم مما يقولونه محذور عظيم ، من حيث لا يحتسبون . وأما ابتغاء السبيل إليه تعالى بالتقرب ، فليس مما يختص بهذا التقرير ، ولا هو مما يلزمهم من حيث لا يشعرون . بل هو أمر يعتقدونه رأساً . انتهى . ومعنى : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أي : تنزه عن الولد والشريك تنزهاً حقيقاً به : ﴿ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ أي : تعاظم عن ذلك تعاظماً كبيراً . فإن مثل هذه الفرية والبهتان ، مما يتنزه عنه مقامه الأسمى .

قال الشهاب : وذكر العلو ، بعد عنوانه بـ (ذي العرش) . في أعلى مراتب البلاغة . وقوله تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ أي : تنزّهُ الله ، وتقدسُهُ وتجلُّهُ السماوات والأرض ومن فيهن من المخلوقات عما يصفه به المشركون . وتشهد جميعها له بالوحدانية

في إلهيته وربوبيته، كما قال: ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ [مريم: 90 - 91]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أي: لأنها بخلاف لغاتكم.

(143/456)

قال ابن كثير: وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، على أشهر القولين. ثم استدل بما صح من تسبيح الطعام، والحصا، مما خرج في الصحيحين والمسانيد، مما هو مشهور. واختاره الراغب في "مفرداته" وقال: إنه تسبيح على الحقيقة بدلالة قوله: ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ودلالة قوله: ﴿ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ بعد ذكر السماوات والأرض لا يصح أن يكون تقديره (يسبح له من في السماوات ويسجد له من في الأرض) لأن هذا مما نفقهه، ولأنه محال أن يكون ذلك تقديره. ثم يعطف عليه بقوله: ﴿ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ والأشياء كلها تسبح له وتسجد بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار. والآية تدل على أن المذكورات تسبح باختيار، لما ذكر من الدلالة. انتهى.

وذهب كثيرون إلى أن التسبيح المذكور مجازي، على طريقة الاستعارة التمثيلية أو التبعية، كـ: (نطقت الحال) فإنه استعير فيه للتسبيح للدلالة على وجود فاعل قادر حكيم

واجب الوجود ، منزه عن الولد والشريك ، كما يدل الأثر على مؤثره . فجعلت تلك الدلالة الحالية كأنه تنزيه له عما يخالفه .

~وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

قالوا : والخطاب في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ للمشركين . أي : لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يفهم تسبيحهم . وقد بالغ في رد القول الأول واختيار الثاني ، الإمام ابن حزم في كتابه " الملل والنحل " ولا بأس بإيراده ، لما فيه من الغرائب .

قال رحمه الله في الرد على من قال : (إن في البهائم رسلاً) : إنما يخاطب الله تعالى بالحجة من يعقلها . قال الله تعالى : ﴿ يَا أُولِي الأَلْبَاب ﴾ [البقرة : 179] ، وقد علمنا بضرورة الحسن ؛ أن الله تعالى إنما خص بالنطق – الذي هو التصرف في العلوم ومعرفة الأشياء على ما هي عليه ، والتصرف في الصناعات على اختلافها – الإنسان خاصة . وأضفنا إليهم ، بالخبر الصادق ، الجن والملائكة . ثم قال رحمه الله : وقد قاد السخف بعضهم إلى أن جعل للجمادات تمييزاً لمثل قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ ﴾ ونحوه من الآيات . ولا حجة لهم فيه ؛ لأن القرآن واجب أن يحمل على ظاهره ، كذلك كلام رسول

الله صلى الله عليه وسلم . ومن خالف ذلك كان عاصياً لله عز وجل ، مبدلاً لكلماته ، ما لم يأت نص في أحدهما ، أو إجماع متيقن ، أو ضرورة حس على خلاف ظاهره ، فيوقف عند ذلك . ويكون من حمله على ظاهره حينئذ ناسباً الكذب إلى الله عز وجل ، أو كاذباً عليه وعلى نبيه عليه السلام ، نعوذ بالله من كلا الوجهين .

وإذ قد بينا قبلُ بالبراهين الضرورية ؛ أن الحيوان (غير الإنسان والجن والملائكة) لا نطق له . نعني أنه لا تصرف له في العلوم والصناعات . وكان هذا القول مشاهداً بالحس معلوماً بالضرورة ، لا ينكره إلا وقح مكابر لحسّه ، وبيّنا أن كل ما كان بخلاف التمييز المعهود عندنا ، فإنه ليس تمييزاً . وكان هذا أيضاً يعلم بالضرورة والعيان والمشاهدة ؛ فوجب أنه بخلاف ما يسمى في الشريعة واللغة نطقاً وقولاً وتسبيحاً وسجوداً . فقد وجب أنها أسماء مشتركة اتفقت ألفاظها . وأما معانيها فمختلفة ، لا يحل لأحد أن يحملها على غير هذا ؛ لأنه إن فعل كان مخبراً أن الله تعالى قال ما يبطله العيان والعقل الذي به عرفنا الله تعالى ، ولولاه ما عرفناه .

فاللفظ مشترك والمعنى هو ما قام الدليل عليه ، بيان ذلك : أن التسبيح عندنا إنما هو قول (سبحان الله وبحمده) وبالضرورة نعلم أن الحجارة والخشب والهوام والحشرات والألوان لا تقول (سبحان الله ، بالسين والباء والحاء والألف والنون واللام والهاء) هذا ما لا يشك فيه من له مسكة عقل . فإذ لا شك في هذا ، فباليقين علمنا أن التسبيح الذي ذكره الله تعالى هو حق وهو معنى غير تسبيحنا نحن بلا شك . فإذ لا شك في هذا فإن التسبيح في أصل اللغة هو تنزيه الله تعالى عن السوء . فإذا قد صح هذا ؛ فإن كل شيء في العالم بلا شك منزه لله تعالى عن السوء الذي هو صفة الحدوث . وليس في العالم شيء إلا وهو دال (بما فيه من دلائل الصنعة واقتضائه صانعاً لا يشبهه) على أن الله تعالى منزه عن كل سوء ونقص ، وهذا هو الذي لا يفهمه ولا يفقهه كثير من الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ فهذا هو تسبيح كل شيء بحمد الله تعالى بلا شك . وهذا المعنى حق لا ينكره موحد . فإن كان قولنا هذا متفقاً على صحته ، وكانت الضرورة توجب أنه ليس هو التسبيح المعهود عندنا ، فقد ثبت قولنا وانتفى قول من خالفنا بظنه .

وأيضاً فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ والكافر الدهري شيء لا يشك في أنه شيء ، وهو لا يسبح بحمد الله تعالى البتة ، فصح ضرورة أن الكافر يسبح ؛ إذ هو من جملة الأشياء التي تسبح بحمد الله تعالى . وإن تسبيحه ليس هو قوله (سبحان الله وبحمده) بلا شك . ولكن تنزيه الله تعالى بدلائل

خلقه وتركيبه عن أن يكون الخالق مشبهاً لشيء مما خلق . وهذا يقيني لا شك فيه .
فصح بما ذكرنا أن لفظة (التسبيح) هي من الأسماء المشتركة ، وهي التي تقع على نوعين فصاعداً . انتهى كلامه .

(146/456)

ومحصله : نفي أن يكون للجمادات تسبيح وتمييز بالمعنى الموجود في الإنسان . وهو حق لا شبهة فيه ولا يسوغ لأحد إنكاره . إلا أنه لا ينفي أن يكون له تسبيح وفيه تمييز يناسبه ، فيرجع الخلاف لفظياً . وقد وافق العلم الحديث الآن – كما قاله بعض الفضلاء – على أن في الجماد أثراً من الحياة . وأن فيه جميع الصفات الجوهرية التي تميز الأحياء . وأن ما فيه في الجواهر الفردة ودقائق المادة ليست ميتة ، بل هي عناصر حية متحركة لها صورة من صور الحياة الدنيا المشاهدة في جميع أنواع المادة مثل الجذب ، والدفع ، والتأثر بالمؤثرات الخارجية ، وتغير قوة التوازن ، وتجمع الدقائق على أشكال منتظمة ، طبقاً لتراكيب محدودة ، وإفراز مركبات كيماوية مختلفة . وبالجملة ؛ فما يقوله العلم الجديد عن مشابهة الأجسام غير الحية للأجسام الحية يطابق تصورات الأقدمين والشعراء في ذلك . انتهى .
وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ أي : حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، مع كفرهم

وقصورهم في النظر . ولو تابوا لغفر لهم ما كان منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 481.485 ﴾

(147/456)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40) ﴾

تفريع على مقدر يدل على تقديره المفرع عليه .

والتقدير : أفضلكم الله فأعطاكم البنين وجعل لنفسه البنات .

ومناسبته لما قبله أن نسبة البنات إلى الله ادعاء آلهة تنتسب إلى الله بالبنوة ، إذ عبد فريق من العرب الملائكة كما عبدوا الأصنام ، واعتلوا لعبادتهم بأن الملائكة بنات الله تعالى كما حكى عنهم في قوله : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثا إلى قوله : ﴿ وقالوا لو شاء الرحمان ما عبدناهم ﴾ [الزخرف : 19 20] .

فلما نهوا عن أن يجعلوا مع الله إلهاً آخر خصص بالتحذير عبادة الملائكة لئلا يتوهموا أن عبادة الملائكة ليست كعبادة الأصنام لأن الملائكة بنات الله ليتوهموا أن الله يرضى بأن يعبدوا أبناءه .

وقد جاء إبطال عبادة الملائكة بإبطال أصلها في معتقدهم، وهو أنهم بنات الله، فإذا تَبَيَّنَ بطلان ذلك علموا أن جعلهم الملائكة آلهة يساوي جعلهم الأصنام آلهة.

فجملة ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين ﴾ إلى آخرها متفرعة على جملة ﴿ ولا تجعل مع اللَّه إلها آخر ﴾ [الإسراء: 39] تفريعاً على النهي كما بيناه باعتبار أن المنهي عنه مشتمل عمومه على هذا النوع الخاص الجدير بتخصيصه بالإنكار وهو شبيه ببدل البعض.

فالفاء للتفريع وحقها أن تقع في أول جملتها ولكن أخرها أن للاستفهام الصدر في أسلوب الكلام العربي.

وهذا هو الوجه الحسن في موقع حروف العطف مع همزة الاستفهام.

وبعض الأيمة يجعل الاستفهام في مثل هذا استفهاماً على المعطوف والعاطف.

والاستفهام إنكار وتهكم.

والإصفاء: جعل الشيء صَفْوا، أي خَالصاً، وتعدية أصفى إلى ضمير المخاطبين على طريقة الحذف والإيصال، وأصله: أفأصفى لكم.

وقوله: بالبنين ﴾ الباء فيه إما مزيدة لتوكيد لصوق فعل (أصفى) بمفعوله.

وأصله : أفأصفى لكم ربكم البنين ، كقوله تعالى : ﴿ وامسحوا برءوسكم ﴾ [المائدة : 6] ؛ أو ضمّن أصفى معنى آثر فتكون الباء للتعدية دالة على معنى الاختصاص بمجرورها ، فصار (أصفى) مع متعلقه بمنزلة فعلين ، أي قصر البنين عليكم دونه ، أي جعل لم البنين خالصة لا يساويكم هو بأمثالهم ، وجعل لنفسه الإناث التي تكرهونها .

وفساد ذلك ظاهر بأدنى نظر فإذا تبين فساده على هذا الوضع فقد تبين انتفاء وقوعه إذ هو غير لائق بجلال الله تعالى .

وقد تقدم هذا عند قوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾ في سورة [النحل : 57] .

وقوله : ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثاً ﴾ في [النساء : 117] .

وجملة إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾ تقرير لمعنى الإنكار وبيان له ، أي تقولون : اتخذ الله الملائكة بنات .

وأكد فعل "تقولون" بمصدره تأكيداً لمعنى الإنكار .

وجَعْله مجرد قول لأنه لا يعدو أن يكون كلاماً صدر عن غير روية ، لأنه لو تأمله قائله أدنى تأمل لوجده غير داخل تحت قضايا المقبول عقلاً .

والعظيم : القوي .

والمراد هنا أنه عظيم في الفساد والبطلانِ بقرينة سياق الإنكار .

ولا أبلغ في تقبيح قولهم من وصفه بالعظيم ، لأنه قول مدخول من جوانبه لاقتضائه إيثار الله بأدْوَن صنفي البنوة مع تخويلهم الصنف الأشرف .

ثم ما يقتضيه ذلك من نسبته خصائص الأجسام لله تعالى من تركيب وتولد واحتياج إلى الأبناء للإعانة وليخلُفوا الأصل بعد زواله ، فأي فساد أعظم من هذا .

وفي قوله : ﴿ اتخذ ﴾ إيماء إلى فساد آخر ، وهو أنهم يقولون : ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ [البقرة : 116] .

والاتخاذ يقتضي أنه خَلقه ليتخذه ، وذلك ينافي التولد فكيف يلتئم ذلك مع قوله : الملائكة بنات الله من سروات الجن ، وكيف يخلق الشيء ثم يكون ابناً له فذلك في البطلان ضغث على إبّالة .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (41) ﴾

(149/456)

لما ذكر فظاعة قولهم بأن الملائكة بنات الله أعقب ذلك بأن في القرآن هدياً كافياً ، ولكنهم يزدادون نفوراً من تدبره .

فجملة ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن ﴾ معترضة مقترنة بواو الاعتراض .

والضمير عائد إلى الذين عبدوا الملائكة وزعموهم بنات الله .

والتصريف : أصله تعدد الصرف ، وهو النقل من جهة إلى أخرى .

ومنه تصريف الرياح ، وهو هنا كناية عن التبيين بمختلف البيان ومتنوعه .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون ﴾ في سورة [الأنعام : 46] .

(وحذف مفعول ﴿ صرفنا ﴾ لأن الفعل نزل منزلة اللازم فلم يقدر له مفعول ، أي ، بينا البيان ، أي ليذّكّروا ببيانه .

ويذّكّروا : أصله يتذكروا ، فأدغم التاء في الذال لتقارب مخرجيهما ، وقد تقدم في أول سورة يونس ، وهو من الذُكْر المضموم الذال الذي هو ضد النسيان .

وضمير ﴿ ليذكروا ﴾ عائد إلى معلوم من المقام دل عليه قوله : ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين ﴾ [الإسراء : 40] أي ليذكر الذين خوطبوا بالتوبيخ في قوله : ﴿ أفأصفاكم ربكم ﴾ [الإسراء : 40] ، فهو التفات من الخطاب إلى الغيبة ، أو من خطاب المشركين إلى خطاب المؤمنين .

وقوله : وما يزيدهم إلا نفوراً ﴾ تعجب من حالهم .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ﴿ لِيَذْكُرُوا ﴾ بسكون الذال وضم الكاف مخففة مضارع ذكر الذي مصدره الذُّكر بضم الذال .

وجملة ﴿ وما يزيدهم إلا نفوراً ﴾ في موضع الحال ، وهو حال مقصود منه التعجيب من حال ضلالتهم .

إذ كانوا يزدادون نفوراً من كلام فُصّل وبُين لتذكيرهم .

وشأن التفصيل أن يفيد الطمأنينة للمقصود .

والنفور : هروب الوحشي والدابة بجزع وخشيةٍ من الأذى .

واستعير هنا لإعراضهم تنزيلاً لهم منزلة الدواب والأنعام .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آَلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (42) ﴾

(150/456)

عود إلى إبطال تعدد الآلهة زيادة في استئصال عقائد المشركين من عروقها ، فالجملة استئناف ابتدائي بعد جملة ﴿ ولا تجعل مع اللَّه إلها آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ [الإسراء : 39] .

والمخاطب بالأمر بالقول هو النبي لدمغهم بالحجة المقنعة بفساد قولهم .

وللاهتمام بها افتتحت بـ قل ﴾ تخصيصاً لهذا بالتبليغ وإن كان جميع القرآن مأموراً بتبليغه .

وجملة ﴿ كما تقولون ﴾ معترضة للتنبيه على أن تعدد الآلهة لا تحقق له وإنما هو مجرد قول عار عن المطابقة لما في نفس الأمر .

وابتغاء السبيل : طلب طريق الوصول إلى الشيء ، أي توخيه والاجتهاد لإصابته ، وهو هنا مجاز في توخي وسيلة الشيء .

وقد جاء في حديث موسى والخضر عليهما السلام أن موسى سأل السبيل إلى لُقيا الخضر .

و(إذن) دالة على الجواب والجزاء فهي مؤكدة لمعنى الجواب الذي تدل عليه اللام المقترنة بجواب (لو) الامتناعية الدالة على امتناع حصول جوابها لأجل امتناع وقوع شرطها ، وزائدة بأنها تفيد أن الجواب جزاء عن الكلام المجاب .

فالمقصود الاستدلال على انتفاء إلهية الأصنام والملائكة الذين جعلوهم آلهة .

وهذا الاستدلال يحتمل معنيين مآلهما واحد :

والمعنى الأول : أن يكون المراد بالسبيل سبيل السعي إلى الغلبة والقهر ، أي لطلبوا مغالبة ذي العرش وهو الله تعالى .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾ [المؤمنون : 91] .

ووجه الملازمة التي بني عليها الدليل أن من شأن أهل السلطان في العرف والعادة أن يتطلبوا

توسعة سلطانهم ويسعى بعضهم إلى بعض بالغزو ويتألَّبُوا على السلطان الأعظم ليسلبوه ملكه أو بَعضه، وقديماً ما ثارت الأمراء والسلاطين على ملك الملوك وسلبوه ملكه فلو كان مع الله آلهة لسلكوا عادة أمثالهم.

(151/456)

وتمام الدليل محذوف للإيجاز يدل عليه ما يستلزمه ابتغاءُ السبيل على هذا المعنى من التدافع والتغالب اللازمين عرفاً لحالة طلب سبيل النزول بالقرية أو الحَي لقصد الغزو.

وذلك المفضي إلى اختلال العالم لاشتغال مدبريه بالمقاتلة والمدافعة على نحو ما يوجد في ميثلوجيا اليونان من تغالب الأرباب وكَيد بعضهم لبعض، فيكون هذا في معنى قوله تعالى: ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء: 22].

وهو الدليل المسمى ببرهان التمانع في علم أصول الدين، فالسبيل على هذا المعنى مجاز عن التمكن والظفر بالمطلوب.

والابتغاء على هذا ابتغاء عن عداوة وكراهة.

وقوله: كما تقولون ﴾ على هذا الوجه تنبيه على خطئهم، وهو من استعمال الموصول في التنبيه على الخطأ.

والمعنى الثاني : أن يكون المراد بالسبيل سبيل الوصول إلى ذي العرش ، وهو الله تعالى ، وصول الخضوع والاستعطاف والتقرب ، أي لطلبوا ما يوصلهم إلى مرضاته كقوله : ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾

[الإسراء : 57] .

ووجه الاستدلال أنكم جعلتموهم آلهة وقلتم ما نعبدهم إلا ليكونوا شفعاءنا عند الله ، فلو كانوا آلهة كما وصفتم إلهيتهم لكانوا لا غنى لهم عن الخضوع إلى الله ، وذلك كاف لكم بفساد قولكم ، إذ الإلهية تقتضي عدم الاحتياج فكان مآل قولكم إنهم عباد الله مكرمون عنده ، وهذا كاف في تفطنكم لفساد القول بإلهيتهم .

والابتغاء على هذا ابتغاء محبة ورغبة ، كقوله : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ [المزمّل : 19] .

وقريب من معناه قوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمان ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ [الأنبياء : 26] ، فالسبيل على هذا المعنى مجاز عن التوسل إليه والسعي إلى مرضاته .

وقوله : ﴿ كما تقولون ﴾ على هذا المعنى تقييد للكون في قوله : ﴿ لو كان معه آلهة أي لو كان معه آلهة حال كونهم كما تقولون ، أي كما تصفون إلهيتهم من قولكم : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : 18] .

واستحضار الذات العلية بوصف ذي العرش ﴾ دون اسمه العَلم لما تتضمنه الإضافة إلى العرش من الشأن الجليل الذي هو مثار حسد الآلهة إياه وطمعهم في انتزاع ملكه على المعنى الأول ، أو الذي هو مطمع الآلهة الابتغاء من سعة ما عنده على المعنى الثاني .

وقرأ الجمهور ﴿ كما تقولون ﴾ بتاء الخطاب على الغالب في حكاية القول المأمور بتبليغه أن يحكى كما يقول المبلغ حين إبلاغه .

وقرأه ابن كثير وحفص بياء الغيبة على الوجه الآخر في حكاية القول المأمور بإبلاغه للغير أن يحكى بالمعنى .

لأن في حال خطاب الآمر المأمور بالتبليغ يكون المبلغ له غائباً وإنما يصير مخاطباً عند التبليغ فإذا لوحظ حاله هذا عبر عنه بطريق الغيبة كما قرئ قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون ﴾ [آل عمران : 12] بالتاء وبالياء أو على أن قوله : كما يقولون ﴾ اعتراض بين شرط (لو) وجوابه .

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (43) ﴾

إنشاء تنزيه لله تعالى عما ادعوه من وجود شركاء له في الإلهية .

وهذا من المقول اعتراض بين أجزاء المقول ، وهو مستأنف لأنه نتيجة لبطلان قولهم : إن مع الله آلهة ، بما نهضت به الحجة عليهم من قوله : ﴿ إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلاً ﴾ .

وقد تقدم الكلام على نظيره في قوله تعالى : ﴿ سبحانه وتعالى عمّا يصفون ﴾ في سورة [الأنعام : 100] .

والمراد بما يقولون ما يقولونه مما ذكر آنفاً كقوله تعالى : ونرثه ما يقول .

وعلوا ﴾ مفعول مطلق عامله ﴿ تعالى ﴾ .

جيء به على غير قياس فعله للدلالة على أن التعالي هو الاتصاف بالعلو بحق لا بمجرد الادعاء كقول سعدة أم الكميت بن معر :

تعاليت فوق الحق عن آل فقعس

ولم تَخش فيهم ردة اليوم أو غد . . .

وقوله سبحانه : ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾ [المؤمنون : 24] ، أي يدعي الفضل ولا فضل له .

وهو منصوب على المفعولية المطلقة المبينة للنوع .

والمراد بالكبير الكامل في نوعه .

وأصل الكبير صفة مشبهة : الموصوف بالكبر .

والكبر : ضخامة جسم الشيء في متناول الناس ، أي تعالى أكمل علو لا يشوبه شيء من جنس ما نسبوه إليه ، لأن المنافاة بين استحقاق ذاته وبين نسبة الشريك له والصاحبة والولد بلغت في قوة الظهور إلى حيث لا تحتاج إلى زيادة لأن وجوب الوجود والبقاء ينافي آثار الاحتياج والعجز .

وقرأ الجمهور عما يقولون ﴾ بياء الغيبة .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وخلف بتاء الخطاب على أنه التفات ، أو هو من جملة المقول من قوله : ﴿ قل لو كان معه آلهة ﴾ [الإسراء : 42] على هذه القراءة .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾

جملة ﴿ يسبح له ﴾ الخ .

حال من الضمير في ﴿ سبحانه ﴾ أي نسبحه في حال أنه ﴿ يسبح له السماوات السبع ﴾ إلخ ، أي ﴿ يسبح له ﴾ العوالم وما فيها وتنزيهه عن النقائص .

واللام في قوله : ﴿ له ﴾ لام تعدية ﴿ يسبح ﴾ المضمن معنى يشهد بتنزيهه ، أو هي اللام المسماة لام التبيين كالتي في قوله : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الشرح : 1] وفي قولهم : حمدت الله لك .

ولما أسند التسبيح إلى كثير من الأشياء التي لا تنطق دل على أنه مستعمل في الدلالة على

التنزيه بدلالة الحال ، وهو معنى قوله : ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ حيث أعرضوا عن النظر فيها فلم يهتدوا إلى ما يحف بها من الدلالة على تنزيهه عن كل ما نسبوه من الأحوال المنافية للإلهية .

والخطاب في ﴿ لا تفقهون ﴾ يجوز أن يكون للمشركين جرياً على أسلوب الخطاب السابق في قوله : ﴿ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾ [الإسراء : 40] وقوله : ﴿ لو كان معه آلهة كما تقولون ﴾ [الإسراء : 42] لأن الذين لم يفقهوا دِلالة الموجودات على تنزيه الله تعالى هم الذين لم يثبتوا له التنزيه عن النقائص التي شهدت الموجودات حيثما توجه إليها النظر بتنزيهه عنها فلم يحرم من الاهتداء إلى شهادتها إلا الذين لم يقلعوا عن اعتقاد أضدادها .

(154/456)

فأما المسلمون فقد اهتدوا إلى ذلك التسبيح بما أرشدهم إليه القرآن من النظر في الموجودات وإن تفاوتت مقادير الاهتداء على تفاوت القرائح والفهوم .

ويجوز أن يكون لجميع الناس باعتبار انتفاء تمام العلم بذلك التسبيح .

وقد مثل الإمام فخر الدين ذلك فقال : إنك إذا أخذت تُفاحة واحدة فتلك التفاحة مركبة من عدد كثير من الأجزاء التي لا تتجزأ (أي جواهر فردة) ، وكل واحد من تلك الأجزاء

دليل تام مستقل على وجود الإله ، ولكل واحد من تلك الأجزاء التي لا تتجزأ صفاتٌ مخصوصة من الطبع والطعم واللون والرائحة والحيز والجهة ، واختصاص ذلك الجوهر الفرد بتلك الصفة المعينة هو من الجائزات فلا يُجعل ذلك الاختصاص إلا بتخصيص مخصص قادر حكيم ، فكل واحد من أجزاء تلك التفاحة دليل تام على وجود الإله تعالى ، ثم عدد تلك الأجزاء غير معلوم وأحوال تلك الصفات غير معلومة ، فلهذا المعنى قال تعالى : ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

ولعل إيثار فعل ﴿ لا تفقهون ﴾ دون أن يقول : لا تعلمون ، للإشارة إلى أن المنفي علم دقيق فيؤيد ما نحاه فخر الدين .

وقرأ الجمهور ﴿ يسبح ﴾ بياء الغائب وقرأه أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، ويعقوب ، وخلف بتاء جماعة المؤنث والوجهان جائزان في جموع غير العاقل وغير حقيقي التأنيث .

وجملة ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ استئناف يفيد التعريض بأن مقالتهم تقتضي تعجيل العقاب لهم في الدنيا لولا أن الله عاملهم بالحلم والإمهال .

وفي ذلك تعريض بالحث على الإقلاع عن مقالتهم ليغفر الله لهم .

وزيادة (كان) للدلالة على أن الحلم والغفران صفتان له محققتان . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40) ﴾

الهمزة في قوله ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بالبنين ﴾ للإنكار ومعنى الآية . أفخصكم ربكم على وجه الخصوص والصفاء بافضب الأولاد وهم البنون ، لم يجعل فيها نصيباً لنفسه ، واتخذ أدونهم وهي البنات ! وهذا خلاف المعقول والعادة . فإن السادة لا يؤثرون عبيدهم بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ، ويتخذون لأنفسهم أردأها وأدونها . فلو كان جل وعلا متخذاً ولداً " سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيرا " لاتخذ أجود النصيبين ولم يتخذ أردأهما ! ولم يصطفكم دون نفسه بأفضلهما .

وهذا الأنكار متوجه على الكفار في قولهم : الملائكة بنات الله . سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً . فقد جعلوا له الأولاد ! ومع ذلك جعلوا له أضعفها وأردأها وهو الإناث ! وهم لا يرضونها لأنفسهم .

وقد بين الله هذا المعنى في آيات كثيرة . كقوله ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ [النجم : 21-22] ، وقوله : ﴿ أَمْ لَهُ البنات وَلَكُمُ البنون ﴾ [الطور : 39] ، وقوله : ﴿ لَّوْ أَرَادَ الله أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الزمر : 4] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً . وقد بينا ذلك بإيضاح في " سورة النحل " . وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ بين فيه أن ادعاء الأولاد به سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً - أمر عظيم جداً . وقد بين شدة عظمه بقوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القيامة فَرْداً ﴾ [مريم : 88-95] فالمشركون قبحهم الله جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، ثم ادعوا أنهم بنات الله ، ثم عبدوهم . فاقترفوا الجريمة العظمى في المقامات الثلاث ، والهمزة والفاء في نحو قوله : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ ﴾ قد بينا حكمها بإيضاح في " سورة النحل " أيضاً .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44) ﴾

قرأ جمهور القراء "كما " تقولون " بتاء الخطاب . وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم "كما يقولون " بياء الغيبة . وفي معنى هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير ، كلاهما ق ويشهد له قرآن . وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن الاية قد يكون فيها وجهان كلاهما حق ، وكلاهما يشهد له قرآن فنذكر الجميع لأنه كله حق .

الأول من الوجهين المذكورين – أن معنى الآية الكريمن : لو كان مع الله آلهة أخرى كما يزعم الكفار لابتغوا – أي الآلهة المزعومة – أي لطلبوا إلى ذي العرش – اي إلى الله سبيلاً – أي إلى مغالبته وإزالة ملكه ، لأنهم إذاً يكونون شركاءه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض .

سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً !

وهذا القول في معنى الاية هو الظاهر عندي ، وهو المتبادر من معنى الآية الكريمة . ومن الآيات الشاهدة لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الغيب والشهادة فتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون : 91-92] ، وقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ الله رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : 22] وهذا المعنى في الآية مروي عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وأبي على الفارسي ، والنقاش ، وأبي منصور ، وغيره من المتكلمين .

الوجه الثاني في معنى الآية الكريمة : أن المعنى ﴿ لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِي ٱلْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ اي طريقاً ووسيلة تقربهم إليه لاعترافهم بفضله . ويدل لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء : 57] الآية . ويروى هذا القول عن قتادة . واقتصر عليه ابن كثير في تفسيره .

(158/456)

ولا شك أن المعنى الظاهر المتبادر من الآية بحسب اللغة العربية هو القول الأول ، لأن في الآية فرض المحال ، والمحال المفروض الذي هو وجود آلهة مع الله مشاركة له لا يظهر معه أنها تتقرب إليه ، بل تنازعه لو كانت موجودة ، ولكنها معدومة مستحيلة الوجود . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(159/456)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40) ﴾

لما جعل بعض المشركين لله ولداً ، فمنهم مَنْ قالوا : المسيح ابن الله ، ومنهم مَنْ قالوا : عزير ابن الله ، ومنهم مَنْ قالوا : الملائكة بنات الله ، فوبّخهم الله تعالى: كيف تجعلون للخالق سبحانه البنات ولكم البنين ، إنها قسمة جائرة ، كما قال الحق سبحانه في آية أخرى: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ [النجم: 21-22]

أي: قسمة جائرة ظالمة .

قوله: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ . . ﴾ [الإسراء: 40] أي: اصطفاكم واختار لكم البنين ، وأخذ لنفسه البنات ؟

ويقول في آية أخرى: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا . . ﴾ [الزخرف: 15]

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ [الإسراء: 40] فوصف قولهم بأنه عظيم في القُبْح والافتراء على الله ، كما قال في آية أخرى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ [مريم: 88-89]

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ .

﴿ صَرَّفْنَا ﴾ أي: حوَّلنا الشيء من حال إلى حال، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ.. ﴾ [البقرة: 164]

يعني تغييرها من حال إلى حال، فمرة: تراها سَكْسكاً عليلة هادئة، ومرّة تجدها رُخَاءً أي: قوية، ومرة: تجدها إعصاراً مدمراً. والرياح قد تكون لواقح تأتي بالخير والنماء، وقد تكون عقيماً لا خير فيها. هذا هو المراد بالتصريف.

فمعنى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَاذَا الْقُرْآنِ ﴾ [الإسراء: 41]

أي: صرف مسألة ادعاء اتخاذ الله الأبناء في القرآن، وعالجها في كثير من المسائل؛ لأنه أمر مهم عالجه القرآن علاجاتٍ متعددة في مقامات مختلفة من سُوره، فتكرر ذِكْر هذه المسألة. والتكرار قد يكون في ذات الشيء، وقد يكون باللَّف بالشيء، كما في قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.. ﴾ [الرحمن: 13]

وقوله: ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ [الإسراء: 41]

أي: بدل أنْ يذكروا ويعودوا إلى جادّة الصواب ازدادوا إعراضاً ونفوراً. ولنا أن نسأل: لماذا الإعراض والنفور منهم؟

لأنهم أرادوا الاحتفاظ بالسلطة الزمنية التي كانت لهم قبل الإسلام، ولكي نوضح المقصود بالسلطة الزمنية نقول:

لو درسنا تواريخ القوانين في العالم نجد أن القانون الوضعيّ الذي وضعه البشر لم يأْتِ أول

الأمر ، بل جاء نتيجة تسلُّط الكهنة ، وكانوا هم أصحاب القانون يضعونَه باسم الدين ، ويلزمون الناس به ، ولكن لُوحِظ عليهم أنهم يحكمون في قضية ما بحكم ، ثم بعد فترة يحكمون في نفس القضية بحكم مخالف للأول ، فانصرف الناس عن أحكام الكهنة ، ووضعوا لأنفسهم هذه القوانين الوضعية ، وبذلك أصبح لهؤلاء ما يُسمَّى بالسلطة الزمنية .

(161/456)

وهذه السُّلْطة الزمنية هي التي منعتْ يهود المدينة من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كانوا على علم ومعرفة بأوصافه وبرسالته ومن زمن بعثته ، وكانوا حينما يروْنَ عُبّاد الأصنام في مكة يقولون لهم: سيأتي زمان يُبعث فيه نبي في هذا البلد ، وسوف نتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وقد كانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا .

وعن هذا يقول الحق سبحانه في حق يهود المدينة: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 89]

لقد تنكَّر اليهود لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم، مع أنهم على يقين من صِدْقه؛ لأن هذه الرسالة ستحرمهم هذه السلطة الزمنية، وستقضي على السيادة العلمية والسيادة الاقتصادية والسيادة الحربية التي كانت لهم قبل الإسلام.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لأَّبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِي ٱلْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾.

أي: لو كان مع الله آلهة أخرى لَطلبتْ هذه الآلهةُ طريقاً إلى ذي العرش.

وقد عالج الحق تبارك وتعالى هذه القضية في قوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [آل عمران: 18]

وهذه قضية: إما أنْ تكونَ صادقة، وإما أن تكون غير ذلك. فإنْ كانت صادقة فقد انتهتْ المسألة، وإنْ كانت غير صادقة، وهناك إله ثانٍ، فأين هو؟ لماذا لم نسمع به؟ فإنْ كان موجوداً، ولا يدري. أو كان يدري بهذه القضية. ولكنه تقاعس عن المواجهة ولم يعارض، ففي كل الأحوال لا يستحق أن يكون إلهاً.

إذن: ما دام أن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية، ولم يَقُمْ له معارض فقد سَلِمتْ له هذه

الدعوى.

وكلمة ﴿ ذِي الْعَرْشِ ﴾ لا تُقَال إلا لمَنْ استتبَّ له الأمر بعد عِرَاك وقتال، فيُصنع له كرسي أو سرير يجلس عليه.

ابتغاء الطريق إلى ذي العرش، إما ليواجهوه ويوقفوه عند حده ويبطلوا دعوته، فإن غلبوا فقد انتهت المسألة، وإن غُلبوا فعلى الأقل يذهب كل إله بما خلق كما قال تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: 91]

أو: يبتغون إليه سبيلاً، ليكونوا من خَلْقه ومن عبيده؛ لذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً للَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ. . ﴾ [النساء: 172]

ويقول: ﴿ أُولَائِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء: 57]

فهؤلاء الذين أشركتموهم مع الله فقُلْتم: المسيح ابن الله، وعزيز ابن الله، والملائكة بنات الله، كُلُّ هؤلاء فقراء إلى الله يبتغون إليه الوسيلة، حتى أقربهم إلى الله وهم الملائكة يبتغون إلى الله الوسيلة فغيرهم -إذن- أَوْلَى.

وينزِّه الحق سبحانه نفسه، فيقول: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾.

وقوله ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ يعني تنزيهاً مطلقاً له تعالى في ذاته ، وفي صفاته ، وفي أفعاله ، فلله تعالى ذات ليست كذاتك ، وله صفات ليست كصفاتك ، وله أفعال ليست كأفعالك ؛ لأن الأشياء تختلف في الوجود بحَسْب المُوجِد لها .

فمثلاً: لو بني كُلٌّ من العمدة ، ومأمور المركز ، والمحافظ بيتاً ، فسوف يتفاوت هذا البناء من واحد للآخر ، بحسب قدرته ومكانته . وكذلك لا بُدَّ من وجود هذا التفاوت بين إله ومألوه ، وبين رَبٍّ ومربوب ، وبين عابد ومعبود .

إذن: كُلُّ الأشياء في المتساوي تتفاوت بتفاوت الناس .

وقوله: ﴿ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ [الإسراء: 43] أي: تعالى الله وتنزَّه عَمَّا يقول هؤلاء علواً كبيراً ؛ لأن الناس تتفاوت في العلو .

ونلاحظ أن الحق سبحانه اختار (كبيرا) ولم يَقُلْ: أكبر . وهذا من قبيل استعمال اللفظ في موضعه المناسب ؛ لأن كبيراً تعني: أن كل ما سواه صغير ، لكن أكبر تعني أن ما دونه كبير أي: مُشَارِك له في الكِبَر .

لذلك نقول في نداء الصلاة: الله أكبر وهي صفة له سبحانه وليست من أسمائه ؛ ذلك لأن

من أعمال الحياة اليومية ما يمكن أن يُوصَف بأنه كبير، كأعمال الخير والسعي على الأرزاق، فهذه كبيرة، ولكن: الله اكبر.

ثم يقول تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ... ﴾.

(164/456)

التسبيح: هو حيثية الإيمان بالله؛ لأنك لا تؤمن بشيء في شيء إلاَّ أنْ تثق أن مَنْ آمنت به فوقك في ذلك الشيء، فأنت لا تُوكِّل أحداً بعمل إلا إذا أيقنتَ أنه أقدر منك وأحكم وأعلم.

فإذا كنت قد آمنت بإله واحد، فحيثية ذلك الإيمان أن هذا الإله الواحد فوق كل المألوهين جميعاً، وليس لأحد شبه به، وإن اشترك معه في مُطْلَق الصفات، فالله غنيّ وأنت غِنَي، لكن غنى الله ذاتيّ وغِنَاك موهوب، يمكن أنْ يُسلب منك في أي وقت.

وكذلك في صفة الوجود، فالله تعالى موجود وأنت موجود، لكن وجوده تعالى لا عن عدم، بل هو وجود ذاتي ووجودك موهوب سينتهي في أي وقت.

إذن: فتسبيح الله هو حيثية الإيمان به كإله، وإلا لو أشبهناه في شيء أو أشبهنا في شيء ما استحق أن يكون إلهاً.

والتسبيح: هو التنزيه، وهذا ثابت لله تعالى قبل أن يوجد منْ خَلْقه مَنْ يُنزِّهه، والحق سبحانه مُنزَّه بذاته والصفة كائنة له قبل أن يخلق الخلق؛ لأنه خالق قبل أن يخلق، كما تقول: فلان شاعر، أهو شاعر لأنه قال قصيدة؟ أم شاعر بذاته قبل أن يقول شعراً؟

الواقع أن الشعر موهبة، وملَكة عنده، ولولاها ما قال شعراً، إذن: هو شاعر قبل أن يقول.

كذلك فصفات الكمال في الله تعالى موجودة قبل أن يوجد الخَلْق.

لذلك فإن المتتبع لهذه المادة في القرآن الكريم مادة (سبح) يجدها بلفظ (سُبْحان) في أول الإسراء: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ . . ﴾ [الإسراء: 1]

ومعناها أن التنزيه ثابت لله تعالى قبل أن يخلق من ينزهه.

ثم بلفظ: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ . . ﴾ [الحديد: 1]

بصيغة الماضي، والتسبيح لا يكون من الإنسان فقط، بل من السماوات والأرض، وهي خَلْق سابق للإنسان.

ثم يأتي بلفظ: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ . . ﴾ [الجمعة: 1]

بصيغة المضارع؛ ليدل على أن تسبيح الله ليس في الماضي، بل ومستمر في المستقبل لا ينقطع. إذن: ما دام التسبيح والتنزيه ثابتاً لله تعالى قبل أن يخلق مَنْ يُنزِّهه، وثابتاً لله من جميع مخلوقاته في السماوات والأرض، فلا تكُنْ أيها الإنسان نشازاً في منظومة الكون، ولا تخرج عن هذا النشيد الكوني: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ [الأعلى: 1]

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ.. ﴾ [الإسراء: 44]

أي: ما من شيء، كل ما يُقال له شيء. والشيء هو جنس الأجناس، فالمعنى أن كل ما في الوجود يُسبِّح بحمده تعالى.

وقد وقف العلماء أمام هذه الآية، وقالوا: أي تسبيح دلالة على عظمة التكوين، وهندسة البناء، وحكمة الخلق، وهذا يلفتنا إلى أن الله تعالى مُنزَّه ومُتعَالٍ وقادر، ولكنهم فهموا التسبيح على أنه تسبيح دلالة فقط؛ لأنهم لم يسمعوا هذا التسبيح ولم يفهموه.

وقد أخرجنا الحق سبحانه وتعالى من هذه المسألة بقوله: ﴿ وَلَاكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ.. ﴾ [الإسراء: 44]

إذن: يوجد تسبيح دلالة فعلاً، لكنه ليس هو المقصود، المقصود هنا التسبيح الحقيقي كُلٌّ بلُغتِه.

فقوله تعالى: ﴿ وَلَاكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ.. ﴾ [الإسراء: 44]

يدل على أنه تسبيح فوق تسبيح الدلالة الذين آمن بمقتضاه المؤمنون، إنه تسبيح حقيقيّ

ذاتيّ ينشأ بلغة كل جنس من الأجناس ، وإذا كنا لا نفقه هذا التسبيح ، فقد قال تعالى: ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . . ﴾ [النور: 41]

إذن: كل شيء في الوجود عَلِم كيف يُصلّي لله ، وكيف يُسبِّح لله ، وفي القرآن آياتٌ تدل بمقالها ورمزيتها على أن كل عَالَم في الوجود له لغة يتفاهم بها في ذاته ، وقد يتسامى الجنس الأعلى ليفهم عن الجنس الأدنى لُغته ، فكيف نستبعد وجود هذه اللغة لمجرد أننا لا نفهمها ؟

(166/456)

وها هم الناس أنفسهم ولهم في الأداء القوليّ لغة يتفاهمون بها ، ومع ذلك تختلف بينهم اللغات ، ولا يفهم بعضهم بعضاً ، فإذا ما تكلم الإنجليزي ـ مع أنه يتكلم بألفاظ العربي ـ ومع ذلك لا يفهمه ؛ لأنه ما تعلّم هذه اللغة .

واللغة ظاهرة اجتماعية ، بمعنى أن الإنسان يحتاج للغة ؛ لأنه في مجتمع يريد أن يتفاهم معه ليعطيه ما عنده من أفكار ، ويسمع ما عنده من أفكار فلا بُدَّ من اللغة لنقل هذه الأفكار ، ولو أن الإنسان وحده ما كان في حاجة إلى لغة ؛ لأنه سيفعل ما يخطر بباله وتنتهي المسألة .

واللغة لا ترتبط بالدم أو الجنس أو البيئة ؛ لأنك لو أتيتَ بطفل إنجليزي مثلاً ، ووضعتَه في

بيئة عربية سيتكلم العربية ؛ لأن اللغة ظاهرة اجتماعية تعتمد على السمع والمحاكاة ؛ لذلك إذا لم تسمع الأذن لا تستطيع أن تتكلم ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ . . ﴾[البقرة: 18]

فهم بُكْم لا يتكلمون ؛ لأنهم صُمٌّ لم يسمعوا شيئاً ، فإذا لم يسمع الإنسان اللفظ لا يستطيع أن يتحدثَ به ؛ لأن ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان .

إذن: بالسماع انتقلتْ اللغة ، وكُلٌّ سمع من أبيه ، ومن البيئة التي يعيش فيها ، فإذا ما سلسلْتَ هذه المسألة ستصل إلى آدم ـ عليه السلام ـ وهنا يأتي السؤال: وممَّنْ سمع آدم اللغة التي تكلم بها ؟

وقد حلَّ لنا القرآن الكريم هذه القضية في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[البقرة: 31]

وأكثر من ذلك ، فقد يتكلم العربي بنفس لغتك ولا تفهم عنه ما يقول ، واللغة هي اللغة ، كما حدث مع أبي علقمة النحوي ، وكان يتقعَّر في كلامه ويأتي بألفاظ شاذة غير مشتهرة ، وقد أتعب بذلك مَنْ حوله ، وخاصة غلامه الذي ضاق به ذَرْعاً لكثرة ما سمع منه من هذا التقعر .

ويُروَي أنه في ذات ليلة قال أبو علقمة لغلامه: (أَصَقَعَتِ العَتَارِيفُ) ؟ فردَّ عليه الغلام قائلاً: (زِقْفَيْلَم) .

وكانت المرة الأولى التي يستفهم فيها أبو علقمة عن كلمة، فقال: يا بني وما (زقْفَيْلَم)؟ قال: وما (صقعت العتاريف)؟ قال: أردتُ: أصاحت الديكة؟ فقال الغلام: وأنا أردتُ لم تَصِحْ.

إذن: فكيف نستبعد أننا لا نعلم لغة المخلوقات الأخرى من حيوان ونبات وجماد؟ ألم يكْفِنا ما أخبرنا الله به من وجود لغة لجميع المخلوقات، وإنْ كنا لا نفهمها؛ لأننا نعتقد أن اللغة هي النطق باللسان فقط، ولكن اللغة أوسع من ذلك.

فهناك - مثلاً - لغة الإشارة، ولغة النظرات، ولغة التلغراف.

إذن: اللغة ليست اللسان فقط، بل هي استعداد لاصطلاح يُفْهم ويُتعارف عليه، فالخادم مثلاً يكفي أن ينظر إليه سيّده نظرة يفهم منها ما يريد، فهذه النظرة لَوْنٌ من ألوان الأداء.

والآن بدأنا نسمع عن قواميس يُسجل بها لغات بعض الحيوانات لمعرفة ما تقول.

وقد أعطانا الحق تبارك وتعالى إشارات تدل على أن لكل عَالَم لغة يتفاهم بها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. ﴾ [الأنبياء: 79]

فالجبال تُسبّح مع داود، وتُسبح مع غيره، ولكن المراد هنا أنها تُسبِّح معه ويوافق

تسبيحها تسبيحه، وكأنهما في أنشودة جماعية منسجمة. إذن: فلا بُدَّ أن داود عليه السلام قد فَهِم عنها وفهمتْ عنه.

وكذلك النملة التي تكلمتْ أمام سليمان عليه السلام ففهم كلامها، وتبسَّم ضاحكاً من قولها. وقد علَّمه الله منطقَ الطير. إذن: لكل جنس من الأجناس منطق يُسبّح الله به، ولكن لا نفقه هذا التسبيح؛ لأنه تسبيح بلغة مُؤدِّية مُعبّرة يتفاهم بها مَنْ عرف التواضع عليها.

وقد جعل الحق سبحانه وتعالى تنزيهه مطلقاً ينقاد له الجميع، حتى الكافر ينقاد لتنزيه الله قَهْراً عنه، مع أن لديه ملكةَ الاختيار بين الكفر أو الإيمان، لكن أراد الحق سبحانه أن يكون تنزيهه مُطْلقاً من الجماد والنبات والحيوان، ومن المؤمن والكافر. كيف ذلك؟

(168/456)

أطلق الحق سبحانه على ذاته لفظ الجلالة (الله) فهو عَلَم على واجب الوجود، ثم تحدّى الكافرين أنْ يُسمُّوا أحداً بهذا الاسم، فقال: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم: 65]

ومع ما عندهم من إلْفٍ بالمخالفة وعناد بالإلحاد، مع ذلك لم يجرؤ أحد منهم أنْ يُسمِّي ابناً له بهذا الاسم، ومعلوم أن التسمية أمر اختياريّ يطرأ على الجميع.

إذن: فهذا تنزيه لله تعالى ، حتى من الكافر رَغْماً عنه ، وهو دليل على عظمته سبحانه وجلاله ، هذه العظمة وهذا الجلال الذي لم يجرؤ حتى الكافر على التشبُّه به ؛ ذلك لأنهم في كفرهم غير مقتنعين بالكفر ، ويخافون بطش الله وانتقامه إنْ أقدموا على هذا العمل ، لذلك لا يجرؤ أحد منهم أنْ يُجرِّب في نفسه مثل هذه التسمية .

وفي مجال العبادات ، فقد اختار الحق سبحانه لنفسه عبادة لا يشاركه فيها أحد ، ولا يقدمها أحد لغيره تعالى ؛ لأن الناس كثيرا ما يتقربون لأمثالهم من البشر بأعمال أشبه ما تكون بعبادة الله تعالى ، فمنهم مَنْ ينحني خضوعاً لغيره ؛ كأنه راكع أو ساجد ، ومنهم مَنْ يمدح جباراً بأنه لا مثيل له ، وتصل به المبالغة إلى جَعْله إلهاً في الأرض ، ومنهم مَنْ يسجدُ للشمس كما فعل أهل سبأ وأخبر الهدهد عنهم بقوله:

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [النمل: 24]

ألسْنَا نرى إنساناً يتقرّب لأحد الحكام ، بأن ينفق فيما يحبه هذا الحاكم ، وكأنه يُخرِج زكاة ماله ؟ ألسْنا نرى أحدهم يذهب كل يوم إلى قصر سيده ، ويُوقّع في سجل التشريفات باسمه ليقدم بذلك فروض الولاء والطاعة ؟

إذن: فالإيمان بالوحدانية في شيء متميز وارد عند الناس ، والخضوع الزائد بالسجود أو بالركوع أو بالكلام وارد عند الناس .

لذلك تفرّد الحق سبحانه بفريضة الصوم ، وجعلها خالصة له سبحانه ، لا يتقرب بها أحد لأحد ، وهل رأيت إنساناً يتقرّب لآخر بصوم ؟ فانظر إلى هذه السُّبْحانية وهذا التنزيه في ذاته سبحانه ، فلا يجرؤ أحد أنْ يتسمى باسمه .

وفي العبادة لا يُصَام لأحد غيره تعالى ، فلو تصوَّرنا أن يقول واحد للآخر : أنا سأتقرّب إليك بصوم هذا اليوم أو هذا الشهر ، إذن : أنت تريد منه أن يجلس بجوارك يحرسك ويراعي صومك ، فكأنك تريد له العنت والمشقة من حيث تريد أنت أنْ تتقرّب إليه .

لذلك يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي : "كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به " .

يعني من الممكن أن يتقرب بأيِّ ركن من أركان الإسلام لغيري ، إلا الصوم ، فلا يجرؤ أحد أنْ يتطوّع به أو يتقرب به لأحد .

إذن : فالسُّبحانية هي الدليل السائد الشامل الجامع لكل الخَلْق ؛ لذلك نقول للكافر : أيها الكافر لقد تأبَّيْتَ على الإيمان بالله ، وللعاصي : لقد تأبيتَ على أوامر الله ، وما دُمْتُم قد تأبيتم على الله ، وألفتم هذا التأبِّي وهذا التمرد ، فلماذا لا تتأبون على المرض إنْ أصابكم ، وعلى الموت إنْ طرق بابكم ؟

لماذا لا تتمرد على ملك الموت وتقول له : لن أموت اليوم ؟ ! إنها قاهرية الحق سبحانه وتعالى

حتى على الكافر، فلا يستطيع أحد أن يخرج عليها أو يتمرد.

وكذلك العاصي حينما ينحرف عن الجادّة، وتمتد يده إلى مال غيره بالسرقة أو الاختلاس أو التعدّي على المال العام، فإن الحق سبحانه يفتح عليه أبواباً للإنفاق تبتلع ما جمع من الحرام، وربما أخذت في طريقها الحلال أيضاً، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: "من جمع مالاً من مهاوش أذهبه الله في نهابر".

(170/456)

فالتسبيح إذن لغة الكون كله، منه ما نفهمه، ومنه ما لا نفهمه، إلا مَنْ أطلعه الله عليه، فإذا مَنّ الله على أحد وعلّمه لغة الطير أو الحيوان أو النبات أو الجماد، فهمها وفقه عنها، كما أنعم بهذه النعم على داود وسليمان عليهما السلام.

ويقول سليمان ـ عليه السلام ـ شاكراً هذه النعمة: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ [النمل: 19]

فقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ.. ﴾ [الإسراء: 44]

يجب على العلماء أنْ ينقلوها من خاطر الدلالة إلى خاطر المقالة أيضاً، ولكنها مقالة، ولكنها مقالة بلغة يفهمها أصحابها إذا شاء الله لهم ذلك.

ثم يُذيّل الحق سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً . . ﴾ [الإسراء: 44]

لأن الإنسان كثيراً ما يغفل الاستدلال بظواهر الكون وآياته دلالة الحال، فيقف على قدرة الله وبديع صُنْعه، وكذلك كثيراً ما يغفل عن تسبيح الله تسبيح المقالة؛ لذلك أخبر سبحانه أنه حليمٌ لا يعاجل الغافلين بالعقوبة، وغفور لمن تاب وأناب.

وهذا من رحمته سبحانه بعباده، فلولا أنْ يتدارك الله العباد بهذه الرحمة لكان الإنسان سيد الكون أقلّ حظاً من الحيوان، ويكفي أن تتدبر قوله تعالى عن تسبيح المخلوقات له سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ . . ﴾ [الحج: 18]

فها هي جميع الأجناس من جماد ونبات وحيوان تسجد لله لا يتخلف منها شيء، فهي تسجد وتُسبّح بالإجماع، ولم ينقسم الأمر إلا في الإنسان السيّد المكرّم، ولكن لماذا الإنسان بالذات هو الذي يشذُّ عن منظومة التسبيح في الكون؟

نقول: لأنه المخلوق الوحيد الذي مَيَّزَهُ الله بالاختيار ، وجعل له الحرية في أنْ يفعل أو لا يفعل ، أما باقي المخلوقات فهي مُسخَّرة مقهورة ، فإن قال قائل: لماذا لم يجعل الحق سبحانه وتعالى الإنسان أيضاً مقهوراً كباقي المخلوقات؟

لقد جعل الله تعالى في الإنسان الاختيار لحكمة عالية ، فالقهر يُثبتُ للحق سبحانه صفة القدرة على مخلوقه ، فإذا قهره على شيء لا يشذ ولا يتخلَف ، ولكنه لا يثبت صفة المحبوبية لله تعالى.

أما الاختيار فيثبت المحبوبية لله؛ لأنه خلقك مختاراً تؤمن أو تكفر ، ومع ذلك اخترْتَ الإيمان حُباً في الله تعالى ، وطاعة وخضوعاً ، فأثبتَّ بذلك صفة المحبوبية.

وإياك أن تظن أن مَنْ يَعْصي الله يعصيه قهراً عن الله ، بل بما ركَّب فيه من الاختيار ، وقد يقول قائل: وما ذنب الإنسان أن يكون مختاراً من بين جميع المخلوقات؟

لو حققتَ هذه القضية منطقياً وفلسفياً لوجدتَ الكون كله كان مختاراً ، وليس الإنسان فقط ، لكن اختارت جميع المخلوقات أنْ تُسلِّم الأمر لله ، وفضَّلتْ أن تكون مقهورة مسخرة من البداية ، أما الإنسان ففضَّل الاختيار ، وقال: سأعمل بحرص ، وسأحمل الأمانة بإخلاص ، وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾

[الأحزاب: 72]

وفي رَفْض هذه المخلوقات لتحمُّل الأمانة والاختيار دليل على العلم الواسع؛ لأنه يوجد فَرْق كبير بين قبول الأمانة وقت التحمُّل ووقت الأداء. فقد تتحمل الأمانة وأنت واثق من أدائها، لكن يطرأ عليك وقت الأداء مَا يحول بينك وبين أداء الأمانة.

(172/456)

والأمانة كما هو معروف لا تُوثَّق ولا تُكتب، وكثيراً ما يقع فيها التلاعب؛ لأنها لا تثبتُ إلا بذمّة الآخذ الذي قد يضعف عن الأداء وتُلجِئه الأحداث إلى هذا التلاعب أو الإنكار، والأحداث قد تكون أقوى من الرجال.

فالإنسان -إذن- لا يضمن نفسه وقت الأداء، وإنْ كان يضمنها وقت التحمُّل، ولهذا اختارت جميع المخلوقات أن تكون مقهورة مُسيَّرة، أما الإنسان فقال: لي عقل وأستطيع التصرُّف والترجيح بين البدائل، فكان بذلك ظالماً لنفسه؛ لأنه لا يضمنها وقت الأداء، وجهولاً بما يكون من تغيُّر أحواله.

فالكون -إذن- ليس مقهوراً رَغْماً عنه، بل بإرادته واختياره، وكذلك الإنسان ليس مختاراً رَغْماً عنه، بل بإرادته واختياره. انتهى انتهى. ا هـ ﴿تفسير الشعراوى صـ ﴾

لطيفة

قال في ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) (الإسراء : 41) ، وفيما بعد : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) (الإسراء : 89) ، وفي الكهف : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) (الكهف : 54) ، ففي الأولى : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ) ، وفي الثانية : (لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ) ، وفي الثالثة : بتأخير الناس ، يسأل عن ذلك ؟

والجواب عنه ، والله أعلم : أن الأولى وقع قبلها : (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) (الإسراء : 40) ، وهذا خطاب مراد به كفار العرب ، فلم يذكر فيه لفظ الناس العام لهم ولغيرهم ، إذ الخطاب خاص بهم .

وأما الآية الثانية فقبلها : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ) (الإسراء : 88) ، ثم قال تعالى : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ) (الإسراء : 89) ، فخص الفريقين وعين ممن ذكر الناس اعتناء بهم ، أعني بالجنس الإنساني ، ليظهر شرفهم

على الجن ، وقدم الناس لما يعطيه تقديم المجرور ، وقد مر هذا ، وأيضاً فلثقل التكرر فيما تقارب ، ولو قيل : ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل فأبي أكثر الناس إلا كفوراً لجاء لفظ الناس كأنه قد أعيد متصلاً ، والعرب تستثقل مثل هذا ، فقدم المجرور ليستحكم الفصل فلا يستثقل .

(174/456)

وأما آية الكهف فلم يتكرر فيها لفظ الناس فيقع استثقال ، فقدم قوله : (فِي هَذَا الْقُرْآنِ) (الكهف : 54) ، لأن تقديمة أهم ، إذ هو أبلغ في تنبيههم على الاعتبار . وقد مر قول سيبويه في مثل هذا (صفحة 256و287) .

وأما آية الكهف فلم يقع قبلها ذكر الثقلين معاً فيحتاج إلى ذكر تقديم الناس كما احتيج في آية الإسراء ، ألا ترى أن فصل آية الكهف : (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ) (الككهف : 52) الآية ، فلم يرد فيها ما في الأخرى ، وكان الأهم ذكر القرآن الشافي لمعتبر ما صُرف فيه من الأمثال . فقيل : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) (الكهف : 54) ، ولكون الخطاب عاماً في الإنسان لم يكن بد من ذكر الناس ، بخلاف الآية الأولى من سورة الإسراء ، إذ خطابها خاص بالقائلين من كفار العرب : إن

الملائكة بنات الله ، تعالى (الله) عن ذلك علواً كبيراً ، فقد ورد كل من هذه الآيات على ما يناسب ويلائم ما اتصل به .

وأما ختام الأولى بقوله : (وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) (الإسراء : 41) فالضمير للمذكورين ممن خص بمقصود الخطاب المكنى عنهم بقوله : (لِيَذَّكَّرُوا) ، وأما أعقاب الثانية بقوله : (فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) (الإسراء : 89) فلتعطي إعادة الظاهر من التعنيف والتقريع ما لا يعطيه المضمر ، ولأن أول الخطاب وصدر الآية لما قدم فيه ذكر الناس لشرف الجنس الإنساني على الجن ، ثم لم يكن ممن لم يؤمن إلا العناد ، قيل : (فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ) ليعطي بفحواه أن كأن قد قيل : فأبى أكثر الناس على تشريفهم وتفضيلنا إياهم إلا الكفر ، فأحرز الظاهر ما لم يكن ليحرزه إضمارهم ، فتأمل ذلك .

(175/456)

وأما قوله عقب آية الكهف : (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) (الكهف : 54) فمن المعلوم جدال كل فرد ومعاند عن دينه ومذهبه ، قال تعالى : (يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ) (الأنفال : 6) ، وقال تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ) (غافر : 69) ، وإذا كان الجدال من صفة كل مخالف في مذهب أو معتقد لم يبق السؤال

هنا إلا عن وجه تخصيص هذه الآية بوصف الإنسان هنا بالجدل؟ والجواب أنه وصف هنا بذلك ليكون ختام هذه الآية هذه الآية تمهيداً لما سيأتي بعده من قوله تعالى: (وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) (الكهف: 56)، فلما بني هذا على الآية، واتصل الكلام والتحم نوسب بينهما، وليس في الآيتين قبل، ولا فيما تقدم كل واحدة منهما، (وفيما بني عليهما، ما يستدعي ذكر الجدل ولا الوصف به، فلذلك أعقبت كل واحدة منهما بما تقدم، فأعقبت الأولى بقوله تعالى: (وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) لما بين من استدعاء الآية ذلك، وأعقبت الثانية بقوله: (فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) لما بين أيضاً عند ذكر ذلك، وأعقبت هذه الأخرى بما يناسب ما ورد عليه بعده، وجاء كل على ما يجب. انتهى

انتهى. اهـ ﴿ملاك التأويل صـ 312.311﴾

(176/456)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين:

قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ﴾

ألفُ "أَصْفى" عن واوٍ، لأَنَّه من صفا يَصْفو، وهو استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ.

قوله : " واتَّخَذَ " يجوز أن يكونَ معطوفاً على " أَصْفاكم " فيكونَ داخلاً في حَيِّز الإِنكار ، ويجوز أن تكونَ الواوُ للحالِ ، و " قد " مقدرةٌ عند قومٍ . و " اتَّخذ " يجوز أَنْ تكونَ المتعدية لاثنين ، فقال أبو البقاء : " إنَّ ثانيَهما محذوفٌ ، أي : أولاداً ، والمفعولُ الأول هو " إناثاً " . وهذا ليس بشيءٍ ، بل المفعولُ الثاني هو { مِنَ الملائكة } قُدِّم على الأولِ ، ولولا ذلك لَزِمَ أن يُبتدأ بالنكرةِ من غير مسوِّغ ، لأنَّ ما صَلَح أن يكونَ مبتدأً صَلُح أن يكونَ مفعولاً أول في هذا الباب ، وما لا فلا . ويجوز أن تكونَ متعدِّيةً لواحدٍ كقولِه : { وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً } [البقرة : 116] ، و { مِنَ الملائكة } متعلِّقٌ ب " اتَّخذ " أو بمحذوفٍ على أنه حالٌ من النكرةِ بعده .

قوله تعالى : { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا } :

العامَّةُ على تشديد الراء ، وفي مفعول " صَرَّفْنا " وجهان ، أحدُهما : أنه مذكورٌ ، و " في " مزيدةٌ فيه ، أي : ولقد صرَّفْنا هذا القرآنَ ، كقولِه : { وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ } [الفرقان : 50] ، ومثله :

3068- . . . . يَجْرَحْ في

عَراقيبِها نَصْلِيْ

وقوله تعالى : { وَأَصْلِحْ لِي فِي ذريتي } [الأحقاف : 15] ، أي : يَجْرَحْ عراقيبَها ، وأَصْلح لي ذريتي . ورُدَّ هذا بأنَّ " في " لا تُزاد ، وما ذُكِرَ متأول ، وسيأتي إنْ شاءَ الله

تعالى في الأحقاف .

الثاني : أنَّه محذوفٌ تقديرُه : ولقد صَرَّفْنا أمثالَه ومواعظَه وقصصَه وأخبارَه وأوامره .

(177/456)

وقال الزمخشري في تقدير ذلك : " ويجوز أن يُراد ب " هذا القرآن " إبطالُ إضافتِهم إلى الله البناتِ ؛ لأنه ممَّا صرَّفه وكرَّر ذِكْرَه ، والمعنى : ولقد صَرَّفْنا القولَ في هذا المعنى ، وأوقَعْنا التصريفَ فيه ، وجَعَلْناه مكاناً للتكرير ، ويجوز أن يريد ب { هذا القرآن } التنزيلَ ، ويريد : ولقد صَرَّفْناه ، يعني هذا المعنى في مواضعَ من التنزيل ، فترك الضميرَ لنه معلومٌ " .

قلت : وهذا التقديرُ الذي قدَّره الزمخشريُّ أحسنُ ؛ لأنه مناسِبٌ لما دَلَّتْ عليه الآيةُ وسِيْقَتْ لأجلِه ، فقدَّرَ المفعولَ خاصَّاً ، وهو : إمَّا القولُ ، وإمَّا المعنى ، وهو الضميرُ الذي قدَّره في " صَرَّفْناه " بخلافِ تقديرِ غيرِه ، فإنَّ جَعَلَه عامَّاً .

وقيل : المعنى : لم نُنَزِّلْه مرةً واحدة بل نجوماً ، والمعنى : أَكْثَرْنا صَرْفَ جبريلَ إليك ، فالمفعولُ جبريل عليه السلام .

وقرأ الحسن بتخفيفِ الراء فقيل : هي بمعنى القراءةِ الأولى ، وفَعَل وفَعَّل قد يَشْتَرِكان .

وقال ابنُ عطية : " أي : صَرَفْنا الناسَ فيه إلى الهدى " .

قوله : "لِيَذَّكَّروا " متعلقٌ ب " صرَّفْنا " . وقرأ الأخَوان هنا وفي الفرقان بسكون الذال وضمِّ الكاف مخففةً مضارع " ذكر " من الذِّكر أو الذُّكر ، والباقون بفتح الذال والكافُ مشددةٌ ، والأصلُ : يتذكَّروا ، فأدغم التاءَ في الذال ، وهو من الاعتبار والتدبُّر .

قوله : ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ ، أي : التصريفُ ، و " نُفوراً " مفعولٌ ثانٍ .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (42) ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ : الكافُ في موضعِ نصب ، وفيهما وجهان : أحدُهما : أنها متعلقةٌ بما تعلَّقَتْ به " مع " من الاستقرار ، قاله الحوفي . والثاني : أنها/ نعتٌ لمصدر محذوف ، أي : كوناً كقولكم قاله أبو البقاء .

(178/456)

وقرأ ابنُ كثيرٍ وحفصٌ " يقولون " بالياءِ مِنْ تحت ، والباقون بالتاء مِنْ فوقُ ، وكذا قولُه بعد هذا ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ [الإسراء : 43] ، قرأه بالخطاب الأخَوان ، والباقون بالغيب ، فتحصَّل من مجموع الأمر أنَّ ابنَ كثير وحفصاً يَقْرآنهما بالغيب ، وأن الأخوين قرآ بالخطاب فيهما ، وأن الباقين قرؤوا بالغيب في الأول ، وبالخطاب في الثاني .

فالوجهُ في قراءةِ الغيبِ فيهما أنه : حَمَلَ الأولَ على قولِه : ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ [

الإِسراء : 41] ، وحَمَل الثاني عليه . وفي الخطاب فيهما أنه حمل الأولَ على معنى : قل لهم يا محمد لو كان معه آلهةٌ كما تقولون ، وحَمَل الثاني عليه . وفي قراءة الغيبِ في الأولِ أَنَّه حَمَله على قوله " وما يزيدهم " والثاني التفت فيه إلى خطابهم .

قوله : " إذَنْ " حرفُ جواب وجزاءٍ . قال الزمخشري : " وإذن دالَّةٌ على أنَّ ما بعدها وهو " لابتَغَوا " جوابٌ لمقالةِ المشركين وجزاءٌ ل " لو " . وأدغم أبو عمروٍ الشينَ في السين ، واستضعفها النحاةُ لقوةِ الشين .

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (43) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وتعالى ﴾ : عطفٌ على ما تضمَّنه المصدرُ ، تقديرُه : تنزَّه وتعالى . و " عن " متعلقة به . أو ب " سبحان " على الإِعمال لأنَّ " عن " تعلَّقت به في قوله ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات : 180] و " عُلُوّاً " مصدرٌ واقع موقعَ التعالي ، كقولِه : ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] في كونِه على غيرِ الصدرِ .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾

قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّح ﴾ : قرأ أبو عمروٍ والأخوان وحفصٌ بالتاء ، والباقون بالياء مِنْ تحت ، وهما واضحتان ؛ لأنَّ التأنيث مجازيٌّ ولوجودِ الفصلِ أيضاً .

وقال ابن عطية : " ثم أعاد على السماواتِ والأرض ضميرَ مَنْ يَعْقِل لمَّا أَسْنَدَ إليها فعلَ العاقلِ وهو التسبيحُ " ، وهذا بناءً منه على أنَّ " هُنَّ " مختصٌّ بالعاقلات ، وليس كما زَعَمَ ، وهذا نظيرُ اعتذارِه عن الإشارة ب " أولئك " في قوله ﴿ كُلُّ أولئك ﴾ وقد تقدَّم . وقرأ عبدُ الله والأعمشُ " سبَّحَتْ " ماضياً بتاء التأنيث . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 358.362 ﴾

(180/456)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40) ﴾

جوَّزوا أن يكون لله – سبحانه – ولدٌ ، وفكَّروا في ذلك ، ثم لم يَرْضَوْا حتى جعلوا له ما استنكفوا منه لأنفسهم ، فما زادوا في تمرُّدِهم إلا عُتُوّاً ، وفي طغيانهم إلا غُلُوّاً ، وعن قبول الحقِّ إلا نُبُوّاً .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (42) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (43) ﴾

بيّن أنه لو كان الصانعُ أكثرَ من واحدٍ لَجَرَى بينهم تَضَادٌ وتمانُعٌ، وصحَّ عند ذلك في صفتهم العجزُ، وذلك من سِمات المحدثات.

ثم قال سبحانه – تنزيهاً له عن الشَّريك والظهير، والمعين والنظير.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

الأحياءُ من أهل السموات والأرض يُسَبِّحون له تسبيحَ قالة، وغير الأحياء يسبح من حيث البرهان والدلالة. وما من جزءٍ من الأعيان والآثار إلا وهو دليل على الربوبية، ولكنهم إذا استمعوا توحيداً للأله تعجبوا – لجهلهم وتَعَسُّرِ إدراكهم – وأنكروا. انتهى انتهى. اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 349. 350 ﴾

(181/456)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة:

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22) ﴾

التفسير: لما أجمل أعمال البر في قوله: ﴿ وسعى لها سعيها وهو مؤمن ﴾ أخذ في تفصيل

ذلك مبتدئاً بأشرفها الذي هو التوحيد فقال : ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر ولكنه في الحقيقة عام للمكلفين ، ويحسن أن يقال : إن الخطاب للإنسان كأنه قيل : يا أيها الإنسان لا تجعل أو القول مضمر أي قل لكل مكلف لا تجعل ومما يؤيد ذلك قوله : ﴿ وقضى ربك ﴾ فإن ذلك الخطاب لا يليق بالنبي صلى الله عليه وسلم لأن أبويه ما بلغا الكبر عنده . وانتصب قوله : ﴿ فتقعد ﴾ على أنه جواب للنهي والفاء في التحقيق عاطفة والتقدير : لا يكن منك جعل فقعود . وفيه وجوه منها . أن المراد به المكث يقال : ما يصنع فلان فيقال هو قاعد بأسوأ حال أي ماكث سواء كان قائماً أو جالساً . ومنها أن من شأن المذموم المخذول أن يقعد نادماً متفكراً على ما فرط منه ، فالقعود على هذا حقيقة . ومنها أنه كناية عن عدم القدرة على تحصيل الخيرات فإن السعي فيه إنما يتأتى بالقيام والعجز عنه يلزمه أن يبقى قاعداً عن الطلب . ومنه أنه بمعنى الصيرورة من قولهم : " شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة " بمعنى صارت .

ولا ريب أن المشرك جامع على نفسه الذم والخذلان لأنه بشركه يضيف بعض النعم الحاصلة في حقه من الله إلى غيره فيستوجب الذم بالكفران ويستحق الخذلان من حيث إنه لما فوض أمره إلى الشريك المعدوم أو العاجز الناقص بقي بلا ناصر ومعين . وأيضاً الكمال في الوحدة والنقصان في الكثرة ، فمثبت الشريك واقع في جانب النقصان فيورثه الذم والخذلان .

ولما ذكر ما هو الركن الأعظم في الإيمان أتبعه سائر الشعائر والشرائع فقال : ﴿ وقضى ربك ﴾ أي أمر أمراً جزماً وحكم حكماً قطعاً ﴿ ألا تعبدوا ﴾ أي بأن لا تعبدوا ف " أن " ناصبة ويجوز أن تكون مفسرة ، والفعل النهي معناه أي لا يعبدوا . وقد روى الضحاك وسعيد بن جبير وميمون بن مهران عن ابن عباس أنه كان الأصل في هذه الآية " ووصى ربك " وبه قرأ علي وعبد الله فالتصقت الواو بالصاد فقرىء : ﴿ وقضى ربك ﴾ ثم قال : ولو كان على القضاء ما عصى الله أحد قط لأن خلاف قضاء الله ممتنع . وضعف هذا القول بأنه يوجب تجويز وقوع التحريف والتصحيف في القرآن . أمر بعبادة نفسه ثم أردفه بالأمر ببر الوالدين وتقدير الكلام بأن تحسنوا بالوالدين أو وأحسنوا بالوالدين إحساناً ، ولا يجوز أن يتعلق الباء في ﴿ بالوالدين ﴾ بالإحسان على ما ذهب إليه الواحدي ، لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته وقد مر في أوائل البقرة تفسير قوله : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ وأنه لم يجعل الإحسان إليهما تالياً لعبادة الله . يحكى أن واحداً من المتسمين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول : هو الذي أدخلني في عالم الكون والفساد وعرضني للفقر والعمى والزمانة . وقيل لأبي العلاء المعري : ماذا نكتب على قبرك ؟ قال : اكتبوا عليه :

هذا ما جناه أبي علي . . . وما جنيت على أحد

وقال في ترك التزوج والولد :

وتركت فيهم نعمة العدم التي . . . سبقت وصدّت عن نعيم العاجل

ولو أنهم ولدوا لعانوا شدة . . . ترمى بهم في موبقات الآجل

(183/456)

وقيل للإسكندر : أستاذك أعظم منَّة عليك أم والدك ؟ فقال : الأستاذ أعظم منة لأنه تحمل أنواع الشدائد والمحن عند تعلمي حتى أرتعني في نور العلم ، فأما الوالد فإنه طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه فأخرجني إلى آفات عالم الكون والفساد . ومن هنا قيل : " خير الآباء من علمك " . وقال العقلاء : وهب أن الوالد في أول الأمر طلب لذة الوقاع إلا أن اهتمامه بإيصال الخيرات إلى الولد ودفع الآفات عنه من أول دخول الولد في الوجود إلى أوان كبره بل إلى آخر عمره لا ينكر ولا يكفر ، ولهذا نكر ﴿ إحساناً ﴾ أي أحسنوا إليهما إحساناً عظيماً كاملاً جزاء على وفور إحسانهما إليك ، على أن البادىء بالبر لا يكافأ لأنه أسبق منه .

ثم فصل طرفاً من الإحسان المأمور به فقال : ﴿ أما يبلغن ﴾ هي " إن " الشرطية زيدت

عليها " ما " الإبهامية لتأكيد معنى الشرط ، ثم أدخلت النون المشددة لزيادة التقرير والتأكيد كأنه قيل : إن هذا الشرط مما سيقع ألبتة عادة فليكن هذا الجزاء مرتباً عليه وإلا فالتقرير والتأكيد ليس يليق بالشرط الذي مبناه على تردد الحكم .

(184/456)

وقال النحويون : إن الشرط أشبه النهي من حيث الجزم وعدم الثبوت فلهذا صح دخول النون المؤكدة فيه . من قرأ الفعل على التوحيد فقوله : ﴿ أحدهما أو كلاهما ﴾ فاعل له لكن الأول بالاستقلال والثاني بتبعية العطف ، ومن قرأ على التنبيه فأحدهما بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين ، وكلاهما عطف على لبدل فهو بدل مثله . ولا يصح أن يكون توكيد للضمير معطوفاً على البدل لاستلزام العطف المشاركة دون المباينة . ﴿ وكلاهما ﴾ مفرد لفظاً مثنى معنى ، وألفه عن واو عند الكوفيين وأصله كل المفيد للإحاطة فخفف بحذف إحدى اللامين وزيد ألف التثنية ليعرف أن المراد الإحاطة في المثنى لا في الجمع . وضعف بأنه لو كان كذلك لوجب أن يقال في الخفض والنصب " مررت بكلي الرجلين " بكسر الياء كقوله ﴿ طرفي النهار ﴾ [هود : 114] ﴿ يا صاحبي السجن ﴾ [يوسف : 41] قال في الكشاف : معنى ﴿ عندك ﴾ هو أن يكبرا ويعجزا وكانا

كلاًّ على ولدهما لا كافل لهما غيره فهما عنده في بيته وكنفه . وفي ﴿ أف ﴾ لغات : ضم الهمزة مع الحركات في الفاء الثلاث بالتنوين وبدونه . وأف بكسرتين بلا تنوين . وأفى ممالاً كبشرى ، وأف كخذ ، وأفة منونة وغير ممنونة وقد تتبع المنونة تفة فيقال : أفة وتفة وهي من أسماء الأفعال . وفي تفسيرها وجوه : قال الفراء : تقول العرب فلان يتأفف من ريح وجدها أي يقول : أف أف . وقال الأصمعي : الأف وسخ الأذن ، والتف وسخ الأظفار . يقال ذلك عند استقذار الشيء ثم كثر حتى استعملوه في كل ما يتأذون به . وقيل : معنى " أف " القلة من الأفيف وهو الشيء القليل ، وتف اتباع له نحو شيطان ليطان وحيث بيث وخبيث نبيث . وروى ثعلب عن ابن الأعرابي أن الأف الضجر . وقال القتيبي : أصله أنه إذا سقط عليه تراب ونحوه نفخ فيه ليزيله ، فالصوت الحاص عند تلك النفخة هو القائل أف ، ثم توسعوا فذكروه عند كل مكروه يصل إليهم ، قال الزجاج : معناه النتن وبه فسر مجاهد الآية أي لا تتقذرهما كما

أنهما لم يتقذراك حين كنت تخرأ و تبول . وفي رواية أخرى عن مجاهد : إذا وجدت منهما رائحة تؤذيك فلا تقل لهما أف أي لا تقل تضجرت أو أتضجر .

قال بعض الأصوليين : منع التأفيف يدل على المنع من سائر أنواع الأذية دلالة لفظية . ومعنى الآية لا تعرض لهما بنوع من أنواع الإيذاء والإيحاش كما أن قولك لا يملك فلا نقيراً ولا قطميراً يدل في العرف على أنه لا يملك شيئاً أصلاً ، وقال الأكثرون منهم : إن الشرع إذا نص على حكم صورة وسكت عن صورة أخرى ، فإذا أردنا إلحاق المسكوت عنها بالمنصوص عليها فإما أن يكون الحكم في محل السكوت أخفى من الحكم في محل الذكر وهو أكثر القياسات ، وإما أن يتساويا كقوله صلى الله عليه وسلم :

" من أعتق نصيباً من عبد حرم عليه الباقي " فإن الحكم في الأمة والعبد يتساويان . وإما أن يكون الحكم في محل المسكوت أظهر وهو القياس الجلي ومثاله المنع من التأفيف فإنه مغاير للمنع من الضرب عقلاً ، لأن الملك الكبير إذا أخذ ملكاً آخر عدواً له فقد يقول للجلاد إياك وأن تستخف به أو تشافهه بكلمة موحشة لكن اضرب رقبته . فهذا معقول في الجملة إلا أن قرينة تعظيم الوالدين صيره من باب الاستدلال بالأدنى على الأعلى ، فدل على المنع من جميع أنواع الإيذاء .

ثم أكد هذا المعنى بقوله : ﴿ ولا تنهرهما ﴾ والنهر والنهي أخوان يقال : نهره وانتهره وإذا استقبله بكلام يزجره . ﴿ وقل لهما ﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿ قولاً كريماً ﴾ جميلاً مشتملاً على حسن الأدب ورعاية دقائق المروة والحياء والاحتشام . وقال عمر بن الخطاب القول الكريم أن يقول له : " يا أبتاه " " يا أماه " دون أن يسميهما باسمهما . وقول إبراهيم لأبيه آزر بالضم على النداء ، تقديم لحق الله على حق الأبوين . قالوا : ولا بأس به في الغيبة كما قالت عائشة : نحلني أبو بكر كذا ، أو سئل سعيد بن المسيب عن القول الكريم فقال : هو قول العبد المذنب للسيد الفظ ﴿ واخفض لهما جناح الذل ﴾ ذكر القفال في معنى خفض الجناح وجهين : الأول أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحيه فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير فكأنه قال للولد : اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك في حال صغرك . والثاني أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه ، وإذا أراد النزول خفض جناحه ، فصار خفض الجناح كناية عن فعل التواضع وترك الارتفاع . وفي إضافة الجناح إلى الذل وجهان : الأول أنها كإضافة حاتم إلى الجود في قولك : " حاتم الجود " فالأصل فيه الجناح الذليل أو الذلول . والثاني سلوك سبيل الاستعارة كأنه تخيل للذل جناحاً ثم أثبت لذلك الجناح خفضاً كقول لبيد : إذ أصبحت بيد الشمال زمامها . فأثبت للشمال يداً ثم وضع زمام الريح في يد الشمال . وقوله : ﴿ من الرحمة ﴾ في " من " معنى التعليل أي من أجل فرط الشفقة

والعطف عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس ، ولا تكتف برحمتك التي لا دوام لها ﴿ و ﴾ لكن ﴿ قل رب ارحمهما كما ربياني ﴾ ليس المراد رحمة مثل رحمتهما عليّ .

(187/456)

وأما الكاف فلاقتران الشيئين في الوجود أي كما وقع تلك فتقع هذه . والتربية التنمية ربا الشيء إذا انتفخ وزاد . قال بعض المفسرين : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ [التوبة : 113] وقيل : مخصوصة لأن التخصيص أولى من النسخ ، وقيل : لا نسخ ولا تخصيص لأن الوالدين إذا كانا كافرين فله أن يدعو فله أن يدعو الله لهما بالهداية والإرشاد وأن يطلب الرحمة لهما بعد حصول الإيمان . ثم إن ظاهر الأمر للوجوب من غير تكرار فيكفي في العمر مرة واحدة ﴿ رب ارحمهما ﴾ وسئل سفيان كم يدعو الإنسان لوالديه أفي كل يوم مرة أو في كل شهر أو في كل سنة ؟ فقال : نرجو أن يجزيه إذا دعا لهما في أواخر التشهدات كما أن الله تعالى قد قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه ﴾ [الأحزاب : 56] . وكانوا يرون الصلاة عليه في التشهد . وكما قال الله تعالى : ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ [البقرة : 203] فهم يذكرون في أدبار

الصلاة. قلت: ويشبه أن يدعو لهما أيضاً كلما ذكرهما أو ذكر شيئاً من إنعامهما. وسئل أيضاً عن الصدقة عن الميت فقال: كل ذلك واصل إليه ولا شيء أنفع له من الاستغفار، ولو كان شيء أفضل منه لأمركم به في الأبوين، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما" وروى سعيد بن المسيب أن البارّ لا يموت ميتة سوء. وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أبويّ بلغا من الكبر أنّى، أَلي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتهما حقهما؟ قال: لا، فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقائك وأنت تفعل ذلك وتريد موتهما. وشكا رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أباه وأنه يأخذ ماله فدعا به فإذا هو شيخ يتوكأ على عصا فسأله فقال: إنه كان ضعيفاً وأنا قوي، وفقيراً وأنا غني، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالي. واليوم أنا ضعيف وهو قوي، وأنا فقير وهو غني ويبخل عليّ بماله،

فبكى صلى الله عليه وسلم وقال: ما من حجر ولا مدر يسمع ذلك إلا بكى، ثم قال للولد: أنت ومالك لأبيك. مرتين. وشكا إليه آخر سوء خلق أمه فقال: لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر. قال: إنها سيئة الخلق. قال: لم تكن كذلك حين أرضعتك

حولين . قال : إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها وأظمأت نهارها . قال : لقد جازيتها . قال : ما فعلت ؟ قال : حججت بها على عاتقي . قال : ما جازيتها . وقال الفقهاء : لا يذهب بأبيه إلى البيعة وإذا بعث إليه واحد منهما ليحمله فعل ، ولا يناوله الخمر ويأخذ الإناء منه إذا شرب بها .

ثم قال سبحانه : ﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم ﴾ أي بما في ضمائركم من الإخلاص وعدمه في كل الطاعات ﴿ أن تكونوا صالحين ﴾ قاصدين الصلاح والبر إلى الوالدين ثم فرطت منكم بادرة في حقهما فأبتم إلى الله واستغفرتم منها ﴿ وإنه كان للأوابين غفوراً ﴾ اللام للعهد كما روي عن سعيد بن جبير هي في البادرة تكون من الرجل إلى أبيه لا يريد بذلك إلا الخير ، أو للجنس فيشمل كل من فرطت منه جناية ثم تاب منها ، ويندرج تحته عن أبي علي الجانويه النائب من جنايته لوروده على أثره .

(189/456)

ثم وصى بغير الأبوين من الأقارب بعد التوصية بهما فقال : ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ قيل : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يؤتى أقاربه الحقوق التي وجبت لهم في الفيء والغنيمة ، وأوجب عليه إخراج حق المساكين وأبناء السبيل أيضاً من هذين المالين .

والأظهر أنه خطاب لكل إنسان كل في قوله : ﴿ وقضى ربك ﴾ وأما الحق المأمور به للأقارب فهو إذا كانوا محارم كالأبوين والولد وكانوا فقراء عاجزين عن الكسب وكان الرجل موسراً أن ينفق عليهم بقدر الحاجة . وعند الشافعي : لا ينفق إلا على الولد والوالدين وإن كانوا مياسير ولم يكونوا محارم كأبناء العم فحقهم صلتهم بالمودة والزيارة وحسن المعاشرة على السراء والضراء . وفي عطف المسكين وابن السبيل على ذي القربى دليل على أن المراد بالحق الحق المالي ، وقد تقدم وصف المسكين وابن السبيل في " البقرة " وفي " التوبة " . ثم نهى عن التبذير وهو تفريق المال كما يفرق البذر وهو الإسراف المذموم . كانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها وتنفق أموالها في الفخر والسمعة كما ذكروا ذلك في أشعارها فنهوا عن ذلك وأمروا بالإنفاق فيما يقرب إلى الله . قال ابن مسعود : التبذير إنفاق المال في غير حقه . وعن مجاهد : لو أنفق مداً في باطل كان تبذيراً . ثم بالغ في تفظيع شأن التبذير قائلاً : ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ أي أمثالهم في الشرارة وأصدقاءهم من حيث إنهم يطيعونهم في الأمر بالإسراف ، أوهم قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد ﴿ وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ لأنه يستعمل قواه البدنية في المعاصي والإفساد والإضلال ، وكذلك من رزقه الله مالاً أو جاهاً فصرفه إلى غير مرضاة الله كان كفوراً لنعمة الله .

ثم علم أدباً حسناً في رد السائل إن أفضى الأمر إلى ذلك ضرورة فقال : ﴿ وإما تعرضن عنهم ﴾ وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئاً وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء . والقول الميسور الرد بالطريق الأحسن . وقيل : اللين السهل . قال الكسائي : يسرت أيسر له القول أي لينته . وقيل : القول المعروف كقوله : ﴿ قول معروف ومغفرة خير ﴾ [البقرة : 263] وذلك أن القول المتعارف لا يحتاج إلى تكلف . وقيل : ادع لهم بأن يسهل الله عليهم أسباب الرزق أي دعاء فيه يسرة .

(191/456)

قال جار الله قوله : ﴿ ابتغاء رحمة ﴾ أما أن يتعلق بجواب الشرط متقدماً عليه أي فقل لهم قولاً سهلاً ليناً وعدهم وعداً جميلاً ابتغاء رحمة من الله ﴿ ترجوها ﴾ بسبب رحمتك عليهم ، وإما أن يتعلق بالشرط أي وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجوا أن يفتح لك فردهم رداً جميلاً ، فسمى الرزق رحمة وضع الابتغاء موضع الفقد لأن فاقد الرزق مبتغ له . فالفقد سبب الابتغاء فأطلق المسبب على السبب وجوز أن يكون الإعراض كناية عن عدم الإعطاء ، فإن من أبى أن يعطى أعرض بوجهه ، ولما ذكر أدب

المنع ونهى عن التبذير صرح بأدب الإنفاق فقال : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ وهو مثل لغاية الإمساك بحيث يضيق على نفسه وأهله في سلوك سبيل الإنفاق ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ أي لا توسع في الإنفاق بحيث لا يبقى في يدك شيء . وحين نهى عن طرفي التفريط والإفراط المذمومين بقي الخلق الفاضل المسمى بالجود وهو العدل والوسط ، ثم بين غاية استعمال الطرفين قائلاً : ﴿ فتقعد ملوماً ﴾ عند الناس بالبخل ﴿ محسوراً ﴾ بالإسراف أي منقطعاً عن المقاصد بسبب الفقر . فقير محسور منقطع عن السير . ولا شك أن المال مطية الحوائج والآمال وكثيراً ما يلام الرجل على تضييع المال بالكلية وإبقاء الأهل والولد في الضر والمحنة . وعن جابر : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس أتاه صبي فقال : إن أمي تستكسيك درعاً فقال صلى الله عليه وسلم : " من ساعة إلى ساعة يظهر فعد إلينا . " فذهب إلى أمه فقالت له : قل إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك . فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عرياناً وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة فنزلت الآية . وقيل : أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن فجاء عباس بن مرداس وأنشأ يقول : أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع . وما كان حصن ولا حابس ، يفوقان مرادس في مجمع وما كنت دون أمرىء منهما ، ومن تضع اليوم لا يرفع . فقال صلى الله عليه وسلم : " ياأبا

بكر اقطع لسانه عني أعطه مائة من الإبل " فنزلت .

ثم إنه تعالى سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن الذي يرهقه من الإضافة ليس لهوان منه على الله ولا لبخل به عليه ولكنه تاب لمشيئة الخالق الرازق فقال : ﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي يضيق ﴿ أنه كان بعباده ﴾ وبمصالحهم ﴿ خبيراً بصيرا ﴾ فالتفاوت في الأرزاق ليس لأجل البخل ولكن لرعاية الصلاح. ويمكن أن يكون مراد الآية أن البسط الكلي والقبض الكلي من شأن الرب الخبير والبصير وليس للعباد الاقتصاد . ويحتمل أن يراد أنه تعالى مع غاية قدرته وسعة جوده يراعي أوسط الحالين . فلا يبلغ بالمبسوط له غاية مراده ولا بالمقبوض عليه أقصى مكروهه ، فاستنوا بسنته وتخلقوا بأخلاقه .

وفي الآية دلالة على أنه هو المتكفل بأرزاق العباد فلذلك قال بعده : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ وأيضاً لما علم كيفية البر بالوالدين أراد أن يعلم كيفية البر بالأولاد ، فبر الآباء مكافأة وبر الأبناء ابتداء اصطناع . وفيه نظام العالم وبقاء النوع الإنساني لأن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو لسوء الظن بالله ، وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعي في تخريب العالم . والأول ضد التعظيم لأمر الله الثاني ضد الشفقة على خلق الله ،

ومن رغب عن محبة الوالد فكأنه رغب عن جزئه قال :

ولد المرء منه جزء وما حا . . . ل امرىء يودع الثرى منه جزءاً

(193/456)

وكانوا يقتلون البنات لعجز عن الكسب وقدرة البنين عليه بسبب إقدامهم على القتل والغارة. وأيضاً كانوا يخافون أن فقرها ينفر أكفاءها فيحتاجون إلى إنكاحها من غير الأكفاء وفي ذلك عار شديد ، فبين الله سبحانه أن الموجب للرحمة والشفقة هو كونه ولداً فلهذا قال : ﴿ أولادكم ﴾ وبين أن الخوف من الفقر لا وجه له لأن الله هو الرزاق للكل ، وكثيراً ما يكون لابن أخرق من البنت بعد البلوغ ، وكلا الصنفين يشتركان في الإنفاق عليهما قبل البلوغ. ولما نهى عن قتل الأولاد المستدعي لإفناء النسل ذكر النهي عن الزنا المفضي إلى مثل ذلك ولا أقل من اختلاط النسب فقال : ﴿ ولا تقربوا الزنا ﴾ وهذ آكد من أن يقال " لا تزنوا " ثم علل النهي بقوله : ﴿ إنه كان فاحشة ﴾ أي خصلة متزايدة في القبح ﴿ وساء سبيلاً ﴾ سبيله فاستدل القائلون بالتحسين والتقبيح العقليين بهذا التعليل في الأشياء لا تحسن ولا تقبح لذواتها بل لوجوه عائد إليها في أنفسها ، وأن تكاليف العباد واقعة على وفق مصالحهم في المعاش والمعاد . ومن مفاسد الزنا اختلاط الأنساب وتضييع

الأولاد وإهمال تربيتهم؟ فإن الولد إذا لم يكن منسوباً إلى شخص معين لم يكن أحد بالتزام تربيته أولى من الآخرة كذا المرأة التي ولدته إذا لم يوجد سبب شرعي للزاني صارت هي به أولى بالرجل فلا يحصل الألف والمحبة، ولا يتم السكون والازدواج. ويتواثب كل رجل على امرأة أراد بحسب شهوته ومقتضى طبعه، فتهيج بالفسوق الحروب بعد التشبه بالبهائم. وأيضاً ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة ولكن المقصود الكلي هو أن تكون شريكة له في ترتيب المنزل وإعداد مهماته والقيام بأمور الأولاد والعبيد، ولن تتم هذه المقاصد إلا إذا كانت مقصورة الهمة على رجل واحد منقطعة الطمع عن غيره.

وأيضاً الوطء يوجب الذل والعار ولهذا لا يرتكب إلا في الأماكن المستورة وفي الأوقات المعلومة. فاقتصار المرأة على الواحد من الرجال سعي في تقليل ذلك

العمل، وكفى في قبح الزنا مرتكبه من الرجال والنساء يستقذره كل عقل سليم وينحط بذلك عن درجة الاعتبار.

وقد زعم في التفسير الكبير أنه تعالى وصف الزنا في آية أخرى بكونه مقتاً لأن الزانية تصير ممقوتة مكروهة وهو وهم، لأن ذلك قد ورد في أول سورة النساء في نكاح منكوحات الأب

قال : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح أباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً ﴾ [النساء : 22] . وإنما نبهناك عليه لئلا يقتدي به غيره في السهو .

(195/456)

ولما فرغ من التكليف بالاحتياط في مبدأ حال الإنسان شرع بالتكليف بالاحتياط في آخر عمره فقال : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله ﴾ وفي التصريح بالتحريم بعد النهي تأكيد للخطر . ولا ريب أن الأصل في قتل الإنسان هو التحريم لأنه ضرر ، والأصل في المضار الحرمة ، ولأن الإنسان خلق للاشتغال بالعبادة وإنه لا يتم إلا بالحياة وكمال البنية ، ولكن الحل إنما يثبت لأسباب عرضية فلهذا قال : ﴿ إلا بالحق ﴾ وهذا مجمل فبين ذلك الحق بقوله : ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾ أي تسلطاً على استيفاء القصاص . فظاهر الآية دل على أنه لا سبب لحل القتل إلا إذا قتل مظلوماً ، وظاهر قوله عليه السلام " لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ؟ وقتل نفس بغير حق " يقتضي ضم شيئين آخرين إليه فرعاً على القول بتخصيص عموم القرآن بخبر الواحد . ويحتمل أن يقال قوله : ﴿ ومن قتل مظلوماً ﴾ . كلام مستأنف ، والحديث بتمامه تفسير لقوله : ﴿ إلا بالحق ﴾ فلا يلزم التفريع المذكور .

ثم إنه دلت آية أخرى على حصول سبب رابع هو قوله : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ﴾ ﴿ المائدة : 33] وآية أخرى على سبب خامس وهو الكفر الأصلي : ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ [البقرة : 191] هذا وقد أبدى الفقهاء أسباباً أخر منها : أن تارك الصلاة يقتل عند الشافعي دون أبي حنيفة ، وكذا اللائط . ومنها الساحر إذا قال : قتلت فلاناً بسحري . وجوز بعضهم قتل من يمنع الزكاة أو يأتي البهيمة ، والذين منعوا القتل في هذه الصور قالوا : الأصل حرمة القتل كما بيناه فلا يترك هذا الدليل إلا لمعارض أقوى لا أقل من المساوي وهو النص المتواتر . ثم إنه سبحانه أثبت لوليّ الدم سلطاناً . ولم يبين أن هذه السلطنة تحصل فيماذا فقيل : إنه قال : ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ عرف أن تلك السلطنة إنما تحصل في استيفاء القتل . وقيل : معنى قوله : ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ إنه لما

(196/456)

حصلت له سلطنة استيفاء القصاص وسلطنة استيفاء الدية بقوله : ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾ إلى قوله : ﴿ فمن عفى ﴾ [البقرة : 178] الآية . فالأولى به أن لا يقدم على استيفاء القتل وأن يكتفي بالعفو وأخذ الدية ، فثبت أن هذه الآية لا يجوز

التمسك بها في مسألة أن موجب العمد هو القصاص . وعن الشافعي أن التنوين في قوله : ﴿ مظلوماً ﴾ للتنكير فيدل على أن المقتول ما لم يكن كاملاً في وصف المظلومية لم يدخل تحت هذا النص ، فيعلم منه أن المسلم لا يقتل بالذمي لأن الذمي مشرك فإن ذنبه غير مغفور كالمشرك ، ولأن النصارى قائلون بالتثليث وقد قال تعالى : ﴿ اقتلوا المشركين ﴾ [التوبة : 5] فثبت أن الذمي غير كامل في المظلومية فلا يندرج في الآية . وأيضاً ليس فيها دلالة على أن الحر يقتل بالعبد لأنها وإن كانت عامة إلا أن قوله ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد ﴾ [البقرة : 178] خاص والخاص مقدم على العام . من قرأ ﴿ فلا تسرف ﴾ بالتاء الفوقانية فعلى خطاب الولي أو قاتل المظلوم ، ومن قرأ على الغيبة فالضمير للولي أي فلا يقتل غير القاتل ولا اثنين والقاتل واحد كعادة الجاهلية . وعن مجاهد أن الضمير الأول للقاتل ، أما الضمير في قوله : ﴿ إنه كان منصوراً ﴾ فإما للولي أي حسبه أن الله قد نصره بإيجاب القصاص فلا يستزاد عليه ، أو نصره بمعونة السلطان والمؤمنين فلا يتبع ما وراء حقه ، وإما للمظلوم فإن الله نصره في الدنيا بإيجاب القصاص على قاتله ، وفي الآخرة بإعطاء الثواب . وأما الذي يقتله الولي بغير حق ويسرف في قتله فإنه منصور بإيجاب القصاص على المسرف .

ولما ذكر النهي عن إتلاف النفوس في المبادىء وفيما وراءها أتبعه النهي عن إتلاف الأموال وكان أهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيم فقال : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي ﴾ بالطريقة التي ﴿ هي أحسن ﴾ وهي تثميره وإنماؤه . وروى مجاهد عن ابن عباس : إذا احتاج الولي أكل بالمعروف فإذا أيسر قضاه وإن لم يوسر فلا شيء عليه ويتصرف الولي في مال اليتيم على الوجه المذكور ﴿ حتى يبلغ ﴾ اليتيم ﴿ أشده ﴾ بأن تكمل قواه العقلية والحسية كما مر في آخر " الأنعام " ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ يتناول كل عهد جري بين إنسانين على وفق الشرع وقانونه في المعاملات والمناكحات وغيرها إلا إذا دلّ دليل خاص على ضده . ﴿ إن العهد كان مسئولا ﴾ أي مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي به ، أو هو على حذف المضاف والمراد أن صاحب العهد مسؤول أو هو تخييل كأنه يقال للعهد : لم نكثت تبكيتاً للناكث كقوله : ﴿ وإذا الموءودة سئلت ﴾ [التكوير : 8] ثم أمر بإيفاء الكيل فيما يكال والوزن فيما يوزن . والقسطاس بضم القاف وكسرها هو القبان المسمى بالقرسطون . وقيل : كل ميزان صغير أو كبير والأصح أنه لغة العرب من القسط النصيب المعدل ، وقيل رومي أو سرياني ﴿ ذلك ﴾ الإيفاء والوزن المعدل ﴿ خير ﴾ من التطفيف ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ عاقبة من آل إذا رجع . أما في الدنيا فلانة إذا اشتهر بالاحتراز عن الخيانة مالت القلوب إليه . وعول الناس عليه فينفتح عليه أبواب المعاملات ،

وأما في الآخرة فظاهر . وقال الحكيم : إن نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد عليه شديد والعار فيه عظيم فيجب على العاقل أن يحترز عنه .

(198/456)

ثم أمر بإصلاح اللسان والقلب فقال : ﴿ ولا تقف ﴾ أي لا تتبع من قولك " فقوت فلاناً " أي اتبعت أثره ومنه قافية الشعر لأنها تقفو كل بيت ، والقبيلة المشهورة بالقافة لأنه يتبعون آثار أقدام الناس ويستدلون بها على أحوالهم في النسب . والمراد النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم أو يعمل بما لا علم له به ، وهذه قضية كلية ولكن المفسرين حملوها على صور مخصوصة فقيل : نهى المشركين عن تقليد أسلافهم في الإلهيات والنبوات والتحليل والتحريم والمعاد كقوله : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ [النجم : 23] ﴿ هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن ﴾ [الأنعام : 148] وعن محمد بن الحنفية : المراد شهادة الزور . ومثله عن ابن عباس : لا تشهد إلا رأته عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك . وقيل : أراد النهي عن القذف ورمي المحصنين والمحصنات بالأكاذيب . وكانت عادة العرب جارية بذلك يذكرونها في الهجاء ويبالغون فيه . وقال قتادة : معناه لا تقل سمعت ورأيت وعملت ولم تسمع ولم تر ولم تعلم . وقيل : القفو هو البهت وهو في معنى

الغيبة لأنه قول يقال في قفاه ومن الحديث : " من قفا مؤمناً بما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج " أي يتوب . وردغة الخبال بفتح الدال وسكونها هي غسالة أهل النار من القيح والصديد .

(199/456)

احتج نفاة القياس بالآية زعماً منهم أن الحكم في دين الله بالقياس حكم بغير المعلوم .

وأجيب بأن العلم قد يراد به الظن قال تعالى : ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ [الممتحنة : 10] ولا ريب أنه إنما يمكن العلم بإيمانهن بناء على إقرارهن ، وإنه لا يفيد إلا الظن . سلمنا لكن الظن وقع في الطريق لأن الشرع قد أقام الظن الغالب مقام العلم وأمر بالعمل به ، وزيف بأنه لا دليل قاطعاً على وجوب العمل بالظن الغالب لأن ذلك الدليل ليس عقلياً بالاتفاق ، ولا نقلياً لأنه إنما يكون قطعياً لو كان منقولاً نقلاً متواتراً وكانت دلالته على ثبوت هذا الطلب دلالة قطعية غير محتملة للنقيض ، ولو حصل مثل هذا الدليل لوصل إلى الكل ولم يبق خلاف ، ونوقض بأن الدليل الذي عولتم عليه – وهو هذه الآية – تمسك بعام مخصوص للاتفاق على أن العمل بالشهادة عمل بالظن وهو جائز . وكذا الاجتهاد في القبلة وفي قيم المتلفات وأروش الجنايات ، وكذا الفصد والحجامة وسائر

المعالجات ، وكذا الحكم بكون الشخص المعين كالذبائح مؤمناً لتحل ذبيحته ، أو الوارث لحصول التوارث ، أو الميت ليدفن في مقابر المسلمين . وبالحقيقة أكثر الأعمال المعتبرة في الدنيا من الأسفار وطلب الأرباح والمعاملات إلى الآجال المعينة والاعتماد على صداقة الأصدقاء وعداوة الأعداء كلها مظنونة . وقال صلى الله عليه سلم : نحن نحكم بالظاهر . والتمسك بالعام المخصوص لا يفيد إلا الظن .

(200/456)

فلو دلت هذه الآية على أن التمسك بالظن غير جائز لزم أن لا يجوز التمسك بهذه الآية ، وكل ما يفضي ثبوته إلى نفيه يسقط الاستدلال به . وأجيب بأنا نعلم بالتواتر الظاهر من دين محمد صلى الله عليه وسلم أن التمسك بآيات القرآن جائز . ورد بأن كون العالم المخصص حجة غير معلوم بالتواتر ، ثم علل النهي بقوله : ﴿ إن السمع والبصر وكل أولئك ﴾ إشارة إلى الأعضاء الثلاثة وإن لم تكن من ذوات العقول كقوله : والعيش بعد أولئك الأيام . ﴿ كان عنه مسئولاً ﴾ قال في الكشاف : ﴿ عنه ﴾ في موضع الرفع بالفاعلية مثل ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ [الفاتحة : 7] وفيه نظر لأن المسند إليه الفعل أو شبهه لا يتقدم عليه . والصواب أن يقال : إنه فاعل ﴿ مسئولاً ﴾ المحذوف والثاني مفسر له . وكيف

يسأل عن هذه الجوارح؟ قيل: يسأل صاحبهما عما استعملها فيه لأنها آلات والمستعمل لها هو الروح الإنساني، فإن استعملها في الخيرات استحق الثواب وإلا فالعقاب. وقيل: إنه تعالى ينطق الأعضاء ثم يسألها عن أفعالها. ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ نصب على الحال مع أنه مصدر أي ذا مرح وهو شدة الفرح. وفي وضع المصدر موضع الصفة نوع من التأكيد مثل "أتاني ركضاً" ونهي عن مشية أهل الخيلاء والكبر. ﴿ إنك لن تخرق الأرض ﴾ لن تثقبها بشدة وطأتك ﴿ ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ مصدر في موضع الحال من الفاعل أو المفعول، أو تمييز، أو مفعول له، أو مصدر من معنى تبلغ. بيّن ضعف الآدمي بأنه في حال انخفاضه لا يقدر على خرق الأرض، وحال ارتفاعه لا يقدر على الوصول إلى رؤوس الجبال، فلا يليق به أن يتكبر. وبوجه آخر كأنه قيل له: إنك خلق ضعيف محصور بين حجارة من فوقك وتراب من تحتك، فلا تفعل فعل المقتدر القوي. وقيل: إنه مثل ومعناه: كما أنك لن تخرق الأرض في مشيتك ولن تبلغ الجبال طولاً فكذلك لا تبلغ ما أردت بكبرك وعجبك وفيه يأس للإنسان من بلوغ إرادته.

﴿ كل ذلك كان سيئه ﴾ من قرأ بالإضافة فظاهر لأن المذكور من قوله : ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾ بعضها أحسن وهو المأمورات وبعضها سيىء وهو المنهيات ، فالمعنى أن ما كان من تلك الأشياء سيئاً فإنه مكروه عند الله . ويمكن أن يراد بسيىء تلك الخصال طرف الإفراط أو التفريط . ومن قرأ ﴿ سيئة ﴾ على التأنيث فقوله : ﴿ كل ذلك ﴾ إشارة إلى المنهيات خاصة . وقيل : إن الكلام قد تم عند قوله : ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ وقوله : ﴿ كل ذلك ﴾ إشارة إلى ما نهى عنه في قوله : ﴿ ولا تقف ﴾ ﴿ ولا تمش ﴾ وإنما قال : ﴿ سيئة ﴾ على التأنيث مع قوله : ﴿ مكروهاً ﴾ على التذكير لأنه جعل السيئة في معنى الذنب والإثم . قالت المعتزلة : الكراهة نقض الإرادة ففي الآية دلالة على أن المنهيات لا تكون مرادة لله تعالى لأنها مكروهة عنده .

(202/456)

وإذا لم تكن مرادة لم تكن مخلوقة له لأن الخلق بدون الإرادة محال . أجابت الأشاعرة بأن المراد من كراهتها كونها منهياً عنها ، وزيف بأنه عدول عن الظاهر مع لزوم التكرار لأن كونها سيئة يدل على كونها منهية . وأجيب بأنه لا بأس بالتكرار لأجل التأكيد ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكر من قوله : ﴿ لا تجعل ﴾ إلى هذه الغاية وترتقي إلى خمسة وعشرين تكليفاً ﴿

مما أوحى إليك ربك من الحكمة ﴾ سمي حكمة لأنه كلام محكم لا مدخل فيه للفساد بوجه . روي عن ابن عباس أنها كانت في ألواح موسى عليه السلام . وباصطلاح الحكماء أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير لأجل العمل به . لا ريب أن الأمر بالتوحيد رأس الحكمة النظرية وسائر التكاليف مشتملة على أصول مكارم الأخلاق وهي الحكمة العملية ، ولقد جعل الله سبحانه فاتحة هذه التكاليف النهي عن الشرك وكذا خاتمتها لأن التوحيد رأس كل حكمة وملاكها ، ومن فقده لم ينفعه شيء من العلوم وإن بذ فيها الأقران والأكفاء وحك بيافوخه السماء . وقد راعى في هذا التكرار دقيقة فرتب على الأول كونه مذموماً مخذولاً وذلك إشارة إلى حال المشرك في الدنيا ، ورتب على الثاني أنه يلقى في جهنم ملوماً مدحوراً وأنا حاله في الآخرة . وفي القعود هناك والإلقاء ههنا إشارة إلى أن للإنسان في الدنيا صورة اختيار بخلاف الآخرة والله أعلم بمراده . وقد يفرق بين الذم واللوم فيقال : الذم هو أن يذكر أن الفعل الذي قدم عليه قبيح منكر ، واللوم هو أن يقال له لم فعلت مثل هذا الفعل وما الذي حملك عليه وما استفدت من هذا العمل إلاّ إلحاق الضرر بنفسك . ويفرق بين المخذول والمدحور بأن المخذول عبارة عن الضعيف يقال : تخاذلت أعضاؤه أي ضعفت . والمدحور والطرد عبارة عن الاستخفاف والإهانة . ثم أنكر على المشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله فقال : ﴿ أفأصفاكم ﴾ أي أفخصكم ﴿ ربكم

﴿ على وجه الخلوص والصفاء ﴾ بالبنين ﴿ الذين هم أفضل الأولاد ﴾ واتخذ من الملائكة ﴾

(203/456)

أولاداً ﴿ إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾ بإضافة الأولاد إلى من لا يصح له الولد لقدمه وتنزهه عن صفات الأجسام ، ثم بأنكم تفضلون عليه أنفسكم حيث تجعلون ما تكرهون وهذا خلاف معقولكم وعادتكم فإن العبيد لا يؤثرون بالأجود والأصفى والسادة بالأدون والأردأ ، ثم بجعلكم الملائكة الذين هم أعلى خلق الله على الإطلاق أو التقييد على المذهبين أخس الصنفين وهو الإناث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 351.338 ﴾

(204/456)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل: خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم ليقطع تعلقه عن الكونين من بين الثقلين فقال: ﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر ﴾ من الدنيا والآخرة، ثم شرف أمته بتبعيته قائلاً: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ وإنما قال: ﴿ ربك ﴾ لأنه أصل في التربية والأمة تبع له، فمن حكم في الأزل أنه لا يعبد غير الله لم يعبد غير الله ﴿ وبالوالدين ﴾ والد الروح ووالدة البدن.

والإحسان بهما أن يراقبهما في العبودية ليعبد الله كأنهما يريانه ﴿ أما يبلغن عندك ﴾ يخاطب القلب ويوصيه بأن يواسي والد الروح عند كبره وهو بلوغه أعلى مراتب القرب وعجزه عند سطوات تجلي صفا الألوهية، ويداري والدة البدن حينئذ فلا يستعملها عند العجز ﴿ ولا تنهرهما ﴾ عند الاستراحة وأرفق بهما عند استعمالهما في العبودية، ولا تكبر عليهما فإنك أخذت التربية منهما لأن القلب طفل تولد بازدواج الروح والبدن، وقد وجد التربية منهما صورة ومعنى إلى أن صار قابلاً للتجلي والخلافة ﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم ﴾ من الاستعداد ﴿ أن تكونوا صالحين ﴾ مستعدين للخلافة ﴿ فإنه كان للأوابين ﴾ الراجعين من أنانيته إلى هويته دون من كان مقيداً بنفسه ﴿ غفوراً ﴾ سائراً بأنوار جماله. ثم أخبر عن أداب الخلافة قائلاً ﴿ وآت ذا القربى ﴾ وهو النفس حقه فإن لنفسك عليك حقاً من غير إسراف وتقتير. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 351 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فِى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والخمسون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والخمسون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 45 ﴾ من سورة الإسراء

وحتى الآية ﴿ 49 ﴾ من نفس السورة

(4/457)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (47) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (48) وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قرر في سياق التوحيد أنهم في الحضيض من الغباوة ، التفت إلى سيد أولي الفهم ، فقال مشيراً إلى النبوة عاطفاً على ﴿ لا تفقهون ﴾ منبهاً على أنهم لا يفهمون لسان القال فضلاً

عن لسان الحال : ﴿ وإذا قرأت القرءان ﴾ الذي لا يدانيه واعظ ، ولا يساويه مفهم ، وهو تبيان لكل شيء ﴿ جعلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ بينك ﴾ وبينهم ﴾ ، ولكنه أظهر هذا المضمر بالوصف المنبه على إعراضهم عن السماع على الوجه المفهم فقال تعالى : ﴿ وبين الذين لا يؤمنون ﴾ أي لا يتجدد لهم إيمان ﴿ بالآخرة ﴾ أي التي هي قطب الإيمان ﴿ حجاباً ﴾ مالئاً لجميع ما بينك وبينهم مع كونه ساتراً لك عن أن يدركوك حق الإدراك على ما أنت عليه ﴿ مستوراً ﴾ عنهم وعن غيرهم ، لا يراه إلا من أردنا ، وذلك أبلغ في العظمة وأعجب في نفود الكلمة ﴿ وجعلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ على قلوبهم أكنة ﴾ أي أغطية ، كراهة ﴿ أن يفقهوه ﴾ أي يفهموا القرآن حق فهمه ﴿ وفي ءاذانهم وقراً ﴾ أي شيئاً ثقيلاً يمنع سماعهم السماع النافع بالقصور في إدراكهم لا في بيانه ، فرؤيتهم للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حال التلاوة غير صحيحة كما أن سمعهم وإدراكهم لما يقرأه كذلك كما قال تعالى ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ [البقرة : 7] ﴿ وإذا ذكرت ربك ﴾ أي المحسن إليك وإليهم ﴿ في القرءان ﴾ حال كونه ﴿ وحده ﴾ مع الإعراض عن آلهتهم ﴿ ولوا ﴾ وحقق المعنى وصوره بما يزيد في بشاعته تنفيراً عنه فقال : ﴿ على أدبارهم نفوراً ﴾ مصدر من غير اللفظ مؤكد لأنه محصّل لمعناه ، أو جمع نافر كقاعد وقعود .

ومادة " وقر " بجميع تقاليبها عشر تدور على الجمع كما مضى في آخر يوسف وأول الحجر ، فالوقر - بالفتح : ثقل في الأذن أو ذهاب السمع كله - لأن ذلك يوجب اجتماعاً في النفس وسكوناً يحمل على الوقار الذي هو السكينة بفقد بعض ما كان يشعّب الفكر من السمع ، ومن ذلك ذلك الوقر - بالكسر : الحمل مطلقاً أو الثقيل ، أو لأن الحمل جامع لما فيه والأذن جمعت ما سدها ، فكأنه جمع خرقها فصيرها صلداً كالصخرة الصماء لا ينفذ فيها شيء ، ولذلك يسمى الطرش الصمم ونخلة موقرة ، أي مستجمعة حملاً ، واستوقرت الإبل : سمنت أي جمعت الشحم واللحم ، ووقر كوعد : جلس - لاستجماع بعض أعضائه إلى بعض ، والوقير : القطيع من الغنم أو صغارها أو خمسمائة منها أو عام ، أو الغنم بكلبها وحمارها وراعيها كالقرة - لاستجماع بعضها إلى البعض ، والوقري - محركة : راعي الوقير أو مقتني الشاء وصاحب الحمير وساكنو المصر ، والقرة - كعدة : العيال والثقل والشيخ الكبير - لأن الكبر والثقل يثمران الوقار الناشئ عن استجماع النفس والعزم وترك الانتشار بالطيش ، وما قبلهما واضح في الجمع ، والموقر - كمعظم : المجرب العاقل قد حنكته الدهور - لأن ذلك يثمر استجماع العقل ، ووقرت الرجل توقيراً : بجلته ورزنته ، والدابة : سكنتها - فكان كأنه جمع إليها حمل ثقيل ، والتيقور فيعول من الوقار تاءه مبدلة من واو ، يقال : وقر في بيته يقر ، أي جمع نفسه فيه لاجتماع همه ، والموقر - كمجلس :

الموضع السهل عند سفح الجبل – لعله شبه بالرجل الوقور المطمئن الساكن النفس ، والحامل الذي يوطئه الحمل ، والوقرة : وكتة – أي حفرة – تكون في الحافر والعين والحجر – لأن من شأن الحفرة أن تجمع ما تودعه ، ومنه توقير الشيء : أن تصيره له وقرات ، أي آثاراً ، والوقر : الصدع في الساق وكالوكتة أو الهزمة تكون في العظم والحجر والعين ، وأوقر الله الدابة : أصابها بوقرة ، وفقير وقير ، أي مكسور العظام أو الفقار ، أو

(6/457)

تشبيه بصغار الشاء أو اتباع ، أو المعنى أن الدين أوقره ، والوقير : النقرة العظيمة في الصخرة تمسك الماء – وهو واضح في الجمع .

والروق : القرن – لشدة اجتماعه لصلابته واستدارته ، ولأنه يجمع إقدام صاحبه وعزمه ، والروق أيضاً : عزم الرجل وفعاله – لجمعهما أمره ، والروق من الليل : طائفة – لاجتماع ساعاتها ، والروق من البيت : رواقه ، أي شقته التي دون الشقة العليا – لأنها تكمل جمعه لما يقصد منه من الستر ، ورواق البيت – ككتاب وغراب .

(7/457)

ما أطاف به ، قال القزاز : وقيل : الرواق كالفسطاط يحمل على عمود واحد في وسطه ، قال في القاموس : أو سقف في مقدم البيت وحاجب العين – ولعله شبه بالستر ، ومن الليل : مقدمه وجانبه – شبه بجانب البيت ، والروق من الشباب : أوله كالريق بالفتح ، والريق ككيس ، وأصله ريوق – لأنه ينبني عليه ما بعده ويجتمع إليه كأنه الأصل الذي يجمع جميع الفروع ، والريق أيضاً أن يصيبك من المطر شيء يسير – كأنه أول المطر ، والروقة : الشيء اليسير ، وهي من ذلك ، والروق أيضاً : العمر – لأنه الجامع للحال ، وراقني الشيء : أعجبني – لأن الفكر يجمع الخواطر لأجله فلا يظهر له وجه ما صار به معجباً ، ووصيف روقة – إذا أعجبك ، وجارية روقة وغلمان روقة ، جمع رائق ، والروقة : الشيء الجميل جداً ، والروق – بالفتح العجب والإعجاب بالشيء ، ومن الخيل : الحسن الخلق يعجب الرائي ، والجمال الرائق ، والريق والروق والرواق : الستر – لأنه يجمع البصر والهم عما وراءه ، وهو أيضاً موضع الصائد – لأنه يجمعه على ما يريد ويوصله إليه ، والروق : الرواق ومقدم البيت والشجاع لا يطاق – لاجتماع همه لما يريد ، والفسطاط والسيد – لجمع الفضائل ، والصافي من الماء وغيره – لأن الصفاء أجدر باجتماع الأجزاء ، والروق : الجماعة والحب الخالص ومصدر راق عليه ، أي زاد عليه فضلاً – لأن الزيادة لا تكون إلا عن جمع ، والروق : البدن من الشيء – لجمعه له ، والحية – لتحويها أي تجمعها ، وداهية

ذات روقين ، أي عظيمة مشبهة بالثور ، ورمى بأرواقه على الدابة : ركبها ، أي بجميع أعضائه ، ورمى بأرواقه عنها : نزل ، وألقى أرواقه : عدا فاشتد عدوه - كأنه خرج من جميع أعضائه - فعدا روحاً بلا بدن فصار أعظم من الطائر ، أي غلبت روحه على بدنه ، وألقى أوراقه : أقام بالمكان مطمئناً ؛ قال في القاموس : كأنه ضد - انتهى .

(8/457)

والمفعول فيه في هذا محذوف ، كأنه قال : في مكان كذا ، ومن المعلوم أن بدنه إذا كان في مكان وهو حي فقد أقام به ، وألقى عليك أرواقه ، وهو أن تحبه شديداً ، والمعنى أنه ألبسك بدنه فصارت روحك مديرة له فصرت إياه .

وتعبير القزاز بقوله " وهو أن تحبه حتى تستهلك في حبه " يدل على ذلك ، وألقت السحابة أرواقها ، أي مطرها ووبلها أو مياهها الصافية - وذلك هو مجموع ما فيها ، وأرواق الليل : أثناء ظلمته بأرواقه - إذا قام وثبت ، وقيل : أرواقه : مقاديمه ، وأسلبت العين أرواقها : سالت دموعها ، أي جميع ما فيها - كأن ذلك كناية عن اشتداد البكاء ، وروق الفرس : الذي يمده الفارس من رمحه بين أذنيه - تشبيه له بقرن الثور ، وذلك الفرس أروق ، ومنه الروق - محركة ، وهو طول الأسنان - تشبيهاً لها بالروق أي القرن - قال القزاز : وقيل :

الروق : طول الأسنان وانثناءها إلى داخل الفم ، وإشراف العليا على السفلى ، والقوم روق - إذا كانوا كذلك ، وهو يصلح لأن يكون تشبيهاً بما ذكر ، ولأن يكون من الجمع من أجل الانثناء ، ومنه أكل فلان روقه - إذا أسن فطال عمره حتى تتحات أسنانه - المشبهة بالقرن ، والترويق : التصفية - وقد تقدم أن الشيء إذا خلص من الأغيار كانت أجزاؤه أشد تلاصقاً ، والترويق : أن يبيع سلعة ويشتري أجود منها - مشبهة بالتصفية ، والراووق : المصفاة يروق بها الشراب بلا عصر والكأس بعينها ، والباطية وناجود الشراب الذي يروق به - لأنها تجمع الشراب .

والقرو : القصد والتتبع كالاقتراء والاستقراء والطعن وهو واضح في الجمع ، والقرو : حوض طويل ترده الإبل ، وعبارة القزاز : شبه حوض ممدود مستطيل إلى جنب الحوض ، يفرغ منه في الحوض الأعظم ، ترده الإبل والغنم ، وكذا إن كان من خشب .

(9/457)

والقرو : الأرض لا تكاد تقطع - كأنها حمت اجتماع أجزائها عن أن يفرقها أحد ، والقرو : مسيل المعصرة ومثعبها - لاجتماع ما يسيل فيه ، وأسفل النخلة ينقر فينتبذ فيه أو يتخذ منه المركن والإجانة للشرب ، وقدح أو إناء صغير ، وميلغة الكلب ، وحق عليه طبق ،

ومنقع الماء ، والعرب تقول : أصبحت الأرض قرواً واحداً - إذا كثر الخصب والمطر ، وكل ذلك واضح في الجمع ، وأن يعظم جلد البيضتين لريح أو ماء ، أو نزول الأمعاء كالقروة ، وذلك إما لشبههما بالقدح أو لجمعهما ما أوجب كبرهما ، وقرّى كفعلى : ماء بالبادية - لجمعه الناس ، والقرى : القرع يؤكل - لأنه صالح لأن يجعل إناء ، والقرا : الظهر - لجمعه الأعضاء ، وناقة قرواء : طويلة السنام ، والمقروري : الطويل الظهر ، وأقرى : اشتكى - إما أن يكون من شكاية القرا ، وإما أن يكون للسلب ، أي أزال اجتماع همه وعزمه ، والقرواء : العادة - لجمعها أهلها ، والدبر - لجمعها ما فيها ، وأقرى : طلب القرى ، ولزم القرى ، وأقرى الجل على الفرس : ألزمه ، والمقاري : رؤوس الإكام - لأنها تجمع ، وتركتهم قرواً واحداً على طريقة واحدّة - أي مجتمعين وشاة مقروة : جعل رأسها في خشبة لئلا ترضع نفسها - أي جمع فكاها ، وقروة الرأس : طرفه ، وعبارة القزاز : وقروان الرأس وقروة الرأس : أعلاه - كأنه مجتمع أمره لأنه موضع المفكرة ، وقروة الأنف : طرفه - لأنه آخر جامع لجماله ، واستقرى الدمل : صارت فيه المدة - أي اجتمعت ، والقيروان : معظم العسكر ومعظم القافلة - وسيأتي إن شاء الله تعالى بقية المادة في ﴿ بورقكم هذه ﴾ في [الكهف : 19] .

ولما كانوا ربما ادعوا السمع والفهم فشككوا بعض من لم يرسخ إيمانه – ، أتبعه تعالى ما يؤكد ما مضى ويثبت السامعين فيه فقال تعالى على طريقة الجواب مهدداً ودالاً على أن مداركهم معروفة : ﴿ نحن أعلم ﴾ أي من كل عالم ﴿ بما يستمعون ﴾ أي يبالغون في الإصغاء والميل لقصد السمع ﴿ به ﴾ من الآذان والقلوب ، أو بسببه من إرادة الوقوع على سقطة يجعلونها موضع تكذيبهم واستهزائهم ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ يستمعون ﴾ أي يصغون بجهدهم ، وبين بعدهم المعنوي بقوله تعالى : ﴿ إليك وإذ ﴾ أي وحين ﴿ هم ﴾ ذوو ﴿ نجوى ﴾ أي يتناجون بأن يرفع كل منهم سره على صاحبه بعد إعراضهم عن الاستماع : ثم ذكر ظرف النجوى فقال تعالى : ﴿ إذ يقول ﴾ مبرزاً لضميرهم بالوصف الدال على حملهم على ما تناجوا به ، وهم ﴿ الظالمون ﴾ ومقولهم : ﴿ إن تتبعون ﴾ أي أيها التابعون له بغاية جهدكم ﴿ إلا رجلاً مسحوراً ﴾ مختلط العقل ، فامتطوا في هذا الوصف ذروة الظلم ، وسيأتي في آخر السورة سر استعمال اسم المفعول موضع اسم الفاعل ؛ ثم وصل بذلك الدليل على نسبته سبحانه لهم إلى الجهل الذي كان نتيجة قولهم هذا فقال تعالى :

﴿ انظر ﴾ ولما كان أمرهم بما يزيد العجب منه وتتوفر الدواعي على السؤال عنه قال تعالى : ﴿ كيف ضربوا ﴾ أي هؤلاء الضلال ﴿ لك الأمثال ﴾ التي هي أبعد شيء عن صفتك من قولهم : ساحر وشاعر ومجنون ونحوه ﴿ فضلوا ﴾ عن الحق في جميع ذلك

﴿ فلا ﴾ أي فتسبب عن ضلالهم أنهم لا ﴿ يستطيعون سبيلاً ﴾ أي يسلكون فيه ، إلى إصابة المحن في مثل ، أو إحكام الأمر في عمل ، وهذا بعد أن نهاهم الله بقوله تعالى ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [النحل : 74] فكأن هذا أول دليل على ما وصفناهم به من عدم الفهم والسمع فضلاً عن أن يكون لهم إلى مقاومة هذا القرآن - الذي يدعون أنه قول البشر - سبيل أو يغبروا في وجهه بشبهة فضلاً عن دليل .

(11/457)

ولما جرت عادة القرآن بإثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، وقدم الدلالة على الأولين ، وختم بإثبات جهلهم في النبوة مع ظهورها ، أتبع ذلك أمراً جلياً في ضلالهم عن السبيل في أمر المعاد وقرره غاية التقرير ، وحرره أتم تحرير ، فقال تعالى معجباً منهم : ﴿ وقالوا ﴾ أي المشركون المنكرون للتوحيد والنبوة والبعث مع اعترافهم بأنا ابتدأنا خلقهم ومشاهدتهم في كل وقت أنا نحيي الأرض بعد موتها : ﴿ أإذا ﴾ استفهاماً إنكارياً كأنهم على ثقة من عدم ما ينكرونه ، والعامل في ﴿ إذا ﴾ فعل من لفظ ﴿ مبعوثون ﴾ لا هو .

فإن ما بعد ﴿ إن ﴾ لا يعمل فيما قبلها .

فالمعنى : أنبعث إذا ﴿ كنا ﴾ أي بجملة أجسامنا كوناً لازماً ﴿ عظاماً ورفاتاً ﴾ أي

حطاماً مكسراً مفتتاً وغباراً ﴿إنا لمبعوثون﴾ حال كوننا مخلوقين ﴿خلقاً جديداً﴾

فكأنه قيل: فماذا يقال لهم في الجواب؟ فقيل: ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50)

﴾ . انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 387. 391﴾

(12/457)

فصل

قال الفخر:

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) ﴾

اعلم أنه تعالى لما تكلم في الآية المتقدمة في المسائل الإلهية تكلم في هذه الآية فيما يتعلق

بتقرير النبوة.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى:

في قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ القرءان﴾ قولان:

القول الأول: أن هذه الآية نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ

القرآن على الناس.

روي أنه عليه الصلاة والسلام كان كلما قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان ، وعن يساره آخران من ولد قصي يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار ، وعن أسماء أنه صلى الله عليه وسلم كان جالساً ومعه أبو بكر إذ أقبلت امرأة أبي لهب ومعها فهر تريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول :

مذمماً أتينا . . ودينه قلينا

وأمره عصينا . . فقال أبو بكر : يا رسول الله معها فهر أخشاها عليك ، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فجاءت فما رأت رسول الله عليه الصلاة والسلام وقالت : إن قريشاً قد علمت أني ابنة سيدها وأن صاحبك هجاني فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك .

وروى ابن عباس : أن أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي صلى الله عليه وسلم ويستمعون إلى حديثه ، فقال النضر يوماً : ما أدري ما يقول محمد غير أني أرى شفتيه تتحرك بشيء .

وقال أبو سفيان : أني لأرى بعض ما يقوله حقاً ، وقال أبو جهل : هو مجنون .

وقال أبو لهب هو كاهن .

وقال حويطب بن عبد العزى هو شاعر ، فنزلت هذه الآية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد تلاوة القرآن قرأ قبلها ثلاثة آيات وهي قوله في سورة الكهف : ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ﴾ [الكهف : 57] وفي النحل : ﴿ أُولَئِكَ الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ [النحل : 108] وفي حم الجاثية : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ [الجاثية : 23] إلى آخر الآية فكان الله تعالى يحجبه ببركات هذه الآيات عن عيون المشركين ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ وفيه سؤال : وهو أنه كان يجب أن يقال حجاباً ساتراً .

والجواب عنه من وجوه :

الوجه الأول : أن ذلك الحجاب حجاب يخلقه الله تعالى في عيونهم بحيث يمنعهم ذلك الحجاب عن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم وذلك الحجاب شيء لا يراه فكان مستوراً من هذا الوجه ، احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في أنه يجوز أن تكون الحاسة سليمة ويكون المرئي حاضراً مع أنه لا يراه ذلك الإنسان لأجل أن الله تعالى خلق في عينيه مانعاً يمنعه عن رؤيته بهذه الآية قالوا : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان حاضراً وكانت حواس الكفار سليمة ، ثم إنهم ما كانوا يرونه ، وأخبر الله تعالى أن ذلك إنما كان لأجل أنه جعل بينه وبينهم حجاباً مستوراً ، والحجاب المستور لا معنى له إلا المعنى الذي خلقه الله

تعالى في عيونهم ، وكان ذلك المعنى مانعاً لهم من أن يروه ويبصروه .

والوجه الثاني : في الجواب أنه كما يجوز أن يقال لابن وتامر بمعنى ذو لبن وذو تمر فكذلك لا يبعد أن يقال مستوراً معناه ذو ستر والدليل عليه قوله مرطوب أي ذو رطوبة ولا يقال رطيبة ويقال مكان مهول أي فيه هول ولا يقال : هلت المكان بمعنى جعلت فيه الهول ، ويقال : جارية مغنوجة ذات غنج ولا يقال غنجتها .

(14/457)

والوجه الثالث : في الجواب قال الأخفش : المستور ههنا بمعنى الساتر ، فإن الفاعل قد يجيء بلفظ المفعول كما يقال : إنك لمشؤم علينا وميمون وإنما هو شائم ويامن ، لأنه من قولهم شأمهم ويمنهم ، هذا قول الأخفش : وتابعه عليه قوم ، إلا أن كثيراً منهم طعن في هذا القول ، والحق هو الجواب الأول .

القول الثاني : أن معنى الحجاب الطبع الذي على قلوبهم والطبع والمنع الذي منعهم عن أن يدركوا لطائف القرآن ومحاسنه وفوائده ، فالمراد من الحجاب المستور ذلك الطبع الذي خلقه الله في قلوبهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءاذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ وهذه الآية

مذكورة بعينها في سورة الأنعام وذكرنا استدلال أصحابنا بها وذكرنا سؤالات المعتزلة ولا بأس بإعادة بعضها قال الأصحاب : دلت هذه الآية على أنه تعالى جعل قلوبهم في الأكنة .

والأكنة جمع كنان وهو ما ستر الشيء مثل كنان النبل وقوله : ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي لئلا يفقهوه .

وجعل في آذانهم وقراً .

ومعلوم أنهم كانوا عقلاء سامعين فاهمين ، فعلمنا أن المراد منعهم عن الإيمان ومنعهم عن سماع القرآن بحيث لا يقفون على أسراره ولا يفهمون دقائقه وحقائقه .

قالت المعتزلة : ليس المراد من الآية ما ذكرتم بل المراد منه وجوه أخرى .

الأول : قال الجبائي : كانوا يطلبون موضعه في الليالي لينتهوا إليه ويؤذونه ، ويستدلون على مبيته باستماع قراءته فأمنه الله تعالى من شرهم ، وذكر له أنه جعل بينه وبينهم حجاباً لا يمكنهم الوصول إليه معه ، وبين أنه جعل في قلوبهم ما يشغلهم عن فهم القرآن وفي آذانهم ما يمنع من سماع صوته ، ويجوز أن يكون ذلك مرضاً شاغلاً يمنعهم من المصير إليه والتفرغ له ، لا أنه حصل هناك كن للقلب ووقر في الأذن .

الثاني : قال الكعبي : إن القوم لشدة امتناعهم عن قبول دلائل محمد صلى الله عليه وسلم صاروا كأنه حصل بينهم وبين تلك الدلائل حجاب مانع وساتر ، وإنما نسب الله تعالى ذلك الحجاب إلى نفسه لأنه لما خلاهم مع أنفسهم ، وما منعهم عن ذلك الإعراض صارت تلك التخلية كأنها هي السبب لوقوعهم في تلك الحالة ، وهذا مثل أن السيد إذا لم يراقب أحوال عبده فإذا ساءت سيرته فالسيد يقول : أنا الذي ألقيتك في هذه الحالة بسبب أني خليتك مع رأيك وما راقبت أحوالك .

الثالث : قال القفال : إنه تعالى لما خذلهم بمعنى أنه لم يفعل الألطاف الداعية لهم إلى الإيمان صح أن يقال : إنه فعل الحجاب السائر .

واعلم أن هذه الوجوه مع كلمات أخرى ذكرناها في سورة الأنعام وأجبنا عنها ، فلا فائدة في الإعادة .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفورا ﴾ واعلم أن المراد أن القوم كانوا عند استماع القرآن على حالتين ، لأنهم إذا سمعوا من القرآن ما ليس فيه ذكر الله تعالى بقوا مبهوتين متحيرين لا يفهمون منه شيئاً ، وإذا سمعوا آية فيها ذكر الله تعالى وذم الشرك بالله ولوا نفوراً وتركوا ذلك المجلس ، وذكر الزجاج في قوله : ﴿ وَلَّوْاْ على أدبارهم نُفُوراً ﴾ وجهين : الأول : المصدر والمعنى ولوا نافرين نفورا ، والثاني : أن يكون نفوراً جمع نافر مثل شهود وشاهد وركوع وراكع وسجود وساجد وقعود وقاعد .

ثم قال تعالى : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي نحن أعلم بالوجه الذي يستمعون به وهو الهزؤ والتكذيب .

و ﴿ بِهِ ﴾ في موضع الحال ، كما تقول : مستمعين بالهزؤ و ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ ﴾ نصب بأعلم أي أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون ﴿ وَإِذَا هُمْ نجوى ﴾ أي وبما يتناجون به إذ هم ذو نجوى : ﴿ إِذْ يَقُولُ الظالمون ﴾ بدل من قوله : ﴿ وَإِذْ هُمْ نجوى . . .

(16/457)

إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ وفيه مباحث : الأول : قال المفسرون : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين ، ففعل علي عليه السلام ذلك ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد وقال : قولوا لا إله إلا الله حتى تطيعكم العرب وتدين لكم العجم فأبوا عليه ذلك ، وكانوا عند استماعهم من النبي صلى الله عليه وسلم القرآن والدعوة إلى الله تعالى يقولون : بينهم متناجين هو ساحر وهو مسحور وما أشبه ذلك من القول ، فأخبر الله تعالى نبيه بأنهم يقولون : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ .

فإن قيل : إنهم لم يتبعوا رسول الله فكيف يصح أن يقولوا : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا

﴾ .

قلنا : معناه أنكم إن اتبعتموه فقد اتبعتم رجلاً مسحوراً ، والمسحور الذي قد سحر فاختلط عليه عقله وزال عن حد الاستواء .

هذا هو القول الصحيح ، وقال بعضهم : المسحور هو الذي أفسد .

يقال : طعام مسحور إذا أفسد عمله وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فأفسدها .

قال أبو عبيدة : يريد بشراً ذا سحر أي ذا رئة .

قال ابن قتيبة : ولا أدري ما الذي حمله على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسروه بالوجوه الواضحة ، وقال مجاهد : ﴿ مَّسْحُورًا ﴾ أي مخدوعاً لأن السحر حيلة وخديعة ، وذلك لأن المشركين كانوا يقولون : إن محمداً يتعلم من بعض الناس هذه الكلمات وأولئك الناس يخدعونه بهذه الكلمات وهذه الحكايات ، فلذلك قالوا : إنه مسحور أي مخدوع ، وأيضاً كانوا يقولون : إن الشيطان يتخيل له فيظن أنه ملك فقالوا : إنه مخدوع من قبل الشيطان .

ثم قال : ﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال ﴾ أي كل أحد شبهك بشيء آخر ، فقالوا : إنه كاهن وساحر وشاعر ومعلم ومجنون ، فضلوا عن الحق والطريق المستقيم فلا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى والحق .

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) ﴾

اعلم أنه تعالى لما تكلم أولاً في الإلهيات ثم أتبعه بذكر شبهاتهم في النبوات ، ذكر في هذه الآية شبهات القوم في إنكار المعاد والبعث والقيامة ، وقد ذكرنا كثيراً أن مدار القرآن على المسائل الأربعة وهي : الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر ، وأيضاً أن القوم وصفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكونه مسحوراً فاسد العقل ، فذكروا من جملة ما يدل على فساد عقله أنه يدعي أن الإنسان بعدما يصير عظاماً ورفاتاً فإنه يعود حياً عاقلاً كما كان ، فذكروا هذا الكلام رواية عنه لتقرير كونه مختل العقل .

قال الواحدي رحمه الله : الرفت كسر الشيء بيدك ، تقول : رفته أرفته بالكسر كما يرفت المدر والعظم البالي ، والرفات الأجزاء المتفتتة من كل شيء يكسر .

يقال : رفت عظام الجزور رفتاً إذا كسرها ، ويقال للتبن : الرفت لأنه دقاق الزرع .

قال الأخفش : رفت رفتاً ، فهو مرفوت نحو حطم حطماً فهو محطوم والرفات والحطام الاسم ، كالجذاذ والرضاض والفتات ، فهذا ما يتعلق باللغة .

أما تقرير شبهة القوم : فهي أن الإنسان إذا مات جفت أعضاؤه وتناثرت وتفرقت في حوالي

العالم فاختلط بتلك الأجزاء سائر أجزاء العالم.

أما الأجزاء المائية في البدن فتختلط بمياه العالم، وأما الأجزاء الترابية فتختلط بتراب العالم، وأما الأجزاء الهوائية فتختلط بهواء العالم، وأما الأجزاء النارية فتختلط بنار العالم وإذا صار الأمر كذلك فكيف يعقل اجتماعها بأعيانها مرة أخرى.

وكيف يعقل عود الحياة إليها بأعيانها مرة أخرى، فهذا هو تقرير الشبهة.

والجواب عنها: أن هذا الإشكال لا يتم إلا بالقدح في كمال علم الله وفي كمال قدرته.

(18/457)

أما إذا سلما كونه تعالى عالماً بجميع الجزئيات فحينئذ هذه الأجزاء وإن اختلطت بأجزاء العالم إلا أنها متمايزة في علم الله تعالى ولما سلمنا كونه تعالى قادراً على كل الممكنات كان قادراً على إعادة التأليف والتركيب والحياة والعقل إلى تلك الأجزاء بأعيانها، فثبت أنا متى سلمنا كمال علم الله وكمال قدرته زالت هذه الشبهة بالكلية. انتهى. اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 176.180 ﴾

(19/457)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وإذا قرأت القرآن جلعنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أي جعلنا القرآن حجاباً ليسترك عنهم إذا قرأته .

الثاني : جعلنا القرآن حجاباً يسترهم عن سماعه إذا جهرت به . فعلى هذا فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم لإعراضهم عن قراءتك كمن بينك وبينهم حجاباً في عدم رؤيتك . قاله الحسن .

والثاني : أن الحجاب المستور أن طبع الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه ، قاله قتادة .

الثالث : أنها نزلت في قوم كانوا يؤذونه في الليل إذا قرأ ، فحال الله بينه وبينهم من الأذى ، قاله الزجاج.

﴿ مستوراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الحجاب مستور عنكم لا ترونه .

الثاني : أن الحجاب ساتر عنكم ما وراءه ، ويكون مستور بمعنى ساتر ، وقيل إنها نزلت في

بني عبد الدار .

قوله عز وجل : ﴿ نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى ﴾

في هذه النجوى قولان :

أحدهما : أنه ما تشاوروا عليه في أمر النبي صلى الله عليه وسلم في دار الندوة .

الثاني : أن هذا في جماعة من قريش منهم الوليد بن المغيرة كانوا يتناجون بما ينفّرون به الناس عن اتباعه صلى الله عليه وسلم . قال قتادة : وكانت نجواهم أنه مجنون ، وأنه ساحر ، وأنه يأتي بأساطير الأولين .

﴿ إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجُلاً مسحوراً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه سحر فاختلط عليه أمره ، يقولون ذلك تنفيراً عنه .

الثاني : أن معنى مسحور مخدوع ، قاله مجاهد .

الثالث : معناه أن له سحراً ، أي رئة ، يأكل ويشرب فهو مثلكم وليس بملك ، قاله أبو عبيدة ، ومنه قول لبيد :

فَإِنْ تَسْأَلِينَا فِيمَ نَحْنُ فَإِنَّنَا . . . عَصَافِيرُ مِنْ هذَا الأَنَامِ الْمُسَحَّرِ

قوله عز وجل : ﴿ وقالوا أئذا كُنّا عظاماً ورفاتاً ﴾

فيه تأويلان :

أحدهما : أن الرفات التراب ، قاله الكلبي والفراء .

الثاني : أنه ما أرفت من العظام مثل الفتات ، قاله أبو عبيدة ، قال الراجز :

صُمَّ الصَّفَا رَفَتَ عَنْهَا أَصْلُهُ . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(20/457)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) ﴾

هذه الآية تحتمل معنيين : أحدهما أن الله تعالى أخبر نبيه أنه يحميه من الكفرة أهل مكة الذي كانوا يؤذونه في وقت قراءته القرآن وصلاته في المسجد ويريدون مد اليد إليه ، وأحوالهم في هذا المعنى مشهورة مروية ، والمعنى الآخر أنه أعلمه أنه يجعل بين الكفرة وبين فهم ما يقرأه محمد عليه السلام حجاباً ، فالآية على هذا التأويل في معنى التي بعدها ، وعلى التأويل الأول هما آيتان لمعنيين ، وقوله ﴿ مستوراً ﴾ أظهر ما فيه أن يكون نعتاً للحجاب ، أي مستوراً عن أعين الخلق لا يدركه أحد برؤية كسائر الحجب ، وإنما هو من قدرة الله وكفايته وإضلاله بحسب التأويلين المذكورين ، وقيل التقدير مستوراً به على حذف العائد وقال الأخفش ﴿ مستوراً ﴾ بمعنى ساتر كمشؤوم وميمون فإنهما بمعنى شائم ويامن .

قال القاضي أبو محمد : وهذا لغير داعية إليه ، تكلف ، وليس مثاله بمسلم ، وقيل هو على جهة المبالغة كما قالوا شعر شاعر ، وهذا معترض بأن المبالغة أبداً إنما تكون باسم الفاعل ومن اللفظ الأول ، فلو قال حجاباً حاجباً لكان التنظير صحيحاً ، وقوله ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ الآية ، الأكنة جمع كنان ، وهو ما غطى الشيء ، ومنه كنانة النبل ، و" الوقر " الثقل في الأذن المانع من السمع ، وهذه كلها استعارات للإضلال الذي حفهم الله به ، فعبر عن كثرة ذلك وعظمه بأنهم بمثابة من غطى قلبه وصمت أذنه ، وقوله ﴿ وإذا ذكرت ﴾ الآية ، يريد إذا جاءت مواضع التوحيد في القرآن أثناء قراءتك فرّ كفار مكة من سماع ذلك إنكاراً له واستشباعاً ، إذ فيه رفض آلهتهم واطراحها ، وقال بعض العلماء : إن ملأ قريش دخلوا على أبي طالب يزورونه فدخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ ومر بالتوحيد ، ثم قال " يا معشر قيرش قولوا لا إله إلا الله تملكون بها العرب ، وتدين لكم العجم " ، فولوا ونفروا ، فنزلت الآية ، وأن تكون الآية وصف حال الفارين عنه في وقت توحيده في قراءته أبين وأجرى مع اللفظ ، وقوله ﴿ نفوراً ﴾ يصح أن يكون مصدراً في موضع الحال ، ويصح أن يكون جمع نافر كشاهد وشهود ، لأن فعولاً من أبنية فاعل في الصفات ، ونصبه

على الحال ، أي نافرين ، وقوله ﴿ أن يفقهوه ﴾ ﴿ أن ﴾ نصب على المفعول أي "كراهة أن" ، أو "منع أن" ، والضمير في ﴿ يفقهوه ﴾ عائد على ﴿ القرآن ﴾ ، وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت : إنما عنى بقوله : ﴿ ولوا على أدبارهم نفوراً ﴾ الشياطين وأنهم يفرون من قراءة القرآن ، يريد أن المعنى يدل عليهم وإن لم يجر لهم ذكر في اللفظ ، وهذا نظير قول النبي صلى الله عليه وسلم : "إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان له خصاص"

(22/457)

وقوله ﴿ نحن أعلم بما يستمعون به ﴾ الآية ، هذا كما تقول فلان يستمع بحرص وإقبال ، أو بإعراض وتغافل واستخفاف ، فالضمير في ﴿ به ﴾ عائد على ﴿ ما ﴾ ، وهي بمعنى الذي ، والمراد بالذي ما ذكرناه من الاستخفاف والإعراض ، فكأنه قال : نحن أعلم بالاستخفاف والاستهزاء الذي يستمعون به ، أي هو ملازمهم ، ففضح الله بهذه الآية سرهم ، والعامل في ﴿ إذ ﴾ الأولى وفي المعطوفة عليها ﴿ يستمعون ﴾ الأول ، وقوله ﴿ وإذ هم نجوى ﴾ وصفهم بالمصدر ، كما قالوا : قوم رضى وعدل ، وقيل المراد بقوله : ﴿ وإذ هم نجوى ﴾ اجتماعهم في دار الندوة ثم انتشرت عنهم ، وقوله ﴿ مسحوراً ﴾ الظاهر فيه أن يكون من السحر ، فشبهوا الخبال الذي عنده بزعمهم ، وأقواله الوخيمة

برأيهم ، بما يكون من المسحور الذي قد خبل السحر عقله وأفسد كلامه ، وتكون الآية على هذا شبيهة بقول بعضهم ﴿ به جنة ﴾ [المؤمنون : 25] ونحو هذا ، وقال أبو عبيدة : ﴿ مسحوراً ﴾ معناه ذا سحر ، وهي الرية يقال لها سحر وسُحر بضم السين ، ومنه قول عائشة رضي الله عنها : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري ونحري ومنه قولهم للجبان : انتفخ سحره ، لأن الفازع تنتفخ ريته ، فكأن مقصد الكفار بهذا التنبيه على أنه بشر أي ذا رية ، قال : ومن هذا يقال لكل من يأكل ويشرب من آدمي وغيره : مسحور ومسحر ، ومنه قول امرىء القيس : [الوافر]

ونسحر بالطعام وبالشراب . . . وقول لبيد : بالطويل]

فإن تسألينا فيمَ نَحْنُ فإننا . . . عصافيرُ من هذا الأنام المسحَّر

ومنه السحور ، وهو إلى هذه اللفظة أقرب منه إلى السحر ، ويشبه أن يكون من السحر ، كالصبوح من الصباح ، والآية التي بعد هذا تقوي أن اللفظة التي في الآية من السِّحر ، بكسر السين ، لأن حينئذ في قولهم ضرب مثل له وأما على أنها من السحر الذي هو الرية ومن التغذي وأن تكون الإشارة إلى أنه بشر فلم يضرب له في ذلك مثل بل هي صفة حقيقة له .

﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (48) ﴾

(24/457)

ضرب المثل له هو قولهم مسحور ، ساحر ، مجنون ، متكهن ، لأنه لم يكن عندهم متيقناً بأحد هذه ، فإنما كانت منهم على جهة التشبيه ، ثم رأى الوليد بن المغيرة أن أقرب هذه الأمور على تخيل الطارين عليهم هو أنه ساحر ، ثم حكم الله عليهم بالضلال ، وقوله ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما لا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى والنظر المؤدي إلى الإيمان ، فتجري الآية مجرى قوله ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ [الإسراء : 46] [الأنعام : 25] ونحو هذا ، والآخر : لا يستطيعون سبيلاً إلى فساد أمرك وإطفاء نور الله فيك بضربهم الأمثال لك واتباعهم كل حيلة في جهتك ، وحكى الطبري أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه ، وقوله ﴿ إذا كنا عظاماً ﴾ الآية ، هذه الآية في إنكارهم البعث ، وهذا منهم تعجب وإنكار واستبعاد ، و" الرفات " من الأشياء : ما مر عليه الزمن حتى بلغ به غاية البلى ، وقربه من حالة التراب ، يقال : رفت رفتاً فهو مرفوت ، وفعال : بناء لهذا المعنى ، كالحطام ، والفتات ، والرصاص ، والرضاض ، والدقاق ، ونحوه ، وقال ابن عباس : ﴿ رفاتاً ﴾ غباراً ، وقال مجاهد : تراباً ، واختلف القراء في

هذين الاستفهامين : فقرأ ابن كثير وأبو عمرو " أيذا كنا ترابا أينا " جميعاً بالاستفهام ، غير أن أبا عمرو يمد الهمزة ، ثم يأتي بالياء ساكنة ، وابن كثير يأتي بياء ساكنة بعد الهمزة من غير مدة ، وقرأ نافع الأولى مثل أبي عمرو ، واختلف عنه في المد ، وقرأ الثانية " إنا " مكسورة على الخبر ، ووافقه الكسائي في اكتفائه بالاستفهام الأول من الثاني ، غير أنه كان يهمز همزتين ، وقرأ عاصم وحمزة : " أإذا أإنا " بهمزتين فيهما ، وقرأ ابن عامر " إذا كنا " ، مكسورة الألف من غير استفهام " ءإنا " يهمز ، ثم يمد ، ثم يهمز . ويروى عنه مثل قراءة حمزة ، وفي سورة الرعد توجيه هذه القراءات ، و﴿ جديداً ﴾ صفة لما قرب حدوثه من الأشياء ، وهكذا يوصف به

المذكر والمؤنث ، فيقال ملحفة جديد وقولهم جديدة ، لغة ضعيفة ، كذا قال سيبويه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(25/457)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) ﴾

قوله تعالى : ﴿ حجاباً مستوراً ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الحجاب : هو الأَكِنَّة على قلوبهم ، قاله قتادة .

والثاني : أنه حجابٌ يستره فلا ترونه ؛ وقيل : إِنها نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم إِذا قرأ القرآن ؛ قال الكلبي : وهم أبو سفيان ، والنضر بن الحارث ، وأبو جهل ، وأم جميل امرأة أبي لهب ، فحجب الله رسولَه عن أبصارهم عند قراءة القرآن ، فكانوا يأتونه ويمرُّون به ، ولا يرونه .

والثالث : أنه مَنْعُ الله عز وجل إِياهم عن أذاه ، حكاه الزجاج .

وفي معنى ﴿ مستوراً ﴾ قولان .

أحدهما : أنه بمعنى ساتر ؛ قال الزجاج : وهذا قول أهل اللغة .

قال الأخفش : وقد يكون الفاعل في لفظ المفعول ، كما تقول : إِنك مشؤوم علينا ، وميمون علينا ، وإِنما هو شائم ويامن ، لأنه مِن "شَأَمَهُمْ" و"يَمَنَهُم" .

والثاني : أن المعنى : حجاباً مستوراً عنكم لا ترونه ، ذكره الماوردي .

وقال ابن الأنباري : إِذا قيل : الحجاب : هو الطبع على قلوبهم ، فهو مستور عن الأبصار ، فيكون "مستوراً" باقياً على لفظه .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أَكِنَّة أن يفقهوه ﴾ قد شرحناه في [الأنعام : 25] .

قوله تعالى : ﴿ وإِذا ذَكَرْتَ ربَّك في القرآن وحده ﴾ يعني : قلتَ : لا إِله إِلا الله ، وأنت تتلو القرآن ﴿ ولَّوا على أدبارهم ﴾ قال أبو عبيدة : أي : على أعقابهم ، ﴿ نُفوراً ﴾ وهو :

جمع نافر ، بمنزلة قاعد وقُعود ، وجالس وجُلوس .

وقال الزجاج : تحتمل مذهبين .

أحدهما : المصدر ، فيكون المعنى : ولّوا نافرين نفوراً .

والثاني : أن يكون "نفوراً" جمع نافر .

وفي المشار إِليهم قولان .

أحدهما : أنهم الشياطين ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم المشركون ، وهذا مذهب ابن زيد .

(26/457)

قوله تعالى : ﴿ نحن أعلم بما يستمعون به ﴾ قال المفسرون : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً عليه السلام أن يتخذ طعاماً ويدعو إِليه أشراف قريش من المشركين ، ففعل ذلك ، ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليهم القرآن ، ودعاهم إِلى التوحيد ، وكانوا يستمعون ويقولون فيما بينهم : هو ساحر ، هو مسحور ، فنزلت هذه الآية : ﴿ نحن أعلم بما يستمعون به ﴾ ، أي : يستمعونه ، والباء زائدة .

﴿ إِذ يستمعون إِليك وإِذ هم نجوى ﴾ قال أبو عبيدة : هي مصدر مِنْ "ناجَيْتُ" واسم

منها ، فوصف القوم بها ، والعرب تفعل ذلك ، كقولهم : إنما هو عذاب ، وأنتم غَمٌّ ، فجاءت في موضع "متناجين" .

وقال الزجاج : والمعنى : وإذ هم ذوو نجوى ، وكانوا يستمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقولون بينهم : هو ساحر ، وهو مسحور ، وما أشبه ذلك من القول .

قوله تعالى : ﴿ إذ يقول الظالمون ﴾ يعني : أولئك المشركون ﴿ إن تتّبعون ﴾ أي : ما تتّبعون ﴿ إلا رجلاً مسحوراً ﴾ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الذي سُحر فذهب بعقله ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : مخدوعاً مغروراً ، قاله مجاهد .

والثالث : له سَحْر ، أي : رئة ؛ وكلُّ دابّة أو طائر أو بَشَر يأكل فهو : مسحور ومسحَّر ، لأن له سَحْراً ، قال لبيد :

فانْ تَسْأَلينا فِيمَ نَحْنُ فانّنا . . .

عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الأنامِ المُسَحَّرِ

وقال امرؤ القيس :

أُرانا مُرْصَدِيْن لأَمْرِ غَيْبٍ . . .

ونُسْحَرُ بالطَّعامِ وبالشَّرَابِ

أي : نُغذَّى ، لأن أهل السماء لا يأكلون ، فأراد أن يكون مَلَكاً .

فعلى هذا يكون المعنى : إِن تتبعون إِلا رجلاً له سَحْر ، خلقه الله كخلقكم ، وليس بملَكٍ ، وهذا قول أبي عبيدة .

(27/457)

قال ابن قتيبة : والقول قول مجاهد ، [أي : مخدوعاً] ، لأن السّحر حيلة وخديعة ، ومعنى قول لبيد "المسحَّر" : المعلَّل ، وقول امرئ القيس : "ونُسْحَر" أي : نُعَلَّل ، وكأنا نُخدَع ، والناس يقولون : سحرتَني بكلامكَ ، أي : خدعتَني ، ويدل عليه قوله : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ ، لأنهم لو أرادوا رجلاً ذا رِئَةٍ ، لم يكن في ذلك مَثَلٌ ضربوه ، فلما أرادوا مخدوعاً كأنه بالخديعة سُحر كان مَثَلاً ضربوه ، وكأنهم ذهبوا إِلى أن قوماً يعلِّمونه ويخدعونه .

قال المفسرون : ومعنى ﴿ ضربوا لك الأمثال ﴾ بيَّنوا لك الأشباه ، حتى شبَّهوك بالساحر والشاعر والمجنون ﴿ فَضَلُّوا ﴾ عن الحق ، ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لا يجدون سبيلاً إِلى تصحيح ما يعيبونك به .

والثاني : لا يستطيعون سبيلاً إِلى الهُدى ، لأنا طبعنا على قلوبهم .

والثالث : لا يأتون سبيل الحق ، لثقله عليهم ؛ ومثله قولهم : لا أستطيع أن أنظر إِلى فلان ، يعنون : أنا مبغِض له ، فنظري إِليه يثقل ، ذكرهن ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ أئذا كُنَّا عظاماً ﴾ قرأ ابن كثير : ﴿ أَيذا ﴾ بهمزة ثم يأتي بياء ساكنة من غير مَدّ ، ﴿ أَينا ﴾ مثله ، وكذلك في كل القرآن .

وكذلك روى قالون عن نافع ، إِلا أن نافعاً كان لا يستفهم في ﴿ أَينا ﴾ ، كان يجعل الثاني خبراً في كل القرآن ، وكذلك مذهب الكسائي ، غير أنه يهمز الأُولى همزتين .

وقرأ عاصم ، وحمزة بهمزتين في الحرفين جميعاً وقرأ ابن عامر : "إِذا كُنّا" بغير استفهام بهمزة واحدة "آئنا" بهمزتين يمد بينهما مدة .

قوله تعالى : ﴿ ورُفاتاً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه التراب ، ولا واحد له ، فهو بمنزلة الدُّقاق والحُطام ، قاله الفراء ، وهو مذهب مجاهد .

والثاني : أنه العظام ما لم تتحطم ، والرُّفات : الحُطام ، قاله أبو عبيدة .

وقال الزجاج : الرُّفات : التراب .

والرُّفات : كل شيء حُطِمَ وكُسِرَ ، و ﴿ خلقاً جديداً ﴾ في معنى مجدداً . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) ﴾

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت : " لما نزلت سورة ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ أقبلت العَوْرَاءُ أُمُّ جميل بنت حرب ولها وَلْوَلَة وفي يدها فِهْر وهي تقول : " مُذَمَّماً عَصَيْنَا * وأَمْرَه أَبَيْنَا * وَدِينَه قَلَيْنَا . . .

" والنبيّ صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه ؛ فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله ، لقد أقبلتْ وأنا أخاف أن تراك ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنها لن تراني" وقرأ قرآناً فاعتصم به كما قال .

وقرأ ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ .

فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا أبا بكر ، أُخبِرتُ أن صاحبك هجاني ! فقال : لا ورَبِّ هذا البيت ما هجاك .

قال : فولّت وهي تقول : قد علمتْ قريش أني ابنة سيدِها " وقال سعيد بن جُبير رضي الله عنه : " لما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ جاءت امرأة أبي لهب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، فقال أبو بكر : لو تَنَحَّيْتَ عنها لئلا تُسمِعَك ما يؤذيك ، فإنها امرأة بذِيّة .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إنه سيحال بيني وبينها" فلم تره .

فقالت لأبي بكر : يا أبا بكر ، هجانا صاحبك ! فقال : واللَّهِ ما ينطق بالشعر ولا يقوله .

فقالت : وإنك لمصدّقه ؛ فاندفعت راجعة .

فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، أمَا رأتك ؟ قال : "لا .

(29/457)

ما زال ملك بيني وبينها يسترني حتى ذهبت" " وقال كعب رضي الله عنه في هذه الآية :

كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يستتر من المشركين بثلاث آيات : الآية التي في الكهف ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الكهف : 57] ، والآية التي في النحل ﴿ أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ [النحل : 108] ، والآية التي في الجاثية ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ [الجاثية : 23] الآية .

فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا قرأهن يستتر من المشركين .

قال كعب رضي الله تعالى عنه : فحدّثت بهن رجلاً من أهل الشأم ، فأتى أرض الروم فأقام بها زماناً ، ثم خرج هارباً فخرجوا في طلبه فقرأ بهن فصاروا يكونون معه على طريقه ولا

يبصرونه .

قال الثعلبي : وهذا الذي يرووونه عن كعب حدّثت به رجلاً من أهل الريّ فأسر بالدَّيْلم ، فمكث زماناً ثم خرج هارباً فخرجوا في طلبه فقرأ بهن حتى جعلت ثيابهم لتلمس ثيابه فما يبصرونه .

قلت : ويزاد إلى هذه الآي أوّل سورة ياس إلى قوله "فهم لا يبصرون" .

فإن في السيرة في هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم ومقامِ عليّ رضي الله عنه في فراشه قال : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حَفْنَة من تراب في يده ، وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه فلا يَرَوْنه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس : ﴿ يس * والقرآن الحكيم * إنَّكَ لَمِنَ المرسلين * على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ العزيز الرحيم ﴾ [يس : 1-5] .

إلى قوله ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : 9] .

حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الآيات ، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا ً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

قلت : ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور من أعمال قرطبة مثل هذا .

وذلك أني هربت أمام العدوّ وانحزت إلى ناحية عنه ، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء ، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن ؛ فعبرا عليّ ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر : هذا دِيَبْلُه ؛ يعنون شيطاناً .

وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يروني ، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك .

وقيل : الحجاب المستور طَبْعُ اللَّهِ على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة ؛ قاله قتادة .

وقال الحسن : أي أنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب في عدم رؤيته لك حتى كأن على قلوبهم أغطية .

وقيل : نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن ، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأم جميل امرأة أبي لهب وحُوَيطب ؛ فحجب الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن أبصارهم عند قراءة القرآن ، وكانوا يمرّون به ولا يرونه ؛ قاله الزجاج وغيره .

وهو معنى القول الأوّل بعينه ، وهو الأظهر في الآية ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ مَّسْتُوراً ﴾ فيه قولان : أحدهما : أن الحجاب مستور عنكم لا ترونه .

والثاني : أن الحجاب ساتر عنكم ما وراءه ؛ ويكون مستوراً بمعنى ساتر .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾

"أَكِنة" جمع كِنان ، وهو ما ستر الشيء .

وقد تقدم في "الأنعام" .

﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ أي لئلا يفقهوه ، أو كراهية أن يفقهوه ، أي أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحِكم والمعاني .

وهذا ردّ على القدرية .

﴿ وفي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ أي صمماً وثقلاً .

وفي الكلام إضمار ، أي أن يسمعوه .

(31/457)

﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرآن وَحْدَهُ ﴾ أي قلت : لا إله إلا الله وأنت تتلو القرآن .

وقال أبو الجَوْزاء أوْس بن عبد الله : ليس شيء أطْرَدَ للشيطان من القلب من قول لا إله إلا

الله ، ثم تلا ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرآن وَحْدَهُ وَلَّوْا على أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ .

وقال علي بن الحسين : هو قوله بسم الله الرحمن الرحيم .

وقد تقدم هذا في البسملة .

﴿ وَلَّوْا على أَدْبَارِهِمْ نفوراً ﴾ قيل : يعني بذلك المشركين .

وقيل : الشياطين .

و"نُفُوراً" جمع نافر ؛ مثل شهود جمع شاهد ، وقعود جمع قاعد ، فهو منصوب على الحال .

ويجوز أن يكون مصدراً على غير الصدر ؛ إذ كان قوله "وَلَّوْا" بمعنى نفروا ، فيكون معناه نفروا نفوراً .

قوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾

قيل : الباء زائدة في قوله "به" أي يستمعونه .

وكانوا يستمعون من النبيّ صلى الله عليه وسلم القرآن ثم ينفرون فيقولون : هو ساحر ومسحور ؛ كما أخبر الله تعالى به عنهم ؛ قاله قتادة وغيره .

﴿ وَإِذْ هُمْ نجوى ﴾ أي متناجون في أمرك .

قال قتادة : وكانت نجواهم قولهم إنه مجنون وإنه ساحر وإنه يأتي بأساطير الأوّلين ، وغير ذلك .

وقيل : نزلت حين دعا عُتْبة أشرافَ قريش إلى طعام صنعه لهم ، فدخل عليهم النبيّ صلى

الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ؛ فتناجوا ؛ يقولون ساحر ومجنون .

وقيل : أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم عليًّا أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين ؛ ففعل ذلك عليّ ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد ، وقال : " قولوا لا إله إلا الله لتطيعكم العرب وتدين لكم العجم " فأَبَوْا ، وكانوا يستمعون من النبيّ صلى الله عليه وسلم ويقولون بينهم متناجين : هو ساحر وهو مسحور ؛ فنزلت الآية .

(32/457)

وقال الزجاج : النَّجْوَى اسم للمصدر ؛ أي وإذ هم ذو نجوى ، أي سرار .

﴿ إِذْ يَقُولُ الظالمون ﴾ أبو جهل والوليد بن المُغِيرة وأمثالهما .

﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ أي مَطْبُوباً قد خبله السحر فاختلط عليه أمره ، يقولون ذلك لينفروا عنه الناس .

وقال مجاهد : "مسحوراً" أي مخدوعاً ؛ مثلُ قوله : ﴿ فأنى تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : 89] أي من أين تخدعون .

وقال أبو عبيدة : "مسحوراً" معناه أن له سَحْراً ، أي رِئة ، فهو لا يستغني عن الطعام

والشراب ؛ فهو مثلكم وليس بمَلَك .

وتقول العرب لِلجبان : قد انتفخ سَحْره .

ولكل من أكل من آدمي وغيره أو شرب مسحور ومُسَحَّر .

قال لبيد :

فإن تسألينا فِيم نحن فإنّنا . . .

عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

وقال امرؤ القيس :

أَرَانَا مُوضِعين لأمر غَيْبٍ . . .

ونُسْحَر بالطعام وبالشّرابِ

أي نُغَذَّى ونُعَلّل .

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : مَن هذه التي تُساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تُوُفّيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سَحْرِي ونَحْرِي .

قوله تعالى : ﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمثالَ ﴾

عجّبه من صنعهم كيف يقولون تارةً ساحر وتارة مجنون وتارة شاعر .

﴿ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ أي حِيلة في صدّ الناس عنك .

وقيل : ضَلُّوا عن الحق فلا يجدون سبيلاً ، أي إلى الهدى .

وقيل : مخرجاً ؛ لتناقض كلامهم في قولهم : مجنون ، ساحر ، شاعر .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً ﴾

أي قالوا وهم يتناجَوْن لما سمعوا القرآن وسمعوا أمر البعث : لو لم يكن مسحوراً مخدوعاً لما

قال هذا .

قال ابن عباس : الرُفات الغبار .

مجاهد : التراب .

والرفات ما تكسّر وبَلِيَ من كل شيء ؛ كالفُتَات والحُطام والرُّضاض ؛ عن أبي عبيدة

والكسائيّ والفَرّاء والأخفش .

تقول منه : رُفِتَ الشيء رَفْتاً ، أي حُطِم ؛ فهو مرفوت .

﴿ أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ "أئنا" استفهام والمراد به الجَحْد والإنكار .

و"خلقاً" نصب لأنه مصدر ؛ أي بعثاً جديداً .

وكان هذا غايةَ الإنكار منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) ﴾

نزلت ﴿ وإذا قرأت القرآن ﴾ في أبي سفيان والنضر وأبي جهل وأم جميل امرأة أبي لهب ، كانوا يؤذون الرسول إذا قرأ القرآن ، فحجب الله أبصارهم إذا قرأ فكانوا يمرون به ولا يرونه قاله الكلبي : " وعن ابن عباس نزلت في امرأة أبي لهب ، دخلت منزل أبي بكر وبيدها فهر والرسول (صلى الله عليه وسلم) عنده ، فقالت : هجاني صاحبك ، قال : ما هو بشاعر ، قالت : قال ﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ وما يدريه ما في جيدي ؟ فقال لأبي بكر : "سلها هل ترى غيرك فإن ملكاً لم يزل يسترني عنها" فسألها فقالت : أتهزأ بي ما أرى غيرك ؟ فانصرفت ولم تر الرسول (صلى الله عليه وسلم) " وقيل : نزلت في قوم من بني عبد الدار كانوا يؤذونه في الليل إذا صلى وجهر بالقراءة ، فحال الله بينهم وبين أذاه .

ولما تقدّم الكلام في تقرير الإلهية جاء بعده تقرير النبوة وذكر شيء من أحوال الكفرة في إنكارها وإنكار المعاد ، والمعنى وإذا شرعت في القراءة وليس المعنى على الفراغ من القراءة بل المعنى على أنك إذا التبست بقراءة القرآن ولا يراد بالقرآن جميعه بل ما ينطلق عليه الاسم ، فإنك تقول لمن يقرأ شيئاً من القرآن هذا يقرأ القرآن ، والظاهر أن القرآن هنا هو ما قرئ من القرآن أي شيء كان منه .

وقيل : ثلاث آيات منه معينة وهي في النحل ﴿ أولئك الذين طبع ﴾ إلى ﴿ الغافلون ﴾ وفي الكهف ﴿ ومن أظلم ﴾ إلى ﴿ إذا أبدا ﴾ وفي الجاثية ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ إلى ﴿ أفلا تذكرون ﴾ وعن كعب أن الرسول كان يستتر بهذه الآيات ، وعن ابن سيرين أنه عينها له هاتف من جانب البيت ، وعن بعضهم أنه أسر زماناً ثم اهتدى قراءتها فخرج لا يبصره الكفار وهم يتطلبونه تمس ثيابهم ثيابه .

(35/457)

قال القرطبي : ويزاد إلى هذه الآي أول يس إلى ﴿ فهم لا يبصرون ﴾ ففي السيرة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين نام على فراشه خرج ينثر التراب على رؤوس الكفار فلا يرونه وهو يتلو هذه الآيات من يس ، ولم يبق أحد منهم إلاّ وضع على رأسه تراباً .

والظاهر أن المعنى جعلنا بين رؤيتك وبين أبصار الذين لا يؤمنون بالآخرة كما ورد في سبب النزول .

وقال قتادة والزجّاج وجماعة ما معناه : ﴿ جعلنا ﴾ بين فهم ما تقرأ وبينهم ﴿ حجاباً ﴾ فلا يقرون بنبوتك ولا بالبعث ، فالمعنى قريب من الآية بعدها ، والظاهر إقرار ﴿ مستوراً ﴾ على موضوعه من كونه اسم مفعول أي ﴿ مستوراً ﴾ عن أعين الكفار فلا

يرونه ، أو ﴿ مستوراً ﴾ به الرسول عن رؤيتهم .

ونسب الستر إليه لما كان مستوراً به قاله المبرد ، ويؤول معناه إلى أنه ذو ستر كما جاء في صيغة لابن وتامر أي ذو لبن وذو تمر .

وقالوا : رجل مرطوب أي ذو رطبة ولا يقال رطبته ، ومكان مهول أي ذو هول ، وجارية مغنوجة ولا يقال هلت المكان ولا غنجت الجارية .

وقال الأخفش وجماعة ﴿ مستوراً ﴾ ساتراً واسم الفاعل قد يجيء بلفظ المفعول كما قالوا مشؤوم وميمون يريدون شائم ويامن .

وقيل : مستور وصف على جهة المبالغة كما قالوا شعر شاعر ، وردّ بأن المبالغة إنما تكون باسم الفاعل ومن لفظ الأول ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴾ تقدم تفسيره في أوائل الأنعام ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ﴾ .

قيل : " دخل ملأ قريش على أبي طالب يزورونه ، فدخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقرأ ومر بالتوحيد ، ثم قال : "يا معشر قريش قولوا لا إله إلاّ الله تملكون بها العرب وتدين لكم العجم" فولوا وأنفروا " فنزلت هذه الآية .

والظاهر أن الآية في حال الفارّين عند وقت قراءته ومروره بتوحيد الله ، والمعنى إذا جاءت مواضع التوحيد فرّ الكفار إنكاراً له واستبشاعاً لرفض آلهتهم واطّراحها .

وقال الزمخشري : وحد يحد وحداً وحدة نحو وعد يعد وعداً وعدة و ﴿ وحده ﴾ من باب رجع عوده على بدئه وافعله جهدك وطاقتك في أنه مصدر ساد مسدّ الحال ، أصله يحد وحده بمعنى واحداً انتهى .

وما ذهب إليه من أن ﴿ وحده ﴾ مصدر ساد مسد الحال خلاف مذهب سيبويه و ﴿ وحده ﴾ عند سيبويه ليس مصدراً بل هو اسم وضع موضع المصدر الموضوع موضع الحال ، فوحده عنده موضوع موضع إيحاد ، وإيحاد موضوع موضع موحد .

وذهب يونس إلى أن ﴿ وحده ﴾ منصوب على الظرف ، وذهب قوم إلى أنه مصدر لا فعل له ، وقوم إلى أنه مصدر لأوحد على حذف الزيادة ، وقوم إلى أنه مصدر لوحد كما ذهب إليه الزمخشري وحجج هذه الأقوال مذكورة في كتب النحو .

وإذا ذكرت ﴿ وحده ﴾ بعد فاعل ومفعول نحو ضربت زيداً فمذهب سيبويه أنه حال من الفاعل ، أي موحداً له بالضرب ، ومذهب المبرد أنه يجوز أن يكون حالاً من المفعول فعلى مذهب سيبويه يكون التقدير ﴿ وإذا ذكرت ربك ﴾ موحداً له بالذكر وعلى مذهب أبي العباس يجوز أن يكون التقدير موحداً بالذكر .

و ﴿ نفوراً ﴾ حال جمع نافر كقاعد وقعود ، أو مصدر على غير المصدر لأن معنى ﴿ ولوا ﴾ نفروا ، والظاهر عود الضمير في ﴿ ولوا ﴾ على الكفار المتقدم ذكرهم .

وقالت فرقة : هو ضمير الشياطين لأنهم يفرون من القرآن دل على ذلك المعنى وإن لم يجر لهم ذكر .

وقال أبو الحوراء أوس بن عبد الله : ليس شيء أطرد للشيطان من القلب من لا إله إلاّ الله ثم تلا ﴿ وإذا ذكرت ﴾ الآية .

وقال علي بن الحسين : هو البسملة ﴿ نحن أعلم بما يستمعون به ﴾ أي بالاستخفاف الذي يستمعون به والهزء بك واللغو ، كان إذا قرأ (صلى الله عليه وسلم) قام رجلان من بني عبد الله عن يمينه ورجلان منهم عن يساره ، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار .

وبما متعلق بأعلم ، وما كان في معنى العلم والجهل وإن كان متعدياً لمفعول بنفسه فإنه إذا كان في باب أفعل في التعجب ، وفي أفعل التفضيل تعدى بالباء تقول : ما أعلم زيداً بكذا وما أجهله بكذا ، وهو أعلم بكذا وأجهل بكذا بخلاف سائر الأفعال المتعدية لمفعول بنفسه ، فإنه يتعدى في أفعل في التعجب وأفعل التفضيل باللام ، تقول : ما أضرب زيداً لعمرو وزيد أضرب لعمرو من بكر .

وبه قال الزمخشري في موضع الحال كما تقول : يستمعون بالهزء أي هازئين ﴿ وإذ يستمعون ﴾ نصب بأعلم أي أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون وبما به يتناجون ، إذ هم ذوو نجوى ﴿ إذ يقول ﴾ بدل من ﴿ إذ هم ﴾ انتهى .

وقال الحوفي : لم يقل يستمعونه ولا يستمعونك لما كان الغرض ليس الإخبار عن الاستماع فقط ، وكان مضمناً أن الاستماع كان على طريق الهزء بأن يقولوا : مجنون أو مسحور ، جاء الاستماع بالباء وإلى ليعلم أن الاستماع ليس المراد به تفهم المسموع دون هذا المقصد ﴿ إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى ﴾ فإذا الأولى تتعلق بيستمعون به وكذا ﴿ وإذ هم نجوى ﴾ لأن المعنى نحن أعلم بالذي يستمعون به إليك وإلى قراءتك وكلامك إنما يستمعون لسقطك وتتبع عيبك والتماس ما يطعنون به عليك ، يعني في زعمهم ولهذا ذكر تعديته بالباء وإلى انتهى .

وقال أبو البقاء : يستمعون به .

قيل : الباء بمعنى اللام ، لا وإذ ظرف ليستمعون الأولى ، والنجوى مصدر ، ويجوز أن يكون جمع نجي كقتيل وقتلى ، وإذ بدل من ﴿ إذ ﴾ الأولى .

وقيل : التقدير اذكر إذ تقول .

وقال ابن عطية : الضمير في به عائد على ما هو بمعنى الذي ، والمراد الاستخفاف والإعراض فكأنه قال : نحن أعلم بالاستخفاف والاستهزاء الذي يستمعون به أي هو

ملازمهم ، ففضح الله بهذه الآية سرهم والعامل في ﴿ إذ ﴾ الأولى وفي المعطوف ﴿ يستمعون ﴾ الأولى انتهى .

(38/457)

تناجوا فقال النضر : ما أفهم ما تقول ، وقال أبو سفيان : أرى بعضه حقاً ، وقال أبو جهل : مجنون ، وقال أبو لهب : كاهن ، وقال حويطب : شاعر ، وقال بعضهم : أساطير الأولين ، وبعضهم إنما يعلمه بشر ، وروي أن تناجيهم كان عند عتبة دعا أشراف قريش إلى طعام فدخل عليهم النبيّ (صلى الله عليه وسلم) وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله .

فتناجوا يقولون ساحر مجنون ، والظاهر أن ﴿ مسحوراً ﴾ من السحر أي خبل عقله السحر .

وقال مجاهد : مخدوعاً نحو ﴿ فأنى تسحرون ﴾ أي تخدعون .

وقال أبو عبيدة : ﴿ مسحوراً ﴾ معناه أن له سحراً أي رئة فهو لا يستغني عن الطعام والشراب فهو مثلكم وليس بملك ، وتقول العرب للجبان : قد انتفخ سحره ولكل من أكل أو شرب من آدمي وغيره مسحور .

قال :

أرانا موضعين لأمر غيب . . .

ونسحر بالطعام والشراب

أي نغذى ونعلل ونسحر .

قال لبيد :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا . . .

عصافير من هذا الأنام المسحر

قال ابن قتيبة : لا أدري ما الذي حمل أبا عبيدة على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسروه بالوجوه الواضحة .

وقال ابن عطية : الآية التي بعد هذا تقوي أن اللفظة من السحر بكسر السين لأن في قولهم ضرب مثل ، وأما على أنها من السحر الذي هو الرئة ومن التغذي وأن تكون الإشارة إلى أنه بشر فلم يضرب له في ذلك مثل بل هي صفة حقيقة له ، و﴿ الأمثال ﴾ تقدم ما قالوه في تناجيهم وكان ذلك منهم على جهة التسلية والتلبيس ، ثم رأى الوليد بن المغيرة أن أقربها لتخييل الطارئين عليهم هو أنه ساحر فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب فيه طريقاً يسلكه فلا يقدر عليه ، فهو متحير في أمره عليهم فلا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى والنظر المؤدي إلى الإيمان ، أو سبيلاً إلى إفساد أمرك وإطفاء نور الله بضربهم الأمثال واتّباعهم كل حيلة في جهتك .

وحكى الطبري أنها نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه ﴿ وقالوا : أئذا كنا ﴾ هذا استفهام تعجب وإنكار واستبعاد لما ضربوا له الأمثال وقالوا عنه إنه مسحور ذكروا ما استدلوا به على زعمهم على اتصافه بما نسبوا إليه ، واستبعدوا أنه بعد ما يصير الإنسان رفاتاً يحييه الله ويعيده ، وقد رد عليهم ذلك بأنه تعالى هو الذي فطرهم بعد العدم الصرف على ما يأتي شرحه في الآية بعد هذا ، ومن قرأ من القراء إذاً وإنّا معاً أو إحداهما على صورة الخبر فلا يريد الخبر حقيقة لأن ذلك كان يكون تصديقاً بالبعث والنشأة الآخرة ، ولكنه حذف همزة الاستفهام لدلالة المعنى .

وفي الكلام حذف تقديره إذا كنا تراباً وعظاماً نبعث أو نعاد ، وحذف لدلالة ما بعده عليه وهذا المحذوف هو جواب الشرط عند سيبويه ، والذي تعلق به الاستفهام وانصب عليه عند يونس وخلقاً حال وهو في الأصل مصدر أطلق على المفعول أي مخلوقاً . انتهى انتهى .

اهـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القرءان ﴾

الناطقَ بالتسبيح والتنزيهِ ودعوتَهم إلى العمل بما فيه من التوحيد ورفضِ الشرك وغيرِ ذلك من الشرائع ﴿ جَعَلْنَا ﴾ بقدرتنا ومشيئتنا المبنيةِ على دواعي الحِكَم الخفية ﴿ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالأخرة ﴾ أُوثر الموصولُ على الضمير ذمًّا لهم بما في حيز الصلة ، وإنما خُصَّ بالذكر كفرُهم بالآخرة من بين سائرِ ما كفروا به من التوحيد ونحوه دَلالةً على أنها مُعظَمُ ما أُمروا بالإيمان به في القرآن ، وتمهيداً لما سينقل عنهم من إنكار البعثِ واستعجالِه ونحو ذلك ﴿ حِجَاباً ﴾ يحجبهم من أن يدركوك على ما أنت عليه من النبوة ويفهموا قدرَك الجليل ، ولذلك اجترأوا على تفوّه العظيمة التي هي قولُهم : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ وحَمْلُ الحجاب على ما روي عن أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله عنه من أنه لما نزلت سورةُ (تبّت) أقبلت العوراءُ أمُّ جميل امرأةُ أبي لهبٍ وفي يدها فِهْرٌ والنبيُّ عليه الصلاة والسلام قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، فلما رآها قال : يا رسول الله ، لقد أقبلت هذه وأخاف أن تراك ، قال عليه الصلاة والسلام : " إنها لن تراني " وقرأ قرآناً فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تَرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مما لا يقبله الذوقُ السليم ولا يساعده النظمُ الكريم ﴿ مَّسْتُوراً ﴾ ذا سَتْرٍ كما في قولهم : سيلٌ

مفعَمٌ ، أو مستوراً عن الحس بمعنى غيرَ حسيٍ أو مستوراً في نفسه بحجاب آخرَ أو مستوراً كونُه حجاباً حيث لا يدرون أنهم لا يدرون .

(41/457)

﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أغطيةً كثيرةً جمع كِنان ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ مفعولٌ لأجله أي كراهةَ أن يفقهوه ، أو مفعولٌ لما دل عليه الكلامُ أي منعناهم أن يقِفوا على كُنهه ويعرفوا أنه من عند الله تعالى ﴿ وفي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ صمماً وثقلاً مانعاً من سماعه اللائق به ، وهذه تمثيلاتٌ مُعرِبةٌ عن كمال جهلِهم بشؤون النبيِّ عليه الصلاة والسلام وفرطِ نُبوِّ قلوبهم عن فهم القرآنِ الكريم ومجِّ أسماعِهم له ، جيء بها بياناً لعدم فقههم لتسبيح لسانِ المقال إثرَ بيانِ عدمِ فقههم لتسبيح لسانِ الحال ، وإيذاناً بأن هذا التسبيحَ من الظهور بحيث لا يُتصوَّرُ عدمُ فهمِه إلا لمانع قويٍ يعتري المشاعرَ فيُبطِلُها ، وتنبيهاً على أن حالَهم هذا أقبحُ من حالهم السابق لا حكايةٌ لما قالوا :

﴿ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءاذانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ كيف لا وقصدُهم بذلك إنما هو الإخبارُ بما اعتقدوه في حق القرآنِ والنبيِّ عليه الصلاة والسلام جهلاً وكفراً من اتصافهما بأوصاف مانعةٍ من التصديق والإيمانِ ، ككون القرآنِ سحراً

وشِعراً وأساطيرَ وقِسْ عليه حالَ النبي عليه الصلاة والسلام، لا الإخبارُ بأن هناك أمراً وراء ما أدركوه قد حال بينهم وبين إدراكه حائلٌ من قِبلهم. ولا ريب في أن ذلك المعنى مما لا يكاد يلائم المقام. ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرآن وَحْدَهُ ﴾ واحداً غيرَ مشفوعٍ به آلهتُهم، وهو مصدرٌ وقع موقعَ الحال، أصلُه يحِد وحدَه ﴿ وَلَّوْاْ على أدبارهم ﴾ أي هربوا ونفروا ﴿ نُفُوراً ﴾ أو ولّوا نافرين.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾

(42/457)

متلبسين به من اللغو والاستخفافِ والهُزْء بك وبالقرآن، يروى أنه كان يقوم عن يمينه عليه الصلاة والسلام رجلان من بني عبد الدار وعن يساره رجلان فيصفّقون ويصفِرون ويخلِطون عليه بالأشعار ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ ظرفٌ لأعلمُ وفائدتُه تأكيدُ الوعيدِ بالإخبار بأنه كما يقع الاستماعُ المزبورُ منهم يتعلق به العلم، لا أن العلمَ يستفاد هناك من أحد وكذا قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ هُمْ نجوى ﴾ لكون لا من حيث تعلّقُه بما به الاستماعُ بل بما به التناجي المدلولُ عليه بسياق النظمِ، والمعنى نحن أعلمُ بالذي يستمعون ملتبسين به مما لا خيرَ فيه من الأمور المذكورةِ وبالذي يتناجَوْن به فيما بينهم، أو الأولُ ظرفٌ ليستمعون

والثاني ليتناجَون والمعنى نحن أعلمُ بما به الاستماعُ وقت استماعِهم من غير تأخيرٍ وبما به التناجي وقت تناجيهم ، ونجوى مرفوعٌ على الخبرية بتقدير المضافِ أي ذوو نجوى ، أو هو جمعُ نَجيٍّ كقتلى جمع قتيل أي متناجُون ﴿ إِذْ يَقُولُ الظالمون ﴾ بدل من إذ هم ، وفيه دليلٌ على أن ما يتناجَون به غيرُ ما يستمعون به وإنما وُضع الظالمون موضعَ المُضمر إشعاراً بأنهم في ذلك ظالمون مجاوزون للحدّ ، أي يقول كلٌّ منهم للآخرين عند تناجيهم : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ ما تتبعون إنْ وُجد منكم الاتباعُ فرضاً أو ما تتبعون باللغو والهزء ﴿ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ أي سُحِر فجُنّ أو رجلاً ذا سَحْر أي رئةٍ يتنفس ، أي بشراً مثلكم .

﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال ﴾ أي مثّلوك بالشاعر والساحر والمجنون ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ في جميع ذلك على منهاج المُحاجّة ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً ﴾ إلى طعن يمكن أن يقبله أحدٌ فيتهافتون ويخبطون ويأتون بما لا يرتاب في بطلانه أحد ، أو إلى سبيل الحقِّ والرشاد ، وفيه من الوعيد وتسليةِ الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى .

﴿ وَقَالُواْ أَءِذَا كُنَّا عظاما ورفاتا ﴾

استفهامٌ إنكاريٌّ مفيدٌ لكمال الاستبعادِ والاستنكارِ للبعث بعد ما آل الحالُ إلى هذا المآل لِما بين غضاضةِ الحيِّ ويُبوسة الرميم من التنافي ، كأن استحالةَ الأمر من الظهور بحيث لا يقدر المخاطبُ على التكلم به ، والرفاتُ ما بولغ في دقّه وتفتيته ، وقال الفرّاء : هو التراب ، وهو قولُ مجاهدٍ ، وقيل : هو الحُطامُ وإذا متمحّضةٌ للظرفية وهو الأظهرُ والعاملُ فيها ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ لا نفسُه ، لأن ما بعد إن والهمزةِ واللام لا يعمل فيما قبلها وهو نبعث أو نعاد وهو المرجعُ للإنكارِ وتقييدُه بالوقت المذكور ليس لتخصيصه به فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت وإن كان البدنُ على حاله ، بل لتقويةِ الإنكارِ للبعث بتوجيهه إليه في حالة منافيةٍ له ، وتكريرُ الهمزة في قولهم : ﴿ أئنا ﴾ لتأكيد النكيرِ ، وتحليةُ الجملة بأن واللامِ لتأكيد الإنكارِ لا لإنكار التأكيد كما عسى يُتوهّم من ظاهر النظمِ ، فإن تقديمَ الهمزة لاقتضائها الصدارةَ كما في مثل قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ونظائرِه على رأي الجمهور فإن المعنى عندهم تعقيبُ الإنكارِ لا إنكارُ التعقيب كما هو المشهور ، وليس مدارُ إنكارِهم كونَهم ثابتين في المبعوثية بالفعل في حال كونِهم عظاماً ورفاتاً كما يتراءى من ظاهر الجملةِ الاسمية بل كونِهم بعَرَضية ذلك واستعدادِهم له ، ومرجعُه إلى إنكار البعثِ بعد تلك الحالةِ وفيه من الدِلالة على غلوّهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا يزيد عليه ﴿ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ نصبٌ على المصدر من غير لفظه ، أو الحاليةِ على أن الخلق بمعنى المخلوق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾

الناطق بالتسبيح والتنزيه ودعوتهم إلى العمل بما فيه ﴿ جَعَلْنَا ﴾ بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على الحكم الخفية .

﴿ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ وهم المشركون المتقدم ذكرهم ، وأوثر الموصول على الضمير ذماً لهم بما في حيز الصلة ويتم به مع ما سبق الإشارة إلى كفرهم بالمبدأ والمعاد .

وفي إرشاد العقل السليم إنما خص بالذكر كفرهم بالآخرة من بين سائر ما كفروا به من التوحيد ونحوه دلالة على أنها معظم ما أمروا بالإيمان به في القرآن وتمهيداً لما سينقل عنهم من إنكار البعث واستعجاله ونحو ذلك اه ، وفي كون الآخرة معظم ما أمروا بالإيمان به في القرآن تردد وربما يدعى أن ذلك هو التوحيد فالأولى الاقتصار على أنه للتمهيد ﴿ حِجَاباً ﴾ يحجبهم من أن يدركوك على ما أنت عليه من النبوة وجلالة القدر ولذلك اجترؤا على التفوه بالعظيمة وهي قولهم : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ [الإسراء : 47]

وأصل الحجاب كالحجب المنع من الوصول فهو مصدر وقد أريد به الوصف أي حاجباً ﴿ مَّسْتُورًا ﴾ أي ذا ستر فهو للنسب كرجل مرطوب ومكان مهول وجارية مغنوجة ومنه ﴿ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾ [مريم : 61] وكذا سيل مفعم بفتح العين والأكثر مجيء فاعل لذلك كلابن وتامر ، وجوز أن يكون الإسناد مجازياً كما اشتهر في المثال الأخير ، وعن الأخفش أن مفعول يرد بمعنى فاعل كميمون ومشؤم بمعنى يامن وشائم كما أن فاعل يرد بمعنى مفعول كماء دافق فمستور بمعنى ساتر أو مستوراً عن الحس فهو على ظاهره ويكون بياناً لأنه حجاب معنوي لا حسي أو مستوراً في نفسه بحجاب آخر فيكون إيذاناً بتعدد الحجب أو مستوراً كونه حجاباً حيث لا يدرون أنهم لا يدرون ، وقيل : إنه على الحذف والإيصال أي مستوراً به الرسول صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾

(45/457)

أغطية جمع كنان ، والمراد بمعونة المقام التكثير أي أكنة كثيرة .

﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ مفعول له بتقدير مضاف أي كراهة أن يقفوا على كنهه ويعرفوا أنه من عند الله تعالى أو مفعول به لفعل مقدر مفهوم من الجملة أو من ﴿ أَكِنَّةً ﴾ لا أن ﴿ جَعَلْنَا ﴾ أو

شيئاً مما ذكر قد ضمنه كما يتوهم أي منعناهم فقهه والوقوف على كنهه ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ صمماً وثقلاً عظيماً مانعاً من سماعه اللائق به فإنهم كانوا يسمعونه من غير تدبر ، وهذه كما قال بعض المحققين تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشؤون النبي صلى الله عليه وسلم وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم له جيء بها بياناً لعدم فقههم فصيح المقال إثر بيان عدم فقههم دلالة الحال وفيه إيذان بأن ما تضمنه القرآن من التسبيح في غاية الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه إلا لمانع قوي يعتري المشاعر فيبطلها وتنبيه على أن حالهم هذه أقبح من حالهم السابقة ، وحمل الآية على ما ذكر من لم يجعل التسبيح فيما سبق لفظياً وعلى جعله لفظياً لا يحسن حملها على ذلك كما لا يخفى ، هذا وقال بعضهم : المراد بالحجاب ما يحجبهم عن فهم ما يقرؤه عليه الصلاة والسلام فقد أخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال : الحجاب المستور أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وأن ينتفعوا به وإلى ذلك ذهب الزجاج ، وتعقب بأنه لا يلائم ﴿ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين ﴾ [الإسراء : 45] الخ إلا بتقدير مضافين أي جعلنا بين فهم قراءتك ، وأيضاً يلزم عليه التكرار من غير فائدة جديدة ، وأجيب بأن الظاهر أنه لا يقدر فيه وإنما يلزم لو كان حقيقة وهذا تمثيل لهم في عدم إسماع الحق بمن كان وراء جدار وحجاب كما أن الأكنة كذلك ، وأما حديث التكرار من غير فائدة فمدفوع بأن قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ الخ تصريح بما اقتضاه نفي فصيح المقال

بعد نفي فهم دلالة الحال من كونهم مطبوعين على الضلال ولا يخفى على المنصف أولوية ما تقدم .

(46/457)

وعن الجبائي أن المراد بالحجاب ما يحجبهم عن إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم وذلكم أنهم كانوا يقصدونه إذا قرأ ليؤذوه فآمنه الله تعالى وذكر له عليه الصلاة والسلام أنه جل شأنه جعل بينه وبينهم حجاباً عند القراءة فلا يمكنهم الوصول إليه ، وهو عندي مما لا بأس به وأن ذكره في معرض التفصي عن استدلال أصحابنا بالآية على أن الله تعالى يمنع عن الإيمان من شاء كما يهدي إليه من شاء نعم هو دون الأول عند من يتأمل .

وقيل : المراد حجاب منعهم رؤية شخص النبي صلى الله عليه وسلم وذاته الكريمة .

فقد أخرج أبو يعلى .

وابن أبي حاتم .

والحاكم .

وصححه .

وابن مردويه .

والبيهقي معاً في الدلائل عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت : لما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ [المسد : 1] أقبلت العوراء أم جميل ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول :

مذمما أبينا . . .

ودينه قلينا وأمره عصينا

ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس .

وأبو بكر إلى جنبه فقال أبو بكر : لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك فقال : إنها لن تراني ، وقرأ قرآناً اعتصم به كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء : 45] فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي عليه الصلاة والسلام فقالت : يا أبا بكر بلغني أن صاحبك هجاني فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك فانصرفت وهي تقول : قد علمت قريش أني بنت سيدها .

وجاء في رواية أنها حين ولت ذاهبة قال أبو بكر : يا رسول الله إنها لم ترك فقال النبي صلى الله عليه وسلم حال بيني وبينها جبريل عليه السلام ، وذكر الإمام أنه كان صلى الله عليه وسلم إذا أراد تلاوة القرآن تلا قبلها ثلاث آيات قوله تعالى : في سورة الكهف ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى ءاذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الكهف : 57] .

وقوله سبحانه في النحل : ﴿ أُولَئِكَ الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ [النحل : 108] وقوله جل وعلا في سورة حم الجاثية ﴿ أَفَرَأَيتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ [الجاثية : 23] الآية فكان الله تعالى يحجبه ببركات هذه الآيات عن عيون المشركين وهو المراد من قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القرءان جَعَلْنَا ﴾ [الإسراء : 45] الخ واحتج أصحابنا بذلك على أنه يجوز أن تكون الحاسة سليمة ويكون المرئي حاضراً مع أنه لا يرى بسبب أن الله تعالى يخلق في العين مانعاً يمنع من الرؤية قالوا : إن النبي عليه الصلاة والسلام كان حاضراً وحواس الكفار سليمة وكانوا لا يرونه وقد أخبر سبحانه أن ذلك لأجل أنه جعل بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم حجاباً مستوراً ولا معنى للحجاب المستور إلا المعنى الذي يخلقه في عيونهم ويكون مانعاً لهم من الرؤية انتهى ، وقال بعض المحققين : إن حمل الحجاب على ما روي من حديث أسماء مما لا يقبله الذوق السليم ولا يساعده النظم الكريم ، وكأنه أراد أن حمله في الآية على الحجاب المانع من الرؤية كذلك فهو وارد على ما نقل عن الإمام أيضاً ويعلم منه حال احتجاج الأصحاب مع ما يرد على قولهم فيه ولا معنى للحجاب الخ من أنه مخالف لما في الرواية السابقة التي ذكر فيها حيلولة جبريل عليه السلام والخبر الذي أخرجه

الدارقطني وغيره عن ابن عباس أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : كان بيني وبينها ملك يسترني بجناحيه حتى ذهبت فإن كلا الخبرين ظاهر في أن المانع لم يكن في عيونهم بل هو إما جبريل عليه السلام أو ملك آخر حال بينه صلى الله عليه وسلم وبينهم فلم يروه لكن يبقى الكلام في أن منع اللطيف الرؤية خلاف العادة أيضاً وهو بحث آخر فليتدبر ، ثم إن ما روي عن أسماء ليس نصاً في أن الحجاب في الآية هو الحجاب المانع عن الرؤية كما لا يخفى على من أمعن النظر وهذا القول إنما يحتاج إليه أن اعتبر تصحيح الحاكم أو نص على صحته من

(48/457)

اعتبر تصحيحه من المحدثين أما إذا لم يكن ذلك فأمره سهل ، وجعل الزمخشري ما تقدم حكاية لما قالوا

﴿ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءاذانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : 5] في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب على معنى جعلنا على زعمهم ولم يرتضه شيخ الإسلام لأن قصدهم بذلك إنما هو الإخبار بما اعتقدوه في حق القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم جهلاً وكفراً من اتصافهما بأوصاف مانعة من التصديق والإيمان ككون القرآن سحراً وشعراً وأساطير وقس عليه حال النبي عليه الصلاة والسلام

لا الإخبار بأن هناك أمراً وراء ما أدركوه قد حال بينهم وبين إدراكه حائل من قبلهم ، ولا ريب في أن ذلك المعنى مما لا يكاد يلائم المقام انتهى ، وقد يقال : حيث كان الكلام مسوقاً لتعداد قباحهم والإنكار عليهم فالملاءمة مما لا ريب فيها ، نعم اختيار الزمخشري هذا الوجه مما لا يخلو عن دسيسة اعتزالية ولا أظنها تخفى عليك ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى القرءان وَحْدَهُ ﴾ أي غير مقرون بذكره ذكر شيء من آلهتهم التي يزعمونها كما كانوا يقولون بالله تعالى واللات مثلاً ويصدق هذا بذكره سبحانه مع نفي الآلهة ، و﴿ وَحْدَهُ ﴾ عند الزمخشري مصدر الثلاثي يقال وحده يحده وحداً وحدة كوعده يعده وعداً وعدة وهو ساد مسد الحال بمعنى واحداً ، وقيل : هو مصدر أوحد على حذف الزوائد وأصله إيحاد ، ومذهب سيبويه أنه ليس بمصدر بل هو اسم موضوع موضع المصدر وهو إيحاد الموضوع موضع الحال وهو موحد .

ومذهب يونس أنه منصوب على الظرفية ، وتحقيق الأقوال فيه في الرفدة كما قدمنا ، وذكر أنه على الحالية إذا وقع بعد فاعل ومفعول كما هنا جاز كونه حالاً من كل منهما أي وإذا ذكرت ربك موحداً له أو موحداً بالذكر ﴿ وَلَّوْاْ على أدبارهم ﴾ هربوا أو نفروا ﴿ نُفُورًا ﴾ فهو مفعول مطلق منصوب بولوا لتقارب معناهما .

وجوز أن يكون مفعولاً لأجله أي ولوا لأجل النفور والانزعاج وأن يكون حالاً على أنه جمع نافر أي ولوا نافرين من ذلك والضمير للمشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس ما ظاهره أنه للشياطين ولا يكاد يصح عن الحبر إلا بتأويل .

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾

أي ملتبسين به من اللغو والاستخفاف والهزء بك وبالقرآن .

يروى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم عن يمينه رجلان من عبد الدار وعن يساره رجلان منهم فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار ، ويجوز أن تكون الباء للسببية أو بمعنى اللام أي نحن أعلم بما يستمعون بسببه أو لأجله من الخزء وهي متعلقة بيستمعون ، وجعلها على ظاهرها على معنى أيستمعون بقلوبهم أم بظاهر إسماعهم غير ظاهر ، والباء الأولى متعلقة بأعلم ، وأفعل التفضيل في العلم والجهل يتعدى بالباء وفي سوى ذلك يتعدى باللام فيقال هو أكسى للفقراء مثلاً ، والمراد من كونه تعالى أعلم بذلك الوعيد لهم .

﴿ إِذْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ ظرف لأعلم لا مفعول به ، وفائدته كما قال شيخ الإسلام تأكيد الوعيد بالاخبار بأنه كما يقع الاستماع المزبور منهم يتعلق به العلم لا أن العلم المستفاد هناك من أحد ، وليس المراد تقييد علمه تعالى بذلك الوقت وكذا قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ هُمْ نجوى ﴾ لكن من حيث تعلقه بما به التناجي المدلول عليه بسياق النظم .

والمعنى نحن أعلم بما يستمعون به مما لا خير فيه مما سمعت وبما يتناجون به فيما بينهم ، وجوز أن يكون الأول ظرفاً ليستمعون والثاني ظرفاً فليتناجون ، والمعنى نحن أعلم بما به الاستماع وقت استماعهم من غير تأخير وبما به التناجي وقت تناجيهم والأول أظهر ، و﴿ نجوى ﴾ مصدر مرفوع على الخبرية وفي ذلك ما في زيد عدل ، ويجوز أن يعتبر جمع نجى كقتل وقتيل أي إذ هم متناجون ﴿ إِذْ يَقُولُ الظالمون ﴾ بدل من إذ الثانية وبيان لما يتناجون به فهو غير ما يستمعون به لا معمول لا ذكر محذوفاً كما قيل .

و﴿ الظالمون ﴾ من المظهر الذي أقيم مقام المضمر للدلالة على أن تناجيهم باب من الظلم أي يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما تتبعون إن وجد منكم الاتباع فرضاً ، وجوز أن يكون المعنى ما تتبعون باللغو والهزء ﴿ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ أي سحر فجن فهو كقولهم : إن هو إلا رجل مجنون ، وقيل : جعل له سحر يتوصل بلطفه ودقته إلى ما يأتي به ويدعيه فهو في معنى قولهم ساحر ، وجعل بعضهم ﴿ مَّسْحُوراً ﴾ بمعنى ساحراً كمستور بمعنى ساتر ، وعن أبي عبيدة أن مسحوراً بمعنى جعل له سحر أو ذا سحر أي رئة ، ومن هذا قول امرء القيس :

أرانا موضعين لأمر غيب . . .

ونسحر بالطعام وبالشراب

وأراد نغذي ، وقول لبيد أو أمية بن أبي الصلت :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا . . .

عصافير من هذا الأنام المسحر

وكنوا بذلك عن كونه بشراً يتنفس ويأكل ويشرب لا يمتاز عنهم بشيء يقتضي اتباعه على زعمهم الفاسد ، ولا يخفى ما فيه من البعد حتى قال ابن قتيبة : لا أدري ما الذي حمل أبا عبيدة على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسروه بالوجوه الواضحة .

وقال ابن عطية : إنه لا يناسب قوله تعالى :

﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾

(51/457)

أي مثلوك فقالوا تارة شاعرة وتارة ساحرة وتارة مجنون مع علمهم بخلاف ﴿ فَضَلُّوا ﴾ في جميع ذلك عن منهاج المحاجة ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ طريقاً ما إلى طعن يمكن أن يقبله أحد فيتهافتون ويخبطون ويأتون بما لا يرتاب في بطلانه من سمعه أو إلى سبيل الحق

والرشاد ، وفيه من الوعيد وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى .

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾

عطف على ﴿ ضَرَبُوا ﴾ [الإسراء : 48] ولما عجب من ضربهم الأمثال عطف عليه أمراً آخر يعجب منه أيضاً .

وفي "الكشف" الأظهر أن يكون هذا إلى تمام المقالات الثلاث تفسيراً ل ﴿ ضربوا لك الأمثال ﴾ [الإسراء : 48] ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً ﴾ [الكهف : 32] وتفسيره بمثلوك غير ظاهر بل الظاهر مثلوا لك ، ولا خفاء إن تجاوب الكلام على ما ذكرنا أتم ، وذلك أنه لما ذكر استهزاءهم به صلى الله عليه وسلم وبالقرآن عجبه من استهزائهم بمضمونه من البعث دلالة على أنه أدخل في التعجب لأن العقل أيضاً يدل عليه ولكن على سبيل الإجمال ، وأما على تفسير ﴿ ضَرَبُواْ لَكَ الامثال ﴾ [الإسراء : 48] بمثلوك فوجهه أن يكون معطوفاً على قوله سبحانه : ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ [الإسراء : 48] لأنه باب من أبواب الضلال أو على مقدر دل عليه ﴿ كيف ضربوا ﴾ [الإسراء : 48] لأن معناه مثلوك وقالوا شاعر ساحر مجنون وقالوا : ﴿ أَن كُنَّا ﴾ الخ اه .

ولا يخفى أنه على التفسير الذي اختاره يكون ﴿ قَالُواْ ﴾ معطوفاً على ﴿ ضَرَبُواْ ﴾ [الإسراء : 48] أيضاً عطفاً تفسيرياً لكن الظاهر فيه حينئذ الفاء وأنه لا يحتاج على ما ذكرنا إلى تكلف العطف على مقدر والارتباط عليه لا يقصر عن الارتباط الذي ذكره ، وعطفه على ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ [الإسراء : 48] مما لا يحسن لعدم ظهور دخوله معه في حيز الفاء ، والاعتراض على التفسير بمثلوك بأنهم ما مثلوه عليه الصلاة والسلام بالشاعر والساحر مثلاً بل قالوا تارة كذا وأخرى كذا ، وأيضاً كان الظاهر أن يقال فيك بدل ﴿ لك ﴾ [الإسراء : 48] ليس بشيء لأن ما ذكروه على طريق التشبيه لتقريعه صلى الله عليه وسلم وعجزهم عن معارضته ، و ﴿ لَكَ ﴾ أظهر من فيك لأنه عليه الصلاة والسلام الممثل له ، هذا وأقول : انظر هل ثم مانع من عطف ﴿ قَالُواْ ﴾ على ﴿ يَقُولُ الظالمون ﴾ [الإسراء : 47] وجعل هذا القول مما يتناجون به أيضاً وإعلانهم به أحياناً لا يمنع من هذا الجعل وكذا اختلاف المتعاطفين ماضوية ومضارعية لا يمنع من العطف ، نعم يحتاج إلى نكتة ولا أظنها تخفى فتدبر .

والرفات ما تكسر وبلى من كل شيء ، وكثر بناء فعال في كل ما تحطم وتفرق كدقاق وفتات .

وأخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد أنه التراب وهو قول الفراء ، وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن عباس أنه الغبار ، وقال المبرد : هو كل شيء مدقوق مبالغ في دقه وهي أقوال

متقاربة ، والهمزة للاستفهام الإنكاري مفيدة لكمال الاستبعاد والاستنكار للبعث بعد ما آل الحال إلى هذا المآل كأنهم قالوا : إن ذلك لا يكون أصلاً .

ومنشؤه أن بين غضاضة الحي وطراوته المقتضية للاتصال المقتضى للحياة وبين يبوسة الرميم المقتضية للتفرق المقتضي لعدم الحياة تنافياً ، و﴿ إِذَا ﴾ هنا كما في "الدر المصون" متمحضة للظرفية والعامل فيها ما دل عليه .

(53/457)

قوله تعالى : ﴿ أَءنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ لا نفسه لأن إن لها الصدر فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، وكذا الاستفهام وإن كان تأكيداً مع كون الاستفهام بالفعل أولى وهو نبعث أو نعاد مصب الإنكار ، وتقييده بالوقت المذكور لتقوية إنكار البعث بتوجيهه إليه في حالة منافية له وإلا فالظاهر من حالهم أنهم منكرون للأحياء بعد الموت وإن كان البدن على حاله .

وجوز أن تكون شرطية وجوابها مقدر أي نبعث أو نحوه وهو العامل فيها .

ويل الشرط والمعنى انبعث وقد كنا رفاتاً في وقت وهو مذهب لبعض النحويين غير مشهور ولا معول عليه ، وتحلية الجملة بأن واللام لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد كما عسى يتوهم من ظاهر النظم ، وليس مدار إنكارهم كونهم ثابتين في المبعوثية بالفعل في حال كونهم

عظاماً ورفاتاً كما يرى من ظاهر الجملة الاسمية بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له ، ومرجعه إلى إنكار البعث بعد تلك الحالة ، وفيه من الدلالة على غلوهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيد عليه قاله بعض المحققين .

﴿ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ نصب بمبعوثين على أنه مفعول مطلق له من غير لفظ فعله أو حال على أن الخلق بمعنى المخوق ووحد لاستواء الواحد في المصدر وإن أريد منه اسم المفعول أي مخلوقين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(54/457)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءالِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ ﴾ .

قرأ ابن كثير ، وحفص : ﴿ يقولون ﴾ بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب للقائلين بأن مع الله آلهة أخرى ، وإذن : جواب عن مقالتهم الباطلة وجزاء ل "لو" ﴿ لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِى العرش ﴾ وهو الله سبحانه .

﴿ سَبِيلاً ﴾ : طريقاً للمغالبة والممانعة كما تفعل الملوك مع بعضهم البعض من المقاتلة والمصاولة ؛ وقيل : معناه إذن لابتغت الآلهة إلى الله القربة والزلفة عنده ، لأنهم دونه ،

والمشركون إنما اعتقدوا أنها تقرّبهم إلى الله .

والظاهر المعنى الأول ، ومثل معناه قوله سبحانه : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] .

ثم نزه تعالى نفسه ، فقال : ﴿ سبحانه ﴾ والتسبيح : التنزيه ، وقد تقدّم ، ﴿ وتعالى ﴾ متباعد ﴿ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ من الأقوال الشنيعة والفرية العظيمة ﴿ عُلُوّاً ﴾ أي : تعاليا ، ولكنه وضع العلوّ موضع التعالي كقوله : ﴿ والله أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] .

ثم وصف العلوّ بالكبر مبالغة في النزاهة ، وتنبيهاً على أن بين الواجب لذاته والممكن لذاته ، وبين الغني المطلق ، والفقير المطلق ، مباينة لا تعقل الزيادة عليها .

(55/457)

ثم بين سبحانه جلالة ملكه وعظمة سلطانه فقال : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ السموات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ ﴾ قرىء بالمثناة التحتية في يسبح ، وبالفوقية ، وقال : ﴿ فيهنّ ﴾ بضمير العقلاء لإسناده إليها التسبيح الذي هو فعل العقلاء ، وقد أخبر سبحانه عن السموات والأرض بأنها تسبحه ، وكذلك من فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول وهم الملائكة والإنس

والجن وغيرهم من الأشياء التي لا تعقل ، ثم زاد ذلك تعميماً وتأكيداً فقال : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ فشمل كل ما يسمى شيئاً كائناً ما كان ، وقيل : إنه يحمل قوله : ﴿ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ على الملائكة والثقلين ، ويحمل ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ على ما عدا ذلك من المخلوقات .

وقد اختلف أهل العلم في هذا العموم هل هو مخصوص أم لا ؟ فقالت طائفة : ليس بمخصوص ، وحملوا التسبيح على تسبيح الدلالة ، لأن كل مخلوق يشهد على نفسه ويدلّ غيره بأن الله خالق قادر .

وقالت طائفة : هذا التسبيح على حقيقته والعموم على ظاهره .

والمراد أن كل المخلوقات تسبح لله سبحانه هذا التسبيح الذي معناه التنزيه وإن كان البشر لا يسمعون ذلك ولا يفهمونه ، ويؤيد هذا قوله سبحانه : ﴿ ولكن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمراً مفهوماً لكل أحد ، وأجيب : بأن المراد بقوله ﴿ لَّا تَفْقَهُونَ ﴾ الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار .

وقالت طائفة : إن هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين دون الجمادات ، وقيل : خاص بالأجسام النامية فيدخل النباتات ، كما روي هذا القول عن عكرمة والحسن وخصا تسبيح النباتات بوقت نموها لا بعد قطعها .

وقد استدلّ لذلك بحديث : " أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ على قبرين .

..

وفيه : ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين ، وقال : "إنه يخفف عنهما ما لم ييبسا " .

(56/457)

ويؤيد حمل الآية على العموم قوله : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ يُسَبّحْنَ بالعشى والإشراق ﴾ [ص : 18] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [البقرة : 74] .

وقوله : ﴿ وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً ﴾ [مريم : 90] ، ونحو ذلك من الآيات .

وثبت في الصحيح أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام ، وهم يأكلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهكذا حديث حنين الجذع ، وحديث : أن حجراً بمكة كان يسلّم على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكلها في الصحيح ، ومن ذلك تسبيح الحصى في كفه صلى الله عليه وسلم ، ومدافعة عموم هذه الآية بمجرّد الاستبعادات ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده .

ومعنى ﴿ إِلاَّ يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ إلاّ يسبح متلبساً بحمده ﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ .

قرأ الحسن ، وأبو عمرو ، ويعقوب ، وحفص ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف (تسبح) بالمثناة الفوقية على الخطاب ، وقرأ الباقون بالتحتية ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ فمن حلمه الإمهال لكم وعدم إنزال عقوبته عليكم ، ومن مغفرته لكم أنه لا يؤاخذ من تاب منكم .

ولما فرغ سبحانه من الإلهيات شرع في ذكر بعض من آيات القرآن وما يقع من سامعيه فقال :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾

جعلنا بينك يا محمد وبين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً أي : إنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب يمرّون بك ولا يرونك ، ذكر معناه الزجاج وغيره ، ومعنى ﴿ مستوراً ﴾ : ساتر .

(57/457)

قال الأخفش : أراد ساتراً ، والفاعل قد يكون في لفظ المفعول كما تقول : إنك لمشئوم وميمون ، وإنما هو شائم ويامن ؛ وقيل : معنى ﴿ مستوراً ﴾ : ذا ستر ، كقولهم : سيل مفعم : أي : ذو إفعام ، وقيل : هو حجاب لا تراه الأعين فهو مستور عنها ، وقيل : حجاب من دونه حجاب فهو مستور بغيره ، وقيل : المراد بالحجاب : المستور الطبع والختم .

﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ الأكنة : جمع كنان .

وقد تقدّم تفسيره في الأنعام ، وقيل : هو حكاية لما كانوا يقولونه ، من قولهم : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [البقرة : 88] ﴿ وفي آذننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ [فصلت : 5] .

و﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ مفعول لأجله ، أي : كراهة أن يفقهوه ، أو لئلا يفقهوه ، أي : يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحكم والمعاني ﴿ وفي آذانهم وقرا ﴾ أي : صمماً وثقلاً ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : أن يسمعوه .

ومن قبائح المشركين أنهم كانوا يحبون أن يذكر آلهتهم كما يذكر الله سبحانه ، فإذا سمعوا ذكر الله دون ذكر آلهتهم نفروا عن المجلس ، ولهذا قال الله : ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ﴾ أي : واحداً غير مشفوع بذكر آلهتهم ، فهو مصدر وقع موقع الحال ﴿ وَلَّوْا على أدبارهم نُفُوراً ﴾ هو مصدر ، والتقدير : هربوا نفورا ، أو نفروا نفوراً ؛ وقيل : جمع نافر كقاعد وقعود .

والأوّل أولى .

ويكون المصدر في موضع الحال أي : ولوا نافرين .

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾ أي : يستمعون إليك متلبسين به من الاستخفاف بك وبالقرآن واللغو في ذكرك لربك وحده ، وقيل : الباء زائدة والظرف في ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ متعلق ب ﴿ أعلم ﴾ أي : نحن أعلم وقت يستمعون إليك بما يستمعون به ، وفيه تأكيد للوعيد ، وقوله : ﴿ وَإِذْ هُمْ نجوى ﴾ متعلق بأعلم أيضاً ، أي : ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيهم ، وقد كانوا يتناجون بينهم بالتكذيب والاستهزاء ، ﴿ يقول ﴾ بدل من ﴿ إذ هم نجوى ﴾ .

﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ أي : يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم : ما تتبعون إلاّ رجلاً سحر فاختلط عقله وزال عن حدّ الاعتدال .

قال ابن الأعرابيّ : المسحور الذاهب العقل الذي أفسد ، من قولهم : طعام مسحور إذا أفسد عمله ، وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فأفسدها ؛ وقيل : المسحور : المخدوع ، لأن السحر حيلة وخديعة ، وذلك لأنهم زعموا أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يتعلم من بعض الناس ، وكانوا يخدعونه بذلك التعليم .

وقال أبو عبيدة : معنى ﴿ مسحوراً ﴾ أن له سحراً ، أي : رئة ، فهو لا يستغني عن الطعام والشراب فهو مثلكم ، وتقول العرب للجبان : قد انتفخ سحره ، وكل من كان يأكل من آدمي أو غيره مسحور ، ومنه قول امرىء القيس :

أرانا موضعين لأمر غيب . . . ونسحر بالطعام وبالشراب

أي : نغذى ونعلل .

قال ابن قتيبة : لا أدري ما حمله على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسرّوه بالوجوه الواضحة .

﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال ﴾ أي قالوا تارة : إنك كاهن ، وتارة ساحر ، وتارة شاعر ، وتارة مجنون ﴿ فضلّواْ ﴾ عن طريق الصواب في جميع ذلك ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ إلى الهدى أو إلى الطعن الذي تقبله العقول ويقع التصديق له لا أصل الطعن ، فقد فعلوا منه ما قدروا عليه ؛ وقيل : لا يستطيعون مخرجاً لتناقض كلامهم كقولهم : ساحر مجنون .

(59/457)

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِى العرش سَبِيلاً ﴾ قال : على أن يزيلوا ملكه .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الرحمن بن قرط : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به إلى المسجد الأقصى كان جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فطارا به حتى

بلغ السموات العلى ، فلما رجع قال : " سمعت تسبيحاً من السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلوّ بما علا ، سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى "

وأخرج ابن مردويه عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو جالس مع أصحابه إذ سمع هدّة فقال : " أطت السماء ويحقها أن تئط ، والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلاّ فيه جبهة ملك ساجد يسبح بحمده " وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه ؟ إن نوحاً قال لابنه : يا بني آمرك أن تقول : سبحان الله ، فإنها صلاة الخلائق ، وتسبيح الخلق ، وبها يرزق الخلق " قال الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ .

وأخرج أحمد ، وابن مردويه من حديث ابن عمر نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال : ما من عبد سبّح تسبيحة إلاّ سبّح ما خلق الله من شيء ، قال الله ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ قال ابن كثير : إسناده فيه ضعف .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قرصت نملة نبياً من الأنبياء ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحي الله إليه : من أجل نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح " وأخرج النسائي ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن ابن عمرو قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفدع وقال : " نقيقها تسبيح " وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ قال : الزرع يسبح وأجره لصاحبه ، والثوب يسبح ويقول الوسخ : إن كنت مؤمناً فاغسلني إذن .

وأخرج أبو الشيخ عنه قال : كل شيء يسبح إلاّ الكلب والحمار .

وأخرج ابن راهويه في مسنده من طريق الزهري قال : أتى أبو بكر بغراب وافر الجناحين ، فجعل ينشر جناحيه ويقول : ما صِيد من صيدٍ ولا عضد من شجرة إلاّ بما ضيعت من التسبيح .

وأخرجه أحمد في الزهد ، وأبو الشيخ عن ميمون بن مهران قال : أتى أبو بكر الصديق فذكره من قوله غير مرفوع .

وأخرجه أبو نعيم في الحلية ، وابن مردويه من حديث أبي هريرة بنحوه .

وأخرج ابن مردويه من حديث ابن مسعود بمعنى بعضه .

وأخرج أبو الشيخ من حديث أبي الدرداء بمعناه .

وأخرج ابن عساكر من حديث أبي رهم نحوه .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : هذه الآية في التوراة كقدر ألف آية ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ قال : في التوراة تسبح له الجبال ويسبح له الشجر ، ويسبح له كذا ويسبح له كذا .

وأخرج أحمد ، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : صلى داود ليلة حتى أصبح ، فلما أصبح وجد في نفسه سروراً ، فنادته ضفدعة : يا داود ، كنت أدأب منك قد أغفيت إغفاء .

(61/457)

وأخرج البيهقي في الشعب عن صدقة بن يسار قال : كان داود في محرابه فأبصر دودة صغيرة ففكر في خلقها وقال : ما يعبأ الله بخلق هذه ، فأنطقها الله فقالت : يا داود ، أتعجبك نفسك ، لأنا على قدر ما آتاني الله أذكر لله وأشكر له منك على ما آتاك الله ، قال الله : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ .

وفي الباب أحاديث وروايات عن السلف فيها التصريح بتسبيح جميع المخلوقات .

وأخرج أبو يعلى ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي

عن أسماء بنت أبي بكر قال : لما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ [المسد : 1] أقبلت العوراء أم جميل ولها ولولة ، وفي يدها فهر وهي تقول :

مذمماً أبينا . . . ودينه قلينا وأمره عصينا

ورسول الله جالس وأبو بكر إلى جنبه ، فقال أبو بكر : لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك ، فقال : إنها لن تراني ، وقرأ قرآناً اعتصم به كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القرءان جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم ترَ النبيّ فقالت : يا أبا بكر بلغني أن صاحبك هجاني ، فقال أبو بكر : لا وربّ هذا البيت ما هجاك ، فانصرفت وهي تقول : قد علمت قريش أني بنت سيدها ، وقد رويت هذه القصة بألفاظ مختلفة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القرءان جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ قال : الحجاب المستور : أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وأن ينتفعوا به ، أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد في الآية قال : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن على المشركين بمكة سمعوا قراءته ولا يرونه .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَّوْا على أدبارهم نُفُوراً ﴾ قال : الشياطين .

وأخرج ابن مردويه عنه في قوله : ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ قال : عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(63/457)

وقال القاسمى :

ثم مثل تعالى حالة المشركين مع التنزيل الكريم ، حينما يقرؤه عليهم الرسول ، صلوات الله عليه ، يدعوهم إلى العمل بما فيه من التوحيد ، ورفض الشرك وغير ذلك من ضلالهم ، بمن طمس على بصيرته وبصره وسمعه ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ ﴾

أي : على هؤلاء المشركين : ﴿ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ أي : لا يصدقون بالبعث ولا يقرون بالثواب والعقاب ، جزاء على الأعمال : ﴿ حِجَاباً مَّسْتُوراً

﴾ أي : من الجهل وعمى القلب . فيحجب قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرؤه عليهم فينتفعوا به ؛ عقوبة منا لهم على كفرهم .

ومعنى كون الحجاب مستوراً ، أي : عن العيون ، فلا تدركه أبصارهم . وعن الأخفش : إن (مفعولاً) يرد بمعنى (فاعل) كميمون ومشؤوم بمعنى يامن وشائم . كما أن (فاعلاً) يرد بمعنى (مفعول) كماء دافق .

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أي : أغطية كثيرة ، جمع (كنان) : ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ أي : كراهة أن يفقهوه : ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ أي : صمماً يمنعهم من استماعه . وذلك ما يتغشاها من خذلان الله تعالى إياها ، عن فهم ما يتلى عليهم والإنصات له .

قال أبو السعود : هذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشؤون النبي صلى الله عليه وسلم ، وفرط نبوٍّ قلوبهم عن القرآن الكريم ، ومج أسماعهم له . جيء بها بياناً لعدم فقههم لتسبيح لسان المقال ، إثر بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال ، وإيذاناً بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يصور عدم فهمه ، إلا لمانع قوي يعتري المشاعر فيبطلها ؛ تنبيهاً على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق .

﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ ﴾ أي : غير مشفوع بذكره ذكر شيء من آلهتهم : ﴿ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ أي : هرباً من استماع التوحيد . قال القاشانيّ : لتشتت أهوائهم ، وتفرق هممهم في عبادة متعبداتهم ، من أصناف [في المطبوع أصنام] الجسمانيات

والشهوات . فلا يناسب بواطنهم معنى الوحدة ؛ لتألفها بالكثرة واحتجابها بها . ثم أخبر تعالى عما يتناجى به المشركون ، رؤساء قريش ، بقوله متوعداً لهم :

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾ أي : بسببه أو لأجله من الهزء والاستخفاف واللغو : ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ أي : سحر ، فجُنَّ فاختلط كلامه .

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ ﴾ أي : مثلوك بالشاعر والساحر المجنون : ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ أي : عن الحق والهداية بك : ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً ﴾ أي : فلا يهتدون لطريق الحق لضلالهم عنه وبعدهم منه ، وأن الله قد خذلهم عن إصابته . أو المعنى فلا يستطيعون سبيلاً إلى طعن يمكن أن يقبله أحد ، بل يخبطون بما لا يرتاب في بطلانه أحد . كالمتحير في أمره لا يدري ماذا يصنع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 487.485 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) ﴾

عطف جملة على جملة وقصة على قصة ، فإنه لما نوّه بالقرآن في قوله : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ [الإسراء : 9] ، ثم أعقب بما اقتضاه السياق من الإشارة إلى ما جاء به القرآن من أصول العقيدة وجوامع الأعمال وما تخلل ذلك من المواعظ والعبر عاد هنا إلى التنبيه على عدم انتفاع المشركين بهدي القرآن لمناسبة الإخبار عن عدم فقههم دلالةَ الكائنات على تنزيه الله تعالى عن النقائص ، وتنبيهاً للمشركين على وجوب إقلاعهم عن بعثهم وعنادهم ، وتأميناً للنبيء من مكرهم به وإضمارهم إضراره ، وقد كانت قراءته القرآن تغيظهم وتثير في نفوسهم الانتقام .

وحقيقة الحجاب : الساتر الذي يحجب البصر عن رؤية ما وراءه .

وهو هنا مستعار للصرفة التي يصرف الله بها أعداء النبي عليه الصلاة والسلام عن الإضرار به للإعراض الذي يعرضون به عن استماع القرآن وفهمه .

وجعل الله الحجاب المذكور إيجادَ ذلك الصارف في نفوسهم بحيث يهمون ولا يفعلون ، وذلك من خور الإرادة والعزيمة بحيث يخطر الخاطر في نفوسهم ثم لا يصممون ، وتخطر معاني القرآن في أسماعهم ثم لا يتفهمون .

وذلك خلق يسري إلى النفوس تدريجياً تغرسه في النفوس بادئَ الأمر شهوةُ الإعراض وكراهية المسموع منه ثم لا يلبث أن يصير ملكة في النفس لا تقدر على خلعه ولا تغييره.

وإطلاق الحجاب على ما يصلح للمعنيين إما للحمل على حقيقة اللفظ، وإما للحمل على ما له نظير في القرآن.

وقد جاء في الآية الأخرى ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ [فصلت : 5].

(66/457)

ولما كان إنكارهم البعث هو الأصل الذي استبعدوا به دعوة النبي حتى زعموا أنه يقول محالاً إذ يخبر بإعادة الخلق بعد الموت ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مُزّقتم كل ممزق إنكم لفي خَلْق جديد أفترى على الله كذباً أم به جنة ﴾ [سبأ : 7 - 8] استحضروا في هذا الكلام بطريق الموصولة لما في الصلة من الإيماء إلى علة جَعل ذلك الحجاب بينه وبينهم فلذلك قال : وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ .

ووصف الحجاب بالمستور مبالغة في حقيقة جنسه، أي حجاباً بالغاً الغاية في حجب ما يحجبه هو حتى كأنه مستور بساتر آخر، فذلك في قوة أن يقال : جعلنا حجاباً فوق حجاب.

ونظيره قوله تعالى : ﴿ ويقولون حجراً محجورا ﴾ [الفرقان : 22] .

أو أريد أنه حجاب من غير جنس الحجب المعروفة فهو حجاب لا تراه الأعين ولكنها ترى آثار أمثاله .

وقد ثبت في أخبار كثيرة أن نفراً هموا الإضرار بالنبي فما منهم إلا وقد حدَث له ما حال بينه وبين همه وكفى الله نبيئه شرهم ، قال تعالى : ﴿ فسيكفيكهم الله ﴾ [البقرة : 137] وهي معروفة في أخبار السيرة .

وفي الجمع بين حجاباً ﴾ و ﴿ مستوراً ﴾ من البديع الطباقُ .

﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وفى ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾

عطف جعل على جعل .

والتصريح بإعادة فعل الجعل يؤذن بأن هذا جعل آخر فيرجّح أن يكون جعل الحجاب المستور جعل الصرفة عن الإضرار ، ويكون هذا جعل عدم التدبر في القرآن خلقة في نفوسهم .

والقول في نظم هذه الآية ومعانيها تقدم في نظيرها في سورة الأنعام .

لما كان الإخبار عنهم قبل هذا يقتضي أنهم لا يفقهون معاني القرآن تبع ذلك بأنهم يُعرضون عن فهم ما فيه خير لهم ، فإذا سمعوا ما يبطل إلهية أصنامهم فهموا ذلك فولوا على أدبارهم نفوراً ، أي زادهم ذلك الفهم ضلالاً كما حرمهم عدمُ الفهم هدياً ، فحالهم متناقض .

فهم لا يسمعون ما يحق أن يسمع ، ويسمعون ما يَهْوَوْنَ أن يسمعوه ليزدادوا به كفراً .

ومعنى "ذكرت ربك وحده" ظاهره أنك ذكرته مقتصراً على ذكره ولم تذكر آلهتهم لأن ﴿ وحده ﴾ حال من ﴿ ربك ﴾ الذي هو مفعول ﴿ ذكرت ﴾ .

ومعنى الحال الدلالة على وجود الوصف في الخارج ونفسِ الأمر ، أي كان ذكرك له ، وهو موصوف بأنه وحده في وجود الذكر ، فيكون تولي المشركين على أدبارهم حينئذٍ من أجل الغضب من السكوت عن آلهتهم وعدم الاكتراث بها بناءً على أنهم يعلمون أنه ما سكت عن ذكر آلهتهم إلا لعدم الاعتراف بها .

ولولا هذا التقدير لما كان لتوليهم على إدبارهم سبب ، لأن ذكر شيء لا يدل على إنكار غيره فإنهم قد يذكرون العُزى أو اللاتَ مثلاً ولا يذكرون غيرها من الأصنام لا يظن أن الذاكر للعزى منكر مناة ، وفي هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ [الزمر : 45] .

ويحتمل أن المعنى : إذا ذكرت ربك بتوحيده بالإلهية وهو المناسب لنفورهم وتوليهم ، لأنهم إنما ينكرون انفراد الله تعالى بالإلهية ، فتكون دلالة وحده ﴾ على هذا المعنى بمعونة المقام

وفِعل ﴿ ذكرت ﴾ .

ولعل الحال الجائية من معمول أفعال القول والذكر ونحوهما تحتمل أن يكون وجودُها في الخارج ، وأن يكون في القول واللسان ، فيكون معنى "ذكرت ربك وحده" أنه موحد في ذِكرك وكلامك ، أي ذكرتَه موصوفاً بالوحدانية .

وتخصيص الذكر بالكون في القرآن لمناسبته الكلام على أحوال المشركين في استماع القرآن ، أو لأن القرآن مقصود منه التعليم والدعوة إلى الدين ، فخلو آياته عن ذكر آلهتهم مع ذكر اسم الله يفهم منه التعريض بأنها ليست بآلهة فمن ثم يغضبون كلما ورد ذكر الله ولم تذكر آلهتهم ، فكونه في القرآن هو القرينة على أنه أراد إنكار آلهتهم .

وقوله : ﴿ وحده ﴾ تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ أجئتنا لنعبد الله وحده ﴾ في [الأعراف : 70] .

(68/457)

والتولية : الرجوع من حيث أتى .

وعلى أدبارهم تقدم القول فيه في قوله تعالى : ﴿ ولا ترتدوا على أدباركم ﴾ في سورة العقود [المائدة : 21] .

و ﴿ نفوراً ﴾ يجوز أن يكون جمع نافر مثل سُجود وشُهود .

ووزن فُعول يطرد في جمع فاعل فيكون اسم الفاعل على صيغة المصدر فيكون نفوراً على هذا منصوباً على الحال من ضمير ﴿ ولوا ﴾ ، ويجوز جعله مصدراً منصوباً على المفعولية لأجله ، أي ولوا بسبب نفورهم من القرآن .

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾

كان المشركون يحيطون بالنبي صلى الله عليه وسلم في المسجد الحرام إذا قرأ القرآن يستمعون لما يقوله ليتلقفوا ما في القرآن مما ينكرونه ، مثل توحيد الله ، وإثبات البعث بعد الموت ، فيعجب بعضُهم بعضاً من ذلك ، فكان الإخبار عنهم بأنهم جُعلت في قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر وأنهم يولون على أدبارهم نفوراً إذا ذكر الله وحده ، ويثير في نفس السامع سُؤالاً عن سبب تجمعهم لاستماع قراءة النبي عليه الصلاة والسلام ، فكانت هذه الآية جواباً عن ذلك السؤال .

فالجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً .

وافتتاح الجملة بضمير الجلالة لإظهار العناية بمضمونها .

والمعنى : أنّ الله يعلم علماً حقاً داعي استماعهم ، فإن كثرت الظنون فيه فلا يعلم أحد ذلك السبب .

"وأعلَم" اسم تفضيل مستعمل في معنى قوة العلم وتفصيله .

وليس المراد أن الله أشد علماً من غيره إذ لا يقتضيه المقام .

والباء في قوله : ﴿ بما يستمعون ﴾ لتعدية اسم التفضيل إلى متعلقه لأنّه قاصر عن التعدية إلى المفعول .

واسم التفضيل المشتق من العلم ومن الجهل يُعدى بالباء وفي سوى ذينك يعدى باللام .

يقال : هو أعطَى للدراهم .

والباء في ﴿ يستمعون به ﴾ للملابسة .

والضمير المجرور بالباء عائد إلى (ما) الموصولة ، أي نحن أعلم بالشيء الذي يلابسهم حين يستمعون إليك ، وهي ظرف مستقر في موضع الحال .

(69/457)

والتقدير : متلبسين به .

وبيان إبْهام (ما) حاصل بقوله : ﴿ إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى ﴾ .

و(إذ) ظرف ل ﴿ يستمعون به ﴾ .

والنجوى : اسم مصدر المناجاة ، وهي المحادثة سِراً .

وتقدم في قوله : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم ﴾ في سورة ﴿ النساء : 114] .

وأخبر عنهم بالمصدر للمبالغة في كثرة تناجيهم عند استماع القرآن تشاغُلاً عنه .

وإذ هم نجوى ﴾ عطف على ﴿ إذ يستمعون إليك ﴾ ، أي نحن أعلم بالّذي يستمعونه ، ونحْن أعلم بنجواهم .

و ﴿ إذ يقول ﴾ بَدل من ﴿ إذ هم نجوى ﴾ بدل بعض من كل ، لأن نجواهم غير منحصرة في هذا القوْل .

وإنما خص هذا القول بالذكر لأنه أشدّ غرابة من بقية آفاكهم للبون الواضح بين حال النبي صلى الله عليه وسلم وبين حال المسحور .

ووقع إظهار في مقام الإضمار في ﴿ إذ يقول الظالمون ﴾ دون : إذ يقولون ، للدلالة على أن باعث قولهم ذلك هو الظلم ، أي الشرك فإن الشرك ظلم ، أي ولولا شركهم لما مثل عاقل حالة النبي الكاملة بحالة المسحور .

ويجوز أن يراد الظلم أيضاً الاعتداء ، أي الاعتداء على النبي صلى الله عليه وسلم كذباً .

﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (48) ﴾

جملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً ونظائرها كثيرة في القرآن .

والتعبير بفعل النظر إشارة إلى أنه بلغ من الوضوح أن يكون منظوراً .

والاستفهام بـ (كيف) للتعجيب من حالة تمثيلهم للنبيء عليه الصلاة والسلام بالمسحور ونحوه .

وأصل (ضرب) وضع الشيء وتثبيته يقال : ضرب خيمة ، ويطلق على صوغ الشيء على حجم مخصوص ، يقال : ضرب دنانير ، وهو هنا مستعار للإبراز والبيان تشبيهاً للشيء المبرز المبين بالشيء المثبت .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ﴾ في [البقرة : 26] .

واللام في لك ﴾ للتعليل والأجْل ، أي ضربوا الأمثال لأجلك ، أي لأجل تمثيلك ، أي مثلوك .

يقال : ضربت لك مثلاً بكذا .

(70/457)

وأصله مثلتك بكذا ، أي أجِد كذا مثلاً لك ، قال تعالى : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ [النحل : 74] وقال : ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ﴾ [يس : 13] أي اجعلهم مثلاً لحالهم .

وجمع الأمثال ﴾ هنا ، وإن كان المحكي عنهم أنهم مثلوه بالمسحور ، وهو مثل واحد ، لأن المقصود التعجيب من هذا المثل ومن غيره فيما يصدر عنهم من قولهم : هو شاعر ، هو كاهن ، هو مجنون ، هو ساحر ، هو مسحور .

وسميت أمثالاً باعتبار حالهم لأنهم تحيروا فيما يصفونه به للناس لئلا يعتقدوه نبيئاً ، فجعلوا يتطلبون أشبه الأحوال بحاله في خيالهم فيلحقونه به ، كمن يدرج فرداً غريباً في أشبه الأجناس به ، كمن يقول في الزرافة : إنها مِن الأفراس أو من الإبل أو من البقر .

وفُرع ضَلالُهم على ضرب أمثالهم لأن ما ضربوه من الأمثال كله باطل وضلال وقوة في الكفر .

فالمراد تفريع ضلالهم الخاص ببطلان تلك الأمثال ، أي فظهر ضلالهم في ذلك كقوله : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا ﴾ [القمر : 9] .

ويجوز أن يراد بالضلال هنا أصل معناه ، وهو الحيرة في الطريق وعدم الاهتداء ، أي ضربوا لك أشباهاً كثيرة لأنهم تحيروا فيما يعتذرون به عن شأنك العظيم .

وتفريع فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ على ﴿ فضلوا ﴾ تفريع لتوغلهم في الحيرة على ضلالهم في ضرب تلك الأمثال .

والسبيل : الطريق ، واستطاعته استطاعة الظفر به ، فيجوز أن يراد بالسبيل سبيل الهدى على الوجه الأول في تفسير الضلال ، ويجوز أن يكون تمثيلاً لحال ضلالهم بحال الذي وقف في فيفاء لا يدري من أية جهة يسلك إلى المقصود ، على الوجه الثاني في تفسير الضلال .

والمعنى على هذا : أنهم تحيروا كيف يصفون حالك للناس لتوقعهم أن الناس يكذبونهم ، فلذلك جعلوا ينتقلون في وصفه من صفة إلى صفة لاستشعارهم أن ما يصفونه به باطل لا

يطابقه الواقع .

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) ﴾

(71/457)

يجوز أن يكون جملة ﴿ وقالوا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ قل لو كان معه آلهة كما تقولون ﴾ [الإسراء : 42] باعتبار ما تشتمل عليه من قوله : كما تقولون لقصد استئصال ضلالة أخرى من ضلالاتهم بالحجّة الدامِغة ، بعد استئصال الّتي قبلها بالحجة القاطعة بقوله قل لو كان معه آلهة كما تقولون الآية وما بينهما بمنزلة الاعتراض .

ويجوز أن تكون عطفاً على جملة ﴿ إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ [الإسراء : 47] التي مضمونها مظروف للنجوى ، فيكون هذا القول مما تَناجَوْا به بينهم ، ثم يجهرون بإعلانه ويعُدونه حجتهم على التكذيب .

والاستفهام إنكاري .

وتقديم الظرف من قوله : أئذا كنا عظاماً ﴾ للاهتمام به لأن مضمونه هو دليل الاستحالة في ظنهم ، فالإنكار متسلط على جملة ﴿ أئنا لمبعوثون ﴾ .

وقوة إنكار ذلك مقيد بحالة الكون عظاماً ورفاتاً ، وأصل تركيب الجملة : أإنا لمبعوثون إذا

كنا عظاماً ورفاتاً .

وليس المقصود من الظرف التقييد ، لأن الكون عظاماً ورفاتاً ثابت لكل من يموت فيبعث .

والبعث : الإرسال .

وأطلق هنا على إحياء الموتى ، لأن الميت يشبه الماكث في عدم مبارحة مكانه .

والعظام : جمع عظم ، وهوما منه تركيب الجسد للإنسان والدواب .

ومعنى ﴿ كنا عظاماً ﴾ أنهم عظام لا لحم عليها .

والرفات : الأشياء المرفوتة ، أي المفتتة .

يقال : رفَت الشيء إذا كسره كِسراً دقيقة .

ووزن فُعال يدل على مفعول أفعال التجزئة مثل الدقاق والحُطام والجُذاذ والفُتات .

و ﴿ خلقاً جديداً ﴾ حال من ضمير "مبعوثون" .

وذكر الحال لتصوير استحالة البعث بعد الفناء لأن البعث هو الإحياء ، فإحياء العظام

والرفات محال عندهم ، وكَوْنهم خلقاً جديداً أدخل في الاستحالة .

والخلق : مصدر بمعنى المفعول ، ولكونه مصدراً لم يتبع موصوفه في الجمع . انتهى . ا

هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) ﴾

في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير :

الأول - أن المعنى : وإذا قرأت القرآن جلعنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً . أي حائلاً وساتراً يمنعهم من تفهم القرآن وإدراكه لئلا يفقهوه فينتفعوا به . وعلى هذا القول - فالحجاب المستور هوما حجب الله به قلوبهم عن الانتفاع بكتابه . والآيات الشاهدة لهذا المعنى كثيرة . كقوله : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت : 5] ، وقوله : ﴿ خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة : 7] الآية ، وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ [الكهف : 57] الآية . إلى غير ذلك من الآيات ، وممن قال بهذا القول في معنى الآية : قتادة والزجاج وغيرهما .

الوجه الثاني في الآية - أن المراد بالحجاب المستور أن الله يستره عن أعين الكفار فلا يرونه . قال صاحب الدر المنثور في الكلام على هذه الآية . أخرج أبو يعلى وابن حاتم وصححه . وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن اسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : لما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد : 1] أقبلت العوراء أم جميل ولها ولولة

وفي يدها فهر وهي تقول :

مذمما أبينا . . . ودينه قلينا . . . . . . وأمره عصينا

(73/457)

ورسول الله جالس ، وابو بكر رضي الله عنه إلى جنبه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك ؟ فقال : " إنها لن تراني " وقرأ قرآنا اعتصم به . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ . فجاءت حتى قامت على أبي بكر رضي الله عنه فلم تر النّبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا ابا بكر ، بلغني أن صاحبك هجاني ! ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه : لا ورب هذا البيت ما هجاك . فانصرفت وهي تقول : قد علمت قريش أني بنت سيدها . غلى غير ذلك من الروايات بهذا المعنى .

وقال ابو عبد الله القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية ، بعد ان ساق بعض الروايات نحو ما ذكرنا في هذا الوجه الأخير ما نصه : ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور من أعمال قرطبة مثل هذا . وذلك أني هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه ، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من ألرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء ، وأنا أقرأ

أول سورة يس وغير ذلك من القرآن ، فعبروا علي ثم رجعا من حيث جاءا ، وأحدهما يقول للآخر : هذا ديبله (يعنون شيطاناً) وأعمى الله عز وجل ابصارهم فلم يروني اه

وقال القرطبي : إن هذا الوجه في معنى الآية هو الأظهر . والعلم عند الله تعالى .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ قال بعض العلماء : هو من إطلاق اسم المفعول وإرادة اسم الفاعل .

(74/457)

اي حجاباً ساتراً ، وقد يقع عكسه كقوله تعالى : ﴿ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق : 6] اي مدفوق ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21] اي مرضية . فإطلاق كل من اسم الفاعل واسم المفعول وإرادة الآخر أسلوب من أساليب اللغة العربية . والبيانيون يسمون مثل ذلك الإطلاق " مجازاً عقلياً " ومن أمثلة إطلاق المفعول وإرادة الفاعل كالقول في الآية – قولهم : ميمون ومشؤوم ، بمعنى يامن وشائم . وقال بعض أهل العلم : قوله ﴿ مَّسْتُوراً ﴾ على معناه الظاهر من كونه اسم مفعول ، لأن ذلك الحجاب مستور عن أعين الناس فلا يرونه . أو مستوراً به القارىء فلا يراه غيره . واختار هذا أبو حيان في البحر . والعلم عند الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وفي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : انه جلع لعلى قلوب الكفار أكنة ، (جمع كنان) وهو ما يستر الشيء ويغطيه ويكنه ، لئلا يفقهوا القرآن . أو كراهة أن يفقهوه لحيلولة تلك الأكنة بين قلوبهم وبين فقه القرآن . اي فهم معانيه فهماً ينتفع به صاحبه . وأنه جلع في آذانهم وقراً أي صمماً وثقلاً لئلا يسمعوه قبول وانتفاع .

(75/457)

وبين في مواضع أخر سبب الحيلولة بين القلوب وبين الانتفاع به ، وأنه هو كفرهم ، فجازاهم الله على كفرهم بطمس البصائر ، وإزاغة القلوب والطبع والختم والأكنة المانعة من وصول الخير إليها ، كقلوه تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : 5] الآية ، وقوله : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء : 155] ، قوله : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 110] ، وقوله : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : 10] الآية ، وقوله : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : 125] ، إلى غير ذلك من الآيات .

تنبيه

في هذه الآية الكريمة – الرد الواضح على القدرية في قولهم : إن الشر لا يقع بمشيئة الله ، بل بمشيئة العبد . سبحان الله وتعالى علواً كبيراً عن أن يقع في ملكه شيء ليس بمشيئته ؟ ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللهُ مَآ أَشْرَكُواْ ﴾ [الأنعام : 107] ، ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة : 13] الآية ، ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهدى ﴾ [الأنعام : 35] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرآن وَحْدَهُ وَلَّوْاْ على أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أن نبيه صلى الله عليه وسلم إذا ذكر ربه وحده في القرآن بأن قال " لا إله إلا الله " ولى الكافرون على أدبارهم نفوراً ، بغضاً منهم لكمة التوحيد ، ومحبة للإشراك به جل وعلا .

(76/457)

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر ، مبيناً أن نفورهم من ذكره وحده جل وعلا سبب خلودهم في النار ، كقوله : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشمأزت قُلُوبُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة وَإِذَا ذُكِرَ الذين مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر : 45] ، وقوله : ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُواْ فالحكم للَّهِ العلي الكبير ﴾ [غافر : 12] ،

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات : 35-36] ، وقوله : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى : 13] الاية ، وقوله : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ [الحج : 72] ، وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : 26] .

وقوله في هذه الآية : ﴿ نُفُوراً ﴾ جمع نافر . فهو حال . اي ولوا على أدبارهم في حال كونهم نافرين من ذكر الله وحده من دون إشراك . والفاعل يجمع على فعلو كساجد وسجود ، وراكع وروكوح .

وقال بعض العلماء : " نفوراً " مصدر ، وعليه فهم ما ناب عن المطلق من قوله ﴿ وَلَّوْا ﴾ لأن التولية عن ذكره وحده بمعنى النفور منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(77/457)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يعدل الأشياء تنفيذاً لأشياء أخرى، ويصنع أحداثاً أوّلية لتكون بمثابة المقدمة والتمهيد لأحداث أخرى أهم منها. وكفار مكة ما ادَّخروا وُسْعاً، وما تركوا وسيلة من وسائل الإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم والتنكيل به إلا فعلوها. ومع ذلك لم يُفَاجأ بها رسول الله، ولم تُثبِّط من عزيمته، لماذا؟ لأنه كان مُتوقّعاً لكل هذا الإيذاء، ولديه من سوابق الأحداث ما يعطيه الحصانة الكافية لمقابلة كل الشدائد.

فالمسألة لم تُفاجئ رسول الله؛ لأنه عرفها حتى قبل أن يُبعث، فحينما جاءه جبريل للمرة الأولى في الغار، وعاد إلى السيدة خديجة فَزِعاً ذهبتْ به إلى ابن عمها ورقة بن نوف، فطمأنه بأن هذا هو الناموس الإلهي، وأنه صلى الله عليه وسلم سيكون مبعوث السماء إلى الأرض، وأنه نبيُّ هذه الأمة، وقال فيما قال: ليتني أكون حياً حين يُخرِجك قومك، فقال صلى الله عليه وسلم: "أَمُخرجيّ هم؟".

قال: نعم، لم يأتي رجل بمثل ما جئتَ به إلا عودِي، وإنْ يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى حَصَّن رسوله صلى الله عليه وسلم ضد ما سيأتي من أحداث؛ لكي يكون على توقُّع لها، ولا تحدث له المفاجأة التي ربما ولدتْ الانهيار، وأعطاه الطُّعْم المناسب للداء قبل حدوثه؛ لتكون لديه المناعة الكافية عند وقوع الأحداث، واليقين الثابت في نصر الله له مهما ادْلهَمتْ الخطوب، وضاق الخناق عليه صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه.

والحديث عن الذين لا يؤمنون بالآخرة، وما داموا كذلك فليس لهم إلا الدنيا ، هي فرصتهم الوحيدة، لذلك يحرصون على استنفاد كل شهواتهم فيها ، ولا يؤخرون منها شيئاً ، فإنْ أجَّل المؤمن بعض مُتَعِه وشهواته انتظاراً لما في الآخرة فإلامَ يؤجل الكفار مُتعهم؟

(78/457)

إذن: الذي يجعل هؤلاء يتهافتون على شهواتهم في الدنيا أنهم غير مؤمنين بالآخرة.

فإذا جاء رسول بمنهج ليعدل حركة الناس لتنسجم مع الكون، فلا بُدّ أن يثور هؤلاء الكفار الحريصون على شهواتهم ومكانتهم، لا بُدَّ أنْ يصادموا هذه الدعوة، ويقاوموها في ذات الرسول وفي منهجه، في ذاته بالإيذاء، وفي دعوته ومنهجه بصَرْف الناس عنه، ألم يقل الكفار لمن يَروْن عنده مَيْلاً للإسلام: ﴿ لاَ تَسْمَعُوا لِهَاذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: 26]

وقولهم: ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَاذَا الْقُرْآنِ . . ﴾ [فصلت: 26]

شهادة منهم بصدق القرآن الكريم، وأنه ينفذ إلى القلوب ويؤثر فيها ، وإلا لما قالوا هذا القول.

وقولهم: ﴿ وَالْغَوْاْ فِيهِ . . ﴾ [فصلت: 26]

أي: هرَّجوا وشَوِّشوا عليه حتى لا يصل إلى آذان الناس ، إذن: هم واثقون من صدق رسول الله وصدق دعوته ، وقد دلَّتْ تصرفاتهم على ذلك ، فحينما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهب إلى الكعبة ، ويجلس بجوارها يُدندِن بآيات القرآن كان صناديد الكفر في مكة يتعمدون سماع القرآن ، والتلذُّذ بروعته وبلاغته .

فقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ [الإسراء: 45]

يُرْوَى أن أبا جهل ، وأبا سفيان ، وأبا لهب ، وأم جميل كانوا يتابعون رسول الله ، ويتنصتون عليه وهو يقرأ القرآن ليروْا ما يقول ، وليجدوا فرصة لإيذائه صلى الله عليه وسلم ، فكان الحق سبحانه يصمُّ آذانهم عن سماع القرآن ، فالرسول يقرأ وهم لا يسمعون شيئاً ، فينصرفون عنه بغيظهم .

(79/457)

وكأن الحق سبحانه يريد من هذه الواقعة أن تكون تمهيداً لحدث أهم ، وهو ما كان من رسول الله ليلة الهجرة ، ليلة أنْ بيّتوا له القتل بضربة رجل واحد ، فتحرسه عناية الله وتقوم له: اخرج عليهم ولا تخف ، فإن الذي جعلك تقرأ وجعل بينك وبينهم حجاباً فلا يستمعون

إليك ، هو الذي سينزل على أعينهم غشاوة فلا يرونك .

ومع إحكام خيوط هذه المؤامرة لم يخرج الرسول من بينهم صامتاً يحبس أنفاسه خَوْفاً ، بل خرج وهو يقول " شاهت الوجوه " وهو لا يخشى انتباههم إليه ، وأكثر من ذلك: يأخذ حفنة من التراب ويذروها على وجوههم ، إنها الثقة واليقين في نصره وتأييده .

وقوله: ﴿ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ [الإسراء: 45]

الحجاب: هو المانع من الإدراك ، فإنْ كان للعين فهو مانع للرؤية ، وإنْ كان للأذن فهو مانع للسمع .

وكلمة ﴿ مَّسْتُوراً ﴾ اسم مفعول من الستر ، فلم يقل الحق سبحانه وتعالى (ساتراً) ، وهذا من قبيل المبالغة في الستر والإخفاء ، فالمعنى أن الحجاب الذي يمنعهم من سماعك أو رؤيتك هو نفسه مستور ، فإن كان الحجاب نفسه مستوراً ، فما بالُكَ بما خلفه ؟

ولاشكَّ أن الذِّهْن سينشغل هنا بالحجاب المادي ، لكن هذا الحجاب الذي يتحدث عنه الحق سبحانه حجاب معنويّ ولا يراه أحد ، كما في قوله تعالى: ﴿ رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد: 2]

فلو قال: بغير عَمَد وسكت فقد نفى وجود عمد للسماء وانتهت المسألة ، وأدخلناها تحت قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ ﴾ [فاطر: 41] فالأمر قائم على قدرة الله دون وجود عَمَدٍ تحمل السماء .

لكن قوله سبحانه: ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ تجعل المعنى صالحاً لأنْ نقول بغير عَمَد ، وأنتم ترونها كذلك ، فننظر هنا وهناك فلا نجد للسماء عمداً تحملها ، أو نقول: إن لها عمداً لكِنَّا لا نراها ، فهي عَمَد معنوية ، فلا ينصرف ذهنك إلى ما نقيمه نحن من عَمد المسلح أو الرخام أو الحديد .

(80/457)

وفي هذا ما يدُكُّ الغرور في الإنسان ، ليعلم أنه لا يدرك إلا ما أذن الله له في إدراكه ، وأن حواسَّ الإدراك لديه قد تتوقف عن هذا الإدراك ، فليس معنى أنها مدركة أن تظل مدركة دائماً ، فليس لها طلاقة لتفعل ما تشاء ، بل الحق سبحانه وتعالى يعطيها هذه القدرة ، أو يسلبها إياها .

فالقدرة الإلهية هي التي تُسيِّر هذا الكون ، وتأمر كل شيء بأن تُؤدِّي مهمته في الحياة ، وإنْ شاء عطّلها عن أداء هذه المهمة ؛ لذلك نرفض قول الفلاسفة أن الحق سبحانه وتعالى زاول سلطانه في مُلْكه مرة واحدة ، بأن جعل فيه النواميس والقوانين ، وهي التي تحكم العالم وتُسيِّره .

ففي قصة موسى ـ عليه السلام ـ أنه سار بجيشه ، يطارده فرعون وجنوده حتى وصل إلى

شاطئ البحر فأصبح البحر من أمامه ، وفرعون من خلفه حتى قال أصحاب موسى: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . . ﴾ [الشعراء: 61]

فأين المفر ، وها هو البحر من أمامنا ، والعدو من خلفنا ؟ وهذا كلام منطقي مع واقع الحديث البشري ، لكن الأمر يختلف عند موسى -عليه السلام- فقال بملء فيه: ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: 62]

فهل قالها موسى برصيد بشري ؟ لا ، بل بما عنده من ثقة في ربه ، وهكذا انتقلت المسألة إلى ساحة الخالق سبحانه ، فقال لنبيه موسى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: 63]

فخرق الله لموسى قانون سيولة الماء واستطراقه ، ويتجمد الماء ، ويصير كالجبل ويتحول البحر إلى يابسة ، ويعبر موسى وقومه إلى الناحية الأخرى ، وتنشرح صدورهم بفرحة النجاة ، ويأخذ موسى -عليه السلام- عصاه ليضرب البحر ليعود إلى طبيعته ، وحتى لا يعبره فرعون ويلحق به ، لكن الحق سبحانه يأمره ، أن يتركه على حاله: ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان: 24]

فعندما نزل فرعون وجنوده البحر واكتمل عددهم في قاعه أطلق الخالق سبحانه للماء قانون سيولته، فأطبق على فرعون وجنوده، وكانت آيةً من آيات الله، شاهدة على قدرته سبحانه، وأنه إنْ شاء أنجى وأهلك بالشيء الواحد، وشاهدة على قيوميته تعالى على خَلْقه، فليس الأمر - كما يقولون - أمر قانون أو ناموس يعمل، ويدير حركة الكون، فكل المعجزات التي مرَّتْ في تاريخ البشرية جاءت من باب خرق النواميس.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً . . . ﴾ .

(82/457)

ومعنى ﴿ أَكِنَّةً ﴾ جمع كِنَان، وهو الغطاء، وقد حكى القرآن اعترافهم بهذه الأكنة وهذه الحجب التي غلَّفَتْ قلوبهم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ . . ﴾[فصلت: 5]

الكون كله خَلْق الله، والإنسان سيد هذا الكون، وخليفة الله فيه وهو مربوب للخالق سبحانه لا يخرج عن مربوبيته لربه، حتى وإنْ كان كافراً لا يزال يتقلّب في عطاء الربوبية، فلا يُحرم منها الكافر بكفره ولا عاص بمعصيته، بل كما قال تعالى: ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَاؤُلاءِ وَهَاؤُلاءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ . . ﴾[الإسراء: 20]

وسبق أنْ فرَّقنا بين عطاء الربوبية المتمثّل في كل نِعَم الحياة وبين عطاء الألوهية ، وهو التكليف الذي يقتضي عبداً ومعبوداً ، وافعل ولا تفعل .

إذن : عطاء الربوبية عام للجميع ودائم للجميع ، فكان على الإنسان أن يقف مع نفسه وقفة تأمُّل في هذه النعم التي تُسَاق إليه دون سَعْي منه أو مجهود ، هذه الشمس وهذه الأرض وهذا الهواء ، هل له قدرة عليها ؟ هل تعمل له بأمره ، إنها أوليات النعم التي أجراها الله تعالى من أجله ، وسخّرها بقدرته من أجله ، ألا تدعوه هذه النعم إلى الإيمان بالمنعم سبحانه وتعالى ؟

وسبق أنْ ضربنا مثلاً للاستدلال على الخالق سبحانه بما أودعه في الكون من ظواهر وآيات بالرجل الذي انقطعت به السُّبُل في صحراء ، حتى أوشك على الهلاك ، وفجأة رأى مائدة عليها ما يشتهي من الطعام والشراب ، ألاَ تثير في نفسه تساؤلاً عن مصدرها قبل أن تمتدَّ إليها يده ؟

وكذلك الكافر الذي يتقلَّب في نِعَم لا تُعَدُّ ولا تُحصَى ، وقد طرأ على الكون فوجده مُعدّاً لاستقباله مُهَيَّأً لمعيشته ، فكان عليه أنْ يُجري عملية الاستدلال هذه ، ويأخذ من النعمة دليلاً على المنعِم .

والحق تبارك وتعالى لا يمنع عطاء ربوبيته عَمَّنْ كفر، بل إن الكافر حين يتمكَّن الكفر منه ويُغلق عليه قلبه يساعده الله على ما يريد، ويزيده مما يحب، كما قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً.. ﴾ [البقرة: 10]

إذن: فقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً.. ﴾ [الإسراء: 46] لم تَأْتِ من الله ابتداءً، بل لما أحبُّوا هم الكفر، وقالوا عن أنفسهم: قلوبنا في أكنة، فأجابهم الله إلى ما أرادوا وختم على قلوبهم ليزدادوا كفراً، وطالما أنهم يحبونه فَلْنَزِدْهم منه.

ثم يقول تعالى: ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ.. ﴾ [الإسراء: 46]

أي: كراهية أنْ يفقهوه؛ لأن الله تعالى لا يريد منهم أن يفهموا القرآن رَغْماً عنهم، بل برضاهم وعن طيب خاطر منهم بالإقناع وبالحجة، فالله لا يريد منا قوالبَ تخضع، بل يريد قلوباً تخشع، وإلا لو أرادنا قوالبَ لما استطاع أحد منا أنْ يشذَّ عن أمره، أو يمنع نفسه من الله تعالى، فالجميع خاضع لأمره وتحت مشيئته.

وفي سورة الشعراء يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَآءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء: 3-4]

فالأعناق هي الخاضعة وليست القلوب؛ لأنك تستطيع أن تقهر قالب خصمك فتجبره على فعل أو قول، لكنك لا تستطيع أبداً أن تجبر قلبه وتكرهه على حبك، إذن: فالله

تعالى يريد القلوب، يريدها طائعة محبة مختارة، أما هؤلاء فقد اختاروا الأكِنّة على قلوبهم، وأحبُّوها وانشرحت صدورهم بالكفر، فزادهم الله منه.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً.. ﴾ [الإسراء: 46]

(84/457)

﴿ وَقْراً ﴾ أي: صَمم، والمراد أنهم لا يستمعون سماعاً مفيداً؛ لأنه ما فائدة السمع؟ واللغة وسيلة بين متكلم ومخاطب، ومن خلالها تنتقل الأفكار والخواطر لتحقيق غاية، فإذا كان يستمع بدون فائدة فلا جدوى من سمعه وكأنه به صَمماً.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً.. ﴾ [الإسراء: 46]

لماذا ولوا على أدبارهم نفوراً؟ لأنك أتيتَ لهم بما يُخوِّفهم ويُزعجهم، وبالله لو أن قضيةَ الإيمان ليست فطرية موجودة في الذات وفي ذرّات التكوين، أكان هؤلاء يخافون من ذكر الله؟ فَمِمّا يخافون وهم لا يؤمنون بالله، ولا يعترفون بوجوده تعالى؟

إذن: ما هذا الخوف منهم إلا لانقهار الطبع، وانقهار الفطرة التي يعتريها غفلة، فإذا بهم يُولُّون مدبرين في خَوْفٍ ونُفور.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى. . . ﴾ .

(85/457)

الحق سبحانه وتعالى لا يَخْفَى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهذه حقيقة كان على الكفار أنْ ينتبهوا إليها ويُراعوها ، ويأخذوها سبيلاً إلى الإيمان بالله ، فقد أخبر سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[المجادلة: 8]

فكان عليهم أن يتدبروا هذا القول: فهم قالوا في أنفسهم ، ولم يقولوا لأحد ، فمَنْ أخبر محمداً بهذا القول الذي لم يخرج إلى عالم الواقع ، ومَنْ أطلعه عليه؟ ألاَ يدعوهم هذا الإعلام بما يدور في نفوسهم إلى الإيمان بالله؟

وما دام الحق سبحانه يعلم كل الأحوال ، ولا يَخْفَى عليه شيء ، فهو أعلم بأحوالهم هذه: الأول: يستمعون إليك . والثاني: وإذ هم نجوى . والثالث: إذ يقول الظالمون . إذن: هم يستمعون ثم يتناجون ، ثم يقول بعضهم لبعض .

قالوا : إن سبب نزول هذه الآية ما كان عند العرب من حُبٍّ للغة وشغف بأساليب البيان ؛

لذلك كانت معجزة النبي صلى الله عليه وسلم من جنس ما نبغ فيه قومه ، لتكون أوضح في التحدي ، هكذا شأن الحق سبحانه مع كل الرسل .

وكان للعرب أسواق للبيان والبلاغة يجتمع فيها أهل الشعر والبلاغة والفصاحة ، وفي مكة تصب كل الألسنة في مواسم الحج ، فعرفوا صفوة لغات الجزيرة وأساليبها ، ومن هنا انجذبوا لسماع القرآن ، وشغفوا ببيانه بما لديهم من أذن مُرْهفة للأسلوب ومَلَكة عربية أصيلة ، إلا أن القرآن له مطلوبات وتكاليف لا يقدرون عليها ، ولديه منهج سيُقوِّض مملكة السيادة التي يعيشون فيها .

ومن هنا كابروا وعاندوا ، ووقفوا في وجه هذه الدعوة ، وإنْ كانوا مُعْجبين بالقرآن إعجاباً بيانياً بلاغياً بما في طباعهم من مَلَكات عربية .

(86/457)

فيُرْوَى أن كباراً مثل : النضر بن الحارث ، وأبي سفيان ، وأبي لهب كانوا يتسللون بعد أن ينام الناس -ممن كانوا يقولون لهم : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَاذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ ﴾ [فصلت : 26] .

كانوا يذهبون إلى البيت يتسمَّعون لقراءة القرآن ، ولماذا يحرمون أنفسهم من سماع هذا الضرب البديع من القول ، وقد حرموا مواجيدهم وقلوبهم منه ، فكانوا عند انصرافهم يرى

بعضهم بعضاً مُتسلّلاً مُتخفّياً ، فكانوا مرة يكذبون على بعضهم بحجج واهية ، ومرة يعترفون بما وقعوا فيه من حُبّ لسماع القرآن .

فقال تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ . . ﴾ [الإسراء: 47]

أي: بالحال الذي يستمعون عليه ، إذ يستمعون إليك بحال إعجاب . ثم: ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىا . . ﴾ [الإسراء: 47] من التناجي وهو الكلام سِرّاً ، أو: أن نَجْوى جمع نجى ، كقتيل وقَتْلى ، وجريح وجَرْحى .

فالمعنى: نحن أعلم بما يستمعون إليه ، وإذ هم متناجون أو نجوى ، فكأن كل حالهم تناجٍ.

وقوله: ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىا . . ﴾ [الإسراء: 47]

فيه مبالغة ، كما تقول: رجل عادل ، ورجل عَدْل .

ومِنْ تناجيهم مَا قاله أحدهم بعد سماعه لآيات القرآن: " والله ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسلفه لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه " .

ثم تأتي الحالة الثالثة من أحوالهم: ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ [الإسراء: 47]

وهذا هو القول المعْلَن عندهم ، أن يتهموا رسول الله بالسحر مرة ، وبالجنون أخرى ، ومرة قالوا: شاعر . وأخرى قالوا: كاهن . وهذا كله إفلاس في الحجة ، ودليل على غبائهم العقديّ .

وكلمة ﴿ مَّسْحُوراً ﴾ اسم مفعول من السحر ، وهي تخييل الفِعْل . وليس فعلاً ، وتخييل القَوْل وليس قولاً ، فهي صَرْف للنظر عن إدراك الحقائق ، أما الحقائق فهي ثابتة لا تتغير .

(87/457)

لذلك نقول: إن معجزة موسى ـ عليه السلام ـ من جنس السحر وليست سِحْراً ؛ لأن ما جرى فيها كان حقيقة لا سِحْراً ، فقد انقلبتْ العصا حيَّة تبتلع حبال السحرة وعِصيّهم على وَجْه الحقيقة ، لكن لما كانت المعجزة في مجال السحر ظنها الناس سِحْراً ؛ لأن القرآن قال في سحرة فرعون: ﴿ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ [الأعراف: 116] وقال في آية أخرى: ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه: 66]

إذن: فحقيقة الأشياء ثابتة لا تتغير ، فالساحر يرى العصا عصا ، أما المسحور فيراها حية ، وليست كذلك مسألة موسى ـ عليه السلام ـ وليؤكد لنا الحق سبحانه هذا المعنى ، وأن ما حدث من موسى ليس من سحرهم وتغفيلهم أنه حينما قال له: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يامُوسَىٰ ﴾ [طه: 17]

فأطال موسى ـ عليه السلام ـ الكلام ؛ لأنه أحب الأُنْس بالكلام مع ربه تعالى فأجاب: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي . . . ﴾ [طه: 18] ثم أحس موسى

أنه أطال فقال موجزاً: ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ [طه: 18]

فهذا هو مدى عِلْمه عن العصا التي في يده، لكن الله تعالى سيجعلها غير ذلك، فقال له: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ [طه: 19-20]

فهل خُيِّل لموسى أنها حيَّة وهي عصا؟ أم أنها انقلبت حيّة فعلاً؟ إنها حية فعلاً على وجه الحقيقة، بدليل قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ [طه: 67]

وموسى لم يَخَفْ إلا لأنه وجد العصا حيّة حقيقية، ثم طمأنه ربه: ﴿ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى ﴾ [طه: 68]

لذلك لما رأى السحرة ما تفعله عصا موسى علموا أنها ليست سحراً، بل هي شيء خارج عن نطاق السحر والسحرة، وفوق قدرة موسى عليه السلام، فآمنوا بربِّ موسى القادر وحده على إجراء مثل هذه المعجزة.

وقوله تعالى: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ [الإسراء: 47]

(88/457)

أي: سحره غيره. وهذا قول الظالمين الذين يُلفّقون لرسول الله التهمة بعد الأخرى، وقد قالوا أيضاً: ساحر. قال تعالى: ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَاذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: 2]

فمرّة قُلْتم: ساحر . ومرة قلتم: مسحور . وهذا دليل التخبُّط واللَّجج ، فإن كان ساحراً فعندكم من السحرة كثيرون ، فلماذا لا يُواجِهونه بسحر مثل سِحْره ؟ ولماذا لم يسحركم أنتم كما سحر غيركم وتنتهي المسألة ؟ وهل يمكن أن يُسْحر الساحر ؟

وإنْ كان مسحوراً سحره غيره ، فهل جرَّبْتُم عليه في سحره كلاماً مخالفاً لواقع ؟ هل سمعتموه يهذي كما يهذي المسحور ؟ إذن: فهذا اتهام بطل وقول كاذب لا أصل له ، بدليل أنكم تأبَّيتم عليه ، ولم يُصِبْكم منه أذى .

فلما أخفقوا في هذه التهمة ذهبوا إلى ناحية أخرى فقالوا: شاعر ، وبالله أَمِثْلُكم أيها العرب ، يا أربابَ اللغة والفصاحة والبيان . يَخْفي عليه أن يُفرِق بين الشعر والنثر ؟ والقرآن وأسلوب متفرد بذاته ، لا هو شعر ، ولا هو نثر ، ولا هو مسجوع ، ولا هو مُرْسل ، إنه نسيج وحده .

لذلك نجد أهل الأدب يُقسِّمون الكلام إلى قسمين: كلام الله وكلام البشر ، فكلام البشر قسمان: شعر ونثر ويخرج كلام الله تعالى من دائرة التقسيم ؛ لأنه متفرد بذاته عن كل كلام .

فلو قرأت مثلاً في كتب الأدب تجد الكاتب يقول: هذا العدل محمود عواقبه، وهذه النَّبْوة غُمّة ثم تنجلي، ولن يريبني من سيدي أن أبطأ سيبه، أو تأخر غير ضنين غناؤه، فأبطأُ الدِّلاَء فَيْضاً أحفلُها، وأثقل السحائب مَشْياً أحفلها، ومع اليوم غد، ولكلِّ أجل كتاب، له الحمد على احتباله، ولا عتب عليه في احتفاله. فإنْ يكن الفِعْلُ الذي سَاءَ وَاحِداً فأَفْعالُه اللاَّئِي سُرِرْنَ أُلُوفُ فلا شكّ أنك ستعرف انتقالك من النثر إلى الشعر، وسوف تُميِّز أذنك بين الأسلوبين، لكن أسلوب القرآن غير ذلك، فأنت تقرأ آياته فتجدها تناسب انسياباً لا تلحظ فيه أنك انتقلتَ من نثر إلى شعر، أو من شعر إلى نثر، واقرأ قول الله تعالى: ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الحجر: 49]

أَجْرِ عليه ما يُجريه أهل الشعر من الوزن، فسوف تجد بها وزناً شعرياً: مستفعل فاعلات.. وكذلك: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجر: 50] تعطيك الشطر الثاني من البيت، لكن هل لاحظتَ ذلك في سياق الآيات؟ وهل لاحظتَ أنك انتقلت من شعر إلى نثر، أو من نثر إلى شعر؟

إذن: فالقرآن نسيج فريد لا يُقال له: شعر ولا نثر، وهذا الأمر لا يَخْفى على العربي الذي تمرَّس في اللغة شعرها ونثرها، ويستطيع تمييز الجيِّد من الرديء.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾.

أي: تعجَّبْ مما هم فيه من تخبُّط ولَجج ، فمرَّةً يقولون عن القرآن: سحر ومرة يقولون: شعر ، ويصفونك بأنك: شاعر ، وكاهن ، وساحر .

ومعلوم أن الرسالة لها عناصر ثلاثة: مُرسِل ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، ومُرسَل وهو النبي صلى الله عليه وسلم ومُرْسَلٌ به وهو القرآن الكريم ، وقد تخبَّط الكفار في هذه الثلاثة ودعاهم الظلم إلى أن يقول فيها قولاً كاذباً افتراءً على الله تعالى وعلى رسوله وعلى كتابه .

وقد سبق أن تحدثنا عن افتراءاتهم في الألوهية وعن موقفهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك قولهم: ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: 31]

وقولهم عن القضية الإيمانية العامة: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: 32]

أهذه دعوة يدعو بها عاقل ؟ ! فبدل أنْ يقولوا: فاهدنا إليه تراهم يُفضّلون الموت على سماع

القرآن، وهذا دليل على كِبْرهم وعنادهم وحماقتهم أمام كتاب الله.

لذلك، فالحق سبحانه وتعالى من حبه لرسوله صلى الله عليه وسلم ورِفْعة منزلته حتى عند الكافرين به، يردُّ على الكافرين افتراءهم، ويُطمِئن قلب رسوله، ويتحمل عنه الإيذاء في قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ.. ﴾ [الأنعام: 33]

أي: قولهم لك: ساحر، وكاهن، وشاعر، ومجنون ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَاكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: 33]

فليست المسألة عندك يا محمد، فهُمْ مع كفرهم لا يكذبونك ولا يجرؤن على ذلك ولا يتهمونك، إنما المسألة أنهم يجحدون بآياتي، وكُلُّ تصرفاتهم في مقام الألوهية، وفي مقام النبوة، وفي مقام الكتاب ناشئة عن الظلم.

(91/457)

وقولهم عن رسول الله: مجنون قوْل كاذب بعيد عن الواقع؛ لأن ما هو الجنون؟ الجنون أن تُفسِد في الإنسان آلة التفكير والاختيار بين البدائل، والجنون قد يكون بسبب خَلْقي أي: خلقه الله تعالى هكذا، أو بسبب طارئ كأنْ يُضربَ الإنسان على رأسه مثلاً، فيختلّ عنده مجال التفكير.

ومن رحمة الله تعالى بالعبد أن أخّرَ له التكليف إلى سِنّ البلوغ واكتمال العقل، وحتى يكون قادراً على إنجاب مثله؛ لأنه لو كلّفه قبل البلوغ فسوف تطرأ عليه تغييرات غريزية قد يحتج بها، ومع ذلك طلب من الأب أن يأمر ابنه بالصلاة قبل سِنّ التكليف لِيُعوّده الصلاة من الصغير ليكون على إِلْفٍ بها حين يبلغ سِنّ التكليف، وليألف صيغة الأمر من الآمر.

والإنسان لا يشك في حُبّ أبيه وحِرْصه على مصلحته، فهو الذي يُربّيه ويُوفّر له كل ما يحتاج، فله ثقة بالأب المحس، فالحق سبحانه يريد أنْ يُربّبَ فينا الطاعة لمن نعلم خيره علينا، فإذا ما جاء وقت التكليف يسهل علينا ولا يشق؛ لأنها أصبحتْ عادة.

والذي أعطى للأب حَقّ الأمر أعطاه حَقّ العقاب على تركه ليكون التكليف من الرب الصغير، والعقوبة من الرب الصغير لِتُعوّده بالأُبوة المحسّة والرحمة الظاهرة على طاعة الحق سبحانه الذي أنعم عليّ وعليك.

فالعقل - إذن - شرْط أساسي في التكليف، وهو العقل الناضج الحرّ غير المكْره، فإنْ حدث إكراه فلا تكليف.

فقوله: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ .. ﴾ [الإسراء: 48]

أي: قالوا مجنون، والمجنون ليس عنده اختيار بين البدائل، وقد ردّ الحق سبحانه عليهم بقوله: ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 1-4]

فنفى الحق سبحانه عن رسوله هذه الصفة، وأثبت له صفة الخُلق العظيم، والمجنون لا خُلقَ له، ولا يُحاسَب على تصرفاته، فهو يشتم هذا ويضرب هذا ويبصق في وجه هذا، ولا نملك إلا أنْ نبتسم في وجهه ونُشفِق عليه.

ولقائل أنْ يقول: كيف يسلبه الخالق سبحانه وتعالى نعمة العقل، وهو الإنسان الذي كرّمه الله؟ وكيف يعيش هكذا مجرد نسخة لإنسان؟

ولنعلم الحكمة من هذه القضية علينا أنْ نُقارن بين حال العقلاء وحال المجنون، لنعرف عدالة السماء وحكمة الخالق سبحانه، فالعاقل نحاسبه على كل كبيرة وصغيرة ومقتضى ما تطلبه من عظمة في الكون، ومن جاه وسلطان ألاّ يُعقّب على كلامك أحد، وأنْ تفعلَ ما تريد.

ألاَ ترى أن المجنون كذلك يقول ويفعل ما يريد، ثم يمتاز عنك أن لا يسأل في الدنيا ولا في الآخرة؟ أليست هذه كافية لتُعوّضه عن فقد العقل؟ فلا تنظر إلى ما سلب منه، ولكن إلى ما أعطاه من مَيْزات في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: 48]

أي: لم يستطيعوا أنْ يأتوا بمثَلٍ يكون صَاداً وصارفاً لمن يؤمن بك أنْ يؤمن ، فقالوا : مجنون وكذبوا . وقالوا: ساحر وكذبوا وقالوا: شاعر وكذبوا . وقالوا: كاهن وكذبوا . فَسُدّتْ الطرق في وجوههم ، ولم يجدوا مَنْفَذاً لِصَدّ الناس عن رسول الله .

فلما عجزوا عن إيجاد وَصْف يصدُّ مَنْ يريد الإيمان برسول الله ، قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَاذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: 32]

ومنهم من قال: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَاذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: 31]

(93/457)

فلم يستطيعوا إيجاد سبيل يُعَوِّقون به دعوتك ، بدليل أنه رغم ضَعْف الدعوة في بدايتها ، ورغم اضطهادهم لها تراها تزداد يوماً بعد يوم ، وتتسع رُقْعة الإيمان ، أما كَيْدهم وتدبيرهم فيتجمّد أو يقلّ .

كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا . . ﴾ [الرعد : 41]

فكل يوم تزداد أرض الإيمان ، وتِقلُّ أرض الكفر .

والحق سبحانه وتعالى في قضية استماع القرآن وقولهم: قلوبنا في أكنة، وقلوبنا غلف يريد أن يُلفِتَ أنظارنا إلى قضية هامة في الوجود ومنتظمة في كل الكائنات، وهي أن الأفعال تقتضي فاعلاً للحدث وقابلاً لفعل الحدث، ومثال ذلك: الفلاح الذي يُقلّب التربة بفأسه، فتقبل التربة منه هذا الفعل، وتنفعل هي معه، فتعطيه ما ينتظره من محصول.

. أما لو فعل هذا الفعل في صخرة فلن تقبل منه هذا الفعل. إذن: فثمرة الحدث تتوقف على طرفين: فاعل، وقابل للفعل.

لذلك أتعجب من هؤلاء الذين يقولون: إن الغرب يفتن المسلمين عن دينهم، ويأتي إلينا بالمغْريات وأسباب الانحراف، ويُصدّر إلينا المبادئ الهدامة ويُشككنا في ديننا .. الخ.

ونقول لهؤلاء: مَا يضركم أنتم إنْ فعل هو ولم تقبلوا أنتم منه هذا الفعل؟! دَعُوه يفعل ما يريد، المهم ألاَّ نقبلَ وألاَّ نتفاعلَ مع مقولاته ومبادئه. فالخيبة ليست في فعل الغرب بنا، ولكن في تقبُّلنا نحن ولَهْثنا وراء كُلِّ ما يأتينا من ناحيته، وما ذلك إلا لِقلّة الخميرة الإيمانية في نفوسنا، فالغرب يريد أنْ يُثبِّت نفوذه، ويثبت مبادئه، وما عليك إلاّ أنْ تتأبّى على قبول مثل هذه الضلالات.

وعلى نظرية الفاعل والقابل هذه تُبنَى الحضارات في العالم كله ؛ لأن الخالق سبحانه حينما استدعانا إلى الوجود جعل لنا فيه مُقوِّمات الحياة الأساسية من: شمس ، وقمر ، ونجوم ، وأرض ، وسماء ، وماء ، وهواء . ومن هذه المقوّمات ما يعطيك ويخدمك دون أنْ تتفاعَل معه أو تطلبَ منه ، كالشمس والماء والهواء ، ومنها ما لا يعطيك إلاَّ إذا تفاعلتَ معه مثل الأرض لا تعطيك إلا إذا تعهدتها بالحرث والسَّقْي والبَذْر .

والمتأمل في الكون يجد أن جميع ارتقاءات البشر من هذا النوع الثاني الذي لا يعطيك إلا إذا تفاعلتَ معه ، وقد ترتقي الطموحات البشرية إلى أن تجعلَ من النوع الأول الذي يعطيك دون أن تتفاعلَ معه ومن غير سلطان لك عليه ، تجعل منه مُنْفَعِلاً بعملك فيه ، كما يحدث الآن في استعمال الطاقة الشمسية في مجالات جديدة لم تكُنْ من قبل . إذن: فهذه ارتقاءاتٌ لا يُحْرَم منها مَنْ أخذ بالأسباب وسَعَى إلى الرُّقيّ والتقدم .

إذن: إنْ جاء يُشكِّك في دينك نَدعْهُ ، وما يقول فليس بملوم ، إنما الملوم أنت إنْ قبلْتَ منه ؛ ولذلك يجب علينا وعلى كُلِّ قائم على تربية النشء أنْ نُحصِّن أولادنا ضد هجمات الإلحاد والتنصير والتغريب ، ونُعلِّمهم من أساسيات الدين ما يُمكِّنهم من الدفاع والردِّ بالحجة والإقناع حتى لا يقعوا فريسة سَهْلة في أيدي هؤلاء .

وهذه هي المناعة المطلوبة وما أشبهها بما نستخدمه في الماديات من التطعيم ضد المرض ، حتى إذا طرأ على الجسم لا يؤثر فيه . ألاَ ترى الحق سبحانه في قرآنه الكريم يَعْرِض لشُبَه

الكافرين والملاحدة ويُفصّلها ويُناقشها ، ثم يبين زَيْفها ، فيقول: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ [الكهف: 5]

فلماذا يعرضها القرآن ، هل لنأخذ بها ونتعلمها ؟ لا بل لكي لا نُفَاجأ بها ، فإذا أَتَتْ يكون لدينا المناعة الكافية ضِدّها ، ولكي تتربّى فينا الحصانة المانعة من الانزلاق أو الانحراف .

(95/457)

إذن: فأصول الحياة فاعل وقابل ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً فقلنا : في الشتاء ينفخ الإنسان في يده ليدفئها ، وكذلك ينفخ في كوب الشاي ليبرده ، فالفعل واحد ولكن القابل مختلف .

وكذلك حال الناس في سماع القرآن واستقبال كلمات الله ، فقد استقبله أحد الكفار في حال هدوء وانسجام ، فقال:

" والله إنّ له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغْدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه " لقد استمعه بملكة العربي الشّغُوف بكل ما هو جميل من القَوْل ، لا بملَكِة العناد والكِبْر والغطرسة .

وكذلك سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ له حالان في سماع القرآن: حال كفر وشدة وغلظة عند سماع القرآن ، وحال إيمان ورقّة قلب حينما بلغه نبأ إسلام أخته ، فأسرع إليها وهي

تقرأ القرآن فصفعها بقسْوة حتى أَدْمَى وجهها ، فأخذتْه عاطفة الرحم ، وتغلبت على عاطفة الكفر عنده ، فلما سمع القرآنَ بهذه العاطفة الحانية تأثَّر به ، فآمن مِنْ فَوْره ؛ لأن القرآن صادف منه قَلْباً صافياً ، فلا بد أَنْ يُؤثّر فيه .

فالمسألة ـ إذن ـ تحتاج أن يكون لدى القابل استعداد لِتقبُّل الشيء والانفعال به .

وقد لخَّص لنا الحق سبحانه هذه القضية في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً . . ﴾ [محمد: 16]

فيأتي الرد عليهم: ﴿ أُوْلَائِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد: 16]

وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . ﴾ [فصلت: 44]

(96/457)

فالقرآن واحد ، ولكن المستقبل مختلف ، إذن: فإياك أنْ تلوم مَنْ يريد أن يلويَ الناس إلى طريق الضلال ، بل دَعْه في ضلاله ، وربِّ في الآخرين مناعة حتى لا يتأثروا ولا يستجيبوا له .

بعد أن تكلمنا عن موقف الكفار من الألوهية ومن النبوة نتكلم من موقفهم من المنهج الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا المنهج يتضمن قضايا كثيرة وأموراً متعددة ، لكن أم هذا المنهج وأساسه أن نؤمن بالآخرة ، وما دُمْنَا نؤمن بالآخرة فسوف تنسجم حركتنا في الحياة . فالإيمان بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب هو الحافز لنا على العمل والاستقامة في الدنيا ، وما أشبه ذلك بالتلميذ الذي يجتهد ويجدّ ؛ لأنه يؤمن بالامتحان آخر العام ، وما ينتج عنه من توفيق أو إخفاق .

غبيّ مَنْ يظن أن الدنيا هي نهاية المطاف ، وأنها الغاية التي ليس بعدها غاية ؛ لأن الجميع عبيدٌ لله تعالى متساوون . ومع ذلك نرى مَنْ يموت في بطن أمه ، ومَنْ يموت بعد عدة شهور ، وآخر بعد عدة أعوام ، فلو أن الدنيا هي الغاية لاستوى الجميع في المكْث فيها ، فاختلاف الأعمار في الدنيا دليل على أنها ليست غاية .

وعجيب في أمر الموت أن نرى الناس يحزنون كثيراً على مَنْ مات صغيراً ويقولون: أُخِذ في شبابه ويُكثِرون عليه العويل ، لماذا ؟ يقولون: لأنه لم يتمتع بالدنيا ، سبحان الله أي دنيا هذه التي تتحدثون عنها ، وقد اختاره الله قبل أنْ تلوّثه آثامها وتُلطّخه ذنوبها ، لماذا تحزنون كل هذا الحزن ولو رأيتم ما هو فيه لحسدتموه عليه ؟

والناس كثيراً ما يُخطِئون في تقدير الغايات ؛ لأن كل حَدَث يُحدِثه الإنسان له غاية من هذا الحدث ، هذه الغاية مرحلية وليست نهائية ، فالغاية النهائية والحقيقية ما ليس بعدها غاية

أخرى، فالتلميذ يذاكر بالمرحلة الابتدائية لينتقل إلى المرحلة الإعدادية، ويذاكر الإعدادية لينتقلَ إلى الثانوية.

(97/457)

وهكذا تتوالى الغايات في الدنيا إلى أنْ يصل إلى غاية الدنيا الأخيرة، وهي أن يبني بيتاً ويتزوج ويعيش حياة سعيدة يرتاح فيها بما تحت يديه من خدم، يقضون له ما يريد، هذا على فرض أنه سيعيش حتى يكمل هذه المراحل، ولكن ربما مات قبل أنْ يصلَ إلى هذه الغاية.

إذن: فلا بد للإنسان أنْ يتعبَ أولاً، ويبذل المجهود ليصبح مخدوماً، وهذه المخدومية تتناسب مع مجهودك الأول، فَمن اكتفى بالإعدادية مثلاً ليس كمن تخرّج من الجامعة، فلكُلٍّ مرتبته ومكانته؛ لأنك تعيش في الدنيا بالأسباب وعلى قَدْر ما تعطي تأخذ.

إذن: فغايتك في الدنيا أن تكون مخدوماً، مع أن خادمك قد يتمرَّد عليك وقد يتركك، أما غاية الآخرة فسوف تُوفّر عليك هذا كله، وليس لأحد علاقة بك إلا ذاتك أنت، فبمجرد أنْ يخطر الشيء على بالك تجده أمامك؛ ذلك لأنك في الدنيا تعيش بالأسباب، وفي الآخرة تعيش بمُسبِّب الأسباب سبحانه وتعالى.

وكذلك لو أجريتَ مقارنة اقتصادية بين متعة الدنيا ومتعة الآخرة لرجحَتْ كِفّة الآخرة ؛ لأن الدنيا بالنسبة لك هي عمرك فيها فقط ، وليس عمر الدنيا كله ، كما يحلو للبعض أنْ يُحدِّد عمر الدنيا بعدة ملايين من السنين ، فما دَخْلك أنت بكل هذه الملايين ؟ !

فالدنيا - إذن - هي عمري فيها ، وهذا العمر مظنون غير مُتيقّن ، وعلى فرض أنه مُتيقّن فهو خاضع لمتوسط الأعمار ، وسوف ينتهي حتماً بالموت . أَضِفْ إلى ذلك أن نعيمك في الدنيا على قَدْر سَعْيك وأَخْذِك بأسبابها .

أما الآخرة فهي باقية لا نهاية لها ، فلا يعتريها زوال ولا يُنهيها الموت ، كما أن مُدتها مُتيقّنة وليس مظنونة ، ونعيمك فيها ليس على قَدْر إمكانياتك ، ولكن على قدر إمكانيات خالقك سبحانه وتعالى .

(98/457)

فأيّهما أحسن ؟ وأيُّهما أَوْلَى بالسَّعْي والعمل ؟ ويكفي أنك في الدنيا مهما توفَّر لك من النعيم ، وإنْ كنت في قمة النعيم بين أهلها فإنه يُنغّص عليك هذا النعيمَ أمران : فأنت تخاف أنْ تفوتَ هذا النعيم بالموت ، وتخاف أن يفوتك هو بالفقر ، فهي نعمة مُكدّرة ، أما في الآخرة فلا تخاف أن تفوتها ، ولا أن تفوتك ، فأيُّ الصفقتين أربح إذن ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن إنكارهم للبعث بعد الموت: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ .

(99/457)

الاستفهام في الآية استفهام للتعجّب والإنكار لموضع البعث يوم القيامة بعد أنْ صاروا رُفَاتاً وعظاماً .

والرفات: هو الفتات ومسحوق الشيء ، وهو التراب أو الحُطَام ، وكذلك كل ما جاء على وزن (فُعال) .

لقد استبعد هؤلاء البعث عن الموت ؛ لأنهم غفلوا في بداية الوجود وبداية خَلْق الإنسان ، ولو استعملنا علم الإحصاء الذي استحدثه العلماء لوجدناه يخدم هذه القضية الإيمانية ، فلو أحصينا تعداد العالم الآن لوجدناه يتزايد في الاستقبال ويقلّ في الماضي ، وهكذا إلى أنْ نصل بأصل الإنسان إلى الأصل الأصيل ، وهو آدم وحواء ، فمن أين أتيَا إلى الوجود ؟ فهذه قضية غيبية كان لا بُدَّ أن يُفكّروا فيها .

ولأنها قضية غيبية فقد تولّى الحق سبحانه وتعالى بيانها ؛ لأن الناس سوف يتخبّطون فيها ، فينبهنا الخالق سبحانه بمناعة إيمانية عقدية في كتابه العزيز ، حتى لا ننساق وراء الذين

سيتهورون ويَهْرفون بما لا يعلمون ، ويقولون بأن أصل الإنسان كان قرداً ، وهذه مقولة باطلة يسهُل رَدُّها بأن نقول: ولماذا لم تتحول القرود الباقية إلى إنسان ؟ وعلى فرض أن أصل الإنسان قرد ، فمن أين أتى ؟ إنها نفس القضية تعود بنا من حيث بدأتْ ، إنها مجرد شوشرة وتشويه لوجه الحقيقة بدون مبرر .

وكذلك من القضايا التي تخبّط فيها علماء الجيولوجيا ما ذهبوا إليه من أن السماء والأرض والشمس كانت جميعاً جزءاً واحداً ، ثم انفصلت عن بعضها ، وهذه أقوال لا يقوم عليها دليل .

لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يعطينا طرفاً من هذه القضية ، حتى لا نُصغِي إلى أقوال المضلِّلين الذين يخوضون في هذه الأمور على غير هدى ، ولتكون لدينا الحصانة من الزَّلَل ؛ لأن مثل هذه القضايا لا تخضع للتجارب المعملية ، ولا تُؤخَذ إلا عن الخالق سبحانه فهو أعلم بما خلق .

(100/457)

يقول تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ . . ﴾ [الكهف: 51] أي: لم يكن معي أحد حين خلقتُ السماء والأرض ، وخلقتُ الإنسان ، ما شهدني

أحد لِيَصِفَ لكم ما حدث ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ [الكهف: 51] أي: ما اتخذت من هؤلاء المضللين مُساعِداً أو مُعاوِناً ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : احكموا على كل مَنْ يخوض في قضية الخَلْق هذه بأنه مُضلّل فلا تستمعوا إليه .

ولكي تُريحوا أنفسكم من مثل هذه القضايا لا تُحمِّلوا العقل أكثر مما يحتمل ، ولا تعطوه فوق مقومات وظائفه ، وجَدْوى العقل حينما ينضبط في الماديات المعملية ، أما إنْ جنح بنا فلا نجني من ورائه إلا الحُمْق والتخاريف التي لا تُجدي .

وكلمة " العقل " نفسها من العقال الذي يمنع شرود البعير ، وكذلك العقل جعله الله ليضبط تفكيرك ، ويمنعك من الجموح أو الانحراف في التفكير .

وأيضاً ، فالعقل وسيلة الإدراك ، مثله مثل العين التي هي وسيلة الرؤية ، والأذن التي هي وسيلة السمع .

. وما دام العقل آلة من آلات الإدراك فله حدود ، كما أن للعين حدوداً في الرؤية ، وللأذن حدوداً في السمع ، فللعقل حدود في التفكير أيضاً حتى لا يشطح بك ، فعليك أنْ تضبط العقل في المجال الذي تُجوِّد فيه فقط ، ولا تُطلق له العنان في كُلِّ القضايا .

ومن هنا تعب الفلاسفة وأتعبوا الدنيا معهم ؛ لأنهم خاضوا في قضايا فوق نطاق العقل ، وأنا أتحدى أي مدرسة من مدارس الفلسفة من أول فلاسفة اليونان أن يكونوا متفقين على

قضية إلا قضية واحدة ، وهي أن يبحثوا فيما وراء المادة ، فَمِن الذي أخبرك أن وراء المادة شيئاً يجب أن يُبحث ؟

(101/457)

لقد اهتديتُم بفطرتكم الإيمانية إلى وجود خالق لهذا الكون ، فليس الكون وليد صدفة كما يقول البعض ، بل له خالق هو الغيبيات التي تبحثون عنها ، وتَرْمَحُون بعقولكم خلفها ، في حين كان من الواجب عليكم أنْ تقولوا : إن ما وراء المادة هو الذي يُبين لنا نفسه .

لقد ضربنا مثلاً لذلك . ولله المثل الأعلى . وقلنا : هَبْ أننا في مكان مغلق ، وسمعنا طَرْق الباب . فكلنا نتفق في التعقُّل أن طارقاً بالباب ، ولكن منا مَنْ يتصور أنه رجل ، ومنا مَنْ يتصوّر أنه امرأة ، وآخر يقول : بل هو طفل صغير ، وكذلك منا مَنْ يرى أنه نذير ، وآخر يرى أنه بشير . إذن : لقد اتفقنا جميعاً في التعقُّل ، ولكن اختلفنا في التصوُّر .

فلو أن الفلاسفة وقفوا عند مرحلة التعقُّل في أن وراء المادة شيئاً ، وتركوا لمن وراء المادة أنْ يُظهر لهم عن نفسه لأراحوا واستراحوا ، كما أننا لو قُلْنا للطارق : مَنْ ؟ لقال : أنا فلان ، وجئت لكذا ، وانتهتْ المسألة .

ولقد ردَّ عليهم القرآن إنكارهم للبعث وقولهم : ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ

خَلْقاً جَدِيداً ﴾ [الإسراء: 49]

بقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [يونس: 34]

وبقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: 104]

وبقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . ﴾ [الروم: 27]

فإعادة الشيء أهون من خَلْقه أوّلاً .

(102/457)

وقف الفلاسفة طويلاً أمام قضية البعث ، وأخذوا منها سبيلاً لتشكيك الناس في دين الله ، ومن مغالطاتهم في هذه المسألة أنْ قالوا : ما الحل إذا مات إنسان مثلاً ثم تحوّل جسمه إلى رفات وتراب ، ثم زُرِعَتْ فوقه شجرة وتغذّت على عناصره ، فإذا أكل إنسان من ثمار هذه الشجرة فسوف تنتقل إليه بالتالي عناصر من عناصر الميت ، وتتكوّن فيه ذرات من ذراته ، فهذه الذرات التي تكوّنت في الثاني نقُصَتْ من الأول ، فكيف يكون البعث ـ إذن ـ على حدِّ قَوْلهم ؟

والحقيقة أنهم في هذه المسألة لم يفطِنُوا إلى أن مُشخّص الإنسان شيء ، وعناصر تكوينه شيء آخر .

. كيف ؟

هَبْ أن إنساناً زاد وزنه ونصحه الطبيب بإنقاص الوزن فسعى إلى ذلك بالطرق المعروفة لإنقاص الوزن ، وهذه العملية سواء زيادة الوزن أو إنقاصه محكومة بأمرين: التغذية والإخراج ، فالإنسان ينمو حينما يكون ما يتناوله من غذاء أكثر مما يُخرِجه من فضلات ، ويضعف إن كان الأمر بعكس ذلك ، فالولد الصغير ينمو لأنه يأكل أكثر مِمّا يُخرِج ، والشيخ الكبير يُخرِج أكثر مِمّا يأكل ؛ لذلك يضعف .

فلو مرض إنسان مرضاً أَهْزَلَهُ وأنقص من وزنه ، فذهب إلى الطبيب فعالجه حتى وصل إلى وزنه الطبيعي ، فهل الذرات التي خرجتْ منه حتى صار هزيلاً هي بعينها الذرات التي دخلتْه حين تَمَّ علاجه ؟ إن الذرات التي خرجتْ منه لا تزال في (المجاري) ، لم يتكون منها شيء أبداً ، إنما كميّة الذرّات ومقاديرها هي التي تقوي وتشخص .

وربنا سبحانه وتعالى رحمة منه ، قال: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق: 4] فالحق سبحانه سيجمع الأجزاء التي تكوِّن فلاناً المشخّص . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ﴾

على أصح القولين والمعنى جعلنا بين القرآن إذا قرأته وبينهم حجابا يحول بينهم وبين فهمه وتدبره والإيمان به ويبينه قوله وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وهذه الثلاثة هي الثلاثة المذكورة في قوله وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فأخبر سبحانه أن ذلك جعله فالحجاب يمنع رؤية الحق والأكنة تمنع من فهمه والوقر يمنع من سماعه وقال الكلبي الحجاب ههنا مانع يمنعهم من الوصول إلى رسول الله بالأذى من الرعب ونحوه مما يصدهم عن الإقدام عليه ووصفه بكونه مستورا فقيل بمعنى ساتر وقيل على النسب أي ذو ستر والصحيح أنه على بابه أي مستورا عن الإبصار فلا يرى ومجيء مفعول بمعنى فاعل لا يثبت والنسب في مفعول لم يشتق من فعله كمكان مهول أي ذي هول ورجل مرطوب أي ذي رطوبة فأما مفعول فهو جار على فعله فهو الذي وقع عليه الفعل كمضروب ومجروح ومستور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ شفاء العليل صـ 94 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40) ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ واتخذ من الملائكة إناثاً ﴾ قالت اليهود : الملائكة بنات الحق ! وفي قوله : ﴿ قل لو كان معه آلهة ﴾ الآية . يقول : ﴿ لو كان معه آلهة ﴾ إذا لعرفوا فضله ومزيته عليهم ، فابتغوا ما يقربهم إليه ، إنهم ليس كما يقولون .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله : ﴿ إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ قال : على أين ينزلوا ملكه .

قوله تعالى : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم والطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن عبد الرحمن بن قرط رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم – ليلة أسري به إلى المسجد الأقصى – كان جبريل عليه السلام عن يمينه ، وميكائيل عليه

السلام عن يساره ، فطارا به حتى بلغ السموات العلى ، فلما رجع قال : " سمعت تسبيحاً في السموات العلى مع تسبيح كثير ، سبحت السموات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلو بما علا سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى " .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن لوط بن أبي لوط قال : بلغني أن تسبيح سماء الدنيا ، سبحان ربنا الأعلى ، والثانية سبحانه وتعالى ، والثالثة سبحانه وبحمده ، والرابعة سبحانه لا حول ولا قوة إلا به ، والخامسة سبحان محيي الموتى وهو على كل شيء قدير ، والسادسة سبحان الملك القدوس ، والسابعة سبحان الذي ملأ السموات السبع والأرضين السبع عزة ووقاراً .

وأخرج ابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : وهو جالس مع أصحابه إذ سمع هزة فقال : " أطت السماء وحق لها أن تئط " قالوا : وما الأطيط ؟ قال : " تناقضت السماء ويحقها أن تنقض ، والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح الله بحمده " " .

وأخرج ابن مردويه ، عن علي رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ

﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ﴾ بالتاء .

قوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه ، إن نوحاً قال لابنه يا بني ؛ آمرك أن تقول : سبحان الله ، فإنها صلاة الخلق ، وتسبيح الخلق ، وبها يرزق الخلق " قال الله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ .

وأخرج أحمد وابن مردويه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" إن نوحاً لما حضرته الوفاة قال لابنيه : آمركما بسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة كل شيء ، وبها يرزق كل شيء " .

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في فضائل الذكر ، عن عائشة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صوت الديك صلاته ، وضربه بجناحيه سجوده وركوعه " ثم تلا هذه الآية : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ينادي مناد من السماء ، اذكروا الله يذكركم ، فلا يسمعها أول من الديك ، فيصيح فذلك تسبيحه .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تضربوا وجوه الدواب ، فإن كل شيء يسبح بحمده" .

(106/457)

وأخرج أبو الشيخ ، عن عمر رضي الله عنه قال : لا تلطموا وجوه الدواب ، فإن كل شيء يسبح بحمده .

وأخرج أحمد عن معاذ بن أنس رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – إنه مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل – فقال لهم : "اركبوها سالمة ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق ، فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لِله منه" .

وأخرج ابن مردويه ، عن عمرو بن عبسة – رضي الله عنه – عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما تستقل الشمس فيبقى من خلق الله تعالى إلا سبح الله بحمده إلا ما كان من الشيطان وأغنياء بني آدم" .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : ما من عبد يسبح الله تسبيحة ، إلا سبح ما خلق الله من شيء . قال الله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ .

وأخرج ابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن النمل يسبحن".

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه من أجل نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح".

وأخرج النسائي وأبو الشيخ وابن مردويه، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفدع، وقال : نعيقها تسبيح".

وأخرج أبو الشيخ في العظمة وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ قال : الزرع يسبح بحمده، وأجره لصاحبه، والثوب يسبح.

ويقول الوسخ : إن كنت مؤمناً فاغسلني إذاً.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي قبيل رضي الله عنه قال : الزرع يسبح وثوابه للذي زرع.

وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كل شيء يسبح بحمده إلا الحمار والكلب.

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عكرمة في قوله : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ قال : الاسطوانة تسبح ، والشجرة تسبح .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن عكرمة رضي الله عنه قال : لا يعيبن أحدكم دابته ، ولا ثوبه ، فإن كل شيء يسبح بحمده .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والخطيب ، عن أبي صالح رضي الله عنه قال : ذكر لنا أن صرير الباب تسبيحه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي غالب الشيباني رضي الله عنه قال : صوت البحر تسبيحه ، وأمواجه صلاته .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن النخعي رضي الله عنه قال : الطعام تسبيح .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وأبو الشيخ ، عن ميمون بن مهران رضي الله عنه قال : أتي أبو بكر الصديق رضي الله عنه بغراب وافر الجناحين ، فجعل ينشر جناحه ويقول : ما صيد من صيد ولا عضدت من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح .

وأخرج ابن راهويه في مسنده من طريق الزهري رضي الله عنه قال : أتي أبو بكر الصديق رضي الله عنه بغراب وافر الجناحين ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه سلم يقول : " ما صيد من صيد ولا عضدت عضاة ولا قطعت وشيجة إلا بقلة التسبيح " .

وأخرج أبو نعيم في الحلية وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما صيد من صيد ولا وشج من وشج إلا بتضييعه التسبيح " .

وأخرج عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما صيد من طير في السماء ولا سمك في الماء حتى يدع ما افترض الله عليه من التسبيح " .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أخذ طائر ولا حوت إلا بتضييع التسبيح " .

وأخرج أبو الشيخ ، عن مرثد بن أبي مرثد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يصطاد شيء من الطير والحيتان إلا بما يضيع من تسبيح الله " .

(108/457)

وأخرج ابن عساكر من طريق يزيد بن مرثد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما اصطيد طير في بر ولا بحر إلا بتضييعه التسبيح " .

وأخرج العقيلي في الضعفاء وأبو الشيخ والديلمي ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" آجال البهائم كلها وخشاش الأرض والنمل والبراغيث والجراد والخيل والبغال والدواب

كلها وغير ذلك آجالها في التسبيح ، فإذا انقضى تسبيحها قبض الله أرواحها ، وليس إلى ملك الموت منها شيء " .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ قال : ما من شيء في أصله الأول لن يموت إلا وهو يسبح بحمده .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي في قوله : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ قال : ما من شيء في أصله الأول لن يموت إلا وهو يسبح بحمده .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن شوذب قال : جلس الحسن مع أصحابه على مائدة فقال بعضهم : هذه المائدة تسبح الآن فقال الحسن : كلا إنما ذاك كل شيء على أصله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن إبراهيم قال الطعام تسبيح .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : لا تقتلوا الضفادع فإن أصواتها تسبيح .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ظن داود عليه السلام أن أحداً لم يمدح خالقه أفضل مما مدحه ، وأن ملكاً نزل وهو قاعد في المحراب والبركة إلى جانبه فقال : يا داود افهم إلى ما تصوّت به الضفدع ، فأنصت داود عليه السلام فإذا الضفدع يمدحه بمدحة لم يمدحه بها داود عليه السلام فقال له الملك : كيف تراه يا داود ؟ قال : أفهمت ما قالت ؟ قال : نعم . قال : ماذا

قالت؟ قال: قالت: سبحانك وبحمدك منهتى علمك يا رب. قال داود عليه السلام: والذي جعلني نبيه، إني لم أمدحه بهذا.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان، عن صدقة بن يسار رضي الله عنه قال: كان داود عليه السلام في محرابه، فأبصر درة صغيرة ففكر في خلقها وقال: ما يعبأ الله بخلق هذه؟ فأنطقها الله فقالت: يا داود أتعجبك نفسك؟ لأنا على قدر ما آتاني الله، أذكر لله وأشكر له منك، على ما آتاك الله. قال الله: ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾.

وأخرج ابن المنذر، عن الحسن رضي الله عنه قال: هذه الآية في التوراة، كقدر ألف آية ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ قال في التوراة: تسبح له الجبال ويسبح له الشجر ويسبح له كذا ويسبح له كذا.

وأخرج أحمد في الزهد وأبو الشيخ، عن شهر بن حوشب رضي الله عنه قال: كان داود عليه السلام يسمّى النوّاح في كتاب الله عز وجل، وانه انطلق حتى أتى البحر فقال: أيها البحر، إني هارب. قال: من الطالب الذي لا ينأى طلبه.

قال : فاجعلني قطرة من مائك ، أو دابة مما فيك ، أو تربة من تربتك ، أو صخرة من صخرك . قال : أيها العبد الهارب الفار من الطالب الذي لا ينأى طلبه ، ارجع من حيث جئت ، فإنه ليس مني شيء إلا بارز ، ينظر الله عز وجل إليه قد أحصاه وعده عداً فلست أستطيع ذلك ، ثم انطلق حتى أتى الجبل ، فقال : أيها الجبل ، اجعلني حجراً من حجارتك أو تربة من تربتك أو صخرة من صخرك أو شيئاً مما في جوفك . فقال : أيها العبد الهارب الفار من الطالب الذي لا ينأى طلبه ، إنه ليس مني شيء إلا يراه الله وينظر إليه وقد أحصاه وعده عداً ، فلست أستطيع ذلك . ثم انطلق حتى أتى على الأرض يعني الرمل فقال : أيها الرمل ، اجعلني تربة من تربك أو صخرة من صخرك أو شيئاً مما في جوفك . فأوحى الله إليه أجبه . فقال : أيها العبد الفار من الطالب الذي لا ينأى طلبه ، ارجع من حيث جئت فاجعل عملك لقمسين : لرغبة أو لرهبة ، فعلى أيهما أخذك ربك لم تبال ، وخرج فأتى البحر في ساعة فصلى فيه ، فنادته ضفدعة فقالت : يا داود ، إنك حدثت نفسك أنك قد سبحت في ساعة ليس يذكر الله فيها غيرك ، وإني في سبعين ألف ضفدعة كلها قائمة على رجل تسبح الله تعالى وتقدسه .

وأخرج أحمد وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : صلى داود عليه السلام ليلة حتى أصبح ، فلما أن أصبح وجد في نفسه غروراً ، فنادته ضفدعة يا داود ، كنت

أدأب منك قد أغفيت إغفاءة .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، عن أبي بردة ، عن أبي موسى رضي الله عنه قال : بلغني أنه ليس شيء أكثر تسبيحاً من هذه الدودة الحمراء .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الحسن رضي الله عنه قال : التراب يسبح فإذا بني فيه الحائط سبح .

وأخرج أبو الشيخ ، عن عكرمة رضي الله عنه قال : إذا سمعت تغيضاً من البيت أو من الخشب والجدر فهو تسبيح .

وأخرج أبو الشيخ ، عن خيثمة رضي الله عنه قال : كان أبو الدرداء يطبخ قدراً فوقعت على وجهها فعلت تسبح .

(111/457)

وأخرج أبو الشيخ ، عن سليمان بن المغيرة قال : كان مطرف رضي الله عنه إذا دخل بيته فسبح سبحت معه آنية بيته .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الحسن رضي الله عنه قال : لولا ما غمي عليكم من تسبيح ما معكم في البيوت ما تقاررتم .

وأخرج أبو الشيخ ، عن مسعر رضي الله عنه قال : لولا ما غمى الله عليكم من تسبيح خلقه ما تقاررتم .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ قال : كل شيء فيه الروح يسبح .

وأخرج أبو الشيخ ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ قال : صلاة الخلق تسبيحهم ، سبحان الله وبحمده .

وأخرج النسائي وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم – نعد الآيات بركة ، وأنتم تعدونها تخويفاً . بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم – ليس معنا ماء فقال لنا : " اطلبوا من معه فضل ماء " فأتي بماء فوضعه في إناء ثم وضع يده فيه ، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه . ثم قال : " حي على الطهور المبارك والبركة من الله " فشربنا منه . قال عبد الله : كنا نسمع صوت الماء وتسبيحه وهو يشرب .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة وابن مردويه ، عن ابن مسعود قال : كنا نأكل مع النبي صلى الله عليه وسلم فنسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل .

وأخرج أبو الشيخ ، عن أنس قال : " أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بطعام ثريد ، فقال : " إن هذا الطعام يسبح " قالوا : يا رسول الله ، وتفقه تسبيحه ؟ قال : نعم . ثم قال لرجل

: " أدن هذه القصعة من هذا الرجل " فأدناها منه فقال : نعم يا رسول الله ، هذا الطعام يسبح ! فقال : " أدْنِها من آخر " وأدناها منه فقال : هذا الطعام يسبح . ثم قال : ردها فقال رجل : يا رسول الله ، لو أمرت على القوم جميعاً ، فقال : لا " إنها لو سكتت عند رجل لقالوا من ذنب ردها فردها " " .

(112/457)

وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية ، عن أبي حمزة الثمالي قال : قال محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه وسمع عصافير يصحن قال : تدري ما يقلن ؟ قلت : لا . قال : يسبحن ربهن عز وجل ويسألن قوت يومهن .

وأخرج الخطيب ، عن أبي حمزة قال : كنا مع علي بن الحسين رضي الله عنه فمر بنا عصافير يصحن فقال : أتدرون ما تقول هذه العصافير ؟ فقلنا : لا . قال : أما إني ما أقول إنا نعلم الغيب ، ولكني سمعت أبي يقول : سمعت علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه يقول : إن الطير إذا أصبحت سبحت ربها ، وسألته قوت يومها ، وإن هذه تسبح ربها ، وتسأله قوت يومها .

وأخرج الخطيب في تاريخه ، عن عائشة قالت : دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه

وسلم فقال لي : " " يا عائشة ، اغسلي هذين البردين " فقلت : يا رسول الله ، بالأمس غسلتهما ، فقال لي : " أما علمت أن الثوب يسبح ، فإذا اتسخ انقطع تسبيحه " " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ قال : حليماً عن خلقه ، فلا يعجل كعجلة بعضهم على بعض ، غفوراً لهم إذا تابوا .

وأخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل ، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : لما نزلت

﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ [المسد : 1] أقبلت العوراء أم جميل ، ولها ولولة ، وفي يدها فهر وهي تقول :

مذمماً أبينا . . . ودينه قلينا

(113/457)

وأمره عصينا . . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، وأبو بكر رضي الله عنه إلى جنبه ، فقال أبو بكر : لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك ، فقال : " إنها لن تراني " وقرأ قرآناً اعتصم به . كما قال تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون

بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ فجاءت حتى قامت على أبي بكر رضي الله عنه : فلم ترَ النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا أبا بكر ، بلغني أن صاحبك هجاني ؟ فقال أبو بكر – رضي الله عنه – لا ورب هذا البيت ، ما هجاك ، فانصرفت وهي تقول : قد علمت قريش أني بنت سيدها .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الدلائل من وجه آخر ، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما : أن أم جميل دخلت على أبي بكر وعنده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا ابن أبي قحافة ، ما شأن صاحبك ينشد في الشعر ؟ فقال : والله ما صاحبي بشاعر ، وما يدري ما الشعر . فقالت : أليس قد قال : ﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ [المسد : 5] فما يدريه ما في جيدي ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قل لها : " هل ترين عندي أحداً ؟ فإنها لن تراني جعل بيني وبينها حجاب " فقال لها أبو بكر رضي الله عنه : فقالت : أتهزأ بي ؟ والله ما أرى عندك أحداً .

وأخرج ابن مردويه ، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : كنت جالساً عند المقام ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم – في ظل الكعبة بين يدي – إذ جاءت أم جميل بنت حرب بن أمية زوجة أبي لهب ، ومعها فهران ، فقالت : أين الذي هجاني وهجا زوجي ؟ والله لئن رأيته لارضن أنثييه بهذين الفهرين . وذلك عند نزول ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ قال أبو بكر رضي الله عنه : فقلت لها : يا أم جميل ، ما هجاك ولا هجا زوجك . قالت :

والله ما أنت بكذاب وإن الناس ليقولون ذلك ، ثم ولت ذاهبة . فقلت : يا رسول الله ، إنها لم ترك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " حال بيني وبينها جبريل " .

(114/457)

وأخرج ابن أبي شيبة والدارقطني في الأفراد وأبو نعيم في الدلائل ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " لما نزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ جاءت امرأة أبي لهب فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، لو تنحيت عنها ، فإنها امرأة بذية ، فقال : " إنه سيحال بيني وبينها فلا تراني " فقال : يا أبا بكر ، هجانا صاحبك ؟ قال : والله ما ينطق بالشعر ، ولا يقوله . فقالت : إنك لمصدق ، فاندفعت راجعة . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، ما رأتك ؟ قال : "كان بيني وبينها ملك يسترني بجناحه حتى ذهبت " " .

وأخرج ابن إسحق وابن المنذر ، عن ابن شهاب رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا القرآن على مشركي قريش ودعاهم إلى الله قالوا : يهزؤون به ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ [السجدة : 5] فأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿ وإذا قرأت القرآن ﴾ الآيات .

(115/457)

وأخرج ابن عساكر وولده القاسم في كتاب آيات الحرز ، عن العباس بن محمد المنقري رضي الله عنه قال : قدم حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه المدينة حاجّاً ، فاحتجنا إلى أن نوجه رسولاً ، وكان في الخوف ، فأبى الرسول أن يخرج ، وخاف على نفسه من الطريق ، فقال الحسين رضي الله عنه : أنا أكتب لك رقعة فيها حرز لن يضرك شيء إن شاء الله تعالى ، فكتب له رقعة وجعلها الرسول في صورته ، فذهب الرسول فلم يلبث أن جاء سالماً ، فقال : مررت بالأعراب يميناً وشمالاً فما هيجني منهم أحد ، والحرز عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ، عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب ، وإن هذا الحرز كان الأنبياء يتحرزون به من الفراعنة : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ﴿ قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ [المؤمنون : 109] ﴿ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ [مريم : 18] أخذت بسمع الله وبصره وقوّته على أسماعكم وأبصاركم وقوتكم يا معشر الجن والإنس والشياطين والأعراب والسباع والهوام واللصوص ، مما يخاف ويحذر فلان بن فلان ، سترت بينه وبينكم بستر النبوّة التي استتروا بها من سطوات الفراعنة ، جبريل ، عن أيمانكم ، وميكائيل ، عن شمائلكم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أمامكم ، والله سبحانه وتعالى من فوقكم يمنعكم من فلان بن فلان في نفسه وولده وأهله وشعره وبشره وماله وما عليه وما معه وما تحته وما فوقه . ﴿ وإذا قرأت

القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ إلى قوله ﴿ نفوراً ﴾ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ قال : الحجاب المستور أكنة على قلوبهم أن يفقهوه ، وأن ينتفعوا به ، أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم .

(116/457)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن زهير بن محمد وإذا قرأت القرآن الآية قال : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن على المشركين بمكة سمعوا صوته ولا يرونه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً ﴾ قال : بغضاً لما تتكلم به لئلا يسمعوه ، كما كان قوم نوح يجعلون أصابعهم في آذانهم ، لئلا يسمعوا ما يأمرهم به من الاستغفار والتوبة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً ﴾ قال :

الشياطين.

وأخرج البخاري في تاريخه، عن أبي جعفر محمد بن علي أنه قال: لم كتمتم ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فنعم الاسم والله كتموا! فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل منزله، اجتمعت عليه قريش، فيجهر (ببسم الله الرحمن الرحيم) ويرفع صوته بها، فتولي قريش فراراً، فأنزل الله ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً ﴾.

وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ إذ يستمعون إليك ﴾ قال: عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ إذ يستمعون إليك ﴾ قال: هي في مثل قول الوليد بن المغيرة ومن معه في دار الندوة وفي قوله: ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ قال: مخرجاً يخرجهم من الأمثال التي ضربوا لك، الوليد بن المغيرة، وأصحابه.

وأخرج ابن إسحق والبيهقي في الدلائل ، عن الزهري رضي الله عنه قال : حدثت أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة يستمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بالليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق فتلاوموا ، فقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا حتى إذا كان الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض : مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة ، أخذ كل واحد منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس أتى أبا سفيان في بيته فقال : أخبرني عن رأيك فيما سمعت من محمد . قال : والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به . ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فقال : ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف في الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ؛ قالوا : منا نبي

يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ، والله لا نؤمن به أبداً ، ولا نصدقه فقام عنه الأخنس وتركه والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(118/457)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَّسْتُوراً ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنه على بابه بمعنى : مستور عن أعينِ الكفار فلا يَرَوْنه . وقيل : هو على النسب ، أي : ذو سِتْرٍ كقولِهم : مكان مَهُول وجارية مَغْنُوجة ، أي : ذو هَوْل وذات غُنُجٍ ، ولا يُقال فيهما : هُلْتُ المكانَ ولا غَنَجْتُ الجارية . وقيل : هو وصفٌ على جهة المبالغة كقولهم : "شِعْرٌ شاعِر" . ورُدَّ هذا : بأنَّ ذلك إنما يكون في اسمِ الفاعلِ ومِنْ لفظِ الأول .

والثاني : أنَّه بمعنى فاعِل كقولهم : مَشْؤُوم ومَيْمون بمعنى : شائِم ويامِن ، وهذا كما جاء اسمُ الفاعلِ بمعنى مفعول كماء دافِق ، وهذا قول الأُخفش في آخرين .

وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا

عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (46)

قوله تعالى : ﴿ وَحْدَهُ ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنَّه منصوبٌ على الحال ، وإن كان معرفةً لفظاً ، لأنه في قوةِ النكرة ؛ إذ هو في معنى " منفرداً " ، وهل هو مصدرٌ أو اسمٌ موضوعٌ موضعَ المصدرِ الموضوعِ موضعَ الحال ، ف " وَحْدَه " وُضِع موضعَ " إيحاد " و " إيحاد " وُضع موضعَ " مُوْحَد " وهو مذهب سيبويه ، أو هو مصدرٌ على حَذْف الزوائد ، إذ يقال : أَوْحَدَه يُوْحِدُه إيحاداً ، أو هو مصدرٌ بنفسِه ل " وَحَد " ثلاثياً . قال الزمخشري : " وَحَدَ يَحِدُ وَحْداً وحِدَةً نحو : وَعَد يَعِد وَعْداً وعِدَة ، و " وَحْدَه " من باب : " رجَع عَوْدَه على بَدْئه ، و " افعَلْه جهدَك وطاقتَك " في أنه مصدرٌ سادٌّ مَسَدَّ الحال ، أصلُه يَحِدُ وَحْدَه ، بمعنى واحداً " . قلت : وقد عرفْتُ أن هذا ليس مذهبَ سيبويه .

والثاني : أنه منصوبٌ على الظرفِ ، وهو قول يُونس . واعلمْ أنَّ هذه الحالَ بخصوصِها - أعني لفظة " وحده " - إذا وَقَعَتْ بعد فاعلٍ ومفعولٍ نحو : ضَرَبَ زيدٌ عمراً وَحْده " فمذهبُ سيبويه : أنه حالٌ من الفاعل ، أي : مُوَحِّداً له بالضرب . ومذهبُ المبردِ : أنه يجوز أن يكونَ حالاً من المفعول . قال الشيخ : " فعلى مذهب سيبويه يكون التقدير : وإذا

ذكرْتَ ربَّك مُوَحّداً لله، وعلى مذهب المبرد يجوز أن يكونَ التقديرُ: مُوَحّداً بالذِّكْر".

قوله: نُفوراً" فيه وجهان: أحدُهما: أنه مصدرٌ على غيرِ الصَّدْر؛ لأنَّ التولِّيَ والنفور بمعنى. والثاني: أنه حال مِنْ فاعل "وَلَّوا" وهو حينئذ جمع نافرٍ، كقاعِد وقُعود وجالس وجلوس. والضميرُ في "وَلَّوا" الظاهر/ عودُه على الكفارِ. وقيل: يعود على الشياطين، وإن لم يَجْرِ لهم ذِكْرٌ.

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (47) ﴾

قوله تعالى: ﴿ بِمَا يَسْتَمِعُونَ ﴾: متعلقٌ ب"أَعْلَمُ". وما كان من باب العلمِ والجهلِ في أَفْعَلِ التفضيلِ وأفعلَ في التعجب تعدَّى بالباء نحو: أنت أعلمُ به، وما أعلمك به!! وهو أجهلُ به، وما أجهلَه به!! ومن غيرِهما يتعدَّى في البابين باللام نحو: أنت أَكْسَى للفقراء.

و"ما" بمعنى الذي، وهي عبارةٌ عن الاستخفاف والإِعراض فكأنه قال: نحن أعلمُ بالاستخفافِ والاستهزاءِ الذي يستمعون به. قاله ابنُ عطية.

قوله : " به " فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه حالٌ ، فيتعلق بمحذوف . قال الزمخشري : " وبه في موضع الحالِ كما [تقول :] يستمعون بالهُزْء ، أي : هازئين " . الثاني : أنها بمعنى اللامِ ، أي : بما يستمعون له . الثالث : أنَّهما على بابها ، أي : يستمعون بقلوبهم أو بظاهرِ أسماعهم ، قالهما أبو البقاء . الرابع : قال الحوفيّ : " لم يَقُلْ يَسْتَعونه ولا يستمعونك ؛ لَمَّا كان الغرضُ ليس الإِخبارَ عن الاستماعِ فقط ، وكان مُضَمَّناً أنَّ الاستماعَ كان على طريق الهُزْء بأن يقولوا : مجنون أو مسحور جاء الاستماع به وإلى ، لِيُعْلَمَ أنَّ الاستماعَ ليس المرادُ به تَفَهُّمَ المسموعِ دون هذا المقصد " ، فعلى هذا أيضاً تتعلق الباء ب " يستمعون " .

قوله : " إذ يستمعون " فيه وجهان : أحدُهما : أنه معمولٌ ل " أَعْلَمُ " . قال الزمخشريُّ : " إذ يستمعون نصبٌ ب " أَعْلَمُ " ، أي : اعَلَمُ وقتَ استماعِهم بما به يستمعون ، وبما يتناجَوْن به ، إذ هم ذَوُو نجوى " . والثاني : أنه منصوبٌ ب " يَستمعون " الأولى . قال ابن عطية : " والعاملُ في " إذ " الأولى وفي المعطوف " يستمعون " الأول . وقال الحوفي : " ف إذ الأولى تتعلق ب " يستمعون " وكذا ﴿ وَإِذْ هُمْ نجوى ﴾ لأنَّ المعنى : نحن أعلمُ بالذي يستمعون إليك وإلى قراءتِك وكلامِك ، إنما يستمعون لسَقْطِك ، وتتبُّعِ عيبِك ، والتماسِ ما يَطْعنون به عليك ، يعني في زعمهم ؛ ولهذا ذكر تعديتَه بالباء و " إلى " .

قوله : " نَجْوى " يجوز أن يكونَ مصدراً فيكونَ من إطلاقِ المصدرِ على العينِ مبالغةً ، أو على حَذْفِ مضاف ، أي : ذوو نجوى ، كما قاله الزمخشريُّ . ويجوز أَنْ يكونَ جمعَ نَجِيّ

كقتيل وقَتْلَى . قاله أبو البقاء .

قوله : ﴿ إِذْ يَقُولُ ﴾ بدلٌ مِنْ " إذ " الأولى في أحَد القولين ، والقولُ الآخر : أنها معمولةٌ ل " اذكُر " مقدراً .

(121/457)

قوله : " مَسْحوراً " الظاهرُ أنه اسمُ مفعولٌ من " السِّحْر " بكسرِ السين ، أي : مَخْبولَ العقلِ أو مخدوعَه . وقال أبو عبيدة : " معناه أن له سَحْراً " أي : رِئة بمعنى أنه لا يَستَغني عن الطعام والشرابِ ، فهو بشرٌ مثلُكم .

وتقول العرب للجبان : " قد انتفخ سَحْره " بفتح السين ، ولكلِّ مَنْ أكل وشرب : مَسْحُور ، ومُسْحَر . فمِنْ الأولِ قولُ امرئ القيس :

3069- أرانا مُوْضِعِيْنَ لأمرِ غَيْبٍ . . . ونُسْحَرُ بالطعامِ وبالشرَّابِ

أي : نُغَذَّى ونُعَلَّل . ومِن الثاني قول لبيد :

3070- فإنْ تَسْأَلِينا فيمَ نحنُ فإنَّنا . . . عصافيرُ مِنْ هذا الأَنامِ المُسَحَّرِ

ورَدَّ الناسُ على أبي عبيدة قولَه لبُعْدِه لفظاً ومعنى . قال ابن قتيبة : " لا أَدْري ما الذي حَمَلَ أبا عبيدةَ على هذا التفسيرِ المستكرَه مع ما فسَّره السلفُ بالوجوهِ الواضحةِ " .

قلت : وأيضاً فإن " السَّحْر " الذي هو الرِّئة لم يُضْرَبْ له فيه مَثَلٌ بخلاف " السَّحْر " ، فإنهم ضربوا له فيه المَثَلَ ، فما بعد الآيةِ مِنْ قولِه " انظر كيف ضَرَبُوا لك الأمثالَ " لا يناسِبُ إلا " السِّحْر " بالكسر .

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) ﴾

(122/457)

قوله تعالى : ﴿ أَإِذَا كُنَّا ﴾ : قد تقدَّم خلافُ القراء في الاستفهامين كهذه الايةِ في سورة الرعد ، وتحقيقُ ذلك . والعاملُ في " إذا " محذوفٌ تقديرُه : أَنُبْعَثُ أو أُنْحْشَرُ إذا كنَّا ، دلَّ عليه " لَمَبْعوثون " ، ولا يعملُ فيها " مَبْعوثون " هذا ؛ لأنَّ ما بعد " إنَّ " لا يعملُ فيما قبلها ، وكذا ما بعدَ الاستفهامِ لا يعملُ فيما قبله ، وقد اجتمعا هنا ، وعلى هذا التقديرِ الذي ذَكَرْتُه تكون " إذا " متمحّضةً للظرفيةِ ، ويجوز أَنْ تكونَ شرطيةً فيُقَدَّرُ العاملُ فيها جوابَها ، تقديرُه : أإذا كنا عظاماً ورُفاتاً نُبْعَثُ أو نُعادُ ، ونحو ذلك ، فهذا المحذوفُ جوابُ الشرطِ عند سيبويه والذي انصبَّ عليه/ الاستفهامُ عند يونس .

قوله : " ورُفاتاً " الرُّفات : ما بُولِغَ في دقّه وتفتيته وهو اسمٌ لأجزاءِ ذلك الشيءِ المُفَتَّتِ .

وقال الفراء : " هو التراب " . ويؤيِّده أنه قد تكرَّر في القرآن " ترابا وعظاماً " . ويقال رَفَتَ

الشيءَ يَرْفت بالكسرِ ، أي : كَسرَه . والفُعال يغلب في التفريق كالحُطام والدُّقاق والفُتات .

قوله : " خَلْقاً " يجوز فيه وجهان ، أحدُهما : أنه مصدرٌ من معنى الفعلِ لا مِنْ لفظِه ، أي : نُبْعَثُ بَعْثاً جديداً . والثاني : أنه في موضع الحالِ ، أي : مَخْلوقين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 362.367 ﴾

(123/457)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) ﴾

أي أدخلناك في إيواءِ حِفظنْا ، وضربنا عليك سرادقاتِ عصمتنا ، ومنعنا الأيدي الخاطئةَ عنك بلطفنا .

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾

صرَّح بأنه خالقُ ضلالتهم ، وهو المبيت في قلوبهم ما استكنَّ فيها من فرط غوايتهم . ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى القُرْءَانِ وَحْدَهُ ﴾ أحبوا أن تذكر آلهتهم ، قد ختم الله على قلوبهم فلا

حديث يَعْجبُهم إلاَّ مِمَّنْ لهم شَكْلٌ ومِثْلٌ .

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (47) ﴾

لَبّسُوا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أحوالَهم ، وأظهروا الوفاقَ من أنفسهم ، فَفَضَحَهم اللَّهُ تعالى ، وكَشَفَ أسرارَهم ، وبَيَّنَ مقابِحهم ، وهتَكَ أستارهم ، فما تنطوي عليه السريرة لا بُدَّ أن يَظْهَر لأهل البصيرة بما يبدو على الأسِرَّة .

﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (48) ﴾

عابوه بما ليس بنقيصةٍ في نفسه حيث قالوا : ﴿ إن تَتَّبِعُونَ إلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ أي ذا سِحْرٍ . وأيُّ نقيصة كانت له إذا كان صلى الله عليه وسلم – من جملة البَشَر ؟ والحقُّ سبحانه وتعالى متولٍ نصرته ، ولم يكن تخصيصه ببِنْيَة ، ولا بصورة ، ولا بحِرْفةٍ ، ولم يكن منه شيء بسببه وإنما بأن شرفه لجملة ما تعلّقه به لُطْفُه القديم – سبحانه – ورحمتُه .

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) ﴾

أقَرُّوا بأنَّ اللهَ خَلَقَهم ، ثم أنكروا قدرته على إعادتهم بعد عَدَمِهم ، ولكن . . كما جاز أن يوجِدَهم أولاً وهم في كتم العَدِمِ ولم يكن لهم عين ولا أثر ، ولكنهم كانوا في متناول القدرة ومتعلق الإرادة ، فَمِنْ حَقِّ صاحبِ القدرة والإرادة أن يعيدَهم إلى الوجود مرة أخرى . . . وهكذا إذا رَمَدَت عينُ قلبٍ لم يستبصر صاحبه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات جـ 2 صـ 350 . 351 ﴾

(125/457)

من فوائد الإمام الجصاص فى الآيات السابقة :

قال رحمه الله :

بَاب بِرِّ الْوَالِدَيْنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَضَى رَبُّك أَلَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا ﴾

﴿ وَقَضَى رَبُّك ﴾ مَعْنَاهُ : أَمَرَ رَبُّك ، وَأَمَرَ بِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا وَقِيلَ : مَعْنَاهُ وَأَوْصَى بِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ لِأَنَّ الْوَصِيَّةَ أَمْرٌ .

وَقَدْ أَوْصَى اللَّهُ تَعَالَى بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَالْإِحْسَانِ إلَيْهِمَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ وَقَالَ : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إحْسَانًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ أَنْ اُشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْك إلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاك عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَك بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا

﴿ فَأَمَرَ بِمُصَاحِبَةِ الْوَالِدَيْنِ الْمُشْرِكَيْنِ بِالْمَعْرُوفِ مَعَ النَّهْيِ عَنْ طَاعَتِهِمَا فِي الشِّرْكِ لِأَنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ .

وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ مِنْ الْكَبَائِرِ عُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ قِيلَ فِيهِ : إنْ بَلَغْت حَالَ الْكِبَرِ وَهُوَ حَالُ التَّكْلِيفِ وَقَدْ بَقِيَ مَعَك أَبَوَاك أَوْ أَحَدُهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ .

وَذَكَرَ لَيْثٌ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : " لَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ إذَا بَلَغَا مِنْ الْكِبَرِ مَا كَانَا يَلِيَانِ مِنْك فِي الصِّغَرِ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ " .

(126/457)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : اللَّفْظُ مُحْتَمِلٌ لِلْمَعْنَيَيْنِ فَهُوَ عَلَيْهِمَا ، وَلَا مَحَالَةَ أَنَّ بُلُوغَ الْوَلَدِ شَرْطٌ فِي الْأَمْرِ ؛ إذْ لَا يَصِحُّ تَكْلِيفُ غَيْرِ الْبَالِغِ ، فَإِذَا بَلَغَ حَالَ التَّكْلِيفِ وَقَدْ بَلَغَاهُمَا حَالَ الْكِبَرِ وَالضَّعْفِ أَوْ لَمْ يَبْلُغَا فَعَلَيْهِ الْإِحْسَانُ إلَيْهِمَا وَهُوَ مَزْجُورٌ أَنْ يَقُولَ لَهُمَا أُفٍّ ، وَهِيَ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى الضَّجَرِ وَالتَّبَرُّمِ بِمَنْ يُخَاطَبُ بِهَا .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ مَعْنَاهُ : لَا تَزْجُرْهُمَا عَلَى وَجْهِ الِاسْتِخْفَافِ بِهِمَا وَالْإِغْلَاظِ لَهُمَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَقُلْ

لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ قَالَ : " لَيِّنًا سَهْلًا " .

وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ قَالَ : " لَا تَمْنَعْهُمَا شَيْئًا يُرِيدَانِهِ " .

وَرَوَى هِشَامٌ عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ سُئِلَ : مَا بِرُّ الْوَالِدَيْنِ ؟ قَالَ : " أَنْ تَبْذُلَ لَهُمَا مَا مَلَكْتَ وَأَطِعْهُمَا فِي أَمْرِكَ مَا لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً " .

وَرَوَى عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ عَنْ وَاصِلِ بْنِ السَّائِبِ : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ قَالَ : " لَا تَنْفُضْ يَدَكَ عَلَيْهِمَا " وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ : " مَا بَرَّ وَالِدَهُ مَنْ أَحَدَّ النَّظَرَ إلَيْهِ

وَعَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ قَالَ : سَأَلْت سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ قَالَ : " قَوْلُ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ لِلسَّيِّدِ الْفَظِّ الْغَلِيظِ " .

(127/457)

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ الرُّصَافِيِّ قَالَ : حَدَّثَنِي عَطَاءٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ قَالَ : " يَدَاكَ لَا تَرْفَعُهُمَا عَلَى أَبَوَيْك وَلَا تُحِدَّ بَصَرَكَ إلَيْهِمَا إجْلَالًا وَتَعْظِيمًا "

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ هُوَ مَجَازٌ لِأَنَّ الذُّلَّ لَيْسَ لَهُ جَنَاحٌ وَلَا يُوصَفُ بِذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ الْمُبَالَغَةَ فِي التَّذَلُّلِ وَالتَّوَاضُعِ لَهُمَا ، وَهُوَ كَقَوْلِ

امْرِئِ الْقيسِ فِي وَصْفِ اللَّيْلِ : فَقُلْت لَهُ لَمَّا تَمطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ وَلَيْسَ لِللَّيْلِ صُلْبٌ وَلَا أَعْجَازٌ وَلَا كَلْكَلٌ ، وَهُوَ مَجَازٌ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ تَكَامُلَهُ وَاسْتِوَاءَهُ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ فِيهِ الْأَمْرُ بِالدُّعَاءِ لَهُمَا بِالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ إذَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ لِأَنَّهُ قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَاَلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾ فَعَلِمْنَا أَنَّ مُرَادَهُ بِالدُّعَاءِ لِلْوَالِدَيْنِ خَاصٌّ فِي الْمُؤْمِنِينَ .

وَبَيَّنَ اللَّهُ

تَعَالَى بِهَذِهِ الْآيَةِ تَأْكِيدَ حَقِّ الْأَبَوَيْنِ ، فَقَرَنَ الْأَمْرَ بِالْإِحْسَانِ إلَيْهِمَا إلَى الْأَمْرِ بِالتَّوْحِيدِ فَقَالَ : ﴿ وَقَضَى رَبُّك أَلَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا ﴾ ثُمَّ بَيَّنَ صِفَةَ الْإِحْسَانِ إلَيْهِمَا بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالْمُخَاطَبَةِ الْجَمِيلَةِ عَلَى وَجْهِ التَّذَلُّلِ وَالْخُضُوعِ وَنَهَى عَنْ التَّبَرُّمِ وَالتَّضَجُّرِ بِهِمَا بِقَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ وَنَهَى عَنْ الْإِغْلَاظِ وَالزَّجْرِ لَهُمَا بِقَوْلِهِ ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ فَأَمَرَ بِلِينِ الْقَوْلِ وَالِاسْتِجَابَةِ لَهُمَا إلَى مَا يَأْمُرَانِهِ بِهِ مَا لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً ، ثُمَّ عَقَّبَهُ بِالْأَمْرِ بِالدُّعَاءِ لَهُمَا فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْوَفَاةِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ عَظَّمَ حَقَّ الْأُمِّ عَلَى الْأَبِ وَرَوَى أَبُو زُرْعَةَ بْنُ عَمْرِو بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : ﴿ جَاءَ رَجُلٌ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي ؟ قَالَ : أُمُّك قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : ثُمَّ أُمُّك قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : ثُمَّ أُمُّك ، قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : ثُمَّ أَبُوك ﴾ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ : " الْأَوَّابُ الَّذِي يَتُوبُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ كُلَّمَا أَذْنَبَ بَادَرَ بِالتَّوْبَةِ " وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ : " هُوَ الرَّاجِعُ عَنْ ذَنْبِهِ بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ " .

وَرَوَى مَنْصُورٌ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : " الْأَوَّابُ الَّذِي يَذْكُرُ ذُنُوبَهُ فِي الْخَلَاءِ وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْهَا " .

وَرَوَى قَتَادَةُ عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ عَوْفٍ الشَّيْبَانِيِّ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ : ﴿ خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَهْلِ قُبَاءَ وَهُمْ يُصَلُّونَ الضُّحَى فَقَالَ : إنَّ صَلَاةَ الْأَوَّابِينَ إذَا رَمِضَتْ الْفِصَالُ مِنْ الضُّحَى ﴾ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْحَقُّ الْمَذْكُورُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُجْمَلٌ

مُفْتَقِرٌ إِلَى الْبَيَانِ ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ﴾ فَهَذَا الْحَقُّ غَيْرُ ظَاهِرِ الْمَعْنَى فِي الْآيَةِ بَلْ هُوَ مَوْقُوفٌ عَلَى الْبَيَانِ ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْحَقُّ هُوَ حَقُّهُمْ مِنْ الْخُمُسِ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ قَرَابَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَا لَهُمْ مِنْ الْحَقِّ فِي صِلَةِ رَحِمِهِمْ .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي ذَوِي الْقُرْبَى الْمَذْكُورِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ : هُوَ قَرَابَةُ الْإِنْسَانِ " .

(130/457)

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ : " أَنَّهُ قَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ التَّأْوِيلَ هُوَ الْأَوَّلُ لِأَنَّهُ مُتَّصِلٌ بِذِكْرِ الْوَالِدَيْنِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ عَامٌّ فِي جَمِيعِ النَّاسِ ، فَكَذَلِكَ مَا عُطِفَ عَلَيْهِ مِنْ إِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى حَقَّهُ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ الصَّدَقَاتِ الْوَاجِبَةَ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ الْآيَةُ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ الَّذِي يَلْزَمُهُ إِعْطَاؤُهُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ إِلَيْهِ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ حَمْزَةَ عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ وَتَلَا : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ﴾ ﴾ الْآيَةَ .

وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ ذَكَرَ الْإِبِلَ فَقَالَ : إنَّ فِيهَا حَقًّا فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : إطْرَاقُ فَحْلِهَا وَإِعَارَةُ دَلْوِهَا وَمَنِيحَةُ سَمِينِهَا ﴾ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ قَالُوا : " التَّبْذِيرُ إنْفَاقُ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ " .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " لَوْ أَنْفَقَ مُدًّا فِي بَاطِلٍ كَانَ تَبْذِيرًا " .

(131/457)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : مَنْ يَرَى الْحَجْرَ لِلتَّبْذِيرِ يَحْتَجُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ ؛ إذْ كَانَ التَّبْذِيرُ مَنْهِيًّا عَنْهُ ، فَالْوَاجِبُ عَلَى الْإِمَامِ مَنْعُهُ مِنْهُ بِالْحَجْرِ وَالْحَيْلُولَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَالِهِ إلَّا بِمِقْدَارِ نَفَقَةِ مِثْلِهِ وَأَبُو حَنِيفَةَ لَا يَرَى الْحَجْرَ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ التَّبْذِيرِ لِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ التَّكْلِيفِ ، فَهُوَ جَائِزُ التَّصَرُّفِ عَلَى نَفْسِهِ فَيَجُوزُ إقْرَارُهُ وَبِيَاعَاتِهِ كَمَا يَجُوزُ إقْرَارُهُ بِمَا يُوجِبُ الْحَدَّ وَالْقِصَاصَ ، وَذَلِكَ مِمَّا تُسْقِطُهُ الشُّبْهَةُ ، فَإِقْرَارُهُ وَعُقُودُهُ بِالْجَوَازِ أَوْلَى إذْ كَانَتْ مِمَّا لَا تُسْقِطُهُ الشُّبْهَةُ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي

سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا ﴾ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ قِيلَ فِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ أَخِوَانُهُمْ بِاتِّبَاعِهِمْ آثَارَهُمْ وَجَرْيِهِمْ عَلَى سُنَنِهِمْ ، وَالثَّانِي : أَنَّهُمْ يُقْرَنُونَ بِالشَّيَاطِينِ فِي النَّارِ .

(132/457)

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ الْآيَةُ قِيلَ فِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ عَلَّمَنَا مَا يَفْعَلُهُ عِنْدَ مَسْأَلَةِ السَّائِلِينَ لَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ وَذِي الْقُرْبَى مَعَ عَوَزِ مَا يُعْطِي وَقِلَّةِ ذَاتِ أَيْدِينَا ، فَقَالَ : إنْ أَعْرَضْت عَنْهُمْ لِأَنَّك لَا تَجِدُ مَا تُعْطِيهِمْ وَكُنْت مُنْتَظِرَ الرِّزْقِ وَرَحْمَةً تَرْجُوهَا مِنْ اللَّهِ لِتُعْطِيَهُمْ مِنْهُ فَقُلْ لَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ قَوْلًا حَسَنًا لَيِّنًا سَهْلًا فَتَقُولُ لَهُمْ يَرْزُقُ اللَّهُ وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ الْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَغَيْرِهِمْ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ : لَا تَبْخَلْ بِالْمَنْعِ مِنْ حُقُوقِهِمْ الْوَاجِبَةِ لَهُمْ .

وَهَذَا مَجَازٌ ، وَمُرَادُهُ تَرْكُ الْإِنْفَاقِ ، فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَدُهُ مَغْلُولَةٌ إلَى عُنُقِهِ فَلَا يُعْطِي مِنْ مَالِهِ شَيْئًا وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَرَبَ تَصِفُ الْبَخِيلَ بِضِيقِ الْيَدِ فَتَقُولُ : فُلَانٌ جَعْدُ الْكَفَّيْنِ ، إذَا كَانَ

بَخِيلًا ، وَقَصِيرُ الْبَاعِ وَيَقُولُونَ فِي ضِدِّهِ : فُلَانٌ رَحْبُ الذِّرَاعِ وَطَوِيلُ الْيَدَيْنِ ﴿ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنِسَائِهِ : أَسْرَعُكُنَّ بِي لَحَاقًا أَطْوَلُكُنَّ يَدًا ﴾ .

(133/457)

وَإِنَّمَا أَرَادَ كَثْرَةَ الصَّدَقَةِ ، فَكَانَتْ زَيْنَبُ بِنْتَ جَحْشٍ لِأَنَّهَا كَانَتْ أَكْثَرَهُنَّ صَدَقَةً وَقَالَ الشَّاعِرُ : وَمَا إِنْ كَانَ أَكْثَرَهُمْ سَوَامًا وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعًا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ يَعْنِي : وَلَا تُخْرِجْ جَمِيعَ مَا فِي يَدِكَ مَعَ حَاجَتِكَ وَحَاجَةِ عِيَالِكَ إِلَيْهِ ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ يَعْنِي : ذَا حَسْرَةٍ عَلَى مَا خَرَجَ مِنْ يَدِكَ .

وَهَذَا الْخِطَابُ لِغَيْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَدَّخِرُ شَيْئًا لِغَدٍ وَكَانَ يَجُوعُ حَتَّى يَشُدَّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ ، وَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ فُضَلَاءِ الصَّحَابَةِ يُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَمِيعَ أَمْلَاكِهِمْ فَلَمْ يُعَنِّفْهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِصِحَّةِ يَقِينِهِمْ وَشِدَّةِ بَصَائِرِهِمْ ، وَإِنَّمَا نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ الْإِفْرَاطِ فِي الْإِنْفَاقِ وَإِخْرَاجِ جَمِيعِ مَا حَوَتْهُ يَدُهُ مِنْ الْمَالِ مَنْ خِيفَ عَلَيْهِ الْحَسْرَةُ عَلَى مَا خَرَجَ عَنْ يَدِهِ فَأَمَّا مَنْ وَثِقَ بِمَوْعُودِ اللَّهِ وَجَزِيلِ ثَوَابِهِ فِيمَا أَنْفَقَهُ فَغَيْرُ مُرَادٍ بِالْآيَةِ وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ﴿ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِثْلِ بَيْضَةٍ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ

أَصَبْت هَذِهِ مِنْ مَعْدِنٍ وَاَللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهَا فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَادَ ثَانِيًا فَأَعْرَضَ عَنْهُ ، فَعَادَ ثَالِثًا فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَمَى بِهَا فَلَوْ أَصَابَتْهُ لَعَقَرَتْهُ ، فَقَالَ : يَأْتِينِي أَحَدُهُمْ بِجَمِيعِ مَا يَمْلِكُ ثُمَّ يَقْعُدُ يَتَكَفَّفُ النَّاسَ ﴾ .

وَرُوِيَ ﴿ أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَعَلَيْهِ هَيْئَةٌ رَثَّةٌ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَأَمَرَ الرَّجُلَ بِأَنْ يَقُومَ فَقَامَ ، فَطَرَحَ النَّاسُ ثِيَابًا لِلصَّدَقَةِ فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهَا ثَوْبَيْنِ ، ثُمَّ حَثَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ ، فَطَرَحَ أَحَدَ ثَوْبَيْهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اُنْظُرُوا إلَى هَذَا أَمَرْتُهُ أَنْ يَقُومَ لِيُفْطَنَ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ فَأَعْطَيْتُهُ ثَوْبَيْنِ ثُمَّ قَدْ طَرَحَ أَحَدَهُمَا ثُمَّ قَالَ لَهُ : خُذْ ثَوْبَك .

﴾ فَإِنَّمَا مَنَعَ أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ مِنْ إخْرَاجِ جَمِيعِ أَمْوَالِهِمْ .

فَأَمَّا أَهْلُ الْبَصَائِرِ فَلَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْنَعُهُمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَدْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ فَأَنْفَقَ جَمِيعَ مَالِهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى بَقِيَ فِي عَبَاءَةٍ فَلَمْ يُعَنِّفْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ عَلَيْهِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِمُخَاطَبَةٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّمَا خُوطِبَ بِهِ غَيْرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ وَلَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ يَتَحَسَّرُ عَلَى إنْفَاقِ مَا حَوَتْهُ يَدُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ غَيْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾

الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ غَيْرُهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إلَيْك ﴾ لَمْ يُرِدْ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ لَمْ يَشُكَّ قَطُّ.

فَاقْتَضَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ ﴾ الْأَمْرَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْإِحْسَانِ إلَى الْوَالِدَيْنِ وَالتَّذَلُّلِ لَهُمَا وَطَاعَتِهِمَا وَإِعْطَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ حُقُوقَهُمْ وَالنَّهْيِ عَنْ تَبْذِيرِ الْمَالِ وَإِنْفَاقِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَالْأَمْرِ بِالِاقْتِصَادِ فِي الْإِنْفَاقِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْإِفْرَاطِ وَالتَّقْصِيرِ فِي الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ وَتَعْلِيمِ مَا يُجِيبُ بِهِ السَّائِلَ وَالْمِسْكِينَ عِنْدَ تَعَذُّرِ مَا يُعْطِي.

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ هُوَ كَلَامٌ يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ السَّبَبِ الْخَارِجِ عَلَيْهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ مِنْ الْعَرَبِ مَنْ كَانَ يَقْتُلُ بَنَاتَهُ خَشْيَةَ الْفَقْرِ لِئَلَّا يَحْتَاجَ إلَى النَّفَقَةِ عَلَيْهِنَّ وَلِيَتَوَفَّرَ مَا يُرِيدُ إنْفَاقَهُ عَلَيْهِنَّ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى بَنِيهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ مُسْتَفِيضًا شَائِعًا فِيهِمْ ، وَهِيَ الْمَوْءُودَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ وَالْمَوْءُودَةُ هِيَ الْمَدْفُونَةُ حَيًّا ، وَكَانُوا يَدْفِنُونَ بَنَاتَهُمْ أَحْيَاءً .

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : ﴿ سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقِيلَ : مَا أَعْظَمُ الذُّنُوبِ ؟ قَالَ : أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَك وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَك خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَك وَأَنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِك ﴾ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ فِيهِ إخْبَارٌ بِأَنَّ رِزْقَ الْجَمِيعِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَاَللَّهُ سَيُسَبِّبُ لَهُمْ مَا يُنْفِقُونَ عَلَى الْأَوْلَادِ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَفِيهِ بَيَانٌ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَرْزُقُ كُلَّ حَيَوَانٍ خَلَقَهُ مَا دَامَتْ حَيَاتُهُ بَاقِيَةً وَأَنَّهُ إنَّمَا يَقْطَعُ رِزْقَهُ بِالْمَوْتِ ، وَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ لِئَلَّا يَتَعَدَّى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَا يَتَنَاوَلَ مَالَ غَيْرِهِ ؛ إذْ كَانَ اللَّهُ قَدْ سَبَّبَ لَهُ مِنْ الرِّزْقِ مَا يُغْنِيهِ عَنْ مَالِ غَيْرِهِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ فِيهِ الْإِخْبَارُ بِتَحْرِيمِ الزِّنَا وَأَنَّهُ قَبِيحٌ لِأَنَّ الْفَاحِشَةَ هِيَ الَّتِي قَدْ تَفَاحَشَ قُبْحُهُ وَعَظُمَ ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الزِّنَا قَبِيحٌ فِي الْعَقْلِ قَبْلَ وُرُودِ السَّمْعِ لِأَنَّ اللَّهَ سَمَّاهُ فَاحِشَةً وَلَمْ يُخَصِّصْ بِهِ قَبْلَ وُرُودِ السَّمْعِ أَوْ بَعْدَهُ وَمِنْ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ الزِّنَا قَبِيحٌ فِي الْعَقْلِ أَنَّ الزَّانِيَةَ لَا نَسَبَ لِوَلَدِهَا مِنْ قِبَلِ الْأَبِ ؛ إذْ لَيْسَ بَعْضُ الزُّنَاةِ أَوْلَى بِهِ لِحَاقُهُ بِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَفِيهِ قَطْعُ الْأَنْسَابِ وَمَنْعُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ الْحُرُمَاتِ فِي الْمَوَارِيثِ وَالْمُنَاكَحَاتِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَإِبْطَالِ حَقِّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ مِنْ الْحُقُوقِ الَّتِي تَبْطُلُ مَعَ الزِّنَا ، وَذَلِكَ قَبِيحٌ فِي الْعُقُولِ مُسْتَنْكَرٌ فِي الْعَادَاتِ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ ﴾ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ النَّسَبُ مَقْصُورًا عَلَى الْفِرَاشِ وَمَا هُوَ فِي حُكْمِ الْفِرَاشِ لَمَا كَانَ صَاحِبُ الْفِرَاشِ بِأَوْلَى بِالنَّسَبِ مِنْ الزَّانِي وَكَانَ ذَلِكَ يُؤَدِّي إلَى إبْطَالِ الْأَنْسَابِ وَإِسْقَاطِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ الْحُقُوقِ وَالْحُرُمَاتِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلَّا بِالْحَقِّ ﴾ إنَّمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إلَّا بِالْحَقِّ ﴾ لِأَنَّ قَتْلَ النَّفْسِ قَدْ يَصِيرُ حَقًّا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ حَقًّا ، وَذَلِكَ قَتْلُهُ عَلَى وَجْهِ الْقَوَدِ وَبِالرِّدَّةِ

وَالرَّجْمِ لِلْمُحْصَنِ وَالْمُحَارِبَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ سُلْطَانًا ﴾ قَالُوا : حُجَّةٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ وَقَالَ الضَّحَّاكُ : السُّلْطَانُ أَنَّهُ مُخَيَّرٌ بَيْنَ الْقَتْلِ وَبَيْنَ أَخْذِ الدِّيَةِ وَعَلَى السُّلْطَانِ أَنْ يَطْلُبَ الْقَاتِلَ حَتَّى يَدْفَعَهُ إلَيْهِ .

(139/457)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : السُّلْطَانُ لَفْظٌ مُجْمَلٌ غَيْرُ مُكْتَفٍ بِنَفْسِهِ فِي الْإِبَانَةِ عَنْ الْمُرَادِ لِأَنَّهُ لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ يَقَعُ عَلَى مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَمِنْهَا الْحُجَّةُ وَمِنْهَا السُّلْطَانُ الَّذِي يَلِي الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَغَيْرَ ذَلِكَ ، إلَّا أَنَّ الْجَمِيعَ مُجْمِعُونَ أَنَّهُ قَدْ أُرِيدَ بِهِ الْقَوَدُ فَصَارَ الْقَوَدُ كَالْمَنْطُوقِ بِهِ فِي الْآيَةِ ، وَتَقْدِيرُهُ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا أَيْ قَوَدًا ، وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّ الدِّيَةَ مُرَادَةٌ فَلَمْ نُثْبِتْهَا وَلَمَّا ثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ الْقَوَدُ دَلَّ ظَاهِرُهُ عَلَى أَنَّهُ إذَا كَانَتْ الْوَرَثَةُ صِغَارًا وَكِبَارًا أَنَّ لِلْكِبَارِ أَنْ يَقْتَصُّوا قَبْلَ بُلُوغِ الصِّغَارِ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَلِيٌّ وَالصَّغِيرُ لَيْسَ بِوَلِيٍّ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ عَفْوُهُ ؟ وَهَذَا قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ ، وَعِنْدَ أَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ لَا يَقْتَصُّ الْكِبَارُ حَتَّى يَبْلُغَ الصِّغَارُ فَيَقْتَصُّوا مَعَهُمْ أَوْ يَعْفُوا وَرُوِيَ عَنْ مُحَمَّدٍ الرُّجُوعُ إلَى قَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ ﴾ رُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ وَالْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكِ وَطَلْقِ بْنِ حَبِيبٍ : " لَا يُقْتَلُ غَيْرُ قَاتِلِهِ وَلَا يُمَثَّلُ بِهِ " وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَتَعَدَّى إلَى غَيْرِ الْقَاتِلِ مِنْ الْحَمِيمِ وَالْقَرِيبِ ، فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ سُلْطَانًا نَهَاهُ أَنْ يَتَعَدَّى وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ﴾ لِأَنَّهُ كَانَ لِبَعْضِ الْقَبَائِلِ طَوْلٌ عَلَى الْأُخْرَى فَكَانَ إذَا قُتِلَ مِنْهُمْ الْعَبْدُ لَا يَرْضَوْنَ إلَّا أَنْ يَقْتُلُوا الْحُرَّ مِنْهُمْ وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : لَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ بِأَنْ يَتَعَدَّى إلَى غَيْرِ الْقَاتِلِ وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : لَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ ، جَزَمَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى النَّهْيِ وَرَفَعَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى مَجَازِ الْخَبَرِ ، يَقُولُ : لَيْسَ فِي قَتْلِهِ سَرَفٌ لِأَنَّ قَتْلَهُ مُسْتَحَقٌّ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : " هُوَ عَائِدٌ عَلَى الْوَلِيِّ " وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " عَلَى الْمَقْتُولِ " .

وَقِيلَ : " هُوَ مَنْصُورٌ إمَّا فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ ، وَنَصْرُهُ هُوَ حُكْمُ اللَّهِ لَهُ بِذَلِكَ أَغْنِي لِلْوَلِيِّ " .

وَقِيلَ : " نَصْرُهُ أَمْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُعِينُوهُ " .

وقَوْله تَعَالَى ﴿ فَقَدْ جعَلْنَا لِولِيِّه سُلْطَانًا ﴾ قدْ اقْتَضَى إثْبَاتَ الْقِصَاص لِلنّسَاءِ لِأَنّ الْوَلِيّ هُنَا هُوَ الْوَارِثُ كَمَا قَال: ﴿ وَالْمُؤْمِنون وَالْمُؤْمِنات بَعْضهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ وَقَال: ﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ وَقَال: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾ فَنَفَى بِذَلِكَ إثْبَاتَ التَّوَارُثِ بَيْنَهُمْ إلَّا بَعْدَ الْهِجْرَة، ثُمَّ قَال: ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ فَأَثْبَتَ الْمِيرَاثَ بِأَنْ جَعَل بَعْضَهُمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضٍ، وَقَال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فَأَثْبَتَ التَّوَارُثَ بَيْنَهُمْ بِذِكْرِ الْوِلَايَةِ.

فَلَمَّا قَال ﴿ فَقَدْ جعَلْنَا لِوَلِيِّه سُلْطَانًا ﴾ اقْتَضَى ذَلِكَ إثْبَاتَ الْقَوَدِ لِسَائِر الْوَرَثَةِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الدَّمَ مَوْرُوثٌ عَنْ الْمَقْتُول أَنَّ الدِّيَةَ الَّتِي هِيَ بَدَلٌ مِنْ الْقِصَاص مَوْرُوثَةٌ عَنْهُ لِلرِّجَال وَالنّسَاءِ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ النّسَاءُ قَدْ وَرِثْنَ الْقِصَاصَ لَمَا وَرِثْنَ بَدَلَهُ الَّذِي هُوَ الْمَال، وَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَرِثَ بَعْضُ الْوَرَثَةِ مِنْ بَعْضِ مِيرَاثِ الْمَيِّتِ وَلَا يَرِثُ مِنْ الْبَعْضِ الْآخَرِ هَذَا الْقَوْلُ مَعَ مُخَالَفَتِهِ لِظَاهِرِ الْكِتَابِ مُخَالِفٌ لِلْأُصُول.

وَقَوْلُ مَالِكٍ : " إنَّ النِّسَاءَ لَيْسَ إلَيْهِنَّ مِنْ الْقِصَاصِ شَيْءٌ وَإِنَّمَا الْقِصَاصُ لِلرِّجَالِ فَإِذَا تَحَوَّلَ مَالًا وَرِثَتْ النِّسَاءُ مَعَ الرِّجَالِ " وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَالْحَكَمِ : " لَيْسَ إلَى النِّسَاءِ شَيْءٌ مِنْ الْعَفْوِ وَالدَّمِ " ، وَمِنْ قَوْلِ أَصْحَابِنَا : " إنَّ الْقِصَاصَ وَاجِبٌ لِكُلِّ وَارِثٍ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ بِقَدْرِ مَوَارِيثِهِمْ " .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلَّا بِاَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : " الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ التِّجَارَةُ " .

وَقَالَ الضَّحَّاكُ : يَبْتَغِي بِهِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَلَا يَكُونُ لِلَّذِي يَبْتَغِي فِيهِ شَيْءٌ " .

(143/457)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : إنَّمَا خَصَّ الْيَتِيمَ بِالذِّكْرِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا فِي أَمْوَالِ سَائِرِ النَّاسِ لِأَنَّ الْيَتِيمَ إلَى ذَلِكَ أَحْوَجُ وَالطَّمَعُ فِي مِثْلِهِ أَكْثَرُ ، وَقَدْ انْتَظَمَ قَوْلُهُ : ﴿ إلَّا بِاَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ جَوَازَ التَّصَرُّفِ فِي مَالِ الْيَتِيمِ لِلْوَالِي عَلَيْهِ مِنْ جَدٍّ أَوْ وَصِيِّ أَبٍ لِسَائِرِ مَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِ لِأَنَّ الْأَحْسَنَ مَا كَانَ فِيهِ حِفْظُ مَالِهِ وَتَثْمِيرُهُ ، فَجَائِزٌ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يَبِيعَ وَيَشْتَرِيَ لِلْيَتِيمِ بِمَا لَا

ضَرَرَ عَلَى الْيَتِيمِ فِيهِ وَبِمِثْلِ الْقِيمَةِ وَأَقَلَّ مِنْهَا مِمَّا يَتَغَابَنُ النَّاسُ فِيهِ لِأَنَّ النَّاسَ قَدْ يَرَوْنَ ذَلِكَ حَظًّا لِمَا يَرْجُونَ فِيهِ مِنْ الرِّبْحِ وَالزِّيَادَةِ وَلِأَنَّ هَذَا الْقَدْرَ مِنْ النُّقْصَانِ مِمَّا يَخْتَلِفُ الْمُقَوِّمُونَ فِيهِ ، فَلَمْ تَثْبُتْ هُنَاكَ حَطِيطَةٌ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَشْتَرِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ الْقِيمَةِ بِمَا لَا يَتَغَابَنُ النَّاسُ فِيهِ لِأَنَّ فِيهِ ضَرَرًا عَلَى الْيَتِيمِ وَذَلِكَ ظَاهِرٌ مُتَيَقَّنٌ ، وَقَدْ نَهَى اللَّهُ أَنْ يُقْرَبَ مَالُ الْيَتِيمِ إلَّا بِاَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .

(144/457)

وَقَدْ دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى جَوَازِ إجَارَةِ مَالِ الْيَتِيمِ وَالْعَمَلِ بِهِ مُضَارَبَةً لِأَنَّ الرِّبْحَ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ الْيَتِيمُ إنَّمَا يَحْصُلُ لَهُ بِعَمَلِ الْمُضَارِبِ ، فَذَلِكَ أَحْسَنُ مِنْ تَرْكِهِ وَقَدْ رَوَى عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { ابْتَغُوا بِأَمْوَالِ الْأَيْتَامِ خَيْرًا لَا تَأْكُلُهَا الصَّدَقَةُ } ، قِيلَ : مَعْنَاهُ النَّفَقَةُ لِأَنَّ النَّفَقَةَ تُسَمَّى صَدَقَةً .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { مَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ } .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَابْنِ عُمَرَ وَعَائِشَةَ وَجَمَاعَةٍ مِنْ التَّابِعِينَ أَنَّ لِلْوَصِيِّ أَنْ يَتَّجِرَ بِمَالِ الْيَتِيمِ وَأَنْ يَدْفَعَهُ مُضَارَبَةً وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلْأَبِ أَنْ يَشْتَرِيَ مَالَ الصَّغِيرِ لِنَفْسِهِ وَيَبِيعَ مِنْهُ وَعَلَى أَنَّ

لِلْوَصِيِّ أَنْ يَشْتَرِيَ مَالَ الْيَتِيمِ لِنَفْسِهِ إذَا كَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لِلْيَتِيمِ ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ قَالَ : " وَإِنْ اشْتَرَى بِمِثْلِ الْقِيمَةِ لَمْ يَجُزْ حَتَّى يَكُونَ مَا يَأْخُذُهُ الْيَتِيمُ أَكْثَرَ قِيمَةً لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ : " لَا يَجُوزُ ذَلِكَ بِحَالٍ " .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَرَبِيعَةُ : " الْحُلُمَ " .

(145/457)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ فَذَكَرَ الْكِبَرَ هَهُنَا وَذَكَرَ الْأَشُدَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَقَالَ : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ فَذَكَرَ فِي إحْدَى الْآيَاتِ الْكِبَرَ مُطْلَقًا وَفِي الْأُخْرَى الْأَشُدَّ وَفِي الْأُخْرَى بُلُوغَ النِّكَاحِ مَعَ إينَاسِ الرُّشْدِ .

وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ خُثَيْمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ حَتَّى إذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً ، ﴿ وَاسْتَوَى ﴾ : أَرْبَعُونَ سَنَةً ، ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ﴾ قَالَ : الْعُمُرُ الَّذِي أَعْذَرَ اللَّهُ فِيهِ إلَى ابْنِ آدَمَ سِتُّونَ سَنَةً .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى إذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ فَذَكَرَ فِي قِصَّةِ

مُوسَى بُلُوغَ الْأَشُدِّ وَالِاسْتِوَاءِ .

وَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بُلُوغَ الْأَشُدِّ ، وَفِي الْأُخْرَى بُلُوغَ الْأَشُدِّ وَبُلُوغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِبُلُوغِ الْأَشُدِّ قِيلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَقِيلَ الِاسْتِوَاءُ ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَالْأَشُدُّ لَيْسَ لَهُ مِقْدَارٌ مَعْلُومٌ فِي

(146/457)

الْعَادَةِ لَا يَزِيدُ عَلَيْهِ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ ، وَقَدْ يَخْتَلِفُ أَحْوَالُ النَّاسِ فِيهِ فَيَبْلُغُ بَعْضُهُمْ الْأَشُدَّ فِي مُدَّةٍ لَا يَبْلُغُهُ غَيْرُهُ فِي مِثْلِهَا لِأَنَّهُ إنْ كَانَ بُلُوغُ الْأَشُدِّ هُوَ اجْتِمَاعُ الرَّأْيِ وَاللُّبِّ بَعْدَ الْحُلُمِ فَذَلِكَ مُخْتَلِفٌ فِي الْعَادَةِ وَإِنْ كَانَ بُلُوغُهُ اجْتِمَاعَ الْقُوَى وَكَمَالَ الْجِسْمِ فَهُوَ مُخْتَلِفٌ أَيْضًا ، وَكُلُّ مَا كَانَ حُكْمُهُ مَبْنِيًّا عَلَى الْعَادَاتِ فَغَيْرُ مُمْكِنٍ الْقَطْعُ بِهِ عَلَى وَقْتٍ لَا يَتَجَاوَزُهُ وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ إلَّا بِتَوْقِيفٍ أَوْ إجْمَاعٍ ، فَلَمَّا قَالَ فِي آيَةٍ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلَّا بِاَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ اقْتَضَى ذَلِكَ دَفْعَ الْمَالِ إلَيْهِ عِنْدَ بُلُوغِ الْأَشُدِّ مِنْ غَيْرِ شَرْطِ إينَاسِ الرُّشْدِ ، وَلَمَّا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿ حَتَّى إذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ شَرَطَ فِيهَا بَعْدَ بُلُوغِ النِّكَاحِ إينَاسَ الرُّشْدِ وَلَمْ يَشْرُطْ ذَلِكَ فِي بُلُوغِ الْأَشُدِّ وَلَا بُلُوغِ حَدِّ الْكِبَرِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : "

لَا يَدْفَعُ إِلَيْهِ مَالَهُ بَعْدَ الْبُلُوغِ حَتَّى يُؤْنِسَ مِنْهُ رُشْدًا وَيَكْبُرَ وَيَبْلُغَ الْأَشُدَّ وَهُوَ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً ثُمَّ يَدْفَعُ إِلَيْهِ مَالَهُ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ عَاقِلًا " فَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ مُدَّةَ بُلُوغِ الْأَشُدِّ عِنْدَهُ .

(147/457)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ إيجَابَ الْوَفَاءِ بِمَا عَاهَدَ اللَّهَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ النُّذُورِ وَالدُّخُولِ فِي الْقُرَبِ ، فَأَلْزَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى إتْمَامَهَا ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنْ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ وَقِيلَ : أَوْفُوا بِالْعَهْدِ فِي حِفْظِ مَالِ الْيَتِيمِ مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْكُمْ بِوُجُوبِ حِفْظِهِ وَكُلُّ مَا قَامَتْ بِهِ الْحُجَّةُ مِنْ أَوَامِرِ اللَّهِ وَزَوَاجِرِهِ فَهُوَ عَهْدٌ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ مَعْنَاهُ : مَسْئُولًا عَنْهُ لِلْجَزَاءِ ، فَحُذِفَ اكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ الْحَالِ وَعِلْمِ الْمُخَاطَبِ بِالْمُرَادِ .

وَقِيلَ : إنَّ الْعَهْدَ يُسْأَلُ فَيُقَالُ لِمَ نُقِضْت ؟ كَمَا تُسْأَلُ الْمَوْءُودَةُ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَذَلِكَ يَرْجِعُ إلَى مَعْنَى الْأَوَّلِ لِأَنَّهُ تَوْقِيفٌ وَتَقْرِيرٌ لِنَاقِضِ الْعَهْدِ كَمَا أَنَّ سُؤَالَ الْمَوْءُودَةِ تَوْقِيفٌ وَتَقْرِيرٌ لِقَائِلِهَا بِأَنَّهُ قَتَلَهَا بِغَيْرِ ذَنْبٍ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَنْ اشْتَرَى شَيْئًا مِنْ الْمَكِيلَاتِ مُكَايَلَةً أَوْ مِنْ الْمَوْزُونَاتِ مُوَازَنَةً وَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَأْخُذَ الْمُشْتَرَى كَيْلًا إلَّا بِكَيْلٍ وَلَا الْمُشْتَرَى وَزْنًا إلَّا بِوَزْنٍ ، وَأَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهُ مُجَازَفَةً ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الِاعْتِبَارَ فِي تَحْرِيمِ التَّفَاضُلِ هُوَ بِالْكَيْلِ وَالْوَزْنِ ؛ إذْ لَمْ يَخُصَّ إيجَابَ الْكَيْلِ فِي الْمَكِيلِ وَإِيجَابُ الْوَزْنِ فِي الْمَوْزُونِ بِالْمَأْكُولِ مِنْهُ دُونَ غَيْرِهِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ سَائِرُ الْمَكِيلَاتِ وَالْمَوْزُونَاتِ إذَا اشْتَرَى بَعْضَهَا بِبَعْضٍ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ أَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ أَخْذُهُ مُجَازَفَةً إلَّا بِكَيْلٍ سَوَاءٌ كَانَ مَأْكُولًا أَوْ غَيْرَ مَأْكُولٍ نَحْوُ الْجِصِّ وَالنُّورَةِ وَفِي الْمَوْزُونِ نَحْوُ الْحَدِيدِ وَالرَّصَاصِ وَسَائِرِ الْمَوْزُونَاتِ .

وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى جَوَازِ الِاجْتِهَادِ وَأَنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ لِأَنَّ إيفَاءَ الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ لَا سَبِيلَ لَنَا إلَيْهِ إلَّا مِنْ طَرِيقِ الِاجْتِهَادِ وَغَلَبَةِ الظَّنِّ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يَدَّعِيَ إذَا كَانَ لِغَيْرِهِ الْقَطْعُ بِأَنَّهُ لَا يَزِيدُ حَبَّةً وَلَا يَنْقُصُ وَإِنَّمَا مَرْجِعُهُ فِي إيفَاءِ حَقِّهِ إلَى غَلَبَةِ ظَنِّهِ ؟ وَلَمَّا كَانَ الْكَائِلُ وَالْوَازِنُ مُصِيبًا لِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى إذَا فَعَلَ ذَلِكَ وَلَمْ يُكَلَّفْ إصَابَةَ حَقِيقَةِ الْمِقْدَارِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ كَذَلِكَ حُكْمُ مَسَائِلِ الِاجْتِهَادِ .

(149/457)

وَقِيلَ فِي الْقِسْطَاسِ إنَّهُ الْمِيزَانُ صَغُرَ أَوْ كَبُرَ .

وَقَالَ الْحَسَنُ : هُوَ الْقَبَّانُ .

وَلَمَّا ذَكَرْنَا مِنْ الْمَعْنَى فِي الْمَكِيلِ وَالْمَوْزُونِ قَالَ أَصْحَابُنَا فِيمَنْ لَهُ عَلَى آخَرَ شَيْءٌ مِنْ الْمَكِيلِ أَوْ الْمَوْزُونِ : إنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ لَهُ أَنْ يَقْبِضَهُ مُجَازَفَةً إنْ تَرَاضَيَا وَظَاهِرُ الْأَمْرِ بِالْكَيْلِ وَالْوَزْنِ يُوجِبُ أَنْ لَا يَجُوزَ تَرْكُهُمَا بِتَرَاضِيهِمَا ،

وَكَذَلِكَ لَا تَجُوزُ قِسْمَتُهُمَا إذَا كَانَ بَيْنَ شَرِيكَيْنِ مُجَازَفَةً لِلْعِلَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَا ، وَلَوْ كَانَتْ ثِيَابًا أَوْ عُرُوضًا مِنْ غَيْرِ الْمَكِيلِ وَالْمَوْزُونِ جَازَ أَنْ يَقْبِضَهُ مُجَازَفَةً بِتَرَاضِيهِمَا وَجَازَ أَنْ يَقْتَسِمَا مُجَازَفَةً ؛ إذْ لَمْ يُوجَدْ عَلَيْنَا فِيهِ إيفَاءُ الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ .

قَوْله تَعَالَى : { ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } مَعْنَاهُ أَنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالتَّأْوِيلُ هُوَ الَّذِي إلَيْهِ مَرْجِعُ الشَّيْءِ وَتَفْسِيرُهُ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : آلَ يَؤُولُ أَوْلًا إذَا رَجَعَ .

(150/457)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ الْقَفْوُ اتِّبَاعُ الْأَثَرِ مِنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ وَلَا عِلْمٍ بِمَا يَصِيرُ إلَيْهِ ، وَمِنْهُ الْقَافَةُ وَكَانَتْ الْعَرَبُ فِيهَا مَنْ يَقْتَافُ الْأَثَرَ وَفِيهَا مَنْ يَقْتَافُ النَّسَبَ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا الِاسْمُ مَوْضُوعًا عِنْدَهُمْ لِمَا يُخْبِرُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ غَيْرِ حَقِيقَةٍ ، يَقُولُونَ : تَقَوَّفَ الرَّجُلُ إذَا قَالَ الْبَاطِلَ قَالَ جَرِيرٌ : وَطَالَ حِذَارِي خِيفَةَ الْبَيْنِ وَالنَّوَى وَأُحْدُوثَةٍ مِنْ كَاشِحٍ مُتَقَوِّفِ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : أَرَادَ بِقَوْلِهِ الْبَاطِلَ .

وَقَالَ آخَرُ : وَمِثْلُ الدُّمَى شُمُّ الْعَرَانِينِ سَاكِنٌ بِهِنَّ الْحَيَاءُ لَا يُشِعْنَ التَّقَافِيَا أَيْ التَّقَاذُفَ .

وَإِنَّمَا سُمِّيَ التَّقَاذُفُ بِهَذَا الِاسْمِ لِأَنَّ أَكْثَرَهُ يَكُونُ عَنْ غَيْرِ حَقِيقَةٍ وَقَدْ حَكَمَ اللَّهُ بِكَذِبِ الْقَاذِفِ إذَا لَمْ يَأْتِ بِالشُّهُودِ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَوْلَا إذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إفْكٌ مُبِينٌ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ : " لَا تَقُلْ سَمِعْت وَلَمْ تَسْمَعْ وَلَا رَأَيْت وَلَمْ تَرَهُ وَلَا عَلِمْت وَلَمْ تَعْلَمْ " .

وَقَدْ اقْتَضَى ذَلِكَ نَهْيَ الْإِنْسَانِ عَنْ أَنْ يَقُولَ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ عَلَى جِهَةِ الظَّنِّ وَالْحُسْبَانِ وَأَنْ لَا يَقُولَ فِي النَّاسِ مِنْ السُّوءِ مَا لَا يَعْلَمْ صِحَّتَهُ ، وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ إذَا أَخْبَرَ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ فَهُوَ آثِمٌ فِي خَبَرِهِ كَذِبًا كَانَ خَبَرُهُ أَوْ صِدْقًا لِأَنَّهُ قَائِلٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَقَدْ نَهَاهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ فِيهِ بَيَانٌ أَنَّ لِلَّهِ عَلَيْنَا حَقًّا فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْفُؤَادِ وَالْمَرْءُ مَسْئُولٌ عَمَّا يَفْعَلُهُ بِهَذِهِ الْجَوَارِحِ مِنْ الِاسْتِمَاعِ بِمَا لَا يَحِلُّ وَالنَّظَرُ إلَى مَا لَا يَجُوزُ وَالْإِرَادَةُ لِمَا يَقْبُحُ .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَحْتَجُّ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَك بِهِ عِلْمٌ ﴾ فِي نَفْيِ الْقِيَاسِ فِي فُرُوعِ الشَّرِيعَةِ وَإِبْطَالِ خَبَرِ الْوَاحِدِ لِأَنَّهُمَا لَا يُفْضِيَانِ بِنَا إلَى الْعِلْمِ وَالْقَائِلُ بِهِمَا قَائِلٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ .

وَهَذَا غَلَطٌ مِنْ قَائِلِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ مَا قَامَتْ دَلَالَةُ الْقَوْلِ بِهِ فَلَيْسَ قَوْلًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَالْقِيَاسُ وَأَخْبَارُ الْآحَادِ قَدْ قَامَتْ دَلَائِلُ مُوجِبَةٌ لِلْعِلْمِ بِصِحَّتِهِمَا وَإِنْ كُنَّا غَيْرَ عَالِمِينَ بِصِدْقِ الْمُخْبِرِ ، وَعَدَمُ الْعِلْمِ بِصِدْقِ الْمُخْبِرِ غَيْرُ مَانِعٍ جَوَازَ قَبُولِهِ وَوُجُوبَ الْعَمَلِ بِهِ ، كَمَا أَنَّ شَهَادَةَ الشَّاهِدَيْنِ يَجِبُ قَبُولُهَا إذَا كَانَ ظَاهِرُهُمَا الْعَدَالَةَ وَإِنْ لَمْ يَقَعْ لَنَا الْعِلْمُ بِصِحَّةِ مُخْبِرِهِمَا ، وَكَذَلِكَ أَخْبَارُ الْمُعَامَلَاتِ مَقْبُولَةٌ عِنْدَ جَمِيعِ أَهْلِ الْعِلْمِ مَعَ فَقْدِ الْعِلْمِ بِصِحَّةِ الْخَبَرِ .

(152/457)

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَك بِهِ عِلْمٌ ﴾ غَيْرُ مُوجِبٍ لِرَدِّ أَخْبَارِ الْآحَادِ كَمَا لَمْ يُوجِبْ رَدَّ الشَّهَادَاتِ ، وَأَمَّا الْقِيَاسُ الشَّرْعِيُّ فَإِنَّ مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ خَبَرِ الِاجْتِهَادِ فَكُلُّ قَائِلٍ

بِشَيْءٍ مِنْ الْأَقَاوِيلِ الَّتِي يَسُوغُ فِيهَا الِاجْتِهَادُ فَهُوَ قَائِلٌ بِعِلْمٍ ؛ إذْ كَانَ حُكْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَا أَدَّاهُ اجْتِهَادُهُ إلَيْهِ .

وَوَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ الْعِلْمَ عَلَى ضَرْبَيْنِ : عِلْمٌ حَقِيقِيٌّ وَعِلْمٌ ظَاهِرٌ ، وَاَلَّذِي تَعَبَّدْنَا بِهِ مِنْ ذَلِكَ هُوَ الْعِلْمُ الظَّاهِرُ ، أَلَا تَرَى إلَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إلَى الْكُفَّارِ ﴾ وَإِنَّمَا هُوَ الْعِلْمُ الظَّاهِرُ لَا مَعْرِفَةُ مَغِيبِ ضَمَائِرِهِنَّ وَقَالَ إخْوَةُ يُوسُفَ : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ فَأَخْبَرُوا أَنَّهُمْ شَهِدُوا بِالْعِلْمِ الظَّاهِرِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْت الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَك وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ قِيلَ : إنَّهُ عَلَى مَعْنَى التَّشْبِيهِ لَهُمْ بِمَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَأْتِي بِهِ مِنْ الْحِكْمَةِ فِي الْقُرْآنِ ، فَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حِجَابًا عَنْ أَنْ يُدْرِكُوهُ فَيَنْتَفِعُوا بِهِ .

وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنْ قَتَادَةَ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : " نَزَلَ فِي قَوْمٍ كَانُوا يُؤْذُونَهُ بِاللَّيْلِ إذَا تَلَا الْقُرْآنَ فَحَالَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ حَتَّى لَا يُؤْذُوهُ " .

وَقَالَ الْحَسَنُ : " مَنْزِلَتُهُمْ فِيمَا أَعْرَضُوا عَنْهُ مَنْزِلَةُ مَنْ بَيْنَك وَبَيْنَهُ حِجَابٌ " قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ قِيلَ فِيهِ : إنَّهُ مَنَعَهُمْ مِنْ ذَلِكَ لَيْلًا فِي وَقْتٍ مَخْصُوصٍ

لِئَلَّا يُؤْذُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقِيلَ : جَعَلْنَاهَا بِالْحُكْمِ أَنَّهُمْ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ، ذَمًّا لَهُمْ عَلَى الِامْتِنَاعِ مِنْ تَفَهُّمِ الْحَقِّ وَالِاسْتِمَاعِ إلَيْهِ مَعَ إعْرَاضِهِمْ وَنُفُورِهِمْ عَنْهُ . انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(154/457)

ومن فوائد ابن العربى فى الآيات

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ وَقَضَى ﴾ .

قَدْ بَيَّنَّا تَفْسِيرَ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ بِجَمِيعِ وُجُوهِهَا ، وَأَوْضَحْنَا أَنَّ مِنْ مَعَانِيهَا خَلَقَ ، وَمِنْهَا أَمَرَ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهَا هَاهُنَا إلَّا أَمَرَ ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ يُتَصَوَّرُ وُجُودُ مُخَالَفَتِهِ ، وَلَا يُتَصَوَّرُ وُجُودُ خِلَافِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ؛ لِأَنَّهُ الْخَالِقُ ؛ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ،

فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِعِبَادَتِهِ ، وَبِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ مَقْرُونًا بِعِبَادَتِهِ ، كَمَا قَرَنَ شُكْرَهُمَا بِشُكْرِهِ ، وَلِهَذَا قَرَأَهَا ابْنُ مَسْعُودٍ : وَوَصَّى رَبُّكَ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ قُلْنَا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ .

قَالَ : الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ﴾ .

وَعَنْ أَنَسٍ فِي الصَّحِيحِ أَيْضًا : ﴿ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ﴾ .

(155/457)

وَمِنْ الْبِرِّ إِلَيْهِمَا ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا أَلَّا يَتَعَرَّضَ لِسَبِّهِمَا ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ .

قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ ؟ قَالَ : يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ ﴾ .

حَتَّى إِنَّهُ يَبَرُّهُ وَإِنْ كَانَ مُشْرِكًا إِذَا كَانَ لَهُ عَهْدٌ قَالَ اللَّهُ : ﴿ لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُقْسِطِينَ ﴾ وَهِيَ: الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُه تَعَالَى: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا ﴾: خَصَّ حَالَةَ الْكِبَرِ؛ لِأَنَّهَا بِطُولِ الْمَدَى تُوجِبُ الِاسْتِثْقَالَ عَادَةً، وَيَحْصُلُ الْمَلَلُ، وَيَكْثُرُ الضَّجَرُ، فَيَظْهَرُ غَضَبُهُ عَلَى أَبَوَيْهِ، وَتَنْتَفِخُ لَهُمَا أَوْدَاجُهُ، وَيَسْتَطِيلُ عَلَيْهِمَا بِدَالَّةِ الْبُنُوَّةِ، وَقِلَّةِ الدِّيَانَةِ.

وَأَقَلُّ الْمَكْرُوهِ أَنْ يُؤَفِّفَ لَهُمَا؛ وَهُوَ مَا يُظْهِرُهُ بِتَنَفُّسِهِ الْمُرَدَّدِ مِنْ الضَّجَرِ.

وَأَمَرَ بِأَنْ يُقَابِلَهُمَا بِالْقَوْلِ الْمَوْصُوفِ بِالْكَرَامَةِ، وَهُوَ السَّالِمُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ مِنْ عُيُوبِ الْقَوْلِ الْمُتَجَرِّدِ عَنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ مِنْ مَكْرُوهِ الْأَحَادِيثِ.

(156/457)

ثُمَّ قَالَ، وَهِيَ: الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ ﴾: الْمَعْنَى تَذَلَّلْ لَهُمَا تَذْلِيلَ الرَّعِيَّةِ لِلْأَمِيرِ، وَالْعَبِيدِ لِلسَّادَةِ؛ وَضَرَبَ خَفْضَ الْجَنَاحِ وَنَصْبَهُ مَثَلًا لِجَنَاحِ الطَّائِرِ حِينَ يَنْتَصِبُ بِجَنَاحِهِ لِوَلَدِهِ أَوْ لِغَيْرِهِمْ مِنْ شِدَّةِ الْإِقْبَالِ.

وَالذُّلُّ هُوَ اللِّينُ وَالْهَوْنُ فِي الشَّيْءِ، ثُمَّ قَالَ، وَهِيَ: الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ: ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾: مَعْنَاهُ: ادْعُ لَهُمَا فِي حَيَاتِهِمَا وَبَعْدَ مَمَاتِهِمَا بِأَنْ يَكُونَ الْبَارِئُ يَرْحَمُهُمَا كَمَا رَحِمَاك، وَتَرَفَّقْ بِهِمَا كَمَا رَفَقَا بِك؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَجْزِي الْوَالِدَ

عَنْ الْوَلَدِ ؛ إذْ لَا يَسْتَطِيعُ الْوَلَدُ كِفَاءً عَلَى نِعْمَةِ وَالِدِهِ أَبَدًا .

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ لَنْ يَجْزِيَ وَلَدٌ وَالِدَهُ إلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ ﴾ ، مَعْنَاهُ يُخَلِّصُهُ مِنْ أَسْرِ الرِّقِّ كَمَا خَلَّصَهُ مِنْ أَسْرِ الصِّغَرِ .

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُمَا وَلِيَاهُ صَغِيرًا جَاهِلًا مُحْتَاجًا ، فَآثَرَاهُ عَلَى أَنْفُسِهِمَا ، وَسَهِرَا لَيْلَهُمَا وَأَنَامَاهُ ، وَجَاعَا وَأَشْبَعَاهُ ، وَتَعَرَّيَا وَكَسَوَاهُ ، فَلَا يَجْزِيهِمَا إلَّا أَنْ يَبْلُغَا مِنْ الْكِبَرِ إلَى الْحَدِّ الَّذِي كَانَ هُوَ فِيهِ مِنْ الصِّغَرِ ، فَيَلِي مِنْهُمَا مَا وَلِيَا مِنْهُ ، وَيَكُونُ لَهُمَا حِينَئِذٍ عَلَيْهِ فَضْلُ التَّقَدُّمِ بِالنِّعْمَةِ عَلَى الْمُكَافِئِ عَلَيْهَا .

وَقَدْ أَخْبَرَنِي الشَّرِيفُ الْأَجَلُّ الْخَطِيبُ نَسِيبُ الدَّوْلَةِ أَبُو الْقَاسِمِ عَلِيُّ بْنُ الْقَاضِي ذُو الشَّرَفَيْنِ أَبُو الْحُسَيْنِ إبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ الْحُسَيْنِيُّ بِدِمَشْقَ ، أَنْبَأَنَا أَبُو نَصْرٍ أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الشِّيرَازِيِّ بِمَكَّةَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، سَمِعْتُهُ دَاخِلَ الْكَعْبَةِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ ، وَكَانَ حَافِظًا ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ رِيذَةَ الضَّبِّيُّ الْأَصْبَهَانِيُّ بِأَصْبَهَانَ قِرَاءَةً ، أَنْبَأَنَا أَبُو الْقَاسِمِ سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَيُّوبَ الْحَافِظُ الطَّبَرِيُّ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ الْبَرْدَعِيُّ بِمِصْرَ ، حَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ عُبَيْدُ بْنُ خَلَصَةَ بِمَعَرَّةِ

النُّعْمَانِ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَافِعٍ الْمَدَنِيُّ عَنْ الْمُنْكَدِرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ؛ قَالَ : « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنَّ أَبِي أَخَذَ مَالِي .

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلرَّجُلِ : فَأْتِنِي بِأَبِيكَ .

فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ ، وَيَقُولُ لَكَ : إِذَا جَاءَكَ الشَّيْخُ فَاسْأَلْهُ عَنْ شَيْءٍ قَالَهُ فِي نَفْسِهِ ، مَا سَمِعَتْهُ أُذُنَاهُ ، فَلَمَّا جَاءَ الشَّيْخُ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا بَالُ ابْنِكَ يَشْكُوكَ ؟ أَتُرِيدُ أَنْ تَأْخُذَ مَالَهُ ؟ فَقَالَ : سَلْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَلْ أُنْفِقُهُ إِلَّا عَلَى إِحْدَى

عَمَّاتِهِ أَوْ خَالَاتِهِ أَوْ عَلَى نَفْسِي ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِيهٍ دَعْنَا مِنْ هَذَا ، أَخْبِرْنِي عَنْ شَيْءٍ قُلْتَهُ فِي نَفْسِكَ مَا سَمِعَتْهُ أُذُنَاكَ .

فَقَالَ الشَّيْخُ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يَزَالُ اللَّهُ تَعَالَى يَزِيدُنَا بِكَ يَقِينًا ، لَقَدْ قُلْتُ فِي نَفْسِي شَيْئًا مَا سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ ، فَقَالَ : قُلْ وَأَنَا أَسْمَعُ .

قَالَ: قُلْت: غَذَوْتُك مَوْلُودًا وَمُنْتُك يَافِعًا تَعِلُّ بِمَا أَجْنِي عَلَيْك وَتَنْهَلُ إِذَا لَيْلَةٌ ضَافَتْك بِالسَّقَمِ لَمْ أَبِتْ لِسُقْمِك إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَلْمَلُ كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَك بِالَّذِي طُرِقْت بِهِ دُونِي فَعَيْنِي تَهْمُلُ تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي عَلَيْك وَإِنَّهَا لَتَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ وَقْتٌ مُؤَجَّلٌ فَلَمَّا بَلَغْت السِّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْت فِيك أُؤَمِّلُ جَعَلْت جَزَائِي غِلْظَةً وَفَظَاظَةً كَأَنَّك أَنْت الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ فَلَيْتَك إِذْ لَمْ تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِي فَعَلْت كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ قَالَ: فَحِينَئِذٍ أَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَلَابِيبِ ابْنِهِ، وَقَالَ: أَنْت وَمَالُك لِأَبِيك ﴾ .

قَالَ سُلَيْمَانُ: لَا يُرْوَى هَذَا الْحَدِيثُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ بِهَذَا التَّمَامِ وَالشِّعْرِ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ، تَفَرَّدَ بِهِ عُبَيْدُ بْنُ خَلَصَةَ.

وَأَخْبَرَنَا أَبُو الْمَعَالِي ثَابِتُ بْنُ بُنْدَارٍ فِي دَارِنَا بِالْمُعْتَمِدِيَّةِ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ غَالِبٍ الْحَافِظِ، أَنْبَأَنَا أَبُو بَكْرٍ الْإِسْمَاعِيلِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ، حَدَّثَنَا سُوَيْد بْنُ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الْغَفَّارِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا أَبُو هِشَامِ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ شُجَاعِ بْنِ قَيْسِ بْنِ هِشَامٍ السَّكُونِيِّ، قَالُوا: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: بَيْنَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ

قَبْلَكُمْ يَمْشُونَ إِذْ أَصَابَهُمْ مَطَرٌ ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فَانْطَبَقَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : يَا هَؤُلَاءِ ، لَا يُنْجِيكُمْ إِلَّا الصِّدْقُ ، فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ : فَقَالَ أَحَدُهُمْ : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَجِيرٌ ، عَمِلَ لِي عَلَى فَرْقٍ أُرْزٍ ، فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ ، فَزَرَعْتُهُ ، فَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ أَنِّي اشْتَرَيْتُ مِنْ ذَلِكَ الْفَرْقِ بَقَرًا ، ثُمَّ أَتَانِي يَطْلُبُ أَجْرَهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ ، فَسُقْهَا فَإِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ الْفَرْقِ فَسَاقَهَا .

فَإِنْ كُنْتَ فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا ، فَانْسَاحَتْ عَنْهُمُ الصَّخْرَةُ .

فَقَالَ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ ، وَكَانَتْ لِي غَنَمٌ ، وَكُنْتُ آتِيهِمَا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بِلَبَنِ غَنَمٍ لِي ، فَأَبْطَأْتُ عَنْهُمَا ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَأَتَيْتُهُمَا وَقَدْ رَقَدَا وَأَهْلِي وَعِيَالِي يَتَضَاغَوْنَ مِنَ الْجُوعِ ، وَكُنْتُ لَا أَسْقِيهِمْ حَتَّى يَشْرَبَ أَبَوَايَ ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ رَقْدَتِهِمَا ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَيَسْتَيْقِظَا لِشُرْبِهِمَا ، فَلَمْ أَزَلْ أَنْتَظِرُهُمَا حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ ، فَقَامَا فَشَرِبَا ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا ، فَانْسَاحَتْ عَنْهُمُ الصَّخْرَةُ ، حَتَّى نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ .

فَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنِّي رَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَأَبَتْ عَلَيَّ إِلَّا أَنْ آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَطَلَبْتُهَا حَتَّى قَدَرْتُ عَلَيْهَا، فَجِئْتُ بِهَا فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا فَأَمْكَنَتْنِي مِنْ نَفْسِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ لِي: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ.

فَقُمْتُ عَنْهَا، وَتَرَكْتُ لَهَا الْمِائَةَ دِينَارٍ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي تَرَكْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَافْرِجْ عَنَّا، فَفَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَخَرَجُوا يَمْشُونَ ﴾

.

وَمِنْ تَمَامِ بِرِّ الْأَبَوَيْنِ صِلَةُ أَهْلِ وُدِّهِمَا، لِمَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ ﴾.

وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسُخْطُ الرَّبِّ فِي سُخْطِ الْوَالِدَيْنِ ﴾.

خَرَّجَهُمَا التِّرْمِذِيُّ.

وَلِذَلِكَ عَدَلَ عُقُوقُهُمَا الْإِشْرَاكَ فِي الْإِثْمِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ بِرَّهُمَا قَرِينُ الْإِيمَانِ فِي الْأَجْرِ.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ أَخْبَرَنَا الشَّرِيفُ الْأَجَلُّ أَبُو الْقَاسِمِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ الشَّاشِيُّ بِهَا قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الْجَوْهَرِيُّ فِي كِتَابِهِ، أَنْبَأَنَا أَبُو الْقَاسِمِ عِيسَى بْنُ عَلِيِّ بْنِ عِيسَى الْوَزِيرِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْبَغَوِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْغَسِيلِ، عَنْ أُسَيْدَ عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ أَبِي أُسَيْدَ، وَكَانَ بَدْرِيًّا قَالَ:

﴿كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ وَالِدَيَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمَا شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا بَعْدَهُمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا رَحِمَ لَكَ إِلَّا مِنْ قِبَلِهِمَا، فَهَذَا الَّذِي بَقِيَ عَلَيْكَ﴾.

وَقَدْ ﴿كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُهْدِي لِصَدَائِقِ خَدِيجَةَ بِرًّا بِهَا وَوَفَاءً لَهَا﴾، وَهِيَ زَوْجَةٌ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْأَبَوَيْنِ.

وَقَدْ أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا الْفِهْرِيُّ فِي الْمُذَاكَرَةِ أَنَّ الْبَرَامِكَةَ لَمَّا حُبِسُوا أَجْنَبَ الْأَبُ، فَاحْتَاجَ إِلَى غُسْلٍ، فَقَامَ ابْنُهُ بِالْإِنَاءِ عَلَى السِّرَاجِ لَيْلَةً حَتَّى دَفِيءَ وَاغْتَسَلَ بِهِ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ التَّوْفِيقَ لَنَا وَلَكُمْ بِرَحْمَتِهِ.

الْآيَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّك تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَدَّمْنَا الْقَوْلَ فِي حَقِّ ذَوِي الْقُرْبَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ ، وَأَكَّدَ اللَّهُ هَاهُنَا حَقَّهُ ؛ لِأَنَّهُ وَصَّى بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ خُصُوصًا مِنْ الْقَرَابَةِ ، ثُمَّ ثَنَّى التَّوْصِيَةَ بِذِي الْقُرْبَى عُمُومًا ، وَأَمَرَ بِتَوْصِيلِ حَقِّهِ إلَيْهِ مِنْ صِلَةِ رَحِمٍ وَأَدَاءِ حَقٍّ مِنْ مِيرَاثٍ وَسِوَاهُ فَلَا يُبَدَّلُ فِيهِ ، وَلَا يُغَيَّرُ عَنْ جِهَتِهِ بِتَوْلِيجٍ وَصِيَّةٍ ، أَوْ سِوَى ذَلِكَ مِنْ الدَّخْلِ .

وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ قَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُخُولًا مُتَقَدِّمًا ، أَوْ مِنْ طَرِيقِ الْأَوْلَى ، مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْآيَةَ لِلْقَرَابَةِ الْأَدْنَيْنَ الْمُخْتَصِّينَ بِالرَّجُلِ ، فَأَمَّا قَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ أَبَانَ اللَّهُ عَلَى الِاخْتِصَاصِ حَقَّهُمْ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ مَحَبَّتَهُمْ هِيَ أَجْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى هُدَاهُ لَنَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ : وَلَهُمْ حَقَّانِ : أَحَدُهُمَا : أَدَاءُ الزَّكَاةِ .

وَالثَّانِي : الْحَقُّ الْمُفْتَرَضُ مِنْ الْحَاجَةِ عِنْدَ عَدَمِ الزَّكَاةِ ، أَوْ فَنَائِهَا ، أَوْ تَقْصِيرِهَا مِنْ عُمُومِ الْمُحْتَاجِينَ ، وَأَخْذِ السُّلْطَانِ دُونَهُمْ ، وَقَدْ حَقَّقْنَا ذَلِكَ فِيمَا مَضَى ، فَانْظُرُوا فِيهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ قَالَ أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ : التَّبْذِيرُ هُوَ مَنْعُهُ مِنْ حَقِّهِ ، وَوَضْعُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ ، وَهُوَ أَيْضًا تَفْسِيرُ الْحَدِيثِ : ﴿ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ إضَاعَةِ الْمَالِ ﴾ .

وَكَذَلِكَ يُرْوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ؛ وَهُوَ الْإِسْرَافُ ، وَذَلِكَ حَرَامٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ إنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ وَذَلِكَ نَصٌّ فِي التَّحْرِيمِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَنْ أَنْفَقَ فِي الشَّهَوَاتِ ، هَلْ هُوَ مُبَذِّرٌ أَمْ لَا ؟ قُلْنَا : مَنْ أَنْفَقَ مَالَهُ فِي الشَّهَوَاتِ زَائِدًا عَلَى الْحَاجَاتِ ، وَعَرَّضَهُ بِذَلِكَ لِلنَّفَادِ فَهُوَ مُبَذِّرٌ .

وَمَنْ أَنْفَقَ رِبْحَ مَالِهِ فِي شَهَوَاتِهِ ، أَوْ غَلَّتَهُ ، وَحَفِظَ الْأَصْلَ أَوْ الرَّقَبَةَ ، فَلَيْسَ بِمُبَذِّرٍ .

وَمَنْ أَنْفَقَ دِرْهَمًا فِي حَرَامٍ فَهُوَ مُبَذِّرٌ يُحْجَرُ عَلَيْهِ فِي نَفَقَةِ دِرْهَمٍ فِي الْحَرَامِ ، وَلَا يُحْجَرُ عَلَيْهِ بِبَذْلِهِ فِي الشَّهَوَاتِ ، إلَّا إذَا خِيفَ عَلَيْهِ النَّفَادُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ﴾ الْآيَةَ: أَمَرَ اللَّهُ بِالْإِقْبَالِ عَلَى الْآبَاءِ وَالْقَرَابَةِ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنَاءِ السَّبِيلِ عِنْدَ التَّمَكُّنِ مِنْ الْعَطَاءِ، وَالْقُدْرَةِ، فَإِنْ كَانَ عَجْزٌ عَنْ ذَلِكَ جَازَ الْإِعْرَاضُ، حَتَّى يَرْحَمَ اللَّهُ بِمَا يُعَادُ عَلَيْهِمْ بِهِ؛ فَاجْعَلْ بَدَلَ الْعَطَاءِ قَوْلًا فِيهِ يُسْرٌ.

وَقِيلَ: إنَّمَا أَمَرَ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ عِنْدَ خَوْفِ نَفَقَتِهِمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ، فَيَنْتَظِرُ رَحْمَةَ اللَّهِ بِالتَّوْبَةِ عَلَيْهِمْ.

وَقَدْ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ: إنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ﴿ خَبَّابٍ، وَبِلَالٍ، وَعَامِرِ بْنِ فُهَيْرَةَ، وَغَيْرِهِمْ، مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ ؟ كَانُوا يَأْتُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَسْأَلُونَهُ، فَيُعْرِضُ عَنْهُمْ؛ إذْ لَا يَجِدُ مَا يُعْطِيهِمْ، فَأُمِرَ أَنْ يُحْسِنَ لَهُمْ الْقَوْلَ إلَى أَنْ يَرْزُقَهُ اللَّهُ مَا يُعْطِيهِمْ ﴾، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّك تَرْجُوهَا ﴾.

الْآيَةُ السَّادِسَةُ قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَك مَغْلُولَةً إلَى عُنُقِك وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾.

(166/457)

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ: الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: قَوْلُهُ: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَك مَغْلُولَةً إلَى عُنُقِك ﴾ هَذَا مَجَازٌ، عَبَّرَ بِهِ عَنْ الْبَخِيلِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى إخْرَاجِ شَيْءٍ مِنْ مَالِهِ فَضَرَبَ لَهُ مَثَلًا

الْغُلُّ الَّذِي يَمْنَعُ مِنْ تَصَرُّفِ الْيَدَيْنِ ، وَقَدْ ضَرَبَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَثَلًا آخَرَ ، فَقَالَ : ﴿ مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ ، مِنْ لَدُنْ ثُدِيِّهِمَا إلَى تَرَاقِيهِمَا ، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إلَّا سَبَغَتْ وَوَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى يَخْفَى بَنَانُهُ ، وَيَعْفُوَ أَثَرُهُ .

وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إلَّا لَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا .

فَهُوَ يُوَسِّعُ وَلَا يَتَّسِعُ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ ضَرَبَ بَسْطَ الْيَدِ مَثَلًا لِذَهَابِ الْمَالِ ، فَإِنَّ قَبْضَ الْكَفِّ يَحْبِسُ مَا فِيهَا ، وَبَسْطَهَا يُذْهِبُ مَا فِيهَا ، وَمِنْهُ الْمَثَلُ الْمَضْرُوبُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ : ﴿ إلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾ .

فِي أَحَدِ وَجْهَيْ تَأْوِيلِهِ ، كَأَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى التَّوَسُّطِ فِي الْمَنْعِ وَالدَّفْعِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَاَلَّذِينَ إذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ فَيُؤَوَّلُ مَعْنَى الْكَلَامِ إلَى أَوْجُهٍ ثَلَاثَةٍ :

الْأَوَّلُ : لَا يَمْتَنِعُ عَنْ نَفَقَتِهِ فِي الْخَيْرِ ، وَلَا يُنْفِقُ فِي الشَّرِّ .

الثَّانِي: لَا يَمْنَعُ حَقَّ اللَّهِ، وَلَا يَتَجَاوَزُ الْوَاجِبَ؛ لِئَلَّا يَأْتِيَ مَنْ يَسْأَلُ، فَلَا يَجِدُ عَطَاءً.

الثَّالِثُ: لَا تُمْسِكْ كُلَّ مَالِكَ، وَلَا تُعْطِ جَمِيعَهُ، فَتَبْقَى مَلُومًا فِي جِهَاتِ الْمَنْعِ الثَّلَاثِ، مَحْسُورًا، أَيْ مُنْكَشِفًا فِي جِهَةِ الْبَسْطِ وَالْعَطَاءِ لِلْكُلِّ أَوْ لِسَائِرِ وُجُوهِ الْعَطَاءِ الْمَذْمُومَةِ.

(168/457)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: هَذَا خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ أُمَّتُهُ، وَكَثِيرًا مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا كَانَ سَيِّدَهُمْ وَوَاسِطَتَهُمْ إلَى رَبِّهِمْ عَبَّرَ بِهِ عَنْهُمْ، عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ قَدْ خَيَّرَهُ اللَّهُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، فَاخْتَارَ الْفَقْرَ، يَجُوعُ يَوْمًا، وَيَشْبَعُ يَوْمًا، وَيَشُدُّ عَلَى بَطْنِهِ مِنْ الْجُوعِ حَجَرَيْنِ، وَكَانَ عَلَى ذَلِكَ صَبَّارًا، وَكَانَ يَأْخُذُ لِعِيَالِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّضِيرَ وَفَدَكَ وَخَيْبَرَ، ثُمَّ يَصْرِفُ مَا بَقِيَ فِي الْحَاجَاتِ، حَتَّى يَأْتِيَ أَثْنَاءَ الْحَوْلِ وَلَيْسَ عِنْدَهُ شَيْءٌ، فَلَمْ يَدْخُلْ فِي هَذَا الْخِطَابِ بِإِجْمَاعٍ مِنْ الْأُمَّةِ، لِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ الْخِلَالِ وَالْجَلَالِ، وَشَرَفِ الْمَنْزِلَةِ، وَقُوَّةِ النَّفْسِ عَلَى الْوَظَائِفِ، وَعَظِيمِ الْعَزْمِ عَلَى الْمَقَاصِدِ، فَأَمَّا سَائِرُ النَّاسِ فَالْخِطَابُ عَلَيْهِمْ وَارِدٌ، وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ كَمَا تَقَدَّمَ إلَيْهِمْ مُتَوَجِّهٌ، إلَّا أَفْرَادًا خَرَجُوا مِنْ ذَلِكَ بِكَمَالِ صِفَاتِهِمْ،

وعظيم أنفسهم ، منهم ﴿ أبو بكر الصديق ، خرج عن جميع ماله للنبي صلى الله عليه وسلم فقبله منه لله سبحانه ﴾ ؛ وأشار علي أبي لبابة وكعب بالثلث من جميع مالهم ؛ لنقصهم عن هذه المرتبة في أحوالهم ؛ وأعيان من الصحابة ، كانوا على هذا ، فأجراهم النبي

(169/457)

صلى الله عليه وسلم وائتمروا بأمر الله ، واصطبروا على بلائه ، ولم تتعلق قلوبهم بدنيا ، ولا ارتبطت أبدانهم بمال منها ؛ وذلك لثقتهم بموعود الله في الرزق ، وعزوب أنفسهم عن التعلق بغضارة الدنيا .

وقد كان في أشياخي من ارتقى إلى هذه

المنزلة فما ادخر قط شيئا لغد ، ولا نظر بمؤخر عينه إلى أحد ، ولا ربط على الدنيا بيد ، وقد تحقق أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وهو بعباده خبير بصير .

الآية السابعة : قوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا ﴾ .

فيها ثلاث مسائل : المسألة الأولى : روى ابن مسعود ﴿ عن النبي صلى الله عليه وسلم

أَنَّهُ سُئِلَ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ.

قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يُطْعَمَ مَعَكَ ﴾.

وَهَذَا نَصٌّ صَرِيحٌ وَحَدِيثٌ صَحِيحٌ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقَتْلَ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ؛ إذْ فِيهِ إذَايَةُ الْجِنْسِ، وَإِيثَارُ النَّفْسِ، وَتَعَاطِي الْوَحْدَةِ الَّتِي لَا قِوَامَ لِلْعَالَمِ بِهَا، وَتَخَلُّقُ الْجِنْسِيَّةِ بِأَخْلَاقِ السَّبُعِيَّةِ، وَإِذَا كَانَتْ مَعَ قُوَّةِ الْأَسْبَابِ فِي جَارٍ أَوْ قَرِيبٍ، وَالْوَلَدُ أَلْصَقُ الْقَرَابَةِ، وَأَعْظَمُ الْحُرْمَةِ، فَيَتَضَاعَفُ الْإِثْمُ بِتَضَاعُفِ الْهَتْكِ لِلْحُرْمَةِ.

(170/457)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: وَكَانَ مَوْرِدُ هَذَا النَّهْيِ فِي الْمَقْصِدِ الْأَكْبَرِ أَهْلَ الْمَوْءُودَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَرَوْنَ قَتْلَ الْإِنَاثِ مَخَافَةَ الْإِنْفَاقِ عَلَيْهِنَّ، وَعَدَمَ النُّصْرَةِ مِنْهُنَّ، وَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَنْ فَعَلَ فِعْلَهُمْ مِنْ قَتْلِ وَلَدِهِ إمَّا خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْبَابِ؛ لَكِنَّ هَذَا أَقْوَى فِيهَا.

وَقَدْ قَدَّمْنَا بَيَانَ الْقَوْلِ فِي جَرَيَانِ الْقِصَاصِ بَيْنَ الْأَبِ وَالِابْنِ بِمَا يُغْنِي عَنْ إعَادَتِهِ هَاهُنَا.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾.

الْخَاءُ وَالطَّاءُ وَالْهَمْزَةُ تَتَعَلَّقُ بِالْقَصْدِ، وَبِعَدَمِ الْقَصْدِ، تَقُولُ: خَطِئْت إذَا تَعَمَّدْت، وَأَخْطَأْت إذَا تَعَمَّدْت وَجْهًا وَأَصَبْت غَيْرَهُ، وَقَدْ يَكُونُ الْخَطَأُ مَعَ عَدَمِ الْقَصْدِ، وَهُوَ

مَعْنًى مُتَرَدِّدٌ كَمَا بَيَّنَّا ، لِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إلَّا خَطَأً ﴾

الْآيَةُ الثَّامِنَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ .

(171/457)

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ ﴾ : الْمَعْنَى لِلْقَرِيبِ مِنْهُ ، مَأْخُوذٌ مِنْ الْوَلْيِ ، وَهُوَ الْقُرْبُ عَلَى مَا حَقَّقْنَاهُ فِي "كِتَابِ الْأَمَدِ الْأَقْصَى" وَالْقُرْبُ فِي الْمَعَانِي لَيْسَ بِالْمَسَافَةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِالصِّفَاتِ ، وَالصِّفَةُ الَّتِي بِهَا كَانَ قَرِيبًا هِيَ النَّسَبُ الَّذِي هُوَ الْبَعْضِيَّةُ ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ يَنْتَسِبُ إلَيْهِ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَعْضِيَّةِ فَهُوَ وَلِيٌّ .

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : هُوَ الْوَارِثُ مُطْلَقًا ، فَكُلُّ مَنْ وَرِثَهُ فَهُوَ وَلِيُّهُ .

وَعَلَى ذَلِكَ وَرَدَ لَفْظُ الْوِلَايَةِ فِي الْقُرْآنِ .

وَتَحْقِيقُ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ الْقِصَاصَ رَدْعًا عَنْ الْإِتْلَافِ ، وَحَيَاةً لِلْبَاقِينَ ؛ وَظَاهِرُهُ أَنْ يَكُونَ حَقًّا لِجَمِيعِ النَّاسِ ، كَالْحُدُودِ وَالزَّوَاجِرِ عَنْ السَّرِقَةِ وَالزِّنَا ، حَتَّى لَا يَخْتَصَّ بِهَا مُسْتَحِقٌّ ، بَيْدَ أَنَّ الْبَارِئَ تَعَالَى اسْتَثْنَى الْقِصَاصَ مِنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ ، وَجَعَلَهُ لِلْأَوْلِيَاءِ

الْوَارِثِينَ ، لِيَتَحَقَّقَ فِيهِ الْعَفْوُ الَّذِي نُدِبَ إلَيْهِ فِي بَابِ الْقَتْلِ ، وَلَمْ يُجْعَلْ عَفْوًا فِي سَائِرِ الْحُدُودِ ، لِحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ ، وَقُدْرَتِهِ النَّافِذَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ بَيْنَ أَنْ يَقْتُلَ أَوْ يَأْخُذَ الدِّيَةَ } .

(172/457)

وَكَانَتْ هَذِهِ كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ خَاصِّيَّةً أُعْطِيَتْهَا هَذِهِ الْأُمَّةُ ، تَفَضُّلًا وَتَفْضِيلًا ، وَحِكْمَةً وَتَفْصِيلًا ، فَخُصَّ بِذَلِكَ الْأَوْلِيَاءُ ، لِيُتَصَوَّرَ الْعَفْوُ ، أَوْ الِاسْتِيفَاءُ لِاخْتِصَاصِهِ بِالْحُزْنِ ، فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ

الثَّانِيَةُ : فَقَدْ اخْتَلَفَ قَوْلُ مَالِكٍ فِي دُخُولِ النِّسَاءِ فِي الدَّمِ ، فَإِذَا قَالَ بِدُخُولِهِنَّ فِيهِ ، فَلِعُمُومِ الْآيَةِ ، وَإِذَا قَالَ بِخُرُوجِهِنَّ عَنْهُ فَلِأَنَّ طَلَبَ الْقِصَاصِ مَبْنَاهُ عَلَى النَّصْرِ وَالْحِمَايَةِ ، وَلَيْسَتْ الْمَرْأَةُ مِنْ أَهْلِهَا ، وَإِلَيْهِ وَقَعَتْ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ : { إنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا } .

فَإِذَا قُلْنَا بِدُخُولِهِنَّ فِيهِ ، وَهِيَ الرِّوَايَةُ الْأُخْرَى فَفِي أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ دُخُولُهُنَّ ؟ فِي ذَلِكَ رِوَايَتَانِ : إحْدَاهُمَا : فِي الْقَوَدِ دُونَ الْعَفْوِ .

وَوَجْهُهُ أَنَّ الْغَرَضَ اسْتِبْقَاؤُهُ لِحُصُولِ الْحَيَاةِ ، وَالتَّشَفِّي مِنْ عَدَمِ التَّصْبِيرِ ، وَعَظِيمِ الْحُزْنِ عَلَى الْفَقِيدِ ؛ وَالنِّسَاءُ بِذَلِكَ أَخَصُّ .

وَالثَّانِيَةُ : أَنَّ دُخُولَهُنَّ فِي الْعَفْوِ دُونَ الْقَوَدِ تَغْلِيبًا لِجَانِبِ الْإِسْقَاطِ الَّذِي يُغَلَّبُ فِي الْحُدُودِ ؛ فَمِنْ أَيِّ وَجْهٍ وَجَدْنَا الْإِسْقَاطَ ، وَإِنْ ضَعُفَ أَمْضَيْنَاهُ .

انْتِصَافٌ ذَكَرَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الطَّبَرِيُّ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِسْحَاقَ الْقَاضِي أَنَّهُ احْتَجَّ عَلَى مَنْعِ النِّسَاءِ مِنْ الدُّخُولِ فِي الْآيَةِ بِوُجُوهٍ رَكِيكَةٍ ، مِنْهَا : أَنَّ الْوَلِيَّ فِي ظَاهِرِهِ عَلَى التَّذْكِيرِ وَهُوَ وَاحِدٌ ؛ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ مَا كَانَ بِمَعْنَى الْجِنْسِ اسْتَوَى الْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ فِيهِ .

(173/457)

قَالَ الْقَاضِي : لَمْ يُنْصِفْ الطَّبَرِيُّ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ لَمْ يَسْتَوْفِ كَلَامَ إِسْمَاعِيلَ ، وَاسْتَرَكَّهُ قَبْلَ اسْتِيفَائِهِ ، فَالرَّكِيكُ هُوَ قَوْلُهُ الَّذِي لَمْ يَتِمَّ ؛ وَتَمَامُ قَوْلِ إِسْمَاعِيلَ هُوَ أَنَّهُ قَالَ : إنَّ الْوَلِيَّ هَاهُنَا عَلَى التَّذْكِيرِ ؛ لِأَنَّهُ وَاحِدٌ فِي مَعْنَى الْجِنْسِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ إنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ فَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ وَلِيُّ الْقَتِيلِ وَاحِدًا ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ جَمَاعَةً ، وَلَا تَدْخُلُ الْمَرْأَةُ فِي جُمْلَةِ الْأَوْلِيَاءِ ، كَمَا دَخَلَتْ فِي جُمْلَةِ النَّاسِ حِينَ قَالَ : ﴿ إنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ؛ لِأَنَّهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَعْنَاهَا وَمَعْنَى الرَّجُلِ

سَوَاءٌ ؛ إذْ كَانَ الْخَيْرُ وَعَمَلُ الصَّالِحَاتِ إنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يَخُصُّهُمَا فِي أَنْفُسِهِمَا وَالْوَلِيُّ يَكُونُ وَلِيًّا لِغَيْرِهِ ، وَهُوَ وَاحِدٌ أَوْ أَكْثَرُ ، وَالْمَرْأَةُ لَا تَسْتَحِقُّ الْوِلَايَةَ كُلَّهَا .

قَالَ الطَّبَرِيُّ: قَالَ إِسْمَاعِيلُ: الْمَرْأَةُ لَا تَسْتَحِقُّ كُلَّ الْقِصَاصِ، وَالْقِصَاصُ لَا بَعْضَ لَهُ؛ فَلَزِمَهُ مِنْ ذَلِكَ إخْرَاجُ الزَّوْجِ مِنْ الْوِلَايَةِ.

(174/457)

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: تَبَصَّرْ أَيُّهَا الطَّبَرِيُّ مَا قَالَهُ إِسْمَاعِيلُ الْمَالِكِيُّ: إنَّمَا لَا تَسْتَحِقُّ الْمَرْأَةُ الْوِلَايَةَ كُلَّهَا؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ بِكَامِلَةٍ، لَا فِي شَهَادَةٍ وَلَا فِي تَعْصِيبٍ؛ فَكَيْفَ تَضْعُفُ عَنْ الْكَمَالِ فِي أَضْعَفِ الْأَحْكَامِ، وَيَثْبُتُ الْقِصَاصُ لَهَا عَلَى الْكَمَالِ، أَيْنَ يَا طَبَرِيُّ تَحْقِيقُ شَيْخِك إمَامِ الْحَرَمَيْنِ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ، وَأَمَّا احْتِجَاجُك بِالزَّوْجِ فَهُوَ الرَّكِيكُ مِنْ الْقَوْلِ؛ فَإِنَّ الزَّوْجَ لَا مَدْخَلَ لَهُ فِي وِلَايَةِ الدَّمِ.

قَالَ الطَّبَرِيُّ: قَالَ إِسْمَاعِيلُ: الْمَقْصُودُ مِنْ الْقِصَاصِ تَقْلِيلُ الْقَتْلِ، وَالْمَقْصُودُ بِكَثْرَةِ الْقَتْلِ الرِّجَالُ دُونَ النِّسَاءِ، وَيَلْزَمُ عَلَى هَذَا أَلَّا يَجْرِيَ الْقِصَاصُ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ: إمَّا أَنَّ فَكَّيْك ضَعُفَا عَنْ لَوْكِ مَا قَالَهُ إِسْمَاعِيلُ، وَإِمَّا تَعَامَيْت عَمْدًا، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقَتْلَ وَالِاعْتِدَاءَ إنَّمَا شَأْنُهُ الْغَوَائِلُ وَالشَّحْنَاءُ، وَهِيَ بَيْنَ الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ، وَلَا يَقْتُلُ عَلَى الْغَائِلَةِ امْرَأَةً إلَّا دَنِيءُ الْهِمَّةِ، وَيُعَيَّرُ بِهِ بَقِيَّةَ الدَّهْرِ؛ فَكَانَ ذَلِكَ وَاقِعًا فِي الْغَالِبِ عَلَى الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ، فَوَقَعَ الْقَوْلُ بِجَزَاءِ ذَلِكَ، وَهُوَ الْقِصَاصُ عَلَى الرِّجَالِ

دُونَ النِّسَاءِ إِذْ خُرُوجُ الْكَلَامِ عَلَى غَالِبِ الْأَحْوَالِ هِيَ الْفَصَاحَةُ الْعَرَبِيَّةُ، وَالْقَوَاعِدُ الدِّينِيَّةُ.

وَقَدْ تَفَطَّنَ لِذَلِكَ شَيْخُكَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ، فَجَعَلَهُ أَصْلًا مِنْ أُصُولِ الْفِقْهِ، وَرَدَّ إِلَيْهِ كَثِيرًا مِنْ

(175/457)

مَسَائِلِ الِاجْتِهَادِ؛ فَكَيْفَ ذَهِلْتَ عَنْهُ، وَأَنْتَ تَحْكِيهِ وَتُعَوِّلُ فِي تَصَانِيفِكَ عَلَيْهِ،

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ سُلْطَانًا ﴾ فِيهِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: قَالَ مَالِكٌ: السُّلْطَانُ أَمْرُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ.

الثَّانِي: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: السُّلْطَانُ الْحُجَّةُ.

الثَّالِثُ: قَالَ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ: السُّلْطَانُ إِنْ شَاءَ عَفَا، وَإِنْ شَاءَ قَتَلَ، وإِنْ شَاءَ أَخَذَ الدِّيَةَ؛ قَالَهُ أَشْهَبُ وَالشَّافِعِيُّ.

الرَّابِعُ: السُّلْطَانُ طَلَبُهُ حَتَّى يَدْفَعَ إِلَيْهِ.

وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ مُتَقَارِبَةٌ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهَا أَظْهَرَ مِنْ بَعْضٍ، أَمَّا طَلَبُهُ حَتَّى يَدْفَعَ إِلَيْهِ فَهُوَ ابْتِدَاءُ الْحَقِّ، وَآخِرُهُ اسْتِيفَاؤُهُ، وَهُوَ الْقَوْلُ الْخَامِسُ.

وَأَمْرُ اللَّهِ هُوَ حُجَّةُ الْخَلْقِ لِعِبَادِهِ، وَعَلَيْهِمْ، وَالِاسْتِيفَاءُ هُوَ الْمُنْتَهَى، وَقَدْ تَدَاخَلَتْ،

وَتَقَارَبَتْ ، وَأَوْضَحُهَا قَوْلُ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ : إنَّهُ أَمْرُ اللَّهِ .

ثُمَّ إنَّ أَمْرَ اللَّهِ لَمْ يَقَعْ نَصًّا ، فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ ؛ فَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ : الْقَتْلُ خَاصَّةً .

وَقَالَ أَشْهَبُ عَنْهُ : الْخِيرَةُ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالدِّيَةِ ، وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ ، وَقَدْ قَدَّمْنَاهُ فِي مَوْضِعِهِ ، فَلْيُنْظَرْ فِيهِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَفِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

(176/457)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ ﴾ : فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : قَالَ الْحَسَنُ : لَا يَقْتُلُ غَيْرَ قَاتِلِهِ الثَّانِي : قَالَ مُجَاهِدٌ : لَا يَقْتُلُ بَدَلَ وَلِيِّهِ اثْنَيْنِ ، كَمَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَفْعَلُهُ . الثَّالِثُ : لَا يُمَثِّلُ بِالْقَاتِلِ ؛ قَالَهُ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ ، وَكُلُّهُ مُرَادٌ ؛ لِأَنَّهُ إسْرَافٌ كُلُّهُ مَنْهِيٌّ عَنْهُ

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ إنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ : يَعْنِي مُعَانًا .

فَإِنْ قِيلَ : وَكَمْ مِنْ وَلِيٍّ مَخْذُولٍ لَا يَصِلُ إلَى حَقِّهِ .

قُلْنَا : الْمَعُونَةُ تَكُونُ بِظُهُورِ الْحُجَّةِ تَارَةً ، وَبِاسْتِيفَائِهَا أُخْرَى ، وَبِمَجْمُوعِهِمَا ثَالِثَةً ، فَأَيُّهَا كَانَ فَهُوَ نَصْرٌ مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ

، وَحِكْمَتُهُ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الْوَجْهَيْنِ وَفِي إفْرَادِ النَّوْعَيْنِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْآيَةُ التَّاسِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلَّا بِاَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ .

(177/457)

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَدْ قَدَّمْنَا الْقَوْلَ فِي مَالِ الْيَتِيمِ فِي مَوَاضِعَ بِمَا يُغْنِي عَنْ إعَادَتِهِ وَقَوْلُهُ : ﴿ إلَّا بِاَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ : يَعْنِي الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لِلْيَتِيمِ ، وَذَلِكَ بِكُلِّ وَجْهٍ تَكُونُ الْمَنْفَعَةُ فِيهِ لِلْيَتِيمِ ، لَا لِلْمُتَصَرِّفِ فِيهِ ، كَقَوْلِ عَائِشَةَ : اتَّجِرُوا فِي أَمْوَالِ الْيَتَامَى لَا تَأْكُلُهَا الزَّكَاةُ ، وَقَدْ فَسَّرَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ الْحَسَنَ فِيهِ يَعْنِي التِّجَارَةَ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ يَعْنِي قُوَّتَهُ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي الْأَشُدِّ فِي سُورَةِ يُوسُفَ ، وَسَرَدْنَا الْأَقْوَالَ فِيهِ ، وَالْأَشُدُّ كَمَا قُلْنَا فِي الْقُوَّةِ ، وَقَدْ تَكُونُ فِي الْبَدَنِ .

(178/457)

وَقَدْ تَكُونُ فِي الْمَعْرِفَةِ وَالتَّجْرِبَةِ ، وَلَا بُدَّ مِنْ حُصُولِ الْوَجْهَيْنِ ؛ فَإِنَّ الْأَشُدَّ هَاهُنَا وَقَعَتْ مُطْلَقَةً ، وَجَاءَ بَيَانُ الْيَتِيمِ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ مُقَيَّدًا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ فَجَمَعَ بَيْنَ قُوَّةِ الْبَدَنِ بِبُلُوغِ النِّكَاحِ ، وَبَيْنَ قُوَّةِ الْمَعْرِفَةِ بِإِينَاسِ الرُّشْدِ ، وَعَضَّدَ ذَلِكَ الْمَعْنَى فَإِنَّهُ لَوْ اقْتَضَتْ الْآيَةُ تَمْكِينَ الْيَتِيمِ مِنْ مَالِهِ قَبْلَ حُصُولِ الْمَعْرِفَةِ لَهُ وَبَعْدَ حُصُولِ قُوَّةِ الْبَدَنِ لَأَذْهَبَهُ فِي شَهَوَاتِهِ ، وَبَقِيَ صُعْلُوكًا لَا مَالَ لَهُ .

وَخَصَّ

الْيَتِيمَ بِهَذَا الشَّرْطِ فِي هَذَا الذِّكْرِ لِغَفْلَةِ النَّاسِ عَنْهُ ، وَافْتِقَادِ الْآبَاءِ لِبَنِيهِمْ ، فَكَانَ الْإِهْمَالُ لِفَقِيدِ الْأَبِ أَوْلَى .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ يَعْنِي مَسْئُولًا عَنْهُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي الْعَهْدِ فِي مَوَاضِعَ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ يُرِيدُ أَعْطُوهُ بِالْوَفَاءِ ، وَهُوَ التَّمَامُ ، لَا بَخْسَ فِيهِ ، بِالْقِسْطِ ، كَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ يَعْنِي الْمِيزَانَ الْعَدْلَ .

وَقَالَ الْحَسَنُ : هُوَ الْقَبَّانُ يَعْنِي بِهِ مَا قَالَ اللَّهُ مُخْبِرًا عَنْهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ لَا بِزِيَادَةٍ وَلَا بِنُقْصَانٍ .

وَمِنْ نَوَادِرِ أَبِي الْفَضْلِ الْجَوْهَرِيِّ مَا أَنْبَأَنَا عَنْهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْوَاعِظُ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : إذَا أَمْسَكْت عَلَّاقَةَ الْمِيزَانِ بِالْإِبْهَامِ وَالسَّبَّابَةِ ، وَارْتَفَعَتْ سَائِرُ الْأَصَابِعِ كَانَ تَشَكُّلُهَا مَقْرُوءًا بِقَوْلِك اللَّهُ ، فَكَأَنَّهَا إشَارَةٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ فِي تَسْيِيرِ الْوَزْنِ كَذَلِكَ إلَى أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْك ، فَاعْدِلْ فِي وَزْنِك .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ : أَيْ عَاقِبَةً .

مَعْنَاهُ أَنَّ الْعَدْلَ وَالْوَفَاءَ فِي الْكَيْلِ أَفْضَلُ لِلتَّاجِرِ وَأَكْرَمُ لِلْبَائِعِ مِنْ طَلَبِ الْحِيلَةِ فِي الزِّيَادَةِ لِنَفْسِهِ ، وَالنُّقْصَانِ عَلَى غَيْرِهِ ، وَأَحْسَنُ عَاقِبَةٍ ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .

الْآيَةُ الْعَاشِرَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَك بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : " لَا تَقْفُ " : تَقُولُ الْعَرَبُ : قَفَوْته أَقْفُوهُ ، وَقُفْته أَقُوفُهُ ، وَقَفَّيْته : إذَا اتَّبَعْت أَثَرَهُ ، وَقَافِيَةُ كُلِّ شَيْءٍ آخِرُهُ ؛ وَمِنْهُ اسْمُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُقَفَّى ؛ لِأَنَّهُ جَاءَ آخِرَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَخِيرَهُمْ .

وَمِنْهُ الْقَائِفُ، وَهُوَ الَّذِي يَتَّبِعُ أَثَرَ الشَّبَهِ، يُقَالُ قَافَ الْقَائِفُ يَقُوفُ، إذَا فَعَلَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ قَرَأَهُ بَعْضُهُمْ: وَلَا تَقُفْ، مِثْلُ تَقُلْ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ: لِلنَّاسِ فِيهَا خَمْسَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: لَا تَسْمَعْ وَلَا تَرَ مَا لَا يَحِلُّ سَمَاعُهُ وَلَا رُؤْيَتُهُ.

الثَّانِي: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تَتَّبِعْ مَا لَا تَعْلَمُ وَلَا يَعْنِيك.

الثَّالِثُ: قَالَ قَتَادَةُ: لَا تَقُلْ رَأَيْت مَا لَمْ أَرَ، وَلَا سَمِعْت مَا لَمْ أَسْمَعْ.

الرَّابِعُ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ: هُوَ شَهَادَةُ الزُّورِ.

الْخَامِسُ: قِيلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ لَا تَقْفُ لَا تَقُلْ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: هَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا صَحِيحَةٌ؛ وَبَعْضُهَا أَقْوَى مِنْ بَعْضٍ، وَإِنْ كَانَتْ مُرْتَبِطَةً؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَسْمَعَ مَا لَا يَحِلُّ، وَلَا يَقُولَ بَاطِلًا، فَكَيْفَ أَعْظَمُهُ وَهُوَ الزُّورُ.

وَيَرْجِعُ الْخَامِسُ إلَى الثَّالِثِ؛ لِأَنَّهُ تَفْسِيرٌ لَهُ، وَإِذَا لَمْ يَحِلَّ لَهُ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ فَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتَّبِعَهُ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ: إنَّ الْمُفْتِيَ بِالتَّقْلِيدِ إذَا خَالَفَ نَصَّ الرِّوَايَةِ فِي نَصِّ النَّازِلَةِ عَمَّنْ قَلَّدَهُ أَنَّهُ مَذْمُومٌ دَاخِلٌ فِي الْآيَةِ؛ لِأَنَّهُ يَقِيسُ وَيَجْتَهِدُ فِي غَيْرِ مَحَلِّ الِاجْتِهَادِ،

وَإِنَّمَا الِاجْتِهَادُ فِي قَوْلِ اللَّهِ وَقَوْلِ الرَّسُولِ، لَا فِي قَوْلِ بَشَرٍ بَعْدَهُمَا.

(181/457)

وَمَنْ قَالَ مِنْ الْمُقَلِّدِينَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَخْرُجُ مِنْ قَوْلِ مَالِكٍ فِي مَوْضِعِ كَذَا فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْآيَةِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَأَنْتَ تَقُولُهَا وَكَثِيرٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ قَبْلَك.

قُلْنَا: نَعَمْ؛ نَحْنُ نَقُولُ ذَلِكَ فِي تَفْرِيعِ مَذْهَبِ مَالِكٍ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ فِي الْتِزَامِ الْمَذْهَبِ بِالتَّخْرِيجِ، لَا عَلَى أَنَّهَا فَتْوَى نَازِلَةٌ تَعْمَلُ عَلَيْهَا الْمَسَائِلُ، حَتَّى إذَا جَاءَ سَائِلٌ عُرِضَتْ الْمَسْأَلَةُ عَلَى الدَّلِيلِ الْأَصْلِيِّ؛ لَا عَلَى التَّخْرِيجِ الْمَذْهَبِيِّ، وَحِينَئِذٍ يُقَالُ لَهُ الْجَوَابُ كَذَا فَاعْمَلْ عَلَيْهِ.

وَمِنْهَا قَوْلُ النَّاسِ: هَلْ الْحَوْضُ قَبْلَ الْمِيزَانِ وَالصِّرَاطِ أَوْ الْمِيزَانُ قَبْلَهُمَا أَمْ الْحَوْضُ؟ فَهَذَا قَفْوُ مَا لَا سَبِيلَ إلَى عِلْمِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ لَا يُدْرَكُ بِنَظَرِ الْعَقْلِ، وَلَا بِنَظَرِ السَّمْعِ، وَلَيْسَ فِيهِ خَبَرٌ صَحِيحٌ، فَلَا سَبِيلَ إلَى مَعْرِفَتِهِ.

وَمِثْلُهُ: كَيْفَ كِفَّةُ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ؟ كَيْفَ يُعْطَى كِتَابَهُ؟.

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ ﴾: يُسْأَلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَنْ ذَلِكَ

كلِّه ، فيُسألُ الفؤادُ عمَّا افتكر واعتقد ، والسَّمْعُ والبصرُ عمَّا رأى مِنْ ذلكَ أوْ سمع ، فأمَّا الْكافرُ فيُنْكرُ ، فتنْطقُ عليْه جوارحُهُ ، فإذا شهدت اسْتوْجبت الْخُلُودَ الدَّائم ، وأمَّا الْمُؤْمنُ الْعاصي فلمْ يأْتِ فيه أمْرٌ صحيحٌ ، فهُو مثالٌ رابعٌ منْها ، وقدْ بيَّنَّا هذه الْمسْألة في رِسالة تقْويم الْفتْوى على أهْلِ الدَّعْوى .

(182/457)

الْآيةُ الْحاديةَ عشْرةَ : قوْله تعالى : ﴿ ولا تمْشِ في الْأرْضِ مرحًا إنَّك لنْ تخْرق الْأرْض ولنْ تبْلُغَ الْجبال طُولًا كُلُّ ذلك كان سيِّئُهُ عنْد ربِّك مكْرُوهًا ذلك ممَّا أوْحى إليْك ربُّك من الْحِكْمة ولا تجْعلْ مع اللَّه إلهًا آخر فتُلْقى في جهنَّم ملُومًا مدْحُورًا ﴾ .

فيه خمْسُ مسائل : الْمسْألةُ الْأُولى : قوْلُهُ : ﴿ مرحًا ﴾ : فيه أرْبعةُ أقْوالٍ : الْأوَّلُ : مُتكبِّرًا .

الثَّاني : بطرًا .

الثَّالثُ : شديدُ الْفرح .

الرَّابعُ : النَّشاطُ .

فإذا تتبَّعْت هذه الْأقْوال وجدْتها مُتقاربةً ، ولكنَّها مُنْقسمةٌ قسْميْن مُخْتلفيْن : أحدُهُما

مَذْمُومٌ ، وَالْآخَرُ مَحْمُودٌ ؛ فَالتَّكَبُّرُ وَالْبَطَرُ مَذْمُومَانِ ، وَالْفَرَحُ وَالنَّشَاطُ مَحْمُودَانِ ؛ وَلِذَلِكَ يُوصَفُ اللَّهُ بِالْفَرَحِ ، فَفِي الْحَدِيثِ : ﴿ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنْ رَجُلٍ ﴾ الْحَدِيثَ " وَالْكَسَلُ مَذْمُومٌ شَرْعًا ، وَالنَّشَاطُ ضِدُّهُ .

وَقَدْ يَكُونُ التَّكَبُّرُ مَحْمُودًا ، وَذَلِكَ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ وَعَلَى الظَّلَمَةِ .

وَحَقِيقَةُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ الْآنَ أَنَّ الْفَرَحَ إِذَا كَانَ بِدُنْيَا وَصِفَاتٍ لَيْسَ لَهَا فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ ، أَوْ كَانَ النَّشَاطُ إِلَى مَا لَا يَنْفَعُ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَا يَكُونُ فِي الْوَجْهَيْنِ جَمِيعًا نِيَّةٌ دِينِيَّةٌ لِلْمُتَّصِفِ بِهِمَا ؛ فَذَلِكَ الَّذِي ذَمَّ اللَّهُ هَاهُنَا .

(183/457)

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي : الْمَسْأَلَةِ الثَّانِيَةِ : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ ﴾ : يَعْنِي لَنْ تَتَوَلَّجَ بَاطِنَهَا ، فَتَعْلَمَ مَا فِيهَا ، وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : يُرِيدُ لَنْ تُسَاوِيَ الْجِبَالَ بِطُولِكَ ، وَلَا بِطُولِكَ ، وَإِنَّمَا تَسْتَقْبِلُ مَا أَمَامَكَ ؛ وَأَيُّ فَضْلٍ لَكَ فِي ذَلِكَ ؟ وَالْمُسَاوَاةُ فِيهِ مَوْجُودَةٌ بَيْنَ الْخَلْقِ .

وَيُرْوَى أَنَّ سَبَأً دَوَّخَ الْأَرْضَ بِأَجْنَادِهِ شَرْقًا وَغَرْبًا ، سَهْلًا وَجَبَلًا ، وَقَتَلَ وَأَسَرَ وَبِهِ سُمِّيَ سَبَأً وَدَانَ لَهُ الْخَلْقُ ، فَلَمَّا

قَالَ ذَلِكَ انْفَرَدَ عَنْ أَصْحَابِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : إِنِّي لَمَّا نِلْتُ مَا لَمْ يَنَلْ أَحَدٌ رَأَيْتُ الِابْتِدَاءَ بِشُكْرِ هَذِهِ النِّعَمِ ؛ فَلَمْ أَرَ أَوْقَعَ فِي ذَلِكَ مِنْ السُّجُودِ لِلشَّمْسِ إِذَا أَشْرَقَتْ ، فَسَجَدُوا لَهَا ، فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ عِبَادَةِ الشَّمْسِ ، فَهَذِهِ عَاقِبَةُ الْخُيَلَاءِ وَالتَّكَبُّرِ وَالْمَرَحِ

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّك مَكْرُوهًا ﴾ : قُرِئَ ﴿ سَيِّئُهُ ﴾ بِرَفْعِ الْهَمْزَةِ وَبِالْهَاءِ ، وَبِنَصْبِ الْهَمْزَةِ وَالتَّاءِ ، فَمَنْ قَرَأَهُ بِرَفْعِ الْهَمْزَةِ وَالْهَاءِ أَرَادَ أَنَّ الْكَلَامَ الْمُتَقَدِّمَ فِيهِ حُسْنٌ مَأْمُورٌ بِهِ ، وَفِيهِ سَيِّئٌ مَنْهِيٌّ عَنْهُ ، فَرَجَعَ الْوَصْفُ بِالسُّوءِ إلَى السَّيِّءِ مِنْهُ .

وَمَنْ قَرَأَهُ بِالْهَمْزَةِ الْمَنْصُوبَةِ وَالتَّاءِ رَجَعَ إلَى مَا نُهِيَ عَنْهُ مِنْهَا ؛ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ مِنْ الْمَأْمُورِ بِهِ .

وَاخْتَارَ الطَّبَرِيُّ الْأَوَّلَ .

(184/457)

فَإِنْ قِيلَ : فَكَيْفَ يَكُونُ الشَّيْءُ مَكْرُوهًا ، وَالْكَرَاهِيَةُ عِنْدَكُمْ إرَادَةُ عَدَمِ الشَّيْءِ ، فَكَيْفَ يُوجَدُ مَا أَرَادَ اللَّهُ عَدَمَهُ ؟ .

قُلْنَا : قَدْ أَجَبْنَا عَنْ ذَلِكَ فِي كِتَابِ شَرْحِ الْمُشْكَلَيْنِ ، بِبَسْطٍ .

بَيَانُهُ عَلَى الْإِيجَازِ : أَنَّ مَعْنَى مَكْرُوهًا مَنْهِيٌّ عَنْهُ فِي أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ ، وَمُرَادًا مَأْمُورٌ بِهِ ،

وَعَلَى هَذَا جَاءَ قَوْلِه تَعَالَى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ؛ أَيْ يَأْمُرُ بِالْيُسْرِ ، وَلَا يَأْمُرُ بِالْعُسْرِ ، وَيَكُونُ مَعْنَاهُ أَيْضًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا شَرْعًا ، أَيْ لَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مِنْ الشَّرْعِ ، وَإِنْ أَرَادَ وُجُودَهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ ؛ مَعْنَاهُ دِينًا لَا وُجُودًا ؛ لِأَنَّهُ وُجِدَ بِإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، تَعَالَى أَنْ يَكُونَ مِنْ عَبْدِهِ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إلَيْك رَبُّك مِنْ الْحِكْمَةِ ﴾ : قَدْ قَدَّمْنَا بَيَانَ الْحِكْمَةِ هَاهُنَا ، وَفِي كُتُبِنَا ، وَفَسَّرْنَا وُجُوهَهَا وَمَوَارِدَهَا : وَلُبَابُهَا هَاهُنَا أَنَّهَا الْعَمَلُ بِمُقْتَضَى الْعِلْمِ .

وَأَعْظَمُهَا قَدْرًا وَأَشْرَفُهَا مَأْمُورًا مَا بَدَأَ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ ﴾ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ، أُمَّهَاتُهَا سِتَّةٌ: الْأَوَّلُ: دَلَالَتُهَا عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَإِرَادَتِهِ وَسَائِرِ صِفَاتِهِ الْعُلَا وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى.

الثَّانِي: تَذْكِرَتُهَا لِلتَّسْبِيحِ بِهَا.

الثَّالِثُ: كُلُّ شَيْءٍ لَهُ يُسَبِّحُ: لَمْحُ الْبَرْقِ، وَصَرِيفُ الرَّعْدِ، وَصَرِيرُ الْبَابِ، وَخَرِيرُ الْمَاءِ.

الرَّابِعُ: قَالَ قَتَادَةُ وَالْحَسَنُ: كُلُّ ذِي رُوحٍ يُسَبِّحُ.

الْخَامِسُ: قَالَ النَّخَعِيُّ وَغَيْرُهُ: الطَّعَامُ يُسَبِّحُ.

السَّادِسُ: قَالَ أَكْثَرُ النَّاسِ، مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ: كُلُّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ تَسْبِيحًا لَا يَعْلَمُهُ الْآدَمِيُّونَ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: اعْلَمُوا نَوَّرَ اللَّهُ بَصَائِرَكُمْ بِعِرْفَانِهِ أَنَّ هَذِهِ مَسْأَلَةٌ كَثُرَ الْخَوْضُ فِيهَا بَيْنَ النَّاسِ.

وَقَدْ أَوْضَحْنَاهَا فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ عَلَى مُقْتَضَى أَدِلَّةِ الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ؛ وَتَرْتِيبُ الْقَوْلِ هَاهُنَا أَنَّهُ لَيْسَ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لِلْجَمَادَاتِ فَضْلًا عَنْ الْبَهَائِمِ تَسْبِيحٌ بِكَلَامٍ، وَإِنْ لَمْ نَفْقَهْهُ

نَحْنُ عَنْهَا ؛ إِذْ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ قِيَامِ الْكَلَامِ بِالْمَحَلِّ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ هَيْئَةٌ آدَمِيَّةٌ ، وَلَا وُجُودُ بَلَّةٍ وَلَا رُطُوبَةٍ ، وَإِنَّمَا تَكْفِي لَهُ الْجَوْهَرِيَّةُ أَوْ الْجِسْمِيَّةُ خِلَافًا لِلْفَلَاسِفَةِ وَإِخْوَتِهِمْ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ يَرَوْنَ الْهَيْئَةَ الْآدَمِيَّةَ وَالْبَلَّةَ وَالرُّطُوبَةَ شَرْطًا فِي الْكَلَامِ ، فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا الْأَصْلُ بِأَدِلَّتِهِ الَّتِي تَقَرَّرَتْ فِي مَوْضِعِهِ ، وَبِأَنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّ الْكَلَامَ فِي الْآدَمِيِّينَ عَرَضٌ يَخْلُقُهُ اللَّهُ فِيهِمْ ، وَلَيْسَ يَفْتَقِرُ الْعَرَضُ

إِلَّا لِوُجُودِ جَوْهَرٍ أَوْ جِسْمٍ يَقُومُ بِهِ خَاصَّةً ، وَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ الشُّرُوطِ فَإِنَّمَا هِيَ عَادَةٌ ، وَلِلْبَارِي تَعَالَى نَقْضُ الْعَادَةِ وَخَرْقُهَا بِمَا شَاءَ مِنْ قُدْرَتِهِ لِمَنْ شَاءَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ وَبَرِيَّتِهِ .

(187/457)

وَلِهَذَا حَنَّ الْجِذْعُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَبَّحَ الْحَصَى فِي كَفِّهِ وَكَفِّ أَصْحَابِهِ ، وَكَانَ بِمَكَّةَ حَجَرٌ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ ، وَكَانَتْ الصَّحَابَةُ تَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ بِبَرَكَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَكُنْ لِذَلِكَ كُلِّهِ هَيْئَةٌ ، وَلَا وُجِدَتْ لَهُ رُطُوبَةٌ وَلَا بَلَّةٌ ، وَعَلَى إنْكَارِ هَذِهِ الْمُعْجِزَاتِ وَإِبْطَالِ هَذِهِ الْآيَاتِ حَامَتْ بِمَا ابْتَدَعَتْهُ مِنْ الْمَقَالَاتِ ، فَيَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّ دَلَالَةَ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى الْخَالِقِ ظَاهِرَةٌ ، وَتَذْكِرَتَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ الْآدَمِيِّينَ وَالْمُسَبِّحِينَ مِنْ الْمَخْلُوقِينَ بَيِّنَةٌ .

وَهَذَا وَإِنْ سُمِّيَ تَسْبِيحًا فَذَلِكَ شَائِعٌ لُغَةً ، كَمَا كَانَتْ الْعَرَبُ تُعَبِّرُ عَنْ لِسَانِ الْحَالِ بِلِسَانِ الْمَقَالِ ، فَتَقُولُ : يَشْكُو إلَيَّ جَمَلِي طُولَ السُّرَى .

وَكَمَا قَالَتْ : قِفْ بِالدِّيَارِ فَقُلْ : يَا دِيَارُ مَنْ غَرَسَ أَشْجَارَكِ ، وَجَنَى ثِمَارَكِ ، وَأَجْرَى أَنْهَارَكِ ، فَإِنْ لَمْ تُجِبْكَ جُؤَارًا أَجَابَتْكَ اعْتِبَارًا ؛ وَكَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ عَنْ شَجَرَةٍ : رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ سَكَتَ الدَّهْرُ زَمَانًا عَنْهُمْ وَكَذَاكَ الدَّهْرُ حَالًا بَعْدَ حَالِ وَذَلِكَ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ مِنْ الْبَدِيعِ فِي الْفَصَاحَةِ ، وَالْغَايَةِ فِي الْبَلَاغَةِ .

وَإِنْ قُلْنَا : إنَّ تَسْبِيحَ الْبَرْقِ لَمَعَانُهُ ، وَالرَّعْدِ هَدِيرُهُ ، وَالْمَاءِ خَرِيرُهُ ، وَالْبَابِ صَرِيرُهُ ، فَنَوْعٌ مِنْ الدَّلَالَةِ ، وَوَجْهٌ مِنْ التَّسْمِيَةِ بِالْمَجَازِ ظَاهِرٌ .

(188/457)

وَإِنْ قُلْنَا : إنَّ كُلَّ ذِي رُوحٍ يُسَبِّحُ بِنَفْسِهِ وَصُورَتِهِ ، فَمِثْلُهُ فِي الدَّلَالَةِ وَفِي الْمَجَازِ فِي التَّسْمِيَةِ .

وَإِنْ قُلْنَا :

إنَّ الطَّعَامَ يُسَبِّحُ الْتَحَقَ بِالْجَمَادِ فِي الْمَعْنَى وَالْعِبَارَةُ عَنْهُ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَإِنْ قُلْنَا : إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ تَسْبِيحًا رَبُّنَا بِهِ أَعْلَمُ ، لَا نَعْلَمُهُ نَحْنُ ؛ أَخْذًا بِظَاهِرِ الْقُرْآنِ لَمْ نُكَذِّبْ ، وَلَمْ نَغْلَطْ ، وَلَا رَكِبْنَا مُحَالًا فِي الْعَقْلِ ؛ وَنَقُولُ : إِنَّهَا تُسَبِّحُ دَلَالَةً وَتَذْكِرَةً وَهَيْئَةً وَمَقَالَةً ، وَنَحْنُ لَا نَفْقَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَلَا نَعْلَمُ ، إِنَّمَا يَعْلَمُهُ مَنْ خَلَقَهُ ، كَمَا قَالَ : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ .

وَقَدْ مَهَّدْنَا الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ شَكَتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ : يَا رَبِّ ، أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا ﴾ هَلْ هُوَ بِكَلَامٍ ، أَوْ عَلَى تَقْدِيرِ قَوْلِهِ : امْتَلَأَ الْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي وَالْكُلُّ جَاءَ مِنْ عِنْدِنَا ، وَرَبُّنَا عَلَيْهِ قَادِرٌ .

وَأَكْمَلُ التَّسْبِيحِ تَسْبِيحُ الْمَلَائِكَةِ وَالْآدَمِيِّينَ وَالْجِنِّ فَإِنَّهُ تَسْبِيحٌ مَقْطُوعٌ بِأَنَّهُ كَلَامٌ مَعْقُولٌ ، مَفْهُومٌ لِلْجَمِيعِ بِعِبَارَةٍ مُخْلَصَةٍ ، وَطَاعَةٍ مُسَلَّمَةٍ ، وَأَجَلُّهَا مَا اقْتَرَنَ بِالْقَوْلِ فِيهَا فِعْلٌ مِنْ رُكُوعٍ أَوْ سُجُودٍ أَوْ مَجْمُوعُهُمَا ، وَهِيَ صَلَاةُ الْآدَمِيِّينَ ؛ وَذَلِكَ غَايَةُ التَّسْبِيحِ وَبِهِ سُمِّيَتْ الصَّلَاةُ سُبْحَةً .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ : قُلْنَا : أَمَّا الْكُفَّارُ الْمُنْكِرُونَ لِلصَّانِعِ فَلَا يَفْقَهُونَ مِنْ وُجُوهِ التَّسْبِيحِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ شَيْئًا كَالْفَلَاسِفَةِ ، فَإِنَّهُمْ جَهِلُوا دَلَالَتَهَا

عَلَى الصَّانِعِ ، فَهُمْ لِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَجْهَلُ .

وَأَمَّا مَنْ عَرَفَ الدَّلَالَةَ وَفَاتَهُ مَا وَرَاءَهَا فَهُوَ يَفْقَهُ وَجْهًا وَيَخْفَى عَلَيْهِ آخَرُ ، فَتَكُونُ الْآيَةُ عَلَى الْعُمُومِ فِي حَقِّ الْفَلَاسِفَةِ ، وَتَكُونُ عَلَى الْخُصُوصِ فِيمَا وَرَاءَهُمْ ، مِمَّنْ أَدْرَكَ شَيْئًا مِنْ تَسْبِيحِهِمْ ؛ لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ فَجَعَلَ تَصْرِيفَ

الظِّلِّ ذُلًّا ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِالسُّجُودِ ، وَهِيَ غَايَةُ الْمَذَلَّةِ لِمَنْ لَهُ بِالْحَقِيقَةِ وَحْدَهُ الْعِزَّةُ ، وَهَذَا تَوْقِيفٌ نَفِيسٌ لِلْمَعْرِفَةِ ؛ فَإِذَا انْتَهَيْتُمْ إلَيْهِ عَارِفِينَ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ بَيَانِنَا فَقِفُوا عِنْدَهُ ، فَلَيْسَ وَرَاءَهُ مَزِيدٌ ، إلَّا فِي تَفْصِيلِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ ؛ وَذَلِكَ مُبَيَّنٌ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(190/457)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وقضى ربُّكَ ﴾ يعني : أمر ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ أي أمر ربك ألا تطيعوا أحداً إلا إياه ، يعني : إلا الله تعالى يعني : لا تطيعوا أحداً في المعصية وتطيعوا الله في الطاعة

، ويقال لا تحدوا إلا الله .

وفي قراءة ابن مسعود ووَصَّى ربُّكَ ألا تطيعوا إلاَّ إيَّاهُ ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ أي : أمر بالإحسان إلى الوالدين براً بهما وعطفاً عليهما ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر ﴾ قرأ حمزة والكسائي "إِمَّا يَبْلُغَانِ" بلفظ التثنية لأنه سبق ذكر الوالدين .

وقرأ الباقون "يَبْلُغَنَّ" بلفظ الوحدان .

لأنه انصرف إلى قوله : ﴿ أَحَدُهُمَا ﴾ يعني : إن بلغ الكبر أحدهما ﴿ أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ يعني : إن بلغ أحد الأبوين عندك الهرم أو كلا الأبوين ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفّ ﴾ أي : لا تقذرهما ولا تقل لهما قولاً رديئاً عند خروج الغائط منهما إذا احتاجا إلى معالجتهما عند ذلك .

قال الفقيه : حدثنا أبو عبد الرحمن بن محمد قال : حدثنا فارس بن مردويه قال : حدثنا محمد بن الفضل قال : حدثنا أصرم عن عيسى بن عبد الله الأشعري عن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"لَوْ عَلِمَ اللهُ شَيْئًا مِنَ العُقُوقِ أَدْنَى مِنْ أُفٍ لحرمه فَلْيَعْمَلِ العاقّ مَا شاءَ أَنْ يَعْمَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ وَلْيَعْمَلَ البَارّ مَا شاءَ أَنْ يَعْمَلَ فَلَنْ يَدْخُلِ النَّار" .

وقال مجاهد : إذا كبرا فلا تأف لهما لأنهما قد رأيا منك مثل ذلك .

وقال القتبي : أُفٍ بكسر وفتح وبضم وهو ما غلظ من الكلام يعني : لا تستثقل شيئاً من أمورهما ولا تغلظ لهما القول .

قرأ ابن كثير وابن عامر بنصب الفاء ، وقرأ نافع وعاصم في رواية حفص أُفٍّ بكسر الفاء مع التنوين وقرأ الباقون أفِّ بكسر الفاء بغير تنوين ومعنى ذلك كله واحد .

(191/457)

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ يعني : لا تغلظ عليهما بالقول ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ أي ليناً حسناً .

قوله : ﴿ واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة ﴾ أي : كن ذليلاً رحيماً عليهما .

وروى هشام عن عروة عن أبيه في قوله : ﴿ واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة ﴾ قال : كن لهما ذليلاً ولا تمتنع من شيء أحباه .

وقال عطاء : جناحك يعني : يداك لا ينبغي أن ترفع يدك على والديك ولا ينبغي لك أن تحد بصرك إليهما تغيظاً .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِذَا دَعَاكَ أَبَوَاكَ وَأَنْتَ فِي الصَّلَاةِ فَأَجِبْ أُمَّكَ وَلَا تُجِبْ أَبَاكَ " .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لَوْ كَانَ جُرَيْجٌ الرَّاهِبُ فَقِيهاً لَعَلِمَ أَنَّ إِجَابَةَ أُمِّهِ أَفْضَلَ مِنْ صَلَاتِهِ " .

قال الفقيه أبو الليث رضي الله عنه لأن في ذلك الوقت كان الكلام الذي تحتاج إليه مباحاً في الصلاة .

وكذلك في أول شريعتنا ثم نسخ الكلام في الصلاة فلا يجوز أن يجيبها إلا إذا علم أنه وقع لها أمر مهم فيجوز له أن يقطع ثم يستقبل .

ثم قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارحمهما ﴾ أي : عند معالجتك إياهما في الكبر .

ويقال : معناه : رب اجعل رحمتها في قلبي حتى أربيهما في كبرهما ﴿ كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ أي : كما عالجاني في صغري ، ويقال : معناه : ادع لهما بالرحمة بعد موتهما أي : كن باراً بهما في حياتهما وادع لهما بعد موتهما .

ثم قال : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ﴾ من اللين لهما ﴿ إن تَكُونُواْ صالحين ﴾ أي بارين بالوالدين محسنين إليهما ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ أي : للراجعين من الذنوب إلى طاعة الله تعالى .

ويقال : في الآية مضمر ومعناه : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صالحين ﴾ فإن لم تكونوا صالحين فارجعوا إلى الله وتوبوا إليه تعالى .

وقال مجاهد : الأواب الذي يذكر ذنوبه في الخلوة ويستغفر منها .

.

وقال سعيد بن جبير الأواب : الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب .

وقال الحسن الأواب : الذي يقبل إلى الله بقلبه وعمله .

وقال السدي الأواب : المحسن وقال القتبي : الأواب : التائب مرة بعد مرة من قولك آب يؤوب .

ويقال : الأواب : الذي يصلي بين المغرب والعشاء .

قوله : ﴿ وَءَاتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ أي : صلته ﴿ والمساكين ﴾ أي : أعط السائلين ﴿ وابن السبيل ﴾ أي : الضيف النازل وحقه ثلاثة أيام .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ تُبَذّرْ تَبْذِيرًا ﴾ أي : لا تنفق مالك في غير طاعة الله تعالى .

وروي عن عمثان بن الأسود أنه قال سمعت مجاهداً ونحن نطوف بالبيت ، ورفع رأسه إلى أبي قبيس فقال : لو كان أبو قبيس ذهباً لرجل فأنفقه في طاعة الله تعالى لم يكن مسرفاً ولو أنفق درهماً في معصية الله تعالى كان مسرفاً .

وروى الأعمش عن الحكم عن أبي عبيد وكان ضريراً وكان عبد الله بن مسعود يدنيه فجاءه يوماً فقال : من نسأل إن لم نسألك ؟ فقال سل .

قال فما الأواب ؟ قال الرحيم قال فما التبذير ؟ قال إنفاق المال في غير حقه .

قال فما الماعون؟ قال: ما يعاون الناس فيما بينهم.

قال فما الأمة؟ قال الذي يعلم الناس الخير.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ المبذرين ﴾ أي: المنفقين أموالهم في غير طاعة الله تعالى ﴿ كَانُواْ إخوان الشياطين ﴾ يعني: أعوان الشياطين ﴿ وَكَانَ الشيطان لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ أي: كافراً ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ أي: عن قرابتك في الرحم وغيرهم ممن يسألك حياء منه ورحمة له ﴿ ابتغاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ أي: انتظار رزق من ربك أن يأتيك أو قدوم مال غائب عنك ترجو حضوره ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ﴾ أي: هينا لينا.

(193/457)

يعني: عِدْهُمْ عدة حسنة وقال مقاتل: نزلت الآية في خباب بن الأرت وبلال وعمّار ونحوهم من أصحاب الصُّفة كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم فلا يجد شيئاً يعطيهم فيعرض عنهم فنزلت الآية.

وقال السدي: معناه لا تعرض عن قرابتك وعن المساكين وابن السبيل ابتغاء أن تصيب مالاً "فقل لهم قولاً ميسوراً" أي قل لهم نعم وكرامة.

ليس عندنا اليوم شيء فإن أتانا شيء نعرف حقكم.

وقال محمد بن الحنفية كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول لشيء لا ، فإذا سئل وأراد أن يفعل .

يقول نعم وإذا لم يرد أن يفعل سكت .

فكان قد علم ذلك منه قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ يقول : لا تمسك يدك في النفقة من البخل بمنزلة المغلولة يده إلى عنقه ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ في الإسراف فتعطي جميع ما عندك فيجيء الآخرون ويسألونك فلا تجد ما تعطيهم .

وهذا قول ابن عباس .

وقال قتادة : لا تمسكها عن طاعة الله وعن حقه ولا تبسطها كل البسط يقول لا تنفقها في المعصية وفيما لا يصلح .

وقال مقاتل في قوله : لا تبسطها كل البسط .

أي : في العطية ولا يبقى عندك شيء فإذا سئلت لم تجد ما تعطيهم .

وقال بعض الحكماء : كان النبي صلى الله عليه وسلم لأمته كالوالد .

ولا ينبغي للوالد أن يعطي جميع ماله لبعض ولده ويترك الآخرين فنهاه الله تعالى أن يعطي جميع ماله المسكين الواحد وأمره أن يقسم بالسوية كي لا ييأسوا منه ثم قال تعالى ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ يعني : لو أعطيت جميع مالك فتبقى مَلوماً يلومك الناس وتلوم نفسك ، مَحْسُوراً .

منقطعاً عن المال فلا مال لك ، والمحسور في اللغة المنقطع .

وروي في الخبر أن امرأة بعثت ابنها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت له : قل له إن أمي تستكسيك درعاً ، فإن قال حتى يأتينا شيء فقل له إنها إذَنْ تستكسيك قميصك .

فأتاه فقال له إن أمي تستكسيك درعاً فقال له : حتى يأتينا شيء .

(194/457)

فقال : إنها تستكسيك قميصك .

قال : فنزع قميصه ودفعه إليه ولم يبق له قميص يخرج به إلى الصلاة فنزلت هذه الآية .

يعني : تبقى عرياناً لا تقدر أن تخرج إلى الصلاة .

قال الفقيه : إذا أردت أن تعرف أن البخل قبيح فانظر إلى هذه الآية وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أعطى قميصه حتى عجز عن الخروج إلى الصلاة عاتبه الله على ذلك فبدأ بالنهي عن الإمساك فقال ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً ﴾ فنهاه أولاً عن البخل ثم نهاه عن دفع الكل وهو التبذير .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء ﴾ أي : يوسع الرزق على من يشاء من كان صلاحه في ذلك ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : يضيق على من يشاء ، ويقدر لمن يشاء ﴿ إِنَّهُ

كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ من البسط ، والتقتير ، يعلم صلاح كل واحد من خلقه .

قوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ أي : مخافة الفقر ط ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ أي : ذنباً عظيماً .

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : "أن تجعَل لله نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ" قال : يا رسول الله ثم أي ؟ قال : "أَنْ تَزْنِي بِحَلِيلَةِ جَارِكَ" .

قال : ثم أي ؟ قال : "أَنْ تقْتُل وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ" .

قرأ ابن عامر ﴿ خَطْأً ﴾ بنصب الخاء ، وجزم الطاء .

وقرأ ابن كثير : خِطَاءً بكسر الخاء ، وفتح الطاء ، ومد الألف .

وقرأ الباقون : ﴿ خِطْأً ﴾ بكسر الخاء ، وجزم الطاء بغير مد يعني : إثماً كبيراً .

ويقال : خَطِيءَ يَخْطَأُ خِطْأً مثل أثم يأثم إثماً .

ومن قرأ بالنصب معناه : إنّ قتلهم كان غير صواب .

يقال : أَخْطَأَ يُخْطِيءُ خَطْأً وإِخْطَاءً .

وقرأ بعضهم بنصب الخاء والطاء ، وهي قراءة شاذة .

ثم قال : ﴿ كَبِيرًا وَلَا تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ أي : معصية ﴿ وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾

أي : بئس المسلك .

وروى عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله بن مسعود أنه قال : لا أحد أغير من الله ، وبذلك

حرم الفواحش ما ظهر منها ، وما بطن .

ولا أحد أحب إليه المدح من الله تعالى .

ولذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العُذْر من الله تعالى ، ولذلك بعث الرسل ، وأنزل

الكتب .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ النفس التى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بالحق ﴾ يعني إلا بإحدى ثلاث

مواضع .

إذا قتل أحداً فيقتص به ، أو زنى وهو محصن فيرجم ، أو يرتد فيقتل .

﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سلطانا ﴾ أي : سبيلاً وحجة عليه .

إن شاء قتله ، وإن شاء عفا عنه ، وإن شاء أخذ الدية .

يعني : إذا اصطلحا .

وقال مجاهد : كل سلطان في القرآن فهو حجة ، وكل ظن في القرآن فهو يقين .

ثم قال : ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّى القتل ﴾ يعني : لا يقتل غير القاتل حمية ، ولا يقتل بالواحد اثنين

، ولا يقتل بعد ما عفا أو أخذ الدية ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ أي : معاناً من الله تعالى في كتابه .

جعل الأمر إليه في القَوَدِ .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ تُسْرِفْ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة .

وقرأ الباقون بالياء .

ثم قال ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي : إلا على وجه التجارة ، لينمو مال اليتيم بالأرباح ، أو ينمو على وجه المضاربة ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ يعني : حتى يتم خلقه .

وقال القتبي : أشد الرجل ، غير أشد اليتيم ، وإن كان لفظهما واحداً .

لأن قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ [الأحقاف : 25] إنَّما هو الاكتمال ، وذلك ثلاثون سنة .

وأشد الغلام أن يشتد خلقه ، وذلك ثمان عشرة سنة .

وقال مقاتل: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿ فِى الدنيا والآخرة وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليتامى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فإخوانكم والله يَعْلَمُ المفسد مِنَ المصلح وَلَوْ شَآءَ الله لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: 220].

ثم قال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ ﴾ يعني: الذي بينكم وبين الله تعالى، والعهد الذي بينكم وبين الناس ﴿ إِنَّ العهد كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ يعني: إن ناقض العهد يسأل عنه يوم القيامة.

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الكيل إِذا كِلْتُمْ ﴾ لغيركم ﴿ وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم ﴾ أي: بالميزان العدل.

بلغة الروم.

قرأ حمزة، والكسائي، وعاصم، في رواية حفص ﴿ بالقسطاس ﴾ بكسر القاف.

والباقون، بالضم.

وهما لغتان يعني: الميزان.

ويقال: هو القبان.

﴿ ذلك خَيْرٌ ﴾ أي: الوفاء بجميع ما أمركم الله تعالى به، ونهاكم عنه، خير من البخس والنقصان.

﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ أي: عاقبة، ومرجعاً في الآخرة ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ يقول: لا تقل ما لم تعلم، فتقول: علمت ولم تعلم، ورأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع.

أي : كأنك تقفو الأمور .

يقال : قفوت أثره ، والقائف الذي يعرف الآثار ويتبعها .

ثم حذرهم فقال : ﴿ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ أي : يسأل العبد عن أعضائه يوم القيامة ، فيشهدن عليه .

ويقال : معناه صاحب السمع ، والبصر ، والفؤاد ، يسأل يوم القيامة عن السمع والبصر والفؤاد .

ويقال : قوله : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي : لا تقل ما لم تعلم ، ولا تسمع اللغو ، ولا تنظر إلى الحرام ، ولا تحكم على الظن ﴿ كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ يعني : عن الكلام باللسان ، والتسمع بالسمع ، والتبصر بالبصر على وجه الإخبار ، وهو من جوامع الكلم .

(197/457)

ثم قال : ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِى الأرض مَرَحًا ﴾ يعني : بالتكبر والفخر ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ﴾ يعني : لن تدخل ﴿ الأرض ﴾ ولن تجاوزها ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً ﴾ قال القتبي : يعني : لا تقدر أن تقطعها ، حتى تبلغ إلى آخرها .

يقال : فلان أخرق إلى الأرض من فلان ، إذا كان أكثر أسفاراً ، ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً ﴾ يريد ، أنه ليس للعاجز أن يمدح نفسه ، ويستكبر .

ثم قال : ﴿ كُلُّ ذلك ﴾ أي : كل ما أمرتك به ، ونهيتك عنه ﴿ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ يعني : ترك ذلك معصية عند الله ﴿ مَكْرُوهًا ﴾ أي : منكراً .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، سَيِّئَةً بنصب الهاء مع التنوين ، يعني : خطيئة .

ومعناه : ما ذكر في الآية ، تركه كان معصية وسيئة .

وقرأ الباقون ﴿ سَيِّئُهُ ﴾ بضم الهاء على معنى الإضافة .

قال أبو عبيدة : وبهذه القراءة نقرأ ، وحجته قراءة أُبَيّ ، كان يقرأ سَيِّئَاتِهِ على معنى الإضافة .

ثم قال : ﴿ ذلك مِمَّا أوحى إِلَيْكَ رَبُّكَ ﴾ ، أي مما بيّن الله تعالى وأمر ونهى .

كان ذلك مكتوباً في اللوح وأوحى إليك ربك .

﴿ مِنَ الحكمة ﴾ ، أي بيان الحلال والحرام .

﴿ وَلاَ تَجْعَلْ ﴾ ، أي لا تقل .

﴿ مَعَ الله إلها ءاخَرَ ﴾ ؛ فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته .

﴿ فَتُلْقَى ﴾ ، أي فتطرح ﴿ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا ﴾ ، أي يلومك الناس .

﴿ مَّدْحُورًا ﴾ ، أي مقصيّاً من كل خير .

وقال القتبي : مدحورا ً، أي مبعداً .

يقال في الدعاء : اللَّهُمَّ ادْحَرْ عَنِّي الشَّيْطَانَ ، أي ابعده مني .

﴿ أفأصفاكم رَبُّكم بالبنين ﴾ ، أي أفاختاركم بالبنين .

﴿ واتخذ ﴾ لنفسه ﴿ مِنَ الملئكة إِناثا إِنَّكُمْ لتقُولُونَ قولاً عَظِيمًا ﴾ في العقوبة ، ويقال : قولاً منكراً قبيحاً .

(198/457)

قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ ، لقد بينا ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هذا ﴾ ، أي ليتعظوا بالقرآن ، ويقال : في القرآن من كل شيء يحتاج إليه الناس ، ويقال : بيّنا في هذا القرآن من كل وعد ووعيد ، ليتعظوا بما في القرآن فينتهوا عن عبادة الأوثان .

﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نفُورًا ﴾ ، أي القرآن لا ينفعهم إلا تباعداً عن الإيمان .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ لِّيَذْكُرُواْ ﴾ بالتخفيف ، يعني : ليذكروا ما فيه ؛ وقرأ الباقون بالتشديد ، لأن أصله ليتذكروا فادغم التاء في الذال وشدد .

قوله ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءالِهَةٌ ﴾ ، قال ابن عباس : لأهل مكة .

﴿ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ من الأوثان .

﴿ إِذاً لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلعرش سَبِيلاً ﴾ ، أي طريقاً فكانوا كهيئته ؛ وقال قتادة : أي لعرفوا فضل ذي العرش ومزيته عليهم ؛ ويقال : ابتغوا طريقاً للوصول إليه ، وقال مقاتل : لطلبوا سبيلاً ليقهروه كفعل الملوك بعضهم مع بعض .

ثم نزه نفسه عن الشريك ، فقال تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ ، أي تنزيهاً له .

﴿ وتعالى عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ ، أي عما يقول الظالمون إن معه شريكاً .

﴿ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ ، أي بعيداً عما يقول الكفار .

قوله : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السموات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ ﴾ من الخلق ؛ ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ، أي ما من شيء إلا يسبح بأمره وبعلمه ؛ وقال الكلبي : كل شيء ينبت يسبح من الشجر وغير ذلك ، فإذا قطع منه صار ما قطع منه ميتاً لا يسبح ؛ وقال قتادة : كل شيء فيه الروح يسبح من شجر أو غيره ؛ وقال السدي : ليس شيء في أصله الأول إلا وهو يسبح .

وروي عن الحسن أنه قيل له : أيسبح هذا الخوان ؟ قال : كان يسبح في شجره ، فأَمَّا الآن فلا .

ويقال : إذا قطع الشجر ، فإنه يسبح ما دام رطباً ، بدليل ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مرَّ بقبرين ، فقال : " إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ في القَبْرِ ، ومَمَا يُعَذَّبَانِ بِكَبِيرَةٍ .

فَأَمَّا أَحَدهُمَا كَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لا يَسْتَنْزِهُ عن البَوْلِ " .

ثم أخذ جريدتين من شجر ، وغرس إحداهما في قبر والأُخرى في قبر الآخر ، فقال : " لَعَلَّهُمَا لا يُعَذَّبَانِ ما دَامَتَا رَطْبَتَيْنِ " .

قال الحكماء : الحكمة في ذلك أنهما ما دامتا رطبتين تسبحان الله تعالى ، ويقال : معناه ما من شيء إلا يسبح بحمده ، ويقال : معناه وإن من شيء يسبح بحمده ، إلا يدل على وحدانية الله تعالى ، ويسبحه وأن الله خالقه .

﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ، يعني : أثر صنعه فيهم ، ولكن هذا بعيد .

وهو خلاف أقاويل المفسرين ، ثم قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا ﴾ ، حيث لم يجعل العقوبة لمن اتخذ معه آلهة .

﴿ غَفُوراً ﴾ لمن تاب منهم .

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القرءان ﴾ ، يعني : أخذت في قراءة القرآن .

﴿ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ ؛ قال بعضهم : الحجاب المستور ، هو أن يمنعهم عن الوصول إليه ؛ كما روي أن امرأة أبي لهب جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان عنده أبو بكر فدخلت فقالت لأبي بكر : هجاني صاحبك .

قال أبو بكر : والله هو ما ينطق بالشعر ولا يقوله .

فرجعت، فقال أبو بكر: أما رأتك يا رسول الله؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لَمْ يَزَلْ بَيْنِي وَبَيْنَهَا مَلَكٌ يَسْتُرُنِي عَنْهَا حَتَّى رَجَعَتْ".

وقال قتادة: الحجاب المستور هو الأكنة؛ وقال مقاتل: الحجاب هو قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ يعني جعلنا أعمالهم على قلوبهم أغطية، حتى لا يرغبوا في الحق؛ ويقال: جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة يعني: الجن والشياطين حجاباً مستوراً، فلا يصلون إليك؛ وقال الكلبي: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا القرآن، ستره الله وحجبه عن المشركين بثلاث آيات، إذا قرأهن حجب عنهم.

(200/457)

إحداهن في سورة الكهف ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بأايات رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى ءَاذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فَلَن يهتدوا إِذاً أَبَداً ﴾ [الكهف: 57] والآية الثانية في النحل ﴿ أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وأبصارهم وأولئك هُمُ الغافلون ﴾ [النحل: 108] والثالثة في حم الجاثية ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غشاوة فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ الله أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: 23] الآية.

ثم قال : ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ ﴾ ، أي صمماً وثقلاً لا يسمعون الحق .

قرأ ابن كثير ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِى العرش سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 42] بالياء ، وكذلك في قوله : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ [الإسراء : 43] ، وكذلك ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والاصال ﴾ [النور : 36] الثلاثة كلها بالياء على معنى المغايبة ؛ وقرأ حمزة والكسائي كلهن بالتاء على معنى المخاطبة ولفظ التأنيث ؛ وقرأ نافع وابن عمر الأول خاصة بالتاء والآخرين بالياء ، وقرأ أبو عمرو الأوسط بالياء ، واختلفوا عن عاصم في رواية حفص الآخر خاصة بالياء ، وروى أبو بكر مثل ابن عامر .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ ، يعني : وحدانيته ، قول لا إله إلا الله .

(201/457)

﴿ وَلَّوْاْ على أدبارهم نُفُوراً ﴾ ، أي أعرضوا تباعداً عن الإيمان ؛ وقال القتبي : ولوا على أدبارهم هرباً وهو مثل ما قال مقاتل ؛ وذلك حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : " قُولُوا لا إله إلاَّ اللَّهُ تَتَمَلَّكُوا بِهَا العَرَبَ وَتَدِينُ لَكُمْ بِهَا العَجَمُ " فنفروا من ذلك .

ثم قال : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾ ، يعني : بالقرآن .

﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي إلى قراءتك القرآن .

﴿ وَإِذْ هُمْ نجوى ﴾ ، يعني : يتناجون فيما بينهم .

﴿ إِذْ يَقُولُ الظالمون ﴾ ، أي يقول المشركون للمؤمنين : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ ، يعني : ما تطيعون ﴿ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ ، يعني : مقلوب العقل .

وذكر القتبي ، عن مجاهد أنه قال : مسحوراً أي مخدوعاً ، لأن السحر حيلة وخديعة ، كقوله ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فأنى تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : 89] أي من أين تخدعون .

وذكر عن أبي عبيدة قال : السَّحر الرئة .

يقال للرجل : انتفخ سَحرك ، إذا جبن ، يعني : إن تتبعون إلا رجلاً ذا رئة ، أي بشراً مثلكم .

ثم قال : ﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الامثال ﴾ ، أي وصفوا لك الأمثال حيث قالوا : ساحر أو مجنون .

﴿ فَضَلُّواْ ﴾ ، أي أخطأوا في المقالة فتحيروا .

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ ، أي لا يجدون مخرجاً مما قالوا لتناقض قولهم ، لأنهم قالوا مرة : ساحر والساحر عندهم المبالغ في العلم ، ومرة قالوا : مجنون والمجنون عندهم من هو في غاية الجهل .

قال ابن الصائب : وذلك أن أبا سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث وغيرهم ، كانوا يأتون

رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستمعون إلى حديثه ، فقال النضر ذات يوم ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث أصحابه : ما أدري ما يقول محمد ، غير أني أرى شفتيه تتحركان .

فقال أبو جهل : هو مجنون ؛ وقال أبو لهب : بل هو كاهن ؛ وقال حويطب : بل هو شاعر .

(202/457)

فنزل : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرءانَ ﴾ إلى قوله : ﴿ قُلْ عسى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ وقوله : ﴿ وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عظاما ﴾ ، أي صرنا عظاماً ﴿ ورفاتا ﴾ ، أي تراباً .

﴿ أءنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ ؟ أي لمحيئون ﴿ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ .

والاختلاف في قوله : ﴿ أئنا ﴾ في القرآن مثل ما ذكرنا في الرعد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 306.314 ﴾

(203/457)

وقال الثعلبي :

﴿ وقضى ﴾ أمر ﴿ رَبُّكَ ﴾ .

قال ابن عبّاس وقتادة والحسن قال زكريا بن سلام : جاء رجل إلى الحسن وقال إنه طلق امرأته ثلاثاً ، فقال : إنك عصيت ربك وبانت منك امرأتك . فقال الرجل : قضى الله ذلك عليَّ .

قال الحسن وكان فصيحاً : ما قضى الله ، أي ما أمر الله وقرأ هذه الآية ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ فقال الناس : تكلم الحسن في [القدر] .

وقال مجاهد وابن زيد : وأوصى ربك ، ودليل هذا التأويل قراءة علي وعبد الله وأُبيّ : ووصى ربك .

وروى أبو إسحاق [الكوفي] عن شريك بن مزاحم أنه قرأ : ووصى ربك وقال : إنهم [أدغوا] الواو بالصاد فصارت قافاً .

وقال الربيع بن أنس : [وأوجب] ربك إلاّ تعبدو إلاّ إياه .

﴿ وبالوالدين إِحْسَاناً ﴾ أي وأمر بالأبوين إحساناً ّبراً بهما وعطفاً عليهما ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر ﴾ الكسائي بالالف ، وقرأ الباقون : يبلغن بغير الألف على الواحدة وعلى هذه القراءة قوله ﴿ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ كلام [مستأنف] كقوله ف

﴿ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [المائدة : 71] وقوله ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى ﴾ [طه :

62] ثمّ ابتدأ فقال : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ فيه ثلاث لغات بفتح الفاء [حيث قد رفع]

وهي قراءة أهل مكة والشام واختيار يعقوب وسهيل .

و(أُفٍّ) بالكسر والتنوين وهي قراءة أهل المدينة وأيوب وحفص .

و(أُفِّ) مكسور غير منون وهي قراءة الباقين من القراء ، وكلها لغات معروفة معناها

واحد .

قال ابن عبّاس : هي كلمة كراهة . مقاتل : الكلام الردي ء الغليظ .

أبو عبيد : أصل الأف والتف الوسخ على الأصابع إذا فتلته وفرق الآخرون بينهما فقيل

الأف ما يكون في المغابن من العرق والوسخ ، والتف ما يكون في الأصابع ، وقيل : الأف

وسخ الأذن والتف وسخ [الأظفار] وقيل : الأف وسخ الظفر والتف ما رفعت يدك من

الأرض من شيء حقير .

﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ لا تزجرهما ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴾ حسناً جميلاً .

وقال ابن المسيب : كقول العبد المذنب للسيد الفظ .

وقال عطاء : لا تسمهما ولا تكنّهما وقل لهما : يا أبتاه ويا أماه .

مجاهد في هذه الآية : إن بلغا عندك من الكبر ما يبولان ويُحدثان فلا تتعذرهما .

ولا تقل لهما أف حين ترى الأذى وتميط عنهما الخراء والبول كما كانا يميطانه عنك صغيراً [ولا توذهما] [وروى سعيد بن المسيب : أن [العاق] يموت ميتة سوء ، و " قال رجل لرسول الله (صلى الله عليه وآله) : إن أبوي بلغا من الكبر أني أُوليهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتهما ؟ قال (صلى الله عليه وآله) : " لا فإنهما كانا يفعلان لك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل وأنت تريد موتهما "] " .

﴿ واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة ﴾ .

قال عروة بن الزبير : إن لهما حتّى لا يمتنع من شيء أحياه .

مقاتل : أَلِنْ لهما جانبك فاخضع لهما .

وقرأ الحسن وسعيد بن جبير وعاصم الجحدري : جناح الذل بكسر الذال أي [لا تستصعب معهما] .

﴿ وَقُل رَّبِّ ارحمهما كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ .

قال ابن عبّاس : هو منسوخ بقوله ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانوا أُوْلِي قربى ﴾ [التوبة : 113] الآية .

روى شعبة عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " رضى الله تعالى مع رضا الوالدين وسخط الله مع سخط الوالدين " .

عطاء عن عائشة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يقال للعاق إعمل ما شئت إني لا أغفر لك ويقال للبار إعمل ما شئت وإني أغفر لك " .

روى عطاء عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " " من أمسى مرضيا لوالديه وأصبح أمس وأصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ، وإن أمسى وأصبح مسخطاً لوالديه أصبح وله بابان إلى النار وان واحداً فواحد " .

(205/457)

فقال رجل : يا رسول الله وإن ظلماه ؟ قال : " وإن ظلماه " ، ثلاث مرات " .

وروى رشيد بن سعد عن أبي هاني الخولاني عن أبي عمر (القصبي) قال : " جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله دلني على عمل أعمله يقربني إلى الله ؟ قال : " هل لك والدة ووالد ؟ " قال : نعم . قال : " فإنما يكفي مع البر بالوالدين العمل [اليسير] " " .

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ من بر الوالدين وعقوقهما ﴿ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ ﴾ أبراراً مطيعين فيما أمركم الله به بعد تقصير كان منكم في القيام بما لزمكم من حق الوالدين ، وغير ذلك من فرائض الله ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ ﴾ بعد المعصية والهفوة ﴿ غَفُوراً ﴾ .

وقال سعيد بن جبير في هذه الآية : هو الرجل يكون منه المبادرة إلى أبويه لا يريد بذلك إلاّ الخير ، فإنه لا يؤخذ به .

واختلف المفسرون في معنى الأوابين :

فقال سعيد بن جبير : الراجعين إلى الخير ، سعيد بن المسيب : الذي يذنب ثمّ يتوب ثمّ يذنب ثمّ يتوب .

مجاهد عن عبيد بن عمر : هو الذي يذكر ذنوبه في الخلا فيستغفر الله تعالى عنها .

عمرو بن دينار : هو الذي يقول : اللهم اغفر لي ما أصبت في [مجلسي] هذا .

ابن عبّاس : الراجع إلى الله فيما [لحق به وينوبه] والأواب فعال من أوب إذا رجع .

قال عبيد بن الأبرص : وكل ذي غيبة يؤوب وغايب الموت لا يؤوب .

وقال عمرو بن شرحبيل : وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عبّاس دليله قوله و ﴿ ياجبال أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ [سبأ : 10] .

الوالبي : عنه المطيعين المخبتين .

قتادة : المصلين . عون العقيلي : هم الذين يصلون صلاة الضحى .

ابن المنكدر : بين المغرب والعشاء .

روى ابن إدريس عن أبيه عن سعيد بن جبير قال : الأوابين الرغابين .

﴿ وَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ يعني صلة الرحم . وقال بعضهم : عني بذلك قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم روى السدي عن ابن الديلمي قال : قال علي بن الحسين لرجل من أهل الشام أقرأت القرآن ؟ قال نعم ؟ قال : أفما قرأت في بني إسرائيل ﴿ وَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ قال : انكم القرابة الذين أمر الله أن يوتى حقه ؟ قال : نعم .

﴿ والمسكين وابن السبيل ﴾ يعني مار الطريق ، وقيل : الضيف ﴿ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴾ ولا تنفق مالك في المعصية .

وروى سلمة بن كهيل عن أبي [عبيدة] عن ابن الضرير أنه سأل ابن مسعود ما التبذير ؟ فقال : إنفاق المال في غير حقه .

وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله في [الحق ما كان] تبذيراً ، فلو أنفق يدا في باطل كان تبذيراً به .

وقال شعيب : كنت أمشي مع أبي إسحاق في طريق الكوفة ، فأتى على دار تبنى بجص وآجر فقال : هذا التبذير في قول عبد الله : إنفاق المال في غير حقه .

﴿ إِنَّ المبذرين كانوا إِخْوَانَ الشياطين ﴾ أولياؤهم وأعوانهم ، والعرب تقول : لكل [من يلزم] سنّة قوم وتابع أمرهم هو أخوهم ﴿ وَكَانَ الشيطان لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾ جحود النعمة .

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ الآية نزلت في منجع وبلال وصهيب وسالم وخباب ، كانوا

يسألون النبي صلى الله عليه وسلم في الأحايين ما يحتاجون إليه ولا يجد لهم متسعاً ، فيعرض عنهم حياءً منهم فأنزل الله عزّ وجل ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ يعني وإن تعرض عن هؤلاء الذين أمرتك أن تؤتيهم حقوقهم عند مسألتهم إياك ما لا يجد إليه سبيلاً حياءً منهم .

﴿ ابتغآء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ ابتغاء رزق من الله ﴿ تَرْجُوهَا ﴾ أن يأتيك ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴾ ليّناً وعدهم وعداً جميلاً ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً ﴾ الآية .

(207/457)

قال جابر بن عبد الله : " بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد فيما بين الصحابة أتاه صبي فقال : يا رسول الله إن أمي تستكسيك درعاً ، ولم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ قميصه ، فقال الصبي : من ساعة إلى ساعة يظهر بعد وقتاً آخر ، فعاد إلى أمه فقالت : قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عرياناً ، فأذن بلال للصلاة فانتظروا فلم يخرج فشغل قلوب الصحابة فدخل عليه [بعضهم فرآه] عارياً فأنزل الله تعالى ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ﴾ " يعني ولا تمسك يدك عن النفقة في الحق ، كالمشدودة يده على عنقه

فلا يقدر على مدها والإعطاء .

﴿ وَلاَ تَبْسُطْهَا ﴾ بالعطاء ﴿ كُلَّ البسط ﴾ فتعطي جميع ما تملك ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُوماً ﴾ يلومك سائلوك إذا لم تعطيهم ﴿ مَّحْسُوراً ﴾ منقطعاً بك لا شيء عندك تنفقه ، فقال : حسرته بالمسألة إذا [أكلّته] ودابة حسيرة إذا كانت كالة [رازحة] وحسير البصر إذا كل ، قال الله

﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : 4] وقال قتادة : نادماً على ما سلف منك .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ﴾ يوسع ﴿ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ يقتر ويضيق ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾ نظيرها قوله : ﴿ [ولو وسع] ﴾ وَلَوْ بَسَطَ الله الرزق لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأرض ﴾ [الشورى : 27] الآية ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ ضيق وإقتار ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يأدون بناتهم خشية الفاقة فنهاهم الله تعالى عن ذلك وأخبرهم أن رزقهم ورزق بناتهم على الله تعالى ﴿ إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً ﴾ اختلف القراء فيه :

فقرأ أبو جعفر وابن عامر : بفتح الخاء والطاء والهمزة مقصورة .

وقرأ ابن كثير : بكسر الخاء وفتح الطاء ومد الهمزة .

وقرأ الآخرون : بكسر الخاء وجزم الطاء ، وكلها لغات بمعنى واحد ، ويكون اسماً ومصدراً .

﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً * وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بالحق ﴾ وبحقها بما روى حميد عن أنس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أمرت أن أقاتل الناس حتّى يقولوا لا إله إلاّ الله ، فإذا قالوها [عصموا] في دمائهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم على الله " قيل : وما حقها ؟ قال : زنا بعد إحصان وكفر بعد إيمان وقتل نفس فيقتل بها " .

﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً ﴾ قوة وولاية على قاتل وليه فإن لما استفاد منه فقتله وأن الله أخل الدية وإن شاء عفا عنه

﴿ فَلاَ يُسْرِف فِّي القتل ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف : تسرف بالتاء أي فلا تسرف أيها القاتل ، ويجوز أن يكون الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد منه الأيمة والأُمة من بعده ، ومن قرأ بالياء رجع إلى المولى .

واختلفوا في الاسراف ما هو : فقال ابن عبّاس : لا يقتل غير قاتله .

قال الحسن وابن زيد : كانت العرب في الجاهلية إذا قتل منهم قتيل ، لم يرضوا أن يقتلوا قاتل

صاحبهم حتّى يقتلوا أشرف من الذي قتله ، فيعمد ولي المقتول إلى الشريف من قبيلة القاتل فيقتله بوليه ويترك القاتل ، فنهى الله عن ذلك ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن من أعتى الناس على الله جل ثناؤه قتل غير قاتله أو قتل بدخن الجاهلية أو قتل في حرم الله " .

وقال الضحاك : كان هذا بمكة ونبي الله صلى الله عليه وسلم بها ، وهو أول شيء نزل من القرآن في شأن القتل وكان المشركون من أهل مكة يقتلون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال الله : من قتلكم من المشركين فلا يحملنكم قتله إياكم على أن لا تقتلوا إلا قاتلكم ، فلا يقتلوا له أباً أو أخاً أو أحداً فإن كانوا من المشركين فلا يحملنكم ذلك [.

. . . .] على فلا تقتلوا إلا قاتلكم . وهذا قبل أن تنزل سورة براءة وقبل أن يؤمروا بقتال المشركين .

وقال سعيد بن جبير : لا يقبل [. . . . .] على العدة .

قتادة وطارق بن حبيب وابن كيسان : [لا يمثل به] .

﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾ اختلفوا في هذه الكناية [إلى من ترجع فقيل : ترجع] على ولي

المقتول، هو المنصور على القاتل [فيدفع الامام] إليه القاتل، فإن شاء قتل وإن شاء عفا عنه وإن شاء أخذ الدية، وهذا قول قتادة.

وقال الآخرون: (من) راجعة إلى المقتول في قوله ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً ﴾ يعنى أن المقتول [منصور] في الدنيا بالقصاص وفي الآخرة [بالتوبة] وهو قول مجاهد.

﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم ﴾ إلى قوله ﴿ مَسْؤُولاً ﴾ عنه، وقيل معناه: كان مظلوماً ﴿ وَأَوْفُوا الكيل إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم ﴾.

قرأ أهل الكوفة: القِسطاس بكسر القاف.

الباقون: بفتحه وهو الميزان مثل القرطاس، والقسطاس معناه الميزان صغيراً كان أو كبيراً.

مجاهد: هو العدل بالرومية. وقال الحسن: هو القبان.

﴿ ذلك خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ أي عاقبة.

[قال الحسن]: ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا يقدر رجل على حرام ثمّ يدعه ليس لديه إلا مخافة الله إلا أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك ".

﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾

قال قتادة : لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمعه وعلمت ولم تعلمه وهذه رواية علي عن ابن عبّاس .

قال مجاهد : ولا ترم أحداً بما ليس لك به علم ، وهي رواية عطية عن ابن عبّاس .

وقال ابن الحنفية : هو شهادة الزور .

قال [القتيبي] : لا تتبع الحدس والظنون ، وكلها متقاربة ، وأصل القفو البهت والقذف بالباطل . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا ننتفي من أبينا " .

وقال النابغة :

ومثل الدمى شم العرانين ساكن . . . بهن الحياء لا يشعن التقافيا

وقال الكميت :

فلا أرمي البريء بغير ذنب . . . ولا أقفوا الحواصين أن [قفينا]

وقال [القتيبي] : فهو مأخوذ من القفاء كأنه يقفوا الأمور ويكون في أقفائها يعقبها [ويتتبعها] ويتعرفها . يقال : قفوت أثره على وزن دعوت والنهي منه لا يقف ، كقولك : لا تدع .

وحكى الفراء عن بعضهم : أن أصله من القيافة ، وهو اتباع الأثر وإذا كان كذلك وجب أن يكون [ولا تقف] بضم القاف وسكون الفاء مثل : ولا تقل ، قال : والعرب تقول : قفوت

أثرها وقفت مثل قولهم : قاع الجمل الناقة إذا ركبها وقعا ، وعاث وعاثا واعتام واعتمى

واحتاج ماله واحتجا .

قال الشاعر :

ولو إني رميتك من قريب . . . لعاقك من دعاء الذئب عاق

أي عانق .

﴿ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك ﴾ أي كل هذه الجوارح والأعضاء ما يقل تلك .

كقول الشاعر ، وهو جرير :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى . . . والعيش بعد أولئك الأيام

ويجوز أن يكون راجع إلى أصحابها وأربابها .

﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأرض مَرَحاً ﴾ بطراً وفخراً وخيلاء ، وهو تفسير المشي لا نعته فإن

ذلك أخرجه على المصدر ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض ﴾ أي لن تقطعها بكعبيك حتّى تبلغ

آخرها ، يقال فلان أخرق الأرض من فلان إذا كان أكثر سفراً وعزة .

وقال روبة :

وقائم [الأعماق] خاوي المخترق . . . أي المقطع ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً ﴾ أي [لن تساويها بطولك ولا تطاولك] وأخبر أن صاحبه لاينال به شيئاً [. . . . . .] عنه غيره ﴿ كُلُّ ذلك كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً ﴾ .

قرأ الحسن ويحيى بن يعمر وابن عمر وأهل الكوفة : سيئة على الاضافة ، بمعنى كل هذا الذي ذكرنا من قوله ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ .

[كان سيئة] أي سيء بما ذكرنا ووعدنا عليك عند ربك مكروها ، قالوا : لأن فيما ذكره الله من قوله ﴿ وقضى رَبُّكَ ﴾ إلى هذا الموضع أموراً مأمورات بها ومنهيات عنها ، واختار أبو عبيد هذه القراءة لما ذكرنا من المعنى ، ولأن في قراءة أُبي حجة لها ، وهي ماروى أبو عبيد عن حجاج عن هارون في قراءة [أُبي بن كعب] (كان سيئاته) قال : فهذه تكون باضافة سيئة منونّة منصوبة ، بمعنى كل ذلك الذي ذكرنا ووعدنا من قوله ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ إلى هذا الموضع كان سيئة لا حسنة في فجعلوا "كلا" محيطاً بالمنهي عنه دون غيره .

فإن قيل : هلا جعلت مكروهاً خبر ثان ، قلنا : في الكلام تقديم وتأخير تقديره : كل ذلك كان مكروهاً سيئة ، وقيل هو فعل [. . . . . .] كالبدل لا على الصفة ، مجازة : كل ذلك كان سيئة وكان مكروهاً .

وقال أهل الكوفة : رجع إلى المعنى ، لأن السيئة الذنب وهو [غير حقيقي] ﴿ ذَلِكَ ﴾

الذي ذكرنا [ووعدنا] ﴿ مِمَّا أَوحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحكمة ﴾ إلى قوله ﴿ مَدْحُوراً ﴾ مطروداً مبعداً من كل نصير والمراد به غيره .

قال الكلبي : [الثمان عشرة] آية كانت في ألواح موسى وهي عشر آيات في التوراة .

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ ﴾ اختاركم واختصكم ﴿ رَبُّكُم بالبنين واتخذ مِنَ الملائكة إِنَاثاً ﴾ بنات ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ يخاطب مشركي العرب حيث قالوا : الملائكة بنات الله .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ قرأه العامّة : بالتشديد على التكثير .

وقرأ الحسن : صرفنا بالتخفيف .

﴿ فِي هذا القرآن ﴾ يعني العبر والحكم والأمثال والأحكام والحجج والأعلام .

سمعت أبا القاسم الحسين يقول : بحضره الإمام أبي الطيب لقوله تعالى ﴿ صَرَّفْنَا ﴾ معنيان أحدهما : لم يجعله نوعاً واحداً ، بل وعداً ووعيداً وأمراً ونهياً ومحكماً ومتشابهاً وناسخاً ومنسوخاً وأخباراً وأمثالاً ، مثل تصريف الرياح من صبا ودبور وجنوب وشمال ، وتصريف الأفعال من الماضي إلى المستقبل ومن الفاعل إلى المفعول ونحوها .

والثاني : لم ينزله مرة واحدة بل [نجوماً] مثل قوله ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ ﴾ ومعناه أكثرنا

صرف جبرئيل اليك .

﴿ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ . قرأ يحيى والأعمش وحمزة والكسائي ﴿ لِيَذْكُرُواْ ﴾ مخففاً .

وقرأ الباقون : بالتشديد واختيار أبو عبيد أي ليتذكروا ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أي التصريف والتذكير ﴿ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ ذهاباً وتباعداً عن الحق ﴿ قُلْ ﴾ يا محمّد لهؤلاء المشركين ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ .

قرأ ابن كثير وحفص : يقولون بالياء . الباقون : بالتاء .

﴿ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ ﴾ لطلبوا يعني الآلهة القربة ﴿ إِلَى ذِي العرش سَبِيلاً ﴾ فالتمست الزلفة عنده .

قال قتادة : يقول لو كان [الأمر] كما يقولون إذا لعرفوا الله فضله ومقربته عليهم ، فامضوا ما يقربهم إليه .

وقال الآخرون : إذا لطلبوا مع الله منازعة وقتالاً ، كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض ، ثم نزه نفسه ، فقال ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ .

الأعمش وحمزة والكسائي ، وإختاره أبو عبيد عنهم بالتاء ﴿ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ ولم يقل تعالياً كقوله ﴿ [وجعل] إليه سبيلاً ﴾ .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ ﴾ قرأ الحسن : وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وحفص : بالتاء ، غيرهم : يسبح بالياء وإختاره أبو عبيد [. . . . . . .] وهو التأنيث ومعنى التسبيح التنزيه والطاعة والالتزام بالربوبية وكونها دالة على وجوده وتوحيده .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ .

قال ابن عبّاس : وإن من شيء حي .

وقال الحسن والضحاك : يعني كل شيء فيه الروح.

قال قتادة : يعني الحيوانات والنباتات [. . . . .] .

قال عكرمة : الشجرة تسبح والإسطوانة لا تسبح .

قال أبو الخطاب : كنا مع يزيد الرقاشي ومعه الحسن في فقدموا الخوان فقال يزيد الرقاشي يا أبا سعيد يسبح هذا الخوان ؟ فقال كان يسبح مرة وقال النبي صلى الله عليه وسلم " [ما سبحت عصا إلا ترك] التسبيح " .

وقال إبراهيم : الطعام يسبح .

وروى موسى بن عبيدة عن زيد بن أسلم عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه ؟ إن نوحاً قال لابنه : يا بني آمرك أن تقول

: سبحان الله وبحمده فإنها صلاة الخلق وتسبيحهم [وبها يرزق الخلق] " " .

قال الله ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ .

قال وهب : إن [. . . . .] إلا وقد كان يسبح لله ثلثمائة سنة .

وروى عبد الله بن [. . . . .] عن المقداد بن معد يكرب قال : إن التراب يسبح ما لم يبتل فإذا ابتل ترك التسبيح ، وإن الجوزة لتسبح ما لم ترفع من موضعها ، فإذا رفعت ترك التسبيح ، وإن الورق يسبح مادام على الشجرة ، فإذا سقط ترك التسبيح وإن الماء ليسبح مادام ماءاً فإذا [تغير] ترك التسبيح ، وإن الثوب يسبح مادام جديداً فإذا وسخ ترك التسبيح ، وإن الوحش إذا صاحت سبحت فإذا سكتت تركت التسبيح ، وإن الثوب [الخلق] لينادي في أول النهار : اللهمَّ إغفر لمن [. . . . . .] .

(214/457)

وروى أبو عتبة عن ثابت البنائي عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ كفاً من حصى فسبحن في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتّى سمعنا التسبيح ، ثمّ صبّهن في يد أبي بكر حتّى سمعنا التسبيح ثمّ صبهن في عمر حتّى سمعنا التسبيح ، ثمّ صبّهن في يد عثمان حتّى سمعنا التسبيح ، ثم صبّهن في أيدينا فما

سبحت في أيدينا .

وعن جعفر بن محمّد عن أبيه قال : " مرض النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه جبرئيل بطبق فيها رمان وعنب فتناول النبي صلى الله عليه وسلم فسبح ، ثمّ دخل الحسن والحسين فتناولا فسبح العنب والرمان ، ثمّ دخل عليّ فتناول منه فسبح أيضاً ، ثمّ دخل رجل من أصحابه فتناول فلم يسبح ، فقال جبرئيل : إنما يأكل هذا نبي أو وصي أو ولد نبي " .

﴿ ولكن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ يعني لا تعلمون تسبيح ماعدا من تسبيح بلغاتكم وألسنتكم ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً * وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن ﴾ يا محمّد [على] المشركين ﴿ جَعَلْنَا بَيْنَكَ ﴾ بينهم حجاباً يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به .

قتادة : هو حجاب مستور ، والمستور يعني الساتر كقوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً ﴾ [مريم : 61] الآية مفعول بمعنى فاعل .

وقيل : معناه مستوراً عن أعين الناس فلا يرونه . وفسّره بعض المفسرين : بالكتاب عن الأعين الظاهرة [فلا يرونه ولا يخلصون] إلى أدلته .

عطاء عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : 1] " جاءت امرأة أبي لهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر (رضي الله عنه) فقال : يا رسول الله لو تنحيت عنها لئلا تسمعك ما يؤذيك ، فإنها امرأة بذيئة .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم " إنه سيحال بيني وبينها " فلم تره فقالت لأبي بكر : يا أبا بكر هجاني صاحبك قال : والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله . فقالت : وإنك لمصدقه فاندفعت راجعة . قال أبو بكر : يا رسول الله أما رأتك ؟ قال : " لا ما زال ملك بيني وبينها يسترني حتى ذهبت " " .

وروى الكلبي عن رجل من [أهل الشام] عن كعب في هذه الآية قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستتر من المشركين بثلاث آيات : الآية التي في الكهف ﴿ جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الكهف : 57] والآية التي في النحل ﴿ أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ . . . ﴾ إلى قوله ﴿ هُمُ الغافلون ﴾ [النحل : 108] . والآية التي في الجاثية ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ . . . ﴾ [الجاثية : 23] إلى قوله ﴿ غِشَاوَةً ﴾ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأهن يستتر من المشركين .

قال كعب : فحدثت بهن رجلاً من أهل الشام فمكث فيهم ما شاء الله أن يمكث ثمّ قرأ بهنّ فخرج هارباً وخرجوا في طلبه حتّى كانوا يكونون على طريقه ولا يبصرونه .

قال الكلبي : حدثت به رجلاً بالري فأُسر بالديلم فمكث فيهم ما شاء الله أن يمكث ثمّ قرأهنّ وخرج هارباً وخرجوا في طلبه حتّى جعل ثيابهم لتلتمس ثيابه فما يبصرونه .

﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرآن وَحْدَهُ ﴾ يقول : وإذا قلت : لا إله إلاّ الله في القرآن وحده

وأنت تتلوه ﴿ وَلَّوْا على أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ كارهين له معرضين عنها .

حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عبّاس في قوله ﴿ وَلَّوْا على أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ قال : هم الشياطين والنفور جمع نافر مثل قاعد وقعود وجالس وجلوس ، وجائز أن يكون مصدراً أُخرج على غير لفظه إذا كان قوله ﴿ وَلَّوْا ﴾ بمعنى نفروا ، فيكون معناه [نفوراً] .

(216/457)

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ لن يقرأ القرآن ﴿ وَإِذْ هُمْ نجوى ﴾ متناجون في أمرك ، بعضهم يقول : هو مجنون ، وبعضهم يقول : هو كاهن ، وبعضهم : ساحر ، وبعضهم : شاعر ﴿ إِذْ يَقُولُ الظالمون ﴾ بمعنى الوليد بن المغيرة وأصحابه حين رجع إليه كفار مكة من أمر محمّد وشاوروه فقال ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ مطبوباً ، وقيل : مخدوعاً ، وقال أبو عبيدة : [مسحوراً] يعني رجلاً له سحر يأكل ويشرب مثلكم والسحر الرئة يقول العرب للجبان : قد سحره ولكل من أكل وشرب من آدمي وغيره مسحور ومسحر .

قال الشاعر امرىء القيس :

أرانا موضعين لأمر غيب . . . ونسحر بالطعام وبالشراب

أي : نغذي ونعلل .

﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمثال ﴾ شبّهوا ذلك الأشباه .

فقالوا : شاعر وساحر وكاهن ومجنون ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ فجالوا وجاروا ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً ﴾ مخرجاً ولا يهتدون إلى طريق الحق .

﴿ وقالوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً ﴾ بعد الموت ﴿ وَرُفَاتاً ﴾ .

قال ابن عبّاس : غباراً .

قال مجاهد : تراباً ، والرفات ما تكسر وبلا من كل شيء ، كالفتات والحطام والرضاض .

﴿ أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشف والبيان حـ 6 صـ 92. 105﴾

(217/457)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾

وَقَضَى رَبُّكَ وأمر أمراً مقطوعا به أَلَّا تَعْبُدُوا أن مفسرة ولا تعبدوا نهى . أو بأن لا تعبدوا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وأحسنوا بالوالدين إحسانا . أو بأن تحسنوا بالوالدين إحسانا وقرئ :

وأوصى . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : ووصى . وعن بعض ولد معاذ بن جبل : وقضاء ربك . ولا يجوز أن يتعلق الباء في بالوالدين بالإحسان ، لأن المصدر لا يتقدّم عليه صلته إِمَّا هي «إن» الشرطية زيدت عليها «ما» تأكيدا لها ، ولذلك دخلت النون المؤكدة في الفعل ، ولو أفردت «إن» لم يصح دخولها ، لا تقول : إن تكرمن زيداً يكرمك ، ولكن إما تكرمنه .

وأَحَدُهُما فاعل يبلغنّ ، وهو فيمن قرأ يبلغان بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين . وكِلاهُما عطف على أحدهما فاعلا وبدلا . فإن قلت : لو قيل إما يبلغان كلاهما ، كان كلاهما توكيدا لا بد لا ، فمالك زعمت أنه بدل ؟ قلت : لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيدا للاثنين ، فانتظم في حكمه ، فوجب أن يكون مثله . فإن قلت : ما ضرّك لو جعلته توكيداً مع كون المعطوف عليه بدلا ، وعطفت التوكيد على البدل ؟ قلت : لو أريد توكيد التثنية لقيل :

كلاهما ، فحسب ، فلما قيل : أحدهما أو كلاهما ، علم أنّ التوكيد غير مراد ، فكان بدلا مثل الأول أُفٍّ صوت يدل على تضجر . وقرئ : أف ، بالحركات الثلاث منونا وغير منون : الكسر على أصل البناء ، والفتح تخفيف للضمة والتشديد كثم ، والضم إتباع كمنذ . فإن قلت : ما معنى عندك ؟

قلت : هو أن يكبرا ويعجزا ، وكانا كلا على ولدهما لا كافل لهما غيره ، فهما عنده في بيته وكنفه ، وذلك أشق عليه وأشدّ احتمالا وصبرا ، وربما تولى منهما ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة ، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال ، حتى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما أو يستثقل من مؤنهما : أف ، فضلا عما يزيد عليه . ولقد بالغ سبحانه في التوصية

بهما حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده ، ونظمهما في سلك القضاء بهما معا ، ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومقتضياته ، ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في استطاعة وَلَا تَنْهَرْهُما ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك . والنهى والنهر والنهم : أخوات وَقُلْ لَهُما بدل التأفيف والنهر قَوْلًا كَرِيماً جميلا ، كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على المروءة . وقيل :

هو أن يقول : يا أبتاه ، يا أماه ، كما قال إبراهيم لأبيه : يا أبت ، مع كفره ، ولا يدعوهما

بأسمائهما فإنه من الجفاء وسوء الأدب وعادة الدعار «1» . قالوا : ولا بأس به في غير وجهه ، كما قالت عائشة رضى اللّه عنها : نحلنى أبو بكر كذا «2» . وقرئ : جناح الذل ، والذل : بالضم والكسر فإن قلت : ما معنى قوله جَناحَ الذُّلِّ ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون المعنى : واخفض لهما جناحك كما قال وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ فأضافه إلى الذل أو الذل ، كما أضيف حاتم إلى الجود على معنى : واخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول . والثاني : أن تجعل لذله أو لذله لهما جناحا خفيضا ، كما جعل لبيد للشمال «3» يدا ، وللقوّة زماما ، مبالغة في التذلل والتواضع لهما مِنَ الرَّحْمَةِ من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما ، لكبرهما وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق اللّه إليهما بالأمس ، ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها وادع اللّه بأن يرحمهما رحمته الباقية ، واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك . فان قلت : الاسترحام لهما إنما يصح إذا كانا مسلمين . قلت : وإذا كانا كافرين فله أن يسترحم لهما بشرط الايمان ، وأن يدعو اللّه لهما بالهداية والإرشاد ، ومن الناس من قال : كان الدعاء للكفار جائزا ثم نسخ . وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت فقال : كل ذلك واصل إليه ، ولا شيء أنفع له من الاستغفار . ولو كان شيء أفضل منه لأمركم به في الأبوين . ولقد كرّر اللّه سبحانه في كتابه الوصية بالوالدين . وعن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم «رضا اللّه في رضا الوالدين ، وسخطه في سخطهما «4»» وروى «يفعل البارّ ما يشاء أن يفعل فلن يدخل النار ، ويفعل

(1) . قوله «وسوء الأدب وعادة الدعار» من الدعارة وهي الفسق والخبث والفساد .

كذا في الصحاح. (ع)

(2) . أخرجه في الموطأ عن الزهري عن عائشة قالت «إن أبا بكر كان نحلنى جداد

عشرين وسقا من ماله بالعالية .

فلما حضرته الوفاة . قال : ما من الناس أحب إلى منك» .

(3) . قوله «كما جعل لبيد الشمال يدا» في قوله :

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها (ع)

(4) . أخرجه الترمذي عن عبد اللّه بن عمرو قال : روى موقوفا . ورواه البزار وقال : لا

نعلم أحداً أسنده إلا خالد بن الحرث . وفيه نظر ، لأن الحاكم أخرجه من طريق عبد

الرحمن بن مهدى عن شعبة مرفوعا وكذا أخرجه الطبراني والبيهقي من رواية القاسم بن

سليم عن شعبة مرفوعا . وللبيهقي أيضا من رواية الحسين بن الوليد عن شعبة مرفوعا .

قال : وروينا أيضا من رواية أبى إسحاق الفزاري وزيد بن أبى الرها وغيرهم مرفوعا .

ورواية أبى إسحاق عند أبى يعلى . وقال البخاري . في الأدب المفرد : حدثنا آدم بن أبى

إياس حدثنا شعبة فذكره موقوفا وفي الباب عن ابن عمر أخرجه البزار وقال : تفرد به

عصمة بن محمد الأنصارى عن يحيى بن سعيد . [. . . . .]

العاق ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة «1»» وروى سعيد بن المسيب : إنّ البارّ لا يموت ميتة سوء . وقال رجل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إنّ أبوىّ بلغا من الكبر أنى ألى منهما ما وليا منى في الصغر ، فهل قضيتهما ؟ قال : لا ، فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك ، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما»

. وشكا رجل إلى رسول اللّه أباه وأنه يأخذ ماله ، فدعا به فإذا شيخ يتوكأ على عصا ، فسأله فقال : إنه كان ضعيفاً وأنا قوى ، وفقيراً وأنا غنىّ ، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالى ، واليوم أنا ضعيف وهو قوى ، وأنا فقير وهو غنىّ ، ويبخل علىّ بماله ، فبكى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقال : ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى ، ثم قال للولد : أنت ومالك لأبيك ، أنت ومالك لأبيك «3» . وشكا إليه آخر سوء خلق أمّه فقال «4» : لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر ؟ قال : إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين ؟ قال إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها وأظمأت نهارها ؟

قال : لقد جازيتها . قال : ما فعلت ؟ قال : حججت بها على عاتقي . قال : ما جزيتها ولو طلقة «5» وعن ابن عمر أنه رأى رجلا في الطواف يحمل أمّه ويقول :

إِنّى لَهَا مَطِيَّةٌ لَا تُذْعَرُ إِذَا الرِّكَابُ نَفَرَتْ لَا تَنْفِرُ

مَا حَمَلَتْ وَأَرْضَعَتْنِى أَكْثَرُ اللَّهُ رَبِّى ذُو الْجَلَالِ الأَكْبَرُ «6»

---

(1) . أخرجه الثعلبي من طريق محمد بن السماك عن عابد بن شريح عن عطاء عن عائشة. وفيه أحمد بن محمد بن غالب غلام الخليل. وهو كذاب، لكن رواه أبو نعيم في الحلية من وجه آخر عن سحنون السماك بلفظ «فانى سأغفر لك» وبلفظ «فانى لا أغفر لك» .

(2) . لم أجده.

(3) . لم أجده. قلت أخرجه في معجم الصحابة من طريق.

(4) . لم أجده.

(5) . قوله «قال ما جزيتها ولو طلقة» في الصحاح الطلق وجع الولادة اه فالطلقة المرة منه. (ع)

(6) . أنشده ابن عمر عن رجل يحمل أمه في الحج: شبه نفسه بالمطية تشبيهاً بليغا، و «إذا الركاب نفرت» صفة لها، يعنى أنه خافض لها جناح الذل من الرحمة، ولا يسأم منها كغيره، فان حملها إياه وإرضاعها إياه أكثر من بره بها، وذعر يذعر كتعب يتعب: خاف وفزع، والمراد لازم الفزع والنفرة وهو الجزع والضجر وعدم إقراره على ظهره، ثم كبر لأنه شعار الحج من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق.

تظننى جارتيها يا ابن عمر «1» ؟ قال : لا ولو زفرة واحدة «2» . وعنه عليه الصلاة والسلام «إياكم وعقوق الوالدين ، فإنّ الجنة توجد ريحها من مسيرة ألف عام «3» ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جارّ إزاره خيلاء ، إنّ الكبرياء للّه رب العالمين» وقال الفقهاء : لا يذهب بأبيه إلى البيعة «4» ، وإذا بعث إليه منها ليحمله فعل ، ولا يناوله الخمر . ويأخذ الإناء منه إذا شربها . وعن أبى يوسف : إذا أمره أن يوقد تحت قدره وفيها لحم الخنزير أوقد .

وعن حذيفة أنه استأذن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم في قتل أبيه وهو في صف المشركين ، فقال :

دعه يليه غيرك «5» . وسئل الفضيل بن عياض عن برّ الوالدين فقال : أن لا تقوم إلى خدمتهما عن كسل . وسئل بعضهم فقال : أن لا ترفع صوتك عليهما ، ولا تنظر شررا إليهما «6» ، ولا يريا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن ، وأن تترحم عليهما ما عاشا ، وتدعو لهما إذا ماتا ، وتقوم بخدمة أودّائهما من بعدهما . فعن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم : «إنّ من أبر البرّ أن يصل الرجل أهل ودّ أبيه «7»» .

[سورة الإسراء (17) : آية 25]

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (25)

بِما فِي نُفُوسِكُمْ بما في ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ قاصدين الصلاح والبر، ثم فرطت منكم - في حال الغضب، وعند حرج الصدر وما لا يخلو منه البشر، أو لحمية الإسلام - هنة تؤدّى إلى أذاهما، ثم أنبتم إلى الله واستغفرتم منها، فإن الله غفور لِلْأَوَّابِينَ للتوّابين. وعن سعيد بن جبير: هي في البادرة تكون من الرجل إلى أبيه لا يريد بذلك إلا الخير. وعن سعيد بن المسيب: الأوّاب الرجل

---

(1) . قوله «تظننى جازيتها يا ابن عمر» لعله ثم قال تظننى. (ع)

(2) . أخرجه ابن المبارك في البر والصلة: أخبرنا سعيد بن سعيد بن أبى بردة عن أبيه قال كان ابن عمر يطوف بالبيت فرأى رجلا - فذكره. وهذا إسناد صحيح وأخرجه البيهقي في الشعب في الخامس والخمسين وأخرجه البخاري في الأدب المفرد عن آدم عن سعيد مختصرا.

(3) . أخرجه ابن عدى من رواية محمد بن الفرات عن أبى إسحاق عن الحرث عن على بهذا وأتم منه. وفيه مسيرة خمسمائة بدل ألف. ورواه الطبراني في الأوسط من طريق جابر الجعفي عن أبى جعفر عن جابر بن عبد الله فذكره بلفظ «ألف عام» وجابر ومحمد بن الفرات متروكان.

(4) . قوله «لا يذهب بأبيه إلى البيعة» في الصحاح: البيعة بالكسر للنصارى. (ع)

(5) . لم أجده: ولا يصح عن والد حذيفة أنه كان في صف المشركين: فانه استشهد بأحد مع المسلمين بأيدى المسلمين خطأ. وهم يحسبونه من الكفار، كما في صحيح البخاري لكن نحو القصة المذكورة وردت لأبى عبيدة ابن الجراح.

(6) . قوله «ولا تنظر شررا إليهما» هو نظر الغضبان بمؤخر العين، كذا في الصحاح. (ع)

(7) . أخرجه مسلم من حديث ابن عمر مرفوعا وفيه قصة.

كلما أذنب بادر بالتوبة. ويجوز أن يكون هذا عامّا لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها، ويندرج تحته الجاني على أبويه التائب من جنايته، لوروده على أثره.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 26 إلى 27]

وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (27)

وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وصى بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما، وأن يؤتوا حقهم: وحقهم إذا كانوا محارم كالأبوين والولد، وفقراء عاجزين عن الكسب، وكان الرجل

موسراً : أن ينفق عليهم عند أبى حنيفة. والشافعي لا يرى النفقة إلا على الولد والوالدين فحسب.

وإن كانوا مياسير، أو لم يكونوا محارم : كأبناء العمّ، فحقهم صلتهم بالمودّة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاضدة ونحو ذلك وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ يعنى وآت هؤلاء حقهم من الزكاة. وهذا دليل على أن المراد بما يؤتى ذوى القرابة من الحق : هو تعهدهم بالمال. وقيل : أراد بذي القربى أقرباء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. التبذير. تفريق المال فيما لا ينبغي. وإنفاقه على وجه الإسراف. وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها وتبذر أموالها في الفخر والسمعة، وتذكر ذلك في أشعارها، فأمر اللّه بالنفقة في وجوهها مما يقرّب منه ويزلف. وعن عبد اللّه : هو إنفاق المال في غير حقه. وعن مجاهد :

لو أنفق مدّا في باطل كان تبذيرا وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر، فقال له صاحبه : لا خير في السرف، فقال : لا سرف في الخير. وعن عبد اللّه بن عمرو : مرّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال : ما هذا السرف يا سعد؟ قال : أو في الوضوء سرف؟ قال. نعم وإن كنت على نهر جار «1» إِخْوانَ الشَّياطِينِ أمثالهم في الشرارة وهي غاية المذمّة، لأنه لا شرّ من الشيطان. أو هم إخوانهم وأصدقاؤهم لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف.

أو هم قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً فما ينبغي أن يطاع، فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله. وقرأ الحسن: إخوان الشيطان.

[سورة الإسراء (17) : آية 28]

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً (28)

وإن أعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الردّ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً فلا تتركهم غير مجابين إذا سألوك. وكان النبي صلى اللّه عليه وسلم «2» إذا سئل شيئاً وليس عنده

---

(1) . أخرجه ابن ماجة وأحمد وأبو يعلى والبيهقي من حديثه. وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف. [.....]

(2) . أخرجه ابن حبان والحاكم عن أنس: قال كان النبي صلى اللّه عليه وسلم لا يسأل شيئا إلا أعطاه أو سكت وفيه قصة: وفي الطبراني الأوسط عن على رضى اللّه عنه «كان النبي صلى اللّه عليه وسلم إذا سئل شيئا فأراد أن يفعله قال: نعم. وإذا أراد أن لا يفعل سكت ولم يقل قط لشيء: لا. فذكر قصة. وإسناده ضعيف.

أعرض عن السائل وسكت حياء. قوله ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ إمّا أن يتعلق بجواب الشرط مقدّما عليه، أى: فقل لهم قولا سهلا لينا وعدهم وعداً جميلا، رحمة لهم وتطييبا لقلوبهم، ابتغاء رحمة من ربك، أى: ابتغ رحمة اللّه التي ترجوها برحمتك عليهم. وإما أن يتعلق بالشرط، أى: وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك، فسمى الرزق رحمة، فردّهم ردّاً جميلا، فوضع الابتغاء موضع الفقد، لأنّ فاقد الرزق مبتغ له، فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسبباً عنه، فوضع المسبب موضع السبب. ويجوز أن يكون معنى وَإِمّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ وإن لم تنفعهم ولم ترفع خصاصتهم لعدم الاستطاعة، ولا يريد الإعراض بالوجه كناية بالإعراض عن ذلك، لأن من أبى أن يعطى: أعرض بوجهه. يقال: يسر الأمر وعسر، مثل سعد الرجل ونحس «1» فهو مفعول، وقيل معناه: فقل لهم رزقنا اللّه وإياكم من فضله، على أنه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم، كأن معناه: قولا ذا ميسور، وهو اليسر «2»، أى:

دعاء فيه يسر.

[سورة الإسراء (17): آية 29]

وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (29)

هذا تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف، وأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير فَتَقْعُدَ مَلُوماً فتصير ملوما عند اللّه، لأنّ المسرف غير مرضى عنده وعند الناس، يقول

المحتاج : أعطى فلاناً وحرمني . ويقول المستغنى : ما يحسن تدبير أمر المعيشة . وعند نفسك :

إذا احتجت فندمت على ما فعلت مَحْسُوراً منقطعاً بك لا شيء عندك ، من حسره السفر إذا بلغ منه وحسره بالمسألة ، وعن جابر : بينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جالس أتاه صبى فقال : إنّ أمى تستكسيك درعا ، فقال من ساعة إلى ساعة يظهر ، فعد إلينا ، فذهب إلى أمّه فقالت له قل له : إن أمى تستكسيك الدرع الذي عليك ، فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عرياناً ، وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة «3» .

وقيل أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن «4» ، فجاء عباس بن مرداس ، وأنشأ يقول :

---

(1) . قوله «مثل سعد الرجل ونحس» في الصحاح : سعد الرجل بالكسر فهو سعيد : مثل سلم فهو سليم .

وسعد بالضم فهو مسعود . (ع)

(2) . قوله «قولا ذا ميسور وهو اليسر» في الصحاح : المعسور ضد الميسور . وهما مصدران . وقال سيبويه :

هما صفتان . (ع)

(3) . لم أجده

(4) . قوله «مائة من الإبل وعيينة بن حصن» لعل بعده سقطا تقديره: مائة.

(224/457)

أَتَجْعَلُ نَهْبِى وَنَهْبَ الْعَبِيدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ وَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلَا حَابِسٌ

يَفُوقَانِ جَدِّى فِى مَجْمَعِ وَمَا كُنْتُ دُونَ امْرِئٍ مِنْهُمَا

وَمَنْ تَضَعِ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ «1»

فقال: يا أبا بكر، اقطع لسانه عنى، أعطه مائة من الإبل «2» فنزلت.

[سورة الإسراء (17) : آية 30]

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (30)

ثم سلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عما كان يرهقه من الإضافة، بأنّ ذلك ليس لهوان منك عليه، ولا لبخل به عليك ولكن لأنّ مشيئته في بسط الأرزاق وقدّرها «3» تابعة للحكمة والمصلحة. ويجوز أن يريد أن البسط والقبض إنما هما من أمر اللّه الذي الخزائن في يده، فأما العبيد فعليهم أن يقتصدوا. ويحتمل أنه عزّ وعلا بسط لعباده أو قبض، فإنه يراعى أوسط الحالين، لا يبلغ بالمبسوط له غاية مراده، ولا بالمقبوض عليه أقصى مكروهه

، فاستنوا بسنته.

[سورة الإسراء (17) : آية 31]

وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً (31)

---

(1) . للعباس بن مرداس رضى اللّه عنه يخاطب النبي صلى اللّه عليه وسلم، روى أنه أعطى كلا من الأقرع بن حابس رعيينة بن حصن مائة من الإبل تأليفا لقلوبهما، فأنشأ العباس ذلك، فرفعه أبو بكر للنبي صلى اللّه عليه وسلم فقال: اقطعوا عنى لسانه، ففزع وفزع أناس، وإنما أراد إعطاءه تأليفا لقلبه أيضا. والاستفهام للتعجب.

ويحتمل أنه للإنكار، لكنه بعيد من الصحابي، أى: أتقسم نهى ونهب العبيد فرسي يين هذين، والحال أن أبويهما ما كانا يفوقان أبى مرداس بمنع الصرف للضرورة. وقد يروى «العبيد» مصغرا. ويروى بدله «جدي» ويروى «شيخي في مجمع» من مجامع الحرب، وأنا لست أقل من واحد منهما، فنحن سواء أصلا وفرعا، فكيف تفاوت بيننا الآن؟ مع أن من تخفض قدره لا يرتفع عمره. وروى «منهمو» أى من الأربعة. وروى «و من يخفض» مبنيا للمجهول. وفي ذكر حصن وحابس بعد عيينة والأقرع: لف ونشر مرتب.

(2) . أخرجه مسلم من رواية عتبة بن رفاعة بن رافع عن رافع بن خديج قال «أعطى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل.

وأعطي عباس بن مرداس دون ذلك . فقال عباس – فذكر الشعر . قال : فأتم له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مائة» وأخرجه ابن إسحاق في المغازي حدثني عبد اللّه بن أبى بكر بن حزم وغيره – فذكر القصة وقال في آخرها :

ارهبوا فاقطعوا لسانه . فزادوه حتى رضى» وكذا ذكره موسى بن عقبة والواقدي وابن سعد وليس في شيء من طرقهم أن المخاطب بذلك كان أبا بكر

(3) . قوله «في بسط الأرزاق وقدرها» أى تضييقها . أفاده الصحاح. (ع)

(225/457)

قتلهم أولادهم : هو وأدهم بناتهم «1» ، كانوا يئدونهنّ خشية الفاقة وهي الاملاق ، فنهاهم اللّه وضمن لهم أرزاقهم . وقرئ خَشْيَةَ بكسر الخاء . وقرئ خِطْأً وهو الإثم ، يقال : خطئ خطأ ، كأثم إثما ، وخطأ وهو ضدّ الصواب ، اسم من أخطأ . وقيل : هو والخطء كالحذر والحذر ، وخطاء بالكسر والمدّ . وخطاء بالفتح والمد . وخطأ بالفتح والسكون . وعن الحسن : خطا بالفتح وحذف الهمزة كالخب . وعن أبى رجاء : بكسر الخاء غير مهموز .

[سورة الإسراء (17) : آية 32]

وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلاً (32)

فاحِشَةً قبيحة زائدة على حد القبح وَساءَ سَبِيلًا وبئس طريقا طريقه، وهو أن تغصب على غيرك امرأته أو أخته أو بنته من غير سبب، والسبب ممكن وهو الصهر الذي شرعه اللّه «2».

[سورة الإسراء (17) : آية 33]

وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً (33)

إِلَّا بِالْحَقِّ إلا بإحدى ثلاث: إلا بأن تكفر، أو تقتل مؤمنا عمدا، أو تزنى بعد إحصان. مَظْلُوماً غير راكب واحدة منهنّ لِوَلِيِّهِ الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه، فإن لم يكن له ولى فالسلطان وليه سُلْطاناً تسلطا على القاتل في الاقتصاص منه. أو حجة يثب بها عليه فَلا يُسْرِفْ الضمير للولي. أى: فلا يقتل غير القاتل، ولا اثنين والقاتل واحد، كعادة الجاهلية: كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة، حتى قال مهلهل حين قتل بجير بن الحارث بن عباد: بؤ بشسع نعل كليب «3». وقال:

كُلُّ قَتِيلٍ فِى كُلَيْبٍ غُرَّهْ حَتَّي يَنَالَ الْقَتْلُ آلَ مُرَّهْ «4»

وكانوا يقتلون غير القاتل إذا لم يكن بواء. وقيل: الإسراف المثلة. وقرأ أبو مسلم صاحب الدولة: فلا يسرف، بالرفع على أنه خبر في معنى الأمر. وفيه مبالغة ليست في الأمر.

وعن

---

(1) . قوله «هو وأدهم بناتهم» وأد البنت : دفنها في القبر وهي حية ، كما في الصحاح. (ع)

(2) . قوله «و هو الصهر الذي شرعه اللّه» أى التزوج. أفاده الصحاح. (ع)

(3) . قوله «بؤ بشع نعل كليب» في الصحاح يقال بؤ به أى كن ممن يقتل به وفيه البواء : السواء . وفيه الشسع : واحد شسوع النعل التي تشد إلى زمامها . وفيه الغرة : العبد أو الأمة . (ع)

(4) . الغرة : الرقيق ، يعنى : كل قتيل قتلناه في هذه القبيلة ليس كفؤا لمن قتلوه منا ، حتى يصل قتلنا آل مرة فهم كفؤه .

مجاهد : أنّ الضمير للقاتل الأوّل. وقرئ : فلا تسرف ، على خطاب الولي أو قاتل المظلوم. وفي قراءة أبىّ : فلا تسرفوا ، ردّه على : ولا تقتلوا إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً الضمير إمّا للولي ، يعنى حسبه أنّ اللّه قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك ، وبأنّ اللّه قد نصره «1» بمعونة السلطان وبإظهار المؤمنين على استيفاء الحق ، فلا يبغ ما وراء حقه. وإمّا

للمظلوم ، لأنّ اللّه ناصره وحيث أوجب القصاص بقتله ، وينصره في الآخرة بالثواب . وإما للذي يقتله الولي بغير حق ويسرف في قتله ، فإنه منصور بإيجاب القصاص على المسرف .

[سورة الإسراء (17) : آية 34]

وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً (34)

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ بالخصلة أو الطريقة التي هي أحسن ، وهي حفظه عليه وتثميره إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا أى مطلوبا يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي به «2» . ويجوز أن يكون تخييلا ، كأنه يقال للعهد : لم نكثت ؟ وهلا وفي بك ؟ تبكيتا للناكث ، كما يقال للموءودة : بأى ذنب قتلت ؟ ويجوز أن يراد أنّ صاحب العهد كان مسئولا .

[سورة الإسراء (17) : آية 35]

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (35)

وقرئ بِالْقِسْطاسِ بالضم والكسر ، وهو القرسطون «3» . وقيل : كل ميزان صغر أو كبر من موازين الدراهم وغيرهما وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وأحسن عاقبة ، وهو تفعيل ، من آل إذا رجع ، وهو ما يؤول إليه .

[سورة الإسراء (17) : آية 36]

وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً (36)

---

(1) . قوله «و بأن اللّه قد نصره» لعله أو أن . (ع)

(2) . قال محمود : «أى يطلب من المعاهد أن يفي به ولا ينكثه . . . الخ» قال أحمد ، كلام حسن إلا لفظة التخييل فقد تقدم إنكارها عليه ، وينبغي أن يعوض بالتمثيل . والظاهر التأويل الأول ، ويكون المجرور الذي هو «عنه» حذف تخفيفا ، وقد ذكر في بقية الآي كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا واللّه أعلم . وبعضد تأويل سؤال العهد نفسه على وجه التمثيل وقوف الرحم بين يدي اللّه وسؤالها فيمن وصلها وقطعها . وقد ورد ذلك في الحديث الصحيح ، واللّه الموفق . [. . . . .]

(3) . قوله «بالقسطاس بالضم والكسر وهو القرسطون» أى القبان ، كذا في النسفي . (ع)

وَلا تَقْفُ ولا تتبع . وقرئ : ولا تقف ، يقال : قفا أثره وقافه ، ومنه : القافة ، يعنى : ولا تكن في اتباعك ما لا علم لك به من قول أو فعل ، كمن يتبع مسلكا لا يدرى أنه يوصله إلى مقصده فهو ضال . والمراد : النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، وأن يعمل بما لا يعلم ، ويدخل فيه النهى عن التقليد دخولا ظاهرا . لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده . وعن

ابن الحنفية : شهادة الزور وعن الحسن : لا تقف أخاك المسلم إذا مرّ بك ، فتقول : هذا يفعل كذا ، ورأيته يفعل ، وسمعته ، ولم تر ولو تسمع . وقيل : القفو شبيه بالعضيهة «1» .

ومنه الحديث «من قفى مؤمنا بما ليس فيه حبسه اللّه في ردغة الخبال «2» حتى يأتى بالمخرج «3»» وأنشد :

وَمِثْلُ الدُّمى شُمُّ الْعَرَانِينِ سَاكِنٌ بِهِنَّ الحَيَاءُ لَا يُشِعْنَ التَّقَافِيَا «4»

أى التقاذف . وقال الكميت :

وَلَا أَرْمِى البَرِيَّ بِغَيْرِ ذَنْبٍ وَلَا أَقْفُو الحَوَاصِنَ إنْ قُفِينَا «5»

---

(1) . قوله «و قيل القفو شبيه بالعضيهة» في الصحاح العضيهة البهيتة ، وهي الافك والبهتان . (ع)

(2) . قوله «حبسه اللّه في ردغة الخبال» في الصحاح الردغة - بالتحريك - : الماء والطين والوحل الشديد وكذلك الردغة بالتسكين . وفيه الخبال : العناء والفساد وأما الذي في الحديث من قفا مؤمنا بما ليس فيه وقفه اللّه تعالى في ردغة الخبال حتى يجيء بالمخرج منه ، فيقال : هو صديد أهل النار .

(3) . لم أره بهذا اللفظ مرفوعا . وإنما ذكره أبو عبيد في الغريب من قول حسان بن عطية . فقال : حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعى عنه بهذا . وروى أحمد والطبراني من رواية معاذ بن أنس - رفعه «من قفا مؤمنا بما ليس فيه يريد شينه به حبسه اللّه على جسر جهنم

حتى يخرج مما قال» وفي مسند الشاميين للطبراني من طريق مطر الوراق عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر «من قذف مؤمنا أو مؤمنة حبس في ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج، وهو عند أبى داود من رواية يحيى بن راشد عن ابن عمر بلفظ «من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه اللّه ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج. وهو يخرج مما قال» وأخرجه الحاكم من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص رفعه «من قال في مؤمن ما ليس فيه حبسه اللّه في ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج».

(4). يصف نساء بأنهن جميلات مثل الدمى، جمع دمية بالضم، وهو الصنم والصورة من العاج المرصعة بالجواهر والشم، جمع شماء كحمر وحمراء، والعرانين: الأنوف، أى مرتفعات الأنوف كناية عن شرفهن وارتفاع قدرهن.

أو كناية عن كونهن كرائم حرائر، لأن انخفاض الأنف خاص بالعبيد والماء. وشبههن بالبيوت. وشبه الحياء بقوم يسكنونها على طريق المكنية والسكنى تخييل لذلك، وهو كناية ومبالغة في ملازمة الحياء لهن، لا يشعن: أى لا يظهرن التقافى، أى المتابعة بالقذف، من قفوته إذا أتبعته بالغيبة. وفي إشاعته: كناية عن نفيه، لأنها لازمة له، حيث أنه لا يكون إلا بين اثنين فأكثر.

(5). يقال: حصنت المرأة بالضم حصانة، فهي حاصن وحصناء وحصان. والحواصن: جمع حاصن: أى عفت فهي عفيفة، يقول: لا أتهم البريء بشيء زور، بل بذنب

محقق. والظاهر أن هذا في معنى الاستثناء المنقطع، لأن البريء ما دام بريئا لا ذنب له، ولا أتبع العفائف وأتكلم فيهن بفحش ما دمن عفائف إن قفاهن الناس، فتكلموا فيهن فكيف إذا لم يتكلم فيهن أحد؟.

(228/457)

وقد استدل به مبطل الاجتهاد ولم يصح، لأنّ ذلك نوع من العلم، فقد أقام الشرع غالب الظن مقام العلم، وأمر بالعمل به أُولئِكَ إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد، كقوله:

وَالْعَيْشَ بَعْدَ أُولَئِكَ الأَيَّامِ «1»

وعَنْهُ في موضع الرفع بالفاعلية، أى: كل واحد منها كان مسئولا عنه، فمسئول: مسند إلى الجار والمجرور، كالمغضوب في قوله غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ يقال للإنسان: لم سمعت ما لم يحل لك سماعه، ولم نظرت إلى ما لم يحل لك النظر إليه، ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه؟ وقرئ وَالْفُوادُ بفتح الفاء والواو، قلبت الهمزة واوا بعد الضمة في الفؤاد، ثم استصحب القلب مع الفتح.

[سورة الإسراء (17): الآيات 37 إلى 38]

وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً (37) كُلُّ ذلِكَ كانَ

سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (38)

مَرَحاً حال، أى: ذا مرح. وقرئ مَرِحاً وفضل الأخفش المصدر على اسم الفاعل لما فيه من التأكيد لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ لن تجعل فيها خرقا «2» بدوسك لها وشدّة وطأتك.

---

(1) لولا مراقبة العيون أريننا مقل المها وسوالف الآرام

هل ينهينك أن قتلن مرقشا أو ما فعلن بعروة بن حزام

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

لجرير بن عطية يخاطب نفسه على طريق التجريد، يقول: لولا مراقبة النساء للعيون، أى الرقباء المتطلعين علينا، لبرزن لنا وأريننا عيونهن التي هي كعيون بقر الوحش، فمقل المها: استعارة مصرحة، وكذلك سوالف الآرام.

والسالفة: مقدم العنق وصفحته. والآرام: جمع رئم بالكسر والهمز، وهو الغزال الأبيض، وأصله «أرآم» بهمز ممدود بعد الراء وزن أحمال، فقلب إلى ما قبلها. ويجوز أنه جمع ريم بالفتح وهو الغزال الأبيض، فهمز وقلب. وهل بمعنى قد. أو للتقرير. أى: أنه ينهاك عنهن مقتلهن مرقشا العاشق المشهور. أو فعلهن بعروة العاشق أيضا. وذم: فعل أمر، كأنه نذكر محبوبته في تلك الديار وتلك الأيام، فقال: ذم المنازل كلها حال كونها بعد، أى: غير منزلة اللوى. أو بعد مجاوزتك منزلة اللوى بلازم. واللوى: موضع بعينه من الرمل الملتوى، وذم الحياة كلها بعد حياتنا في تلك الأيام، أو ذم مدة الحياة كلها بعد تلك الأيام السابقة، وأشار

لها بما للعقلاء لعظمتها عنده ، ولأن تخصصه بالعقلاء طارئ في الاستعمال كما قيل ويجوز أن بعد ظرف المنازل والعيش وبعض النحاة جعل «ذم» مبنيا للمجهول ، وما بعده مرفوع به على النيابة .

(2) . قال محمود : «معناه لن تجعل فيها خرقا . . . الخ» قال أحمد : وفي هذا التهكم والتقريع لمن يعتاد هذه المشية كفاية في الانزجار عنها ، ولقد حفظ اللّه عوام زماننا عن هذه المشية ، وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا ، بينا أحدهم قد عرف مسألتين أو أجلس بين يديه طالبين ، أو شدا طرفا من رياسة الدنيا ، إذ هو يتبختر في مشيه ويترجع ، ولا يرى أنه يطاول الجبال ، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء ، كأنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون ، وما ذا يفيده أن يقرأ القرآن أو يقرأ عليه ، وقلبه عن تدبره على مراحل ، واللّه ولى التوفيق .

وقرئ . لن تخرق ، بضم الراء وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا بتطاولك . وهو تهكم بالمختال . قرئ سيئة وسيئه ، على إضافة سيئ إلى ضمير كل ، وسيئا في بعض المصاحف . وسيئات . وفي قراءة أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه : كان شأنه . فإن قلت : كيف قيل سيئه مع قوله

مكروها ؟ قلت :

السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات ، فلا اعتبار بتأنيثه . ولا فرق بين من قرأ سيئة وسيئا . ألا تراك تقول : الزنا سيئة ، كما تقول : السرقة سيئة ، فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومؤنث . فإن قلت : فما ذكر من الخصال بعضها سيئ وبعضها حسن ، ولذلك قرأ من قرأ سَيِّئُهُ بالإضافة ، فما وجه من قرأ سيئة ؟ قلت : كل ذلك إحاطة بما نهى عنه خاصة لا بجميع الخصال المعدودة .

[سورة الإسراء (17) : آية 39]

ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (39)

ذلِكَ إشارة إلى ما تقدم من قوله لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إلى هذه الغاية . وسماه حكمة لأنه كلام محكم لا مدخل فيه للفساد بوجه . وعن ابن عباس : هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح موسى ، أوّلها ، لا تجعل مع الله إلها آخر ، قال اللّه تعالى وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وهي عشر آيات في التوراة . ولقد جعل اللّه فاتحتها وخاتمتها النهى عن الشرك ، لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها ، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذ فيها الحكماء «1» وحك بيافوخه السماء ، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم ، وهم عن دين اللّه أضل من النعم .

[سورة الإسراء (17) : آية 40]

أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40)

أَفَأَصْفاكُمْ خطاب للذين قالوا «الملائكة بنات اللّه» والهمزة للإنكار. يعنى: أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون، لم يجعل فيهم نصيباً لنفسه، واتخذ أدونهم وهي البنات؟ وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم، فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب، ويكون أردأها وأدونها للسادات إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً بإضافتكم إليه الأولاد وهي خاصة بالأجسام، ثم بأنكم تفضلون عليه أنفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون، ثم بأن تجعلوا الملائكة وهم أعلى خلق اللّه وأشرفهم «2» أدون

---

(1). قوله «وإن بذ فيها الحكماء» في الصحاح «بذه» غلبه وفاقه. (ع)

(2). قوله «وهم أعلى خلق اللّه وأشرفهم» هذا على مذهب المعتزلة. أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل من الملاك. (ع)

خلق الله وهم الإناث.

[سورة الإسراء (17) : آية 41]

وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (41)

وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ يجوز أن يريد بهذا القرآن إبطال إضافتهم إلى الله البنات، لأنه مما صرفه وكرّر ذكره، والمعنى: ولقد صرفنا القول في هذا المعنى. أو أوقعنا التصريف فيه وجعلناه مكانا للتكرير. ويجوز أن يشير بهذا القرآن إلى التنزيل ويريد. ولقد صرفناه، يعنى هذا المعنى في مواضع من التنزيل، فترك الضمير لأنه معلوم. وقرئ: صرفنا بالتخفيف وكذلك لِيَذَّكَّرُوا قرئ مشدّدا ومخففاً، أى: كررناه ليتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى ما يحتج به عليهم وَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً عن الحق وقلة طمأنينة إليه. وعن سفيان: كان إذا قرأها قال. زادني لك خضوعا ما زاد أعداءك نفورا.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 42 إلى 43]

قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (42) سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً (43)

قرئ: كما تقولون، بالتاء والياء. وإذاً دالة على أن ما بعدها وهو لَابْتَغَوْا جواب عن مقالة المشركين وجزاء ل «لو». ومعنى لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، كقوله لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ

لَفَسَدَتا وقيل : لتقرّبوا إليه ، كقوله أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ. عُلُوًّا في معنى تعاليا . والمراد البراءة عن ذلك والنزاهة . ومعنى وصف العلوّ بالكبر : المبالغة في معنى البراءة والبعد مما وصفوه به .

[سورة الإسراء (17) : آية 44]

تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (44)

والمراد أنها تسبح له بلسان الحال «1» ، حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته ، فكأنها

---

(1) . قال محمود : «المراد تسبيحها بلسان الحال من حيث تدل على الصانع . . . الخ» قال أحمد : ولقائل أن يقول : فما يصنع بقوله كانَ حَلِيماً غَفُوراً وهو لا يغفر للمشركين ولا يتجاوز عن جهلهم وكفرهم وإشراكهم ، وإنما يخاطب بهاتين الصفتين المؤمنون ، والظاهر أن المخاطب المؤمنون . وأما عدم فقهنا للتسبيح الصادر من الجمادات ، فكأنه - واللّه أعلم - من عدم العمل بمقتضى ذلك ، فان الإنسان لو تيقظ حق التيقظ إلى أن النملة والبعوضة وكل ذرة من ذرات الكون تسبح اللّه وتنزهه وتشهد بجلاله وكبريائه وقهره ، وعمر خاطره بهذا الفهم ، لكان ذلك يشغله عن القوت فضلا عن فضول الكلام والأفعال ، والعاكف على الغيبة التي هي فاكهتنا في زماننا هذا ، لو استشعر حال إفاضته فيها أن كل

ذرة وجوهر من ذرات لسانه الذي يلقله في سخط اللّه تعالى عليه ، مشغولة مملوءة بتقديس اللّه تعالى وتسبيحه وتخويف عقابه وإرهاب جبروته ، وتيقظ لذلك حق التيقظ ، لكاد أن لا يتكلم بقية عمره ، فالظاهر واللّه أعلم أن الآية إنما وردت خطابا على الغالب في أحوال الغافلين وإن كانوا مؤمنين ، واللّه الموفق .

فالحمد للّه الذي كان حليما غفورا .

(231/457)

تنطلق بذلك ، وكأنها تنزه اللّه عز وجل مما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها . فإن قلت : فما تصنع بقوله وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ وهذا التسبيح مفقوه معلوم ؟ قلت : الخطاب للمشركين ، وهم وإن كانوا إذا سئلوا عن خالق السموات والأرض قالوا : اللّه ، إلا أنهم لما جعلوا معه آلهة مع إقرارهم ، فكأنهم لم ينظروا ولم يقرّوا ، لأنّ نتيجة النظر الصحيح والإقرار الثابت خلاف ما كانوا عليه ، فإذا لم يفقهوا التسبيح ولم يستوضحوا الدلالة على الخالق . فإن قلت : من فيهنّ يسبحون على الحقيقة وهم الملائكة «1» والثقلان ، وقد عطفوا على السموات والأرض ، فما وجهه ؟ قلت : التسبيح المجازى حاصل في الجميع فوجب الحمل عليه ، وإلا كانت الكلمة الواحدة في حالة واحدة محمولة على الحقيقة

والمجاز إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً حين لا يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح وشرككم.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 45 إلى 48]

وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً (45) وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (47) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (48)

حِجاباً مَسْتُوراً ذا ستر كقولهم. سيل مفعهم ذو إفعام. وقيل: هو حجاب لا يرى فهو مستور. ويجوز أن يراد أنه حجاب من دونه حجاب أو حجب، فهو مستور بغيره. أو حجاب يستر أن يبصر، فكيف يبصر المحتجب به، وهذه حكاية لما كانوا يقولونه

(1). عاد كلامه. قال: إن قلت «من فبهن يسبحون حقيقة وهم الملائكة... الخ» قال أحمد: وقد تقدم نقلى عنه أنه يأبى حمل اللفظ على حقيقته ومجازه دفعة واحدة عند آية السجدة في النحل، ولكن ظهر من كلامه ثم جعل السجود عبارة عن الانقياد وعدم الامتناع على القدرة، ليكون متناولا للمكلفين وغير المكلفين بطريق التواطؤ، وقد يكون أراد ثم المجاز، والله الموفق.

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ كأنه قال : وإذا قرأت القرآن جعلنا على زعمهم أَنْ يَفْقَهُوهُ كراهة أن يفقهوه . أو لأنّ قوله وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً فيه معنى المنع من الفقه ، فكأنه قيل : ومنعناهم أن يفقهوه . يقال : وحد يحد وحدا وحدة ، نحو وعد يعدو عدا وعدة ، ووَحْدَهُ من باب رجع عوده على بدئه ، وافعله جهدك وطاقتك في أنه مصدر سادّ مسدّ الحال ، أصله : يحد وحده بمعنى واحدا ، وحده . والنفور : مصدر بمعنى التولية . أو جمع نافر كقاعد وقعود ، أى : يحبون أن تذكر معه آلهتهم لأنهم مشركون ، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ من الهزؤ بك وبالقرآن ، ومن اللغو : كان يقوم عن يمينه إذا قرأ رجلان من عبد الدار ، ورجلان منهم عن يساره ، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار . وبِهِ في موضع الحال كما تقول يستمعون بالهزؤ ، أى هازئين . وإِذْ يَسْتَمِعُونَ نصب بأعلم ، أى :
أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون وَإِذْ هُمْ نَجْوى وبما يتناجون به ، إذ هم ذو ونجوى إِذْ يَقُولُ بدل من إذ هم مَسْحُوراً سحر فجنّ . وقيل : هو من السحر وهو الرئة ، أى : هو بشر مثلكم ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون فَضَلُّوا في جميع ذلك ضلال من

يطلب في التيه طريقا يسلكه فلا يقدر عليه ، فهو متحير في أمره لا يدرى ما يصنع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 657 . 671 ﴾

(233/457)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وقضى ربك ﴾

أي وأمر ربك .

قاله ابن عباس : وقيل معناه وأوجب ربك .

وقيل : معناه الحكم والجزم .

وقيل : ووصى ربك .

وحكي عن الضحاك أنه أنه قرأها ووصى ربك وقال : إنهم ألصقوا الواو بالصاد فصار قافاً وهي قراءة علي وابن مسعود .

قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير هذا القول بعيد جداً لأنه يفتح باب أن التحريف والتغيير قد تطرق إلى القرآن ولو جوزنا ذلك لارتفع الأمان على القرآن ، وذلك يخرجه عن كونه حجة ، ولا شك أنه طعن عظيم في الدين ﴿ ألاَّ تعبدوا إلا إياه ﴾ فيه

وجوب عبادة الله ، والمنع من عبادة غيره وهذا هو الحق لأن العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ، ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن له الإنعام والإفضال على عباده ولا منعم إلا الله ، فكان هو المستحق للعبادة لا غيره ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ أي وأمر بالوالدين إحساناً أي براً بهما وعطفاً عليهما وإحساناً إليهما ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ﴾ معناه أنهما يبلغان إلى حالة الضعف ، والعجز فيصيران عندك في آخر العمر كما كنت عندهما في أول العمر واعلم أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر هذه الجملة ، كلف الإنسان في حق الوالدين خمسة أشياء : الأول قوله تعالى ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ وهي كلمة تضجّر وكراهية ، وقيل : إن أصل هذه الكلمة أنه إذا سقط عليك تراب أو رماد ، ونفخت فيه تزيله تقول : أف ثم إنهم توسعوا بذكر هذه الكلمة إلى كل مكروه يصل إليهم .

والثاني : قوله ﴿ ولا تنهرهما ﴾ أي تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك يقال : نهره وانتهره بمعنى .

فإن قلت : المنع من التأفيف أبلغ من المنع من الانتهار فما وجه الجمع قلت : المراد من قوله ولا تقل لهما أف المنع من إظهار الضجر بالقليل والكثير ، والمراد من قوله ولا تنهرهما ، المنع من إظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليها .

الثالث : قوله ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ أي حسناً جميلاً ليناً كما يقتضيه حسن الأدب معهما ، وقيل : هو يا أماه يا أبتاه وقيل : لا يكنيهما وقيل : هو أن يقول لهم كقول العبد الذليل المذنب للسيد الفظ الغليظ .

الرابع : قوله ﴿ واخفض لهما جناح الذل ﴾ أي ألن لهما جناحك واخفضه لهما حتى لا تمتنع عن شيء أحباه ﴿ من الرحمة ﴾ أي من الشفقة عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم إليك ، كما كنت في حال الصغر مفتقراً إليهما .

الخامس : قوله سبحانه وتعالى ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ أي وادع الله لهما أن يرحمهما برحمته الباقية ، وأراد به إذا كانا مسلمين فأما إذا كانا كافرين فإن الدعاء منسوخ في حقهما بقوله سبحانه وتعالى ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ وقيل : يجوز الدعاء لهما بأن يهديهما الله إلى الإسلام فإذا هداهما فقد رحمهما .

وقيل في معنى هذه الآية : إن الله سبحانه وتعالى بالغ في الوصية بهما حيث افتتحها بالأمر بتوحيده وعبادته ، ثم شفعه بالإحسان إليهما ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تسوؤهما وأن يذل ، ويخضع لهما ثم ختمها بالأمر بالدعاء لهما والترحم

عليهما .

فصل

(235/457)

في ذكر الأحاديث التي وردت في بر الوالدين ، (ق) عن أبي هريرة قال : " جاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحبتي ؟ قال : أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك " (م) عنه قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " رغم أنفه ، رغم أنفه قيل من يا رسول الله ؟ قال من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة " (م) عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لن يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه " (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال " جاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاستأذنه في الجهاد : فقال : أحيّ والداك قال : نعم قال ففيهما فجاهد " وعنه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " رضا الرب من رضا الوالدين وسخط الرب في سخط الوالدين " أخرجه الترمذي مرفوعاً وموقوفاً قال : هو أصح عن أبي الدرداء قال " فإن شئت فضيع ذلك الباب أو احفظه "

أخرجه الترمذي .

وقال حديث صحيح (م) " عن عبد الله بن مسعود قال سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أي الأعمال أحب إلى الله تعالى قال الصلاة لوقتها قلت ، ثم أي قال بر الوالدين قلت ثم أي قال الجهاد في سبيل الله تعالى " قوله سبحانه وتعالى ﴿ ربكم أعلم بما في أنفسكم ﴾ أي من بر الوالدين ، واعتقاد ما يجب لهما من التوقير ، عدم عقوقهما ﴿ إن تكونوا صالحين ﴾ أي أبراراً مطيعين قاصدين الصلاح والبر بعد تقصير كان منكم في القيام بما لزمكم من حق الوالدين ، أو غيرهما أو قبل فرط منكم في حال الغضب ، وعن حرج الصدر وما لا يخلو منه البشر مما يؤدي إلى أذاهما ثم أنبتم إلى الله ، واستغفرتم مما فرط منكم ﴿ فإنه كان للأوابين ﴾ للتوابين ﴿ غفوراً ﴾ قال سعيد بن جبير في هذه الآية : هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه لا يريد بذلك إلا الخير فإنه لا يؤاخذ بهما .

وقال سعيد بن المسيب : الأواب الذي يذنب ثم يتوب وعنه أنه الرجاع إلى الخير .

وقال ابن عباس : الأواب الرجاع إلى الله فيما يحزنه ، وينوبه وعنه أنهم المسبحون .

وقيل : هم المصلون وقيل هم الذين يصلون صلاة الضحى يدل عليه ما روي عن زيد بن

أرقم .

قال : خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أهل قباء وهم يصلون الضحى فقال " صلاة الأوّابين إذا رمضت الفصال " أخرجه مسلم قوله : إذا رمضت الفصال يريد ارتفاع الضحى وأن تحمى الرمضاء وهو الرمل بحر الشمس فتبرك الفصال من الحر وشدة إحراقه أخفافها .

والفصال جمع فصيل وهي أولاد الإبل الغار وقيل : الأوّاب الذي يصلي بين المغرب والعشاء يدل عليه ما روي عن ابن عباس : إن الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء وهي صلاة الأوّابين .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ﴾ قيل : الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) أمره الله سبحانه وتعالى أن يؤتي أقاربه حقوقهم وقيل : إنه خطاب للكل وهو أنه سبحانه وتعالى ، وصى بعد بر الوالدين بالقرابة أن يؤتوا حقهم من صلة الرحم والمودة ، والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاضدة ونحو ذلك وقيل إن كانوا محاويج ، وهو موسر لزمه الإنفاق عليهم وهو مذهب أبي حنيفة . وقال الشافعي : لا تلزم النفقة إلا لوالد على ولده أو ولد على والديه فحسب وقيل : أراد بالقرابة قرابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتقدم الكلام على المسكين وابن السبيل ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ أي لا تنفق مالك في المعصية .

وقيل : لو أنفق الإنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ولو أنفق درهماً أو مداً في باطل كان مبذراً .

وسئل ابن مسعود عن التبذير فقال : إنفاق المال في غير حقه .

(237/457)

وقيل : هو إنفاق المال في العمارة على وجه السرف وقيل : إن بعضهم أنفق نفقة في خير فأكثر فقال له صاحبه لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ يعني أولياءهم وأصدقاءهم لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف ، وقيل : أمثالهم في الشر وهذا غاية المذمة لأنه أشر من الشياطين ، والعرب تقول لكل من هو ملازم سنة قوم : هو أخوهم ﴿ وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ أي جحوداً للنعمة فما ينبغي أن يطاع لأنه يدعو إلى مثل عمله .

قوله ﴿ وإما تعرضن عنهم ﴾ نزلت في مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب كانوا يسألون النبي (صلى الله عليه وسلم) في الأحايين ما يحتاجون إليه ، ولا يجد فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك عن القول فنزلت هذه الآية .

والمعنى : وإن تعرض عن هؤلاء الذي أمرت أن تؤتيهم ﴿ ابتغاء رحمة من ربك ترجوها

﴾ أي انتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ أي ليناً جميلاً أي عدهم وعداً طيباً ، تطيب به قلوبهم .

وقيل : هو أن يقول رزقنا الله وإياكم من فضله .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ قال جابر : أتى صبي فقال يا رسول الله إن أمي تستكسيك درعاً ولم يكن لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلا قميصه فقال للصبي : من ساعة إلى ساعة يظهر كذا فعد إلينا وقتاً آخر فعاد إلى أمه فقالت : قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك ، فدخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عرياناً فأذن بلال بالصلاة ، وانتظره فلم يخرج فشغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عرياناً فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك أي لا تمسك يدك عن النفقة في الحق والخير كالمغلولة يده لا يقدر على مدها ﴿ ولا تبسطها ﴾ أي بالعطاء ﴿ كل البسط ﴾ أي فتعطي جميع ما عندك .

وقيل : هذا تمثيل لمنع الشحيح ، وإعطاء المسرف أمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير ﴿ فتقعد ملوماً ﴾ أي عند الله لأن المسرف غير مرضي عنده ، وقيل ملوماً عند نفسك وأصحابك أيضاً يلومونك على تضييع المال بالكلية وقيل : يلومك سائلوك على الإمساك إذا لم تعطهم ﴿ محسوراً ﴾ أي منقطعاً لا شيء عندك تنفقه وقيل : محسوراً أي نادماً على ما فرط منك .

ثم سلّى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عما كان يرهقه من الإضافة بأن ذلك ليس لهوان بك عليه ولا لبخل منه عليك فقال تعالى ﴿ إن ربك يبسط ﴾ أي يوسع ﴿ الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي يقتر ويضيق ، وذلك لمصلحة العباد ﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بأحوال جميع عباده ، وما يصلحهم فالتفاوت في أرزاق العباد ليس لأجل البخل بل لأجل رعاية مصالح العباد .

قوله ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ أي فاقة وفقر ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ وذلك أن أهل الجاهلية ، كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة أو يخافون عليهم من النهب والغارات ، أو أن ينكحوهن لغير أكفاء لشدة الحاجة وذلك عار شديد عندهم فنهاهم الله عن قتلهن وقال نحن نرزقهم وإياكم ، يعني أن الأرزاق بيد الله فكما أنه فتح أبواب الرزق على الرجال فكذلك يفتحه على النساء ﴿ إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ﴾ أي إثماً كبيراً ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ﴾ أي قبيحة زائدة على حد القبح ﴿ وساء سبيلاً ﴾

أي بئس طريقاً طريقه ، وهو أن تغصب امرأة غيرك أو أخته أو بنته من غير سبب والسبب ممكن وهو الصهر الذي شرعه الله تعالى قيل : إن الزنا يشتمل على أنواع من المفاسد منه المعصية وإيجاب الحد على نفسه ومنها اختلاط الأنساب فلا يعرف الرجل ولد من هو ولا يقوم أحد بتربيته وذلك يوجب ضياع الأولاد ، وانقطاع النسل وذلك يوجب خراب العالم .

قوله ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ الأصل في القتل هو الحرمة المغلظة ، وحل القتل إنما ثبت بسبب عارض ، فلما كان كذلك نهى الله عن القتل على حكم الأصل ثم استثنى الحالة التي يحصل فيها حل القتل ، وهي الأسباب العرضية فقال إلا بالحق أي إلا بإحدى ثلاث كما روي عن ابن مسعود أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة "

أخرجاه في الصحيحين ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سطاناً ﴾ أي قوة وولاية على القاتل بالقتل وقيل : سطانه هو أنه يتخير فإن شاء استقاد منه وإن شاء أخذ الدية وإن شاء عفا ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ أي الولي قال بان عباس : لا يقتل غير القاتل وذلك أنهم

كانوا في الجاهلية إذا قتل منهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله حتى يقتل أشرف منه .

وقيل معناه إذا كان القتيل واحداً فلا يقتل به جماعة بل بواحد وكان أهل الجاهلية إذا كان المقتول شريفاً فلا يرضون بقتل القاتل وحده حتى يقتلوا معه جماعة من أقربائه ، وقيل معناه أن لا يمثل بالقاتل ﴿ إنه كان منصوراً ﴾ قيل الضمير راجع للمقتول ظلماً يعني أنه منصور في الدنيا بإيجاب القود على قاتله وفي الآخرة بتكفير خطاياه وإيجاب النار لقاتله ، وقيل : الضمير راجع إلى ولي المقتول معناه : إنه كان منصوراً على القاتل باستيفاء القصاص منه أو الدية وقيل في قوله : فلا يسرف في القتل أراد به القاتل المعتدي بالقتل بغير الحق فإنه إن فعل ذلك فولي القتيل منصور عليه باستيفاء القصاص منه .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ أي الطريقة التي هي أحسن ، وهي تنميته وحفظه عليه ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ وهو بلوغ النكاح والمراد ببلوغ الأشد كمال عقله ورشده بحيث يمكنه القيام بمصالح ماله ، وإلا لم ينفك عنه الحجر ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ أي الإتيان بما أمر الله والانتهاء عما نهي عنه وقيل : أراد بالعهد ما يلتزمه الإنسان على نفسه ﴿ إن العهد كان مسؤولاً ﴾ أي عنه وقيل مطلوباً وقيل : العهد يسأل

فيقال فيم نقضت كالموؤدة تسأل فيم قتلت .

قوله ﴿ وأفوا الكيل إذا كلتم ﴾ المراد منه إتمام الكيل ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ قيل هو ميزان صغيراً كان أو كبيراً ، من ميزان الدراهم إلى ما هو أكبر منه وقيل : هو القبان قيل هو رومي وقيل : سرياني والأصح أنه عربي مأخوذ من القسط وهو العدل أي وزنوا بالعدل المستقيم ، واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم ، فوجب على العاقل الاحتراز عنه وإنما الوعيد فيه لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء ، فالشارع بالغ في المنع من التطفيف والنقصان ، سعياً في إبقاء الأموال على أربابها ﴿ ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ أي أحسن عاقبة من آل إذا رجع ، وهو ما يؤول إليه أمره .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولا تقفُ ﴾ أي ولا تتبع ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ أي لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم .

وقيل : معناه لا ترم أحداً بما ليس لك به علم وقيل لا يتبعه بالحدس والظن وقيل : هو مأخوذ من القفا كأنه يقفو الأمور ، ويتتبعها ويتعرفها والمراد أنه لا يتكلم في أحد بالظن ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ معناه يسأل المرء عن سمعه وبصره وفؤاده ، وقيل يسأل السمع البصر والفؤاد ، عما فعله المرء فعلى هذا ترجع الإشارة في أولئك إلى الأعضاء ، وعلى القول الأول ترجع إلى أربابها .

عن شكل بن حميد قال : أتيت النبي (صلى الله عليه وسلم) فقلت : يا نبي الله علمني تعويذاً أتعوذ به قال : فأخذ بيدي ثم قال : " قل أعوذ بك من شر سمعي وشر بصري وشر فؤادي وشر لساني وشر قلبي وشر منيي قال فحفظتها " أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي .

وقال حديث حسن غريب .

قوله : وشر منيي يعني ماءه وذكره .

قوله ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ أي بطراً وكبراً وخيلاء ﴿ إنك لن تخرق الأرض ﴾ أي لن تقطها بكبرك حتى تبلغ آخرها ﴿ ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ أي لا تقدر أن تطاول الجبال ، وتساويها بكبرك والمعنى أن الإنسان لا ينال بكبره وبطره شيئاً كمن يريد خرق الأرض ومطاولة الجبال ، لا يحصل على شيء .

وقيل : إن الذي يمشي مختالاً يمشي مرة على عقبيه ، ومرة على صدور قدميه فقيل له : إنك لن تنقب الأرض إن مشيت على عقبيك ولن تبلغ الجبال طولاً إن مشيت على صدور قدميك .

عن علي قال : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما ينحط من صبب .

أخرجه الترمذي في الشمائل .

قوله تكفؤاً : التكفوء التمايل في المشي إلى قدام ، وقوله كأنما ينحط من صبب هو قريب من التكفوء أي كأنه ينحدر من موضع عال ، عن أبي هريرة قال : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كأن الشمس تجري في وجهه ، وما رأيت أحداً أسرع من مشيه من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كأنما الأرض تطوى له إنا لنجهد أنفسنا . وإنه لغير مكترث .

أخرجه الترمذي .

قوله : لغير مكترث أي شاق والاكتراث الأمر الذي يشق على الإنسان ﴿ كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهاً ﴾ أي ما ذكر من الأمور التي نهى الله عنها فيما تقدم .

فإن قلت : كيف قيل : سيئة مع قوله مكروهاً ؟ قلت : قيل فيه تقديم وتأخير تقديره كل ذلك كان مكروهاً سيئة عند ربك وقوله : مكروهاً على التكرير لا على الصفة أي كل ذلك كان سيئة وكان مكروهاً وقيل إنه يرجع إلى المعنى دون اللفظ ، لأن السيئة الذنب وهو مذكر .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأوامر والنواهي في هذه الآيات ﴿ مما أوحى إليك ربك من الحكمة ﴾ أي إن الأحكام المذكورة في هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية في جميع الأديان والملل لا تقبل النسخ والإبطال فكانت محكمة وحكمة بهذا الاعتبار.

وقيل : إن حاصل هذه الآيات يرجع إلى الأمر بالتوحيد وأنواع البر والطاعات والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة وذلك من الحكمة.

قيل : إن هذه الآيات كانت في ألواح موسى عليه السلام أولها : ولا تجعل مع الله إلهاً آخر. قال الله سبحانه وتعالى وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة ، واعلم أن الله سبحانه وتعالى : افتتح هذه الآيات بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك وختمها به ، والمقصود منه التنبيه على أن كل قول وعمل يجب أن يكرر في التوحيد لأنه رأس كل حكمة ، وملاكها ومن عدمه لم ينفعه شيء ثم إنه سبحانه وتعالى ذكر في الآية الأولى أن الشرك يجب أن يكون صاحبه مذموماً مخذولاً وقال في هذه الآية ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ والفرق بين المذموم والملوم أما كونه مذموماً فمعناه ، أن يذكر له أن الفعل الذي أقدم عليه قبيح ومنكر فهذا معنى كونه مذموماً ثم يقال له : لم فعلت هذا الفعل القبيح

وما الذي حملك عليه ، وهذا هو اللوم والفرق بين المخذول والمدحور أن المخذول هو الضعيف الذي لا ناصر له ، والمدحور هو المبعد المطرود عن كل خير .

(243/457)

قوله سبحانه وتعالى ﴿ أفأصفاكم ربكم ﴾ يعني أفخصكم واختاركم فجعل لكم الصفوة ولنفسه ما ليس بصفوة ﴿ بالبنين ﴾ يعني اختصكم بأفضل الأولاد وهم البنون ﴿ واتخذ من الملائكة إناثاً ﴾ لأنهم كانوا يقولون : الملائكة بنات الله مع علمهم بأن الله سبحانه وتعالى هو الموصوف بالكمال الذي لا نهاية له وهذا يدل على نهاية جعل القائلين بهذا القول ﴿ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾ يخاطب مشركي مكة يعني بإضافتهم إليه الأولاد وهي خاصة بالأجسام ، ثم إنهم يفضلون عليه أنفسهم حيث يجعلون له ما يكرهون لأنفسهم يعني البنات .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن ﴾ يعني العبر والحكم والأمثال والأحكام والحجج والإعلام والتشديد في صرفنا للتكثير والتكرير ﴿ ليذكروا ﴾ أي ليتعظوا ويعتبروا ﴿ وما يزيدهم ﴾ أي تصريفنا وتذكيرنا ﴿ إلا نفوراً ﴾ أي تباعداً عن الحق ﴿ قل ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا

﴿ أي لطلبوا يعني هؤلاء الآلهة ﴿ إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ أي بالمبالغة والقهر ليزيلوا ملكه كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض .

وقيل : معناه لتقربوا إليه .

وقيل : معناه لتعرفوا إليه فضله فابتغوا ما يقربهم إليه والأول أصح ، ثم نزه نفسه فقال ﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴾ معنى وصفه بذلك المبالغة في البراءة والبعد عما يصفونه .

قوله ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ يعني الملائكة والإنس والجن ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ قال ابن عباس : وإن من شيء حي إلا يسبح .

وقيل : جميع الحيوانات والنباتات .

قيل : إن الشجرة تسبح والاسطوانة لا تسبح .

وقيل : إن التراب يسبح ما لم يبتل ، فإذا ابتل ترك التسبيح ، وإن الخرزة تسبح ما لم ترفع من موضعها ، فإذا رفعت تركت التسبيح .

وإن الورقة تسبح ما دامت على الشجرة ، فإذا سقطت تركت التسبيح ، وإن الماء يسبح ما دام جارياً فإذا ركد ترك التسبيح وإن الثوب يسبح ما دام جديداً فإذا اتسخ ترك التسبيح وإن الوحش والطير لتسبح إذا صاحت ، فإذا سكتت تركت التسبيح وإن من شيء جماد أو حيّ إلا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف وقيل : كل الأشياء تسبح الله حيواناً كان أو جماداً وتسبيحها : سبحان الله وبحمده ، ويدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود قال : كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفاً كنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في سفر فقل الماء فقال : " اطلبوا فضلة من ماء فجاؤوا بإناء فيه قليل ، فأدخل يده (صلى الله عليه وسلم) في الإناء ثم قال : حي على الطهور المبارك ، والبركة من الله " فقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل .

أخرجه البخاري (م) عن جابر بن سمرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إن بمكة حجراً كان يسلم علي ليالي بعثت وإني لأعرفه الآن " (خ) عن ابن عمر قال : " كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح بيده عليه " وفي رواية " فنزل فاحتضنه وسارَّه بشيء " ففي هذه الأحاديث دليل على أن الجماد يتكلم وأنه يسبح ، وقال بعض أهل المعاني : تسبيح السموات والأرض ، والجمادات والحيوانات سوى العقلاء بلسان الحال ، بحيث تدل على الصانع وقدرته

ولطيف حكمته فكأنها تنطق بذلك ، ويصير لها بمنزلة التسبيح والقول الأولاد أصح كم دلت عليه الأحاديث ، وأنه منقول عن السلف .

واعلم أن لله تعالى علماً في الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغي أن نكل علمه إليه .

(245/457)

وقوله تعالى ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ أي لا تعلمون ولا تفهمون تسبيحهم ، ما عدا من يسبح بلغتكم ولسانكم ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وجهلكم بالتسبيح .

قوله ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ أي يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به ، وقيل : معناه مستوراً عن أعين الناس فلا يرونه كما روي عن سعيد بن جبير أنه قال : " لما نزلت تبت يدا أبي لهب جاءت امرأة أبي لهب معها حجر والنبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر فلم تره فقالت لأبي بكر : أين صاحبك لقد بلغني أنه هجاني فقال لها أبو بكر والله ما ينطق بالشعر ، ولا يقوله فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لأرضخ رأسه فقال أبو بكر : ما رأتك يا رسول الله .

قال : " لا لم يزل ملك بين وبينها " ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ أي أغطية ﴿ أن يفقهوه

﴾ أي لئلا يفهموه ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ أي ثقلاً لئلا يسمعوه ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ﴾ يعني إذا قلت لا إله إلا الله وأنت تتلو القرآن ﴿ ولّوا على أدبارهم نفوراً ﴾ جمع نافر .

﴿ نحن أعلم بما يستمعون به ﴾ أي من الهزء بك وبالقرآن وقيل : معناه نحن أعلم بالوجه الذي يستمعون به وهو التكذيب ﴿ إذ يستمعون إليك ﴾ أي وأنت تقرأ القرآن ﴿ وإذا هم نجوى ﴾ أي بما يتناجون به في أمرك ، وقيل : معناه ذوو نجوى بعضهم يقول : هو مجنون وبعضهم يقول هو كاهن وبعضهم يقول ساحر أو شاعر ﴿ إذ يقول الظالمون ﴾ يعني الوليد بن المغيرة وأصحابه ﴿ إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ أي مطبوباً وقيل مخدوعاً وقيل : معناه أنه سحر فجن .

وقيل : هو من السحر وهو الرئة ، ومعناه أنه بشر مثلكم يأكل ويشرب قال الشاعر :

أرانا موضعين لأمر غيب . . .

ونسخر بالطعام وبالشراب

أي يغذى بهما ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ أي الأشباه فقالوا : ساحر شاعر كاهن مجنون ﴿ فضلّوا ﴾ أي في جميع ذلك وحاروا ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ أي إلى طريق الحق ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاماً ﴾ أي عبد الموت ﴿ ورفاتاً ﴾ أي ترابا ًوقيل : الرفات هي الأجزاء المتفتتة من كل شيء تكسر ﴿ أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ فيه أنهم اسعبدوا الإعادة بعد الموت والبلى .

فقال سبحانه وتعالى رداً عليهم .

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 163.154 ﴾

(247/457)

وقال النسفي :

﴿ وقضى ربُّك ﴾

وأمر أمراً مقطوعاً به ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ "أن" مفسرة و ﴿ لا تعبدوا ﴾ نهي أو بأن لا تعبدوا ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وأحسنوا بالوالدين إحسانا ًأو بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ ﴾ "إما" هي "أن" الشرطية زيد عليها "ما" تأكيداً لها

ولذا دخلت النون المؤكدة في الفعل ولو أفردت "إن" لم يصح دخولها لا تقول.

"إن تكرمن زيداً يكرمك" ولكن "إما تكرمنه" ﴿ أَحَدُهُمَآ ﴾ فاعل ﴿ يبلغن ﴾ وهو في قراءة حمزة وعليّ ﴿ يبلغان ﴾ بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين ﴿ أَوْ كِلاهُمَا ﴾ عطف على ﴿ أحدهما ﴾ فاعلاً وبدلاً ﴿ فَلا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ مدني وحفص.

﴿ أفّ ﴾ مكي وشامي.

﴿ أفّ ﴾ غيرهم.

وهو صوت يدل على تضجر فالكسر على أصل التقاء الساكنين والفتح للتخفيف، والتنوين لإرادة التنكير أي أتضجر تضجراً، وتركه لقصد التعريف أي أتضجر التضجر المعلوم ﴿ وَلا تَنْهَرْهُمَا ﴾ ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك والنهي والنهر أخوان ﴿ وَقُل لَّهُمَا ﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿ قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ جميلاً ليناً كما يقتضيه حسن الأدب أو هو أن يقول: يا أبتاه يا أماه ولا يدعوهما بأسمائهما فإنه من الجفاء ولا بأس به في غير وجهه، كما قالت عائشة رضي الله عنها: نحلني أبو بكر كذا، وفائدة ﴿ عندك ﴾ إنهما إذا صارا كلاً على ولدهما ولا كافل لهما غيره فهما عنده في بيته وكنفه وذلك أشق عليه، فهو مأمور بأن يستعمل معهما لين الخلق حتى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما "أف" فضلاً عما يزيد عليه، ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما حيث افتتحها بأن

شفع الإحسان إليهما بتوحيده ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد يصبر الإنسان معها .

(248/457)

﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾ أي اخفض لهما جناحك كما قال ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ [الحجر : 88] فأضافه إلى الذل كما أضيف حاتم إلى الجود والمعنى واخفض لهما جناحك الذليل ﴿ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس .

وقال الزجاج : وألن جانبك متذللاً لهما من مبالغتك في الرحمة لهما ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء ، لها وادع الله بأن يرحمهما رحمته الباقية واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك .

والمراد بالخطاب غيره عليه السلام ، والدعاء مختص بالأبوين المسلمين ، وقيل : إذا كانا كافرين له أن يسترحم لهما بشرط الإيمان وأن يدعو الله لهما بالهداية .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما "

وروي " يفعل البار ما شاء أن يفعل فلن يدخل النار ويفعل العاق ما شاء أن يفعل فلن يدخل

الجنة " وعنه عليه السلام : " إياكم وعقوق الوالدين فإن الجنة يوجد ريحها من مسيرة ألف عام ولا يجد عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جارّ إزاره خيلاء إن الكبرياء لله رب العالمين " ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ بما في ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين ومن النشاط والكرامة في خدمتهما ﴿ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴾ قاصدين الصلاح والبر ثم فرطت منكم في حال الغضب وعند حرج الصدر هنة تؤدي إلى أذاهما ثم أبتم إلى الله واستغفرتم منها ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ الأواب الذي إذا أذنب بادر إلى التوبة فجاز أن يكون هذا عاماً لكل من فرطت منه جناية ، ثم تاب منها ويندرج تحت الجاني على أبويه التائب من جنايته لوروده على أثره .

(249/457)

﴿ وَآتِ ذَا القربى ﴾ منك ﴿ حَقَّهُ ﴾ أي النفقة إذا كانوا محارم فقراء ﴿ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ أي وآت هؤلاء حقهم من الزكاة ﴿ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴾ ولا تسرف إسرافاً .

قيل : التبذير تفريق المال في غير الحل والمحل ، فعن مجاهد : لو أنفق مداً في باطل كان تبذيراً .

وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر فقال له صاحبه : لا خير في السرف فقال : لا سرف في الخير ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَانَ ٱلشَّيَاطِينِ ﴾ أمثالهم في الشرارة وهي غاية المذمة لأنه لا شر من الشيطان ، أو هم إخوانهم وأصدقاؤهم لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ فما ينبغي أن يطاع فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله .

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ إن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد ﴿ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ أي وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك فسمى الرزق رحمة فردهم رداً جميلاً ، فوضع الابتغاء موضع الفقد لأن فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسبباً عنه ، فوضع المسبب موضع السبب ، يقال : يسر الأمر وعسر مثل سعد الرجل ونحس فهو مفعول .

وقيل : معناه : فقل لهم رزقنا الله وإياكم من فضله على أنه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم كأن معناه قولاً ذا ميسور وهو اليسر أي دعاء فيه يسر .

و ﴿ ابتغاء ﴾ مفعول له أو مصدر في موضع الحال و ﴿ ترجوها ﴾ حال ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ ﴿ كل ﴾ نصب على المصدر لإضافته إليه .

وهذا تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف أمر باقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُوماً ﴾ فتصير ملوماً عند الله لأن المسرف غير مرضي عنده وعند الناس يقول الفقير : أعطى فلاناً وحرمني ، ويقول الغني : ما يحسن تدبير أمر المعيشة ، وعند نفسك إذا احتجت فندمت على ما فعلت ﴿ مَّحْسُوراً ﴾ منقطعاً بك لا شيء عندك من حسرة السفر إذا أثر فيه أثراً بليغاً أو عارياً من حسر رأسه .

وقد خاطرت مسلمة ضرتها اليهودية في أنه يعني محمداً عليه السلام أجود من موسى عليه السلام فبعثت ابنتها تسأله قميصه الذي عليه فدفعه وقعد عرياناً فأقيمت الصلاة فلم يخرج للصلاة فنزلت .

ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يرهقه من الإضافة بأن ذلك ليس لهوان منك عليه ولا لبخل به عليك ، ولكن لأن بسط الأرزاق وقدرها مفوض إلى الله تعالى فقال :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فليس البسط إليك ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أي هو يضيق فلا لوم عليك ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً ﴾ بمصالحهم فيمضيها ﴿ بَصِيراً ﴾ بحوائجهم

فيقضيها .

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ ﴾ قتلهم أولادهم وأدهم بناتهم ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ فقر ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ نهاهم عن ذلك وضمن أرزاقهم ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً ﴾ إثماً عظيماً .

يقال : خطئ خطأ كأثم إثماً .

﴿ خطأ ﴾ شامي وهو ضد الصواب اسم من أخطأ .

(251/457)

وقيل : والخطء كالحذر والحذر ﴿ خطاء ﴾ بالمد والكسر : مكي ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزنى ﴾ القصر فيه أكثر والمدلغة وقد قرئ به وهو نهي عن دواعي الزنا كالمس والقبلة ونحوهما ، ولو أريد النهي عن نفس الزنا لقال "ولا تزنوا" ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ معصية مجاوزة حد الشرع والعقل ﴿ وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ وبئس طريقاً طريقه ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ﴾ أي بارتكاب ما يبيح الدم ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً ﴾ غير مرتكب ما يبيح الدم ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا ﴾ تسلطاً على القاتل في الاقتصاص منه ﴿ فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ﴾ الضمير للولي أي فلا يقتل غير القاتل ولا اثنين والقاتل واحد كعادة أهل الجاهلية ،

أو الإسراف المثلة ، أو الضمير للقاتل الأول ﴿ فلا تسرف ﴾ حمزة وعلي على خطاب الولي أو قاتل المظلوم ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً ﴾ الضمير للولي أي حسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك ، أو للمظلوم أي الله ناصره حيث أوجب القصاص بقتله وينصره في الآخرة بالثواب ، أو للذي يقتله الولي بغير حق ويسرف في قتله فإنه كان منصوراً بإيجاب القصاص على المسرف .

وظاهر الآية يدل على أن القصاص يجري بين الحر والعبد وبين المسلم والذمي لأن أنفس أهل الذمة والعبيد داخلة في الآية لكونها محرمة .

﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ بالخصلة والطريقة التي هي أحسن وهي حفظه وتثميره ﴿ حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي ثماني عشرة سنة ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ بأوامر الله تعالى ونواهيه ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي به ، أو أن صاحب العهد كان مسؤولاً ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴾ بكسر القاف : حمزة وعلي وحفص وهو كل ميزان صغير أو كبير من موازين الدراهم وغيرها .

وقيل هو القرسطون أي القبان ﴿ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ المعتدل ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ في الدنيا ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ عاقبة وهو تفعيل من آل إذا رجع وهو ما يؤول إليه.

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ولا تتبع ما لم تعلم أي لا تقل رأيت وما رأيت وسمعت وما سمعت.

وعن ابن الحنفية: لا تشهد بالزور.

وعن ابن عباس.

لا ترم أحداً بما لا تعلم.

ولا يصح التثبت به لمبطل الاجتهاد لأن ذلك نوع من العلم فإن علمتموهن مؤمنات، وأقام الشارع غالب الظن مقام العلم وأمر بالعمل به كما في الشهادات ولنا في العمل بخبر الواحد لما ذكرنا ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد لأن ﴿ أولئك ﴾ كما يكون إشارة إلى العقلاء يكون إشارة إلى غيرهم كقول جرير

ذم المنازل بعد منزلة اللوى...

والعيش بعد أولئك الأيام

و﴿ عنه ﴾ في موضع الرفع بالفاعلية أي كل واحد منها كان مسئولاً عنه، فمسؤول مسند إلى الجار والمجرور كالمغضوب في ﴿ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: 7]

يقال للإنسان .

لم سمعت ما لم يحل لك سماعه ، ولم نظرت إلى ما لم يحل لك النظر إليه ، ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه ؟ كذا في الكشاف ، وفيه نظر لبعضهم لأن الجار والمجرور إنما يقومان مقام الفاعل إذا تأخرا عن الفعل ، فأما إذا تقدما فلا ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ هو حال أي ذا مرح ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ ﴾ لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها وشدة وطئتك ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ بتطاولك وهو تهكم بالمختال أو لن تحاذيها قوة وهو حال من الفاعل أو المفعول ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ ﴾ كوفي وشامي على إضافة سيء إلى ضمير "كل" .

(253/457)

﴿ سيئة ﴾ غيرهم ﴿ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ ذكر ﴿ مكروهاً ﴾ لأن السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه ألا تراك تقول : "الزنا سيئة" ، كما تقول : "السرقة سيئة" ، فإن قلت : الخصال المذكورة بعضها سيىء وبعضها حسن ولذلك قرأ من قرأ ﴿ سيئة ﴾ بالإضافة أي ما كان من المذكور سيئاً كان عند الله مكروهاً فما وجه قراءة من قرأ ﴿ سيئة ﴾ قلت : كل ذلك إحاطة بما نهى عنه

خاصة لا بجميع الخصال المعدودة .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم من قوله : ﴿ لَّا تَجْعَل مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ إلى هذه الغاية ﴿ مِمَّا أوحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحكمة ﴾ مما يحكم العقل بصحته وتصلح النفس بأسوته ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ فتلقى فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ مطروداً من الرحمة .

عن ابن عباس رضي الله عنهما : هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح موسى عليه السلام أولها : ﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر ﴾ وآخرها ﴿ مدحوراً ﴾ ولقد جعلت فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك لأن التوحيد رأس كل حكمة وملاكها ، ومن عدمه لم تنفعه حكمة وإن بذ فيها الحكماء وحك بيافوخه السماء ، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أضل من النعم .

ثم خاطب الذين قالوا الملائكة بنات الله بقوله :

﴿ أَفَأَصفاكم رَبُّكُم بالبنين ﴾ الهمزة للإنكار يعني أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون ﴿ واتخذ مِنَ الملئكة إناثاً ﴾ واتخذ أدونهم وهي البنات وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم ، فالعبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء

وأصفاها ويكون أردؤها وأدونها للسادات ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا ﴾ حيث أضفتم إليه الأولاد وهي من خواص الأجسام ، ثم فضلتم عليه أنفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هذا القرءان ﴾ أي التنزيل والمراد ولقد صرفناه أي هذا المعنى في مواضع من التنزيل فترك الضمير لأنه معلوم ﴿ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ وبالتخفيف : حمزة وعلي ، أي كررناه ليتعظوا ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا ﴾ عن الحق .

وكان الثوري إذ قرأها يقول : زادني لك خضوعاً ما زاد أعداءك نفوراً ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ ﴾ مع الله ﴿ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ وبالياء مكي وحفص .

﴿ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِى العرش سَبِيلاً ﴾ يعني لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلاً بالمغالبة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ، أو لتقربوا إليه كقوله : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ ﴿ وإذاً ﴾ دالة على أن ما بعدها وهو ﴿ لابتغوا ﴾ جواب عن مقالة المشركين وجزاء ل "لو"

﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ وبالتاء : حمزة وعلي ﴿ عَلَوْاً ﴾ أي تعاليا والمراد البراءة من ذلك والنزاهة ﴿ كَبِيراً ﴾ وصف العلو بالكبر مبالغة في معنى البراءة والبعد مما وصفوه به .

﴿ تُسَبّحُ ﴾ وبالتاء : عراقي غير أبي بكر ﴿ لَهُ السماوات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ أي يقول سبحان الله وبحمده .

عن السدي قال عليه السلام : " ما اصطيد حوت في البحر ولا طائر يطير لا بما يضيع من تسبيح الله تعالى " ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ لاختلاف اللغات أو لتعسر الإدراك أو سبب لتسبيح الناظر إليه ، والدال على الخير كفاعله .

والوجه الأول ﴿ إنه كان حليما ﴾ عن جهل العباد ﴿ غفورا ﴾ لذنوب المؤمنين .

﴿ وإذا قرأت القرءان جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ﴾ ذا ستر أو حجاباً لا يرى فهو مستور ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ جمع كنان وهو الذي يستر الشيء ﴿ أن يفقهوه ﴾ كراهة أن يفقهوه ﴿ وفي ءاذانهم وقرا ﴾ ثقلاً يمنع عن الاستماع ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ﴾ يقال : وحد يحد وحداً وحدة نحو وعد يعد وعداً وعدة فهو مصدر سد مسد الحال أصله يحد وحده بمعنى واحداً ﴿ ولوا على أدبارهم ﴾ رجعوا على أعقابهم ﴿ نفورا ﴾ مصدر بمعنى التولية أو جمع نافر كقاعد وقعود أي يحبون أن تذكر معه آلهتهم لأنهم مشركون فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا .

﴿ نحن أعلم بما يستمعون به ﴾ أي نحن أعلم بالحال أو الطريقة التي يستمعون القرآن بها ، فالقرآن هو المستمع وهو محذوف و ﴿ به ﴾ حال وبيان ل "ما" أي يستمعون القرآن

هازئين لا جادين والواجب عليهم أن يستمعوه جادين ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ نصب ب ﴿ أعلم ﴾ أي أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون ﴿ وَإِذْ هُمْ نجوى ﴾ وبما يتناجون به إذ هم ذوو نجوى ﴿ إِذْ يَقُولُ الظالمون ﴾ بدل من ﴿ إذ هم ﴾ ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ سحر فجن ﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال ﴾ مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون ، ﴿ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً ﴾ أي فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقاً يسلكه فلا يقدر عليه فهو متحير في أمره لا يدري ما يصنع .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي منكرو البعث ﴿ أَءذَا كُنَّا عظاما ورفاتا أَءنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ أي مجدداً و ﴿ خلقاً ﴾ حال أي مخلوقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 316.311 ﴾

(256/457)

وقال البيضاوى :

﴿ وقضى رَبُّكَ ﴾

وأمر أمراً مقطوعاً به . ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ ﴾ بأن لا تعبدوا . ﴿ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ لأن غاية التعظيم لا تحق إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإِنعام ، وهو كالتفصيل لسعي الآخرة . ويجوز

أن تكون ﴿ ءانٍ ﴾ مفسرة و﴿ لا ﴾ ناهية . ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ وبأن تحسنوا ، أو وأحسنوا بالوالدين إحساناً لأنهما السبب الظاهر للوجود والتعيش ، ولا يجوز أن تتعلق الباء بالإِحسان لأن صلته لا تتقدم عليه . ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ ﴿ أَمَّا ﴾ هي إن الشرطية زيدت عليها ما تأكيداً ولذلك صح لحوق النون المؤكدة للفعل ، وأحدهما فاعل ﴿ يَبْلُغَنَّ ﴾ ويدل على قراءة حمزة والكسائي من ألف "يبلغان" الراجع إلى "الوالدين" ، وكلاهما عطف على أحدهما فاعلاً أو بدلاً ولذلك لم يجز أن يكون تأكيداً للألف ، ومعنى ﴿ عِندَكَ ﴾ أن يكونا في كنفك وكفالتك . ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفّ ﴾ فلا تضجر مما يستقذر منهما وتستثقل من مؤنتهما ، وهو صوت يدل على تضجر . وقيل هو اسم الفعل الذي هو أتضجر ، وهو مبني على الكسر لالتقاء الساكنين وتنوينه في قراءة نافعٍ وحفص للتنكير . وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالفتح على التخفيف . وقرىء به منوناً وبالضم للاتباع كمنذ منوناً وغير منون ، والنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الايذاء قياساً بطريق الأولى .

وقيل عرفاً كقولك : فلان لا يملك النقير والقطمير ، ولذلك منع رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة من قتل أبيه وهو في صف المشركين ، نهى عما يؤذيهما بعد الأمر بالإِحسان بهما . ﴿ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا ﴾ ولا تزجرهما عما لا يعجبك بإغلاظ . وقيل النهي والنهر والنهم أخوات . ﴿ وَقُل لَّهُمَا ﴾ بدل التأفيف والنهر . ﴿ قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ جميلاً لا شراسة فيه .

﴿ واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل ﴾ تذلل لهما وتواضع فيهما ، وجعل للذل جناحاً كما جعل لبيد في قوله :

(257/457)

وَغَدَاةِ رِيحٍ قَدْ كشفت وقرة . . . إذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَال زمَامُهَا

للشمال يداً أو للقرة زماماً ، وأمره بخفضه مبالغة أو أراد جناحه كقوله تعالى : ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وإضافته إلى الذل للبيان والمبالغة كما أضيف حاتم إلى الجود ، والمعنى واخفض لهما جناحك الذليل . وقرىء "الذل" بالكسر وهو الانقياد والنعت منه ذلول . ﴿ مِنَ الرحمة ﴾ من فرط رحمتك عليهما لافتقارهما إلى من كان أفقر خلق الله تعالى إليهما بالأمس . ﴿ وَقُل رَّبِّ ارحمهما ﴾ وادع الله تعالى أن يرحمهما برحمته الباقية ، ولا تكتف برحمتك الفانية وإن كانا كافرين لأن من الرحمة أن يهديهما : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ رحمة مثل رحمتهما علي وتربيتهما وإرشادهما لي في صغري وفاء بوعدك للراحمين . روي : أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبوي بلغا من الكبر أني ألي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتهما حقهما . قال : لا فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وتريد موتهما) .

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ﴾ من قصد البر إليهما واعتقاد ما يجب لهما من التوقير، وكأنه تهديد على أن يضمر لهما كراهة واستثقالاً. ﴿ إِن تَكُونُواْ صالحين ﴾ قاصدين للصلاح. ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ ﴾ للتوابين. ﴿ غَفُوراً ﴾ ما فرط منهم عند حرج الصدر من أذية أو تقصير، وفيه تشديد عظيم، ويجوز أن يكون عاماً لكل تائب، ويندرج فيه الجاني على أبويه التائب من جنايته لوروده على أثره.

(258/457)

﴿ وَءاتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ من صلة الرحم وحسن المعاشرة والبر عليهم. وقال أبو حنيفة: حقهم إذا كانوا محارم فقراء أن ينفق عليهم. وقيل المراد بذي القربى أقارب الرسول صلى الله عليه وسلم. ﴿ والمسكين وابن السبيل وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ بصرف المال فيما لا ينبغي وإنفاقه على وجه الإسراف، وأصل التبذير التفريق. " وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لسعد وهو يتوضأ: ما هذا السرف قال: أو في الوضوء سرف قال: نعم وإن كنت على نهر جار ".

﴿ إِنَّ المبذرين كَانُواْ إخوان الشياطين ﴾ أمثالهم في الشرارة فإن التضييع والاتلاف شر، أو أصدقاءهم وأتباعهم لأنهم يطيعونهم في الإسراف والصرف في المعاصي. روي: أنهم

كانوا ينحرون الإبل ويتياسرون عليها ويبذرون أموالهم في السمعة ، فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالإنفاق في القربات . ﴿ وَكَانَ الشيطان لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ مبالغاً في الكفر به فينبغي أن لا يطاع .

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ وإن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد ، ويجوز أن يراد بالإعراض عنهم أن لا ينفعهم على سبيل الكناية . ﴿ ابتغاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ لانتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك فتعطيه ، أو منتظرين له وقيل معناه لفقد رزق من ربك ترجوه أن يفتح لك فوضع الابتغاء موضعه لأنه مسبب عنه ، ويجوز أن يتعلق بالجواب الذي هو قوله : ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ﴾ أي فقل لهم قولاً ليناً ابتغاء رحمة الله برحمتك عليهم بإجمال القول لهم ، والميسور من يسر الأمر مثل سَعُدَ الرَّجل ونحس ، وقيل القول الميسور الدعاء لهم بالميسور وهو اليسر مثل أغناكم الله تعالى ورزقنا الله وإياكم .

﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبذر ، نهى عنهما آمراً بالاقتصاد بينهما الذي هو الكرم . ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا ﴾

فتصير ملوماً عند الله وعند الناس بالإسراف وسوء التدبير . ﴿ مَّحْسُورًا ﴾ نادماً أو منقطعاً بك لا شيء عندك من حسرة السفر إذا بلغ منه . وعن جابر (بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس أتاه صبي فقال : إن أمي تستكسيك درعاً ، فقال صلى الله عليه وسلم من ساعة إلى ساعة فعد إلينا ، فذهب إلى أمه فقالت : قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك ، فدخل صلى الله عليه وسلم داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عرياناً وأذن بلال وانتظروه للصلاة فلم يخرج فأنزل الله ذلك) ثم سلاه بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ يوسعه ويضيقه بمشيئته التابعة للحكمة البالغة فليس ما يرهقك من الإضافة إلا لمصلحتك . ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ يعلم سرهم وعلنهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ، ويجوز أن يراد أن البسط والقبض من أمر الله تعالى العالم بالسرائر والظواهر ، فأما العباد فعليهم أن يقتصدوا ، أو أنه تعالى يبسط تارة ويقبض أخرى فاستنوا بسنته ولا تقبضوا كل القبض ولا تبسطوا كل البسط ، وأن يكون تمهيداً لقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِملاق ﴾ مخافة الفاقة ، وقتلهم أولادهم هو وأدهم بناتهم مخافة الفقر فنهاهم عنه وضمن لهم أرزاقهم فقال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ حُوباً كَبِيرا ً ﴾ ذنبا كبيراً لما فيه من قطع التناسل وانقطاع النوع ، وال ﴿ خطأ ﴾ الاثم يقال خطىء خطأ كأثم إثماً ، وقرأ ابن عامر "خطأ" وهو اسم من اخطأ يضاد الصواب ، وقيل لغة فيه كمثل ومثل وحذر وحذر . وقرأ ابن كثير "خطاء" بالمد والكسر وهو إما لغة فيه أو مصدر خاطأ وهو وإن لم يسمع لكنه جاء تخاطأ في قوله :

تَخَاطَأَهُ القَناصُ حَتَّى وَجَدْتُه . . . وَخَرْطومُهُ فِي مَنْقعِ المَاءِ رَاسِب

وهو مبني عليه وقرىء "خطاء" بالفتح والمد وخطا بحذف الهمزة مفتوحاً ومكسوراً .

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَا ﴾ بالعزم والإتيان بالمقدمات فضلاً عن أن تباشروه . ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ فعلة ظاهرة القبح زائدته . ﴿ وَسَاء سَبِيلاً ﴾ وبئس طريقاً طريقه ، وهو الغصب على الابضاع المؤدي إلى قطع الأنساب وهيج الفتن .

﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ النفس التى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بالحق ﴾ إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان : وزنا بعد إحصان ، وقتل مؤمن معصوم عمداً . ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ غير مستوجب للقتل .

﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ ﴾ للذي يلي أمره بعد وفاته وهو الوارث. ﴿ سلطانا ﴾ تسلطاً بالمؤاخذة بمقتضى القتل على من عليه، أو بالقصاص على القاتل فإن قوله تعالى ﴿ مَظْلُومًا ﴾ يدل على أن القتل عمد عدوان فإن الخطأ لا يسمى ظلماً. ﴿ فَلاَ يُسْرِف ﴾ أي القاتل. ﴿ فِّى القتل ﴾ بأن يقتل من لا يستحق قتله، فإن العاقل لا يفعل ما يعود عليه بالهلاك أو الولي بالمثلة، أو قتل غير القاتل ويؤيد الأول قراءة أبي "فلا تسرفوا". وقرأ حمزة والكسائي "فلا تسرف" على خطاب أحدهما. ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ علة النهي على الاستئناف والضمير إما للمقتول فإنه منصور في الدنيا بثبوت القصاص بقتله وفي الآخرة بالثواب، وإما لوليه فإن الله تعالى نصره حيث أوجب القصاص له وأمر الولاة بمعونته، وإما للذي يقتله الولي إسرافاً بإيجاب القصاص أو التعزير والوزر على المسرف.

﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم ﴾ فضلاً أن تتصرفوا فيه. ﴿ إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ إلا بالطريقة التي هي أحسن. ﴿ حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ غاية لجواز التصرف الذي دل عليه الاستثناء. ﴿ وَأَوْفُواْ بالعهد ﴾ بما عاهدكم الله من تكاليفه، أو ما عاهدتموه وغيره.

﴿ إِنَّ العهد كَانَ مَسْئُولاً ﴾ مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي به، أو مسؤولاً عنه يسأل الناكث ويعاتب عليه لم نكثت، أو يسأل العهد تبكيتاً للناكث كما يقال للموءودة ﴿ بِأَىّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ فيكون تخييلاً ويجوز أن يراد أن صاحب العهد كان مسؤولاً.

﴿ وَأَوْفُوا الكيل إِذا كِلْتُمْ ﴾ ولا تبخسوا فيه ﴿ وَزِنُوا بالقسطاس المستقيم ﴾ بالميزان السوي ، وهو رومي عرب ولا يقدح ذلك في عربية القرآن ، لأن العجمي إذا استعملته العرب وأجرته مجرى كلامهم في الإعراب والتعريف والتنكير ونحوها صار عربياً . وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسر القاف هنا وفي "الشعراء" . ﴿ ذلك خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ وأحسن عاقبة تفعيل من آل إذا رجع .

﴿ وَلاَ تَقْفُ ﴾ ولا تتبع وقرىء ﴿ وَلاَ تَقْفُ ﴾ من قاف أثره إذا قفاه ومنه القافة . ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ما لم يتعلق به علمك تقليداً أو رجماً بالغيب ، واحتج به من منع اتباع الظن وجوابه أن المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند ، سواء كان قطعاً أو ظناً واستعماله بهذا المعنى سائغ وشائع . وقيل إنه مخصوص بالعقائد . وقيل بالرمي وشهادة الزور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام

" من قفا مؤمناً بما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج" وقول الكميت :

وَلاَ أَرْمي البَرِيء بِغَيْرِ ذَنْب . . . وَلاَ أَقْفُو الحَواصِنَ إِنْ قفينا

﴿ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك ﴾ أي كل هذه الأعضاء فأجراها مجرى العقلاء

لما كانت مسؤولة عن أحوالها شاهدة على صاحبها ، هذا وإن أولاء وإن غلب في العقلاء لكنه من حيث إنه اسم جمع لذا وهو يعم القبيلين جاء لغيرهم كقوله :

وَالعَيْشُ بَعْدَ أُولَئِكَ الأَيَّامِ . . . ﴿ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ في ثلاثتها ضمير كل أي كان كل واحد منها مسؤولاً عن نفسه ، يعني عما فعل به صاحبه ، ويجوز أن يكون الضمير في عنه لمصدر ﴿ لا تَقْفُ ﴾ أو لصاحب السمع والبصر . وقيل ﴿ مَسْؤُولاً ﴾ مسند إلى ﴿ عَنْهُ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِمْ ﴾ والمعنى يسأل صاحبه عنه ، وهو خطأ لأن الفاعل وما يقوم مقامه لا يتقدم ، وفيه دليل على أن العبد مؤاخذ بعزمه على المعصية . وقرىء ﴿ والفؤاد ﴾ بقلب الهمزة واواً بعد الضمة ثم إبدالها بالفتح .

﴿ وَلاَ تَمْشِ فِى الأرض مَرَحًا ﴾ أي ذا مرح وهو الاختيال . وقرىء ﴿ مَرِحاً ﴾ وهو باعتبار الحكم أبلغ وإن كان المصدر آكد من صريح النعت . ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض ﴾ لن تجعل فيها خرقاً بشدة وطأتك . ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً ﴾ بتطاولك وهو تهكم بالمختال ، وتعليل للنهي بأن الاختيال حماقة مجردة لا تعود بجدوى ليس في التذلل .

﴿ كُلُّ ذلك ﴾ إشارة إلى الخصال الخمس والعشرين المذكورة . من قوله تعالى : ﴿ لاَّ

تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أنها المكتوبة في ألواح موسى عليه السلام. ﴿ كَانَ سَيِّئُهُ ﴾ يعني المنهي عنه فإن المذكورات مأمورات ومناه. وقرأ الحجازيان والبصريان ﴿ سَيِّئَةً ﴾ على أنها خبر ﴿ كَانَ ﴾ والاسم ضمير ﴿ كُلُّ ﴾ ، و﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما نهى عنه خاصة وعلى هذا قوله : ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ بدل من ﴿ سَيِّئُهُ ﴾ أو صفة لها محمولة على المعنى ، فإنه بمعنى سيئاً وقد قرئ به ، ويجوز أن ينتصب مكروهاً على الحال من المستكن في ﴿ كَانَ ﴾ أو في الظرف على أنه صفة ﴿ سَيِّئُهُ ﴾ ، والمراد به المبغوض المقابل للمرضى لا ما يقابل المراد لقيام القاطع على أن الحوادث كلها واقعة بإرادته تعالى.

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الأحكام المتقدمة. ﴿ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ التي هي معرفة الحق لذاته والخير للعمل به. ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ كرره للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه ، فإن من لا قصد له بطل عمله ومن قصد بفعله أو تركه غيره ضاع سعيه ، وأنه رأس الحكمة وملاكها ، ورتب عليه أولاً ما هو عائده الشرك في الدنيا وثانياً ما هو نتيجته في العقبى فقال تعالى : ﴿ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا ﴾ تلوم

نفسك. ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ مبعدًا من رحمة الله تعالى.

﴿ أفأصفاكم ربُّكم بالبنين ﴾ خطاب لمن قالوا الملائكة بنات الله، والهمزة للإنكار والمعنى: أفخصكم ربكم بأفضل الأولاد وهم البنون. ﴿ واتخذ مِنَ الملائكة إِنَاثًا ﴾ بنات لنفسه وهذا خلاف ما عليه عقولكم وعادتكم. ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا ﴾ بإضافة الأولاد إليه، وهي خاصة بعض الأجسام لسرعة زوالها، ثم بتفضيل أنفسكم عليه حيث تجعلون له ما تكرهون ثم يجعل الملائكة الذين هم من أشرف خلق الله أدونهم.

(265/457)

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ كررنا هذا المعنى بوجوه من التقرير. ﴿ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ ﴾ في مواضع منه، ويجوز أن يراد بهذا القرآن إبطال إضافة البنات إليه على تقدير: ولقد صرفنا هذا القول في هذا المعنى أو أوقعنا التصريف فيه، وقرىء ﴿ صَرَفْنَا ﴾ بالتخفيف. ﴿ لِّيَذْكُرُواْ ﴾ ليتذكروا وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي الفرقان ﴿ لِّيَذْكُرُواْ ﴾ من الذكر الذي هو بمعنى التذكر. ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نفُورًا ﴾ عن الحق وقلة طمأنينة إليه. ﴿ قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءالِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ ﴾ أيها المشركون، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم بالياء فيه وفيما بعده على أن الكلام مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ووافقهما نافع وابن عامر وأبو

عمرو وأبو بكر ويعقوب في الثانية على أن الأولى مما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يخاطب به المشركين ، والثانية مما نزه به نفسه عن مقالتهم . ﴿ إِذاً لأَّبتَغَوْاْ إِلى ذِى العرش سَبِيلاً ﴾ جواب عن قولهم وجزاء للو والمعنى : لطلبوا إلى من هو مالك الملك سبيلاً بالمعازة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ، أو بالتقرب إليه والطاعة لعلمهم بقدرته وعجزهم كقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبّهِمُ الوسيلة ﴾

﴿ سبحانه ﴾ ينزه تنزيهاً . ﴿ وتعالى عَمَّا يَقولُونَ عُلُوّاً ﴾ تعالياً . ﴿ كَبِيراً ﴾ متباعداً غاية البعد عما يقولون ، فإنه في أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود والبقاء لذاته ، واتخاذ الولد من أدنى مراتبه فإنه من خواص ما يمتنع بقاؤه .

﴿ تُسَبّحُ لَهُ السموات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ينزهه عما هو من لوازم الإمكان وتوابع الحدوث بلسان الحال حيث تدل بإمكانها وحدوثها على الصانع القديم الواجب لذاته . ﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أيها المشركون لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يفهم تسبيحهم ، ويجوز أن يحمل التسبيح على المشترك بين اللفظ والدلالة لإسناده إلى ما يتصور منه اللفظ وإلى ما لا يتصور منه وعليهما عند من جوز

إطلاق اللفظ على معنييه . وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع وأبو بكر "يسبح" بالياء . ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا ﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وشرككم . ﴿ غَفُوراً ﴾ لمن تاب منكم .

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا ﴾ يحجبهم عن فهم ما تقرؤه عليهم . ﴿ مَّسْتُورًا ﴾ ذا ستر كقوله تعالى : ﴿ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾ وقولهم سيل مفعم ، أو مستوراً عن الحس ، أو بحجاب آخر لا يفهمون ولا يفهمون أنهم لا يفهمون نفى عنهم أن يفهموا ما أنزل عليهم من الآيات بعد ما نفي عنهم التفقه للدلالات المنصوبة في الأنفس والآفاق تقريراً له وبياناً لكونهم مطبوعين على الضلالة كما صرح به بقوله :

(267/457)

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ تكنها وتحول دونها عن إدراك الحق وقبوله . ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ كراهة أن يفقهوه ، ويجوز أن يكون مفعولاً لما دل عليه قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أي منعناهم أن يفقهوه . ﴿ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ يمنعهم عن استماعه . ولما كان القرآن معجزاً من حيث اللفظ والمعنى أثبت لمنكريه ما يمنع عن فهم المعنى وإدراك اللفظ .

﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ ﴾ واحداً غير مشفوع به آلهتهم ، مصدر وقع

موقع الحال وأصله يحد وحده بمعنى واحداً وحده . ﴿ وَلَّوْا على أدبارهم نُفُوراً ﴾ هرباً من استماع التوحيد ونفرة أو تولية ، ويجوز أن يكون جمع نافر كقاعد وقعود .

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾ بسببه ولأجله من الهزء بك وبالقرآن . ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ ظرف ل ﴿ أَعْلَمُ ﴾ وكذا . ﴿ وَإِذْ هُمْ نجوى ﴾ أي نحن أعلم بغرضهم من الاستماع حين هم مستمعون إليك مضمرون له وحين هم ذوو نجوى يتناجون به ، و ﴿ نجوى ﴾ مصدر ويحتمل أن يكون جمع نجى . ﴿ إِذْ يَقُولُ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ مقدر باذكر ، أو بدل من ﴿ إِذْ هُمْ نجوى ﴾ على وضع ﴿ الظالمون ﴾ موضع الضمير للدلالة على أن تناجيهم بقولهم هذا من باب الظلم ، والمسحور هو الذي سُحِرَ فزال عقله . وقيل الذي له سحر وهو الرئة أي إلا رجلاً يتنفس ويأكل ويشرب مثلكم .

﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال ﴾ مثلوك بالشاعر والساحر والكاهن والمجنون . ﴿ فُضَلُّواْ ﴾ عن الحق في جميع ذلك . ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ إلى طعن موجه فيتهافتون ويخبطون كالمتحير في أمره لا يدري ما يصنع أو إلى الرشاد . ﴿ وَقَالُواْ أَءذَا كُنَّا عظاما

ورفاتا ﴾ حطاماً . ﴿ أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ على الإنكار والاستبعاد لما بين غضاضة الحي ويبوسة الرميم ، من المباعدة والمنافاة ، والعامل في إذا ما دل عليه مبعوثون لا نفسه لأن ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها و ﴿ خَلْقاً ﴾ مصدر أو حال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 438 . 450 ﴾

(269/457)

وقال ابن جزى :

﴿ وقضى رَبُّكَ ﴾

أي حكم وألزم وأوجب ، أو أمر ويدل على ذلك ما في مصحف ابن مسعود : " ووصى ربك " ﴿ أَلاَّ تعبدوا ﴾ أن مفسرة أو مصدرية على تقدير : بأن لا تعبدوا ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ﴾ هي إن الشرطية دخلت عليها ما المؤكدة وجوابها فلا تقل لهما أف ، والمعنى الوصية ببر الوالدين إذا كبرا أو كبر أحدهما وإنما خص حاله الكبر ؛ لأنهما حينئذ أحوج إلى البر والقيام بحقوقهما ، لضعفهما ومعنى عندك : أي في بيتك وتحت كنفك ﴿ أُفٍّ ﴾ حيث وقعت اسم فعل ، معناها قول مكروه ، يقال عند الضجر ونحوه ، وإنما المراد بها أقل كلمة مكروهة تصدر من الإنسان ، فنهى الله تعالى أن يقال ذلك للوالدين ، فأولى وأحرى ألا

يقال لهما ما فوق ذلك، ويجوز في أفّ الكسر والفتح والضم، وهي حركات بناء، وأما تنوينها فهو للتنكير ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ من الانتهار وهو الإغلاظ في القول ﴿ واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة ﴾ استعارة في معنى التواضع لهما والرفق بهما، فهو كقوله ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : 88] وأضافه إلى الذل مبالغة في المعنى كأنه قال : الجناح الذليل، ومن في قوله من الرحمة للتعليل أي من أجل إفراط الرحمة لهما والشفقة عليهما ﴿ لِلأَوَّابِينَ ﴾ قيل : معناه الصالحين، وقيل : المسبّحين، وهو مشتق من الأية بمعنى الرجوع، فحقيقته الراجعين إلى الله .

﴿ وَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ خطاب لجميع الناس لصلة قرابتهم والإحسان إليهم، وقيل : وهو خطاب خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم أن يعطي قرابته حقهم من بيت المال، والأول أرجح ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ ﴾ الآية : معناه إن أعرضت عن ذوي القربى والمساكين وابن السبيل إذا لم تجد ما تعطيهم، فقل لهما كلاماً حسناً، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سأله أحد فلم يكن عنده ما يعطيه أعرض عنه، حياء منه، فأمر بحسن القول مع ذلك وهو أن يقول : رزقكم الله وأعطاكم الله وشبه ذلك، والميسور مشتق من اليسر ﴿

ابتغآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ مفعول من أجله ، يحتمل أن يتعلق بقوله : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ والمعنى على هذا : أنه يعرض عنهم انتظاراً لرزق يأتيه ، فيعطيه إياهم ، فالرحمة على هذا هو ما يرتجيه من الرزق أو يتعلق بقوله : ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴾ أي ابتغ رحمة ربك بقول ميسور ، والرحمة على هذا هي : الأجر والثواب .

﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ استعارة في معنى غاية البخل ؛ كأن البخيل حبست يده عن الإعطاء ، وشدت إلى عنقه ﴿ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ استعارة في معنى غاية الجود ، فنهى الله عن الطرفين : وأمر بالتوسط بينهما : كقوله : ﴿ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ [الفرقان : 67] ﴿ مَلُوماً ﴾ أي يلومك صديقك على كثرة عطائك وإضرارك بنفسك ، أو يلومك من يستحق العطاء ؛ لأنك لم تترك ما تعطيه ، أو يلومك سائر الناس على التبذير في العطاء ﴿ مَّحْسُوراً ﴾ أي منقطعاً لا شيء عندك ، وهو من قولهم : حسر السفر البعير إذا أتعبه حتى لم تبق له قوة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسع على من يشاء ، ويضيق على من يشاء فلا تهتم بما تراه من ذلك ، فإن الله أعلم بمصالح عباده .

﴿ وَلاَ تقتلوا أولادكم ﴾ ذكر في الأنعام [الأنعام : 151] ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق ﴾ الحق الموجب لقتل النفس هو ما ورد في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم : " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، أو زنى بعد إحصان ، أو قتل نفس أخرى " ، وتتصل بهذه الأشياء أشياء أخر ؛ لأنها في معناها كالحرابة وترك الصلاة ومنع الزكاة ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً ﴾ المظلوم هنا من قتل بغير حق ، والولي هو ولي المقتول وسائر العصبة ، وليس النساء من الأولياء عند مالك ، والسلطان الذي جعل الله له هو : القصاص ، بأن يقتل غير قاتل وليه ، أو يقتل اثنين بواحد وغير ذلك من وجوه التعدي ، وقرئ فلا تسرف بالتاء خطاباً للقاتل ، أو لوليّ المقتول ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾ الضمير للمقتول أو لوليه ، ونصره هو القصاص .

﴿ وَلاَ تَقْرُبُواْ مَالَ اليتيم ﴾ ذكر في [الأنعام : 152] قال بعضهم : لا تقربوا ولا تقتلوا معطوفان على ألا تعبدوا ، والظاهر أنهما مجزومان بالنهي بدليل قوله بعدها : ولا تقفُ ولا تمشِ ، ويصح أن تكون معطوفات على إذا جعلنا ألا تعبدوا مجزوماً على النهي وأن مفسرة ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ ﴾ عام في العهود مع الله ومع الناس ﴿ إِنَّ العهد كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون معنى الطلب : أي يطلب الوفاء به والثاني : أن يكون المعنى يسأل عنه يوم القيامة ، هل وفي به أم لا ﴿ وَزِنُواْ بالقسطاس ﴾ قيل : القسطاس الميزان ،

وقيل : العدل وقرئ بكسر القاف وهي لغة ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ أي أحسن عاقبة ومآلاً ، وهو من آل إذا رجع .

(272/457)

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ المعنى لا تقل ما لا تعلم من ذم الناس وشبه ذلك ، واللفظ مشتق من قفوته إذا اتبعته ﴿ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ أولئك إشارة إلى السمع والبصر والفؤادُ وإنما عاملها معاملة العقلاء في الإشارة بأولئك ، لأنها حواس لها إدراك ، والضمير في عنه يعود على كل ويتعلق عنه بمسؤولاً ، والمعنى إن الإنسان يسأل عن سمعه وبصره وفؤاده ، وقيل : الضمير يعود على ما ليس به علم ، والمعنى على هذا أن السمع والبصر والفؤاد هي التي تسأل عما ليس لها بها علم وهذا بعيد .
﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الأرض مَرَحاً ﴾ المرح الخيلاء والكبر في المشية ، وقيل : هو إفراط السرور بالدنيا وإعرابه مصدر في موضع الحال ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض ﴾ أي لن تجعل فيها خرقاً بمشيك عليها ، والخرق هو : القطع ، وقيل : معناه لا تقدر أن تستوفي جميعها بالمشي ، والمراد بذلك تعليل النهي عن الكبر والخيلاء ، أي إذا كنت أيها الإنسان لا تقدر على خرق الأرض ، ولا على مطاولة الجبال ، فكيف تتكبر وتختال في مشيك ، وإنما

الواجب عليك التواضع .

﴿ كُلُّ ذلك كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من المنهيات والمكروه هنا بمعنى : الحرام ، لا على اصطلاح الفقهاء في أن المكروه دون الحرام ، وإعراب مكروهاً نعت لسيئة أو بدل منها ، أو خبر ثان لكان .

﴿ أفأصفاكم ربُّكم بالبنين ﴾ خطاب على وجه التوبيخ للعرب الذين قالوا : إن الملائكة بنات الله ، والمعنى : كيف يجعل لكم الأعلى من النسل وهو الذكور ، ويتخذ لنفسه الأدنى وهو البنات ومعنى أصفاكم : خصكم ﴿ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ أي عظيم النكر والشناعة .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْا إلى ذِي العرش سَبِيلاً ﴾ هذا احتجاج على الوحدانية ، وفي معناه قولان : أحدهما : أن المعنى لو كان مع الله آلهة لابتغوا سبيلاً إلى التقرب إليه بعبادته وطاعته ، فيكون من جملة عباده ، والآخر : لابتغوا سبيلاً إلى إفساد ملكه ومعاندته في قدرته ، ومعلوم أن ذلك لم يكن فلا إله إلا هو .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض ﴾ الآية : اختلف في كيفية هذا التسبيح فقيل : هو تسبيح بلسان الحال أي بما تدل عليه صنعتها من قدرة وحكمة ، وقيل : إنه تسبيح

حقيقة وهذا أرجح لقوله : لا تفقهون تسبيحهم ﴿ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ في معناه قولان : أحدهما : أن الله أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أنه يستره من الكفار إذا أرادوا به شراً ، ويحجبه منهم ، والآخر : أنه يحجب الكفار عن فهم القرآن ، وهذا أرجح لما بعده ، والمستور هنا قيل : معناه مستور عن أعين الخلق ، لأنه من لطف الله وكفايته فهو من المغيبات ، وقيل : معناه ساتر .

﴿ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ جمع كنان وهو الغطاء ، وأن يفقهوه مفعول من أجله تقديره : كراهة أن يفقهوه ، وهذه استعارات في إضلالهم .

﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرآن وَحْدَهُ ﴾ معناه إذا ذكرت في القرآن وحدانية الله تعالى فرّ المشركون من ذلك ، لما فيه من رفض آلهتهم وذمها . نفوراً مصدر في موضع الحال ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾ كانوا يستمعون القرآن على وجه الاستهزاء ، والضمير في به عائد على ما : أن نعلم ما يستعمون به من الاستهزاء ﴿ وَإِذْ هُمْ نجوى ﴾ جماعة يتناجون أو ذو نجوى ، والنجوى كلام السر ﴿ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ قيل : معناه جنّ فسحر وقيل : معناه ساحر ، وقيل هو من السّحر بفتح السين وهي الرئة : أي بشر إذا سحر مثلكم وهذا بعيد .

﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَال ﴾ أي مثلوك بالساحر ، والشاعر ، والمجنون ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ عن الحق ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ إلى الهدى ؛ ونزلت الآية في الوليد بن المغيرة ، وأصحابه من الكفار ﴿ وقالوا أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً ﴾ الآية معناها إنكار للبعث ، واستبعادهم أن يخلقهم الله خلقاً جديداً بعد فنائهم ، والرفات الذي بلي حتى صار غباراً أو فتاتاً ، وقد ذكر في سورة [الرعد : 5] اختلاف القراء في الاستفهامين . انتهى ا . هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 173.169 ﴾

(275/457)

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

ولما ذكر تعالى ما هو الركن الأعظم في الإيمان أتبعه بذكر ما هو من شعائر الإيمان وشرائعه وذلك أنواع الأوّل أن يشتغل الإنسان بعبادة الله تعالى ويتحرّز عن عبادة غيره وهذا هو المراد من قوله تعالى:

﴿ وقضى ﴾ أي : أمر ﴿ ربك ﴾ أي : المحسن إليك وقوله تعالى : ﴿ أن لا تعبدواً ﴾ أي

: أنت وجميع أهل دعوتك وهم جميع الناس ﴿ إلا إياه ﴾ فيه وجوب عبادة الله تعالى والمنع من عبادة غيره لأنّ العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن له الإنعام والإفضال على عباده ولا منعم إلا الله تعالى فكان هو المستحق للعبادة لا غيره .

تنبيه : روى ميمون بن مهران عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : كان الأصل ووصى ربك فالتصقت إحدى الواوين بالصاد فقرئ وقضى ربك ثم قال : ولو كان على القضاء ما عصى الله أحد قط لأنّ خلاف قضاء الله ممتنع وهذا القول كما قاله الرازي بعيد جدّاً إذ لو فتح هذا الباب لارتفع الأمان عن القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك أنه طعن عظيم في الدين ويندفع ما قاله بما فسر قضى به . ولما أمر تعالى بعبادة نفسه أتبعه بالأمر ببر الوالدين بقوله تعالى : ﴿ وبالوالدين ﴾ أي : وأحسنوا أي : وأوقعوا الإحسان بهما . ﴿ إحساناً ﴾ أي : بأن تبروهما ليكون الله معكم فإنه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

تنبيهان : أحدهما المناسبة بين الأمر بعبادة الله تعالى والأمر ببر الوالدين من وجوه الأوّل أن السبب الحقيقي لوجود الإنسان هو تخليق الله تعالى وإيجاده والسبب الظاهر هو الأبوان

فأمر الله تعالى بتعظيم السبب الحقيقي ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري . الثاني : أنّ الموجود إمّا قديم وإمّا محدث ويجب أن تكون معاملة الإنسان مع الموجود القديم بالتعظيم والعبودية ومع المحدث بإظهار الشفقة وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم "التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله وأحق الخلق بالشفقة الأبوان لكثرة إنعامهما على الإنسان" فقوله تعالى : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ بالوالدين إحساناً ﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله . الثالث : أنّ الاشتغال بشكر المنعم واجب ثم المنعم الحقيقي هو الخالق سبحانه وتعالى وقد يكون بعض المخلوقين منعماً عليك وشكره أيضاً واجب لقوله صلى الله عليه وسلم "من لم يشكر الناس لم يشكر الله" ، وليس لأحد من الخلائق نعمة على الإنسان مثل الأبوين لأن الولد قطعة من الوالدين قال صلى الله عليه وسلم "فاطمة بضعة مني" وأيضاً شفقة الوالدين على الولد عظيمة وإيصال الخير إلى الولد منهما أمر طبيعي واحترازهما عن إيصال الضرر إليه أمر طبيعي أيضاً فوجب أن تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة بل هي أكبر من كل نعمة تصل من الإنسان إلى الإنسان وأيضاً حال ما يكون الإنسان في غاية الضعف ونهاية العجز يكون إنعام الأبوين في ذلك الوقت واصلاً إلى الولد ، وإذا وقع الإنعام على هذا الوجه كان موقعه عظيماً وأيضاً فإيصال الخير إلى الغير قد يكون لداعية إيصال الخير إليه ، وإيصال الخير إلى الولد ليس لهذا الغرض فكان الإنعام فيه أتم وأكمل فثبت بهذه الوجوه أنه ليس

لأحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد ، فلهذا بدأ الله بشكر نعمة الخالق وهو قوله تعالى :

(277/457)

﴿ وقضى ربك

أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ . فإن قيل : الوالدان إنما طلبا تحصيل اللذة لأنفسهما فلزم منه دخول الولد في الوجود ودخوله في عالم الآفات والمخالفات فأي : إنعام للأبوين على الولد ، حتى أنّ بعض المتسمين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول : هو الذي أدخلني في عالم الكون والفساد وعرضني للموت والفقر والعمى والزمانة وقيل لأبي العلاء المعري ماذا نكتب على قبرك فقال : اكتبوا على قبري : هذا جناية أبي علي وما جنيت على أحد . وقال في ترك التزوج والولد :

*وتركت فيهم نعمة العدم التي

** فيهم لقد سبقت نعيم العاجل

*ولو أنهم ولدوا لعانوا شدّة

** ترمي بهم في موبقات الآجل

وقيل لإسكندر : أستاذك أعظم منة عليك أم والدك ؟ فقال : أستاذي أعظم منة لأنه تحمل أنواع الشدائد عند تعليمي فأوقعني في نور العلم ، وأمّا الوالد فإن طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه فأخرجني إلى آفات عالم الكون والفساد . ومن الكلمات المأثورة المشهورة خير الآباء من علمك . أجيب : بأنه وإن كان في أوّل الأمر طلب لذة الوقاع إلا أنّ الاهتمام بإيصال الخيرات إليه ودفع الآفات عنه من أوّل دخوله في الوجود إلى وقت بلوغه الكبر أليس أنه أعظم من جميع ما يصل إليه من جهات الخيرات والمبرات فسقطت تلك الشبهات .

(278/457)

التنبيه الثاني : أن لفظ الآية يدل على معان كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة في الإحسان إلى الوالدين منها أنه تعالى قال في الآية المتقدمة : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ ثم أردفه بهذه الآية المشتملة على الأعمال التي بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة وجعل من جملتها البر بالوالدين ، وذلك يدل على أنّ هذه الطاعة من أصول الطاعات التي تفيد سعادة الآخرة ، ومنها أنه تعالى بدأ بذكر الأمر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى وثلث ببر الوالدين ، وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة في

تعظيم هذه الطاعة منها أنه تعالى لم يقل وإحساناً بالوالدين بل قال ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ فتقديم ذكرهما يدل على شدّة الاهتمام بهما . ومنها أنه تعالى قال : ﴿ إحساناً ﴾ بلفظ التنكير ، والتنكير يدل على التعظيم أي : إحساناً عظيماً كاملاً لأنّ إحسانهما إليك قد بلغ الغاية العظيمة فوجب أن يكون إحسانك إليهما كذلك ثم على جميع التقديرات لا تحصل المكافأة لأن إنعامهما عليك على سبيل الابتداء . وفي الأمثال المشهورة أنّ البادئ بالبرّ لا يكافأ .

ولما كان سبحانه وتعالى عليماً بما في الطباع من ملال الولد لهما عند أخذهما في السنّ قال تعالى : ﴿ إما ﴾ مؤكداً بإدخال ما على إن الشرطية لزيادة التقرير للمعنى اهتماماً بشأن الوالدين ﴿ يبلغن عندك الكبر ﴾ أي : كأن يضطرا إليك في حالة الضعف والعجز فلا يكون لهما كافل غيرك فيصيرا عندك في آخر العمر كما كنت عندهما في أوّله ﴿ أحدهما أو كلاهما ﴾ . وقرأ حمزة والكسائي بألف بعد الغين وكسر النون فالألف ضمير الوالدين لتقدّم ذكرهما وأحدهما بدل منه أو كلاهما عطف عليه فاعلاً أو بدلاً . فإن قيل : هلا كان كلاهما توكيداً لا بدلاً أجيب : بأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيد الاثنين فوجب أن يكون مثله . فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون أحدهما بدلاً وكلاهما توكيداً ويكون ذلك عطفاً للتوكيد على البدل ؟

أجيب : بأنّ العطف يقتضي المشاركة فجعل أحدهما بدلاً والآخر توكيداً خلاف الأصل ، وقرأ الباقون بغير ألف وفتح النون والإعراب على هذا ظاهر ، وجميع القرّاء يشدّدون النون .

ثم أنه تعالى أمر الإنسان في حق والديه بخمسة أشياء : الأوّل منها قوله تعالى : ﴿ فلا تقل لهما أفّ ﴾ أي : لا تتضجر منهما قال الزجاج : أف معناه النتن وهذا قول مجاهد لأنه قال معنى قوله ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ أي : لا تتقذرهما كما أنهما كانا لا يتقذران منك حين كنت تخرأ وتبول .

وفي رواية أخرى عن مجاهد إذا وجدت منهما رائحة تؤذيك ﴿ فلا تقل لهما أفّ ﴾ فلقد بالغ سبحانه وتعالى بالوصية بهما حيث شفع الإحسان إليهما بتوحيده ونظمهما في سلك القضاء بهما معاً ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخِّص في أدنى كلمة تنفلت من التضجر مع موجبات الضجر ومقتضياته ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في الاستطاعة وقد قال صلى الله عليه وسلم "إياكم وعقوق الوالدين فإنّ الجنة يوجد ريحها مع مسيرة ألف عام ، ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زانٍ ، ولا جارّ إزاره خيلاء ، إن الكبرياء لله رب العالمين" . وسئل الفضيل بن عياض عن برّ الوالدين فقال : لا يقوم إلى خدمتهما عن كسل . وقرأ نافع وحفص بالتنوين في الفاء مع الكسر وابن كثير وابن

عامر بفتح الفاء من غير تنوين ، والباقون بكسر الفاء من غير تنوين .

الثاني قوله تعالى : ﴿ ولا تنهرهما ﴾ أي : لا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك يقال نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره . قال تعالى : ﴿ وأمّا السائل فلا تنهر ﴾ (الضحى ،)

. فإن قيل : المنع من التأفيف يدل على المنع من الانتهار بالأولى فما فائدة ذكره ؟

أجيب : بأن المراد بالمنع من التأفيف المنع من إظهار الضجر بالقليل والكثير والمراد من منع الانتهار المنع من إظهار المخالفة في القول على سبيل الردّ عليهما والتكذيب لهما .

(280/457)

الثالث قوله تعالى : ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ أي : حسناً جميلاً طيباً ليناً كما يقتضيه حسن الأدب معهما . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : هو أن يقول يا أبتاه يا أمّاه .

وسئل سعيد بن المسيب رضي الله عنه عن القول الكريم فقال : هو قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ . وعن عطاء أنه قال : هو أن يتكلم معهما بشرط أن لا يرفع إليهما بصره ولا يشتد إليهما نظره وذلك أنّ هذين الفعلين ينافيان القول الكريم . فإن قيل : إبراهيم الخليل عليه السلام قال لأبيه : ﴿ إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ مع أنه عليه السلام من أعظم الناس أدباً وحلماً وكرماً ؟

أجيب : بأن حق الله تعالى مقدّم على حق الأبوين فإقدام إبراهيم عليه السلام على ذلك الإيذاء إنما كان تقديماً لحق الله تعالى . والرابع قوله تعالى:

﴿ واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة ﴾ أي : لا من أجل الامتثال للأمر وخوف العار فقط بل من أجل الرحمة لهما بأن لا تزال تذكر نفسك بالأوامر والنواهي وبما تقدّم لهما من الإحسان إليك والمقصود المبالغة في التواضع وهذه استعارة بليغة . قال القفال : وفي تقريره وجهان:

الأوّل أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه فلهذا صار خفض الجناح كناية عن جنس التربية فكأنه قال للولد أكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك ، كما فعلا ذلك بك حال صغرك .

والثاني أنّ الطائر إذا أراد الطيران نشر جناحيه ورفعهما ليرتفع وإذا أراد ترك الطيران خفض جناحيه ولم يرفع فجعل خفض الجناح كناية عن التواضع واللين . فإن قيل : كيف أضاف الجناح إلى الذل والذل لا جناح له ؟

أجيب : بوجهين : الأوّل : أنه أضيف الجناح إلى الذل كما يقال حاتم الجود فكما أنّ المراد هناك حاتم الجواد فكذا هنا المراد اخفض لهما جناحك الذليل ، الثاني : أنّ مدار الاستعارة على الخيلان فهنا تخيل للذل جناحاً خفيضاً كما جعل لبيد للشمال يداً وللقرة

زماماً في قوله:

*وغداة ريح قد كشفت وقرة

(281/457)

** إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

فأثبت للشمال يداً وللقرة زماماً ووضع زمامها في يد الشمال فكذا هنا ومن ظريف ما حكي أنّ أبا تمام لما نظم قوله:

*لا تسقني ماء الملام فإنني

** صبّ قد استعذبت ماء بكائي

جاءه رجل بقصعة وقال له: اعطني شيئاً من ماء الملام فقال له: حتى تأتيني بريشة من جناح الذل يريد أنّ هذا مجازاً استعاره لذلك وقال بعضهم:

*راشوا جناحي ثم بلوه بالندى

** فلم أستطع من حبهم أن أطيرا

الخامس قوله تعالى: ﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ً﴾ أي: لا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها وادع الله أن يرحمهما برحمته الباقية واجعل ذلك جزاء لرحمتهما

عليك في صغرك وتربيتهما لك هذا إذا كانا مسلمين، فإن كانا كافرين فإنّ الدعاء لهما بالرحمة منسوخ بقوله تعالى: ﴿ ما كان للنبيّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ (التوبة،)

بل يدعو الله تعالى لهما بالهداية والإرشاد فإذا هداهما فقد رحمهما. وسئل بعضهم عن برّ الوالدين فقال: لا ترفع صوتك عليهما ولا تنظر إليهما شزراً ولا يريا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن، وأن تترحم عليهما ما عاشا. وتدعو لهما إذا ماتا وتقوم بخدمة أودّائهما من بعدهما لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أبرّ البرّ أن يصل الرجل أهل ودّ أبيه".

تنبيه: قد ورد في بر الوالدين أحاديث كثيرة منها ما روي عن أبي هريرة أنه قال: "جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله من أحسن الناس بصحبتي؟ فقال: أمّك ثم أمّك ثم أبوك ثم أدناك فأدناك". ومنها عنه أيضاً أنه قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أرغم الله أنفه أرغم الله أنفه أرغم الله أنفه. قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة". ومنها ما روي عنه أيضاً

أنه قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه" . ومنها ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : "جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد . فقال : أحيّ والداك ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد" . ومنها ما رواه الترمذي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "رضا الرب في رضا الوالدين ، وسخط الرب في سخط الوالدين" . ومنها ما "روي عن أبي الدرداء أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الوالد أوسط أبواب الجنة فحافظ إن شئت أو ضيّع" . ومنها ما "روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي : العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : الصلاة على وقتها قلت : ثم أيّ ؟ قال : برّ الوالدين . قلت : ثم أيّ ؟ قال : الجهاد في سبيل الله" . وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت فقال : ذلك واصل إليه ولا شيء أنفع لهم من الاستغفار ولو كان شيء أفضل منه لأمركم به في الوالدين . ولقد كرّر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز الوصية بالوالدين . ومنها ما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما" . ومنها ما روي عن سعيد بن المسيب أنّ البارّ بوالديه لا يموت ميتة سوء . ومنها ما "روي أنّ رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنّ أبويّ بلغا من الكبر أنى ألى منهما ما وليا مني في الصغر

فهل قضيتهما قال : لا فإنهما

كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما " . ومنها ما رواه أبو هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ ، ورغم أنف رجل أتى عليه شهر رمضان فلم يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك أبويه الكبر فلم يدخلاه الجنة" . ومنها ما روي "أنّ رجلاً شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أباه وأنه يأخذ ماله فدعاه فإذا هو شيخ يتوكأ على عصا فسأله فقال : إنه كان ضعيفاً وأنا قويّ وفقيراً وأنا غنيّ فكنت لا أمنعه شيئاً من مالي واليوم أنا ضعيف وهو قويّ وأنا فقير وهو غنيّ ويبخل عليّ بماله فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ما من حجر ولا مدر يسمع بهذا إلا بكى ثم قال للولد : أنت ومالك لأبيك" . وشكا إليه آخر سوء خلق أمّه فقال : "لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر قال : إنها سيئة الخلق قال : لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين قال : إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها واظمأت لك نهارها قال : لقد جازيتها . قال : ما فعلت ؟ قال : حججت بها على عنقي . قال : ما جزيتها" . وعن ابن عمر أنه رأى رجلاً في الطواف يحمل أمّه ويقول:

*أنا لها مطية لا تذعر

** إذا الركائب نفرت لا تنفر

*ما حملت وأرضعتني أكثر

** الله ربي ذو الجلال الأكبر

تظنني جزيتها يا ابن عمر قال : لا ، والله ولا زفرة واحدة . ولما كان ما ذكر في حق الوالدين عسراً جداً يحذر من التهاون به أشار بقوله تعالى:

﴿ ربكم ﴾ أي : المحسن إليكم في الحقيقة فإنه هو الذي عطف عليكم من يربيكم وهو الذي أعانهم على ذلك ﴿ أعلم ﴾ أي : من كل أحد ﴿ بما في نفوسكم ﴾ من قصد البرّ بهما وغيره ، فلا يظهر أحدكم غير ما يبطن فإنّ ذلك لا ينفعه ولا ينجيه إلا أن يحمل نفسه على ما يكون سبباً لرحمتهما ﴿ إن تكونوا صالحين ﴾ أي : متقين محسنين في نفس الأمر والصلاح استقامة الفعل على ما يدعو الدليل إليه . وأشار تعالى إلى أنه لا يكون ذلك إلا بمعالجة النفس وترجيعها كرة بعد كرّة بقوله تعالى : ﴿ فإنه كان للأوابين ﴾ أي : الرجاعين إلى الخير مرّة إثر مرّة بعد جماح أنفسهم عنه ﴿ غفوراً ﴾ أي : بالغ الستر بمن وقع منه تقصير فرجع عنه فإنه مغفور له . ولما حث تعالى على الإحسان للوالدين بالخصوص عمّ بالأمر

بالإحسان لكل ذي قرابة ورَحِمٍ وغيره بقوله تعالى:

﴿ وآت ذا القربى ﴾ من جهة الأب والأمّ وإن بعد ﴿ حقه ﴾ والخطاب لكل أحد أن يؤتي أقاربه حقوقهم من صلة الرحم والمودّة والزيارة وحسن المعاشرة والمعاضدة ونحو ذلك.

وقيل إن كانوا محتاجين ومحاويج وهو موسر لزمه الإنفاق عليهم عند الإمام أبي حنيفة وقال الشافعيّ: لا يلزم إلا نفقة الوالد على ولده والولد على والده فقط، وقيل المراد بالقرابة قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ و ﴾ آت ﴿ المسكين ﴾ حقه وإن لم يكن قريباً ﴿ و ﴾ آت ﴿ ابن السبيل ﴾ وهو المسافر المنقطع عن ماله ليكون متقياً محسناً.

(285/457)

ولما رغب تعالى في البذل وكانت النفس قلما يكون فعلها قواماً بين الإفراط والتفريط أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿ ولا تبذر ﴾ بتفريق المال سرفاً وهو بذله فيما لا ينبغي وقد كانت الجاهلية تبذر أموالها في الفخر والسمعة وتذكر ذلك في أشعارها فأمر الله تعالى بالنفقة في وجوهها مما يقرب منه ويزلف إليه وفي قوله تعالى: ﴿ تبذيراً ﴾ تنبيه على أنّ الارتفاع نحو ساحة التبذير أولى من الهبوط إلى مضيق الشح والتقتير والتبذير بسط اليد في المال على حسب الهوى. وقد سئل ابن مسعود عن التبذير فقال: إنفاق المال في غير حقه، وأمّا

الجود فهو اتباع أمر الله تعالى في حقوق المال . وعن مجاهد لو أنفق الإنسان ماله كله في الحق ما كان تبذيراً ولو أنفق مدّاً في باطل كان تبذيراً وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر فقال له صاحبه لا خير في السرف فقال : لا سرف في الخير . وعن عبد الله بن عمر قال : مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال : "ما هذا السرف يا سعد ؟ قال : أوفي الوضوء سرف ؟ قال : نعم وإن كنت على نهر جار" . ثم نبه تعالى على قبح التبذير بإضافته إياه إلى أفعال الشياطين بقوله تعالى:

﴿ إنّ المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ أي : على طريقتهم أو هم إخوانهم وأصدقاؤهم لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف أو هم قرناؤهم وهم في النار على سبيل التوعد ، ثم إنه تعالى بين صفة الشيطان بقوله تعالى : ﴿ وكان الشيطان ﴾ أي : هذا الجنس البعيد من كل خير المحترق بكل شرّ ﴿ لربه ﴾ أي : الذي أحسن إليه بإيجاده وتربيته ﴿ كفوراً ﴾ أي : ستوراً لما يقدر على ستره من آياته الظاهرة ونعمته الباهرة مع الحجة فلا ينبغي أن يطاع لأنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله .

قال بعض العلماء : خرجت هذه الآية على وفق عادة العرب وذلك لأنهم كانوا يجمعون الأموال بالنهب والغارة ثم كانوا ينفقونها في الخيلاء والتفاخر وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون أموالهم ليصدّوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله وإعانة أعدائه فنزلت هذه الآية تنبيهاً على قبح أفعالهم في هذا الباب وقوله تعالى : ﴿ وإمّا تعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ﴾ نزل في مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب وكانوا يسألون النبيّ صلى الله عليه وسلم في الأحايين ما يحتاجون إليه ولا يجد فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك لانتظار رزق من الله يرجوه أن يأتيه فيعطيه ﴿ فقل لهم ﴾ أي : في حالة الإعراض ﴿ قولاً ميسوراً ﴾ أي : ذا يسر يشرح صدورهم ويبسط رجاءهم لأنّ ذلك أقرب إلى طريق المتقين المحسنين . قال أبو حيان : روي أنه عليه الصلاة والسلام كان بعد نزول هذه الآية إذا لم يكن عنده ما يعطي وسئل يقول : "يرزقنا الله تعالى وإياكم من فضله" انتهى . وقد وقع هذا الابتغاء موضع الفقد لأنّ فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سبباً للابتغاء والابتغاء مسبباً عنه فوضع المسبب موضع السبب ، ثم أمر تعالى نبيَّه بما وصف له عباده المؤمنين في الإنفاق في سورة الفرقان بقوله تعالى : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ (الفرقان ،)

. فقال تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك ﴾ أي : بالبخل ﴿ مغلولة ﴾ أي : كأنها بالمنع مشدودة بالغل ﴿ إلى عنقك ﴾ أي : لا تستطيع مدّها أي : لا تمسك عن الإنفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات ، والمعنى لا تجعل يدك في انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط ﴿ ولا تبسطها ﴾ بالبذل ﴿ كل البسط ﴾ فتبذر بحيث لا يبقى في يدك شيء . ذكر الحكماء في كتب الأخلاق أنّ لكل خلق طرفي إفراط وتفريط وهما مذمومان والخلق الفاضل هو العدل والوسط ، فالبخل إفراط في الإمساك والتبذير إفراط في الإنفاق وهما مذمومان والمعتدل هو الوسط . وعن جابر أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيّ فقال : يا رسول الله إنّ أمي تستكسيك درعاً أي : قميصاً ولم يكن لرسول . الله صلى الله عليه وسلم إلا قميصه فقال للصبيّ : "من ساعة إلى ساعة" . هذا متعلق بمحذوف ، أي : أخر سؤالك من ساعة ليس لنا فيها درع إلى ساعة يظهر لنا فيها درع فعد إلينا فذهب إلى أمّه فقالت له : قل له إنّ أمي تستكسيك الدرع الذي عليك فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزع قميصه فأعطاه وقعد عرياناً أي : في إزار ونحوه فأذن بلال بالصلاة فانتظره فلم يخرج فشغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عرياناً . فأنزل الله تعالى ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ " .

فتعطي جميع ما عندك .

تنبيه : ما ذكرته عن جابر تبعاً "للكشاف" والبيضاوي والرازي وغيرهم قال الوليّ العراقي : لم أقف عليه وكذا قال الحافظ ابن حجر وقد يقال من حفظ حجة على من لم يحفظ .

(288/457)

﴿ فتقعد ﴾ أي : توجد كالمقعد ﴿ ملوماً ﴾ أي : بليغ الرسوخ فيما يلام بسببه عند الله لأنّ ذلك مما نهى الله عنه عند نفسك وعند الناس لأنه يلوم نفسه وأصحابه أيضاً يلومونه على تضييع المال بالكلية . ﴿ محسوراً ﴾ أي : منقطعاً بك لذهاب ما تقوى به . قال القفال : شبه حال من أنفق كل ماله بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته لأنّ ذلك المقدار من المال كأنه مطية تحمل الإنسان إلى آخر الشهر والسنة ، كما أنّ ذلك البعير يحمله ويبلغه إلى آخر المنزل فإذا انقطع ذلك البعير بقي في وسط الطريق عاجزاً متحيراً فكذلك الإنسان إذا أنفق مقدار ما يحتاج إليه في مدّة شهر في أقل منه بقي في وسط ذلك الشهر عاجزاً متحيراً ومن فعل ذلك لحقه اللوم من أهله والمحتاجين إلى إنفاقه عليهم بسبب سوء تدبيره وترك الحزم في مهمات معاشه ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ إن ربك ﴾ أي : المحسن إليك ﴿ يبسط الرزق ﴾ أي : يوسعه ﴿ لمن يشاء ﴾ البسط دون غيره ﴿ ويقدر ﴾ أي : يضيقه سواء قبض يده أم بسطها لأنّ الرب هو الذي يربي

المربوب ويقوم بإصلاح مهماته ورفع درجاته على مقدار الصلاح في الصواب فيوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض، لأنّ ذلك هو الصلاح قال تعالى: ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾ (الشورى،)

. ﴿ إنه كان بعباده خبيراً ﴾ أي: بالغ الخبر ﴿ بصيراً ﴾ أي: بالغ البصر بما يكون من كل من القبض والبسط لهم مصلحة ومفسدة فالتفاوت في أنه ربى العباد ليس لأجل بخل بل لأجل رعاية مصلحة لا يعلم بها العبد فسبحان المتصرف في عباده كيف يشاء. ولما أتم سبحانه وتعالى الوصية بالأصول وما يتبع ذلك أوصى بالفروع بقوله تعالى:

(289/457)

﴿ ولا تقتلوا أولادكم ﴾ فذكرهم بلفظ الولد الذي هو داعية إلى الحنو والعطف ﴿ خشية إملاق ﴾ أي: فقر متوقع لم يقع بعد ثم وصل بذلك استئنافاً بقوله تعالى: ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ مقدّماً ضمير الأولاد لكون الإملاق مترقباً من الإنفاق عليهم ثم علل تعالى ذلك بما هو أعم منه فقال تعالى: ﴿ إن قتلهم ﴾ أي: مطلقاً لهذا أو لغيره ﴿ كان خطأً ﴾ أي: إثماً ﴿ كبيراً ﴾ أي: عظيماً وقرأ ابن كثير بفتح الطاء ومدّ بعدها مدّاً متصلاً، وقرأ ابن ذكوان بفتح الخاء والطاء ولا مدّ بعد الطاء والباقون بكسر الخاء وسكون الطاء. قال

الرمانيّ : الخطء بكسر ثم سكون لا يكون إلا تعمداً إلى خلاف الصواب والخطأ أي : محركاً قد يكون من غير تعمد .

وإنما وجب بر الأولاد لأمور : أحدها أنهم في غاية الضعف ولا كافل لهم غير الوالدين وإنما وجب برّ الوالدين مكافأة لما صدر منهما من أنواع البر إلى الولد . الثاني أنّ امتناع الآباء من البرّ بالأولاد يقتضي خراب العالم .

(290/457)

الثالث : أنّ قرابة الولادة قرابة الجزئية والبعضية وهي من أعظم الموجبات للمحبة فلو لم تحصل المحبة دل ذلك على غلظ شديد في الروح وقسوة في القلب ، وذلك من أعظم الأخلاق الذميمة فرغب الله تعالى في الإحسان إلى الأولاد إزالة لهذه الخصلة الذميمة وعبر تعالى بالأولاد ليشمل الإناث ، فإنّ العرب كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب وقدرة البنين عليه بسبب إقدامهم على النهب والغارة عليهم وأيضاً كانوا يخافون أنهنّ بعد كبرهنّ تفقد أكفاؤهنّ فيحتاجون إلى إنكاحهنّ من غير أكفاء وفي ذلك عار شديد فنهاهم الله تعالى عن ذلك فإنّ الموجب للرحمة والشفقة هو كونه ولداً وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور والإناث وأما ما يخاف من الفقر في البنات فقد يخاف مثله في

الذكور في حال الصغر وقد يخاف أيضاً في العاجزين من البنين ، وكما أنه سبحانه وتعالى يفتح أبواب الرزق على الذكور فكذلك على الإناث . ولما كان في قتل الأولاد حظ من البخل وفي فعل الزنا داع من الإسراف أتبعه به فقال تعالى:

﴿ ولا تقربوا الزنا ﴾ أدنى قرب ولو بفعل شيء من مقدماته وإنما أتى تعالى بالقربان تعظيماً له لما فيه من المفاسد الجارّة إلى الفتن بالقتل وتضييع النسب والتسبب في إيجاد نفس بالباطل وغير ذلك ثم علل تعالى النهي عن ذلك بقوله تعالى مؤكداً إبلاغاً في التنفير عنه لما للنفس من شدّة الداعية إليه . ﴿ إنه كان فاحشة ﴾ أي : فعله ظاهرة القبح زائدته وقد نهاكم الله تعالى عن الفحشاء في قوله تعالى : ﴿ إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء ﴾ (النحل ،)

الآية . ﴿ وساء ﴾ أي : وبئس الزنا ﴿ سبيلاً ﴾ أي : طريقاً طريقه ثم نهى سبحانه وتعالى عن القتل مطلقاً عن التقييد بالأولاد بغير حق بقوله تعالى:

﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله ﴾ أي : بالإسلام والعهد ﴿ إلا بالحق ﴾ وهو المبيح للقتل ، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم "لا يحل دم إمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث ؛ رجل

كفر بالله بعد إيمانه أو زنى بعد إحصانه أو قتل نفساً بغير حق" . ومثل انتقال المسلم من دين الإسلام إلى دين الكفر انتقال كافر من دين إلى دين آخر سواء كان ذلك الدين يقرّ عليه أم لا ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ (التوبة ،) وقوله تعالى : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا ﴾ (المائدة ،)

. واختلف الفقهاء في أشياء غير ذلك منها أنّ تارك الصلاة كسلاً هل يقتل فعند الشافعيّ يقتل بشروط معلومة ، وعند أبي حنيفة لا يقتل التارك كالزاني . ومنها أنّ عمل اللواط هل يوجب القتل فعند الشافعيّ يوجب قتل الفاعل كالزاني ، وعند أبي حنيفة لا يوجبه .

ومنها أنّ الساحر إذا قال قتلت فلاناً بسحري عمداً هل يوجب القتل فعند الشافعيّ يوجبه وعند أبي حنيفة لا يوجبه . ومنها أنّ القتل بالمثقل هل يوجب القصاص فعند الشافعيّ يوجب وعند أبي حنيفة لا يوجب . ومنها الامتناع من أداء الزكاة هل يوجب القتل اختلفوا فيه في زمان أبي بكر رضي الله عنه .

ومنها أنّ إتيان البهيمة هل يوجب القتل فعند أكثر الفقهاء لا يوجب وعند قوم يوجبه ولكل من ذكر أدلة يستدل بها رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن قتل مظلوماً ﴾ أي : بأي : ظلم كان من غير أن يرتكب ما يبيح قتله ﴿ فقد جعلنا لوليه ﴾ أي : سواء كان قريباً أم بعيداً ﴿ سلطاناً ﴾ أي : أمراً متسلطاً به . وقوله تعالى : ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ قرأ حمزة والكسائيّ بالتاء على الخطاب أي : أيها الوليّ والباقون بالياء على الغيبة أي : الوليّ وفسر الإسراف بوجوه الأول : أن يقتل القاتل وغير القاتل وذلك أنّ أولياء المقتول كانوا إذا قتل واحد من قبيلة شريفة قتلوا خلقاً من القبيلة الدنيئة فنهى الله تعالى عنه وحكم بقتل القاتل وحده . الثاني : أنّ الإسراف هو أن لا يرضى بقتل القاتل فإنّ الجاهلية كانوا يقصدون أشرف القبائل ثم يقتلون منهم قوماً معينين ويتركون القاتل . الثالث : أنّ الإسراف هو أن لا يكتفي بقتل القاتل بل يقتله ثم يمثل به ويقطع أعضاءه ، قال القفال : ولا يبعد حمله على الكل لأنّ حمله على هذه المعاني مشترك في كونها إسرافاً . واختلف في رجوع الهاء إلى ماذا في قوله تعالى : ﴿ إنه كان منصوراً ﴾ فقال مجاهد : راجعة إلى المقتول في قوله تعالى : ﴿ ومن قتل مظلوماً ﴾ أي : أنّ المقتول منصور في الدنيا بإيجاب القود على قاتله ، وفي الآخرة بتكفير خطاياه وإيجاب النار لقاتله . وقال قتادة : راجعة لوليّ المقتول ، أي : أنه منصور على القاتل باستيفاء القصاص أو الدية فليكتف بهذا القدر ولا يطمع في الزيادة ، وقيل راجعة إلى القاتل الظالم أي : أن القاتل يكتفي منه باستيفاء القصاص ولا يطلب منه زيادة لأنه منصور من عند الله تعالى في تحريم

طلب الزيادة منه أو أنه إذا عوقب في الدنيا بأزيد مما فعل نصر في الآخرة. وقيل راجعة إلى الدم وقيل إلى الحق.

ولما ذكر تعالى النهي عن إتلاف النفوس أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال لأنّ أعز الأشياء بعد النفوس الأموال وأحق الناس بالنهي عن إتلاف أموالهم هو اليتيم لأنه لصغره وضعفه وكمال عجزه يعظم ضرره بإتلاف ماله، فلهذا السبب خصهم الله تعالى بالنهي عن إتلاف أموالهم بقوله تعالى:

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾ عبر بالقربان الذي هو قبل الأخذ تعظيماً للمقام فهو أبلغ من قوله تعالى: ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً ﴾ (النساء،)

. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ إلا بالتي هي أحسن ﴾ وجهان الأوّل إلا بالتصرف الذي ينميه ويكثره. الثاني: روى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: إذا أحتاج أكل بالمعروف وإذا أيسر قضاه، فإن لم يوسر فلا شيء عليه، والوليّ تبقى ولايته على اليتيم. ﴿ حتى يبلغ أشدّه ﴾ وهو إيناس الرشد منه بعد بلوغه كما بين تعالى ذلك في آية أخرى وهي قوله تعالى:

﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ﴾

(النساء ،)

. ولما نهى سبحانه وتعالى عن ثلاثة أشياء وهي الزنا والقتل وأكل مال اليتيم أتبعها بثلاثة أوامر الأوّل قوله تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ أي : إذا عاهدتم الله تعالى على فعل المأمورات وترك المنهيات أو الناس على فعل أو قول جائز وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ إن العهد كان مسؤولاً ﴾ وجوه الأوّل : أن يراد أنّ صاحب العهد كان مسؤولاً فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه كقوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ (يوسف ،)

. ثانيها : ﴿ إنّ العهد كان مسؤولاً ﴾ أي : مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي .

ثالثها : أن يكون هذا تخييلاً كأن يقال للعهد لم نكثت وهلا أوفى بك تبكيتاً للناكث كما يقال للموؤدة ﴿ بأي ذنب قتلت ﴾ (التكوير ،)

. وكقوله تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين ﴾ (المائدة ،)

والمخاطبة لعيسى عليه السلام والإنكار على غيره ، الأمر الثاني : قوله تعالى:

﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ﴾ أي : لغيركم فإن كلتم لأنفسكم فلا جناح عليكم إن نقصتم عن حقكم ولم تفوا الكيل . الأمر الثالث : قوله تعالى : ﴿ وزنوا ﴾ أي : وزناً متلبساً ﴿ بالقسطاس ﴾ أي : ميزان العدل الذي هو أقوم الموازين وزاد في تأكيد معناه فقال : ﴿ المستقيم ﴾ دون شيء من الحيف .

تنبيه : القسطاس رومي عرب ولا يقدح ذلك في عربية القرآن لأنّ الأعجمي إذا استعملته العرب وأجرته مجرى كلامهم في الإعراب والتعريف والتنكير ونحوها صار عربياً وقرأ حفص والكسائي وحمزة بكسر القاف والباقون بضمها . ﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر العالي الرتبة الذي أخبرناكم به من الإيفاء بالتمام والكمال ﴿ خير ﴾ لكم في الدارين الدنيا والآخرة من التطفيف بالكيل أو الوزن من حيث أن الإنسان يتخلص بواسطته عن الذكر القبيح في الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة وإن تراءى لكم أن التطفيف خير ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ أي : عاقبة في الدارين ، أما في الدنيا فلأنه اشتهر بالاحتراز عن التطفيف عول الناس عليه ومالت القلوب إليه وحصل له الاستغناء في الزمان القليل وكم رأينا من الفقراء من اشتهروا عند الناس بالأمانة والاحتراز عن الخيانة انقلبت القلوب عليهم وحصلت الأموال الكثيرة لهم ، وأمّا في الآخرة فالفوز بالثواب العظيم والخلاص من العقاب الأليم والتأويل وهو تفعيل من الأول وهو الرجوع أو أفعل التفضيل هنا لاستعمال النصفة بإرخاء العنان أي : على تقدير أن يكون في كل منهما خير فهذا المعنى الذي ذكرناه أزيد خيراً

والعاقل لا يرضى لنفسه بالدون .

ولما شرح الله تعالى الأوامر الثلاثة عاد إلى ذكر النواهي فنهى عن ثلاثة أشياء أوّلها قوله تعالى:

﴿ ولا تقف ﴾ أي : لا تتبع أيها الإنسان ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ من قول أو فعل وحاصله يرجع إلى النهي عن الحكم بما لا يكون معلوماً وهو قضية كلية يندرج تحتها أنواع كثيرة ، واختلف المفسرون فيها فقال ابن عباس : لا تشهد إلا بما رأته عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك . وقال قتادة : لا تقل سمعت ولم تسمع ورأيت ولم تر وعلمت ولم تعلم . وقيل المراد النهي عن القذف ، وقيل المراد النهي عن الكذب . وقيل المراد نهي المشركين عن اعتقاداتهم وتقليد أسلافهم لأنّ الله تعالى نسبهم في تلك العقائد إلى اتباع الهوى فقال تعالى : ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظنّ وما تهوى الأنفس ﴾ (النجم ،)

. وقيل القفو هو البهت وأصله من القفا كأنه يقال خلفه وهو في معنى الغيبة . قال صلى الله عليه وسلم "من قفا مؤمناً بما ليس فيه حبسه الله تعالى في ردغة الخبال" رواه الطبراني

وغيره وردغة بسكون الدال وفتحها عصارة أهل النار . وقال الكميت:

*ولا أرمي البريء بغير ذنب

** ولا اقفو الحواصن إن قفينا

ببناء قفينا للمفعول والحواصن النساء العفائف واللفظ عام يتناول الكل فلا معنى للتقييد .

تنبيه : يقال قفوت أثر فلان أقفوا إذا اتبعت أثره ، وسميت قافية الشعر قافية لأنّ البيت يقفو البيت وسميت القبيلة المشهورة بالقافة لأنهم يتبعون آثار أقفاء الناس أو آثار أقدامهم ويستدلون بها على أحوال الناس. وقال تعالى : ﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا ﴾

(الحديد ،)

وسمي القفا قفاً لأنه مؤخر بدن الإنسان فإن مشى يتبعه ويقفوه. فإن قيل : إنّ هذه الآية تدلّ على منع القياس فإنه لا يفيد إلا الظنّ والظنّ مغاير للعلم ؟

أجيب : بأن ذلك عام دخله التخصيص فإنّ الحكم في الدين بمجردّ الظنّ جائز بإجماع الأمة وبأنّ المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند سواء كان قطعياً أم ظنياً واستعماله بهذا المعنى شائع ذائع وقد استعمل في مسائل كثيرة منها أنّ العمل بالفتوى عمل

بالظنّ ، ومنها أنّ العمل بالشهادة عمل بالظنّ ، ومنها الاجتهاد في طلب القبلة ولا يفيد إلا الظنّ ، ومنها قيم المتلفات وإرش الجنايات لا سبيل إليهما إلا بالظنّ ، ومنها الفصد والحجامة وسائر المعالجات تبنى على الظنّ ، ومنها بعث الحكمين في الشقاق . قال تعالى :

﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ﴾ (النساء)

وحصول ذلك الشقاق مظنون لا معلوم ، ومنها الحكم على الشخص المعين بكونه مؤمناً مظنون وينبني على هذا الظنّ أحكام كثيرة مثل حصول التوارث ومثل الدفن في مقابر المسلمين ، ومنها الاعتماد على صدق الأصدقاء وعداوة الأعداء كلها مظنونة وبناء الأمر على تلك الظنون . وقال صلى الله عليه وسلم "نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر" . وذلك تصريح بأنّ الظنّ معتبر فبطل قول من يقول أنه لا يجوز بناء الأمر على الظنّ ، ثم علل تعالى النهي مخوّفاً بقوله تعالى : ﴿ إن السمع والبصر ﴾ وهما طريقا الإدراك ﴿ والفؤاد ﴾ الذي هو آلة الإدراك ، ثم عوّل تعالى الأمر بقوله تعالى : ﴿ كل أولئك ﴾ أي : هذه الأشياء العظيمة العالية المنافع البديعة التكوين . تنبيه : أولاء وجميع أسماء الإشارة يشار بها للعاقل وغيره كقول الشاعر :

*ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى

** والعيش بعد أولئك الأيام

يجوز في ذم فتح الميم وكسرها وضمها وقوله بعد منزلة اللوى أي : بعد مفارقتها والإضافة

في منزلة اللوى للبيان وهو ممدود ولكن قصره هنا للضرورة والعيش عطف على المنازل والأيام صفة لاسم الإشارة أو عطف بيان له ﴿ كان عنه ﴾ أي : بوعد لا خلف فيه ﴿ مسؤولاً ﴾ بسؤال يخصه .

(297/457)

تنبيه : ظاهر الآية يدل على أنّ الجوارح مسؤولة وفيه وجوه الأوّل : أنّ معناه أنّ صاحب السمع والبصر والفؤاد هو المسؤول لأنّ السؤال لا يصح إلا ممن كان عاقلاً وهذه الجوارح ليست كذلك بل العاقل الفاهم هو الإنسان كقوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ (يوسف ،) أي : أهلها والمعنى أنه يقال للإنسان لم سمعت ما لم يحل سماعه ولم نظرت ما لم يحل نظره ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه .

الثاني : أنّ تقدير الآية أنّ أولئك الأقوام كلهم مسؤولون عن السمع والبصر والفؤاد فيقال لهم استعملتم السمع فيماذا أفي الطاعة أم في المعصية ؟ وكذا القول في بقية الأعضاء وذلك لأنّ الحواس آلات النفس والنفس كالأمير لها والمستعمل لها في مصالحها فإن استعملها في الخيرات استوجب الثواب ، وإن استعملها في المعاصي استحق العقاب .

الثالث : أن الله تعالى يخلق الحياة في الأعضاء ثم أنها تسأل لقوله تعالى : ﴿ يوم تشهد عليهم

ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ (النور ،)

فكذلك لا يبعد أن يخلق العقل والحياة والنطق في هذه الأعضاء ثم أنها تسأل روى عن شكل بن حميد قال : أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت : يا نبيّ الله علمني تعويذاً أتعوذ به فأخذ بيدي ثم قال : "قل أعوذ بك من شرّ سمعي وشر بصري وشرّ لساني وشرّ قلبي وشرّ منيي" قال : فحفظتها ، قال سعد : المني ماؤه.

النهي الثاني : قوله تعالى:

﴿ ولا تمش في الأرض ﴾ أي : جنسها ﴿ مرحاً ﴾ أي : ذا مرح وهو شدّة الفرح والمراد من الآية النهي عن أن يمشي الإنسان مشياً يدل على الكبرياء والعظمة . قال الزجاج : ولا تمش في الأرض مختالاً فخوراً ، ونظيره قوله تعالى في سورة الفرقان : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ (الفرقان ،)

وقال تعالى في سورة لقمان : ﴿ واقصد في مشيك واغضض من صوتك ﴾ (لقمان ،)

وقال تعالى فيها : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً إنّ الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ (لقمان ،)

. ثم علل تعالى النهي عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ إنك لن تخرق الأرض ﴾ أي : تثقبها حتى تبلغ آخرها بكبرك ﴿ ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ أي : بتطاولك وهو تهكم بالمختال لأنّ الاختيال حماقة مجردة لا تفيد شيئاً ليس في التذلل وفي ذلك إشارة إلى أنّ العبد ضعيف لا يقدر على خرق أرض ولا وصول إلى جبال فهو محاط به من فوقه ومن تحته بنوعين من الجمادات وهو أضعف منهما بكثير والضعيف المحصور لا يليق به التكبر فكأنه قيل له تواضع ولا تتكبر فإنك خلق ضعيف من خلق الله محصور بين حجارة وتراب فلا تفعل فعل المقتدر القوي وقيل ذكر ذلك لأن من مشى خيلاء يمشي مرّة على عقبيه ومرّة على صدور قدميه فقيل له إنك لن تثقب الأرض إن مشيت على عقبيك ولن تبلغ الجبال طولا إن مشيت على صدور قدميك . قال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا مشى تكفأ تكفأ كأنما ينحط من صبب" . وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : "ما رأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنّ الشمس تجري في وجهه ، وما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الأرض تطوى له إنا لنجهد أنفسنا وإنه غير مكترث" . وقوله تعالى : ﴿ كل ذلك ﴾ إشارة إلى ما نهى عنه مما تقدّم فإنّ الذي تقدّم منهيات ومأمورات وجملة ذلك من قوله تعالى : ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾ (الإسراء ،)

إلى هنا خمسة وعشرون وها أنا أسردها لك تسهيلاً عليك. فأوّلها : ﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر ﴾ (الإسراء ،)

(299/457)

. وثانيها وثالثها : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ لاشتماله على تكليفين الأمر بعبادة الله تعالى والنهي عن عبادة غيره. ورابعها : ﴿ وبالوالدين إحسانا ً ﴾ . خامسها : ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ . سادسها : ﴿ ولا تنهرهما ﴾ . سابعها : ﴿ وقل لهما قولاً كريما ً ﴾ ثامنها : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ . تاسعها : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ . عاشرها : ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ . حادي عشرها : ﴿ والمسكين ﴾ . ثاني عشرها : ﴿ وابن السبيل ﴾ . ثالث عشرها : ﴿ ولا تبذر تبذيرا ً ﴾ . رابع عشرها : ﴿ فقل لهم قولاً ميسورا ً ﴾ . خامس عشرها : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ . سادس عشرها : ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ . سابع عشرها : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم ﴾ . ثامن عشرها : ﴿ ولا تقتلوا النفس ﴾ . تاسع عشرها : ﴿ ومن قتل مظلوما ً فقد جعلنا لوليه سلطانا ً ﴾ . عشروها : ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ حادي عشريها : ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ ثاني عشريها : ﴿ وأوفوا الكيل ﴾ . ثالث

عشريها : ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ . رابع عشريها : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ . خامس عشريها : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحا ﴾ . فكل هذه تكليفات بعضها أوامر وبعضها نواه فالمنهي عنه هو الذي قال تعالى فيه : ﴿ كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴾ أي : يبغضه والعاقل لا يفعل ما يكرهه المحسن إليه . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الهمزة وبالتاء منونة منصوبة وقرأ الباقون بضم الهمزة والهاء مضمومة من غير تنوين .

والمعنى على هذا ظاهر ، أي : إن سيئ تلك الأقسام يكون مكروهاً ، وأمّا القراءة الأولى فسيئة خبر كان وأنث حملاً على معنى كل ثم قال مكروهاً حملاً على لفظها . وقال الزمخشري : إن السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والاسم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه ولا فرق بين سيئة وسيأ ألا ترى أنك تقول الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة فلا فرق بين إسنادها إلى مذكر ومؤنث ، وفي نصب مكروهاً أوجه أحدها : أنه خبر ثان لكان . الثاني : أنه بدل من سيئة وضعف بأن البدل بالمشتق قليل . الثالث : أنه حال من الضمير المستتر في عند ربك لوقوعه صفة لسيئه . الرابع : أنه نعت لسيئه وإنما ذكّرَ وصف

سيئه لأن تأنيثه وتأنيث موصوفه مجازي ، وردّ بأن ذلك إنما يجوز حيث أسند إلى المؤنث المجازي ، أما إذا أسند إلى ضميره فلا نحو الشمس طالعة فلا يجوز طالع .

(301/457)

وقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الأحكام المتقدّمة في الأوامر والنواهي ﴿ مما أوحى إليك ﴾ يا أشرف الخلق ﴿ ربك ﴾ أي : المحسن إليك ﴿ من الحكمة ﴾ التي هي معرفة الحق لذاته والخير للعمل به ، وإنما سميت هذه الأمور حكمة لوجوه الأول : أنّ حاصلها يرجع إلى الأمر بالتوحيد ، وأنواع الطاعات والخيرات والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة فالآتي بمثل هذه الشريعة لا يكون داعياً إلى دين الشيطان ، بل الفطرة الأصلية تشهد بأنه يكون داعياً إلى دين الرحمن . الثاني : أنّ هذه الأحكام المذكورة في هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية في جميع الأديان والملل ولا تقبل النسخ والإبطال فكانت محكمة ، وحكمة من هذا الاعتبار . الثالث : أنّ الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير للعمل به ، كما مرّت الإشارة إليه ، فالأمر بالتوحيد عبارة عن القسم الأول وسائر التكاليف عبارة عن تعليم الخيرات حتى يواظب عليها ولا ينحرف عنها فثبت أنّ الأشياء المذكورة من هذه الآيات عين الحكمة . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن هذه الآيات كانت

في ألواح موسى عليه السلام وجعل سبحانه وتعالى فاتحتها قوله تعالى : ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾ وخاتمتها قوله تعالى : ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾ تنبيهاً على أنّ التوحيد مبدأ الأمور ومنتهاه ، وأنّ من قصد بفعل أو ترك غيره ضاع سعيه وأنه رأس الحكمة وملاكها ورتب عليه ما هو عائدة الشرك في قوله تعالى أوّلاً : ﴿ ولا تجعل مع الله ﴾ ، أي : في الدنيا ، وثانياً ما هو نتيجته في العقبى فقال : ﴿ فتلقى ﴾ أي : فيفعل بك في الآخرة في الحشر ﴿ في جهنم ﴾ من الإسراع فيه وعدم القدرة على التدارك فعل من ألقى من عال حال كونك . ﴿ ملوماً ﴾ أي : تلوم نفسك ﴿ مدحوراً ﴾ أي : مبعداً من رحمة الله .

تنبيه : ذكره سبحانه وتعالى في الآية الأولى بقوله تعالى : ﴿ مذموماً مخذولاً ﴾ وفي هذه الآية ﴿ ملوماً مدحوراً ﴾ والفرق بين الذم واللوم هو أن يذكر له أنّ الفعل الذي أقدم عليه

قبيح ومنكر فهذا

معنى كونه مذموماً ثم يقال له فعلت هذا الفعل القبيح وما الذي حملك عليه فهذا هو اللوم فأوّل الأمر يصير مذموماً وآخره يصير ملوماً ، والفرق بين المخذول والمدحور هو أن المخذول عبارة عن الضعيف يقال تخاذلت أعضاؤه ، أي : ضعفت والمدحور هو المطرود

والطرد عبارة عن الاستخفاف والإهانة فكونه مخذولاً عبارة عن ترك إعانته وتفويضه إلى نفسه وكونه مدحوراً عبارة عن إهانته فيصير أوّل الأمر مخذولاً وآخره مدحوراً . وقوله تعالى:

﴿ فأصفاكم ربكم بالبنين ﴾ خطاب للذين قالوا الملائكة بنات الله والهمزة للإنكار ، أي : أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون ، ولم يجعل فيهم نصيباً لنفسه ﴿ واتخذ من الملائكة إناثاً ﴾ أي : بنات لنفسه وهذا خلاف ما عليه معقولكم وعادتكم ، فإنّ العبيد لا يستأثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوائب ويكون أردؤها وأدونها للسادات ﴿ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾ بإضافة الأولاد إليه لأن إثبات الولد يقتضي كونه تعالى مركباً من الأبعاض والأجزاء وذلك يقدح في كونه قديماً واجب الوجود لذاته ، وأيضاً فبتقدير ثبوت الولد فقد جعلوا أشرف القسمين لأنفسهم وأخس القسمين لله تعالى وهذا جهل عظيم ، وأيضاً جعلوا الملائكة الذين هم من أشرف خلق الله الذين منهم من يقدر على حمل الأرض وقلب أسفلها على أعلاها إناثاً في غاية الرخاوة.

ولما كان في هذا من البيان ما لا يخفى على إنسان ولم يرجعوا أشار إلى أنّ لهم مثل هذا الإعراض عن أمثال هذا البيان فقال تعالى:

﴿ ولقد صرّفنا ﴾ أي : بينا بياناً عظيماً بأنواع طرق البيان من العبر والحكم والأمثال

والأحكام والحجج والإعلام في قوالب الوعد والوعيد والأمر والنهي والمحكم والمتشابه إلى غير ذلك ﴿ في هذا القرآن ﴾ أي : في مواضع منه من الأمثال كما قال تعالى : ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ (الروم ،)

(303/457)

قيل لفظة في زائدة كما في قوله تعالى : ﴿ وأصلح لي في ذريتي ﴾ (الأحقاف ،)

. ورد بأنّ في لا تزاد وما ذكر متأوّل كما يأتي إن شاء الله تعالى في الأحقاف والتصريف لغة صرف الشيء من جهة إلى أخرى ثم صار كناية عن التبيين قاله أبو حيان . وقوله تعالى : ﴿ ليذكروا ﴾ متعلق بصرفنا وقرأ حمزة والكسائي بسكون الذال ورفع الكاف من غير تشديد من الذكر الذي هو بمعنى التذكر والباقون بفتح الذال والكاف مع تشديدهما .

﴿ وما يزيدهم ﴾ أي : التصريف ﴿ إلا نفوراً ﴾ أي : تباعداً عن الحق وقلة طمأنينة إليه ، وعن سفيان كان إذا قرأها قال : زادني ذلك لك خضوعاً ما زاد أعداءك نفوراً . ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء المشركين ولا تيأس من رجوع بعضهم . ﴿ لو كان معه آلهة كما تقولون ﴾ من هذه الأقوال التي لو قالها أعظمكم في حق أدناكم وهو يريد بها حقيقتها لصار

ضحكة للعباد ﴿ إذا لابتغوا ﴾ أي : طلبوا طلباً عظيماً ﴿ إلى ذي العرش ﴾ أي : صاحب السرير الأعظم المحيط الذي من ناله كان منفرداً بالتدبير ﴿ سبيلاً ﴾ أي : طريقاً سالكاً يتوصلون به إليه ليقهروه ويزيلوا ملكه كما ترون فعل ملوك الدنيا بعضهم مع بعض أو ليتخذوا عنده يداً يقربهم إليه ، وقرأ ابن كثير وحفص بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب وأدغم أبو عمرو الشين من العرش في السين بخلاف عنه .

ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه فقال عز من قائل:

﴿ سبحانه ﴾ أي : تنزه التنزه الأعظم عن كل شائبة نقص ﴿ وتعالى ﴾ أي : علا أعلى العلوّ بصفات الكمال ﴿ عما يقولون ﴾ أي : من هذه النقائص التي لا يرضاها لنفسه أحد من عقلاء خلقه ﴿ علوّاً ﴾ أي : تعالياً ﴿ كبيراً ﴾ أي : متباعداً غاية البعد عما يقولون فإنه تعالى في أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجوب والبقاء لذاته .

تنبيه : جعل العلوّ مصدر التعالي ومصدره تعالياً كما قدّرته فهو المراد ونظيره قوله تعالى : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ (نوح ،)

. فإن قيل: ما الفائدة في وصف ذلك العلو بالكبير؟

أجيب: بأنّ المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثبوت الصاحبة والولد والشركاء والأضداد والأنداد منافاة بلغت في القوّة والكمال إلى حيث لا تعقل الزيادة عليها لأنّ المنافاة بين الواجب لذاته وبين الممكن لذاته وبين القديم والمحدث وبين الغني والمحتاج منافاة لا تعقل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة، ثم استأنف تعالى بيان عظمة هذا التنزيه مقروناً بالوصف بالكمال فقال:

﴿ تسبح ﴾ أي: توقع التنزيه الأعظم ﴿ له ﴾ أي: الإله الأعظم الذي تقدّم وصفه بالجلال والإكرام خاصة ﴿ السموات السبع والأرض ﴾ أي: السبع ﴿ ومن فيهنّ ﴾ أي: من ذوي العقول ﴿ وإن ﴾ أي: وما وأغرق في النفي فقال: ﴿ من شيء ﴾ أي: ذي عقل أو غيره ﴿ إلا يسبح بجمده ﴾ أي: يقول سبحان الله العظيم وبحمده، أو يقول سبحان الله وبحمده. وقال ابن عباس: وإنّ من شيء حيّ إلا يسبح بحمده. وقال قتادة: يعني الحيوانات والناميات. وقال عكرمة: الشجرة تسبح والإسطوانة تسبح وعن المقداد بن عدي: التراب يسبح ما لم يبتل فإذا ابتل ترك التسبيح والورقة تسبح ما دامت على الشجرة فإذا سقطت تركت التسبيح والماء يسبح ما دام جارياً فإذا ركد ترك التسبيح والثوب يسبح ما دام جديداً فإذا وسخ ترك التسبيح. وقال السيوطي: في جواب سؤال عن ذلك:

*قد خصصت آية الأسرى بمتصف

** وصف الحياة كرطب الزرع والشجر

*فيا بس مات لا تسبيح منه كذا

** وما زال عن موضع كالقطع للحجر

(305/457)

وقال إبراهيم النخعي : وإنّ من شيء جماد وحيّ إلا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف ، وقال مجاهد : كل الأشياء تسبح لله تعالى حيواناً كانت أو جماداً وتسبيحها سبحان الله وبحمده يدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود كنا نعدّ الآيات بركة وأنتم تعدّونها تخويفاً كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقلّ الماء فقال صلى الله عليه وسلم "اطلبوا فضلة من ماء فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده صلى الله عليه وسلم في الإناء ثم قال : حي على الطهور المبارك والبركة من الله فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يأكل" . وعن جابر بن سمرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ بمكة حجراً كان يسلم عليّ ليالي بعثت إني لأعرفه الآن" . وعن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم كان يخطب إلى جذع فلما اتخذ

له المنبر تحوّل إليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه وفي رواية فنزل فاحتضنه وساره بشيء ففي هذه الأحاديث دليل على أنّ الجماد يتكلم وأنه يسبح .

وقال بعض أهل المعاني : تسبيح السموات والأرض والجمادات والحيوانات سوى العقلاء بلسان الحال حيث تدلّ على الصانع وقدرته ولطيف حكمته فكأنها تنطق بذلك ويصير لها بمنزلة التسبيح . قال البغوي : والأول أصح وهو المنقول عن السلف . وقال ابن الخازن : القول الأول أصح لما دلت عليه الأحاديث وأنه منقول عن السلف . قال البغوي : واعلم أنّ لله تعالى علماً في الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغي أن يوكل علمه إليه ﴿ ولكن لا تفقهون ﴾ أي : لا تفهمون ﴿ تسبيحهم ﴾ أي : لأنه ليس بلغتكم ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ . ولما ذكر سبحانه وتعالى إثبات الإلهية أتبعه بذكر تقرير النبوّة بقوله تعالى:

﴿ وإذا قرأت القرآن ﴾ أي : الذي لا يدانيه واعظ ولا يساويه مفهم وهو تبيان لكل شيء ﴿ جعلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ أي : يحجب قلوبهم عن فهم ما تقرؤه عليهم والانتفاع به . قال قتادة : هو الأكنة فالمستور بمعنى الساتر كقوله تعالى : ﴿ كان وعده مأتياً ﴾ (مريم ،

مفعول بمعنى فاعل وقيل : مستوراً عن أعين الناس فلا يرونه وفسره بعضهم بالحجاب عن الأعين الظاهرة كما روي عن سعيد بن جبير أنه لما نزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ (المسد) ،

جاءت امرأة أبي لهب ومعها حجر والنبيّ صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر رضي الله عنه فلم تره فقالت لأبي بكر : أين صاحبك ؟ لقد بلغني أنه هجاني . فقال : والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله فرجعت وهي تقول : قد كنت جئت بهذا الحجر لأرض به رأسه فقال أبو بكر : ما رأتك يا رسول الله ؟ قال : "لا ما يزل ملك بيني وبينها يسترني" .

﴿ وجعلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ على قلوبهم أكنة ﴾ أي : أغطية كراهية ﴿ أن يفقهوه ﴾ أي : يفهموه أي : يفهموا القرآن حق فهمه ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ أي : شيئاً ثقيلاً يمنع سماعهم ، وعن أسماء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً ومعه أبو بكر إذ أقبلت امرأة أبي لهب ومعها فهر تريد الرسول صلى الله عليه وسلم وهي تقول : مذمماً أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا . فقال أبو بكر : يا رسول الله معها فهر أخشاها عليك ، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فجاءت وما رأت رسول الله صلى الله عليه

وسلم وقالت : إني رأيت قريشاً قد علمت أني ابنة سيدها وإنّ صاحبك هجاني فقال أبو بكر : لا ورب الكعبة ورب هذا البيت ما هجاك . وروى ابن عباس أنّ أبا سفيان والنضر بن الحارث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبيّ صلى الله عليه وسلم ويسمعون حديثه فقال النضر يوماً : ما أرى ما يقول محمد غير أني أرى شفتيه يتحرّكان بشيء . وقال أبو سفيان : إني لا أرى بعض ما يقوله إلا حقاً . وقال أبو جهل : هو مجنون . وقال أبو لهب : هو كاهن . وقال حويطب بن عبد العزى : هو شاعر ، فنزلت هذه الآية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد تلاوة القرآن قرأ قبلها ثلاث آيات وهي في سورة الإسراء :

﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴾ (الإسراء ،)

. وفي سورة النحل ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ﴾ (النحل ،)

وفي حم الجاثية ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ (الجاثية ،)

إلى آخر الآية ، فكان الله تعالى يحجبه ببركة هذه الآيات عن عيون المشركين ﴿ وإذا ذكرت ربك ﴾ أي : المحسن إليك وإليهم ﴿ في القرآن وحده ﴾ أي : مع الإعراض عن آلهتهم كأن قلت وأنت تتلو القرآن لا إله إلا الله .

تنبيه : في نصب وحده وجهان أحدهما أنه منصوب على الحال وإن كان معرفة لفظاً في قوّة النكرة إذ هو في معنى منفرداً . والثاني : أنه منصوب على الظرف . ﴿ ولّوا على أدبارهم نفوراً ﴾ أي : هرباً من استماع التوحيد . تنبيه : في نفوراً وجهان أحدهما مصدر من غير اللفظ مؤكد لأنّ التولي والنفور بمعنى والثاني أنه حال من فاعل ولوا وهو حينئذٍ جمع نافر كقاعد وقعود وشاهد وشهود والضمير في ولوا يعود إلى الكفار وقيل يعود إلى الشيطان وإن لم يجر لهم ذكر . قال المفسرون : إنّ القوم كانوا عند استماع القرآن على أقسام منهم من كان يلهو عند استماعه . روي أنه عليه الصلاة والسلام كان كلما قرأ القرآن قام عن يمينه ويساره إخوان من ولد قصيّ يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار ، ومنهم من كان إذا سمع من القرآن ما فيه ذكر الله تعالى بقوا مبهوتين لا يفهمون منه شيئاً ومنهم من إذا سمع آيات فيها ذكر الله تعالى وذم المشركين ولوا نفوراً وتركوا ذلك المجلس . ولما كانوا ربما ادّعوا السمع والفهم فشككوا بعض من لم يرسخ إيمانه أتبعه تعالى بقوله تعالى:

﴿ نحن أعلم ﴾ أي : من كل عالم ﴿ بما يستمعون ﴾ أي : يبالغون في الإصغاء والميل لقصد السمع ﴿ به ﴾ من الآذان والقلوب أو بسببه ولأجله من الهزء بك وبالقرآن ﴿ إذ يستمعون ﴾ أي : يصغون بجهدهم ﴿ إليك ﴾ أي : إلى قراءتك ﴿ وإذ ﴾ أي : حين ﴿ هم ﴾ ذو ﴿ نجوى ﴾ أي : يتناجون بأن يرفع كل منهم بصره إلى صاحبه بعد إعراضهم عن الاستماع ثم ذكر تعالى ظرف النجوى بقوله تعالى : ﴿ إذ ﴾ وهو بدل من إذ

قبله ﴿ يقول الظالمون ﴾ وقولهم ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ أي : مخدوعاً مغلوباً على عقله . وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر علياً أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين ففعل ذلك ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد وقال:

قولوا لا إله إلا الله حتى تطيعكم العرب وتدين لكم العجم" فأبوا عليه ذلك وكانوا عند استماعهم من النبيّ صلى الله عليه وسلم القرآن والدعوى إلى الله تعالى يقولون : ﴿ إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ . فإن قيل : أنهم لم يتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يصح أن يقولوا ﴿ إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ أجيب : بأنّ معناه إن اتبعتموه فقد اتبعتم رجلاً مسحوراً . وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان وعاصم وحمزة بكسر التنوين في الوصل والباقون بالضم ثم قال تعالى:

﴿ انظر كيف ضربوا ﴾ أي : هؤلاء الضُّلال ﴿ لك الأمثال ﴾ التي هي أبعد شيء من صفتك من قولهم كاهن وساحر وشاعر ومعلم ومجنون . ﴿ فضلوا ﴾ عن الحق في جميع ذلك ﴿ فلا ﴾ أي : فتسبب عن ذلك أنهم لا ﴿ يستطيعون سبيلاً ﴾ أي : وصولاً إلى

طريق الحق. ولما جرت عادة القرآن بإثبات التوحيد والنبوّة والمعاد وقدم الدلالة على الأوّلين وختم بإثبات جهلهم في النبوّة مع ظهورها أتبع ذلك أمراً جلياً في ضلالهم عن السبيل في أمر المعاد وقرّره غاية التقرير، وحرّره أتم تحرير. قال تعالى معجباً منهم:

﴿ وقالوا ﴾ أي: المشركون المنكرون للتوحيد والنبوّة والبعث مع اعترافهم بأنا ابتدأنا خلقهم ومشاهدتهم في كل وقت إنا نحيي الأرض بعد موتها وقولهم: ﴿ أئذا ﴾ استفهام إنكاري كأنهم على ثقة من عدم ما ينكرونه والعامل في إذا فعل من لفظ مبعوثون لا هو فإن ما بعد إنّ لا يعمل فيما قبلها فالمعنى أنبعث إذا ﴿ كنا ﴾ أي: بجملة أجسامنا كوناً لازماً ﴿ عظاماً ورفاتاً ﴾ أي: حطاماً مكسراً مفتتاً أو غباراً. وقال الفراء: هو التراب وهو قول مجاهد ويؤيده أنه قد يكرر في القرآن تراباً وعظاماً. ويقال للتبن الرفات لأنه دقاق الزرع. ﴿ أئنا لمبعوثون ﴾ حال كوننا مخلوقين ﴿ خلقاً جديداً ﴾.

تنبيه: تقرير شبهة هؤلاء الضلال هي أنّ الإنسان جفت أعضاؤه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم واختلطت تلك الأجزاء بسائر أجزاء العالم فالأجزاء المائية مختلطة بمياه العالم والأجزاء الترابية مختلطة بالتراب، والأجزاء الهوائية مختلطة بالهواء فكيف يعقل

اجتماعها بأعيانها مرّة أخرى وكيف يعقل عود الحياة إليها بأعيانها مرّة أخرى هذا تقرير شبههم ؟

أجيب : عنها بأنها لا تتم إلا بالقدح في كمال علم الله تعالى وفي كمال قدرته فإنه تعالى قادر على كل الممكنات فهو قادر على إعادة التأليف والتركيب والحياة والعقل إلى تلك الأجزاء بأعيانها فمن سلم كمال علم الله تعالى وكمال قدرته زالت عنه هذه الشبهة بالكلية . ولما كان كأنه قيل فماذا يقال لهم في الجواب ؟ فقال : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) ﴾ . انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 421.446 ﴾

(311/457)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْكِتَاب : الْحَاوِى فى تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والخمسون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/458)

الجزء الثامن والخمسون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 50 ﴾ من سورة الإسراء

وحتى الآية ﴿ 55 ﴾ من نفس السورة

(4/458)

قوله تعالى ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ

قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا

(52) وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ

عَدُوًّا مُبِينًا (53) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ

وَكِيلًا (54) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ

وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

﴿ قل ﴾ لهم : لا تكونوا رفاتاً ، بل ﴿ كونوا ﴾ تراباً ، بل كونوا أصلب التراب ﴿ حجارة ﴾ أي هي في غاية اليبس ﴿ أو حديداً ﴾ زاد على يبس الحجارة شدة اتصال الأجزاء ﴿ أو خلقاً ﴾ غيرهما ﴿ مما يكبر ﴾ أي يعظم عظمة كبيرة ﴿ في صدوركم ﴾ عن قبول الحياة ولو أنه الموت ، حتى تعلموا حال الإعادة ، كيف يكون حالكم في الإجابة إلى ما يريد ؟ فإن الكل أصله التراب ، فالذي فضل طينكم - الذي خلقتم منه على سائر الطين بالنمو ثم بالحياة ثم بالنطق وفضل بعض الناطقين على بعض بمواهب لا تحصى - قادر أن ينقل تلك الفضيلة إلى الطين الذي نقله طوراً بعد طور إلى أن جعله حجراً أو حديداً ﴿ فسيقولون ﴾ تمادياً في الاستهزاء : ﴿ من يعيدنا ﴾ إذا كنا كذلك ﴿ قل الذي فطركم ﴾ أي ابتدأ خلقكم ﴿ أول مرة ﴾ ولم تكونوا شيئاً يعيدكم

بالقدرة التي ابتدأكم بها ، فكما لم تعجز تلك القدرة عن البداءة فهي لا تعجز عن الإعادة ﴿ فسينغضون ﴾ أي مصوبين بوعد لا خلف فيه مشيرين ﴿ إليك رؤوسهم ﴾ أي يحركونها من شدة التعجب والاستهزاء كأنهم في شدة جهلهم على غاية البصيرة من العلم بما يقولون ؛ والنغض والإنغاض : تحريك بارتفاع وانخفاض ﴿ ويقولون ﴾ استهزاء : ﴿ متى هو ﴾ ثم وصل به قوله تعالى : ﴿ قل ﴾ قول مقتصد غير ممتعض بحالهم ولا ضيق بقولهم : ﴿ عسى أن يكون ﴾ أي كوناً لا انفكاك عنه ﴿ قريباً ﴾ مطرقاً إليه الاحتمال لإمكانه غير جازم ، ثم استأنف جازماً بقوله : ﴿ يوم ﴾ أي يكون ذلك يوم ﴿ يدعوكم ﴾ أي يناديكم المنادي من قبله بالنفخة أو بغيرها كأن يقول : يا أهل القبور ! قوموا إلى الجزاء – أو نحو ذلك ﴿ فتستجيبون ﴾ أي توافقون الداعي فتفعلون ما أراد بدعائه وتطلبون إجابته وتوجدونها ، أو استعار الدعاء والاستجابة للبعث والانبعاث تنبيهاً على سرعتهما وتيسر أمرهما ، أو أن القصد بهما الإحضار للحساب ﴿ بحمده ﴾ أي بإحاطته سبحانه بكل شيء قدرة وعلماً من غير تخلف أصلاً ، بل لغاية الإذعان كما يرشد إليه صيغة استفعل ، وأنتم مع سرعة

الإجابة تحمدون الله تعالى، أي تثبتون له صفة الكمال ﴿ وتظنون ﴾ مع استجابتكم وطول لبثكم ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ لبثتم ﴾ ميتين ﴿ إلا قليلاً ﴾ لشدة ما ترون من [الأهوال التي أحاطت بكم والتي تستقبلكم، أو جهلاً منكم بحقائق الأمور كما هي حالكم اليوم كما ترون من - جدة خلقكم وعدم تغيره.

(6/458)

ولما أمره سبحانه بإبلاغهم هذا الكلام، وفيه من التهكم بهم والتبكيت لهم والاستخفاف بعقولهم ما لا يعلم مقداره إلا مثلهم من البلغاء والعرب العرباء، وكان لكونه كلام العليم بالعواقب، الخبير بما تجن الضمائر - ربما استن به المؤمنون فخاطبوهم بنحوه من عند أنفسهم، نهاهم عن ذلك لئلا يقولوا ما يهيج شراً أو تثير ضراً، فقال تعالى: ﴿ وقل ﴾ أي قل لهم ذلك من الحكمة والموعظة الحسنة، وقل ﴿ لعبادي ﴾ أي الذين هم أهل للإضافة إليّ، واعظاً لهم لئلا يتجاوزوا الحد من شدة غيظهم من المشركين، إن تقل لهم ذلك ﴿ يقولوا ﴾ الموعظة والحكمة والمجادلة ﴿ التي هي أحسن ﴾ لأكون معهم لأني مع الذين اتقوا والذين هم محسنون؛ ثم علل ذلك بقوله تعالى: ﴿ إن الشيطان ﴾ أي البعيد من الرحمة، المحترق باللعنة ﴿ ينزغ بينهم ﴾ أي يفسد ويغري ويوسوس، وأصل النزغ الطعن،

وهم غير معصومين ، فيوشك أن يأتوا بما لا يناسب الحال أو الوقت بأن يذكروا مساوىء غيرهم أو محاسن أنفسهم فيوقع في شر ؛ ثم علل هذه العلة بقوله تعالى : ﴿ إن الشيطان كان ﴾ أي في قديم الزمان وأصل الطبع كوناً هو مجبول عليه ﴿ للإنسان عدواً ﴾ أي بليغ العداوة ﴿ مبيناً ﴾ ثم فسر " التي هي أحسن " مما علمهم ربهم من النصفة بقوله تعالى : ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ ثم استأنف فقال تعالى : ﴿ إن يشأ ﴾ رحمتكم ﴿ يرحمكم ﴾ بأن ييسر لكم أفعال الخير ﴿ أو إن يشأ ﴾ عذابكم ﴿ يعذبكم ﴾ بأن ييسركم لأفعال الشر ، فإذا قالوا لهم ذلك كانوا جديرين بأن يعرضوا - أو من أراد الله منهم - أفعالهم على ما يعلمونه من الخير والشر فينظروا أيهما أقرب إليها ، وربما ردهم ذلك من أنفسهم عن الفساد ، لحسم مادة العناد ، ويجوز - وهو - عندي أحسن - أن تكون الآية استئنافاً واقعاً موقع التعليل للأمر بقول الأحسن ، أي ﴿ ربكم ﴾ أيها العباد ﴿ أعلم بكم ﴾ وبما يؤول أمركم إليه من سعادة وشقاوة ﴿ إن يشأ يرحمكم ﴾ بهدايتكم ﴿ أو إن يشأ يعذبكم ﴾ بإضلالكم ، فلا تحتقروا أيها

المؤمنون المشركين فتقطعوا بأنهم من أهل النار فتعيروهم بذلك ، فإنه يجر إلى الإحن وحر الصدور وغيظ القلوب بلا فائدة ، لأن الخاتمة مجهولة ، ولا تتجاوزوا فيهم ما آمركم به من قول وفعل فإنه الأحسن ؛ ثم رقى الخطاب إلى أعلى الخلق ورأس أهل الشرع ليكون من دونه أولى بالمعنيّ منه فقال تعالى : ﴿ وما ﴾ أي فما أرسلناك إلا للدعاء بمثل ذلك على حسب ما نأمرك به ، وما ﴿ أرسلناك ﴾ أي مع ما لنا من العظمة الغنية عن كل شيء ﴿ عليهم وكيلاً ﴾ أي حفيظاً وكفيلاً لغيرهم على ما يرضي الله ، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فدارهم وأمر أصحابك بمداراتهم .

ولما أمرهم بأن ينسبوا الأعلمية بهم إليه سبحانه ، أخبر بما هو أعم من ذلك فقال تعالى عاطفاً على ﴿ ربكم ﴾ إعلاماً بأن علمه ليس مقصوراً عليهم ، بل هو محيط ، قاصراً الخطاب على أعلم الخلق به سبحانه إشارة إلى أنه لا يعلم هذا حق علمه غيره :

﴿ وربك ﴾ أي المحسن إليك بأن جعلك أكمل الخلق ﴿ أعلم ﴾ أي من كل عالم ﴿ بمن في السماوات ﴾ أي كلها ﴿ والأرض ﴾ منهم ومن غيرهم ، بأحوالهم ومقاديرهم وآجالهم وما يستأهل كل واحد منهم ، لأنه هو الذي خلقهم وفاوت بينهم في أخلاقهم وهيئاتهم فكيف يستبعدون أن يكون يتيم أبي طالب - على ما كانوا يقولون - نبياً ، وأن يكون أصحابه العراة الجياع أفضل منهم .

ولما كان قد فهم من هذا السياق تفضيل بعض الأشياء على بعض حتى تصير قابلة الروح الحياة بدءاً وإعادة ، بعد أن فهم من أول السورة وآخر التي قبلها اختصاص بعض الأنبياء بفضائل من روح العلم والحكمة لم يحزها غيره ، صرح بهذا هنا فقال تعالى عطفاً على ما أرشد إليه سياق الإخبار بالأعلمية ، ملتفتاً إلى مقام العظمة الداعي إليه الحال ، وهو الوصف بالأعلمية : ﴿ ولقد ﴾ أي فميزنا بينهم بالرذائل والفضائل تفضيلاً لبعضهم على بعض على حسب إحاطة علمنا بهم وشمول قدرتنا لهم في تأهلهم للسعادة والشقاوة ففضلنا بعض الناس على بعض ، ففضلنا العلماء على غيرهم ، وفضلنا النبيين منهم على غيرهم ، ولقد ﴿ فضلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ بعض النبيّن ﴾ أي سواء كانوا رسلاً أولا ﴿ على بعض ﴾ بعد أن جعلنا الكل فضلاء لتقوى كل منهم وإحسانه ، فلا ينكر أحد من العرب أو بني إسرائيل أو غيرهم تفضيلنا لهذا النبي الكريم الذي صدرنا السورة بتفضيله على جميع الخلائق ، فإنا نفعل ما نشاء ، بما لنا من القدرة التامة والعلم الشامل ، والحاصل أن من أعظم ثمرات العمل التفضيل بإعطاء كل واحد بل كل شيء ما يستحقه ، وبذلك يستدل على تمام - حكمته في شمول علمه وكمال قدرته ، فلذلك ذكر التفضيل هنا بعد ذكر العلم المطلق ، وصرح بتفضيل أشرف الخلائق وطوى ذكر غيرهم ، كما ذكر

التفضيل في الدنيا بعد إثبات العلم المقيد بالذنوب في قوله : ﴿ من كان يريد العاجلة - إلى قوله تعالى : انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ .

(9/458)

ولما كان القصد إلى بني إسرائيل في هذه السورة سابقها ولاحقها ظاهراً ، والتعريض بهم في كثير منها بيناً ، وكان داود عليه السلام هو المؤسس للمسجد الأقصى الذي وقع الإسراء إليه ، وكان قد خص بأن ألين له الحديد الذي أمر المشركون أن يكونوه ، لاستبعادهم الإعادة ، وكان - مع كونه ملكاً - من أشد الناس تواضعاً ، وأكثرهم بكاء ، وأبعدهم من المرح في الأرض ، قال تعالى : ﴿ وءاتينا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ داود ﴾ أي الذي هو من أتباع موسى الذي آتيناه الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا يتخذوا من دوني وكيلاً ﴿ زبوراً ﴾ لأنهم قاطعون بأن من بين موسى وعيسى من أنبياء بني إسرائيل دون موسى في الرتبة ، وكل منهم داعٍ إلى شريعته ، عامل بحكم التوراة التي شرفه الله بها ، غير خارج عن شيء من سنتها ، فكان القياس يقتضي أن يكونوا في الفضيلة سواء ، فلم يجر ذلك على مقتضى عقول الناس ، بل فاوت سبحانه بينهم على حسب علمه بأحوالهم حتى في الوحي ، فخص من بينهم داود عليه السلام بكتاب كله مواعظ ، والمواعظ أشد شيء منافاة

للمشي في الأرض مرحاً ، ونهياً عنه ، وأعظم شيء أمراً بالقول الذي هو أحسن من الإخلاص والمراقبة والإحسان ، هذا إلى ما ذكر فيه من التسبيح من كل شيء الذي هو من أعظم مقاصد السورة كما تقدم نص الزبور به قريباً ، فكان ذكر تفضيله به هنا أنسب شيء لهذا المقام ، وفي ذلك أعظم إشارة وأجل تنبيه على فضل بيت المقدس الذي جعله سبباً لتفضيل الأنبياء تارة بالهجرة إليه كإبراهيم عليه السلام وتارة بقصد تطهيره من الشرك وتنويره بالتوحيد كموسى عليه السلام ، وتارة بتأسيس بنيانه وتشييد أركانه كداود عليه السلام ، وتارة بالإسراء إليه والإمامة بالأنبياء عليهم السلام به والعروج منه إلى سدرة المنتهى والمقام الأعلى ، وأما تفضيله وتفضيل ابنه سليمان – على نبينا محمد وعليهما الصلاة والسلام – بالملك وسعة الأمر فدخل في قوله تعالى : ﴿ انظر كيف فضلنا

(10/458)

بعضهم على بعض ﴾ وروى البخاري في التفسير عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : خفف على داود القراءة فكان يأمر بدوابه لتسرج ، فكان يقرأ قبل أن يفرغ – يعني القرآن ، ومن أعظم المناسبات لتخصيص داود عليه السلام وزبوره بالذكر هنا ذكر البعث الذي هذا مقامه فيه صريحاً ، وكذا ذكر النار مع خلو التوراة عن

ذلك ، أما البعث فلا ذكر له فيها أصلاً ، وأما النار فلم يذكر شيء مما يدل عليها إلا الجحيم في موضع واحد ، وأما الزبور فذكر فيه النار والهاوية والجحيم في غير موضع ، وأما البعث فصرح به ، وهو ظاهر في كونه بالروح والجسد ، قال في المزمور الثالث بعد المائة : نفسي تبارك الرب ، الرب إلهي عظيم جداً ، لبس المجد ، وعظيم البهاء ، وتجلل بالنور كالرداء ، ومد السماء كالخباء ، جعل الماء أساسها ، واستوى على السحاب ، ومشى على أجنحة الرياح ، خلق ملائكته أرواحاً وخدمه ناراً واقدة ، وتجلل بالغمر كالرداء ، وعلى الجبال تقف المياه ، ومن رجزك قهرت ، ومن صوت رعدك تجزع الجبال عالية ، والبقاع منهبطة في الأماكن التي أسست ، جعلت حداً لا تتجاوزه ، لا تعود تغطي الأرض ، أرسل الماء عيوناً في الأودية ، وبين الجبال تجري المياه لتسقي حيوان البر ، وتروي عطاش الوحوش ، يقع عليها طائر السماء إلى أن قال : وكل بحكمة صنعت ، امتلأت الأرض من خليقتك ، هذا البحر العظيم السعة فيه حيتان لا تحصى كبار وصغار ، وفيه تسلك السفن ، وهذا التنين الذي خلقته ليتعجب منه ، والكل إياك يرجون لتعطيهم طعامهم في حينه ، فإذا أنت أعطيتهم يعيشون ، وعند بسط يدك بالطيبات يشبعون ، وحين تصرف وجهك يجزعون ، تنزع أرواحهم فيموتون ، وإلى التراب يرجعون ، ترسل روحك فيخلقون ، وتجدد وجه الأرض دفعة أخرى ، ويكون مجد الرب إلى الأبد – انتهى .

فكأن ذلك جواب لقول من لعله يقول للعرب من اليهود : إن الأمر كما تقولون في أنه لا قيامة - كما يقوله بعض زنادقتهم كما ذكر عنهم في نص الإنجيل وكما نقل عنهم في سورة النساء أنهم قالوا : أنتم أهدى سبيلاً ، ودينكم خير من دين محمد ، وفي الزبور - كما تقدم في أول السورة عن توراة موسى عليه الصلاة والسلام - ألا تتخذوا من دون الله وكيلاً ، وذلك من أعظم مقاصد السورة ، قال في المزمور الخامس والأربعين بعد المائة : لا تتوكلوا على الرؤساء ولا على بني البشر الذين ليس عندهم خلاص ، فإن أرواحهم تفارقهم ويعودون إلى ترابهم ، في ذلك اليوم تبطل أعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 391 . 396﴾

(12/458)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾

فالمعنى أن القوم استبعدوا أن يردهم إلى حال الحياة بعد أن صاروا عظاماً ورفاتاً .

وهي وإن كانت صفة منافية لقبول الحياة بحسب الظاهر لكن قدروا انتهاء هذه الأجسام بعد الموت إلى صفة أخرى أشد منافاة لقبول الحياة من كونها عظاماً ورفاتاً مثل أن تصير حجارة أو حديداً ، فإن المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العظمية وبين قبول الحياة ، وذلك أن العظم قد كان جزءاً من بدن الحي .

أما الحجارة والحديد فما كانا ألبتة موصوفين بالحياة ، فبتقدير أن تصير أبدان الناس موصوفة بصفة الحجرية والحديدية بعد الموت ، فإن الله تعالى يعيد الحياة إليها ويجعلها حياً عاقلاً كما كان ، والدليل على صحة ذلك أن تلك الأجسام قابلة للحياة والعقل إذ لو لم يكن هذا القبول حاصلاً لما حصل العقل والحياة لها في أول الأمر .

وإله العالم عالم بجميع الجزئيات فلا تشتبه عليه أجزاء بدن زيد المطيع بأجزاء بدن عمرو العاصي .

وقادر على كل الممكنات ، وإذا ثبت أن عود الحياة إلى تلك الأجزاء ممكن في نفسه وثبت أن إله العالم عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات ، كان عود الحياة إلى تلك الأجزاء ممكناً قطعاً ، سواء صارت عظاماً ورفاتاً أو صارت شيئاً أبعد من العظم في قبول الحياة وهي أن تصير حجارة أو حديداً ، فهذا تقرير هذا الكلام بالدليل العقلي القاطع ، وقوله : ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً﴾ ليس المراد منه الأمر بل المراد أنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله تعالى عن الإعادة ، وذلك كقول القائل للرجل : أتطمع في وأنا فلان فيقول : كن

من شئت كن ابن الخليفة، فسأطلب منك حقي.

فإن قيل: ما المراد بقوله: ﴿أَوْ خَلْقًا﴾ .

(13/458)

قلنا: المراد أن كون الحجر والحديد قابلاً للحياة أمر مستبعد، فقيل لهم: فافرضوا شيئًا آخر أبعد عن قبول الحياة من الحجر والحديد بحيث يستبعد عقلكم كونه قابلاً للحياة وعلى هذا الوجه فلا حاجة إلى أن يتعين ذلك الشيء، لأن المراد أن أبدان الناس وإن انتهت بعد موتها إلى أي صفة فرضت وأي حالة قدرت وإن كانت في غاية البعد عن قبول الحياة فإن الله تعالى قادر على إعادة الحياة إليها، وإذا كان المراد من الآية هذا المعنى فلا حاجة إلى تعيين ذلك الشيء، وقال ابن عباس: المراد منه الموت، يعني لو صارت أبدانكم نفس الموت فإن الله تعالى يعيد الحياة إليها، واعلم أن هذا الكلام إنما يحسن ذكره على سبيل المبالغة مثل أن يقال: لو كنت عين الحياة فالله يميتك ولو كنت عين الغنى فإن الله يفقرك، فهذا قد ذكر على سبيل المبالغة، أما في نفس الأمر فهذا محال، لأن أبدان الناس أجسام والموت عرض والجسم لا ينقلب عرضاً ثم بتقدير أن ينقلب عرضاً فالموت لا يقبل الحياة لأن أحد الضدين يمتنع اتصافه بالضد الآخر، وقال مجاهد: يعني السماء والأرض.

ثم قال : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ والمعنى أنه لما قال لهم : كونوا حجارة أو حديداً أو شيئاً أبعد في قبول الحياة من هذين الشيئين فإن إعادة الحياة إليه ممكنة فعند ذلك قالوا : من هذا الذي يقدر على إعادة الحياة إليه ، قال تعالى قل يا محمد : الذي فطركم أول مرة يعني أن القول بصحة الإعادة فرع على تسليم أن خالق الحيوانات هو الله تعالى .

فإذا ثبت ذلك فنقول : إن تلك الأجسام قابلة للحياة والعقل وإله العالم قادر لذاته عالم لذاته فلا يبطل علمه وقدرته ألبتة ، فالقادر على الابتداء يجب أن يبقى قادراً على الإعادة ، وهذا كلام تام وبرهان قوي .

(14/458)

ثم قال تعالى : ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ ﴾ قال الفراء يقال : أنغض فلان رأسه ينغضه إنغاضاً إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل وسمي الظليم نغضاً لأنه يحرك رأسه ، وقال أبو الهيثم : يقال للرجل إذا أخبر بشيء فحرك رأسه إنكاراً له قد أنغض رأسه فقوله :
﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ ﴾ يعني يحركونها على سبيل التكذيب والاستبعاد .

ثم قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هُوَ ﴾ واعلم أن هذا السؤال فاسد لأنهم حكموا بامتناع

الحشر والنشر بناء على الشبهة التي حكيناها ، ثم إن الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه ممكناً في نفسه ، فقولهم متى هو كلام لا تعلق له بالبحث الأول ، فإنه لما ثبت بالدليل العقلي كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بإمكانه ، فأما أنه متى يوجد فذاك لا يمكن إثباته من طريق العقل ، بل إنما يمكن إثباته بالدلائل السمعية فإن أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف وإلا فلا سبيل إلى معرفته .

واعلم أنه تعالى بين في القرآن أنه لا يطلع أحداً من الخلق على وقته المعين ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ [لقمان : 34] وقال : ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ [الأعراف : 187] وقال : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه : 15] فلا جرم .

قال تعالى : ﴿ قُلْ عسى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ قال المفسرون عسى من الله واجب معناه أنه قريب .

فإن قالوا : كيف يكون قريباً وقد انقرض ستمائة سنة ولم يظهر ؟

(15/458)

قلنا : إذا كان ما مضى أكثر مما بقي كان الباقي قريباً قليلاً ، ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ وفيه قولان : الأول : أنه خطاب مع الكفار بدليل أن ما قبل هذه الآية كله

خطاب مع الكفار، ثم نقول انتصب يوماً على البدل من قوله ﴿ قريباً ﴾، والمعنى عسى أن يكون البعث يوم يدعوكم أي بالنداء الذي يسمعكم وهو النفخة الأخيرة كما قال: ﴿ يَوْمَ يُنَادِ المناد مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [ق : 41] يقال: إن إسرافيل ينادي أيتها الأجساد البالية والعظام النخرة والأجزاء المتفرقة عودي كما كنت بقدرة الله تعالى وبإذنه وتكوينه، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُو الداع إلى شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ [القمر : 6] وقوله: ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أي تجيبون والاستجابة موافقة الداعي فيما دعا إليه وهي الإجابة إلا أن الاستجابة تقتضي طلب الموافقة فهي أوكد من الإجابة، وقوله: ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ قال سعيد بن جبير: يخرجون من قبورهم وينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون: سبحانك وبحمدك، فهو قوله: ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ وقال قتادة بمعرفته وطاعته، وتوجيه هذا القول أنهم لما أجابوا بالتسبيح والتحميد كان ذلك معرفة منهم وطاعة ولكنهم لا ينفعهم ذلك في ذلك اليوم.

فلهذا قال المفسرون: حمدوا حين لا ينفعهم الحمد، وقال أهل المعاني: تستجيبون بحمده.

أي تستجيبون حامدين كما يقال: جاء بغضبه أي جاء غضبان وركب الأمير بسيفه أي وسيفه معه وقال صاحب "الكشاف": ﴿ بحمده ﴾ حال منهم أي حامدين، وهذا مبالغة في انقيادهم للبعث كقولك لمن تأمره بعمل يشق عليه ستأتي به وأنت حامد شاكر،

أي ستنتهي إلى حالة تحمد الله وتشكره على أن اكتفي منك بذلك العمل وهذا يذكر في معرض التهديد .

(16/458)

ثم قال : ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ قال ابن عباس يريد بين النفختين الأولى والثانية فإنه يزال عنهم العذاب في ذلك الوقت ، والدليل عليه قوله في سورة يس : ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [يس : 52] فظنهم بأن هذا لبث قليل عائد إلى لبثهم فيما بين النفختين ، وقال الحسن : معناه تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل فهذا يرجع إلى استقلال مدة اللبث في الدنيا وقيل المراد استقلال لبثهم في عرصة القيامة ؛ لأنه لما كانت عاقبة أمرهم الدخول في النار استقصروا مدة لبثهم في برزخ القيامة .

القول الثاني : أن الكلام مع الكفار تم عند قوله : ﴿ عسى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ وأما قوله : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ فهو خطاب مع المؤمنين لا مع الكافرين لأن هذا الكلام هو اللائق بالمؤمنين لأنهم يستجيبون لله بحمده ، ويحمدونه على إحسانه إليهم ، والقول الأول هو المشهور ، والثاني ظاهر الاحتمال .

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ

عَدُوًّا مُبِينًا (53) ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ﴾ فيه قولان :

القول الأول : أن المراد به المؤمنون ، وذلك لأن لفظ العباد في أكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين قال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الذين يَسْتَمِعُونَ القول ﴾ [الزمر : 17 ، 18] وقال : ﴿ فادخلى فِى عِبَادِى ﴾ [الفجر : 29] وقال : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ [الإنسان : 6] .

(17/458)

إذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى لما ذكر الحجة اليقينية في إبطال الشرك وهو قوله : ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِى العرش سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 42] وذكر الحجة اليقينية في صحة المعاد وهو قوله : ﴿ قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء : 51] قال في هذه الآية وقل يا محمد لعبادي إذا أردتم إيراد الحجة على المخالفين فاذكروا تلك الدلائل بالطريق الأحسن .

وهو أن لا يكون ذكر الحجة مخلوطاً بالشتم والسب ، ونظير هذه الآية قوله : ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ [النحل : 125] وقوله : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ

الكتاب إِلاَّ بالتي هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : 46] وذلك لأن ذكر الحجة لو اختلط به شيء من السب والشتم لقابلوكم بمثله كما قال : ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : 108] ويزداد الغضب وتتكامل النفرة ويمتنع حصول المقصود ، أما إذا وقع الاقتصار على ذكر الحجة بالطريق الأحسن الخالي عن الشتم والإيذاء أثر في القلب تأثيراً شديداً فهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ التى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ثم إنه تعالى نبه على وجه المنفعة في هذا الطريق فقال : ﴿ إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ جامعاً للفريقين أي متى صارت الحجة مرة ممزوجة بالبذاءة صارت سبباً لثوران الفتنة .

(18/458)

ثم قال : ﴿ إِنَّ الشيطان كَانَ للإنسان عَدُوّاً مُّبِيناً ﴾ والمعنى : أن العداوة الحاصلة بين الشيطان وبين الإنسان عداوة قديمة قال تعالى حكاية عنه : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أيمانهم وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ [الأعراف : 17] وقال : ﴿ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ للإنسان اكفر فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنّي بَرِيء منكَ إِنّي أَخَافُ الله رَبَّ العالمين ﴾ [الحشر : 16] وقال : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم ﴾ [الأنفال : 48] وقال : ﴿ لاَ غَالِبَ

لَكُمُ اليومِ مِنَ الناس وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنِي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ ﴾ [الأنفال : 48] .

ثم قال تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ واعلم أنا إنما تكلم الآن على تقدير أن قوله تعالى : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ﴾ المراد به المؤمنون ، وعلى هذا التقدير فقوله : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ خطاب مع المؤمنين ، والمعنى : إن يشأ يرحمكم ، والمراد بتلك الرحمة الإنجاء من كفار مكة وأذاهم أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم .

ثم قال : ﴿ وَمَا أرسلناك ﴾ يا محمد ﴿ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ أي حافظاً وكفيلاً فاشتغل أنت بالدعوة ولا شيء عليك من كفرهم فإن شاء الله هدايتهم هداهم ، وإلا فلا .

والقول الثاني : أن المراد من قوله : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى ﴾ الكفار ، وذلك لأن المقصود من هذه الآيات الدعوة ، فلا يبعد في مثل هذا الموضع أن يخاطبوا بالخطاب الحسن ليصير ذلك سبباً لجذب قلوبهم وميل طباعهم إلى قبول الدين الحق ، فكأنه تعالى قال : يا محمد قل لعبادي الذين أقروا بكونهم عباداً لي يقولوا التي هي أحسن .

(19/458)

وذلك لأنا قبل النظر في الدلائل والبينات نعلم بالضرورة أن وصف الله تعالى بالتوحيد والبراءة عن الشركاء والأضداد أحسن من إثبات الشركاء والأضداد ، ووصفه بالقدرة

على الحشر والنشر بعد الموت أحسن من وصفه بالعجز عن ذلك ، وعرفهم أنه لا ينبغي لهم أن يصروا على تلك المذاهب الباطلة تعصباً للأسلاف ، لأن الحامل على مثل هذا التعصب هو الشيطان ، والشيطان عدو ، فلا ينبغي أن يلتفت إلى قوله ثم قال لهم :

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ بأن يوفقكم للإيمان والهداية والمعرفة .

وإن يشأ يمتكم ، على الكفر فيعذبكم ، إلا أن تلك المشيئة غائبة عنكم فاجتهدوا أنتم في طلب الدين الحق ، ولا تصروا على الباطل والجهل لئلا تصيروا محرومين عن السعادات الأبدية والخيرات السرمدية ، ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ أي لا تشدد الأمر عليهم ولا تغلظ لهم في القول ، والمقصود من كل هذه الكلمات : إظهار اللين والرفق لهم عند الدعوة فإن ذلك هو الذي يؤثر في القلب ويفيد حصول المقصود .

ثم قال : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السموات والأرض ﴾ والمعنى أنه لما قال قبل ذلك : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ قال بعده : ﴿ رَبّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السموات والأرض ﴾ بمعنى أن علمه غير مقصور عليكم ولا على أحوالكم بل علمه متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذوات الأرضين والسموات فيعلم حال كل واحد ويعلم ما يليق به من المصالح والمفاسد ، فلهذا السبب فضل بعض النبيين على بعض وآتى موسى التوراة وداود الزبور وعيسى الإنجيل ، فلم يبعد أيضاً أن يؤتي محمداً القرآن ولم يبعد أن يفضله على جميع

الخلق .

فإن قيل : ما السبب في تخصيص داود عليه الصلاة والسلام في هذا المقام بالذكر ؟ .

قلنا : فيه وجوه :

الوجه الأول : أنه تعالى ذكر أنه فضل بعض النبيين على بعض .

(20/458)

ثم قال : ﴿ وَءاتَيْنَا دَاوُودُ زَبُوراً ﴾ يعني أن داود كان ملكاً عظيماً ، ثم إنه تعالى لم يذكر ما آتاه من الملك وذكر ما آتاه من الكتاب ، تنبيهاً على أن التفضيل الذي ذكره قبل ذلك ، المراد منه التفضيل بالعلم والدين لا بالمال .

والوجه الثاني : أن السبب في تخصيصه بالذكر أنه تعالى كتب في الزبور أن محمداً خاتم النبيين وأن أمته خير الأمم قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور مِن بَعْدِ الذكر أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ [الأنبياء : 105] وهم محمد وأمته .

فإن قيل : هل عرف كما في فقوله : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور ﴾ .

قلنا : التنكير ههنا يدل على تعظيم حاله ، لأن الزبور عبارة عن المزبور فكان معناه الكتاب

فكان معنى التنكير أنه كامل في كونه كتاباً .

والوجه الثالث : أن السبب فيه أن كفار قريش ما كانوا أهل نظر وجدل بل كانوا يرجعون إلى اليهود في استخراج الشبهات واليهود كانوا يقولون : إنه لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فنقض الله تعالى عليهم كلامهم بإنزال الزبور على داود ، وقرأ حمزة : ﴿ زبوراً ﴾ بضم الزاي ، وذكرنا وجه ذلك في آخر سورة [النساء : 163] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 180.184 ﴾

(21/458)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قل كونوا حجارةً أو حديداً ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه إن عجبتم من إنشاء الله تعالى لكم عظاماً ولحماً فكونوا أنتم حجارة أو حديداً إن قدرتم ، قاله أبو جعفر الطبري .

الثاني : معناه أنكم : لو كنتم حجارة أو حديداً لم تفوتوا الله تعالى إذا أرادكم إلا أنه أخرجه مخرج الأمر لأنه أبلغ من الإلزام ، قاله علي بن عيسى .

الثالث : معناه لو كنتم حجارة أو حديداً لأماتكم الله ثم أحياكم . ﴿ أو خَلْقاً ممّا يكبر في صدوركم ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه عنى بذلك السموات والأرض والجبال لعظمها في النفوس ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه أراد الموت لأنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه وقد قال أمية ابن أبي الصلت :

نادوا إلههمُ ليسرع خلقهم . . . وللموت خلق للنفوس فظيعُ

وهذا قول ابن عمر وابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص .

الثالث : أنه أراد البعث لأنه كان أكبر شيء في صدروهم قاله الكلبي .

الرابع : ما يكبر في صدوركم من جميع ما استعظمتموه من خلق الله تعالى ، فإن الله يميتكم ثم يحييكم ثم يبعثكم ، قاله قتادة . ﴿ . . . فسينغضون إليك رءُوسَهُم ﴾ قال ابن عباس وقتادة ، أي يحركون رؤوسهم استهزاء وتكذيباً ، قال الشاعر :

قلت لها صلي فقالت مِضِّ . . . وحركت لي رأسها بالنغضِ

قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يدعوكم فتستجيبون بحمده ﴾ في قوله تعالى يدعوكم قولان :

أحدهما : أنه نداء كلام يسمعه جميع الناس يدعوهم الله بالخروج فيه إلى أرض المحشر .

الثاني : أنها الصيحة التي يسمعونها فتكون داعية لهم إلى الاجتماع في أرض القيامة .

وفي قوله : ﴿ فتستجيبون بحمده ﴾ أربعة أوجه :

أحدها : فتستجيبون حامدين لله تعالى بألسنتكم .

الثاني : فتستجيبون على ما يقتضي حمد الله من أفعالكم .

الثالث : معناه فستقومون من قبوركم بحمد الله لا بحمد أنفسكم .

الرابع : فتستجيبون بأمره ، قاله سفيان وابن جريج .

(22/458)

﴿ وتظنون إن لبثتم إلاّ قليلاً ﴾ فيه خمس أوجه :

أحدها : إن لبثتم إلا قليلاً في الدنيا لطول لبثكم في الآخرة ، قاله الحسن .

الثاني : معناه الاحتقار لأمر الدنيا حين عاينوا يوم القيامة ، قاله قتادة .

الثالث : أنهم لما يرون من سرعة الرجوع يظنون قلة اللبث في القبور .

الرابع : أنهم بين النفختين يرفع عنهم العذاب فلا يعذبون ، وبينهما أربعون سنة فيرونها لاستراحتهم قليقلة ؛ قاله الكلبي .

الخامس : أنه لقرب الوقت ، كما قال الحسن كأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل .

قوله عز وجل : ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾

فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه تصديق النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به .

﴿ إنّ الشيطان ينزغُ بينهم ﴾ في تكذيبه .

الثاني : أنه امتثال أوامر الله تعالى ونواهيه ، قاله الحسن .

الثالث : أنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الرابع : أن يرد خيراً على من شتمه .

وقيل إنها نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد شتمه رجل من بعض كفار قريش ، فهم به عمر ، فأنزل الله تعالى فيه ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ إن يشاء يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : إن يشأ يرحمكم بالهداية أو يعذبكم بالإضلال .

الثاني : إن يشاء يرحمكم فينجيكم من أعدائكم أو يعذبكم بتسلطهم عليكم ، قاله الكلبي .

الثالث : إن يشأ يرحمكم بالتوبة أو يعذبكم بالإقامة ، قاله الحسن :

﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما وكلناك أن تمنعهم من الكفر بالله سبحانه ، وتجبرهم على الإيمان به .

الثاني : ما جعلناك كفيلاً لهم تؤخذ بهم ، قاله الكلبي ، قاله الشاعر :

ذكرت أبا أَرْوَى فَبِتّ كأنني . . . بِرَدِّ الأمور الماضيات وكيلُ

وكيل : أي كفيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(23/458)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً ﴾ الآية ،

المعنى : قل لهم يا محمد كونوا إن استطعتم هذه الأشياء الصعبة الممتنعة التأتي ، لا بد من بعثكم ، وقوله ﴿ كونوا ﴾ هو الذي يسميه المتكلمون التعجيز من أنواع لفظة افعل ، وبهذه الآية مثل بعضهم ، وفي هذا عندي نظر : وإنما التعجيز حيث يقتضي بالأمر فعل ما لا يقدر عليه المخاطب ، كقوله تعالى : ﴿ فادرؤوا عن أنفسكم الموت ﴾ [آل عمران : 168] ، ونحوه ، وأما هذه الآية ، فمعناها : كونوا بالتوهم والتقدير كذا وكذا ، الذي فطركم كذلك ، هو يعيدكم ، وقال مجاهد أراد ب " الخلق " ، الذي يكبر في الصدور : السماوات والأرض والجبال ، وقال ابن عمر وابن عباس وعبد الله بن عمرو والحسن وابن جبير والضحاك : أراد الموت ، وقال قتادة ومجاهد : بل أحال على فكرتهم عموماً ، ورجحه الطبري ، وهذا هو الأصح ، لأنه بدأ بشيء صلب ، ثم تدرج القول إلى أقوى منه ، ثم أحال

على فكرهم ، إن شاؤوا في أشد من الحديد ، فلا وجه لتخصيص شيء دون شيء ، ثم احتج عليهم عز وجل في الإعادة بالفطرة الأولى ، من حيث خلقهم ، واخترعهم من تراب ، فكذلك يعيدهم إذا شاء ، لا رب غيره ، وقوله ﴿ فسينغضون ﴾ معناه : يرفعون ويخفضون يريد على جهة التكذيب ، قال ابن عباس : والاستهزاء .

قال الزجاج : تحريك من يبطل الشيء ويستبطئه ، ومنه قول الشاعر : [الرجز]

أنغض نحوي رأسه وأقنعا . . . كأنما أبصر شيئاً أطمعا

ويقال نغضت السنّ إذا تحركت وقال ذو الرمة : [الطويل]

ظعائن لم يسكن أكناف قرية . . . بسيف ولم تنغض بهن القناطر

قال الطبري وابن سلام و ﴿ عسى ﴾ من الله واجبة والمعنى : وهو قريب .

قال القاضي أبو محمد : وهذه إنما هي من النبي عليه السلام ، ولكنها بأمر الله ، فيقربها ذلك من الوجوب ، وكذلك قال عليه السلام " بعثت أنا والساعة كهاتين " ، وفي ضمن اللفظ توعد لهم .

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾

﴿ يوم ﴾ : بدل من قوله ﴿ قريباً ﴾ [الإسراء : 51] ، ويظهر أن يكون المعنى : هو يوم ، جواباً لقولهم : ﴿ متى هو ﴾ [ذاته] ويريد : يدعوكم من قبوركم بالنفخ في الصور ، لقيام الساعة ، وقوله ﴿ فتستجيبون ﴾ أي بالقيام والعودة والنهوض نحو الدعوة ، وقوله : ﴿ بحمده ﴾ ، حكى الطبري عن ابن عباس أنه قال معناه : بأمره ، وكذلك قال ابن جريج ، وقال قتادة معناه : بطاعته ومعرفته ، وهذا كله تفسير لا يعطيه اللفظ ولا شك أن جيمع ذلك بأمر الله تعالى وإنما معنى ﴿ بحمده ﴾ : إما أن جميع العالمين ، كما قال ابن جبير ، يقومون وهم يحمدون الله ويحمدونه لما يظهر لهم من قدرته ، وإما أن قوله ﴿ بحمده ﴾ هو كما تقول لرجل خصمته وحاورته في علم قد أخطأت بحمد الله ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم في هذه الآيات : عسى ، أن الساعة قريبة ، يوم يدعون فيقومون بخلاف ما تعتقدون الآن ، وذلك بحمد الله على صدق خبري ، نحا هذا المنحى الطبري ولم يخلصه ، وقوله تعالى ﴿ وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما أنه أخبر أنهم لما رجعوا إلى حالة الحياة ، وتصرف الأجساد ، وقع لهم ظن أنهم لم ينفصلوا عن حال الدنيا إلا قليلاً لمغيب علم مقدار الزمن عنهم ، إذ من في الآخرة لا يقدر زمن الدنيا ، إذ هم لا محالة أشد مفارقة لها من النائمين ، وعلى هذا التأويل عول الطبري ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ [المؤمنون : 112-113] ، والآخر : أن يكون الظن بمعنى اليقين فكأنه قال لهم : يوم تدعون فتستجيبون

بحمد الله ، وتتيقنون أنكم إنما لبثتم قليلاً ، من حيث هو منقض منحصر ، وهذا كما يقال في الدنيا بأسرها : متاع قليل ، فكأنه قلة قدر على أن الظن بمعنى اليقين يقلق ها هنا لأنه في شيء قد وقع ، وإنما يجيء الظن بمعنى اليقين فيما لم يخرج بعد إلى الكون والوجود ، وفي الكلام تقوية للبعث ، كأنه يقول : أنت

(25/458)

أيها المكذب بالحشر ، الذي تعتقد أنك لا تبعث أبداً ، لا بد أن تدعى للبعث ، فتقوم ، وترى أنك إنما لبثت قليلاً منقضياً منصرماً . وحكى الطبري عن قتادة أنهم لما رأوا هول يوم القيامة احتقروا الدنيا فظنوا أنهم لبثوا فيها قليلاً . وقوله تعالى : ﴿ وقل لعبادى ﴾ الآية اختلف النحويون في قوله ﴿ يقولوا ﴾ فمذهب سيبويه ، أنه جواب شرط مقدر تقديره : وقل لعبادي : إنك إن تقل لهم يقولوا ، وهذا على أصله ، في أن الأمر لا يجاب ، وإنما يجاب معه شرط مقدر ، ومذهب الأخفش : أن الأمر يجاب ، وأن قوله ها هنا ﴿ يقولوا ﴾ إنما هو جواب ﴿ قل ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : ولا يصح المعنى على هذا بأن يجعل ﴿ قل ﴾ مختصة بهذه الألفاظ على معنى أن يقول لهم النبي : قولوا التي هي أحسن ؛ وإنما يصح بأن يكون ﴿ قل

﴿ أمراً بالمحاورة في هذا المعنى بما أمكن من الألفاظ ، كأنه قال بين لعبادي ، فتكون ثمرة ذلك القول والبيان قولهم ﴿ التي هي أحسن ﴾ ، وهذا المعنى يجوزه مذهب سيبويه الذي قدمنا ومذهب أبي العباس المبرد : أن ﴿ يقولوا ﴾ جواب لأمر محذوف ، تقديره : وقل لعبادي " قولوا التي هي أحسن " يقولوا فحذف وطوي الكلام ، ومذهب الزجاج : أن ﴿ يقولوا ﴾ جزم بالأمر ، بتقدير ﴿ قل لعبادي ﴾ ليقولوا ، فحذفت اللام لتقدم الأمر ، وحكى أبو علي في الحلبيات في تضاعيف كلامه : أن مذهب أبي عثمان المازني في ﴿ يقولوا ﴾ أنه فعل مبني ، لأنه مضارع حل محل المبني الذي هو فعل الأمر ؛ لأن المعنى ﴿ قل لعبادي ﴾ قولوا ، واختلف الناس في ﴿ التي هي أحسن ﴾ فقالت فرقة : هي لا إله إلا الله ، ويلزم على هذا أن يكون قوله ﴿ لعبادي ﴾ يريد به جميع الخلق ، لأن جميعهم مدعو إلى لا إله إلا الله .

(26/458)

ويجيء قوله بعد ذلك ﴿ إن الشيطان ينزع بينهم ﴾ غير مناسب للمعنى ، إلا على تكره ، بأن يجعل ﴿ بينهم ﴾ بمعنى خلالهم ، وأثناءهم ، ويجعل النزع بمعنى الوسوسة والإضلال ، وقال الجمهور : ﴿ التي هي أحسن ﴾ هي المحاورة الحسنى بحسب معنى قال الحسن :

يقول : يغفر الله لك ، يرحمك الله ، وقوله ﴿ لعبادي ﴾ خاص بالمؤمنين ، فكأن الآية بمعنى قوله عليه السلام ، " وكونوا عباد الله إخواناً " ثم اختلفوا ، فقالت فرقة : أمر الله المؤمنين فيما بينهم بحسن الأدب ، وخفض الجناح ، وإلانة القول ، واطراح نزغات الشيطان ، وقالت فرقة : إنما أمر الله في هذه الآية المؤمنين بالإنة القول للمشركين بمكة ، أيام المهادنة ، وسبب الآية : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه شتمه بعض الكفرة ، فسبه عمر وهم بقتله ، فكاد أن يثير فتنة ، فنزلت الآية وهي منسوخة بآية السيف ، وقرأ الجمهور : " ينزَغ " بفتح الزاي ، وقرأ طلحة بن مصرف : " ينزغ " ، بكسر الزاي على الأصل قال أبو حاتم : لعلها لغة ، والقراءة بالفتح ، ومعنى النزغ : حركة الشيطان بسرعة ليوجب فساداً ، ومنه قول النبي عليه السلام " لا يشر أحدكم على أخيه بالسلاح لا ينزغ الشيطان في يده " فهذا يخرج اللفظة عن الوسوسة ، و " عداوة الشيطان البينة " هي قصته مع آدم عليه السلام فما بعد ، وقوله تعالى : ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ الآية ، هذه الآية تقوي أن التي قبلها هي ما بين العباد المؤمنين وكفار مكة ؛ وذلك أن هذه المخاطبة في قوله ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ هي لكفار مكة بدليل قوله ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلاً ﴾ فكأن الله عز وجل أمر المؤمنين أن لا يخاشنوا الكفار في الدين ثم قال للكفار إنه أعلم بهم ، ورجاهم وخوفهم ، ومعنى ﴿ يرحمكم ﴾ بالتوبة عليكم من الكفر ، قاله ابن جريج وغيره ، ثم قال النبي صلى الله عليه

وسلم : فإنما عليك البلاغ ، ولست بوكيل على إيمانهم ولا بد ، فتتناسب الآيات بهذا التأويل ثم قال تبارك وتعالى لنبيه عليه

(27/458)

السلام ﴿ وربك أعلم بمن في السماوات والأرض ﴾ وهو الذي فضل بعض الأنبياء على بعض بحسب علمه فيهم ، فهذه إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم وإلى استبعاد قريش أن يكون الرسول بشراً ، المعنى : لا تنكروا أمر محمد عليه السلام ، وإن أوتي قرآناً ، فقد فضل النبيون ، وأوتي داود زبوراً ، فالله أعلم حيث يجعل رسالاته ، وتفضيل بعض الرسل ، هو إما بهذا الإخبار المجمل دون أن يسمى المفضول وعلى هذا يتجه لنا أن نقول محمد أفضل البشر ، وقد نهى عليه السلام عن تعيين أحد منهم في قصة موسى ويونس ، وإما أن يكون التفضيل مقسماً فيهم : أعطي هذا التكليم ، وأعطيت هذه الخلفة ، ومحمد الخمس ، وعيسى الإحياء ، فكلهم مفضول على وجه فاضل على الإطلاق ، وقوله ﴿ بمن في السماوات ﴾ ، الباء متعلقة بفعل تقديره ، علم من في السماوات ذهب إلى هذا أبو علي لأنه لو علقها ب ﴿ أعلم ﴾ لاقتضى أنه ليس بأعلم بغير ذلك .

قال القاضي أبو محمد : وهذا لا يلزم ويصح تعلقها ب ﴿ أعلم ﴾ ولا يلتفت لدليل

الخطاب وقرأ الجمهور : " زَبورا ً" بفتح الزاي ، وهو فَعول بمعنى مفعول ، وهو قليل لم يجيء إلا في قدوع وركوب وحلوب ، وقرأ حمزة ويحيى والأعمش " زبُورا ً" بضم الزاي ، وله وجهان : أحدهما أن يكون جمع زبور بحذف الزائد ، كما قالوا في جمع ظريف ، ظروف ، والآخر ، أن يكون جمع زبور كأن ما جاء به داود ، جزيء أجزاء كل جزء منها زبر ، سمي بمصدر زبر يزبر ، ثم جمع تلك الأجزاء على زبور ، فكأنه قال : آتينا داود كتبا ً ، ويحتمل أن يكون جمع زبر الذي هو العقل وسداد النظر ، لأن داود أوتي من المواعظ والوصايا كثيرا ً ، ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم ، في آخر كتاب مسلم : " وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له " ، قال قتادة زبور داود مواعظ وحكم ودعاء ليس فيه حلال ولا حرام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(28/458)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أو خلقاً مما يَكْبُر في صدوركم ﴾

فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الموت ، قاله ابن عمر ، وابن عباس ، والحسن ، والأكثرون .

والثاني : أنه السماء والأرض والجبال ، قاله مجاهد .

والثالث : [أنه] ما يكبر في صدوركم ، من كل ما استعظموه من خلق الله تعالى ، قاله قتادة .

فإن قيل : كيف قيل لهم : ﴿ كونوا حجارة أو حديداً ﴾ وهم لا يقدرون على ذلك ؟

فعنه جوابان .

أحدهما : إِن قدرتم على تغيُّر حالاتكم ، فكونوا حجارة أو أشدَّ منها ، فانا نميتكم ، وننفِّذ أحكامنا فيكم ، ومثل هذا قولك للرجل : اصعد إِلى السماء فاني لاحقك .

والثاني : تصوَّروا أنفسكم حجارة أو أصلب منها ، فإنا سنُبيدكم ، قال الأحوص :

إِذَا كُنْتَ عَزْهَاةً عَنِ اللَّهْوِ والصِّبى . . .
فَكُنْ حَجَراً مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلْمَدَا

معناه : فتصوَّر نفسك حَجَرا ، وهؤلاء قوم اعترفوا أن الله خالقهم ، وجحدوا البعث ، فأُعلموا أن الذي ابتدأ خلقهم هو الذي يحييهم .

قوله تعالى : ﴿ فسيُنْغِضون إِليك رؤوسهم ﴾ قال قتادة : يحرِّكونها تكذيباً واستهزاءً .

قال الفراء : يقال : أنغض رأسه : إِذا حركه إِلى فوق وإِلى أسفل .

وقال ابن قتيبة : المعنى : يحرِّكونها ، كما يحرِّك الآيس من الشيء والمستبعدُ [له] رأسَه ، يقال : نَغَصَتْ سِنُّه ، إِذا تحركت .

قوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هو؟ ﴾ يعنون البعث ﴿ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ أي : هو قريب .

ثم بيَّن متى يكون فقال : ﴿ يوم يدعوكم ﴾ يعني : من القبور بالنداء الذي يُسمعكم ، وهو النفخة الأخيرة ﴿ فتستجيبون ﴾ أي : تجيبون .

قال مقاتل : يقوم إِسرافيل على صخرة بيت المقدس يدعو أهل القبور في قرن ، فيقول : أيتها العظام البالية ، وأيتها اللحوم المتمزقة ، وأيتها الشعور المتفرقة ، وأيتها العروق المتقطعة ، اخرجوا إِلى فصل القضاء لتُجزَوا بأعمالكم ، فيسمعون الصوت ، فيسعَون إِليه .

(29/458)

وفي معنى ﴿ بحمده ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : بأمره ، قاله ابن عباس ، وابن جريج ، وابن زيد .

والثاني : يخرجون من القبور وهم يقولون : سبحانك وبحمدك ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : أن معنى ﴿ بحمده ﴾ : بمعرفته ، وطاعته ، قاله قتادة .

قال الزجاج : تستجيبون مُقرِّين أنه خالِقكم .

والرابع : تجيبون بحمد الله لا بحمد أنفسكم ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى: ﴿ وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ في هذا الظن قولان.

أحدهما: أنه بمعنى اليقين.

والثاني: أنه على أصله.

وأين يظنون أنهم لبثوا قليلاً؟ فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: بين النفختين، ومقداره أربعون سنة، ينقطع في ذلك العذاب عنهم، فيرون لبثهم في زمان الراحة قليلاً، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: في الدنيا، لعلمهم بطول اللبث في الآخرة، قاله الحسن.

والثالث: في القبور، قاله مقاتل.

فعلى هذا إنما قصر اللبث في القبور عندهم، لأنهم خرجوا إلى ما هو أعظم عذاباً من عذاب القبور.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية خطاب للمؤمنين، لأنهم يجيبون المنادي وهم يحمدون الله على إحسانه إليهم، ويستقلُّون مدة اللبث في القبور، لأنهم كانوا غير معذَّبين.

قوله تعالى: ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾

في سبب نزولها قولان.

أحدهما: أن المشركين كانوا يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، بالقول والفعل، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية.

قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن رجلاً من الكفار شتم عمر بن الخطاب ، فهمَّ به عمر رضي الله عنه ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل ؛ والمعنى : وقل لعبادي المؤمنين يقولوا الكلمة التي هي أحسن .

واختلفوا فيمن تقال له هذه الكلمة على قولين .

أحدهما : أنهم المشركون ، قال الحسن : تقول له : يَهديك الله ، وما ذكرنا من سبب نزول الآية يؤيد هذا القول .

(30/458)

وذهب بعضهم إِلى أنهم أُمروا بهذه الآية بتحسين خطاب المشركين قبل الأمر بقتالهم ، ثم نُسخت هذه الآية بآية السيف .

والثاني : أنهم المسلمون ، قاله ابن جرير .

والمعنى : وقل لعبادي يقول بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاورة والمخاطبة .

وقد روى مبارك عن الحسن قال : "التي هي أحسن" أن يقول له مثل قوله ، ولكن يقول له : يرحمك الله ، ويغفر الله لك .

قال الأخفش : وقوله : ﴿ يقولوا ﴾ مثل قوله : "يقيموا الصلاة" ، وقد شرحنا ذلك في

سورة [ابراهيم : 31] .

قوله تعالى : ﴿ إِن الشيطان يَنزَغ بينهم ﴾ أي : يُفسد ما بينهم ، والعدوّ المُبَين : الظاهر العداوة .

قوله تعالى : ﴿ ربُّكم أعلم بكم ﴾

فيمن خوطب بهذا قولان .

أحدهما : أنهم المؤمنون .

ثم في معنى الكلام قولان .

أحدهما : ﴿ إِن يشأ يرحمكم ﴾ فينجيكم من أهل مكة ، ﴿ وإِن يشأ يعذبكم ﴾ فيسلطهم عليكم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : إِن يشأ يرحمكم بالتوبة ، أو يعذبكم بالإِقامة على الذنوب ، قاله الحسن .

والثاني : أنهم المشركون .

ثم في معنى الكلام قولان .

أحدهما : إِن يشأ يرحمكم ، فيهديكم للإيمان ، أو إِن يشأ يعذِّبكم ، فيميتكم على الكفر ، قاله مقاتل .

والثاني : أنه لما نزل القحط بالمشركين فقالوا : ﴿ ربَّنا اكشف عنا العذاب إِنّا مؤمنون ﴾ [الدخان : 12] ، قال الله تعالى : ﴿ ربُّكم أعلم بكم ﴾ مَنْ الذي يؤمن ، ومن [الذي] لا

يؤمن ، ﴿ إِن يشأ يرحمكم ﴾ فيكشف القحط عنكم ﴿ أو إِن يشأ يعذبكم ﴾ فيتركه عليكم ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

قال ابن الأنباري : و"أو" هاهنا دخلت لسَعَة الأمرين عند الله تعالى ، وأنه لا يردّ عنهما ، فكانت ملحقة ب "أو" المبيحة في قولهم : جالس الحسن ، أو ابن سيرين ، يعنون : قد وسَّعنا لك الأمر .

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلاً ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : كفيلاً تُؤخذ بهم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : حافظاً وربّاً ، قاله الفراء .

(31/458)

والثالث : كفيلاً بهدايتهم وقادراً على إِصلاح قلوبهم ، ذكره ابن الأنباري .

وذهب بعض المفسرين إِلى أن هذا منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ وربك أعلم بمن في السموات والأرض ﴾

لأنه خالِقُهم ، فهدى من شاء ، وأضلَّ من شاء ، وكذلك فضَّل بعض النبيين على بعض ، وذلك عن حكمة منه وعِلم ، فخلق آدم بيده ، ورفع إِدريس ، وجعل الذرِّية لنوح ، واتخذ

ابراهيم خليلاً ، وموسى كليماً ، وجعل عيسى روحاً ، وأعطى سليمان مُلْكاً جسيماً ، ورفع محمداً صلى الله عليه وسلم فوق السموات ، وغفر له ما تقدم من ذنْبه وما تأخر .

ويجوز أن يكون المفضَّلون أصحابَ الكتب ، لأنه ختم الكلام بقوله : ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ .

وقد شرحنا معنى "الزبور" في سورة [النساء : 163] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(32/458)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾

أي قل لهم يا محمد كونوا على جهة التعجيز حجارة أو حديداً في الشدّة والقوة .

قال الطبري : أي إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاماً ولحماً فكونوا أنتم حجارة أو حديداً إن قَدرتم .

وقال عليّ بن عيسى : معناه أنكم لو كنتم حجارة أو حديداً لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم ؛ إلا أنه خرج مخرج الأمر ، لأنه أبلغ في الإلزام .

وقيل : معناه لو كنتم حجارة أو حديداً لأعادكم كما بدأكم ، ولأماتكم ثم أحياكم .

وقال مجاهد : المعنى كونوا ما شئتم فستعادون .

النحاس : وهذا قول حسن ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة ، وإنما المعنى أنهم قد أقرّوا بخالقهم وأنكروا البعث فقيل لهم استشعروا أن تكونوا ما شئتم ، فلو كنتم حجارة أو حديداً لبُعثتم كما خُلقتم أوّل مرة .

﴿ أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ قال مجاهد : يعني السموات والأرض والجبال لعظمها في النفوس .

وهو معنى قول قتادة .

يقول : كونوا ما شئتم ، فإن الله يميتكم ثم يبعثكم .

وقال ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وابن جُبير ومجاهد أيضاً وعكرمة وأبو صالح والضحاك : يعني الموت ؛ لأنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه ؛ قال أُمَيّة بن أبي الصلت :

وللمَوْتُ خَلْق في النفوس فظيع . . .

يقول : إنكم لو خُلقتم من حجارة أو حديد أو كنتم الموت لأميتَنّكم ولأبعثنكم ؛ لأن القدرة التي بها أنشأتكم بها نعيدكم .

وهو معنى قوله : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ .

وفي الحديث أنه : " يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كَبْش أمْلَحَ فيذبح بين الجنة والنار "

وقيل : أراد به البعث ؛ لأنه كان أكبر في صدورهم ؛ قاله الكلبي .

﴿ فَطَرَكُمْ ﴾ خلقكم وأنشأكم .

(33/458)

﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ ﴾ أي يحرّكون رؤوسهم استهزاء ؛ يقال : نَغَضَ رأسُه يَنْغُض ويَنْغِض نَغْضاً ونُغوضاً ؛ أي تحرّك .

وأنغض رأسه أي حركه ، كالمتعجب من الشيء ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ ﴾ .

قال الراجز :

أنغض نحوي رأسه وأقنعا . . .

ويقال أيضاً : نغض فلان رأسه أي حرّكه ؛ يتعدّى ولا يتعدّى ، حكاه الأخفش .

ويقال : نَغَضت سِنّه ؛ أي تحركت وانقلعت .

قال الراجز :

ونغضت من هَرَم أسنانها . . .

وقال آخر :

لما رأتني أنغضتْ لِي الرأسا . . .

وقال آخر :

لا ماء في المَقْرَاة إن لم تنهضِ . . .

بمَسَدٍ فوق المَحالِ النُّغَّض

المحال والمحالة : البكرة العظيمة التي يستقَى بها الإبل .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ﴾ أي البعث والإعادة وهذا الوقت .

﴿ قُلْ عسى أَن يَكُونَ قَرِيباً ﴾ أي هو قريب ؛ لأن عسى واجب ؛ نظيره ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة تَكُونُ قَرِيباً ﴾ [الأحزاب : 63] .

و ﴿ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ [الشورى : 17] .

وكل ما هو آت فهو قريب .

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52)

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ الدعاء : النداء إلى المحشر بكلام تسمعه الخلائق ، يدعوهم الله تعالى فيه بالخروج .

وقيل : بالصيحة التي يسمعونها ؛ فتكون داعية لهم إلى الاجتماع في أرض القيامة .

قال صلى الله عليه وسلم : " إنكم تُدْعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا

أسماءكم " .

﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أي باستحقاقه الحمد على الإحياء .

وقال أبو سهل : أي والحمد لله ؛ كما قال :

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر . . .

لبِسْتُ ، ولا من غَدْرةٍ أتقنّع

وقيل : حامدين لله تعالى بألسنتكم .

قال سعيد بن جُبير : تخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون سبحانك وبحمدك ؛ ولكن لا ينفعهم اعتراف ذلك اليوم .

(34/458)

وقال ابن عباس : "بحمده" بأمره ؛ أي تقرّون بأنه خالقكم .

وقال قتادة : بمعرفته وطاعته .

وقيل : المعنى بقدرته .

وقيل : بدعائه إياكم .

قال علماؤنا : وهو الصحيح ؛ فإن النفخ في الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور ؛

وبالحقيقة إنما هو خروج الخلق بدعوة الحق ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ فيقومون يقولون سبحانك اللهم وبحمدك .

قال : فيوم القيامة يوم يُبدأ بالحمد ويُختم به ؛ قال الله تعالى "يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده" وقال في آخره ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزمر : 75] .

﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

يعني بين النفختين ؛ وذلك أن العذاب يُكفّ عن المعذّبين بين النفختين ، وذلك أربعون عاماً فينامون ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [ياس : 52] فيكون خاصاً للكفار .

وقال مجاهد : للكافرين هَجْعة قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم ، فإذا صِيح بأهل القبور قاموا مذعورين .

وقال قتادة : المعنى أن الدنيا تحاقرت في أعينهم وقلّت حين رأوا يوم القيامة .

الحسن : "وتظنّون إن لبثتم إلا قليلاً" في الدنيا لطول لبثكم في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

تقدّم إعرابه .

والآية نزلت في عمر بن الخطاب .

وذلك أن رجلاً من العرب شتمه ، وسبّه عمر وهَمّ بقتله ، فكادت تثير فتنة فأنزل الله تعالى فيه : "وقُلْ لِعِبادِي يقولوا التي هِي أحسن" ذكره الثعلبيّ والماوَرْدِيّ وابن عطية والواحِدِيّ.

وقيل : نزلت لما قال المسلمون : اِيذن لنا يا رسول الله في قتالهم فقد طال إيذاؤهم إيانا ، فقال : "لم أُومَرْ بعدُ بالقتال" فأنزل الله تعالى "وقل لِعِبادِي يقولوا الّتي هِي أحسن" ؛ قاله الكلبي.

(35/458)

وقيل : المعنى قل لعبادي الذين اعترفوا بأني خالقهم وهم يعبدون الأصنام ، يقولوا التي هي أحسن من كلمة التوحيد والإقرار بالنبوة.

وقيل : المعنى وقل لعبادي المؤمنين إذا جادلوا الكفار في التوحيد ، أن يقولوا الكلمة التي هي أحسن.

كما قال : ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ وقال الحسن : هو أن يقول للكافر إذا تشطط : هداك الله ! يرحمك الله ! وهذا قبل أن أمِروا بالجهاد.

وقيل : المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه ؛ وعلى هذا تكون الآية

عامّةً في المؤمن والكافر ، أي قل للجميع .

والله أعلم .

وقالت طائفة : أمر الله تعالى في هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصّةً ، بحسن الأدب وإلانة القول ، وخفض الجناح واطراح نزغات الشيطان ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : " وكونوا عباد الله إخواناً " وهذا أحسن ، وتكون الآية محكمة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بالفساد وإلقاء العداوة والإغواء .

وقد تقدّم في آخر الأعراف ويوسف .

يقال : نزغ بيننا أي أفسد ؛ قاله اليزيدي .

وقال غيره : النزغ الإغراء .

﴿ إِنَّ الشيطان كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً ﴾ أي شديد العداوة .

وقد تقدّم في البقرة .

وفي الخبر " أن قوماً جلسوا يذكرون الله عز وجل فجاء الشيطان ليقطع مجلسهم فمنعته الملائكة فجاء إلى قوم جلسوا قريباً منهم لا يذكرون الله فحرّش بينهم فتخاصموا وتواثبوا فقال هؤلاء الذاكرون قوموا بنا نصلح بين إخواننا فقاموا وقطعوا مجلسهم وفرح بذلك الشيطان " فهذا من بعض عداوته .

قوله تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾

هذا خطاب للمشركين ، والمعنى : إن يشأ يوفقكم للإِسلام فيرحمكم ، أو يميتكم على الشرك فيعذبكم ؛ قاله ابن جُريج .

و"أعلم" بمعنى عليم ؛ نحو قولهم : الله أكبر ، بمعنى كبير .

(36/458)

وقيل : الخطاب للمؤمنين ؛ أي إن يشأ يرحكم بأن يحفظكم من كفار مكة ، أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم ؛ قاله الكلبي .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ أي وما وكّلناك في منعهم من الكفر ولا جعلنا إليك إيمانهم .

وقيل : ما جعلناك كفيلاً لهم تؤخذ بهم ؛ قاله الكلبي .

وقال الشاعر :

ذكرت أبا أرْوَى فبتّ كأنني . . .

بردّ الأمور الماضيات وكيل

أي كفيل .

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السماوات والأرض وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيين على

بَعْضٍ ﴾

أعاد بعد أن قال : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ ليبيّن أنه خالقهم وأنه جعلهم مختلفين في أخلاقهم وصورهم وأحوالهم ومالهم ؛ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك : 14] .

وكذا النبيّون فضّل بعضهم على بعض عن علم منه بحالهم .

وقد مضى القول في هذا في "البقرة" .

﴿ وَآَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ الزبور : كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ؛ وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد .

أي كما آتينا داود الزبور فلا تنكروا أن يؤتى محمد القرآن .

وهو في مُحاجّة اليهود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(37/458)

وقال أبو حيان :

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) ﴾

الجديد معروف .

نغضت سنه : تحركت قال .

ونغضت من هرم أسنانها .

تنغض وتنغض نغضاً ونغوضاً ، وأنغض رأسه حركه برفع وخفض .

قال :

لما رأتني انغضت لي الرأسا . . .

وقال الآخر :

أنغض نحوي رأسه وأقنعا . . .

كأنه يطلب شيئاً أطعما

وقال الفراء : أنغض رأسه حركه إلى فوق وإلى أسفل .

وقال أبو الهيثم : إذا أخبر بشيء فحرك رأسه إنكاراً له فقد أنغض رأسه .

وقال ذو الرمّة :

ظعائن لم يسكنّ أكناف قرية . . .

بسيف ولم ينغض بهن القناطر

﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ .

قال الزمخشري : لما قالوا ﴿ أئذا كنا عظاماً ﴾ قيل لهم ﴿ كونوا حجارة أو حديداً ﴾

فردّ قوله ﴿ كونوا ﴾ على قولهم ﴿ كنا ﴾ كأنه قيل ﴿ كونوا حجارة أو حديداً ﴾ ولا تكونوا عظاماً فإنه يقدر على إحيائكم .

والمعنى أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم ويرده إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحي وغضاضته بعد ما كنتم عظاماً يابسة ، مع أن العظام بعض أجزاء الحي بل هي عمود خلقه الذي يبنى عليه سائره ، فليس ببدع أن يردها الله بقدرته إلى حالتها الأولى ، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحي ومن جنس ما ركب به البشر ، وهو أن تكونوا ﴿ حجارة ﴾ يابسة ﴿ أو حديداً ﴾ مع أن طباعها القساوة والصلابة لكان قادراً على أن يردكم إلى حال الحياة ﴿ أو خلقاً مما يكبر ﴾ عندكم عن قبول الحياة ، ويعظم في زعمكم على الخالق احياؤه فإنه يحييه .

وقال ابن عطية : كونوا إن استطعتم هذه الأشياء الصعبة الممتنعة التأتي لا بد من بعثكم .

(38/458)

وقوله ﴿ كونوا ﴾ هو الذي يسميه المتكلمون التعجيز من أنواع أفعل ، وبهذه الآية مثل بعضهم وفي هذا عندي نظر وإنما التعجيز حيث يقتضي بالأمر فعل ما لا يقدر عليه المخاطب كقوله تعالى : ﴿ فادرؤوا عن أنفسكم الموت ﴾ ونحوه .

وأما هذه الآية فمعناها كونوا بالتوهم والتقدير كذا وكذا ﴿ الذي فطركم ﴾ كذلك هو يعيدكم انتهى .

وقال مجاهد : المعنى ﴿ كونوا ﴾ ما شئتم فستعادون .

وقال النحاس : هذا قول حسن لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة وإنما المعنى أنهم قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث فقيل لهم استشعروا أن تكونوا ما شئتم ، فلو كنتم ﴿ حجارة أو حديداً ﴾ لبعثتم كما خلقتم أول مرة انتهى .

﴿ أو خلقا مما يكبر في صدوركم ﴾ صلابته وزيادته على قوة الحديد وصلابته ، ولم يعينه ترك ذلك إلى أفكارهم وجولانها فيما هو أصلب من الحديد ، فبدأ أولاً بالصلب ثم ذكر على سبيل الترقي الأصلب منه ثم الأصلب من الحديد ، أي افرضوا ذواتكم شيئاً من هذه فإنه لا بد لكم من البعث على أي حال كنتم .

وقال ابن عمر وابن عباس وعبد الله بن عمر والحسن وابن جبير والضحاك الذي يكبر الموت ، أي لو كنتم الموت لأماتكم ثم أحياكم .

وهذا التفسير لا يتم إلاّ إذا أريد المبالغة لا نفس الأمر ، لأن البدن جسم والموت عرض ولا ينقلب الجسم عرضاً ولو فرض انقلابه عرضاً لم يكن ليقبل الحياة لأجل الضدية .

وقال مجاهد : الذي يكبر السموات والأرض والجبال ولما ذكر أنهم لو كانوا أصلب شيء وأبعده من حلول الحياة به كان خلق الحياة فيه ممكناً .

قالوا : من الذي هو قادر على صيرورة الحياة فينا وإعادتنا فنبههم على ما يقتضي الإعادة ، وهو أن الذي أنشأكم واخترعكم أول مرة هو الذي يعيدكم و ﴿ الذي ﴾ مبتدأ وخبره محذوف التقدير ﴿ الذي فطركم أول مرة ﴾ يعيدكم فيطابق الجواب السؤال ، ويجوز أن يكون فاعلاً أي يعيدكم الذي فطركم ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ ، أي معيدكم الذي فطركم و ﴿ أول مرة ﴾ ظرف العامل فيه ﴿ فطركم ﴾ قاله الحوفي .

﴿ فسينغضون ﴾ أي يحركونها على سبيل التكذيب والاستبعاد ، ويقولون : متى هو ؟ أي متى العود ؟ ولم يقولوا ذلك على سبيل التسليم للعود .

ولكن حيدة وانتقالاً لما لا يسأل عنه لأن ما يثبت إمكانه بالدليل العقلي لا يسأل عن تعيين وقوعه ، ولكن أجابهم عن سؤالهم بقرب وقوعه لا بتعيين زمانه لأن ذلك مما استأثر الله تعالى بعلمه ، واحتمل أن يكون في ﴿ عسى ﴾ إضمار أي ﴿ عسى ﴾ هو أي العود ، واحتمل أن يكون مرفوعها ﴿ أن يكون ﴾ فتكون تامة .

و ﴿ قريباً ﴾ يحتمل أن يكون خبر كان على أنه يكون العود متصفاً بالقرب ، ويحتمل أن يكون ظرفاً أي زماناً قريباً وعلى هذا التقدير يوم ندعوكم بدلاً من قريباً .

وقال أبو البقاء : ﴿ يوم يدعوكم ﴾ ظرف ليكون ، ولا يجوز أن يكون ظرفاً لاسم كان وإن كان ضمير المصدر لأن الضمير لا يعمل انتهى .

أما كونه ظرفاً ليكون فهذا مبنيّ على جواز عمل كان الناقصة في الظرف وفيه خلاف .

وأما قوله لأن الضمير لا يعمل فهو مذهب البصريين ، وأما الكوفيون فيجيزون أن يعمل نحو مروري بزيد حسن وهو بعمرو قبيح ، يعلقون بعمرو بلفظ هو أي ومروري بعمرو قبيح .

والظاهر أن الدعاء حقيقة أي ﴿ يدعوكم ﴾ بالنداء الذي يسمعكم وهو النفخة الأخيرة كما قال ﴿ يوم ينادي المناد من مكان قريب ﴾ الآية ويقال : إن إسرافيل عليه السلام ينادي أيتها الأجسام البالية والعظام النخِرة والأجزاء المتفرقة عودي كما كنت .

(40/458)

وروي في الحديث أنه قال (صلى الله عليه وسلم) : " إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فأحسنوا أسماءكم " ومعنى ﴿ فتستجيبون ﴾ توافقون الداعي فيما دعاكم إليه .

وقال الزمخشري : الدعاء والاستجابة كلاهما مجاز ، والمعنى يوم يبعثكم فتنبعثون مطاوعين منقادين لا تمتنعون انتهى .

والظاهر أن الخطاب للكفار إذ الكلام قبل ذلك معهم فالضمير لهم و ﴿ بحمده ﴾ حال منهم .

قال الزمخشري : وهي مبالغة في انقيادهم للبعث كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويمتنع ستركبه وأنت حامد شاكر ، يعني أنك تحمل عليه وتقسر قسراً حتى أنك تلين لين المسمح الراغب فيه الحامد عليه .

وعن سعيد بن جبير ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون : سبحانك اللهم وبحمدك انتهى .

وذلك لما ظهر لهم من قدرته .

وقيل : معنى ﴿ بحمده ﴾ أن الرسول قائل ذلك لا أنهم يكون بحمده حالاً منهم فكأنه قال : عسى أن تكون الساعة قريبة يوم يدعوكم فتقومون بخلاف ما تعتقدون الآن ، وذلك بحمد الله على صدق خبري كما تقول لرجل خصمته أو حاورته في علم : قد أخطأت بحمد الله فبحمد الله ليس حالاً من فاعل أخطأت ، بل المعنى أخطأت والحمد لله .

وهذا معنى متكلف نحا إليه الطبري وكان ﴿ بحمده ﴾ يكون اعتراضاً إذ معناه والحمد لله .

ونظيره قول الشاعر :

فإني بحمد الله لا ثوبَ فاجرٍ . . .

لبست ولا من غدرةٍ أتقنع

أي فإني والحمد لله فهذا اعتراض بين اسم إن وخبرها ، كما أن ﴿ بحمده ﴾ اعتراض بين المتعاطفين ووقع في لفظ ابن عطية حين قرر هذا المعنى قوله : عسى أن الساعة قريبة وهو تركيب لا يجوز ، لا تقول عسى أن زيداً قائم بخلاف عسى أن يقوم زيد ، وعلى أن يكون ﴿ بحمده ﴾ حالاً من ضمير ﴿ فتستجيبون ﴾ .

قال المفسرون : حمدوا حين لا ينفعهم الحمد .

وقال قتادة : معناه بمعرفته وطاعته ﴿ وتظنون إن لبثتم إلاّ قليلاً ﴾ .

قال ابن عباس : بين النفختين الأولى والثانية فإنه يزال عنهم العذاب في ذلك الوقت ، ويدل عليه من بعثنا من مرقدنا هذا فهذا عائد إلى ﴿ لبثهم ﴾ فيما بين النفختين .

وقال الحسن : تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا ولم تكن وبالآخرة لم تزل فهذا يرجع إلى استقلال مدة اللبث في الدنيا .

وقال الزمخشري : ﴿ وتظنون ﴾ وترون الهول فعنده تستقصرون مدة لبثكم في الدنيا وتحسبونها يوماً أو بعض يوم ، وعن قتادة تحاقرت الدنيا في أنفسهم حين عاينوا الآخرة

انتهى .

وقيل : استقلوا لبثهم في عرصة القيامة لأنه لما كانت عاقبة أمرهم الدخول إلى النار استقصروا مدة لبثهم في برزخ القيامة .

وقيل : تم الكلام عند قوله ﴿ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ .

و ﴿ يوم يدعوكم ﴾ خطاب مع المؤمنين لا مع الكافرين لأنهم يستجيبون لله ﴿ بحمده ﴾ يحمدونه على إحسانه إليهم فلا يليق هذا إلاّ بهم .

وقيل : يحمده المؤمن اختياراً والكافر اضطراراً ، وهذا يدل على أن الخطاب للكافر والمؤمن وهو الذي يدل عليه ما روي عن ابن جبير ، وإذا كان الخطاب للكفار وهو الظاهر فيحمل أن يكون الظن على بابه فيكون لما رجعوا إلى حالة الحياة وقع لهم الظن أنهم لم ينفصلوا عن الدنيا إلاّ في زمن قليل إذ كانوا في ظنهم نائمين ، ويحتمل أن يكون بمعنى اليقين من حيث علموا أن ذلك منقض متصرم .

والظاهر أن ﴿ وتظنون ﴾ معطوف على تستجيبون وقاله الحوفي .

وقال أبو البقاء : أي وأنتم ﴿ تظنون ﴾ والجملة حال انتهى .

وأن هنا نافية ، ﴿ وتظنون ﴾ معلق عن العمل فالجملة بعده في موضع نصب ، وقلما ذكر النحويون في أدوات التعليق أن النافية ، ويظهر أن انتصاب قليلاً على أنه نعت لزمان محذوف أي إلاّ زمن قليلاً .

كقوله ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ ويجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف أي لبثاً قليلاً ودلالة الفعل على مصدره دلالة قوية .

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(42/458)

قيل : سبب نزولها أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه شتمه بعض الكفرة ، فسبه عمر وهم بقتله فكاد يثير فتنة فنزلت الآية وهي منسوخة بآية السيف ، وارتباطها بما قبلها أنه لما تقدم ما نسب الكفار لله تعالى من الولد ، ونفورهم عن كتاب الله إذا سمعوه ، وإيذاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) ونسبته إلى أنه مسحور ، وإنكار البعث كان ذلك مدعاة لإيذاء المؤمنين ومجلبة لبغض المؤمنين إياهم ومعاملتهم بما عاملوهم ، فأمر الله تعالى نبيه أن يوصي المؤمنين بالرفق بالكفار واللطف بهم في القول ، وأن لا يعاملوهم ، بمثل أفعالهم وأقوالهم ، فعلى هذا يكون المعنى ﴿ قل لعبادي ﴾ المؤمنين ﴿ يقولوا ﴾ للمشركين الكلم ﴿ التي هي أحسن ﴾ .

وقيل : المعنى ﴿ يقولوا ﴾ أي يقول بعض المؤمنين لبعض الكلم التي هي أحسن أي يجل بعضهم بعضاً ويعظمه ، ولا يصدر منه إلاَّ الكلام الطيب والقول الجميل ، فيكونوا مثل

المشركين في معاملة بعضهم بعضاً بالتهاجي والسباب والحروب والنهب للأموال والسبي للنساء والذراري.

وقيل: عبادي هنا المشركون إذا المقصود هنا الدعاء إلى الإسلام، فخوطبوا بالخطاب الحسن ليكون ذلك سبباً إلى قبول الدين فكأنه قيل: قل للذين أقروا أنهم عباد لي يقولوا ﴿ التي هي أحسن ﴾ وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الولد واتخاذ الملائكة بنات فإن ذلك من نزغ الشيطان ووسوسته وتحسينه.

وقيل: عبادي شامل للفريقين المؤمنين والكافرين على ما يأتي تفسير ﴿ التي هي أحسن ﴾ والذي يظهر أن لفظة عبادي مضافة إليه تعالى كثر استعمالها في المؤمنين في القرآن كقوله ﴿ فبشر عبادي الذين يستمعون القول ﴾ ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ ﴿ عيناً ﴾ ﴿ يشرب بها عباد الله ﴾

و ﴿ قل ﴾ خطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهو أمر، ومعمول القول محذوف تقديره قولوا ﴿ التي هي أحسن ﴾ وانجزم ﴿ يقولوا ﴾ على أنه جواب للأمر الذي هو قل قاله الأخفش، وهو صحيح المعنى على تقدير أن يكون عبادي يراد به المؤمنون لأنهم

لمسارعتهم لامتثال أمر الله تعالى بنفس ما يقول لهم ذلك قالوا ﴿ التي هي أحسن ﴾ .

وعن سيبويه إنه انجزم على جواب لشرط محذوف ، أي إن يقل لهم ﴿ يقولوا ﴾ فيكون في قوله حذف معمول القول وحذف الشرط الذي ﴿ يقولوا ﴾ جوابه .

وقال المبرد : انجزم جواباً للأمر الذي هو معمول ﴿ قل ﴾ أي قولوا ﴿ التي هي أحسن ﴾ ﴿ يقولوا ﴾ .

وقيل معمول ﴿ قل ﴾ مذكور لا محذوف وهو ﴿ يقولوا ﴾ على تقدير لام الأمر وهو مجزوم بها قاله الزجّاج .

وقيل : ﴿ يقولوا ﴾ مبني وهو مضارع حل محل المبني الذي هو فعل الأمر فبني ، والمعنى ﴿ قل لعبادي ﴾ قولوا قاله المازني ، وهذه الأقوال جرت في قوله ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ وترجيح ما ينبغي أن يرجح مذكور في علم النحو .

و﴿ التي هي أحسن ﴾ قالت فرقة منهم ابن عباس هي قول لا إله إلاّ الله .

قال ابن عطية : ويلزم على هذا أن يكون قوله ﴿ لعبادي ﴾ يريد به جميع الخلق لأن جميعهم مدعو إلى لا إله إلاّ الله .

ويجيء قوله بعد ذلك ﴿ إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ غير مناسب للمعنى إلاّ على تكبره بأن يجعل بينهم بمعنى خلالهم وأثناءهم ويجعل النزغ بمعنى الوسوسة والإملال .

وقال الحسن يرحمك الله يغفر الله لك ، وعنه أيضاً الأمر بامتثال الأوامر واجتناب المناهي .

وقيل القول للمؤمن يرحمك الله وللكافر هداك الله .

وقال الجمهور : وهي المحاورة الحسنى بحسب معنى معنى .

وقال الزمخشري : فسر ﴿ التي هي أحسن ﴾ بقوله : ﴿ ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ﴾ يعني يقول لهم هذه الكلمة ونحوها ولا تقولوا لهم أنكم من أهل النار وأنكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر .

(44/458)

وقوله : ﴿ إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ اعتراض بمعنى يلقي بينهم الفساد ويغري بعضهم على بعض ليقع بينهم المشارّة والمشاقة .

وقال أبو عبد الله الرازي ما ملخصه : إذا أردتم الحجة على المخالف فاذكروها بالطريق الأحسن وهو أن لا يخلط بالسب كقوله ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن ﴾ وخلط الحجة بالسب سبب للمقابلة بمثله ، وتنفير عن حصول المقصود من إظهار الحجة وتأثيرها ، ثم نبه على هذا الطريق بقوله : ﴿ إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ جامعاً للفريقين أي متى امتزجت الحجة بالإيذاء كانت الفتنة انتهى .

وقرأ طلحة ﴿ ينزغ ﴾ بكسر الزاي .

قال أبو حاتم : لعلها لغة والقراءة بالفتح .

وقال صاحب اللوامح : هي لغة .

وقال الزمخشري : هما لغتان نحو يعرشون ويعرشون انتهى .

ولو مثل بينطح وينطح كان أنسب وبين تعالى سبب النزغ وهي العداوة القائمة لأبيهم آدم قبلهم وقوله ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ﴾ الآية وغيرها من الآيات الدالة على تسلطه على الإنسان وابتغاء الغوائل المهلكة له .

والخطاب بقوله ﴿ ربكم ﴾ إن كان للمؤمنين فالرحمة الإنجاء من كفار مكة وأذاهم والتعذيب تسليطهم عليهم .

﴿ وما أرسلناك عليهم ﴾ أي على الكفار حافظاً وكفيلاً فاشتغل أنت بالدعوة وإنما هدايتهم إلى الله .

وقيل : ﴿ يرحمكم ﴾ بالهداية إلى التوفيق والأعمال الصالحة ، وإن شاء عذبكم بالخذلان وإن كان الخطاب للكفار فقال يقابل يرحمكم الله بالهداية إلى الإيمان ويعذبكم يميتكم على الكفر .

وذكر أبو سليمان الدمشقي لما نزل القحط بالمشركين قالوا ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنّا

مؤمنون ﴾ فقال الله ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ بالذي يؤمن من الذي لا يؤمن ﴿ إن يشأ يرحمكم ﴾ فيكشف القحط عنكم ﴿ أو إن يشأ يعذبكم ﴾ فيتركه عليكم .

(45/458)

وقال ابن عطية : هذه الآية تقوي أن الآية التي قبلها هي ما بين العباد المؤمنين وكفار مكة ، وذلك أن قوله ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ مخاطبة لكفار مكة بدليل قوله ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلاً ﴾ فكأنه أمر المؤمنين أن لا يخاشنوا الكفار في الدين ثم قال إنه أعلم بهم ورجاهم وخوّفهم ، ومعنى ﴿ يرحمكم ﴾ بالتوبة عليكم قاله ابن جريج وغيره انتهى . وتقدم من قول الزمخشري أن قوله ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ هي من قول المؤمنين للكفار وأنه تفسير لقوله ﴿ التي هي أحسن ﴾ .

وقال ابن الأنباري : ﴿ أو ﴾ دخلت هنا لسعة الأمرين عند الله ولا يرد عنهما ، فكانت ملحقة بأو المبيحة في قولهم جالس الحسن أو ابن سيرين يعنون قد وسعنا لك الأمر .

وقال الكرماني : ﴿ أو ﴾ للإضراب ولهذا كرر ﴿ إن ﴾ ولما ذكر تعالى أنه أعلم بمن خاطبهم بقوله : ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ انتقل من الخصوص إلى العموم فقال مخاطباً لرسوله (صلى الله عليه وسلم) : ﴿ وربك أعلم بمن في السموات والأرض ﴾ ليبين أن علمه غير

مقصور عليكم بل علمه متعلق بجميع من في السموات والأرض ، بأحوالهم ومقاديرهم وما يستأهل كل واحد منهم ، و﴿ بمن ﴾ متعلق بأعلم كما تعلق بكم قبله بأعلم ولا يدل تعلقه به على اختصاص أعلميته تعالى بما تعلق به كقولك : زيد أعلم بالنحو لا يدل هذا على أنه ليس أعلم بغير النحو من العلوم .

وقال أبو عليّ : الباء تتعلق بفعل تقديره علم ﴿ بمن ﴾ قال لأنه لو علقها بأعلم لاقتضى أنه ليس بأعلم بغير ذلك وهذا لا يلزم ، وأيضاً فإن علم لا يتعدى بالباء إنما يتعدّى لواحد بنفسه لا بواسطة حرف الجر أو لا يبين على ما تقرر في علم النحو .

(46/458)

ولما كان الكفار قد استبعدوا تنبئة البشر إذ فيه تفضيل الأنبياء على غيرهم أخبر تعالى بتفضيل الأنبياء على بعض إشارة إلى أنه لا يستبعد تفضيل الأنبياء على غيرهم إذ وقع التفضيل في هذا الجنس المفضل على الناس والله تعالى أعلم بما خص كل واحد من المزايا فهو يفضل من شاء منهم على من شاء إذ هو الحكيم فلا يصدر شيء إلاّ عن حكمته .

وفيه إشارة إلى أنه لا يستنكر تفضيل محمد (صلى الله عليه وسلم) على سائر الأنبياء وخص ﴿ داود ﴾ بالذكر هنا لأنه تعالى ذكر في الزبور أن محمداً خاتم الأنبياء وأن أمته

خير الأمم .

وقال تعالى ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾

وهم محمد وأمته ، وكانت قريش ترجع إلى اليهود كثيراً فيما يخبرون به مما في كتبهم ، فنبه

على أن زبور داود تضمن البشارة بمحمد (صلى الله عليه وسلم) .

وفي ذلك إشارة رد على مكابري اليهود حيث قالوا : لا نبيّ بعد موسى ولا كتاب بعد

التوراة ، ونص تعالى هنا على إيتاء داود الزبور وإن كان قد آتاه مع ذلك الملك إشارة إلى أن

التفضيل المحض هو بالعلم الذي آتاه ، والكتاب الذي أنزل عليه كما فضل محمد (صلى الله

عليه وسلم) بما آتاه من العلم والقرآن الذي خصه به .

وتقدم تفسير ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ في أواخر النساء وذكر الخلاف في ضم الزاي

وفتحها .

وقال الزمخشري هنا : فإن قلت : هلا عرّف الزبور كما عرف في ﴿ ولقد كتبنا في الزبور

﴾ قلت : يجوز أن يكون الزبور وزبور كالعباس وعباس والفضل وفضل ، وأن يريد ﴿

وآتينا داود ﴾ بعض الزبور وهي الكتب وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) من الزبور ، فسُميّ ذلك ﴿ زبوراً ﴾ لأنه بعض الزبور كما سُمي بعض القرآن

قرآناً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) ﴾

﴿ قُلْ ﴾ جواباً لهم وتقريباً لما استبعدوه ﴿ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾ ﴿ أَوْ خَلْقًا آخرَ ﴾ ﴿ مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ أي يعظُم عندكم عن قبول الحياة لكمال المباينةِ والمنافاةِ بينها وبينه ، فإنكم مبعوثون ومُعادون لا محالة ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ مع ما بيننا وبين الإعادةِ من مثل هذه المباعدةِ والمباينة ﴿ قُلْ ﴾ لهم تحقيقاً للحق وإزاحةً للاستبعاد وإرشاداً لهم إلى طريقة الاستدلال ﴿ الذى ﴾ أي يعيدكم القادرُ العظيم الذي ﴿ فَطَرَكُمْ ﴾ اخترعكم ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ من غير مثالٍ يحتذيه ولا أسلوبٍ ينتحيه وكنتم تراباً ما شمّ رائحةَ الحياة ، أليس الذي يقدِر على ذلك بقادر على أن يعيدَ العظامَ الباليةَ إلى حالتها المعهودة؟ بلى إنه على كل شيء قدير ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ ﴾ أي سيحركونها نحوك تعجباً وإنكاراً ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ استهزاءً ﴿ متى هُوَ ﴾ أي ما ذكرتَه من الإعادة ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ عسى أَن يَكُونَ ﴾ ذلك ﴿ قَرِيبًا ﴾ نُصب على أنه خبرٌ ليكون أو ظرفٌ على أن كان تامةٌ أي أن يقعَ في زمان قريب ، ومحلُّ أن مع ما في حيزها إما نصبٌ على أنه خبرٌ لعسى وهي ناقصة واسمُها ضميرٌ عائد إلى ما عاد إليه هو أي عسى كونُه قريباً ، أو وقوعُه في زمان قريب .

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾

منصوب بفعل مضمر أي اذكروا ، أو على أنه بدلٌ من قريباً على أنه ظرفٌ أو نُصب بيكونَ تامةً بالاتفاق ، أو ناقصةً عند من يجوّز إعمالَ الناقصة في الظروف ، أو بضميرِ المصدرِ المستكنِّ في عسى أو يكون ، أعني البعث عند من يجوز إعمالَ ضمير المصدر كما في قول زهير

وما الحربُ إلا ما علمتمْ وذُقتم . . . وما هو عنها بالحديث المُرجّمِ

(48/458)

فهو ضميرُ المصدر وقد تعلق به ما بعده من الجار ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ أي يوم يبعثكم فتُبعثون ، وقد استُعير لهما الدعاءُ والإجابة إيذاناً بكمال سهولةِ التأّتي وبأن المقصودَ منهما الإحضارُ للمحاسبة والجواب ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ حال من ضمير تستجيبون أي منقادين له حامدين لما فَعل بكم غيرَ مستعصين ، أو حامدين له تعالى على كمال قدرتِه عند مشاهدة آثارها ومعاينةِ أحكامها ﴿ وَتَظُنُّونَ ﴾ عطف على تستجيبون أي تظنون عندما ترَوْن من الأمور الهائلة ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ أي ما لبثتم في القبور ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ كالذي مر على قرية أو ما لبثتم في الدنيا .

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى ﴾ أي المؤمنين ﴿ يَقُولُواْ ﴾ عند محاورتهم مع المشركين ﴿ التى ﴾ أي الكلمةَ التي ﴿ هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ولا يخاشنوهم كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ﴿ إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يُفسد ويَهيج الشر والمِراء ويُغري بعضَهم على بعض لتقع بينهم المشاقّة والمُشارّة والمُعازّة والمضارّة ، فلعل ذلك يؤدي إلى تأكد العِناد وتمادي الفساد ، فهو تعليلٌ للأمر السابق وقرىء بكسر الزاي ﴿ إِنَّ الشيطان كَانَ ﴾ قدماً ﴿ للإنسان عَدُوّا مُّبِينًا ﴾ ظاهرَ العداوة ، وهو تعليلٌ لما سبق من أن الشيطان ينزَغ بينهم .

(49/458)

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ بالتوفيق للإيمان ﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذّبْكُمْ ﴾ بالإماتة على الكفر ، وهذا تفسيرُ التي هي أحسنُ وما بينهما اعتراضٌ ، أي قولوا لهم هذه الكلمةَ وما يشاكلها ولا تصرحوا بأنهم من أهل النار فإنه مما يَهيجهم على الشر ، مع أن العاقبةَ مما لا يعلمه إلا الله سبحانه فعسى يهديهم إلى الإيمان ﴿ وَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ موكولاً إليك أمورُهم تقسِرهم على الإيمان وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فدارِهم ومُرْ أصحابَك بالمداراة والاحتمال وترك المُحاقّة والمشاقّة وذلك قبل نزول آيةِ السيف ، وقيل :

نزلت في عمر رضي الله عنه ، شتمه رجل فأمر بالعفو ، وقيل : أفرط أذيةُ المشركين بالمؤمنين فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ، وقيل : الكلمة التي هي أحسنُ أن يقولوا : يهديكم الله ويرحمكم الله .

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِى السموات والأرض ﴾ وبتفاصيلِ أحوالِهم الظاهرة والكامنة التي بها يستأهلون الاصطفاءَ والاجتباءَ فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء ممن يشاء ممن يستحقه ، وهو ردٌّ عليهم إذ قالوا : بعيدٌ أن يكون يتيمُ أبي طالب نبياً وأن يكون العُراةُ الجوعى أصحابَه دون أن يكون ذلك من الأكابر والصناديدِ ، وذكرُ من في السموات لإبطال قولِهم : لولا أُنزل علينا الملائكةُ ، وذكرُ مَن في الأرض لرد قولِهم :

﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيين على بَعْضٍ ﴾ بالفضائل النفسانيةِ والتنّزه عن العلائق الجُسمانية لا بكثرة الأموالِ والأتباع ﴿ وَءاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾ بيانٌ لحيثية تفضيله عليه الصلاة والسلام فإن ذلك إيتاءُ الزبور لا إيتاءُ الملك والسلطنةِ ، وفيه إيذانٌ بتفضيل النبي عليه الصلاة والسلام فإن نعوتَه الجليلةَ وكونَه خاتمَ النبيين مسطورةٌ في الزبور ، وأن المرادَ بعباد الله الصالحين في قوله تعالى : ﴿ أَنَّ

الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ هو النبيُّ عليه الصلاة والسلام وأمته ، وتعريفُ الزبور تارة وتنكيرُه أخرى إما لأنه في الأصل فَعولٌ بمعنى المفعول كالحَلوب أو مصدر بمعناه كالقول ، وإما لأن المرادَ آتينا داودَ زبوراً من الزُّبُر ، أو بعضاً من الزبور فيه ذكرُه عليه الصلاة والسلام ، وقرىء بضم الزاي على أنه جمع زِبْر بمعنى مزبور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(51/458)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) ﴾

﴿ قُلْ ﴾ جواباً لهم وتقريباً لما استبعدوه .

﴿ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾ رد سبحانه قوله ﴿ كُونُواْ ﴾ على قولهم ﴿ كنا ﴾ [الإسراء : 49] فهو من باب المشاكلة والمقابلة بالجنس ، ومعنى الأمر كما قيل الاستهانة كما في قوله موسى عليه السلام : ﴿ أَلْقُواْ مَا أَنتُمْ مُّلْقُونَ ﴾ [يونس : 80] وجعله صاحب الإيضاح أمر إهانة والفاضل الطيبي أمر تسخير كما في قوله تعالى : ﴿ كُونُواْ قِرَدَةً خاسئين ﴾ [الأعراف : 166] لكنه قال : إنه على الفرض .

وفي "الكشف" أنه غير ذاهر ولو جعل من باب كن فلاناً على معنى أنت فلان من استعمال الطلب في معنى الخبر أي أنتم حجارة ولستم عظاماً ومع ذلك تبعثون لا محالة لكان وجهاً قوياً ، وبحث في الشهاب بأنه كيف يقال أنتم حجارة على أنه خبر وهو غير مطابق للواقع فلا بد من قصد الإهانة وعدم المبالاة وجعل الأمر مجازاً عن الخبر والخبر خبر فرضي وليس فيه ما يدل على الفرض كان ولو الشرطيتين فهو مما لا يخفى بعده وليس بأقرب مما استبعده فالصواب أنه للإهانة كما جنح إليه صاحب الإيضاح فتدبر ، والحجارة جمع حجر كأحجار وهو معروف وكذا الحديد وهو مفرد وجمعه حدائد وحديدات .

والظاهر أن المراد كونوا من هذين الجنسين .

﴿ أَوْ خَلْقًا ﴾ أي مخلوقاً آخر ﴿ مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ أي مما يستبعد عندكم قبوله الحياة لكونه أبعد شيء منها وتعيينه مفوض إليكم فإن الله تعالى لا يعجزه إحياؤكم لتساوي الأجسام في قبول الاعراض فكيف إذا كنتم عظاماً بالية وقد كانت موصوفة بالحياة قبل والشيء أقبل لما عهد مما لم يعهد ، وقال مجاهد : الذي يكبر السموات والأرض والجبال .

وأخرج ابن جرير وجماعة عن ابن عباس .

وابن عمر .

والحسن، وابن جبير أنهم قالوا: ما يكبر في صدورهم الموت فإنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم من الموت، والمعنى لو كنتم مجسمين من نفس الموت لأعادكم فضلاً عن أصل لا يضاد الحياة إن لم يقتضها، وإن كان اللفظ غير ظاهر فيه ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ لك: ﴿ مَن يُعِيدُنَا ﴾ مع ما بيننا وبين الإعادة من مثل هذه المباعدة والمباينة ﴿ قُلْ ﴾ لهم تحقيقاً للحق وإزاحة للاستبعاد وإرشاداً إلى طريقة الاستدلال ﴿ الذى فَطَرَكُمْ ﴾ أي القادر العظيم الذي اخترعكم ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ منغير مثال يحتذيه ولا أسلوب ينتحيه وكنتم تراباً ما شم رائحة الحياة أليس الذي يقدر على ذلك بقادر على أن يفيض الحياة على العظام البالية ويعيدها إلى حالها المعهودة بلى إنه سبحانه على كل شيء قدير، والموصول مبتدأ خبره يعيدكم المحذوف لدلالة السؤال عليه أو فاعل به أو خبر مبتدأ محذوف على اختلاف في الأول كما فصل في محله.

و ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ظرف فطركم ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءوسِهِمُ ﴾ أي سيحركونها نحوك استهزاء كما روى عن ابن عباس وأنشد عليه قول الشاعر:

أتنغض لي يوم الفخار وقد ترى . . .

خيولاً عليها كالأسود ضواريا

ومثله قول الآخر:

انغض نحوي رأسه وأقنعا . . .

كأنه يطلب شيئاً أطمعا

(53/458)

وفي "القاموس" نغض كنصر وضرب نغضاً ونغوضاً ونغضاناً ونغضا محركتين تحرك واضطرب كانغض وحرك كأنغض ، وفسر الفراء الانغاض بتحريك الرأس بارتفاع وانخفاض ، وقال أبو الهيثم ، من أخبر بشيء فحرك رأسه انكاراً له فقد أنغض رأسه فكأنه سيحركون رؤسهم إنكاراً ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ استهزاء ﴿ متى هُوَ ﴾ أي ما ذكرته من الإعادة ، وجوز أن يكون الضمير للعود أو البعث المفهوم من الكلام ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ عسى أَن يَكُونَ ﴾ ذلك ﴿ قَرِيبًا ﴾ فإن ما هو محقق إتيانه قريب ، ولم يعين زمانه لأنه من المغيبات التي لا يطلع عليها غيره تعالى ولا يطلع عليها سبحانه أحداً ، وقيل : قربه لأن ما بقي من زمان الدنيا أقل مما مضى منه ؛ وانتصاب ﴿ قَرِيبًا ﴾ على أنه خبر كان الناقصة واسمها ضمير يعود على ما أشير إليه ، وجوز أن يكون منصوباً على الظرفية والأصل زماناً قريباً فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه فانتصب انتصابه وكان على هذا تامة وفاعلها ذلك الضمير أي عسى أن يقع ذلك في زمان قريب وأن يكون في تأويل مصدر

منصوب وقع خبر لها أي عسى كونه قريباً أو في وقت قريب .

واعترض بأن عسى للمقاربة فكأنه قيل : قرب أن يكون قريباً ولا فائدة فيه ، وأجيب بأن نجم الأئمة لم يثبت معنى المقارنة في عسى لا وضعاً ولا استعمالاً ، ويدل له ذكر ﴿ قَرِيبًا ﴾ بعدها في الآية فلا حاجة إلى القول بأنها جردت عنه فالمعنى يرجى ويتوقع كونه قريباً .

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ منصوب بفعل مضمر أي اذكروا أو بدل من ﴿ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء : 51] على أنه ظرف أو متعلق بيكون تامة بالاتفاق وناقصة عند من يجوز إعمال الناقصة في الظروف أو بتبعثون محذوفاً أو بضمير المصدر المستتر في ﴿ يكون ﴾ أو ﴿ عسى ﴾ [الإسراء : 51] العائد على العود مثلاً بناء على مذهب الكوفيين المجوزين اعمال ضمير المصدر كما في قوله :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمو . . .

وما هو عنها بالحديث المرجم

(54/458)

وجعله بدلاً من الضمير المستتر بدل اشتمال ولم يرفع لأنه إذا أضيف إلى مثل هذه الجملة قد يبنى على الفتح تكلف وادعاء ظهوره مكابرة ، والدعاء قيل : مجاز عن البعث وكذا

الاستجابة في قوله تعالى : ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ مجاز عن الانبعاث أي يوم يبعثكم فتنبعثون فلا دعاء ولا استجابة وهو نظير قوله تعالى : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] في أنه لا خطاب ولا مخاطب في المشهور ، وتجور بالدعاء والاستجابة عن ذلك للتنبيه على السرعة والسهولة لأن قول : قم يا فلان أمر سريع لا بطء فيه ومجرد النداء ليس كمزاولة الإيجاد بالنسبة إلينا ، وعلى أن المقصود الإحضار للحساب والجزاء فإن دعوة السيد لعبده إنما تكون لاستخدامه أو للتفحص عن أمره والأول منتف لأن الآخرة لا تكليف فيها فتعين الثاني ، وقال الإمام وأبو حيان : يدعوكم بالنداء الذي يسمعكم وهو النفخة الأخيرة كما قال سبحانه ﴿ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [ق : 41] الآية ، ويقال إن إسرافيل عليه السلام وفي رواية جبرائيل عليه السلام ينادي على صخرة بيت المقدس أيتها الأجسام البالية والعظام النخرة والأجزاء المتفرقة عودي كما كنت .

وأخرج أبو داود ، وابن حبان عن أبي الدرداء أنه قال : " قال صلى الله عليه وسلم إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسنوا أسماءكم " ولعل هذا عند الدعاء للحساب وهو بعد البعث من القبور ، واقتصر كثير على التجوز السابق فقيل إن فيه إشارة إلى امتناع الحمل على الحقيقة لما يلزم من الحمل عليها خطاب الجماد وهو الأجزاء المتفرقة ولو لم تمتنع إرادة الحقيقة لكان ذلك كناية عن البعث والانبعاث لا مجازاً والمجوز لإرادتها يقول

إن الدعوة بالأمر التكويني وهو مما يوجه إلى المعدوم وقد قال جمع به في قول كن ولم يتجوزوا في ذلك وأما أنه لو لم تمتنع إرادة الحقيقة لكان كناية لا مجازاً فأمر سهل كما لا يخفى فتدبر .

(55/458)

﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ حال من ضمير المخاطبين وهم الكفار كما هو الظاهر ، والباء للملابسة أي فتستجيبون ملتبسين بحمده أي حامدين له تعالى على كمال قدرته ، وقيل المراد معترفين بأن الحمد له على النعم لا تنكرون ذلك لأن المعارف هناك ضرورية .

وأخرج عبد بن حميد وغيره عن ابن جرير أنه قال : يخرجون من قبورهم وهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ولا بعد في صدور ذلك من الكافر يوم القيامة وإن لم ينفعه وحمل الزمخشري ذلك على المجاز والمراد المبالغة في انقيادهم للبعث كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويمتنع ستركبه وأنت حامد شاكر يعني أنك تحمل عليه وتقسر قسراً حتى إنك تلين لين المسمح الراغب فيه الحامد عليه فكأنه قيل : منقادين لبعثه انقياد الحامدين له وتعلق الجار بيدعوكم ليس بشيء ، وعن الطبري أن ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ معترضين بين المتعاطفين اعتراضه بين اسم إن وخبرها في قوله :

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر . . .

لبست ولا من غدرة أتقنع

ويكون الكلام على حد قولك لرجل وقد خصمته في مسألة أخطأت بحمد الله تعالى فكان

الرسول عليه الصلاة والسلام قال : عسى أن يكون البعث قريباً يوم تدعون فتقومون بخلاف

ما تعتقدون اليوم وذلك بحمد الله سبحانه على صدق خبري ، وملخصه يكون ذلك على

خلاف اعتقادكم والحمد لله تعالى ، ولا يخفى أنه معنى متكلف لا يكاد يفهم من الكلام

ونحن في غنى عن ارتكابه والحمد لله ، وقيل .

الخطاب للمؤمنين وانقطع خطاب الكافرين عند قوله تعالى : ﴿ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء : 51

] فيستجيبون حامدين له سبحانه على إحسانه إليهم وتوفيقه إياهم للإيمان بالبعث .

وأخرج الترمذي .

والطبراني .

وغيرهما عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس على أهل لا إله

إلا الله وحشة في قبورهم ولا في منشرهم وكأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن

رؤسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن " وفي رواية عن أنس مرفوعاً : " ليس

على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ولا في القبور ولا في الحشر وكأني بأهل لا إله إلا الله قد خرجوا من قبورهم ينفضون رؤسهم من التراب يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن " وقيل : الخطاب للفريقين وكلهم يقولون : ما روى عن ابن جبير .

﴿ وَتَظُنُّونَ ﴾ الظاهر أنه عطف على ﴿ تستجيبون ﴾ وإليه ذهب الحوفي وغيره ، وقال أبو البقاء : هو بتقدير مبتدأ والجملة في موضع الحال أي وأنتم تظنون ﴿ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ أي ما لبثتم في القبور ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ كالذي مر على قرية أو ما لبثتم في الدنيا كما روى غير واحد عن قتادة ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يستقلون لبثهم بين النفختين فإنه يزال عنهم العذاب في ذلك البين ولذا يقولون ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [يس : 52] وقيل يستقلون لبثهم في عرصة القيامة لما أن عاقبة أمرهم الدخول إلى النار ، وهذا في غاية البعد كما لا يخفى ، والظن يحتمل أن يكون على بابه ويحتمل أن يكون بمعنى اليقين وهو معلق عن العمل بأن النافية وقل من ذكرها من أدوات التعليق قاله أبو حيان وانتصاب ﴿ قَلِيلاً ﴾ على أنه نعت لزمان محذوف أي إلا زماناً قليلاً ، وجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف أي لبثاً قليلاً ودلالة الفعل على مصدره دلالة قوية .

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى ﴾

أي المؤمنين فالإضافة لتشريف المضاف ﴿ يَقُولُواْ ﴾ عند محاورتهم مع المشركين ﴿ التى ﴾ أي الكلمة أو العبارة التي ﴿ هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ولا يخاشنوهم كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : 46] ومقول فعل الأمر محذوف أي قل لهم قولوا التي هي أحسن يقولوا ذلك فجزم يقولوا لأنه جواب الأمر وإلى هذا ذهب الأخفش ، ولكون المقول لهم هم المؤمنون المسارعون لامتثال أمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بمجرد ما يقال لهم لم يكن غبار في هذا الجزم .

وقال الزجاج : إن يقولوا هو المقول وجزمه بلام الأمر محذوفة أي قل لهم ليقولوا التي الخ .

وقال المازني : إنه المقول أيضاً إلا أنه مضارع مبني لحلوله محل المبني وهو فعل الأمر ، والمعنى قل لعبادي قولوا التي هي أحسن وهو كما ترى ، ومقول يقولوا ﴿ التى ﴾ وإذا أريد به الكلمة حملت على معناها الشامل للكلام .

﴿ إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يفسد ويهيج الشر بين المؤمنين والمشركين بالمخاشنة فلعل ذلك يؤدي إلى تأكد العناد وتمادي الفساد فالجملة تعليل للأمر السابق ، وقرأ طلحة ﴿ يَنزَغُ ﴾ بكسر الزاي ، قال أبو حاتم : لعلها لغة والقراءة بالفتح ، وقال "صاحب اللوامح" الفتح والكسر لغتان نحو يمنح ويمنح ﴿ إِنَّ الشيطان كَانَ ﴾ قدماً ﴿ للإنسان عَدُوّا مُّبِينًا ﴾ ظاهر العداوة فهو من أبان اللازم والجملة تعليل لما سبق من أن الشيطان

ينزغ بينهم .

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾

(58/458)

بالتوفيق للايمان ﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ بالإماتة على الكفر ، وهذا تفسير التي هي أحسن والجملتان اعتراض بينهما والخطاب فيه للمشركين فكأنه قيل : قولوا لهم هذه الكلمة وما يشاكلها وعلقوا أمرهم على مشيئة الله تعالى ولا تصرحوا بأنهم من أهل النار فإنه مما يهيجهم على الشر مع أن الخاتمة مجهولة لا يعلمها غيره تعالى فلعله سبحانه يهديهم إلى الايمان ، والظاهر أن أو للانفصال الحقيقي .

وقال الكرماني : هي للاضراب ولذا كررت معها إن ، وقال ابن الأنباري : دخلت أو هنا لسعة الأمرين عند الله تعالى ويقال لها المبيحة كالتي في قولهم جالس الحسن أو ابن سيرين فإنهم يعنون قد وسعنا لك الأمر وهو كما ترى ﴿ وَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ أي موكولاً ومفوضاً إليك أمرهم تقسرهم على الإسلام وتجبرهم عليه وَإِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ بَشِيراً وَنَذِيراً فدارهم ومر أصحابك بمداراتهم وتحمل أذيتهم وترك المشاقة معهم ، وهذا قبل نزول آية السيف .

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

وبأحوالهم الظاهرة والباطنة فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء ممن تراه حكمته أهلاً لذلك وهو رد عليه إذ قالوا : بعيد أن يكون يتيم ابن أبي طالب نبياً وأن يكون العراة الجوع كصهيب .

وبلال .

وخباب وغيرهم أصحابه دون أن يكون ذلك من الأكابر والصناديد .

(59/458)

وذكر من في السموات لإبطال قولهم ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملائكة ﴾ [الفرقان : 21] وذكر من في الأرض لرد قولهم : ﴿ لَوْلاَ نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] فلا يدل تخصيصهما بالذكر وتعلقهما بأعلم على اختصاص أعلميته تعالى بما ذكر فما قاله أوب علي من أن الجار متعلق بعلم محذوفاً ولا يجوز تعلقه بأعلم لاقتضائه أنه سبحانه ليس بأعلم بغير ذلك ناشيء عن عدم العلم بما ذكرنا على أن أبا حيان أنكر تعدي علم بالباء وإنما يتعدى لواحد بنفسه في مثل هذا الموضع ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيين على بَعْضٍ ﴾ بالفضائل النفسانية والمزايا القدسية وإنزال الكتب السماوية لا

بكثرة الأموال والأتباع ﴿ وَءاتَيْنَا دَاوُودُ زَبُوراً ﴾ بيان لحيثية تفضيله عليه الصلاة والسلام وأنه بإيتائه الزبور لا بإيتائه الملك والسلطنة وفيه إيذان بتفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم فإن كونه عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء .

وأمته خير الأمم مما تضمنه الزبور وقد أخبر سبحانه عن ذلك بقوله عز قائلاً : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور مِن بَعْدِ الذكر أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصالحون ﴾ [الأنبياء : 105] يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأمته ونص بعضهم أن هذا من باب التلميح نحو قصة المنصور وقد وعد الهذلي بعدة فنسيها فلما حجا وأتيا المدينة قال له يوماً وهو يسايره يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص :

يا بيت عاتكة الذي أتغزل . . .

ففطن لمراده حيث قال ذلك ولم يسأله وعلم أنه يشير إلى قوله في هذه القصيدة :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم . . .

مذق اللسان يقول ما لا يفعل

فأنجز عدته ، والزبور في الأصل وصف للمفعول كالحلوب أو مصدر كالقبول ، نعم هذا الوزن في المصادر قليل والأكثر ضم الفاء وبه قرأ حمزة وجعله بعضهم على هذه القراءة جمع زبر بكسر الزاي بمعنى مزبور ثم جعل علماً للكتاب المخصوص وليس فيه من الأحكام شيء .

أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال : الزبور ثناء على الله عز وجل ودعاء وتسبيح ، وأخرج هو وابن جرير عن قتادة قال : كنا نحدث أن الزبور دعاء علمه داود عليه السلام وتحميد وتمجيد لله عز وجل ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود .

والذي تدل عليه بعض الآثار اشتمال على بعض النواهي والأوامر ، فقد روى ابن أبي شيبة أنه مكتوب فيه أني أنا الله لا إله إلا أنا ملك الملوك قلوب الملوك بيدي فأيما قوم كانوا على طاعة جعلت الملوك عليهم رحمة وأيما قوم كانوا على معصية جعلت الملوك عليهم نقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ولا تتوبوا إليهم وتوبوا إلى أعطف قلوبهم عليكم ، والمزامير التي يفهم منها الأمر والنهي كثيرة فيه كما لا يخفى على من رآه ، ومع هذا الفرق بينه وبين التوراة ظاهر ، ودخول أل عليه في بعض الآيات للمح الأصل وذلك لا ينافي العلمية كما في العباس والفضل .

وجوز أن يكون نكرة غير علم ونكر ليفيد أنه بعض من الكتب الإلهية أو من مطلق الكتب ولا إشكال أيضاً في دخول أل عليه أي آتيناه زبوراً من الزبر وجوز أن يكون مختصاً بكتاب داود عليه السلام وليس بعلم بل من غلبة اسم الجنس وهو كالقرآن يطلق على المجموع وعلى الأجزاء ، وتقدم إفادة التنكير للبعضية في قوله تعالى : ﴿ لَيْلاً ﴾ [الإسراء : 1] فيجوز أن يكون المراد هنا آتيناه بعضاً من الزبور فيه ذكره صلى الله عليه وسلم ، هذا ووجه ربط الآيات بما تقدم على هذا التفسير على ما في "الكشف" أنه تعالى لما أرشد نبيه صلى الله عليه وسلم إلى جواب الكفار بجده في استهزائهم وتوقره في استخفافهم ليكون أغيظ لهم وأشجى لحلوقهم أرشده إلى أن يحمل أصحابه أيضاً على ذلك وأن يستنوا بسنته وعلل ذلك بما اعترض به من أن الشيطان ينزغه يحمل على المخاشنة فعلى العاقل الحازم أن لا يغتر بوساوسه كيف وقد تبين له أنه عدو مبين ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : 54] متعلق بجميع السابق من قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُواْ ﴾ [الإسراء : 50] المشتمل على مجادلته بالتي هي أحسن ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى ﴾ [الإسراء : 53] المشتمل على حملهم عليها إلى قوله سبحانه : ﴿ أَوْ أَن يَشَاء يُعَذّبْكُمْ ﴾ [الإسراء : 54] وقوله عز وجل : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِى السموات والأرض ﴾ [الإسراء : 55] من تتمة ﴿ إن تتبعون إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ [الإسراء : 47] فإنهم طعنوا فيه

وحاشاه تارة بأنه شاعر ساحر مجنون وأخرى بنحو ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] و﴿ لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ [الأحقاف : 11] فأجيب عن الأول بما أجيب وعن الثاني بقوله سبحانه : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ ﴾ ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ ﴾ وجوز أن يكون الخطاب في قوله تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ ﴾ [الإسراء : 54] الخ

(62/458)

للمؤمنين وروى ذلك عن الكلبي وأخرج الأول ابن جرير .

وابن المنذر عن ابن جريج والمعنى أنه تعالى إن يشأ يرحمكم أيها المؤمنون في الدنيا بإنجائكم من الكفرة ونصركم عليهم أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم والمراد بالتي هي أحسن المجادلة الحسنة فكأنه تعالى لما ذكر الحجة اليقينية في صحة المعاد أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقول للمؤمنين إذا أردتم إيراد الحجة على المخالفين فاذكروا الدلائل بالطريق الأحسن وهو أن لا يكون ذلك ممزوجاً بالشتم والسب لأنه لو اختلط به لا يبعد أن يقابل بمثله فيزداد الغضب ويهيج الشر فلا يحصل المقصود وأشار سبحانه إلى ذلك بقوله عز قائلاً :

﴿ إِنَّ الشيطان ﴾ [الإسراء : 53] الخ وضمير ﴿ بينهم ﴾ [الإسراء : 53] إما

للكفار أو للفريقين وروى أن المشركين أفرطوا في إيذاء المؤمنين فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وقيل شتم عمر رجل فهم رضي الله تعالى عنه به فأمره الله تعالى بالعفو.

(63/458)

قال في "الكشف" أنه على هذين القولين الكلمة التي هي أحسن نحو يهديكم الله تعالى وليست مفسرة ب ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ [الإسراء: 54] وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الشيطان يَنزَغُ ﴾ [الإسراء: 53] تعليل للأمر بالاحتمال بأن المخاشنة من فعل الشيطان والخطاب في قوله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ [الإسراء: 54] للمؤمنين وفيه حث على المداراة أي فداروهم لأن ربكم أعلم بكم وبما يصلح لكم من أوامر إن يشأ يرحمكم بالملاينة والتراحم لأنه سبب السلامة عن أذى الكفار أو أن يشأ يعذبكم بمخاشنتكم في غير إبانها وما أرسلناك عليهم وكيلاً فهؤلاء المؤمنون وهم أتباعك أولى وأولى بأن لا يكونوا وكيلاً عليهم ثم قال والأول أوفق لتأليف النظم وفي إفادة ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ [الإسراء: 54] الحث على ما قرر تكلف ما اه، وقيل: المراد من عبادي الكفار وحيث كان المقصود من الآيات الدعوة لا يبعد أن يعبر عنهم بذلك ليصير سبباً

لجذب قلوبهم وميل طباعهم إلى قبول الدين الحق فكأنه قيل قل يا محمد لعبادي الذين أقروا بكونهم عباداً لي يقولوا التي هي أحسن وهي الكلمة الحقة الدالة على التوحيد وإثبات القدرة على البعث وعرفهم أنه لا ينبغي لهم أن يصروا على المذهب الباطل تعصباً للأسلاف فإن ذلك من الشيطان وهو للإنسان عدو مبين فلا ينبغي أن يلتفت إلى قوله ، والمراد من الأمر بالقول الأمر باعتقاد ذلك وذكر القول لما أنه دليل الاعتقاد ظاهراً ثم قال لهم سبحانه : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ بالهداية ﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ بالإماتة على الكفر إلا أن تلك المشيئة غائبة عنكم فاجتهدوا أنتم في طلب الدين الحق ولا تصروا على الباطل لئلا تصيروا محرومين عن السعادات الأبدية والخيرات السرمدية ، ثم قال سبحانه : ﴿ وَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : 54] أي لا تشدد الأمر عليهم ولا تغلظ لهم بالقول ،

(64/458)

والمقصود من كل ذلك إظهار اللين والرفق لهم عند الدعوة لأنه أقرب لحصول المقصود ، ثم إنه تعالى عمم علمه بقوله : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ ﴾ الخ ويحسن على هذا ما روي عن ابن عباس وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن سيرين من تفسير ﴿ التى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء

: 53] بلا إله إلا الله ونقل ذلك ابن عطية عن فرقة من العلماء ثم قال : ويلزم عليه أن يراد بعبادي جميع الخلق لأن جميعهم مدعو إلى قول لا إله إلا الله ويجيء قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء : 53] غير مناسب إلا على معنى ينزغ خلالهم وأثناءهم ويفسر النزغ بالوسوسة والإملاء ولا يخفى أنه في حيز المنع ، وما ذكر من الدليل لا يتم إلا إذا لم يكن للتخصيص نكتة ، وهي ههنا ظاهرة ويكون قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مّن دُونِهِ ﴾ الخ كالاستدلال على حقية ما دعاهم إليه من التوحيد وربطه بما تقدم على ما ذكرناه أولاً لا أظنه يخفي . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعاني حـ 15 صـ ﴾

(65/458)

وقال الشوكاني :

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) ﴾

لما فرغ سبحانه من حكاية شبه القوم في النبوّات حكى شبهتهم في أمر المعاد فقال : ﴿ وَقَالُواْ أَءذَا كُنَّا عظاما ورفاتا ﴾ والاستفهام ، للاستنكار والاستبعاد .

وتقرير الشبهة : أن الإنسان إذا مات جفت عظامه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم ، واختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر ، فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها ، ثم

عود الحياة إلى ذلك المجموع ، فأجاب سبحانه عنهم بأن إعادة بدن الميت إلى حال الحياة أمر ممكن ، ولو فرضتم أن بدنه قد صار أبعد شيء من الحياة ومن رطوبة الحي كالحجارة والحديد ، فهو كقول القائل : أتطمع فيّ وأنا ابن فلان ؟ فيقول : كن ابن السلطان أو ابن من شئت فسأطلب منك حقي .

والرفات : ما تكسر وبلى من كلّ شيء كالفتات والحطام والرضاض ، قاله أبو عبيدة ، والكسائي ، والفراء ، والأخفش .

تقول منه : رفت الشيء رفتاً ، أي : حطم فهو مرفوت .

وقيل : الرفات : الغبار ، وقيل : التراب ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ كرّر الاستفهام الدالّ على الاستنكار والاستبعاد ؛ تأكيداً وتقريراً ، والعامل في "إذا" هو ما دلّ عليه ﴿ لمبعوثون ﴾ ، لا هو نفسه ، لأن ما بعد إنّ والهمزة واللام لا يعمل فيما قبلها ، والتقدير : ﴿ ءإذا كنا عظاماً ورفاتاً ﴾ نبعث ﴿ ءإنا لمبعوثون ﴾ ، وانتصاب ﴿ خلقاً ﴾ على المصدرية من غير لفظه ، أو على الحال ، أي : مخلوقين ، و ﴿ جديداً ﴾ صفة له .

﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً .

أَوْ خَلْقًا ﴾ آخر ﴿ مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ قال ابن جرير : معناه : إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاماً ولحماً فكونوا أنتم حجارة أو حديداً إن قدرتم على ذلك ، وقال علي بن عيسى : معناه : إنكم لو كنتم حجارة أو حديداً لم تفوتوا الله عزّ وجلّ إذا أرادكم .

إلاّ أنه خرج مخرج الأمر لأنه أبلغ في الإلزام ؛ وقيل : معناه : لو كنتم حجارة أو حديداً لأعادكم كما بدأكم ولأماتكم ثم أحياكم ، قال النحاس : وهذا قول حسن ، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة أو حديداً ، وإنما المعنى : أنهم قد أقرّوا بخالقهم وأنكروا البعث ، فقيل لهم : استشعروا أن تكونوا ما شئتم ، فلو كنتم حجارة أو حديداً لبعثتم كما خلقتم أوّل مرة .

قلت : وعلى هذا الوجه قررنا جواب الشبهة قبل هذا .

﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ أي : يعظم عندكم مما هو أكبر من الحجارة والحديد مباينة للحياة فإنكم مبعوثون لا محالة ، وقيل : المراد به السموات والأرض والجبال لعظمها في النفوس .

وقال جماعة من الصحابة والتابعين : المراد به الموت ، لأنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه .

والمعنى : لو كنتم الموت لأماتكم الله ثم بعثكم .

ولا يخفى ما في هذا من البعد ، فإن معنى الآية : الترقي من الحجارة إلى الحديد ، ثم من

الحديد إلى ما هو أكبر في صدور القوم منه ، والموت نفسه ليس بشيء يعقل ويحسّ حتى يقع الترقي من الحديد إليه ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ إذا كنا عظاماً ورفاتاً ، أو حجارة أو حديداً مع ما بين الحالتين من التفاوت .

﴿ قُلِ الذى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي : يعيدكم الذي خلقكم واخترعكم عند ابتداء خلقكم من غير مثال سابق ولا صورة متقدّمة ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءوسِهِمُ ﴾ أي : يحركونها استهزاءً ، يقال : نغض رأسه ينغض وينغض نغضاً ونغوضاً أي : تحرك ، وأنغض رأسه حركه كالمتعجب ، ومنه قول الراجز :

أنغض نحوي رأسه : وأقنعا . . . وقول الراجز الآخر :

ونغضت من هرم أسنانها . . . وقال آخر :

(67/458)

لما رأتني أنغضت لي رأسها . . . ﴿ وَيَقُولُونَ متى هُوَ ﴾ أي : البعث والإعادة استهزاء منهم وسخرية ﴿ قُلْ عسى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ أي : هو قريب ، لأن عسى في كلام الله واجب الوقوع ، ومثله ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة تَكُونُ قَرِيباً ﴾ [الأحزاب : 63] ، وكل ما هو آتٍ قريب ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ الظرف منتصب بفعل مضمر أي : اذكر ، أو بدل

من ﴿ قريباً ﴾ ، أو التقدير : يوم يدعوكم كان ما كان ، الدعاء : النداء إلى المحشر بكلام يسمعه الخلائق ، وقيل : هو الصيحة التي تسمعونها ، فتكون داعية لهم إلى الاجتماع في أرض المحشر ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أي : منقادين له ، حامدين لما فعله بكم ، فهو في محل نصب على الحال .

وقيل : المعنى : فتستجيبون والحمد لله كما قال الشاعر :

وإني بحمد الله لا ثوب فاخر . . . لبست ولا من غدرة أتقنع

وقد روي أن الكفار عند خروجهم من قبورهم يقولون : سبحانك وبحمدك ؛ وقيل : المراد بالدعاء هنا البعث ، وبالاستجابة : أنهم يبعثون ، فالمعنى : يوم يبعثكم فتبعثون منقادين ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لبثتم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي : تظنون عند البعث أنكم ما لبثتم في قبوركم إلاّ زمناً قليلاً ، وقيل : بين النفختين ، وذلك أن العذاب يكف عن المعذبين بين النفختين ، وذلك أربعون عاماً ينامون فيها ، فلذلك ﴿ قَالُواْ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [ياس : 52] ، وقيل : إن الدنيا تحقرت في أعينهم وقلت حين رأوا يوم القيامة ، فقالوا هذه المقالة .

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ التى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي قل : يا محمد لعبادي المؤمنين : أن يقولو عند محاورتهم للمشركين الكلمة التي هي أحسن من غيرها من الكلام الحسن كقوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : 46] .

وقوله: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّناً ﴾ [طه: 44] لأن المخاشنة لهم ربما تنفرهم عن الإجابة أو تؤدي إلى ما قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: 108].

وهذا كان قبل نزول آية السيف، وقيل: المعنى: قل لهم يأمروا بما أمر الله وينهوا عما نهى عنه، وقيل: هذه الآية للمؤمنين فيما بينهم خاصة، والأوّل أولى كما يشهد به السبب الذي سنذكره إن شاء الله ﴿ إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي: بالفساد وإلقاء العداوة والإغراء.

قال اليزيدي: يقال نزغ بيننا أي: أفسد.

وقال غيره: النزغ الإغراء ﴿ إِنَّ الشيطان كَانَ للإنسان عَدُوّا مُّبِينًا ﴾ أي: متظاهراً بالعداوة مكاشفاً بها، وهو تعليل لما قبله، وقد تقدّم مثل هذا في البقرة.

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذّبْكُمْ ﴾ قيل: هذا خطاب للمشركين. والمعنى: إن يشأ يوفقكم للإسلام فيرحمكم أو يميتكم عن الشرك فيعذبكم، وقيل: هو خطاب للمؤمنين أي: ﴿ إن يشأ يرحمكم ﴾ بأن يحفظكم من الكفار ﴿ أو إن يشأ يعذبكم ﴾ بتسليطهم عليكم؛ وقيل: إن هذا تفسير لكلمة ﴿ التي هي أحسن ﴾ ﴿ وَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ أي: ما وكلناك في منعهم من الكفر، وقسرهم على الإيمان؛

وقيل : ما جعلناك كفيلاً لهم تؤخذ بهم ، ومنه قول الشاعر :

ذكرت أبا أروى فبتّ كأنني . . . بردّ الأمور الماضيات وكيل

أي : كفيل .

(69/458)

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِى السموات والارض ﴾ أعلم بهم ذاتاً وحالاً واستحقاقاً ، وهو أعمّ من قوله : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ لأن هذا يشمل كل ما في السموات والأرض من مخلوقاته ، وذاك خاص ببني آدم أو ببعضهم ، وهذا كالتوطئة لقوله : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيين على بَعْضٍ ﴾ أي : إن هذا التفضيل عن علم منه بمن هو أعلى رتبة وبمن دونه ، وبمن يستحق مزيد الخصوصية بتكثير فضائله وفواضله .

وقد تقدّم هذا في البقرة .

وقد اتخذ الله إبراهيم خليلاً ، وموسى كليماً ، وجعل عيسى كلمته وروحه ، وجعل لسليمان ملكاً عظيماً ، وغفر لمحمد ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، وجعله سيد ولد آدم .

وفي هذه الآية دفع لما كان ينكره الكفار مما يحكيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من ارتفاع درجته عند ربه عزّ وجلّ ، ثم ذكر ما فضل به داود ، فقال : ﴿ وَءاتَيْنَا داود زبورا

﴾ أي : كتاباً مزبوراً .

قال الزجاج : أي فلا تنكروا تفضيل محمد وإعطاءه القرآن فقد أعطى الله داود زبوراً .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ورفاتا ﴾

قال : غباراً .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿

ورفاتا ﴾ قال : تراباً ، وفي قوله : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾ قال : ما شئتم فكونوا

، فسيعيدكم الله كما كنتم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن جرير ، وابن المنذر ،

وابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله : ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ قال : الموت ،

لو كنتم موتاً لأحييتكم .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن جرير ، والحاكم عن ابن عباس مثله .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن الحسن مثله أيضاً .

وأخرج عبد الله بن أحمد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه ، وزاد قال : فكونوا الموت إن استطعتم فإن الموت سيموت .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ قال : سيحركونها استهزاءً .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ﴾ قال : الإعادة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ قال : بأمره .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في الآية قال : يخرجون من قبورهم وهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ قال : بمعرفته وطاعته ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي : في الدنيا ، تحاقرت الدنيا في أنفسهم ، وقلّت حين عاينوا يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين في قوله : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ قال : لا إله إلّا الله .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال : يعفو عن السيئة .

وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : يقول له يرحمك الله ، يغفر الله لك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: نزغ الشيطان: تحريشه.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ وَءاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾ قال: كنا نحدّث أنه دعاء علمه داود، وتحميد وتمجيد لله عزّ وجلّ ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال: الزبور: ثناء على الله ودعاء وتسبيح.

(71/458)

قلت: الأمر كما قاله قتادة والربيع، فإنا وقفنا على الزبور فوجدناه خطباً يخطبها داود عليه السلام، ويخاطب بها ربه سبحانه عند دخوله الكنيسة، وجملته مائة وخمسون خطبة، كل خطبة تسمى مزموراً بفتح الميم الأولى وسكون الزاي وضم الميم الثانية وآخره راء، ففي بعض هذه الخطب يشكو داود على ربه من أعدائه ويستنصره عليهم، وفي بعضها يحمد الله ويمجده ويثني عليه بسبب ما وقع من النصر عليهم والغلبة لهم، وكان عند الخطبة يضرب بالقيثارة، وهي آلة من آلات الملاهي.

وقد ذكر السيوطي في الدرّ المنثور ها هنا روايات عن جماعة من السلف يذكرون ألفاظاً

وقفوا عليها في الزبور ليس لها كثير فائدة ، فقد أغنى عنها وعن غيرها ما اشتمل عليه القرآن من المواعظ والزواجر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(72/458)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) ﴾

جواب عن قولهم : ﴿ أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ [الإسراء : 49].

أمر الله رسوله بأن يجيبهم بذلك .

وقرينة ذلك مقابلة فعل ﴿ كنا ﴾ [الإسراء : 49] في مقالهم بقوله : ﴿ كونوا ﴾ ، ومقابلة ﴿ عظاماً ورفاتاً ﴾ في مقالهم بقوله : ﴿ حجارة أو حديداً ﴾ الخ ، مقابلة أجسام واهية بأجسام صُلبة .

ومعنى الجواب أن وهن الجسم مساوٍ لصلابته بالنسبة إلى قدرة الله تعالى على تكييفه كيف يشاء .

لهذا كانت جملة ﴿ قل كونوا حجارة ﴾ الخ غير معطوفة ، جرْياً على طريقة المحاورات

التي بينتُها عند قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ في سورة [البقرة : 30] .

وإن كان قوله : ﴿ قل ﴾ ليس مبدأ محاورة بل المحاورة بالمقول الذي بعده ؛ ولكن الأمر بالجواب أعطي حكم الجواب فلذلك فصلت جملة ﴿ قل ﴾ .

واعلم أن ارتباط رد مقالتهم بقوله : ﴿ كونوا حجارة ﴾ الخ غامض ، لأنهم إنما استبعدوا أو أحالوا إرجاعَ الحياة إلى أجسام تَفرّقت أجزاؤُها وانخرم هيكلها ، ولم يعللوا الإحالة بأنها صارت أجساماً ضعيفة ، فيرد عليهم بأنها لو كانت من أقوى الأجسام لأعيدت لها الحياة .

فبنا أن نبين وجه الارتباط بين الرد على مقالتهم وبين مقالتهم المردودة ، وفي ذلك ثلاثة وجوه:

أحدها : أن تكون صيغة الأمر في قوله : ﴿ كونوا ﴾ مستعملة في معنى التسوية ، ويكون دليلاً على جواب محذوف تقديره : إنكم مبعوثون سَواء كنتم عظاماً ورُفاتاً أو كنتم حجارة أو حديداً ، تنبيهاً على أن قدرة الله تعالى لا يتعاصى عليها شيء .

وذلك إدماج يجعل الجملة في معنى التذييل .

الوجه الثاني : أن تكون صيغة الأمر في قوله : ﴿ كونوا ﴾ مستعملة في الفرض ، أي لو

فُرِض أن يكون الأجساد من الأجسام الصلبة وقيل لكم : إنكم مبعوثون بعد الموت لأحلتم ذلك واستبعدتم إعادة الحياة فيها .

(73/458)

وعلى كلا الوجهين يكون قوله : ﴿ مما يكبر في صدوركم ﴾ نهايةَ الكلام ، ويكون قوله : ﴿ فسيقولون من يعيدنا ﴾ مفرعاً على جملة ﴿ وقالوا أئذا كنا ﴾ [الإسراء : 49] الخ تفريعاً على الاستئناف .

وتكون الفاء للاستئناف وهي بمعنى الواو على خلاف في مجيئها للاستئناف ، والكلام انتقال لحكاية تكذيب آخر من تكذيباتهم .

الوجه الثالث : أن يكون قوله : ﴿ قل كونوا حجارة ﴾ كلاماً مستأنفاً ليس جواباً على قولهم : ﴿ أئذا كنا عظاماً ورفاتاً ﴾ [الإسراء : 49] الخ وتكون صيغة الأمر مستعملة في التسوية .

وفي هذا الوجه يكون قوله : ﴿ فسيقولون من يعيدنا ﴾ متصلاً بقوله : ﴿ كونوا حجارة أو حديداً ﴾ الخ ، ومفرعا على كلام محذوف يدل عليه قوله : ﴿ كونوا حجارة ﴾ ، أي فلو كانوا كذلك لقالوا : من يعيدنا ، أي لانْتقلوا في مدارج السفسطة من إحالة الإعادة إلى ادعاء

عدم وجود قادر على إعادة الحياة لهم لصلابة أجسادهم .

وبهذه الوجوه يلتئم نظم الآية وينكشف ما فيه من غموض .

والحديد : تراب معدني ، أي لا يوجد إلا في مغاور الأرض ، وهو تراب غليظ مُختلف

الغلظ ، ثقيل أدكن اللون ، وهو إما محتت الأجزاء وإما مورّقُها ، أي مثل الورَق .

وأصنافه ثمانية عشر باعتبار اختلاف تركيب أجزائه ، وتتفاوت ألوان هذه الأصناف ،

وأشرف أصنافه الخالصُ ، وهو السالم في جميع أجزائه من المواد الغريبة .

وهذا نادر الوجود وأشهر ألوانه الأحمر ، ويقسم باعتبار صلابته إلى صنفين أصليين

يسميان الذكر والأنثى ، فالصلب هو الذكر واللين الأنثى .

وكان العرب يصفون السيف الصلب القاطع بالذكر .

وإذا صهر الحديد بالنار تمازجت أجزاؤه وتميع وصار كالحلواء فمنه ما يكون حديدَ صب

ومنه ما يكون حديدَ تطريق ، ومنه فولاُذ .

وكل صنف من أصنافه صالح لما يناسب سبكه منه على اختلاف الحاجة فيها إلى شدة

الصلابة مثل السيوف والدروع .

ومن خصائص الحديد أن يعلوَه الصدأُ ، وهو كالوسخ أخضرُ ثم يستحيل تدريجاً إلى أكسيد (كلمة كيمياوية تدل على تعلق أجزاء الأكسجين بجسم فتفسده) وإذا لم يتعهد الحديد بالصقل والزيت أخذ الصدأ في نخر سطحه ، وهذا المعدن يوجد في غالب البلاد . وأكثر وجوده في بلاد الحبشة وفي صحراء مصر .

ووجدت في البلاد التونسية معادن من الحديد .

وكان استعمال الحديد من العصور القديمة ؛ فإن الطور الثاني من أطور التاريخ يعرف بالعصر الحديدي ، أي الذي كان البشر يستعمل فيه آلات متخذة من الحديد ، وذلك من أثر صنعة الحديد ، وذلك قبل عصر تدوين التاريخ .

والعصر الذي قبله يعرف بالعصر الحجري .

وقد اتصلت بتعيين الزمن الذي ابتدىء فيه صنع الحديد أساطير واهية لا ينضبط بها تاريخه .

والمقطوع به أن الحديد مستعمل عند البشر قبل ابتداء كتابة التاريخ ولكونه يأكله الصدأ عند تعرضه للهواء والرطوبة لم يَبق من آلاته القديمة إلا شيء قليل .

وقد وُجدتُ في (طيبَة) : ومَدافن الفراعنة في (منفيس) بمصر صور على الآثار مرسوم عليها : صور خزائن شاحذين مداهم وقد صبغوها في الصور باللون الأزرق لون الفولاذ ، وذلك في القرن الحادي والعشرين قبل التاريخ المسيحي .

وقد ذكر في التوراة وفي الحديث قصة الذبيح ، وقصة اختتان إبراهيم بالقدوم .

ولم يذكر أن السكين ولاالقدوم كانتا من حجر الصوان ، فالأظهر أنه بآلة الحديد ، ومن الحديد تتخذ السلاسل للقيد ، والمقامع للضرب ، وسيأتي قوله تعالى : ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ في سورة [الحج : 21] .

والخلق : بمعنى المخلوق ، أي أو خلقاً آخر مما يعظم في نفوسكم عن قبوله الحياة ويستحيل عندكم على الله إحياؤه مثل الفولاذ والنحاس .

وقوله : مما يكبر في صدوركم ﴾ صفة ﴿ خلقاً ﴾ .

ومعنى ﴿ يكبر ﴾ يعظم وهو عظم مجازي بمعنى القوي في نوعه وصفاته ، والصدور : العقول ، أي مما تعدونه عظيماً لا يتغير .

(75/458)

وفي الكلام حذف دل عليه الكلام المردود وهو قولهم : ﴿ أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون ﴾ [الإسراء : 49] .

والتقدير : كونوا أشياء أبعد عن قبول الحياة من العظام والرفات .

والمعنى : لو كنتم حجارة أو حديداً لأحياكم الله ، لأنهم جعلوا كونهم عظاماً حجة

لاستحالة الإعادة ، فرد عليهم بأن الإعادة مقدرة لله تعالى ولو كنتم حجارة أو حديداً ، لأن الحجارة والحديد أبعد عن قبول الحياة من العظام والرفات إذ لم يسبق فيهما حلول الحياة قط بخلاف الرفات والعظام .

والتفريع في فسيقولون من يعيدنا ﴾ على جملة ﴿ قل كونوا حجارة ﴾ أي قل لهم ذلك فسيقولون لك : من يعيدنا .

وجُعِلَ سؤالهم هنا عن المعيد لا عن أصل الإعادة لأن البحث عن المعيد أدخل في الاستحالة من البحث عن أصل الإعادة ، فهو بمنزلة الجواب بالتسليم الجدلي بعد الجواب بالمنع فإنهم نفوا إمكان إحياء الموتى ، ثم انتقلوا إلى التسليم الجدلي لأن التسليم الجدلي أقوى ، في معارضة الدعوى ، من المنع .

والاستفهام في ﴿ من يعيدنا ﴾ تهكمي .

ولما كان قولهم هذا محقق الوقوع في المستقبل أمر النبي بأن يجيبهم عندما يقولونه جواب تعيين لمن يعيدهم إبطالاً للازم التهكم ، وهو الاستحالة في نظرهم بقوله : ﴿ قل الذي فطركم أول مرة ﴾ إجراء لظاهر استفهامهم على أصله بحمله على خلاف مرادهم ، لأن ذلك أجدر على طريقة الأسلوب الحكيم لزيادة المحاجة ، كقوله في محاجة موسى لفرعون ﴿ قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ [الشعراء : 25 26] .

وجيء بالمسند إليه موصولاً لقصد ما في الصلة من الإيماء إلى تعليل الحكم بأن الذي

فطرهم أول مرة قادر على إعادة خلقهم، كقوله تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ [الروم: 27] فإنه لقدرته التي ابتدأ بها خلقكم في المرة الأولى قادر أن يخلقكم مرة ثانية.

والإنغاض: التحريك من أعلى إلى أسفل والعكس.

(76/458)

فإنغاض الرأس تحريكه كذلك، وهو تحريك الاستهزاء.

واستفهموا عن وقته بقولهم: متى هو ﴾ استفهام تهكم أيضاً؛ فأمر الرسول بأن يجيبهم جواباً حقاً إبطالاً للازم التهكم، كما تقدم في نظيره آنفاً.

وضمير ﴿ متى هو ﴾ عائد إلى العود المأخوذ من قوله: ﴿ يعيدنا ﴾ كقوله: ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة: 8].

و[عسى] للرجاء على لسان الرسول: والمعنى لا يبعد أن يكون قريباً.

ويوم يدعوكم ﴾ بدل من الضمير المستتر في ﴿ يكون ﴾ من قوله: ﴿ أن يكون قريباً ﴾.

وفتحته فتحة بناء لأنه أضيف إلى الجملة الفعلية.

ويجوز أن يكون ظرفاً ل ﴿ يكون ﴾ ، أي يكون يوم يدعوكم ، وفتحته فتحة نصب على الظرفية .

والدعاء يجوز أن يحمل على حقيقته ، أي دعاء الله الناس بواسطة الملائكة الذين يسوقون الناس إلى المحشر .

ويجوز أن يحمل على الأمر التكويني بإحيائهم ، فأطلق عليه الدعاء لأن الدعاء يستلزم إحياء المدعو وحصول حضوره ، فهو مجاز في الإحياء والتسخير لحضور الحساب .

والاستجابة مستعارة لمطاوعة معنى ﴿ يدعوكم ﴾ ، أي فتحيون وتمثلون للحساب .

أي يدعوكم وأنتم عظام ورفات .

وليس للعظام والرفات إدراك واستماع ولا ثم استجابة لأنها فرع السماع وإنما هو تصوير لسرعة الإحياء والإحضار وسرعة الانبعاث والحضور للحساب بحيث يحصل ذلك كحصول استماع الدعوة واستجابتها في أنه لا معالجة في تحصيله وحصوله ولا ريث ولا بطْء في زمانه .

وضمائر الخطاب على هذا خطاب للكفار القائلين ﴿ من يعيدنا ﴾ والقائلين ﴿ متى هو ﴾ .

والباء في ﴿ بحمده ﴾ للملابسة ، فهي في معنى الحال ، أي حامدين ، فهم إذا بعثوا خلق فيهم إدراك الحقائق فعلموا أن الحق لله .

ويجوز أن يكون ﴿ بحمده ﴾ متعلقاً بمحذوف على أنه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم والتقدير : انطق بحمده ، كما يقال : باسم الله ، أي ابتدىء ، وكما يقال للمعرس : باليمن والبركة ، أي احمد الله على ظهور صدق ما أنبأتكم به ، ويكون اعتراضاً بين المتعاطفات .

وقيل : إن قوله : ﴿ يوم يدعوكم ﴾ استئناف كلام خطاب للمؤمنين فيكون ﴿ يوم يدعوكم ﴾ متعلقاً بفعل محذوف ، أي اذكروا يوم يدعوكم .

والحمد على هذا الوجه محمول على حقيقته ، أي تستجيبون حامدين الله على ما منحكم من الإيمان وعلى ما أعد لكم مما تشاهدون حين انبعاثكم من دلائل الكرامة والإقبال .

وأما جملة ﴿ وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ فهي عطف على ﴿ تستجيبون ﴾ ، أي وتحسبون أنكم ما لبثتم في الأرض إلا قليلاً .

والمراد : التعجيب من هذه الحالة ، ولذلك جاء في بعض آيات أخرى سؤال المولى حين يبعثون عن مدة لبثهم تعجيباً من حالهم ، قال تعالى : ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ [

المؤمنون : 112 114] ، وقال : ﴿ فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثتَ قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام ﴾ [البقرة : 259] .

وهذا التعجيب تنديم للمشركين وتأييد للمؤمنين .

والمراد هنا : أنهم ظنوا ظناً خاطئاً ، وهو محل التعجيب .

وأما قوله في الآية الأخرى : قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون فمعناه : أنه وإن طال فهو قليل بالنسبة لأيام الله .

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(78/458)

لما أعقب ما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بتبليغه إلى المشركين من أقوال تعظهم وتنهنههم من قوله تعالى : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما تقولون ﴾ [الإسراء : 42] وقوله : قل كونوا حجارة [الإسراء : 50] وقوله : ﴿ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ [الإسراء : 51] ثني العنان إلى الأمر بإبلاغ المؤمنين تأديباً ينفعهم في هذا المقام على عادة القرآن في تلوين الأغراض وتعقيب بعضها ببعض أضدادها استقصاء لأصناف الهدى ومختلف أساليبه ونفع مختلف الناس .

ولما كان ما سبق من حكاية أقوال المشركين تنبىء عن ضلال اعتقادٍ نقل الكلام إلى أمر المؤمنين بأن يقولوا أقوالاً تعرب عن حسن النية وعن نفوس زكية.

وأوتوا في ذلك كلمة جامعة وهي يقولوا التي هي أحسن ﴾.

و﴿ التي هي أحسن ﴾ صفة لمحذوف يدل عليه فعل ﴿ يقولوا ﴾.

تقديره: بالتي هي أحسن.

وليس المراد مقالة واحدة.

واسم التفضيل مستعمل في قوة الحسن.

ونظيره قوله: ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [النحل: 125]، أي بالمجادلات التي هي بالغة الغاية في الحسن، فإن المجادلة لا تكون بكلمة واحدة.

فهذه الآية شديدة الاتصال بالتي قبلها وليست بحاجة إلى تطلب سبب لنزولها.

وهذا تأديب عظيم في مراقبة اللسان وما يصدر منه.

وفي الحديث الصحيح عن معاذ بن جبل: أن النبي أمره بأعمالٍ تدخله الجنة ثم قال له: ألا أخبرك بِملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: كُفّ عليك هذا. قال: قلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما تتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك وهل يَكُبّ الناسَ في النار على وجوههم، أو قال على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم.

والمقصد الأهم من هذا التأديب تأديب الأمة في معاملة بعضهم بعضاً بحسن المعاملة وإلانةِ القول ، لأن القول ينم عن المقاصد ، بقرينة قوله : إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ .

(79/458)

ثم تأديبهم في مجادلة المشركين اجتناباً لما تثيره المشادة والغلظة من ازدياد مكابرة المشركين وتصلبهم فذلك من نزغ الشيطان بينهم وبين عدوهم ، قال تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ [فصّلت : 34] .

والمسلمون في مكة يومئذٍ طائفة قليلة وقد صرف الله عنهم ضر أعدائهم بتصاريف من لطفه ليكونوا آمنين ، فأمرهم أن لا يكونوا سبباً في إفساد تلك الحالة .

والمراد بقوله : لعبادي ﴾ المؤمنون كما هو المعروف من اصطلاح القرآن في هذا العنوان .

وروي أن قول التي هي أحسن أن يقولوا للمشركين : يهديكم الله ، يرحمكم الله ، أي بالإيمان .

وعن الكلبي : كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقول والفعل ، فشكَوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية .

وجزم ﴿ يقولوا ﴾ على حذف لام الأمر وهو وارد كثيراً بعد الأمر بالقول ، ولك أن تجعل

﴿ يقولوا ﴾ جواباً منصوباً في جواب الأمر مع حذف مفعول القول لدلالة الجواب عليه .

والتقدير : قل لهم : قُولوا التي هي أحسن يَقولوا ذلك .

فيكون كناية على أن الامتثال شأنهم فإذا أمروا امتثلوا .

وقد تقدم نظيره في قوله : ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ في سورة [إبراهيم : 31] .

والنزغ : أصله الطعن السريع ، واستعمل هنا في الإفساد السريع الأثر .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ﴾ في سورة [يوسف : 100] .

وجملة إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ تعليل للأمر بقول التي هي أحسن .

والمقصود من التعليل أن لا يستخفوا بفاسد الأقوال فإنها تثير مفاسد من عمل الشيطان .

ولما كان ضمير ﴿ بينهم ﴾ عائداً إلى عبادي كان المعنى التحذير من إلقاء الشيطان العداوة بين المؤمنين تحقيقاً لمقصد الشريعة من بث الأخوة الإسلامية .

روى الواحدي : أن عمر بن الخطاب شتمه أعرابي من المُشركين فشتمه عمر وهَمّ بقتله فكاد أن يُثير فتنةً فنزلتْ هذه الآية .

وأيّا ما كان سبب النزول فهو لا يقيد إطلاق صيغة الأمر للمسلمين بأن يقولوا التي أحسن في كل حال .

وجملة ﴿ إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ﴾ تعليل لجملة ﴿ ينزغ بينهم ﴾ ، وعلةُ العلة علة .

وذكر (كان) للدلالة على أن صفة العداوة أمر مستقر في خلقته قد جبل عليْه .

وعداوته للإنسان متقررة من وقت نشأة آدم عليه الصلاة والسلام وأنه يسول للمسلمين أن يغلِظوا على الكفار بوهمهم أن ذلك نصر للدين ليوقعهم في الفتنة ، فإن أعظم كيد الشيطان أن يوقع المؤمن في الشر وهو يوهمه أنه يعمل خيراً .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (54) ﴾

هذا الكلام متصل بقوله : ﴿ نحن أعلم بما يستمعون به ﴾ إلى قوله : ﴿ فلا يستطيعون سبيلا ﴾ [الإسراء : 47 ، 48] .

فإن ذلك ينطوي على ما هو شأن نجواهم من التصميم على العناد والإصرار على الكفر .

وذلك يسوء النبي ويحزنه أن لا يهتدوا ، فوُجه هذا الكلام إليه تسلية له .

ويدل لذلك تعقيبه بقوله: وما أرسلناك عليهم وكيلا ﴾ .

ومعنى ﴿ إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ﴾ على هذا الكنايةُ عن مشيئة هديْه إياهم الذي هو سبب الرحمة، أو مشيئة تركهم وشأنَهم .

وهذا أحسن ما تفسر به هذه الآية ويبين موقعها ، وما قيل غيره أراه لا يلتئم .

وأوتي بالمسند إليه بلفظ الرب مضافاً إلى ضمير المؤمنين الشامل للرسول تذكيراً بأن الاصطفاء للخير شأن من معنى الربوبية التي هي تدبير شؤون المربوبين بما يليق بحالهم ، ليكون لإيقاع المسند على المسند إليه بعد ذلك بقوله : ﴿ أعلم بكم ﴾ وقعٌ بديع ، لأن الذي هو الرب هو الذي يكون أعلم بدخائل النفوس وقابليتها للاصطفاء .

(81/458)

وهذه الجملة بمنزلة المقدمة لما بعدها وهي جملة ﴿ إن يشأ يرحمكم ﴾ الآية، أي هو أعلم بما يناسب حال كل أحد من استحقاق الرحمة واستحقاق العذاب .

ومعنى ﴿ أعلم بكم ﴾ أعلم بحالكم ، لأن الحالة هي المناسبة لتعلق العلم .

فجملة ﴿ إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ﴾ مبينة للمقصود من جملة ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ .

والرحمة والتعذيب مكنًى بهما عن الاهتداء والضلال ، بقرينة مقارنته لقوله : ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ الذي هو كالمقدمة .

وسلك سبيل الكناية بهما لإفادة فائدتين : صريحهما وكنايتهما ، ولإظهار أنه لا يسأل عما يَفعل ، لأنه أعلم بما يليق بأحوال مخلوقاته .

فلما ناط الرحمة بأسبابها والعذابَ بأسبابه ، بحكمته وعدله ، عُلم أن معنى مشيئته الرحمة أو التعذيب هو مشيئة إيجاد أسبابهما ، وفعل الشرط محذوف .

والتقدير : إن يشأ رحمتَكم يرحمْكم أو إن يشأ تعذيبَكم يعذبْكم ، على حكم حذف مفعول فعل المشيئة في الاستعمال .

وجيء بالعطف بحرف (أو) الدالة على أحد الشيئين لأن الرحمة والتعذيب لا يجتمعان ف (أو) للتقسيم .

وذكر شرط المشيئة هنا فائدته التعليم بأنه تعالى لا مكره له ، فجمعت الآية الإشارة إلى صفة العلم والحكمة وإلى صفة الإرادة والاختيار .

وإعادةُ شرط المشيئة في الجملة المعطوفة لتأكيد تسلط المشيئة على الحالتين .

وجملة ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلاً ﴾ زيادة لبيان أن الهداية والضلال من جعل الله تعالى ، وأن النبي غير مسؤول عن استمرار من استمر في الضلالة .

إزالة للحرج عنه فيما يجده من عدم اهتداء من يدعوهم ، أي ما أرسلناك لتجبرهم على

الإيمان وإنما أرسلناك داعياً .

والوكيل على الشيء : هو المسؤول به .

والمعنى : أرسلناك نذيراً وداعياً لهم وما أرسلناك عليهم وكيلاً ، فيفيد معنى القصر لأن كونه داعياً ونذيراً معلوم بالمُشاهدة فإذا نفي عنه أن يكون وكيلاً وملجئاً آل إلى معنى : ما أنت إلا نذير .

(82/458)

وضمير ﴿ عليهم ﴾ عائد إلى المشركين ، كما عادت إليهم ضمائر ﴿ على قلوبهم ﴾ [الإسراء : 46] وما بعده من الضمائر اللائقة بهم .

وعليهم ﴾ متعلق بـ ﴿ وكيلا ﴾ .

وقدم على متعلقه للاهتمام وللرعاية على الفاصلة .

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (55) ﴾

تماثل القرينتين في فاصلتيْ هذه الآية من كلمة ﴿ والأرض ﴾ وكلمة ﴿ على بعض ﴾ ، يدل دلالة واضحة على أنهما كلام مرتبط بعضه ببعض ، وأن ليس قوله : ﴿ وربك أعلم

بمن في السماوات والأرض ﴾ تكملة لآية ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ [الإسراء : 54] الآية .

وتغيير أسلوب الخطاب في قوله : ﴿ وربك أعلم ﴾ بعد قوله : ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ [الإسراء : 54] إيماء إلى أن الغرض من هذه الجملة عائد إلى شأن من شؤون النبي التي لها مزيد اختصاص به ، تقفية على إبطال أقوال المشركين في شؤون الصفات الإلهية ، بإبطال أقوالهم في أحوال النبي .

ذلك أن المشركين لم يقبلوا دعوة النبي بغرورهم أنه لم يكن من عظماء أهل بلادهم وقادتهم ، وقالوا : أبعث الله يتيم أبي طالب رسولاً ، أبعث الله بشراً رسولاً ، فأبكتهم الله بهذا الرد بقوله : وربك أعلم بمن في السماوات والأرض ﴾ فهو العالم حيث يجعل رسالته .

وكان قوله : ﴿ وربك أعلم بمن في السماوات والأرض ﴾ كالمقدمة لقوله : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيئين ﴾ الآية .

أعاد تذكيرهم بأن الله أعلم منهم بالمستأهل للرسالة بحسب ما أعده الله فيه من الصفات القابلة لذلك ، كما قال الله تعالى عنهم ﴿ قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ في سورة [الأنعام : 124] .

وكان الحكم في هذه المقدمة على عموم الموجودات لتكون بمنزلة الكلية التي يؤخذ منها كل حكم لجزئياتها ، لأن المقصود بالإبطال من أقوال المشركين جامع لصور كثيرة من أحوال الموجودات من البشر والملائكة وأحوالهم ؛ لأن بعض المشركين أحالوا إرسال رسول من البشر ، وبعضهم أحالوا إرسال رسول ليس من عظمائهم ، وبعضهم أحالوا إرسال من لا يأتي بمثل ما جاء به موسى عليه الصلاة والسلام .

وذلك يثير أحوالاً جمة من العصور والرجال والأمم أحياءً وأمواتاً .

فلا جرم كان للتعميم موقع عظيم في قوله : بمن في السماوات والأرض ﴾ ، وهو أيضاً كالمقدمة لجملة ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيئين على بعض ﴾ ، مشيراً إلى أن تفاضل الأنبياء ناشئ على ما أودعه الله فيهم من موجبات التفاضل .

وهذا إيجاز تضمن إثباتَ النبوءة وتقررها فيما مضى ما لا قبل لهم بإنكاره ، وتعدّدَ الأنبياء مما يجعل محمداً صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل ، وإثباتَ التفاضل بين الأفراد من البشر ، فمنهم رسول ومنهم مرسل إليهم ، وإثباتَ التفاضل بين أفراد الصنف الفاضل .

وتقرر ذلك فيما مضى تقرراً لا يستطيع إنكاره إلا مكابر بالتفاضل حتى بين الأفضلين سنةً إلهية مقررة لا نكران لها .

فعلم أن طعنهم في نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم طعن مكابرة وحسد .

كما قال تعالى في شأن اليهود ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل

إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم مُلكاً عظيماً ﴾

في سورة [النساء : 54] .

وتخصيص داوود عليه السلام بالذكر عقب هذه القضية العامة وجهه صاحب "الكشاف" ومن تبعه بأن فائدة التلميح إلى أن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء وأمته أفضل الأمم لأن في الزبور أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون .

وهذا حسن .

وأنا أرى أن يكون وجه هذا التخصيص الإيماء إلى أن كثيراً من الأحوال المرموقة في نظر الجاهلين وقاصري الأنظار بنظر الغضاضة هي أحوال لا تعوق أصحابها عن الصعود في مدارج الكمال التي اصطفاها الله لها ، وأن التفضيل بالنبوءة والرسالة لا ينشأ عن عظمة سابقة ؛ فإن داوود عليه السلام كان راعياً من رعاة الغنم في بني إسرائيل ، وكان ذا قوة في الرمي بالحجر ، فأمر الله شاول ملك بني إسرائيل أن يختار داوود لمحاربة جالوت الكنعاني ، فلما قَتل داوودُ جالوتَ آتاه الله النبوءة وصيره مِلكاً لإسرائيل ، فهو النبي الذي تجلى فيه اصطفاء الله تعالى لمن لم يكن ذا عظمة وسيادة .

وذكر إيتائه الزبور هو محل التعريض للمشركين بأن المسلمين سيرثون أرضهم وينتصرون عليهم لأن ذلك مكتوب في الزبور كما تقدم آنفاً .

وقد أوتي داوود الزبور ولم يؤت أحد من أنبياء بني إسرائيل كتاباً بعد موسى عليه السلام .

وذكر داوود تقدم في سورة الأنعام وفي آخر سورة النساء .

وأما الزبور فذكر عند قوله تعالى : ﴿ وآتينا داوود زبورا ﴾ في آخر سورة [النساء : 163 .

والزبور : اسم لمجموع أقوال داوود عليه السلام التي بعضها مما أوحاه إليه وبعضها مما ألهمه من دعوات ومناجاة وهو المعروف اليوم بكتاب المزامير من كتب العهد القديم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(85/458)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) ﴾

أي: قُلْ ردّاً عليهم: إنْ كُنتم تستبعدون البعث وتَسْتصعِبونه مع أنه بَعْثٌ للعظام والرُّفات ، وقد كانت لها حياة في فترة من الفترات ، ولها إِلْف بالحياة ، فمن السهل أنْ نعيدَ إليها الحياة

، بل وأعظم من ذلك ، ففي قدرة الخالق سبحانه أنْ يُعيدكم حتى وإنْ كنتم من حجارة أو من حديد ، وهي المادة التي ليس بها حياة في نظرهم .

وكأن الحق سبحانه يتحدّاهم بأبعد الأشياء عن الحياة ، ويتدرج بهم من الحجارة إلى الحديد ؛ لأن الحديد أشدّ من الحجارة وهو يقطعها ، فلو كنتم حجارة لأعدْناكم حجارة ، ولو كنتم حديداً لأعدْناكم حديداً .

ثم يترقّي بهم إلى ما هو أبعد من ذلك ، فيقول تعالى: ﴿ أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . ﴾ .

(86/458)

قوله تعالى: ﴿ أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ . . ﴾ [الإسراء: 51] أي: هاتوا الأعظم فالأعظم ، وتوغلوا في التحدّي والبُعْد عن الحياة ، فأنا قادر على أنْ أهبَ له الحياة مهما كان بعيداً عن الحياة على إطلاقها .

وقوله: ﴿ مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ . . ﴾ [الإسراء: 51]

يكبر: أي يعظُم مِنْ كَبُر يكْبُر . ومنه قوله تعالى: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [الكهف: 5] أي: عَظُمت . والمراد: اختاروا شيئاً يعظم استبعادُ أن يكون فيه حياة

بعد ذلك ، وغاية ما عندهم في بيئتهم الحجارة والحديد ، فَهُما أبعد الأشياء عن الحياة ، وقد اتفقوا على ذلك فليس في محيط حياتهم ما هو أقسى من الحجارة والحديد . ولكن الحق سبحانه وتعالى ارتقى بهم في فَرْضية الأمر إلى أنْ يختاروا وتجتمع نفوسهم على شيء ، يكون أعظمَ استبعاداً من الحجارة والحديد .

ونلاحظ في قوله تعالى: ﴿ مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ . . ﴾ [الإسراء: 51] جاء هذا الشيء مُبْهَماً ؛ لأن الشيء العظيم الذي يعظُم عن الحجارة والحديد استبعاداً عن أصل الحياة مختلفٌ فيه ، فإن اتفقوا في أمر الحجارة والحديد فقد اختلفوا في الأشياء الأخرى ، فجاءت الآية مُبْهمة ليشيع المعنى في نفس كُلّ واحد كل على حَسْب ما يرى .

بدليل أنهم حينما سألوا الإمام علياً ـ رضي الله عنه ، وكرّم الله وجهه ـ عن أقوى الأجناس في الكون ، وقد علموا عن الإمام عليّ سرعة البديهة والتمرُّس في الفُتْيَا ، فأرادوا اختباره بهذا السؤال الذي يحتاج في الإجابة عليه إلى استقصاء لأجناس الكون وطبيعة كل منها .

دخل عليهم الإمام علي وهم مختلفون في هذه المسألة ، منهم من يقول: الحديد أقوى . ومنهم من يقول: بل الحجارة . وآخر يقول: بل الماء ، فأفتاهم الإمام في هذه القضية ، وانظر إلى دِقّة

الإفتاء واستيعاب العلم ، فلم يَقُل: أقوى جنود الله كذا وكذا ثم يكمل كما اتفق له ويذكر ما يخطر بباله ، لا بل حصرها أولاً ، فقال: أشد جنود الله عشرة .

فالمسألة ليست ارتجالية ، بل مسألة مدروسة لديه مُسْتَحضرة في ذِهْنه ، مُرتَّبة في تفكيره ، فبسط الإمام لمستمعيه يده وفَرَدَ أصابعه ، وأخذ يعدّ هذه العشرة ، وكأنه المعلم الذي استحضر درسه وأعدَّه جيداً .

قال: " أشد جنود الله عشرة ، الجبال الرواسي ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفئ النار ، والسحاب المسخّر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو بالشيء ويمضي لحاجته ، والسكر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السكر ، والهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله في الكون الهم " .

فهذه الأجناس هي المراد بقوله تعالى: ﴿ أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ . . ﴾ [الإسراء: 51] فاختاروا أيّاً من هذه الأجناس ، فالله تعالى قادر على إعادتكم وبعثكم كما كنتم أحياء .

ثم يقول تعالى: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . ﴾ [الإسراء: 51]

أي: أن الذي خلقكم بدايةً قادرٌ على إعادتكم ، بل الإعادة أَهْوَن من الخَلْق بدايةً ، ولكن الجواب لا يكون مُقنِعاً إلا إذا كانت النتيجة التي يأتي بها الجواب مُسلّمة . فهل هم مقتنعون بأن الله تعالى فطرهم أوّل مرة ؟

نعم ، هم مؤمنون بهذه الحقيقة رغم كُفْرهم ، بدليل قولهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: 87] فهم مقتنعون بذلك ، ولكنهم نقلوا الجدل إلى قضية أخرى فقالوا: مَنْ يُعيدنا ؟ فإنْ قلت لهم: الذي فطركم أول مرة . ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ . . ﴾ [الإسراء: 51]

معنى يُنغِض رأسه: يهزُّها من أعلى لأسفل ، ومن أسفل لأعلى استهزاءً وسخريةً مما تقول ، والمتأمل في قوله ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ ﴾ يجده فِعْلاً سيحدث في المستقبل ويقع من مُختارٍ ، والمقام مقام جَدلٍ بين الكفار وبين رسول الله ، وهذه الآية يتلوها رسول الله على أسماعهم ويخبر أنه إذا قال لهم: ﴿ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . ﴾ [الإسراء: 51] فسينغضون رؤوسهم .

فكان في وُسْع هؤلاء أنْ يُكذّبوا هذا القول ، فلا يُنغِضون رؤوسهم لرسول الله ويمكرون به في هذه المسألة ، ولهم بعد ذلك أنْ يعترضوا على هذا القول ويتهموه ، ولكن الحق سبحانه غالبٌ على أمره ، فها هي الآية تُتْلَى عليهم وتحْت سَمْعهم وأبصارهم ، ومع ذلك لم يقولوا ، مما يدلُّ على غباء الكفار وحُمْق تفكيرهم .

وما أشبه هذا الموقف منهم بموقفهم من حادث تحويل القبلة حينما قال الحق سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا . . ﴾ [البقرة: 144]

ثم أخبره بما سيحدث من الكفار، فقال: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة: 142]

وهذا قَوْلٌ اختياريّ في المستقبل، وكان بإمكانهم إذا سمعوا هذه الآية ألاّ يقولوا هذا القول ويجدوا بذلك مِأْخذاً على القرآن، ولكنهم مع هذا قالوا ما حكاه القرآن؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيقولون لا محالة: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ . . ﴾ [الإسراء: 51]

(89/458)

والاستفهام هنا كسابقه للإنكار والتعجُّب الدال على استبعاد البعث بعد الموت، ولاحظ هنا أن السؤال عن الزمن، فقد نقلوا الجدل من إمكانية الحدث على ميعاد الحدث، وهذا تراجعٌ منهم في النقاش، فقد كانوا يقولون: مَنْ يُعيدنا؟ والآن يقولون: متى؟ فيأتي الجواب: ﴿ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً ﴾ [الإسراء: 51]

عسى: كلمة تفيد الرجاء، والرجاء أمر مُتوقّع يختلف باختلاف الراجي والمرجو منه،

فإذا قُلْت مثلاً: عسى فلاناً أنْ يعطيك كذا ، فالرجاء هنا بعيد شيئاً ما ؛ لأنه رجاء من غيري لك ، أما لو قلْت: عسى أنْ أُعطيك كذا ، فهي أقرب في الرجاء ؛ لأنني أتحدَّث عن نفسي ، وثقة الإنسان في نفسه أكثر من ثقته في الآخرين ، ومع ذلك قد يتغير رأيي فلا أعطيك ، أو يأتي وقت الإعطاء فلا أجد ما أعطيه لك .

لكن إذا قُلْتَ: عسى الله أن يعطيك فلا شكّ أنها أقربُ في الرجاء ؛ لأنك رجوت الله تعالى الذي لا يُعجِزه شيء في الأرض ولا في السماء . وإنْ كان القائل هو الحق سبحانه وتعالى ، فالرجاء منه سبحانه مُحقَّق وواقع لا شكَّ فيه ؛ فالرجاء من الغير للغير رتبة ، ومن الإنسان لغيره رتبة ، ومن الله تعالى للغير رتبة .

وقد شرح لنا الرسول صلى الله عليه وسلم مسألة القرب فقال: "بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين " وأشار بالسَّبابة والوسطى ؛ لأنه ليس بعده رسول ، فهو والقيامة متجاوران لا فاصلَ بينهما ، كما أننا نقول: كُلُّ آتٍ قريب ، فالأمر الآتي مستقبلاً قريب ؛ لأنه قادم لا محالةَ .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

هذا في يوم القيامة ، حيث لا يستطيع أحدٌ الخروجَ عن مُرادات الحق سبحانه بعد أن كان يستطيع الخروج عنها في الدنيا ؛ لأن الخالق سبحانه حين خلق الخَلْق جعل للإرادة الإنسانية سلطاناً على الجوارح في الأمور الاختيارية ، فهو مُخْتَار يفعل ما يشاء ، ويقول ما يشاء ، ويترك ما يشاء ، فإرادته أمير على جوارحه ، أما الأمور القهرية فلا دَخْل للإرادة بها .

فإذا جاء اليوم الآخر انحلَّتْ الإرادة عن الجوارح ، ولم يَعُدْ لها سلطان عليها ، بدليل أن الجوارح سوف تشهد على صاحبها يوم القيامة: ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُواْ أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . . ﴾ [فصلت: 21]

لقد كانت لكم ولاَيَة علينا في دُنْيا الأسباب ، أما الآن فنحن جميعاً مرتبطون بالمسبِّب سبحانه ، فلا ولاية لكم علينا الآن ؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عن يوم القيامة: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: 16]

ففي الدنيا ملَّك الناس ، وجعل مصالح أُناسٍ في أيدي آخرين ، أما في الآخرة ، فالأمر كله والمُلْك كله لله وحده لا شريك له .

فقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ . . ﴾ [الإسراء: 52] أي: يقول لكم اخرجوا من القبور للبعث بالنفخة الثانية في الصُّور ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ . . ﴾ [الإسراء: 52] أي: تقومون في طاعة واستكانة ، لا قَوْمةَ مُسْتنكف أو مُتقاعس أو مُتغطرس ، فكلّ هذا انتهى وقته في الدنيا ، ونحن الآن في الآخرة .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال: ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ . . ﴾ [الإسراء: 52] ولم يقل: فتُجيبون؛ لأن استجاب أبلغ في الطاعة والانصياع، كما نقول: فهم واستفهم أي: طلب الفَهْم، وكذلك ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ أي: تطلبون أنتم الجواب، وتُلحُّون عليه لا تتقاعسون فيه، ولا تتأبَّوْن عليه، فتُسرعون في القيام.

(91/458)

ليس هذا وفقط، بل: ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ . . ﴾ [الإسراء: 52] أي: تُسرعون في القيام حامدين الله شاكرين له، ولكن كيف والحمد لا يكون إلا على شيء محبوب؟

نعم، إنهم يحمدون الله تعالى؛ لأنهم عاينوا هذا اليوم الذي طالما ذكَّرهم به، ودعاهم إلى الإيمان به، والعمل من أجله، وطالما ألَحَّ عليهم ودعاهم، ومع ذلك كله جحدوا وكذَّبوا، وها هم اليوم يَروْنَ ما كذَّبوه وتتكشّف لهم الحقيقة التي أنكروها، فيقومون حامدين لله الذي نبَّههم ولم يُقصِّر في نصيحتهم. كما أنك تنصح ولدك بالمذاكرة والاجتهاد، ثم يخفق في الامتحان فيأتيك معتذراً: لقد نصحتني ولكني لم أستجبْ.

إذن: فبيانُ الحق سبحانه لأمور الآخرة من النِّعَم التي لا يعترف بها الكفار في الدنيا، ولكنهم سيعترفون بها في الآخرة، ويعرفون أنها من أعظم نِعَم الله عليهم، ولكن بعد فوات الأوان.

لذلك اعترض المستشرقون على قوله تعالى في سورة (الرحمن) : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: 34] بعد قوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن: 34] فالآية في نظرهم تتحدث عن نِقْمة وعذاب، فكيف يناسبها: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: 35]

والمتأمّل في الآية يجدها منسجمة كل الانسجام؛ لأن من النعمة أن نُنبِّهك بالعِظَة للأمر الذي ينتظرك والعذاب الذي أُعِدّ لك حتى لا تقعَ في أسبابه، فالذي يعلم حقيقة العذاب على الفِعْل لا يقترفه.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: 52]

الظن: خبر راجح؛ لأنهم مذبذبون في قضية البعث لا يقين عندهم بها.

(92/458)

﴿ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ أي: أقمتُم في الدنيا، أو في قبوركم؛ لأن الدنيا متاع قليل، وما دامتْ انتهت فلن يبقى منها شيء. وكذلك في القبور؛ لأن الميت في قبره شِبْه النائم لا يدرك كم لَبثَ في نومه، ولا يتصوّر إلا النوم العادي الذي تعوّده الناس.

ولذلك كل مَنْ سُئِل في هذه المسألة: كم لبثتم؟ قالوا: يوماً أو بعض يوم، فهذا هو المعتاد

المتعارف عليه بين الناس، ذلك لأن الشعور بالزمن فرع مراقبة الأحداث، والنوم والموت لا أحداثَ فيها، فكيف - إذن - سنراقب الأحداث والمَلكة الواعية مفقودة؟

وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: 46]

وقال: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ [المؤمنون: 112-113]

أي: لم يكنْ لدينا وَعْيٌ لنعُدّ الأيام، فاسأل العادّين الذين يستطيعون العدّ.

وفي قصة العزيز الذي أماته الله مائة عام، ثم بعثه: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ..﴾ [البقرة: 259] على مُقْتضى العادة التي أَلِفَها في نومه، فيُوضِّح له ربه: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ [البقرة: 259]

فالمدّة في نظر العزيز كانت يوماً أو بعض يوم، والحق سبحانه أخبر أنها مائة عام، فالبَوْنُ شاسع بينهما، ومع ذلك فالقوْلاَن صادقان. والحق سبحانه أعطانا الدليل على ذلك، فقد بعث العُزَيز من موته، فوجد حماره عظاماً بالية يصدُق عليها القول بمائة عام، ونظر إلى طعامه وشرابه فوجده كما هو لم يتغير، وكأنّ العهدَ به يوم أو بعض يوم، ولو مرّ على الطعام مائة عام لتغيّر بل لتحلّل ولم يَبْقَ له أثر.

وكأن الخالق سبحانه قبض الزمن وبَسَطه في وقت واحد ، وهو سبحانه القابض الباسط ، إذن: قَوْلُ الحق سبحانه مائة عام صِدْق ، وقول العُزَيز ﴿ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ صِدْق أيضاً ، ولا يجمع الضِّدَّيْن إلا خالق الأضداد سبحانه وتعالى .

وبعد أن تكلم القرآن عن موقف الكفار من الألوهية ، وموقفهم من النبوة وتكذيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عن موقفهم من منهج الله وكفرهم بالبعث والقيامة ، أراد سبحانه أنْ يعطينا الدروس التي ترُبِّب منهج الله في الأرض ، فقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

وسبق أنْ أوضحنا الفرق بين عبيد وعباد ، وأنهما جَمْع عبد ، لكن عبيد تدل على مَنْ خضع لسيّده في الأمور القهرية ، وتمرَّد عليه في الأمور الاختيارية ، أما عباد فتدلّ على مَنْ خضع لسيده في كُلّ أموره القهرية والاختيارية ، وفضَّل مراد الله على مُرَاده ، وعنهم قال

تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ﴾ [الفرقان: 63-64]

وهذا الفَرْق قائم بينهما في الدنيا دون الآخرة، حيث في الآخرة تنحلّ صفة الاختيار التي بنينا عليها التفرقة، وبذلك يتساوى الجميع في الآخرة، فكلهم عبيد وعباد؛ لذلك قال تعالى في الآخرة للشيطان: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [الفرقان: 17]

فسمَّاهم عباداً رغم ضلالهم وكفرهم.

وقوله تعالى: ﴿ يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: 53]

أي: العبارة التي هي أحسن، وكذلك الفِعْل الذي هو أحسن. والمعنى: قُلْ لعبادي: قولوا التي هي أحسن يقولوا التي هي أحسن؛ لأنهم مُؤتمرون بأمك مُصدّقون لكَ.

و﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ تعني: الأحسن الأعلى الذي تتشقّق منه كل أَحْسَنيات الحياة، والأحسن هو الإيمان بالله بشهادة أن لا إله إلا الله، هذه أحسن الأشياء وأولها، لذلك كان صلى الله عليه وسلم يقول: " خَيْرُ ما قُلْتُه أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله " ".

لأن من باطنها ينبتُ كل حسن، فهي الأحسن والكبيرة؛ لأنك ما دُمْتَ تؤمن بالله فلن تتلقّى إلا عنه، ولن تخاف إلا منه، ولن ترجوَ إلا هو، وهكذا يحسُن أمرك كلُّه في الدنيا والآخرة.

وأنت حين تقول: لا إله إلا الله ، لا تقولها إلا وأنت مؤمن بها ؛ لأنك تريد أنْ تُشيعها فيمن سمعك ، ولا تكتفي بنفسك فقط ، بل تحب أنْ يُشاركك الآخرون هذا الخير ؛ لذلك إذا أردنا أن ننطقَ بهذه الكلمة نقول: أشهد أن لا إله إلا الله . فمعنى أشهد يعني عند مَنْ لم يشهد ، فكأن إيمانك بها دَعاك إلى نَقْلها إلى الناس ، وبثّها فيما بينهم .

ويمكن أن نقول ﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الأحسن هو: كل كلمة خير ، أو الأحسن هو: الجدل بالتي هي أحسن ، كما قال تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: 125]

أو نقول: الأحسن يعني التمييز بين الأقوال المتناقضة وفَرْزها أمام العقل ، ثم نختار الأحسن منها ، فنقول به .

فالأحسن -إذن- تَشيُع لتشمل كُلَّ حَسَن في أيّ مجال من مجالات الأقوال أو الأفعال ، ولنأخذ مثلاً مجال الجدل ، وخاصة إذا كان في سبيل إعلاء كلمة الله ، فلا شكّ أن المعارض كَارِهٌ لمبدئك العام ، فإنْ قَسَوْتَ عليه وأغلظْتَ له القول أو اخترتَ العبارة السيئة فسوف ينتقل الخلاف بينكما من خلاف في مبدأ عام على عَداء شخصي .

وإذا تحوَّلتْ هذه المسألة إلى قضية شخصية فقد أججّتَ أُوار غضبه؛ لأنه في حاجة لأنْ تَرْفُقَ به، فلا تجمع عليه مرارة أنْ تُخرِجه مما أَلِف إلى ما يكره، بل حاول أنْ تُخرِجه مما أَلِف إلى ما يحب لتطفئ شراسته لعداوتك العامة، وتُقرِّب من الهُوّة بينك وبينه فيقبل منك ما تقول.

يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: 34]

(96/458)

وقد يطلع علينا مَنْ يقول: لقد دفعتُ بالتي هي أحسن، ومع ذلك لا يزال عدوي قائماً على عداوتي، ولم أكسب محبته. نقول له: أنت ظننتَ أنك دفعتَ بالتي هي أحسن، ولكن الواقع غير ذلك، إنك تحاول أنْ تُجرِّب مع الله، والتجربة مع الله شَكٌّ، فادفع بالتي هي أحسن من غير تجربة، وسوف يتحول العدو أمامك إلى صديق.

وما أروعَ قول الشاعر: يَا مَنْ تُضَايِقُه الفِعَالُ مِنَ التِي ومِنَ الذِي ادْفَع. فَدَيْتُك. بالِتي حتَّى تَرَى فَإِذَا الذِيلكن، لماذا نقول التي هي أحسن؟

لأن الشيطان ينزغ بينكم: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ.. ﴾ [الإسراء: 53] والنزْغ هو

نَخس الشيطان ووسوسته ، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ [الأعراف: 200]

فإن كنْت مُنتبهاً له ، عارفاً بحيله فذكرتَ الله عند نَخْسه ونَزْغه انصرف عنك ، وذهب إلى غيرك ؛ لذلك يقول تعالى عن الشيطان: ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ [الناس: 4]

أي: الذي يخنس ويختفي إذا ذُكِرَ الله ، لكن إذا رأى منك ضعفاً وغفلة ومرَّتْ عليك حِيلَةُ ، واستجبتَ لوساوسه ، فقد أصبحت فريسة سهلة بين أنيابه ومخالبه .

وعادةً تأتي خواطر الشيطان وكأنها مِجَسٌّ للمؤمن واختبار لانتباهه وحَذَره من هذا العدو ، فينزغه الشيطان مرَّة بعد أخرى لِيُجرّبه ويختبره . فإذا كان النزغ هكذا ، فأنت حين تجادل بالتي هي أحسن لا تعطي للشيطان فُرْصة لأنْ يُؤجِّج العداوة الشخصية بينكما ، فيُزيِّن لك شَتْمه أو لَعْنه ، وهكذا يتحول الخلاف في المبدأ العام إلى عداوة ذاتية شخصية .

(97/458)

لذلك إذا رأيتَ شخصين يتنازعان لا صِلَة لك بهما ، ولكن ضايقك هذا النزاع ، فما عليك إلا أنْ تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثاً ، وأتحدّى أن يستمر النزاع بعدها ،

إنها الماء البارد الذي يُطفئ نار الغضب، ويطرد الشيطان فتهدأ النفوس، وما أشبهك في هذا الموقف برجل الإطفاء الذي يسارع إلى إخماد الحريق، وخصوصاً إذا قلت هذه العبارة بنية صادقة في الإصلاح، وليس لك مأربٌ من هذا التدخّل.

والحق سبحانه يقول: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ.. ﴾ [الإسراء: 53]

تلاحظ أن نزْغ الشيطان لا يقتصر على المتخاصمين والمتجادلين حول مبدأ ديني عقدي، بل ينزغ بين الإخوة والأهل والأحبة، ألم يقل يوسف: ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ [يوسف: 100]

لقد دخل الشيطان بين أولاد النبوة، وزرع الخلاف حتى بين الأسباط وفيهم رائحة النبوة، ولذلك لم يتصاعد فيهم الشر، وهذا دليل على خَيْريتهم، وأنت تستطيع أنْ تُميِّز بين الخيِّر والشرير، فتجد الخيّر يهدد بلسانه بأعنف الأشياء، ثم يتضاءل إلى أهون الأشياء، على عكس الشرير تراه يُهدد بأهونِ الأشياء، ثم يتصاعد إلى أعنف ما يكون.

انظر إلى قول إخوة يوسف: ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً ﴾ [يوسف: 9] فقال الآخر وكان أميل إلى الرفق به: ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ [يوسف: 10] وقد اقترح هذا الاقتراح وفي نيته النجاة لأخيه، بدليل قوله تعالى: ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ [يوسف: 10]

وهكذا تضاءل الشر في نفوسهم.

ثم يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً ﴾ [الإسراء: 53]

أي: أن عداوة الشيطان لكم قديمة منذ أبيكم آدم -عليه السلام- فهي عداوة مسبقة، قال عنها الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ هَاذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾[طه: 117]

(98/458)

لذلك يجب على الأب كما يُعلِّم ابنه علوم الحياة ووسائلها أنْ يُعلِّمه قصة العداوة الأولى بين الشيطان وآدم -عليه السلام- ويُعلمه أن خواطر الخير من الله وخواطر الشر من الشيطان، فليكُنْ على حَذَر من خواطره ووساوسه، وبذلك يُربِّي في ابنه مناعة إيمانية، فيحذر كيد الشيطان ونَزْغه، ويعلم أن كل أمر يخالف أوامر الشرع فهو من الشيطان، وهذه التربية من الآباء تحتاج إلى إلحاح بها على الأبناء حتى ترسخ في أذهانهم.

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً ﴾ [الإسراء: 53] أي: كان ولا يزال. وإلى يوم القيامة بدليل قوله: ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[الإسراء: 62]

أي: لأتعهّدنهم بالإضلال والغواية إلى يوم القيامة.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ .

(99/458)

في هذه الآية إشارة إلى طلاقة المشيئة الإلهية ، فالحق سبحانه إنْ شاء يرحمنا بفضله ، وإنْ شاء يُعذِّبنا بعدله ؛ لأن الحق سبحانه لو عاملنا بميزان عدله ما نجا منّا أحد ، ولو جلس أحدنا وأحصى ماله وما عليه لوجد نفسه لا محالةَ واقعاً تحت طائلة العقاب ؛ لذلك يَحسُن بنا أن ندعوُ الله بهذا الدعاء : " اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب " .

والحق تبارك وتعالى لا يُيئس العُصاة من فضله ، ولا يملي لهم بعدله ، بل يجعلهم بين هذه وهذه ليكونوا دائماً بين الخوف والرجاء .

وحينما كان المسلمون الأوّلون يتعرضون لشتى ألوان الإهانة والتعذيب ولا يجدون مَنْ يمنعهم من هذا التعذيب ، فكانوا يذهبون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون إليه ما ينزل بهم ، فرسول الله ينظر في أنحاء العالم من حوله بحثاً عن المكان المناسب الذي يلجأ إليه هؤلاء المضطهدون ، ويأمرهم بالهجرة إلى الحبشة ويقول: " إن فيها ملكاً لا يُظْلَم عنده

أحدٌ " .

لقد كانوا في مرحلة لا يستطيعون فيها الدفاع عن أنفسهم ، فالضعيف منهم عاجز عن المواجهة ، والقوي منهم لا يستطيع حماية الضعيف ؛ لأنه كان يذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقترح عليه الرد على الكفار ومواجهتهم بكذا وكذا ، فكان صلى الله عليه وسلم يقول لهم: " لم أومر ، لم أومر . . " . .

لأن الله تعالى أراد ألّا يبقي للإيمان جندي إلا وقد مَسَّه العذاب ، وذاق ألوان الاضطهاد ليربي فيهم الصبر على الأذى وتحمُّل الشدائد ؛ لأنهم سيحملون رسالة الانسياح بمنهج الله في الأرض ، ولا شكَّ أن القيام بمنهج الله يحتاج إلى صلابة وإلى قوة ، فلا بُدَّ من تمحيص المؤمنين ، لذلك حدث للإسلام في عصر النبوة أحداث وشدائد ، ومرَّت به عقبات مثل تعذيب المؤمنين وإيذائهم وحادث الإسراء والمعراج .

وكانت الحكمة من هذه الأحداث تمحيص المؤمنين وغربلة المنتسبين لدين الله ، حتى لا يبقى إلا القوي المأمون على حَمْل منهج الله ، والانسياح به في شتَّى بقاع الأرض ، وحتى لا يبقى في صفوف المؤمنين مَنْ يحمل راية الإيمان لمغنَم دنيوي ، فالغنيمة في الإسلام ليست في

الدنيا بل في جنة عَرْضُها السماوات والأرض .

لذلك ، ففي بيعة العقبة الثانية قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك . " قال: أسألكم لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسي ولأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم ، قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ فماذا قال لهم رسول الله ؟ أقال لهم تملكون الدنيا ؟ لا ، بل قال: " لكم الجنة " قالوا: فلك ذلك " .

فهذه هي الجائزة الحقيقية التي ينبغي أن يفوز بها المؤمن ؛ لأنه من الجائز أن يموت أحدهم بعد أن أعطى رسول الله هذا العهد ولم يدرك شيئاً من خير الدنيا في ظل الإسلام ، إذن: فالنبي صادق في هذا الوعد . وما دام الجزاء هو الجنة فلا بُدَّ لها من جنود أقوياء يصبرون على الأحداث ، ويُواجهون الفتن والمكائد .

فالمعنى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ [الإسراء: 54] بالخروج من مكة مهاجرين إلى ديار الأمن في الحبشة ﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ . . ﴾ [الإسراء: 54] أي: عذاباً مقصوداً لكي يُمحِّص إيمانكم ويُميِّز المؤمنين منكم الجديرين بحمل رسالة الله ومنهجه .

ثم يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: 54]

الوكيل: هو المفوَّض من صاحب الشأن بفعل شيء ما ، والمراد: ما أرسلناك إلا للبلاغ ، ولستَ مسئولاً بعد ذلك عن إيمانهم ، ولستَ وكيلاً عليهم ؛ لأن الهداية والتوفيق للإيمان بيد الحق سبحانه وتعالى .

(101/458)

إذن: قول الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: 54]

ليست قهراً لرسول الله ، وليست إنقاصاً من قَدْره ، بل هي رحمة به ورأفة ، كأنه يقول له: لا تُحمّل نفسك يا محمد فوق طاقتها ، كما خاطبه في آية أخرى بقوله: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: 3] فالحق ـ تبارك وتعالى ـ في هذه المسألة لا يعتب على رسوله ، بل يعتب لصالحه ، والمتتبع لمواقف العتاب للرسول صلى الله عليه وسلم يجده عِتَاباً لصالحه صلى الله عليه وسلم رحمةً به ، وشفقةً عليه ، لا كما يقول البعض: إن الله تعالى يُصحّح للرسول خطئاً وقع فيه .

ومثال لهذا قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَآءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ [عبس: 1-3] الله تعالى يعتب على رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه ترك الرجل الذي

جاءه سائلاً عن الدين ، وشَقّ على نفسه بالذهاب إلى جدال هؤلاء الصناديد ، وكأن الحق سبحانه يشفق على رسوله أن يشقّ على نفسه ، فالعتاب هنا حِرْصاً على رسول الله وعلى راحته.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التحريم: 1]

والتحريم تضييق على النفس ، فالحق سبحانه يعتب على رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه ضيّق على نفسه ، وحرَّم عليها ما أحلّه الله لها . كما تعتب على ولدك الذي سَهِر طويلاً في المذاكرة حتى أرهقَ نفسه ، فالعتاب لصالح الرسول لا ضده.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ . . . ﴾ .

(102/458)

قوله تعالى: ﴿ أَعْلَمُ ﴾ أفعل تفضيل تدلُّ على المبالغة في العلم ، وإنْ كان الحق سبحانه أعلم فما دونه يمكن أنْ يتصفَ بالعلم ، فنقول: عالم . ولكن الله أعلم ؛ لأن الله تعالى لا يمنع عباده أن تشرئب عقولهم وتطمح إلى معرفة شيء من أسرار الكون.

والمعنى أن الحق سبحانه وتعالى لا يقتصر علمه عليك يا محمد وعلى أمتك ، وقد سُبِقت

الآية بقوله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ . . ﴾ [الإسراء: 54] ولكن علمه سبحانه يسَع السماوات والأرض عِلْماً مُطْلقاً لا يغيب عنه مثقال ذرة، وبمقتضى هذا العلم يُقسِّم الله الأرزاق ويُوزِّع المواهب بين العباد، كُلّ على حسب حاله، وعلى قَدْر ما يُصلحه.

فإنْ رأيتَ شخصاً ضيَّق الله عليه فاعلم أنه لا يستحق غير هذا، ولا يُصلحه إلا ما قَسَمه الله له؛ لأن الجميع عبيد لله مربوبون له، ليس بين أحد منهم وبين الله عداوة، وليس بين أحد منهم وبين الله نسب.

فالجميع عنده سواء، يعطي كُلاًّ على قَدْر استعداده عطاءَ ربوبية، لا يحرم منه حتى الكافر الذي ضاق صدره بالإيمان، وتمكّن النفاق من قلبه حتى عشق الكفر وأحب النفاق، فالله تعالى لا يحرمه مِمّا أحبّ ويزيده منه.

إذن: لعلمه سبحانه بمَنْ في السماوات والأرض يعطي عباده على قَدْر مَا يستحقّون في الأمور القَهْرية التي لا اختيارَ لهم فيها، فهُمْ فيها سواء. أما الأمور الاختيارية فقد تركها الخالق سبحانه لاجتهاد العبد وأَخْذ بالأسباب، فالأسباب موجودة، والمادة موجودة، والجوارح موجودة، والعقل موجود، والطاقة موجودة. إذن: على كل إنسان أن يستخدم هذه المعطيات ليرتقي بحياته على قَدْر استطاعته.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [الإسراء: 55]

مَن الذي فضَّل ؟ الله سبحانه وتعالى هو الذي يُفضّل بعض النبيين على بعض ، وليس لنا نحن أن نُفضّل إلا مَنْ فضَّله الله ؛ لأنه سبحانه هو الذي يملك أن يُجازي على حَسْب الفضل ، أما نحن فلا نملك أنْ نجازي على قَدْر الفضل .

لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى" .

لأن الذي يُفضِّل هو الله تعالى ، وقد نُصّ على هذا التفضيل في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ [البقرة: 253]

فالتفضيل على حسب ما يعلمه الله تعالى من أن أُولى العزم من الرسل قد فَضَّلهم عن غيرهم لِمَا تحمّلوه من مشقة في دعوة أقوامهم ، ولما قاموا به من حمل منهج الله والانسياح به ، أو من طول مُدّتهم من قومهم . . الخ فهو وحده يعلم أسباب التفضيل .

ثم يقول تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾ [الإسراء: 55]

فلماذا ذكر داود بالذات مقترناً بالكتاب الذي أُنزل عليه ؟ قالوا : لأن داود عليه السلام أُوتي مع الكتاب المُلْك ، فكان نبياً ملكاً ، فكأن الحق سبحانه يشير إلى أن تفضيل داود لا من حيث أنه مِلك ، بل من حيث هو نبي صاحب كتاب .

وفي الحديث الشريف يقول صلى الله عليه وسلم: " لقد خُيِّرْتُ بين أن أكون عبداً نبياً أو نبياً ملكاً ، فاخترت أن أكون عبداً نبياً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(104/458)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ورفاتاً ﴾ قال غباراً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ورفاتاً ﴾ قال : تراباً . وفي قوله : ﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً ﴾ قال : ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله كما أنتم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ﴾ قال :

الموت. قال: لو كنتم موتى لأحييتكم.

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير والحاكم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ﴾ قال: الموت.

وأخرج أبو الشيخ في العظمة، عن الحسن رضي الله عنه مثله.

وأخرج عبد الله بن أحمد وابن جرير وابن المنذر، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله: ﴿ أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ﴾ قال: هو الموت ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم من الموت فكونوا الموت ان استطعتم، فإن الموت سيموت.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ فسينغضون إليك رؤوسهم ﴾ قال: يحركون رؤوسهم استهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأخرج الطستي، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ فسينغضون إليك رؤوسهم ﴾ قال: يحركون رؤوسهم استهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول الشاعر وهو يقول:

اتنغض لي يوم الفخار وقد ترى . . . خيولاً عليها كالأسود ضواريا

وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ ويقولون متى هو ﴾ قال: الإعادة والله تعالى أعلم.

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52) وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (53)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق علي، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ فتستجيبون بحمده ﴾ قال بأمره.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله: ﴿ فتستجيبون بحمده ﴾ قال: يخرجون من قبورهم وهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ﴾ أي بمعرفته وطاعته ﴿ وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ أي في الدنيا تحاقرت الأعمار في أنفسهم، وقلت حين عاينوا يوم القيامة.

وأخرج الحكيم الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وأبو يعلى والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في منشرهم وكأني بأهل

لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن " .

وأخرج ابن مردويه ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ولا في القبور ، ولا في الحشر كأني بأهل لا إله إلا الله قد خرجوا من قبورهم ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن " .

(106/458)

وأخرج الخطيب في التاريخ ، عن موسى بن هرون الحمال قال حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم الموصلي رضي الله عنه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت : يا رسول الله ، إن يحيى الحماني حدثنا ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن ابن عمر عنك صلى الله عليك - أنك قلت ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في منشرهم وكأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . فقال : صدق الحماني .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن سيرين رضي الله عنه في قوله : ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾ قال لا إله إلا الله .

وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله: ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾ قال: يعفوا عن السيئة.

وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾ قال: لا يقول له مثل ما يقول، بل يقول له: يرحمك الله، يغفر الله لك.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة رضي الله عنه قال: نزغ الشيطان تحريشه.

وأخرج البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من نار".

وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿ إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ﴾ قال: عادوه، فإنه يحق على كل مسلم عداوته، وعداوته أن تعاديه بطاعة الله.

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (54) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: ﴿ ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم ﴾ قال: فتؤمنوا ﴿ وإن يشأ يعذبكم ﴾ فتموتوا على الشرك كما أنتم.

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (55) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ قال : اتخذ الله إبراهيم خليلاً ، وكلم موسى تكليماً ، وجعل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فكان ، وهو عبد الله ورسوله من كلمة الله وروحه ، وآتى سليمان ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعده ، وآتى داود زبوراً ، وغفر لمحمد صلى الله عليه وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ قال : كلم الله موسى ، وأرسل محمداً إلى الناس كافة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ قال : كنا نحدث أنه دعاء علمه داود وتحميد أو تمجيد الله عز وجل ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال : الزبور ثناء على الله ودعاء وتسبيح .

وأخرج أحمد في الزهد ، عن عبد الرحمن بن مردويه قال : في زبور آل داود ثلاثة أحرف :

طوبى لرجل لا يسلك سبيل الخطائين ، وطوبى لمن لم يأتمر بأمر الظالمين ، وطوبى من لم يجالس البطالين .

وأخرج أحمد في الزهد ، عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : في أول شيء من مزامير داود عليه السلام : طوبى لرجل لا يسلك طريق الخطائين ولم يجالس البطالين ، ويستقيم على عبادة ربه عز وجل ، فمثله كمثل شجرة نابتة على ساقية لا يزال فيها الماء يفضل ثمرها في زمان الثمار ، ولا تزال خضراء في غير زمان الثمار .

وأخرج أحمد ، عن مالك بن دينار رضي الله عنه قال : قرأت في بعض زبور داود – عليه السلام – تساقطت القرى وأبطل ذكرهم ، وأنا دائم الدهر مقعد كرسي للقضاء .

(108/458)

وأخرج أحمد ، عن وهب رضي الله عنه قال : وجدت في كتاب داود – عليه السلام – أن الله تبارك وتعالى يقول : " بعزتي وجلالي إنه من أهان لي ولياً ، فقد بارزني بالمحاربة ، وما ترددت عن شيء أريد ، ترددي عن موت المؤمن ، قد علمت أنه يكره الموت ولا بد له منه ، وأنا أكره أن أسوءه " قال : وقرأت في كتاب آخر : ان الله تبارك وتعالى يقول : " كفاني لعبدي مالاً إذا كان عبدي في طاعتي أعطيته قبل أن يسألني ، واستجبت له من قبل أن

يدعوني ، فإني أعلم بحاجته التي ترفق به من نفسه " قال : وقرأت في كتاب آخر : إن الله عز وجل يقول : " بعزتي إنه من اعتصم بي وإن كادته السموات بمن فيهن ، والأرضون بمن فيهن ، فإني أجعل له من بين ذلك مخرجاً ، ومن لم يعتصم بي ، فإني أقطع يديه من أسباب السماء ، وأخسف به من تحت قدميه الأرض فأجعله في الهواء ، ثم أكله إلى نفسه " .

وأخرج أحمد ، عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : في حكمة آل داود وحق على العاقل أن لا يشتغل عن أربع ساعات : ساعة يناجي ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي فيها إلى اخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ، ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل ، فإن هذه الساعات : عون على هذه الساعات ، وإجماع للقلوب ، وحق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه ، حافظاً للسانه ، مقبلاً على شأنه ، وحق على العاقل أن لا يظعن إلا في احدى ثلاث : زاد لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة في غير محرم .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ، عن خالد الربعي رضي الله عنه قال : وجدت فاتحة الزبور الذي يقال له : زبور داود عليه السلام – أن رأس الحكمة خشية الله تعالى .

وأخرج أحمد ، عن أيوب الفلسطيني رضي الله عنه قال : مكتوب في مزامير داود عليه السلام : " أتدري لمن أغفر قال : لمن يا رب ؟ قال : للذي إذا أذنب ذنباً ارتعدت لذلك مفاصله ، فذلك الذي آمر ملائكتي أن لا يكتبوا عليه ذلك الذنب " .

وأخرج أحمد عن مالك بن دينار رضي الله عنه قال : مكتوب في الزبور ، بطلت الامانة ، والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين ، يهلك الله عز وجل كل ذي شفتين مختلفتين . قال : ومكتوب في الزبور ، بنار المنافق تحترق المدينة .

وأخرج أحمد ، عن مالك بن دينار رضي الله عنه قال : مكتوب في الزبور – وهو أول الزبور – " طوبى لمن لم يسلك سبيل الأثمة ، ولم يجالس الخطائين ، ولم يفيء في هم المستهزئين ، ولكن همه سنة الله عز وجل ، وإياها يتعلم بالليل والنهار ، مثله مثل شجرة تنبت على شط تؤتي ثمرتها في حينها ، ولا يتناثر من ورقها شيء ، وكل عمله بأمري ، ليس ذلك مثل عمل المنافقين " .

وأخرج أحمد عن مالك بن دينار رضي الله عنه قال : قرأت في الزبور بكبر المنافق يحترق المسكين .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : قرأت في آخر زبور داود – عليه الصلاة والسلام – ثلاثين سطراً " يا داود هل تدري أي المؤمنين أحب إلي أن أطيل حياته ؟ الذي قال لا إله إلا الله أقشعر جلده ، وإني أكره لذلك الموت

كما تكره الوالدة لولدها ، ولا بد له منه ، إني أريد أن أسره في دار سوى هذه الدار ، فإن نعيمها بلاء ، ورخاءها شدة ، فيها عدو لا يألوهم خبالاً يجري منه مجرى الدم ، من أجل ذلك عجلت أوليائي إلى الجنة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن مالك بن مغول قال : في زبور داود مكتوب " إني أنا الله لا إله إلا أنا ملك الملوك قلوب الملوك بيدي ، فأيما قوم كانوا على طاعة جعلت الملوك عليهم رحمة ، وأيما قوم كانوا على معصية ، جعلت الملوك عليهم نقمة ، لا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ، ولا تتوبوا إليهم ، توبوا إليّ أعطف قلوبهم عليكم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(110/458)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الذي فَطَرَكُمْ ﴾ : فيه ثلاثة أوجه ، أحدُها : أنه مبتدأٌ وخبرُه محذوف ، أي : الذي فطركم يعيدُكم . وهذا التقديرُ فيه مطابقةٌ بين السؤالِ والجوابِ . والثاني : أنه

خبرُ مبتدأ محذوف، أي: مُعِيْدُكم. الذي فطركم. الثالث: أنه فاعلٌ بفعلٍ مقدر، أي: يعيدُكم الذي فطركم، ولهذا صُرِّح بالفعل في نظيره عند قولِه: ﴿ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: 9].

و﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ظرفُ زمانٍ ناصبُه "فَطَرَكم".

قوله: "فسَيُنْغِضُون"، أي: يُحرِّكونها استهزاءً. يقال: أَنْغَضَ رأسَه يُنْغِضُها، أي: حَرَّكها إلى فوقُ، وإلى أسفلَ إنغاضاً، فهو مُنْغِضٌ، قال:

3071- أَنْغَضَ نحوي رأسَه وأَقْنَعا ... كأنه يطلُبُ شيئاً أَطْمعا

وقال آخر:

3072- لَمَّا رَأَتْنِي أَنْغَضَتْ لِي الرَّأْسا ... وقال أبو الهيثم: "إذا أُخْبِرَ بشيءٍ فحَرَّك رأسَه إنكاراً له فقد أَنْغَضَ". قال ذو الرمة:

3073- ظَعائِنُ لم يَسْكُنَّ أَكْنافَ قريةٍ ... بسِيْفٍ ولم تَنْغُضْ بهنَّ القَناطِرُ

أي: لم تحرَّك، وأمَّا نَغَضَ ثلاثياً، يَنْغَضُ ويَنْغُضُ بالفتح والضم، فبمعنى تَحَرَّك، لا يتعدَّى يقال: نَغَضَتْ سِنَّه، أي: تحرَّكت، تَنْغُضُ نَغْضاً ونُغُوضاً. قال:

3074- ونَغَضَتْ مِنْ هَرَمٍ أسنانُها ... قوله: ﴿ عسى أَن يَكُونَ ﴾ يجوز أن تكونَ الناقصة، واسمُها مستترٌ فيها يعودُ على البعثِ والحشرِ المدلولِ عليهما بقوة الكلام، أو

لتضمُّنه في قوله " مَبْعوثون " ، و " أن يكونَ " خبرُها ، ويجوز أن تكونَ التامّةَ مسندةً إلى " أنَّ " وما في حيِّزها ، واسمُ " يكونَ " ضميرُ البعثِ كما تقدَّم .

(111/458)

وفي " قريباً " وجهان ، أحدُهما : أنه خبر " كان " وهو وصفٌ على بابه . والثاني : أنه ظرفٌ ، أي : زماناً قريباً ، وأن يكونَ " على هذا تامةٌ ، أي : عسى أن يقع العَوْد في زمانٍ قريب .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ :

فيه أوجهٌ : أحدُها : أنه بدلٌ من " قريباً " ، إذا أَعْرَبْنا " قريباً " ظرفَ زمان كما تقدم .

الثاني : أنه منصوبٌ ب " يَكونَ " قاله أبو البقاء ، وهذا مَنْ يُجيز إعمالَ الناقصةِ في الظرفِ ، وإذا جَعَلْناها تامّةً فهو معمولٌ لها عند الجميع . الثالث : أنه منصوبٌ بضميرِ المصدرِ الذي هو اسمُ " يكون " أي : عسى أن يكونَ العَوْدُ يومَ يَدْعوكم . وقد منعه أبو البقاء قال : " لأنَّ الضميرَ لا يعمل " يعني عند البصريين ، وأمَّا الكوفيون فيُعملون ضميرَ المصدرِ كمُظْهرِه فيقولون : مروري بزيدٍ حَسَنٌ ، وهو بعمروٍ قبيحٌ " وعندهم متعلّق ب " هو " لأنَّه ضمير المرور ، وأنشدوا قول زهير على ذلك :

3075- وما الحربُ إلا ما عَلِمْتُمْ وذُقْتُمْ . . . وما هو عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ

ف "هو" ضميرُ المصدرِ ، وقد تَعَلَّق به الجارُّ بعده ، والبصريون يُؤَوِّلونه . الرابع : أنه منصوبٌ بفعلٍ مقدر ، أي : اذكُرْ يومَ يَدْعوكم . الخامس : أنه منصوبٌ بالبعثِ المقدَّر ، قالهما أبو البقاء .

قوله : بِحَمْدِهِ " فيه قولان ، أحدُهما : أنها حالٌ ، أي : تستجيبون حامِدِين ، أي : منقادين طائعين . والثاني : أنها متعلقةٌ ب "يَدْعوكم" قاله أبو البقاء وفيه قَلَقٌ .

قوله : ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ "إنْ" نافيةٌ ، وهي معلِّقَةٌ للظنِّ عن العمل ، وقلَّ مَنْ يذكرُ "إنْ" النافيةَ ، في أدواتِ تعليق هذا الباب . و "قليلاً" يجوز أن يكونَ نعتَ زمانٍ أو مصدرٌ محذوفٌ ، أي : إلا زماناً قليلاً ، أو إلا لُبْثاً قليلاً .

قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي ﴾ :

تقدَّمَ نظيرُه في إبراهيم .

(112/458)

قوله : ﴿ إِنَّ الشيطان يَنزَغُ ﴾ يجوز أن تكونَ هذه الجملةُ اعتراضاً بين المفسَّر والمفسِّر ، وذلك أنَّ قولَه : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ وقَعَ تفسيراً لقوله ﴿ التي هِيَ

أَحْسَنُ ﴾ وبياناً لها ، ويجوز أن لا تكونَ معترِضةً بل مستأنفةٌ .

وقرأ طلحة "يَنْزِغ" بكسر الزاي وعما لغتان ، كيَعرِشون ويَعْرُشون ، قاله الزمخشري . قال الشيخ : " ولو مَثَّل ب "يَنْطَح" و "يَنْطِح" / كأنه يعني من حيث إن لامَ كلٍ منهما حرفُ حَلْقٍ ، وليس بطائل .

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السماوات ﴾ :

في هذه الباءِ قولان ، أظهرُهما : أنها تتعلَّقُ ب "أَعْلَمُ" كما تَعَلَّقَتْ الباءُ ب "أَعْلَمُ" قبلها ، ولا يلزمُ مِنْ ذلك تخصيصُ علمِه بمَنْ في السماوات والأرض فقط . والثاني : أنها متعلِّقةٌ ب "يَعْلَمُ" مقدراً . قاله الفارسي محتجاً بأنه يَلْزَمُ مِنْ ذلك تخصيصُ عِلْمِه بمَنْ في السماوات والأرض ، وهو وَهْمٌ ، لأنه لا يَلْزَمُ من ذِكْرِ الشيءِ نَفْيُ الحكمِ عَمَّا عداه . وهذا هو الذي يقول الأصوليون : إنه مفهومُ اللقَب ، ولم يَقُلْ به إلا أبو بكر الدقاق في طائفةٍ قليلة .

قوله : " زَبُورا " قد تقدَّم خلافُ القراءِ فيه ، ونكَّره هنا دلالةً على التبعيضِ ، أي : زَبُوراً من الزُّبُر ، أو زَبُوراً فيه ذِكْرُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فأُطْلِقَ على القطعةِ منه زَبورٌ ، كما يُطْلَقُ على بعضِ القرآن ، ويجوز أَنْ يكونَ " زَبُور " عَلَماً ، فإذا دَخَلَتْ عليه أل كقولِه : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور ﴾ [الأنبياء : 105] كانت لِلَمْحِ الأصلِ كعَبَّاس والعبَّاس ، وفَضْل والفضل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 367 . 372 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) ﴾

أخبر – سبحانه وتعالى – أنه لا يتعصَّى عليه مقدورٌ لأنه موصوف بقدرة أزلية ، وقُدْرَتُه عامَّةُ التعلق : فلا المشقة تجوز في صفته ولا الرفاهية . فالخَلْقُ الأول والإعادة عليه سِيَّان ؛ لا مِنْ هذا عائدٌ إليه ولا من ذاك ، لأن قِدَمَه يمنع تأثير الحدوث فيه .

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52) ﴾

يدعوكم فتستجيبونه وأنتم حامدون . فالحمد بمعنى الشكر ، وإنما يشكر العبدُ على النعمة والآية تدل على أنهم – وهم في قبورهم – في نعمته .

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾

القولُ الحسنُ ما يكون للقائل أن يقوله . ويجوز أن يكون الأحسن مبالغة من الحَسَنِ ، فعلى هذا الأحسن من القول ما لا يجوز تركُه . ويقال الأحسن من القول ما يخاف قائله من العقوبة على تركه . ويقال الأحسن من القول إقرار المُحِبِّ بعبودية محبوبه .

ويقال أحسنُ قولٍ من المذنبين الإقرارُ بالجُرْم ، وأحسنُ قولٍ من العارفين الإقرارُ بالعجز عن المعرفة ، قال صلى الله عليه وسلم : " سبحانك لا أُحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيتَ

على نفسك " .

قوله جلّ ذكره : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ .

سَدَّ على كلِّ أحدٍ طريقَ معرفته بنفسه ليتعلَّق كلُّ قلبه بربه . وجَعَلَ العواقبَ على أربابها مشتبهةً ، فقال ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ ثم قدَّمَ حديثَ الرحمةِ على حديث العذاب ، فقال : ﴿ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ وفي ذلك ترجِّ للأمل أَنْ يقوى .

ويوصف العبدُ بالعلم ويوصف الربُّ بالعلم ، ولكن العبدَ يعلم ظاهرَ حاله ، وعِلْمُ الرب يكون بحاله وبمآله ولهذا فالواجب على العبد أن يقول : أنا مؤمن إن شاء الله تعالى وهذا معنى : ﴿ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ بعد قوله : ﴿ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾ .

فَضَّل بعضَ الأنبياءِ على بعضٍ في النبوةِ والدرجة ، وفي الرسالة واللطائف والخصائص .

وجعل نبيَّنا - صلى الله عليه وسلم - أَفضلهم ؛ فهم كالنجوم وهو بينهم بَدْرٌ ، وهم

كالبدور وهو بينهم شمس ، وهم شموسٌ وهو شمسُ الشموس . انتهى انتهى . اهـ

﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 351.352.353 ﴾

(115/458)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

سورة الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1)

الإعراب :

(سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (أسرى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (بعبده) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أسرى) ، و(الهاء) ضمير متّصل مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (ليلا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (أسرى) ، (من المسجد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أسرى) ، (الحرام) نعت لمسجد مجرور (إلى المسجد)

جارّ ومجرور متعلّق بـ (أسرى) ، (الأقصى) نعت للمسجد الثاني مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الذي) موصول في محلّ جرّ نعت ثان للمسجد (باركنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل (حوله) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (باركنا) ، و(الهاء) مثل الأول (اللام) للتعليل (نريه) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام . . و(الهاء) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم .

والمصدر المؤوّل (أن نريه) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أسرى) .

(من آياتنا) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نريه) . . و(نا) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه

(إنّ) حرف توكيد ونصب و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (السميع) خبر مرفوع ، (البصير) خبر ثان مرفوع .

جملة : " (يسبّح) سبحان . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " أسرى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " باركنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثاني .

وجملة : " نريه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " إنّه هو السميع . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هو السميع . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(أسرى) ، فيه إعلال بالقلب أصله أسري بالياء ، تحركت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(الأقصى) ، اسم تفضيل في اللفظ وزنه أفعل ، ثم قصد به الوصف لا التفضيل ، وفيه إعلال بالقلب ، أصله الأقصى - بياء في آخره - ولمّا جاء ما قبل الياء مفتوحا قلبت الياء ألفا . . و(لام) الكلمة واو أو ياء لأنّ فعله قصا يقصو ، قصي يقصى ومعناه بعد .

البلاغة

" سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا " 1 - الذكر : الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل ؟

الظاهر أن الغرض من ذكر الليل ، وإن كان الإسراء يفيده ، تصوير السير

---

(1) أو في محلّ نصب - وهو مستعار لذلك - توكيد للضمير المتّصل الغائب اسم إنّ .

بصورته في ذهن السامع ، كأن الإسراء لما دلّ على أمرين أحدهما : السير ، والآخر : كونه ليلا . أريد إفراد أحدهما بالذكر تثبيتا في نفس المخاطب وتنبيها على أنه مقصود بالذكر .

ونظيره في إفراد أحد ما دلّ عليه اللفظ المتقدم مضموما لغيره قوله تعالى :

" وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ " فالاسم الحامل للتثنية دال عليها وعلى الجنسية وكذلك المفرد ، فأريد التنبيه ، لأن أحد المعنيين وهو التثنية مراد مقصود وكذلك أريد الإيقاظ ، لأن الوحدانية هي المقصودة في قوله :

(إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) ولو اقتصر على قوله (إنما هو إله) لأوهم أن المهم إثبات الإلهية له ، والغرض من الكلام ليس إلا الإثبات للوحدانية .

2 – التنكير : في قوله " ليلا " .

(118/458)

حيث أراد بقوله ليلا بلفظ التنكير : تقليل مدّة الإسراء ، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أن التنكير فيه قد دلّ على بعض معنى البعضية .

ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة : من الليل أي : بعض الليل .

3 – الالتفات : في قوله تعالى " الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا – إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " صرف الكلام من الغيبة التي في قوله تعالى " سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ " إلى صيغة المتكلم المعظم في " باركنا – ونريه – آياتنا " لتعظيم البركات والآيات ، لأنها كما تدل على تعظيم مدلول الضمير تدل على عظم ما أضيف إليه وصدر عنه ، كما قيل : إنما يفعل العظيم العظيم وقد ذكروا لهذا التلوين نكتة خاصة وهي أن قوله تعالى " الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا " يدل على مسيره عليه الصلاة والسلام من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، فهو بالغيبة أنسب . وقوله تعالى " بارَكْنا حَوْلَهُ " دلّ على إنزال البركات ، فيناسب تعظيم المنزل ، والتعبير بضمير العظمة متكفل بذلك . وقوله سبحانه " لنريه " على معنى بعد الاتصال وعزّ الحضور فيناسب المتكلم معه . وقوله تعالى " مِنْ آياتِنا "

عود إلى التعظيم كما سبقت الإشارة إليه وأما الغيبة في قوله عز وجل " إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " على تقدير كون الضمير له تعالى كما هو الأظهر ، وعليه الأكثر ، فليطابق قوله تعالى " بعبده " ويرشح ذلك الاختصاص بما يوقع هذا الالتفات أحسن مواقعة ، وينطبق عليه التعليل أتم انطباق ، إذ المعنى قربه ، وخصه بهذه الكرامة لأنه سبحانه مطلع على أحواله ، عالم باستحقاقه لهذا المقام .

الفوائد

- اتفق النحاة على أن المعنى الرئيسي لـ (من) الجارة هو ابتداء الغاية.

وثمة سؤال: هل هي لابتداء الغاية الزمانية والمكانية معا؟

والجواب أن النحاة اتفقوا أنها لابتداء الغاية المكانية، واختلفوا حول كونها لابتداء الغاية الزمانية.

فالكوفيون وبعض البصريين يرون ذلك، وهو الصحيح. فقد وردت في الكتاب العزيز وفي الحديث الشريف، وليس بعد ذلك حجة:

قال رسول الله (صلّى اللّه عليه وسلّم) " مطرنا من الجمعة إلى الجمعة"

يقول النابغة الذبياني:

تخيّرون من أزمان يوم حلية إلى اليوم قد جربن كل التجارب

وأمّا " إلى " الجارة، فقد اتفق النحاة على أنها تفيد انتهاء الغاية، سواء كانت زمانية أو مكانية. فمثال " الزمانية " قوله تعالى: " ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ " ومثال المكانية قوله تعالى: " إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى " . ومن شاء استقصاء معاني الحرفين فعليه بالمطولات، ففيها ريّ لكل ظمآن.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 2 إلى 6]

وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً (2) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً (3) وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً (4) فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً (5) ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (6)

الإعراب:

(120/458)

(الواو) عاطفة- أو استئنافيّة- (آتينا) مثل باركنا " 1 "، (موسى) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدرة- ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة- (الكتاب) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (جعلناه) مثل باركنا.. و (الهاء) ضمير مفعول به (هدى) مفعول به ثان منصوب " 2 "، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (لبني) جارّ ومجرور متعلّق بـ (هدى) " 3 "، وعلامة الجرّ الياء فهو ملحق بجمع المذكّر (إسرائيل) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة للعلميّة والعجمة (أن) حرف تفسير " 4 "، (لا)

ناهية " 5 " ، (تتّخذوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . " 6 " و(الواو)

فاعل (من

---

(1) في الآية (1) من السورة

(2) وإذا ضمّن الفعل معنى قدّمناه فيكون (هدى) مصدرا في موضع الحال .

(3) أو متعلّق بـ (جعلناه)

(4) تقدّمه بما يفيد معنى القول دون حروفه وهو لفظ الكتاب أي قلنا فيه : لا تتّخذوا . .

ويجوز أن يكون (أن) حرفا مصدريّا ناصبا .

(5) أو زائدة إذا كان (أن) حرفا مصدريّا والتقدير حينئذ : جعلناه هدى . . خشية أن

تتّخذوا . . فالمصدر المؤوّل مفعول لأجله على حذف مضاف .

(6) أو منصوب بأن وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل

دوني) جارّ ومجرور متعلّق بمفعول ثان عامله تتّخذوا " 1 " و(الياء) ضمير مضاف إليه

(وكيلا) مفعول به أوّل منصب .

جملة : " آتينا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الابتدائيّة " 2 " .

وجملة : " جعلناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتينا . .

وجملة : " تتّخذوا . . . " لا محلّ لها تفسيريّة.

3 - (ذرّية) بدل من (وكيلا) منصوب " 3 " ، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (حملنا) مثل (باركنا) " 4 " (مع) ظرف منصوب متعلّق بـ (حملنا) ، (إنّه) مثل السابق " 5 " ، (كان) فعل ماض ناقص - ناسخ - واسمه ضمير مستتر تقديره هو (عبدا) خبر كان (شكورا) نعت لـ (عبدا) منصوب .

وجملة : " حملنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " إنّه كان . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كان عبدا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

4 - (الواو) عاطفة (قضينا) باركنا " 6 " ، (إلى بني إسرائيل) مثل لبني إسرائيل " 7 " متعلّق بـ (قضينا) بتضمينه معنى أوحينا أو أنفذنا (في الكتاب) جارّ ومجرور

---

(1) أو هو متعلّق بـ (تتّخذوا) ، والمفعول الأول هو (ذرّيّة) والمفعول الثاني (وكيلا) . . ويجوز أن يكون الظرف متعلّقا بحال من (وكيلا)

(2) أو هي استئنافيّة لا محلّ لها .

(3) في نصب (ذرّية) أقوال مختلفة للمفسّرين منها : هو مفعول به أوّل لفعل تتّخذوا - كما جاء في حاشية رقم (1) - والمفعول الثاني هو (وكيلا) أي : لا تتّخذوا ذرّية من حملنا مع

نوح وكلاء . ومنها أنّه بدل من (وكيلا) - كما جاء في الإعراب أعلاه - . أو هو منصوب على الاختصاص ، رأي الزمخشريّ ، أو هو منادى ، رأي السيوطيّ .

(4 ، 5 ، 6) في الآية (1) من السورة

(7) في الآية (2) من السورة

(122/458)

متعلّق بـ (قضينا) ، (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (تفسدنّ) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون ، وقد حذفت لتوالي الأمثال ، و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل ، و(النون) نون التوكيد (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تفسدنّ) ، (مرّتين) مفعول مطلق نائب عن المصدر عامله تفسدنّ ، منصوب وعلامة النصب الياء (الواو) عاطفة (لتعلنّ) مثل (لتفسدنّ) ومعطوف عليه (علوّا) مفعول مطلق منصوب ، (كبيرا) نعت لـ (علوا) منصوب .

وجملة : " قضينا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتينا .

وجملة : " تفسدنّ . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر " 1 " .

وجملة : " تعلنّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تفسدنّ " 2 " .

5 – (الفاء) عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (بعثنا) ، (جاء) فعل ماض (وعد) فاعل مرفوع (أولاهما) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف . . و(هما) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (بعثنا) مثل باركنا " 3 " ، (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (بعثنا) ، (عبادا) مفعول به منصوب (اللام) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لـ (عبادا) ، (أولي) نعت ثان منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر (بأس) مضاف إليه مجرور (شديد) نعت لبأس مجرور (الفاء) عاطفة (جاسوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . و(الواو) فاعل (خلال) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (جاسوا) (الديار) مضاف إليه مجرور (الواو) اعتراضيّة – أو حاليّة – (كان) فعل ماض ناقص – ناسخ – واسمه ضمير

---

(1) أو جواب قسم لقوله : وقضينا . . لأنه ضمّن معنى القسم ، ومنه قولهم قضى اللّه لأفعلنّ فيجرون القضاء والقدر مجرى القسم .

(2) أو هي جواب قسم مقدّر معطوف على القسم الأول [. . . . .]

(3) في الآية (1) من هذه السورة .

مستتر تقديره هو أي الجوس أو الوعد المذكور (وعدا) خبر كان منصوب (مفعولا) نعت لـ (وعدا) منصوب .

وجملة : " جاء وعد . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " بعثنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " جاسوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة بعثنا .

وجملة : " كان وعدا . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة " 1 " .

6 - (ثمّ) حرف عطف (رددنا) مثل باركنا " 2 " ، (لكم) مثل عليكم متعلّق بـ (رددنا) ، (الكرّة) مفعول به منصوب (عليهم) مثل عليكم متعلّق بـ (رددنا) " 3 " ، (الواو) عاطفة (أمددناكم) مثل باركنا " 4 " ، و(كم) ضمير مفعول به (بأموال) جارّ مجرور متعلّق بـ (أمددناكم) ، (بنين) معطوف على أموال بالواو ومجرور وعلامة الجرّ الياء فهو ملحق بجمع المذكّر (الواو) عاطفة (وجعلناكم) مثل أمددناكم (أكثر) مفعول به ثان منصوب (نفيرا) تمييز منصوب .

وجملة : " رددنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة بعثنا .

وجملة : " أمددناكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة بعثنا .

وجملة : " جعلناكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة بعثنا .

الصرف :

(تعلنّ) ، حذفت واو الجماعة لالتقاء الساكنين مع النون الأولى من نون التوكيد المشدّدة . . وفيه إعلال بالحذف ، أصله تعلوونّ ، التقى حرف العلّة لام الكلمة مع واو الجماعة فحذف حرف العلّة لأنّ كليهما ساكن . . ثمّ جرى الحذف كما يجري في الأفعال الصحيحة المسندة إلى واو الجماعة وياء المخاطبة إذا أكّدت بنون التوكيد . . وزنه تفعنّ بفتح التاء وضمّ العين .

---

(1) أو في محلّ نصب حال بتقدير قد

(2، 3، 4) أو متعلّق بالمصدر (الكرّة . . أو بحال منه) .

(124/458)

(علوّا) ، مصدر علا يعلو ، وهو سماعيّ وزنه فعلّ بضمّتين .

(الكرّة) ، مصدر في الأصل لفعل كرّ الثلاثيّ وزنه فعلة بفتح فسكون ، وقد يعبّر به عن الغلبة .

(نفيرا) ، هو فعيل بمعنى فاعل ، أو جمع نفر مثل عبد وعبيد ، أو هو مصدر بمعنى الخروج إلى الغزو .

[سورة الإسراء (17) : آية 7]

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً (7)

الإعراب:

(إن) حرف شرط جازم (أحسنتم) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط.. و(تم) ضمير فاعل (أحسنتم) مثل الأول جواب الشرط (لأنفسكم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أحسنتم) الثاني..

و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (إن أسأتم) مثل إن أحسنتم (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اللام) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر لمبتدأ محذوف تقديره: إساءتكم (الفاء) عاطفة (إذا جاء وعد الآخرة) مثل إذا جاء وعد أولاهما " 1 " أي المرّة الآخرة (اللام) للتعليل (يسوءوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون... و(الواو) فاعل (وجوهكم) مفعول به منصوب.. و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ليدخلوا المسجد) مثل ليسوءوا وجوهكم (الكاف) حرف جرّ وتشبيه (ما) حرف مصدريّ (دخلوه) فعل ماض وفاعله و(الهاء) ضمير مفعول به (أوّل)

---

(1) في الآية (5) من هذه السورة

مفعول مطلق نائب عن المصدر " 1 " منصوب (مرّة) مضاف إليه مجرور .

والمصدر المؤوّل (أن يسوءوا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بجواب الشرط المقدّر أي بعثنا . .

والمصدر المؤوّل (أن يدخلوا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بما تعلّق به المصدر الأول فهو معطوف عليه .

والمصدر المؤوّل (ما دخلوه . .) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق أي دخولا كدخولهم أوّل مرة .

(الواو) عاطفة (ليتبّروا) مثل ليسوءوا (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 2 " ، (علوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوف لالتقاء الساكنين . .

و(الواو) فاعل (تتبيرا) مفعول مطلق منصوب .

جملة : " إن أحسنتم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أحسنتم (الثانية) " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " أسأتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة: "لها (إساءتكم) . . . "في محلّ جزم جواب الشرط الثاني مقترنة بالفاء.

وجملة: "جاء وعد . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب (إذا) الأولى والتقدير: بعثنا عليكم عبادا.

وجملة: "يسوءوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

---

(1) أو هو مفعول فيه نائب عن الظرف منصوب.

(2) يجوز أن يكون (ما) حرفا مصدريّا ظرفيّا يؤوّل مع ما بعده بمصدر متعلّق بـ (يتبّروا)

..

أي ليتبّروا مدّة غلبهم على البلاد تتبيرا.

(126/458)

وجملة: "يدخلوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر الثاني.

وجملة: "دخلوه . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

وجملة: "يتبّروا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر الثالث.

الصرف:

(علوا)، فيه إعلال بالحذف لالتقاء الساكنين، التقت لام الفعل وواو الجماعة، وكلاهما

ساكن، فحذفت لام الفعل، حرف العلّة الألف، وبقي ما قبل الواو مفتوحا دلالة عليها، وزنه فعوا بفتح الفاء والعين.

(تتبيرا)، مصدر قياسيّ لفعل يتبّروا، وزنه تفعيل.

[سورة الإسراء (17): آية 8]

عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً (8)

الإعراب:

(عسى) فعل ماض ناقص - جامد - (ربّكم) اسم عسى مرفوع.. و(كم) ضمير مضاف إليه (أن) حرف مصدريّ ونصب (يرحمكم) مضارع منصوب.. و(كم) ضمير مفعول به (الواو) استئنافيّة (إن عدتم عدنا) مثل إن أحسنتم أحسنتم " 1 " (الواو) استئنافيّة (جعلنا) فعل ماض..

و(نا) ضمير فاعل (جهنّم) مفعول به منصوب، ومنع من التنوين للعلميّة والتأنيث (للكافرين) جارّ ومجرور متعلّق ب (حصيرا) وهو مفعول به ثان منصوب.

جملة: " عسى ربّكم... " لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) في الآية (7) من هذه السورة.

وجملة: " يرحمكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

والمصدر المؤوّل (أن يرحمكم . .) في محلّ نصب خبر عسى وجملة: " إن عدتم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " عدنا . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة: " جعلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف:

(عدتم) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون . . إذ الفعل الأجوف تحذف عينه إذا أسند إلى ضمير الرفع المتحرك ونون النسوة ، وزنه فلتم ، بضمّ الفاء ، (عدنا) ، يعامل معاملة عدتم .

(حصيرا) ، صفة مشتقّة ، هي فعيل بمعنى فاعل أي حاصرا ، وقد يكون (حصيرا) بمعنى البساط يفرش لهم فهو حينئذ جامد .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 9 إلى 10]

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (10)

الإعراب:

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب اسم إنّ (القرآن) بدل من ذا – أو عطف بيان – منصوب (يهدي) مضارع مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء، والفاعل هو " 1 "، (اللام) حرف جرّ (التي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق

---

(1) ومفعوله محذوف أي يهدي كلّ الناس . . .

(128/458)

ب (يهدي)، (هي) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أقوم) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (يبشّر) مثل يهدي (المؤمنين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت للمؤمنين (يعملون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . و(الواو) فاعل (الصالحات) مفعول به منصوب، وعلامة النصب الكسرة (أنّ) حرف توكيد ونصب (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر أنّ (أجرا) اسم أنّ منصوب (كبيرا) نعت ل (أجرا) منصوب.

والمصدر المؤوّل (أنّ لهم أجرا . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف هو الباء أي بأنّ لهم أجرا متعلّق ب (يبشّر).

جملة : " إنّ هذا القرآن . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يهدي . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " هي أقوم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " يبشّر . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يهدي " 1 " .

وجملة : " يعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

10 - (الواو) عاطفة (أنّ) مثل الأول (الذين) موصول اسم أنّ (لا) نافية (يؤمنون) مثل يعملون (بالآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يؤمنون) ، (أعتدنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير فاعل (لهم) مثل الأول متعلّق بـ (أعتدنا) ، (عذابا) مفعول به منصوب (أليما) نعت لـ (عذابا) منصوب .

والمصدر المؤوّل (أنّ الذين . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بما تعلّق به المصدر المؤوّل الأول فهو معطوف عليه " 2 " .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة منقطعة على الاستئناف فلا محلّ لها .

(2) يجيز بعضهم تعليق الجارّ بمحذوف تقديره يخبر بأنّ الذين لا يؤمنون . .

وجملة: "لا يؤمنون ... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "أعتدنا ... " في محلّ رفع خبر أنّ.

[سورة الإسراء (17) : آية 11]

وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً (11)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (يدعو) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو (الإنسان) فاعل مرفوع (بالشرّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يدعو)، (دعاءه) منصوب على نزع الخافض أي كدعائه " 1 "، و(الهاء) ضمير مضاف إليه، وهو فاعل المصدر، (بالخير) جارّ ومجرور متعلّق بـ (دعاء) (الواو) استئنافيّة (كان) فعل ماض ناقص (الإنسان) اسم كان مرفوع (عجولا) خبر كان منصوب.

جملة: "يدعو الإنسان ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "كان الإنسان عجولا ... " لا محلّ لها استئناف فيه معنى التعليل.

الصرف:

(يدع) رسمت في المصحف بإسقاط الواو خلافا لقياس الرسم لأنّ الفعل مرفوع، ولكن لمّا سقطت قراءة لاجتماع الساكنين سقطت كتابة على خلاف القياس، ونظيره سندع الزبانية " 2 ".

(عجولا) ، صفة مشبّهة - أو صيغة مبالغة - من عجل يعجل باب فرح اللازم ، وزنه فعول بفتح الفاء .

---

(1) والجارّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق أي يدعو بالشرّ دعاء كدعائه بالخير .

(2) في سورة العلق الآية (18) .

(130/458)

[سورة الإسراء (17) : الآيات 12 إلى 14]

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً (12) وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً (13) اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (14)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (جعلنا) فعل ماض . . و (نا) ضمير فاعل (الليل) مفعول به أوّل (النهار) معطوف على الليل بالواو منصوب (آيتين) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الياء (الفاء) عاطفة (محونا) مثل جعلنا ، (آية) مفعول به منصوب (الليل) مضاف إليه مجرور

(الواو) عاطفة (جعلنا آية النهار) مثل محونا آية الليل (مبصرة) مفعول به ثان منصوب

(اللام) تعليليّة (تبتغوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون

.. و(الواو) فاعل (فضلا) مفعول به منصوب (من ربّكم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تبتغوا) "

1 " .. و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (لتعلموا عدد) مثل لتبتغوا فضلا

(السنين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء فهو ملحق بجمع المذكّر، (الواو) عاطفة

(الحساب) معطوف على عدد منصوب.

والمصدر المؤوّل (أن تبتغوا ..) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعلنا) الثاني ..

---

(1) أو متعلّق بنعت لـ (فضلا)

والمصدر المؤوّل (أن تعلموا ..) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعلنا) الثاني ومعطوف على المصدر الأول.

(الواو) عاطفة (كلّ) مفعول به لفعل محذوف يفسّره ما بعده (شيء) مضاف إليه مجرور

(فصّلناه) مثل جعلنا و(الهاء) ضمير مفعول به (تفصيلا) مفعول مطلق منصوب.

جملة: " جعلنا الليل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " محونا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلنا الليل.

وجملة: " جعلنا (الثانية) . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة محونا.

وجملة: " تبتغوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: " تعلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني.

وجملة: " (فصّلنا) كلّ شيء . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: " فصّلناه . . . " لا محلّ لها تفسيريّة.

(132/458)

---

13 - (الواو) عاطفة (كلّ إنسان ألزمناه) مثل كلّ شيء فصّلناه (طائره) مفعول به ثان منصوب . . و(الهاء) مضاف إليه (في عنقه) جارّ ومجرور متعلّق بحال من طائره . . و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (نخرج) مضارع مرفوع، والفاعل نحن للتعظيم (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نخرج)، (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (نخرج)، (القيامة) مضاف إليه مجرور (كتابا) مفعول به منصوب (يلقاه) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف . . و(الهاء) ضمير مفعول به، والفاعل هو أي

كلّ إنسان (منشورا) حال من الضمير الغائب منصوب "1" .

---

(1) وإذا كان فاعل يلقى يعود على الكتاب، وضمير الغائب يعود على الإنسان يجوز أن يعرب (منشورا) نعتا ثانيا لكتاب. [. . . . .]

(133/458)

وجملة: "(ألزمنا) كلّ إنسان . . ." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "ألزمناه . . ." لا محلّ لها تفسيريّة.

وجملة: "نخرج . . ." لا محلّ لها معطوفة على جملة ألزمنا كلّ . .

وجملة: "يلقاه . . ." في محلّ نصب نعت لـ (كتابا) .

14- (اقرأ) فعل أمر، والفاعل أنت (كتابك) مفعول به منصوب، و(الكاف) ضمير مضاف إليه (كفى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر (الباء) حرف جرّ زائد (نفسك) مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل كفى، و(الكاف) مثل الأول (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (كفى) ، (على) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (حسيبا) وهو تمييز "1" منصوب.

وجملة: "اقرأ . . ." في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر هو حال من فاعل نخرج أي

قائلين اقرأ . .

وجملة : "كفى بنفسك . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(طائره) ، الطائر معروف ، وصيغته فاعل من طار ، وهنا جاء بمعنى العمل أو كتاب الأعمال على الاستعارة ، أو هو كناية عمّا قدّر اللّه هو لازم للمرء وأصل إليه غير منحرف عنه .

(عنقه) ، اسم جامد للعضو المعروف ، وزنه فعل بضمّتين .

(منشورا) ، اسم مفعول من نشر الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

البلاغة

1 - المجاز : في قوله تعالى " وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً " .

---

(1) أو حال منصوبة ، وقد جاء اللفظ مذكّرا لأنّه بمنزلة الشاهد والقاضي والأمين ، فحسيب بمعنى حاسب ، ويجوز أن تؤوّل النفس بمعنى الشخص .

فهو مجاز بعلاقة السببية ، أو الاسناد مجازي ، كما في - نهاره صائم - والمراد يبصر أهلها ، والاسناد إلى النهار مجازي أيضا ، من الاسناد إلى السبب العادي ، والفاعل الحقيقي هو الله تعالى .

2 - الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى : " وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ " .

فقد كانوا يتفاءلون بالطير ويسمونه زجرا ، فإذا سافروا ومر بهم طير زجروه ، فإن مر بهم سائحا ، بأن مر من جهة اليسار إلى اليمين ، تيمنوا وإن مر بارحا ، بأن مر من جهة اليمين إلى الشمال ، تشاءموا . ولذا سمي تطيرا . فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر أستعير استعارة تصريحية لما يشبهها من قدر الله تعالى وعمل العبد ، لأنه سبب للخير والشر .

ومنه طائر الله تعالى لا طائرك ، أي قدر الله جلّ شأنه الغالب الذي ينسب إليه الخير والشر لا طائرك الذي تتشاءم به وتتيمن .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 15 إلى 16]

مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (15) وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً (16)

الإعراب :

(من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (اهتدى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف في محلّ جزم فعل الشرط، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّما) كافّة

ومكفوفة (يهتدي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء، والفاعل هو (لنفسه) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل يهتدي، و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (من ضلّ فإنّما يضلّ) مثل من اهتدى.. (على) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من فاعل يضلّ (الواو) عاطفة (لا) نافية (تزر) فعل مضارع مرفوع (وازرة) فاعل مرفوع، وهو نعت لمنعوت محذوف أي نفس وازرة (وزر) مفعول به منصوب (أخرى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف، وهو نعت لمنعوت محذوف أي نفس أخرى (الواو) عاطفة (ما) للنفي (كنّا) فعل ماض ناقص - ناسخ - و(نا) اسم كان (معذّبين) خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء (حتّى) حرف غاية وجرّ (نبعث) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى، والفاعل للتعظيم (رسولا) مفعول به منصوب.

جملة: "من اهتدى..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "اهتدى..." في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 ".

وجملة: " يهتدي . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء " 2 " .

وجملة: " من ضلّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من اهتدى .

وجملة: " ضلّ . . . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

وجملة: " يضلّ . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء " 4 " .

وجملة: " لا تزر وازرة . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة: " ما كنّا معذّبين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا محلّ لها .

(1 ، 3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(2 ، 4) ابن هشام يقدّر مبتدأ محذوفا قبل جملة الجواب التي تصبح خبرا ، والجملة الاسميّة هو جواب الشرط .

(136/458)

---

16 - (الواو) عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بـ (أمرنا) ، (أردنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) فاعل (أن) حرف مصدريّ ونصب (نهلك) مضارع منصوب ، والفاعل نحن للتعظيم ، (قرية) مفعول به منصوب (أمرنا) مثل أردنا (مترفيها) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء . . و(ها)

ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (فسقوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . و(الواو) فاعل (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (فسقوا) ، (الفاء) عاطفة (حقّ) فعل ماض (عليها) مثل فيها متعلّق بـ (حقّ) ، (القول) فاعل مرفوع (الفاء) عاطفة (دمّرناها) مثل أردنا . . و(ها) مفعول به (تدميرا) مفعول مطلق منصوب .

والمصدر المؤوّل (أن نهلك . .) في محلّ نصب مفعول به عامله أردنا .

وجملة : "أردنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : "نهلك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : "أمرنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : "فسقوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : "حقّ عليها القول" لا محلّ لها معطوفة على جملة فسقوا .

وجملة : "دمّرناها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة حقّ عليها القول .

الصرف :

(مترفيها) ، جمع مترف ، اسم مفعول من أترف الرباعيّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين .

(تدميرا) ، مصدر قياسيّ لفعل دمّر الرباعيّ ، وزنه تفعيل .

البلاغة

1 - الطباق : في قوله تعالى : "مَنِ اهْتَدى - وَمَنْ ضَلَّ" . .

فقد حصل الطباق في الآية بين الهدى والضلال .

2 – الالتزام ، أو لزوم ما لا يلزم :

في قوله تعالى : " أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا "

.

والالتزام هو : التزام حرف أو حرفين فصاعدا ، قبل الروي ، على قدر طاقة الشاعر أو الكاتب ، من غير كلفة .

(137/458)

فقد التزم في قوله : " مترفيها " و " فيها " الفاء قبل ياء الردف ، ولزمت الياء ، وسيأتي الكثير منه في القرآن الكريم ، وهو من أرشق الاستعمالات .

3 – المجاز : في قوله تعالى " أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا "

.

الأصل أمرنا مترفيها بالفسق ففسقوا ، إلا أنه يمتنع إرادة الحقيقة ، فيحمل على المجاز ، اما بطريق الاستعارة التمثيلية بأن يشبه حالهم في تقلبهم في النعم مع عصيانهم وبطرهم بحال من أمر بذلك ، أو بطريق الاستعارة التصريحية التبعية ، بأن يشبه إفاضة النعم المبطرة لهم

وصبها عليهم ، بأمرهم بالفسق ، بجامع الحمل عليه والتسبب له .

4 - الحذف : في قوله تعالى : " أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها "

.

فقد حذف المأمور به ، ولم يقل بماذا أمرهم وإيجازا في القول ، واعتمادا على بديهة السامع ، لأن قوله " ففسقوا " يدل عليه ، وهو كلام مستفيض . يقال :

أمرته فقام ، وأمرته فقرأ . لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة ، ولو ذهبت تقدّر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب .

الفوائد

الاشتغال :

هو اسم تقدم على عامل من حقه أن ينصبه ، لولا اشتغاله عند بالعمل في ضميره ، نحو خالد أكرمه . والقول الراجح : أن يرفع الاسم المتقدم على الابتداء والجملة بعده في محل رفع خبر .

وثمة أناس قد جوزوا نصبه .

وثمة بحث طويل حول نصبه ورفعه تجاوزناه بغية الاختصار .

[سورة الإسراء (17) : آية 17]

وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (17)

الإعراب:

(138/458)

(الواو) استئنافيّة (كم) خبريّة كناية عن عدد مبنيّ في محلّ نصب مفعول به مقدّم (أهلكنا) فعل ماض مبنيّ على السكون.. و (نا) فاعل (من القرون) تمييز كم (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أهلكنا)، (نوح) مضاف إليه مجرور (الواو) استئنافيّة (كفى بربّك.. خبيرا) مثل كفى بنفسك حسيبا " 1 "، (بذنوب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خبيرا أو بصيرا)، (عباده) مضاف إليه مجرور، و (الهاء) مضاف إليه.

جملة: " أهلكنا... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " كفى بربّك... " لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 18 إلى 20]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً (18) وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (19) كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً

(20)

---

(1) في الآية (14) في هذه السورة

الإعراب:

(من) مثل السابق " 1 " ، (كان) فعل ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط واسمه ضمير مستتر تقديره هو (يريد) مضارع مرفوع، والفاعل هو (العاجلة) مفعول به منصوب (عجّلنا) مثل أهلكنا " 2 " ، (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (عجّلنا) ، (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (عجّلنا) ، (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (نشاء) مضارع مرفوع، والفاعل نحن للتعظيم (اللام) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (عجّلنا) فهو بدل من (له) بإعادة الجارّ (نريد) مثل نشاء (ثمّ) حرف عطف (جعلنا له) مثل عجّلنا له، والجارّ متعلّق بمحذوف مفعول ثان (جهنّم) مفعول به منصوب، ومنع من التنوين للعلميّة والتأنيث (يصلاها) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف . .

و(ها) ضمير مفعول به، والفاعل هو (مذموما) حال من الفاعل منصوبة (مدحورا) حال

ثانية منصوبة.

جملة: " من كان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "كان يريد . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

وجملة: " يريد . . . " في محلّ نصب خبر كان.

وجملة: " عجّلنا . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

---

(1) في الآية (15) من هذه السورة.

(2) في الآية (17) السابقة . . والفعل في محلّ جزم جواب الشرط.

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(140/458)

وجملة: " نشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة: " نريد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة: " جعلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عجّلنا . .

وجملة: " يصلاها . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في (له) ، أو من جهنّم .

19 - (الواو) عاطفة (من أراد) مثل من كان ، والفاعل هو (الآخرة) مفعول به منصوب

(الواو) عاطفة (سعى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف ، في محلّ جزم معطوف على أراد ، والفاعل هو (لها) مثل له متعلّق بـ (سعى) ، (سعيها) مفعول مطلق منصوب " 1 " ، و(الهاء) مضاف إليه (الواو) واو الحال (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (مؤمن) خبر مرفوع (الفاء) رابطة لجواب الشرط (أولئك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . .

و(الكاف) للخطاب (كان) فعل ماض ناقص (سعيهم) اسم كان مرفوع . .

و(هم) مضاف إليه (مشكورا) خبر كان منصوب .

وجملة : " من أراد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من كان . .

وجملة : " أراد الآخرة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة : " سعى لها . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أراد .

وجملة : " هو مؤمن . . . " في محلّ نصب حال من فاعل سعى .

وجملة : " أولئك كان سعيهم . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " كان سعيهم مشكورا " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

---

(1) أو مفعول به بتضمين سعى معنى أعطى ، وسعيها أي عملها .

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

20 - (كلّا) مفعول به مقدّم منصوب (نمدّ) مضارع مرفوع، والفاعل نحن للتعظيم (ها) حرف تنبيه (أولاء) اسم إشارة بدل من (كلا) في محلّ نصب (الواو) عاطفة (هؤلاء) مثل الأول ومعطوف عليه (من عطاء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نمدّ)، (ربك) مضاف إليه مجرور .. و(الكاف) مضاف إليه (الواو) واو الحال " 1 " (ما) نافية (كان عطاء ربّك محظورا) مثل كان سعيهم مشكورا.

وجملة: "نمدّ ... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " ما كان عطاء ربّك ... " في محلّ نصب حال.

الصرف:

(العاجلة)، مؤنّث العاجل، اسم فاعل من عجل على وزن فاعل، وهنا استعملت الصفة استعمال الاسم ومعناها الدنيا.

---

(1) أو استئنافيّة، والجملة بعدها لا محلّ لها استئنافيّة.

(مذموما) ، اسم مفعول من ذمّ الثلاثيّ ، وزنه مفعول.

(مشكورا) ، اسم مفعول من شكر الثلاثيّ ، وزنه مفعول.

(محظورا) ، اسم مفعول من حظر الثلاثيّ ، وزنه مفعول.

البلاغة

- اللف والنشر: في قوله تعالى: "كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ".

لف ونشر مرتب ، فهؤلاء الفريق الأول ، أي مريد الدنيا وهؤلاء الثانية للفريق الثاني ، أي مريد الآخرة.

[سورة الإسراء (17) : آية 21]

انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (21)

الإعراب:

(انظر) فعل أمر ، والفاعل أنت (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب حال عامله (فضّلنا) وهو فعل ماض وفاعله (بعضهم) مفعول به منصوب.. و(هم) مضاف إليه (على بعض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (فضّلنا) ، (الواو) حاليّة (اللام) لام الابتداء (الآخرة) مبتدأ مرفوع (أكبر) خبر مرفوع (درجات) تمييز منصوب وعلامة النصب الكسرة (الواو) عاطفة (أكبر تفضيلا) مثل أكبر درجات.

جملة : " انظر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " فضّلنا . . . " في محلّ نصب مفعول به عامله فعل النظر المعلّق بالاستفهام كيف ومعناه تفكّر ، والجملة مقيّدة بالجارّ المحذوف .

وجملة : " الآخرة أكبر . . . " في محلّ نصب حال " 1 " .

الصرف :

(تفضيلا) مصدر قياسيّ لفعل فضّل الرباعيّ ، وزنه تفعيل .

البلاغة

- تكلمنا فيما سبق عن " التزام ما لا يلزم " ، وهو التزام حرف أو حرفين أو أكثر قبل حرف الروي في الشعر ، وقد يأتي نظيره في النثر . كقوله تعالى : " وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها "

. وفي لزوميات المعري ما هبّ ودبّ من هذا الفن كقوله :

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء

يحرم فيكم الصهباء صبحا ويشربها على عمد مساء

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة فلا محلّ لها .

يقول لقد غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء

واحذر هذا الفن، فإن الإيغال فيه يؤدي إلى التصنع الممقوت، والتكلف المرفوض.

[سورة الإسراء (17) : آية 22]

لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (22)

الإعراب:

(لا) ناهية جازمة (تجعل) فعل مضارع مجزوم، والفاعل أنت (مع) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف مفعول ثان (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (إلها) مفعول به منصوب (آخر) نعت لإله منصوب ومنع من التنوين للوصفيّة ووزن أفعل (الفاء) فاء السببيّة (تقعد) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء، والفاعل أنت (مذموما) حال منصوبة (مخذولا) حال ثانية منصوبة..

والمصدر المؤوّل (أن تقعد) في محلّ رفع معطوف على مصدر متصيّد من النهي السابق أي: لا يكن منك جعل إله مع اللّه فقعود في حال الذمّ والخذلان.

جملة: "لا تجعل..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "تقعد..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

الصرف:

(مخذولا) ، اسم مفعول من خذل الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 23 إلى 24]

وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً (23) وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً (24)

(144/458)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (قضى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (ربّك) فاعل مرفوع . . و(الكاف) مضاف إليه (أن) حرف مصدريّ ونصب " 1 " ، (لا) نافية (تعبدوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . و(الواو) فاعل " 2 " (إلّا) أداة حصر " 3 " ، (إيّاه) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 4 " ، (الواو) عاطفة (بالوالدين) جارّ ومجرور متعلّق بفعل محذوف تقديره أحسنوا (إحسانا) مفعول مطلق للفعل المحذوف منصوب " 5 " . .

والمصدر المؤوّل (ألا تعبدوا . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف أي بألّا تعبدوا . . متعلّق

بـ (قضى) .

(إن) حرف شرط جازم (ما) زائدة (يبلغنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم الشرط . . و(النون) للتوكيد (عندك) ظرف منصوب متعلّق بـ (يبلغنّ) ، و(الكاف) مضاف إليه (الكبر) مفعول به منصوب (أحدهما) فاعل مرفوع . . و(هما) ضمير مضاف إليه (أو) حرف عطف (كلاهما) معطوف على أحدهما مرفوع وعلامة الرفع الألف فهو ملحق بالمثنّى ، أسند إلى الضمير (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) ناهية جازمة (تقل) مضارع مجزوم ، والفاعل أنت (اللام) حرف جرّ و(هما) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق

---

(1) أو حرف مخفّف من (أنّ) الثقيلة ، واسمه ضمير الشأن محذوف أي أنّه . . فـ (لا) حينئذ ناهية جازمة .

(2) أو مجزوم بلا الناهية ، وعلامة الجزم حذف النون . .

(3) أو هي - على التخريج الثاني - أداة استثناء . [. . . . .]

(4) أو في محلّ نصب على الاستثناء ، أو بدل من المفعول المحذوف ، أي قضى ربّك أنّ (ه) لا تعبدوا (أحدا) إلّا إيّاه .

(5) انظر الآيات (83) من البقرة و(36) من النساء و(151) من الأنعام ، ففيها مزيد تفصيل حول اعراب كلمة (إحسانا) وموضع تعليق الجارّ (بالوالدين) .

ب (تقل) ، (أفّ) اسم فعل مضارع بمعنى أتضجّر ، والفاعل أنا (الواو) عاطفة (لا تنهر) مثل لا تقل . . و(هما) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (لهما) مثل الأول متعلّق بـ (قل) (قولا) مفعول به منصوب " 1 " ، (كريما) نعت لـ (قولا) منصوب .

جملة : " قضى ربّك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعبدوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " إمّا يبلغنّ . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لا تقل . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " لا تنهرهما " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا تقل .

وجملة : " قل . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا تقل .

24 - (الواو) عاطفة (اخفض لهما جناح) مثل قل لهما قولا . . والجارّ متعلّق بـ (اخفض) (الذلّ) مضاف إليه مجرور (من الرحمة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اخفض) " 2 " ، (الواو) عاطفة (قل) مثل الأوّل (ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف ، و(الياء) مضاف إليه (ارحمهما) مثل قل ،

و(هما) ضمير مفعول به، والأمر دعاء (الكاف) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ (ربّياني) فعل ماض، و(الألف) فاعل، و(النون) للوقاية، و(الياء) مفعول به (صغيرا) حال من الياء المفعول منصوبة..

---

(1) بمعنى كلاما، ولو قصد به المصدر لكان مفعولا مطلقا منصوبا.

(2) ومن تعليليّة أو لابتداء الغاية، ويجوز أن يتعلّق الجارّ بمحذوف حال من جناح الذلّ.

(146/458)

والمصدر المؤوّل (ما ربّياني) في محلّ جرّ بالكاف - وهي في معنى التعليل لا التشبيه - متعلّق بـ (ارحم) "1".

وجملة: "اخفض..." في محلّ جزم معطوفة على جملة لا تقل.

وجملة: "قل..." في محلّ جزم معطوفة على جملة لا تقل.

وجملة: "النداء وجوابها..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "ارحمهما..." لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "ربّياني..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

الصرف:

(كلاهما) ، اسم دال على التثنية ولفظه مفرد مستعمل للمذكر مضافا أبدا .

(جناح) ، اسم جامد للعضو المعروف ، وزنه فعال بفتح الفاء .

(الذلّ) ، مصدر سماعيّ لفعل ذلّ الثلاثيّ ، وزنه فعل بضمّ فسكون .

البلاغة

1 - الاستعارة المكنية والتخييلية : في قوله تعالى : " وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ " .

حيث شبه الذل بطائر منحط من علو تشبيها مضمرا ، وأثبت له الجناح تخييلا ، والخفض ترشيحا . فإن الطائر إذا أراد الطيران والعلو ، نشر جناحيه ورفعهما ليرتفع ، فإذا ترك ذلك خفضهما وأيضا هو إذا رأى جارحا يخافه لصق بالأرض وألصق جناحيه ، وهي غاية خوفه وتذلله وقيل : المراد بخفضهما ما يفعله إذا ضم فراخه ، للتربية ، وأنه أنسب بالمقام .

---

(1) الكاف عند بعضهم للتشبيه فهي متعلّقة بمفعول مطلق ، والتقدير ارحمهما رحمة كرحمتهما لي أو كتربيتهما لي .

الفوائد

1 - من عجائب هذه اللغة :

اختلف النحاة في أسماء الأفعال حول اعتبارها وتسميتها ، والصحيح أنها أسماء أفعال ، ولا محل لها من الإعراب .

و " أف " اسم فعل مضارع بمعنى " أتضجّر " وقد تعدّدت فيه اللغات حتى بلغت لدى بعضهم أربعين لغة ، قرئ بسبع منها ، ثلاث هنّ المتواتر ، وأربع من باب الشواذ . ونحن نقرأ في قراءة حفص " أفّ " بالكسر والتنوين والتشديد . وان كنت من فرسان هذا العلم فعليك بالمطولات ، ففيها ما ينقع غلة الصادي .

2 - بين الرضى والعقوق :

بعد أن يتملّى القارئ من توصية القرآن بطاعة الوالدين ، يطيب لنا أن نذكر ما تيسر من سيرة العاقين لوالديهم ، فبضدها تتميز الأشياء .

يروى أن جريرا كان أعق الناس بأبيه. وكان ابنه بلال عاقا له، فتشاتما يوما، وقد أغلظ بلال لأبيه فقالت له أمه: يا عدوّ الله، أتقول هذا لأبيك؟ فقال جرير: دعيه، فكأنه سمعها مني وأنا أقولها لأبي.

وقد كان الحطيئة من عقوق الوالدين بمكان، فقد قال يهجو أباه.

فنعم الشيخ أنت لدى المخازي وبئس الشيخ أنت لدى الفعال

جمعت اللؤم لا حياك ربي وأبواب السفاهة والضلال

وقال يهجو أمه:

لحاك الله ثم لحاك أمّا ولقاك العقوق من البنينا

أغربالا إذا استودعت سرّا وكانونا على المتحد ثينا

[سورة الإسراء (17): آية 25]

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (25)

الإعراب:

(ربّكم) مبتدأ مرفوع.. و(كم) ضمير مضاف إليه (أعلم) خبر مرفوع (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعلم) (في نفوسكم) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما.. و(كم) مثل الأول (إن) حرف شرط جازم (تكونوا) مضارع ناقص مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف النون.. و(الواو) اسم تكون (صالحين) خبر

منصوب، وعلامة النصب الياء (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ، (كان) فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (للأوّابين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (غفورا) وهو خبر كان منصوب.

جملة: "ربّكم أعلم... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "إن تكونوا صالحين... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "إنّه كان... " لا محلّ لها تعليل للجواب المقدّر أي: إن تكونوا صالحين فهو يغفر لكم.. إنّه كان للأوّابين غفورا.

وجملة: "كان.. غفورا " في محلّ رفع خبر إنّ.

الصرف:

(الأوّابون)، جمع أوّاب، صيغة مبالغة من آب يئوب، وزنه فعّال بفتح الفاء.

[سورة الإسراء (17): الآيات 26 إلى 27]

(149/458)

وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (27)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (آت) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة ، والفاعل أنت (ذا) مفعول به أوّل منصوب وعلامة النصب الألف (القربى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (حقّه) مفعول به ثان منصوب . . و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (المسكين ، ابن) اسمان معطوفان على (ذا) منصوبان ، (السبيل) مضاف إليه مجرور (لا) ناهية جازمة (تبذّر) مضارع مجزوم ، والفاعل أنت (تبذيرا) مفعول مطلق منصوب .

جملة : "آت . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "لا تبذّر . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

27 - (إنّ) حرف توكيد ونصب (المبذّرين) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الياء (كانوا) فعل ماض ناقص واسمه (إخوان) خبر كان منصوب (الشياطين) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (كان) فعل ماض ناقص (الشيطان) اسم كان مرفوع (لربّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كفورا) على حذف مضاف أي لنعمة ربّه . . و(الهاء) مضاف إليه (كفورا) خبر كان منصوب .

وجملة : "إنّ المبذّرين . . . "لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : "كانوا إخوان . . . "في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة: "كان الشيطان... " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ المبذّرين " 1 " .

الصرف:

(تبذيرا) ، مصدر قياسيّ لفعل بذّر الرباعيّ، وزنه تفعيل.

(المبذّرون) ، جمع المبذّر، اسم فاعل من (بذّر) الرباعيّ، وزنه مفعّل بضمّ وكسر العين.

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة

(150/458)

[سورة الإسراء (17) : آية 28]

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً (28)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (إمّا تعرضنّ) مثل إمّا يبلغنّ " 1 " ، (عن) حرف جرّ و(هم) ضمير في

محلّ جرّ متعلّق ب (تعرضنّ) ، (ابتغاء) مفعول لأجله منصوب "

، (رحمة) مضاف إليه مجرور (من ربّك) جارّ ومجرور متعلّق نعت لرحمة " 3 " ،

و(الكاف) مضاف إليه (ترجوها) مضارع مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو

.. و(ها) ضمير مفعول به، والفاعل أنت (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قل لهم قولا

ميسورا) مثل قل لهم قولا كريما، جملة: " تعرضنّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " ترجوها " في محلّ جرّ نعت ثان لرحمة " 4 " .

وجملة: " قل . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

الصرف:

(ميسورا)، اسم مفعول من (يسر) الثلاثيّ، وزنه مفعول.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 29 إلى 38]

وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (30) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً (31) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلاً (32) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً (33)

---

(1) في الآية (23) من هذه السورة.

(2) أو مصدر في موضع الحال أي مبتغيا.

(3) أو متعلّق بـ (ترجوها)

(4) أو في محلّ نصب حال من رحمة لكونها موصوفة.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُلًا (34) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا (36) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (لا) ناهية جازمة (تجعل) مضارع مجزوم، والفاعل أنت (يدك) مفعول به منصوب.. و(الكاف) مضاف إليه (مغلولة) مفعول به ثان منصوب (إلى عنقك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (مغلولة)..

و(الكاف) مثل الأول، (الواو) عاطفة (لا تبسطها) مثل لا تجعل و(ها) ضمير مفعول به

(كلّ) مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنّه مضاف إلى المصدر

(البسط) مضاف إليه مجرور (الفاء) فاء السببيّة (تقعد) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء، والفاعل أنت (ملوما) حال منصوبة (محسورا) حال ثانية منصوبة..

والمصدر المؤوّل (أن تقعد . .) في محلّ رفع معطوف على مصدر مقدّر من الكلام السابق أي : لا يكن منك غلّ ليدك أو بسط فقعود في الملام والحسرة جملة : " لا تجعل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا تبسطها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تجعل .

وجملة : " تقعد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

---

30 - (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (ربّك) اسم إنّ منصوب . .

و(الكاف) مضاف إليه (يبسط) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (الرزق) مفعول به منصوب (اللام) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يبسط) ، (يشاء) مثل يبسط وكذلك (يقدر) ، (إنّه كان بعباده خبيرا) مثل إنه كان للأوّابين غفورا " 1 " ، (بصيرا) خبر ثان لـ (كان) منصوب .

وجملة : " إنّ ربك يبسط . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يبسط . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة: "يقدر ... " في محلّ رفع معطوفة على جملة يبسط.

وجملة: "إنّه كان بعباده ... " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "كان بعباده ... " في محلّ رفع خبر إنّ.

31 - (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تقتلوا) مضارع مجزوم، وعلامة الجزم

---

(1) في الآية (25) من هذه السورة.

حذف النون.. و(الواو) فاعل (أولادكم) مفعول به منصوب، و(كم) مضاف إليه (خشية) مفعول لأجله منصوب (إملاق) مضاف إليه مجرور (نحن) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (نرزقهم) مضارع مرفوع.. و(هم) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (إيّاكم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ نصب معطوف على ضمير الغائب المفعول (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (قتلهم) اسم إنّ منصوب.. و(هم) مضاف إليه (كان) ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (خطئا) خبر كان منصوب (كبيرا) نعت لـ (خطئا) منصوب.

وجملة: "لا تقتلوا ... " لا محلّ لها معطوفة على الجملة الطلبيّة لا تجعل.

وجملة: "نحن نرزقهم ... " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "نرزقهم ... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (نحن).

وجملة: "إنّ قتلهم كان ... " لا محلّ لها تعليل ثان - أو استئناف بيانيّ - وجملة: "كان خطئا ... " في محلّ رفع خبر إنّ.

(154/458)

---

32 - (الواو) عاطفة (لا تقربوا الزنى) مثل لا تقتلوا أولادكم .. وعلامة نصب المفعول الفتحة المقدّرة على الألف (إنّه كان فاحشة) مثل إنّه كان ..

غفورا " 1 "، (الواو) عاطفة (ساء) فعل ماض لإنشاء الذمّ، والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره هو (سبيلا) تمييز للضمير الفاعل، منصوب، والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره هو أي الزنى.

وجملة: "لا تقربوا ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تقتلوا ..

وجملة: "إنّه كان ... " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "كان فاحشة ... " في محلّ رفع خبر إنّ.

---

(1) في الآية (25) من هذه السورة.

وجملة: " ساء سبيلا " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر " 1 " .

33 - (الواو) عاطفة (لا تقتلوا النفس) مثل لا تقتلوا أولادكم (التي) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت للنفس (حرّم) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع، والمفعول محذوف أي قتلها (إلّا) أداة حصر (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بحال من الفاعل أي متلبّسين بالحقّ " 2 " ، (الواو) اعتراضيّة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (قتل) فعل ماض مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل هو (مظلوما) حال منصوبة (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (جعلنا) فعل ماض وفاعله (لوليّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف مفعول به ثان . . و(الهاء) مضاف إليه (سلطانا) مفعول به منصوب (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (يسرف) مضارع مجزوم، والفاعل هو (في القتل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يسرف) ، (إنّه كان منصورا) مثل إنه كان . .

غفورا " 3 " .

جملة: " لا تقتلوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تقربوا . . .

وجملة: " حرّم اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة: " من قتل ... " لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: " قتل مظلوما ... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 4 " .

وجملة: " قد جعلنا ... " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: " لا يسرف ... " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أراد القصاص فلا يسرف.

---

(1) يجوز عطفها على الجملة التعليليّة.

(2) أو متعلّق بـ (تقتلوا). [......]

(3) في الآية (25) من هذه السورة.

(4) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا.

(156/458)

وجملة: " إنّه كان ... " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: " كان منصورا " في محلّ رفع خبر إنّ.

34 - (الواو) عاطفة (لا تقربوا مال) مثل ولا تقتلوا أولادكم (اليتيم) مضاف إليه مجرور (إلّا) أداة حصر (الباء) حرف جرّ (التي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (تقربوا) "

1 " ، والموصول صفة لموصوف محذوف أي بالصفة التي هي . . (هي) ضمير منفصل مبتدأ (أحسن) خبر مرفوع (حتّى) حرف غاية وجرّ (يبلغ) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى ، والفاعل هو (أشدّه) مفعول به منصوب . . و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (أوفوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و(الواو) فاعل (بالعهد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أوفوا) ، (إنّ العهد كان مسئولا) مثل إنّ قتلهم كان خطئا " 2 " .

والمصدر المؤوّل (أن يبلغ) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (تقربوا) .

وجملة : " لا تقربوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تقتلوا . .

وجملة : " هي أحسن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) وجملة : " يبلغ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر وجملة : " أوفوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تقربوا مال . .

وجملة : " إنّ العهد كان . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كان مسئولا " في محلّ رفع خبر إنّ .

35 - (الواو) عاطفة (أوفوا) مثل السابق (الكيل) مفعول به منصوب (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بمضمون

---

(1) وهو استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال أي : لا تقربوا مال اليتيم في كلّ حال إلّا في حال

الصفة التي هي أحسن.

(2) في الآية (31) من هذه السورة.

(157/458)

الجواب (كلتم) فعل ماض وفاعله (الواو) عاطفة (زنوا بالقسطاس) مثل أوفوا بالعهد متعلّق بـ (زنوا) (المستقيم) نعت للقسطاس مجرور (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ.. و(اللام) للبعد، و(الكاف) للخطاب (خير) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (أحسن) معطوف على خير مرفوع (تأويلا) تمييز منصوب.

وجملة: "أوفوا الكيل..." لا محلّ لها معطوفة على جملة أوفوا بالعهد.

وجملة: "كلتم..." في محلّ جرّ مضاف إليه.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي إذا كلتم فأوفوا الكيل.

وجملة: "زنوا بالقسطاس" لا محلّ لها معطوفة على جملة أوفوا الكيل.

وجملة: "ذلك خير..." لا محلّ لها تعليليّة.

36 - (الواو) عاطفة (لا تقف) مثل لا تجعل "1"، وعلامة الجزم حذف حرف العلّة (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به "2"، (ليس) فعل ماض ناقص جامد

(اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر ليس (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من (علم) وهو اسم ليس مؤخّر مرفوع (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (السمع) اسم إنّ منصوب (الواو) عاطفة في الموضعين (البصر، الفؤاد) اسمان معطوفان على السمع بحرفي العطف منصوبان (كلّ) مبتدأ مرفوع (أولئك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه.. و(الكاف) حرف خطاب (كان) ماض ناقص (عنه) مثل به متعلّق بـ (مسئولا) وهو خبر كان منصوب.

وجملة: "لا تقف..." لا محلّ لها معطوفة على جملة زنوا...

وجملة: "ليس لك به علم" لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

---

(1) في الآية (29) من هذه السورة.

(2) أو نكرة موصوفة في محلّ نصب، والجملة بعده في محلّ نصب نعت.

وجملة: "إنّ السمع..." لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "كلّ أولئك..." في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "كان عنه مسئولا" في محلّ رفع خبر المبتدأ (كلّ)، 37 - (الواو) عاطفة (لا

تمش) مثل لا تقف (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تمش) ، (مرحا) مصدر في موضع الحال " 1 " منصوب (إنّك) حرف توكيد ونصب . . و(الكاف) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (لن) حرف نفي ونصب واستقبال (تخرق) مضارع منصوب ، والفاعل أنت (الأرض) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (لن تبلغ الجبال) مثل لن تخرق الأرض (طولا) تمييز منصوب محوّل عن فاعل " 2 " .

وجملة : " لا تمش . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تقف .

وجملة : " إنّك لن تخرق . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " لن تخرق . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لن تبلغ . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لن تخرق .

38 - (كلّ ذلك كان) مثل كلّ أولئك كان (سيّئه) اسم كان مرفوع . . و(الهاء) مضاف إليه (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (مكروها) ، (ربّك) مضاف إليه مجرور . . و(الكاف) مضاف إليه (مكروها) خبر كان منصوب .

وجملة : " كلّ ذلك . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كان سيّئه . . مكروها " في محلّ رفع خبر المبتدأ (كلّ) .

---

(1) أجاز العكبريّ أن يكون مفعولا لأجله .

(2) أجاز العكبريّ أن يكون مصدرا في موضع الحال من الفاعل أو المفعول ، وأن يكون

مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر أي تطول الجبال طولا ، وأن يكون مفعولا لأجله . . وهو ضعيف لأنّ المصدر غير قلبيّ .

(159/458)

الصرف :

(البسط) مصدر سماعيّ لفعل بسط الثلاثيّ ، وزنه فعل بفتح فسكون (ملوما) ، اسم مفعول من لام الثلاثيّ المعتلّ الأجوف ، على وزن مفعول بحذف واو مفعول بعد الإعلال بالتسكين أصله ملووم - بضمّ الواو الأولى - ثمّ نقلت الضمّة من الواو إلى اللام - إعلال بالتسكين - ثمّ حذفت الواو لالتقاء الساكنين فأصبح ملوم مثل مقول .

(محسورا) ، اسم مفعول ، من حسر الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

(خطئا) ، هو مصدر سماعيّ لفعل خطئ يخطأ باب فرح . . وثمّة قراءة خطأ فتح الخاء والطاء ، ووزن خطئا فعل بكسر الفاء وسكون العين .

(الزنى) ، مصدر سماعيّ لفعل زنى يزني باب ضرب ، وزنه فعل بكسر ففتح . . وفيه إعلال بالقلب حيث قلبت الياء ألفا - لام الكلمة - لمجيئها متحرّكة بعد فتح .

(مظلوما) ، اسم مفعول من ظلم الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

(منصورا) ، اسم مفعول من نصر الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

(مسئولا) ، اسم مفعول من سأل الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

(كلتم) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون ، لأنّه معتلّ أجوف إذ تحذف عينه في حال بنائه على السكون بإسناده إلى ضمير الرفع المتحرّك ، وزنه فلتم .

(زنوا) ، فيه إعلال بالحذف فهو معتلّ مثال تحذف فاؤه في المضارع والأمر إذا كانت عينه مكسورة في المضارع ، وزنه علوا بكسر العين .

(القسطاس) ، هو روميّ معرّب معناه الميزان ، ويقرأ بكسر القاف - كما هنا - وبضمّها .

(تأويلا) ، هو مصدر قياسيّ لفعل أوّل الرباعيّ بمعنى رجع ، فالتأويل هنا بمعنى المآل ، وزنه تفعيل .

(تقف) ، مضارع قفا ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، وزنه تفع .

(تمش) ، مضارع مشى ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، وزنه تفع .

(مرحا) ، مصدر سماعيّ لفعل مرح ، وزنه فعل بفتحتين .

(طولا) ، مصدر سماعيّ لفعل طال يطول ، وزنه فعل بضمّ فسكون .

(مكروها) ، اسم مفعول من كره الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

البلاغة

1 - الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ " .

مثّل البخيل بالذي حبست يده عن الإعطاء وشدت إلى عنقه بحيث لا يقدر على مدها ، وشبّه السرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئًا .

تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبذر ، زجرا لهما عنهما ، وحملا على ما بينهما من الاقتصاد والتوسط بين الإفراط والتفريط ، وذلك هو الجود الممدوح ، فخير الأمور أوساطها .

2 - اللف والنشر المرتب : " فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً " .

عاد لفظ " ملوما " إلى البخل ، ولفظ " محسورا " إلى الإسراف ، أي يلومك الناس إن بخلت ، وتصبح مقطوعا إن أسرفت .

3 - الإطناب : في قوله تعالى : " وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً " فالاطناب : مأخوذ في الأصل من أطنب في الشيء إذا بالغ فيه ، يقال أطنبت الريح إذا اشتدت في هبوبها ، وأطنب في السير إذا اشتد فيه . وفي اصطلاح البيانيين : هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ، فإذا لم تكن في الزيادة فائدة سمي تطويلا .

فمعنى هذه الآية جاء موجزا في قوله تعالى " وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ " لكن الأول أطناب ،

والثاني إيجاز ، وكلاهما موصوف بالمساواة .

4 - الاستعارة : في قوله تعالى : " إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُلًا " .

أي مسئولا عنه على حذف الجار ، ويجوز أن لا يوجد حذف أصلا والكلام على التخييل ، كأنه يقال للعهد : لم نكثت وهلا وفّي بك ، تبكيتا للناكث كما يقال للموءودة (بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) . وقد يعتبر فيه الاستعارة المكنية والتخييلية بأنه يشبه العهد بمن نكث عهده ، ونسبة السؤال إليه تخييل .

5 - التهكم :

في قوله تعالى : " إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ " .

(161/458)

تعليل للنهي ، وفيه تهكم بالمختال ، أي أنك لن تقدر أن تجعل فيها خرقا بدوسك وشدة وطئك ، ولن تبلغ الجبال بتعاظمك ومدّ قامتك ، فأين أنت والتكبر عليها .

الفوائد

1 - التوسط في الأمور " وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ " .

ضرب الله في هذه الآية مثلا للتوسط في الأمور ، فجعل الشحّ والإسراف على طرفي نقيض

، ودعا الناس إلى الاعتدال والتوسط بين الصفتين ، ولهذا المثال نظائره في كل فضيلة من الفضائل حيث ، تتوسط بين رذيلتين ، إحداهما الإفراط والثانية التفريط .

من أمثلة ذلك الجبن والتهور : تتوسطهما الشجاعة . ومثل ذلك كثير ، وقد وصف الله ورسوله هذه الأمة بأنها أمة وسط ، وأكّد ذلك الرسول بحديثه : خير الأمور الوسط ، أو خير الأمور أوساطها .

2 – فاء السببية وواو المعية :

تضمر " أن " بعد الفاء والواو بشرطين أساسيين وهما أن يسبقها نفي أو طلب محضان وسواء كان النفي حرفا أو فعلا أو اسما ، أو تقليلا أريد به النفي ، والتقليل نحو : قلما تأتينا فتحدثنا . وأما الطلب فيشمل سبعة أمور وهي : الأمر والنهي والدعاء ، والعرض والتحضيض والاستفهام والتمني ، هذه سبعة ، ومع النفي تصبح ثمانية ، وأضاف بعضهم الترجي ، فهي على العموم تسعة ، جمعت بقول القائل :

مر وانه وادع وسل عرض لحضّهم تمنّ وارج كذاك النفي قد كملا واحترز النحاة بقولهم : " نفي أو طلب محضان " من النفي التالي تقريرا بالهمزة ، لأن التقرير إثبات ، ومن النفي المتلو بالنفي ، لأن نفي النفي إثبات ، ومن النفي المنتقض بـ " إلّا " وبذلك يتحقق المحض الضروري لتقدير " أن " ونصب الفعل . وهذا موجز ما في الأمر وفي كتب النحو الضافية أشياء كثيرة حول هذين الحرفين .

4 – أمور خمسة وعشرون قضى بها الله . . . . !

1 – لا تَجْعَل مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ .

2 – عبادته وحده .

3 – النهي عن عبادة غيره .

(162/458)

---

4 – بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً .

5 – فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ .

6 – وَلا تَنْهَرْهُما .

7 – وَقُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً .

8 – وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ .

9 – وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما .

10 – وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ 11 – وَالْمِسْكِينَ .

12 – وَابْنَ السَّبِيلِ .

13 – وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً .

14 - فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً .

15 - وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً .

16 - وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ .

17 - وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ .

18 - وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى .

19 - وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ .

20 - فلا يسرف في القتل .

21 - وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ .

22 - وَأَوْفُوا الْكَيْلَ .

23 - وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ .

24 - وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .

25 - وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً .

[سورة الإسراء (17) : آية 39]

ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (39)

الإعراب :

(ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . . (اللام) للبعد ، و(الكاف) للخطاب (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بخبر المبتدأ (أوحى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (إلى) حرف جرّ . . و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أوحى) ، (ربّك) فاعل مرفوع . . و(الكاف) مضاف إليه (من الحكمة) جارّ ومجرور متعلّق بحال من العائد المحذوف أي ممّا أوحاه إليك ربّك حال كونه من الحكمة " 1 " ، (الواو) عاطفة (لا تجعل . . . ملوما مدحورا) مثل لا تجعل . . مذموما مخذولا " 2 " ، (تلقى) فعل مضارع مبنيّ للمجهول ونائب الفاعل أنت (في جهنم) جارّ ومجرور وعلامة الجرّ الفتحة ، والجارّ متعلّق بـ (تلقى) .

والمصدر المؤوّل (أن تلقى) معطوف على مصدر متصيّد من النهي السابق جملة : " ذلك ممّا أوحى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أوحى إليك ربّك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " لا تجعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " تلقى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

[سورة الإسراء (17) : آية 40]

أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) استئنافيّة (أصفاكم) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف . . و(كم) ضمير مفعول به (ربّكم) فاعل مرفوع . . و(كم) مضاف إليه (بالبنين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أصفاكم) ، (الواو) عاطفة " 3 " ، (اتّخذ) مثل أصفى ، والفاعل هو (من

---

(1) يجوز تعليقه بـ (أوحى) ، أو هو بدل من الموصول بإعادة الجارّ .

(2) في الآية (22) من هذه السورة .

(3) أو حاليّة ، والجملة بعدها في محلّ نصب حال و(قد) قبلها مقدّرة .

الملائكة) جارّ ومجرور متعلّق بمفعول ثان (إناثا) مفعول به أوّل منصوب (إنّكم) حرف مشبّه بالفعل . . و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة للتوكيد (تقولون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل (قولا) مفعول به منصوب " 1 " ، (عظيما) نعت لـ (قولا) منصوب .

جملة : " أصفاكم ربّكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " اتّخذ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أصفاكم وجملة : " تقولون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ وجملة : " إنكم

لتقولون . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(أصفى) ، الألف جاءت رابعة فرسمت برسم الياء وهي منقلبة عن واو ، فالثلاثيّ صفا يصفو . . . وفي اللفظ إعلال بالقلب ، أصله أصفى - بياء في آخره - تحرّكت الياء وفتح ما قبلها قلبت ألفا ، وزنه أفعل . . .

---

(1) أو مفعول مطلق منصوب ، والمفعول به مقدّر .

وفي (أصفاكم) أصبحت الألف متوسّطة فرسمت طويلة . .

[سورة الإسراء (17) : آية 41]

وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (41)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (صرّفنا) فعل ماض وفاعله (في) حرف جرّ (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (صرّفنا) ، (القرآن) بدل من ذا - أو عطف بيان - مجرور (اللام) للتعليل (يذّكّروا)

مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، وعلامة النصب حذف النون . . . و(الواو) فاعل

(الواو) حاليّة (ما)

نافية (يزيدهم) مضارع مرفوع . . و(هم) ضمير مفعول به، والفاعل هو أي التصريف

(إلّا) للحصر (نفورا) مفعول به ثان منصوب .

جملة: " قد صرّفنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر .

وجملة: " يذّكّروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر المصدر المؤوّل (أن

يذّكّروا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (صرّفنا) .

وجملة " ما يزيد . . . " في محلّ نصب حال " 1 " .

الصرف:

(نفورا)، مصدر سماعيّ لفعل نفر الثلاثيّ، وزنه فعول بضمّ الفاء

[سورة الإسراء (17) : آية 42]

قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (42)

الإعراب:

(قل) فعل أمر، والفاعل أنت (لو) حرف شرط غير جازم (كان) فعل ماض ناقص (معه)

ظرف منصوب متعلّق بخبر كان . . و(الهاء) مضاف إليه (آلهة) اسم كان مرفوع (الكاف)

حرف جرّ " 2 "، (ما) حرف مصدريّ " 3 " (يقولون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل

(إذا) بالتنوين حرف جواب لا محلّ لها (اللام) رابطة لجواب لو (ابتغوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و(الواو) فاعل (إلى ذي) جارّ

---

(1) أو هي استئنافيّة لا محلّ لها .

(2) أو اسم بمعنى مثل هو نعت لمصدر محذوف مفعول مطلق أي كونا مثل قولهم .

[. . . . . .]

(3) يجوز أن يكون (ما) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق ، والعائد محذوف ، والجملة صلة .

(165/458)

ومجرور متعلّق بـ (ابتغوا) ، وعلامة الجرّ الياء (العرش) مضاف إليه مجرور (سبيلا) مفعول به منصوب .

والمصدر المؤوّل (ما يقولون) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق أي لو كان معه آلهة كونا كقولهم . . إذا لابتغوا .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " لو كان معه آلهة . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " ابتغوا

. . . "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم

الفوائد

- قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ إلى آخر الآية .

- أدلة منطقية وعقلية - هذه الآية ونظائرها في القرآن الكريم ، تحاور المشركين محاورة ، قوامها المنطق السليم ، ولحمتها وسداها البراهين العقلية المركبة والتي اتخذها علماء المنطق والكلام من فلاسفة المسلمين أدلّة مفحمة على وجود الله ووحدانيته تعالى . وهذه الأدلة العقلية ، قد لا تغني لدى بعض من ينشدون الإيمان عن طريق الفطرة الإنسانية والشعور العميق ، فهؤلاء يتخذون من خلق الله مما حولهم ومما في أنفسهم برهانا كافيا على وجود الخالق العالم القادر المريد ، وهؤلاء يطلقون على منهجهم الذي يتوسلون به لمعرفة الله "قانون الاختراع" أو قانون "الخلق والإبداع" .

ولكل وجهة هو مولّيها فاستبقوا الخيرات . .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 43 إلى 44]

سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً (43) تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (44)

الإعراب:

(سبحانه) مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب.. و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (تعالى) فعل ماض مبني على الفتح المقدّر على الألف، والفاعل هو (عمّا يقولون) مثل كما يقولون "1"، (علوّا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو اسم مصدر، منصوب (كبيرا) نعت لـ (علوّا) منصوب.

والمصدر المؤوّل (ما يقولون) في محلّ جرّ بـ (عن) متعلّق بـ (تعالى) "2" جملة: "(نسبّح سبحانه... "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "تعالى..." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة "3" وجملة: "يقولون..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) 44 - (تسبّح) مضارع مرفوع (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تسبح)، (السموات) فاعل مرفوع (السبع) نعت للسموات مرفوع (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (الأرض، من) اسمان معطوفان على السموات، والموصول في محلّ رفع (في) حرف جرّ و(هنّ) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف صلة الموصول من (إن) نافية (من) حرف جرّ زائد (شيء) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ (إلّا) للحصر (يسبّح) مثل (تسبّح) (بحمده) جارّ ومجرور متعلّق بحال من الفاعل.. و(الهاء) مضاف إليه، (لكن) حرف استدراك

(لا) نافية (تفقهون) مضارع مرفوع .. و(الواو) فاعل (تسبيحهم)

---

(1) في الآية (42) السابقة.

(2) يجوز أن يكون (ما) اسم موصول في محل جر متعلّق بمحذوف مفعول مطلق والعائد محذوف والجملة صلة.

(3) أو معطوفة على ما تضمّنه المصدر من معنى الفعل أي تنزّه وتعالى.

مفعول به منصوب .. و(هم) مضاف إليه (إنّه) حرف توكيد ونصب ..

و(الهاء) اسم إنّ (كان) فعل ماض ناقص (حليما) خبر كان منصوب ..

واسمه ضمير هو (غفورا) خبر ثان منصوب.

جملة: "تسبّح له السموات ..." لا محلّ لها في حكم التعليل.

وجملة: "إن من شيء إلّا ..." لا محلّ لها معطوفة على جملة تسبّح له السموات وجملة: "يسبّح بحمده ..." في محلّ رفع خبر المبتدأ (شيء).

وجملة: "لا تفقهون ..." لا محلّ لها معطوفة على جملة إن من شيء ..

وجملة: "إنّه كان حليما ..." لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "كان حليما ..." في محلّ

رفع خبر إنّ

الصرف :

(علوّا) ، اسم مصدر لفعل تعالى الخماسيّ ، نقص عن حروف فعله ، وزنه فعل بضمّتين .

(تسبيح) ، مصدر قياسيّ لفعل سبّح الرباعيّ ، وزنه تفعيل .

البلاغة

- فن التنكيت :

في قوله تعالى : " وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ " .

وهذا الفن هو : قصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسدّ مسدّه ، لنكتة في المذكور ترجح مجيئه على ما سواه .

فقد خصّ سبحانه " تفقهون " دون " تعلمون " لما في الفقه من الزيادة على العلم ، لأنه التصرف في المعلوم بعد علمه واستنباط الأحكام منه ، والمراد الذي يقتضيه معنى الكلام : التفقه في معرفة التسبيح من الحيوان والنبات والجماد وكل ما يدخل تحت لفظة شيء .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 45 إلى 46]

وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً (45) وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى

أَدْبارِهِمْ نُفُوراً (46)

الإعراب:

(168/458)

(الواو) استئنافيّة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب (قرأت) فعل ماض وفاعله (القرآن) مفعول به منصوب (جعلنا) فعل ماض وفاعله (بينك) ظرف منصوب متعلّق بفعل جعلنا بتضمينه معنى وضعنا " 1 " .. و(الكاف) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (بين) مثل الأول ومعطوف عليه (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (لا) نافية (يؤمنون) مضارع مرفوع .. و(الواو) فاعل (حجابا) مفعول به منصوب (مستورا) نعت لحجاب منصوب.

جملة: " قرأت القرآن ... " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة: " جعلنا ... " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: " لا يؤمنون ... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) 46 - (الواو) عاطفة (جعلنا) مثل الأول (على قلوبهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جعلنا) " 2 " .. و(هم) ضمير مضاف إليه (أكنّة) مفعول به منصوب (أن) حرف مصدريّ ونصب (يفقهوه) مضارع

منصوب وعلامة النصب حذف

---

(1) وإذا كان الفعل متعدّيا لاثنين فالظرف متعلّق بالمفعول الثاني المقدّر.

(2) وفي الجارّ والمجرور حذف مضاف أي في قراءة القرآن.. ويجوز أن يتعلّق بحال من فاعل ذكرت.

(169/458)

النون.. و(الواو) فاعل، و(الهاء) مفعول به (الواو) عاطفة (في آذانهم وقرا) مثل على قلوبهم أكنّة ومعطوف عليه.

والمصدر المؤوّل (أن يفقهوه) في محلّ نصب مفعول لأجله بحذف مضاف أي خشية أن يفقهوه أو كراهة أن..

(الواو) عاطفة (إذا ذكرت ربّك) مثل إذا قرأت القرآن.. و(الكاف) مضاف إليه (في القرآن) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ذكرت) "1"، (وحده) حال منصوب من ربّك..

و(الهاء) مضاف إليه (ولّوا) مثل ابتغوا "2"، (على أدبارهم) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل ولّوا.. و(هم) مثل الأول (نفورا) مصدر في موضع الحال "3" منصوب.

وجملة: "جعلنا على قلوبهم..." لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلنا بينك..

وجملة: "يفقهوه... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة: " ذكرت... " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة: " ولّوا... " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم

الصرف:

(مستورا) ، اسم مفعول من (ستر) الثلاثيّ، وزنه مفعول..

وهو بمعنى اسم الفاعل، مجاز عقليّ.

الفوائد

1 - لفظة "وحده" لا تلفظ الا بالنصب باستثناء الشاذ منها.

يقال: "يسبح وحده" للمدح وجحيش وحده، للذم. يقال للمعجب برأيه

---

(1) وفي الجار والمجرور حذف مضاف أي في قراءة القرآن ويجوز أن يتعلّق بحال من فاعل ذكرت.

(2) في الآية (42) من هذه السورة.

(3) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر مرادف له.

المنفرد بخدمة نفسه وتأويله وحيدا أو منفردا . .

ونقول: جاء وحده ومررت به وحده. وفي كل ذلك تعرب حالا.

[سورة الإسراء (17) : آية 47]

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (47)

الإعراب:

(نحن) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أعلم) خبر مرفوع (الباء) حرف جرّ و(ما) اسم موصول مبني في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعلم) (يستمعون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يستمعون) ، (إذا) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بأعلم (يستمعون إليك) مثل يستمعون به ، و(الواو) عاطفة (إذ) مثل الأول ومعطوف عليه (هم نجوى) مثل نحن أعلم ، وعلامة رفع الخبر الضمّة المقدّرة على الألف " 1 " ، (إذ) مثل الأول وهو بدل من إذ هم . . (يقول) مضارع مرفوع (الظالمون) فاعل مرفوع ، وعلامة الرفع الواو (إن) حرف نفي (تتّبعون) مثل يستمعون (إلّا) للحصر (رجلا) مفعول به منصوب (مسحورا) نعت لـ (رجلا) منصوب.

جملة: " نحن أعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: " يستمعون (الأولى) " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة: " يستمعون (الثانية) " في محلّ بإضافة (إذ) إليها وجملة: " هم

نجوى . . . " في محلّ جر بإضافة (إذ) الثاني إليها وجملة: "يقول الظالمون . . . " في محلّ جرّ بإضافة (إذ) الثالث إليها وجملة: "تتّبعون . . . " في محلّ نصب مقول القول

---

(1) وهذا الخبر على حذف مضاف إذا كان (نجوى) مصدرا أي: هم ذوو نجوى، وإذا كان جمع نجي فلا تقدير.

(171/458)

[سورة الإسراء (17) : آية 48]

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (48)

الإعراب:

(انظر) فعل أمر، والفاعل أنت (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب حال عامله ضربوا . . (ضربوا) فعل ماض وفاعله (اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ضربوا)، (الأمثال) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (ضلّوا) مثل ضربوا (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (لا) نافية (يستطيعون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل (سبيلا) مفعول به بتضمين الفعل قبله معنى يعرفون أو يجدون.

جملة: "انظر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "ضربوا . . . " في محلّ نصب مفعول به

لفعل النظر الذي بمعنى تفكّر، وقد علّق الفعل بالاستفهام كيف، وتقيّد بالجارّ وجملة: "ضلّوا... " في محلّ نصب معطوفة على جملة ضربوا وجملة: "لا يستطيعون... " في محلّ نصب معطوفة على جملة ضلّوا

[سورة الإسراء (17) : الآيات 49 إلى 52]

(172/458)

وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (49) قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً (50) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (52)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (قالوا) فعل ماض وفاعله (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (أ إذا) ظرف للمستقبل مجرد من الشرط "1" في محلّ نصب متعلّق بمحذوف تقديره أنبعث إذا كنا.. (كنّا) فعل ماض ناقص واسمه (عظاما) خبر منصوب (الواو) عاطفة (رفاتا) معطوف على الخبر منصوب (الهمزة) مثل الأولى (إنّا) حرف مشبّه بالفعل.. و(نا) ضمير في محلّ

نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة (مبعوثون) خبر إنّ مرفوع، وعلامة الرفع الواو (خلقا) مفعول مطلق نائب ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة (مبعوثون) خبر إنّ مرفوع، وعلامة الرفع الواو (خلقا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مرادفه أي بعثا "2"، (جديدا) نعت لـ(خلقا) منصوب.

جملة: "قالوا ..." لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "(أنبعث) المقدّر ..." في محلّ نصب مقول القول "3" وجملة: "كنّا عظاما ..." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "إنّا لمبعوثون ..." لا محلّ لها استئناف مؤكّد لمقول القول.. أو هي تفسير لمقول القول.

50 - (قل) فعل أمر، والفاعل أنت (كونوا) فعل أمر ناقص.. و(الواو) اسم الفعل الناقص (حجارة) خبر كونوا منصوب (أو) حرف عطف (حديدا) معطوف على حجارة منصوب.

وجملة: "قل ..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة: "كونوا ..." في محلّ نصب مقول القول.

---

(1) يجوز أن يتضمن معنى الشرط فيتعلّق الظرف بالجواب المقدّر أي: أإذا كنّا عظاما .. نبعث.

(2) يجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال أي: مخلوقين.

(3) وإذا تضمّن الظرف معنى الشرط فإنّ الشرط وفعله وجوابه في محلّ نصب مقول القول.

(173/458)

---

51 - (أو) حرف عطف (خلقا) معطوف على (حديدا) منصوب (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بنعت لـ (خلقا)، (يكبر) مضارع مرفوع، والفاعل هو (في صدوركم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يكبر)، و(كم) مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (السين) حرف استقبال (يقولون) مضارع مرفوع.. و(الواو) فاعل (من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يعيدنا) مضارع مرفوع، و(نا) ضمير مفعول به، والفاعل هو (قل) مثل الأوّل (الذي) اسم موصول في محلّ رفع مبتدأ " 1 " وخبره محذوف تقديره يعيدكم (فطركم) فعل ماض، و(كم) ضمير مفعول به، والفاعل هو وهو العائد (أوّل) مفعول فيه نائب عن الظرف منصوب متعلّق بـ (فطركم)، (مرّة) مضاف إليه مجرور (فسينغضون) مثل فسيقولون (إلى) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ينغضون)، (رؤوسهم) مفعول به منصوب، و(هم) مضاف إليه (الواو) عاطفة

(يقولون) مثل الأول (متى) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب ظرف زمان متعلّق بمحذوف خبر مقدّم، (هو) ضمير منفصل مبتدأ مؤخّر (قل) مثل الأول (عسى) فعل ماض ناقص جامد، واسمه ضمير مستتر تقديره هو أي البعث (أن) حرف مصدريّ ونصب (يكون) مضارع ناقص منصوب، واسمه ضمير مستتر تقديره هو أي البعث (قريبا) خبر يكون منصوب.

والمصدر المؤوّل (أن يكون..) في محلّ نصب خبر عسى "2".

وجملة: "يكبر ... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما)

---

(1) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره معيدكم الذي فطركم. [.....]

(2) أو هو فاعل عسى التامّ أي عسى كونه قريبا.

(174/458)

وجملة: "يقولون ... " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن قلت أنّ الروح ستعود إليكم بعد الموت "1" فسيقولون..

وجملة: "من يعيدنا ... " في محلّ نصب مقول القول وجملة: "يعيدنا ... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) وجملة: "قل ... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة: "فطركم " لا

محلّ لها صلة الموصول (الذي) وجملة: "ينغضون . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن قلت لهم ذلك فسينغضون . .

وجملة: "يقولون . . . " معطوفة على جملة ينغضون وجملة: "متى هو . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة: " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة: "عسى أن يكون . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة: "يكون قريبا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) 52 - (يوم) ظرف زمان منصوب بدل من (قريبا) "2" ، (يدعوكم) مضارع مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو و(كم) ضمير مفعول به، والفاعل هو (الفاء) عاطفة (تستجيبون) مثل يقولون (بحمده) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل تستجيبون بتضمينه معنى تسبّحون . . و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (تظنّون) مثل يقولون (إن) حرف نفي (لبثتم) فعل ماض

---

(1) وقول الرسول هذا مأخوذ من قوله تعالى: كونوا حجارة . . والتقدير: إن كنتم حجارة أو حديدا . . فلا بدّ من إيجاد الروح فيكم يوم البعث .

(2) لأنّه على معنى (يوما قريبا) ، أو في زمن قريب . . هذا ويجوز أن يكون مفعولا به لفعل محذوف تقديره اذكر .

وفاعله (إلّا) للحصر (قليلا) مفعول فيه نائب عن الظرف فهو صفته أي لبثتم وقتا طويلا .

وجملة : " يدعوكم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تستجيبون . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يدعوكم وجملة : " تظنّون . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة تستجيبون وجملة : " لبثتم . . . " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي ظنّ المعلّق بـ (إن)

الصرف :

(رفاتا) ، اسم جامد لأجزاء الشيء المفتّت ، وزنه فعال بضمّ الفاء وهو مفرد

البلاغة

1 - الاستفهام الإنكاري :

في قوله تعالى : " أَإِذا كُنَّا عِظاماً " وتكرير الهمزة في " أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ " لتأكيد النكير ، وكذلك تأكيده بإنّ ، واللام للإشارة إلى قوة الإنكار .

2 - فن التمكين أو الارصاد :

في قوله تعالى : " قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ " .

وحقيقة هذا الفن هو : أن يمهد المتكلم لقافيته أو سجعه تمهيدا تأتي القافية فيه متمكنة في مكانها ، مستقرة في قرارها ، غير نافرة ولا قلقة .

إن السامع يعلم أنه أراد حجارة أو حديدا ، بجاذب من قلبه ، ووحي من هاجسه دون أن يسمع بقية الآية .

3 - التعجيز والإهانة في الأمر : " قُلْ كُونُوا حِجارةً أَوْ حَدِيدا ً"

الفوائد

- خصائص عسى ، ومثلها اخلولق وأوشك : هذه الأفعال الثلاثة تختص بأنهن قد يكنّ تامات ، فلا يحتجن إلى الخبر وذلك إذا وليهنّ " أن والفعل " ، ويؤول المصدر على أنه فاعل لهنّ ، نحو : عسى أن تقوم ، واخلولق أن تسافروا ، وأوشك أن نرحل ، ومنه قوله تعالى : عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وعَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً . هذا إذا لم يتقدم عليهنّ اسم هو المسند إليه في المعنى ، فإن تقدم عليهن اسم يصح إسنادهنّ إلى ضميره فأنت بالخيار بين أمرين :

أ - أن تجعلهن تامات ، وهو الأفصح ، فيكون المصدر المؤول فاعلا لهن ، نحو :

علي عسى أن يذهب ، وهند عسى أن تذهب ، والرجلان عسى أن يذهبا والمسافرون عسى أن يذهبوا بتجريد عسى من الضمير .

ب – أن تجعلهن ناقصات ، فيكون اسمهن ضميرا بارزا أو مستترا . مطابقا لما قبلهن إفرادا أو تثنية أو جمعا ، وتذكيرا أو تأنيثا ، نحو : الرجلان عسيا أن يذهبا ، والمرأتان عستا أن تذهبا . والأولى أن يجعلهن في مثل ذلك تامات ويجرّدن من الضمير فيبقين بصيغة المفرد المذكر ، وفاعلهن المصدر الأول من أن والفعل . وهذه لغة أهل الحجاز والتي نزل بها القرآن الكريم .

تختص عسى بأمرين :

أ – جواز كسر سينها وفتحها ، إذا أسندت إلى تاء الضمير أو نون النسوة ، أو " نا " والفتح أولى لأنه الأصل ، وقد قرأ عاصم " فهل عسيتم إن توليتم " بكسر السين ، وقرأ الباقون عسيتم بفتحها .

ب – انها قد تكون حرفا بمعنى " لعلّ " ، فتعمل عملها ، تنصب الاسم وترفع الخبر ، وذلك إذا اتصلت بضمير النصب وهو قليل . كقول الشاعر :

فقلت عساها نار كأس وعلّها تشكّى فآتي نحوها فأعودها

فتسمع قولي قبل حتف يصيبني تسرّ به أو قبل حتف يصيدها

[سورة الإسراء (17) : آية 53]

وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا

مُبِيناً (53)

الإعراب:

(177/458)

(الواو) استئنافيّة (قل) فعل أمر، والفاعل أنت (لعبادي) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قل)، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء، و(الياء) ضمير مضاف إليه (يقولوا) مضارع مجزوم جواب الطلب، وعلامة الجزم حذف النون.. و(الواو) فاعل (التي) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 1 "، (هي) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أحسن) خبر مرفوع (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (الشيطان) اسم إنّ منصوب (ينزغ) مضارع مرفوع، والفاعل هو (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ ((ينزغ)، (هم) ضمير مضاف إليه (إنّ الشيطان) مثل الأولى (كان) فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (للإنسان) جارّ ومجرور متعلّق بـ (عدوّا) خبر كان منصوب (مبينا) نعت لـ (عدوّا) منصوب.

جملة: " قل... " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: " يقولوا... " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي: إن تطلب منهم يقولوا... ومقول القول لـ (قل) محذوف أي ما

تريد قوله.

---

(1) وهو نعت لمنعوت محذوف أي: يقولوا الكلمة التي أحسن.

(178/458)

وجملة: "هي أحسن..." لا محلّ لها صلة الموصول (التي) وجملة: "إنّ الشيطان ينزغ..." لا محلّ لها تعليل لـ (يقولوا) "1" وجملة: "ينزغ..." في محلّ رفع خبر إنّ وجملة: "إنّ الشيطان كان..." لا محلّ لها تعليل لـ (ينزغ) وجملة: "كان للإنسان..." في محلّ رفع خبر إنّ الثاني.

[سورة الإسراء (17): الآيات 54 إلى 55]

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (54) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (55)

الإعراب:

(ربّكم) مبتدأ مرفوع، و(كم) ضمير مضاف إليه (أعلم) خبر مرفوع (الباء) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعلم) (إن) حرف شرط جازم (يشأ) مضارع مجزوم

فعل الشرط ، والفاعل هو (يرحمكم) مثل يشأ جواب الشرط و(كم) ضمير مفعول به (أو) حرف عطف (ان يشأ يعذّبكم) مثل إن يشأ يرحمكم (الواو) اعتراضيّة (ما) نافية (أرسلناك) فعل ماض وفاعله ، و(الكاف) ضمير مفعول به (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أرسلناك) ، (وكيلا) حال منصوبة.

جملة : " ربّكم أعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 "

---

(1) في الحقيقة إنّ المعلّل محذوف يعلم من السياق أي : ولا يقولوا القول الخشن على النفوس لأنّ الشيطان . . .

(2) أو هي في محلّ نصب بدل من الاسم الموصول (التي) ، أي إنّ الكلمة التي هي أحسن هي قوله : ربّكم أعلم . . وما بين البدل والمبدل منه اعتراض.

وجملة : " إن يشأ . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " يرحمكم . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء.

وجملة : " إن يشأ (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن يشأ (الأولى) وجملة : " يعذّبكم . . . " لا محلّ لها جواب الشرط الثاني غير مقترنة بالفاء وجملة : " ما أرسلناك

. . . "لا محلّ لها اعتراضيّة" 1 " .

55 – (الواو) عاطفة (ربّك أعلم) مثل ربّكم أعلم (الباء) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعلم) (في السموات) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة من (الأرض) معطوف على السموات بالواو مجرور مثله (الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (فضّلنا) فعل ماض وفاعله (بعض) مفعول به منصوب (النبيّين) مضاف إليه مجرور، وعلامة الجرّ الياء (على بعض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (فضّلنا)، (الواو) عاطفة (آتينا) مثل فضّلنا (داود) مفعول به منصوب، ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (زبورا) مفعول به ثان منصوب.

وجملة: "ربّك أعلم . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة ربّكم أعلم وجملة: "قد فضّلنا . . . "لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة معطوفة على جملة ربّك أعلم لا محلّ لها وجملة: "آتينا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم

الصرف:

(زبورا)، الكتاب الذي أنزل على داود، وزنه فعول إمّا بمعنى المفعول كحلوب، أو هو مصدر بمعناه كالقبول، ويقرأ بفتح الزاي وضمّها، وجاء على صيغة النكرة لأنه كتاب من الكتب. انتهى انتهى. اهـ ﴿الجدول جـ 15 صـ 69.5﴾

---

(1) أو معطوفة على الاستئنافيّة.

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(17) سورة الإسراء

مكية وآياتها إحدى عشرة ومائة

[سورة الإسراء (17) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً (2) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً (3) وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً (4) فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً (5) ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (6) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً (7) عَسى رَبُّكُمْ

أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (8)

اللغة :

(سُبْحانَ) : علم جنس للتنزيه والتقديس وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره أسبح اللّه سبحانه أو سبحت اللّه سبحان أي فهو مفعول مطلق ومعناه ما أبعد الذي له هذه القدرة عن جميع النقائص ولذا لا يستعمل إلا فيه تعالى .

(أَسْرى) : سرى بمعنى سار في الليل وهما لازمان ومصدر الأول الإسراء ومصدر الثاني السرى بضم السين .

(181/458)

(مَرَّتَيْنِ) : تثنية مرة وفي القاموس مرمرا ومرورا جاز وذهب واستمر ومره وبه جاز عليه وامتّر به وعليه كمر والمرة الفعلة الواحدة والجمع مرّ ومرار ومرر بكسرهما ومرور بالضم ولقيه ذات مرة ولا يستعمل إلا ظرفا " .

(فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ) : في القاموس : " الجوس بالجيم طلب الشيء باستقصاء والتردد خلال الدور والبيوت في الغارة والطوف فيها كالجوسان والاجتياس وبابه قال وخلال الديار فيه وجهان أحدهما أنه اسم مفرد بمعنى وسط والثاني انه جمع خلل كجبل وجبال

وجمل وجمال .

وقال الجوهري : الجوس مصدر جاسوا خلال الديار أي تخللوا فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أي يطلبها . وحكى الهروي في الغريبين عن الأزهري أن معنى جاسوا وطئوا . وحكي عن الأصمعي انه يقال تركت فلانا يجوس بني فلان ويحوسهم ويدوسهم أي يضؤهم .

وقال أبو عبيد كل موضع خالطته ووطئته فقد جسته وحسته .

(الْكَرَّةَ) : الغلبة والدولة وهي في الأصل مصدر كريكر أي رجع ثم استعملت تعبيرا عن الدولة والقهر والغلبة .

(نَفِيراً) : النفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر كالعبيد والمعيز وفيه أوجه أحدها انه فعيل بمعنى فاعل أي نافر والثاني أنه جمع نفر نحو عبيد والثالث انه مصدر أي أكثر خروجا إلى الأعداء وقد قدمنا أن النون والفاء إذا كانتا فاء للكلمة وعينا لها ، دلتا على الخروج والنفاذ .

(يتبروا) : التتبير : الهلاك .

(حَصِيراً) : محبسا وسجنا . قال لبيد :

ومقامه غلب الرجال كأنهم جن لدى باب الحصير قيام

وقال الحسن : يعني فراشا ، وعنه أيضا : وهو مأخوذ من الحصر والذي يظهر انها حاصرة

لهم أي محيطة بهم من جميع جهاتهم فحصير معناه ذات حصر إذ لو كان للمبالغة لزمته التاء لجريانه على مؤنث كما تقول : رحيمة وعليمة ، ولكنه على معنى النسب كقوله : السماء منفطر به ، أي ذات انفطار .

الاعراب :

)

(182/458)

سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ) سبحان مفعول مطلق لفعل محذوف وقد تقدم بحثه في باب اللغة والذي مضاف اليه وجملة أسرى صلة ، وبعبده متعلقان بأسرى وليلا ظرف متعلق بأسرى وسيأتي في باب البلاغة سر ذكره مع أن السرى لا يكون إلا في الليل وبعبده جار ومجرور متعلقان بأسرى وليلا ظرف زمان متعلق بأسرى أيضا ومن المسجد جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أي مبتدئا وإلى المسجد الأقصى حال أيضا أي منتهيا إلى المسجد والأقصى نعت للمسجد والذي نعت ثان وباركنا صلة وهي فعل وفاعل وحوله ظرف متعلق بباركنا .

(لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) اللام للتعليل ونريه فعل مضارع منصوب بأن مضمرة

والفاعل مستتر تقديره نحن والهاء مفعول به والأولى أن تجعل الجار والمجرور خبرا لمبتدأ محذوف أي وذلك لنريه ومن آياتنا جار ومجرور متعلقان بنريه ومن حرف جر للتبعيض وان واسمها وهو مبتدأ أو ضمير فصل والسميع خبر هو أو خبر إن والبصير خبر ثان وسيأتي سر هذه الالتفاتات في باب البلاغة . (وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ) الواو استئنافية أو عاطفة على جملة سبحان الذي أسرى ونا فاعل وموسى مفعول به أول والكتاب مفعول به ثان وجعلناه هدى فعل وفاعل والهاء مفعول به أول وهدى مفعول به ثان ولبني متعلقان بهدى وإسرائيل مضاف اليه . (أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا) يصح في أن أن تكون مصدرية منصوبة مع مدخولها بنزع الخافض أي بأن لا تتخذوا والجار والمجرور متعلقان بكتبنا ويجوز أن تكون مفسرة لأن الإتيان فيه معنى القول دون حروفه ولا ناهية وتتخذوا مضارع

مجزوم بلا ووكيلا مفعول تتخذوا الأول ومن دوني هو المفعول الثاني لتتخذوا . (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً) ذرية :

اضطربت أقوال المعربين في نصبها المتفق عليه بين القراء جميعا فقيل :

نصبت على الاختصاص وبه بدأ الزمخشري وقيل على النداء وقيل بدل من وكيلا وقيل مفعول ثان لتتخذوا ، على أن النفس لا تطمئن لواحد منها والله أعلم ومن مضاف إلى ذرية وحملنا صلة ومع ظرف مكان متعلق بحملنا ونوح مضاف إليه وان واسمها وكان فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر تقديره هو وعبدا خبرها وشكورا صفة ومما يرجح إعراب ذرية على الاختصاص أو النداء قول الزمخشري في إعراب جملة : " إنه كان عبدا شكورا " انها تعليلية لاختصاصهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح فكأنه قيل : " لا تتخذوا من دوني وكيلا ولا تشركوا بي لأن نوحا عليه السلام كان عبدا شكورا وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم " وهذه فطنة من الزمخشري تسترعي الانتباه وتستحق الاعجاب . (وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ) الواو عاطفة وقضينا فعل وفاعل وإلى بني إسرائيل متعلقان بقضينا وقضينا في الأصل فعل يتعدى بنفسه ولكنه تعدى هنا بإلى لتضمنه معنى أوحينا ، ومعنى قضينا أعلمنا وأخبرنا أو حكمنا وأتممنا ، وأصل القضاء الإحكام للشيء والفراغ منه وقيل أوحينا ويدل عليه قوله إلى بني إسرائيل ولو كان بمعنى الإعلام والاخبار لقال قضينا بني إسرائيل ولو كان بمعنى حكمنا لقال على بني إسرائيل ولو كان بمعنى أتممنا لقال لبني إسرائيل . وفي الكتاب حال والمراد به التوراة . (لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ) اللام جواب للقسم المحذوف أو أجرى القضاء المبتوت مجرى

القسم كأنه قيل : وأقسمنا لتفسدن ، وتفسدن فعل مضارع معرب لأنه لم يتصل مباشرة بنون التوكيد الثقيلة وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي النونات

(184/458)

و واو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين هي الفاعل والأصل لتفسدونن وقد تقدمت له نظائر وفي الأرض متعلقان بتفسدن ومرتين نصب على الظرفية وأعربه أبو البقاء مفعولا مطلقا على أنه صفة لمصدر محذوف أو على أنه في نفسه مصدر عمل فيه ما هو من غير جنسه وسيأتي المراد بالمرتين في باب الفوائد . (وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا) الواو عطف ولتعلن عطف على لتفسدن وهي مماثلة لها في إعرابها وعلوا مفعول مطلق وكبيرا صفة . (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ) الفاء عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة جاء مضاف إليها الظرف ووعد فاعل وأولاهما مضافة لوعد ولما كان الوعد على إطلاقه خاصا بالخير كان لا بد من تقدير مضاف محذوف أي وعد عقاب أولاهما وجملة بعثنا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وعليكم متعلقان ببعثنا وعبادا مفعول به وأولي صفة لعبادا وهي من الأسماء الخمسة

بمعنى أصحاب وبأس مضاف اليه وشديد صفة لبأس .

)

(185/458)

فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولًا) الفاء عاطفة وجاسوا عطف على بعثنا وخلال ظرف مكان متعلق بجاسوا والديار مضاف اليه والواو عاطفة وكان عطف على الجوس واسمها ضمير يعود على الجوس أو الوعد بالعقاب ووعدا خبر كان ومفعولا صفة لوعدا . (ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ) ثم حرف عطف للتراخي ورددنا فعل وفاعل ولكم متعلقان برددنا والكرة مفعول به وعليهم متعلقان بالكرة أي الغلبة عليهم أو حال منها . (وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً) وأمددناكم عطف على رددنا وهو فعل وفاعل ومفعول به وبأموال جار ومجرور متعلقان بأمددناكم وبنين عطف على أموال وجعلناكم فعل وفاعل ومفعول به وأكثر مفعول به ثان ونفيرا تمييز . (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها) إن شرطية وأحسنتم فعل وفاعل وهو في محل جزم

فعل الشرط وأحسنتم جوابه وإن أسأتم عطف على إن أحسنتم والفاء رابطة للجواب ولها متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف أي فإساءتكم ، وكان القياس يقتضي أن يقول

فعليها ولكنه عدل إلى اللام للمشاكلة مع قوله لأنفسكم ، وقيل اللام بمعنى على أي فعليها

كما في قول عنترة :

فخرّ صريعا لليدين وللفم

)

(186/458)

فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ) الفاء عاطفة وإذا ظرف مستقبل ، وجاء وعد فعل وفاعل والآخرة مضاف لوعد وأراد المرة الآخرة وليسوءوا اللام للتعليل ويسيئوا مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وهو متعلق بجواب إذا المحذوف أي بعثناهم ليسوءوا وقد دل على الجواب جواب إذا الأولى ووجوهكم مفعول به والمعنى ليجعلوا وجوهكم بادية المساءة منكسفة المعالم . (وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ) وليدخلوا عطف على ليسوءوا أي فهو متعلق بمحذوف هو بعثناهم والمسجد منصوب على السعة وكما نصب على المصدرية أي دخولا مثل دخولهم وأول مرة نصب على الظرفية . (وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً) وليتبروا عطف على ليسوءوا وواو الجماعة فاعل وما مفعول به ليتبروا أي ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه ويجوز أن تجعل ما مصدرية

ظرفية ومفعول يتبروا محذوف ولعله أولى لإفساح المجال أمام الخيال ليتصور مدى إهلاكهم الحرث والنسل مدة علوهم على البلاد ويكون الظرف متعلقا بيتبروا وتتبيرا مفعول مطلق .

(عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً) عسى فعل ماض من أفعال الرجاء ترفع الاسم وتنصب الخبر وربكم اسمها وأن مع مدخولها في محل نصب خبر والواو حرف عطف وإن

شرطية وعدتم فعل ماض وفاعل في محل جزم فعل الشرط وعدنا فعل ماض وفاعل في محل جزم جواب الشرط وجعلنا عطف على عدنا ونا فاعل وجهنم مفعول به أول وللكافرين متعلقان بحصيرا وحصيرا مفعول به ثان هذا إذا اعتبرنا حصيرا فعيلا بمعنى فاعل وان اعتبرناه اسما جامدا أي مكان الحبس المعروف فتكون للكافرين حالا منه .

البلاغة :

اشتملت هذه الآيات على ضروب من البلاغة ندرجها فيما يلي :

1- الذكر :

ذكر الليل مع أن السرى لا يكون إلا بالليل يحتمل أمرين :

آ- أولهما أن الاسراء لما دل على أمرين أحدهما السير والآخر كونه ليلا أريد إفراد أحدهما بالذكر تثبيتا في نفس المخاطب وتنبيها على أنه مقصود بالذكر وقد مرت الاشارة إلى هذه النكتة في قوله تعالى " وقال اللّه لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد " فالاسم الحامل للتثنية دال عليها وعلى الجنسية وكذلك المفرد فأريد التنبيه لأن أحد المعنيين وهو التثنية مقصود مراد .

ب- وثانيهما الإشارة بتنكير الليل إلى تقليل مدته لأن التنكير فيه قد دل على معنى البعضية وهذا بخلاف ما لو قيل أسرى بعبده الليل فإن التركيب مع التعريف يفيد استغراق السير لجميع أجزاء الليل .

2- الوصل والفصل :

ومن الفنون البعيدة المنال التي تطول على من رامها الفصل

والوصل فإن القارئ ليشعر أن بين آية الاسراء وقوله " وآتينا موسى الكتاب " إلى آخر الآية تباينا شديدا في ظاهر الأمر حتى إذا تمعّن وتدبر وجد الوصل بين الفعلين فإنه تعالى أخبر أنه أسرى بمحمد صلى اللّه عليه وسلم إلى الأرض المقدسة ليريه من آياته ويرسله إلى عباده

كما أسرى بموسى من مصر إلى مدين حين خرج خائفا يترقب وأسرى به وبابنه شعيب إلى الأرض المقدسة ليريه من آياته ويرسله إلى فرعون وملئه وآتاه الكتاب فهذا هو الوصل بين الفصلين المذكورين وأما الوصل بين قوله تعالى : " ذرية من حملنا مع نوح " وبين ما قبله فتذكار بني إسرائيل بأول نعمه عز وجل عليهم بنجاة آبائهم مع نوح في السفينة من الغرق إذ لو لم ينج آباؤهم لما وجدوا فكأنما النعم السابغة عليهم سلسلة متعاقبة الحلقات أولها نجاة آبائهم من غرق الطوفان الذي عم العالم بأسره وآخرها نجاتهم من الغرق حين شق لهم البحر ليغرق فرعون وجنوده وملؤه وينجوا هم وإذن كان يترتب عليهم أن يشكروا من أسبغ عليهم هذه الآلاء والعوارف وأن يتأسوا بنوح جدهم الأكبر الذي كان عبدا شكورا ، أليس الولد سر أبيه ؟ بيد أن هؤلاء نسيج وحدهم من الجحود والإنكار ، وغمط النعمة ، ومقابلة الحسنات بالسيئات .

3- الالتفات :

تحدثنا عن الالتفات كثيرا في هذا الكتاب وتقدمت له شواهد متعددة وفي هذه الآية ، آية الاسراء ، تعاقب الالتفات كثيرا على قصر متنه وتقارب طرفيه ، فقد قال أولا " سبحان الذي أسرى " بلفظ الواحد الغائب ثم قال " الذي باركنا " بلفظ الجمع المتكلم ثم قال " إنه هو السميع البصير " بلفظ الواحد الغائب ولو جاء الكلام على

مساق الأول لكان " سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليريه من آياته إنه هو السميع البصير " وهذا جميعه محمول على أسرى فلما خولف بين المعطوف والمعطوف عليه في الانتقال من صيغة إلى صيغة كان ذلك اتساعا في الكلام ، وتفننا فيه ، وتنويعا لأساليبه والفائدة منه فضلا عن تطرية نشاط الذهن ، واستحضاره ، واسترعائه لعرض الحقائق المملوءة بالعظات والعبر ، أنه لما بدأ الكلام بسبحانه ردفه بقوله الذي أسرى إذ لا يجوز أن يقال الذي أسرينا فلما جاء بلفظ الواحد ، والله تعالى أعظم العظماء وهو أولى بخطاب العظيم في نفسه الذي هو بلفظ الجمع استدرك الاول بالثاني فقال : " باركنا " ثم قال " لنريه من آياتنا " فجاء بذلك على نسق " باركنا " ثم قال " إنه هو " عطفا على أسرى وذلك موضع متوسط الصفة لأن السمع والبصر صفتان يشاركه فيهما غيره ، بصرف النظر عن التفاوت بين السمعين والبصريين وتلك حال متوسطة فخرج بهما عن خطاب العظيم في نفسه إلى خطاب غائب وهذه مرام بعيدة المدى ، جليلة الغرض لا يسبر غورها ولا يكتنه فحواها إلا المطبوع .

الفوائد :

1- " من " و " إلى " الجارتين :

ل " من " الجارة معان كثيرة يمكن الرجوع إليها في معني اللبيب وغيره من الكتب المطولة في

النحو ولكننا نريد أن نشير إلى المعنى الرئيسي لها الوارد في آية الاسراء وهو الابتداء أي ابتداء الغاية المكانية باتفاق جميع النحاة بصريهم وكوفيهم بدليل انتهاء الغاية بعدها وهي قوله " إلى المسجد الأقصى " أما ابتداء الغاية الزمانية فقد اختلف النحاة فأقرها الكوفيون وأقرها من البصريين المبرد والأخفش وابن

درستويه وهذا هو الصحيح لورودها في الكتاب العزيز وهو قوله " من أول يوم أحق أن تقوم فيه رجال " وفي الحديث وهو قول أنس " فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة " وفي الشعر وهو قول النابغة الذبياني يصف السيوف :

تخيرن من أزمان يوم حليمة إلى اليوم قد جربن كل التجارب

أما " إلى " الجارة فهي تفيد انتهاء الغاية مكانية وزمانية فمثالها في المكان " إلى المسجد الأقصى " ومثالها في الزمان " ثم أتموا الصيام إلى الليل " ولإلى سبعة معان أخرى حكاها في مغني اللبيب وغيره ومما أشكل من معاني إلى قول النابغة الذبياني أيضا يعتذر إلى النعمان ابن المنذر :

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلي به القار أجرب

ذكر في المغني أنها هنا بمعنى في وهو غريب وقال الدماميني :

"إلى متعلقة بمحذوف وهو حال من اسم كأن ، أي : كأنني مبغضا إلى الناس بسبب الوعيد كجمل أجرب طلي به القار أي جعل فيه أو اتصف به" وقد ذهل الدماميني عن القلب في مطلي به القار أو انه تكلفه ليجعل مطليا بمعنى مبغض فالقار يطلى به ولا يطلي هو ولهذا كان لا بد من الرجوع إلى رأي ابن هشام وهو ان إلى بمعنى في وان الجار والمجرور في موضع النصب على الحال أي كأنني كائنا في الناس بعير طلي بالقار وهو مبغض .

2- معنى مرتين :

اختلف المفسرون في تفسير المرتين الواردتين في قوله تعالى "لتفسدن في الأرض مرتين"

فذهب بعضهم إلى أن المرة الأولى هي قتل

زكريا وحبس أرميا والثانية قتل يحيى وقصد قتل عيسى وقال البيضاوي :

"أولاهما مخالفة أحكام التوراة وقتل شعيا وقيل أرميا وثانيتهما قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم الصلاة والسلام" على أن فساد اليهود في الأرض لا يمكن حصره بمرتين وإنما أتى القرآن الكريم بالمرتين مثالا سريعا لفسادهم الذي لا يحصى والذي يستمر مدى الدهور . ويمكن الرجوع إلى المطولات لهذا الغرض .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 9 إلى 15]

إِنَّ هذا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (10) وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً (11) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً (12) وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً (13)

اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (14) مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (15)

الاعراب :

)

(192/458)

إِنَّ هذا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) إن واسمها والقرآن بدل من اسم الاشارة ويهدي فعل وفاعل مستتر والمفعول به محذوف أي يهدي الناس والجملة خبر إن وللتي جار ومجرور

متعلقان بيهدي وهي مبتدأ وأقوم خبر والجملة الاسمية صلة التي وأقوم اسم تفضيل على قول الزجاج إذ قدر أقوم الحالات ، وقدره غيره أقوم مما عداها أو من كل حال ورجح أبو حيان انها ليست للتفضيل إذ قال لا مشاركة بين الطريقة التي يرشد إليها القرآن وطريقة غيرها وفضلت هذه عليها وانما المعنى التي هي قيمة أي مستقيمة كما قال : وذلك دين القيمة ، وفيها كتب قيمة ، أي مستقيمة الطريقة ، قائمة بما يحتاج إليه من أمر الدين .

(وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً) ويبشر عطف على يهدي والمؤمنين مفعول به والذين صفة المؤمنين وجملة يعملون صلة والصالحات مفعول به وأن وما في حيزها نصب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بيبشر ولهم خبر أن المقدم وأجرا اسمها المؤخر وكبيرا صفة . (وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً) وان الذين عطف على أن لهم أجرا كبيرا أي يبشر المؤمنين ببشارتين عظيمتين الأولى بثوابهم والثانية بعقاب أعدائهم ويجوز أن يعطف على يبشر بإضمار ويخبر بأن الذين لا يؤمنون معذبون وجملة أعتدنا خبر أن ولهم متعلقان بأعتدنا وعذابا مفعول به وأليما صفة . (وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً) الواو استئنافية ويدعو الإنسان فعل وفاعل وبالشر متعلقان بمحذوف حال أو بيدعو ودعاءه مفعول مطلق وبالخير حال أيضا أو متعلقان بالدعاء لأنه مصدر والواو عاطفة أو حالية وكان واسمها وخبرها .

)

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ) وجعلنا فعل وفاعل

(193/458)

و الليل مفعول به والنهار عطف على الليل وآيتين مفعول به ثان فمحونا الفاء عاطفة ومحونا عطف على جعلنا وآية الليل مفعول به .

(وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ) وجعلنا فعل وفاعل وآية النهار مفعول به أول ومبصرة مفعول به ثان ولتبتغوا اللام للتعليل وتبتغوا مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل والجار والمجرور متعلقان بقوله وجعلنا ، وفضلا مفعول به ومن ربكم متعلقان بتبتغوا وصفة لقوله فضلا . (وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلًا) ولتعلموا عطف على ولتبتغوا وعدد السنين مفعول به والحساب عطف على عدد ولا تكرار فيهما وكل شيء نصب على الاشتغال ورجح نصبه لتقدم جملة فعلية كما سيأتي في باب الفوائد وفصلناه فعل وفاعل ومفعول به وتفصيلا مفعول مطلق .

(وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) وكل انسان نصب على الاشتغال أيضا وألزمناه فعل وفاعل ومفعول به وطائره مفعول به ثان وفي عنقه حال أي كائنا وسيأتي تفصيل ذلك في

باب البلاغة . (وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً) الواو عاطفة ونخرج فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره نحن وله جار ومجرور متعلقان بنخرج وكتابا مفعول به وجملة يلقاه صفة لكتابا ومنشورا اما صفة ثانية لكتابا وإما حال .

(

اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً) جملة اقرأ كتابك في موضع نصب مقول قول محذوف أي يقال له واقرأ فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وكتابك مفعول به وكفى فعل ماض وبنفسك الباء حرف جر زائد ونفسك فاعل مرفوع محلا مجرور بالباء لفظا واليوم ظرف متعلق بمحذوف حال وعليك متعلقان بحسيبا ، وحسيبا تمييز وهو بمعنى حاسب كما ذكر سيبويه ، قال سيبويه : " ضريب القداح

(194/458)

بمعنى ضاربها وصريم بمعنى صارم " وأجاز بعضهم إعرابه حالا لأنه مشتق وليس ببعيد .

(مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ) من شرطية مبتدأ واهتدى فعل ماض في محل جزم فعل الشرط فإنما الفاء رابطة وإنما كافة ومكفوفة ويهتدي فعل مضارع مرفوع والفاعل هو ولنفسه متعلقان بيهتدي والجملة المقترنة بالفاء في محل جزم جواب الشرط .

(وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها) عطف على الجملة السابقة وعليها في موضع نصب على الحال أي واقعا ضلاله عليها . (وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى) الواو عاطفة ولا نافية وتزر فعل مضارع وفاعل ووزر مفعول لتزر أي تحمل وأخرى مضاف اليه . (وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) الواو عاطفة وما نافية وكنا كان واسمها ومعذبين خبرها ، حتى حرف غاية وجر ونبعث فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى ورسولا مفعول به .

البلاغة :

1- المجاز العقلي في قوله تعالى " وجعلنا آية النهار مبصرة " لأن النهار لا يبصر بل يبصر فيه فهو من إسناد الفعل إلى زمانه وقد تقدم ذكره كثيرا .

2- " وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه " تعبير مسوق على عادة العرب كانوا لا يباشرون عملا من الأعمال الهامة إلا إذا اعتبروا أحوال الطير ليتبينوا إذا كانت مغبة العمل خيرا أم شرا فإذا طارت الطير بنفسها أو بإزعاج من أحد متيامنة تفاءلوا وأقدموا على عملهم وإذا طارت متياسرة تشاءموا وأحجموا عن عملهم ولما كثر منهم ذلك سموا نفس الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه على طريق المجاز المرسل وقد تقدم ذكره كثيرا .

وإنما خص العنق بالذكر لأنه محل القلادة التي تزين الجيد وتبدو لأول وهلة وتسم المتقلد بها بالوسامة فكان ذلك كناية عن اتصافه بالخير والشر المقدرين له في لوح الأزل وإيثاره باختياره جانب واحد منهما كالذي يتبع السوانح وهي الطير الذاهبة متيامنة والذي يتبع البوارح وهي الطير الذاهبة متياسرة وأجاز بعضهم أن يكون الكلام من باب الاستعارة التصريحية أي استعير الطائر لما هو سبب الخير والشر من قدر اللّه وعمل العبد أي لما جعلوا الطائر سببا للخير والشر وأسندوهما اليه باعتبار سنوحه وبروحه استعير الطائر لما كان سببا لهما وهما قدرة اللّه الكائنة وعمل العبد المختار وكما أن الطائر الحقيقي يأتي إلى كل مكان بعد مزايلة وكناته وأعشاشه فكذلك الحوادث تنتهي إلى الإنسان.

3- الطباق بين الهدى والضلال وقد تقدم.

4- في قوله " وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة " فن الجمع مع التفريق وهو أن يجمع المتكلم بين شيئين في حكم واحد ثم يفرق بينهما في ذلك الحكم، ومما ورد منه في الشعر قول البحتري البديع:

ولما التقينا والنقا موعد لنا تعجب رائي الدرّ منّا ولاقطه

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

الفوائد:

الاشتغال :

الاشتغال عرفه النحاة بأنه اسم تقدم على عامل من حقه أن ينصبه لو لا اشتغاله عنه بالعمل في ضميره نحو : خالد أكرمته ، والأفضل في الاسم المتقدم الرفع على الابتداء والجملة بعده خبره ويجوز نصبه بفعل محذوف يفسره المذكور بعده وجملة رأيته مفسرة للجملة المقدرة ولا محل لها من الإعراب ولا يجوز إظهار الفعل المقدر ويقدر بلفظ الفعل المذكر إلا إذا كان لازما فيقدر بمعناه نحو حمص مررت بها فيقدر بجاوزت مثلا وله أحوال :

1- وجوب النصب :

وذلك إذا وقع بعد أدوات التحضيض والشرط والاستفهام غير الهمزة نحو هلّا الخير فعلته ، وإن عليا لقيته فسلم عليه ، وهل خالدا أكرمته ؟ غير أن الاشتغال بعد أدوات الاستفهام والشرط لا يكون إلا في الشعر .

2- ترجيح النصب :

ويترجح النصب في خمسة أمور :

آ- أن يقع بعد الاسم أمر نحو خالدا أكرمه وقد استثنيت من ذلك مسألة " والسارق

والسارقة فاقطعوا أيديهما " وقد تقدم الكلام عليها مستوفى .

ب- أن يقع بعد الاسم نهي نحو : الكريم لا تهنه .

ج- أن يقع بعد الاسم دعاء نحو : اللهم أمري يسره .

د- أن يقع الاسم بعد همزة الاستفهام كقوله تعالى " أبشرا منا واحدا نتبعه " .

ه- أن يقع الاسم جوابا لمستفهم عنه كقولك : عليا أكرمته ، في جواب من قال : من أكرمت ؟

3- وجوب الرفع :

ويجب الرفع في موضعين :

1- أن يقع بعد إذا الفجائية نحو : خرجت فإذا الجو يملؤه الضباب ، لأن إذا الفجائية لا تدخل على الأفعال .

2- أن يقع قبل أدوات الاستفهام أو الشرط أو التحضيض أو ما النافية أو لام الابتداء أو ما التعجبية أو كم الخبرية أو إن وأخواتها نحو : علي هل أكرمته ، وسعيد إن لقيته فسلم عليه ، وخالد هلّا دعوته ، والشر ما فعلته ، والخير لأنا أفعله ، والخلق الحسن ما أطيبه ، وزهير كم أكرمته ، وخالد إني أحبه ، فالاسم في ذلك كله مبتدأ والجملة بعده خبر وإنما لم يجز نصبه لأن هذه الأدوات لها الصدارة وما بعدها لا يعمل فيما قبلها .

4- ترجيح الرفع :

ويترجح الرفع إذا لم يكن هناك ما يوجب نصبه أو يرجحه أو يوجب رفعه نحو الكتاب قرأته لأن عدم التقدير أولى من التقدير.

وهناك مسائل تتعلق بالاشتغال يرجع إليها في المطولات وستأتي نكت طريفة منه في هذا الكتاب.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 16 إلى 21]

(197/458)

وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً (16) وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (17) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً (18) وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (19) كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (20)

انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (21)

اللغة:

(مُتْرَفِيها)

:

منعميها بمعنى رؤسائها وفي القاموس "الترفه بالضم النعمة والطعام الطيب والشيء الظريف تخصّ به صاحبك، وترف كفرح تنعّم، وأترفته النعمة أطغته أو نعمته كترفته تتريفا والمترّف كمكرم المتروك يصنع ما يشاء ولا يمنع والمتنعم لا يمنع من تنعمه وتترف تنعم" وفي أساس البلاغة: "أترفته النعمة: أبطرته وأترف فلان وهو مترف وأعوذ باللّه من الإتراف والإسراف واستترفوا:

تعفرتوا وطغوا ولم أزل معهم في ترفة أي في نعمة".

(مَدْحُوراً): مطرودا وفي القاموس: "الدحر: الطرد والإبعاد والدفع كالدحور فعلهن كجعل وهو داحر ودحور".

الاعراب:

(وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها)

الواو استئنافية مسوقة لبيان الأسباب التي تهلك بها القرى، وتدول الشعوب، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة أردنا مضاف إليها الظرف وان وما في حيزها مصدر مؤول في محل نصب مفعول به لأردنا وقرية مفعول به وجملة أمرنا لا محل لها لأنها جواب إذا ومترفيها مفعول، ففسقوا الفاء عاطفة وفسقوا فعل وفاعل وفيها متعلقان بفسقوا (فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً)

الفاء عاطفة وحق فعل ماض وعليها متعلقان بحق والقول فاعل، فدمرناها فعل وفاعل ومفعول به وتدميرا مفعول مطلق وسيأتي تفصيل لهذه الآية البليغة في باب البلاغة.

)

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ) كم خبرية في محل نصب مفعول أهلكنا ومن القرون في محل نصب تمييز ل "كم" ومن بعد نوح متعلقان بمحذوف حال أو بأهلكنا فمن للابتداء. (وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) الباء زائدة في الفاعل وقد تقدم ذلك قريبا وبذنوب عباده متعلقان بخبيرا بصيرا. (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ) من شرطية مبتدأ وكان فعل ماض ناقص في محل جزم فعل

الشرط وجملة يريد العاجلة خبر كان وعجلنا فعل وفاعل وهو في محل جزم جواب الشرط وله متعلقان بعجلنا وفيها متعلقان بمحذوف حال وما موصول مفعول به وجملة نشاء صلة ولمن الجار والمجرور بدل من له بإعادة العامل وجملة نريد صلة ومفعول نريد محذوف أي لمن نريد تعجيله وفعل الشرط وجوابه خبر من. ﴿ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾ ثم حرف عطف لتراخي المدة وجعلنا فعل وفاعل وله في محل نصب مفعول جعلنا الثاني وجهنم مفعول جعلنا الأول وجملة يصلاها حال من الضمير في له ومذموما حال من الضمير في يصلاها وكذلك مدحورا. ﴿وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الواو عاطفة والجملة معطوفة على سابقتها وهي مماثلة لها في الإعراب وسعى لها عطف على أراد وسعيها مفعول مطلق أي حق سعيها ومن سقطات معظم المفسرين كأبي البقاء والكرخي وغيرهما انهم أجازوا إعراب سعيها مفعولا به ونسوا أن سعى فعل لازم، هذا بالإضافة إلى أن المصدرية واضحة تماما. والواو حالية وهو مبتدأ ومؤمن خبر والجملة نصب على الحال من الضمير في سعى. ﴿فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ الفاء رابطة لجواب من وأولئك اسم إشارة مبتدأ وكان واسمها وخبرها والجملة خبر أولئك وجملة أولئك كان إلخ في محل جزم جواب الشرط. ﴿كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ﴾ كلّا مفعول به مقدم لنمد والتنوين عوض عن الإضافة أي كل واحد، وفاعل نمد مستتر تقديره نحن وهؤلاء بدل من كلّا وهؤلاء عطف على هؤلاء الأولى ومن عطاء ربك جار

ومجرور متعلقان بنمد . (وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً) الواو عاطفة أو حالية وما نافية وكان واسمها وخبرها .

(200/458)

(

انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ) انظر فعل أمر والفاعل مستتر وكيف اسم استفهام في محل نصب على الحال وفضلنا فعل وفاعل وبعضهم مفعول به وعلى بعض جار ومجرور متعلقان بفضلنا .

(وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) الواو للحال واللام للابتداء والآخرة مبتدأ وأكبر خبر ودرجات تمييز نصب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم وأكبر عطف على أكبر الأولى وتفضيلا تمييز .

البلاغة :

في هذه الآية " وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا " فنون شتى :

أولها : الالتزام ، أو لزوم ما لا يلزم ، وقد تقدم البحث عنه مستفيضا وهو التزام حرف أو

حرفين فصاعدا قبل الروي على قدر طاقة الشاعر أو الكاتب من غير كلفة وإنما قيدناه بعدم الكلفة لأنه يستحيل صنعة باهتة لا أثر فيها لجمال ويسف عن درجة البلاغة ولا ينتظم في سلكها ، فقد التزم في قوله " مترفيها " و" فيها " الفاء قبل ياء الردف ولزمت الياء وسيأتي الكثير منه في القرآن وهو من أرشق الاستعمالات ومما ورد فيه التزام سين قبل ألف الردف قول أبي العلاء صاحب اللزوميات :

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء

يحرم فيكم الصهباء صبحا ويشربها على عمد مساء

يقول لقد غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء

(201/458)

و ثانيها : المجاز المرسل في قوله " أمرنا مترفيها " لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم افسقوا وهذا باطل فبقي أن يكون مجازا وإنما جعل الترف وهو الاتساع في العيش والبلهنية التي لا حدود لها ذريعة إلى المعاصي والانجرار وراء الشهوات فكأنهم مأمورون بذلك لا مناص لهم عنه ولا انفكاك لهم منه وليس ثمة أمر ولا آمر وإنما هو المال رائد الشهوة ، وبريد الغفلة ، يزين للنفوس الموبقات فتسترسل فيها وتتعامى عن رؤية واقعها ، وقد يكون واقعها

عاليا وفوق المستويات بيد أنه لا يعتم أن يهوي بعد أن غفل عنه حارسوه وكالئوه كما حدث للعرب بعد استبحار مجدهم واتساع سلطانهم فهووا من حالق وأضاعوا ملكا لم يحافظوا عليه مثل الرجال على حد قول أم أبي عبد اللّه آخر ملوك بني الأحمر في الأندلس :

ابك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال

وثالثها : الحذف : فقد حذف المأمور به ولم يقل بماذا أمرهم إيجازا في القول واعتمادا على بديهة السامع لأن قوله ففسقوا فيها يدل عليه وهو كلام مستقيض . تقول أمرته فقام وأمرته فقرأ لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام وقراءة ولو أردت تقدير غيره لتكلفت شططا وحذفت ما لا دليل عليه هذا في حين توفر الدلائل على نقيضه كما بيّنا لك .

هذا وقد تورط بعضهم فزعم في مجازفة لا حدود لها أن أمرنا معناها كثّرنا وفي مقدمة هؤلاء المتورطين أبو علي القالي في كتابه الممتع " الأمالي " فقد قال : " وقال اللّه تعالى : " وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها " أي كثرنا ولا أدري كيف ساغ له هذا التفسير لأن أمر من باب فرح بكسر الميم والقراءة أمر بفتحها وهو أيضا لازم ولا يجوز

أن تفسر بمعنى كثر المشددة الثاء إلا إذا ضعفت الميم وقد قرىء بها فكان الأولى به أن يشير إلى ذلك قال أبو البقاء : " أمرنا " يقرأ بالقصر والتخفيف أي أمرناهم بالطاعة وقيل كثرنا نعمهم وهو في معنى القراءة بالمد ويقرأ بالتشديد والقصر أي جعلناهم أمراء وقيل هي بمعنى الممدودة لأنه تارة يعدى بالهمزة وتارة بالتضعيف .

وفي قوله " كلّا نمد هؤلاء وهؤلاء " لف ونشر مرتب فهؤلاء الأولى للفريق الأول أي مريد الدنيا وهؤلاء الثانية للفريق الثاني أي مريد الآخرة .

الفوائد :

تساءل بعضهم عن معنى قوله تعالى : " كيف فضلنا بعضهم على بعض " وكيف يصح التفاوت بين أبناء البشر وهم سواسية والجواب هو أن التفاوت منوط بالفضل ومبلغ ما يؤديه المرء لأبناء جلدته وللمجتمع عامة ، روى التاريخ أن قوما من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر بن الخطاب فخرج الاذن لبلال وصهيب فشق على أبي سفيان فقال سهيل بن عمرو : إنما أتينا من قبلنا انهم دعوا ودعينا يعني إلى الإسلام فأسرعوا وأبطأنا . وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد اللّه لهم في الجنة أكثر .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 22 إلى 25]

لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (22) وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ

وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً (23) وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً (24) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (25)

الإعراب:

)

(203/458)

لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولًا) لا ناهية وتجعل فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت ومع الله ظرف متعلق بمحذوف مفعول تجعل الثاني وإلها مفعول تجعل الأول وآخر صفة، فتقعد: الفاء فاء السببية وتقعد فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية والفاعل مستتر تقديره أنت ومذموما حال ومخذولا حال ثانية وسيأتي ما في تقعد من أقوال. (وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان منزلة الوالدين ووجوب معاملتهما من قبل الأبناء معاملة لائقة وقضى ربك فعل وفاعل ومعنى قضى أمر أمرا قاطعا وقيل

أوصى و" أن " يحتمل أن تكون مصدرية فلا نافية وتعبدوا منصوب بها والمصدر منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بقضى وقيل مفسرة لأن قضى فيه معنى القول دون حروفه أو مخففة من الثقيلة فلا على الحالين ناهية وتعبدوا مجزوم بها وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل وإلا أداة حصر وإياه مفعول وبالوالدين جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره وأحسنوا ، وإحسانا مفعول مطلق ناصبه الفعل المحذوف ، وإنما علقناهما بالفعل المحذوف لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته (إِمَّا يَبْلُغَنَّ

عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا)

(204/458)

إن شرطية زيدت عليها ما تأكيدا لها ويبلغن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو في محل جزم فعل الشرط وعندك ظرف متعلق بمحذوف حال وأحدهما فاعل يبلغن والميم والألف حرفان دالان على التثنية وأو حرف عطف وكلاهما عطف على أحدهما وعلامة رفعه الألف لأنه ملحق بالمثنى ومعنى عندك أي حالة كونهما في كفالتك يتولى منهما ما كانا يتوليان منه إبان الطفولة وفي ذلك منتهى التوصية باستعمال لين الجانب ودماثة الخلق معهما في هذه الحال . (فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا

وَقُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً) الفاء رابطة للجواب ولا ناهية وتقل فعل مضارع مجزوم بلا ولهما متعلقان بتقل وأف اسم فعل مضارع بمعنى التضجر وفاعله مستتر تقديره أنا والجملة مقول القول وسيأتي تحقيق واسع في هذه الكلمة وفي أسماء الأفعال في باب الفوائد ، ولا تنهرهما عطف على لا تقل لهما والنهر الزجر ، وقل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ولهما متعلقان بقل وقولا مفعول مطلق وكريما صفة . (وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) واخفض لهما عطف على وقل لهما وجناح الذل مفعول به ومن الرحمة متعلقان باخفض فمن للتعليل أي من أجل الرحمة أو الابتداء أي أن هذا الخفض ناشىء من الرحمة المركوزة في الطبع ولك أن تعلقها بمحذوف حال . (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً) وقل عطف على ما تقدم ورب منادى مضاف لياء المتكلم محذوف منه حرف النداء وارحمهما فعل دعاء وكما نعت لمصدر محذوف أي ارحمهما رحمة مثل تربيتهما لي أو رحمة مثل رحمتهما لي فتكون التربية بمعنى الرحمة وربياني فعل ماض والألف ضمير الاثنين فاعل والنون للوقاية والياء مفعول به وصغيرا حال من الياء . (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ) ربكم مبتدأ وأعلم خبر

وبما متعلقان بأعلم وفي نفوسكم صلة ما . ﴿إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ الجملة حالية وإن شرطية وتكونوا فعل الشرط والواو اسمها وصالحين خبرها والفاء رابطة للجواب وإن اسمها وجملة كان خبرها وللأوابين أي التوابين متعلقان بغفورا ، وغفورا خبر كان .

البلاغة :

1 - في قوله تعالى " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة " استعارة شغلت علماء البيان وقد وعدناك أن تتحدث عن هذه الاستعارة مطولا فلنبحث هذا الموضوع ولنورد ما قاله البيانيون في صددها :

فهي استعارة مكنية لأن إثبات الجناح للذل يخيل للسامع أن ثمة جناحا يخفض والمراد ألن لهما جانبك ، وتواضع لهما تواضعا يلصقك بالتراب ، والجامع بين هذه الاستعارة والحقيقة أن الجناح الحقيقي في أحد جانبي الطائر وان الطائر إذا خفض جناحه وهو الذي به يتقوى وينهض ، انحط إلى الأرض وأسف إلى الحضيض ولصق بالتراب فالاستعارة مكنية إذ شبهت إلانة الجانب بخفض الجناح بجامع العطف والرقة وهذه أجمل استعارة وأحسنها وكلام العرب جاء عليها .

وذكر الصولي في كتابه أخبار أبي تمام : وعابوا عليه- أي على أبي تمام- قوله :

لا تسقني ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي

فقالوا ما معنى ماء الملام؟ وهم يقولون: كلام كثير الماء وما أكثر ماء شعر الأخطل، قاله يونس بن حبيب ويقولون: ماء الصبابة وماء الهوى يريدون الدمع. قال ذو الرمة:

أأن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم

وقال أيضا:

أدارا بحزوى هجت للعين عبرة فماء الهوى يرفضّ أو يترقرق

وقال عبد الصمد - وهو محسن عند من يطعن على أبي تمام:

أي ماء لماء وجهك يبقى بعد ذل الهوى وذل السؤال

فصير لماء الوجه ماء، وقالوا ماء الشباب يجول في وجناته، فما يكون أن استعار أبو تمام من هذا كله حرفا فجاء به في صدر بيته لما قال في آخر بيته: "فانني صب قد استعذبت ماء بكائي" قال في أوله:

لا تسقني ماء الملام، وقد تحمل العرب اللفظ على اللفظ فيما لا يستوي معناه قال اللّه عز وجل: "وجزاء سيئة سيئة مثلها" والسيئة الثانية ليست بسيئة لأنها مجازاة ولكنه لما قال: وجزاء سيئة قال: سيئة فحمل على اللفظ وكذلك "ومكروا ومكر اللّه" وكذلك: "

فبشرهم بعذاب أليم " لما قال بشر هؤلاء بالجنة قال : بشر هؤلاء بالعذاب ، والبشارة انما تكون في الخير لا في الشر فحمل اللفظ على اللفظ ويقال : إنما قيل لها البشارة لأنها تبسط الوجه فأما الشر والكراهة فانهما يقبضانه ، وقال الأعشى :

يزيد بغضّ الطرف دوني كأنما زوى بين عينيه عليّ المحاجم

وقال اللّه عز وجل : " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة " فهذه أجمل استعارة وأحسنها وكلام العرب جاء عليها فما يكون أن قال أبو تمام :

لا تسقني ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي

أما ابن الأثير فيقول في كتابه " المثل السائر " :

" وقد عيب عليه قوله :

لا تسقني ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي

وقيل : انه جعل للملام ماء وذلك تشبيه بعيد وما بهذا التشبيه عندي من بأس بل هو من التشبيهات المتوسطة التي لا تحمد ولا تذم وهو قريب من وجه ، بعيد من وجه ، أما سبب قربه فهو ان الملام هو القول الذي يعنف به الملوم لأمر جناه وذاك مختص بالسمع فنقله أبو تمام

إلى السقيا التي هي مختصة بالحلق كأنه قال لا تذقني الملام ولو تهيأ له ذلك مع وزن الشعر لكان تنبيها حسنا ولكنه جاء بذكر الماء فحط من درجته شيئا ولما كان السمع يتجرع الماء أولا كتجرع الحلق الماء صار كأنه شبيه به وهو تشبيه معنى بصورة . وأما سبب بعد هذا التشبيه فهو أن الماء مستلذّ والملام مستكره فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه فهذا التشبيه إن بعد من وجه فقد قرب من وجه فيغفر هذا لهذا ولذلك جعلته من التشبيهات المتوسطة التي لا تحمد ولا تذم ، وقد روي أن بعض أهل المجانة أرسل إلى أبي تمام قارورة وقال : ابعث في هذه شيئا من ماء الملام فأرسل اليه أبو تمام وقال : إذا بعثت إليّ ريشة من جناح الذل بعثت إليك شيئا من ماء الملام ، وما كان أبو تمام ليذهب عليه الفرق بين هذين التشبيهين فانه ليس جعل الجناح للذل كجعله الماء للملام ، فإن الجناح للذل مناسب وذاك أن الطائر إذا وهن أو تعب بسط جناحه وخفضه وألقى نفسه على الأرض وللانسان أيضا جناح فإن يديه جناحاه وإذا خضع واستكان طأطأ من رأسه وخفض

من يديه فحسن عند ذلك جعل الجناح للذل وصار تشبيها مناسبا وأما الماء للملام فليس كذلك في مناسبة التشبيه " .

هذا ما أورده الصولي وابن الأثير وقد عقب عليهما كثير من نقاد القرن الرابع الهجري ووقفوا منهما بين مؤيد ومعاكس فأخذ الآمدي برأي الصولي في كتابه الموازنة ولكن على أساس آخر من الفهم وعاب على أبي تمام استعماله استعارات شبيهة بماء الملام قال : "

فمن مرذول ألفاظه وقبيح استعاراته قوله :

يا دهر قوّم أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

(208/458)

و قال :

سأشكر فرجة الليت الرخي ولين أخادع الدهر الأبي

وقال :

أنزلته الأيام عن ظهرها من بعد إثبات رجله في الركاب

وقال :

كأنني حين جردت الرجاء له غضّا صببت به ماء على الزمن

ثم قال : " وأشباه هذا مما إذا تتبعته في شعره وجدته فجعل كما ترى مع غثاثة هذه الألفاظ للدهر أخدعا ويدا تقطع من الزند وكأنه يصرع ويحل ويشرق بالكرام ويبتسم وان الأيام تنزلع والزمان أبلق وجعل للممدوح يدا وجعل للأيام ظهرا يركب والزمان كأنه صب عليه ماء " ولننظر الآن في ماء الملام – عند أبي تمام – أهو تعبير طبيعي ؟ أهو تعبير سائغ مستحسن ؟ إن إطلاق الماء وإضافته إلى البكاء يثب بالذهن أولا إلى الصورة

المباشرة المعروفة للماء الذي يشرب والماء في البحار والمحيطات والأنهار ثم ماء المطر ومجرد أن تنطلق كلمة بكاء يتضاءل المعنى الأول فجأة وينكمش إلى صورة جزئية هي بضع قطرات من الدمع ولكن على أية حال هناك صلة تجعل الصورة محتملة ، أما ماء الملام فلا صلة البتة بين الماء والملام وإذا انطلقت كلمة ماء بمعانيها الاصلية والربطية ومعها كلمة الملام ومعانيها الربطية فلا يجمع بينهما صلة أو رابط مشترك من الصور الجزئية لذلك كان التعبير باردا مختلا لا يدل في الذهن على شيء لأنه لا صلة بين الملام والماء ، أما ما احتج به الصولي من القرآن فلا يبرر ما اعتمده فإن كلمة السيئة اقترنت بكلمة الجزاء فأثارت معنى آخر مقابلا هو القصاص وقد سماه القرآن سيئة ولكن أصحاب البديع يحاولون الاستشهاد بالشاهد القرآني ليبرروا صناعة أبي تمام ومن نحا نحوه .

و وجدت للسكاكي رأيا يستهجن فيه قول أبي تمام قال فيه : " إن الاستعارة التخييلية فيه منفكة عن الاستعارة بالكناية وصاحب الإيضاح يمنع الانفكاك فيه مستندا بأنه يجوز أن يكون قد شبه الملام بظرف شراب مكروه فيكون استعارة بالكناية واضافة الماء تخييلية أو انه تشبيه من قبيل لجين الماء لا استعارة قال : ووجه الشبه ان اللوم يسكن حرارة الغرام

كما أن الماء يسكن غليل الأوام ، وقال الفاضل الجلبي في حاشية المطول : فيه نظر لأن المناسب للعاشق أن يدعي أن حرارة غرامه لا تسكن بالملام ولا بشيء آخر فكيف يجعل ذلك وجه شبهه " اه كلامه .

ورأيت في كتاب الكشكول للعاملي رأيا مطولا فيه ننقل خلاصته تتمة للبحث قال : إن للبيت محملا آخر كنت أظن اني لم أسبق اليه حتى رأيته في التبيان وهو أن يكون ماء الملام من قبيل المشاكلة لذكر ماء البكاء ولا تظن أن تأخر ذكر ماء البكاء يمنع المشاكلة فانهم حرصوا في قوله تعالى : " فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين " وان تسميته الزحف على البطن مشيا لمشاكلة ما بعده ، وهذا الحمل إنما يتمشى على تقدير عدم صحة الحكاية المنقولة ثم أقول : هذا الحمل أولى مما ذكره صاحب الإيضاح فإن الوجهين اللذين ذكرهما في غاية البعد إذ لا دلالة في البيت على أن الماء مكروه كما قاله المحقق التفتازاني في المطول ، والتشبيه لا يتم بدونه ، وأما ما ذكره صاحب المثل السائر من أن وجه الشبه ان الملام قول يعنف به الملوم وهو مختص بالسمع فنقله أبو تمام إلى ما يختص بالحلق كأنه قال : لا تذقني الملام ، ولما كان السمع يتجرع الملام أولا كتجرع الحلق الماء صار

كأنه شبيه به فهو وجه في غاية البعد أيضا كما لا يخفى ، والعجب منه أن جعله قريبا وغاب عنه عدم الملاءمة بين الماء والملام ، هذا وقد أجاب بعضهم عن نظر الفاضل الجلبي في كلام صاحب الإيضاح بأن تشبيه الشاعر الملام بالماء في تسكين نار الغرام إنما هو على وفق معتقد اللوام بأن حرارة غرام العشاق تسكن بورود الملام وليس ذلك على وفق معتقده فلعل معتقده أن نار الغرام تزيد بالملام قال أبو الشيص :

أجد الملامة في هواك لذيذة حبا لذكرك فليلمني اللوّم

أو أن تلك النار لا يؤثر فيها الملام أصلا كما قال الآخر :

جاءوا يرومون سلواني بلومهم عن الحبيب فراحوا مثلما جاءوا

فقول الجلبي : لأن المناسب للعاشق إلى آخره غير جيد فان صاحب الإيضاح لم يقل إن التشبيه معتقد العاشق وعقب العاملي صاحب الكشكول على ذلك : إن ذكر صاحب الإيضاح الكراهة في الشراب صريح بأنه غير راض بهذا الجواب .

2- صورة مجسدّة لطاعة الوالدين :

هذا ولا بد من التنويه بالصورة المجسدة التي رسمتها الآية لطاعة الوالدين وبرهما ، ليتدبرها

البنون ويكتنهوا سرها الخفي وقد أفصح عنها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بجلاء حين شكا إليه رجل أباه وانه يأخذ ماله فدعا به فاذا شيخ يتوكأ عصا فسأله فقال انه كان ضعيفا وأنا قوي وفقيرا وأنا غني فكنت لا أمنعه شيئا من مالي واليوم أنا ضعيف وهو قوي وأنا فقير وهو غني ويبخل علي بماله ثم التفت إلى ابنه منشدا :

غذوتك مولودا وعلتك يافعا تعل بما أدني إليك وتنهل

إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت لأجلك إلا ساهرا أتململ

كأني أنا المطروق دونك بالذي طرقت به دوني فعيني تهمل

فلما بلغت السنّ والغاية التي إليها مدى ما كنت فيك أؤمل

جعلت جزائي غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم الم

تفضل فليتك إذ لم ترع حقّ أبوتي فعلت كما الجار المجاور يفعل

فبكى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقال : ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى ثم قال للولد : أنت ومالك لأبيك .

وعن ابن عمر أنه رأى رجلا في الطواف يحمل أمه ويقول :

إني لها مطية لا تذعر إذا الركاب نفرت لا تنفر

ما حملت وأرضعتني أكثر الله ربي ذو الجلال أكبر

تظنني جازيتها يا ابن عمر ؟ قال : لا ولو زفرة واحدة .

الفوائد :

1- القول في " أف " :

(212/458)

اختلف النحاة في أسماء الأفعال هل هي ألفاظ نائبة عن الأفعال أو لمعانيها من الأحداث والأزمنة أو أسماء للمصادر النائبة عن الافعال أو هي أفعال والصحيح أنها أسماء أفعال وانها لا موضع لها من الاعراب وقد قدمنا أقسامها ونقول إن " أف " اسم فعل مضارع ومعناه أتضجر وفيه أربعون لغة وحاصلها أن الهمزة إما أن تكون مضمومة أو مكسورة أو مفتوحة فإن كانت مضمومة فاثنتان وعشرون لغة وحاصل ضبطها انها إما مجردة عن اللواحق أو ملحقة بزائد والمجردة إما أن يكون آخرها

ساكنا أو متحركا والمتحركة إما أن تكون مشددة أو مخففة وكل منهما مثلث الآخر مع التنوين وعدمه فهذه اثنتا عشرة والساكنة إما مشددة أو مخففة فهذه أربع عشرة واللواحق لها من الزوائد إما هاء السكت أو حرف المد فإن كان هاء السكت فالفاء مثلثة مشددة فهذه سبع عشرة وإن كان حرف مد فهو إما واو أو ياء أو ألف والفاء فيهن مشددة والألف إما مفخمة أو بالإمالة المحضة أو بين بين فهذه خمس أخرى مع السبع عشرة وإن كانت

مكسورة فإحدى عشرة مثلثة الفاء مخففة مع التنوين وعدمه فهذه ست ، وفتح الفاء وكسرها بالتشديد فيهما مع التنوين وعدمه ، فهذه أربع لغات والحادية عشرة أفي بالإمالة وإن كانت مفتوحة فالفاء مشددة مع الفتح والكسر والتنوين وعدمه والخامسة أف بالسكون والسادسة أفي بالامالة والسابعة أفاه بهاء السكت فهذه السبع مكملة للأربعين وقد قرئ من هذه اللغات بسبع :

ثلاث في المتواتر وأربع في الشواذ وقراءة حفص وهي قراءتنا أف بالكسر والتنوين مع التشديد .

2- لمحة في العقوق :

ومما جاء في العقوق ما يروى عن جرير فقد كان أعق الناس بأبيه وكان بلال ابنه كذلك فراجع جرير بلالا في الكلام فقال له : الكاذب بيني وبينك . . . . أمه ، فأقبلت أمه عليه وقالت : يا عدو الله تقول هذا لأبيك فقال جرير : دعيه فكأنه سمعها مني وأنا أقولها لأبي .

ومن شهر عنه العقوق بوالديه الحطيئة الشاعر المخضرم قال يهجو أباه :

فنعم الشيخ أنت لدى المخازي وبئس الشيخ أنت لدى الفعال

جمعت اللؤم لا حيّاك ربي وأبواب السفاهة والضلال

وقال يهجو أمه :

لحاك اللّه ثم لحاك أما ولقاك العقوق من البنينا

أغربالا إذا استودعت سرا وكانونا على المتحد ثينا

وممن هجا أباه علي بن بسام ، قال في أبيه :

هيك عمرت عمر عشرين نسرا أترى أنني أموت وتبقى ؟

فلئن عشت بعد موتك يوما لأشقّنّ جيب مالك شقّا

وقال فيه أيضا :

بنى أبو جعفر دارا فشيدها ومثله لخيار الدور بنّاء

فالجوع داخلها والذل خارجها وفي جوانبها بؤس وضراء

ما ينفع الدار من تشييد حائطها وليس داخلها خبز ولا ماء

ولقد كذب ، كان أبو جعفر محمد بن منصور بن بسام في نهاية السؤدد والمروءة والنظافة ، كان رجلا مترفا نبيل المركب مليح الملبس له همة في تشييد البنيان وما رثاه به ابن الرومي يدل على كذب ابنه ، قال ابن الرومي فيه :

أودى محمد بن نصر بعد ما ضربت به في جوده الأمثال

ملك تنافست العلا في عمره وتنافست في موته الآجال

من لم يعاين سير نعش محمد لم يدر كيف تسير الأ

جبال وذخرته للدهر أعلم أنه كالحصن فيه لمن يئول

مآل وتسعت نفسي بروح رجائه زمنا طويلا والتمتع

مال ورأيته كالشمس إن هي لم تنل فالرفق منها والضياء

ينال باللّه أقسم ان عمرك ما انقضى حتى انقضى الإحسان والإجمال

[سورة الإسراء (17) : الآيات 26 إلى 31]

(214/458)

وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (27) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً (28) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (30)

وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً (31)

اللغة:

(فَتَقْعُدَ) : فتصير وهو من المجاز قال في الأساس : " ومن المجاز

فعد عن الأمر تركه وقعد له اهتم به وقعد يشتمني أقبل ، وأرهف شفرته حتى قعدت

كأنها حربة : صارت ، وقال الدّيان الحارثي :

لأصبحن ظالما حربا رباعية فاقعد لها ودعن عنك الأظانينا

وتقاعد عن الأمر وتقعّد وما قعد به عن نيل المساعي وما تقعده وما أقعده إلا لؤم عنصره

وقال :

بنو المجد لم تقعد بهم أمهاتهم وآباؤهم آباء صدق فأنجبوا

(مَحْسُوراً) : منقطعا لا شيء عندك من حسره السفر إذا بلغ منه وفي المختار : والحسرة

شدة التلهف على الشيء الفائت تقول حسر على الشيء من باب طرب وحسرة أيضا فهو

حسير وحسّره غيره تحسيرا .

(وَيَقْدِرُ) : يقال قدر عليه رزقه وقدّر قتر وضيق .

(إِمْلاقٍ) : فقر وفاقة يقال أملق الرجل : أنفق ماله حتى افتقر ورجل مملق وقال أعرابي :

قاتل اللّه النساء كم يتملقن العلل لكأنها تخرج من تحت أقدامهن أي يستخرجنها .

(خِطْأً) : مصدر خطىء من باب علم .

الاعراب :

(

وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً) وآت ذا القربى حقه : آت فعل أمر وفاعل مستتر تقديره أنت وذا القربى مفعول به وحقه مفعول به ثان والمسكين وابن السبيل عطف

على ذا القربى ولا ناهية وتبذر مضارع مجزوم بلا وتبذيرا مفعول مطلق . (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) إن واسمها وجملة كانوا خبرها وإخوان الشياطين خبر كان أي أمثالهم والعرب تقول لكل ملازم سنة قوم هو أخوهم والملازم للشيء هو أخ له فيقولون : فلان أخو الجود وأخو الكرم وأخو الشعر . (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً) الواو عاطفة أو حالية وكان واسمها ولربه متعلقان بكفورا ، وكفورا خبر كان ولا بد من تقدير مضاف أي لنعم ربه وآلائه . (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً) وإما : إن شرطية وما زائدة وتعرضن فعل الشرط وهو في محل جزم والفاعل مستتر تقديره أنت وعنهم متعلقان بتعرضن وابتغاء رحمة مفعول من أجله ولك في ناصبه وجهان فإما أن تجعله فعل الشرط من وضع المسبب مكان السبب أي وان أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك فسمى الرزق رحمة فردهم ردا جميلا وإما أن تجعله جواب الشرط

وقد تقدم عليه أي فقل لهم قولا كريما لينا وعدهم وعدا جميلا تطييبا لقلوبهم ابتغاء رحمة من ربك . ومن ربك صفة لرحمة وجملة ترجوها حال من رحمة أو صفة ثانية ، فقل الفاء رابطة وقل فعل أمر ولهم متعلقان بقل وقولا مفعول مطلق وميسورا صفة . (وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ) الواو عاطفة ولا ناهية وتجعل مضارع مجزوم بلا والفاعل مستتر تقديره أنت ويدك مفعول تجعل الأول ومغلولة مفعول تجعل الثاني والى عنقك جار ومجرور متعلقان بمغلولة . (

(216/458)

وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً) ولا تبسطها عطف على لا تجعل وكل البسط مفعول مطلق فتقعد الفاء فاء السببية وتقعد مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء المسبوقة بالنهي وستأتي الشروط التي يجب أن تسبق هذه الفاء في باب الفوائد وفاعل تقعد مستتر تقديره أنت وملوما

محسورا حالين أو تجعلهما خبرين لتقعد إذا ضمنتها معنى تصير .

(إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) ان واسمها وجملة يبسط خبرها والرزق مفعول به ولمن متعلقان بيبسط وجملة يشاء صلة ويقدر عطف على

يبسط وان واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو وبعباده متعلقان بخبيرا بصيرا وهما خبران لكان . (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ) لا ناهية وتقتلوا مجزوم بها وأولادكم مفعول به وخشية مفعول لأجله وإملاق مضاف إليه . (نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً) نحن مبتدأ وجملة نرزقهم خبر وإياكم عطف على الهاء وإن واسمها وجملة كان خبر إن وخطأ خبر كان واسمها مستتر تقديره هو وكبيرا صفة لخطأ .

البلاغة :

اشتملت هذه الآيات على طائفة من الحكم والأمثال وعلى أنواع من البلاغة نوجزها فيما يلي :

1- الاستعارة التمثيلية :

في قوله تعالى " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط " استعارة تمثيلية لمنع الشحيح وإعطاء المسرف فقد شبه حال البخيل في امتناعه من الانفاق بحال من يده مغلولة إلى عنقه فهو لا يقدر على التصرف في شيء وشبه حال المسرف المبذر المتلاف بحال من يبسط يده كل البسط فلا يبقي على شيء في كفه ولا يدخر شيئا ينفعه في حال الحاجة ليخلص إلى نتيجة مجدية وهي التوسط بين الأمرين

والاقتصاد الذي هو وسط بين الإسراف والتقتير ، وقد طابق في الاستعارة بين بسط اليد وقبضها من حيث المعنى لأن جعل اليد مغلولة هو قبضها وغلّها أبلغ في القبض وقد رمق أبو تمام سماء هذا المعنى فقال في المعتصم :

تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبض لم تطعه أنامله

2- التغاير :

في قوله تعالى " ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم " وقد تقدم بحثه في سورة الانعام وفيه سر خفي بين ما جاء في سورة الاسراء وما جاء في سورة الانعام وهو قوله " ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم " فجدد به عهدا ونضيف اليه الآن ان قتل الأولاد إن كان مبعثه خوف الفقر فهو من سوء الظن بالّله واليأس من رحمته وإن كان مبعثه الغيرة على البنات فهو تدبير أرعن لا ينجم عنه إلا هدم المجتمع وتعطيل معالم الحياة .

الفوائد :

شروط النصب بأن بعد فاء السببية وواو المعية :

لا تضمر أن بعد فاء السببية وواو المعية أيضا إلا بشرطين أساسيين وهما أن يسبقهما نفي أو طلب محضين ولا فرق في النفي بين أن يكون حرفا أو فعلا أو اسما أو تقليلا مرادا به النفي ومثال التقليل : قلما تأتينا فتحدثنا وأما الطلب فيشمل سبعة أمور وهي الأمر والنهي

والدعاء والعرض والتحضيض والاستفهام والتمني فهذه سبعة مع النفي تصير ثمانية وزاد بعضهم الترجي وقد جمع هذه التسعة بقوله :

مروانه وادع وسل عرض لحضّهم تمن وارج كذاك النفي قد كملا

واحترزنا بقولنا " نفي أو طلب محضين " من النفي التالي تقريرا بالهمزة لأن التقرير اثبات ومن النفي المتلو بالنفي لأن نفي النفي اثبات ومن النفي المنتقض بإلا ومما يجب مراعاته قول جميل بن معمر العذري :

ألم تسأل الربع القواء فينطق وهل يخبرنك اليوم بيداء سملق

(218/458)

فينطق مرفوع وهو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف أي فهو ينطق والفاء استئنافية وليست للسببية كما أنها ليست للعطف إذ العطف يقتضي الجزم ، ورجح ابن هشام في المغني أن تكون الفاء للعطف وان المعتمد بالعطف الجملة لا الفعل وحده وانما يقدر النحويون كلمة هو ليبينوا أن الفعل ليس المعتمد بالعطف قال " ومثله فإنما يقول له كن فيكون " أي فهو يكون حينئذ وقوله :

الشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه

زلت به إلى الحضيض قدمه يريد أن يعربه فيعجمه

أي فهو يعجمه " .

ونعود إلى بيت جميل فنقول : أورده سيبويه في كتابه وقال ما نصه : " لم يجعل الأول سبب الآخر ولكنه جعله ينطق على كل حال

كأنه قال وهو مما ينطق كما يقال ائتني وأحدثك فجعل نفسه ممن يحدثه على كل حال وزعم يونس أنه سمع هذا البيت وانما كتبت ذلك لئلا يقول انسان فلعل الشاعر قال : إلاه " وقال ابن النحاس :

" تقرير معناه انك سألته فيقبح النصب لأن المعنى يكون انك ان تسأله ينطق " وقال الأعلم : الشاهد فيه رفع ينطق على الاستئناف والقطع على معنى فهو ينطق وإيجاب ذلك ولو أمكنه النصب على الجواب لكان أحسن .

وقال الفراء : أي قد سألته فنطق ولو جعلته استفهاما وجعلت الفاء شرطا لنصبت كما قال آخر :

ألم تسأل فتخبرك الديارا عن الحي المضلّل حيث سارا

والجزم في هذا البيت جائز كما قال :

فقلت له صوب ولا تجهدنه فيدرك من أخرى القطاة فتزلق

فجعل الجواب بالفاء كالمنسوق على ما قبله .

هذا ولأهمية هذا البيت وعناية العلماء به نقول انه مطلع قصيدة لجميل بن معمر العذري صاحب بثينة المشهور وبعده وهو من جيد الشعر :

بمختلف الأرواح بين سويقة وأحدب كادت بعد عهدك تخلق

أضرت بها النكباء كل عشية ونفح الصبا والوابل المتعبق

وقفت بها حتى تجلت عمايتي ومل الوقوف الأرحبيّ الم

نوّق وقال صديقي : إن ذا لصبابة ألا تزجر القلب اللجوج في

لحق ؟ تعزّ وإن كانت عليك كريمة لعلك من أسباب بثنة

تعتق فقلت له : إن البعاد يشوقني وبعض بعاد البين والنأي أشوق

والربع : المنزل ، والقواء : القفر وجعله ناطقا للاعتبار بدروسه وتغيره ثم حقق وأخبر أنه لا يجيب ولا يخبر سائله لعدم وجود القاطنين به ، البيداء القفر ، والسملق : الأرض التي لا شيء فيها .

ومما اختلف فيه وكان موضع الدقة قول عروة العذري صاحب عفراء :

وما هو إلا أن أراها فجاءة فأبهت حتى ما أكاد أجيب

قال سيبويه : " وسألت الخليل عن قول الشاعر : وما هو إلا أن أراها إلخ فقال : أنت في " فأبهت " بالخيار إن شئت حملتها على أن وإن شئت لم تحملها عليها فرفعت كأنك قلت ما هو إلا الرؤي فابهت " ومعنى ما أراده سيبويه أن النصب بالعطف على أن المراد المصدر والتقدير فما هو إلا الرؤية فأبهت والرفع على القطع والاستئناف والمعنى فاذا أنا مبهوت .

وإنما أطلنا في هذا لأنه من الدقة بمكان فاعرفه وقس عليه .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 32 إلى 39]

وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلاً (32) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً (33) وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً (34) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (35) وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً (36)

وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً (37) كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (38) ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (39)

اللغة :

(الزِّنى) : يكتب بالياء لأنه مصدر زنى يزني ويكتب بالألف على أنه مقصور من الزناء بالمد ، ويقولون : هو زان بين الزنى والزناء بالمد والقصر قال الفرزدق :

أبا خالد من يزن يعلم زناؤه ومن يشرب الخرطوم يصبح مسكّرا

وقال الفراء : المقصور من زنى والممدود من زانى يقال زاناها مزاناة وزناء وخرجت فلانة تزاني وتباغي وقد زنّي بها وهو ولد زنية وانه لزنية بالفتح والكسر .

(القسطاس) هو رومي عرّب كما تقدم وقد ذكرنا من قبل أن ذلك لا يقدح في عربية القرآن لأن العجمي إذا استعملته العرب وأجرته مجرى كلامهم في الاعراب والتعريف والتنكير ونحوها صار عربيا وسيأتي المزيد من هذا البحث المفيد ، والقسطاس بالضم والكسر وهو القرسطون أي القبان وقيل كل ميزان صغر أو كبر .

(وَلا تَقْفُ) ولا تتبع يقال قفا أثره وقافه قيل هو مأخوذ من القفا كأنه يقفو الأمور يتبعها ويتعرفها وقيل القفو شبيه بالعضيهة ومنه الحديث : " من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه اللّه في ردغة الخبال حتى يأتي المخرج " وأنشدوا لبعضهم :

ومثل الدمى شم العرانين ساكن بهن الحياء لا يشعن التقافيا

يصف نساء بأنهن جميلات مثل الدمى ويشبههن بالبيوت ويشبه الحياء بقوم يسكنونها على طريق الاستعارة المكنية والسكنى تخييل لذلك ويقول انهن لا يشعن أي لا يظهرن التقافي أي المتابعة بالقذف من قفوته إذا اتبعته بالغيبة .

وقال الكميت :

ولا أرمي البريء بغير ذنب ولا أقفو الحواصن إن قفينا

(221/458)

يقول لا أتهم البريء بشيء زور بل بذنب محقق ولا أتبع العفائف وأتكلم فيهن بفحش ما دمن عفائف إن قفاهنّ الناس فتكلموا فيهن فكيف إذا لم يتكلم فيهنّ أحد .

الاعراب :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) الواو عاطفة ولا ناهية وتقربوا فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعل والزنا مفعول به وجملة إنه تعليلية لا محل لها وان واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو وفاحشة خبرها وساء فعل ماض للذم والفاعل مستتر وسبيلا تمييز والمخصوص بالذم محذوف أي هو . (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا

بِالْحَقِّ) ولا تقتلوا عطف على ما تقدم والنفس مفعول به والتي صفة وجملة حرم اللّه صلة

وإلا أداة حصر وبالحق متعلقان بتقتلوا والباء للسببية أو بمحذوف حال من فاعل تقتلوا

فهي للملابسة أي ملتبسين بالحق (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً) الواو

استئنافية ومن شرطية مبتدأ وقتل فعل ماض مبني للمجهول في محل

جزم فعل الشرط ونائب الفاعل مستتر تقديره هو ومظلوما حال ، فقد الفاء رابطة وقد

حرف تحقيق وجعلنا فعل وفاعل ولوليه مفعول جعلنا الثاني وسلطانا مفعول جعلنا الأول

أي حجة يثب بها عليه .

(فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً) الفاء عاطفة ولا ناهية ويسرف مضارع مجزوم بلا

وفاعله مستتر يعود على الولي أي فلا يقتل غير القاتل ولا اثنين والقاتل واحد كديدن

الجاهلية على حد قول مهلهل ابن ربيعة :

كل قتيل في كليب غره حتى ينال القتل آل مرة

وفي القتل متعلقان بيسرف وجملة إنه تعليلية وان واسمها وجملة كان خبرها واسم كان

مستتر ومنصورا خبرها . (وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) ولا تقربوا عطف

أيضا ومال اليتيم مفعول به وإلا أداة حصر وبالتي استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا تقربوه بحال من الأحوال إلا بالخصلة أو الطريقة التي هي أحسن وهي حفظه وصيانته واستغلاله لمصلحة اليتيم وهي مبتدأ وأحسن خبر والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول. (حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) حتى حرف غاية وجر ويبلغ منصوب بأن مضمرة بعد حتى والمراد بالأشد بلوغه مرتبة يحسن فيها التصرف وقد تقدم معنى الأشد وانه مفرد بمعنى القوة أو جمع لا واحد له من لفظه. وقيل جمع شدة أو شد. وفي كتاب معاني القرآن للفراء ان الأربعين أشبه بالصواب. (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُلًا) أوفوا فعل أمر والواو فاعل وبالعهد متعلقان بأوفوا وان واسمها وجملة كان خبرها ومسئولا خبر كان ومعنى مسئولا مطلوبا كأنه يطلب من المعاهد أن يفي به وحذف الجار والمجرور تخفيفا أي عنه وقد ذكر في بقية الآي كما سيأتي ويجوز وجه آخر سيأتي في باب

البلاغة. (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ) وأوفوا فعل أمر والواو فاعل والكيل مفعول أوفوا وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة كلتم مضافة إلى الظرف وجوابه محذوف دل عليه قوله أوفوا الكيل. وزنوا بالقسطاس المستقيم عطف

على أوفوا بالكيل . (ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) ذلك مبتدأ وخير خبر وأحسن عطف على خير وتأويلا تمييز أي أحسن عاقبة فالتأويل تفصيل من آل إذا رجع وهو ما يئول اليه في الآخرة. (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) لا ناهية وتقف مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف حرف العلة وهو الواو وفاعله مستتر تقديره أنت وما مفعول به وجملة ليس صلة ولك خبر ليس المقدم وبه متعلقان بمحذوف حال ولا يجوز تعلقها بعلم لأن معمول المصدر لا يتقدم عليه وقال بعضهم متعلقان بما تعلق به لك وهو الاستقرار وفيه بعد ، ومعنى الآية النهي عن أن يقول الإنسان مالا يعلم أو يعمل بما لا علم له به وقد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بأمور إلا أن الشيوع أولى ، وعلم اسم ليس المؤخر .

(

إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا) ان واسمها والبصر والفؤاد عطف على السمع وكل مبتدأ وأولئك مضاف وجملة كان خبر وعنه متعلقان بمسئولا ، ومسئولا خبر كان وسيأتي مزيد من التفصيل حول هذه الآية في بابي البلاغة والفوائد . (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا) لا ناهية وتمش مجزوم بها وفاعله مستتر تقديره أنت وفي الأرض متعلقان بتمش ومرحا حال على تقدير مضاف أي ذا مرح أي ولا تمش في الأرض حال كونك ذا مرح أي مارحا ملتبسا بالكبر والخيلاء وقد أحسن الأخفش إذ فضل المصدر على اسم

الفاعل كأنه نفس المرح ويجوز أن يعرب مفعولا لأجله كما قال أبو البقاء . (إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا) جملة تعليلية لا محل لها

(224/458)

كأنها تعليل للنهي أي لن تجعل فيها صدوعا وخروقا بدوسك لها وإن واسمها وجملة لن تخرق الأرض خبرها ولن تبلغ الجبال عطف على لن تخرق وطولا تمييز محول عن الفاعل أي ولن يبلغ طولك الجبال وقيل مصدر في موقع الحال أو مفعول له ، وسيأتي مزيد من البحث في باب البلاغة . (كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً) كل مبتدأ وذلك مضاف اليه والاشارة إلى ما تقدم من الخصال الخمس والعشرين الآنفة من قوله تعالى لا تجعل مع اللّه إلها آخر وسيأتي تفصيل عدها في باب الفوائد وكان فعل ماض ناقص وسيئه اسمها وعند ربك ظرف متعلق بمكروها ، ومكروها خبر كان . (ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) ذلك مبتدأ أي ما تقدم من خصال ومما خبر وجملة أوحى صلة وإليك متعلقان بأوحى وربك فاعل ومن الحكمة حال من عائد الموصول المحذوف أي من الذي أوحاه إليك حال كونه من الحكمة التي هي معرفة الحق لذاته والخير للعمل به أو حال من نفس الموصول وقد استهلت هذه الخصال وختمت بالنهي عن الشرك . (وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً

آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً) ولا تجعل عطف على ما تقدم ومع ظرف مكان متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني لتجعل وإلها هو المفعول الأول وآخر صفة فتلقى الفاء فاء السببية ونائب الفاعل مستتر تقديره أنت وفي جهنم متعلقان بتلقى وملوما ومدحورا حالان.

البلاغة:

انطوت هذه الآية على فنون كثيرة من البلاغة نثبتها فيما يلي:

1- الاطناب:

في قوله تعالى: "ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه

سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا" فإن معنى هذه الآية جاء موجزا في قوله تعالى "ولكم في القصاص حياة" لكن الأول إطناب والثاني إيجاز وكلاهما موصوف بالمساواة وقد تحدثنا عن الإيجاز فلنتحدث الآن عن الاطناب والمساواة فالاطناب مأخوذ في الأصل من أطنب في الشيء إذا بالغ فيه يقال أطنبت الريح إذا اشتدت في هبوبها وأطنب في السير إذا اشتد فيه وفي اصطلاح البيانيين هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة فإذا لم تكن

في الزيادة فائدة سمي تطويلا إن كانت الزيادة غير متعينة وحشوا إن كانت متعينة فالتطويل كقول عنترة بن شداد :

حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

والحشو كقول زهير بن أبي سلمى :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

والإطناب يكون بأمور عدة نوجزها فيما يلي :

آ- التأكيد والتقرير وهو يكون حقيقة ومجازا فالحقيقة كقولهم رأيته بعيني وقبضته بيدي ووطئته بقدمي وذقته بفمي وكل هذا يظن الظان أنه لا حاجة إليه فالرؤية لا تكون إلا بالعين والقبض لا يكون إلا باليد والوطء لا يكون إلا بالقدم والذوق لا يكون إلا بالفم وليس الأمر كما توهم بل يطرد في كل ما يعزّ مناله ويعظم الوصول إليه ومن أمثلته البديعة في الشعر قول البحتري :

تأمل من خلال السجف وانظر بعينك ما شربت ومن سقاني

تجد شمس الضحى تدنو بشمس إليّ من الرحيق الخسرواني

ولما كان الحضور في هذا المجلس مما يعز وجوده ومناله وكان الساقي بهذه المثابة من الحسن قال انظر بعينك . وعلى هذا ورد الكثير منه في القرآن الكريم فقال تعالى : " ذلك قولكم بأفواهكم " والمجاز كقوله تعالى : " فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور " ففائدة ذكر الصدور هنا انه قد تعورف وعلم أن العمى على الحقيقة مكانه البصر وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب تشبيه وتمثيل فلما أريد إثبات ما هو خلاف ما تعورف وعلم من نسبة العمى إلى القلوب احتاج الأمر إلى زيادة تصوير وتعريف ليقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الصدور .

ب- ذكر الخاص بعد العام : كقوله تعالى " تنزل الملائكة والروح فيها " فقد خص اللّه سبحانه الروح بالذكر وهو جبريل مع انه داخل في عموم الملائكة تكريما له وتعظيما لشأنه وكأنه من جنس آخر ففائدة الزيادة هنا التنويه الخاص .

ج- ذكر العام بعد الخاص : كقوله تعالى : " ربي اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات " فقد ذكر اللّه سبحانه المؤمنين والمؤمنات وهما لفظان عامان يدخل في عمومهما من ذكر قبل ذلك والغرض من هذه الزيادة إفادة الشمول مع العناية بالخاص ذكره مرة وحده ومرة مندرجا تحت العام .

د- الإيضاح بعد الإبهام : كقوله تعالى : " وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين " فقوله ذلك الأمر إبهام وقوله أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين إيضاح للإبهام الذي

تضمنه لفظ الأمر لزيادة تقرير المعنى في ذهن السامع مرة على طريق الإجمال والإبهام ، ومرة على طريق التفصيل والإيضاح.

هـ- التكرار لتقرير المعنى : وهذا موضوع جم الشعاب متعدد المسالك نحتاج إلى مجلدات لإحصائه ولكننا نذكر ما هو بمثابة الدليل والرائد لغيره كقول عنترة بن شداد في بعض روايات معلقته :

يدعون عنتر والسيوف كأنها لمع البوارق في سحاب مظلم

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم

فالتكرار في بيتي عنترة تقرير المعنى في نفس السامع وترسيخه في ذهنه وهو هنا لداعي الفخر ويطرد في الخطابة وفي مواطن الفخر والمدح والإرشاد والانذار وقد يكون للتحسر كقول الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة :

فيا قبر معن أنت أول حفرة من الأرض خطّت للسماحة موضعا

ويا قبر معن كيف واريت جوده وقد كان منه البر والبحر مرتعا

ومنها طول الفصل كقول الشاعر :

لقد علم الحيّ اليمانون أنني إذا قلت أما بعد اني خطيبها

و- الاعتراض : وهو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين في المعنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الاعراب لغرض يقصد إليه البليغ وقد تقدم ذكره ومنه قول النابغة الجعدي :

ألا زعمت بنو سعد بأني - ألا كذبوا - كبير السن فان

فقد جاءت جملة " ألا كذبوا " معترضة بين اسم ان وخبرها للاسراع إلى التنبيه على كذب من رماه بالكبر .

ز- التذييل : وهو تعقيب الجمل بجملة أخرى تشتمل على معناها توكيدا لها كقول الحطيئة :

تزور فتى يعطي على الحمد ماله ومن يعط أثمان المحامد يحمد

فإن المعنى تم في الشطر الأول ثم ذيل بالشطر الثاني للتوكيد .

ح- الاحتراس : وقد تقدم بحثه ومنه قول ابن المعتز :

صببنا عليها ظالمين سياطنا فطارت بها أيد سراع وأرجل

فلو أسقطنا كلمة " ظالمين " لتوهم السامع أن فرس ابن المعتز كانت بليدة تستحق الضرب وهذا خلاف المقصود .

هذا وستأتي أمثلة من الاطناب في مواضعها من هذا الكتاب .

أما المساواة فهي أن تكون المعاني بقدر الألفاظ والألفاظ بقدر المعاني لا يزيد بعضها على

بعض ولا ينقص عنه وقد تقدم التمثيل لها بقوله تعالى : " إن اللّه يأمر بالعدل والإحسان " إلخ

ومن أمثلتها في الشعر قول النابغة الذبياني :

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت أن المنتأى عنك واسع

وقول طرفة :

(228/458)

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

والقرآن حافل بأمثلة المساواة وستأتي في مواضعها إن شاء اللّه .

2-الاستعارة :

في قوله تعالى : " إن العهد كان مسئولا " وقد قدمنا انه جار على الحقيقة بحذف الجار

والمجرور ويجوز أن يكون الكلام جاريا على طريق الاستعارة المكنية بأن يشبه العهد بمن

نكث عهده ونسبته السؤال إليه تخييل .

3-التهكم :

وقد سبق ذكره لأن مشية المرح مشتملة على شدة الوطء والتباهي على الأرض بمشيه

عليها والتطاول على الآخر ولو كان المتكبر خفيف الوطأة قميء النظرة ، شخت الخلقة ،

على حد قول المتنبي :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول

الفوائد :

في هذه الآيات الجامعة فوائد كثيرة تتناول المهم منها جريا على أسلوبنا في هذا الكتاب

فمنها تعليق الجار والمجرور في قوله تعالى :

"كل أولئك كان عنه مسئولا " فقد علقناه في باب الإعراب بمسئولا

وجعلنا نائب الفاعل ضميرا يعود على كل أي كان كل واحد منها مسئولا عن نفسه يعني عما فعل به صاحبه وقد أسند الزمخشري مسئولا إلى الجار والمجرور وجعله بمثابة نائب الفاعل وهذا سهو من الزمخشري يجل عنه لأن الجار والمجرور يقام مقام الفاعل أو نائبه إذا تقدم الفعل أو ما يقوم مقامه وأما إذا تأخر فلا يصح ذلك لأن الاسم إذا تقدم على الفعل صار مبتدأ وحرف الجر إذا كان لازما لا يكون مبتدأ ف " عنه " ليس هو النائب عن الفاعل خلافا لصاحب الكشاف ولا ضمير المصدر كما قال بعضهم وإنما النائب في هذه الآية ضمير راجع إلى ما رجع اليه اسم كان وهو المكلف المدلول عليه بالمعنى والتقدير مسئولا هو أي المكلف وإنما لم يقدر ضمير كان راجعا لكل لئلا يخلو مسئولا عن ضمير فيكون مسندا إلى عنه وذلك لا يجوز .

وعبارة ابن هشام " وقول بعضهم في قوله تعالى : " إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا " إن عنه مرفوع المحل بمسئولا والصواب ان اسم كان ضمير المكلف وإن لم يجد له ذكر وان المرفوع بمسئولا مستقر فيه راجع اليه أيضا وان عنه في موضع نصب " .

أي على انه مفعول ثان لمسئولا لأنه يعتدى لمفعولين ثانيهما بعن .

الخصال الخمس والعشرون :

وعدناك بإحصاء الخصال الخمس والعشرين التي وردت الاشارة إليها بقوله تعالى : "كل ذلك " وهذا احصاؤها بالترتيب :

1- لا تجعل مع اللّه إلها آخر .

2 و3- قوله تعالى وقضى ربك إلى آخر الآية لاشتماله على تكليفين وهما عبادة اللّه والنهي عن عبادة غيره .

4- وبالوالدين إحسانا .

5- فلا تقل لهما أف .

6- ولا تنهرهما .

7- وقل لهما قولا كريما .

8- واخفض لهما جناح الذل .

9- وقل رب ارحمهما .

10- وآت ذا القربى حقه .

11- والمسكين .

12- وابن السبيل .

13- ولا تبذر تبذيرا .

14- فقل لهم قولا ميسورا .

15- ولا تجعل يدك مغلولة .

16- ولا تبسطها كل البسط .

17- ولا تقتلوا أولادكم .

18- ولا تقربوا الزنا .

19- ولا تقتلوا النفس .

20- فلا يسرف في القتل .

21- وأوفوا بالعهد .

22- وأوفوا الكيل .

23- وزنوا بالقسطاس .

24- ولا تقف ما ليس لك به علم .

25- ولا تمش في الأرض مرحا .

الاشارة بأولئك :

الاشارة في قوله تعالى "كل أولئك كان عنه مسئولا " إلى السمع والبصر والفؤاد وقد أشير إليها بأولئك وهي في الأكثر لمن يعقل لأنه جمع ذا ، وذا لمن يعقل ولما لا يعقل وأولاء ممدود عند الحجازيين مقصور عند أهل نجد وتميم والأكثر مجيئه للعقلاء ويقل مجيئه لغير العقلاء كقول جرير بن عطية :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

وهو من قصيدة مستجادة له مطلعها :

سرت الهموم فبتن غير نيام وأخو الهموم يروم كل مرام

وفيها يقول بعد البيت المتقدم :

وإذا وقفت على المنازل باللوى فاضت دموعي غير ذات نظام

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

تجري السواك على أغر كأنه برد تحدّر من متون

غمام لو كان عهدك كالذي حد ثتنا لوصلت ذاك فكان غير

رمام إني أواصل من أردت وصاله بحبال لا صلف ولا لوام

ومنها في هجاء الفرزدق :

خلق الفرزدق سوءة في مالك ولخلف ضبة كان شر غلام

مهلا فرزدق إن قومك فيهم خور القلوب وخفّة الأحلام

الظاعنون على العمي بجميعهم والنّا زلون بشرّ دار مقام

واللوى بكسر اللام وفتح الواو مقصورا في الأصل منقطع الرمل وقد ورد في مطلع معلقة

امرئ القيس وهو :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللّوى بين الدخول فحومل

وهو أيضا موضع بعينه قال ياقوت : " وقد أكثرت الشعراء من ذكره وخلطت بين ذلك

اللوى والرمل فعز الفصل بينهما وهو واد من أودية بني سليم " .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 40 إلى 44]

أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40) وَلَقَدْ

صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (41) قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ

إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (42) سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً (43)

تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا

تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (44)

اللغة :

(

أَفَأَصْفَاكُمْ) : أخلصكم وخصكم والتصفية في الأصل معناها التخليص ولكنه هنا ضمن معنى خصكم لأجل تعلق البنين به وفي الأساس : " ومن المجاز أصفيته المودة وأصفيته بالبر آثرته واختصصته " أفأصفاكم ربكم بالبنين " وأصفى عياله بشيء يسير : أرضاهم به ، وصادف الصياد خفقا فأصفى أولاده بالغبيراء قال الطرماح :

أو يصادف خفقا يصفهم بعتيق الخشل دون الطعام

وهو صفيي من بين إخواني وهم أصفيائي وصافيته وهما خليلان متصافيان . "

(صَرَّفْنا) : بينا وأوضحنا ولها معان كثيرة بالتشديد يقال صرفه بمعنى صرفه مع مبالغة وصرّف الشيء باعه وصرف الدراهم بدلها وصرف الخمر شربها صرفا أي غير ممزوجة وصرف الكلام اشتق بعضه من بعض وصرفه في الأمر فوض الأمر اليه وصرف الماء أجراه وصرف اللّه الرياح أجراها من وجه إلى وجه .

الإعراب :

(أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً) الهمزة للاسفهام والحقيقة ان هذا الاستفهام معناه الإنكار الابطالي وهذا يقتضي أن ما بعده غير واقع وان مدعيه كاذب ، ومعناه التقريع والتوبيخ والنفي أيضا أي لم يفعل ذلك . وأصفاكم فعل ماض والكاف مفعوله وهو معطوف على محذوف يقدر بحسب المقام وربكم فاعل وبالبنين متعلقان بأصفاكم واتخذ من الملائكة إناثا عطف على أصفاكم وهو فعل وفاعل مستتر ومن الملائكة مفعول اتخذ الثاني وإناثا هو المفعول الاول ويجوز أن تكون جملة اتخذ من الملائكة إناثا حالية والواو واو الحال وقد مقدرة . (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً) إن واسمها واللام المزحلقة وجملة تقولون خبرها وقولا مفعول مطلق وعظيما صفة . (وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وصرفنا فعل وفاعل ومفعوله محذوف أي أمثالا ومواعظ وحكما وقصصا وأخبارا وأوامر ونواهي

و قد حذف الضمير للعلم به وفي هذا متعلقان بصرفنا والقرآن بدل واللام للتعليل ويذكروا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو للحال وما نافية ويزيدهم فعل

مضارع والفاعل مستتر تقديره هو وإلا أداة حصر ونفورا مفعول يزيدهم الثاني (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ) قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ولو شرطية ومعه ظرف متعلق بمحذوف خبر كان المقدم وآلهة اسمها المؤخر وكما يقولون نعت لمصدر محذوف أي كونا مشابها لما يقولون.

(

إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا) اذن حرف جواب وجزاء مهملة دالة على أن ما بعدها وهو لابتغوا جواب عن مقالة المشركين واللام واقعة في جواب لو وجملة ابتغوا لا محل لها والواو فاعل والى ذي العرش متعلقان با بتغوا أو بمحذوف حال من سبيلا ، وسبيلا مفعول ابتغوا (سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً) سبحانه مفعول مطلق وقد تقدم مرارا وتعالى عطف على ما تضمنه المصدر والتقدير تنزه وتعالى فهو فعل ماض وعما متعلقان به وجملة يقولون صلة وعلوا مفعول مطلق لأنه مصدر واقع موقع التعالي وكبيرا صفة. (تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) تسبح فعل مضارع وله متعلقان به والسموات فاعل والسبع صفة والأرض عطف على السموات ومن عطف على السموات والأرض وفيهن متعلقان بمحذوف صلة من. (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) الواو عاطفة وإن نافية ومن حرف جر زائد وشيء مجرور لفظا مرفوع محلا وساغ الابتداء به لتقدم النفي وإلا أداة حصر ويسبح فعل مضارع والفاعل مستتر تقديره

هو والجملة خبر شيء وبحمده حال أي متلبسا بحمده، ولكن:

الواو حالية ولكن حرف استدراك مهمل ولا نافية وتفقهون فعل مضارع وفاعل وتسبيحهم مفعول به. (إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً) إن

(233/458)

واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر وحليما خبر أول لكان وغفورا خبر ثان لها.

البلاغة:

في قوله تعالى "وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم" فن التنكيت وقد تقدمت الاشارة اليه وانه قصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسدّ مسدّه لنكتة في المذكور ترجح مجيئه على سواه فقد خصّ سبحانه تفقهون دون تعلمون لما في الفقه من الزيادة على العلم لأنه التصرف في المعلوم بعد علمه واستنباط الأحكام منه والمراد الذي يقتضيه معنى الكلام التفقه في معرفة التسبيح من الحيوان البهيم والبنات والجماد وكل ما يدخل تحت لفظة شيء مما لا يعقل ولا ينطق إذ تسبيح ذلك بمجرد وجوده الدال على قدرة موجده وحكمته.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 45 إلى 47]

وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً (45) وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (47)

الإعراب:

)

(234/458)

(وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً) الواو استئنافية وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وقرأت القرآن فعل وفاعل ومفعول به والجملة مضافة إلى إذا وجعلنا فعل وفاعل وبينك الظرف متعلق بمحذوف مفعول به ثان وبين الذين لا يؤمنون عطف على الظرف الاول وجملة لا يؤمنون صلة وبالآخرة متعلقان بيؤمنون وحجابا مفعول جعلنا الأول ومستورا نعت لحجابا ويجوز أن يكون مستورا على بابه أي لا يرى فهو مستور ويجوز أن يكون مفعولا بمعنى فاعل أي ساترا لك عنهم فلا يرونك يريد الذين حاولوا الفتك برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. (وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ

يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً) جعلنا فعل وفاعل وعلى قلوبهم مفعول جعلنا الثاني وأكنة مفعول جعلنا الأول وأن يفقهوه في موضع النصب مفعول من أجله أي كراهة أن يفقهوه ويجوز أن يكون منصوبا بنزع الخافض أي من أن يفقهوه والجار والمجرور متعلقان بأكنة لأن فيها معنى المنع من الفقه فكأنه قيل ومنعناهم أن يفقهوه ، وفي آذانهم وقرا عطف على قوله على قلوبهم أكنة . (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل وجملة ذكرت مضافة وذكرت فعل وفاعل وربك مفعول به وفي القرآن متعلقان بذكرت ووحده حال لأنه في قوة النكرة أي منفردا وجملة ولوا لا محل لها وعلى أدبارهم متعلقان بمحذوف حال ونفورا مفعول مطلق لأنه في معنى ولوا أي فهو مصدر ويجوز إعرابه مفعولا من أجله وأعربه أبو البقاء حالا أي نافرين فيكون جمع نافر .

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) نحن مبتدأ وأعلم خبر

وبما متعلقان بأعلم وجملة يستمعون صلة وبه جار ومجرور متعلقان بيستمعون والباء سببية والمعنى ما يستمعون بسببه وهو الهزء بك وبالقرآن وقال الزمخشري " به في موضع الحال كما تقول يستمعون بالهزء أي هازئين " وفيه بعد وقال أبو البقاء الباء بمعنى اللام وإذ

ظرف لما مضى متعلق بأعلم وجملة يستمعون إليك مضافة للظرف . (وَإِذْ هُمْ نَجْوى)

عطف على إذ داخلة في حكمها فهي ظرف لأعلم أي وبما يتناجون به إذ هم ذو ونجوى

فهم مبتدأ ونجوى خبر على حذف مضاف ويحتمل أن يكون نجوى جمع نجي فلا حاجة

لتقدير مضاف قبل الخبر .

(إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً) إذ يقول بدل من إذ هم نجوى أو من إذ

يستمعون إليك ويقول الظالمون فعل مضارع وفاعل وإن نافية وتتبعون فعل مضارع مرفوع

والواو فاعل وإلا أداة حصر ورجلا مفعول به ومسحورا نعت لرجلا .

الفوائد :

بحث طريف عن وحده :

اعلم ان " وحده " لم يستعمل إلا منصوبا إلا ما ورد شاذا قالوا :

هو نسيج وحده وعيير وحده وجحيش وحده فأما نسيج وحده فهو مدح وأصله ان

الثوب إذا كان رفيعا فلا ينسج على منواله غيره فكأنه قال نسيج أفراده يقال هذا للرجل إذا

أفرد بالفضل وأما عيير وحده وجحيش وحده فهو تصغير عير وهو الحمار يقال للوحشي

والأهلي وجحيش وحده وهو ولد الحمار فهو ذم يقال للرجل المعجب برأيه لا يخالط أحدا

في رأي ولا يدخل في معونة أحد ومعناه انه ينفرد بخدمة نفسه ، وأما قولك جاء وحده

فوحده حال من فاعل جاء المستتر فيه

و هو معرفة بالإضافة إلى الضمير فيؤول بنكرة من لفظه أو من معناه أي متوحدا أو منفردا

وتقول مررت به وحده ومررت بهم وحدهم فوحده مصدر في موضع الحال كأنه في معنى

إيحاد جاء على حذف الزوائد كأنك قلت أوحدته بمروري ايحادا أو ايحاد في معنى موحد

أي منفرد فإذا قلت مررت به وحده فكأنك قلت مررت به منفردا ويحتمل عند سيبويه أن

يكون للفاعل والمفعول .

وكان الزجاج يذهب إلى أن وحده مصدر وهو للفاعل دون المفعول فإذا قلت مررت به

منفردا فكأنك قلت أفردته بمروري إفرادا .

وقال يونس : إذا قلت مررت به وحده فهو بمنزلة موحدا ومنفردا وتجعله للممرور به ،

وليونس فيه قول آخر : أن وحده معناه على حياله وعلى حياله في موضع الظرف وإذا كان

الظرف صفة أو حالا قدر فيه مستقر ناصب للظرف ومستقر هو الاول .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 48 إلى 52]

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (48) وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً

وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (49) قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً (50) أَوْ خَلْقاً مِمَّا

يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52)

اللغة :

(

(237/458)

رُفاتاً) : الرفات ما بولغ في دقه وتفتيته وهو اسم مفرد لأجزاء ذلك الشيء المفتت ، وقال الفراء : هو التراب يؤيده أنه تكرر في القرآن ترابا وعظاما . ويقال رفت الشيء يرفته بالكسر أي كسره والفعال يغلب في التفريق كالحطام والرقاق والفتات . وفي القاموس وتاج العروس : " رفته يرفته ويرفته كسره ودقه وانكسر واندق لازم ومتعد وانقطع كارفتّ ارفتاتا في الكل وكغراب الحطام وكصرد :

التبن والذي يرفت كل شيء أي يكسره " وفي الأساس : " وفي ملاعبهن رفات المسك أي فتاته ويقال لمن عمل ما يتعذر عليه التفصي منه :

الضبع ترفت العظام ولا تعرف قدر استها تأكلها ثم يتعسر عليها خروجها ومن المجاز هو

الذي أعاد المكارم وأحيا رفاتها وأنشر أمواتها " .

(فَسَيُنْغِضُونَ) : أي يحركون رءوسهم وفي المختار : نغض رأسه من باب نصر وجلس أي تحرك وأنغض رأسه حرّكه كالمتعجب من الشيء ومنه قوله تعالى : " فسينغضون إليك رؤوسهم " ونغض فلان رأسه أي حرّكه يتعدى ويلزم . وفي اللسان : يقال أنغض رأسه ينغضها أي حركها إلى فوق وإلى أسفل انغاضا فهو منغض وأما نغض ثلاثيا ينغض ، وينغض بالفتح والضم فمعنى تحرك لا يتعدى " .

الاعراب :

(انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) انظر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وكيف اسم استفهام في محل نصب حال وضربوا فعل وفاعل ولك متعلقان بضربوا والأمثال مفعول

به فضلوا عطف على ضربوا والفاء حرف عطف ولا نافية ويستطيعون سبيلا فعل وفاعل ومفعول به . (وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً) الواو عاطفة وقالوا فعل وفاعل والهمزة للاستفهام الانكاري واستبعاد ما يتساءلون عنه وإذا ظرف مستقبل متعلق بمحذوف

تقديره أنبعث أو نحشر إذا كنا عظاما ورفاتا وقد دل عليه مبعوثون ولا يجوز أن يتعلق به لأن ما بعد ان لا يعمل فيما قبلها وكذا ما بعد الاستفهام لا يعمل فيما قبله وقد اجتمعا هنا والجواب هو الفعل الذي تعلقت به وكنا كان واسمها وعظاما خبرها ورفاتا عطف على عظاما . (أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً) الهمزة للاستفهام الانكاري والاستبعاد كما تقدم وان واسمها واللام المزحلقة ومبعوثون خبر ان وخلقا حال أي مخلوقين أو مفعول مطلق من معنى الفعل لا من لفظه أي نبعث بعثا جديدا ، وجديدا صفة .

(

قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً) جملة كونوا حجارة مقول القول وكان واسمها وحجارة خبرها وأو حرف عطف وحديدا عطف على حجارة والأمر هنا معناه التعجيز مع الاهانة . (أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ) أو حرف عطف وخلقا عطف على حجارة ومما صفة لخلقا وجملة يكبر صلة وفي صدوركم متعلقان بيكبر . (فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) الفاء عاطفة والسين حرف استقبال ويقولون فعل مضارع وفاعل ومن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة يعيدنا خبر وقل فعل أمر والذي فطركم مبتدأ خبره محذوف تقديره يعيدكم أو خبر لمبتدأ محذوف أي هو الذي فطركم وجملة فطركم صلة وأول مرة ظرف متعلق بفطركم . (فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ) الفاء عاطفة والسين للاستقبال وينغضون فعل مضارع وفاعل وإليك متعلقان بينغضون أي يحركون

رءوسهم إلى فوق والى أسفل ، هزءا وسخرية ورؤوسهم مفعول به ويقولون عطف على ينغضون ومتى اسم

استفهام متعلق بمحذوف خبر مقدم وهو مبتدأ مؤخر أي البعث .

(قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً) عسى من أفعال الرجاء واسمها ضمير مستتر تقديره هو وأن وما بعدها في محل نصب خبر عسى واسم يكون مستتر تقديره هو وقريبا خبرها . (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ) في متعلّق هذا الظرف أقوال لا تطمئن إليها النفس لأن أقربها إلى الفهم أن يكون متعلقا باسم كان أي البعث ولكنه ممتنع من الناحية النحوية لأن الضمير لا يعمل فالأولى أن يعرب بدلا من قريبا أو يتعلق بيكون على رأي من يرى التعلق بالأفعال الناقصة ، واختار أبو السعود تبعا لأبي البقاء أن يكون ظرفا لا ذكر وهو بعيد عن سياق الموضوع ، وجملة يدعوكم مضاف إليها الظرف ، فتستجيبون عطف على يدعوكم وبحمده متعلقان بمحذوف حال أي حامدين قال الزمخشري وأحسن : " وهي مبالغة في انقيادهم البعث كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويتمنع : ستركبه وأنت حامد شاكر " . (وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا) الواو حالية وتظنون فعل مضارع مرفوع وفاعل أي

يخيل إليكم لفرط ما تكابدون من الهول والرّوع وإن نافية ولبثتم فعل وفاعل وإلا أداة حصر

وقليلا ظرف متعلق بلبثتم أي في الدنيا أي تستقصرون مدة لبثكم في الدنيا وتحسبونها يوما

أو بعض يوم فهو نعت لزمان محذوف ويجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف أي لبثا قليلا .

البلاغة :

في قوله تعالى " قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم " إلى آخر الآية

فنان من فنون البلاغة :

1 - أولهما فن يسمى التمكين وبعضهم يسميه الارصاد وحقيقته أن يمهد المتكلم لقافيته أو

سجعة فقرته تمهيدا تأتي القافية فيه متمكنة

في مكانها مستقرة في قرارها غير نافرة ولا قلقة فإن السامع يعلم انه أراد حجارة أو حديدا

بجاذب من قلبه ووحي من هاجسه دون أن يسمع بقية الآية ومثل ذلك في الشعر قول أبي

الطيب :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

وللبحتري في علوة الحلبية :

فليس الذي حللته بمحلل وليس الذي حرمته بحرام

وقال النابغة الذبياني في القديم :

كالاقحوان غداة غب سمائه جفت أعاليه وأسفله ندي

زعم الهمام ولم أذقه بأنه يشفى بريّا ريقها العطش الصدي

ومن طريف هذا الفن ما يحكى انه اجتمع السراج الوراق وأبو الحسين الجزار وابن نفيس الشاعر فمر بهم غلام مليح الصورة فقال السراج :

شمائله تدل على اللطافة وريقته تنوب عن السّلافة

فقال أبو الحسين الجزار :

وفي وجناته ورد ولكن عقارب صدغه منعت قطافه

فقال ابن نفيس :

فلو ولي الخلافة ذو جمال لحق له بأن يعطى الخلافة

فالقوا في الثلاث متمكنة كما ترى .

2- والفن الثاني في هاتين الآيتين هو التخيير وهو أن يؤتى بقطعة من الكلام أو بيت من الشعر جملة وقد عطف بعضها على بعض بأداة التخيير وان يتضمن صحة التقسيم فيستوعب كلامه أقسام المعنى الذي أخذ المتكلم فيه فانظر إلى التخيير في هاتين الآيتين وصحة التقسيم وحسن الترتيب في الانتقال، على طريق البلاغة، من الأدنى إلى الأعلى حتى بلغ سبحانه النهاية في أوجز إشارة وأعذب عبارة حيث قال بعد الانتقال من الحجارة: " أو حديدا " فانتقل من الحجارة إلى ما هو أصلب منها وأقوى ثم قال بعد ذلك: " أو خلقا مما يكبر في صدوركم " غير حاصر لهم في صنف من الأصناف، وتصوّر أيها القارئ بعد ذلك المعنى كيف يتكامل ويشرق في النفس إشراقا تغرق النفس فيه أي انكم تستعبدون أن يجدد الله خلقكم، ويرده إلى حال الحياة والى رطوبتها وغضاضتها بعد ما كنتم عظاما يابسة وذلك ديدنكم في الإنكار، ودأبكم في العناد، فهبكم لم تكونوا عظاما بل كنتم أقسى منها وأصلب وأبعد عن رطوبة الحياة، هبكم حجارة طبيعتها القساوة والصلابة بل هبكم حديدا وهو أشد أنواع المادة بعدا من الحياة ومنافاة لها بل أترك الأمر لكم لتتصوروا ما هو أقسى وأصلب وأنأى عن قبول الحياة، مما لا يخطر إلا لذوي العناد من أمثالكم فإنه لقادر على أن يردكم إلى الحياة لأن القادر على البدء قادر على الإعادة بل هي أهون عليه بالنسبة لأفهامنا لا إليه تعالى وهذا من بديع الكلام ومعجزه بل هو من النمط

الذي استحق أن لا يكون من كلام البشر.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 53 إلى 57]

(242/458)

وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً (53) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (54) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (55) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (56) أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً (57)

الإعراب:

(وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) الواو عاطفة والجملة منسوقة على ما سبق ليستكمل التعاليم التي بها قوام أمورهم. وقل فعل أمر وفاعل مستتر تقديره أنت ولعبادي متعلقان بقل ويقولوا جواب الطلب أو مجزوم بلام الأمر المحذوفة وقد تقدم في سورة ابراهيم

تفصيل لهذا التعبير فجدد به عهدا والتي مفعول به ليقولوا أو على الأصح صفة لمفعول محذوف أي الكلمة التي هي أحسن وهي

مبتدأ وأحسن خبر والجملة صلة . (إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً) الجملة تعليلية لقوله يقولوا التي هي أحسن وان واسمها وجملة ينزغ بينهم أي يفسد بينهم خبر وجملة إن الشيطان الثانية بدل من الأولى وكان فعل ماض ناقص وللانسان جار ومجرور متعلقان بعدوا ، وعدوا خبر كان ومبينا صفة لعدوا وجملة كان إلخ خبر إن . (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ) ربكم مبتدأ وأعلم خبر وبكم متعلقان بأعلم ، وإن شرطية ويشأ فعل الشرط مجزوم ويرحمكم جواب الشرط مجزوم أيضا . (أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا) عطف على ما تقدم والواو عاطفة وما نافية وأرسلناك فعل وفاعل وعليهم متعلقان بوكيلا ، ووكيلا حال من الكاف أي موكولا إليك أمرهم فتحاول هدايتهم . (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) وربك مبتدأ وأعلم خبر وبمن متعلقان بأعلم وفي السموات والأرض صلة . (وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وفضلنا فعل

وفاعل وبعض النبيين مفعول به وعلى بعض متعلقان بفضلنا وآتينا عطف على فضلنا وهو فعل وفاعل وداود مفعول به أول وزبورا مفعول به ثان وسيأتي في باب الفوائد سر تخصيص داود بإيتاء الزبور. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 5 صـ 387. 459﴾

(244/458)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والخمسون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/459)

الجزء التاسع والخمسون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 56 ﴾ من سورة الإسراء

وحتى الآية ﴿ 60 ﴾ من نفس السورة

(4/459)

قوله تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (57) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (58) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أثبت أن شأنه تعالى فعل ذلك وأمثاله من التفضيل والتحويل على حسب علمه وقدرته ، ثبت بغير شبهة أن لا مفزع إلا إليه ، فأمره صلى الله عليه وعلى آله وسلم تحقيقاً لذلك أن يأمرهم بما يظهر به عجز شركائهم ، رداً عليهم في قولهم : لسنا بأهل لعبادته استقلالاً ، فنحن نعبد بعض المقربين ليشفع لنا عنده ، فقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين ﴾ وأشار إلى ضعف عقولهم وعدم تثبتهم بالتعبير بالزعم فقال تعالى : ﴿ زعمتم ﴾ أنهم آلهة ؛ وبين سفول رتبتهم بقوله تعالى : ﴿ من دونه ﴾ أي من سواه كالملائكه وعزير والمسيح والأصنام ، ليجلبوا لكم خيراً ، أو يدفعوا عنكم ضراً ﴿ فلا ﴾ أي فإن دعوتموهم أو لم تدعوهم فإنهم لا ﴿ يملكون كشف الضر ﴾ أي البؤس الذي من شأنه أن يرض الجسم كله ﴿ عنكم ﴾ حتى لا يدعوا شيئاً منه ﴿ ولا تحويلاً ﴾ له من حالة إلى ما هو أخف منها ، فضلاً عن أن يبدلوه بحالة حسنة أو يحولوه إلى عدوكم ، والآية نحو قوله تعالى : ﴿ فما يستطيعون صرفاً ولا نصراً ﴾ [الفرقان : 19] فكيف يتخذ أحد منهم دوني وكيلاً ؟

قالوا : وسبب نزولها شكوى قريش إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما نزل بهم من القحط حين دعا عليهم بسبع كسبع يوسف عليه السلام .

ولم ينصب ﴿ يملكون ﴾ لئلا يظن أن النفي مسبب عن الدعاء فيتقيد به .

ولما بين أنه لا ضر لهم ولا نفع ، بين أنهم يتسابقون إلى القرب إليه رجاء أن ينفعهم وخوف أن يضرهم فقال تعالى : ﴿ أولئك ﴾ أي الذين أعلوا مراتبهم بالإقبال على طاعة الله ، وكان المشركون يعلون مراتبهم بتألههم ، وعبر عن ذلك واصفاً للمبتدإ بقوله تعالى : ﴿ الذين يدعون ﴾ أي يدعوهم الكفار ويتألهونهم ؛ ثم أخبر عن المبتدإ بقوله تعالى : ﴿ يبتغون ﴾ أي يطلبون طلباً عظيماً ﴿ إلى ربهم ﴾ المحسن إليهم وحده ﴿ الوسيلة ﴾ أي المنزلة والدرجة والقربة بالأعمال الصالحة ﴿ أيهم أقرب ﴾ أي يتسابقون بالأعمال مسابقة من يطلب كل منهم أن يكون إليه أقرب ولديه أفضل ﴿ ويرجون رحمته ﴾ رغبة فيما عنده ﴿ ويخافون عذابه ﴾ تعظيماً لجنابه ، المكلف منهم كالملائكة والمسيح وعزير بالفعل ، وغيرهم كالأصنام بالقوة من حيث إنه قادر على أن يخلق فيها قوة الإدراك للطاعة والعذاب فتكون كذلك فالعابدون لهم أجدر بأن يعبدوه ويبتغوا إليه الوسيلة ؛ وروى البخاري في التفسير عن عبد الله ـ رضى الله عنهم ـ ﴿ إلى ربهم الوسيلة ﴾ قال : كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم .

ثم علل خوفهم بأمر عام فقال تعالى : ﴿ إن عذاب ربك ﴾ أي المحسن إليك برفع انتقام الاستئصال منه عن أمتك ﴿ كان ﴾ أي كوناً ملازماً له ﴿ محذوراً ﴾ أي جديراً بأن يحذر لكل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلاً عن غيرهم ، لما شوهد من إهلاكه للقرون ومن

صنائعه العظيمة .

ولما كان المعنى : فاحذرونا فإنا أبدنا الأمم السالفة ودمرنا القرى المشيدة ، عطف عليه قوله تعالى : ﴿ وإن ﴾ أي وما ؛ وأعرق في النفي فقال تعالى : ﴿ من قرية ﴾ من القرى هذه التي أنتم بها وغيرها ﴿ إلا نحن ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ مهلكوها ﴾ بنوع من الهلاك ، لما هم عليه من الكفر أو العصيان ، وعن مقاتل أنها عامة للصالحة بالموت والطالحة بالعذاب .

(6/459)

ولما كان الممكن ليس له من ذاته إلا العدم ، وذلك مستغرق لزمان القبل ، حذف الجار فقال تعالى : ﴿ قبل يوم القيامة ﴾ الذي أنتم به مكذبون ، كما فعلنا في بيت المقدس في المرتين المذكورتين أول السورة لإفساد أهلها فاحذروا مثل ذلك ﴿ أو معذبوها ﴾ أي القرية بعذاب أهلها ﴿ عذاباً شديداً ﴾ مع بقائها .

(7/459)

ولما أكد ذلك بالاسمية ، زاده تأكيداً في جواب من كأنه قال : هل في ذلك من ثنيا لأن مثله لا يكاد يصدق ؟ فقال تعالى : ﴿كان ذلك﴾ أي الأمر العظيم ﴿في الكتاب﴾ الذي عندنا ﴿مسطوراً﴾ على وجه الخبر ، والأخبار لا تنسخ ، فلو لم يكن حشر كان أمرنا جديراً بأن يمتثل حذراً من سطواتنا ، ولا بد من أن نخيفكم بعد طول أمنكم ونهلك كثيراً من أعزائكم على يد هذا الرجل الواحد الذي أنتم كلكم متمالئون عليه مستهينون بأمره ، مع أنا أرسلناه لعزكم وعلو ذكركم ، ولا بد أن ندخله إلى بلدكم هذا بجنود أولي بأس شديد ، لإفسادكم فيه واستهانتكم به كما فعلنا ببني إسرائيل حين أفسدوا في مسجدهم كما تقدم ؛ قال الإمام الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني في كتاب الفتن : حدثنا عبد بن أحمد بن محمد الهروي في كتابه ثنا عمر بن أحمد بن عثمان بن شاهين ثنا محمد بن هارون الحضرمي ثنا علي بن عبد الله التميمي ثنا عبد المنعم بن إدريس قال : أخبرنا أبي عن وهب بن منبه قال : الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب إرمينية ، وإرمينية آمنة من الخراب حتى تخرب مصر ، ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب الكوفة ، ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة ، فإذا كانت الملحمة الكبرى فتحت القسطنطينية على يدي رجل من بني هاشم ، وخراب الأندلس من قبل الزنج ، وخراب إفريقية من قبل الأندلس ، وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها ، وخراب العراق من قبل الجوع والسيف ، وخراب الكوفة من قبل عدو من ورائهم يحفرهم حتى لا يستطيعوا أن يشربوا من الفرات

قطرة ، وخراب البصرة من قبل العراق ، وخراب الأبلة من قبل عدو يحفزهم مرة براً ومرة بحراً ، وخراب الريّ من قبل الديلم ، وخراب خراسان من قبل تبت ، وخراب تبت من قبل الصين ، وخراب الصين من قبل الهند ، وخراب اليمن من قبل الجراد والسلطان ، وخراب مكة من قبل الحبشة ، وخراب المدينة من قبل الجوع ؛ حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد حدثنا

(8/459)

علي بن محمد بن نصير حدثنا محمد بن خلف أخبرنا سالم بن جنادة أخبرنا أبي عن هشام بن عروة عن أبيه عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ قال : رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : " آخر قرية من قرى الإسلام خراباً المدينة " انتهى .

وقد أخرجه الترمذي من هذا الوجه . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 396 . 398﴾

(9/459)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) ﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية الرد على المشركين وقد ذكرنا أن المشركين كانوا يقولون ليس لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى فنحن نعبد بعض المقربين من عباد الله وهم الملائكة ، ثم إنهم اتخذوا لذلك الملك الذي عبدوه تمثالاً وصورة واشتغلوا بعبادته على هذا التأويل والله تعالى احتج على بطلان قولهم في هذه الآية فقال : ﴿ قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مّن دُونِهِ ﴾ وليس المراد الأصنام لأنه تعالى قال في صفتهم : ﴿ أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبّهِمُ الوسيلة ﴾ وابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى لا يليق بالأصنام ألبتة .

إذا ثبت هذا فنقول : إن قوماً عبدوا الملائكة فنزلت هذه الآية فيهم ، وقيل : إنها نزلت في الذين عبدوا المسيح وعزيراً ، وقيل : إن قوماً عبدوا نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن ، وبقي أولئك الناس متمسكين بعبادتهم فنزلت هذه الآية ، قال ابن عباس : كل موضع في كتاب الله تعالى ورد فيه لفظ زعم فهو كذب ، ثم إنه تعالى احتج على فساد مذهب هؤلاء أن الإله المعبود هو الذي يقدر على إزالة الضرر ، وإيصال المنفعة ، وهذه الأشياء التي يعبدونها وهي الملائكة والجن والمسيح وعزير لا يقدرون على كشف الضر ولا على تحصيل النفع ، فوجب القطع بأنها ليست آلهة .

ولقائل أن يقول : هذا الدليل إنما يتم إذا دللتم على أن الملائكة لا قدرة لها على كشف الضر ولا على تحصيل النفع فما الدليل على أن الأمر كذلك حتى يتم دليلكم ؟ فإن قلتم : لأنا نرى أن أولئك الكفار كانوا يتضرعون إليها فلا تحصل الإجابة .

(10/459)

قلنا : معارضة لذلك قد نرى أيضاً أن المسلمين يتضرعون إلى الله تعالى فلا تحصل الإجابة ، والمسلمون يقولون : إن القدر الحاصل من كشف الضر وتحصيل النفع إنما يحصل من الله تعالى لا من الملائكة ، وأولئك الكفار يقولون إنه يحصل من الملائكة لا من الله تعالى ، وعلى هذا التقدير فالدليل غير تام .

والجواب : أن الدليل تام كامل ، وذلك لأن الكفار كانوا مقرين بأن الملائكة عباد الله . وخالق الملائكة ، وخالق العالم لا بد وأن يكون أقدر من الملائكة ، وأقوى منهم ، وأكمل حالاً منهم .

وإذا ثبت هذا فنقول : كمال قدرة الله تعالى معلوم متفق عليه ، وكمال قدرة الملائكة غير معلوم ولا متفق عليه ، بل المتفق عليه أن قدرتهم بالنسبة إلى قدرة الله تعالى قليلة حقيرة ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون الاشتغال بعبادة الله تعالى أولى من الاشتغال بعبادة

الملائكة ، لأن كون الله مستحقاً للعبادة معلوم ، وكون الملائكة كذلك مجهول والأخذ بالمعلوم أولى ، وأما أصحابنا المتكلمون من أهل السنة والجماعة فلهم في هذا الباب طريقة أخرى وهو أنهم يقيمون بالحجة العقلية على أنه لا موجد إلا الله تعالى ولا مخرج لشيء من العدم إلى الوجود إلا الله تعالى .

وإذا ثبت هذا ثبت أنه لا ضار ولا نافع إلا الله تعالى ، فوجب القطع بأنه لا معبود إلا الله تعالى ، وهذه الطريقة لا تتم للمعتزلة لأنهم لما جوزوا كون العبد موجداً لأفعاله امتنع عليهم الاستدلال على أن الملائكة لا قدرة لها على الإحياء والإماتة وخلق الجسم .

وإذا عجزوا عن ذلك لم يتم لهم هذا الدليل فهذا هو ذكر الدليل القاطع على صحة قوله : ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضر عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ﴾ والتحويل عبارة عن النقل من حال إلى حال ومكان إلى مكان يقال : حوله فتحول .

(11/459)

ثم قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة ﴾ وفيه قولان : الأول : قال الفراء قوله : ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ فعل الآدميين العابدين .

وقوله : ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ فعل المعبودين ومعناه أولئك المعبودين يبتغون إلى ربهم الوسيلة ، فإنه

لا نزاع أن الملائكة يرجعون إلى الله في طلب المنافع ودفع المضار ويرجون رحمته ويخافون عذابه وإذا كان كذلك كانوا موصوفين بالعجز والحاجة ، والله تعالى أغنى الأغنياء فكان الاشتغال بعبادته أولى .

فإن قالوا : لا نسلم أن الملائكة محتاجون إلى رحمة الله وخائفون من عذابه ، فنقول : هؤلاء الملائكة إما أن يقال : إنها واجبة الوجود لذواتها ، أو يقال : ممكنة الوجود لذواتها ، والأول باطل لأن جميع الكفار كانوا معترفين بأن الملائكة عباد الله ومحتاجون إليه ، وأما الثاني فهو يوجب القول بكون الملائكة محتاجين في ذواتها وفي كمالاتها إلى الله تعالى ، فكان الاشتغال بعبادة الله أولى من الاشتغال بعبادة الملائكة .

والقول الثاني : أن قوله : ﴿ أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ ﴾ هم الأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى بقوله : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيين على بَعْضٍ ﴾ [الإسراء : 55] وتعلق هذا الكلام بما سبق هو أن الذين عظمت منزلتهم وهم الأنبياء لا يعبدون إلا الله تعالى ولا يبتغون الوسيلة إلا إليه ، فأنتم بالاقتداء بهم حق فلا تعبدوا غير الله تعالى .

واحتج القائلون بهذا القول على صحته بأن قالوا : الملائكة لا يعصون الله فلا يخافون عذابه ، فثبت أن هذا غير لائق بالملائكة وإنما هو لائق بالأنبياء .

قلنا : الملائكة يخافون عذاب الله لو أقدموا على الذنب والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنّي إله مّن دُونِهِ فذلك نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 29] .

(12/459)

أما قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ فالمراد أن من حقه أن يحذر ، فإن لم يحذره بعض الناس لجهله فهو لا يخرج من كونه بحيث يجب الحذر عنه .

﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء : 57] بين أن كل قرية مع أهلها فلا بد وأن يرجع حالها إلى أحد أمرين : إما الإهلاك وإما التعذيب قال مقاتل : أما الصالحة فبالموت ، وأما الطالحة فبالعذاب ، وقيل : المراد من قوله : ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ قرى الكفار ، ولا بد أن تكون عاقبتها أحد أمرين : إما الاستئصال بالكلية وهو المراد من الإهلاك أو بعذاب شديد دون ذلك من قتل كبرائهم وتسليط المسلمين عليهم بالسبي واغتنام الأموال وأخذ الجزية ، ثم بين تعالى أن هذا الحكم حكم مجزوم به واقع فقال : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ ومعناه ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 184.186 ﴾

(13/459)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغُون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقْرَبُ ﴾

الآية فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها نزلت في نفر من الجن كان يعبدهم قوم من الإنس ، فأسلم الجن ابتغاء الوسيلة عند ربهم ، وبقي الإنس على كفرهم ؛ قاله عبد الله بن مسعود .

الثاني : أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائل من العرب ، وهذا مروي عن ابن مسعود أيضاً .

الثالث : هم وعيسى وأُمُّهُ ، قاله ابن عباس ومجاهد . وهم المعنيّون بقوله تعالى ﴿ قلِ ادعُوا الذين زعمتم مِن دونه ﴾

وتفسيرها أن قوله تعالى ﴿ اولئك الذين يدعون ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يدعون الله تعالى لأنفسهم .

الثاني : يدعون عباد الله الى طاعته .

وقوله تعالى : ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ وهي القربة ، وينبني تأويلها على احتمال الوجهين في الدعاء .

فإن قيل إنه الدعاء لأنفسهم كان معناه يتوسلون إلى الله تعالى بالدعاء إلى ما سألوا .

وإن قيل دعاء عباد الله إلى طاعته كان معناه أنهم يتوسلون لمن دعوه إلى مغفرته .

﴿ أيهم أقرَبُ ﴾ تأويله على الوجه الأول : أيهم أقرب في الإجابة . وتأويله على الوجه

الثاني : أيهم أقرب إلى الطاعة .

﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابهُ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون هذا الرجاء والخوف في الدنيا .

الثاني : أن يكونا في الآخرة .

فإن قيل إنه في الدنيا احتمل وجهين :

أحدهما : أن رجاء الرحمة التوفيق والهداية ، وخوف العذاب شدة البلاء . وإن قيل إن ذلك في الآخرة احتمل وجهين :

أحدهما : أن رجاء الرحمة دوام النعم وخوف عذاب النار .

الثاني : أن رجاء الرحمة العفو ، وخوف العذاب مناقشة الحساب .

ويحتمل هذا الرجاء والخوف وجهين : أحدهما : أن يكون لأنفسهم إذا قيل إن أصل الدعاء كان لهم .

الثاني : لطاعة الله تعالى إذا قيل إن الدعاء كان لغيرهم . ولا يمتنع أن يكون على عمومه في أنفسهم وفيمن دعوه .

قال سهل بن عبد الله : الرجاء والخوف ميزانان على الإنسان فإذا استويا استقامت أحواله ، وإن رجح أحدهما بطل الآخر .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا" . انتهى انتهى . اهـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(15/459)

وقال ابن عطية :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) ﴾

الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم في هذه الآية ، ليسوا عبدة الأصنام ، وإنما هم عبدة من يعقل ، واختلف في ذلك . فقال ابن عباس : هي في عبدة العزير والمسيح وأمه ونحوهم ، وقال ابن عباس أيضاً ، وابن مسعود : هي في عبدة الملائكة ، وقال ابن مسعود أيضاً : هي في عبدة شياطين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم أولئك الشياطين ، وعبدتهم بقوا يعبدونهم فنزلت الآية في ذلك .

وقال ابن عباس أيضاً : هي في عبدة الشمس والقمر والكواكب وعزير والمسيح وأمه ، وأي ذلك كان ، فمعنى الآية : قل لهؤلاء الكفرة ﴿ ادعوا ﴾ عند الشدائد ، و﴿ الضر

﴿ هؤلاء المعبودين ، فإنهم لا يملكون كشفه ولا تحويله عنكم ، ثم أخبرهم على قراءة ابن مسعود وقتادة " تدعون " بالتاء ، أو أخبر النبي عليه السلام على قراءة الجمهور ، " يدعون " بالياء من تحت ، أن هؤلاء المعبودين ، يطلبون التقرب إلى الله والتزلف إليه وأن هذه حقيقة حالهم ، وقرأ ابن مسعود " إلى ربك " ، والضمير في ﴿ ربهم ﴾ للمتبعين أو للجميع ، و﴿ الوسيلة ﴾ ، هي القربة ، وسبب الوصول إلى البغية ، وتوسل الرجل : إذا طلب الدنو والنيل لأمر ما ، وقال عنترة :

(16/459)

إن الرجال لهم إليك وسيلة . . . ومنه قول النبي عليه السلام : " من سأل الله لي الوسيلة " الحديث . و﴿ أيهم ﴾ ابتداء ، و﴿ أقرب ﴾ خبر ، و﴿ أولئك ﴾ يراد به المعبودون وهو : ابتداء خبره ﴿ يبتغون ﴾ والضمير في ﴿ يدعون ﴾ للكفار ، وفي ﴿ يبتغون ﴾ للمعبودين ، والتقدير : نظرهم ووكدهم أيهم أقرب وهذا كما قال عمر بن الخطاب في حديث الراية بخيبر : فبات الناس يدوكون أيهم يعطاها أي يتبارون في طلب القرب ، وطفف الزجاج في هذا الموضع فتأمله ، وقال ابن فورك وغيره : إن الكلام من قوله ﴿ أولئك الذين ﴾ راجع إلى النبيين المتقدم ذكرهم ، ف ﴿ يدعون ﴾ على هذا من الدعاء

، بمعنى الطلبة إلى الله ، والضمائر لهم في ﴿ يدعون ﴾ وفي ﴿ يبتغون ﴾ وباقي الآية بين . وقوله تعالى : ﴿ وإن من قرية ﴾ الآية : أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه ليس مدينة من المدن إلا هي هالكة قبل يوم القيامة بالموت والفناء ، هذا مع السلامة وأخذها جزءاً أو هي معذبة مأخوذة مرة واحدة فهذا عموم في كل مدينة و﴿ من ﴾ لبيان الجنس ، وقيل المراد الخصوص ﴿ وإن من قرية ﴾ ظالمة ، وحكى النقاش أنه وجد في كتاب الضحاك بن مزاحم في تفسير هذه الآية استقراء البلاد المعروفة اليوم ، وذكر الهلاك كل قطر منها صفة ، ثم ذكر نحو ذلك عن وهب بن منبه ، فذكر فيه أن هلاك الأندلس وخرابها يكون بسنابك الخيل واختلاف الجيوش فيها ، وتركت سائرها لعدم الصحة في ذلك ، والمعلوم أن كل قرية تهلك ، إما من جهة القحوط والخسف غرقاً ، وإما من الفتن ، أو منهما ، وصور ذلك كثيرة لا يعلمها إلا الله عزّ وجل ، فأما ما هلك بالفتنة ، فعن ظلم ولا بد ، إما في كفر أو معاص ، أو تقصير في دفاع ، وحزامة ، وأما القحط فيصيب الله به من يشاء ، وكذلك الخسف .

(17/459)

وقوله ﴿ مهلكوها ﴾ الضمير لها ، وفي ضمن ذلك الأهل ، وقوله ﴿ معذبوها ﴾ هو على حذف مضاف ، فإنه لا يعذب إلا الأهل ، وقوله ﴿ في الكتاب ﴾ يريد في سابق

القضاء ، وما خطه القلم في اللوح المحفوظ ، و" المسطور " المكتوب إسطاراً . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(18/459)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾

في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن نفراً من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن ، فأسلم الجن والنفر من العرب لا يشعرون ، فنزلت هذه الآية والتي بعدها ، روي عن ابن مسعود .

والثاني : أن المشركين كانوا يعبدون الملائكة ، ويقولون : هي تشفع لنا عند الله ، فلما ابتلوا بالقحط سبع سنين ، قيل لهم : "ادعوا الذين زعمتم" ، قاله مقاتل ، والمعنى : قل ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة ، ﴿ فلا يملكون كشف الضُّرِّ عنكم ولا تحويلاً ﴾ له إِلى غيركم .

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يَدْعون ﴾ في المشارِ إِليهم ب "أولئك" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم الجن الذين أسلموا .

والثاني : الملائكة .

وقد سبق بيان القولين.

والثالث: أنهم المسيحُ، وعزيرٌ، والملائكةُ، والشمسُ، والقمرُ، قاله ابن عباس.

وفي معنى "يدعون" قولان.

أحدهما: يعبدون، أي: يدعونهم آلهة، وهذا قول الأكثرين.

والثاني: أنه بمعنى يتضرعون إِلى الله في طلب الوسيلة.

وعلى هذا يكون قوله: "يدعون" راجعاً إِلى "أولئك"، ويكون قوله: "يبتغون" تماماً للكلام.

وعلى القول الأول: يكون "يدعون" راجعاً إِلى المشركين، ويكون قوله: "يبتغون" وصفاً ل "أولئك" مستأنَفاً.

وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن: "تدعون" بالتاء قال ابن الأبناري: فعلى هذا، الفعلُ مردودٌ إِلى قوله: ﴿ فلا يملكون كشف الضُّرِّ عنكم ﴾.

ومن قرأ "يدعون" بالياء، قال: العرب تنصرف من الخطاب إِلى الغَيبة إِذا أُمن اللَّبْس.

ومعنى "يدعون": يدعونهم آلهة.

وقد فسرنا معنى "الوسيلة" في [المائدة: 35].

وفي قوله: ﴿ أيُّهم أقرب ﴾ قولان ذكرهما الزجاج.

أحدهما : أن يكون "أيهم" مرفوعاً بالابتداء ، وخبره "أقرب" ، ويكون المعنى : يطلبون الوسيلة إِلى ربهم ، ينظرون أيُّهم أقرب إِليه فيتوسّلون إِلى الله به .

(19/459)

والثاني : أن يكون "أيهم أقرب" بدلاً من الواو في "يبتغون" ، فيكون المعنى : يبتغي أيُّهم هو أقرب الوسيلةَ إِلى الله ، أي : يتقرَّب إِليه بالعمل الصالح .

قوله تعالى : ﴿ وإِن من قرية إِلا نحن مُهْلِكوها ﴾

"إِن" بمعنى "ما" ، والقرية الصالحة هلاكها بالموت ، والعاصية بالعذاب ، والكتاب : اللوح المحفوظ ، والمسطور : المكتوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(20/459)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ ﴾

لما ابتليت قريش بالقَحْط وشَكَوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله هذه الآية ؛

أي ادعوا الذين تعبدون من دونه وزعمتم أنهم آلهة .

وقال الحسن : يعني الملائكة وعيسى وعزيراً .

ابن مسعود : يعني الجن .

﴿ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضر عَنْكُمْ ﴾ أي القحط سبع سنين ، على قول مقاتل .

﴿ وَلاَ تَحْوِيلاً ﴾ من الفقر إلى الغنى ومن السَّقَم إلى الصحة .

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يَدْعُونَ ﴾

"أولئك" مبتدأ "الذِين" صفة "أولئك" وضمير الصلة محذوف ؛ أي يدعونهم .

يعني أولئك المدعوّون .

و ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ خبر ، أو يكون حالاً ، و "الّذِين يَدْعُون" خبر ؛ أي يدعون إليه عباداً أو عبادة إلى عبادته .

وقرأ ابن مسعود "تدعون" بالتاء على الخطاب .

الباقون بالياء على الخبر .

ولا خلاف في "يبتغون" أنه بالياء .

وفي صحيح مسلم من كتاب التفسير عن عبد الله بن مسعود في قوله عز وجل : ﴿ أولئك الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة ﴾ قال : نفر من الجن أسلموا وكانوا يُعبدون ، فبَقِيَ الذين كانوا يَعبدون على عبادتهم وقد أسلم النفر من الجن .

في رواية قال : نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون و (الإنس) الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون ؛ فنزلت : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ .

ومنه أيضاً أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائل من العرب ؛ ذكره الماوردي .

وقال ابن عباس ومجاهد : عُزير وعيسى .

و "يبتغون" يطلبون من الله الزلفة والقربة ، ويتضرعون إلى الله تعالى في طلب الجنة ، وهي الوسيلة .

أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم .

والهاء والميم في "ربهم" تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعاً .

وأما "يدعون" فعلى العابدين .

"ويبتغون" على المعبودين .

﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ ابتداء وخبر .

ويجوز أن يكون "أيهم أقرب" بدلاً من الضمير في "يبتغون" ، والمعنى يبتغي أيهم أقرب الوسيلة إلى الله .

﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ أي مَخُوفاً لا أمان لأحد منه ؛ فينبغي أن يُحذر منه ويُخاف .

وقال سهل بن عبد الله : الرجاء والخوف زمانان على الإنسان ، فإذا استويا استقامت أحواله ، وإن رجح أحدهما بطل الآخر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا ﴾

أي مخربوها .

﴿ قَبْلَ يَوْمِ القيامة أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً ﴾ قال مقاتل : أما الصالحة فبالموت ، وأما الطالحة فبالعذاب .

وقال ابن مسعود : إذا ظهر الزنى والربا في قرية أذِن الله في هلاكهم .

فقيل : المعنى وإن من قرية ظالمة ؛ يقوّي ذلك قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص : 59] .

أي فليتق المشركون ، فإنه ما من قرية كافرة إلا سيحل بها العذاب .

﴿ كَانَ ذلك فِي الكتاب ﴾ أي في اللّوح.

﴿ مَسْطُوراً ﴾ أي مكتوباً .

والسطر : الخط والكتابة وهو في الأصل مصدر .

والسَّطَر (بالتحريك) ، مثله .

قال جرير :

من شاء بايعته مالِي وخُلْعَتَه . . .

ما تُكْمِل التَّيْمُ في ديوانهم سَطَرَا

الخلعة (بضم الخاء) : خيار المال .

والسطر جمع أسطار ؛ مثل سبب وأسباب ، ثم يجمع على أساطير .

وجمع السطر أسطر وسطور ؛ مثل أفلس وفلوس .

والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(22/459)

وقال أبو حيان :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) ﴾

قال ابن مسعود : نزلت في عَبدة الشياطين وهم خزاعة أسلمت الشياطين وبقوا

يعبدونهم .

وقال ابن عباس في عزير والمسيح وأمه ، وعنه أيضاً وعن ابن مسعود وابن زيد والحسن في عبدة الملائكة وعن ابن عباس في عبدة الشمس والقمر والكواكب وعزير والمسيح وأمه انتهى .

ويكون ﴿ الذين زعمتم من دونه ﴾ عاماً غلب فيه من يعقل على ما لا يعقل ، والمعنى أدعوهم فلا يستطيعون أن يكشفوا عنكم .

الضر من مرض أو فقر أو عذاب ولا أن يحوّلوه من واحد إلى آخر أو يبدلوه .

وقرأ الجمهور : ﴿ يدعون ﴾ بياء الغيبة وابن مسعود وقتادة بتاء الخطاب ، وزيد بن عليّ بياء الغيبة مبنياً للمفعول ، والمعنى يدعونهم آلهة أو يدعونهم لكشف ما حل بكم من الضر كما حذف من قوله ﴿ قل ادعوا ﴾ أي ادعوهم لكشف الضر .

وفي قوله : ﴿ زعمتم ﴾ ضمير محذوف عائد على ﴿ الذين ﴾ وهو المفعول الأول والثاني محذوف تقديره زعمتموهم آلهة من دون الله ، و ﴿ أولئك ﴾ مبتدأ و ﴿ الذين ﴾ صفته ، والخبر ﴿ يبتغون ﴾ .

و ﴿ الوسيلة ﴾ القرب إلى الله تعالى ، والظاهر أن ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المعبودين والواو في ﴿ يدعون ﴾ للعابدين ، والعائد على ﴿ الذين ﴾ منصوب محذوف أي يدعونهم .

وقال ابن فورك : الإشارة بقوله بأولئك إلى النبيين الذين تقدّم ذكرهم ، والضمير المرفوع في

﴿ يدعون ﴾ و﴿ يبتغون ﴾ عائد عليهم ، والمعنى يدعون الناس إلى دين الله ، والمعنى على هذا أن الذين عظمت منزلتهم وهم الأنبياء لا يعبدون إلاّ الله ولا يبتغون الوسيلة إلاّ إليه ، فهم أحق بالاقتداء بهم فلا يعبدوا غير الله .

وقرأ الجمهور : ﴿ إلى ربهم ﴾ بضمير الجمع الغائب .

وقرأ ابن مسعود إلى ربك بالكاف خطاباً للرسول ، واختلفوا في إعراب ﴿ أيهم أقرب ﴾ وتقديره .

(23/459)

فقال الحوفي : ﴿ أيهم أقرب ﴾ ابتداء وخبر ، والمعنى ينظرون ﴿ أيهم أقرب ﴾ فيتوسلون به ويجوز أن يكون ﴿ أيهم أقرب ﴾ بدلاً من الواو في ﴿ يبتغون ﴾ انتهى .

ففي الوجه الأول أضمر فعل التعليق ، و﴿ أيهم أقرب ﴾ في موضع نصب على إسقاط حرف الجر لأن نظر إن كان بمعنى الفكر تعدّى بفي ، وإن كانت بصرية تعدّت بإلى ، فالجملة المعلق عنها الفعل على كلا التقديرين تكون في موضع نصب على إسقاط حرف الجر كقوله ﴿ فلينظر أيها أزكى طعاماً ﴾ وفي إضمار الفعل المعلق نظر ، والوجه الثاني قاله الزمخشري قال : وتكون أي موصولة ، أي يبتغي من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى الله

فكيف بغير الأقرب انتهى .

فعلى الوجه يكون ﴿ أقرب ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، واحتمل ﴿ أيهم ﴾ أن يكون معرباً وهو الوجه ، وأن يكون مبنياً لوجود مسوغ البناء .

قال الزمخشري : أو ضمن ﴿ يبتغون ﴾ ﴿ الوسيلة ﴾ معنى يحرصون فكأنه قيل يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله ، وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح ، فيكون قد ضمن ﴿ يبتغون ﴾ معنى فعل قلبي وهو يحرصون حتى يصح التعليق ، وتكون الجملة الابتدائية في موضع نصب على إسقاط حرف الجر لأن حرص يتعدى بعلى ، كقوله ﴿ إن تحرص على هداهم ﴾ وقال ابن عطية : و ﴿ أيهم ﴾ ابتدأ و ﴿ أقرب ﴾ خبره ، والتقدير نظرهم ودكهم ﴿ أيهم أقرب ﴾ وهذا كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : فبات الناس يدوكون أيهم يعطاها ، أي يتبارون في طلب القرب .

فجعل المحذوف نظرهم وودكهم وهذا مبتدأ فإن جعلت ﴿ أيهم أقرب ﴾ في موضع نصب بنظرهم المحذوف بقي المبتدأ الذي هو نظرهم بغير خبر محتاج إلى إضمار الخبر ، وإن جعلت ﴿ أيهم أقرب ﴾ هو الخبر فلا يصح لأن نظرهم ليس هو ﴿ أيهم أقرب ﴾ وإن جعلت التقدير نظرهم في ﴿ أيهم أقرب ﴾ أي كائن أو حاصل فلا يصح ذلك لأن كائناً وحاصلاً ليس مما تعلق .

وقال أبو البقاء : ﴿ أيهم ﴾ مبتدأ و ﴿ أقرب ﴾ خبره ، وهو استفهام في موضع نصب بيدعون ، ويجوز أن يكون ﴿ أيهم ﴾ بمعنى الذي وهو بدل من الضمير في ﴿ يدعون ﴾ والتقدير الذي هو أقرب انتهى .

ففي الوجه الأولى علق ﴿ يدعون ﴾ وهو ليس فعلاً قلبياً ، وفي الثاني فصل بين الصلة ومعمولها بالجملة الحالية ، ولا يضر ذلك لأنها معمولة للصلة ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ كغيرهم من عباد الله ، فكيف يزعمون أنهم آلهة ﴿ إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ يحذره كل أحد .

و ﴿ إن من قرية ﴾ ﴿ إن ﴾ نافية و ﴿ من ﴾ زائدة في المبتدأ تدل على استغراق الجنس ، والجملة بعد ﴿ إلاّ ﴾ خبر المبتدأ .

وقيل : المراد الخصوص والتقدير وإن من قرية ظالمة .

وقال ابن عطية : ومن لبيان الجنس انتهى .

والتي لبيان الجنس على قول من يثبت لها هذا المعنى هو أن يتقدم قبل ذلك ما يفهم منه إبهام ما فتأتي ﴿ من ﴾ لبيان ما أريد بذلك الذي فيه إبهام ما .

كقوله ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة ﴾ وهنا لم يتقدم شيء مبهم تكون من فيه بياناً له ، ولعل قوله لبيان الجنس من الناسخ ويكون هو قد قال لاستغراق الجنس ألا ترى أنه قال بعد

ذلك .

وقيل : المراد الخصوص انتهى .

والظاهر أن جميع القرى تهلك قبل يوم القيامة وإهلاكها تخريبها وفناؤها ، ويتضمن تخريبها هلاك أهلها بالاستئصال أو شيئًا فشيئاً أو تعذب والمعنى أهلها بالقتل وأنواع العذاب .

وقيل : الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة .

وقال مقاتل : وجدت في كتب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها : أما مكة فتخربها الحبشة ، وتهلك المدينة بالجوع ، والبصرة بالغرق ، والكوفة بالترك ، والجبال بالصواعق .

والرواجف ، وأما خراسان فعذابها ضروب ثم ذكرها بلداً بلداً ونحو ذلك عن وهب بن منبه فذكر فيه أن هلاك الأندلس وخرابها يكون بسنابك الخيل واختلاف الجيوش .

﴿ كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴾ أي في سابق القضاء أو في اللوح المحفوظ أي مكتوباً أسطاراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(25/459)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم ﴾ أنها آلهةٌ ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ تعالى من الملائكة والمسيحِ وعُزيرٍ

﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ ﴾ فلا يستطيعون ﴿ كَشْفَ الضرِ عَنْكُمْ ﴾ بالمرة كالمرض والفقر والقَحطِ ونحو ذلك ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ أي ولا تحويله إلى غيركم ﴿ أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ ﴾ أي أولئك الآلهةُ الذين يدعوهم المشركون من المذكورين ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ يطلبون لأنفسهم ﴿ إلى رَبِّهِمُ ﴾ ومالكِ أمورِهم ﴿ الوسيلة ﴾ القربةَ بالطاعة والعبادة ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ بدلٌ من فعل يبتغون وأيٌّ موصولةٌ ، أي يبتغي مَنْ هو أقرب إليه تعالى الوسيلةَ فكيف بمن دونه ؟ أو ضُمّن الابتغاءُ معنى الحِرص فكأنه قيل : يحرِصون أيُّهم أقربَ إليه تعالى بالطاعة والعبادة ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ﴾ بها ﴿ ويخافون عَذَابَهُ ﴾ بتركها كدأب سائرِ العباد فأين هم من كشف الضرِّ فضلاً عن الإلهية ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ حقيقاً بأن يحذره كلُّ أحدٍ حتى الملائكةُ والرسلُ عليهم الصلاة والسلام ، وهو تعليلٌ لقوله تعالى : ﴿ ويخافون عَذَابَهُ ﴾ وتخصيصُه بالتعليل لما أن المقامَ مقامُ التحذيرِ من العذاب وأن بينهم وبين العذاب بَوناً بعيداً .

(26/459)

﴿ وَإِن مّن قَرْيَةٍ ﴾ بيانٌ لتحتم حلول عذابه تعالى بمن لا يحذره إثرَ بيانِ أنه حقيقٌ بالحذر وأن أساطينَ الخلق من الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام على حذر من ذلك ، وكلمةُ

إنْ نافيةٌ ومِنْ استغراقيةٌ ، والمرادُ بالقرية القريةُ الكافرةُ أي ما من قرية من قرى الكفار ﴿ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا ﴾ أي مُخرِبوها ألبتةَ بالخسف بها أو بإهلاك أهلِها بالمرة لما ارتكبوا من عظائمِ المُوبقات المستوجبةِ لذلك ، وفي صيغة الفاعلِ وإن كانت بمعنى المستقبَل ما ليس فيه من الدِلالة على التحقق والتقررِ وإنما قيل : ﴿ قَبْلَ يَوْمِ القيامة ﴾ لأن الإهلاكَ يومئذ غيرُ مختصَ بالقرى الكافرة ولا هو بطريق العقوبةِ وإنما هو لانقضاء عمرِ الدنيا ﴿ أَوْ مُعَذِّبُوهَا ﴾ أي معذبو أهلِها على الإسنادِ المجازيِّ ﴿ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ لا بالقتل والسبْي ونحوِهما من البلايا الدنيويةِ فقط ، بل بما لا يُكتَنه كنهُه من فنون العقوبات الأخرويةِ أيضاً حسبما يُفصح عنه إطلاقُ التعذيبِ عما قُيد به الإهلاكُ من قَبْلية يومِ القيامة ، كيف لا وكثيرٌ من القرى العاتية العاصيةِ قد أُخّرت عقوباتُها إلى يوم القيامة ﴿ كَانَ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكر من الإهلاك والتعذيب ﴿ فِى الكتاب ﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿ مَسْطُورًا ﴾ مكتوباً لم يغادَرْ منه شيءٌ إلا بُيّن فيه بكيفياته وأسبابه الموجبةِ له ووقتِه المضروب له . هذا وقد قيل : الهلاكُ للقُرى الصالحة والعذابُ للطالحة ، وعن مقاتل : "وجدتُ في كتاب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها أما مكةُ فيُخرِبها الحبشةُ وتهلِك المدينةُ بالجوع والبصرةُ بالغرق والكوفةُ بالتُّرك والجبالُ بالصواعق والرواجف ، وأما خراسانُ فهلاكُها ضُروبٌ ثم ذكرها بلداً بلداً ، وقال الحافظ أبو عمرو الداني في كتاب الفتن : أنه رُوي عن وهْب بن منبّه أن الجزيرةَ آمنةٌ من الخراب حتى تخرَبَ أرمينيةُ ، وأرمينيةُ آمنةٌ حتى تخرَب مصرُ ، ومصرُ

(27/459)

آمنةٌ حتى تخرَبَ الكوفةُ ولا تكون الملحمةُ الكبرى حتى تخرَب الكوفةُ ، فإذا كانت الملحمةُ الكبرى فُتحت قُسطنطينةُ على يَديْ رجلٍ من بني هاشم ، وخرابُ الأندلس من قِبَل الزّْنج ، وخرابُ إفريقيةَ من قِبَل الأندلس ، وخرابُ مصرَ من انقطاع النيلِ واختلافِ الجيوش فيها ، وخرابُ العراقِ من الجوع ، وخرابُ الكوفة من قِبل عدوَ من ورائهم يحصُرهم حتى لا يستطيعون أن يشربوا من الفرات قطرةً ، وخرابُ البصرة من قِبل الغرق ، وخرابُ الأَيْلة من قبل عدوَ يحصُرهم برًّا وبحراً ، وخرابُ الرّيّ من الديلم ، وخرابُ خراسانَ من قبل التّْبت ، وخرابُ التبت من قبل الصّين ، وخرابُ الهندِ واليمن من قبل الجرَاد والسلطان ، وخرابُ مكةَ من الحبشة ، وخرابُ المدينة من الجوع" .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : "آخرُ قريةٍ من قرى الإسلام خراباً المدينةُ" وقد أخرجه العمري من هذا الوجه . وأنت خبيرٌ بأن تعميمَ القريةِ لا يساعده السباقُ ولا السياق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(28/459)

وقال الآلوسي :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾

والزعم بتثليث الزاي قريب من الظن ويقال إنه القول المشكوك فيه ويستعمل بمعنى الكذب حتى قال ابن عباس : كلما ورد في القرآن زعم فهو كذب وقد يطلق على القول المحقق والصدق الذي لا شك فيه .

فقد أخرج مسلم من حديث أنس أن رجلاً من أهل البادية واسمه ضمَام بن ثعلبة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد أتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله تعالى أرسلك قال : صدق الحديث فإن تصديق النبي عليه الصلاة والسلام إياه مع قوله زعم وتزعم دليل على ما قلنا .

وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : زعم جبريل عليه السلام كذا ، وقد أكثر سيبويه وهو إمام العربية في كتابه من قوله : زعم الخليل زعم أبو الخطاب يريد بذلك القول المحقق وقد نقل ذلك جماعات من أهل اللغة وغيرهم ونقله أبو عمر الزاهد في "شرح الفصيح" عن شيخه أبي العباس ثعلب عن العلماء باللغة من الكوفيين والبصريين ، وهو مما يتعدى إلى مفعولين وقد حذفا ههنا أو ما يسد مسدهما أي زعمتم أنهم آلهة أو زعمتموهم آلهة ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ وحذف المفعولين معاً أو حذف ما يسد مسدهما جائز والخلاف في حذف أحدهما ، والظاهر أن المراد من الموصول كل من عبد

من دون الله سبحانه من العقلاء .

وأخرج عبد الرزاق .

وابن أبي شيبة .

والبخاري .

والنسائي .

والطبراني .

وجماعة عن ابن مسعود قال : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن وتمسك الإنسيون بعبادتهم فنزلت هذه الآية ، وكان هؤلاء الإنس من العرب كما صرح به في رواية البيهقي وغيره عنه ، وفي أخرى التصريح بأنهم من خزاعة ، وفي رواية ابن جرير أنه قال : كان قبائل من العرب يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن ويقولون هم بنات الله سبحانه فنزلت الآية .

(29/459)

وعن ابن عباس أنها نزلت في الذين أشركوا بالله تعالى فعبدوا عيسى وأمه وعزيراً والشمس والقمر والكواكب ، وعلى هذا ففي الآية على ما في "البحر" تغليب العاقل على

غيره ، ومتى صح إدراج الشمس والقمر والكواكب على سبيل التغليب بناءً على أنها ليست من ذوي العلم فليدرج سائر ما عبد بالباطل من الأصنام ويرتكب التغليب .

وتعقب بأن ما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى من ابتغاء الوسيلة ورجاء الرحمة والخوف من العذاب يؤيد إرادة العقلاء كعيسى وعزير عليهما السلام بناءً على أن الأصنام لا يعقل منها ذلك ، وارتكاب التغليب هناك أيضاً خلاف الظاهر جداً ، والدعاء كالنداء لكن النداء قد يقال إذا قيل : يا أو أيا أو نحوهما من غير أن يضم إليه الاسم والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم نحو يا فلان وقد يستعمل كل منهما موضع الآخر ، والمراد ادعوهم لكشف الضر الذي هو أولى من جلب النفع وأهم وتوجه القلب إلى من يكشفه أكمل وأتم .

(30/459)

﴿ فَلاَ يَمْلِكُونَ ﴾ فلا يستطيعون بأنفسهم ﴿ كَشْفَ الضر عَنْكُمْ ﴾ كالمرض والفقر والقحط وغيرها ﴿ وَلاَ تَحْوِيلاً ﴾ ولا نقله منكم إلى غيركم ممن لم يعبدهم أو ولا تبديله بنوع آخر ومن لا يملك ذلك لا يستحق العبادة إذ شرط استحقاقها القدرة الكاملة التامة على دفع الضر وجلب النفع ولا تكون كذلك إذا كانت مفاضة من الغير ، وكأن المراد من نفي ملكهم ذلك نفي قدرتهم التامة الكاملة عليه وكون قدرة الآلهة الباطلة

مفاضة منه تعالى مسلم عند الكفرة لأنهم لا ينكرون أنها مخلوقة لله تعالى بجميع صفاتها وأن الله سبحانه أقوى وأكمل صفة منها ، وبهذا يتم الدليل ويحصل الإفحام وإلا فنفى قدرة نحو الجن والملائكة الذين عبدوا من دون الله تعالى مطلقاً على كشف الضر مما لا يظهر دليله فإنه إن قيل : هو أنا نرى الكفرة يتضرعون إليهم ولا تحصل لهم الإجابة عورض بأنا نرى أيضاً المسلمين يتضرعون إلى الله تعالى ولا تحصل لهم الإجابة ، وقد يقال : المراد نفي قدرتهم على ذلك أصلاً ويحتج له بدليل اوشعري على استناد جميع الممكنات إليه عز وجل ابتداإف .

وفسر بعضهم الضر هنا بالقحط بناءً على ما روي أن المشركين أصابهم قحط شديد أكلوا فيه الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم فنزلت ، وأنت تعلم أن هذا لا يوجب التخصيص .

واستدل بهذه الرواية على أن نفي الاستطاعة مطلقاً عن آلهتهم كان إذ ذاك مسلماً عندهم وإلا لما تركوها واستغاثوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم وفيه نظر فانظر وتدبر .

﴿ أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ ﴾

أي أولئك الآلهة الذين يدعونهم ويسمونهم آلهة أو يدعونهم ويناودنهم لكشف الضر عنهم ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ يطلبون باجتهاد لأنفسهم ﴿ إلى رَبِّهِمُ ﴾ ومالك أمرهم ﴿ الوسيلة ﴾ القربة بالطاعة والعبادة فضمير يدعون للمشركين وضمير ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ للمشار إليهم ، وقال ابن فورك : الضمير أن للمشار إليهم والمراد بهم الأنبياء الذين عبدوا من دون الله تعالى ، ومفعول ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ محذوف أي يدعون الناس إلى الحق أو يدعون الله سبحانه ويتضرعون إليه جل وعلا ، وعلى هذا لا يتعين كون المراد بهم الأنبياء عليهم السلام كما لا يخفى وهو كما ترى.

وقرأ ابن مسعود.

وقتادة ﴿ تَدْعُونَ ﴾ بالتاء ثالثة الحروف ؛ وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ بالياء آخر الحروف مبنياً للمفعول ، وقرأ ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ﴿ إلى رَبّكَ ﴾ بكاف الخطاب ، واسم الإشارة مبتدأ والموصول نعت أو بيان والخبر جملة ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ أو الموصول هو الخبر ويبتغون حال أو بدل من الصلة ، وقوله تعالى : ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ فيه وجوه من الإعراب فالزمخشري ذكر وجهين ، الأول كون أي موصولة بدلاً من ضمير ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ بدل بعض من كل ؛ وهي إما معربة أو مبنية على اختلاف الرأيين أي أولئك المعبودون يطلب من هو أقرب منهم الوسيلة إلى الله تعالى بطاعته فكيف بالأبعد وليس فيه إلا حذف صدر الصلة والتقدير أيهم هو أقرب وهو مما لا بأس.

ولا ينافي ذلك جمع ﴿ يَرْجُونَ ﴾ و﴿ يَخَافُونَ ﴾ فيما بعد لعدم اختصاص ما ذكر بالأقرب أو لكون الأقرب متعدداً ، والثاني كون أي استفهامية وهي مبتدأ و﴿ أَقْرَبُ ﴾ خبرها والجملة في محل نصب بيبتغون وضمن معنى يحرصون فكأنه قيل يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله تعالى وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح ، قيل واعتبر التضمين ليصح التعليق فإنه مختص بأفعال القلوب خلافاً ليونس .

وقال الطيبي : لا بد من تقدير حرف الجر لأن حرص تتعدى بعلى كقوله تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ ﴾ (النحل : 37) ولا بد من تأويل الإنشاء بأن يقال يحرصون على ما يقال فيه أيهم أقرب إلى الله تعالى بسببه من الطاعة ، ويتعلق حينئذٍ قوله تعالى : ﴿ إلى رَبّهِمُ ﴾ بأقرب وهو كما ترى .

وقال صاحب الكشف في تحقيق هذا الوجه : إن المطالب إذا كانت مشتركة اقتضت التسارع إليها في العادة وهو نفس الحرص أو ما لا ينفك عنه فناسب أن يضمن الابتغاء معنى الحرص لا سيما وبعده استفهام لا يحسن موقعه دون تضمينه لأن قولك أيهم أقرب إلى فلان بكذا سؤال عن مميز أحدهم عن الباقين بما يتقرب به زيادة فضيلة مع الاستواء في أصل

التقرب فإذا ورد استئنافاً بعد فعل صالح لأن يكون معلوله وجب تقديره ذلك لأنك إذا قلت هؤلاء يحرصون على الهدى كان كلاماً جارياً على الظاهر وإذا قلت هؤلاء يحرصون أيهم يكون أهدى أفاد أن حرصهم ذلك على الهدى مع مغالبة بعضهم بعضاً فيه فيكون أتم في وصفهم بالحرص عليه.

(33/459)

ووجه الإفادة أنه تعقيبه على وجه التعليل وكأن كل واحد يسأل نفسه أهو أهدى أم غيره أي هو أشد حرصاً عليه أم غيره إذ لا معنى لهذا السؤال عن النفس إلا الحث وتعرف أن ثمت تقصيراً في ذلك أو لا، وعلى هذا لو قلت يحرصون على الهدى أيكم يكون أهدى عد مستهجناً لأن الاستئناف سد مسد صلته كما في أمرته فقام ﴿ ولو شاء ربك لآمن ﴾ [يونس: 99] وود لو أنه أحسن وكم وكم، فعلى هذا الطلب واقع على الوسيلة وهي الطاعة والحرص على الأقربية بها والازدياد منها ولا يمكن أن يستغني عن يحرصون بإجراء ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ مجرى التعليل ليبتغون على ما أشير إليه لأن ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ لا يصلح جواباً فارقاً بين الطالبين وغيرهم إنما هو فارق بين الطالبين أعني المتقربين بعضهم مع بعض وهو يناسب الحرص والشغف ولأن صلة الطلب أعني الوسيلة مذكورة وقد عرفت أن

الاستئناف مغن عن ذلك والجمع مستهجن اه .

ولعمري لم يبق في القوس منزعاً في تحقيقه لكن الوجه مع هذا متكلف ، وجوز الحوفي .

والزجاج أن يكون ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ مبتدأ وخبر والجملة في محل نصب بينظرون أي

يفكرون ، والمعنى ينظرون أيهم أقرب فيتوسلون به وكأن المراد يتوسلون بدعائه وإلا ففي

التوسل بالذوات ما فيه .

(34/459)

وتعقب ذلك في "البحر" بأن في إضمار الفعل المعلق نظراً ومع ذا هو وجه غير ظاهر ،

وجوز أبو البقاء كون ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ جملة استفهامية في موضع نصب بيدعون وكون أي

موصولة بدلاً من ضمير ﴿ يَدْعُونَ ﴾ وتعقب الأول بأن فيه تعليق ما ليس بفعل قلبي

والجمهور على منعه ، وأما الثاني فقال أبو حيان : فيه الفصل بين الصلة ومعمولها بالجملة

الحالية لكنه لا يضر لأنها معمولة للصلة ، وأنت إذا نظرت في المعنى على هذا لم ترض أن

تحمل الآية عليه ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَرْجُونَ ﴾ عطف على يبتغون أي يبتغون القربة

بالعبادة ويتوقعون ﴿ رَحْمَتِهِ ﴾ تعالى ﴿ ويخافون عَذَابَهُ ﴾ كدأب سائر العباد فأين هم

من ملك كشف الضر فضلاً عن كونهم آلهة ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ حقيقاً

بأن يحذره ويحترز عنه كل أحد من الملائكة والرسل عليهم السلام وغيرهم ، والجملة تعليل لقوله سبحانه : ﴿ ويخافون عَذَابَهُ ﴾ وفي تخصيصه بالتعليل زيادة تحذير للكفرة من العذاب ، وتقديم الرجاء على الخوف لما أن متعلقه أسبق من متعلقه ففي الحديث القدسي "سبقت رحمتي غضبي"

وفي اتحاد أسلوبي الجملتين إيماءً إلى تساوي رجاء أولئك الطالبين للوسيلة إليه تعالى بالطاعة والعبادة وخوفهم ، وقد ذكر العلماء أنه ينبغي للمؤمن ذلك ما لم يحضره الموت فإذا حضره الموت ينبغي أن يغلب رجاءه على خوفه ، وفي الآية دليل على أن رجاء الرحمة وخوف العذاب مما لا يخل بكمال العابد ، وشاع عن بعض العابدين أنه قال : لست أعبد الله تعالى رجاء جنته ولا خوفاً من ناره والناس بين قادح لمن يقول ذلك ومادح ، والحق التفصيل وهو أن من قاله إظهاراً للاستغناء عن فضل الله تعالى ورحمته فهو مخطىء كافر ، ومن قاله لاعتقاد أن الله عز وجل أهل للعبادة لذاته حتى لو لم يكن هناك جنة ولا نار لكان أهلاً لأن يعبد فهو محقق عارف كما لا يخفى .

﴿ وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ ﴾

الظاهر العموم لأن إن نافية ومن زائدة لاستغراق الجنس أي وما من قرية من القرى ﴿ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القيامة ﴾ بإماتة أهلها حتف أنوفهم ﴿ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ بالقتل وأنواع البلاء ، وروي هذا عن مقاتل وهو ظاهر ما روي عن مجاهد وإليه ذهب الجبائي وجماعة ، وروي عن الأول أنه قال : الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة ، وقال أيضاً : وجدت في كتاب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها أما مكة فتخربها الحبشة وتهلك المدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالصواعق والرواجف ، وأما خراسان فهلاكها ضروب ثم ذكر بلداً بلداً .

(36/459)

وروي عن وهب بن منبه أن الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية وأرمينية آمنة حتى تخرب مصر ومصر آمنة حتى تخرب الكوفة ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة فإذا كانت الملحمة الكبرى فتحت قسطنطينية على يد رجل من بني هاشم وخراب الأندلس من قبل الزنج وخراب إفريقية من قبل الأندلس وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها وخراب العراق من الجوع وخراب الكوفة من قبل عدو يحصرهم ويمنعهم الشرب من الفرات وخراب البصرة من قبل العراق وخراب الأبلة من

عدو يحصرهم براً وبحراً وخراب الري من الديلم وخراب خراسان من قبل النبت وخراب النبت من قبل الصين وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان وخراب مكة من الحبشة وخراب المدينة من قبل الجوع ، وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "آخر قرية من قرى الإسلام خراباً المدينة "كذا نقله العلامة أبو السعود وما في كتاب الضحاك وكذا ما روي عن وهب لا يكاد يعول عليه ، وما روي عن أبي هريرة مقبول وقد رواه عنه بهذا اللفظ النسائي ورواه أيضاً الترمذي بنحوه وقال حسن غريب ورواه أبو حيان بلفظ "آخر قرية في الإسلام خراباً بالمدينة" وفي "البحور الزاخرة" أن سبب خرابها أن بعض أهلها يخرجون مع المهدي إلى الجهاد ثم ترجف بمنافقيها وترميهم إلى الدجال ويهاجر بعض المخلصين إلى بيت المقدس عند إمامهم ، ومن بقي منهم تقبض الريح الطيبة روحه فتبقى خاوية ، ويأبى كونها سبب خرابها الجوع حسبما سمعت عن الضحاك وابن منبه ظاهر ما أخرجه الشيخان "لتتركن المدينة على خير ما كانت مذللة ثمارها لا يغشاها إلا العوافي الطير والسباع وآخر من يحشر راعيان من مزينة" الحديث.

وأخرج الإمام أحمد بسند رجاله ثقات "المدينة يتركها أهلها وهي مرطبة قالوا : فمن يأكلها ؟ قال : السبع والعوافي" وما ذكر من أن مكة تخربها الحبشة ثابت في "الصحيحين" وغيرهما لكن بلفظ

" يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة " وفي حديث حذيفة مرفوعاً " كأني أنظر إلى حبشي أحمر الساقين أزرق العينين أفطس الأنف كبير البطن وقد صف قدميه على الكعبة هو وأصحاب له ينقضونها حجراً حجراً ويتداولونها بينهم حتى يطرحوها في البحر " وفي حديث أحمد عن أبي هريرة أنه تجيء الحبشة فيخربونه أي البيت خراباً لا يعمر بعده أبدا ، نعم اختلف في أنه متى يكون ذلك ؟ فقيل : زمن عيسى عليه السلام ، وقيل حين لا يبقى على الأرض من يقول الله وهو آخر الآيات ، ومال إلى ذلك السفاريني ، وظاهر ما تقدم في المدينة من الأخبار بأنها آخر قرى الإسلام خراباً يقتضي أن خراب مكة قبلها والله تعالى أعلم .

وما ذكر في خبر ابن منبه من أن مصر آمنة حتى تخرب الكوفة إن صح يقتضي أن الكوفة تعمر ثم تخرب وإلا فهي قد خربت منذ مئات من السنين وبقيت إلى الآن خراباً ، ومصر آمنة عامرة على أحسن حال اليوم وبعمارتها حسبما يقتضيه الخبر جاءت آثار عديدة كما لا يخفى على من طالع الكتب المؤلفة في أمارات الساعة وأخبار المهدي والسفياني إلا أن في أكثرها لمنقر مقالاً .

وزعم البوني وأضرابه أنها تعمر في أواخر القرن الثالث عشر وقد أخذوا ذلك من كلام

الشيخ محي الدين قدس سره ، وأنت تعلم أنه أشبه شيء بالهندية ولا يكاد بعد من اللغة العربية ، وما ذكر من أن خراب العراق من الجوع يعم بغداد فإنها قاعدته .

(38/459)

وقال القاضي عياض في الشفاء : روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : " تبنى مدينة بين دجلة ودجيل وقطربل والصراة تنتقل إليها الخزائن يخسف بها " يعني بغداد وهذا صريح في أن هلاكها بالخسف لا بالجوع لكن ذكر المحدثون أن في سند الخبر مجهولاً ، ثم الظاهر على هذا التفسير أن قوله تعالى : ﴿ أَوْ مُعَذِّبُوهَا ﴾ الخ مقيد بمثل ما قيد به المعطوف عليه فيكون كل من الإهلاك والتعذيب قبل يوم القيامة أي في الزمان القريب منه وقد شاع استعمال ذلك بهذا المعنى وستسمعه قريباً إن شاء الله تعالى في الحديث وإنكاره مكابرة غير مسموعة وكأنه سبحانه بعد أن ذكر من شأن البعث والتوحيد ما ذكر ذكر بعض ما يكون قبل يوم البعث مما يدل على عظمته سبحانه وفيه تأييد لما ذكر قبله ، وقد صح أنه بعد موت عيسى عليه السلام تجيء ريح باردة من قبل الشام فلا تبقى على وجه الأرض أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته فيبقى شرار الناس وعليهم تقوم الساعة ،

وجاء في غير ما خبر ما يصيب الناس قبل قيامها من العذاب ، فمن ذلك ما أخرجه الطبراني .

(39/459)

وابن عساكر عن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه لتقصدنكم نار هي اليوم خامدة في واد يقال له برهوت يغشى الناس فيها عذاب أليم تأكل الأنفس والأموال تدور الدنيا كلها في ثمانية أيام تطير طيران الريح والسحاب حرها بالليل أشد من حرها بالنهار ولها بين السماء والأرض دوي كدوي الرعد القاصف قيل : يا رسول الله أسليمة يومئذٍ على المؤمنين والمؤمنات ؟ قال : وأين المؤمنون والمؤمنات الناس يومئذٍ شر من الحمر يتسافدون كما يتسافد البهائم وليس فيهم رجل يقول مه مه إلى غير ذلك من الأخبار ، ولا يبعد بعد أن اعتبر العموم في القرية حمل الإهلاك والتعذيب على ما تضمنته تلك الأخبار من إماتة المؤمنين بالريح وتعذيب الباقين من شرار الناس بالنار المذكورة ، وصح أنها تسوقهم إلى المحشر وورد أنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك وأنه تلقى الآفة على الظهر حتى لا تبقى ذات ظهر حتى أن الرجل ليعطي الحديقة المعجبة بالشارف ذات القتب ليفر عليها ، وكون ذلك قبل يوم القيامة هو المعول عليه وقد اعتمده الحافظ ابن حجر وصوبه القاضي

عياض وذهب إليه القرطبي والخطابي وجاء مصرحاً به في بعض الأحاديث ، فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي وقال : حسن صحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً ستخرج نار من حضرموت أو من بحر حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس الحديث ولا يبعد أن يعذبوا بغير ذلك أيضاً بل في الآثار ما يقتضيه ﴿ كَانَ ذَلِكَ ﴾ أي ما ذكر من الإهلاك والتعذيب ﴿ فِى الكتاب ﴾ أي في اللوح المحفوظ كما روي عن إبراهيم التيمي وغيره ﴿ مَسْطُورًا ﴾ مكتوباً ، وذكر غير واحد أنه ما من شيء إيبن فيه بكيفياته وأسبابه الموجبة له ووقته المضروب له .

(40/459)

واستشكل العموم بأنه يقتضي عدم تناهي الإبعاد وقد قامت البراهين النقلية والعقلية على خلاف ذلك فلا بد أن يقال بالتخصيص بأن يحمل الشيء على ما يتعلق بهذه النشأة أو نحو ذلك ، وقال بعضهم بالعموم إلا أنه التزم كون البيان على نحو يجتمع مع التناهي فاللوح المحفوظ في بيانه جميع الأشياء الدنيوية والأخروية وما كان وما يكون نظير الجفر الجامع في بيانه لما يبينه ، وقد رأيت أنا صحيفة للشيخ الأكبر قدس سره ادعى أنه يعلم منها ما يقع في أرض المحشر يوم القيامة وأخرى الجنة ، وقبول هذه الدعاوى وردها مفوض إليك ، وفسر بعضهم

الكتاب بالقضاء السابق ففي الكلام تجوز لا يخفى.

هذا وذهب أبو مسلم إلى أن المراد ما من قرية من قرى الكفار واختاره المولى أبو السعود وجعل الآية بياناً لتحتم حلول عذابه تعالى بمن لا يحذره إثر بيان أنه حقيق بالحذر وأن أساطين الخلق من الملائكة والنبيين عليهم السلام على حذر من ذلك، وذكر أن المعنى ما من قرية من قرى الكفار إلا نحن مخربوها البتة بالخسف بها أو بإهلاك أهلها بالمرة لما ارتكبوا من عظائم الموبقات المستوجبة لذلك أو معذبو أهلها عذاباً شديداً لا يكتنه كنهه والمراد به ما يعم البلايا الدنيوية من القتل والسبي ونحوهما والعقوبات الأخروية مما لا يعلمه إلا الله تعالى حسبما يفصح عنه إطلاق التعذيب عما قيد به الإهلاك من قبلية يوم القيامة ولا يخص بالبلايا الدنيوية كيف وكثير من القرى العاتية العاصية قد أخرت عقوبتها إلى يوم القيامة، ثم أنه يحتمل أن يقال في وجه الربط على تقدير التشخيص: أنه سبحانه بعد أن أشار إلى أن الكفرة المخاطبين في بلاء وضر وأن آلهتهم لا يملكون كشف ذلك عنهم ولا تحويله أشار إلى أن مثل ذلك لا بد وأن يصيب الكفرة ولا يملك أحد كشفه ولا تحويله عنهم، وهذا ظاهر بناءً على ما تقدم عن البعض في سبب النزول الذي بسببه فسر الضر بالقحط فتأمل.

وفي اختيار صيغة الفاعل في الموضعين وإن كانت بمعنى المستقبل من الدلالة على التحقق والتقرر ما فيه ، والتقييد بيوم القيامة لأن الإهلاك يومئذٍ غير مختص بالقرى الكافرة ولا هو بطريق العقوبة وإنما هو لانقضاء عمر الدنيا ، ثم قال : إن تعميم القرية لا يساعده السياق ولا السباق اه وفيه تأمل .

ومن الناس من رجحه على ما سبق بأن فيه حمل الإهلاك على ما يتبادر منه وهو ما يكون عن عقوبة ولا كذلك فيما سبق .

وأجيب بأن ذلك سهل فقد استعمل في مقام التخويف فيما لم يكن عن عقوبة كقوله تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(42/459)

وقال القاسمى :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ .

أي قل لهؤلاء المشركين ، الذين يعبدون من دون الله من خلقه : ادعوا من زعمتموهم أرباباً وآلهة من دونه ، عند ضر ينزل بكم ، وانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم أو تحويله

عنكم إلى غيركم ، فتدعونهم آلهة ، أي : فإنهم لا يقدرون على ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم .

(43/459)

روى الطبري عن ابن عباس ؛ أن الآية عني بها قوم مشركون ، كانوا يعبدون المسيح وعزيراً والملائكة . فأخبرهم الله تعالى أن هؤلاء عبيده يرجون رحمته ويخافون عذابه ، ويتقربون إليه بالأعمال . ونظير هذه الآية في النهي عن أن يشرك به تعالى الملائكة والأنبياء ، قوله سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عِمْرَان : 79 – 80] ، وفي قوله تعالى : : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ إشارة إلى أن العبادة لا تتم إلا بالرجاء والخوف . فبالرجاء تكثر الطاعات ، وبالخوف تقل السيئات .

وقوله تعالى : ﴿ مَحْذُوراً ﴾ أي : ينبغي أن يحذر منه ويخاف من حلوله . عياذاً بالله منه .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً

كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾ .

إخبار بأنه حتم وقضى ؛ أنه ما من قرية يتمرد أهلها على نبيهم ، إلا ويبيدهم ، أو ينزل بهم من العذاب شديده . وذلك لذنوبهم وخطيئاتهم وعدم استجابتهم لنبيهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [هود : 101] . وقال تعالى : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق : 9] وقال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ﴾ [الطلاق : 8] الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 489 . 490 ﴾

(44/459)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) ﴾

لم أر لهذه الآية تفسيراً ينثلج له الصدر ، والحيرة بادية على أقوال المفسرين في معناها وانتظام موقعها مع سابقها ، ولا حاجة إلى استقراء كلماتهم .

ومرجعها إلى طريقتين في محمل ﴿ الذين زعمتم من دونه ﴾ إحداهما في "تفسير الطبري" وابن عطية عن ابن مسعود والحسن .

وثانيتهما في "تفسير القرطبي" والفخر غير معزوة لقائل .

والذي أرى في تفسيرها أن جملة ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ إلى ﴿ تحويلاً ﴾ معترضة بين جملة ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيئين ﴾ [الإسراء : 55] وجملة ﴿ أولئك الذين يدعون ﴾ [الإسراء : 57] .

وذلك أنه لما جرى ذكر الأفضلين من الأنبياء في أثناء آية الرد على المشركين مقالتهم في اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم للرسالة واصطفاء أتباعه لولايته ودينه ، وهي آية ﴿ وربك أعلم بمن في السماوات والأرض ﴾ [الإسراء : 55] إلى آخرها ، جاءت المناسبة لرد مقالة أخرى من مقالاتهم الباطلة وهي اعتذارهم عن عبادة الأصنام بأنهم ما يعبدونهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى ، فجعلوهم عباداً مقربين ووسائل لهم إلى الله ، فلما جرى ذكر المقربين حقاً انتُهزت مناسبة ذكرهم لتكون مخلصاً إلى إبطال ما ادعوه من وسيلة أصنامهم على عادة إرشاد القرآن من اغتنام مناسبات الموعظة ، وذلك من أسلوب الخطباء .

فهذه الآية متصلة المعنى بآية ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ [الإسراء : 42] .

فبعد أن أبطل أن يكون مع الله آلهة ببرهان العقل عاد إلى إبطال إلهيتهم المزعومة ببرهان الحسّ .

وهو مشاهدة أنها لا تغني عنهم كشف الضر .

فأصل ارتباط الكلام هكذا : ولقد فضلنا بعض النبيئين على بعض وآتينا داوود زبورا أولئك الذين يدعون يبتغون الآية .

(45/459)

فبمناسبة الثناء عليهم بابتهالهم إلى ربهم ذكر ضد ذلك من دعاء المشركين آلهتهم .

وقدم ذلك ، على الكلام الذي أثار المناسبة ، اهتماماً بإبطال فعلهم ليكون إبطاله كالغرض المقصود ويكون ذكر مقابله كالاستدلال على ذلك الغرض .

ولعل هذه الآية نزلت في مدة إصابة القحط قريشاً بمكّة ، وهي السبع السنون التي هي دعوة النبي صلى الله عليه وسلم " اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف " وتسلسل الجدال وأخذ بعضه بحُجز بعض حتى انتهى إلى هذه المناسبة .

والمِلْكُ بمعنى الاستطاعة والقدرة كما في قوله : ﴿ قل فمن يملك من الله شيئاً ﴾ [المائدة : 17] ، وقوله : ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ﴾ في سورة [العقود : 76] .

والمقصود من ذلك بيان البون بين الدعاء الحق والدعاء الباطل .

ومن نظائر هذا المعنى في القرآن قوله تعالى : ﴿ إن وَلِيّي الله الذي نزَّل الكتاب وهو يتولَّى الصالحين والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾ في سورة [الأعراف : 196 197] .

والكشف : مستعار للإزالة .

والتحويل : نقل الشيء من مكان إلى مكان ، أي لا يستطيعون إزالة الضر عن الجميع ولا إزالته عن واحد إلى غيره .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾

والإشارة بـ ﴿ أولئك الذين يدعون ﴾ إلى النبيئين لزيادة تمييزهم .

والمعنى : أولئك الذين إنْ دعوا يُستجَبْ لهم ويكشف عنهم الضر ، وليسوا كالذين تدعونهم فلا يملكون كشف الضر عنكم بأنفسهم ولا بشفاعتهم عند الله كما رأيتم من أنهم لم يغنوا عنكم من الضر كشفاً ولا صرفاً .

وجملة ﴿ يبتغون ﴾ حال من ضمير ﴿ يدعون ﴾ أو بيان لجملة ﴿ يدعون ﴾ .

والوسيلة : المرتبة العالية القريبة من عظيم كالمَلك .

و ﴿ أيهم أقرب ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من ضمير ﴿ يبتغون ﴾ بدل بعض ، وتكون (أي) موصولة .

والمعنى: الذي هو أقرب من رضى الله يبتغي زيادة الوسيلة إليه، أي يزداد عملاً للازدياد من رضى الله عنه واصطفائه.

ويجوز أن يكون بدلاً من جملة ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾، و (أي) استفهامية، أي يبتغون معرفة جواب: أيهم أقرب عند الله.

وأقرب: اسم تفضيل، ومتعلقه محذوف دل عليه السياق.

والتقدير: أيهم أقرب إلى ربهم.

وذكر خوف العذاب بعد رجاء الرحمة للإشارة إلى أنهم في موقف الأدب مع ربهم فلا يزيدهم القرب من رضاه إلا إجلالاً له وخوفاً من غضبه.

وهو تعريض بالمشركين الذين ركبوا رؤوسهم وتوغلوا في الغرور فزعموا أن شركاءهم شفعاؤهم عند الله.

وجملة ﴿ إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ تذييل.

ومعنى ﴿ كان محذورا ﴾ أن حقيقته تقتضي حذر الموفقين إذ هو جدير بذلك.

﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾

لما عرضَ بالتهديد للمشركين في قوله: ﴿ إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ [الإسراء: 57]، وتحداهم بقوله: ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر

عنكم ﴾ [الإسراء : 56] جاء بصريح التهديد على مسمع منهم بأن كل قرية مثل قريتهم في الشرك لا يعدوها عذاب الاستيصال وهو يأتي على القرية وأهلها ، أو عذاب الانتقام بالسيف والذل والأسر والخوف والجوع وهو يأتي على أهل القرية مثل صرعى بدر ، كل ذلك في الدنيا .

فالمراد : القرى الكافرُ أهلُها لقوله تعالى : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ في سورة [هود : 117] ، وقوله : ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ في سورة [القصص : 59] .

وحذف الصفة في مثل هذا معروف كقوله تعالى : ﴿ يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ [الكهف : 79] أي كل سفينة صالحة ، بقرينة قوله : ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ [الكهف : 79] .

وليس المقصود شمول ذلك القرى المؤمنة ، على معنى أن لا بد للقرى من زوال وفناء في سنة الله في هذا العالم ، لأن ذلك معارض لآيات أخرى ، ولأنه مناف لغرض تحذير المشركين من الاستمرار على الشرك .

فلو سلمنا أن هذا الحكم لا تنفلت منه قرية من القرى بحكم سنّة الله في مصير كل حادث إلى الفناء لما سلمنا أن في ذكر ذلك هنا فائدة .

والتقييد بكونه قبل يوم القيامة ﴾ زيادة في الإنذار والوعيد ، كقوله : ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ [طه : 127] .

و(من] مزيدة بعد (إنْ) النافية لتأكيد استغراق مدخولها باعتبار الصفة المقدرة ، أي جميع القرى الكافرة كيلا يحسب أهلُ مكة عدم شمولهم .

والكتاب : مستعار لعلم الله وسابق تقديره ، فتعريفه للعهد ؛ أو أريد به الكتب المنزلة على الأنبياء ، فتعريفه للجنس فيشمل القرآن وغيره .

والمسطور : المكتوب ، يقال : سطر الكتاب إذا كتبه سطوراً ، قال تعالى : ﴿ والقلم وما يسطرون ﴾ [القلم : 1] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(48/459)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) ﴾

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن المعبودين من دون اللهالذين زعم الكفار أنهم

يقربونهم إلى الله زلفى ، ويشفعون لهم عنده لا يملكون كشف الضر عن عابديهم . أي إزالة المكروه عنهم ، ولا تحويلاً اي تحويله من إنسان إلى آخر ، أو تحويل المرض إلى الصحة ، والفقر إلى الغنى ، والقحط إلى الجبد ونحو ذلك . ثم بين فيها ايضاً أن المعبودين الذين عبدهم الكفار من دون الله يتقربون إلى الله بطاعته ، ويبتغون الوسيلة إليه ، اي الطريق إلى رضاه ونيل ما عنده من الثواب بطاعته فكان الواجب عليكم أن تكونوا مثلهم .

قال ابن مسعود : نزلت هذه الآية في قوم من العرب من خزاعة أو غيرهم ، كانوا يعبدون رجالاً من الجن ، فأسلم الجنيون وبقي الكفار يعبدونهم فأنزل الله ﴿ أولئك الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة ﴾ الآية وعن ابن عباس : أن هذه الآية نزلت في الذين كانوا يعبدون عزيزاً والمسيح وأمه . وعنه أيضاً ، وعن ابن مسعود ، وابن زيد ، والحسن : أنها نزلت في عبدة الملائكة . وعن ابن عباس : أنها نزلت في عبدة الشمس والقمر والكواكب وعزيز والمسيح وأمه .

وهذا المعنى الذي بينه جل وعلا في هذه الآية الكريمة : من أن كل معبود من دون الله لا ينفع عابده ، وأن كل معبود من دونه مفتقر إليه ومحتاج له جل وعلا - بينه أيضاً في مواضع

أخر، كقوله "في سبأ" ﴿ قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مِّن دُونِ الله لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ وَلاَ تَنفَعُ الشفاعة عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ: 22-23]، وقوله "في الزمر": ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِيَ الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ الله عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتوكلون ﴾ [الزمر: 38]، إلى غير ذلك من الآيات وقد قدمنا "في سروة المائدة" أن المراد بالوسيلة في هذه الآية الكريمة "وفي آية المائدة": هو التقرب إلى الله بالعمل الصالح. ومنه قول لبيد:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم... بلى كل ذي لب إلى الله واسل

وقد قدمنا "في المائدة" ان التحقيق أن قول عنترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة... إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

من هذا المعنى، كما قدمنا أنها تجمع على وسائل، كقوله:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا... وعاد التصافي بيننا والوسائل

وأصح الأعاريب في قوله: ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ أنه بدل من واو الفاعل في قوله ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ وقد أوضحنا هذا "في سورة المائدة" بما أغنى عن إعادته هنا، والعلم عند الله تعالى.

﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (58) ﴾

قال بعض أهل العلم : في هذه الآية الكريمة حذف الصفة ، اي وإن من قرية ظالمن إلا نحن مهلكوها . وهذا النعت المحذوف دلت عليه آيات من كتاب الله تعالى . كقوله ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى حتى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص : 59] وقوله : ﴿ ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام : 131] . أي بل لا بد أن تنذرهم الرسل فيكفروا بهم وبربهم . وقوله ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود : 117] ، وقوله ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ [الطلاق : 8-9] إلى غير ذلك من الآيات . وغاية ما في هذا القول حذف النعت مع وجود أدلة تدل عليه . ونظيره في القرآن قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ [الكهف : 79] أي كل سفينة صالحة . بدليل أن خرق الخضر للسفينة التي ركب فيها هو موسى يريد به سلامتها من أخذ الملك لها ، لأنه لا يأخذ المعيبة التي فيها الخرق وإنما يأخذ الصحيحة . ومن حذف النعت قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ الآن جِئْتَ بالحق ﴾ [البقرة : 71

] أي بالحق الواضح الذي لا لبس معه في صفات البقرة المطلوبة . ونظيره من كلام العرب قول الشاعر ، هو المرقش الأكبر :

ورب أسيلة الخدين بكر . . . مهفهفة لها فرع وجيد

أي فرع فاحم وجيد طويل ، وقول عبيد بن الأبرص :

من قوله قول من فعله . . . فعل ونم نائله نائل

أي قوله قول فصل ، وفعله فعل جميل ، ونائله نائل جزيل ، وإلى هذا أشار في الخلاصة بقوله :

وما من المنعوت والنعت عقل . . . يجوز حذفه وفي النعت يقل

وقال بعض أهل العلم : الآية عامة . فالقرية الصالحة إهلاكها بالموت ، والقرية الطالحة إهلاكها بالعذاب . ولا شك أن كل نفس ذائقة الموت . والمراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، والمسطور : المكتوب . ومنه قوله جرير :

من شاء بايعته مالي وخلعته . . . ما تكمل التيم في ديوانها سطرا

وما يرويه مقاتل عن كتاب الضحاك بن مزاحم في تفسير هذه الآية : من أن مكة تخربها الحبشة ، وتهلك المدينة بالجوع ، والبصرة بالغرق ، والكوفة بالترك ، والجبال بالصواعق

والرواجف . وأما خراسان فهلاكها ضروب . ثم ذكر بلداً بلداً – لا يكاد يعول عليه . لأنه لا اساس له من الصحة ، وكذلك ما يروي عن وهب بن منبه : أن الجزية آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية ، وأرمينية آمنة حتى تخرب مصر ، ومصر آمنة حتى تخرب الكوفة ، ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة . فإذا كانت الملحمة الكبرى فتحت قسطنطينية على يد رجل من بني هاشم . وخراب الأندلس من قبل الزنج ، وخراب إفريقية من قبل الأندلس ، وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها ، وخراب العراق من الجوع ، وخراب الكوفة من قبل عدو يحصرهم ويمنعهم الشارب من الفرات ، وخراب البصرة من قبيل الغرق ، وخراب الأبلة من عدو يحصرهم براً وبحراً ، وخراب الري من الديلم ، وخراب خرسان من قبل التبت ، وخراب التبت من قبل الصين ، وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان ، وخراب مكة من الحبشة ، وخراب المدينة من الجوع اه كل ذلك لا يعول عليه . لأنه من قبيل الإسرائيليات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) ﴾

الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم: قل للذين يُعارضونك في الوحدانية إذا مسّكم ضُرٌّ فلا تلجأوا إلى مَنْ تكفرون به ، بل الجأوا إلى مَنْ زعمتم أنهم شركاء وآمنتم بهم . فإنهم لن يستمعوا إليك ؛ لأن الإنسان بطبعه لا يخدع نفسه ، ولو علموا أن الذين يتخذونهم آلهة من دون الله ينفعونهم في شيء لما دَعَوْا ربهم الذين يكفرون به وتركوا الذين يؤمنون بهم ، لماذا ؟

لأن الإنسان لا يتمرد ولا يطغى إلا إذا كان مُسْتغنياً بكل ملكاته ، بمعنى أن تكون ملكاته كلها على هيئة الاستقامة والانسجام ، فإذا اختلتْ له ملكة من الملكات ضَعُفَ طغيانه ، وحاول أن يستكمل هذا النقص ، وحينئذ لن يخدع نفسه بأن يطلب الاستكمال مِمَّن لا يملكه ، بل يطلبه ممَّنْ يعتقد أنه يملكه .

لذلك يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ . . ﴾ [الإسراء : 67]

وقال: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ . . ﴾ [الزمر : 8]

لماذا ؟ لأن ما أصابه من ضُرٍّ أضعفه ، وكسر عنده غريزة الاستعلاء والاستكبار ، لقد كفر بالله من قبل حينما حمله التكاليف ، ولكن الآن وبعد أن نزل به الضُّر وأحاط به البلاء

فلا بُدَّ أن يكون صريحاً مع نفسه لا يخدعها .

وضربنا لهذه المسألة مثلاً بحلاق الصحة عند أهل الريف في الماضي وكان مسئولاً عن صِحَّة الناس ، ويقوم مقام الطبيب في هذا الوقت ، فإذا ما عُيِّن بالقرية طبيب هاجمه الحلاق وأفسد ما بينه وبين الناس ، وأشاع عنه عدم العلم وقِلَّة الخبرة ليخلوَ له وجه الناس ، ولا يشاركه أحد في رزقه ، ومرَّت الأيام وأصيب الحلاق بضُرٍّ ، حيث مرض ولد له ، فإذا به يحمله خُفْيةً بليْل ، ويتسلل به إلى الطبيب ، ولكن سرعان ما ينكشف أمره ويُفتضح بين الناس .

(53/459)

إذن: الإنسان في ساعة الضر لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، فقل لهم: إذا مسكم الضر فاذهبوا إلى مَن ادعيتم أنهم آلهة وأدعوهم ، فإنهم لن يستجيبوا ولن يدعوهم ، ولو دَعَوْهم فلن يكشفوا عنهم ضرهم: ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ . . ﴾ [الإسراء: 56]

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: 56] أي: ولا يملكون تحويل حالكم من الضر إلى النفع أو النعمة أو الرحمة ، أو: لا يملكون تحويل هذا الضر إلى أعدائكم ، فهم ـ إذن ـ لا يملكون هذه ولا هذه .

فالحق سبحانه يُلقِّن رسوله صلى الله عليه وسلم الحجة، ليوضح لهم أنهم يغالطون أنفسهم، ويعارضون مواجيدهم وفطرتهم، فإن أصابهم الضر في ذواتهم لا يلجأون إلى آلهتهم؛ لأنهم يعلمون أنها لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً، ولن تسمعهم، وإن سمعتهم ـ فرضاً ـ ما استجابوا لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، بل يلجأون إلى الله الذي يملك وحده كَشْف الضُّر عنهم.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ. . . ﴾.

(54/459)

فهؤلاء الذين تعتبرونهم آلهة وتتخذونهم شركاء لله، هؤلاء أيضاً عبيد لله، يتقربون إليه ويتوسَّلون إليه، فالمسيح الذي أشركتموه مع الله، وكذلك الملائكة هم عباد الله: ﴿ لَّن يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاۤئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾[النساء: 172]

هؤلاء لا يرفضون ولا يتأبَّوْن أن يكونوا عباداً لله، ويريدون التقرُّب إليه سبحانه، فكيف ـ إذن ـ تتوجهون إليهم بالعبادة وهم عباد؟

وقوله تعالى: ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ. . ﴾ [الإسراء: 57] أي: يطلبون الغاية والقربى إليه تعالى ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ أي: كلما تقرّب واحد منهم إلى الله ابتغى الله أكْثَر من

غيره وأقبل عليه ، فإذا كان الأقرب إلى الله منهم يبتغي القُرْبى ، فما بال الأبعد ؟

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ [الإسراء: 57]

أي: يجب الحذر منه وتجنُّب أسبابه ؛ لأن العذاب إذا كان من الله فلا فِكاكَ منه ولا مهرب ، وأيضاً فالعذاب يتناسب مع قدرة المعذِّب ضعفاً وشدة ، فإذا نُسِب العذاب إلى الله فلا شكَّ أنه أليم شديد ، لا طاقة لأحد به ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: 102]

والحق سبحانه قد أوضح لنا مسألة الوحدانية في آيات كثيرة ، ولم يطلب منا الاعتراف بها إلا بعد أنْ شهد بها لنفسه سبحانه ، وبعد أن شهد بها الملائكة وأولو العلم ، قال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَاهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: 18]

فشهد الله سبحانه شهادة الذات للذات ، وشهدتْ الملائكة شهادة المشهد والمعاينة ، وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، فهذه شهادات ثلاث قبل أنْ يطلب مِنّا الشهادة .

(55/459)

وبهذه الشهادة أقبل الحق سبحانه على مزاولة سلطانه وقدرته في الكون ، وما دام ﴿ لاَ إِلَاهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ يقول للشيء: كُنْ فيكون ، قالها لأنه يعلم أنه لا إله إلا هو ، وبها يحكم على

الأشياء ويُغيِّر من وضع إلى وضع ، فإنْ صحَّتْ هذه الشهادة الثلاثة فقد انتهت المسألة .

وإنْ لم تصح وهناك إله آخر فأين هو ؟ ! إنْ كان لا يدري فهو إله نائم لا يصلح لهذه المكانة ، وإن كان يدري فلماذا لم يطالب بحقه .

إذن: فهذه الدَّعْوى قد سلمتْ للحق سبحانه لأنه لم يدَّعها أحد لنفسه ، فهي للحق تبارك وتعالى حتى يقوم مَنْ يدعيها لنفسه .

قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: 42]

أي: لو كان للكون إله آخر لطلبوا هذا الإله الذي استقرتْ له الأمور واستتبّ له الحال ، ليُجادلوه في هذه المسألة ، أو لطلبوه ليتقربوا إليه .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً . . . ﴾ .

(56/459)

ساعةَ أنْ تسمعَ ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ ﴾ فاعلم أن الأسلوب قائم على نفي وإثبات ، فالمعنى: لا توجد قرية إلا والله مُهلِكها قبل يوم القيامة ، أو مُعذِّبها عذاباً شديداً ، لكن هل

كل القرى ينسحب عليها هذا الحكم ؟

نقول: لا ، لأن هذا حكم مطلق والإطلاقات في القرآن تُقيّدها قرآنيات أخرى ، وسوف نجد مع هذه الآية قول الحق سبحانه: ﴿ ذَالِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام: 131]

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: 117]

فهذه آيات مُخصّصة تُوضّح الاستثناء من القاعدة السابقة ، وتُقيِّد المبدأ السابق والسور العام الذي جاءت به الآية ، فيكون المعنى - إذن - وإنْ من قرية غير غافلة وغير مُصلِحة إلا والله مُهلكها أو مُعذّبها .

وقوله: ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا ﴾ [الإسراء: 58]

﴿ مُهْلِكُوهَا ﴾ أي: بعذاب الاستئصال الذي لا يُبقِي منهم أحداً .

﴿ مُعَذِّبُوهَا ﴾ أي: عذاباً دون استئصال .

لأن التعذيب مرحلة أولى ، فإنْ أتى بالنتيجة المطلوبة وأعاد الناس إلى الصواب فبها ونِعْمتْ وتنتهي المسألة ، فإنْ لم يقتنعوا وأصرُّوا ولم يرتدعوا وعاندوا يأتي الإهلاك ، وهذا واضح في قول الحق سبحانه: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: 112]

والواقع أن في حاضرنا شواهدَ عدة على هذه المسألة ، فلا بُدَّ لأيِّ قرية طغتْ وبغَتْ أن ينالها شيء من العذاب ، والأمثلة أمامنا واضحة ، ولا داعيَ لذكرها حتى لا ننكأ جراحنا .

(57/459)

وطبيعي أن يأتي العذاب قبل الإهلاك ؛ لأن العذاب إيلام حيٍّ يشعر بالعذاب ويُحِسّ به ، والإهلاك إذهاب للحياة ، وهذا يمنع الإحساس بالعذاب .

وباستقراء تاريخ الأمم السابقة نلاحظ ما حاق بهم من سُنّة إهلاك الظالمين ، فقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط نزل بهم عذاب الله الذي لا يُرَدُّ عن القوم الكافرين ، ولكنه كان عذاب استئصال ؛ لأن الأنبياء في هذا الوقت لم يكونوا مُطَالَبين بحمل السلاح لنشر دعوتهم ، فكان عليهم البلاغ ، والحق سبحانه وتعالى هو الذي يتولّى تأديب المخالفين . إلا إذا طلب أتباع النبي الجهاد معه لنشر دعوته ، كما حدث من أتباع موسى عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: 246]

وهكذا طلب بنو إسرائيل القتال وحَمْل السلاح، ولكن حذّرهم نبيهم، وخشي أنْ يفرضَ عليهم ثم يتقاعسوا عنه، وهذا ما حدث فعلاً ولم يَبْق معه إلا قليل منهم، وهذا القليل سرعان ما تراجع هو أيضاً واحداً بعد الآخر.

إذن: الهِمَّة الإنسانية في هذا الوقت لم يكُنْ عندها استعداد ونضج لأنْ تحملَ سلاحاً في سبيل الله، فكان على الرسول أنْ يُبلِّغ، وعلى السماء أنْ تؤدِّب بهذا اللون من العذاب الذي يستأصلهم فلا يُبقى منهم أحداً.

أما في أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد رحمنا ربنا تبارك وتعالى من هذا العذاب، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: 33]

(58/459)

وهذه هي كرامات الله تعالى لرسوله، فلم يأخذ قومه بعذاب الاستئصال، لماذا؟ لأن رسولهم آخر الرسل وخاتم الأنبياء، وسوف يُناط بهم حَمل رسالته ونَشْر دعوته، والانسياح بمنهج الله في شتى بقاع الأرض.

ذلك لأن الحق - سبحانه وتعالى - حينما يرسل منهجه إلى الأرض يُقدِّر غفلة الناس عن المنهج، ويُقدِّر فكرة التأسِّي بالجيل السابق، فهذان مُعوِّقان في طريق منهج الله، يقول

تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَاذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ [الأعراف: 172-173]

فأوضح لنا الحق سبحانه أن الإنسان يتخبّط أو ينحرف عن المنهج، إما بسبب تقليد أعمى لأُسْوة سيئة، فأول مَنْ تلقى عن الله آدم، ثم بلّغ ذريته منهج الله، وبمرور الأجيال حدثتْ الغفلة عن بعض المنهج نتيجة ما رُكّب في الإنسان من حُبٍّ للشهوات، وهذه الشهوات هي التي تصرفه عن منهج ربه، فإنْ حدثت غفلة في جيل فإنها سوف تزداد في الجيل التالي، وهكذا؛ لأن الجيل سيقع تحت مُؤثّرين: الغفلة الذاتية فيه، والتأسي بالجيل السابق.

إذن: بتوالي الأجيال وازدياد الغفلة عن المنهج لا بُدَّ أن الحق سبحانه سيبعث في مواكب الرسل مَنْ يُنبّه الناس.

ومن هنا كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم خَيْر أمة أُخرجتْ للناس: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . . ﴾ [آل عمران: 110] لماذا؟ ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: 110] فخيرية هذه الأمة ناشئة من حَمْل رسالة الدعوة ، وقد كرَّم الله أمة محمد بأنْ جعل كل مَنْ آمن به يحمل دعوته إلى يوم القيامة ، لقد بلّغ الرسول من عاصروه مَنْ أمته ، وعلى أمته أن تبلّغ مَنْ بعده ؛ لذلك يشهد علينا رسول الله ، ونشهد نحن على الناس .

وفي الحديث الشريف " نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فَرُبَّ مُبلَّغ أَوْعَى من سامع " .

وهكذا تظل في الأمة هذه الخيرية وتحمل دعوة رسولها حيث لا رسول من بعده إلى يوم القيامة ، ولأهمية هذا الدور الذي يقوم به المسلمون في كل زمان ومكان يُنبّهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مسألة هامة في مجال حَمْل الدعوة ونَشْرها ، فيقول:

" إن كل واحد منكم يقف على ثغرة من ثغرات هذا الدين ، فإياكم أن يؤتى الدين من ثغرة أحدكم " أو كما قال .

فليعلم كل مسلم أنه محسوب للدين أو عليه ، فالعيون تتطلع إليه وتَرْصُد تصرفاته في مجتمعه ، فهو صورة للدين وسفير له ، وعليه أن يراعي هذه المسئولية ويقوم بها على أكمل وجه ليكون أداة جَذْب ، وليكون وجهاً مشرقاً لتعاليم هذا الدين .

فأنت حارس على باب من الأبواب ، وعليك أنْ تسدَّه بصدق انطباعك عن الإيمان ،

وبصدق انقيادك لقضايا الإسلام ، وبهذا السلوك تكون وسيلة إغراء للآخرين الذين يراودهم الايمان ، ويتراءى لهم منهج الله من بعيد .

(60/459)

ويحلو للبعض أن يأخذوا الإسلام بجريرة أهله ، ويحكموا عليه بناءً على تصرفات المنتسبين إليه ، وهذا خطأ ، فَمنْ أراد الصورة الحقيقية للإسلام فليأخذْها من منابع الدين في كتاب الله وسنة رسوله ، فإنْ رأيتَ بين المنتسبين للإسلام سارقاً فلا تقُلْ: هذا هو الإسلام ؛ لأن الإسلام حرَّم السرقة ، وجعل لها عقوبة وحَدّاً يُقَام على السارق ، وليس لأحد أن يكون حجة على دين الله .

لذلك فإن كبار العلماء والمفكرين الذين درسوا في الدين الإسلامي لم ينظروا إلى تصرُّفات المسلمين وحاضرهم ، بل أخذوه من منابعه الأصلية . ومنهم " جينو " الفرنسي الذي قال: الحمد لله الذي هداني للإسلام قبل أن أعرف المسلمين . لأنه في الحقيقة لو اطلع على أحوالنا الآن لَكَان في المسألة كلام آخر .

إذن: الذين نظروا إلى قضايا الإسلام نظرة عَدْل وإنصاف لا بُدَّ أن يهتدوا إلى الإسلام ، لكن منهم مَنْ نظر إليه نظرة عَدْل وإنصاف إلا أنهم أبعدوا قضية التديّن من قلوبهم ، وإن اقتنعتْ

بها عقولهم ، وفَرْق كبير بين القضية العقلية والقضية القلبية .

ومن هؤلاء الكاتب الذي ألَّفَ كتاباً عن العظماء في التاريخ وأسماه: " العظماء مائة أعظمهم محمد بن عبد الله " وهو كاتب غير مؤمن ، لكنه أخذ يستقرئ صفحة التاريخ ، ويسجِّل أصحاب الأعمال الجلية التي أثَّرت في تاريخ البشرية ، فوجدهم مائة ، وبالمقارنة بينهم وجد أن أعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك لم يتربَّ محمد في مدرسة ، ولم يتخرج في جامعة ، ولم يجلس إلى مُعلم .

ألم تسأل نفسك أيها المؤلف: من أين أتى محمد بهذه الأوليّة ؟ ولماذا استحق أن يكون في المقدمة ؟ لقد ذكرتَ حيثيات النبوغ في جميع شخصياتك ، من تربية ودراسة في جامعات وعلى أساتذة وإطلاع وأبحاث ، فلماذا لم تذكر حيثيات النبوغ في رسول الله ؟ ألم تعلم أنه أُميّ في أمة أُميّة ؟ مما يدل على أن هذا الباحث تناول هذه القضية بعقله لا بقلبه .

(61/459)

نعود إلى مسألة الإهلاك والعذاب ؛ لأنها أثارتْ خلافاً بين رجال القانون في موضوع إقامة حَدّ الرجْم على الزاني المحصن والجَلْد للزاني غير المحصن ، فقد رأى جماعة منهم أن الجلد ثابت بالقرآن ، أما الرجم فثابت بالسنة ، لذلك قال بعضهم بأن رجم الزاني المحصَن سنة .

وهذا قول خاطئ وبعيد عن الصواب ، لأن هناك فرقاً بين سُنية الدليل وسُنية الحكم ، فسُنية الدليل أن يكون الأمر فَرْضاً ، لكن دليله من السنة كهذه المسألة التي معنا . وكصلاة المغرب مثلاً ثلاث ركعات وهي فَرْض لكن دليلها من السنة ، أما سُنية الحكم فيكون الحكم نفسه سُنة يُثَاب فاعله ، ولا يُعَاقب تاركه كالتسبيح ثلاثاً في الركوع مثلاً .

إذن: فرجْم الزاني المحصَن فَرْض ، لكن دليله من السنة ، فالسُّنة هنا سُنية دليل ، لا سنية حكم .

فمَنْ يقول: إن الرجْم لم يَرِدْ به نصٌّ في كتاب الله ، نقول: الدليل عليه جاء في السنة ، وهي المصدر الثاني للتشريع ، حتى على قول مَنْ قال بأن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع ، ففي القرآن: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر: 7]

إذن: ففِعْل الرسول صلى الله عليه وسلم كنصِّ القرآن سواء بسواء ، وهل رجم في عهد رسول الله أو لم يرجم؟ رجم فعلاً في عهد رسول الله ، فإنْ قال قائل: فهذا ليس نصّاً في الرجْم . نقول: بل الفعل أقوى من النص قد نتأول فيه ، أما الفعل فهو صريح لا يحتمل تأويلاً .

ودليل آخر على فرضية الرجم ، وهو الشاهد في هذه الآية ، في قوله تعالى عن إقامة الحد على الأمة: ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ . . ﴾ [النساء: 25]

فيقولون: الرجْم لا يُنصَّف . إذن: ليس هناك رَجْم . نقول: أنتم لم تُفرِّقوا بين الرجم وبين

العذاب، فالرجم إماتة، والعذاب إيلام لحيٍّ يشعر ويُحِسُّ بهذا الإيلام، والمقصود به (الجَلْد).

(62/459)

إذن: ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ.. ﴾ [النساء: 25] أي: من الجَلْد، وهو الذي يُنصَّف، ولو كان الحكم عاماً لَقَال: فعليهن نصف ما على المحصنات.

فقوله: ﴿ مِنَ الْعَذَابِ.. ﴾ [النساء: 25] دليل على وجود الرَّجْم الذي لا فَرْق فيه بين حُرة وأمة.

وكذلك نلحظ التدرج من العذاب إلى الإهلاك في قول سليمان ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ حينما تفقّد الطير، واكتشف غياب الهدهد: ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ.. ﴾ [النمل: 21]

ولسائل أنْ يسأل: هل لا بُدَّ للقرى الظالمة أن ينالها الإهلاك أو العذاب قبل يوم القيامة؟

نعم لا بُدَّ أن يمسَّهم شيء من هذا؛ لأن الله تعالى لو أخّر كل العذاب لهؤلاء إلى يوم القيامة لاستشرى الظلم وعمَّ الفساد في الكون، وحين يرى الناس الظالم يرتع في الحياة، وينعم بها مع ظلمه لأغراهم ذلك بالظلم، أما إذا رأوه وقد حاق به سوء عمله، ونزلت به النوازل

لا رتدعوا عن الظلم ، ولَعِلموا أن عاقبته وخيمة ، ولن يفلت الظالم من عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة . أما لو تأخر عذاب الظالمين إلى الآخرة ، فالوَيْل مِمَّنْ لا يؤمنون بها .

لذلك لما مات رَأْسٌ من رؤوس الظلم في الشام ، ولم يَرَ الناس أثراً لعذاب أو نقمة ، قال أحدهم: إن وراء هذا الدار داراً يُجَازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ؛ لأنه يستحيل أنْ يُفلِتَ الظالم من العذاب .

وفي مناقشتي مع الشيوعيين في بروكسل قلت لهم: لقد قسوتُمْ على المخالفين لكم من الرأسماليين والإقطاعيين عام 1917 وما بعدها ، فقالوا : إنهم يستحقون أكثر من ذلك ، فقد فعلوا كذا وكذا ، قُلْت: منذ متى ؟ قالوا : طوال عمرهم وهم يفعلون ذلك ، فقلتُ: إذا كنتم أخذتم المعاصرين لكم بذنوبهم ، فما بال الذين سبقوهم ؟ وما حظّهم من العقاب الذي أنزلتموه بإخوانهم ؟ قالوا : ما أدركناهم .

قلت: إذن كان من الواجب عليكم أنْ تؤمنوا باليوم الآخر ، حيث سيعذب فيه هؤلاء ، فإنْ أفلتوا من عذاب الدنيا جاءت الآخرة لتُصفّي معهم الحساب ، كما يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ . . ﴾ [الطور: 47] وأريد منكم أنْ تطلعوا على تفسير

هذه الآية التي نحن بصددها : ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾ [الإسراء: 58]

راجعوا تفسيرها في كتاب النسفي ، وسوف تجدون به أمثلة تُؤيِّد هذه الآية ، يقول: قرية كذا سيحدث لها كذا ، وقرية كذا سيحدث لها كذا . وقد جاء الواقع على وفق ما قال ، إلى أن ذكر مصر وقال عنها كلاماً طويلاً أظن أنه يُمثِّل ما أصاب مصر منذ سنة 1952 ، وكان مما قال عنها : ويدخل مصر رجل من جهينة فويْلٌ لأهلها ، وويل لأهل الشام ، وويل لأهل أفريقيا ، وويل لأهل الرملة ، ولا يدخل بيت المقدس . اقرأوا هذا الكلام عند النسفي .

ثم يقول تعالى: ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾ [الإسراء: 58]

أي: مُسجّل ومُسطّر في اللوح المحفوظ ، ولا يقول الحق سبحانه: ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾ [الإسراء: 58] وتأتي الأحداث بغير ذلك ، بل لا بُدَّ أنْ يؤكد هذه الحقائق القرآنية بأحداث كونية واقعية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(64/459)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا) (الإسراء : 56) ، وفي سورة سبأ : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) (سبأ : 22) ، للسائل أن يسأل عن الوجه في ورود اسم الجلالة مضمراً في قوله : (مِنْ دُونِهِ) في سورة الإسار ، ومظهراً في قوله : (مِنْ دُونِ اللَّهِ) في السورة الأخرى وهل كان يجوز العكس ؟

والجواب : أن آية سبأ تقدم قبلها تعالى مخبراً عن الكافرين : (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ) (سبأ : 20) ، ثم قال بعد آية من تمام الآية التي قبلها : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) (سبأ : 22) ، فجيء بالاسم الظاهر ليكون أبعد على إيهام عودة الضمير ورجوعه إلى المتبع لهم في الآية المتقدمة ، وإنما المراد قل ادعوا كل من اتبعتم بعبادة أو صغو إلى ما يريده من إضلالكم ، ولا شك أن إبليس رأس المضلين ، وأولى من أمروا تعجيزاً لهم وقطعاً (بهم) بدعائه في قوله (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) (سبأ : 22) ، فورد التحفيظ بإيراد الظاهر مما كان المضمر يوهمه ، وجاءت الآية على ما يجب .

أما آية بني إسرائيل فإن قبلها قوله تعالى : (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ) (الإسراء : 54) ، ثم قال : (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (

الإسراء : 55) الآية ، ثم قال : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ) (الإسراء : 56) بالضمير مناسبة ، ولم يكن ليناسب الظاهر هنا ، فجاء كل على ما يجب ويناسب ، والله أعلم .

(65/459)

فإن قيل : فقد ورد قبل قوله : (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ) (الإسراء : 54) ، وقوله : (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ) (الإسراء : 53) كما ورد قبل آية سبأ ، فلم خصت آية سبأ بعودة الاسم ظاهراً دون آية بني إسرائيل ؟ قلت : ورد ذكره في بني إسرائيل (محذراً منه) موصوفاً بنزعه وعداوته ، مع أن الآية خطاب بأمر المؤمنين بقوله : (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (الإسراء : 53) ، والإضافة في قوله : (وَقُلْ لِعِبَادِي) إضافة تخصيص ، والأمر أمر بما هو أولى ، وليس يواجه ولا يخاطب بها إلا المؤمنون ، ثم إنها أتبعت بما يلائم الآية المتكلم فيها أجل ملاءمة . وأما ورود ذكر إبليس في سورة سبأ فمتصل بالآية ، وإبلييس فيها موصوف بأنه أتبع ، وأنه صدق ظنه على المذكورين ، والآية إخبار عن الكفار ، والكلام كله إعلام بحالهم إلى قوله : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ) (سبأ : 22) ، فهذا الاعتراض غير لازم ، وورود كل من الآيتين على أعلى تناسب وأجل ملاءمة ، ولو

قدر عكس الوارد لما صح على الجاري المطرد في نظم الكتاب العزيز ، والله أعلم بما أراد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 312. 313 ﴾

(66/459)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [57] قال : رحمته جنته في الظاهر وفي الباطن حقيقة المعروف .

ثم قال : إن الخوف والرجاء زمانان للإنسان فإذا استوى قامت له أحواله ، وإذا رجح أحدهما بطل الآخر ، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا » . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 95 ﴾

(67/459)

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) ﴾

أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل ، عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ قال : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن ، فأسلم النفر من الجن ، وتمسك الإنسيون بعبادتهم ، فأنزل الله ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ كلاهما بالياء .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن ، فأسلم الجنيون ، والنفر من العرب لا يشعرون بذلك .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كانت قبائل من العرب يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن ، ويقولون هم بنات الله ، فأنزل الله ﴿ أولئك الذين يدعون ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية .

قال : كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيراً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فلا يملكون كشف الضر عنكم ﴾ قال : عيسى وأمه وعزير .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أولئك الذين يدعون ﴾ قال : هم عيسى وعزير والشمس والقمر .

(68/459)

وأخرج الترمذي وابن مردويه واللفظ له ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " " سلوا الله لي الوسيلة " قالوا : وما الوسيلة ؟ قال : " القرب من الله " ثم قرأ ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ " .

﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (58) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة ﴾ قال : مبيدوها أو معذبوها . قال : بالقتل

والبلاء كل قرية في الأرض سيصيبها بعض هذا .

وأخرج ابن جرير من طريق سماك بن حرب ، عن عبد الرحمن بن عبد الله رضي الله عنه قال : إذا ظهر الزنا ، والربا في قرية ، أذن الله في هلاكها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن إبراهيم التيمي في قوله : ﴿ كان ذلك في كتاب مسطوراً ﴾ قال : في اللوح المحفوظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(69/459)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الذين زَعَمْتُم ﴾ : مفعولا الزُّعم محذوفان لفَهْمِ المعنى ، أي : زَعَمْتُوهم آلهةً ، وحَذْفُهما اختصاراً جائزٌ ، واقتصاراً فيه خلافٌ .

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يَدْعُونَ ﴾ :

" أولئك " مبتدأٌ ، وفي خبره وجهان ، أظهرُهما : أنه الجملةُ مِنْ " يبتغون " ويكون الموصولُ نعتاً أو بياناً أو بدلاً ، والمرادُ باسم الإِشارة الأنبياءُ الذين عُبِدوا مِنْ دون الله . والمرادُ

بالواوِ العبَّادُ لهم، ويكون العائدُ على "الذين" محذوفاً، والمعنى: أولئك الأنبياءُ الذين يَدْعُونهم المشركون لكَشْفِ ضُرِّهم - أو يَدْعُونهم آلهةً، فمفعولها أو مفعولاها محذوفان - يَبْتَغون.

ويجوز أن يكونَ المرادُ بالواوِ ما أُريد بأولئك، أي: أولئك الأنبياءُ الذين يَدْعُون ربَّهم أو الناسَ إلى الهدى يَبْتغون، فمفعول "يَدْعُون" محذوف.

والثاني: أن الخبرَ نفسُ الموصولِ، و "يَبْتَغُون" على هذا حالٌ مِنْ فاعل "يَدْعُون" أو بدلٌ منه. وقرأ العامَّةُ "يَدْعُون" بالغيب، وقد تقدَّم الخلافُ في الواو: هل تعودُ على الأنبياء أو على عابدِيْهم. وزيد بن علي بالغَيْبة أيضاً، إلا أنه بناه للمفعول. وقتادةُ وابنُ مسعودٍ بتاء الخطاب. وهاتان القراءتان تقوِّيان أن الواوَ للمشركين لا للأنبياءِ في قراءة العامَّة.

قوله: ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ في "أيُّ" هذه وجهان، أحدُهما: أنها استفهاميةٌ.

والثاني: أنها موصولةٌ بمعنى الذي، وإنما كَثُر كلامُ المُعْرِبين فيها من حيث التقديرُ. فقال الزمخشري: "وأيُّهم بدلٌ مِنْ واو "يَبْتغون" و "أيُّ" موصولةٌ، أي: يبتغي مَنْ هو أقربُ منهم وأَزْلَفُ، أو ضُمِّن [يَبْتَغُون] الوسيلةَ معنى يَحْرِصُون، فكأنه قيل: يَحْرِصُون أيُّهم

يكون أقربَ" . قلت : فَجَعَلَها في الوجهِ الأولِ موصولةً ، وصلتُها جملةٌ مِنْ مبتدأ وخبر ، حُذِف المبتدأ وهو عائدُها ، و "أَقْرَبُ" خبرٌ "هو" واحتملت "أيُّ" حينئذٍ أن تكونَ مبنيةً ، وهو الأكثرُ فيها ، وأن تكونَ مُعْرَبَةً ، ولهذا موضعٌ هو أليقُ به في مريم . وفي الثاني جَعَلَها استفهاميةً بدليل أنه ضَمَّن الابتغاءَ معنى شيءٍ يُعَلَّقُ وهو "يَحْرُصون" ، فيكون "أيُّهم" مبتدأً و "أقربُ" خبرَه ، والجملةُ في محلِّ نصبٍ على إسقاطِ الخافض ؛ لأنَّ "يَحْرِص" يتعدَّى ب "على" قال تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ ﴾ [النحل : 37] ﴿ أَحْرَصَ الناس على حَيَاةٍ ﴾ [البقرة : 96] .

وقال أبو البقاء : "أيُّهم" مبتدأ ، و "أقربُ" خبرُه وهو استفهامٌ في موضع نصب ب "يدْعُونَ" ، ويجوز أن يكونَ "أيُّهم" بمعنى الذي ، وهو بدلٌ مِنَ الضميرِ في "يَدْعُوْن" .

قال الشيخ : "علَّق "يَدْعُون" وهو ليس فعلاً قلبياً ، وفي الثاني فَصَلَ بين الصلةِ ومعمولِها بالجملةِ الحاليةِ ، ولا يَضُرُّ ذلك لأنها معمولةٌ للصِّلَة" . قلت : أمّا كونُ "يَدْعُون" لا يُعَلِّق هو مذهبَ الجمهور .

وقال يونس: يجوز تعليقُ الأفعالِ مطلقاً، القلبيةِ وغيرِها. وأمَّا قولُه "فَصَل بالجملة الحالية" يعني بها "يَبْتَغُون" فَصَل بها بين "يَدْعون" الذي هو صلةُ "الذين" وبين معمولِه وهو ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ لأنه مُعَلَّقٌ عنه كما عَرَفْتَه، إلا أنَّ الشيخَ لم يتقدَّمْ في كلامِه أعرابُ "يبتغون" حالاً، بل لم يُعْرِبْها إلا خبراً للموصول، وهذا قريب.

وجعل أبو البقاء أيَّاً الموصولة بدلاً من واو "يَدْعُون" ولم أَرَ أحداً وافقه على ذلك، بل كلُّهم يجعلونها مِنْ واو "يَبْتَغون" وهو الظاهر.

وقال الحوفي: "﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ ابتداءٌ وخبر، والمعنى: ينظرون أيُّهم أقربُ فيتوسَّلون به، ويجوز أن يكونَ "﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾/ بدلاً من واو "يَبْتغون". قلت: فقد أضمر فعلاً معلَّقاً وهو "ينظرون"، فإن كان مِنْ نَظَرِ البصرِ تَعَدَّى ب"إلى"، وإن كان مِنْ نظَرِ الفِكْرِ تعدَّى ب"في"، فعلى التقديرين الجملةُ الاستفهامية في موضعِ نصبٍ بإسقاطِ الخافضِ، وهذا إضمارُ ما لا حاجةَ إليه.

وقال ابن عطية: "وأيُّهم ابتداءٌ، و"أقربُ" خبرُه، والتقدير: نَظَرُهم ووَكْدُهم أيُّهم أقربُ، ومنه قولُ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه: "فبات الناس يَدُوكون أيُّهم يُعطاها"، أي: يتبارَوْن في القُرْب". قال الشيخ: "فَجَعَل المحذوفَ "نَظَرُهم ووكْدُهم" وهذا مبتدأ، فإن جعلْتَ ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ في موضعِ نصبٍ ب"نَظَرُهم" بقي المبتدأ بلا خبر، فَيَحْتاج إلى إضمار خبر، وإن جعلت ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [هو] الخبر لم يَصِحَّ؛ لأنَّ نظرَهم ليس هو

أيهم أقرب ، وإنْ جعَلتَ التقدير : نَظَرُهم في أيهم أقربُ ، أي : كائنٌ أو حاصلٌ ، لم يَصِحَّ ذلك ؛ لأنَّ كائناً وحاصلاً ليس ممَّا يُعَلَّق " .

(72/459)

قلت : فقد تحصَّل في الآيةِ الكريمةِ ستةُ أوجهٍ ، أربعةٌ حالَ جَعْلِ " أيّ " استفهاماً . الأولُ أنها مُعَلَّقةٌ للوسيلة كما قرَّره الزمخشري . الثاني : أنها مُعَلَّقةٌ ل " يَدْعُون " كما قاله أبو البقاء . الثالث : أنها مُعَلَّقةٌ ل " يَنْظرون " مقدرًا ، كما قاله الحوفيُّ . الرابع : أنها مُعَلَّقةٌ ل " نَظَرُهُمْ " كما قدَّره ابن عطية . واثنان حالَ جَعْلِها موصولةً ، الأول : البدلُ مِنْ واو " يَدْعُون " كما قاله أبو البقاء . الثاني : أنها بدلٌ مِنْ واو " يَبْتَغون " كما قاله الجمهور .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ :

" إن " نافيةٌ و " مِنْ " مزيدةٌ في المبتدأ لاستغراقِ الجنس . وقال ابنُ عطية : " هي لبيانِ الجنسِ ، وفيه نظرٌ مِنْ وجهين ، أحدهما قال الشيخ : " لأنَّ التي للبيان لا بُدَّ أَنْ يتقدَّمَها مبهمٌ ما ، تُفَسِّره كقوله : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ [فاطر : 2] ، وهنا لم يتقدَّم شيءٌ مبهمٌ " . ثم قال " ولعلَّ قولَه لبيانِ الجنسِ من الناسخِ ، ويكون هو قد قال : لاستغراقِ الجنس ، ألا ترى أنه قال بعد ذلك : " وقيل : المرادُ الخصوصُ " .

وخبرُ المبتدأ الجملةُ المحصورةُ مِنْ قولِه : ﴿ إلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا ﴾ .

والثاني : أنَّ شَرْطَ ذلك أَنْ يَسْبِقَها مُحَلًّى بأل الجنسية ، وأن يَقَعَ موقعَها " الذي " كقولِه :

﴿ فاجتنبوا الرجسَ مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون

حـ 7 صـ 372.376 ﴾

(73/459)

فصل فى منزلة الرجاء

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الرجاء

قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء : 57] فابتغاء الوسيلة إليه : طلب القرب منه بالعبودية والمحبة فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التى عليها بناؤه : الحب والخوف والرجاء قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾ [العنكبوت : 5] وقال : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [الكهف : 110] وقال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة : 218] وفي صحيح

مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل موته بثلاث: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه" وفي الصحيح عنه: "يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء" الرجاء حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة ويطيب لها السير وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه وقيل: هو الثقه بجود الرب تعالى والفرق بينه وبين التمني أن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد و الرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل

فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها

والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل

قال شاه الكرماني: علامة صحة الرجاء: حسن الطاعة والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان ونوع غرور مذموم

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فهو راج لثوابه ورجل أذنب ذنوبا ثم تاب منها فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه

والثالث: رجل متماد في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب وللسالك نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله يفتح عليه باب الخوف إلى سعة فضل ربه وكرمه وبره ونظر يفتح عليه باب الرجاء ولهذا قيل في حد الرجاء هو النظر إلى سعة رحمة الله

وقال أبو علي الروذباري الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت وسئل أحمد بن عاصم: ما علامة الرجاء في العبد فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر راجيا لتمام النعمة من الله عليه في الدنيا والآخرة وتمام عفوه عنه في الآخرة واختلفوا أي الرجائين أكمل: رجاء المحسن ثواب إحسانه أو رجاء المسيء التائب مغفرة ربه وعفوه فطائفة رجحت رجاء المحسن لقوة أسباب الرجاء معه وطائفة رجحت رجاء المذنب لأن رجاءه مجرد عن علة رؤية العمل مقرون بذلة رؤية الذنب قال يحيى بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أصفيها وأحرزها وأنا

بالآفات معروف وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود

موصوف

وقال أيضا: إلهى أحلى العطايا في قلبي رجاؤك وأعذب الكلام على لساني ثناؤك وأحب الساعات إلي ساعة يكون فيها لقاؤك

فصل قال صاحب المنازل: الرجاء: أضعف منازل المريدين لأنه

معارضة من وجه واعتراض من وجه وهو وقوع في الرعونة في مذهب هذه الطائفة وفائدة واحدة نطق بها التنزيل والسنة وتلك الفائدة: هي كونه يبرد حرارة الخوف حتى لا يفضي بصاحبه إلى اليأس شيخ الإسلام حبيب إلينا والحق أحب إلينا منه وكل من عدا المعصوم فمأخوذ من قوله ومتروك ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله ثم نبين ما فيه

أما قوله: الرجاء أضعف منازل المريدين فيعني بالنسبة إلى ما فوقه من المنازل كمنزلة المعرفة والمحبة والإخلاص والصدق والتوكل لا أن مراده ضعف حال هذه المنزلة في نفسها وأنها منزلة ناقصة وأما قوله: لأنه معارضة من وجه واعتراض من وجه فلأنه تعلق بمراد العبد من ربه من الإحسان والثواب والإفضال وقد يكون مراده تعالى من عبده: استيفاء حقه ومعاملته بحكم عدله له لما له في ذلك من الحكمة فإذا أراد العبد منه معاملته بحكم

الفضل دخل في نوع معارضة وكأن الراجي تعلق قلبه بما يعارض تصرف المالك فى ملكه وذلك ينافي حكم استسلامه وانقياده وانطراحه بين يدى ربه مستسلما لما يحكم به فيه فرجاؤه معارض لحكمه وإرادته ووقوف مع مراده من سيده وذلك يعارض مراد سيده منه والمحب الصادق من فني بمراد محبوبه عن مراده منه ولو كان فيه تعذيبه

وأما وجه الاعتراض: فهو أن القلب إذا تعلق بالرجاء ولم يظفر بمرجوه: اعترض حيث لم يحصل له مرجوه ولم يظفر به وإن ظفر به: اعترض حيث فاته غيره ذلك المرجو لأن كل أحد يرجو فضل الله ويحدث نفسه به وفيه وجه آخر من الاعتراض: وهو أن يعترض على ربه تعالى بما يرجو منه لأن الراجي متمن لما يرجو مؤثر له وذلك اعتراض على القدر مناف لكمال الاستسلام والرضى بما سبق به القضاء فإذا تيقن له أنه سبق القضاء بشيء فإنه لابد أن يناله فعلق قلبه برجاء شيء من الفضل فقد اعترض على القضاء ولم يعرف للاستسلام للحكم حقه وذلك وقوع في الرعونة في مذهب السائرين على درب الفناء الناظرين إلى عين الجمع إذ الرعونة هي الوقوف مع حظ النفس والرجاء هو الوقوف مع الحظ لأنه يتعلق بالحظوظ وأصحاب هذه الطريقة أول طريقهم: الخروج عن نفوسهم فضلا عن

حظوظها لأنهم عاملون على أن يكونوا بالله لا بنفوسهم فغاية المحب: أن يرضى بأحكام محبوبه عليه ساءته أم سرته حتى يبلغ بأحدهم هذا الحال إلى أن ينشد:

أحبك لا أحبك للثواب . . . ولكني أحبك للعقاب

وكل مآربي قد نلت منها . . . سوى ملذوذ وجدي بالعذاب

ولو كان نفس تلذذه بالعذاب مقصوده من العذاب: لكان أيضا واقفا مع حظه ولكن أراد أن رضاه بمراد محبوبه منه ولو كان عذابه لم يدع فيه للرجاء موضعا ولا للخوف بل يقول: أنا أحب ما تريده بي لو أنه عذابي وقد كشف بعض المغرورين عن هذا بقوله:

وتعذيبي مع الهجران عندي . . . أحب إلي من طيب الوصال

لأني في الوصال عبيد حظي . . . وفي الهجران عبد للموالي

فأخبر أن التعذيب بالهجران أحب إليه من طيب الوصال لكون الوصال فيه ما تشتهيه النفس وأما التعذيب: فليس للنفس فيه مقصود ثم أخبر أنه لم يأت في القرآن والسنة إلا لفائدة واحدة وهي تبريده لحرارة الخوف حتى لا يفضي بصاحبه إلى الإياس وهذا وجه كلامه وحمله على أحسن المحامل فيقال: هذا ونحوه من الشطحات التي ترجى مغفرتها

بكثرة الحسنات ويستغرقها كمال الصدق وصحة المعاملة وقوة الإخلاص وتجريد التوحيد ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس

إحداهما : حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة ولطف نفوسهم وصدق معاملتهم فأهدروها لأجل هذه الشطحات وأنكروها غاية الإنكار وأساءوا الظن بهم مطلقا وهذا عدوان وإسراف فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة وأهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطلت معالمها

والطائفة الثانية: حجبوا بما رأوه من محاسن القوم وصفاء قلوبهم وصحة عزائمهم وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم ونقصانها فسحبوا عليها ذيل المحاسن وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها واستظهروا بها في سلوكهم وهؤلاء أيضا معتدون مفرطون

والطائفة الثالثة: وهم أهل العدل والإنصاف الذين أعطوا كل ذي حق حقه وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح بل قبلوا ما يقبل وردوا ما يرد

وهذه الشطحات ونحوها هي التي حذر منها سادات القوم وذموا عاقبتها وتبرؤا منها حتى ذكر أبو القاسم القشيري فى رسالته: أن أبا سليمان الداراني رؤى بعد موته فقيل له:

ما فعل الله بك فقال: غفر لي وما كان شيء أضر علي من إشارات القوم وقال أبو القاسم: سمعت أبا سعيد الشحام يقول: رأيت أبا سهل الصعلوكي في المنام فقلت له: أيها الشيخ فقال: دع التشييخ فقلت: وتلك الأحوال فقال: لم تغن عنا شيئًا فقلت: ما فعل الله بك قال: غفر لي بمسائل كانت تسأل عنها العجائز

وذكر عن الجريري: أنه رأى الجنيد في المنام بعد موته فقال: كيف حالك يا أبا القاسم فقال: طاحت تلك الإشارات وفنيت تلك العبارات وما نفعنا إلا تسبيحات كنا نقولها بالغدوات وقال أبو سليمان الداراني: تعرض علي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل: الكتاب والسنة وقال الجنيد: مذهبنا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب

الحديث لا يقتدي به في طريقنا

هذا إلى غير ذلك من الأقوال التي وردت عنهم رضي الله عنهم

فأما قوله: الرجاء أضعف منازل المريدين فليس كذلك بل هو من أجل منازلهم وأعلاها وأشرفها وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله وقد مدح الله تعالى أهله وأثنى عليهم فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب: 21] وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل: "يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي" وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله عز وجل: "أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وإن اقترب إلي شبرا اقتربت إليه ذراعا وإن اقترب إلي ذراعا اقتربت إليه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة" رواه مسلم وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى: أنهم كانوا راجين له خائفين منه فقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ [الإسراء: 5957]

يقول تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني: هم عبادي يتقربون إلي بطاعتي ويرجون

رحمتي ويخافون عذابي فلماذا تدعونهم من دوني فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم: من الحب والخوف والرجاء

قوله: لأنه معارضة من وجه واعتراض من وجه يقال: وهو عبودية وتعلق بالله من حيث اسمه المحسن البر فذلك التعلق والتعبد بهذا الاسم والمعرفة بالله: هو الذي أوجب للعبد الرجاء من حيث يدري ومن حيث لا يدري فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وغلبة رحمته غضبه ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات ولى من أبيات:

لولا التعلق بالرجاء تقطعت . . . نفس المحب تحسرا وتمزقا

وكذاك لولا برده بحرارة ال . . . كباد ذابت بالحجاب تحرقا

أيكون قط حليف حب لا يرى . . . برجائه لحبيبه متعلقا

أم كلما قويت محبته له . . . قوي الرجاء فزاد فيه تشوقا

لولا الرجا يحدو المطي لما سرت . . . بحمولها لديارهم ترجو اللقا

وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء وكل محب راج خائف بالضرورة فهو أرجى ما يكون لحبيبه أحب ما يكون إليه وكذلك خوفه فإنه يخاف سقوطه من عينه وطرد محبوبه له وإبعاده واحتجابه عنه فخوفه أشد خوف ورجاؤه ذاتي للمحبة فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له لما يحصل له به من حياة روحه ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه وبره وإقباله عليه ونظره إليه بعين الرضى وتأهيله في محبته وغير ذلك مما

لا حياة للمحب ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه فرجاؤه أعظم رجاء وأجله وأتمه فتأمل هذا الموضع حق التأمل يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبودية والمحبة فكل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء وعلى قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه لكن خوف المحب لا يصحبه وحشه بخلاف خوف المسيء ورجاء المحب لا يصحبه علة بخلاف رجاء الأجير وأين رجاء المحب من رجاء الأجير وبينهما كما بين حاليهما

وبالجملة: فالرجاء ضروري للمريد السالك والعارف لو فارقه لحظة لتلف أو كاد فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه وعيب يرجو إصلاحه وعمل صالح يرجو قبوله واستقامة يرجو حصولها ودوامها وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها ولا ينفك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها فكيف يكون الرجاء من أضعف منازله وهذا حاله وأما حديث المعارضة والاعتراض فباطل فإن الراجي ليس معارضا ولا معترضا بل راغبا راهبا مؤملا لفضل ربه محسن الظن به متعلق الأمل ببره وجوده عابدا له بأسمائه المحسن البر المعطي الحليم الغفور الجواد الوهاب الرزاق والله سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يرجوه ولذلك كان عند رجاء العبد له وظنه به و الرجاء من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه بل هو من أقوى الأسباب ولو تضمن معارضة واعتراضا لكان ذلك في الدعاء والمسألة أولى فكان دعاء العبد ربه وسؤاله أن يهديه ويوفقه ويسدده ويعينه على طاعته ويجنبه معصيته ويغفر ذنوبه ويدخله الجنة وينجيه من النار معارضة واعتراضا لأن الداعي راج وطالب ما يرجوه فهو أولى حينئذ بالمعارضة والاعتراض

والذي أوجب للشيخ هذا القدر: الاسترسال في القدر والفناء في شهود الحقيقة الكونية فإنه من الراسخين فيه الذين لا تأخذهم فيه لومة لائم وهو شديد فى إنكار الأسباب وهذا موضع زلت فيه أقدام أئمة أعلام

ولولا أن حق الحق أوجب من حق الخلق لكان في الإمساك فسحة ومتسع وليس في الرجاء ولا في الدعاء معارضة لتصرف المالك في ملكه فإنه إنما يرجو تصرفه في ملكه أيضا بما هو أولى وأحب الأمرين إليه فإن الفضل أحب إليه من العدل والعفو أحب إليه من الانتقام والمسامحة أحب إليه من الاستقصاء والترك أحب إليه من الاستيفاء ورحمته غلبت غضبه فالراجي علق رجاءه بتصرفه المحبوب له المرضي له فلم يوجب رجاؤه خروجه عن تصرفه في ملكه بل اقتضى عبوديته وحصول أحب التصرفين إليه وهو سبحانه وتعالى لا ينتفع باستيفاء حقه وعقوبة عبده حتى يكون رجاؤه مبطلا لذلك وإنما العبد استدعى العقوبة وأخذ الحق منه لشركه بالله وكفره به واجتهاده في غضبه ولغضبه موجبات وآثار ومقتضيات والعبد مؤثر لها ساع في تحصيلها عامل عليها بإيثاره إياها وسعيه في أسبابها فهو المهلك لنفسه وربه يحذره ويبصره ويناديه: هلم إلي أحمك وأصنك وأنجك مما تحذر وأؤمنك من كل ما تخاف وهو يأبى إلا شرودا عليه ونفارا عنه ومصالحة لعدوه ومظاهرة له على ربه متطلب لمرضاة خلقه بمساخطه رضى المخلوق آثر عنده من رضى خالقه وحقه آكد عنده من حقه وخوفه ورجاؤه وحبه في قلبه أعظم من خوفه من الله ورجائه وحبه فلم يدع لفضل ربه وكرامته وثوابه إليه طريقا بل سد دونه طرق مجاريها بجهده وأعطى بيده لعدوه فصالحه وسمع له وأطاع وانقاد إلى مرضاته فجاء من الظلم بأقبحه وأشده فهو الذي

عارض مراده به منه بمراده وهواه وشهوته واعترض لمحابه ومراضيه بالدفع ولم يأذن لها في الدخول عليه فأضاع حظه وبخس حقه وظلم نفسه

وعادى حبيبه ووالى عدوه وأسخط من حياته في رضاه وأرضى من حياته في سخطه وجاد بنفسه لعدوه وبخل بها عن حبيبه ووليه والرب تبارك وتعالى ليس له ثأر عند عبده فيدركه بعقوبته ولا يتشفى بعقابه ولا يزيد ذلك في ملكه مثقال ذرة ولا ينقص مغفرته ولو غفر لأهل الأرض كلهم لما نقص مثقال ذرة من ملكه كيف والرحمة أوسع من العقوبة وأسبق من الغضب وأغلب له وهو قد كتب على نفسه الرحمة فرجاء العبد له لا ينقص شيئًا من حكمته ولا ينقص ذرة من ملكه ولا يخرجه عن كمال تصرفه ولا يوجب خلاف كمال ولا تعطيل أوصافه وأسمائه ولولا أن العبد هو الذي سد على نفسه طرق الخيرات وأغلق دونها أبواب الرحمة بسوء اختياره لنفسه: لكان ربه له فوق رجائه وفوق أمله

وأما استسلام العبد لربه واستسلامه بانطراحه بين يديه ورضاه بمواقع حكمه فيه: فما ذاك إلا رجاء منه أن يرحمه ويقيله عثرته ويعفو عنه ويقبل حسناته مع عيوب أعماله وآفاتها ويتجاوز عن سيئاته فقوة رجائه أوجبت له هذا الاستسلام والانقياد والانطراح

بالباب ولا يتصور هذا بدون الرجاء ألبتة فالرجاء حياة الطلب والإرادة روحها

وأما رضاه بمراده منه وإن عذبه: فهذا هو الرعونة كل الرعونة فإن مراده سبحانه نوعان:

مراد يحبه ويرضاه ويمدح فاعله ويواليه فموافقته في هذا المراد: هي عين محبته وإرادة

خلافه رعونة ومعارضة واعتراض ومراد يبغضه ويكرهه ويمقت فاعله ويعاديه فموافقته

في هذا المراد: عين مشاقته ومعاداته ومخالفته والتعرض لمقته وسخطه

فهذا الموضع موضع فرقان فالموافقة كل الموافقة معارضة هذا المراد واعتراضه بالدفع

والرد بالمراد الآخر

فالعبودية الحق: معارضة مراده بمراده ومزاحمة أحكامه بأحكامه

(84/459)

فاستسلامه لهذا المراد المكروه المسخوط وما يوجبه ويقتضيه: عين الرعونة والخروج عن

العبودية وهو عين الدعوى الكاذبة إذ لو كان مصدر ذلك الاستسلام والموافقة وترك

الاعتراض والمعارضة لكان ذلك مخصوصا بمحابه ومراضيه وأوامره التي الاستسلام لها

والموافقة فيها وترك معارضتها والاعتراض عليها هو عين المحبة والموالاة

وأما الفناء بمراد ربه: فقد تقدم أن المحمود من هو ذلك: الفناء بمراده الديني الأمري لا

الكوني القدري فإن الكون كله مراده القدري خيره وشره

وأما تعلق الرجاء بمراده دون مراد سيده: فهو إنما علقه بمراده المحبوب له هاربا من مراده المسخوط المكروه له وعلى تقدير أن يكون محبوبا له إذا كان انتقاما فالعفو والفضل أحب إليه منه فهو إنما علق رجاءه بأحب المرادين إليه

وأما كون الرجاء اعتراضا على ما سبق به الحكم: فليس كذلك بل تعلقا بما سبق به الحكم فإنه إنما يرجو فضلا وإحسانا ورحمة سبق بها القضاء والقدر وجعل الرجاء أحد أسباب حصولها فليس الرجاء اعتراضا على القدر ولا معارضة للقدر بل طلبا لما سبق به القدر

وأما اعتراضه إذا لم يحصل له مرجوه: فهذا نقص في العبودية وجهل بحق الربوبية فإن الراجي والداعي يرجو ويدعو فضلا لا يستحقه ولا يستوجبه بمعاوضة فإن أعطيه فمحض المنة والصدقة عليه وإن منعه فلم يمنع حقا هو له فاعتراضه رعونة وجهالة ولا يلزم من فوات المرجو أو عدم حصول المدعو به في حق العبد الصادق: معارضة ولا اعتراض

وقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه تبارك وتعالى ثلاث خصال لأمته فأعطاه اثنتين ومنعه واحدة فرضي بما أعطاه ولم يعترض فيما منعه بل رضي وسلم

وأما كون الرجاء وقوفا مع الحظ وأصحاب هذه الطريقة قد خرجوا عن نفوسهم فكيف حظوظهم فيا لله العجب أي رعونة فيمن يجعل رجاء العبد ربه وطمعه في بره وإحسانه وفضله وسؤاله ذلك بقلبه ولسانه فإن الرجاء هو استشراف القلب لنيل ما يرجوه فإذا كان العبد دائما مستشرفا بقلبه سائلا بلسانه طالبا لفضل ربه فأي رعونة ههنا وهل الرعونة كل الرعونة إلا خلاف ذلك

ومن العجب: دعواهم خروجهم عن نفوسهم وهم أعظم الناس عبادة لنفوسهم وليس الخارج عن نفسه إلا من جعلها حبسا على مراد الله الديني الأمري النبوي وبذلها لله في إقامة دينه وتنفيذه بين أهل العناد والمعارضة والبغي فانغمس فيهم يمزقون أديمه ويرمونه بالعظائم ويخيفونه بأنواع المخاوف ويتطلبون دمه بجهدهم لا تأخذه في جهادهم في الله لومة لائم يصدع بالحق عند من يخافه ويرجوه قد زهد في مدحهم وثنائهم وتعظيمهم وتشييخهم له وتقبيل يده وقضاء حوائجه يصيح فيهم بالنصائح جهارا ويعلن لهم بها ويسر لهم إسرارا قد تجرد عن الأوضاع والقيود والرسوم وتعلق بمراضي الحي القيوم مقامه ساعة في جهاد أعداء الله ورباطه ليلة على ثغر الإيمان آثر عنده وأحب إليه من فناء ومشاهدات وأحوال هي أعظم عيش النفس وأعلى قوتها وأوفر حظها ويزعم أنه قد خرج عن نفسه فكيف حظها ولعله قد خرج عن مراد ربه من عبوديته إلى عين مراده وهو حظه ولو فتش نفسه لرأى ذلك فيها عيانا وهل الرعونة كل الرعونة إلا دعواه: أنه يحب ربه لعذابه لا لثوابه وأنه إذا

أحبه وأطاعه للثواب كان ذلك حظا وإيثارا لمراد النفس بخلاف ما إذا أحبه وأطاعه ليعذب به فإنه لاحظ للنفس في ذلك

(86/459)

فوالله ليس في أنواع الرعونة والحماقة أقبح من هذا ولا أسمج وماذا يلعب الشيطان بالنفوس وإن نفسا وصل بها تلبيس الشيطان إلى هذه الحالة لمحتاجة إلى سؤال المعافاة فزن أحوال الأنبياء والرسل والصديقين وسؤالهم ربهم على أحوال هؤلاء الغالطين الذين مرجت بهم نفوسهم ثم قايس بينهما وانظر التفاوت

فأين هذا من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وقوله لعمه العباس رضي الله عنه: يا عباس ! يا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم سل الله العافية وقوله للصديق الأكبر رضي الله عنه وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم وقوله لصديقة النساء وقد سألته دعاء تدعو به إن وافقت ليلة القدر فقال: قولي: "اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني" وقوله في دعائه

الذي كان لا يدعه: وإن دعا بدعاء أردفه به: "ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار"

وقد أثنى الله تعالى على خاصته وهم أولو الألباب بأنهم سألوه: أن يقيهم عذاب النار فقالوا: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: 191] وقال لأم حبيبة لو سألت الله أن يجيرك من عذاب النار لكان خيرا لك وكان يستعيذ كثيرا من عذاب النار ومن عذاب القبر وأمر المسلمين: أن يستعيذوا في تشهدهم من عذاب القبر وعذاب النار وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال حتى قيل: إن هذا الدعاء واجب في الصلاة لا تصح إلا به وهذا أعظم من أن نستقصيه ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مريض يعوده فرآه مثل الفرخ

(87/459)

فقال: ما كنت تدعو به فقال: كنت أقول: "اللهم ما كنت معاقبني به في الآخرة فعاقبني به في الدنيا" فقال: "سبحان الله إنك لا تطيق ذلك ألا سألت الله العفو والعافية" وفي المسند عنه قال: ما سئل الله شيئا أحب إليه من سؤال العفو والعافية وقال لبعض أصحابه: ما تقول إذا صليت فقال: أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار أما إني لا أحسن دندنتك ولا

دندنة معاذ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا حولها ندندن

فأين هذا من حال من قال: لا أحبك لثوابك لأنه عين حظي وإنما أحبك لعقابك لأنه لاحظ لي فيه والرجاء عين الحظ ونحن قد خرجنا عن نفوسنا فما لنا وللرجاء فهذا وأمثاله أحسن ما يقال فيهم: إنه شطح قد يعذر فيه صاحبه إذا كان مغلوبا على عقله كالسكران ونحوه ولا تهدر محاسنه ومعاملاته وأحواله وزهده

ولكن الذي ينكر كون هذا من الأحوال الصحيحة والمقامات العلية التي يتعاطاها العبد ويشمر إليها فهذا الذي لا تلبس عليه الثياب ولا تصبر عليه نفوس العلماء وحاشا سادات القوم وأئمتهم من هذه الرعونات بل هم أبعد الناس منها نعم قد يعرض لأحدهم حال يحدث نفسه فيه بأنه لو عذبه لكان راضيا بعذابه كرضى صاحب الثواب بثوابه ويعزم على ذلك بقلبه ولكن هذا عزم وأمنية وعند الحقيقة لا يكون لذلك أثر ألبتة ولو امتحنه بأدنى محنة لصاح واستغاث وسأل العافية كما جرى للقائل وهو سمنون

وليس لي من هواك بد . . . فكيفما شئت فامتحني

فامتحنه بعسر البول فطاحت هذه الدعوى عنه واضمحل حالها وجعل يطوف على صبيان المكاتب ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب فالعزم على الرضى لون وحقيقته لون آخر

وأما قوله: وإنما نطق به التنزيل لفائدة وهي كونه يبرد حرارة الخوف فيقال: بل لفوائد كثيرة أخر مشاهدة منها: إظهار العبودية والفاقة والحاجة إلى ما يرجوه من ربه ويستشرفه من إحسانه وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله لأنه الملك الحق الجواد أجود من سئل وأوسع من أعطى وأحب ما إلى الجواد: أن يرجى ويؤمل ويسأل وفي الحديث: من لم يسأل الله يغضب عليه والسائل راج وطالب فمن لم يرج الله يغضب عليه

فهذه فائدة أخرى من فوائد الرجاء وهي التخلص به من غضب الله ومنها: أن الرجاء حاد يحدو به في سيره إلى الله ويطيب له المسير ويحثه عليه ويبعثه على ملازمته فلولا الرجاء لما سار أحد فإن الخوف وحده لا يحرك العبد وإنما يحركه الحب ويزعجه الخوف ويحدوه الرجاء

ومنها: أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة ويلقيه في دهليزها فإنه كلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه ازداد حبا لله تعالى وشكرا له ورضى به وعنه ومنها: أنه يبعثه على أعلى المقامات وهو مقام الشكر الذي هو خلاصة العبودية فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره ومنها: أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها والتعلق بها فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى متعبد بها وداع بها قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ

الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: 180] فلا ينبغي أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنى التي

هي أعظم ما يدعو بها الداعي فالقدح في مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الأسماء وتعطيل للدعاء بها ومنها: أن المحبة لا تنفك عن الرجاء كما تقدم فكل واحد منهما يمد الآخر ويقويه

(89/459)

ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء والرجاء مستلزم للخوف فكل راج خائف وكل خائف راج ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف قال الله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: 13] قال كثير من المفسرين: المعنى مالكم لا تخافون لله عظمة قالوا: والرجاء بمعنى الخوف 2 والتحقيق: أنه ملازم له فكل راج خائف من فوات مرجوه والخوف بلا رجاء يأس وقنوط وقال تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ [الجاثية: 14] قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم كوقائعه بمن قبلهم من الأمم ومنها: أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه فأعطاه ما رجاه: كان ذلك ألطف موقعا وأحلى عند العبد وأبلغ من حصول ما لم يرجه وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل

المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في

القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مخوفهم

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار

والتوكل والاستعانة والخوف والرجاء والصبر والشكر والرضى والإنابة وغيرها ولهذا

قدر عليه الذنب وابتلاه به لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده

إليه فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف

ومنها: أن في الرجاء من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ما يوجب تعلق القلب بذكره

ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته وتنقل القلب في رياضها الأنيقة وأخذه

بنصيبه من كل اسم وصفة كما تقدم بيانه فإذا فني عن

ذلك وغاب عنه فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات

إلى فوائد أخرى كثيرة يطالعها من أحسن تأمله وتفكره في استخراجها وبالله التوفيق

والله يشكر لشيخ الإسلام سعيه ويعلي درجته ويجزيه أفضل جزائه ويجمع بيننا وبينه في

محل كرامته فلو وجد مريده سعة وفسحة في ترك الاعتراض عليه واعتراض كلامه لما فعل

كيف وقد نفعه الله بكلامه وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه وهو أحد من كان على يديه فتحه يقظة ومناما

وهذا غاية جهد المقل في هذا الموضع فمن كان عنده فضل علم فليجد به أو فليعذر ولا يبادر إلى الإنكار فكم بين الهدهد ونبي الله سليمان وهو يقول له: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: 22] وليس شيخ الإسلام أعلم من نبي الله ولا المعترض

فصل قال صاحب المنازل الرجاء على ثلاث درجات الدرجة الأولى:

رجاء يبعث العامل على الاجتهاد ويولد التلذذ بالخدمة ويوقظ الطباع للسماحة بترك المناهي أي ينشطه لبذل جهده لما يرجوه من ثواب ربه فإن من عرف قدر مطلوبه هان عليه ما يبذل فيه

وأما توليده للتلذذ بالخدمة: فإنه كلما طالع قلبه ثمرتها وحسن عاقبتها التذ بها وهذا كحال من يرجو الأرباح العظيمة في سفره ويقاسي مشاق السفر لأجلها فكلما صورها لقلبه هانت عليه تلك المشاق والتذ بها وكذلك المحب الصادق الساعي في مراضي محبوبه الشاقة عليه كلما تأمل ثمرة رضاه عنه وقبوله سعيه وقربه منه: تلذذ بتلك المساعي وكلما قوي علم العبد بإفضاء ذلك السبب إلى عليه بأجهل من هدهد وبالله المستعان وهو أعلم

فصل قال صاحب المنازل قدس الله روحه: الرجاء على ثلاث درجات الدرجة

الأولى: رجاء يبعث العامل على الاجتهاد ويولد التلذذ بالخدمة ويوقظ الطباع للسماحة بترك المناهي أي ينشطه لبذل جهده لما يرجوه من ثواب ربه فإن من عرف قدر مطلوبه هان عليه ما يبذل فيه وأما توليده للتلذذ بالخدمة: فإنه كلما طالع قلبه ثمرتها وحسن عاقبتها التذ بها وهذا كحال من يرجو الأرباح العظيمة في سفره ويقاسي مشاق السفر لأجلها فكلما صورها لقلبه هانت عليه تلك المشاق والتذ بها وكذلك المحب الصادق الساعي في مراضي محبوبه الشاقة عليه كلما تأمل ثمرة رضاه عنه وقبوله سعيه وقربه منه: تلذذ بتلك المساعي وكلما قوي علم العبد بإفضاء ذلك السبب إلى

المسبب المطلوب وقوي علمه بقدر المسبب وقرب السبب منه: ازداد التذاذا بتعاطيه

وأما إيقاظ الطباع للسماحة بترك المناهي: فإن الطباع لها معلوم ورسوم تتقاضاها من العبد ولا تسمح له بتركها إلا بعوض هو أحب إليها من معلومها ورسومها وأجل عندها منه وأنفع لها فإذا قوي تعلق الرجاء بهذا العوض الأفضل الأشرف: سمحت الطباع بترك تلك الرسوم وذلك المعلوم فإن النفس لا تترك محبوبا إلا لمحبوب هو أحب إليها منه أو حذرا من مخوف هو أعظم مفسدة لها من حصول مصلحتها بذلك المحبوب وفي الحقيقة ففرارها من ذلك المخوف إيثار لضده المحبوب لها فما تركت محبوبا إلا لما هو أحب إليها منه فإن من قدم إليه طعام لذيذ يضره ويوجب له السقم فإنما يتركه محبة للعافية التي هي أحب إليه من ذلك

الطعام

قال: الدرجة الثانية: رجاء أرباب الرياضات: أن يبلغوا موقفا تصفو فيه هممهم برفض الملذوذات ولزوم شروط العلم واستقصاء حدود الحمية أرباب الرياضات: هم المجاهدون لأنفسهم بترك مألوفاتها والاستبدال بها مألوفات هي خير منها وأكمل فرجاؤهم أن يبلغوا مقصودهم بصفاء الوقت والهمة من تعلقها بالملذوذات وتجريد الهم عن الالتفات إليها وبلزوم شروط العلم وهو الوقوف عند حدود الأحكام الدينية فإن رجاءهم متعلق بحصول ذلك لهم واستقصاء حدود الحمية

(92/459)

والحمية العصمة والامتناع من تناول ما يخشى ضرره آجلا أو عاجلا وله حدود متى خرج العبد عنها انتقض عليه مطلوبه والوقوف على حدودها بلزوم شروط العلم والاستقصاء في تلك الحدود بأمرين: بذل الجهد في معرفتها علما وأخذ النفس بالوقوف عندها طلبا وقصدا

قال: الدرجة الثالثة: رجاء أرباب القلوب وهو رجاء لقاء الخالق الباعث على الاشتياق المبغض المنغص للعيش المزهد في الخلق هذا الرجاء أفضل أنواع الرجاء وأعلاها قال الله

تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [الكهف: 110] وقال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ ﴾ [العنكبوت:] وهذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته وإليه شخصت أبصار المشتاقين ولذلك سلاهم الله تعالى بإتيان أجل لقائه وضرب لهم أجلا يسكن نفوسهم ويطمئنها والاشتياق هو سفر القلب في طلب محبوبه واختلف المحبون: هل يبقى عند لقاء المحبوب أم يزول على قولين فقالت طائفة: يزول لأنه إنما يكون مع الغيبة وهو سفر القلب إلى المحبوب فإذا انتهى السفر واجتمع بمحبوبه وضع عصا الاشتياق عن عاتقه وصار الاشتياق أنسا به ولذة بقربه وقالت طائفة: بل يزيد ولا يزول باللقاء قالوا: لأن الحب يقوى بمشاهدة جمال المحبوب أضعاف ما كان حال غيبته وإنما يواري سلطانه فناؤه ودهشته بمعاينة محبوبه حتى إذا توارى عنه ظهر سلطان شوقه إليه ولهذا قيل:

وأعظم ما يكون الشوق يوما . . . إذا دنت الخيام من الخيام

وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة وتوابعها في كتابنا الكبير في المحبة وفي كتاب سفر الهجرتين وسنعود إليها إذا انتهينا إلى منزلتها إن شاء الله تعالى

وقوله: المنغص للعيش فلا ريب أن عيش المشتاق منغص حتى يلقى محبوبه فهناك تقر عينه

ويزول عن عيشه تنغيصه وكذلك يزهد في الخلق غاية التزهيد لأن صاحبه طالب للأنس

بالله والقرب منه فهو أزهد شيء في الخلق

إلا من أعانه على هذا المطلوب منهم وأوصله إليه فهو أحب خلق الله إليه ولا يأنس من

الخلق بغيره ولا يسكن إلى سواه فعليك بطلب هذا الرفيق جهدك فإن لم تظفر به فاتخذ الله

صاحبا ودع الناس كلهم جانبا

مت بداء الهوى وإلا فخاطر ... واطرق الحي والعيون نواظر

لا تخف وحشة الطريق إذا جئ ... ت وكن في خفارة الحب سائر

واصبر النفس ساعة عن سواهم ... فإذا لم تجب لصبر فصابر

وصم اليوم واجعل الفطر يوما ... فيه تلقى الحبيب بالبشر شاكر

وافطم النفس عن سواه فكل ال ... عيش بعد الفطام نحوك صائر

وتأمل سريرة القلب واستح ... ي من الله يوم تبلى السرائر

واجعل الهم واحدا يكفك الل ... ه هموما شتى فربك قادر

وانتظر يوم دعوة الخلق إلى الل ... ه ربهم من بطون المقابر

واستمع ما الذي به أنت تدعي ... به من صفات تلوح وسط المحاضر

وسمات تبدو على أوجه الخل ... ق عيانا تجلى على كل ناظر

يا أخا اللب إنما السير عزم . . . ثم صبر مؤيد بالبصائر

يالها من ثلاثة من ينلها . . . يرق يوم المزيد فوق المنابر

فاجتهد في الذي يقال لك ال . . . بشرى بذا يوم ضرب البشائر

عمل خالص بميزان وحي . . . مع سر هناك في القلب حاضر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 35 . 55 ﴾

(94/459)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) ﴾

استعينوا فيما يستقبلكم بالأصنام التي عبدتموها من دون الله حتى تتحققوا أنه لا تنفعكم عبادةُ شيءٍ من دون الله ، ولا يضركم تَرْكُ ذلك ، ولقد قيل في الخبر : " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾

يعني الذين يعبدونهم ويدعونهم - كالمسيح وعُزَيز والملائكة - لا يملكون نَفْعاً لأنفسهم ولا

ضرًّا ، وهم يطلبون الوسيلةَ إلى الله أيْ يتقربون إلى الله بطاعتهم رجاءَ إحسانَ الله ، وطمعاً في رحمته ، ويخافون العذاب من الله . . . فكيف يرفعون عنكم البَلاءَ وهم يرجون الله ويخافونه في أحوال أنفسهم ؟

ويقال في المَثَل : تعلُّقُ الخَلْقِ بالخَلْق تعلُّقُ مسجونٍ بمسجون .

ويقال : إذا انضمَّ الفقيرُ إلى الفقيرِ ازداد فاقةً .

ويقال إذا قاد الضريرُ ضريراً سقطا معاً في البئر ، وفي معناه أنشدوا :

إذا التقى في حَدَبٍ واحدٍ . . . سبعون أعمى بمقادير

وسَيَّروا بعضَهم قائداً . . . فكُلُّهم يسقط في البير

﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (58) ﴾

العذاب على أقسام : فالألم الذي يَرِدُ على النفوس والظواهر يتصاغر بالإضافة إلى مَا يَرِدُ على القلوب والسرائر ؛ فعذابُ القلوبُ لأصحابِ الحقائقِ أَحَدُّ في الشِّدَّةِ مِما يُصيب أصحابَ الفقرِ والقلة .

ثم إن الحقَّ سبحانه أجرى سُنَّتَه بأن مَنْ وصلت منه إلى غيره راحةٌ انعكست الراحةُ إلى موصلها ، وبخلاف ذلك مَنْ وصلت منه إلى غيره وَحْشَةٌ عادت الوحشةُ إلى موصلها .

ومَنْ سام الناس ظُلْماً وخَسْفاً فَبِقَدْرِ ظُلْمِه يعذِّبُه اللَّهُ - سبحانه وتعالى - في الوقت بتنغيص العَيْشِ ، واستيلاءِ الغضب مِنْ كلِّ أحدٍ عليه ، وتَتَرَجَّمُ ظنونُه وتتقسَّمُ أفكاره في أحواله وأشغاله ، ولو ذاق من راحة الفراغ حلاوة الخلوة شظية لَعَلِمَ ما طعم الحياة . . ولكنْ حُرِموا النِّعَم ، وما علموا ما مُنُوا به من النِّقَم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 353 . 355 ﴾

(96/459)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40) ﴾

بدأ الدرس الثاني وانتهى بتوحيد الله والنهي عن الشرك به ، وضم بين البداية والنهاية تكاليف وأوامر ونواهي وآداباً مرتكزة كلها على قاعدة التوحيد الوطيدة . . ويبدأ هذا الدرس وينتهي باستنكار فكرة الولد والشريك ، وبيان ما فيها من اضطراب وتهافت ،

وتقرير وحدة الاتجاه الكوني إلى الخالق الواحد : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ ووحدة المصير والرجعة إلى الله في الآخرة ، ووحدة علم الله الشامل بمن في السماوات ومن في الأرض ، ووحدة التصرف في شؤون الخلائق بلا معقب : ﴿ إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ﴾ . .

ومن خلال السياق تتهافت عقائد الشرك وتتهاوى ، وتتفرد الذات الإلهية بالعبادة والاتجاه والقدرة والتصرف والحكم في هذا الوجود ، ظاهره وخافيه ، دنياه وآخرته ؛ ويبدو الوجود كله متجهاً إلى خالقه في تسبيحة مديدة شاملة تشترك فيها الأحياء والاشياء .

﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ؟ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ؟ ﴾

استفهام للاستنكار والتهكم . استنكار لما يقولون من أن الملائكة بنات الله ، تعالى عن الولد والصاحبة كما تعالى عن الشبيه والشريك . وتهكم على نسبة البنات لله وهم يعدون البنات أدنى من البنين ويقتلون البنات خوف الفقر أو العار ؛ ومع هذا يجعلون الملائكة إناثاً ، وينسبون هؤلاء الإناث إلى الله ! فإذا كان الله هو واهب البنين والبنات ، فهل أصفاهم بالبنين المفضلين واتخذ لنفسه الإناث المفضولات ؟ !

وهذا كله على سبيل مجاراتهم في ادعاءاتهم لبيان ما فيها من تفكك وتهافت . وإلا فالقضية كلها مستنكرة من الأساس :

﴿ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾ . . عظيماً في شناعته وبشاعته ، عظيماً في جرأته ووقاحته ، عظيماً في ضخامة الافتراء فيه ، عظيماً في خروجه عن التصور والتصديق .

﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا ، وما يزيدهم إلا نفورا ﴾ . .

فقد جاء القرآن بالتوحيد ، وسلك إلى تقرير هذه العقيدة وإيضاحها طرقاً شتى ، وأساليب متنوعة ، ووسائل متعددة ﴿ ليذكروا ﴾ فالتوحيد لا يحتاج إلى أكثر من التذكر والرجوع إلى الفطرة ومنطقها ، وإلى الآيات الكونية ودلالتها ؛ ولكنهم يزيدون نفوراً كلما سمعوا هذا القرآن . نفوراً من العقيدة التي جاء بها ، ونفوراً من القرآن ذاته خيفة أن يغلبهم على عقائدهم الباطلة التي يستمسكون بها . عقائد الشرك والوهم والترهات .

وكما جاراهم في ادعاءاتهم في حكاية البنات ونسبتها إلى الله ليكشف عما فيها من تفكك وتهافت ، فهو يجاريهم في حكاية الآلهة المدعاة ، ليقرر أن هذه الآلهة لو وجدت فإنها ستحاول أن تتقرب إلى الله ، وأن تجد لها وسيلة إليه وسبيلاً :

﴿ قل : لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذن لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا ﴾ . .

ولو كما يقول النحاة حرف امتناع لامتناع ، فالقضية كلها ممتنعة ، وليس هنالك آلهة مع الله كما يقولون والآلهة التي يدعونها إن هي إلا خلق من خلق الله سواء كانت نجماً أو كوكباً ، إنساناً أو حيواناً ، نباتاً أو جماداً .

وهذه كلها تتجه إلى الخالق حسب ناموس الفطرة الكونية ، وتخضع للإرادة التي تحكمها وتصرفها ؛ وتجد طريقها إلى الله عن طريق خضوعها لناموسه وتلبيتها لإرادته :

﴿ إذن لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا ﴾ . . وذكر العرش هنا يوحي بالارتفاع والتسامي على هذه الخلائق التي يدعون أنها آلهة ﴿ مع الله ﴾ . وهي تحت عرشه وليست معه . . ويعقب على ذلك بتنزيه الله في علاه :

﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا ﴾ . .

(98/459)

ثم يرسم السياق للكون كله بما فيه ومن فيه مشهداً فريداً ، تحت عرش الله ، يتوجه كله إلى الله ، يسبح له ويجد الوسيلة إليه :

﴿ تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفورا ﴾ . .

وهو تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير ، وتنتفض روحاً حية تسبح الله . فإذا الكون كله حركة وحياة ، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رخية ، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال .

وإنه لمشهد كوني فريد ، حين يتصور القلب . كل حصاة وكل حجر . كل حبة وكل ورقة . كل زهرة وكل ثمرة . كل نبتة وكل شجرة . كل حشرة وكل زاحفة . كل حيوان وكل إنسان . كل دابة على الارض وكل سابحة في الماء والهواء . . ومعها سكان السماء . . كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه .

وإن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب في كل ما حوله مما يراه ومما لا يراه ، وكلما همت يده أن تلمس شيئاً ، وكلما همت رجله أن تطأ شيئاً . . سمعه يسبح الله ، وينبض بالحياة .

﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ يسبح بطريقته ولغته ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ لا تفقهونه لأنكم محجوبون بصفاقة الطين ، ولأنكم لم تتسمعوا بقلوبكم ، ولم توجهوها إلى أسرار الوجود الخفية ، وإلى النواميس التي تنجذب إليها كل ذرة في هذا الكون الكبير ، وتتوجه بها إلى خالق النواميس ، ومدبر هذا الكون الكبير .

وحين تشف الروح وتصفو فتتسمع لكل متحرك أو ساكن وهو ينبض بالروح ، ويتوجه بالتسبيح ، فإنها تتهيأ للاتصال بالملأ الأعلى ، وتدرك من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون ، الذين تحول صفاقة الطين بين قلوبهم وبين الحياة الخفية السارية في ضمير هذا الوجود ، النابضة في كل متحرك وساكن ، وفي كل شيء في هذا الوجود .

﴿ إنه كان حليماً غفورا ﴾ . . وذكر الحلم هنا والغفران بمناسبة ما يبدو من البشر من تقصير في ظل هذا الموكب الكوني المسبح بحمد الله ، بينما البشر في جحود وفيهم من يشرك بالله ، ومن ينسب له البنات ، ومن يغفل عن حمده وتسبيحه .

والبشر أولى من كل شيء في هذا الكون بالتسبيح والتحميد والمعرفة والتوحيد . ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر . ولكنه يمهلهم ويذكرهم ويعظهم ويزجرهم ﴿ إنه كان حليماً غفورا ﴾ .

ولقد كان كبراء قريش يستمعون إلى القرآن ، ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق له ، ويمانعون فطرتهم ان تتأثر به ؛ فجعل الله بينهم وبين الرسل حجاباً ، حجاباً خفياً ، وجعل على قلوبهم كالأغلفة فلا تفقه القرآن ، وجعل في آذانهم كالصمم فلا تعي ما فيه من توجيه :

﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا . وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا . وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا . نحن أعلم بما يستمعون به ، إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى . إذ يقول الظالمون : إن تتبعون إلا رجلاً مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال ، فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ . .

وقد روى ابن اسحاق في السيرة عن محمد بن مسلم بن شهاب عن الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بالليل في بيته ؛ فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا ، فقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعهم الطريق . فقال بعضهم لبعض مثل ما قاله أول مرة . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ؛ فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود . فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى ابا سفيان بن حرب في بيته ، فقال : اخبرني يا ابا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . قال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت

معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا ، والذي حلفت به . قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ؛ فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فاعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء .

فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ! قال فقام عنه الأخنس وتركه . .

(101/459)

فهكذا كان القوم تتأثر بالقرآن فطرتهم فيصدونها ، وتجاذبهم إليه قلوبهم فيمانعونها ، فجعل الله بينهم وبين الرسول حجاباً خفياً لا يظهر للعيون ولكن تحسه القلوب ، فإذا هم لا ينتفعون به ، ولا يهتدون بالقرآن الذي يتلوه . وهكذا كانوا يتناجون بما أصاب قلوبهم من القرآن ، ثم يتآمرون على عدم الاستماع إليه ؛ ثم يغلبهم التأثر به فيعودون ، ثم يتناجون من جديد ، حتى ليتعاهدون على عدم العودة ليحجزوا انفسهم عن هذا القرآن المؤثر الجذاب الذي يخلب القلوب والألباب ! ذلك أن عقيدة التوحيد التي يدور عليها هذا القرآن كانت تهددهم في مكانتهم وفي امتيازاتهم وفي كبريائهم فينفرون منها :

﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ﴾ . .

نفوراً من كلمة التوحيد ، التي تهدد وضعهم الاجتماعي ، القائم على أوهام الوثنية وتقاليد الجاهلية ، وإلا فقد كان كبراء قريش أذكى من أن يخفى عليهم ما في عقائدهم من تهافت ، وما في الإسلام من تماسك ، وأعرف بالقول من أن يغيب عنهم ما في القرآن من سمو وارتفاع وامتياز . وهم الذين لم يكونوا يملكون أنفسهم من الاستماع إليه والتأثر به ، على شدة ما يمانعون قلوبهم ويدافعونها !

ولقد كانت الفطرة تدفعهم إلى التسمع والتأثر ؛ والكبرياء تدفعهم عن التسليم والإذعان ؛ فيطلقون التهم على الرسول يعتذرون بها عن المكابرة والعناد :

﴿ إذ يقول الظالمون : إن تتبعون إلا رجلاً مسحورا ﴾ . .

وهذه الكلمة ذاتها تحمل في ثناياها دليل تأثرهم بالقرآن ؛ فهم يستكثرون في دخيلتهم أن يكون هذا قول بشر ؛ لأنهم يحسون فيه شيئاً غير بشري . ويحسون دبيبه الخفي في مشاعرهم فينسبون قائله إلى السحر ، يرجعون إليه هذه الغرابة في قوله ، وهذا التميز في حديثه ، وهذا التفوق في نظمه . فمحمد إذن لا ينطق عن نفسه ، إنما ينطق عن السحر بقوة غير قوة البشر ! ولو أنصفوا لقالوا : إنه من عند الله ، فما يمكن أن يقول هذا إنسان ، ولا خلق آخر من خلق الله .

﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ . .

ضربوا لك الأمثال بالمسحورين ولست بمسحور ، إنما أنت رسول ، فضلوا ولم يهتدوا ، وحاروا فلم يجدوا طريقاً يسلكونه . لا إلى الهدى ، ولا إلى تعليل موقفهم المريب !

ذلك قولهم عن القرآن ، وعن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يتلو عليهم القرآن . كذلك كذبوا بالبعث ، وكفروا بالآخرة :

﴿ وقالوا : أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟ قل : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم . فسيقولون : من يعيدنا ؟ قل : الذي فطركم أول مرة . فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون : متى هو ؟ قل : عسى أن يكون قريباً ، يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴾ .

.

وقد كانت قضية البعث مثار جدل طويل بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمشركين ، واشتمل القرآن الكريم على الكثير من هذا الجدل . مع بساطة هذه القضية ووضوحها عند من يتصور طبيعة الحياة والموت ، وطبيعة البعث والحشر . ولقد عرضها القرآن الكريم في هذا الضوء مرات . ولكن القوم لم يكونوا يتصورونها بهذا الوضوح وبتلك البساطة ؛ فكان يصعب عليهم تصور البعث بعد البلى والفناء المسلط على الأجسام :

﴿ وقالوا : أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديدا ﴾ ؟

ذلك انهم لم يكونوا يتدبرون أنهم لم يكونوا أحياء أصلاً ثم كانوا ، وأن النشأة الآخرة ليست أعسر من النشأة الأولى . وأنه لا شيء أمام القدرة الإلهية أعسر من شيء ، وأداة الخلق واحدة في كل شيء : ﴿ كن فيكون ﴾ فيستوي إذن أن يكون الشيء سهلاً وأن يكون صعباً في نظر الناس ، متى توجهت الإرادة الإلهية إليه .

وكان الرد على ذلك التعجب :

﴿ قل : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ﴾ . .

والعظام والرفات فيها رائحة البشرية وفيها ذكرى الحياة ؛ والحديد والحجارة أبعد عن الحياة . فيقال لهم : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر أوغل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يكبر في صدوركم أن تتصوروه وقد نفخت فيه الحياة . . فسيبعثكم الله .

وهم لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر ولكنه قول للتحدي . وفيه كذلك ظل التوبيخ والتقريع ، فالحجارة والحديد جماد لا يحس ولا يتأثر ، وفي هذا إيماء من بعيد إلى

ما في تصورهم من جمود وتحجر !

﴿ فسيقولون : من يعيدنا ﴾ ؟

من يردنا إلى الحياة إن كنا رفاتاً وعظاماً ، أو خلقاً آخر أشد إيغالاً في الموت والخمود ؟ ﴿

قل : الذي فطركم أول مرة ﴾ . .

وهو رد يرجع المشكلة إلى تصور بسيط واضح مريح . فالذي أنشأهم إنشاءً قادر على أن يردهم أحياء . ولكنهم لا ينتفعون به ولا يقتنعون :

﴿ فسينغضون إليك رؤوسهم ﴾ ينغضونها علواً أو سفلاً ، استنكاراً واستهزاء :

﴿ ويقولون : متى هو ؟ ﴾ : استبعاداً لهذا الحادث واستنكاراً .

﴿ قل : عسى أن يكون قريباً ﴾ . . .

فالرسول لا يعلم موعده تحديداً . ولكن لعله أقرب مما يظنون . وما أجدرهم أن يخشوا وقوعه وهم في غفلتهم يكذبون ويستهزئون !

ثم يرسم مشهداً سريعاً لذلك اليوم :

﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴾ . .

وهو مشهد يصور أولئك المكذبين بالبعث المنكرين له ، وقد قاموا يلبون دعوة الداعي ، وألسنتهم تلهج بحمد الله . ليس لهم سوى هذه الكلمة من قول ولا جواب !

وهو جواب عجيب ممن كانوا ينكرون اليوم كله وينكرون الله ، فلا يكون لهم جواب إلا أن

يقولوا : الحمد لله . الحمد لله !

ويومئذ تنطوي الحياة كما ينطوي الظل : ﴿ وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴾ .

وتصوير الشعور بالدنيا على هذا النحو يصغر من قيمتها في نفوس المخاطبين ، فإذا هي قصيرة قصيرة ، لا يبقى من ظلالها في النفس وصورها في الحس ، إلا أنها لمحة مرت وعهد زال وظل تحول ، ومتاع قليل .

(104/459)

ثم يلتفت السياق عن هؤلاء المكذبين بالبعث والنشور ، المستهزئين بوعد الله وقول الرسول ، المنغضين رؤوسهم المتهكمين المتهجمين . . يلتفت عنهم إلى عباد الله المؤمنين ليوجههم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقولوا الكلمة الطيبة وينطقوا دائماً بالحسنى :

﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن . إن الشيطان ينزغ بينهم ، إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبينا ﴾ .

﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾ على وجه الإطلاق وفي كل مجال . فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه : بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة . فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة تفلت ، وبالرد السيئ يتلوها فإذا جو الود والمحبة والوفاق

مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء . والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب ، تندّي جفافها ، وتجمعها على الود الكريم .

﴿ إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبينا ﴾ . .

يتلمس سقطات فمه وعثرات لسانه ، فيغري بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه .

والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات ، وتقطع عليه الطريق ، وتحفظ حرم الأخوة آمناً من نزغاته ونفثاته .

وبعد هذه اللفتة يعود السياق إلى مصائر القوم يوم يدعوهم فيستجيبون بحمده ، فإذا المصير كله بيد الله وحده ، إن شاء رحم ، وإن شاء عذب ، وهم متروكون لقضاء الله ، وما الرسول عليهم بوكيل ، إن هو إلا رسول :

﴿ ربكم أعلم بكم ، إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ، وما أرسلناك عليهم وكيلا . وربك أعلم بمن في السماوات والأرض ﴾ . .

فالعلم المطلق لله . وهو يرتب على كامل علمه بالناس رحمتهم أو عذابهم . وعند البلاغ تنتهي وظيفة الرسول .

وعلم الله الكامل يشمل من في السماوات والأرض من ملائكة ورسل وإنس وجن ، وكائنات لا يعلم إلا الله ما هي ؟ وما قدرها ؟ وما درجتها .

وبهذا العلم المطلق بحقائق الخلائق فضل الله بعض النبيين على بعض :

﴿ لقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ . وهو تفضيل يعلم الله أسبابه . أما مظاهر هذا التفضيل فقد سبق الحديث عنها في الجزء الثالث من هذه الظلال عند تفسير قوله تعالى :

﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ فيراجع في موضعه هناك :

﴿ وآتينا داود زبورا ﴾ . . وهو نموذج من عطاء الله لأحد أنبيائه ، ومن مظاهر التفضيل أيضاً . إذ كانت الكتب أبقى من الخوارق المادية التي يراها بعض الناس في ظرف معين من الزمان .

وينتهي هذا الدرس الذي بدأ بنفي فكرة الأبناء والشركاء ، واستطرد إلى تفرد الله سبحانه بالاتجاه إليه ، وتفرده بالعلم والتصرف في مصائر العباد . . ينتهي بتحدي الذين يزعمون الشركاء ، أن يدعوا الآلهة المدعاة إلى كشف الضر عنهم لو شاء الله أن يعذبهم ، أو تحويل العذاب إلى سواهم :

﴿ قل : ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ﴾ .

. فليس أحد بقادر على أن يكشف الضر أو يحوله إلا الله وحده ، المتصرف في أقدار عباده .

ويقرر لهم أن من يدعونهم آلهة من الملائكة أو الجن أو الإنس . . إن هم إلا خلق من خلق الله ، يحاولون أن يجدوا طريقهم إلى الله ويتسابقون إلى رضاه ، ويخافون عذابه الذي يحذره من يعلم حقيقته ويخشاه :

﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ . .

وقد كان بعضهم يدعو عزيزاً ابن الله ويعبده ، وبعضهم يدعو عيسى ابن الله ويعبده . وبعضهم يدعو الملائكة بنات الله ويعبدهم ، وبعضهم يدعو غير هؤلاء . . فالله يقول لهم جميعاً : إن هؤلاء الذين تدعونهم ، أقربهم إلى الله يبتغي إليه الوسيلة ، ويتقرب إليه بالعبادة ، ويرجو رحمته ، ويخشى عذابه وعذاب الله شديد يحذر ويخاف فما أجدركم أن تتوجهوا إلى الله ، كما يتوجه إليه من تدعونهم آلهة من دونه وهم عباد لله ، يبتغون رضاه . وهكذا يبدأ الدرس ويختم ببيان تهافت عقائد الشرك في كل صورها . وتفرد الله سبحانه بالألوهية والعبادة والاتجاه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2229 . 2235 ﴾

(106/459)

قوله تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (59) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (60) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت كفار قريش تكرر اقتراحهم للآيات بعد أن اشتد أذاهم ، وكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم – لشدة حرصه على إيمان كل أحد فكيف بقومه العرب فكيف ببني عمه منهم – ربما أحب أن الله تعالى يجيبهم إلى مقترحهم طمعاً في إيمانهم وإراحة له ولأتباعه من أذاهم ، وكان ما رأوه من آية الإسراء أمراً باهراً ثم لم يؤمنوا ، بل ارتد بعض من كان آمن منهم ، كان المقام في قوة اقتضائه أن يقال بعد ذكر آية العذاب : ما لهم لا يعجل عذابهم أو يجابون إلى مقترحاتهم ليقضى الأمر ؟ فيقال في الجواب : ما منعنا من تعجيل عذابهم إلا أنا ضربنا لهم أجلاً لا بد من بلوغه ﴿ وما منعنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة التي لا يعجزها شيء ولا يمنعها مانع ﴿ أن نرسل ﴾ أي إرسالاً يظهر عظمتنا على وجه العموم ﴿ بالآيات ﴾ أي التي اقترحتها قريش ، فكان كأنه لا آيات عندهم سواها ﴿ إلا ﴾ علمنا في عالم الشهادة بما وقع من ﴿ أن كذب بها ﴾ أي المقترحات ﴿ الأولون ﴾ وعلمنا في عالم الغيب أن هؤلاء

مثل الأولين في أن الشقي منهم لا يؤمن بالمقترحات كما لم يؤمن بغيرها ، وأنه يقول فيها ما قال في غيرها من أنها سحر ونحو هذا ، والسعيد لا يحتاج في إيمانه إليها ، فكم أجبنا أمة إلى مقترحها فما زاد ذلك أهل الضلالة منهم إلا كفراً ، فأخذناهم لأن سنتنا جرت أنا لا نمهل بعد الإجابة إلى المقترحات من كذب بها ، ونحن قد قضينا برحمة هذه الأمة وتشريفها على الأمم السالفة بعدم استئصالها ، لما يخرج من أصلاب كفرتها من خلص عبادنا ، والمنع هنا مبالغة مراد بها نفي إجابتهم إلى مقترحاتهم ، ولا يجوز أخذه على ظاهره ، لأنه وجود ما يتعذر معه وقوع الفعل من القادر عليه ، ثم عطف على ما دل عليه المقام وهو : فكم أجبنا – إلى آخر ما ذكرته ، قوله تعالى : ﴿ وءاتينا ﴾ أي بما لنا من العزة الباهرة ﴿ ثمود الناقة ﴾ حال كونها ﴿ مبصرة ﴾ أي مضيئة ، جديرة بأن يستبصر بها كل من شاهدها ﴿ فظلموا بها ﴾ أي فوقعوا في الظلم الذي هو

كالظلام بسببها ، بأن لم يؤمنوا ولم يخافوا عاقبتها ، وخص آية ثمود بالذكر تحذيراً بسبب أنهم عرب اقترحوا ما كان سبباً لاستئصالهم ، ولأن لهم من علمها وعلم مساكنهم بقربها إليهم وكونها في بلادهم ما ليس لهم من علم غيرها ، وخص الناقة لأنها حيوان أخرجه من حجر

، والمقام لإثبات القدرة على الإعادة ولو كانوا حجارة أو حديداً ، ودل على سفههم في كلا الأمرين على طريق النشر المشوش بذكر داود عليه السلام إشارة إلى الحديد ، والناقة إشارة إلى الحجارة ، فلله هذه الإشارة ما أدقها ! وهذه العبارة ما أجلها وأحقها ! ﴿ وما نرسل ﴾ أي بما لنا من الجلالة التي هي بحيث تذوب لها الجبال ﴿ بالآيات ﴾ أي المقترحات وغيرها ﴿ إلا تخويفاً ﴾ أي للمرسل إليهم بها ، فإن خافوا نجوا وإلا هلكوا فإذا كشف الأمر لكم في عالم الشهادة عن أنهم لا يخافونها وفق ما كان عندنا في عالم الغيب ، علم أنه لا فائدة لكم فيها .

(108/459)

ولما كان التقدير للتعريف بمطابقة الخبر الخبر : اذكر أنا قلنا لك ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل ءاية ﴾ [يونس : 96] واذكر ما وقع من ذلك ماضياً من آيات الأولين وحالاً من قصة الإسراء ، عطف عليه قوله تعالى : ﴿ وإذ ﴾ أي واذكر إذ ﴿ قلنا ﴾ على ما لنا من العظمة المحيطة ﴿ لك إن ربك ﴾ المتفضل بالإحسان إليك بالرفق بأمتك ﴿ أحاط بالناس ﴾ علماً وقدرة ، تجد ذلك إذا طبقت بعضه على

بعض أمراً سوياً حذو القذة لا تفاوت فيه ، واعلم أنه مانعك منهم وحائطك ومظهر دينك كما وعدك ؛ ثم عطف على ﴿ وما نرسل ﴾ قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا ﴾ أي بما لنا من القوة الباهرة التي لها الغنى المطلق ﴿ الرءيا التي أريناك ﴾ أي بتلك العظمة التي شاهدتها ليلة الإسراء ﴿ إلا فتنة ﴾ أي امتحاناً واختباراً ﴿ للناس ﴾ ليتبين بذلك في عالم الشهادة المتقي المحسن والجاهل المسيء كما هو عندنا في عالم الغيب ، فنقيم بها عليهم الحجة ، لا ليؤمن أحد من حقت عليهم الكلمة ولا لنزداد نحن علماً بسرائرهم ، ولا شك في أن قصة الإسراء إلى بيت المقدس ثم إلى السماوات العلى كان يقظة لا مناماً بالدليل القطعي المتواتر من تكذيب من كذب وارتداد من ارتد ، وهذا مذهب الجمهور وأهل السنة والجماعة ، وقد ورد في صحته ما لا يحصى من الأخبار - هذا النقل ، وأما الإمكان العقلي فثابت غير محتاج إلى بيان ، فإن كل ذرة من ذرات الموجودات فيها من العجائب والغرائب والدقائق والرقائق ما يتحير فيه العقول ، لكن لما كان على وفق العادة ألفته الطباع ، فلم تنكره الأبصار ولا الأسماع ، وأما مثل هذا فلما كان على خلاف العادة استنكره ضعفاء العقول الذين لا يتجاوز فهمهم المحسوسات ، على ما ألفوا من العادات ، وأما أولو الألباب الذين سلموا من نزعات الشيطان ووساوس العادة ، ونظروا بأعين البصائر إلى آثار رحمة الله في صنع المصنوعات وإحداث المحدثات في الملك والملكوت ، والشهادة والغيب ، والخلق والأمر

، فاعترفوا به ، وأنه من عظيم الآيات ، وبدائع الدلائل النيرات ، وأدل دليل على ذلك قوله تعالى ﴿ فتنة ﴾ لأنه لو كان رؤيا منام لم يكن بحيث يستبعده أحد فلم يكن فتنة ، ولعله إنما سماه رؤيا – وهي للمنام – على وجه التشبيه والاستعارة ، لما فيه من الخوارق التي هي بالمنام أليق في مجاري العادات ، روى البخاري في التفسير عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما . ﴿ وما جعلنا الرءيا التي أريناك ﴾ الآية ، قال : هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليلة أسري به .

ولما كان كل ما خفي سببه وخرج عن العادة فتنة يعلم به في طبعه الحق ومن في طبعه الباطل ، ومن هو سليم الفطرة ومن هو معكوسها ، وكان قد أخبر أن شجرة الزقوم تنبت في أصل الجحيم ، وكان ذلك في غاية الغرابة ، ضمه إلى الإسراء في ذلك فقال تعالى :

﴿ والشجرة ﴾ عطفاً على الرؤيا ﴿ الملعونة في القرءان ﴾ بكونها ضارة ، والعرب تسمي

كل ضار ملعوناً ، وبكونها في دار اللعنة ، وكل من له عقل يريد بعدها عنه ، وهي كما رواه البخاري في التفسير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - شجرة الزقوم جعلناها أيضاً فتنة للناس نقيم بها عليهم الحجة في الكفر والإيمان ، فنثبتهم أي من أردنا إيمانه منهم بالأول وهو الإسراء ﴿ ونخوفهم ﴾ بالثاني وأمثاله ﴿ فما يزيدهم ﴾ أي الكافرين منهم التخويف حال التخويف ، فما بعده من أزمنة الاستقبال أجدر بالزيادة ﴿ إلا طغياناً ﴾ أي تجاوزاً للحد هو في غاية العظم ﴿ كبيراً ﴾ فيقولون في الأول ما تقدم في أول السورة ، وفي الثاني : إن محمداً يقول : إن وقود النار الناس والحجارة ، ثم يقول : إن فيها شجراً ، قد علمتم أن النار تحرق الشجر ، ولم يقولوا ما هم أعلم الناس به من أن الذي جعل لهم من الشجر الأخضر ناراً قادر على أن يجعل في النار شجراً ، ومن أنسب الأشياء استحضاراً هنا ما ذكره العلامة شيخ مشايخنا زين الدين أبو بكر بن الحسين المراغي بمعجم العين المدني في تأريخ المدينة الشريفة في أوائل الباب الرابع في ذكر الأودية فإنه قال : وادي الشظاة - أي بمعجمتين مفتوحتين - يأتي من شرقي المدينة من أماكن بعيدة عنها إلى أن يصل السد الذي أحدثته نار الحرة التي ظهرت في جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة - يعني : وهي المشار إليها بقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم " لا تقوم الساعة حتى تخرج نار بالحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى " قال : وكان ظهورها من واد يقال به أحيليين في الحرة الشرقية ، وصارت من مخرجها إلى جهة الشمال مدة ثلاثة

أشهر تدب دبيب النمل ، تأكل ما مرت عليه من جبل وحجر ولا تأكل الشجر ، فلا تمر على شيء من ذلك إلا صار سداً لا مسلك لإنسان فيه ولا دابة إلى منتهى الحرة من جهة الشمال - فذكر القصة وهي غريبة ، وأسند فيها عن المطري فيما يتعلق بعدم أذاها للخشب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 398 . 401﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الدليل على فساد قول المشركين وأتبعه بالوعيد أتبعه بذكر مسألة النبوة ، وذلك لأن كفار قريش اقترحوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إظهار معجزات

عظيمة قاهرة كما حكى الله عنهم أنهم قالوا : ﴿ لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ ﴾ [طه : 133] ﴿ كَمَا أُرْسِلَ الأولون ﴾ [الأنبياء : 5] وقال آخرون : المراد ما طلبوه بقولهم : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لك حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنبُوعًا ﴾ [الإسراء : 90] وعن سعيد بن جبير أن القوم قالوا : إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء فمنهم : من سخرت له الريح ومنهم من كان يحيي الموتى فأتنا بشيء من هذه المعجزات فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بالأيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون ﴾ وفي تفسير هذا الجواب وجوه :

الوجه الأول : المعنى أنه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم فحينئذ يصيرون مستحقين لعذاب الاستئصال ، لكن إنزال عذاب الاستئصال على هذه الأمة غير جائز ، لأن الله تعالى أعلم أن فيهم من سيؤمن أو يؤمن أولادهم ، فلهذا السبب ما أجابهم الله تعالى إلى مطلوبهم وما أظهر تلك المعجزات القاهرة .

روى ابن عباس أن أهل مكة سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن يزيل لهم الجبال حتى يزرعوا تلك الأراضي ، فطلب الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك من الله تعالى فقال الله تعالى : إن شئت فعلت ذلك لكن بشرط أنهم إن كفروا أهلكتهم ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا أريد ذلك بل تتأنى بهم " فنزلت هذه الآية .

الوجه الثاني : في تفسير هذا الجواب أنا لا نظهر هذه المعجزات لأن آباءكم الذين رأوها لم يؤمنوا بها وأنتم مقلدون لهم ، فلو رأيتموها أنتم لم تؤمنوا بها أيضاً .

الوجه الثالث : أن الأولين شاهدوا هذه المعجزات وكذبوا بها ، فعلم الله منكم أيضاً أنكم لو شاهدتموها لكذبتم فكان إظهارها عبثاً ، والعبث لا يفعله الحكيم .

ثم قال تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ وفيه أبحاث :

البحث الأول : المعنى أن الآية التي التمسوها هي مثل آية ثمود ، وقد آتيناها ثمود واضحة بينة ثم كفروا بها فاستحقوا عذاب الاستئصال فكيف يتمناها هؤلاء على سبيل الاقتراح والتحكم على الله تعالى .

البحث الثاني : قوله تعالى : ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ وفيه وجهان : الأول : قال الفراء :

﴿ مُبْصِرَةً ﴾ أي مضيئة .

قال تعالى : ﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ [يونس : 67] أي مضيئاً .

الثاني : ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ أي ذات أبصار أي فيها أبصار لمن تأملها يبصر بها رشده ويستدل بها على صدق ذلك الرسول .

البحث الثالث : قوله : ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أي ظلموا أنفسهم بتكذيبهم بها ، وقال ابن قتيبة : ﴿ ظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أي جحدوا بأنها من الله تعالى .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالأيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾ قيل : لا آية إلا وتتضمن التخويف بها عند التكذيب إما من العذاب المعجل أو من عذاب الآخرة .

فإن قيل : المقصود الأعظم من إظهار الآيات أن يستدل بها على صدق المدعي فكيف حصر المقصود من إظهارها في التخويف .

(114/459)

قلنا : المقصود أن مدعي النبوة إذا أظهر الآية فإذا سمع الخلق أنه أظهر آية فهم لا يعلمون أن تلك الآية معجزة أو مخوفة ، إلا أنهم يجوزون كونها معجزة ، وبتقدير أن تكون معجزة فلو لم يتفكروا فيها ولم يستدلوا بها على الصدق لاستحقوا العقاب الشديد ، فهذا هو الخوف الذي يحملهم على التفكر والتأمل في تلك المعجزات ، فالمراد من قوله : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالأيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾ هذا الذي ذكرناه ، والله أعلم .

واعلم أن القوم لما طالبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعجزات القاهرة ، وأجاب الله تعالى بأن إظهارها ليس بمصلحة صار ذلك سبباً لجرأة أولئك الكفار بالطعن فيه وأن يقولوا

له : لو كنت رسولاً حقاً من عند الله تعالى لأتيت بهذه المعجزات التي اقترحناها منك ، كما أتى بها موسى وغيره من الأنبياء ، فعند هذا قوى الله قلبه وبين له أنه تعالى ينصره ويؤيده فقال : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالناس ﴾ وفيه قولان :

القول الأول : المعنى أن حكمته وقدرته محيطة بالناس فهم في قبضته وقدرته ، ومتى كان الأمر كذلك فهم لا يقدرون على أمر من الأمور إلا بقضائه وقدره ، والمقصود كأنه تعالى يقول له : ننصرك ونقويك حتى تبلغ رسالتنا وتظهر ديننا .

قال الحسن : حال بينهم وبين أن يقتلوه كما قال تعالى : ﴿ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ [المائدة : 67] .

(115/459)

والقول الثاني : أن المراد بالناس أهل مكة ، وإحاطة الله بهم هو أنه تعالى يفتحها للمؤمنين فكان المعنى : وإذ بشرناك بأن الله أحاط بأهل مكة بمعنى أنه يغلبهم ويقهرهم ويظهر دولتك عليهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] وقال : ﴿ قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران : 12] إلى قوله : ﴿ أَحَاطَ بالناس ﴾ لما كان كل ما يخبر الله عن وقوعه فهو واجب الوقوع ، فكان من هذا الاعتبار

كالواقع فلا جرم قال : ﴿ أَحَاطَ بالناس ﴾ وروي أنه لما تزاحف الفريقان يوم بدر ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش مع أبي بكر كان يدعو ويقول : "أللهم إني أسألك عهدك ووعدك لي" ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّونَ الدبر ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا الَّتي أريناك إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ وفي هذه الرؤيا أقوال :

القول الأول : أن الله أرى محمداً في المنام مصارع كفار قريش فحين ورد ماء بدر قال : " والله كأني أنظر إلى مصارع القوم " ثم أخذ يقول : " هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان " فلما سمعت قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية ، وكانوا يستعجلون بما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(116/459)

والقول الثاني : أن المراد رؤياه التي رآها أنه يدخل مكة وأخبر بذلك أصحابه ، فلما منع عن البيت الحرام عام الحديبية كان ذلك فتنة لبعض القوم ، وقال عمر لأبي بكر أليس قد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا ندخل البيت ونطوف به ، فقال أبو بكر إنه لم يخبر أنا نفعل ذلك في هذه السنة فسنفعل ذلك في سنة أخرى ، فلما جاء العام المقبل دخلها ،

وأنزل الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرؤيا بالحق ﴾ [الفتح : 27] اعترضوا على هذين القولين فقالوا : هذه السورة مكية ، وهاتان الواقعتان مدنيتان ، وهذا السؤال ضعيف لأن هاتين الواقعتين مدنيتان أما رؤيتهما في المنام فلا يبعد حصولها في مكة .

والقول الثالث : قال سعيد بن المسيب رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني أمية ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك ، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء والإشكال المذكور عائد فيه لأن هذه الآية مكية وما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة منبر ، ويمكن أن يجاب عنه بأنه لا يبعد أن يرى بمكة أن له بالمدينة منبراً يتداوله بنو أمية .

والقول الرابع : وهو الأصح وهو قول أكثر المفسرين أن المراد بها ما أراه الله تعالى ليلة الإسراء ، واختلفوا في معنى هذه الرؤيا فقال الأكثرون : لا فرق بين الرؤية والرؤيا في اللغة ، يقال رأيت بعيني رؤية ورؤيا ، وقال الأقلون : هذا يدل على أن قصة الإسراء إنما حصلت في المنام ، وهذا القول ضعيف باطل على ما قررناه في أول هذه السورة ، وقوله : ﴿ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ معناه : أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر لهم قصة الإسراء كذبوه وكفر به كثير ممن كان آمن به وازداد المخلصون إيماناً فلهذا السبب كان امتحاناً .

ثم قال تعالى : ﴿ والشجرة الملعونة فِي القرءان ﴾ وهذا على التقديم والتأخير ، والتقدير : وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس وقيل المعنى : والشجرة الملعونة في القرآن كذلك .

واختلفوا في هذه الشجرة ، فالأكثرون قالوا : إنها شجرة الزقوم المذكورة في القرآن في قوله : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم * طَعَامُ الأثيم ﴾ [الدخان : 43 ، 44] وكانت هذه الفتنة في ذكر هذه الشجرة من وجهين : الأول : أن أبا جهل قال : زعم صاحبكم بأن نار جهنم تحرق الحجر حيث قال : ﴿ وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ [التحريم : 6] ثم يقول : بأن في النار شجراً والنار تأكل الشجر فكيف تولد فيها الشجر .

والثاني : قال ابن الزبعري ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فتزقموا منه ، فأنزل الله تعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجر : ﴿ إِنَّا جعلناك فِتْنَةً للظالمين ﴾ [الصافات : 63] الآيات .

فإن قيل : ليس في القرآن لعن هذه الشجرة .

قلنا : فيه وجوه : الأول : المراد لعن الكفار الذين يأكلونها .

الثاني : العرب تقول لكل طعام مكروه ضار إنه ملعون .

والثالث : أن اللعن في أصل اللغة هو التبعيد فلما كانت هذه الشجرة الملعونة في القرآن مبعدة عن جميع صفات الخير سميت ملعونة .

القول الثاني : قال ابن عباس رضي الله عنهما : الشجرة بنو أمية يعني الحكم بن أبي العاص قال ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام أن ولد مروان يتداولون منبره فقص رؤياه على أبي بكر وعمر وقد خلا في بيته معهما فلما تفرقوا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم يخبر برؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتد ذلك عليه ، واتهم عمر في إفشاء سره ، ثم ظهر أن الحكم كان يتسمع إليهم فنفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(118/459)

قال الواحدي : هذه القصة كانت بالمدينة ، والسورة مكية فيبعد هذا التفسير إلا أن يقال : هذه الآية مدنية ولم يقل به أحد ، ومما يؤكد هذا التأويل قول عائشة لمروان لعن الله أباك وأنت في صلبه فأنت بعض من لعنه الله .

والقول الثالث : أن الشجرة الملعونة في القرآن هي اليهود لقوله تعالى : ﴿ لُعِنَ الذين كَفَرُواْ ﴾ [المائدة : 78] .

فإن قال قائل : إن القوم لما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الإتيان بالمعجزات القاهرة فأجاب أنه لا مصلحة في إظهارها لأنها لو ظهرت ولم تؤمنوا نزل الله عليكم عذاب الاستئصال ، وذلك غير جائز وأي تعلق لهذا الكلام بذكر الرؤيا التي صارت فتنة للناس

وبذكر الشجرة التي صارت فتنة للناس .

قلنا : التقدير كأنه قيل : إنهم لما طلبوا هذه المعجزات ثم إنك لم تظهرها صار عدم ظهورها شبهة لهم في أنك لست بصادق في دعوى النبوة إلا أن وقوع هذه الشبهة لا يوهن أمرك ولا يصير سبباً لضعف حالك ألا ترى أن ذكر تلك الرؤيا صار سبباً لوقوع الشبهة العظيمة في القلوب ثم إن قوة تلك الشبهات ما أوجبت ضعفاً في أمرك ولا فتوراً في اجتماع المحقين عليك فكذلك هذه الشبهة الحاصلة بسبب عدم ظهور هذه المعجزات لا توجب فتوراً في حالك ، ولا ضعفاً في أمرك ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ والمقصود منه ذكر سبب آخر في أنه تعالى ما أظهر المعجزات التي اقترحوها ، وذلك لأن هؤلاء خوفوا بمخاوف الدنيا والآخرة وبشجرة الزقوم فما زادهم هذا التخويف إلا طغياناً كبيراً ، وذلك يدل على قسوة قلوبهم وتماديهم في الغي والطغيان ، وإذا كان الأمر كذلك فبتقدير أن يظهر الله لهم تلك المعجزات التي اقترحوها لم ينتفعوا بها ولا يزدادون إلا تمادياً في الجهل والعناد ، وإذا كان كذلك ، وجب في الحكمة أن لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الآيات والمعجزات ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 187 . 190 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الآيات معجزات الرسل جعلها الله تعالى من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذبين .

الثاني : أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي .

الثالث : أنها تقلُّبُ الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهُّل ثم إلى مشيب ، لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمْرك ، وهذا قول أحمد بن حنبل رحمه الله .

قوله عز وجل : ﴿ وإذا قلنا لك إنّ ربّك أحاط بالناس ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : معناه أحاطت بالناس قدرته فهم في قبضته ، قاله مجاهد وابن أبي نجيح .

الثاني : أحاط علمه بالناس ، قاله الكلبي .

الثالث : أنه عصمك من الناس أن يقتلوك حتى تبلغ رسالة ربك ، قاله الحسن وعروة وقتادة .

﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنة للناس ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها رؤيا عين ليلة الإسراء به من مكة إلى بيت المقدس ، قاله ابن عباس والحسن

ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير والضحاك وابن أبي نجيح وابن زيد ، وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه أُسريَ به .

الثاني : أنها رؤيا نوم رأى فيها أنه يدخل مكة ، فعجل النبي صلى الله عليه وسلم قبل الوقت يوم الحيبية ، فرجع فقال ناس قد كان قال إنه سيدخلها فكانت رجعته فتنتهم ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

الثالث : أنها رؤيا منام رأى فيها قوماً يعلون على منا بره ينزون نزو القردة . فساءه ، وهذا قول سهل بن سعد . وقيل إنه ما استجمع ضاحكاً حتى مات صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية .

﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ فيها أربعة أقاويل :

أحدها : أنها شجرة الزقوم طعام الأثيم ، وقال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك وسعيد بن جبير وطاووس وابن زيد . وكانت فتنتهم بها قول أبي جهل وأشياعه : النار تأكل الشجر فكيف تنبتها .

الثاني : هي الكشوت التي تلتوي على الشجر ، قاله ابن عباس . الثالث : أنهم اليهود تظاهروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الأحزاب ، قاله ابن بحر . الرابع : أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في منامه قوماً يصعدون المنابر ، فشق عليه ، فأنزل الله تعالى ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ قاله سعيد بن المسيب .

والشجرة كناية عن المرأة ، والجماعة أولاد المرأة كالأغصان للشجر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(121/459)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل ﴾ الآية ،

(122/459)

هذه العبارة في معناها هي على ظاهر ما تفهم العرب ، فسمى سبق قضائه بتكذيب من كذب وتعذيبه منعاً ، وأن الأولى في موضع نصب ، والثانية في موضع رفع ، والتقدير : وما

منعنا الإرسال إلا التكذيب ، وسبب هذه الآية أن قريشاً اقترحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، واقترح بعضهم أن يزيل عنهم الجبال حتى يزرعوا الأرض ، فأوحى الله إلى محمد عليه السلام ، إن شئت أن أفعل ذلك لهم ، فإن تأخروا عن لإيمان عاجلتهم العقوبة ، وإن شئت استأنيت بهم ، عسى أن أجتبي منهم مؤمنين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بل تستأني بهم يا رب " ، فأخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لم يمنعه من إرسال الآيات المقترحة إلا الاستيناء ، إذ قد سلفت عادته بمعالجة الأمم الذين جاءتهم الآيات المقترحة فلم يؤمنوا ، قال الزجاج : أخبر تعالى أن موعد كفار هذه الأمة الساعة ، بقوله ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ [القمر : 46] ، فهذه الآية تنظر إلى ذلك ، ثم ذكر أمر ثمود ، احتجاجاً إن قال منهم قائل نحن كنا نؤمن لو جاءتنا آية اقترحناها ولا نكفر بوجه ، فذكر الله تعالى ثمود ، بمعنى : لا تؤمنون إن تظلموا بالآية كما ظلمت ثمود بالناقة ، وقرأ الجمهور : " ثمود " بغير تنوين ، قال هارون : أهل الكوفة ينونون " ثموداً " في كل وجه ، قال أبو حاتم : لا تنون العامة والعلماء بالقرآن " ثمود " في وجه من الوجوه ، وفي أربعة مواطن ألف مكتوبة ، ونحن نقرؤها بغير ألف ، وقوله ﴿ مبصرة ﴾ على جهة النسب أي معها إبصار ، كما قال : ﴿ آية النهار مبصرة ﴾ [الإسراء : 12] أي معها إبصار ممن ينظر ، وهذا عبارة عن بيان أمرها ، ووضوح إعجازها ، وقرأ قوم " مُبصَرة " بضم الميم وفتح

الصاد ، حكاه الزجاج ، ومعناه متبينة ، وقرأ قتادة "مَبصَرة" بفتح الميم والصاد ، وهي مَفعَلة من البصر ومثله قول عنترة : [الكامل] .

(123/459)

الكفر مخبثة لنفس المنعم . . . وقوله ﴿ فظلموا بها ﴾ أي وضعوا الفعل غير موضعه ، أي بعقرها ، وقيل بالكفر في أمرها ، ثم أخبر الله تعالى أنه إنما يرسل ﴿ بالآيات ﴾ غير المقترحة ﴿ تخويفاً ﴾ للعباد ، وهي آيات معها إمهال لا معاجلة ، فمن ذلك الكسوف والرعد والزلزلة وقوس قزح وغير ذلك ، قال الحسن والموت الذريع ، وروي أن الكوفة رجفت في مدة عبد الله بن مسعود . فقال : أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فاعتبوه ، ومن هذا قول النبي علي السلام في الكسوف : "فافزعوا إلى الصلاة" الحديث ، وآيات الله المعتبر بها ثلاثة أقسام : فقسم عام في كل شيء إذ حيثما وضعت نظرك وجدت آية ، وهنا فكرة العلماء ، وقسم معتاد غباً كالرعد والكسوف ونحوه ، وهنا فكرة الجهلة فقط ، وقسم خارق للعادة وقد انقضى بانقضاء النبوءة ، وإنما يعتبر به توهماً لما سلف منه .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾

(124/459)

قال الطبري : معنى قوله : ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾ أي في منعك يا محمد وحياطتك وحفظك ، فالآية إخبار له بأنه محفوظ من الكفرة ، آمن أن يقتل أو ينال بمكروه عظيم ، أي فالتبليغ رسالة ربك ، ولا تتهيب أحداً من المخلوقين ، وهذا تأويل بيّن جار مع اللفظ ، وقد روي نحوه عن الحسن بن أبي الحسن والسدي ، إلا أنه لا يناسب ما بعده مناسبة شديدة ، ويحتمل أن يجعل الكلام مناسباً لما بعده ، توطئة له ، فأقول : اختلف الناس في ﴿ الرؤيا ﴾ ، فقال الجمهور : هي رؤيا عين ويقظة ، وهي ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة الإسراء ، قالوا : فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الإسراء بما رأى في تلك الليلة من العجائب ، قال الكفار إن هذا لعجيب تحت الحداة إلى بيت المقدس شهرين إقبالاً وإدباراً ، ويقول محمد إنه جاءه من ليلة وانصرف منه ، فافتتن بهذا التلبيس قوم من ضعفة المسلمين ، فارتدوا وشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآيات فعلى هذا ، يحسن أن يكون معنى قوله ﴿ وإذا قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾ أي : في إضلالهم وهدايتهم ، وأن كل واحد ميسر لما خلق له ، أي فلا تهتم أنت بكفر من كفر ، ولا تحزن عليهم ، فقد قيل لك إن الله محيط بهم مالك لأمرهم ، وهو جعل رؤياك هذه فتنة ليكفر من سبق عليه الكفر ، وسميت الرؤية في هذا التأويل " رؤيا " ، إذ هما مصدران من رأى ، وقال النقاش جاء ذلك على اعتقاد من اعتقد

أنها منامة وإن كانت الحقيقة غير ذلك . وقالت عائشة ﴿ الرؤيا ﴾ في الإسراء رؤيا منام ، وهذا قول الجمهور على خلافه ، وهذه الآية تقضي بفساده ، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها ، وما كان أحد لينكرها ، وقد ذكر هذا مستوعباً في صدر السورة ، وقال ابن عباس : ﴿ الرؤيا ﴾ التي في هذه الآية ، هي رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدخل مكة ، فعجل في سنة الحديبية فرد ، فافتتن المسلمون بذلك ، فنزلت

(125/459)

الآيات ، وقال سهل بن سعد : إنما هذه " الرؤيا " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة ، فاهتم لذلك وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات ، فنزلت الآية مخبرة أن ذلك من ملكهم وصعودهم المنابر ، إنما يجعلها الله فتنة للناس وامتحاناً ، ويجيء قوله ﴿ أحاط بالناس ﴾ أي بأقداره ، وأن كل ما قدره نافذ ، فلا تهتم بما يكون بعدك من ذلك وقد قال الحسن بن علي ، في خطبته في شأن بيعته لمعاوية

﴿ وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾

[الأنبياء : 111] ، وفي هذا التأويل نظر ، ولا يدخل في هذه " الرؤيا " عثمان بن عفان ، ولا عمر بن عبد العزيز ، ولا معاوية ، وقوله ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ : معطوفة

على قوله ﴿ الرؤيا ﴾ ، أي جعلنا الرؤيا والشجرة فتنة ﴿ والشجرة ﴾ هنا في قول الجمهور هي شجرة الزقوم ، وذلك أن أمرها لما نزل في سورة الصافات قال أبو جهل وغيره هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يزعم أنها تنبت الشجر ، والنار تأكل الشجر وما نعرف الزقوم إلا التمر بالزبد ، ثم أمر أبو جهل جارية له ، فأحضرت تمراً وزبداً وقال لأصحابه تزقموا ، فافتتن أيضاً بهذه المقالة بعض الضعفاء ، فأخبر الله نبيه أنه إنما جعل الإسراء وذكر شجرة الزقوم فتنة واختباراً ليكفر من سبق عليه الكفر ، ويصدق من سبق له الإيمان ، كما روي أن أبا بكر الصديق ، قيل له ، صبيحة الإسراء إن صاحبك يزعم أنه جاء البارحة بيت المقدس وانصرف منه فقال إن كان قال ذلك فلقد صدق ، فقيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ، قال : أين عقولكم ، أنا أصدقه بخبر السماء فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس والسماء أبعد منها بكثير . وقالت فرقة : ﴿ والشجرة ﴾ : إشارة إلى القوم المذكورين قبل في ﴿ الرؤيا ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول ضعيف محدث ، وليس هذا عن سهل بن سعد ، ولا مثله ، وقال الطبري عن ابن عباس : إن ﴿ الشجرة الملعونة ﴾ يريد الملعون آكلها ، لأنها لم

يجر لها ذكر .

قال القاضي أبو محمد : ويصح أن يريد ﴿ الملعونة ﴾ ، هنا فأكد الأمر بقوله ﴿ في القرآن ﴾ وقالت فرقة : ﴿ الملعونة ﴾ ، المبعدة المكروهة ، وهذا أراد لأنها لعنها بلفظ اللعنة المتعارف ، وهذا قريب في المعنى من الذي قبله ، وأيضاً فما ينبت في أصل الجحيم ، فهو في نهاية البعد من رحمة الله ، وقوله ﴿ ونخوفهم ﴾ يريد : إما كفار مكة ، وإما الملوك من بني أمية بعد الخلافة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، " الخلافة بعدي ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكاً عضوضاً " والأول منها أصوب كما قلنا قبل ، وقوله ﴿ فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ﴾ يريد كفرهم وانتهاكهم فيه كقول أبي جهل في الزقوم والتزقم ، فقد قال النقاش إن في ذلك نزلت ، وفي نحوه وقرأ الأعمش " ويخوفهم " وقرأ الجمهور و" ونخوفهم " بالنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(127/459)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وما مَنَعَنا أن نُرْسِل بالآيات ﴾

سبب نزولها فيه قولان .

أحدهما : " أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحِّي عنهم الجبال فيزرعوا ، فقيل له : إِن شئتَ أن تستأني بهم لعلّنا نجتبي منهم ، وإِن شئتَ نؤتيهم الذي سألوا ، فإن كفروا أُهلكوا كما أُهلك من كان قبلهم ، قال : "لا ، بل أستأني بهم" " ، فنزلت هذه الآية ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : قد ذكرناه عن الزبير في قوله : ﴿ ولو أن قرآناً سيِّرت به الجبال ﴾ [الرعد : 31] ، ومعنى الآية : وما منَعَنا إِرسالَ الآياتِ التي سألوها إِلا تكذيبُ الأوّلين ، يعني : أن هؤلاء سألوا الآيات التي استوجب بتكذيبها الأولونَ العذابَ ، فلم يرسلها لئلا يكذِّب بها هؤلاء ، فيهلكوا كما هلك أولئك ، وسنَّة الله في الأمم أنهم إِذا سألوا الآيات ثم كذَّبوا بها عذَّبهم .

قوله تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾ قال ابن قتيبة : أي : بيِّنَةً ، يريد : مُبْصَراً بها .

قال ابن الأنباري : ويجوز أن تكون مبصِرة ، ويصلح أن يكون المعنى : مُبصِر مشاهدوها ، فنسب إِليها فعل غيرها تجوُّزاً ، كما يقال : لا أرينّك ها هنا ، فأدخل حرف النهي على غير المنهي عنه ، إِذ المعنى لا تحضر ها هنا ، حتى إِذا جئتُ لم أرك فيه .

ومن قرأ "مَبْصَرة" بفتح الميم والصاد ، فمعناه : المبالغة في وصف الناقة بالتبيان ، كقولهم : "الولد مَجْبَنة" .

قوله تعالى : ﴿ فظلموا بها ﴾ قال ابن عباس : فجحدوا بها .

وقال الأخفش : بها كان ظلمهم .

قوله تعالى : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ أي : نخوِّف العباد ليتَّعظوا .

وللمفسرين في المراد بهذه الآيات أربعة أقوال .

أحدها : أنها الموت الذَّريع ، قاله الحسن .

والثاني : معجزات الرسل جعلها الله تعالى تخويفاً للمكذبين .

والثالث : آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي .

والرابع : تقلُّب أحوال الإنسان من صِغر إلى شباب ، ثم إلى كهولة ، ثم إلى مشيب ، ليعتبر بتقلُّب أحواله فيخاف عاقبة أمره ، ذكر هذه الأقوال الثلاثة الماوردي ، ونسبَ القول الأخير منها إلى إمامنا أحمد رضي الله عنه .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾

فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أحاط عِلمه بالناس ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الربيع بن أنس .

وقال مقاتل : أحاط علمه بالناس ، يعني : أهل مكة ، أن يفتحها لرسوله صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أحاطت قدرته بالناس ، فهم في قبضته ، قاله مجاهد .

والثالث : حال بينك وبين الناس أن يقتلوك ، لتبلِّغ رسالته ، قاله الحسن ، وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ في هذه الرؤيا قولان .

أحدهما : أنها رؤيا عين ، وهي ما رأى ليلة أُسري به من العجائب والآيات .

روى عكرمة عن ابن عباس قال : هي رؤيا عين رآها ليلة أُسري به ، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، ومسروق ، والنخعي ، وقتادة ، وأبو مالك ، وأبو صالح ، وابن جريج ، وابن زيد في آخرين .

فعلى هذا يكون معنى الفتنة : الاختبار ، فإن قوماً آمنوا بما قال ، وقوماً كفروا .

قال ابن الأنباري : المختار في هذه الرؤية أن تكون يقظة ، ولا فرق بين أن يقول القائل : رأيت فلاناً رؤية ، ورأيته رؤيا ، إلا أن الرؤية يقلُّ استعمالها في المنام ، والرؤيا يكثر استعمالها في المنام ، ويجوز كل واحد منهما في المعنيين .

والثاني : أنها رؤيا منام .

ثم فيها قولان .

أحدهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أُرِيَ أنه يدخل مكة ، هو وأصحابه ، وهو يومئذ بالمدينة ، فعَجل قبل الأجل ، فردَّه المشركون ، فقال أناس : قد رُدَّ ، وكان حدَّثَنا أنه سيدخلها ، فكان رجوعهم فتنتهم ، رواه العوفي عن ابن عباس .

وهذا لا ينافي حديث المعراج ، لأن هذا كان بالمدينة ، والمعراج كان بمكة .

قال أبو سليمان الدمشقي : وإنما ذكره ابن عباس على وجه الزيادة في الإخبار لنا أن المشركين بمكة افتتنوا برؤيا عينه ، والمنافقين بالمدينة افتتنوا برؤيا نومه .

والثاني : أنه أُري بني أمية على المنابر ، فساءه ذلك ، فقيل له : إنها الدنيا يُعطَوْنَهَا ، فَسُرِّيَ عنه .

فالفتنة هاهنا : البلاء ، رواه علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب ، وإن كان مثل هذا لا يصح ، ولكن قد ذكره عامة المفسرين .

وروى ابن الأنباري أن سعيد بن المسيّب قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً على منابر ، فشَقّ ذلك عليه ، وفيه نزل : ﴿ والشجرةَ الملعونةَ في القرآن ﴾ ، قال : ومعنى قوله : ﴿ إلا فتنةً للناس ﴾ : إلا بلاءً للناس ، قال ابن الأنباري : فمن ذهب إلى أن الشجرة رجال رآهم النبي صلى الله عليه وسلم في منامه يصعدون على المنابر ، احتج بأن الشجرة يكنى بها عن المرأة لتأنيثها ، وعن الجماعة لاجتماع أغصانها .

قالوا : ووقعت اللعنة بهؤلاء الذين كنى عنهم بالشجرة .

قال المفسرون : وفي الآية تقديم وتأخير ، تقديره : وما جعلنا الرؤيا والشجرة إِلا فتنة للناس .

وفي هذه الشجرة ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها شجرة الزَّقُّوم ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومسروق ، والنخعي ، والجمهور .

(130/459)

وقال مقاتل : لما ذكر الله تعالى شجرة الزَّقُّوم قال أبو جهل : يا معشر قريش إِن محمداً يخوِّفكم بشجرة الزَّقُّوم ، ألستم تعلمون أن النار تحرق الشجر ؟ ومحمد يزعم أن النار تنبت الشجر ، فهل تدرون ما الزقوم ؟ فقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى : إِن الزَّقُّوم بلسان بَرْبَر : التمر والزُّبد ، فقال أبو جهل : يا جارية ابغينا تمراً وزُبداً ، فجاءته به ، فقال لمن حوله : تَزَقَّمُوا من هذا الذي يخوِّفكم به محمدٌ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ونخوِّفهم فما يَزيدُهم إِلا طغياناً كبيراً ﴾ .

قال ابن قتيبة : كانت فتنتهم بالرؤيا قولهم : كيف يذهب إِلى بيت المقدس ، ويرجع في ليلة ؟ ! وبالشجرة قولهم : كيف يكون في النار شجرة ؟ !

وللعلماء في معنى "الملعونة" ثلاثة اقوال.

أحدها: المذمومة، قاله ابن عباس.

والثاني: الملعون آكلُها، ذكره الزجاج، وقال: إِن لم يكن في القرآن ذِكْر لعنها، ففيه لعن آكليها، قال: والعرب تقول لكل طعام مكروه وضارٍّ: ملعون؛ فأما قوله: ﴿ في القرآن ﴾ فالمعنى: التي ذكرت في القرآن، وهي مذكورة في قوله: ﴿ إِن شجرة الزَّقُّوم طعام الأثيم ﴾ [الدخان: 43، 44].

والثالث: أن معنى "الملعونة": المُبعَدة عن منازل أهل الفضل، ذكره ابن الانباري.

والقول الثاني: أن الشجرة الملعونة هي التي تلتوي على الشجر، يعني: الكَشُوثى، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً.

والثالث: أن الشجرة كناية عن الرجال على ما ذكرنا عن سعيد بن المسيّب.

قوله تعالى: ﴿ ونخوِّفهم ﴾ قال ابن الأنباري: مفعول "نخوِّفهم" محذوف، تقديره: ونخوِّفهم العذاب، ﴿ فما يزيدهم ﴾ أي: فما يزيدهم التخويف ﴿ إِلا طغياناً ﴾؛ وقد ذكرنا معنى الطغيان في [البقرة: 15]، وذكرنا هناك تفسير قوله: ﴿ وإِذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إِلا إِبليس ﴾ [البقرة: 34]. انتهى انتهى. ا هـ ﴿زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون ﴾

في الكلام حذف ، والتقدير : وما منعنا أن نرسل بالآيات التي اقترحوها إلا أن يكذبوا بها

فيهلكوا كما فُعِل بمن كان قبلهم .

قال معناه قَتادة وابن جُريج وغيرهما .

فأخر الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلمه أن فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمناً .

وقد تقدّم في "الأنعام" وغيرها أنهم طلبوا أن يحوّل الله لهم الصَّفَا ذهبا وتتنحىّ الجبال عنهم

؛ فنزل جبريل وقال : "إن شئت كان ما سأل قومك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا .

وإن شئت استأنيت بهم" .

فقال : "لا ، بل استأن بهم" .

و"أن" الأولى في محل نصب بوقوع المنع عليهم ، و "أن" الثانية في محل رفع .

والباء في "بالآيات" زائدة .

ومجاز الكلام : وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأوّلين ، والله تعالى لا يكون ممنوعاً عن

شيء ؛ فالمعنى المبالغة في أنه لا يفعل ، فكأنه قد منع عنه .

ثم بيّن ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمن بها فقال : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ أي آية

دالة مضيئة نَيِّرة على صدق صالح ، وعلى قدرة الله تعالى .

وقد تقدّم ذلك .

﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أي ظلموا بتكذيبها .

وقيل : جحدوا بها وكفروا أنها من عند الله فاستأصلهم الله بالعذاب .

﴿ وَمَا نُرْسِلُ بالآيات إِلاَّ تَخْوِيفاً ﴾ فيه خمسة أقوال : الأوّل العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذّبين .

الثاني أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي .

الثالث أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهّل ثم إلى مشيب ، لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك ؛ وهذا قول أحمد بن حنبل رضي الله عنه .

الرابع القرآن .

الخامس الموت الذّريع ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالناس ﴾

قال ابن عباس : الناس هنا أهل مكة ، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم ؛ أي أن الله سيهلكهم . وذكره بلفظ الماضي لتحقق كونه .

وعنى بهذا الإهلاك الموعود ما جرى يوم بدر ويوم الفتح .

وقيل : معنى "أحاط بالناس" أي أحاطت قدرته بهم ، فهم في قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته ؛ قاله مجاهد وابن أبي نَجيح .

وقال الكلبيّ : المعنى أحاط علمه بالناس .

وقيل : المراد عصمته من الناس أن يقتلوه حتى يبلّغ رسالة ربه ؛ أي وما أرسلناك عليهم حفيظاً ، بل عليك التبليغ ، فبلغ بجدّك فإنا نعصمك منهم ونحفظك ، فلا تَهَبْهم ، وامض لما آمرك به من تبليغ الرسالة ، فقدرتنا محيطة بالكل ؛ قال معناه الحسن وعروة وقتادة وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ لمّا بين أن إنزال آيات القرآن تتضمن التخويف ضَمّ إليه ذكر آية الإسراء ، وهي المذكورة في صدر السورة .

وفي البخاريّ والترمذيّ عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ قال : هي رؤيا عَيْن أُرِيها النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة أُسْرِيَ به إلى بيت المقدس .

قال : ﴿ والشجرة الملعونة فِي القرآن ﴾ هي شجرة الزَّقُّوم .

قال أبو عيسى الترمذيّ : هذا حديث صحيح .

ويقول ابن عباس قالت عائشة ومعاوية والحسن ومجاهد وقَتادة وسعيد بن جُبير والضحاك وابن أبي نَجيح وابن زيد .

وكانت الفتنة ارتدادَ قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه أُسْرِيَ به .

وقيل : كانت رؤيا نوم .

وهذه الآية تقضي بفساده ، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها ، وما كان أحد لينكرها .

(133/459)

وعن ابن عباس قال : الرؤيا التي في هذه الآية هي رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدخل مكة في سنة الحُدَيْبِيَة ، فَرُدّ فافتتن المسلمون لذلك ، فنزلت الآية ، فلما كان العام المقبل دخلها ، وأنزل الله تعالى ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرؤيا بالحق ﴾ [الفتح : 27] .

وفي هذا التأويل ضعف ؛ لأن السورة مكية وتلك الرؤيا كانت بالمدينة .

وقال في رواية ثالثة : إنه عليه السلام رأى في المنام بني مروان يَنْزُون على منبره نَزْوَ القردة ، فساءه ذلك فقيل : إنما هي الدنيا أعطوها ، فسُرِّيَ عنه ، وما كان له بمكة منبر ولكنه يجوز

أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة .

وهذا التأويل الثالث قاله أيضاً سهل بن سعد رضي الله عنه .

قال سهل : إنما هذه الرؤيا هي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة ، فاغتم لذلك ، وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات صلى الله عليه وسلم .

فنزلت الآية مخبرة أن ذلك من تملكهم وصعودهم يجعلها الله فتنة للناس وامتحاناً .

وقرأ الحسن بن عليّ في خطبته في شأن بيعته لمعاوية : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [الأنبياء : 111] .

قال ابن عطية : وفي هذا التأويل نظر ، ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية .

قوله تعالى : ﴿ والشجرة الملعونة فِي القرآن ﴾ فيه تقديم وتأخير ؛ أي ما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس .

وفتنتُها أنهم لما خُوِّفوا بها قال أبو جهل استهزاء : هذا محمد يتوعّدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يزعم أنها تنبت الشجر والنارُ تأكل الشجر ، وما نعرف الزقوم إلا التمر والزبد ، ثم أمر أبو جهل جاريةً فأحضرت تمراً وزبداً وقال لأصحابه : تزقمّوا .

وقد قيل: إن القائل ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد ابن الزِّبَعْرَى حيث قال: كثّر الله من الزقوم في داركم؛ فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن.

وجائز أن يقول كلاهما ذلك.

فافتتن أيضاً لهذه المقالة بعض الضعفاء، فأخبر الله تعالى نبيّه عليه السلام أنه إنما جعل الإسراء وذكر شجرة الزقوم فتنة واختباراً لِيَكْفر من سبق عليه الكفر ويصدّق من سبق له الإيمان.

كما روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قيل له صبيحة الإسراء: إن صاحبك يزعم أنه جاء البارحة من بيت المقدس! فقال: إن كان قال ذلك فقد صدق.

فقيل له: أتصدقه قبل أن تسمع منه؟ فقال: أين عقولكم؟ أنا أصدّقه بخبر السماء، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعد منها بكثير.

قلت: ذكر هذا الخبر ابن إسحاق، ونصه: "قال كان من الحديث فيما بلغني عن مسراه صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخُدْرِيّ وعائشة ومعاوية بن أبي سفيان والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزُّهْرِيّ وقتادة وغيرهم من أهل العلم وأمّ هانئ بنت أبي طالب، ما اجتمع في هذا الحديث، كُلٌّ يحدّث عن بعض ما ذكر من أمره حين أسري به صلى الله عليه وسلم، وكان في مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص وأمر من

أمر الله عز وجل في قدرته وسلطانه فيه عبرة لأولي الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدّق وكان من أمر الله تعالى على يقين ؛ فأسرى به صلى الله عليه وسلم كيف شاء وكما شاء ليُرِيَه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها ما يريد .

(135/459)

وكان عبد الله بن مسعود فيما بلغني عنه يقول : " أُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق وهي الدابة التي كانت تُحمل عليها الأنبياء قبله تضع حافرها في منتهى طرفها فحمل عليها ، ثم خرج به صاحبه يُري الآيات فيما بين السماء والأرض ، حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جُمعوا له فصلّى بهم ثم أُتِيَ بثلاثة آنية : إناء فيه لبن وإناء فيه خمر ؛ وإناء فيه ماء .

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فسمعت قائلاً يقول حين عُرضت عليّ إن أخذ الماء فغرِق وغرِقت أمّته وإن أخذ الخمر فغوِيَ وغوَتْ أمته وإن أخذ اللبن فهُدِيَ وهُدِيَتْ أمته قال فأخذت إناء اللبن فشربت فقال لي جبريل هُدِيت وهُدِيتْ أمتُك يا محمد ".

قال ابن إسحاق : وحدّثت عن الحسن أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينما أنا نائم في الحِجْر جاءني جبريل عليه السلام فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئاً ثم عُدت لمضجَعِي فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئاً فعدت لمضجَعِي فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلست فأخذ بعضدِي فقمت معه فخرج إلى باب المسجد فإذا دابة أبيضُ بين البغل والحمار في فخذيه جناحان يَحْفِز بهما رجليه يضع حافره في منتهى طَرْفه فحملني عليه ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته " .

قال ابن إسحاق : وحُدثت عن قتادة أنه قال : حُدثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لما دنوت منه لأركبه شَمَسَ فوضع جبريل يده على مَعْرَفَته ثم قال ألا تستحي يا بُراق مما تصنع فوالله ما ركبك عبد لله قبل محمد أكرم عليه منه قال فاستحيا حتى أرفض عرقاً ثم قَرّ حتى ركبته " .

قال الحسن في حديثه : فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومضى معه (جبريل) حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء ، فأمّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلّى بهم ثم أتى بإناءين : في أحدهما خمر وفي

الآخر لبن ، قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر .

قال : فقال له جبريل : هُديت الفِطْرة وهُديت أمَّتُك وحُرّمت عليكم الخمر .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فلما أصبح غَدَا على قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس : هذا والله الأمر البَيّن ! والله إن العير لتطّرد شهراً من مكة إلى الشأم ، مدبرة شهرا ومقبلةً شهرا ، فيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ! قال : فارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ! يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلّى فيه ورجع إلى مكة .

قال فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : إنكم تكذبون عليه .

فقالوا : بلى ، ها هوذا في المسجد يحدّث به الناس .

فقال أبو بكر : والله إن كان قاله لقد صدق فما يعجّبكم من ذلك ! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدّقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا نبيّ الله ، أحدّثتَ هؤلاء أنك جئت ببيت المقدس هذه الليلة ؟ قال "نعم" قال : يا نبيّ الله ، فصفه لي فإني قد جئته ؟ فقال الحسن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رفع لي حتى نظرت إليه"

فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر رضي الله عنه :

صدقت ، أشهد أنك رسول الله .

كلما وصف له منه شيئاً قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله .

(137/459)

قال : حتى إذا انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه :

"وأنت يا أبا بكر الصدّيق" فيومئذٍ سماه الصدّيق .

قال الحسن : وأنزل الله تعالى فيمن ارتدّ عن الإسلام لذلك : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ والشجرة الملعونة فِي القرآن وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً ﴾

فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما دخل فيه من حديث قتادة .

وذكر باقي الإسراء عمن تقدّم في السيرة .

وقال ابن عباس : هذه الشجرة بنو أميّة ، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم نفى الحَكَم .

وهذا قول ضعيف محدَث والسورة مكية ، فيبعد هذا التأويل ، إلا أن تكون هذه الآية مدنية ، ولم يثبت ذلك .

وقد قالت عائشة لمروان : لعن الله أباك وأنت في صلبه فأنت بعض من لعنة الله .

ثم قال : "والشجرة الملعونة في القرآن" ولم يجز في القرآن لعن هذه الشجرة ، ولكن الله لعن الكفار وهم آكلوها .

والمعنى : والشجرة الملعونة في القرآن آكلوها .

ويمكن أن يكون هذا على قول العرب لكل طعام مكروه ضار : ملعون .

وقال ابن عباس : الشجرة الملعونة هي هذه الشجرة التي تلتوي على الشجر فتقتله ، يعني الكَشُوث .

﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ أي بالزّقوم .

﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ التخويف إلا الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(138/459)

وقال أبو حيان :

﴿ وما منعنا أن نرسل ﴾

بالآيات عن ابن عباس : "أن أهل مكة سألوا أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحي عنهم

الجبال فيزرعون ، اقترحوا ذلك على الرسول (صلى الله عليه وسلم) فأوحى الله إليه إن شئت أن أفعل ذلك لهم فإن تأخروا عاجلتهم بالعقوبة ، وإن شئت استأنيت بهم عسى أن أجتبي منهم مؤمنين فقال : "بل تستأني بهم يا رب" "

فنزلت ، واستعير المنع للترك أي ما تركنا إرسال الآيات المقترحة إلاّ لتكذيب الأولين بها ، وتكذيب الأولين ليس علة في إرسال الآيات لقريش ، فالمعنى إلاّ ابتاعهم طريقة تكذيب الأولين بها ، فتكذيب الأولين فاعل على حذف المضاف فإذا كذبوا بها كما كذب الأولون عاجلتهم بعذاب الاستئصال وقد اقتضت الحكمة أن لا أستأصلهم .

وقال الزمخشري : فالمعنى وما صرفنا عن إرسال ما تقترحونه من الآيات إلاّ أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود ، وإنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك وقالوا هذا سحر مبين كما يقولون في غيرها ، واستوجبوا العذاب المستأصل وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة ، ثم ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت إليهم فأهلكوا واحدة وهي ناقة صالح لأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم انتهى .

وقرأ الجمهور ﴿ ثمود ﴾ ممنوع الصرف .

وقال هارون : أهل الكوفة ينونون ﴿ ثمود ﴾ في كل وجه .

وقال أبو حاتم : لا تنون العامة والعلماء بالقرآن ﴿ ثمود ﴾ في وجه من الوجوه ، وفي أربعة

مواطن ألف مكتوبة ونحن نقرؤها بغير ألف انتهى .

وانتصب ﴿ مبصرة ﴾ على الحال وهي قراءة الجمهور .

وقرأ زيد بن عليّ ﴿ مبصرة ﴾ بالرفع على إضمار مبتدأ أي هي مبصرة ، وأضاف الإبصار إليها على سبيل المجاز لما كانت يبصرها الناس ، والتقدير آية مبصرة .

وقرأ قوم : بفتح الصاد اسم مفعول أي يبصرها الناس ويشاهدونها .

(139/459)

وقرأ قتادة بفتح الميم والصاد مفعلة من البصر أي محل إبصار كقوله :

والكفر مخبثة لنفس النعم . . .

أجراها مجرى صفات الأمكنة نحو أرض مسبعة ومكان مضبة ، وقالوا : الولد مبخلة مجبنة ﴿ فظلموا بها ﴾ أي بعقرها بعد قوله ﴿ فذروها تأكل في أرض الله ﴾ الآية .

وقيل : المعنى أنهم جحدوا كونها من عند الله .

وقيل : جعلوا التكذيب بها موضع التصديق وهو معنى القول قبله ، والظاهر أن الآيات الأخيرة غير الآيات الأولى ، لوحظ في ذلك وصف الاقتراح وفي هذه وصف غير المقترحة وهي آيات معها إمهال لا معاجلة كالكسوف والرعد والزلزلة .

وقال الحسن : والموت الذريع ، وفي حديث الكسوف : " فافزعوا إلى الصلاة " قال ابن عطية : وآيات الله المعتبر بها ثلاثة أقسام قسم عام في كل شيء إذ حيث ما وضعت نظرك وجدت آية.

وهنا فكرة العلماء ، وقسم معتاد كالرعد والكسوف ونحوه وهنا فكرة الجهلة فقط ، وقسم خارق للعادة وقد انقضى بانقضاء النبوة وإنما يعتبر توهماً لما سلف منه انتهى.

وهذا القسم الأخير قال فيه وقد انقضى بانقضاء النبوة وكثير من الناس يثبت هذا القسم لغير الأنبياء ويسميه كرامة.

وقال الزمخشري : إن أراد بالآيات المقترحة فالمعنى لا نرسلها ﴿ إلاّ تخويفاً ﴾ من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدمة له ، فإن لم يخافوا وقع عليهم ، وإن أراد غيرها فالمعنى ﴿ وما نرسل ﴾ ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها ﴿ إلاّ تخويفاً ﴾ وإنذاراً بعذاب الآخرة.

وقيل : الآيات التي جعلها الله تخويفاً لعباده سماوية كسوف الشمس ، وخسوف القمر ، والرعد ، والبرق ، والصواعق ، والرجوم وما يجري مجرى ذلك.

وأرضية زلازل ، وخسف ، ومحول ونيران تظهر في بعض البلاد ، وغور ماء العيون وزيادتها على الحد حتى تغرق بعض الأرضين ، ولا سماوية ولا أرضية الرياح العواصف وما يحدث عنها من قلع الأشجار وتدمير الديار وما تسوقه من السواقي والرياح السموم.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾

لما طلبوا الرسول بالآيات المقترحة وأخبر الله بالمصلحة في عدم المجيء بها طعن الكفار فيه ، وقالوا : لو كان رسولاً حقاً لأتى بالآيات المقترحة فبين الله أنه ينصره ويؤيده وأنه ﴿ أحاط بالناس ﴾ .

فقيل بعلمه فلا يخرج شيء عن علمه .

وقيل : بقدرته فقدرته غالبة كل شيء .

وقيل : الإحاطة هنا الإهلاك كقوله ﴿ وأحيط بثمره ﴾ والظاهر أن الناس عام .

وقيل : أهل مكة بشره الله تعالى أنه يغلبهم ويظهر عليهم ، و ﴿ أحاط ﴾ بمعنى يحيط عبر عن المستقبل بالماضي لأنه واقع لا محالة ، والوقت الذي وقعت فيه الإحاطة بهم .

قيل يوم بدر .

وقال العسكري : هذا خبر غيب قدمه قبل وقته ، ويجوز أن يكون ذلك في أمر الخندق ومجيء الأحزاب يطلبون ثأرهم ببدر فصرفهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً .

وقيل : يوم بدر ويوم الفتح .

وقيل : الأشبه أنه يوم الفتح فإنه اليوم الذي أحاط أمر الله بإهلاك أهل مكة فيه وأمكن منهم .

وقال الطبري : ﴿ أحاط بالناس ﴾ في منعك يا محمد وحياطتك وحفظك ، فالآية إخبار له أنه محفوظ من الكفرة أمن أن يقتل وينال بمكروه عظيم ، أي فلتبلغ رسالة ربك ولا تهيب أحداً من المخلوقين .

قال ابن عطية : وهذا تأويل بين جار مع اللفظ .

وقد روي نحوه عن الحسن والسدّي إلاّ أنه لا يناسب ما بعده مناسبة شديدة ، ويحتمل أن يجعل الكلام مناسباً لما بعده توطئة له .

فأقول : اختلف الناس في ﴿ الرؤيا ﴾ .

فقال الجمهور هي رؤيا عين ويقظة وهي ما رأى في ليلة الإسراء من العجائب قال الكفار : إن هذا لعجب نخبّ إلى بيت المقدس شهرين إقبالاً وإدباراً ويقول محمد جاءه من ليلته وانصرف منه ، فافتتن بهذا التلبيس قوم من ضعفاء المسلمين فارتدوا وشق ذلك على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنزلت هذه الآية ، فعلى هذا يحسن أن يكون معنى

قوله ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾ أي في إضلالهم وهدايتهم ، وإن كل واحد ميسر لما خلق له أي فلا تهتم أنت بكفر من كفر ولا تحزن عليهم فقد قيل لك إن الله محيط بهم مالك لأمرهم وهو جعل رؤياك هذه فتنة ليكفر من سبق عليه الكفر ، وسميت الرؤية في هذا التأويل رؤياً إذ هما مصدران من رأى .

وقال النقاش : جاء ذلك من اعتقاد من اعتقد أنها منامية وإن كانت الحقيقة غير ذلك انتهى .

وعن ابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم : هو قصة الإسراء والمعراج عياناً آمن به الموفقون وكفر به المخذولون ، وسماه رؤيا لوقوعه في الليل وسرعة تقضيه كأنه منام .

وعن ابن عباس أيضاً هو رؤياه أنه يدخل مكة فعجل في سنته الحديبية ورد فافتتن الناس ، وهذا مناسب لصدر الآية فإن الإحاطة بمكة أكثر ما كانت .

وعن سهل بن سعد : هي رؤياه بني أمية ينزون على منبره نزو القردة فاهتم لذلك وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات ، فنزلت الآية مخبرة أن ذلك من ملكهم وصعودهم المنابر إنما يجعلها الله فتنة للناس .

ويجيء قوله ﴿ أحاط بالناس ﴾ أي بأقداره وإن كان ما قدّره الله فلا تهتم بما يكون بعدك من ذلك .

وقال الحسن بن عليّ في خطبته في شأن بيعته لمعاوية : وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى

حين .

وقالت عائشة : ﴿ الرؤيا ﴾ رؤيا منام .

قال ابن عطية : وهذه الآية تقضي بفساده ، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها وما كان أحد لينكرها انتهى .

ولبس كما قال ابن عطية : فإن رؤيا الأنبياء حق ويخبر النبيّ بوقوع ذلك لا محالة فيصير إخباره بذلك فتنة لمن يريد الله به ذلك .

(142/459)

وقال صاحب التحرير : سألت أبا العباس القرطبي عن هذه الآية فقال : ذهب المفسرون فيها إلى أمر غير ملائم في سياق أول الآية ، والصحيح أنها رؤية عين يقظة لما آتاه بدراً أراه جبريل عليه السلام مصارع القوم فأراها الناس ، وكانت فتنة لقريش فإنهم لما سمعوا أخذوا في الهزء والسخرية بالرسول (صلى الله عليه وسلم) .

﴿ والشجرة الملعونة ﴾ هنا هي أبو جهل انتهى .

وقال الزمخشري : ولعل الله تعالى أراه مصارعهم في منامه فقد كان يقول حين ورد ماء بدر : "والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم" وهو يرمىء إلى الأرض ويقول : "هذا مصرع فلان هذا

مصرع فلان" .

فتسامعت قريش بما أُوحي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من أمر بدر وما أُرِي في منامه من مصارعهم ، فكانوا يضحكون ويستسخرون به استهزاء .

وقيل : رأى في المنام أن ولد الحكم يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة انتهى .

والظاهر أنه أريد بالشجرة حقيقتها .

فقال ابن عباس : هي الكشوث المذكورة في قوله ﴿ كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ وعنه أيضاً : هي ﴿ الشجرة ﴾ التي تلتوي على الشجرة فتفسدها .

قال : والفتنة قولهم ما بال الحشائش تذكر في القرآن .

وقال الجمهور : هي شجرة الزقوم لما نزل أمرها في الصافات وغيرها .

قال أبو جهل وغيره : هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنها تنبت الشجر والنار تأكل الشجر وما نعرف الزقوم إلاّ التمر بالزبد ، ثم أمر أبو جهل جارية له فأحضرت تمراً وزبداً وقال لأصحابه : "تزقموا" فافتتن أيضاً بهذه المقالة بعض الضعفاء .

قال الزمخشري : وما أنكروا أن يجعل الله ﴿ الشجرة ﴾ من جنس لا تأكله النار ، فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك يتخذ منها مناديل إذا اتسخت طرحت في النار فيذهب الوسخ وبقي المنديل سالماً لا تعمل فيه النار ، وترى النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد الحمر كالجمر بإحماء النار فلا يضرها ثم أقرب من ذلك أنه خلق في كل شجرة ناراً فلا تحرقها فما أنكروا أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها .

والمعنى أن الآيات إنما نرسل بها تخويفاً للعباد ، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر فما كان ما أريناك منه في منامك بعد الوحي إليك إلاّ فتنة لهم حيث اتخذوه سخرياً وخوفوا بعذاب الآخرة وبشجرة الزقوم فما أثر فيهم ثم قال ﴿ ونخوفهم ﴾ أي بمخاوف الدنيا والآخرة ﴿ فما يزيدهم ﴾ التخويف ﴿ إلاّ طغياناً كبيراً ﴾ فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات انتهى .

وقوله بعد الوحي إليك هو قوله ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ وقوله ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون ﴾ والظاهر إسناد اللعنة إلى ﴿ الشجرة ﴾ واللعن الإبعاد من الرحمة وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة .

وقيل تقول العرب لكل طعام مكروه ضار ملعون .

قال الزمخشري : وسألت بعضهم فقال نعم الطعام الملعون القشب الممحون .

وقال ابن عباس : ﴿ الملعونة ﴾ يريد آكلها ، ونمقه الزمخشري فقال : لعنت حيث لعن

طاعموها من الكفرة والظلمة لأن الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز انتهى .

وقيل لما شبه طلعها برؤوس الشياطين ، والشيطان ملعون نسبت اللعنة إليها .

وقال قوم ﴿ الشجرة ﴾ هنا مجاز عن واحد وهو أبو جهل .

وقيل هو الشيطان .

(144/459)

وقيل مجاز عن جماعة وهم اليهود الذين تظاهروا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولعنهم الله تعالى وفتنتهم أنهم كانوا ينتظرون بعثة الرسول عليه السلام ، فلما بعثه الله كفروا به وقالوا : ليس هو الذي كنا ننتظره فثبطوا كثيراً من الناس بمقالتهم عن الإسلام .

وقيل بنو أمية حتى إن من المفسرين من لا يعبر عنهم إلاّ بالشجرة الملعونة لما صدر منهم من استباحة الدماء المعصومة وأخذ الأموال من غير حلها وتغيير قواعد الدين وتبديل الأحكام ، ولعنها في القرآن ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة .

وقرأ الجمهور : ﴿ الشجرة الملعونة ﴾ عطفاً على ﴿ الرؤيا ﴾ فهي مندرجة في الحصر ،

أي ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك ﴾ ﴿ والشجرة الملعونة ﴾ في القرآن ﴿ إلاّ فتنة للناس ﴾ .

وقرأ زيد بن عليّ برفع ﴿ والشجرة الملعونة ﴾ على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره كذلك أي فتنة ، والضمير في ﴿ ونخوفهم ﴾ لكفار مكة .

وقيل لملوك بني أمية بعد الخلافة التي قال النبيّ (صلى الله عليه وسلم) : " الخلافة بعدي ثلاثون ثم تكون ملكاً عضوضاً " والأول أصوب .

وقرأ الأعمش : ويخوفهم بياء الغيبة والجمهور بنون العظمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(145/459)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بالآيات ﴾

أي الآياتِ التي اقترحتها قريشٌ من إحياء الموتى وقلبِ الصَّفا ذهباً ونحوِ ذلك ﴿ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم الأشياء أي وما منعنا من إرسالها شيءٌ من الأشياء إلا تكذيبُ الأولين بها حين جاءتهم باقتراحهم ، وعدمُ إرساله تعالى بها وإن كان

بمشيئته المبنيةِ على الحِكَم البالغةِ لا لمنع مانعٍ عن ذلك من التكذيب أو غيرِه لاستحالة العجزِ عليه تعالى، لكنّ تكذيبَهم المذكورَ بواسطة استتباعِه لاستئصالِهم بحُكم السنة الإلهية واستلزامِه لتكذيب الآخرين بحكم الاشتراكِ في العتوّ والعناد وإفضائِه إلى أن يحل بهم مثلُ ما حل بهم بحكم الشِركة في الجريرة، لمّا كان منافياً لإرسال ما اقترحوه من الآيات لتعين التكذيبِ المستدعي للاستئصال المخالفِ لما جرى به قلمُ القضاءِ من تأخير عقوباتِ هذه الأمةِ إلى الآخرة لِحِكَمٍ باهرة من جملتها ما يُتوَهّم من إيمان بعض أعقابهم، عَبّر عن تلك المنافاةِ بالمنع على نهج الاستعارةِ إيذاناً بتعاضد مبادي الإرسالِ لا كما زعَموا من عدم إرادتِه تعالى لتأييده عليه الصلاة والسلام بالمعجزات، وهو السرُّ في إيثار الإرسالِ على الإيتاء لما فيه من الإشعار بتداعي الآياتِ إلى النزول لولا أن تُمسكَها يدُ التقدير، وإسنادُ هذا المنعِ إلى تكذيب الأولين لا إلى علمه تعالى بما سيكون من الآخرين كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ لإقامة الحجةِ عليهم بإبراز الأُنموذج وللإيذان بأن مدارَ عدم الإجابةِ إلى إيتاء مقترحِهم ليس إلا صنيعَهم ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ ﴾ عطفٌ على ما يُفصح عنه النظمُ الكريمُ كأنه قيل: وما منعنا أن نُرسِلَ بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون حيث آتيناهم ما اقترحوا من الآيات الباهرة فكذبوها، وآتينا باقتراحهم ثمودَ الناقة ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ على صيغة

الفاعل ، أي بَيّنة ذاتَ إبصارٍ ، أو بصائرَ يدركها الناسُ أو أُسند إليها حالُ من يشاهدها مجازاً ، أو جاعلتَهم ذوي بصائرَ من أبصره جعله بصيراً ، وقرىء على صيغة المفعول وبفتح الميم والصاد وهي نصبٌ على الحالية ، وقرىء بالرفع على أنها خبرُ مبتدأ محذوف .

﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ فكفروا بها ظالمين أي لم يكتفوا بمجرد الكفرِ بها بل فعلوا بها ما فعلوا من العقْر ، أو ظلموا أنفسَهم وعرّضوها للهلاك بسبب عقرِها ، ولعل تخصيصَها بالذكر لما أن ثمودَ عربٌ مثلُهم وأن لهم من العلم بحالهم ما لا مزيدَ عليه من حيث يشاهدون آثارَ هلاكِهم وروداً وصدوراً ، أو لأنها من جهة إنها حيوانٌ أُخرج من الحجر أوضحُ دليلٍ على تحقق مضمونِ قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾ ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بالأيات ﴾ المقترَحة ﴿ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾ لمن أُرسلت هي عليهم مما يعقُبها من العذاب المستأصِل كالطليعة له ، وحيث لم يخافوا ذلك فُعل بهم ما فعل فلا محل للجملة حينئذ من الإعراب ، ويجوز أن تكون حالاً من ضمير ظلموا أي فظلموا بها ولم يخافوا عاقبتَه والحال أنا ما نُرسل بالآيات التي هي من جملتها إلا تخويفاً من العذاب الذي يعقُبها فنزل بهم ما نزل .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالناس ﴾

أي علماً كما نقله الإمامُ الثعلبيّ عن ابن عباس رضي الله عنهما فلا يخفى عليه شيءٌ من أفعالهم الماضيةِ والمستقبلة من الكفر والتكذيبِ ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرءيا التى أريناك إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ إلى آخر الآية تنبيهٌ على تحققها بالاستدلال عليها بما صدرَ عنهم عند مجيءِ بعض الآياتِ لاشتراك الكلِّ في كونها أموراً خارقةً للعادات منزّلةً من جانب الله على النبي عليه الصلاة والسلام ، فتكذيبُهم لبعضها مستلزمٌ لتكذيب الباقي كما أن تكذيبَ الآخرين بغير المقترَحة يدل على تكذيبهم بالآيات المقترَحة ، والمرادُ بالرؤيا ما عاينه عليه الصلاة والسلام ليلةَ المِعراج من عجائب الأرضِ والسماءِ حسبما ذُكر في فاتحة السورةِ الكريمة ، والتعبيرُ عن ذلك بالرؤيا إما لأنه لا فرقَ بينها وبين الرؤيةِ ، أو لأنها وقعت بالليل ، أو لأن الكفرةَ قالوا : لعلها رؤيا ، أي وما جعلنا الرؤيا التي أريناكها عِياناً مع كونها آيةً عظيمةً وأيةَ آيةٍ حقيقةٍ بأن لا يتلعثم في تصديقها أحدٌ ممن له أدنى بصيرةٍ إلا فتنةً افتُتن بها الناسُ حتى ارتد بعضهم ﴿ والشجرة الملعونة فِى القرءان ﴾ عطف على الرؤيا ، والمرادُ بلعنها فيه لعنُ طاعمِها على الإسناد المجازيِّ أو إبعادُها عن الرحمة فإنها تنبُت في أصل الجحيم في أبعدِ مكان من الرحمة ، أي وما جعلناها إلا فتنةً لهم حيث أنكروا ذلك وقالوا : إن محمداً يزعُم أن الجحيمَ يحرُق الحجارةَ ، ثم يقول : "ينبُت فيها الشجرُ" ولقد ضلوا في ذلك ضلالاً بعيداً حيث كابروا قضيةَ عقولهم فإنهم يروْن النعامةَ تبتلع الجمْرَ وقِطَعَ الحديد

المحمّاةَ فلا تضرّها ، ويشاهدون المناديلَ المتخَذَةَ من وبْر السمندر تُلقى في النار فلا تؤثر فيها ويرَون أن في كل شجر نارا ً، وقرىء بالرفع على حذف الخبر كأنه قيل : والشجرةُ الملعونةُ في القرآن كذلك .

(148/459)

﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ بذلك وبنظائرها من الآيات فإن الكلَّ للتخويف ، وإيثارُ صيغةِ الاستقبال للدِلالة على التجدد والاستمرارِ فما يزيدهم التخويفُ ﴿ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ متجاوزاً عن الحد فلو أُرسلنا بما اقترحوه من الآيات لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها ، وفُعل بهم ما فعل بأشياعهم وقد قضينا بتأخير العقوبةِ العامة لهذه الأمةِ إلى الطامة الكبرى . هذا هو الذي يستدعيه النظمُ الكريمُ وقد حمل أكثرُ المفسرين الإحاطةَ على الإحاطة بالقدرة تسليةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما عسى يعتريه من عدم الإجابةِ إلى إنزال الآياتِ التي اقترحوها لأن إنزالها ليس بمصلحة من نوع حزنٍ من طعْن الكفرةِ حيث كانوا يقولون : لو كنتَ رسولاً حقاً لأتيت بهذه المعجزات كما أتى بها موسى وغيرُه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فكأنه قيل : اذكر وقتَ قولِنا لك : إن ربك اللطيفَ بك قد أحاط بالناس فهم في قبضة قدرتِه لا يقدرون على الخروج من مشيئته فهو يحفَظُك منهم فلا تهتمَّ بهم

وامضِ لما أمرتُك به من تبليغ الرسالةِ ، ألا ترى أن الرؤيا التي أريناك من قبل جعلناها فتنةً للناس مُورثةً للشبهة مع أنها ما أورثت ضعفاً لأمرك وفتوراً في حالك ، وقد فُسر الإحاطةُ بإهلاك قريشٍ يوم بدر ، وإنما عبر عنه بالماضي مع كونه منتظَراً حسبما ينبىء عنه قوله تعالى :

(149/459)

﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمَ ﴾ وغيرُ ذلك جرياً على عادته سبحانه في أخباره ، وأُوّلت الرؤيا بما رآه عليه الصلاة والسلام في المنام من مصارعهم . لما رُوي أنه عليه الصلاة والسلام لما ورد ماءَ بدرٍ قال : " والله لكأني أنظرُ إلى مصارع القوم وهو يومىء إلى الأرض هذا مصرَعُ فلان وهذا مصرعُ فلان " فتسامعت به قريش فاستسخروا منه ، وبما رآه عليه الصلاة والسلام أنه سيدخل مكةَ وأخبر به أصحابَه فتوجه إليها فصده المشركون عامَ الحديبية واعتذر عن كون ما ذكر مدنياً بأنه يجوز أن يكون الوحيُ بإهلاكهم ، وكذا الرؤيا واقعاً بمكة وذكرُ الرؤيا وتعيينُ المَصارعِ واقعَين بعد الهجرة . وأنت خبيرٌ بأنه يلزم منه أن يكون افتتانُ الناسِ بذلك واقعاً بعد الهجرة وأن يكون ازديادُهم طغياناً متوقعاً غيرَ واقعٍ عند نزول الآية ، وقد قيل :

الرؤيا ما رآه عليه الصلاة والسلام في وقعة بدر من مضمون قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ ﴾ ولا ريب في أن تلك الرؤيا مع وقوعها في المدينة ما جُعلت فتنة للناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(150/459)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ ﴾

أي الآيات التي اقترحتها قريش ، فقد أخرج أحمد .

والنسائي .

والحاكم وصححه .

والطبراني .

وغيرهم عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا فقيل له : إن شئت أن تستأني بهم وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم فقال عليه الصلاة والسلام : لا بل أستأني بهم فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وأن ما بعدها في تأويل مصدر

منصوب على أنه مفعول منع على ما صرح به الطبرسي أو منصوب بنزع الخافض كما قيل : لتعدي الفعل إلى مفعوله الثاني بالحرف كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِّنَ الْمُؤمنين ﴾ [النساء : 141] أي وما منعنا الإرسال أو من الإرسال بالآيات إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا ﴾ أي بجنسها ﴿ الأَوَّلُونَ ﴾ أي بجنسها ﴿ الاولون ﴾ من الأمم السابقة المقترحة ، والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء وأن وما بعدها في تأويل مصدر فاعل منع أي ما منعنا شيء من الأشياء إلا تكذيب الأولين .

وزعم أبو البقاء أنه على تقدير مضاف أي إلا إهلاك تكذيب الأولين ، ولا حاجة إليه عند الآخرين .

(151/459)

والمنع لغة كف الغير وقسره عن فعل يريد أن يفعله ولاستحالة ذلك في حقه سبحانه لاستلزامه العجز المحال المنافي للربوبية قالوا : إنه هنا مستعار للصرف وأن المعنى وما صرفنا عن إرسال الآيات المقترحة إلا تكذيب الأولين المقترحين المستتبع لاستئصالهم فإنه يؤدي إلى تكذيب الآخرين المقترحين بحكم اشتراكهم في العتو والعناد وهو مفض إلى أن يحل بهم مثل ما حل بهم بحكم الشركة في الجريرة والفساد وجريان السنة الإلهية والعادة الربانية

بذلك وفعل ذلك بهم مخالف لما كتب في لوح القضاء بمداد الحكمة من تأخير عقوبتهم ، وحاصله أنا تركنا إرسال الآيات لسبق مشيئتنا تأخير العذاب عنهم لحكم نعلمها ، واستشعر بعضهم من الصرف نوع محذور فجعل المنع مجازاً عن الترك .

وتعقب بأنه لا يصح مع كون الفاعل التكذيب لأن التارك هو الله تعالى .

وأجيب بأن دعوى لزوم اتحاد الفاعل في المعنى الحقيقي والمستعار له مما لم يقم عليه دليل بل الظاهر خلافه .

وذكر بعض المحققين ولله تعالى أبوه وإن نوقش أن تكذيب الأولين المستتبع للاستئصال والمستلزم لتكذيب الآخرين المفضي لحلول الوبال مناف لإرسال الآيات المقترحة لتعين التكذيب المستدعى لما ينافي الحكمة في تأخير عقوبة هذه الأمة فعبر عن تلك المنافاة بالمنع على نهج الاستعارة إيذاناً بتعاضد مبادىء الإرسال لا كما زعموا من عدم إرادته تعالى لتأييد رسوله صلى الله عليه وسلم بالمعجزات وهو السر في إيثار الإرسال على الإيتاء لما فيه من ازشعار بتداعي الآيات إلى النزول لولا أن تمسكها يد التقدير ، وإسناد المنع إلى تكذيب الأولين لا إلى علمه تعالى بما سيكون من المقترحين الآخرين كما في قوله تعالى :

﴿ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : 23]
لإقامة الحجة عليهم بإبراز الأنموذج وللإيذان بأن مدار عدم الإجابة إلى إيتاء مقترحهم ليس إلا صنيعهم ، ثم حكمة التأخير قيل إظهار مزيد شرف النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل العناية بمن سيولد من بعضهم من المؤمنين وبمن سيؤمن منهم ، وينبغي أن يزاد في كل إلى غير ذلك مثلاً وإلا فلا حصر ، وقيل معنى الآية أنا لا نرسل الآيات المقترحة لعلمنا بأنهم لا يؤمنون عندها كما لم يؤمن بها من اقترحوها قبلهم فيكون إرسالها عبثاً لا فائدة فيه والحكيم لا يفعله ، وأنت تعلم أنه إذا كان إرسال المقترح إذا لم يؤمن عنده المقترح عبثاً لا يفعله الحكيم أشكل فعله من أول مرة على أن ما روي في سبب النزول يقتضي التفسير الأول كما لا يخفى وفسرت الآيات بالمقترحة لأن ما بها إثبات دعوى الرسالة من مقتضيات الإرسال وما زاد على ذلك ولم يكن عن اقتراح لطف من الملك المتعال : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ ﴾ عطف على ما يفصح عنه النظم الكريم كأنه قيل : وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون حيث أتيناهم ما اقترحوا على أنبيائهم عليهم السلام من الآيات الباهرة فكذبوها وآتينا ثمود الناقة باقتراحهم على نبيهم صالح عليه السلام وأخرجناها لهم من الصخرة ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ على صيغة اسم الفاعل حال من الناقة ، والمراد ذات أبصار أو ذات بصيرة يبصرها الغير ويتبصر بها فالصيغة للنسب أو جاعلة الناس ذوي بصائر على أنه اسم فاعل من أبصره والهمزة للتعدية أي جعله ذا بصيرة وإدراك ويحتمل أن يكون إسناد

الإبصار إليها مجازاً وهو في الحقيقة حال من يشاهدها .

وقرأ قوم ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ بزنة اسم المفعول أي يبصرها الناس ولا خفاء في ذلك .

(153/459)

وقرأ قتادة ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ بفتح الميم والصاد أي محل إبصال بجعل الحامل على الشيء بمنزلة محله نحو الولد مبخلة مجبنة .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ بزنة اسم الفاعل والرفع على إضمار مبتدأ أي هي مبصرة .

وقرأ الجمهور ﴿ ثَمُودُ ﴾ ممنوعاً من الصرف ، وقال هارون : أهل الكوفة ينونون في كل وجه وقال أبو حاتم لا تنون العامة ، والعلماء بالقرآن ﴿ ثَمُودُ ﴾ في وجه من الوجوه وفي أربعة مواطن ألف مكتوبة ونحن نقرؤه بغير ألف اه .

وهو كما قال الراغب عجمي ، وقيل عربي وترك صرفه لكونه اسم قبيلة ، وهو فعول من الثمد وهو الماء القليل الذي لا مادة له ومنه قيل : فلان مثمود ثمدته النساء أي قطعن مادة مائة لكثرة غشيانه لهن ومثمود إذا كثر عليه السؤال حتى نفدت مادة ماله وصحح كثير عربيته أي آتينا تلك القبيلة الناقة ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أي فكفروا بها وجحدوا كونها من

عند الله تعالى لتصديق رسوله أو فكفروا بها ظالمين أي لم يكتفوا بمجرد الكفر بها بل فعلوا بها ما فعلوا من العقر أو ظلموا أنفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها .

(154/459)

ولعل تخصيص إيتائها بالذكر لما أن ثمود عرب مثل أهل مكة المقترحين وأن لهم من العلم بحالهم ما لا مزيد عليه حيث يشاهدون آثار هلاكهم لقرب ديارهم منهم وروداً وصدورا ، وجوز أن يكون ذلك لأن الناقة من جهة أنها حيوان أخرج من الحجر أوضح دليل على تحقق مضمون قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾ [الإسراء : 50] الخ والأول أقرب ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بالايات إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾ أي لمن أرسلت عليهم ، والمراد بها إما المقترحة فالتخويف بالاستئصال لإنذارها به في عادة الله تعالى أي ما نرسلها إلا تخويفاً من العذاب المستأصل كالطليعة له فإن لم يخافوا فعل بهم ما فعل ، وأما غيرها كآيات القرآن والمعجزات فالتخويف بعذاب الآخرة دون العذاب الدنيوي بالاستئصال أي ما نرسلها إلا تخويفاً وإنذاراً بعذاب الآخرة .

واستظهر أبو حيان كون المراد بها الآيات التي معها إمهال كالخسوف والكسوف وشدة الرعد والبرق والرياح والزلازل وغور ماء العيون وزيادتها على الحد حتى يغرق منها بعض

الأرضين ، وعد الحسن من ذلك الموت الذريع أي ما نرسلها إلا تخويفاً مما هو أعظم منها .

أخرج ابن جرير عن قتادة قال : إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يعتبون أو يذكرون ويرجعون ، وذكر ابن عطية أن آيات الله تعالى المعتبر بها ثلاثة أقسام ، قسم عام في كل شيء .

ففي كل شيء له آية .

تدل على أنه واحد .

وهناك فكرة العلماء ، وقسم معتاد كالرعد والكسوف وهناك فكرة الجهلة ، وقسم خارق للعادة وقد انقضى بانقضاء النبوة وإنما يعتبر اليوم بتوهم مثله وتصوره اه .

(155/459)

وفيه غفلة عن الكرامة فإن أهل السنة يثبتونها للولي في كل عصر ، والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب ، وجوز على الوجه الأول أن تكون حالا من ضمير ظلموا أي فظلموا بها ولم يخافوا العاقبة والحال إنا ما نرسل بالآيات التي هي من جملتها إلا تخويفاً من العذاب الذي يعقبها فنزل بهم ما نزل ، ونصب ﴿ تَخْوِيفًا ﴾ على أنه مفعول له .

وجوز أن يكون حالاً أي مخوفين ، والباء في الموضعين سيف خطيب ، و ﴿ الآيات ﴾

مفعول نرسل أو للملابسة والمفعول محذوف أي ما نرسل نبياً ملتبساً بها ، وقيل إنها للتعدية وأن أرسل يتعدى بنفسه وبالباء .

ورد بأنه لم ينقل عن أحد من الثقات ، قال الخفاجي : ولا حجة في قول كثير :

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم . . .

بسر ولا أرسلتهم برسول

لاحتمال الزيادة فيه أيضاً مع أن الرسول فيه بمعنى الرسالة فهو مفعول مطلق والكلام في دخولها على المفعول به ، ولا يخفى أن جعل الرسول مفعولاً به وزيادة الباء فيه مما لا يقدم عليه فاضل .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾

أي واذكر زمان قولنا بواسطة الوحي ﴿ لَكَ ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالناس ﴾ أي علما كما رواه غير واحد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه فلا يخفى عليه سبحانه شيء من أحوالهم وأفعالهم الماضية والمستقبلة من الكفر والتكذيب .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرءيا التى أريناك إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ إلى آخر الآية تنبيه على تحققها بالاستدلال عليها بما صدر عنهم عند مجيء بعض الآيات لاشتراك الكل في كونها أموراً خارقة للعادات منزلة من جناب رب العزة جل مجده لتصديق رسوله عليه الصلاة والسلام فتكذيبهم ببعضها يدل على تكذيب الباقي كما أن تكذيب الأولين بغير المقترحة

يدل على تكذيبهم بالمقترحة، والمراد بالرؤيا ما عاينه صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به من العجائب السماوية والأرضية كما أخرجه البخاري.

والترمذي.

والنسائي.

(156/459)

وجماعة عن ابن عباس وهي عند كثير بمعنى الرؤية مطلقاً وهما مصدر أي مثل القربي والقرابة.

وقال بعض: هي حقيقة في رؤيا المنام ورؤيا اليقظة ليلاً والمشهور اختصاصها لغة بالمنامية وبذلك تمسك من زعم أن الإسراء كان مناما وفي الآية ما يرد عبيه، والقائلون بهذا المشهور الذاهبون إلى أنه كان يقظة كما هو الصحيح قالوا: إن التعبير بها إما مشاكلة لتسميتهم له رؤيا أو جار على زعمهم كتسمية الأصنام آلهة فقد روى أن بعضهم قال له صلى الله عليه وسلم لما قص عليهم الإسراء لعله شيء رأيته في منامك أو على التشبيه بالرؤيا لما فيها من العجائب أو لوقوعها ليلاً أو لسرعتها أي وما جعلنا الرؤيا التي أريناكها عيانا مع كونها آية عظيمة وأية آية وقد أقمت البرهان على صحتها إلا فتنة افتتن بها الناس حتى ارتد بعض

من أسلم منهم ﴿ والشجرة ﴾ عطف على ﴿ الرءيا ﴾ أي وما جعلنا الشجرة ﴿ الملعونة فِى القرءان ﴾ إلا فتنة لهم أيضاً .

والمراد بها كما روى البخاري وخلق كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما شجرة الزقوم ، والمراد بلعنها لعن طاعميها من الكفرة كما روي عنه أيضاً ، ووصفها بذلك من المجاز في الإسناد وفيه من المبالغة ما فيه أو لعنها نفسها ويراد باللعن معناه اللغوي وهو البعد فهي لكونها في أبعد مكان من الرحمة وهو أصل الجحيم الذي تنبت فيه ملعونة حقيقة .

وأخرج ابن المنذر عن الحبر أنها وصفت بالملعونة لتشبيه طلعها برؤس الشياطين والشياطين ملعونون .

وقيل تقول العرب لكل طعام مكروه ضار : ملعون ، وروي في جعلها فتنة لهم أنه لما نزل في أمرها في الصافات وغيرها ما نزل .

قال أبو جهل وغيره : هذا محمد صلى الله عليه وسلم يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر وما نعرف الزقوم إلا بالتمر بالزبد ، وأمر أبو جهل جارية له فأحضرت تمراً وزبداً وقال لأصحابه تزقموا .

وافتتن بهذه المقالة أيضاً بعض الضعفاء ولقد ضلوا في ذلك ضلالاً بعيداً حيث كا بروا قضية عقولهم فانهم يرون النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد المحماة الحمر فلا تضرها والسمندل يتخذ من وبره مناديل تلقى في النار إذا اتسخت فيذهب الوسخ وتبقى سالمة ، ومن أمثالهم في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار .

وعن ابن عباس أنها الكشوث المذكورة في قوله تعالى : ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجتثت مِن فَوْقِ الأَرضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم : 26] ولعنها في القرآن وصفها فيه بما سمعت في هذه الآية ومر آنفاً ما مر عن العرب ، والافتتان بها أنهم قالوا عند سماع الآية : ما بال الحشائش تذكر القرآن ، والمعمول عليه عند الجمهور رواية الصحيح عن الحبر .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ والشجرة ﴾ بالرفع على الابتداء وحذف الخبر أي والشجرة الملعونة في القرآن كذلك ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ بذلك ونظائره من الآيات فإن الكل للتخويف ، وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار التجددي .

وقرأ الأعمش ﴿ ويخوفهم ﴾ بالياء آخر الحروف ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ التخويف ﴿ إِلاَّ طُغْيَانًا ﴾ تجاوزا عن الحد ﴿ كَبِيرًا ﴾ لا يقادر قدره فلو أرسلنا بما اقترحوه من الآيات لفعلوا بها فعلهم باخوانها وفعل بهم ما فعل بأمثالهم وقد سبقت كلمتنا بتأخير العقوبة العامة إلى الطامة الكبرى هذا فيما أرى هو الأوفق بالنظم الكريم واختاره في إرشاد العقل السليم .

وعن الحسن .

ومجاهد .

وقتادة .

(158/459)

وأكثر المفسرين تفسير الإحاطة بالقدرة ، والكلام مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عما عسى يعتريه من عدم الإجابة إلى إنزال الآيات المقترحة لمخالفتها للحكمة من نوع حزن من طعن الكفرة حيث كانوا يقولون : لو كنت رسولاً حقاً لأتيت بهذه المعجزة كما أتى بها من قبلك من الأنبياء عليهم السلام فكأنه قيل اذكر وقت قولنا لك ان ربك اللطيف بك قد أحاط بالناس فهم في قبضة قدرته لا يقدرون على الخروج من ربقة مشيئته فهو يحفظك منهم فلا تهتم بهم وامض لما أمرتك به من تبليغ الرسالة ألا ترى أن الرؤيا التي أريناك من قبل جعلناها فتنة للناس مورثة للشبهة مع أنها ما أورثت ضعفاً لأمرك وفتوراً في حالك وبعضهم حمل الإحاطة على الإحاطة بالعلم إلا أنه ذكر في حاصل المعنى ما يقرب مما ذكر فقال : أي انه سبحانه عالم بالناس على أتم وجه فيعلم قصدهم إلى إيذائك إذا لم تأتهم بما اقترحوا ويعصمك منهم فامض على ما أنت فيه من التبليغ والإنذار ألا ترى الخ .

ولا يخفى أن ذكر الرب مضافاً إلى ضميره صلى الله عليه وسلم وأمره عليه الصلاة والسلام بذكر ذلك القول أنسب بكون الآية مسوقة لتسليته على الوجه الذي نقل ، وذكر التخويف وانه ما يزيدهم إلا طغيانا كبيراً أوفق بما فسرت به الآية أولا ، وادعى بعضهم أنه لا يخلو عن نوع تسلية ، وقيل : الإحاطة هنا الاهلاك كما في قوله تعالى :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ [الكهف : 42] والناس قريش ووقت ذلك الإهلاك يوم بدر ، وعبر عنه بالماضي مع كونه منتظراً حسبما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمَ ﴾ [آل عمران : 12] وغير ذلك لتحقق الوقوع ، وأولت الرؤيا بما رآه صلى الله عليه وسلم في المنام من مصارعهم كما صرح به في بعض الروايات ، وصح أنه صلى الله عليه وسلم لما ورد ماء بدر كان يقول : والله لكوني أنظر إلى مصارع القوم وهو يضع يده الشريفة على الأرض ههنا وههنا ويقول : هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان ، وهو ظاهر في كون ذلك مناما .

ويروى أن قريشاً سمعت بما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن بدر وما

أرى في منامه من مصارعهم فكانوا يضحكون ويسخرون وهو المراد بالفتنة ، وبما رآه عليه الصلاة والسلام أنه سيدخل مكة وأخبر أصحابه فتوجه إليها فصده المشركون عام الحديبية وإليه ذهب أبو مسلم .

والجبائي ، واعتذر عن كون ما ذكر مدنياً بأنه يجوز أن يكون الوحي باهلاكهم وكذا الرؤيا واقعاً بمكة وذكر الرؤيا وتعيين المصارع واقعين بعد الهجرة ويلزم منه أن يكون الافتتان بذلك بعد الهجرة وأن يكون ازديادهم طغياناً متوقعاً غير واقع عند نزول الآية وكل ذلك خلاف الظاهر .

وأخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال : "رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني أمية ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك فما استجمع ضاحكاً حتى مات عليه الصلاة والسلام وأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرءيا ﴾ الخ .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه .

والبيهقي في الدلائل .

وابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني أمية على المنابر فساءه ذلك فأوحى الله تعالى إليه إنما هي دنيا أعطوها فقرت عينه وذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ﴾ الخ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يعلى بن مرة قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رأيت بني أمية على منابر الأرض وسيملكونكم فتجدونهم أرباب سوء واهتم عليه الصلاة والسلام لذلك فأنزل الله سبحانه ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ﴾ الآية " وأخرج عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنهم القردة وأنزل الله تعالى في ذلك ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ﴾ الخ والشجرة الملعونة الحكم وولده " وفي عبارة بعض المفسرين هي بنو أمية.

(161/459)

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت لمروان بن الحكم: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبيك وجدك: إنكم الشجرة الملعونة في القرآن" فعلى هذا معنى إحاطته تعالى بالناس إحاطة أقداره بهم، والكلام على ما قيل على حذف مضاف أي وما جعلنا تعبير الرؤيا أو الرؤيا فيه مجاز عن تعبيرها ، ومعنى جعل ذلك فتنة للناس جعله بلاء لهم ومختبراً وبذلك فسره ابن المسيب، وكان هذا بالنسبة إلى خلفائهم الذين فعلوا ما فعلوا وعدلوا عن سنن الحق وما عدلوا وما بعده بالنسبة إلى ما عدا

خلفاءهم منهم ممن كان عندهم عاملاً وللخبائث عاملاً أو ممن كان من أعوانهم كيفما كان ، ويحتمل أن يكون المراد ما جعلنا خلافتهم وما جعلناهم أنفسهم إلا فتنة ، وفيه من المبالغة في ذمهم ما فيه ، وجعل ضمير ﴿ نخوفهم ﴾ على هذا لما كان له أولاً أو للشجرة باعتبار أن المراد بها بنو أمية ولعنهم لما صدر منهم من استباحة الدماء المعصومة والفروج المحصنة وأخذ الأموال من غير حلها ومنع الحقوق عن أهلها وتبديل الأحكام والحكم بغير ما أنزل الله تعالى على نبيه عليه الصلاة والسلام إلى غير ذلك من القبائح العظام والمخازي الجسام التي لا تكاد تنسى ما دامت الليالي والأيام ، وجاء لعنهم في القرآن إما على الخصوص كما زعمته الشيعة أو على العموم كما نقول فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُؤْذُونَ الله وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ الله فِى الدنيا والاخرة ﴾ [الأحزاب : 57] وقال عز وجل ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى الأرض وَتُقَطّعُواْ أَرْحَامَكُمْ أُوْلَئِكَ الذين لَعَنَهُمُ الله فَأَصَمَّهُمْ وأعمى أبصارهم ﴾ [محمد : 22 ، 23] إلى آيات أخر ودخولهم في عموم ذلك يكاد يكون دخولاً أولياً لكن لا يخفى أن هذا لا يسوغ عند أكثر أهل السنة لعن واحد منهم بخصوصه فقد صرحوا أنه لا يجوز لعن كافر بخصوصه ما لم يتحقق موته على الكفر

كفرعون ونمروذ فكيف من ليس كافراً ، وادعى السراج البلقيني جواز لعن العاصي المعين ونور دعواه بحديث الصحيحين " إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فابت أن تجيء فبات غضبان لعنها الملائكة حتى تصبح " .

وقال ولده الجلال بحثت مع والدي في ذلك باحتمال أن يكون لعن الملائكة لها بالعموم بأن يقول : لعن الله تعالى من باتت مهاجرة فراش زوجها ولو استدل لذلك بخبر مسلم أنه صلى الله عليه وسلم مر بحمار وسم بوجهه فقال : لعن الله تعالى من فعل هذا لكان أظهر إذ الإشارة بهذا صريحة في لعن معين إلا أن يؤول بأن المراد فاعل جنس ذلك لا فاعل هذا المعين وغيه ما فيه ؛ واستدل بعض من وافقه لذلك أيضاً بما صح أنه صلى الله عليه وسلم قال :

" اللهم العن رعلا .

وذكوان .

وعصية عصوا الله تعالى ورسوله " فإن فيه لعن أقوام بأعيانهم .

وأجيب بأنه يجوز انه عليه الصلاة والسلام علم موتهم أو موت أكثرهم على الكفر فلم يلعن إلا من علم موته عليه وهو كما ترى ، ولا يخفى أن تفسير الآية بما ذكر غير ظاهر الملاءمة للسياق والله تعالى أعلم بصحة الأحاديث ، وقيل الشجرة الملعونة مجاز عن أبي جهل وكان فتنة وبلاء على المسلمين لعنه الله تعالى ، وقيل مجاز عن اليهود الذين تظاهروا على رسول

الله صلى الله عليه وسلم ولعنهم في القرآن ظاهر ، وفتنتهم انهم كانوا ينتظرون لأبعثه عليه الصلاة والسلام فلما بعث كفروا به وقالوا : ليس هو الذي كنا ننتظره فثبطوا كثيراً من الناس بمقالتهم عن الإسلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(163/459)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مّن دُونِهِ ﴾ هذا ردّ على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنها صور الملائكة ، وعلى طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بإلهية عيسى ومريم وعزير ، فأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم : ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله ؛ وقيل : أراد ب ﴿ الذين زعمتم ﴾ نفراً من الجن عندهم ناس من العرب ، وإنما خصصت الآية بمن ذكرنا لقوله : ﴿ يَبْتَغُونَ إلى رَبّهِمُ الوسيلة ﴾ ، فإن هذا لا يليق بالجمادات ﴿ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضر عَنْكُمْ ﴾ أي : لا يستطيعون ذلك ، والمعبود الحق هو الذي يقدر على كشف الضرّ ، وعلى تحويله من حال إلى حال ، ومن مكان إلى مكان ، فوجب القطع بأن هذه التي تزعمونها آلهة ليست بآلهة ، ثم إنه سبحانه أكد عدم اقتدارهم ببيان غاية افتقارهم إلى الله في جلب المنافع ودفع

المضارّ ، فقال : ﴿ أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة ﴾ ف ﴿ أولئك ﴾ مبتدأ ﴿ والذين يدعون ﴾ صفته ، وضمير الصلة محذوف أي : يدعونهم ، وخبر المبتدأ : ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ ، ويجوز أن يكون ﴿ الذين يدعون ﴾ خبر المبتدأ أي : الذين يدعون عباده إلى عبادتهم ، ويكون ﴿ يبتغون ﴾ في محل نصب على الحال .

وقرأ ابن مسعود (تدعون) بالفوقية على الخطاب .

وقرأ الباقون بالتحتية على الخبر ؛ ولا خلاف في ﴿ يبتغون ﴾ أنه بالتحتية .

و ﴿ الوسيلة ﴾ : القربة بالطاعة والعبادة أي : يتضرّعون إلى الله في طلب ما يقربهم إلى ربهم ، والضمير في ربهم يعود إلى العابدين أو المعبودين ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ مبتدأ وخبر .

(164/459)

قال الزجاج : المعنى أيهم أقرب بالوسيلة إلى الله أي : يتقرّب إليه بالعمل الصالح ، ويجوز أن يكون بدلاً من الضمير في ﴿ يبتغون ﴾ أي : يبتغي من هو أقرب إليه تعالى الوسيلة ، فكيف بمن دونه ؟ وقيل : إن يبتغون مضمن معنى يحرصون أي : يحرصون أيهم أقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ﴾ كما يرجوها غيرهم ﴿ ويخافون عَذَابَهُ ﴾ كما يخافه غيرهم ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ تعليل قوله ﴿ يخافون عذابه

﴾ أي : إن عذابه سبحانه حقيق بأن يحذره العباد من الملائكة والأنبياء وغيرهم .

ثم بيّن سبحانه مآل الدنيا وأهلها فقال : ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القيامة ﴾ " إن " نافية ، و " من " للاستغراق أي : ما من قرية ، أيّ قرية كانت من قرى الكفار .

قال الزجاج : أي ما من أهل قرية إلاّ سيهلكون إما بموت وإما بعذاب يستأصلهم ، فالمراد بالقرية : أهلها ، وإنما قيل : ﴿ قبل يوم القيامة ﴾ لأن الإهلاك يوم القيامة غير مختص بالقرى الكافرة ، بل يعم كل قرية لانقضاء عمر الدنيا ؛ وقيل : الإهلاك للصالحة والتعذيب للطالحة ، والأوّل أولى لقوله :

﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظالمون ﴾ [القصص : 59] .

﴿ كَانَ ذَلِكَ ﴾ المذكور من الإهلاك ، والتعذيب ﴿ فِى الكتاب ﴾ أي : اللوح المحفوظ ﴿ مَسْطُورًا ﴾ أي : مكتوباً ، والسطر الخط وهو في الأصل مصدر ، والسطر بالتحريك مثله .

قال جرير :

من شاء بايعته مالي وخلعته . . . ما يكمل التيم في ديوانهم سطرا

والخلفة بضم الخاء : خيار المال ، والسطر : جمع أسطار ، وجمع السطر بالسكون أسطر .

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالأَيات وَلاَ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَولون ﴾ قال المفسرون : إن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحي عنهم جبال مكة ، فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان ما سأل قومك ، ولكنهم إن لم يؤمنوا بها يمهلوا وإن شئت استأنيت بهم ، فأنزل الله هذه الآية .

والمعنى : وما منعنا من إرسال الآيات التي سألوها إلاّ تكذيب الأوّلين ، فإن أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنّة الله سبحانه في عباده ، فالمنع مستعار للترك ، والاستثناء مفرّغ من أعمّ الأشياء ، أي : ما تركنا إرسالها لشيء من الأشياء إلاّ تكذيب الأوّلين ، فإن كذب بها هؤلاء كما كذب بها أولئك لاشتراكهم في الكفر والعناد حلّ بهم ما حلّ بهم ، و "أن" الأولى في محل نصب وبإيقاع المنع عليها ، و "أن" الثانية في محل رفع ، والباء في ﴿ بالآيات ﴾ زائدة .

والحاصل : أن المانع من إرسال الآيات التي اقترحوها هو أن الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاك الكلي وهو الاستئصال ، وقد عزمنا على أن نؤخر أمر من بعث إليهم محمد إلى يوم القيامة ؛ وقيل : معنى الآية : إن هؤلاء الكفار من قريش ونحوهم مقلدون لآبائهم فلا يؤمنون ألبتة كما لم يؤمن أولئك ، فيكون إرسال الآيات ضائعاً ، ثم إنه سبحانه استشهد على ما ذكر بقصة صالح وناقته ، فإنهم لما اقترحوا عليه ما اقترحوا من الناقة وصفتها التي قد

بينت في محل آخر ، وأعطاهم الله ما اقترحوا فلم يؤمنوا استؤصلوا بالعذاب .

وإنما خصّ قوم صالح بالاستشهاد ، لأن آثار إهلاكهم في بلاد العرب قريبة من قريش وأمثالهم يبصرها صادرهم وواردهم فقال : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾ أي : ذات إبصار يدركها الناس بأبصارهم كقوله : ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ [الإسراء : 12] أو أسند إليها حال من يشاهدها مجازاً ، أو أنها جعلتهم ذوي إبصار ، من أبصره جعله بصيراً .

وقرىء على صيغة المفعول .

(166/459)

وقرىء بفتح الميم والصاد وانتصابها على الحال .

وقرىء برفعها على أنها خبر مبتدأ محذوف ، والجملة معطوفة على محذوف يقتضيه سياق الكلام أي : فكذبوها وآتينا ثمود الناقة ، ومعنى ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ فظلموا بتكذيبها أو على تضمين ظلموا معنى جحدوا أو كفروا أي : فجحدوا بها أو كفروا بها ظالمين ولم يكتفوا بمجرد الكفر أو الجحد ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالأَيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾ اختلف في تفسير ﴿ بالآيات ﴾ على وجوه : الأوّل : أن المراد بها العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي

الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذبين؛ الثاني: أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي؛ الثالث: تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهل ثم إلى شيب، ليعتبر الإنسان بتقلب أحواله فيخاف عاقبة أمره؛ الرابع آيات القرآن، الخامس: الموت الذريع، والمناسب للمقام أن تفسر الآيات المذكورة بالآيات المقترحة، أي: لا نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفاً من نزول العذاب، فإن لم يخافوا وقع عليهم.

والجملة مستأنفة لا محل لها، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من ضمير ظلموا بها أي: فظلموا بها، ولم يخافوا، والحال أنّ ما نرسل بالآيات التي هي من جملتها إلاّ تخويفاً.

قال ابن قتيبة: وما نرسل بالآيات المقترحة إلاّ تخويفاً من نزول العذاب العاجل.

(167/459)

ولما ذكر سبحانه الامتناع من إرسال الآيات المقترحة على رسوله للصارف المذكور، قوي قلبه بوعد النصر والغلبة فقال: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ الظرف متعلق بمحذوف، أي: اذكر إذ قلنا لك، أي: أنهم في قبضته وتحت قدرته، فلا سبيل لهم إلى الخروج مما يريده بهم لإحاطته لهم بعلمه وقدرته، وقيل: المراد بالناس: أهل مكة، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم أي: إن الله سيهلكهم، وعبر بالماضي تنبيهاً على تحقق

وقوعه ، وذلك كما وقع يوم بدر ويوم الفتح ، وقيل : المراد أنه سبحانه عصمه من الناس أن يقتلوه حتى يبلّغ رسالة ربه ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التى أريناك إِلاَّ فِتْنَةً لّلنَّاسِ ﴾ لما بين سبحانه أن إنزال الآيات يتضمن التخويف ضمّ إليه ذكر آية الإسراء ، وهي المذكورة في صدر السورة ، وسماها رؤيا لأنها وقعت بالليل ، أو لأن الكفرة قالوا لعلها رؤيا ، وقد قدّمنا في صدر السورة وجهاً آخر في تفسير هذه الرؤيا ، وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه أسري به ، وقيل : كانت رؤيا نوم ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم رأى أنه يدخل مكة فافتتن المسلمون لذلك ، فلما فتح الله مكة نزل قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ الرؤيا بالحق ﴾ [الفتح : 27] وقد تعقب هذا بأن هذه الآية مكية ، والرؤيا المذكورة كانت بالمدينة ، وقيل : إن هذه الرؤيا المذكورة في هذه الآية هي أنه رأى بني مروان ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك ، فقيل : إنما هي الدنيا أعطوها فسرّي عنه ، وفيه ضعف ، فإنه لا فتنة للناس في هذه الرؤيا إلاّ أن يراد بالناس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ، ويراد بالفتنة ما حصل من المساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو يحمل على أنه قد كان أخبر الناس بها فافتتنوا ، وقيل : إن الله سبحانه أراه في المنام مصارع قريش حتى قال : " والله لكأني أنظر إلى

مصارع القوم " ، وهو يومئ إلى الأرض ويقول : " هذا مصرع فلان ، هذا مصرع فلان " فلما سمع قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية .

﴿ والشجرة الملعونة فِى القرءان ﴾ عطف على الرؤيا ، قيل : وفي الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلاّ فتنة للناس .

قال جمهور المفسرين : وهي شجرة الزقوم ، والمراد بلعنها لعن آكلها كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم طَعَامُ الأثيم ﴾ [الدخان : 43 - 44] .

وقال الزجاج : إن العرب تقول : لكل طعام مكروه : ملعون ، ومعنى الفتنة فيها : أن أبا جهل وغيره قالوا : زعم صاحبكم أن نار جهنم تحرق الحجر ، ثم يقول : ينبت فيها الشجر ، فأنزل الله هذه الآية .

وروي أن أبا جهل أمر جارية فأحضرت تمراً وزبداً وقال لأصحابه : تزقموا .

وقال ابن الزبعري : كثر الله من الزقوم في داركم ، فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن ، وقيل : إن الشجرة الملعونة : هي الشجرة التي تلتوي على الشجر فتقتلها ، وهي شجرة الكشوث ؛ وقيل : هي الشيطان ؛ وقيل : اليهود ؛ وقيل : بنو أمية ﴿ وَنُخَوّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ أي : نخوّفهم بالآيات فما يزيدهم التخويف إلاّ طغياناً متجاوزاً للحد ، متمادياً

غاية التمادي ، فما يفيدهم إرسال الآيات إلاّ الزيادة في الكفر ، فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار ، وهو عذاب الاستئصال ، ولكنا قد قضينا بتأخير العقوبة .

(169/459)

وقد أخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، والبخاري ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود في قوله : ﴿ قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضر عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ﴾ قال : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن فأسلم النفر من الجنّ وتمسك الإنسيون بعبادتهم ، فأنزل الله ﴿ أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبّهِمُ الوسيلة ﴾ كلاهما ، يعني : الفعلين بالياء التحتية ، وروي نحو هذا عن ابن مسعود من طرق أخرى .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيراً .

وروي عنه من وجه آخر بلفظ عيسى وأمه وعزير .

وروي عنه أيضاً من وجه آخر بلفظ هم : عيسى وعزير ، والشمس والقمر .

وأخرج الترمذي، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سلوا الله لي الوسيلة، قالوا وما الوسيلة؟ قال القرب من الله، ثم قرأ ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوسيلة أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾" وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي في قوله: ﴿ كَانَ ذلك فِى الكتاب مَسْطُورًا ﴾ قال: في اللوح المحفوظ.

وأخرج أحمد، والنسائي، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: "سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم، قال: "لا بل أستأني بهم"، فأنزل الله ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بالايات ﴾ "الآية.

وأخرج أحمد، والبيهقي من طريق أخرى عنه نحوه.

(170/459)

وأخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع بن أنس قال: قال الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "

إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم ، فإن عصيتم هلكتم " ، فقالوا : لا نريدها .

وأخرج ابن المنذر ، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ قال : الموت .

وأخرج سعيد بن منصور ، وأحمد في الزهد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن الحسن قال : هو الموت الذريع .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ قال : عصمك من الناس .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : فهم في قبضته .

وأخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وأحمد ، والبخاري ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا ﴾ الآية قال : هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به إلى بيت المقدس ، وليست برؤيا منام ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ ﴾ قال : هي شجرة الزقوم .

وأخرج أبو سعيد ، وأبو يعلى ، وابن عساكر عن أم هانىء : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسري به أصبح يحدّث نفراً من قريش وهم يستهزئون به ، فطلبوا منه آية فوصف لهم بيت المقدس ، وذكر لهم قصة العير ، فقال الوليد بن المغيرة : هذا ساحر ، فأنزل الله

إليه ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرءيا ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني فلان ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك فما استجمع ضاحكاً حتى مات .

فأنزل الله ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرءيا التى أريناك إِلاَّ فِتْنَةً لّلنَّاسِ ﴾ .

(171/459)

قال ابن كثير بعد أن ساق إسناده : وهذا السند ضعيف جداً .

وذكر من جملة رجال السند محمد بن الحسن بن زبالة وهو متروك وشيخه عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد ضعيف جداً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنهم القردة ، فأنزل الله ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرءيا التى أريناك إِلاَّ فِتْنَةً لّلنَّاسِ والشجرة الملعونة ﴾ " يعني : الحكم وولده .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يعلى بن مرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت بني أمية على منابر الأرض وسيملكونكم فتجدونهم أرباب سوء " ، واهتمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك ، فأنزل الله الآية .

وأخرج ابن مردويه عن الحسين بن عليّ نحوه مرفوعاً وهو مرسل .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي ، وابن عساكر عن سعيد بن المسيب نحوه وهو مرسل .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبيك وجدّك : " إنكم الشجرة الملعونة في القرآن " وفي هذا نكارة ، لقولها : يقول لأبيك وجدّك ، ولعل جدّ مروان لم يدرك زمن النبوّة .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أري أنه دخل مكة هو وأصحابه ، وهو يومئذٍ بالمدينة فسار إلى مكة قبل الأجل فردّه المشركون ، فقال ناس : قد ردّ ، وقد كان حدّثنا أنه سيدخلها ، فكانت رجعته فتنتهم .

وقد تعارضت هذه الأسباب ، ولم يمكن الجمع بينها فالواجب المصير إلى الترجيح ، والراجح كثرة وصحة هو كون سبب نزول هذه الآية قصة الإسراء فيتعين ذلك .

وقد حكى ابن كثير إجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك في الرؤيا ، وفي تفسير الشجرة وأنها شجرة الزقوم ، فلا اعتبار بغيرهم معهم .

وأخرج ابن إسحاق ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال : قال أبو جهل لما ذكر رسول الله شجرة الزقوم تخويفاً لهم : يا معشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد ؟ قالوا لا ، قال : عجوة يثرب بالزبد .

والله لئن استمكنا منها لنزقمنها تزقماً .

قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم طَعَامُ الأثيم ﴾ [الدخان : 43 44] ، وأنزل ﴿ والشجرة الملعونة فِى القرءان ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر عنه في قوله : ﴿ والشجرة الملعونة ﴾ قال : ملعونة لأنه قال : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءوسُ الشياطين ﴾ [الصافات : 65] .

والشياطين ملعونون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(173/459)

وقال القاسمى :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ ﴾

أي : التي تقترحها قريش : ﴿ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ أي : إلا تكذيب الأولين الذين هم

أمثالهم ، كعاد وثمود . وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك . فاستوجبوا الاستئصال ، على ما مضت به السنة الإلهية . وقد قضينا أن لا نستأصلهم ، لأن منهم من يؤمن أو يلد من يؤمن . ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة ، فقال : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ ﴾ أي : أعطينا قوم صالح الناقة بسؤالهم : ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ أي : بينة ، تبصر الغير برهانها : ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أي : فكفروا بها وظلموا أنفسهم بسبب عقرها ، فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً ﴾ أي : وما نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفاً للناس ، ليعلموا السنة الإلهية مع العاتين ، فيتذكروا ويتوبوا .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا ، فقيل له : إن شئت أن تستأني بهم ، وإن شئت أن يأتيهم الذي سألوا ، فإن كفروا ، هلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم . قال : < لا بل أستأني بهم > ، وأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرسِلَ ﴾ الآية .

ورواه النسائي .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ أي : علماً ، فلا يخفى عليه شيء من كفرهم وتكذيبهم . ومنه ما جرى منهم ، إثر الرؤيا والإخبار بالشجرة ، من الجحود والهزء واللغو . كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ قال الأكثرون : يعني ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء من الآيات . فلما ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم للناس ، أنكر بعضهم ذلك وكذبوا . وجعل الله ذلك ثباتاً ويقيناً للمخلصين . فكانت فتنة ، أي : اختباراً وامتحاناً . وتمسك بهذا من جعل الإسراء مناماً ؛ لكون الرؤيا مخصوصة بالمنام . وأجيب بأن قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ يرده ؛ لأن رؤيا المنام لا يفتتن بها أحد ولا يكذب . وجاء في اللغة (الرؤيا بمعنى الرؤية مطلقاً) وهو معنى حقيقي لها . وقيل : إنها حقيقة في رؤيا المنام ورؤيا اليقظة ليلاً . وقد ذكر السهيلي أنه ورد في كلام العرب بهذا المعنى ، وأنه كالقربى والقربة . وقيل : إنه مجاز ، إما مشاكلة لتسميتهم له رؤيا ، أو جار على زعمهم . أو على التشبيه بها لما فيها من خرق العادة أو لوقوعها ليلاً ، أو لسرعتها . أفاده الشهاب .

وروى الطبري عن الحسن في الآية هذه ؛ قال : أسري به صلى الله عليه وسلم عشاء إلى بيت المقدس ، فصلى فيه وأراه الله ما أراه من الآيات ، ثم أصبح بمكة ، فأخبرهم أنه أسري به إلى بيت المقدس . فقالوا له : يا محمد ! ما شأنك ؟ أمسيت فيه ثم أصبحت فينا ، تخبرنا أنك أتيت بيت المقدس ؟ فعجبوا من ذلك حتى ارتد بعضهم عن الإسلام .

وقال قوم : الآية في رؤياه صلى الله عليه وسلم التي رأى أنه يدخل مكة . فروى البريّ عن ابن عباس ، قال : يقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُرِيَ أنه دخل مكة هو وأصحابه ، وهو يومئذ بالمدينة ، فعجل رسول الله صلى الله عليه وسلم السير إلى مكة قبل الأجل ، فرده المشركون ، فقالت أناس : قد رُدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان حدثنا أنه سيدخلها . فكانت رجعته فتنتهم . وذلك عام الحديبية . ثم دخل مكة في العام المقبل . وأنزل الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾ [الفتح : 27] ولا يقال : إن السورة مكية وقصة الحديبية بعد الهجرة ، لاحتمال أنه رأى تلك الرؤيا بمكة ، ونزلت عليه هذه الآية . ولكنه ذكرها عام الحديبية ؛ لأنه كان إذ ذاك بمكة . فعلم أن دخوله بعد خروجه منها . كذا قيل .

وذهب بعضهم إلى أن كثيراً من السور المكية ضم إليها آيات مدنية ، كما في " الإتقان " . والطبري رجح الأول وفاقاً للأكثر . وقد قدمنا مراراً ؛ أن السلف قد يريدون بقولهم : (نزلت الآية في كذا) أن لفظ الآية مما يشمل ذلك . لا أنه كان سبباً لنزوله حقيقة . وعليه ، فلا إشكال .

وقوله تعالى : ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ عطف على الرؤيا ، والأكثرون على أنها شجرة الزقوم ، المذكورة في سورة الصافات في قوله تعالى : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصافات : 62 – 65] الآيات . وفتنتهم فيها ما رواه الطبري عن ابن عباس وقتادة ؛ أن أبا جهل قال : زعم صاحبكم هذا – يعني النبي صلوات الله عليه – أن في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر ! فكذبوا بذلك . وفي رواية : أن أبا جهل قال : أيخوفني بشجر الزقوم ؟ ثم دعا بتمر وزبد وجعل يأكل ويقول : تزقموا ، فما نعلم الزقوم غير هذا . والمراد بلعنها في القرآن : لعن طاعمها فيه ، على أنه مجاز في الإسناد . أو الملعون بمعنى المؤذي لأنها تغلي في البطون كغلي الحميم . فهو إما مجاز مرسل أو استعارة . وقوله تعالى : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ أي : بذلك وبنظائره من الآيات : ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أي : التخويف : ﴿ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً ﴾ أي : تماديا فيما هم فيه من الضلال والكفر .

قال المهايمي : أي : فلو أرسلنا إليهم الآيات المقترحة لقالوا إنه أجل من أحاط بأبواب السحر

. فلا فائدة في إرسالها سوى تعجيل العذاب الدنيوي . لكنه ينافي إظهار دينه على الدين كله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 490 . 493 ﴾

(177/459)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾

هذا كشف شبهة أخرى من شبه تكذيبهم إذ كانوا يسألون النبي أن يأتيهم بآيات على حسب اقتراحهم ، ويقولون : لو كان صادقاً وهو يطلب منا أن نؤمن به لجاءنا بالآيات التي سألناه ، غروراً بأنفسهم أن الله يتنازل لمباراتهم .

والجملة معطوفة على جملة ﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها ﴾ الآية [الإسراء : 58] ، أي إنما أمهلنا المتمردين على الكفر إلى أجل نزول العذاب ولم نجبهم إلى ما طلبوا من الآيات لعدم جدوى إرسال الآيات للأولين من قبيلهم في الكفر على حسب اقتراحهم فكذبوا بالآيات .

وحقيقة المنع : كف الفاعل عن فعل يريد فعله أو يسعى في فعله ، وهذا محال عن الله تعالى

إذ لا مكره للقادر المختار .

فالمنع هنا مستعار للصرف عن الفعل وعدم إيقاعه دون محاولة إتيَانه .

والإرسال يجوز أن يكون حقيقة فيكون مفعول ﴿ أن نرسل ﴾ محذوفاً دل عليه فعل ﴿ نرسل ﴾ .

والتقدير : أن نرسل رسولَنا ، فالباء في قوله : ﴿ بالآيات ﴾ للمصاحبة ، أي مصاحباً للآيات التي اقترحها المشركون .

ويجوز أن يكون الإرسال مستعاراً لإظهار الآيات وإيجادها ، فتكون الباء مزيدة لتأكيد تعلق فعل ﴿ نرسل بالآيات ﴾ ، وتكون ﴿ بالآيات ﴾ مفعولاً في المعنى كقوله تعالى : ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] .

والتعريف في بالآيات ﴾ على كلا الوجهين للعهد ، أي المعهودة من اقتراحهم كقولهم : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ ، [الإسراء : 90] و ﴿ قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ [القصص : 48] و ﴿ قالوا لن نؤمن حتى نوتَى مثل ما أوتي رسل الله ﴾ [الأنعام : 124] على أحد التأويلين .

و (أن) الأولى مفيدة مصدراً منصوباً على نزع الخافض ﴾ ، وهو (مِن) التي يتعدى بها فعل المنع ، وهذا الحذف مطرد مع (أن) .

و (أن) الثانية مصدرها فاعل منعنا ﴾ على الاستثناء المفرغ .

وإسناد المنع إلى تكذيب الأولين بالآيات مجاز عقلي لأن التكذيب سبب الصرف .

والمعنى : أننا نعلم أنهم لا يؤمنون كما لم يؤمن من قبلهم من الكفرة لما جاءتهم أمثال تلك الآيات .

فعلم الناس أن الإصْرار على الكفر سجية للمشرك لا يقلعها إظهار الآيات ، فلو آمن الأولون عندما أظهرت لهم الآيات لكان لهؤلاء أن يجعلوا إيمانهم موقوفاً على إيجاد الآيات التي سألوها .

قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ﴾ [يونس : 96 97] .

والأظهر أن هذا تثبيت لأفئدة المؤمنين لئلا يفتنهم الشيطان ، وتسلية للنبيء لحرصه على إيمان قومه فلعله يتمنى أن يجيبهم الله لما سألوا من الآيات ولحزنه من أن يظنوه كاذباً .

وجملة وآتينا ثمود الناقة ﴾ في محل الحال من ضمير الجلالة في ﴿ منعنا ﴾ ، أي وقد آتينا ثموداً آية كما سألوه فزادوا كفراً بسببها حتى عجل لهم العذاب .

ومعنى ﴿ مبصرة ﴾ واضحة الدلالة ، فهو اسم فاعل أبصر المتعدي إلى مفعول ، أي جعل غيرَه مُبصراً وذا بصيرة .

فالمعنى : أنها مفيدة البصيرة ، أي اليقين ، أي تجعل من رآها ذا بصيرة وتفيدهُ أنها آية .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ﴾ [النمل : 13] .

وخص بالذكر ثمود وآيتها لشهرة أمرهم بين العرب ، ولأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبَة من أهل مكة يبصرها صادرهم ووارد‌هم في رحلاتهم بين مكة والشام .

وقوله : فظلموا بها ﴾ يجوز أن يكون استُعمل الظلم بمعنى الكُفر لأنه ظلم النفس ، وتكون الباء للتعدية لأن فعل الكفر يعدى إلى المكفور بالباء .

ويجوز أن يكون الظلم مضمناً معنى الجحد ، أي كابروا في كونها آية ، كقوله تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ [النمل : 14] .

(179/459)

ويجوز بقاء الظلم على حقيقته ، وهي الاعتداء بدون حق ، والباء صلة لتوكيد التعدية مثل الباء في ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] ، أي ظلموا الناقة حينَ عَقَروها وهي لم تجن عليهم ، فكان عقرها ظلماً .

والاعتداء على العجماوات ظلم إذا كان غير مأذون فيه شرعاً كالصيد .

هذا بيان لحكمة أخرى في ترك إرسال الآيات إلى قريش ، تشير إلى أن الله تعالى أراد الإبقاء

عليهم ليدخل منهم في الإسلام كثير ويكون نشر الإسلام على يد كثير منهم .

وتلك مكرمة للنبيء صلى الله عليه وسلم فلو أرسل الله لهم الآيات كما سألوا مع أن جبلتهم العناد لأصروا على الكفر فحقت عليهم سنّة الله التي قد خلت في عباده وهي الاستئصال عقب إظهار الآيات ، لأن إظهار الآيات تخويف من العذاب والله أراد الإبقاء على هذه الأمة قال : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ [الأنفال : 33] الآية ، فعوضنا تخويفهم بدلاً عن إرسال الآيات التي اقترحوها .

والقول في تعدية وما نرسل بالآيات ﴾ كالقول في ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات ﴾ معنى وتقديراً على الوجهين .

والتخويف : جعل المرء خائفاً .

والقصر في قوله : ﴿ إلا تخويفاً ﴾ لقصر الإرسال بالآيات على علة التخويف ، وهو قصر إضافي ، أي لا مباراة بين الرسل وأقوامهم أو لا طمعاً في إيمان الأقوام فقد علمنا أنهم لا يؤمنون .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالناس ﴾

هذه تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم على حزنه من تكذيب قومه إياه ، ومن إمهال عتاة أعداء الدين الذين فتنوا المؤمنين ، فذكره الله بوعده نصرَه .

وقد أومأ جَعْلُ المسند إليه لفظ الرب مضافاً إلى ضمير الرسول أن هذا القول مسوق مساق التكرمة للنبيء وتصبيره ، وأنه بمحل عناية الله به إذ هو ربه وهو ناصره ؛ قال تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ [الطور : 48] .

فجملة وإذ قلنا لك ﴾ الخ يجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات ﴾ [الإسراء : 59] ويجوز أن تكون معترضة .

و(إذ) متعلقة بفعل محذوف ، أي اذكُرْ إذ قلنا لك كلاماً هو وعد بالصبر ، أي اذكر لهم ذلك وأعدهُ على أسماعهم ، أو هو فعل اذكر ﴾ على أنه مشتق من الذُّكر بضم الذال وهو إعادة الخبر إلى القوة العقلية الذاكرة .

والإحاطة لما عدي فعلها هنا إلى ذاتتِ الناس لا إلى حال من أحوالهم تعين أنها مستعملة في معنى الغلبة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ في سورة [يونس : 22] .

وعُبِّرَ بصيغة المضي للتنبيه على تحقيق وقوع إحاطة الله بالناس في المستقبل القريب .

ولعل هذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ [الرعد : 41] .

والمعنى : فلا تحزن لافترائهم وتطاولهم فسننتقم منهم .

عطف على جملة ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات ﴾ [الإسراء : 59] وما بينهما معترضات .

والرؤيا أشهر استعمالها في رؤيا النوم ، وتستعمل في رؤية العين كما نقل عن ابن عباس في هذه الآية ، قال : هي رؤيا عَيْن أريها النبي ليلة أسري به إلى بيت المقدس ، رواه الترمذي وقال : إنه قول عائشة ومعاوية وسبعة من التابعين ، سماهم الترمذي .

وتأولها جماعة أنها ما رآه ليلة أسري به إذ رأى بيت المقدس وجعل يصفه للمشركين ، ورأى عِيرَهم واردة في مكان معين من الطريق ووصف لهم حال رجال فيها فكان كما وصف .

ويؤيد هذا الوجه قوله : التي أريناك ﴾ فإنه وصف للرؤيا ليُعلم أنها رؤية عين .

وقيل : رأى أنه يدخل مكة في سنة الحديبية فرده المشركون فلم يدخلها فافتتن بعض من أسلموا فلما كان العام المقبل دخلها .

وقيل : هي رؤيا مصارع صناديد قريش في بَدر أريها النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أي بمكة .

وعى هذين القولين فهي رؤيا نوم ورؤيا الأنبياء وحي .

والفتنة : اضطراب الرأي واختلال نظام العيش ، وتطلق على العذاب المكرر الذي لا يطاق ، قال تعالى : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ [البروج : 10] ، وقال : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ [الذاريات : 13] .

فيكون المعنى على أول القولين في الرؤيا أنها سبب فتنة المشركين بازدياد بعدهم عن الإيمان ، ويكون على القول الثاني أن المرئي وهو عذابهم بالسيف فتنة لهم .

﴿ والشجرة ﴾ عطف على الرؤيا ، أي ما جعلنا ذكر الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس .

وهذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ﴾ في سورة [الصافات : 64 ، 66] ، وقوله : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم الآية ﴾ في سورة [الدخان : 43 ، 44) ، وقوله : ﴿ إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم ﴾ في سورة [الواقعة : 51 ، 52] .

روي أن أبا جهل قال : زعم صاحبكم أن نار جهنم تحرق الحجر ؛ ثم يقول بأن في النار

شجرة لا تحرقها النار .

وجهلوا أن الله يخلق في النار شجرة لا تأكلها النار .

وهذا مروي عن ابن عباس وأصحابه في أسباب النزول ﴾ للواحدي و "تفسير الطبري" .

وروي أن ابن الزبعرى قال : الزقوم التمر بالزبد بلغة اليمن ، وأن أبا جهل أمر جارية فأحضرت تمراً وزبداً وقال لأصحابه : تمزقوا .

فعلى هذا التأويل فالمعنى : أن شجرة الزقوم سبب فتنة مكفرهم وانصرافهم عن الإيمان .

ويتعين أن يكون معنى جعل شجرة الزّقوم فتنة على هذا الوجه أن ذكرها كان سببَ فتنة بحذف مضاف وهو ذكر بقرينة قوله : ﴿ الملعونة في القرآن ﴾ لأن ما وصفت به في آيات القرآن لعْن لها .

ويجوز أن يكون المعنى : أن إيجادها فتنة .

أي عذاب مكرر ، كما قال : ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ [الصافّات : 63] .

والملعونة أي المذمومة في القرآن في قوله : طعام الأثيم [الدخان : 44] وقوله : ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ [الصافات : 65] وقوله : ﴿ كالمهل تغلي في البطون كغلي

الحميم ﴾ [الدخان : 45 46] .

وقيل معنى الملعونة : أنها موضوعة في مكان اللعنة وهي الإبعاد من الرحمة ، لأنها مخلوقة في موضع العذاب .

وفي الكشاف ﴾ : قيل تقول العرب لكل طعام ضار : ملعون .

عطف على جملة ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ [الإسراء : 59] الدال على أنهم متصلبون في كفرهم مكابرون معاندون .

وهذه زيادة في تسلية النبي حتى لا يأسف من أن الله لم يرهم آيات ، لأن النبي حريص على إيمانهم ، كما قال موسى عليه السلام ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [يونس : 88] .

ويوجد في بعض التفاسير أن ابن عباس قال : في الشجرة الملعونة بنو أمية .

وهذا من الأخبار المختلقة عن ابن عباس ، ولا إخالها إلا مما وضعه الوضاعون في زمن الدعوة العباسية لإكثار المنفرات من بني أمية ، وأن وصف الشجرة بأنها الملعونة في القرآن صريح في وجود آيات في القرآن ذكرت فيها شجرة ملعونة وهي شجرة الزقوم كما علمت .

ومثل هذا الاختلاق خروج عن وصايا القرآن في قوله : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ [الحجرات : 11] .

وجيء بصيغة المضارع في نُخوِّفهم ﴾ للإشارة إلى تخويف حاضر ، فإن الله خوفهم

بالقحط والجوع حتى رأوا الدخان بين السماء والأرض وسألوا الله كشفه فقال تعالى : ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون ﴾ [الدخان : 15] فذلك وغيره من التخويف الذي سبق فلم يزدهم إلا طغياناً .

فالظاهر أن هذه الآية نزلت في مدة حصول بعض المخوفات .

وقد اختير الفعل المضارع في نخوفهم ﴾ و ﴿ يزيدهم ﴾ لاقتضائه تكرر التخويف وتجدده ، وأنه كلما تجدد التخويف تجدد طغيانهم وعظم .

والكبير : مستعارٌ لمعنى الشديد القوى في نوع الطغيان .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قل قتال فيه كبير ﴾ في سورة [البقرة : 217] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ الناقة مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ الآية .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه آتى ثمود الناقة في حال كونها آية مبصرة ، أي بينة تجعلهم يبصرون الحق واضحاً لا لبس فيه فظلموا بها . ولم يبين ظلمهم بها ها هنا ، ولكنه أوضحه في مواضع أخر . كقوله : ﴿ فَعَقَرُواْ الناقة وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ [الأعراف : 77] الآية ، وقوله ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس : 14] الآية ، وقوله ﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فتعاطى فَعَقَرَ ﴾ [القمر : 29] ، إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالناس ﴾ الآية .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أنه أحاط بالناس .

اي فهم في قبضته يفعل فيهم كيق يشاء فيسلط نبيه عليهم ويحفظه منهم .

قال بعض أهل العلم : ونا الآيات التي فصلت بعض التفصيل في هذه الإحاطة ، قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] ، وقوله : ﴿ قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ ﴾ [آل عمران : 12] الآية ، وقوله : ﴿ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ [المائدة : 67] .

وفي هذا أن هذه الآية مكية ، وبعض الآيات المذكورة مدني . أما آية القمر وهي قوله : ﴿

سَيُهْزَمُ الجمع ﴾ [القمر : 45] الآية فلا إشكال في البيان بها لأنها مكية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ والشجرة الملعونة فِي القرآن ﴾ .

(185/459)

التحقيق في معنى هذه الآية الكريمة : أن الله جل وعلا جعل ما أراه نبيه صلى الله عليه وسلم من الغرائب والعجائب ليلة الإسراء والمعراج فتنة للناس ، لأن عقول بعضهم ضاقت عن قبول ذلك ، معتقدة أنه لا يمكن أن يكون حقاً ، قالوا : كيف يصلي ببيت المقدس ، ويخترق السبع الطباق ، ويرى ما رأى في ليلة واحدة ، ويصبح في محله بمكة ؟ هذا محال ! فكان هذا الأمر فتنة لهم لعدم تصديقهم به ، واعتقادهم أنه لا يمكن ، وأنه جل وعلا جعل الشجرة الملعونه في القرآن التي هي شجرة الزقوم فتنة للناس ، لأنهم لما سمعوه صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ في أَصْلِ الجحيم ﴾ [الصافات : 64] قالوا : ظهر كذبه . لأن الشجر لا ينبت في الأرض اليابسة ، فكيف ينبت في أصل النار ؟ فصار ذلك فتنة . وبين أن هذا هو المراد من كون الشجرة المذكورة فتنة لهم بقوله : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزقوم إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ في أَصْلِ الجحيم ﴾ [الصافات :

62-64] الآية ، وهو واضح كما ترى . وأشار في موضع آخر إلى الرؤيا التي جعلها فتنة لهم ، وهو وقوله : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ على مَا يرى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخرى عِندَ سِدْرَةِ المنتهى عِندَهَا جَنَّةُ المأوى إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى لَقَدْ رأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكبرى ﴾ [النجم : 12-18] . وقد قدمنا إيضاح هذا في أول هذه السورة الكريمة . وبهذا التحقيق الذي ذكرنا تعلم أن قوله من قال : إن الرؤيا التي أراه الله إياها هي رؤياه في المنام بني أمية على منبره ، وإن المراد بالشجرة الملعونة في القرآن بنو أمية لا يعول عليه . إذ لا أساس له من الصحة . والحديث الوارد بذلك ضعيف لا تقوم به حجة . وإنما وصف الشجرة باللعن لأنها في أصل النار ، وأصل النار بعيد من رحمة الله . واللعن : الإبعاد عن رحمة الله ، أو لخبث صفاته التي وصفت بها في القرآن ، أو للعن الذين يطعمونها . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(186/459)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾

الآيات: جمع آية ، وهي الأمر العجيب الذي يلفت النظر ويسترعى الانتباه ، وهذه الآيات

إما أن تكون آيات كونية نستدل بها على قدرة المدبّر الأعلى سبحانه مثل المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . . ﴾ [فصلت: 37]

وقد تكون الآيات بمعنى المعجزة التي تثبت صِدْق الرسول في البلاغ عن ربه تعالى، وقد تكون الآيات بمعنى آيات القرآن الكريم، والتي يسمونها حاملة الأحكام.

فالآيات إذن ثلاثة: كونية، ومعجزات، وآيات القرآن. فأيها المقصود في الآية: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ ﴾ [الإسراء: 59]

الآيات الكونية وهي موجودة لا تحتاج إلى إرسال، الآيات القرآنية وهي موجودة أيضاً، بقي المعجزات وهي موجودة، وقد جاءت معجزة كل نبي على حَسْب نبوغ قومه، فجاءت معجزة موسى من نوع السحر الذي نبغ فيه بنو إسرائيل، وكذلك جاءت معجزة عيسى مما نبغ فيه قومه من الطب.

وجاءت معجزة محمد صلى الله عليه وسلم في الفصاحة والبلاغة والبيان؛ لأن العرب لم يُظهِروا نبوغاً في غير هذا المجال، فتحدّاهم بما يعرفونه ويُجيدونه ليكون ذلك أبلغ في الحجة عليهم.

إذن: فما المقصود بالآيات التي منعها الله عنهم؟

المقصود بها ما طلبوه من معجزات أخرى، جاءت في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ ﴾ [الإسراء: 90-93]

والمتأمل في كل هذه الاقتراحات من كفار مكة يجدها بعيدة كل البُعْد عن مجال المعجزة التي يُراد بها في المقام الأول تثبيت الرسول، وبيان صِدْق رسالته وتبليغه عن الله، وهذه لا تكون إلا في أمر نبغ فيه قومه ولهم به إلمام، وهم أمة كلام وفصاحة وبلاغة، وهل لهم إلمام بتفجير الينابيع من الأرض؟ وهل إسقاط السماء عليهم كِسَفاً يقوم دليلاً على صدْق الرسول؟ أم أنه الجدل العقيم والاستكبار عن قبول الحق؟

إذن: جلس كفار مكة يقترحون الآيات ويطلبون المعجزات، والحق سبحانه وتعالى يُنزل من المعجزات ما يشاء، وليس لأحد أن يقترح على الله أن يُجبره على شيء، قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ.. ﴾ [يونس: 16]

فالحق تبارك وتعالى قادر أن يُنزل عليهم ما اقترحوه من الآيات، فهو سبحانه لا يُعجزه

شيء ، ولا يتعاظمه شيء ، ولكن للبشر قبل ذلك سابقة مع المعجزات .

والحق سبحانه يقول: ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .

. ﴾ [الإسراء: 59]

مبصرة: أي آية بينة واضحة .

(188/459)

لقد طلب قوم ثمود معجزة بعينها فأجابهم الله وأنزلها لهم ، فما كان منهم إلا أن استكبروا عن الإيمان ، وكفروا بالآية التي طلبوها ، بل وأكثر من ذلك ظلموا بها أي: جاروا على الناقة نفسها ، وتجرّأوا عليها فعقروها .

وهذه السابقة مع ثمود هي التي منعتنا عن إجابة أهل مكة فيما اقترحوه من الآيات ، وليس عَجْزاً مِنّا عن الإتيان بها .

وقوله تعالى عن الناقة أنها آية ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ لبيان وضوحها كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً . . ﴾ [الإسراء: 12] فهل آية النهار مُبصِرة ، أم مُبْصِر فيها ؟

كانوا قديماً يعتقدون أن الإنسان يرى الشيء من شعاع ينطلق من عينة إلى الشيء المرئيّ فتحدث الرؤية ، إلى أن جاء ابن الهيثم وأثبت خطأ هذه المقولة ، وبيّن أن الإنسان يرى

الشيء إذا خرج من الشيء شعاع إلى العين فتراه ، بدليل أنك ترى الشيء إذا كان في الضوء ، ولا تراه إذا كان في ظلمة ، وبهذا الفهم نستطيع القول بأن آية النهار هي المبصرة ؛ لأن أشعتها هي التي تُسبّب الإبصار .

ثم يقول تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً ﴾ [الإسراء: 59]

أي: نبعث بآيات غير المعجزات لتكون تخويفاً للكفار والمعاندين ، فمثلاً الرسول صلى الله عليه وسلم اضطهده أهل مكة ودبَّروا لقتله جهاراً وعلانية ، فخيّب الله سَعْيهم ورأوا أنهم لو قتلوه لَطالبَ أهله بدمه ، فحاكوا مؤامرة أخرى للفتك به بليل ، واقترحوا أنْ يُؤْتَى من كل قبيلة بفتى جَلْدٍ ، ويضربوه ضَرْبة رجل واحد .

ولكن الحق سبحانه أطلع رسوله على مكيدتهم ، ونجّاه من غدرهم ، فإذا بهم يعملون له السحر لِيُوقِعوا به ، وكان الله لهم بالمرصاد ، فأخبر رسوله بما يدبر له ، وهكذا لم يفلح الجهر ولم يفلح التبييت ، ولم يفلح السحر ، وباءت محاولاتهم كلها بالفشل ، وعلموا أنه لا سبيلَ إلى الوقوف في وجه الدعوة بحال من الأحوال ، وأن السلامة في الإيمان والسير في ركابه من أقصر الطرق .

إذن: للحق سبحانه آيات أخرى تأتي لِردْع المكذبين عن كذبهم، وتُخوّفهم بما حدث لسابقيهم من المُكذّبين بالرسل، حيث أخذهم الله أَخْذ عزيز مقتدر، ومن آيات التخويف هذه ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَاكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: 40]

فكل هذه آيات بعثها الله على أمم من المكذبين، كُلٌّ بما يناسبه.

ثم يقول الحق سبحانه مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ. . . ﴾.

(190/459)

أي: اذكر يا محمد، وليذكر معك أصحابك إذ قلنا لك: إن ربك أحاط بالناس، فلا يمكن أن يتصرفوا تصرُّفاً، أو يقولوا قولاً يغيب عن عِلْمه تعالى، لأن الإحاطة تعني الإلمام بالشيء من كُلّ ناحية.

وما دام الأمر كذلك فاطمئن يا محمد، كما نقول في المثل (حُطّ في بطنك بطيخة صيفي)، واعلم أنهم لن ينالوا منك لا جهرة ولا تبيتاً، ولا استعانة بالجنس الخفي (الجن)؛ لأن الله

محيط بهم، وسيبطل سَعْيَهم، ويجعل كَيْدهم في نحورهم.

لذلك لما تحدَّى الحق سبحانه وتعالى الكفار بالقرآن تحدَّى الجن أيضاً، فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَاذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: 88]

ففي هذا الوقت كان يشيع بين العرب أن كل نابغة في أمر من الأمور له شيطان يُلهمه، وكانوا يدَّعُون أن هذه الشياطين تسكن وادياً يسمى " وادي عبقر " في الجزيرة العربية، فتحدّاهم القرآن أنْ يأتوا بالشياطين التي تُلهمهم.

وهكذا يُطمئن الحق سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه يحيط بالناس جميعاً، ويعلم كل حركاتهم ظاهرة أو خفيّة من جنس ظاهر أو من جنس خفيّ، وباطمئنان رسول الله تشيع الطمأنينة في نفوس المؤمنين.

وهذا من قيوميته تعالى في الكون، وبهذه القيومية نردُّ على الفلاسفة الذين قالوا بأن الخالق سبحانه زاول سلطانه في الكون مرة واحدة، فخلق النواميس، وهي التي تعمل في الكون، وهي التي تُسيّره.

والرد على هذه المقولة بسيط، فلو كانت النواميس هي التي تُسيِّر في الكون ما رأينا في الكون شذوذاً عن الناموس العام؛ لأن الأمر الميكانيكي لا يحدث خروجاً عن القاعدة، إذن: فحدوث الشذوذ دليل القدرة التي تتحكم وتستطيع أن تخرق الناموس.

ومثال ذلك: النار التي أشعلوها لحرق نبي الله وخليله إبراهيم -عليه السلام- فهل كان حظ الإيمان أو الإسلام في أن ينجو إبراهيم من النار؟

لا.. لم يكن الهدف نجاة إبراهيم عليه السلام، وإلا لما مكّنهم الله من الإمساك به، أو سخر سحابة تطفئ النار، ولكن أراد سبحانه أن يُظهر لهم آية من آياته في خَرْق الناموس، فمكّنهم من إشعال النار ومكّنهم من إبراهيم حتى ألقوْه في النار، ورأَوْه في وسطها، ولم يَعُدْ لهم حجة، وهنا تدخلت القدرة الإلهية لتسلب النار خاصية الإحراق: ﴿ قُلْنَا يا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: 69]

إذن: فالناموس ليس مخلوقاً ليعمل مطلقاً، وما حدث ليس طلاقة ناموس، بل طلاقة قدرة للخالق سبحانه وتعالى.

فكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُسلّي رسوله ويُؤْنسه بمدد الله له دائماً، ولا يفزعه أن يقوم قومه بمصادمته واضطهاده، ويريد كذلك أنْ يُطمئن المؤمنين ويُبشّرهم بأنهم على الحق.

وقوله تعالى: ﴿ أَحَاطَ بِالنَّاسِ.. ﴾ [الإسراء: 60]

الإحاطة تقتضي العلم بهم والقدرة عليهم، فلن يُفلتوا من علم الله ولا من قدرته، ولا بُدَّ من

العلم مع القدرة؛ لأنك قد تعلم شيئاً ضاراً ولكنك لا تقدر على دَفْعه، فالعلم وحده لا يكفي، بل لا بُدَّ له من قدرة على التنفيذ، إذن: فإحاطته سبحانه بالناس تعني أنه سبحانه يُعلِّمهم ويقدر على تنفيذ أمره فيهم.

كلمة (الناس) تُطلَق إطلاقاتٍ متعددة، فقد يراد بها الخَلْق جميعاً من آدم إلى قيام الساعة، كما في قوله الحق تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَٰهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِى يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾[الناس: 1-6]

وقد يُراد بها بعض الخَلْق دون بعض، كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَآ آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾[النساء: 54]

(192/459)

فالمراد بالناس هنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال عنه كفار مكة: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَاذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[الزخرف: 31]

وكما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ . . ﴾[آل عمران: 173] فهؤلاء غير هؤلاء.

وقد وقف العلماء عند كلمة الناس في الآية: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ . . ﴾ [الإسراء: 60] وقصروها على الكافرين الذين يقفون من رسول الله موقف العداء ، لكن لا مانع أن نأخذ هذه الكلمة على عمومها ، فيُراد بها أحاط بالمؤمنين ، وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحاط بالكافرين وعلى رأسهم صناديد الكفر في مكة .

لذلك فالإحاطة هنا ليست واحدة ، فلكل منهما إحاطة تناسبه ، فإنْ كنتَ تريد الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله فهي إحاطة عناية وحماية حتى لا ينالهم أذى ، وإنْ أردتَ بها الكافرين فهي إحاطة حصار لا يُفلِتون منه ولا ينفكُّون عنه ، وهذه الإحاطة لها نظير ، وهذه لها نظير .

فنظير الإحاطة بالكافرين قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ [يونس: 22]

أي: حُوصِروا وضُيِّق عليهم فلا يجدون منفذاً .

ونظير الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴾ [الصافات: 171-172]

فالحق سبحانه محيط بالمؤمنين وبرسوله صلى الله عليه وسلم إحاطة عناية ، وكأنه يقول له: امْضِ إلى شأنك وإلى مهمتك ، ولن يُضيرك ما يُدبِّرون .

لذلك كان المؤمنون في أَوْج فترات الاضطهاد والقسوة من الكفار في وقت كل المؤمنون غير قادرين حتى على حماية أنفسهم ينزل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: 45]

حتى أن عمر ـ رضي الله عنه ـ الذي جاء القرآن على وَفْق رأيه يقول: أيّ جَمْع هذا ؟ ! ويتعجب، كيف سنهزم هؤلاء ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا وهذه تسلية لرسول الله وتبشير للمؤمنين، فمهما نالوكم بالاضطهاد والأذى فإن الله ناصركم عليهم.

وكما قال في آية أخرى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: 173]

فاذكر جيداً يا محمد حين تنزل بك الأحداث، ويظن أعداؤك أنهم أحاطوا بك، وأنهم قادرون عليك، اذكر أن الله أحاط بالناس، فأنت في عناية فلن يصيبك شرٌّ من الخارج، وهم في حصار لن يُفلِتوا منه.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ . . ﴾ [الإسراء: 60]

كلمة ﴿ الرُّؤيَا ﴾ مصدر للفعل رأى، وكذلك (رؤية) مصدر للفعل رأى، فإنْ أردتَ الرؤيا المنامية تقول: رأيتُ رُؤْيا، وإنْ أردتَ رأى البصرية تقول: رأيتُ رؤية.

ومن ذلك قول يوسف عليه السلام في المنام الذي رآه: ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَاذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف: 100]

ولم يَقُلْ رؤيتي. إذن: فالفعل واحد، والمصدر مختلف.

وقد اختلف العلماء: ما هي الرؤيا التي جعلها الله فتنة للناس؟

جمهرة العلماء على أنها الرؤيا التي ثبتتْ في أول السورة: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ﴾ [الإسراء: 1] أي: حادثة الإسراء والمعراج.

(194/459)

وبعضهم رأى أنها الرُّؤْيا التي قال الله فيها: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [الفتح: 27]

فقد وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم سيدخلون المسجد الحرام في هذا العام، ولكن مُنِعوا من الدخول عند الحديبية، فكانت فتنة بين المسلمين وتعجبوا أنْ يعدهم رسول الله وَعْداً ولا ينجزه لهم.

ثم بيّن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لهم الحكمة من عدم دخول مكة هذا العام ، فأنزل على رسوله وهو في طريق عودته إلى المدينة: ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[الفتح: 25]

إذن: الحق سبحانه منعهم تحقيق هذه الرؤيا في الحديبية ؛ لأنهم لو دخلوا مكة مُحاربين حاملين السلاح ، وفيها مؤمنون ومؤمنات لا يعلمهم أحد ، وسوف يصيبهم من الأذى وينالهم من هذه الحرب ؛ لأنهم لن يُميّزوا بين مؤمن وكافر ، فقد يقتلون مؤمناً فتصيبهم مَعَرّةٌ بقتله ، ولو أمكن التمييز بين المؤمنين والكفار لدخول مكة رَغْماً عن أُنُوف أهلها .

لذلك كان من الطبيعي أنْ يتشكّكَ الناس فيما حدث بالحديبية ، وأن تحدث فتنة تزلزل المسلمين ، حتى إن الفاروق ليقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألسنا على الحق ؟ أليسوا هم على الباطل ؟ ألستَ رسول الله ؟ فيقول أبو بكر: الزم غَرْزَه يا عمر ، إنه رسول الله .

وقد ساهمتْ السيدة أم سلمة ـ أم المؤمنين ـ في حَلِّ هذا الإشكال الذي حدث نتيجة هذه الفتنة ، فلما اعترض الناس على رسول الله في عودته من الحديبية دخل عليها ، فقال: " يا أم سلمة ، هلك المسلمون ، أمرتُهم فلم يمتثلوا " . فقالت: يا رسول الله إنهم مكروبون ، جاءوا على شَوْق للبيت ، ثم مُنِعوا وهم على مَقْرُبة منه ، ولا شكَّ أن هذا يشقّ عليهم ، فَامْضِ يا رسول الله لما أمرك الله ، فإذا رأوك عازماً امتثلوا ، ونجح اقتراح السيدة أم سلمة في حل هذه المسألة .

وقال بعضهم: إن المراد بالرؤيا التي جعلها الله فتنة ما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل غزوة بدر ، حيث أقسم وقال: " " والله لكأني انظر إلى مصارع القوم " . وأخذ يومِئ إلى الأرض وهو يقول: " هذا مَصْرع فلان ، وهذا مَصْرع فلان ، وهذا مَصْرع فلان " " .

وفعلاً ، جاءت الأحداث موافقة لقوله صلى الله عليه وسلم فَقُلْ لي: بالله عليك ، مَنِ الذي يستطيع أنْ يتحكَّم في معركة كهذه ، الأصل فيها الكَرّ والفَرّ ، والحركة والانتقال لِيُحدد الأماكن التي سيقتل فيها هؤلاء ، اللهم إنه رسول الله .

لكن أهل التحقيق من العلماء قالوا: إن هذه الأحداث سواء ما كان في الحديبية ، أو ما كان من أمر الرسول يوم بدر ، هذه أحداث حدثتْ في المدينة ، والآية المرادة مكية ، مما يجعلنا نستبعد هذين القولين ويؤكد أن القول الأول ـ وهو الإسراء والمعراج ـ هو الصواب .

وقد يقول قائل: وهل كان الإسراء والمعراج رؤيا منامية ؟ إنه كان رؤية بصرية ، فما سِرّ

عدول الآية عن الرؤية البصرية إلى الرؤيا المنامية؟ وكيف يعطي الحق سبحانه وتعالى للكفار والمشككين فرصة لأن يقول: إن الإسراء والمعراج كان مناماً؟

نقول: ومَنْ قال إن كلمة رؤيا مقصورة على المنامية؟ إنها في لغة العرب تُطلق على المنامية وعلى البصرية، بدليل قول شاعرهم الذي فرح بصيد ثمين عنّ له: فَكَبَّرَ للرُّؤْيا وهَاشَ فُؤَادُهُ وَبشَّرَ نَفْساً كَانَ قَبْلُ يَلومُهَا أي: قال الله أكبر حينما رأى الصيد الثمين يقترب منه، فعبَّر بالرؤيا عن الرؤية البصرية.

لكن الحق سبحانه اختار كلمة (رُّؤيَا) ليدل على أنها شيء عجيب وغريب كما نقول مثلاً: هذا شيء لا يحدث إلا في المنام. وهذا من دِقّة الأداء القرآني، فالذي يتكلم ربّ، فاختار الرؤيا؛ لأنها معجزة الإسراء وذهاب النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس في ليلة.

فَوَجْه الإعجاز هنا ليس في حدث الذهاب إلى بيت المقدس لأن كثيراً من كفار مكة قد ذهب إليها في رحلات التجارة أو غيرها، بل وَجْه الإعجاز في الزمن الذي اختُصِر لرسول الله، فذهب وعاد في ليلة واحدة، بدليل أنهم سألوا رسول الله " صِفْ لنا بيت المقدس

" .

ولو كانوا يشكُّون في الحدث ما سألوا هذا السؤال، إذن: فاعتراضهم على وقت هذه الرحلة التي كانوا يضربون إليها أكباد الإبل شهراً، ويخبر محمد أنه أتاها في ليلة واحدة، ولأن الإسراء حدث في هذا الزمن الضيق المختصر ناسب أن يُطلق عليه رؤيا، لأن الرؤيا المنامية لا زمنَ لها، ويختصر فيها الزمن كذلك.

ولقد توصّل العلماء الباحثون في مسألة وعي الإنسان أثناء نومه، وعن طريق الأجهزة الحديثة إلى أنْ قالوا: إن الذهن الإنساني لا يعمل أثناء النوم أكثر من سبع ثوان، وهذه هي المدّة التي يستغرقها المنام.

في حين إذا أردتَ أن تحكي ما رأيتَ فسيأخذ منكم وقتاً طويلاً. فأين الزمن -إذن- في الرؤيا المنامية؟ ولا وجود له؛ لأن وسائل الإدراك في الإنسان والتي تُشعِره بالوقت نائمة فلا يشعر بوقت، حتى إذا جاءت الرؤيا مرّتْ سريعة حيث لا يوجد في الذهن غيرها.

لذلك مَنْ يمشي على عجل لا يستغرق زمناً، كما نقول: (فلان يفهمها وهي طايرة) وهذا يدل على السرعة في الفعل؛ لأنه يركز كل إدراكاته لشيء واحد.

ومن ناحية أخرى ، لو أن الإسراء والمعراج رؤيا منامية ، أكانت توجد فتنة بين الناس ؟

وهَبْ أن قائلاً قال لنا : رأيت الليلة أنني ذهبتُ من القاهرة إلى نيويورك ، ثم إلى هاواي ، ثم إلى اليابان ، أنُكذِّبه ؟ !

إذن: قَوْل الله تعالى عن هذه الرؤيا أنها فتنة للناس عَدَّلَتْ المعنى من الرؤيا المنامية إلى الرؤية البصرية ، وكأن الحق سبحانه اختار هذه الكلمة ليجعل من الكافرين بمحمد دليلاً على صدقه ، فيقولون: نحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً وأنت تدعي أنك أتيتها في ليلة ؟ فلو كانت هذه الحادثة مناماً ما قالوا هذا الكلام .

لكن ، ما الحكمة من فتنة الناس واختبارهم بمثل هذا الحدث ؟

الحكمة تمحيص الناس وصَهْرهم في بوتقة الإيمان لنميز الخبيث من الطيب ، والمؤمن من الكافر ، فلا يبقى في ساحتنا إلا صادق الإيمان قويُّ العقيدة ، لأن الله تعالى لا يريد أن يسلم منهجه الذي سيحكم حركة الحياة في الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، إلا إلى قوم موثوق في إيمانهم ليكونوا أهلاً لحمل هذه الرسالة .

فكان الإسراء هو هذه البوتقة التي ميَّزَتْ بين أصالة الصِّدِّيق حينما أخبروه أن صاحبك يُحدِّثنا أنه أتى بيت المقدس ، وأنه عُرِج به إلى السماء وعاد من ليلته ، فقال: " إنْ كان قال فقد صدق " هكذا من أقرب طريق ، فميزان الصدق عنده مجرد أن يقول رسول الله .

وكذلك ميزت الزَّبَد الذي زلزلته الحادثة وبلبلته، فعارض وكذب.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ [الإسراء: 60]

(198/459)

أي: وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنةً للناس أيضاً، وإنْ كانت الفتنة في الإسراء كامنَة في زمن حدوثه، فهي في الشجرة كامنة في أنها تخرج في أصل الجحيم، في قَعْر جهنم، ومعلوم أن الشجرة نبات لا يعيش إلا بالماء والري، فكيف تكون الشجرة في جهنم؟

ومن هنا كانت الشجرة فتنة تُمحِّص إيمان الناس؛ لذلك لما سمع أبو جهل هذه الآية جعلها مُشكلة، وخرج على الناس يقول: اسمعوا ما يحدثكم به قرآن محمد، يقول: إن في الجحيم شجرة تسمى "شجرة الزقوم"، فكيف يستقيم هذا القول، والنار تحرق كل شيء حتى الحجارة؟

وهذا الاعتراض مقبول عقلاً، لكن المؤمن لا يستقبل آيات الله استقبالاً عقلياً، وإنما يعمل حساباً لقدرته تعالى؛ لأن الأشياء لا تأخذ قوامها بعنصر تكوينها، وإنما تأخذه بقانون المعنصِر نفسه، فالخالق سبحانه يقول للشجرة: كوني في أصل الجحيم، فتكون في أصل الجحيم بطلاقة القدرة الإلهية التي قالت للنار: كُوني بَرْداً وسلاماً على إبراهيم.

وقد قال ابن الزِّبَعري حينما سمع قوله تعالى: ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: 62-64] فقال: والله ما عرفنا الزقوم إلا الزُّبْد على التمر، فقوموا تزقّموا معي، أي: استهزاءً بكلام الله، وتكذيباً لرسوله صلى الله عليه وسلم.

أما المؤمن فيستقبل هذه الآيات استقبالَ الإيمان والتسليم بصدق كلام الله، وبصدق المبلِّغ عن الله، ويعلم أن الأشياء لا تأخذ صلاحيتها بعنصر تكوينها، وإنما بإرادة المعنْصِر أن يكون؛ لأن المسألة ليست ميكانيكا، وليست نواميس تعمل وتدير الكون، بل هي قدرة الخالق سبحانه وطلاقة هذه القدرة.

(199/459)

ولسائل أن يقول: كيف يقول الحق سبحانه عن هذه الشجرة أنها (ملعونة)؟ ما ذنب الشجرة حتى تُلْعَن، وهي آية ومعجزة لله تعالى، وهي دليل على اقتداره سبحانه، وعلى أن النواميس لا تحكم الكون، بل ربّ النواميس سبحانه هو الذي يحكم ويُغيّر طبائع الأشياء؟ كيف تُلْعَن، وهي الطعام الذي سيأكله الكافر ويتعذب به؟ إنها أداة من أدوات العقاب، ووسيلة من وسائل التعذيب لأعداء الله.

نقول: المراد هنا: الشجرة الملعون آكلها، لأنه لا يأكل منها إلا الأثيم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ ﴾ [الدخان: 43-44] والأثيم لا شَكَّ معلون.

لكن، لماذا لم يجعل المعلونية للآكل وجعلها للشجرة؟

قالوا: لأن العربي دَرَجَ على أن كل شيء ضار ملعون، أي: مُبْعَد من رحمة الله، فكأن الكافر حينما يرى هذه الشجرة هو الذي يلعنها، فهي ملعونة من آكلها. وقد أكل منها لأنه ملعون، إذن: نستطيع القول إنها ملعونة، وملعون آكلها.

من الإشكالات التي أثارتها هذه الآية في العصر الحديث قول المستشرقين الذين يريدون أن يتورّكوا على القرآن، ويعترضوا على أساليبه، مثل قوله تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصافات: 65]

ووَجْه اعتراضهم أن التشبيه إنما يأتي عادةً ليُوضِّح أمراً مجهولاً من مخاطب بأمر معلوم له، أما في الآية فالمشبَّه مجهول لنا؛ لأنه غَيْب لا نعلم عنه شيئاً، وكذلك المشبَّه به لم نَرَهُ، ولم يعرف أحد مِنّا رأس الشيطان، فكيف يُشبِّه مجهولاً بمجهول؟ لأننا لم نَرَ شجرة الزقوم لنعرف طَلْعها، ولم نَرَ الشيطان لنعرف رأسه.

ثم يقولون: الذي جعل المسلمين يمرُّون على هذه الآية أنهم يُعطون للقرآن قداسة، هذه القداسة تُربِّي فيهم التهيُّب أنْ يُقبلوا على القرآن بعقولهم ليفتشوا فيه، ولو أنهم تخلصوا من

هذه المسألة وبدأوا البحث في أسلوب القرآن دون تهيُّب لاستطاعوا الخروج منه بمعطيات جديدة .

(200/459)

وللردّ على قَوْل المستشرقين السابق نقول لهم : لقد تعلمتم العربية صناعة ، وليس عندكم المَلَكَة العربية أو التذوّق الكافي لفهم كتاب الله وتفسير أساليبه ، وفَرْقٌ بين اللغة كملَكَة واللغة كصناعة فقط .

المَلَكة اللغوية تفاعل واختمار للغة في الوجدان ، فساعة أنْ يسمعَ التعبير العربي يفهم المقصود منه ، أما اللغة المكتسبة ـ خاصة على كِبَر ـ فهي مجرد دراسة لإمكان التخاطب ، فلو أن عندكم هذه الملكة لما حدث منكم هذا الاعتراض ، ولعلمتم أن العربي قبل نزول القرآن قال: يَغُطُّ غَطِيطَ البَكْر شُدَّ خِنَاقُه لِيقتُلَني والمرْءُ ليسَ بقتَّالِ أَيَقْتُلُني وَالمشْرفيُّ مُضَاجِعِي وَمسْنُونَةٍ زُرْقٍ كأَنْيَابِ أَغْوَالِفهل رأيتم الغول ؟ وهل له وجود أصلاً ؟ لكن الشاعر العربي استساغ أن يُشبّه سلاحه المسنون بأنياب الغول ؛ لأن الغول يتصوَّره الناس في صورة بشعة مخيفة ، فهذا التصوّر والتخيُّل للغول أجاز أنْ نُشبّه به .

وكذلك الشيطان ، وإنْ لم يَرَهُ أحد أن الناس تتخيله في صورة بشعة وقبيحة ومخيفة ، فلو

كلّفنا جميع رسّامي الكاريكاتير في العالم برسم صورة مُتخيّلة للشيطان لرسم كل واحد منهم صورة تختلف عن الآخر؛ لأن كلاً منهم سيتصوره بصورة خاصة حَسْب تصوره للشيطان وجهة البشاعة فيه.

فلو أن الحق سبحانه شبَّه طَلْع شجرة الزقوم بشيء معلوم لنا لَتصوّرناه على وجه واحد، لكن الحق تبارك وتعالى أراد أنْ يُشيعَ بشاعته، وأنْ تذهب النفس في تصوُّره بشاعته كل مذهب، وهكذا يؤدي هذا التشبيه في الآية مَا لا يُؤدّيه غيره، ويُحدث من الأثر المطلوب ما لا يُحدِثه تعبير آخر، فهو إبهام يكشف ويجلي.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً ﴾ [الإسراء: 60]

(201/459)

أي: نُخوّفهم بأنْ يتعرّضوا للعقوبات التي تعرّض لها المكذّبون للرسل، فالرسل نهايتهم النصر، والكافرون بهم نهايتهم الخِذْلان. وأنت حينما تُخوّف إنساناً أو تُحذره من شر سيقع له، فقد أحسنتَ إليه وأسديتَ إليه جميلاً ومعروفاً، كالولد الذي يُخوّف ابنه عاقبة الإهمال، ويُذكّره بالفشل واحتقار الناس له، إنه بذلك ينصحه ليلتفت إلى دروسه ويجتهد.

فقوله تعالى: ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ.. ﴾ [الإسراء: 60] التخويف هنا نعمة من الله عليهم، لأنه

يُبشّع لهم الأمر حتى لا يقعوا فيه، وسبق أن ذكرنا أن التخويف قد يكون نعمة في قوله تعالى، في سورة الرحمن:

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: 35-36]

فجعل النار والشُّوَاظ هنا نعمة؛ لأنها إعلام بشيء سيحدث في المستقبل، وسيكون عاقبة عمل يجب أن يحذروه الآن.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: 60]

أي: يزدادون بالتخويف طغياناً، لماذا؟ لأنهم يفهمون جيداً مطلوبات الإيمان، وإلا لو جهلوا هذه المطلوبات لقالوا: لا إله إلا الله وآمنوا وانتهت القضية، لكنهم يعلمون تماماً أن كلمة لا إله إلا الله تعني: لا سيادةَ إلا لهذه الكلمة، ومحمد رسول الله لا بلاغَ ولا تشريعَ إلا منه، ومن هنا خافوا على سيادتهم في الجزيرة العربية وعلى مكانتهم بين الناس، كيف والإسلام يُسوِّي بين السادة والعبيد؟!

إذن: كلما خوَّفْتهم وذكَّرتهم بالله ازدادوا طغياناً ونفوراً من دين الله الذي سيهدم عليهم هذه السلطة الزمنية التي يتمتعون بها، وسيسحب بساط السيادة من تحت أقدامهم؛ لذلك تجد دائماً أن السلطة الزمنية لأعداء الرسل، وتأتي الرسل لهدم هذه السلطة، وجَعْل الناس سواسية.

(202/459)

وقد اتضح هدم الإسلام لهذه السلطة الزمنية للكفار عندما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وكان أهلها يستعدون لتنصيب عبد الله بن أُبيّ مِلكاً عليهم ، فلما جاء رسول الله المدينة انفض الناس عن ابن أُبيّ ، وتوجهت الأنظار إليه صلى الله عليه وسلم ، وطبيعي ـ إذن ـ أن يغضب ابن أُبيّ ، وأن يزداد كُرْهه لرسول الله ، وأن يسعى لمحاربته ومناوأته ، وأنْ يحسده على ما نال من حُبّ الناس والتفافهم حوله . انتهى ا . هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(203/459)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾

أخرج أحمد والنسائي والبزار وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والضياء في المختارة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعون ، فقيل له : " إن شئت أن تتأنى بهم ، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا ، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم " . قال لا : " بل أستأني بهم " " فأنزل الله ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ .

وأخرج أحمد والبيهقي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن لك . قال : " وتفعلون " قالوا : نعم . فدعا فأتاه جبريل – عليه السلام – فقال : " إن ربك يقرئك السلام ويقول لك إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة " قال : " باب التوبة والرحمة " " .

وأخرج البيهقي في الدلائل ، عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال : " قال الناس لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون . فقال : رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم ، وإن عصيتم هلكتم ، فقالوا : لا نريدها " .

وأخرج ابن جرير ، عن قتادة قال : " قال أهل مكة للنبي صلى الله عليه وسلم : إن كان ما تقول حقاً ، ويسرك أن نؤمن ، فحول لنا الصفا ذهباً ، فأتاه جبريل فقال : " إن شئت كان الذي سألك قومك ، ولكنه إن كان ، ثم لم يؤمنوا لم ينظروا ، وإن شئت استأنيت بقومك " قال : " بل أستأني بقومي " " فأنزل الله : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ وأنزل الله ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾ [الأنبياء : 6] .

وأخرج ابن جرير ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ قال : رحمة لكم أيتها الأمة . قال : إنا لو أرسلنا بالآيات ، فكذبتم بها أصابكم ما أصاب من قبلكم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في الآية قال : لم تؤت قرية بآية فكذبوا بها ، إلا عذبوا وفي قوله : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾ قال : آية .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ قال : الموت .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد في الزهد وابن أبي الدنيا في ذكر الموت وابن جرير وابن المنذر ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ قال :

الموت الذريع .

واخرج ابن أبي داود في البعث ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ قال : الموت من ذلك .

وأخرج ابن جرير ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ قال : إن الله يخوّف الناس بما شاء من آياته لعلهم يعتبون ، أو يذكرون ، أو يرجعون . ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه فقال : يا أيها الناس ، إن ربكم يستعتبكم فاعتبوه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾ قال : عصمك من الناس .

(205/459)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ إن ربك أحاط بالناس ﴾ قال : فهم في قبضته .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ إن ربك أحاط بالناس ﴾ قال : أحاط بهم ، فهو مانعك منهم وعاصمك ، حتى

تبلغ رسالته .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وأحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل ، عن ابن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ قال : هي رؤيا عين ، أريها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليلة أسري به إلى بيت المقدس ، وليست برؤيا منام ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ قال : هي شجرة الزقوم .

وأخرج سعيد بن منصور ، عن أبي مالك رضي الله عنه في قوله : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك ﴾ قال : ما أري في طريقه إلى بيت المقدس .

وأخرج ابن سعد وأبو يعلى وابن عساكر ، عن أم هانئ رضي الله عنها ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما أسري به أصبح يحدث نفراً من قريش وهم يستهزئون به ، فطلبوا منه آية ، فوصف لهم بيت المقدس ، وذكر لهم قصة العير . فقال الوليد بن المغيرة : هذا ساحر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر ، عن الحسن رضي الله عنه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أصبح يحدث بذلك ، فكذب به أناس ، فأنزل الله فيمن ارتد : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية ، قال : هو ما رأى في بيت المقدس ليلة أسري به .

(206/459)

وأخرج ابن جرير ، عن قتادة - رضي الله عنه - ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ يقول : أراه من الآيات والعبر في مسيره إلى بيت المقدس . ذكر لنا أن ناساً ارتدوا بعد إسلامهم حين حدثهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمسيره أنكروا ذلك ، وكذبوا به ، وعجبوا منه ، وقالوا أتحدثنا أنك سرت مسيرة شهرين في ليلة واحدة ! .

وأخرج ابن جرير ، عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال : رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بني فلان ينزون على منبره نزو القردة ، فساءه ذلك ، فما استجمع ضاحكاً حتى مات ، وأنزل الله ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عمر رضي الله عنهما - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنهم القردة ، وأنزل الله في ذلك ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة ﴾ يعني الحكم وولده" .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن يعلى بن مرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " أريت بني أمية على منابر الأرض ، وسيتملكونكم ، فتجدونهم أرباب سوء " واهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك : فأنزل الله ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ .

وأخرج ابن مردويه ، عن الحسين بن علي رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أصبح وهو مهموم ، فقيل : مالك يا رسول الله ؟ فقال : " إني رأيت في المنام كأن بني أمية يتعاورون منبري هذا " فقيل : يا رسول الله ، لا تهتهم فإنها دنيا تنالهم . فأنزل الله : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ .

(207/459)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر ، عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني أمية على المنابر فساءه ذلك ، فأوحى الله إليه : " إنما هي دنيا أعطوها " ، فقرت عينه وهي قوله : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ يعني بلاء للناس .

وأخرج ابن مردويه ، عن عائشة رضي الله عنها " أنها قالت لمروان بن الحكم : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : لأبيك وجدك " إنكم الشجرة الملعونة في القرآن

" " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه، عن ابن عباس - رضي الله عنهما في قوله: ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك ﴾ الآية. قال: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أري أنه دخل مكة هو وأصحابه، وهو يومئذ بالمدينة، فسار إلى مكة قبل الأجل، فرده المشركون، فقال أناس قدْ رُدَّ وكان حدثنا أنه سيدخلها، فكانت رجعته فتنتهم.

وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو جهل لما ذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم شجرة الزقوم تخويفاً لهم يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوّفكم بها محمد؟ قالوا: لا. قال: عجوة يثرب بالزبد - والله لئن استمكنا منها لنتزقمها تزقما. فأنزل الله: ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ [الدخان: 43، 44] وأنزل الله ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ قال: هي شجرة الزقوم خوفوا بها. قال أبو جهل: أيخوفني ابن أبي كبشة بشجرة الزقوم؟ ثم دعا بتمر وزبد فجعل يقول: زقموني. فأنزل الله تعالى: ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ [الصافات: 65] وأنزل الله ﴿ ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ﴾ .

(208/459)

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ والشجرة الملعونة ﴾ قال : ملعونة لأن ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ [الصافات : 65] وهم ملعونون .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ونخوفهم ﴾ قال : أبو جهل بشجرة الزقوم ﴿ فما يزيدهم ﴾ قال : ما يزيد أبا جهل ﴿ إلا طغياناً كبيراً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(209/459)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ ﴾ :

" أنْ " الأولى وما في حَيِّزها في محلِّ نصبٍ أو جرٍ على اختلاف القولين ؛ لأنها على حَذْفِ الجارِّ ، أي : مِنْ أَنْ نُرسل ، والثانية وما في حَيِّزها في محلِّ رفعٍ بالفاعلية ، أي : وما مَنَعَنا مِنْ

إرسال الرسلِ بالآياتِ إلا تكذيبُ الأوّلين ، أي : لو أَرْسلنا الآياتِ المقترحةَ لقريش لأُهْلِكوا عند تذكيبهم كعادةِ مَنْ قبلَهم ، لكنْ عَلِمَ اللهُ أنه يُؤْمنُ بعضُهم ، ويكذِّبُ بعضُهم مَنْ يومن ، فلذلك لم يُرْسِلِ الآياتِ لهذه المصلحةِ .

وقَدَّر أبو البقاء مضافاً قبل الفاعلِ فقال : " تقديرُه : إلا إهلاكُ التكذيب ، كأنه يعني أنَّ التكذيبَ نفسَه لم يمنعْ من ذلك ، وإنما مَنَعَ منه ما يترتَّبُ على التكذيبِ وهو الإهلاك ، ولا حاجةَ إلى ذلك لاستقلالِ المعنى بدونه .

قوله : " مُبْصِرَة " حالٌ ، وزيدُ بن علي يرفعُها على إضمارِ مبتدأ ، اي : هي ، وهو إسنادٌ مجازيٌّ ، إذ المرادُ إبصارُ أهلِها ، ولكنها لمَّا كانت سبباً في الإبصار نُسِب إليها . وقرأ قومٌ بفتحِ الصاد ، مفعولٌ على الإسناد الحقيقي . وقتادة بفتح الميم والصاد ، أي : مَحَلُّ إبصارٍ كقوله عليه السلام : " الولدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَة " وكقوله :

3076- . . . . والكفرُ مَخْبَثَةٌ لنفسِ المُنْعِمِ

أجرى هذه الأشياءَ مُجْرى الأمكنةِ نحو : أرضٌ مَسْبَعَة ومَذْأَبَة .

قوله : { إلاَّ تَخْوِيفاً } يجوز أَنْ يكونَ مفعولاً له ، وأن يكونَ مصدراً في موضع الحال : إمَّا من الفاعل ، أي : مُخَوِّفين أو من المفعول ، أي : مُخَوَّفاً بها .

{ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ }

(210/459)

قوله تعالى : ﴿ والشجرة ﴾ : العامَّة على نصبِها نَسَقاً على " الرؤيا " ، و " الملعونةَ " نعت ، قيل : هو مجازٌ ؛ إذ المُراد : الملعونُ طاعِموها ؛ لأنَّ الشجرةَ لا ذنْبَ لها وهي شجرةُ الزقُّوم . وقيل : بل على الحقيقة ، ولَعْنُها : إبعادُها مِنْ رحمة الله ، لأنها تخرُجُ في أصلِ الجحيم .

وزيد بن علي برفعِها على الابتداء . وفي الخبر احتمالان ، أحدُهما : هو محذوفٌ ، أي : فتنة . والثاني : - قاله أبو البقاء - أنه قولُه ﴿ فِي القرآن ﴾ وليس بذاك .

قوله : " ونُخَوِّفُهم " قراءةُ العامَّةِ بنون العظمة . والأعمش بياء الغيبة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 376 . 378 ﴾

(211/459)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالأَيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ

مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ .

أجرى الله سُنَّتَه أنه إذا أظهر آية اقْتَرَحَتْها أُمَّةٌ من الأمم ثم لم تؤمن بها بعد إظهارها أَنْ يُعَجِّلَ لها العقوبة ، وكان المعلومُ والمحكومُ به ألا يجتاحَ العذابُ القومَ الذين كانوا في وقت الرسول - عليه السلام - لأَجْلِ مَنْ في أصلابهم مِنَ الذين عَلِمَ أنهم يؤمِنُون ؛ فلذلك أَخَّرَ عنهم العذاب الذي تعجّلوه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً ﴾ .

التخويف بالآيات ذلك من مقتضى تجمله ؛ فإنْ لم يخافوا وقَعَ عليهم العذاب ثم إنه عَلِمَ أنه لا يفوته شيءٌ بتأخير العقوبة عنهم فأَخَّرَ العذابَ . وله أن يفعل ما يشاء بمقتضى حُكْمِه وعِلْمه .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾

الإيمانُ بما خَصَصْنَاك به امتحان لهم وتكليفٌ ، ليتميزَ الصادقُ من المنافقِ ، والمؤمنُ من الجاحد ؛ فالذين تَدارَكَتْهُم الحمايةُ وقفوا وثبتوا ، وصَدَّقوا بما قيل لهم وحققوا . وأما الذين خامَرَ الشكُّ قلوبهم ، ولم تباشِرْ خلاصةُ التوحيد أسرارَهم ، فما إزدادوا بما امتُحِنُوا به إلا تحيُّراً وضلالاً وتَبَلُّداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 355 .

356 ﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابوري فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (41) ﴾

التفسير : لما بين أنواع الحكم ومكارم الأخلاق ذكر غاية مظلومية الإنسان وجهوليته فقال : ﴿ ولقد صرفنا ﴾ أي بينا أحسن بيان لأن من حاول بيان شيء فإنه يصرف كلامه من نوع إلى نوع ومن مثال إلى مثال حتى ينتهي به إلى ما هو مراده من الإيضاح. ومفعول التصريف متروك أي أوقعنا التصريف ﴿ في هذا القرآن ﴾ أو محذوف للعمل به والمراد صرفنا فيه ضروباً ﴿ من كل مثل ﴾ وأراد بهذا القرآن إبطال إضافتهم البنات إلى الله لأنه مما كرر ذكره ، والمقصود ولقد صرفنا القول في هذا المعنى . وقيل : لفظة " في " زائدة كقوله ﴿ وأصلح لي في ذريتي ﴾ [الأحقاف : 15] قال الجبائي : في قوله : ﴿ ليذكروا ﴾ دلالة على أنه أراد منهم فهمها والإيمان بها . والمراد بالذكر ههنا فيمن قرأ مخففاً هو التذكر والتأمل لا الذكر الذي هو نقيض النسيان . وقالت الأشاعرة : قوله : ﴿ وما يزيدهم إلا نفوراً ﴾ دلت على عكس ذلك لأن الحكيم إذا أراد تحصيل أمر من الأمور وعلم أن الفعل الفلاني يصير سبباً لعسره وتعذره والنفرة عنه يقبح منه الأمر بذلك الفعل ، ولما أخبر أن هذا التصريف يزيدهم نفوراً علمنا أنه ما أراد الإيمان منهم . عن سفيان الثوري أنه كان إذا

قرأها قال : زادني ذلك خضوعاً ما زاد أعداءك نفوراً . ثم دل على التوحيد الذي أمر به في قوله : ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾ فقال : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون ﴾ أي كما يقول المشركون من إثبات آلهة من دونه أو كما تقولون أيها المشركون .

(213/459)

وفي قوله ﴿ إذا ﴾ دلالة على أن ما بعدها وهو ﴿ لابتغوا ﴾ جواب عن مقالة المشركين وجزاء ل " لو " قاله في الكشاف . قلت : ولعل ﴿ إذا ﴾ ههنا ظرف لما دل عليه ﴿ لابتغوا ﴾ أي لطلبوا إذ ذاك ﴿ إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ بالمغالبة كما يفعل الملوك بعضهم ببعض ومثله ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء : 22] وسمى في عرف المتكلمين دليل التمانع وسيجيء بحثه في سورة الأنبياء إن شاء الله العزيز . وقيل : معنى الآية لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى لطلبت لأنفسها المراتب العالية والدرجات الرفيعة ، فلما لم تقدر أن تتخذ لأنفسها سبيلاً إلى الله فكيف يعقل أن تهديكم إلى الله . ثم نزه نفسه عن أقوالهم فقال ﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴾ فوضع الثلاثة وهو العلوّ موضع المتشعبة وهو التعالي كقوله ﴿ أنبتكم من الأرض نباتاً

﴾ [نوح : 17] ثم وصف العلو بالكبر مبالغة في النزاهة وتنبيهاً على أن بين الواجب لذاته والممكن لذاته وبين الغني المطلق والفقير المطلق مباينة لا تعقل الزيادة عليها .

(214/459)

ثم بين غاية ملكه ونهاية عظمته بقوله : ﴿ تسبح له ﴾ الآية . قالت العقلاء : تسبيح الحي المكلف يكون تارة باللسان بأن يقول " سبحان الله " وأخرى بدلالة أحواله على وجود الصانع الحكيم ، وتسبيح غيره لا يكون إلا من القبيل الثاني . وقد تقرر في أصول الفقه أن اللفظ المشترك لا يحمل على معنييه معاً في حالة واحدة فتعين حمل التسبيح ههنا على المعنى الثاني ليشمل الكل هذا ما عليه المحققون . وأورد عليه أنه لو كان المراد بالتسبيح ما ذكرتم لم يقل ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ لأن التسبيح بهذا الوجه مفقوه معلوم ، وأجيب بأن دلالة كل شيء على وجود الصانع معلومة على الإجمال دون التفصيل لأنك إذا أخذت تفاحة واحدة فلا شك أنها مركبة من أجزاء لا تتجزأ ، ولكن عدد تلك الأجزاء وصفة كل منها من الطبع والطعم واللون والحيز والجهة وغيرها لا يعلمها إلا الله . وأيضاً الخطاب للمشركين ، وإنهم وإن كانوا مقرين بالخالق ، إلا أنهم لما أثبتوا له شريكاً وأنكروا قدرته على البعث والإعادة ولم ينظروا في المعجزات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه

وسلم فكأنهم لم يفقهوا التسبيح إذ لم يتوسلوا به إلى نتيجة النظر الصحيح ولهذا ختم الآية بقوله : ﴿ إنه كان حليماً غفورا ﴾ حين لا يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء نظركم ، وزعم بعض الظاهريين أن ما سوى الحي المكلف يسبح الله باللسان أيضاً كل بلغته ولسانه الذي لا نعرفه نحن ولا نفقهه . وزعم أيضاً أن الحيوان إذا ذبح لا يسبح وكذا غصن الشجرة إذا كسر ، فأورد عليه أن كونه جماداً لا يمنع من كونه مسبحاً فكيف صار ذبح الحيوان مانعاً له عن التسبيح .

وكذا كسر الغصن ، ويمكن أن يجاب بأن تسبيح كل شيء لعله يختص بتركيبه الذي خلق عليه فإذا أبطل ذلك التركيب وفك ذلك النظم لم يبق مسبحاً مطلقاً ولا على ذلك النحو . واعترض عليه أيضاً بأنه إذا جاز في الجمادات أن تكون عالمة بذات الله سبحانه وبصفاته مسبحة له مع أنها ليس بأحياء انسدّ علينا باب العلم بكونه تعالى حياً لأنا نستدل بكونه عالماً قادراً على كونه حياً . ويمكن أن يجاب بأنا نستدل على حياته تعالى بالإذن الشرعي ، ولو سلم أن العلم يستلزم الحياة عقلاً فقد قيل : إن لكل موجود حياة تليق به .

ولما فرغ من الإلهيات شرع في النبوّات فقال : ﴿ وإذا قرأت القرآن ﴾ قيل : نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن عليهم . يروى أنه كان كلما قرأ القرآن قام عن يمينه وعن يساره أحزاب من ولد قصيّ يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار . وعن أسماء . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً ومعه أبو بكر إذا أقبلت امرأة أبي لهب ومعها حجر فهر تريد الرسول صلى الله عليه وسلم وهي تقول : مذمماً أتينا ، ودينه قلينا ، وأمره عصينا . فقال أبو بكر : يا رسول الله إن معها حجراً أخشى عليك . فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات . فجاءت وما رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالت : إن قريشاً قد علمت أني ابنة سيدها وإن صاحبك هجاني فقال أبو بكر : ورب هذه الكعبة ما هجاك . وعن ابن عباس : أن أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون الرسول صلى الله عليه وسلم ويسمعون حديثه . فقال النضر يوماً : ما أدري ما يقول محمد غير أني أرى شفتيه تتحركان بشيء . وقال أبو سفيان : إني أرى بعض ما يقوله حقاً . وقال أبو جهل : هو مجنون . وقال أبو لهب : كاهن . وقال حويطب بن عبد العزى : هو شاعر نزلت . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد تلاوة القرآن تلا قبلها ثلاث آيات وهن في سورة الكهف ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴾ [الآية : 57] وفي النحل : ﴿ أولئك الذين

طبع الله على قلوبهم ﴾ ﴿ الآية : 108] وفي " حم الجاثية " ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ [الآية : 23] . وكان الله تعالى يحجبه ببركات هذه الآيات عن عيون المشركين وذلك قوله : ﴿ جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ أي ذا ستر وقد جاء مفعول بمعنى ذا كذا كما جاء فاعل على ذلك كثير نحو " لابن وتامر " من ذلك قولهم " رجل مرطوب " أي ذو رطوبة ، و " مكان مهول " و " ذهول " و " سبل مفعم " ذو إفعام .

(217/459)

وجوّز الأخفش مجيء مفعول بمعنى فاعل مثل " مشؤوم " و " ميمون " . وقيل : إنه حجاب يخلقه الله في عيونهم بحيث يمنعهم الحجاب عن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم وذلك الحجاب شيء لا يراه أحد فهو مستور . وعلى هذا يصح قول الأشاعرة إنه يجوز أن تكون الحاسة سليمة والمرئي حاضراً والرؤية غير حاصلة لأجل أنه تعالى يخلق في العيون شيئاً يمنعهم من الرؤية ، ويحتمل أن يراد حجاب من دونه حجاب أو حجب فهو مستور بغيره أو حجاب يستر أن يبصر فكيف يبصر المحتجب به . والقول الثاني في الآية أن المراد بالحجاب الطبع والختم فاستدلت الأشاعرة به وبقوله : ﴿ وجعلنا على قلوبهم ﴾ [الأنعام : 25]

الآية . على صحة مذهبهم في خلق الكفر والإيمان كما مر في سورة الأنعام في قوله : ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا ﴾ ﴿ الأنعام : 35] . وأجاب الجبائي بأن المراد أنهم يطلبون موضعه بالليالي ليقتلوه ويستدلون عليه باستماع قراءته فأمنه الله من شرهم بأن جعل في قلوبهم ما شغلهم عن فهم القرآن وفي آذانهم ما منعهم عن سماع صوته . وقال الكعبي : أراد به الخلية والخذلان كالسيد إذا لم يراقب حال عبده فساءت أخلاق العبد يقول : أنا ألقيتك في هذه الحالة بسبب أني خليتك ورأيك . وقال جار الله : هذه حكاية لما كانوا يقولونه من قولهم قلوبنا غلف وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب . ومن قبائح أهل الشرك أنهم كانوا يحبون أن تذكر آلهتهم كلما ذكر الله فإذا سمعوا ذكر الله دون ذكر آلهتهم نفروا وانهزموا عن المجلس فلذلك قال تعالى : ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ﴾ وهو مصدر سدّ مسد الحال والتقدير يحد وحده مثل " وأرسلها العراك " ﴿ ولوا على أدبارهم نفوراً ﴾ مصدر من غير لفظ التولية أو جمع نافر كقاعد وقعود فأوعدهم الله على ذلك بقوله : ﴿ نحن أعلم بما يستمعون به ﴾ من الهزء بك وبالقرآن . قال جار الله ﴿ به ﴾ في موضع الحال كما تقول يستمعون بالهزء أي مصاحبين الهزء أو هازئين و ﴿ إذ

يستمعون ﴾ نصب بما دل عليه أعلم أي أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون ﴿ وإذ هم نجوى ﴾ أي يتناجون به إذ هم ذوو نجوى ﴿ إذ يقول الظالمون ﴾ " إذ " بدل من " إذ هم " ﴿ إن تتبعون ﴾ أي على تقدير الإتباع لأنهم لم يتبعوا رسول الله ﴿ إلا رجلاً مسحوراً ﴾ سحر فاختلط عقله وزال على حد الاعتدال. وقيل: المسحور الذي أفسد من قولهم " طعام مسحور " إذا أفسد عمله " أرض مسحورة " أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فأفسدها. وقال مجاهد ﴿ مسحوراً ﴾ مخدوعاً لأن السحر حيلة وخديعة، زعموا أن محمداً يتعلم من بعض الناس وأولئك الناس كانوا يخدعونه بهذه الحكايات، أو زعموا أن الشيطان يخدعه فيتمثل له بصورة الملك.

وقال أبو عبيدة: يريد بشراً ذا سحر وهو الرئة. قال ابن قتيبة: لا أدري ما حمله على هذا التفسير المستنكر مع أن السلف فسروه بالوجوه الواضحة. ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ شبهك كل منهم بشيء آخر فقالوا: إنه كاهن وشاعر وساحر ومعلم ومجنون ﴿ فضلوا ﴾ في جميع ذلك عن طريق الحق ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ إلى الهدى والبيان ضلال من تحير في التيه الذي لا منار به.

وحين فرغ من شبهات القوم في النبوّات حكى شبههم ، في أمر المعاد . وأيضاً لما ذكر أن القوم وصفوه بأنه مسحور فاسد العقل ذكر ما كان في زعمهم دالاً على اختلاط المفتتة من كل شيء ينكسر وهو اسم كالرضاض والفتات ويقال منه : رفت عظام الجزور رفتاً إذا كسرها . وتقرير الشبهة أن الإنسان إذا مات جفت أعضاؤه وتاثرت وتفرقت في جوانب العالم واختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر ، فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها ثم عود الحياة إلى ذلك المجموع ؟ فأجاب الله تعالى عن شبههم بأن إعادة بدن الميت إلى حالة الحياة أمر ممكن ، ولو فرضتم أن بدنه قد صار أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحي وغضاضته ومن جنس ما ركب منه البشر كالحجارة أو الحديد فهو كقول القائل : أتطمع فيّ وأنا فلان ؟ فيقول : كن ابن الخليفة أو من شئت فسأطلب منك حقي . أما قوله : ﴿ خلقاً مما يكبر في صدوركم ﴾ . فالمراد فرضوا شيئاً آخر أبعد عن قبول الحياة من الحجر والحديد بحيث تستبعد عقولكم كونه قابلاً لوصف الحياة ، وعلى هذا لا حاجة إلى تعيين ذلك الشيء . وقال مجاهد : أراد به السموات والأرض . وعن ابن عباس أنه الموت أي لو صارت أبدانكم نفس الموت فإن الله يعيد الحياة إليها . وهذا إنما يحسن على سبيل المبالغة كما يقال : هو روح مجسم أو وجود محض وإلا فالموت عرض وانقلاب الجسم عرضاً محال . وبتقدير التسليم فالموت كيف يقبل الحياة لأن الضد يمتنع أن يقبل الضد . وفي قوله : ﴿ قل الذي فطركم أول مرة ﴾ بيان كافٍ وبرهان شافٍ لأنه لما سلم أن خالق الحيوان هو الله

فتلك الأجسام في الجملة قابلة للحياة والعقل وإله العالم عالم بجميع الجزئيات والكليات فلا يشتبه عليه أجزاء بدن كل من الأموات، وإذا قدر على جعلها متصفة بالحياة في أول الأمر فلأن يقدر على إعادتها إلى الحياة في ثاني الحال أولى. ألزمهم أوّلاً بأن البعث أمر ممكن وإن فرضتم بدن الميت أي شيء أردتم فكأنهم سلموا إمكانه ولكن تجاهلوا

وتغافلوا عن تعيين المعيد فقالوا: ﴿ من يعيدنا ﴾ فأجاب بأنه الفاطر الأول. ثم زادوا في الاعتراض فسألوا عن تعيين الوقت يقيناً وذلك قوله: ﴿ فسينغضون إليك رؤوسهم ﴾ أي فسيحركونها نحوك تعجباً واستهزاء.

قال أبو الهيثم: يقال للرجل إذا أخبر بشيء فحرك رأسه إلى فوق وإلى أسفل إنكاراً له أنغض رأسه. قال المفسرون "عسى" من الله واجب فعلم منه قرب وقت البعث، ولكن وقته على التعيين مما استأثر الله بعلمه. لا يقال كيف يكون قريباً وقد انقرض أكثر من سبعمائة سنة ولم يظهر لأنا نقول: كل ما هو آتٍ قريب، وإذا كان ما مضى أكثر مما بقي فإن الباقي قليل. قوله: ﴿ يوم يدعوكم ﴾ منتصب ب ﴿ اذكروا ﴾ والمراد يوم يدعوكم كان ما كان، أو هو بدل من ﴿ قريباً ﴾ والمعنى عسى أن يكون البعث يوم يدعوكم بالنداء

الذي يسمعكم وهو النفخة الأخيرة. يروى أن إسرافيل ينادي: أيها الأجسام البالية والعظام النخرة والأجزاء المتفرقة عودي كما كنت. والاستجابة موافقة الداعي فيما دعا إليه وهو مثل الإجابة بزيادة تأكيد لما في السين من طلب الموافقة، قال في الكشاف: الدعاء والاستجابة كلاهما مجاز، والمعنى يوم يبعثكم فتبعثون مطاوعين منقادين لا تمتنعون.

وقوله: ﴿ بحمده ﴾ حال منهم أي حامدين وهي مبالغة في انقيادهم للبعث كقولك لمن تأمره بأمر يشق عليه: ستأتي به وأنت حامد شاكر أي متهيء إلى حالة تحمد الله وتشكره على أن اكتفي منك بذلك العمل، وهذا يذكر في معرض التهديد. وقال سعيد بن جبير: ﴿ يخرجون من قبورهم وينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك. وقال قتادة: بحمده أي بمعرفته وطاعته لأن التسبيح والتحميد معرفة وطاعة ومن هنا قال بعضهم: حمدوا حين لا ينفعهم الحمد. وقال آخرون: الخطاب مختص بالمؤمنين لأنهم الذين يليق بهم الحمد لله على إحسانه إليهم ﴿ وتظنون إن لبثتم إلاَّ قليلاً ﴾ عن قتادة: تحاقرت الدنيا في أنفسهم حين عاينوا الآخرة ومثله قول الحسن: معناه تقريب

وقت البعث وكأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل . وقال ابن عباس : يريد ما بين النفختين الأولى والثانية فإنه يزول عنهم هول العذاب في ذلك الوقت . وقيل : أراد استقصار لبثهم في عرصة القيامة حين عاينوا هول النار . ثم أمر المؤمنين بالرفق والتدريج عند إيراد الحجة على المخالفين فقال : ﴿ وقل لعبادي ﴾ أي المؤمنين لأن لفظ العباد يختص بهم في أكثر القرآن ﴿ فبشر عبادي الذين يستمعون القول ﴾ [الزمر : 17] ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ [الدهر : 6] ﴿ فادخل في عبادي ﴾ [البقرة : 29] ، ﴿ يقولوا ﴾ الكلمة أو الحجة ﴿ التي هي أحسن ﴾ وألين وهي أن لا تكون مخلوطة بالسب واللعن والغلظة . ثم نبه على وجه المنفعة بهذا الطريق فقال : ﴿ إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ أي بين الفريقين جميعاً فيزداد الغضب وتتكامل النفرة ويمتنع حصول المقصود . ثم قال : ﴿ ربكم أعلم بكم أن يشأ يرحمكم ﴾ أيها المؤمنون بالإنجاء من كفار مكة إيذائهم ﴿ أو إن يشأ يعذبكم ﴾ بتسليطهم عليكم ﴿ وما أرسلناك ﴾ يا محمد عليهم وكيلاً أي حافظاً موكولاً إليك أمرهم إنما أنت بشير ونذير .

والهداية إلى الله .

وقال جار الله : الكلمة التي هي أحسن مفسرة بقوله : ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ إلى آخره أي قولوا لهم الكلمة ونحوها ولا تقولوا لهم إنكم من أهل النار ، وإنكم معذبون وما أشبه ذلك مما يزيد غيظهم . وقوله : ﴿ إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ اعتراض . وقيل : المراد بالعباد الكفار أي قل لعبادي الذين أقروا بكونهم عباد إلي يقولوا الكلمة التي هي أحسن وهي كلمة التوحيد والبراءة من الشركاء والأضداد ، لأن ذلك أحسن بالبديهة من الإشراك .

ووصفه بالقدرة على الحشر أحسن من وصفه بالعجز عنه ، والحامل على مثل هذه العقائد هو الشيطان المعادي . ثم قال لهم : ﴿ ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم ﴾ بتوفيق الهداية ، وإن يشأ يعذبكم بالإماتة على الكفر إلا أن تلك المشيئة غائبة عنكم فلا تقصروا في الجد والطلب . ثم قال لرسوله : ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلاً ﴾ حتى تقسرهم على الإسلام وما عليك إلا البلاغ على سبيل الرفق والمداراة وهذا قبل نزول آية السيف . وقيل : نزلت في عمر بن الخطاب شتمه رجل فأمره الله بالعفو . وقيل : أفرط إيذاء المشركين للمسلمين فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت . وحين قال : ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ عمم الحكم فقال : ﴿ وربك أعلم بمن في السموات والأرض ﴾ يعني أن علمه غير مقصور عليكم ولا على أحوالكم بل علمه متعلق بجميع الموجودات وبما يليق بكل منها وبذلك حصل التمايز والتفاضل كما قال : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ وفيه رد على أهل مكة في إنكارهم أن يكون يتيم أبي طالب مفضلاً على الخلائق ونبياً دون

صناديد قريش وأكابرهم . وأنما ختم الآية بقوله : ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ ليعلم أن التفضيل ليس بالمال والملك وإنما هو بالعلم والدين فإن داود كان ملكاً عظيماً ولم يذكره الله سبحانه إلا بمزية إيتاء الكتاب . وفيه أيضاً إشارة إلى أن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وأمته خير الأمم بدليل قوله : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض

يرثها عبادي الصالحون ﴾ [الأنبياء : 105] أي محمد وأمته . ومعنى التنكير في " زبور " أنه كامل في كونه كتاباً . والزبور وزبور كالعباس وعباس والحسن وحسن ، أو المراد بعض الزبر أو الزبور كما يسمى بعض القرآن قرآناً . وقيل : إن كفار قريش ما كانوا أهل نظر وجدال بل كانوا يرجعون إلى اليهود في استخراج الشبهات ، وكانت اليهود تقول : إنه لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة ، فنقض الله كلامهم بإنزال الزبور على داود بعد موسى . ثم رد على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنها صور الملائكة ، أو على طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بآلهية عيسى ومريم وعزير فقال : ﴿ قل ادع الذين زعمتم من دونه ﴾ وقيل : أراد بالذين زعمتم نفراً من الجن عبدهم ناس من العرب ثم أسلم الجن ولم يشعروا .

وإنما خصصت الآية بإحدى هؤلاء الطوائف لأن قوله بعد ذلك ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ لا يليق بالجمادات . قال ابن عباس : كل موضع في كتاب الله ورد فيه لفظ الزعم فهم بمعنى الكذب . وتقرير الرد أن المعبود الحق هو الذي قدر على إزالة الضر وتحويله من حال إلى حال أو مكان إلى مكان ، وهذه التي زعمتم أنها آلهية لا تقدر على شيء من ذلك فوجب القطع بأنها ليست بآلهة . سؤال : ما الدليل على أن الملائكة لا قدرة لها على كشف الضر ؟ فإن قلتم لأنا نرى أولئك الكفار كانوا يتضرعون إليها ولا تحصل الإجابة قلنا : إن المسلمين أيضاً يتضرعون إلى الله ولا يجابون ، وبتقدير الإجابة في بعض الأوقات فالكفار أيضاً يحصل مطلوبهم أحياناً فيقولون إنه من الملائكة . جوابه أن الملائكة مقرّون بأن الإله الأعظم خالق العالم ، فكمال قدرته معلوم متفق عليه وكمال قدرة الملائكة غير معلوم ولا متفق عليه ، بل المتفق عليه أن قدرتهم بالنسبة إلى قدرة الله قليلة حقيرة ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون الاشتغال بعبادة الإله الأعظم أولى وأجدر أخذاً بالمعلوم المتيقن دون المظنون الموهوم . على أن أهل السنة قاطعون بأنه لا تأثير لشيء في الوجود إلا لله تعالى . يقول مؤلف هذا التفسير : أضعف عباد الله تعالى وأحوجهم إليه الحسن بن

محمد المشتهر بنظام النيسابوري نظم الله أحواله في أولاه وأخراه . رأيت في بعض الكتب مروياً عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : من وقع في ملمة أو طلب كفاية مهم فليسجد في خلوة وليقل في سجدته إلهي أنت الذي قلت : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ فيا من يملك كشف الضر عنا وتحويله اكشف ما بي ، فإنه إذا قال ذلك كشف الله عنه ضره وكفى مهمه . وقد جرب فوجد كذلك .

ثم إنه تعالى أكد عدم اقتدار معبوديهم ببيان غاية افتقارهم إلى الله تعالى في جذب المنافع ودفع المضار فقال : ﴿ أولئك ﴾ وهو مبتدأ و ﴿ الذين يدعون ﴾ صفته ﴿ ويبتغون ﴾ خبره يعني أولئك المعبودين يطلبون ﴿ إلى ربهم الوسيلة ﴾ أي القربة في الحوائج و ﴿ أيهم ﴾ بدل من واو ﴿ ويبتغون ﴾ وهو موصول وصدر صلته محذوف أي يبتغي من هو أقرب الوسيلة إلى الله فكيف بغير الأقرب ؟ والدليل على هذا الافتقار إقرار جميع الكفار بإمكانهم الذاتي وجوز في الكشاف أن يضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون فكأنه قيل : يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله وذلك بازدياد الخير والطاعة والصلاح ، ويرجون ويخافون كغيرهم من العباد . وقيل : أولئك الذين يدعون هم الأنبياء الذين ذكرهم الله في

قوله : ﴿ لقد فضلنا بعض النبيين ﴾ أي الذين عظمت منزلتهم وهم الأنبياء الدعوان للأمم إلى الله ، لا يعبدون إلا الله ولا يبتغون الوسيلة إلا إليه فأنتم أحق بالعبادة .

واحتج هذا القائل على صحة قوله بأن الله تعالى قال : ﴿ يخافون عذابه ﴾ والملائكة لا يعصون الله فكيف يخافون عذابه ؟ وأجيب بأنهم يخافون عذابه لو أقدموا على الذنب لقوله : ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ﴾ [الأنبياء : 29] ، ﴿ إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ أي حقيقاً بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلاً عن غيرهم ، فإن لم يحذره بعض الجهلة فإنه لا يخرج من كونه واجب الحذر . ثم بين مآل حال الدنيا وأهلها فقال : ﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة ﴾ بالموت والاستئصال ﴿ أو معذبوها ﴾ بالقتل وأنواع العذاب كالسبي والاغتنام . وقيل : الهلاك للصالحة والتعذيب للطالحة ﴿ كان ذلك في الكتاب ﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿ مسطوراً ﴾ فلا يوجد له تبديل قط .

ثم ذكر نوعاً آخر من سننه فقال : ﴿ وما منعنا ﴾ استعار المنع للترك من أجل لزوم خلاف الحكمة والمشيئة . عن سعيد بن جبير أن كفار قريش اقترحوا منه آيات باهرة كإحياء

الموتى ونحوه . وعن ابن عباس أنهم سألوا الرسول أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن يزيل عنهم الجبال حتى يزرعوا تلك الأراضي ، فطلب النبي صلى الله عليه وسلم من الله تعالى ذلك فقال : إن شئت فعلت لكنهم إن كفروا بعد ذلك أهلكتهم . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : لا أريد ذلك وأنزل الله الآية . والمعنى وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات ﴿ إلا أن كذب بها ﴾ الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود ، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك واستوجبوا عذاب الاستئصال على ما أجرى الله تعالى به عادته . والحاصل أن المانع من إرسال الآيات التي اقترحوها هو أن الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاك الكلي ، وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعث إليهم إلى يوم القيامة ، ويحتمل أن يراد أنهم مقلدون لآبائهم فلا يؤمنون ألبتة كما لم يؤمنوا فيكون إرسال الآيات ضائعاً . ثم استشهد على ما ذكر بقصة صالح وناقته لأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة يبصرها صادرهم وواردهم وهذا معنى قوله ﴿ مبصرة ﴾ أو المراد حال كون الناقة آية بينة يبصر المتأمل بها رشده ﴿ فظلموا ﴾ أنفسهم بقتلها أو فكفروا ﴿ بها ﴾ بمعنى أنهم جحدوا كونها من الله قاله ابن قتيبة ﴿ وما نرسل بالآيات ﴾ المقترحة ﴿ إلا تخويفاً ﴾ من نزول العذاب العاجل بمعنى أن من أنكرها وقع عليه ، أو المراد وما نرسل بآيات القرآن وغيرها من المعجزات إلا إنذاراً بعذاب الآخرة على المعنى المذكور . وحين امتنع من إرسال الآيات المقترحة على رسوله للمصارف المذكورة قوى قلبه بوعد النصر بالغلبة

فقال : ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك ﴾ أي واذكر إذا أوحينا إليك أن ربك ﴿ أحاط بالناس ﴾ أي أنهم في قبضته وقدرته فلا يقدرون على خلاف إرادته فينصرك ويقويك حتى تبلغ

(227/459)

الرسالة .

عن الحسن : حال بينهم وبينه أن يقتلوه كما قال : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة : 67] وقيل : أراد بالناس أهل مكة ، وأحاط في معنى الاستقبال إلا أن خبر الله تعالى لما كان واجب الوقوع عبر عنه بلفظ الماضي ، وعد نبيه بأنه سيهلك قريشاً في وقعة بدر .

(228/459)

أما قوله : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ ففيه أقوال : الأول أنه تعالى أراه في المنام مصارع كفار قريش حتى قال : والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم وهو يأتي الأرض ويقول : هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان ، فلما سمع قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية وكانوا يستعجلون بما وعد . الثاني : أنه رؤياه التي رأى أن يدخل مكة وبذلك أخبر

أصحابه ، فلما منع من البيت الحرام عام الحديبية كان ذلك فتنة لبعض القوم . وقال عمر لأبي بكر : قد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا ندخل البيت فنطوف به . فقال أبو بكر : إنه لم يخبر أنا نفعل ذلك في هذه السنة فسنفعل ذلك في سنة أخرى . فلما جاء العام القابل دخلها وأنزل الله تعالى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ [الفتح : 27] . الثالث : قول سعيد بن المسيب وابن عباس في رواية عطاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك . الرابع وهو قول أكثر المفسرين : أن المراد بهذه الرؤيا هي حديث الإسراء . ثم اختلفوا ، فالأكثرون على أن الرؤيا بمعنى الرؤية يقال : رأيت بعيني رؤية ورؤيا ، أو سماها رؤيا على قول المكذبين حين قالوا لعلها رؤيا رأيتها وخيال خيل إليك . والأقلون على أن الإسراء كان في المنام وقد مر هذا البحث في أول السورة . قوله : ﴿ والشجرة ﴾ فيه تقديم وتأخير ، والتقدير وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس قال الأكثرون : إنها شجرة الزقوم لقيت في القرآن حيث لعن طاعموها . قال عز من قائل : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ أو وصفت باللعن لأنه إلا بعاد وهي في أصل الجحيم أبعد مكان من الرحمة ، أو العرب تقول لكل طعام مكروه ضارّ ملعون . والفتنة فيها أن أبا جهل وغيره قالوا : زعم صاحبكم أن نار جهنم تحرق الحجر ثم يقول ينبت فيها الشجر فأنزل الله تعالى هذه الآية . ونظيره قوله : ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾

[الصافات : 63] . ومن شاهد حال السمندل والنعامة كيف يتعجب من قدرة الله على إنبات الشجرة من جنس لا تعمل فيه النار . وعن ابن عباس : الشجرة الملعونة بنو أمية . وعنه هي الكشوث التي تتلوى بالشجر تجعل في الشراب . وقيل : هي الشيطان . وقيل : اليهود سؤال : أي تعلق لحديث الرؤيا والشجرة إلى ما قبله من الكلام ؟ جوابه كأنه قيل : إنهم لما طلبوا هذه المعجزات ثم إنك لم تظهرها صار عدم ظهورها شبهة في أنك لست بصادق في دعوى النبوة إلا أن وقوع هذه الشبهة لا ينبغي أن يكون سبباً في توهين أمرك .

ألا ترى أن ذكر تلك الرؤيا والشجرة صار سبباً لوقوع الشبهة العظيمة ، ثم إنها ما أوجبت ضعفاً في أمرك ولا فتوراً في اجتماع المحقين عليك . ثم ذكر سبباً آخر في أنه تعالى لا يظهر المقترحات عليهم فقال : ﴿ ونخوفهم ﴾ بمخاوف الدنيا والآخرة ﴿ فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ﴾ متمادياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 352 . 362﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ لا تبتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ يشتمل معنيين لأنهم إن كانوا أكبر منه أو أمثالاً له طلبوا طريقاً إلى إزعاج صاحب العرش ونزع الملك منه قهراً ، وإن كانوا أدون منه طلبوا إليه الوسيلة بالخدمة والعبودية على أن الناقص لا يصلح للإلهية وهذا قريب من التفسير : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ لكل ذرة من ذرات الموجودات ملكوت لقوله : ﴿ فسبحان الذين بيده ملكوت كل شيء ﴾ [يس : 83] والملكوت باطن الكون وهو الآخرة ، والآخرة حيوان لا جماد لقوله : ﴿ إن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ [العنكبوت : 64] فلكل ذرة لسان ملكوتي ناطق بالتسبيح والحمد تنزيهاً لصانعه وحمداً له على ما أولاه من نعمه ، وبهذا اللسان يطق الحصى في كف النبي صلى الله عليه وسلم وبه تنطق الأرض يوم القيامة ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ ﴿ الزلزلة : 4] وبه تنطق الجوارح ﴿ أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ [فصلت : 21] وبه نطق السموات والأرض ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ [فصلت : 11] ﴿ وإنه كان حليماً ﴾ في الأزل إذا أخرج من العدم من يكفر به ويجحده ﴿ غفوراً ﴾ لمن تاب عن كفره . ﴿ وإذا قرأت القرآن ﴾ فيه إشارة إلى أن من قرأ القرآن بتمامه وصل إلى أعلى معارج القدس وأقصى

مدارج الأنس كما جاء في الحديث " يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق " قال أبو سليمان الخطابي : جاء في الأثر أن عدد آي القرآن على قدر درج الجنة فمن استوفى جميع آي القرآن استولى على أقصى درجات الجنة . قال المحققون : استيفاء جميع آي القرآن هو أن يتخلق بأخلاقه وصفاته بل بأخلاق الله وصفات الله . وهذا يكون بعد العبور عن الحجب الظلمانية والنورانية فيكون بينه وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً . لم يقل " ساتراً " لأن الحجاب يستر الواصل عن المنقطع ولا يستر المنقطع عن الواصل فيكون الواصل مستوراً بالحجاب المنقطع . ﴿ ولّوا على أدبارهم ﴾ لأنهم من سوء مزاجهم لا يكادون يقبلون الغذاء الصالح ، فالحلاوة

(231/459)

في مذاقهم مرارة ﴿ إذ يقول الظالمون ﴾ من ظلمهم لأنهم وضعوا المسحور مكان المبعوث أي ﴿ خلقاً مما يكبر في صدوركم ﴾ أي لو كانت قلوبكم التي في صدوركم أشد من الحجارة والحديد فالله قادر على إحيائه وتليينه في قيام قيامة العشق ﴿ يقولوا التي هي أحسن ﴾ من شرف من عبيده ، فبتشريف الإضافة يظهر منه القول الأحسن وهو الدعاء إلى الله بلا إله إلا الله مخلصاً ، والفعل الأحسن وهو أن يكون متأدباً بآداب الشريعة

والطريقة ، والخلق الأحسن وهو أن يكون محسناً إليهم بلا طمع الإحسان والشكر منهم ويتجاوز عن سيئاتهم ويعيش فيهم بالنصيحة ، يأمرهم بالمعروف بلا عنف وينهاهم عن المنكر بلا فضيحة ﴿ إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ إذ لم يعيشوا بالنصيحة .

﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ فيه أن فضل النبي صلى الله عليه وسلم على داود كفضل القرآن على الزبور . ﴿ وإن من قرية ﴾ من قرى قالب الإنسان ﴿ إلا نحن مهلكوها ﴾ بموت قلبه وروحه قبل موت قالبه فمن مات فقد قامت قيامته ﴿ أو معذبوها ﴾ بأنواع الرياضات والمجاهدات ففي السير إلى الله ذوبان الأفعال ، وفي السير بالله ذوبان الصفات ، وفي السير في الله ذوبان الذات : ﴿ أحاط بالناس ﴾ علم مقتضى كل نفس من الخير والشر ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك ﴾ كان الوحي يصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم في مبدأ أمره بطريق المنام وكان في ذلك اختبار للناس ، فمن وقته يظهر الموافق من المنافق والصديق من الزنديق ، وهكذا كان في شجرة وجود إبليس ابتلاء للناس ولم يكن للمحيط بأحوال الناس حاجة إلى الابتلاء ولكنه يعامل معاملة المختبر والله أعلم بالصواب . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 362 . 363 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الستون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/460)

الجزء الستون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 61 ﴾ من سورة الإسراء

وحتى الآية ﴿ 69 ﴾ من نفس السورة

(4/460)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (64) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (65) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تقدم أنهم استبعدوا الإعادة من أجل صيرورتهم بعد الموت رفاتاً ، وأخبر تعالى بقدرته على ذلك ولو صاروا إلى ما هو أعسر عندهم في الإعادة من الرفات بأن يكونوا

حجارة أو حديداً ، وأشار إلى قدرته على التصرف بخرق العادة في الحديد بإلانته لعبد من عبيده ، ثم في الحجارة على سبيل الترقي في النشر المشوش بما هو أعجب من ذلك ، وهو إفاضة الحياة عليها لعبد آخر من عبيده ، أشار إلى تصرفه في التراب الذي هو نهاية الرفات الذي حملهم على الاستبعاد بما هو أعجب من كل ما تقدمه ، وذلك بإفاضة الحياة الكاملة بالنطق عليه من غير أن تسبق له حالة حياة أصلاً ، وذلك بخلق آدم عليه السلام الذي هو أصلهم ، مع ما في ذلك من حفظ السياق في التسلية بأن الآيات لا تنفع المحكوم بشقاوته وبأن آدم عليه السلام قد سلط عليه الحاسد واشتد أذاه له مع أنه صفي الله وأول أنبيائه ، مع البيان لأن أغلب أسباب الطغيان الحسد الذي حمل إبليس على ما فعل فقال تعالى :

﴿ إذ ﴾ أي واذكر أيضاً ما وقع من الطغيان مع رؤية الآيات في أول هذا الكون من إبليس الذي هو من أعلم الخلق بآيات الله وعظمته ، ثم ممن اتبعه من ذرية آدم عليه السلام بعد تحقق عداوته في مخالفة ربهم المحسن إليهم مع ادعاء ولايته إذ ﴿ قلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا يعصي مرادها شيء ﴿ للملائكة ﴾ حين خلقنا أباكم آدم وفضلناه :

﴿ اسجدوا لآدم ﴾ امتثالاً لأمري ﴿ فسجدوا إلا إبليس ﴾ أبى أن يسجد لكونه ممن حقت عليه الكلمة ولم ينفعه ما يعلمه من قدرة الله وعظمته ، وذلك معنى قوله : ﴿ قال ﴾ أي لنا منكراً متكبراً : ﴿ ءأسجد ﴾ أي خضوعاً ﴿ لمن خلقت ﴾ حال كون أصله ﴿ طيناً ﴾ فكفر بنسبته لنا إلى الجور وعدم الحكمة ، متخيلاً أنه أكرم من آدم عليه السلام

من حيث إن الفروع ترجع إلى الأصول ، وأن النار التي هي أصله أكرم من الطين ، وذهب عليه إن الطين أنفع من النار فهو أكرم ، وعلى تقدير التنزل فإن الجواهر كلها من جنس واحد ، والله

(5/460)

تعالى الذي أوجدها من العدم يفضل بعضها على بعض بما يحدث فيها من الأعراض ، كما تقدمت الإشارة إليه في ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيّن على بعض ﴾ [الإسراء : 55] .

ولما أخبر تعالى بتكبره ، كان كأنه قيل : إن هذه لوقاحة عظيمة واجتراء على الجناب الأعلى ، فهل كان غير هذا ؟ فقيل : نعم ! ﴿ قال أرءيتك ﴾ أي أخبرني ﴿ هذا الذي كرمت عليّ ﴾ بم كرمته عليّ مع ضعفه وقوتي ؟ فكأنه قيل : لقد أتى بالغاية في إساءة الأدب ، فما كان بعد هذا ؟ فقيل : قال مقسماً لأجل استبعاد أن يجترئ أحد هذه الجراءة على الملك الأعلى : ﴿ لئن أخرتن ﴾ أي أيها الملك الأعلى تأخيراً ممتداً ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ حياً متمكناً ﴿ لأحتنكن ﴾ أي بالإغواء ﴿ ذريته ﴾ أي لأستولين عليهم بشدة احتيالي كما يستولي الآكل على ما أخذه في حنكه ، بتسليطك لي عليهم ﴿ إلا قليلاً ﴾ وهم أولياؤك الذين حفظتهم مني ، فكأنه قيل : لقد أطال في الاجتراء فما قال له

ربه بعد الثالثة؟ فقيل: ﴿ قال ﴾ مهدداً له: ﴿ اذهب ﴾ أي امض لثباتك الذي ذكرته بإرادتي لا بأمري، فإنك لن تعدو أمرنا فيك وقد حكمنا بشقاوتك وشقاوة من أردنا طاعته لك، ولذلك سبب عنه قوله تعالى: ﴿ فمن تبعك ﴾ أي أدنى اتباع ﴿ منهم ﴾ أي أولاد آدم عليه السلام، ويجوز أن يراد بتجريد الفعل أن من تبعه بغير معالجة من فطرته الأولى لا يكون إلا عريقاً في الشر.

ولما كان التقدير: أذقته من خزيك، عبر عنه بقوله تعالى: ﴿ فإن جهنم ﴾ أي الطبقة النارية التي تتجهم داخلها ﴿ جزاؤكم ﴾ أي جزاءك وجزاءهم، تجزون ذلك ﴿ جزاء موفوراً ﴾ مكملاً وافياً بما تستحقون على أعمالكم الخبيثة.

(6/460)

ومادة " وفر " بجميع تراكيبها - وهي خمسة عشر، في الواوي ستة: وفر، ورف، فور، فرو، رفو، روف، وفي اليائي ثلاثة: فري، رفي، ريف، وفي المهموز ستة: رفأ، رأف، فرأ، فأر، أفر، أرف - تدور على السعة، والمجاوزة للحد، والعلو على المقدار، والفضل عن الكفاية؛ فالوفر: المكان الكبير، وسقاء وفر: لم ينقص من أديمه شيء، وإداوة وفراء، والوفرة: ما بلغ الأذنين من الشعر، والوافر: ضرب من العروض وزنه

مفاعلتن ست مرات ، والوفر : الغنى ، ومن المال : الكثير الواسع ، والعام من كل شيء ، ووفره توفيراً : أكثره ، ووفر له عرضه : لم يشتمه ، ووفر عطاءه : رده عليه وهو راضٍ ، ووفره توفيراً : أكمله وجعله وافراً – لأن الكمال لا يكاد يتحقق إلا مع زيادة ، والثوب : قطعه وافراً ، والوافرة : ألية الكبش إذا عظمت ، والدنيا ، والحياة ، وكل شحمة مستطيلة ، وهم متوافرون : فيهم كثرة ، واستوفر عليه حقه : استوفاه .

وورف النبت يرف إذا رأيت له بهجة من ريه ، ولا يكون ذلك إلا من نضارته واتساعه وكونه ملء العين ، وورف الظل يرف ورفاً ووريفاً ووروفاً : اتسع وطال وامتد كأورف وورّف والورف : ما رق من نواحي الكبد – لزيادته واسترخائه ، والرفة – كعدة : الناضر من النبت ، وورفته توريفاً : مصصته ، والأرض : قسمتها – كأنه من الإزالة .

(7/460)

وفارت القدر – إذا غلت حتة يعلو ما فيها فتفيض ، وكل حارّ يفور فوراً ، وفار العرق – إذا انتفخ ، زاد في القاموس : وضرب ، والمسكُ ، انتشر ، وفارة الإبل : فوح جلودها إذا نديت بعد الورد ، والفائر : المنتشر العصب من الدواب وغيرها ، وأتوا من فورهم : من وجههم أو قبل أن يسكنوا – لأن حركتهم توسع وانتشار فسميت فوراً والفار : عضل

الإنسان – لأنه أثخن مما دونه ، والفور – بالضم : الظباء ، جمع فائر – لأنه من أسرع الحيوان نفاراً ، وأشدها وثباً ، وأوسعها عدواً ، وقال القزاز : والفارة والفورة : ريح تكون في رسغ الفرس تنفش إذا مسحت وتجتمع إذا تركت ، وقال في فأر : فإذا مشى انفشت ، وأعاده في القاموس في المهموز فقال : والفأرة له – أي للذكر من الحيوان المعروف – وللأنثى ، وريح في رسغ الدابة تنفش إذا محست وتجتمع إذا تركت كالفورة بالضم ، والفور : ولد الحمار – لخفته وسرعة حركته ووثبه ، وفوارتا الكرش : غدتان في جوف لحمتين ، وقيل : الفوارة : اللحمة – التي في داخلها الغدة ، وقيل : تكونان لكل ذي لحم ، وذلك لوجوب الزيادة سواء قلنا : إنها لحمة أو غدة ، وقال القزاز : وقالوا : ماء الرجل إنما يقع في الكلية ثم في الفوارة ثم في الخصية ، فعلى هذا سمي لأنه يقذف ما فيه إلى الخصية ، والفياران – بالكسر : حديدتان تكتنفان لسان الميزان لاتساعهما عن اللسان ، والفيرة – بالكسر بالهمز وبغيره : تمر يغلى ويمرس ويطبخ بحلبة تشربها النفساء قاله القزاز ، وفي مختصر العين : حلبة تطبخ ؛ فإذا فارت فوارتها ألقيت في معصرة ثم صفيت وتحسيها النفساء ، وأعاده في القاموس في المهموز وقال : والفئرة – بالكسر – والفؤارة كثمامة والفئيرة والفئرة كعنبة ويترك همزها : حلبة تطبخ للنفساء – سميت إما لغليانها وإما للاتساع بجمع التمر والحلبة .

والفرو والفروة : لبس معروف – لخروج صوفها وزيادة الرفق به ، كأنها أصل المادة كلها ، وفروة الرأس : جلدته بشعرها ، والفروة : الأرض البيضاء ليس لها نبات – لأنه أوسع لها من حيث هي ، والفروة : الغنى والثروة وقطعة نبات مجتمعة يابسة ، وجبة شمر كماها – لأنه لولا زيادتهما ما شمرا ، ونصف كساء يتخذ من أوبار الإبل – كأنه شبه بالفروة لطول وبره ، وخريطة يجعل السائل فيها صدقته ، والتاج – لاتساعه وعلوه وكماله ولغنى صاحبه ، وخمار المرأة – لزيادته على كفايتها ولسبوغه وفضله عن رأسها .

ورفا الثوب يرفوه : أصلحه ولأم خرقه : وقال في القاموس : في المهموز : وضم بعضه إلى بعض ، قال القزاز : والهمز أكثر ؛ والرفاء – ككساء : الالتحام والاجتماع والاتفاق ، ومنه ما يدعى به للمتزوج : بالرفاء والبنين ، وأعادوه في المهموز .

وقال في القاموس : أي بالالتئام وجمع الشمل ، قال القزاز : ومعنى رفا : تزوج ، والأرفى : العظيم الأذنين في استرخاء ، قال القزاز : والأذن الرفواء هي التي تقبل على الأخرى حتى تكاد تماس أطرافهما ؛ ورفوت الرجل : إذا سكنته من رعب ، وأعاده في القاموس في المهموز – لأن ذلك أوسع لفكره لأنه أقر لعينه .

والروف : السكون – وهو أوسع من الاضطراب لأنه لا يكون إلا عن قرار العين ، قال في

القاموس : وليس من الرأفة ، والروفة : الرحمة ، وراف يراف لغة في رأف يرأف – وستأتي بقيتها قريباً إن شاء الله تعالى .

(9/460)

ولما بدأ سبحانه بالوعيد لطفاً بالمكلفين ، عطف على " اذهب " قوله ممثلاً حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع بقوم فصوت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم ، ويقلعهم عن مراكزهم ، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم : ﴿ واستفزز ﴾ أي استخف ، والفز أصله القطع ، أي استزله بقطعه عن الصواب – قاله الرماني ﴿ من استطعت منهم ﴾ وهم الذين سلطناك عليهم ﴿ بصوتك ﴾ أي دعائك بالغنى والمزامير وكل ما تزينه بالوساس ﴿ وأجلب ﴾ أي اجمع أو سق بغاية ما يمكنك من الصياح ﴿ عليهم بخيلك ﴾ أي ركبان جندك ﴿ ورجلك ﴾ أي ومشاتهم ؛ والمعنى : افعل جميع ما تقدر عليه ، ولا تدع شيئاً من قوتك ، فإنك لا تقدر على شيء لم أقدره لك .

(10/460)

ولما كان الشيطان طالباً شركة الناس في جميع أمورهم بوساوسه الحاملة لهم على إفسادها ، فإن أطاعوه كانوا طالبين لأن يشركوه وإن كانوا لا شعور لهم بذلك ، عبر بصيغة المفاعلة فقال تعالى : ﴿ وشاركهم ﴾ أي بوثوبك على مخالطتهم عند ما يشاركونك بفعل ما يوافق هواك ﴿ في الأموال ﴾ أي التي يسعون في تحصيلها ﴿ والأولاد ﴾ أي التي ينسلونها ، إن اقتنوها بوجه محرم أو لم يذكروا اسمي عليها ، وكذا قرابينهم لغير الله وإنفاقهم في المحرمات وتعليمهم أولادهم المعاصي والكفر مشاركة فيها ﴿ وعدهم ﴾ من المواعيد الباطلة ما يستخفهم ويغرهم من شفاعة الآلهة والكرامة على الله تعالى وتسويف التوبة – ونحو ذلك ؛ ثم التفت إلى الصالحين من عباده فأخبرهم تثبيتاً لهم وتنبيهاً لغيرهم على أنه ليس بيده شيء ، فقال تعالى مظهراً لضميره بما يدل على تحقيره ، تقبيحاً لأمره وتنفيراً منه : ﴿ وما يعدهم الشيطان ﴾ أي المحترق المطرود باللعنة ، من عدم البعث وطول الأجل وشفاعة الآلهة ونحو ذلك ﴿ إلا غروراً ﴾ والغرور : تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب ، ثم رجع إلى مواجهته بما يحقر أمره ، فإن المواجهة بالتحقير أنكأ ، مصرحاً بنتيجة ذلك ، وهي أنه غير قادر إلا بإذنه سبحانه ، وممنوع عنه ما لم يقدره له ، دفعاً لما قد يوهمه ما مضى من أنه يؤثر شيئاً استقلالاً فقال تعالى : ﴿ إن ﴾ أي اجهد جهدك ، لأن أهل الشهوات سلطتك عليهم زيادة في شقائك بما أردته منهم قبل خلقك وخلقهم ، لا تقدر أن تتعدى شيئاً منه إلى خالصتي ومن ارتضيته لعبادتي ، إن ﴿ عبادي ﴾ الذين أهّلتهم للإضافة إليّ فقاموا بحق

عبوديتي بالتقوى والإحسان ﴿ ليس لك ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ عليهم سلطان ﴾ أي فلا تقدر أن تغويهم وتحملهم على ذنب لا يغفر ، فإني وفقتهم للتوكل عليّ فكفيتهم أمرك ﴿ وكفى بربك ﴾ أي الموجد لك المدبر لأمرك ﴿ وكيلاً ﴾ يحفظ ما هو وكيل فيه من كل ما يمكن أن يفسده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 401.406 ﴾

(11/460)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ اخرتني ﴾ بالياء في الحالين : ابن كثير غير الهاشمي عن ابن فليح وسهل ويعقوب وافق أبو جعفر ونافع وأبو عمرو في الوصل . الباقون بالحذف ﴿ ورجلك ﴾ بكسر الجيم : حفص وأبو زيد عن المفضل الآخرون بسكونها . ﴿ أن نخسف ﴾ ، ﴿ أونرسل ﴾ ، ﴿ أن نعيدكم ﴾ ، ﴿ فنرسل ﴾ ، ﴿ فنغركم ﴾ كلها بالنون : ابن كثير وأبو عمرو . والباقون على الغيبة إلا يعقوب ويزيد فإنهما قرأ ﴿ فتغرقكم ﴾ بالتاء الفوقانية على أن الضمير للريح من الرياح على الجميع يزيد : ﴿ هذه أعمى ﴾ بالإمالة ﴿ أعمى ﴾ بالتفخيم : أبو عمرو ونصير والبرجمي ورويس . وقرأ حمزة وعلي غير نصير

وخلف ويحيى وحماد جميعاً بالإمالة. الباقون جميعاً بالتفخيم.

الوقوف: ﴿ إبليس ﴾ ط ﴿ طيناً ﴾ 5 لاتحاد فاعل فعل قبله وفعل بعده بلا حرف عطف ﴿ عليّ ﴾ ز لحق القسم المحذوف مع اتحاد الكلام ﴿ قليلاً ﴾ 5 ﴿ موفوراً ﴾ 5 ﴿ وعدهم ﴾ ط للعدول ﴿ غروراً ﴾ 5 ﴿ سلطان ﴾ ط ﴿ وكيلاً ﴾ 5 ﴿ من فضله ﴾ ط ﴿ رحيماً ﴾ 5 ﴿ الا إياه ﴾ ج ﴿ أعرضتم ﴾ ط ﴿ كفوراً ﴾ 5 ﴿ وكيلاً ﴾ 5 لا للعطف ﴿ تبيعاً ﴾ 5 ﴿ تفضيلاً ﴾ 5 ﴿ بإمامهم ﴾ ج ﴿ فتيلاً ﴾ 5 ﴿ سبيلاً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 364 ﴾

(12/460)

فصل

قال الفخر:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) ﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى:

في كيفية النظم وجوه .

الأول : اعلم أنه تعالى لما ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في محنة عظيمة من قومه وأهل زمانه ، بين أن حال الأنبياء مع أهل زمانهم كذلك .

ألا ترى أن أول الأولياء هو آدم ، ثم إنه كان في محنة شديدة من إبليس .

الثاني : أن القوم إنما نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لأمرين الكبر والحسد ، أما الكبر فلأن تكبرهم كان يمنعهم من الإنقياد ، وأما الحسد فلأنهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة والدرجة العالية ، فبين تعالى أن هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا إبليس على الخروج من الإيمان والدخول في الكفر ، فهذه بلية قديمة ومحنة عظيمة للخلق .

والثالث : أنه تعالى لما وصفهم بقوله : ﴿ فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ﴾ [الإسراء : 60] بين ما هو السبب لحصول هذا الطغيان وهو قول إبليس ﴿ لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ فلأجل هذا المقصود ذكر الله تعالى قصة إبليس وآدم ، فهذا هو الكلام في كيفية النظم .

المسألة الثانية :

اعلم أن هذه القصة قد ذكرها الله تعالى في سور سبعة ، وهي : البقرة والأعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص والكلام المستقصى فيها قد تقدم في البقرة والأعراف والحجر فلا فائدة في الإعادة ولا بأس بتعديد بعض المسائل :

المسألة الأولى :

اختلفوا في أن المأمورين بالسجود لآدم أهم جميع الملائكة أم ملائكة الأرض على التخصيص ، فظاهر لفظ الملائكة يفيد العموم إلا أن قوله تعالى في آخر سورة الأعراف في صفة ملائكة السموات ﴿ وله يسجدون ﴾ [الأعراف : 206] يوجب خروج ملائكة السموات من هذا العموم .

المسألة الثانية :

أن المراد من هذه السجدة وضع الجبهة على الأرض أو التحية ، وعلى التقدير الأول فآدم كان هو المسجود له أو يقال كان المسجود له هو الله تعالى وآدم كان قبلة للسجود ؟

المسألة الثالثة :

أن إبليس هل هو من الملائكة أم لا ؟ وإن لم يكن من الملائكة فأمر الملائكة بالسجود كيف يتناوله ؟

المسألة الرابعة :

هل كان إبليس كافراً من أول الأمر أو يقال إنما كفر في ذلك الوقت ؟

المسألة الخامسة :

الملائكة سجدوا لآدم من أول ما كملت حياته أو بعد ذلك .

المسألة السادسة :

شبهة إبليس في الامتناع من السجود أهو قوله : ﴿ أأسجد لمن خلقت طيناً ﴾ أو غيره .

المسألة السابعة :

دلت هذه الآيات على أن إبليس كان عارفاً بربه ، إلا أنه وقع في الكفر بسبب الكبر والحسد ، ومنهم من أنكر وقال ما عرف الله ألبتة .

المسألة الثامنة :

ما سبب حكمة إمهال إبليس وتسليطه على الخلق بالوسوسة ؟

ولنرجع إلى التفسير فنقول : إنه تعالى حكى في هذه الآية عن إبليس نوعاً واحداً من العمل ونوعين من القول ، أما العمل فهو أنه لم يسجد لآدم وهو المراد من قوله : ﴿ فسجدوا إلا إبليس ﴾ وأما النوعان من القول ؟ فأولهما : قوله : ﴿ أأسجد لمن خلقت طيناً ﴾ وهذا استفهام بمعنى الإنكار معناه أن أصلي أشرف من أصله فوجب أن أكون أنا أشرف منه ، والأشرف يقبح في العقول أمره بخدمة الأدنى .

والنوع الثاني من كلامه : قوله : ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت علي ﴾ قال الزجاج : قوله : ﴿ أرأيتك ﴾ معناه أخبرني ، وقد استقصينا في تفسير هذه الكلمة في سورة الأنعام .

وقوله : ﴿ هذا الذي كرمت علي ﴾ فيه وجوه .

الأول : معناه : أخبرني عن هذا الذي فضلته علي لم فضلته علي وأنا خير منه ؟ ثم اختصر الكلام لكونه مفهوماً .

(14/460)

الثاني : يمكن أن يقال هذا مبتدأ محذوف منه حرف الاستفهام ، والذي مع صلته خبر ، تقديره أخبرني أهذا الذي كرمته علي ! وذلك على وجه الاستصغار والاستحقار ، وإنما حذف حرف الاستفهام لأن حصوله في قوله ﴿ أرأيتك ﴾ أغنى عن تكراره .

والوجه الثالث : أن يكون ﴿ هذا ﴾ مفعول ﴿ أرأيت ﴾ لأن الكاف جاءت لمجرد الخطاب لا محل لها ، كأنه قال على وجه التعجب والإنكار أبصرت أو علمت هذا الذي كرمت علي ، بمعنى لو أبصرته أو علمته لكان يجب أن لا تكرمه علي ، هذا هو حقيقة هذه الكلمة ، ثم قال تعالى حكاية (عنه) ﴿ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : قرأ ابن كثير ﴿ لئن أخرتني إلى يوم القيامة ﴾ بإثبات الياء في الوصل والوقف ، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي بالحذف ونافع وأبو عمرو بإثباته في الوصل دون

الوقف .

البحث الثاني : في الاحتناك قولان ، أحدهما : أنه عبارة عن الأخذ بالكلية ، يقال : أحتنك فلان ما عند فلان من مال إذا استقصاه وأخذه بالكلية ، واحتنك الجراد الزرع إذا أكله بالكلية .

والثاني : أنه من قول العرب حنك الدابة يحنكها ، إذا جعل في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به ، وقال أبو مسلم : الاحتناك افتعال من الحنك كأنهم يملكهم كما يملك الفارس فرسه بلجامه .

فعلى القول الأول معنى الآية لأستأصلنهم بالإغواء .

وعلى القول الثاني لأقودنهم إلى المعاصي كما تقاد الدابة بحبلها .

البحث الثالث : قوله : ﴿ إلا قليلاً ﴾ هم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ [الإسراء : 65] فإن قيل كيف ظن إبليس هذا الظن الصادق بذرية آدم ؟ قلنا فيه وجوه .

الأول : أنه سمع الملائكة يقولون : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ [البقرة : 30] فعرف هذه الأحوال .

الثاني : أنه وسوس إلى آدم فلم يجد له عزماً (1) فقال الظاهر أن أولاده يكونون مثله في ضعف العزم .

---

(1) هذا الوجه يتعارض مع نص الآية الكريمة وهي قول الله تعالى للملائكة المكرمين : فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ [سورة الحجر : 29 ، 30] . فالآية تنص على أن الأمر بالسجود والسجود كان قبل الوسوسة ولو أن الوسوسة كانت قبل السجود ، لترتب عليه أن يكون الملائكة كلهم أجمعون قد سجدوا لآدم بعد المعصية وهو أمر لا يليق ولا يتصور فانتفى هذا الوجه .

(15/460)

الثالث : أنه عرف أنه مركب من قوة بهيمية شهوانية ، وقوة سبعية غضبية ، وقوة وهمية شيطانية ، وقوة عقلية ملكية ، وعرف أن القوى الثلاث أعني الشهوانية والغضبية والوهمية تكون هي المستولية في أول الخلقة ، ثم إن القوة العقلية إنما تكمل في آخر الأمر ، ومتى كان الأمر كذلك كان ما ذكره إبليس لازماً ، واعلم أنه تعالى لما حكى عن إبليس ذلك حكى عن نفسه أنه تعالى قال له اذهب ، وهذا ليس من الذهاب الذي هو نقيض المجيء وإنما معناه أمض لشأنك الذي اخترته ، والمقصود التخلية وتفويض الأمر إليه .

ثم قال : ﴿ فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً ﴾ ونظيره قول موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس ﴾ [طه : 97] فإن قيل

أليس الأولى أن يقال : فإن جهنم جزاؤهم جزاء موفوراً .

ليكون هذا الضمير راجعاً إلى قوله : ﴿ فمن تبعك ﴾ ؟ .

قلنا فيه وجوه .

الأول : التقدير فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤكم ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل جزاؤكم .

والثاني : يجوز أن يكون هذا الخطاب مع الغائبين على طريقة الإلتفات .

والثالث : أنه صلى الله عليه وسلم قال : " من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " فكل معصية توجد فيحصل لإبليس مثل وزر ذلك العامل .

فلما كان إبليس هو الأصل في كل المعاصي صار المخاطب بالوعيد هو إبليس ، ثم قال : ﴿ جزاء موفوراً ﴾ وهذه اللفظة قد تجيء متعدياً ولازماً ، أما المتعدي فيقال : وفرته أفره وفراً (و) وفرة فهو (و) موفر ، قال زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه . . يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

واللازم كقوله : وفر المال يفر وفوراً فهو وافر ، فعلى التقدير الأول : يكون المعنى جزاء موفوراً موفراً .

وعلى الثاني : يكون المعنى جزاء موفوراً وافراً ، وانتصب قوله ﴿ جزاء ﴾ على

المصدر .

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾

(16/460)

اعلم أن إبليس لما طلب من الله الإمهال إلى يوم القيامة لأجل أن يحتنك ذرية آدم فالله تعالى ذكر أشياء .

أولها : قوله : ﴿ اذهب ﴾ [الإسراء : 63] ومعناه : أمهلتك هذه المدة .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ ﴾ يقال أفزه الخوف واستفزه أي أزعجه واستخفه ، وصوته دعاؤه إلى معصية الله تعالى ، وقيل : أراد بصوتك الغناء واللهو واللعب ، ومعنى صيغة الأمر هنا التهديد كما يقال : اجهد جهدك فسترى ما ينزل بك .

وثالثها : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ في قوله : ﴿ وَأَجْلِبْ ﴾ وجوه .

الأول : قال الفراء : إنه من الجلبة وهو الصياح وربما قالوا الجلب كما قالوا الغلبة والغلب والشفقة والشفق ، وقال الليث وأبو عبيدة أجلبوا وجلبوا من الصياح .

الثاني : قال الزجاج في فعل وأفعل ، أجلب على العدو إجلاباً إذا جمع عليه الخيول .

الثالث : قال ابن السكيت يقال هم يجلبون عليه بمعنى أنهم يعينون عليه .

والرابع : روى ثعلب عن ابن الأعرابي أجلب الرجل على الرجل إذا توعده الشر وجمع عليه الجمع ، فقوله : وأجلب عليهم معناه على قول الفراء صح عليهم بخيلك ورجلك ، وعلى قول الزجاج : أجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك وتكون الباء في قوله : بخيلك زائدة على هذا القول ، وعلى قول ابن السكيت معناه أعن عليهم بخيلك ورجلك ومفعول الإجلاب على هذا القول محذوف كأنه يستعين على إغوائهم بخيله ورجله ، وهذا أيضاً يقرب من قول ابن الأعرابي ، واختلفوا في تفسير الخيل والرجل ، فروى أبو الضحى عن ابن عباس أنه قال : "كل راكب أو راجل في معصية الله تعالى فهو من خيل إبليس وجنوده" ، ويدخل فيه كل راكب وماشٍ في معصية الله تعالى ، فعلى هذا التقدير خيله ورجله كل من شاركه في الدعاء إلى المعصية .

والقول الثاني : يحتمل أن يكون لإبليس جند من الشياطين بعضهم راكب وبعضهم راجل .

(17/460)

والقول الثالث : أن المراد منه ضرب المثل كما تقول للرجل المجد في الأمر جئتنا بخيلك ورجلك وهذا الوجه أقرب ، والخيل تقع على الفرسان .

قال عليه الصلاة والسلام : "يا خيل الله اركبي" وقد تقع على الأفراس خاصة ، والمراد

ههنا الأول والرجل جمع راجل كما قالوا تاجر وتجر وصاحب وصحب وراكب وركب ، وروى حفص عن عاصم ورجلك بكسر الجيم وغيره بالضم ، قال أبو زيد يقال رجل ورجل بمعنى واحد ومثله حدث وحدث وندس وندس ، قال ابن الأنباري : أخبرنا ثعلب عن الفراء قال : يقال رجل ورجل ورجلان بمعنى واحد .

والنوع الرابع : من الأشياء التي ذكرها الله تعالى لإبليس قوله : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى الأموال والأولاد ﴾ نقول : أما المشاركة في الأموال فهي عبارة عن كل تصرف قبيح في المال سواء كان ذلك القبيح بسبب أخذه من غير حقه أو وضعه في غير حقه ويدخل فيه الربا والغصب والسرقة والمعاملات الفاسدة ، وهكذا قاله القاضي وهو ضبط حسن وأما المفسرون فقد ذكروا وجوهاً قال قتادة : المشاركة في الأموال هي أن جعلوا بحيرة وسائبة ، وقال عكرمة هي عبارة عن تبتيكهم آذان الأنعام ، وقيل هي أن جعلوا من أموالهم شيئاً لغير الله تعالى كما قال تعالى :

﴿ فَقَالُواْ هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُرَكَائِنَا ﴾ [الأنعام : 136] والأصوب ما قاله القاضي ، وأما المشاركة في الأولاد فذكروا فيه وجوهاً .

أحدها : أنها الدعاء إلى الزنا ، وزيف الأصم ذلك بأن قال إنه لا ذم على الولد ، ويمكن أن يجاب عنه بأن المراد وشاركهم في طريق تحصيل الولد وذلك بالدعاء إلى الزنا .

وثانيها : أن يسموا أولادهم بعبد اللات وعبد العزى .

وثالثها : أن يرغبوا أولادهم في الأديان الباطلة كاليهودية والنصرانية وغيرهما .

ورابعها : إقدامهم على قتل الأولاد ووأدهم .

(18/460)

وخامسها : ترغيبهم في حفظ الأشعار المشتملة على الفحش وترغيبهم في القتل والقتال والحرف الخبيثة الخسيسة والضابط أن يقال إن كل تصرف من المرء في ولده على وجه يؤدي إلى ارتكاب منكر أو قبيح فهو داخل فيه .

والنوع الخامس : من الأشياء التي ذكرها الله تعالى لإبليس في هذه الآية قوله : ﴿ وَعدهم ﴾ .

واعلم أنه لما كان مقصود الشيطان الترغيب في الاعتقاد الباطل والعمل الباطل والتنفير عن الاعتقاد الحق والعمل الحق ، ومعلوم أن الترغيب في الشيء لا يمكن إلا بأن يقرر عنده أنه لا ضرر ألبتة في فعله ومع ذلك فإنه يفيد المنافع العظيمة ، والتنفير عن الشيء لا يمكن إلا بأن يقرر عنده أنه لا فائدة في فعله ، ومع ذلك فيفيد المضار العظيمة ، إذا ثبت هذا فنقول : إن الشيطان إذا دعا إلى المعصية فلا بد وأن يقرر أولاً أنه لا مضرة في فعله ألبتة ، وذلك إنما يمكن إذا قال لا معاد ولا جنة ولا نار ، ولا حياة بعد هذه الحياة ، فبهذا الطريق يقرر عنده

أنه لا مضرة ألبتة في فعل هذه المعاصي ، وإذا فرغ عن هذا المقام قرر عنده أن هذا الفعل يفيد أنواعاً من اللذة والسرور ولا حياة للإنسان في هذه الدنيا إلا به ، فتفويتها غبن وخسران كما قال الشاعر :

خذوا بنصيب من سرور ولذة . . فكل وإن طال المدى يتصرم

فهذا هو طريق الدعوة إلى المعصية ، وأما طريق التنفير عن الطاعة فهو أن يقرر أولاً عنده أنه لا فائدة فيه وتقريره من وجهين .

الأول : أن يقول لا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عذاب .

(19/460)

والثاني : أن هذه العبادات لا فائدة فيها للعابد والمعبود فكانت عبثاً محضاً فبهذين الطريقين يقرر الشيطان عند الإنسان أنه لا فائدة فيها ، وإذا فرغ عن هذا المقام قال إنها توجب التعب والمحنة وذلك أعظم المضار ، فهذه مجامع تلبيس الشيطان ، فقوله :

﴿ وَعِدهم ﴾ يتناول كل هذه الأقسام ، قال المفسرون قوله : ﴿ وَعدهم ﴾ أي بأنه لا جنة ولا نار ، وقال آخرون : ﴿ وَعِدهم ﴾ بتسويف التوبة ، وقال آخرون ﴿ وَعِدهم ﴾ بالأماني الباطلة مثل قوله لآدم :

﴿ مَا نهاكما رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة إِلا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين ﴾ [الأعراف : 20] وقال آخرون : وعدهم بشفاعة الأصنام عند الله تعالى وبالأنساب الشريفة وإيثار العاجل على الآجل ، وبالجملة فهذه الأقسام كثيرة وكلها داخلة في الضبط الذي ذكرناه وإن أردت الاستقصاء في هذا الباب فطالع كتاب ذم الغرور من كتاب إحياء علوم الدين للشيخ الغزالي حتى يحيط عقلك بمجامع تلبيس إبليس ، واعلم أن الله تعالى لما قال : ﴿ وَعِدهم ﴾ أردفه بما يكون زاجراً عن قبول وعده فقال : ﴿ وَمَا يَعِدُهُمْ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ﴾ والسبب فيه أنه إنما يدعو إلى أحد أمور ثلاثة قضاء الشهوة وإمضاء الغضب وطلب الرياسة وعلو الدرجة ولا يدعو ألبتة إلى معرفة الله تعالى ولا إلى خدمته ، وتلك الأشياء الثلاثة معنوية من وجوه كثيرة .

أحدها : أنها في الحقيقة ليست لذات بل هي خلاص عن الآلام .

وثانيها : وإن كانت لذات لكنها لذات خسيسة مشترك فيها بين الكلاب والديدان والخنافس وغيرها .

وثالثها : أنها سريعة الذهاب والانقضاء والانقراض .

ورابعها : أنها لا تحصل إلا بمتاعب كثيرة ومشاق عظيمة .

وخامسها : أن لذات البطن والفرج لا تتم إلا بمزاولة رطوبات عفنة مستقذرة .

وسادسها : أنها غير باقية بل يتبعها الموت والهرم والفقر والحسرة على الفوت والخوف من الموت .

(20/460)

فلما كانت هذه المطالب وإن كانت لذيذة بحسب الظاهر إلا أنها ممزوجة بهذه الآفات العظيمة والمخالفات الجسيمة ، كان الترغيب فيها تغريراً ، ولهذا المعنى قال تعالى :

﴿ وَمَا يَعِدُهُمْ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما قال له افعل ما تقدر عليه فقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ وفيه قولان :

الأول : أن المراد كل عباد الله من المكلفين ، وهذا قول أبي علي الجبائي ، قال والدليل عليه أن الله تعالى إستثنى منه في آيات كثيرة من يتبعه بقوله : ﴿ إِلاَّ مَنِ اتبعك ﴾ [الحجر : 42] ثم استدل بهذا على أنه لا سبيل لإبليس وجنوده على تصريع الناس وتخبيط عقولهم وأنه لا قدرة له إلا على قدر الوسوسة وأكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مّن سلطان إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [إبراهيم : 22] .

وأيضاً فلو قدر على هذه الأعمال لكان يجب أن يتخبط أهل الفضل وأهل العلم دون سائر

الناس ليكون ضرره أعظم .

ثم قال وإنما يزول عقله لا من جهة الشيطان لكن لغلبة الأخلاط الفاسدة ولا يمتنع أن يكون أحد أسباب ذلك المرض اعتقاد أن الشيطان يقدم عليه فيغلب الخوف فيحدث ذلك المرض .

والقول الثاني : أن المراد بقوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِي ﴾ أهل الفضل والعلم والإيمان لما بينا فيما تقدم أن لفظ العباد في القرآن مخصوص بأهل الإيمان ، والدليل عليه أنه قال في آية أخرى : ﴿ إِنَّمَا سلطانه على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ [النحل : 100] .

ثم قال : ﴿ وكفى بِرَبّكَ وَكِيلاً ﴾ وفيه بحثان :

(21/460)

البحث الأول : أنه تعالى لما مكن إبليس من أن يأتي بأقصى ما يقدر عليه في باب الوسوسة ، وكان ذلك سبباً لحصول الخوف الشديد في قلب الإنسان قال : ﴿ وكفى بِرَبّكَ وَكِيلاً ﴾ ومعناه أن الشيطان وإن كان قادراً فالله تعالى أقدر منه وأرحم بعباده من الكل فهو تعالى يدفع عنه كيد الشيطان ويعصمه من إضلاله وإغوائه .

البحث الثاني : هذه الآية تدل على أن المعصوم من عصمه الله تعالى وأن الإنسان لا يمكنه

أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلالة ، لأنه لو كان الإقدام على الحق والاحجام عن الباطل إنما يحصل للإنسان من نفسه لوجب أن يقال : وكفى الإنسان نفسه في الاحتراز عن الشيطان ، فلما لم يقل ذلك بل قال : ﴿ وكفى بِربِّكَ ﴾ علمنا أن الكل من الله ، ولهذا قال المحققون : لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله .

بقي في الآية سؤالان :

السؤال الأول : أن إبليس هل كان عالماً بأن الذي تكلم معه بقوله : ﴿ واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ ﴾ هو إله العالم أو لم يعلم ذلك ؟ فإن علم ذلك ثم إنه تعالى قال : ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاء مَّوفُورًا ﴾ [الإسراء : 63] فكيف لم يصر هذا الوعيد الشديد مانعاً له من المعصية مع أنه سمعه من الله تعالى من غير واسطة ؟ وإن لم يعلم أن هذا القائل هو إله العالم ، فكيف قال : ﴿ قَالَ أَرَءيْتَكَ هذا الذي كَرَّمْتَ عليَّ ﴾ [الإسراء : 62] .

والجواب : لعله كان شاكاً في الكل أو كان يقول في كل قسم ما يخطر بباله على سبيل الظن .

والسؤال الثاني : ما الحكمة في أنه تعالى أنظره إلى يوم القيامة ومكنه من الوسوسة ؟ والحكيم إذا أراد أمراً وعلم أن شيئاً من الأشياء يمنع من حصوله فإنه لا يسعى في تحصيل ذلك المانع .

والجواب : أما مذهبنا فظاهر في هذا الباب ، وأما المعتزلة فلهم قولان : قال الجبائي : علم الله تعالى أن الذين كفروا عند وسوسة إبليس يكفرون بتقدير أن لا يوجد إبليس ، وإذا كان كذلك لم يكن في وجوده مزيد مفسدة ، وقال أبو هاشم : لا يبعد أن يحصل من وجوده مزيد مفسدة ، إلا أنه تعالى أبقاه تشديداً للتكليف على الخلق ليستحقوا بسبب ذلك التشديد مزيد الثواب ، وهذان الوجهان قد ذكرناهما في سورة الأعراف والحجر ، وبالغنا في الكشف عنهما ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 3.9 ﴾

(23/460)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . لأحتنكن ذُرِّيته إلاّ قليلاً ﴾

فيه ستة تأويلات :

أحدها : معناه لأستولين عليهم بالغلبة ، قاله ابن عباس .

الثاني : معناه لأضلنهم بالإغواء .

الثالث : لأستأصلنهم بالإغواء .

الرابع : لأستميلنهم ، قاله الأخفش .

الخامس : لأقودنهم إلى المعاصي كما تقاد الدابة بحنكها إذا شد فيه حبل يجذبها وهو

افتعال من الحنك إشارة إلى حنك الدابة .

السادس : معناه لأقطعنهم إلى المعاصي ، قال الشاعر :

أشْكوا إليك سَنَةً قد أجحفت . . . جهْداً إلى جهدٍ بنا وأضعفت

واحتنكَتْ أَمْوُلنا واجتلفت . . . .

قوله عز وجل : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : واستخف ، وهذا قول الكلبي والفراء .

الثاني : واستجهل .

الثالث : واستذل من استطعت ، قاله مجاهد .

﴿ بصوتك ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنه صوت الغناء واللهو ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه صوت المزمار ، قاله الضحاك .

الثالث : بدعائك إلى معصية الله تعالى وطاعتك ، قاله ابن عباس .

﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجَلِكِ ﴾ والجلب هو السوْق بجلبه من السائق ، وفي المثل :

إذا لم تغلب فأجلب .

وقوله ﴿ بخيلك ورجلك ﴾ أي بكل راكب وماشٍ في معاصي الله تعالى .

﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ أما مشاركتهم في الأموال ففيها أربعة أوجه :

أحدها : أنها الأموال التي أصابوها من غير حلها ، قاله مجاهد .

الثاني : أنها الأموال التي أنفقوها في معاصي الله تعالى ، قاله الحسن .

الثالث : ما كانوا يحرّمونه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، قاله ابن عباس .

الرابع : ما كانوا يذبحون لآلهتهم ، قاله الضحاك .

وأما مشاركتهم في الأولاد ففيها أربعة أوجه :

أحدها : أنهم أولاد الزنى ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه قتل الموؤدة من أولادهم ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه صبغة أولادهم في الكفر حتى هوّدوهم ونصّروهم ، قاله قتادة . الرابع : أنه تسمية أولادهم عبيد آلهتهم كعبد شمس وعبد العزّى وعبد اللات ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(25/460)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) ﴾

(26/460)

المعنى : واذكر إذ قلنا ، وكذلك ﴿ إذ ﴾ [الإسراء : 60] في الآية المتقدمة : هي منصوبة بفعل مضمر ، وقد تقدم في غير موضع ذكر خلق آدم وأمر السجود ، واختلف في قوله ﴿ إلا إبليس ﴾ فقيل هو استثناء منقطع ، لأن ﴿ إبليس ﴾ لم يكن من الملائكة ، وقيل هو متصل لأن إبليس من الملائكة ، وقوله ﴿ طيناً ﴾ يصح أن يكون تمييزاً ، ويصح أن يكون حالاً ، وقاس ﴿ إبليس ﴾ في هذه النازلة فأخطأ ، وذلك أنه رأى الفضيلة لنفسه ، من حيث رأى النار أفضل من الطين ، وجهل أن الفضائل في الأشياء ، إنما تكون حيث خصصها الله تعالى ، ولا ينظر إلى أصولها . وذكر الطبري عن ابن عباس أن إبليس

هو الذي أمره الله فأخذ من الأرض طينة آدم ، والمشهور أنه ملك الموت ، وكفر إبليس في أن جهل صفة العدل من الله تعالى ، حين لحقته الأنفة ، والكبر ، وكان أصل ذلك الحسد ، ولذلك قيل : إن أول ما عصي الله بالحسد ، وظهر ذلك من إبليس ، من قوله ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت علي ﴾ ﴿ أنا خير منه ﴾ [الأعراف : 11] حسبما ذكر الله في آية أخرى . فهذا هو النص بأن فعلك غير مستقيم ، والكاف في قوله ﴿ أرأيتك ﴾ هي كاف خطاب ومبالغة في التنبيه ، لا موضع لها من الإعراب ، فهي زائدة ، ومعنى أرأيت : أتأملت ونحوه ، كأن المخاطب بها ينبه المخاطب ليستجمع لما ينصه عليه بعد ، وقال سيبويه : هي بمعنى أخبرني ، ومثل بقوله أرأيتك زيداً أبو من هو ؟ وقاله الزجاج : في ﴿ آياتنا ﴾ [طه : 56] ولم يمثل ، وقول سيبويه : صحيح حيث يكون بعدها استفهام كمثاله ، وأما في هذه الآية ، فهي كما قلت ، وليست التي ذكر سيبويه رحمه الله ، وقرأ ابن كثير " أخرتني " بياء في الوصل والوقف ، وهذا هو الأصل ، وليس هذا الموضع كالقافية التي يحسن فيها الحذف ، كمثل قول الأعشى : [المتقارب]

فهل يمنعني ارتياد البلاد . . . من حذر الموت أن يأتين

وقرأ نافع وأبو عمرو بالياء في الوصل وبحذفها في الوقف ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي " أخرتن " بحذف الياء في الوصل والوقوف ، وهذا تشبيه بياء قاض ونحوه ، لكونها ياء متطرفة قبلها كسرة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ [هود : 105] وقوله ﴿ لأحتنكن ﴾ معناه : لأميلن ولأجرن ، وهو مأخوذ من تحنيك الدابة ، وهو أن يشد على حنكها بحبل أو غيره فتنقاد ، وألسنة تحتنك المال ، أي تجتره ، ومنه قول الشاعر :

تشكو إليك سنة قد أجحفت . . . جهداً إلى جهة بنا فأضعفت

واحتنكت أموالنا وجلفت . . . ومن هذا الشعر ، قال الطبري ﴿ لأحتنكن ﴾ معناه : لاستأصلن ، وعبر ابن عباس في ذلك ب " لأستولين " ، وقال ابن زيد لأضلن ، وهذا بدل اللفظ لا تفسير ، وحكم إبليس بهذا الحكم على ذرية آدم ، من حيث رأى الخلقة مجوفة مختلفة الأجزاء وما اقترن بها من الشهوات والعوارض ، كالغضب ونحوه ، ثم استثنى القليل ، لعلمه أنه لا بد أن يكون في ذريته من يصلب في طاعة الله ، وقوله : ﴿ اذهب ﴾ وما بعده من الأوامر ، هو صيغة افعل من التهديد ، كقوله تعالى

﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [فصلت : 40] و﴿ تبعك ﴾ معناه في طريق الكفر الذي تدعو إليه ، فالآية في الكفار وفي من ينفذ عليه الوعيد من العصاة وقوله ﴿ جزاء ﴾ مصدر في موضع الحال ، و" الموفور " المكمل ﴿ واستفزز ﴾ معناه استخف واخدع حتى يقع في

إرادتك ، تقول استفزني فلان في كذا إذا خدعك حتى تقع في أمر أراده ، ومن الخفة قيل لولد البقرة فز ومثله قول زهير :

كما استغاث بسيىء فز غيطلة . . . خاف العيون فلم ينظر به الحشك

(28/460)

و " الصوت " هنا : هو الغناء والمزامير والملاهي ، لأنها أصوات كلها مختصة بالمعاصي ، فهي مضافة إلى ﴿ الشيطان ﴾ ، قاله مجاهد ، وقيل معناه : بدعائك إياهم إلى طاعتك ، قال ابن عباس : صوته ، كل داع إلى معصية الله ، والصواب أن يكون الصوت يعم جميع ذلك . وقوله ﴿ وأجلب ﴾ أي هول ؛ والجلبة : الصوت الكثير المختلط الهائل ، وقرأ الحسن : " واجلُب " بوصل الألف وضم اللام . وقوله ﴿ بخيلك ورجلك ﴾ قيل هذا مجاز واستعارة ، بمعنى : اسع سعيك ، وابلغ جهدك ، وقيل معناه : أن له من الجن خيلاً ورجلاً ، قاله قتادة ، وقيل المراد : فرسان الناس ورجالتهم ، المتصرفون في الباطل ، فإنهم كلهم أعوان إبليس على غيرهم ، قاله مجاهد وقرأ الجمهور " ورجْلك " بسكون الجيم ، وهو جمع راجل ، كتاجر وتجر ، وصاحب وصحب ، وشارب وشرب ، وقرأ حفص عن عاصم : " ورجِلك " بكسر الجيم على وزن فعل ، وكذلك قرأ الحسن وأبو عمرو بخلاف

عنه، وهي صفة؛ تقول فلان يمشي رجلاً، غير راكب، ومنه قول الشاعر: [البسيط]

أنا أقاتل عن ديني على فرسي... ولا كذا رجلاً إلا بأصحابي

(29/460)

وقرأ قتادة وعكرمة: "ورجالك". ﴿ وشاركهم في الأموال ﴾ عام: لكل معصية يصنعها الناس بالمال، فإن ذلك المصرف في المعصية، هو خط إبليس، فمن ذلك البحائر وشبهها، ومن ذلك مهر البغي، وثمن الخمر، وحلوان الكاهن، والربا، وغير ذلك مما يوجد في الناس دأباً. وقوله ﴿ والأولاد ﴾ عام لكل ما يصنع في أمر الذرية من المعاصي فمن ذلك الإيلاد بالزنا، ومن ذلك تسميتهم عبد شمس، وعبد الجدي، وأبا الكويفر، وكل اسم مكروه ومن ذلك الوأد الذي كانت العرب تفعله، ومن ذلك صنعهم في أديان الكفر، وغير هذا، وما أدخل النقاش من وطء الجن وأنه تحبل المرأة من الإنس فضعيف كله.

وقوله ﴿ وعدهم ﴾ أي منّهم بما لا يتم لهم، وبأنهم غير مبعوثين، فهذه مشاركة في النفوس، ثم أخبر الله تعالى أنه يعدهم ﴿ غروراً ﴾ منه، لأنه لا يغني عنهم شيئاً، وقوله ﴿ إن عبادي ﴾ الآية، قول من الله تعالى لإبليس، وقوله ﴿ عبادي ﴾ يريد المؤمنين في الكفر، والمتقين في المعاصي، وخصهم باسم العباد، وإن كان اسماً عاماً لجميع الخلق، من

حيث قصد تشريفهم والتنويه بهم ، كما يقول رجل لأحد بنيه إذا رأى منه ما يحب : هذا ابني ، على معنى التنبيه منه والتشريف له ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص : " هذا خالي فليرني امرؤ خاله " و" السلطان " الملكة والتغلب ، وتفسيره هنا بالحجة قلق ، ثم قال تعالى لنبيه عليه السلام : ﴿ وكفى بربك ﴾ يا محمد حافظاً للمؤمنين ، وقيماً على هدايتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(30/460)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) ﴾

قوله تعالى : ﴿ آَسْجُدُ ﴾ قرأه الكوفيون : بهمزتين .

وقرأه الباقون : بهمزة مطوّلة ؛ وهذا استفهام إِنكار ، يعني به : لم أكن لأفعل .

قوله تعالى : ﴿ لمن خلقتَ طيناً ﴾ قال الزجاج : "طيناً" منصوب على وجهين .

أحدهما : التمييز ، المعنى : لمن خلقتَه من طين .

والثاني : على الحال ، المعنى : أنشأتَه في حال كونه من طين .

ولفظ ﴿ قال أرأيتك ﴾ جاء هاهنا بغير حرف عطف ، لأن المعنى : قال آسجد لمن خلقتَ طيناً ، وأرأيتَكَ ، وهي في معنى : أخبرني ، والكاف ذُكرت في المخاطبة توكيداً ، والجواب محذوف ، والمعنى : أَخبِرني عن هذا الذي كرَّمت عليَّ ، لِمَ كرَّمتَهُ عليَّ وقد خلقتَني من نار وخلقتَه من طين ؟ ! فحذف هذا ، لأن في الكلام دليلاً عليه .

قوله تعالى : ﴿ لئن أَخَّرْتَنِ إلى يوم القيامة ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمر : "أخرتني" بياء في الوصل .

ووقف ابن كثير بالياء .

وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، بغير ياء في وصل ولا في وقف .

قوله تعالى : ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لأَستوِلِيَنَّ عليهم ، قاله ابن عباس ، والفراء .

والثاني : لأُضِلَّنَّهم ، قاله ابن زيد .

والثالث : لأَستأصلنَّهم ؛ يقال : احْتَنَكَ الجرادُ ما على الأرض : إذا أكله ؛ واحْتَنَكَ فلانٌ ما عند فلان من العلم : إذا استقصاه ، فالمعنى : لأَقودنَّهم كيف شئتُ ، هذا قول ابن قتيبة .

فإن قيل : من أين عَلِمَ الغيب .

فقد أجبنا عنه في سورة [النساء : 119] .

قوله تعالى : ﴿ إِلا قليلاً ﴾ قال ابن عباس : هم أولياء الله الذين عصمهم .

قوله تعالى : ﴿ قال اذهب ﴾ هذا اللفظ يتضمن إِنظاره ؛ ﴿ فمن تبعك ﴾ ، أي : تبع أمرك منهم ، يعني : ذرية آدم .

والموفور : الموفَّر .

(31/460)

قال ابن قتيبة : يقال : وفَّرتُ ماله عليه ، ووَفَرْتُه ، بالتخفيف والتشديد .

قوله تعالى : ﴿ واستَفْزِز مَن استطعتَ منهم ﴾ قال ابن قتيبة : اسْتَخِفَّ ، ومنه تقول : استَفَزَّني فلان .

وفي المراد بصوته قولان .

أحدهما : أنه كل داعٍ دعا إِلى معصية الله ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه الغناء والمزامير ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ وأَجلِب عليهم ﴾ أي : صِح ﴿ بِخَيْلكَ وَرَجْلِكَ ﴾ واحثثهم عليهم بالإِغراء ؛ يقال : أجلبَ القوم وجلَّبوا : إِذا صاحوا .

وقال الزجاج : المعنى : اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك ؛ فعلى هذا تكون الباء

زائدة .

قال ابن قتيبة : والرَّجْلُ : الرَّجَّالة ؛ يقال : رَاجِلٌ ورَجْل ، مثل تاجر وتَجْر ، وصاحِب وصَحْب .

قال ابن عباس : كلّ خيل تسير في معصية الله ، وكلّ رَجُل يسير في معصية الله .

وقال قتادة : إن له خيلاً ورَجْلاً من الجن والإنس .

وروى حفص عن عاصم : "بخيلك ورَجِلكَ" بكسر الجيم ، وهي قراءة ابن عباس ، وابي رزين ، وأبي عبد الرحمن السُّلَمي .

قال أبو زيد : يقال : رَجُل رَجِلٌ : للراجل ، ويقال : جاءنا حافياً رجِلاً .

وقرأ ابن السميفع ، والجحدري : "بخيلك ورُجَّالك" برفع الراء وتشديد الجيم مفتوحة وبألف بعدها .

وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وعكرمة : "ورِجَالك" بكسر الراء وتخفيف الجيم مع ألف .

قوله تعالى : ﴿ وشاركهم في الأموال ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنها ما كانوا يحرِّمونه من أنعامهم ، رواه عطية عن ابن عباس .

والثاني : الأموال التي أصيبت من حرام ، قاله مجاهد .

والثالث : التي أنفقوها في معاصي الله ، قاله الحسن .

والرابع : ما كانوا يذبحون لآلهتهم ، قاله الضحاك .

فأما مشاركته إِياهم في الأولاد ، ففيها أربعة أقوال .

أحدها : أنهم أولاد الزنا ، رواه عطية عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، والضحاك .

والثاني : الموؤودة من أولادهم ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

(32/460)

والثالث : أنه تسمية أولادهم عبيداً لأوثانهم ، كعبد شمس ، وعبد العزى ، وعبد مناف ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والرابع : ما مَجَّسُوا وهوَّدُوا ونصَّرُوا ، وصبغُوا من أولادهم غير صبغة الإِسلام ، قاله الحسن ، وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ وعِدْهم ﴾ قد ذكرناه في قوله ﴿ يعدهم ويمنّيهم . . . ﴾ إِلى آخر الآية [النساء : 120] .

وهذه الآية لفظها لفظ الأمر ، ومعناها التهديد ، ومثلها في الكلام أن تقول للانسان : اجهد جهدك فسترى ما ينزل بك .

قال الزجاج: إذا تقدم الأمر نهيٌ عما يؤمر به، فمعناه التهديد والوعيد، تقول للرجل: لا تدخُلَنْ هذه الدار؛ فإذا حاول أن يدخلها قلت: ادخُلها وأنت رجل، فلستَ تأمره بدخولها، ولكنك توعِده وتهدِّده، ومثله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [فصِّلت: 40]، وقد نُهُوا أن يعملوا بالمعاصي.

وقال ابن الأنباري: هذا أمر معناه التهديد، تقديره: إن فعلت هذا عاقبناك وعذَّبناك، فنقل إلى لفظ الأمر عن الشرط، كقوله: ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف: 29].

قوله تعالى: ﴿ إِن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ قد شرحناه في [الحجر: 42].

قوله تعالى: ﴿ وكفى بربك وكيلاً ﴾ قال الزجاج: كفى به وكيلاً لأوليائه يعصمهم من القبول من إِبليس. انتهى انتهى. ا هـ ﴿زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(33/460)

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسجدوا لأَدَمَ ﴾

تقدّم ذكر كَوْنِ الشيطان عدوّ الإنسان، فانجرّ الكلام إلى ذكر آدم.

والمعنى : اذكر بتمادي هؤلاء المشركين وعتوّهم على ربهم قصة إبليس حين عصى ربه وأبى السجود ، وقال ما قال ، وهو ما أخبر الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدُوا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ أي من طين .

وهذا استفهام إنكار .

وقد تقدّم القول في خلق آدم في "البقرة ، والأنعام" مستوفًى .

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ ﴾ أي قال إبليس .

والكاف توكيد للمخاطبة .

﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ أي فضّلته عليّ .

ورأى جوهر النار خيراً من جوهر الطين ولم يعلم أن الجواهر متماثلة .

وقد تقدّم هذا في الأعراف .

و"هذا" نصب بأرأيت .

"الذي" نعته .

والإكرام : اسم جامع لكل ما يحمد .

وفي الكلام حذف تقديره : أخبرني عن هذا الذي فضلته عليّ ، لم فضلته وقد خلقتني من نار وخلقته من طين ؟ فحذف لعلم السامع .

وقيل : لا حاجة إلى تقدير الحذف ، أي أترى هذا الذي كرمته عليّ لأفعلن به كذا وكذا .

ومعنى ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ﴾ في قول ابن عباس : لأستولِيَنّ عليهم .

وقاله الفراء .

مجاهد : لأحتوِيَنّهم .

ابن زيد : لأضلنهم .

والمعنى متقارب ، أي لأستأصلنّ ذريته بالإغواء والإضلال ، ولأجتاحنّهم .

وروي عن العرب : احْتَنَك الجراد الزرع إذا ذهب به كلّه .

وقيل : معناه لأسوقنهم حيث شئت وأقودَنّهم حيث أردت .

من قولهم : حنكت الفرس أحنِكه وأحنُكه حنكا إذا جعلت في فيه الرّسن .

وكذلك احتنكه .

والقول الأوّل قريب من هذا ، لأنه إنما يأتي على الزرع بالحَنَك .

وقال الشاعر :

أشكو إليك سَنَةً قد أجحفت . . .

جهدا إلى جهدٍ بنا وأضعفت

واحتنكت أموالنا واجتلفت . . .

﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعني المعصومين ، وهم الذين ذكرهم الله في قوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ وإنما قال إبليس ذلك ظنا ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ أو علم من طبع البشر تركّب الشهوة فيهم ، أو بنى على قول الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ .

وقال الحسن : ظن ذلك لأنه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد له عَزْماً .

قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (63)

قوله تعالى : ﴿ قَالَ اذهب ﴾ هذا أمر إهانة ، أي اجهد جهدك فقد أنظرناك .

﴿ فَمَن تَبِعَكَ ﴾ أي أطاعك من ذرية آدم .

﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً ﴾ أي وافراً ، عن مجاهد وغيره .

وهو نصب على المصدر ، يقال : وفَرته أفِرُه وَفْراً ، ووَفَر المالُ بنفسه يَفِر وفوراً فهو وافر ، فهو لازم ومتعدّ .

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ واستفزز ﴾ أي استزلّ واستخفّ ، وأصله القطع ، ومنه تفزّز الثوب إذا انقطع .

والمعنى استزِلّه بقطعك إياه عن الحق .

واستفزّه الخوف أي استخفه .

وقعد مُسْتَوْفِزاً أي غير مطمئن .

"واستفزز" أمر تعجيز ، أي أنت لا تقدر على إضلال أحد ، وليس لك على أحد سلطان فافعل ما شئت .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ وصوته كلُّ داعٍ يدعو إلى معصية الله تعالى ، عن ابن عباس .

مجاهد : الغناء والمزامير واللهو .

الضحاك : صوت المزمار .

وكان آدم عليه السلام أسكن أولاد هابيل أعلى الجبل ، وولد قابيل أسفله ، وفيهم بنات حسان ، فزَمَر اللعين فلم يتمالكوا أن انحدروا فزَنَوا ، ذكره الغزنِويّ .

(35/460)

وقيل : "بصوتك" بوسوستك .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ أصل الإجلاب السوقُ بجلبة

من السائق ، يقال : أجلب إجلابا .

والجَلَب والجَلَبة : الأصوات ، تقول منه : جلّبوا بالتشديد .

وجَلَب الشيء يجلِبه ويجلُبه جَلَباً وجَلْبا .

وجلبت الشيء إلى نفسي واجتلبته بمعنًى .

وأجلب على العدوّ إجلاباً ، أي جمّع عليهم .

فالمعنى أجمع عليهم كلما تقدر عليه من مكايدك .

وقال أكثر المفسرين : يريد كل راكب وماشٍ في معصية الله تعالى .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس ، فما كان من راكب وماشٍ يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس ورجّالته .

وروى سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس قال : كل خيل سارت في معصية الله ، وكل رجل مَشَتْ في معصية الله ، وكلّ مال أصيب من حرام ، وكلّ ولد بَغِيّة فهو للشيطان .

والرَّجْل جمع راجل ، مثل صُحْب وصاحب .

وقرأ حفص "ورَجِلك" بكسر الجيم وهما لغتان ، يقال : رَجْل ورَجِل بمعنى راجل .

وقرأ عكرمة وقتادة "ورجالك" على الجمع .

الرابعة : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الأموال والأولاد ﴾ أي اجعل لنفسك شركة في ذلك .

فشركته في الأموال إنفاقها في معصية الله ، قاله الحسن .

وقيل : هي التي أصابوها من غير حِلّها ، قاله مجاهد .

ابن عباس : ما كانوا يحرّمونه من البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة والحام .

وقاله قتادة .

الضحاك : ما كانوا يذبحونه لآلهتهم .

والأولاد قيل : هم أولاد الزنى ، قاله مجاهد والضحاك وعبد الله بن عباس .

وعنه أيضاً هو ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم من الجرائم .

وعنه أيضاً : هو تسميتهم عبد الحارث وعبد العُزَّى وعبد اللّات وعبد الشمس ونحوه .

وقيل : هو صِبغة أولادهم في الكفر حتى هوّدوهم ونصّروهم ، كصنع النصارى بأولادهم بالغمس في الماء الذي لهم ، قاله قتادة .

(36/460)

وقول خامس روي عن مجاهد قال : إذا جامع الرجل ولم يُسَمِّ انطوى الجانّ على إحْليله فجامع معه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ وسيأتي .

" وروي من حديث عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فيكم مُغرِّبين قلت : يا رسول الله ، وما المغرّبون ؟ قال : الذين يشترك فيهم الجن "

رواه الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) .

قال الهَرَوِيّ : سموا مغرِّبين لأنه دخل فيهم عرق غريب .

قال الترمذي الحكيم : فللجن مساماة بابن آدم في الأمور والاختلاط ، فمنهم من يتزوّج فيهم ، وكانت بِلْقِيس ملكة سَبَأ أحد أبويها من الجن .

وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ أي مَنّهم الأماني الكاذبة ، وأنه لا قيامة ولا حساب ، وأنه إن كان حساب وجنة ونار فأنتم أوْلى بالجنة من غيركم .

يقوّيه قوله تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [النساء : 120] أي باطلاً .

وقيل "وَعِدْهُمْ" أي عِدهم النُّصرة على من أرادهم بسوء .

وهذا الأمر للشيطان تهدّد ووعيد له .

وقيل : استخفاف به وبمن اتبعه .

السادسة : في الآية ما يدلّ على تحريم المزامير والغناء واللّهو ، لقوله : ﴿ واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم ﴾ على قول مجاهد .

وما كان من صوت الشيطان أو فعلِه وما يستحسنه فواجب التنزه عنه .

وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوت زمّارة فوضع أصبعيه في أذنيه ، وعدل راحلته عن

الطريق وهو يقول : يا نافع ! أتسمع ؟ فأقول نعم ، فمضى حتى قلت له لا ، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق وقال : رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع (صوت زمّارة راع فصنع مثل هذا .

قال علماؤنا : إذا كان هذا فعلهم في حق صوت لا يخرج عن الاعتدال ، فكيف بغناء أهل هذا الزمان وزمرهم .

وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة "لقمان" إن شاء الله تعالى .

(37/460)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾

قال ابن عباس : هم المؤمنون وقد تقدّم الكلام فيه .

﴿ وكفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ أي عاصما من القبول من إبليس ، وحافظا من كيده وسوء مكره . انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(38/460)

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) ﴾

حنك الدابة واحتنكها : جعل في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به ، واحتنك الجراد الأرض أكلت نباتها .

قال :

نشكوا إليك سنة قد أجحفت . . .

جهداً إلى جهد بنا فأضعفت

واحتنكت أموالنا وحنفت ، ومنه ما ذكر سيبويه من قولهم : أحنك الشاتين أي آكلَهما .

استفز الرجل : استخفه ، والفز الخفيف وأصله القطع ومنه تفزز الثوب انقطع ، واستفزني فلان خدعني حتى وقعت في أمر أراده .

وقيل لولد البقرة فز لخفته .

قال الشاعر :

كما استغاث بشيء فز غيطلة . . .

خاف العيون فلم ينظرنه الحشك

الجلبة الصياح قاله أبو عبيدة والفراء .

وقال أبو عبيدة : جلب وأجلب .

وقال الزجاج : أجلب على العدوّ وجمع عليه الخيل .

وقال ابن السكيت : جلب عليه أعان عليه .

وقال ابن الأعرابي : أجلب على الرجل إذا توعده الشر ، وجمع عليه الجمع .

الصوت معروف .

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً قال أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلاّ قليلاً قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴾ .

مناسبة هذه الآية لما قبلها من وجهين .

أحدهما أنه لما نازعوا الرسول عليه السلام في النبوّة واقترحوا عليه الآيات كان ذلك لكبرهم وحسدهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) على ما آتاه الله من النبوّة والدرجة الرفيعة ، فناسب ذكر قصة آدم عليه السلام وإبليس حيث حمله الكبر والحسد على الامتناع من السجود .

والثاني أنه لما قال ﴿ فما يزيدهم إلاّ طغياناً كبيراً ﴾ بين ما سبب هذا الطغيان وهو قول إبليس ﴿ لأحتنكنّ ذريته إلا قليلاً ﴾ وانتصب ﴿ طيناً ﴾ على الحال قاله الزجاج وتبعه الحوفي ، فقال : من الهاء في خلقته المحذوفة ، والعامل ﴿ خلقت ﴾ والزمخشري فقال ﴿ طيناً ﴾ أما من الموصول والعامل فيه ﴿ أأسجد ﴾ على آسجد له وهو طين أي أصله طين ، أو من الراجع إليه من الصلة على آسجد لمن كان في وقت خلقه ﴿ طيناً ﴾ انتهى .

وهذا تفسير معنى .

وقال أبو البقاء : والعامل فيه ﴿ خلقت ﴾ يعني إذا كان حالاً من العائد المحذوف وأجاز الحوفي أن يكون نصباً على حذف من التقدير من طين كما صرح به في قوله ﴿ وخلقته من طين ﴾ وأجاز الزجّاج أيضاً وتبعه ابن عطية أن يكون تمييزاً ولا يظهر كونه تمييزاً وقوله ﴿ أأسجد ﴾ استفهام إنكار وتعجب .

وبين قوله ﴿ آأسجد ﴾ وما قبله كلام محذوف ، وكأن تقديره قال : لم لم تسجد لأدم قال : ﴿ أأسجد ﴾ وبين قوله ﴿ أرأيتك ﴾ وقال آسجد جمل قد ذكرت حيث طولت قصته ، والكاف في ﴿ أرأيتك ﴾ للخطاب وتقدّم الكلام عليها في سورة الأنعام ولا يلحق كاف الخطاب هذه إلاّ إذا كانت بمعنى أخبرني ، وبهذا المعنى قدرها الحوفي وتبعة الزمخشري

وهو قول سيبويه فيها والزجّاج.

قال الحوفي: و﴿ أرأيتك ﴾ بمعنى عرفني وأخبرني، وهذا منصوب بأرأيتك، والمعنى أخبرني عن هذا الذي كرمته عليّ لم كرّمته عليّ وقد خلقتني من نار وخلقته من طين، وحذف هذا لما في الكلام من الدليل عليه.

وقال الزمخشري: الكاف للخطاب و﴿ هذا ﴾ مفعول به، والمعنى أخبرني عن هذا الذي كرمته عليّ أي فضلته لم كرمته عليّ وأنا خير منه، فاختصر الكلام بحذف ذلك ثم ابتدأ فقال: ﴿ لئن أخرتن ﴾.

وقال ابن عطية: والكاف في ﴿ أرأيتك ﴾ حرف خطاب ومبالغة في التنبيه لا موضع لها من الإعراب فهي زائدة، ومعنى أرأيت أتأملت ونحوه كان المخاطب بها ينبه المخاطب ليستجمع لما ينصه عليه بعد.

وقال سيبويه: هي بمعنى أخبرني ومثل بقوله ﴿ أرأيتك ﴾ زيداً أيؤمن هو.

وقاله الزجاج ولم يمثل، وقول سيبويه صحيح حيث يكون بعدها استفهام كمثاله، وأما في هذه الآية فهي كما قلت وليست التي ذكر سيبويه رحمه الله انتهى.

وما ذهب إليه الحوفي والزمخشري في ﴿ أرأيتك ﴾ هنا هو الصحيح ، ولذلك قدر الاستفهام وهو لم كرمته عليّ فقد انعقد من قوله ﴿ هذا الذي كرّمت عليّ ﴾ لم كرمته عليّ جملة من مبتدأ وخبر ، وصار مثل : زيد أيؤمن هو دخلت عليه ﴿ أرأيتك ﴾ فعملت في الأول ، والجملة الاستفهامية في موضع الثاني والمستقر في أرأيت بمعنى أخبرني أن تدخل على جملة ابتدائية يكون الخبر استفهاماً ، فإن صرح به فذلك واضح وإلاّ قدر . وقد أشبعنا الكلام في الأنعام وفي شرح التسهيل .

وقال الفراء : هنا للكاف محل من الإعراب وهو النصب أي أرأيت نفسك قال : وهذا كما تقول أتدبرت آخر أمرك .

فإني صانع فيه كذا ، ثم ابتدأ ﴿ هذا الذي كرمت عليّ ﴾ انتهى .

والرد عليه مذكور في علم النحو ، ولو ذهب ذاهب إلى أن هذا مفعول أول لقوله : ﴿ أرأيتك ﴾ بمعنى أخبرني والثاني الجملة القسمية بعده لانعقادهما مبتدأ وخبراً قبل دخول ﴿ أرأيتك ﴾ لذهب مذهباً حسناً ، إذ لا يكون في الكلام إضمار ، وتلخص من هذا كله الكاف إما في موضع نصب وهذا مبتدأ ، وإما حرف خطاب وهذا مفعول بأرأيت بمعنى محذوف ، وهو الجملة الاستفهامية أو مذكور وهو الجملة القسمية ، ومعنى ﴿ لئن أخرتن ﴾ أي أخرت مماتي وأبقيتني حياً .

وقال ابن عباس : ﴿ لأحتنكنّ ﴾ لأستولين عليهم وقاله الفراء .

وقال ابن زيد لأضلنهم .

(41/460)

وقال الطبري : لأستأصلن وكفر إبليس بجهله صفة العدل من الله حين لحقته الأنفة والكبر ، وظهر ذلك في قوله ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ ﴾ إذ نص على أنه لا ينبغي أن يكرم بالسجود مني من أنا خير منه ، وأقسم إبليس على أنه يحتنك ذرية آدم وعلم ذلك إما بسماعه من الملائكة ، وقد أخبرهم الله به أو استدل على ذلك بقولهم :

﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ أو نظر إليه فتوسم في مخايله أنه ذو شهوة وعوارض كالغضب ونحوه ، ورأى خلقته مجوفة مختلفة الأجزاء ، وقال الحسن : ظن ذلك لأنه وسوس إلى آدم فلم يجد له عزما فظن ذلك بذريته وهذا ليس بظاهر لأن قول ذلك كان قبل وسوسته لآدم في أكل الشجرة ، واستثنى القليل لأنه علم أنه يكون في ذرية آدم من لا يتسلط عليه كما قال ﴿ لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ والأمر بالذهاب ليس على حقيقته من نقيض المجيء ولكن المعنى اذهب لشأنك الذي اخترته ، وعقبه بذكر ما جرّه سوء فعله من جزائه وجزاء اتباعه جهنم ، ولما تقدم اسم غائب وضمير

خطاب غلب الخطاب فقال : ﴿ جزاؤكم ﴾ ويجوز أن يكون ضمير من على سبيل الالتفات والموفور المكمل ووفر متعد كقوله :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه . . .

يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

ولازم تقول وفر المال يفر وفوراً ، وانتصب ﴿ جزاءً ﴾ على المصدر والعامل فيه ﴿ جزاؤكم ﴾ أو يجاوز مضمره أو على الحال الموطئة .

وقيل : تمييز ولا يتعقل ﴿ واستفزز ﴾ معطوف على فاذهب وعطف عليه ما بعده من الأمر وكلها بمعنى التهديد كقوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ ومن في ﴿ من استطعت ﴾ موصولة مفعولة باستفزز .

وقال أبو البقاء : ﴿ من استطعت ﴾ من استفهام في موضع نصب باستطعت ، وهذا ليس بظاهر لأن ﴿ استفزز ﴾ ومفعول ﴿ استطعت ﴾ محذوف تقديره ﴿ من استطعت ﴾ أن تستفزه والصوت هنا الدعاء إلى معصية الله .

وقال مجاهد : الغناء والمزامير واللهو .

وقال الضحاك : صوت المزمار وذكر الغزنوي أن آدم أسكن ولد هابيل أعلى الجبل وولد قابيل أسفله .

وفيهم بنات حسان ، فزمر الشيطان فلم يتمالكوا أن انحدروا واقترنوا .

وقيل : الصوت هنا الوسوسة .

وقرأ الحسن ﴿ واجلب عليهم ﴾ بوصل الألف وضم اللام من جلب ثلاثياً ، والظاهر أن إبليس له خيل ورجالة من الجن جنسه قاله قتادة ، والخيل تطلق على الأفراس حقيقة وعلى أصحابها مجازاً وهم الفرسان ، ومنه : يا خيل الله اركبي ، والباء في ﴿ بخيلك ﴾ قيل زائدة .

وقيل : من الآدميين أضيفوا إليه لانخراطهم في طاعته وكونهم أعوانهم على غيرهم قاله مجاهد .

وقال ابن عطية : وقوله ﴿ بخيلك ورجلك ﴾ .

وقيل : هذا مجاز واستعارة بمعنى اسع سعيك وابلغ جهدك انتهى .

وقال أبو علي ليس للشيطان خيل ولا رجل ولا هو مأمور إنما هذا زجر واستخفاف به كما تقول لمن تهدده اذهب فاصنع ما شئت واستعن بما شئت .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله ؟

قلت : هو كلام وارد مورد التمثيل مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم

فصوت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم ، واجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم انتهى .

وقرأ الجمهور : ﴿ ورجلك ﴾ بفتح الراء وسكون الجيم وهو اسم جمع واحده راجل كركب وراكب ، وقرأ الحسن وأبو عمرو في رواية وحفص بكسر الجيم .

قال صاحب اللوامح بمعنى الرجال .

وقال ابن عطية هي صفة يقال فلان يمشي رَجِلاً أي غير راكب ومنه قول الشاعر :

رجلاً إلاّ بأصحاب . . .

وقال الزمخشري : وقرىء ﴿ ورجلك ﴾ على أن فعلاً بمعنى فاعل نحو تعب وتاعب ، ومعناه وجمعك الرجل وتضم جيمه أيضاً فيكون مثل حدث وحدثُ وندس وندس وأخوات لهما انتهى .

وقرأ قتادة وعكرمة ورجالك .

وقرىء : ورجل لك بضم الراء وتشديد الجيم والمشاركة في الأموال .

قال الضحاك : ما يذبحون لآلهتهم وقتادة البحيرة والسائبة .

وقيل : ما أصيب من مال وحرام .

وقيل : ما جعلوه من أموالهم لغير الله .

وقيل : ما صرف في الزنا والأولى ما أخذ من غير حقه وما وضع في غير حقه والمشاركة في الأولاد .

قال ابن عباس : تسميتهم عبد العزّى وعبد اللات وعبد الشمس وعبد الحارث ، وعنه أيضاً ترغيبهم في الأديان الباطلة كاليهودية والنصرانية .

وعنه أيضاً إقدامهم على قتل الأولاد قال الحسن وقتادة .

ما مجّسوه وهوّدوه ونصروه وصبغوهم غير صبغة الإسلام .

وقال مجاهد : عدم التسمية عند الجماع فالجان ينطوي إذ ذاك على إحليله فيجامع معه .

وقيل ترغيبهم في القتال والقتل وحفظ الشعر المشتمل على الفحش ، والأولى أنه كل تصرّف في الولد يؤدي إلى ارتكاب منكر وقبيح ، وأما وعده فهو الوعد الكاذب كوعدهم أن لا بعث وهذه مشاركة في النفوس .

وقال الزمخشري : ﴿ وعدهم ﴾ المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة والكرامة على الله بالأنساب الشريفة ، وتسويف التوبة ومغفرة الذنوب بدونها ، والاتكال على الرحمة وشفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الكبائر والخروج من النار بعد أن يصيروا حميماً ، وإيثار العاجل على الآجل انتهى .

وهو جار على مذهب المعتزلة في أنه لا تغفر الذنوب بدون التوبة ، وبأنه لا شفاعة في الكبائر ، وبأنه لا يخرج من النار أبداً من دخلها من فاسق مؤمن .

وانتصب ﴿ غروراً ﴾ وهو مصدر على أنه وصف لمصدر محذوف أي وعداً غروراً على الوجوه التي في رجل صوم ، ويحتمل أن يكون مفعولاً من أجله أي ﴿ وما يعدكم ﴾ ويمنيكم ما لا يتم ولا يقع إلاّ لأن يغركم ، والإضافة إليه تعالى في ﴿ إن عبادي ﴾ إضافة تشريف ، والمعنى المختصين بكونهم ﴿ عبادي ﴾ لا يضافون إلى غيري كما قال في مقابلهم أولياؤهم الطاغوت وأولياء الشيطان .

(44/460)

وقيل : ثم صفة محذوفة أي ﴿ إن عبادي ﴾ الصالحين ، ونفى السلطان وهو الحجة والاقتدار على إغوائهم عن الإيمان ويدل على لحظ الصفة قوله ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ وقال الجبائي : ﴿ عبادي ﴾ عام في المكلفين ، ولذلك استثنى منه في أي من اتبعه في قوله ﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ واستدل بهذا على أنه لا سبيل له ولا قدرة على تخليط العقل وإنما قدرته على الوسوسة ، ولو كان له قدرة على ذلك لخبط العلماء ليكون ضرره أتم ، ومعنى ﴿ وكيلاً ﴾ حافظاً لعباده الذين ليس له عليهم سلطان من

إغواء الشيطان أو ﴿ وكيلاً ﴾ يكلون أمورهم إليه فهو حافظهم بتوكلهم عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(45/460)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة ﴾

تذكيرٌ لما جرى منه تعالى من الأمر ومن الملائكة من الامتثال والطاعةِ من غير تردد وتحقيقٌ لمضمون ما سبق من قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبّهِمُ الوسيلة أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ويخافون عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ ويُعلم من حال الملائكةِ وحالِ غيرهم من عيسى وعُزيرٍ عليهما السلام في الطاعة وابتغاءِ الوسيلة ورجاءِ الرحمة ومخافةِ العذاب ، ومن حال إبليسَ حالُ من يعاند الحقَّ ويخالف الأمرَ ، أي واذكر وقت قولِنا لهم : ﴿ اسجدوا لآدَمَ ﴾ تحيةً وتكريماً لما قاله من الفضائل المستوجبة لذلك ﴿ فَسَجَدُواْ ﴾ له من غير تلعثم امتثالاً للأمر وأداءً لحقه عليه الصلاة والسلام ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ وكان داخلاً في زُمرتهم مندرجاً تحت الأمرِ بالسجود ﴿ قَالَ ﴾ أي عندما وُبّخ بقوله عز سلطانه : ﴿ الساجدين قَالَ يإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ وقوله : ﴿ مَا

مَنَعكَ أَن لاَ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ وقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ كما أشير إليه في سورة الحِجر ﴿ أَءسْجُدُ ﴾ وأنا مخلوقٌ من العنصر العالي ﴿ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ نُصب على نزعِ الخافضِ أي من طين ، أو حالٌ من الراجع إلى الموصول أي خلقتَه وهو طينٌ ، أو من نفس الموصول أي أأسجُد له وأصلُه طينٌ ؟ والتعبيرُ عنه عليه الصلاة والسلام بالموصول لتعليل إنكارِه بما في حيز الصلة .

(46/460)

﴿ قَالَ ﴾ أي إبليسُ لكن لا عقيبَ كلامِه المحكي بل بعد الإنظارِ المترتب على استنظاره المتفرِّع على الأمر بخروجه من بين الملأ الأعلى باللعن المؤبّدِ ، وإنما لم يصرّح بذلك اكتفاءً بما ذكر في مواضعَ أُخَرَ ، فإن توسيط (قال) بين كلامَيْ اللعين للإيذان بعدمِ اتصالِ الثاني بالأول وعدمِ ابتنائه عليه بل على غيره كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضآلون ﴾ ﴿ أَرَءيْتَكَ هذا الذى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ الكافُ لتأكيد الخطابِ لا محل لها من الإعراب وهذا مفعولٌ أولٌ والموصولُ صفتُه ، والثاني محذوفٌ لدِلالة الصلةِ عليه أي أخبرني عن هذا الذي كرّمته عليّ بأن أمرْتني بالسجود له لِمَ كَرَّمْتَه عليّ ؟ وقيل : هذا مبتدأٌ حُذف عنه حرفُ الاستفهام والموصولُ مع صلته خبرُه ومقصودُه الاستصغارُ

والاستحقارُ ، أي أخبرْني أهذا مَنْ كرّمته عليّ ؟ وقيل : معنى أرأيَتك أتأمّلت كأن المتكلّم ينبّه المخاطَب على استحضار ما يخاطبه به عقيبه ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ ﴾ حياً ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ كلامٌ مبتدأٌ واللامُ موطّئةٌ للقسم وجوابُه قوله : ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ أي لأستأصِلنّهم ، من قولهم : احتنك الجرادُ الأرضَ إذا جرَد ما عليها أكلاً ، أو لأقودنّهم حيث ما شئتُ ولأستولِينّ عليهم استيلاءً قوياً ، من قولهم : حنكْتَ الدابةَ واحتنكتَها إذا جعلتَ في حنَكها الأسفلِ حبلاً تقودُها به ، وهذا كقوله : ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وإنما عَلِم تسنّي ذلك المطلب له تلقّياً من جهة الملائكةِ عليهم الصلاة والسلام أو استنباطاً من قولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ أو توسّماً من خَلْقه ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ منهم وهم المخْلَصون الذين عصمهم الله تعالى .

(47/460)

﴿ قَالَ اذْهَبْ ﴾ أي امضِ لشأنك الذي اخترتَه وهو طردٌ له وتخليةٌ بينه وبين ما سوّلت له نفسه ﴿ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ﴾ أي جزاؤُك وجزاؤهم فغلّب المخاطَبُ على الغائب رعايةً لحق المتبوعية ﴿ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ أي جزاءً مكملاً من قولهم : فِرْ

لصاحبك عِرضَه فِرَةً ، أي وفّر ، وهو نصب على أنه مصدرٌ مؤكّدٌ لما في قوله : ﴿ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ﴾ من معنى تجازون أو الفعلِ المقدّر أو حالٌ موطئةٌ لقوله موفوراً .

(48/460)

﴿ واستفزز ﴾ أي استخفَّ ﴿ مَنِ استطعت مِنْهُمْ ﴾ أن تستفِزّه ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ بدعائك إلى الفساد ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم ﴾ أي صِحْ عليهم من الجَلَبة وهي الصياح ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ أي بأعوانك وأنصارِك من راكب وراجل من أهل العبث والفساد . قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهدٌ وقتادةُ : إن له خيلاً ورَجِلاً من الجن والإنس فما كان من راكب يقاتل في معصية الله تعالى فهو من خيل إبليسَ ، وما كان من راجل يقاتل في معصية الله تعالى فهو من رَجِل إبليس . والخيلُ الخيّالةُ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " يا خيلَ الله اركبي " والرّجْلُ اسمُ جمعٍ للراجل كالصحْب والركْب ، وقرىء بكسر الجيم وهي قراءةُ حفصٍ على أنه فَعِلٌ بمعنى فاعل كتَعِب وتاعب ، وبضمة مثلُ حدِثٌ وحدُثٌ وندِسٌ وندُسٌ ونظائرِهما أي جمع الراجل ليطابق الخيل ، وقرىء رجالِك ورجالك ويجوز أن يكون استفزازُه بصوته وإجلابه بخيله ورَجْله تمثيلاً لتسلّطه على من يُغويه فكأنه مِغوارٌ أوقع على قوم فصوّت بهم صوتاً يزعجهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم وأجْلَبَ عليهم بجُنده من

خيّالة ورَجّالَة حتى استأصلهم ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى الأموال ﴾ بحملهم على كسبها وجمعِها من الحرام والتصرفِ فيها على ما لا ينبغي ﴿ والأولاد ﴾ بالحث على التوصل إليهم بالأسباب المحرمة والإشراكِ كتسميتهم بعبد العزّى والتضليل بالحمل على الأديان الزائغةِ والحِرَف الذميمة والأفعال القبيحة ﴿ وَعَدّهُمْ ﴾ المواعيدَ الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكالِ على كرامة الآباءِ وتأخيرِ التوبةِ بتطويل الأمل ﴿ وَمَا يَعِدُهُمْ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ﴾ اعتراضٌ لبيان شأنِ مواعيدِه ، والالتفاتُ إلى الغَيبة لتقوية معنى الاعتراضِ مع ما فيه من صرفِ الكلامِ عن خطابه وبيانِ شأنه للناس ، ومن الإشعار بعلية شيطنتِه للغرور وهو تزيينُ الخطأ بما يوهم أنه صواب .

(49/460)

﴿ إِنَّ عِبَادِى ﴾ الإضافةُ للتشريف وهم المخلَصون وفيه أن مَنْ تبعه ليس منهم وأن الإضافةَ لثبوت الحكم في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ أي تسلّطٌ وقدرةٌ على إغوائهم كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ على الذين ءامَنُواْ وعلى رَبّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ﴿ وكفى بِرَبّكَ وَكِيلاً ﴾ لهم يتوكلون عليه ويستمدون به في الخلاص عن إغوائك .
والتعرضُ لوصف الربوبيةِ المنبئةِ عن المالكية المطلقةِ والتصرّفِ الكليِّ مع الإضافة إلى

ضمير إبليسَ للإشعار بكيفية كفايته تعالى لهم، أعني سلْبَ قدرِته على إغوائهم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(50/460)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ﴾

تذكير لما جرى منه تعالى من الأمر ومن الملائكة من الامتثال والطاعة من غير تثبط وتحقيق لمضموم قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبّهِمُ الوسيلة ﴾ [الإسراء : 57] الخ، أما إن كان المراد من الموصول الملائكة فظاهر، واما إن كان غيرهم فللمقايسة، وفيه إشارة إلى عاقبة أولئك الذين عاندوا الحق واقترحوا الآيات وكذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام فإنهم داخلون في الذرية الذين احتنكهم إبليس عليه اللعنة واتبعوه اتباع الظل لذويه دخولاً أولياً ومساركون له في العناد أتم مشاركة حتى قالوا : ﴿ إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء ﴾ [الأنفال : 32] فوجه مناسبة الآية لما قبلها ظاهر، وقيل الوجه مشابهة قريش الذين كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم لابليس في أن كلاً منهما حمله الحسد والكبر على ما صدر منه أي واذكر وقت قولنا للملائكة ﴾

اسجدوا ﴾ تحية وتكريماً له عليه السلام ، وقيل المعنى اجعلواه قبلة سجودكم لله تعالى

﴿ لادَمَ فَسَجَدُواْ ﴾ من غير تلعثم امتثالاً لأمره تعالى ﴿ إِلآَّ إِبْلِيسَ ﴾ لم يكن من

الساجدين وكان معدوداً في عدادهم مندرجاً تحت الأمر بالسجود ﴿ قَالَ ﴾ استئناف

بياني كأنه قيل فما كان منه بعد التخلف ؟ فأجيب بأنه قال أي بعد أن وبخ بما وبخ مما قصه

الله سبحانه في غير هذا الموضع على سبيل الإنكار والتعجب ﴿ ءأَسْجُدُ ﴾ وقد

خلقتني من نار ﴿ أءسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ نصب على نزع الخافض أي من طين كما

صرح به في آية أخرى ، وجوز الزجاج كونه حالا من العائد المحذوف والعامل ﴿ خُلِقَتْ

﴾ فيكون المعنى أأسجد لمن كان في وقت خلقهحالاً من نفس الموصول والعامل حينئذ

﴿ أءسْجُدُ ﴾ على معنى أأسجد له وهو طين أي أصله طين ، قال في الكشف : وهو

أبلغ لأنه مؤيد لمعنى الإنكار وفيه تحقير له عليه السلام وحاشاه بجعله نفس ما كان عليه لم

تزل عنه تلك

الذلة وليس في جعله حالاً من العائد هذه المبالغة ، وأنت تعلم أن الحالية على كل حال

خلاف الظاهر لكون الطين جامداً ولذا أوله بعضهم بمتأصلاً ، وجوز الزجاج أيضاً وتبعه

ابن عطية كونه تمييزاً ولا يظهر ذلك ، وذكر الخلق مع أنه يكفي في المقصود أن يقال : لمن كان من طين أدخل في المقصود مع أنه فيه على ما قيل إيماء إلى علة أخرى وهي أنه مخلوق والسجود إنما هو للخالق تعالى مجده .

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ أي إبليس ، وفي إعادة الفعل بين كلامي اللعين إيذان بعدم اتصال الثاني بالأول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره وقد ذكر ذلك في مواضع أخر أي قال بعد طرده من المحل الأعلى ولعنه واستنظاره وإنظاره ﴿ قَالَ أَرَءيْتَكَ هذا الذى كَرَّمْتَ ﴾ الكاف حرف خطاب مؤكد لمعنى التاء قبله وهو من التأكيد اللغوي فلا محل له من الأعراب ، ورأي علمية فتتعدى إلى مفعولين ﴿ وهذا ﴾ مفعولها الأول والموصول صفته والمفعول الثاني محذوف لدلالة الصلة عليه ، وهذا الإنشاء مجاز عن إنشاء آخر ومن هنا تسمعهم يقولون : المعنى أخبرني عن هذا الذي كرمته على لم كرمته على وأنا أكرم منه ، والعلاقة ما بين العلم والأخبار من السببية والمسببية واللازمية والملزومية ، وجملة لم كرمته واقعة على ما نص عليه أبو حيان موقع المفعول الثاني ، وذهب بعض النحاة إلى أن رأي بصرية فتتعدى إلى واحد واختاره الرضى ، ويجعلون الجملة الاستفهامية المذكورة مستأنفة .

وقال الفراء : الكاف ضمير في محل نصب أي أرأيت نفسك وهو كما تقول : أتدبرت آخر أمرك فإني صانع كذا ، و﴿ هذا الذى كَرَّمْتَ علىّ ﴾ مبتدأ وخبر وقد حذف منه الاستفهام أي أهذا الخ ، وقال بعضهم بهذا إلا أنه جعل الكاف حرف خطاب مؤكد أي أخبرني أهذا من كرمته علي ، وقال ابن عطية : الكاف حرف كما قيل لكن معنى أرأيتك أتأملت كأن المتكلم ينبه المخاطب على استحضار ما يخاطبه به عقيبه ، وكونه بمعنى أخبرني قول سيبويه .

والزجاج وتبعهما الحوفي .

والزمخشري .

وغيرهما ، وزعم ابن عطية أن ذلك حيث يكون استفهام ولا استفهام في الآية .

وأنت تعلم أن المقرر في أرأيت بمعنى أخبرني أن تدخل على جملة ابتدائية يكون الخبر فيها استفهاماً مذكوراً أو مقدراً فمجرد عدم وجوده لا يأبى ذلك .

وأياما كان فاسم الإشارة للتحقير ، والمراد من التكريم التفضيل .

وجملة ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمُ القيامة ﴾ استئناف وابتداء كلام واللام موطئة للقسم وجوابه ﴿ لاحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ .

وفي البحر لو ذهب ذاهب إلا أن هذا مفعول أول لأرأيتك بمعنى أخبرني والمفعول الثاني

الجملة القسمية المذكورة لانعقادهما مبتدأ وخبراً قبل دخول أرأيتك لذهب مذهباً حسناً إذ لا يكون في الكلام على هذا إضمار وهو كما ترى، والمراد من أخرتني أبقيتني حياً أو أخرت موتي، ومعنى ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ لأستولين عليهم استيلاء قوياً من قولهم: حنك الدابة واحتنكها إذا جعل في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به.

وأخرج هذا ابن جرير.

وغيره عن ابن عباس وإليه ذهب الفراء أو لأستأصلنهم وأهلكنهم بالأغواء من قولهم: احتنك الجراد الأرض إذا أهلك نباتها وجرد ما عليها واحتنك فلان مال فلان إذا أخذه وأكله، وعلى ذلك قوله:

نشكو إليك سنة قد أجحفت . . .

جهداً إلى جهد بنا فاضعفت واحتنكت أموالنا وأجلفت

وكأنه مأخوذ من الحنك وهو باطن أعلى الفم من داخل المنقار فهو اشتقاق من اسم عين، واختار هذا الطبري.

والجبائي .

وجماعة ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال يقول لأضلنهم وهو بيان لخلاصة المعنى ، وهذا كقول اللعين ﴿ لأزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأرض وَلأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 39] .

﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ منهم وهو العباد المخلصون الذين جاء استثناؤهم في آية أخرى جعلنا الله تعالى وإياكم منهم .

وعلم اللعين تسنى هذا المطلب له حتى ذكره مؤكداً إما بواسطة التلقي من الملائكة سماعاً وقد أخبرهم الله تعالى به أو رأوه في اللوح المحفوظ أو بواسطة استنباطه من قولهم ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدماء ﴾ [البقرة : 30] مع تقرير الله تعالى له أو بالفراسة لما رأى فيه من قوة الوهم والشهوة والغضب المقتضية لذلك ، ولا يبعد أن يكون استثناء القليل بالفراسة أيضاً وكأنه لما رأى أن المانع من الاستيلاء في القليل مشترك فبينه وبين آدم عليه السلام ذكره من أول الأمر ، وعن الحسن انه ظن ذلك لأنه وسوس إلى آدم وغره حتى كان ما كان فقاس الفرع على الأصل وهو مشكل لأن هذا القول كان قبل الوسوسة التي كان بسببها ما كان ، ومن زعم أنه كان هناك وسوستان فعليه البيان ولا يأتي به حتى يؤب القارظان أو يسجد لآدم عليه السلام الشيطان .

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ الله سبحانه وتعالى : ﴿ اذهب ﴾ ليس المراد به حقيقة الأمر بالذهاب ضد

المجيء بل المراد تخليته وما سولته نفسه إهانة له كما تقول لمن يخالفك : افعل ما تريد ، وقيل : يجوز أن يكون من الذهاب ضد المجيء فمعناه حينئذ كمعنى قوله تعالى : ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [الحجر : 34] وقيل .

(54/460)

هو طرد وتخلية ويلزم على ظاهره الجمع بين الحقيقة والمجاز والقائل ممن ير جوازه ؛ ويدل على أنه ليس المراد منه ضد المجيء تعقيبه بالوعيد في قوله سبحانه : ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ وضل عن الحق ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ﴾ أي جزاؤك وجزاؤهم فغلب المخاطب على الغائب رعاية لحق المتبوعية ، وجوز الزمخشري وتبعه غير واحد أن يكون الخطاب للتابعين على الالتفات من غيبة المظهر إلى الخطاب ، وتعقبه ابن هشام في تذكرته فقال : عندي أنه فاسد لخلو الجواب أو الخبر عن الرابط فإن ضمير الخطاب لا يكون رابطاً ، وأجيب بأنه مؤول بتقدير فيقال لهم : إن جهنم جزاؤكم ، ورد بأنه يخرج حينئذ عن الالتفات ، وقال بعض المحققين : إن ضمير الخطاب إن سلم أنه لا يكون عائداً لا نسلم أنه إذا أريد به الغائب التفاتاً لا يربط به لأنه ليس ما بعد من الربط بالإسم الظاهر فاحفظ .

﴿ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾ أي مكملاً لا يدخر منه شيء كما قال ابن جبير من فر كعد لصاحبك

عرضه فرة أي كمل لصاحبك عرضه ، وعلى ذلك قوله :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه . . .

يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

وجاء وفر لازماً نحو وفر المال يفر وفوراً أي كمل وكثر ، وانتصب ﴿ جَزَاء ﴾ على المصدر باضماء تجزون أو تجازون فإنهما بمعنى وهذا المصدر لهما .

(55/460)

وجوز أبو حيان وغيره كون العامل فيه ﴿ جَزَاؤُكُمْ ﴾ بناء على أن المصدر ينصب المفعول المطلق ، وجوز كونه حالا موطئة لصفتها التي هي حال في الحقيقة ولذا جاءت جامدة كقوله تعالى : ﴿ قُرْءانًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف : 2] ولا حاجة لتقدير ذوي فيه حينئذ وصاحب الحال مفعول تجزونه محذوفاً والعامل الفعل ، وقيل إنه حال من فاعله بتقدير ذوي جزاء ، وقال الطيبي : قيل المعنى ذوي جزاء ليكون حالاً عن ضمير المخاطبين ويكون المصدر عاملاً وإلا فالعامل مفقود ثم قال : الأظهر أنه حال مؤكدة لمضمون الجملة نحو زيد حاتم جواداً ، وفي الكشف أن هذا متعين وليس الأول بالوجه ، ومثله جعله حالاً عن الفاعل ، وقيل هو تمييز ولا يقبل عند ذويه .

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾

﴿ واستفزز ﴾ أي واستخف يقال استفزه إذا استخفه فخدعه وأوقعه فيما أراده منه ،

وأصل معنى الفز القطع ومنه تفزز الثوب إذا انقطع ويقال للخفيف فز ولذا سمي به ولد

البقرة الوحشية كما في قول زهير :

كما استغاث بشيء فز غيطلة . . .

خاف العيون فلم تنظر به الحشك

والواو على ما في البحر للعطف على ﴿ اذهب ﴾ [الإسراء : 63] .

والمراد من الأمر التهديد وكذا من الأوامر الآتية ، ويمنع من إرادة الحقيقة أن الله تعالى لا يأمر

بالفحساء ﴿ مَنِ استطعت ﴾ أي الذي استطعت أن تستفزه ﴿ مِنْهُمْ ﴾ فمن موصول

مفعول ﴿ استفزز ﴾ ومفعول ﴿ فَإِن استطعت ﴾ محذوف هو ما أشرنا إليه .

واختار أبو البقاء كون من استفهامية في موضع نصب باستطعت وهو خلاف الظاهر جداً

ولا داعي إلى ارتكابه ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ أي بدعائك إلى معصية الله تعالى ووسوستك ،

وعبر عن الدعاء بالصوت تحقيراً له حتى كأنه لا معنى له كصوت الحمار .

وأخرج ابن المنذر .

وابن جرير وغيرهما عن مجاهد تفسيره بالغناء والمزامير واللهو والباطل ، وذكر الغزنوي أنه آدم عليه السلام أسكن ولد هابيل أعلى جبل وولد قابيل أسفله وفيهم بنات حسان فزمر الشيطان فلم يتمالكوا أن انحدروا واقترنوا ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم ﴾ أي صح عليهم من جلبة وهي الصياح قاله الفراء وأبو عبيدة ، وذكر أن جلب وأجلب بمعنى .

وقال الزجاج : أجلب على العدو جمع عليه الخيل .

وقال ابن السكيت : جلب عليه أعان عليه ، وقال ابن الأعرابي : أجلب على الرجل إذا توعده الشر وجمع عليه الجمع ، وفسر بعضهم ﴿ أجلب ﴾ هنا باجمع فالباء في قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ مزيدة كما في لا يقرأن بالسور .

وقرأ الحسن ﴿ وَأَجْلِبْ ﴾ بوصل الألف وضم اللام من جلب ثلاثيا ، والخيل يطلق على الأفراس حقيقة ولا واحد له من لفظه ، وقيل إن واحده خائل لاختياله في مشيه وعلى الفرسان مجازاً وهو المراد هنا ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته لأصحابه رضي الله عنهم "يا خيل الله اركبي" والرجل بكسر الجيم فعل بمعنى فاعل فهو صفة كحذر بمعنى حاذر يقال : فلان يمشي رجلاً أي غير راكب .

وقال صاحب اللوامح : هو بمعنى الرجل يعني أنه مفرد أريد به الجمع لأنه المناسب للمقام وما عطف عليه ، وبهذا قرأ حفص .

وأبو عمر في رواية .

والحسن ، وظاهر الآية يقتضي أن للعين خيلا ورجلاً وبه قال جمع فقيل هم من الجن ، وقيل منهم ومن الأنس وهو المروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، ومجاهد .

وقتادة قالوا : إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس فما كان من راكب يقاتل في معصية الله تعالى فهو من خيل إبليس وما كان من راجل يقاتل في معصية الله تعالى فهو من رجل إبليس ، وقال آخرون : ليس للشيطان خيل ولا رجالة وإنما هما كناية عن الأعوان والأتباع من غير ملاحظة لكون بعضهم راكباً وبعضهم ماشياً .

(57/460)

وجوز بعضهم أن يكون استفزازه بصوته واجلابه بخيله ورجله تمثيلاً لتسلطه على من يغويه فكأنه مغواراً وقع على قوم فصوت بهم صوتاً يزعجهم من أماكنهم وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم ، ومراده أن يكون في الكلام استعارة تمثيلية ولا يضر فيها اعتبار مجاز أو كناية في المفردات فلا تغفل .

وقرأ الجمهور ﴿ رجلك ﴾ بفتح الراء وسكون الجيم وهو اسم جمع راجل كركب وراكب لا جمع لغلبة هذا الوزن في المفردات ، وقرىء ﴿ إِلاَّ رَجُلٌ ﴾ بفتح الراء وضم الجيم وهو

مفرد كما في قراءة حفص وقد جاءت ألفاظ من الصفة المشبهة على فعل وفعل كسرا وضما كحدث وندس وغيرهما .

وقرأ عكرمة .

وقتادة ﴿ رجالك ﴾ كنبالك ، وقرىء ﴿ رجالك ﴾ ككفارك وكلاهما جمع رجلان وراجل كما في الكشف ، وفي بعض نسخ الكشاف أنه قرىء ﴿ رجالك ﴾ بفتح الراء وتشديد الجيم على أن أصله رجالة فحذف تاؤه تخفيفاً وهي نسخة ضعيفة ﴿ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى الاموال ﴾ بحملهم على كسبها مما لا ينبغي وصرفها فيما لا ينبغي .

وقيل بحملهم على صرفها في الزنا ، وعن الضحاك بحملهم على الذبح للآلهة ، وعن قتادة بحملهم على تسييب السوائب وبحر البحائر والتعميم أولى ﴿ والاولاد ﴾ بالحث على التوصل إليهم بالأسباب المحرمة وارتكاب ما لا يرضي الله تعالى فيهم .

وأخرج ابن جرير .

وابن وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما المشاركة في الأولاد حملهم على تسميتهم بعبد الحرث .

وعبد شمس ، وفي رواية حملهم على أن يرغبوهم في الأديان الباطلة ويصبغوهم بغير صبغة الإسلام .

وفي أخرى حملهم على تحصيلهم بالزنا ، وأخرى تزيين قتلهم إياهم خشية الإملاق أو العار ،

وقيل حملهم على أن يرغبوهم في القتال وحفظ الشعر المشتمل على الفحش والحرف الخسيسة الخبيثة ، وعن مجاهد أن الرجل إذا لم يسم عند الجماع فالجان ينطوي على احليله فيجامع معه وذلك هي المشاركة في الأولاد ، والأولى ما ذكرنا .

(58/460)

﴿ وَعَدّهُمْ ﴾ المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة ونفع الأنساب الشريفة من لم يطع الله تعالى أصلاً وعدم خلود أحد في النار لمنافاة في ذلك عظم الرحمة وطول أمل البقاء في الدنيا ومن الوعد الكاذب وعده إياهم أنهم إذا ماتوا لا يبعثون وغير ذلك مما لا يحصى كثرة ، ثم هذا من قبيل المشاركة في النفس كما في البحر .

﴿ وَمَا يَعِدُهُمْ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ﴾ اعترض بين ما خوطب به الشيطان لبيان حال مواعيده والالتفات إلى الغيبة لتقوية معنى الاعتراض مع ما فيه من صرف الكلام عن خطابه وبيان حاله للناس ومن الأشعار بعلية شيطنته للغرور وهو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب ؛ ويقال : غر فلاناً إذا أصاب غرته أي غفلته ونال منه ما يريد ، وأصل ذلك على ما قال الراغب من الغر وهو الأثر الظاهر من الشيء ، ونصبه على أنه وصف مصدر محذوف أي وعدا غرورا على الأوجه التي في رجل عدل .

وجوز أن يكون مفعولاً من أجله أي وما يعدهم ويمينهم ما لا يتم ولا يقع إلا لأن يغرهم والأول أظهر .

وذكر الإمام في سبب كون وعد الشيطان غروراً لا غير أنه إنما يدعو إلى أحد ثلاثة أمور .

قضاء الشهوة .

وإمضاء الغضب .

وطلب الرياسة والرفعة ولا يدعو البتة إلى معرفة الله تعالى وخدمته وتلك الأشياء الثلاثة ليست لذائذ في الحقيقة بل دفع آلام وإن سلم أنها لذائذ لكنها خسيسة يشترك فيه الناقص والكامل بل الإنسان والكلب ومع ذلك هي وشيكة الزوال ولا تحصل إلا بمتاعب كثيرة ومشاق عظيمة ويتبعها الموت والهرم واشتغال الباب بالخوف من زوالها والحرص على بقائها ، ولذات البطن والفرج منها لا تتم إلا بمزاولة رطوبات متعفنة مستقذرة فتزيين ذلك لا يكاد يكون إلا بما هو أكذب من دعوى اجتماع النقيضين وهو الغرور .

﴿ إِنَّ عِبَادِى ﴾

الإضافة للتعظيم فتدل على تخصيص العباد بالمخلصين كما وقع التصريح به في الآية الأخرى ولقرينة كون الله تعالى وكيلاً لهم يحميهم من شر لشيطان فإن من هو كذلك لا يكون إلا عبداً مكرماً مختصاً به تعالى ، وكثيراً ما يقال لمن يستولي عليه حب شيء فينقاد له عبد ذلك الشيء ومنه عبد الدينار والدرهم وعبد الخميصة وعبد بطنه ، ومن هنا يقال لمن يتبع الشيطان عبد الشيطان فلا حاجة إلى القول بأن في الكلام صفة محذوفة أي إن عبادي المخلصين .

وزعم الجبائي أن ﴿ عِبَادِى ﴾ عام لجميع المكلفين وليس هناك صفة محذوفة لكن ترك الاستثناء اعتماداً على التصريح به في موضع آخر وليس بشيء ، وفي هذه الإضافة إيذان بعلة ثبوت الحكم في قوله سبحانه :

﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ أي تسلط وقدرة على إغوائهم ، وتأكيد الحكم مع اعتراف الخصم به لمزيد الاعتناء .

﴿ وكفى بِرَبّكَ وَكِيلاً ﴾ لهم يتوكلون عليه جل وعلا ويستمدون منه تعالى في الخلاص عن إغوائك فيحميهم سبحانه منه ، والخطاب في هذه الجملة قيل للشيطان كما في الجملة السابقة ففي التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة والتصرف الكلي مع الإضافة إلى ضميره إشعار بكيفية كفايته تعالى لهم وحمايته إياهم منه أعني سلب قدرته على إغوائهم ، وقل للنبي عليه الصلاة والسلام أو للإنسان كأنه لما بين سبحانه من حال

الشيطان ما يين صار ذلك لحصول الخوف في القلوب فقال سبحانه : ﴿ وكفى بِربّكَ ﴾ أيها النبي أو أيها الإنسان وكيلاً فهو جل جلاله يدفع كيد الشيطان ويحفظ منه ، والقلب يميل إلى عدم كونه خطاباً للشيطان وإن كان في السابق له .

(60/460)

واستدل بالآية على أن المعصوم من عصمه الله تعالى وإن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلال وإلا لقيل وكفى بالإنسان وكيلاً لنفسه ، وهذا وههنا سؤالان ذكرهما الإمام مع جوابيهما ، الأول أن إبليس هل كان عالماً بأن الذي تكلم معه بهذه التهديدات وهو إله العالم أو لم يكن عالماً فإن كان الأول فكيف لم يصر الوعيد الشديد بقوله سبحانه : ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاء مَّوفُورًا ﴾ [الإسراء : 63] مانعاً له من المعصية مع أنه سمعه من الله جل جلاله من غير واسطة ، وإن كان الثاني فكيف قال : ﴿ أَرَءيْتَكَ هذا الذى كَرَّمْتَ ﴾ [الإسراء : 62] والجواب لعله كان شاكاً في الكل وكان يقول في كل قسم ما يخطر بباله على سبيل الظن ، وأقول لا يخفى ما في هذا الجواب .

والحق فيه أنه كان جازماً بأن الذي تكلم معه بذلك هو إله العالم جل وعلا أنه غلبت عليه شقوته التي استعدت لها ذاته فل يصر الوعيد مانعاً له ولذا حين تنصب لهلاكه الحبائل إذا

جاء وقته ويعاين من العذاب ما يعاين وتضيق عليه الأرض بما رحبت فيقال له : اسجد اليوم لآدم عليه السلام لتنجو لا يسجد ويقول : لم أسجد له حياً فكيف أسجد له ميتاً كما ورد في بعض الآثار ، وليس هذا بأعجب من حال الكفار الذين يعذبون يوم القيامة أشد العذاب على كفرهم ويطلبون العود ليؤمنوا حيث أخبر الله تعالى بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه .

(61/460)

وربما يقال : إن اللعين مع هذا الوعيد له أمل بالنجاة ، فقد حكى أنمولانا عبد الله التستري سأل الله تعالى أن يريه إبليس فرآه فسأله هل تطمع في رحمة الله تعالى ؟ فقال : كيف لا أطمع فيها والله سبحانه يقول : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : 156] وأنا شيء من الأشياء فقال التستري : ويلك إن الله تعالى قيد في آخر الآية فقال إبليس له : ويحك ما أجهلك القيد لك لا له ، ولعله يزعم أن آيات الوعيد مطلقاً مقيدة بالمشيئة وإن لم تذكر كما يقوله بعض الأشاعرة في آيات الوعيد للعصاة من المؤمنين .

السؤال الثاني : ما الحكمة في أن الله تعالى أنظره إلى يوم القيامة ومكنه من الوسوسة ؟ والحكيم إذا أراد أمراً وعلم أن له مانعاً يمنع من حصوله لا يسعى في تحصيل ذلك المانع ،

والجواب أما على مذهبنا فظاهر ، وأما المعتزلة فقال الجبائي منهم : إن الله تعالى علم أن الذين يكفرون عند وسوسة إبليس يكفرون بتقدير أن لا يوجد وحينئذ لم يكن في وجوده مزيد مفسدة ، وقال أبو هاشم : لا يبعد أن يحصل من وجوده مزيد مفسدة إلا أنه تعالى أبقاه تشديداً للتكليف على الخلق ليستحقوا بذلك مزيد الثواب .

وأنا أقول : إن إبليس ليس مانعاً مما يريده الله جل مجده وتعالى جده فما شاء الله سبحانه كان وما لم يشأ لم يكن والله تبارك وتعالى خلق الخلق طبق علمه وعلم به طبق ما هو عليه في نفسه فافهم والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(62/460)

وقال الشوكانى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) ﴾

لما ذكر سبحانه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في بلية عظيمة من قومه ومحنة شديدة ، أراد أن يبين أن جميع الأنبياء كانوا كذلك ، حتى أن هذه عادة قديمة ، سنها إبليس اللعين ، وأيضاً لما ذكر أن الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون

رحمته ويخافون عذابه ذكر ها هنا ما يحقق ذلك فقال : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ هذه القصة قد ذكرها الله سبحانه في سبعة مواضع : في البقرة ، والأعراف ، والحجر ، وهذه السورة ، والكهف ، وطه ، وص ، وقد تقدّم تفسيرها مبسوطاً فلنقتصر ها هنا على تفسير ما لم يتقدّم ذكره من الألفاظ ، فقوله : ﴿ طِينًا ﴾ منتصب بنزع الخافض ، أي : من طين ، أو على الحال .

قال الزجاج : المعنى لمن خلقته طيناً ، وهو منصوب على الحال .

﴿ أَرَءَيْتَكَ ﴾ أي : أخبرني عن هذا الذي فضلته عليّ لم فضلته ؟ وقد ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الاعراف : 12] فحذف هذا للعلم به ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ أي : لأستولينّ عليهم بالإغواء والإضلال .

قال الواحدي : أصله من احتناك الجراد الزرع ، وهو أن تستأصله بأحناكها وتفسده ، هذا هو الأصل ، ثم سمي الاستيلاء على الشيء وأخذه كله احتناكاً ؛ وقيل معناه : لأسوقنّهم حيث شئت ، وأقودنّهم حيث أردت ، من قولهم : حنكت الفرس أحنكه حنكاً : إذا جعلت في فيه الرسن ، والمعنى الأوّل أنسب بمعنى هذه الآية ، ومنه قول

الشاعر :

أشكو إليك سنة قد أجحفت . . . جهدا إلى جهد بنا وأضعفت

واحتنكت أموالنا واختلفت . . . أي : استأصلت أموالنا ، واللام في ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ ﴾ هي الموطئة ، وإنما أقسم اللعين هذا القسم على أنه سيفعل بذرية آدم ما ذكره لعلم قد سبق إليه من سمع استرقه ، أو قاله لما ظنه من قوة نفوذ كيده في بني آدم ، وأنه يجري منهم في مجاري الدم ، وأنهم بحيث يروج عندهم كيده وتنفق لديهم وسوسته إلاّ من عصم الله ، وهم المرادون بقوله : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ وفي معنى هذا الاستثناء قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ [سبأ : 20] .

فإنه يفيد أنه قال ما قاله هنا اعتماداً على الظن ، وقيل : إنه استنبط ذلك من قول الملائكة ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ [البقرة : 30] ، وقيل : علم ذلك من طبع البشر لما ركب فيهم من الشهوات ، أو ظنّ ذلك لأنه وسوس لآدم ، فقبل منه ذلك ولم يجد له عزماً ، كما روي عن الحسن .

﴿ قَالَ اذهب فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ أي : أطاعك ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ﴾ أي : إبليس ومن أطاعه ﴿ جَزَاء مَّوْفُورًا ﴾ أي : وافراً مكملاً ، يقال : وفرته أفره وفراً ، ووفر المال

بنفسه يفر وفوراً ، فهو وافر ، فهو مصدر ، ومنه قول زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه . . . يفره ومن لا يتّقي الشتم يشتم

(64/460)

ثم كرّر سبحانه الإمهال لإبليس اللعين فقال : ﴿ واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ أي : استزعج واستخف من استطعت من بني آدم ، يقال : أفزه واستفزه أي : أزعجه واستخفه ، والمعنى : أستخفهم بصوتك داعياً لهم إلى معصية الله ، وقيل : هو الغناء واللهو واللعب والمزامير ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ قال الفراء وأبو عبيدة : أجلب من الجلبة والصياح ، أي : صح عليهم .

وقال الزجاج أي : أجمع عليهم كل ما تقدر من مكايدك .

فالإجلاب : الجمع .

والباء في ﴿ بخيلك ﴾ زائدة .

وقال ابن السكيت : الإجلاب : الإعانة ، والخيل تقع على الفرسان كقوله صلى الله عليه وسلم : "يا خيل الله اركبي" ، وتقع على الأفراس ، والرجل بسكون الجيم : جمع رجل كتاجر وتجر ، وصاحب وصحب .

وقرأ حفص بكسر الجيم على أنه صفة .

قال أبو زيد : يقال : رجل ورجل ، بمعنى راجل ، فالخيل والرجل كناية عن جميع مكايد الشيطان ، أو المراد كل راكب وراجل في معصية الله .

﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى الأموال والأولاد ﴾ أما المشاركة في الأموال ، فهي : كل تصرف فيها يخالف وجه الشرع سواء كان أخذاً من غير حق ، أو وضعاً في غير حق كالغصب والسرقة والربا ، ومن ذلك تبتيك آذان الأنعام وجعلها بحيرة وسائبة ، والمشاركة في الأولاد : دعوى الولد بغير سبب شرعي ، وتحصيله بالزنا وتسميتهم بعبد اللات وعبد العزى ، والإساءة في تربيتهم على وجه يألفون فيه خصال الشر وأفعال السوء ويدخل فيه ما قتلوا من أولادهم خشية إملاق ، ووأد البنات وتصيير أولادهم على الملة الكفرية التي هم عليها ، ومن ذلك مشاركة الشيطان للمجامع إذا لم يسم ، ثم قال : ﴿ وعدهُمْ ﴾ قال الفراء : قل لهم : لا جنة ولا نار .

(65/460)

وقال الزجاج : وعدهم بأنهم لا يبعثون ﴿ وَمَا يَعِدُهُمْ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ﴾ أي : باطلاً ، وأصل الغرور : تزيين الخطأ بما يوهم الصواب ؛ وقيل معناه : وعدهم النصرة على من

خالفهم ، وهذه الأوامر للشيطان من باب التهديد والوعيد الشديد ، وقيل : هي على طريقة الاستخفاف به وبمن تبعه .

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ يعني : عباده المؤمنين كما في غير هذا الموضع من الكتاب العزيز من أن إضافة العباد إليه يراد بها المؤمنون لما في الإضافة من التشريف ، وقيل : المراد جميع العباد بدليل الاستثناء بقوله في غير هذا الموضع ﴿ إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ [الحجر : 42] والمراد بالسلطان : التسلط ﴿ وكفى بِرَبّكَ وَكِيلاً ﴾ يتوكلون عليه ، فهو الذي يدفع عنهم كيد الشيطان ويعصمهم من إغوائه .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال إبليس إن آدم خلق من تراب من طين ، خلق ضعيفاً وإني خلقت من نار ، والنار تحرق كل شيء ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً ﴾ فصدق ظنّه عليهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرّيَّتَهُ ﴾ قال : لأستولينّ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرّيَّتَهُ ﴾ قال : لأحتوينّهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : لأضلّنهم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ مَّوفُورًا ﴾ قال : وافراً .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ قال : صوته : كل داع دعا إلى معصية الله ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ ﴾ قال : كل راكب في معصية الله ﴿ وَرَجِلِكَ ﴾ قال : كل راجل في معصية الله ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى الأموال ﴾ قال : كل مال في معصية الله ﴿ والأولاد ﴾ قال : كل ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم الحرام .

(66/460)

وأخرج الفريابي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه في الآية قال : كل خيل تسير في معصية الله ، وكل مال أخذ بغير حقه ، وكل ولد زنا .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : ﴿ الأموال ﴾ ما كانوا يحرّمون من أنعامهم ﴿ والأولاد ﴾ أولاد الزنا .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : ﴿ الأموال ﴾ البحيرة والسائبة والوصيلة لغير الله ﴿ والأولاد ﴾ سموا عبد الحارث وعبد شمس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(67/460)

وقال القاسمى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾

أي : تحيةً وتكريماً : ﴿ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [ص : 76] .

﴿ قَالَ ﴾ أي : جراءةً على الرب وكفراً به : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ أي : أخبرني عن هذا الذي كرمته عليّ بأن أمرتني بالسجود له ، لِمَ كرمته عليّ ؟ . أو المعنى : أخبرني أهذا الذي كرمته عليّ : ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي : لأعمنّهم وأهلكنّهم بالإغواء ، إلا المخلصين .

(68/460)

﴿ قَالَ اذْهَبْ ﴾ أي : امض لشأنك الذي اخترته : ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُوراً ﴾ أي : جزاءً مكملاً .

﴿ وَاسْتَفْزِزْ ﴾ أي : استخف وأزعج : ﴿ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ ﴾ أي : أن تستفزه فتخدعه : ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ أي : بدعائك إلى الفساد . وعبّر عن الدعاء بالصوت تحقيراً

له حتى كأنه لا معنى له : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ أي : صح عليهم ، من الجلبة (بفتحات) وهي الصياح . و (الخيل) الخيالة ، أي : ركبان الخيل مجازاً . وأصل معنى الخيل الأفراس . (والرّجل) اسم جمع للراجل وهو خلاف الفارس ، والمراد الأعوان والأتباع مطلقاً .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله ؟ .

قلت : هو كلام ورد مورد التمثيل ، مثلت حاله في تسلطه على من يغويه ، بمغوار – بكسر الميم ، الكثير الغارة وهي الحرب والنهب – أوقع على قوم فصوت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم ، ويقلقهم عن مراكزهم . وأجلب عليهم بجنده من خيالة حتى استأصلهم – أي : فالكلام استعارة تمثيلية مركبة ، استعير فيه المجموع والهيئة للمجموع والهيئة . ووجهه ما ذكره من استئصالهم وإهلاكهم ، أو غلبته وتسخيره لهم . وجوّز أن يكون التجوز في المفردات تجوزاً بصوته عن دعائه إلى الشر بالوسوسة ، وبخيله ورجله عن كل راكب وماش من أهل العبث والفساد بإغوائه ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ ﴾ أي : بحمله إياهم على إنفاقها في المعاصي وجمعها من حرام والتصرف فيها تحريماً وتحليلاً بما لا يرضى : ﴿ وَالأَوْلادِ ﴾ أي : بالتفاخر فيهم وتضليلهم بصبغهم غير صبغة الدين ووأدهم ، ونحو ذلك مما يعصى الله بسببه : ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ أي : المواعيد الباطلة والأماني الكاذبة من سلامة

العاقبة ودوام الغلبة : ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ وهو تزيين الباطل بزينة الحق .

(69/460)

﴿ إِنَّ عِبَادِي ﴾ أي : المخلصين : ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ أي : تسلط بالإغواء : ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ أي : كفيلاً لهم يتوكلون عليه ولا يلجؤون في أمورهم إلا إليه . وهو كافيهم .

وقد أشار القاشانِيّ إلى أن الآية تشير إلى انقسام الناس مع الشيطان على أصناف .

وعبارته : تمكن الشيطان من إغواء العباد على أقسام ؛ لأن الاستعدادات متفاوتة . فمن كان ضعيف الاستعداد استفزه . أي : استخفه بصوته ، يكفيه وسوسة وهمس بل هاجس ولمة . ومن كان قوي الاستعداد ، فإن أخلص استعداده عن شوائب الصفات النفسانية ، أو أخلصه الله تعالى عن شوائب الغيرية ، فليس له إلى إغوائه سبيل ، كما قال : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ وإلا فإن كان منغمساً في الشواغل الحسية ، غارزاً رأسه في الأمور الدنيوية ، شاركه في أمواله وأولاده ، بأن يحرضه على إشراكهم بالله في المحبة ، يحبهم كحب الله . ويسول له التمتع بهم ، والتكاثر والتفاخر بوجودهم . ويمنيه

الأماني الكاذبة ويزين عليه الآمال الفارغة . وإن لم ينغمس ، فإن كان عالماً بصيراً بتسويلاته ، أجلب عليه بخيله ورجله . أي : مكر به بأنواع الحيل . وكاده بصنوف الفتن . وأفتى له في تحصيل أنواع الحطام والملاذ بأنها من جملة مصالح المعاش . وغره بالعلم وحمله على الإعجاب ، وأمثال ذلك حتى يصير ممن أضله الله على علم . وإن لم يكن عالماً بل عابداً متنسكاً ، أغواه بالوعد والتمنية . وغرّه بالطاعة والتزكية أيسر ما يكون . انتهى . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 493. 494 ﴾

(70/460)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) ﴾

عطف على جملة ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾ [الإسراء : 60] أي واذكر إذ قلنا للملائكة .

والمقصود من هذا هو تذكير النبي بما لقي الأنبياء قبله من معاندة الأعداء والحسدة من عهد آدم حين حسده إبليس على فضله .

وأنهم لا يَعدمون مع ذلك معترفين بفضلهم وهم خيرة زمانهم كما كانت الملائكة نحو آدم عليه السلام ، وأن كلا الفريقين في كل عصر يمُتّ إلى أحد الفريقين الذي في عهد آدم ، فلفريق الملائكة المؤمنون ولفريق الشيطان الكافرون ، كما أومَأ إليه قوله تعالى : ﴿ قال اذهب فمن تبعك منهم ﴾ [الإسراء : 63] الآية ، ففي ذلك تسلية للنبيء عليه الصلاة والسلام .

فأمْرُ الله نبيئه بأن يذكر ذلك يتضمن تذكيره إياه به ، وذكر النبي ذلك موعظةٌ للناس بحال الفريقين لينظر العاقل أين يضع نفسه .

وتفسير قصة آدم وبيان كلماتها مضى في سورة البقرة وما بعدها .

والاستفهام في أأسجد ﴾ إنكار ، أي لا يكون .

وجملة ﴿ قال أأسجد ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ، لأن استثناء إبليس من حكم السجود لم يفد أكثر من عدم السجود .

وهذا يثير في نفس السامع أن يسأل عن سبب التخلف عن هذا الحكم منه ، فيجاب بما صدر منه حين الاتصاف بعدم السجود أنه عصيان لأمر الله ناشىء عن جهله وغروره .

وقوله : ﴿ طيناً ﴾ حال من اسم الموصول ، أي الذي خلقته في حال كونه طيناً ، فيفيد معنى أنك خلقته من الطين .

وإنما جعل جنس الطين حالاً منه للإشارة إلى غلبة العنصر الترابي عليه لأن ذلك أشد في

تحقيره في نظر إبليس .

وجملة ﴿ قال أرأيتك ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ أأسجد لمن خلقت طيناً ﴾ باعتبار ما تشتمل عليْه من احتقار آدم وتغليط الإرادة من تفضيله .

فقد أعيد إنكار التفضيل بقوله : ﴿ أرأيتك ﴾ المفيد الإنكار .

(71/460)

وعلل الإنكار بإضمار المكر لذريته ، ولذلك فصلت جملة ﴿ قال أرأيتك ﴾ عن جملة ﴿ قال أأسجد ﴾ كما وقع في قوله تعالى : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ﴾ [طه : 120] .

وأرأيتك ﴾ تركيب يفتتح بها الكلام الذي يراد تحقيقه والاهتمام به .

ومعناه : أخبرني عما رأيت ، وهو مركب من همزة استفهام ، و (رأى) التي بمعنى علم وتاء المخاطب المفرد المرفوع ، ثم يزاد على ضمير الخطاب كافُ خطاب تشبه ضمير الخطاب المنصوب بحسب المخاطب واحداً أو متعدداً .

يقال : أرأيتك وأرأيتكم كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ﴾ في سورة [الأنعام : 40] .

وهذه الكاف عند البصريين تأكيد لمعنى الخطاب الذي تفيده تاء الخطاب التي في محل رفع ، وهو يشبه التوكيد اللفظي .

وقال الفراء : الكاف ضمير نصب ، والتركيب : أرأيتَ نفسك .

وهذا أقرب للاستعمال ، ويسوغه أن أفعال الظن والعلم قد تنصب على المفعولية ما هو ضميرُ فاعلها نحو قول طرفة

فما لي أراني وابنَ عمي مالكاً . . .

مَتى أدْنُ منه ينأ عني ويبعَد

أي أرى نفسي .

واسم الإشارة مستعمل في التحقير ، كقوله تعالى : ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ [الأنبياء : 36] .

والمعنى أخبرني عن نيتك أهذا الذي كرمته عليّ بلا وجه .

وجملة لئن أخرتن إلى يوم القيامة ﴾ الخ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً ، وهي جملة قَسَمية ، واللام موطئة للقسم المحذوف مع الشرط ، والخبرُ مستعمل في الدعاء فهو في معنى قوله :

﴿ قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون ﴾ [ص : 79] .

وهذا الكلام صدر من إبليس إعراباً عما في ضميره وإنما شرط التأخير إلى يوم القيامة ليعم بإغوائه جميع أجيال ذرية آدم فلا يكون جيل آمنا من إغوائه .

وصدر ذلك من إبليس عن وجدان ألقي في نفسه صادف مراد الله منه فإن الله لما خلقه قدر له أن يكون عنصر إغواء إلى يوم القيامة وأنه يُغوي كثيراً من البشر ويَسلَم منه قليل منهم .

(72/460)

وإنما اقتصر على إغواء ذرية آدم ولم يذكر إغواءَ آدم وهو أولى بالذكر إذ آدم هو أصل عداوة الشيطان الناشئة عن الحسد من تفضيله عليه إما لأن هذا الكلام قاله بعد أن أغوَى آدم وأخرج من الجنة فقد شفَى غليله منه وبقيت العداوة مسترسلة في ذرية آدم ، قال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو ﴾ [فاطر : 6] .

والاحتناك : وضع الراكب اللجامَ في حنَك الفرس ليركَبه ويَسيّره ، فهو هنا تمثيل لجلب ذرية آدم إلى مراده من الإفساد والإغواء بتسيير الفَرس على حب ما يريد راكبه .

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63) ﴾

جواب من الله تعالى عن سؤال إبليس التأخير إلى يوم القيامة ، ولذلك فصلت جملة ﴿ قال ﴾ على طريقة المحاورات التي ذكرناها عند قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها ﴾ [البقرة : 30] .

والذهاب ليس مراداً به الانصراف بل هو مستعمل في الاستمرار على العمل ، أي امض لشأنك الذي نويته .

وصيغة الأمر مستعملة في التسوية وهو كقول النبهاني من شعراء الحماسة :

فإن كنتَ سيدنا سُدتَنا

وإن كنتَ للخال فاذْهَبْ فخَلْ . . .

وقوله : فمن تبعك منهم ﴾ تفريع على التسوية والزجر كقوله تعالى : ﴿ قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس ﴾ [طه : 97] .

والجزاء : مصدر جزاه على عمل ، أي أعطاه عن عمله عوضاً .

وهو هنا بمعنى اسم المفعول كالخلق بمعنى المخلوق .

والموفور : اسم مفعول من وفره إذا كثّره .

وأعيد جزاء ﴾ للتأكيد ، اهتماماً وفصاحةً ، كقوله : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً ﴾ [يوسف : 2] ، ولأنه أحسن في جريان وصف الموفور على موصوف متصل به دون فصل .

وأصل الكلام : فإن جهنم جزاؤكم موفوراً .

فانتصاب جزاء ﴾ على الحال الموطئة ، و ﴿ موفوراً ﴾ صفة له ، وهو الحال في المعنى ،

أي جزاء غير منقوص .

والاستفزاز : طلب الفَزّ ، وهو الخفة والانزعاج وترك التثاقل .

(73/460)

والسين والتاء فيه للجَعل الناشىء عن شدة الطلب والحث الذي هو أصل معنى السين والتاء ، أي استخفهم وأزعجهم .

والصوت : يطلق على الكلام كثيراً ، لأن الكلام صوت من الفم .

واستعير هنا لإلقاء الوسوسة في نفوس الناس .

ويجوز أن يكون مستعملاً هنا تمثيلاً لحالة إبليس بحال قائد الجيش فيكون متصلاً بقوله : ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ﴾ كما سيأتي .

والإجْلاب : جَمْع الجيش وسوقه ، مشتق من الجَلَبَة بفتحتين ، وهي الصياح ، لأن قائد الجيش إذا أراد جمع الجيش نادى فيهم للنفير أو للغارة والهجوم .

والخيل : اسم جمع الفَرس .

والمراد به عند ذكر ما يدل على الجيش الفرسان .

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " يا خيلَ الله اركبي " وهو تمثيل لحال صرف قوته

ومقدرته على الإضلال بحال قائد الجيش يجمع فرسانه ورجالته.

.

ولما كان قائد الجيش ينادي في الجيش عند الأمر بالغارة جاز أن يكون قوله: ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ من جملة هذا التمثيل.

والرّجْل: اسم جمع الرجال كصحب.

وقد كانت جيوش العرب مؤلفة من رجالة يقاتلون بالسيوف ومن كتائب فرسان يقاتلون بنضح النبال، فإذا التحموا اجتلدوا بالسيوف جميعاً.

قال أنيْف بن زَبان النّبْهاني:

وتحت نحور الخيل حرشف رَجْلة

تتاح لحبات القلوب نبالها . . .

ثم قال:

فلما التقينا بيّن السيفُ بيننا

لسائلةٍ عنا حَفِيّ سؤالُها . . .

والمعنى: أجْمِع لمن اتبعك من ذرية آدم وسائلَ الفتنة والوسوسة لإضلالهم.

فجعلت وسائل الوسوسة بتزيين المفاسد وتفظيع المصالح كاختلاف أصناف الجيش،

فهذا تمثيل حال الشيطان وحال متبعيه من ذرية آدم بحال من يغزو قوماً بجيش عظيم من

فرسان ورجالة.

وقرأ حفص عن عاصم ﴿ ورجلك ﴾ بكسر الجيم، وهو لغة في رَجُل مضموم الجيم،

وهو الواحد من الرجال.

والمراد الجنس.

والمعنى: بخيلك ورجالك، أي الفرسان والمشاة.

والباء في ﴿ بخيلك ﴾ إما لتأكيد لصوق الفعل لمفعوله فهي لمجرد التأكيد.

ومجرورها مفعول في المعنى لفعل ﴿ أجلب ﴾ مثل ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6]؛ وإما لتضمين فعل أجلب ﴾ معنى (اغزُهم) فيكون الفعل مضمناً معنى الفعل اللازم وتكون الباء للمصاحبة.

والمشاركة في الأموال: أن يكون للشيطان نصيب في أموالهم وهي أنعامهم وزروعهم إذ سول لهم أن يجعلوا نصيباً في النتاج والحرث للأصنام.

وهي من مصارف الشيطان لأن الشيطان هو المسول للناس باتخاذها، قال تعالى: ﴿ وجعلوا لله ما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾ [

الأنعام : 136] .

وأما مشاركة الأولاد فهي أن يكون للشيطان نصيب في أحوال أولادهم مثل تسويله لهم أن يئدوا أولادهم وأن يستولدوهم من الزنى ، وأن يُسمّوهم بعبدة الأصنام ، كقولهم : عبد العُزى ، وعبد اللات ، وزيد مناة ، ويكون انتسابه إلى ذلك الصنم .

ومعنى ﴿ عِدْهُمْ ﴾ أعطهم المواعيد بحصول ما يرغبونه كما يسول لهم بأنهم إن جعلوا أولادهم للأصنام سلِم الآباء من الثكل والأولادُ من الأمراض ، ويسول لهم أن الأصنام تشفع لهم عند الله في الدنيا وتضمن لهم النصر على الأعداء ، كما قال أبو سفيان يوم أحُد "أعْلُ هبل" .

ومنه وعدهم بأنهم لا يخشون عذاباً بعد الموت لإنكار البعث ، ووعد العصاة بحصول اللذات المطلوبة من المعاصي مثل الزنى والسرقة والخمر والمقامرة .

وحذف مفعول ﴿ وعدهم ﴾ للتعميم في الموعود به .

والمقام دال على أن المقصود أن يعدهم بما يرغبون لأن العدة هي التزام إعطاء المرغوب .

وسماه وعداً لأنه يوهمهم حصوله فيما يستقبل فلا يزالون ينتظرونه كشأن الكذاب أن يحترز عن الإخبار بالعاجل لقرب افتضاحه فيجعل مواعيده كلها للمستقبل .

ولذلك اعترض بجملة ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ .

والغرور : إظهار الشيء المكروه في صورة المحبوب الحسن .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ﴾ في سورة [آل عمران : 196] ، وقوله : ﴿ زخرف القول غرورا ﴾ في سورة [الأنعام : 112] .

والمعنى : أن ما سوله لهم الشيطان في حصول المرغوب إما باطل لا يقع ، مثل ما يسوله للناس من العقائد الفاسدة وكونه غرورا لأنه إظهار لما يقع في صورة الواقع فهو تلبيس ؛ وإما حاصل لكنه مكروه غير محمود بالعاقبة ، مثل ما يسوله للناس من قضاء دواعي الغضب والشهوة ومحبة العاجل دون تفكير في الآجل ، وكل ذلك لا يخلو عن مقارنة الأمر المكروه أو كونه آيلاً إليه بالإضرار .

وقد بسط هذا الغزالي في كتاب الغرور من كتاب إحياء علوم الدين .

وإظهار اسم الشيطان في قوله : وما يعدهم الشيطان ﴾ دون أن يؤتى بضميره المستتر لأن هذا الاعتراض جملة مستقلة فلو كان فيها ضمير عائد إلى ما في جملةٍ أخرى لكان في النثر شبه عيب التضمين في الشعر ، ولأن هذه الجملة جارية مجرى المثل فلا يحسن اشتمالها على ضمير ليس من أجزائها .

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (65) ﴾

وجملة ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ من تمام الكلام المحكي بـ ﴿ قال اذهب ﴾ [الإسراء : 63] .

وهي جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن قوله : ﴿ فمن تبعك منهم ﴾ [الإسراء : 63] وقوله : ﴿ واستفزز من استطعت منهم ﴾ [الإسراء : 64] ، فإن مفهوم ﴿ من تبعك ﴾ و ﴿ من استطعت ﴾ [الإسراء : 64] ذرّية من قبيل مفهوم الصفة فيفيد أن فريقاً من درية آدم لا يتبع إبليس فلا يحتنكه .

وهذا المفهوم يفيد أن الله قد عصم أو حفظ هذا الفريق من الشيطان ، وذلك يثير سؤالاً في خاطر إبليس ليعلم الحائل بينه وبين ذلك الفريق بعد أن علم في نفسه علماً إجمالياً أن فريقاً لا يحتنكه لقوله : ﴿ لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ [الإسراء : 62] .

فوقعت الإشارة إلى تعيين هذا الفريق بالوصف وبالسبب .

(76/460)

فأما الوصف ففي قوله : عبادي ﴾ المفيد أنهم تمحضوا لعبودية الله تعالى كما تدل عليه الإضافة ، فعلم أن من عبدوا الأصنام والجن وأعرضوا عن عبودية الله تعالى ليسوا من أولئك .

وأما السبب ففي قوله : ﴿ وكفى بربك وكيلاً ﴾ المفيد أنهم توكلوا على الله واستعاذوا به من الشيطان ، فكان خير وكيل لهم إذ حاطهم من الشيطان وحفظهم منه .

وفي هذا التوكل مراتب من الانفلات عن احتناك الشيطان ، وهي مراتب المؤمنين من الأخذ بطاعة الله كما هو الحق عند أهل السنّة .

فالسلطان المنفي في قوله : ﴿ ليس لك عليهم سلطان ﴾ هو الحكم المستمر بحيث يكونون رعيته ومن جنده .

وأما غيرهم فقد يستهويهم الشيطان ولكنهم لا يلبثون أن يثوبوا إلى الصالحات ، وكفاك من ذلك دوام توحيدهم لله ، وتصديقهم رسوله ، واعتبارهم أنفسهم عباداً لله متطلبين شكر نعمته ، فشتان بينهم وبين أهل الشرك وإن سخفت في شأنهم عقيدةُ أهل الاعتزال .

وقد تقدم معنى هذا عند قوله تعالى : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ في سورة [النحل : 99 100] .

فالمؤمن لا يتولى الشيطانَ أبداً ولكنه قد ينخدع لوسواسه ، وهو مع ذلك يلعنه فيما أوقعه فيه من الكبائر ، وبمقدار ذلك الانخداع يقترب من سلطانه .

وهذا معنى قول النبي في خطبة حجة الوداع : إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في بلدكم هذا ولكنه قد رضي بما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

فجملة وكفى بربك وكيلاً ﴾ يجوز أن تكون تكملة لتوبيخ الشيطان ، فيكون كاف الخطاب ضمير الشيطان تسجيلاً عليه بأنه عبدُ الله ، ويجوز أن تكون معترضة في آخر الكلام فتكون كاف الخطاب ضمير النبي صلى الله عليه وسلم تقريباً للنبيء بالإضافة إلى ضمير الله .

ومآل المعنى على الوجهين واحد وإن اختلف الاعتبار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(77/460)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) ﴾

قوله تعالى في هذه الآية عن إبليس : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ يدل فيه إنكار إبليس لسجود بهمزة الأنكار على إبائه واستكباره عن السجود لمخلوق من طين ، وصرح بهذا الإباء والاستكبار في مواضع أخر . فصرح بهما معاً " في البقرة " في قوله ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبى واستكبر وكَانَ مِنَ الكافرين ﴾ [البقرة : 34] وصرح بإبائه " في الحجر " بقوله ﴿ إِلَّآ

إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر : 31] ، وباستكباره " في ص " بقوله ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [ص : 74] وبين سبب استكباره بقوله ﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص : 76] كما تقدم إيضاحه " في البقرة " وقوله : ﴿ طِيناً ﴾ حال . اي لمن خلقته في حال كونه طيناً . وتجويز الزمخشري كونه حالاً من نفس الموصول غير ظاهر عندي . وقيل : منصوب بنزع الخافض . أي من طين . وقيل : تميز ، وهو أضعفها . والعلم عند الله تعالى .

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (62)

(78/460)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن إبليس اللعين قال له ﴿ أَرَأَيْتَكَ ﴾ أي أخبرني : هذا الذي كرمته علي فأمرتني بالسجود له وهو آدم . أي لم كرمته علي وأنا خير منه ! والكاف في ﴿ أَرَأَيْتَكَ ﴾ حرف خطاب ، وهذا مفعول به لأرأيت . والمعنى : أخبرني . وقيل : إن الكاف مفعول به ، و " هذا " مبتدأ ، وهو قول ضعيف . وقوله ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ قال ابن عباس : لأستولين عليهم ، وقاله الفراء . وقال مجاهد : لأحتوينهم . وقال

ابن زيد : لأضلنهم . قال القرطبي : والمعنى متقارب . أي لأستاصلنهم بالإغواء والإضلال ، ولأجتاحنهم .

قال مقيده عفا الله عنه : الذي يظهر لي في معنى الآية – أن المراد بقوله ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ اي لأقودنهم إلى ما أشاء . من قوله العرب : احتنكت الفرس : إذا جعلت الرسن في حنكه لتقوده حيث شئت . تقول العرب : حنكت الفرس أحنكه (من باب ضرب ونصر) واحتنكته : إذا جعلت فيه الرسن . لأن الرسن يكون على حنكه . وقول العرب : احتنك الجراد الأرض : أي أكل ما عليها من هذا القبيل . لأنه يأكل بأفواهه ، والحنك حول الفم . هذا هو أصل الاستعمال في الظاهر . فالاشتقاق في المادة من الحنك ، وإن كان يستعمل في الإهلاك مطلقاً والاستئصال . كقول الراجز :

أشكو إليك سنة قد أجحفت . . . جهداً إلى جهج بنا وأضعفت

واحتنكت أموالنا واجتلفت . . . وهذا الذي ذكر جل وعلا عن إبليس في هذه الآية من قوله ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ الآية ، بينه أيضاً في مواضع أخر من كتابه . كقوله ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : 16–17] ، وقوله : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 82] ، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه " في سورة النساء " وغيرها .

وقوله في هذه الآية ﴿ إِلَّا قَلِيلا ﴾ بين المراد بهذا القليل في مواضع أخر . كقوله : ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [الحجر : 39-40] ، وقوله : ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأرض وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [الحجر : 39-40] كما تقدم إيضاحه .

وقول إبليس في هذه الآية . ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ الآية . قاله ظناً منه أنه سيقع وقد تحقق له هذا الظن . كما قال تعالى : [سبأ : 20] .

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63) ﴾

قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة : ﴿ قَالَ اذهب ﴾ هذا أمر إهانة . اي اجهد جهدك ، فقد أنظرناك ﴿ فَمَن تَبِعَكَ ﴾ أي أطاعك من ذرية آدم ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً ﴾ أي وافراً . عن مجاهد وغيره . وقال الزمخشري وأبو حيان : ﴿ اذهب ﴾ ليس من الذهاب الذي هو نقيض المجيء ، وإنما معناه : امض لشأنك الذي اخترته . وعقبه بذكر ما جره سوء اختياره في قوله ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً ﴾ .

وهذا الوعيد الذي أوعبد به إبليس ومن تبعه في هذه الآية الكريمة بينه أيضاً في مواضع أخر . كقوله : ﴿ قَالَ فالحق والحق أَقُولُ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 84-85] ، وقوله : ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ والغاوون وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ [الشعراء : 94-95] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ جَزَآءً ﴾ مفعول مطلق منصوب بالمصدر قبله . على حد قول ابن مالك في الخلاصة :

بمثله أو فعل أو وصف نصب . . . وكونه أصلاً لهذين انتخب

والذي يظهر لي : أن قول من قال إن " موفوراً " بمعني وافر لا داعي له . بل " موفوراً " اسم مفعول على بابه .

من قولهم : وفر الشيء يفره ، فالفاعل وافر ، والمفعول موفور . ومنه قول زهير :

ومن يجعل المعرو من دون عرضه . . . يفره ومن لا يتق اشتم يشتم

وعليه : فالمعنى جزاء مكملاً متمماً . وتستعمل هذه المادة لازمة أيضاً تقول : وفر ماله فهو وافر . أي كثير . وقوله " موفوراً " نعت للمصدر قبله كما هو واضح ، والعلم عند الله

تعالى .

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة : هذا أمر قدري . كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ [مريم : 83] أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً ، وتسوقهم إليها سوقاً انتهى .

قال مقيدة عفا الله عنه : الذي يظهر لي أن صيغ الأمر في قوله ﴿ واستفزز ﴾ ، وقوله ﴿ وَأَجْلِبْ ﴾ ، وقوله ﴿ وَشَارِكْهُمْ ﴾ إنما هي للتهديد ، اي افعل ذلك فسترى عاقبته الوخيمة . كقوله ﴿ إعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت : 40] وبهذا جزم أبو حيان " في البحر " ، وهو واضح كما ترى . وقوله ﴿ واستفزز ﴾ أي استخفف من استطعت أن تستفزه منهم . فالمفعول محذوف لدلالة المقام عليه . والاستفزاز : الاستخفاف . ورجل فز : أي خفيف . ومنه قيل لولد البقرة : فزز لخفة حركته . ومنه قول زهير :

كما استغاث بسيىء فز غليطة . . . خاف العيون ولم ينظر به الحشك

" والسيىء " في بيت زهير بالسين المهملة مفتوحة بعدها ياء ساكنة وآخره همز : اللبن الذي يكون في أطراف الأخلاف قبل نزول الدرة . والحشك اصله السكون . لأنه مصدر حشكت الدرة : إذا امتلأت ، وإنما حركه زهير للوزن . والغليظة هنا : بقرة الوحش ذات اللبن . وقوله ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ قال مجاهد : هو اللهو والغناء والمزامير . أي استخف من استطعت أن تستخفه منهم باللهم والغناء والمزامير . وقال ابن عباس : صوته يشمل كل داع دعا إلى معصية . لأن ذلك إنما وقع طاعة له . وقيل ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ : أي وسوستك . وقوله ﴿ وَأَجْلِبْ ﴾ اصل الإجلاب : السوق بجلبة من السائق . والجلبة : الأصوات . تقول العرب : أجلب على فرسه ، وجلب عليه : إذا صاح به من خلف واستحثه للسبق . والخي تطلق على نفس الأفراس ، وعلى الفوارس الراكبين عليها ، وهو المراد في الآية . والرجل : جمع راجل ، كما قدمنا أن التحقيق جمع الفاعل وصفا على فعل بفتح فسكون وأوضحنا أمثلته بكثرة ، واخترنا أنه جمع موزد أغفله الصرفيون : إذ ليست فعل (بفتح فسكون) عندهم من صيغ الجموع . فيقولون فيما ورد من ذلك كراجل ورجل ، وصاحب وصحب ، وراكب وركب ، وشارب وشرب – إنه اسم جمع لا جمع . وهو خلاف التحقيق .

وقرأ حفص عن عاصم " ورجلك " بكسر الجيم لغة في الرجل جمع راجل .

وقال الزمخشري : هذهى القراءة على أن فعلاً بمعنى فاعل ، نحو تعب وتاعب ومعناه

وجمعك الرجل اه أي الماشيين على أرجلهم .

﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الأموال والأولاد ﴾ .

أما مشراركته لهم في الأموال – فعلى أصناف : (منها) – ما حرموا على أنفسهم من أموالهم طاعة له .

كالبحائر والسوائب ونحو ذلك ، وما يأمرهم به من إنفاق اللأموال في معصية الله تعالى ، وما يأمرهم به من اكتساب الأموال بالطرق المحرمة شرعاً كالربا والغصب وأنواع الخيانات .

لأنهم إنما فعلو ذلك طاعة له .

أما مشاركته لهم في الأولاد فعلى اصناف أيضاً :

منها – قتلهم بعض أولادهم طاعة له .

(82/460)

ومنها – أنهم يمجسون أولادهم ويهودونهم وينصرونهم طاعة له وموالاة .

ومنها – تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد العزى ونحو ذلك ، لأنهم بذلك سموا أولادهم عبيداً لغير الله طاعة له . ومن ذلك أولاد الزنى . لأنهم إنما تسببوا في وجودهم بارتكاب الفاحشة طاعة له إلى غير ذلك .

فإذا عرفت هذا - فاعلم أن الله قد بين في آيات من كتابه بعض ما تضمنته هذه الآيو من مشاركة الشيطان لهم في الأموال والأولاد ، كقوله : ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين قتلوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ الله افتراء عَلَى الله قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام : 140] فقتلهم اولادهم المذكور في هذه الآية طاعة للشيطان مشاركة منه لهم في أولادهم ايضاً . وكقوله ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً فَقَالُواْ هذا للَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ [الأنعام : 136] الآية ، وكقوله : ﴿ وَقَالُواْ هذه أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَآ إِلاَّ مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسم الله عَلَيْهَا افتراء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : 138] ، وقوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّآ أَنزَلَ الله لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 59] ، غلى غير ذلك من الآيات . ومن الآحاديث المبينة بعض مشاركته لهم فيما ذكر - ما ثبت في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الله عز وجل إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم " ، وما ثبت في الصحيحين

من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله فقال بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإن إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان " انتهى .

(84/460)

فاجتيال الشياطين لهم عن دينهم ، وتحريمها عليهم ما أحل الله لهم في الحديث الأول ، وضرها لهم لو تركوا التسمية في الحديث الثاني – كل ذلك من أنواع مشاركتهم فيهم . وقوله " فاجتالهم " أصله افتعل من الجولان : اي استخفتهم الشياطين فجالوا معهم في الضلال . يقال : جال واجتال : إذا ذهب وجاء ، ومنه الجولان في الحرب : واجتال الشيء : إذا ذهب به وساقه . والعلم عند الله تعالى . والأمر في قوله ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ كالأمر في قوله ﴿ واستفزز ﴾ ، وقوله ﴿ وَأَجْلِب ﴾ . وقد قدمنا أنه للتهديد .

وقوله ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ﴾ بين فيه أن مواعيد الشيطان كلها غرور وباطل . كوعده لهم بأن الأصنام تشفع لهم وتقربهم عند الله زلفى ، وأن الله لما جعل لهم المال والولد في الدنيا سيجعل لهم مثل ذلك في الآخرة ، إلى غير ذلك من المواعيد الكاذبة . وقد بين تعالى هذا المعنى في مواضع أخر . كقوله : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ

الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [النساء : 120] ، وقوله : ﴿ ولكنكم فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وارتبتم وَغرَّتْكُمُ الأماني حتى جَآءَ أَمْرُ الله وَغَرَّكُم بالله الغرور ﴾ [الحديد : 14] ، وقوله : ﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم : 22] ، إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(85/460)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) ﴾

أي: تذكّروا أن الحسد قديم قِدَم وجود الإنسان على هذه الأرض ، تذكّروا ما كان من أمر آدم عليه السلام وإبليس لعنه الله ، فهي مسألة قديمة ومستمرة في البشر إلى يوم القيامة .

والمعنى: واذكُرْ يا محمد ، وليذكر معك قومك إذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم . وسبق أنْ تكلمنا عن السجود ، ونشير هنا إلى أن السجود لا يكون إلا الله تعالى ، لكن إذا كان الأمر بالسجود لغير الله من الله تعالى ، فليس لأحد أن يعترض على هذا السجود ؛ لأنه بأمر الله

الذي يعلم أن سجودهم لآدم ليس عَيْباً وليس قَدْحاً في دينهم وعبوديتهم للحق سبحانه وتعالى ؛ لأن العبودية طاعة أوامر .

والمراد بالملائكة المدبرات أمراً ، الذين قال الله فيهم: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . . ﴾ [الرعد: 11]

وقد أمرهم الله بالسجود لآدم ؛ لأنه سيكون أبا البشر ، وسوف يُسخّر له الكون كله ، حتى هؤلاء الملائكة سيكونون في خدمته ؛ لذلك أمرهم الله بالسجود له سجودَ طاعة وخضوع لما أريده منكم ، إذن: السجود لآدم ليس خضوعاً لآدم ، بل خضوعاً لأمر الله لهم .

وقوله تعالى: ﴿ إَلاَّ إِبْلِيسَ . . ﴾ [الإسراء: 61]

فهِم البعض منها أن إبليس كان من الملائكة ، ونحن نعذر أصحاب هذا الفهم لو عزلنا هذه الآية عن بقية الآيات التي تحدثتْ عن هذه القضية ، لكن طالما نتكلم في موضوع عام مثل هذا ، فيجب استحضار جميع الآيات الواردة فيه لتتضح لنا الصورة كاملة .

فإذا كان دليل أصحاب هذا القول: الالتزام بأن الله قال: ﴿ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ . . ﴾ [الإسراء: 61]

وقد كان الأمر للملائكة فهو منهم ، سوف نُسلِّم لهم جدلاً بصحة قولهم ، لكن ماذا يقولون في قَوْل الحق سبحانه في القرآن الذي أخذوا منه حجتهم: ﴿ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ . . ﴾ [الكهف: 50]

فإنْ كان دليلكم الالتزام ، فدليلنا نصٌّ صريح في أنه من الجن ، فإنْ قال قائل: كيف يكون من الجن ويُؤاخَذ على أنه لم يسجد ؟

نقول: إبليس من الجن بالنصِّ الصريح للقرآن الكريم ، لكن الحق سبحانه وتعالى آخذه على عدم السجود لآدم واعتبره من الملائكة ؛ لأنه كان مطيعاً عن اختيار ، والملائكة مطيعون عن جِبلَّة وعن طبيعة .

فبذلك كانت منزلة إبليس أعلى من منزلة الملائكة ، لأنه مختار أن يطيع أو أن يعصي ، لكنه أطاع مع قدرته على العصيان فأصبح جليس الملائكة ، بل طاووس الملائكة الذي يزهو عليهم ويتباهى بأنه صالح للاختيار في العصيان ، ومع ذلك ألزم نفسه منهج الله .

فإذا أصبح في منزلة أعلى من الملائكة وأصبح في حضرتهم ، فإن الأمر إذا توجَّه إلى الأدنى في الطاعة فإن الأعلى أَوْلَى بهذا الأمر ، وكذلك إن اعتبرناه أقلّ منهم منزلة ، وجاء الأمر للملائكة بالسجود فإن الأمر للأعلى أمر كذلك للأدنى ، وهكذا إنْ كان أعلى فعليه أن يسجد ، وإنْ كان أدنى فعليه أنْ يسجدَ .

وقد ضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ إذا دخل رئيس الجمهورية على الوزراء فإنهم يقومون له إجلالاً واحتراماً ، وهَبْ أن معهم وكلاء وزارات فإنهم سوف يقومون أيضاً ؛ لأنهم ارتفعوا إلى مكان وجودهم .

ومن الإشكالات التي أثارها المستشرقون حول هذا الموضوع اعتراضهم على قول القرآن عن إبليس مرة ﴿ أَبَى ﴾ ومرة أخرى ﴿ اسْتَكْبَرَ ﴾ ومرة ﴿ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ ﴾ ، وكذلك قوله مرة: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ . . ﴾ [ص: 75], ومرة أخرى يقول: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ . . ﴾ [الأعراف: 12]

(87/460)

وقد سبق أن تحدثنا عن قصور هؤلاء في فَهْم أساليب العربية ؛ لأنها ليستْ لديهم ملَكَة ، والمتأمل في هذه الأساليب يجدها منسجمة يُكمل بعضها بعضاً .

فالإباء قد يكون مجرد امتناع لا عن استكبار ، فالحق سبحانه يريد أن يقول: إنه أبى استكباراً ، فتنوّع الأسلوب القرآني ليعطينا هذا المعنى .

أما قوله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ . . ﴾ [ص: 75] و ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ . . ﴾ [الأعراف: 12]

صحيح أن في الأولى إثباتاً وفي الأخرى نفياً ، والنظرة العَجْلَى تقول: إن ثمة تعارضاً بين الآيتين ، مما حمل العلماء على القول بأن (لا) في الآية الثانية زائدة ، فالأصل ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ . . ﴾ [ص: 75]

والقول بوجود حروف زائدة في كتاب الله قول لا يليق ، ونُنزّه المتكلم سبحانه أن يكون في كلامه زيادة ، والمتأدب منهم يقول (لا) حرف وَصْل ، كأنه يستنكف أن يقول: زائدة .

والحقيقة أن (لا) هنا ليست زائدة ، وليست للوَصْل ، بل هي تأسيس يضيف معنى جديداً ، لأن ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ . . ﴾ [ص: 75] كأنه همَّ أن يسجد ، فجاء مَنْ يمنعه عن السجود ، لأنه لا يقال: ما منع من كذا إلا إذا كان لديك استعداد للفعل ، وإلا من أيّ شيء سيمنعك ؟

أما و﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ . . ﴾ [الأعراف: 12] تعني: ما منعك بإقناعك بأن لا تسجد ، فالمعنيان مختلفان ، ونحن في حاجة إليهما معاً .

ثم يقول تعالى: ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً . . ﴾ [الإسراء: 61]

والهمزة للاستفهام الذي يحمل معنى الاعتراض أو الاستنكار ، وقد فُسِّرت هذه الآية بآيات أخرى ، مثل قوله تعالى: ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: 12]

فالمخلوقية لله مُتفق عليها ، إنما الاختلاف في عنصر المخلوقية هذا من نار وهذا من طين ، لكن من قال لك يا إبليس: إن النار فوق الطين ، أو خير منه ؟ من أين أتيتَ بهذه المقولة وكلاهما مخلوق لله ، وله مهمة في الكون ؟ وهل نستطيع أن نقول: إن العين خير من الأذن مثلاً ؟ أم أن لكل منهما مهمتها التي لا تؤديها الأخرى ؟

وسبق أنْ قُلْنا مثلاً: إنك تفضل الحديد إنْ كان مستقيماً ، أما إنْ أردتَ خُطَّافاً فالاعوجاج خير من الاستقامة ، أو: أن اعوجاجه هو عين الاستقامة فيه ، فكل شيء في الوجود مخلوق لغاية ولمهمة ولا يكون جميلاً ولا يكون خَيْراً إلا إذا أدى مهمته في الحياة ، فمن أين جاء إبليس بخيرية النار على الطين ؟

والنار الأصل فيها الخشب الذي توقد به ، والخشب من الطين ، إذن: فالطين قبل النار وأفضل منه ، فقياس إبليس إذن قياس خاطئ .

ومعنى: ﴿ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ [الإسراء: 61] يعني: خلقته حال كونه من الطين ، أو خلقتَه من طين ، والخَلْق من الطين مرحلة من مراحل الخَلْق ؛ لأن الخَلْق المباشر له مراحل سبقته .

فقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي . . ﴾ [الحجر: 29]

سبقتْه مراحل متعددة ، قال عنها الخالق سبحانه مرة: من الماء . ومرة: من التراب . ومرة: من الطين . والماء إذا خُلِط بالتراب صار طيناً ، وبمرور الوقت يسودُّ هذا الطين ، وتتغير

رائحته، فيتحول إلى حمأ مسنون.

وما أشبهَ الحمأ المسنون بما يفعله أهل الريف في صناعة الطوب، حيث يخلطون الماء بالتراب بالقشِّ، ويتركونه فترة حتى يختمر ويأكل بعضه بعضاً، وتتغير رائحته ويعطَن، ثم يصبُّونه في قوالب. فإذا ما تُرِك الطين حتى يجفّ، ويتحول إلى الصلابة يصير صَلْصَالاً كالفخَّار، يعني يُحدث رنّة إذا طرقت عليه.

وبعد كل هذه المراحل يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[الحجر: 29]

(89/460)

إذن: لا وَجْه للاعتراض على القرآن في قوله عن خلق الإنسان مرة أنه: من: ماء، أو من تراب، أو طين، أو حمأ مسنون، فهذه كلها مراحل للمكوّن الواحد.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَاذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ. . ﴾.

(90/460)

﴿ قَالَ ﴾ أي: إبليس ﴿ أَرَأَيْتَكَ ﴾ الهمزة للاستفهام، والتاء للخطاب، وكذلك الكاف، وجمع بينهما في الخطاب للتأكيد، كما تقول: أنت أنت تفعل ذلك. والمعنى: أخبرني، لأن رأي البصرية تُطلق في القرآن على معنى العلم؛ لأن علم العين علم مُؤكّد لا شكّ فيه.

لذلك قالوا: (ليس مع العين أين) فما تراه أمامك عياناً، وإنْ كان للعلم وسائل كثيرة فأقواها الرؤية؛ لأنها تعطي علماً مؤكداً على خلاف الأذن مثلاً، فقد تسمع بها كلاماً تعرف بعد ذلك أنه كذب.

وقد ورد هذا المعنى في قوله الحق سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ [الفيل: 1]

واستخدم الفعل ترى، مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في عام الفيل وليداً لم يَرَ شيئاً، فالمعنى: ألم تعلم، ولكن الحق سبحانه عدل عن "تعلم" إلى "ترَ" كأنه يقول للرسول صلى الله عليه وسلم: إذا أخبرك الله بمعلوم، فاجعل إخبار الله لك فوق رؤيتك بعينك.

فقوله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَاذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ.. ﴾ [الإسراء: 62] أي: أعلمني، لماذا فضلته عليّ، وكأن تفضيل آدم على إبليس مسألة تحتاج إلى برهان وتبرير، وكان على إبليس أن ينتظر إجابة هذا السؤال الذي توجه به لربّه عزّ وجل، ولكنه تعجّل وحمله الغيظ والحسد على أن يقول: ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾

[الإسراء: 62]

وهذا لأن حقده وعداوته لآدم مُسْبقة فلم ينتظر الجواب.

ومعنى: ﴿ أَخَّرْتَنِ ﴾ أخَّرت أجلي عن موعده، كأنه يعلم أن الله يجعل لكل نفس منفوسة من إنس أو جنٍّ أجلاً معلوماً، فطلب أنْ يُؤخِّره الله عن أجله، وهذه مبالغة منه في اللدد والعناد، فلم يتوعدهم ويُهدّدهم مدة حياته هو، بل إلى يوم القيامة، فإن كانت البداية مع آدم فلن ينجو ولن تنجو ذريته أيضاً.

(91/460)

فالعداوة بين إبليس وآدم، فما ذنب ذريته من بعده؟ لقد كان عليه أن يقصر هذا الحقد، وهذه العداوة على آدم، ثم يوصي ذريته بحمل هذا العداء من بعده، إنه الغيظ الدفين الذي يملأ قلبه.

وقد أمهله الحق سبحانه بقوله: ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف: 15]

ومعنى: ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ [الإسراء: 62] اللام للقسم، كما أقسم في آية أخرى: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: 82]

وعجيب أمر إبليس، يقسم بالله وهو يعلم أن العمر والأجل بيده سبحانه، فيسأله أن

يُؤخّره، ومع ذلك لا يطيع أمره.

والاحتناك: يَرِد بمعنيين: الأول: الاستئصال. ومنه قولهم: احتنك الجراد الزرع. أي: أتى عليه كله واستأصله، والآخر: بمعنى القهر على التصرف، مأخوذ من اللجام الذي يُوضَع في حنَك الفرس، ويسمونه (الحنكة) وبها تستطيع أن تُوجّه الفرس يميناً أو يساراً أو تُوقِفه، فهي أداة التحكّم فيه، والسيطرة عليه قَهْراً.

فالاحتناك قد يكون استئصالاً للذات، وقد يكون قهراً لحركتها.

وقوله سبحانه: ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 62] فيها دليل على عِلْم إبليس ومعرفته بقدرة الله تعالى، فعرف كيف يقسم به حين قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: 82] والمعنى: بعزتك عن خَلْقك: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: 29].

سأدخل من هذا الباب، أما عبادك الذين هديتهم واصطفيتهم فلا دَخْلَ لي بهم، وليس لي عليهم سلطان، لقد تذكر قدرة الله، وأن الله إذا أراد إخلاص عبده لنفسه لا يستطيع الشيطان أنْ يأخذه، فقال: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: 83]

فقوله: ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 62] هذا القليل المستثنى هم المؤمنون الذين اختارهم الله وهداهم، ولم يجعل للشيطان عليهم سبيلاً.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً ﴾ .

(92/460)

قوله تعالى ﴿ اذْهَبْ ﴾ أمر يحمل معنى الطرد والإبعاد . ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ . . ﴾ [الإسراء: 63] أي: الذين اتبعوك وساروا في ركابك فجزاؤهم جهنم .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال: ﴿ جَزَآؤُكُمْ ﴾ . ولم يقل (جزاؤهم) لأنه معهم وداخل في حكمهم، وهو سبب غوايتهم وضلالهم، وكذلك هو المخاطب في الآية الكريمة، وحتى لا يظن إبليس أن الجزاء مقصور على العاصين من ذرية آدم، أو يحتج بأنه يُنفّذ أوامر الله الواردة في قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [الإسراء: 64]

فليست هذه أوامر يراد تنفيذها؛ لأن هناك فرقاً بين الأمر الذي يُراد منه تنفيذ الفعل، والأمر الذي لا يُراد منه التنفيذ . فالأول طَلَب أعلى من أَدْنى لكي يفعل: اكتب، اجلس . لكن إذا اتجه الأمر إلى غير مطلوبٍ عادةً من العقلاء ينصرف عن الأمر إلى معنى آخر .

وهذا كما تقول لولدك مراراً: ذاكر دروسك واجتهد ، وإذا به لا يهتمّ ولا يستجيب فتقول له: العب كما تشاء ، فهل تقصد ظاهر هذا الأمر؟! وهل لو أخفق الولد في الامتحان سيأتي ليقول لك: يا والدي لقد قلت لي العب؟!

إن الأمر هنا لا يُؤخَذ على ظاهره ، بل يُراد منه التهديد ، كما يقولون في المثل (أعلى ما في خَيْلك اركبه) .

وقوله: ﴿ جَزَاءً مَّوْفُوراً ﴾ أي: وافياً مكتملاً لا نقصَ فيه ، لا من العذاب ، ولا من المعذبين .

والحق سبحانه يقول مخاطباً إبليس: ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ . . . ﴾ .

(93/460)

فقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ [الإسراء: 64]

هذا كما تستنهض ولدك الذي تكاسل ، وتقول له: فِزّ يعني انهض ، وقُمْ من الأرض التي تلازمها كأنها مُمسكة بك ، وكما في قوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ . . ﴾ [التوبة: 38]

فتقول للمتثاقل عن القيام: فِزّ أي: قُمْ وخِفّ للحركة والقيام بإذعان . فالمعنى: استفزز مَن

استطعت واستخفّهم واخدعهم ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ بوسوستك أو بصوتك الشرير ، سواء أكان هذا الصوت من جنودك من الأبالسة أمثالك ، أو من جنودك من شياطين الإنس الذين يعاونوك ويساندونك .

ثم يقول تعالى: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ . . ﴾ [الإسراء: 64]

أجْلَبَ عليهم: صاح به ، وأجلبَ على الجواد: صاح به راكبه ليسرع والجَلْبة هي: الصوت المزعج الشديد ، وما أشبه الجَلْبة بما نسمعه من صوت جنود الصاعقة مثلاً أثناء الهجوم ، أو من أبطال الكاراتيه .

وهذه الأصوات مقصودة لإرهاب الخصم وإزعاجه ، وأيضاً لأن هذه الصيحات تأخذ شيئاً من انتباه الخصم ، فيضعف تديبره لحركة مضادة ، فيسل عليك التغلّب عليه .

وقوله تعالى: ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ . . ﴾ [الإسراء: 64]

أي: صَوِّتْ وصِحْ بهم راكباً الخيل لتفزعهم ، والعرب تطلق الخيل وتريد بها الفرسان ، كما في الحديث النبوي الشريف: " يا خيل الله اركبي " .

وما أشبه هذا بما كنا نُسمّيهم: سلاح الفرسان ﴿ وَرَجِلِكَ ﴾ من قولهم: جاء راجلاً . يعني: ماشياً على رِجْلَيْه و(رَجِل) يعني على سبيل الاستمرار ، وكأن هذا عمله وديدنه ، فهي تدل على الصفة الملازمة ، تقول: فلانٌ رَجْل أي: دائماً يسير مُترجّلاً . مثل: حاذر وحَذِرْ ، وهؤلاء يمثلون الآن " سلاح المشاة " .

ثم يقول تعالى: ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ . . ﴾ [الإسراء: 64] فكيف يشاركهم أموالهم؟ بأن يُزيّن لهم المال الحرام، فيكتسبوا من الحرام وينفقوا في الحرام (وَالأَوْلادِ) المفروض في الأولاد طهارة الأنساب، فدَوْر الشيطان أنْ يُفسِدَ على الناس أنسابهم، ويُزيّن لهم الزنا، فيأتون بأولاد من الحرام. أو: يُزيّن لهم تهويد الأولاد، أو تنصيرهم، أو يُغريهم بقتْلِ الأولاد مخافةَ الفقر أو غيره، هذا من مشاركة الشيطان في الأولاد.

وقوله تعالى ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ أي: مَنيّهم بأمانيك الكاذبة، كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 268]

وقوله: ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [الإسراء: 64] أي: لا يستطيع أن يَغُرَّ بوعوده إلا صاحب الغِرّة والغفلة، ومنها الغرور: أي يُزيّن لك الباطل في صورة الحق فيقولون: غَرَّه. وأنت لا تستطيع أبداً أن تُصوّر لإنسان الباطل في صورة الحق إلا إذا كان عقله قاصراً غافلاً؛ لأنه لو عقل وانتبه لتبيّنَ له الحق من الباطل، إنما تأخذه على غِرّة من فكره، وعلى غَفْلة من عقله.

لذلك كثيراً ما يُخاطبنا الحق سبحانه بقوله: ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ . . ﴾ [القصص: 60] ﴿ أَفَلاَ تَتفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: 50] ﴿ أَفَلاَ يَتدَبَّرُونَ . . ﴾ [النساء: 82] ويناديننا بقوله: ﴿ ياأُوْلِي الألباب ﴾ [الطلاق: 10]

وهذا كله دليل على أهمية العقل، وحثٌّ على استعماله في كل أمورنا، فإذا سمعتم شيئاً فمرِّروه على عقولكم أولاً، فما معنى أن يطلب الله مِنَّا ذلك؟ ولماذا يُوقِظ فينا دائماً ملكة التفكير والتدبُّر في كل شيء؟

(95/460)

لا شكَّ أن الذي يُوقِظ فيك آلة الفكر والنقد التمييز، ويدعوك إلى النظر والتدبر واثق من حُسْن بضاعته، كالتاجر الصدوق الذي يبيع الجيد من القماش مثلاً، فيعرض عليك بضاعة في ثقة، ويدعوك إلى فحصها، وقد يشعل النار لِيُريك جودتها وأصالتها.

ولو أراد الحق سبحانه أن يأخذنا هكذا على جهل وعمى ودون تبصُّر ما دعانا إلى التفكُّر والتدبُّر.

وهكذا الشيطان لا يُمنِّيك ولا يُزيِّن لك إلا إذا صادف منك غفلة، إنما لو كنت متيقظاً له ومُسْتصحباً للعقل، عارفاً بحيله ما استطاع إليك سبيلاً، ومن حيله أن يُزيِّن الدنيا لأهل

الغفلة ويقول لهم: إنها فرصة للمتعة فانتهزها وَخذْ حظك منها فلن تعيش مرتين، وإياك أن تُصدّق بالبعث أو الحساب أو الجزاء.

وهذه وساوس لا يُصدّقها إلا مَنْ لديه استعداد للعصيان، وينتظر الإشارة مجرد إشارة فيطيع ويقع فريسة لوعود كاذبة، فإنْ كان يوم القيامة تبرّأ إبليس من هؤلاء الحمقى، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم: 22]

إذن: في الآيتين السابقتين خمسة أوامر لإبليس: اذهب، استفزز، وأَجْلب، وشاركهم، وعِدْهم. وهذه الأوامر ليست لتنفيذ مضمونها، بل للتهديد ولإظهار عجزه عن الوقوف في وجه الدعوة، أو صدّ الناس عنها، وكأن الحق سبحانه يقول له: افعل ما تريد ودبّر ما تشاء، فلن توقف دعوة الله؛ لذلك قال بعدها: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ... ﴾.

سبق أن تحدثنا عن الفرق بين العباد والعبيد ، وقلنا كلاماً نُوجزه في أن العبيد هم المقهورون للسيد في الأمور القَسْرية القهرية ، ومتمردون عليه في الأمور الاختيارية ، أما العباد فهم مقهورون في الأمور القسرية القهرية ، وتنازلوا أيضاً عن مُرادهم في الأمور الاختيارية لمراد ربهم ، فرضوا أنْ يكونوا مقهورين لله في جميع أحوالهم .

وقد تحدّث الحق سبحانه عن عباده وأصفيائه ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ [الفرقان: 63-65] .

فعباد الله الذين هم أصفياؤه وأحباؤه الذين خرجوا من مرادهم لمراده ، وفَضَّلوا أن يكونوا مقهورين لربهم حتى في الاختيار ، فاستحقوا هذه الحصانة الإلهية في مواجهة كيد الشيطان ووسوسته وغروره: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ . . . ﴾ [الإسراء: 65] .

وسبق أنْ تحدَّثنا عن كَيْد الشيطان الذي قال الله عنه: ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [النساء: 76] ففي مُحاجّته يوم القيامة أمام ضحاياه الذين أغواهم وأضلّهم ، سيقول: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي . . . ﴾ [إبراهيم: 22] فليس لي سلطان قَهْر أحملكم به على المعصية ، ولا سلطان حُجَّة وبرهان فأُقنعكم بها .

ثم يقول تعالى: ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: 65].

الوكيل هو المؤيِّد، وهو الناصر، تقول: وكلت فلاناً. أي: وثقت به ليؤدي لي كل ما أريد، فإنْ كان في البشر مَنْ تثق به، وتأتمنه على مصالحك، فما بالك إنْ كان وكيلك هو الله عز وجل؟ لا شكَّ إنْ كان وكيلك الله فهو كافيك ومؤيدك وناصرك، فلا يُحوجك لغيره سبحانه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(97/460)

" فصل "

قال السيوطى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: حسد إبليس آدم عليه السلام على ما أعطاه الله من كرامة وقال: أنا ناري، وهذا طيني، فكان بدء الذنوب الكبر.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال إبليس: إن آدم خلق من تراب ومن طين خلق ضعيفاً، وإني خلقت من نار والنار تحرق كل شيء ﴿ لأحتنكن

ذريته إلا قليلاً ﴾ فصدق ظنه عليهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ لأحتنكن ﴾ قال : لأستولين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ لأحتنكن ذريته ﴾ قال : لأحتوينهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿ لأحتنكن ذريته ﴾ قال : لأضلنهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ جزاء موفوراً ﴾ قال : وافراً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله : ﴿ فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً ﴾ يقول : يوفر عذابها للكافر فلا يدخر عنهم منها شيء .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ قال : صوته كل داع دعا إلى معصية الله ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ﴾ قال : كل راكب في معصية الله ﴿ وشاركهم في الأموال ﴾ قال : كل مال في معصية الله ﴿ والأولاد ﴾ قال : ما قتلوا من أولادهم ، وأتوا فيهم الحرام .

وأخرج الفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ قال : كل خيل تسير في معصية الله ، وكل رجل يمشي في معصية الله ، وكل مال أخذ بغير حقه وكل ولد زنا .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ قال : استنزل من استطعت منهم بالغناء والمزامير واللهو والباطل ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ قال كل راكب وماش في معاصي الله ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ قال : كل مال أخذ بغير طاعة الله تعالى ، وأنفق في غير حقه ، والأولاد ، أولاد الزنا .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ قال : الأموال ما كانوا يحرمون من أنعامهم والأولاد أولاد الزنا .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، عن ابن عباس في الآية قال : مشاركته في الأموال ، ان جعلوا البحيرة والسائبة والوصيلة ، لغير الله ومشاركته إياهم في الأولاد سموعبد الحارث وعبد شمس .

وأخرج ابن مردويه ، عن أنس – رضي الله عنه – رفعه قال : قال إبليس يا رب ، إنك

لعنتني واخرجتني من الجنة من أجل آدم ، وإني لا أستطيعه إلا بك . قال : فأنت المسلط .

قال : أي رب ، زدني قال : ﴿ أجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ .

(99/460)

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر ، عن ثابت رضي الله عنه قال : بلغنا أن إبليس قال : يا رب ، إنك خلقت آدم وجعلت بيني وبينه عداوة ، فسلطني ، قال : صدورهم مساكن لك . قال : رب زدني . قال : لا يولد لآدم ولد ، إلا ولد لك عشرة . قال : رب زدني . قال : تجري منهم مجرى الدم . قال : رب زدني . قال : ﴿ أجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ فشكا آدم - عليه السلام - إبليس إلى ربه . قال : يا رب ، إنك خلقت إبليس وجعلت بيني وبينه عداوة وبغضاً ، وسلطته علي ، وأنا لا أطيقه إلا بك . قال : لا يولد لك ولد إلا وكلت به ملكين يحفظانه من قرناء السوء . قال : رب زدني . قال : الحسنة بعشر أمثالها قال : رب زدني . قال : لا أحجب عن أحد من ولدك التوبة ما لم يغرغر . والله أعلم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم

سلطان ﴾ قال: عبادي الذين قضيت لهم بالجنة، ليس لك عليهم أن يذنبوا ذنباً، إلا أغفر لهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(100/460)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) ﴾

قوله تعالى: ﴿ طِيناً ﴾: فيه أوجه،

أحدُها: أنه حالٌ من "لِمَنْ" فالعاملُ فيها "أَأَسْجُدُ"، أو مِنْ عائد هذا الموصول، أي: خلقتَه طِيْناً، فالعاملُ فيها "خَلَقْتَ"، وجاز وقوعُ طين حالاً، وإن كان جامداً، لدلالتِه على الأصالةِ كأنه قال: متأصّلاً من طين. الثاني: أنه منصوبٌ على إسقاطِ الخافضِ، أي: مِنْ طين، كما صرَّح به في الآيةِ الأخرى: / ﴿ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص: 76].

الثالث: أن منتصبٌ على التمييز، قاله الزجاج، وتبعه ابنُ عطية، ولا يظهرُ ذلك إذ لم يتقدَّم إبهامُ ذاتٍ ولا نسبةٍ.

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَكَ ﴾ : قد ذُكِرَتْ مستوفاةً في الأنعام . وقال الزمخشري : " الكافُ للخطاب ، و " هذا " مفعول به ، والمعنى : أَخْبِرْني عن هذا الذي كَرَّمْتَه علي ، أي : فَضَّلْتَه لِمَ كَرَّمْتَه وأن خيرٌ منه ؟ فاختصر الكلامَ " . وهذا قريبٌ من كلام الحوفي .

(101/460)

وقال ابنُ عطية : " والكافُ في " أَرَأَيْتُكَ " حرفُ خطابٍ لا موضعَ لها من الإِعراب ، ومعنى " أَرَأَيتَ " أتأمَّلْتَ ونحوه ، كأنَّ المخاطِبَ يُنَبِّه المخاطَب ليستجمعَ لما يَنُصُّ عليه [بعدُ] . وقال سيبويه : " وهي بمعنى أَخْبِرْني ، ومَثَّل بقوله : " أرَأَيْتك زيداً أبو من هو ؟ " وقولُ سيبويهِ صحيحٌ ، حيث يكون بعدها استفهامٌ كمثالِه ، وأمّا في الآية فهي كما قلتُ ، وليست التي ذكر سيبويهِ " . قلت : وهذا الذي ذكره ليس بمُسَلَّمٍ ، بل الآية كمثالِه ، غايةُ ما في الباب أنَّ المفعولَ الثاني محذوفٌ وهو الجملةُ الاستفهاميةُ المقدَّرةُ ، لانعقادِ الكلامِ مِنْ مبتدأ وخبر ، لو قلت : هذا الذي كَرَّمْتَه عليّ لَمَ كرّمته ؟

وقال الفراء : " الكافُ في محلِّ نصب ، أي " أَرَأَيتَ نفسَك كقولك : أَتَدَبَّرْتَ آخرَ أمرِك فإني

صانعٌ فيه كذا ثم ابتدأ : هذا الذي كرَّمْتَ عليَّ " .

وقال أبو البقاء : " والمفعولُ الثاني محذوفٌ ، تقديرُه : تفضيلَه أو تكريمه " . قلت . وهذا لا يجوز لأنَّ المفعول الثاني في هذا البابِ لا يكونَ إلا جملةً مشتملةً على استفهام " .

قال الشيخ : " ولو ذهبَ ذاهبٌ إلى أنَّ الجملة القسمية هي المفعولُ الثاني لكانَ حَسَنا ً " .

قلت : يَرُدُّ ذلك التزامُ كونِ المفعولِ الثاني جملةً مشتملةً على استفهامٍ وقد تقرَّر جميعُ ذلك في الأنعام فعليك باعتباره هنا .

قوله : ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ ﴾ قرأ ابن كثير بإثباتِ ياءِ المتكلمِ وصلاً ووقفاً ، ونافع وأبو عمرو بإثباتِها وَصْلاً وحَذْفِها وقفاً ، وهذه قاعدةُ مَنْ ذُكِرَ في الياءاتِ الزائدةِ على الرسم ، والباقون بحذفها وصلاً ووقفاً ، هذا كلُّه في حرفِ هذه السورةِ ، أمَّا الذي في المنافقين في قولِه ﴿ لولا أخرتني ﴾ [الآية : 10] فأثبتَه الكلُّ لثبوتها في الرسمِ الكريم .

قوله : " لأَحْتَنِكَنَّ " جوابُ القسمِ المُوَطَّأ له باللام . ومعنى " لأَحْتَنِكَنَّ " لأَسْتَوْلِيَنَّ عليهم استيلاءَ مَنْ جَعَلَ في حَنَكِ الدابَّةِ حَبْلاً يقودُها به فلا تأبى ولا تَشْمُسُ عليه . يقال : حَنَكَ فلانٌ الدابةَ واحْتَنَكها ، أي : فَعَلَ بها ذلك ، واحْتَنَكَ الجرادُ الأرض : أكل نباتها قال :

3077- نَشْكُو إليك سَنَةً قد أَجْحَفَتْ . . . جَهْداً إلى جَهْدٍ بنا فأضعفَتْ

واحتنكَتْ أموالَنا وجَلَّفَتْ . . . وحكى سيبويه: "أحْنَكُ الشاتَيْن، أي: آكَلُهما، أي: أكثرُهما أَكْلاً.

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (63) ﴾

قوله تعالى: ﴿ اذهب فَمَن ﴾: تقدَّم أنَّ الباءَ تُدْغَمُ في الفاءِ في ألفاظٍ منها هذه، عند أبي عمروٍ والكسائيِّ وحمزةَ في روايةِ خلاَّدٍ عنه بخلافٍ في قوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فأولئك ﴾ [الحجرات: 11].

قوله: "جزاؤكم" يجوز أن يكونَ الخطابُ التغليبَ لأنه تقدَّم غائبٌ ومخاطبٌ في قوله: ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ فغلَّب المخاطَب، ويجوز أن يكونَ الخطابُ مراداً به "مَنْ" خاصةً ويكونُ ذلك على سبيل الالتفات.

قوله: "جَزاءً" في نصبه أوجهٌ، أحدُها: أنه منصوبٌ على المصدرِ، الناصبُ له المصدرُ قبله، وهو مصدرٌ مبيِّن لنوعِ المصدرِ الأول. الثاني: أنه منصوبٌ على المصدرِ أيضاً لكن بمضمرٍ، أي: يُجازَوْن جزاءً. الثالث: أنه حالٌ موطِّئةٌ كجاء زيد رجلاً صالحاً. الرابع: أنه تمييزٌ وهو غيرُ مُتَعَقَّل.

و"مَوْفُوراً" اسمُ مفعولٍ مِنْ وَفَرْتُه، ووفَرَ يُستعمل متعدِّياً، ومنه قولُ زهير:

3078- ومن يَجْعَلِ المعروفَ مِنْ دُوْنِ عِرْضِهِ . . . يَفِرْه ومَنْ لا يَتَّقِ الشتمَ يُشْتَمِ

والآيةُ الكريمةُ من هذا ، ويُستعمل لازماً يقال : وَفَرَ المالُ .

(103/460)

قوله تعالى : ﴿ واستفزز ﴾ : جملةٌ أمريةٌ عُطِفَتْ على مِثْلِها من قولِه " اذهَبْ " . و ﴿ مَنِ استطعت ﴾ يجوز فيه وجهان ، أحدُهما : أنها موصولةٌ في محلِّ نصب مفعولاً للاستفزاز ، أي : استفزِزْ الذي استطعْتَ استفزازَه منهم . والثاني : أنها استفهاميةٌ منصوبةُ المحلِ ب " استطعْتَ " قاله أبو البقاء ، وليس بظاهرٍ لأنَّ " اسْتَفْزِزْ " يطلبه مفعولاً به ، فلا يُقطع عنه ، ولو جَعَلْناه استفهاماً لكان مُعَلَّقاً له ، وليس هو بفعلٍ قلبي / فيعلَّق .

والاسْتِفْزاز : الاستخفاف ، واستفزَّني فلانٌ : استخفَّني حتى خَدَعني لِما يريده . قال :

3079- يُطيع سَفيهَ القومِ إذ يستفزُّه . . . ويَعْصِي حليماً شَيَّبَتْه الهزاهِزُ

ومنه سُمِّي ولدُ البقرة " فزَّاً " . قال الشاعر :

3080- كما استغاثَ بسَيْءٍ فَزُّ غَيْطَلَةٍ . . . خافَ العيونَ ولم يُنْظَرْ به الحَشَكُ

وأصلُ الفَزِّ : القَطْعُ ، يقال : تَفَزَّزَ الثوبُ ، أي : تقطَّع .

قوله : " وأَجْلِبْ " ، أي : اجمَعْ عليهم الجموعَ مِنْ جُنْدِك يقال : أَجْلَبَ عليه وجَلَبَ ، أي :

جَمَعَ عليه الجموعَ . وقيل : أَجْلَبَ عليه : توعَّده بشرٍّ . وقيل : أَجْلَبَ عليه : أعان ، وأجلب ، أي : صاح صِياحاً شديداً ، ومنه الجَلَبَة ، أي : الصِّياح .

قوله : " ورَجِلك " قرأ حفصٌ بكسرِ الجيمِ ، والباقون بسكونها ، فقراءة حفصٍ " رَجِل " فيها بمعنى رَجُل بالضم بمعنى راجل يُقال : رَجِلَ يَرْجَلُ إذا صار راجلاً ، فيكون مثل : حَذِرٍ وحَذُر ، ونَدِس ونَدُس ، وهو مفردٌ أُريد به الجمعُ . وقال ابن عطية : هي صفةٌ يقال : فلان يمشي رَجِلاً إذا كان غيرَ راكبٍ ، ومنه قولُ الشاعر :

3081- . . . . رَجِلاً إلا

بأصحابي

قلت : يشير إلى البيتِ المشهور وهو :

فما أُقاتلُ عن ديني على فَرَسي . . . إلا كذا رَجِلاً إلا بأصحابي

أراد : فارساً ولا راجلاً .

وقال الزمخشريُّ : " على أن فَعِلاً بمعنى فاعِل نحو : تَعِب وتاعب ، ومعناه : وجَمْعك الرَّجِلُ ، وتُضَمُّ جيمُه أيضاً فيكون مثل : حَذُر وحَذِر ، ونَدُس ونَدِس ، وأخواتٍ لهما " .

وأما قراءةُ الباقين فتحتمل أُنْ تكون تخفيفاً مِنْ " رَجِل " بكسر الجيم أو ضمِّها ، والمشهورُ : أنه اسمُ جمع لراجِل كرَكْب وصَحْب في راكِب وصاحِب . والأخفش يجعل هذا النحوَ جمعاً صريحاً .

وقرأ عكرمةُ " ورِجالك " جمع رَجِل بمعنى راجِل ، أو جمع راجِل كقائم وقيام . وقُرِئ " ورُجَّالك " بضمِّ الراء وتشديد الجيم ، وهو جمع راجِل كضارِب وضُرَّاب .

والباء في " بخَيْلك " يجوز أن تكونَ الحالية ، أي : مصاحَباً بخيلك ، وأن تكون مزيدةً كقوله :

3082- . . . .
. . . . لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَر

وقد تقدَّم في البقرة .

قوله : ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشيطان ﴾ من بابِ الالتفاتِ وإقامةِ الظاهر مُقامَ المضمرِ ؛ إذ لو جرَى على سَنَنِ الكلامِ الأول لقال : وما تَعِدُهم ، بالتاء من فوق .

قوله : ﴿ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه نعتُ مصدرٍ محذوفٍ وهو نفسُه مصدرٌ ، الأصل : إلا وَعْداً غروراً ، فيجيء فيه ما في " رجلٌ عَدْلٌ " ، أي : إلا وَعْداً ذا غرور ، أو على المبالغة أو على : وعداً غارّاً ، ونسب الغرورَ إليه مجازاً . الثاني : أنه مفعولٌ مِنْ أجلِه ، أي : ما يَعِدُهم ممَّا يَعِدُهم من الأماني الكاذبة إلا لأجل الغُرور . الثالث : أنه مفعولٌ

به على الاتّساع، أي: ما يَعِدُهم إلا الغرورَ نفسَه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 380.378﴾

(105/460)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) ﴾

امتنع الشقيُّ وقال: لا أسجد لغيرك بوجهٍ سَجَدْتُ لَكَ به، وكان ذلك جهلاً منه، ولو كان بالله عارفاً لكان لأمره مؤثِراً، ولمحيط نفسه تاركاً.

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62) ﴾

لو علقت به ذرّةٌ من المعرفة والتوحيد لم يحطب على نفسه بالإضلال والإغواء، لكنّه أقامه الحقُّ بذلك المقام، وأنطقه بما هو لقلوب أهل التحقيق مُتَّضِح.

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63) ﴾

هذا غاية التهديد ، وفيه إشارة وبيان بألا مراء ولا تفويتٍ ، ولو أَخرَّ عقوبةَ قومٍ فإن ذلك إمهالٌ لا إهمال ، ومكرٌ واستدراجٌ لا إنعامٌ وإكرامٌ .

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ : أي افعل ما أمكنكَ ، فلا تأثيرَ لفعلك في أحد ، فإنَّ المنشئَ والمُبْدِعَ هو الله . . وهذا غاية التهديد .

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (65) ﴾

السلطان الحجة ، فالآية تدل على العموم ، ولا حجة للعذر على أحد ، بل الحجة لله وحده .

ويقال السلطان هو التَّسلُّط ، وليس لإبليس على أحدٍ تسلط ؛ إذ المقدور بالقدرة ولا لغيره من المخلوقين تسلط من حيث التأثير في أحد ، وعلى هذا أيضاً فالآية للعموم .

ويقال أراد بقوله : ﴿ عِبَادِي ﴾ الخواصَ من المؤمنين الذين هم أهل الحفظ والرحمة والرعاية من قِبَلِ الله ، فإن وساوسَ الشيطان لا تضرُّهم لالتجائهم إلى الله ، ودوام استجارتهم بالله ، ولهذا فإن الشيطان إذا قَرُبَ من قلوب أهل المعرفة احترق بضياء معارفهم .

ويقال إنّ فرار الشيطان من المؤمنين أشدُّ من فرار المؤمنين من الشيطان .

والخواص من عباده هم الذين لا يكونون في أَسْرِ غيره ، وأَمّا مَنْ استعبده هواه .

واستمكنت منه الأطماع ، واسترَقته كل خسيسة ونقيصة فلا يكون من جملة

خواصه . . . وفي الخبر " تَعِس عَبد الدرهم تعس عبد الدينار " . ويقال في ﴿ عِبَادِى ﴾ هم المُتَفَيِّئُون في ظلال عنايته ، المُتَبَرُّون عن حَوْلِهم وقُوّتهم ، المتفرِدُون بالله بحسن التوكل عليه ودوام التعلُّق به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 356 . 358 ﴾

(107/460)

قوله تعالى ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (67) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (69) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر أنه الوكيل الذي لا كافي غيره في حفظه ، لاختصاصه بشمول علمه وتمام قدرته ، أتبعه بعض أفعاله الدالة على ذلك فقال تعالى ، عوداً إلى دلائل التوحيد الذي هو المقصود الأعظم بأحوال البحر الذي يخلصون فيه ، في أسلوب الخطاب استعطافاً لهم إلى المتاب :

﴿ ربكم ﴾ أي المحسن إليكم ، هو ﴿ الذي يزجي ﴾ أي يسوق ويدفع وينفذ ﴿ لكم ﴾ أي لمنفعتكم ﴿ الفلك ﴾ التي حملكم فيها مع أبيكم نوح عليه السلام ﴿ في البحر لتبتغوا ﴾ أي تطلبوا طلباً عظيماً بذلك أنواع المنافع التي يتعذر أو يتعسر الوصول إليها في البر ﴿ من فضله ﴾ ثم علل فعله ذلك بقوله تعالى : ﴿ إنه ﴾ أي فعل ذلك لكم لأنه ﴿ كان ﴾ أي أزلاً وأبداً ﴿ بكم ﴾ أي أيها المؤمنون خاصة ﴿ رحيماً ﴾ أي مكرماً بالتوفيق إلى فعل ما يرضيه في المتجر وغيره ، لا لشيء غير ذلك ، أو يكون ذلك خطاباً لجميع النوع فيكون المعنى : خصكم به من بين الحيوانات .

(108/460)

ولما كان المراد المؤمنين خاصة وإن كان خطاباً للمجموع ، خص المشركين كذلك فقال :

﴿ وإذا ﴾ أي فإذا نعمكم بأنواع الخير كنتم على إشراككم به سبحانه ، وإذا

﴿ مسكم ﴾ ولم يقل : أمسكم - بالإسناد إلى نفسه ، تأديباً لنا في مخاطبته بنسبة الخير دون الشر إليه ، مع اعتقاده أن الكل فعله ، وتنبيهاً على أن الشر مما ينبغي التبرؤ منه والبعد عنه ﴿ الضر في البحر ﴾ من هيج الماء واغتلامه لعصوف الريح وطمو الأمواج ﴿ ضل ﴾ أي ذهب وبطل عن ذكركم وخواطركم ﴿ من تدعون ﴾ من الموجودات كلها ﴿ إلا إياه ﴾ وحده ، فأخلصتم له الدعاء علماً منكم أنه لا ينجيكم سواه ﴿ فلما نجّاكم ﴾ من الغرق وأوصلكم بالتدريج ﴿ إلى البر أعرضتم ﴾ عن الإخلاص له ورجعتم إلى الإشراك ﴿ وكان الإنسان ﴾ أي هذا النوع ﴿ كفوراً ﴾ أي بليغ التغطية لما حقه أن يشهر ، فأظهر في موضع الإضمار تنبيهاً على أن هذا الوصف لا يخصهم ، بل يعم هذا النوع لطبعه على النقائص إلا من أخلصه الله له .

ولما كان التقدير : أعرضتم بعد إذ أنجاكم فكفرتم بذلك وكان الكفر وصفاً لكم لازماً ، فتسبب عن ذلك أنكم أمنتم ، أي فعلتم بذلك فعل الآمن ، أنكر عليهم هذا الأمر لكونه من أجهل الجهل فقال تعالى : ﴿ أفأمنتم ﴾ أي أنجوتم من البحر فأمنتم بعد خروجكم منه ﴿ أن نخسف ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ بكم ﴾ ودل على شدة إسراعهم بالكفر عند وصولهم إلى أول الساحل بقوله تعالى : ﴿ جانب البر ﴾ أي فنغيبكم فيه في أيّ جانب كان منه ، لأن قدرتنا على التغييب في التراب في جميع الجوانب كقدرتنا على التغييب في الماء سواء ، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب ﴿ أو ﴾ أمنتم إن غلظت

أكبادكم عن تأمل مثل هذا أن ﴿ يرسل عليكم ﴾ من جهة الفوق شيئاً من أمرنا ﴿ حاصباً ﴾ أي يرمي بالحصباء ، أي بالحصى الصغار - قاله الرازي في اللوامع ، وقال الرماني : حجارة يحصب بها ، أي يرمي بها ، حصبه - إذا رماه رمياً متتابعاً - انتهى .

(109/460)

يرميكم ذلك الحاصب في وجوهكم أو فوق رؤوسكم رمياً يهلك مثله كما وقع لقوم لوط أنا أرسلنا عليهم حاصباً ، وقيل : الحاصب : الريح ، ولم يقل : حاصبة لأنه وصف لزمها ، ولم يكن لها ، مذكر تنتقل إليه في حال فكان بمنزلة حائض ﴿ ثم لا تجدوا ﴾ أيها الناس ﴿ لكم ﴾ وأطلق ليعم فقال تعالى : ﴿ وكيلاً ﴾ ينجيكم من ذلك ولا من غيره كما لم تجدوا في البحر وكيلاً غيره ﴿ أم أمنتم ﴾ إن جاوزت بكم الغباوة حدها فلم تجوزوا ذلك ﴿ أن يعيدكم فيه ﴾ أي البحر بما لنا من العظمة التي تضطركم إلى ذلك فتقركم عليه وإن كرهتم ﴿ تارة أخرى ﴾ بأسباب تضطركم إلى ذلك ﴿ فنرسل عليكم ﴾ أي بما لنا من صفة الجلال ﴿ قاصفاً ﴾ وهو الكاسر بشدة ﴿ من الريح ﴾ كما عهدتم أمثاله يا من وقفت أفكارهم مع المحسوسات فرضوا بذلك أن يكونوا كالبهائم لا يفهمون إلا الجزئيات المشاهدات ﴿ فيغرقكم ﴾ أي في البحر الذي أعدناكم فيه ، لعظمتنا ﴿ بما كفرتم ﴾ كما

يفعل أحدكم إذا ظفر بمن كفر إحسانه ﴿ ثم لا تجدوا لكم ﴾ وإن أمعنتم في الطلب ، وطالت أزمانكم في إتقان السبب .

ولما كان إطلاق النفي في ختام الآية الماضية – وإن كان لإرادة التعميم – يحتمل أن يدعي تقييده بما يخالف المراد ، وكان المقصود هنا التخويف بسطوته سبحانه تارة بالخسف وتارة بغيره ، قيد بما عين المراد ، وقدم قوله تعالى : ﴿ علينا ﴾ دلالة على باهر العظمة ﴿ به ﴾ أي بما فعلنا بكم ﴿ تبيعا ﴾ أي مطالباً يطالبنا به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 406.407 ﴾

(110/460)

فصل

قال الفخر :

﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66) ﴾

اعلم أنه تعالى عاد إلى ذكر الدلائل الدالة على قدرته وحكمته ورحمته ، وقد ذكرنا أن المقصود الأعظم في هذا الكتاب الكريم تقرير دلائل التوحيد ، فإذا امتد الكلام في فصل من

الفصول عاد الكلام بعده إلى ذكر دلائل التوحيد ، والمذكور ههنا الوجوه المستنبطة من الإنعامات في أحوال ركوب البحر .

فالنوع الأول : كيفية حركة الفلك على وجه البحر وهو قوله : ﴿ رَّبُّكُمُ الذى يُزْجِى لَكُمُ الفلك فِى البحر ﴾ والإزجاء سوق الشيء حالاً بعد حال ، وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله : ﴿ بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ [يوسف : 88] والمعنى : ربكم الذي يسير الفلك على وجه البحر لتبتغوا من فضله في طلب التجارة إنه كان بكم رحيماً ، والخطاب في قوله : ﴿ رَّبُّكُمْ ﴾ وفي قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ ﴾ عام في حق الكل ، والمراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها .

والنوع الثاني : قوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِى البحر ﴾ والمراد من الضر ، الخوف الشديد كخوف الغرق : ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ ﴾ والمراد أن الإنسان في تلك الحالة لا يتضرع إلى الصنم والشمس والقمر والملك والفلك .

وإنما يتضرع إلى الله تعالى ، فلما نجاكم من الغرق والبحر وأخرجكم إلى البر أعرضتم عن الإيمان والإخلاص ﴿ وَكَانَ الإنسان كَفُورًا ﴾ لنعم الله بسبب أن عند الشدة يتمسك بفضله ورحمته ، وعند الرخاء والراحة يعرض عنه ويتمسك بغيره .

والنوع الثالث : قوله : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن نَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البر ﴾ قال الليث : الخسف والخسوف هو دخول الشيء في الشيء .

يقال : عين خاسفة وهي التي غابت حدقتها في الرأس ، وعين من الماء خاسفة أي غائرة الماء ، وخسفت الشمس أي احتجبت وكأنها وقعت تحت حجاب أو دخلت في جحر .

فقوله : ﴿ أن نَخْسِفْ بِكُمْ جَانِبَ البر ﴾ أي نغيبكم من جانب البر وهو الأرض ، وإنما قال ﴿ جَانِبَ البر ﴾ لأنه ذكر البحر في الآية الأولى فهو جانب ، والبر جانب ، خبر الله تعالى أنه كما قدر على أن يغيبهم في الماء فهو قادر أيضاً على أن يغيبهم في الأرض ، فالغرق تغييب تحت الماء كما أن الخسف تغييب تحت التراب ، وتقرير الكلام أنه تعالى ذكر في الآية الأولى أنهم كانوا خائفين من هول البحر ، فلما نجاهم منه آمنوا ، فقال : هب أنكم نجوتم من هول البحر فكيف أمنتم من هول البر ؟ فإنه تعالى قادر على أن يسلط عليكم آفات البر من جانب التحت أو من جانب الفوق ، أما من جانب التحت فبالخسف .

وأما من جانب الفوق فبإمطار الحجارة عليهم ، وهو المراد من قوله : ﴿ أَوْ يرسل عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ فكما لا يتضرعون إلا إلى الله تعالى عند ركوب البحر ، فكذلك يجب أن لا يتضرعوا إلا إليه في كل الأحوال .

ومعنى الحصب في اللغة : الرمي .

يقال : حصبت أحصب حصباً إذا رميت والحصب المرمي .

ومنه قوله تعالى :

﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] أي يلقون فيها ، ومعنى قوله : ﴿ حاصبا ﴾ أي عذاباً يحصبهم ، أي يرميهم بحجارة ، ويقال للريح التي تحمل التراب والحصباء حاصب ، والسحاب الذي يرمي بالثلج والبرد يسمى حاصباً لأنه يرمي بهما رمياً .

(112/460)

وقال الزجاج : الحاصب التراب الذي فيه حصباء والحاصب على هذا ذو الحصباء مثل اللابن والتامر وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ يعني لا تجدوا ناصراً ينصركم ويصونكم من عذاب الله ، ثم قال : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن نُعِيدَكُمْ فِيهِ ﴾ أي في البحر تارة أخرى وقوله : ﴿ فَنُرسل عَلَيْكُمْ قَاصِفًا ﴾ من الريح القاصف الكاسر يقال : قصف الشيء يقصفه قصفاً إذا كسره بشدة ، والقاصف من الريح التي تكسر الشجر ، وأراد ههنا ريحاً شديدة تقصف الفلك وتغرقهم وقوله : ﴿ فَنُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ أي بسبب كفركم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً .

قال الزجاج : أي لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم بأن يصرفه عنكم ، وتبيع بمعنى

تابع .

واعلم أن هذه الآية مشتملة على ألفاظ خمسة : وهي قوله : ﴿ أن نَخْسِفَ .

أَوْ نُرْسِلَ .

أَوْ نُعِيدَكُمْ .

فنرسل .

فنغرقكم ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو جميع هذه الخمسة بالنون ، والباقون بالياء ، فمن قرأ بالياء ، فلأن ما قبله على الواحد الغائب وهو قوله : ﴿ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نجاكم ﴾ ومن قرأ بالنون فلأن هذا البحر من الكلام ، قد ينقطع بعضه من بعض وهو سهل لأن المعنى واحد .

ألا ترى أنه قد جاء ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِى إسرائيل أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : 2] فانتقل من الجمع إلى الأفراد وكذلك ههنا يجوز أن ينتقل من الغيبة إلى الخطاب ، والمعنى واحد والكل جائز ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 10.9 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ربُّكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر ﴾

معناه يجريها ويسيرها ، قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد ، قال الشاعر :

يا أيها الراكب المزجي مطيتُه . . . سائل بني أسدٍ ما هذه الصوت

قوله عز وجل : ﴿ وإذا مَسّكم الضُّرُّ في البحر ضَلَّ من تدعون إلا إياه ﴾

فيه وجهان : أحدهما : بطل من تدعون سواه ، كما قال تعالى ﴿ أضلَّ أعمالهم ﴾ [محمد : 1] أي أبطلها .

الثاني : معناه غاب من تدعون كما قال تعالى ﴿ أئذا ضَلَلْنا في الأرض ﴾ [السجدة : 10] أي غِبْنَا .

قوله عز وجل : ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البَرِّ ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : يريد بعض البر وهو موضع حلولهم منه ، فسماه جانبه لأنه يصير بعد الخسف جانباً .

الثاني : أنهم كانوا على ساحل البحر ، وساحله جانب البر ، وكانوا فيه آمنين من أهوال البحر فحذرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر .

﴿ أو يُرْسِلَ عليكم حاصباً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني حجارة من السماء ، قاله قتادة .

الثاني : إن الحاصب الريح العاصف سميت بذلك لأنها تحصب أي ترمي بالحصباء .

والقاصف الريح التي تقصف الشجر ، قاله الفراء وابن قتيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(114/460)

وقال ابن عطية :

﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66) ﴾

" الإزجاء " : سوق الثقيل السير ، إما لضعف أو ثقل حمل أو غيره ، فالإبل الضعاف تزجى ، ومنه قول الفرزدق : [البسيط]

(115/460)

على زواحف تزجيها محاسير . . . والسحاب تزجى ومنه قوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله يزجي سحاباً ﴾ [النور : 43] والبضاعة المزجاة هي التي تحتها لاختلالها أن تساق بشفاعة وتدفع بمعاون إلى الذي يقبضها ، وإزجاء ﴿ الفلك ﴾ سوقه بالريح اللينة والمجاديف ، و﴿ الفلك ﴾ و﴿ البحر ﴾ الماء الكثير عذباً كان أو ملحاً ، وقد غلب الاسم على هذا المشهور ، و﴿ الفلك ﴾ تجري فيها . وقوله ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ لفظ يعم البصر ، وطلب الأجر ، في حج أو غزو ونحوه ، ولا خلاف في جواز ركوبه للحج والجهاد والمعاش ، واختلف في وجوبه للحج ، أعني الكثير منه ، واختلف في كراهيته للثروة وتزيد المال ، وقد روي عنه أنه قال " البحر لا أركبه أبداً " ، وهذا حديث يحتمل أنه رأي رآه لنفسه ، ويحتمل أنه أوحي إليه ذلك ، وهذه الآية توقيف على آلاء الله وفضله عند عباده . و﴿ الضر ﴾ لفظ يعم خوف الغرق ، والامتساك في المشي ، وأهول حالاته : اضطرابه وتموجه . وقوله ﴿ ضل ﴾ معناه تلف وفقد ، وهي عبارة تحقير لمن يدعي إلهاً من دون الله ، والمعنى في هذه الآية أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة ، وأن لها فضلاً ، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علماً لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام ، فوقفهم الله من ذلك على حالة البحر . وقوله ﴿ أعرضتم ﴾ أي لم تفكروا في صنع الله وقت حاجتكم إليه ، وقوله ﴿ كفوراً ﴾ أي بالنعم . و﴿ الإنسان ﴾ هنا للجنس ، وكل أحد لا يكاد يؤدي شكر الله تعالى كما يجب ، وقال الزجاج ﴿

﴿ الإنسان ﴾ يراد به الكفار ، وهذا غير بارع . وقوله ﴿ أفأمنتم ﴾ الآية ، المعنى ﴿ أفأمنتم ﴾ أيها المعرضون الناسون الشدة ، حين صرتم إلى الرخاء " أن يخسف الله بكم مكانكم من البر " إذا أنتم في قبضه القدرة في البحر والبر ، و" الحاصب " العارض الرامي بالبرد والحجارة ونحو ذلك ، ومنه قول الشاعر : [البسيط]

مستقبلين شمال الشام تضربنا . . . بحاصب كنديف القطن منثور

ومنه قول الأخطل : [الكامل]

ترمي العصاة بحاصب من ثلجها . . . حتى يبيت على العضاه جمالا

ومنه الحاصب الذي أصاب قوم لوط ، والحصب : الرمي بالحصباء ، وهي الحجارة الصغار ، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي " يخسف " بالياء على معنى يخسف الله ، وكذلك " يرسل " و" يعيد " و" يرسل " و" يغرق " ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ذلك كله بالنون ، وقرأ أبو جعفر ومجاهد " تغرقكم " بالتاء أي الريح ، وقرأ حميد " نغرقكم " بالنون حقيقة وأدغم القاف في الكاف ، ورويت عن أبي عمرو وابن محيصن وقرأ الحسن وأبو رجاء " يغرّقكم " بشد الراء .

و" الوكيل " القائم بالأمور ، و" القاصف " الذي يكسر كل ما يلقى ويقصفه ، و﴿ تارة ﴾ ، جمعها تارات وتير ، معناه : مرة أخرى ، وقرأ أبو جعفر : " من الرياح " بالجمع . و" التبيع " الذي يطلب ثأراً أو ديناً ، ومنه قول الشاعر : [الطويل]

غدوا وغدت غزلانهم فكأنها . . . ضوامن عزم لزهن تبيع

ومن هذه اللفظة قول النبي عليه السلام : " إذا اتبع أحدكم على ملي فليتبع " فالمعنى لا تحدون من يتبع فعلنا بكم ويطب نصرتكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(117/460)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ربكم الذي يزجي لكم الفُلْك ﴾

أي : يسيِّرها .

قال الزجاج : يقال : زجيت الشيء ، أي : قدمته .

قوله تعالى : ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ أي : في طلب التجارة .

وفي "من" ثلاثة أقوال .

أحدها: أنها زائدة.

والثاني: أنها للتبعيض.

والثالث: أن المفعول محذوف، والتقدير: لتبتغوا من فضله الرزق والخير، ذكرهنَّ ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿ إنه كان بكم رحيماً ﴾ هذا الخطاب خاصّ للمؤمنين، ثم خاطب المشركين فقال: ﴿ وإذا مسّكم الضرُّ في البحر ﴾ يعني: خوفَ الغَرَقِ ﴿ ضلَّ مَنْ تَدْعُون ﴾ أي: يَضِلُّ من يدعون من الآلهة، إلا الله تعالى.

ويقال: ضَلَّ بمعنى غاب، يقال: ضَلَّ الماء في اللَّبَن: إذا غاب، والمعنى: أنكم أخلصتم الدعاء [لله]، ونسيتم الأنداد.

وقرأ مجاهد، وأبو المتوكل: "ضَلَّ مَنْ يَدْعُون" بالياء.

﴿ فلما نجّاكم إلى البرِّ أعرضتم ﴾ عن الإيمان والإخلاص ﴿ وكان الإنسان ﴾ يعني الكافر ﴿ كفوراً ﴾ بنعمة ربّه.

﴿ أفأمنتم ﴾ إذا خرجتم من البحر ﴿ أن يَخْسِف بكم ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: "نخسف بكم" "أو نرسل" "أن نعيدكم" "فنرسل" "فنغرقكم" بالنون في الكل.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، بالياء في الكُلّ.

ومعنى ﴿ نخسف بكم جانب البر ﴾ أي: نغيبكم ونذهبكم في ناحية البر، والمعنى: إن

حكمي نافذ في البر نفوذه في البحر ، ﴿ أو نرسل عليكم حاصباً ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الحاصب : حجارة من السماء ، قاله قتادة .

والثاني : أنه الريح العاصف تحصب ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد للفرزدق :

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الريح تَضْرِبُهُم . . .

بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُورِ

وقال ابن قتيبة : الحاصب : الريح ، سميت بذلك لأنها تَحْصِبُ ، أي : ترمي بالحصباء ، وهي الحصى الصغار .

وقال ابن الأنباري : قال اللغويون : الحاصب : الريح التي فيها الحصى .

(118/460)

وإنما قال في الريح : "حاصباً" ولم يقل : "حاصبة" لأنه وصْفٌ لزم الريح ولم يكن لها مذكَّر تنتقل إليه في حال ، فكان بمنزلة قولهم : "حائض" للمرأة ، حين لم يُقَلْ : رجل حائض .

قال : وفيه جواب آخر ، وهو أن نعت الريح عُرِيٌّ من علامة التأنيث ، فأشبهت بذلك أسماء المذكَّر ، كما قالوا : السماء أمطر ، والأرض أنبت .

والثالث : أن الحاصب : التراب الذي فيه حصباء ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ﴾ أي : مانعاً وناصراً .

قوله تعالى : ﴿ أم أمنتم أن يعيدكم فيه ﴾ أي : في البحر ﴿ تارة أخرى ﴾ أي : مَرَّة أُخرى ، والجمع : تارات .

﴿ فيرسل عليكم قاصفاً من الريح ﴾ قال أبو عبيدة : هي التي تقصف كل شيء .

قال ابن قتيبة : القاصف : [الريح التي] تقصف الشجر ، أي : تكسره .

قوله تعالى : ﴿ فيُغْرِقكم ﴾ وقرأ أبو المتوكل ، و [أبو] جعفر ، وشيبة ، ورويس : "فتغرقكم" بالتاء ، وسكون الغين ، وتخفيف الراء .

وقرأ أبو الجوزاء ، وأيوب : "فيغرِّقكم" بالياء ، وفتح الغين ، وتشديدها .

وقرأ أبو رجاء مثله ، إلا أنه بالتاء ، ﴿ بما كفرتم ﴾ أي : بكفركم حيث نجوتم في المرة الأولى ، ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ قال ابن قتيبة : أي : من يتبع بدمائكم ، أي : يطالبنا .

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : ريح العذاب أربع ، اثنتان في البر ، واثنتان في البحر ، فاللَّتان في البرِّ : الصَّرْصَر ، والعَقِيم ، واللتان في البحر : العاصف ، والقاصف .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمُ الذي يُزْجِي لَكُمُ الفلك فِي البحر ﴾

الإزجاء : السوق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ﴾ .

وقال الشاعر :

يأيها الراكب المُزْجِي مطيّتَه . . .

سائل بني أسَد ما هذه الصَّوْتُ

وإزجاء الفلك : سوقه بالريح اللينة .

والفلك هنا جمع ، وقد تقدّم .

والبحر الماء الكثير عذبا كان أو ملحا ، وقد غلب هذا الاسم على المشهور .

وهذه الآية توقيف على آلاء الله وفضله عند عباده ، أي ربكم الذي أنعم عليكم بكذا وكذا فلا تشركوا به شيئاً .

﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي في التجارات .

وقد تقدّم .

﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ﴾

"الضُرُّ" لفظ يعم خوف الغرق والإمساك عن الجَرْي .

وأهوال حالاته اضطرابه وتموّجه .

﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ "ضلّ" معناه تلِف وفُقد ، وهي عبارة تحقيرٍ لمن يدعي إلهاً من دون الله .

والمعنى في هذه الآية : أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة ، وأن لها فضلاً ، وكلّ واحد منهم بالفطرة يعلم علما لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام ، فوقّفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل .

﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى البر أَعْرَضْتُمْ ﴾ أي عن الإخلاص .

﴿ وَكَانَ الإنسان كَفُوراً ﴾ الإنسان هنا الكافر .

وقيل : وطبع الإنسان كفورا للنعم إلا مَن عَصَمه الله ، فالإنسان لفظ الجنس .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البر ﴾

بيّن أنه قادر على هلاكهم في البر وإنْ سَلِموا من البحر .

والخَسْف : أن تنهار الأرض بالشيء ، يقال : بئر خسيف إذا انهدم أصلها .

وعين خاسف أي غارت حدقتها في الرأس .

وعَيْنٌ من الماء خاسفة أي غار ماؤها .

وخَسَفت الشمس أي غابت عن الأرض .

وقال أبو عمرو : والخَسِيف البئر التي تحفر في الحجارة فلا ينقطع ماؤها كثرةً .

والجمع خُسُف .

وجانب البر : ناحية الأرض ؛ وسماه جانباً لأنه يصير بعد الخسف جانباً .

وأيضاً فإن البحر جانب والبَرّ جانب .

وقيل : إنهم كانوا على ساحل البحر ، وساحله جانب البر ، وكانوا فيه آمنين من أهوال البحر ، فحذّرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر .

﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ﴾ يعني ريحا شديدة ، وهي التي تَرْمي بالحصباء ، وهي الحصى الصغار ، قاله أبو عبيدة والقُتَبِيّ .

وقال قتادة : يعني حجارة من السماء تَحصبهم ، كما فُعل بقوم لوط .

ويقال للسحابة التي ترمي بالبَرَد : حاصب ، وللريح التي تحمل التراب والحصباء حاصب وحَصِبة أيضاً .

قال لَبِيد :

جرّت عليها أن خَوَتْ من أهلها . . .

أذيالَها كلُّ عَصُوفٍ حَصِبْه

وقال الفَرَزْدَق :

مستقبلين شَمَالَ الشام يضربنا . . .

بحاصب كنَدِيف القطن منثور

﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ أي حافظا ونصيرا يمنعكم من بأس الله .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخرى ﴾

يعني في البحر .

﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الريح ﴾ القاصف : الريح الشديدة التي تكْسر بشدة ؛ من قَصَفَ الشيء يَقْصِفه ؛ أي كسره بشدة .

والقصف : الكسر ؛ يقال : قصفت الريح السفينة .

وريح قاصف : شديدة .

ورعد قاصف : شديد الصوْت .

يقال : قَصَفَ الرعدُ وغيرهُ قصيفا .

والقَصيف : هشيم الشّجر .

والتقصّف التكسر .

والقصف أيضاً : اللّهو واللعب ، يقال : إنها مُولَدة .

﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ أي بكفركم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو، "نَخْسِفَ بكم" "أو نُرْسِل عليكم" "أن نعيدكم" "فنُرْسِل

عليكم" "فنُغرِقكم" بالنون في الخمسة على التعظيم، ولقوله: "علينا" الباقون بالياء؛ لقوله

في الآية قبل: "إياه".

وقرأ أبو جعفر وشيبة ورُوَيْس ومجاهد "فتغرِقكم" بالتاء نعتا للريح.

(121/460)

وعن الحسن وقتادة "فيغرّقكم" بالياء مع التشديد في الراء.

وقرأ أبو جعفر "الرياح" هنا وفي كل القرآن.

وقيل: إن القاصف المهلكةُ في البر، والعاصفَ المغرقةُ في البحر؛ حكاه الماورديّ.

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً ﴾ قال مجاهد: ثائراً.

النحاس: وهو من الثأر.

وكذلك يقال لكل من طلب بثأر أو غيره: تبيع وتابع؛ ومنه "فاتّباع بالمعروف" أي

مطالبة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(122/460)

وقال أبو حيان :

﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾

الحاصب الريح ترمي بالحصباء قاله الفراء ، والحصب الرمي بالحصباء وهي الحجارة الصغار .

وقال الفرزذق :

مستقبلين شمال الشام نضربهم . . .

بحاصب كنديف القطن منثور

والحاصب العارض الرامي بالبرد والحجارة .

تارة مرة وتجمع على تير وتارات .

قال الشاعر :

وإنسان عيني يحسر الماء تارة . . .

فيبدوا وتارات يجم فيغرق

القاصف الذي يكسر كل ما يلقى ، ويقال قصف الشجر يقصفه قصفاً كسره .

وقال أبو تمام :

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت . . .

عيدان نجد ولا يعبأن بالرتم

وقيل : القاصف الريح التي لها قصيف وهو الصوت الشديد كأنها تتقصف أي تتكسر .

﴿ ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلاّ إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ .

لما ذكر تعالى وصف المشركين في اعتقادهم آلهتهم وأنها تضر وتنفع ، وأتبع ذلك بقصة إبليس مع آدم ، وتمكينه من وسوسة ذريته وتسويله ذكر ما يدل من أفعاله على وحدانيته ، وأنه هو النافع الضار المتصرف في خلقه بما يشاء ، فذكر إحسانه إليهم بحراً وبراً ، وأنه تعالى متمكن بقدرته مما يريده .

وإزجاء الفلك سوقها من مكان إلى مكان بالريح اللينة والمجاديف ، وذلك من رحمته بعباده وابتغاء الفضل طلب التجارة أو الحج فيه أو الغزو .

والضر في البحر الخوف من الغرق باضطرابه وعصف الريح ، ومعنى ﴿ ضل ﴾ ذهب عن أوهامكم من تدعونه إلهاً فيشفع أو ينفع ، أو ﴿ ضل ﴾ من تعبدونه إلاّ الله وحده فتفردونه إذ ذاك بالالتجاء إليه والاعتقاد أنه لا يكشف الضر إلاّ هو ولا يرجون لكشف الضر غيره .

ثم ذكر حالهم إذ كشف عنهم من إعراضهم عنه وكفرانهم نعمة إنجائهم من الغرق ، وجاءت صفة ﴿ كفوراً ﴾ دلالة على المبالغة ، ثم لم يخاطبهم بذلك بل أسند ذلك إلى الإنسان لطفاً بهم وإحالة على الجنس إذ كل أحد لا يكاد يؤدّي شكر نعم الله .

وقال الزجاج : المراد بالإنسان الكفار ، والظاهر أن ﴿ إلاّ إياه ﴾ استثناء منقطع لأنه لم يندرج في قوله ﴿ من تدعون ﴾ إذ المعنى ضلت آلهتهم أي معبوداتهم وهم لا يعبدون الله .

وقيل : هو استثناء متصل وهذا على معنى ضل من يلجؤون إليه وهم كانوا يلجؤون في بعض أمورهم إلى معبوداتهم ، وفي هذه الحالة لا يلجؤون إلاّ إلى الله والهمزة في ﴿ أفأمنتم ﴾ للإنكار .

قال الزمخشري : والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم انتهى .

وتقدم لنا الكلام معه في دعواه أن الفاء والواو في مثل هذا التركيب للعطف على محذوف بين الهمزة وحرف العطف ، وأن مذهب الجماعة أن لا محذوف هناك ، وأن الفاء والواو

للعطف على ما قبلها وأنه اعتنى بهمزة الاستفهام لكونها لها صدر الكلام فقدمت والنية التأخير، وأن التقدير فأمنتم.

وقد رجع الزمخشري إلى مذهب الجماعة والخطاب للسابق ذكرهم أي ﴿ أفأمنتم ﴾ أيها الناجون المعرضون عن صنع الله الذي نجاكم، وانتصب ﴿ جانب ﴾ على المفعول به بنخسف كقوله ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ والمعنى أن نغيره بكم فتهلكون بذلك.

وقال الزمخشري: أن نقلبه وأنتم عليه.

وقال الحوفي: ﴿ جانب البر ﴾ منصوب على الظرف، ولما كان الخسف تغييباً في التراب قال: ﴿ جانب البر ﴾ و﴿ بكم ﴾ حال أي نخسف ﴿ جانب البر ﴾ مصحوباً بكم.

وقيل: الباء للسبب أي بسببكم، ويكون المعنى ﴿ جانب البر ﴾ الذي أنتم فيه، فيحصل بخسفه إهلاكهم وإلاّ فلا يلزم من خسف ﴿ جانب البر ﴾ بسببهم إهلاكهم.

قال قتادة: الحاصب الحجارة.

وقال السدّي: رام يرميكم بحجارة من سجيل، والمعنى أن قدرته تعالى بالغة فإن كان

نجاكم من الغرق وكفرتم نعمته فلا تأمنوا إهلاكه إياكم وأنتم في البر ، إما بأمر يكون من تحتكم وهو تغوير الأرض بكم ، أو من فوقكم بإرسال حاصب عليكم ، وهذه الغاية في تمكن القدرة ثم ﴿ لا تجدوا ﴾ عند حلول أحد هذين بكم من تكلون أموركم إليه فيتوكل في صرف ذلك عنكم .

و﴿ أم ﴾ في ﴿ أم أمنتم ﴾ منقطعة تقدر ببل ، والهمزة أي بل ﴿ أمنتم ﴾ والضمير في ﴿ فيه ﴾ عائد على البحر ، وانتصب تارة على الظرف أي وقتاً غير الوقت الأول ، والباء في ﴿ بما كفرتم ﴾ سببية وما مصدرية ، أي بسبب كفركم السابق منكم ، والوقت الأول الذي نجاكم فيه أو بسبب كفركم الذي هو دأبكم دائماً .

والضمير في ﴿ به ﴾ عائد على المصدر الدال عليه فنغرقكم ، إذ هو أقرب مذكور وهو نتيجة الإرسال .

وقيل عائد على الإرسال .

وقيل : عليهما فيكون كاسم الإشارة والمعنى بما وقع من الإرسال والإغراق .

والتبيع قال ابن عباس : النصير ، وقال الفراء : طالب الثأر .

وقال أبو عبيدة : المطالب .

وقال الزجّاج : من يتبع بالإنكار ما نزل بكم ، ونظيره قوله تعالى ﴿ فسواها ولا يخاف عقباها ﴾ وفي الحديث : " إذا اتّبع أحدكم على ملىء فليتبع " وقال الشماخ :

كما لاذ الغريم من التبيع . . .

ويقال : فلان على فلان تبيع ، أي مسيطر بحقه مطالب به .

وأنشد ابن عطية :

غدوا وغدت غزلانهم فكأنها . . .

ضوامن غرم لدهن تبيع

أي مطالب بحقه .

(125/460)

وقرأ ابن كثير وأبو عمر : ونخسف وأو نرسل وأن نعيدكم وفنرسل وفنغرقكم خمستها بالنون ، وباقي القراء بياء الغيبة ومجاهد وأبو جعفر فتغرقكم بناء الخطاب مسنداً إلى الريح والحسن وأبو رجاء ﴿ فيغرقكم ﴾ بياء الغيبة وفتح الغين وشد الراء ، عدّاه بالتضعيف ، والمقري لأبي جعفر كذلك إلاّ أنه بتاء الخطاب ، وحميد بالنون وإسكان الغين وإدغام القاف في الكاف ، ورويت عن أبي عمرو وابن محيصن .

وقرأ الجمهور : ﴿ من الريح ﴾ بالإفراد وأبو جعفر من الرياح جمعاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ رَّبُّكُمُ الذى يُزْجِى لَكُمُ الفلك فِى البحر ﴾

مبتدأ وخبر والإزجاءُ السوقُ حالاً بعد حال ، أي هو القادرُ الحكيمُ الذي يسوق لمنافعكم الفُلك ويُجريها في البحر ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ من رزقه الذي هو فضلٌ من قِبَله أو من الربح الذي هو مُعطيه ، ومن مزيدةٌ أو تبعيضة ، وهذا تذكيرٌ لبعض النعم التي هي دلائلُ التوحيد وتمهيدٌ لذكر توحيدِهم عند مِساس الضرِّ تكملةً لما مر من قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَمْلِكُونَ ﴾ الآية ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ ﴾ أزلاً وأبداً ﴿ رَّحِيماً ﴾ حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه وسهّل عليكم ما يعسُر من مباديه ، وهذا تذييلٌ فيه تعليلٌ لما سبق من الإزجاء لابتغاء الفضلِ ، وصيغةُ الرحيم للدِلالة على أن المرادَ بالرحمة الرحمةُ الدنيويةُ والنعمةُ العاجلة المنقسمة إلى الجليلة والحقيرة .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِى البحر ﴾

خوفَ الغرقِ فيه ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ ﴾ أي ذهب عن خواطركم ما كنتم تدعون من دون الله من الملائكة أو المسيحِ أو غيرهم ﴿ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ وحده من غير أن يخطُر ببالكم أحدٌ

منهم وتدعوه لكشفه استقلالاً أو اشتراكاً ، أو ضل كلُّ مَنْ تدعونه عن إغاثتكم وإنقاذِكم ولم يقدِر على ذلك إلا الله ، على الاستثناء المنقطع ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُم ﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿ إِلَى البَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ عن التوحيد أو اتسعتم في كُفران النعمة ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ تعليلٌ لما سبق من الإعراض .

(127/460)

﴿ أَفَأَمِنتُمْ ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البَرِّ ﴾ الذي هو مأمنُكم أي يقلِبه ملتبساً بكم أو بسبب كونِكم فيه ، وفي زيادة الجانبِ تنبيهٌ على تساوي الجوانب والجهاتِ بالنسبة إلى قدرته سبحانه وتعالى وقهرِه وسلطانِه ، وقرىء بنون العظمة ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ ﴾ من فوقكم وقرىء بالنون ﴿ حاصبا ﴾ ريحاً ترمي بالحصباء ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ يحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم فإنه لا رادّ لأمره الغالب .

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ ﴾ في البحر ، أُوثرت كلمةُ في على كلمة إلى المنبئةِ عن مجرد الانتهاء للدِلالة على استقرارهم فيه ﴿ تَارَةً أخرى ﴾ إسنادُ الإعادة إليه تعالى مع أن العَوْدَ إليه باختيارهم باعتبار خلقِ الدواعي الملجئةِ لهم إلى ذلك ، وفيه إيماءٌ إلى كمال

شدةِ هولِ ما لاقَوْه في التارة الأولى بحيث لولا الإعادةُ لما عادوا ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ ﴾ وأنتم في البحر وقرىء بالنون ﴿ قَاصِفًا مِّنَ الريح ﴾ وهي التي لا تمر بشيء إلا كسرَتْه وجعلتْه كالرميم ، أو التي لها قصيفٌ وهو الصوتُ الشديد كأنها تتقصّف أي تتكسر ﴿ فَيُغْرِقَكُم ﴾ بعد كسر فُلْكِكم كما ينبىء عنه عنوانُ القصفِ ، وقرىء بالنون وبالتاء على الإسناد إلى ضمير الريح ﴿ بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ بسبب إشراكِكم أو كفرانِكم لنعمة الإنجاء ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ أي ثائراً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً منا ودَرَكاً للثأر من جهتنا كقوله سبحانه : ﴿ وَلاَ يَخَافُ عقباها ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(128/460)

وقال الآلوسى :

﴿ رَّبُّكُمُ الذي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ﴾

مبتدأ وخبر ، وقيل الموصول صفة ﴿ رَّبُّكُمْ ﴾ وهو صفة لقوله تعالى ﴿ الذى فَطَرَكُمْ ﴾ [الإسراء : 51] أو بدل منه وذلك جائز وإن تباعد ما بينهما اه ، وفيه ما فيه ، وأصل الأزجاء السوق حالاً بعد حال والمراد به الإجراء وكأن اختياره عليه لما أنه أدل منه

على القسر وهو أوفق بالمقام وأعظم في الأنعام أي هو سبحانه وتعالى القادر الحكيم الذي يجري لنفكم السفن في البحر بالريح اللينة وبالآلات حسبما جرت به عادته تعالى ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ تصريح بالنفع أي لتطلبوا من رزقه الذي هو فضل من قبله سبحانه أو من الربح الذي هو جل شأنه معطيه ، ومن تبعيضية وتفسير الفضل بالحج أو الغزو غير مناسب ، وهذا تذكير لبعض النعم التي هي دلائل التوحيد الذي هو المراد الأصلي من البعثة وتمهيد لذكر توحيدهم عند مساس الضر تكملة لما مر من قوله سبحانه : ﴿ فَلاَ يَمْلِكُونَ ﴾ [الإسراء : 56] الآية ﴿ إِنَّهُ كَانَ ﴾ أزلاً وأبداً ﴿ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه وسهل عليكم ما يعسر من مباديه ، وهذا تذليل فيه تعليل لما سبق من الإجاء والابتغاء للفضل ، وصيغة الرحيم كما في إرشاد العقل السليم للدلالة على أن المراد بالرحمة الرحمة الدنيوية والنعمة العاجلة المنقسمة إلى الجليلة والحقيرة ، وهو مبني على اختصاص الرحيم بالدنيا كما هو المشهور ، وعليه يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا ، وقيل بعدم الاختصاص وعليه يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ﴾

خوف الغرق بعصف الريح وتقاذف الأمواج ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ ﴾ أي ذهب عن خواطركم كل من تدعونه وترجون نفعه فلا تذكرونه ﴿ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ جل وعلا فإنكم تذكرونه وحده سبحانه لا تذكرون سواه ولا يخطر ببالكم غيره تعالى لكشف ما حل بكم من الضر استقلالاً أو اشتراكاً فالمراد بضلالهم غيبتهم عن الكفر لا عن النظر والحسن لأنه أمر معلوم من قولهم : ضل عنه كذا إذا نسيه ، وفي "الكشف" هو من ضل عنه كذا إذا ضاع ولا حاجة إلى تضمين أو من ضله فلان ذهب عنه فلم يقدر عليه ذكره الأزهري وأنشد :

والسائل المتبغى كرائمها . . .

يعلم أني تضلني عللي

أي تفارقني وتذهب عني فلا أتعلل بعلة وهذا أظهر ، نعم الضلال راجع إلى الذكر لا بمعنى إضماره فإنه ركيك يقال ضل عن خاطري كذا إذا لم تذكره فإنه ضلال له لا أنه ضلال ذكره ولا تقول ضل عن خاطري ذكره وكذلك ضلني الأمراه ، والدعاء في هذا على ظاهره ؛ والاستثناء متصل بناء على أن ما عبارة عن المدعوين مطلقاً وأنهم كانوا يدعون الله تعالى وغيره في الحوادث ، وإن كانت ما عبارة عن آلهتهم الباطلة فقط وأنهم كانوا في حالة السراء يدعونها وحدها كما يدل عليه ظاهر ما بعد فالاستثناء منقطع ، وفسر الدعاء على هذا بدعاء العبادة واللجأ .

وقال أبو حيان : الظاهر الانقطاع لأنه تعالى لم يندرج في من تدعون إذ المعنى ضلت آلهتهم

أي معبوداتهم وهم لا يعبدون الله تعالى .

وتعقب بأن مقتضى كونهم مشركين أنهم يعبدونه سبحانه أيضاً لكن على طريق الإشراك بل قولهم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : 3] كما قص سبحانه عنهم يقتضي أنه جل مجده المعبود الحقيقي عندهم ، وقد يقال : إن الشارع أسقط مثل هذه العبادة عن درجة الاعتبار فهم غير عابدين الله جل وعلا شرعاً بل قيل إنهم غير عابدين لغة أيضاً لأن العبادة لغة غاية الخضوع والتذلل ولا يتحقق ذلك مع الشركة ولو على الوجه الذي زعموه فتأمل .

(130/460)

وجوز غير واحد أن يكون المعنى ضل من تدعونه عن إغاثتكم إلا إياه تعالى ، والضلال فيه إما بمعنى الغيبة أو بمعنى عدم الاهتداء منه كأنه قيل ضل عن حجة الصواب في انقاذكم ولم يقدر على ذلك ، وأمر الاستثناء من الاتصال والانقطاع ومبنى كل على حاله ، والزمخشري جوز أن يكون المعنى ضل من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم ولكن الله تعالى هو الذي ترجونه وجعل الاستثناء عليه منقطعاً فقيل إن ذلك لتخصيصه المدعوين بالآلهة .

وفي "الكشف" لعل الوجه فيه أنه تعالى ما كانوا يدعونه أي دعاء العبادة واللجأ إلا في تلك الحالة وأما في حالة السراء فيخصون آلهتهم بالدعاء ، والتحقيق أن الضلال بهذا المعنى لم يتناول الحق سبحانه لأن معناه ضل المدعوون وغابوا عن إغاثتهم ولا يراد غابوا وحضر جل وعلا بل المراد ولكن رجوا أن يغيثهم ولا يخذلهم فعل المدعوين على حسبانهم وهذا هو الوجه إن شاء الله تعالى اه.

ومبني التحقيق لا يخفى على المتدرب في علم النحو ، هذا ومن اللطائف أن بعض الناس قال لبعض الأئمة : أثبت لي وجود الله تعالى ولا تذكر لي الجوهر والعرض فاقل له : هل ركبت البحر ؟ قال : نعم قال : فهل عصفت الريح ؟ قال : نعم قال : فهل أشرفت بك السفينة على الغرق ؟ قال : نعم قال : فهل عصفت الريح ؟ قال : نعم قال : فهل أشرفت بك السفينة على الغرق ؟ قال : نعم قال : فهل يئست من نفع من في السفينة ونحوهم من المخلوقين لك وإنجائهم مما أنت فيه إياك ؟ قال : نعم قال : فهل بقى قلبك متعلقاً بشيء غير أولئك ؟ قال : نعم قال : ذلك هو الله عز وجل فاستحس ذلك.

﴿ فَلَمَّا ﴾ من الضر وأوصلكم ﴿ نجاكم إِلَى البر أَعْرَضْتُمْ ﴾ عن ذكره تعالى بعد أن كنتم غير ذاكرين إلا إياه سبحانه أو أعرضتم عن توحيده جل وعلا أو عن شكره عز وجل بتوحيده وطاعته سبحانه أو توغلتم في التوسع في كفران النعمة على أنه من العرض مقابل

الطول وجعل كناية عن ذلك كما في قول ذي الرمة :

عطاء فتى تمكن في المعالي . . .

(131/460)

فأعرض في المكارم واستطالا

وكأنه أريد أعرضتم واستطلتم في الكفران إلا أنه استغنى بذكر العرض عن ذكر الطول للزومه له .

﴿ وَكَانَ الإنسان كَفُورًا ﴾ كالعليل للإعراض وهو بيان لحكم الجنس ويعلم منه حكم أولئك المخاطبين وفيه لطافة حيث أعرض سبحانه عن خطابهم بخصوصهم وذكر أن جنس الإنسان مجبول على الكفران فلما أعرضوا أعرض الله سبحانه عنهم .

﴿ أَفَأَمِنتُمْ ﴾ الهمزة للإنكار على معنى أنه لا ينبغي الأمن ، والفاء للعطف على محذوف متوسط بينها وبين الهمزة أي أنجوتم فأمنتم وهو مذهب بعض النحويين ، واختار بعضهم أن الهمزة مقدمة من تأخير لأصالتها في الصدارة والعطف على ما قبله ، وجملة ﴿ كَانَ الإنسان ﴾ [الإسراء : 67] الخ معترضة بين المتعاطفين ولا حذف في مثل ذلك وهو مذهب الأكثرين لكن لا يظهر تسبب الإنكار للأمن على ما قبل على ما يقتضيه هذا

المذهب بل الظاهر ترتبه على النجاة فقط ولا مدخل للإعراض في تسبب الإنكار ، والحق عندي في أمثال ذلك ما فيه استقامة المعنى من غير تكلف ولا يتعين التزام أحد المذهبين وإن أدى إلى التكلف فإنه تعصب محض ، والخطاب لمن تقدم أفأمنتم أيها المعرضون عند النجاة ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البر ﴾ الذي هو مأمنكم أي أن يغيبه الله تعالى ويذهب به في أعماق الأرض مصاحباً بكم أي وأنتم عليه على أن الباء للمصاحبة والجار والمجرور في موضع الحال ، وجوز أن تكون الباء للسببية والجار والمجرور متعلق بما عنده أي أن يغيبه سبحانه بسببكم وتعقب بأنه لا يلزم من قلبه بسببهم أن يكونوا مهلكين مخسوفاً بهم .

وأجيب بأنه حيث كان المراد من جانب البر جانبه الذي هم فيه استلزم خسفه هلاكهم ولولا هذا لم يكن في التوعد به فائدة ، ونصب ﴿ جَانِبٍ ﴾ في الوجهين على أنه مفعول به ليخسف .

وفي "الدر المصون" أنه مصوب على الظرفية وحينئذ يجوز كون الباء للتعدية على معنى أفأمنتم أن يغيبكم في ذلك .

وفي "القاموس" خسف الله تعالى بفلان الأرض غيبه فيها ، والظاهر أنه بيان للمعنى اللغوي للفظ ، وفي ذكر الجانب تنبيه على أنهم عندما وصلوا الساحل أعرضوا أو ليكون المعنى أن الجوانب والجهات متساوية بالنسبة إلى قدرته سبحانه وقهره وسلطانه فله في كل جانب براً كان أو بحراً سبب مرصد من أسباب الهلكة فليس جانب البحر وحده مختصاً بذلك بل إن كان الغرق في جانب البحر ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف لأنه تغييب تحت التراب كما أن الغرق تغييب تحت الماء فعلى العاقل أن يخاف من الله تعالى في جميع الجوانب وحيث كان .

والأول على تقدير أن يراد بجانب البر طرفه مما يلي البحر وهو الساحل ، وهذا على احتمال أن يراد به ما يشتمل جميع جوانبه .

وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو ﴿ نَخْسِفْ ﴾ بنون العظمة وكذا في الأربعة التي بعده .

﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ ﴾ من فوقكم ﴿ حاصبا ﴾ أخرج ابن المنذر عن ابن عباس أنه قال : هو مطر الحجارة أي مطراً يحصبكم أي يرميكم بالحصباء وهو صغار الحجارة .

وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن قتادة أنه فسر الحاصب بالحجارة نفسها ولعله حينئذ صيغة نسبة أي ذا حصب ويراد منه الرمي ، وقال الفراء : الحاصب الريح التي ترمى بالحصباء ، وقال الزجاج

: هو التراب الذي فيه الحصباء والصيغة عليه صيغة نسبة أيضاً ، وجاء بمعنى ما تناثر من دقاق الثلج والبرد ، ومنه قول الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام تضربهم . . .

بحاصب كنديف القطن منثور

(133/460)

وبمعنى السحاب الذي يرمى بهما ، واختار الزمخشري ومن تبعه تفسير الفراء والظاهر أن الكلام عليه على حقيقته فالمعنى أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء يرجمكم بها فيكون أشد عليكم من الغرق في البحر ، ويقال نحو هذا على سائر تفاسير الحاصب ، وقال الخفاجي فيوصف الريح بالرمي بالحصباء : إنه عبارة عن شدتها ، وذكرها إشارة إلى أنهم خافوا إهلاك الريح في البحر فقيل إن شاء أهلككم بالريح أيضاً ، ولا أدري ما المانع من إرادة الظاهر والشدة تلزم الرمي المذكور عادة والإشارة ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ تكلون إليه أموركم فيحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم غيره جل وعلا فإنه لا راد لأمره الغالب جل جلاله .

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ ﴾ أي بل أأمنتم ﴿ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ ﴾ أي في البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم

بركوب الفلك لا في الفلك لأنها مؤنثة وأوثرت كلمة في على كلمة إلى المنبئة عن مجرد الانتهاء على استقرارهم فيه ﴿ تَارَةً أخرى ﴾ أي مرة غير المرة الأولى ، وهو منصوب على الظرفية ويجمع على تارات وتير كما في قوله :

يقوم تارات ويمشي تيرا . . .

وربما حذفوا منه الهاء كقوله :

بالويل تاراً والثبور تارا . . .

وإسناد الإعادة إليه تعالى مع أن العود باختيارهم ومما ينسب إليهم وإن كان مخلوقاً له سبحانه كسائر أفعالهم باعتبار خلق الدواعي فيهم الملجئة إلى ذلك ، وفيه إيماء إلى كمال شدة هول ما لاقوه في التارة الأولى بحيث لولا الإعادة ما عادوا ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ ﴾ وأنتم في البحر ﴿ قَاصِفًا مِّنَ الريح ﴾ وهي الريح الشديدة التي تقصف ما تمر به من الشجر ونحوه أو التي لها قصيف وهو الصوت الشديد كأنها تتقصف أي تتكسر .

وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : القاصف من الريح الريح التي تغرق ، وقيل : الريح المهلكة في البر حاصب والريح المهلكة في البحر قاصف والعاصف كالقاصف كما روى عن عبد الله بن عمرو ، وفي رواية عن ابن عباس تفسير القاصف بالعاصف ، وقرأ أبو جعفر ﴿ مِنْ الرياح ﴾ بالجمع ﴿ فَيُغْرِقَكُم ﴾ الله سبحانه بواسطة ما ينال فلككم القاصف ، وقرأ أبو جعفر ﴿ فتغرقكم ﴾ بتلتاء ثالثة الحروف على أن الفعل مسند إلى الريح ، والحسن .

وأبو بجار ﴿ الريح فَيُغْرِقَكُم ﴾ بالياء آخر الحروف وفتح الغين وشد الراء ، وفي رواية عن أبي جعفر كذلك إلا أنه بالتاء لا الياء ، وقرأ حميد بالنون وإسكان الغين وإدغام القاف في الكاف ورويت عن أبي عمرو .

وابن محيصن ﴿ بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ أي بسبب كفركم السابق وهو إعراضهم عند الانجاء في المرة الأولى ، وقيل : بسبب كفركم الذي هو دأبكم ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ أي نصيراً كما روى عن ابن عباس أو ثائراً يطلبنا بما فعلنا انتصاراً منا أو دركاً للثار من جهتنا فهو كقوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهَا وَلاَ يَخَافُ عقباها ﴾ [الشمس : 14 ، 15] كما روى عن مجاهد ، وضمير ﴿ بِهِ ﴾ قيل للإرسال ، وقيل : للإغراق ، وقيل : لهما باعتبار ما وقع ونحوه كما أشير إليه وكأنه سبحانه لما جعل الغرق بين الإعادة إلى البحر انتقاماً في مقابلة الكفر عقبه تعالى بنفي وجدان التبيع فكأنه قيل ننتقم من غير أن يقوم لنصركم فهو

وعيد على وعيد وجعل ما قبل من شق العذاب كمس الضر في البحر عقبه بنفي وجدان الوكيل فكأنه قيل لا تجدون من تتكلون عليه في دفعه غيره تعالى لقوله سبحانه : ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : 67] وهذا اختيار "صاحب الكشف" فلا تغفل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(135/460)

وقال ابن عاشور :

﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66) ﴾

استئناف ابتدائي وهو عوْد إلى تقرير أدلة الانفراد بالتصريف في العالم المشوبة بما فيها من نعم على الخلق ، والدالة بذلك الشوب على إتقان الصنع ومحكم التدبير لنظام هذا العالم وسيادة الإنسان فيه وعليه .

ويشبه أن يكون هذا الكلام عوداً إلى قوله : ﴿ ويدعُ الإنسان بالشر دعاءه بالخير ﴾ [الإسراء : 11] كما تقدم هناك فراجعه .

فلما جرى الكلام على الإنذار والتحذير أعقب هنا بالاستدلال على صحة الإنذار

والتحذير .

والخطاب لجماعة المشركين كما يقتضيه قوله عقبه : ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾ [الإسراء : 67] ، أي أعرضتم عن دعائه ودعوتم الأصنام ، وقولُه : ﴿ ضل من تدعون إلا إياه ﴾ [الإسراء : 67] .

وافتتحت الجملة بالمسند إليه معرفاً بالإضافة ومستحضراً بصفة الربوبية لاستدعاء إقبال السامعين على الخبر المؤذن بأهميته حيث افتتح بما يترقب منه خبر عظيم لكونه من شؤون الإله الحق وخالق الخلق ومدبر شؤونهم تدبير اللطيف الرحيم ، فيوجب إقبال السامع بِشَرَاشِرِه إن مؤمناً متذكراً أو مشركاً ناظراً متدبراً .

وجيء بالجملة الإسمية لدلالتها على الدوام والثبات .

وبتعريف طرفيها للدلالة على الانحصار ، أي ربكم هو الذي يزجي لكم الفلك لا غيرُه ممن تعبدونه باطلاً وهو الذي لا يزال يفعل ذلك لكم .

وجيء بالصلة فعلاً مضارعاً للدلالة على تكرر ذلك وتجدده .

فحصلت في هذه الجملة على إيجازها معان جمة خصوصية .

وفي ذلك حد الإعجاز .

ويُزجي : يسوق سوقاً بطيئاً شبه تسخير الفلك للسير في الماء بإزجاء الدابة المثقلة بالحمل .

والفُلك هنا جمع لا مفرد .

والبحر : الماء الكثير فيشمل الأنهار كالفرات والدجلة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ والفلك التي تجري في البحر ﴾ في سورة [البقرة : 164] .

والابتغاء : الطلب .

(136/460)

والفضل : الرزق ، أي للتجارة وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ في سورة [البقرة : 198] .

وهذا امتنان على الناس كلّهم مناسب لعموم الدعوة ، لأنّ أهل مكة ما كانوا ينتفعون بركوب البحر وإنما ينتفع بذلك عرب اليمن وعرب العراق والناس غيرهم .

وجملة إنه كان بكم رحيماً ﴾ تعليل وتنبيه لموقع الامتنان ليرفضوا عبادة غيره مما لا أثر له في هذه المنة .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾

بعد أن ألزمهم الحجة على حق إلهية الله تعالى بما هو من خصائص صنعه باعترافهم ، أعقبه بدليل آخر من أحوالهم المتضمنة إقرارهم بانفراده بالتصرف ثم بالتعجيب من

مناقضة أنفسهم عند زوال اضطرارهم .

فجملة ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ خبر مستعمل في التقرير وإلزام الحجة إذ لا يخبر أحد عن فعله إخبارا ً حقيقيا ً .

وجملة ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾ خبر مستعمل في التعجيب والتوبيخ .

وضر البحر : هو الإشراف على الغرق ؛ لأنه يزعج النفوس خوفا ً ، فهو ضر لها .

و﴿ ضل ﴾ بضاد ساقطة فعل من الضلال ، وهو سلوك طريق غير موصلة للمقصود خطأ .

والعدول إلى الموصوليةِ لما تؤذن به الصلة من عمل اللسان ليتأتى الإيجاز ، أي من يتكرر دعاؤكم إياهم ، كما يدل عليه المضارع .

فالمعنى غاب وانصرف ذكر الذين عادتكم دعاؤهم عن ألسنتكم فلا تدعونهم ، وذلك بقرينة ذكر الدعاء هنا الذي متعلقه اللسان ، فتعين أن ضلالهم هو ضلال ذكر أسمائهم ، وهذا إيجاز بديع .

والاستثناء من عموم الموصول ، لأن اسم الله مما يجري على ألسنتهم في الدعاء تارة كما تجري أسماء الأصنام ، فالاستثناء متصل .

ويجوز أن يكون اسم الموصول في قوله: ﴿ من تدعون ﴾ خاصاً بأصنامهم لأنهم يكثر دعاؤهم إياها دون اسم الله تعالى، كما هو مقتضى التجدد فإذا اشتد بهم الضر دعوا الله كما قال تعالى: ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ [العنكبوت: 65].

ويكون الاستثناء منقطعاً.

ونصب المستثنى لا يختلف في الوجهين جرياً على اللغة الفصحى.

ولعل هذا الوجه أرجح لأنه أنسب بقوله: أعرضتم ﴾.

والإعراض: الترك، أي تركتم دعاء الله، بقرينة الجمع بين مقتضى المضارع من إفادة التجدد وبين مقتضى الاستثناء من انحصار الدعاء في الكون باسمه تعالى.

وقوله: ﴿ إلى البر ﴾ عدي بحرف (إلى) لتضمين ﴿ نجاكم ﴾ معنى أبلغكم وأوصلكم.

وجملة ﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾ اعتراض وتذييل لزيادة التعجب منهم ومن أمثالهم.

و"الكفور" صيغة مبالغة، أي كثير الكفر.

والكفر ضد الشكر.

والتعريف في ﴿ الإنسان ﴾ تعريف الجنس وهو مفيد للاستغراق.

فهذا الاستغراق يجوز أن يكون استغراقاً عرفياً بحمله على غالب نوع الإنسان ، وهم أهل الإشراك وهم أكثر الناس يومئذٍ ، فتكون صيغة المبالغة من قوله : ﴿ كفوراً ﴾ راجعة إلى قوة صفة الكفران أو عدم الشكر فإن أعلاه إشراك غير المنعم مع المنعم في نعمة لا حظ له فيها .

ويجوز أن يكون الاستغراق حقيقياً ، أي كان نوع الإنسان كفوراً ، أي غير خالٍ من الكفران ، فتكون صيغة المبالغة راجعة إلى كثرة أحوال الكفران مع تفاوتها .

وكثرة كفران الإنسان هي تكرر إعراضه عن الشكر في موضع الشكر ضلالاً أو سهواً أو غفلة لإسناده النعم إلى أسبابها المقارنة دون منعمها ولفرضه منعمين وهميين لا حظ لهم في الإنعام .

(138/460)

وذكر فعل (كان) إشارة إلى أن الكفران مستقر في جبلة هذا الإنسان ، لأن الإنسان قلما يشعر بما وراء عالم الحس فإن الحواس تشغله بمدركاتها عن التفكر فيما عدا ذلك من المعاني المستقرة في الحافظة والمستنبطة بالفكر .

ولما كان الشكر على النعمة متوقفاً على تذكر النعمة كانت شواغله عن تذكر النعم

الماضية مغطية عليها ، ولأن مدركات الحواس منها الملائم للنفس وهو الغالب ، ومنها المنافر لها .

فالإنسان إذا أدرك الملائم لم يشعر بقدره عنده لكثرة تكرره حتى صار عادة فذهل عما فيه من نفع ، فإذا أدرك المنافر استذكر فقدان الملائم فضج وضجر .

وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ [فصلت : 51] .

ولهذا قال الحكماء : العافية تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى فهذا الاعتبار هو الذي أشارت له هذه الآية مع التي بعدها وهي ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ﴾ [الإسراء : 68] الآية .

ومن أجل ذلك كان من آداب النفس في الشريعة تذكيرها بنعم الله ، قال تعالى : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ [إبراهيم : 5] ليقوم ذكر النعمة مقام معاهدتها .

﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (68) ﴾

تفريع على جملة ﴿ أعرضتم ﴾ [الإسراء : 67] ، وما بينهما اعتراض ، وفرع الاستفهام التوبيخي على إعراضهم عن الشكر وعودهم إلى الكفر .

والخسف : انقلاب ظاهر الأرض في باطنها من الزلزال .

وتقدم في قوله : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض ﴾ في سورة [النحل : 45] .

وفي هذا تنبيه على أن السلامة في البر نعمة عظيمة تنسونها فلو حدث لكم خسف لهلكتم هلاكاً لا نجاة لكم منه بخلاف هول البحر .

(139/460)

ولكن لما كانت السلامة في البر غيرَ مُدرك قدرُها قلَّ أن تشعر النفوس بنعمتها وتشعر بخطر هول البحر فينبغي التدرب على تذكر نعمة السلامة من الضر ثم إن محل السلامة معرض إلى الأخطار .

والاستفهام بقوله : أفأمنتم ﴾ إنكاري وتوبيخي .

والجانب : هو الشق .

وجعل البر جانباً لإرادة الشق الذي ينجيهم إليه ، وهو الشاطىء الذي يرسون عليه ، إشارة إلى إمكان حصول الخوف لهم بمجرد حلولهم بالبر بحيث يخسف بهم ذلك الشاطىء ، أي أن البر والبحر في قدرة الله تعالى سيان ، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في البر والبحر .

وإضافة الجانب إلى البر إضافة بيانية .

والباء في ﴿ يخسف بكم ﴾ لتعدية ﴿ يخسف ﴾ بمعنى المصاحبة .

والحاصب : الرامي بالحصباء ، وهي الحجارة .

يقال : حصبه ، وهو هنا صفة ، أي يرسل عليكم عارضاً حاصباً ، تشبيهاً له بالذي يرمي الحصباء ، أي مطر حجارةٍ ، أي بَرَد يشبه الحجارة ، وقيل : الحاصب هنا بمعنى ذي الحصباء ، فصوغ اسم فاعل له من باب فاعل الذي هو بمعنى النسب مثل لاَبِنٍ و تَامِرٍ .

والوكيل : الموكل إليه القيامُ بمهم موكله ، والمدافع عن حق موكله ، أي لا تجدوا لأنفسكم من يجادلنا عنكم أو يطالبنا بما ألحقناه بكم من الخسف أو الإهلاك بالحاصب ، أي لا تجدوا من قومكم وأوليائكم من يثأر لكم كشأن من يلحقه ضر في قومه أن يدافِع عنه ويطالب بدمه أولياؤُه وعصابتُه .

وهذا المعنى مناسب لما يقع في البر من الحدثان .

و(أم) عاطفة الاستفهام ، وهي للإضراب الانتقالي ، أي بل أأمنتم ، فالاستفهام مقدر مع (أم) لأنها خاصة به ، أي أو هل كنتم آمنين من العود إلى ركوب البحر مرة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح .

والتارة : المرة المتكررة ، قيل عينه همزة ثم خففت لكثرة الاستعمال .

وقيل : هي واو .

والأول أظهر لوجوده مهموزاً وهم لا يهمزون حرف العلة في اللغة الفصحى ، وأما تخفيف المهموز فكثير مثل : فأس وفاس ، وكأس وكاس .

ومعنى ﴿ أن يعيدكم ﴾ أن يُوجد فيكم الدواعي إلى العود تهيئة لإغراقكم وإرادة للانتقام منكم ، كما يدل عليه السياق وتفريعُ ﴿ فيرسل ﴾ عليه .

والقاصف : التي تقصف ، أي تكسر .

وأصل القصف : الكسر .

وغلب وصف الريح به .

فعومل معاملة الصفات المختصة بالمؤنث فلم يلحقوه علامة التأنيث ، مثل ﴿ عاصف ﴾ في قوله:

﴿ جاءتها ريح عاصف ﴾ في سورة [يونس : 22] .

والمعنى : فيرسل عليكم ريحاً قاصفاً ، أي تقصف الفلك ، أي تعطبه بحيث يغرق ، ولذلك قال : فيغرقكم ﴾ .

قرأ الجمهور ﴿ من الريح ﴾ بالإفراد .

وقرأ أبو جعفر ﴿ من الرياح ﴾ بصيغة الجمع .

والباء في ﴿ بما كفرتم ﴾ للسببية .

و(ما) مصدرية ، أي بكفركم ، أي شرككم .

و(ثم) للترتيب الرتبي كشأنها في عطفها الجمل .

وهو ارتقاء في التهديد بعدم وجود مُنقذ لهم ، بعد تهديدهم بالغرق لأن الغريق قد يجدُ منقذاً .

والتبيع : مبالغة في التابع ، أي المتتبع غيره المطالب لاقتضاء شيء منه .

أي لا تجدوا من يسعى إليه ولا من يطالب لكم بثأر .

ووصف (تبيع) يناسب حال الضر الذي يلحقهم في البحر ، لأن البحر لا يصل إليه رجال قبيلة القوم وأولياؤهم ، فلو راموا الثأر لهم لركبوا البحر ليتابعوا آثار من ألحق بهم ضراً .

فلذلك قيل هنا ﴿ تبيعا ﴾ وقيل في التي قبلها ﴿ وكيلاً ﴾ كما تقدم .

وضمير ﴿ به ﴾ عائد إما إلى الإغراق المفهوم من ﴿ يغرقكم ﴾ ، وإما إلى المذكور من إرسال القاصف وغيره .

وقرأ الجمهور ألفاظ ﴿ يخسف ﴾ و ﴿ يرسل ﴾ و ﴿ يعيدكم ﴾ و ﴿ فيرسل ﴾ و ﴿ فيغرقكم ﴾ خمستُها بالياء التحتية .

وقرأها ابن كثير وأبو عمرو بنون العظمة على الالتفات من ضمير الغيبة الذي في قوله : ﴿

فلما نجاكم إلى البر ﴾ إلى ضمير التكلم .

وقرأ أبو جعفر ورويس عن يعقوب ﴿ فتغرقكم ﴾ بمثناة فوقية .

والضمير عائد إلى ﴿ الريح ﴾ على اعتبار التأنيث ، أو ﴿ على الرياح ﴾ على قراءة أبي جعفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(141/460)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾

بين جل وعلا في هذه الآيات الكريمة : أن الكفار إذا مسهم الضر في البح . أش اشتدت عليهم الريح فغشيتهم أمواج البحر كأنها الجبال ، وظنوا أنهم لا خلاص لهم من ذلك – ضل عنهم . اي غاب عن أذهانهم وخواطرهم في ذلك الوقت كل ما كانوا يعبدون من دون الله جل وعلا . فلا يدعون في ذلك الوقت إلا الله جل وعلا وحده . لعلمهم أنه لا ينقد من ذلك الكرب وغيره من الكروب إلا هو وحده جل وعلا . فلا يدعون في ذلك الوقت إلا الله جل وعلا وحده . لعملهم أنه لا ينقذ من ذلك الكرب وغيره من الكروب إلا هو وحده جل وعلا ، فأخلصوا العبادة والدعاء له وحده في ذلك الحين الذي احاط بهم فيه هول البحر ، فإذا

نجاهم الله وفرج عنهم، ووصلوا البر رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر. كما قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى البر أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإنسان كَفُورا ﴾.

(142/460)

وهذا المعنى المذكور في هذه الآية الكريمة أوضحه الله جل وعلا في آيات كثيرة. كقوله: ﴿ هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي البر والبحر حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين فَلَمَّآ أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق يا أيها الناس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ مَّتَاعَ الحياة الدنيا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: 22-23]، وقوله: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُمْ مِّن ظُلُمَاتِ البر والبحر تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين قُلِ الله يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: 63-64]، وقوله: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: 65]، وقوله: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كالظلل دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان: 32]، وقوله: ﴿

وَإِذَا مَسَّ الإِنسانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدعوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الزمر : 8] ، إلى غير ذلك من الآيات كما قدمنا إيضاحه " في سورة الأنعام " وغيرها .

(143/460)

ثم إن الله جل وعلا بين في هذا الموضع الذي نحن بصدده سخافة عقول الكفار ، وأنهم إذا وصلوا إلى البر ونجوا من هول البحر رجعوا إلى كفرهم آمنين عذاب الله . مع أنه قادر على إهلاكهم بعج وصولهم إلى البر ، بأن يخسف بهم جانب البر الذي يلي البحر فتبتلعهم الأرض ، أو يرسل عليهم حجارة من السماء فتهلكهم ، أو يعيدهم مرة أخرى في البحر فتغرقهم أمواجه المتلاطمة .

كما قال هنا منكراً عليهم أمنهم وكفرهم بعد وصول البر ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البر أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ﴾ وهو المطر أو الريح اللذين فيهما الحجارة ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أخرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الريح فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ [الإسراء : 69] أي بسبب كفركم . فالباء سببية ، وما مصدرية . والقاصف : ريح البحار الشديدة التي تكسر المراكب وغيرها . ومنه قول أبي تمام :

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت . . . عيدان نجد ولا يعبأن بالرتم

يعني : إذا ما هبت بشدة كسرت عيدان شجر نجد رتماً كان أو غيره .

وهذا المعنى الذي بينه جل وعلا هنا من قدرته على إهلاكهم في غير البحر بخسف أو عذاب من السماء – أوضحه في مواضه أخر . كقوله : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السماءِ ﴾ [سبأ : 9] الآية ، وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ [الأنعام : 65] الآية ، وقوله : ﴿ أَأَمِنتُمْ مَّن فِي السمآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُمْ مِّن فِي السمآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك : 16-17] ، وقوله " في قوم لوط " : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ [القمر : 34] ، وقوله : ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [الذاريات : 33] إلى غير ذلك من الآيات . والحاصب في هذه الاية قد قدمنا أنه قيل : إنها السحابة أو الريح ، وكلا القولين صحيح . لأن كل ريح شديدة ترمي بالحصباء تسمى حاصباً وحصبة . وكل سحاة ترمي بالبرد تسمى حاصباً أيضاً . منه قول الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام يضربنا . . . بحاصب كنيف القطن منثور

وقول لبيد :

جرت عليها أن خوت من أهلها . . . أذيالها كل عصوف حصبه

وقوله في هذه الآية ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً ﴾ فعيل بمعنى فاعل . اي تابعا يتبعنا بالمطالبة بثاركم . كقوله ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ [الشمس : 14-15] أي لا يخاف عاقبة تبعة تلحقه بذلك . وكل مطالب بدين أو ثأر غير تسميه العرب تبيعاً . ومنه قول الشماخ يصف عقاباً :

تلوذ ثعالب الشرفين منها . . . كما لاذ الغرين ن التبيع

اي كعياذ المدين من صاحب الدين الذي يطالبه بغرمه منه . ومنه قول الآخر :

غدوا وغدت غزلانهم وكأنها . . . ضوامن غرم لدهن تبيع

(145/460)

أي خصهن مطالب بدين ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ فاتباع بالمعروف وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة : 178] الآية ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " إذا أتبع أحدكم على ملىء فليتبع " وهذا هو معنى قول ابن عباس وغيره " تبيعا " اي نصيرا ،

وقول مجاهد نصيرا ً ثائرا ً.

تنبيه

لا يخفى على الناظر في هذه الآية الكريمة: ان الله ذلك الكفار وعاتبهم بأنهم في وقت الشدائد والأهوال خاصة يخلصون العبادة له وحده، ولا يصرفون شيئاً من حقه لمخلوق. وفي الأمن والعافية يشركون به غيره في حقوقه الواجبة له وحده، التي هي عبادته وحده في جميع أنواع العبادة، ويعلم من ذلك أن بعض جهلة المتسمين باسم الإسلام اسوأ حالاً من عبدة الأوثان. فإنهم إذا دهمتهم الشدائد، وغشيهم الأهوال والكروب التجؤوا إلى غير الله ممن يعتقدون فيه الصلاح. في الوقت الذي يخلص فيه الكفار العبادة لله. مع أن الله جل وعلا أوضح في غير موضع: أن إجابة المضطر وإنجاءه من الكرب من حقوقه التي لا يشاركه فيها غيره.

ومن أوضح الأدلة في ذلك قوله تعالى " في سورة النمل ": ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ وَسَلَامٌ على عِبَادِهِ الذين اصطفى ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السمآء مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا أإله مَّعَ الله بَلْ هُمْ قَوْمٌ

يَعْدِلُونَ أَمَّن جَعَلَ الْأَرض قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين حَاجزاً أَإِله مَّعَ الله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلمون أَمَّن يُجيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السوء وَيَجْعَلكُمْ خُلَفَاءَ الأرض أَإِله مَّعَ الله قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : 59–62] الآيات .

فتراه جل وعلا في هذه الآيات الكريمات جعل إجابة المضطر إذا دعا وكشف السوء عنه من حقه الخالص الذي لا يشاركه فيه أحد . كخلقه السموات والأرض ، وإنزاله الماء من السماء ، وإنباته به الشجر ، وجعله الأرض قراراً ، وجعله خلالها أنهاراً ، وجعله لها رواسي ، وجعله بين البحرين حاجزاً ، إلى آخر ما ذكر في هذه الآيات من غرائب صنعه وعجائبه التي لا يشاركه فيها أحد . سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

(147/460)

وهذا الذي ذكره الله جل وعلا في هذه الآيات الكريمات : كان سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل . فإنه لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب فاراً منه إلى بلاد الحبشة ، فركب في البحر متوجهاً إلى الحبشة . فجاءتهم ريح عاصف فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعوا الله وحده . فقال عكرمة في نفسه : والله إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره ! اللهم لك علي عهد ، لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي

في يد محمد صلى الله عليه وسلم فلأجدنه رؤفاً رحيماً . فخرجوا من البحر ، فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه اه .

والظاهر أن الضمير في قوله ﴿ بِهِ تَبِيعاً ﴾ راجع إلى الإهاك بالإغراق المفهوم من قوله ﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ أي لا تجدون تبيعاً يتبعنا بثأركم بسبب ذلك الإغراق .

وقال صاحب روح المعاني . وضمير " به " قيل للإرسال ، وقيل للإغراق ، وقيل لهما باعتبار ما وقع . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(148/460)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66) ﴾

الربّ هو المتولي تربيتك: خَلْقاً من عَدم ، وإمداداً من عُدم ، وقيُّوميته تعالى عطاء ينتظم المؤمن والكافر ﴿ يُزْجِي ﴾ الإزجاء: الإرسال بهوادة شيئاً فشيئاً . و ﴿ الْفُلْكَ ﴾ هي السفن وتُطلَق على المفرد وعلى الجمع ، وعلى المذكر والمؤنث .

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ﴾ [البقرة: 164]

ومنها قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ . . ﴾ [يونس: 22]

ثم يقول تعالى: ﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ . . ﴾ [الإسراء: 66]

الابتغاء هو القصد إلى نافع يطلب من البحر كالقوت أو غيره، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا . . ﴾ [النحل: 14]

فالبحر مصدر من مصادر الرزق والقُوت، ومُسْتودع لثروة عظيمة من فضل الله تعالى؛ لذلك قال بعدها: ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ [الإسراء: 66]

والرحمة اتساع مَدَد الفضل من الله، فالذي أعطاكم البَرّ بما فيه من خيرات أعطاكم البحر أيضاً بما فيه من خيرات.

والأرض التي نعيش عليها إما بَرّ يسمى يابسة، أو بحر، وإنْ كانت نسبة اليابس من الأرض الرُّبع أو الخُمْس، فالباقي بحر شاسع واسع يَزْخَر من خَيْرات الله بالكثير.

وطُرُق السير في اليابسة كثيرة متعددة ، تستطيع أن تمشي أو تركب ، وكُلُّ وسيلة من وسائل الركوب حَسْب قدرة الراكب ، فهذا يركب حماراً ، وهذا يركب سيارة ، وتستطيع أن تنتقل فيها من مكان إلى آخر . أما البحر فلا يمكن الانتقال فيه إلا أنْ تُحملَ على شيء ، فمن رحمة الله بنا أنْ جعل لنا السفن آية من آياته تسير بنا على لُجَّة الماء ، ويمسكها بقدرته تعالى فنأمَن الغرق .

وأول مَنْ صنع السفن بوحي من الله نوح عليه السلام ، فلم تكُنْ معروفة قِبله ، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود: 38] .

فلم يكُنْ للناس عهد بالسفن ، وكانت سفينة نوح بدائية من ألواح الخشب والحبال ، ولولا أن الله تعالى دَلَّه على طريقة بنائها ، وهداه إلى تنظيمها ما كان له عِلْم بهذه المسألة ، فكَوْنُ الحق سبحانه يهدينا بواسطة نبي من أنبيائه إلى مركب من المراكب التي تيسّر لنا الانتفاع بثلاثة أرباع الأرض ، لا شكَّ أنها رحمة بالإنسان وتوسيع عليه .

وكذلك من رحمته بنا أنْ يسّر لنا تطوير هذا المركب على مر العصور ، فبعد أن كان يتحرك على سطح الماء بقوة الهواء باستخدام ما يسمى بالقلع ، والذي يتحكم في المركب من خلاله ، ويستطيع الربان الماهر تسفيح القلع ، يعني توجيهه إلى الناحية التي يريدها .

فكان الريح هو الأصل في سَيْر السفن ، ثم أتى التقدم العلمي الذي اكتشف البخار والآلات

ثم الكهرباء ، وبذلك سهّل على الإنسان تحريك السفن على سطح الماء بسهولة ويُسْر ، كما تطورتْ صناعة السفن كذلك على مرِّ العصور ، حتى أصبحنا نرى الآن البوارج الكبيرة متعددة الأدوار ، والتي تشبه فعلاً الجبال ، مِصْداقاً لقوله الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴾ [الشورى: 32]

(150/460)

يعني: كالجبال ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يُعطينا الدليل على عِلْمه تعالى بما سيصل إليه العالم من تقدم ، وما ستصل إليه صناعة السفن من رقيّ يصل بها إلى أنْ تكونَ كالجبال ، وإلاّ ففي زمن نزول القرآن لم يكُنْ هناك بوارج عالية كهذه ، إنها لم توجد إلا بعد قانون أرشميدس الذي تُبْنَى على أساسه هذه البوارج.

لكن مع كل هذا التقدم في مجال الملاحة البحرية لا نغفل أن القدرة الإلهية هي التي تُسيِّر هذه السفن ، وتحملها بأمان على صفحة الماء ، ويجب ألاّ يغترّ الإنسان بما توصّل إليه من العلوم ، ويظن أنه أصبح مالكاً لزمام الأمور في الكون ؛ لأن الحق سبحانه يقول: ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ [الشورى: 33]

والريح هي الأصل في تسيير السفن.

فإنْ قال قائل الآن: إنْ توقف الريح استخدمنا القوى الأخرى مثل البخار أو الكهرباء .

نقول: لقد أخذت الريح على أنه الهواء فقط ، إنما لو نظرتَ إلى كلمة الريح ، وماذا تعني لوجدتَ أن معنى الريح القوة المطلقة أياً كان نوعها ، بدليل قَوْل الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . . ﴾ [الأنفال: 46] إذن: الريح هو القوة المطلقة .

فمعنى: ﴿ يُسْكِنِ الرِّيحَ . . ﴾ [الشورى: 33] يُسكِن القوة المحرّكة للسفن أياً كانت هذه القوة: قوة الريح أو البخار أو الكهرباء أو غيرها من القوى ، فإنْ شاء سبحانه تعطلَتْ كُلُّ هذه القوى .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ . . . ﴾ .

(151/460)

البحر هو المزنق والضائقة التي لا يستطيع الخلاص منها إنْ أصابه فيه سوء ، فالبر منافذ النجاة فيه متعددة ، أما البحر فلا نجاة فيه إلا بعناية الله ، يقول تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . . ﴾ [يونس: 22]

وهكذا الإنسان حتى الكافر ، إذا ضاقتْ به الحِيَل ولم يجد مَنْفذاً يلجأ إلى الله المنفذ

الحقيقي والمفرّج للكَرْب، والإنسان عادة لا يُسلم نفسه ويظلّ مُتعلّقاً بالأمل في النجاة.

فقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ.. ﴾ [الإسراء: 67]

أي: أحاط بهم الخطر بالريح العاصف أو الموج العالي، وأحسُّوا بخطورة الموقف ولا مُنقِذَ لهم إلا الله، حتى الكفار في هذا الموقف يَصْدُقون مع أنفسهم، ولا يخدعونها ولا يكذبون عليها، فإنْ آمنوا بآلهة أخرى وإنْ عبدوا الأصنام والأوثان، فإنهم في هذا الضيق لا يلجأون إلا إلى الله، ولا يدعون إلا الله؛ لأنهم يعلمون تماماً أن آلهتهم لا تسمع ولا تجيب، ولا تملك لهم نفعاً ولا نجاة.

قوله تعالى: ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ.. ﴾ [الإسراء: 67] أي: ذهب عن بالكم مَن اتخذتموهم آلهة، وغابوا عن خاطركم، فلن يقولوا هنا يا هبل؛ لأنهم لن يغشُّوا أنفسهم، ولن ينساقوا وراء كذبهم في هذا الوقت العصيب.

إنهم في هذا الضيق لن يتذكروا آلهتهم، ولن تخطرَ لهم ببال أبداً؛ لأن مجرد تذكّرهم يُضعِف ثقتهم في الله الذي يملك وحده النجاة، والذي يطلبون منه المعونة.

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بقصة حلاق الصحة في الريف الذي يتولى علاج البسطاء ، ويدّعي العلم والخبرة ، فإذا ما مرض ولده فإنه يُسرع به إلى الطبيب ، لأنه إنْ خدع الناس فلن يخدع نفسه ، وإنْ كذب عليهم فلن يكذب على نفسه .

وكذلك الإنسان لا يبيع نفسه رخيصاً ، فإنْ أحاطتْ به الأخطار لا يلجأ إلا إلى الله ؛ لأنه وحده القادر على تفريج الكروب وإغاثة الملهوف ، حتى وإنْ كان كافراً ؛ لأنه سبحانه هو الذي أمره أنْ يلجأ إليه ، وأنْ يدعوه ، فقال: ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا . . ﴾ [الأنعام: 43]

فإنْ دَعَوهُ سمع لهم وأجابهم على كفرهم وعنادهم ؛ لأنهم عباده وخَلْقه وصَنْعته ، فما أرحمه سبحانه حتى بمَنْ كفر به !

لذلك قال رب العزة في الحديث القدسي: " قالت الأرض: يا رب إئذن لي أن أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت السماء : يا رب إئذن لي أن أسقط كِسَفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال: يا رب إئذن لي أن أَخِرَّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب إئذن لي أن أُغرِقَ ابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى: دعوني وما خلقت ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإنهم عبادي ، فإنْ تابوا إليّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم " .

لقد غفر لهم الحق سبحانه أن يعبدوه غيره ، وأن يؤذوا النبوة ، وأنْ يقفوا في وجه الدعوة ،

غفر لهم لأنه ربٌّ، وما دام رباً فهو رحيم، فتضرعوا إليه ودَعَوْه، فلمّا نجّاهم إلى البر أعرضوا، وعادوا لما كانوا عليه وتنكّروا للجميل والمعروف؛ لذلك يقول تعالى بعدها:

﴿ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً ﴾ [الإسراء: 67]

وكفور: صيغة مبالغة من الكفر، أي: كثير الكفر للنعمة، ولَيْتَه كفر بنعمة الخلق فقال: إنه أتى هكذا من فعل الطبيعة، إنما كفر بنعمة ملموسة مشاهدة عاش مأزقها، وقاسى خطرها، ثم إذا نجّاه الله أعرض وتمرّد، وهذا من طبيعة الإنسان.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً... ﴾.

(153/460)

فهؤلاء الذين أعرضوا عن الله بعد إذ نجّاهم في البحر أأَمِنُوا مكر الله في البر؟ وهل الخطر في البحر فقط؟ وأليس الله تعالى بقادر على أن يُنزل بهم في البر مثل ما أنزل بهم في البحر؟

يقول تعالى: ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ.. ﴾ [الإسراء: 68]

كما قال تعالى في شأن قارون: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ.. ﴾ [القصص: 81]

ولستم ببعدين عن هذا إنْ أراده الله لكم، وإنْ كنا نقول "البر أمان" فهذا فيما بيننا وبين

بعضنا ، أما إنْ جاء أمر الله فلن يمنعنا منه مانع .

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً . . ﴾ [الإسراء: 68] أي: ريحاً تحمل الحصباء ، وترجمكم بها رَجْماً ، والحصباء الحصى الصغار ، وهي لَوْن من ألوان العذاب الذي لا يُدفَع ولا يُرَدّ ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: 68] أي: لا تجدوا مَنْ ينصركم ، أو يدفع عنكم . إذن: لا تظنوا أن البر أمان لا خطر فيه . . لا ، بل خطري موجود غير بعيد منكم ، سواء أكنتم في البحر أو في البر .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىا . . . ﴾ .

أي: وإنْ نجاكم من خطر البحر ، فلا مجال للأمن في البر ؛ لأنه قادر سبحانه أن يُذيقكم بأسه في البر ، أو يُعيدكم في البحر مرة أخرى ، ويُوقعكم فيما أوقعكم فيه من كَرْب في المرة الأولى ، فالمعنى: أنجوتُمْ فأمنتُم .

وقوله تعالى: ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ . . ﴾ [الإسراء: 69]

القاصف: هو الذي يقصف بعنف وشدة ، ولا يكون إلا في اليابس ﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ . . . ﴾ [الإسراء: 69] أي: بسبب كفركم بنعمة الله ، وجحودكم لفضله ، فقد

نجاكم في البحر فأعرضتم وتمردتم، في حين كان عليكم أن تعترفوا لله بالجميل، وتُقِرُّوا له بالفضل.

ثم يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ [الإسراء: 69]

عندنا تابع وتبيع، التابع: هو الذي يتبعك لعمل شيء فيك، أما التبيع: فهو الذي يُوالِي تتبعك، ويبحث عنك لأَخْذ ثأره منك. فالمعنى: إنْ فعلنا بكم هذه الأفعال فلن تجدوا لكم تبيعاً يأخذ بثأركم أو ينتقم لكم، إذن: لا أملَ لكم في ناصر ينصركم، أو مدافع يحميكم.

وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول: أنا لا أخاف ردَّ الفعل منكم، والإنسان يُحجم عن الفعل مخافةَ ردِّ الفعل، ويجلس يفكر طويلاً: إذا ضربتُ فلاناً فسيأتي أهله ويفعلون بي كذا وكذا، أما الحق سبحانه وتعالى فلا أحدَ يستطيع ردّاً على انتقامه أو عذابه. انتهى. ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(155/460)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل:

قوله تعالى : { أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا } (الإسراء : 68-69) ، ثم ورد بعد هذا بآيات : { إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا } (الإسراء : 75) ، (ثم) قال بعد : { وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا } (الإسراء : 86) ، للسائل أن يسأل عن وجه ختم الآية الأولى بقوله : { لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا } ، والثانية بقوله : { ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا } ، والثالثة بقوله : { ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا } ، والرابعة بقوله : { ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا } ؟

(156/460)

والجواب : أن معنى كل آية منها استدعى تعقيبها بما به أعقبت ، فأما الأولى فلما تقدمها قوله تعالى : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ } (الإسراء : 67 ، أي اضمحل تعلقكم بشيء من أندادكم ومعبوداتكم سواه ، وبطل ذلك ، ولجأتم إليه سبحانه ، كما قال في آية أخرى : { ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ } (النحل : 53) ، فلما دعوتموه ونجاكم إلى البر أعرضتم ورجعتم إلى ما كنتم قبل من شرككم (وظنكم) أن قد

أمنتم عذابه ، أفأمنتم عذابه ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ (الإسراء : 68) أي يقلب بكم جانب البر ، وهو الذي حملكم وأقلكم عند انفصالكم من البحر ، ونجاتكم منه ، وذلك جانب من البر إذ ليس البر كله هو المستقل بهم إذ ذاك ، وإنما هم في قطعة من البر وجانب من الأرض ، والأرض كلها لله سبحانه ، أفأمنتم أخذه سبحانه لكم بالخسف وإرسال حاصب من الريح (وهي الريح الشديدة) ، ترميكم بالحصباء حتى تهلككم رجماً ، ثم لا تجدوا إذ ذاك من يتوكل بصرف ذلك عنكم ودفعه عن إهلاككم ، فيتدارككم المتوكل لكم بدفع ذلك وصرفه عنكم ، فتحصلون في حزب الناجين بعد مشاهدة الهلاك ، هل تجدون براً ، فهذا تقدير دافع قبل الإمضاء . ثم قال : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ (الإسراء : 69) ، أي مطالباً يطلبنا بثأركم بعد إهلاككم بغرقكم ، فلما كان القدر تعلقهم به من بعد الموت والتلف بالإغراق ناسب ذلك ولاءنه تسمية هذا المقدر الطالب تبيعاً ، ولأنه يتبع بعد الموت ، كما يسمى طلب ذمة (من مات) تبعاً واتباعاً ، ومنه ﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (القرة : 178) ، والتابع من يجيء بعد . ولما كان المقدر في الآية الأولى دافعاً قبل الفوت (ومانعاً) دون الاستئصال ناسبه العبارة : (بوكيل) لأنه الذي يدفع ويمنع الوصول أو الاستئصال ، فجاء

كل على ما يجب ، ولم يَن ليلائم ختام هذه الآية ختام تلك ولا ختام تلك ما ختمت به هذه

وأما قوله : ﴿إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ (الإسراء : 75) فالمراد تضعيف عذاب الآخرة وعذاب القبر ، والتضعيف التكثير ، فختم هذه الآية بقوله : ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (الإسراء : 75) أيين شيء ، لأن الامتحان عندنا في الشاهد ، وإذاقه العذاب إنما تكون من ذي استعلاء وقهر ، فيلجأ فيه إلى الناصر إن وجد . وأما قوله في الآية بعد هذا : ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ (الإسراء : 86) ، أي لنرفعن القرآن ونذهبه من الصدور ثم لا تجد وكيلاً يمنعنا عن ذلك ، ولا من يقوم بدفعنا عنه ، وليس هنا ما يستدعي الانتصار .

(فكل) من هاتين الآيتين على ما يجب ويناسب ، ولا يلائم ختام هذه الآية ختام ما قبلها ، ولا ما ختمت به الآية قبلها ، وذلك بحول الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ملاك التأويل ص 315.313﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ يزجي ﴾ قال : يجري .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عطاء الخراساني رضي الله عنه في قوله : ﴿ يزجي لكم الفلك ﴾ قال : يسيرها في البحر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني رضي الله عنه قال : ﴿ الفلك ﴾ السفن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأوزاعي رضي الله عنه في قوله : ﴿ إنه كان بكم رحيماً ﴾ قال : نزلت في المشركين .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أو يرسل عليكم حاصباً ﴾ قال : مطر الحجارة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ أو يرسل عليكم حاصباً ﴾ قال : حجارة من السماء ﴿ ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ﴾ أي منعة ولا ناصراً ﴿ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ﴾ أي مرة أخرى في البحر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فيرسل عليكم قاصفاً من الريح ﴾ قال : التي تغرق .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : القاصف والعاصف في البحر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ قاصفاً ﴾ قال : عاصفاً . وفي قوله : ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ قال : نصيراً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ تبيعاً ﴾ قال : ثائراً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ قال : لا يتبعنا أحد بشيء من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنه استثناءٌ منقطعٌ لأنه لم يَنْدَرِجْ فيما ذُكِر ، إذ المرادُ به آلهتُهم من دون الله . والثاني : أنه متصلٌ ؛ لأنهم كانوا يَلْجؤون إلى آلهتِهم وإلى الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ ﴾ :

استفهامُ توبيخٍ وتقريعٍ . وقدَّر الزمخشري على قاعدتِه معطوفاً عليه ، أي : أَنَجَوْتم فَأَمِنْتُمْ .

قوله : ﴿ جَانِبَ البر ﴾ فيه وجهان أظهرهما : أنه مفعولٌ به كقوله : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ [القصص : 81] . والثاني : أنه منصوبٌ على الظرف . و " بكم " يجوز أن تكونَ حاليةً ، أي : مصحوباً بكم ، وأَنْ تكونَ للسببية . قيل : ولا يَلْزَمُ مِنْ خَسْفِه بسببهم أن يَهْلَكوا . وأُجيب بأنَّ المعنى : جانبَ البر الذي أنتم فيه فيلزم بخَسْفِه هلاكُهم ، ولولا هذا التقديرُ لم يكنْ في التوعُّدِ به فائدةٌ .

قوله : ﴿ أَن يَخْسِفَ ﴾ " أو يُرْسِلَ " " أن يُعِيْدكم " فَيُرْسِلَ " " فَيُغْرِقكم " قرأ هذه [جميعَها] بنون العظمة ابن كثير وأبو عمرو ، والباقون بالياءِ فيها على الغيبة . فالقراءةُ الأولى على سبيل الالتفاتِ مِن الغائب في قوله ﴿ رَّبُّكُمُ ﴾ [الإسراء : 66] إلى آخر ، والقراءةُ الثانيةُ على سَنَنِ ما تقدَّم من الغَيْبَةِ المذكورة .

قوله : " حاصِباً " ، أي : ريحاً حاصِباً ، ولم يؤنّثْه : إمّا لأنه مجازيٌّ ، أو على النسَبِ ، أي : ذاتَ حَصْبٍ . والحَصْبُ : الرميُ بالحَصَى وهي الحجارةُ الصغار . قال الفرزدق :

3083- مُسْتَقْبلين شَمالَ الشامِ تَضْرِبُهم . . . حَصْباءُ مثلُ نَدِيْفِ القُطْنِ مَنْثُورِ

والحاصِبُ أيضاً : العارضُ الذي يَرْمِي البَرَد .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ ﴾ :

(160/460)

يجوز أَنْ تكونَ المتصلة ، أي : أيُّ الأمرين كائن ؟ ويجوز أَنْ تكونَ المنقطعةَ ، و ﴿ أَن يُعِيدَكُمْ ﴾ مفعولٌ به ك ﴿ أَن يَخْسِفَ ﴾ .

قوله " تارةً " بمعنى مرةً وكَرَّة ، فهي مصدرٌ ، ويُجمع على تِيَرٍ وتاراتٍ . قال الشاعر :

3084- وإنسانُ عيني يَحْسِرُ الماءُ تارةً . . . فَيَبْدُو وتاراتٍ يَجُمُّ فَيَغْرَقُ

وألفُها تحتمل أن تكونَ عن واوٍ أو ياء . وقال الراغب : وهو فيما قيل : مِنْ تارَ الجُرْحُ : التَأَمَ " .

قوله : " قاصِفاً " القاصِفُ يحتمل أن يكونَ مِنْ قَصَفَ متعدياً ، يقال : قَصَفَتِ الريحُ الشجرَ تَقْصِفُها قَصْفاً . قال أبو تمام :

3085- إنَّ الرياحَ إذا ما أَعْصَفَتْ قَصَفَتْ . . . عَيْدانَ نَجْدٍ ولم يَعْبَأْنَ بالرَّتَمِ

فالمعنى : أنها لا تُلْفِي شيئاً إلا قَصَفَتْه وكَسَرَته . والثاني : أن يكون مِنْ قَصِفَ قاصراً ، أي : صار له قَصِيف يقال : قَصِفَتِ الريحُ تَقْصَفُ ، أي : صَوَّتَتْ . و ﴿ مِّنَ الريح ﴾ نعت

.

قوله : ﴿ بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ يجوز أن تكونَ مصدرية ، وأن تكونَ بمعنى الذي ، والباءُ للسببية ، أي : بسببِ كفرِكم ، أو بسبب الذي كفَرْتم به ، ثم اتُّسِع فيه فحَذِفت الباءُ فوصل الفعلُ إلى الضميرِ ، وإنما احتيج إلى ذلك لاختلافِ المتعلق .

وقرأ أبو جعفر ومجاهد " فَتُغْرِقَكم " بالتاء من فوق أُسْنُد الفعل لضميرِ الريح . وفي كتاب الشيخ " " فتُغْرِقَكم بتاء الخطاب مسنداً إلى " الريح " . والحسنُ وأبو رجاء بياء الغيبة وفتح الغين وشدِّ الراء ، عَدَّاه بالتضعيف والمقرئ لأبي جعفر كذلك إلا أنه بتاء الخطاب " . قلت : وهذا : إمَّا سهوٌ ، وإمَّا تصحيفٌ من النسَّاخ عليه ؛ كيف يَسْتقيم أن يقولَ بتاءِ الخطاب وهو مسندٌ إلى ضمير الريح ، وكأنه أراد بتاء التأنيث فسبقه قلمُه أو صَحَّفَ عليه غيرُه .

وقرأ العامَّة " الريحِ " بالإِفراد ، وأبو جعفر : " الرياح " بالجمع .

قوله : ﴿ بِهِ تَبِيعاً ﴾ يجوز في " به " أن يَتَعَلَّق ب " تَجِدوا " ، وأن يتعلَّقَ بتبيع ، وأن يتعلَّقَ بمحذوفٍ لأنه حال مِنْ تبيع . والتَّبِيْع : المطالِبُ بحقّ ، المُلازِمُ ، قال الشمَّاخ :

3086- . . . . كما لاذَ الغَرِيمُ من التَّبيعِ

وقال آخر :

3087- غَدَوْا وغَدَتْ غِزْلانُهم فكأنَّها . . . ضَوامِنُ مِنْ غُرْمٍ لهنَّ تَبيعُ . انتهى ا . هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 384.387 ﴾

(162/460)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66) ﴾

تعرَّف إلى عباده بخَلْقِه وإنعامه ، فما من حادثٍ من عينٍ أو أثرٍ أو طَلَلٍ أو غبرٍ إلا وهو

شاهِدٌ على وحدانيته ، دالٌّ على ربوبيته .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾

وجُبِلَ الإنسانُ على أنه إذا أصابته نقمةٌ ، أو مَسَّتْه محنة فَزِعَ إلى الله لاستدفاعها ، ويُعْتَقَدُ أنهم لن يعودوا بعدها إلى ما ليس فيه رضاء الله ، فإذا أزال اللَّهُ تلك النقمة وكَشَفَ تلك المحنة عادوا إلى ما عنه تابوا ، كأنهم لم يكونوا في ضُرٍّ مَسَّهم ، وفي معناه أنشدوا :

فكم قد جهلتم ثم عُدْنا بِحِلْمِنا . . . أحباءَنا كم تجهلون ! وَنَحْلُمُ !

﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾

الخوفُ ترقُّبُ العقوبات مع مجاري الأنفاس - كذلك قال الشيوخ . وأعرفُهم بالله أخوفُهم من الله . وصنوفُ العذاب كثيرة ؛ فكم من مسرورٍ أَوّلَ لَيْلِهِ أصبح في شِدَّة ! وكم من مهموم بات يتقلب على فراشه أصبح وقد جاءته البشرى بكمال النِّعم ! وفي معناه قالوا : إن من خاف البيان لا يأخذه السُّبات . ووصفوا أهل المعرفة فقالوا :

مستوفزون على رِجْلٍ كأنهمو . . . يريدون أن يمضوا ويرتحلوا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 358 . 359 ﴾

(163/460)

من فوائد الإمام الجصاص فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

قَالَ الْحَسَنُ : " إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا فِي الدُّنْيَا لِطُولِ لُبْثِكُمْ فِي الْآخِرَةِ ، كَمَا قِيلَ كَأَنَّك بِالدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ وَكَأَنَّك بِالْآخِرَةِ لَمْ تَزَلْ " .

وَقَالَ قَتَادَةُ : " أَرَادَ بِهِ احْتِقَارَ أَمْرِ الدُّنْيَا حِينَ عَايَنُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاك إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رِوَايَةٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ قَالُوا : رُؤْيَا غَيْرِ لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَلَمَّا أَخْبَرَ الْمُشْرِكِينَ بِمَا رَأَى كَذَّبُوا بِهِ " .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا أَنَّهُ أَرَادَ بِرُؤْيَاهُ أَنَّهُ سَيَدْخُلُ مَكَّةَ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَالسُّدِّيِّ وَإِبْرَاهِيمَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ : أَنَّهُ أَرَادَ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ فَأَرَادَ بِقَوْلِهِ : " مَلْعُونَةً " أَنَّهُ مَلْعُونٌ أَكْلُهَا .

وَكَانَتْ فِتْنَتُهُمْ بِهَا قَوْلَ أَبِي جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ : وَدُونَهُ النَّارُ تَأْكُلُ الشَّجَرَ فَكَيْفَ تَنْبُتُ فِيهَا ؟ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِك ﴾ هَذَا تَهَدُّدٌ وَاسْتِهَانَةٌ بِفِعْلِ الْمَقُولِ لَهُ ذَلِكَ وَأَنَّهُ لَا يَفُوتُهُ الْجَزَاءُ عَلَيْهِ وَالِانْتِقَامُ مِنْهُ ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ : اجْهَدْ جُهْدَك فَسَتَرَى مَا يَنْزِلُ بِك .

وَمَعْنَى اسْتَفْزِزْ اسْتَزِلَّ يُقَالُ اسْتَفَزَّهُ وَاسْتَزَلَّهُ بِمَعْنًى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بِصَوْتِك ﴾ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ الْغِنَاءُ وَاللَّهْوُ وَهُمَا مَحْظُورَانِ وَأَنَّهُمَا مِنْ صَوْتِ الشَّيْطَانِ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُوَ الصَّوْتُ الَّذِي يَدْعُو بِهِ إلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَكُلُّ صَوْتٍ دُعِيَ بِهِ إلَى الْفَسَادِ فَهُوَ مِنْ صَوْتِ الشَّيْطَانِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ ﴾ فَإِنَّ الْإِجْلَابَ هُوَ السَّوْقُ بِجَلَبَةٍ مِنْ السَّائِقِ ، وَالْجَلَبَةُ الصَّوْتُ الشَّدِيدُ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ بِخَيْلِك وَرَجِلِك ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ : "كُلُّ رَاجِلٍ أَوْ مَاشٍ إلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ مِنْ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ فَهُوَ مِنْ رَجِلِ الشَّيْطَانِ وَخَيْلِهِ" .

وَالرَّجْلُ جَمْعُ رَاجِلٍ كَالتَّجْرِ جَمْعُ تَاجِرٍ وَالرَّكْبُ جَمْعُ رَاكِبٍ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ كُنْ شَرِيكًا فِي ذَلِكَ فَإِنَّ مِنْهُ مَا يَطْلُبُونَهُ بِشَهْوَتِهِمْ وَمِنْهُ مَا يَطْلُبُونَهُ لِإِغْرَائِك بِهِمْ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ : وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَوْلَادِ يَعْنِي الزِّنَا " .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " الْمَوْءُودَةُ " وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ : " مِنْ هَوَّدُوا وَنَصَّرُوا " .

وَقَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ رِوَايَةً : " تَسْمِيَتُهُمْ عَبْدَ الْحَارِثِ وَعَبْدَ شَمْسٍ " .

(165/460)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمَّا احْتَمَلَ هَذِهِ الْوُجُوهَ كَانَ مَحْمُولًا عَلَيْهَا وَكَانَ جَمِيعُهَا مُرَادًا ؛ إذْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا لِلشَّيْطَانِ نَصِيبٌ فِي الْإِغْرَاءِ بِهِ وَالدُّعَاءِ إلَيْهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص جـ 3 صـ ﴾

(166/460)

ومن فوائد ابن العربى فى الآيات

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إلَّا غُرُورًا ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ ﴾ : فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : اسْتَخِفَّهُمْ .

الثَّانِي : اسْتَجْهِلْهُمْ .

وَلَا يَخِفُّ إلَّا مَنْ يَجْهَلُ ؛ فَالْجَهْلُ تَفْسِيرٌ مَجَازِيٌّ ، وَالْخِفَّةُ تَفْسِيرٌ حَقِيقِيٌّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ بِصَوْتِك ﴾ : فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : بِدُعَائِك .

الثَّانِي : بِالْغِنَاءِ وَالْمِزْمَارِ .

الثَّالِثُ : كُلُّ دَاعٍ دَعَاهُ إلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ ؟ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

فَأَمَّا الْقَوْلُ الْأَوَّلُ فَهُوَ الْحَقِيقَةُ ، وَأَمَّا الثَّانِي وَالثَّالِثُ فَهُمَا مَجَازَانِ ، إلَّا أَنَّ الثَّانِيَ مَجَازٌ خَاصٌّ ، وَالثَّالِثُ مَجَازٌ عَامٌّ .

وَقَدْ ﴿ دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ بَيْتَ عَائِشَةَ ، وَفِيهِ جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِي الْأَنْصَارِ تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتْ بِهِ الْأَنْصَارُ يَوْمَ بُعَاثٍ ، فَقَالَ : أَمِزْمَارُ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ ، فَإِنَّهُ يَوْمُ عِيدٍ ﴾ .

فَلَمْ يُنْكِرْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ الْغِنَاءِ مِزْمَارَ الشَّيْطَانِ ؟ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُبَاحَ قَدْ يَسْتَدْرِجُ بِهِ الشَّيْطَانُ إلَى الْمَعْصِيَةِ أَكْثَرَ وَأَقْرَبَ إلَى الِاسْتِدْرَاجِ إلَيْهَا بِالْوَاجِبِ ، فَيَكُونُ إذَا تَجَرَّدَ مُبَاحًا ، وَيَكُونُ عِنْدَ الدَّوَامِ وَمَا تَعَلَّقَ بِهِ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَعَاصِي حَرَامًا ، فَيَكُونُ حِينَئِذٍ مِزْمَارَ الشَّيْطَانِ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { نُهِيت عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجِرَيْنِ فَذَكَرَ الْغِنَاءَ وَالنَّوْحَ } .

وَقَدَّمْنَا شَرْحَ ذَلِكَ كُلِّهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : { وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ } : وَذَلِكَ قَوْلُهُ : { وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ } .

وَهَذَا تَفْسِيرُ أَنَّ صَوْتَهُ أَمْرُهُ بِالْبَاطِلِ ، وَدُعَاؤُهُ إلَيْهِ عَلَى الْعُمُومِ ، وَيَدْخُلُ فِيهِ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَدِينُهُ مِنْ تَحْرِيمِ بَعْضِ الْأَمْوَالِ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ وَبَعْضِ الْأَوْلَادِ ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَيَدْخُلُ فِيهِ مَا شَرَحْنَاهُ فِي قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ : { فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا } ؛ وَقَدْ أَوْضَحْنَا ذَلِكَ كُلَّهُ .

الْآيَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ :

قَوْله تَعَالَى : { رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } .

قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ رُكُوبَ الْبَحْرِ جَائِزٌ عَلَى الْعُمُومِ وَالْإِطْلَاقِ ، وَقَسَّمْنَا وُجُوهَ رُكُوبِهِ فِي مَقَاصِدِ الْخَلْقِ بِهِ ، وَذَكَرْنَا أَنَّ مِنْ جُمْلَتِهِ التِّجَارَةَ وَجَلْبَ الْمَنَافِعِ مِنْ بَعْضِ الْبِلَادِ إلَى بَعْضٍ ، وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِذَلِكَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يَعْنِي التِّجَارَةَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ .

وَلَا خِلَافَ أَنَّ ذَلِكَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ التِّجَارَةُ ؛ فَكَذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ ؛ وَكَذَلِكَ يَدُلُّ : الْآيَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ عَلَى جَوَازِ رُكُوبِهِ أَيْضًا ، وَهِيَ الْآيَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ ، وَقَدْ أَوْضَحْنَا تَفْسِيرَهَا فِي اسْمِ الْكَرِيمِ مِنْ كِتَابِ " الْأَمَدِ الْأَقْصَى " فَلْيُطْلَبْ ذَلِكَ فِيهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(169/460)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً ﴾ اللفظ لفظ الأمر ومعناه معنى الخبر ، يعني : لو كنتم من الحجارة .

﴿ أَوْ حَدِيدًا ﴾ أو من الحديد .

﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ ؛ قال مجاهد : حجارة أو حديداً أو ما شئتم فكونوا ، فسيعيدكم الله الذي فطركم أول مرة كما كنتم ؛ ويقال : ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى ﴾ يعني : السماء والأرض والجبال ؛ وقال الكلبي : معناه لو كنتم الموت لأماتكم .

وعن الحسن وسعيد بن جبير وعكرمة قالوا : ﴿ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ ، يعني : الموت ، فيبعثكم كما خلقكم أول مرة .

قالوا : لو كنا من الحجارة أو من حديد أو من الموت فمن يعيدنا ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ﴾ يا محمد : فسيعيدكم الله ﴿ الَّذِى فَطَرَكُمْ ﴾ ، أي خلقكم ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ ﴾ ، يهزون إليك رؤوسهم تعجباً من قولك ؛ وقال القتبي : يعني : يحركونها استهزاء بقولك ؛ وقال الزجاج : أي سيحركون رؤوسهم تحريك من يستثقله ويستبطئه .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ﴾ ، يعنون البعث .

﴿ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ .

وكل ما هو آت فهو قريب ، وعسى من الله واجب .

قالوا يا محمد : فمتى هذا القريب ؟ فنزل : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ ؛ يعني : إسرافيل ، وهي النفخة الأخيرة .

﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ ؛ يقول : تخرجون من قبوركم بأمره وتقصدون نحو الداعي ، وقال مقاتل : يوم يدعوكم من قبوركم فتستجيبون للداعي بأمره ؛ وذلك أن إسرافيل يقوم على صخرة بيت المقدس يدعو أهل القبور في قرن : أيتها العظام البالية ، واللحوم المتفرقة ، والعروق المتقطعة اخرجوا من قبوركم ، فيخرجون من قبورهم .

ثم قال : ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ، أي ما لبثتم في القبور إلا يسيراً .

قال الكلبي : وذلك أنه يرفع عنهم العذاب ما بين النفختين ، وبينهما أربعون سنة فينسون العذاب ، فيظنون أنهم لم يلبثوا في قبورهم إلا يسيراً ؛ وروي ذلك عن ابن عباس .

وهذا أصح ما قيل فيه ، لأن بعض المبتدعين قالوا : إذا وضع الميت في قبره ، لا يكون عليه العذاب إلى وقت البعث ، فيظنون أنهم مكثوا في القبر قليلاً .

قوله : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ؛ قال ابن عباس : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤذيهم المشركون بمكة بالقول ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم، فنزل ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى ﴾، أي المسلمين ﴿ يَقُولُواْ الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾، أي يجيبوا بجواب حسن، برد السلام بلا فحش.

وهذا كقوله: ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ [فاطر: 61] ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان: 63]؛ ويقال: نزلت الآية في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه سبّه رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر الله تعالى بالكف عنه؛ ويقال: نزلت في شأن عمر رضي الله عنه كان بينه وبين كافر كلام.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يوسوس ويوقع بينهم العداء لعنه الله ليفسد أمرهم.

﴿ إِنَّ الشيطان كَانَ للإنسان عَدُوّاً مُّبِينًا ﴾، أي ظاهر العداوة.

وهذا كقوله:

ثم قال: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾، أي أعلم بأحوالكم وما أنتم فيه من أذى المشركين.

﴿ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾، فينجيكم من أهل مكة إذا صبرتم على ذلك.

﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾، فيسلطهم عليكم إذا جزعتم ولم تصبروا.

﴿ وَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾، يعني: مسلطاً.

وهذا قبل أن يؤمر بالقتال؛ ويقال: ﴿ وَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ ، أي ليست المشيئة إليك في الهدى والضلالة.

(171/460)

ثم قال: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِى السموات والأرض ﴾ ، أي ربك عالم بأهل السموات وأهل الأرض، وهو أعلم بصلاح كل واحد منهم.

ثم قال: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيين على بَعْضٍ ﴾ ، منهم من فضل الله بالكلام، وهو موسى عليه السلام ومنهم من اتخذه خليلاً، وهو إبراهيم عليه السلام ومنهم من رفعه مكاناً عليّاً، وهو إدريس عليه السلام ومنهم من اصطفاه، وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿ وَءاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾ ، أي كتاباً.

قال مقاتل: الزبور مائة وخمسون سورة، ليس فيها حكم ولا فريضة إنما ثناء على الله تعالى.

قرأ حمزة ﴿ زُبوراً ﴾ بضم الزاي، وقرأ الباقون بالنصب؛ وهما لغتان ومعناهما واحد.

قوله: ﴿ قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مّن دُونِهِ ﴾ ، قال ابن عباس: إن ناساً من خزاعة كانوا

يعبدون الجن، وهم يرون أنهم هم الملائكة، فقال الله تعالى: ﴿ قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ ﴾ يعني: تعبدون من دون الله.

﴿ فَلاَ يَمْلِكُونَ ﴾، لا يقدرون ﴿ كَشْفَ الضر عَنْكُمْ ﴾؛ يقول: صرف السوء عنكم من الأمراض والبلاء إذا نزل بكم.

﴿ وَلاَ تَحْوِيلاً ﴾؛ يقول: ولا تحويله إلى غيره ما هو أهون منه، ويقال: ولا يحولونه إلى غيرهم.

قوله: ﴿ أولئك ﴾، يعني: الملائكة ﴿ الذين يَدْعُونَ ﴾، أي يعبدونهم ويدعونهم آلهة.

قرأ ابن مسعود ﴿ تَدْعُونَ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة.

﴿ يَبْتَغُونَ إلى رَبّهِمُ الوسيلة ﴾، يقول: يطلبون إلى ربهم القربة والفضيلة والكرامة بالأعمال الصالحة.

﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾، أكرم على الله تعالى، وأقرب في الفضيلة والكرامة.

﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ﴾، أي جنته.

﴿ ويخافون عَذَابَهُ ﴾، أي ناره.

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾، يعني: لم يكن لأحد أمان من عذاب الله تعالى، ويقال: ﴿ مَحْذُورًا ﴾ أي ينبغي أن يحذر منه.

وروى الأعمش ، عن إبراهيم ، عن عبد الله بن مسعود أنه قال : كان ناس من الإنس يعبدون قوماً من الجن ، فأسلم الجن وبقي الإنس على كفرهم ، فأنزل الله : ﴿ أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ ﴾ ، يعني : الجن ﴿ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ .

وروى السدي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس أنه قال : ﴿ أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ ﴾ عيسى وعزيراً والملائكة ، وما عبد من دون الله وهو لله مطيع .

قوله : ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القيامة ﴾ ؛ قال ابن عباس : يعني : نميت أهلها .

﴿ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ، يعني : بالسيف والزلازل والأمراض والخوف والغرق والحرق .

﴿ كَانَ ذلك فِى الكتاب مَسْطُورًا ﴾ ، أي في الذكر الذي عند الله ، وقال مجاهد : ﴿ مُهْلِكُوهَا ﴾ أي مبيدوها أو معذبوها بالقتل والبلاء ؛ ما من قرية في الأرض إلا سيصيبها بعض ذلك .

روى حماد بن سلمة ، عن أبي العلاء ، عن مكحول أنه قال : أول أرض تصير خراباً أرض

أرمينية ؛ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : أول أرض تصير خراباً أرض الشام ؛ وروى ابن سيرين : عن ابن عمر أنه قال : البصرة أسرع الأرضين خراباً وأخبثهم تراباً ؛ عن عليّ أنه قال : أكثروا الطواف بهذا البيت قبل أن يحال بينكم وبينه ، فكأني برجل من الحبشة حمش الساقين ، قاعداً عليها يهدمها حجراً حجراً .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بالآيات ﴾ ، وذلك أن قريشاً طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية ، فنزل ﴿ وَمَا مَنَعَنَا ﴾ أي ليس أحد يمنعنا أن نرسل الآيات عندما سألوها .

﴿ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الاولون ﴾ ، يعني : تكذيب الأولين حين أتتهم الآيات ، فلم يؤمنوا فأتاهم العذاب .

(173/460)

قال الفقيه : حدّثنا الخليل بن أحمد قال : حدّثنا أبو العباس بن السراج قال : حدّثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي قال : حدّثنا جرير ، عن الأعمش ، عن جعفر بن إياس ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل الصفا لهم ذهباً ، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعونها ، فقيل له : إن شئت أن تستأني بهم

لعلنا نتخير منهم ذرية ، وإن شئت أن نريهم الذي سألوا ، فإن كفروا ، أهلكوا كما هلك من كان قبلهم .

فقال : "بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ" فنزل ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بالايات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الاولون ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ ﴾ ، أي معاينة يبصرونها ، ويقال : علامة لنبوته .

﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ ، أي جحدوا بها فعقروها ، فعذبوا ؛ فقال الله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بالايات إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾ لهم ليؤمنوا ، فإن أَبوا أتاهم العذاب .

قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالناس ﴾ ؛ قال الكلبي : أحاط علمه بالناس ، ويقال : هم في قبضته ، أي قادر عليهم ؛ وقال قتادة : يعني : يمنعك من الناس حتى تبلغ رسالات الله تعالى ؛ وقال السدي : معناه إن ربك مطهرك على الناس .

ثم قال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرءيا التى أريناك إِلاَّ فِتْنَةً لّلنَّاسِ ﴾ ؛ قال : حدّثنا الخليل بن أحمد قال : حدّثنا محمد بن إبراهيم بن أحمد الدبيلي قال : حدّثنا أبو عبد الله قال : حدّثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرءيا التى أريناك إِلاَّ فِتْنَةً لّلنَّاسِ ﴾ قال : هي رؤيا عين أريها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به .

﴿ والشجرة الملعونة فِى القرءان ﴾ ؛ قال : هي شجرة الزقوم .

قال الكلبي : هي ليلة أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، فنشر له الأنبياء كلهم ، فصلى بهم ثم صلى الغداة بمكة فكذبوه ، وهو قوله : ﴿ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ حين كذبوه يعني أهل مكة .

قال عكرمة أمَا إنَّهَا رؤيا يقظة ليست برؤيا منام ؛ وقال سعيد بن المسيب : أُرِي النبي صلى الله عليه وسلم بني أمية على المنابر ، فساءه ذلك ، فقيل له : إنّما هي دنيا يعطونها .

فقرَّت عينه ، فنزل : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرءيا التى أريناك إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ يعني : بني أمية .

ثم قال : ﴿ والشجرة الملعونة فِى القرءان ﴾ ، يعني : ذكر الشجرة الملعونة في القرآن فتنة لهم ، يعني : بلية لهم ؛ وذلك أن المشركين قالوا : يخبرنا هذا أنَّ في النار شجرة ، وكيف يكون في النار شجرة ؟ والنّار تأكل الشجرة .

فصار ذلك فتنة لهم ، يعني : بلية لهم ؛ ويقال : لما نزل : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم طَعَامُ الاثيم ﴾ قالوا فيما بينهم : وما شجرة الزقوم ؟ قالوا : التّمر والزبد .

فرجع أبو جهل إلى منزله ، فقال لجاريته : زقمينا .

وأمرها أن تأتي بالتمر والزبد ، فخرج به إلى الناس وقال : كلوا فإِن محمداً يخوفكم بهذا .

فصار ذكر الشجرة فتنة لهم .

ثم قال : ﴿ وَنُخَوّفُهُمْ ﴾ أي بذكر شجرة الزقوم .

﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ ، يعني : تمادياً في المعصية .

قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ فتعظم عن السجود لآدم .

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ .

في الآية مضمر ، معناه فلعنه الله تعالى .

قال إبليس : أرأيتك هذا الذي لعنتني لأجله وفضلته عليّ ؟ ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، يعني : لئن أجلتني إلى يوم البعث .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ﴿ أَخَّرْتَنِي ﴾ بالياء عند الوصل ، وقرأ الباقون بغير ياء لأن الكسرة تقوم مقامه .

ثم قال : ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ ، أي لأستزلنّ ذريته .

يقول : أطلب زلتهم ؛ وقال القتبي : لأستأصلنهم ، يقال : احتنك الجراد ما على الأرض ، إذا أكله كله ؛ ويقال : هو من حنك الدابة يحنكها حنكاً ، إذا شدّ في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به ، أي لأقودنهم حيث شئت .

﴿ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ ؛ يعني : الأنبياء والمخلصين لله ، ويقال : إلَّا من عصمته مني .

﴿ قَالَ اذهب فَمَن تَبِعَكَ ﴾ ، أي من أطاعك ﴿ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ﴾ ، يعني : نصيبكم من العذاب في النار .

﴿ جَزَاء مَّوفُورًا ﴾ ، أي نصيباً وافراً لا يفتر عنهم .

قوله ﴿ واستفزز ﴾ ، يقول استزلّ ﴿ مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ ؛ يقول : بدعائك ووسوستك ، ويقال : بأصوات الغناء والمزامير .

﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ ، يعني : استعن عليهم بأعوانك من مردة الشياطين ﴿ وَرَجِلِكَ ﴾ ، يعني : الشياطين الذين يوسوسون للناس ، ويقال : خيل المشركين ورجالتهم ، وكل خيل تسعى في معصية الله تعالى ، فهي من خيل إبليس ؛ وكل راجل يمشي في معصية الله ، فهو من رجالته .

قرأ عاصم في رواية حفص ﴿ وَرَجِلِكَ ﴾ بفتح الراء وكسر الجيم ، يعني : راجلك . فدل الواحد على الجنس ؛ وقرأ الباقون بجزم الجيم وهو جمع الراجل .

﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى الاموال ﴾ ، أي ما أكل من الأموال بغير طاعة الله تعالى وما جمع من الحرام ؛ ويقال : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى الاموال ﴾ وهو ما جعلوا من الحرث والأنعام نصيباً لآلهتهم ؛ ويقال : كل طعام لم يذكر اسم الله عليه فللشيطان فيه شركة .

قال الفقيه رضي الله عنه حدّثنا الفقيه أبو جعفر قال : حدّثنا أحمد بن حنبل قال : حدّثنا

سفيان بن يحيى قال : حدّثنا أبو مطيع ، عن الربيع بن زيد ، عن أبي محمد وهو رجل من أصحاب أنس قال : قال إبليس لربه : يا رب جعلت لبني آدم بيوتاً فما بيتي ؟ قال الحمام .

قال : وجعلت لهم مجالس فما مجلسي ؟ قال : السوق .

قال : وجعلت لهم قرآناً فما قرآني ؟ قال الشعر .

قال : وجعلت لهم حديثاً فما حديثي ؟ قال : الكذب .

قال : وجعلت لهم أذاناً فما أذاني ؟ قال : المزمار .

قال : وجعلت لهم رسلاً فما رسلي ؟ قال : الكهنة .

قال : وجعلت لهم كتاباً فما كتابي ؟ قال الوشم .

قال : وجعلت لهم طعاماً فما طعامي ؟ قال : كل ما لم يذكر عليه اسم الله .

قال : وجعلت لهم شراباً فما شرابي ؟ قال : كل مسكر .

قال وجعلت لهم مصايد فما مصايدي ؟ قال : النساء .

ثم قال : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى الاموال ﴾ ، يعني : كل نفقة في معصية الله تعالى .

﴿ والاولاد ﴾ ، أي أولاد الزنى ، فهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير ؛ ويقال : هو ما سموا

أولادهم عبد العزى وعبد الحارث ؛ ويقال كل معصية بسبب الولد ؛ ويقال : إذا جامع الرجل أهله ولم يذكر اسم الله تعالى ، جامع معه الشيطان ؛ ويقال : المرأة النائحة والسكرانة يجامعها الشيطان ، فيكون له شركة في الولد .

قال الفقيه أبو الليث : هذا الكلام مجاز لا على وجه الحقيقة ، إنما يراد به المثل .

ثم قال : ﴿ وَعَدْهُمْ ﴾ ، أي منّهم أنه لا جنة ولا نار ولا بعث .

﴿ وَمَا يَعِدُهُمْ الشيطان إلاَّ غُرُوراً ﴾ ، أي باطلاً .

قوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ ، أي حجة ويقال : نفاذ الأمر .

﴿ وكفى بِرَبّكَ وَكِيلاً ﴾ ، أي كفيلاً على ما قال ؛ ويقال : حفيظاً لهم ؛ وقال أبو العالية : إنَّ عبادي الَّذين لا يطيعونك .

ثم ذكر الدلائل والنعم ليطيعوه ولا يطيعوا الشيطان .

ثم قال : ﴿ رَّبُّكُمُ الذى يُزْجِى لَكُمُ الفلك ﴾ ، أي يسيّر لكم الفلك .

﴿ فِى البحر لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ ، أي من رزقه .

﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ ، أي رحيم بكم .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِى البحر ﴾ ، أي إذا أصابكم الخوف وأهوال البحر .

﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ ﴾ ، أي بطل من تدعون من الآلهة وتخلصون بالدعاء لله تعالى .

﴿ فَلَمَّا نجاكم إِلَى البر ﴾ ، يعني : من أهوال البحر .

﴿ أَعْرَضْتُمْ ﴾ ، أي تركتم الدعاء والتضرع ورجعتم إلى عبادة الأوثان .

﴿ وَكَانَ الإنسان كَفُورًا ﴾ ، أي الكافر كفوراً بأنعم الله .

ثم قال : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ ﴾ إن عصيتموه ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ﴾ أي يغور بكم ، ﴿ جَانِبَ البر ﴾ ، يعني : إلى الأرض السفلى ؛ وقال مقاتل : يعني : ناحية من البر .

﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ ، أي حجارة من فوقكم كما أرسل على قوم لوط .

﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ ، أي مانعاً يمنعكم .

قوله : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ ﴾ ، أي البحر ﴿ تَارَةً أخرى ﴾ ، يعني : مرة أخرى .

﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الريح ﴾ ، أي ريحاً شديداً ؛ ﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ بالله وبنعمه ، ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ ، أي من يتبعنا ويطالبنا بدمائكم ، كقوله ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص فِي القتلى الحر بِالْحُرِّ والعبد بالعبد والانثى بالانثى فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فاتباع بالمعروف وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بإحسان ذلك تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعتدى بَعْدَ ذلك فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 178] ،

أي مطالبة حسنة ؛ ويقال : يعني : ثائرا ولا ناصرا ، لينتقم لكم مني .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ إن نَخْسِفْ بِكُمْ ﴾ ﴿ أَوْ نُرْسِلُ ﴾ ﴿ أن نُعِيدَكُمْ ﴾ هذه الخمسة كلها بالنون ، وقرأ الباقون كلها بالياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 321.314 ﴾

(178/460)

وقال الثعلبى :

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾

في الشدة والقوة ﴿ أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ يعني خلقاً مما يكبر عندكم عن قبول الحياة وبعثكم وعملكم على [. . . . .] احياؤه فإنه يجيئه ، وقيل : ما يليه من بعد ورائهم الموت ، وقيل : السموات والأرض ، وقيل : أراد به البعث وقيل الموت .

وقال أكثر المفسرين : ليست في نفس بني آدم أكبر من الموت ، يقول : لو كنتم الموت لأُميتنكم ولأبعثنكم .

سفيان عن مجاهد وعكرمة في قوله ﴿ أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ قالا : الموت .

وروى المعمر عن مجاهد قال : السماء والأرض والجبال يقول كونوا ما شئتم فإن الله يميتكم

ثمّ يبعثكم ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ خلقاً جديداً بعد الموت ﴿ قُلِ الذي فَطَرَكُمْ ﴾ خلقكم ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ ﴾ أي يحركون رؤوسهم متعجبين ومستهزئين يقال : نغضت سنه إذا حركت وأقلعت من أصله .

قال الراجز :

أبغض نحوى رأسه وأقنعا . . . وقال آخر :

لما رأسني الغضت لي الرأسا . . . وقال الحجاج : [أمسك بقضباً لابني] مستهدجا .

﴿ وَيَقُولُونَ متى هُوَ قُلْ عسى أَن يَكُونَ قَرِيباً ﴾ يعني هو قريب لأن عسى من الله واجب نظيره قوله ﴿ لَعَلَّ الساعة تَكُونُ قَرِيباً ﴾ [الأحزاب : 63] ، و ﴿ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ [الشورى : 17] .

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ من قبوركم إلى [موقف يوم القيامة] ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ . قال ابن عباس : بأمره .

قتادة : بمعرفته وطاعته ، ويحمدونه [وهو مستحق] للحمد .

﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ في الدنيا في قبوركم ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمرو " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليس على أهل لا إله إلاّ الله وحشة في قبرهم ولا حشرهم ، كأني بأهل لا إله إلاّ الله وهم ينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ [فاطر : 34] الآية " " .

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ التي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ نزلت في عمر بن الخطاب ، وذلك أن رجلاً من العرب شتمه فأمره الله تعالى بالعفو .

الكلبي : كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقول والفعل ، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية على ذلك .

وقل لعبادي المؤمنين يقولوا للكافرين التي هي أحسن يعني الكلمة التي هي أحسن لا تكافئهم .

قال الحسن : يقول هداك الله يرحمك الله ، وهذا قبل أن أمروا بالجهاد .

وقيل : الأحسن كلمة الأخلاص لا إله إلاّ الله ﴿ إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ يفتري ، وألقى بينهما العداوة ويعزى بينهم ﴿ إِنَّ الشيطان كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً * رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ يوفقكم فتؤمنوا ﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ يميتكم على الشرك فيعذبكم ، قاله ابن حريج .

وقال الكلبي : إن الله يرحمكم فيحفظكم من أهل مكة ، وإن يشأ يعذبكم فيسلطهم عليكم

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ وكفيلاً ، نسختها آية القتال ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ والأرض ﴾ فجعلهم مختلفين في أخلاقهم من أمورهم وأحوالهم وما لهم ، كما يختلف بعض المتقين على بعض .

(180/460)

قتادة : في هذه الآية اتخذ الله إبراهيم خليلاً ، وكلم الله موسى تكليماً ، فقال لعيسى كن فيكون وأتى سليمان مُلكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعده ، وأتى داود زبوراً كتاباً علمه داود فيه دعاء وتحميد وتمجيد وليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود وغفر [لمحمد] ما تقدم من ذنبه وما تأخر ﴿ قُلِ ادعوا الَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ أنها آلهة ﴿ مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضر عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ﴾ [عنكم] إلى غيركم ، قيل : هو ما أصابهم من القحط سبع سنين .

﴿ أولئك الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ ﴾ . قتادة عن عبد الله بن عبد الزنجاني عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿ أولئك الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ ﴾ بالتاء .

وقرأهما الباقون : بالياء يبتغون .

﴿ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة ﴾ القربة إلى ربهم ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ إليه ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ

وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وأكثر العلماء : هم عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم .

وقال عبد الله بن مسعود : كان نفر من الانس يعبدون نفراً من الجن ، فأسلم الجن ولم يعلم الانس الذين كانوا يعبدونهم بإسلامهم فتمسكوا بعبادتهم فغيرهم الله بذلك وأنزل هذه الآية .

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ يعني وما من قرية ﴿ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القيامة ﴾ أي مخربوها ومهلكوا أهلها بالسيف ﴿ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً ﴾ بأنواع العذاب إذا كفروا وعصوا .

وقال بعضهم : هذه الآية عامة .

قال مقاتل : أما الصالح فبالموت وأما الطالح فبالعذاب .

قال ابن عبّاس : إذا ظهر الزنا والربا في أهل قرية أذن الله في هلاكها .

﴿ كَانَ ذلك فِي الكتاب ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿ مَسْطُوراً ﴾ مكتوباً ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات ﴾ .

قال ابن عبّاس : قال أهل مكة : إجعل لنا الصفا ذهباً ، فأوحى الله الى رسوله : إن شئت أن تسنأتي بهم فقلت وإن شئت أوتيهم ما سألوا ، فقلت : فإن لم يؤمنوا أهلكتهم كما أهلكت من كان قبلهم . فقال صلى الله عليه وسلم لا بل تستأني بهم فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ ﴾ التي سألها كفار قومك ﴿ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَولون ﴾ فأهلكناهم فإن لم يؤمن قومك أهلكتهم أيضاً لأن من خسفنا في الأمم إذا سألوا الآيات فيأتيهم ثم لم يؤمنوا أن نعذبهم ونهلكهم ولا نمهلهم ، فإن الأوّل في محل النصب وقوع المنبع عليه ، وإن الثانية في محل رفع ومجاز الأول : سمعنا إرسال الآيات إلاّ تكذيب الأولين بها قالوا ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَاقَة مُبْصِرَةً ﴾ مضيئة بينة ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أي [قروا] بها إنها من عند الله ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ ﴾ بالعبر والدلالات ﴿ إِلاَّ تَخْوِيفاً ﴾ للعباد ليؤمنوا ويتذكروا فإن لم يفعلوا عذبوا .

قال قتادة : إن الله يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يعيون أو يذكرون أو يرجعون ، ذكر أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود فقال : يا أيها الناس إن الله ليس يعتبكم فأعتبوه .

وروى محمّد بن يوسف عن الحسن في قوله عزّ وجلّ ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً ﴾ قال الموت الذريع .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَاسِ ﴾ فهم في قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته وهو مانعك منهم وحافظك فلا تَهَبْهُم وأمض لما أمرك به في تبليغ رسالته ، قاله أكثر

المفسرين .

قال ابن عبّاس : يعني أحاط علمه بهم فلا يخفى عليه منهم شيء .

مقاتل والبراء : أحاط بالناس يعني أهل مكة أي أنها ستفتح لك .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ .

قال قوم : هي رؤيا عين وهو ما أرى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج من العجائب والآيات فكان ذلك فتنة للناس ، فقوم أنكروا وكذبوا ، وقوم ارتدوا ، وقوم صدقوا ، والعرب تقول : [رأيت بعيني] رؤية ورؤيا وعلى هذا يحمل حديث معاوية أنه كان إذا سُئل عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كانت رؤيا من الله صادقة أي [رؤيا عيان] أرى الله نبيه صلى الله عليه وسلم وما ذكرنا من تأويل الآية ، قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وأبي مالك وقتادة ومجاهد والضحاك وابن زيد وابن جريج وعطية وعكرمة وعطية عن ابن عبّاس .

وقال آخرون : هي ما أرى الله نبيه صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى بروحه دون بدنه فلما قصها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه [. . . . .] من أصحاب

المسلمين وطعن فيها ناس من المنافقين . وهو ماروى جرير بن حازم عن أبي رجاء العطاردي ، يحدث عن سمرة بن جندب قال :

"كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الغداة أستقبل الناس [بوجهه] فقال : " هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا " ؟ فإن كان أحداً رأي تلك الليلة رؤيا قصها عليه فيقول فيها ماشاء الله أن يقول فسألنا يوماً . فقال : " هل رأى منكم أحد الليلة رؤيا " ، قلنا : لا ، قال : " لكني أتاني الليلة آتيان فقالا لي : إنطلق فإنطلقت معهما فأخرجاني إلى أرض مستوية فإذا رجل مستلقي على قفاه ورجل قائم بيده صخرة فشدخ بها رأسه [فيتبع] الحجر فإذا ذهب يأخذه عاد رأسه كما كان فهو يصنع به مثل ذلك ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : إنطلق فانطلقت معهما فأتينا على رجل مستلق لقفاه يرمش عينه ، فإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد فإذا هو يأخذ أحد شقي وجهه فيشر شر شدقه إلى قفاه وعينه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه ثمّ يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ذلك فما يفرغ من ذلك حتّى يصبح ذلك الجانب كما كان ثمّ يعود إليه ، فقلت لهما : سبحان الله ما هذا ؟ قالا لي : إنطلق فانطلقت معهما فأتيا على بيت مبني مثل بناء التنور أعلاه ضيق [وأسفله واسع]

يوقد فيه النار فأطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلك اللهب من أسفل [ضجّوا] ، قلت لهما : ما هؤلاء ؟

(184/460)

قالا لي : إنطلق فانطلقنا فأتينا على نهر من دم أحمر وإذا في البحر سابح يسبح فإذا على شاطىء النهر رجل عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً فيذهب فيسبح ما يسبح ثمّ يرجع إليه كما رجع إليه فيفغر له فاه فألقمه حجراً قال : فقلت ما هذا ؟ قالا : إنطلق فإنطلقت فأتينا على رجل كريه المرآة كأكره ما رأيت رجلاً وإذا هو عنده نار [يحشها ويسعى] حولها قلت لهما : ما هذا ؟ قالا : إنطلق فإنطلقنا فأتينا على روضة [معتمة] فيها من كل نوع الربيع وإذا شجرة عظيمة وفي أصلها شيخ طويل فإذا حوله صبيان كأكثر ولدان رأيتهم قط . قال : قلت ما هؤلاء ؟ قالا : إنطلق فإنطلقنا فأتينا على دوحة عظيمة لم أرَ دوحة قط أعظم منها [ولا أحسن] قالا لي : أرق فارتقينا فانتهينا إلى مدينة مبنية من ذهب ولبن فضة فأتينا باب المدينة فأستفتحناها ففتح لنا فدخلناها فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم [كأحسن ما رأيت [وشطر كأقبح] ما رأيت ، قالا لهم : اذهبوا فقعوا في ذلك النهر وإذا نهر معترض

يجري كأنه المخيض من البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا وقد ذهب السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة قال : فقلت لهما [والله] إني ما رأيت مثل الليلة عجباً فما هذا الذي رأيت قالا إنا [سنخبرك أما الذي] أتيت عليه يشدخ رأسه بالحجر فإنه رجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة وأما الذي أتيت عليه يشرشر شدقه وعينه ومنخره إلى قفاه فإنه [رجل يغدوا] من بيته فيكذب [الكذبة تبلغ الآفاق] .

وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل التنور فإنهم الزناة والزواني ، وأما الرجل الذي يسبح في النهر ويلقم الحجارة فإنه آكل الربا ، وأما الرجل الكريه المرآة الذي عنده النار يحشها فإنه مالك خازن النار ، وأما الرجل الطويل الذي في [الروضة] فإبراهيم (عليه السلام) وأما الولدان الذين حوله فكل مولود يولد على الفطرة .

أما القوم الذين كانوا شطر خلقهم حسناً وشطر قبيحاً فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فتجاوز الله عنهم ، وأما الروضة فهي جنات عدن وأما المدينة التي دخلت فدار الشهداء . قال : بينما بصري صعدا فإذا مثل الذبابة البيضاء ، قالا لي : ها هو ذا منزلك ، وأنا جبرئيل وهذا ميكائيل . فقلت : بارك الله فيكما دعاني أدخل داري ، فقالا : إنه قد

بقي لك ولم تستكمله ولو استكملته دخلت دارك " .

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس قال : هي رؤيا التي رأى أنه يدخل مكة عام الحديبية هو وأصحابه وهو يومئذ بالمدينة فعجّل رسول الله صلى الله عليه وسلم السير إلى مكة قبل الأجل فردّه المشركون .

فقال ناس : قد ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان حدثنا إنه سيدخلها فكانت رجعته فتنتهم وقد كان في العام المقبل سار إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلها فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرءيا بالحق ﴾ [الفتح : 27] .

سفيان بن عيينة عن علي بن زيد بن حذيفة عن سعيد بن المسيب ، من قول الله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ قال : أرى بني أمية على المنابر فساءه ذلك فقيل له إنها الدنيا يعطونها [فتزوى] عنه إلاّ فتنة للناس قال : بلا للناس .

(186/460)

وروى عبد المهيمن عن بن عبّاس عن سهل بن سعد عن أبيه عن جده قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني أمية ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك فما إستجمع ضاحكاً حتّى مات ، فإنزل الله في ذلك ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾

﴿ والشجرة الملعونة ﴾ المذكورة ﴿ فِي القرآن ﴾ يعني شجرة الزقوم ، ومجاز الآية : الشجرة الملعونة المذكورة في القرآن ، ونصب الشجرة عطفاً بها على الرؤيا تأويلها : وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلاّ فتنة للناس فكانت فتنتهم في الرؤيا ماذكرت ، وفتنتهم في الشجرة الملعونة أن أبا جهل قال لما نزلت هذه الآية : أليس من الكذب ابن أبي كبشة أن يوعدكم بحرق الحجارة ثمّ يزعم إنه ينبت فيها شجرة وأنتم تعلمون إن النار تحرق الشجرة فما يقولون في الزقوم .

فقال عبد الله بن [الزبوي] : إنها الزبد والتمر بلغة بربرة .

فقال أبو جهل : ياجارية زقمينا فأتته بالزبد التمر ، فقال : يزعموا ياقوم فإن هذا ما يخوفكم به محمّد والله ما يعلم الزقوم إلاّ الزبد والتمر ، فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم * طَعَامُ الأثيم ﴾ [الدخان : 43 ، 44] ووصفها في الصافات فقال : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجحيم ﴾ [الصافات : 64] أي خلقت من النار وحذيت بها وأنزل الله ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً ﴾ .

وروى ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن مولى لبني هاشم حدثه إن عبد الله بن الحرث ابن نوفل [أرسل] إلى ابن عبّاس : نحن الشجرة الملعونة في القرآن ؟ قال : فقال : الشجرة الملعونة هي هذه الشجرة التي تلتوي على الشجر يعني الكشوث .

﴿ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ يعني من طين .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال : بعث رب العزة إبليس فأخذ كفاً من أديم الأرض من عذبها ومِلْحها فخلق منه آدم فكل شيء خلقه من عذبها فهو صائر إلى السعادة وإن كان ابن كافرين ، وكل شيء خلقه من ملحها فهو صائر إلى الشقاوة وإن كان ابن نبيين .

قال : ومن ثمّ قال إبليس : أأسجد لمن خلقت طينا أيّ هذه الطينة أنا جئت بها ، ومن ثمّ سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض .

﴿ قَالَ ﴾ إبليس ﴿ أَرَأَيْتَكَ هذا الذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ أي فضلته ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ وأمهلتني ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ أيّ لأستولين على أولاده ولأحتوينهم ولأستأصلنهم بالاضلال ولأجتاحنهم .

يقال : [إحتنك] فلان ما عند فلان من علم أو كمال مما استقصاه وأخذه كله ، واحتنك الجراد الزرع إذا أكله كله .

قال الشاعر :

أشكوا إليك سنة قد أجحفت . . . وأحنكت أموالنا واجتلفت

ويقال : هو من قول العرب حنّك الدابة يحنكها إذا شد في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به حتى يثبت .

﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ يعني المعصومين الذين إستثناهم الله في قوله ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر : 42] ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ ﴾ أي جزاءك وجزاء أتباعك ﴿ جَزَاءً مَّوْفُوراً ﴾ وأمراً مكملاً ﴿ واستفزز ﴾ [استولي] واستخف وإستزل وإستمل ﴿ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ ﴾ أي من ذرية آدم ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ .

قال ابن عبّاس وقتادة : بدعائك إلى معصية الله وكل داع إلى معصية فهو من جند إبليس .

وقال مجاهد : بالغناء والمزامير .

﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم ﴾ أي إجمع وصح . مقاتل : إستفز عنهم .

﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ أي ركبان جندهم ومشاتهم .

قال المفسرون : كل راكب وماش في معاصي الله .

ابن عبّاس ومجاهد وقتادة : إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس ، فما كان من راكب يقاتل في معصية فهو من خيل إبليس ، وما كان من راجل يقاتل في معصية الله فهو من رجل إبليس

والرجل الرجالة .

وقرأ حفص : ورجيلك بكسر الراء ، وهما لغتان يقال : راجل ورجل مثل تاجر وتجر ، وراكب وركب .

﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الأموال ﴾ قال قوم : هو كل مال أصيب من حرام وأنفق في حرام ، وهذا قول مجاهد والحسن وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد ، ورواية عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاس .

عطاء بن أبي رباح : هو الربا . قتادة : ما كان المشركون يحرمونه من الأنعام كالبحائر والسوايب والوصيلة والحوامي وهي رواية العوفي عن ابن عبّاس .

وقال الضحاك : هو ما كان يذبحونه لآلهتهم .

﴿ والأولاد ﴾ .

قال بعضهم : هم أولاد الزنا ، وهو قول مجاهد والضحاك ورواية عطية عن ابن عبّاس .

الوالبي عنه : هو ما قبلوا من أولادهم وأتوا فيهم الحرام .

الحسن وقتادة : عدو الله شاركهم في أموالهم وأولادهم فمجّسوا وهوّدوا ونصّروا وصبّغوا غير صبغة الاسلام .

أبو صالح عن ابن عبّاس : مشاركته إياهم في الأولاد وتسميتهم أولادهم عبد الحرث وعبد شمس وعبد فلان .

﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ ومنّهم الجميل في طاعتك . قال الله ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشيطان إلاَّ غُرُوراً ﴾ باطلاً وخديعة لأنه لا يغني عنهم من عذاب الله إذا نزل بهم شيئاً كقوله ﴿ إنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق ووَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم : 22] .

﴿ إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وكفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً * رَّبُّكُمُ الذي يُزْجِي ﴾ [يسوي ويجري] .

(189/460)

﴿ لَكُمُ الفلك فِي البحر ﴾ إلى قوله ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر ﴾ أصابكم [الجهد] ﴿ فِي البحر ﴾ وخفتم الغرق ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ إلا دعاؤكم إياه فلم تجدوا ما يكفيكم سواه ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ ﴾ من البحر وأخرجكم ﴿ إِلَى البر أَعْرَضْتُمْ ﴾ عن الايمان والطاعة وكفرتم بما جاءكم ﴿ وَكَانَ الإنسان كَفُوراً ﴾ ﴿ أَفَأَمِنتُمْ ﴾ بعد ذلك ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ ﴾ يغيبكم ويذهبكم في ﴿ جَانِبَ البر أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ﴾ حجارة تمطر عليكم من السماء كما أمطر على قوم لوط .

وقال أبو عبيد والقتيبي : الحاصب الذي يرمي بالحصباء ، وهي الحصا الصغار .

قال الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام يضربنا . . . بحاصب كنديف القطن منثور

﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً * أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ ﴾ في البحر ﴿ تَارَةً ﴾ مرة أخرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ ﴾ أي قاصفاً وهي الريح الشديدة .

قال ابن عبّاس وقال أبو عبيدة : هي التي تقصف كل شيء أيّ تدقّه وتحطّمه وهي التي تقصف الشجر أي تكسره ﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً ﴾ ناصراً ولا ثائراً .

واختلف القراء في هذه الآية . فقرأ ابن كثير وأبو عمرو : نخسف ونرسل ونعيدكم ونغرقكم كلها بالنون لقوله (علينا) .

وقرأ الباقون : كلها بالياء لقوله (إياه) . إلاّ أبا جعفر فإنه قرأ (تغرقكم) بالتاء يعني الريح .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 114.105 ﴾

(190/460)

وقال الزمخشري :

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (49) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً (50) ﴾

لما قالوا : أئذا كنا عظاما قيل لهم كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً فردّ قوله : كونوا ، على قولهم : كنا ، كأنه قيل : كونوا حجارة أو حديدا ولا تكونوا عظاما ، فإنه يقدر على إحيائكم والمعنى : أنكم تستبعدون أن يجدد اللّه خلقكم ، ويردّه إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحىّ وغضاضته بعد ما كنتم عظاما يابسة ، مع أنّ العظام بعض أجزاء الحي ، بل هي عمود خلقه الذي يبنى عليه سائره ، فليس ببدع أن يردّها اللّه بقدرته إلى حالتها الأولى ، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحىّ ومن جنس ما ركب منه البشر - وهو أن تكونوا حجارة يابسة أو حديدا مع أن طباعها الجسارة والصلابة - لكان قادرا على أن يردّكم إلى حال الحياة أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ يعنى أو خلقا مما يكبر عندكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياؤه فإنه يحييه . وقيل : ما يكبر في صدورهم الموت . وقيل : السموات والأرض فَسَيُنْغِضُونَ

فسيحرّكونها نحوك تعجبا واستهزاء .

[سورة الإسراء (17) : آية 52]

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (52)

والدعاء والاستجابة كلاهما مجاز. والمعنى: يوم يبعثكم فتنبعثون مطاوعين منقادين لا تمتنعون. وقوله بِحَمْدِهِ حال منهم، أى حامدين، وهي مبالغة في انقيادهم للبعث، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشقّ عليه فيتأبى ويتمنع، ستركبه وأنت حامد شاكر، يعنى: أنك تحمل عليه وتفسير قسرا حتى أنك تلين لين المسمح «1» الراغب فيه الحامد عليه، وعن سعيد بن جبير: ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك وَتَظُنُّونَ وترون الهول، فعنده تستقصرون مدّة لبثكم في الدنيا، وتحسبونها يوما أو بعض يوم. وعن قتادة: تحاقرت الدنيا في أنفسهم حين عاينوا الآخرة.

[سورة الإسراء (17): الآيات 53 إلى 54]

وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً (53) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (54)

وَقُلْ لِعِبادِي وقل للمؤمنين يَقُولُوا للمشركين الكلمة الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ وألين ولا يخاشنوهم، كقوله: وجادلهم بالتي هي أحسن. وفسر التي هي أحسن بقوله رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ يعنى يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا يقولوا لهم: إنكم من أهل النار وإنكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر. وقوله إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ اعتراض، يعنى يلقى بينهم الفساد ويغرى بعضهم على بعض ليقع بينهم المشارّة

والمشاقة وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا أى ربا موكولا إليك أمرهم تقسرهم على الإسلام وتجبرهم عليه ، وإنما أرسلناك بشيرا ونذيرا فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمكاشفة ، وذلك قبل نزول آية السيف . وقيل : نزلت في عمر رضى اللّه عنه : شتمه رجل فأمره اللّه بالعفو . وقيل : أفرط إيذاء المشركين للمسلمين ، فشكوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فنزلت . وقيل : الكلمة التي هي أحسن : أن يقولوا يهديكم اللّه ، يرحمكم اللّه . وقرأ طلحة :

ينزغ ، بالكسر وهما لغتان ، نحو يعرشون ويعرشون .

[سورة الإسراء (17) : آية 55]

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (55)

---

(1) . قوله «المسمح» في الصحاح «أسمحت قرونته» أى ذلت نفسه وتابعته على الأمر . (ع)

هو ردّ على أهل مكة في إنكارهم واستبعادهم أن يكون يتيم أبى طالب نبيا ، وأن تكون العراة الجوّع أصحابه ، كصهيب وبلال وخباب وغيرهم ، دون أن يكون ذلك في بعض أكابرهم وصناديدهم ، يعنى : وربك أعلم بمن في السموات والأرض وبأحوالهم ومقاديرهم وبما يستأهل كل واحد منهم. وقوله وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ إشارة إلى تفضيل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقوله وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً دلالة على وجه تفضيله ، وهو أنه خاتم الأنبياء ، وأن أمته خير الأمم ، لأنّ ذلك مكتوب في زبور داود. قال اللّه تعالى وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ وهم محمد وأمته. فإن قلت : هلا عرّف الزبور كما عرّف في قوله وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ؟ قلت : يجوز أن يكون الزبور وزبور كالعباس وعباس ، والفضل وفضل ، وأن يريد : وآتينا داود بعض الزبر وهي الكتب ، وأن يريد ما ذكر فيه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من الزبور ، فسمى ذلك زبورا ، لأنه بعض الزبور ، كما سمى بعض القرآن قرآنا.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 56 إلى 57]

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (56) أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً (57)

هم الملائكة. وقيل : عيسى ابن مريم ، وعزير. وقيل نفر من الجن ، عبدهم ناس من العرب

ثم أسلم الجن ولم يشعروا ، أى : ادعوهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب ، ولا أن يحولوه من واحد إلى آخر أو يبدلوه. وأُولئِكَ مبتدأ ، والَّذِينَ يَدْعُونَ صفته ، ويَبْتَغُونَ خبره ، يعنى : أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهي القربة إلى اللّه تعالى. وأَيُّهُمْ بدل من واو يبتغون ، وأى موصولة ، أى : يبتغى من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى اللّه ، فكيف بغير الأقرب. أو ضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون ، فكأنه قيل : يحرصون أيهم يكون أقرب إلى اللّه ، وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح ، ويرجون ، ويخافون ، كما غيرهم من عباد اللّه فكيف يزعمون أنهم آلهة؟ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ حقيقا بأن يحذره كل أحد من ملك مقرّب ونبى مرسل ، فضلا عن غيرهم.

[سورة الإسراء (17) : آية 58]

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (58)

نَحْنُ مُهْلِكُوها بالموت والاستئصال أَوْ مُعَذِّبُوها بالقتل وأنواع العذاب. وقيل : الهلاك للصالحة ، والعذاب للطالحة. وعن مقاتل : وجدت في كتب الضحاك بن مزاحم في

تفسيرها : أما مكة فيخربها الحبشة ، وتهلك المدينة بالجوع ، والبصرة بالغرق ، والكوفة بالترك ، والجبال بالصواعق والرواجف . وأما خراسان فعذابها ضروب ، ثم ذكرها بلدا بلدا فِي الْكِتابِ في اللوح المحفوظ.

[سورة الإسراء (17) : آية 59]

وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً (59)

استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة . و «أن» الأولى منصوبة والثانية مرفوعة ، تقديره : وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين . والمراد : الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبا ومن إحياء الموتى وغير ذلك : وعادة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال ، فالمعنى : وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود ، وأنها لو أرسلات لكذبوا بها تكذيب أولئك وقالوا هذا سحر مبين كما يقولون في غيرها ، واستوجبوا العذاب المستأصل . وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة . ثم ذكر من تلك الآيات - التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلات فأهلكوا - واحدة : وهي ناقة صالح ، لأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم مُبْصِرَةً بينة . وقرئ : مبصرة ، بفتح الميم فَظَلَمُوا

بِها فكفروا بها وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إن أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى لا نرسلها إِلَّا تَخْوِيفاً من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدّمة له ، فإن لم يخافوا وقع عليهم وإن أراد غيرها فالمعنى : وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفا وإنذارا بعذاب الآخرة.

[سورة الإسراء (17) : آية 60]

وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً (60)

وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش ، يعنى : بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم . وذلك قوله سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ،

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ وغير ذلك ، فجعله كأن قد كان ووجد ، فقال : أحاط بالناس على عادته في إخباره ، وحين تزاحف الفريقان يوم بدر والنبي صلى اللّه عليه وسلم في العريش مع أبى بكر رضى اللّه عنه كان يدعو ويقول : «اللهم إنى أسألك عهدك ووعدك» ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول «سيهزم الجمع ويولون الدبر»

«1» ولعلّ اللّه تعالى أراه مصارعهم في منامه ، فقد كان يقول حين ورد ماء بدر «واللّه لكأنى أنظر إلى مصارع القوم» «2» وهو يومئ إلى الأرض ويقول : هذا مصرع فلان ، هذا مصرع فلان ، فتسامعت قريش بما أوحى إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من أمر يوم بدر وما أرى في منامه من مصارعهم ، فكانوا يضحكون ويستسخرون ويستعجلون به استهزاء وحين سمعوا بقوله : «إن شجرة الزقوم طعام الأثيم» «3» جعلوها سخرية وقالوا : إن محمدا يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ، ثم يقول ينبت فيها الشجر . وما قدر اللّه حق قدره من قال ذلك ، وما أنكروا أن يجعل اللّه الشجرة من جنس لا تأكله النار ! فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل ، إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالما لا تعمل فيه النار . وترى النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد الحمر كالجمر بإحماء النار فلا تضرها ، ثم أقرب من ذلك أنه خلق في كل شجرة نارا فلا تحرقها ، فما أنكروا أن يخلق «4» في النار شجرة لا تحرقها . والمعنى : أنّ الآيات إنما يرسل بها تخويفا للعباد ، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر . فما كان ما أَرَيْناكَ منه في منامك بعد الوحى إليك إِلَّا فِتْنَةً لهم حيث اتخذوه سخريا وخوّفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم ، ثم قال فيهم وَنُخَوِّفُهُمْ أى نخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة فَما يَزِيدُهُمْ التخويف إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات .

وقيل : الرؤيا هي الإسراء «5» ، وبه تعلق من يقول : كان الإسراء في

---

(1) . لم أجده هكذا فأما أوله ففي البخاري عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال وهو في قبته يوم بدر : اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك . اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعد اليوم . فأخذ أبو بكر بيده وقال : حسبه . فخرج وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر» [. . . . .]

(2) . أخرجه مسلم من حديث أنس قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «هذا مصرع فلان ويضع يده على الأرض هاهنا . قال : فما ماط أحد عن موضع يده ،

(3) . قال محمود : «افتتانهم بالشجرة أنهم حين سمعوا بقوله ، إن شجرة الزقوم . . . الخ» قال أحمد : والعمدة في ذلك أن النار لا تؤثر إحراقا في شيء ، ولكن اللّه تعالى أجرى العادة أنه يخلق الحرق عند ملاقاة جسم النار لبعض الأجسام ، فإذا كان ذلك من فعل اللّه لا من فعل النار فللّه تعالى أن لا يفعل الحرق في الشجرة التي في أصل الجحيم .

(4) . قوله «فما أنكروا أن يخلق» عبارة النسفي : فجاز أن يخلق . (ع)

(5) . عاد كلامه . قال : «وأما الرؤيا فقيل الاسراء ، وتعلق من جعله مناما بهذه الآية . وقيل : إنما سماها رؤيا على زعم المكذبين . . . الخ» قال أحمد : ويبعد ذلك قوله تعالى طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ وقوله فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها واللّه أعلم .

المنام، ومن قال: كان في اليقظة، فسر الرؤيا بالرؤية. وقيل: إنما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له: لعلها رؤيا، رأيتها، وخيال خيل إليك، استبعاداً منهم، كما سمى أشياء بأساميها عند الكفرة، نحو قوله: فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ، أَيْنَ شُرَكائِيَ، ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ وقيل: هي رؤياه أنه سيدخل مكة. وقيل: رأى في المنام أن ولد الحكم يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة. فإن قلت: أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن؟ قلت: لعنت حيث لعن طاعموها من الكفرة والظلمة، لأنّ الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة، وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز. وقيل: وصفها الله باللعن، لأن اللعن الإبعاد من الرحمة، وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة. وقيل: تقول العرب لكل طعام مكروه ضار: ملعون، وسألت بعضهم فقال: نعم الطعام الملعون القشب الممحوق «1». وعن ابن عباس: هي الكشوث التي تتلوى بالشجر يجعل في الشراب. وقيل: أبو جهل. وقرئ: والشجرة الملعونة بالرفع، على أنها مبتدأ محذوف الخبر، كأنه قيل: والشجرة الملعونة في القرآن كذلك.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 61 إلى 65]

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (61)
قالَ أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً
(62) قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً (63) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ
اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ
وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُرُوراً (64) إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَكَفى
بِرَبِّكَ وَكِيلاً (65)

طِيناً حال إما من الموصول والعامل فيه أسجد، على: أأسجد له وهو طين، أى أصله طين.

---

(1). قوله «الطعام الملعون القشب الممحوق» الخلط الضار يمزج بالطعام أو الشراب كالسم. والممحوق المذاب حتى يذهب عينه. أفاده الصحاح. وفيه «الكشوث» نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض، قال الشاعر:

هو الكشوث فلا أصل ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر (ع)

أو من الراجع إليه من الصلة على : أأسجد لمن كان في وقت خلقه طينا أَرَأَيْتَكَ الكاف للخطاب. وهذا مفعول به. والمعنى : أخبرنى عن هذا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ أى فضلته، لم كرمته علىّ وأنا خير منه؟ فاختصر الكلام بحذف ذلك، ثم ابتدأ فقال لَئِنْ أَخَّرْتَنِ واللام موطئة للقسم المحذوف لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ لأستأصلتهم بالإغواء، من احتنك الجراد الأرض إذا جرد ما عليها أكلا، وهو من الحنك. ومنه ما ذكر سيبويه من قولهم : أحنك الشاتين أى آكلهما. فإن قلت : من أين علم أن ذلك يتسهل له وهو من الغيب؟ قلت : إما أن سمعه من الملائكة وقد أخبرهم اللّه به، أو خرجه من قولهم : أتجعل فيها من يفسد فيها، أو نظر إليه فتوسم في مخايله أنه خلق شهوانى. وقيل : قال ذلك لما علمت وسوسته في آدم، والظاهر أنه قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة اذْهَبْ ليس من الذهاب للذي هو نقيض المجيء، إنما معناه :

امض لشأنك الذي اخترته خذلانا وتخلية، وعقبه بذكر ما جرّه سوء اختياره في قوله فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ كما قال موسى عليه السلام للسامري فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ. فإن قلت : أما كان من حق الضمير في الجزاء أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى من تبعك؟ قلت : بلى، ولكن التقدير : فإنّ جهنم جزاؤهم وجزاؤك، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل : جزاؤكم. ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات، وانتصب جَزاءً مَوْفُوراً بما في فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ من معنى تجازون. أو بإضمار

تجازون. أو على الحال، لأنّ الجزاء موصوف بالموفور، والموفور الموفر. يقال: فر لصاحبك عرضه فرة.

استفزّه: استخفه. والفز: الخفيف وَأَجْلِبْ من الجلبة وهي الصياح «1». والخيل: الخيالة.

ومنه قول النبي صلى اللّه عليه وسلم: «يا خيل اللّه اركبي» «2». والرجل اسم جمع للراجل. ونظيره:

---

(1) . قوله «من الجلبة وهي الصباح» في الصحاح: جلب على فرسه وأجلب عليه: صاح به من خلفه واستحثه السبق اه. (ع)

(2) . أخرجه أبو الشيخ في الناسخ والمنسوخ من طريق أبى حمزة السكرى عن عبد الكريم: حدثني سعيد بن جبير عن قصة المحاربين قال «كان ناس أتوا النبي صلى اللّه عليه وسلم. فقالوا: نبايعك على الإسلام - وذكر القصة وفيها فأمر النبي صلى اللّه عليه وسلم فنودي في الناس: يا حيل اللّه اركبي: فركبوا لا ينتظر فارس فارسا. روى ابن عائد في المغازي عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشير عن قتادة قال: بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - يعنى يوم قريظة يوم الأحزاب مناديا ينادى: يا خيل اللّه اركبي» وعزا السهيلي في الروض في غزوة حنين هذه اللفظة في صحيح مسلم. فينظر فيه. وقال أبو داود في السنن: باب النداء عند النفير: يا خيل اللّه اركبي وساق في الباب حديث سمرة

بن جندب «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم سمى خيلنا خيل اللّه» قلت أشكل هذا على المخرج فقال : فيه نظر لمن تأمله . فكأنه لم يتجه له مطابقة الحديث للترجمة . وهو ظاهرها لأن المراد صحة هذه الاضافة . وقد وردت عن على وخالد بن الوليد . ففي المستدرك للحاكم في قصة أويس من حديث أبى نضرة عن أسيد بن جابر فذكر القصة . فقال في آخرها فنادى على : يا خيل اللّه اركبي» وفي الردة للواقدي من رواية عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد أن خالد بن الوليد قال لأصحابه يوم اليمامة «يا خيل اللّه اركبي فركبوا وساروا إلى بنى حنيفة .

(197/460)

الركب والصحب . وقرئ : ورجلك ، على أن فعلا بمعنى فاعل ، نحو : تعب وتاعب . ومعناه : وجمعك الرجل ، وتضم جيمه أيضا ، فيكون مثل حدث وحدث ، وندس وندس «1» ، وأخوات لهما .

يقال : رجل رجل . وقرئ : ورجالك ورجالك . فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله ؟ قلت : هو كلام ورد مورد التمثيل ، مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوّت بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن

مراكزهم ، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم . وقيل : بصوته ، بدعائه إلى الشر . وخيله ورجله :

كلّ راكب وماش من أهل العيث «2» . وقيل : يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال . وأما المشاركة في الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها في بابهما ، كالربا والمكاسب المحرّمة ، والبحيرة والسائبة ، والإنفاق في الفسوق ، والإسراف ، ومنع الزكاة ، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام ، ودعوى ولد بغير سبب ، والتسمية بعبد العزى وعبد الحرث ، والتهويد والتنصير ، والحمل على الحرف الذميمة والأعمال المحظورة ، وغير ذلك وَعِدْهُمْ المواعيد الكاذبة «3» ، من شفاعة الآلهة والكرامة على اللّه بالأنساب الشريفة ، وتسويف التوبة ومغفرة الذنوب بدونها ، والاتكال على الرحمة ، وشفاعة الرسول في الكبائر والخروج من النار بعد أن يصيروا حمما «4» ، وإيثار العاجل على الآجل إِنَّ عِبادِي يريد الصالحين لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ أى لا تقدر أن تغويهم وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا لهم يتوكلون به في الاستعاذة منك ، ونحوه قوله إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ فإن قلت : كيف جاز أن يأمر اللّه إبليس بأن يتسلط على عباده مغويا مضلا ، داعيا إلى الشر ، صادّا عن الخير؟ قلت : هو من الأوامر الواردة على سبيل الخذلان والتخلية ، كما قال للعصاة : اعملوا ما شئتم .

---

(1) . قوله «مثل حدث وحدث ، وندس وندس» في الصحاح : رجل حدث وحدث ،

بضم الدال وكسرها أي حسن الحديث . وفيه : رجل ندس وندس ، أي : فهم . (ع)

(2) . قوله «العيث» في الصحاح «العيث» الإفساد . (ع)

(3) . قال محمود : «المراد وعدهم المواعيد الكاذبة . . . الخ» قال أحمد : وهذا من تجرى المصنف على السنة ومتبعيها ، فانه جعل المغفرة المقرونة بالمشيئة وإن لم تكن توبة للمؤمنين من مواعيد الشيطان ، مع العلم بأنها ثابتة بقواطع القرآن وعدا من الرحمن ، وكذلك الشفاعة المتفق عليها بين أهل السنة والجماعة التي وعد بها الصادق المصدوق ، وميزه اللّه تعالى بها على كل مخلوق ، من مواعيد الشيطان الباطلة وأمانيه الماحلة . اللهم ارزقنا الشفاعة ، واحشرنا في زمرة السنة والجماعة .

(4) . قوله «بعد أن يصيروا حمما» في الصحاح : الحمم : الرماد والفحم : الواحدة حممة ، ثم ما أفاده من توقف المغفرة على التوبة وعدم الشفاعة في الكبائر ، وعدم خروج أهلها من النار بعد احتراقهم هو مذهب المعتزلة . وأهل السنة على خلاف ذلك ، كما تقرر في علم التوحيد . (ع)

[سورة الإسراء (17) : الآيات 66 إلى 67]

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (66) وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً (67)

يُزْجِي يجرى ويسير. والضرّ: خوف الغرق ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ذهب عن أوهامكم وخواطركم كلّ من تدعونه في حوادثكم إلا إياه وحده، فإنكم لا تذكرون سواه، ولا تدعونه في ذلك الوقت ولا تعقدون برحمته رجاءكم، ولا تخطرون ببالكم أنّ غيره يقدر على إغاثتكم، أو لم يهتد لإنقاذكم أحد غيره من سائر المدعوّين. ويجوز أن يراد: ضلّ من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم، ولكنّ الله وحده هو الذي ترجونه وحده «1» على الاستثناء المنقطع.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 68 إلى 69]

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً (69)

أَفَأَمِنْتُمْ الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فأمنتم، فحملكم ذلك على الإعراض. فإن قلت: بم انتصب جانِبَ الْبَرِّ؟ قلت: بيخسف مفعولا به،

كالأرض في قوله فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ. وبِكُمْ حال. والمعنى: أن يخسف جانب البر ،أي يقلبه وأنتم عليه. فإن قلت. فما معنى ذكر الجانب؟ قلت: معناه أنّ الجوانب والجهات كلها في قدرته سواء، وله في كل جانب برا كان أو بحرا سبب مرصد من أسباب الهلكة، ليس جانب البحر وحده مختصا بذلك، بل إن كان الغرق في جانب البحر، ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف، لأنه تغييب تحت التراب كما أنّ الغرق تغييب تحت الماء، فالبرّ والبحر عنده سيان يقدر في البر على نحو ما يقدر عليه في البحر، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من اللّه في جميع الجوانب وحيث كان أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً وهي الريح التي تحصب أى ترمى بالحصباء، يعنى: أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف، أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء يرجمكم بها، فيكون أشدّ عليكم من الغرق في البحر وَكِيلًا من يتوكل بصرف ذلك عنكم أَمْ أَمِنْتُمْ أن يقوّى دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا

---

(1). قوله «ولكن اللّه وحده هو الذي ترجونه وحده» كأنه تكرار، وأسقطه الخازن في عبارته. (ع)

فتركبوا البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم ، فينتقم منكم بأن يرسل عَلَيْكُمْ قاصِفاً وهي الريح التي لها قصيف وهو الصوت الشديد ، كأنها تتقصف أى تتكسر . وقيل : التي لا تمرّ بشيء إلا قصفته فَيُغْرِقَكُمْ وقرئ بالتاء ، أى الريح . وبالنون ، وكذلك : نخسف ، ونرسل ، ونعيدكم .

قرئت بالياء والنون . التبيع : المطالب ، من قوله فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ أى مطالبة . قال الشماخ :

كَمَا لَاذَ الْغَرِيمُ مِنَ التَّبِيعِ «1»

يقال : فلان على فلان تبيع بحقه ، أى مصيطر عليه مطالب له بحقه . والمعنى : أنا نفعل ما نفعل بهم ، ثم لا تجد أحدا يطالبنا بما فعلنا انتصارا منا ودركا للثأر من جهتنا . وهذا نحو قوله وَلا يَخافُ عُقْباها . بِما كَفَرْتُمْ بكفرانكم النعمة ، يريد : إعراضهم حين نجاهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 671 . 680﴾

---

(1) يلوذ ثعالب الشرقين منها كما لاذ الغريم من التبيع

الشماخ ، يصف عقابا تهرب منها ثعالب الشرقين ، وهو اسم موضع ، أو جهة الجنوب وجهة الشمال ، كالمشرقين ، كما لاذ : أى هرب والتجأ ، الغريم : أى المدين ، من التبيع : أى الدائن المطالب .

وقال الخازن :

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) ﴾

﴿ قل ﴾ أي قل يا محمد ﴿ كونوا حجارة ﴾ أي في الشدة ﴿ أو حديداً ﴾ أي في القوة وليس هذا بأمر إلزام بل هو أمر تعجيزي أي استشعروا في قلوبكم ، أنكم حجارة أو حديد في القوة ﴿ أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ﴾ قيل : يعني السماء والأرض والجبال لأنها أعظم المخلوقات .

وقيل : يعني به الموت لأنه لا شيء في نفس ابن آدم أكبر من الموت ، ومعناه لو كنتم الموت بعينه لأميتنكم ولأبعثنكم ﴿ فسيقولون من يعيدنا ﴾ أي من يبعثنا بعد الموت ﴿ قل الذي فطركم ﴾ أي خلقكم ﴿ أول مرة ﴾ فمن قدر على الإنشاء قدر على الإعادة ﴿ فسينغضون إليك رؤوسهم ﴾ أي يحركونها إذا قلت لهم ذلك مستهزئين بما تقول ﴿ ويقولون متى هو ﴾ يعني البعث والقيامة ﴿ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ أي هو قريب ﴿ يوم يدعوكم ﴾ أي من قبوركم إلى موقف القيامة ﴿ فتستجيبون بحمده ﴾ قال ابن عباس : بأمره وقيل بطاعته وقيل مقرين بأنه خالقهم وباعثهم ويحمدونه حين لا ينفعهم الحمد ،

وقيل : هذا خطاب مع المؤمنين فإنهم يبعثون حامدين ﴿ وتظنون إن لبثتم ﴾ أي في الدنيا وقيل في القبور ﴿ إلا قليلاً ﴾ وذلك لأن الإنسان لو مكث في الدنيا وفي القبر ألوفاً من السنين ، عد ذلك قليلاً بنسبة مدة القيامة والخلود في الآخرة ، وقيل : إنهم يستحقرون مدة الدنيا في جنب القيامة .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾ وذلك أن المشركين كانوا يؤذون المسلمين ، فشكوا ذلك إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأنزل الله .

وقل لعبادي يقولوا يعني للكفار التي هي أحسن ، أي لا يكافئوهم على سفههم بل يقولون لهم يهديكم الله وكان هذا قبل الإذن في القتال والجهاد .

وقيل : نزلت في عمر بن الخطاب وذلك أنه شتمه بعض الكفار ، فأمره الله بالعفو .

(201/460)

وقيل : أمر الله المؤمنين أن يقولوا ويفعلوا الخلة التي هي أحسن وقيل الأحسن كلمة الإخلاص لا إله إلا الله ﴿ إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ أي يفسد ويلقي العداوة بينهم ﴿ إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ﴾ أي ظاهر العداوة .

قوله : ربكم أعلم بكم ﴿ إن شاء يرحمكم ﴾ أي يوفقكم للإيمان فتؤمنوا ﴿ أو إن يشأ

يعذبكم ﴾ أي يميتكم على الشرك فتعذبوا ، وقيل معناه إن يشأ يرحمكم فينجيكم من أهل مكة ، وإن يشأ يعذبكم أي يسلطهم عليكم ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلاً ﴾ أي حفيظاً وكفيلاً قيل : نسختها آية القتال ﴿ وربك أعلم بمن في السموات والأرض ﴾ يعني أن علمه غير مقصور عليكم بل علمه متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذات الأرضين والسموات ، ويعلم حال كل أحد ويعلم ما يليق به من المصالح والمفاسد وقيل : معناه أنه عالم بأحوالهم واختلاف صورهم وأخلاقهم ومللهم وأديانهم ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ وذلك أنه اتخذ إبراهيم خليلاً وكلم موسى تكليماً ، وقال لعيسى : كن فكان وآتى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده وآتى داود زبوراً وذلك قوله تعالى ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ وهو كتاب أنزله الله على داود يشتمل على مائة وخمسون سورة ، كلها دعاء وثناء على الله تعالى وتحميد وتمجيد ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود ولا أحكام .

فإن قلت : لم خص داود في هذه الآية بالذكر دون غيره من الأنبياء ؟ قلت : فيه وجوه : أحدها أن الله ذكر أنه فضل بعض النبيين على بعض ثم قال تعالى : وآتينا داود زبوراً وذلك أن داود أعطي من النبوة الملك ، فلم يذكره بالملك وذكر ما آتاه من الكتاب تنبيهاً على أن الفضل المذكور في هذه الآية المراد به العلم لا الملك والمال .

الوجه الثاني : أن الله سبحانه وتعالى كتب له في الزبور أن محمداً خاتم الأنبياء ، وأن أمته خير الأمم فلهذا خصه بالذكر .

(202/460)

الوجه الثالث : أن اليهود زعمت أن لا نبي بعد موسى ، ولا كتاب بعد التوراة فكذبهم الله بقوله : وآتينا داود زبوراً ومعنى الآية أنكم لن تنكروا تفضيل النبيين ، فكيف تنكرون تفضيل النبي صلى الله عليه سلم وإعطاءه القرآن وأن الله آتى موسى التوراة ، وداود الزبور وعيسى الأنجيل فلم يبعد أن يفضل محمد (صلى الله عليه وسلم) على جميع الخلائق ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ وهذا خطاب مع من يقر بتفضيل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

قوله ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ وذلك أن الكفار أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجيف ، فاستغاثوا بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ليدعو لهم فقال الله : قل ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه ﴾ فلا يملكون كشف الضر عنكم ﴾ أي الجوع والقحط ﴿ ولا تحويلاً ﴾ أي إلى غيركم أو تحويل الحال من العسر إلى اليسر ، ومقصود الآية الرد على المشركين ، حيث قالوا ليس لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله فنحن المقربين إليه

، وهم الملائكة .

ثم إنهم اتخذوا لذلك الملك الذي عبدوه تمثالاً وصورة وقد اشتغلوا بعبادته فاحتج على بطلان قولهم بهذه الآية وبين عجز آلهتهم ثم قال تعالى ﴿ أولئك الذين يدعون ﴾ أي الذين يدعون المشركون آلهة ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ أي القربة والدرجة العليا .

قال ابن عباس : هم عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم .

وقال عبد الله بن مسعود : نزلت هذه الآية في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم أولئك الجن ، ولم يعلم الإنس بذلك فتمسكوا بعبادتهم فعيرهم الله وأنزل هذه الآية .

قوله تعالى ﴿ أيهم أقرب ﴾ معناه ، ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به ، وقيل : أيهم أقرب يبتغي الوسيلة إلى الله ، ويتقرب إليه بالعمل الصالح وازدياد الخير والطاعة ﴿ ويرجون رحمته ﴾ أي جنته ﴿ ويخافون عذابه ﴾ وقيل : معناه يرجون ويخافون كغيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة ﴿ إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ أي حقيقاً بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ، ونبي مرسل فضلاً عن غيرهم من الخلائق .

قوله سحانه وتعالى : ﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة ﴾ أي بالموت

والخراب ﴿ أو معذبوها عذاباً شديداً ﴾ أي بالقتل وأنواع العذاب إذا كفروا وعصوا ، وقيل : الإهلاك في حق المؤمنين الإماتة وفي حق الكفار العذاب قال عبد الله بن مسعود : إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله في هلاكها ﴿ كان ذلك في الكتاب ﴾ أي في اللوح المحفوظ ﴿ مسطوراً ﴾ أي مكتوباً مثبتاً .

عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " إن أو ما خلق الله القلم فقال له : اكتب فقال : ما أكتب : قال : القدر وما هو كائن إلى يوم القيامة إلى الأبد " أخرجه الترمذي .

(204/460)

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ قال ابن عباس " سأل أهل مكة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يجعل لهم الصفا ذهباً وفضة وأن ينحي الجبال عنهم ليزرعوا فأوحى الله إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إن شئت أن أستأني بهم فعلت وإن شئت أن أوتيهم ما سألوا فعلت ، فإن لم يؤمنوا أهلكتهم كما أهلكت من كان قبلهم فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) لا بل تستأني بهم " فأنزل الله ﴿ وما منعنا أن نرسل الآيات ﴾ أي التي سألها الكفار قومك ﴿ إلا أن كذب بها الأولون

﴾ أي فأهلكناهم فإن لم يؤمن قومك بعد إرسال الآيات أهلكناهم ، لأن من سنتنا في الأمم إذا سألوا الآيات ثم لم يؤمنوا بعد إتيانها أن نهلكهم ولا نمهلهم وقد حكمنا بإمهال هذه الأمة إلى يوم القيامة ، ثم ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا فقال تعالى ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾ أي بينة ، وذلك لأن آثار إهلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم ﴿ فظلموا بها ﴾ أي جحدوا أنها من عند الله .

وقيل : فظلموا أنفسهم بتكذيبها فعاجلناهم بالعقوبة ﴿ وما نرسل بالآيات ﴾ المقترحة ﴿ إلا تخويفاً ﴾ أي وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً من العذاب ، فإن لم يخافوا وقع عليهم .

وقيل : معناه وما نرسل بالآيات يعني العبر والدلالات ، إلا تخويفاً إي إنذاراً بعذاب الآخرة إن لم يؤمنوا فإن الله سبحانه وتعالى يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يرجعون .

قوله ﴿ وإذ قلنا لك ﴾ أي واذكر يا محمد إذ قلنا لك ﴿ إن ربك أحاط بالناس ﴾ أي إن قدرته محيطة بهم فهم في قبضته وقدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته وإذا كان الأمر كذلك فهم لا يقدرون على أمر من الأمور إلا بقضائه وقدره وهو حافظك ومانعك منهم ،

فلا تهبهم وامض لما أمرك من التبليغ للرسالة ، فهو ينصرك ويقويك على ذلك ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ الأكثرون من المفسرين على أن المراد ما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) ليلة المعراج من العجائب والآيات .

قال ابن عباس : هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه سلم ليلة المعراج وهي ليلة أسري به إلى بيت المقدس أخرجه البخاري .

وهو قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وغيرهم .

والعرب تقول : رأيت بعيني رؤية ورؤيا فلما ذكرها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) للناس أنكر بعضهم ذلك وكذبوا فكانت فتنة للناس ، وازداد المخلصون إيماناً .

وقال قوم : أسري بروحه دون جسده وهو ضعيف .

وقال قوم كان له معراجان : معراج رؤية عين في اليقظة ومعراج رؤيا منام .

وقيل : أراد بهذه الرؤيا ما رأى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عام الحديبية ، أنه دخل مكة هو وأصحابه فعجل المسير إلى مكة قبل الأجل ، فصده المشركون فرجع إلى المدينة فكان رجوعه في ذلك العام بعدما أخبر أنه يدخلها فتنة لبعضهم ، ثم دخل مكة في العام المقبل وأنزل الله لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، وقيل : إن النبي (صلى الله عليه وسلم

) رأى في المنام أن ولد الحكم بن أمية يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة فساءه ذلك .

(206/460)

فإن اعترض معترض على هذا التفسير وقال السورة مكية وهاتان الواقعتان كانتا بالمدينة أجيب بأنه لا إشكال فيه فإنه لا يبعد أن النبي (صلى الله عليه وسلم) رأى ذلك بمكة ، ثم كان ذلك حقيقة بالمدينة ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ يعني شجرة الزقوم التي وصفها الله تعالى في سورة الصافات والعرب تقول لكل طعام كريه : طعام ملعون والفتنة فيها أن أبا جهل قال : إن ابن أبي كبشة يعني النبي صلى الله علي وسلم توعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يزعم أنه تنبت فيها شجرة وتعلمون أن النار تحرق الشجر .

وقيل : إن عبد الله بن الزبعري قال : إن محمداً يخوفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم إلا الزبد والتمر ، فقال أبو جهل : يا جارية تعالي فزقمينا فأتت بزبد وتمر فقال يا قوم فإن هذا ما يخوفكم به محمد ، فأنزل الله سبحانه وتعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجر ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ الآيات .

فإن قلت : أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن ، قلت : لعنت حيث لعن الكفار الذين يأكلونها

لأن الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن ، وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز .

وقيل وصفها الله تعالى باللعن لأن اللعن الإبعاد من الرحمة ، وهي في أصل جهنم في أبعد مكان من الرحمة ، وقال ابن عباس : في رواية عنه إن الشجرة الملعونة هي الكشوث الذي يلتوي على الشجر والشوك فيجففه ﴿ ونخوفهم فما يزيدهم ﴾ أي التخويف ﴿ إلا طغياناً كبيراً ﴾ أي تمرداً وعتواً عظيماً قوله سبحانه وتعالى ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً ﴾ أي من طين وذلك أن آدم خلق من تراب الأرض من عذبها وملحها ، فمن خلق من العذب فهو سعيد ومن خلق من الملح فهو شقي ﴿ قال ﴾ يعني إبليس ﴿ أرأيتك ﴾ الكاف للمخاطب والمعنى أخبرني ﴿ هذا الذي كرمت علي ﴾ أي فضلته ﴿ لئن أخرتن ﴾ أي أمهلتني ﴿ إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته ﴾ أي لأستأصلنهم بالاضلال .

وقيل : معناه لأقودنهم كيف شئت .

وقيل : لأستولين عليهم بالإغواء ﴿ إلا قليلاً ﴾ يعني المعصومين الذي استثناهم الله تعالى في قوله ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ ﴿ قال ﴾ الله تعالى ﴿ اذهب ﴾ أي

امض لشأنك وليس هو من الذهاب الذي هو ضد المجيء ﴿ فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم ﴾ أي جزاؤك وجزاء أتباعك ﴿ جزاء موفوراً ﴾ أي مكملاً .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ واستفزز ﴾ أي استخفف واستزل واستعجل وأزعج ﴿ من استعطت منهم ﴾ أي من ذرية آدم ﴿ بصوتك ﴾ قال ابن عباس : معناه بدعائك إلى معصية الله وكل داع إلى معصية الله فهو من جند إبليس .

وقيل : أراد بصوتك الغناء والمزامير واللهو واللعب ﴿ واجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ أي أجمع عليهم مكايدك وحبائلك ، واحثثهم على الإغواء .

وقيل : معناه استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم .

يقال : إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس فكل من قاتل أو مشى في معصية الله ، فهو من جند إبليس .

وقيل : المراد منه ضرب المثل كما تقول للرجل المجد في الأمر جئتنا بخيلك ورجلك ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ أما المشاركة في الأموال فكل مال أصيب من حرام أو أنفق في حرام ، وقيل هو الربا ، وقيل : هو ما كانوا يذبحونه لآلهتهم ويحرمونه كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام .

وأما المشاركة في الأولاد فروي عن ابن عباس أنها الموؤدة ، وقيل : أولاد الزنا .

وعن ابن عباس أيضاً هي تسميتهم أولادهم بعبد العزى ، وعبد الحارث وعبد شمس

ونحوه ، وقيل : هو أن يرغبوا أولادهم في الأديان الباطلة الكاذبة ، كاليهودية والنصرانية والمجوسية ونحوها .

وقيل إن الشيطان يقعد على ذكر الرجل وقت الجماع فإذا لم يقل بسم الله أصاب معه امرأته وأنزل في فرجها كما نزل الرجل .

وروي في بعض الأخبار أن فيكم مغربين قال : ما المغربون قال : الذين شارك فيهم الجن .

(208/460)

وعن ابن عباس أنه سأله رجل فقال : إن امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة نار قال : ذلك من وطء الجن ﴿ وعدهم ﴾ أي منهم الجميل في طاعتك ، وقيل : قل لهم لا جنة ولا نار ولا بعث ، وذلك أن الشيطان إذا دعا المعصية فلا بد أن يقرر أولاً أنه لا مضرة في فعلها البتة ، وذلك لا يمكن إلا إذا قال له لا معاد ولا جنة ولا نار ولا حياة بعد هذه الحياة ، فيقرر عند المدعو أنه لا مضرة في هذه المعاصي وإذا فرغ من هذا النوع قرر عنده أن هذا الفعل يفيد أنواعاً من اللذة والسرور ولا حياة للإنسان في الدنيا إلا به ، فهذا طريق الدعوة إلى المعصية ثم ينفره عن فعل الطاعات وأنه يقرر عنده أن لا جنة ولا نار ولا عقاب فلا فائدة فيها .

وقيل معنى عدهم أي شفاعة الأصنام عند الله وإيثار العاجل على الأجل .

فإن قلت : كيف ذكر الله هذه الأشياء بصيغة الأمر ، والله سبحانه وتعالى يقول : إن الله لا يأمر بالفحشاء ؟ قلت : هذا على طريق التهديد كقوله تعالى : اعلموا ما شئتم .

وكقول القائل اجتهد جهدك فسترى ما ينزل بك .

وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ أي يزين الباطل بما يظن أنه حق واعلم أن الله سبحانه وتعالى لما قال : وعدهم ، أردفه بما هو زاجر عن قبول وعده بقوله : ما يعدهم الشيطان إلا غرورا والسبب فيه أنه إنما يدعو إلى قضاء الشهوة وطلب الرياسة ونحو ذلك ، ولا يدعو إلى معرفة الله تعالى ، ولا إلى عبادته وتلك الأشياء التي يدعو إليها خيالية لا حقيقة لها ولا تحصل إلا بعد متاعب ومشاق عظيمة ، وإذا حصلت كانت سريعة الذهاب والانقضاء وينغصها الموت والهرم وغير ذلك ، وإذا كانت هذه الأشياء بهذه الصفة كانت الرغبة فيها غروراً .

﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ يعني بعبادة الأنبياء وأهل الفضل الصلاح لأنه لا يقدر على إغوائهم ﴿ وكفى بربك وكيلاً ﴾ أي حافظاً .

والمعنى : أنه سبحانه وتعالى لما أمكن إبليس أن يأتي بما يقدر عليه من الوسوسة كان ذلك سبباً لحصول الخوف في قلب الإنسان ، قال تعالى ﴿ وكفى بربك وكيلاً ﴾ أي فالله سبحانه وتعالى أقدر منه وأرحم بعباده فهو يدفع عنهم كيد الشيطان ووساوسه ، ويعصمهم من إغوائه وإضلاله .

وفي بعض الآثار أن إبليس لما خرج إلى الأرض قال : يا رب أخرجتني من الجنة لأجل آدم فسلطني عليه وعلى ذريته قال : أنت مسلط .

قال : لا أستطيعه إلا بك فزدني .

قال : استفزز من استطعت منهم الآية .

فقال آدم : يا رب سلطت إبليس علي وعلى ذريتي وإني لا أستطيعه إلا بك قال : لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه قال رب زدني قال الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها قال رب زدني قال : التوبة معروضة ما دام الروح في الجسد قال رب زدني فقال يا عبادي الذي أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية .

وفي الخبر قال إبليس : يا رب بعثت أنبياء وأنزلت كتباً فما قراءتي ؟ قال : الشعر .

قال : فما كتابي ؟ قال : الوشم ، قال : ومن رسلي ؟ قال الكهنة .

قال : أي شيء مطعمي ؟ قال ما لم يذكر عليه اسمي قال فما شرابي قال كل مسكر قال :

وأين مسكني؟ قال الحمامات قال وأين مجلسي؟ قال في الأسواق قال: وما حبائلي قال: النساء قال: وما أذاني؟ قال المزمار.

(210/460)

قوله ﴿ ربكم الذين يزجي ﴾ أي يسوق ويجري ﴿ لكم الفلك ﴾ أي السفن ﴿ في البحر لتبتغوا من فضله ﴾ أي لتطلبوا من رزقه بالأرباح في التجارة وغيرها ﴿ إنه كان بكم رحيماً ﴾ أي حيث يسر لكم هذه المنافع، والمصالح وسهلها عليكم ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ﴾ أي الشدة وخوف الغرق في البحر ﴿ ضل من تدعون ﴾ أي ذهب من أوهامكم وخواطركم كل من تدعون في حوادثكم من الأصنام وغيرها ﴿ إلا إياه ﴾ أي أجاب دعاءكم لا تذكرون سواه ولا يخطر ببالكم غيره لأنه القادر على إعاتكم ونجاتكم ﴿ فلما نجاكم ﴾ أي أجاب دعاءكم وأنجاكم من هول البحر وشدته وأخرجكم ﴿ إلى البر أعرضتم ﴾ أي عن الإيمان والإخلاص والطاعة، وكفرتم النعمة وهو قوله تعالى ﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾ أي جحوداً ﴿ أفأمنتم ﴾ أي بعد إنجائكم ﴿ أن يخسف بكم جانب البر ﴾ أي تغوره.

والمعنى: أن الجهات كلها له، وفي قدرته براً كان أو بحراً بل إن كان الغرق في البحر ففي

جانب البر ما هو مثله وهو الخسف لأنه يغيب تحت الثرى كما أن الغرق يغيب تحت الماء ﴿ أو يرسل عليكم حاصباً ﴾ أي نمطر عليكم حجارة من السماء ، كما أمطرناها على قوم لوط ﴿ ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ﴾ أي مانعاً وناصراً ﴿ أم أمنتم أن يعيدكم فيه ﴾ أي في البحر ﴿ تارة ﴾ أي مرة ﴿ أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح ﴾ قال ابن عباس : أي عاصفاً وهي الريح الشديدة .

وقيل : الريح التي تقصف كل شيء من شجر وغيره ﴿ فيغرقكم بما كفرتم ﴾ أي بكفرانكم النعمة وإعراضكم حين أنجيناكم ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ التبيع المطالب .

والمعنى : أنا نفعل ما نفعل بكم ثم لا تجدون لكم أحداً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً لكم ودركاً للثأر من جهتنا .

وقيل : معناه من يتبعنا بالإنكار علينا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 170.163 ﴾

وقال النسفى :

﴿ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾

أي السماوات والأرض فإنها تكبر عندكم عن قبول الحياة ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ﴾ يعيدكم ﴿ الذى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ والمعنى أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم ويرده إلى حال الحياة بعدما كنتم عظاماً يابسة مع أن العظام بعض أجزاء الحي بل هي عمود خلقه الذي يبنى عليه سائره فليس ببدع أن يردها الله بقدرته إلى الحالة الأولى ، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة وهو أن تكونوا حجارة أو حديداً لكان قادراً على أن يردكم إلى حال الحياة ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ ﴾ فسيحركونها نحوك تعجباً واستهزاءً ﴿ وَيَقُولُونَ متى هُوَ ﴾ أي البعث استبعاداً له ونفياً ﴿ قُلْ عسى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ أي هو قريب و"عسى" للوجوب

.

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ إلى المحاسبة وهو يوم القيامة ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أي تجيبون حامدين والباء للحال .

عن سعيد بن جبير : ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون سبحانك اللهم وبحمدك ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي لبثاً قليلاً أو زماناً قليلاً في الدنيا أو في القبر .

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى ﴾ وقل للمؤمنين ﴿ يَقُولُواْ ﴾ للمشركين الكلمة ﴿ التى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

وألين ولا يخاشنوهم وهي أن يقولوا يهديكم الله ﴿ إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ يلقي بينهم الفساد ويغري بعضهم على بعض ليوقع بينهم المشاقة .

والنزغ : إيقاع الشر وإفساد ذات البين .

وقرأ طلحة : ﴿ ينزغ ﴾ بالكسر وهما لغتان ﴿ إِنَّ الشيطان كَانَ لِلإِنسان عَدُوّاً مُّبِيناً ﴾ ظاهر العداوة أو فسر ﴿ التي هي أحسن ﴾ بقوله : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ بالهداية والتوفيق ﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذّبْكُمْ ﴾ بالخذلان أي يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها ولا يقولوا لهم إنكم من أهل النار وإنكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر .

قوله : ﴿ إن الشيطان ينزع بينهم ﴾ .

اعتراض ﴿ وَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ حافظاً لأعمالهم وموكولاً إليك أمرهم وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فدارهم ومر أصحابك بالمداراة ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِى السماوات والأرض ﴾ وبأحوالهم وبكل ما يستأهل كل واحد منهم .

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيين على بَعْضٍ ﴾ فيه إشارة إلى تفضيل رسول الله صلى الله

عليه وسلم وقوله : ﴿ وءاتينا داوُود زَبوراً ﴾ دلالة على وجه تفضيله وأنه خاتم الأنبياء ، وأن أمته خير الأمم لأن ذلك مكتوب في زبور داود قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور مِن بَعْدِ الذكر أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصالحون ﴾ [الأنبياء : 105] وهم محمد وأمته .

ولم يعرف الزبور هنا وعرفه في قوله : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور ﴾ لأنه كالعباس وعباس والفضل وفضل

(213/460)

﴿ قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم ﴾ إنها آلهتكم ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ من دون الله وهم الملائكة ، أو عيسى وعزير ، أو نفر من الجن عبدهم ناس من العرب ثم أسلم الجن ولم يشعروا ﴿ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضر عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ﴾ أي ادعوهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب ، ولا أن يحولوه من واحد إلى آخر ﴿ أولئك ﴾ مبتدأ ﴿ الذين يَدْعُونَ ﴾ صفة أي يدعونهم آلهة أو يعبدونهم والخبر ﴿ يَبْتَغُونَ إلى رَبّهِمُ الوسيلة ﴾ يعني أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهي القربة إلى الله عز وجل ﴿ أَيُّهُم ﴾ بدل من واو يبتغون و"أي" موصولة أي يبتغي من هو ﴿ أَقْرَبُ ﴾ منهم الوسيلة إلى الله فكيف بغير

الأقرب أو ضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون فكأنه قيل : يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله وذلك بالطاعة وازدياد الخير ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ويخافون عَذَابَهُ ﴾ كغيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ حقيقاً بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلاً عن غيرهم ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القيامة أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قبل الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة ﴿ كَانَ ذلك فِى الكتاب ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿ مَسْطُورًا ﴾ مكتوباً .

وعن مقاتل : وجدت في كتب الضحاك في تفسيرها : أما مكة فيخربها الحبشة ، وتهلك المدينة بالجوع ، والبصرة بالغرق ، والكوفة بالترك ، والجبال بالصواعق والرواجف .

(214/460)

أما خراسان فعذابها ضروب ، وأما بلخ فتصيبهم هدّة فيهلك أهلها ، وأما بدخشان فيخربها أقوام ، وأما ترمذ فأهلها يموتون بالطاعون ، وأما صغانيان إلى ولشجرد فيقتلون بقتل ذريع ، وأما سمرقند فيغلب عليها بنو قنطوراء فيقتلون أهلها قتلاً ذريعاً ، وكذا فرغانة والشاش واسبيجاب وخوارزم ، وأما بخارى فهي أرض الجبابرة فيموتون قحطاً وجوعاً ، وأما مرو فيغلب عليها الرمل ويهلك بها العلماء والعباد ، وأما هراة فيمطرون بالحيات

فتأكلهم أكلاً ، وأما نيسابور فيصيب أهلها رعد وبرق وظلمة فيهلك أكثرهم ، وأما الري فيغلب عليها الطبرية والديلم فيقتلونهم ، وأما أرمينية وأذربيجان فيهلكها سنابك الخيول والجيوش والصواعق والرواجف ، وأما همذان فالديلم يدخلها ويخربها ، وأما حلوان فتمر بها ريح ساكنة وهم نيام فيصبح أهلها قردة وخنازير ثم يخرج رجل من جهينة فيدخل مصر ، فويل لأهلها ولأهل دمشق ، وويل لأهل إفريقية وويل لأهل الرملة ، ولا يدخل بيت المقدس ، وأما سجستان فيصيبهم ريح عاصف أياماً ثم هدة تأتيهم ويموت فيها العلماء وأما كرمان وأصبهان وفارس فيأتيهم عدو وصاحوا صيحة تنخلع القلوب وتموت الأبدان .

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون ﴾ استعير المنع لترك إرسال الآيات .

و"أن" الأولى مع صلتها في موضع النصب لأنها مفعول ثان ل ﴿ منعنا ﴾ و"أن" الثانية مع صلتها في موضع الرفع لأنها فاعل ﴿ منعنا ﴾ والتقدير : وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين .

والمراد الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهباً ومن إحياء الموتى وغير ذلك وسنة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال .

والمعنى : وما منعنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود ، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك وعذبوا العذاب المستأصل ، وقد حكمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة .

ثم ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا واحدة وهي ناقة صالح عليه السلام ، لأن آثار هلاكهم قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم فقال : ﴿ وءَاتينا ثمود الناقة ﴾ باقتراحهم ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ آية بينة ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ فكفروا بها ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بالآيات ﴾ إن أراد بها الآيات فالمعنى لا نرسلها ﴿ إِلاَّ تَخْوِيفاً ﴾ من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدمة له ، فإن لم يخافوا وقع عليهم ، وإن أراد غيرها فالمعنى وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفاً وإنذاراً بعذاب الآخرة وهو مفعول له .

﴿ وَإِذا قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالناس وَمَا جَعَلْنَا الرءيا التى أريناك إِلاَّ فِتْنَةً لّلنَّاسِ ﴾ واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش علماً وقدرة فكلهم في قبضته ، فلا تبال بهم وامض لأمرك وبلغ ما أرسلت به ، أو بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم وذلك قوله : ﴿

سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّونَ الدبر ﴾ ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المهاد ﴾ [آل عمران : 12] فجعله كأن قد كان ووجد فقال : أحاط بالناس على سننه في إخباره ، ولعل الله تعالى أراه مصارعهم في منامه فقد كان يقول حين ورد ماء بدر : " والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم " وهو يومىء إلى الأرض ويقول : " هذا مصرع فلان " فتسامعت قريشاً بما أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر بدر وما أري في منامه من مصارعهم فكانوا يضحكون ويسخرون ويستعجلون به استهزاء .

﴿ والشجرة الملعونة فِى القرءان ﴾ أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس ، فإنهم حين سمعوا بقوله : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ [الدخان : 43] جعلوها سخرية وقالوا : إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ، ثم يقول : تنبت فيها الشجرة وما قدروا الله حق قدره إذا قالوا ذلك فإنه لا يمتنع أن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار فوبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك يتخذ منه مناديل إذا اتسخت طرحت في النار ، فذهب الوسخ وبقي المنديل سالماً لا تعمل فيه النار وترى النعامة تبتلع الجمر فلا يضرها ، وخلق في كل شجرة ناراً فلا تحرقها ، فجاز أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها .

والمعنى أن الآيات إنما ترسل تخويفاً للعباد ، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر وخوفوا بعذاب الآخرة وبشجرة الزقوم فما أثر فيهم .

ثم قال : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ أي بمخاوف الدنيا والآخرة ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ التخويف ﴿ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيرًا ﴾ فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات ؟ وقيل : الرؤيا هي الإسراء ، والفتنة ارتداد من استعظم ذلك وبه تعلق من يقول : كان الإسراء في المنام ، ومن قال : كان في اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية .

وإنما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له لعلها رؤيا رأيتها استبعاداً منهم كما سمى أشياء بأساميها عند الكفرة كقوله ﴿ فَرَاغَ إِلَى ءالِهَتِهِمْ ﴾ [الصافات : 91] ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِىَ ﴾ [النحل : 27] أو هي رؤيا أنه سيدخل مكة ، والفتنة الصد بالحديبية .

فإن قلت : ليس في القرآن ذكر لعن شجرة الزقوم .

قلت : معناه : والشجرة الملعون آكلها وهم الكفرة لأنه قال ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضالون المكذبون * لأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ [الواقعة : 53 ، 52] فوصفت بلعن أهلها على المجاز ، ولأن العرب تقول : لكل طعام مكروه ضار ملعون ،

ولأن اللعن هو الإبعاد من الرحمة وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة .

﴿ وَإِذا قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ هو تمييز أو حال من الموصول ، والعامل فيه ﴿ أأسجد ﴾ على أأسجد له وهو طين أي أصله طين ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هذا الذى ﴾ الكاف لا موضع لها لأنها ذكرت للخطاب تأكيداً هذا مفعول به والمعنى أخبرني عن هذا الذي ﴿ كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ أي فضلته ، لم كرمته علي وأنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، فحذف ذلك اختصاراً لدلالة ما تقدم عليه .

ثم ابتدأ فقال : ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ ﴾ وبلا ياء : كوفي وشامي .

واللام موطئة للقسم المحذوف ﴿ إلى يَوْمِ القيامة لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ لأستأصلنهم بإغوائهم ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ وهم المخلصون .

قيل : من كل ألف واحد .

وإنما علم الملعون ذلك بالإعلام أو لأنه رأى أنه خلق شهواني .

﴿ قَالَ اذهب ﴾ ليس من الذهاب الذي هو ضد المجيء وإنما معناه امض لشأنك الذي اخترته خذلاناً وتخلية .

ثم عقبه بذكر ما جره سوء اختياره فقال : ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ﴾ والتقدير فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤك ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل ﴿ جزاؤكم

﴿ وانتصب ﴿ جَزَاء مَّوفُورًا ﴾ أي موفرا بإضمار تجازون ﴿ واستفزز ﴾ استزل أو استخف استفزه أي استخفه والفز الخفيف .

(218/460)

﴿ مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ بالوسوسة أو بالغناء أو بالمزمار ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم ﴾ اجمع وصح بهم من الجلبة وهو الصياح ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ بكل راكب وماش من أهل العيث ، فالخيل الخيالة ، والرجل اسم جمع للراجل ونظيره الركب والصحب ﴿ ورجلك ﴾ حفص على أن فعلاً بمعنى فاعل كتعب وتاعب ، ومعناه وجمعك الرجِل وهذا لأن أقصى ما يستطاع في طلب الأمور الخيل والرجل .

وقيل : يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى الأموال والأولاد ﴾ قال الزجاج : كل معصية في مال وولد فإبليس شريكهم فيها كالربا والمكاسب المحرمة والبحيرة والسائبة والإنفاق في الفسوق والإسراف ومنع الزكاة والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام والتسمية بعبد العزى وعبد شمس ﴿ وَعِدْهُم ﴾ المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة والكرامة على الله بالأنساب الشريفة وإيثار العاجل على الآجل ونحو ذلك ﴿ وَمَا يَعِدُهُمْ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ﴾ هو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب ﴿ أَن عِبَادِى ﴾ الصالحين ﴾

لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ يد بتبديل الإيمان ولكن بتسويل العصيان ﴿ وكفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ لهم يتوكلون به في الاستعاذة منك أو حافظاً لهم عنك، والكل أمر تهديد فيعاقب به أو إهانة أي لا يخل ذلك بملكي.

﴿ رَّبُّكُمُ الذى يُزْجِى ﴾ يجري ويسير ﴿ لَكُمُ الفلك فِى البحر لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ يعني الربح في التجارة ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا .

﴾

(219/460)

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِى البحر ﴾ أي خوف الغرق ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ ﴾ ذهب عن أوهامكم كل من تدعونه في حوادثكم إلا إياه وحده فإنكم لا تذكرون سواه، أو ضل من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم ولكن الله وحده الذي ترجونه على الاستثناء المنقطع ﴿ فَلَمَّا نجاكم إِلَى البر أَعْرَضْتُمْ ﴾ عن الإخلاص بعد الخلاص ﴿ وَكَانَ الإنسان ﴾ أي الكافر ﴿ كَفُورًا ﴾ للنعم ﴿ أَفَأَمِنتُمْ ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البر ﴾ انتصب ﴿ جانب ﴾ ب ﴿ يخسف ﴾ مفعولاً به كالأرض في قوله: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ

وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ [القصص : 81] و ﴿ بكم ﴾ حال ، والمعنى أن يخسف جانب البر أي يقلبه وأنتم عليه ، والحاصل أن الجوابب كلها في قدرته سواء وله في كل جانب أو براً كان أو بحراً ، من أسباب الهلاك ليس جانب البحر وحده مختصاً به ، بل إن كان الغرق في جانب البحر ففي جانب البر الخسف ، وهو تغييب تحت التراب والغرق تغييب تحت الماء ، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب وحيث كان ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ هي الريح التي تحصب أي ترمي بالحصباء يعني أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ يصرف ذلك عنكم ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أخرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي أم أمنتم أن يقوي دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا فتركبوا البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم فينتقم منكم بأن يرسل عليكم ﴿ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ ﴾ وهي الريح التي لها قصيف وهو الصوت الشديد أو هو الكاسر للفلك ﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ بكفرانكم النعمة هو إعراضكم حين نجاكم ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ مطالباً من قوله

: ﴿ فاتباع بالمعروف ﴾ [البقرة : 178] أي مطالبة ، والمعنى إنا نفعل ما نفعل بهم ثم لا تجدوا أحداً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً منا ودركاً للنار من جهتنا وهذا نحو قوله : ﴿ وَلاَ يَخَافُ عقباها ﴾ [الشمس : 16] ﴿ أن نخسف ﴾ ﴿ أو نرسل ﴾ ﴿ أن نعيدكم ﴾ ﴿ فنرسل ﴾ ﴿ فنغرقكم ﴾ بالنون : مكي وأبو عمرو . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 316.322 ﴾

(221/460)

وقال البيضاوى :

﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ جواباً لهم . ﴿ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾ .

﴿ أَوْ خَلْقًا مّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ أي مما يكبر عندكم عن قبول الحياة لكونه أبعد شيء منها ، فإن قدرته تعالى لا تقصر عن إحيائكم لاشتراك الأجسام في قبول الأعراض ، فكيف إذا كنتم عظاماً مرفوتة وقد كانت غضة موصوفة بالحياة قبل والشيء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد . ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وكُنتم تراباً وما هو أبعد منه من الحياة . ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ ﴾ فسيحركونها نحوك تعجباً

واستهزاء . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ فإن كل ما هو آت قريب ، وانتصابه على الخبر أو الظرف أي يكون في زمان قريب ، و﴿ أَنْ يَكُونَ ﴾ اسم ﴿ عَسَى ﴾ أو خبره والاسم مضمر .

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ أي يوم يبعثكم فتنبعثون ، استعار لهما الدعاء والاستجابة للتنبيه على سرعتهما وتيسر أمرهما ، وأن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء . ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ حال منهم أي حامدين الله تعالى على كمال قدرته كما قيل إنهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، أو منقادين لبعثه انقياد الحامدين عليه . ﴿ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وتستقصرون مدة لبثكم في القبور كالذي مر على قرية ، أو مدة حياتكم لما ترون من الهول .

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي ﴾ يعني المؤمنين . ﴿ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الكلمة التي هي أحسن ولا يخاشنوا المشركين . ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ يهيج بينهم المراء والشر فلعل المخاشنة بهم تفضي إلى العناد وازدياد الفساد . ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ ظاهر العداوة.

﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡ ﴾ تفسير ل ﴿ التى هِىَ أَحۡسَنُ ﴾ وما بينهما اعتراض أي قولوا لهم هذه الكلمة ونحوها ولا تصرحوا بأنهم من أهل النار ، فإنه يهيجهم على الشر مع أن ختام أمرهم غيب لا يعلمه إلا الله . ﴿ وَمَا أرسلناك عَلَيۡهِمۡ وَكِيلاً ﴾ موكولاً إليك أمرهم تقسرهم على الإيمان وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً فدارهم ومر أصحابك بالاحتمال منهم . وروي أن المشركين أفرطوا في إيذائهم فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت .

وقيل شتم عمر رضي الله تعالى عنه رجل منهم فهم به فأمره الله بالعفو .

﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَنۡ فِى السموات والأرض ﴾ وبأحوالهم فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء ، وهو رد لاستبعاد قريش أن يكون يتيم أبي طالب نبياً ، وأن يكون العراة الجوع أصحابه . ﴿ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ النبيين على بَعۡضٍ ﴾ بالفضائل النفسانية والتبري عن العلائق الجسمانية ، لا بكثرة الأموال والأتباع حتى داود عليه الصلاة والسلام فإن شرفه بما أوحى إليه من الكتاب لا بما أوتيه من الملك . قيل هو إشارة إلى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله : ﴿ وَءاتَيۡنَا دَاوُودُ زَبُوراً ﴾ تنبيه على وجه تفضيله وهو أنه خاتم الأنبياء وأمته خير الأمم المدلول عليه بما كتب في الزبور من أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ، وتنكيره ها هنا وتعريفه في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِى الزبور ﴾ لأنه في الأصل فعول للمفعول كالحلوب ، أو المصدر كالقبول ويؤيده قراءة حمزة بالضم وهو كالعباس

أو الفضل ، أو لأن المراد وآتينا داود بعض الزبر ، أو بعضاً من الزبور فيه ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام .

(223/460)

﴿ قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم ﴾ أنها آلهة . ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ كالملائكة والمسيح وعزير . ﴿ فَلاَ يَمْلِكُونَ ﴾ فلا يستطيعون . ﴿ كَشْفَ الضر عَنْكُمْ ﴾ كالمرض والفقر والقحط . ﴿ وَلاَ تَحْوِيلاً ﴾ ولا تحويل ذلك منكم إلى غيركم .

﴿ أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة ﴾ هؤلاء الآلهة يبتغون إلى الله القرابة بالطاعة . ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ بدل من واو ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ أي يبتغي من هو أقرب منهم إلى الله الوسيلة فكيف بغير الأقرب . ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ويخافون عَذَابَهُ ﴾ كسائر العباد فكيف تزعمون أنهم آلهة . ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ حقيقاً بأن يحذره كل أحد حتى الرسل والملائكة .

﴿ وَإِن مّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القيامة ﴾ بالموت والاستئصال . ﴿ أَوْ مُعَذّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ بالقتل وأنواع البلية . ﴿ كَانَ ذلك فِى الكتاب ﴾ في اللوح المحفوظ . ﴿ مَسْطُورًا ﴾ مكتوباً .

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بالآيات ﴾ ما صرفنا عن إرسال الآيات التي اقترحها قريش . ﴿ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون ﴾ إلا تكذيب الأولين الذين هم أمثالهم في الطبع كعاد وثمود ، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك ، واستوجبوا الاستئصال على ما مضت به سنتنا وقد قضينا أن لا نستأصلهم ، لأن منهم من يؤمن أو يلد من يؤمن . ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فقال :

(224/460)

﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ ﴾ بسؤالهم . ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ بينة ذات أبصار أو بصائر ، أو جاعلتهم ذوي بصائر وقرىء بالفتح . ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ فكفروا بها ، أو فظلموا أنفسهم بسبب عقرها . ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بالآيات ﴾ أي بالآيات المقترحة . ﴿ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ من نزول العذاب المستأصل ، فإن لم يخافوا نزل أو بغير المقترحة كالمعجزات وآيات القرآن إلا تخويفاً بعذاب الآخرة ، فإن أمر من بعثت إليهم مؤخر إلى يوم القيامة ، والباء مزيدة أو في موقع الحال والمفعول محذوف .

(225/460)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ ﴾ واذكر إذ أوحينا إليك . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالناس ﴾ فهم في قبضة قدرته ، أو أحاط بقريش بمعنى أهلكهم من أحاط بهم العدو ، فهي بشارة بوقعة بدر والتعبير بلفظ الماضي لتحقق وقوعه . ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرءيا التى أريناك ﴾ ليلة المعراج وتعلق به من قال إنه كان في المنام ، ومن قال إنه كان في اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية . أو عام الحديبية حين رأى أنه دخل مكة . وفيه أن الآية مكية إلا أن يقال رآها بمكة وحكاها حينئذ ، ولعله رؤيا رآها في وقعة بدر لقوله تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً ﴾ ولما روي "أنه لما ورد ماءه قال لكأني أنظر إلى مصارع القوم هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان ، فتسامعت به قريش واستسخروا منه" وقيل رأى قوماً من بني أمية يرقون منبره وينزون عليه نزو القردة فقال : "هذا حظهم من الدنيا يعطونه بإسلامهم" ، وعلى هذا كان المراد بقوله : ﴿ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ ما حدث في أيامهم . ﴿ والشجرة الملعونة فِى القرءان ﴾ عطف على ﴿ الرءيا ﴾ وهي شجرة الزقوم ، لما سمع المشركون ذكرها قالوا إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر ، ولم يعلموا أن من قدر أن يحمي وبر السَمَنْدَل من أن تأكله النار ، وأحشاء النعامة من أذى الجمر وقطع الحديد المحماة الحمر التي تبتلعها ، قدر أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها . ولعنها في القرآن لعن طاعميها وصفت به على المجاز للمبالغة ، أو وصفها بأنها في أصل الجحيم فإنه أبعد مكان من

الرحمة ، أو بأنها مكروهة مؤذية من قولهم طعام ملعون لما كان ضاراً ، وقد أولت بالشيطان وأبي جهل والحكم بن أبي العاصي ، وقرأت بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أي والشجرة الملعونة في القرآن كذلك .

﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ بأنواع التخويف . ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ إلا عتواً متجاوز الحد .

(226/460)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَءسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ لمن خلقته من طين ، فنصب بنزع الخافض ، ويجوز أن يكون حالاً من الراجع إلى الموصول أي خلقته وهو طين ، أو منه أي أأسجد له وأصله طين . وفيه على الوجوه الثلاثة إيماء بعلة الإنكار .

﴿ قَالَ أَرَءيْتَكَ هذا الذى كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ الكاف لتأكيد الخطاب لا محل له من الإعراب ، وهذا مفعول أول والذي صفته والمفعول الثاني محذوف للدلالة صلته عليه ، والمعنى أخبرني عن هذا الذي كرمته علي بأمري بالسجود له لم كرمته علي . ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ كلام مبتدأ واللام موطئة للقسم وجوابه : ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرّيَّتَهُ إَلَّا قَلِيلاً ﴾ أي

لأستأصلنهم بالاغواء إلا قليلاً لا أقدر أن أقاوم شكيمتهم ، من أحتنك الجراد الأرض إذا جرد ما عليها أكلاً ، مأخوذ من الحنك وإنما علم أن ذلك يتسهل له إما استنباطاً من قول الملائكة ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ مع التقرير ، أو تفرساً من خلقه ذا وهم وشهوة وغضب .

﴿ قَالَ اذْهَبْ ﴾ امض لما قصدته وهو طرد وتخلية بينه وبين ما سولت له نفسه . ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ﴾ جزاؤك وجزاؤهم فغلب المخاطب على الغائب ، ويجوز أن يكون الخطاب للتابعين على الالتفات . ﴿ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾ مكملاً من قولهم فر لصاحبك عرضه ، وانتصاب جزاء على المصدر بإضمار فعله أو بما في ﴿ جَزَاؤُكُمْ ﴾ من معنى تجازون ، أو حال موطئة لقوله ﴿ مَّوْفُورًا ﴾ .

(227/460)

﴿ واستفزز ﴾ واستخفف . ﴿ مَنِ استطعت مِنْهُمْ ﴾ أن تستفزه والفز الخفيف . ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ بدعائك إلى الفساد . ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم ﴾ وصح عليهم من الجلبة وهي الصياح . ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ بأعوانك من راكب وراجل ، والخيل الخيالة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام " يا خيل الله اركبي " والرجل اسم جمع للراجل كالصحب والركب ،

ويجوز أن يكون تمثيلاً لتسلطه على من يغويه بمغوار صوت على قوم فاستفزهم من أماكنهم وأجلب عليهم بجنده حتى استأصلهم. وقرأ حفص ﴿ وَرَجِلِكَ ﴾ بالكسر وغيره بالضم وهما لغتان كندس وندس ومعناه: وجمعك الرجل. وقرىء و"رجالك" و"رجالك". ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى الأموال ﴾ بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام والتصرف فيها على ما لا ينبغي. ﴿ والأولاد ﴾ بالحث على التوصل إلى الولد بالسبب المحرم، والإشراك فيه بتسميته عبد العزى، والتضليل بالحمل على الأديان الزائغة والحرف الذميمة والأفعال القبيحة. ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكال على كرامة الآباء وتأخير التوبة لطول الأمل. ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ﴾ اعتراض لبيان مواعيده الباطلة، والغرور تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب.

﴿ إِنَّ عِبَادِى ﴾ يعني المخلصين، وتعظيم الإضافة والتقييد في قوله: ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ يخصصهم ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ أي على إغوائهم قدرة. ﴿ وكفى بِرَبّكَ وَكِيلاً ﴾ يتوكلون عليه في الاستعاذة منك على الحقيقة.

﴿ رَّبُّكُمُ الذى يُزْجِى ﴾ هو الذي يجري. ﴿ لَكُمُ الفلك فِى البحر لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ الريح وأنواع الأمتعة التي لا تكون عندكم. ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه وسهل عليكم ما تعسر من أسبابه.

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِى البحر ﴾ خوف الغرق. ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ ﴾ ذهب عن خواطركم كل من تدعونه في حوادثكم. ﴿ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ وحده فإنكم حينئذ لا يخطر ببالكم سواه فلا تدعون لكشفه إلا إياه، أو ضل كل من تعبدونه عن إغاثتكم إلا الله. ﴿ فَلَمَّا نجاكم ﴾ من الغرق. ﴿ إِلَى البر أَعْرَضْتُمْ ﴾ عن التوحيد. وقيل اتسعتم في كفران النعمة كقول ذي الرمة:

عَطَاء فَتَى تَمكَّنَ فِي المَعَالي . . . فَأَعْرَضَ فِي المَكَارِمِ وَاسْتَطَالاَ

﴿ وَكَانَ الإنسان كَفُورًا ﴾ كالتعليل للإعراض.

﴿ أَفَأَمِنتُمْ ﴾ الهمزة فيه للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض، فإن من قدر أن يهلككم في البحر بالغرق قادر أن يهلككم في البر بالخسف وغيره. ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البر ﴾ أن يقلبه الله وأنتم عليه، أو يقلبه بسببكم فبكم حال أو صلة ليخسف، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالنون فيه وفي الأربعة التي بعده، وفي ذكر الجانب تنبيه على أنهم لما وصلوا الساحل كفروا وأعرضوا وأن الجوانب والجهات في قدرته سواء لا معقل يؤمن فيه من أسباب الهلاك. ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ ريحاً تحصب أي ترمي بالحصباء ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ يحفظكم من ذلك فإنه لا راد لفضله.

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ ﴾ في البحر . ﴿ تَارَةً أخرى ﴾ بخلق دواع تلجئكم إلى أن ترجعوا فتركبوه . ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الريح ﴾ لا تمر بشيء إلا قصفته أي كسرته . ﴿ فَيُغْرِقَكُم ﴾ وعن يعقوب بالتاء على إسناده إلى ضمير ﴿ الريح ﴾ . ﴿ بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ بسبب إشراككم أو كفرانكم نعمة الإنجاء . ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ مطالباً يتبعنا بانتصار أو صرف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 451 . 457 ﴾

(229/460)

وقال ابن جزى :

﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾

المعنى لو كنتم حجارة أو حديداً لقدرنا على بعثكم وإحيائكم ، مع أن الحجارة والحديد أصلب الأشياء وأبعدها عن الرطوبة التي في الحياة ، فأولى وأحرى أن يبعث أجسادكم ويحيي عظامكم البالية ، فذكر الحجارة والحديد تنبيهاً بهما على ما هو أسهل في الحياة منهما ، ومعنى قوله : كونوا أي كونوا في الوهم والتقدير ، وليس المراد به التعجيز كما قال بعضهم في ذلك ﴿ أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ قيل : يعني السموات والأرض

والجبال ، وقيل : بل أحال على فكرتهم عموماً في كل ما هو كبير عندهم : أي لو كنتم حجارة أو حديداً أو شيئاً أكبر عندكم من ذلك وأبعد عن الحياة لقدرنا على بعثكم ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ ﴾ أي يحركونها تحريك المستبعد للشيء والمستهزئ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ ﴾ أي متى يكون البعث .

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ الدعاء هنا عبارة عن البعث بالنفخ في الصور ، والاستجابة عبارة عن قيامهم من القبور طائعين منقادين ، وبحمده في موضع الحال أي حامدين له ، وقيل : معنى بحمده بأمره ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ يعني لبثتم في الدنيا أو في القبور .

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ العباد هنا المؤمنون أمرهم أن يقول بعضهم لبعض كلاماً ليناً عجيباً ، وقيل : أن يقولوه للمشركين ، ثم نسخ بالسيف ، وإعراب يقولوا كقوله : ﴿ يُقِيمُواْ الصلاة ﴾ في سورة [إبراهيم : 31] وقد ذكر ذلك .

﴿ قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ ﴾ قيل : يعني الملائكة ، وقيل : عيسى وأمه وعزير ، وقيل : نفر من الجن كان العرب يعبدونهم ، والمعنى أنهم لا يقدرون على كشف الضرّ

عنكم ، فكيف تعبدونهم ؟ ﴿ أولئك الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة ﴾ المعنى أن أولئك الآلهة الذين تدعون من دون الله يبتغون القربة إلى الله ، ويرجونه ، ويخافونه ، فكيف تعبدونهم معه ؟ وإعراب أولئك مبتدأ الذين تدعون صفة له ويبتغون خبره ، والفاعل في يدعون ضمير للكفار ، وفي يبتغون للآلهة المعبودين وقيل : إن الضمير في يدعون ويبتغون للأنبياء المذكورين قبل في قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيين على بَعْضٍ ﴾ ، والوسيلة هي ما يتوسل به ويتقرب ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ بدل من الضمير في يبتغون أي يبتغي الوسيلة من هو أقرب منهم ، فكيف بغيره ؛ أو ضمّن معنى يحرصون فكأنه قيل : يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله بالاجتهاد في طاعته ، ويحتمل أن يكون المعنى أنهم يتوسلون بأيهم أقرب ﴿ مَحْذُوراً ﴾ من الحذر وهو الخوف .

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القيامة ﴾ يحتمل هذا الكلام وجهين : أحدهما أن يكون بالموت والفناء الذي لا بد منه ، والآخر : أن يكون بأمر من الله يأخذ المدينة دفعة فيهلكها ، وهذا أظهر ، لأن الأول معلوم لا يفتقر إلى الإخبار به ، والهلاك والتعذيب المذكوران في الآية هما في الحقيقة لأهل القرى أي مهلكو أهلها أو معذبوهم ، وروي أن هلاك مكة بالحبشة ، والمدينة بالجوع ، والكوفة بالترك ، والأندلس بالخيل ، وسئل الأستاذ أبو جعفر بن الزبير عن غرناطة ، فقال : أصابها العذاب يومَ قتل الموحدين بها في ثورة ابن هود ،

وأما هلاك قرطبة وأشبيلية وطليطلة وغيرها بأخذ الروم لها ﴿ فِي الكتاب مَسْطُوراً ﴾ يعني اللوح المحفوظ .

(231/460)

﴿ ومَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون ﴾ الآيات يراد بها هنا التي يقترحها الكفار فإذا رأوها ولم يؤمنوا أهلكم الله . وسبب الآية أن قريشاً اقترحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، فأخبر الله أنه لم يفعل ذلك لئلا يكذبوا فيهلكوا ، وعبر بالمنع عن تارك ذلك ، وأن نرسل في موضع نصب وأن كذب في موضع رفع ، ثم ذكر ناقة ثمود تنبيهاً على ذلك لأنهم اقترحوها وكانت سبب هلاكهم ، ومعنى مبصرة : بينة واضحة الدلالة ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً ﴾ إن أراد بالآيات هنا المقترحة فالمعنى أنه يرسل بها تخويفاً من العذاب العاجل وهو الإهلاك ، وإن أراد المعجزات غير المقترحة فالمعنى أنه يرسل بها تخويفاً من عذاب الآخرة ، ليراها الكافر فيؤمن ، وقيل : المراد بالآيات هنا الرعد والزلازل والكسوف وغير ذلك من المخاوف .

(232/460)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالناس ﴾ المعنى اذكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش يعني بشرناك بقتلهم يوم بدر وذلك قوله : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] ، وإنما قال : أحاط بلفظ الماضي وهو لم يقع لتحقيقه وصحة وقوعه بعد ، وقيل : المعنى أحاط بالناس في منعك وحمايتك منهم كقوله : ﴿ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ [المائدة : 67] ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرءيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ اختلف في هذه الرؤيا فقيل : إنها الإسراء ، فمن قال إنه كان في اليقظة ، فالرؤيا بمعنى الرؤية بالعين ، ومن قال إنه كان في المنام فالرؤيا منامية ، والفتنة على هذا تكذيب الكفار بذلك وارتداد بعض المسلمين حينئذ ، وقيل : إنها رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في منامه هزيمة الكفار وقتلهم ببدر والفتنة على هذا تكذيب قريش بذلك ؛ وقيل : إنه رأى في المنام أنه يدخل مكة فعجل في سنة الحديبية فرد عنها فافتتن بعض المسليمن بذلك ؛ وقيل : رأى في المنام أن بني أمية يصعدون على منبره فاغتم بذلك ﴿ والشجرة الملعونة فِي القرآن ﴾ يعني شجرة الزقوم ، وهي معطوفة على الرؤيا أي جعل الرؤيا والشجرة فتنة للناس ، وذلك أن قريشاً لما سمعوا أن في جهنم شجرة زقوم سخروا من ذلك وقالوا : كيف تكون شجرة في النار والنار تحرق الشجر ؟ وقال أبو جهل : ما أعرف الزقوم إلا التمر بالزبد ، فإن قيل : لم لعنت شجرة الزقوم في القرآن ؟ فالجواب أن المراد لعنة آكلها ، وقيل : اللعنة بمعنى الإبعاد

لأنها في أصل الجحيم ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ الضمير لكفار قريش ﴿ طغيانا ﴾ تمييز أو حال من من أو من مفعول خلقت .

(233/460)

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هذا الذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ الكاف من أرأيتك للخطاب ، لا موضع لها من الإعراب ، وهذا مفعول بأرأيت ، والمعنى ؛ أخبرني عن هذا الذي كرمته علي أي فضلته وأنا خير منه ، فاختصر الكلام بحذف ذلك ، وقال ابن عطية : أرأيتك هذا بمعنى : أتأملت ونحوه لا بمعنى أخبرني ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ معناه لأستولين عليهم ولأقودنهم ، وهو مأخوذ من تحنيك الدابة ، وهو أن يشدّ على حنكها بحبل فتنقاد ﴿ قَالَ اذهب ﴾ قال ابن عطية ، وما بعده من الأوامر : صيغة أمر على وجه التهديد ، وقال الزمخشري : ليس المراد الذهاب الذي هو ضدّ المجيء ، وإنما معناه : امض لشأنك الذي اخترته خذلاناً له وتخلية ، ويحتمل عندي : أن يكون معناه للطرد والإبعاد ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ ﴾ كان الأصل أن يقال جزاؤهم بضمير الغيبة ، ليرجع إلى من اتبعك ، ولكنه ذكره بلفظ المخاطب تغليباً للمخاطب على الغائب ، وليدخل إبليس معهم ﴿ جَزَاءً مَّوْفُوراً ﴾ مصدر في موضع الحال والموفور المكمل .

﴿ واستفزز ﴾ أي اخدع واستخف ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ قيل : يعني الغناء والمزامير ، وقيل : الدعاء إلى المعاصي ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم ﴾ أي هوّل ، وهو من الجلبة وهي الصياح ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ الخيل هنا يراد بها الفرسان الراكبون على خيل ، والرجل : جمع راجل وهو الذي يمشي على رجليه فقيل : هو مجاز واستعارة بمعنى : افعل جهدك ، وقيل : إن له من الشيطان خيلاً ورجلاً ، وقيل : المراد فرسان الناس ورجالتهم المتصرفون في الشر ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الأموال والأولاد ﴾ مشاركته في الأموال بكسبها من الربا ، وإنفاقها في المعاصي وغير ذلك ، ومشاركته في الأولاد هي بالاستيلاد بالزنا وتسمية الولد عبد شمس وعبد الحارث وشبه ذلك ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ يعني : المواعدة الكاذبة من شفاعة الأصنام وشبه ذلك .

﴿ إِنَّ عِبَادِي ﴾ يعني المؤمنين الذين يتوكلون على الله بدليل قوله بعد ذلك : وكفى بربك وكيلاً ونحوه : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سلطان على الذين آمَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل : 99] .

﴿ يُزْجِي لَكُمُ الفلك ﴾ أي يجريها ويسيرها والفلك هنا جمع ، وابتغاء الفضل في التجارة

وغيرها ﴿ الضر فِي البحر ﴾ يعني خوف الغرق ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ ضل هنا بمعنى تلف وفقد : أي تلف عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعونه إلا الله وحده ، فلجأتم إليه حينئذ دون غيره . فكيف تعبدون غيره وأنتم لا تجدون في تلك الشدة إلا إياه ﴿ وَكَانَ الإنسان كَفُوراً ﴾ أي كفوراً بالنعم ، والإنسان هنا جنس .

﴿ أَفَأَمِنْتُمْ ﴾ الهمزة للتوبيخ والفاء للعطف أي أنجوتم من البحر فأمنتم الخسف في البر ﴿ حَاصِباً ﴾ يعني حجارة أو ريحا شديدة ترمي بالحصباء ﴿ وَكِيلاً ﴾ أي قائماً بأموركم وناصراً لكم ﴿ قَاصِفاً مِّنَ الريح ﴾ أي الذي يقصف ما يلقى أي يكسره ﴿ تَبِيعاً ﴾ أي مطالباً يطالبنا بما فعلنا بكم : أي لا تجدون من ينصركم منا كقوله ﴿ وَلاَ يَخَافُ عقباها ﴾ [الشمس : 15] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 2 صـ 173 . 176﴾

(235/460)

وقال الخطيب الشربيني :

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) ﴾

﴿ قل ﴾ لهم يا أشرف الخلق لا تكونوا رفاتاً بل ﴿كونوا ﴾ أصلب من التراب

﴿ حجارة ﴾ أي : هي في غاية اليبس ﴿ أو حديداً ﴾ أي : زائداً على يبس الحجارة

لشدّة اتصال الأجزاء . تنبيه : ليس المراد به أمر إلزام بل المراد لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله تعالى عن الإعادة وذلك كقول القائل أتطمع فيّ وأنا فلان فيقول كن من شئت كن ابن الخليفة فسأطلب منك حقي .

(236/460)

﴿ أو خلقاً ﴾ غير ذلك ﴿ مما يكبر ﴾ أي : يعظم عظمة كبيرة ﴿ في صدوركم ﴾ أي : مما يكبر عندكم عن قبول الحياة لكونه أبعد شيء منها فإنّ الله تعالى قادر على إعادة الحياة إليها . وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأكثر المفسرين : أنه الموت فإنه ليس في نفس ابن آدم شيء أكبر من الموت ، أي : لو كنتم الموت بعينه لأميتنكم ولأبعثنكم ، وقيل السموات والأرض والجبال لأنها من أعظم المخلوقات ﴿ فسيقولون ﴾ تمادياً في الاستهزاء ﴿ من يعيدنا ﴾ إذا كنا كذلك ﴿ قل الذي فطركم ﴾ أي : ابتدأ خلقكم ﴿ أوّل مرّة ﴾ ولم تكونوا شيئاً يعيدكم بالقدرة التي ابتدأكم بها فكما لم تعجز تلك عن البداءة فهي لا تعجز عن الإعادة ﴿ فسينغضون ﴾ أي : يحركون ﴿ إليك رؤوسهم ﴾ تعجباً واستهزاء كأنهم في شدة جهلهم على غاية البصيرة من العلم بما يقولون والنغض والإنغاض تحريك بارتفاع وانخفاض ﴿ ويقولون ﴾ استهزاء ﴿ متى هو ﴾ أي : البعث والقيامة . قال الرازي :

واعلم أنّ هذا السؤال فاسد لأنهم حكموا بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التي تقدمت ثم إنّ الله تعالى بيَّن بالبرهان الباهر كونه ممكناً في نفسه فقولهم متى هو كلام لا تعلق له بالمبحث فإنه لما ثبت بالدليل العقلي كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بإمكانه فأما أنه متى يوجد فذلك لا يمكن إثباته من طريق العقل بل إنما يمكن إثباته بالدليل السمعي فإن أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف وإلا فلا سبيل إلى معرفته لأنه تعالى بين في القرآن انه لا يطلع احداً من الخلق على وقته المعين فقال تعالى: ﴿إنّ الله عنده علم الساعة﴾ (لقمان،)

وقال: ﴿إنما علمها عند ربي﴾ (الأعراف،)

. وقال تعالى: ﴿إنّ الساعة آتية اكاد أخفيها﴾ (طه،)

فلا جرم. قال تعالى: ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾ قال المفسرون:عسى من الله واجب ومعناه أنه قريب إذ كل آت قريب وأمال متى وعسى حمزة والكسائي إمالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقوله تعالى:

﴿ يوم يدعوكم ﴾ بدل من قريباً والمعنى عسى أن يكون البعث يوم يدعوكم ، أي : بالنداء الذي يسمعكم وهو النفخة الأخيرة كما قال تعالى : ﴿ يوم ينادي المنادي من مكان قريب ﴾ (ق ،)

. روي أنّ إسرافيل ينادي أيها الأجسام البالية والعظام النخرة والأجزاء المتفرّقة عودي كما كنتِ. ﴿ فتستجيبون ﴾ أي : تجيبون والاستجابة موافقة الداعي فيما دعا إليه وهي الإجابة إلا أنّ الاستجابة تقتضي طلب الموافقة فهي آكد من الإجابة واختلف في معنى قوله تعالى : ﴿ بحمده ﴾ فقال ابن عباس : بأمره . وقال سعيد بن جبير : يخرجون من قبورهم وينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون سبحانك اللهمّ وبحمدك فيحمدونه حين لا ينفعهم الحمد . وقال قتادة : بمعرفته وطاعته . وقال أهل المعاني : تستجيبون بحمده ، أي : تستجيبون حامدين كما تقول جاء بغضبه ، أي : جاء غضبان وركب الأمير بسيفه ، أي : وسيفه معه . وقال الزمخشريّ : بحمده حال منهم ، أي : حامدين وهي مبالغة في انقيادهم للبعث كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيأبى ويمتنع ستركبه وأنت حامد شاكر يعني أنك تحمل عليه وتقسر عليه قسراً حتى إنك تلين لين المستميح الراغب فيه الحامد عليه ﴿ وتظنون أن ﴾ أي : ما ﴿ لبثتم إلا قليلاً ﴾ أي : مع استجابتكم وطول لبثكم وشدّة ما ترون من الهول فعندها تستقصرون مدّة لبثكم في الدنيا وتحسبونها يوماً أو بعض يوم . وعن قتادة تحاقرت الدنيا في أنفسهم حين عاينوا الآخرة وقال الحسن : معناه

تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا ولم تكن وبالآخرة ولم تزل فهذا يرجع إلى استقلال مدّة اللبث في الدنيا وقيل المراد استقلال مدّة لبثهم في برزخ القيامة لأنه لما كان عاقبة أمرهم الدخول في النار استقصروا لبثهم في برزخ القيامة. وقرأ نافع وابن كثير وعاصم بإظهار الثاء المثلثة عند التاء المثناة والباقون بالإدغام. ولما ذكر تعالى الحجة اليقينية في صحة المعاد وهو قوله تعالى: ﴿قل الذي فطركم أوّل مرّة﴾ قال تعالى:

﴿وقل﴾ يا محمد ﴿لعبادي﴾ أي: المؤمنين لأنّ لفظ العباد في أكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين قال تعالى: ﴿فبشر عبادي الذين يستمعون القول﴾ (الزمر: ،)

. وقال تعالى: ﴿فادخلي في عبادي﴾ (لبفجر،)

. وقال تعالى: ﴿عيناً يشرب بها عباد الله﴾ (الإنسان،)

. ﴿يقولوا﴾ للكفار الذين كانوا يؤذونهم الكلمة ﴿التي هي أحسن﴾ ولا يكافؤهم على سفههم بل يقولون يهديكم الله وكان هذا قبل الأذن بالقتال وقيل نزلت في عمر بن الخطاب شتمه بعض الكفار فأمره الله تعالى بالعفو وقيل أمر المؤمنين بأن يقولوا ويفعلوا الخلة التي هي أحسن وقيل الأحسن قول لا إلى إلا الله، ثم علل بقوله تعالى: ﴿إن الشيطان﴾ أي:

البعيد عن الرحمة المحترق باللعنة ﴿ ينزغ بينهم ﴾ أي : يفسد ويغري بعضهم على بعض ويوسوس لهم لتقع بينهم المشارّة والمشاقة وأصل النزغ الطعن وهم غير معصومين فيوشك أن يأتوا بما لا يناسب الحال . ثم علل تعالى هذه العلة بقوله تعالى : ﴿ إنّ الشيطان كان ﴾ أي : في قديم الزمان وأصل الطبع كوناً هو مجبول عليه ﴿ للإنسان عدوًّا ﴾ أي : بليغ العداوة ﴿ مبيناً ﴾ أي : بين العداوة ، ثم فسر تعالى التي هي أحسن مما علمهم ربهم من النصفة بقوله تعالى:

﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ فعلم أنّ قوله تعالى : ﴿ إن الشيطان ﴾ إلى آخره جملة اعتراضية بين المفسر والمفسر وسكن أبو عمرو الميم وأخفاها عند الباء بخلاف عنه وكذا أعلم بمن ثم استأنف تعالى : ﴿ إن يشأ ﴾ أي : رحمتكم ﴿ يرحمكم ﴾ أي : بهدايتكم ﴿ أو إن يشأ ﴾ تعذيبكم ﴿ يعذبكم ﴾ أي : بإضلالكم فلا تحتقروا أيها المؤمنون المشركين فتقطعوا بأنهم من أهل النار فتعيروهم بذلك ، فإنه يجرّ إلى غيظ القلوب فلا فائدة لأنّ الخاتمة مجهولة ولا تتجاوزوا فيهم ما أمركم الله به من قول وفعل . ثم رقى الله الخطاب إلى أعلى الخلق ، ورأس أهل الشرع ليكون من دونه أولى بالمعنى منه فقال تعالى : ﴿ وما

أرسلناك ﴾ أي : مع ما لنا من العظمة الغنية عن كل شيء ﴿ عليهم وكيلا ﴾ أي : حفيظاً وكفيلاً تقسرهم على ما يرضي الله ، وإنما أرسلناك على حسب ما نأمرك به بشيرا ونذيراً فدارهم ومر أصحابك بمداراتهم ، وقد مرّ أنّ هذا قبل الإذن بالقتال . ولما أمرهم بأن ينسبوا الأعلمية بهم إليه تعالى أخبر بما هو أعم من ذلك قاصراً الخطاب على أعلم خلقه بقوله تعالى:

﴿ وربك ﴾ أي : المحسن إليك بأن جعلك أكمل الخلق ﴿ أعلم بمن في السموات والأرض ﴾ فعلمه غير مقصور عليكم بل متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ، ومتعلق بجميع ذات الأرضين والسموات ، فيعلم تعالى حال كل أحد ، ويعلم ما يليق به من المفاسد والمصالح ، ويعلم اختلاف صورهم وأديانهم وأخلاقهم وأحوالهم وجميع ما هم عليه سبحانه وتعالى ، لا تخفى عليه خافية ، فيفضل بعض الناس على بعض على حسب إحاطة علمه وشمول قدرته ، وبعض النبيين على بعض كما قال تعالى : ﴿ ولقد فضلنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ بعض النبيين ﴾ سواء كانوا رسلاً أم لا ﴿ على بعض ﴾ بعد أن جعلنا لكل فضلاً لتقوى كل منهم وإحسانه ، فخصصنا كلاًّ منهم بفضيلة كموسى بالكلام ،

وإبراهيم بالخلة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم بالإسراء ، فلا ينكر أحد من العرب ، أو بني إسرائيل أو غيرهم ، تفضيلنا لهذا النبي الكريم ، الذي صدرنا السورة بتفضيله على جميع الخلائق ، فإذا نفعل ما نشاء بما لنا من القدرة التامة والعلم الشامل . وقرأ نافع بالهمزة والباقون بالياء ، وورش على أصله يمد على الهمزة ويوسط ويقصر . ﴿ وآتينا ﴾ موسى التوراة و﴿ داود زبوراً ﴾ وعيسى الإنجيل ، فلم يبعد أيضاً أن نؤتي محمداً صلى الله عليه وسلم القرآن ، ولم يبعد أن نفضله على جميع الخلق . فإن قيل : ما السبب في تخصيص داود عليه السلام بالذكر هنا ؟

أجيب : بأوجه الأول أنه تعالى ذكر أنه فضل بعض النبيين على بعض ، ثم قال : ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ يعني أنّ داود أوتي ملكاً عظيماً ، ثم إنه تعالى لم يذكر ما آتاه من الملك ، وذكر ما آتاه من الكتاب تنبيهاً على أنّ الفضل الذي ذكره قبل ذلك المراد منه التفضيل بالعلم والدين لا بالمال . الثاني : أنه تعالى كتب في الزبور أنّ محمداً خاتم الأنبياء ، وأنّ أمّة محمد خير الأمم قال تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ (الأنبياء ،)

وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمّته . m

فإن قيل : هلا عرفه كقوله : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور ﴾ ؟

أجيب : بأنّ التنكير هنا يدل على تعظيم حاله ؛ لأنّ الزبور عبارة عن المزبور ، فكان معناه الكتاب ، وكان معنى التنكير أنه كامل في كونه كتاباً ، ويجوز أنّ يكون زبوراً علماً ، فإذا دخلت عليه أل كقوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور ﴾ كانت للمح الأصل كعباس ، والعباس وفضل والفضل الثالث أنّ كفار قريش ما كانوا أهل نظر وجدل بل كانوا يرجعون إلى اليهود في إستخراج الشبهات واليهود كانوا يقولون أنّه لا نبيّ بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فنقض الله عليهم كلامهم بإنزال الزبور على داود .

وروى البخاري في التفسير عن أبي هريرة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : "خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه لتسرج فكان يقرأ قبل أن يفرغ" ، أي : القرآن قال البقاعي : ومن أعظم المناسبات لتخصيص داود عليه السلام وزبوره بالذكر هنا ، ذكر البعث الذي هذا مقامه فيه صريحاً ، وكذا ذكر النار مع خلو التوراة عن ذلك . أمّا البعث فلا ذكر له فيها أصلاً ، وأمّا النار فلم يذكر شيء مما يدل عليها إلا الجحيم في موضع واحد ، وأمّا الزبور فذكر فيه النار والهاوية والجحيم في غير موضع انتهى . وقرأ حمزة بضم الزاي والباقون بالفتح ، واختلف في سبب نزول قوله تعالى:

﴿ قل ادعوا الذين زعمتم ﴾ أنهم آلهة ﴿ من دونه ﴾ أي : من سواه كالملائكة وعزير والمسيح . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائي بضم اللام من قل وكسرها عاصم وحمزة كل هذا في حال الوصل ، وأما الابتداء فالجميع ابتدؤوا بهمزة مضمومة ﴿ فلا يملكون كشف الضر ﴾ أي : البؤس الذي من شأنه أن يمرض الجسم كله ﴿ عنكم ﴾ حتى لا يدعوا شيئاً منه ﴿ ولا تحويلاً ﴾ له إلى غيركم . فقال ابن عباس : إنها نزلت في الذين عبدوا المسيح وعزيراً والملائكة والشمس والقمر والنجوم ، وقيل : إنّ قوماً عبدوا نفراً من الجنّ فأسلم النفر من الجن وبقي أولئك القوم متمسكين بعبادتهم فنزلت فيهم هذه الآية . وقيل إنّ المشركين أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجيف ، فاستغاثوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليدعوا لهم فنزل ﴿ قل ﴾ للمشركين ﴿ ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه ﴾ (الأنعام ،)

وليس المراد الأصنام لأنه تعالى قال في وصفهم:

﴿ أولئك الذين يدعون ﴾ أي : يدعونهم الكفار ويتألهونهم ﴿ يبتغون ﴾ أي : يطلبون طلباً عظيماً ﴿ إلى ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم ﴿ الوسيلة ﴾ أي : المنزلة والدرجة و القربة لأعمالهم الصالحة ، وابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى لا يليق بالأصنام البتة . وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائي بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم . تنبيه : أولئك مبتدأ وخبره يبتغون ويكون الموصول نعتاً أو بياناً أو بدلاً ، والمراد باسم الإشارة الأنبياء أو الملائكة الذين عبدوا من دون الله والمراد بالواو والعباد لهم ، ويكون العائد على الذين محذوفاً أو المعنى أولئك الأنبياء الذين يدعونهم المشركون لكشف ضرّهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴿ أيهم أقرب ﴾ أي : يتسابقون بالأعمال مسابقة من يطلب كل منهم أن يكون إليه أقرب ولديه أفضل ﴿ ويرجون رحمته ﴾ رغبة فيما عنده ﴿ ويخافون عذابه ﴾ فهم كغيرهم موصوفون بالعجز والحاجة فكيف يدعونهم آلهة ، وقيل معناه أن الكفار ينظرون أيهم أقرب إلى الله تعالى فيتوسلون به . ثم علل خوفهم بأمر عامّ بقوله تعالى : ﴿ أنّ عذاب ربك ﴾ أي : المحسن إليك برفع انتقام الاستئصال منه عن أمّتك ﴿ كان ﴾ أي : كوناً لازماً ﴿ محذوراً ﴾ جديراً بأن يحذر لكل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل ، فضلاً عن غيرهم لما شوهد من إهلاكه للقرون الماضية ولما قال تعالى : ﴿ إنّ عذاب ربك كان محذوراً ﴾ بين بقوله تعالى:

﴿ وإن ﴾ أي : وما ﴿ من قرية إلا ونحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً ﴾ إنّ كل قرية ، أي : أهلها لابد وأن يرجع حالهم إلى أحد أمرين : إما الإهلاك بالموت والإستئصال ، وإمّا العذاب بالقتل وأنواع البلاء . وقال مقاتل : أمّا الصالحة فبالموت وأمّا الطالحة فبالعذاب . وقال عبد الله بن مسعود : إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله تعالى في هلاكها . ﴿ كان ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم ﴿ في الكتاب ﴾ أي : اللوح المحفوظ ﴿ مسطوراً ﴾ أي : مكتوباً . قال عبادة بن الصامت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إنّ أول ما خلق الله القلم فقال اكتب فقال وما أكتب قال : القدر ما كان وما هو كائن إلى أبد الأبد" أخرجه الترمذي . ولما كان كفار قريش قد تكرر اقتراحهم للآيات وكان صلى الله عليه وسلم لشدة حرصه على إيمان كل أحد يحب أن الله تعالى يجيبهم إلى مقترحهم طمعاً في إيمانهم فأجاب الله تعالى بقوله:

﴿ وما منعنا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة التي لا يعجزها شيء ولا يمنعها مانع ﴿ أن نرسل بالآيات ﴾ أي : التي اقترحوها كما حكى الله تعالى عنهم ذلك في قولهم ﴿ فأتنا بآية كما أرسل الأوّلون ﴾ (الأنبياء ،)

وقال آخرون ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ (الإسراء ،)

الآيات . وقال سعيد بن جبير : أنهم قالوا إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء منهم من سخرت له الريح ومنهم من أحيا الموتى فأتنا بشيء من هذه المعجزات فكان كأنه لا آيات عندهم سوى ذلك ﴿ إلا ﴾ علمنا في عالم الشهادة بما وقع من ﴿ أن كذب بها ﴾ أي : المقترحات ﴿ الأولون ﴾ وعلمنا في عالم الغيب أنّ هؤلاء مثل الأوّلين أن الشقّي منهم لا يؤمن بالمقترحات كما لم يؤمن بغيرها وأنه يقول فيها ما قال في غيرها من أنها سحر ونحو ذلك ، والسعيد لا يحتاج في إيمانه إليها فكم أجبنا أمّة إلى مقترحها فما زاد ذلك أهل الضلالة منهم إلا كفراً فأخذناهم لأنّ سنتنا جرت أنّا لا نمهل بعد الإجابة إلى المقترحات من كذب بها . قال ابن عباس : سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحي الجبال عنهم ليزرعوا تلك الأراضي فطلب صلى الله عليه وسلم ذلك من الله تعالى فأوحى الله تعالى إليه إن شئت فعلت ذلك لكن بشرط إن لم يؤمنوا أهلكتهم فقال صلى الله عليه وسلم "لا أريد ذلك" فتفضل الله تعالى برحمته هذه الأمة وتشريفها على الأمم السالفة بعدم استئصالها لما يخرج من أصلاب كفرتها من خلص عباده ، فلهذا السبب ما أجابهم

الله تعالى إلى مطلوبهم فقال جلّ ذكره : ﴿ بل الساعة موعدها والساعة أدهى وأمرّ ﴾

(القمر ،)

(246/460)

. ثم ذكر تعالى من تلك الآيات التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت إليهم فأهلكوا ما ذكره تعالى بقوله تعالى : ﴿ آتينا ثمود الناقة ﴾ حالة كونها ﴿ مبصرة ﴾ أي : مضيئة بينة جديرة بأن يستبصر بها كل من شاهدها فيستدل بها على صدق قول ذلك النبيّ ﴿ فظلموا بها ﴾ أي : ظلموا أنفسهم بتكذيبها . وقال ابن قتيبة : جحدوا بأنها من الله تعالى فأهلكناهم فكيف يتمناها هؤلاء على سبيل الاقتراح والتحكم على الله تعالى ، وخص تعالى هذه الآية بالذكر لأنّ آثار إهلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم . ثم قال تعالى : ﴿ وما نرسل بالآيات ﴾ أي : المقترحات وغيرها ﴿ إلا تخويفاً ﴾ للمرسل إليهم بها فإن خافوا نجوا وإلا هلكوا بعذاب الاستئصال من كذب بالآيات المقترحات وبعذاب الآخرة من كذب بغيرها كالمعجزات وآيات القرآن فأمر من بعث إليهم مؤخراً إلى يوم القيامة .

فإن قيل : المقصود الأعظم من إظهار الآيات أن يستدل بها على صدق المدّعى فكيف

حصل المقصود من إظهارها في التخويف ؟

أجيب : بأنه لما كان هو الحامل والغالب على التصديق فكأنه هو المقصود ولما طلب القوم من النبي صلى الله عليه وسلم تلك الآيات المقترحات وأجاب الله تعالى بأنّ إظهارها ليس بمصلحة صار ذلك سبباً لجراءة أولئك الكفار بالطعن فيه وأن يقولوا له لو كنت رسولاً حقاً من عند الله لأتيت بهذه المعجزات التي اقترحناها كما أتى بها موسى وغيره من الأنبياء ، فعند هذا قوى الله تعالى قلبه وبين له أنه ينصره ويؤيده فقال تعالى :

﴿ و ﴾ اذكر يا أشرف الخلق ﴿ إذ قلنا لك إن ربك ﴾ أي : المتفضل بالإحسان إليك بالرفق لأمّتك ﴿ أحاط بالناس ﴾ علماً وقدرة فهم في قبضته وقدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته فلا يقدرون على أمر من الأمور إلا بقضائه وقدره ، وهو حافظك ومانعك منهم فلا تهتم باقتراحهم ، وامض فيما أمرك به من تبليغ الرسالة فهو ينصرك ويقوّيك على ذلك كما وعدك بقوله تعالى : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ (المائدة ،)

وقيل : إن المراد بالناس أهل مكة بمعنى أنه يغلبهم ويقهرهم . روي أنه لما تزاحف الفريقان يوم بدر ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه كان

يدعو ويقول : "اللهمّ إني أسألك عهدك ووعدك ثم خرج وعليه الدرع يحرّض الناس ويقول :

﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ (القمر ،)

" وكان صلى الله عليه وسلم يقول حين ورد بدراً : "والله كأني أنظر إلى مصارع القوم وهو يومئ إلى الأرض ويقول هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان" فتسامعت قريش بما أوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم عطف تعالى على ﴿ وما نرسل بالآيات ﴾ قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك ﴾ أي : التي شاهدتها ليلة الإسراء ﴿ إلا فتنة ﴾ أي : امتحاناً واختباراً ﴿ للناس ﴾ لأنه صلى الله عليه وسلم لما ذكر لهم قصة الإسراء كذبوه وكفر به كثير ممن كان قد آمن به وازداد المخلصون إيماناً فلهذا السبب كانت امتحاناً .

وروى البخاري في التفسير عن ابن عباس أنه قال : هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به وتقدم أنه قول الأكثر فمنهم سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وما قاله بعضهم من أن الرؤيا تدل على أنها رؤيا منام ضعيف إذ لا فرق بين الرؤية والرؤيا في اللغة يقال رأيته بعيني رؤية ورؤيا . فائدة : قال بعض العلماء : كانت إسراآته صلى الله عليه وسلم أربعاً وثلاثين مرّة واحدة بجسده والباقي

بروحه رؤيا رآها قال ومما يدل على أنّ الإسراء ليلة فرض الصلاة كانت بالجسم ما ورد في بعض طرق الحديث أنه صلى الله عليه وسلم استوحش لما زج به في النور ولم ير معه أحداً إذ الأرواح لا توصف بالوحشة ولا بالاستيحاش قال : ومما يدلك على أنّ الإسراء كان بجسمه ما وقع له من العطش فإنّ الأرواح المجردة لا تعطش ، ولما كان صلى الله عليه وسلم قد وصل الجحيم وأخبر صلى الله عليه وسلم أنّ شجرة الزقوم تنبت في أصل الجحيم وكان ذلك في غاية الغرابة ضمها إلى الإسراء في ذلك بقوله تعالى : ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ لأنّ فيها امتحاناً أيضاً بل قال بعض المفسرين هي على التقديم والتأخير والتقدير وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس . واختلف في هذه الشجرة فالأكثرون قالوا : إنها شجرة الزقوم المذكورة في قوله تعالى : ﴿ إنّ شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ (الدخان : ،)

فكانت الفتنة في ذكر هذه الشجرة من وجهين الأول أنّ أبا جهل قال : زعم صاحبكم أنّ نار جهنم تحرق الحجارة حيث قال : ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ (البقرة ،)

ثم يقول في النار شجرة والنار تأكل الشجر فكيف يولد فيها الشجر . والثاني : قال ابن الزبعري : ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فتزقموا منه فأنزل الله تعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجراً ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ (الصافات ،)

الآيات ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ (الأنعام ،)

من قال ذلك فإن الله تعالى قادر على أن يجعل الشجرة من جنس لا تأكله النار فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك يتخذ منه مناديل إذا اتسخت طرحت في النار فيذهب الوسخ وبقيت سالمة لا تعمل فيها النار ، وترى النعامة تبلع الجمر وتبلع الحديد الحمر بإحماء النار فلا يضرها ثم أقرب من ذلك أنه تعالى جعل في الشجر ناراً فما تحرقه قال تعالى :

﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ﴾ (يس ،)

. فإن قيل : ليس في القرآن لعن هذه الشجرة ؟

أجيب : عن ذلك بوجوه الأوّل المراد لعن الكفار الذين يأكلونها لأنّ الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة ، وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز . الثاني : أنّ العرب تقول لكل طعام ضار إنه ملعون . الثالث : أنّ اللعن في اللغة الإبعاد ولما كانت هذه الشجرة مبعدة عن صفات الخير سميت ملعونة ، وقيل إنّ الشجرة الملعونة في القرآن هي اليهود لقوله تعالى :

﴿ لعن الذين كفروا ﴾ (المائدة ،)

الآية . وقيل : هي الشيطان . وقيل أبو جهل . وعن ابن عباس هي الكشوث التي تتلوى بالشجر تجعل في الشراب .

ولما ذكر سبحانه وتعالى أنه يرسل بالآيات تخويفاً قال هنا أيضاً : ﴿ ونخوّفهم فما يزيدهم ﴾ أي : الكافرين والتخويف بالقرآن. ﴿ إلا طغياناً كبيراً ﴾ أي : تجاوز للحد هو في غاية العظم فبتقدير أن يظهر الله تعالى لهم المعجزات التي اقترحوها لم يزدادوا بها إلا تمادياً في الجهل والعناد فاقتضت الحكمة أن لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الآيات والمعجزات فإنهم قد خوّفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر ، وخوّفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات.

ولما نازع القوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لأمرين الكبر والحسد ، أمّا الكبر فلأن تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد ، وأمّا الحسد فلأنهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوّة فبيّن تعالى أنّ هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا إبليس على الخروج عن الإيمان والدخول في الكفر بقوله تعالى:

﴿ وإذ ﴾ أي : واذكر إذ ﴿ قلنا ﴾ بما لنا من العظمة التي لا ينقض مرادها ﴿ للملائكة ﴾ حين خلقنا أباك آدم وفضلناه ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ أي : امتثالاً لأمري ﴿ فسجدوا إلا إبليس ﴾ أي : أبى أن يسجد لكونه ممن حقت عليه الكلمة ولم ينفعه ما يعلمه من قدرة الله وعظمته وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ قال ﴾ أي : منكراً متكبراً ﴿ أأسجد ﴾ أي : خضوعاً ﴿ لمن خلقت ﴾ حال كون أصله ﴿ طيناً ﴾ فكفر بنسبته لنا إلى الجور متخيلاً أنه أفضل من آدم عليه السلام من حيث أن الفروع ترجع إلى الأصول وأن النار التي هي أصله أكرم من الطين الذي هو أصل آدم وذهب عنه أن الطين أنفع من النار وعلى تقدير التنزل فالجواهر كلها من جنس واحد والله تعالى هو الذي أوجدها من العدم يفضل بعضها على بعض بما يحدث فيها من الأعراض . وقد ذكر الله تعالى هذه القصة في سبع سور وهي البقرة والأعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص والكلام المستقصى فيها قد تقدّم في البقرة ولعل هذه القصة إنما كررت تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم فإنه كان في محنة عظيمة من قومه وأهل زمانه فكأنه تعالى يقول ألا ترى أن أول الأنبياء هو آدم عليه السلام ثم أنه كان في محنة شديدة من إبليس وأنّ الكبر والحسد كل منهما بلية عظيمة ومحنة عظيمة للخلق وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية وأدخل قالون وأبو عمرو بينهما ألفاً ولم يدخل ورش وابن كثير بينهما ألفاً ولورش أيضاً إبدال الثانية ألفاً ، وإذا وقف حمزة سهل الثانية كقراءة ابن كثير وقرأ هشام بالتحقيق في الثانية والتسهيل

وإدخال ألف بينهما . وقرأ الباقون بتحقيقهما بلا إدخال . ولما أخبر تعالى بتكبره كان كأنه قيل أن هذه الوقاحة عظيمة واجتراء على الجناب الأعلى فهل كان منه غير ذلك قيل:

(252/460)

﴿ قال أرأيتك ﴾ أي : أخبرني وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء ولورش وجه ثان وهو أن يبدلها ألفاً وأسقطها الكسائي والباقون بالتحقيق . ﴿ هذا الذي كرّمت عليّ ﴾ لم كرّمته عليّ مع ضعفه وقويّ فكأنه قيل لقد أتى بالغاية في إساءة الأدب فما كان بعد هذا فقيل : قال مقسماً لأجل استبعاد أن يجترئ أحد هذه الجراءة على الملك الأعلى : ﴿ لئن أخرتن ﴾ أي : أيها الملك الأعلى تأخيراً ممتدًّا . ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ حياً متمكناً وجواب القسم الموطأ له باللام . ﴿ لأحتنكنّ ﴾ أي : بالإغواء ﴿ ذريته ﴾ أي : لاستولين عليهم استيلاء من جعل في حنك الدابة الأسفل حبلاً يقودها به فلا تأبى عليه . وقرأ نافع وأبو عمرو بزيادة ياء بعد النون في أخرتني عند الوصل وحذفها في الوقف ، وأثبتها ابن كثير وصلاً ووقفاً وحذفها الباقون وقفاً ووصلاً اتباعاً للرسم .

ولما علم أنه لا يقدر على الجميع قال : ﴿ إلا قليلاً ﴾ وهم أولياؤك الذين حفظتهم مني كما قال تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ (الحجر ،)

. فإن قيل : كيف ظنّ إبليس هذا الظنّ الصادق بذرية آدم ؟

أجيب : بأوجه الأوّل : أنه سمع الملائكة يقولون ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ فعرف هذه الأحوال . الثاني : أنه وسوس إلى آدم ولم يجد له عزماً فقال الظاهر أن أولاده يكونون مثله في ضعف العزم . الثالث : أنه عرف أنه مركب من قوّة بهيمية شهوية وقوّة وهمية شيطانية وقوّة عقلية ملكية ، وقوّة سبعية غضبية ، وعرف أن بعض تلك القوى تكون هي المستولية في بعض أول الخلقة ثم إن القوّة العقلية إنما تكمل في آخر الأمر ومن كان كذلك كان ما ذكره إبليس لازماً له ثم كأنه قيل لقد أطال عدوّ الله الاجتراء فما قال له ربه بعد ذلك فقيل :

﴿ قال ﴾ ممدّاً له ﴿ اذهب ﴾ أي : امض لما قصدته وهو طرد وتخلية بينه وبين ما سوّلت له نفسه ، وتقدّم في الحجر أنه إنما يؤخر إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم ينفخ في الصور لا أنه يؤخر إلى يوم القيامة كما طلب ، وقرأ أبو عمرو وخلاد والكسائيّ بادغام الباء الموحدة في الفاء ، وأظهرها الباقون .

ولما حكم تعالى بشقاوته وشقاوة من أراد طاعته له تسبب عنه قوله تعالى : ﴿ فمن تبعك

منهم ﴾ أي : أولاد آدم عليه السلام ﴿ فإن جهنم ﴾ أي : الطبقة النارية التي تتجهم داخلها ﴿ جزاؤكم ﴾ أي : جزاؤك وجزاء أتباعك تجزون ذلك ﴿ جزاء موفوراً ﴾ أي : مكملاً وافياً بما تستحقون على أعمالكم الخبيثة . ولما طلب إبليس اللعين من الله تعالى الإمهال إلى يوم القيامة لأجل أن يحتنك ذرية آدم ذكر الله تعالى له أشياء الأوّل اذهب ، أي : امض كما مرّ فإني أمهلتك هذه المدّة وليس من الذهاب الذي هو ضدّ المجيء . الثاني : قوله تعالى : ﴿ واستفزز ﴾ أي : استخف ﴿ من استطعت منهم ﴾ أن تستفزه وهم الذين سلطناك عليهم ﴿ بصوتك ﴾ قال ابن عباس : معناه بدعائك إلى معصية الله وكل داع إلى معصية الله تعالى فهو من جند إبليس ، وقيل أراد بصوتك الغناء واللهو واللعب . الثالث : قوله تعالى : ﴿ وأجلب ﴾ أي : صح ﴿ عليهم ﴾ من الجلبة وهي الصياح ﴿ بخيلك ورجلك ﴾ .

واختلفوا في الخيل والرجل على أقوال الأوّل : روى أبو الضحى عن ابن عباس أنه قال : كل راكب أو راجل في معصية الله تعالى وعلى هذا فخيله ورجله كل من شاركه في الدعاء إلى المعصية . الثاني : يحتمل أن يكون لإبليس جيش من الشياطين بعضهم راكب وبعضهم

راجل . الثالث : أن المراد منه ضرب المثل كما يقال للرجل المجد في الأمر جدّ بالخيل والرجل . قال الرازي : وهذا أقرب . وقال الزمخشري : هو كلام ورد مورد التمثيل مثل في تسلطه على من يغويه بمغوار وقع على قوم فصوّت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم ويقلقلهم عن مراكزهم وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم والخيل تقع على الفرسان قال صلى الله عليه وسلم "يا خيل الله اركبي" وقد تقع على الأفراس خاصة . وقرأ حفص عن عاصم بكسر الجيم وسكنها الباقون جمع راجل كصاحب وصحب وراكب وركب ورجل بالكسر والضم لغتان مثل حدث وحدث وهو مفرد أريد به الجمع . الرابع قوله تعالى : ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ أمّا المشاركة في الأموال فقال مجاهد : هو كل ما أصيب من حرام أو أنفق في حرام . وقال قتادة : هو جعلهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام . وقال الضحاك : هو ما يذبحونه لآلهتهم . وقال عكرمة : هو تبتيكهم آذان الأنعام وقيل هو جعلهم من أموالهم شيئاً لغير الله ، كقولهم : ﴿ هذا لله ﴾ ﴿ وهذا لشركائنا ﴾ (الأنعام ،)

ولا منافاة بين جميع هذه الأقوال . وأمّا المشاركة في الأولاد فقال عطاء عن ابن عباس : هو تسمية الأولاد بعبد شمس وعبد العزى وعبد الحرث وعبد الدار ونحوها وقال الحسن : هو أنهم هوّدوا أولادهم ونصروهم ومجسوهم وروي عن جعفر بن محمد أنّ الشيطان يعقد ذكره على ذكر الرجل فإذا لم يقل بسم الله أصاب معه امرأته وأنزل في فرجها ، كما ينزل

الرجل ويقال في جميع هذه الأقوال أيضاً ما تقدّم.

وروي أنّ رجلاً قال لابن عباس: إن امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة نار قال ذلك من وطء الجنّ.

وفي الآثار أنّ إبليس لمّا خرج إلى الأرض قال: يا رب أخرجتني من الجنة لأجل آدم فسلطني عليه وعلى ذرّيته. قال: أنت مسلط. قال: لا أستطيعه إلا بك فزدني قال: ﴿ استفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾. قال: آدم: يا رب سلطت إبليس عليّ وعلى ذريتي وإني لا أستطيعه إلا بك. قال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظونه. قال: زدني. قال: الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها. قال: زدني. قال: التوبة مفروضة ما دام الروح في الجسد. فقال: زدني. فقال: ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا ﴾ (الزمر،)

الآية.

وفي الخبر أنّ إبليس قال: يا رب بعثت أنبياء وأنزلت كتباً فما قرآني؟ قال: الشعر. قال: فما كتابي؟ قال: الوشم. قال: ومن رسولي؟ قال: الكهنة. قال: فما طعامي؟ قال: ما لم يذكر عليه اسمي. قال: فما شرابي؟ قال: كل مسكر. قال: وأين مسكني؟ قال:

الحمامات . وقال : وأين مجلسي ؟ قال : الأسواق . قال : وما حبائلي ؟ قال : النساء . قال : وما أذاني ؟ قال : المزمار . الخامس قوله تعالى : ﴿ وعدهم ﴾ أي : من المواعيد الباطلة ما يستخفهم ويغرّهم من ذلك وعدهم بأن لا جنة ولا نار ومن ذلك شفاعة الآلهة والكرامة على الله تعالى بالأنساب الشريفة وتسويف التوبة وإيثار العاجل على الآجل ونحو ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وما يعدهم الشيطان ﴾ من باب الالتفات وإقامة الظاهر مقام الضمير ولو جرى على سنن الكلام الأوّل لقال وما تعدهم بالتاء من فوق .

وقوله تعالى : ﴿ إلا غروراً ﴾ فيه أوجه أحدها : أنه نعت مصدر محذوف وهو نفسه مصدر والأصل إلا وعداً غروراً الثاني : أنه مفعول من أجله ، أي : ما يعدهم من الأماني الكاذبة إلا لأجل الغرور . الثالث : أنه مفعول به على الاتساع ، أي : ما يعدهم إلا الغرور نفسه والغرور تزيين الباطل بما يظنّ أنه حق . فإن قيل : كيف ذكر الله تعالى هذه الأشياء لإبليس وهو يقول إنّ الله لا يأمر بالفحشاء ؟

أجيب : بأنّ هذا على طريق التهديد كقوله تعالى : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ (فصلت ،)

. وكقول القائل : اعمل ما شئت فسوف ترى ، وكما يقال اجهد جهدك فسوف ترى ما

ينزل بك. ولما قال الله تعالى له افعل ما تقدر عليه قال تعالى:

﴿ إنّ عبادي ﴾ أي: الذين أهلتهم للإضافة إليّ فقاموا بحق عبوديتي بالتقوى والإحسان ﴿ ليس لك عليهم سلطان ﴾ أي: فلا تقدر أن تغويهم وتحملهم على ذنب لا يغفر فإني وفقتهم للتوكل عليّ فكفيتهم أمرك ﴿ وكفى بربك ﴾ أي: الموجد لك ﴿ وكيلاً ﴾ ، أي: حافظاً لهم منك. ولما ذكر تعالى أنه الوكيل الذي لا كافي غيره أتبعه بعض أفعاله الدالة على ذلك بقوله تعالى:

﴿ ربكم ﴾ أي: المتصرف فيكم هو ﴿ الذي يزجي ﴾ أي: يجري ﴿ لكم الفلك ﴾ ومنها التي حملكم فيها مع أبيكم نوح عليه الصلاة والسلام ﴿ في البحر لتبتغوا ﴾ أي: لتطلبوا ﴿ من فضله ﴾ الربح وأنواع الأمتعة التي لا تكون عندكم ثم إنه تعالى علل ذلك بقوله عز وجل: ﴿ إنه ﴾ أي: فعل سبحانه وتعالى ذلك لأنه ﴿ كان ﴾ أي: أزلاً وأبداً ﴿ بكم رحيماً ﴾ حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه وسهل عليكم ما يعسر من أسبابه. تنبيه: الخطاب في قوله ربكم وفي قوله إنه كان بكم عام في حق الكل والمراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها وأمّا قوله تعالى:

﴿ وإذا مسكم الضرّ ﴾ أي : الشدة ﴿ في البحر ﴾ خطاب للكفار بدليل قوله تعالى ﴿ ضلّ ﴾ أي : غاب عن ذكركم وخواطركم ﴿ من تدعون ﴾ أي : تعبدون من الآلهة ﴿ إلا إياه ﴾ وحده فأخلصتم له الدعاء علماً منكم أنه لا ينجيكم سواه ﴿ فلما نجاكم ﴾ من الغرق وأوصلكم بالتدريج ﴿ إلى البرّ أعرضتم ﴾ عن الإخلاص له ورجعتم إلى الإشراك ﴿ وكان الإنسان ﴾ أي : هذا النوع ﴿ كفوراً ﴾ أي : جحوداً للنعم بسبب أنه عند الشدّة يتمسك بفضله ورحمته وعند الرخاء والراحة يعرض عنه ويتمسك بغيره ، وقوله تعالى : ﴿ أفأمنتم ﴾ الهمزة فيه للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم من البحر فأمنتم بعد خروجكم منه ﴿ أن نخسف بكم جانب البرّ ﴾ فنغيبكم في ، أي : جانب كان منه لأنّ قدرتنا على التغيبين في الماء والتراب على السواء فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله تعالى في جميع الجوانب ﴿ أو ﴾ أمنتم أن ﴿ نرسل عليكم ﴾ من جهة الفوق شيئاً من أمرنا ﴿ حاصباً ﴾ أي : نمطر عليكم حجارة من السماء كما أمطرناها على قوم لوط قال الله تعالى : ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً ﴾ (القمر ،) وقيل الحاصب الريح ﴿ ثم لا تجدوا لكم ﴾ أيها الناس ﴿ وكيلاً ﴾ ينجيكم من ذلك ولا من غيره كما لم تجدوا في البحر وكيلاً غيره .

﴿ أم أمنتم ﴾ أي : جاوزت بكم الغباوة حدّها فلم تجوّزوا ذلك ﴿ أن نعيدكم فيه ﴾ أي : البحر الذي يضطرّكم إلى ذلك فنقسركم عليه وإن كرهتم ﴿ تارة أخرى ﴾ بأسباب

تضطرّكم إلى أن ترجعوا فتركبوه ﴿ فنرسل عليكم قاصفاً من الريح ﴾ أي : ريحاً شديدة لا تمرّ بشيء إلا قصفته فتكسر فلككم ﴿ فنغرقكم ﴾ في البحر الذي أعدناكم فيه بقدرتنا ﴿ بما كفرتم ﴾ أي : بسبب إشراككم وكفرانكم نعمة الانجاء ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ أي : مطالباً يطالبنا بما فعلنا بكم . تنبيه : تارة بمعنى مرّة وكرّة فهي مصدر وتجمع على تير وتارات . قال الشاعر :

*وإنسان عيني يحسر الماء تارة

** فيبدو وتارات يجم فيغرق

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو أن نخسف أو نرسل أن نعيدكم فنرسل فنغرقكم جميع هذه الخمسة بنون العظمة والباقون بياء الغيبة والقراءة الأولى على سبيل الالتفات من الغائب في قوله تعالى : ﴿ ربكم ﴾ إلى آخره . والقراءة الثانية على سنن ما تقدّم من الغيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 446 ـ 460 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فِى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربيّة المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والستون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/461)

الجزء الحادى والستون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 70 ﴾ من سورة الإسراء

وحتى الآية ﴿ 76 ﴾ من نفس السورة

(4/461)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70) يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قرر سبحانه بهذه الجمل ما يسر لهم من البر ، وسهل من شدائد البحر في معرض التهديد ، أتبعه أنه فعل ذلك تكريماً لهم على سائر مخلوقاته ، كما هو شأنه في القدرة على ما يريد في المفاوتة بين الأمور التي كانت متساوية عند أول خلقه لها ، ليستدلوا بذلك على سهولة الإعادة ، مشيراً إلى أنه ركب جوهر الإنسان من نفس هي أشرف النفوس بما فضلها

على قوى النفس النباتية من الاغتذاء والنمو والتوليد بالحس ظاهراً وباطناً وبالحركة بالاختيار ، وخصه على سائر الحيوان بالقوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء كما هي ، ويتجلى بها نور معرفة الله ، ويشرق فيها ضوء كبريائه وتطلع على عالمي الخلق والأمر ، وتحيط بأقسام المخلوقات من الأرواح والأجسام كما هي ، فكانت بذلك النفس الإنسانية أشرف نفوس هذا العالم ، وبدنه كذلك باختصاصه باعتدال القامة وامتدادها والتناول باليد وغير ذلك ، فقال تعالى عاطفاً على ما يرشد إليه السياق من مثل أن يقال : فلقد كرمناكم بذلك من إزجاء الفلك وإنجائكم في وقت الشدائد ، أو على : ولقد فضلنا : ﴿ ولقد كرمنا ﴾ أي بعظمتنا تكريماً عظيماً ﴿ بني ءادم ﴾ أي على سائر الطين بالنمو ، وعلى سائر النامي بالحياة ، وعلى سائر الحيوان بالنطق ، فكان حذف متعلق التكريم دالاً على عمومه لجميع الخلق ، وذلك كله تقديراً للقدرة على البعث ﴿ وحملناهم في البر ﴾ على الدواب وغيرها ﴿ والبحر ﴾ على السفن وغيرها ﴿ ورزقناهم ﴾ أي رزقاً يناسب عظمتنا ﴿ من الطيبات ﴾ أي المستلذات من الثمرات والأقوات التي يأكل غيرهم من الحيوان قشّها ﴿ وفضلناهم ﴾ في أنفسهم بإحسان الشكل ، وفي صفاتهم بالعلم المنتج لسعادة الدارين ، وفي رزقنا لهم بما تقدم .

ولما حذف متعلق التكريم دلالة على التعميم ، وكان أغلب أفراده ضالاً ، قال لذلك : ﴿ على كثير ممن خلقنا ﴾ أي بعظمتنا التي خلقناهم بها وأكد الفعل بالمصدر إشارة إلى إعراقهم في الفضيلة فقال تعالى : ﴿ تفضيلاً ﴾ هذا ما للمجموع ، وأما الخلص فهم أفضل الخلائق لما علمنا من معالجتهم بالإخلاص وجهادهم لأهويتهم ، لما طبعت عليه نفوسهم من النقائص ، ولما لها من الدسائس حتى امتطوا بعد رتبة الإيمان درجتي التقوى والإحسان ، وتقديم الأمر للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام توطئة لهذه الآية أدل دليل على هذا .

(6/461)

ولما قرر سبحانه قدرته على التفضيل في الحياة الحسية والمعنوية ، والمفاضلة بين الأشياء في الشيئين فثبت بذلك قدرته على البعث ، وختم ذلك بتفضيل البشر ، وكان يوم الدين أعظم يوم يظهر في التفضيل ، أبدل من قوله ﴿ يوم يدعوكم ﴾ مرهباً من سطواته في ذلك اليوم ، ومرغباً في اقتناء الفضائل في هذا اليوم قوله تعالى : ﴿ يوم ندعوا ﴾ أي بتلك العظمة ﴿ كل أناس ﴾ أي منكم ﴿ بإمامهم ﴾ أي بمتبوعهم الذي كانوا يتبعونه ، فيقال : يا أتباع نوح ! يا أتباع إبراهيم ! يا أتباع عيسى ! يا أتباع محمد ! فيقومون فيميز بين محقيهم

ومبطليهم ، ويقال : يا أتباع الهوى ! يا أتباع النار ! يا أتباع الشمس ! يا أتباع الأصنام ! ونحو هذا ، أو يكون المراد بسبب أعمالهم التي ربطناهم بها ربط المأموم بإمامه كما قال تعالى ﴿ وكل إنسان الزمناه طائره في عنقه ﴾ وسماها إماماً لكونهم أموها واجتهدوا في قصدها ، وندفع إليهم الكتب التي أحصت حفظتنا فيها تلك الأعمال ﴿ فمن أوتي ﴾ منهم من مؤتٍ ما ﴿ كتبه بيمينه ﴾ فهم البصراء القلوب لتقواهم وإحسانهم ، وهم البصراء في الدنيا ، ومن كان في هذه الدنيا بصيراً فهو في الآخرة أبصر وأهدى سبيلاً ﴿ فأولئك ﴾ أي العالو المراتب ﴿ يقرءون كتابهم ﴾ أي يجددون قراءته ويكررونها سروراً بما فيه كما هو دأب كل من سر بكتاب ﴿ ولا يظلمون ﴾ بنقص حسنة ما من ظالم ما ﴿ فتيلاً ﴾ أي شيئاً هو في غاية القلة والحقاره ، بل يزادون بحسب إخلاص النيات وطهارة الأخلاق وزكاء الأعمال ، ومن أوتي كتابه بشماله فهو لا يقرأ كتابه لأنه أعمى في هذه الدار ﴿ ومن كان ﴾ منهم ﴿ في هذه ﴾ الدار ﴿ أعمى ﴾ أي ضالاً يفعل في الأعمال فعل الأعمى في أخذ الأعيان ، لا يهتدي إلى أخذ ما ينفعه وترك ما يضره ، ولا يميز بين حسن وقبح ﴿ فهو في الآخرة ﴾ لأن كل أحد يقوم على ما مات عليه ﴿ أعمى ﴾ أي أشد عمى مما كان عليه في هذه الدار ، لا ينجح له قصد ، ولا يهتدي لصواب ، ولا يقدر على قراءة كتاب ، لما فيه من موجبات

العذاب ، ولم يقل : أشد عمى ، كما يقولونه في الخلق

اللازمة لحالة واحدة من العور والحمرة والسواد ونحوها ، لأن هذا مراد به عمى القلب

الذي من شأنه التزايد والحدوث في كل لحظة شيئاً بعد شيء ، فخالف ما لا يزيد ؛ ولم يمله

أبو عمرو مع إمالة الأول ليدل على أن معناه : أفعل من كذا ، فهو وسط ، والإمالة إنما يحسن

في الأواخر ، ولأن هذا معناه ، عطف عليه قوله تعالى : ﴿ وأضل سبيلاً ﴾ لأن هذه

الدار دار الاكتساب والترقي بالأسباب ، وأما تلك فليس فيها شيء من ذلك ؛ فالآية من

الاحتباك : أثبت الإيتاء باليمين والقراءة أولاً دليلاً على حذف ضدهما ثانياً ، وأثبت

العمى ثانياً دليلاً على حذف ضده أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 408

.409 ﴾

(8/461)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى

كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70) ﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية ذكر نعمة أخرى جليلة رفيعة من نعم الله تعالى على الإنسان وهي الأشياء التي بها فضل الإنسان على غيره وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية أربعة أنواع :

النوع الأول : قوله : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءَادَمَ ﴾ واعلم أن الإنسان جوهر مركب من النفس ، والبدن ، فالنفس الإنسانية أشرف النفوس الموجودة في العالم السفلي ، وبدنه أشرف الأجسام الموجودة في العالم السفلي .

وتقرير هذه الفضيلة في النفس الإنسانية هي أن النفس الإنسانية قواها الأصلية ثلاث .

وهي الإغتذاء والنمو والتوليد ، والنفس الحيوانية لها قوتان الحساسة سواء كانت ظاهرة أو باطنة ، والحركة بالاختيار ، فهذه القوى الخمسة أعني الإغتذاء والنمو والتوليد والحس والحركة حاصلة للنفس الإنسانية ، ثم إن النفس الإنسانية مختصة بقوة أخرى وهي القوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء كما هي .

وهي التي يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى ويشرق فيها ضوء كبريائه وهو الذي يطلع على أسرار عالمي الخلق والأمر ويحيط بأقسام مخلوقات الله من الأرواح والأجسام كما هي

وهذه القوة من تلقيح الجواهر القدسية والأرواح المجردة الإلهية ، فهذه القوة لا نسبة لها في الشرف والفضل إلى تلك القوى النباتية والحيوانية ، وإذا كان الأمر كذلك ظهر أن النفس الإنسانية أشرف النفوس الموجودة في هذا العالم وإن أردت أن تعرف فضائل القوة العقلية ونقصانات القوى الجسمية ، فتأمل ما كتبناه في هذا الكتاب في تفسير قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ [النور : 35] فإنا ذكرنا هناك عشرين وجهاً في بيان أن القوة العقلية أجل وأعلى من القوة الجسمية فلا فائدة في الإعادة ، وأما بيان أن البدن الإنساني أشرف أجسام هذا العالم ، فالمفسرون إنما ذكروا في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾ هذا النوع من الفضائل وذكروا أشياء ، أحدها : روى ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾ قال : كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم فإنه يأكل بيديه .

وقيل : إن الرشيد أحضرت عنده أطعمة فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف ، فقال له : جاء في التفسير عن جدك في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾ جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فرد الملاعق وأكل بأصابعه .

وثانيها : قال الضحاك : بالنطق والتمييز وتحقيق الكلام أن من عرف شيئاً ، فأما أن يعجز عن تعريف غيره كونه عارفاً بذلك الشيء أو يقدر على هذا التعريف .

أما القسم الأول : فهو حال جملة الحيوانات سوى الإنسان ، فإنه إذا حصل في باطنها ألم أو لذة فإنها تعجز عن تعريف غيرها تلك الأحوال تعريفاً تاماً وافيا .

(10/461)

وأما القسم الثاني : فهو الإنسان ، فإنه يمكنه تعريف غيره كل ما عرفه ووقف عليه وأحاط به فكونه قادراً على هذا النوع من التعريف هو المراد بكونه ناطقاً ، وبهذا البيان ظهر أن الإنسان الأخرس داخل في هذا الوصف ، لأنه وإن عجز عن تعريف غيره ما في قلبه بطريق اللسان ، فإنه يمكنه ذلك بطريق الإشارة وبطريقة الكتابة وغيرهما ولا يدخل فيه الببغاء ، لأنه وإن قدر على تعريفات قليلة ، فلا قدرة له على تعريف جميع الأحوال على سبيل الكمال والتمام .

وثالثها : قال عطاء : بامتداد القامة .

واعلم أن هذا الكلام غير تام لأن الأشجار أطور من قامة الإنسان بل ينبغي أن يشترط فيه شرط ، وهو طول القامة مع استكمال القوة العقلية ، والقوى الحسية والحركية .

ورابعها : قال يمان بحسن الصورة ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر : 64] لما ذكر الله تعالى خلقة الإنسان قال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ

الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] وقال : ﴿ صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة : 138] وإن شئت فتأمل عضواً واحداً من أعضاء الإنسان وهو العين فخلق الحدقة سوداء ثم أحاط بذلك السواد بياض العين ثم أحاط بذلك البياض سواد الأشفار ثم أحاط بذلك السواد بياض الأجفان ثم خلق فوق بياض الجفن سواد الحاجبين ثم خلق فوق ذلك السواد بياض الجبهة ثم خلق فوق بياض الجبهة سواد الشعر ، وليكن هذا المثال الواحد أنموذجاً لك في هذا الباب .

وخامسها : قال بعضهم من كرامات الآدمي أن آتاه الله الخط .

وتحقيق الكلام في هذا الباب أن العلم الذي يقدر الإنسان على استنباطه يكون قليلاً .

(11/461)

أما إذا استنبط الإنسان علماً وأودعه في الكتاب ، وجاء الإنسان الثاني واستعان بذلك الكتاب ، وضم إليه من عند نفسه أشياء أخرى ثم لا يزالون يتعاقبون ، ويضم كل متأخر مباحث كثيرة إلى علم المتقدمين كثرت العلوم وقويت الفضائل والمعارف وانتهت المباحث العقلية والمطالب الشرعية إلى أقصى الغايات وأكمل النهايات ، ومعلوم أن هذا الباب لا يتأتى إلا بواسطة الخط والكتبة ، ولهذه الفضيلة الكاملة قال تعالى : ﴿ اقرأ وَرَبُّكَ الأكرم

الذى عَلَّمَ بالقلم عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : 3-5] .

وسادسها : أن أجسام هذا العالم إما بسائط وإما مركبات ، أما البسائط فهي الأرض والماء والهواء والنار .

والإنسان ينتفع بكل هذه الأربع ، أما الأرض فهي لنا كالأم الحاضنة .

قال تعالى : ﴿ مِنْهَا خلقناكم وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى ﴾ [طه : 55] وقد سماها الله تعالى بأسماء بالنسبة إلينا ، وهي الفراش والمهد ، والمهاد ، وأما الماء فانتفاعنا به في الشرب والزراعة والحراثة ظاهر ، وأيضاً سخر البحر لنأكل منه لحماً طرياً ، ونستخرج منه حلية نلبسها ونرى الفلك مواخر فيه ، وأما الهواء فهو مادة حياتنا ، ولولا هبوب الرياح لاستولى النتن على هذه المعمورة ، وأما النار فيها طبخ الأغذية والأشربة ونضجها ، وهي قائمة مقام الشمس والقمر في الليالي المظلمة ، وهي الدافعة لضرر البرد كما قال الشاعر :

ومن يرد في الشتاء فاكهة . . فإن نار الشتاء فاكهته

وأما المركبات فهي إما الآثار العلوية ، وإما المعادن والنبات ، وأما الحيوان والإنسان كالمستولي على هذه الأقسام والمنتفع بها والمستسخر لكل أقسامها فهذا العالم بأسره جار مجرى قرية معمورة أو خان معد وجميع منافعها ومصالحها مصروفة إلى الإنسان والإنسان فيه كالرئيس المخدوم ، والملك المطاع وسائر الحيوانات بالنسبة إليه كالعبيد ، وكل ذلك يدل على كونه مخصوصاً من عند الله بمزيد التكريم والتفضيل ، والله أعلم .

وسابعها : أن المخلوقات تنقسم إلى أربعة أقسام إلى ما حصلت له القوة العقلية الحكمية ولم تحصل له القوة الشهوانية الطبيعية وهم الملائكة ، وإلى ما يكون بالعكس وهم البهائم وإلى ما خلا عن القسمين وهو النبات والجمادات وإلى ما حصل النوعان فيه وهو الإنسان ، ولا شك أن الإنسان لكونه مستجمعاً للقوة العقلية القدسية المحضة ، وللقوى الشهوانية البهيمية والغضبية والسبعية يكون أفضل من البهيمية ومن السبعية ، ولا شك أيضاً أنه أفضل من الأجسام الخالية عن القوتين مثل النبات والمعادن والجمادات ، وإذا ثبت ذلك ظهر أن الله تعالى فضل الإنسان على أكثر أقسام المخلوقات .

بقي ههنا بحث في أن الملك أفضل أم البشر ؟ والمعنى أن الجوهر البسيط الموصوف بالقوة العقلية القدسية المحضة أفضل أم البشر المستجمع لهاتين القوتين ؟ وذلك بحث آخر .

وثامنها : الموجود إما أن يكون أزلياً وأبدياً معاً وهو الله سبحانه وتعالى ، وإما أن يكون لا أزلياً ولا أبدياً وهو عالم الدنيا مع كل ما فيه من المعادن والنبات والحيوان ، وهذا أخس

الأقسام ، وإما أن يكون أزلياً لا أبدياً وهو الممتنع الوجود لأن ما ثبت قدمه امتنع عدمه ، وإما أن لا يكون أزلياً ولكنه يكون أبدياً ، وهو الإنسان والملك ، ولا شك أن هذا القسم أشرف من القسم الثاني والثالث وذلك يقتضي كون الإنسان أشرف من أكثر مخلوقات الله تعالى .

(13/461)

وتاسعها : العالم العلوي أشرف من العالم السفلي ، وروح الإنسان من جنس الأرواح العلوية والجواهر القدسية فليس في موجودات العالم السفلي شيء حصل فيه شيء من العالم العلوي إلا الإنسان فوجب كون الإنسان أشرف موجودات العالم السفلي .

وعاشرها : أشرف الموجودات هو الله تعالى ، وإذا كان كذلك فكل موجود كان قربه من الله تعالى أتم ، وجب أن يكون أشرف ، لكن أقرب موجودات هذا العالم من الله هو الإنسان بسبب أن قلبه مستنير بمعرفة الله تعالى ولسانه مشرف بذكر الله وجوارحه وأعضاؤه مكرمة بطاعة الله تعالى فوجب الجزم بأن أشرف موجودات هذا العالم السفلي هو الإنسان ، ولما ثبت أن الإنسان موجود ممكن لذاته ، والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته ثبت أن كل ما حصل للإنسان من المراتب العالية والصفات الشريفة فهي إنما حصلت

بإحسان الله تعالى وإنعامه فلهذا المعنى قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾ ومن تمام كرامته على الله تعالى أنه تعالى لما خلقه في أول الأمر وصف نفسه بأنه أكرم فقال :

﴿ اقرأ باسم رَبّكَ الذى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ * اقرأ وَرَبُّكَ الأكرم * الذى عَلَّمَ بالقلم ﴾ [العلق : 1 4] ووصف نفسه بالتكريم عند تربيته للإنسان فقال : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾ ووصف نفسه بالكرم في آخر أحوال الإنسان فقال : ﴿ يا أيها الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبّكَ الكريم ﴾ [الإنفطار : 6] وهذا يدل على أنه لا نهاية لكرم الله تعالى ولفضله وإحسانه مع الإنسان ، والله أعلم .

والوجه الحادي عشر : قال بعضهم هذا التكريم معناه أنه تعالى خلق آدم بيده وخلق غيره بطريق كن فيكون .

ومن كان مخلوقاً بيد الله كانت العناية به أتم وأكمل ، وكان أكرم وأكمل ولما جعلنا من أولاده وجب كون بني آدم أكرم وأكمل ، والله أعلم .

(14/461)

النوع الثاني : من المدائح المذكورة في هذه الآية قوله : ﴿ وحملناهم فِى البر والبحر ﴾ قال ابن عباس في البر على الخيل والبغال والحمير والإبل وفي البحر على السفن ، وهذا أيضاً من

مؤكدات التكريم المذكور أولاً ، لأنه تعالى سخر هذه الدواب له حتى يركبها ويحمل عليها ويغزو ويقاتل ويذب عن نفسه ، وكذلك تسخير الله تعالى المياه والسفن وغيرها ليركبها وينقل عليها ويتكسب بها مما يختص به ابن آدم ، كل ذلك مما يدل على أن الإنسان في هذا العالم كالرئيس المتبوع والملك المطاع وكل ما سواه فهو رعيته وتبع له .

النوع الثالث : من المدائح قوله : ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ وذلك لأن الأغذية إما حيوانية وإما نباتية ، وكلا القسمين إنما يتغذى الإنسان منه بألطف أنواعها وأشرف أقسامها بعد التنقية التامة والطبخ الكامل والنضج البالغ ، وذلك مما لا يحصل إلا للإنسان .

النوع الرابع : قوله : ﴿ وفضلناهم على كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ وههنا بحثان :

البحث الأول : أنه قال في أول الآية : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾ وقال في آخرها : ﴿ وفضلناهم ﴾ ولا بد من الفرق بين هذا التكريم والتفضيل وإلا لزم التكرار ، والأقرب أن يقال : إنه تعالى فضل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية مثل العقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة ، ثم إنه تعالى عرضه بواسطة ذلك العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة ، فالأول هو التكريم والثاني هو التفضيل .

البحث الثاني : أنه تعالى لم يقل : وفضلناهم على الكل بل قال : ﴿ وفضلناهم على كَثِيرٍ

مّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ فهذا يدل على أنه حصل في مخلوقات الله تعالى شيء لا يكون الإنسان مفضلاً عليه ، وكل من أثبت هذا القسم قال : إنه هو الملائكة .

(15/461)

فلزم القول بأن الإنسان ليس أفضل من الملائكة بل الملك أفضل من الإنسان ، وهذا القول مذهب ابن عباس واختيار الزجاج على ما رواه الواحدي في البسيط .

واعلم أن هذا الكلام مشتمل على بحثين :

البحث الأول : أن الأنبياء عليهم السلام أفضل أم الملائكة ؟ وقد سبق ذكر هذه المسألة بالاستقصاء في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ [البقرة : 34] .

والبحث الثاني : أن عوام الملائكة وعوام المؤمنين أيهما أفضل ؟ منهم من قال بتفضيل المؤمنين على الملائكة .

واحتجوا عليه بما روي عن زيد بن أسلم أنه قال : قالت الملائكة ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويتنعمون ولم تعطنا ذلك فأعطنا ذاك في الآخرة ، فقال : وعزتي وجلالي لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كما قلت له ﴿ كُنْ ﴾ فكان .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده .

هكذا أورده الواحدي في "البسيط" ، وأما القائلون بأن الملك أفضل من البشر على الإطلاق فقد عولوا على هذه الآية ، وهو في الحقيقة تمسك بدليل الخطاب لأن تقرير الدليل أن يقال : إن تخصيص الكثير بالذكر يدل على أن الحال في القليل بالضد ، وذلك تمسك بدليل الخطاب ، والله أعلم .

﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواع كرامات الإنسان في الدنيا ذكر أحوال درجاته في الآخرة في هذه الآية وفيها مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء ﴿ يدعو ﴾ بالياء والنون و ﴿ يدعى كل أناس ﴾ على البناء للمفعول وقرأ الحسن ﴿ يدعو كل أناس ﴾ قال الفراء وأهل العربية لا يعرفون وجهاً لهذه القراءة المنقولة عن الحسن ولعله قرأ ﴿ يدعى ﴾ بفتحة ممزوجة بالضم فظن الراوي أنه قرأ ﴿ يدعو ﴾ .

المسألة الثانية :

قوله ﴿ يوم ندعو ﴾ نصب بإضمار اذكر ولا يجوز أن يقال العامل فيه قوله ﴿ وفضلناهم ﴾ [الإسراء : 70] لأنه فعل ماضٍ ويمكن أن يجاب عنه فيقال المراد ونفضلهم بما نعطيهم من الكرامة والثواب .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ بإمامهم ﴾ الإمام في اللغة كل من ائتم به قوم كانوا على هدى أو ضلالة فالنبي إمام أمته ، والخليفة إمام رعيته ، والقرآن إمام المسلمين وإمام القوم هو الذي يقتدي به في الصلاة وذكروا في تفسير الإمام ههنا أقوال ، القول الأول : إمامهم نبيهم روي ذلك مرفوعاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ويكون المعنى أنه ينادي يوم القيامة يا أمة إبراهيم يا أمة موسى يا أمة عيسى يا أمة محمد فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الأنبياء فيأخذون كتبهم بإيمانهم ثم ينادي يا أتباع فرعون يا أتباع نمروذ يا أتباع فلان وفلان من رؤساء الضلال وأكابر الكفر وعلى هذا القول فالباء في قوله ﴿ بإمامهم ﴾ فيه وجهان .

الأول : أن يكون التقدير يدعو كل أناس بإمامهم تبعاً وشيعة لأمامهم كما تقول ادعوك باسمك .

والثاني : أن يتعلق بمحذوف وذلك المحذوف في موضع الحال كأنه قيل يدعو كل أناس مختلطين بإمامهم أي يدعون وإمامهم فيهم نحو ركب بجنوده .

والقول الثاني : وهو قول الضحاك وابن زيد ﴿ بإمامهم ﴾ أي بكتابهم الذي أنزل عليهم وعلى هذا التقدير ينادي في القيامة يا أهل القرآن يا أهل التوراة يا أهل الإنجيل .

والقول الثالث : قال الحسن بكتابهم الذي فيه أعمالهم وهو قول الربيع وأبي العالية والدليل على أن هذا الكتاب يسمى إماماً قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شيْء أحصيناه فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [ياس : 12] فسمى الله تعالى هذا الكتاب إماماً ، وتقدير الباء على هذا القول بمعنى مع أي ندعو كل أناس ومعهم كتابهم كقولك ادفعه إليه برمته أي ومعه رمته .

(17/461)

القول الرابع : قال صاحب "الكشاف" ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع أم ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بإمهاتهم وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الآباء رعاية حق عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين وأن لا يفتضح أولاد الزنا ثم قال صاحب "الكشاف" وليت شعري أيهما أبدع أصحة لفظه أم بيان حكمته .

والقول الخامس : أقول في اللفظ احتمال آخر وهو أن أنواع الأخلاق الفاضلة والفاسدة كثيرة والمستولي على كل إنسان نوع من تلك الأخلاق فمنهم من يكون الغالب عليه الغضب ومنهم من يكون الغالب عليه شهوة النقود أو شهوة الضياع ومنهم من يكون الغالب عليه

الحقد والحسد وفي جانب الأخلاق الفاضلة منهم من يكون الغالب عليه العفة أو الشجاعة أو الكرم أو طلب العلم والزهد إذا عرفت هذا فنقول : الداعي إلى الأفعال الظاهرة من تلك الأخلاق الباطنة فذلك الخلق الباطن كالإمام له والملك المطاع والرئيس المتبوع فيوم القيامة إنما يظهر الثواب والعقاب بناء على الأفعال الناشئة من تلك الأخلاق فهذا هو المراد من قوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ فهذا الاحتمال خطر بالبال ، والله أعلم بمراده ثم قال تعالى : ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ قال صاحب "الكشاف" إنما قال أولئك لأن من أوتي في معنى الجمع والفتيل القشرة التي في شق النواة وسمي بهذا الاسم لأنه إذا أراد الإنسان استخراجه انفتل وهذا يضرب مثلاً للشيء الحقير التافه ومثله القطمير والنقير في ضرب المثل به والمعنى لا ينقصون من الثواب بمقدار فتيل ونظيره قوله :

﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [مريم : 60] ، ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه : 112] وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال الفتيل هو الوسخ الذي يظهر بفتل الإنسان إبهامه بسبابته وهو فعيل من الفتل بمعنى مفتول فإن قيل لهم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم

مع أن أصحاب الشمال يقرؤونه أيضاً قلنا الفرق أن أصحاب الشمال إذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملاً على المهلكات العظيمة والقبائح الكاملة والمخازي الشديدة فيستولي الخوف والدهشة على قلوبهم ويثقل لسانهم فيعجزوا عن القراءة وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك لا جرم أنهم يقرؤون كتابهم على أحسن الوجوه وأثبتها ثم لا يكتفون بقراءتهم وحدهم بل يقول القارىء لأهل الحشر : ﴿ هَاؤُمُ اقرؤا كتابيه ﴾ [الحاقه : 19] فظهر الفرق ، والله أعلم ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِى هذه أعمى فَهُوَ فِى الآخرة أعمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ونصر عن الكسائي ومن كان في هذه أعمى بالإمالة والكسر فهو في الآخرة أعمى بالفتح وقرأ بالفتح والتفخيم فيهما ابن كثير ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم في رواية بالإمالة فيهما ، قال أبو علي الفارسي الوجه في تصحيح قراءة أبي عمرو أن المراد بالأعمى في الكلمة الأولى كونه في نفسه أعمى وبهذا التقدير تكون هذه الكلمة تامة فتقبل الإمالة وأما في الكلمة الثانية فالمراد من الأعمى أفعل التفضيل فكانت بمعنى أفعل من وبهذا التقدير لا تكون لفظة أعمى تامة فلم تقبل الإمالة والحاصل أن إدخال الإمالة في الأولى دل على أنه ليس المراد أفعل التفضيل وتركها في الثانية يدل على أن المراد منها أفعل التفضيل ، والله أعلم . (1)

(1) لم يجوز النحاة أفعل التفضيل من أعمى لأن الوصف رباعي والعمى مما لا تفاوت فيه وألزموا أن يقال أشد أو أكثر.

فأعمى الأولى يصف بالعمى كالثانية لكن التفاوت في الثانية يفهم من قوله تعالى: وَأَضَلُّ سَبِيلًا.

(19/461)

المسألة الثانية:

لا شك أنه ليس المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هذه أعمى فَهُوَ فِى الآخرة أعمى﴾ عمى البصر بل المراد منه عمى القلب، أما قوله فهو في الآخرة أعمى ففيه قولان: القول الأول: أن المراد منه أيضاً عمى القلب وعلى هذا التقدير ففيه وجوه.

الأول: قال عكرمة: جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسأله رجل عن هذه الآية فقال: اقرأ ما قبلها فقرأ ﴿رَّبُّكُمُ الذى يُزْجِى لَكُمُ الفلك فِى البحر﴾ [الإسراء: 66] إلى قوله ﴿تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: 70] قال ابن عباس من كان أعمى في هذه النعم التي قد رأى وعاين فهو في أمر الآخرة التي لم ير ولم يعاين أعمى وأضل سبيلا وعلى هذا الوجه فقوله في هذه إشارة إلى النعم المذكورة في الآيات المتقدمة.

وثانياً : روى أبو ورق عن الضحاك عن ابن عباس قال من كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرتي في خلق السموات والأرض والبحار والجبال والناس والدواب فهو عن أمر الآخرة أعمى وأضل سبيلاً وأبعد عن تحصيل العلم به وعلى هذا الوجه فقوله فمن كان في هذه إشارة إلى الدنيا وعلى هذين القولين فالمراد من كان في الدنيا أعمى القلب عن معرفة هذه النعم والدلائل فبأن يكون في الآخرة أعمى القلب عن معرفة أحوال الآخرة أولى فالعمى في المرتين حصل في الدنيا .

وثالثها : قال الحسن من كان في الدنيا ضالاً كافراً فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً لأنه في الدنيا تقبل توبته وفي الآخرة لا تقبل توبته وفي الدنيا يهتدي إلى التخلص من أبواب الآفات وفي الآخرة لا يهتدي إلى ذلك ألبتة .

ورابعها : أنه لا يمكن حمل العمى الثاني على الجهل بالله لأن أهل الآخرة يعرفون الله بالضرورة فكان المراد منه العمى عن طريق الجنة أي ومن كان في هذه الدنيا أعمى عن معرفة الله فهو في الآخرة أعمى عن طريق الجنة .

وخامسها : أن الذين حصل لهم عمى القلب في الدنيا إنما حصلت هذه الحالة لهم لشدة حرصهم على تحصيل الدنيا وابتهاجهم بلذاتها وطيباتها فهذه الرغبة تزداد في الآخرة وتعظم هناك حسرتها على فوات الدنيا وليس معهم شيء من أنوار معرفة الله تعالى فيبقون في ظلمة شديدة وحسرة عظيمة فذاك هو المراد من العمى .

القول الثاني : أن يحمل العمى الثاني على عمى العين والبصر فمن كان في هذه الدنيا أعمى القلب حشر يوم القيامة أعمى العين والبصر كما قال : ﴿ ونحشره يَوْمَ القيامة أعمى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً قَالَ كذلك أَتَتْكَ آياتنا فَنَسِيتَهَا وكذلك اليوم تنسى ﴾ [طه : 124 126] وقال : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمّا ﴾ [الإسراء : 97] وهذا العمى زيادة في عقوبتهم ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 10 16 ﴾

(21/461)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم . . ﴾

فيه سبعة أوجه :

أحدها : يعني كرمناهم بإنعامنا عليهم .

الثاني : كرمناهم بأن جعلنا لهم عقولاً وتمييزاً .

الثالث : بأن جعلنا منهم خير أمة أخرجت للناس .

الرابع : بأن يأكلوا ما يتناولونه من الطعام والشراب بأيديهم ، وغيرهم يتناوله بفمه ، قاله الكلبي ومقاتل .

الخامس : كرمناهم بالأمر والنهي .

السادس : كرمناهم بالكلام والخط .

السابع : كرمناهم بأن سخّرنا جميع الخلق لهم .

﴿ . . . ورزقناهُمْ من الطيبات ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ما أحله الله لهم .

الثاني : ما استطابوا أكله وشربه .

الثالث : أنه كسب العامل إذا نفع ، قاله سهل بن عبد الله .

﴿ وفضلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : بالغلبة والاستيلاء .

الثاني : بالثواب والجزاء .

الثالث : بالحفظ والتمييز .

الرابع : بإصابة الفراسة .

قوله عز وجل : ﴿ يوم ندعوا كل أناسٍ بإمامِهمْ ﴾

فيه خمسة تأويلات :

أحدها : بنبيِّهم ، قاله مجاهد .

الثاني : بكتابهم الذي أنزل عليهم أوامر الله ونواهيه ، قاله ابن زيد .

الثالث : بدينهم ، ويشبه أن يكون قول قتادة .

الرابع : بكتب أعمالهم التي عملوها في الدنيا من خير وشر ، قاله ابن عباس .

الخامس : بمن كانوا يأتمرون به في الدنيا فيتبعونه في خير أو شر ، أو على حق ، أو باطل ، وهو معنى قول أبو عبيدة .

قوله عز وجل : ﴿ ومن كان في هذه أعمى . . ﴾ يحتمل أربعة أوجه :

أحدها : من كان في الدنيا أعمى عن الطاعة ﴿ فهو في الآخرة أعمى ﴾ عن الثواب .

الثاني : ومن كان في الدنيا أعمى عن الاعتبار ﴿ فهو في الآخرة أعمى ﴾ عن الاعتذار .

الثالث : ومن كان في الدنيا أعمى عن الحق ﴿ فهو في الآخرة أعمى ﴾ عن الجنة .

الرابع : ومن كان في تدبير دنياه أعمى فهو تدبير آخرته أعمى ﴿ وأضل سبيلاً ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

﴿ كرمنا ﴾ تضعيف كرم ، فالمعنى : جعلنا لهم كرماً ، أي شرفاً وفضلاً ، وهذا هو كرم نفي النقصان ، لا كرم المال ؛ وإنما هو كما تقول : ثوب كريم ، أي جمة محاسنه .

(23/461)

قال القاضي أبو محمد : رضي الله عنه : وهذه الآية ، عدد الله تعالى فيها على بني آدم ما خصهم به من بين سائر الحيوان ، والحيوان والجن هو الكثير المفضول ، والملائكة هم الخارجون عن الكثير المفضول ، وحملهم ﴿ في البر والبحر ﴾ ، مما لا يصلح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يحمل بإرادته وقصده وتدبيره ﴿ في البر والبحر ﴾ جميعاً ، والرزق ﴿ من الطيبات ﴾ ، ولا يتسع فيه حيوان اتساع بني آدم ، لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان ، ويلبسون الثياب ، ويأكلون المركبات من الأطعمة ، وغاية كل حيوان أن يأكل لحماً نياً ، أو طعاماً غير مركب ، و" الرزق " ، كل ما صح الانتفاع به ، وحكى الطبري عن جماعة أنهم قالوا : " التفضيل " هو أن يأكل بيديه وسائر الحيوان بالفم ، وقال غيره : وأن

ينظر من إشراف أكثر من كل حيوان، ويمشي قائماً، ونحو هذا من التفضيل، وهذا كله غير محذق وذلك للحيوان من هذا النوع ما كان يفضل به ابن آدم، كجري الفرس، وسمعه، وإبصاره، وقوة الفيل، وشجاعة الأسد وكرم الديك، وإنما التكريم والتفضيل بالعقل الذي يملك به الحيوان كله، وبه يعرف الله عز وجل، ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه، وقالت فرقة: هذه الآية تقضي بفضل الملائكة على الإنس، من حيث هم المستثنون، وقد قال تعالى ﴿ ولا الملائكة المقربون ﴾ [النساء: 172] وهذا غير لازم من الآية بل التفضيل بين الإنس والجن لم تعن به الآية، بل يحتمل أن الملائكة أفضل، ويحتمل التساوي، وإنما صح تفضيل الملائكة من مواضعٍ أخر من الشرع، وقوله تعالى ﴿ يوم ندعو ﴾ الآية، يحتمل قوله ﴿ يوم ﴾ أن يكون منصوباً على الظرف، والعامل فيه: فعل مضمر تقديره أنكر، أو فعل يدل عليه، قوله ﴿ ولا يظلمون ﴾ تقديره "ولا يظلمون يوم ندعو". ثم فسره ﴿ يظلمون ﴾ الأخير، ويصح أن يعمل فيه ﴿ وفضلناهم ﴾، وذلك أن فضل البشر يوم القيامة على سائر الحيوان بيّن، لأنهم المنعمون المكلمون

(24/461)

المحاسبون الذين لهم القدر ، إما أن هذا يرده أن الكفار يومئذ أخسر من كل حيوان ، إذ يقول الكافر ؛ يا ليتني كنت تراباً ، ولا يعمل فيه ﴿ ندعو ﴾ لأنه مضاف إليه ، ويحتمل أن يكون ﴿ يوم ﴾ منصوباً على البناء لما أضيف إلى غير متمكن ، ويكون موضعه رفعاً بالابتداء والخبر في التقسيم الذي أتى بعد في قوله ﴿ فمن أوتي ﴾ إلى قوله ﴿ ومن كان ﴾ . وقرأ الجمهور "ندعو" بنون العظمة ، وقرأ مجاهد "يدعو" ، بالياء على معنى يدعو الله ورويت عن عاصم .

وقرأ الحسن "يُدعو" بضم الياء وسكون الواو ، وأصلها يدعى ولكنها لغة لبعض العرب ، يقلبون هذه الألف واواً ، فيقولون افعو حبلو ، ذكرها أبو الفتح وأبو علي في ترجمة أعمى بعد وقرأ الحسن : "كل" بالرفع ، على معنى يدعى كل ، وذكر أبو عمرو الداني عن الحسن ، أنه قرأ "يدعى كل" ﴿ أناس ﴾ اسم جمع لا واحد له من لفظه ، وقوله ﴿ بإمامهم ﴾ يحتمل أن يريد باسم إمامهم ، ويحتمل أن يريد مع إمامهم ، فعلى التأويل الأول : يقال يا أمة محمد ، ويا أتباع فرعون ، ونحو هذا ، وعلى التأويل الثاني : تجيء كل أمة معها إمامها ، من هاد أو مضل ، واختلف المفسرون في "الإمام" ، فقال مجاهد وقتادة : نبيهم ، وقال ابن زيد كتابهم الذي نزل عليهم ، وقال ابن عباس والحسن : كتابهم الذي فيه أعمالهم ، وقالت فرقة : متبعهم ، من هاد أو مضل ، ولفظة "الإمام" تعم هذا كله ، لأن الإمام هو ما يؤتم به

ويهتدي به في المقصد ، ومنه قيل لخيط البناء إمام ، قال الشاعر يصف قدحاً : [الطويل]

وقومته حتى إذا تم واستوى . . . كمخة ساق أو كمتن إمام

ومنه قيل للطريق إمام ، لأنه يؤتم به في المقاصد حتى ينهي إلى المراد وقوله : ﴿ فمن أوتي كتابه بيمينه ﴾ حقيقة في أن يوم القيامة صحائف تتطاير وتوضع في الأيمان لأهل الإيمان ، وفي الشمائل لأهل الكفر ، وتوضع في أيمان المذنبين الذين ينفذ عليهم الوعيد ، فسيستفيدون منها أنهم غير مخلدين في النار ، وقوله ﴿ يقرؤون كتابهم ﴾ عبارة عن السرور بها أي يرددنها ويتأملونها ، وقوله ﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ أي ولا أقل ولا أكثر ، فهذا هو مفهوم الخطاب حكم المسكوت عنه كحكم المذكور . كقوله تعالى ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ [الإسراء : 23] وكقوله ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ [النساء : 40] وهذا كثير ومعنى الآية : أنهم لا يبخسون من جزاء أعمالهم الصالحة شيئاً ، و" الفتيل " هو الخيط الذي في شق نواة التمرة يضرب به المثل في القلة وتفاهة القدر .

وقوله ﴿ ومن كان ﴾ ،الآية،

قال محمد بن أبي موسى : الإشارة بهذه إلى النعم التي ذكرها في قوله ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ أي من عمي عن شكر هذه النعم والإيمان لمسديها ، فهو في أمور الآخرة وشأنها ﴿ أعمى ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل ﴿ أعمى ﴾ الثاني أن يكون بمنزلة الأول ، على أنه تشبيه بأعمى البصر ، ويحتمل أن يكون صفة تفضيل ، أي أشد عمى ، والعمى في هذه الآية هو عمى القلب في الأول والثاني ، وقال ابن عباس ومجاهد قتادة وابن زيد : الإشارة بهذه إلى الدنيا ، أي من كان في هذه الدار أعمى عن النظر في آيات الله وعبره والإيمان بأنبيائه ، فهو في الآخرة أعمى ؛ إما أن يكون على حذف مضاف ، أي في شأن الآخرة ، وإما أن يكون : فهو في يوم القيامة أعمى ، على معنى أنه حيران ، لا يتوجه له صواب ، ولا يلوح له نجح ، قال مجاهد " فهو في الآخرة أعمى " عن حجته .

قال القاضي أبو محمد : والظاهر عندي أن الإشارة ب ﴿ هذه ﴾ إلى الدنيا ، أي من كان في دنياه هذه ووقت إدراكه وفهمه أعمى عن النظر في آيات الله ، فهو في يوم القيامة أشد حيرة وأعمى ، لأنه قد باشر الخيبة ، ورأى مخايل العذاب ، وبهذا التأويل ، تكون معادلة للتي قبلها ، من ذكر من يؤتى كتابه بيمينه ، وإذا جعلنا قوله ﴿ في الآخرة ﴾ بمعنى في شأن الآخرة ، لم تطرد المعادلة بين الآيتين . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : " أعمى " في الموضعين ، بغير إمالة ، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم بخلاف عنه في الموضعين بإمالة ، وقرأ أبو عمرو بإمالة الأول وفتح الثاني ، وتأوله بمعنى أشد عمى ، ولذلك لم يمله ، قال أبو علي : لأن الإمالة إنما تحسن في الأواخر ، و﴿ أعمى ﴾ ليس كذلك لأن تقديره أعمى من كذا ، فليس يتم إلا في قولنا من كذا ، فهو إذاً ليس بآخر ، ويقوي هذا التأويل قوله عطفاً عليه ﴿ وأضل سبيلاً ﴾ فإنما عطف ﴿ أضل ﴾ الذي هو أفعل من كذا على ما هو شبيه به ، وإنما جعله في الآخرة ﴿ أضل سبيلا ﴾ ، لأن الكافر في الدنيا يمكن أن يؤمن فينجو ، وهو في الآخرة ، لا يمكنه ذلك ، فهو ﴿ أضل سبيلاً ﴾ ، وأشد حيرة ، وأقرب إلى العذاب ، وقول سيبويه رحمه الله : لا يقال أعمى من كذا كما يقال ما أبداه ، إنما هو في عمى العين الذي لا تفاضل فيه ، وأما في عمى القلب فيقال ذلك لأنه يقع فيه التفاضل ، وذكر مكي في هذه الآية ، أن العمى الأول هو عمى العين عن الهدى وهذا بين الاختلال ، والله المعين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد كرَّمنا بني آدم ﴾

أي : فضَّلناهم .

قال أبو عبيدة : و"كرَّمنا" أشد مبالغة من "أكرمنا" .

وللمفسرين فيما فُضِّلوا به أحد عشر قولاً .

أحدها : أنهم فضِّلوا على سائر الخلق غير طائفة من الملائكة : جبريل ، وميكائيك ، وإِسرافيل ، وملَك الموت ، وأشباههم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

فعلى هذا يكون المراد : المؤمنين منهم ، ويكون تفضيلهم بالإِيمان .

والثاني : أن سائر الحيوان يأكل بفيه ، إِلا ابن آدم فإنه يأكل بيده ، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس .

وقال بعض المفسرين : المراد بهذا التفضيل : أكلهم بأيديهم ، ونظافة ما يقتاتونه ، إِذ الجن يقتاتون العظام والرَّوث .

والثالث : فُضِّلوا بالعقل ، روي عن ابن عباس .

والرابع: بالنطق والتمييز، قاله الضحاك.

والخامس: بتعديل القامة وامتدادها، قاله عطاء.

والسادس: بأن جعل محمداً صلى الله عليه وسلم منهم، قاله محمد بن كعب.

والسابع: فضِّلوا بالمطاعم واللَّذات في الدنيا، قاله زيد بن أسلم.

والثامن: بحسن الصورة، قاله يمان.

والتاسع: بتسليطهم على غيرهم من الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم، قاله محمد بن جرير.

والعاشر: بالأمر والنهي، ذكره الماوردي.

والحادي عشر: بأن جعلت اللِّحى للرجال، والذوائب للنساء، ذكره الثعلبي.

فإن قيل: كيف أطلق ذكر الكرامة على الكل، وفيهم الكافر المُهان؟

فالجواب من وجهين.

أحدهما: أنه عامل الكل معاملة المكرَم بالنعم الوافرة.

والثاني: أنه لما كان فيهم من هو بهذه الصفة، أجرى الصِّفة على جماعتهم، كقوله: ﴿كنتم خير أُمةٍ أُخرجت للناس﴾ [آل عمران: 110].

قوله تعالى: ﴿وحملناهم في البر﴾ على أكباد رطبة، وهي: الإبل، والخيل، والبغال، والحمير، ﴿و﴾ في ﴿البحر﴾ على أعواد يابسة، وهي: السفن.

﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ فيه قولان .

أحدهما : الحلال .

والثاني : المستطاب في الذوق .

(29/461)

قوله تعالى : ﴿ وفضَّلناهم على كثير ممن خلقْنا تفضيلاً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه على لفظه ، وأنهم لم يفضَّلوا على سائر المخلوقات .

وقد ذكرنا عن ابن عباس أنهم فضِلوا على سائر الخلق غيرِ طائفة من الملائكة .

وقال غيره : بل الملائكة أفضل .

والثاني : أن معناه : وفضَّلناهم على جميع مَنْ خلقنا .

والعرب تضع الأكثر والكثير في موضع الجمع ، كقوله : ﴿ يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ [الشعراء : 223] .

وقد روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " المؤمن أكرم على الله عز وجل من الملائكة الذين عنده " .

قوله تعالى : ﴿ يوم ندعو ﴾

قال الزجاج: هو منصوب على معنى: اذكر ﴿ يوم ندعو كل أُناس بإمامهم ﴾ والمراد به: يوم القيامة.

وقرأ الحسن البصري: "يوم يدعو" بالياء ﴿ كلَّ ﴾ بالنصب.

وقرأ أبو عمران الجوني: "يوم يُدعى" بياء مرفوعة، وفتح العين، وبعدها ألف، "كلُّ" بالرفع.

وفي المراد بإمامهم أربعة أقوال.

أحدها: أنه رئيسهم، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وروى عنه سعيد بن جبير أنه قال: إمام هدى أو إمام ضلالة.

والثاني: عملُهم، رواه عطية عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وأبو العالية.

والثالث: نبيُّهم، قاله أنس بن مالك، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومجاهد في رواية.

والرابع: كتابُهم، قاله عكرمة، ومجاهد في رواية.

ثم فيه قولان.

أحدهما: أنه كتابهم الذي فيه أعمالهم، قاله قتادة، ومقاتل.

والثاني: كتابهم الذي أُنزل عليهم، قاله الضحاك، وابن زيد.

فعلى القول الأول يقال: يا متَّبعي موسى، يا متَّبعي عيسى، يا متَّبعي محمَّدٍ؛ ويقال: يا متَّبعي رؤساء الضلالة.

وعلى الثاني : يا من عمل كذا وكذا .

وعلى الثالث : يا أُمَّة موسى ، يا أمَّة عيسى ، يا أُمَّة محمد .

وعلى الرابع : يا أهل التوراة ، يا أهل الإِنجيل ، يا أهل القرآن .

أو يا صاحب الكتاب الذي فيه عمل كذا وكذا .

(30/461)

قوله تعالى : ﴿ فأولئك يقرؤون كتابهم ﴾ معناه : يقرؤون حسناتِهم ، لأنهم أخذوا كتبهم بأيمانهم .

قوله تعالى : ﴿ ولا يُظلمون فتيلاً ﴾ أي : لا ينقصون من ثوابهم بقدر الفتيل ، وقد بيَّنَّاه في سورة [النساء : 49] .

قوله تعالى : ﴿ ومن كان في هذه أعمى ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : "أعمى فهو في الآخرة أعمى" مفتوحتي الميم .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم بكسر الميمين .

وقرأ أبو عمرو : "في هذه أعمى" بكسر الميم ، "فهو في الآخرة أعمى" بفتحها .

وفي المشار إِليها ب "هذه" قولان .

أحدهما : أنها الدنيا ، قاله مجاهد .

ثم في معنى الكلام خمسة أقوال .

أحدها : من كان في الدنيا أعمى عن معرفة قدرة الله في خَلْق الأشياء ، فهو عمّا وُصِف له في الآخرة أعمى ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : من كان في الدنيا أعمى بالكفر ، فهو في الآخرة أعمى ، لأنه في الدنيا تُقْبَل توبته ، وفي الآخرة لا تُقبَل ، قاله الحسن .

والثالث : من عمي عن آيات الله في الدنيا ، فهو عن الذي غيِّب عنه من أمور الآخرة أشدّ عمىً .

والرابع : من عمي عن نِعَم الله التي بيَّنها في قوله : ﴿ ربُّكم الذي يزجي لكم الفُلْك في البحر ﴾ إِلى قوله : ﴿ تفضيلا ﴾ فهو في الآخرة أعمى عن رشاده وصلاحه ، ذكرهما ابن الأنباري .

والخامس : من كان فيها أعمى عن الحُجَّة ، فهو في الآخرة أعمى عن الجنة ، قاله أبو بكر الورّاق .

والثاني : أنها النِّعم .

ثم في الكلام قولان .

أحدهما : من كان أعمى عن النِّعم التي تُرى وتُشاهَد ، فهو في الآخرة التي لم تُر أعمى ، رواه

عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : من كان أعمى عن معرفة حق الله في هذه النِّعم المذكورة في قوله : ﴿ ولقد كرَّمنا بني آدم ﴾ ولم يؤدِّ شكرها ، فهو فيما بينه وبين الله مما يُتقرَّب به إليه أعمى ﴿ وأضل سبيلاً ﴾ ، قاله السدي .

(31/461)

قال أبو علي الفارسي : ومعنى قوله : ﴿ في الآخرة أعمى ﴾ أي : أشدُّ عمىً ، لأنه كان في الدنيا يمكنه الخروج عن عَمَاهُ بالاستدلال ، ولا سبيل له في الآخرة إلى الخروج من عماه .

وقيل : معنى العمى في الآخرة : أنه لا يهتدي إلى طريق الثواب ، وهذا كلُّه من عمى القلب .

فإن قيل : لم قال : ﴿ فهو في الآخرة أعمى ﴾ ولم يقل : أشدُّ عمىً ، لأن العمى خِلْقة بمنزلة الحُمرة ، والزُّرقة ، والعرب تقول : ما أشدَّ سواد زيد ، وما أبْيَنَ زرقة عمرو ، وقلَّما يقولون : ما أسود زيداً ، وما أزرق عمراً ؟

فالجواب : أن المراد بهذا العمى عمى القلب ، وذلك يتزايد ويحدث منه شيء بعد شيء ، فيخالف الخِلَقَ اللاّزِمة التي لا تزيد ، نحو عمى العين ، والبياض ، والحمرة ، ذكره ابن الأنباري . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ الآية .

لما ذكر من الترهيب ما ذكر بين النعمة عليهم أيضاً .

"كرمنا" تضعيف كرم ؛ أي جعلنا لهم كرما أي شرفا وفضلا .

وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال .

وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة ، وحملهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره .

وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس ، وهذا لا يتسع فيه حيوان اتساع بني آدم ؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان ، ويلبسون الثياب ويأكلون المركّبات من الأطعمة .

وغاية كلّ حيوان يأكل لحما نيئاً أو طعاما غير مركّب .

وحكى الطبريّ عن جماعة أن التفضيل هو أن يأكل بيده وسائر الحيوان بالفم .

وروي عن ابن عباس ؛ ذكره المهدويّ والنحاس ؛ وهو قول الكلبيّ ومقاتل ؛ ذكره الماورديّ .

وقال الضحاك : كرّمهم بالنطق والتمييز .

عطاء : كرّمهم بتعديل القامة وامتدادها .

يمان : بحسن الصورة .

محمد بن كعب : بأن جعل محمداً صلى الله عليه وسلم منهم .

وقيل : أكرم الرجال باللِّحَى والنساء بالذوائب .

وقال محمد بن جرير الطبريّ : بتسليطهم على سائر الخلق ، وتسخير سائر الخلق لهم .

وقيل : بالكلام والخط .

وقيل : بالفهم والتمييز .

والصحيح الذي يعوّل عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف ، وبه يُعرف الله ويُفهم كلامه ، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله ؛ إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بُعثت الرسل وأنزلت الكتب .

فمثال الشرع الشمس ، ومثال العقل العين ، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس

وأدركت تفاصيل الأشياء .

وما تقدّم من الأقوال بعضه أقوى من بعض .

(33/461)

وقد جعل الله في بعض الحيوان خصالاً يفضل بها ابن آدم أيضاً ؛ كجري الفرس وسمعه وإبصاره ، وقوّة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك .

وإنما التكريم والتفضيل بالعقل كما بيناه .

والله أعلم .

الثانية : قالت فرقة : هذه الآية تقتضي تفضيل الملائكة على الإنس والجن من حيث إنهم المستثنون في قوله تعالى : ﴿ وَلَا الملائكة المقربون ﴾ [النساء : 171] .

وهذا غير لازم من الآية ، بل التفضيل فيها بين الإنس والجن ؛ فإن هذه الآية إنما عدد الله فيها على بني آدم ما خصهم به من سائر الحيوان ، والجن هو الكثير المفضول ، والملائكة هم الخارجون عن الكثير المفضول ، ولم تتعرض الآية لذكرهم ، بل يحتمل أن الملائكة أفضل ، ويحتمل العكس ، ويحتمل التساوي ، وعلى الجملة فالكلام لا ينتهي في هذه المسألة إلى القطع .

وقد تحاشى قوم من الكلام في هذا كما تحاشوا من الكلام في تفضيل بعض الأنبياء على بعض ؛ إذ في الخبر : " لا تُخايروا بين الأنبياء ولا تفضّلوني على يونس بن مَتَّى "

وهذا ليس بشيء ؛ لوجود النص في القرآن في التفضيل بين الأنبياء .

وقد بيناه في "البقرة" ومضى فيها الكلام في تفضيل الملائكة والمؤمن .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ يعني لذيذ المطاعم والمشارب .

قال مقاتل : السمن والعسل والزبد والتمر والحَلْوَى ، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم من التبن والعظام وغيرها .

﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ على كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ أي على البهائم والدواب والوحش والطير بالغلبة والاستيلاء ، والثواب والجزاء والحفظ والتمييز وإصابة الفِراسة .

الرابعة : هذه الآية تردّ ما روي عن عائشة رضي الله عنها ، قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " احرِمُوا أنفسكم طَيِّب الطعام فإنما قوى الشيطان أن يجري في العروق منها "

وبه يستدل كثير من الصُّوفية في ترك أكل الطيبات ، ولا أصل له ؛ لأن القرآن يردّه ، والسنة الثابتة بخلافه ، على ما تقرر في غير موضع .

وقد حكى أبو حامد الطُّوسِيّ قال : كان سهل يقتات ورق النّبْق مدة ، وأكل دُقاق ورق التين ثلاث سنين .

وذكر إبراهيم بن البنا قال : صحبت ذا النُّون من إخميم إلى الإسكندرية ، فلما كان وقت إفطاره أخرجت قرصا ومِلْحاً كان معي ، وقلت : هَلُمّ .

فقال لي : ملحك مدقوق ؟ قلت نعم .

قال : لست تُفلح ! فنظرت إلى مِزْوَده وإذا فيه قليل سَوِيق شعير يَسْتَف منه .

وقال أبو يزيد : ما أكلت شيئاً مما يأكله بنو آدم أربعين سنة .

قال علماؤنا : وهذا مما لا يجوز حمل النفس عليه ؛ لأن الله تعالى أكرم الآدميّ بالحنطة وجعل قشورها لبهائمهم ، فلا يصح مزاحمة الدواب في أكل التبن ، وأما سَويق الشعير فإنه يورث القُولَنْج ، وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجَريش فإنه ينحرف مِزاجه ؛ لأن خبز الشعير بارد مجفف ، والملح يابس قابض يضر الدّماغ والبصر .

وإذا مالت النفس إلى ما يصلحها فمُنعت فقد قووِمت حكمة البارىء سبحانه بردّها ، ثم يؤثر ذلك في البدن ، فكان هذا الفعل مخالفاً للشرع والعقل .

ومعلوم أن البدن مطيّة الآدميّ ، ومتى لم يرْفَق بالمطيّة لم تُبَلِّغ .

وروي عن إبراهيم بن أدهم أنه اشترى زبدا وعسلاً وخبز حُوّارَى ، فقيل له : هذا كله ؟

فقال : إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال ، وإذا عدِمنا صَبَرنا صبر الرجال .

وكان الثوري يأكل اللحم والعنب والفالوذج ثم يقوم إلى الصلاة .

ومثل هذا عن السلف كثير .

وقد تقدم منه ما يكفي في المائدة والأعراف وغيرهما .

(35/461)

والأول غلوٌّ في الدّين إن صح عنهم ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد : 27]

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾

روى الترمذي عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ قال : "يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ، ويُمَدّ له في جسمه ستون ذراعا ، ويُبَيّض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيرَوْنه من بعيد فيقولون اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول أبشروا لكل منكم مثلُ هذا .

قال وأما الكافر فيُسَوّد وجهه ويمدّ له في جسمه ستون ذراعا على صورة آدم ويلبس تاجاً فيراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من شر هذا اللهم لا تأتنا بهذا .

قال : فيأتيهم فيقولون اللَّهُمَّ أخزه .

فيقول أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا " قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

ونظير هذا قوله : ﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تدعى إلى كِتَابِهَا اليوم تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : 28] .

والكتاب يسمى إماماً ؛ لأنه يُرجع إليه في تعرّف أعمالهم .

وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك : "بإمامهم" أي بكتابهم ، أي بكتاب كلّ إنسان منهم الذي فيه عمله ؛ دليله "فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ" .

وقال ابن زيد : بالكتاب المنزّل عليهم .

أي يدعَى كل إنسان بكتابه الذي كان يتلوه ؛ فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل القرآن بالقرآن ؛ فيقال : يا أهل القرآن ، ماذا عملتم ، هل امتثلتم أوامره هل اجتنبتم نواهيه ! وهكذا .

وقال مجاهد : "بإمامهم" بنبيّهم ، والإمام من يؤتَمّ به .

فيقال : هاتوا متّبِعي إبراهيم عليه السلام ، هاتوا متّبعي موسى عليه السلام ، هاتوا متبعي الشيطان ، هاتوا متبعي الأصنام .

فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم ، ويقوم أهل الباطل فيأخذون كتابهم بشمالهم .

وقاله قتادة .

وقال عليّ رضي الله عنه : بإمام عصرهم .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ فقال : " كلّ يدعى بإمام زمانهم وكتاب ربّهم وسنّة نبيّهم فيقول هاتوا متبعي إبراهيم هاتوا متبعي موسى هاتوا متبعي عيسى هاتوا متبعي محمدا عليهم أفضل الصلوات والسلام فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم ويقول هاتوا متبعي الشيطان هاتوا متبعي رؤساء الضلالة إمامَ هدًى وإمام ضلالة " وقال الحسن وأبو العالية : "بإمامهم" أي بأعمالهم .

وقاله ابن عباس .

فيقال : أين الراضون بالمقدور ، أين الصابرون عن المحذور .

وقيل : بمذاهبهم ؛ فيُدْعَوْن بمن كانوا يأتمون به في الدنيا : يا حنفيّ ، يا شافعيّ ، يا معتزليّ ، يا قدرِيّ ، ونحوه ، فيتبعونه في خير أو شر أو على حق أو باطل ، وهذا معنى قول أبي عبيدة .

وقد تقدّم .

وقال أبو هريرة : يدعى أهل الصدقة من باب الصدقة ، وأهل الجهاد من باب الجهاد . . .

، الحديث بطوله .

أبو سهل : يقال أين فلان المصلّي والصوّام ، وعكسه الدَّفاف والنمام ، وقال محمد بن كعب : "بإمامهم" بأمهاتهم .

وإمام جمع آمّ .

قالت الحكماء : وفي ذلك ثلاثة أوجه من الحكمة ؛ أحدهما لأجل عيسى .

والثاني إظهار لشرف الحسن والحسين .

والثالث لئلا يفتضح أولاد الزنى .

قلت : وفي هذا القول نظر ؛ فإن في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا جمع الله الأوّلين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فيقال هذه غدرة فلان بن فلان " خرّجه مسلم والبخاري .

فقوله : "هذه غَدْرة فلان بن فلان" دليلُ على أن الناس يُدْعَوْن في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وهذا يردّ على من قال : إنما يدعون بأسماء أمهاتهم لأن في ذلك سَتْراً على آبائهم .

والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ هذا يقوّي قول من قال: "بإمامهم" بكتابهم

ويقوّيه أيضاً قوله: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: 12].

﴿ فأولئك يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ الفتيل الذي في شق النواة.

وقد مضى في "النساء".

قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هذه أعمى ﴾

أي في الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق.

﴿ فَهُوَ فِي الآخرة ﴾ أي في أمر الآخرة ﴿ أعمى ﴾.

وقال عكرمة: جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسألوه عن هذه الآية فقال: اقرأوا ما قبلها "ربّكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر إلى تفضيلا".

قال ابن عباس: من كان في هذه النعم والآيات التي رأى أعمى فهو عن الآخرة التي لم يعاين أعمى وأضل سبيلاً.

وقيل: المعنى من عمي عن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى.

وقيل: المعنى من كان في الدنيا التي أمهل فيها وفسّح له ووعد بقبول التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى.

وقال الحسن: من كان في هذه الدنيا كافراً ضالاً فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً.

وقيل: من كان في الدنيا أعمى عن حجج الله بعثه الله يوم القيام أعمى، كما قال: ﴿

وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه : 124] الآيات .

وقال : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾

وقيل : المعنى في قوله : "فهو في الآخرة أعمى" في جميع الأقوال : أشدّ عَمًى ؛ لأنه من عَمَى القلب ، ولا يقال مثله في عَمَى العين .

قال الخليل وسيبويه : لأنه خِلقة بمنزلة اليد والرِّجْل ، فلم يقل ما أعماه كما لا يقال ما أيداه .

الأخفش : لم يقل فيه ذلك لأنه على أكثر من ثلاثة أحرف ، وأصله أعمى .

وقد أجاز بعض النحويين ما أعماه وما أعشاه ؛ لأن فعله عَمِيَ وعَشِيَ .

(38/461)

وقال الفراء : حدثني بالشأم شيخ بصرى أنه سمع العرب تقول : ما أسود شعره .

قال الشاعر :

ما في المعالي لكم ظل ولا ثمر . . .

وفي المخازي لكم أشباح أشياخ

أما الملوك فأنت اليوم ألأمهم . . .

لؤما وأبيضهم سِرْبال طبّاخ

وأمال أبو بكر وحمزة والكسائيّ وخلَفَ الحرفين "أعمى" و"أعمى" وفتح الباقون.

وأمال أبو عمرو الأول وفتح الثاني.

﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ يعني أنه لا يجد طريقاً إلى الهداية. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(39/461)

وقال أبو حيان:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

لما ذكر تعالى ما امتّن به عليهم من إزجاء الفلك في البحر ومن تنجيتهم من الغرق، تمم ذكر المنة بذكر تكرمتهم ورزقهم وتفضيلهم، أو لما هددهم بما هدد من الخسف والغرق وأنهم كافرو نعمته ذكر ما أنعم به عليهم ليتذكروا فيشكروا نعمه ويقلعوا عن ما كانوا فيه من الكفر ويطيعوه تعالى، وفي ذكر النعم وتعدادها هز لشكرها وكرم معدى بالتضعيف من كرم أي جعلناهم ذوي كرم بمعنى الشرف والمحاسن الجمة، كما تقول: ثوب كريم وفر كريم أي جامع للمحاسن.

وليس من كرم المال.

وما جاء عن أهل التفسير من تكريمهم وتفضيلهم بأشياء ذكرها هو على سبيل التمثيل لا على الحصر في ذلك كما روي عن ابن عباس أن التفضيل بالعقل وعن الضحاك بالنطق .

وعن عطاء بتعديل القامة وامتدادها ، وعن زيد بن أسلم بالمطاعم واللذات ، وعن يمان بحسن الصورة ، وعن محمد بن كعب بجعل محمد عليه الصلاة والسلام منهم .

وعن ابن جرير بالتسليط على غيره من الخلق وتسخيره له .

وقيل : بالخط .

وقيل : باللحية للرجل والذؤابة للمرأة .

وعن ابن عباس : بأكله بيده وغيره بفمه .

وقيل : بتدبير المعاش والمعاد .

وقيل : بخلق الله آدم بيده .

قال ابن عطية : وقد ذكر أن من الحيوان ما يفضل بنوع ما ابن آدم كجري الفرس وسمعه وإبصاره ، وقوة الفيل ، وشجاعة الأسد ، وكرم الديك .

قال : وإنما التكريم والتفضيل بالعقل الذي يملك به الحيوان كله وبه يعرف الله ويفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه انتهى .

﴿ وحملناهم في البر والبحر ﴾ وهذا أيضاً من تكريمهم .

قال ابن عباس : في البر على الخيل والبغال والحمير والإبل ، وفي البحر على السفن .

وقال غيره : على أكباد رطبة وأعواد يابسة .

(40/461)

﴿ والطيبات ﴾ كما تقدم الحلال أو المستلذ ولا يتسع غيره من الحيوان في الرزق اتساعه لأنه يكتسب المال ويلبس الثياب ويأكل المركب من الأطعمة بخلاف الحيوان ، فإنه لا يكتسب ولا يلبس ولا يأكل غالباً إلا لحماً نيئًا وطعاماً غير مركب ، والظاهر أن كثيراً باق على حقيقته ، فقالت طائفة : فضلوا على الخلائق كلهم غير جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وأشباههم وهذا عن ابن عباس .

وعنه إن الإنسان ليس أفضل من الملك وهو اختيار الزجّاج .

وقال ابن عطية : والحيوان والجن هو الكثير المفضول والملائكة هم الخارجون عن الكثير المفضول .

وقالت فرقة : الآية تقضي بفضل الملائكة على الإنس من حيث هم المستثنون ، وقد قال تعالى ﴿ ولا الملائكة المقربون ﴾ وهذا غير لازم من الآية ، بل التفضيل بين الإنس والجن لم تعن له الآية بل يحتمل أن الملائكة أفضل ويحتمل التساوي ، وإنما يصح تفضيل الملائكة من

مواضع أخر من الشرع انتهى .

وقال الزمخشري : ﴿ على كثير ممن خلقنا ﴾ هو ما سوى الملائكة عليهم الصلاة والسلام ، وحسب بني آدم ﴿ تفضيلاً ﴾ أن ترفع عليهم الملائكة وهم هم ومنزلتهم عند الله منزلتهم ، والعجب من المجبرة كيف عكسوا في كل شيء وكابروا حتى جسرتهم المكابرة على العظيمة التي هي تفضيل الإنسان على الملك ، ثم ذكر تشنيعاً أقذع فيه يوقف عليه من كتابه .

وقيل : ﴿ وفضلناهم على كثير ﴾ بالغلبة والاستيلاء .

وقيل : بالثواب والجزاء يوم القيامة ، وعلى هذين القولين لم تتعرض الآية للتفضيل المختلف فيه بين الإنس والملائكة .

وقيل : المراد بكثير مجازه وهو إطلاقه على الجميع ، والعرب تفعل ذلك وهذا القول لا ينبغي أن يقال هنا لأنك لو جعلت جميعاً كان بكثير ، فقلت على جميع ممن خلقنا لكان نائياً عن الفصاحة ، ولا يليق أن يحمل كلام الله تعالى الذي هو أفصح الكلام عليه ، ولأبي عبد الله الرازي كلام في تكريم ابن آدم وتفضيله مستمد من كلام الذين يسمونهم حكماء يوقف عليه

في تفسيره إذ هو جار على غير طريقة العرب في كلامها .

ولما ذكر تعالى أنواعاً من كرامات الإنسان في الدنيا ذكر شيئاً من أحوال الآخرة فقال : ﴿ يوم ندعو كل إناس بإمامهم ﴾ واختلفوا في العامل في ﴿ يوم ﴾ .

فقيل : العامل فيه ما دل عليه قوله متى هو .

وقيل : فتستجيبون .

وقيل : هو بدل من يوم يدعوكم وهذه أقوال في غاية الضعف ، ولولا أنهم ذكروها لضربت عن ذكرها صفحاً وهو في هذه الأقوال ظرف .

وقال الحوفي وابن عطية انتصب على الظرف والعامل فيه اذكر وعلى تقدير اذكر لا يكون ظرفاً بل هو مفعول .

وقال ابن عطية أيضاً بعد قوله هو ظرف : والعامل فيه أذكر أو فعل يدل عليه قوله ﴿ ولا يظلمون ﴾ ، وحكاه أبو البقاء وقدره ﴿ ولا يظلمون ﴾ يوم ندعو .

وقال ابن عطية أيضاً : ويصح أن يعمل فيه ﴿ وفضلناهم ﴾ وذلك أن فضل البشر يوم القيامة على سائر الحيوان بيِّن لأنهم المنعمون المكلفون المحاسبون الذين لهم القدر إلاّ أن هذا يرده أن الكفار يومئذ أخسر من كل حيوان ، إذ يقول الكافر : يا ليتني كنت تراباً .

وقال ابن عطية أيضاً : ويصح أن يكون ﴿ يوم ﴾ منصوباً على البناء لما أضيف إلى غير

متمكن ، ويكون موضعه رفعاً بالابتداء ، والخبر في التقسيم الذي أتى بعد في قوله ﴿ فمن أوتي كتابه ﴾ إلى قوله ﴿ ومن كان ﴾ انتهى .

(42/461)

وقوله منصوباً على البناء كان ينبغي أن يقول مبنياً على الفتح ، وقوله : لما أضيف إلى غير متمكن ليس بجيد لأن الذي ينقسم إلى متمكن وغير متمكن هو الاسم لا الفعل ، وهذا أضيف إلى فعل مضارع ومذهب البصريين أنه إذا أضيف إلى فعل مضارع معرب لا يجوز بناؤه ، وهذا الوجه الذي ذكره هو على رأي الكوفيين .

وأما قوله : والخبر في التقسيم فالتقسيم عار من رابط لهذه الجملة التقسيمية بالمبتدأ لا أن قدر محذوفاً ، فقد يمكن أي ممن ﴿ أوتي كتابه ﴾ فيه ﴿ بيمينه ﴾ وهو بعد ذلك التخريج تخريج متكلف .

وقال بعض النحاة : العامل فيه ﴿ وفضلناهم ﴾ على تقدير ﴿ وفضلناهم ﴾ بالثواب ، وهذا القول قريب من قول ابن عطية الذي ذكرناه عنه قبل .

وقال الزجاج : هو ظرف لقوله ثم لا تجد .

وقال الفراء : هو معمول لقوله نعيدكم مضمرة أي نعيدكم ﴿ يوم ندعو ﴾ والأقرب من هذه

الأقوال أن يكون منصوباً على المفعول به بأذكر مضمرة .

وقرأ الجمهور : ﴿ ندعو ﴾ بنون العظمة ، ومجاهد يدعو بياء الغيبة أي يدعو الله ، والحسن فيما ذكر أبو عمرو الداني يُدعى مبنياً للمفعول ﴿ كل ﴾ مرفوع به ، وفيما ذكر غيره يدعو بالواو وخرج على إبدال الألف واواً على لغة من يقول : أفعو في الوقف على أفعى ، وإجراء الوصل مجرى الوقف وكل مرفوع به ، وعلى أن تكون الواو ضميراً مفعولاً لم يسم فاعله ، وأصله يدعون فحذفت النون كما حذفت في قوله :

أبيت أسري وتبيتي تدلكي . . .

وجهك بالعنبر والمسك الزكي

أي تبيتين تدلكين وكل بدل من واو الضمير .

﴿ وأناس ﴾ اسم جمع لا واحد له من لفظه ، والباء في ﴿ بإمامهم ﴾ الظاهر أنها تتعلق بندعو ، أي باسم إمامهم .

وقيل : هي باء الحال أي مصحوبين ﴿ بإمامهم ﴾ .

والإمام هنا قال ابن عباس والحسن وأبو العالية والربيع كتابهم الذي فيه أعمالهم .

وقال الضحاك وابن زيد : كتابهم الذي نزل عليهم .

وقال مجاهد وقتادة : نبيهم .

قال ابن عطية : والإمام يعم هذا كله لأنه مما يؤتم به .

وقال الزمخشري : إمامهم من ائتموا به من نبيّ أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين ، فيقال : يا أهل دين كذا وكتاب كذا .

وقيل : بكتاب أعمالهم يا أصحاب كتاب الخير ويا أصحاب كتاب الشر .

وفي قراءة الحسن بكتابهم ومن بدع التفسير أن الإمام جمع أُم وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم ، وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الآباء رعاية حق عيسى وشرف الحسن والحسين .

وأن لا يفتضح أولاد الزنا وليت شعري أيهما أبدع أصحة لفظه أم بهاء حكمته انتهى .

وإيتاء الكتاب دليل على ما تقرر في الشريعة من الصحف التي يؤتاها المؤمن والكافر ، وإيتاؤه باليمين دليل على نجاة الطائع وخلاص الفاسق من النار إن دخلها وبشارته أنه لا يخلد فيها ﴿ فأولئك ﴾ جاء جمعاً على معنى من إذ قد حمل على اللفظ أولاً فأفرد في قوله ﴿ أوتي كتابه بيمينه ﴾ وقراءتهم كتبهم هو على سبيل التلذذ بالاطّلاع على ما تضمنتها من البشارة ، وإلاَّ فقد علموا من حيث إيتاؤهم إياها باليمين أنهم من أهل السعادة ومن فرحهم بذلك يقول الباري لأهل المحشر : ﴿ هاؤم اقرؤوا كتابيه ﴾ ولم يأت هنا قسيم

من ﴿ أوتي كتابه بيمينه ﴾ وهو من يؤتي كتابه بشماله ، وإن كان قد أتى في غير هذه الآية بل جاء قسيمه قوله .

﴿ ومن كان في هذه أعمى ﴾ وذلك من حيث المعنى مقابله لأن من ﴿ أوتي كتابه بيمينه ﴾ هم أهل السعادة ﴿ ومن كان في هذه أعمى ﴾ هم أهل الشقاوة ﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ أي لا ينقصون أدنى شيء وتقدم شرح الفتيل في سورة النساء .

والظاهر أن الإشارة بقوله : ﴿ في هذه ﴾ إلى الدنيا وقاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد أي : من كان في هذه الدار أعمى عن النظر في آيات الله وعبره والإيمان بأنبيائه ، فهو في الآخرة أعمى إما أن يكون على حذف مضاف أي في شأن الآخرة ، وإما أن يكون فهو يوم القيامة أعمى معنى أنه خبر إن لا يتوجه له صواب ولا يلوح له نجح .

وقال مجاهد : هو أعمى في الآخرة عن حججه .

(44/461)

وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ ومن كان في هذه ﴾ النعم يشير إلى نعم التكريم والتفضيل فهو في الآخرة التي لم ترو لم تعاين ﴿ أعمى ﴾ .

وقيل : ومن كان في الدنيا ضالاً كافراً فهو في الآخرة أعمى ﴿ وأضل سبيلاً ﴾ لأنه في

الدنيا تقبل توبته ، وفي الآخرة لا تقبل وفي الدنيا يهتدي إلى التخلص من الآفات ، وفي الآخرة لا يهتدي إلى ذلك البتة .

وقيل : فهو في الآخرة أعمى عن طريق الجنة .

وقيل : أعمى البصر كما قال ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً ﴾ وقوله : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴾ وقيل : من كان في الدنيا أعمى عن إبصار الحق والاعتبار فهو في الآخرة أعمى عن الاعتذار .

وقال ابن عطية : والظاهر عندي أن الإشارة بهذه إلى الدنيا ﴿ أي من كان ﴾ في دنياه ﴿ هذه ﴾ وقت إدراكه وفهمه ﴿ أعمى ﴾ عن النظر في آيات الله فهو في يوم القيامة أشدّ حيرة وعمى لأنه قد باشر الخيبة ورأى مخائل العذاب ، وبهذا التأويل تكون معادلة التي قبلها من ذكر من يؤتى كتابه بيمينه .

وإذا جعلنا قوله ﴿ في الآخرة ﴾ بمعنى في شأن الآخرة لم تطرد المعادلة بين الآيتين .

وقال الزمخشري : والأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة ، أما في الدنيا فلفقد النظر ، وأما في الآخرة فلأنه لا ينفعه الاهتداء إليه وقد جوّزوا أن يكون الثاني بمعنى التفضيل .

ومن ثم قرأ أبو عمر الأول ممالا والثاني مفخماً لأن أفعل التفضيل تمامه بمن فكانت ألفه في

حكم الواقعة في وسط الكلام كقوله ﴿ أعمالكم ﴾ وأما الأول فلم يتعلق به شيء فكانت ألفه واقعة في الطرف معرضة للإمالة انتهى .

(45/461)

وتعليله ترك إمالة أعمى الثاني أخذه الزمخشري من أبي عليّ قال أبو عليّ : لأن الإمالة إنما تحسن في الأواخر ، و﴿ أعمى ﴾ ليس كذلك لأن تقديره ﴿ أعمى ﴾ من كذا فليس يتم إلا في قولنا من كذا فهو إذن ليس بآخر ، ويقوي هذا التأويل عطف ﴿ وأضل سبيلاً ﴾ لأن الإنسان في الدنيا يمكن أن يؤمن فينجو وهو في الآخرة لا يمكنه ذلك فهو ﴿ أضل سبيلاً ﴾ وأشدّ حيرة وأقرب إلى العذاب ، و﴿ أعمى ﴾ هنا من عمى القلب لا من عمى البصر لأن ذلك يقع فيه التفاضل لا هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(46/461)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾

قاطبةً تكريماً شاملاً لبَرّهم وفاجِرهم أي كرمناهم بالصورة والقامةِ المعتدلةِ والتسلط على ما في الأرض والتمتّعِ به والتمكّنِ من الصناعات وغير ذلك مما لا يكاد يُحيط به نِطاقُ العبارة ، ومن جملته ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من أن كلَّ حيوانٍ يتناول طعامَه بفيه إلا الإنسانَ فإنه يرفعه إليه بيده ، وما قيل من شِرْكة القرد له في ذلك مبنيٌّ على عدم الفرقِ بين اليد والرجل فإنه متناوِلٌ له برجله التي يطأ بها القاذورات لا بيده ﴿ وحملناهم فِى البر والبحر ﴾ على الدوابّ والسفن ، من حمَلْته إذا جعلتَ له ما يركبه وليس من المخلوقات شيءٌ كذلك ، وقيل : حملناهم فيهما حيث لم نخسِفْ بهم الأرضَ ولم نُغرِقْهم بالماء ، وأنت خبيرٌ بأن الأول هو الأنسبُ بالتكريم إذ جميعُ الحيواناتِ كذلك ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مّنَ الطيبات ﴾ أي فنون النعمِ وضُروب المستلذات مما يحصل بصنعهم وبغير صُنعِهم .

(47/461)

﴿ وفضلناهم ﴾ في العلوم والإدراكاتِ بما ركّبنا فيهم من القُوى المدرِكةِ التي بها يتميز الحقُّ من الباطل والحسَنُ من القبيح ﴿ على كَثِيرٍ مّمَّنْ خَلَقْنَا ﴾ وهم من عدا الملائكةِ

عليهم الصلاة والسلام ﴿ تَفْضِيلاً ﴾ عظيماً فحق عليهم أن يشكروا هذه النعمَ ولا يكفروها ويستعملوا قُواهم في تحصيل العقائدِ الحقّةِ ويرفضوا ما هم عليه من الشرك الذي لا يقبله أحدٌ ممن له أدنى تمييزٍ فضلاً عمن فضل على من عدا الملأ الأعلى الذين هم العقولُ المحضةُ ، وإنما استُثْنِيَ جنسُ الملائكة من هذا التفضيلِ لأن علومَهم دائمةٌ عاريةٌ عن الخطأ والخلل ، وليس فيه دَلالةٌ على أفضليتهم بالمعنى المتنازَعِ فيه فإن المراد هنا بيانُ التفضيل في أمر مشتركٍ بين جميع أفرادِ البشر صالحِها وطالحِها ولا يمكن أن يكون ذلك هو الفضلَ في عِظم الدرجةِ وزيادةِ القُربةِ عند الله سبحانه . إن قيل : أيُّ حاجةٍ إلى تعيين ما فيه التفضيلُ بعد بيانِ ما هو المرادُ بالمفضّلين فإن استثناءَ الملائكةِ عليهم الصلاة والسلام من تفضيل جميع أفرادِ البشرِ عليهم لا يستلزم استثناءَهم من تفضيل بعضِ أفرادِه عليهم قلنا : لا بد من تعيينه ألبتةَ ، إذ ليس من الأفراد الفاجرةِ للبشر أحدٌ يفضُل على أحد من المخلوقات فيما هو المتنازَعُ فيه أصلاً بل هم أدنى من كل دنيءٍ حسبما يُنبىء عنه قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ كَالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدواب عِندَ الله الذين كَفَرُواْ ﴾ ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ ﴾ نُصب على المفعولية بإضمار اذكر أو ظرفٌ لما دل عليه قولُه تعالى : ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ ﴾ وقرىء بالياء على البناء للفاعل والمفعول ويدعو بقلب الألف واواً على لغة من يقول في أفعى أفعو ، وقد جوّز كونُ الواو علامةَ الجمعِ كما في قوله تعالى :

﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى ﴾ أو ضميرَه وكلَّ بدلاً منه ، والنونُ محذوفةٌ لقلة المبالاةِ بها فإنها ليست إلا علامةَ الرفع وقد يكتفى بتقديره كما في يدعى ﴿ كُلَّ أُنَاسٍ ﴾ من بني آدم الذين فعلنا بهم في الدنيا ما فعلنا من التكريم والتفضيلِ ، وهذا شروعٌ في بيان تفاوتِ أحوالِهم في الآخرة بحسب أحوالِهم وأعمالهم في الدنيا ﴿ بإمامهم ﴾ أي بمن ائتمّوا به من نبي أو مقدّم في الدين أو كتاب أو دين وقيل : بكتاب أعمالِهم التي قدموها فيقال : يا أصحابَ كتابِ الخيرِ يا أصحابَ كتابِ الشر ، أو يا أهلَ دينِ كذا يا أهلَ كتابِ كذا ، وقيل : الإمامُ جمعُ أم كخُف وخِفاف ، والحكمةُ في دعوتهم بأمهاتهم إجلالُ عيسى عليه السلام وتشريفُ الحسنين رضي الله عنهما والسترُ على أولاد الزنا ﴿ فَمَنْ أُوتِىَ ﴾ يومئذ من أُلئك المدعوّين ﴿ كتابه ﴾ صحيفةَ أعماله ﴿ بِيَمِينِهِ ﴾ إبانةٌ لخطر الكتابِ المؤتى وتشريفاً لصاحبه وتبشيراً له من أول الأمر بما في مطاويه ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى مَنْ باعتبار معناه إيذاناً بأنهم حزبٌ مجتمعون على شأن جليلٍ ، أو إشعاراً بأن قراءتَهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماعِ لا على وجه الانفرادِ كما في حال الإيتاءِ ، وما فيه من الدِلالة على البعد للإشعار برفعة درجاتِهم أي أولئك المختصون بتلك الكرامةِ التي يُشعِر بها الإيتاءُ المزبور ﴿ يَقْرَءونَ كتابهم ﴾ الذي أوتوه على الوجه المبين تبجّحاً بما سُطّر فيه من الحسنات المستتبعةِ لفنون الكراماتِ ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ ﴾ أي لا يُنقصون من أجور أعمالِهم المرتسمةِ في

كتبهم بل يؤتَوْنها مضاعفةً ﴿ فَتِيلاً ﴾ أي قدْرَ فتيلٍ وهو القِشرةُ التي في شق النواة أو أدنى شيءٍ فإن الفتيل مَثلٌ في القِلة والحقارة.

(49/461)

﴿ وَمَن كَانَ ﴾ من المدعوّين المذكورين ﴿ فِى هذه ﴾ الدنيا التي فُعل بهم فيها ما فعل من فنون التكريمِ والتفضيل ﴿ أعمى ﴾ فاقدَ البصيرة لا يهتدي إلى رُشده ولا يعرِف ما أوليناه من نعمة التكْرِمةِ والتفضيلِ فضلاً عن شكرها والقيامِ بحقوقها ، ولا يستعمل ما أودعناه فيه من العقول والقُوى فيما خُلِقْن له من العلوم والمعارِف الحَقّة ﴿ فَهُوَ فِى الأخرة ﴾ التي عُبّر عنها بيومَ ندعو ﴿ أعمى ﴾ كذلك أي لا يهتدي إلى ما ينجيّه ولا يظفَر بما يُجديه لأن العمَى الأولَ موجبٌ للثاني ، وقد جوّز كونُ الثاني بمعنى التفضيل على أن عماه في الدنيا ، ولذلك قرأ أبو عمرو الأول مُمالاً والثاني مفخماً ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ أي من الأعمى لزوال الاستعدادِ المُمْكِنِ وتعطلِ الآلاتِ بالكلية ، وهذا بعينه هو الذي أوتي كتابَه بشماله بدِلالة حال ما سبق من الفريق القابِل له ، ولعل العدولَ عن ذكره بذلك العنوانِ مع أنه الذي يستدعيه حسنُ المقابلة حسبما هو الواقعُ في سورة الحاقة وسورةِ الانشقاق للإيذان بالعلة الموجبةِ له كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضالين ﴾ بعد قوله تعالى

: ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ اليمين ﴾ وللرمز إلى علة حال الفريق الأول ، وقد ذكر في أحد الجانبين المسبّبُ وفي الآخر السببُ ، ودل بالمذكور في كل منهما على المتروك في الآخر تعويلاً على شهادة العقل كما في قوله عز وعلا : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(50/461)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾

أي جعلناهم قاطبة برهم وفاجرهم ذوي كرم أي شرف ومحاسن جمة لا يحيط بها نطلق الحصر ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كرمهم سبحانه بالعقل ، وفي رواية بتناولهم الطعام بأيديهم لا بأفواههم كسائر الحيوانات .

وعن الضحاك بالنطق ، وعن عطاء بتعديل القامة وامتدادها ، وعن زيد بن أسلم بالمطاعم واللذات ، وعن يمان بحسن الصورة ، وعن ابن جرير بالتسلط على غيرهم من الخلق وتسخيره لهم ، وعن محمد بن كعب بجعل محمد صلى الله عليه وسلم منهم .

وقيل : بخلق الله تعالى أباهم آدم بيديه ، وقيل : بتدبر المعاش والمعاد ، وقيل : بالخط ، وقيل : باللحية للرجل والذؤابة للمرأة ، وقيل وقيل والكل في الحقيقة على سبيل التمثيل ؛ ومن ادعى الحصر في واحد كابن عطية حيث قال : إنما التكريم بالعقل لا غير فقد ادعى غلطاً ورام شططاً وخالف صريح العقل وصحيح النقل ولذا استدل الإمام الشافعي بالآية على عدم نجاسة الآدمي بالموت ﴿ وحملناهم فِى البر والبحر ﴾ على أكبار رطبة وأعواد يابسة من الدواب والسفن فهو من حملته على كذا إذا أعطيته ما يركبه ويحمله فالمحمول عليه مقدر بقرينة المقام .

(51/461)

وقيل : المراد من حملهم في البر والبحر جعلهم قارين فيهما بأن لم يخسف بهم الأرض ولم يغرقهم بالماء ، والأول انسب بالتكريم إذ لا يثبت لشيء من الحيوانات سواهم بخلاف الثاني ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مّنَ الطيبات ﴾ أي فنون النعم وضروب المستلذات مما يحصل بصنعهم وبغير صنعهم من المأكولات والملبوسات والمفروشات والمقتنيات وغير ذلك ﴿ وفضلناهم ﴾ قيل : أي بالتكريم المذكور ﴿ على كَثِيرٍ مّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ عظيماً ، والمراد أن ذلك مخصوص بهم بالنسبة إلى الكثير فلم يكرم الكثير كما كرموا ، وبحث الإمام

في هذا المقام بأنه تعالى قال أولاً : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾ وقال سبحانه هنا : ﴿ وفضلناهم ﴾ فلا بد من فرق بين التكريم والتفضيل لئلا يلزم التكرار .

والأقرب في ذلك أن يقال : إنه تعالى فضل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية مثل العقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة ثم أنه عز وجل عرضه بواسطة العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة فالأول هو التكريم والثاني هو التفضيل فكأنه قيل فضلناهم بالتعريض لاكتساب ما فيه النجاة والزلفى بواسطة ما كرمناهم به من مبادي ذلك فعليهم أن يشكروا ويصرفوا ما خلق لهم لما خلق له فيوحدوا الله تعالى ولا يشركوا به شيئاً ويرفضوا ما هم عليه من عبادة غيره عز وجل ، ويقال نحو هذا على ما سبق أيضاً بقليل تغيير ، وقال الطيبي : قد كرر في الآية ما ينبىء عن غاية المدح من ذكر الكرامة والتفضيل وتسخير الأشياء على سبيل الترقي كأنه قيل : ولقد كرمنا بني آدم بكرامة أبيهم عليه السلام ثم سخرنا لهم الأشياء ورزقناهم من الطيبات ثم فضلناهم تفضيلاً أي تفضيل ولذا عقب بها قوله سبحانه :

(52/461)

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ ﴾ [الإسراء : 61] الخ وهو لبيان كرامة بيهم وما توسطوا بينهما من الآيات كالاستطراد والاعتراض إلى آخر ما قاله ، ويعلم منه دفع التكرار وإن لم يسقه لذلك الغرض ، وفيه تخصيص التكريم ، وكذا فيما قيل إن التكريم بالنعم التي يصح بها التكليف والتفضيل بالتكليف الذي عرضهم به للمنازلة الرفيعة ، والمراد بالكثير من عدا الملائكة عليهم السلام عند الكثير ومنهم الزمخشري وزعم أن الآية صريحة في تفضيل الملك على البشر وشنع على أهل السنة تشنيعاً أقذع فيه .

والحق أنها لا تصلح للاحتجاج على التفضيل المتنازع فيه ، ففي "الكشف" أن الظاهر من سياق الآية أنه حث للإنسان على الشكر وعلى أن لا يشرك به تعالى حيث ذكر ما في البر والبحر من حسن كلاءته سبحانه له وضمن فيه أنه جلا وعلا هداهم إلى الفلك وصنعته وما يترتب عليه من الفوائد في قوله سبحانه : ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ ﴾ [الإسراء : 66] الآيات فقال عز وجل : ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ أي هذا النوع من بين سائر الأنواع باصطناعات خصصناهم بها فذكر تعالى منها حملهم في البر والبحر ورزقهم من الطيبات وتفضيلهم على كثير من المخلوقات وهذا التفضيل لا يراد منه عظم الدرجة وزيادة القربة عند الله تعالى وهو المتنازع فيه لأن الحكم للنوع من حيث هو وذكر الله تعالى لذلك موجبات تعم الصالح والطالح فسواء دخل في هذا الكثير الملائكة أو لم يدخل لم يدل على الأفضلية بالمعنى المذكور فلا يصلح لاحتجاج إحدى الطائفتين اه .

ثم إن على فرض أن التفضيل بالمعنى اللمتنازع فيه لا تدل الآية على أن الملك أفضل من البشر إلا بطريق المفهوم وفي حجيته خلاف ، وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه لا يقول به على أنه يدل على أنهم فضلوا على الكثير ولم يفضلوا على مقابله وهو يحتمل المساواة وتفضيل المقابلة فليس نصاً في مذهب الزمخشري .

(53/461)

وجعل الطيبي من بيانية كما في قولك بذلت له العريض من جاهي أي فضلناهم على الكثيرين الذين خلقناهم من ذوي العقول كما هو الظاهر من ﴿ مِنْ ﴾ وهم منحصرون في الملك والجن والبشر فحيث خرج البشر لأن الشيء لا يفضل على نفسه بقي الملك والجن فيكون المراد بيان تفضيل البشر عليهم جميعاً وهو الذي يقتضيه مقام المدح فإن الآية مسوقة له وإذا جعلت للتبعيض كان ﴿ مّمَّنْ خَلَقْنَا ﴾ بدلاً أي فضلناهم على بعض المخلوقين .

وذكر البعض في هذا المقام يدل على تعظيم المفضل عليه كما قرر في قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ درجات ﴾

[البقرة : 253] وأي مدح لبني آدم وإثبات للفضل والكرامة بالجملة القسمية إذا جعلوا

مفضلين على الجن والشياطين على أن صفة الكثرة إذا جعلت مخصصة لإخراج البعض كانت الملائكة أولى من الجن والشياطين لأنهم هم الموصوفون بالكثرة كما تدل عليه الأخبار الكثيرة كخبر اطيط السماء وخبر نزول قطرات المطر وخبر ما يدخل البيت المعمور في كل يوم من الملائكة إلى غير ذلك ، وإليه ينظر قول صاحب التقريب إنه يحتمل أن يراد بكثير ممن خلقنا الملائكة إذ هم كثير من العقلاء المخلوقين اه .

(54/461)

وتعقب بأن ما ذكره من حمل ﴿ مَّنْ خَلَقْنَا ﴾ على تعميم ذوي العقول مقبول فإن تفضيلهم على غير ذوي العقول حينئذ آت من طريق مفهوم الموافقة فلا حاجة إلى ارتكاب خلاف الظاهر واعتبار تغليبهم ليعمهم وغيرهم لكن حمل من على البيان غير مقبول فإنه بعيد جداً لأن قيد الكثرة يضيع عليه حمل من على التعميم التغليبي أو الوضعي ولأن استعماله في التبعيض شائع أينما وقع في التنزيل واستعمالات الفصحاء وهو أكثر تعسفاً من حمله على الغاية في قوله تعالى : ﴿ فامسحوا برؤسكم وأيديكم منه ﴾ [المائدة : 6] على ما ذكره الزمخشري فيه وأنه إذا قوبل بشيء آخر دل على القلة في المقابل كما في قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ [الحديد : 26] فإنه صرح بأنه يدل على أن الغلبة

للفساق للمقابلة .

أما ورد ابتداء فربما كان الأكثر خلاف ذلك كما في قوله تعالى : ﴿ فَضَّلَنَا على كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المؤمنين ﴾ [النمل : 15] فقوله إن صفة الكثرة إذا جعلت مخصصة الخ كلام لم يصدر عن ثبت ، ولهذه النكتة قال صاحب التقريب : يحتمل دلالة على أنه مرجوح.

هذا ثم إن مسئلة التفضيل مختلف فيها بين أهل السنة ، فمنهم من ذهب إلى تفضيل الملائكة وهو مذهب ابن عباس رضي الله تعالى عنهما واختيار الزجاج على ما رواه الواحدي في البسيط ، ومنهم من فصل فقال : إن الرسول من البشر أفضل مطلقاً ثم الرسل من الملائكة على من سواهم من البشر والملائكة ثم عموم الملائكة على عموم البشر وهذا ما عليه أصحاب الإمام أبي حنيفة عليه الرحمة وكثير من الشافعية والأشعرية ، ومنهم من عمم تفضيل الكمل من نوع الإنسان نبياً كان أو ولياً ، ومنهم من فضل الكروبيين من الملائكة مطلقاً ثم الرسل من البشر ثم الكمل منهم ثم عموم الملائكة على عموم البشر .

وهذا ما عليه الإمام الرازي وبه يشعر كلام الغزالي في مواضع عديدة في كتبه ، ومن هذا يعلم أن إطلاق القول بأن أهل السنة يفضلون البشر على الملك ليس على ما ينبغي ، وهذه

المسألة ومسألة تفضيل الأئمة ليستا مما يبدع الذاهب إلى أحد طرفيهما على ما في "الكشف" إذ لا يرجع إلى أصل في الاعتقاد ولا يستند إلى قطعي بعد أن يسلم من العطن وما يخل بتعظيم في المسؤلتين لكن المشهور في مسألة تفضيل الأئمة أن القول بخلاف ما استقر عليه رأي أهل السنة ابتداع ومن أنصف قال بما في "الكشف" فهذر الزمخشري على من خالفه محض جهالة إذا لم يكن بتلك الغاية فكيف وهو قد بلغ فيه السفاهة غايتها ومن البذاذة نهايتها وسيري جزاء ذلك.

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾

شروع في بيان تفاوت أحوال بني آدم في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا ، و﴿ يَوْمَ ﴾ مفعول به لفعل محذوف أي الذكر يوم ندعو الخ.

وجوز ابن عطية وغيره أن يكون ظرفا لفعل يدل عليه ﴿ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ولم يجعل ظرفاً له بناء على أن الفاء لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ولو ظرفاً ، وجوز أيضاً أن يكون مبتدأ وهو مبني لإضافته إلى غير متمكن والخبر جملة ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ ﴾ الخ ويقدر للربط فيها فيه ، وفيه أن المنقسم إلى متمكن وغير متمكن هو الاسم لا الفعل وما في حيزه هنا فعل مضارع على أن بناء أسماء الظروف المضافة إلى جملة هو أحد ركنيها بناء على مذهب الكوفيين والبصريون لا يجوزون ذلك ومع هذا هو تخريج متكلف.

وجوز أيضاً كونه ظرفاً لِ ﴿ فضلناهم ﴾ [الإسراء : 70] قال : وتفضيل البشر على سائر الحيوانات يوم القيامة بين وبه قال بعض النحاة إلا أنه قال : فضلناهم بالثواب ، وفيه أنه أي تفضيل للبشر ذلك اليوم والكفار منهم أخس من كل شيء إلا أن يقال : يكفي في تفضيل الجنس تفضيل بعض أفراده ألا ترى صحة الرجال أفضل من النساء مع أن من النساء من هي أفضل من بعض الرجال بمراتب ، وأيضاً إذا أريد التفضيل بالثواب لا يصح إخراج الملائكة لأن جنس البشر يثابون والملائكة عليهم عليهم السلام لا يثابون كما هو مقرر في محله ، ثم إنهم يشاركهم في الثواب الجن لأن مؤمنيهم يثابون كما يثاب البشر عند بعض ، وقيل إن ثوابهم دون ثوابهم لأنهم لا يرون الله تعالى يالجنة عند من قال : إن الله تعالى يرى فيها فالبشر مفضلون عليهم في الثواب من هذه الجهة ، وقيل ظرف ﴿ يَقْرَءونَ ﴾ أو ما دل عليه ، وفيه أنهم لايقرؤن كتابهم وقت الدعوة .

وأجيب بأن المراد بيوم يدعون وقت طويل وهو اليوم الآخر الذي يكون فيه ما يكون ويبقى في جعله ظرفاً للمذكور حديث الفاء .

وقال الفراء : هو ظرف لنعيدكم محذوفاً ، وقيل : ظرف لِ ﴿ تستجيبون ﴾ [الإسراء : 52] ، وقيل هو بدل من ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ وقيل العامل فيه ما دل عليه قوله سبحانه ﴿ متى هُوَ ﴾ [الإسراء : 51] وهي أقوال في غاية الضعف ، وأقرب الأقوال وأقواها ما

ذكرناه أولاً .

والإمام المقتدي به والمتبع عاقلاً كان أو غيره ، والجار والمجرور متعلق بندعوا أي ندعو كل أناس من بني آدم الذين فعلنا بهم في الدنيا ما فعلنا من التكريم وما عطف عليه بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين فيقال : يا أتباع فلان يا أهل دين كذا أو كتاب كذا .

وأخرج ابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآية : يدعى كل قوم بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم " .

وأخرج ابن أبي شيبة .

وابن المنذر .

وغيرهما عن ابن عباس أنه قال : إمام هدى وإمام ضلالة .

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال : بإمامهم بكتاب أعمالهم فيقال : يا أصحاب كتاب الخير يا أصحاب كتاب الشر وروى ذلك عن أبي العالية .

والربيع .

والحسن ، وقرئ ﴿ بكتابهم ﴾ ولعلم وجه كون ذلك إمامهم إنهم متبعون لما يحكم به من جنة أو نار ، وقال الضحاك .

وابن زيد : هو كتابهم الذي نزل عليهم .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وابن مردويه .

والخطيب في تاريخه عن أنس أنه قال : هو نبيهم الذي بعث إليهم .

واختار ابن عطية كغيره عموم الإمام لما ذكر في الآثار ، وقيل : المراد القوى الحاملة لهم على عقائدهم وأفعالهم كالقوة النظرية والعملية والقوة الغضبية والشهوية سواء كانت الشهوة شهوة النقود أو الضياع أو الجاه والرياسة ولاتباعهم لها دعيت إماما ، وهو مع كونه غير مأثور بعيد جداً فلا يقتدي بقائله وإن كان إماماً .

وفي "الكشاف" أن من بدع التفاسير أن الإمام جمع أم كخف وخفاف وأن الناس يدعون يوم القيامة بإمامتهم وأن الحكمة في الدعاء بهن دون الآباء رعاية حق عيسى عليه السلام وشرف الحسن والحسين ولا يفضح أولاد الزنا ، وليت شعري أيهما أبدع أصحة تفسيره أم بهاء حكمته انتهى ، وهو مروي عن محمد بن كعب .

ووجه عدم قبوله على ما في "الكشف" ، أما أولاً : فلأن إمام جمع أم غير شائع وإنما المعروف الأمهات .

وأما ثانياً : فلأن رعاية حق عيسى عليه السلام في امتيازه بالدعاء بالأم فإن خلقه من غير أن كرامة له لا غض منه ليجبر بأن الناس أسوته في انتسابهم إلى الأمهات ، وإظهار شرف الحسنين بدون ذلك أتم فإن أباهما خير من أمهما مع أن أهل البيت كحلقة مفرغة ، وأما افتضاح أولاد الزنا فلا فضيحة إلا للأمهات وهي حاصلة دعى غيرهم بالأمهات أو بالآباء ولا ذنب لهم في ذلك حتى يترتب عليه الافتضاح انتهى ، وما ذكر من عدم شيوع الجمع المذكورين ، وأما الطعن في الحكمة فقد تعقب فإن حاصلها أنه لو دعى جميع الناس بآبائهم ودعى عيسى عليه السلام بأمه لربما أشعر بنقص فروعي تعظيمه عليه السلام ودعى الجميع بالأمهات وكذا روعي تعظيم الحسنين رضي الله تعالى عنهما لما أن في ذلك بيان نسبهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو نسبا إلى أبيهما كرم الله تعالى وجهه لم يفهم هذا وإن كان هو هو رضي الله تعالى عنه ؛ وفي ذلك أيضاً ستر على الخلق حتى لا يفتضح أولاد الزنا فإنه لو دعى الناس بآبائهم ودعوا هم بأمهاتهم علم أنهم لا نسبة لهم إلى آباء يدعون بهم وفيه تشهير لهم ولو دعوا بآباء لم يعرفوا بهم في الدنيا وإن لم ينسبوا إليهم شرعاً كان كذلك ، وعلى هذا يسقط ما في الكشف ، وعندي أن القائل بذلك لا يكاد يقول به من

غير أن يتمسك بخبر لأنه خلاف ما ينساق إلى الأذهان على اختلاف مراتبها ولا تكاد تسلم حكمته عن وهن :

ولا يصلح العطار ما أفسد الدهر . . .

ولعل الخبر إن كان ليس بالصحيح ويعارضه ما قدمناه غير بعيد من قوله صلى الله عليه وسلم : " إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم " والله تعالى أعمل ، وما ذكر من تعلق الجار بما عنده هو الظاهر الذي ذهب إليه الجمهور ، وجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف وقع حالاً أي مصحوبين بإمامهم ، ثم إن الداعي إما الله عز وجل وأما الملك وهو الذي تشعر به الآثار فإسناد الفعل إليه تعالى مجاز .

(59/461)

وقرأ مجاهد ﴿ يَوْمَ يَدْعُو ﴾ بالياء آخر الحروف أي يدعو الله تعالى أو الملك ، والحسن في رواية ﴿ يدعى ﴾ بالبناء للمفعول ورفع ﴿ كُلٌّ ﴾ على النيابة عن الفاعل ، وفي رواية أخرى ﴿ يَدْعُواْ ﴾ بضم الياء وفتح العين بعدها واو ورفع ﴿ كُلٌّ ﴾ وخرجت على وجهين فإن الظاهر يدعون بإثبات النون التي هي علامة الرفع الأول : إن الواو ليست ضمير جمع ولا علامته وإنما هي حرف من نفس الكلمة وكانت ألفاً والأصل يدعى كما في القراءة

الأخرى وقلبت الألف واواً على لغة من يقول في أفعى وهي الحية أفعو ، وهذه اللغة مخصوصة بالوقف على المشهور فيكون قد أجرى هنا الوصل مجرى الوقف .

ونقل عن سيبويه أن قلب الألف في الآخر واواً لغة مطلقاً ، والثاني : أن الواو ضمير أو علامة كما في يتعاقبون فيكم ملائكمة والنون محذوفة كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تؤمنوا حتى تحابوا وكما تكونوا يولي عليكم " في قول ، وكذا في قول الشاعر :

أبيت أسري وتبيتي تدلكي . . .

وجهك بالعنبر والمسك الذكي

وكأنها لكونها علامة إعراب عوملت معاملة حركته في إظهارها تارة وتقديرها أخرى ، ولا فرق في كونها علامة إعراب بين أن تكون الواو ضميراً وأن تكون علامة جمع على الصحيح ، والظاهر أن حذفها في مثل ما ذكر شاذ لا ضرورة وإلا فلا يصح هذا التخريج في الآية ، وفي توجيه رفع ﴿ كُلٌّ ﴾ على هذه القراءة الأقوال في توجيه الرفع في أمثاله وهي مشهورة في كتب النحو ﴿ فَمَنْ أُوتِىَ ﴾ يومئذ من أولئك المدعوين ﴿ كتابه ﴾ صحيفة أعمالهم والله سبحانه أعلم بحقيقتها ﴿ بِيَمِينِهِ ﴾ إبانة لخطر الكتاب المؤتى وتشريفاً

لصاحبه وتبشيراً له من أول الأمر بما في مطاويه ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى من باعتبار معناه وكأنه أشير بذلك إلى أنهم حزب مجتمعون على شأن جليل ، وقيل فيه إشعار بأن قراءتهم لكتبهم عل أوجه الاجتماع لا على وجه الانفراد كما في حال الإيتاء ، وأكثر الأخبار ظاهرة في أن حال القراءة كحال الإيتاء ، نعم جاء من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها أنه يؤتى العبد كتابه بيمينه فيقرأ سيئاته ويقرأ الناس حسناته ثم يحول الصحيفة فيحول الله تعالى حسناته فيقرؤها الناس فيقولون ما كان لهذا العبد من سيئة .

ويحتمل أن يكون كل من يؤتى كتابه بيمينه بعد أن يقرأه منفرداً يأتي أصحابه ويقول ﴿ هَاؤُمُ اقرؤا كتابيه ﴾ [الحاقة : 19] فيجتمعون عليه ويقرؤه هو أيضاً معهم تلذذاً به لكن لم نجد في ذلك أثراً ومع هذا لا يجدي نفعاً فيما أراد القائل ، وفي إلحاق اسم الإشارة علامة البعد إشارة إلى رفعة درجات المشار إليهم أي أولئك المختصون بتلك الكرامة التي يشعر بها إيتاء الكتاب باليمين ﴿ يَقْرَءونَ ﴾ ولو لم يكونوا قارئين في الدنيا ﴿ كتابهم ﴾ الذي أوتوه باليمين ليذكروا أعمالهم ويقفوا على تفاصيلها فيحاسبوا عليها .

وقيل يقرؤنه تبجحاً بما سطر فيه من الحسنات المستتبعة لفنون الكرامات ، والإظهار في مقام الإضمار لمزيد الاعتناء ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي لا ينقصون من أجور أعمالهم المرتسمة في كتبهم بل يؤتونها مضاعفة ﴿ فَتِيلاً ﴾ أي قدر فتيل وهو القشر الذي في شق النواة سمي بذلك لأنه على هيئة الشيء المفتول ، وقيل هو ما تفتله بين أصابعك من خيط أو وسخ ويضرب به المثل في الشيء الحقير ، ثم إن الذي يسرع إلى الذهن أن فاعل الإيتاء الملائكة عليهم السلام يعطون السعيد بعد أن يدعى كتابه بيمينه فيقرؤه فيحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً .

لكن أخرج العقيلي عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الكتب كلها تحت العرش فإذا كان يوم القيامة يبعث الله تعالى ريحاً فتطيرها إلى الأيمان والشمائل وأول خط فيها ﴿ اقرأ كتابك كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : 41] " وهو ظاهر في أن فاعل الإيتاء ليس الملك إلا أن الخبر يحتاج إلى تنقير فإني لست من صحته على يقين .

نعم جاء في حديث أخرجه الإمام أحمد عن عائشة الصديقة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : " قلت يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال : أما عند ثلاث فلا إلى أن قال وعند تطاير الكتب " وهو مؤيد بظاهره الخبر الساب قوالله تعالى أعلم .

وجاء في بعض الآثار أن أول من يأتي كتابه بيمينه من هذه الأمة أبو سلمة عبد الله بن الأسد وأول من يؤتي كتابه بشماله أخوه الأسود سود الله تعالى وجهه بعد أن يمد يمينه

ليأخذه بها فيخلعها ملك ، وسبب ذلك مذكور في السير .

﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72) ﴾

(62/461)

﴿ وَمَن كَانَ ﴾ من المدعوين المذكورين ﴿ فِى هذه ﴾ الدنيا التي فعل بهم فيها من التكريم والتفضيل ما فعل ﴿ أعمى ﴾ لا يهتدي إلى طريق نجاته من النظر إلى ما أولاه مولاه جل علاه والقيام بحقوقه وشكره سبحانه بما ينبغي له عز شأنه من الايمان والعمل ﴿ فَهُوَ فِى الآخرة ﴾ التي عبر عنها بِ ﴿ يوم ندعو ﴾ [الإسراء : 71] ﴿ أعمى ﴾ لا يهتدي أيضاً إلى ما ينجيه ولا يظفر بما يجديه لأن العمى الأول موجب للثاني وهو في الموضعين مستعار من آفة البصر .

وجوز أن يكون ﴿ أعمى ﴾ الثاني أفعل تفضيل من عمى البصيرة وهو من العيوب الباطنة التي يجوز أن يصاغ منها أفعل التفضيل كالأحمق والأبله ، وبنى على ذلك إمالة أبي عمرو والأول وتفخيمه الثاني وبيان أن الألف في الأول آخر الكلمة كما ترى وتحسن الإمارة في الأواخر وهي في الثاني على تقدير كونه أفعل تفضيل كأنها في وسط الكلمة لأن أفعل المذكور غير معرف باللام ولا مضاف لا يستعمل بدون من الجارة للمفضل عليه ملفوظة أو

مقدرة وهو معها في حكم الكلمة الواحدة ولا تحسن الإمارة فيها ولا تكثر كما في المتطرفة.

وقد صرح بذلك أبو علي في الحجة فلا يرد إمارة ﴿ أدنى مِن ذَلِكَ ﴾ [المجادلة : 7]

و﴿ الكافرين ﴾ وأن حمزة والكسائي.

وأبا بكر يميلون الأعمى في الموضعين ولا حاجة إلى أن يقال : إنهم لا يرونه أفعل تفضيل أو أو

الإمارة فيما يرونه كذلك للمشاكلة.

وقال بعض المحققين : إنه لما أريد افتراق معني الأعمى في الموضعين افترق اللفظان إمالة

وتفخيماً وفخم الثاني لأن ما يدل على زيادة المعنى أولى بالتفخيم مع عدم حسن الإمالة

فيه حسنها في الأول ، ولا يظن بأبي على أنه يقول بامتناع الإمارة وإنما يقول بأولوية التفخيم.

(63/461)

وقال بعضهم : إن كان العمى فيما يكون للبصر وما يكون للبصيرة حقيقة فلا إشكال ، وإن

كان حقيقة في الأول وتجوز به عن الثاني ففيه إشكال إلا أن يقال : إنه ألحق بما وضع لذلك

وقد منعه آخرون لأن العلة وهي الإلباس بالوصف موجودة فيه فتدبر ، وقوى هذا التأويل

بعطف قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ منه في الدنيا لزوال الاستعداد وعدم إمكان

تدارك ما فات ، وهذا بعينه هو الذي أوتي كتابه بشماله بدلالة حال ما سبق من الفريق

المقابل له ، ولعل العدول إلى هذا العنوان للإيذان بالعلة الموجبة كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الواقعة : 92] بعد قوله سبحانه : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ [الواقعة : 90] وللرمز إلى علة حال الفريق الأول وفي ذلك ما هو من قبيل الاحتباك حيث ذكر في أحد الجانبين المسبب وفي الآخر السبب ودل بالمذكور في كل منهما على المتروك في الآخر تعويلاً على شهادة العقل ، وجعله ابن المنير مقابلاً للقسم الأول على معنى

﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [الإسراء : 71] فهو الذي يتبصره ويقرؤه ومن كان في الدنيا أعمى غير متبصر في نفسه ولا ناظر في معاده فهو في الآخرة كذلك غير متبصر في كتابه بل أعمى عنه أو أشد عمى مما كان في الدنيا على اختلاف التأويلين وهو خلاف الظاهر .

(64/461)

ويشعر أيضاً بأن من كان في الدنيا أعمى عن السلوك في طريق نجاته لا يقرأ في الآخرة كتابه وهو خلاف المصرح به في الآيات والأحاديث ، نعم فرق بين القراءتين ولعل الآية تشعر بالفرق وإم لم تقرر المقابلة بما ذكر ؛ هذا وعن أبي مسلم تفسير ﴿ أعمى ﴾ الثاني بأعمى

العين ولا تجوز أي من كل في الدنيا أعمى القلب فهو في الآخرة أعمى العين أي يحشر كذلك عقوبة له على ضلالته في الدنيا وهو كقوله تعالى ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ [طه : 124] الآية ، وتأول ﴿ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ [ق : 22] بالعلم والمعرفة ، وعنه أيضاً تجويز أن يكون العمى عبارة عما يلحقه من الغم المفرط كأنه قيل من كان في الدنيا ضالاً فهو في الآخرة مغموم جداً فإن من لا يرى إلا ما يسوؤه والأعمى سواء ، وهذا كما يقال : فلان سخين العين وهو كما ترى .

وقيل : إن هذه إشارة إلى النعم المذكورة قبل على معنى من كان أعمى غير متبصر في هذه النعمة وقد عاينها فهو في شأن الآخرة التي لم يعاينها أعمى وأضل سبيلاً ، واستند في ذلك إلى ما أخرجه الفريابي .

وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسأله رجل منهم أرأيت قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِى هذه أعمى فَهُوَ فِى الآخرة أعمى ﴾ فقال ابن عباس : لم تصل المسئلة اقرأ ما قبلها ﴿ رَّبُّكم الذى يُزْجِى لَكُمُ الفلك فِى البحر ﴾ [الإسراء : 66] حتى بلغ ﴿ وفضلناهم على كَثِيرٍ مّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : 70] ثم قال : من كان أعمى عن هذه النعم التي قد رأى وعاين فهو في أمر الآخرة التي لم ير ولم يعاين أعمى وأضل سبيلاً .

وفي رواية أخرى أخرجها عنه ابن أبي حاتم .

(65/461)

وأبو الشيخ في العظمة من طريق الضحاك أنه قال في الآية : يقول تعالى من كان في الدنيا أعمى عما رأى من قدرتي من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والدواب وأشباه هذا فهو عما وصفت له في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً يقول سبحانه أبعد حجة .

وروى أبو الشيخ عن قتادة نحوه ، ولا يخفى أن كلا التأويلين بعيد جداً وإن كان الثاني دون الأول في البعد ولا أظن الحبر يقول ذلك والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(66/461)

لطيفة

قال ابن عجيبة :

الإشارة : قد كرَّم الله هذا الآدمي ، وشرفه على خلقه ؛ بخصائص جعلها فيه ، منها : أنه جعله نسخة من الوجود ، فيه ما في الوجود ، وزيادة ، قد انطوت فيه العوالم بأسرها ، من

عرشها إلى فرشها ، وإلى هذا المعنى أشار ابن البنا ، في مباحثه ، حيث قال :

يا سابقًا في مَوْكب الإبداع . . . ولاحِقًا في جَيْش الاخْتِراع

اعْقِل فَأَنْتَ نُسْخَةُ الوُجُود . . . لله ما أعلاكَ مِن مَوْجُود

أَلَيْس فِيك العرشُ والكرسِيُّ . . . والعالم العُلْوِيُّ والسُّفْلِيُّ

ما الكونُ إلا رَجلٌ كبيرُ . . . وأنتَ كونٌ مِثْلُه صَغِيرُ

وقال آخر :

إذا كنتَ كُرْسِيًّا وعَرْشًا وجنَّةً . . . ونَارًا وأَفْلاكًا تدوُر وأَمْلاكا

وكُنْتَ من السِّرِّ المَصُون حقِيقة . . . وأَدْرَكْتَ هذا بالحَقِيقَةِ إدْرَاكا

فَفِيمَ التَّأَنِّي فِي الحَضِيضِ تُثَبُّطًا . . . مُقِيمًا مع الأَسْرَى أمَا آنَ إسْرَاكَا

ومنها : أنه جعله خليفة في ملكه ، وجعل الوجود بأسره خادمًا له ، ومنتفعًا به ، الأرض تُقله ، والسماء تُظله ، والجهات تكتنفه ، والحيوانات تخدمه ، والملائكة تستغفر له ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه الخلق . قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : 13] .

ومنها : أن جعل ذاته مشتملة على الضدين : النور والظلمة ، الكثافة واللطافة ، الروحانية والبشرية ، الحس والمعنى ، القدرة والحكمة ، العبودية وأسرار الربوبية ، إلى غير ذلك .

ولذلك خصه بحمل الأمانة .

ومنها : أنه جعله قلب الوجود ، هو المنظور إليه من هذا العالم ، وهو المقصود الأعظم من إيجاد هذا الكون ، فهو المنعَّم دون غيره ، إن أطاع الله ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الملائكة حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ [الزُّمَر : 75] ، فنعيم الجنان خاص بهذا الإنسان ، أو : من التحق به من مؤمني الجان . وقال الورتجبي : كرامة الله تعالى لبني آدم سابقة على كون الخلق جميعًا ؛ لأنها من صفاته ، واختياره ، ومشيئته الأولية . أوجد الخلق برحمته ، وخلق آدم وذريته بكرامته ، الخلق كلهم في حيز الرحمة ، وآدم وذريته في حيز الكرامة . الرحمة للعموم ، والكرامة للخصوص . خلق الكلَّ لآدم وذريته ، وخلق آدم وذريته لنفسه ، ولذلك قال : ﴿ واصطنعتك لِنَفْسِي ﴾ [طه : 41] ، جعل آدم خليفته ، وجعل ذريته خلفاء أبيهم ، الملائكة والجن في خدمتهم ، والأمر والنهي والخطاب معهم ، والكتاب أُنزل إليهم ، والجنة والنار والسماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم ، وجميع الآيات ، خُلِقَ لهم . والخلق كلهم طُفيل لهم ، ألا ترى الله يقول لحبيبه صلى الله عليه وسلم : « لولاك ما خلقت الكون » ؟ ولهم كرامة الظاهر ، وهي : تسوية خلقهم ، وظرافة صورهم ، وحسن نظرتهم ، وجمال وجوههم ، حيث خلق فيها السمع والأبصار والألسنة ، واستواء القامة ، وحسن المشي ، والبطش ، وإسماع الكلام ، والتكلم باللسان ، والنظر بالبصر ، وجميع

ذلك ميراث فطرة آدم ، التي صدرت من حسن اصطناع صورته . الذي قال : ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : 75] ، فنور وجوههم من معادن نور الصفة ، وأنوار الصفات نوَّرت آدم وذريته ، فتكون نورًا من حيث الصفات والهيئات ، والحسن والجمال ، متصفون متخلقون بالصفات الأزلية ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام : « خلَقَ آدَمَ على صُورَتِهِ » ، من حيث التخلق لا من حيث التشبيه . انظر تمامه . والحاصل أنه فضلهم بالخُلْق والخُلُق ، وذلك يجمع محاسن الصورة الظاهرة والباطنة . انتهى انتهى . ا هـ قاله المحشي الفاسي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 3 صـ 217.218 ﴾

(68/461)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ رَّبُّكُمُ الذى يُزْجِى لَكُمُ الفلك فِى البحر ﴾

الإزجاء : السوق والإجراء والتسيير ، ومنه قوله سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحَاباً ﴾ [النور : 43] .

وقول الشاعر :

يا أيها الراكب المزجي مطيته . . . سائل بني أسد : ما هذه الصور

وقول الآخر :

عوذا تزجي خلفها أطفالها . . . والمعنى : أن الله سبحانه يسيّر الفلك في البحر بالريح ، والفلك ها هنا جمع ، وقد تقدّم ، والبحر هو الماء الكثير عذباً كان أو مالحاً ، وقد غلب هذا الاسم على المشهور ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي : من رزقه الذي تفضل به على عباده ، أو من الربح بالتجارة ، و " من " زائدة أو للتبعيض ، وفي هذه الآية تذكير لهم بنعم الله سبحانه عليهم حتى لا يعبدوا غيره ولا يشركوا به أحداً ، وجملة : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ تعليل لما تقدّم أي : كان بكم رحيماً فهداكم إلى مصالح دنياكم .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر ﴾ يعني : خوف الغرق ﴿ فِى البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ ﴾ من الآلهة وذهب عن خواطركم ، ولم يوجد لإغاثتكم ما كنتم تدعون من دونه من صنم ، أو جنّ ، أو ملك ، أو بشر ﴿ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ وحده فإنكم تعقدون رجاءكم برحمته وإغاثته ، والاستثناء منقطع ، ومعنى الآية : أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم وسائر معبوداتهم أنها نافعة لهم في غير هذه الحالة ، فأما في هذه الحالة فإن كل واحد منهم يعلم بالفطرة علماً لا يقدر على مدافعته أن الأصنام ونحوها لا فعل لها ﴿ فَلَمَّا نجاكم إِلَى البر أَعْرَضْتُمْ ﴾ عن الإخلاص لله وتوحيده ورجعتم إلى دعاء أصنامكم والاستغاثة بها ﴿ وَكَانَ الإنسان كَفُورًا ﴾ أي : كثير الكفران لنعمة الله ، وهو تعليل لما تقدّمه ، والمعنى : أنهم عند الشدائد يتمسكون برحمة الله ، وفي الرخاء يعرضون عنه .

ثم أنكر سبحانه عليهم سوء معاملتهم قائلاً : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره : أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض ، فبين لهم أنه قادر على هلاكهم في البرّ وإن سلموا من البحر .

والخسف أن تنهار الأرض بالشيء ، يقال : بئر خسيف إذا انهدم أصلها ، وعين خاسف : أي .

غائرة حدقتها في الرأس ، وخسفت عين الماء : إذا غار ماؤها ، وخسفت الشمس : إذا غابت عن الأرض ، و ﴿ جانب البرّ ﴾ ناحية الأرض ، وسماه جانباً ، لأنه يصير بعد الخسف جانباً ، وأيضاً فإن البحر جانب من الأرض والبرّ جانب ؛ وقيل : إنهم كانوا على ساحل البحر ، وساحله جانب البرّ فكانوا فيه آمنين من مخاوف البحر ، فحذرهم ما أمنوه من البرّ كما حذرهم ما خافوه من البحر ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ قال أبو عبيدة والقتيبي : الحصب : الرمي أي : ريحاً شديدة حاصبة ، وهي التي ترمي بالحصى الصغار . وقال الزجاج : الحاصب : التراب الذي فيه حصباء ، فالحاصب : ذو الحصباء كاللابن ، والتامر ؛ وقيل : الحاصب : حجارة من السماء تحصبهم كما فعل بقوم لوط ، ويقال

للسحابة التي ترمي بالبرد : حاصب ، ومنه قول الفرزدق :

مستقبلين جبال الشام تضربنا . . . بحاصب كنديف القطن منثور

﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ أي : حافظاً ونصيرا يمنعكم من بأس الله .

(70/461)

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أخرى ﴾ أي : في البحر مرة أخرى بأن يقوي دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى ركوبه ، وجاء بفي ولم يقل إلى البحر ، للدلالة على استقرارهم فيه ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الريح ﴾ القاصف : الريح الشديدة التي تكسر بشدّة ، من قصف الشيء يقصفه أي : كسره بشدّة ، والقصف : الكسر ، أو هو الريح التي لها قصيف أي : صوت شديد من قولهم رعد قاصف أي : شديد الصوت ﴿ فَيُغْرِقَكُم ﴾ قرأ أبو جعفر ، وشيبة ، ورويس ، ومجاهد (فتغرقكم) بالتاء الفوقية على أن فاعله الريح .

وقرأ الحسن وقتادة ، وابن وردان (فيغرقكم) بالتحتية والتشديد في الراء .

وقرأ أبو جعفر أيضاً (الرياح) .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالنون في جميع هذه الأفعال .

وقرأ الباقون بالياء التحتية في جميعها أيضاً ، والباء في ﴿ بما كفرتم ﴾ للسببية أي : بسبب

كفركم ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ أي : ثائراً يطالبنا بما فعلنا .

قال الزجاج : لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم .

قال النحاس : وهو من الثأر ، وكذا يقال لكل من طلب بثأر أو غيره تبيع وتابع .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾ هذا إجمال لذكر النعمة التي أنعم الله بها على بني آدم أي : كرّمناهم جميعاً ، وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوان مثله .

وحكى ابن جرير عن جماعة أن هذا التكريم هو أنهم يأكلون بأيديهم ، وسائر الحيوانات تأكل بالفم ، وكذا حكاه النحاس .

وقيل : ميزهم بالنطق والعقل والتمييز ، وقيل : أكرم الرجال باللحى والنساء بالذوائب .

وقال ابن جرير : أكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق وتسخير سائر الخلق لهم ، وقيل : بالكلام والخط والفهم ، ولا مانع من حمل التكريم المذكور في الآية على جميع هذه الأشياء .

وأعظم خصال التكريم العقل ، فإن به تسلطوا على سائر الحيوانات ، وميزوا بين الحسن والقبيح ، وتوسعوا في المطاعم والمشارب ، وكسبوا الأموال التي تسببوا بها إلى تحصيل أمور لا يقدر عليها الحيوان ، وبه قدروا على تحصيل الأبنية التي تمنعهم مما يخافون ، وعلى تحصيل الأكسية التي تقيهم الحرّ والبرد ، وقيل تكريمهم : هو أن جعل محمداً صلى الله عليه وسلم منهم ﴿ وحملناهم فِى البر والبحر ﴾ هذا تخصيص لبعض أنواع التكريم ، حملهم سبحانه في البرّ على الدواب ، وفي البحر على السفن ، وقيل : حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم ولم نغرقهم ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مّنَ الطيبات ﴾ أي : لذيذ المطاعم والمشارب وسائر ما يستلذونه وينتفعون به ﴿ وفضلناهم على كَثِيرٍ مّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ أجمل سبحانه هذا الكثير ولم يبين أنواعه فأفاد ذلك أن بني آدم فضلهم سبحانه على كثير من مخلوقاته .

وقد جعل بعض أهل العلم الكثير هنا بمعنى الجميع وهو تعسف لا حاجة إليه .

وقد شغل كثير من أهل العلم بما لم تكن إليه حاجة ولا تتعلق به فائدة ، وهو مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء أو الأنبياء على الملائكة ، ومن جملة ما تمسك به مفضلو الأنبياء على الملائكة هذه الآية ، ولا دلالة لها على المطلوب لما عرفت من إجمال الكثير وعدم تبيينه ، والتعصب في هذه المسألة هو الذي حمل بعض الأشاعرة على تفسير الكثير هنا بالجميع حتى يتم له التفضيل على الملائكة ، وتمسك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة

على الأنبياء .

ولا دلالة بها على ذلك ، فإنه لم يقم دليل على أن الملائكة من القليل الخارج عن هذا الكثير ، ولو سلمنا ذلك فليس فيما خرج عن هذا الكثير ما يفيد أنه أفضل من بني آدم ، بل غاية ما فيه أنه لم يكن الإنسان مفضلاً عليه .

(72/461)

فيحتمل أن يكون مساوياً للإنسان ، ويحتمل أن يكون أفضل منه ، ومع الاحتمال لا يتم الاستدلال ، والتأكيد بقوله : ﴿ تَفْضِيلاً ﴾ يدل على عظم هذا التفضيل وأنه بمكان مكين ، فعلى بني آدم أن يتلقوه بالشكر ويحذروا من كفرانه .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يُزْجِى ﴾ قال : يجري ، وأخرجوا عن قتادة قال : يسيرها في البحر .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ حاصبا ﴾ قال : مطر الحجارة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة قال : حجارة من السماء .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ قَاصِفاً مّنَ الريح ﴾ قال : التي تغرق .

وأخرج أبو عبيد ، وابن المنذر ، عن عبد الله بن عمرو قال : القاصف والعاصف في

البحر .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ قَاصِفًا ﴾ قال : عاصفاً ، وفي قوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ قال : نصيراً .

وأخرج الطبراني ، والبيهقي في الشعب ، والخطيب في تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم قيل : يا رسول الله ولا الملائكة ؟ قال : ولا الملائكة ، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر " ، وأخرجه البيهقي من وجه آخر عن ابن عمرو موقوفاً قال : وهو الصحيح .

وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال : المؤمن أكرم على الله من ملائكته .

وأخرج الطبراني عن ابن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" إن الملائكة قالت : يا رب أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو ، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة ، قال : لا أجعل صالح ذرّية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان " وأخرجه عبد الرزاق ، وابن جرير عن زيد بن أسلم قال : قالت الملائكة .

وإسناد الطبراني هكذا : حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادي ، حدّثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي ، حدّثنا حجاج بن محمد ، حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف ، عن صفوان بن سليم ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره .

وأخرج ابن عساكر من طريق عروة بن رويم قال : حدثني أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر نحو حديث ابن عمرو الأول مع زيادة .

وأخرج نحوه البيهقي أيضاً في الأسماء والصفات من وجه آخر عن عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾ قال : جعلناهم يأكلون بأيديهم وسائر الخلق يأكلون بأفواههم .

وأخرج الحاكم في التاريخ ، والديلمي عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله : " الكرامة الأكل بالأصابع " . انتهى انتهى . اهـ ﴿فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(74/461)

وقال القاسمي :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾

أي : بالنطق والتمييز والعقل والمعرفة والصورة والتسلط على ما في الأرض والتمتع به : ﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أي : يسرنا لهم أسباب المعاش والمعاد بالسير في طلبها فيهما ، وتحصيلها : ﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي : فنون المستلذات التي لم يرزقها غيرهم من المخلوقات : ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ أي : عظيماً ، فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ، بأن يعبدوا المتفضل بها وحده ويقيموا شرائعه وحدوده .

تنبيه :

ظاهر قوله تعالى : (على كثير) أن ثمة من لم يفضل البشر عليه . قيل : وهم الذوات المقدسة من الملأ الأعلى . أعني الملائكة .

قال القاشانِيّ : وأما أفضلية بعض الناس ، كالأنبياء على الملائكة المقربين ، فليست من جهة كونهم بني آدم . بل من جهة السر المودع فيهم ، المشار إليه بقوله : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 30] ، وهو ما أعد لذلك البعض من المعرفة الإلهية التامة . وحينئذ ليس هو بهذا الاعتبار من بني آدم كما قيل :

~وإني وإن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهدٌ بأُبُوّتي

وذهب قوم إلى تأويل (الكثير) بـ (الكل) كما أوّل (القليل) بمعنى (العدم) في قوله تعالى : ﴿ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 88] . والمعنى : وفضلناهم على الجم الغفير من خلقنا ، أي : جميع المخلوقات .

(75/461)

قال القاشانِيّ : على أن تكون (من) للبيان والمبالغة في تعظيمه ، بوصف المفضل عليهم بالكثرة وتنكير الوصف وتقديمه على الموصوف . أي : كثير ، وأي كثير ، وهو جميع مخلوقاتنا لدلالة (من) على العموم ، ولا يخفى أنه لا يلزم من تفضيل جنس على جنس آخر تفضيل كل فرد منه على كل فرد من الآخر . والمسألة معروفة في كتب الكلام .

(76/461)

﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ أي : بمن ائتموا به من نَبِيٍّ أو مُقَدَّمٍ في الدين أو كتاب أو دين . فيقال : يا أتباع فلان ! يا أهل دين كذا وكتاب كذا . وقيل : بكتاب أعمالهم ، فيقال : يا أصحاب كتاب الخير ! ويا أصحاب كتاب الشر ! قالوا : وفيه شرف لأصحاب

الحديث ؛ لأن إمامهم النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال القاشانيّ : أي : نحضر كل طائفة من الأمم مع شاهدهم الذي يحضرهم ويتوجهون إليه ويعرفونه ، سواء كان صورة نبي آمنوا به ، أو إمام اقتدوا به ، أو دين أو كتاب ، أو ما شئت . على أن تكون (الباء) بمعنى (مع) . أو ننسبهم إلى إمامهم وندعوهم باسمه ؛ لكونه هو الغالب عليهم وعلى أمرهم ، المستعلي محبتهم إياه على سائر محباتهم .

(77/461)

ورجح ابن كثير ، رحمه الله ، القول بأن الإمام هو كتاب الأعمال ، لقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [يس : 12] ، وقال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف : 49] الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : 28 - 29] . وما رجحه رحمه الله هو الصواب ؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، وأول ما ينبغي الاهتمام به في معاني الآيات ، هو الرجوع إلى نظائرها . وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ ﴾ أي : من هؤلاء المدعوين : ﴿ كِتَابَهُ ﴾ أي : كتاب أعماله : ﴿ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ ﴾ أي : فرحاً وابتهاجاً بما فيه

من العمل الصالح : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ أي : لا ينقصوه من أجورهم قدر فتيل ، وهو ما في شق النواة ، أو ما تفتله بين أصبعيك ، أو هو أدنى شيء ، فإن الفتيل مثل في القلة ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [مريم : 60] .

(78/461)

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أي : ومن كان في هذه الحياة الدنيا أعمى عن الاهتداء إلى الحق ، فهو في الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة ، وأضل سبيلًا منه في الدنيا ؛ لأن له في هذه الحياة آلات وأدوات وأسبابًا يمكنه الاهتداء بها . وهو في مقام الكسب باقي الاستعداد . ولم يبق هناك شيء من ذلك . قيل : العمى حقيقة فيمن لا يدرك المبصرات ؛ لفساد حاسته ، مجازٌ في عمى البصيرة وهو عدم الاهتداء إلى طريق النجاة . وقيل : هو حقيقة فيهما . وعليه جوَّز أن يكون (أعمى) الثاني أفعل تفضيل ؛ لأنه من عمى القلب لا عمى البصر . ويجوز أن يصاغ من العيوب الباطنة أفعل تفضيل كالأحمق والأبله .

لطيفة :

قال الناصر : يحتمل أن تكون هذه الآية قسيمة الأولى . أي : فمن أوتي كتابه بيمينه فهو

الذي يبصره ويقرؤه . ومن كان في الدنيا أعمى غير مبصر في نفسه ، ولا ناظر في معاده ، فهو في الآخرة كذلك ، غير مبصر في كتابه ، بل أعمى عنه ، أو أشد عمى مما كان في الدنيا ، على اختلاف التأويلين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 496. 498 ﴾

(79/461)

وقال الشيخ المراغى :

(وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا) أي ولقد كرمنا بنى آدم بحسن الصورة واعتدال القامة والعقل ، فاهتدى إلى الصناعات ومعرفة اللغات ، وحسن التفكير فى وسائل المعاش ، والتسلط على ما فى الأرض ، وتسخير ما فى العالم العلوي والسفلى ، وحملناهم على الدواب والقطر والطائرات والمطاود (واحدها منطاد) والسفن ، ورزقناهم من الأغذية النباتية والحيوانية ، وفضلناهم على كثير من الخلق بالغلبة والشرف والكرامة ، فعليهم ألا يشركوا بربهم شيئا ، ويرفضوا ما هم عليه من عبادة غيره من الأصنام والأوثان .

والمراد بالكثير من عدا الملائكة عليهم السلام .

والخلاصة - إن فى الآية حثا للإنسان على الشكر ، وألا يشرك بربه أحدا ، لأنه سخّر له ما فى البر والبحر ، وكلأه بحسن رعايته ، وهداه إلى صنعة الفلك لتجرى فى البحر ، ورزقه من الطيبات ، وفضله على كثير من المخلوقات .

(80/461)

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71) ﴾

تفسير المفردات

إمامهم : هو كتابهم فهو كقوله « وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ » والفتيل : الخيط المستطيل فى شقّ النواة ، وبه يضرب المثل فى الشيء الحقير التافه ، ومثله النقير والقطمير ، أعمى : أي أعمى البصيرة عن حجة اللّه وبيناته ، والركون إلى الشيء : الميل إلى ركن منه ، ضعف الحياة : أي عذابا مضاعفا فى الحياة الدنيا ، وضعف الممات : أي عذابا مضاعفا فى الممات فى القبر وبعد البعث ، ونصيرا : أي معينا يدفع عنك العذاب ، لا يلبثون : أي لا يبقون ، خلافك : أي بعدك ، سنة من قد أرسلنا : أي سنتنا بك سنة الرسل قبلك ، تحويلا : أي تغييرا

المعنى الجملي

بعد أن ذكر جل ثناؤه أحوال بنى آدم فى الدنيا ، وذكر أنه أكرمهم على كثير من خلقه ، وفضلهم عليهم تفضيلا - فصّل فى هذه الآيات تفاوت أحوالهم فى الآخرة مع شرح أحوال السعداء ، ثم أردفه ما يجرى مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضلال ، والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر والتلبيس ، ثم قفى على ذلك ببيان أن سنته قد جرت بأن الأمم التي تلجىء رسلها إلى الخروج من أرضها لا بد أن يصيبها الوبال والنكال .

الإيضاح

(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ) أي اذكر لهم ذلك اليوم ، يوم ندعو كل أناس بكتابهم الذي فيه أعمالهم التي قدّموها ، ولا ذكر للأنساب حينئذ لأنها مقطوعة ، فلا يقال يا ابن فلان ، وإنما يقال يا صاحب كذا كما قال تعالى « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » .

(81/461)

والخلاصة : إن المعوّل عليه يومئذ الأعمال والأخلاق ، والآراء والعقائد النفسية التي تغرس فى النفوس لا الأنساب ، لأن الأولى باقية والثانية فانية .

(فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ) أي فمن أعطى كتاب عمله بيمينه فأولئك

يقرءون كتابهم مبتهجين فرحين بما فيه من العمل الصالح .

ونحو الآية قوله « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُا كِتَابِيَهْ » .

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) أي ولا ينقصون شيئا من أجور أعمالهم ، وقد ثبت فى علم الكيمياء أن وزن الذرات التي تدخل فى كل جسم بنسب معينة ، فلو أن ذرة واحدة فى عنصر من العناصر الداخلة فى تركيب أي جسم من النبات أو الحيوان أو الجماد نقصت عن النسبة المقدرة لتكوينه لم يتكون ذلك المخلوق .

وخالق الدنيا هو خالق الآخرة ، فالظلم مستحيل هناك كما استحال هنا فى نظم الطبيعة ، فما أجلّ قدرة اللّه وما أعظم حكمته فى خلقه ! .

(82/461)

(وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا)

أي ومن كان فى دار الدنيا أعمى القلب لا يبصر سبل الرشد ، ولا يتأمل حجج اللّه وبيناته التي وضعها فى صحيفة الكون وأمر بالتأمل فيها - فهو فى الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة ، وأضل سبيلا منه فى الدنيا ، لأن الروح الباقي بعد الموت هو الروح الذي كان فى هذه الحياة الدنيا ، وقد خرج من الجسم وكأنه ولد منه كما تلد المرأة الصبى ، وكما يثمر

النخل الثمر ، والأشجار الفواكه ، وما الثمر والفواكه إلا ما كان من طباع الشجرة ، فهكذا الروح الباقي هو هذا الروح نفسه قد خرج بجميع صفاته وأخلاقه وأعماله ، فهو ينظر إلى نفسه وينفر أو ينشرح بحسب ما يرى ، وما الثمر إلا بحسب الشجر ، فإذا كان هنا ساهيا لا هيا فهناك يكون أكثر سهوا ولهوا وأبعد مدى فى الضلال ، لأن آلات العلم والعمل قد عطّلت ، وبقي فيه مناقبه ومثالبه ، ولا قدرة على الزيادة فى الأولى ولا النقص فى الثانية .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المراغى حـ 15 صـ 78.75 ﴾

(83/461)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾

اعتراض جاء بمناسبة العِبرة والمنة على المشركين ، فاعترض بذكر نعمته على جميع الناس فأشبه التذييل لأنه ذُكر به ما يشمل ما تقدم .

والمراد ببني آدم جميع النوع ، فالأوصاف المثبتة هنا إنما هي أحكام للنوع من حيث هو كما هو شأن الأحكام التي تسند إلى الجماعات .

وقد جمعت الآية خمس مِنن : التكريم ، وتسخير المراكب في البر ، وتسخير المراكب في

البحر ، والرزق من الطيبات ، والتفضيل على كثير من المخلوقات .

فأما منة التكريم فهي مزية خص بها الله بني آدم من بين سائر المخلوقات الأرضية .

والتكريم : جعله كريماً ، أي نفيساً غير مبذول ولا ذليل في صورته ولا في حركة مشيه وفي بشرته ، فإن جميع الحيوان لا يعرف النظافة ولا اللباس ولا ترفيه المضجع والمأكل ولا حسن كيفية تناول الطعام والشراب ولا الاستعداد لما ينفعه ودفع ما يضره ولا شعوره بما في ذاته وعقله من المحاسن فيستزيد منها والقبائح فيسترها ويدفعها ، بله الخلو عن المعارف والصنائع وعن قبول التطور في أساليب حياته وحضارته .

وقد مثل ابن عباس للتكريم بأن الإنسان يأكل بأصابعه ، يريد أنه لا ينتهش الطعام بفمه بل برفعه إلى فيه بيده ولا يكرع في الماء بل يرفعه إلى فيه بيده ، فإن رفع الطعام بمغرفة والشراب بقدح فذلك من زيادة التكريم وهو تناول باليد .

والحمل : الوضع على المركب من الرواحل .

فالراكب محمول على المركوب .

وأصله في ركوب البر ، وذلك بأن سخر لهم الرواحل وألهمهم استعمالها .

وأما الحمل في البحر فهو الحصول في داخل السفينة .

وإطلاق الحمل على ذلك الحصول استعارة من الحمل على الراحلة وشاعت حتى صارت كالحقيقة ، قال تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ﴾ [الحاقة : 11] .

ومعنى حمل الله الناس في البحر : إلهامه إياهم استعمال السفن والقلوع والمجاذيف ، فجعل تيسير ذلك كالحمل .

وأما الرزق من الطيبات فلأن الله تعالى ألهم الإنسان أن يطعَم ما يشاء مما يروق له ، وجعل في الطعوم أمارات على النفع ، وجعل ما يتناوله الإنسان من المطعومات أكثر جداً مما يتناوله غيره من الحيوان الذي لا يأكل إلا أشياء اعتادها ، على أن أقرب الحيوان إلى الإنسية والحضارة أكثرها اتساعاً في تناول الطعوم .

وأما التفضيل على كثير من المخلوقات ، فالمراد به التفضيل المشاهد لأنه موضع الامتنان . وذلك الذي جُماعه تمكين الإنسان من التسلط على جميع المخلوقات الأرضية برأيه وحيلته ، وكفى بذلك تفضيلاً على البقية .

والفرق بين التفضيل والتكريم بالعموم والخصوص ؛ فالتكريم منظور فيه إلى تكريمه في ذاته ، والتفضيل منظور فيه إلى تشريفه فوق غيره ، على أنه فضله بالعقل الذي به استصلاح شؤونه ودفع الأضرار عنه وبأنواع المعارف والعلوم ، هذا هو التفضيل المراد .

وأما نسبة التفاضل بين نوع الإنسان وأنواع من الموجودات الخفية عنا كالملائكة والجن

فليست بمقصودة هنا وإنما تعرف بأدلة توقيفية من قِبل الشريعة .

فلا تفرض هنا مسألة التفضيل بين البشر والملائكة المختلف في تفاصيلها بيننا وبين المعتزلة .

وقد فرضها الزمخشري هنا على عادته من التحكك على أهل السنّة والتعسف لإرغام القرآن على تأييد مذهبه ، وقد تجاوز حد الأدب في هذه المسألة في هذا المقام ، فاستوجب الغضاضة والملام .

ولا شك أن إقحام لفظ كثير ﴿ في قوله تعالى : ﴿ وفضلانهم في كثير ممن خلقنا ﴾ مراد منه التقييد والاحتراز والتعليم الذي لا غرور فيه ، فيعلم منه أن ثَم مخلوقات غير مفضل عليها بنو آدم تكون مساوية أو أفضل إجمالاً أو تفصيلاً ، وتبيينه يُتلقى من الشريعة فيما بينته من ذلك ، وما سكتت فلا نبحث عنه .

(85/461)

والإتيان بالمفعول المطلق في قوله : ﴿ تفضيلاً ﴾ لإفادة ما في التنكير من التعظيم ، أي تفضيلاً كبيراً .

﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ

فَتِيلًا (71) ﴾

انتقال من غرض التهديد بعاجل العذاب في الدنيا الذي في قوله : ﴿ ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر ﴾ إلى قوله : ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾ [الإسراء : 66 69] إلى ذكر حال الناس في الآخرة تبشيراً وإنذاراً ، فالكلام استئناف ابتدائي ، والمناسبة ما علمتَ .

ولا يحسن لفظ (يومَ) للتعلق بما قبله من قوله : ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ [الإسراء : 70] على أن يكون تخلصاً من ذكر التفضيل إلى ذكر اليوم الذي تظهر فيه فوائد التفضيل ، فترجح أنه ابتداء مستأنف استئنافاً ابتدائياً ، ففتحة ﴿ يوم ﴾ إما فتحة إعراب على أنه مفعول به لفعل شائع الحذف في ابتداء العبر القرآنية وهو فعل "اذكر" فيكون ﴿ يوم ﴾ هنا اسمَ زمان مفعولاً للفعل المقدر وليس ظرفاً .

والفاء في قوله : ﴿ فمن أوتي ﴾ للتفريع لأن فعْل (اذكر) المقدر يقتضي أمراً عظيماً مجملاً فوقع تفصيله بذكر الفاء وما بعدها فإن التفصيل يتفرع على الإجمال .

وإما أن تكون فتحته فتحةَ بناء لإضافته اسم الزمان إلى الفعل ، وهو إما في محل رفع بالابتداء ، وخبره جملة ﴿ فمن أوتي كتابه بيمينه ﴾ .

وزيدت الفاء في الخبر على رأي الأخفش ، وقد حكى ابن هشام عن ابن بَرهان أن الفاء تزاد في الخبر عند جميع البصريين ما عدا سيبويه ؛ وإما ظرف لفعل محذوف دل عليه

التقسيم الذي بعده، أعني قوله: ﴿ فمن أوتي كتابه بيمينه ﴾ إلى قوله: ﴿ وأضل سبيلاً ﴾.

وتقدير المحذوف: تتفاوت الناس وتتغابَن.

وبُيِّن تفصيل ذلك المحذوف بالتفريع بقوله: ﴿ فمن أوتي كتابه ﴾ الخ.

والإمام: ما يؤتم به، أي يُعمل على مِثل عمله أو سيرته.

(86/461)

والمراد به هنا مبين الدين: من دين حق للأمم المؤمنة ومن دين كفر وباطل للأمم الضالة.

ومعنى دعاء الناس أن يُدعى يا أمةَ فلان ويا أتباعَ فلان، مثل: يا أمة محمد، يا أمة موسى، يا أمة عيسى، ومثل: يا أمة زرادشت.

ويا أمة برْهَما، ويا أمة بُوذا، ومثل: يا عبدة العزى، يا عبدة بَعل، يا عبدة نَسْر.

والباء لتعدية فعل ﴿ ندعوا ﴾ لأنه يتعدى بالباء، يقال: دعوته بكنيته وتداعَوا بشعارِهم.

وفائدة ندائهم بمتبوعيهم التعجيلُ بالمسرة لاتباع الهُداة وبالمساءة لاتباع الغُواة، لأنهم إذا دُعوا بذلك رأوا متبوعيهم في المقامات المناسبة لهم فعلموا مصيرهم.

وفرع على هذا قوله : ﴿ فمن أوتي كتابه بيمينه ﴾ تفريع التفصيل لما أجمله قوله : ﴿ ندعوا كل أناس بإمامهم ﴾ ، أي ومن الناس من يُؤتى كتابه ، أي كتاب أعماله بيمينه .

وقوله : ﴿ فمن أوتي ﴾ عطف على مقدر يقتضيه قوله : ﴿ ندعوا كل أناس بإمامهم ﴾ أي فيؤتَوْن كتبهم ، أي صحائف أعمالهم .

وإيتاء الكتاب باليمين إلهام صاحبه إلى تناوله باليمين .

وتلك علامة عناية بالمأخوذ ، لأن اليمين يأخذ بها من يعْزم عملاً عظيماً قال تعالى: ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ [الحاقة : 45] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم " من تصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيباً تلقاها الرحمان بيَمينه وكلتَا يديْه يَمين . . .

" الخ ، وقال الشمّاخ :

إذا ما رايةٌ رفعت لمجد

تلقاها عَرابة باليمين . . .

وأما أهل الشقاوة فيؤتَون كتبهم بشمائلهم ، كما في آية [الحاقة : 25] ﴿ وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ﴾

والإتيان باسم الإشارة بعد فاء جواب (أما) ، للتنبيه على أنهم دون غيرهم يقرؤون كتابهم ، لأن في اطلاعهم على ما فيه من فعل الخَير والجزاء عليْه مسرة لهم ونعيماً بتذكر ومعرفة ثوابه ، وذلك شأن كل صحيفة تشتمل على ما يسر وعلى تذكر الأعمال الصالحة ، كما يطالع المرء أخبار سلامة أحبائه وأصدقائه ورفاهة حالهم ، فتوفرُ الرغبة في قراءة أمثال هذه الكتب شنشنة معروفة .

وأما الفريق الآخر فسكت عن قراءة كتابهم هنا .

وورد في الآية التي قبلها في هذه السورة ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ [الإسراء : 1413] .

والظلم مستعمل هنا بمعنى النقص كما في قوله تعالى : ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ﴾ [الكهف : 33] ، لأن غالب الظلم يكون بانتزاع بعض ما عند المظلوم فلزمه النقصان فأطلق عليه مجازاً مرسلاً .

ويفهم من هذا أن ما يعطاه من الجزاء مما يرغب الناس في ازدياده .

والفتيل : شبه الخَيط تكون في شق النواة وتقدم في قوله تعالى : ﴿ بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا ﴾ في سورة [النساء : 49] ، وهو مثَل للشيء الحقير التافه ، أي لا

ينقصون شيئاً ولو قليلاً جداً .

وعطف ﴿ ومن كان في هذه أعمى ﴾ عطف القسيم على قسيمه فهو من حَيز "أما" التفصيلية ، والتقدير : وأما من كان في هذه أعمى ، ولما كان القسيم المعطوف عليه هم من أوتوا كتابهم باليمين علم أن المعطوف بضد ذلك يؤتى كتابه بالشمال فاستغني عن ذكر ذلك وأتي له بصلة أخرى وهي كونه أعمى حكماً آخر من أحواله الفظيعة في ذلك اليوم .

والإشارة بـ ﴿ هذه ﴾ إلى معلوم من المقام وهو الدنيا ، وله نظائر في القرآن .

والمراد بالعمى في الدنيا الضلالة في الدين ، أطلق عليها العمى على وجه الاستعارة .

(88/461)

والمراد بالعمى في الآخرة ما ينشأ عن العمى من الحيرة واضطراب البال ، فالأعْمَى أيضاً مستعار لمشابه الأعمى بإحدى العلاقتين .

ووصف ﴿ أعمى ﴾ في المرتين مراد به مجرد الوصف لا التفضيل .

ولما كان وجه الشبه في أحوال الكافر في الآخرة أقوى منه في حاله في الدنيا أشير إلى شدة تلك الحالة بقوله : ﴿ وأضل سبيلاً ﴾ القائم مقام صيغة التفضيل في العمَى لكون وصف (أعمى) غير قابل لأن يصاغ بصيغة التفضيل لأنه جاء بصيغة التفضيل في حال الوصف .

وعدل عن لفظ (أشد) ونحوه ما يتوسل به إلى التفضيل عند تعذر اشتقاق صيغة (أفعل) ليتأتى ذكر السبيل ، لما في الضلال عن السبيل من تمثيل حال العمى وإيضاحه ، لأن ضلال فاقد البصر عن الطريق في حال السير أشد وقعاً في الأضرار منه وهو قابع بمكانه ، فعدل عن اللفظ الوجيز إلى التركيب المطنب لما في الإطناب من تمثيل الحال وإيضاحه وإفظاعه وهو إطناب بديع .

وقد أفيد بذلك أن عماه في الدارين عمى ضلال عن السبيل الموصل .

ومعنى المفاضلة راجع إلى مفاضلة إحدى حالتيه على الأخرى في الضلال وأثره لا إلى حال غيره .

فالمعنى : وأضل سبيلا منه في الدنيا .

ووجه كون ضلاله في الآخرة أشد أن ضلاله في الدنيا كان في مكنته أن ينجو منه بطلب ما يرشده إلى السبيل الموصل من هدي الرسول والقرآن مع كونه خلياً عن لحاق الألم به ، وأما ضلاله في الآخرة فهو ضلال لا خلاصَ منه وهو مقارن للعذاب الدائم ، فلا جرم كان ضلاله في الآخرة أدخل في حقيقة الضلال وماهيته . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ .

قال بعض اهل العلم : من تكريمه لبني آدم خلقه لهم على أكمل الهيئات وأحسنها . فإن الإنسان يمشي قائماً منتصباً على رجليه ، ويأكل بيديه . وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ، ويأكل بفمه .

ومما يدل لهذا من القرآن قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] ، وقوله : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر : 64] وفي الآية كلام غير هذا .

والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البر والبحر ﴾ الآية . اي في البر على الأنعام ، وفي البحر على السفن .

والآيات الموضحة لذلك كثيرة جداً . كقوله : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفلك تُحْمَلُونَ ﴾ [المؤمنون : 22] ، وقوله : ﴿ والذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [الزخرف : 12] وقد قدمنا هذا مستوفى بإيضاح " في سورة النحل " .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ .

قال بعض العلماء : المراد " بإمامهم " هنا كتاب أعمالهم .

ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : 12] ، وقوله : ﴿ وترى كل أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أمَّةٍ تدعى إلى كِتَابِهَا اليوم تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تعْمَلونَ ﴾ [الجاثية : 28] . وقوله : ﴿ ووُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف : 49] الآية ، وقوله : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ﴾ [الإسراء : 13] واختار هذا القول ابن كثير . لدلالة آية " يس " المذكورة عليه . وهذا القول رواية عن ابن عباس ذكرها ابن جرير وغيره ، وعزاه ابن كثير لابن عباس وأبي العالية والضحاك والحسن . وعن قتادة ومجاهد : أن المراد " بإمامهم " نبيهم . ويدل لهذا القول قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس : 47] ، ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً ﴾ وقوله : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً على هؤلاءآء ﴾ [النحل : 89] الآية ، وقوله : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكتاب وَجِيءَ بالنبيين والشهدآء ﴾ [الزمر : 69] الآية .

قال بعض السلف : وفي هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث . لأن إمامهم النبي صلى الله

عليه وسلم.

وقال بعض أهل العلم: ﴿ بِإِمَامِهِمْ ﴾ أي بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع. وممن قال به: ابن زيد، واختاره ابن جرير.

(91/461)

وقال بعض أهل العلم: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ أي ندعو كل قوم بمن يأتمون به. فأهل الإيمان أئمتهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. وأهل الكفر أئمتهم سادتهم وكبراؤهم من رؤساء الكفرة. كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ [القصص: 41] الآية. وهذا الأخير أظهر الأقوال عندي. والعلم عند الله تعالى.

فقد رأيت أقوال العلماء في هذه الآية، وما يشهد لها من قرآن. وقوله بعد هذا: ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ من القرائن الدالة على ترجيح ما اختاره ابن كثير من أن الإمام في هذه الآية كتاب الأعمال.

وذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الذين يؤتون كتابهم بأيمانهم يقرؤونه ولا يظلمونه فتيلاً.

وقد أوضح هذا في مواضع أخر، كقوله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا

كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: 19] - إلى قوله - ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: 25] وقد قدمنا هذا مستوفى في أول هذه السورة الكريمة.

وقول من قال: إن المراد "بإمامهم" أي يقال: يا فلان بن فلانة - قول باطل بلا شك. وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر مرفوعاً: "يرفع يوم القيامة لكل غادر لواء فيقال هذه غدرة فلان بن فلان".

قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هذه أعمى فَهُوَ فِي الآخرة أعمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾

(92/461)

المراد بالعمى في هذه الآية الكريمة: عمى القلب لا عمى العين. ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور ﴾ [الحج: 46] لأن عمى العين مع إبصار القلب لا يضر، بخلاف العكس. فإن أعمى العين يتذكر فتنفعه الذكرى ببصيرة قلبه، قال تعالى: ﴿ عَبَسَ وتولى أَن جَآءَهُ الأعمى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذكرى ﴾ [عبس: 1-4].

إذا بصر القلب المروءة والتقى . . . فإن عمى العينين ليس يضير

وقال ابن عباس رضي الله عنه عنهما لما عمي في آخر عمره - كما روي عنه من وجوه -

كما ذكره بن عبد البر وغيرة :

إن يأخذ الله من عيني نورهما . . . ففي لساني وقلبي منهما نور

قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل . . . ففي فمي صارم كالسيف مأثور

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَهُوَ فِي الآخرة أعمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ قال بعض أهل العلم : ليس الصيغة صيغة تفضيل ، بل المعنى فهو في الآخرة أعمى كذلك لا يهتدي إلى نفع .

وبهذا جزم الزمخشري .

قال مقيده عفا الله عنه : الذي يتبادر إلى الذهن إن لفظة " أعمى " الثانية صيغة تفضيل .

أي هو اشد عمى في الآخرة .

ويدل عليه قوله بعده ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ فإنها صيغة تفضيل بلا نزاع . والمقرر في علم العربية : أن صيغتي التعجب وصيغة التفضيل لا يأتيان من فعل الوصف منه على أفعل الذي أنثاه فعلاء . كما أشار له في الخلاصة بقوله :

وغير ذي وصف يضاهي أشهلا . . . والظاهر أن ما وجد في كلام العرب مصوغاً من صيغة تفضيل أو تعجب غير مستوف للشروط – أنه يحفظ ولا يقاس عليه . كما أشار له في الخصلاة بقوله :

وبالندور احكم لغير ما ذكر . . . ولا تقس على الذي منه أثر

ومن أمثلة ذلك قوله :

ما في المعالي لكم ظل ولا ثمر . . . وفي المخازي لكم أشباح أشياخ

أما الملوك فأنت اليوم ألأمهم . . . لؤماً وأبيضهم سربال طباخ

(93/461)

وقال بعض العلماء : إن قوله في هذا البيت " وأبيضهم سربال طباخ " ليس صيغة تفضيل . بل المعنى أنت وحدك الأبيض سربال طباخ من بينهم . انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(94/461)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

وهل هناك تكريم لبني آدم أعظم من أنْ يُعدّ لهم مُقوّمات حياتهم قبل أنْ يخلقهم ؟ لقد رتَّب لهم الكون وخلق من أجلهم الأشياء ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً . .

﴾ [البقرة: 29]

إذن: فكل ما في الوجود مُسخَّر لكم من قبل أنْ تُوجَدوا ؛ لأن خلق الله تعالى إما خادم وإما مخدوم ، وأنت أيُّها الإنسان مخدوم من كل أجناس الكون حتى من الملائكة ، ألم يَقُلْ الحق سبحانه: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . . ﴾ [الرعد: 11]

وقال تعالى: ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ﴾ [النازعات: 5]

فالكون كله يدور من أجلك وفي خدمتك ، يعطيك عطاءً دائماً لا ينقطع دون سَعْي منك ، لذلك نقول: كان من الواجب على العقل المجرد أنْ يقفَ وقفه تأمُّل وتفكُّر ؛ ليصل إلى حَلٍّ للغز الكون ، وليهتدي إلى أن له خالقاً مُبْدعاً ، يكفي أن أنظر إلى آيات الله التي تخدمني ، وليس له قدرة عليها ، وليست تحت سيطرتي ، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والهواء والماء والمطر والسحاب كلها تعطيني وتُمدّني دون قدرة لي عليها ، أليس من الواجب عليك عدلاً أن تقول: مَنِ الذي أعدّ لي كلَّ هذه الأشياء التي ما ادَّعاهَا أحد لنفسه؟

فإذا ما صاح صائح منك أيُّها الإنسان وقال: أنا رسول من الرب الذي خلق لكم كل هذه المخلوقات ، كان يجب عليكم أنْ تُرهِفُوا له السمع لتسمعوا ما جاء به ؛ لأنه سوف يحلُّ لكم هذا اللغز الذي حيّركم .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك بالرجل الذي انقطعتْ به السُّبل في الصحراء حتى أشرف

على الهلاك، فإذا هو بمائدة مُعدَّة بأطايب الطعام والشراب، أليس حَرِياً به قبل أنْ تمتد يده إليها أنْ يفكر كيف أتتْه؟

(95/461)

إذن: كان على الإنسان أن يُعمل عقله وفِكْره في معطيات الكون التي تخدمه وتسخر من أجله، وهي لا تأتمر بأمره ولا تخضع لقدرته.

ولقد اختلف العلماء في بيان أَوْجُه التكريم في الإنسان، فمنهم مَنْ قال: كُرِّمَ بالعقل، وآخر قال: كُرِّمَ بالتمييز، وآخر قال: كُرِّمَ بالاختيار، ومنهم مَنْ قال: كُرِّمَ الإنسان بأنه يسير مرفوع القامة لا منحنياً إلى الأرض كالبهائم، ومنهم مَنْ يرى أنه كُرِّمَ بشكل الأصابع وتناسقها في شكل بديع يسمح لها بالحركة السلسة في تناول الأشياء، ومنهم مَنْ يرى أنه كُرِّم بأن يأكلَ بيده لا بفمه كالحيوان. وهكذا كان لكل واحد منهم مَلْحظ في التكريم.

ولنا في مسألة التكريم هذه ملحظ كنت أودُّ أنْ يلتفت إليه العلماء، ألاَ وهو: أن الحق سبحانه خلق الكون كله بكلمة (كُنْ) إلا آدم، فقد خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه، قال تعالى: ﴿ يا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: 75]

وقال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: 29]

فقمة الفضل والتكريم أن خلق الله تعالى أبنا آدم بيده، بدليل أن الله جعلها حيثية له.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ. . . ﴾.

(96/461)

أي: يوم القيامة، والداعي هو المنادي، والناس هم المدعوون، والنداء على الناس في هذا اليوم لا يكون بفلان بن فلان، بل ينادي القوم بإمامهم أي: برسولهم، فيقال: يا أمة محمد، يا أمة عيسى، يا أمة موسى، يا أمة إبراهيم.

ثم يُفصّل هذا الإجمال، فتُنادى كل جماعة بمَنْ بلَّغهم وهداهم ودلَّهم ليُغري الناس بنقل الفضل العلمي من أنفسهم إلى غيرهم.

وقال بعضهم ﴿ بِإِمَامِهِمْ ﴾ أي: بأمهاتهم، وفي دعاء الناس بأمهاتهم في هذا الموقف تكريم لعيسى عليه السلام أولاً، وستْر على أولاد الإثم ثانياً، حتى لا يُفضحوا على رؤوس الأشهاد في مثل هذا الموقف.

ثم يقول تعالى: ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَائِكَ يَقْرَؤونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾

[الإسراء: 71]

فكوْنه أخذ كتابه بيمينه، فهذه بشارة الخير وبداية السلامة، فإذا به يسارع إلى قراءته، بل

ويتباهى به بين الناس قائلاً: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: 19] إنه مسرور بعمله الصالح الذي يحب أنْ يطلع عليه الناس، وقوله تعالى: ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [الإسراء: 71]

الظلم أنْ تأخذ من خير غيرك مما ليس عندك، إذن: فعندك نقص في شيء تريد أنْ تحصل عليه ظلماً، إذن: فماذا ينقص الحق سبحانه وتعالى حتى يظلم الخَلْق؟! إن الخلق يتصفون بالظلم؛ لأن الإنسان عادةً لا يرضى بما قسم الله له؛ لذلك يشعر بالنقص فيظلم غيره، أما الله عز وجل فهو الغني عن الخَلْق، فكيف يظلمهم؟ وهم جميعاً بما يملكون هِبة منه سبحانه.

ومعنى ﴿ فَتِيلاً ﴾ عادةً يضرب الحق سبحانه وتعالى الأمثال في القرآن بالمألوف عند العرب وفي بيئتهم، ومن مألوفات العرب التمر، وهو غذاؤهم المفضّل والعَلَف لماشيتهم، ومن التمر أخذ القرآن النقير والقطمير والفتيل، وهي ثلاثة أشياء تجدها في نواة الثمرة، وقد استخدمها القرآن في تمثيل الشيء الضئيل القليل.

فالنقير: هو تجويف صغير في ظهر النواة مثل النقطة.

والقطمير: هو اللفافة الرقيقة الشفافة بين الثمرة والنواة.

والفتيل: هو غلالة رقيقة تشبه الخيط في بطن النواة.

فمعنى: ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [الإسراء: 71] أي: أنه سبحانه وتعالى لا يظلم الناس أبداً، فهو سبحانه مُنزَّه عن الظلم مهما تناهى في الصِّغَر.

وفي مقابل مَنْ أوتي كتابه بيمينه لم تذكر الآية مَنْ أُوتي كتابه بشماله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: 25]

وفي آية أخرى قال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ ﴾ [الانشقاق: 10]

أما هنا فقال الحق سبحانه: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَاذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى . . . ﴾.

(98/461)

وهذا هو المقابل لمن أخذ كتابه بيمينه؛ لأنه عميتْ بصيرته في الدنيا فعمى في الآخرة، وطالما هو كذلك فلا شكَّ أنه من أهل الشمال، فالآيات ذكرتْ مرة السبب، وذكرتْ مرة المسبَّب، ليلتقي السبب والمسبب، وهو ما يعرف باسم [الاحتباك] البلاغي.

فكأن الحق سبحانه قال: إن مَنْ أُوتِي كتابه بيمينه وقرأه وتباهى به لم يكُنْ أعمى في دنياه،

بل كان بصيراً واعياً ، فاهتدى إلى منهج الله وسار عليه ، فكانت هذه نهايته وهذا جزاءه .

أما مَنْ أوتي كتابه بشماله فقد كان أعمى في الدنيا عمى بصيرة لا عمى بصر ؛ لأن عمى البصر حجب الأداة الباصرة عن إدراك المرائي ، والكافرون في الدنيا كانوا مُبصرين للمرائي من حولهم . مُدركين لماديات الحياة ، أما بصيرتهم فقد طُمِس عليها فلا ترى خيراً ، ولا تهتدي إلى صلاح .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان لكي يسير في رحلة الحياة على هدى لا بُدَّ له من بصر يرى به المرائي المادية ، حتى لا يصطدم بأقوى منه فيتحطم أو بأضعف منه فيحطمه ، والبصر للمؤمن والكافر من عطاء الربوبية للإنسان . لكن إلى جانب البصر هناك عطاء آخر هو ثمرة من ثمار عطاء الألوهية الذي لا يكون إلا للمؤمن ، ألا وهو البصيرة ، بصيرة القيم التي يكتسبها الإنسان من منهج الله الذي آمن به وسار على هَدْيه .

وقوله: ﴿ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلا ﴾ [الإسراء: 72]

إنْ كان عماه في الدنيا عمى بصيرة ، فَعَماه في الآخرة عمى بصر ؛ لأن البصيرة مطلوبة منه في الدنيا فقط ؛ لأن بها سيُعرف الخير من الشر ، وعليها يترتب العمل ، وليست الآخرة مجال عمل ، إذن: العمى في الآخرة عمى البصر ، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ

فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾[طه: 123-124]

(99/461)

وقال عنهم في آية أخرى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا . . ﴾[الإسراء: 97]

لكن قد يقول قائل: هناك آيات أخرى تثبت لهم الرؤية في الآخرة، مثل قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ . . ﴾[مريم: 75]

وقوله تعالى: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا . . ﴾[الكهف: 53]

وللجمع بين هذه الآيات وللتوفيق بينها نقول: للكفار يوم القيامة في مجال الرؤية البصرية حالتان: الأولى عند القيام وهَوْل المحشر يكونون عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً لتزداد حَيْرتهم ويشتد بهم الفزع حيث هم في هذا الكرب الشديد، ولكن لا يعرف ما يحدث ولا أين المهرب، ولا يستمعون من أحد كلمة، وهكذا هم في كَرْب وحَيْرة لا يدرون شيئاً. وهذه حالة العمي البصري عندهم.

أما الحالة الثانية وهي الرؤية، فتكون عندما يتجلى الحق تبارك وتعالى لأهل الموقف

ويكشف الغطاء عن نفسه سبحانه، فهنا يصير الكافر حَادّ البصر، ليرى مكانه من النار.

ولا بُدّ لنا هنا أن نلحظ أن ألفاظ اللغة قد يكون اللفظ واحداً ولكن يختلف السياق، ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَاذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: 72]

فلفظ ﴿ أَعْمَى ﴾ واحد، لكن في الآخرة قال ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ إذن: لا بُدّ أن عمى الدنيا أقلّ من عمى الآخرة، كما تقول: هذا خير. فمقابل خير: شر. أما لو قلت: هذا خَيْر من هذا فقد فضّلتَ الأول في الخيرية عن الثاني، إذن: كلمة خير إما أنْ تأتي وَصْفاً، وإما أن تأتي تفضيلاً.

ومن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " المؤمن القوي خَيْرٌ وأحَبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كُلٍّ خير".

فالمراد أن المؤمن القوي أكثر في الخيرية. إذن: فكلمة: ﴿ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىا . . ﴾ [الإسراء: 72] ليست وَصْفاً، وإنما تفضيل لعمى الآخرة على عمى الدنيا، أي أنه في

الآخرة أشدّ عمىً .

وقوله تعالى: ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: 72] ومعلوم أنه كان ضالاً في الدنيا ،

فكيف يكون أضلّ في الآخرة ؟

قالوا: لأن ضلاله في الدنيا كان يمكن تداركه بالرجوع إلى المنهج والعودة إلى الطريق السَّويّ ،

أما في الآخرة فضلاله لا يمكن تداركه ، فقد انتهى وقت الاختيار ، إذن: فضلالهُ في الآخرة

أشدّ وأعظمُ من ضلاله في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(101/461)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70) ﴾

أخرج الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان والخطيب في تاريخه ، عن عبد الله بن عمر

رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من شيء أكرم على الله

من بني آدم يوم القيامة . قيل : يا رسول الله ، ولا الملائكة المقربون ؟ ! . . قال : ولا

الملائكة . . . الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر " .

وأخرجه البيهقي من وجه آخر عن ابن عمر رضي الله عنهما موقوفاً وقال : هو الصحيح .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : المؤمن أكرم على الله من ملائكته .

وأخرج الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الملائكة قالت : يا رب ، أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو ، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة . قال : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان " .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم مثله .

وأخرج ابن عساكر من طريق عروة بن رويم قال : حدثني أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الملائكة قالوا : ربنا خلقتنا وخلقت بني آدم . . . فجعلتهم يأكلون الطعام ويشربون الشراب ويلبسون الثياب ويأتون النساء ويركبون الدواب وينامون ويستريحون ، ولم تجعل لنا من ذلك شيئاً . . . فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة . فقال الله : لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان " .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عروة بن رويم مرسلاً .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات من طريق عروة بن رويم الأنصاري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة: يا رب، خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة، فقال الله تعالى: لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان ".

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات من وجه آخر، عن عروة بن رويم اللخمي، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فذكر نحوه إلا أنه قال: " ويركبون الخيل " ولم يذكر ونفخت فيه من روحي.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان من طرق، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ قال: جعلناهم يأكلون بأيديهم، وسائر الخلق يأكلون بأفواههم.

وأخرج الحاكم في التاريخ والديلمي، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ قال:

" الكرامة، الأكل بالأصابع ".

وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر رضي الله عنه قال : ما من رجل يرى مبتلى فيقول : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به ، وفضلني عليك وعلى كثير من خلقه تفضيلاً ، إلا عافاه الله من ذلك البلاء كائناً ما كان .

وأخرج أبو نعيم والبيهقي في الدلائل ، عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله خلق السموات سبعاً فاختار العليا منها ، فأسكنها من شاء من خلقه ، ثم خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم ، واختار من بني آدم العرب واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشاً واختار من قريش بني هاشم ، واختارني من بني هاشم ، فأنا من خيار الأخيار " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ يوم ندعو كل أُناس بإمامهم ﴾ قال : إمام هدى وإمام ضلالة .

(103/461)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والخطيب في تاريخه ، عن أنس رضي الله عنه في قوله : ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ قال : بنبيهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه مثله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ قال : بكتاب أعمالهم .

وأخرج ابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ قال : يدعى كل قوم بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم " .

وأخرج الترمذي وحسنه والبزار وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ قال : " يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ، ويُمَدّ لَهُ في جسمه ستين ذراعاً ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من نور يتلألأ ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون : اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول : أبشروا . . . لكل رجل منكم مثل هذا .

وأما الكافر ، فيسوّد له وجهه ويُمَدّ له في جسمه ستين ذراعاً على صورة آدم ، ويلبس تاجاً من نار فيراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من شر هذا . . . اللهم لا تأتنا بهذا . قال فيأتيهم . فيقول : ربنا أخّرْه فيقول : ابعدكم الله ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا " .

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسأله رجل : أرأيت قوله تعالى : ﴿ ومن كان في هذه أعمى .

. . فهو في الآخرة أعمى ﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : لم تصب المسألة ، اقرأ ما قبلها ﴿ ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر ﴾ حتى بلغ ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : فمن كان أعمى عن هذا النعيم الذي قَدْ رَأَى وعايَنَ ، فهو في أمر الآخرة التي لم تُرَ ولَمْ تعاين ﴿ أعمى وأضل سبيلاً ﴾ .

(104/461)

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ومن كان ﴾ في الدنيا ﴿ أعمى ﴾ عما يرى من قدرتي من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والدواب وأشباه هذا ﴿ فهو ﴾ عما وصفت له في الآخرة ولم يره ﴿ أعمى وأضل سبيلاً ﴾ يقول : أبعد حجة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس : من عمي عن قدرة الله في الدنيا فهو في الآخرة أعمى .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن قتادة في الآية قال : من عمي عما يراه من الشمس والقمر والليل والنهار وما يرى من الآيات ولم يصدق بها ، فهو عما غاب عنه من آيات الله أعمى وأضل سبيلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ : عَدَّاه بالتضعيفِ ، وهو مِنْ كَرُم بالضمِّ كشَرُف ، وليس المرادُ من الكرمِ في المال .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ ﴾ :

فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه منصوبٌ على الظرف ، والعامل " فَضَّلْناهم " ، أي : فَضَّلْناهم بالثوابِ يوم نَدْعُو . قال ابن عطية في تقريره : " وذلك أنَّ فَضْلَ البشرِ على سائرِ الحيوان يوم القيامةِ بيِّنٌ ؛ إذ هم المكلَّفون المُنَعَّمون المحاسَبون الذين لهم القَدْرُ . إلا أنَّ هذا يَرُدُّه أن الكفار [يومئذٍ] أَخْسَرُ مِنْ كلِّ حيوان ، لقولِهم : ﴿ ياليتني كُنتُ تُرَاباً ﴾ [النبأ : 40] .

الثاني : أنه منصوبٌ على الظرف ، والعاملُ فيه اذكر ، قاله الحوفيُّ وابنُ عطية . قلت : وهذا سهوٌ ؛ كيف يعمل فيه ظرفاً ؟ بل هو مفعولٌ .

الثالث : أنه مرفوعُ المحلِّ على الابتداء ، وإنما بُنِيَ لإِضافتِه إلى الجملةِ الفعلية ، والخبرُ الجملةُ

بعده . قال ابن عطية في تقريره : " ويصحُّ أن يكون " يوم " منصوباً على البناء لَمَّا أُضيف إلى غيرِ متمكّن ، ويكون موضعُه رفعاً بالابتداء ، وخبرُه في التقسيم الذي أتى بعدَه في قوله ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ ﴾ إلى قوله ﴿ وَمَن كَانَ ﴾ . قال الشيخ : " قوله منصوبٌ على البناء " كان ينبغي أن يقول : مبنيّاً على الفتح ، وقوله " لَمَّا أُضيف إلى غيرِ متمكن " ليس بجيدٍ ؛ لأنَّ المتمكِّنَ وغيرَ المتمكِّنِ إنما يكون في الأسماءِ لا في الأفعالِ ، وهذا أُضيفَ إلى فعلٍ مضارع ، ومذهبُ البصريين فيه أنه معربٌ ، والكوفيون يُجيزون بناءَه . وقوله : " والخبرُ في التقسيم " إلى آخره ، التقسيم عارٍ من رابطٍ يربط جملةَ التقسيم بالابتداء " . قلت : الرابطُ محذوفٌ للعلمِ به ، أي : فَمَنْ أُوتي كتابَه فيه .

(106/461)

الرابع : أنه منصوبٌ بقولِه " ثم لا تجدوا " قاله الزجّاج . الخامس : أنه منصوبٌ ب " يُعيدكم " مضمرةً ، أي : يُعيدكم يومَ نَدْعو . السادس : أنه منصوبٌ بما دلَّ عليه ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ ﴾ بعده ، أي : ولا يُظْلَمون يوم ندعو ، قاله ابن عطية وأبو البقاء . السابع : أنه منصوبٌ بما دلَّ عليه ﴿ متى هُوَ ﴾ [الإسراء : 51] . الثامن : أنه منصوبٌ بما تقدَّمه مِنْ قوله تعالى : ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 52] . التاسع : أنه بدلٌ مِنْ ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾

[الإِسراء : 52] . وهذان القولان ضعيفان جداً لكثرة الفواصل . العاشر : أنه مفعولٌ به بإضمار " اذكر " ، وهذا –وإن كان أسهلَ التقاديرِ– أظهرُ مِمَّا تقدم؛ إذ لا بُعْدَ فيه ولا إضمارَ كثيرٌ .

وقرأ العامَّة " نَدْعو " بنون العظمة ، ومجاهدٌ " يَدْعُو " بياء الغيبة ، أي : الله تعالى أو المَلَك . و " كلَّ " نصبٌ مفعولاً به على القراءتين .

وقرأ الحسن فيما نقله الدانيُّ عنه " يُدْعَى " مبنياً للمفعول ، " كلُّ " مرفوعٌ لقيامِه الفاعلِ ، وفيما نقله عنه غيرُه " يُدْعَو " بضمِّ الياء وفتح العين ، بعدها واوٌ . وخُرِّجَتْ على وجهين ، أحدُهما : أن الأصلَ : يُدْعَوْن فحُذِفت نونُ الرفعِ كما حُذِفَتْ في قولِه عليه السلام : " لا تَدْخُلوا الجنة حتى تُؤْمنوا ، ولا تُؤْمنوا حتى تحابُّوا "

وقوله :

3088- أَبِيْتُ أَسْرِي وتَبِيْتي تَدْلُكِي . . . وَجْهَكِ بالعَنْبَرِ والمِسْكِ الذَّكي

و " كلٌّ " مرفوعٌ بالبدلِ من الواوِ التي هي ضميرٌ ، أو بالفاعليةِ والواوُ علامةٌ على لغةِ " يتعاقبون فيكمْ ملائكةٌ " .

والتخريجُ الثاني : أنَّ الأصلَ " يُدْعَى " كما نَقَلَه عنه الدانيُّ ، إلا أنه قَلَبَ الألفَ واواً وَقْفاً ، وهي لغةُ لقومٍ ، يقولون : هذه أفْعَوْ وعَصَوْ ، يريدون : أَفْعى وعَصا ، ثم أجرى الوصلَ مُجْرى الوقفِ . و " كلٌّ " مرفوعٌ لقيامِه مقامَ الفاعلِ على هذا ليس إلا .

قوله : " بإمامِهم " يجوزُ أَنْ تكونَ الباءُ متعلقةً بالدعاء ، أي : باسمِ إمامهم ، وأن تكونَ للحالِ فيتعلَّقَ بمحذوف ، أي : نَدْعُوهم مصاحبين لكتابهم . والإِمام : مَنْ يُقْتَدَى به .

وقال الزمخشري " " ومن بِدَعِ التفاسير : أن الإِمامَ جمع " أُمّ " وأنَّ الناسَ يُدْعَوْنَ يومَ القيامة بأمهاتهم دونَ آبائهم ، وأن الحكمةَ فيه رِعايةُ حقِّ عيسى ، وإظهارِ شرفِ الحسن والحسين ، وأن لا يُفْضَحَ أولادُ الزِنى " قال : " وليت شعري أيهما أَبْدَعُ : أصحةُ لفظِه أم بَهاءُ معناه ؟ " .

قلت : وهو معذورٌ لأن " أُمّ " لا يُجْمع على " إمام " ، وهذا قولُ مَنْ لا يَعْرف الصناعةَ ولا لغةَ العربِ ، وأمَّا ما ذكروه من المعنى فإنَّ الله تعالى نادى عيسى باسمِه مضافاً لأمِّه في عدةِ مواضعَ من قوله ﴿ يا عيسى ابن مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : 110] ، وأَخْبر عنه كذلك نحو : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ [الصف : 6] ، وفي ذلك غَضاضةٌ من أميرِ المؤمنين عليّ رضي الله عنه وكرّم وجهَه .

قوله : ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ ﴾ يجوز أن تكونَ شرطيةً ، وأن تكونَ موصولةً ، والفاءُ لشَبَهِه بالشرط . وحُمِل على اللفظِ أولاً في قوله ﴿ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ فَأُفْرِد ، وعلى المعنى

ثانياً في قوله : " فأولئك " فَجُمع .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هذه ﴾ :

(108/461)

يجوز في " مَنْ " ما جاز في " مَنْ " قبلها . وأمال الأخوان وأبو بكر " أعمى " في الموضعين من هذه السورة ، وأبو عمروٍ أمال الأولَ دون الثاني ، والباقون فتحوهما ، فالإِمالة لكونِهما من ذوات الياء ، والتفخيمُ لأنه الأصل . وأمَّا أبو عمروٍ فإنه أمال الأول لأنه ليس أفعلَ تفضيلٍ فألفُه متطرفةٌ لفظاً وتقديراً ، والأطرافُ محلُّ التغيير غالباً ، وأمَّا الثاني فإنه للتفضيلِ ولذلك عَطَف عليه " وأَضَلَّ " فألفُه في حكم المتوسطة ؛ لأنَّ " مِنْ " الجارَّةَ للمفضول كالملفوظ بها ، وهي شديدةُ الاتصالِ بأَفْعَلِ التفضيلِ فكأنَّ وقعت حَشْواً فتحصَّنَتْ عن التغيير .

قلت : كذا قرَّره الفارسيُّ والزمخشري ، وقد رُدَّ هذا بأنهم أمالوا ﴿ وَلاَ أدنى مِن ذَلِكَ ﴾ [المجادلة : 7] مع التصريح ب " مِنْ " فلأَنْ يُميلوا " أَعْمى " مقدَّراً معه " مِن " أَوْلَى وأَحْرَى .

وأمَّا " أَعْمى " في طه فأماله الأخوان وأبو عمرو ، ولم يُمِلْه أبو بكر ، وإن كان يُمليه هنا ، وكأنه جَمَعَ بين الأمرين وهو مقيَّدٌ باتِّباع الأثر . وقد فَرَّق بعضُهم : بأنَّ " أعمى " فيه طه مِنْ

عَمَى البصرِ ، وفي الإِسراءِ مِنْ عَمَى البصيرة؛ ولذلك فسَّروه هنا بالجَهْل فأُمِيلَ هنا ، ولم يُمَلْ هناك للفرقِ بين المعنيين . قلت : والسؤال باقٍ ؛ /إذ لقائلٍ أن يقولَ : فَلِمَ خُصِّصَتْ هذه بالإِمالةِ ، ولو عُكِسَ الأمرُ كان الفارقُ قائماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 387. 390﴾

(109/461)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

المراد من قوله : ﴿ بَنِى ءَادَمَ ﴾ هنا المؤمنون لأنه قال في صفة الكفار : ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج : 18] والتكريم التكثير من الإكرام ، فإذا حَرَمَ الكافرَ الإكرامَ . . . فمتى يكون له التكريم ؟

ويقال إنما قال : ﴿ كَرَّمْنَا بَنِى ءَادَمَ ﴾ ولم يقل المؤمنين أو العابدين أو أصحاب الاجتهاد توضيحاً بأن التكريم لا يكون مقابل فِعْلٍ ، أو مُعَلَّلاً بِعلةٍ ، أو مُسَبّباً باستحقاقٍ يوجب ذلك التكريم .

ومن التكريم أ ، هم متى شاءوا وقفوا معه على بساط المناجاة .

ومن التكريم أنه على أي وصف كان من الطهارة وغيرها إذا أراد أن يخاطبه خاطَبَه ، وإذا أراد أن يسأل شيئاً سأله .

ومن التكريم أنه إذا تاب ثم نقض توبته ثم تاب يقبل توبته ، فلو تكرر منه جُرْمُه ثم توبته يضاعف له قبولَه التوبة وعفوَه .

ومن التكريم أنه إذا شَرَعَ في التوبة أَخَذَ بيده ، وإذا قال : لا أعود – يقبل قولَه وإنْ عَلِمَ أنه ينقض توبته .

ومن التكريم أنه زَيَّنَ ظاهرهم بتوفيق المجاهدة ، وحَسَّنَ باطنَهم بتحقيق المشاهدة .

ومن التكريم أنه أعطاهم قبل سؤالهم ، وغفر لهم قبل استغفارهم ، كذا في الأثر : " أعطيكم قبل أن تسألوني ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني " .

ومن تكريم جملتهم أنه قال لهم : ﴿ فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : 152] ولم يقل ذلك للملائكة ولا للجن .

وكما خَصّ بني آدم بالتكريم خصّ أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – منهم بتكريم مخصوص ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : 54] و ﴿ رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [المائدة : 119] وقوله ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة

: 165] .

ومن التكريم قوله :

(110/461)

﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ [النساء : 110]

ومن التكريم ما ألقى عليهم من محبة الخالق حتى أحبوه .

ومن التكريم لقوم توفيقُ صِدْقِ القَدَم ، ولقوم تحقيقُ علوِّ الهِمَم . قوله : ﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ : سَخَّر البحر لهم حتى ركبوا في السفن ، وسَخَّر البرَّ لهم حتى قال : ﴿ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ ﴾ [فصلت : 37] .

ويقال محمولُ الكرامِ لا يقع ، فإنْ وقَعَ وجَدَ مَنْ يأخذ بيده .

ويقال الإشارة في حملهم في البرِّ ما أوصل إليهم جهراً ، والإشارة بحديث البحر . ما أفردهم به من لطائف الأحوال سِرّاً .

ويقال لمَّا حَمَلَ بنو آدم الأمانة حملناهم في البر ، فَحَمْلٌ هو جزاءُ حَمْلٍ ، حَمْلٌ هو فِعْلُ مَنْ لم يكن وحَمْلٌ هو فَضْلُ من لم يَزَل .

قوله : ﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ : الرزق الطيب ما كان على ذكر الرازق ؛ فَمَنْ لم يكن غائباً بقلبه ولا غافلاً عن ربِّه استطاب كُلَّ رزقٍ ، وأنشدوا :

يا عاشقي إني سَعِدْتُ شراباً . . . لو كان حتى علقماً أو صابا

قوله : ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ : أي الذين فضلناهم على خلقٍ كثير ، وليس يريد أن قوماً بقوا لم يفضلهم عليهم ، ولكن المعنى أنا فضلناهم على كلِّ مَنْ خَلَقْنا ، وذلك التفضيل في الخِلْقة . ثم فَاضَلَ بين بني آدم في شيء آخر هو الخُلق الحسن ، فَجَمَعهم في الخِلقة – التي يفضلون بها سائر المخلوقات – ومَايَزَ بينهم في الخُلق .

ويقال : ﴿ كَرَّمْنَا بَنِى ءَادَمَ ﴾ : هذا اللفظ للعموم ، والمراد منه الخصوص ، وهم المؤمنون ، وبذلك يفضل قومٌ على الباقين ، ففَضَّل أولياءَه على كثيرٍ ممن لم يبلغوا استحقاقَ الولاية .

ويقال فضَّلهم بألاَّ ينظروا إلى نفوسهم بعين الاستقرار ، وأن ينظروا إلى أعمالهم بعين الاستصغار .

(111/461)

﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71) ﴾

إمامُ كلِّ أحدٍ مَنْ يَقْتَدِي به ، ولكن . . . مِنْ إمامٍ يهتدي به مُقْتَدِيه ، وما إمام يتردَّى به مقتديه .

﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ﴾ : لكمال صحوهم وقيادة عقلهم ، والذين لا يؤتون كتابهم بيمينهم فهم لخوفهم وتَرَدّدِهم لا يقرأون كتابهم .

﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72) ﴾

في الآخرة أعمى عن معاينته ببصيرته . في الآخرة عذابُه الفُرقة وتضاف إليها الحُرْقَة – لهذا فهو ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 359 . 362 ﴾

(112/461)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) ﴾

التفسير : قال أهل النظم : إنه لما ذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان من قومه في بلية

عظيمة ومحنة شديدة ، أراد أن يبين أن جميع الأنبياء كانوا كذلك حتى آدم عليه السلام .

وأيضاً إن القوم كان منشأ نزاعهم واقتراحاتهم الفاسدة أمرين : الكبر والحسد . فبين الله سبحانه أن هذه عادة قديمة سنها إبليس لعنة الله عليه . وأيضاً لما وصف القوم بزيادة الطغيان عقيب التخويف أراد أن يذكر السبب لحصول هذا الطغيان وهو قول إبليس ﴿ لأحتنكن ذريته ﴾ وهذه القصة ذكرها الله تعالى في سبع سور : البقرة والأعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص . ونحن قد استقصينا القول فيه فلا حاجة إلى الإعادة فلنقتصر على تفسير الألفاظ ، قال جار الله ﴿ طيناً ﴾ حال إما من الموصول والعامل فيه ﴿ أسجد ﴾ معناه أأسجد له وهو طين في الأصل ؟ وإما من الراجع إلى الموصول من الصلة تقديره أأسجد لمن كان في وقت خلقه طيناً ؟ ومعنى الاستفهام إنكار أمر الأشرف على زعمه بخدمة الأدون ولذلك ﴿ قال أرأيتك ﴾ أي أخبرني عن ﴿ هذا الذي كرمته ﴾ أي فضلته ﴿ عليّ ﴾ لم كرمته وأنا خير منه ؟ فاختصر الكلام لكونه معلوماً . ويمكن أن يقال : هذا مبتدأ والاستفهام فيه مقدر معناه أخبرني أهذا الذي كرمته عليّ ؟ والإشارة هنا تفيد الاستحقار . وقيل : إن هذا مفعول : ﴿ أرأيت ﴾ لأن الكاف لمجرد الخطاب كأنه قال على وجه التعجب والإنكار : أبصرت أو علمت هذا بمعنى لو أبصرته أو علمته لكان يجب أن لا يكرّم عليّ . ثم ابتدأ فقال ﴿ لئن أخرتني ﴾ واللوم موطئة للقسم

المحذوف وجوابه ﴿ لأحتنكن ذرّيته ﴾ لأستأصلنهم بالإغواء من احتنك الجراد الأرض إذا جرد ما عليها أكلاً من الحنك.

(113/461)

ومنه ما ذكر سيبويه "أحنك الشاتين" أي آكلهما. وقال أبو مسلم: هو افتعال من الحنك يقال منه حنك الدابة يحنكها إذا جعل في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به كأنه يملكهم كما يملك الفارس فرسه بلجامه. وإنما ظن إبليس بهم ذلك لأنه سمع قول الملائكة في حقهم ﴿ تجعل فيها من يفسد فيها ﴾ [البقرة: 30] أو نظر إليه فتوسم أنه خلق شهواني إلى غير ذلك من قواه السبعية والوهمية والبهيمية. أو قاس ذرية آدم عليه حين عمل وسوسته فيه. وضعفه جار الله بأن الظاهر أنه قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة ﴿ قال ﴾ أي الله تعالى ﴿ اذهب ﴾ ليس المراد منه نقيض المجيء وإنما المراد امض لشأنك اذي اخترته خذلاناً وتخيلة وإمهالاً. ثم رتب على على الإمهال قوله: ﴿ فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم ﴾ أراد جزاؤهم وجزاؤك فغلب المخاطب على الغائب لأنه الأصل في المعاصي وغيره تبع له. وجوز في الكشاف أن يكون الخطاب لتابعيه على طريقة الالتفات. وانتصب ﴿ جزاء موفوراً ﴾ على المصدر والعامل فيه معنى تجازون المضمر، أو المدلول عليه بقوله:

﴿ فإن جهنم جزاؤكم ﴾ أو على الحال الموطئة. والموفور الموفر من قولهم " فر لصاحبك عرضه فرة " . وقيل : هو بمعنى الوافر .

(114/461)

ثم أكد الإمهال والخذلان بقوله : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ أفزه الخوف واستفزه أزعجه واستخفه ، وصوته دعاؤه إلى معصية الله . وقيل : الغناء واللهو واللعب ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ قال الفراء وأبو عبيدة : أجلب من الجلبة والصياح أي صح عليهم . وقال الزجاج : أي أجمع عليهم كل من تقدر عليه من مكايدك . فالإجلاب الجمع والباء في ﴿ بخيلك ﴾ زائدة . وقال ابن السكيت : الإجلاب الإعانة ، والخيل يقع على الفرسان قال صلى الله عليه وسلم : " يا خيل الله اركبي . " وعلى الأفراس جميعاً . والرجل بسكون الجيم جمع راجل كتاجر وتجر وصاحب وصحب . وبكسر الجيم صفة معناه وجمعك الرجل . تضم جيمه أيضاً مثل ندس وندس وحذر وحذر . عن ابن عباس : كل راكب وراجل في معصية الله فهو من خيل إبليس وجنوده . وقيل : يحتمل أن يكون لإبليس جند من الشياطين بعضها راكب وبعضها راجل ، والأقرب أن هذا كلام ورد تمثيلاً فقد يقال للرجل المجد في الأمر جئتنا بخيلك ورجلك . قال في الكشاف : مثلت حاله في

تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم ، وأجلب عليهم بجند من خيالة ورجالة حتى إذا استأصلهم . أما المشاركة في الأموال فهي كل تصرف في المال لا على وجه الشرع سواء كان أخذاً من غير عوض أو وضعاً في غير حق كالربا والغضب والسرقة . وقيل : هي تبتيك آذان الأنعام وجعلها بحيرة وسائبة .

(115/461)

والمشاركة في الأولاد دعوى الولد بغير سبب وتحصيله بالدعاء إلى الزنا ، أو تسميتهم بعبد اللات وعبد العزى ، أو تربيتهم لا كما ينبغي حتى ينشأوا غير راشدين ولا مؤدبين ولا متدينين بدين الحق . ﴿ وعدهم ﴾ بتزيين المعاصي في أعينهم وترغيبهم فيها وتثقيل الطاعات والعبادات عليهم وتنفيرهم عنها ، وهذه قضية كلية وربما يخصه المفسرون ، فعن بعضهم أن المراد وعدهم بأنه لا جنة ولا نار . وقيل : تسويف التوبة . وقيل : بالكرامة على الله بالأنساب والأحساب . وقيل : بشفاعة الأصنام والأماني الباطلة وإيثار العاجل على الآجل . ثم نفى أن يكون لوعد الشيطان عاقبة حميدة فقال : ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ لأنه إنما يدعو إلى اللذات البهيمية أو السبعية أو الخيالية ، وأكثرها

دفع الآلام وكلها لا أصل لها ولا دوام . ومن أراد الاستقصاء في هذا الباب فعليه بمطالعة باب " ذم الغرور من كتاب إحياء علم الدين " للشيخ الإمام محمد الغزالي رحمه الله .

(116/461)

ولما قال للشيطان على سبيل الوعيد والتهديد افعل ما تقدر عليه ربط جأش سائر المكلفين بقوله : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ [الحجر : 42] قال الجبائي : المراد كل عباده لأنه استثنى متبعيه في غير هذا الموضع قائلاً : ﴿ إلاَّ من تبعك ﴾ [الحجر : 42] وقال أهل السنة : المراد عباد الله المخلصين . ثم زاد في تقوية جانب المكلف فختم الآية بقوله : ﴿ وكفى بربك وكيلاً ﴾ فهو يدفع كيد الشيطان ويعصمهم من إغوائه . ثم عدد على بني آدم بعض ما أنعم به عليهم ليكون تذكيراً لهم وتحذيراً فقال : ﴿ ربكم الذي يزجي لكم ﴾ أي يسير لأجلكم ﴿ الفلك في البحر ﴾ والإزجاء سوق الشيء حالاً بعد حال ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ الربح بالتجارة ﴿ إنه كان بكم رحيماً ﴾ فلذلك هداكم إلى مصالح المعاش المؤدية إلى منافع المعاد ﴿ وإذا مسكم الضر ﴾ أي خوف الغرق ﴿ في البحر ضل من تدعون ﴾ ذهب عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعونه في حوادثكم ﴿ إلا إياه ﴾ وحده فإنكم تعقدون برحمته رجاءكم ، أو المراد ضل

من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم ولكن الله هو الذي ترجونه وحده فكان الاستثناء منقطعاً ﴿ فلما نجاكم ﴾ من ذلك الضر وأخرجكم ﴿ إلى البر أعرضتم ﴾ عن الإخلاص ﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾ لنعمة الله لأنه عند الشدة يتمسك برحمة الله وفي الرخاء يعرض عنه. ثم أنكر عليهم سوء معاملتهم قائلاً: ﴿ أفأمنتم ﴾ تقديره أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض ﴿ أن يخسف ﴾ أصله دخول الشيء في الشيء ومنه عين خاسفة للتي غارت حدقتها في الرأس، وخسف القمر دخل تحت الحجاب وهو دائرة الظل عند الحكماء ﴿ بكم ﴾ حال، وإنما قال: ﴿ جانب البر ﴾ لأنه ذكر البحر في الآية الأولى وهو جانب والبر جانب، وخسف جانب البر بهم قلبه وهم عليه فالخسف تغييب تحت التراب كما أن الغرق تغييب تحت الماء، فهبوا أنكم نجوتم من هول البحر فهل أمنتم من هول البر فإنه قادر على تسليط آفات البر عليكم.

(117/461)

إما من جانب التحت بالخسوف، وإما من جانب الفوق بإمطار الحجارة وذلك أن ﴿ يرسل عليكم ﴾ حاصباً وهي الريح التي تحصب أي ترمي بالحصباء. وقال الزجاج: الحاصب التراب الذي فيه حصباء، فالحاصب ذو الحصباء كاللابن والتامر. ولا يخفى

أن هذين العذابين أشد من غرق البحر . ﴿ ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ﴾ يصرف ذلك عنكم ﴿ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ﴾ بأن يقوي دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى ركوب البحر ﴿ فيرسل عليكم قاصفاً ﴾ وريحاً لها قصيف أي صوت شديد أو القاصف الكاسر . وقوله : ﴿ من الريح ﴾ بيان له ﴿ فيغرقكم بما كفرتم ﴾ بسبب كفركم ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ مطالباً يتبعنا لإنكار ما نزل بكم أو لنصرفه عنكم فهو كقوله : ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ [الشمس : 16] .

(118/461)

ثم أجمل ذكر النعمة بقوله : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ وقد ذكر المفسرون في تكريمه وجوهاً منها : الخط فيه يقدر الإنسان على إيداع العلوم التي استنبطها - هو أو غيره - الدفاتر فتبقى على وجه الدهر مصونة عن الاندراس محفوظة عن الانطماس ﴿ اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ﴾ [العلق : 3 ، 4] ومنها الصورة الحسنة ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ [غافر : 64] ، ومنها القامة المعتدلة ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ [التين : 4] ومنها أن كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم . يحكى عن الرشيد أنه حضر لديه طعام فأحضرت الملاعق - وعنده أبو يوسف - فقال له : جاء في تفسير جدك ابن

عباس هذا التكريم هو أنه جعل لهم أصابع يأكلون بها فرد الملاعق وأكل بأصابعه . ومنها ما قال الضحاك : إنه النطق والتمييز فإن الإنسان يمكنه تعريف غيره كل ما عرفه بخلاف سائر الحيوان ، ويدخل الأخرس في هذا الوصف لأنه يعرف بالإشارة أو الكتابة ، ويخرج الببغاء ونحوه لأنه لا يقدر على تعريف جميع الأحوال على الكمال . ومنها تسليطهم على ما في الأرض وتسخيره لهم ، فالأرض لهم كالأم الحاضنة ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ﴾ [طه : 55] وهي لهم فراش ومهاد ، والماء ينتفعون به في الشرب والزراعة والعمارة وماء البحر ينتفع به في التجارة واستخراج الحلي منه ، والهواء مادة الحياة ولولا هبوب الرياح لاستولى النتن على المعمورة ، والنار ينتفع بها في الطبخ والإنضاج ودفع البرد وغير ذلك ، وانتفاعهم بالمركبات المعدنية والنباتية والحيوانية ظاهر . وبالجملة فهذا العالم بأسره كقرية معمورة أو خوان معد ، والإنسان فيه كالرئيس المخدوم والملك المطاع ، فأي تكريم يكون أزيد من هذا ؟ ولا شك أن الإنسان - لكونه مستجمعاً للقوة العقلية القدسية وللقوتين الشهوية البهيمية والغضبية السبعية ولقوّتي الحس والحركة الإرادية وللقوى النباتية وهي الاغتذاء والنموّ والتوليد - يكون أشرف مما لم يستجمع الجميع سوى

المجردات المحضة . وقال بعضهم : إن هذا التكريم هو أنه تعالى خلق آدم بيده وأبدع غيره بواسطة "كن" .

يروى عن زيد بن أسلم أن الملائكة قالت : ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها ويتمتعون ولم تعطنا ذلك فأعطنا في الآخرة . فقال : وعزتي وجلالي لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له "كن" فكان .

(120/461)

ثم خص بعض أنواع التكريم بالذكر فقال : ﴿ وحملناهم في البر والبحر ﴾ قال ابن عباس : في البر أي على الخيل والبغال والحمير وفي البحر أي على السفن ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ من كل غذاء نباتي أو حيواني ألطفه وأذله . واعلم أن التكريم لا يدل على التفضيل لأن تكريم زيد لا ينافي تكريم غيره بأزيد من ذلك ولذلك ختم التكريم بقوله : ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ فسر بعض الأشاعرة الكثير ههنا بمعنى الجميع فشنع عليه جار الله بأنه شجى في الحلق وقذى في العين لبشاعة قول القائل : وفضلناهم على جميع ممن خلقنا . والإنصاف أن كون الكثير مفيداً لمعنى الجميع لا يوجب هذا التشنيع ، لأنه لا يلزم من إفادة اللفظ معنى لفظ آخر بمعنى أنه يرجع الحاصل إلى ذلك بدلالة الالتزام ، أو بحكم

العرف أن يوضع ذلك اللفظ موضعه وينطق به على أن التفسير لا يقوم مقام المفسر ألبتة ، لأن هذا معجز دون ذلك فكيف يبقى الذوق بحاله ؟ وأيضاً فالحاصل هو قولنا على جميع من خلقنا لا على جميع ممن خلقنا ، فإن الدعوى هو أن كثيراً من الشيء أقيم مقام كل ذلك الشيء لا كل من ذلك الشيء حتى تلزم البشاعة من قبل الجمع بين لفظي الكل و " من " التبعيضية . هذا وإن الحق في المسألة هو إجراء الكلام على ظاهره ، وإن الآية تدل على أنه حصل في مخلوقات الله شيء لا يكون للإنسان تفضيل عليه ، لأنه سبحانه ذكر في هذا الكلام في معرض المدح ، ولو كان الإنسان مفضلاً على الكل لم يقع من الله تعالى الاقتصار على ذكر البعض ، وكل من أثبت هذا القسم قال : إنه هو الملائكة : فلزم القول بأن كل الإنسان ليس أفضل من كل الملائكة بل بعض الملائكة أفضل من أكثر الإنسان وإن كان يوجد في خواص الإنسان من هو أفضل من عوام الملائكة بل من خواصهم ، وإلى هذا ذهب ابن عباس واختاره الزجاج على ما رواه الواحدي في البسيط . وأما أن كل الملائكة أفضل من كل البشر – على ما زعم جار الله وأمثاله – فإنه تحكم محض .

ولما ذكر أنواع كرامات الإنسان في الدنيا شرح أحوال درجاته في الآخرة فقال : ﴿ يوم ندعو ﴾ وهو منصوب بإضمار " اذكر " أو بقوله : ﴿ فضلناهم ﴾ على عادة الله في الإخبار أي ونفضلهم في هذا اليوم بما نعطيهم من الكرامة والثواب ، وعلى هذا يكون التكريم في الدنيا والتفضيل في الآخرة ولا وقف على ﴿ تفضيلاً ﴾ والإمام في اللغة كل ما يؤتم به من نبي أو مقدّم في الدين أو كتاب أو دين .

(122/461)

والباء في قوله : ﴿ بإمامهم ﴾ للإلصاق كما تقول أدعوك باسمك . عن أبي هريرة مرفوعاً أنه ينادى يوم القيامة يا أمة إبراهيم يا أمة موسى يا أمة عيسى يا أمة محمد ، فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الأنبياء فيأخذون كتبهم بأيمانهم ، ثم ينادى يا أتباع فرعون وفلان وفلان من رؤساء الضلال وأكابر الكفر . ويجوز أن يتعلق الباء بمحذوف وهو الحال والتقدير : تدعو كل أناس متلبسين بإمامهم أي يدعون وإمامهم في نحو " ركب بجنوده " . وروى الضحاك وابن زيد أنه ينادى في القيامة يا أهل القرآن يا أهل التوراة يا أهل الإنجيل . وقال الحسن : يدعون بكتابهم الذي فيه أعمالهم فيقال : يا أصحاب كتاب الخير يا أصحاب كتاب الشر . وهو قول الربيع وأبي العالية أيضاً . قال صاحب الكشاف : ومن بدع التفاسير أن

الإمام جمع " أن " وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم . والحكمة في ذلك في رعاية حق عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين عليهما السلام وأن لا يفتضح أولاد الزنا . ثم قال : وليت شعري أيهما أبدع أصحة لفظه أم بيان حكمته ؟ وقال في التفسير الكبير : كل خلق يظهر من الإنسان حسن كالعفة والشجاعة والعلم ، أو قبيح كأضدادها فالداعي إلى تلك الأفعال خلق باطن كالإمام له وكالمنبع والمنشأ ، ويوم القيامة إنما يظهر الثواب والعقاب بناء على الأفعال الناشئة من تلك الأخلاق ﴿ فمن أوتي ﴾ هو في معنى الجمع ولذلك قيل في جزائه ﴿ فأولئك يقرؤن ﴾ وخص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم لأن قراءة أصحاب الشمال كلا قراءة لما يعرض لهم فيه من الحياء والخجل والتتعتع ﴿ ومن كان في هذه ﴾ الدنيا ﴿ أعمى ﴾ لا خلاف أن المراد بهذا العمى عمى القلب . وأما قوله : ﴿ فهو في الآخرة أعمى ﴾ فيحتمل أن يراد به عمى البصر كقوله : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴾ [طه : 25] وفي هذا زيادة العقوبة . ويحتمل أن يراد عمى القلب . قال ابن عباس : المراد ومن كان أعمى في هذه النعم التي عددها

من قوله : ﴿ ربكم الذي يزجى ﴾ إلى قوله : ﴿ تفضيلاً ﴾ فهو في الآخرة التي لم ير ولم يعاين أعمى بالطريق الأولى ، لأن الضلال عن معرفة أحوال الآخرة أقرب وقوعاً ، فعلى هذا يكون الأعمى في الموضعين في الدنيا ، ومثله ما روى أبو روق عن الضحاك . من كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرته في خلق السماء والأرض والبحار والجبال والناس والدواب ، فهو عن أمر الآخرة وتحصيل العلم به أعمى . قال المفسرون : لا يبعد أن يكون أعمى على هذا التفسير " أفعل " التفضيل ودليله قراءة أبي عمرو وبإمالة الأول وتفخيم الثاني ، لأن الأول ألفه واقعة في الطرف فكانت عرضة للإمالة ومظنة لها بخلاف الثاني فإن تمامه بمن فكانت ألفه في حكم وسط الكلمة .

(124/461)

هذا قول صاحب الكشاف تابعاً لأبي علي الفارسي . وأقول : في هذا الوجه نظر ، لأن الإمالة ليست مختصة بآخر الكلمة مثل " شيئان " " والكافرين " ونحوهما ولهذا قرىء بإمالة كليهما مع قيام هذا الاحتمال في الثاني ، ولعل من لم يمل الثاني راعى المشاكلة بينه وبين أضل والله أعلم . قال الحسن : في الآخرة أي في الدار الآخرة وذلك أنه في الدنيا تقبل توبته وفي الآخرة لا تقبل . وقيل : المراد بالعمى في الآخرة أنه لا يهتدي إلى طريق الجنة وإلى

طيباتها والابتهاج، بها ولا يمكن أن يراد بها الجهل بالله لأن أهل الآخرة يعرفون الله بالضرورة. التأويل: ﴿ من استطعت منهم بصوتك ﴾ أي بكلمات المبتدعة ومقالات أهل الطبيعة ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ لأنهم بخصوصية العبودية تخلصوا عن رق الكونين وتعلق العالمين ﴿ وكفى بربك وكيلاً ﴾ في تربيتهم وتهيئة صلاح أحوالهم. ﴿ ربكم الذي يزجي لكم ﴾ فلك الشريعة في بحر الحقيقة ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ جذبة العناية ﴿ فلما نجاكم ﴾ إلى بر الوصول والوصال ﴿ أعرضتم ﴾ بحجب العجب ورؤية الأعمال ﴿ حاصباً ﴾ من مطر القهر ﴿ قاصفاً ﴾ من ريح الابتلاء ببليات البدع والأهواء ﴿ فيغرقكم ﴾ في بحر الشهوات ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ بالكرامات البدنية العامة للمؤمن والكافر وهي تخمير طينته بيده وتصويره في الرحم بنفسه، وبالكرامات الروحانية العامة وهي أن نفخ فيه من روحه وشرفه بخطاب ﴿ ألست بربكم ﴾ وأنطقه بجواب ﴿ بلى ﴾ وأولده على الفطرة وأرسل الرسل وأنزل الكتب، وبالكرامات الروحانية الخاصة من النبوة والولاية والهداية والجذبة كما قال: ﴿ وحملناهم في البر والبحر ﴾ أي عبرنا بهم من بر البشرية وبحري الروحانية إلى ساحل الربانية ﴿ ورزقناهم من ﴾ طيبات المواهب ونوال الكشوف ﴿ وفضلناهم على كثير ﴾ أي على الملائكة لأنهم الخلق الكثير من مخلوقات الله. وبيان تفضيله حسن استعداده في قبول فيض نور الله بلا واسطة وهو المراد بالأمانة في

(125/461)

قوله : ﴿ إنا عرضنا الأمانة ﴾ [الأحزاب : 72] ﴿ ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ من الدنيا والآخرة وغيرهما فيقال : يا أهل الدنيا ويا أهل الآخرة ويا أهل الله ﴿ فمن أوتى كتابه بيمينه ﴾ فيه إشارة إلى أن أهل الله لا يؤتون كتابهم كما لا يحاسبون حسابهم ، وأهل الشمال يؤتون الكتاب ولكنهم لا يقدرون على القراءة لأنهم عمي والقراءة تحتاج إلى الإبصار بالأبصار وبالبصائر والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 371.365 ﴾

(126/461)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (58) ﴾

انتهى الدرس السابق بتقرير أن الله وحده هو المتصرف في مصائر العباد ، إن شاء رحمهم

وإن شاء عذبهم ؛ وأن الآلهة التي يدعونها من دونه لا تملك كشف الضر عنهم ولا تحويله إلى سواهم .

فالآن يستطرد السياق إلى بيان المصير النهائي للبشر جميعاً كما قدره الله في علمه وقضائه وهو انتهاء القرى جميعها إلى الموت والهلاك قبل يوم القيامة ، أو وقوع العذاب ببعضها إن ارتكبت ما يستحق العذاب . فلا يبقى حي إلا ويلاقي نهايته على أي الوجهين : الهلاك حتف أنفه أو الهلاك بالعذاب .

وبمناسبة ذكر العذاب الذي يحل ببعض القرى يشير السياق إلى ما كان يسبقه من الخوارق على أيدي الرسل قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هذه الخوارق التي امتنعت في هذه الرسالة ، لأن الأولين الذين جاءتهم كذبوا بها ولم يهتدوا فحق عليهم الهلاك . والهلاك لم يقدر على أمة محمد لذلك لم يرسله بالخوارق المادية ، وما كانت الخوارق إلا تخويفاً للأمم الخالية مما يحل بها من الهلاك إذا كذبت بعد مجيئها .

وقد كف الله الناس عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعصمه منهم فلا يصلون إليه . وأراه الرؤيا الصادقة في الإسراء لتكون ابتلاء للناس ، ولم يتخذ منها خارقة كخوارق الرسالات من قبل ، وخوفهم الشجرة الملعونة في القرآن شجرة الزقوم التي رآها في أصل الجحيم ، فلم يزدهم التخويف إلا طغياناً . وإذن فما كانت الخوارق إلا لتزيدهم طغياناً .

وفي هذا الموضع من السياق تجيء قصة إبليس مع آدم ، وإذن الله لإبليس في ذرية آدم إلا

الصالحين من عباده فقد عصمهم من سلطانه وإغوائه . . فتكشف القصة عن أسباب الغواية الأصيلة التي تقود الناس إلى الكفر والطغيان ، وتبعدهم عن تدبر الآيات .

(127/461)

ويلمس السياق في هذا الموضع وجدان الإنسان بذكر فضل الله على بني آدم ، ومقابلتهم هذا الفضل بالبطر والجحود ، فلا يذكرون الله إلا في ساعات الشدة . فإذا مسهم الضر في البحر لجأوا إليه . فإذا أنجاهم إلى البر أعرضوا . والله قادر على أن يأخذهم في البر وفي البحر سواء ! ولقد كرمهم الله وفضلهم على كثير من خلقه ، ولكنهم لا يشكرون ولا يذكرون .

ويختم هذا الدرس بمشهد من مشاهد القيامة ؛ يوم يلقون جزاءهم على ما قدمت أيديهم ، فلا مجال للنجاة لأحد إلا بما قدمت يداه .

﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً . كان ذلك في الكتاب مسطورا ﴾ . .

فقد قدر الله أن يجيء يوم القيامة ووجه هذه الأرض خال من الحياة ، فالهلاك ينتظر كل حي قبل ذلك اليوم الموعود .

كذلك قدر العذاب لبعض هذه القرى بما ترتكب من ذنوب . ذلك ما ركز في علم الله . والله يعلم ما سيكون علمه بما هو كائن . فالذي كان والذي سيكون كله بالقياس إلى علم الله سواء .

وقد كانت الخوارق تصاحب الرسالات لتصديق الرسل وتخويف الناس من عاقبة التكذيب وهي الهلاك بالعذاب . ولكن لم يؤمن بهذه الخوارق إلا المستعدة قلوبهم للإيمان ؛ أما الجاحدون فقد كذبوا بها في زمانهم . ومن هنا جاءت الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بهذه الخوارق :

﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها . وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ﴾ .

إن معجزة الإسلام هي القرآن . وهو كتاب يرسم منهجاً كاملاً للحياة . ويخاطب الفكر والقلب ، ويلبي الفطرة القويمة . ويبقى مفتوحاً للأجيال المتتابعة تقرؤه وتؤمن به إلى يوم القيامة . أما الخارقة المادية فهي تخاطب جيلاً واحداً من الناس ، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل .

على أن كثرة من كانوا يشاهدون الآيات لم يؤمنوا بها . وقد ضرب السياق المثل بثمود ، الذين جاءتهم الناقة وفق ما طلبوا واقترحوا آية واضحة . فظلموا بها أنفسهم وأوردها موارد الهلكة تصديقاً لوعد الله بإهلاك المكذبين بالآية الخارقة . وما كانت الآيات إلا إنذاراً وتخويفاً بحتمية الهلاك بعد مجيء الآيات .

هذه التجارب البشرية اقتضت أن تجيء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق . لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعها لا رسالة جيل واحد يراها . ولأنها رسالة الرشد البشري تخاطب مدارك الإنسان جيلاً بعد جيل ، وتحترم إدراكه الذي تتميز به بشريته والذي من أجله كرمه الله على كثير من خلقه .

أما الخوارق التي وقعت للرسول صلى الله عليه وسلم وأولها خارقة الإسراء والمعراج فلم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة . إنما جعلت فتنة للناس وابتلاء .

﴿ وإذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيرا ﴾ .

ولقد ارتد بعض من كان آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم بعد حادثة الإسراء ، كما ثبت بعضهم وازداد يقيناً . ومن ثم كانت الرؤيا التي أراها الله لعبده في تلك الليلة ﴿ فتنة للناس ﴾ وابتلاء لإيمانهم . أما إحاطة الله بالناس فقد كانت وعداً من الله لرسوله بالنصر ، وعصمة له من أن تمتد أيديهم إليه .

ولقد أخبرهم بوعد الله له وبما أطلعه الله عليه في رؤياه الكاشفة الصادقة . ومنه شجرة الزقوم التي يخوف الله بها المكذبين . فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل متهكماً : هاتوا لنا تمراً وزبداً ، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا !

فماذا كانت الخوارق صانعة مع القوم لو كانت هي آية رسالته كما كانت علامة الرسالات قبله ومعجزة المرسلين ؟ وما زادتهم خارقة الإسراء ولا زادهم التخويف بشجرة الزقوم إلا طغياناً كبيراً ؟

إن الله لم يقدر إهلاكهم بعذاب من عنده .

(129/461)

ومن ثم لم يرسل إليهم بخارقة . فقد اقتضت إرادته أن يهلك المكذبين بالخوارق . أما قريش فقد أمهلت ولم تؤخذ بالإبادة كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب . . ومن المكذبين من آمن بعد ذلك وكان من جند الإسلام الصادقين . ومنهم من أنجب المؤمنين الصادقين . وظل القرآن معجزة الإسلام كتاباً مفتوحاً لجيل محمد صلى الله عليه وسلم وللأجيال بعده ، فآمن به من لم يشهد الرسول وعصره وصحابته . إنما قرأ القرآن أو صاحب من قرأه .

وسيبقى القرآن كتاباً مفتوحاً للأجيال ، يهتدي به من هم بعد في ضمير الغيب ، وقد يكون

منهم من هو أشد إيماناً وأصلح عملاً ، وأنفع للإسلام من كثير سبقوه . .

وفي ظل الرؤيا التي رآها الرسول صلى الله عليه وسلم واطلع فيها على ما اطلع من عوالم ، والشجرة الملعونة التي يطعم منها أتباع الشياطين . . يجيء مشهد إبليس الملعون ، يهدد ويتوعد بإغواء الضالين :

﴿ وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . فسجدوا إلا إبليس . قال : أأسجد لمن خلقت طيناً ؟ قال : أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريته إلا قليلاً . قال : اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً . واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم . وما يعدهم الشيطان إلا غروراً . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربك وكيلا ﴾ . .

إن السياق يكشف عن الأسباب الأصيلة لضلال الضالين ، فيعرض هذا المشهد هنا ، ليحذر الناس وهم يطلعون على أسباب الغواية ، ويرون إبليس عدوهم وعدو أبيهم يتهددهم بها ، عن إصرار سابق قديم !

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال : أأسجد لمن خلقت طينا ؟ ﴾

إنه حسد إبليس لآدم يجعله يذكر الطين ويغفل نفخة الله في هذا الطين !

ويعرض إبليس بضعف هذا المخلوق واستعداده للغواية ، فيقول في تبجح :

﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ ؟ ﴾ أترى هذا المخلوق الذي جعلته أكرم مني عندك ؟

(130/461)

﴿ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا ﴾ . . فلأستولين عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم وأجعلهم في قبضة يدي أصرف أمرهم .

ويغفل إبليس عن استعداد الإنسان للخير والهداية استعداده للشر والغواية . عن حالته التي يكون فيها متصلاً بالله فيرتفع ويسمو ويعتصم من الشر والغواية ، ويغفل عن أن هذه هي مزية هذا المخلوق التي ترفعه على ذوي الطبيعة المفردة التي لا تعرف إلا طريقاً واحداً تسلكه بلا إرادة . فالإرادة هي سر هذا المخلوق العجيب .

وتشاء إرادة الله أن يطلق لرسول الشر والغواية الزمام ، يحاول محاولته مع بني الإنسان :

﴿ قال : اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ﴾ .

.

اذهب فحاول محاولتك . اذهب مأذوناً في إغوائهم . فهم مزودون بالعقل والإرادة ، يملكون أن يتبعوك أو يعرضوا عنك ﴿ فمن تبعك منهم ﴾ مغلباً جانب الغواية في نفسه

على جانب الهداية ، معرضاً عن نداء الرحمن إلى نداء الشيطان ، غافلاً عن آيات الله في الكون ، وآيات الله المصاحبة للرسالات ، ﴿ فإن جهنم جزاؤكم ﴾ أنت وتابعوك ﴿ جزاء موفورا ﴾ .

﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ .

وهو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة ، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول . فهي المعركة الصاخبة ، تستخدم فيها الأصوات والخيل والرجل على طريقة المعارك والمبارزات . يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبرة . فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل ، وأحاطت بهم الرجال !

﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ . .

وهذه الشركة تتمثل في أوهام الوثنية الجاهلية ، إذ كانوا يجعلون في أموالهم نصيباً للآلهة المدعاة فهي للشيطان وفي أولادهم نذوراً للآلهة أو عبيداً لها فهي للشيطان كعبد اللات وعبد مناة . وأحياناً كانوا يجعلونها للشيطان رأساً كعبد الحارث !

كما تتمثل في كل مال يجبى من حرام ، أو يتصرف فيه بغير حق ، أو ينفق في إثم . وفي كل ولد يجيء من حرام . ففيه شركة للشيطان .

والتعبير يصور في عمومه شركة تقوم بين إبليس وأتباعه تشمل الأموال والأولاد وهما قوام الحياة !

وإبليس مأذون في أن يستخدم وسائله كلها ، ومنها الوعود المغرية الخادعة : ﴿ وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص . والوعد بالغنى من الأسباب الحرام . والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والأساليب الخسيسة . .

ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة ؛ وهي الثغرة التي يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب التي يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة . فيتلطف حينئذ إلى تلك النفوس المتحرجة ، ويزين لها الخطيئة وهو يلوح لها بسعة الرحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة !

اذهب مأذوناً في إغواء من يجنحون إليك . ولكن هنالك من لا سلطان لك عليهم ، لأنهم مزودون بحصانة تمنعهم منك ومن خيلك ورجلك !

﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربك وكيلا ﴾ . .

فمتى اتصل القلب بالله ، واتجه إليه بالعبادة . متى ارتبط بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها .

متى ايقظ في روحه النفخة العلوية فأشرقت وأنارت . . فلا سلطان حينئذ للشيطان على ذلك القلب الموصول بالله ، وهذا الروح المشرق بنور الإيمان . . ﴿ وكفى بربك وكيلا ﴾ يعصم وينصر ويبطل كيد الشيطان .

وانطلق الشيطان ينفذ وعيده ، ويستذل عبيده . ولكنه لا يجرؤ على عباد الرحمن ، فما له عليهم من سلطان .

ذلك ما بيته للناس من شر وأذى ؛ ثم يوجد في الناس من يتبعون هذا الشيطان ، ويستمعون إليه ، ويعرضون عن نداء الله لهم وهدايته .

والله رحيم بهم يعينهم ويهديهم وييسر لهم المعاش ، وينجيهم من الضر والكرب ، ويستجيب لهم في موقف الشدة والضيق . . ثم إذا هم يعرضون ويكفرون :

(132/461)

﴿ ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله ، إنه كان بكم رحيماً . وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفورا ﴾ . .

والسياق يعرض هذا المشهد ، مشهد الفلك في البحر ، نموذجاً للحظات الشدة والحرج .

لأن الشعور بيد الله في الخضم أقوى واشد حساسية ، ونقطة من الخشب أو المعدن تائهة في الخضم ، تتقاذفها الأمواج والتيارات والناس متشبثون بهذه النقطة على كف الرحمن . إنه مشهد يحس به من كابده ، ويحس بالقلوب الخافقة الواجفة المتعلقة بكل هزة وكل رجفة في الفلك صغيراً كان أو كبيراً حتى عابرات المحيط الجبارة التي تبدو في بعض اللحظات كالريشة في مهب الرياح على ثبج الموج الجبار !

والتعبير يلمس القلوب لمسة قوية وهو يشعر الناس أن يد الله تزجي لهم الفلك في البحر وتدفعه ليبتغوا من فضله ﴿ إنه كان بكم رحيما ﴾ فالرحمة هي أظهر ما تستشعره القلوب في هذا الأوان .

ثم ينتقل بهم من الإزجاء الرخي للاضطراب العتي . حين ينسى الركب في الفلك المتناوح بين الأمواج كل قوة وكل سند وكل مجير إلا الله ، فيتجهون إليه وحده في لحظة الخطر لا يدعون أحداً سواه : ﴿ ضل من تدعون إلا إياه ﴾ . .

ولكن الإنسان هو الإنسان ، فما إن تنجلي الغمرة ، وتحس قدماه ثبات الأرض من تحته حتى ينسى لحظة الشدة ، فينسى الله ، وتتقاذفه الأهواء وتجرفه الشهوات ، وتغطي على فطرته التي جلاها الخطر : ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا ﴾ إلا من اتصل قلبه بالله فأشرق واستنار .

وهنا يستجيش السياق وجدان المخاطبين بتصوير الخطر الذي تركوه في البحر وهو

يلاحقهم في البر أو وهم يعودون إليه في البحر ، ليشعروا أن الأمن والقرار لا يكونان إلا في جوار الله وحماه ، لا في البحر ولا في البر ؛ لا في الموجة الرخية والريح المواتية ولا في الملجأ الحصين والمنزل المريح :

(133/461)

﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ، ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ؟ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ، فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ؟ ﴾ .

إن البشر في قبضة الله في كل لحظة وفي كل بقعة . إنهم في قبضته في البر كما هم في قبضته في البحر . فكيف يأمنون ؟ كيف يأمنون أن يخسف بهم جانب البر بزلزال أو بركان ، أو بغيرهما من الأسباب المسخرة لقدرة الله ؟ أو يرسل عليهم عاصفة بركانية تقذفهم بالحمم والماء والطين والأحجار ، فتهلكهم دون أن يجدوا لهم من دون الله وكيلاً يحميهم ويدفع عنهم ؟

أم كيف يأمنون أن يردهم الله إلى البحر فيرسل عليهم ريحاً قاصفة ، تقصف الصواري وتحطم السفين ، فيغرقهم بسبب كفرهم وإعراضهم ، فلا يجدون من يطالب بعدهم بتبعة

إغراقهم ؟

ألا إنها الغفلة أن يعرض الناس عن ربهم ويكفروا .

ثم يأمنوا أخذه وكيده . وهم يتوجهون إليه وحده في الشدة ثم ينسونه بعد النجاة . كأنها آخر شدة يمكن أن يأخذهم بها الله !

ذلك وقد كرم الله هذا المخلوق البشري على كثير من خلقه . كرمه بخلقته على تلك الهيئة ، بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة ، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان !

وكرمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته ؛ والتي استأهل بها الخلافة في الأرض ، يغير فيها ويبدل ، وينتج فيها وينشئ ، ويركب فيها ويحلل ، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة .

وكرمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض وإمداده بعون القوى الكونية في الكواكب والأفلاك . .

وكرمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود ، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ويعلن فيه الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان !

وكرمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقي في الأرض . . القرآن . .

﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ . .

﴿ وحملناهم في البر والبحر ﴾ والحمل في البر والبحر يتم بتسخير النواميس وجعلها موافقة لطبيعة الحياة الإنسانية وما ركب فيها من استعدادات ، ولو لم تكن هذه النواميس موافقة للطبيعة البشرية لما قامت الحياة الإنسانية ، وهي ضعيفة ضئيلة بالقياس إلى العوامل الطبيعية في البر والبحر . ولكن الإنسان مزود بالقدرة على الحياة فيها ، ومزود كذلك بالاستعدادات التي تمكنه من استخدامها . وكله من فضل الله .

﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ . . والإنسان ينسى ما رزقه الله من الطيبات بطول الألفة فلا يذكر الكثير من هذه الطيبات التي رزقها إلا حين يحرمها . فعندئذ يعرف قيمة ما يستمتع به ، ولكنه سرعان ما يعود فينسى . . هذه الشمس . هذا الهواء . هذا الماء . هذه الصحة . هذه القدرة على الحركة . هذه الحواس . هذا العقل . . هذه المطاعم والمشارب والمشاهد . . هذا الكون الطويل العريض الذي استخلف فيه ، وفيه من الطيبات ما لا يحصيه .

﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ فضلناهم بهذا الاستخلاف في ملك الأرض الطويل العريض . وبما ركب في فطرتهم من استعدادات تجعل المخلوق الإنساني فذاً

بين الخلائق في ملك الله . .

ومن التكريم أن يكون الإنسان قيماً على نفسه ، محتملاً تبعة اتجاهه وعمله . فهذه هي الصفة الأولى التي بها كان الإنسان إنساناً . حرية الاتجاه وفردية التبعة.

وبها استخلف في دار العمل . فمن العدل ان يلقى جزاء اتجاهه وثمرة عمله في دار الحساب :

﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم . فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ . .

(135/461)

وهو مشهد يصور الخلائق محشورة . وكل جماعة تنادى بعنوانها باسم المنهج الذي اتبعته ، أو الرسول الذي اقتدت به ، أو الإمام الذي ائتمت به في الحياة الدنيا . تنادى ليسلم لها كتاب عملها وجزاءها في الدار الآخرة . . فمن أوتي كتابه بيمينه فهو فرح بكتابه يقرؤه ويتملاه ، ويوفى أجره لا ينقص منه شيئاً ولو قدر الخيط الذي يتوسط النواة ! ومن عمي في الدنيا عن دلائل الهدى فهو في الآخرة أعمى عن طريق الخير . واشد ضلالاً . وجزاؤه معروف . ولكن السياق يرسمه في المشهد المزدحم الهائل ، أعمى ضالاً يتخبط ، لا يجد

من يهديه ولا ما يهتدي به ، ويدعه كذلك لا يقرر في شأنه أمراً ، لأن مشهد العمى والضلال في ذلك الموقف العصيب هو وحده جزاء مرهوب ؛ يؤثر في القلوب ! . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 4 صـ 2236 . 2241 ﴾

(136/461)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات :

﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إياه ﴾ [الإسراء : 23] قالت الوجودية من الصوفية : إنه تعالى سبق قضاؤه أن لا يعبد سواه فكل عابد إنما يعبد الله سبحانه من حيث يدري ومن حيث لا يدري فإنه جل شأنه الأول والآخر والظاهر والباطن والأعيان الثابتة ما شمت رائحة الوجود ولا تشمه أبداً ، ومما ينسبونه إلى زين العابدين رضي الله تعالى عنه ويزعمون أنه مشيراً إلى مدعاهم قوله :

إني لأكتم من علمي جواهره . . .

كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا

وقد تقدم في هذا أبو حسن . . .

إلى الحسين وأوصى قبله الحسنا

فرب جوهر علم لو أبوح به . . .

لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستحل رجال مسلمون دمي . . .

يرون أقبح ما يأتونه حسنا

قالوا : إنه رضي الله تعالى عنه عنى بهذا الجوهر الذي لو باح به لقيل له : أنت ممن يعبد الوثن علم الوحدة إذ منه يعلم أن الوثن وكذا غيره مظهر له جل وعلا وليس في الدار غيره ديار ، وقد مر عن قرب ما نقل عن الحلاج ومثله كثير للشيخ الأكبر قدس سره ولغيره عرباً وعجماً وهو عفا الله تعالى عنه قد فتح باباً في هذا المطلب لا يسد إلى أن يأتي أمر الله عز وجل وكأنه أوصى إليه بأن يبوح وينشر ها تيك الجواهر بين الأصاغر والأكابر كما أوصى إلى الحسنين بأن يكتما من ذلك ما علما وفي بعض كتبه قدس سره ما هو صريح في أنه مأمور فإن صح ذلك فهو معذور ، وأنا لا أرى عذراً لمن يقفو أثره في المقال مع مباينته له في الحال فإن هذا المطلب أجل من أن يحصل لغريق الشهوات وأسير المؤلوفات ورهين العادات ولله تعالى در من قال :

تقول نساء الحي تطمع أن ترى . . .

محاسن ليلى مت بداء المطامع

وكيف ترى ليلى بعين ترى بها . . .

سواها وما طهرتها بالمدامع

وتطمع منها بالحديث وقد جرى . . .

حديث سواها في خروق المسامع

(137/461)

ولا يخفى أنه على تأويل الصوفية هذه الآية لا يكون قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ [الإسراء : 23] داخلاً فيما قضى إذ لا يسعهم أن يقولوا إن كل أحد محسن بوالديه من حيث يدري ومن حيث لا ، ويفهم من كلام بعض المتصوفة أن هذا إيصاء بالإحسان إلى الشيخ أيضاً ، وعليه فيحتمل أن يكون تثنية الوالدين كما في قولهم : القلم أحد اللسانين ﴿ وَءاتِ ذَا القربى حَقَّهُ والمسكين وابن السبيل ﴾ [الإسراء : 26] قيل : ذو القربى إشارة إلى الروح لأنها كانت قبل في القربة والمشاهدة بم هبطت حيث هبطت ، والمسكين إشارة إلى العقل لأنه عاجز عن تحصيل العلم بحقيقة ربه سبحانه ، وابن السبيل إشارة إلى القلب لأنه يتقلب في سبل السلوك إلى ملك الملوك ، وحق الروح المشاهدة ، والعقل الفكر ، والقلب

الذكر ، وقيل : الأول : إشارة إلى إخوان المعرفة الذين وصلوا معالي المقامات وحقهم ذكر ما يزيد تميكنهم ، والثاني : إشارة ءلى العاشقين الذين سكنهم عشق مولاهم عن طلب ما سواه وحقهم ذكر ما يزيد عشقهم ، والثالث : إشارة إلى السالكين سبل الطلب الممتطين نجائب الهمة وحقهم ذكر ما يزيد رغبتهم ويهون مشقتهم

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ [الإسراء : 29] فيه إشارة للمشايخ كيف يكونون مع المريدين أي لا يبخل على المريد بنشر فضائل المعرفة وحقائق القربة ولا تذكر شيئًا لا يتحمله فيهلك وكن بين بين ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ [الإسراء : 34] الذي أخذ منكم قبل خلق الأشباح وهو أن توحدوه تعالى ولا تشركوا به شيئاً .

وقال يحيى بن معاذ : لربك عليك عهود ظاهراً وباطناً فعهد على الاسرار أن لا تشاهد سواه جل جلاله ، وعهد على الروح أن لا تفارق مقام القربة ، وعهد على القلب أن لا يفارق الخوف ، وعهد على النفس أن لا تترك شيئاً من الفرائض ، وعهد على الجوارح أن تلازم الأدب وتترك المخالفات ﴿ وَأَوْفُوا الكيل إِذا كِلْتُمْ ﴾ قيل فيه إشارة للمشايخ أيضاً أن لا ينقصوا المستعدين ما يقتضيه استعدادهم من الفيوضات القلبية ، وفي قوله تعالى :

﴿ وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم ﴾ [الإسراء : 35] إشارة لهم أن يعرضوا أعمال المريدين القلبية والقالبية على الشريعة فهي القسطاس المستقيم وكفتاها الحظر والإباحة ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : 63] الآية فيه إشارة إلى بعض ما يلزم السالك من التثبت والاحتياط والكف عن الدعاوي العاطلة ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ السموات السبع ﴾ [الإسراء : 44] الآية وقد علمت ما عند الصوفية في تسبيح الأشياء من أنه قال إلا أنه لا يسمعه إلا من فاز بقرب النوافل أو من أشرق عليه شيء من أنواره كالذين سمعوا تسبيح الحصى في مجلس سيد الكاملين صلى الله عليه وسلم ، والتسبيح الحالي مما لا ينكره أحد من المسلمين ، وقرره بعض الصوفية بأن لكل شيء خاصية ليست لغيره وكما لا يخصه دون ما عداه فهو يشتاقه ويطلبه إذا لم يكن حاصلاً له ويحفظه ويحبه إذا حصل فهو بإظهار خاصيته ينزه الله تعالى من الشريك وإلا لم يكن متوحداً فيها فلسان حاله يقول أوحده على ما وحدني ويطلب كماله ينزهه سبحانه عن صفات النقص كأنه يقول يا كامل كملني وبإظهار كماله كأنه يقول كملني الكامل المكمل وعلى هذا القياس ، وحينئذ يقال : تسبحه السموات بالكمال والتأثير والربوبية وبأنه كل يوم هو في شأن ونحو ذلك ، والأرض بالخلاقية والرزاقية والحرمة إلى غير ذلك ، والملائكة بالعلم والقدرة والتجرد عن المادة على القول بأنهم أرواح مجردة وهكذا ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ

القرءان جعَلْنَا بَيْنَك وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء : 45]

من الجهل وعمى القلب فلا يرون حقيقتك القدسية ولا يدركون منك إلا الصورة البشرية ، وإنما خص ذلك بوقت قراءة القرآن مع أنهم في كل وقت هم أجهل الخلق به صلى الله عليه وسلم لأن في ذلك الوقت يظهر إشراق أنوار الصفات عليه عليه الصلاة والسلام فإذا كانوا محجوبين إذ ذاك كانوا في غيره من الأوقات أحجب وأحجب ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ من الغشاوات الطبيعية والهيئات البدنية ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ فإن القرآن كلامه تعالى وهو أحد صفاته وإذا لم يعرفوا نبيه صلى الله عليه وسلم لم يعرفوه عز وجل وإذا لم يعرفوه سبحانه لم يعرفوا صفاته تعالى فلم يعرفوا كلامه سبحانه ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ ﴾ لرسوخ أوساخ التعلقات فيها يمنعهم عن سماع القراءة وهذا ناشيء من جهلهم بأفعاله تعالى ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى القرءان وَحْدَهُ وَلَّوْاْ على أدبارهم نُفُوراً ﴾ [الإسراء : 46] لتشتت أهوائهم وتفرق هممهم في عبادة آلهتهم المتنوعة فلا تناسب الوحدة بواطنهم ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ للقيام من القبور ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ حامدين له تعالى مجده بلسان القال أو بلسان الحال حيث أظهر فيكم الحياة بعد الموت ونحو ذلك .

﴿ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ في القبور أو في الدنيا ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : 52] لذهولكم عن ذلك الزمان أو لاستقصاركم الدنيا بالنسبة إلى الآخرة ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ [الإسراء : 54] فيه إشارة إلى أن المشيئة تابعة لعلم فمن علم سبحانه أهليته للرحمة شاء تعالى رحمته فرحمه ومن علم جل وعلا أهليته للعذاب شاء عذابه فعذبه ، ولا يخفى ما في تقديم شق مشيئة الحرمة من تقوية الأمل ﴿ أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ ﴾ أي يدعونهم الكفار ويعبدونهم ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوسيلة أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ أي يطلب الأقرب منهم الوسيلة إلى الله تعالى فكيف بغير الأقرب والوسيلة في الأصل الواسطة التي يتوسل ويتقرب بها إلى الشيء وهي هنا الطاعة كما تقدم .

وقيل هي كرمه تعالى القديم وإحسانه عز وجل العميم .

وقيل هي الشافعة يوم القيامة ، ولما كان مقام الوسيلة بهذا المعنى خاصاً بنبينا صلى الله عليه وسلم أطلقوا الوسيلة عليه عليه الصلاة والسلام ، وفسرها بذلك هنا بعض الصوفية فكل من عبد من دون الله تعالى عيسى وعزير والملائكة عليهم السلام وسيلتهم إلى الله تعالى نبينا صلى الله عليه وسلم بل هو عليه الصلاة والسلام وسيلة سائر الموجودات والواسطة بينهم وبين الله تعالى في إفاضته سبحانه الوجود وكذا سائر ما أفيض عليهم وأحظى الخلق بوساطته الأنبياء عليهم السلام فإنهم أشعة أنواره وعكوسات آثاره وهو

النور الحق والنبي المطلق وكان نبياً وآدم بين الماء والطين وقد تلقى الأنبياء منه من وراء حجاب الأرحام والأصلاب وظهروا إذ كان محتجباً ظهور الكواكب في الليل فلما بزغت شمس النبوة المطلقة من أفق الظهور غابوا ونسخت أحكامهم على نحو غيبوبة الكواكب وإمحاق أنوارها وأضوائها عند طلوع الشمس من تحت الحجاب منخلعة عن الجلباب

(141/461)

﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ويخافون عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء : 57] لعلمهم بجماله وجلاله والرجاء والخوف جناحاً من يطير إلى حضرة القدس وروضة الانس ومن عطل أحدهما تعطل عن الطيران ﴿ واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ إلى قوله سبحانه ﴿ وكفى بِرَبّكَ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : 64 ، 65] فيه إشارة إلى اختلاف مراتب تمكن الشيطان من إغواء بني آدم فمن كان منهم ضعيف الاستعداد استفزه واستخفه بصوته فأغواه بوسوسة وهمس بل هاجسة ولمة ، ومن كان قوي الاستعداد فإن كان خالصاً عن شوائب الغيرية أو عن شوائب الصفات النفسانية لم يتمكن من إغوائه وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ [الإسراء : 65] وإن لم يكن خالصاً فإن كان منغمساً في الشواغل الحسية منهمكاً في الأمور الدنيوية شاركه في أمواله وأولاده وحرضه على

إشاركهم بالله تعالى في المحبة وسول له التمتع والتكاثر والتفاخر بهم ومناه الأماني الكاذبة وزين له الآمال الفارغة ، وإن لم ينغمس فإن كان عالماً بتسويلاته أجلب عليه بخيله ورجله أي مكر بأنواع الحيل وكاده بصنوف الفتن وأفتاه بأن تحصيل أنواع الحطام والملاذ من جملة مصالح المعاش وغره بعلمه وحمله على الإعجاب به وأمثال ذلك حتى أضله على علم ، وإن لم يكن عالماً بل كان عابداً متناسكاً أغواه بالوعد وغره برؤية الطاعة وتزكية النفس ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾ [الإسراء : 70] الآية قيل كرمهم تعالى بأن خلق أباهم آدم على صورة الرحمن وجعل لهم ذلك بحكم الوراثة وأن الولد سر أبيه وفضلهم على الكثير بأن جعل لهم من النعم ما يستغرق العد وجوز أن يقال : تكريمهم بأن بسط موائد الأنعام لهم وجعل من عداهم طفيلياً ، وتفضيلهم بما ذكر في التكريم أولاً وفيه احتمالات أخر ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامهم ﴾ أي نناديهم بنسبتهم إلى من كانوا يقتدون به في الدنيا لأنه المستعلي

(142/461)

محبتهم إياه على سائر محباتهم ﴿ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَابَه بِيَمِينِهِ ﴾ أي من جهة العقل الذي هو أقوى جانبيه ﴿ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءونَ كِتَابهم ﴾ ويأخذون أجور أعمالهم المكتوبة فيه ﴿ وَلاَ

يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [الإسراء : 71] أدنى شيء حقير من ذلك ﴿ وَمَن كَانَ فِى هذه أعمى ﴾ عن الاهتداء إلى الحق فهو في الآخرة أعمى أيضاً ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 72] لبطلان الكسب هناك وهذا الذي يؤتي كتابه بشماله أي من جهة النفس التي هي أضعف جانبيه إلا أنه عبر عنه بما ذكر لما قدمنا ، والله تعالى هو الهادي إلى سواء السبيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(143/461)

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قرر أن من ترك سبيل الرشد كان كالأعمى ، ومن تبعها كان كالبصير ، أتبعه دليله فقال محذراً للبصراء عن الاغترار بوساوس الأشقياء : ﴿ وإن ﴾ أي وأكثر هؤلاء أعمى ، قد

افتتن في نفسه بهواه مع بياننا لطريق الرشد بما أوحينا إليك من هذه الحكمة حتى صارت أوضح من الشمس وإن الأعداء ﴿ كادوا ﴾ أي قاربوا في هذه الحياة الدنيا لعماهم في أنفسهم عن عصمة الله لك بسبب عماهم عما جبلت عليه من الفطنة ، وجودة الفطرة ، وذكاء القريحة ، وثقوب الفهم ، وبعد المرمى في الوقوف على خداع المخادعين ، ومكر الماكرين ، لتجلي الدقائق في مرآة قلبك الصقيلة وصافي فكرتك الشفافة .

(144/461)

ولما كانت " إن " مخففة من الثقيلة أتى باللام الفارقة بينها وبين النافية فقال تعالى :

﴿ ليفتنونك ﴾ أي ليخالطونك مخالطة تمليك إلى جهة قصدهم بكثرة خداعهم بإطماعهم لك في الموافقة لما يعلمون من ظاهر الحياة الدنيا ﴿ عن الذي أوحينا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ إليك ﴾ من الحكمة ﴿ لتفتري ﴾ أي تقطع متعمداً ﴿ علينا ﴾ على عظمتنا ﴿ غيره ﴾ من طرد من أوحينا إليك الأمر بمصابرتهم ، إطماعاً منهم في إسلام من هو بحيث يرجى إسلامه إسلام الجم الغفير منهم لشرفه ونحو ذلك مما عناه الله سبحانه وهو أعلم بمراده ؛ قال الرماني : وأصل الفتنة ما يطلب به خلاص الشيء مما لابسه ﴿ وإذا ﴾ أي لو ملت إليهم ﴿ لاتخذوك ﴾ أي بغاية الرغبة ﴿ خليلاً ﴾ ومن كان خليل الكفار لم

يكن خليل الله ، ولكنك أبصرت رشدك فلزمت أمر الله ، واستمروا على عماهم إتماماً لتفضيلنا لك على كل مخلوق ، وقد تقدم قريباً ما تدور عليه مادة " فرا " وأنه السعة ، وقد بقي من تقاليبها اليائي والمهموز ، فمعنى فريت الأديم : شققته فاسداً أو صالحاً - لأنه يتسع بذلك ، وقال القزاز : الفري مصدر فريت الأديم - إذا شققته للإصلاح ، وأفريته - إذا شققته للإفساد - كأن همزته للإزالة ، وحكى أبو عبيدة : فريت الشيء وأفريته : قطعته ، وفرى الكذب وافتراه : اختلقه - لأنه اتساع في القول وزيادة على ما يكفي من الصدق وتجاوز للحد ، وفرى المزادة : خلقها وصنعها ، وقال القزاز : خرزها - لأنها تسع ما لا تسعه قبل الخرز ، قال : وأصل الفري الشق - يعني : والخرز واقع في الشق ، فالعلاقة المحل ، وفرى الأرض : سارها وقطعها - تشبيهاً لها بالأديم ، وفرى - كرضي : تحير ودهش - من التسمية باسم السبب ، لأن سبب الدهش كثرة وعظم في المحسوس ، وأفراه ، أصلحه أو أمر بإصلاحه - لأن الإصلاح سعة بالنسبة إلى الإفساد ، وأفرى فلاناً : لامه - لأنه يلزم منه الزيادة في الكلام لما يحاج به الملوم ، والفرية : الجلبة - لأنها زيادة عن الكلام

المعتاد ، وبالكسر : الكذب ، وكغنى : الأمر المختلق المصنوع أو العظيم ، والواسعة من الدلاء كالفرية ، والحليب ساعة تحلب - لارتفاع الرغوة ، وتفرى الشيء : انشق ، والعين : انبجست ، وهو يفري الفرى كغنى : يأتي بالعجب في عمله .

وقال القزاز : وتركت فلاناً يفري ويقد ، أي حادّ في الأمر ، وفلاناً يفري منذ اليوم - إذا جاء بالعجب ، لأنه لا يعجب إلا ما زاد على الكفاية .

والرفة : التبن - لأنه ما فضل عن الحب ، والرفة : دويبة تصيد تسمى عناق الأرض - لأن حالها أوسع من حال ما لا يصيد ، ذكر هذا صاحب مختصر العين في المعتل بالياء فوزنه ثبة ، وساقه صاحب القاموس في الهاء وقال فيما مدلوله التبن : إنه كصرد ، ثم ساقه في المعتل الواوي في ورف وقال : والرفة كثبة : التبن ، فاضطرب كلامه فوجب قبول مختصر العين ، لكن ذكره الإمام أبو غالب بن التباني - وهو من يخضع له - في كتابه الموعب في مقلوب رهف فقال ناسباً له إلى كتاب العين ما نصه : والرفة : التبن ، قال غيره : ويقال في مثل من الأمثال : استغنت التفه عن الرفه ، والتفه : عناق الأرض ، وهي دويبة كالثعلب خبيثة ، تصيد كل شيء ، وذلك أنها لا تأكل إلا اللحم - أبو حنيفة مثله ، كله انتهى بحروفه ، وقال صاحب القاموس في المعتل : والتفة ذكر في ت ف ف ، وقال في الهاء : والتفه كثبه : عناق الأرض ، وقال في الفاء : والتفة - كقفة : دويبة كجرو الكلب أو كالفأرة ، واستغنت التفة

عن الرفة ؛ ويخففان ، يضرب للئيم إذا شبع .

فلعل هذا الاختلاف لغات – والله أعلم .

(146/461)

قال في مختصر العين : والأرفي مثل كركي : اللبن المحض الطيب – لفيضه كالغائر ، جعله المختصر يائياً ، والقاموس واوياً ، ثم أعاده في المهموز فقال : والأرفي – كقمري : اللبن الخالص ، وساق القزاز في اليائي : رافيت الرجل أرافيه مرافاة – إذا وافقته – لأن ذلك أوسع في العشرة ، والريف بالكسر – الخصب ، وقال في القاموس : أرض فيها زرع وخصب ، والسعة في المأكل والمشرب ، وما قارب الماء من أرض العرب ، أو حيث الخضر والمياه والزروع ، وراف البدوي : أتى الريف ، والراف : الخمر – وهو لا يكون إلا عن سعة ، وأرض ريفة ككيسة : خصبة ، وأرافت الأرض : أخصبت .

(147/461)

ومن المهموز : رفأ السفينة – كمنع وأرفأها : أدناها من الشط – لاتساع من فيها بالبر ، وبالنسبة إليها يكون للسلب ، والموضع مرفأ ، ويضم ، ورفأ بينهم : أصلح ، وأرفأ ، جنح ، وامتشط ودنى وأدنى وحابى ودارا أكرافاً وإليه لجأ ، وترافؤوا : توافقوا وتواطؤوا ، واليرفئ كاليلمعي : راعي الغنم والظليم النافر والظبي القفوز المولى والمنتزع القلب فزعاً – كأنه شبه بالظليم في اتساع حركته وعدم ثباته ، وذلك شبيه أيضاً بفوران القدر في مجاوزة الحد ، ورفأت العروس ترفئة وترفيئاً – تقدم في الواوي ، والرأف : الخمر والرجل الرحيم ، أو الرأفة : أشد الرحمة أو أرقها ، ولا شك في دخول ذلك في السعة ، ورأف : موضع أو رملة – ولعلهما واسعان ، والفرأ – كجبل وسحاب : حمار الوحش أو الفتيّ منه – لشدة نفاره كالقدر في فورانها ، وأمر فريء كفريّ ، وكل الصيد في جوف الفرا ، أي كله دونه ، وفرأ – محركة : جزيرة باليمن – لعله بها بكثرة ، والفأر معروف ، والواحدة فأرة ، والجمع فئران – سمي لقفزه في جرية ، ولأنه وسع من الحشرات تصرفاً بالمشي في الجدر والسقوف ونحوها ، والفأرة : شجرة ونافجة المسك ، قال في القاموس : أو الصواب إيراد فارة المسك في ف و ر لفوران رائحتها ، أو يجوز همزها لأنها على هيئة الفأرة ، وفأر كمنع : حفر وخبأ ودفن – يمكن أن يكون من السعة ومن سلبها ؛ ولبن فئر – ككتف : وقعت فيه الفأرة ، وأرض فئرة ومفأرة : كثيرة الفأر ، وأفرت القدر بالفتح تأفر أفراً : اشتد غليانها ، والإنسان : وثب وعدا ، والبعير : نشط وسمن بعد الجهد كأفر كفرح فيهما ، وخف في الخدمة ،

والذي يسعى بين يدي الإنسان ويخدمه مئفر، والأفرة - بضمتين وتشديد الراء: الجماعة - وقيدها في مختصر العين بذات الجلبة - والبلية والاختلاط، وكل ذلك واضح في الاتساع والزيادة على الكفاية، والأفرة أيضاً شدة الشر - لشدة فورانه كالقدر، وشدة الشتاء أو مطلق الشدة، ومن الصيف: أوله -

(148/461)

لأنه يتسع به، قال في القاموس: ويفتح أولها ويحرك في الكل؛ والأرفة - بالضم: الحد بين الأرضين والعقدة - وكأن هذا سلب الاتساع، والأرفي كقمري: الماسح، وأرف على الأرض تأريفاً: جعلت لها حدود وقسمت، وتأريف الحبل: عقده، وهو مؤارفي حده إلى حدي في السكنى والمكان - والله الموفق.

ولما ذكره سبحانه بما كان في ذلك من رشده صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أتبعه ببيان أنه إنما كان بعصمة الله له ليزداد شكراً، فقال تعالى: ﴿ولولا أن ثبتناك﴾ أي بما لنا من العظمة على ما أمرنا لما تقدم من أنا مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأنت رأس المتقين والمحسنين ﴿لقد كدت﴾ أي قاربت ﴿تركن إليهم﴾ أي الأعداء ﴿شيئاً قليلاً﴾ لمحبتك في هدايتهم وحرصك على منفعتهم، وكنا عصمناك فلم تركن إليهم لا قليلاً ولا

كثيراً ، ولا قاربت ذلك ، كما أفادته ﴿ لولا ﴾ لأنها تدخل على جملة اسمية فجملة فعلية لربط امتناع الثانية بوجود الأولى ، فامتناع قرب الركون مرتبط بوجود التثبيت ، وذلك لأن ﴿ لولا ﴾ لانتفاء الثاني لأجل انتفاء الأول ، وهي هنا داخلة على لا النافية ، فتكون لانتفاء قرب الركون لأجل انتفاء التثبيت ، وانتفاء النفي وجود ، فإذن التثبيت موجود ، وقرب الركون منتف .

(149/461)

ويجوز أن يكون المراد الدلالة على شدة مكرهم وتناهي خداعهم إلى حالة لا يدرك وصفها ، فيكون الفعل مسنداً إليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، والمراد إسناده إليهم ليكون المعنى : كادوا أن يجعلوك مقارباً للركون إليهم ، كما تقول لصاحبك : لقد كدت تقتل نفسك ، أي فعلت ما قاربت به أن يقتلك غيرك لأجل فعلك ، وهذه الآية من الأدلة الواضحة على ما خص به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الفضائل في شرف جوهره ، وزكاء عنصره ، ورجحان عقله ، وطيب أصله ، لأنها دلت على أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لو وكل إلى نفسه وما خلق الله في طبعه وجبلته من الغرائز الكاملة والأوصاف الفاضلة ، ولم يتداركه بما منحه من التثبيت زيادة على ذلك حال النبوة لم يركن

إليهم ، وهم أشد الناس أفكاراً ، وأصفاهم أفهاماً ، وأعلمهم بالخداع ، مع كثرة عددهم ، وعظم صبرهم وجلدهم - ركوناً ما أصلاً ، وإنما كان قصاراهم أن يقارب الركون شيئاً قليلاً ، فسبحان من يخص من يشاء بما يشاء ، وهو ذو الفضل العظيم ﴿ إذاً ﴾ أي لو قاربت الركون الموصوف إليهم ﴿ لأذقناك ﴾ أي بعظمتنا ﴿ ضعف ﴾ عذاب ﴿ الحياة وضعف ﴾ عذاب ﴿ الممات ﴾ أي ذلك العذاب مضاعفاً .

وهذه المادة تدور على الوهي ، ويلزمه التقوية بالضعف - بكسر الضاد أي المثل وما زاد ، وكل شيء له مكاثر فهو ضعيف بدونه ، ويلزم الضعف الذي هو المثل المضموم إلى مثله : القوة ، فمن الوهي : الضعف والضعف بالفتح والضم ، وهو خلاف القوة ، وقيل : الضعف بالفتح في العقل والرأي ، وبالضم في الجسد ، والضعيف : الأعمى - حميرية ، وأرض مضعفة للمفعول : أصابها مطر ضعيف ، وضعف الشيء بالكسر : مثله - لأن كل ما له مثل فهو ضعيف ، وضعفاه مثلاه .

(150/461)

ويقال : لك ضعفه ، أي مثلاه ، وثلاثة أمثاله ، لأن أصل الضعف زيادة غير محصورة ، وضاعفت الشيء ، أي ضممت إلى الشيء شيئين فصار ثلاثة ، وأضعاف الكتاب :

أثناء سطوره - لأنها أمثال للسطور من البياض وزيادة عليها ومن القوة التي تلزم المثل : أضعاف البدن وهي أعضاؤه - لأن غالبها مثنى ، أو هي عظامه - لأنها أقوى ما فيه ، ومن الضعف أيضاً مقلوبة الذي هو ضفع - إذا أحدث وضرط ، وكذا مقلوبة فضع ، والضفع نجو الفيل ، والضفعانة : ثمرة السعدانة ذات الشوك مستديرة - كأنها فلكة ، فالمعنى - والله أعلم : أذقناك وهي الحياة ووهي الممات مضاعفاً أضعافاً كثيرة .

ولما كانت القوة بعد هذا في غاية البعد ، عبر بأداة التراخي في قوله تعالى : ﴿ ثم لا تجد لك ﴾ أي وإن كنت أعظم الخلق وأعلاهم همة ﴿ علينا نصيراً ﴾ والآية دالة على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظيم شأن مرتكبه وارتفاع منزلته ، وعلى أن أدنى مداهنة للغواة مضادة لله وخروج عن ولايته ، فعلى من تلاها أن يتدبرها وأن يستشعر الخشية وعظيم التصلب في الدين .

(151/461)

ولما بين أنهم استمالوه بالرفق حتى كادوا - لولا العصمة - أن يميلوه ، دل على أنهم أخافوه بعد ذلك حتى كادوا أن يخرجوه من وطنه قبل الإذن الخاص بالهجرة فقال تعالى :

﴿ وإن ﴾ أي وإنهم ﴿ كادوا ﴾ أي الأعداء ﴿ ليستفزونك ﴾ أي يستخفونك بكثرة

الأذى الذي من شأنه ذلك فيما جرت به العوائد ﴿ من الأرض ﴾ أي المكية التي هي الأرض كلها لأنها أمها ﴿ ليخرجوك منها ﴾ مع أن وجودك عندهم رحمة لهم ، فلا أعمى منهم ! وأصل الفز القطع بشدة – قاله الرماني ﴿ وإذاً ﴾ أي وإذا أخرجوك ﴿ لا يلبثون خلافك ﴾ أي بعد إخراجك لو أخرجوك ﴿ إلا قليلاً ﴾ وسيعلمون إذا أذنا لك في النزوح كيف نصبّ عليهم العذاب بعد خروجك بقليل ، برمحك الطويل ، وسيفك الصقيل ، وسيوف أتباعك المؤمنين ، لثبوت هذا الدين ، وقد حقق الله سبحانه هذا الوعيد بقتل صناديدهم في غزوة بدر في رمضان من السنة الثانية من الهجرة بعد ثمانية عشر شهراً من مهاجرته صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وحرم على المشركين الذين أخرجوه صلى الله عليه وعلى آله وسلم من مكة المشرفة الدخول إليها والإقامة في حريمها من جزيرة العرب ، إكراماً له صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وانتقاماً ممن يعتقد شيئاً من كفر من أخرجوه ؛ ورفع ﴿ يلبثون ﴾ لأن ﴿ إذن ﴾ إذا وقعت بعد الواو والفاء جاز فيها الإلغاء ، لأنها متوسطة في الكلام كما أنه لا بد من أن تلغى في آخر الكلام ، وفي الآية بيان لأن الجاهل لا يزال ينصب للعالم الحبائل ، ويطلب له الغوائل ، فيعود ذلك عليه بالوبال ، في الحال والمآل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 409. 414 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ خلفك ﴾ ابن كثير وأبو جعفر ونافع وأبو عمرو وأبو بكر وحماد . الآخرون ﴿ خلافك ﴾ بكسر الخاء بالألف ﴿ وننزل من ﴾ مخففاً : أبو عمرو ويعقوب الياقوت بالتشديد وياء تحتانية ﴿ وناء بجانبه ﴾ مثل " ناع " : يزيد وابن ذكوان ﴿ ونأى ﴾ يفتح النون وإمالة الهمزة مثل " رمى " . حمزة غير خلف والعجلي وحماد ويحيى وعباس وأبو شعيب ونصير مثله ولكن بكسر النون على غير نصير ، وخلف والعجلي وخلف لنفسه . الباقون بفتحتين كرمى .

الوقوف : ﴿ خليلاً ﴾ 5 ﴿ قليلاً ﴾ 5 لا لتعلق " إذا " ﴿ بصيراً ﴾ 5 ﴿ قليلاً ﴾ 5 ﴿ تحويلاً ﴾ 5 ﴿ وقرآن ﴾ 5 ﴿ الفجر ﴾ ط ﴿ مشهوداً ﴾ 5 ﴿ نافلة لك ﴾ قف والوصل أولى لأن " عسى " وعد على التهجد ﴿ محموداً ﴾ 5 ﴿ نصيراً ﴾ 5 ﴿ وزهق الباطل ﴾ ط ﴿ زهوقاً ﴾ 5 ﴿ للمؤمنين ﴾ 5 لا لأن ما بعده من صلة " ما " ﴿ خساراً ﴾ 5 ﴿ بجانبه ﴾ ج لعطف حملتي الظرف ﴿ بؤساً ﴾ 5 ﴿ شاكلته ﴾ ط ﴿ سبيلاً ﴾ 5 ﴿ عن الروح ﴾ ط ﴿ قليلاً ﴾ 5 ﴿ وكيلاً ﴾ 5 لا ﴿ من

ربك ﴾ ط ﴿ كبيراً ﴾ 5 ﴿ ظهيراً ﴾ 5 ﴿ مثل ﴾ ز لعطف المتفقين معنى المختلفين لفظاً ﴿ كفوراً ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 372 ﴾

(153/461)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) ﴾

اعلم أنه تعالى لما عدد في الآيات المتقدمة أقسام نعمه على خلقه وأتبعها بذكر درجات الخلق في الآخرة وشرح أحوال السعداء أردفه بما يجري مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضلال والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر والتلبيس فقال : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال ابن عباس في رواية عطاء نزلت هذه الآية في وفد ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه شططاً ، وقالوا متعنا باللات سنة وحرم وادينا كما حرمت مكة شجرها

وطيرها ووحشها فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم فكرروا ذلك الالتماس ، وقالوا إنا نحب أن تعرف العرب فضلنا عليهم ، فإن كرهت ما تقول وخشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا ، فقل : الله أمرني بذلك فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وداخلهم الطمع ، فصاح عليهم عمر وقال : أما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمسك عن الكلام كراهية لما تذكرونه ؟ فأنزل الله هذه الآية ، وروى صاحب "الكشاف" أنهم جاءوا بكاتبهم فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله إلى ثقيف لا يعشرون ولا يحشرون ، فقالوا ولا يجبون ، فسكت رسول الله ، ثم قالوا للكاتب : اكتب ولا يجبون والكاتب ينظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عمر بن الخطاب وسل سيفه ، وقال : أسعرتم قلب نبينا يا معشر قريش ، أسعر الله قلوبكم ناراً .

فقالوا لسنا نكلمك إنما نكلم محمداً ، فنزلت هذه الآية واعلم أن هذه القصة إنما وقعت بالمدينة فلهذا السبب قالوا إن هذه الآيات مدنية .

وروى أن قريشاً قالوا له : اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة ، حتى نؤمن بك .

فنزلت هذه الآية وقال الحسن : الكفار أخذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة بمكة قبل الهجرة فقالوا : كف يا محمد عن ذم آلهتنا وشتمها فلو كان ذلك حقاً كان فلان وفلان بهذا الأمر أحق منك فوقع في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكف عن شتم آلهتهم .

وعلى هذا التقدير فهذه الآية مكية ، وعن سعيد بن جبير أنه عليه السلام كان يستلم الحجر فتمنعه قريش ويقولون لا ندعك حتى تستلم آلهتنا (1) فوقع في نفسه أن يفعل ذلك مع كراهية ، فنزلت هذه الآية .

المسألة الثانية :

قال الزجاج معنى الكلام كادوا يفتنونك ودخلت إن واللام للتأكيد وإن مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية ، والمعنى إن الشأن (أنهم) قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك فاتنين (و) أصل الفتنة الاختبار يقال فتن الصائغ الذهب إذا أدخله النار وأذابه لتميز جيده من رديئه ثم استعملوه في كل من أزال الشيء عن حده وجهته فقالوا فتنه فقوله : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي يزيلونك ويصرفونك عن الذي أوحينا إليك يعني القرآن ، والمعنى عن حكمة وذلك لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن ، وقوله : ﴿ لِتفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ أي غير ما أوحينا إليك وهو قولهم : قل الله أمرني بذلك ﴿ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلاً وأظهروا

للناس أنك موافق لهم على كونهم وراض بشركهم ثم قال: ﴿ وَلَوْلَا أَن ثبتناك ﴾ أي على الحق بعصمتنا إياك ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾ أي تميل إليهم شيئاً قليلاً وقوله: ﴿ شَيْئًا ﴾ عبارة عن المصدر أي ركوناً قليلاً، قال ابن عباس يريد حيث سكت عن جوابهم.

قال قتادة لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم:

---

(1) في الأصل حتى تستلم بآلهتنا. واستلم فعل متعدي لا يحتاج إلى جار فلذلك آثرت حذفه، وما بين الأقواس المربعة هنا وفيما يأتي زيادة اقتضاها سياق الكلام وليست في الأصول.

" اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين " ثم توعده في ذلك أشد التوعد فقال: ﴿ إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ المماتَ ﴾ أي ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة والضعف عبارة عن أن يضم إلى الشيء مثله فإن الرجل إذا قال لوكيله أعط فلاناً شيئاً فأعطاه درهماً فقال أضعفه كان المعنى ضم إلى ذلك الدرهم مثله إذا عرفت هذا فنقول: إنا حسن إضمار العذاب في قوله: ﴿ ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ

الممات ﴾ لما تقدم في القرآن من وصف العذاب بالضعف في قوله : ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هذا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى النار ﴾ [ص : 61] وقال : ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولكن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 38] وحاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون إليه همتك لاستحققت بذلك تضعيف العذاب عليك في الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثلي عذاب المشرك في الدنيا ومثلي عذابه في الآخرة والسبب في تضعيف هذا العذاب أن أقسام نعم الله تعالى في حق الأنبياء عليهم السلام أكثر فكانت ذنوبهم أعظم فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر ونظيره قوله تعالى : ﴿ يانساء النبى مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بفاحشة مُّبَيّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العذاب ضِعْفَيْنِ ﴾ [الأحزاب : 30] فإن قيل قال عليه السلام : " من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " فموجب هذا الحديث أنه عليه السلام لو رضي بما قالوه لكان وزره مثل وزر كل أحد من أولئك الكفار وعلى هذا التقدير يكون عقابه زائداً على الضعف قلنا إثبات الضعف لا يدل على نفي الزائد عليه إلا بالبناء على دليل الخطاب وهو حجة ضعيفة ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ يعني إذا أذقناك العذاب المضاعف لم تجد أحداً يخلصك من عذابنا وعقابنا ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية فقالوا هذه الآية تدل على صدور الذنب العظيم عنهم من وجوه.

الأول: أن الآية دلت على أنه عليه السلام قرب من أن يفتري على الله، والفرية على الله من أعظم الذنوب.

والثاني: أنها تدل على أنه لولا أن الله تعالى ثبته وعصمه لقرب من أن يركن إلى دينهم ويميل إلى مذهبهم.

والثالث: أنه لولا سبق جرم وجناية وإلا فلا حاجة إلى ذكر هذا الوعيد الشديد والجواب عن الأول: أن كاد معناه المقاربة فكان معنى الآية أنه قرب وقوعه في الفتنة، وهذا القدر لا يدل على الوقوع في تلك الفتنة فإنا إذا قلنا كاد الأمير أن يضرب فلاناً لا يفهم منه أنه ضربه، والجواب عن الثاني: أن كلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره، تقول لولا علي لهلك عمر، معناه أن وجود علي منع من حصول الهلاك لعمر، فكذلك ههنا قوله: ﴿ وَلَوْلَا أَن ثبتناك لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾ معناه أنه حصل تثبيت الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم فكان حصول ذلك التثبيت مانعاً من حصول ذلك الركون، والجواب عن الثالث: أن ذلك التهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها والدليل عليه آيات منها قوله: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ [الحاقة: 44 46]

ومنها قوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] ومنها قوله : ﴿ وَلَا تُطِعِ الكافرين والمنافقين ﴾ [الأحزاب : 48] ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

احتج أصحابنا على صحة قولهم بأنه لا عصمة عن المعاصي إلا بتوفيق الله تعالى بقوله : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثبتناك لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ قالوا إنه تعالى بين أنه لولا تثبيت الله تعالى له لمال إلى طريقة الكفار ولا شك أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان أقوى من غيره في قوة الدين وصفاء اليقين فلما بين الله تعالى أن بقاءه معصوماً عن الكفر والضلال لم يحصل إلا باعانة الله تعالى وإغاثته كان حصول هذا المعنى في حق غيره أولى .

قالت المعتزلة : المراد بهذا التثبيت الألطاف الصارفة له عن ذلك وهي ما خطر بباله من ذكر وعده ووعيده ، ومن ذكر أن كونه نبياً من عند الله تعالى يمنع من ذلك ، والجواب : لا شك أن هذا التثبيت عبارة عن فعل فعله الله يمنع الرسول من الوقوع في ذلك العمل المحذور ، فنقول : لو لم يوجد المقتضى للإقدام على ذلك العمل المحذور في حق الرسول لما كان إلى إيجاد هذا المانع حاجة وحيث وقعت الحاجة إلى تحصيل هذا المانع علمنا أن المقتضى قد

حصل في حق الرسول صلى الله عليه وسلم وأن هذا المانع الذي فعله الله منع ذلك المقتضى من العمل وهذا لا يتم إلا إذا قلنا إن القدرة مع الداعي توجب الفعل، فإذا حصلت داعية أخرى معارضة للداعية الأولى اختل المؤثر فامتنع الفعل ونحن لا نريد إلا إثبات هذا المعنى، والله أعلم.

المسألة الخامسة:

قال القفال رحمه الله: قد ذكرنا في سبب نزول هذه الآية الوجوه المذكورة، ويمكن أيضاً تأويلها من غير تقييد بسبب يضاف نزولها فيه لأن من المعلوم أن المشركين كانوا يسعون في إبطال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقصى ما يقدرون عليه، فتارة كانوا يقولون: إن عبدت آلهتنا عبدنا إلهك، فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلْ يا أَيُّها الكافرون لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الكافرون: 1، 2] وقوله: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: 9] وعرضوا عليه الأموال الكثيرة والنسوان الجميلة ليترك ادعاء النبوة فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ [طه: 131] ودعوه إلى طرد المؤمنين عن نفسه فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ [الأنعام: 52] فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت في

هذا الباب وذلك أنهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه وأن يزيلوه عن منهجه ، فبين تعالى أنه يثبته على الدين القويم والمنهج المستقيم ، وعلى هذا الطريق فلا حاجة في تفسير هذه الآيات إلى شيء من تلك الروايات ، والله أعلم .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) ﴾

في هذه الآية قولان : الأول : قال قتادة : هم أهل مكة هموا بإخراج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة ، ولو فعلوا ذلك ما أمهلوا ، ولكن الله منعهم من إخراجه ، حتى أمره الله بالخروج ، ثم إنه قل لبثهم بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة حتى بعث الله عليهم القتل يوم بدر وهذا قول مجاهد .

(159/461)

والقول الثاني : قال ابن عباس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فقالوا : يا أبا القاسم إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام وهي بلاد مقدسة وكانت مسكن إبراهيم فلو خرجت إلى الشام آمنا بك واتبعناك وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم فإن كنت رسول الله فالله مانعك منهم .

فعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أميال من المدينة قيل بذي الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازماً على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس في دين الله فنزلت هذه الآية فرجع .

فالقول الأول اختيار الزجاج وهو الوجه لأن السورة مكية فإن صح القول الثاني كانت الآية مدنية ، والأرض في قوله : ﴿ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض ﴾ على القول الأول مكة وعلى القول الثاني المدينة وكثر في التنزيل ذكر الأرض والمراد منها مكان مخصوص كقوله : ﴿ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأرض ﴾ [المائدة : 33] يعني من مواضعهم وقوله : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض ﴾ [يوسف : 80] يعني الأرض التي كان قصدها لطلب الميرة ، فإن قيل قال الله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مّن قَرْيَتِكَ التى أَخْرَجَتْكَ ﴾ [محمد : 13] يعني مكة والمراد أهلها فذكر أنهم أخرجوه وقال في هذه الآية : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ فكيف (يمكن) الجمع بينهما على قول من قال الأرض في هذه الآية مكة ؟ قلنا : إنهم هموا بإخراجه وهو عليه السلام ما خرج بسبب إخراجهم وإنما خرج بأمر الله تعالى ، فزال التناقض .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خلافك إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو عن عاصم (خلفك) بفتح الخاء وسكون اللام والباقون ﴿ خلافك ﴾ زعم الأخفش أن خلافك في معنى خلفك وروى ذلك يونس عن عيسى وهذا كقوله : ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ خلاف رَسُولِ الله ﴾ [التوبة : 81] وقال الشاعر :

عفت الديار خلافهم فكأنما . . بسط الشواطب بينهن حصير

قال صاحب "الكشاف" قرئ ﴿ لا يلبثون ﴾ وفي قراءة أبي ﴿ لا يلبثوا ﴾ على إعمال إذاً ، فإن قيل : ما وجه القراءتين ؟ قلنا : أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل وهو مرفوع لوقوعه خبر كاد والفعل في خبر كاد واقع موقع الاسم وأما قراءة أبي ففيها الجملة برأسها التي هي قوله : ﴿ إذاً لا يلبثوا ﴾ عطف على جملة قوله : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 17 . 20 ﴾

(161/461)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره ﴾

فيه قولان :

أحدهما : ما روى سعيد بن جبير أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستلم الحجر في طوافه فمنعته قريش وقالوا لا ندعك تستلم حتى تلم بآلهتنا فحدث نفسه وقال : " ما عليّ أن أُلمّ بها بعد أن يعدوني أستلم الحجر والله يعلم أني لها كاره " فأبى الله تعالى وأنزل عليه هذه الآية ، قاله مجاهد وقتادة .

الثاني : ما روى ابن عباس أن ثقيفاً قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : أجِّلْنا سنة حتى نأخذ ما نُهدي لآلهتنا ، فإذا أخذناه كسرنا آلهتنا وأسلمْنا ، فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطيعهم ، فأنزل الله هذه الآية .

﴿ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لتدّعي علينا غير وحينا .

الثاني : لتعتدي في أوامرنا .

﴿ وإذاً لاتخذوك خليلاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : صديقاً ، مأخوذ من الخُلة بالضم وهي الصداقة لممالأته لهم .

الثاني : فقيراً ، مأخوذ من الخلة بالفتح وهي الفقر لحاجته إليهم .

قوله عز وجل : ﴿ إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك .

الثاني : لأذقناك ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة ، حكاه الطبري :

وفي المراد بالضِّعف ها هنا وجهان :

أحدها : النصيب ، ومنه قوله تعالى ﴿ لكل ضِعفٌ ﴾ [الأعراف : 38] أي نصيب .

الثاني : مثلان ، وذلك لأن ذنبك أعظم .

وفيه وجه ثالث : أن الضعف هو العذاب يسمى ضعف لتضاعف ألمه ، قاله أبان بن تغلب

وأنشد قول الشاعر :

لمقتل مالكٍ إذ بان مني . . . أبيتُ الليل في ضعفٍ أليم

قال قتادة : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم لا تكلني إلى

نفسي طرفة عين

. "

قوله عز وجل : ﴿ وإن كادوا ليستفزونَك مِنَ الأرض ليخرجوك منها ﴾ في قوله ﴿

ليستفزّونك ﴾

وجهان :

أحدهما : يقتلونك ، قاله الحسن .

الثاني : يزعجونك باستخفافك ، قاله ابن عيسى . قال الشاعر :

يُطِيعُ سَفِيهَ القوْمِ إذ يَسْتَفِزُّهُ . . . ويعْصِي حَكِيماً شَيَّبَتْهُ الْهَزَاهِزُ

وفي قوله ﴿ ليخرجوك منها ﴾ أربعة أقاويل :

أحدها : أنهم اليهود أرادوا أن يخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة ، فقالوا : إن أرض الأنبياء هي الشام وإن هذه ليست بأرض الأنبياء ، قاله سليمان التيمي .

الثاني : أنهم قريش هموا بإخراج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قبل الهجرة ، قاله قتادة .

الثالث : أنهم أرادوا إخراجه من جزيرة العرب كلها لأنهم قد أخرجوه من مكة . الرابع : أنهم أرادوا قتله ليخرجوه من الأرض كلها ، قاله الحسن .

﴿ وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً ﴾ يعني بعدك ، قال خلْفك وخلافك وقد قرئا جميعاً بمعنى بعدك ، ومنه قول الشاعر :

عَفَتِ الدِّيَارُ خِلاَفَها فكَأَنَّما . . . بَسَطَ الشَّوَاطبُ بَيْنَهُم حَصِيراً

وقيل خلفك بمعنى مخالفتك ، ذكره ابن الأنباري .

﴿ إلا قليلاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن المدة التي لبثوها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر ، وهذا قوله من ذكر

أنهم قريش .

الثاني : ما يبن ذلك وقتل بني قريظة وجلاء بني النضير ، وهذا قول من ذكر أنهم اليهود .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(163/461)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ الآية ، ﴿ إن ﴾ هذه عند سيبويه هي المخففة من الثقيلة ، واللام في قوله ﴿ ليفتنونك ﴾ لام تأكيد ، و﴿ إن ﴾ هذه عند الفراء بمعنى ما ، واللام بمعنى إلا والضمير في قوله ﴿ كادوا ﴾ قيل هو لقريش وقيل لثقيف ، فأما لقريش ، فقال ابن جبير ومجاهد : نزلت الآية لأنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ندعك تستلم الحجر

الأسود حتى تمس أيضاً أوثاننا على معنى التشرع بذلك ، قال الطبري وغيره : فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يظهر لهم ذلك ، وقلبه منكر فنزلت الآية في ذلك قال الزجاج : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفسه " وما علي أن أفعل لهم ذلك والله تعالى يعلم ما في نفسي " وقال ، ابن إسحاق وغيره ، إنهم اجتمعوا إليه ليلة فعظموه ، وقالوا له : أنت

سيدنا ولكن أقبل على بعض أمرنا ونقبل على بعض أمرك ، فنزلت الآية في ذلك فهي في معنى قوله تعالى :

﴿ ودّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ [القلم : 9] . وحكى الزجاج أن الآية قيل إنها فيما أرادوه من طرد فقراء أصحابه ، وأما لثقيف ، فقال ابن عباس وغيره : لأنهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤخرهم بعد إسلامهم سنة يعبدون فيها اللات ، وقالوا إنا نريد أن نأخذ ما يهدى لنا ، ولكن إن خفت أن تنكر ذلك عليك العرب ، فقل : أوحى الله ذلك إلي ، فنزلت الآية في ذلك ، ويلزم قائل هذا القول أن يجعل الآية مدنية ، وقد روي ذلك ، وروى قائلو الأقوال الأخر أنها مكية .

(164/461)

قال القاضي أبو محمد : وجميع ما أريد من النبي صلى الله عليه وسلم بحسب هذا الاختلاف قد أوحى الله إليه خلافه ، إما في معجز وإما في غير معجز ، وفعله هو أن لو وقع افتراء على الله إذ أفعاله وأقواله إنما هي كلها شرع . وقوله ﴿ وإذاً لاتخذوك خليلاً ﴾ توقيف على ما نجاه الله منه من مخالفة الكفار والولاية لهم ، وقوله ﴿ لولا أن ثبتناك ﴾ الآية ، تعديد نعمة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم لما نزلت هذه الآية قال " اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين " و " الركون " شد الظهر إلى الأمر أو الحزم على جهة السكون إليه ، كما يفعل الإنسان بالركن من الجدران ومنه قوله تعالى حكاية . ﴿ أو آوي إلى ركن شديد ﴾ [هود : 80] ، وقرأ الجمهور " تركَن " بفتح الكاف ، وقرأ ابن مصرف وقتادة وعبد الله بن أبي إسحاق " تركُن " بضم الكاف ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يركن ، لكنه كاد بحسب همه بموافقتهم طمعاً منه في استئلافهم ، وذهب ابن الأنباري إلى أن معناه لقد كاد أن يخبروا عنك أنك ركنت ، ونحو هذا ذهب في ذلك إلى نفي الهم بذلك النبي عليه السلام ، فحمل اللفظ ما لا يحتمل ، وقوله ﴿ شيئاً قليلاً ﴾ يبطل ذلك ، وهذا الهم من النبي عليه السلام إنما كانت خطرة مما لا يمكن دفعه ، ولذلك قيل ﴿ كدت ﴾ ، وهي تعطي أنه لم يقع ركون ، ثم قيل ﴿ شيئاً قليلاً ﴾ إذ كانت المقاربة التي تتضمنها ﴿ كدت ﴾ قليلة خطرة لم تتأكد في النفس ، وهذا الهمّ هو كهمّ يوسف عليه السلام ، والقول فيهما واحد وقوله ﴿ إذاً لأذقناك ﴾ الآية ، يبطل أيضاً ما ذهب إليه ابن الأنباري ، وقوله ﴿ ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك يريد ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات .

قال القاضي أبو محمد : على معنى أن ما يستحقه هذا المذنب من عقوبتنا في الدنيا والآخرة كنا نضعفه لك ، وهذا التضعيف شائع مع النبي عليه السلام في أجره ، وفي ألمه وعقاب أزواجه ، وباقي الآية بين .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) ﴾

(166/461)

قال حضرمي الضميري في ﴿ كادوا ﴾ ليهود المدينة وناحيتها ، كحيي بن أخطب وغيره ، وذلك أنهم ذهبوا إلى المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : إن هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء ، وإنما أرض الأنبياء بالشام ، ولكنك تخاف الروم ، فإن كنت نبياً ، فاخرج إليها فإن الله سيحميك كما حمى غيرك من الأنبياء ، فنزلت الآية في ذلك ، وأخبر الله عز وجل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو خرج لم يلبثهم بعده ﴿ إلا قليلاً ﴾ ، وحكى النقاش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج بسبب قولهم ، وعسكر بذي الحليفة ، وأقام ينتظر أصحابه ، فنزلت الآية عليه ، فرجع ، وهذا ضعيف لم يقع في سيرة ولا في كتاب يعتمد عليه ، وذو الحليفة ليس في طريق الشام من المدينة ، وقالت فرقة

الضمير في ﴿ كادوا ﴾ هو لقريش ، وحكى الزجاج أن " استفزازهم " هو ما كانوا أجمعوا عليه في دار الندوة من قتله ، و﴿ الأرض ﴾ على هذا عامة في الدنيا ، كأنه قال ﴿ ليخرجوك ﴾ من الدنيا ، وعلى سائر الأقوال هي أرض مخصوصة ، إما مكة وإما المدينة ، كما قال تعالى ﴿ أو ينفوا من الأرض ﴾ [المائدة : 33] . فإنما معناه من الأرض التي فيها تصرفهم وتمعسهم ، وقال ابن عباس وقتادة : واستفزاز قريش هو ما كانوا ذهبوا إليه من إخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، كما ذهبوا قبل إلى حصره في الشعب ، ووقع استفزازهم هذا بعد نزول الآية ، وضيقوا عليه حتى خرج واتبعوه إلى الغار وغير ذلك ، ونفذ عليهم الوعيد في أن لم يلبثوا خلفه ﴿ إلا قليلاً ﴾ يوم بدر ، وقال مجاهد ذهبت قريش إلى هذا ولكنه لم يقع منها ، لأنه لما أراد الله استبقاء قريش وأن لا يستأصلها ، أذن لرسوله بالهجرة ، فخرج من الأرض بإذن الله لا يقهر قريش ، واستبقيت قريش ليسلم منها ومن أعقابها من أسلم ، قال : ولو أخرجته قريش لعذبوا ، فذهب مجاهد رحمه الله إلى أن الضمير في ﴿ يلبثون ﴾ عام في جميعهم ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود "

وإذاً لا يلبثوا " بحذف النون ، وإعمال ﴿ إذاً ﴾ ، وسائر القراء ألغوها وأثبتوا النون ، وقرأ عطاء بن أبي رباح "يُلَبِّثون" بضم الياء وفتح اللام وشد الباء ، وروي مثله عن يعقوب إلا أنه كسر الباء ، وقرأ عطاء " بعدك إلا قليلاً " ، وقرأ الجمهور " خلفك " ، وقرأ ابن عامر وحمزة الكسائي وحفص عن عاصم " خلافك " ، والمعنى واحد ، ومنه قول الشاعر : [الكامل]

عقب الرذاذ خلافها فكأنما . . . بسط الشواطب بينهن حصيرا

ومنه قوله تعالى : ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ﴾ [التوبة : 81] ، على بعض تأويلاته أي بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه اللفظة قد لزم حذف المضاف لأن التقدير في آياتنا خلاف خروجك ، وفي بيت الشاعر خلاف انبساط الشمس أو نحوه ، قال أبو علي : أصابوا هذه الظروف تضاف إلى الأسماء الأعيان التي ليس أحداثاً فلم يستحبوا إضافتها إلى غير ما جرى عليه كلامهم كما أنها لما جرت منصوبة في كلامهم تركوها على حالها إذا وقعت في غير موضع النصب ، كقوله تعالى :

﴿ وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ﴾ [الجن : 11] ، وقوله ﴿ يوم القيامة يفصل بينكم ﴾ [الممتحنة : 3] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وإِن كادوا ليفتنونك ﴾

في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : أن وفد ثَقيف أتَوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : متِّعنا باللات سَنَة ، وحرِّمْ وادينا كما حرَّمْتَ مكة ، فأبى ذلك ، فأقبلوا يُكثرون مسألتهم ، وقالوا : إِنا نحب أن تعرِّف العرب فضلنا عليهم ، فإن خشيتَ أن يقول العرب : أعطيتهم ما لم تعطنا ، فقل : الله أمرني بذلك ؛ فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم [عنهم] ، وداخلهم الطمع ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطاء عن ابن عباس .

وروى عطية عن ابن عباس أنهم قالوا : أجِّلنا سنة ، ثم نُسلم ونكسر أصنامنا ، فهمَّ أن يؤجِّلهم ، فنزلت هذه الآية .

والثاني : "أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لا نكفُّ عنك إِلا بأن تُلِمَّ بآلهتنا ، ولو بأطراف أصابعك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما عليَّ لو فعلت والله يعلم إِني لكاره" ؟ " فنزلت هذه الآية ، قاله سعيد بن جبير ، وهذا باطل لا يجوز أن يُظَنَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا ما ذكرنا عن عطية من أنه همَّ أن يُنْظِرهم سنة ، وكل ذلك مُحال في حَقِّه وفي حق الصحابة أنهم رَوَوْا عنه .

والثالث : أن قريشاً خَلَوْا برسول الله ليلةً إلى الصباح يكلِّمونه ويفخِّمونه ، ويقولون : أنت سيدنا وابن سيدنا ، وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون ، ثم عصمه الله من ذلك ، ونزلت هذه الآية ، قاله قتادة .

والرابع : أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اطرد عنك سُقَاط الناس ، ومواليهم ، وهؤلاء الذين رائحتهم رائحة الضأن ، وذلك أنهم كانوا يلبَسون الصوف ، حتى نجالسَك ونسمعَ منك ، فهمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل ما يستدعي به إِسلامهم ، فنزلت هذه الآيات ، حكاه الزجاج؛ قال : ومعنى الكلام : كادوا يفتنونك ، ودخلت "إِن" واللام للتوكيد .

(169/461)

قال المفسرون : وإِنما قال : "ليَفتنونك" ، لأن في إِعطائهم ما سألوا مخالفةً لحكم القرآن .

قوله تعالى : { لتفتريَ } أي : لتختلقَ { علينا غيرَه } وهو قولهم : قل الله أمرني بذلك ، { وإِذاً } لو فعلت ذلك { لاتخذوك خليلاً } أي : والَوْكَ وصافَوْكَ .

قوله تعالى : { ولولا أن ثبَّتناك } على الحق ،ِلعِصمتنا إِياك { لقد كدتَ تركَن إِليهم } أي : هممتَ وقاربتَ أن تَميل إِلى مرادهم { شيئاً قليلاً } قال ابن عباس : وذلك حين

سكت عن جوابهم ، والله أعلم بنيَّته .

وقال ابن الأنباري : الفعل في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم ، وفي الباطن للمشركين ، وتقديره : لقد كادوا يُركنونك إليهم ، وينسبون إليك ما يشتهونه مما تكرهه ، فنسب الفعل إلى غير فاعله عند أمن اللَّبْس ، كما يقول الرجل للرجل : كدت تقتل نفسَك اليوم ، يريد : كدت تفعل فعلاً يقتلك غيرُك من أجله ؛ فهذا من المجاز والاتساع .

وشبيه بهذا قولُه :

﴿ فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ [البقرة : 132] ، وقول القائل : لا أرينّكَ في هذا الموضع .

قوله تعالى : ﴿ إذاً لأذقناك ﴾ المعنى : لو فعلت ذلك الشيء القليل ﴿ لأذقناك ضعف الحياة ﴾ أي : ضِعف عذاب الحياة ﴿ وضِعف ﴾ عذاب ﴿ الممات ﴾ ، ومثله قول الشاعر :

[نُبِّئْتُ أنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أُوقِدَتْ] . . .

واسْتَبَّ بَعْدَكَ يا كُلَيْبُ المَجْلِسُ

أي : أهل المجلس .

وقال ابن عباس : ضِعْفَ عذاب الدنيا والآخرة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوماً ، ولكنه تخويف لأُمَّته ، لئلا يركن أحد من

المؤمنين إلى أحد من المشركين في شيء من أحكام الله وشرائعه .

قوله تعالى : ﴿ وإن كادوا ليَسْتَفِزُّونك من الأرض ﴾ في سبب نزولها قولان .

(170/461)

أحدهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قَدِم المدينة ، حسدته اليهود على مُقامه بالمدينة ، وكرهوا قربه ، فأتَوه ، فقالوا : يا محمد أنبيٌّ أنت؟ قال : نعم ، قالوا : فوالله لقد علمتَ ما هذه بأرض الأنبياء ، وإن أرض الأنبياء الشام ، فإن كنتَ نبياً فائت الشام ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

وقال سعيد بن جبير : همَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشخص عن المدينة ، فنزلت هذه الآية .

وقال عبد الرحمن بن غَنْم : لمّا قالت له اليهود هذا : صدّق ما قالوا ، وغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما بلغ تبوكَ ، نزلت هذه الآية .

والثاني : أنهم المشركون أهل مكة هَمُّوا بإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، فأمره الله بالخروج ، وأنزل هذه الآية إخباراً عما هَمُّوا به ، قاله الحسن ، ومجاهد .

وقال قتادة : هم أهل مكة بإخراجه من مكة ، ولو فعلوا ذلك ما نُوظِروا ، ولكنَّ الله كفَّهم

عن إخراجه حتى أمره بالخروج.

وقيل : ما لبثوا بعد ذلك حتى بعث الله عليهم القتل ببدر .

فعلى القول الأول ، المشار إليهم : اليهود ، والأرض : المدينة .

وعلى الثاني : هم المشركون ، والأرض : مكة .

وقد ذكرنا معنى "الاستفزاز" آنفاً [الاسراء : 64] ، وقيل : المراد به هاهنا : القتل ، ليخرجوه من الأرض كلّها ؛ روي عن الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وإذاً لا يَلْبَثون خَلفك ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : "خلفك" .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : "خلافك" .

قال الأخفش "خلافك" في معنى خلفك ، والمعنى : لا يلبثون بعد خروجك ﴿ إلا قليلاً ﴾ أي : لو أخرجوك لاستأصلناهم بعد خروجك بقليل ، وقد جازاهم الله على ما همُّوا به ، فقتل صناديد المشركين ببدر ، وقتل من اليهود بني قريظة ، وأجلى النضير .

وقال ابن الأنباري : معنى الكلام : لا يَلْبَثون على خِلافك ومخالفتك ، فسقط حرف الخفض .

وقرأ أبو رزين ، وأبو المتوكل : "خُلاَّفَكَ" بضم الخاء ، وتشديد اللام ، ورفع الفاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) ﴾

قال سعيد بن جبير : "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود في طوافه ، فمنعته قريش وقالوا : لا ندعك تستلم حتى تلُمّ بآلهتنا .

فحدّث نفسه وقال : "ما عليّ أن أُلِمّ بها بعد أن يَدَعُوني أستلم الحجر والله يعلم أني لها كاره" " فأبى الله تعالى ذلك وأنزل عليه هذه الآية ؛ قاله مجاهد وقتادة .

وقال ابن عباس في رواية عطاء : نزلت في وفد ثَقيف ، أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه شَطَطاً وقالوا : متّعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يُهْدَى لها ، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا ، وحَرّم وادينا كما حرّمت مكة ، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم ، فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك فنزلت هذه الآية .

وقيل : هو قول أكابر قريش للنبيّ صلى الله عليه وسلم : اطرد عنا هؤلاء السُّقّاط والموالي حتى نجلس معك ونسمع منك ؛ فهمّ بذلك حتى نُهِي عنه .

وقال قتادة : ذكر لنا أن قريشاً خلوْا برسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخّمونه ، ويسوّدونه ويقاربونه ؛ فقالوا : إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس ، وأنت سيّدُنا يا سيدنا ؛ وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون ، ثم عصمه الله من ذلك ، وأنزل الله تعالى هذه الآية .

ومعنى ﴿ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ أي يزيلونك .

يقال : فتنتُ الرجل عن رأيه إذا أزلته عما كان عليه ؛ قاله الهَرَوِيّ .

وقيل يصرفونك ، والمعنى واحد .

﴿ عَنِ الذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي حكم القرآن ؛ لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن .

(172/461)

﴿ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ أي لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك ، وهو قول ثقيف : وحَرّم وادينا كما حرمت مكة ، شجرها وطيرها ووحشها ، فإن سألتك العرب لم خصّصتهم فقل الله أمرني بذلك حتي يكون عذراً لك .

﴿ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلاً ، أي والوك وصافوك ؛

مأخوذ من الخلة (بالضم) وهي الصداقة لممايلته لهم .

وقيل : "لاتخذوك خليلاً" أي فقيراً .

مأخوذ من الخَلّة (بفتح الخاء) وهي الفقر لحاجته إليهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ ﴾

أي على الحق وعصمناك من موافقتهم .

﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾ أي تميل .

﴿ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ أي ركونا قليلا .

قال قتادة : لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام : " اللَّهُمَّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عين "

وقيل : ظاهر الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وباطنه إخبار عن ثقيف .

والمعنى : وإن كادوا ليركنونك ، أي كادوا يخبرون عنك بأنك مِلتَ إلى قولهم ؛ فنسب فعلهم إليه مجازاً واتساعاً ؛ كما تقول لرجل : كدت تقتل نفسك ، أي كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت ، ذكره المهدَويّ .

وقيل : ما كان منه هَمٌّ بالركون إليهم ، بل المعنى : ولولا فضل الله عليك لكان منك مَيل إلى موافقتهم ، ولكن تمّ فضل الله عليك فلم تفعل ؛ ذكره القشيري .

وقال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوماً ، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه .

وقوله: ﴿ إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ المماتَ ﴾ أي لو ركنت لأذقناك مثلي عذاب الحياة في الدنيا ومثلي عذاب الممات في الآخرة، قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما.

وهذا غاية الوعيد.

وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم.

(173/461)

قال الله تعالى: ﴿ يانساء النبي مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العذاب ضِعْفَيْنِ ﴾ وضعف الشيء مثله مرتين؛ وقد يكون الضِّعف النصيب؛ كقوله عز وجل: "لكلٍّ ضِعفٌ" أي نصيب.

وقد تقدّم في الأعراف.

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) ﴾

هذه الآية قيل إنها مدنية؛ حسبما تقدّم في أوّل السورة.

قال ابن عباس: حسَدت اليهود مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقالوا: إن الأنبياء إنما بعثوا بالشأم، فإن كنت نبيًّا فالحق بها؛ فإنك إن خرجت إليها صدقناك وآمنا بك؛

فوقع ذلك في قلبه لما يُحِبُّ من إسلامهم ، فرحَل من المدينة على مرحلة فأنزل الله هذه الآية .

وقال عبد الرحمن بن غَنْم : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما نزل تبوك نزل ﴿ وإن كادُوا لَيستفزونك من الأرض ﴾ بعد ما ختمت السورة ، وأمر بالرجوع .

وقيل : إنها مكية .

قال مجاهد وقتادة : نزلت في همّ أهل مكة بإخراجه ، ولو أخرجوه لما أمهلوا ولكن الله أمره بالهجرة فخرج ، وهذا أصح ؛ لأن السورة مكية ، ولأن ما قبلها خبر عن أهل مكة ، ولم يجر لليهود ذكر .

وقوله : ﴿ مِنَ الأرض ﴾ يريد أرض مكة .

كقوله : ﴿ فَلَنْ أَبرَحَ الأرض ﴾ [يوسف : 80] أي أرض مصر ؛ دليله ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ التي أَخْرَجَتْكَ ﴾ [محمد : 13] يعني مكة .

معناه : همّ أهلها بإخراجه ؛ فلهذا أضاف إليها وقال : "أخرجتك" .

وقيل : همّ الكفار كلّهم أن يستخفّوه من أرض العرب بتظاهرهم عليه فمنعه الله ، ولو أخرجوه من أرض العرب لم يُمْهَلوا ، وهو معنى قوله : ﴿ وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً

﴾ .

وقرأ عطاء بن أبي رَباح "لا يُلَبَّثون" الباء مشددة.

(174/461)

"خلفك" نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو، ومعناه بعدك.

وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائيّ "خلافك" واختاره أبو حاتم، اعتباراً بقوله: ﴿ فَرِحَ المخلفون بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ الله ﴾ [التوبة: 81] ومعناه أيضاً بعدك؛ قال الشاعر:

عَفَت الديار خلافهم فكأنما . . .

بسط الشّواطِبُ بينهن حَصِيراً

بسط البواسط؛ في الماورديّ.

يقال: شطبت المرأة الجريد إذا شقته لتعمل منه الحصر.

قال أبو عبيد: ثم تلقيه الشاطبة إلى المُنَقّية.

وقيل: "خلفك" بمعنى بعدك.

"وخلافك" بمعنى مخالفتك؛ ذكره ابن الأنباريّ.

﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن المدة التي لبثوها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر ؛ وهذا قول من ذَكر أنهم قريش .

الثاني : ما بين ذلك وقتل بني قُريظة وجلاء بني النضير ؛ وهذا قول من ذَكر أنهم اليهود .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(175/461)

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾

الضمير في ﴿ وإن كادوا ﴾ قيل لقريش .

وقيل لثقيف ، وذكروا أسباب نزول مختلفة وفي بعضها ما لا يصح نسبته إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ويوقف على ذلك في تفسير ابن عطية والزمخشري والتحرير وغير ذلك ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما عدد نعمه على بني آدم ثم ذكر حالهم في الآخرة من إيتاء الكتاب باليمين لأهل السعادة ، ومن عمى أهل الشقاوة أتبع ذلك بما يهم به الأشقياء في الدنيا من المكر والخداع والتلبيس على سيد أهل السعادة المقطوع له بالعصمة

، ومعنى ﴿ ليفتنونك ﴾ ليخدعونك وذلك في ظنهم لا أنهم قاربوا ذلك إذ هو معصوم عليه السلام أن يقاربوا فتنته عما أوحى الله إليه ، وتلك المقاربة في زعمهم سببها رجاؤهم أن يفتري على الله غير ما أوحى الله إليه من تبديل الوعد وعيداً أو الوعيد وعداً ، وما اقترحته ثقيف من أن يضيف إلى الله ما لم ينزل عليه و ﴿ إن ﴾ هذه هي المخففة من الثقيلة ، وليتها الجملة الفعلية وهي ﴿ كادوا ﴾ لأنها من أفعال المقاربة وإنما تدخل على مذهب البصريين من الأفعال على النواسخ التي للإثبات على ما تقرر في علم النحو ، واللام في ﴿ ليفتنونك ﴾ هي الفارقة بين أن هذه وأن النافية ﴿ وإذاً ﴾ حرف جواب وجزاء ، ويقدر قسم هنا تكون ﴿ لاتخذوك ﴾ جواباً له ، والتقدير والله ﴿ إذاً ﴾ أي إن افتتنت وافتريت ﴿ لاتخذوك ﴾ جواباً له ، والتقدير والله ﴿ إذاً ﴾ أي إن افتتنت وافتريت ﴿ لاتخذوك ﴾ ولا اتخذوك فى معنى ليتخذونك كقوله ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا ﴾ أي ليظلنّ لأن ﴿ إذاً ﴾ تقتضي الاستقبال لأنها من حيث المعنى جزاءً فيقدر موضعها بأداة الشرط .

وقال الزمخشري : ﴿ وإذاً لاتخذوك ﴾ أي ولو اتبعت مرادهم ﴿ لاتخذوك خليلاً ﴾ ولكنت لهم ولياً ، ولخرجت من ولايتي انتهى .

وهو تفسير معنى لا إن ﴿ لاتخذوك ﴾ جواب لو محذوفة .

قال الزمخشري : ﴿ ولولا أن ثبتناك ﴾ ولولا تثبيتنا لك وعصمتنا لقد كدت تركن إليهم لقاربت أن تميل إلى خدعهم ومكرهم ، وهذا تهييج من الله له وفضل تثبيت ، وفي ذلك لطف للمؤمنين إذن لو قاربت تركن إليهم أدنى ركنة ﴿ لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ أي ﴿ لأذقناك ﴾ عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين .

فإن قلت : كيف حقيقة هذا الكلام ؟ قلت : أصله ﴿ لأذقناك ﴾ عذاب الحياة وعذاب الممات لأن العذاب عذابان ، عذاب في الممات وهو عذاب القبر ، وعذاب في حياة الآخرة وهو عذاب النار ، والضعف يوصف به نحو قوله تعالى : ﴿ فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ يعني مضاعفاً ، فكان أصل الكلام ﴿ لأذقناك ﴾ عذاباً ضعفاً في الحياة ، وعذاباً ضعفاً في الممات ، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وهو الضعف ، ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف ، فقيل ﴿ ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ كما لو قيل ﴿ لأذقناك ﴾ أليم الحياة وأليم الممات ، ويجوز أن يراد بضعف الحياة عذاب الحياة الدنيا ، وبضعف الممات ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار والمعنى لضاعفنا لك العذاب المعجل للعصاة في الحياة الدنيا .

وما نؤخره لما بعد الموت انتهى .

وجواب ﴿ لولا ﴾ يقتضي إذا كان مثبتاً امتناعه لوجود ما قبله ، فمقاربة الركون لم تقع منه فضلاً عن الركون والمانع من ذلك هو وجود تثبيت الله .

وقرأ قتادة وابن أبي إسحاق وابن مصرف : ﴿ تركن ﴾ بضم الكاف مضارع ركن بفتحها وانتصب ﴿ شيئاً ﴾ على المصدر .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : يريد ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات على معنى أن ما يستحقه من أذنب من عقوبتنا في الدنيا والآخرة كنا نضعفه .

وذهب ابن الأنباري إلى أن المعنى لقد كاد أن يخبروا عنك أنك ركنت إلى قولهم بسبب فعلهم إليه مجازاً واتساعاً كما تقول للرّجل : كدت تقتل نفسك أي كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت .

(177/461)

وقال ابن عباس : كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) معصوماً ، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه انتهى .

واللام في ﴿ لأذقناك ﴾ جواب قسم محذوف قبل ﴿ إذاً ﴾ أي والله إن حصل ركون ليكونن كذا ، والقول في ﴿ لأذقناك ﴾ كالقول في ﴿ لاتخذوك ﴾ من وقوع الماضي

موضع المضارع الداخل عليه اللام والنون ، وممن نص على أن اللام في ﴿ لاتخذوك ﴾ و ﴿ لأذقناك ﴾ هي لام القسم الحوفي .

وقال الزمخشري : وفي ذكر الكيدودة وتعليلها مع اتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين دليل بيِّن على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته انتهى .

ومن ذلك ﴿ يا نساء النبيّ من يأت منكن بفاحشة مبينة ﴾ الآية .

قال الزمخشري : وفيه أدنى مداهنة للغواة مضادة لله وخروج عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله انتهى .

وروي أنه لما نزلت قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين " قال حضرمي : الضمير في ﴿ وإن كادوا ﴾ ليهود المدينة وناحيتها كحيي بن أخطب وغيره ، وذلك أنهم ذهبوا إلى المكر برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقالوا : إن هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء ، وإنما أرض الأنبياء الشام ، ولكنك تخاف الروم فإن كنت نبياً فاخرج إليها فإن الله سيحميك كما حمى غيرك من الأنبياء فنزلت ، وأخبر تعالى أنه لو خرج لم يلبثهم بعد ﴿ إلاّ قليلاً ﴾ .

وحكى النقاش أنه خرج بسبب قولهم وعسكر بذي الحليفة وأقام ينتظر أصحابه فنزلت ورجع .

قال ابن عطية : وهذا ضعيف لم يقع في سيرة ولا في كتاب يعتمد عليه ، وذو الحليفة ليس في طريق الشام من المدينة انتهى .

(178/461)

وقالت فرقة : الضمير لقريش قاله ابن عباس وقتادة ، واستفزازهم هو ما ذهبوا إليه من إخراجه من مكة كما ذهبوا إلى حصره في الشعب ، ووقع استفزازهم هذا بعد نزول الآية وضيقوا عليه حتى خرج واتبعوه إلى الغار ونفذ عليهم الوعيد في أن لم يلبثوا خلفه ﴿ إلاّ قليلاً ﴾ يوم بدر .

وقال الزجّاج حاكياً أن استفزازهم ما أجمعوا عليه في دار الندوة من قتله والأرض على هذا الدنيا .

وقال مجاهد : ذهبت قريش إلى هذا ولكنه لم يقع منها لأنه لما أراد تعالى استبقاء قريش وأن لا يستأصلها أذن لرسوله في الهجرة فخرج بإذنه لا بقهر قريش ، واستبقيت قريش ليسلم منها ومن أعقابها من أسلم قال : ولو أخرجته قريش لعذبوا .

ذهب مجاهد إلى أن الضمير في ﴿ يلبثون ﴾ لجميعهم .

وقال الحسن : ﴿ ليستفزونك ﴾ ليفتنونك عن رأيك .

وقال ابن عيسى : ليزعجونك ويستخفونك .

وأنشد :

يطيع سفيه القوم إذ يستفزه . . .

ويعصي حليماً شيبته الهزاهز

والظاهر أن الآية تدل على مقاربة استفزازه لأن يخرجوه ، فما وقع الاستفزاز ولا إخراجهم إياه المعلل به الاستفزاز ، ثم جاء في القرآن ﴿ وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك ﴾ أي أخرجك أهلها .

وفي الحديث : " يا ليتني كنت فيها جذعاً إذ يخرجك قومك قال : أو مخرجي هم " الحديث فدل ذلك على أنهم أخرجوه .

لكن الإخراج الذي هو علة للاستفزاز لم يقع فلا تعارض بين الآيتين والحديث .

وقال أبو عبد الله الرازي : ما خرج بسبب إخراجهم وإنما خرج بأمر الله فزال التناقض انتهى .

﴿ ولا يلبثون ﴾ جواب قسم محذوف أي والله إن استفزوك فخرجت ﴿ لا يلبثون ﴾ ولذلك لم تعمل ﴿ إذاً ﴾ لأنها توسطت بين قسم مقدر ، والفعل فلا يلبثون ليست منصبة عليه من جهة الإعراب ، ويحتمل أن تكون ﴿ لا يلبثون ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف يدل عليه المعنى تقديره ، وهم ﴿ إذاً لا يلبثون ﴾ فوقعت إذاً بين المبتدأ وخبره فألغيت .

وقرأ أُبيّ وإذا لا يلبثوا بحذف النون أعمل إذاً فنصب بها على قول الجمهور ، وبأن مضمرة بعدها على قول بعضهم وكذا هي في مصحف عبد الله محذوفة النون .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما وجه القراءتين ؟ قلت : أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل وهو مرفوع لوقوعه خبر كاد ، والفعل في خبر كاد واقع موقع الاسم .

وأما قراءة أُبيّ ففيها الجملة برأسها التي هي وإذاً لا يلبثوا عطف على جملة قوله ﴿ وإن كادوا ليستفزونك ﴾ انتهى .

وقرأ عطاء ﴿ لا يلبثون ﴾ بضم الياء وفتح اللام والباء مشددة .

وقرأ يعقوب كذلك إلاّ أنه كسر الباء .

وقرأ الأخوان وابن عامر وحفص ﴿ خلافك ﴾ وباقي السبعة خلفك والمعنى واحد .

قال الشاعر :

عفت الديار خلافهم فكأنما . . .

بسط الشواطب بينهن حصيرا

وهذا كقوله ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم ﴾ خلاف رسول الله أي خلف رسول الله في أحد

التأويلات .

وقرأ عطاء بن أبي رباح : بعدك مكان خلفك ، والأحسن أن يجعل تفسيراً لخلفك لا قراءة لأنها لا تخالف سواد المصحف ، فأراد أن يبين أن خلفك هنا ليست ظرف مكان وإنما تجوز فيها فاستعملت ظرف زمان بمعنى بعدك .

وهذه الظروف التي هي قبل وبعد ونحوهما اطّرد إضافتها إلى أسماء الأعيان على حذف مضاف يدل عليه ما قبله ، في نحو خلفك أي خلف إخراجك ، أو جاء زيد قبل عمرو أي قبل مجيء عمرو ، وضحك بكر بعد خالد أي بعد ضحك خالد . انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(180/461)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾

نزلت في ثقيفٍ إذ قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لا ندخُل في أمرك حتى تعطيَنا خِصالاً نفتخر بها على العرب لا نُعشر ولا نُحشر ولا نجبى في صلاتنا ، وكلُّ رِباً لنا فهو لنا وكلُّ رباً علينا فهو موضوعٌ عنا ، وأن تُمتّعنا باللات سنةً وأن تحرِّم وادِيَنا وَجّ كما حرّمت مكة ، فإذا

قالت العربُ: لِمَ فعلتَ؟ فقل: إن الله أمرني بذلك، وقيل: في قريش حيث قالوا: اجعل لنا آيةَ عذابٍ آيةَ رحمةٍ وآيةَ رحمةٍ آيةَ عذابٍ، أو قالوا: لا نُمكّنك من استلام الحجرِ حتى تُلمّ بآلهتنا، فإنْ مخففةٌ من المشددة وضميرُ الشأنِ الذي هو اسمُها محذوفٌ واللامُ هي الفارقة بينها وبين النافية، أي إن الشأنَ قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك فاتنين ﴿ عَنِ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ من أوامرنا ونواهينا ووعْدِنا ووعيدِنا ﴿ لِتفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ لتتقول علينا غيرَ الذي أوحينا إليك مما اقترحتْه ثقيفٌ أو قريشٌ حسبما نقل ﴿ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ أي لو اتبعت أهواءَهم لكنتَ لهم وليًّا ولخرجتَ من ولايتي.

﴿ وَلَوْلاَ أَن ثبتناك ﴾

على ما أنت عليه من الحق بعِصمتنا لك ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ من الركون الذي هو أدنى ميلٍ أي لولا تثبيتنا لك لقاربت أن تَميلَ إليهم شيئاً يسيراً من الميل اليسيرِ لقوة خدَعِهم وشدة احتيالِهم، لكن أدركتْك العصمةُ فمنعتْك من أن تقرَبَ من أدنى مراتبِ الركونِ إليهم فضلاً عن نفس الركون، وهذا صريحٌ في أنه عليه الصلاة والسلام ما همّ بإجابتهم مع قوة الداعي إليها، ودليلٌ على أن العصمةَ بتوفيق الله تعالى وعنايته.

﴿ إِذًا ﴾ لو قاربت أن تركنَ إليهم أدنى ركْنة ﴿ إِذًا لأذقناك ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ ﴾ أي عذابَ الدنيا وعذابَ الآخرة ضعفَ ما يُعذَّب به في الدارين بمثل هذا الفعلِ غيرُك لأن خطأَ الخطيرِ خطيرٌ ، وكان أصلُ الكلامِ عذاباً ضِعفاً في الممات بمعنى مضاعفاً ثم حُذف الموصوفُ وأُقيمت الصفةُ مُقامَه ثم أضيفت إضافةَ موصوفِها ، وقيل : الضِعف من أسماء العذاب ، وقيل : المرادُ بضِعف الحياة عذابُ الآخرة وبضِعف المماتِ عذابُ القبر ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ يدفع عنك العذابَ .

﴿ وَإِن كَادُوا ﴾ الكلامُ فيه كما في الأول أي كاد أهلُ مكة ﴿ لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾ أي ليُزعِجونك بعداوتهم ومكرِهم ﴿ مِّنَ الأَرض ﴾ أي الأرضِ التي أنت فيها وهي أرضُ مكة ﴿ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ ﴾ بالرفع عطفاً على خبر كاد ، وقرىء لا يلبثوا بالنصب بإعمال إذن على أن الجملةَ معطوفةٌ على جملة وإن كادوا ليستفزونك ﴿ خلافك ﴾ أي بعدك قال

خلت الديارُ خِلافَهم فكأنما . . . بسَطَ الشواطِبُ بينهن حصيراً

أي لو خرجتَ لا يبقَون بعد خروجِك وقرىء خلفك ﴿ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ إلا زماناً قليلاً وقد كان كذلك فإنهم أُهلكوا ببدر بعد هجرته عليه الصلاة والسلام ، وقيل : نزلت الآيةُ في اليهود حيث حسدوا مقامَ النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة ، فقالوا : الشامُ مقامُ الأنبياءِ عليهم السلام فإن كنت نبياً فالحَقْ بها حتى نؤمِنَ بك ، فوقع ذلك في قلبه عليه الصلاة

والسلام فخرج مرحلةً فنزلت فرجع ثم قُتل منهم بنو قريظة وأُجليَ بنو النضير (بعدهم) بقليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(182/461)

وقال الآلوسى :

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) ﴾

ثم إنه عز وجل لما عد نعمه على بني آدم ثم ذكر حالهم في الآخرة وانقسامهم إلى قسمين سعداء وأشقياء أتبع ذلك بذكر بعض مساوي بعض الأشقياء في الدنيا من المكر والخداع والتلبس على سيد أهل السعادة المقطوع له بالعصمة صلى الله عليه وسلم وفي ذلك إشارة إلى أهم داخلون فيمن عمى عن الاهتداء في الدنيا خولاً أولياً فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾

قيل نزلت في ثقيف قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب لا نشعر ولا نحشر ولا نجبى في الصلاة وكل رباً لنا فهو لنا وكل رباً علينا فهو موضوع عنا وأن تمتعنا باللات سنة وأن تحرم وادينا وجاكما حرمت مكة فإن

قالت العرب : لم فعلت ذلك ؟ فقل : إن ا تعالى أمرني ، وروى ذلك الثعلبي عن ابن عباس ولم يذكر له سنداً .

وقال العراقي فيه : إنا لم نجده في كتب الحديث ؛ ونقله الزمخشري بزيادة ، ونقل غيره أنهم طلبوا ثلاث خصال عدم التجبية في الصلاة وكسر أصنامهم بأيديهم وتمتيعهم باللات سنة من غير أن يعبدوها بل ليأخذوا ما يهدي لها فقال صلى الله عليه وسلم : " لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود " وأما كسر أصنامكم بأيديكم فذلك لكم وأما الطاغية اللات فإني غير ممتعكم بها " وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : ما بالكم آذيتم رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه لا يدع الأصنام في أرض العرب فما زالوا به حتى أنزل الله تعالى الآية .

وأخرج ابن أبي إسحق .

وابن مردويه .

وغيرهما عنه رضي الله تعالى عنه أن أمية بن خلف .

وأبا جهل .

ورجالاً من قريش أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : تعالى فتسمح بآلهتنا وندخل معك في دينك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه فراق قومه ويحب إسلامهم فرق لهم فانزل الله تعالى هذه الآية إلى قوله سبحانه : ﴿ نَصِيراً ﴾ [الإسراء : 75] ، وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن باذان عن جابر بن عبد الله مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن قريشاً أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك فنزلت ، وقيل : إنهم قالوا له عليه الصلاة والسلام : اجعل لنا آية رحمة آية عذاب .

وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك فنزلت .

وفي ذلك روايات أخر مختلفة أيضاً وفي بعضها ما لا يصح نسبته إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يكاد يؤول وذلك يدل على الوضع والتفسير لا يتوقف على شيء من ذلك ، وأياما كان فضمير الجمع للكفار وهم إما ثقيف قريش ، و﴿ إن ﴾ مخففة من المثقلة واسمها ضمير شان مقدر واللام هي الفارقة بين المخففة وغيرها أي أن الشان قاربوا في ظنهم أن يوقعوك في الفتنة صارفيك ﴿ عَنِ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد ﴿ لِتفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ لتتقول علينا غير الذي أوحيناه إليك مما اقترح عليك ثقيف من تحريم وج مثلاً أو قريش من جعل آية الرحمة آية عذاب وبالعكس ، وقيل :

المعنى لتحل محل المفتري علينا لأنك إن اتبعت أهواءهم أو هممت أنك تفعل ذلك عن ووحينا لأنك رسولنا فكنت كالمفتري.

﴿ وَإِذاً لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ أي لو فعلت ليتخذنك صديقاً لهم، وكان المراد ليكونن بينك وبينهم مخالة وصداقة وهم أعداء الله تعالى فمخالتهم تقتضي الانقطاع عن ولايته عز وجل كما قيل:

إذا صافى صديقك من تعادى...

فقد عاداك وانقطع الكلام

(184/461)

وقيل: الخليل هذا من الخلة بمعنى الحاجة أي لاتخذوك فقيراً محتاجاً إليهم وهو كما ترى.

﴿ وَلَوْلاَ أَن ثبتناك ﴾ أي لولا تثبيتنا إياك على ما أنت عليه من الحق بعصمتنا لك ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ من الركون الذي هو أدنى ميل، وأصله الميل إلى ركن، ذكروا أنه إذا أطلق يقع على أدنى الميل، ونصب ﴿ شَيْئًا ﴾ على المصدرية أي لولا ذلك لقاربت أن تميل إليهم شيئاً يسيراً من الميل اليسير لقوة خدعهم وشدة احتيالهم لكن أدركتم العصمة فمنعتك من أن تقرب أدنى الأدنى من الميل إليهم فضلاً عن نفس الميل إليهم، وهذا

صريح في أنه صلى الله عليه وسلم لم يهم بإجابتهم ولم يكد ، وبه يرد على من زعم أنه عليه الصلاة والسلام هم فمنعه نزول الآية وكأنه غره ظواهر بعض الروايات في بيان سبب النزول كرق في رواية ابن إسحاق ومن معه عن الحبر ولا يخفى أن في قوله بسحانه ﴿ إِلَيْهِمُ ﴾ دون إلى إجابتهم ما يقوى الدلالة على أنه عليه الصلاة والسلام بمعزل عن الإجابة في أقصى الغايات ، وهذا الذي ذكر في معنى الآية هو الظاهر المتبادر للأفهام ؛ وذهب ابن الأنباري إلى أن المعنى لقد كانوا أن يخبروا عنك أنك ركنت إليهم ونسب فعلهم إليه عليه الصلاة والسلام مجازاً واتساعاً كما تقول للرجل كدت تقتل نفسك أي كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت وهو من الألغاز المستغنى عنه .

واستدل بالآية على أن العصمة بتوفيق الله تعالى وعنايته .

وقرأ قتادة .

وابن أبي إسحاق .

وابن مصرف ﴿ تَرْكَنُ ﴾ بضم الكاف مضارع ركن بفتحها وهو على قراءة الجمهور مضارع ركن بكسر الكاف ، وقيل : بفتحها أيضاً وجعل ذلك من تداخل اللغتين .

﴿ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75) ﴾

﴿ إِذاً ﴾ أي لو قاربت أن تركن إليهم أدنى ركنة ﴿ إِذاً لأذقناك ضِعْفَ ﴾ أي مضاعف الحياة وهو صفة محذوف والإضافة على معنى في أو للملابسة أي عذاباً مضاعفاً في الحياة ، والمراد بها الحياة الدنيا لأنه المتبادر عند إطلاق لفظها وكذا يقال في قوله تعالى : ﴿ وَضِعْفَ الممات ﴾ أي وعذاباً ضعفاً في الممات ، والمراد به ما يشمل العذاب في القبر وبعد البعث ، واستسهل بعض المحققين أن يكون التقدير من أول الأمر لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات وتكون الإضافة لامية والقرينة على تقدير العذاب ﴿ لأذقناك ﴾ والمعنى لو قاربت ما ذكرنا لنضاعفن لك العذاب المعجل للعصاة في الحياة الدنيا والعذاب المؤجل لهم بعد الموت .

وقيل المراد بالحياة حياة الآخرة وبعذاب الممات ما يكون في القبر وأمر الإضافة والتقدير على حاله ، والمعنى لو قاربت لنضاعفن لك عذاب القبر وعذاب يوم القيامة المدخرين للعصاة ، وفي هذه الشرطية إجلال عظيم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنبيه على أن الأقرب أشد خطراً وذلك أنه أوعد بضعف العذاب على مقاربة أدنى ركون وقد وضع عنا الركون ما لم يصدقه العمل ، ونظير ذلك من وجه ما جاء في نسائه عليه الصلاة والسلام من قوله تعالى : ﴿ يانساء النبى مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بفاحشة مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العذاب ضِعْفَيْنِ ﴾ [الأحزاب : 30] وذكر في وجه مضاعفة جزاء خطأ الخطير أنه

يكون سبباً لارتكاب غيره مثله والاحتجاج به فكأنه سن ذلك وقد جاء " من سن سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " وعلى هذا يضاعف عذاب الخطير في خطئه أضعافاً مضاعفة ، ولا يلزم من إثبات الضعف الواحد نفي الضعف المتعدد ، وقيل الضعف من أسماء العذاب وأنشدوا على ذلك قوله :

لمقتل مالك إذ بان مني . . .

أبيت الليل في ضعف أليم

(186/461)

وذكر بعضهم أن الضعف ليس من أسماء العذاب وضعاً لكنه يعبر به عنه لكثرة وصف العذاب به كما في قوله تعالى : ﴿ عَذَابًا ضِعْفًا ﴾ [ص : 61] وزعم أن ذلك مراد القائل والله تعالى أعلم ، واللام في ﴿ لأذقناك ﴾ و﴿ لاتَّخذُوكَ ﴾ [الإسراء : 73] لام القسم على ما نص عليه الحوفي ، والماضي في الموضعين واقع موقع المضارع الدال عليه اللام والنون على ما نص عليه أبو حيان وأشرنا إليه فيما سبق ﴿ الممات ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ يدفع العذاب أو يرفعه عنك ، روي عن قتادة أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُواْ ﴾ [الإسراء : 73] إلى هنا قال صلى الله عليه وسلم : اللهم لا تكلني إلى نفسي

طرفة عين ، وينبغي للمؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها وأن يستشعر الخشية وازدياد التصلب في دين الله تعالى ويقول كما قال النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) ﴾

﴿ وَإِن كَادُواْ ﴾ أي أهل مكة كما روي عن ابن عباس .

وقتادة .

وغيرهما ﴿ لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾ ليزعجونك ويستخفونك بعداوتهم ومكرهم ﴿ مّنَ الأرض ﴾ أي الأرض التي أنت فيها وهي أرض مكة ﴿ لِيُخْرِجُوكَ ﴾ أي ليتسببوا إلى خروجك ﴿ مِنْهَا ﴾ وكان هذا الاستفزاز بما فعلوا من حصره صلى الله عليه وسلم في الشعب والتضييق عليه عليه الصلاة والسلام ووقع ذلك بعد نزول الآية كما في "البحر" وصار سبباً لخروجه صلى الله عليه وسلم مهاجراً .

﴿ وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ ﴾ أي إن استفزوك فخرجت لا يبقون ﴿ خلافك ﴾ أي بعدك وبه قرأ عطاء بن رباح واستحسن أنها تفسير لا قراءة لمخالفتها سواد المصحف وأنشدوا :

عفت الديار خلافهم فكأنما . . .

بسط الشواطب بينهن حصيرا

وقرأ أهل الحجاز .

وأبو بكر .

(187/461)

وأبو عمرو ﴿ خَلْفَكَ ﴾ بغير ألف والمعنى واحد واللفظان في الأصل من الظروف المكانية فتجوز فيهما واستعملا للزمان وقد اطرد إضافتهما كقبل وبعد إلى أسماء الأعيان على حذف مضاف يدل عليه ما قبله أي لا يلبثون خلف استفزازك وخروجك ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي إلا زمانا قليلاً ، وجوز أن يكون التقدير إلا لبثاً قليلاً والمعنيان متقاربان ، واختير التقدير الأول لأن التوسع أعني إقامة الوصف مقام الموصوف بالظرف أشبه ، وهذا وعيد لهم بإهلاك مجموعهم من حيث هو مجموع بعد خروجه صلى الله عليه وسلم بقليل وتحقق بإفناء البعض في بدر لا سيما وقد كانوا صناديدهم والرؤوس ، وأنت تعرف أن معظم الشيء يقام مقام كله ، وكان الزمان القليل على ما روى ابن أبي حاتم عن السدي ثمانية عشر شهراً ، ويجوز أن يفسر الإخراج بالإكراه على الخروج والوعيد بإهلاك كل واحد منهم أي لو أخرجوك لاستؤصلوا على بكرة أبيهم لكن لم يقع المقدم لأن الإكراه على الخروج مباشرة وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً بأمر ربه عز وجل فلم

يقع التالي وهذا هو التفسير المروى عن مجاهد قال : أرادت قريش ذلك ولم تفعل لأنه سبحانه أراد استبقاءها وعدم استئصالها ليسلم منها ومن أعقابها من يسلم فأذن لرسوله عليه الصلاة والسلام بالهجرة فخرج بإذنه لا إخراج قريش وقهرهم ، والإخراج في قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ [محمد : 13] محمول على المعنى الأول ، وكذا في قول ورقة : يا ليتني كنت جذعاً إذ يخرجك قومك وقوله عليه الصلاة والسلام " أو مخرجي هم " فلم تتضمن الآية وكذا الخبر إثبات إخراج قلنا بنفيه هنا ، والقول بأنه يلزم على هذا التناقض بين هذه الآية والآية السابقة بناءً على تفسير الإخراج فيها بالتسبب إلى الخروج لأن كاد تدل على مقاربته لا حصوله وهذه الآية دلت على حصوله مجاب عنه بأن قصارى ما دلت عليه الآية السابقة

(188/461)

على التفسير الأول قرب حصول الاستفزاز منهم ليتسببوا به إلى خروجه صلى الله عليه وسلم وأنه لم يكن حاصلاً وقت نزول الآية لا أنه لا يكون حاصلاً أبداً ليناقض حصوله بعد .

وحكى الزجاج أن استفزازهم ما أجمعوا عليه في دار الندوة من قتله صلى الله عليه وسلم

والمراد من الأرض وجه البسيطة مطلقاً ، وقال أبو حيان : المراد بها على هذا الدنيا ، وقيل ضمير ﴿ كَادُواْ ﴾ وما بعده لليهود ، فقد أخرج ابن أبي حاتم .

والبيهقي في الدلائل .

وابن عساكر عن عبد الرحمن بن غنم قال : إن اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا إن كنت نبياً فالحق بالشام فإنها أرض المحشر وأرض الأنبياء فصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام ما قالوا فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾ إِلَى ﴿ تَحْوِيلاً ﴾ [الإسراء : 67 ، 77] وأمره بالرجوع إلى المدينة وقال فيها محياك وفيها مماتك ومنها تبعث ، وفي رواية أنهم قالوا : يا أبا القاسم إن الشام أرض مقدسة وهي أرض الأنبياء فلو خرجت إليها لآمنا بك وقد علمنا أنك تخاف الروم فإن كنت نبياً فاخرج إليها فإن الله تعالى سيحميك كما حمى غيرك من الأنبياء فخرج عليه الصلاة والسلام بسبب قولهم وعسكر بذي الحليفة وأقام ينتظر أصحابه فنزلت هذه الآية فرجع صلى الله عليه وسلم ثم إنه عليه الصلاة والسلام قتل منهم بني قريظة وأجلى بني النضير بقليل .

وتعقب بأنه ضعيف لم يقع في سيرة ولا كتاب يعتمد عليه ، وذو الحليفة ليس في طريق الشام من المدينة وكيفما كان يكون المراد من الأرض عليه المدينة ، وقيل أرض العرب ، وكأن من ذهب إلى أن هذه الآية مدنية يستند إلى ما ذكر من الروايات ، وقد صرح الخفاجي بأن

هذا المذهب غير مرضي والله تعالى أعلم .

وقرأ عطاء ﴿ لاَّ يُلَبَّثُونَ ﴾ بضم الياء وفتح اللام والباء مشددة .

(189/461)

وقرأ يعقوب كذلك إلا أنه كسر الباء وقرأ أبي ﴿ وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُواْ ﴾ بحذف النون وكذا في مصحف عبد الله ، وتوجيه الإثبات والحذف أن النحويين عدوا من جملة شروط عمل إذن كونها في أول الجملة فعلى قراءة الحذف تكون الجملة معطوفة على جملة ﴿ لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾ وهي خبر كاد فيكون الشرط منخرماً لتوسطها حينئذٍ في الكلام لكون ما بعدها خبر كاد كالمعطوف هو عليه ، وعلى قراءة الإثبات تكون الجملة معطوفة على جملة ﴿ وَإِن كَادُواْ ﴾ فيتحقق الشرط والعطف لا يضر في ذلك ، ووجه أبو حيان الإهمال بأن ﴿ لاَّ يَلْبَثُونَ ﴾ جواب قسم محذوف أي والله إن استفزوك فخرجت لا يلبثون وقد توسطت إذا بين القسم المقدر والفعل فأهملت ثم قال ويحتمل أن يكون لا يلبثون خبراً لمبتدأ محذوف يدل عليه المعنى تقديره وهم إذاً لا يلبثون فتكون إذاً واقعة بين المبتدأ وخبره ولذلك ألغيت وكلا التوجيهين ليس بوجيه كما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ إخبار عن تأييده تعالى رسوله ، صلوات الله عليه وسلامه ، وتثبيته وعصمته وتولي أمره وحفظه . فإن المشركين ، لكثرة تفننهم في ضروب الأذى وشدة تعنتهم وقوة شكيمتهم ، كادوا أن يفتنوه . ولكن عناية الله وحفظه ، هو الذي ثبت قدمه في مثل مقامه في الدعوة إلى الله الذي لا يثبت فيه أحد غيره . وقد روي أن ثقيفاً قالوا : لا نؤمن حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب : لا ننحني في الصلاة ، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا ، وإن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها ، فإن خشيت أن يسمع العرب : (لِمَ أعطيتهم ما لم تعطنا) فقل : الله أمرني بذلك .

وروي أن قريشاً قالوا : لا ندعك يا محمد أن تستلم الحجر الأسود حتى تمس آلهتنا . وقالوا أيضاً : نؤمن بك إن تمس آلهتنا .

قال الإمام الطبري : يجوز أن تكون الفتنة فما ذكر . وأن تكون غير ذلك . ولا بيان في

الكتاب ولا في خبر يقطع العذر أي : ذلك كان . فالأصوب : الإيمان بظاهره حتى يأتي ما يجب التسليم له ، ببيان ما عني بذلك منه .

(191/461)

قال الزجاج : معنى الكلام : كادوا يفتنونك . ودخلت (أن) المخففة من الثقيلة و (اللام) للتأكيد . والمعنى : أن الشأن قاربوا أن يفتنوك ، أي : يخدعوك . ويصرفوك عن القرآن ، أي : عن حكمه . وذلك لأن في إعطائهم ما سألوا مخالفة لحكم القرآن . وقوله : ﴿ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ أي : غير ما أوحينا إليك وهو قولهم : قل الله أمرني بذلك : ﴿ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ أي : لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلاً ، وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم ، وراض بشركهم . ثم قال : ﴿ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ ﴾ أي : على الحق بعصمتنا إياك : ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : تميل إليهم : ﴿ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ وقوله : ﴿ شَيْئاً ﴾ عبارة عن المصدر ، أو ركونا قليلاً .

وعن قتادة : لما نزلت هذه الآية . قال النبي صلى الله عليه وسلم : < اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين > .

ثم توعده في ذلك أشد التوعد ، فقال :

﴿ إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ أي : ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات ، يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . و (الضعف) عبارة عن أن يضم إلى الشيء مثله ، ودل على إضمار العذاب وصف العذاب بالضعف في كثير من الآيات ، كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ ﴾ [ص : 61] ، وقال : ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 38] .

والسبب في تضعيف العذاب ؛ أن أقسام نعم الله على الأنبياء أكثر . فكانت ذنوبهم أعظم . فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر . ونظيره قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ [الأحزاب : 30] .

تنبيهات :

الأول : قال القفال رحمه الله (بعد ذكره ما روي في سبب نزولها مما قدمناه) : ويمكن أيضاً تأويلها من غير تقييد بسبب يضاف نزولها فيه ؛ لأن من المعلوم أن المشركين كانوا يسعون في إبطال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقصى ما يقدرون عليه . فتارة كانوا يقولون : إن عبدت آلهتنا عبدنا إلهك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الكافرون : 1 – 2] ، وقوله : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : 9] ، وعرضوا عليه الأموال الكثيرة والنساء الجميلة ليترك ادعاء النبوة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ [طه : 131] . ودعوه إلى طرد المؤمنين عن نفسه فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ [الأنعام : 52] ، فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت في هذا الباب . وذلك أنهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه ، وأن يزيلوه عن منهجه . فبين تعالى أنه يثبته على الدين القويم والمنهج المستقيم . وعلى هذا الطريق . فلا حاجة في تفسير هذا الآيات ، إلى شيء من تلك الروايات . والله أعلم .

الثاني : قال القاضي : معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ ﴾ الآية ، إنك كنت على صدد الركون إليهم ، لقوة خداعهم وشدة احتيالهم . لكن أدركتك عصمتنا فمنعت أن تقرب من الركون ، فضلاً عن أن تركن عليهم . وهو صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما همَّ بإجابتهم ، مع قوة الداعي إليها ، ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه .

الثالث : قال الزمخشري : في ذكر الكيدودة وتقليلها ، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين ؛ دليل بيِّنٌ على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته . وفيه دليل على أن أدنى مداهنة للغواة ، مضادة لله وخروج عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله . فعلى المؤمن ، إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها فهي جديرة بالتدبر . وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين الله .

(195/461)

الرابع : جاء في " حواشي جامع البيان " ما مثاله بالحرف : من الفوائد الجليلة في هذه الآية ، أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك ، بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً . فإنها شعائر الكفر والشرك . وهي أعظم المنكرات ، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة . وهكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله . والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذور والتقبيل ، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض ، مع القدرة على إزالته . وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، وأعظم شرك عندها وبها . فإن اللات – على ما نقله ابن خزيمة عن مجاهد – رجل كان

يلت لهم السويق فمات . فعكفوا على قبره يعبدونه ويعظمونه . ولم يقولوا : إن اللات خلقت السماوات والأرض ، بل كان شركهم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى كشرك أهل الشرك من أرباب المشاهد بعينه ، من النذور لها ، والشرك بها ، والتمسح بها ، وتقبيلها ، واستلامها . وما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مجرد مس آلهتهم ، كما قالوا نؤمن بك إن تمس آلهتنا ، وما التمسوا منه إلا التمتيع باللات سنة من غير عبادة ، فتوعد بهذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد أن لو ركن إليهم . فالرزية كل الرزية ما ابتلي به القبوريون من أهل هذا الزمان . فإنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام ، إلا فعلوه بالقبور . فإنا لله وإنا إليه راجعون . بل كثير منهم ، إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه ، حلف بالله فاجراً ، فإذا قيل له بعد ذلك : احلف بشيخك ، أو بمعتقدك الولي الفلاني ، تلكأ وأبى واعترف بالحق . وهذا من أبين الأدلة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال : (ثالث ثلاثة) فيا علماء الدين ! ويا ملوك المسلمين ! أي : رزء للإسلام أشد من الكفر ؟ وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله ؟ وأي مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه

؟ وأي منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجباً ؟

فاللهم ! انصر من نصر الحق واهدنا إلى سواء السبيل . انتهى .

﴿ وَإِن كَادُواْ ﴾ أي : أهل مكة : ﴿ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ ﴾ أي : ليزعجونك بمعاداتهم من مكة : ﴿ لِيُخرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ ﴾ أي : ولو خرجت لا يبقون بعد خروجك : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي : زماناً قليلاً .

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ يعني أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم ، فسنة الله أن يهلكهم . ونصبت نصب المصدر المؤكد . أي : سنَّ الله ذلك سنة : ﴿ وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ أي : تغييراً . ولا يخفى أن المراد بعدم لبثهم ، إهلاكهم . سواء كان بالاستئصال أو لا . قال ابن كثير : وكذلك وقع ، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يكن بين هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف ، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد . فأمكنه منهم ، وسلطه عليهم ، وأظفره بهم . فقتل أشرافهم وسبى سراتهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ أي : هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم . يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب . ولولا أنه صلى الله عليه وسلم رسول الرحمة ، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : 33] . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 498 . 502 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) ﴾

حكاية فن من أفانين ضلالهم وعماهم في الدنيا ، فالجملة عطف على جملة ﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى ﴾ [الإسراء : 72] ، وهو انتقال من وصف حالهم وإبطال مقالهم في تكذيب النبي إلى ذكر حال آخر من حال معارضتهم وإعراضهم ، وهي حال طَمعهم في أن يستنزلوا النبي لأن يقول قولاً فيه حسن ذكر لآلهتهم ليتنازلوا إلى مصالحته وموافقته إذا وافقهم في بعض ما سألوه .

وضمائر الغيبة مراد منها كفار قريش ، أي مُتولوا تدبيرَ أمورهم .

وغُيّر الأسلوب من خطابهم في آيات ﴿ ربكم الذي يزجى لكم الفلك في البحر ﴾ [الإسراء : 66] إلى الإقبال على خطاب النبي لتغير المقام من مقام استدلال إلى مقام امتنان .

والفتْن والفتون : معاملة يُلحق منها ضُرّ واضطراب النفس في أنواع من المعاملة يعسر دفعها

، من تغلب على القوة وعلى الفِكر ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ في سورة [البقرة : 191] .

وعدي يفتنونك ﴾ بحرف (عَن) لتضمينه معنى فعلٍ كان الفَتن لأجله ، وهو ما فيه معنى (يصرفونك) .

والذي أوحي إليه هو القرآن .

هذا هو الوجه في تفسير الآية بما تعطيه معاني تراكيبها مع ملاحظة ما تقتضيه أدلة عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم من أن تتطرق إليه خواطر إجابة المشركين لما يطمعون .

وللمفسرين بضعة محامل أخرى لهذه الآية استقصاها القرطبي ، فمنها ما ليس له حظ من القبول لوهن سنده وعدم انطباقه على معاني الآية ، ومنها ما هو ضعيف السند وتتحمله الآية بتكلف .

(198/461)

ومرجع ذلك إلى أن المشركين راودوا النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يسويهم مع من يعُدّونهم منحطين عنهم من المؤمنين المستضعفين عندهم مثل : بلال ، وعمار بن ياسر ، وخباب ، وصهيب ، وأنهم وعدوا النبي إن هو فعل ذلك ؛ بأن يجلسوا إليه ويستمعوا

القرآن حين لا يكون فيه تنقيص آلهتهم ، وأن رسول الله هم بأن يُظهر لهم بعض اللين رغبة في إقبالهم على سماع القرآن لعلهم يهتدون ، فيكون المراد من ﴿ الذي أوحينا إليك ﴾ بعض الذي أوحينا إليك ، وهو ما فيه فضل المؤمنين مثل قوله : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ الآية [الأنعام : 52] ، أو ما فيه تنقيص الأصنام .

وسمات التخرص وضيق العطن في معنى الآية بجاقّ ألفاظها بادية على جميع هاته الأخبار .

وإذ قد ملئت بها كتب التفسير لم يكن بد من تأويل الآية بأمثل ما يناسب تلك الأخبار لئلا تكون فتنة للناظرين فنقول:

إن رغبة النبي صلى الله عليه وسلم في اقترابهم من الإسلام وفي تأمين المسلمين ، أجالت في خاطره أن يجيبهم إلى بعض ما دعوه إليه مما يرجع إلى تخفيف الإغلاظ عليهم أو إنظارهم ؛ أو أرضاء بعض أصحابه بالتخلي عن مجلسه حين يحضره صناديد المشركين وهو يعلم أنهم ينتدبون إلى ذلك لمصلحة الدين أو نحو ذلك مما فيه مصلحة لنشر الدين ، وليس فيه فوات شيء على المسلمين ، أي كادوا يصرفونك عن بعض ما أوحيناه إليك مما هو مخالف لما سألوه .

فالموصول في قوله : ﴿ الذي أوحينا إليك ﴾ للعهد لما هو معلوم عند النبي صلى الله عليه وسلم بحسب ما سأله المشركون من مخالفته .

فهذه الآية مسوقة مساق المن على النبي بعصمة الله إياه من الخطأ في الاجتهاد ، ومساقَ إظهار مَلَل المشركين من أمر الدعوة الإسلامية وتخوفهم من عواقبها ، وفي ذلك تثبيت للنبيء وللمؤمنين وتأييس للمشركين بأن ذلك لن يكون .

(199/461)

وقوله : ﴿ لتفترى علينا غيره ﴾ متعلق بـ ﴿ يفتنونك ﴾ ، واللام للعلة ، أي يفعلون ذلك إضماراً منهم وطمعاً في أن يفتري علينا غيره ، أي غير ما أوحي إليك .

وهذا طمع من المشركين أن يستدرجوا النبي من سؤال إلى آخر ، فهو راجع إلى نياتهم .

وليس في الكلام ما يقتضي أن النبي عليه الصلاة والسلام همّ بذلك كما فهمه بعض الفسرين ، إذ لام التعليل لا تقتضي أكثر من غرض فاعل الفعل المعلل ولا تقتضي غرض المفعول ولا علمه .

و (إنْ) من قوله : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ مخففة من (إن) المشددة واسمها ضمير شأن محذوف ، واللام في ﴿ ليفتنونك ﴾ هي اللام الفارقة بين (إن) المخففة من الثقيلة وبين (إنْ) النافية فلا تقتضي تأكيداً للجملة .

وجملة ﴿ وإذا لاتخذوك خليلاً ﴾ عطف على جملة ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ .

و(إذاً) حرف جزاء والنُّون التي بآخرها نون كلمة وليست تنوين تمكين فتكون جزاء لفعل ﴿ يفتنونك ﴾ بما معه من المتعلقات مقحماً بين المتعاطفين لتصير واو العطف مع (إذا) مفيدة معنى فاء التفريع .

ووجه عطفها بالواو دون الاقتصار على حرف الجزاء لأنه باعتبار كونه من أحوالهم التي حاوروا النبي عليه الصلاة والسلام فيها وألحوا عليه فناسب أن يعطف على جملة أحوالهم .

والتقدير : فلو صرفوك عن بعض ما أوحينا إليك لاتخذوك خليلاً .

واللام في قوله : ﴿ لاتخذوك ﴾ اللام الموطئة للقسم لأن الكلام على تقدير الشرط ، وهو لو صرفوك عن الذي أوحينا إليك لاتخذوك خليلاً .

واللام في قوله : ﴿ لاتخذوك ﴾ لام جواب (لو) إذ كان فعلاً ماضياً مثبتاً .

والخليل : الصديق .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ في سورة [النساء : 125] .

﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) ﴾

يجوز أن يكون هذا كلاماً مستقلاً غير متصل بقوله : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ [الإسراء : 73] بناءً على ما نحوناه في تفسير الآية السابقة .

وهذه منّة أخرى ومقام آخر من مقام رسول الله تجاه المشركين .

ويجوز أن يكون من تكملة ما قبله فيكون الركون إليهم ركوناً فيما سألوه منه على نحو ما ساقه المفسرون من الأخبار المتقدمة .

و(لولا) حرف امتناع لوجود ، أي يقتضي امتناعاً لوجود ، أي يقتضي امتناع جوابه لوجود شرطه ، أي بسبب وجود شرطه .

والتثبيت : جعل الشيء ثابتاً ، أي متمكناً من مكانه غير مقلقل ولا مقلوع ، وهو مستعار للبقاء على حاله غير متغير .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ في سورة [البقرة : 265] .

وعدي التثبيت إلى ضمير النبي الدال على ذاته .

والمراد تثبيت فهمه ورأيه ، وهذا من الحكم على الذات .

والمراد بعض أحوالها بحسب دلالة المقام ، مثل ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ [النساء : 23] .

فالمعنى : ولولا أن ثبتنا رأيك فأقررناه على ما كان عليه في معاملة المشركين لقاربت أن تركن إليهم .

واللام في لقد كدت تركن إليهم ﴾ يجوز أن تكون لام جواب (لولا) ، وهي ملازمة لجوابها لتحقيق الربط بينه وبين الشرط .

والمعنى على الوجه الأول في موقع هذه الآية : أن الركون مجمل في أشياء هي مظنة الركون ولكن الركونَ منتف من أصله لأجل التثبيت بالعصمة كما انتفى أن يفتنه المشركون عن الذي أوحي إليه بصرف الله إياهم عن تنفيذ فتنتهم .

(201/461)

والمعنى على الوجه الثاني : ولولا أن عصمناك من الخطأ في الاجتهاد وأريناك أن مصلحة الشدة في الدين والتنويه بأتباعه ، ولو كانوا من ضعفاء أهل الدنيا ، لا تعارضها مصلحة تأليف قلوب المشركين ، ولو كان المسلمون راضين بالغضاضة من أنفسهم استئلافاً للمشركين ، فإن إظهار الهوادة في أمر الدين تُطمع المشركين في الترقي إلى سؤال ما هو أبعد مدى مما سألوه ، فمصلحة ملازمة موقف الحزم معهم أرجح من مصلحة ملاينتهم وموافقتهم ، أي فلا فائدة من ذلك .

ولولا ذلك كله لقد كدت تركن إليهم قليلاً ، أي تميل إليهم ، أي توعدتهم بالإجابة إلى بعض ما سألوك استناداً لدليل مصلحة مرجوحة واضحة وغفلة عن مصلحة راجحة خفية

اغتراراً بخفة بعض ما سألوه في جانب عِظم ما وعدوا به من إيمانهم .

والركون : الميل بالرُكن ، أي بالجانب من الجسد واستعمل في الموافقة بعلاقة القرب .

وتقدم في قوله : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ في سورة [هود : 113] ، كما استعمل ضده في المخالفة في قوله تعالى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ﴾ في هذه السورة [الإسراء : 83] .

وانتصب شيئاً ﴾ على المفعول المطلق ل ﴿ تركن ﴾ ، أي شيئاً من الركون .

ووجه العدول عن مصدر ﴿ تركن ﴾ طلب الخفة لأن مصدر ﴿ تركن ﴾ وهو الركون فيه ثقل فتركه أفصح ، وإنما لم يقتصر على ﴿ قليلاً ﴾ لأن تنكير ﴿ شيئاً ﴾ مفيد التقليل ، فكان في ذكره تهيئة لتوكيد معنى التقليل ، فإن كلمة (شيء) لتوغلها في إبهام جنس ما تضاف إليه أو جنس الموجود مطلقاً مفيدةٌ للتقليل غالباً كقوله تعالى :

﴿ فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾ [النساء : 20] .

و(إذن) الثانية جزَاءً ل كدت تركن ﴾ ، ولكونها جزاء فصلت عن العطف إذ لا مقتضى له .

فركون النبي صلى الله عليه وسلم إليهم غير واقع ولا مقارب الوقوع لأن الآية قد نفته بأربعة أمور ، وهي : (لولا) الامتناعية .

وفعل المقاربة المقتضي أنه ما كان يقع الركون ولكن يقع الاقتراب منه ، والتحقير المستفاد من ﴿ شيئاً ﴾ ، والتقليل المستفاد من ﴿ قليلاً ﴾ .

أي لولا إفهامنا إياك وجه الحق لخشي أن تقترب من ركون ضعيف قليل ولكن ذلك لم يقع .

ودخلت (قد) في حيز الامتناع فأصبح تحقيقها معدوماً ، أي لولا أن ثبتناك لتحقق قرب ميلك القليل ولكن ذلك لم يقع لأنا ثبتناك .

وجملة ﴿ إذا لأذقناك ضعف الحياة ﴾ جزاءٌ لجملة ﴿ لقد كدت تركن ﴾ .

والمعنى : لو تركن إليهم لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات .

ولِما في (إذن) من معنى الجزاء استغني عن ربط الجملة بحرف التفريع .

والمعنى : لقد كدت تركن فلأذقناك .

والضعف بكسر الضاد : مماثل مقدار شيءٍ ذِي مقدار ، فهو لا يكون إلا مبيناً بجنسه لفظاً أو تقديراً مثل قوله تعالى : ﴿ من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ [النور : 30] ، أي ضعفي ما أعد لتلك الفاحشة .

ولما كان كذلك ساغ إطلاقه دون بيان اعتماداً على بيان السياق كما هنا ، فإن ذكر الإذاقة في مقام التحذير ينبىء بأنها إذاقة عذاب موصوف بأنه ضِعف .

ثم إن الضعف أطلق هنا على القوي الشديد لعدم حمل الضعف على حقيقته إذ ليس ثَمّ

عِلم بمقدار العذاب يراد تضعيفه كقوله : ﴿ فآتهم عذاباً ضعفاً من النار وتقدم ذلك ﴾ في سورة [الأعراف : 38] .

وإضافة الضعف إلى الحياة وإلى الممات على معنى (في) ، فإن تقدير معنى (في) بَيْنَ المتضايفين لا يختص بإضافة ما يضاف إلى الأوقات .

فالتقدير : لأذقناك ضعفاً في الحياة وضعفاً في الممات ، فضعف عذاب الحياة هو تراكم المصائب والأرزاء في مدة الحياة ، أي العمر بزوال ما كان يناله من بهجة وسرور بتمام دعوته وانتظام أمته ، ذلك أن يتمكن منه أعداؤه ، وعذاب الممات أن يموت مكموداً مستذلاً بين كفار يرون أنهم قد فازوا عليه بعد أن أشرفوا على السقوط أمامه .

(203/461)

ويشبه أن يكون قوله : وضعف الممات ﴾ في استمرار ضعف الحياة ، فيكون المعنى : لأذقناك ضعف الحياة حتى المماتتِ .

فليس المراد من ضعف الممات عذاب الآخرة لأن النبي صلى الله عليه وسلم لو ركن إليهم شيئاً قليلاً لكان ذلك عن اجتهاد واجتلاباً لمصلحة الدين في نظره ، فلا يكون على الاجتهاد عقاب في الآخرة إذ العقاب الأخروي لا يكون إلا على مخالفة في التكليف ، وقد

سوغ الله لنبيئه الاجتهاد وجعل للمخطىء في اجتهاده أجراً كما قرر في تفسير قوله تعالى:

﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ في سورة [الأنفال : 68] .

وأما مصائب الدنيا وأرزاؤها فهي مسببة على أسباب من الأغلاط والأخطاء فلا يؤثر في التفادي منها حسن النية إن كان صاحبها قد أخطأ وجه الصواب ، فتدبر في هذه المعاني تدبر ذوي الألباب ، ولهذا خولف التعبير المعتاد استعماله لعذاب الآخرة .

وعبر هنا بـ ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ .

وجملة ﴿ ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴾ معطوفة على جملة ﴿ لأذقناك ﴾ .

وموقعها تحقيق عدم الخلاص من تلك الإذاقة .

و(ثُم) للترتيب الرتبي لأن عدم الخلاص من العذاب أهم من إذاقته ، فرتبته في الأهمية أرقى .

والنصير : الناصر المخلص من الغلبة أو الذي يثأر للمغلوب ، أي لا تجد لنفسك من ينتصر لك فيصدنا عن إلحاق ذلك بك أو يثأر لك منا .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) ﴾

عطف على جملة ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ [الإسراء : 73] تعداداً لسيئات

أعمالهم.

والضمائر متحدة.

والاستفزاز: الحمل على الترحل، وهو استفعال من فَزّ بمعنى بارح المكان، أي كادوا أن يسعوا أن تكون فازاً، أي خارجاً من مكة.

وتقدم معنى هذا الفعل عند قوله: ﴿ واستفزز من استطعت ﴾ في هذه السورة [الإسراء: 64].

والمعنى: كادوا أن يخرجوك من بلدك.

(204/461)

وذلك بأن هَمُّوا بأن يخرجوه كرهاً ثم صرفهم الله عن ذلك ليكون خروجه بغير إكراه حين خرج مهاجراً عن غير علم منهم لأنهم ارتأوا بعد زمان أن يُبقوه بينهم حتى يقتلوه.

والتعريف في الأرض ﴾ تعريف العهد، أي من أرضك وهي مكة.

وقوله: ﴿ ليخرجوك ﴾ تعليل للاستفزاز، أي استفزازاً لقصد الإخراج.

والمراد بالإخراج: مفارقة المكان دون رجوع.

وبهذا الاعتبار جعل علة للاستفزاز لأن الاستفزاز أعم من الإخراج.

وجملة ﴿ وإذا لا يلبثون خلفك ﴾ عطف على جملة ﴿ وإن كادوا ﴾ ، أو هي اعتراض في آخر الكلام ، فتكون الواو للاعتراض و (إذاً) ظرفاً لقوله : ﴿ لا يلبثون ﴾ وهي (إذ) الملازمة الإضافة إلى الجملة .

ويجوز أن يكون (إذاً) حرف جواب وجزاء لكلام سابق .

وهي التي نونها حرف من الكلمة ولكن كثرت كتابتها بألف في صورة الاسم المنون .

والأصل فيها أن يكون الفعل بعدها منصوباً بـ (أن) مضمرة ، فإذا وقعت بعد عاطف جاز رفع المضارع بعدها ونصبه .

ويجوز أن تكون (إذاً) ظرفاً للزمان ، وتنوينها عوض عن جملة محذوفة على قول جماعة من نحاة الكوفة ، وهو غير بعيد .

ألا ترى أنها إذا وقعت بعد عاطف لم ينتصب بعدها المضارع إلا نادراً لانتفاء معنى التسبب ، ولأنها حينئذٍ لا يظهر فيها معنى الجواب والجزاء .

والتقدير : وإذاَ أخرجوك أو وإذا خرجت لا يلبثون خلفك إلا قليلاً .

وقرأ الجمهور ﴿ خلفَك ﴾ .

و﴿ خلفك ﴾ أريد به بعدك .

وأصل الخلف الوراء فاستعمل مجازاً في البعدية ، أي لا يلبثون بعدك .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص ، وخلف ﴿ خلافك ﴾ وهو لغة في

خلف .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ بمقعدهم خلاف رسول الله ﴾ [التوبة : 81] .

واللبث : الاستقرار في المكان ، أي لا يستقرون في مكة بل يخرجون منها فلا يرجعون .

(205/461)

وقد خرج رسول الله بعد ذلك مهاجراً وكانوا السببَ في خروجه فكأنهم أخرجوه ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ في سورة [البقرة : 191] ، فلم يلبث الذين تسببوا في إخراجه وألبوا عليه قومهم بعده إلا قليلاً ثم خرجوا إلى وقعة بدر فلقوا حتفهم هنالك فلم يرجعوا وحق عليهم الوعيد ، وأبقى الله عامتهم ودهاءهم لضعف كيدهم فأراد الله أن يدخلوا في الإسلام بعد ذلك .

وفي الآية إيماء إلى أن الرسول سيخرج من مكة وأن مخرجيه ، أي المتسببين في خروجه ، لا يلبثون بعده بمكة إلا قليلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(206/461)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) ﴾

روي عن سعيد بن جبير أنها نزلت في المشركين من قريش ، قالوا له صلى الله عليه وسلم : لا ندعك تستسلم الحجر الأسود حتى تلم بآلهتنا وعن ابن عباي في رواية عطاء : أنها نزلت في وفد ثقيف ، أتوا النّبي فسألوه شططاً قالوا : متعنا بآلهتنا سنة نأخذ ما يهدى لها ، وحرم وادينا كما حرمت مكة ، إلى غير ذلك من الأقوال في سبب نزولها . وعى كل حال فالعبرة بعموم الألافاظ لا بخصوص الأسباب .

وعنى الآية الكريمة : أن الكفار كادوا يفتنونه أي قاربوا ذلكز ومعنى يفتنونك : يزلونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره مما لم نوحه إليك .

قال بعض أهل العلم : قاربوا ذلك في ظنهم لا فيما نفس الأمر . وقيل : معنى ذلك أنه خطر في قلبه صلى الله عليه وسلم أن يوافقهم في بعض ما أخبوا لجرهم إلى الإسلام لشدة حرصه على إسلامهم .

ويين في مواضع آخر : أنهم طلبوا منه الإتيان بغير ما أوحي إليه ، وأنه امتنع أشد الامتناع وقال لهم : إنه لا يمكنه أن يأتي بشيء من تلقاء ننفسه . بل يتبع ما أوحى إليه ربه ، وذلك في قوله : ﴿ قَالَ الذين لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ

مِن تِلْقَاءِ نفسي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ إِني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : 15] . وقوله في هذه الآية ﴿ وَإِن كَادُواْ ﴾ هي المخففة من الثقيلة ، وهو هنا مهملة . واللام هي الفارقة بينها وبين إن النافيه كما قال في الخلاصة :

وخففت إن فقل العمل . . . وتلزم اللام إذا ما تهمل

والغالب أنها لا تكون كذلك مع فعل إلا إن كان ناسخاً كما في هذه الآية ، قال في الخلاصة .

والفعل إن لم يك ناسخاً فلا . . . تلفيه غالباً بإن ذي موصلاً

(207/461)

كما هو معروف في النحو .

﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75) ﴾

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة تثبيته لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وعصمته له من الركون إلى الكفار . وأنه لو ركن إليهم لأذاقة ضعف الحياة وضعف الممات . أي مثلي عذاب الحياة في الدنيا ومثلي عذاب الممات في الآخرة . وبهذا جزم القرطبي في تفسيره .

وقال بعضهم : المراد بضعف عذاب الممات : العذاب المضاعف في القبر والمراد بضعف

الحياة: العذاب المضاعف في الآخرة بعد حياة البعث. وبهذا جزم الزمخشري وغيره.

والاية تشمل الجميع، وهذا الذي ذكره هنا من شدة الجزاء لنبيه لو خالف بينه في غير هذا الموضع. كقوله: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ [الحاقة: 44-46] الآية.

وهذا الذي دلت عليه هذه الآية من أنه إذا كانت الدرجة أعلى كان الجزاء عند المخالفة أعظم بينه في موضع آخر. كقوله: ﴿ يانساءَ النبي مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العذاب ضِعْفَيْنِ ﴾ [الأحزاب: 30] الآية. ولقد أجاد من قال:

وكبائر الرجل الصغير صغائر ... وصغائر الرجل الكبير كبائر

تنبيه

(208/461)

هذه الآية الكريمة أوضحت غاية الإيضاح براءة نبينا صلى الله عليه وسلم من مقاربة الركون إلى الكفار، فضلاً عن نفس الركون. لأن ﴿ وَلَوْلاَ ﴾ حرف امتناع لوجود.

فمقاربة الركون منعتها ﴿ وَلَوْلاَ ﴾ الامتناعيه لوجود التثبيت من الله جل وعلا لأكرم خلقه صلى الله عليه وسلم. فصح يقيناً انتفاء مقاربة الركون فضلاً عن الركون نفسه.

وهذه الآية تبين ما قبلها ، وأنه لم يقارب الركون إليهم البتة . لأن قوله ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا ﴾ أي قاربت تركن إليهم هو عين الممنوع ب ﴿ وَلَوْلَا ﴾ الامتناعية كما ترى .

ومعنى ﴿ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾ : تميل إليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(209/461)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) ﴾

وهذه خبيثة جديدة من خبائثهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانوا يحاولون جادِّين أنْ يصرفوا رسول الله عما بعثه الله به ، فمرة يقولون له: دَعْ آلهتنا نتمتع بها سنة ونأخذ الغنائم من ورائها وتحرم لنا بلدنا ـ أي: ثقيف ـ كما حرمت مكة . ومرة يقولون له: لا تستلم الحجر ويمنعونه من استلامه حتى يستلم آلهتهم أولاً .

ومعنى ﴿ كَادُوا ﴾ أي قاربوا ، والمقاربة غير الفعل ، فالمقاربة مشروع فعل وتخطيط له ، لكنه لم يحدث ، إنهم قاربوا أنْ يفتنوك عن الذي أُنزِل إليك لكن لم يحدث ؛ لأن محاولاتهم كانت من بعيد ، فهي تحوي حول فتنتك عن الدين ، كما قالوا مثلاً: نعبد إلهك سنة ، و

تعبد آلهتنا سنة.

ومعنى: ﴿ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ ليحوّلونك ويصرفونك عما أنزل الله إليك، لماذا؟ ﴿ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ.. ﴾ [الإسراء: 73] كما حكى القرآن عنهم في آية أخرى: ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَاذَا أَوْ بَدِّلْهُ.. ﴾ [يونس: 15]

فيكون الجواب من الحق سبحانه: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس: 15]

وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: 16]

(210/461)

ونلاحظ في مثل هذا الموقف أن الحق سبحانه يتحمل العنت عن رسوله، وينقل المسألة من ساحة الرسول إلى ساحته تعالى، لكي لا تكون عداوة بين محمد وقومه، فالأمر ليس من عند محمد بل من عند الله، يقول تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَاكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: 33]

فلا تحزن يا محمد، فأنت مُصدّق عندهم، لكن المسألة عندي أنا، وهكذا يتحمل الحق

سبحانه الموقف عن رسوله حتى لا يحمل القوم ضغينة لرسول الله .

ثم يقول تعالى: ﴿ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ [الإسراء: 73]

الخليل: هو المخالّ الذي بينك وبينه حُبٌّ ومودّة ، بحيث يتخلل كل منكما الآخر ويتغلغل فيه ، ومنه قوله تعالى في إبراهيم: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء: 125]

ومنه قول الشاعر: وَلَمَّا التقيْنا قَرَّبَ الشَّوْق جَهْدَهُ خليليْن ذَابَا لَوْعَةً وعِتَابَا كأنَّ خَليلاً فِي خِلاَلِ خَليلِه تَسرَّبَ أثناءَ العِنَاقِ وغَابَا فإذا ما تقابل الخليلان ذاب كل منهما في صاحبه أو تخلَّله ودخل فيه .

فالمعنى: لو أنك تنازلتَ عن المنهج الذي جاءك من الله لَصِرْتَ خليلاً لهم ، كما كنت خليلاً لهم من قبل ، وكانوا يحبونك ويقولون عنك " الصادق الأمين " . إذن: الذي جعلهم في حالة عداء لك هو منهج الله جئْتَ به ، فلو تنازلتَ عنه أو تهاونت فيه فسوف يتخذونك خليلاً ، فلا تكُنْ خليلاً لهم بل خليلاً لربك الذي أرسلك .

ويخاطب الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ، فيقول: ﴿ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ .

﴿ وَلَوْلَا ﴾ أداة شرط إن دخلت على الجملة الاسمية، وتفيد امتناع وجود الجواب لوجود الشرط، ويسمونها حرف امتناع لوجود، كما لو قلت: لولا زيدٌ عندك لَزُرْتُكَ، فقد امتنعت الزيارة لوجود زيد.

فإنْ دخلت (لولا) على الجملة الفعلية أفادتْ الحثَّ والحضَّ، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا جَآءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ .. ﴾ [النور: 13]

و(لولا) في الآية دخلتْ على جملة اسمية؛ لأن (أن) بعدها مصدرية، فالمعنى: لولا تثبتنا لك لقاربتَ أن تركنَ إليهم شيئاً قليلاً.

والمتأمل في هذه الآية يجدها تحتاط لرسول الله عدة احتياطات، فلم تقُلْ: لولا تثبتنا لك لَركنتَ إليهم، لا، بل لَقاربتَ أنْ تركنَ فمنعتْ مجرد المقاربة، أما الركون فهو أمر بعيد وممنوع نهائياً وغير مُتصوّر من رسول الله، ومع ذلك أكّد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله: ﴿ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: 74] أي: ركوناً قليلاً.

مما يدلُّ على أن طبيعته صلى الله عليه وسلم -حتى دون الوحي من الله- طبيعة سليمة بفطرتها، فلو تصوَّرنا عدم التثبيت له من الله ماذا كان يحدث منه؟ يحدث مجرد (كاد) أو (قَرُب) أنْ يركنَ إليهم شيئاً قليلاً، وقلنا: إن المقارنة تعني مشروعَ فِعْل، لكنه لم يحدث، مِمّا يدلُّ على أن لرسول الله ذاتية مستقلة.

ومعنى ﴿ ثَبَّتْنَاكَ .. ﴾ [الإسراء: 74] التثبيت هو منع المثبَّت أنْ يتأرجح، لذلك

نقول للمتحرك: اثبت.

ومعنى: ﴿ تَرْكَنُ ﴾ من ركون الإنسان إلى شيء يعتصم به ويحتمي، والناس يبنون الحوائط ليحموا بها ممتلكاتهم، وإذا احتمى الإنسان بجدار فأسند ظهره إليه مَثَلاً فقد حَمَى ظهره فقط، وأمن أنْ يأتيه أحد من ورائه، فإنْ أراد أنْ يحميَ جميع جهاته الأربع، فعليه أن يلجأ إلى رُكْن وأنْ يسند ظهره إلى الركن فيأمن من أمامه، ويحتمي بجدار عن يمينه وجدار عن شماله. إذن: الركون أن تذهب إلى حِرْز يمنعك من جميع جهاتك.

(212/461)

ومن الركون قوله تعالى عن لوط عليه السلام مع قومه: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾[هود: 80] أي: أحتمي به وألجأ إليه.

والحق سبحانه في هذه الآيات يريد أنْ يستلّ السخيمةَ على محمد صلى الله عليه وسلم من قلوب أعدائه؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على هدايتهم وتأليف قلوبهم، وقد كان يشقُّ على نفسه ويُحمّلها ما لا يطيق في سبيل هذه الغاية، ومن ذلك ما حدث من تَرْكه عبد الله بن أم مكتوم الذي جاءه سائلاً، وانصرافه عنه إلى صناديد قريش؛ لذلك عتب عليه ربه تبارك وتعالى لأنه شقّ على نفسه.

وكأن الحق تبارك وتعالى في هذه الآية يقول: يا قوم إنْ لم يوافقكم محمد على ما كنتم تريدون منه الانصراف عَمَّا أُنزِل إليه من ربه، فاعذروه؛ لأن الأمر عندي والتثبيت مني، ولا ذنب لمحمد فيما خالفكم فيه، كما لو كان عندك خادم مثلاً ارتكب خطأ ما، فأردت أنْ تتحمل عنه المسئولية، فقلت: أنا الذي كلفتُه بهذا وأمرتُه به، فالأمر عندي وليس للخادم ذنب فيما فعل.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ. . . ﴾.

(213/461)

﴿ إِذاً ﴾ أي: لو كِدتَ تركن إليهم شيئاً قليلاً لأذقناك ضِعْف الحياة وضِعْف الممات، وبهذا التهديد يرفع الحق سبحانه سخيمة الكُرْه من صدور القوم لمحمد، وينقلها له سبحانه وتعالى.

ومعنى ﴿ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ. . ﴾ [الإسراء: 75]الضعْف: مضاعفة الشيء مرة أخرى. أي: قَدْر الشيء مرتين، ولا يُذاق في الحياة إلا العذاب، فالمراد: لأذقناك ضِعْف عذاب الحياة وضِعْف عذاب الممات، لكن لماذا يُضاعَف العذاب في حَقِّ محمد صلى الله عليه وسلم؟

قالوا: لأنه أُسْوة كبيرة وقُدْوة يقتدي الناس بها، ويستحيل في حقّه هذا الفعل، ولا يتصور منه صلى الله عليه وسلم، لكن على اعتبار أن ذلك حدث منه فسوف يُضاعَف له العذاب، كما قال تعالى في نساء النبي: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب: 30]

ذلك لأنهن بيت النبوة وأمهات المؤمنين، وهنّ أُسْوة لغيرهنّ من نساء المسلمين، وكلما ارتفع مقام الإنسان في مركز الدعوة إلى الله وجب عليه أنْ يتبرأ عن الشبهة؛ لأنه سيكون أُسْوة فعل، فإنْ ضَلَّ فلن يضل في ذاته فقط، بل سيضل معه غيره، ومن هنا شدَّد الله العقوبة وضاعفها للنبي ولزوجاته.

وقد اختار الحق سبحانه لفظ ﴿ لَّأَذَقْنَٰكَ ﴾؛ لأن الإذاقة من الذَّوْق، وهو أعمّ الملكَات شُيوعاً في النفس، فأنت ترى بعينك وتسمع بأذنك وتشمُّ بأنفك، لكن المذاق تشترك فيه كل الملكات.

ثم يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: 75]

أي: لا تجد مدافعاً يدافع عنك؛ أو ناصراً ينصرك؛ لأن مددك مني وحدي، فكيف يكون لك ناصر من دوني؟

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾.

وهنا أيضاً قوله تعالى ﴿ كَادُواْ ﴾ أي: قاربوا ، فهم لا يجرؤون على الفعل ، ولا يستطيعون ، فالأمر مجرد القُرْب من الفعل ، فإنهم سيحاولون إخراجك ، لكنك لن تخرج إلا بأمري وتقديري .

وقوله تعالى: ﴿ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ . . ﴾ [الإسراء: 76] من استفزَّه أي: طلب منه النهوض والخِفّة إلى الفِعْل ، كما تقول لولدك المتثاقل: (فِز) أي: قُمْ وانهض ، والمراد: يستحثونك على الخروج ﴿ مِنَ الأَرْضِ ﴾ من مكة بإيذائهم لك ، وعَنَتهم معك ليحملوك على الخروج ، ويُكرِّهوك في الإقامة بها .

وكفار مكة يعلمون أن في خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة راحة لهم ، وحتى لا يكون أُسْوة لعبيدهم ولضعاف القوم الذين أحبوه ، ومالوا لاعتناق دينه والإيمان به .

ثم يقول تعالى: ﴿ وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: 76]

أي: لو أخرجوك من مكة فلن يلبثوا فيها بعدك إلا قليلاً ، وقد حدث فعلاً ، فبعد خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة بعام جاءت بدر ، فقُتِل سبعون من صناديد قريش ، وأُسِرَ سبعون ، وبعد أن خرج الرسول من مكة لم يتمتعوا فيها بالنعيم ولا بالسيادة التي كانوا يَرجُونها بعد خروجه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ :

" إنْ " هذه فيها المذهبان المشهوران : مذهبُ البصريين : أنها مخففةٌ ، واللامُ فارقةٌ بينها وبين " إنْ " النافية ، ولهذا دَخَلَتْ على فعلٍ ناسخٍ ، ومذهبُ الكوفيين أنها بمعنى " ما " النافيةِ ، واللامُ بمعنى " إلا " . وضُمِّنَ " يَفْتِنُونَك " معنى يَصْرِفُونك " فلهذا عُدِّي ب " عن " تقديرُه : لَيَصْرِفُونَكَ بفتنتِهم . و " لتفتريَ " متعلِّقٌ بالفتنة .

قوله : ﴿ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ ﴾ " إذن " حرفُ جوابٍ وجزاءٍ ؛ ولهذا تقع أداةُ الشرطِ موقعَها ، و " لاتَّخذوك " جوابُ قسمٍ محذوفٍ تقديرُه : إذن واللهِ لاتَّخذوك ، وهو مستقبلٌ في المعنى ، لأَنَّ " إذَنْ " تقتضي الاستقبالَ ؛ إذ معناها المجازاةُ . وهذا كقولِه : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّواْ ﴾ [الروم : 51] ، أي : لَيَظَلُّنَّ . وقولُ الزمخشري : " أي : ولو اتَّبَعْتَ مرادَهم لاتَّخذُوك " تفسيرُ معنى لا إعرابٍ ، لا يريد بذلك أنَّ " لاتَّخَذُوك " جوابُ ل " لو " محذوفةً إذ لا حاجةَ إليه .

﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) ﴾

قوله تعالى : ﴿ تَرْكَنُ ﴾ : العامَّة على فتح الكاف مضارع رِكَنَ بالكسر ، وقتادة وابنُ مُصَرِّف وابنُ أبي إسحاق " تَرْكُن " بالضمِّ مضارعَ رَكَنَ بالفتح ، وهذا من التداخل ، وقد تقدَّم تحقيقه في أواخر هود .

وقوله : " شيئاً " : منصوبٌ على المصدر ، وصفتُه محذوفة ، أي : شيئاً قليلاً من الرُّكون .

﴿ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75) ﴾

(216/461)

قوله تعالى : ﴿ ضِعْفَ الحياة ﴾ : قال الزمخشري : فإن قلت " كيف حقيقةُ هذا الكلام ؟ قلت : أصلُه : لأَذَقْناك عذابَ الحياةِ وعذابَ المماتِ ؛ لأنَّ العذابَ عذابان ، عذابٌ في المماتِ وهو عذابُ القبرِ ، وعذابٌ في حياةِ الآخرةِ وهو عذاب النار ، والضِّعْفُ يُوصَفَ به ، نحوَ قولِه تعالى : ﴿ فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النار ﴾ [الأعراف : 38] يعني عذاباً مُضاعفاً ، فكأنَّ أصلَ الكلامِ : لأذَقْناك عذاباً ضِعْفاً في الحياة ، وعذاباً ضِعْفاً في المَمات ، ثم حُذِف الموصوفُ ، وأُقيمت الصفةُ مُقامه وهو الضِّعْف ، ثم أُضِيْفَتِ الصفة إضافةَ الموصوف فقيل : ضِعْفَ الحياة ، وضِعْفَ المماتِ ، كما لو قيل : أليمَ الحياةِ ، وأليم

المماتَ " . والكلامُ في " إذن " و " لأذَقْناك " كما تقدَّم في نظيره .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ ﴾ : قرأ العامَّةُ برفع الفعل بعد " إذَنْ " ثابتَ النون ، وهي مرسومةٌ في مصاحف العامَّة . ورفعُهُ وعدمُ إعمالِ " إذن " فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أنها توسَّطَتْ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه . قال الزمخشري : " فإن قلت " ما وجهُ القراءتين ؟ قلت : أمَّا الشائعةُ -يعني برفع الفعلِ - فقد عُطِف فيها الفعلُ على الفعل ، وهو مرفوعٌ لوقوعِه خبرَ كاد ، وخبرُ " كاد " واقعٌ موقعَ الاسم " . قلت : فيكون " لا يَلْبُثُون " عطفاً على قولِه " لَيَسْتَفِزُّونك " .

الثاني : أنها متوسطةٌ بين قسمٍ محذوفٍ وجوابِه ، فأُلْغِيَتْ لذلك ، والتقدير : وواللهِ إذن لا يلبثون .

الثالث : أنها متوسطةٌ بين مبتدأ محذوفٍ وخبرِه ، فأُلْغِيَتْ لذلك ، والتقدير : وهم إذن لا يلبثون .

وقرأ أُبَيٌّ بحذفِ النون، فَنَصْبُه بإذن عند الجمهور، وب "أَنْ" مضمرةً بعدها من غيرِهم، وفي مصحف عبد الله "لا يَلْبَثُوا" بحذفِها. ووجهُ النصب أنه لم يُجعل الفعلُ معطوفاً على ما تقدَّم ولا جواباً ولا خبراً. قال الزمخشري: "وأمَّا قراءةُ أُبَيّ ففيها الجملةُ برأسها التي هي: إذاً لا يَلْبثوا، عَطَفَ على جملة قوله ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾.

وقرأ عطاء ﴿ لاَّ يَلَبَّثُونَ ﴾ بضمِّ الياء وفتحِ اللام والباء، مشددةً مبنياً للمفعول، مِنْ لَبَّثَه بالتشديد. وقرأها يعقوب كذلك إلا أنه كسرَ الباءَ، جعَلَه مبنياً للفاعل.

قوله: "خِلافَك" قرأ الأخَوان وابنُ عامر وحفصٌ: "خِلافَك" بكسر الخاء وألفٍ بعد اللام، والباقون بفتح الخاء وسكونِ اللام. والقراءتان بمعنى واحدٍ. وأنشدوا في ذلك:

3089- عَفَتِ الديارُ خِلافَهم فكأنما ... بَسَطَ الشَّواطِبُ بينهنَّ حَصِيْراً

وقال تعالى: ﴿ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: 81] والمعنى: بعد خروجك. وكثُر إضافةُ قبل وبعد ونحوِهما إلى أسماءِ الأعيان على حَذْفِ مضافٍ، فيُقَدَّر من قولك: جاء زيدٌ قبل عمرو: أي: قبل مجيئِه.

قوله: ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ يجوز أن تكونَ صفةً لمصدرٍ أو لزمانٍ محذوف، أي: لُبْثاً قليلاً، أو إلا زماناً قليلاً. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 387. 395﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) ﴾

ضربنا عليك سرادقاتِ العصمة ، وآويناكَ في كنف الرعاية ، وحفظناك عن خطر اتباعك هواك ، فالزَّلَّةُ منك محال ، والافتراءُ في نعتك لايجوز . . . ولو جَنَحْتَ لحظةً إلى الخلاف لَتَضَاعَفَتْ عليكَ تشديداتُ البلاء ، لكمالِ قَدْرِك وعُلُوِّ شأنك ؛ فإنَّ مَنْ كان أعلى درجةً فَذَنْبُه - لو حصل - أشدُّ تأثيراً .

﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) ﴾

لو وكلناكَ ونُفسَكَ ، ورفعنا عنك ظِلَّ العصمة لألَمْمَتَ بشيءٍ مما لا يجوز من مخالفة أمرنا ، ولكننا أفردناكَ بالحفظ ، فلا تتقاصر عنكَ آثارُه ، ولا تَغْرُبُ عن ساحتك أنوارُه .

قوله : ﴿ إذاً لأَذَقْنَاكَ . . . ﴾ الآية هبوطُ الأكابر على حسب صغودهم ، ومِحَنُ الأَحِبَّةِ وإنْ قَلَّتْ جلَّتْ ، وفي معناه أنشدوا :

أنت عيني وليس من حقِّ عيني . . . غضُّ أجفانها على الإقذاء

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76)

مَنْ ظنَّ أنه يستمتع بحياته بعد مضيّ الأَعِزَّة والأكابر غَلِط في حسابه ، وإن الحسودَ لا يسود :

وفي تعبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشمسَ ضوءَها . . . ويجهد أن يأتي لها بضريب

والأرض كلها مِلْكٌ لنا ، ونُقَلّب أولياءَنا في ترددهم في البلاد وتطوافهم في الأقطار ، ترداً على بساطنا ، وتقلباً في ديارنا ؛ فالبقاع لهم سواء ، وأنشدوا :

فَسِرْ أو أَقِمْ وَقْفٌ عليكَ محبتي . . . مكانُكَ من قلبي عليك مصونُ . انتهى . ا هـ

﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 362 . 363﴾

(219/461)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْكِتَاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والستون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثانى والستون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 77 ﴾ من سورة الإسراء

وحتى الآية ﴿ 81 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77) أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (80) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبره بذلك ، أعلمه أنه سنته في جميع الرسل فقال تعالى : ﴿ سنة ﴾ أي كسنة أو سنتنا بك سنة ﴿ من قد أرسلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة .

ولما كان الإرسال قد عمت بركته بهذه العظمة جميع الأزمان بما حفه به من قويم الفطرة ، أسقط الجار فقال تعالى : ﴿ قبلك ﴾ أي في الأزمان الماضية كلها ﴿ من رسلنا ﴾ بأن جعلنا وجودهم بين ظهراني قومهم رحمة لقومهم ، فإذا أخرجوهم عاجلنا من رضي بإخراجهم بالعقوبة ﴿ ولا تجد لسنتنا ﴾ أي لما لها من العظمة ﴿ تحويلاً ﴾ أي بمحول غيرنا يحولها ، لكنهم خصوا عن الأمم السالفة بأنهم لا يعذبون عذاب الاستئصال تشريفاً لهم بهذا النبي الكريم .

ولما قرر أمر أصول الدين بالوحدانية والقدرة على المعاد ، وقرر أمرهم أحسن تقرير ، واستعطفهم بنعمه ، وخوفهم من نقمه ، وقرر أنه سبحانه عصمه عليه الصلاة والسلام من فتنتهم بالسراء والضراء بما أنار به من بصيرته ، وأحسن من علانيته وسريرته ، صار من المعلوم أنه قد تفرغ للعبادة ، وتهيأ للمراقبة ، فبدأ بأشرفها فوصل بذلك قوله تعالى :

﴿ أقم ﴾ أي حقيقة بالفعل ومجازاً بالعزم عليه ﴿ الصلاة ﴾ بفعل جميع شرائطها وأركانها ومبادئها وغاياتها ، بحيث تصير كأنها قائمة بنفسها ، فإنها لب العبادة بما فيها من خالص المناجاة بالإعراض عن كل غير ، وفناء كل سوى ، بما أشرق من أنوار الحضرة التي اضمحل لها كل فان ، وفي ذلك إشارة عظيمة إلى أن الصلاة أعظم ناصر على الأعداء الذين يريدون بمكرهم استفزاز الأولياء ، وأدفع الأشياء للضراء ، وأجلبها لكل سراء ، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة كما تقدم تخريجه في آخر الحجر ؛ ثم عين له الأوقات بقوله تعالى : ﴿ لدلوك الشمس ﴾ أي زوالها واصفرارها وغروبها ، قال في القاموس : دلكت الشمس : غربت أو اصفرت أو مالت أو زالت عن كبد السماء .

(6/462)

فحينئذ في هذه اللفظة دلالة على الظهر والعصر والمغرب من استعمال المشترك في معانيه ، أما في الظهر والمغرب فواضح ، وأما في العصر فلأن أول وقتها أول أخذ الشمس في الاصفرار ، وأدل دليل على ذلك أنه غيّا الإقامة بوقت العشاء فقال تعالى : ﴿ إلى ﴾ حثاً على نية أن يصلي كلما جاء الوقت ليكون مصلياً دائماً ، لأن الإنسان في صلاة ما كان ينتظر الصلاة ، فهو بيان لأن وقت المغرب من الدلوك الذي هو الغروب إلى أن يذهب الشفق ﴿ غسق الّيل ﴾ فالغسق : ظلمة أول الليل ، وهو وقت النوم ؛ وقال الرازي في اللوامع : وهو استحكام ظلمة الليل ، وقال الرماني : ظهور ظلامه ؛ ثم عطف عليه بتغيير السياق قوله تعالى : ﴿ وقرءان ﴾ فكأنه قال : ثم نم وأقم قرآن ﴿ الفجر ﴾ إشارة إلى الصبح ، وقيل : نصب على الإغراء ، وكأنه عبر عنها بالقرآن لأنه مع كونه أعظم أركان الصلاة يطول فيها القراءة ما لا يطول في غيرها ، ويجهر به فيها دون أختها العصر وتشويقاً بالتعبير به إليها لثقلها بالنوم .

ولما كان القيام من المنام صعباً ، علل مرغباً مظهراً غير مضمر لأن المقام مقام تعظيم فقال تعالى : ﴿ إن قراءن الفجر كان مشهوداً ﴾ يشهده فريقا الملائكة ، وهو أهل لأن يشهده كل أحد ، لما له من اللذة في السمع ، والإطراب للقلب ، والإنعاش للروح ، فصارت الآية جامعة للصلوات ؛ روى البخاري في التفسير عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ قال : فضل صلاة

الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ، يقول أبي هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿ إن قرءان الفجر ﴾ - الآية .

(7/462)

قالوا : وهذا دليل على وجوب الصلاة بأول الوقت ، وأن التغليس بصلاة الفجر أفضل ؛ ثم حث بعدها على التهجد لأفضليته وأشديته فقال تعالى : ﴿ ومن ﴾ أي وعليك بعض ، أو قم بعض ﴿ اليل فتهجد ﴾ أي اترك الهجود - وهو النوم - بالصلاة ﴿ به ﴾ أي بمطلق القرآن ، فهو من الاستخدام الحسن ﴿ نافلة لك ﴾ أي زيادة مختصة بك ؛ قال عبد الغافر الفارسي في مجمع الغرائب : وأصل النفل الزيادة ، ومنه الأنفال الزائدة على الغنائم التي أحلها الله لهذه الأمة ، وقال أبو عبد الله القزاز : النوافل : الفواضل ، ومن هذا يقولون : فلان ممن ترجى نوافله - انتهى .

فهو زيادة للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الفرض وللأمة في التطوع ، وخص به ترغيباً للأمة لأنهم يعلمون أنه لا يخص إلا بخير الخير ، لأنه الوقت الذي كني فيه عن استجابة الدعاء بالنزول إلى السماء الدنيا اللازم منه القرب الوارد في الأحاديث الصحيحة أنه يكون في جوف الليل ، لأن من عادة الملوك في الدنيا أن يجعلوا فتح الباب والقرب منه ورفع الستر

والنزول عن محل الكبرياء أمارة على قضاء الحوائج ، وكل ما يعبر به عن الله تعالى مما ينزه سبحانه عن ظاهره يكون كناية عن لازمه ، ويبين ذلك حديث رويناه في جزء العبسي عن عثمان بن أبي العاص -رضى الله عنهم- أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : " إن في الليل ساعة يفتح فيها أبواب السماء فينادي مناد : هل من داع فيستجاب له ؟ " إلى آخره ، فهذا شاهد عظيم لهذا التأويل .

(8/462)

ولما أمره سبحانه بالتهجد والتذلل ، وكان السياق للعظمة رجاء في النوال بما يليق بالسياق فقال تعالى : ﴿ عسى أن ﴾ أي لتكون بمنزلة الراجي لأن ﴿ يبعثك ﴾ ولما كان السياق قد انصرف للترجية ، عبر بصفة الإحسان فقال تعالى : ﴿ ربك ﴾ أي المحسن إليك بعد الموت الأكبر وقبله ، كما بعث نفسك من الموت الأصغر إلى خدمته ﴿ مقاماً ﴾ نصب على الظرف ﴿ محموداً ﴾ وذلك لأن " عسى " للترجي في المحبوب والإشفاق في المكروه ، وقد يضعف ذلك فيلزم الشك في الأمر ، وقد يقوى فيأتي اليقين ، وهي هنا لليقين ، قالوا : إن عسى تفيد الإطماع ، ومن أطمع أحداً في شيء ثم حرمه كان عاراً ، والله تعالى أكرم من أن يفعل ذلك ، وعبر بها دون ما يفيد القطع لأن ذلك أقعد في كلام الملوك لأنه أدل على

العظمة ، وللبخاري في التفسير عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جثى ، كل أمة تتبع نبيها ، يقولون : يا فلان اشفع ! يا فلان اشفع ! حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود . أي فيظهر ما له من الحظ من اسمه أحمد ومحمد في ذلك الحين بحمد كل ذي روح بإيصال الإحسان إلى كل منهم بالفعل ، وله في التفسير وغيره عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : " من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ! آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة " يعني – والله أعلم – الشفاعة الخاصة ، وأما العامة فللكل بغير شرط .

(9/462)

ولما كان هذا المقام صالحاً للشفاعة ولكل مقام يقومه ، وكان كل مقام يحتاج إلى التوفيق في مباشرته والانفصال عنه ، تلاه حاثاً على دوام المراقبة واستشعار الافتقار بقوله مقدماً المدخل لأنه أهم : ﴿ وقل رب ﴾ أي أيها الموجد لي ، المدبر لأمري ، المحسن إليّ ﴿ أدخلني ﴾ في كل مقام تريد إدخالي فيه حسي ومعنوي دنيا وأخرى ﴿ مدخل

صدق ﴾ يستحق الداخل فيه أن يقال له : أنت صادق في قولك وفعلك ، فإن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً ﴿ وأخرجني ﴾ من كل ما تخرجني منه ﴿ مخرج صدق ﴾ .

ولما كان الصدق في الأمور قد لا يقارنه الظفر ، قال تعالى : ﴿ واجعل لي ﴾ أي خاصة ﴿ من لدنك ﴾ أي عندك من الخوارق التي هي أغرب الغريب ﴿ سلطاناً ﴾ أي حجة وعزاً ﴿ نصيراً ﴾ وفيه إشعار بالهجرة وأنها تكون على الوجه الذي كشف عنه الزمان من العظمة التي ما لأحد بها من يدان .

ولما كان الدعاء قد لا يستجاب ، قال مبشراً له بأنه ليس بين دعائه وبين استجابته إلا قوله ، ومحققاً لتلك البشرى بالأمر بأن يخبر بها : ﴿ وقل ﴾ أي لأوليائك وأعدائك : ﴿ جاء الحق ﴾ وهو كل ما أمرني به ربي وأنزله إليّ ﴿ وزهق ﴾ أي اضمحل وبطل وهلك ﴿ الباطل ﴾ وهو كل ما خالفه ؛ ثم علل زهوقه بقوله : ﴿ إن الباطل كان ﴾ في نفسه بجبلته وطبعه ﴿ زهوقاً ﴾ قضاء قضاه الله تعالى من الأزل ؛ روى البخاري في التفسير وغيره عن ابن مسعود ـ رضى الله عنهم ـ قال : دخل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ، ﴿ جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ [سبأ : 49] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 414 ـ 418 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾

يعني أن كل قوم أخرجوا نبيهم من ظهرانيهم فسنة الله أن يهلكهم فقوله : ﴿ سَنَةٍ ﴾ نصب على المصدر المؤكد أي سننا ذلك سنة فيمن قد أرسلنا قبلك ثم قال : ﴿ وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ والمعنى أن ما أجرى الله تعالى به العادة لم يتهيأ لأحد أن يقلب تلك العادة وتمام الكلام في هذا الباب أن اختصاص كل حادث بوقته المعين وصفته المعينة ليس أمراً ثابتاً له لذاته وإلا لزم أن يدوم أبداً على تلك الحالة وأن لا يتميز الشيء عما يماثله في تلك الصفات بل إنما يحصل ذلك الاختصاص بتخصيص المخصص وذلك التخصيص هو أنه تعالى يريد تحصيله في ذلك الوقت ثم تتعلق قدرته بتحصيله في ذلك الوقت ثم يتعلق علمه بحصوله في ذلك الوقت ثم نقول هذه الصفات الثلاثة التي هي المؤثرة في حصول ذلك الاختصاص إن كانت حادثة افتقر حدوثها إلى تخصيص آخر ولزم التسلل وهو محال وإن كانت قديمة فالقديم يمتنع تغيره لأن ما ثبت قدمه امتنع عدمه ولما كان التغير على تلك الصفات المؤثرة في ذلك الاختصاص ممتنعاً كان التغير في تلك الأشياء المقدرة ممتنعاً فثبت بهذا البرهان صحة قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ .

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في النظم وجوه .

الأول : أنه تعالى لما قرر أمر الالهيات والمعاد والنبوات أردفها بذكر الأمر بالطاعات بعد الإيمان وأشرف الطاعات بعد الإيمان الصلاة فلهذا السبب أمر بها .

(11/462)

الثاني : أنه تعالى لما قال : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض ﴾ [الإسراء : 76] أمره تعالى بالإقبال على عبادته لكي ينصره عليهم فكأنه قيل له لا تبال بسعيهم في إخراجك من بلدتك ولا تلتفت إليهم واشتغل بعبادة الله تعالى وداوم على أداء الصلوات فإنه تعالى يدفع مكرهم وشرهم عنك ويجعل يدك فوق أيديهم ودينك غالباً على أديانهم ونظيره قوله في سورة طه : ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ وَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءانَاء الليل فَسَبّحْ وَأَطْرَافَ النهار لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ [طه : 130] وقال : ﴿ وَلَقَدْ

نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ الساجدين * واعبد رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ [الحجر : 97 99] والوجه الثالث : في تقرير النظم أن اليهود لما قالوا له اذهب إلى الشام فإنه مسكن الأنبياء عزم صلى الله عليه وسلم على الذهاب إليه فكأنه قيل له المعبود واحد في كل البلاد وما النصرة والدولة إلا بتأييده ونصرته فداوم على الصلوات وارجع إلى مقرك ومسكنك وإذا دخلته ورجعت إليه فقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي في هذا البلد سلطاناً نصيراً في تقرير دينك وإظهار شرعك ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

اختلف أهل اللغة والمفسرون في معنى دلوك الشمس على قولين .

أحدهما : أن دلوكها غروبها وهذا القول مروي عن جماعة من الصحابة ، فنقل الواحدي في البسيط عن علي عليه السلام أنه قال : دلوك الشمس غروبها .

وروى زر بن حبيش أن عبد الله بن مسعود قال : دلوك الشمس غروبها ، وروى سعيد بن جبير هذا القول عن ابن عباس وهذا القول اختيار الفراء وابن قتيبة من المتأخرين .

والقول الثاني : أن دلوك الشمس هو زوالها عن كبد السماء وهو اختيار الأكثرين من الصحابة والتابعين واحتج القائلون بهذا القول على صحته بوجوه .

الحجة الأولى : روى الواحدي في البسيط عن جابر أنه قال : "طعم عندي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثم خرجوا حين زالت الشمس فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا حين دلكت الشمس" .

الحجة الثانية : روى صاحب "الكشاف" عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أتاني جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت الشمس فصلى بي الظهر " الحجة الثالثة : قال أهل اللغة معنى الدلوك في كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار دالكة ، وقيل لها إذا أفلت دالكة لأنها في الحالتين زائلة .

هكذا قاله الأزهري وقال القفال : أصل الدلوك الميل ، يقال : مالت الشمس للزوال ، ويقال : مالت للغروب ، إذا عرفت هذا فنقول : وجب أن يكون المراد من الدلوك ههنا الزوال عن كبد السماء وذلك لأنه تعالى علق إقامة الصلاة بالدلوك ، والدلوك عبارة عن الميل والزوال ، فوجب أن يقال إنه أول ما حصل الميل والزوال تعلق به هذا الحكم فلما حصل هذا المعنى حال ميلها من كبد السماء وجب أن يتعلق به وجوب الصلاة وذلك يدل على أن المراد من الدلوك في هذه الآية ميلها عن كبد السماء وهذه حجة قوية في هذا الباب استنبطتها بناء على ما اتفق عليه أهل اللغة : أن الدلوك عبارة عن الميل والزوال ، والله أعلم .

الحجة الرابعة : قال الأزهري الأولى حمل الدلوك على الزوال في نصف النهار ، والمعنى

﴿ أَقِمِ الصلاة ﴾ أي أدمها من وقت زوال الشمس إلى غسق الليل وعلى هذا التقدير فيدخل فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم قال : ﴿ أَقِمِ الصلاة ﴾ فإذا حملنا الدلوك على الزوال دخلت الصلوات الخمس في هذه الآية ، وإن حملناه على الغروب لم يدخل فيه إلا ثلاث صلوات وهي المغرب والعشاء والفجر وحمل كلام الله تعالى على ما يكون أكثر فائدة أولى فوجب أن يكون المراد من الدلوك الزوال ، واحتج الفراء على قوله الدلوك هو الغروب بقول الشاعر :

هذا مقام قدمي رباح . . وقفت حتى دلكت براح

(13/462)

وبراح اسم الشمس أي حتى غابت ، واحتج ابن قتيبة بقول ذي الرمة :

مصابيح ليست باللواتي يقودها . . نجوم ولا أفلاكهن الدوالك

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف لأن عندنا الدلوك عبارة عن الميل والتغير وهذا المعنى حاصل في الغروب فكان الغروب نوعاً من أنواع الدلوك فكان وقوع لفظ الدلوك على الغروب لا ينافي وقوعه على الزوال كما أن وقوع لفظ الحيوان على الإنسان لا ينافي وقوعه على الفرس ومنهم من احتج أيضاً على صحة هذا القول بأن الدلوك اشتقاقه من الدلك لأن

الإنسان يدلك عينيه عند النظر إليها وهذا إنما يصح في الوقت الذي يمكن النظر إليها ومعلوم أنها عند كونها في وسط السماء لا يمكن النظر إليها ، أما عند قربها من الغروب فيمكن النظر إليها (و) عندما ينظر الإنسان إليها في ذلك الوقت يدلك عينيه ، فثبت أن لفظ الدلوك مختص بالغروب .

والجواب أن الحاجة إلى ذلك التبيين عند كونها في وسط السماء أتم فهذا الذي ذكرته بأن يدل على أن الدلوك عبارة عن الزوال من وسط السماء أولى ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

قال الواحدي : اللام في قوله لدلوك الشمس لام الأجل والسبب وذلك لأن الصلاة إنما تجب بزوال الشمس فيجب على المصلي إقامتها لأجل دلوك الشمس .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿إلى غسق الليل﴾ غسق الليل سواده وظلمته قال الكسائي : غسق الليل غسوقاً ، والغسق : الاسم ، بفتح السين .

وقال النضر بن شميل : غسق الليل دخول أوله ، وأتيته حين غسق الليل ، أي حين يختلط ويسد المناظر ، وأصل هذا الحرف من السيلان يقال : غسقت العين تغسق .

وهو هملان العين بالماء ، والغاسق السائل ، ومن هذا يقال لما يسيل من أهل النار : الغساق

، فمعنى غسق الليل أي انصب بظلامه ، وذلك أن الظلمة كأنها تنصب على العالم ، وأما قول المفسرين ، قال ابن جريج : قلت لعطاء : ما غسق الليل ؟ قال أوله حين يدخل .

(14/462)

وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس ما الغسق : قال دخول الليل بظلمته ، وقال الأزهري : غسق الليل عند غيبوبة الشفق عند تراكم الظلمة واشتدادها ، يقال : غسقت العين إذا امتلأت دمعاً ، وغسقت الجراحة إذا امتلأت دماً ، قال لأنا لو حملنا الغسق على هذا المعنى دخلت الصلوات الأربع فيه وهي الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ولو حملنا الغسق على ظهور أول الظلمة لم يدخل فيه إلا الظهر والمغرب فوجب أن يكون الأول أولى ، واعلم أنه يتفرع على هذين القولين بحث شريف فإن فسرنا الغسق بظهور أول الظلمة كان الغسق عبارة عن أول المغرب وعلى هذا التقدير يكون المذكور في الآية ثلاثة أوقات وقت الزوال ووقت أول المغرب ووقت الفجر وهذا يقتضي أن يكون الزوال وقتاً للظهر والعصر فيكون هذا الوقت مشتركاً بين هاتين الصلاتين وأن يكون أول المغرب وقتاً للمغرب والعشاء فيكون هذا الوقت مشتركاً أيضاً بين هاتين الصلاتين فهذا يقتضي جواز الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء مطلقاً إلا أنه دل الدليل على أن الجمع في الحضر من غير عذر

ولا يجوز فوجب أن يكون الجمع جائزاً بعذر السفر وعذر المطر وغيره ، أما إن فسرنا الغسق بالظلمة المتراكمة فنقول الظلمة المتراكمة إنما تحصل عند غيبوبة الشفق الأبيض وكلمة إلى لانتهاء الغاية والحكم الممدود إلى غاية يكون مشروعاً قبل حصول تلك الغاية فوجب جواز إقامة الصلوات كلها قبل غيبوبة الشفق الأبيض وهذا إنما يصح إذا قلنا إنها تجب عند غيبوبة الشفق الأحمر ، والله أعلم .

المسألة الخامسة :

قوله ﴿ وقرآن الفجر ﴾ أجمعوا على أن المراد منه صلاة الصبح واتصابه بالعطف على الصلاة في قوله أقم الصلاة والتقدير أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر وفيه فوائد .

الأولى : أن هذه الآية تدل على أن الصلاة لا تتم إلا بالقراءة .

(15/462)

الفائدة الثانية : أنه تعالى أضاف القرآن إلى الفجر والتقدير أقم قرآن الفجر فوجب أن تتعلق القراءة بحصول الفجر وفي أول طلوع الصبح قد حصل الفجر لأن الفجر سمى فجراً لانفجار ظلمة الليل عن نور الصباح وظاهر الأمر للوجوب فمقتضى هذا اللفظ وجوب إقامة صلاة الفجر من أول طلوعه إلا أنا أجمعنا على أن هذا الوجوب غير حاصل ، فوجب أن يبقى

الندب لأن الوجوب عبارة عن رجحان مانع من الترك فإذا منع مانع من تحقق الوجوب وجب أن يرتفع المنع من الترك وأن يبقى أصل الرجحان حتى تنقل مخالفة الدليل فثبت أن هذه الآية تقتضي أن إقامة الفجر في أول الوقت أفضل وهذا يدل على صحة مذهب الشافعي في أن التغليس أفضل من التنوير ، والله أعلم .

الفائدة الثالثة : أن الفقهاء بينوا أن السنة أن تكون القراءة في هذه الصلاة أطول من القراءة في سائر الصلوات فالمقصود من قوله ﴿ وقرآن الفجر ﴾ الحث على أن تطويل القراءة في هذه الصلاة مطلوب لأن التخصيص بالذكر يدل على كونه أكمل من غيره .

الفائدة الرابعة : أنه وصف قرآن الفجر بكونه مشهوداً .

قال الجمهور : معناه أن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون في صلاة الصبح خلف الإمام تنزل ملائكة النهار عليهم وهم في صلاة الغداة وقبل أن تعرج ملائكة الليل فإذا فرغ الإمام من صلاته عرجت ملائكة الليل ومكثت ملائكة النهار ثم إن ملائكة الليل إذا صعدت قالت : يا رب إنا تركنا عبادك يصلون لك وتقول ملائكة النهار ربنا أتينا عبادك وهم يصلون فيقول الله تعالى للملائكة اشهدوا أني قد غفرت لهم .

وأقول هذا أيضاً دليل قوي في أن التغليس أفضل من التنوير لأن الإنسان إذا شرع فيها من أول الصبح ففي ذلك الوقت الظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين ثم إذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار فبهذا الطريق تحضر في هذه الصلاة ملائكة الليل وملائكة النهار أما إذا ابتدأ بهذه الصلاة في وقت التنوير فهناك ما بقيت الظلمة فلم يبق في ذلك الوقت أحد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور فثبت أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ دليل قوي على أن التغليس أفضل

وعندي في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ احتمال آخر وذلك لأنه كلما كانت الحوادث الحادثة أعظم وأكمل كان الاستدلال بها على كمال قدرة الله تعالى أكمل فالإنسان إذا شرع في أداء صلاة الصبح من أول هذا الوقت كانت الظلمة القوية باقية في العالم ، فإذا امتدت القراءة في أثناء هذا الوقت ينقلب العالم من الظلمة إلى الضوء والظلمة مناسبة للموت والعدم ، والضوء مناسب للحياة والوجود .

وعلى هذا التقدير فالإنسان لما قام من منامه فكأنه انتقل من الموت إلى الحياة ومن العدم إلى الوجود ثم إنه مع ذلك يشاهد في أثناء صلاته انقلاب كلية هذا العالم من الظلمة إلى الضوء ومن الموت إلى الحياة ومن السكون إلى الحركة ومن العدم إلى الوجود .

وهذه الحالة حالة عجيبة تشهد العقول والأرواح بأنه لا يقدر على هذا التقليب والتحويل والتبديل إلا الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقوة الغير المتناهية وحينئذ يستنير العقل بنور هذه المعرفة وينفتح على العقل والروح أبواب المكاشفات الروحانية الإلهية فتصير الصلاة التي هي عبارة عن أعمال الجوارح مشهوداً عليها بهذه المكاشفات الإلهية المقدسة ولذلك فكل من له ذوق سليم وطبع مستقيم إذا قام من منامه وأدى صلاة الصبح في أول الوقت واعتبر اختلاف أحوال العالم من الظلمة الحاصلة إلى النور ومن السكون إلى الحركة فإنه يجد في قلبه روحاً وراحة ومزيداً في نور المعرفة وقوة اليقين فهذا هو المراد من قوله : ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ وظهر أن هذا الاعتبار لا يحصل إلا عند أداء صلاة الفجر على سبيل التغليس فهذا ما خطر بالبال والله أعلم بمراده .

وفي الآية احتمال ثالث وهو أن يكون المراد من قوله : ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ الترغيب في أن تؤدي هذه الصلاة بالجماعة ويكون المعنى كونه مشهوداً بالجماعة الكثيرة ومزيد التحقيق فيه أنا بينا أن تأثير هذه الصلاة في تصفية القلب وفي تنويره أكثر من تأثير سائر الصلوات فإذا حضر جمع من المسلمين في المسجد لأداء هذه العبادة استنار قلب كل واحد منهم ثم بسبب ذلك الاجتماع كأنه ينعكس نور معرفة الله تعالى ونور طاعته في ذلك الوقت من قلب كل واحد إلى قلب الآخر فتصير أرواحهم كالمرايا المشرقة المتقابلة إذا

وقعت عليها أنوار الشمس فإنه ينعكس النور من كل واحدة من تلك المرايا إلى الأخرى فكذا في هذه الصورة ولهذا السبب فإن كل من له ذوق سليم وأدى هذه الصلاة في هذا الوقت بالجماعة وجد من قلبه فسحة ونوراً وراحة .

(18/462)

الفائدة الخامسة : قوله : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ يحتمل أن يكون السبب في كونه مشهوداً هو أن الإنسان لما نام طول الليل فصار كالغافل في هذه المدة عن مراقبة أحوال الدنيا فزالت صورة الحوادث الجسمانية عن لوح خياله وفكره وعقله وصارت هذه الألواح كألواح سطرت فيها نقوش فاسدة ثم غسلت وأزيلت تلك النقوش عنها ، ففي أول وقت القيام من المنام صارت ألواح عقله وفكره وخياله مطهرة عن النقوش الفاسدة الباطلة .

فإذا تسارع الإنسان في ذلك الوقت إلى عبادة الله تعالى وقراءة الكلمات الدالة على تنزيهه والإقدام على الأفعال الدالة على تعظيم الله تعالى انتقش في لوح عقله وفكره وخياله هذه النقوش الطاهرة المقدسة ، ثم إن حصول هذه النقوش يمنع من استحكام النقوش الفاسدة ، وهي النقوش المتولدة من الميل إلى الدنيا وشهواتها فبهذا الطريق يترشح الميل إلى معرفة الله

تعالى ومحبته وطاعته ويضعف الميل إلى الدنيا وشهواتها .

إذا عرفت هذا فنقول هذه الحكمة إنما تحصل إذا شرع الإنسان في الصلاة من أول قيامه من النوم عند التغليس .

وذلك يدل على المقصود واعلم أن أكثر الخلق وقعوا في أمراض القلوب وهي حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر وهذه الدنيا مثل دار المرضى إذا كانت مملوءة من المرضى والأنبياء كالأطباء الحاذقين والمريض ربما قد قوي مرضه فلا يعود إلى الصحة إلا بمعالجات قوية وربما كان المريض جاهلاً فلا ينقاد للطبيب ويخالفه في أكثر الأمر ، إلا أن الطبيب إذا كان مشفقاً حاذقاً فإنه يسعى في إزالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه فإن لم يقدر على إزالته فإنه يسعى في تقليله وتخفيفه .

إذا عرفت هذا فنقول : مرض حب الدنيا مستولٍ على الخلق ولا علاج له إلا بالدعوة إلى معرفة الله تعالى وخدمته وطاعته وهذا علاج شاق على النفوس ، وقل من يقبله وينقاد له .

لا جرم (أن) الأنبياء اجتهدوا في تقليل هذا المرض وحمل الخلق على الشروع في الطاعة والعبودية من أول وقت القيام من النوم مما ينفع في إزالة هذا المرض من الوجه الذي قررناه فوجب أن يكون مشروعاً، والله أعلم بأسرار كلامه.

أما قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ فاعلم أنه تعالى لما أمر بالصلوات الخمس على سبيل الرمز والإشارة أردفه بالحث على صلاة الليل وفيه مباحث:

البحث الأول: التهجد عبارة عن صلاة الليل فقوله ﴿فتهجد به﴾ أي بالقرآن كما قال: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ إلى قوله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْءانَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: 2-4].

البحث الثاني: قال الواحدي الهجود في اللغة النوم وهو معروف كثير في الشعر يقال: أهجدته وهجدته أي أنمته ومنه قول لبيد:

هجدنا فقد طال السرى. . كأنه قال: نومنا فإن السرى قد طال علينا حتى غلبنا النوم وروى أبو عبيد عن أبي عبيدة الهاجد النائم والهاجد المصلي بالليل وروى ثعلب عن ابن الأعرابي مثل هذا القول كأنه قال هجد الرجل إذا صلى من الليل وهجد إذا نام بالليل فعند هؤلاء هذا اللفظ من الأضداد وأما الأزهري فإنه توسط في تفسير هذا اللفظ وقال المعروف في كلام العرب أن الهاجد هو النائم ثم رأينا أن في الشرع يقال لمن قام من النوم إلى الصلاة إنه متهجد فوجب أن يحمل هذا على أنه سمي متهجداً لالقائه الهجود عن نفسه كما قيل للعابد متحنث لإلقائه الحنث عن نفسه وهو الإثم.

ويقال فلان رجل متحرج ومتأثم ومتحوب أي يلقي الحرج والإثم والحوب عن نفسه .

وأقول فيه احتمال آخر وهو أن الإنسان إنما يترك لذة النوم ويتحمل مشقة القيام إلى الصلاة ليطيب رقاده وهجوده عند الموت فلما كان غرضه من ترك هذا الهجود أن يصل إلى الهجود اللذيذ عند الموت كان هذا القيام طلباً لذلك الهجود فسمي تهجداً لهذا السبب .

(20/462)

وفيه وجه ثالث : وهو ما روي أن الحجاج بن عمرو المازني قال : أيحسب أحدكم إذا قام من الليل فصلى حتى يصبح أنه قد تهجد إنما التهجد الصلاة بعد الرقاد ثم صلاة أخرى بعد رقدة ثم صلاة أخرى بعد رقدة هكذا كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذا عرفت هذا فنقول كلما صلى الإنسان طلب هجوداً ورقاداً فلا يبعد أنه سمي تهجداً لهذا السبب .

البحث الثالث : قوله : ﴿ مِنْ ﴾ في قوله : ﴿ وَمِنَ الليل ﴾ لا بد له من متعلق والفاء في قوله : ﴿ فَتَهَجَّدْ ﴾ لا بد له من معطوف عليه والتقدير قم من الليل أي في بعض الليل فتهجد به وقوله : ﴿ بِهِ ﴾ أي بالقرآن والمراد منه الصلاة المشتملة على القرآن .

البحث الرابع : معنى النافلة في اللغة ما كان زيادة على الأصل ذكرناه في قوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفال ﴾ [الأنفال : 1] ومعناها أيضاً في هذه الآية الزيادة وفي تفسير كونها زيادة قولان مبنيان على أن صلاة الليل هل كانت واجبة على النبي صلى الله عليه وسلم أم لا فمن الناس من قال إنها كانت واجبة عليه ثم نسخت فصارت نافلة ، أي تطوعاً وزيادة على الفرائض ، وذكر مجاهد والسدي في تفسير كونها (نافلة) وجهاً حسناً قالا إنه تعالى غفر للنبي صلى الله عليه وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فكل طاعة يأتي بها سوى المكتوبة فإنه لا يكون تأثيرها في كفارة الذنوب ألبتة بل يكون تأثيرها في زيادة الدرجات وكثرة الثواب وكان المقصود من تلك العبادة زيادة الثواب فلهذا سميت نافلة بخلاف الأمة ، فإن لهم ذنوباً محتاجة إلى الكفارات فهذه الطاعة محتاجون إليها لتكفير الذنوب والسيئات فثبت أن هذه الطاعات إنما تكون زوائد ونوافل في حق النبي صلى الله عليه وسلم لا في حق غيره فلهذا السبب قال : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ يعني أنها زوائد ونوافل في حقك لا في حق غيرك وتقريره ما ذكرناه .

(21/462)

وأما الذين قالوا : إن صلاة الليل كانت واجبة على النبي صلى الله عليه وسلم قالوا معنى كونها نافلة له على التخصيص أنها فريضة عليك زائدة على الصلوات الخمس خصصت

بها من بين أمتك ويمكن نصرة هذا القول بأن قوله فتهجد أمر وصيغة الأمر للوجوب فوجب كون هذا التهجد واجباً فلو حملنا قوله نافلة لك على عدم الوجوب لزم التعارض وهو خلاف الأصل فوجب أن يكون معنى كونها نافلة له ما ذكرناه من كون وجوبها زائداً على وجوب الصلوات الخمس ، والله أعلم .

البحث الخامس : قوله : ﴿ أَقِمِ الصلاةِ لِدُلُوكِ الشمس إلى غَسَقِ الليل وَقُرْءانَ الفجر ﴾ وإن كان ظاهر الأمر فيه مختصاً بالرسول صلى الله عليه وسلم إلا أنه في المعنى عام في حق الأمة والدليل عليه أنه قال ومن الليل فتهجد به نافلة لك فبين أن الأمر بالتهجد مخصوص بالرسول وهذا يدل على أن الأمر بالصلاة الخمس غير مخصوص بالرسول عليه السلام وإلا لم يكن لتقييد الأمر بالتهجد بهذا القيد فائدة أصلاً ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ اتفق المفسرون على أن كلمة عسى من الله واجب قال أهل المعاني لأن لفظة عسى تفيد الأطماع ومن أطمع إنساناً في شيء ثم حرمه كان عاراً والله تعالى أكرم من أن يطمع أحداً في شيء ثم لا يعطيه ذلك .

وقوله : ﴿ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ فيه بحثان :

البحث الأول : في انتصاب قوله محموداً وجهان .

الأول : أن يكون انتصابه على الحال من قوله يبعثك أي يبعثك محموداً .

والثاني : أن يكون نعتاً للمقام وهو ظاهر .

البحث الثاني : في تفسير المقام المحمود أقوال .

(22/462)

الأول : أنه الشفاعة قال الواحدي أجمع المفسرون على أنه مقام الشفاعة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية " هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي " وأقول اللفظ مشعر به وذلك لأن الإنسان إنما يصير محموداً إذا حمده حامد والحمد إنما يكون على الإنعام فهذا المقام المحمود يجب أن يكون مقاماً أنعم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه على قوم فحمدوه على ذلك الإنعام وذلك الإنعام لا يجوز أن يكون هو تبليغ الدين وتعليم الشرع لأن ذلك كان حاصلاً في الحال وقوله : ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ تطميع وتطميع الإنسان في الشيء الذي وعده في الحال محال فوجب أن يكون ذلك الإنعام الذي لأجله يصير محموداً إنعاماً سيصل منه حصل له بعد ذلك إلى الناس وما ذاك إلا شفاعته عند الله فدل هذا على أن لفظ الآية وهو قوله : ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ يدل على هذا المعنى وأيضاً التنكير في قوله مقاماً محموداً يدل على أنه يحصل للنبي عليه السلام في ذلك المقام حمد بالغ عظيم كامل ومن المعلم أن حمد الإنسان على

سعيه في التخليص عن العقاب أعظم من حمده في السعي في زيادة من الثواب لا حاجة به إليها لأن احتياج الإنسان إلى دفع الآلام العظيمة عن النفس فوق احتياجه إلى تحصيل المنافع الزائدة التي لا حاجة به إلى تحصيلها وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من قوله : ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ هو الشفاعة في إسقاط العقاب على ما هو مذهب أهل السنة ولما ثبت أن لفظ الآية مشعر بهذا المعنى إشعاراً قوياً ثم وردت الأخبار الصحيحة في تقرير هذا المعنى وجب حل اللفظ عليه ومما يؤكد هذا الوجه الدعاء المشهور وابعثه المقام المحمود الذي وعدته يغبطه به الأولون والآخرون واتفق الناس على أن المراد منه الشفاعة .

(23/462)

والقول الثاني : قال حذيفة ، يجمع الناس في صعيد فلا تتكلم نفس فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول " لبيك وسعديك والشر ليس إليك والمهدي من هديت وعبدك بين يديك وبك وإليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت " فهذا هو المراد من قوله : ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ وأقول القول الأول أولى لأن سعيه في الشفاعة يفيده إقدام الناس على حمده فيصير محموداً وأما ذكر هذا الدعاء

فلا يفيد إلا الثواب أما الحمد فلا فإن قالوا لم لا يجوز أن يقال إنه تعالى يحمده على هذا القول قلنا لأن الحمد في اللغة مختص بالثناء المذكور في مقابلة الأنعام فقط فإن ورد لفظ الحمد في غير هذا المعنى فعلى سبيل المجاز .

القول الثالث : المراد مقام تحمد عاقبته وهذا أيضاً ضعيف للوجه الذي ذكرناه في القول الثاني .

القول الرابع : قال الواحدي روى عن ابن مسعود أنه قال : "يقعد الله محمداً على العرش" وعن مجاهد أنه قال يجلسه معه على العرش ، ثم قال الواحدي وهذا قول رذل موحش فظيع ونص الكتاب ينادي بفساد هذا التفسير ويدل عليه وجوه .

الأول : أن البعث ضد الإجلاس يقال بعثت النازل والقاعد فانبعث ويقال بعث الله الميت أي أقامه من قبره فتفسير البعث بالإجلاس تفسير للضد بالضد وهو فاسد .

والثاني : أنه تعالى قال مقاماً محموداً ولم يقل مقعداً والمقام موضع القيام لا موضع القعود .

والثالث : لو كان تعالى جالساً على العرش بحيث يجلس عنده محمد عليه الصلاة والسلام لكان محدوداً متناهياً ومن كان كذلك فهو محدث .

والرابع : يقال إن جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير إعزاز لأن هؤلاء الجهال والحمقى يقولون في كل أهل الجنة إنهم يزورون الله تعالى وإنهم يجلسون معه وإنه تعالى يسألهم عن

أحوالهم التي كانوا فيها في الدنيا وإذا كانت هذه الحالة حاصلة عندهم لكل المؤمنين لم يكن لتخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بها مزيد شرف ورتبة .

(24/462)

والخامس : أنه إذا قيل السلطان بعث فلاناً فهم منه أنه أرسله إلى قوم لإصلاح مهماتهم ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه فثبت أن هذا القول كلام رذل ساقط لا يميل إليه إلا إنسان قليل العقل عديم الدين ، والله أعلم ثم قال تعالى : { وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ } وفيه مباحث :

البحث الأول : أنا ذكرنا في تفسير قوله : { وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض } [الإسراء : 76] قولين : أحدهما : المراد منه سعي كفار مكة في إخراجه منها .

والثاني : المراد منه أن اليهود قالوا له الأولى لك أن تخرج من المدينة إلى الشام ثم إنه تعالى قال له : أقم الصلاة واشتغل بعبادة الله تعالى ولا تلتفت إلى هؤلاء الجهال فإنه تعالى ناصرك ومعينك ثم عاد بعد هذا الكلام إلى شرح تلك الواقعة فإن فسرنا تلك الآية أن المراد منها أن كفار مكة أرادوا إخراجه من مكة كان معنى هذه الآية أنه تعالى أمره بالهجرة إلى المدينة وقال له : { رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ } وهو المدينة { وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ }

وهو مكة .

وهذا قول الحسن وقتادة وإن فسرنا تلك الآية بأن المراد منها أن اليهود حملوه على الخروج من المدينة والذهاب إلى الشام فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ثم أمره الله بأن يرجع إليها كان المراد أنه عليه الصلاة والسلام عند العود إلى المدينة قال : ﴿ رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ وهو المدينة ﴿ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ يعني أخرجني منها إلى مكة مخرج صدق أي افتحها لي .

والقول الثاني : في تفسير هذه الآية وهو أكمل مما سبق أن المراد ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى ﴾ في الصلاة ﴿ وَأَخْرِجْنِى ﴾ منها مع الصدق والإخلاص وحضور ذكرك والقيام بلوازم شكرك .

(25/462)

والقول الثالث : وهو أكمل مما سبق أن المراد : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى ﴾ - في القيام بمهمات أداء دينك وشريعتك - وَأَخْرِجْنِى ﴾ منها بعد الفراغ منها إخراجاً لا يبقى علي منها تبعة وتبقية .

والقول الرابع : وهو أعلى مما سبق : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى ﴾ في بحار دلائل توحيدك

وتنزيهك وقدسك ثم أخرجني من الاشتغال بالدليل إلى ضياء معرفة المدلول ومن التأمل في آثار حدوث المحدثات إلى الاستغراق في معرفة الأحد الفرد المنزه عن التكثيرات والتغيرات .

والقول الخامس : أدخلني في كل ما تدخلني فيه مع الصدق في عبوديتك والاستغراق بمعرفتك وأخرجني عن كل ما تخرجني عنه مع الصدق في العبودية والمعرفة والمحبة والمقصود منه أن يكون صدق العبودية حاصلاً في كل دخول وخروج وحركة وسكون .

والقول السادس : أدخلني القبر مدخل صدق وأخرجني منه مخرج صدق .

البحث الثاني : مدخل بضم الميم مصدر كالإدخال يقال أدخلته مدخلاً كما قال : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِى مُنزَلاً مُّبَارَكاً ﴾ [المؤمنون : 29] ومعنى إضافة المدخل والمخرج إلى الصدق مدحهما كأنه سأل الله تعالى إدخالاً حسناً وإخراجاً حسناً لا يرى فيهما ما يكره ثم قال تعالى : ﴿ واجعل لِّى مِن لَّدُنْكَ سلطانا نَّصِيرًا ﴾ أي حجة بينة ظاهرة تنصرني بها على جميع من خالفني .

وبالجملة فقد سأل الله تعالى أن يرزقه التقوية على من خالفه بالحجة وبالقهر والقدرة ، وقد أجاب الله تعالى دعاءه وأعلمه بأنه يعصمه من الناس فقال : ﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ [المائدة : 67] وقال : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ المفلحون ﴾ [المجادلة : 22] وقال : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ [التوبة : 33] ولما سأل الله النصرة بين الله له أنه أجاب دعاءه فقال : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الحق ﴾ وهو دينه وشرعه ﴿ وَزَهَقَ الباطل ﴾ وهو كل ما سواه من الأديان والشرائع ، وزهق بطل واضمحل ، وأصله من زهقت نفسه تزهق أي هلكت ، وعن ابن مسعود : " أنه دخل مكة يوم الفتح وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل فجعل الصنم ينكب على وجهه " .

وقوله : ﴿ إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقًا ﴾ يعني أن الباطل وإن اتفقت له دولة وصولة إلا أنها الا تبقى بل تزول على أسرع الوجوه ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 20.28 ﴾

(27/462)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ﴾ .

أما دلوك الشمس ففيه تأويلان :

أحدهما : أنه غروبها ، وأن الصلاة المأمور بها صلاة المغرب ، ومنه قول ذي الرمة :

مصابيح ليست باللواتي تقودها . . . نجومٌ ولا بالآفات الدوالك

قاله ابن مسعود وابن زيد ، ورواه مجاهد عن ابن عباس ، وهو مذهب أبي حنيفة .

الثاني : أنه زوالها ، والصلاة المأمور بها صلاة الظهر ، وهذا قول ابن عباس في رواية الشعبي عنه ، وهو قول أبي بردة والحسن وقتادة ومجاهد ، وهو مذهب الشافعي ومالك لرواية أبي بكر بن عمرو بن حزم عن ابن مسعود وعقبة بن عامر قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر " وقال الشاعر :

هذا مُقام قَدَامي رباح . . . ذَبّبَ حتى دَلَكت بَراح

وبراح اسم الشمس ، والباء التي فيه من أصل الكلمة ، وذهب بعض أهل العربية إلى أن الباء التي فيها باء الجر ، واسم الشمس راح.

فمن جعل الدلوك اسماً لغروبها فلأن الإنسان يدلك عينيه براحته لتبينها ، ومن جعله اسماً لزوالها فلأنه يدلك عينيه براحته لشدة شعاعها . وقيل إن أصل الدلوك في اللغة هو الميل ، والشمس تميل عند زوالها وغروبها فلذلك انطلق على كل واحدٍ منهما .

وأما ﴿ غسق الليل ﴾ ففيه تأويلان :

أحدهما : أنه ظهور ظلامه ، قاله الفراء وابن عيسى ، ومنه قول زهير :

ظَلَّت تَجُودُ يَدَاها وهِيَ لاَهِيَةٌ . . . حتى إذا جَنَحَ الإِظْلاَمُ والغَسَقُ

الثاني : أنه دنوّ الليل وإقباله ، وهوقول ابن عباس وقتادة . قال الشاعر :

إن هذا الليل قد

غسقا . . . .

.

وفي الصلاة المأمور بها قولان :

أحدهما : أنها صلاة المغرب ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك

الثاني : هي صلاة العشاء الآخرة ، قاله أبو جعفر الطبري .

ثم قال ﴿ وقرآن الفَجْرِ إنّ قرآن الفجْر كان مشهوداً ﴾ في ﴿ قرآن ﴾ تأويلان :

(28/462)

أحدهما : أقم القراءة في صلاة الفجر ، وهذا قول أبي جعفر الطبري .

الثاني : معناه صلاة الفجر ، فسماها قرآناً لتأكيد القراءة في الصلاة ، وهذا قول أبي

اسحاق الزجاج.

﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : إن من الحكمة أن تشهده بالحضور إليه في المساجد ، قاله ابن بحر .

الثاني : ان المراد به ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار

" وفي هذا دليل على أنها ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار .

قوله عز وجل : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ أما الهجود فمن أسماء الأضداد ، وينطلق على النوم وعلى السهر ، وشاهد انطلاقه على السهر قول الشاعر :

ألا زارت وأَهْلُ مِنىً هُجُود . . . ولَيْتَ خَيَالَهَا بِمِنىً يعُود

وشاهد انطلاقه على النوم قول الشاعر :

أَلا طَرَقَتْنَا والرِّفَاقُ هُجُود . . . فَبَاتَتْ بِعُلاَّتِ النّوالِ تجود

أما التهجد فهو السهر ، وفيه وجهان :

أحدهما : السهر بالتيقظ لما ينفي النوم ، سواء كان قبل النوم أو بعده .

الثاني : أنه السهر بعد النوم ، قاله الأسود بن علقمة .

وفي الكلام مضمر محذوف وتقديره : فتهجد بالقرآن وقيام الليل نافلة أي فضلاً وزيادة على الفرض .

وفي تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بأنها نافلة له ثلاثة أوجه :

أحدها : تخصيصاً له بالترغيب فيها والسبق إلى حيازة فضلها ، اختصاصها بكرامته ، قاله علي بن عيسى .

الثاني : لأنها فضيلة له ، ولغيره كفارة ، قاله مجاهد .

الثالث : لأنها عليه مكتوبة ولغيره مستحبة ، قاله ابن عباس .

﴿ عسى أن يبعثك ربُّك مقاماً محموداً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن المقام المحمود الشفاعة للناس يوم القيامة ، قاله حذيفة بن اليمان .

الثاني : أنه إجلاسه على عرشه يوم القيامة ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة .

ويحتمل قولاً رابعاً : أن يكون المقام المحمود شهادته على أمته بما أجابوه من تصديق أو تكذيب ، كما قال تعالى ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ [النساء : 41] .

قوله عز وجل : ﴿ وقل ربِّ أدخلني مدخل صدقٍ وأخرجني مُخرج صدق ﴾ فيه سبعة أقاويل :

أحدها : أن مدخل الصدق دخوله إلى المدينة حين هاجر إليها ، ومخرج صدق بخروجه من مكة حين هاجر منها ، قاله قتادة وابن زيد .

الثاني : أدخلني مدخل صدق إلى الجنة وأخرجني مخرج صدق من مكة إلى المدينة ، قاله الحسن .

الثالث : أدخلني مدخل صدق فيما أرسلتني به من النبوة ، وأخرجني منه بتبليغ الرسالة مخرج صدق ، وهذا قول مجاهد .

الرابع : أدخلني في الإسلام مدخل صدق ، وأخرجني من الدنيا مخرج صدق ، قاله أبو صالح .

الخامس : أدخلني مكة مدخل صدق وأخرجني منها مخرج صدق آمناً ، قاله الضحاك .

السادس : أدخلني في قبري مدخل صدق ، وأخرجني منه مخرج صدق ، قاله ابن عباس .

السابع : أدخلني فيما أمرتني به من طاعتك مدخل صدق ، وأخرجني مما نهيتني عنه من معاصيك مخرج صدق ، قاله بعض المتأخرين .

والصدق ها هنا عبارة عن الصلاح وحسن العاقبة . ﴿ واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني مُلكاً عزيزاً أقهر به العصاة ، قاله قتادة .

الثاني : حجة بيّنة ، قاله مجاهد .

الثالث : أن السلطة على الكافرين بالسيف ، وعلى المنافقين بإقامة الحدود قاله الحسن .

ويحتمل رابعاً : أن يجمع له بين القلوب باللين وبين قهر الأبدان بالسيف .

قوله عز وجل : ﴿ وقُلْ جاء الحق وزهق الباطل ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن الحق هو القرآن ، والباطل هو الشيطان ، قاله قتادة .

الثاني : أن الحق عبادة الله تعالى والباطل عبادة الأصنام ، قاله مقاتل بن سليمان .

الثالث : أن الحق الجهاد ، والباطل الشرك ، قاله ابن جريج . ﴿ إن الباطل كان زهوقاً ﴾

أي ذاهباً هالكاً ، قال الشاعر :

(30/462)

ولقدْ شفَى نفسي وأبرأ سُقْمَهَا . . . إقدامُهُ قهْراً له لَمْ يَزْهَق

وحكى قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل الكعبة ورأى فيها التصاوير أمر بثوب

فبُل بالماء وجعل يضرب به تلك التصاوير ويمحوها ويقول ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن

الباطل كان زهوقاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(31/462)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ سنّة ﴾

نصب على المصدر ، وقال الفراء نصبه على حذف الخافض ، لأن المعنى كسنة ، فحذفت الكاف ونصب ويلزمه على هذا أن لا يقف على قوله ﴿ قليلاً ﴾ ، ومعنى الآية الإخبار أن سنة الله تعالى في الأمم الخالية وعادته أنها إذا أخرجت نبيها من بين أظهرها نالها العذاب واستأصلها الهلاك فلم تلبث بعده إلا قليلاً ، وقوله ﴿ أقم الصلاة ﴾ الآية ، هذه بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة ، فقال ابن عمرو وابن عباس وأبو بردة والحسن والجمهور : " دلوك الشمس " زوالها ، والإشارة إلى الظهر والعصر ، و ﴿ غسق الليل ﴾ أشير به إلى المغرب والعشاء ، ﴿ وقرآن الفجر ﴾ أريد به صلاة الصبح ، فالآية على هذا تعم جميع الصلوات وروى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أتاني جبريل ﴿ لدلوك الشمس ﴾ حين زالت فصلى بي الظهر " ، وروى جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من عنده وقد طعم وزالت الشمس ، فقال اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس ، وقال ابن مسعود وابن عباس وزيد بن أسلم : " دلوك الشمس " غروبها ، والإشارة بذلك إلى المغرب ، و ﴿ غسق الليل ﴾ اجتماع ظلمته ، فالإشارة إلى العتمة ، ﴿ وقرآن الفجر ﴾ صلاة الصبح ، ولم تقع إشارة على هذا إلى الظهر والعصر

، والقول الأول أصوب لعمومه الصلوات ، وهما من جهة اللغة حسنان ، وذلك أن الدلوك هو الميل في اللغة فأول الدلوك هو الزوال ، وآخره هو الغروب ، ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكاً ، لأنها في حالة ميل ، فذكر الله ﴿ الصلوات ﴾ التي في حالة " الدلوك " وعنده ، فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب ويصح أن تكون المغرب داخلة في ﴿ غسق الليل ﴾ ، ومن الدلوك الذي هو الميل قول الأعرابي للحسن بن أبي الحسن أيدالك الرجل امرأته يريد أيميل بها إلى المطل في دينها فقال له الحسن نعم إذا كان ملفجاً ، أي عديماً ، ومنه قول ذي الرمة : [الطويل]

مصابيح ليست باللواتي تقودها . . . نجوم ولا بالآفلات الدوالك

ومن ذلك قول الشاعر : [الرجز]

هذا مكان قدمي رباح . . . غدوة حتى دلكت براح

يروى براح بكسر الباء ، قال أبو عبيدة الأصمعي وأبو عمرو الشيباني ومعناه براحة الناظر يستكف بها أبداً لينظر كيف ميلها وما بقي لها ، وهذا نحو قول الحجاج : [الرجز]

والشمس قد كادت تكون دنفاً . . . دفعها بالراح كي تزحلقا

وذكر الطبري عن ابن مسعود أنه قال : دلكت براح يعني براح مكاناً . قال : فإن كان هذا من تفسير ابن مسعود فهو أعلم ، وإن كان من كلام راوٍ فأهل الغريب أعلم بذلك ، ويروى أن البيت الأول : " غدوة حتى هلكت بَراح " ، بفتح الباء على وزن قطام وحذام ، وهو اسم من أسماء الشمس ، وغسق الليل اجتماعه وتكاثف ظلمته ، وقال الشاعر : [المديد]

(33/462)

آب هذا الليل إذ غسقا . . . وقال ابن عباس : ﴿ غسق الليل ﴾ بدؤه ، ونصب قوله ﴿ وقرآن ﴾ بفعل مضمر تقديره واقرأ قرآن ، ويصح أن ينصب عطفاً على الصلاة ، أي " وأقم قرآن الفجر " ، وعبر عن صلاة الصبح خاصة ب " القرآن " لأن القرآن هو عظمها ، إذ قراءتها طويلة مجهور بها ، ويصح أن ينصب قوله ﴿ وقرآن ﴾ على الإغراء وقوله ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ معناه ليشهده حفظة النهار وحفظة الليل من الملائكة حسبما ورد في الحديث المشهور من قوله عليه السلام : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر " ، الحديث بطوله من رواية أبي هريرة وغيره ، وعلى القول بذلك مضى الجمهور ، وذكر الطبري حديثاً عن ابن عسكر من طريق أبي الدرداء ، في قوله ﴿ كان مشهوداً ﴾ قال محمد بن سهل بن عسكر يشهده الله

وملائكته ، وذكر في ذلك الحديث أن الله تعالى ينزل في آخر الليل ، ونحو هذا مما ليس بالقوي ، وقوله ﴿ ومن الليل ﴾ ﴿ من ﴾ للتبعيض ، وقتاً من الليل أي وقم وقتاً ، والضمير في ﴿ به ﴾ عائد على هذا المقدر ويحتمل أن يعود على " القرآن " وإن كان لم يجر له ذكر مطلق كما هو الضمير مطلق ، لكن جرى مضافاً إلى الفجر ، و﴿ فتهجد ﴾ معناه : فاطرح الهجود عنك ، والهجود النوم ، يقال هجُد يهجُد بضم الجيم هجوداً إذا نام ، ومنه قول ذي الرمة : [الطويل]

ألا طرقتنا والرفاق هجود . . . فباتت بعلات النوال تجود

ومنه قول الحطيئة : [الطويل]

فحياك ود ما هداك لفتية . . . وخوص بأعلى ذي طوالة هجد

(34/462)

وهذا الفعل جار مجرى تحوب وتأثم وتحنث ، ومثله ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ [الواقعة : 65] معناه تندمون ، أي تطرحون الفاكهة عن أنفسكم وهي انبساط النفس وسرورها ، يقال رجل فكه إذا كان كثير السرور والضحك ، فالمعنى وقتاً من الليل اسهر به في صلاة وقراءة ، وقال الأسود وعلقمة وعبد الرحمن بن الأسود : " التهجد " بعد نومة ، وقال الحجاج بن

عمرو وإنما " التهجد " بعد رقدة ، وقال الحسن : " التهجد " ما كان بعد العشاء الآخرة ، وقوله ﴿ نافلة لك ﴾ قال ابن عباس وغيره : معناه زيادة لك في الفرض ، قالوا : وكان قيام الليل فرضاً على النبي صلى الله عليه وسلم .

(35/462)

قال القاضي أبو محمد : وتحتمل الآية أن يكون هذا على وجه الندب في التنفل ، ويكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد هو وأمته كخطابه في قوله ﴿ أقم الصلوات ﴾ الآية . وقال مجاهد : إنما هي ﴿ نافلة ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه مغفور له والناس يحطون بمثل ذلك خطاياهم ، وبين أن النبي صلى الله عليه وسلم منذ غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر عام الحديبية فإنما كانت نوافله واستغفاره فضائل من العمل وقرباً أشرف من نوافل أمته ، لأن هذا إما أن تجبر بها فرائصهم حسب الحديث ، وإما أن تحط بها خطاياهم ، وقد يتصور من لا ذنب له ينتفل فيكون تنفله فضيلة ، كنصراني يسلم وصبي يحتلم ، وضعف الطبري قول مجاهد . وقوله ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ عزة من الله عز وجل لرسوله ، وهو أمر الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء حتى ينتهي إليه عليه السلام ، والحديث بطوله في البخاري ومسلم ، فلذلك اختصرناه ، ولأجل ذلك

الاعتمال الذي له في مرضاة جميع العالم مؤمنهم وكافرهم قال : " أنا سيد ، ولد آدم ولا فخر " و﴿ عسى ﴾ من الله واجبة ، و﴿ مقاماً ﴾ نصب على الظرف ، ومن غريب حديث الشفاعة اقتضابه المعنى ، وذلك أن صدر الحديث يقتضي أن النبي صلى الله عليه وسلم يستنهض للشفاعة في أن يحاسب الناس وينطلقون من الموقف ، فيذهب لذلك ، وينص بإثر ذلك على أنه شفع في إخراج المذنبين من النار ، فمعناه الاقتضاب والاختصار . لأن الشفاعة في المذنبين لم تكن إلا بعد الحساب والزوال من الموقف ، ودخول قوم الجنة ودخول قوم النار ، وهذه الشفاعة لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء ، وذكر الطبري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي " .

(36/462)

قال القاضي أبو محمد : وينبغي أن يتأول هذا على ما قلناه لأمته وغيرها ، أو يقال إن كل مقام منها محمود ، قال النقاش : لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات ، شفاعة العامة ، وشفاعة السبق إلى الجنة ، وشفاعة في أهل الكبائر ، والمشهور أنهما شفاعتان فقط ، وحكى الطبري عن فرقة منها مجاهد أنها قالت : " المقام المحمود " هو أن الله عز

وجل يجلس محمداً معه على عرشه ، وروت في ذلك حديثاً ، وعضد الطبري جواز ذلك بشطط من القول ، وهو لا يخرج إلا على تلطف في المعنى وفيه بعد ، ولا ينكر مع ذلك أن يروى ، والعلم يتأوله ، وقد ذكر النقاش عن أبي داود السختياني أنه قال من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا .

قال القاضي أبو محمد : من أنكر جوازه على تأويله .

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾

(37/462)

ظاهر هذه الآية والأحسن فيها أن يكون دعاء في أن يحسن الله حالته في كل ما يتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال وينتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة ، فهي على أتم عموم ، معناه ﴿ ربِّ ﴾ أصلح لي وردي في كل الأمور وصدري ، وذهب المفسرون إلى أنها في غرض مخصوص ، ثم اختلفوا في تعيينه ، فقال ابن عباس والحسن وقتادة : أراد ﴿ أدخلني ﴾ المدينة ﴿ وأخرجني ﴾ من مكة ، وتقدم في هذا التأويل المتأخر في الوقوع ، فإنه متقدم في القول لأن الإخراج من مكة هو المتقدم ، اللهم إن مكان الدخول والقرار هو الأهم ، وقال أبو صالح ومجاهد : ﴿ أدخلني ﴾ في أمر تبليغ الشرع

﴿ وأخرجني ﴾ منه بالأداء التام ، وقال ابن عباس : الإدخال بالموت في القبر والإخراج البعث ، وما قدمت من العموم التام الذي يتناول هذا كله ، أصوب ، وقرأ الجمهور " مُدخل " " ومُخرج " بضم الميم ، فهو جرى على ﴿ أدخلني وأخرجني ﴾ وقرأ أبو حيوة وقتادة وحميد ، " مَدخل " " ومَخرج " بفتح الميم ، فليس بجار على ﴿ أدخلني ﴾ ولكن التقدير " أدخلني فأدخل مدخل " ، لأنه إنما يجري على دخل ، و" الصدق " هنا صفة تقتضي رفع المذام واستيعاب المدح ، كما تقول رجل صدق أي جامع للمحاسن ، وقوله ﴿ واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ قال مجاهد وغيره : حجة ، يريد تنصرني ببيانها على الكفار ، وقال الحسن وقتادة يريد سعة ورياسة وسيفاً ينصر دين الله ، فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بأمر الله إياه به رغبة في نصر الدين ، فروي أن الله وعده بذلك ثم أنجزه له في حياته وتممه بعد وفاته ، وقوله ﴿ وقل جاء الحق ﴾ الآية ، قال قتادة : ﴿ الحق ﴾ القرآن ، و﴿ الباطل ﴾ الشيطان ، وقالت فرقة : ﴿ الحق ﴾ الإيمان ، ﴿ والباطل ﴾ الكفر ، وقال ابن جريج : ﴿ الحق ﴾ الجهاد ، ﴿ والباطل ﴾ الشرك ، وقيل غير ذلك ، والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة ، فيكون التفسير جاء الشرع بجميع ما نطوى فيه ، ﴿ وزهق ﴾

الكفر بجميع ما انطوى فيه ، و ﴿ الباطل ﴾ كل ما لا تنال به غاية نافعة . وقوله ﴿ كان زهوقاً ﴾ ليست ﴿ كان ﴾ إشارة إلى زمن مضى ، بل المعنى كان وهو يكون ، وهذا كقولك كان الله عليماً قادراً ونحو هذا ، وهذه الآية نزلت بمكة ، ثم إن رسول الله كان يستشهد بها يوم فتح مكة وقت طعنه الأصنام وسقوطها لطعنه إياها بالمخصرة حسبما في السيرة لابن هشام وفي غيرها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(39/462)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَنْ قد أَرسلْنا ﴾

قال الفراء : نصب السُّنَّة على العذاب المُضْمَر ، أي : يعذَّبوَن كسُنَّتنا فيمن أَرسلْنا .

وقال الأخفش : المعنى : سَنّها سُنَّةً .

وقال الزجاج : انتصب بمعنى "لا يلبثون" وتأويله : إِنّا سَنَنّا هذه السُّنَّة فيمن أَرسَلْنا قبلك أنهم إِذا أَخرجوا نبيَّهم أو قتلوه ، لم يلبث العذاب أن ينزل بهم .

قوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة ﴾ أي : أَدِّها ﴿ لِدُلوك الشمس ﴾ أي : عند دُلوكها .

وذكر ابن الأنباري في "اللام" قولين .

أحدهما : أنها بمعنى "في" .

والثاني : أنها مؤكِّدة ، كقوله : ﴿ رَدِفَ لكم ﴾ [النمل : 72] .

وقال أبو عبيدة : دُلوكها : من عند زوالها إِلى أن تغيب .

وقال الزجاج : مَيْلها وقتَ الظهيرة دُلوك ، ومَيْلها للغروب دُلوك .

وقال الأزهري : معنى "الدُّلوك" في كلام العرب : الزوال ، ولذلك قيل للشمس إِذا زالت نصف النهار : دالكة ، وإِذا أفلت : دالكة ، لأنها في الحالين زائلة .

وللمفسرين في المراد بالدُّلوك هاهنا قولان .

أحدهما : أنه زوالها نصف النهار .

" روى جابر بن عبد الله قال : دعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن شاء من أصحابه ، فطعِموا عندي ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس" " ؛ وهذا قول ابن عمر ، وأبي برزة ، وأبي هريرة ، والحسن ، والشعبي ، وسعيد بن جبير ، وأبي العالية ، ومجاهد ، وعطاء ، وعبيد بن عمير ، وقتادة ، والضحاك ، ومقاتل ، وهو اختيار الأزهري .

قال الأزهري : لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس ، فيكون المعنى : أقم الصلاة من وقت

زوال الشمس إلى غسق الليل ، فيدخل فيها الأولى ، والعصر ، وصلاتا غسق الليل ، وهما العشاءان ، ثم قال : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ ، فهذه خمس صلوات .

(40/462)

والثاني : أنه غروبها ، قاله ابن مسعود ، والنخعي ، وابن زيد ، وعن ابن عباس كالقولين ، قال الفراء : ورأيت العرب تذهب في الدُّلوك إلى غيبوبة الشمس ، وهذا اختيار ابن قتيبة ، قال : لأن العرب تقول : دَلَكَ النجم : إذا غاب ؛ قال ذو الرمة :

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ باللّواتي تَقُودُها . . .

نُجُومٌ ولاَ بالآفلاتِ الدّوالِكِ

وتقول في الشمس : دلكتْ بَرَاحِ ، يريدون : غربت ، والناظر قد وضع كفَّه على حاجبه ينظر إليها ، قال الشاعر :

والشَّمْسُ قَدْ كادَتْ تَكونُ دَنَفَا . . .

أدْفَعُها بالرَّاحِ كَيْ تَزَحْلَفَا

فشبهها بالمريض [في] الدَّنَف ، لأنها قد همَّت بالغروب كما قارب الدِّنَف الموت ، وإنما ينظر إليها من تحت الكف ليعلم كم بقي لها إلى أن تغيب ، ويتوقى الشعاع بكفّه .

فعلى هذا ، المراد بهذه الصلاة : المغرب .

فأما غسق الليل ، فظلامُه .

وفي المراد بالصلاة المتعلقة بغسق الليل ثلاثة أقوال .

أحدها : العشاء ، قاله ابن مسعود .

والثاني : المغرب ، قاله ابن عباس .

قال القاضي أبو يعلى : فيحتمل أن يكون المراد بيانَ وقت المغرب ، أنه من غروب الشمس إلى غسق الليل .

والثالث : المغرب والعشاء ، قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وقرآنَ الفجر ﴾ المعنى : وأقم قراءة الفجر .

قال المفسرون : المراد به : صلاة الفجر .

قال الزجاج : وفي هذا فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة ، حين سمِّيت الصلاة قرآناً .

قوله تعالى : ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ روى أَبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تشهده ملائكة الليل ، وملائكة النهار " .

قوله تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجَّد به ﴾ قال ابن عباس : فَصَلِّ بالقرآن .

قال مجاهد ، وعلقمة ، والأسود : التهجُّد بعد النوم .

قال ابن قتيبة : تهجَّدت : سَهِرت ، وهَجَدت : نِمْت .

(41/462)

وقال ابن الأنباري : التهجُّد هاهنا بمعنى : التيقُّظ والسَّهَر ، واللغويون يقولون : هو من حروف الأضداد ؛ يقال للنائم : هاجِد ومتهجِّد ، وكذلك للساهر ، قال النابغة :

وَلو انّها عَرَضَتْ لأَشْمَطَ رَاهِبٍ . . .

عَبَدَ الإِلَهَ صَرُوْرَةٍ مُتَهَجِّدِ

لَرَنَا لِبَهْجَتِهَا وَحُسْنِ حَدِيْثِهَا . . .

وَلَخَالَهُ رَشَداً وَإِنْ لَمْ يَرْشُدِ

يعني بالمتهجد : الساهر ، وقال لبيد :

قَال هَجدْنَا فقَدْ طَالَ السُّرَى . . .

[وقَدَرْنا إِن خَنَا الدَّهْرِ غَفَلْ

أي : نَوّمْنا .

وقال الأزهري : المتهجِّد : القائم إِلى الصلاة من النَّوم .

وقيل له: متهجد، لإلقائه الهُجُود عن نفسه، كما يقال: تَحَرَّج وتأَثَّم.

قوله تعالى: ﴿ نافلةً لك ﴾ النافلة في اللغة: ما كان زائداً على الأصل.

وفي معنى هذه الزيادة في حقه قولان.

أحدهما: أنها زائدة فيما فُرِض عليه، فيكون المعنى: فريضة عليك، وكان قد فرض عليه قيام الليل، هذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير.

والثاني: أنها زائدة على الفرض، وليست فرضاً؛ فالمعنى: تطوعاً وفضيلة.

قال أبو أُمامة، والحسن، ومجاهد: إنما النافلة للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة.

قال مجاهد: وذلك أنه قد غُفِرَ له ما تقدَّم من ذَنْبه وما تأَخَّر، فما زاد على فرضه فهو نافلة له وفضيلة، وهو لغيره كفارة.

وذكر بعض أهل العلم: أن صلاة الليل كانت فرضاً عليه في الابتداء، ثم رخِّص له في تركها، فصارت نافلة.

وذكر ابن الأنباري في هذا قولين.

أحدهما: يقارب ما قاله مجاهد، فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تنفَّل لا يقدر له أن يكون بذلك ماحياً للذنوب، لأنه قد غُفر له ما تقدم من ذَنْبه وما تأَخَّر، وغيره إذا تنفَّل كان راجياً، ومقدّراً محو السيئات عنه بالتنفل، فالنافلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم زيادة على الحاجة، وهي لغيره مفتقَر إليها، ومأمول بها دفع المكروه.

والثاني : أن النافلة للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته ، والمعنى : ومن الليل فتهجدوا به نافله لكم ، فخوطب النبي صلى الله عليه وسلم بخطاب أمته .

قوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثكَ ربُّك ﴾ "عسى" من الله واجبه ، ومعنى "يبعثك" يقيمك ﴿ مقاماً محموداً ﴾ وهو الذي يحمَده لأجله جميع أهل الموقف .

وفيه قولان .

أحدهما : أنه الشفاعة للناس يوم القيامة ، قاله ابن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وابن عمر ، وسلمان الفارسي ، وجابر بن عبد الله ، والحسن ، وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والثاني : يجلسه على العرش يوم القيامة .

روى أبو وائل عن عبد الله أنه قرأ هذه الآية ، وقال : يُقعده على العرش ، وكذلك روى الضحاك عن ابن عباس ، وليث عن مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق ﴾ وقرأ الحسن ، وعكرمة ، والضحاك ، وحميد بن قيس ، وقتادة ، وابن أبي عبلة بفتح الميم في "مَدخل" و "مَخرج" .

قال الزجاج: المدخل، بضم الميم: مصدر أدخلته مُدخلاً، ومن قال: مَدخل صدق، فهو على أدخلته، فدخل مَدخل صدق، وكذلك شرح "مَخرج" مثله.

وللمفسرين في المراد بهذا المدخل والمخرج أحد عشر قولاً.

أحدها: أدخلني المدينة مدخل صدق، وأخرجني من مكة مخرج صدق.

روى أبو ظبيان عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، ثم أمر بالهجرة، فنزلت عليه هذه الآية.

وإلى هذا المعنى ذهب الحسن في رواية سعيد بن جبير، وقتادة، وابن زيد.

والثاني: أدخلني القبر مُدخل صدق، وأخرجني منه مُخرج صدق، رواه العوفي عن ابن عباس.

والثالث: أدخلني المدينة، وأخرجني إلى مكة، يعني: لفتحها، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والرابع: أدخلني مكة مدخل صدق، وأخرجني منها مخرج صدق، فخرج منها آمناً من المشركين، ودخلها ظاهراً عليها يوم الفتح، قاله الضحاك.

والخامس: أدخلني مُدخل صدقٍ الجنةَ، وأخرجني مخرج صدق من مكة إلى المدينة، رواه قتادة عن الحسن.

والسادس : أدخِلني في النبوّة والرسالة ، وأخرجني منها مخرج صدق ، قاله مجاهد ، يعني : أخرجني مما يجب عليّ فيها .

والسابع : أدخِلني في الإِسلام ، وأخرجني منه ، قاله أبو صالح ؛ يعني : من أداء ما وجب عليَّ فيه إِذا جاء الموت .

والثامن : أدخِلني في طاعتك ، وأخرجني منها ، أي : سالماً غير مقصِّر في أدائها ، قاله عطاء .

والتاسع : أدخِلني الغار ، وأخرجني منه ، قاله محمد بن المنكدر .

والعاشر : أدخلني في الدِّين ، وأخرجني من الدنيا وأنا على الحق ، ذكره الزجاج .

والحادي عشر : أدخلني مكة ، وأخرجني إِلى حُنَين ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

وأما إِضافة الصدق إِلى المُدخل والمُخرج ، فهو مدح لهما .

وقد شرحنا هذا المعنى في سورة [يونس : 2] .

قوله تعالى : ﴿ واجعل لي من لدنك ﴾ أي : من عندك ﴿ سلطاناً ﴾ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه التسلُّط على الكافرين بالسيف ، وعلى المنافقين باقامة الحدود ، قاله الحسن .

والثاني : أنه الحُجة البيِّنة ، قاله مجاهد .

والثالث : المُلك العزيز الذي يُقهَر به العصاة ، قاله قتادة .

وقال ابن الأنباري : وقوله : ﴿ نصيراً ﴾ يجوز أن يكون بمعنى مُنْصَراً ، ويصلح أن يكون تأويله ناصراً .

قوله تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزَهَق الباطل ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أن الحق : الإسلام ، والباطل : الشرك ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن الحق : القرآن ، والباطل : الشيطان ، قاله قتادة .

والثالث : أن الحق : الجهاد ، والباطل : الشرك ، قاله ابن جريج .

والرابع : الحق : عبادة الله ، والباطل : عبادة الأصنام ، قاله مقاتل .

ومعنى "زهق" : بَطَل واضمحلّ .

وكلُّ شيء هلك وبَطَل فقد زَهَق .

وزَهَقت نفسُه : تلفت .

وروى ابن مسعود أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً .

فإن قيل : كيف قلتم : إِنّ "زهق" بمعنى بَطَل ، والباطل موجود معمول عليه عند أهله ؟

فالجواب : أن المراد من بطلانه وهلكته : وضوح عيبه ، فيكون هالكاً عند المتدبِّر الناظر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(45/462)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾

أي يعذَّبون كسنة من قد أرسلنا ؛ فهو نصب بإضمار يعذبون ؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل ؛ قاله الفرّاء .

وقيل : انتصب على معنى سننّا سنة من قد أرسلنا .

وقيل : هو منصوب على تقدير حذف الكاف ؛ التقدير لا يلبثون خلفك إلا قليلاً كسنة من قد أرسلنا ؛ فلا يوقف على هذا التقدير على قوله : "إلا قليلا" ويوقف على الأول والثاني .

"قبلك من رسلنا" وقف حسن .

﴿ وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ أي لا خُلف في وعدها .

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصلاةَ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ لما ذكر مكايد المشركين أمر نبيّه عليه السلام بالصبر والمحافظة على الصلاة ، وفيها طلب النصر على الأعداء .

ومثله ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر : 97] .

وتقدم القول في معنى إقامة الصلاة في أول سورة البقرة .

وهذه الآية بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة .

واختلف العلماء في الدّلُوك على قولين :

أحدهما : أنه زوال الشمس عن كبد السماء ؛ قاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علماء التابعين وغيرهم .

الثاني أن الدلوك هو الغروب ؛ قاله عليّ وابن مسعود وأبيّ بن كعب ، وروي عن ابن عباس .

قال الماورديّ : من جعل الدّلُوك اسما لغروبها فلأن الإنسان يدلُك عينيه براحته لتبيّنها حالة المغيب ، ومن جعله اسما لزوالها فلأنه يدلك عينيه لشدة شعاعها .

وقال أبو عبيد : دلوكها غروبها .

ودلكتْ براحِ يعني الشمس ؛ أي غابت .

وأنشد قُطْرب :

هذا مُقامُ قَدَمَيْ رَبَاحِ . . .

ذَبّب حتى دَلَكتْ بَراحِ

(46/462)

براح (بفتح الباء) على وزن حَزام وقطام ورقاش اسم من أسماء الشمس .

ورواه الفرّاء (بكسر الباء) وهو جمع راحة وهي الكف ؛ أي غابت وهو ينظر إليها وقد جعل كفّه على حاجبه .

ومنه قول العَجّاج :

والشمس قد كادت تكون دَنَفَا . . .

أدفعها بالراح كي تَزَحْلَفَا

قال ابن الأعرابيّ : الزُّحلوفة مكان منحدر أملس ، لأنهم يتزحلفون فيه .

قال : والزَّحْلفة كالدّحرجة والدفع ؛ يقال : زحلفته فتَزَحْلَف .

ويقال : دلكت الشمس إذا غابت .

قال ذو الرُّمَّة :

مصابيح ليست باللّواتي تقودها . . .

نجومٌ ولا بالآفلات الدّوالكِ

قال ابن عطية : الدلوك هو الميل في اللغة فأوّل الدلوك هو الزوال وآخره هو الغروب .

ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكا ، لأنها في حالة ميل .

فذكر الله تعالى الصلوات التي تكون في حالة الدلوك وعنده ، فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب ، ويصح أن تكون المغرب داخلة في غَسَق الليل .

وقد ذهب قوم إلى أن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب ؛ لأن الله سبحانه علق وجوبها على الدلوك ، وهذا دلوك كله ؛ قاله الأوزاعيّ وأبو حنيفة في تفصيل .

وأشار إليه مالك والشافعيّ في حالة الضرورة .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ إلى غَسَقِ الليل ﴾ روى مالك عن ابن عباس قال : دلوك الشمس ميلها ، وغسق الليل اجتماع الليل وظلمته .

وقال أبو عبيدة : الغسق سواد الليل .

قال ابن قَيْس الرُّقَيّات :

إن هذا الليل قد غَسَقَا . . .

واشتكَيْتُ الهَمّ والأرَقَا

وقد قيل : غسق الليل مغيب الشفق .

وقيل : إقبال ظلمته .

قال زهير :

ظلّت تجود يداها وهي لاهية . . .

حتى إذا جنح الإظلام والغَسق

يقال : غسق الليل غسوقا .

والغَسَق اسم بفتح السين .

وأصل الكلمة من السيلان ؛ يقال : غَسَقت العين إذا سالت ، تَغْسِق .

وغَسَق الجرح غَسَقانا ، أي سال منه ماء أصفر .

وأغسق المؤذّن ، أي أخر المغرب إلى غِسَق الليل .

(47/462)

وحكى الفراء : غَسَق الليل وأغسق ، وظَلِم وأظلم ، ودجا وأدجى ، وغَبَس وأغبس ، وغَبِش وأغبش .

وكان الربيع بن خُثيم يقول لمؤذنه في يوم غَيْم : أغسق أغسق .

يقول : أخر المغرب حتى يَغسِق الليل ، وهو إظلامه .

الثالثة : اختلف العلماء في آخر وقت المغرب ؛ فقيل : وقتها وقت واحد لا وقت لها إلا حين تحجب الشمس ، وذلك بيّنٌ في إمامة جبريل ؛ فإنه صلاها باليومين لوقت واحد وذلك غروب الشمس ، وهو الظاهر من مذهب مالك عند أصحابه .

وهو أحد قولي الشافعيّ في المشهور عنه أيضاً ، وبه قال الثوري .

وقال مالك في الموطأ : فإذا غاب الشفق فقد خرجْتَ من وقت المغرب ودخل وقت العشاء .

وبهذا قال أبو حنيفة وأصحابه والحسن ابن حيّ وإسحاق وأبو ثَور وداود ؛ لأن وقت الغروب إلى الشفق غسق كله .

ولحديث أبي موسى ، وفيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بالسائل المغرب في اليوم الثاني فأخّر حتى كان عند سقوط الشفق ؛ خرجه مسلم .

قالوا : وهذا أولى من أخبار إمامة جبريل ؛ لأنه متأخر بالمدينة وإمامة جبريل بمكة ، والمتأخر أولى من فعله وأمره ؛ لأنه ناسخ لما قبله .

وزعم ابن العربيّ أن هذا القول هو المشهور من مذهب مالك ، وقوله في موطّئه الذي أقرأه طول عمره وأملاه في حياته .

والنكتة في هذا أن الأحكام المتعلقة بالأسماء هل تتعلق بأوائلها أو بآخرها أو يرتبط الحكم بجميعها ؟ والأقوى في النظر أن يرتبط الحكم بأوائلها لئلا يكون ذكرها لغواً فإذا ارتبط بأوائلها جرى بعد ذلك النظر في تعلقه بالكلّ إلى الآخر .

قلت : القول بالتّوسعة أرجح .

وقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث الأجلح بن عبد الله الكندي عن أبي الزبير عن جابر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قريباً من غروب الشمس فلم يُصَلّ المغرب حتى أتى سَرِف ، وذلك تسعة أميال .

وأما القول بالنسخ فليس بالبيّن وإن كان التاريخ معلوماً ؛ فإن الجمع ممكن .

(48/462)

قال علماؤنا : تُحمل أحاديث جبريل على الأفضلية في وقت المغرب ، ولذلك اتفقت الأمة فيها على تعجيلها والمبادرة إليها في حين غروب الشمس .

قال ابن خُوَيْزِ مَنْداد : ولا نعلم أحداً من المسلمين تأخّر بإقامة المغرب في مسجد جماعة عن وقت غروب الشمس .

وأحاديث التّوسعة تبين وقت الجواز ، فيرتفع التعارض ويصح الجمع ، وهو أولى من

الترجيح باتفاق الأصوليين؛ لأن فيه إعمال كل واحد من الدليلين، والقول بالنسخ أو الترجيح فيه إسقاط أحدهما.

والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَقُرْآنَ الفجر ﴾ انتصب "قرآن" من وجهين: أحدهما أن يكون معطوفاً على الصلاة؛ المعنى: وأقم قرآن الفجر أي صلاة الصبح؛ قاله الفراء.

وقال أهل البصرة.

انتصب على الإغراء؛ أي فعليك بقرآن الفجر؛ قاله الزجاج.

وعبّر عنها بالقرآن خاصة دون غيرها من الصلوات؛ لأن القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلة مجهور بها حسبما هو مشهور مسطور؛ عن الزجاج أيضاً.

قلت: وقد استقرّ عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة في الصبح قدرا لا يضر بمن خلفه يقرأ فيها بطوال المفصَّل، ويليها في ذلك الظهر والجمعة وتخفيف القراءة في المغرب وتوسطها في العصر والعشاء.

وقد قيل في العصر: إنها تخفّف كالمغرب.

وأما ما ورد في صحيح مسلم وغيره من الإطالة فيما استقرّ فيه التقصير، أو من التقصير فيما استقرّت فيه الإطالة؛ كقراءته في الفجر المعوذتين كما رواه النَّسائي وكقراءة الأعراف والمرسلات والطور في المغرب، فمتروك بالعمل.

ولإنكاره على معاذ التطويل حين أمّ قومه في العشاء فافتتح سورة البقرة.

خرّجه الصحيح.

وبأمره الأئمة بالتخفيف فقال: "أيها الناس إن منكم منفّرين فأيكم أمّ الناس فليخفف فإن فيهم الصغير والكبير والمريض والسقيم والضعيف وذا الحاجة" وقال: "فإذا صلى أحدكم وحده فليطوّل ما شاء" كله مسطور في صحيح الحديث.

(49/462)

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الفجر﴾ دليل على أن لا صلاة إلا بقراءة؛ لأنه سَمَّى الصلاة قرآناً.

وقد اختلف العلماء في القراءة في الصلاة فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والفَذّ في كل ركعة.

وهو مشهور قول مالك.

وعنه أيضاً أنها واجبة في جُلّ الصلاة.

وهو قول إسحاق.

وعنه أيضاً تجب في ركعة واحدة؛ قاله المُغِيرة وسُحْنُون.

وعنه أن القراءة لا تجب في شيء من الصلاة .

وهو أشدّ الروايات عنه .

وحُكي عن مالك أيضاً أنها تجب في نصف الصلاة ، وإليه ذهب الأوزاعيّ .

وعن الأوزاعيّ أيضاً وأيوب أنها تجب على الإمام والفَذّ والمأموم على كل حال .

وهو أحد قولي الشافعيّ .

وقد مضى في (الفاتحة) مستوفًى .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ كَانَ مَشْهُوداً ﴾ روى الترمذيّ عن أبي هريرة " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وقرآنَ الفجرِ إن قرآنَ الفَجْرِ كان مشهوداً ﴾ قال : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار " هذا حديث حسن صحيح .

ورواه عليّ بن مُسْهِر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وروى البخاريّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فَضْلُ صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح " يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم " وقرآنَ الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا " .

ولهذا المعنى يُبَكّر بهذه الصلاة ، فمن لم يبكر لم تشهد صلاته إلا إحدى الفئتين من الملائكة .

ولهذا المعنى أيضاً قال مالك والشافعيّ: التغليس بالصبح أفضل.

وقال أبو حنيفة: الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار، فإن فاته ذلك فالإسفار أوْلَى من التغليس.

وهذا مخالف لما كان عليه السلام يفعله من المداومة على التغليس، وأيضاً فإن فيه تفويتَ شهود ملائكة الليل.

والله أعلم.

(50/462)

السابعة: استدلّ بعض العلماء بقوله صلى الله عليه وسلم: "تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار" على أن صلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار.

قلت: وعلى هذا فلا تكون صلاة العصر أيضاً لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار؛ فإن في الصحيح عن النبيّ الفصيح عليه السلام فيما رواه أبو هريرة: "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر" الحديث.

ومعلوم أن صلاة العصر من النهار فكذلك تكون صلاة الفجر من الليل وليس كذلك، وإنما هي من النهار كالعصر بدليل الصيام والأيمان، وهذا واضح.

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79) ﴾

فيه ست مسائل : الأولى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الليل ﴾ "من" للتبعيض .

والفاء في قوله "فتهجّد" ناسقة على مضمر ، أي قم فتهجد .

﴿ بِهِ ﴾ أي بالقرآن .

والتَّهَجُّد من الهجود وهو من الأضداد .

يقال : هجد نام ، وهجد سهر ؛ على الضد .

قال الشاعر :

ألا زارَتْ وأهلُ مِنًى هجود . . .

ولَيْت خيالها بمنًى يعود

آخر :

ألاَ طرقتنا والرّفاق هجود . . .

فباتت بِعَلاّت النوال تجود

يعني نِياماً .

وهجد وتهجد بمعنًى .

وهجّدته أي أنمته ، وهجدته أي أيقظته .

والتهجّد التيقظ بعد رَقْدة ، فصار اسما للصلاة ؛ لأنه ينتبه لها .

فالتهجد القيام إلى الصلاة من النوم .

قال معناه الأسود وعلقمة وعبد الرحمن بن الأسود وغيرهم .

وروى إسماعيل بن إسحاق القاضي من حديث الحجاج بن عمر صاحب النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : أيحسب أحدكم إذا قام من الليل كلّه أنه قد تهجد ! إنما التهجد الصلاة بعد رقْدة ثم الصلاة بعد رقْدة ثم الصلاة بعد رقدة .

كذلك كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : الهجود النوم .

يقال : تهجد الرجل إذا سَهِر ، وألقى الهجود وهو النوم .

(51/462)

ويسمى من قام إلى الصلاة متهجدا ؛ لأن المتهجد هو الذي يُلقي الهجود الذي هو النوم عن نفسه .

وهذا الفعل جارٍ مجرى تحوّب وتحرّج وتأثّم وتحنّث وتقذّر وتنجّس ؛ إذا ألقى ذلك عن نفسه .

ومثله قوله تعالى : ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ [الواقعة : 65] معناه تندّمون ؛ أي تطرحون الفكاهة عن أنفسكم ، وهي انبساط النفوس وسرورها .

يقال رجل فَكِه إذا كان كثير السرور والضحك .

والمعنى في الآية : ووقتا من الليل أسهرته في صلاة وقراءة .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أي كرامة لك ؛ قاله مقاتل .

واختلف العلماء في تخصيص النبيّ صلى الله عليه وسلم بالذكر دون أمته ؛ فقيل : كانت صلاة الليل فريضة عليه لقوله : "نافلة لك" أي فريضة زائدة على الفريضة الموظفة على الأمة .

قلت : وفي هذا التأويل بعدٌ لوجهين :

أحدهما : تسمية الفرض بالنفل ، وذلك مجاز لا حقيقة .

الثاني : قوله صلى الله عليه وسلم : " خمس صلوات فرضهن الله على العباد " ، وقوله تعالى : " هن خمس وهن خمسون لا يبدّل القول لَدَيَّ " وهذا نص ، فكيف يقال افترض عليه صلاة زائدة على الخمس ، هذا ما لا يصح ، وإن كان قد روي عنه عليه السلام : " ثلاث عليّ فريضة ولأمتي تطوع قيام الليل والوتر والسّواك " وقيل : كانت صلاة الليل تطوعاً منه وكانت في الابتداء واجبة على الكل ، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة ، كما قالت عائشة ، على ما يأتي مبيّناً في سورة "المزمّل" إن شاء الله تعالى .

وعلى هذا يكون الأمر بالتنفل على جهة الندب ويكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مغفور له .

فهو إذا تطوّع بما ليس بواجب عليه كان ذلك زيادة في الدرجات .

وغيره من الأمة تطوّعهم كفارات وتدارك لخلل يقع في الفرض ؛ قال معناه مجاهد وغيره .

وقيل : عطية ؛ لأن العبد لا ينال من السعادة عطاء أفضل من التوفيق في العبادة .

(52/462)

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ اختلف في المقام المحمود على أربعة أقوال :

الأوّل : وهو أصحها الشفاعة للناس يوم القيامة ؛ قاله حُذيفة بن اليَمَان .

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً كل أمة تتبع نبيها تقول : يا فلان اشفع ، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فذلك يوم يبعثه الله المقامَ المحمود .

وفي صحيح مسلم عن أنس قال حدّثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له اشفع لذرّيتك فيقول لست لها

ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله فيأتون إبراهيم فيقول لست لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله فيؤتى موسى فيقول لست لها ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته فيؤتى عيسى فيقول لست لها ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم فأُوتَى فأقول أنا لها " وذكر الحديث .

وروى الترمذِيّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : " عسى أن يبعثك ربُّك مقاماً محموداً سئل عنها قال : هي الشفاعة " قال : هذا حديث حسن صحيح .

الرابعة : إذا ثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء عليهم السلام ، حتى ينتهي الأمر إلى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف ليعجّل حسابهم ويراحوا من هول موقفهم ، وهي الخاصة به صلى الله عليه وسلم ؛ ولأجل ذلك قال : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " قال النقاش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات : العامة ، وشفاعة في السبق إلى الجنة ، وشفاعة في أهل الكبائر .

ابن عطية : والمشهور أنهما شفاعتان فقط : العامة ، وشفاعة في إخراج المذنبين من النار .

وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء .

وقال القاضي أبو الفضل عِياض : شفاعات نبينا صلى الله عليه وسلم يوم القيامة خمس شفاعات : العامة .

والثانية في إدخال قوم الجنة دون حساب .

الثالثة في قوم من موحِّدِي أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومَن شاء الله أن يشفع ويدخلون الجنة .

وهذه الشفاعة هي التي أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة ، فمنعتها على أصولهم الفاسدة ، وهي الاستحقاق العقلي المبنيّ على التحسين والتقبيح .

الرابعة فيمن دخل النار من المذنبين فيخرجون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والملائكة وإخوانهم المؤمنين .

الخامسة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترفيعها ، وهذه لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعة الحشر الأوّل .

الخامسة : قال القاضي عِياض : وعرف بالنقل المستفيض سؤالُ السلف الصالح لشفاعة النبيّ صلى الله عليه وسلم ورغبتهم فيها ، وعلى هذا لا يلتفت لقول من قال : إنه يكره أن تسأل الله أن يرزقك شفاعة النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنها لا تكون إلا للمذنبين ، فإنها قد تكون كما قدّمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات .

ثم كل عاقل معترف بالتقصير محتاج إلى العفو غير معتدٍّ بعمله مشفق أن يكون من الهالكين ، ويلزم هذا القائل ألا يدعو بالمغفرة والرحمة ؛ لأنها لأصحاب الذنوب أيضاً ، وهذا كله خلاف ما عرف من دعاء السلف والخلف .

روى البخاري عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً صلى الله عليه وسلم الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلّت له شفاعتي يوم القيامة " .

القول الثاني أن المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة .

قلت : وهذا القول لا تنافر بينه وبين الأوّل ؛ فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع .

(54/462)

روى الترمذي عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبيّ يومئذ آدمَ فمن سواه إلا تحت لوائي " الحديث .

القول الثالث ما حكاه الطبري عن فرقة ، منها مجاهد ، أنها قالت : المقام المحمود هو أن يُجلس الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم معه على كرسيّه ؛ وروت في ذلك حديثاً .

وعَضَد الطبريّ جواز ذلك بشططٍ من القول ، وهو لا يخرج إلا على تلطُّف في المعنى ، وفيه بُعْدٌ .

ولا يُنْكَر مع ذلك أن يروَى ، والعلم يتأوّله .

وذكر النقاش عن أبي داود السِّجسْتَانيّ أنه قال : من أنكر هذا الحديث فهو عندنا مُتَّهَم ، ما زال أهل العلم يتحدّثون بهذا ، من أنكر جوازه على تأويله .

قال أبو عمر : ومجاهد وإن كان أحد الأئمة يتأوّل القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم : أحدهما هذا والثاني في تأويل قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضرة إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22] قال : تنتظر الثواب ؛ ليس من النظر .

قلت : ذكر هذا في باب ابن شهاب في حديث التنزيل .

وروي عن مجاهد أيضاً في هذه الآية قال : يُجلسه على العرش .

وهذا تأويل غير مستحيل ؛ لأن الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلَّها والعرشَ قائماً بذاته ، ثم خلق الأشياء من غير حاجة إليها ، بل إظهاراً لقدرته وحكمته ، وليُعرف وجوده وتوحيده وكمال قدرته وعلمه بكل أفعاله المحكمة ، وخلق لنفسه عرشاً استوى عليه كما شاء من غير أن صار له مماساً ، أو كان العرش له مكاناً .

قيل : هو الآن على الصفة التي كان عليها من قبل أن يخلق المكان والزمان ؛ فعلى هذا القول سواء في الجواز أقعد محمد على العرش أو على الأرض ؛ لأن استواء الله تعالى على العرش

ليس بمعنى الانتقال والزوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التي تشغل العرش ، بل هو مستو على عرشه كما أخبر عن نفسه بلا كَيْفٍ .

(55/462)

وليس إقعاده محمداً على العرش موجباً له صفة الربوبية أو مُخرجاً له عن صفة العبودية ، بل هو رفع لمحله وتشريف له على خلقه .

وأما قوله في الإخبار : "معه" فهو بمنزلة قوله : ﴿ إِنَّ الذين عِندَ رَبّكَ ﴾ [الأعراف : 206] ، ﴿ رَبِّ ابن لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة ﴾ [التحريم : 11] ، ﴿ وَإِنَّ الله لَمَعَ المحسنين ﴾ [العنكبوت : 69] ونحو ذلك .

كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والحُظْوة والدرجة الرفيعة ، لا إلى المكان .

الرابع : إخراجه من النار بشفاعته من يخرج ؛ قاله جابر بن عبد الله .

ذكره مسلم .

وقد ذكرناه في (كتاب التذكرة) والله الموفق .

السادسة : اختلف العلماء في كون القيام بالليل سبباً للمقام المحمود على قولين : أحدهما أن الباريء تعالى يجعل ما شاء من فعله سبباً لفضله من غير معرفة بوجه الحكمة فيه ، أو

بمعرفة وجه الحكمة .

الثاني أن قيام الليل فيه الخلوة مع الباريء والمناجاة دون الناس ، فأعطى الخلوة به ومناجاته في قيامه وهو المقام المحمود .

ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم ، فأجلّهم فيه درجة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه يُعْطي ما لا يُعطى أحد ويشفع ما لا يشفع أحد .

و"عسى" من الله عز وجل واجبة .

و"مقاماً" نصب على الظرف .

أي في مقام أو إلى مقام .

وذكر الطبري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي " .

فالمقام الموضع الذي يقوم فيه الإنسان للأمور الجليلة كالمقامات بين يدي الملوك .

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (80) ﴾

قيل : المعنى أمتني إماتة صدق ، وابعثني يوم القيامة مبعث صدق ؛ ليتصل بقوله ﴿ عسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ .

كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو ليُنْجِز له الوعد .

وقيل : أدخلني في المأمور وأخرجني من المنهِيّ .

(56/462)

وقيل : علّمه ما يدعو به في صلاته وغيرها من إخراجه من بين المشركين وإدخاله موضع الأمن ؛ فأخرجه من مكة وصيره إلى المدينة .

وهذا المعنى رواه الترمذي عن ابن عباس قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أمر بالهجرة فنزلت "وقل رب أدخلني مُدْخَلَ صِدقٍ وأخرجني مُخْرَجَ صِدقٍ واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً" قال : هذا حديث حسن صحيح .

وقال الضحاك : هو خروجه من مكة ودخوله مكة يوم الفتح آمناً .

أبو سهل : حين رجع من تبوك وقد قال المنافقون : ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ [المنافقون : 8] يعني إدخال عز وإخراج نصر إلى مكة .

وقيل : المعنى أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوّة مدخل صدق وأخرجني منه مخرج صدق إذا أمَتَّني ؛ قال معناه مجاهد .

والمدخل والمخرج (بضم الميم) بمعنى الإدخال والإخراج ؛ كقوله : ﴿ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً

مُّبَارَكاً ﴾ [المؤمنون : 29] أي إنزالاً لا أرى فيه ما أكره .

وهي قراءة العامة .

وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم "مَدخل" و "مخرج" بفتح الميمين بمعنى الدخول والخروج؛ فالأوّل رباعي وهذا ثلاثي .

وقال ابن عباس : أدخلني القبر مدخل صدق عند الموت وأخرجني مخرج صدق عند البعث .

وقيل : أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق؛ أي لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه؛ فإن ذا الوجهين لا يكون وجيهاً عندك .

وقيل : الآية عامة في كل ما يُتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال ، ويُنتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة .

فهي دعاء ، ومعناه : رب أصلح لي وِرْدي وصدري في كل الأمور .

وقوله : ﴿ واجعل لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً ﴾ قال الشعبيّ وعكرمة : أي حجة ثابتة .

وذهب الحسن إلى أنه العز والنصر وإظهار دينه على الدين كله .

قال : فوعده الله لَيَنْزِعنّ مُلك فارس والروم وغيرها فيجعله له .

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : روى البخاريّ والترمذيّ عن ابن مسعود قال : دخل النبيّ صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون نُصُباً ، فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم يطعنها بِمخصرة في يده وربما قال بعود ويقول : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً .

جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد " لفظ الترمذيّ.

وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وكذا في حديث مسلم "نُصُباً" .

وفي رواية صنماً .

قال علماؤنا : إنما كانت بهذا العدد لأنهم كانوا يعظِّمون في يوم صنماً ويخصون أعظمها بيومين .

وقوله : "فجعل يطعنها بعود في يده" يقال : إنها كانت مثبتة بالرّصاص وأنه كلما طعن منها صنماً في وجهه خرّ لقفاه ، أو في قفاه خرّ لوجهه .

وكان يقول : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً " حكاه أبو عمر والقاضي

عِياض.

وقال القشيريّ: فما بقي منها صنم إلا خرّ لوجهه، ثم أَمَر بها فكسرت.

الثانية: في هذه الآية دليل على كسر نُصب المشركين وجميع الأوثان إذ غُلب عليهم، ويدخل بالمعنى كسر آلة الباطل كله، وما لا يصلح إلا لمعصية الله كالطنابير والعيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى.

قال ابن المنذر: وفي معنى الأصنام الصُّوَرُ المتَّخَذة من المَدَر والخشب وشبهها، وكل ما يتخذه الناس مما لا منفعة فيه إلا اللهو المنهيّ عنه.

ولا يجوز بيع شيء منه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص، إذا غُيِّرت عما هي عليه وصارت نُقراً أو قطعاً فيجوز بيعها والشّراء بها.

قال المهلّب: وما كسر من آلات الباطل وكان في حبسها بعد كسرها منفعةٌ فصاحبها أوْلَى بها مكسورة إلا أن يرى الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المال.

وقد تقدّم حرق ابن عمر رضي الله عنه.

وقد همّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بتحريق دور من تخلف عن صلاة الجماعة .

وهذا أصل في العقوبة في المال مع " قوله عليه السلام في الناقة التي لعنتها صاحبتها :

"دعوها فإنها ملعونة" " فأزال ملكها عنها تأديباً لصاحبتها ، وعقوبة لها فيما دعت عليه بما دعت به .

وقد أراق عمر بن الخطاب رضي الله عنه لَبَناً شِيب بماء على صاحبه .

الثالثة : ما ذكرنا من تفسير الآية ينظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : " والله لينزلنّ عيسى ابن مريم حكماً عادلاً فَلَيَكْسِرَنّ الصليب وَلَيَقْتُلَنّ الخنزير ولَيَضَعَنّ الجِزْية ولَتُتْرَكَن القِلاصُ فلا يُسعى عليها " الحديث .

خرجه الصحيحان .

ومن هذا الباب هتك النبيّ صلى الله عليه وسلم الستر الذي فيه الصور ، وذلك أيضاً دليل على إفساد الصور وآلات الملاهي كما ذكرنا .

وهذا كله يحظر المنع من اتخاذها ويوجب التغيير على صاحبها .

إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم ؛ وحسبك !

وسيأتي هذا المعنى في "النمل" إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَآءَ الحق ﴾ أي الإسلام .

وقيل : القرآن ؛ قاله مجاهد .

وقيل : الجهاد .

﴿ وَزَهَقَ الباطل ﴾ قيل : الشرك .

وقيل : الشيطان ؛ قاله مجاهد .

والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة ، فيكون التفسير جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه .

"وزهق الباطل" : بطل الباطل .

ومن هذا زهوق النفس وهو بطلانها .

يقال : زَهقت نفسه تَزَهق زهوقاً ، وأزهقتها .

﴿ إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقاً ﴾ أي لا بقاء له ، والحق الذي يثبت . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(59/462)

وقال أبو حيان :

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾

وانتصب ﴿ سنة ﴾ على المصدر المؤكد أي سنّ الله سنة ، والمعنى أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم فسنة الله أن يهلكهم بعد إخراجه ويستأصلهم ولا يقيمون بعده إلاّ

قليلاً .

وقال الفراء : انتصب ﴿ سنة ﴾ على إسقاط الخافض لأن المعنى كسنة فنصب بعد حذف الكاف ، وعلى هذا لا يقف على قوله : ﴿ إلاّ قليلاً ﴾ .

وقال أبو البقاء : ﴿ سنة ﴾ منصوب على المصدر أي سننا بك سنة من تقدم من الأنبياء ، ويجوز أن يكون مفعولاً به أي اتبع ﴿ سنة من قد أرسلنا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ انتهى .

وهذا معنى غير الأول والمفسرون على الأول وهو المناسب لمعنى الآية قبلها ﴿ ولن تجد ﴾ لما أجرينا به العادة ﴿ تحويلاً ﴾ منه إلى غيره إذ كل حادث له وقت معين وصفة معينة ونفي الوجدان هنا وفيما أشبهه معناه نفي الوجود .

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) ﴾

الدلوك الغروب قاله الفراء وابن قتيبة ، واستدل الفراء بقول الشاعر :

هذا مقام قدمي رباح . . .

غدوة حتى دلكت براح

أي حتى غابت الشمس ، وبراح اسم الشمس وأنشد ابن قتيبة لذي الرمة :

مصابيح ليست باللواتي يقودها . . .

نجوم ولا بالآفلات الدوالك

وقيل : الدلوك زوال الشمس نصف النهار .

قيل واشتقاقه من الدلك لأن الإنسان تدلك عينه عند النظر إليها .

وقيل الدلوك من وقت الزوال إلى الغروب .

الغسق سواد الليل وظلمته .

قال الكسائي غسق الليل غسوقاً والغسق الاسم بفتح السين .

وقال النضر بن شميل : غسق الليل دخول أوله .

قال الشاعر :

إن هذا الليل قد غسقا . . .

واشتكيت الهم والأرقا

وأصله من السيلان غسقت العين تغسق هملت بالماء والغاسق السائل ، وذلك أن الظلمة

تنصب على العالم .

قال الشاعر :

ظلت تجود يداها وهي لاهية . . .

حتى إذا جنح الإظلام والغسق

وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس ما الغسق ؟ قال : الليل بظلمته ، ويقال غسقت العين امتلأت دماً .

وحكى الفراء غسق الليل واغتسق وظلم وأظلم ودجى وأدجى وغبش وأغبش ، أبو عبيدة الهاجد النائم والمصلي .

وقال ابن الأعرابي : هجد الرجل صلى من الليل ، وهجد نام بالليل .

وقال الليث تهجد استيقظ للصلاة .

وقال ابن برزح هجدته أيقظته ، فعلى ما ذكروا يكون من الأضداد ، والمعروف في كلام العرب أن الهاجد النائم وقد هجد هجوداً نام .

قال الشاعر :

ألا زارت وأهل منى هجود . . .

وليت خيالنا منا يعود

وقال آخر :

ألا طرقتنا والرفاق هجود . . .

وقال آخر :

وبرك هجود قد أثارت مخافتي . . .

زهقت نفسه تزهق زهوقاً ذهبت ، وزهق الباطل زال واضمحل ، ولم يثبت .

قال الشاعر :

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها . . .

إقدامه مزالة لم تزهق

ناء ينوء : نهض .

الشاكلة الطريقة والمذهب الذي جبل عليه قاله الفراء ، وهو مأخوذ من الشكل يقال لست على شكلي ولا شاكلتي ، والشكل المثل والنضير ، والشِكل بكسر الشين الهيئة يقال جارية حسنة الشكل .

الينبوع مفعول من النبع وهو عين تفور بالماء .

الكسف القطع واحدها كسفة ، تقول العرب : كسفت الثوب ونحوه قطعته ، وما زعم الزجاج من أن كسف بمعنى غطى ليس بمعروف في دواوين اللغة .

الرُقّي والرقى الصعود يقال : رقيت في السلم أرقى قال الشاعر :

أنت الذي كلفتني رقي الدرج . . .

على الكلال والمشيب والعرج

خبت النار تخبو : سكن لهبها وخمدت سكن جمرها وضعف وهمدت طفئت جملة .

قال الشاعر :

أمن زينب ذي النار قبيل الصبح . . .

ما تخبو إذا ما أخمدت ألقى عليها المندل الرطب

وقال آخر :

وسطه كاليراع أو سرج المجدل . . .

طوراً يخبو وطوراً ينير

الثبور : الهلاك يقال : ثبر الله العدوّ ثبوراً أهلكه .

وقال ابن الزبعرى :

إذا جارى الشيطان في سنن الغي . . .

ومن مال مثله مثبور

اللفيف الجماعات من قبائل شتى مختلطة قد لف بعضها ببعض .

(61/462)

وقال بعض اللغويين : هو من أسماء الجموع لا واحد له من لفظه .

وقال الطبري : هو بمعنى المصدر كقول القائل لففته لفاً ولفيفاً .

المكث : التطاول في المدّة ، يقال : مكث ومكث أطال الإقامة .

الذقن مجتمع اللحيين .

قال الشاعر :

فخرّوا لأذقان الوجوه تنوشهم . . .

سباع من الطير العوادي وتنتف

خافت بالكلام أسره بحيث لا يكاد يسمعه المتكلم وضربه حتى خفت أي لا يسمع له حس .

﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً .

وقل جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ .

ومناسبة ﴿ أقم الصلاة ﴾ لما قبلها أنه تعالى لما ذكر كيدهم للرسول وما كانوا يرومون به ، أمره تعالى أن يقبل على شأنه من عبادة ربه وأن لا يشغل قلبه بهم ، وكان قد تقدّم القول في الإلهيات والمعاد والنبوات ، فأردف ذلك بالأمر بأشرف العبادات والطاعات بعد الإيمان وهي الصلاة وتقدّم الكلام في إقامة الصلاة والمواجه بالأمر الرسول عليه الصلاة والسلام .

واللام في ﴿ لدلوك ﴾ قالوا : بمعنى بعد أي بعد دلوك ﴿ الشمس ﴾ كما قالوا ذلك في قوم

متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكاً :

فلما تفرّقنا كأني ومالكاً . . .

لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

أي بعد طول اجتماع ومنه كتبته لثلاث خلون من شهر كذا .

وقال الواحدي : اللام للسبب لأنها إنما تجب بزوال الشمس ، فيجب على المصلي إقامتها لأجل دلوك الشمس .

قال ابن عطية : ﴿ أقم الصلاة ﴾ الآية هذه بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة .

(62/462)

فقال ابن عمر وابن عباس وأبو بردة والحسن والجمهور : دلوك الشمس زوالها ، والإشارة إلى الظهر والعصر وغسق الليل إشارة إلى المغرب والعشاء ﴿ وقرآن الفجر ﴾ أريد به صلاة الصبح ، فالآية على هذا تعم جميع الصلوات .

وروى ابن مسعود أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال : " أتاني جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر " .

" وروى جابر أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) خرج من عنده وقد طعم وزالت الشمس ، فقال : "أخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس" " وقال ابن مسعود وابن عباس وزيد بن أسلم : دلوك الشمس غروبها والإشارة بذلك إلى المغرب و ﴿ غسق الليل ﴾ ظلمته فالإشارة إلى العتمة ﴿ وقرآن الفجر ﴾ صلاة الصبح ، ولم تقع إشارة على هذا التأويل إلى الظهر والعصر انتهى .

وعن عليّ أنه الغروب ، وتتعلق اللام وإلى بأقم ، فتكون إلى غاية للإقامة .

وأجاز أبو البقاء أن تكون حالاً من الصلاة قال : أي ممدودة ويعني بقرآن الفجر صلاة الصبح ، وخصت بالقرآن وهو القراءة لأنه عظمها إذ قراءتها طويلة مجهور بها ، وانتصب ﴿ وقرآن الفجر ﴾ عطفاً على ﴿ الصلاة ﴾ .

وقال الأخفش : انتصب بإضمار فعل تقديره وآثر ﴿ قرآن الفجر ﴾ أو عليك ﴿ قرآن الفجر ﴾ انتهى .

وسميت صلاة الصبح ببعض ما يقع فيها .

وقال الزمخشري : سميت صلاة الفجر قرآناً وهي القراءة لأنها ركن كما سميت ركوعاً وسجوداً وقنوتاً وهي حجة عليّ بن أبي علية .

والأصم في زعمهما أن القراءة ليست بركن انتهى .

وقيل : إذا فسرنا الدلوك بزوال الشمس كان الوقت مشتركاً بين الظهر والعصر إذا غييت الإقامة بغسق الليل ، ويكون الغسق وقتاً مشتركاً بين المغرب والعشاء ، ويكون المذكور ثلاثة أوقات : أول وقت الزوال ، وأول وقت المغرب ، وأول وقت الفجر انتهى ، والذي يدل عليه ظاهر اللفظ أنه أمر بإقامة الصلاة إما من أول الزوال إلى الغسق ، وبقرآن الفجر ، وإما من الغروب إلى الغسق وبقرآن الفجر ، فيكون المأمور به الصلاة في وقتين ولا تؤخذ أوقات الصلوات الخمس من هذا اللفظ بوجه .

وقال أبو عبد الله الرازي في قوله ﴿ وقرآن الفجر ﴾ دلالة على أن الصلاة لا تتم إلاّ بالقراءة لأن الأمر على الوجوب ، ولا قراءة في ذلك الوقت واجبة إلا في الصلاة ومن قال معنى ﴿ وقرآن الفجر ﴾ صلاة الفجر غلط لأنه صرف الكلام عن حقيقته إلى المجاز بغير دليل ، ولأن في نسق التلاوة ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ ويستحيل التهجد بصلاة الفجر ليلاً .

والهاء في ﴿ به ﴾ كناية عن ﴿ قرآن الفجر ﴾ المذكور قبله ، فثبت أن المراد حقيقة القرآن لامكان التهجد بالقرآن المقروء في صلاة الفجر واستحالة التهجد في الليل بصلاة الفجر ، وعلى أنه لو صح أن يكون المراد ما ذكروا لكانت دلالته قائمة على وجوب القراءة في الصلاة لأنه لم تجعل القراءة عبارة عن الصلاة إلا وهي من أركانها انتهى .

وفيه بعض تلخيص والظاهر ندبية إيقاع صلاة الصبح في أول الوقت لأنه مأمور بإيقاع قرآن الفجر ، فكان يقتضي الوجوب أول طلوع الفجر ، لكن الإجماع منع من ذلك فبقي الندب لوجود المطلوبية ، فإذا انتفى وجوبها بقي ندبها وأعاد ﴿ قرآن الفجر ﴾ في قوله ﴿ إن قرآن الفجر ﴾ ولم يأت مضمراً فيكون أنه على سبيل التعظيم والتنويه بقرآن الفجر ومعنى ﴿ مشهوداً ﴾ تشهده الملائكة حفظة الليل وحفظة النهار كما جاء في الحديث : " إنهم يتعاقبون ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر " وهذا قول الجمهور .

(64/462)

وقيل يشهده الكثير من المصلين في العادة .

وقيل : من حقه أن تشهده الجماعة الكثيرة .

قال الزمخشري : ويجوز أن يكون ﴿ وقرآن الفجر ﴾ حثاً على طول القراءة في صلاة الفجر لكونها مكثوراً عليها ليسمع الناس القرآن فيكثر الثواب ، ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة انتهى .

ويعني بقوله حثاً أن يكون التقدير وعليك ﴿ قرآن الفجر ﴾ أو والزم .

وقال محمد بن سهل بن عسكر : ﴿ مشهوداً ﴾ يشهده الله وملائكته ، وذكر حديث أبي

الدرداء أنه تعالى ينزل في آخر الليل ولأبي عبد الله الرازي كلام في قوله ﴿ مشهوداً ﴾ على عادته في تفسير كتاب الله على ما لا تفهمه العرب ، والذي ينبغي بل لا يعدل عنه ما فسره به الرسول (صلى الله عليه وسلم) من قوله فيه : " يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار " وقال فيه الترمذي حديث حسن صحيح .

ولما أمره تعالى بإقامة الصلاة للوقت المذكور ولم يدل أمره تعالى إياه على اختصاصه بذلك دون أمته ذكر ما اختصه به تعالى وأوجبه عليه من قيام الليل وهو في أمته تطوع .

فقال : ﴿ ومن الليل فتهجد به ﴾ أي بالقرآن في الصلاة ﴿ نافلة ﴾ زيادة مخصوصاً بها أنت وتهجد هنا تفعل بمعنى الإزالة والترك ، كقولهم : تأثم وتحنث ترك التأثم والتحنث ، ومنه تحنث بغار حراء أي بترك التحنث ، وشرح بلازمه وهو التعبد ﴿ ومن ﴾ للتبعيض .

وقال الحوفي : ﴿ من ﴾ متعلقة بفعل دل عليه معنى الكلام تقديره واسهر من الليل بالقرآن ، قال : ويجوز أن يكون التقدير وقم بعد نومة من الليل .

وقال ابن عطية ﴿ ومن ﴾ للتبعيض التقدير وقتاً من الليل أي وقم وقتاً من الليل .

وقال الزمخشري : ﴿ ومن الليل ﴾ وعليك بعض الليل ﴿ فتهجد به ﴾ والتهجد ترك الهجود للصلاة انتهى .

فإن كان تفسيره وعليك بعض الليل تفسير معنى فيقرب ، وإن كان أراد صناعة النحو والإعراب فلا يصح لأن المغري به لا يكون حرفاً ، وتقدير من ببعض فيه مسامحة لأنه ليس بمرادفه البتة ، إذ لو كان مرادفه للزم أن يكون اسماً ولا قائل بذلك ، ألا ترى إجماع النحويين على أن واو مع حرف وإن قدّرت بمع ، والظاهر أن الضمير في ﴿ به ﴾ يعود على القرآن لتقدّمه في الذكر ، ولا تلحظ الإضافة فيه والتقدير ﴿ فتهجد ﴾ بالقرآن في الصلاة .

وقال ابن عطية : والضمير في ﴿ به ﴾ عائد على وقت المقدر في وقم وقتاً من الليل انتهى .

فتكون الباء ظرفية أي ﴿ فتهجد ﴾ فيه وانتصب ﴿ نافلة ﴾ .

قال الحوفي : على المصدر أي نفلناك نافلة قال : ويجوز أن ينتصب ﴿ نافلة ﴾ بتهجد إذا ذهبت بذلك إلى معنى صل به نافلة أي صل نافلة لك .

وقال أبو البقاء : فيه وجهان أحدهما : هو مصدر بمعنى تهجد أي تنفل نفلاً و ﴿ نافلة ﴾ هنا مصدر كالعاقبة والثاني هو حال أي صلاة نافلة انتهى .

وهو حال من الضمير في ﴿ به ﴾ ويكون عائداً على القرآن لا على وقت الذي قدره ابن عطية .

وقال الأسود وعلقمة وعبد الرحمن بن الأسود والحجاج بن عمرو : التهجد بعد نومة .

وقال الحسن : ما كان بعد العشاء الآخرة .

وقال ابن عباس : ﴿ نافلة ﴾ زيادة لك في الفرض وكان قيام الليل فرضاً عليه .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون على جهة الندب في التنفل والخطاب له والمراد هو وأمته كخطابه في ﴿ أقم الصلاة ﴾ .

وقال مجاهد والسدّي : إنما هي نافلة له قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر عام الحديبية ، فإنما كانت نوافله واستغفاره فضائل من العمل وقرباً أشرف من نوافل أمته لأن هذه أعني نوافل أمته إما أن يجبر بها فرائضهم ، وإما أن يحط بها خطيئاتهم .

وضعف الطبري قول مجاهد واستحسنه أبو عبد الله الرازي .

وقال مقاتل فله كرامة وعطاء لك .

وقيل : كانت فرضاً ثم رخص في تركها .

ومن حديث زيد بن خالد الجهني : رمق صلاته عليه الصلاة والسلام ليلة فصلى بالوتر ثلاث عشرة ركعة .

وعن عائشة : أنه ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة .

و﴿ عسى ﴾ مدلولها في المحبوبات الترجي .

فقيل : هي على بابها في الترجي تقديره لتكن على رجاء من ﴿ أن يبعثك ﴾ .

وقيل هي بمعنى كي ، وينبغي أن يكون هذا تفسير معنى ، والأجود أن أن هذه الترجية والإطماع بمعنى الوجوب من الله تعالى وهو متعلق من حيث المعنى بقوله : ﴿ فتهجد ﴾ ﴿ وعسى ﴾ هنا تامة وفاعلها ﴿ أن يبعثك ﴾ ، و﴿ ربك ﴾ فاعل بيبعثك و﴿ مقاماً ﴾ الظاهر أنه معمول ليبعثك هو مصدر من غير لفظ الفعل لأن يبعثك بمعنى يقيمك تقول أقيم من قبره وبعث من قبره .

وقال ابن عطية : منصوب على الظرف أي في مقام محمود .

وقيل : منصوب على الحال أي ذا مقام .

وقيل : هو مصدر لفعل محذوف التقدير فتقوم ﴿ مقاماً ﴾ ولا يجوز أن تكون ﴿ عسى ﴾ هنا ناقصة ، وتقدّم الخبر على الاسم فيكون ﴿ ربك ﴾ مرفوعاً اسم ﴿ عسى ﴾ و﴿ أن يبعثك ﴾ الخبر في موضع نصب بها إلا في هذا الإعراب الأخير .

وأما في قبله فلا يجوز لأن ﴿ مقاماً ﴾ منصوب بيبعثك و﴿ ربك ﴾ مرفوع بعسى فيلزم الفصل بأجنبي بين ما هو موصول وبين معموله .

وهو لا يجوز .

وفي تفسير المقام المحمود أقوال :

أحدهما : أنه في أمر الشفاعة التي يتدافعها الأنبياء حتى تنتهي إليه (صلى الله عليه وسلم) ، والحديث في الصحيح وهي عدة من الله تعالى له عليه الصلاة والسلام ، وفي هذه الشفاعة يحمده أهل الجمع كلهم وفي دعائه المشهور : " وابعثه المقام المحمود الذي وعدته " واتفقوا على أن المراد منه الشفاعة .

الثاني : أنه في أمر شفاعته لأمته في إخراجه لمذنبهم من النار ، وهذه الشفاعة لا تكون إلاّ بعد الحساب ودخول الجنة ودخول النار ، وهذه لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء .

وقد روي حديث هذه الشفاعة وفي آخره : " حتى لا يبقى في النار إلاّ من حبسه القرآن " أي وجب عليه الخلود .

قال : ثم تلا هذه الآية ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ .

وعن أبي هريرة أنه عليه السلام قال : " المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي " فظاهر هذا الكلام تخصيص شفاعته لأمته ، وقد تأوله من حمل ذلك على الشفاعة العظمى التي يحمده بسببها الخلق كلهم على أن المراد لأمته وغيرهم أو يقال إن كل مقام

منهما محمود .

الثالث : عن حذيفة : يجمع الله الناس في صعيد فلا تتكلم نفس فأوّل مدعوّ محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فيقول : " لبيك وسعديك والشر ليس إليك والمهدي من هديت وعبدك بين يديك وبك وإليك لا منجأ ولا ملجأ إلا إليك ، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت " قال : فهذا قوله ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ .

الرابع قال الزمخشري : معنى المقام المحمود المقام الذي يحمده القائم فيه ، وكل من رآه وعرفه وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات انتهى .

وهذا قول حسن ولذلك نكر ﴿ مقاماً محموداً ﴾ فلم يتناول مقاماً مخصوصاً بل كل مقام محمود صدق عليه إطلاق اللفظ .

الخامس : ما قالت فرقة منها مجاهد وقد روي أيضاً عن ابن عباس أن المقام المحمود هو أن يجلسه الله معه على العرش .

وذكر الطبري في ذلك حديثاً وذكر النقاش عن أبي داود السجستاني أنه قال : من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متّهم ما زال أهل العلم يحدّثون بهذا .

قال ابن عطية : يعني من أنكر جوازه على تأويله .

وقال أبو عمرو ومجاهد : إن كان أحد الأئمة يتأول القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم أحدهما هذا والثاني في تأويل ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ قال : تنتظر الثواب ليس من

النظر ، وقد يؤوّل قوله معه على رفع محله وتشريفه على خلقه كقوله ﴿ إن الذين عند ربك ﴾ وقوله ﴿ ابن لي عندك بيتاً ﴾ و﴿ إن الله لمع المحسنين ﴾ كل ذلك كناية عن المكانة لا عن المكان.

(68/462)

وقال الواحدي : هذا القول مروي عن ابن عباس وهو قول رذل موحش فظيع لا يصح مثله عن ابن عباس ، ونص الكتاب ينادي بفساده من وجوه.

الأول : أن البعث ضد الإجلاس بعثت التارك وبعث الله الميت أقامه من قبره ، فتفسيره البعث بالإجلاس تفسير الضد بالضد .

الثاني : لو كان جالساً تعالى على العرش لكان محدوداً متناهياً فكان يكون محدثاً .

الثالث : أنه قال ﴿ مقاماً ﴾ ولم يقل مقعداً ﴿ محموداً ﴾ ، والمقام موضع القيام لا موضع القعود .

الرابع : أن الحمقى والجهّال يقولون إن أهل الجنة يجلسون كلهم معه تعالى ويسألهم عن أحوالهم الدنيوية فلا مزية له بإجلاسه معه .

الخامس : أنه إذا قيل بعث السلطان فلاناً لا يفهم منه أجلسه مع نفسه انتهى .

وفيه بعض تلخيص .

ولما أمره تعالى بإقامة الصلاة والتهجد ووعده بعثه ﴿ مقاماً محموداً ﴾ وذلك في الآخرة أمره بأن يدعوه بما يشمل أموره الدنيوية والأخروية ، فقال ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق ﴾ والظاهر أنه عام في جميع موارده ومصادره دنيوية وأخروية ، والصدق هنا لفظ يقتضي رفع المذام واستيعاب المدح كما تقول : رجل صدق إذ هو مقابل رجل سوء .

وقال ابن عباس والحسن وقتادة : هو إدخال خاص وهو في المدينة ، وإخراج خاص وهو من مكة .

فيكون المقدم في الذكر هو المؤخر في الوقوع ، ومكان الواو هو الأهم فبدىء به .

وقال مجاهد وأبو صالح : ما معناه إدخاله فيما حمله من أعباء النبوة وأداء الشرع وإخراجه منه مؤدّياً لما كلفه من غير تفريط .

وقال الزمخشري : أدخلني القبر ﴿ مدخل صدق ﴾ إدخالاً مرضياً على طهارة وطيب من السيئات ، وأخرجني منه عند البعث إخراجاً مرضياً ملقى بالكرامة آمناً من السخط ، يدل عليه ذكره على ذكر البعث .

وقيل : إدخاله مكة ظاهراً عليها بالفتح ، وإخراجه منها آمناً من المشركين .

وقال محمد بن المنكدر : إدخاله الغار وإخراجه منه سالماً .

وقيل : الإخراج من المدينة والإدخال مكة بالفتح .

(69/462)

وقيل : الإدخال في الصلاة والإخراج منها .

وقيل : الإدخال في الجنة والإخراج من مكة .

وقيل : الإدخال فيما أمر به والإخراج مما نهاه عنه .

وقيل : ﴿ أدخلني ﴾ في بحار دلائل التوحيد والتنزيه ، ﴿ وأخرجني ﴾ من الاشتغال بالدليل إلى معرفة المدلول والتأمل في آثار محدثاته إلى الاستغراق في معرفة الأحد الفرد .

وقال أبو سهل : حين رجع من تبوك وقد قال المنافقون : ﴿ ليخرجنّ الأعز منها الأذل ﴾ يعني إدخال عز وإخراج نصر إلى مكة ، والأحسن في هذه الأقوال أن تكون على سبيل التمثيل لا التعيين ، ويكون اللفظ كما ذكرناه يتناول جميع الموارد والمصادر .

وقرأ الجمهور : ﴿ مدخل ﴾ و ﴿ مخرج ﴾ بضم ميمهما وهو جار قياساً على أفعل مصدر ، نحو أكرمته مكرماً أي إكراماً .

وقرأ قتادة وأبو حيوة وحميد وإبراهيم بن أبي عبلة بفتحهما .

وقال صاحب اللوامح : وهما مصدران من دخل وخرج لكنه جاء من معنى ﴿ أدخلني ﴾ ﴿ وأخرجني ﴾ المتقدمين دون لفظهما ومثلهما ﴿ أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ ويجوز أن يكونا اسم المكان وانتصابهما على الظرف ، وقال غيره : منصوبان مصدرين على تقدير فعل أي ﴿ أدخلني ﴾ فأدخل ﴿ مدخل صدق ﴾ ﴿ وأخرجني ﴾ فأخرج ﴿ مخرج صدق ﴾ .

والسلطان هنا قال الحسن : التسليط على الكافرين بالسيف ، وعلى المنافقين بإقامة الحدود .

وقال قتادة : ملكاً عزيزاً تنصرني به على كل من ناواني .

وقال مجاهد : حجة بينة .

وقيل : كتاباً يحوي الحدود والأحكام .

وقيل : فتح مكة .

وقيل : في كل عصر ﴿ سلطاناً ﴾ ينصرك دينك و﴿ نصيراً ﴾ مبالغة في ناصر .

وقيل : فعيل بمعنى مفعول ، أي منصوراً ، وهذه الأقوال كلها محتملة لقوله ﴿ سلطاناً نصيراً ﴾ وروي أنه تعالى وعده ذلك وأنجزه له في حياته وتممه بعد وفاته .

قال قتادة : و﴿ الحق ﴾ القرآن و﴿ الباطل ﴾ الشيطان .

وقال ابن جريج : الجهاد و﴿ الباطل ﴾ الشرك .

وقيل : الإيمان والكفر .

(70/462)

وقال مقاتل : جاءت عبادة الله وذهبت عبادة الشيطان ، وهذه الآية نزلت بمكة ثم إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يستشهد بها يوم فتح مكة وقت طعنه الأصنام وسقوطها لطعنه إياها بمخصرة حسبما ذكر في السير .

و﴿ زهوقاً ﴾ صفة مبالغة في اضمحلاله وعلم ثبوته في وقت مّا . انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(71/462)

وقال أبو السعود :

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾

نُصب على المصدرية أي سنّ الله تعالى سُنة وهي أن يُهلك كلَّ أمة أَخرجت رسولَهم من

بين أظهرهم ، فالسنة لله تعالى وإضافتُها إلى الرسل لأنها سُنّتْ لأجلهم على ما ينطِق به قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ أي تغيّرا .

﴿ أَقِمِ الصلاةِ لِدُلُوكِ الشمس ﴾

(72/462)

لزوالها كما ينبىء عنه قولُه عليه الصلاة والسلام : " أتاني جبريلُ عليه السلام لدُلوك الشمس حين زالت فصلّى بي الظهرَ " . واشتقاقُه من الدّلْك لأن من نظر إليها حينئذ يدُلك عينه ، وقيل : لغروبها من دلَكت الشمس أي غربت ، وقيل : أصلُ الدلوك الميلُ فينتظم كِلا المعنيين ، واللامُ للتأقيت مِثلُها في قولك : لثلاثٍ خلَوْن ﴿ إِلَى غَسَقِ الليل ﴾ إلى اجتماع ظلمتِه وهو وقتُ صلاةِ العِشاء ، وليس المرادُ إقامتَها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار بل إقامة كلِ صلاةٍ في وقتها الذي عُيّن لها ببيان جبريلَ عليه السلام ، كما أن أعدادَ ركعاتِ كل صلاةٍ موكولةٍ إلى بيانه عليه السلام ، ولعل الاكتفاءَ ببيان المبدأ والمنتهى في أوقات الصلواتِ من غير فصل بينها لما أن الإنسانَ فيما بين هذه الأوقاتِ على اليقظة فبعضُها متصلٌ ببعض بخلاف أول وقتِ العشاءِ والفجرِ ، فإنه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ينقطع أحدُهما عن الآخر ولذلك فُصل وقتُ الفجر عن سائر الأوقات ، وقيل : المرادُ

بالصلاة صلاةُ المغرب ، والتحديدُ المذكور بيانٌ لمبدئه ومنتهاه واستُدِل به على امتداد وقتِه إلى غروب الشفق ، وقوله تعالى : ﴿ وَقُرْءَانَ الفجر ﴾ أي صلاةَ الفجر نُصب عطفاً على مفعول أقم أو على الإغراء قاله الزجّاج ، وإنما سُمّيت قرآناً لأن ركنُها كما تُسمّى ركوعاً وسجوداً واستُدل به على الركنية ، ولكن لا دِلالةَ له على ذلك لجواز كونِ مدارِ التجوز كونَ القراءة مندوبةً فيها . نعم لو فُسّر بالقراءة في صلاة الفجر لدل الأمرُ بإقامتها على الوجوب فيها نصاً وفيما عداها دِلالةً ، ويجوز أن يكون (وقرآنَ الفجر) حثّاً على تطويل القراءةِ في صلاة الفجر ﴿ إِنَّ قُرْءَانَ الفجر ﴾ أظهر في مقام الإضمارِ إبانةً لمزيد الاهتمامِ به ﴿ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ يشهده ملائكةُ الليل وملائكةُ النهار أو شواهدُ القدرة من تبدّل الضياء بالظلمة والانتباهِ بالنوم الذي هو

(73/462)

أخو الموتِ ، أو يشهده كثيرٌ من المصلين أو من حقه أن يشهَده الجمُّ الغفيرُ فالآيةُ على تفسير الدُّلوك بالزوال جامعةٌ للصلوات الخمس ، وعلى تفسيره بالغروب لِما عدا الظهرَ والعصر .

﴿ وَمِنَ الليل ﴾ قيل : هو نصبٌ على الإغراء أي الزمْ بعضَ الليل ، وقيل : لا يكون المغرى به حرفاً ولا يجدي نفعاً كونُ معناها التبعيضَ ، فإن واو مع ليست اسماً بالإجماعِ وإن كانت

بمعنى الاسمِ الصريحِ بل هو منصوبٌ على الظرفية بمضمر أي قم بعضَ الليل ﴿ فَتَهَجَّدْ بِهِ ﴾ أي أزِلْ وألقِ الهجودَ أي النوم فإن صيغةَ التفعّل تجيء للإزالة كالتحرّج والتحنّث والتأثّم ونظائرِها ، والضميرُ المجرورُ للقرآن من حيث هو لا بقيد إضافتِه إلى الفجر أو البعضِ المفهوم من قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الليل ﴾ ، أي تهجد في ذلك البعضِ على أن الباء بمعنى في ، وقيل : منصوبٌ بتهجد أي تهجدْ بالقرآن بعضَ الليل على طريقة وإياي فارهبون ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ فريضةً زائدةً على الصلوات الخمسِ المفروضةِ خاصةً بك دون الأمة ولعله هو الوجهُ في تأخير ذكرِها عن ذكر صلاةِ الفجر مع تقدم وقتها على وقتها أو تطوعاً ، لكن لا لكونها زيادةً على الفرائض بل لكونها زيادةً له صلى الله عليه وسلم في الدرجات على ما قال مجاهد والسدي ، فإنه عليه السلام مغفورٌ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيكون تطوعُه زيادةً في درجاته بخلاف من عداه من الأمة فإن تطوعَهم لتكفير ذنوبهم وتدارُكِ الخللِ الواقعِ في فرائضهم ، وانتصابُها إما على المصدرية بتقدير تنفّلْ أو بجعل تهجدْ بمعناه أو بجعل نافلةً بمعنى تهجداً فإن ذلك عبادةٌ زائدةٌ ، وإما على الحالية من الضمير الراجعِ إلى القرآن أي حال كونَها صلاةً نافلة ، وإما على المفعولية لتهجّدْ إذا جُعل بمعنى صلِّ وجعل الضميرُ المجرور للبعض ، أي فصلِّ في ذلك البعضِ نافلةً لك .

﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ ﴾ الذي يبلّغك إلى كمالك اللائق بك من بعد الموت الأكبرِ كما انبعثْتَ من النوم الذي هو الموتُ الأصغرُ بالصلاة والعبادة ﴿ مَقَاماً ﴾ نُصب على الظرفية على إضمار فيقيمَك ، أو تضمين البعثِ معنى الإقامة إذ لا بد من أن يكون العاملُ في مثل هذا الظرفِ فعلاً فيه معنى الاستقرارِ ، ويجوز أن يكون حالاً بتقدير مضافٍ أي يبعثك ذا مَقام ﴿ مَّحْمُودًا ﴾ عندك وعند جميعِ الناس ، وفيه تهوينٌ لمشقة قيامِ الليل .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " المقامُ المحمودُ هو المقامُ الذي أشفع فيه لأمتي " وعن ابن عباس رضي الله عنهما : مقاماً يحمَدُك فيه الأولون والآخرون وتُشرف فيه على جميع الخلائق تسأل فتعطى وتشفع فتُشفَّع ليس أحدٌ إلا تحت لوائك . وعن حذيفةَ رضي الله عنه : "يُجْمَعُ الناسُ في صَعيدٍ واحد فلا تكلم فيه نفسٌ ، فأَوَّلُ مَدْعُوٍ محمدٌ صلى الله عليه وسلم فيقولُ : " لبّيكَ وسَعْدَيْكَ والشرُّ ليسَ إليكَ والمَهْديُّ من هَدَيْتَ وعبدُكَ بين يديك وبك وإليك لا ملجأ ولا منجا منكَ إلا إليكَ تباركتَ وتعاليتَ سبحانك ربَّ البيت " .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى ﴾

أي القبرَ ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ أي إدخالاً مرضياً ﴿ وَأَخْرِجْنِى ﴾ أي منه عند البعثِ ﴿ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ أي إخراجاً مَرْضياً مَلْقيًّا بالكرامة ، فهو تلقينٌ للدعاء بما وعده من البعث المقرونِ بالإقامة المعهودةِ التي لا كرامةَ فوقها ، وقيل : المرادُ إدخالُ المدينةِ والإخراجُ من مكةَ ، وتغييرُ ترتيبِ الوجودِ لكون الإدخالِ هو المقصدُ ، وقيل : إدخالُه عليه السلام مكةَ ظاهراً عليها وإخراجُه منها آمناً من المشركين ، وقيل : إدخالُه الغارَ وإخراجُه منه سالماً ، وقيل : إدخالُه فيما حمله من أعباء الرسالةِ وإخراجُه منه مؤدياً حقَّه ، وقيل : إدخالُه في كل ما يلابسه من مكان أو أمرٍ وإخراجُه منه ، وقرىء مَدخل ومَخرج بالفتح على معنى أدخلني فأدخُلَ دخولاً وأخرجني فأخرُجَ خروجاً كقوله

وعضةُ دهرٍ يا ابنَ مروانَ لم تدعَ . . . من المال إلا مُسحَتٌ أو مجلّفُ

(76/462)

أي لم تدعَ فلم يبْقَ ﴿ واجعل لّى مِن لَّدُنْكَ سلطانا نَّصِيرًا ﴾ حجةً تنصُرني على من يخالفني أو مُلكاً وعزاً ناصراً للإسلام مظهراً له على الكفر ، فأجيبت دعوتُه عليه السلام بقوله عز وعلا : ﴿ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ ﴿ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ المفلحون ﴾ ﴿

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأرض ﴾ ﴿ وَقُلْ جَاء الحق ﴾ أي الإسلامُ والوحيُ الثابتُ الراسخ ﴿ وَزَهَقَ الباطل ﴾ أي ذهب وهلك الشركُ والكفرُ وتسويلاتُ الشيطان ، من زهَق روحُه إذا خرج ﴿ إِنَّ الباطل ﴾ كائناً ما كان ﴿ كَانَ زَهُوقًا ﴾ أي شأنُه أن يكون مضمحلاً غيرَ ثابتٍ وهو عِدةٌ كريمة بإجابة الدعاءِ بالسلطان النصيرِ الذي لُقّنه . عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه عليه السلام دخل مكةَ يوم الفتح وحول البيت ثلاثُمائةٍ وستون صنماً فجعل ينكُت بمِخْصَرة كانت بيده في أعينها واحداً واحداً ويقول : جاء الحقُ وزهق الباطلُ فينكبّ لوجهه حتى أَلْقى جميعَها ، وبقيَ صنمُ خُزاعةَ فوق الكعبة وكان من صُفْر فقال : " يا عليُّ ارمِ به " فصعِد فرمى به فكسره . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(77/462)

وقال الآلوسى :

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾

نصب على المصدرية أي سننا سنة من الخ وهي أن لا ندع أمة تستفز رسولها لتخرجه من بين ظهرانيها تلبث بعده إلا قليلاً فالسنة لله عز وجل وأضيفت للرسل عليهم السلام لأنها

سنت لأجلهم ، ويدل على ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ حيث أضاف السنة إليه تعالى ، وقال الفراء : انتصب ﴿ سَنَةٍ ﴾ على إسقاط الخافض أي كسنة فلا يوقف على قوله تعالى ﴿ قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : 76] فالمراد تشبيه حاله صلى الله عليه وسلم بحال من قبله لا تشبيه الفرد بفرد من ذلك النوع ؛ وجوز أبو البقاء أن يكون مفعولاً به لفعل محذوف أي اتبع سنة الخ كما قال سبحانه : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] والأنسب بما قبل ما قبل ، وكأنه اعتبر الأوامر بعد وهو خلاف ما عليه عامة المفسرين ، والتحويل التغيير أي لا تجد لما أجرينا به العادة تغييراً أي لا يغيره أحد .

والمراد من نفي الوجدان هنا وفيما أشبهه نفي الوجود ودليل نفي وجود من يغير عادة الله تعالى أظهر من الشمس في رابعة النهار ، وللإمام كلام في هذا المقام لا يخلو عن بحث ، ثم إنه تعالى بعد أن ذكر كيد الكفار وسلى نبيه عليه الصلاة والسلام بما سلى أمره أن يقبل على شأنه من عبادة ربه تعالى شأنه ووعده بما يغبطه عليه كل الخلق ويتضمن ذلك إرشاده إلى أن لا يشغل قلبه بهم أو أنه سبحانه بعد أن قدم القول في الإلهيات والمعاد والنبوات أمر بأشرف العبادات بعد الإيمان وهي الصلاة فقال جل وعلا .

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾

أي المفروضة ﴿ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ أي لزوالها عن دائرة نصف النهار وهو المروى عن عمر بن الخطاب .

وابنه .

وابن عباس في رواية .

وأنس .

وأبي برزة الأسلمي .

والحسن .

والشعبي .

وعطاء .

ومجاهد ، ورواه الإمامية عن أبي جعفر .

وأبي عبد الله رضي الله تعالى عنهما وخلق آخرين ، وأخرج ابن جرير .

(78/462)

وإسحاق بن راهويه في مسنده .

وابن مردويه في تفسيره .

والبيهقي في المعرفة عن أبي مسعود عقبة بن عامر قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاني جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر " وقيل لغروبها

وهو المروى عندنا عن علي كرم الله تعالى وجهه ، وأخرجه ابن مردويه .

والطبراني .

والحاكم وصححه .

وغيرهم عن ابن مسعود ، وابن المنذر .

وغيره عن ابن مسعود ، وروي عن زيد بن أسلم .

والنخعي .

والضحاك .

و

مصابيح ليست باللواتي يقودها . . .

نجوم ولا بالأفلاك الدوالك

وأصل مادة د ل ك تدل على الانتقال ففي الزوال انتقال من دائرة نصف النهار إلى ما يليها وفي الغروب انتقال من دائرة الأفق إلى ما تحتها وكذا في الدلك المعروف انتقال اليد من محل إلى آخر بل كل ما أوله دال ولام مع قطع النظر عن آخره يدل على ذلك كدلج بالجيم من الدلجة وهي سير الليل وكذا دلج بالدلو إذا مشى بها من رأس البئر للمصب ودلح بالحاء المهملة إذا مشى مشياً متثاقلاً ولد بالعين المهملة إذا أخرج لسانه .

ودلف بالفاء إذا مشى مشية المقيد وبالقاف إذا أخرج المائع من مقره ووله إذا ذهب عقله وفيه انتقال معنوي إلى غير ذلك ، وهذا المعنى يشمل كلا المعنيين السابقين وإن قيل إن الانتقال في الغروب أتم لأنه انتقال معنوي إلى غير ذلك ، وهذا المعنى يشمل كلا المعنيين السابقين وإن قيل إن الانتقال في الغروب أتم لأنه انتقال من مكان إلى مكان ومن ظهور إلى خفاء وليس في الزوال إلا الأول ، وقيل إن الدلوك مصدر مزيد مأخوذ من المصدر المجرد أعني الدلك المعروف وهو أظهر في الزوال لأن من نظر إلى الشمس حينئذٍ يدلك عينه ويكون على هذا في دلوك الشمس تجوز عن دلوك ناظرها ، وقد يستأنس في ترجيح القول الأول مع ما سبق بأن أول صلاة صلاها النبي صلى الله عليه وسلم نهار ليلة الإسراء الظهر ، وقد صح أن جبريل عليه السلام ابتدأ بها حين علم النبي عليه الصلاة والسلام كيفية الصلاة في يومين ، وقال المبرد : دلوك الشمس من لدن زوالها إلى غروبها فالأمر بإقامة الصلاة لدلوكها أمر بصلاتين الظهر والعصر ، وعلى القولين الآخرين أمر بصلاة واحدة الظهر أو العصر ، واللام للتأقيت متعلقة بأقم وهي بمعنى بعد كما في قول متمم بن نويرة يرثي أخاه :

فلما تفرقنا كأني ومالكا . . .

لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً

ومنه كتبته لثلاث خلون من شهر كذا وتكون بمعنى عند أيضاً ، وقال الواحدي : هي

للتعليل لأن دخول الوقت سبب لوجوب الصلاة ﴿ أَقِمِ الصلاةَ لِدُلُوكِ ﴾ أي إلى شدة ظلمته كما قال الراغب وغيره وهو وقت العشاء .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني ما الغسق ؟ فقال : دخول الليل بظلمته وأنشد قول زهير بن أبي سلمى :

ظلت تجود يداها وهي لاهية . . .

حتى إذا جنح الإظلام والغسق

وقال النضر بن شميل : غسق الليل دخول أوله ، قال الشاعر :

إن هذا الليل قد غسقا . . .

واشتكيت الهم والأرقا

وهو عنده وقت المغرب ، وروي ذلك عن مجاهد ، وأصله من السيلان يقال غسقت العين تغسق إذا هملت بالماء كان الظلمة تنصب على العالم ، وقيل : المراد من غسق الليل ما يعم وقتي المغرب والعشاء وهو ممتد إلى الفجر كما أن المراد بدلوك الشمس ما يعم وقتي الظهر والعصر ففي الآية بدخول الغاية تحت المغيا وبضم ما بعد إشارة إلى أوقات الصلوات

الخمس ، واختاره جماعة من الشيعة واستدلوا بها على أن وقت الظهر موسع إلى غروب الشمس ووقت المغرب موسع إلى انتصاف الليل وهي أحد أدلة الجمع في الحضر بلا عذر الذي ذهبوا إليه وأيدوا ذلك بما رواه العياشي بإسناده عن عبيدة ، وزرارة عن أبي عبد الله أنه قال في هذه الآية : إن الله تعالى افترض أربع صلوات أول وقتها من زوال الشمس إلى انتصاف الليل منها صلاتان أول وقتهما من عند زوال الشمس إلى غروبها إلا أن هذه قبل هذه ومنها صلاتان أول وقتهما غروب الشمس إلى انتصاف الليل ألا إن هذه قبل هذه وهو مرتضى المرتضى في أوقات الصلاة ، والمعتمد عليه عند جمهور المفسرين أن دلوك الشمس وقت الظهر وغسق الليل وقت العشاء كما ينبىء عنه إقحام الغسق وعدم الاكتفاء بإلى الليل ، والجار والمجرور متعلق بأقم ، وأجاز أبو البقاء تعلقه بمحذوف وقع حالاً من الصلاة أي ممدودة إلى الليل والأول أولى وليس المراد بإقامة الصلاة فيما بين هذين الوقتين على وجه الاستمرار بل إقامة كل صلاة في وقتها الذي عين لها ببيان جبريل عليه السلام الثابت في الروايات الصحيحة التي لم يروها من شهد أحد من الأئمة الطاهرين بزندقتهم ونجاسة بواطنهم كما أن إعداد ركعات كل صلاة موكولة إلى بيانه عليه الصلاة والسلام ، ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى في أوقات الصلاة من غير فصل بينها لما أن الإنسان فيما بين هذه الأوقات على اليقظة فبعضها متصل ببعض بخلاف وقت العشاء والفجر فإنه باشتغاله فيما بينهما بالنوم عادة ينقطع أحدهما عن الآخر ولذلك فصل وقت الفجر

(81/462)

عن سائر الأوقات ، ثم إن المستدل من الشيعة بالآية لا يتم له الاستدلال بها على جواز الجمع بين صلاتي الظهر .

والعصر ، وبين صلاتي المغرب والعشاء ما لم يضم إلى ذلك شيئًا ً من الأخبار ف ءنها إذا لم يضم إليها ذلك أولى بأن يستدل بها على جواز الجمع بين الأربعة جميعها لا بين الاثنتين والاثنتين ولا يخفى ما في الاستدلال بها على هذا المطلب ولذا لم يرتضه أبو جعفر منهم ، نعم ما ذهبوا إليه مما يؤيده ظواهر بعض الأحاديث الصحيحة كحديث ابن عباس وهو في "صحيح مسلم" صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر جمعاً ً بالمدينة ، وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم صلى ثمانيا ً جميعا ً وسبعا ً جميعا ً من غير خوف ولا سفر .

(82/462)

واختلف في تأويله فمنهم من أوله بأنه جمع بعذر المطر والجمع بسبب ذلك تقديما ً وتأخيرا ً مذهب الشافعي في القديم وتقديما ً فقط في الجديد بالشرط المذكور في كتبهم ، وخص

مالك جواز الجمع بالمطر في المغرب والعشاء ، وهذا التأويل مشهور عن جماعة من الكبار المتقدمين وهو ضعيف لما في "صحيح مسلم" عنه أيضاً جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالمدينة في غير خوف ولا مطر ، وكون المراد ولا مطر كثير لا يرتضيه ذو إنصاف قليل والشذوذ غير مسلم ، ومنهم من أوله بأنه كان في غيم فصلى صلى الله عليه وسلم الظهر ثم انكشف الغيم وبان أن أول وقت العصر دخل فصلاها ، وفيه أنه وإن كان فيه أدنى احتمال في الظهر والعصر إلا أنه لا احتمال في المغرب والعشاء ، ومنهم من أوله بأنه عليه الصلاة والسلام أخر الأولى إلى آخر وقتها فصلاها فيه فلما فرغ منها دخل وقت الثانية فصلاها فصارت الصورة صورة جمع ، وفيه أنه مخالف للظاهر مخالفة لا تحتمل ، ويرده أيضاً ما صح عن عبد الله بن شقيق قال : خطبنا ابن عباس يوماً بعد العصر حتى غربت الشمس وبدت النجوم وجعل الناس يقولون : الصلاة الصلاة فجاء رجل من بني تميم فجعل لا يفتر ولا ينثني الصلاة الصلاة فقال ابن عباس : أتعلمني بالسنة لا أم لك رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء قال عبد الله بن شقيق : فحاك في صدري من ذلك شيء فأتيت أبا هريرة فسألته فصدق مقالته ، ومنهم من قال : هو محمول على الجمع بعذر المرض أو نحوه مما هو في معناه من الأعذار وهذا قول الإمام أحمد .

والقاضي حسين من الشافعية ، واختاره منهم الخطابي .

والمتولي.

والروياني.

وقال النووي: هو المختار في التأويل.

ومذهب جماعة من الأئمة جواز الجمع في الحضر للحاجة لمن لا يتخذه عادة وهو قول ابن سيرين.

وأشهب من أصحاب مالك.

(83/462)

وحكاه الخطابي عن القفال الشاشي الكبير من أصحاب الإمام الشافعي، وعن أبي إسحاق المروزي، وعن جماعة من أصحاب الحديث واختاره ابن المنذر.

ويؤيده ظاهر ما صح عن ابن عباس.

ورواه مسلم أيضاً أنه لما قال: جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالمدينة في غير خوف ولا مطر قيل له: لم فعل ذلك؟ فقال: أراد أن لا يحرج أحداً من أمته وهو من الحرج بمعنى المشقة فلم يعلله بمرض ولا غيره، ويعلم مما ذكرنا أن قول الترمذي في آخر كتابه ليس في كتابي حديث أجمعت الأمة على ترك العمل به إلا

حديث ابن عباس في الجمع بالمدينة من غير خوف ولا مطر وحديث قتل شارب الخمر في المرة الرابعة ناشىء من عدم التتبع ، نعم ما قاله في الحديث الثاني صحيح فقد صرحوا بأنه حديث منسوخ دل الإجماع على نسخه .

وقال ابن الهمام : إن حديث ابن عباس معارض بما في مسلم من حديث ليلة التعريس أنه صلى الله عليه وسلم قال : " ليس في النوم تفريط إنما التفريط في اليقظة أن يؤخر الصلاة حتى يدخل وقت صلاة أخرى " وللبحث في ذلك مجال .

ومذهب الإمام أبي حنيفة عدم جواز جمع صلاتي الظهر والعصر في وقت إحداهما والمغرب والعشاء كذلك مطلقاً إلا بعرفات فيجمع فيها بين الظهر والعصر بسبب النسك وإلا بمزدلفة فيجمع فيها بين المغرب والعشاء بسبب ذلك أيضاً واستدل بما استدل .

(84/462)

وفي "الصحيحين" وسنن أبي داود وغيره ما لا يساعده على التخصيص ، وأنت تعلم أن الاحتياط فيما ذهب إليه الإمام رضي الله تعالى عنه فالمحتاط لا يخرج صلاة الظهر مثلاً عن وقتها المتيقن الذي لا خلاف فيه إلى وقت فيه خلاف ، وقد صرح غير واحد بأنه إذا وقع التعارض يقدم الأحوط وتعارض الأخبار في هذا الفصل مما لا يخفى على المتتبع ، هذا

وزعم بعضهم أن المراد بالصلاة المأمور بإقامتها صلاة المغرب والتحديد المذكور بيان لمبدأ وقتها ومنتهاه على أن الغاية خارجة واستدل به على امتداده إلى غروب الشفق وهو خلاف ما ذهب إليه الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه في الجديد من أنه ينقضي بمضي قدر زمن وضوء وغسل وتيمم ، وطلب خفيف وإزالة خبث مغلظ يعم البدن والثوب والمحل وستر عورة واجتهاد في القبلة وأذان وإقامة وألحق بهما سائر سنن الصلاة المتقدمة كتعمم وتقمص ومشي لمحل الجماعة وأكل جائع حتى يشبع وسبع ركعات ولعل الزمان الذي يسع كل هذا يزيد على زمن ما بين غروب الشمس وغروب الشفق أي شفق كان في أكثر الاعراض ، ثم لا يخفى أنه إذا كان المراد من غسق الليل وقت العشاء وفسر الغسق باجتماع الظلمة وشدتها كان ذلك مؤيداً لما في ظاهر الرواية عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه من أن أول وقت العشاء حين يغيب الشفق وهو اللغة الحمرة المعلومة لأن تفسيره بالبياض قد جاء أيضاً ، وروي ذلك عن أبي بكر الصديق .

وعمر .

ومعاذ بن جبل .

وعائشة رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، ورواه عبد الرازق عن أبي هريرة وعن عمر بن عبد العزيز ، وبه قال الأوزاعي .

والمزني .

وابن المنذر .

والخطابي ، واختاره المبرد : وثعلب ، وما رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أول وقت العشاء حين يغيب الأفق " ظاهر في كون الشفق البياض إذ لا غيبوبة للأفق إلا بسقوطه ؛ نعم ذهب صاحباه إلى أنه الحمرة وهو قول ابن عباس .

(85/462)

وابن عمر رضي الله تعالى عنهم ، ورواه أسد بن عمرو عن الإمام أيضاً لكنه خلاف ظاهر الرواية عنه ، والصحيح المفتي به عندنا ما جاء في ظاهر الرواية ، وقد نص على ذلك المحقق ابن الهمام .

والعلامة قاسم .

وابن نجيم .

وغيرهما ، وما قاله الإمام أبو المفاخر من أن الإمام رجع إلى قولهما وقال إنه الحمرة لما ثبت عنده من حمل عامة الصحابة إياه على ذلك وعليه الفتوى وتبعه المحبوبي وصدر الشريعة ليس بشيء لأن الرجوع لم يثبت ودون إثباته مع نقل الكافة عن الكافة خلافه خرط القتاد ،

وكذا دعوى حمل عامة الصحابة خلاف المنقول كما سمعت حتى أن البيهقي لم يرو أن الشفق الحمرة إلا عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما .

وما رواه الدارقطني عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الشفق الحمرة فإذا غاب وجبت الصلاة " قال البيهقي .

والنووي فيه الصحيح أنه موقوف على ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ومثل هذا الاختلاف الاختلاف في أول وقت الصحيح أنه موقوف على ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ومثل هذا الاختلاف الاختلاف في أول وقت العصر فقال الإمام : هو إذا صار ظل كل شيء مثليه بعد ظل الزوال وقالا : إذا صار ظل كل شيء مثله بعد ظل الزوال ، وفتوى المحققين على قوله رحمة الله تعالى عليه بل قال ابن نجيم : إن الإفتاء بغيره لا يجوز وقد أطال الكلام في ذلك في رسالته رفع الغشاء عن وقتي العصر والعشاء ﴿ أَقِمِ الصلاة ﴾ عطف على مفعول ﴿ أَقِمِ ﴾ أو نصب على الإغراء كما قال الزجاج.

وأبو البقاء والجمهور على الأول ، والمراد بقرآن الفجر صلاته كما روي عن ابن عباس . ومجاهد ، وسميت قرآناً أي قراءة لأنها ركنها كما سميت ركوعاً وسجوداً وهذه حجة على ابن علية .

والأصم في زعمهما أن القراءة ليست بركن في الصلاة قاله في "الكشاف" .

ورد بأن ذلك لا يدل على الركنية لجواز كون مدار التجوز كون القراءة مندوبة فيها .

(86/462)

وفي "الكشف" أنه مدفوع بأن العلاقة المعتبرة في إطلاق غير الصلاة وإرادة الصلاة هي علاقة الكل والجزء بدليل النظائر وههنا إذ ورد تجوزاً فحمله على معلوم النظير من الاستقراء واجب على أن الندبية قولاً بقراءة الفاتحة بل بالتكبير الواجب بالاتفاق وفعلاً أيضاً بالركوع والسجود مثلاً الدالين على كمال التعظيم والتبجيل فهو الركن كله لا لأن التسبيح بمعنى قول سبحان الله ليقال تجوز عن الصلاة بما هو مندوب فيها .

وتعقب بأن الاكتفاء بعلاقة الندبية التي يقول بها الأصم .

وابن علية لا تكلف فيه فإن القرآن جزء من الصلاة الكاملة فيكون ذلك كالنظائر بلا ضرر ولا ضير ، وبأن مذهبهما في التكبير غير معلوم فدعوى الاتفاق غير مسلمة منه ولو كان كما ذكره لكان الوجوب كافياً في علاقة أخرى وهي اللزوم .

(87/462)

وفيه بحث ، وأبقى الجصاص القرآن على حقيقته وقال : في الآية دلالة على وجوب القراءة في صلاة الفجر لأن التقدير فيها وأقم قرآن الفجر والأمر للوجوب ولا قراءة في ذلك الوقت واجبة إلا في الصلاة وزعم أن كون المعنى صلوا الفجر غلط من وجهين الأول أنه صرف عن الحقيقة بغير دليل ، والثاني أن ﴿ فَتَهَجَّدْ بِهِ ﴾ [الإسراء : 79] فيما بعد يأباه إذ لا معنى للتهجد بصلاة الفجر ، وفيه أن الدليل قائم وهو ﴿ أَقِمِ ﴾ لاشتهار ﴿ أَقِمِ الصلاة ﴾ دون أقم القراءة وضمير ﴿ بِهِ ﴾ فيما بعد يجوز أن يرجع إلى القرآن بمعناه الحقيقي استخداماً وهو أكثر من أن يحصى ثم متى دلت الآية على وجوب القراءة في صلاة الفجر نصاً كان ثبوت وجوبها في غيرها من الصلاة قياساً ، وذكر بعضهم أن في التعبير عن صلاة الفجر بخصوصها بما ذكر إشارة إلى أنه يطلب فيها من تطويل القراءة ما لم يطلب في غيرها وهو حسن ، وقال الإمام : إن في الآية دلالة على أنه يسن التغليس في صلاة الفجر لأنه أضيف فيها القرآن إلى الفجر على معنى أقم قرءن الفجر والأمر للوجوب والفجر أول طلوع الصبح لانفجار ظلمة الليل عن نور الصباح حينئذٍ ولذلك سمي الفجر فجراً فيقتضي ذلك وجوب إقامة صلاة الفجر أول الطلوع وحيث أجمع على عدم وجوب ذلك بقي الندب لأن الوجوب عبارة عن رجحان مانع الترك فإذا منع مانع من تحقق الوجوب كالإجماع هنا وجب أن يرتفع المنع من الترك وأن يبقى أصل الرجحان حتى تقل مخالفة الدليل .

وأنت تعلم ما للعلماء من الخلاف في الباقي بعد رفع الوجوب ، وما ذكر قول في المسألة لكنه

لا يفيد المطلوب لأن صلاة الفجر اسم للصلاة المخصوصة سواء وقعت بغلس أم أسفار ، والأخبار الصحيحة تدل على سنية الأسفار بها كخبر الترمذي وهو كما قال : حسن صحيح

(88/462)

" أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر " وحمله على تبين الفجر حتى لا يكون شك في طلوعه ليس بشيء إذ ما لم يتبين لا يحكم بجواز الصلاة فضلاً عن إصابة الأجر المفاد بآخر الخبر ولو حمل أعظم فيه على عظيم ورد أن المناسب في التعليل فإنه لا تصح الصلاة بدونه على أنه على ما فيه ينفيه رواية الطحاوي أسفروا بالفجر فكلما أسفرتم فهو أعظم الأجر أو لأجوركم أو كما قال ، وروي بسنده الصحيح عن إبراهيم قال : ما اجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على شيء ما اجتمعوا على التنوير ، ومحال نظراً إلى علو شأنهم أن يجتمعوا على خلاف ما فارقهم عليه حبيبهم رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وفي "الصحيحين" عن ابن مسعود وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى صلاة لميقاتها إلا صلاتين صلاة المغرب والعشاء بجمع وصلى الفجر يومئذٍ قبل ميقاتها مع أنه كان بعد الفجر كما يفيده لفظ البخاري فيكون المراد قبل ميقاتها الذي اعتاد الأداء فيه ،

والظاهر أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يعتاد التغليس إلا أنه فعله يومئذٍ ليمتد الوقوف.

ونحن نقول بسنيته بفجر جمع لهذا الحديث.

وخبر عائشة رضي الله تعالى عنها "كان صلى الله عليه وسلم يصلي الصبح بغلس فتشهد معه نساء ملتفعات بمروطهن ثم يرجعن إلى بيوتهن ما يعرفهن أحد من الغلس" حمل الغلس فيه بعض أصحابنا على غلس داخل المسجد، ويأباه قولها: ثم يرجعن إلى بيوتهن ما يعرفهن أحد من الغلس إذ لا يمكن حمل هذا الغلس المانع من معرفتهن في طريق رجوعهن إلى بيوتهن على غلس داخل المسجد، وكون المراد ما يعرفهن أحد في داخل المسجد من الغلس خلاف الظاهر على تقدير جعل الجملة حالاً من ضمير يرجعن.

(89/462)

والظاهر ما أشرنا إليه، وكذا جعل الجملة حالاً من نساء أو صفة لها كأنه قيل فتشهد معه نساء ملتفعات بمروطهن ما يعرفهن أحد من الغلس ثم يرجعن إلى بيوتهن، وقيل كان ذلك في يوم غيم، ويبعده كان فإنها شائعة الاستعمال فيما كان يداوم عليه عليه الصلاة والسلام، وقيل هو منسوخ كما يدل عليه اجتماع الصحابة على التنوير، ويبعد ذلك أن النسخ يقتضي سابقية وجود المنسوخ، وقول ابن مسعود: ما رأيت الخ يفيد أن لا سابقية له.

وقال بعضهم : ترجح في الأخبار المتعارضة هنا رواية الرجال خصوصاً مثل ابن مسعود فإن الحال أكشف لهم في صلاة الجماعة فتأمل .

وذكر الطحاوي أن الذي ينبغي الدخول في الفجر وقت التغليس والخروج وقت الأسفار ، وهو قول الإمام أبي حنيفة وصاحبيه وهو خلاف ما يذكره الأصحاب عنهم من البدء والختم في الأسفار وهو الذي يفيده حديث الترمذي وغيره والله تعالى أعلم ، ثم إن صلاة الفجر وإن كانت إحدى الصلوات الخمس التي فرضت ليلة الإسراء عليه صلى الله عليه وسلم وعلى أمته ودلت هذه الآية على وجوب إقامتها كذلك إلا أنه عليه الصلاة والسلام لم يصلها صبح تلك الليلة لعدم العلم بكيفيتها حينئذٍ وإنما علم الكيفية بعد .

وقد قدمنا قريباً أن البداءة وقعت في صلاة الظهر إشارة إلى أن دينه عليه الصلاة والسلام سيظهر على الأديان ظهورها على بقية الصلوات ، ونوه سبحانه هنا بشأن صلاة الفجر بقوله عز وجل :

﴿ إِنَّ قُرْءانَ الفجر ﴾ حيث لم يقل سبحانه إنه ﴿ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ أخرج أحمد .

والنسائي .

وابن ماجه .

والترمذي .

والحاكم وصححاه وجماعة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في تفسير ذلك : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ، وفي الصحيحين عنه رضي الله عنه أنه قال : " قال النبي صلى الله عليه وسلم تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ثم قال أبو هريرة : "اقرأوا إن شئتم ﴿ أَقِمِ الصلاةِ لِدُلُوكِ قُرْءانَ الفجر كَانَ مَشْهُودًا ﴾ " .

والمراد بهؤلاء الملائكة الكتبة والحفظة فتنزل ملائكة النهار وتصعد ملائكة الليل وتلتقي الطائفتان في ذلك الوقت ، وكذا تلتقي الطائفتان وأمر النزول والصعود على العكس وقت العصر كما جاء في الآثار ، وهذا مما يعكر على الإمام في زعمه أن هذا أيضاً دليل قوي على أن التغليس أفضل من التنوير لأن الإنسان إذا شرع في الصلاة من أول الصبح يكون ملائكة الليل حاضرين لبقاء الظلمة فإذا امتدت الصلاة بسبب ترتيب القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضر ملائكة النهار فإنه يلزمه على هذا البيان الذي لا يروج إلا على الصبيان القول بأن تأخير صلاة العصر إلى أن يزول الضوء وتظهر الظلمة وهو لا يقول به بل لا يقول به أحد .

وهل الطائفة التي تشهد اليوم مثلاً تشهد غداً أو كل يوم تشهد طائفة أخرى لم تشهد قبل ولا تشهد بعد فيه خلاف ، وسيأتي الكلام إن شاء الله تعالى فيما يتعلق بذلك .

وقيل يشهد الكثير من المصلين في العادة ، وقيل من حقه أن تشهده الجماعة الكثيرة ، وقيل تشهده وتحضر فيه شواهد القدرة من تبدل الضياء بالظلمة والانتباه بالنوم الذي هو أخو الموت ، وهو احتمال أبداه الإمام وبسط الكلام فيه ، ثم قال : وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قُرْءانَ الفجر كَانَ مَشْهُودًا ﴾ ثم ذكر احتمال كون المراد مشهوداً بالجماعة الكثيرة وبسط الكلام أيضاً في تحقيقه ، وأنت تعلم أنه لا وجه للحصر المدلول عليه بقوله : وهذا هو المراد ثم إبداء ذلك الاحتمال على أنه بعدما صح تفسير النبي صلى الله عليه وسلم له بما سمعت لا ينبغي أن يقال في غيره هذا هو المراد ، ولا يخفى ما في هذه الجملة من الترغيب والحث على الاعتناء بأمر صلاة الفجر لأن العبد في ذلك الوقت مشيع كراماً ومتلقى كراماً فينبغي أن يكون على أحسن حال يتحدث به الراحل ويرتاح له النازل .

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79) ﴾

﴿ وَمِنَ الليل ﴾ قيل أي وعليك بعض الليل ، وظاهره أنه من باب الإغراء كما نقل عن الزجاج.

وأبي البقاء في قوله تعالى : ﴿ وقُرآنَ الفَجْرِ ﴾ [الإسراء : 78] وتعقبه أبو حيان بأن

المغرى به لا يكون حرفاً ، ولا يجدي نفعاً كون من للبعيض لأن ذلك لا يجعلها اسماً ألا ترى إجماع النحاة على أن واو مع حرف وان قدرت بمع .

وأجيب بأنه يحتمل أن يكون القائل بذلك قائلاً باسمية ﴿ مِنْ ﴾ في مثل ذلك كما قالوا باسمية الكاف في نحو ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : 5] وعن في نحو :

من عن يميني تارة وشمالي . . .

(92/462)

وعلى نحو من عليه ، وكذا القائل بأن ذلك نصب على الظرفية بمقدر أي وقم بعض الليل ، واختار الحوفي أن من متعلقة بفعل دل عليه معنى الكلام أي وأسهر من لليل فالفاء في قوله تعالى : ﴿ فَتَهَجَّدْ بِهِ ﴾ اما عاطفة على ذلك المقدر أو مفسرة بناء على أنه من أسلوب ﴿ وإياى فارهبون ﴾ [البقرة : 40] وفي الكشف أن الإغراء هو الظاهر ههنا بخلافه فيما تقدم لأن النصب على التفسير والصلاة مختلفة لا يتضح كل الاتضاح ، ومعنى الإغراء من السابق واللاحق تتعاضد الأدلة عليه ، وفيه منع ظاهر ، والتهجد على ما نقل عن الليث الاستيقاظ من النوم للصلاة ويطلق على نفس الصلاة بعد القيام من النوم ليلاً يقال : تهجد أي صلى في الليل بعد الاستيقاظ وكذا هجد وهذا يقتضي سابقية النوم في تحقق

التهجد فلو لم ينم وصلى ما شاء لا يقال له تهجد ، وهو المروى عن مجاهد .

والأسود .

وعلقمة .

وغيرهم ، وقال المبرد : هو السهر للصلاة أو لذكر الله تعالى ، وقيل : السهر للطاعة وظاهره عدم اشتراط سابقية النوم في تحققه ، والمشهور أن ذلك يسمى قياماً وما بعد النوم يسمى تهجداً ، وأغرب الحجاج بن عمرو المازني فانه روي عنه أنه قال : أيحسب أحدكم إذا قام من الليل فصلى حتى يصبح أنه قد تهجد إنما التهجد الصلاة بعد الرقاد ثم صلاة أخرى بعد رقدة ثم صلاة أخرى بعد رقدة هكذا كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأنا أقول : إن تخلل النوم بين الصلوات جاء في صحيح مسلم من رواية حصين عن حبيب بن أبي ثابت وهي مما استدركها الدارقطني على مسلم لاضطرابها فقد قال وروي عنه على سبعة أوجه وخالف فيه الجمهور يعني الخبر الذي فيه تخلل النوم ، والكثير من الروايات ليس فيه ذلك فليحفظ .

واشترط أن لا تكون الصلاة إحدى الخمس فلو نام عن العشاء قم قام فصلاها لا يسمى متهجداً ولا ضرر في كونها واجبة كأن نام عن الوتر ثم قام إليها ، وفي القاموس الهجود النوم كالتهجد وتهجد استيقظ كهجد ضد ، وقال ابن الأعرابي : هجد الرجل صلى من الليل وهجد نام بالليل ، وقال أبو عبيدة : الهاجد النائم والمصلى ، وفي مجمع البيان أنه يقال هجد ته إذا أنمته ، وعليه قول لبيد :

قلت هجدنا فقال طال السرى . . .

ونقل عن ابن برزخ أنه يقال : هجد ته إذا أيقظته ومصدر هذا التهجيد ، وصرح في القاموس بأنه من الأضداد أيضاً .

وذكر بعضهم أن المعروف في كلام العرب كون الهجود بمعنى النوم وفسر التهجد بترك الهجود أي النوم على أن التفعل للسلب كالتأثم والتحنث وهو مأخذ من فسره بالاستيقاظ ، ويجوز أن يقال : إن التفعل للتكلف أي تكلف الهجود بمعنى اليقظة ، ورجح هذا بأن مجيء التفعل للتكلف أكثر من مجيئه للسلب .

وعورض بأن استعمال الهجود في اليقظة مختلف في ثبوته وإن ثبت فهو أقل من استعماله في النوم ، والضمير المجرور في ﴿ بِهِ ﴾ للقرآن من حيث هو لا بقيد إضافته إلى الفجر ، واستدل بذلك على تطويل القراءة في صلاة التهجد ، وقد صرح العلماء بندب ذلك ، وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة "صليت وراء النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة

فافتتح البقرة فقلت يركع عند المائة ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعة فمضى فقلت يركع بها ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلاً إذا مر بآية تسبيح سبح" الخبر ويجوز أن يكون للبعض المفهوم من قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الليل ﴾ والباء للظرفية أي فتهجد في ذلك البعض .

(94/462)

وقال ابن عطية : هو عائدة على الوقت المقدر في النظم الكريم أي قم وقتاً من الليل فتهجد فيه ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة خاصة بك دون الأمة ، ولعله الوجه في تأخير ذكرها عن ذكر صلاة الفجر مع تقدم وقتها على وقتها ، واستدل به على أن ما أمر به صلى الله عليه وسلم فامته مأمورون به أيضاً إلا أن يدل دليل على الاختصاص كما هنا ويدل على أن المراد ما ذكر ما أخرجه ابن جرير .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في ذلك يعني خاصة للنبي صلى الله عليه وسلم أمر بقيام الليل وكتب عليه لكن صحح النون أنه نسخ عنه عليه الصلاة والسلام فرضية التهجد ونقله أبو حامد من الشافعية وقالوا انه الصحيح .

وقيل الخطاب في ﴿ لَكَ ﴾ له صلى الله عليه وسلم والمراد هو وأمته على حد الخطاب في ﴿ أَقِمِ الصلاة ﴾ [الإسراء : 78] فيما سبق أي فريضة زائدة على الصلوات الخمس لنفعكم ففيه دليل على فرضية التهجد عليه عليه الصلاة والسلام وعلى أمته لكن نسخ ذلك في حق الأمة وبقى في حقه عليه الصلاة والسلام بناء على ما أخرجه ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : نسخ قيام الليل إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم أو نسخ في حقه صلى الله عليه وسلم أيضاً بناء على الصحيح ، وهو خلاف الظاهر جداً ، ويجوز أن يراد بالنافلة الفضيلة إما لأنه عليه الصلاة والسلام فضل على أمته بوجوبها وان نسخ بعد أو لأنها فضيلة له صلى الله عليه وسلم وزيادة في درجاته وليست بالنسبة إليه مكفرة للذنوب وسادة للخلل الواقع في الفرائض كما أنها وسائر النوافل بالنسبة إلى الأمة كذلك لكونه عليه الصلاة والسلام قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وفرائضه وسائر تعبداته واقعة على الوجه الأكمل .

وقد أخرج هذا الأخير البيهقي في الدلائل .

وابن جرير .

وغيرهما عن جاهد ، وابن أبي حاتم عن قتادة ، وابن المنذر عن الحسن ، واستحسنه الإمام ، وضعفه الطبري ، وجوز ابن عطية عموم الخطاب كما سمعت آنفاً إلا أنه حمل نافلة على تطوعاً وليس بشيء أيضاً ، وربما يختلج في بعض الأذهان بناء على ما تقدم عن أبي البقاء في قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ [الإسراء : 77] من أنه بتقدير اتبع سنة كما قال سبحانه : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] احتمال أن يكون قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصلاة ﴾ [الإسراء : 78] الخ بياناً للاتباع المأمور به ، وهو متضمن للأمر بالصلوات الخمس ، وقد كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يصلونها على ما يدل قول جبريل عليه السلام في خبر تعليمه عليه الصلاة والسلام كيفية الصلاة بعد صلاته الخمس : هذا وقت الأنبياء من قبلك فإنه ظاهر في أنهم عليهم السلام كانوا يصلونها ، غاية ما في الباب أنه على القول بأنها لم تجتمع لغير نبينا صلى الله عليه وسلم وهو الصحيح يحتمل أن المراد أنه وقتهم على الإجمال وإن اختص من اختص منهم بوقت ، حيث ورد أن الصبح لآدم ، والظهر لداود ، وفي رواية لإبراهيم ، والعصر لسليمان ، وفي رواية ليونس ، والمغرب ليعقوب ، وفي رواية لعيسى ، والعشاء ليونس ، وفي رواية لموسى عليهم السلام إلا أن ذلك لا يضر بل هو أنسب بالأمر باتباع سنة جميعهم ، وقد استدل الإمام على أنه صلى الله عليه وسلم أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام بقوله تعالى : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] من جهة أنه عليه الصلاة والسلام أمر بالاقتداء بهدي جميعهم وامتثل ذلك فكان

عنده من الهدى ما عند الجميع فيكون أفضل من كل واحد منهم ، وحينئذ يقال معنى كون ذلك نافلة له عليه الصلاة والسلام أنه زائد على الصلوات الخمس خاص به صلى الله عليه وسلم دون سائر الأنبياء عليهم السلام المأمور باتباع سنتهم ، وهو مما لا ينبغي أن يلتفت

(96/462)

إليه ويعول عليه بل اللائق به أن يجعل من قبيل حديث النفس وتخيلها بحراً من مسك موجه الذهب فإن فساده تأصيلاً وتفريعاً مما لا يخفى على من له أدنى مسكة وأقل اطلاع ، والله تعالى العاصم من الزلل والحافظ من الخطأ والخطل ، وانتصاب ﴿ نَافِلَةً ﴾ إما على المصدرية بتقدير تنفل ؛ وقدر الحوفي نفلناك أو بجعل تهجد بمعنى تنفل أو بجعل نافلة بمعنى تهجداً ، فإن ذلك عبادة زائدة ، وإما على الحال من الضمير الراجع إلى القرآن أي حال كونه صلاة نافلة كما قال أبو البقاء ، وإما على المفعول لتجهد كما جوزه الحوفي إذا كان بمعنى صل ، وجعل الضمير المجرور للبعض المفهوم ، أو للوقت المقدر أي فصل فيه نافلة لك ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ ﴾ الذي يبلغك إلى كمالك اللائق بك من بعد الموت الأكبر لما انبعثت من الموت الأصغر بالصلاة والعبادة ، فالمعنى على التعليل والتهوين لمشقة قيام الليل حتى زعم بعضهم أن عسى بمعنى كي ، وهو وهم بل هي كما قال أهل المعاني للاطماع ، ولما كان

اطماع الكريم إنساناً بشيء ثم حرمانه منه غروراً والله عز وجل أجل وأكرم من أن يغر أحداً فيطمعه في شيء ثم لا يعطيه قالوا هي للوجوب منه تعالى مجده على معنى أن المطمع به يكون ولا بد للوعد، وقيل هي على بابها للترجي لكن يصرف إلى المخاطب أي لتكن على رجاء من أن يبعثك ربك ﴿ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ وهي تامة و﴿ أَن يَبْعَثَكَ ﴾ فاعلها و﴿ رَبُّكَ ﴾ فاعله و﴿ مَقَاماً ﴾ كما قال جمع منصوب على الظرفية إما على إضماء فعل الإقامة أو على تضمين الفعل المذكور ذلك أي عسى أن يبعثك فيقيمك مقاماً أي في مقام، أو يقيمك في مقام محمود باعثاً إذ لا يصح أن يعمل في مثل هذا الظرف إلا فعل فيه معنى الاستقرار خلافاً للكسائي، واستظهر في البحر كونه معمولاً ليبعثك، وهو مصدر من غير لفظ الفعل لأن نبعث بمعنى نقيم تقول أقيم من قبره، وبعث من قبره.

(97/462)

وجوز أبو البقاء وغيره كونه حالاً بتقدير مضاف أي نبعثك ذا مقام، وقيل يجوز أن يكون مفعولاً به ليبعثك على تضمينه معنى نعطيك، وجوز أبو حيان أن تكون عسى ناقصة و﴿ رَبُّكَ ﴾ الفاعل على تقدير أن ينتصب ﴿ مَقَاماً ﴾ بمحذوف لا بيبعث لئلا يلزم الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي، وتنكير ﴿ مَقَاماً ﴾ للتعظيم، والمراد بذلك المقام

مقام الشفاعة العظمى في فصل القضاء حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه صلى الله عليه وسلم فقد أخرج البخاري وغيره عن ابن عمر قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم فيقول لست بصاحب ذلك ثم موسى فيقول كذلك ثم محمد فيشفع فيقضي الله تعالى بين الخلق فيمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجنة فيومئذ يبعثه الله تعالى مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم.

وأخرج الترمذي وحسنه عن أبي سعيد الخدري قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر فيفزع الناس ثلاث فزعات فيأتون آدم فيقولون أنت أبونا فاشفع لنا إلى ربك فيقول إني أذنبت ذنباً أهبطت منه إلى الأرض ولكن ائتوا نوحاً فيأتون نوحاً فيقول إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا ولكن اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقول ائتوا موسى فيقول إني قتلت نفساً ولكن ائتوا عيسى فيقول إني عبدت من دون الله تعالى ولكن ائتوا محمداً فيأتوني فانطلق معهم فآخذ بحلقة باب الجنة فاقعقعها فيقال من هذا فأقول محمد فيفتحون لي ويقولون مرحباً فأخر ساجداً فيلهمني الله تعالى من الثناء والحمد والمجد فيقال ارفع رأسك سل تعط

واشفع تشفع وقل يسمع لقولك فهو المقام المحمود الذي قال الله تعالى : ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ " .

(98/462)

وجاء في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام يسجد أربع سجدات أي كسجود الصلاة كما هو الظاهر تحت العرش فيجاب لما فزعوا إليه ، وذكر الغزالي في الدرة الفاخرة أن بين اتيانهم نبياً واتيانهم ما بعده ألف سنة ولا أصل له كما قال الحافظ ابن حجر ، وقيل هو مقام الشفاعة لأمته صلى الله عليه وسلم لما أخرجه أحمد .

والترمذي .

والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن المقام المحمود في الآية فقال : " هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي " وأجاب من ذهب إلى الأول بأنه يحتمل أن يكون المراد المقام الذي أشفع فيه أولاً لأمتي فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أيضاً من حديث طويل في الشفاعة فيه فزع الناس إلى آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام واعتذار كل منهم ما عدا عيسى عليه السلام بذنب أنه صلى الله عليه وسلم قال : " فيأتوني يعني الناس بعد من علمت من الأنبياء عليهم السلام فيقولون يا محمد

أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله تعالى لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه فانطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي ثم يفتح الله تعالى علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول أمتي يا رب فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب "

(99/462)

ومن الناس من فسره بمقام الشفاعة في موقف الحشر حيث يعترف الجميع بالعجز أعم من أن تكون عامة كالشفاعة لفصل القضاء أو خاصة كالشفاعة لبعض عصاة أمته صلى الله عليه وسلم في العفو عنهم، والاقتصار على أحد الأمرين في بعض الأخبار لنكتة اقتضاها الحال ولكل مقام مقال، وحمل هذا الشفاعة لومة في خبر أبي هريرة المتقدم على الشفاعة لبعض عصاتهم في الموقف قبل دخولهم النار وإلا فلو أريد الشفاعة لهم بعد الحساب ودخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار كما روي عن أبي سعيد لم يتيسر الجمع بين الروايات إلا بأن يقال: المقام المحمود هو مقام الشفاعة أعم من أن تكون في الموقف عامة

وخاصة وأن تكون بعد ذلك ويكون الاقتصار لنكتة ، وقد جاء تفسيره بمقام الشفاعة مطلقاً ، فقد أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن المقام المحمود فقال : هو الشفاعة ، وأخرج ابن جرير عن وهب عن أبي هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المقام المحمود الشفاعة " .

وأخرج ابن جرير .

والطبراني .

وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه فسره بذلك ، ثم الشفاعة من حيث هي وان شاركه فيها صلى الله عليه وسلم غيره من الملائكة والأنبياء عليهم السلام وبعض المؤمنين إلا أن الشفاعة الكاملة والأنواع الفاضلة لا تثبت لغيره عليه الصلاة والسلام ، وقد أوصل بعضهم الشفاعة المختصة به صلى الله عليه وسلم إلى عشر وذكره بعض شراح البخاري فليراجع ، ووصف المقام بأنه محمود على ما ذكر باعتبار أن النبي صلى الله عليه وسلم يحمد فيه على انعامه الواصل إلى الخاص والعام من أصناف الأنام .

وأخرج النسائي .

والحاكم وصححه .

وجماعة عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال : "يجمع الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر حفاة عراة كما خلقوا قياماً لا تكلم نفس إلا بإذنه فينادي يا محمد فيقول : لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك والمهدي من هديت وعبدك بين يديك وبك وإليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت" فهذا المقام المحمود .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس أنه قال في الآية : يجلسه فيما بينه وبين جبريل عليه السلام ويشفع لأمته فذلك المقام المحمود .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد أنه قال : المقام المحمود أن يجلسه معه على عرشه ، وأنت تعلم أن الحمد على أكثر ما في هذه الروايات مجاز عند من يقول : إنه مختص بالثناء على الأنعام ، وأما عند من يقول بعدم الاختصاص فلا مجاز ، وتعقب الواحدي القول بأن المقام المحمود إجلاسه صلى الله عليه وسلم معه عز وجل على العرش بعد ذكر روايته عن ابن عباس رضي الله عنهما بأنه قول رذل موحش فظيع لا يصح مثله عن ابن عباس ، ونص الكتاب ينادي بفساده من وجوه ، الأول أن البعث ضد الإجلاس يقال بعث الله تعالى الميت إذا أقامه من قبره وبعثت البارك والقاعد فانبعث فتفسيره به تفسير الضد بالضد ، الثاني لو كان جالساً سبحانه وتعالى على العرش لكان محدوداً متناهياً فيكون محدثاً تعالى عن

ذلك علواً كبيراً ، الثالث أنه سبحانه قال ﴿ مَقَاماً ﴾ ولم يقل مقعداً والمقام موضع القيام لا القعود ، الرابع أن الحمقي والجهال يقولون : إن أهل الجنة كلهم يجلسون معه تعالى ويسألهم عن أحوالهم الدنياوية فلا مزية له صلى الله عليه وسلم بإجلاسه معه عز وجل ؛ الخامس أنه إذا قيل : بعث السلطان فلاناً يفهم منه أنه أرسله إلى قوم لاصلاح مهماتهم ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه انتهى .

(101/462)

وأبو عمر لم يطلع إلا على رواية ذلك عن مجاهد فقال : إن مجاهداً وإن كان أحد الأئمة بتأويل القرآن حتى قيل : إذا جاءك التأويل عن مجاهد فحسبك إلا أن له قولين معجورين عند أهل العلم ، أحدهما تأويل المقام المحمود بهذا الإجلاس ، والثاني تأويل ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ بانتظار الثواب .

وذكر النقاش عن أبي داود السجستاني أنه قال : من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم فما زال أهل العلم يحدثون به ، قال ابن عطية : أراد من أنكره على تأويله فهو متهم وقد يؤول قوله صلى الله عليه وسلم يجلسني معه على رفع محله وتشريفه على خلقه كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين عِندَ رَبّكَ ﴾ [الأعراف : 206] وقوله سبحانه : حكاية ﴿ ابن لِى عِندَكَ

بَيْتاً ﴾ [التحريم : 11] وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المحسنين ﴾ [العنكبوت : 69] إلى غير ذلك مما هو كناية عن المكانة لا عن المكان .

وأنت تعلم أنه لا ينبغي لمجاهد ولا لغيره أن يفسر المقام المحمود بإجلاس على العرش حسبما سمعت من غير أن يثبت عنده ذلك الإجلاس في خبر كخبر الديلمي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله سبحانه : ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ ﴾ الخ يجلسني معه على السرير " فإن تمسك المفسر بهذا أو نحوه لم يناظر إلا بالطعن في صحته وبعد إثبات الصحة لا مجال للمؤمن إلا التسليم ، وما ذكره الواحدي لا يستلزم عدم الصحة فكم وكم من حديث نصوا على صحته ويلزم من ظاهره المحال كحديث أبي سعيد الخدري المشتمل على رؤية المؤمنين الله عز وجل ثم إتيانه إياهم في أدنى صورة من التي رأوه فيها ، وقوله تعالى لهم : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ ﴾ وقولهم نعوذ بالله تعالى منك حتى يكشف لهم عن ساق فيسجدون ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة وهو في الصحيحين ، وحديث لقيط بن عامر المشتمل على قوله صلى الله عليه وسلم :

" تلبثون ما لبثتم ثم يتوفى نبيكم ثم تلبثون ما لبثتم ثم تبعث الصائحة لعمر إلهك لا تدع على ظهرها شيئاً إلا مات والملائكة الذين مع ربك عز وجل فأصبح ربك يطوف في الأرض وخلت عليه البلاد " الحديث ، وقد رواه أئمة السنة في كتبهم وتلقوه بالقبول وقابلوه بالتسليم والانقياد إلى ما لا يحصى من هذا القبيل ، ومذاهب الحدثين وأهل الفكر من العلماء في الكلام على ذلك مما لا تخفى ، ومتى أجريت هناك فلتجر عنا فالكل قريب من قريب .

والصوفية يقولون : إن الله عز وجل الظهور فيما يشاء على ما يشاء وهو سبحانه في حال ظهوره باق على إطلاقه حتى عن قيد الإطلاق فإنه العزيز الحكيم ومتى ظهر جل وعلا في صورة أجريت عليه سبحانه أحكامها من حيث الظهور فيوصف عز مجده عندهم بالجلوس ونحوه من تلك الحيثية وينحل بذلك أمور كثيرة إلا أنه مبني على ما دون إثباته خرط القتاد .

(103/462)

ويرد على ما ذكره الواحدي في الوجه الثالث أن المقام وإن كان في الأصل بمعنى محل القيام إلا أنه شاع في مطلق المحل ويطلق على الرتبة والشرف ، وعلى ما ذكره في الوجه الأول أنه

ليس هناك إلا تفسير المقام المحمود بالإجلاس لا تفسير البعث بالإجلاس نعم فيه مسامحة ، والمراد أن احلاله في المحل المحمود هو إجلاسه على العرش ، وهذا المعنى يتأتى بإبقاء البعث على معناه وتقدير فيقيمك بمعنى فيحلك وبتفسيره بالإقامة بمعنى الإحلال ، وقد يقال : لا مسامحة والمراد من المقام الرتبة ، والبعث متضمن معنى الإعطاء أي عسى يعطيك ربك رتبة محمودة وهي إجلاسه إياك على عرشه باعثاً ، وما ذكره في الوجه الثاني حق لو أريد من الجلوس على العرش ظاهره أن أريد معنى آخر فلا نسلم اللازم وباب التأويل واسع ، وقد أول الإجلاس معه على رفع المحل والتشريف وهو مقول بالتشكيك فمتى صح أن أهل الجنة كلهم يجلسون معه آمناً به مع إثبات المزية للرسول صلى الله عليه وسلم فاندفع ما ذكره في الوجه الرابع ؛ ويرد على ما فيالوجه الخامس أن الإجلاس معه لم يفهم من مجرد البعث وما ادعى أحد ذلك فكون بعث السلطان فلاناً يفهم منه أنه أرسله إلى قوم لإصلاح مهماتهم ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه لا يضرنا كما لا يخفى على منصف .

وبالجملة كل ما قيل أو يقال لا يصغى إليه إن صح التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن يبقى حينئذ أنه يلزم التعارض بين ظواهر الروايات ، ومن هنا قال بعضهم : المراد بالمقام المحمود ما ينتظم كل مقام يتضمن كرامة له صلى الله عليه وسلم ، والاقتصار في بعض الروايات على بعض لنكتة نحو ما مر ، ووصفه بكونه محموداً إما باعتبار أنه صلى الله عليه وسلم يحمد الله تعالى عليه أبلغ الحمد أو باعتبار أن كل من يشاهده يحمده ولم يشترط أن

يكون الحمد في مقابلة النعمة ويدخل في هذا كل مقام له صلى الله عليه وسلم محمود في الجنة .

(104/462)

وكذا يدخل فيه ما جوز مفتى الصوفية سيدي شهاب الدين السهروردي أن يكون المقام المحمود وهو إعطاؤه عليه الصلاة والسلام مرتبة من العلم لم تعط لغيره من الخلق أصلاً فإنه ذكر في رسالة له في العقائد أن علم عوام المؤمنين يكون يوم القيامة كعلم علمائهم في الدنيا ويكون علم العلماء إذ ذاك كعلم الأنبياء عليهم ويكون علم الأنبياء كعلم نبينا صلى الله عليه وسلم ويعطي نبينا عليه الصلاة والسلام من العلم ما لم يعط أحد من العالمين ولعله المقام المحمود ولم أر ذلك لغيره عليه الرحمة والله تعالى أعلم .

ثم هذا الاختلاف في المقام المحمود هنا لم يقع فيه في دعاء الأذان بل ادعى العلامة ابن حجر الهيتمي أنه فيه مقام الشفاعة العظمة لفصل القضاء اتفاقاً فتأمل في هذا المقام والله تعالى ولي الأنعام والأفهام .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾

أي إدخالاً مرضياً جيداً لا يرى فيه ما يكره ، والإضافة للمبالغة .

﴿ ﴾ أي إدخالاً مرضياً جيداً لا يرى فيه ما يكره ، والإضافة للمبالغة .

﴿ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ نظير الأول واختلف في تعيين المراد من ذلك فأخرج الزبير بن بكار عن زيد بن أسلم أن المراد إدخال المدينة والإخراج من مكة ويدل عليه على ما قيل قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾ [الإسراء : 76] الخ .

وأيد بما أخرجه أحمد .

والطبراني .

والترمذي وحسنه .

والحاكم وصححه .

وجماعة عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أمر بالهجرة فأنزل الله تعالى عليه ﴿ وَقُل رَّبِّ ﴾ الآية ، وبدأ بالإدخال لأنه الأهم .

وأخرج ابن جرير .

(105/462)

وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه الإدخال في القبر والإخراج منه وأيد بذكره بعد البعث ، وقيل إدخال مكة ظاهراً عليها بالفتح وإخراجه صلى الله عليه وسلم منها آمناً من

المشركين ، وقيل إخراجه من المدينة وإدخال مكة بالفتح وإخراجه صلى الله عليه وسلم منها آمنا من المشركين ، وقيل إخراجه من المدينة وإدخال مكة بالفتح ، وقال محمد بن المنكدر : إدخاله الغار وإخراجه منه ، وقيل الإدخال في الجنة والإخراج من مكة ، وقيل الإدخال في الصلاة والإخراج منها ، وقيل الإدخال في المأمورات والإخراج عن المنهيات وقيل الإدخال فيما حمله صلى الله عليه وسلم من أعباء النبوة وأداء الشرع وإخراجه منه مؤدياً لما كلفه من غير تفريط ، وقيل الإدخال في بحار التوحيد والتنزيه والإخراج من الاشتغال بالدليل إلى معرفة المدلول والتأمل في الآثار إلى الاستغراق في معرفة الواحد القهار .

وقيل وقيل والأظهر أن المراد ادخاله عليه الصلاة والسلام في كل ما يدخل فيه ويلابسه من مكان أو أمر وإخراجه منه فيكون عاماً في جميع الموارد والمصادر واستظهر ذلك أبو حيان وفي الكشف أنه الوجه الموافق لظاهر اللفظ والمطابق لمقتضى النظم فسابقه ولاحقه لا يختصان بمكان دون آخر ، وكفاك قوله تعالى ﴿ واجعل لى ﴾ الخ شاهد صدق على إيثاره .

وقرأ قتادة .

وأبو حيوة .

وحميد .

وإبراهيم بن أبي عبلة.

﴿ مُدْخَلَ وَمُخْرِجُ ﴾ بفتح الميم فيهما قال صاحب اللوامح: وهما مصدران من دخل وخرج لكنهما جاءا من معنى أدخلني وأخرجني السابقين دون لفظهما ومثل ذلك ﴿ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً ﴾ ويجوز أن يكونا اسمي مكان وانتصابهما على الظرفية، وقال غيره من المحققين: هما مصدران منصوبان على تقدير فعلين ثلاثيين إذ مصدر المزيدين مضموم الميم كما في القراءة المتوارتة أي أدخلني فادخل مدخل صدق وأخرجني فاخرج مخرج صدق.

(106/462)

وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ أي حجة تنصرني على من خالفني وهو مراد مجاهد بقوله حجة بينة، وفي رواية أخرى عنه أنه كتاب يحوي الحدود والأحكام وعن الحسن أنه أريد التسلط على الكافرين بالسيف وعلى المنافقين بإقامة الحدود، وقريب ما قيل أن المراد قهراً وعزاً تنصر به الإسلام على غيره.

وزعم بعضهم أنه فتح مكة، وقيل السلطان أحد السلاطين الملوك فكأن المراد الدعاء بأن يكون في كل عصر ملك ينصر دين الله تعالى، قيل وهو ظاهر ما أخرجه البيهقي في الدلائل

والحاكم وصححه عن قتادة قال : أخرجه الله تعالى من مكة مخرج صدق وأدخلة المدينة مدخل صدق وعلم نبي الله أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله تعالى وحدوده وفرائضه فإن السلطان عزة من الله عز وجل جعلها بين أظهر عباده لولا ذلك لأغار بعضهم على بعض وأكل شديدهم ضعيفهم وفيه نظر ، وفعيل على سائر الأوجه مبالغة في فاعل .

وجوز أن يكون في بعضها بمعنى مفعول ، والحق أن المراد من السلطان كل ما يفيده الغلبة على أعداء الله تعالى وظهور دينه جل شأنه ووصفه بنصيرا للمبالغة .

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾

الإسلام والدين الثابت الراسخ .

والجملة عطف على جملة ﴿ قُلْ ﴾ أولا واحتمال أنها من مقول القول الأول لما فيها من الدلالة على الاستجابة في غاية البعد .

﴿ وَزَهَقَ الباطل ﴾ أي زال واضمحل ولم يثبت الشرك والكفر وتسويلات الشيطان من زهقت نفسه إذا خرجت من الأسف .

وعن قتادة أن الحق القرآن والباطل الشيطان ، وعن ابن جريج أن الأول الجهاد والثاني الشرك وعن مقاتل الحق عبادة الله تعالى والباطل عبادة الشيطان وهذا قريب مما ذكرنا .

﴿ إِنَّ الباطل ﴾ كائناً ما كان ﴿ كَانَ زَهُوقًا ﴾ مضمحلاً غير ثابت الآن أو فيما بعد أو مطلقاً لكونه كان لم يكن ، وصيغة فعول للمبالغة .

(107/462)

أخرج الشيخان وجماعة عن ابن مسعود قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت ستون وثلثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : ﴿ جَاء الحق وَزَهَقَ الباطل إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقًا ﴾ ﴿ جاء الحق وما يبدي الباطل وما يعيد ﴾ [سبأ : 49] ، وفي رواية الطبراني في الصغير .

والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم جاء ومعه قضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم منها فيخر لوجهه فيقول : ﴿ جَاء الحق وَزَهَقَ الباطل إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقًا ﴾ حتى مر عليها كلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(108/462)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بإمامهم ﴾

قال الزجاج : يعني يوم القيامة ، وهو منصوب على معنى أذكر يوم ندعوا .

وقرى : (يدعو) بالياء التحتية على البناء للفاعل و (يدعى) على البناء للمفعول ، والباء في ﴿ بإمامهم ﴾ للإلصاق كما تقول : أدعوك باسمك ، ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف هو حال ، والتقدير : ندعو كل أناس متلبسين بإمامهم ، أي : يدعون وإمامهم فيهم نحو ركب بجنوده ، والأوّل أولى .

والإمام في اللغة كل ما يؤتّم به من نبيّ أو مقدّم في الدين أو كتاب .

وقد اختلف المفسرون في تعيين الإمام الذي تدعى كل أناس به ، فقال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك إنه كتاب كلّ إنسان الذي فيه عمله أي : يدعى كل إنسان بكتاب عمله ، ويؤيد هذا قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابه ﴾ [الحاقة : 19] .

الآية ، وقال ابن زيد : الإمام هو الكتاب المنزل عليهم فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل الإنجيل بالإنجيل ، وأهل القرآن بالقرآن ، فيقال : يا أهل التوراة ، يا أهل الإنجيل ، يا أهل القرآن .

وقال مجاهد وقتادة : إمامهم : نبيهم فيقال : هاتوا متبعي إبراهيم ، هاتوا متبعي موسى ، هاتوا متبعي عيسى ، هاتوا متبعي محمد ، وبه قال الزجاج .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: المراد بالإمام إمام عصرهم، فيدعى أهل كل عصر بإمامهم الذي كانوا يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه.

وقال الحسن وأبو العالية: المراد ﴿ بإمامهم ﴾: أعمالهم، فيقال مثلاً: أين المجاهدون، أين الصابرون، أين الصائمون، أين المصلون؟ ونحو ذلك.

وروي عن ابن عباس وأبي هريرة.

وقال أبو عبيدة، المراد بإمامهم صاحب مذهبهم، فيقال مثلاً: أين التابعون للعالم فلان بن فلان، وهذا من البعد بمكان.

وقال محمد بن كعب: ﴿ بإمامهم ﴾: بأمهاتهم، على أن إمام جمع أمّ كخف وخفاف، وهذا بعيد جدّاً.

(109/462)

وقيل: الإمام: هو كل خلق يظهر من الإنسان حسن كالعلم والكرم والشجاعة، أو قبيح كأضدادها، فالداعي إلى تلك الأفعال خلق باطن هو كالإمام، ذكر معناه الرازي في تفسيره ﴿ فَمَنْ أُوتِىَ كتابه بيَمِينِهِ ﴾ من أولئك المدعوّين، وتخصيص اليمين بالذكر للتشريف والتبشير ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ الإشارة إلى "من" باعتبار معناه.

قيل : ووجه الجمع الإشارة إلى أنهم مجتمعون على شأن جليل ، أو الإشعار بأن قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد ﴿ يَقْرَءُونَ كتابهم ﴾ الذي أوتوه ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ أي : لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل ، وهو القشرة التي في شق النواة ، أو هو عبارة عن أقلّ شيء ، ولم يذكر أصحاب الشمال تصريحاً ، ولكنه ذكر سبحانه ما يدلّ على حالهم القبيح فقال : ﴿ وَمَن كَانَ فِى هذه أعمى ﴾ أي : من كان من المدعوّين في هذه الدنيا أعمى أي : فاقد البصيرة .

قال النيسابوري : لا خلاف أن المراد بهذا العمى عمى القلب ، وأما قوله : ﴿ فَهُوَ فِى الآخرة أعمى ﴾ فيحتمل أن يراد به : عمى البصر كقوله :

﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى * قَالَ رَبّ لِمَ حَشَرْتَنِى أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ [طه : 124 125] وفي هذا زيادة العقوبة ، ويحتمل أن يراد عمى القلب ؛ وقيل : المراد بالآخرة : عمل الآخرة ، أي : فهو في عمل ، أو في أمر الآخرة أعمى ؛ وقيل : المراد : من عمي عن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى ؛ وقيل : من كان في الدنيا التي تقبل فيها التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى ؛ وقيل : من كان في الدنيا أعمى عن حجج الله فهو في الآخرة أعمى ، وقد قيل : إن قوله : ﴿ فَهُوَ فِى الآخرة أعمى ﴾ أفعل تفضيل ، أي : أشدّ عمى ، وهذا مبنيّ على أنه من عمى القلب ، إذ لا يقال ذلك في عمى العين .

قال الخليل وسيبويه : لأنه خلقه بمنزلة اليد والرجل ، فلا يقال ما أعماه كما لا يقال : ما أيداه .

وقال الأخفش : لا يقال فيه ذلك لأنه أكثر من ثلاثة أحرف .

وقد حكى الفراء عن بعض العرب أنه سمعه يقول : ما أسود شعره ، ومن ذلك قول الشاعر :

أما الملوك فأنت اليوم ألأمهم . . . لؤما وأبيضهم سربال طباخ

والبحث مستوفي في النحو .

وقرأ أبو بكر ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف .

(أعمى) بالإمالة في الموضعين .

وقرأهما أبو عمرو ويعقوب والباقون بغير إمالة ، وأمال أبو عبيد الأوّل دون الثاني ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ يعني : أن هذا أضلّ سبيلاً من الأعمى لكونه لا يجد طريقاً إلى الهداية ، بخلاف الأعمى فقد يهتدي في بعض الأحوال .

ثم لما عدد سبحانه في الآيات المتقدّمة أقسام النعم على بني آدم أردفه بما يجري مجرى

التحذير من الاغترار بوساوس الأشقياء فقال : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ : "إن" هي المخففة من الثقيلة ، واسمها : ضمير شأن محذوف ، واللام : هي الفارقة بينها وبين النافية ، والمعنى : وإن الشأن قاربوا أن يخدعوك فاتنين ، وأصل الفتنة : الاختبار ، ومنه فتن الصائغ الذهب ، ثم استعمل في كل من أزال الشيء عن حدّه وجهته ، وذلك لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن وافتراء على الله سبحانه من تبديل الوعد بالوعيد وغير ذلك ﴿ عَنِ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد ﴿ لِتفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ لتتقوّل علينا غير الذي أوحينا إليك مما اقترحه عليك كفار قريش ﴿ وَإِذاً لاَّتخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ أي : لو اتبعت أهواءهم لاتخذوك خليلاً لهم أي : والوك وصافوك ، مأخوذ من الخلة بفتح الخاء .

(111/462)

﴿ وَلَوْلاَ أَن ثبتناك ﴾ على الحق وعصمناك عن موافقتهم ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾ لقاربت أن تميل إليهم أدنى ميل ، والركون هو الميل اليسير ، ولهذا قال : ﴿ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ لكن أدركته صلى الله عليه وسلم العصمة فمنعته من أن يقرب من أدنى مراتب الركون إليهم ، فضلاً عن نفس الركون ، وهذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم ما همّ بإجابتهم ، ذكر

معناه القشيري وغيره ، وقيل : المعنى وإن كادوا ليخبرون عنك بأنك ملت إلى قولهم ، فنسب فعلهم إليه مجازاً واتساعاً كما تقول للرجل : كدت تقتل نفسك ، أي : كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت ، ذكر معناه المهدوي .

ثم توعده سبحانه في ذلك أشدّ الوعيد فقال : ﴿ إِذاً لأَذقناك ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ الممات ﴾ أي : لو قاربت أن تركن إليهم ، أي : مثلي ما يعذب به غيرك ممن يفعل هذا الفعل في الدارين ، والمعنى : عذاباً ضعفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في الممات أي : مضاعفاً ، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وأضيفت ، وذلك لأن خطأ العظيم عظيم كما قال سبحانه : ﴿ يانساء النبى مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بفاحشة مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العذاب ضِعْفَيْنِ ﴾ [الأحزاب : 30] .

وضعف الشيء : مثلاه ، وقد يكون الضعف النصيب كقوله : ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ [الأعراف : 38] أي : نصيب .

قال الرازي : حاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون همك لاستحققت تضعيف العذاب عليك في الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثلي عذاب المشرك في الدنيا ومثلي عذابه في الآخرة ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ ينصرك فيدفع عنك هذا العذاب .

قال النيسابوري : اعلم أن القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها ، والتهديد على المعصية لا يدلّ على الإقدام عليها ، فلا يلزم من الآية طعن في العصمة .

(112/462)

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾ الكلام في هذا كالكلام في ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ أي : وإن الشأن أنهم قاربوا أن يزعجوك من أرض مكة لتخرج عنها ، ولكنه لم يقع ذلك منهم ، بل منعهم الله منه حتى هاجر بأمر ربه بعد أن هموا به ، وقيل : إنه أطلق الإخراج على إرادة الإخراج تجويزاً ﴿ وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خلفك إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ معطوف على ﴿ ليستفزونك ﴾ أي : لا يبقون بعد إخراجك إلاّ زمنا قليلاً ، ثم عوقبوا عقوبة تستأصلهم جميعاً .

وقرأ عطاء بن أبي رباح : (لا يلبثوا) بتشديد الباء الموحدة .

وقرىء : (لا يلبثوا) بالنصب على إعمال " إذ " ، على أن الجملة معطوف على جملة : ﴿ وَإِن كَادُواْ ﴾ لا على الخبر فقط .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو بكر ، وأبو عمرو (خلفك) ومعناه : بعدك .

وقرأ ابن عامر ، وحفص ، وحمزة ، والكسائي ﴿ خلافك ﴾ ومعناه أيضاً : بعدك .

وقال ابن الأنباري : ﴿ خلافك ﴾ بمعنى : مخالفتك ، واختار أبو حاتم القراءة الثانية لقوله

: ﴿ فَرِحَ المخلفون بِمَقْعَدِهِمْ خلاف رَسُولِ الله ﴾ [التوبة : 81] ومما يدلّ على أن

خلاف بمعنى بعد قول الشاعر :

عفت الديار خلافها فكأنما . . . بسط الشواطب بينهنّ حصيرا

يقال : شطبت المرأة الجريد : إذا شققته لتعمل منه الحصير .

قال أبو عبيدة : ثم تلقيه الشاطبة إلى المثقبة .

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ ﴿ سنّة ﴾ منتصبة على المصدرية ، أي :

سنّ الله سنّة .

وقال الفراء : أي يعذبون كسنّة من قد أرسلنا فلما سقط الخافض عمل الفعل .

وقيل : المعنى : سنّتنا سنّة من قد أرسلنا .

قال الزجاج : يقول إن سنّتنا هذه السنّة فيمن أرسلنا قبلك إليهم أنهم إذا أخرجوا نبيهم من

بين أظهرهم أو قتلوه أن ينزل العذاب بهم ﴿ وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ أي : ما أجرى الله

به العادة لم يتمكن أحد من تحويله ولا يقدر على تغييره .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ قال : إمام هدى وإمام ضلالة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والخطيب في تاريخه عن أنس في الآية قال : نبيهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد مثله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : بكتاب أعمالهم .

وأخرج ابن مردويه عن عليّ في الآية قال : يدعى كل قوم بإمام زمانهم ، وكتاب ربهم وسنّة نبيهم .

وأخرج الترمذي وحسنه ، والبزار ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ قال : " يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمدّ له في جسمه ستين ذراعاً ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون : اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا ، حتى يأتيهم فيقول : أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا ، وأما الكافر فيسود وجهه ويمدّ له في جسمه ستين ذراعاً على صورة آدم ، ويلبس تاجاً فيراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من شر هذا ، اللّهم لا تأتنا بهذا ، قال : فيأتيهم فيقولون : اللهم اخزه ، فيقول : أبعدكم الله ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا " قال البزار بعد إخراجه : لا يروى إلا من هذا الوجه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَن كَانَ فِى هذه أعمى ﴾ يقول : من كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرتي من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والدواب وأشباه هذا ﴿ فَهُوَ ﴾ عما وصفت له ﴿ فِى الآخرة ﴾ ولم يره ﴿ أعمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ يقول : أبعد حجة .

وأخرج الفريابي ، وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عنه نحو هذا .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً يقول : من عمي عن قدرة الله في الدنيا فهو في الآخرة أعمى .

(114/462)

وأخرج ابن إسحاق ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه أيضاً قال : إن أمية بن خلف وأبا جهل بن هشام ورجالاً من قريش أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : تعال فتمسح آلهتنا وندخل معك في دينك ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتدّ عليه فراق قومه ويحب إسلامهم فرق لهم ، فأنزل الله ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ نَصِيراً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن باذان ، عن جابر بن عبد الله مثله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : كان رسول الله صلى الله عليه

وسلم يستلم الحجر ، فقالوا لا ندعك تستلمه حتى تستلم بآلهتنا ، فقال رسول الله : " وما عليّ لو فعلت والله يعلم مني خلافه " ؟ فأنزل الله : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير : أن قريشاً أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك ، فركن إليهم ، فأوحى الله إليه ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال : أنزل الله ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ [النجم : 1] .

فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ﴾ [النجم : 19] .

فألقى عليه الشيطان : تلك الغرانيق العلى .

وأين شفاعتهم لترتجى ، فقرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم ما بقي من السورة وسجد ، فأنزل الله ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ الآية ، فما زال مهموماً مغموماً حتى أنزل الله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِىٍّ إِلاَّ إِذَا تمنى ﴾ الآية [الحج : 52] .

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس: أن ثقيفاً قالوا للنبيّ: أجلنا سنة حتى يُهدى لآلهتنا، فإذا قبضنا الذي يهدى للآلهة أحرزناه ثم أسلمنا وكسرنا الآلهة فهمّ أن يؤجلهم، فنزلت ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿ ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ الممات ﴾ يعني: ضعف عذاب الدنيا والآخرة.

وأخرج البيهقي عن الحسن في الآية قال: هو عذاب القبر.

وأخرج أيضاً عن عطاء مثله.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم كانت الأنبياء تسكن الشام، فمالك والمدينة؟ فهمّ أن يشخص، فأنزل الله: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن حضرمي أنه بلغه أن بعض اليهود فذكر نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر عن عبد الرحمن بن غنم، أن اليهود أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن كنت نبياً فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء، فصدّق النبي صلى الله عليه وسلم ما قالوا، فتحرّى غزوة تبوك لا يريد إلاّ الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعد ما ختمت

السورة : ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ تَحْوِيلًا ﴾ فأمره بالرجوع إلى المدينة ، وقال : فيها محياك وفيها مماتك ومنها تبعث ، وقال له جبريل : سل ربك فإن لكل نبي مسألة فقال : " ما تأمرني أن أسأل ؟ " قال : ﴿ قُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ واجعل لِّى مِن لَّدُنْكَ سلطانا نَّصِيرًا ﴾ فهؤلاء نزلن عليه في رجعته من تبوك .

قال ابن كثير : وفي هذا الإسناد نظر ، والظاهر أنه ليس بصحيح ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يغز تبوك عن قول اليهود ، وإنما غزاها امتثالاً لقوله : ﴿ قَاتِلُوا۟ الذين يَلُونَكُمْ مِّنَ الكفار ﴾ [التوبة : 123] .

(116/462)

وغزاها ليقتصّ وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض ﴾ قال : همّ أهل مكة بإخراج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة ، وقد فعلوا بعد ذلك ، فأهلكهم الله يوم بدر ، ولم يلبثوا بعده إلاّ قليلاً حتى أهلكهم الله يوم بدر ، وكذلك كانت سنّة الله في الرسل إذا فعل بهم قومهم مثل ذلك .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قال : يعني بالقليل : يوم أخذهم ببدر ، فكان ذلك هو القليل الذين لبثوا بعده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(117/462)

وقال القاسمى :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾

لما ذكر تعالى ، قبلُ ، كيد المشركين وكيدودتهم استفزازه من الأرض ، أمره بأن يستعين بإقامة الصلوات والإقبال على عبادته تعالى ، والابتهال إليه على دفع كيدهم ومكرهم ، وتأييده عليهم . ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر : 97 - 98] ، وقوله : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ [طه : 130] ، وقوله : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة : 45] ، هذا من حيث نظم الآية مع ما قبلها . وأما معناها ، فقوله : ﴿ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ أي : لزوالها . قال ابن تيمية : الدلوك : الزوال عند أكثر السلف ، وهو

الصواب . واللام للتأقيت . أي : بيان الوقت بمعنى (بعد) وتكون بمعنى (عند) أيضاً . وقيل : للتعليل ؛ لأن دخول الوقت سبب لوجوب الصلاة . وأما : ﴿ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ فهو اجتماع الليل وظلمته . وأما : ﴿ قُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ فهو صلاة الصبح . سميت قرآناً لأنه ركنها . كما سميت ركوعاً وسجوداً . فهو من تسمية الكل باسم جزئه المهم . فيدل على وجوب القراءة فيها صريحاً ، وفي غيرها بدلالة النص والقياس . ومعنى : ﴿ مَشْهُوداً ﴾ يشهده ملائكة الليل والنهار . ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء ، فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار . أو يشهده الكثير من المصلين في العادة ! ومن حقه أن يكون مشهوداً بالجماعة الكثيرة . والأكثرون على أن قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ منصوب بالعطف على (الصلاة) أي : وأقم صلاة الفجر . وجوّز بعض

النحاة نصبه على الإغراء . أي : وعليك قرآن الفجر ، أو الزم .

تنبيهات :

الأول : هذه الآية جامعة للصلوات الخمس ومواقيتها ، فدلوك الشمس يتناول الظهر والعصر تناولاً واحداً . وغسق الليل يتناول المغرب والعشاء تناولاً واحداً . وقرآن الفجر هي

صلاة مفردة لا تجمع ولا تقصر . قيل : هذا يقتضي أن يكون الدلوك مشتركاً بين الظهر والعصر . والغسق مشتركاً بين المغرب والعشاء . فيدل على جواز الجمع مطلقاً بين الأولين ، وكذا بين الأخيرين . فالجواب : هو كذلك بعذر السفر أو المطر ونحوها . وأما في غيرها فلا ، وذلك لما بينته السنة من فعل كل واحدة في الوقت الخاص بها ، إلا بعذر . قال الحافظ ابن كثير : قد بينت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تواتراً من أفعاله وأقواله ، تفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفاً عن سلف ، وقرناً بعد قرن ، كما هو مقرر في مواضعه .

وقال العلامة أبو السعود : ليس المراد إقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار ، بل إقامة كل صلاة في وقتها الذي عين لها ببيان جبريل عليه السلام . كما أن أعداد ركعات كل صلاة موكولة إلى بيانه عليه السلام . ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى في أوقات الصلوات من غير فصل بينها ؛ لما أن الإنسان فيما بين هذه الأوقات على اليقظة . فبعضها متصل ببعض ، بخلاف أول وقت العشاء والفجر فإنه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ينقطع أحدهما عن الآخر . ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الأوقات . انتهى .

والظاهر أن مستند من جوَّز الجمع في الحضر مطلقاً هذه الآية مع أثر ابن عباس .

جاء في " رحمة الأمة " ما مثاله : وعن ابن سيرين أنه يجوز الجمع من غير خوف ولا مرض

لحاجة ، ما لم يتخذه عادة . واختار ابن المنذر وجماعة جواز الجمع في الحضر من غير خوف ولا مطر ولا مرض . انتهى .

(119/462)

وقد روى الشيخان وغيرهما عن ابن عباس قال : صلى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة سبعاً وثمانياً : الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء .

ومن رواية لمسلم : صلى الظهر والعصر جميعاً ، والمغرب والعشاء جميعاً ، من غير خوف ولا سفر . وكثير من الرواة حملوا ذلك على ليلة مطيرة . والمسألة شهيرة .

الثاني : قلنا إن هذه الآية إحدى الآيات التي جمعت الصلوات الخمس ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ ﴾ [هود : 114] ، فالطرف الأول صلاة الفجر ، فإن صلاة الفجر في النهار . فإن الصائم يصوم النهار . وهو يصوم من طلوع الفجر . والوتر تصلى بالليل ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : < صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة > . وإذا قيل : نصف النهار ؛ فالمراد به النهار المبتدئ من طلوع الشمس . فهذا في هذا الموضوع ، ولفظ (النهار) يراد به من طلوع الفجر ، ويراد به من طلوع الشمس . لكن قوله : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ أريد به من طلوع الفجر

بلا ريب ، لأن ما بعد طلوع الشمس ليس على المسلمين فيه صلاة واجبة ، بل ولا مستحبة . بل الصلاة في أول الطلوع منهي عنها حتى ترتفع الشمس . وهل تستحب الصلاة لوقت الضحى أو لا تستحب إلا لأمر عارض ؟ فيه نزاع ليس هذا موضعه . فعلم أنه أراد بالطرف الأول : من طلوع الفجر . وأما الطرف الثاني : فمن الزوال إلى الغروب . فجعل الصلاة في هذا الوقت صلاة في الطرف الثاني وأشرك بينهما فيه . ثم قال : ﴿ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ فأجمل المغرب والعشاء في (زلف من الليل) وهو ساعات من الليل . فالمواقيت هنا ثلاثة .

(120/462)

وقال تعالى : ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ [النور : 58] فذكر الفجر وذكر الظهر وذكر صلاة العشاء . فمن الظهيرة إلى ما بعد صلاة العشاء وقتان للصلاة . وقد ذكر الأول من هذا الوقت والآخر من هذا الوقت . وقد دل على المواقيت في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم : 17 - 18] ، فتبين

أن له التسبيح والحمد في السماوات والأرض حين المساء وحين الصباح وعشياً وحين الإظهار . فالمساء يتناول المغرب والعشاء ، والصباح يتناول الفجر ، والعشي يتناول العصر ، والإظهار يتناول الظهر .

(121/462)

وقال تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ [طه : 130] ، وفي الآية الأخرى : ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ [ق : 39 - 40] ، فقبل طلوع الشمس هي صلاة الفجر . وقبل غروبها هي العصر ، وبذلك فسرها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته عن جرير بن عبد الله قال : كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : < إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا > . ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ ﴾ : ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ ﴾ مطلق في آناء

الليل ، يتناول المغرب والعشاء . أفاد ذلك تقي الدين ابن تيمية في فتواه في " المواقيت الكبرى " .

(122/462)

الثالث : هذه الآية من الآيات التي أمر تعالى فيها بإقامة الصلاة لوقتها . قال ابن تيمية عليه الرحمة ، في فتواه المتقدمة : وقت الصلاة وقتان . وقت الرفاهية والاختيار . ووقت الحاجة والعذر . فالوقت في حال الرفاهية خمسة أوقات كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عَمْرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : < وقت الظهر ما لم يصر ظل كل شيء مثله . ووقت العصر ما لم تصفر الشمس . ووقت المغرب ما لم يغب نور الشفق . ووقت العشاء إلى نصف الليل . ووقت الفجر ما لم تطلع الشمس > . وقد روي هذا الحديث من حديث أبي هريرة في السنن . ولم يرو عن النبي صلى الله عليه وسلم في المواقيت حديث من قوله إلا هذا . وسائر ما روي فعل منه ، والأحاديث الصحيحة المتأخرة من فعله توافق هذا الحديث . ولهذا ما في هذا الحديث من المواقيت هو الصحيح عند الفقهاء العارفين بالحديث . والنزاع بين العلماء في آخر وقت الظهر ، وأول وقت العصر وآخره ، وآخر وقت المغرب ، وآخر وقت العشاء ، وآخر وقت الفجر ، فالجماهير

من السلف والخلف من فقهاء الحديث وأهل الحجاز وقت الظهر عندهم من الزوال إلى أن يصير ظل كل شيء مثله . سوى الفيء الذي زالت عليه الشمس ، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد . وقال أبو حنيفة : إلى أن يصير ظل كل شيء مثليه ، ثم يدخل وقت العصر عند الجمهور ، وعند أبي حنيفة إنما يدخل إذا صار ظل كل شيء مثليه ، ونقل عنه ، أن ما بين المثل إلى المثلين ليس وقتاً لا للظهر ولا للعصر . وعلى قول الجمهور ، فهل آخر هذا أول هذا ، أو بينهما قدر أربع ركعات مشترك ؟ فيه نزاع . فالجمهور على الأول ، والثاني منقول عن مالك . وإذا صار ظل كل شيء مثليه ، خرج وقت العصر في إحدى الروايتين عن أحمد . وهو منقول عن مالك والشافعي مع خلاف في مذهبهما . والصحيح أن وقتها ممتد بلا كراهة إلى اصفرار الشمس . وهو الرواية الثانية عن أحمد ، كما نطق به حديث عبد الله بن

عَمْرو ، مما عمل به النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، بعد عمله بمكة . وهذا قول أبي يوسف ومحمد . فلم يكن للعصر وقت متفق عليه . ولكن الصواب المقطوع به ، الذي تواترت به السنن واتفق عليه الجماهير ؛ أن وقتها يدخل إذا صار ظل كل شيء مثله .

وليس مع القول الآخر نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم لا صحيح ولا ضعيف . ولكن الأمراء الذين كانوا يؤخرون الصلاة ؛ لما اعتادوا تأخير الصلاة ، واشتهر ذلك ، صار يظن من يظن أنه السنة . وقد احتج له بالمثل المضروب المسلمين وأهل الكتاب . ولا حجة فيه لاتفاق أهل الحساب على أن وقت الظهر أطول من وقت العصر . الذي أوله إذا صار ظل كل شيء مثليه .

(124/462)

وأما أوقات الحاجة والعذر فهي ثلاثة : من الزوال إلى الغروب . ومن الغروب إلى الفجر ومن الفجر إلى طلوع الشمس . فالأول وقت الظهر والعصر عند العذر . واتسع فيها وفيهما من وجهين : أحدهما : تقديم العصر إلى وقت الظهر ، كما قدمها النبي صلى الله عليه وسلم يوم عرفة . وكما كان يقدمها في سفرة تبوك ، إذا ارتحل بعد أن تزيغ الشمس . وتقديم العشاء إلى المغرب في المطر . فهذا جمع تقديم ، والثاني جمع تأخير ، العصر فيها إلى الغروب ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : < من أدرك ركعة من الفجر قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الفجر . ومن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر > . مع قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : < وقت

العصر ما لم تصفر الشمس > وأنه لم يؤخر الصلاة قط إلى الاصفرار . ويوم الخندق كان التأخير إلى بعد الغروب . وهو منسوخ في أشهر قولي العلماء بقوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى ﴾ [البقرة : 238] ، وهذا مذهب مالك والشافعي ، وأحمد في أشهر الروايتين عنه . وقيل : يخير حال القتال في التأخير والصلاة في الوقت بحسب الإمكان . وهو الرواية الأخرى عنه . وقيل : بل يؤخرها . وهو قول أبي حنيفة أيضاً . ففي الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : < تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان ، قام فنقر أربعاً ، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً > . فوصف صلاة المنافق بالتأخير إلى حين الغروب والنقر . فدل على المنع من هذا وهذا . فلما قال صلى الله عليه وسلم هذا وهذا ، علم أن الوقت وقتان . فمن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك مطلقاً . وليس له أن يؤخر إلى ذلك الوقت مع إمكان الصلاة قبله . بخلاف من لا يمكنه الصلاة قبل ذلك . كالحائض إذا طهرت ، والمجنون يفيق ، والنائم يستيقظ ، والناسي يذكر

، ودل تقديم العصر يوم عرفة على أنها تفعل في موضع مع الظهر عقيب الزوال . ودل هذا الحديث على أنها يدرك وقتها بإدراك ركعة منها قبل الغروب . مع أنه بيَّن بقوله وفعله ؛ أن وقتها إذا صار ظل كل شيء مثله ، ما لم تصفر الشمس . فدل ذلك على أن هذا الوقت المختص بها ، وقت مع التمكن والرفاهية . ليس لأحد أن يؤخرها عنه ولا يقدمها عليه . وقد عرف من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة وابن عباس ؛ أنهم قالوا (في الحائض إذا طهرت قبل غروب الشمس) : تصلي الظهر والعصر . وإذا طهرت قبل طلوع الفجر ، صلت المغرب والعشاء . ولم يعرف عن صحابي خلاف ذلك . وبذلك أخذ الجمهور كمالك والشافعي وأحمد . وهذا مما يدل على أنه كانت الصحابة ترى أن الليل عند العذر مشترك بين المغرب والعشاء إلى الفجر . والنصف الثاني عند العذر مشترك بين الظهر والعصر من الزوال إلى الغروب . كما دل على ذلك السنة والقرآن – يعني الآية المذكورة وأمثالها مما سقناه قبل – والذين ينازعون الجمهور في الوقت المشترك ، ويقولون ليس لكل منهما إلا وقت يخصها ، يقولون : الغرض إنما ثبت بالقرآن . والقرآن أوجب مطلق الذكر في قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ [الأعلى : 14 – 15] ، فلا موجب لخصوص التكبير عندهم ، بل مطلق الذكر . وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يصل قط إلا بتكبير . ولا أحد من خلفائه ولا أحد من أئمة المسلمين ولا آحادهم المعروفين يُعْرَفُ أنه صلى إلا بتكبير . ومع هذا فيجوزونه بمطلق الذكر . لأن

القرآن مطلق في الذكر . فيقال لهم : القرآن مطلق في آناء الليل وفي غسق الليل . ومطلق في الطرف الأول وفي الطرف الثاني ، فدل على جواز الصلاة في هذا وهذا لو قُدِّر أن النبي صلى الله عليه وسلم داوم على التفريق ، فكيف إذا ثبت عنه أنه جمع بينهما في الوقت غير مرة ؟ ! وكذلك يقولون : قوله تعالى : ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ [الحج :

(126/462)

77] ، مطلق . فهو الفرض ، والطمأنينة إنما جاء بها خبر واحد . فيفيد الوجوب دون الفرضية . وكذلك يقولون في الفاتحة : إن القرآن مطلق في إيجاب قراءة ما تيسر منه ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين من بعده لم يصلوا إلا بالفاتحة . ومع قوله : < لا صلاة إلا بأم القرآن > . و < إن كل صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج ، فهي خداج ، فهي خداج > . ويقولون : هذا يفيد الوجوب دون الفرضية . أو هذا خبر واحد فلا يقيد به مطلق القرآن . ومعلوم أن القرآن مطلق في الوقت المشترك أعظم من هذا ، وليس معهم عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يوجب فعل كل واحدة من الأربع في الوقت الخاص إلا فعله المتواتر ، وقوله الذي هو من أخبار الآحاد . مع ما فيه من الإجمال ، كقوله لَمَّا بيَّنَ المواقيت الخمسة : < الوقت ما بين هذين > وقوله : < ما بين هذين وقت > دلالته على وجوب

الصلاة في هذا الوقت دون دلالة قوله : < لا صلاة إلا بأم الكتاب > وقوله : < من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خداج > وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : < سيكون بعدي أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها ، فصلوا الصلاة لوقتها ، ثم اجعلوا صلاتكم معهم نافلة > . ولهذا احتج أحمد على وجوب فعلها في الوقت عند الرفاهية بقوله صلى الله عليه وسلم : < فصلوا الصلاة لوقتها > وهو الوقت الذي بينه لهم . والأمراء لم يكونوا يؤخرون صلاة النهار إلى الليل . ولا صلاة الليل إلى النهار . وإنما كانوا يؤخرون الظهر إلى وقت العصر والعصر إلى آخر النهار . ودل هذا على أن من فعل هذا لم يقاتل ؛ لأنهم سألوه عن الأمراء ، أنقاتلهم ؟ قال : < لا ، ما صلوا > وهذه كانت صلاتهم . ودل على أن هذه الصلاة لا تجوز بحال ، وتفويت يوم الخندق منسوخ . وأما الجمع بينهما في الوقت المشترك فهو ثابت في السنة في مواضع متعددة . وبعضها مما أجمع عليه المسلمون ، والآثار المشهورة عن الصحابة تبين أن

الوقت المشترك وقت في حال العذر . كقول عُمَر بن الخطاب : الجمع بين الصلاتين ، من غير عذر ، من الكبائر ، فدل على أن الجمع بينهما للعذر جائز . وقال عبد الرحمن بن عوف

وابن عباس وأبو هريرة (فيمن طهرت في آخر النهار) : إنها تصلي الظهر والعصر ، (وفيمن طهرت آخر الليل) : إنها تصلي المغرب والعشاء . وهو قول الثلاثة : مالك والشافعي وأحمد ، وأما التفويت فلا يجوز بحال ، فمن جوز التفويت في بعض الصور ، فقوله ضعيف ، وإن جوز الجمع . وأما من أوجب التفويت ومنع الجمع ، فقد جمع في قوله بين أصلين ضعيفين : بين إباحة ما حرمه الله ورسوله ، وتحريمه ما شرعه الله ورسوله . فإنه قد ثبت أن الجمع خير من التفويت . فهذا الأصل ينظم كثيراً من المواقيت . وتفويت العصر إلى حين الاصفرار . وتفويت العشاء إلى النصف الثاني أيضاً لا يجوز إلا لضرورة ، والجمع بين الصلاتين خير من الصلاة في هذا الوقت ، بل الصلاة بالتيمم قبل دخول وقت الضرورة خير من الصلاة بالوضوء في وقت الضرورة . وقد نص على ذلك الفقهاء من أصحاب أحمد وغيره . وقالوا : لا يجوز تأخيرها إلى الاصفرار . بل إذا لم يجد الماء إلا فيه ، فإنه يصلي بالتيمم قبل الاصفرار ، ولا يصليها حين الاصفرار بالوضوء . انتهى كلامه عليه الرحمة .

وقوله تعالى :

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أمرٌ له بصلاة الليل ، إثر أمره بالصلوات الخمس وفي : ﴿ مِنْ ﴾ وجهان : أحدهما : أنها متعلقة بـ (تهجد) أي : تهجد بالقرآن بعض الليل . والثاني : أنها متعلقة بمحذوف عطف عليه (فتهجد) أي : قم من الليل ، أي : في بعضه فتهجد بالقرآن . والتهجد ترك الهجود وهو النوم ، و (تفعل) يأتي للسلب : كـ (تأثم وتحرج) بمعنى ترك الإثم والحرج . قال الأزهري : المعروف في كلام العرب أن الهاجد النائم . وأما المتهجد فهو القائم إلى الصلاة من النوم . وكأنه قيل له : (متهجد) لإلقائه الهجود عن نفسه ، كما يقال للعابد (متحنث) لإلقائه الحنث عن نفسه . انتهى .

ونقل عن ابن فارس : أن معناه : صلِّ ليلاً . وكذا عن ابن الأعرابي قال : هجد الرجل وتهجد ، إذا صلى بالليل . والمعروف الأول . والضمير في (به) للقرآن من حيث هو ، لا بقيد إضافته إلى الفجر ، أو للبعض المفهوم من (من) والباء بمعنى (في) أي : تهجد في ذلك البعض . وقوله تعالى : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أي : عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس .

قال الزمخشري : وضع (نافلة) موضع (تهجداً) لأن التهجد عبادة زائدة . فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد . والمعنى : أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة ، فريضة عليك خاصة دون غيرك ؛ لأنه تطوع لهم . انتهى .

قال أبو السعود : ولعله هو الوجه في تأخير ذكرها عن ذكر صلاة الفجر ، مع تقدم وقتها على وقتها .

(129/462)

وقوله تعالى : ﴿ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ أي : يحمده القائم فيه وكل من رآه وعرفه . وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات . والمشهور أنه مقام الشفاعة العظمى ؛ للفصل بين الخلائق الذي يحمده فيه الأولون والآخرون . كما وردت به الأخبار الصحيحة . ومعنى النظم الكريم على هذا : كما انبعثت من النوم الذي هو الموت الأصغر ، بالصلاة والعبادة ، فسيبعثك ربك من بعد الموت الأكبر ، مقاماً محموداً عندك وعند جميع الناس . وفيه تهوين لمشقة قيام الليل . أشار له أبو السعود .

تنبيه :

قال ابن جرير : ذهب آخرون إلى أن ذلك المقام المحمود ، الذي وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبعثه إياه ، هو أن يجلسه معه على عرشه . رواه ليث عن مجاهد . وقد شنع الواحدي على القائل به ، مع أنه رواه عن ابن مسعود أيضاً . وعبارته – على ما نقلها الرازي – : وهذا قول رذل موحش فظيع ، ونص الكتاب ينادي بفساد هذا التفسير ويدل

عليه وجوه :

الأول : أن البعث ضد الإجلاس ، يقال : بعثت النازل والقاعد فانبعث ، ويقال : بعث الله الميت ، أي : أقامه من قبره . فتفسير البعث بالإجلاس تفسير للضد بالضد وهو فاسد .

الثاني : أنه تعالى قال : ﴿ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ ولم يقل مقعداً . والمقام موضع القيام لا موضع القعود .

الثالث : لو كان تعالى جالساً على العرش ، بحيث يجلس عنده محمد عليه الصلاة والسلام لكان محدوداً متناهياً . ومن كان كذلك فهو محدَث .

الرابع : يقال : إن جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير إعزاز ؛ لأن هؤلاء الجهال والحمقى يقولون (في كل أهل الجنة) : إنهم يزورون الله تعالى وإنهم يجلسون معه وإنه تعالى يسألهم عن أحوالهم التي كانوا عليها في الدنيا ، وإذا كانت هذه الحالة حاصلة عندهم لكل المؤمنين ، لم يكن لتخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بها مزيد شرف ورتبة .

الخامس : أنه إذا قيل : السلطان بعث فلاناً ، فهم منه أنه أرسله إلى قوم لإصلاح مهماتهم . ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه . فثبت أن هذا القول كلام رذل سقط ، لا يميل إليه إلا

إنسان قليل العقل عديم الدين . انتهى كلام الواحدي .

وليته اطلع على ما كتبه ابن جرير حتى يمسك من جماح يراعه ، ويبصر الأدب مع السلف مع المخارج العلمية لهم . وهاك ما قاله ابن جرير رحمه الله (بعد ما نقل عن مجاهد قوله المتقدم) :

وأولى القولين بالصواب ، ما صح به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مقام الشفاعة – ثم قال – : وهذا وإن كان هو الصحيح في القول ، في تأويل المقام المحمود ، لما ذكرنا من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين . فإن ما قاله مجاهد من أن الله يقعد محمداً صلى الله عليه وسلم على عرشه ، قوله غير مدفوع صحته . لا من جهة خبر ولا نظر . وذلك لأنه لا خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من أصحابه ، ولا عن التابعين ، بإحالة ذلك . فأما من جهة النظر فإن جميع من ينتحل الإسلام ، إنما اختلفوا في معنى ذلك على أوجه ثلاثة : فقالت فرقة منهم : الله عز وجل بائن من خلقه ، كان قبل خلقه الأشياء ، ثم خلق الأشياء فلم يماسها ، وهو كما لم يزل ، غير أن الأشياء التي خلقها ، إذا لم يكن هو لها مماساً ، وجب أن يكون لها مبايناً ؛ إذ لا

فعّال للأشياء إلا وهو مماس للأجسام أو مباين لها . قالوا : فإذا كان ذلك كذلك ، وكان الله عز وجل فاعل الأشياء ، ولم يجز في قولهم إنه يوصف بأنه مماس للأشياء ، وجب بزعمهم أنه لها مباين . فعلى مذهب هؤلاء سواء أقعد محمداً صلى الله عليه وسلم على عرشه أو على الأرض (إذ كان من قولهم : إن بينونته من عرشه وبينونته من أرضه بمعنى واحد ، في أنه بائن منهما كليهما غير مماس لواحد منهما) . وقالت فرقة أخرى : كان الله تعالى ذكره قبل خلقه الأشياء لا شيء يماسه ولا شيء يباينه ، ثم خلق الأشياء فأقامها بقدرته ، وهو كما لم يزل قبل خلقه الأشياء ، لا شيء يماسه ولا شيء يباينه . فعلى قول هؤلاء أيضاً : سواء أَقْعَدَ محمداً صلى الله عليه وسلم على عرشه أو على أرضه (إذ كان سواء على قولهم : عرشه وأرضه ، في أنه لا مماس ولا مباين لهذا ، كما أنه لا مماس ولا مباين لهذه) .

وقالت فرقة أخرى : كان الله عز ذكره قبل خلقه الأشياء لا شيء يماسه ولا شيء يباينه ، ثم أحدث الأشياء وخلقها ، فخلق لنفسه عرشاً استوى عليه جالساً وصار له مماساً ، كما أنه قد كان قبل خلقه الأشياء لا شيء يرزقه رزقاً ولا شيء يحرمه ذلك . ثم خلق الأشياء فرزق هذا وحرم هذا وأعطى هذا ومنع هذا . قالوا : فكذلك كان قبل خلقه

الأشياء ، لا شيء يماسه ولا يباينهُ . وخلق الأشياء فماس العرش بجلوسه عليه دون سائر خلقه ، فهو مماس ما شاء من خلقه ومباين ما شاء منه . فعلى مذهب هؤلاء أيضاً سواء أقعد محمداً على عرشه أو أقعده على منبر من نور ، إذ كان من قولهم : أن جلوس الرب على عرشه ليس بجلوس يشغل جميع العرش ، ولا في إقعاد محمد صلى الله عليه وسلم موجباً له صفة الربوبية ، ولا مخرجه من صفة العبودية لربه . كما أن مباينة محمد صلى الله عليه وسلم ما كان مبايناً له من الأشياء ، غير موجبة له صفة الربوبية ولا مخرجته من صفة العبودية لربه . من أجل أنه موصوف بأنه مباين له ، كما أن الله عز وجل موصوف - على قول قائل هذه المقالة بأنه مباين لها . هو مباين له . قالوا : فإذا كان معنى (مباين ومباين) لا يوجب لمحمد صلى الله عليه وسلم الخروج من صفة العبودية ، والدخول في معنى الربوبية فكذلك لا يوجب له ذلك قعوده على عرش الرحمن . فقد تبين إذاً بما قلنا أنه غير محال في قول أحد ممن ينتحل الإسلام ما قاله مجاهد ، من أن الله تبارك وتعالى يقعد محمداً على عرشه ، فإن قال قائل : فإنا لا ننكر إقعاد الله محمداً على عرشه ، وإنما ننكر إقعاده معه . (حدثني) عباس بن عبد العظيم قال : حدثنا يحيى بن كثير عن الجريري ، عن سيف السدوسي عن عبد الله بن سلام قال : إن محمداً صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، على كرسي الرب ، بين يدي الرب تبارك وتعالى . وإنما ينكر إقعاده إياه معه . قيل : أفجائز عندك أن يقعده عليه لا معه ؟ فإن أجاز ذلك صار إلى الإقرار

بأنه إما معه أو إلى أنه يقعده ، والله للعرش مباين ، أو لا مماسٌّ ولا مباين ، وبأي ذلك قال ، كان منه دخولاً في بعض ما كان ينكره . وإن قال : ذلك غير جائز منه ، خروجاً من قول جميع الفرق التي حكينا قولهم ، وذلك فراق لقول جميع من ينتحل الإسلام ؛ إذ كان لا قول في ذلك إلا الأقوال الثلاثة التي حكيناها . وغير محال في قول منها ما قال مجاهد في ذلك .

انتهى كلام ابن جرير رحمه الله .

وأقول : لك أن تجيب أيضاً عن إيرادات الواحدي الخمسة ، التي أفسد بها قول مجاهد .

أما جواب إيراده الأول ، فإن مجاهداً لم يفسر مادة البعث وحدها بالإجلاس . وإنما فسر بعثه المقام المحمود بما ذكر .

وعن الثاني : بأن المقام هو المنزلة والقدرة والرفعة ، معروف ذلك في اللغة .

وعن الثالث : بدفع اللازم المذكور ؛ لأنه كما اتفق على أن له ذاتاً لا تماثلها الذوات ، فكذلك كل ما يوصف به مما ورد في الكتاب والآثار فإنه لا يماثل الصفات ، ولا يجوز قياس الخالق على المخلوق .

وعن الرابع : بأنه مكابرة ؛ إذ كل أحد يعرف – في الشاهد – لو أن ملكاً استدعى جماعة

للحضور لديه ، ورفع أفضلهم على عرشه ، أن المرفوع ذو مقام يفوق به الكل .

وعن الخامس : بأنه من واد آخر غير ما نحن فيه ؛ إذ لا بعث لإصلاح المهمات في الآخرة ، وإنما معنى الآية : إنه يرفعك مقاما ً محمودا ً . وذلك يصدق على ما قاله مجاهد وما قال الأكثر . فتأمل وأنصف . وقد أنشد الحافظ الذهبي في كتابه " العلو لله العظيم " للإمام الدارقطني في ترجمته ، قوله :

~حديث الشفاعة في أحمد إلى أحمد المصطفى نسنده

~وأما حديث بإقعاده على العرش أيضا ً فلا نجحده

~أمرُّوا الحديث على وجهه ولا تدخلوا فيه ما يفسده

(134/462)

وقال الذهبي في كتابه المنوه به ، في ترجمة (محمد بن مصعب) العابد شيخ بغداد ما مثاله :

وقال المروذي : سمعت أبا عبد الله الخفاف . سمعت ابن مصعب وتلا : ﴿ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاما ً مَّحْمُودا ً ﴾ قال : نعم يقعده على العرش . ذكر الإمام أحمد ، محمد بن مصعب فقال : قد كتبت عنه . وأي رجل هو ؟ ! قال الذهبي : فأما قضية قعود نبينا على العرش ، فلم يثبت في ذلك نص ، بل في الباب حديث واهٍ . وما فسر به مجاهد الآية ،

كما ذكرناه . فقد أنكره بعض أهل الكلام . فقام المروذي وقد بالغ في الانتصار لذلك وجمع فيه كتاباً وطُرق قول مجاهد ، من رواية ليث بن أبي سُلَيم ، وعطاء بن السائب ، وأبي يحيى القتات وجابر بن يزيد . وممن أفتى في ذلك العصر ، بأن هذا الأثر يسلم ولا يعارض . أبو داود السجستاني صاحب السنن وإبراهيم الحربي وخلق . بحيث إن ابن الإمام أحمد قال عقيب قول مجاهد : أنا منكرٌ على كل من رد هذا الحديث . وهو عندي رجل سوء متهم . سمعته من جماعة . وما رأيت محدثاً ينكره . وعندنا إنما تنكره الجهمية . وقد حدثنا هارون بن معروف . ثنا محمد بن فضيل عن ليث ، عن مجاهد في قوله : ﴿ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ قال : يعقده على العرش . فحدثت به أبي رحمه الله فقال : لم يُقدَّر لي أن أسمعه من ابن فضيل : بحيث إن المروذيّ روى حكاية بنزول ، عن إبراهيم بن عرفة . وسمعت ابن عمير يقول : سمعت أحمد بن حنبل يقول : هذا قد تلقته العلماء بالقبول . وقال المروذي : قال أبو داود السجستاني : ثنا ابن أبي صفوان الثقفي . ثنا يحيى بن أبي كثير . ثنا سَلْم بن جعفر ، وكان ثقة ، ثنا الجريري ، ثنا سيف السدوسي عن عبد الله بن سلام ، قال : إذا كان يوم القيامة جيء بنبيكم صلى الله عليه وسلم حتى يجلس بين يدي الله عز وجل على كرسيه . الحديث . وقد رواه ابن جرير في تفسيره . (أعني قول مجاهد) وكذلك أخرجه النقاش في

تفسيره . وكذلك رد شيخ الشافعية ابن سريج على من أنكره . بحيث إن الإمام أبا بكر الخلال قال في كتاب (السنة) من جمعه : أخبرني الحسن بن صالح العطار . عن محمد بن علي السراج . قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت : إن فلاناً الترمذي يقول : إن الله لا يقعدك معه على العرش . ونحن نقول : بل يقعدك ، فأقبل عليّ شبه المغضب وهو يقول : بلى ، والله ! بلى ، والله ! يقعدني على العرش . فانتبهت . بحيث إن الفقيه أبا بكر أحمد بن سليمان النجاد المحدث قال (فيما نقله عنه القاضي أبو يعلى الفراء) : لو أن حالفاً حلف بالطلاق ثلاثاً ؛ إن الله يقعد محمداً صلى الله عليه وسلم على العرش . واستفتاني ، لقلت له : صدقت وبررت .

قال الذهبي : فأبصر ، حفظك الله من الهوى ، كيف آل الغلو بهذا المحدث إلى وجوب الأخذ بأثر منكر . واليوم يردون الأحاديث الصريحة في العلو . بل يحاول بعض الطغام أن يرد . قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : 5] . انتهى .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ أي : مدخلاً حسناً مرضياً بلا آفة : ﴿ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ أي : مخرجاً حسناً مرضياً من غير آفة الميل إلى النفس ، ولا الضلال بعد الهدى . و : ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً ﴾ أي : عزاً ناصراً للإسلام على الكفر ، مظهراً له عليه .

وقد رأى المهايمي ارتباط الآية بما قبلها في معناها حيث قال : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي ﴾ أي : في هذه العبادات ، فإنها لا توصلك إلى المقام المحمود ، إلا إذا صدق دخولك فيها وخروجك عنها ، ولا يتم إلا بإمداد الله بعد استمدادك منه . وقولك : ﴿ رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ أي : بمشاهدتك في هذه العبادات ، وتخليتي عن الرياء والعجب ، وتصفيتي بإخلاص العمل ، وإخلاص طلب الأجر ، ورؤية المنة لله ، ورؤية التقصير فيها : ﴿ وَأَخْرِجْنِي ﴾ عنها : ﴿ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ فلا تستعملني فيما يحبطها عليّ ، ولا تردني على نفسي . وإذا غلبني الشيطان أو النفس أو الخلق ، أو وردت عليّ شبهة ، فاجعل لي من لدنك ، لا من عند فكري : ﴿ سُلْطَاناً ﴾ أي : حجة : ﴿ نَصِيراً ﴾ ينصرني على ما ذكر ؛ ليبقي عليّ عبادتي فيوصلني إلى المقام المحمود . انتهى .

واللفظ الكريم محتمل لذلك . ويظهر لنا أنه إشارة للهجرة كما ستراه .

﴿ وَقُلْ ﴾ أي : استبشاراً بقرب الظفر والنصر ، وترهيباً للمشركين : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ وهو الوعد بالسلطان النصير والإسلام ودولته : ﴿ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ أي : ذهب وهلك

. وهو الشرك وجولته : ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ أي : مضمحلاً غير ثابت في كل وقت .

تنبيه :

(137/462)

سياق هذه الآيات مع سباقها أعني قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ ﴾ يدل على أن نزولها في أوقات الاهتمام للهجرة إلى المدينة ، ومبارحة مكة ، وأنه تعالى أمر نبيه بأن يبتهل إليه في تيسير إدخاله لمهاجره على ما يرضيه ، وإخراجه من بلده كذلك . وأن يجعل له حماية من لدنه ، تعز جانبه وتعصمه ممن يرومه بسوء .

وأسلوب التنزيل العزيز في مثل هذا الدعاء ، هو إرادة الخبر بحصول المدعو ، ومشيئة الله بوقوعه عن قرب . ولذلك عقبه بقوله : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ إعلاماً بأن الأمر تم ، والفرج جاء ، ودحر الباطل ، ورجع إلى أصله ، وهو العدم .

روى الحافظ أبو يعلى عن جابر رضي الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة . وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً ، تعبد من دون الله . فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكبّت على وجوهها . وقال : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ

الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ . ورواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود ، بنحوه .

قال في " الإكليل " : فيه استحباب تلاوة هذه الآية عند إزالة المنكر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 502 . 515 ﴾

(138/462)

وقال ابن عاشور :

﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾

والسنّة : العادة والسيرة التي يلتزمها صاحبها .

وتقدم القول في أنها اسم جامد أو اسم مصدر عند قوله تعالى : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ [آل عمران : 136] ، أي عادة الله في كل رسول أخرجه قومه أن لا يبقوا بعده ، خرج هود من ديار عاد إلى مكة ، وخرج صالح من ديار ثمود ، وخرج إبراهيم ولوط وهلكت أقوامهم ، فإضافة سنة ﴾ إلى ﴿ من قد أرسلنا ﴾ لأدنى ملابسة ، أي سنتنا فيهم بدليل قوله : ﴿ ولا تجد لسنتنا تحويلاً ﴾ فإضافته إلى ضمير الجلالة هي الإضافة الحقيقيّة .

وانتصب ﴿ سنة ﴾ مِنْ ﴿ من قد أرسلنا ﴾ على المفعولية المطلقة .

فإن كانت ﴿ سنة ﴾ اسم مصدر فهو بَدل من فعله.

والتقدير: سَنَنّا ذلك لمن أرسلنا قبلك من رسلنا، أي لأجلهم.

فلما عدل عن الفعل إلى المصدر أضيف المصدر إلى المتعلق بالفعل إضافة المصدر إلى مفعوله على التوسع؛ وإن كانت ﴿ سنة ﴾ اسماً جامداً فانتصابه على الحال لتأويله بمعنى اشتقاقي.

وجملة ﴿ سنة من قد أرسلنا ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لبيان سبب كون لبثهم بعده قليلاً.

وإنما سنّ الله هذه السنّة لرسله لأن تآمر الأقوام على إخراجهم يستدعي حِكمة الله تعالى لأنْ تتعلق إرادته بأمره إياهم بالهجرة لئلا يبقوا مرموقين بعين الغضاضة بين قومهم وأجوارهم بشبه ما كان يسمى بالخلع عند العرب.

وجملة ﴿ ولا تجد لسنتنا تحويلاً ﴾ اعتراض لتكملة البيان.

والمعنى: أن ذلك كائن لا محالة لأننا أجريناه على الأمم السالفة ولأن عادتنا لا تتحول.

والتعبير بـ ﴿ لا تجد ﴾ مبالغة في الانتفاء كما في قوله: ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ في سورة [الأعراف: 17].

والتحويل: تغيير الحال وهو التبديل.

ومن غريب التفسير أن المراد : أن اليهود قالوا للنبيء الحَق بأرض الشام فإنها أرض الأنبياء فصدّق النبي قولهم فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام فلما بلغ تبوك أنزل الله هذه الآية ، وهي رواية باطلة .

وسبب غزوة تبوك معروف في كتب الحديث والسير ومن أجل هذه الرواية قال فريق : إن الآية مدنية كما تقدم في صدر السورة .

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾

كان شرْع الصلوات الخمس للأمة ليلة الإسراء ، كما ثبت في الحديث الصحيح ، ولكنه كان غير مثبت في التشريع المتواتر إنما أبلغه النبي أصحابه فيوشك أن لا يعلمه غيرهم ممن يأتي من المسلمين .

وأيضاً فقد عينت الآية أوقاتاً للصلوات بعد تقرر فرضها ، فلذلك جاءت هذه الآية في هذه السورة التي نزلت عقب حادث الإسراء جمعاً للتشريع الذي شرع للأمة أيامئذٍ المبتدأ بقوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ الآيات [الإسراء : 23] .

فالجملة استئناف ابتدائي .

ومناسبة موقعها عقب ما قبلها أن الله لما امتن على النبي بالعصمة وبالنصر ذكره بشكر النعمة بأن أمره بأعظم عبادة يَعبده بها ، وبالزيادة منها طلباً لازدياد النعمة عليه ، كما دل

عليْه قوله في آخر الآية ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ [الإسراء : 79] .

فالخطاب بالأمر للنبيء ، ولكن قد تقرر من اصطلاح القرآن أن خطاب النبي بتشريعٍ تدخُل فيه أمته إلا إذا دل دليل على اختصاصه بذلك الحكم ، وقد عَلم المسلمون ذلك وشاع بينهم بحيث ما كانوا يسألون عن اختصاص حكم إلا في مقام الاحتمال القوي ، كمن سأله : ألنا هذه أمْ للأبد ؟ فقال : بل للأبد .

والإقامة : مجاز في المواظبة والإدامة .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ في أول سورة [البقرة : 3] .

(واللام في لدلوك الشمس ﴾ لام التوقيت ، وهي بمعنى (عند) .

(140/462)

والدلوك : من أحوال الشمس ، فورَد بمعنى زوال الشمس عن وسط قوس فَرْضيّ في طريق مسيرها اليومي .

وورد بمعنى : مَيل الشمس عن مقدار ثلاثة أرباع القوس وهو وقت العصر ، وورد بمعنى غروبها ، فصار لفظ الدلوك مشتركاً في المعاني الثلاثة .

والغسق : الظلمة ، وهي انقطاع بقايا شعاع الشمس حين يماثل سواد أفق الغروب سواد

بقية الأفق وهو وقت غيبوبة الشفق ، وذلك وقت العشاء ، ويسمى العتمة ، أي الظلمة .

وقد جمعت الآية أوقاتاً أربعة ، فالدلوك يجمع ثلاثة أوقات باستعمال المشترك في معانيه ، والقرينة واضحة .

وفهم من حرف (إلى) الذي للانتهاء أن في تلك الأوقات صلوات لأن الغاية كانت لفعل ﴿ أقم الصلاة ﴾ فالغاية تقتضي تكرر إقامة الصلاة .

وليس المراد غاية لصلاة واحدة جعل وقتها متسعاً ، لأن هذا فَهْم ينبو عنه ما تدل عليه اللام في قوله : ﴿ لدلوك الشمس ﴾ من وجوب إقامة الصلاة عند الوقت المذكور لأنه الواجب أو الأكمل .

وقد زاد عمل النبي صلى الله عليه وسلم بياناً للآية .

وأما مقدار الاتساع فيعرف من أدلة أخرى وفيه خلاف بين الفقهاء .

فكلمة "دلوك" لا تعادلها كلمة أخرى .

وقد ثبت في حديث أبي مسعود الأنصاري في "الموطأ" : أن أول الوقت هو المقصود .

وثبت في حديث عطاء بن يسار مرسلاً في "الموطأ" وموصولاً عن أنس بن مالك عند ابن عبد البر وغيره : أن للصبح وقتاً له ابتداء ونهاية .

وهو أيضاً ثابت لكل صلاة بآثار كثيرة عدَا المغرب فقد سكت عنها الأثر .

فترددت أنظار الفقهاء فيها بين وقوف عند المروي وبين قياس وقتها على أوقات غيرها ،

وهذا الثاني أرجح ، لأن امتداد وقت الصلاة توسعة على المصلي وهي تناسب تيسير الدين .

وجُعل الغسق نهاية للأوقات ، فعلم أن المراد أول الغسق كما هو الشأن المتعارف في الغاية بحرف (إلى) فعلم أن ابتداء الغسق وقت صلاة ، وهذا جمع بديع .

ثم عطف ﴿ قرآن الفجر ﴾ على ﴿ الصلاة ﴾ .

والتقدير : وأقم قرآن الفجر ، أي الصلاة به .

كذا قدر القراء وجمهور المفسرين ليُعلم أن لكل صلاة من تلك الصلوات قرآناً كقوله : ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ [المزمّل : 20] ، أي صلُّوا به نافلة الليل .

وخص ذكر ذلك بصلاة الفجر دون غيرها لأنها يجهر بالقرآن في جميع ركوعها ، ولأن سنتها أن يقرأ بسور من طوال المفصل فاستماع القرآن للمأمومين أكثر فيها وقراءته للإمام والفذ أكثر أيضاً .

ويجوز أن يكون عطف وقرآن الفجر ﴾ عطفَ جملة والكلام على الإغراء ، والتقدير : والزَمْ قرآنَ الفجر ، قاله الزجاج .

فيعلم أن قراءة القرآن في كل صلاة حتم .

وهذا مجمل في كيفية الصلوات .

ومقادير ما تشتمل عليه من القرآن بينته السنّة المتواترة والعرف في معرفة أوقات النهار والليل .

وجملة ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ استئناف بياني لوجه تخصيص صلاة الصبح باسم القرآن بأن صلاة الفجر مشهودة ، أي محضورة .

وفُسِّر ذلك بأنها تحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار ، كما ورد في الحديث : " وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح " وذلك زيادة في فضلها وبركتها .

وأيضاً فهي يحضرها أكثر المصلين لأن وقتها وقت النشاط وبعدها ينتظر الناس طلوع الشمس ليخرجوا إلى أعمالهم فيكثر سماع القرآن حينئذٍ .

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79) ﴾

عطف على ﴿ وقرآن الفجر ﴾ [الإسراء : 78] فإنه في تقدير جملة لكونه معمولاً لفعل أقم [الإسراء : 78] .

وقدم المجرور المتعلق بـ تهجّدْ على متعلقه اهتماماً به وتحريضاً عليْه .

وبتقديمه اكتسب معنى الشرط والجزاء فجعل متعلقه بمنزلة الجزاء فأدخلت عليه فاء

الجزاء .

وهذا مستعمل في الظروف والمجرورات المتقدمة على متعلقاتها ، وهو استعمال فصيح .

(142/462)

ومنه قوله تعالى : ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ [المطففين : 26] وقول النبي : ففيهما فَجَاهِدْ ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾ في سورة [براءة : 7] .

وجَعل الزجاج والزمخشري قوله : ومن الليل ﴾ في معنى الإغراء بناءً على أن نصب ﴿ وقرآن الفجر ﴾ [الإسراء : 78] على الإغراء فيكون فتهجد ﴾ تفريعاً على الإغراء تفريع مفصل على مجمل ، وتكون (من) اسماً بمعنى (بعض) كالتي في قوله : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم ﴾ [النساء : 46] وهو أيضاً حسن .

وضمير به ﴾ للقرآن المذكور في قوله : ﴿ وقرآن الفجر [الإسراء : 78] وإن كان المعاد مقيداً بكونه في الفجر والمذكورُ هنا مراداً مُطلقهُ ، كقولك .

عندي درهم ونصفه ، أي نصف درهم لا نصف الدرهم الذي عندك .

والباء للسببية .

والتهجد : الصلاة في أثناء الليل ، وهو اسم مشتق من الهجود ، وهو النوم .

فمادة التفعل فيه للإزالة مثل التحَرج والتأثم .

والنافلة : الزيادة من الأمر المحبوب .

واللام في لك ﴾ متعلقة بـ ﴿ نافلة ﴾ وهي لام العلة ، أي نافلة لأجلك .

وفي هذا دليل على أن الأمر بالتهجد خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم فالأمر للوجوب .

وبذلك انتظم في عداد الصلوات الواجبة فبعضها واجب عليه وعلى الأمة ، وبعضها واجب عليه خاصة ويعلم منه أنه مرغب فيه كما صرحت به آية سورة [المزمل : 20] ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ﴾ إلى قوله : ﴿ ما تيسر منه ﴾ وفي هذا الإيجاب عليه زيادة تشريف له ، ولهذا أعقب بوعد أن يبعثه الله مقاماً محموداً .

فجملة عسى أن يبعثك ﴾ تعليل لتخصيصه بإيجاب التهجد عليه ، والرجاء من الله تعالى وعد .

فالمعنى : ليبعثك ربك مقاماً محموداً .

والمقام : محل القيام .

والمراد به المكان المعدود لأمر عظيم ، لأنه من شأنه أن يقوم الناس فيه ولا يجلسوا ، وإلا فهو

المجلس .

وانتصب ﴿ مقاماً ﴾ على الظرفية ل ﴿ يبعثك ﴾ .

(143/462)

ووصفُ المقام بالمحمود وصف مجازي .

والمحمود من يقوم فيه ، أي يحمد أثره فيه ، وذلك لغنائه عن أصحاب ذلك المقام ، ولذلك فسر المقام المحمود بالشفاعة العظمى .

وفي "صحيح البخاري" عن ابن عمر " أن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً بضم الجيم وتخفيف المثلثة أي جماعات كل أمة تتبع نبيئها يقولون : يا فلان أشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود " وفي "جامع الترمذي" عن أبي هُريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا قال : هي الشفاعة .

قال : هذا حديث حسن صحيح .

وقد ورد وصف الشفاعة في صحيح البخاري ﴾ مفصلاً .

وذلك مقام يحمده فيه كل أهل المحشر .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (80) ﴾

لما أمره الله تعالى بالشكر الفعلي عطف عليه الأمر بالشكر اللساني بأن يبتهل إلى الله بسؤال التوفيق في الخروج من مكان والدخول إلى مكان كيلا يضره أن يستفزه أعداؤه من الأرض ليخرجوه منها ، مع ما فيه من المناسبة لقوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ [الإسراء : 79] ، فلما وعده بأن يقيمه مقاماً محموداً ناسب أن يسأل أن يكون ذلك حاله في كل مقام يقومه .

وفي هذا التلقين إشارة إلهية إلى أن الله تعالى مُخرجه من مكة إلى مهاجَر .

والظاهر أن هذه الآية نزلت قُبيل العقبة الأولى التي كانت مقدمة للهجرة إلى المدينة .

والمُدخل والمُخرج بضم الميم وبفتح الحرف الثالث أصله اسم مكان الإدخال والإخراج . اختير هنا الاسم المشتق من الفعل المتعدي للإشارة إلى أن المطلوب دخول وخروج ميسران من الله تعالى وواقعان بإذنه .

وذلك دعاء بكل دخول وخروج مباركَيْن لتتم المناسبة بين المسؤول وبين الموعود به وهو المقام المحمود .

وهذا السؤال يعم كل مكان يدخل إليه ومكان يخرج منه .

والصدق: هنا الكمال وما يحمد في نوعه، لأن ما ليس بمحمود فهو كالكاذب لأنه يخلف ظن المتلبس به.

وقد عمت هذه الدعوة جميع المداخل إلى ما يقدر له الدخول إليه وجميع المخارج التي يخرج منها حقيقة أو مجازاً.

وعطف عليه سؤال التأييد والنصر في تلك المداخل والمخارج وغيرها من الأقطار النائية والأعمال القائم بها غيره من أتباعه وأعدائه بنصر أتباعه وخذل أعدائه.

فالسلطان: اسم مصدر يطلق على السُلطة وعلى الحجة وعلى المُلك.

وهو في هذا المقام كلمة جامعة؛ على طريقة استعمال المشترك في معانيه أو هو من عموم المشترك، تشمل أن يجعل له الله تأييداً وحجة وغلبة ومُلكاً عظيماً، وقد آتاه الله ذلك كله، فنصره على أعدائه، وسخر له من لم يُنوه بنهوض الحجة وظهور دلائل الصدق، ونصره بالرعب.

ومنهم من فسر المدخل والمخرج بأن المخرج الإخراج إلى فتح مكة والمدخل الإدخال إلى بلد مكة فاتحاً، وجعل الآية نازلة قبيل الفتح، فبنى عليه أنها مدنية، وهو مدخول من جهات.

وقد تقدم أن السورة كلها مكية على الصحيح.

والنصير: مبالغة في الناصر، أي سلطاناً ينصرني.

وإذ قد كان العمل القائم به النبي هو الدعوة إلى الإسلام كان نصره تأيداً له فيما هو قائم به، فصار هذا الوصف تقييداً للسلطان بأنه لم يسأل سلطاناً للاستعلاء على الناس، وإنما سأل سلطاناً لنصره فيما يطلب النصرة وهو التبليغ وبث الإسلام في الناس.

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) ﴾

أعقب تلقينه الدعاءَ بسداد أعماله وتأيده فيها بأن لقنه هذا الإعلان المنبىء بحصول إجابة الدعوة المُلْهَمَة بإبراز وعده بظهور أمره في صورة الخبر عن شيء مضى.

(145/462)

ولما كانت دعوة الرسول هي لإقامة الحق وإبطالِ الباطل كان الوعد بظهور الحق وعداً بظهور أمر الرسول وفوزه على أعدائه، واستحفظه الله هذه الكلمة الجليلة إلى أن ألقاها يوم فتح مكة على مسامع من كانوا أعداءه فإنه لما دخل الكعبة ووجد فيها وحولها الأصنام جعل يشير إليها بقضيب ويقول: ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ فتسقط تلك الأنصاب على وجوهها.

ومجيء الحق مستعمل مجازاً في إدراك الناس إياه وعملهم به وانتصار القائم به على

معاضديه تشبيهاً للشيء الظاهر بالشيء الذي كان غايباً فورد جائياً .

و ﴿ زهَق ﴾ اضمحل بعد وجوده .

ومصدره الزُهوق والزَهَق .

وزهوق الباطل مجاز في تركه أصحابه فكأنه كان مقيماً بينهم ففارقهم .

والمعنى : استقر وشاع الحق الذي يدعو إليه النبي وانقضى الباطل الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عنه .

وجملة ﴿ إن الباطل كان زهوقاً ﴾ تذييل للجملة التي قبله لما فيه من عموم يشمل كل باطل في كل زمان .

وإذا كان هذا شأن الباطل كان الثبات والانتصار شأن الحق لأنه ضد الباطل فإذا انتفى الباطل ثبت الحق .

وبهذا كانت الجملة تذييلاً لجميع ما تضمنته الجملة التي قبلها .

والمعنى : ظهر الحق في هذه الأمة وانقضى الباطل فيها ، وذلك شأن الباطل فيما مضى من الشرائع أنه لا ثبات له .

ودل فعل ﴿ كان ﴾ على أن الزهوق شنشنة الباطل ، وشأنه في كل زمان أنه يظهر ثم يضمحل ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً ﴾ في صدر سورة [يونس : 2] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصلاة لِدُلُوكِ الشمس ﴾ الآية .

فد بينا " في سورة النساء " : أن هذه الآية الكريمة من الآيات اتلي إشارت لأوقات الصلاة . لأن قوله ﴿ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ أي لزوالها على التحقيق ، فيتناول وقت الظهر والعصر . بدليل الغاية في قوله ﴿ إلى غَسَقِ الليل ﴾ أي ظلامه ، وذلك يشمل وقت المغرب والعشاء . وقوله ﴿ وَقُرْآنَ الفجر ﴾ أي صلاة الصبح ، كما تقدم إيضاحه واشرنا للآيات المشيرة لأوقات الصلوات . كقوله : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار وَزُلَفاً مِّنَ الليل ﴾ [هود : 114] الآية ، وقوله : ﴿ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم : 17] الآية . وأتممنا بيان ذلك من السنة في الكلام على قوله : ﴿ إِنَّ الصلاة كَانَتْ عَلَى المؤمنين كِتَاباً مَّوْقُوتاً ﴾ [النساء : 103] فراجعة هنلك إن شئت . والعلم عند الله تعالى .

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) ﴾

الحق بلغة العرب : الثابت الذي ليس بزائل ولا مضمحل . والباطل : هو الذاهب المضحل . والمراد بالحق في هذه الآية : هوز ما في هذا القرآن العظيم والسنة النبوية م دين

الإسلام. والمراد بالباطل فيها : الشرك بالله، والمعاصي المخالفة لدين الإسلام.

وقد بن جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الإسلام جاء ثابتاً راسخاً ، وأن الشرك بالله زهق. أي ذهب واضمحل وزال. تقول العرب : زهقت نفسه : إذا خرجت وزالت من جسده.

(147/462)

ثم يبن جل وعلا أن الباطل كان زهوقاص ، أي مضمحلاً غير ثابت في كل وقت. وقد بين هذا المعنى في غير هذا الموضع. وذكر أن الحق يزيل الباطل ويذهبه. كقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بالحق عَلاَّمُ الغيوب قُلْ جَآءَ الحق وَمَا يُبْدِىءُ الباطل وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ : 48-49] ، وقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : 18] الآية.

وقال صاحب الدُّ المنثور في الكلام على هذه الآية الكريمة : أخرج ابن أبي شيبة ، والبخاري ومسلم ، والترمذي والنسائي ، وابن جرير وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : دخل النَّبي صلى الله عليه وسلم مكة ، وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول ﴿ جَآءَ الحق وَزَهَقَ الباطل إِنَّ الباطل

كَانَ زَهُوقاً ﴾ [الإسراء : 81] ﴿ قُلْ جَآءَ الحق وَمَا يُبْدِىءُ الباطل وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ : 49].

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو يعلى وابن المنذر عن جابر رضي الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً . فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكبت لوجهها ، وقال : ﴿ جَآءَ الحق وَزَهَقَ الباطل إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقاً ﴾ .

وأخرج الطبراني في الصغير ، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح ، وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً . فشد لهم إبليس أقدامها بالرصاص . فجاء ومعه قضيب فجعل يهوي على كل صنم فيخر لوجهه فيقول : ﴿ جَآءَ الحق وَزَهَقَ الباطل إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقاً ﴾ حتى مر عليها كلها .

(148/462)

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية : وفي هذه الآية دليل على كسر نصب المشركين وجميع الأوثان إذا غلب عليهم . ويدخل المعنى كسر آلة الباطل كله وما لا يصلح إلا لمعصية الله

كالطنابير والعيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله .

قال ابن المنذر : وفي معنى الأصنام الصور المتخذة من المد والخشب وشبهها ، وكل ما يتخذه الناس مما لا منفعة فيه إلا اللهو المنفي عنه ، ولا يجوز بيع شيء منه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص إذا غيرت عما هي عليه وصار ب نقراً أو قطعاً فيجوز بيعها والشراء بها .

قال المهلب : وما كسر من الآت الباطل وكان في حبسها بعد كسرها منفعة فصاحبها أولى بها مكسورة . إلا أن يرى الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المال . وقد تقدم حرق ابن عمر رضي الله عنه . وقد هم النَّبي صلى الله عليه وسلم بتحريق دور من تخلف عن صلاة الجماعة وهذا أصل في العقوربة في المال . مع قوله صلى الله عليه وسلم في الناقة التي لعنتها صاحبتها " دعوها فإنها ملعونة " فأزال ملكها عنها تأديباً لصاحبتها ، وعقوبة لها فيما دعت عليه بما دعت به . وقد أراق عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبناً شيب بماء على صاحبه اه الغرض من كلام القرطبي رحمه الله تعالى . وقوله صلى الله عليه وسلم : " والله لينزلن عيسى ابن مريم حكماً عدلاً فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير " الحديث – من قبيل ما ذكرنا دلالة الآية عليه والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77) ﴾

يُوضِّح الحق تبارك وتعالى أن ما حدث هو سُنة من سُنن الله في الرسل ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: 171-173]

فكأن عليهم أنْ يأخذوا عِبْرة من الرسل السابقين ، وبما حلَّ بأعدائهم من عذاب الله ، لقد أرسل الله الرسل فكُذِّبوا وعُودوا واضطهِدُوا ، ومع ذلك نصرهم الله ، وجعل لهم الغَلَبة .

والسُّنة: هي العادة والطريقة التي لا تتخلَّف ولا تتبدَّل ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ [الإسراء: 77] ؛ لأن السُّنة لا تتحوّل ولا تتبدّل إلا بالأقوى الذي يأتي ليُغير السنة بأخرى من عنده ، فإذا كانت السُّنة من الله القوي بل الأقوى ، فهو سبحانه وحده الذي يملك هذا التحويل ، ولا يستطيع أحد أبداً تحويل سنة الله ، فإذا قال سبحانه ، فقوله الحق الذي لا يُبدِّله أحد ، ولا يُعارضه أحد .

وبعد أن تكلَّم الحق سبحانه عن الإلهيات إيماناً بها ، وعن النبوات تصديقاً لها ، وعن القيامة ووجوب الإيمان بها وبما يحدث فيها من تناول الكتب ، أراد سبحانه أنْ يأتي لنا بثمرة هذا المنهج وحصيلته النهائية ، وهي أنْ يستقيمَ لنا منهج الحياة وتنضبط حركتنا

فيها .

هذا المنهج الإلهي جاء في صورة أحكام ، ولهذه الأحكام أركان أساسية جمعها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: "بُنِيَ الإسلامُ على خَمْس: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً " .

إذن: هذه الأركان التي بُنِي عليها الإسلام ، لكن ما حظ المسلم من هذه الأركان ؟ لو تأملت لوجدتنَا نشترك كلنا في شهادة أنْ لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وفي الصلاة لأنها لا تسقط عن أحد لأيّ سبب ، وهي المكرَّرة في اليوم خمس مرات .

أما باقي الأركان وهي: الزكاة ، والصوم ، والحج فقد لا تنطبق شروطها على الجميع ، فالفقير لا تُفرض عليه زكاة أو حج ، والمريض لا يُفرض عليه الصوم . إذن: عندنا أركان للإسلام وأركان للمسلم التي هي: الشهادتان والصلاة ، وقد يدخل فيها الزكاة أو الصوم أو الحج ، فإذا أتى المسلم بجميع الأركان فقد اتفقتْ أركان الإسلام مع أركان المسلم .

وتلاحظ في هذه الأركان أن الشهادتين يكفي أن تقولهما وتشهد بهما ولو مرة واحدة ،

والزكاة والصوم والحج قد لا تنطبق عليك شروطها ، فلم يَبْقَ إلا الصلاة ؛ لذلك جعلها عماد الدين .

ثم قال تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيلِ . . . ﴾ .

فالصلاة هي الفريضة الثابتة المتكررة التي لا تسقط عن المسلم بأي حال ، وفيها إعلانُ ولاء للإيمان بالله كل يوم خمس مرات ، وهي أيضاً تنتظم كل أركان الإسلام ؛ لأنك في الصلاة تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فبدل أنْ كنتَ تقولها مرة واحدة ها أنت تقولها عدة مرات في كل صلاة ، وهذا هو الركن الأول .

كما أنها تشتمل على الصوم ؛ لأنك تصوم في أثناء الصلاة فتمتنع عن شهوتَيْ البطن والفرج ، وكذلك عن أيّ فعل غير أفعال الصلاة ، وعن الكلام في غير ألفاظ الصلاة . إذن: في الصلاة صيام بالمعنى الأوسع للصوم .

وفي الصلاة زكاة ؛ لأن المال الذي تكتسبه وتُزكّيه ناتج عن الحركة ، والحركة فرع الوقت ، وفي الصلاة تُضحّي بالوقت نفسه ، فكأن الزكاة في الصلاة أبلغ .

وكذلك في الصلاة حج ؛ لأنك تتوجّه فيها إلى كعبة الله ، وتستحضرها في ذِهْنك وأمام

ناظِرْكَ .

لذلك استحقت الصلاة أن تكون عماد الدين ، ومَنْ أقامها فقد أقام الدين ، ومَنْ هدمها فقد هدم الدين ، ومن هنا جاءت الصلاة في أول هذه الأحكام ، فقال تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلاَةَ . . ﴾ [الإسراء: 78] أي: أدِّها أداءً كاملاً في أوقاتها .

والصلاة لها مَيْزة عن كل أركان الإسلام ؛ لأن كل تكليفات الإسلام جاءت بواسطة الوحي لرسول الله إلا الصلاة ، فقد فُرِضَتْ بالمباشرة مما يدلُّ على أهميتها ، وقد مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ بالرئيس الذي يتصل بمرؤوسه تليفونياً ليأمره بشيء ، فإذا كان هذا الشيء من الأهمية بمكان استدعاه إليه وأفهمه ما يريد .

وهكذا كانت الصلاة ، فقد فُرِضَتْ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أمته بالمباشرة لما لها من أهمية بين فراض الدين ، ثم تولى جبريل عليه السلام تعليم رسول الله الصلاة ، وعَلَّمها رسول الله للناس ، وقال: " صَلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي " .

وقوله تعالى: ﴿ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ . . ﴾ [الإسراء: 78]

الحق سبحانه يريد أن يُبيِّن لنا مواقيت الصلاة. و(الدلوك) معناه: الزوال من حركة إلى حركة، ومنها قولنا: فلان (المدلكاتي) أي: الذي يتولّى عملية التدليك، وتتحرك يده من مكان لمكان.

والمراد بدلوك الشمس: مَيْلها عن وسط السماء إلى ناحية الغرب، والإنسان يرى الأفق الواسع إذا نظر إلى السماء، فيراها على شكل قوس ممتدّ وعلى حَسْب نظره وقوته يرى الأفق، فإنْ كان نظره قوياً رأى الأُفُقْ واسعاً، وإنْ كان نظره ضعيفاً رأى الأفق ضيّقاً؛ لذلك يقولون لقيل التفكير: ضيِق الأفق.

وأنت حين تقف في مكانك وتنظر إلى السماء تراها على شكل نصف دائرة، وأنت مركزها، وساعةَ أنْ ترى الشمس عمودية عليك، فهذا وقت الزوال، فإذا ما انحرفتْ الشمس ناحية المغرب يُقَال: دلكت الشمس. أي: مالت ناحية المغرب، وهذا هو وقت الظهر.

والمتأمل في فَرْض الصلاة على رسول الله يجد أن الظُّهْر هو أول وقت صَلاّه رسول الله؛ لأن الصلاة فُرِضَتْ عليه في السماء في رحلة المعراج، وكانت بليل، فلما عاد صلى الله عليه وسلم كان يستقبل الظهر، فكانت هي الصلاة الأولى.

ثم يقول تعالى: ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ.. ﴾ [الإسراء: 78] أي: أَقِم الصلاة عند دُلوك الشمس إلى متى؟ إلى غَسَق الليل أي: ظلمته، وفي الفترة من دُلوك الشمس إلى ظُلمة الليل

تقع صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ولا يبقى إلى صلاة الصبح ، فقال عنها سبحانه وتعالى: ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾ [الإسراء: 78]

ونتساءل هنا : لماذا ذكر قرآن الفجر ولم يَقُلْ صلاة ؟

قالوا : لأن القرآن في هذا الوقت حيث سكون الكون وصفاء النفوس ، فتتلقى القرآن نديّاً طريّاً وتستقبله استقبالاً واعياً قبل أن تنشغل بأمور الحياة ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾ [الإسراء: 78]

(153/462)

أي: تشهده الملائكة . إذن: المشهودية لها دَخْل في العبادة ، فإذا كانت مشهودية مَنْ لا تكليف عليه في الصلاة جعلها الله حيثية ، فكيف بمشهودية مَنْ كُلِّف بالصلاة ؟

والحق سبحانه وتعالى جعل في صلاة الجماعة استطراقاً للعبودية ، ففي صلاة الجماعة يستوي كل الخَلْق حيث يخلعون وجاهتهم ، ويخلعون أقدارهم على أبواب المسجد ، كما يخلعون أحذيتهم ، فالرئيس بجانب المرؤوس والوزير بجانب الخفير .

لذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يُوطِّن الإنسان لنفسه مكاناً في المسجد ، يجلس فيه باستمرار ؛ لأن الأصل أنْ يجلس المصلي حيث ينتهي به المجلس ، فيجلس الناس

بأولوية الحضور كل حَسْب مكانه ومبادرته للصلاة ، فلا يتخطى الرقاب ، ولا يُفرق بين اثنين .

ونرى بعض المصلين يسارع إلى الصفّ الأول مثلاً ، ويضع سجادته ليحجزَ بها مكاناً ، ثم ينصرف لحَاجته ، فإذا ما تأخر عن الصلاة أتى ليتخطّى رقاب الناس ليصل إلى مكانه ، فإذا بالناس يضيقون من هذا التصرُّف ، ويُنحُّون سجادته جانباً ويجلسون مكانها ، إنه تصرُّف لا يليق ببيوت الله التي تُسوِّي بين خَلْق الله جميعاً ، وتحقق استطراق العبودية لله ، فأنت اليوم بجوار فلان ، وغداً بجوار آخر ، الجميع خاضع لله راكع وساجد ، فليس لأحد أن يتعالى على أحد .

ونرى كذلك استطراق العبودية واضحاً في مناسك الحج ، حيث يأتي أحد العظماء والوجهاء فتراه عند الملتزم خاضعاً ذليلاً باكياً متضرعاً ، وهو مَنْ هو في دُنْيا الناس .

إذن : فوقت الفجر وقت مبارك مشهود ، تشهده ملائكة الليل ، وهم غير مُكلَّفين بالصلاة ، فالأفضل من مَشْهدية الملائكة مَشْهدية المصلِّين الذين كلَّفهم الله بالصلاة ، وجعلهم ينتفعون بها .

ومن هنا كانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، كما جاء في الحديث النبوي الشريف .

ويجب أن نلتفت إلى أن الحق سبحانه ربط الصلوات الخمس بالوقت، وبآية كونية تدلُّ عليه هي الشمس، فكيف العمل إذا غابت، أو حُجبَتْ عنَّا بغيْم أو نحوه؟

إذن: على الإنسان المؤمن أن يجتهد ويُعمِل تفكيره في إيجاد شيء يضبط به وقته، وفعلاً تفتقتْ القرائح عن آلات ضبط الوقت الموجودة الآن، والتي تُيسِّر كثيراً على الناس؛ لذلك كانت الطموحات الإنسانية لأشياء تخدم الدين وتوضح معالمه أمراً واجباً على علماء المسلمين، على اعتبار أن مَا لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ... ﴾.

(155/462)

الهجود: هو النوم، وتهجَّد: أي أزاح النوم والهجود عن نفسه، وهذه خصوصية لرسول الله وزيادة على ما فرض على أمته، أنْ يتهجَّد لله في الليل، كما قال له ربه تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾[المزمل: 1-4]

فهذه الخصوصية لرسول الله وإنْ كانت فَرْضاً عليه، إلا أنها ليست في قالب من حديد،

بل له صلى الله عليه وسلم مساحة من الحرية في هذه العبادة ، المهم أن يقول لله تعالى جزءاً من الليل ، لكن ما عِلَّة هذه الزيادة في حَقِّ رسول الله ؟ العلة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [المزمل: 5]

وكأن التهجُّد ليلاً ، والوقوف بين يدي الله في هذا الوقت سيعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم القوة والطاقة اللازمة للقيام بهذه المسئولية الملقاة على عاتقه ، ألاَ وهي مسئولية حَمْل المنهج وتبليغه للناس .

وفي الحديث الشريف " أن رسول الله كان كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة " ، ومعنى حَزَبه أَمْر : أي: ضاقت أسبابه عنه ، ولم يَعُد له فيه منفذ ، فإنْ ضاقت عليه الأسباب فليس أمامه إلا المسبِّب سبحانه يلجأ إليه ويُهْرع إلى نجدته ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ [المزمل: 6]

لأنك في الوقت الذي ينام فيه الناس ويخلدون إلى الراحة وتتثاقل رؤوسهم عن العبادة ، تقوم بين يدي ربك مناجياً مُتضرِّعاً ، فتتنزل عليك من الرحمات والفيوضات ، فَمَنْ قام من الناس في هذا الوقت واقتدى بك فَلَهُ نصيب من هذه الرحمات ، وحَظٌّ من هذه الفيوضات . ومَنْ تثاقلتْ رأسه عن القيام فلا حَظَّ له .

إذن: في قيام الليل قوة إيمانية وطاقة روحية، ولما كانت مهمة الرسول فوق مهمة الخَلْق كان حظّه من قيام الليل أزيد من حظهم، فأعباء الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة، والعِبْءُ الثقيل يحتاج الاتصال بالحق الأحد القيوم، حتى يستعين بلقاء ربه على قضاء مصالحه.

ومن العجيب أن ينصرف المسلمون عن هذه السُّنة، ويتغافلون عنها، فإذا حزبهم أمر لا يُهْرَعون إلى الصلاة، بل يتعللون، يقول أحدهم: أنا مشغول. وهل شغل الدنيا مبرر للتهاون في هذه الفريضة؟ ومَنْ يدريك لعلك بالصلاة تُفتح لك الأبواب، وتقضى في ساعة ما لا تقضيه في عدة أيام.

ونقول لهؤلاء الذين يتهاونون في الصلاة وتشغلهم الدنيا عنها، فإنْ صَلّوا صَلُّوا قضاءً، فإن سألتَهم قالوا: المشاغل كثيرة والوقت لا يكفي، فهل إذا أراد أحدهم الذهاب لقضاء حاجته، هل سيجد وقتاً لهذا؟ إنه لا شكَّ واجدٌ الوقت لمثل هذا الأمر، حتى وإنْ تكالبتْ عليه مشاغل الدنيا، فلماذا الصلاة هي التي لا تجد لها وقتاً؟!

وقوله تعالى: ﴿ نَافِلَةً لَّكَ.

. ﴾ [الإسراء: 79]

النافلة هي الزيادة عما فرض على الجميع (لك) أي: خاصة بك دون غيرك، وهذا هو مقام الإحسان الذي قال الله عنه: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ

إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ [الذاريات: 15-16]

والمحسن هو الذي دخل مقام الإحسان، بأن يزيد على ما فرضه الله عليه، ومن جنس ما فرض؛ لذلك جاءت حيثية الإحسان: ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: 17-18]

وهذا المقام ليس فرضاً عليك، فلك أن تصلي العشاء وتنام حتى صلاة الفجر، لكن إنْ أردت أن تتأسَّى برسول الله وتتشبّه به فادخُلْ في مقام الإحسان على قَدْر استطاعتك.

ثم يقول تعالى: ﴿ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ [الإسراء: 79]

(157/462)

تحدثتْ الآية في أولها عن التكليف، وهذا هو الجزاء، و ﴿ عَسَى ﴾ تدل على رجاء حدوث الفعل، وفَرْق بين التمني والرجاء، التمني: أن تعلن أنك تحب شيئاً لكنه غير ممكن الحدوث أو مستحيل، ومن ذلك قول الشاعر: لَيْتَ الكَوَاكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمُهَا فالشاعر يتمنى لو أصبحت الكواكب بين يديه فينظمها قصائد مدح فيمن يمدحه، وهذا أمر مستحيل الحدوث.

وقوله: أَلاَ لَيْتَ الشَّبَابَ يعُودُ يَوْماً فَأُخبرُه بِمَا فَعَلَ المشيبُ أما الرجاء فهو طلب فعل ممكن

الحدوث .

ويقع تحت الطلب أشياء متعددة ؛ فإنْ طلب المتكلم من المخاطب شيئاً غير ممكن الحدوث فهو تمنٍّ ، وإن طلب شيئاً ممكن الحدوث فهو ترجٍّ ، وإنْ طلب صورة الشيء لا حقيقته فهو استفهام كما تقول: أين زيد ؟ وفَرْقٌ بين طلب الحقيقة وطلب الصورة .

فإنْ طلبتَ حقيقة الشيء ، فأمامك حالتان: إما أنْ تطلب الحقيقة على أنها تُفعل فهذا أمر ، مثل: قُمْ. فإنْ طلبتها على أنها لا تفعل فهذا نهي: لا تَقُمْ .

إذن: ﴿ عَسَى ﴾ تدل على الرجاء ، وهو يختلف باختلاف المرجو منه ، فإنْ رجوت من فلان فقد يعطيك أو يخذلك ، فإنْ قُلْتَ: عسى أنْ أعطيك فقد قربت الرجاء ؛ لأنني أرجو من نفسي ، لكن الإنسان بطبعه صاحب أغيار ، ويمكن أن تطرأ عليه ظروف فلا يَفِي بما وعد .

فإنْ قُلْت: عسى الله أن يعطيك ، فهو أقوى الرجاء ؛ لأنك رجوتَ مَنْ لا يُعجِزه شيء ، ولا يتعاظمه شيء ، ولا تتناوله الأغيار إذن: فالرجاء فيه مُحقَّق لا شَكَّ فيه .

والمقام المحمود ، كلمة محمود: أي الذي يقع عليه الحمد ، والحمد هنا مشاع فلم يَقُلْ: محمود مِمَّنْ؟ فهو محمود مِمَّنْ يمكن أن يتأتّى منه الحمد ، محمود من الكل من لَدُنْ آدم ، وحتى قيام الساعة .

والمراد بالمقام المحمود: هو مقام الشفاعة، حينما يقف الخَلْق في ساحة الحساب وهَوْل الموقف وشِدّته، حتى ليتمنى الناس الانصراف ولو أن النار، ساعتها تستشفع كُلُّ أمة بنبيها، فيردّها إلى أنْ يذهبوا إلى خاتم المرسلين وسيد الأنبياء، فيقول: أنا لها، أنا لها.

لذلك أمرنا صلى الله عليه وسلم أن ندعو بهذا الدعاء: "وابعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته" ولا شَكَّ أنه دعاء لصالحنا نحن.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ... ﴾.

(159/462)

قوله تعالى: ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ.. ﴾ [الإسراء: 80] أي: من حيث النظرة العامة؛ لأنك قبل أنْ تدخلَ اطلب الخروج أولاً؛ لأنك لن تدخلَ إلا بعد أنْ تخرجَ. وإنْ كان الترتيب الطبيعي أن تقول: أخرجني مُخْرَج صدق، وأدخلني مُدْخَل صدق.

نقول: لا، لأن الدخول هو غاية الخروج، ولأن الخروج متروك والدخول مستقبل لك، إذن: الدخول هو الأهمّ فبدأ به. لذلك يقولون: إياك أنْ تخرجَ من أمر إلا إذا عرفتَ كيف تدخل.

ومعنى مخرَجَ الصدق ، ومدخل الصدق ، أنك لا تدخل أو تخرج بدون هدف ، فإنْ خرجتَ من مكان فليكُن مخرجك مخرج صدق ، يعني : مطابقاً لواقع مهمتك ، وإنْ دخلتَ مكاناً فليكُنْ دخولك مدخل صدق . أي : لهدف محدد تريد تحقيقه . فإن دخلتَ محلاً مثلاً فادخل لهدف ، كشراء سلعة مثلاً ، فهذا دخول صِدْق ، أما لو دخلتَ دون هدف أو لتؤدي خَلْق الله ، فليس في هذا دخول صدق .

إذن : يكون دخولك لله وخروجك لله ، وهكذا خرج رسول الله من مكة ودخل المدينة ، فكان خروجه لله ودخوله لله ، فخرج مُخْرَجَ صِدْق ، ودخل مُدخَل صدق ، لأنه صلى الله عليه وسلم ما خرج من مكة إلا لما آذاه قومه واضطهدوه وحاربوا دعوته حتى لم تعُدْ التربة في مكة صالحة لنمو الدعوة ، وما دخل المدينة إلا لما رأى النُّصْرة والمؤازرة من أهلها .

فالصدق أنْ يطابق الواقع والسلوك ما في نفسك ، فلا يكُنْ لك قصور في نفسك ، ولك حركة مخالفة لهذا القصد .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً ﴾ [الإسراء : 80]

طلب النُّصْرة من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أرسله بمنهج الحق ، وسوف يصطدم هذا الحق بأهل الباطل والفساد الذين يحرصون على الباطل ، وينتفعون بالفساد ، وهؤلاء سوف يُعَادُون الدعوة ، ويُجابِهونها ؛ لذلك توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربه تعالى الذي أرسله واستعان به على مواجهة أعدائه .

وقوله تعالى: ﴿ سُلْطَاناً نَّصِيراً ﴾ [الإسراء: 80] السلطان: سبق أنْ أوضحنا أنه يُراد به إما حجة تُقنع، وإما سيف يَرْدَع، وهذا واضح في قَوْل الحق تبارك وتعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: 25] أي: بالآيات الواضحات، وهذه أدوات الحجة والإقناع.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: 25] وهذه أدوات القوة والردع.

فالخيِّر من الناس يرتدع بقول الله وبقول الرسول ويستجيب، أما الشرير فلا تُجدي معه الحجة، بل لا بُدّ من رَدْعه بالقوة، فالأول إنْ تعرّض للحلف بالله حلف صادقاً، أما الآخر فإنْ تعرّض للحلف حلف كاذباً، ووجدها فُرْصة للنجاة، ولسان حاله يقول: أتاك الفرج.

وفي الأثر: "إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن".

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ... ﴾.

هكذا أطلقها الحق سبحانه شعاراً مُدوّياً ﴿ جَاءَ الحَقُّ . . ﴾ وما دام قال للرسول: ﴿ قُلْ ﴾ فلا بُدَّ أن الحق قادم لا شَكَّ فيه ؛ لذلك أمره بهذه الأمر الصريح ولم يُوسْوسُه له ، وبعد ذلك يقولها رسول الله في عام الفتح ، وعندما دخل مكة فاتحاً وحوْلَ البيت ثلاثمائة وستون صنماً فيُكبكِبُهم جميعاً ، وينادي: " جاء الحق وزهق الباطل ، جاء الحق وزهق الباطل ، وما يبدئ الباطل وما يعيد " .

أي: جاء الحق واندحر الباطل ، ولم يَعُدْ لديْه القوة التي يُبدِئ بها ويُعيد ، فقد خَمدتْ قواه ولم يَبْقَ له صَوْلَة ولا كلمة .

وقوله تعالى: ﴿ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ . . ﴾ [الإسراء: 81] يشعرنا بأن الحق أتي بنفسه ؛ لأنه نسب المجيء إلى الحق كأنه أمر ذاتيّ فيه ، فلم يأْتِ به أحد ، وكذلك في: ﴿ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ . . ﴾ [الإسراء: 81] فالباطل بطبيعته زاهق مُندحر ضعيف لا بقاءَ له . " ومن العجيب أن الحق الذي جاء على يد رسول الله في فتح مكة انتفع به حتى مَنْ لم يؤمن ، ففي يوم الفتح تتجلى صورة من صور العظمة في دين الإسلام ، حين يجمع رسول الله أهل مكة الذين عاندوا وتكبّروا وأخرجوا رسول الله من أحب البلاد إليه ، وها هو اليوم يدخلها منتصراً ويُوقِفهم أمامه ويقول: " ما تظنون أني فاعل بكم ؟ " قالوا: خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال: " اذهبوا فأنتم الطلقاء " " .

إذن: جاء الحق ليس لاستعباد الناس، ولكن لراحتهم ورَفْع رؤوسهم. ومن الحق الذي أظل مكة بالفتح ما يُرْوَى أن واحداً دخل على النبي صلى الله عليه وسلم الكعبة وأراد إيذاءه، وحينما وضع يده على رسول الله صلى الله عليه وسلم تبدَّل حاله وقال: فوالله لقد أقبلت عليه، وما في الأرض أبغض إليَّ منه، فحين وضعت يدي عنده فوالله ما في الأرض أحب إليَّ منه، وهكذا جاء الحق وزهق الباطل.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ [الإسراء: 81]

(162/462)

زَهُوق صيغة مبالغة، فالباطل نفسه سريعاً ما يذهب ويندثر، ومن العَجَب أن ترى الباطل نفسه من جنود الله؛ لأن الباطل لو لم يُؤلم الناس ويُزعجهم ما تشوَّقوا للحق وما مالوا إليه، فإذا ما لدغهم الباطل واكْتووْا بناره عرفوا الحق.

وقد ضرب لنا الحق سبحانه وتعالى مثلاً للحق وللباطل، فقال: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: 17]

الحق سبحانه يُمثِّل للحق وللباطل بشيء حِسّيٍّ نراه حينما ينهمر المطر على قمم الجبال ، فيسيل الماء على الأودية بين الجبال حاملاً معه صغار الحصى والرمال والقشّ ، وهذا هو الزَّبَد الذي يطفو على صفحة الماء ولا ينتفع الناس به ، وهذا الماء مثالٌ للحق الذي ينفع الناس ، والزَّبَد مثال للباطل الذي لا خَيْر فيه .

أو : يعطينا المثال في صورة أخرى : صورة الحداد أو الصائغ الذي يُوقِد النار على الذهب ليخرج منه ما علق به من شوائب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(163/462)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) ﴾

أخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : إن أمية بن خلف وأبا جهل بن هشام ورجالاً من قريش ، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : تعال فاستلم آلهتنا وندخل معك في دينك ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه

فراق قومه ويحب إسلامهم، فرقّ لهم فأنزل الله ﴿ وإن كادوا ليفتنونك . . . ﴾ إلى قوله ﴿ نصيراً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي، عن باذان عن جابر بن عبد الله مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر فقالوا : لا ندعك تستلمه حتى تستلم آلهتنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما عليّ لو فعلت والله يعلم مني خلافه ؟ فأنزل الله ﴿ وإن كادوا ليفتنونك . . . ﴾ إلى قوله ﴿ نصيراً ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا طاف يقول له المشركون : استلم آلهتنا كي لا تضرك فكاد يفعل فأنزل الله ﴿ وإن كادوا ليفتنونك . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير رضي الله عنه، أن قريشاً أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : إن كنت أُرْسِلْتَ إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك، فركن إليهم فأوحى الله إليه ﴿ وإن كادوا ليفتنونك . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه قال: أنزل الله ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ [النجم: 1] فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ [النجم: 19] فألقى عليه الشيطان كلمتين: لك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى. فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم ما بقي من السورة وسجد، فأنزل الله ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك... ﴾ الآية. فما زال مغموماً مهموماً حتى أنزل الله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي... ﴾ [الحج: 52] الآية.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن ثقيفاً قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: أجِّلْنا سنة حتى نهدي لآلهتنا، فإذا قبضنا الذي يهدى للآلهة أحرزناه ثم أسلمنا وكسرنا الآلهة. فهم أن يؤجلهم فنزلت ﴿ وإن كادوا ليفتنونك... ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ يعني، ضعف عذاب الدنيا والآخرة.

وأخرج البيهقي في كتاب عذاب القبر، عن الحسن رضي الله عنه في قوله: ﴿ ضعف الحياة ﴾ قال: هو عذاب القبر.

وأخرج البيهقي عن عطاء رضي الله عنه في قوله: ﴿ وضعف الممات ﴾ قال: عذاب

القبر.

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: كانت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يسكنون الشام، فمالك والمدينة؟ فَهَمَّ أن يشخص فأنزل الله تعالى ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن حضرمي رضي الله عنه، أنه بلغه أن بعض اليهود قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن أرض الأنبياء أرض الشام، وإن هذه ليست بأرض الأنبياء. فأنزل الله تعالى ﴿ وإن كادوا ليستفزونك... ﴾ الآية.

(165/462)

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل وابن عساكر، عن عبد الرحمن بن غنم رضي الله عنه: أن اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: "إن كنت نبياً فالْحَقْ بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوا فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من

سورة بني إسرائيل بعد ما ختمت السورة ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ تحويلاً ﴾ فأمره بالرجوع إلى المدينة وقال : فيها محياك وفيها مماتك وفيها تبعث . وقال له جبريل عليه السلام : سل ربك . . . فإن لكل نبي مسألة . فقال : ما تأمرني أن أسأل؟ قال : ﴿ قل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ فهؤلاء نزلن عليه في رجعته من تبوك .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ﴾ قال : همّ أهل مكة بإخراج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة وقد فعلوا بعد ذلك فأهلكهم الله تعالى يوم بدر ، ولم يلبثوا بعده إلا قليلاً حتى أهلكهم الله يوم بدر ، وكذلك كانت سنة الله تعالى في الرسل عليهم الصلاة والسلام إذا فعل بهم قومهم مثل ذلك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وإذاً لا يلبثون خلافكَ إلا قليلاً ﴾ قال : يعني بالقليل يوم أخذهم ببدر ، فكان ذلك هو القليل الذي كان كثيراً بعده .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : القليل ثمانية عشر شهراً .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي

حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه من طرق ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : دلوك الشمس : غروبها . تقول العرب : إذا غربت الشمس : دلكت الشمس .

(166/462)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن علي رضي الله عنه قال : دلوكها ، غروبها .

وأخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله :

" ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ قال : لزوال الشمس " .

وأخرج البزار وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي بسند ضعيف ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ﴿ دلوك الشمس ﴾ زوالها .

وأخرج عبد الرزاق عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ﴿ دلوك الشمس ﴾ زياغها بعد نصف النهار .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : دلوكها ، زوالها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ لدلوك الشمس ﴾ قال : إذا فاء الفيء .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتاني جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر " .

وأخرج ابن جرير عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر إذا زالت الشمس ، ثم تلا ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وابن مردويه ، عن مجاهد رضي الله عنه قال : كنت أقود مولاي قيس بن السائب فيقول لي : أدلكت الشمس ؟ فإذا قلت نعم ، صلى الظهر .

وأخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر عند دلوك الشمس .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله : ﴿ إلى غسق الليل ﴾ قال : العشاء الآخرة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ﴿ غسق الليل ﴾ اجتماع الليل وظلمته .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ﴿ غسق الليل ﴾ بدو الليل .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له :

أخبرني عن قوله : ﴿ إلى غسق الليل ﴾ قال : ما الغسق ؟ قال : دخول الليل بظلمته .

قال فيه زهير بن أبي سلمى :

ظلت تجوب يداها وهي لاهبة . . . حتى إذا جنح الإظلام في الغسق

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد رضي الله عنه قال : ﴿ دلوك الشمس ﴾ حين تزيغ . و ﴿ غسق الليل ﴾ غروب الشمس .

وأخرج عبد الرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ﴿ دلوك الشمس ﴾ إذا زالت عن بطن السماء و ﴿ غسق الليل ﴾ غروب الشمس . والله سبحانه أعلم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ قال : صلاة الصبح .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وقرآن الفجر ﴾ قال : صلاة الفجر .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن عطاء رضي الله عنه في قوله : ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ قال : تشهده الملائكة والجن .

وأخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ قال : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيها .

وأخرج عبد الرزاق والبخاري ومسلم وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر " ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : اقرؤوا إن شئتم ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والطبراني ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : يتدارك الحرسان من ملائكة الله تعالى ، حارس الليل وحارس النهار عند صلاة الصبح ، اقرؤوا إن شئتم ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ ثم قال : تنزل ملائكة الليل وملائكة النهار .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير والطبراني وابن مردويه ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ قال : " يشهده الله وملائكة الليل وملائكة النهار " .

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ قال : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار .

وأخرج ابن أبي شيبة عن القاسم عن أبيه قال : دخل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه المسجد لصلاة الفجر ، فإذا قوم قد أسندوا ظهورهم إلى القبلة فقال : نحّوا عن القبلة . . . لا تحولوا بين الملائكة وصلاتها ، فإن هاتين الركعتين صلاة الملائكة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة ، عن علقمة والأسود رضي الله عنهما قال : التهجد بعد نومة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : نسخ قيام الليل إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ نافلة لك ﴾ يعني ، خاصة للنبي صلى الله عليه وسلم أمر بقيام الليل وكتب عليه .

وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في سننه ، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاث هن عليّ فرائض وهن لكم سنة : الوتر والسواك وقيام الليل " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ومحمد بن نصر والبيهقي في الدلائل، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ نافلة لك ﴾ قال: لم تكن النافلة لأحد إلا للنبي صلى الله عليه وسلم، خاصة من أجل أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما عمل من عمل مع المكتوب فهو نافلة له سوى المكتوب من أجل أنه لا يعمل ذلك في كفارة الذنوب فهي نوافل له وزيادة، والناس يعملون ما سوى المكتوب في كفارة ذنوبهم فليس للناس نوافل، إنما هي للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه مثله.

وأخرج ابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه مثله.

وأخرج محمد بن نصر عن الحسن رضي الله عنه في قوله: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ قال: لا تكون نافلة الليل إلا للنبي صلى الله عليه وسلم.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ومحمد بن نصر، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ نافلة لك ﴾ قال: تطوّعاً وفضيلة لك.

وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه، عن أبي أمامة رضي الله

عنه في قوله : ﴿ نافلة لك ﴾ قال : كانت للنبي صلى الله عليه وسلم نافلة ولكم فضيلة .

وفي لفظ إنما كانت النافلة خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج الطيالسي وابن نصر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان والخطيب في تاريخه ، عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه قال : إذا توضأ الرجل المسلم فأحسن الوضوء ، فإن قعد – قعد مغفوراً له ، وإن قام يصلي كانت له فضيلة . قيل له : نافلة ؟ قال : إنما النافلة للنبي صلى الله عليه وسلم ، كيف يكون له نافلة وهو يسعى في الخطايا والذنوب ! ؟ ولكن فضيلة .

وأخرج سعيد بن منصور والبخاري وابن جرير وابن مردويه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء كل أمة تتبع نبيها ، يقولون : يا فلان ، اشفع لنا . حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ وسئل عنه قال : هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي .

وأخرج ابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " المقام المحمود ، الشفاعة " .

وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه من طرق ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ قال : مقام الشفاعة .

وأخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المقام المحمود فقال : " هو الشفاعة " .

وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تلٍّ ، ويكسوني ربي حلة خضراء ثم يؤذن لي أن أقول ما شاء الله أن أقول ، فذلك المقام المحمود " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان من طريق علي بن حسين قال : أخبرني رجل من أهل العلم ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تمد الأرض يوم القيامة مدّ الأديم ولا يكون لبشر من بني آدم فيها إلا موضع قدمه ، ثم أدعى أول الناس فأخر ساجداً ، ثم يؤذن لي فأقول : يا رب ، أخبرني هذا لجبريل وجبريل عن يمين الرحمن ، والله ما رآه جبريل قط قبلها

أنك أرسلته إلي . وجبريل عليه السلام ساكت لا يتكلم حتى يقول الرب : صدقت . . . ثم يؤذن لي في الشفاعة فأقول : أي رب ، عبادك عبدوك في أطراف الأرض . فذلك المقام المحمود " .

وأخرج ابن أبي شيبة والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه والبيهقي في البعث والخطيب في المتفق والمفترق ، عن حذيفة رضي الله عنه قال : يجمع الناس في صعيد واحد ، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر حفاة عراة كما خلقوا قياماً ، لا تكلم نفس إلا بإذنه ينادي : يا محمد ، فيقول : لبيك وسعديك والخير في يديك والشرّ لَيْسَ إليك ، والمهدي من هديت وعبدك بين يديك وبك وإليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت . فهذا المقام المحمود " .

وأخرج البخاري وابن جرير وابن مردويه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم عليه السلام فيقول : لَسْتُ بصاحب ذلك ، ثم موسى عليه

السلام فيقول : كذلك ، ثم محمد صلى الله عليه وسلم فيشفع ، فيقضي الله بين الخلائق فيمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجنة " فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم .

وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إني لأقوم المقام المحمود . قيل : وما المقام المحمود ؟ قال : ذلك إذا جيء بكم حفاة عراة غرلاً ، فيكون أول من يكسى إبراهيم عليه السلام ، فيقول : اكسوا خليلي . فيؤتى بريطتين بيضاوين فيلبسهما ، ثم يقعد مستقبل العرش . ثم أوتَى بكسوة فألبسها فأقوم عن يمينه مقاماً لا يقومه أحد ، فيغبطني به الأولون والآخرون ، ثم يفتح نهر من الكوثر إلى الحوض " .

وأخرج ابن مردويه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : " ما المقام المحمود الذي ذكر لك ربك ؟ قال : يحشر الله الناس يوم القيامة عراة غرلاً ، كهيئتكم يوم ولدتم . . . هالهم الفزع الأكبر وكظمهم الكرب العظيم ، وبلغ الرشح أفواههم وبلغ بهم الجهد والشدة ، فأكون أول مدعى وأول معطى ، ثم يدعى إبراهيم عليه السلام قد كسي ثوبين أبيضين من ثياب الجنة ، ثم يؤمر فيجلس في قبل الكرسي . ثم أقوم عن يمين العرش . . . فما من الخلائق قائم غيري ، فأتكلم فيسمعون وأشهد فيصدقون " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ قال : "يجلسه على السرير" .

(172/462)

وأخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ - آدم فمن سواه - إلا تحت لوائي ، وأنا أوّل من تَنْشَقُّ عنه الأرض ولا فخر . . . فيفزع الناس ثلاث فزعات فيأتون آدم عليه السلام فيقولون : أنت أبونا فاشفع لنا إلى ربك . فيقول : إني أذنبت ذنباً أهبطت منه إلى الأرض ، ولكن ائتوا نوحاً . فيأتون نوحاً فيقول : إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا ، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم . فيأتون إبراهيم فيقول : ائتوا موسى . فيأتون موسى عليه الصلاة والسلام فيقول : إني قتلت نفساً ، ولكن ائتوا عيسى . فيأتون عيسى عليه السلام فيقول : إني عُبِدْتُ من دون الله ، ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم . فيأتوني فأنطلق معهم فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها ، فيقال : من هذا ؟ فأقول : محمد . فيفتحون لي ويقولون : مرحباً . فأخرّ ساجداً فيلهمني الله عز وجل من الثناء والحمد والمجد ، فيقال : ارفع

رأسك . . . سل تُعْطَ ، واشفع تُشَفَّعْ ، وقل يسمع لقولك . فهو المقام المحمود الذي قال الله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد رضي الله عنه في قوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ قال : يخرج الله قوماً من النار من أهل الإيمان والقبلة بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فذلك المقام المحمود .

(173/462)

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، أنه ذكر حديث الجهنّميّين فقيل له : ما هذا الذي تحدث والله تعالى يقول : ﴿ إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ [آل عمران : 192] ﴿ وكلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ [السجدة : 20] فقال : هل تقرأ القرآن ؟ قال : نعم . قال : فهل سمعت فيه بالمقام المحمود ؟ قال : نعم . قال : فإنه مقام محمد صلى الله عليه وسلم الذي يخرج الله به من يخرج .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : يأذن الله تعالى في الشفاعة ، فيقوم روح القدس جبريل عليه السلام ، ثم يقوم إبراهيم خليل الله عليه الصلاة والسلام ، ثم يقوم عيسى أو موسى عليهما السلام ، ثم يقوم نبيكم

صلى الله عليه وسلم واقفاً ليشفع ، لا يشفع أحد بعده أكثر مما شفع ، وهو المقام المحمود الذي قال الله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه ، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سألتم الله فاسألوه أن يبعثني المقام المحمود الذي وعدني " .

وأخرج البخاري عن جابر رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حَلّتْ له شفاعتي يوم القيامة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سلمان رضي الله عنه قال : يقال له : سل تعطه – يعني النبي صلى الله عليه وسلم – واشفع تشفع ، وادع تجب . فيرفع رأسه فيقول : أمتي . مرتين أو ثلاثاً ، فقال سلمان رضي الله عنه : يشفع في كل من في قلبه مثقال حبة حنطة من إيمان أو مثقال شعيرة من إيمان أو مثقال حبة خردل من إيمان . قال سلمان رضي الله عنه : فذلكم المقام المحمود " .

وأخرج الديلمي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : " قيل : يا رسول الله ، ما المقام المحمود ؟ قال : ذلك يوم ينزل الله تعالى عن عرشه ، فيئط كما يئط الرحل الجديد من تضايقه " .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ قال : يجلسه بينه وبين جبريل عليه السلام ، ويشفع لأمته . فذلك المقام المحمود .

وأخرج الديلمي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ قال : يجلسني معه على السرير " .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم خيّر بين أن يكون عبداً نبياً أو ملكاً نبياً ، فأومأ إليه جبريل عليه السلام أن تواضع ، فاختار أن يكون عبداً نبياً . فأعطى به النبي صلى الله عليه وسلم ثنتين : أنه أول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع . فكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ قال : يجلسه معه على عرشه .

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِي مِنْ لَدُنْكَ

سُلْطَانًا نَصِيرًا (80) ﴾

أخرج أحمد والترمذي وصححه، وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل والضياء في المختارة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، ثم أمر بالهجرة فأنزل الله تعالى ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾.

(175/462)

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل، عن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق... ﴾ الآية. قال: أخرجه الله من مكة ﴿ مخرج صدق ﴾ وأدخله المدينة ﴿ مدخل صدق ﴾ قال: وعلم نبي الله صلى الله عليه وسلم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله تعالى وحدوده وفرائضه وإقامة كتاب الله تعالى، فإن السلطان عزة من الله تعالى جعلها بين عباده، ولولا ذلك لغار بعضهم على بعض وأكل شديدهم ضعيفهم.

وأخرج الخطيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: والله لما يزع الله بالسلطان أعظم

مما يزع بالقرآن.

وأخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة، عن زيد بن أسلم رضي الله عنه في الآية قال: جعل الله ﴿ مدخل صدق ﴾ المدينة ﴿ ومخرج صدق ﴾ مكة و ﴿ سلطاناً نصيراً ﴾ الأنصار.

وأخرج الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قرأ "أدخلني مَدْخَلَ صدق وأخرجني مَخْرَجَ صدق" بفتح الميم.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ أدخلني مدخل صدق ﴾ يعني، الموت ﴿ وأخرجني مخرج صدق ﴾ يعني، الحياة بعد الموت.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(176/462)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين:

﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77) ﴾

قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ﴾:

فيه ثلاثة أوجهٍ، أحدُها: أن ينتصِبَ على المصدرِ المؤكَّد، أي: سَنَّ اللهُ ذلك سُنَّةَ، أو سَنَنَّا ذلك سُنَّةَ. الثاني: - قاله الفراء - أنه على إسقاطِ الخافض، أي: كسُنَّةِ الله، وعلى هذا لا يُوقف على قولِه "إلا قليلاً". الثالث: أن ينتصبَ على المفعولِ به، أي: اتبعْ سُنَّةَ.

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) ﴾

قوله تعالى: ﴿ لِدُلُوكِ ﴾: في هذه اللامِ وجهان، أحدُهما: أنها بمعنى "بَعْد"، أي: بَعْدَ دُلوكِ الشمسِ، ومثلُه قول متمم بن نويرة:

3090- فلمَّا تفرَّقْنا كأني ومالِكاً ... لطولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معاً

ومثلُه قولُهم: "كَتَبْتُه لثلاثٍ خَلَوْنَ". والثاني: أنها على بابها، أي: لأجلِ دُلوك. قال الواحدي: "لأنها إنما تَجِبُ بزوالِ الشمس".

والدُّلوك: مصدرُ دَلَكت الشمسُ، وفيه ثلاثةُ أقوالٍ، أشهرُها: أنه الزوالُ، وهو نِصْفُ النهار. والثاني: أنه من الزوال إلى الغروب. قال الزمخشري: "واشتقاقُه من الدَّلْكِ؛ لأنَّ الإِنسانَ يَدْلُكُ عينَه عند النظرِ إليها". قلت: وهذا يُفْهِم أنه ليس بمصدرٍ؛ لأنه جعله مشتقاً من المصدرِ. والثالث: أنه الغروبُ، وأنشد الفراءُ عليه قولَه:

3091- هذا مُقامُ قَدَمَيْ رَباحِ ... ذَبَّبَ حتى دَلَكَتْ بَراحِ

أي : غَرَبَتْ بَراحِ ، وهي الشمسُ . وأنشد ابن قتيبة على ذلك قول ذي الرمة :

3092- مصابيح ليسَتْ باللواتي تقودها . . . نُجومٌ ولا بالآفلاتِ الدوالِكِ

(177/462)

أي : الغارِبات : وقال الراغب : دُلُوْكُ الشمسِ مَيْلُها للغُروب ، وهو مِنْ قولِهم : دَلَكْتُ الشمسَ : دفعتُها بالرَّاح ، ومنه : دَلَكْتُ الشيءَ في الراحةِ ، ودَلَكْتُ الرجلَ : ماطَلْتُه ، والدَّلُوك : ما دَلَكْتَه مِنْ طِيب ، والدَّلِيْكُ : طعامٌ يُتَّخذ مِنْ زُبْدٍ وتَمْر " .

قوله : { إلى غَسَقِ اليل } في هذا الجارِّ وجهان ، أحدُهما : أنه متعلِّقٌ ب أَقِمْ " فهي لانتهاءِ غايةِ الإِقامةِ ، وكذلك اللامُ في " لِدُلوك " متعلقةٌ به أيضاً . والثاني : أنه متعلقٌ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من " الصلاة " ، أي : أَقِمْها مَمْدودةً إلى غَسَقِ الليل ، قاله أبو البقاء . وفيه نظرٌ : من حيث إنه قَدَّر المتعلِّق كوناً مقيداً ، إلا أَنْ يريدَ تفسيرَ المعنى لا الإِعرابِ .

والغَسَقُ : دخولُ أولِ الليل ، قاله ابنُ شُميل . وأنشد :

3093- إنَّ هذا الليلَ قد غَسَقا . . . واشتكَيْتُ الهَمَّ والأَرَقا

وقيل : هو سَوادُ الليل وظُلْمَتُه ، وأصلُه من السَّيَلان : غَسَقَتِ العين ، أي : سال دَمْعُها فكأن الظُّلْمَةَ تَنْصَبُّ على العالَم وتَسِيْل عليهم قال :

3094- ظلَّتْ تجودُ يداها وهي لاهِيَةٌ . . . حتى إذا هَجَمَ الإظْلامُ والغَسَقُ

ويُقال: غَسَقَتِ العينُ: امتلأتْ دَمْعاً، وغَسَقَ الجرحُ: امتلأ دَماً، فكأنَّ الظُّلْمَةَ مَلأتْ الوجودَ. والغاسِقُ في قوله: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ ﴾ [الفلق: 3] قيل: المرادُ به القمرُ إذا كَسَفَ واسْوَدَّ. وقيل: الليل. والغَساقُ بالتخفيف والتشديدِ ما يَسِيل مِنْ صَديدِ أهل النار. ويُقال: غَسَقَ الليلُ وأَغْسَقَ، وظَلَمَ وأَظْلَمَ، ودَجَى وأَدْجَى، وغَبَشَ وأَغْبَشَ، نقله الفرَّاء.

(178/462)

قوله: ﴿ قُرْآنَ الفجر ﴾ فيه أوجهٌ، أحدها: أنه عطفٌ على "الصلاة"، أي: وأَقِمْ قرآنَ الفجرِ، والمرادُ به صلاةُ الصبحِ، عَبَّر عنها ببعضِ أركانِها. والثاني: أنه منصوبٌ على الإِغراء، أي: وعليك قرآنَ الفجر، كذا قدَّره الأخفشُ وتَبعه أبو البقاء، وأصولُ البصريين تَأْبَى هذا؛ لأنَّ أسماءَ الأفعالِ لا تعمل مُضمرةً. الثالث: أنه منصوبٌ بإضمار فعلٍ، أي: كَثِّر قرآنَ أو الزَمْ قرآنَ الفجرِ.

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الليل ﴾: في "مِنْ" هذه وجهان، أحدُهما: أنها متعلقةٌ ب "تَهَجَّدْ"

، أي : تَهَجَّدْ بالقرآنِ بعضَ الليل ، والثاني : أنها متعلقةٌ بمحذوفٍ تقديرُه : وقُمْ قَوْمةً من الليل ، أو واسهرْ من الليل ، ذَكَرهما الحوفيُّ . وقال الزمخشري : " وعليك بعضَ الليل فتهَجَّدْ به " فإنْ كان أراد تفسيرَ المعنى فقريبٌ ، وإن أراد تفسيرَ الإِعراب فلا يَصِحُّ لأنَّ المُغْرَى به لا يكون حرفاً ، وجَعْلُه " مِنْ " بمعنى بعض لا يَقْتضي اسميَّتَها ، بدليل أنَّ واوَ " مع " ليسَتْ اسماً بإجماعٍ ، وإن كانت بمعنى اسمٍ صريحٍ وهو " مع " . /

والضميرُ في " به " الظاهرُ عَوْدُه على القرآنِ من حيث هو ، لا بقيد إضافتِه إلى الفجر .

والثاني : أنها تعودُ على الوقت المقدَّرِ ، أي : وقُمْ وقتاً من الليل فتهَجَّدْ بذلك الوقتِ ، فتكونُ الباءُ بمعنى " في " .

(179/462)

قوله " نافِلَةً " فيها أوجهٌ ، أحدُها : أنها مصدرٌ ، أي : تَتَنَفَّلُ نافلةً لك على الصلواتِ المفروضةِ . والثاني : أنها منصوبةٌ ب " تَهَجَّدْ " لأنَّه في معنى تَنَفَّلْ ، فكأنه قيل : تنفَّل نافلة . والنَّافِلَةُ ، مصدرٌ كالعاقِبة والعافِية . الثالث : أنها منصوبةٌ على الحال ، أي : صلاةَ نافِلَةٍ ، قاله أبو البقاء وتكون حالاً من الهاء في " به " إذا جَعَلْتَها عائدةً على القرآن لا على وقتٍ مقدر . الرابع : أنها منصوبةٌ على المفعولِ بها ، وهو ظاهرُ قولِ الحوفيِّ فإنه قال : " ويجوز أن

ينتصِبَ " نافلةً " بتهجَّدْ ، إذا ذَهَبْتَ بذلك على معنى : صَلِّ به نافلةً ، أي : صَلِّ نافِلَةً لك " .

والتهَجُّدُ : تَرْكُ الهُجُودِ وهو النَّوْمُ ، وتفعَّل يأتي للسَّلْب نحو : تَحَرَّجَ وتأَثَّمَ ، وفي الحديث : " كان يَتَحَنَّثُ بغارِ حراءٍ " وفي الهُجود خلافٌ بين أهل اللغةِ فقيل : هو النوم . قال :

3095- وبَرْكُ هُجودٍ قد أثارَتْ مَخافتي . . . .

وقال آخر :

3096- ألا طَرَقَتْنا والرِّفاقُ هُجودُ . . . .

وقال آخر :

3097- ألا زارَتْ وأهلُ مِنَىً هُجودُ . . . وليت خيالَها بِمَنَىً يعودُ

فَهُجُودٌ : نيامٌ ، جمعُ " هاجِد " كساجِد وسُجود . وقيل : الهُجود : مشتركٌ بين النائِم والمُصَلِّي . قال ابن الأعرابي : " تَهَجَّدَ : صلَّى من الليل ، وتَهَجَّدَ : نامَ " ، وهو قول أبي عبيدةَ واللَّيْث .

قوله : ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً ﴾ في نصب " مَقاماً " أربعةُ أوجه ، أحدها : أنه منصوبٌ على الظرف ، أي : يبعثُك في مَقام . الثاني : أن ينتصِبَ بمعنى " يَبْعَثُك " لأنه في معنى يُقيمك ، يقال : أُقِيم مِنْ قبرِه وبُعِث منه ، بمعنىً فهو نحو : قعد جلوساً . الثالث : أنه منصوبٌ على الحال ، أي : يَبْعَثُك ذا مقامٍ محمودٍ . الرابع : أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ ، وناصبُه مقدَّرٌ ، أي : فيقوم مقاماً .

و" عَسَى " على الأوجهِ الثلاثةِ دونَ الرابع يتعيَّن فيها أن تكونَ التامَّةَ ، فتكونَ مسندةً إلى " أنْ " وما في حَيِّزها إذ لو كانت ناقصةً على أَنْ يكونَ ﴿ أَن يَبْعَثَكَ ﴾ خبراً مقدماً ، و" ربُّك " اسماً مؤخراً ، لَزِمَ من ذلك محذورٌ : وهو الفصلُ بأجنبي بين صلة الموصول ومعمولِها ، فإنَّ " مَقاماً " على الأوجه الثلاثةِ الأُوَلِ منصوبٌ ب " يَبْعَثُكَ " وهو صلةٌ ل " أَنْ " فإذا جَعَلْتَ " ربُّك " اسمَها كان أجنبياً من الصلة فلا يُفْصَلُ به ، وإذا جَعَلْتَه فاعِلاً لم يكن أجنبياً فلا يُبالَى بالفصلِ به .

وأمَّا على الوجه الرابع فيجوز أن تكونَ التامَّةَ والناقصةَ بالتقديم والتأخير لعدم المحذورِ ؛ لأنَّ " مقاماً " معمولٌ لغير الصلة ، وهذا من محاسِنِ صناعة النحو ، وتقدَّم لك قريبٌ مِنْ هذا في سورةِ إبراهيم عليه السلام في قولِه تعالى : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ﴾ [إبراهيم : 10] .

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (80) ﴾

(181/462)

قوله تعالى : ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ : يحتمل أن يكونَ مصدرا ً، وأن يكونَ ظرفَ مكان وهو الظاهر . والعامَّةُ على ضم الميم فيهما لسَبْقهما فعلٌ رباعي . وقرأ قتادة وأبو حيوة وإبراهيم بن أبي عبلة وحميد بفتحِ الميم فيهما : إمَّا لأنهما مصدران على حَذْفِ الزوائد ك ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] ، وإمَّا لأنهما منصوبان بمقدَّرٍ موافقٍ لهما تقديره : فادْخُلْ مَدْخَلَ واخرُجْ مَخْرَج . وقد تقدَّم هذا مستوفى في قراءةِ نافع في سورة النساء ، وأنه قرَأ كذلك في سورة الحج .

ومُدْخَلَ صِدْقٍ ومُخْرَجُ صِدْقٍ من إضافة التبيين ، وعند الكوفيين من إضافةِ الموصوف لصفته ، لأنه يُوصف به مبالغةً .

قوله : " سُلْطاناً " هو المفعول الأُول للجَعْل ، والثاني أحدُ الجارَّيْن المتقدَّمين ، والآخرُ متعلِّقٌ باستقراره . و " نصيراً " يجوز أن يكون مُحَوَّلاً مِنْ فاعِل للمبالغةِ ، وأن يكونَ بمعنى مفعول

.

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) ﴾

والزُّهُوق: الذَّهابُ والاضمحلال قال:

3098- ولقد شَفَى نَفْسِي وأبرأَ سُقْمَها . . . إقدامُه بمَزَالَةٍ لم يَزْهَقِ

يقال: زَهَقَتْ نَفْسي تَزْهَقُ زهوقاً بالضم. وأمّا الزَّهوق بالفتح فمثالُ مبالَغَةٍ كقوله:

3099- ضَرُوبٌ بنَصْلِ السَّيْفِ سُوقَ سِمانِها . . . .

. . . . انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 395. 402﴾

(182/462)

فصل

قال القرطبى:

باب في الشفاعة العامة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأهل المحشر

مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم يوماً بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة فقال: أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون بم ذاك يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض

: ألا ترون ما أنتم فيه ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس لبعض : أئتوا آدم فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبونا أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض وسماك الله عبداً شكوراً ، اشفع لنا إلى ربنا ، ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم نوح : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي .

نفسي نفسي ، اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقولون : يا إبراهيم أنت نبي الله خليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم إبراهيم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته ، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا

إلى موسى ، فيأتون موسى فيقولون يا موسى : أنت رسول الله فضلك الله برسالته وبتكليمه على الناس اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها نفسي نفسي ، اذهبوا إلى عيسى فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمت الناس في المهد وكلمة منه ألقاها إلى مريم وروح منه فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولم يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنباً . نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيأتون فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك ما تقدم وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فانطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي ، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد غيري من قبلي ثم قال : يا محمد ارفع رأسك ، سل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول يا رب أمتي أمتي ، فيقال يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عيله من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصري وفي البخاري كما بين مكة وحمير .

فصل : هذه الشفاعة العامة التي خص بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من بين سائر الأنبياء هي المراد بقوله عليه السلام : لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي . رواه الأئمة البخاري ومسلم وغيرهما ، وهذه الشفاعة العامة لأهل الموقف إنما هي ليجعل حسابهم ويراحوا من هول الموقف وهي الخاصة به صلى الله عليه وسلم وقوله : أقول يا رب

أمتي أمتي اهتمام بأمر أمته وإظهار محبته فيهم وشفقته عليهم ، وقوله : فيقال يا محمد ادخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه يدل على أنه شفع فيما طلب من تعجيل حساب أهل الموقف ، فإنه لما أمر بإدخال من لا حساب عليه من أمته ، فقد شرع في حساب من عليه حساب من أمته وغيرهم . وكان طلبه هذه الشفاعة من الناس بإلهام من الله تعالى لهم حتى يظهر في ذلك اليوم مقام نبيه صلى الله عليه وسلم المحمود الذي وعده ، ولذلك قال كل نبي : لست لها لست لها حتى انتهى الأمر إلى محمد صلى الله عليه وسلم فقال : أنا لها . وروى مسلم ، عن قتادة ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك . وفي رواية فيلهمون فيقولون : لو

استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا . قال : فيأتون آدم وذكر الحديث .

وذكر أبو حامد أن بين إتيانهم من آدم إلى نوح ألف عام ، وكذا بين كل نبي إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وذكر أيضاً أن الناس في الموقف على طبقات مختلفة وأنواع متباينة بحسب جرائمهم ، كمانع الزكاة والغال والغادر على ما يأتي بيانه ، وآخرون قد عظمت فروجهم وهي تسيل صديداً يتأذى بنتنها جيرانهم ، وآخرون قد صلبوا على جذوع النيران ، وآخرون قد خرجت ألسنتهم على صدورهم أقبح ما يكون ، وهؤلاء المذكرون هم الزناة واللوطية والكاذبون ، وآخرون قد عظمت بطونهم كالجبال الرواسي وهم آكلوا الربا وكل ذي ذنب قد بدا سوء ذنبه . قاله في كتاب كشف علوم الآخرة ، وذكر في آخر الكتاب أن الرسل يوم القيامة على المنابر والأنبياء والعلماء على منابر صغار ، ومنبر كل رسول على قدره ، والعلماء العاملون على كراسي من نور ، والشهداء والصالحون كقراء القرآن والمؤذنون على كثبان من مسك ، وهذه الطائفة العاملة أصحاب الكراسي هم الذين يطلبون الشفاعة من آدم ونوح حتى ينتهوا إلى رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وذكر الفقيه أبو بكر بن برجان في كتاب الإرشاد له : ويلهم رؤوس المحشر ممن يشفع لهم ويريحهم مما هم فيه وهم رؤساء أتباع الرسل فيكون ذلك .

باب ما جاء أن هذه الشفاعة هي المقام المحمود

الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم ومن سواه إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر قال : فيفزع الناس فزعات فيأتون آدم فيقولون أنت أبونا فاشفع لنا إلى ربك فيقول : أنا أذنبت ذنباً فأهبطت به إلى الأرض ائتوا نوحاً فيقول : إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا ولكن اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقول : إني كذبت ثلاث كذبات ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما منها كذبة كذبة إلا ما حل بها عن دين الله ولكن ائتوا موسى فيأتون موسى فيقول : إني قتلت نفساً ولكن ائتوا عيسى فيقول : إني عبدت من دون الله ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فيأتوني فأنطلق معهم . قال ابن جدعان قال أنس : فكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها فيقال من هذا ؟ فيقال : محمد فيفتحون لي ويرحبون فيقولون مرحباً فأخر ساجداً لله فيلهمني من الثناء والحمد فيقال لي ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع وقل يسمع لقولك وهو المقام المحمود الذي قال الله فيه عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً . قال سفيان :

ليس عن أنس إلا هذه الكلمة فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها . قال الترمذي حديث حسن .

وخرجه أبو داود الطيالسي بمعناه عن ابن عباس فقال : حدثنا حماد سلمة قال : حدثنا علي بن زيد عن أبي نضرة قال : خطبنا ابن عباس على منبر البصرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من نبي إلا وله دعوة كلهم قد تنجزها في

الدنيا وإني ادخرت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ألا وإني سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد تحته آدم صلى الله عليه وسلم ومن دونه ولا فخر ، ويشتد كرب ذلك اليوم على الناس فيقولون انطلقوا بنا إلى آدم أبي البشر فيشفع لنا إلى ربنا عز وجل حتى يقضي بيننا الحديث وفيه : فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون اشفع لنا إلى ربنا حتى يقضي بيننا فيقول إني لست هنا كم إني اتخذت وأمي إلهين من دون الله ولكن أرأيتم لو أن متاعاً في وعاء قد ختم عليه أكان بوصل إلى ما في الوعاء حتى يفض الخاتم ؟ فيقولون : لا . فيقول : إن محمداً صلى الله عليه وسلم قد خصه اليوم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم فيأتيني الناس فيقولون اشفع لنا إلى ربنا حتى يقضى بيننا فأقول أنا لها حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، فإذا أراد الله أن يقضي بين خلقه نادى مناد أين محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ؟ فأقوم وتتبعني أمتي غراً محجلين من أثر الطهور . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فنحن الآخرون الأولون وأول من يحاسب ويفرج لنا في الأمم عن طريقنا ويقولون كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها وذكر الحديث .

وفي البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن الناس يصبرون يوم القيامة جثياً كل أمة تتبع نبيها تقول يا فلان اشفع يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود .

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً سئل عنها قال : هي الشفاعة . قال : هذا حديث صحيح .

فصل : قوله : فيفزع الناس ثلاث فزعات إنما ذلك والله أعلم حين يؤتى بالنار تجر بأزمتها وذلك قبل العرض والحساب على الملك الديان ، فإذا نظرت

إلى الخلائق فارت وثارت وشهقت إلى الخلائق وزفرت نحوهم وتوثبت عليهم غضباً لغضب ربهم على ما يأتي بيانه في كتاب النار إن شاء الله تعالى ، فتتساقط الخلائق حينئذ على ركبهم جثاة حولها قد أسبلوا الدموع من أعينهم ونادى الظالمون بالويل والثبور . ثم تزفر الثانية فيزداد الرعب والخوف في القلوب . ثم تزفر الثالثة فتتساقط الخلائق لوجوههم ويشخصون بأبصارهم وهم ينظرون من طرف خفي خوفاً أن تبلغهم أو يأخذهم حريقها . أجارنا الله منها .

فصل : واختلف الناس في المقام المحمود على خمسة أقوال :

الأول : أنه الشفاعة للناس يوم القيامة كما تقدم . قاله حذيفة بن اليمان وابن عمر رضي الله عنهم .

الثاني : إنه أعطاؤه عليه السلام لواء الحمد يوم القيامة قلت : وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع .

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا ، لواء الحمد بيدي فأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر . وفي رواية أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا قائدهم إذا وفدوا ، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا ، وأنا شفيعهم إذا أيسوا ، وأنا مبشرهم إذا أبلسوا . لواء الكرم بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي يطوف علي ألف خادم

كأنهم لؤلؤ مكنون .

الثالث : ما حكاه الطبري عن فرقة منها مجاهد . أنها قالت : المقام المحمود هو أن يجلس الله محمداً صلى الله عليه وسلم معه على كرسيه ، ورووت في ذلك حديثاً .

قلت : وهذا قول مرغوب عنه وإن صح الحديث ، فيتأول على أنه يجلس مع أنبيائه وملائكته . قال ابن عبد البر في كتاب التمهيد : ومجاهد وإن كان أحد أئمة بتأويل القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم . أحدهما هذا ، والثاني في تأويل قوله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة قال : تنتظر

الثواب وليس من النظر .

الرابع : إخراجه طائفة من النار . روى مسلم عن يزيد الفقير قال : كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج ، فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد الحج ثم نخرج على الناس فمررنا على المدينة ، فإذا جابر بن عبد الله رضي الله عنه يحدث الناس أو القوم إلى سارية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : وإذا هو قد ذكر الجهنميين قال فقلت له يا صاحب رسول الله : ما هذا الذي تحدثون والله تعالى يقول ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته

كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها فما هذا الذي تقولون فقال : أتقرأ القرآن ؟ فقلت : نعم . فقال : فهل سمعت بمقام محمد صلى الله عليه وسلم يعني الذي يبعثه الله عز وجل ؟ قلت : نعم . قال : فإنه مقام محمد صلى الله عليه وسلم الذي يخرج الله به من يخرج . وذكر الحديث .

وفي البخاري من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه : وقد سمعته يقول فأخرج فأخرجهم وأدخلهم الجنة حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن أي وجب عليه الخلود قال : ثم تلا هذه الآية عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً قال هو المقام المحمود الذي وعده نبيكم صلى الله عليه وسلم .

الخامس : ما روي أن مقامه المحمود شفاعته رابع أربعة وسيأتي الأوزاعي

فصل : إذا أثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء عليهم السلام حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فيشفع هذه الشفاعة العامة لأهل الموقف مؤمنهم وكافرهم ليراحوا من هول موقفهم ، فاعلم أن العلماء اختلفوا في شفاعاته وكم هي ، فقال النقاش : لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات العامة وشفاعة في السبق إلى الحنة وشفاعة في أهل الكبائر . وقال ابن عطية في تفسيره : والمشهور أنهما شفاعتان فقط العامة وشفاعة في إخراج المذنبين من النار وهذه الشفاعة الثانية لا

يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع

العلماء .

(189/462)

قال القاضي عياض شفاعات نبينا صلى الله عليه وسلم يوم القيامة خمس شفاعات :

الأولى : العامة .

الثانية : إدخال قوم الجنة بغير حساب .

الثالثة : في قوم من أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفعه فيهم نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومن شاء أن يشفع ويدخلون الجنة وهذه الشفاعة هي التي أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة ، فمنعتها على أصولهم الفاسدة وهي الاستحقاق العقلي المبني على التحسين والتقبيح .

الرابعة : فيمن دخل النار من المذنبين فيخرج بشفاعة نبينا وغيره من الأنبياء والملائكة وإخوانهم من المؤمنين .

قلت : وهذه المشافعة أنكرتها المعتزلة أيضاً وإذا منعوها فيمن استوجب النار بذنبه وإن لم يدخلها فأحرى أن يمنعوها فيمن دخلها .

الخامسة: في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترفيعها . قال القاضي عياض : وهذه الشفاعة لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعة الحشر الأول .

قلت : وشفاعة سادسة لعمه أبي طالب في التخفيف عنه ، كما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عمه أبو طالب فقال : لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه فإن قيل : فقد قال الله تعالى : فما تنفعهم شفاعة الشافعين قيل له : لا تنفع في الخروج من النار كعصاة الموحدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة .

فصل : واختلف العلماء هل وقع من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين بعد النبوة صغائر من الذنوب يؤاخذون بها ويعاتبون عليها ويشفقون على أنفسهم منها أم لا بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي تزري بفاعلها وتحط منزلته وتسقط مروءته إجماعاً ؟ عند القاضي أبي بكر وعن الأستاذ أبي بكر أن ذلك مقتضى دليل المعجزة وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم ، فقال الطبري وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين : تقع

الصغائر منهم خلافاً للرافضة حيث قالوا إنهم معصومون من جميع ذلك كله ، واحتجوا بما وقع من ذلك في التنزيل وثبت من تنصلهم من ذلك في الحديث وهذا ظاهر لا خفاء به .

وقال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي : إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر لأنا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسيرهم مطلقاً من غير التزام قرينة ، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء لهم إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة والإباحة والحظر أو المعية ولا يصح أن يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية لا سيما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين .

قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني واختلفوا في الصغائر والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم ومال بعضهم إلى تجويزها ولا أصل لهذه المقالة .

وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول : والذي ينبغي أن يقال : إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها وأخبروا بها عن نفوسهم وتنصلوا منها واستغفروا منها وتابوا ، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا تقبل التأويل جملتها ، وإن قبل ذلك آحادها وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور وعلى جهة الخطأ والنسيان أو تأويل دعا إلى ذلك فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات ، وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم وعلو أقدارهم إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع عملهم بالأمن والأمان والسلامة

وهذا هو الحق .

ولقد أحسن الجنيد رضي الله عنه حيث قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهم

صلوات صلى الله عليه وسلم عليهم وسلامه وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب

منهم ، فلم يخل ذلك بمناصبهم ولا قدح في رتبهم ، بل تلافاهم واجتباهم وهداهم ومدحهم

وزكاهم واصطفاهم صلوات الله

عليهم وسلامه .

باب

ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا رشدين بن سعد قال : أخبرني عبد الرحمن بن زياد ، عن

دخين الحجري ، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وذكر حديث الشفاعة وفيه فيقول عيسى عليه السلام أدلكم على النبي الأمي فيأتوني

فيأذن الله لي أن أقوم فيثور مجلسي أطيب ريح شمها أحد حتى آتي ربي فيشفعني ويجعل

لي نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي ، ثم يقول الكافر قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن

يشفع لنا ؟ فيقولون : ما هو غير إبليس هو الذي أضلنا فيأتونه فيقولون قد جد المؤمنون من

يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك قد أضللتنا ، فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمه أحد ثم يعظهم لجهنم ويقول عند ذلك وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم الآية .

باب من أسعد الناس بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم

البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ فقال : لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قبل نفسه .

وروى زيد بن أرقم رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة . قيل يا رسول الله : ما إخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله خرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التذكرة فى أحوال الموتى صـ 289.280 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77) ﴾

الحقُّ أمضى سُنَّتَه مع الأولياء بالإنعام ، ومع أعدائه بالإدغام ، فلا لهذه أو هذه تحويل .

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) ﴾

الصلاةُ قَرْعُ باب الرزق . والصلاةُ الوقوفُ في محل المناجاة .

والصلاةُ اعتكافُ القلب في مشاهد التقدير .

ويقال هي الوقوف على بساط النجوى . وفَرَّقَ أوقات الصلاة ليكون للعبد عَوْدٌ إلى البساط في اليوم والليلة مراتٍ .

﴿ إِنَّ قُرْءَانَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾ : تشهده ملائكة الليل والنهار – على لسان العلم .

وأمَّا على لسان القوم فإن قرآن الصبح – الذي هو وقت إتيانه – يُبْعِدُ مِنَ النومِ وكَسَلِ النفس فله هذه المزية .

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79) ﴾

الليل لأحدِ أقوام : لطالبي النجاة وهم العاصون مَنْ جنح منهم إلى التوبة ، أو لأصحاب الدرجات وهم الذين يَجِدُّون في الطاعات ، ويسارعون في الخيرات ، أو لأصحاب

المناجاة مع المحبوب عندما يكون الناس فيما هم فيه من الغفلة والغيبة .

ويقال الليل لأحد رجلين : للمطيع والعاصي : هذا في احتيال أعماله ، وهذا في اعتذاره عن قبيح أفعاله .

والمقام المحمود هو المخاطبة في حال الشهود ، ويقال الشهود .

ويقال هو الشفاعة لأهل الكبائر . ويقال هو انفراده يوم القيامة بما خُصَّ به – صلى الله عليه وسلم – بما لا يشاركه فيه أحد .

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (80) ﴾

(193/462)

أي أدخلني إدخالَ صدقٍ وأَخرجني إخراجَ صدقٍ . والصدق أن يكون دخولُه في الأشياء بالله لله لا لغيره ، وخروجه عن الأشياء بالله صلى الله عليه وسلم لا لغيره .

﴿ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيراً ﴾ : فلا ألاحظ دخولي ولا خروجي .

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) ﴾

أرد بالحقِّ ها هنا الإسلام والدين ، وأراد بالباطل الكفر والشِّرْك ، والحقُّ المطلق هو

الموجود الحق ، والحق المقيد ما كان حسناً في الاعتقاد والفعل والنطق ، والباطل نقيض الحق . واللَّهُ حقٌّ : على معنى أنه موجود وأنه ذو الحق وأنه مُحِقُّ الحق .

ويقال الحقُّ ما كان لله ، والباطل ما كان لغير الله .

ويقال الحقُّ من الخواطر ما دعا إلى الله ، والباطلُ ما دعا إلى غير الله . انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 364 . 365 ﴾

(194/462)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والستون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/463)

الجزء الثالث والستون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 82 ﴾ من سورة الإسراء

وحتى الآية ﴿ 87 ﴾ من نفس السورة

(4/463)

قوله تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (84) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85) وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان القرآن الذي نوه به في آية ﴿ أقم الصلاة ﴾ هو السبب الأعظم في إزهاق الباطل الذي هو كالسحر خيال وتمويه ، وهو الجامع لجميع ما مضى من الإلهيات والبعث وما تبع ذلك ، قال عاطفاً على ﴿ ولقد كرمنا ﴾ : ﴿ وننزل ﴾ أي بعظمتنا ؛ ثم بين المنزل بقوله تعالى : ﴿ من القرءان ﴾ أي الجامع الفارق الذي هو أحق الحق ﴿ ما هو شفاء ﴾ للقلوب والأبدان ﴿ ورحمة ﴾ أي إكرام وقوة ﴿ للمؤمنين ﴾ أي الراسخين في الإيمان ، لإنارته لقلوبهم من صدإ الجهل ، وحمله لهم على سبيل الرشد الذي هو سبب الرحمة ، ولحراسته لهم من كل شيطان ومرض ومحنة إذا وقع الصدق في الاستشفاء به ، هو كله كذلك وكذا جميع أبعاضه ؛ قال الرازي في اللوامع : وهو أنس المحبين ، وسلوة المشتاقين ، وإنه النور المبين ، الذي من استبصر به انكشف له من الحقائق ما كان مستوراً ، وانطوى عنه من البوائق ما كان منشوراً ، كما أن الباطل داء ونقمة للكافرين ﴿ و ﴾ من أعجب العجب أن هذا الشفاء ﴿ لا يزيد الظالمين ﴾ أي الراسخين في هذا الوصف ، وهم الذين يضعون الشيء في غير موضعه ، بإعراضهم عما يجب قبوله ﴿ إلا خساراً ﴾ أي نقصاناً ، لأنهم إذا

جاءهم وقامت به الحجة عليهم ، أعرضوا عنه ، فكان إعراضهم ذلك زيادة في كفرانهم ، كما أن قبول المؤمنين له وإقبالهم على تدبره زيادة في إيمانهم ، وفي الدارمي عن قتادة قال : ما جالس القرآن أحد فقام عنه بزيادة أو نقصان - ثم قرأ هذه الآية ؛ ثم عطف على هذا المقدر المعلوم تقديره ما هو أعم منه وأبين في الفتنة والاجتراء فقال تعالى : ﴿ وإذا أنعمنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ على الإنسان ﴾ أي هذا النوع هؤلاء وغيرهم بأيّ نعمة كانت ، من إنزال القرآن وغيره ﴿ أعرض ﴾ أي عن ذكر المنعم كإعراض هؤلاء عند مجيء هذه النعمة التي لا نعمة مثلها ﴿ ونأ ﴾ أي تباعد تكبراً ﴿ بجانبه ﴾ بطراً وعمى عن الحقائق ﴿ وإذا مسه الشر ﴾ أي هذا النوع وإن قل ﴿ كان يئوساً ﴾ أي شديد اليأس هلعاً وقلة ثقة بما عنده من رحمة الله

(5/463)

إلا من حفظه الله وشرفه بالإضافة إليه فليس للشيطان عليه سلطان .

ولما كان المفرد المحلى باللام يعم ، كان هذا ربما اقتضى من بعض المتعنتين اعتراضاً بأن يقال : إنا نرى بعض الإنسان إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر ، وكان هذا الاعتراض ساقطاً لا يعبأ به ، أما أولاً فلأنه قد تقدم الجواب عنه في سورة يونس عليه السلام في قوله تعالى

﴿ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ [يونس : 12] بأن هذا في المسرفين دون غيرهم ، وبقوله تعالى في سورة هود عليه السلام ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ [هود : 11] ولعله طواه في هذا المقام إشارة إلى أنه لقلة أفراده كأنه عدم ، وأما ثانياً فلأن المحلى باللام سواء كان مفرداً أو جمعاً في قوة الجزئي حتى يرد ما يدل على أنه كلي ، فلذلك أعرض تعالى عنه وأمره بالجواب عن القسمين المشار إليه والمنصوص عليه فقال تعالى : ﴿ قل ﴾ أي يا أشرف خلقنا ! ﴿ كل ﴾ من الشاكر والكافر ﴿ يعمل على شاكلته ﴾ أي طريقته التي تشاكل روحه وتشاكل ما طبعنا عليه من خير أو شر ﴿ فربكم ﴾ أي فتسبب عن ذلك أن الذي خلقكم ودرجكم في أطوار النمو ، لا غيره ﴿ أعلم ﴾ مطلقاً ﴿ بمن هو ﴾ منكم ﴿ أهدى سبيلاً ﴾ أي أرشد وأقوم من جهة المذهب بتقواه وإحسانه ، فيشكر ويصبر احتساباً فيعطيه الثواب ، ومن هو أضل سبيلاً ، فيحل به العقاب ، لأنه يعلم ما طبعهم عليه في أصل الخلقة وغرزه فيهم من الخلائق ، وغيره إنما يعلم أمور الناس في طرائقهم بالتجربة ؛ وقد روى الإمام أحمد – لكن بسند منقطع – عن أبي الدرداء .رضى الله عنهم .أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : " إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا ، وإذا سمعتم برجل تغير عن خلقه فلا تصدقوا به ، فإنه يصير إلى ما جبل عليه " هذا كله الإعراض بالفعل ، وإن كان بالقوة التزمنا أنها كلية ، والله أعلم بالمهدي فيحفظه من الإعراض واليأس بالفعل هو فيه بالقوة .

ولما بين سبحانه - بعد التعجيب من إنكارهم البعث - جهل الإنسان ، وما هو عليه من الضلال والنسيان ، إلا من فضله على أبناء نوعه كما فضل طينته على سائر الطين ، وختم بآية المشاكلة التي منها مشاكلة بعض الأرواح لبعض ومشاكلتها للطباع ، وبان بذلك أنه سبحانه وتعالى قادر على فعل ما يشاء عالم بكل معلوم ، رجع إلى التعجب منهم بما هو من شأن الأرواح التي من شأنها التشاكل فقال تعالى عاطفاً على ﴿ وقالوا إذا كنا عظاماً ﴾ : ﴿ ويسئلونك ﴾ أي تعنتاً وامتحاناً ﴿ عن الروح ﴾ الذي تقدم أنها تعاد إلى أجسادهم يوم البعث ولو كانوا حجارة أو حديداً : ما هي ؟ هل هي جسم أم لا ؟ وهل هي متولدة من امتزاج الطبائع التي في البدن أم امتزاجه مبتدأ ؟ وهل هي قديمة أم حادثة ؟ ولما كان ذلك تعنتاً ، مع أنه لا يفتقر إليه في صحة اعتقاده ، أمره بأن يجيبهم عنه بما يليق بحالهم بقوله تعالى : ﴿ قل الروح ﴾ أي هذا النوع الذي تصير به الأجسام حية ﴿ من أمر ربي ﴾ أضافها إلى الأمر وهو الإرادة وإن كانت من جملة خلقه ، تشريفاً لها وإشارة إلى أنه لا سبب من غيره يتوسط بينها وبين أمره ، بل هو يبدعها من العدم ، أو يقال - وهو أحسن : إن الخلق قسمان : ما كان بتسبيب وتنمية وتطوير ، وهو الذي يترجم في القرآن بالخلق ، والثاني ما كان

إخراجاً من العدم بلا تسبيب ولا تطوير ، وهو المعبر عنه بالأمر ، ومنه هذه الروح المسؤول عنها وكل روح في القرآن ، وكذا ما هو للحفظ والتدبير كالأديان ، والجامع لذلك القيومية كما مضى عن الحرالي عند روح القدس في البقرة ، فأفادت هذه العبارة أنها محدثة ، وأنها غير مطورة ولا مسببة ، وهي جسم لطيف سار في البدن كماء الورد في الورد على الصحيح عند أهل السنة ، وأمسك السلف عن الإمعان في الكلام على الروح أدباً ، لأنهم علموا أن في عدم الجواب لسؤالهم بغير هذا إشارة إلى أن السكوت عنه أولى لهم ؛ ثم أتبعه التنبيه على جهلهم لتعكيسهم في الأسئلة بتركهم الإقبال

(7/463)

على ما لا يفهمونه بلا شك وينفعهم في الدارين من هذا الروح المعنوي وهو القرآن ، وإقبالهم على ما لا يفهمونه من الروح المحسوس لقلة علمهم ، ومن فهمه منهم لا يفهمه إلا بعسر عظيم ، وفيه أسئلة كثيرة جداً لا برهان على أجوبتها ، منها أنه متحيز أم لا ؟ وأنه مغاير للنفس أم لا ؟ وهل تبقى بعد الموت أم لا ؟ فعلمنا به أنه إنما هو على الإجمال ، ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة نفيه ، فإن أكثر حقائق الأشياء مجهولة ، وهي موجودة .

(8/463)

فالسكنجبين خاصيته قمع الصفراء ، وحقيقة تلك الخاصية مجهولة ، وهي معلومة الوجود ، وليس وراء العلم بما سألوا عنه من الروح بعد فهمه من الفائدة ما لذلك الذي تركوه ولا قريب منه ، فقال تعالى دالاً على حدوثه بتغيره ، فإنه يكون في المبدإ جاهلاً ثم يحدث له العلم شيئاً بعد شيء ، وكل متغير حادث : ﴿ وما أوتيتم ﴾ أي من أيّ مؤت كان بعد أن كنتم لا تعلمون شيئاً ﴿ من العلم ﴾ أي مطلق هذه الحقيقة ، فكيف بالمشكل منها ﴿ إلا قليلاً ﴾ ومما تجهلونه أمور ضرورية لكم ، لأن تماديكم على الجهل بها سبب لهلاككم في الدارين ، فمن أجهل الجهل وأضل الضلال أن تسألوا عما لا يضركم الجهل به ، ويتوقف إثباته على أمور دقيقة ، ومقدمات صعبة ، وتتركوا ما يضركم الجهل به في الدين والدنيا ، مع كونه في غاية الوضوح ، لكثرة ما قام عليه من الأدلة ، وله بحضرتكم من الأمثلة ، والذي سألتموه منزه عن الغش والضيق ، فهو ينبهكم على عبثكم نصيحة لكم ويعدل عن جوابكم عنه إلى ما ينفعكم رفقاً بكم ، ولفهم هذا سكت السلف عن الخوض في أمره ، والخطاب لليهود والعرب ، أما العرب فواضح ، وأما اليهود فإنهم وإن كانوا أهل الكتاب فذلك إشارة إلى تلاشي علمهم في جنب علم الله ؛ كما ستأتي الإشارة إليه بقول الخضر لموسى عليهما الصلاة والسلام في العصفور الذي نقر من البحر نقرة أو نقرتين ، فحيث ورد تعظيم على أحد وتكثره فهو بالنسبة إلى غيره من الخلق ، وحيث ورد تقليله - كما في هذه الآية - فهو

من حيث إضافته إلى علم الله تعالى ، وهذه الآية ورد في سبب نزولها ما يظن أنه متناقض ، فإنه روي في الصحيح عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنهم - أنه كان يمشي مع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في المدينة ، فسأله اليهود عن الروح فأوحى إليه ، فلما انجلى عنه الوحي تلا عليهم – الآية .

(9/463)

وفي السيرة الهشامية والدلائل للبيهقي وتفسير البغوي وغيره من التفاسير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن قريشاً أرسلت إلى اليهود قبل الهجرة تسألهم عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأنهم أهل الكتاب الأول وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عند قريش ، فأمروهم أن يسألوه عن الروح ، وعن قصتي أصحاب الكهف وذي القرنين ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : " أخبركم بما سألتم عنه غداً " – ولم يستثن ، فانصرفوا عنه ، فمكث فيما يذكرون خمس عشرة ليلة ، لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً ، حتى أرجف به أهل مكة ، وحتى حزن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، وروي أيضاً أن لبث الوحي كان أربعين ليلة .

وروي : اثنتي عشرة ليلة ، وفي مسند أبي يعلى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال :

قالت قريش ليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ! فقالوا : سلوه عن الروح ، فسألوه ، ونزلت ﴿ ويسئلونك ﴾ - الآية .

وليس ذلك وأمثاله بحمد الله بمشكل ، فإنه محمول على أنه نزل للسبب الأول ، فلما سئل عنه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثانياً لم يجب فيه بالجواب الأول ، إما لرجاء أن يؤتى بأوضح منه ، أو خشية أن يكون نسخ - أو نحو ذلك لأمر رآه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فيعيد الله سبحانه إنزاله عليه تثبيتاً له وإعلاماً بأنه هو الجواب ، وفيه مقنع ، وفي تأخير الجواب في هذا الأمر برهان قاطع لقريش وكل من له أدنى لب على صدق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في أن هذا القرآن من عند الله ، لا يقدر عليه غيره ، لأنه لو كان قادراً على الإتيان بشيء منه من عند نفسه أو من عند أحد من الخلق لبذل جهده في ذلك ، تنزيهاً لنفسه الشريفة ، وهمته المنيفة ، وعرضه الطاهر ، عن مثل ما خاضوا فيه بسبب إخلاف موعدهم .

(10/463)

ولما كانت الروح من عالم الأمر الذي هو من سر الملكوت ، ضمت إلى سورة الإسراء الذي هو من أبطن سر الملكوت لاسيما بما علا به من المعراج الذي جعل لغرابته كالرؤيا ﴿ وما

جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ ولذلك فصلت عن السؤالين الآخرين ، لأنهما من عالم الملك ، وسيأتي بقية الكلام على هذا في سورة الكهف إن شاء الله تعالى .

ولما شرح إرادتهم الفتنة عما جاءهم من العلم بتبديل المنزل ، وإخراج المرسل ، وما تبع ذلك حتى ختم بتجهيلهم إذ سألوا تعنتاً عن الروح الحسي ، وكان الأنفع لهم سؤالهم استفادة وتفهماً عن دقائق الروح المعنوي الذي أعظم الله شرفهم به بإنزاله إليهم على لسان رجل منهم هو أشرفهم مجداً ، وأطهرهم نفساً ، وأعظمهم مولداً ، وأزكاهم عنصراً ، وأعلاهم همة ، وختم بتقليل علمهم إشارة إلى أنهم لا يفهمون إلا أن يفهمهموه سبحانه وهو أعلم بما يفهمونه وما لا يفهمونه ، قال عاطفاً على ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ تنبيهاً لهم على أنه لو شاء لذهب بسبب هذا العلم القليل الذي وهبهموه ، فعمهم الجهل كما كانوا ، وعلى أنه لم يكفهم ترك السؤال عما يعنيهم حتى سألوا عما لا يعنيهم ، وأرادوا تبديل ما ينفعهم ويعنيهم بما يبيدهم ويفنيهم ، فضلوا قولاً وفعلاً : ﴿ ولئن شئنا ﴾ ومشيئتنا لا يتعاظمها شيء ، ولامه موطئة للقسم ، وأجاب عن القسم بما أغنى عن جواب الشرط فقال تعالى : ﴿ لنذهبن ﴾ أي بما لنا من العظمة ذهاباً محققاً ﴿ بالذي أوحينا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ إليك ﴾ مما أرادوا الفتنة فيه من القرآن على أن فيه من العلم ما يغنيهم - لو أقبلوا على تفهمه - عن شيء من الأشياء فلا تبقى عندك نحن ولا وحينا ، ولإفادة هذا لم يقل : لأذهبنا .

﴿ ثم ﴾ أي بعد الذهاب به ﴿ لا تجد لك ﴾ ولما كان السياق هنا للروح الذي هو الوحي ، فكانت العناية به أشد ، قدم قوله : ﴿ به ﴾ ولما كان السياق لمن يأخذ ما يريد طوعاً وكرهاً ، قال تعالى : ﴿ علينا ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا تعارض ﴿ وكيلاً ﴾ يأتيك به أو بشيء منه .

ولما كان لا ملجأ منه سبحانه إلا إليه ، قال تعالى : ﴿ إلا ﴾ أي لكن تجد ﴿ رحمة ﴾ مبتدئة وكائنة ﴿ من ربك ﴾ أي المحسن إليك بأن أوجدك ورباك ، ولم يقطع إحسانه قط عنك ، يعيد بها إليك ويأتيك بما يقوم مقامه ، وعبر عن أداة الانقطاع بأداة الاتصال إشارة إلى أن رحمته سبحانه له - التي اقتضتها صفة إحسانه إليه لعظمها - كالوكيل الذي يتصرف بالغبطة على كل حال .

ولما كان في إنزاله إليه ثم إبقائه لديه من النعمة عليه وعلى أمته ما لا يحصى ، نبه على ذلك بقوله تعالى مستأنفاً مؤكداً لأن كون الرحمة هكذا من أغرب الغريب ، فهو بحيث لا يكاد يصدق ، وهو مما يتلذذ بذكره ﴿ إن فضله كان ﴾ أي كوناً ثابتاً ﴿ عليك ﴾ أي خاصة ﴿ كبيراً ﴾ أي بالغ الكبر ، وقد ورد أنه يذهب بالقرآن في آخر الزمان ، يسري بما في

المصاحف وبما في القلوب ، وقد أفهمت ذلك هذه الآية لأن كلام الملوك يفهم أصل الشيء ولو كان في سياق الشرط. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 418. 423 ﴾

(12/463)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82) ﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب في شرح الإلهيات والنبوات والحشر والمعاد والبعث وإثبات القضاء والقدر ثم أتبعه بالأمر بالصلاة ونبه على ما فيها من الأسرار ، وإنما ذكر كل ذلك في القرآن أتبعه ببيان كون القرآن شفاء ورحمة فقال : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرءان مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ ﴾ ولفظة ﴿ من ﴾ ها هنا ليست للتبعيض بل هي للجنس كقوله : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] والمعنى وننزل من هذا الجنس الذي هو قرآن ما هو شفاء .

فجميع القرآن شفاء للمؤمنين ، واعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية ، وشفاء أيضاً من الأمراض الجسمانية ، أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر ، وذلك لأن

الأمراض الروحانية نوعان : الاعتقادات الباطلة والأخلاق المذمومة ، أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فساداً الاعتقادات الفاسدة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب ، وإبطال المذاهب الباطلة فيها ، ولما كان أقوى الأمراض الروحانية هو الخطأ في هذه المطالب والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما في هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني .

وأما الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة والأعمال المحمودة فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية ، وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض .

(13/463)

ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرقي المجهولة والعزائم التي لا يفهم منها شيء آثاراً عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المفاسد ، فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم المشتمل على ذكر الله وكبريائه وتعظيم الملائكة المقربين وتحقير المردة

والشياطين سبباً لحصول النفع في الدين والدنيا كان أولى ويتأكد ما ذكرنا بما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله تعالى " وأما كونه رحمة للمؤمنين فاعلم أنا بينا أن الأرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة والقرآن قسمان بعضهما يفيد الخلاص عن شبهات الضالين وتمويهات المبطلين وهو الشفاء .

(14/463)

وبعضهما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية ، والأخلاق الفاضلة التي بها يصل الإنسان إلى جوار رب العالمين ، والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين وهو الرحمة ، ولما كان إزالة المرض مقدمة على السعي في تكميل موجبات الصحة لا جرم بدأ الله تعالى في هذه الآية بذكر الشفاء ثم أتبعه بذكر الرحمة ، واعلم أنه تعالى لما بين كون القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين بين كونه سبباً للخسار والضلال في حق الظالمين والمراد به المشركون وإنما كان كذلك لأن سماع القرآن يزيدهم غيظاً وغضباً وحقداً وحسداً وهذه الأخلاق الذميمة تدعوهم إلى الأعمال الباطلة وتزيد في تقوية تلك الأخلاق الفاسدة في جواهر نفوسهم ثم لا يزال الخلق الخبيث النفساني يحمل على الأعمال الفاسدة والإتيان بتلك الأعمال يقوي تلك

الأخلاق فبهذا الطريق يصير القرآن سبباً لتزايد هؤلاء المشركين الضالين في درجات الخزي والضلال والفساد والنكال ثم إنه تعالى ذكر السبب الأصلي في وقوع هؤلا الجاهلين الضالين في أودية الضلال ومقامات الخزي والنكال وهو حب الدنيا والرغبة في المال والجاه واعتقادهم أن ذلك إنما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم فقال : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ وفيه مباحث :

الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الإنسان ها هنا هو الوليد بن المغيرة وهذا بعيد ، بل المراد أن نوع الإنسان من شأنه أنه إذا فاز بمقصوده ووصل إلى مطلوبه اغتر وصار غافلاً عن عبودية الله تعالى متمرداً عن طاعة الله كما قال : ﴿ إِنَّ الإنسان ليطغى أَن رَّءاهُ استغنى ﴾ [العلق : 6 ، 7] .

البحث الثاني : قوله ﴿ أعرض ﴾ أي ولى ظهره أي عرضه إلى ناحية ونأى بجانبه أي تباعد ، ومعنى النأي في اللغة البعد والإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه والنأي بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره وأراد الاستكبار لأن ذلك عادة المتكبرين وفي قوله ﴿ نأى ﴾ قراءات .

إحداها : وهي قراءة العامة بفتح النون والهمزة وفي حم السجدة مثله وهي اللغة الغالبة والنأي البعد يقال نأى أي بعد .

وثانيها : قراءة ابن عامر ناء وله وجهان تقديم اللام على العين كقولهم راء في رأى ويجوز أن يكون من نأى بمعنى نهض .

وثالثها : قراءة حمزة والكسائي بإمالة الفتحتين وذلك لأنهم أمالوا الهمزة من نأى ثم كسروا النون إتباعاً للكسرة مثل رأى .

ورابعها : قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ونصير عن الكسائي وحمزة نأى بفتح النون وكسر الهمزة على الأصل في فتح النون وإمالة الهمزة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر كَانَ يؤوساً ﴾ أي إذا مسه فقر أو مرض أو نازلة من النوازل كان يؤوساً شديد اليأس من رحمة الله : ﴿ وَلاَ ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ [يوسف : 87] والحاصل أنه إن فاز بالنعمة والدولة اغتر بها فنسي ذكر الله ، وإن بقي في الحرمان عن الدنيا استولى عليه الأسف والحزن ولم يتفرغ لذكر الله تعالى فهذا المسكين محروم أبداً عن ذكر الله ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبّى أَكْرَمَنِ ﴾ [الفجر : 15] إلى قوله : ﴿ رَبّى أَهَانَنِ ﴾ [الفجر : 16] وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ

الخير مَنُوعاً ﴾ [المعارج : 19 21] ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ ﴾ قال الزجاج : الشاكلة الطريقة والمذهب .

(16/463)

والدليل عليه أنه يقال هذا طريق ذو شواكل أي يتشعب منه طرق كثيرة ثم الذي يقوي عندي أن المراد من الآية ذلك قوله تعالى : ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهدى سَبِيلاً ﴾ وفيه وجه آخر وهو أن المراد أن كل أحد يفعل على وفق ما شاكل جوهر نفسه ومقتضى روحه فإن كانت نفسه نفساً مشرقة خيرة طاهرة علوية صدرت عنه أفعال فاضلة كريمة وإن كانت نفسه نفساً كدرة نذلة خبيثة مضلة ظلمانية صدرت عنه أفعال خسيسة فاسدة ، وأقول : العقلاء اختلفوا في أن النفوس الناطقة البشرية هل هي مختلفة بالماهية أم لا ؟ منهم من قال : إنها مختلفة بالماهية وإن اختلاف أفعالها وأحوالها لأجل اختلاف جواهرها وماهياتها ، ومنهم من قال إنها متساوية في الماهية واختلاف أفعالها لأجل اختلاف أمزجتها .

والمختار عندي هو القسم الأول والقرآن مشعر بذلك ، وذلك لأنه تعالى بين في الآية المتقدمة أن القرآن بالنسبة إلى البعض يفيد الشفاء والرحمة وبالنسبة إلى أقوام آخرين يفيد

الخسارة والخزي ثم أتبعه بقوله : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ ﴾ ومعناه أن اللائق بتلك النفوس الطاهرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الذكاء والكمال ، وبتلك النفوس الكدرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الخزي والضلال كما أن الشمس تعقد الملح وتلين الدهن وتبيض ثوب القصار وتسود وجهه .

وهذا الكلام إنما يتم المقصود منه إذا كانت الأرواح والنفوس مختلفة بماهياتها فبعضها مشرقة صافية يظهر فيها من القرآن نور على نور وبعضها كدرة ظلمانية يظهر فيها من القرآن ضلال على ضلال ونكال على نكال .

(17/463)

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ختم الآية المتقدمة بقوله : ﴿ كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ ﴾ وذكرنا أن المراد منه مشاكلة الأرواح للأفعال الصادرة عنها وجب البحث ها هنا عن ماهية الروح وحقيقته فلذلك سألوا عن الروح وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

للمفسرين في الروح المذكورة في هذه الآية أقوال أظهرها أن المراد منه الروح الذي هو سبب

الحياة ، روى أن اليهود قالوا لقريش اسألوا محمداً عن ثلاث فإن أخبركم باثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبي : اسألوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الثلاثة فقال عليه السلام : غداً أخبركم ولم يقل إن شاء الله فانقطع عنه الوحي أربعين يوماً ثم نزل الوحي بعده : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف : 23 ، 24] ثم فسر لهم قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين وأبهم قصة الروح ونزل فيه قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ وبين أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة حقيقة الروح فقال : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ومن الناس من طعن في هذه الرواية من وجوه .

أولها : أن الروح ليس أعظم شأناً ولا أعلى مكاناً من الله تعالى فإذا كانت معرفة الله تعالى ممكنة بل حاصلة فأي مانع يمنع من معرفة الروح .

وثانيها : أن اليهود قالوا : إن أجاب عن قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ولم يجب عن الروح فهو نبي وهذا كلام بعيد عن العقل لأن قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ليست إلا حكاية من الحكايات وذكر الحكاية يمتنع أن يكون دليلاً على النبوة وأيضاً فالحكاية التي يذكرها إما أن تعتبر قبل العلم بنبوته أو بعد العلم بنبوته فإن كان قبل العلم بنبوته كذبوه فيها وإن كان بعد العلم بنبوته فحينئذ صارت نبوته معلومة قبل ذلك فلا فائدة في ذكر هذه الحكاية .

وأما عدم الجواب عن حقيقة الروح فهذا يبعد جعله دليلاً على صحة النبوة .

وثالثها : أن مسألة الروح يعرفها أصاغر الفلاسفة وأراذل المتكلمين فلو قال الرسول صلى الله عليه وسلم إني لا أعرفها لأورث ذلك ما يوجب التحقير والتنفير فإن الجهل بمثل هذه المسألة يفيد تحقير أي إنسان كان فكيف الرسول الذي هو أعلم العلماء وأفضل الفضلاء .

ورابعها : أنه تعالى قال في حقه : ﴿ الرحمن * عَلَّمَ القرءان ﴾ [الرحمن : 1 ، 2]
﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء : 113] وقال :
﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ [طه : 114] وقال في صفة القرآن : ﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ ﴾
[الأنعام : 59] ، وكان عليه السلام يقول : " أرنا الأشياء كما هي " فمن كان هذا حاله وصفته كيف يليق به أن يقول أنا لا أعرف هذه المسألة مع أنها من المسائل المشهورة المذكورة بين جمهور الخلق بل المختار عندنا أنهم سألوه عن الروح وأنه صلى الله عليه وسلم أجاب عنه على أحسن الوجوه وتقريره أن المذكور في الآية أنهم سألوه عن الروح والسؤال عن الروح يقع على وجوه كثيرة .

أحدها : أن يقال ما هية الروح أهو متحيز أو حال في المتحيز أو موجود غير متحيز ولا حال في التحيز .

وثانيها ؛ أن يقال الروح قديمة أو حادثة .

وثالثها : أن يقال الأرواح هل تبقى بعد موت الأجسام أو تفنى .

ورابعها : أن يقال ما حقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها وبالجملة فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة ، وقوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح﴾ ليس فيه ما يدل على أنهم عن هذه المسائل سألوا أو عن غيرها إلا أنه تعالى ذكر له في الجواب عن هذا السؤال قوله : ﴿قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبّى﴾ وهذا الجواب لا يليق إلا بمسألتين من المسائل التي ذكرناها إحداهما السؤال عن ماهية الروح والثانية عن قدمها وحدوثها .

(19/463)

أما البحث الأول : فهم قالوا ما حقيقة الروح وماهيته ؟ أهو عبارة عن أجسام موجودة في داخل هذا البدن متولدة من امتزاج الطبائع والأخلاط ، أو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب أو هو عبارة عن عرض آخر قائم بهذه الأجسام ، أو هو عبارة عن موجود يغاير هذه الأجسام والأعراض ؟ فأجاب الله عنه بأنه موجود مغاير لهذه الأجسام ولهذه

الأعراض وذلك لأن هذه الأجسام أشياء تحدث من امتزاج الأخلاط والعناصر ، وأما الروح فإنه ليس كذلك بل هو جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث قوله : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 47] فقالوا لم كان شيئاً مغايراً لهذه الأجسام ولهذه الأعراض فأجاب الله عنه بأنه موجود يحدث بأمر الله وتكوينه وتأثيره في إفادة الحياة لهذا الجسد ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة نفيه فإن أكثر حقائق الأشياء وماهياتها مجهولة . فإنا نعلم أن السكنجبين له خاصية تقتضي قطع الصفراء فأما إذا أردنا أن نعرف ماهية تلك الخاصية وحقيقتها المخصوصة فذاك غير معلوم فثبت أن أكثر الماهيات والحقائق مجهولة ولم يلزم من كونها مجهولة نفيها فكذلك ها هنا وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

(20/463)

وأما المبحث الثاني : فهو أن لفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل قال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود : 97] وقال : ﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا ﴾ [هود : 66] أي فعلنا فقوله : ﴿ قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبّى ﴾ أي من فعل ربي وهذا الجواب يدل على أنهم سألوه أن الروح قديمة أو حادثة فقال بل هي حادثة وإنما حصلت بفعل الله وتكوينه وإيجاده ثم احتج على

حدوث الروح بقوله : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ يعني أن الأرواح في مبدأ الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم يحصل فيها العلوم والمعارف فهي لا تزال تكون في التغيير من حال إلى حال وفي التبديل من نقصان إلى كمال والتغيير والتبديل من أمارات الحدوث فقوله : ﴿ قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ يدل على أنهم سألوه أن الروح هل هي حادثة فأجاب بأنها حادثة واقعة بتخليق الله وتكوينه وهو المراد من قوله : ﴿ قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ثم استدل على حدوث الأرواح بتغيرها من حال إلى حال وهو المراد من قوله : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ فهذا ما نقوله في هذا الباب ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

في ذكر سائر الأقوال المقولة في نفس الروح المذكورة في هذه الآية .

اعلم أن الناس ذكروا أقوالاً أخرى سوى ما تقدم ذكره ، فالقول الأول : أن المراد من هذا الروح هو القرآن قالوا وذلك لأن الله تعالى سمى القرآن في كثير من الآيات روحاً واللائق بالروح المسؤول عنه في هذا الموضع ليس إلا القرآن فلا بد من تقرير مقامين .

المقام الأول : تسمية الله القرآن بالروح يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : 52] وقوله : ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ ﴾ [النحل : 2] وأيضاً السبب في تسمية القرآن بالروح أن بالقرآن تحصل حياة الأرواح والعقول لأن به تحصل معرفة الله تعالى ومعرفة ملائكته ومعرفة كتبه ورسله والأرواح إنما تحيا بهذه المعارف وتمام تقرير هذا الموضع ذكرناه في تفسير قوله : ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ ﴾ [النحل : 2] ، وأما بيان المقام الثاني وهو أن الروح اللائق بهذا الموضع هو القرآن لأنه تقدمه قوله :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرءان مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : 82] والذي تأخر عنه قوله : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الإسراء : 86] إلى قوله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرءان لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : 88] فلما كان قبل هذه الآية في وصف القرآن وما بعدها كذلك وجب أيضاً أن يكون المراد من هذا الروح القرآن حتى تكون آيات القرآن كلها متناسبة متناسقة وذلك لأن القوم استعظموا أمر القرآن فسألوا أنه من جنس الشعر أو من جنس الكهانة فأجابهم الله تعالى بأنه ليس من جنس كلام البشر وإنما هو كلام ظهر بأمر الله ووحيه وتنزيله فقال : ﴿ قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبّى ﴾ أي القرآن ظهر بأمر ربي وليس من جنس كلام البشر .

والقول الثاني : أن الروح المسؤول عنه في هذه الآية ملك من ملائكة السموات وهو أعظمهم قدراً وقوة وهو المراد من قوله تعالى :

(22/463)

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ [النبأ : 38] ونقلوا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : هو ملك له سبعون ألف وجه ، لكل وجه سبعون ألف وجه ، لكل وجه سبعون ألف لسان ، لكل لسان سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ويخلق الله من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة قالوا ولم يخلق الله تعالى خلقاً أعظم من الروح غير العرش ولو شاء أن يبتلع السموات السبع والأرضين السبع ومن فيهن بلقمة واحدة لفعل ، ولقائل أن يقول هذا القول ضعيف وبيانه من وجوه .

الأول : أن هذا التفصيل لما عرفه علي ، فالنبي أولى أن يكون قد عرفه فلم لم يخبرهم به ، وأيضاً أن علياً ما كان ينزل عليه الوحي ، فهذا التفصيل ما عرفه إلا من النبي صلى الله عليه وسلم فلم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الشرح والبيان لعلي ولم يذكره لغيره .

الثاني : أن ذلك الملك إن كان حيواناً واحداً وعاقلاً واحداً لم يكن في تكثير تلك اللغات فائدة وإن كان المتكلم بكل واحدة من تلك اللغات حيواناً آخر لم يكن ذلك ملكاً واحداً بل

يكون ذلك مجموع ملائكة .

والثالث : أن هذا شيء مجهول الوجود فكيف يسأل عنه ، أما الروح الذي هو سبب الحياة فهو شيء تتوفر دواعي العقلاء على معرفته فصرف هذا السؤال إليه أولى .

والقول الرابع : وهو قول الحسن وقتادة أن هذا الروح جبريل والدليل عليه أنه تعالى سمى جبريل بالروح في قوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : 193 ، 194] وفي قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ [مريم : 17] ويؤكد هذا أنه تعالى قال : ﴿ قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبّى ﴾ (في جبريل) وقال (حكاية عن) جبريل : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبّكَ ﴾ [مريم : 64] فسألوا الرسول كيف جبريل في نفسه وكيف قيامه بتبليغ الوحي إليه .

(23/463)

والقول الخامس : قال مجاهد : الروح خلق ليسوا من الملائكة على صورة بني آدم يأكلون ولهم أيد وأرجل ورؤوس وقال أبو صالح يشبهون الناس وليسوا بالناس ولم أجد في القرآن ولا في الأخبار الصحيحة شيئاً يمكن التمسك به في إثبات هذا القول وأيضاً فهذا شيء مجهول فيبعد صرف هذا السؤال إليه فحاصل ما ذكرناه في تفسير الروح المذكور في هذه

الآية هذه الأقوال الخمسة ، والله أعلم بالصواب .

المسألة الثالثة :

في شرح مذاهب الناس في حقيقة الإنسان ، اعلم أن العلم الضروري حاصل بأن ها هنا شيئاً إليه يشير الإنسان بقوله أنا وإذا قال الإنسان علمت وفهمت وأبصرت وسمعت وذقت وشممت ولمست وغضبت فالمشار إليه لكل أحد بقوله أنا إما أن يكون جسماً أو عرضاً أو مجموع الجسم والعرض أو شيئاً مغايراً للجسم والعرض أو من ذلك الشيء الثالث فهذا ضبط معقول .

أما القسم الأول : وهو أن يقال إن الإنسان جسم فذلك الجسم إما أن يكون هو هذه البنية أو جسماً داخلاً في هذه البنية أو جسماً خارجاً عنها ، أما القائلون بأن الإنسان عبارة عن هذه البنية المحسوسة وعن هذا الجسم المحسوس فهم جمهور المتكلمين وهؤلاء يقولون الإنسان لا يحتاج تعريفه إلى ذكر حد أو رسم بل الواجب أن يقال الإنسان هو الجسم المبني بهذه البنية المحسوسة واعلم أن هذا القول عندنا باطل وتقريره أنهم قالوا : الإنسان هو هذا الجسم المحسوس ، فإذا أبطلنا كون الإنسان عبارة عن هذا الجسم وأبطلنا كون الإنسان محسوساً فقد بطل كلامهم بالكلية والذي يدل على أنه لا يمكن أن يكون الإنسان عبارة (عن) هذا الجسم وجوه .

الحجة الأولى : أن العلم البديهي حاصل بأن أجزاء هذه الجثة متبدلة بالزيادة والنقصان تارة

بحسب النمو والذبول وتارة بحسب السمن والهزال والعلم الضروري حاصل بأن المتبدل المتغير مغاير للثابت الباقي ويحصل من مجموع هذه المقدمات الثلاثة العلم القطعي بأن الإنسان ليس عبارة عن مجموع هذه الجثة .

(24/463)

الحجة الثانية : أن الإنسان حال ما يكون مشتغل الفكر متوجه الهمة نحو أمر معين مخصوص فإنه في تلك الحالة غير غافل عن نفسه المعينة بدليل أنه في تلك الحالة قد يقول غضبت واشتهيت وسمعت كلامك وأبصرت وجهك ، وتاء الضمير كناية عن نفسه فهو في تلك الحالة عالم بنفسه المخصوصة وغافل عن جملة بدنه وعن كل واحد من أعضائه وأبعاضه و (يكون) المعلوم غير معلوم ، فالإنسان يجب أن يكون مغايراً لجملة هذا البدن ولكل واحد من أعضائه وأبعاضه .

الحجة الثالثة : أن كل أحد يحكم عقله بإضافة كل واحد من هذه الأعضاء إلى نفسه فيقول رأسي وعيني ويدي ورجلي ولساني وقلبي والمضاف غير المضاف إليه فوجب أن يكون الشيء الذي هو الإنسان مغايراً لجملة هذا البدن ولكل واحد من هذه الأعضاء .

فإن قالوا : قد يقول نفسي وذاتي فيضيف النفس والذات إلى نفسه فيلزم أن يكون الشيء

وذاته مغايرة لنفسه وهو محال قلنا قد يراد به هذا البدن المخصوص وقد يراد بنفس الشيء وذاته الحقيقة المخصوصة التي يشير إليها كل أحد بقوله أنا فإذا قال نفسي وذاتي فإن كان المراد البدن فعندنا أنه مغاير لجوهر الإنسان ، أما إذا أريد بالنفس والذات المخصوصة المشار إليها بقوله : أنا فلا نسلم أن الإنسان يمكنه أن يضيف ذلك الشيء إلى نفسه بقوله إنساني وذلك لأن عين الإنسان ذاته فكيف يضيفه مرة أخرى إلى ذاته .

الحجة الرابعة ؛ أن كل دليل على أن الإنسان يمتنع أن يكون جسماً فهو أيضاً يدل على أنه يمتنع أن يكون عبارة عن هذا الجسم وسيأتي تقرير تلك الدلائل .

الحجة الخامسة : أن الإنسان قد يكون حياً حال ما يكون البدن ميتاً فوجب كون الإنسان مغايراً لهذا البدن والدليل على صحة ما ذكرناه قوله تعالى :

﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ الله أمواتا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : 169] فهذا النص صريح في أن أولئك المقتولين أحياء والحس يدل على أن هذا الجسد ميت .

الحجة السادسة : أن قوله تعالى : ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ [غافر : 46] وقوله : ﴿ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ [نوح : 25] يدل على أن الإنسان يحيا بعد الموت وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام : " أنبياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار إلى دار " وكذلك قوله عليه السلام " القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار " وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام : " من مات فقد قامت قيامته " كل هذه النصوص تدل على أن الإنسان يبقى بعد موت الجسد ، وبديهة العقل والفطرة شاهدان بأن هذا الجسد ميت . ولو جوزنا كونه حياً جاز مثله في جميع الجمادات ، وذلك عين السفسطة .

وإذا ثبت أن الإنسان شيء وكان الجسد ميتاً لزم أن الإنسان شيء غير هذا الجسد .

الحجة السابعة : قوله عليه السلام في خطبة طويلة له " حتى إذا حمل الميت على نعشه رفرف روحه فوق النعش ، ويقول يا أهلي ويا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي ، جمعت المال من حله وغير حله فالغنى لغيري والتبعة علي فاحذروا مثل ما حل بي " وجه الاستدلال أن النبي صلى الله عليه وسلم صرح بأن حال ما يكون الجسد محمولاً على النعش بقي هناك شيء ينادي ويقول يا أهلي ويا ولدي جمعت المال من حله وغير حله ومعلوم أن الذي كان الأهل أهلاً له وكان جامعاً للمال من الحرام والحلال والذي بقي في رقبته الوبال ليس إلا ذلك الإنسان فهذا تصريح بأن في الوقت الذي كان فيه الجسد ميتاً

محمولاً كان ذلك الإنسان حياً باقياً فاهماً وذلك تصريح بأن الإنسان شيء مغاير لهذا الجسد ولهذا الهيكل.

(26/463)

الحجة الثامنة: قوله تعالى: ﴿ يأَيَّتُهَا النفس المطمئنة * ارجعى إلى رَبّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: 27، 28] والخطاب بقوله ﴿ ارجعي ﴾ إنما هو متوجه عليها حال الموت فدل هذا على أن الشيء الذي يرجع إلى الله بعد موت الجسد يكون حياً راضياً عن الله ويكون راضياً عنه الله والذي يكون راضياً ليس إلا الإنسان فهذا يدل على أن الإنسان بقي حياً بعد موت الجسد والحي غير الميت فالإنسان مغاير لهذا الجسد.

الحجة التاسعة: قوله تعالى: ﴿ حتى إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرّطُونَ * ثُمَّ رُدُّواْ إلى الله مولاهم الحق ﴾ [الأنعام: 61، 62] أثبت كونهم مردودين إلى الله الذي هو مولاهم حال كون الجسد ميتاً فوجب أن يكون ذلك المردود إلى الله مغايراً لذلك الجسد الميت.

الحجة العاشرة: نرى جميع فرق الدنيا من الهند والروم والعرب والعجم وجميع أرباب الملل والنحل من اليهود والنصارى والمجوس والمسلمين وسائر فرق العالم وطوائفهم يتصدقون عن

موتاهم ويدعون لهم بالخير ويذهبون إلى زياراتهم ، ولولا أنهم بعد موت الجسد بقوا أحياء لكان التصدق عنهم عبثاً ، والدعاء لهم عبثاً ، ولكان الذهاب إلى زيارتهم عبثاً ، فالإطباق على هذه الصدقة وعلى هذا الدعاء وعلى هذه الزيارة يدل على أن فطرتهم الأصلية السليمة شاهدة بأن الإنسان شيء غير هذا الجسد وأن ذلك الشيء لا يموت ، بل (الذي) يموت هذا الجسد .

الحجة الحادية عشرة : أن كثيراً من الناس يرى أباه أو ابنه بعد موته في المنام ويقول له اذهب إلى الموضع الفلاني فإن فيه ذهباً دفنته لك وقد يراه فيوصيه بقضاء دين عنه ثم عند اليقظة إذا فتش كان كما رآه في النوم من غير تفاوت ، ولولا أن الإنسان يبقى بعد الموت لما كان كذلك ، ولما دل هذا الدليل على أن الإنسان يبقى بعد الموت ودل الحس على أن الجسد ميت كان الإنسان مغايراً لهذا الجسد الميت .

(27/463)

الحجة الثانية عشرة : أن الإنسان إذا ضاع عضو من أعضائه مثل أن تقطع يداه أو رجلاه أو تقلع عيناه أو تقطع أذناه إلى غيرها من الأعضاء فإن ذلك الإنسان يجد من قلبه وعقله أنه هو عين ذلك الإنسان ولم يقع في عين ذلك الإنسان تفاوت حتى أنه يقول أنا ذلك الإنسان

الذي كنت موجوداً قبل ذلك إلا أنه يقول إنهم قطعوا يدي ورجلي ، وذلك برهان يقيني على أن ذلك الإنسان شيء مغاير لهذه الأعضاء والأبعاض وذلك يبطل قول من يقول الإنسان عبارة عن هذه البنية المخصوصة .

الحجة الثالثة عشرة : أن القرآن والأحاديث يدلان على أن جماعة من اليهود قد مسخهم الله وجعلهم في صورة القردة والخنازير فنقول : إن ذلك الإنسان هل بقي حال ذلك المسخ أو لم يبق ؟ فإن لم يبق كان هذا إماتة لذلك الإنسان وخلقاً لذلك الخنزير وليس هذا من المسخ في شيء .

وإن قلنا إن ذلك الإنسان بقي حال حصول ذلك المسخ فنقول على ذلك التقدير : ذلك الإنسان باق وتلك البنية وذلك الهيكل غير باق ، فوجب أن يكون ذلك الإنسان شيئاً مغايراً لتلك البنية .

الحجة الرابعة عشرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى جبريل عليه الصلاة والسلام في صورة دحية الكلبي وكان يرى إبليس في صورة الشيخ النجدي فها هنا بنية الإنسان وهيكله وشكله حاصل مع أن حقيقة الإنسان غير حاصلة وهذا يدل على أن الإنسان ليس عبارة عن هذه البنية ، وهذا الهيكل .

والفرق بين هذه الحجة والتي قبلها أنه حصلت صورة هذه البنية مع عدم هذه البنية وهذا الهيكل .

الحجة الخامسة عشرة : أن الزاني يزني بفرجه فيضرب على ظهره فوجب أن يكون الإنسان شيئاً آخر سوى الفرج وسوى الظهر ، ويقال إن ذلك الشيء يستعمل الفرج في عمل والظهر في عمل آخر ، فيكون المتلذذ والمتألم هو ذلك الشيء إلا أنه تحصل تلك اللذة بواسطة ذلك العضو ويتألم بواسطة الضرب على هذا العضو .

(28/463)

الحجة السادسة عشرة : أني إذا تكلمت مع زيد وقلت له افعل كذا أو لا تفعل كذا فالمخاطب بهذا الخطاب والمأمور والمنهي ليس هو جبهة زيد ولا حدقته ولا أنفه ولا فمه ولا شيئاً من أعضائه بعينه ، فوجب أن يكون المأمور والمنهي والمخاطب شيئاً مغايراً لهذه الأعضاء ، وذلك يدل على أن ذلك المأمور والمنهي غير هذا الجسد فإن قالوا لم لا يجوز أن يقال المأمور والمنهي جملة هذا البدن لا شيء من أعضائه وأبعاضه ؟ قلنا بوجه التكليف على الجملة إنما يصح لو كانت الجملة فاهمة عالمة فنقول لو كانت الجملة فاهمة عالمة فإما أن يقوم بمجموع البدن علم واحد أو يقوم بكل واحد من أجزاء البدن علم على حدة ، والأول يقتضي قيام العرض بالمحال الكثيرة وهو محال ، والثاني يقتضي أن يكون كل واحد من أجزاء البدن عالماً فاهماً مدركاً على سبيل الاستقلال ، وقد بينا أن العلم الضروري

حاصل بأن الجزء المعين من البدن ليس عالماً فاهماً مدركاً بالاستقلال فسقط هذا السؤال.

الحجة السابعة عشرة: أن الإنسان يجب أن يكون عالماً، والعلم لا يحصل إلا في القلب فيلزم أن يكون الإنسان عبارة عن الشيء الموجود في القلب وإذا ثبت هذا بطل القول بأن الإنسان عبارة عن هذا الهيكل، وهذه الجثة إنما قلنا إن الإنسان يجب أن يكون عالماً لأنه فاعل مختار، والفاعل المختار هو الذي يفعل بواسطة القلب والاختيار وهما مشروطان بالعلم لأن ما لا يكون مقصوداً امتنع القصد إلى تكوينه فثبت أن الإنسان يجب أن يكون عالماً بالأشياء وإنما قلنا إن العلم لا يوجد إلا في القلب للبرهان والقرآن.

أما البرهان فلأنا نجد العلم الضروري بأنا نجد علومنا من ناحية القلب، وأما القرآن فآيات نحو قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: 179] وقوله: ﴿ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإيمان ﴾ [المجادلة: 22] وقوله: ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء: 193، 194] وإذا ثبت أن الإنسان يجب أن يكون عالماً، وثبت أن العلم ليس إلا في القلب هو هذا الجسد وهذا الهيكل.

وأما البحث الثاني : وهو بيان أن الإنسان غير محسوس وهو أن حقيقة الإنسان شيء مغاير للسطح واللون وكل ما هو مرئي فهو إما السطح وإما اللون وهما مقدمتان قطعيتان وينتج هذا القياس أن حقيقة الإنسان غير مرئية ولا محسوسة وهذا برهان يقيني .

المسألة الرابعة :

في شرح مذاهب القائلين بأن الإنسان جسم موجود في داخل البدن اعلم أن الأجسام الموجودة في هذا العالم السفلي إما أن تكون أحد العناصر الأربعة أو ما يكون متولداً من امتزاجها ، ويمتنع أن يحصل في البدن الإنساني جسم عنصري خالص بل لا بد وأن يكون الحاصل جسماً متولداً من امتزاجات هذه الأربعة فنقول : أما الجسم الذي تغلب عليه الأرضية فهو الأعضاء الصلبة الكثيفة كالعظم والغضروف والعصب والوتر والرباط والشحم واللحم والجلد ولم يقل أحد من العقلاء الذين قالوا : الإنسان شيء مغاير لهذا الجسد بأنه عبارة عن عضو معين من هذه الأعضاء وذلك لأن هذه الأعضاء كثيفة ثقيلة ظلمانية فلا جرم لم يقل أحد من العقلاء بأن الإنسان عبارة عن أحد هذه الأعضاء ، وأما الجسم الذي تغلب عليه المائية فهو الأخلاط الأربعة ولم يقل أحد في شيء منها إنه الإنسان إلا في الدم فإن منهم من قال إنه هو الروح بدليل أنه إذا خرج لزم الموت ، أما الجسم الذي تغلب عليه الهوائية والنارية فهو الأرواح وهي نوعان .

أحدهما : أجسام هوائية مخلوطة بالحرارة الغريزية متولدة إما في القلب أو في الدماغ وقالوا إنها هي الروح وإنها هي الإنسان ثم اختلفوا فمنهم من يقول الإنسان هو الروح الذي في القلب ، ومنهم من يقول إنه جزء لا يتجزأ في الدماغ ، ومنهم من يقول الروح عبارة عن أجزاء نارية مختلطة بهذه الأرواح القلبية والدماغية وتلك الأجزاء النارية وهي المسماة بالحرارة الغريزية وهي الإنسان ، ومن الناس من يقول الروح عبارة عن أجسام نورانية سماوية لطيفة ، والجوهر على طبيعة ضوء الشمس وهي لا تقبل التحلل والتبدل ولا التفرق ولا التمزق فإذا تكون البدن وتم استعداده وهو المراد بقوله : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ نفذت تلك الأجسام الشريفة السماوية الإلهية في داخل أعضاء البدن نفاذ النار في الفحم ونفاذ دهن السمسم في السمسم ، ونفاذ ماء الورد في جسم الورد ، ونفاذ تلك الأجسام السماوية في جوهر البدن هو المراد بقوله : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [ص : 72] ثم إن البدن ما دام يبقى سليماً قابلاً لنفاذ تلك الأجسام الشريفة بقي حياً ، فإذا تولدت في البدن أخلاط غليظة منعت تلك الأخلاط الغليظة من سريان تلك الأجسام الشريفة فيها فانفصلت عن هذا البدن فحينئذ يعرض الموت ، فهذا مذهب قوي شريف يجب التأمل فيه فإنه شديد المطابقة لما ورد في الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت ، فهذا تفصيل مذاهب القائلين بأن الإنسان جسم موجود في داخل البدن ، وأما أن الإنسان جسم موجود خارج البدن

فلا أعرف أحداً ذهب إلى هذا القول.

أما القسم الثاني: وهو أن يقال الإنسان عرض حال في البدن، فهذا لا يقول به عاقل لأن من المعلوم بالضرورة أن الإنسان جوهر لأنه موصوف بالعلم والقدرة والتدبر والتصرف، ومن كان كذلك كان جوهراً والجوهر لا يكون عرضاً بل الذي يمكن أن يقول به كل عاقل هو أن الإنسان يشترط أن يكون موصوفاً بأعراض مخصوصة، وعلى هذا التقدير فللناس فيه أقوال.

القول الأول: أن العناصر الأربعة إذا امتزجت وانكسرت سورة كل واحدة منها بسورة الآخر حصلت كيفية معتدلة هي المزاج: ومراتب هذا المزاج غير متناهية فبعضها هي الإنسانية وبعضها هي الفرسية، فالإنسانية عبارة عن أجسام موصوفة متولدة عن امتزاجات أجزاء العناصر بمقدار مخصوص، هذا قول جمهور الأطباء ومنكري بقاء النفس وقول أبي الحسين البصري من المعتزلة.

والقول الثاني: أن الإنسان عبارة عن أجسام مخصوصة بشرط كونها موصوفة بصفة الحياة والعلم والقدرة والحياة عرض قائم بالجسم وهؤلاء أنكروا الروح والنفس وقالوا ليس ها هنا

إلا أجسام مؤتلفة موصوفة بهذه الأعراض المخصوصة وهي الحياة والعلم والقدرة ، وهذا مذهب أكثر شيوخ المعتزلة .

والقول الثالث : أن الإنسان عبارة عن أجسام موصوفة بالحياة والعلم والقدرة والإنسان إنما يمتاز عن سائر الحيوانات بشكل جسده وهيئة أعضائه وأجزائه إلا أن هذا مشكل فإن الملائكة قد يتشبهون بصور الناس فها هنا صورة الإنسان حاصلة مع عدم الإنسانية وفي صورة المسخ معنى الإنسانية حاصل مع أن هذه الصورة غير حاصلة فقد بطل اعتبار هذا الشكل في حصول معنى الإنسانية طرداً وعكساً .

(32/463)

أما القسم الثالث : وهو أن يقال الإنسان موجود ليس بجسم ولا جسمانية فهو قول أكثر الإلهيين من الفلاسفة القائلين ببقاء النفس المثبتين للنفس معاداً روحانياً وثواباً وعقاباً وحساباً روحانياً وذهب إليه جماعة عظيمة من علماء المسلمين مثل الشيخ أبي القاسم الراغب الأصفهاني والشيخ أبي حامد الغزالي رحمهما الله ، ومن قدماء المعتزلة معمر بن عباد السلمي ، ومن الشيعة الملقب عندهم بالشيخ المفيد ، ومن الكرامية جماعة ، واعلم أن القائلين بإثبات النفس فريقان ، الأول : وهم المحققون منهم من قال الإنسان عبارة عن

هذا الجوهر المخصوص ، وهذا البدن وعلى هذا التقدير فالإنسان غير موجود في داخل العالم ولا في خارجه وغير متصل في داخل العالم ولا في خارجه وغير متصل بالعالم ولا منفصل عنه ، ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف كما أن إله العالم لا تعلق له بالعالم إلا على سبيل التصرف والتدبير .

والفريق الثاني : الذين قالوا النفس إذا تعلقت بالبدن اتحدت بالبدن فصارت النفس عين البدن ، والبدن عين النفس ومجموعهما عند الاتحاد هو الإنسان فإذا جاء وقت الموت بطل هذا الاتحاد وبقيت النفس وفسد البدن فهذه جملة مذاهب الناس في الإنسان وكان ثابت بن قرة يثبت النفس ويقول إنها متعلقة بأجسام سماوية نورانية لطيفة غير قابلة للكون والفساد التفرق والتمزق وأن تلك الأجسام تكون سارية في البدن وما دام يبقى ذلك السريان بقيت النفس مدبرة للبدن فإذا انفصلت تلك الأجسام اللطيفة عن جوهر البدن انقطع تعلق النفس عن البدن .

المسألة الخامسة :

في دلائل مثبتي النفس من ناحية العقل احتج القوم بوجوه كثيرة بعضها قوي وبعضها ضعيف والوجوه القوية بعضها قطعية وبعضها إقناعية فلنذكر الوجوه القطعية .

الحجة الأولى : لا شك أن الإنسان جوهر فإما أن يكون جوهراً متحيزاً أو غير متحيز والأول باطل فتعين الثاني والذي يدل على أنه يمتنع أن يكون جوهراً متحيزاً أنه لو كان كذلك لكان كونه متحيزاً غير تلك الذات ولو كان كذلك لكان كل ما علم الإنسان ذاته المخصوصة وجب أن يعلم كونه متحيزاً بمقدار مخصوص وليس الأمر كذلك فوجب أن لا يكون الإنسان جوهراً متحيزاً فنفتقر في تقرير هذا الدليل إلى مقدمات ثلاثة .

المقدمة الأولى : لو كان الإنسان جوهراً متحيزاً لكان كونه متحيزاً عين ذاته المخصوصة والدليل عليه أنه لو كان تحيزه صفة قائمة لكان ذلك المحل من حيث هو مع قطع النظر عن هذه الصفة .

إما أن يكون متحيزاً أو لا يكون والقسمان باطلان فبطل القول بكون التحيز صفة قائمة بالمحل إنما قلنا إنه يمتنع أن يكون محل التحيز لأنه يلزم كون الشيء الواحد متحيزاً مرتين ولأنه يلزم اجتماع المثلين ولأنه ليس جعل أحدهما ذاتاً والآخر صفة أولى من العكس ولأن التحيز الثاني إن كان عين الذات فهو المقصود وإن كان صفة لزم التسلسل وهو محال وإنما قلنا إنه يمتنع أن يكون محل التحيز غير متحيز لأن حقيقة التحيز هو الذهاب في الجهات والامتداد فيها ، والشيء الذي لا يكون متحيزاً لم يكن له اختصاص بالجهات وحصوله فيها ليس بمتحيز محال ، فثبت بهذا أنه لو كان الإنسان جوهراً متحيزاً لكان تحيزه غير ذاته

المخصوصة.

المقدمة الثانية: لو كان تحيز ذاته المخصوصة عين ذاته المخصوصة لكان متى عرف ذاته المخصوصة فقد عرف كونها متحيزة، والدليل عليه أنه لو صارت ذاته المخصوصة معلومة وصار تحيزه مجهولاً لزم اجتماع النفي والإثبات في الشيء الواحد وهو محال.

(34/463)

المقدمة الثالثة: أنا قد نعرف ذاتنا حال كوننا جاهلين بالتحيز والامتداد في الجهات الثلاثة وذلك ظاهر عند الاختبار والامتحان فإن الإنسان حال كونه مشتغلاً بشيء من المهمات مثل أن يقول لعبده لم فعلت كذا ولم خالفت أمري وإني أبالغ في تأديبك وضربك فعندما يقول لم خالفت أمري يكون عالماً بذاته المخصوصة إذ لو لم يعلم ذاته المخصوصة لامتنع أن يعلم أن ذلك الإنسان خالفه ولامتنع أن يخبر عن نفسه بأنه على عزم أن يؤدبه ويضربه ففي هذه الحالة يعلم ذاته المخصوصة مع أنه في تلك الحالة لا يخطر بباله حقيقة التحيز والامتداد في الجهات والحصول في الحيز فثبت بما ذكرنا أنه لو كان ذات الإنسان جوهراً متحيزاً لكان تحيزه عين المخصوصة ولو كان كذلك لكان كل ما علم ذاته المخصوصة فقد علم التحيز وثبت أنه ليس كذلك فيلزم أن يقال ذات الإنسان ليس جوهراً متحيزاً وذلك هو

المطلوب ، فإن قالوا هذا معارض بأنه لو كان جوهراً مجرداً لكان كل من عرف ذات نفسه عرف كونه جوهراً مجرداً وليس الأمر كذلك قلنا الفرق ظاهر لأن كونه مجرداً معناه أنه ليس بمتحيز ولا حالاً في المتحيز وهذا السلب ليس عين تلك الذات المخصوصة لأن السلب ليس عين الثبوت ، وإذا كان كذلك لم يبعد أن تكون تلك الذات المخصوصة معلومة وأن لا يكون ذلك السلب معلوماً بخلاف كونه متحيزاً فأنا قد دللنا على أن تقدير كون الإنسان جوهراً متحيزاً يكون تحيزه عين ذاته المخصوصة وعلى هذا التقدير يمتنع أن تكون ذاته معلومة ويكون تحيزه مجهولاً فظهر الفرق .

الحجة الثانية : النفس واحدة ومتى كانت واحدة وجب أن تكون مغايرة لهذا البدن ولكل واحد من أجزائه فهذه الحجة مبنية على مقدمات ، المقدمة الأولى : هي قولنا النفس واحدة ولنا ها هنا مقامان تارة ندعي العلم البديهي فيه وأخرى نقيم البرهان على صحته ، أما المقام الأول : وهو إدعاء البديهية فنقول المراد من النفس هو الشيء الذي يشير إليه كل أحد بقوله أنا وكل أحد يعلم بالضرورة أنه إذا أشار إلى ذاته المخصوصة بقوله أنا كان ذلك المشار إليه واحداً غير متعدد فإن قيل لم لا يجوز أن يكون المشار إليه لكل أحد بقوله

أنا وإن كان واحداً إلا أن ذلك الواحد يكون مركباً من أشياء كثيرة قلنا إنه لا حاجة لنا في هذا المقام إلى دفع هذه السؤال بل نقول المشار إليه بقول أنا معلوم بالضرورة أنه شيء واحد فأما أن ذلك الواحد هل هو واحد مركب من أشياء كثيرة أو هو واحد في نفسه واحد في حقيقته فهذا لا حاجة إليه في هذا المقام.

أما المقام الثاني: وهو مقام الاستدلال فالذي يدل على وحدة النفس وجوه.

الحجة الأولى: أن الغضب حالة نفسانية تحدث عند إرادة دفع المنافر والشهوة حالة نفسانية تحدث عند طلب الملايم مشروطاً بالشعور بكون الشيء ملايماً ومنافراً فالقوة الغضبية التي هي قوة دافعة للمنافر إن لم يكن لها شعور بكونه منافراً امتنع انبعاثها لدفع ذلك المنافر على سبيل القصد والاختيار لأن القصد إلى الجذب تارة وإلى الدفع أخرى مشروط بالشعور بالشيء فالشيء المحكوم عليه بكونه دافعاً للمنافر على سبيل الاختيار لا بد وأن يكون له شعور بكونه منافراً فالذي يغضب لا بد وأن يكون هو بعينه مدركاً فثبت بهذا البرهان اليقيني مباينة حاصلة في ذوات متباينة.

الحجة الثانية: أنا إذا فرضنا جوهرين مستقلين يكون كل واحد منهما مستقلاً بفعله الخاص امتنع أن يصير اشتغال أحدهما بفعله الخاص مانعاً للآخر من اشتغاله بفعله الخاص به.

وإذا ثبت هذا فنقول لو كان محل الإدراك والفكر جوهراً ومحل الغضب جوهراً آخر ومحل الشهوة جوهراً ثالثاً وجب أن لا يكون اشتغال القوة الغضبية بفعلها مانعاً للقوة الشهوانية من الاشتغال بفعلها ولا بالعكس لكن الثاني باطل فإن اشتغال الإنسان بالشهوة وانصبابه إليها يمنعه من الاشتغال بالغضب وانصبابه إليه وبالعكس فعلمنا أن هذه الأمور الثلاثة ليست مبادىء مستقلة بل هي صفات مختلفة بجوهر واحد فلا جرم كان اشتغال ذلك الجوهر بأحد هذه الأفعال عائقاً له عن الاشتغال بالفعل الآخر.

الحجة الثالثة: أنا إذا أدركنا أشياء فقد يكون الإدراك سبباً لحصول الشهوة وقد يصير سبباً لحصول الغضب فلو كان الجوهر المدرك مغايراً للذي يغضب والذي يشتهي فحين أدرك الجوهر المدرك لم يحصل عند الجوهر المشتهى من ذلك الإدراك أثر ولا خبر فوجب أن لا يترتب على ذلك الإدراك لا حصول الشهوة ولا حصول الغضب وحيث حصل هذا الترتيب والاستلزام علمنا أن صاحب الإدراك بعينه هو صاحب الشهوة بعينها وصاحب الغضب بعينه.

الحجة الرابعة : أن حقيقة الحيوان أنه جسم ذو نفس حساسة متحركة بالإرادة فالنفس لا يمكنها أن تتحرك بالإدارة إلا عند حصول الداعي ولا معنى للداعي إلا الشعور بخير يرغب في جذبه أو بشر يرغب في دفعه وهذا يقتضي أن يكون المتحرك بالإرادة هو بعينه مدركاً للخير والشر والملذ والمؤذي والنافع والضار فثبت بما ذكرنا أن النفس الإنسانية شيء واحد وثبت أن ذلك الشيء هو المبصر والسامع والشام والذائق واللامس والمتخيل والمتفكر والمتذكر والمشتهي والغاضب وهو الموصوف بجميع الإدراكات وهو الموصوف بجميع الأفعال الاختيارية والحركات الإرادية ، وأما المقدمة الثانية : في بيان أنه لما كانت النفس شيئاً واحداً وجب أن لا تكون النفس في هذا البدن ولا شيئاً من أجزائه فنقول أما بيان أنه متى كان الأمر كذلك امتنع كون النفس عبارة عن جملة هذا البدن وكذا القوة السامعة وكذا سائر القوى كالتخيل والتذكر والتفكر والعلم بأن هذه القوى غير سارية في جملة أجزاء البدن علم بديهي بل هو من أقوى العلوم البديهية ، وأما بيان أنه يمتنع أن تكون النفس جزءاً من أجزاء هذا البدن فإنا نعلم بالضرورة أنه ليس في البدن جزء واحد وهو بعينه موصوف بالأبصار والسماع والفكر والذكر بل الذي يتبادر إلى الخاطر أن الأبصار مخصوص بالعين لا بسائر الأعضاء والسماع مخصوص بالأذن لا بسائر الأعضاء والصوت مخصوص بالحلق لا بسائر الأعضاء .

وكذلك القول في سائر الإدراكات وسائر الأفعال فأما أن يقال إنه حصل في البدن جزء

واحد موصوف بكل هذه الإدراكات وبكل هذه الأفعال فالعلم الضروري حاصل بأنه ليس الأمر كذلك فثبت بما ذكرنا أن النفس الإنسانية شيء واحد موصوف بجملة هذه الإدراكات وبجملة هذه الأفعال وثبت بالبديهية أن جملة البدن ليست كذلك وثبت أيضاً أن شيئاً من أجزاء البدن ليس كذلك فحينئذ يحصل اليقين بأن النفس شيء مغاير لهذا البدن ولكل واحد من أجزائه وهو المطلوب .

(38/463)

ولنقرر هذا البرهان بعبارة أخرى فنقول : إنا نعلم بالضرورة أنا إذا أبصرنا شيئاً عرفناه وإذا عرفناه اشتهيناه وإذا اشتهيناه حركنا أبداننا إلى القرب منه فوجب القطع بأن الذي أبصر هو الذي عرف وأن الذي عرف هو الذي اشتهى وأن الذي اشتهى هو الذي حرك إلى القرب منه فيلزم القطع بأن المبصر لذلك الشيء والعارف به والمشتهي والمتحرك إلى القرب منه شيء واحد إذ لو كان المبصر شيئاً والعارف شيئاً ثانياً والمشتهي شيئاً ثالثاً والمتحرك شيئاً رابعاً لكان الذي أبصر لم يعرف ، والذي عرف لم يشته والذي اشتهى لم يتحرك ، ومن المعلوم أن كون الشيء مبصراً لشيء لا يقتضي صيرورة شيء آخر عالماً بذلك الشيء وكذلك القول في سائر المراتب وأيضاً فإنا نعلم بالضرورة أن الرائي للمرئيات لما كان رآها

فقد عرفها ولما عرفها فقد اشتهاها ولما اشتهاها طلبها وحرك الأعضاء إلى القرب منها ونعلم أيضاً بالضرورة أن الموصوف بهذه الرؤية وبهذا العلم وبهذ الشهوة وبهذا التحرك هو لا غيره وأيضاً العقلاء قالوا الحيوان لا بد أن يكون حساساً متحركاً بالإرادة فإنه إن لم يحس بشيء لم يشعر بكونه ملائماً أو بكونه منافراً وإذا لم يشعر بذلك امتنع كونه مريداً للجذب أو الدفع فثبت أن الشيء الذي يكون متحركاً بالإرادة فإنه بعينه يجب أن يكون حساساً فثبت أن المدرك لجميع المدركات يدرك بجميع أصناف الإدراكات وأن المباشر لجميع التحريكات الاختيارية شيء واحد وأيضاً فلأنا إذا تكلمنا بكلام نقصد منه تفهيم الغير (عقلنا) معاني تلك الكلمات ثم لما عقلناها أردنا تعريف غيرنا تلك المعاني ولما حصلت هذه الإرادة في قلوبنا حاولنا إدخال تلك الحروف والأصوات في الوجود لنتوسل بها إلى تعريف غيرنا تلك المعاني.

إذ ثبت هذا فنقول: إن كان محل العلم والإرادة ومحل تلك الحروف والأصوات جسماً واحداً لزم أن يقال إن محل العلوم والإرادات هو الحنجرة واللهاة واللسان، ومعلوم أنه ليس كذلك، وإن قلنا محل العلوم والإرادات هو القلب لزم أيضاً أن يكون محل الصوت هو القلب

وذلك أيضاً باطل بالضرورة ، وإن قلنا محل الكلام هو الحنجرة واللهاة واللسان ، ومحل العلوم والإرادات هو القلب ، ومحل القدرة هو الأعصاب والأوتار والعضلات ، كنا قد وزعنا هذه الأمور على هذه الأعضاء المختلفة لكنا أبطلنا ذلك .

وبينا أن المدرك لجميع المدركات والمحرك لجميع الأعضاء بكل أنواع التحريكات يجب أن يكون شيئاً واحداً ، فلم يبق إلا أن يقال في الإدراك والقدرة على التحريك (أنه) شيء سوى هذا البدن وسوى أجزاء هذا البدن وأن هذه الأعضاء جارية مجرى الآلات والأدوات فكما أن الإنسان يعقل أفعالاً مختلفة بواسطة آلات محتلفة فكذلك النفس تبصر بالعين وتسمع بالأذن وتتفكر بالدماغ وتعقل بالقلب ، فهذه الأعضاء آلات النفس وأدوات لها ، والنفس جوهر مغاير لها مفارق عنها بالذات متعلق بها تعلق التصرف والتدبير وهذا البرهان برهان شريف يقيني في ثبوت هذا المطلوب ، والله أعلم .

(40/463)

المقدمة الثالثة : لو كان الإنسان عبارة عن هذا الجسد لكان إما أن يقوم بكل واحد من الأجزاء حياة وعلم وقدرة على حدة ، وإما أن يقوم بمجموع الأجزاء حياة وعلم وقدرة ، والقسمان باطلان فبطل القول بكون الإنسان عبارة عن هذا الجسد ، وأما بطلان القسم

الأول فلأنه يقتضي كون كل واحد من أجزاء الجسد حياً عالماً قادراً على سبيل الاستقلال فوجب أن لا يكون الإنسان الواحد حيواناً واحداً بل أحياء عالمين قادرين وحينئذ لا يبقى فرق بين الإنسان الواحد وبين أشخاص كثيرين من الناس وربط بعضهم بالبعض بالتسلسل لكنا نعلم بالضرورة فساد هذا الكلام لأني أجد ذاتي ذاتاً واحدة لا حيوانات كثيرين ، وأيضاً فبتقدير أن يكون كل واحد من أجزاء هذا الجسد حيواناً واحداً على حدة فحينئذ لا يكون لكل واحد منهما خبر عن حال صاحبه فلا يمتنع أن يريد هذا أن يتحرك إلى هذا الجانب ويريد الجزء الآن أن يتحرك إلى الجانب الآخر فحينئذ يقع التدافع بين أجزاء بدن الإنسان الواحد كما يقع بين شخصين .

وفساد ذلك معلوم بالبديهة ، وأما بطلان القسم الثاني فلأنه يقتضي قيام الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة ، وذلك معلوم البطلان بالضرورة ولأنه لو جاز حلول الصفة الواحدة في المحال الكثيرة لم يبعد أيضاً حصول الجسم الواحد في الأحياز الكثيرة ولأن بتقدير أن تحصل الصفة الواحدة في المحال المتعددة فحينئذ يكون كل واحد من تلك الأجزاء حياً عاقلاً عالماً فيتجرد الأمر إلى كون هذه الجثة الواحدة أناساً كثيرين ، ولما ظهر فساد القسمين ثبت أن الإنسان ليس هو هذه الجثة .

فإن قالوا : لم لا يجوز أن تقوم الحياة الواحدة بالجزء الواحد ، ثم إن تلك الحياة تقتضي صيرورة جملة الأجزاء أحياء قلنا هذا باطل لأنه لا معنى للحياة إلا الحيية ، ولا معنى للعلم إلا العالمية ، وبتقدير أن نساعد على أن الحياة معنى يوجب الحيية والعلم معنى يوجب العالمية إلا أنا نقول إن حصل في مجموع جثة مجموع حياة واحدة وعالمية واحدة فقد حصلت الصفة الواحدة في المحال الكثيرة وهو محال ، وإن حصل في كل جزء وجثة حياة على حدة وعالمية على حدة عاد ما ذكرنا من كون الإنسان الواحد أناساً كثيرين وهو محال .

المقدمة الرابعة : أنا لما تأملنا في أحوال النفس رأينا أحوالها بالضد من أحوال الجسم ، وذلك يدل على أن النفس ليست جسماً ، وتقرير هذه المنافاة من وجوه .

الأول : أن كل جسم حصلت فيه صورة فإنه لا يقبل صورة أخرى من جنس الصورة الأولى إلا بعد زوال الصورة الأولى زوالاً تاماً مثاله : أن الشمع إذا حصل فيه شكل التثليث امتنع أن يحصل فيه شكل التربيع والتدوير إلا بعد زوال الشكل الأول عنه ، نعم إنا وجدنا الحال في تصور النفس بصور المعقولات بالضد من ذلك فإن النفس التي لم تقبل صورة عقلية ألبتة يبعد قبولها شيئاً من الصور العقلية فإذا قبلت صورة واحدة صار قبولها للصورة الثانية أسهل ، ثم إن النفس لا تزال تقبل صورة بعد صورة من غير أن تضعف ألبتة بل كلما كان

قبولها للصور أكثر صار قبولها للصور الآتية بعد ذلك أسهل وأسرع ، ولهذا السبب يزداد الإنسان فهماً وإدراكاً كلما ازداد تخرجاً وارتباطاً في العلوم فثبت أن قبول النفس للصور العقلية على خلاف قبول الجسم للصورة وذلك يوهم أن النفس ليست بجسم .

(42/463)

والثاني : أن المواظبة على الأفكار الدقيقة لها أثر في النفس وأثر في البدن ، أما أثرها في النفس فهو تأثيرها في إخراج النفس من القوة إلى الفعل في التعقلات والإدراكات وكلما كانت الأفكار أكثر كان حصول هذه الأحوال أكمل وذلك غاية كمالها ونهاية شرفها وجلالتها ، وأما أثرها في البدن فهو أنها توجب استيلاء اليبس على البدن واستيلاء الذبول عليه ، وهذه الحالة لو استمرت لانتقلت إلى الماليخوليا وسوق الموت فثبت بما ذكرنا أن هذه الأفكار توجب حياة النفس وشرفها وتوجب نقصان البدن وموته فلو كانت النفس هي البدن لصار الشيء الواحد سبباً لكماله ونقصانه معاً ولحياته وموته معاً ، وأنه محال .

والثالث : أنا إذا شاهدنا أنه ربما كان بدن الإنسان ضعيفاً نحيفاً ، فإذا لاح له نور من الأنوار القدسية وتجلى له سر من أسرار عالم الغيب حصل لذلك الإنسان جراءة عظيمة وسلطنة قوية .

ولم يعبأ بحضور أكابر السلاطين ولم يقم لهم وزناً ولولا أن النفس شيء سوى البدن لما كان الأمر كذلك .

الرابع : أن أصحاب الرياضات والمجاهدات كلما أمعنوا في قهر القوى البدنية وتجويع الجسد قويت قواهم الروحانية وأشرقت أسرارهم بالمعارف الإلهية وكلما أمعن الإنسان في الأكل والشرب وقضاء الشهوة الجسدانية صار كالبهيمة وبقي محروماً عن آثار النطق والعقل والمعرفة ولولا أن النفس غير البدن لما كان الأمر كذلك .

الخامس : أنا نرى أن النفس تفعل أفاعيلها بآلات بدنية فإنها تبصر بالعين وتسمع بالأذن وتأخذ باليد وتمشي بالرجل ، أما إذا آل الأمر إلى العقل والإدراك فإنها مستقلة بذاتها في هذا الفعل من غير إعانة شيء من الآلات ولذلك فإن الإنسان لا يمكنه أن يبصر شيئاً إذا أغمض عينيه وأن لا يسمع صوتاً إذا سد أذنيه .

كما لا يمكنه ألبتة أن يزيل عن قلبه العلم بما كان عالماً به فعلمنا أن النفس غنية بذاتها في العلوم والمعارف عن شيء من الآلات البدنية ، فهذه الوجوه الخمسة أمارات قوية في أن النفس ليست بجسم ، وفي المسألة الأولى كثير من دلائل المتقدمين ذكرناها في كتبنا الحكمية

فلا فائدة في الإعادة.

المسألة السادسة:

في إثبات أن النفس ليست بجسم من الدلائل السمعية.

الحجة الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كالذين نَسُوا الله فأنساهم أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: 19] ومعلوم أن أحداً من العقلاء لا ينسى هذا الهيكل المشاهد فدل ذلك على أن النفس التي ينساها الإنسان عند فرط الجهل شيء آخر غير هذا البدن.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام: 93] وهذا صريح أن النفس غير البدن وقد استقصينا في تفسير هذه فليرجع إليه.

(44/463)

الحجة الثالثة: أنه تعالى ذكر مراتب الخلقة الجسمانية فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ * ثُمَّ جعلناه نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون: 12، 13] إلى قوله: ﴿ فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ﴾ [المؤمنون: 14] ولا شك أن جميع هذه المراتب اختلافات واقعة في الأحوال الجسمانية ثم إنه تعالى لما أراد أن يذكر نفخ الروح قال: ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ [المؤمنون: 14] وهذا تصريح بأن ما يتعلق بالروح جنس مغاير لما سبق ذكره من

التغيرات الواقعة في الأحوال الجسمانية وذلك يدل على أن الروح شيء مغاير للبدن فإن قالوا هذه الآية حجة عليكم لأنه تعالى قال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12] وكلمة من للتبعيض وهذا يدل على أن الإنسان بعض من أبعاض الطين قلنا كلمة من أصلها لابتداء الغاية كقولك خرجت من البصرة إلى الكوفة فقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ ﴾ يقتضي أن يكون ابتداء تخليق الإنسان حاصلاً من هذه السلالة ونحن نقول بموجبه لأنه تعالى يسوي المزاج أولاً ثم ينفخ فيه الروح فيكون ابتداء تخليقه من السلالة .

الحجة الرابعة : قوله : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر : 29] ميز تعالى بين البشرية وبين نفخ الروح فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاض والأعضاء وتعديل المزاج والأشباح فلما ميز نفخ الروح عن تسوية الأعضاء ثم أضاف الروح إلى نفسه بقوله : ﴿ مِن رُّوحِى ﴾ دل ذلك على أن جوهر الروح معنى مغاير لجوهر الجسد .

(45/463)

الحجة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 7 ، 8] وهذه الآية صريحة في وجود شيء موصوف بالإدراك والتحريك حقاً

لأن الإلهام عبارة عن الإدراك ، وأما الفجور والتقوى فهو فعل وهذه الآية صريحة في أن الإنسان شيء واحد وهو موصوف أيضاً بالإدراك والتحريك وموصوف أيضاً بفعل الفجور تارة وفعل التقوى تارة أخرى ومعلوم أن جملة البدن غير موصوف بهذين الوصفين فلا بد من إثبات جوهر آخر يكون موصوفاً بكل هذه الأمور .

الحجة السادسة : قوله تعالى : ﴿ إنا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فجعلناه سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [الإنسان : 2] فهذا تصريح بأن الإنسان شيء واحد وذلك الشيء هو المبتلي بالتكاليف الإلهية والأمور الربانية وهو الموصوف بالسمع والبصر ومجموع البدن ليس كذلك وليس عضواً من أعضاء البدن كذلك فالنفس شيء مغاير لجملة البدن ومغاير لأجزاء البدن وهو موصوف بكل هذه الصفات .

واعلم أن الأحاديث الواردة في صفة الأرواح قبل تعلقها بالأجساد وبعد انفصالها من الأجساد كثيرة وكل ذلك يدل على أن النفس شيء غير هذا الجسد ، والعجب ممن يقرأ هذه الآيات الكثيرة ويروي هذه الأخبار الكثيرة ثم يقول توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان يعرف الروح وهذا من العجائب ، والله أعلم .

المسألة السابعة :

في دلالة الآية التي نحن في تفسيرها على صحة ما ذكرناه أن الروح لو كان جسماً منتقلاً من حالة إلى حالة ومن صفة إلى صفة لكان مساوياً للبدن في كونه متولداً من أجسام اتصفت بصفات مخصوصة بعد أن كانت موصوفة بصفات أخرى فإذا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وجب أن يبين أنه جسم كان كذا ثم صار كذا حتى صار روحاً مثل ما ذكر في كيفية تولد البدن أنه كان نطفة ثم علقة ، ثم مضغة فلما لم يقل ذلك بل قال إنه : ﴿ مِنَ أَمَرِ رَبِّي ﴾ بمعنى أنه لا يحدث ولا يدخل في الوجود إلا لأجل أن الله تعالى قال له : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : 117] دل ذلك على أنه جوهر ليس من جنس الأجسام بل هو جوهر قدسي مجرد واعلم أن أكثر العارفين المكاشفين من أصحاب الرياضيات وأرباب المكاشفات والمشاهدات مصرون على هذا القول جازمون بهذا المذهب قال الواسطي : خلق الله الأرواح من بين الجمال والبهاء فلولا أنه سترها لسجد لها كل كافر ، وأما بيان أن تعلقه الأول بالقلب ثم بواسطته يصل تأثيره إلى جملة الأعضاء فقد شرحناه في تفسير قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ﴾ [الشعراء : 193 ، 194] واحتج المنكرون بوجوه .

الأول : لو كانت مساوية لذات الله في كونه ليس بجسم ولا عرض لكانت مساوية له في تمام الماهية وذلك محال .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَىّ شَىْء خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ ﴾ [عبس : 17 22]

وهذا تصريح بأن الإنسان شيء مخلوق من النطفة ، وأنه يموت ويدخل القبر ثم إنه تعالى يخرجه من القبر ، ولو لم يكن الإنسان عبارة عن هذه الجثة لم تكن الأحوال المذكورة في هذه الآية صحيحة .

(47/463)

الثالث : قوله : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ [آل عمران : 169] إلى قوله : ﴿ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ ﴾ [آل عمران : 170] وهذا يدل على أن الروح جسم لأن الأرزاق والفرح من صفات الأجسام .

الجواب عن الأول : أن المساواة في أنه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز مساواة في صفة سلبية والمساواة في الصفة السلبية لا توجب المماثلة واعلم أن جماعة من الجهال يظنون أنه لما كان الروح موجوداً ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز وجب أن يكون مثلاً للإله أو جزءاً للإله وذلك جهل فاحش وغلط قبيح وتحقيقه ما ذكرناه من أن المساواة في السلوب لو أوجبت المماثلة لوجب القول باستواء كل المختلفات وأن كل ماهيتين مختلفتين فلا بد أن

يشتركا في سلب كل ما عداهما ، فلتكن هذه الدقيقة معلومة فإنها مغلطة عظيمة للجهال ، والجواب عن الثاني : أنه لما كان الإنسان في العرف والظاهر عبارة عن هذه الجثة أطلق عليه اسم الإنسان في العرف ، والجواب عن الثالث : أن الرزق المذكور في الآية محمول على ما يقوي حالهم ويكمل كمالهم وهو معرفة الله ومحبته بل نقول هذا من أدل الدلائل على صحة قولنا لأن أبدانهم قد بليت تحت التراب والله تعالى يقول إن أرواحهم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش وهذا يدل على أن الروح غير البدن وليكن هذا آخر كلامنا في هذا الباب ولنرجع إلى علم التفسير ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ وعلى قولنا قد ذكرنا فيه احتمالين ، أما المفسرون فقالوا إن النبي صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : " بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلاً " فقالوا ما أعجب شأنك يا محمد ساعة تقول : ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ [البقرة : 269] وساعة تقول هذا .

(48/463)

فنزل قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ﴾ [لقمان : 27] إلى آخره وما ذكروه ليس بلازم لأن الشيء قد يكون قليلاً بالنسبة إلى شيء كثيراً بالنسبة إلى شيء آخر فالعلوم

الحاصلة عند الناس قليلة جداً بالنسبة إلى علم الله وبالنسبة إلى حقائق الأشياء ولكنها كثيرة بالنسبة إلى الشهوات الجسمانية واللذات الجسدانية .

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87) ﴾

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أنه ما آتاهم من العلم إلا قليلاً بين في هذه الآية أنه لو شاء أن يأخذ منهم ذلك القليل أيضاً لقدر عليه وذلك بأن يمحو حفظه من القلوب وكتابته من الكتب وهذا وإن كان أمراً مخالفاً للعادة إلا أنه تعالى قادر عليه .

المسألة الثانية :

احتج الكعبي بهذه الآية على أن القرآن مخلوق فقال والذي يقدر على إزالته والذهاب به يستحيل أن يكون قديماً بل يجب أن يكون محدثاً .

وهذا الاستدلال بعيد لأن المراد بهذا الإذهاب إزالة العلم به عن القلوب وإزالة النقوش الدالة عليه عن المصحف وذلك لا يوجب كون ذلك المعلوم المدلول محدثاً وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ أي لا تجد من تتوكل عليه في رد شيء منه ثم قال : ﴿ إلاَّ رَحْمَةً مّن رَّبّكَ ﴾ أي إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى ولكن رحمة ربك تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من الله ببقاء القرآن على أنه تعالى منَّ

على جميع العلماء بنوعين من المنة .

أحدهما : تسهيل ذلك العلم عليه .

الثاني : إبقاء حفظه عليه وقوله : ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ فيه قولان : الأول :

المراد أن فضله كان عليك كبيراً بسبب إبقاء العلم والقرآن عليك .

(49/463)

الثاني : المراد أن فضله كان عليك كبيراً بسبب أنه جعلك سيد ولد آدم وختم بك النبيين

وأعطاك المقام المحمود فلما كان كذلك لا جرم أنعم عليك أيضاً بإبقاء العلم والقرآن عليك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 28. 45 ﴾

(50/463)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ﴾

يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : شفاء من الضلال ، لما فيه من الهدى .

الثاني : شفاء من السقم ، لما فيه من البركة .

الثالث : شفاء من الفرائض والأحكام ، لما فيه من البيان .

وتأويله الرحمة ها هنا على الوجوه الأُوَلِ الثلاثة :

أحدها : أنها الهدى .

الثاني : أنها البركة .

الثالث : أنها البيان .

﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يزيدهم خساراً لزيادة تكذيبهم .

الثاني : يزيدهم خساراً لزيادة ما يرد فيه من عذابهم .

قوله عز وجل : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : إذا أنعمنا عليه بالصحة والغنى أعرض ونأى وبعد من الخير .

الثاني : إذا أنعمنا عليه بالهداية أعرض عن السماع وبعُد من القبول وفي قوله ﴿ ونأى بجانبه ﴾ وجهان :

أحدهما : أعجب بنفسه ، لأن المعجب نافر من الناس متباعد عنهم .

الثاني : تباعد من ربه .

﴿ وإذا مَسّهُ الشر كان يئوساً ﴾ يحتمل إياسه من الفرج إذا مسه الشر وجهين :

أحدهما : بجحوده وتكذيبه .

الثاني : بعلمه بمعصيته أنه معاقب على ذنبه .

وفي ﴿ الشر ﴾ ها هنا ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنه الفقر ، قاله قتادة .

الثاني : أنه السقم ، قاله الكلبي .

الثالث : السيف ، وهو محتمل .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ كُلٌّ يعمل على شاكلته ﴾ في ستة تأويلات :

أحدها : على حِدّته ، قاله مجاهد .

الثاني : على طبيعته ، قاله ابن عباس .

الثالث : على بيته ، قاله قتادة .

الرابع : على دينه ، قاله ابن زيد .

الخامس : على عادته .

السادس : على أخلاقه .

﴿ فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أحسن ديناً .

الثاني : أسرع قبولاً .

قوله عز وجل : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾

فيها خمسة أقاويل :

أحدها : أنه جبريل عليه السلام ، قاله ابن عباس . كما قال تعالى ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] .

(51/463)

الثاني : ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه ، لكل وجه سبعون ألف لسان يسبح الله تعالى بجميع ذلك ، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

الثالث : أنه القرآن ، قاله الحسن ، كما قال تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [الشورى : 52] فيكون معناه أن القرآن من أمر الله تعالى ووحيه الذي أنزل عليّ وليس هو مني .

الرابع : أنه عيسى ابن مريم هو من أمر الله تعالى وليس كما ادعته النصارى أنه ابن الله ، ولا كما افترته اليهود أنه لغير رشدة .

الخامس : أنه روح الحيوان ، وهي مشتقة من الريح .

قال قتادة سأله عنها قوم من اليهود وقيل في كتابهم أنه إن أجاب عن الروح فليس بنبيّ فقال الله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ فلم يجبهم عنها فاحتمل ذلك ستة أوجه :

أحدها : تحقيقاً لشيء إن كان في كتابهم .

الثاني : أنهم قصدوا بذلك الإعنات كما قصدوا اقتراح الآيات .

الثالث : لأنه قد يتوصل إلى معرفته بالعقل دون السمع .

الرابع : لئلا يكون ذلك ذريعة إلى سؤال ما لا يعني .

الخامس : قاله بعض المتكلمين ، أنه لو أجابهم عنها ووصفها ؛ بأنها جسم رقيق تقوم معه الحياة ، لخرج من شكل كلام النبوة ، وحصل في شكل كلام الفلاسفة . فقال ﴿ من أمر ربي ﴾ أي هو القادر عليه .

السادس : أن المقصود من سؤالهم عن الروح أن يتبين لهم أنه محدث أو قديم ، فأجابهم بأنه محدث لأنه قال : ﴿ من أمر ربي ﴾ أي من فعله وخلقه ، كما قال تعالى ﴿ إنما أمرنا لشيء ﴾ .

فعلى هذا الوجه يكون جواباً لما سألوه ، ولا يكون على الوجوه المتقدمة جواباً .

﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إلا قليلاً من معلومات الله .

الثاني : إلا قليلاً بحسب ما تدعو الحاجة إليه حالاً فحالاً .

وفيمن أريد بقوله تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قولان :

أحدهما : أنهم اليهود خاصة ، قاله قتادة .

الثاني : النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الخلق .

(52/463)

قوله عز وجل : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : لأذهبناه من الصدور والكتب حتى لا يقدر عليه .

الثاني : لأذهبناه بقبضك إلينا حتى لا ينزل عليك .

﴿ ثم لا تجدُ لك به علينا وكيلاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أي لا تجد من يتوكل في رده إليك ، وهو تأويل من قال بالوجه الأول .

الثاني : لا تجد من يمنعنا منك ، وهو تأويل من قال بالوجه الثاني .

﴿ إلاّ رحمة من ربك ﴾ أي لكن رحمة من ربك أبقاك له وأبقاه عليك .

﴿ إنّ فضله كان عليك كبيراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : جزيلاً لكثرته .

الثاني : جليلاً لعظيم خطره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(53/463)

وقال ابن عطية :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وقرأ الجمهور " وننزل " بالنون ، وقرأ مجاهد " وينزل " بالياء خفيفة ، ورواها المروزي عن حفص ، وقوله ﴿ من القرآن ﴾ يصح أن تكون ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية ، ويصح أن تكون لبيان الجنس كأنه قال وننزل ما فيه شفاء ﴿ من القرآن ﴾ وأنكر بعض المتأولين أن يكون ﴿ من ﴾ للتبعيض لأنه تحفظ من يلزمه أن بعضه لا شفاء فيه .

(54/463)

قال القاضي أبو محمد : وليس يلزمه هذا بل يصح أن يكون للتبعيض بحسب أن إنزاله إنما هو مبعض ، فكأنه قال ﴿ وننزل من القرآن ﴾ شيئاً شيئاً ما فيه كله ﴿ شفاء ﴾ ،

واستعارته الشفاء للقرآن هو بحسب إزالته للريب وكشفه غطاء القلب لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى المقررة لشرعه ، ويحتمل أن يراد ب " الشفاء " نفعه من الأمراض بالرقى والتعويذ ونحوه ، وكونه رحمته ظاهر ، وقوله ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ معنى أنه عليهم عمى ، إذ هم معرضون بحالة من لا يفهم ولا يلقن . وقوله ﴿ وإذا أنعمنا ﴾ الآية ، ﴿ الإنسان ﴾ في هذه الآية لا يراد به العموم ، وإنما يراد به بعضه وهم الكفرة ، وهذا كما تقول عند غضب : لا خير في الأصدقاء ولا أمانة في الناس ، فأنت تعم مبالغة ، ومرادك البعض ، وهذا بحسب ذكر الظالمين ، و" الخسار " في الآية قبل فاتصل ذكر الكفرة ، ويحتمل أن يكون ﴿ الإنسان ﴾ في هذه الآية عاماً للجنس ، على معنى أن هذا الخلق الذميم في سجيته ، فالكافر يبالغ في الإعراض والعاصي يأخذ بحظه منه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مؤمن : " فأعرض فأعرض الله عنه " ، ومعنى ﴿ أعرض ﴾ ولانا عرضه ، ونأى أي بعد ، وهذه استعارة ، وذلك أنه يفعل أفعال المعرض النائي في تركه الإيمان بالله وشكر نعمه عليه ، وقرأ ابن عامر وحده " وناء " ، ومعناه نهض أي متباعداً ، هذا قول طائفة ، وقالت أخرى هو قلب الهمزة بعد الألف من ﴿ نأى ﴾ بعينه وهي لغة كرأى وراء ، ومن هذه اللفظة ، قول الشاعر في صفة رام : [الرجز]

حتى إذا ما التأمت مفاصله . . . وناء في شق الشمال كاهله

أي نهض متوركاً على شماله ، والذي عندي أن " ناء ونأى " فعلان متباينان ، وناء بجانبه عبارة عن التحيز والاستبداد ، ونأى عبارة عن البعد والفراق ، ثم وصف الكفرة بأنهم إذا مسهم شر من مرض أو مصيبة في مال أو غير ذلك يئسوا من حيث لا يؤمنون بالله ولا يرجون تصرف أقداره ، ثم قال عز وجل ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ كل يعمل على شاكلته ﴾ أي على طريقته وبحسب نيته ومذهبه الذي يشبهه وهو شكله ومثل له ، وهذه الآية تدل دلالة ما على أن ﴿ الإنسان ﴾ أولاً لم يرد به العموم ، أي إن الكفار بهذه الصفات ، والمؤمنون بخلافها ، وكل منهم يعمل على ما يليق به ، والرب تعالى أعلم بالمهتدي ، وقال مجاهد : ﴿ على شاكلته ﴾ معناه على طبيعته ، وقال أيضاً معناه على حدته ، وقال ابن عباس : معناه على ناحيته ، وقال قتادة : معناه على ناحيته وعلى ما ينوي ، وقال ابن زيد : معناه على دينه ، وأرجح هذه العبارات قول ابن عباس وقتادة وفي قوله ﴿ فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ﴾ توعد بين

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85) ﴾

الضمير في ﴿ يسألونك ﴾ قيل هو لليهود وإن الآية مدنية ، وروى عبد الله بن مسعود ، أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمر على حرث بالمدينة ، ويروى على خرب ، وإذا فيه جماعة من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فإن أجاب فيه عرفتم أنه ليس بنبي ، وذلك أنه كان عندهم في التوراة أن الروح مما انفرد الله بعلمه ، ولا يطلع عليه أحداً من عباده ، قال ابن مسعود : وقال بعضهم : لا تسألوه لئلا يأتي في بشيء تكرهونه يعني والله أعلم من أنه لا يفسره فتقوى الحجة عليهم في نبوته ، قال فسألوه فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئاً على عسيب فظننت أنه يوحى إليه ، ثم تلا عليهم الآية ، وقيل الآية مكية والضمير لقريش ، وذلك أنهم قالوا : نسأل عن محمد أهل الكتاب من اليهود ، فأرسلوا إليهم إلى المدينة النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، فقال اليهود لهما : جرباه بثلاث مسائل ، سلوه عن أهل الكهف ، وعن ذي القرنين ، وعن الروح ، فإن فسر الثلاثة فهو كذاب ، وإن سكت عن الروح فهو نبي ، فسألته قريش عن الروح ، فيروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم " غداً أخبركم به " ، ولم يقل إن شاء الله ، فاستمسك الوحي عليه خمسة عشر يوماً ، معاتبة على وعده لهم دون استثناء ، ثم نزلت هذه الآية ، واختلف الناس في ﴿ الروح ﴾ المسؤول عن أي روح هو ؟ فقالت فرقة هي الجمهور : وقع السؤال عن الروح التي في الأشخاص الحيوانية ما هي ؟ ف ﴿ الروح ﴾ اسم جنس على هذا ، وهذا هو الصواب ، وهو المشكل الذي لا تفسير له ، وقال قتادة ﴿ الروح ﴾

المسؤول عنه جبريل ، قال وكان ابن عباس يكتمه ، وقالت فرقة عيسى ابن مريم ، وقال علي بن أبي طالب : " ملك له سبعون ألف وجه في كل وجه سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون ألف لغة يسبح الله سبحانه بكل تلك اللغات يخلق من كل تسبيحة ملك يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة " ، ذكره الطبري ، وما أظن هذا القول يصح عن علي ،

(57/463)

وقالت فرقة ﴿ الروح ﴾ القرآن ، وهذه كلها أقوال مفسرة ، والأول أظهرها وأصوبها ، وقوله ﴿ من أمر ربي ﴾ يحتمل تأويلين : أحدهما : أن يكون " الأمر " اسم جنس للأمور أي للروح من جملة أمور الله التي استأثر بعلمها ، فهي إضافة خلق إلى خالق ، والثاني أن يكون مصدراً من أمر يأمر أي الروح مما أمره أمراً بالكون فكان . وقرأ ابن مسعود والأعمش " وما أوتوا " ، ورواها ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ الجمهور " وما أوتيتم " ، واختلف فيمن خوطب بذلك ، فقالت فرقة : السائلون فقط ، ترجم الطبري بذلك ثم أدخل تحت الترجمة عن قتادة أنهم اليهود ، وقال قوم : المراد اليهود بجملتهم ، وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود ، وقالت فرقة : العالم كله ، وهذا هو الصحيح لأن قول الله له ﴿ قل الروح ﴾ إنما هو أمر بالقول لجميع العالم إذ كذلك هي أقواله كلها وعلى ذلك

تمت الآية من مخاطبة الكل ، ويحتمل أيضاً أن تكون مخاطبة من الله للنبي ولجميع الناس ويتصف ما عند جميع الناس من العلم بالقلة بإضافته إلى علم الله عز وجل الذي هو بهذه الأمور التي عندنا من علمها طرف يسير جداً ، كما قال الخضر عليه السلام لموسى عليه السلام ، " ما نقص علمي وعلمك وعلم الخلائق من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من البحر " ، وأراد الخضر علم الله تعالى بهذه الموجودات التي عند البشر من علمها طرف يسير نسبة إلى ما يخفى عليهم نسبة النقطة إلى البحر ، وأما علم الله على الإطلاق فغير متناه ، ويحتمل أن يكون التجوز في قول الخضر كما نقص هذا العصفور ، أي إما لا ينقص علمنا شيئاً من علم الله تعالى على الإطلاق ثم مثل بنقرة العصفور في عدم النقص ، إذ نقصه غير محسوس ، فكأنه معدوم ، فهذا احتمال ، ولكن فيه نظر ، وقد قالت اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كيف لم نؤت من العلم إلا قليلاً ؟ وقد أوتينا التوراة ، وهي الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، فعارضهم رسول

(58/463)

الله صلى الله عليه وسلم بعلم الله ، فغلبوا ، وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله في بعض الأحاديث "كلاًّ" يعني أن المراد ب ﴿ أوتيتم ﴾ جميع العالم ، وذلك أن يهود قالت

له : نحن عنيت أو قومك ؟ فقال "كلاً" ، وفي هذا المعنى نزلت

﴿ وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ [لقمان : 27] ، حكى ذلك الطبري رحمه الله

، وقوله تعالى : ﴿ ولئن شئنا ﴾ الآية فيها شدة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي عتاب على قوله غداً أعلمكم ، فأمر بأن يقول إن الروح من أمر ربه فيذعن بالتسليم لله في أنه يعلم بما شاء ، ويمسك عن عباده ما شاء ، ثم قيل له ﴿ وما أوتيتم ﴾ أنت يا محمد وجميع الخلائق ﴿ من العلم إلا قليلاً ﴾ ، فالله يعلم من علمه بما شاء ويدع ما شاء ، ولئن شاء لذهب بالوحي الذي أتاك ، ثم لا ناصر لك منه ، أي فليس بعظيم أن لا تجيء بتفسير في الروح الذي أردت أن تفسره للناس ووعدتهم بذلك ، وروى ابن مسعود أنه ستخرج ريح حمراء من قبل الشام فتزيل القرآن من المصاحف ومن الصدور وتذهب به ، ثم يتلو هذه الآية . أراد ابن مسعود بتلاوة الآية أن يبدي أن الأمر جائز الوقوع ليظهر مصداق خبره من كتاب الله تعالى .

و" الوكيل " القائم بالأمر في الانتصار أو المخاصمة ونحو ذلك من وجود النفع ، وقوله ﴿ إلا رحمة ﴾ استثناء منقطع ، أي لكن رحمة من ربك تمسك ذلك عليك ، وهذا الاستثناء المنقطع يخصص تخصيصاً ما ، وليس كالمتصل لأن المتصل يخصص من الجنس أو الجملة ، والمنقطع يخصص أجنبياً من ذلك ، ولا ينكر وقوع المنقطع في القرآن إلا أعجمي ، وقد حكي ذلك عن ابن خويز منداد ، ثم عدد عليه عز وجل كبر فضله في اختصاصه بالنبوة

وحمايته من المشركين إلى غير ذلك مما لا يحصى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(59/463)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وننزِّل من القرآن ما هو شفاء ﴾

"مِنْ" هاهنا لبيان الجنس ، فجميع القرآن شفاء .

وفي هذا الشفاء ثلاثة أقوال .

أحدها : شفاء من الضلال ، لما فيه من الهدى .

والثاني : شفاء من السَّقم ، لما فيه من البركة .

والثالث : شفاء من البيان للفرائض والأحكام .

وفي "الرحمة" قولان .

أحدهما : النعمة .

والثاني : سبب الرحمة .

قوله تعالى : ﴿ ولا يزيد الظالمين ﴾ يعني المشركين ﴿ إِلا خساراً ﴾ لأنهم يكفرون به ،

ولا ينتفعون بمواعظه، فيزيد خسرانهم.

قوله تعالى: ﴿ وإِذا أنعمنا على الإِنسان ﴾

قال ابن عباس: الإِنسان هاهنا: الكافر، والمراد به: الوليد بن المغيرة.

قال المفسرون: وهذا الإِنعام: سَعة الرزق، وكشف البلاء.

﴿ ونأى بجانبه ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: "ونأى" على وزن "نعى" بفتح النون والهمزة.

وقرأ ابن عامر: "ناء" مثل "باع".

وقرأ الكسائي، وخلف عن سليم عن حمزة: "وناء" بامالة النون والهمزة.

وروى خلاَّد عن سليم: "نئي" بفتح النون، وكسر الهمزة؛ والمعنى: تباعد عن القيام بحقوق النِّعم، وقيل: تعظَّم وتكبَّر.

﴿ وإِذا مسَّه الشرُّ ﴾ أي: نزل به البلاء والفقر ﴿ كان يَؤوساً ﴾ أي: قَنوطاً شديد اليأس، لا يرجو فضل الله.

قوله تعالى: ﴿ قل كلٌّ يعمل على شاكلته ﴾ فيها ثلاثة أقوال.

أحدها: على ناحيته، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير.

قال الفراء: الشاكلة: الناحية، والجديلة، والطريقة، سمعت بعض العرب يقول: وعبد الملك إِذ ذاك على جديلته، وابن الزبير على جديلته، يريد: على ناحيته.

وقال أبو عبيدة : على ناحيته وخليقته .

وقال ابن قتيبة : على خليقته وطبيعته ، وهو من الشكل .

يقال : لستَ على شكلي ، ولا شاكلتي وقال الزجاج : على طريقته ، وعلى مذهبه .

والثاني : على نِيَّته ؛ قاله الحسن ، ومعاوية بن قُرَّة .

وقال الليث : الشاكلة من الأمور : ما وافق فاعله .

والثالث : على دينه ، قاله ابن زيد .

وتحرير المعنى : أن كل واحد يعمل على طريقته التي تشاكل أخلاقه ، فالكافر يعمل ما يشبه طريقته من الإِعراض عند النِّعم واليأس عند الشدة ، والمؤمن يعمل ما يشبه طريقته من الشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء ، والله يجازي الفريقين .

وذكر أبو صالح عن ابن عباس : أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : 5] ، وليس بشيء .

قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾

في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ بناس من اليهود ، فقالوا : سَلُوُهُ عن الروح؟ فقال بعضهم : لا تسألوه ، فيستقبلكُم بما تكرهون .

فأتاه نفر منهم ، فقالوا : يا أبا القاسم : ما تقول في الروح؟ فسكت ، ونزلت هذه الآية ، قاله ابن مسعود .

والثاني : أن اليهود قالت لقريش : سلوا محمداً عن ثلاث ، فإن أخبركم عن اثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبي ؛ سلوه عن فِتيةٍ فُقدوا ، وسلوه عن ذي القرنين ، وسلوه عن الرُّوح .

فسألوه عنها ، ففسَّر لهم أمر الفتية في الكهف ، وفسر لهم قصة ذي القرنين ، وأمسك عن قصة الروح ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطاء عن ابن عباس .

وفي المراد بالروح هاهنا ستة أقوال .

أحدها : أنه الروح الذي يحيا به البدن ، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس .

وقد اختلف الناس في ماهيَّة الروح ، ثم اختلفوا هل الروح النَّفْسُ ، أم هما شيئان فلا يحتاج إلى ذكر اختلافهم لأنه لا برهان على شيء من ذلك وإنما هو شيء أخذوه عن الطب والفلاسفة؟ فأما السلف ، فانهم أمسكوا عن ذلك ، لقوله تعالى : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ ، فلما رأَوا أن القوم سألوا عن الروح فلم يُجابوا ، ولوحي ينزل ، والرسول حيّ ، علموا أن السكوت عما لم يُحَطْ بحقيقة عِلمه أولى .

والثاني : أن المراد بهذا الروح : ملك من الملائكة على خِلْقة هائلة ، روي عن عليٍّ عليه السلام ، وابن عباس ، ومقاتل .

(61/463)

والثالث : أن الروح : خَلْق من خلق الله عز وجل صوَّرهم على صُوَر بني آدم ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

والرابع : أنه جبريل عليه السلام ، قاله الحسن ، وقتادة .

والخامس : أنه القرآن ، روي عن الحسن أيضاً .

والسادس : أنه عيسى بن مريم ، حكاه الماوردي .

قال أبو سليمان الدمشقي : قد ذكر الله تعالى الروح في مواضع من القرآن ، فغالب ظني أن الناقلين نقلوا تفسيره من موضعه إِلى موضع لا يليق به ، وظنوه مثله ، وإِنما هو الروح الذي يحيى به ابن آدم .

وقوله : ﴿ من أمر ربي ﴾ أي : من عِلمه الذي منع أن يعرفه أحد .

قوله تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إِلا قليلاً ﴾ في المخاطبين بهذا قولان .

أحدهما : أنهم اليهود ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنهم جميع الخلق ، عِلمهم قليل بالإِضافة إِلى علم الله عز وجل ، ذكره الماوردي .

فإن قيل : كيف الجمع بين هذه الآية ، وبين قوله تعالى : ﴿ ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ [البقرة : 269] ؟

فالجواب : أن ما أوتيه الناس من العلم ، وإِن كان كثيراً ، فهو بالإِضافة إِلى عِلم الله قليل .

قوله تعالى : ﴿ ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا إِليك ﴾

قال الزجاج : المعنى : لو شئنا لمحوناه من القلوب والكتب ، حتى لا يوجد له أثر ، ﴿ ثم لا تجد لك به علينا وكيلا ﴾ أي : لا تجدَ من يتوكل [علينا] في ردّ شيء منه ، ﴿ إِلا رحمة من ربك ﴾ هذا استثناء ليس من الأول ، والمعنى : لكن الله رحمك فأثبت ذلك في قلبك وقلوب المؤمنين .

وقال ابن الأنباري : المعنى : لكن رحمة من ربك تمنع من أن تُسْلَبَ القرآن ، وكان المشركون قد خاطبوا نساءهم من المسلمين في الرجوع إِلى دين آبائهم ، فهدّدهم الله عز وجل بسلب النِّعمة ، فكان ظاهر الخطاب للرسول ، ومعنى التهدُّدِ للأمة .

وقال أبو سليمان : "ثم لا تجد لك به" أي : بما نفعله بك ، من إِذهاب ما عندك "وكيلاً" يدفعنا عما نريده بك .

وروي [عن] عبد الله بن مسعود أنه قال : يسرى على القرآن في ليلة واحدة ، فيجيء جبريل من جوف الليل ، فيذهب به من صدورهم ومن بيوتهم ، فيصبحون لا يقرؤون آية ، ولا يحسنونها .

وردّ أبو سليمان الدمشقي صحة هذا الحديث بقوله عليه الصلاة والسلام : " إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً " ، وحديث ابن مسعود مروي من طُرُقٍ حِسان ، فيحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أراد بالعلم ما سوى القرآن ، فإن العلم ما يزال ينقرض حتى يكون رفع القرآن آخر الأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(63/463)

وقال القرطبى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82) ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ ﴾ قرأ الجمهور بالنون .

وقرأ مجاهد "وَيُنْزِل" بالياء خفيفة ، ورواها المروزيّ عن حفص .

و"مِن" لابتداء الغاية ، ويصح أن تكون لبيان الجنس ؛ كأنه قال : وننزل ما فيه شفاء من القرآن .

وفي الخبر .

"من لم يَسْتَشْفِ بالقرآن فلا شفاه الله" .

وأنكر بعض المتأولين أن تكون "مِن" للتبعيض ؛ لأنه يحفظ من أن يلزمه أن بعضه لا شفاء فيه .

ابن عطية : وليس يلزمه هذا ، بل يصح أن تكون للتبعيض بحسب أن إنزاله إنما هو مبعَّض ؛ فكأنه قال : وننزل من القرآن شيئاً شفاء ؛ ما فيه كله شفاء .

الثانية : اختلف العلماء في كونه شفاء على قولين : أحدهما أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الرّيب ، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى .

الثاني شفاء من الأمراض الظاهرة بالرُّقى والتعوّذ ونحوه .

وقد روى الأئمة واللفظ للدارقطنيّ "عن أبي سعيد الخُدْريّ قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سَرِيّة ثلاثين راكباً قال : فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يُضيفونا فأبَوْا ؛ قال : فلُدغ سيد الحيّ ، فأتونا فقالوا : فيكم أحد يَرْقي من العقرب ؟ في رواية ابن قَتّة : إن الملك يموت .

قال : قلت أنا نعم ، ولكن لا أفعل حتى تعطونا .

فقالوا : فإنا نعطيكم ثلاثين شاة .

قال : فقرأت عليه "الحمد لله رب العالمين" سبع مرات فبرأ .

في رواية سليمان بن قتة عن أبي سعيد : فأفاق وبرأ .

فبعث إلينا بالنُّزل وبعث إلينا بالشاء ، فأكلنا الطعام أنا وأصحابي وأَبَوْا أن يأكلوا من الغنم ، حتى أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته الخبر فقال : "وما يدريك أنها رقية"

قلت : يا رسول الله ، شيء ألقي في رُوعِي .

(64/463)

قال : كلوا وأطعمونا من الغنم " خرّجه في كتاب السنن .

وخرّج في (كتاب المديح) من حديث السَّرِيّ بن يحيى قال : حدثني المعتمر بن سليمان عن ليث بن أبي سليم عن الحسن عن أبي أُمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ينفع باذن الله تعالى من البرص والجنون والجذام والبطن والسُّلّ والحمُى والنّفْس أن تكتب بزعفران أو بمشق يعني المَغْرة أعوذ بكلمات الله التامة وأسمائه كلّها عامةً من شر السّامة والعامّة ومن شر العين اللامّة ومن شر حاسد إذا حسد ومن أبي فَروة وما ولد "كذا قال ،

ولم يقل من شر أبي قِترة .

العين اللامّة : التي تصيب بسوء .

تقول : أعِيذه من كل هامّة لامّة .

وأما قوله : أعيذه من حادثات اللّمة فيقال : هو الدهر .

ويقال الشدة .

والسامة : الخاصة .

يقال : كيف السامة والعامة .

والسامة السم .

ومن أبي فروة وما ولد .

وقال : ثلاثة وثلاثون من الملائكة أُتوا ربّهم عز وجل فقالوا : وَصَبٌ بأرضنا .

فقال : خذوا تربة من أرضكم فامسحوا نواصيَكم .

أو قال : نواصيكم رقية محمد صلى الله عليه وسلم لا أفلح من كتمها أبداً أو أخذ عليها صَفَدا " .

ثم كتب فاتحة الكتاب وأربع آيات من أول البقرة ، والآية التي فيها تصريف الرياح وآية الكرسي والآيتين اللتين بعدها ، وخواتيم سورة البقرة من موضع ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ إلى آخرها ، وعشراً من أوّل "آل عمران" وعشراً من آخرها ، وأوّل آية من النساء ، وأوّل آية من المائدة ، وأوّل آية من الأنعام ، وأوّل آية من الأعراف ، والآية التي في الأعراف ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ السماوات والأرض ﴾ [الأعراف : 54] حتى تختم الآية ؛ والآية التي في "يونس" من موضع ﴿ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ به السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : 81] ، والآية التي في طه ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صنعوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ الساحر حَيْثُ أتى ﴾ [طه : 69] ، وعشرا من أوّل الصافات ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ ، والمعوّذتين .

تكتب في إناء نظيف ثم تغسل ثلاث مرات بماء نظيف ثم يحثو منه الوجع ثلاث حَثَوات ثم يتوضأ منه كوضوئه للصلاة ويتوضأ قبل وضوئه للصلاة حتى يكون على طهر قبل أن يتوضأ به ثم يصب على رأسه وصدره وظهره ولا يستنجي به ثم يصلي ركعتين ثم يستشفي الله عز وجل ؛ يفعل ذلك ثلاثة أيام ، قدر ما يكتب في كل يوم كتاباً .

في رواية : ومن شر أبي قِتْرة وما ولد .

وقال : "فامسحوا نواصيكم" ولم يشك .

وروى البخاريّ عن عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يَنْفِث على نفسه في المرض

الذي مات فيه بالمعوِّذات فلما ثقل كنت أُنْفِث عليه بهن وأمسح بيده نِفسه لبركتها .

فسألت الزهري كيف كان ينفِث ؟ قال : كان يَنْفِث على يديه ثم يمسح بهما وجهه .

وروى مالك عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه المعوِّذتين وتَفَل أو نَفَث .

(66/463)

قال أبو بكر بن الأنباري : قال اللغويون تفسير "نفث" نفخ نفخاً ليس معه ريق .

ومعنى "تَفَل" نفخ نفخاً معه ريق .

قال الشاعر :

فإن يَبْرأ فلم أُنْفِث عليه . . .

وإن يُفْقَد فحقّ له الفُقود

وقال ذو الرُّمَّة :

ومن جَوْف ماءٍ عَرْمَض الحَول فوقه . . .

متى يَحْسُ منه مائحُ القوم يَتْفُلِ

أراد ينفخ بريق .

وسيأتي ما للعلماء في النفث في سورة الفلق إن شاء الله تعالى .

الثالثة : روى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره الرُّقى إلا بالمعوِّذات .

قال الطبري : وهذا حديث لا يجوز الاحتجاج بمثله في الدِّين ؛ إذ في نقلته من لا يُعرف . ولو كان صحيحاً لكان إما غلطاً وإما منسوخاً ؛

" لقوله عليه السلام في الفاتحة "ما أدراك أنها رُقية" " وإذا جاز الرقي بالمعوذتين وهما سورتان من القرآن كانت الرقية بسائر القرآن مثلهما في الجواز إذ كله قرآن .

وروي عنه عليه السلام أنه قال : " شفاء أمتي في ثلاثٍ ، آية من كتاب الله أو لعقة من عسل أو شرطة من مِحجم " وقال رجاء الغَنَوِيّ : ومن لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له .

الرابعة واختلف العلماء في النَّشرة ، وهي أن يكتب شيئًا من أسماء الله أو من القرآن ثم يغسله بالماء ثم يسمح به المريض أو يسقيه ، فأجازها سعيد بن المسيِّب .

قيل له : الرجل يؤخذ عن امرأته أيُحلّ عنه ويُنْشر ؟ قال : لا بأس به ، وما ينفع لم ينه عنه .

ولم ير مجاهد أن تكتب آيات من القرآن ثم تغسل ثم يسقاه صاحب الفزع .

وكانت عائشة تقرأ بالمعوِّذتين في إناء ثم تأمر أن يصب على المريض .

وقال المازَرى أبو عبد الله : النُّشرة أمر معروف عند أهل التعزيم ؛ وسُمّيت بذلك لأنها تنشر عن صاحبها أي تُحلّ .

ومنعها الحسن وإبراهيم النَّخعيّ، قال النَّخعىّ: أخاف أن يصيبه بلاء؛ وكأنه ذهب إلى أنه ما محى به القرآن فهو إلى أن يعقب بلاء أقرب منه إلى أن يفيد شفاء.

(67/463)

وقال الحسن: سألت أَنسا فقال: ذكروا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها من الشيطان.
وقد روى أبو داود من حديث جابر ابن عبد الله قال؛ "سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النشرة فقال: "هي من عمل الشيطان"" قال ابن عبد البر: وهذه آثار لينة ولها وجوه محتملة، وقد قيل: إن هذا محمول على ما إذا كانت خارجة عما في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، وعن المداواة المعروفة.

والنشرة من جنس الطب فهي غسالة شيء له فضل، فهي كوضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "لا بأس بالرُّقى ما لم يكن فيه شرك ومن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل".

قلت: قد ذكرنا النص في النشرة مرفوعا وأن ذلك لا يكون إلا من كتاب الله فليعتمد عليه.

الخامسة قال مالك: لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله عز وجل على أعناق

المرضى على وجه التبرك بها إذا لم يرد معلقها بتعليقها مدافعة العين .

وهذا معناه قبل أن ينزل به شيء من العين .

وعلى هذا القول جماعة أهل العلم ، لا يجوز عندهم أن يعلق على الصحيح من البهائم أو بني آدم شيء من العلائق خوف نزول العين ، وكل ما يعلق بعد نزول البلاء من أسماء الله عز وجل وكتابه رجاء الفرج والبرء من الله تعالى ، فهو كالرُّقى المباح الذي وردت السنة بإباحته من العين وغيرها .

وقد روى عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا فزع أحدكم في نومه فليقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وسوء عقابه ومن شر الشياطين وأن يحضرون " وكان عبد الله يعلمها ولده من أدرك منهم ، ومن لم يدرك كتبها وعلقها عليه .

فإن قيل : فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من علق شيئًا وكل إليه " ورأى ابن مسعود على أمّ ولده تميمة مربوطة فجبَذها جَبْذا شديدا فقطعها وقال : إن آل ابن مسعود لأغنياء عن الشرك ، ثم قال : إن التمائم والرقى والتولة من الشرك .

قيل : ما التِّوَلَة ؟ قال : ما تحببت به لزوجها .

وروى عن عقبة بن عامر الجهنى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من علق تميمة فلا أتم الله له ومن علق ودعة فلا ودع الله له قلبا " قال الخليل بن أحمد : التميمة قلادة فيها عوذ ، والودعة خرز .

وقال أبو عمر : التميمة في كلام العرب القلادة ، ومعناه عند أهل العلم ما علق في الأعناق من القلائد خشية العين أو غيرها (من أنواع البلا وكأن المعنى في الحديث من يعلق خشية ما عسى) أن ينزل أو لا ينزل قبل أن ينزل ، فلا أتمّ الله عليه صحته وعافيته ، ومن تعلق ودعة وهي مثلها في المعنى فلا ودع الله له ؛ أي فلا بارك الله له ما هو فيه من العافية .

والله أعلم .

وهذا كله تحذير مما كان أهل الجاهلية يصنعونه من تعليق التمائم والقلائد ، ويظنون أنها تقيهم وتصرف عنهم البلاء ، وذلك لا يصرفه إلا الله عز وجل ، وهو المعافي والمبتلي ، لا شريك له ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كانوا يصنعون من ذلك في جاهليتهم .

وعن عائشة قالت : ما تعلق بعد نزول البلاء فليس من التمائم .

وقد كره بعض أهل العلم تعليق التميمة على كل حال قبل نزول البلاء وبعده .

والقول الأول أصح في الأثر والنظر إن شاء الله تعالى .

وما روى عن ابن مسعود يجوز أن يريد بما كره تعليقه غير القرآن أشياء مأخوذة عن العرافين والكهان ؛ إذ الاستشفاء بالقرآن معلقا وغير معلق لا يكون شركا ، وقوله عليه السلام : " من علّق شيئًا وكل إليه " فمن علّق القرآن ينبغي أن يتولاه الله ولا يكله إلى غيره .

لأنه تعالى هو المرغوب إليه والمتوكل عليه في الأستشفاء بالقرآن .

وسئل ابن المسيِّب عن التعويذ أيعلّق ؟ قال : إذا كان في قصبة أو رقعة يحرز فلا بأس به .

وهذا على أن المكتوب قرآن .

وعن الضحاك أنه لم يكن يرى بأسا أن يعلّق الرجل الشيء من كتاب الله إذا وضعه عند الجماع وعند الغائط .

ورخص أبو جعفر محمد بن علي في التعويذ يعلّق على الصبيان .

وكان ابن سيرين لا يرى بأسا بالشيء من القرآن يعلّقه الإنسان .

السادسة قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تفريج الكروب وتطهير العيوب وتكفير الذنوب مع ما تفضل به تعالى من الثواب في تلاوته ؛ كما روى الترمذي عن عبد الله ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ حرفا من كتاب الله فله به

حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف بل ألفٌ حرف ولامٌ حرفٌ وميمٌ حرفٌ"

قال هذا حديث حسن صحيح غريب وقد تقدم .

﴿ وَلَا يَزِيدُ الظالمين إِلَّا خَسَارًا ﴾ لتكذيبهم .

قال قتادة : ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان ، ثم قرأ : "وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية ونظير هذه الآية قوله : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ والذين لَا يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : 44] وقيل : شفاء في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾

أي هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خسارا صفتهم الإعراض عن تدبر آيات الله والكفران لنعمه .

وقيل : نزلت في الوليد ابن المغيرة .

ومعنى "نَأَى بِجَانِبِهِ" أي تكبر وتباعد .

وناء مقلوب منه ؛ والمعنى : بَعُد عن القيام بحقوق الله عز وجل ؛ يقال : نأى الشيء أي بعد .

ونأيته ونأيت عنه بمعنى ، أي بَعدت .

وأنأيته فانتأى ؛ أي أبعدته فبَعُد .

وتناءَوْا تباعدوا .

والمُنْتَأى ؛ الموضع البعيد .

قال النابغة :

فإنك كالليل الذي هو مُدْرِكي . . .

وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسعُ

وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان "ناء" مثل باع ، الهمزة مؤخرة ، وهو على طريقة القلب من نأى ؛ كما يقال : راء ورأى .

وقيل : هو من النوء وهو النهوض والقيام .

(70/463)

وقد يقال أيضا للوقوع والجلوس : نوء ؛ وهو من الأضداد .

وقرىء "ونئى" بفتح النون وكسر الهمزة .

والعامة "نأى" في وزن رأى .

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر كَانَ يَئُوساً ﴾ أي إذا ناله شدة من فقر أو سقم أو بؤس يئس وقنط ؛ لأنه لا يثق بفضل الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ ﴾

قال ابن عباس : ناحيته .

وقاله الضحاك .

مجاهد : طبيعته .

وعنه : حِدته .

ابن زيد : على دينه .

الحسن وقتادة : نيته .

مقاتل : جبلته .

الفراء : على طريقته ومذهبه الذى جُبل عليه .

وقيل : قل كلٌّ يعمل على ما هو أشكل عنده وأوْلى بالصواب فى اعتقاده .

وقيل : هو مأخوذ من الشكل ؛ يقال : لست على شَكْلِى ولا شاكلتي .

قال الشاعر :

كل امرئ يشبهه فعله . . .

ما يفعل المرء فهو أهله

فالشكل هو المثل والنظير والضرب .

كقوله تعالى : ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص : 58] .

والشكل (بكسر الشين) : الهيئة.

يقال : جارية حسنة الشّكل.

وهذه الأقوال كلّها متقاربة والمعنى : أن كل أحد يعمل على ما يشاكل أصله وأخلاقه التي ألِفَها ، وهذا ذمٌّ للكافر ومدح للمؤمن.

والآية والتى قبلها نزلتا فى الوليد بن المغيرة ؛ ذكره المهدوى.

﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهدى سَبِيلاً ﴾ أى بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كل واحد منهم.

وقيل : ﴿ أهدى سَبِيلاً ﴾ أى أسرع قبولا.

وقيل : أحسن دينا.

وحكى أن الصحابة رضوان الله عليهم تذاكروا القرآن فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ ﴾ فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان ولا يشاكل بالرب إلا الغفران.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تعالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ حمتَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز العليم غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ذِي الطول ﴾ قدم غفران الذنوب على قبول التوبة ، وفى هذا إشارة للمؤمنين .

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره .

فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم ﴾ [الحجر : 49] .

وقال علىّ بن ابى طالب رضى الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى ﴿ قُلْ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ [الزمر : 53] .

قلت : وقرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : ﴿ الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولئك لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : 82] .

قوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾

روى البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله قال : بينا أنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في حرث وهو متّكىء على عسيب إذ مرّ اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح .

فقال : ما رابكم إليه ؟ وقال بعضهم : لا يستقبلكم بشيء تكرهونه .

فقالوا : سلوه .

فسألوه عن الروح فأمسك النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم يردّ عليهم شيئاً ؛ فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامي ، فلما نزل الوحي قال : " ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً " لفظ البخاري .

وفي مسلم : فأسكت النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وفيه : وما أوتوا .

(72/463)

وقد اختلف الناس في الروح المسؤول عنه ، أيّ الروح هو ؟ فقيل : هو جبريل ؛ قاله قتادة .

قال : وكان ابن عباس يكتمه .

وقيل هو عيسى .

وقيل : القرآن ، على ما يأتي بيانه في آخر الشورى .

وقال عليّ بن أبي طالب : هو مَلَك من الملائكة له سبعون ألف وجه ، في كل وجه سبعون ألف لسان ، في كل لسان سبعون ألف لغة ، يسبح الله تعالى بكل تلك اللغات ، يخلق الله تعالى من كل تسبيحة مَلَكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة .

ذكره الطبريّ.

قال ابن عطية: وما أظن القول يصحّ عن عليّ رضي الله عنه.

قلت: أسند البيهقي أخبرنا أبو زكريا عن أبي إسحاق أخبرنا أبو الحسن الطرائفي حدّثنا عثمان بن سعيد حدّثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: "ويسألونك عن الروح" يقول: الروح مَلَك.

وبإسناده عن معاوية بن صالح حدّثني أبو هِران (بكسر الهاء) يزيد بن سمرة عمن حدّثه عن عليّ بن أبي طالب أنه قال في قوله تعالى: "ويسئلونك عن الروح" قال: هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه . . .

الحديث بلفظه ومعناه.

وروى عطاء عن ابن عباس قال: الروح ملك له أحد عشر ألف جناح وألف وجه، يسبح الله إلى يوم القيامة، ذكره النحاس.

وعنه: جند من جنود الله لهم أيد وأرجل يأكلون الطعام؛ ذكره الغزْنَويّ.

وقال الخطابي: وقال بعضهم، هو ملك من الملائكة بصفة وضعوها من عظم الخلقة.

وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد.

وقال أهل النظر منهم: إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه في بدن الإنسان، وكيف

امتزاجه بالجسم واتصال الحياة به ، وهذا شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل .

وقال أبو صالح : الروح خلق كخلق بني آدم وليسوا ببني آدم ، لهم أيد وأرجل .

(73/463)

والصحيح الإبهام لقوله : "قل الروح من أمر ربي" دليلٌ على خَلْقِ الروحِ أي هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى ، مبهماً له وتاركاً تفصيله ، ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها .

وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى .

وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ اختلف فيمن خوطب بذلك ؛ فقالت فرقة : السائلون فقط .

وقال قوم : المراد اليهود بجملتهم .

وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود "وما أوتوا" ورواها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقالت فرقة : المراد العالم كله .

وهو الصحيح ، وعليه قراءة الجمهور "وما أوتيتم" .

وقد قالت اليهود للنبيّ صلى الله عليه وسلم : كيف لم نؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ؟ فعارضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم الله فغلبوا .

وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله في بعض الأحاديثِ : "كُلاًّ" يعني أن المراد ب"ما أوتيتم" جميع العالم .

وذلك أن يهود قالت له : نحن عنيت أم قومك .

فقال : "كُلاًّ" .

وفي هذا المعنى نزلت : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ﴾ [لقمان : 27] .

حكى ذلك الطبريّ رحمه الله ! وقد قيل : إن السائلين عن الروح هم قريش ، قالت لهم اليهود : سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فإن أخبركم عن اثنين وأمسك عن واحدة فهو نبيّ ؛ فأخبرهم خبر أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين على ما يأتي .

وقال في الروح : "قل الروح من أمر ربي" أي من الأمر الذي لا يعلمه إلا الله .

ذكره المهدويّ وغيره من المفسرين عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾

يعني القرآن .

(74/463)

أي كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه حتى ينساه الخلق .

ويتّصل هذا بقوله : "وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" أي ولو شئت أن أذهب بذلك القليل لقدرت عليه .

﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ أي ناصراً يردّه عليك .

﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ يعني لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك ؛ فهو استثناء ليس من الأول .

وقيل : إلا أن يرحمك ربّك فلا يذهب به .

﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ﴾ إذ جعلك سيّد ولد آدم ، وأعطاك المقام المحمود وهذا الكتاب العزيز .

وقال عبد الله بن مسعود : أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، وأن هذا القرآن كأنه قد نزع منكم ، تصبحون يوماً وما معكم منه شيء .

فقال رجل : كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن ! وقد ثبّتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا ، نعلّمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال : يُسرى به في ليلة فيذهب بما في المصاحف وما في القلوب ، فتصبح الناس كالبهائم .

ثم قرأ عبد الله "ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا إليك" الآية .

أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة بمعناه قال : أخبرنا أبو الأحوص عن عبد العزيز بن رُفيع عن شدّاد بن معقل قال : قال عبد الله يعني ابن مسعود : إن هذا القرآن الذي بين أظهركم يوشك أن ينزع منكم .

قال : قلت كيف ينزع منا وقد أثبته الله في قلوبنا وثبتناه في مصاحفنا قال : يسرى عليه في ليلة واحدة فينزع ما في القلوب ويذهب ما في المصاحف ويصبح الناس منه فقراء .

ثم قرأ "ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك" وهذا إسناد صحيح .

وعن ابن عمر : لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل ، له دويّ كدويّ النحل ، فيقول الله ما بالك .

فيقول : يا رب منك خرجت وإليك أعود ، أُتْلى فلا يعمل بي ، أُتلى ولا يُعمل بي .

قلت : قد جاء معنى هذا مرفوعاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة .

قال حذيفة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يدرس الإسلام كما يدرس وَشْيُ الثوب حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة فيُسرى على كتاب الله تعالى في ليلة فلا يبقى منه في الأرض آية وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله .

وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة .

قال له صلة : ما تغني عنهم لا إله إلا الله ! وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة ؛ فأعرض عنه حذيفة ؛ ثم ردّدها ثلاثاً ، كل ذلك يعرض عنه حذيفة .

ثم أقبل عليه حذيفة فقال : يا صلة ! تنجيهم من النار ، ثلاثاً "

خرجه ابن ماجه في السنن .

وقال عبد الله بن عمر : " خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو معصوب الرأس من وجع فضحك ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ما هذه الكتب التي تكتبون أكتاب غير كتاب الله يوشك أن يغضب الله لكتابه فلا يدع ورقاً ولا قلباً إلا أخذ منهقالوا : يا رسول الله ، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذٍ ؟ قال : من أراد الله به خيراً أبقى في قلبه لا إله إلا الله " ذكره الثعلبي والغزْنويّ وغيرهما في التفسير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

و﴿ من ﴾ في ﴿ من القرآن ﴾ لابتداء الغاية .

وقيل للتبعيض قاله الحوفي : وأنكر ذلك لاستلزامه أن بعضه لا شفاء فيه ورد هذا الإنكار لأن إنزاله إنما هو مبعض .

وقيل : لبيان الجنس قاله الزمخشري وابن عطية وأبو البقاء ، وقد ذكرنا أن من التي لبيان الجنس لا تتقدم على المبهم الذي تبينه وإنما تكون متأخرة عنه .

وقرأ الجمهور : و﴿ ننزل ﴾ بالنون ومجاهد بالياء خفيفة ورواها المروزي عن حفص .

وقرأ زيد بن عليّ : ﴿ شفاءً ورحمةً ﴾ بنصبهما ويتخرج النصب على الحال وخبر هو قوله ﴿ للمؤمنين ﴾ والعامل فيه ما في الجار والمجرور من الفعل ، ونظيره قراءة من قرأ ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ بنصب مطويات .

وقول الشاعر :

رهط ابن كوز محقي أدراعهم . . .

فيهم ورهط ربيعة بن حذار

وتقديم الحال على العامل فيه من الظرف أو المجرور لا يجوز إلاّ عند الأخفش ، ومن منع جعله منصوباً على إضمار أعني وشفاؤه كونه مزيلاً للريب كاشفاً عن غطاء القلب بفهم المعجزات والأمور الدالة على الله المقررة لدينه ، فصار لعلات القلوب كالشفاء لعلات الأجسام .

وقيل : شفاء بالرقى والعَوَذ كما جاء في حديث الذي رقي بالفاتحة من لسعة العقرب .

واختلفوا في النشرة وهو أن يكتب شيء من أسماء الله تعالى أو من القرآن ثم يغسل بالماء ثم يمسح به المريض أو يسقاه ، فأجاز ذلك ابن المسيب ولم يره مجاهد .

وعن عائشة : كانت تقرأ بالمعوذتين في إناء ثم تأمر أن يصب على المريض .

وقال أبو عبد الله المازني : النشرة أمر معروف عند أهل التعزيم ، سميت بذلك لأنها تنشر عن صاحبها أي تحل ، ومنعها الحسن والنخعي .

" وروى أبو داود من حديث جابر أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال وقد سئل عن النشرة : "هي من عمل الشيطان" " ويحمل ذلك على ما إذا كانت خارجة عما في كتاب

الله وسنة الرسول ، والنشرة من جنس الطب في غسالة شيء له فضل .

وقال مالك : لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى على أعناق المرضى على وجه التبرك بها إذا لم يرد معلقها بذلك مدافعة العين ، وهذا معناه قبل أن ينزل به شيء من العين أما بعد نزول البلاء فيجوز رجاء الفرج والبرء والمرض كالرقى المباحة التي وردت السنة بها من العين وغيرها .

وقال ابن المسيب : يجوز تعليق العوذة في قصبة أو رقعة من كتاب الله ويضعه عند الجماع وعند الغائط ، ورخص الباقر في العوذة تعلق على الصبيان وكان ابن سيرين لا يرى بأساً بالشيء من القرآن يعلقه الإنسان .

وخسار الظالمين وهم الذين يضعون الشيء في غير موضعه هو بإعراضهم عنه وعدم تدبره بخلاف المؤمن فإنه يزداد بالنظر فيه وتدبر معانيه إيماناً .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83) ﴾

لما ذكر تعالى تنويع ما أنزل من القرآن شفاء ورحمة للمؤمن وبزيادة خسار للظالم ، عرّض بما أنعم به وما حواه من لطائف الشرائع على الإنسان ، ومع ذلك ﴿ أعرض ﴾ عنه وبعد بجانبه اشمئزازاً له وتكبراً عن قرب سماعه وتبديلاً مكان شكر الإنعام كفره .

وقرأ الجمهور : ﴿ ونأى ﴾ من النأي وهو البعد ، وقرأ ابن عامر وناء .

وقيل هو مقلوب نأى فمعناه بعد .

وقيل : معناه نهض بجانبه .

وقال الشاعر :

حتى إذا ما التأمت مفاصله . . .

وناء في شق الشمال كاهله

أي نهض متوكئاً على شماله .

ومعنى ﴿ يؤوساً ﴾ قنوطاً من أن ينعم الله عليه .

(78/463)

والظاهر أن المراد بالإنسان هنا ليس واحداً بعينه بل المراد به الجنس كقوله ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ﴾ الآية وهو راجع لمعنى الكافر ، والإعراض يكون بالوجه والنأي بالجانب يكون بتولية العطف أو يراد بنأي الجانب الاستكبار لأن ذلك من عادة المستكبرين .

والشاكلة قال ابن عباس : ناحيته .

وقال مجاهد : طبيعته .

وقال الضحاك : حدّته .

وقال قتادة والحسن : نيته .

وقال ابن زيد : دينه .

وقال مقاتل : خلقه وهذه أقوال متقاربة .

وقال الزمخشري : على مذهب الذي يشاكل حاله في الهدى والضلالة من قولهم طريق ذو شواكل وهي الطرق التي تشعبت منه ، والدليل عليه قوله ﴿ فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ﴾ أي أشد مذهباً وطريقة .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه : لم أر في القرآن آية أرجى من التي فيها ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ قدم الغفران قبل قبول التوبة .

وعن عثمان رضي الله عنه لم أر آية أرجى من ﴿ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾

وعن عليّ كرّم الله وجهه ورضي عنه لم أر آية أرجى من ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ الآية .

قالوا ذلك حين تذاكروا القرآن .

وعن القرطبي : لم أر آية أرجى من ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ الآية .

وقال أبو عبد الله الرازي : الأرواح والنفوس مختلفة بماهيتها فبعضها مشرقة صافية يظهر فيها من القرآن نور على نور ، وبعضها كدِرة ظلمانية يظهر فيها من القرآن ضلال ونكال انتهى .

وثبت في الصحيح من حديث ابن مسعود أنه قال : إني مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في حرث بالمدينة وهو متكىء على عسيب ، فمر بنا ناس من اليهود فقال : سلوه عن الروح فقال بعضهم : لا تسألوه فسيفتيكم بما تكرهون فأتاه نفر منهم فقالوا : يا أبا القاسم ما تقول في الروح؟ فسكت ثم ماج فأمسكت بيدي على جبهته ، فعرفت أنه ينزل عليه فأنزل عليه ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ الآية .

(79/463)

وروي أن يهود قالوا لقريش : سلوه عن الروح وعن فتية فقدوا في أول الزمان ، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها فإن أجاب في ذلك كله أو لم يجب في شيء فهو كذاب ، وإن أجاب في بعض ذلك وسكت عن بعض فهو نبي .

وفي بعض طرق هذا : إن فسر الثلاثة فهو كذاب وإن سكت عن الروح فهو نبي فنزل في شأن الفتية ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف ﴾ ونزل في شأن الذي بلغ الشرق والغرب ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين ﴾ ونزل في الروح ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ والظاهر من حديث ابن مسعود أن الآية مدنية ومن سؤال قريش أنها مكية ، والروح على قول الجمهور هنا الروح التي في الحيوان وهو اسم جنس وهو الظاهر .

وقال قتادة : هو جبريل عليه السلام قال وكان ابن عباس يكتمه .

وقيل : عيسى ابن مريم عليه السلام وعن عليّ أنه ملك ، وذكر من وصفه ما الله أعلم به ولا يصح عن عليّ .

وقيل : الروح القرآن ويدل عليه الآية قبله والآية بعده .

وقيل : خلق عظيم روحاني أعظم من الملك .

وقيل : الروح جند من جنود الله لهم أيد وأرجل يأكلون الطعام ذكره العزيزي .

وقال أبو صالح خلق كخلق آدم وليسوا بني آدم لهم أيد وأرجل ، ولا ينزل ملك من السماء إلاّ ومعه واحد منهم ، والصحيح من هذه الأقوال القول الأول ، والظاهر أنهم سألوا عن ماهيتها وحقيقتها وقيل عن كيفية مداخلتها الجسد الحيواني وانبعاثها فيه وصورة ملابستها له ، وكلاهما مشكل لا يعلمه قبل إلاّ الله .

(80/463)

وقد رأيت كتاباً يترجم بكتاب النفخة والتسوية لبعض الفقهاء المتصوفة يذكر فيها أن الجواب في قوله ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ إنما هو للعوام ، وأما الخواص فهم عنده يعرفون الروح ، وأجمع علماء الإسلام على أن الروح مخلوقة ، وذهب كفرة الفلاسفة وكثير ممن

ينتمي إلى الإسلام إلى أنها قديمة واختلاف الناس في الروح بلغ إلى سبعين قولاً ، وكذلك اختلفوا هل الروح النفس أم شيء غيرها ، ومعنى ﴿ من أمر ربي ﴾ أي فعل ربي كونها بأمره ، وفي ذلك دلالة على حدوثها والأمر بمعنى الفعل وارد قال تعالى ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ أي فعله ، ويحتمل أن يكون أمراً واحداً الأمور وهو اسم جنس لها أي من جملة أمور الله التي استأثر بعلمها .

وقيل : من وحي ربي ، وكلامه ليس من كلام البشر ويتخرج على قول من قال إن الروح هنا القرآن .

وقيل : من علم ربي والظاهر أن الخطاب في ﴿ وما أوتيتم ﴾ هم الذين سألوا عن الروح وهم طائفة من اليهود .

وقيل اليهود بجملتهم .

وقيل الناس كلهم .

قال ابن عطية : وهذا هو الصحيح لأن قوله ﴿ قل الروح ﴾ إنما هو أمر بالقول لجميع العالم إذ جميع علومهم محصورة وعلمه تعالى لا يتناهى .

وقرأ عبد الله بن مسعود والأعمش : وما أوتوا بضمير الغيبة عائداً على السائلين ، ولما ذكر تعالى ما أنعم به من تنزيل القرآن على رسوله (صلى الله عليه وسلم) شفاء ورحمة وقدرته على ذلك ، ذكر قدرته على أنه لو شاء لذهب بما أوحى ولكنه تعالى لم يشأ ذلك

والمعنى أنّا كما نحن قادرون على إنزاله نحن قادرون على إذهابه .

وقال أبو سهل : هذا تهديد لغير الرسول (صلى الله عليه وسلم) بإذهاب ما أوتوا ليصدهم عن سؤال ما لم يؤتوا كعلم الروح وعلم الساعة .

وروي لا تقوم الساعة حتى يرتفع القرآن والحديث وفي حديث ابن مسعود يسري به في ليلة فيذهب بما في المصاحف وبما في القلوب ، ثم قرأ عبد الله ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ﴾ .

وقال صاحب التحرير : ويحتمل عندي في تأويل الآية وجه غير ما ذكر وهو أنه (صلى الله عليه وسلم) لما أبطأ عليه الوحي لما سُئل عن الروح شق ذلك عليه وبلغ منه الغاية ، فأنزل الله تعالى تهذيباً له هذه الآية .

ويكون التقدير أيعز عليك تأخر الوحي فإنّا لو شئنا ذهبنا بما ﴿ أوحينا إليك ﴾ جميعه فسكت النبي (صلى الله عليه وسلم) وطاب قلبه ولزم الأدب انتهى .

والباء في ﴿ لنذهبن بالذي ﴾ للتعدية كالهمزة وتقدم الكلام على ذلك في قوله ﴿ لذهب بسمعهم ﴾ في أوائل سورة البقرة .

والكفيل هنا قيل من يحفظ ما أوحينا إليك .

وقيل كفيلاً بإعادته إلى الصدور .

وقيل كفيلاً يضمن لك أن يؤتيك ما أخذ منك .

وقال الزمخشري : والمعنى إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه عن الصدور والمصاحف ولم نترك له أثراً وبقيت كما كنت لا تدري ما الكتاب ثم لا تجد لك بهذا الذهاب من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظاً مسطوراً ﴿ إلاّ رحمة من ربك ﴾ إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك كان رحمته يتوكل عليه بالرد أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى ولكن رحمة من ربك نتركه غير مذهوب به ، وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنة في تنزيله وتحفيظه انتهى .

وعلى الاستثناء المنقطع خرجه ابن الأنباري وابن عطية .

قال ابن الأنباري : لكن رحمة من ربك تمنع من أن تسلب القرآن ، وقال في زاد المسير المعنى لكن الله يرحمك فأثبت ذلك في قلبك .

وقال ابن عطية : لكن ﴿ رحمة من ربك ﴾ تمسك ذلك عليك وتخريج الزمخشري الأول جعله استثناء متصلاً جعل رحمته تعالى مندرجة تحت قوله تعالى ﴿ وكيلاً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرءانِ ﴾

وقرئ نُنْزل من الإنزال ﴿ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾ لِما في الصدور من أدواء الرَّيْب وأسقامِ الأوهام ﴿ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ به العالِمين بما في تضاعيفه ، أي ما هو في تقويم دينِهم واستصلاحِ نفوسِهم كالدواء الشافي للمرضى ، ومن بيانية قُدِّمت على المبيَّن اعتناءً فإن كلَّ القرآنِ كذلك ، وعن النبي عليه السلام : " مَنْ لَمْ يَسْتَشْفِ بالقرآن فلا شفاه الله " أو تبعيضيةٌ لكن لا بمعنى أن بعضَه ليس كذلك بل بمعنى إنا ننزل منه في كل نَوْبةٍ ما تستدعي الحكمةُ نزولَه حينئذ ، فيقع ذلك ممن نزل عليهم بسبب موافقتِه لأحوالهم الداعيةِ إلى نزوله موقعَ الدواءِ الشافي المصادفِ لا بأنه من المرضى المحتاجين إليه بحسب الحالِ من غير تقديمٍ ولا تأخير ، فكلُّ بعضٍ منه متصفٌ بالشفاء لكن لا في كل حينٍ بل عند تنزيله ، وتحقيقُ التبعيضِ باعتبار الشفاءِ الجُسماني كما في الفاتحة وآياتِ الشفاء لا يساعده قوله سبحانه :

﴿ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إَلاَّ خَسَارًا ﴾ أي لا يزيد القرآنُ كلُّه أو كلُّ بعضٍ منه الكافرين المكذبين به الواضعين للأشياء في غير مواضعِها مع كونه في نفسه شفاءً من الأسقام إلا خساراً أي هلاكاً بكفرهم وتكذيبِهم لا نقصاناً كما قيل ، فإن ما بهم من داء الكفرِ والضلالِ حقيقٌ بأن يعبّر عنه بالهلاك لا بالنقصان المنبىءِ عن حصول بعضِ مبادي الأسقامِ فيهم وزيادتِهم في

مراتب الهلاك من حيث أنهم كلما جددوا الكفرَ والتكذيبَ بالآيات النازلةِ تدريجاً ازدادوا بذلك هلاكاً ، وفيه إيماءٌ إلى أن ما بالمؤمنين من الشُّبَه والشكوك المعتريةِ لهم في أثناء الاهتداءِ والاسترشادِ بمنزلة الأمراض ، وما بالكفرة من الجهل العنادِ بمنزلة الموتِ والهلاك ، وإسنادُ الزيادة المذكورةِ إلى القرآن مع أنهم هم المُزْدادون في ذلك بسوء صُنعِهم باعتبار كونِه سبباً لذلك ، وفيه تعجيبٌ من أمره حيث يكون مداراً للشفاء والهلاك .

(83/463)

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان ﴾ بالصحة والنعمة ﴿ أَعْرَضَ ﴾ عن ذكرنا فضلاً عن القيام بموجب الشكر ﴿ وَنَأَى ﴾ تباعدَ عن طاعتنا ﴿ بِجَانِبِهِ ﴾ النأيُ بالجانب أن يَلْويَ عن الشيء عِطفَه ويُولِيَه عُرضَ وجهه ، فهو تأكيدٌ للإعراض أو عبارةٌ عن الاستكبار لأنه من ديدن المستكبرين ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر ﴾ من فقر أو مرض أو نازلةٍ من النوازل ، وفي إسناد المِساسِ إلى الشر بعد إسنادِ الإنعام إلى ضمير الجلالةِ إيذانٌ بأن الخيرَ مرادٌ بالذات والشرَّ ليس كذلك ﴿ كَانَ يَئُوساً ﴾ شديدَ اليأس من رَوْحنا ، وهذا وصفٌ للجنس باعتبار بعضِ أفرادِه ممن هو على هذه الصفةِ ، ولا ينافيه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ ﴾ ونظائرُه ، فإن ذلك شأنُ بعضٍ آخرين منهم ، وقيل : أريد به الوليدُ بنُ

المغيرة وقرىء (ناء) إما على القلب كما يقال : راءَ في رأي وإما على أنه بمعنى نهض .

﴿ قُلْ كُلٌّ ﴾ أي كل أحدٍ منكم وممن هو على خلافكم ﴿ يَعْمَلُ ﴾ عمله ﴿ على شَاكِلَتِهِ ﴾ طريقتِه التي تشاكل حالَه في الهدى والضلالة أو جوهرِ روحِه وأحوالِه التابعة لمزاج بدنِه ﴿ فَرَبُّكُمْ ﴾ الذي برأكم على هذه الطبائع المتخالفة ﴿ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أهدى سَبِيلاً ﴾ أي أسدُّ طريقاً وأبينُ مِنهاجاً وقد فُسِّرت الشاكلةُ بالطبيعة والعادةِ والدين .

(84/463)

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح ﴾ الظاهرُ أن السؤال كان عن حقيقة الروح الذي هو مدبّرُ البدنِ الإنساني ومبدأُ حياتِه ، روي (أن اليهودَ قالوا لقريش : سلوه عن أصحاب الكهفِ وعن ذي القَرنين وعن الرّوح ، فإن أجاب عنها جميعاً أو سكت فليس بنبي ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبيٌّ ، فبيّن لهم القصتين وأبْهم أمرَ الروح) وهو مُبْهَمٌ في التوراة ﴿ قُلِ الروح ﴾ أُظهر في مقام الإضمار إظهاراً لكمال الاعتناءِ بشأنه ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبّى ﴾ كلمةُ من بيانية والأمرُ بمعنى الشأنِ والإضافة للاختصاص العِلْميِّ لا الإيجاديّ لاشتراك الكلِّ فيه وفيها من تشريف المضافِ ما لا يخفى كما في الإضافة الثانيةِ من تشريف المضافِ

إليه ، أي هو من جنس ما استأثر الله تعالى بعلمه من الأسرار الخفيةِ التي لا يكاد يحوم حولها عقولُ البشر .

(85/463)

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ لا يمكن تعلّقه بأمثال ذلك ، روي أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك . قالوا : نحن مختصّون بهذا الخطاب قال عليه الصلاة والسلام : " بل نحن وأنتم " . فقالوا : ما أعجبَ شأنَك ، ساعةً تقول : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ وساعةً تقول هذا ، فنزلت : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ﴾ الآية ، وإنما قالوا ذلك لركاكة عقولِهم فإن الحكمةَ الإنسانيةَ أن يعلم من الخير ما تسعه الطاقةُ البشريةُ بل ما نيط به المعاشُ والمعادُ وذلك بالإضافة إلى ما لا نهايةَ له من معلوماته سبحانه قليلٌ يُنال به خيرٌ كثيرٌ في نفسه أو بالنسبة إلى الإنسان أو هو من الإبداعيات الكائنةِ بمحض الأمرِ التكوينيّ من غير تحصّلٍ من مادة وتولّدٍ من أصل كأعضاء الجسدِ حتى يمكن تعريفُه ببعض مباديه ، ومآلُه أنه من عالم الأمر لا من عالم الخَلق وليس هذا من قَبيل قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ فإن ذلك عبارةٌ عن سرعة التكوينِ سواءٌ كان الكائنُ من عالم الأمرِ أو من عالم الخلقِ ، وفيه تنبيهٌ على أنه مما لا يحيط بكنهه

دائرةُ إدراكِ البشر وإنما الممكن هذا القدرُ الإجماليُّ المندرجُ تحت ما استُثني بقوله تعالى :

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن العلمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي إلا علماً قليلاً تستفيدونه من طرُق الحواسِّ فإن تعقّلَ المعارفِ النظرية إنما هو من إحساس الجزئياتِ ، ولذلك قيل : من فقد حِسًّا فقد علماً ، ولعل أكثر الأشياءِ لا يدركه الحسُّ ولا شيءٌ من أحواله التي يدور عليها معرفةُ ذاتِه ، وأما حملُ ما ذكر على السؤال عن قِدَمه وحدوثه وجعلُ الجوابِ إخباراً بحدوثه أي كائنٌ بتكوينه حادثٌ بإحداثه بالأمر التكويني ، فمع عدم ملاءمتِه لحال السائلين لا يساعده التعرّضُ لبيان قلةِ علمِهم ، فإن ما

(86/463)

سألوا عنه مما يفي به علمُهم حينئذ وقد أُخبر عنه ، وقيل : المرادُ بالروح خلقٌ عظيم رُوحاني أعظمُ من المَلَك ، وقيل : جبريلُ عليه السلام ، وقيل : القرآنُ ، ومعنى من أمر ربي من وحيه وكلامِه لا من كلام البشر .

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ من القرآن الذي هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ومنبعٌ للعلوم التي أوتيتَها وثبّتناك عليه حين كادوا يفتنونك عنه ولولاه لكدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ، وإنما عبّر عنه بالموصول تفخيماً لشأنه ووصفاً له لما بما في حيز الصلة ابتداءً

وإعلاماً بحاله من أول الأمرِ وبأنه ليس من قبيل كلامِ المخلوقِ ، واللامُ موطئةٌ للقسم ولنذهبن جوابُه النائبُ منابَ جزاءِ الشرطِ ، وبذلك حسُنَ حذفُ مفعولِ المشيئةِ ، والمرادُ من الذهاب به المحوُ من المصاحف والصدور وهو أبلغُ من الإذهاب . عن ابن مسعود رضي الله عنه : "أن أولَ ما تفقِدون من دينكم الأمانةُ وآخرَ ما تفقِدون الصلاةُ وليُصلّين قومٌ ولا دينَ لهم ، وأن هذا القرآنَ تُصبحون يوماً وما فيكم منه شيءٌ ، فقال رجلٌ : كيف ذلك وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتْناه في مصاحفنا نعلّمه أبناءَنا ويعلمه أبناؤُنا أبناءَهم ؟ فقال : يسرى عليه ليلاً فيصبح الناسُ منه فقراءَ ترفع المصاحفُ وينزَعُ ما في القلوب " ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ ﴾ أي بالقرآن ﴿ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ من يتوكل علينا استردادَه مسطوراً محفوظاً .

(87/463)

﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ فإنها إن نالتْك لعلها تستردّه عليك ، ويجوز أن يكون الاستثناءُ منقطِعاً بمعنى ولكنْ رحمةٌ من ربك تركَتْه غيرَ مذهوب به ، فيكون امتناناً بإبقائه بعد المنة بتنزيله وترغيباً في المحافظه على أداء حقوقِه وتحذيراً من أن لا يُقدرَ قدرُه الجليل ويفرّطُ في القيام بشكره وهو أجلُّ النعم وأعظمُها ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ كإرسالك وإنزالِ

الكتابِ عليك وإبقائِه في حفظك وغير ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(88/463)

وقال الآلوسى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

أي ما هو في تقديم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافي للمرضى ، و﴿ مِنْ ﴾ للبيان وقدم اهتماماً بشأنه ، وأنكر أبو حيان جواز التقديم واختار هنا كون من الابتداء الغاية وهو إنكار غير مسموع فيفيد أن كل القرآن كذلك .

وفي "الخبر" من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله تعالى أو للتبعيض ومعناه على ما في "الكشف" وننزل ما هو شفاء أي تدرج في نزوله شفاء فشفاء وليس معناه أنه منقسم إلى ما هو شفاء وليس بشفاء والمنزل الأول كما وهم الحوفي فأنكر جواز إرادة التبعيض وإنما المعنى أن ما لم ينزل بعد ليس بشفاء للمؤمنين لعدم الإطلاع وأن كل ما ينزل فهو شفاء لداء خاص يتجدد نزول الشفاء كفاء تجدد الداء .

وفيه أيضاً أن هذا الوجه أوفق لمقتضى المقام ولا يخفى عليك بعده ولذا اختير في توجيه

التبعيض أنه باعتبار الشفاء الجسماني وهو من خواص بعض دون بعض ومن البعض الأول الفاتحة وفيها آثار مشهورة، وآيات الشفاء وهي ست ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: 14] ﴿ شِفَآءٌ لِمَا فِى الصدور ﴾ [يونس: 57] ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ﴾ [النحل: 69] ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرءان مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: 28] ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: 80] ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ [فصلت: 44].

(89/463)

قال السبكي: وقد جربت كثيراً، وعن القشيري أنه مرض له ولد أيس من حياته فرأى الله تعالى في منامه فشكى له سبحانه ذلك فقال له: اجمع آيات الشفاء واقرأها عليه أو اكتبها في إناء واسقه فيه ما محيت به ففعل فشفاه الله تعالى، والأطباء معترفون بأن من الأمور والرقي ما يشفي بخاصية روحانية كما فصله الأندلسي في مفرداته، وكذا داود في المجلد الثاني من تذكرته، ومن ينكر لا يعبأ به، نعم اختلف العلماء في جواز نحو ما صنعه القشيري عن الرؤيا وهو نوع من النشرة وعرفوها بأنها أن يكتب شيء من أسماء الله تعالى أو من القرآن ثم يغسل بالماء ثم يمسح به المريض أو يسقاه فمنع ذلك الحسن.

والنخعي .

ومجاهد ، وروى أبو داود من حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن النشرة فقال : هي من عمل الشيطان .

وأجاز ذلك ابن المسيب ، والنشرة التي قال فيها صلى الله عليه وسلم ما قال هي النشرة التي كانت تفعل في الجاهلية وهي أنواع ، منها ما يفعله أهل التعزيم في غالب الإعصار من قراءة أشياء غير معلومة المعنى ولم تثبت في السنة أو كتابتها وتعليقها أو سقيها ، وقال مالك : لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله على أعناق المرضى على وجه التبرك بها إذا لم يرد معلقا بذلك مدافعة العين ، وعنى بذلك أنه لا بأس بالتعليق بعد نزول البلاء رجاء الفرج والبر كالرقي التي وردت السنة بها من العين ، وأما قبل النزول ففيه بأس وهو غريب ، وعند ابن المسيب يجوز تعليق العوذة من كتاب الله تعالى في قصبة ونحوها وتوضع عند الجماع ، وعند الغائط ولم يقيد بقبل أو بعد ، ورخص الباقر في العوذة تعلق على الصبيان مطلقاً ، وكان ابن سيرين لا يرى بأساً بالشيء من القرآن يعلقه الإنسان كبيراً أو صغيراً مطلقاً ، وهو الذي عليه الناس قديماً وحديثاً في سائر الأمصار لكن توجيه التبعيض بما ذكر لا يساعده قوله سبحانه :

﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أي لا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الكافرين المكذبين به الواضعين للأشياء في غير موضعها مع كونه في نفسه شفاء لما في الصدور من أدواء الريب وإسقام الأوهام إلا خسارا أي هلاكاً بكفرهم وتكذيبهم وزيادتهم من حيث أنهم كلما جددوا الكفر والتكذيب بالآية النازلة تدريجاً ازدادوا بذلك هلاكاً ، وفسر بعضهم الخسار بالنقصان ، ورجح أبو السعود الأول بأن ما بهم من داء الكفر والضلال حقيق بأن يعبر عنه بالهلاك لا بالنقصان المنبىء عن حصول بعض مبادىء الإسلام فيهم ، وفيه كما قال إيماء إلا أن ما بالمؤمنين من الشبه والشكوك المعترية لهم في أثناء الإهتداء والاسترشاد بمنزلة الأمراض ، وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك ، وإسناد الزيادة المذكورة إلى القرآن مع أنهم المزدادون في ذلك لسوء صنيعهم باعتبار كونه سبباً لذلك ، وفيه تعجيب من أمره من حيث كونه مداراً للشفاء والهك .

كماء صار في الأصداف درا . . .

وفي ثغر الأفاعي صار سما

هذا وربما يقال : إن انقسام القرآن إلى ما هو شفاء من أدواء الريب واسقام الوهم وإلى ما ليس كذلك مما لا ينبغي أن يكون فيه ريب لأن الشافي من أدواء الريب إنما هو الأدلة كالآيات الدالة على بطلان الشرك وثبوت الوحدانية له تعالى وكالآيات الدالة على إمكان الحشر

الجسماني وليس كل آيات القرآن كذلك فإن منه ما هو أمر بصلاة وصوم وزكاة ومنه ما هو نهي عن قتل وزنى وسرقة ونحو ذلك وهو لا يشفى به ادواء الريب وأقسام الوهم وكذا آيات القصص ، نعم فيما ذكر نفع غير الشفاء من تلك الأدواء فهو رحمة وحينئذ يقال في الآية حذف أي ننزل من القرآن ما هو شفاء وما هو رحمة على معنى ننزل من القرآن آيات هي شفاء وآيات هي رحمة .

(91/463)

وفيه أن الريب غير مختص فيما يتعلق بالله عز وجل وبإمكان الحشر بل يكون أيضاً في الرسالة وصدقه صلى الله عليه وسلم في دعواها ، وما من آية في القرآن إلا وهي مستقلة أو لها دخل في الشفاء من ذلك الداء لما فيها من الإعجاز وكذا ما من آية إلا وفيها نفع من جهة أخرى فكل آية رحمة كما أن كلها شفاء لكن كونه رحمة بالنسبة من إلى كل واحد واحد من المؤمنين إذ كل مؤمن ينتفع به نوعاً من الانتفاع وكونه شفاء بالفعل بالنسبة إلى من عرض له شيء من أدواء الريب وإسقام الوهم وليس كل المؤمنين كذلك ، والقول بأن كلا كذلك في أول الإيمان غير مسلم ولا يحتاج إليه كما لا يخفى .

والإمام عمم شفائيته وقد أحسن فقال : هو شفاء للأمراض الروحانية وهي نوعان

اعتقادات باطلة وأخلاق مذمومة فلاشتماله على الدلائل الحقة الكاشفة عن المذاهب الباطلة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر المبينة لبطلانها يشفي عن النوع الأول من الأمراض ولاشتماله على تفاصيل الأخلاق المذمومة وتعريف ما فيها من المفاسد والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة والأعمال المحمودة يشفي عن النوع الآخر ، والشفاء إشارة إلى التخلية والرحمة إشارة إلى التحلية ولأن الأولى أهم من الثانية قدم الشفاء على الرحمة فتأمل والله تعالى الموفق .

وقرأ البصريان ﴿ نُنْزِّلُ ﴾ بالنون والتخفيف .

وقرأ مجاهد بالياء والتخفيف ورواها المروزي عن حفص .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ شِفَاء وَرَحْمَةٌ ﴾ بنصبهما ، قال أبوحيان : ويتخرج ذلك على أنهما حالان والخبر للمؤمنين والعامل في الحال ما في الجار والمجرور من الفعل ، ونظير ذلك ﴿ والسماوات مطويات بِيَمِينِه ﴾ [الزمر : 67] في قراءة نصب ﴿ مطويات ﴾ وقول الشاعر :

رهط ابن كوز محقبي أدراعهم . . .

فيهم ورهط ربيعة بن حذار

ثم قال : وتقديم الحال على العامل فيه من الظرف لا يجوز إلا عند الأخفش ، ومن منع جعله منصوباً على إضمار أعني ، وأنت تعلم أن من يجوز مجيء الحال من المبتدا لا يحتاج إلى ذلك .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا ﴾ بالصحة والسعة ونحوهما ﴿ عَلَى الإنسان ﴾ أي جنسه فيكفي في صحة الحكم وجوده في بعض الأفراد ولا يضر وجود نقيضه في البعض الآخر ، وقيل : المراد به الوليد بن المغيرة ﴿ أَعْرَضَ ﴾ عن ذكرنا كأنه مستغن عنا فضلاً عن القيام بمواجب شكرنا ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ لوى عطفه عن طاعتنا وولاها ظهره ، وأصل معنى النأي البعد وهو تأكيد للإعراض بتصوير صورته فهو أوفي بتأدية المراد منه ، ومثله يجوز عطفه لإيهام المغايرة بينهما وهو أبلغ من من ترك العطف على ما بين في محله ، على أن ما ذكره أهل المعاني من أن التأكيد يتعين فيه ترك العطف لكمال الاتصال غير مسلم ، والجانب على ظاهره والمراد ترك ذلك ، ويجوز أن يكون كناية عن الاستكبار فإن ثنى العطف من أفعال المستكبرين ولا يبعد أن يراد بالجانب النفس كما يقال جاء من جانب فلان كذا أي منه وهو كناية أيضاً كما يعبر بالمقام والمجلس عن صاحبه .

وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان ﴿ وناء ﴾ هنا وفي فصلت فقيل ذلك من باب القلب ووضع العين محل اللام كراء ووراء ، وقيل لا قلب وناء بمعنى نهض كما في قوله :

حتى إذا ما التأمت مفاصله . . .

وناء في شق الشمال كاهله

(93/463)

أي نهض متوكئاً على شماله ، وفسر نهض هنا بأسرع والكلام على تقدير مضاف أي أسرع بصرف جانبه ، وقيل : معناه تثاقل عن أداء الشكر فعل المعرض ﴿ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشر ﴾ م مرض أو فقر أو نازلة من النوازل ﴿ كَانَ ﴾ شديد اليأس من رحمتنا لأنه لم يحسن معاملتنا في الرخاء حتى يرجو فضلنا في الشدة ، وفي إسناد المساس إلى السر بعد إسناد الأنعام إلى ضميره تعالى إيذان بأن الخير مراد بالذات والشر ليس كذلك لأن ذلك هو الذي يقتضيه الكرم المطلق والرحمة الواسعة وإلى ذلك الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : "اللهم إن الخير بيديك والشر ليس إليك وللفلاسفة ومن يحذو حذوهم في ذلك بحث طويل لا بأس بالإطلاع عليه ليؤخذ منه ما صفا ويترك منه ما كدر قالوا : إن الأول تعالى تام القدرة والحكمة والعلم كامل في جميع أفاعيله لا يتصور بخله بإفاضة الخيرات وليس الداعي له لذلك إلا علمه بوجوه الخير ومصالح الغير الذي هو عين ذاته كسائر صفاته وأما النقائص

والشرور الواقعة في ضرب من الممكنات وعدم وصولها إلى كمالها المتصور في حقها فهي لقصور قابلياتها ونقص استعداداتها لا من بخل الحق تعالى مجده عن ذلك.

(94/463)

وقصور القابلية ينتهي في الآخرة إلى لوازم الماهيات الإمكانية ومنبعها الإمكان وتحقيق ذلك أن الشر يطلق عرفاً على معنيين، أحدهما ماهو عدم كالفقر والجهل البسيط وهذا على ضربين، الأول عدم محض ليس بإزاء الوجود الذي يطلبه طباع الشيء ولا مما يمكن حصوله له من الكمالات والخيرات كقصور الممكن عن الوجود الواجبي والوجوب الذاتي وقصور بعض الممكنات عن بعض كقصور الأجسام عن النفس فالخير الذي يقابل هذا منحصر في الواجب تعالى إذ له الكمال المطلق والوجود الحق بلا جهة إمكانية بوجه من الوجوه وما عدا من المهيآت المعروضة للوجود لا يخلو من شوب شرية ما وظلم ما على تفاوت إمكاناتهم حسب تفاوت طبقاتهم في البعد عن ينبوع الوجود ومطلع نور الخير والجود، وهذا الشر منبعه الإمكان الذاتي، والثاني ما يكون عدم ما يطلبه الشيء أو ما يمكن حصوله له من الكمالات ولا يتصور هذا في غير الماديات إذ الإبداعيات يكون وجودها على أكمل ما يتصور في حقها فلا يكون لها شرية بهذا المعنى وما عداها من المتعلقة بالمادة

لا تخلو من شرية على تفاوت إمكاناتها الاستعدادية بحسب تفاوت مراتبها في التعلق بالهيولي وهذا الشر منبعه الهيولي ومنبعها الإمكان إذ لولاه ما صدرت من مصدرها فآل الشر إلى الإمكان كما سمعت أولاً .

(95/463)

وثانيهما : ما يمنع الشيء عن الوصول إلى الخير الممكن في حقه من الوجود أو كمال الوجود كالبرد والحبر المفسدين للثمار والمطر المانع للقصار عن تبييض الثياب والأخلاق الذميمة المانعة للنفس عن وصولها إلى كمالها العقلي كالبخل وازسراف والجهل المركب والسفاهة والأفعال الذميمة كالزنا والسرقة والنميمة وأشباه ذلك من الآلام والغموم وغير ذلك من الأشياء الوجودية لكن يتبعها إعدام ، وإطلاق الشر عندهم على المعنى الأول حقيقة وعلى الثاني مجاز لأن الشر الحقيقي لا ذات له بل هو إما عدم ذات أو عدم كمال لذات ، والبرهان عليه أنه لو كان أمراً وجودياً فلا يخلو إما أن يكون شراً لنفسه أو لغيره والأول باطل وإلا لما وجد إذ الشيء لا يقتضي لذاته عدمه أو عدم كماله كيف وجميع الأشياء طالبة لكمالاتها لا مقتضية لعدمها مع أنه لو اقتضى كان الشر ذلك العدم لا نفسه وكذا الثاني لأن كونه لغيره إما لأنه لعدم ذلك الغير أو لأنه لعدم بعض كمالاته فإنه لو لم يكن معدماً لشيء

أصلاً لا لوجوده ولا لكمال وجوده لم يكن شراً لذلك الشيء ضرورة أن كل ما لا يوجب عدم شيء ولا عدم كمال له لا يكون شراً له فإذاً ليس الشر إلا عدم ذلك الي ء أو عدم كماله لا نفس الأمر الوجودي المعدم بل هو في ذاته من الكمالات النفسانية أو الجسمانية كالظلم فإنه وإن كان شراً بالقياس إلى المظلوم وإلى النفس الناطقة التي كمالها في تسخير قواها وكسرها لكنه خير بالقياس إلى القوة الغضبية التي كمالها بالانتقام، وكذا الإحراق كمال للنار وشر لمن يتضرر به فعلم أن الشر أما عدم ذات أو عدم كمال لها فالوجود من حيث أنه وجود خير محض والعدم من حيث أنه عدم شر محض، ثم إنك قد علمت أن الشر الذي هو بمعنى العدم منه ما هو من لوازم الماهيات التي لا علة لها ومنه ما لا يكون من هذا القبيل بل قد يلحق الماهيات لا من ذاتها فلا بد له من علة والكلام ليس في الأول الذي لا لمية له إذ قد تقرر أنه ليس

للماهيات في كونها ممكنة ولا في حاجتها إلى علة لوجودها علة ولا لقصور الممكن عن الوجب بذاته ولا لتفاوت مراتب هذا النقصان في الماهيات علة بل إنما ذلك لاختلاف الماهيات في حدود ذاتها لا لأمر خارج عنها كيف ولو كان النقص في جميعها متشابهاً

لكانت الماهيات ماهية واحدة بل الكلام في الثاني وهو عدم ما هو من الأمور الزائدة على مقتضى النوع كالجهل بالفلسفة للإنسان مثلاً فإن ذلك ليس شراً له لأجل كونه إنساناً بل لأجل أنه فقد لما اقتضاه شخص مستعد له مشتاق إليه من حيث أنه وجد فيه هذا الاستحقاق والاشتياق الذي لا صلاح في أن يعم.

وهذا الشر إنما يوجد في الأشياء على سبيل الندرة فكل ما وجد فهو خير محض أو خيره أكثر من شره، وأما ما يكون شراً محضاً أو مستولي الشرية أو متساوي الطرفين فمما لا وجد له أصلاً حتى يحتاج فيه إلى منشأ سوى الواجب تعالى الذي هو خير محض لا يوجد منه شر أصلاً كما توهمه كفرة المجوس، ثم كل ما كان خيراً محضاً أو كان خيره أكثر يصدر من الواجب بمقتضى أن من شأنه إفاضة الخير لأن ترك الأول شر محض وترك الثاني شر غالب، وعالم العناصر من القسم الثاني فإن إيجابه للشرور على الوجه النادر ولا تسوغ عناية المبدع ورحمة الجواد إهماله وإلا لزم خير كثير لشر قليل وهو شر كثير على أنها إنما تكون للنفع في أشياء لو لم تخلق لخلق سربال الوجود وقصر رداء الجود وبقي في كتم العدم عوالم كثيرة ونفائس جملة غفيرة فمن هذه الحيثية يكون ذلك الشر القليل مقتضياً بالذات وهي مع ذلك إنما توجد تحت كرة القمر في بعض جوانب الأرض التي هي حقيرة بل لا شيء بالنسبة إلى ما عندك ربك سبحانه وتكون لبعض الأشخاص في بعض الأوقات وليست أيضاً شروراً بالنسبة إلى نظام الكل فإذا تصورت ذرة الشر في أبحر أشعة شمس الخير لا

يضرها بل يزيدها بهاء وجمالاً وضياء وكمالاً كالشامة السوداء على الصورة المليحة البيضاء يزيدها حسناً وملاحة وإشراقاً وصباحة .

(97/463)

ولا يخفى أن هذا إنما يتم على القول بأنه تعالى لا يمكن أن تكون إرادته متساوية النسبة إلى الشيء ومقابلة بلا داع ومصلحة كما هو مذهب الأشاعرة وإلا فقد يقال : إن الفاعل للكل إذا كان مختاراً فله أن يختار أيما شاء من الخيرات والشرور لكن الحكماء وأساطين الإسلام قالوا : إن اختياره تعالى أرفع من هذا النمط وأمور العالم منوطة بقوانين كلية وأفعاله تعالى مربوطة بحكم ومصالح جلية وخفية .

وقول الإمام : إن الفلاسفة لما قالوا ءالإيجاب والجبر في الأفعال فخوضهم في هذا المبحث من جملة الفضول والضلال لأن السؤال بلم عن صدورها غير وارد كصدور الإحراق من النار لأنه يصدر عنها لذاتها ناشى من التعصب لأن محققيهم يثبتون الاختيار وليس صدور الأفعال من الله تعالى عندهم صدور الإحراق من النار ، وبعد فرض التسليم بحثهم عن كيفية وقوع الشر في هذا العالم لأجل أن الباري تبارك اسمه خير محض بسيط عندهم ولا يجوزون صدور الشر عما لا جهة شرية فيه أصلاً فيلزم عليهم في بادىء النظر إثبات ما

افترته الثنوية من مبدأين خيري وشري فتخلصوا عن ذلك بذلك البحث فو فضل لا فضول ، وبالجملة ما يصدر عنه تعالى إما هو بريء بالكلية عن الشر وإما ما يلزمه شر قليل وفي تركه شر كثير ولا يصدر عنه تعالى ذلك أيضاً في حق شخص إلا بعد طلب ماهيته له في نفسها كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ الذى أعطى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] إلى غير ذلك من الآيات .

وفي الإشارات وشروحها كلام طويل يتعلق بهذا المقام ولعل فيما ذكرنا كفاية لذوي الأفهام .

هذا ثم إنه سبحانه بعد ذكر حال القرآن بالنسبة إلى المؤمنين وإلى الكافرين وبين حال الكافر في حالي الأنعام ومقابله ذكر ما يصلح جواباً لمن يقول : لم كان الأمر كذلك ؟

فقال عز قائلاً :

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (84) ﴾

(98/463)

﴿ قُلْ كُلٌّ ﴾ أي واحد من المؤمن والكافر والمعرض والمقبل والراجي والقانط ﴿ يَعْمَلُ ﴾ عمله ﴿ على شَاكِلَتِهِ ﴾ أي على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله وما هو عليه في نفس الأمر وتشابهه في الحسن والقبح من قولهم طريق ذو شواكل أي طرق تشعب منه وهو

مأخوذ من الشكل بفتح الشين أي المثل والنظير ويقال لست من شكلي ولا شاكلتي وأما الشكل بكسر الشين فالهيئة يقال جارية حسنة الشكل أي الهيئة ، وظاهر عبارة القاموس أن كلا من الشكل والشكل يطلق على المثل والهيئة .

وهذا التفسير مروي عن الفراء .

والزجاج.

واختاره الزمخشري وغيره لقوله تعالى : ﴿ فَرَبُّكُمْ ﴾ الذي برأكم متخالفين ﴿ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهدى سَبِيلاً ﴾ أسد طريقاً وأبين منهاجاً وفسر مجاهد الشاكلة بالطبيعة على أنها من شكلت الدابة إذا قيدتها أي على طبيعته التي قيدته لأن سلطان الطبيعة على أنها من شكلت الدابة إذا قيدتها أي على طبيعته التي قيدته لأن سلطان الطبيعة على الإنسان ظاهر وهو ضابط له وقاهر .

وروى ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومثل ذلك في المأخذ تفسير بعضهم بالعادة ومن مشهور كلامهم العادات قاهرات ، وكذا تفسير ابن زيد لها بالدين وكلا التفسرين دون الأولين .

ولعل الدين هنا بمعنى الحال وهو أحد معانيه .

وجوز الإمام وغيره أن يكون المراد أن كل أحد يفعل على وفق ما شاكل جوهر نفسه ومقتضى روحه فإن كانت نفساً مشرقة حرة ظاهرة علوية صدرت عنه أفعال فاضلة

كريمة ﴿ والبلد الطيب يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ وإن كانت نفساً كدرة نذلة خبيثة ظلمانية سفلية صدرت عنه أفعال خسيسة فاسدة ﴿ والذى خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ﴾ [الأعراف : 58] واختار أن النفوس الناطقة البشرية مختلفة الماهية ولذا اختلفت آثارها .

(99/463)

وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى قريباً ، ولا يرد أن خسة الأفعال وشرافتها إذا كانتا تابعتين لخسة النفس وشرافتها وهما أمران خلقيان لا مدخل للاختيار فيهما فعلام المدح والذم والثواب والعقاب لأنهم قالوا : إن ذلك لأمر ذاتي وهو حسن استعداد النفس في نفسها وسوء استعدادها أيضاً في نفسها ولا تثاب النفس ولا تعاقب إلا لاستعدادها في الأكل وطلبها لذلك بلسان حالها والمشهور إطلاق القول بأن ذلك غير مجعول وإنما المجعول وجوده وإبراز على طبق ما هو عليه في نفسه فاعملوا فكل ميسر لما خلق له ومن وجد خيراً فليحمد الله تعالى ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وقال بعض : إنه مجعول بالجعل البسيط على معنى أنه أثر الفيض الأقدس الذي هو مقتضى ذاته عز وجل بطريق الإيجاب ويجري نحو هذا في الوجهين الأولين .

وقال بعض المتأخرين من فلاسفة الإسلام المتصدين للجمع برأيهم بين الشريعة ؛ والفلسفة إن ذات الإنسان بحسب الفطرة الأصلية لا تقتضي إلا الطاعة واقتضاؤها للمعصية بحسب العوارض الغريبة الجارية مجرى المرض والخروج عن الحالة الطبيعية فيكون ميلها للمعصية مثل ميل منحرف المزاج الأصلي إلى أكل الطين ، وقد ثبت في الحكمة أن الطبيعة بسبب عارض غريب تحدث في جسم المريض مزاجاً خاصاً يسمى مرضاً فالمرض من الطبيعة بتوسط العارض الغريب كما أن الصحة منها ، وفي الحديث القدسي : "إني خلقت عبادي كلهم حنفاء وإنهم أتتهم الياطين فاجتالتهم عن دينهم" ، وفي الأثر : "كل مولود يولد على فطرة الإسلام ثم أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه" أي بواسطة الشياطين أو المراد بهم ما يعم شياطين الإنس والجن أو الشياطين كناية عن العوارض الغريبة فالخلق لو لم يحصل لهم مس من الشيطان ماعصوا ولبقوا على فطرتهم لكن مسهم الشيطان ففسدت عليهم فطرتهم الأصلية فاقتضوا أشياء منافية لهم مضادة لجوهرهم البهي الإلهي من الهيئات الظلمانية ونسوا أنفسهم وما جبلوا عليه

ولولا المزعجات من الليالي . . .

لما ترك القطا طيب المنام

ولذا احتاجوا إلى رسل يبلغونهم آيات الله تعالى ويسنون لهم ما يذكرهم عهد ذواتهم من نحو الصلاة والصيام والزكاة وصلة الأرحام ليعودوا إلى فطرتهم الأصلية ومقتضى ذاتهم البهية ويعتدل مزاجهم ويتقوم إعوجاجهم ، ولذا قيل : الأنبياء أطباء وهم أعرف بالداء والدواء ، ثم إن ذلك المرض الذي عرض لذواتهم والحالة المنافية التي قامت بهم لولا أن وجدوا من ذواتهم قبولاً لعروضهما لهم ورخصة في لحوقهما بهم لم يكونا يعرضان ولا يلحقان فإذا كان مما تقتضيه ذواتهم أن تلحقهم أمور منافية مضادة لجواهرهم فإذا لحقتهم تلك الأمور اجتمعت فيها جهتان الملاءمة والمنافاة أما كونها ملائمة فلكون ذواتهم اقتضتها ، وأما كونها منافية فلأنها اقتضتها على أن تكون منافية لهم فلو لم تكن منافية لم يكن ما فرض مقتضى لها بل أمراً آخر ، وانظر إلى طبيعة التي تقتضي يبوسة حافظة لأي شكل كان صارت ممسكة للشكل القسري المنافي لكرويتها الطبيعية ومنعت عن العود إليها فعروض ذلك الشكل للأرضية لكونها مقسورة من وجه ومطبوعة من وجه فالإنسان عند عروض مثل هذا المنافي ملتذ متألم سعيد شقي ملتذ ولكن لذاته ألمه سعيد ولكن سعادته شقاوته وهذا لعمرك أمر عجيب لكنه أوضح بنمط غريب ، ومن تأمل وأنصف ظهر له أن لا ملخص لكثير من الشبهات في هذا الفصل إلا بالذهاب إلى القول بالاستعداد الأزلي وأن

لكل شيء حالة في نفسه مع قطع النظر عن سائر الاعتبارات لا يفاض عليه إلا هي لئلا يلزم انقلاب العلم جهلاً وهو من أعظم المستحيلات والإثابة والتعذيب تابعان لذلك فسبحان الحكيم المالك فتثبت فكم قد زلت في هذا المقام أقدام أعلام كالأعلام نسأل الله تعالى أن ينور أفهامنا ويثبت أقدامنا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(101/463)

ثم اعلم أنه روى عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قال: لم أر في القرآن أرجى من هذه الآية لا يشاكل بالعبد إلا العصيان ولا يشاكل بالرب إلا الغفران قال ذلك حين تذاكروا القرآن فقال عمر: لم أر آية أرجى من التي فيها ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب ﴾ [غافر: 3] قدم الغفران قبل قبول التوبة، وقال عثمان: لم أر آية أرجى من ﴿ نَبِّىء عِبَادِى أَنِّى أَنَا الغفور الرحيم ﴾ [الحجر: 49].

وقال علي كرم الله تعالى وجهه: لم أر أرجى من ﴿ قُلْ ياعبادى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر: 53] الآية، وقيل في الأرجى غير ذلك وسيمر عليك إن شاء الله تعالى لكن ما قاله الصديق لا يتأتى إلا على تقدير أن يراد كل أحد مطلقاً يعمل على شاكلته فافهم.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾

الظاهر عند المنصف أن السؤال كان عن حقيقة الروح الذي هو مدار البدن الإنساني ومبدأ حياته لأن ذلك من أدق الأمور التي لا يسع أحداً إنكاراً ويشرئب كل إلى معرفتها وتتوفر دواعي العقلاء إليها وتكل الأذهان عنها ولا تكاد تعلم إلا بوحي ، وزعم ابن القيم أن المسؤول عنه الروح الذي أخبر الله تعالى عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة عليهم السلام قال لأنهم إنما يسألونه عليه الصلاة والسلام عن أمر لا يعرف إلا بالوحي وذلك هو الروح الذي عند الله تعالى لا يعلمه الناس ، وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب إلى آخر ما قال وقد أطال ، وفي البحور الزاهرة إن هذا هو الذي عليه أكثر السلف بل كلهم ، والحق ما ذكرنا وهو الذي عليه الجمهور كما نص عليه في البحر .

وغيره ، نعم ما زعمه ابن القيم مروي عن بعض السلف فقد أخرج عبد بن حميد .

وأبو الشيخ .

عن ابن عباس أنه قال : الروح خلق من خلق الله تعالى وصورهم على صورة بني آدم وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح ثم تلا : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة ﴾ [النبأ : 38] .

وأخرج أبو الشيخ وغيره من طريق عطاء عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال في الروح المسؤول عنه : هو ملك واحد له عشرة آلاف جناح جناحات منها ما بين المشرق والمغرب له ألف وجه لكل وجه لسان وعينان وشفتان يسبح الله تعالى بذلك إلى يوم القيامة .

وأخرج هو وغيره أيضاً عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال في : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه لكل وجه منها سبعون ألف لسان لكل لسان منها سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها يخلق الله تعالى من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة .

وتعقب هذا بأنه لا يصح عن علي كرم الله تعالى وجه وطعن الإمام في ذلك بما طعن .

وأخرج ابن الأنباري في كتاب الأضداد عن مجاهد أنه قال : الروح خلق من الملائكة عليهم السلام لا يراهم الملائكة كما لا ترون أنتم الملائكة .

وأخرج أبو الشيخ عن سلمان أنه قال : الإنس والجن عشرة أجزاء فالانس جزء والجن تسعة أجزاء والملائكة والجن عشرة أجزاء فالجن من ذلك جزء والملائكة تسعة والملائكة والروح عشرة أجزاء فالملائكة من ذلك جزء والروح تسعة أجزاء والروح والكروبيون عشرة أجزاء فالروح من ذلك جزء والكروبيون تسعة أجزاء ، وقال الحسن .

وقتادة : الروح هو جبرائيل عليه السلام وقد سمي روحاً في قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ ﴾

[الشعراء : 193 ، 194] والسؤال عن كيفية نزوله وإلقائه الوحي إليه عليه الصلاة والسلام ، وقال بعضهم هو القرآن وقد سمي روحاً في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : 52] وقيل غير ذلك .

وزعم بعضهم أن السؤال عن حدوث الروح بالمعنى الأولى وقدمه وليس بشيء كما ستسمعه إن شاء الله تعالى .

وضمير يسألون لليهود فقد أخرج اليخان .

وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في خرب المدينة وهو متكىء على عسيب فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح وقال بعضهم : لا تسألوه فسألوه فقالوا : يا محمد ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب فظننت أنه يوحى إليه فلما نزل الوحي قال ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح ﴾ الآية ، وقال بعضم : لقريش لما أخرج أحمد .

والنسائي والترمذي .

والحاكم وصححاه .

وابن حبان .

وجماعة عن ابن عباس قال قالت قريش لليهود أعطونا شئاً نسأل هذا الرجل فقالوا سلوه عن الروح فسألوه فنزلت ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ ﴾ الخ .

وفي السير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن قريشاً بعثت النضر بن الحرث .

(104/463)

وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهم سلوهم محمداً فانهم أهل كتاب عندهم من العلم ما ليس عندنا فخرجا حتى قدما المدينة فسألوهم فقالوا سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي فجاؤا وسألوه فبين لهم صلى الله عليه وسلم القضيتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة ، والآية على هذا وما قبله مكية وعلى خبر الصحيحين مدنية ؛ وجمع بعضهم بين ذلك بأن الآية نزلت مرتين فتدبر ، وأياً ما كان فوجه تعقيب ما تقدم بها إن فسر الروح بالقرآن ظاهر ملائم لقوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرءان مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ ﴾ [الإسراء : 82] ولما بعده من الامتنان عليه وعلى متبعيه بحفظه في الصدور والبقاء وكذلك إن فسر بجبرائيل عليه السلام ، وأما على قول الجمهور فقد ورد

معترضاً دلالة على خسار الظالمين وضلالهم وأنهم مشتغلون عن تدبر الكتاب والانتفاع به إلى التعنت بسؤال ما اقتضت الحكمة سد طريق معرفته، ويقال نحو هذا على القول المروي عن بعض السلف ﴿ قُلِ الروح ﴾ أظهر في مقام الإضمار إظهاراً لكمال الاعتناء ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبّى ﴾ كلمة ﴿ مِنْ ﴾ تبعيضية، وقيل: بيانية والأمر واحد الأمور بمعنى الشأن والإضافة للاختصاص العلمي لا الإيجادي إذ ما من شيء إلا وهو مضاف إليه عز وجل بهذا المعنى، وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى كما في الإضافة الثانية من تشريف المضاف إليه أي هي من جنس ما استأثر الله تعالى بعلمه من الأسرار الخفية التي لا تكاد تدركها عيون عقول البشر.

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ لا يمكن تعلقه بأمثال ذلك، وهذا على ما قيل ترك للبيان ونهي لهم عن السؤال.

أخرج ابن إسحاق.

(105/463)

وابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت هذه الآية بمكة فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه أحبار يهود فقالوا: يا محمد ألم يبلغنا عنك أنك تقول: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم

إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 58] أفعنيتنا أم قومك قال : كلا قد عنيت قالوا : فإنك تتلو أنا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هي في علم الله تعالى قليل وقد آتاكم الله تعالى ما إن عملتم به انتفعتم فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ إلى قَوْلُهُ سبحانه ﴾ ﴿ إن الله للَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان : 27 ، 28] وكأنه صلى الله عليه وسلم أشار إلى أن المراد في الآية ﴿ تبياناً لكل شيء ﴾ [النحل : 89] من الأمور الدينية ولا شك أنها أقل قليل بالنسبة إلى معلومات الله تعالى التي لا نهاية لها ، وبهذا يرد على القائل بالعموم الحقيقي .

وفي رواية النسائي .

وابن حبان .

والترمذي .

والحاكم .

(106/463)

وصححاها أن اليهود قالوا حين نزلت الآية : أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً فأنزل الله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر ﴾ [الكهف : 109]

الآية ، ولا يخفى أن هذا أيضاً لا يلزم منه التناقض لأن الكثرة والقلة من الأمور الإضافية فالشيء يكون قليلاً بالنسبة إلى ما فوقه وكثيراً بالنسبة إلى ما تحته فما في التوراة قليل بالنسبة إلى ما في علم الله تعالى شأنه كثير بالنسبة إلى أمر آخر ، وفي رواية أخرجها ابن مردويه عن عكرمة أنه صلى الله عليه وسلم لما قال ذلك قال اليهود : نحن مختصون بهذا الخطاب فقال : بل نحن وأنتم فقالوا : ما أعجب شأنك ساعة تقول : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : 269] وساعة تقول : هذا فنزل ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ [لقمان : 27] الخ ، يقال : تقدم ولا يلزم منه التناقض أيضاً على نحو ما ب أن الحكمة الإنسانية أن يعلم من الخير ما تسعه القوة البشرية بل ما ينتظم به أمر المعاش والمعاد وهو قليل بالنسبة إلى معلوماته تعالى كثير بالنسبة إلى غيرها ، وإلى تعميم الخطاب بحيث يشمل الناس أجمعين ذهب ابن جريج كما أخرجه عنه ابن جرير . وابن المنذر لكن يعكر على القول بالعموم ظاهر قراءة ابن مسعود .

والأعمش ﴿ وَمَا أُوتُوا ﴾ فإنه يقتضي الاختصاص بالسائلين ، والحديث الأخير الذي هو نص فيه قال العراقي : إنه غير صحيح ، والحديث الأول الله تعالى أعلم بحاله ، وقال غير واحد : معنى كون الروح من أمره تعالى أنه من الإبداعيات الكائنة بالأمر التكويني من غير تحصل من مادة وتولد من أصل كالجسد الإنساني فالمراد من الأمر واحد الأوامر أعني كن والسؤال عن الحقيقة والجواب إجمالي ، ومآله أن الروح من عالم الأرض مبدعة من غير

مادة لا من عالم الخلق وهو من الأسلوب الحكيم كجواب موسى عليه السلام سؤال فرعون إياه

(107/463)

﴿ ما رب العالمين ﴾ [الشعراء : 23] إشارة إلى أن كنه حقيقته مما لا يحيط به دائرة إدراك البشر وإنما الذي يعلم هذا المقدار الإجمالي المندرج تحت ما استثنى بقوله تعالى : ﴿ ومَا أُوتِيتُم مّن العلم إلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي إلا علماً قليلاً تستفيدونه من طرق الحواس فإن تعقل المعارف النظرية إنما هو في الأكثر من إحساس الجزئيات ولذلك قيل : من فقد حساً فقد فقد علماً ، ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحس لكونه غير محسوس أو محسوساً منع من إحساسه مانع كالغيبة مثلاف وكذا لا يدرك شيئاً من عرضياته ليرسمه بها فضلاً عن أن ينتقل منها الفكر إلى الذاتيات ليقف على الحقيقة ، وظاهر كلام بعضهم أن الوقوف على كنه الروح غير ممكن فلا فرق عنده بين الجوابين .

وفرق الخفاجي بأن بيان كنه الروح ممكن بخلاف كنه الذات الأقدس ، وفي "الكشف" أن سبيل معرفة الروح إزالة الغشاء عن أبصار القلوب باجتلاء كحل الجواهر من كلام علام الغيوب فهو عند المكتحلين أجلى جلي وعند المشتغلين أخفى خفي ، ويشكل على هذا

ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الله بن بريدة قال : لقد قبض النبي صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح ، ولعل عبد الله هذا يزعم أنها يمتنع العلم بها وإلا فلم يقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى علم كل شيء يمكن العلم به كما يدل عليه ما أخرجه الإمام أحمد .

والترمذي وقال : حديث صحيح وسئل البخاري عنه فقال : حديث حسن صحيح عن معاذ رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : " اني قمت من الليل فصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي حتى استثقلت فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة فقال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت ، لا أدري رب قال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري رب قال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى قلت لا أدري رب فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري وتجلى لي كل شيء وعرفت " الحديث و ﴿ رَأَيتُ ﴾ يعلم في الخبر السابق في بعض الكتب مضبوطاً بالبناء للمفعول والروح مضبوطاً بالرفع والاشكال على ذلك أوهن إلا أنه خلاف الظاهر .

ويفهم من كلام بعض متأخري الصوفية أنه يمتنع الوقوف على حقيقة الروح بل ذكر هذا البعض أن حقيقة جميع الأشياء لا يوقف عليها وهو مبني على ما لا يخفى عليك ورده أو

قبوله مفوض إليك ، ثم إن لي في هذا الوجه وقفة فإن الظاهر أن إطلاق عالم الأمر على الكائن من غير تحصل من مادة وتولد من أصل وإطلاق عالم الخلق على خلافه محض اصطلاح لا يعرف للعرب ولا يعرفونه ، وفي الاستدلال عليه بقوله تعالى :

(109/463)

﴿ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر ﴾ [الأعراف : 45] ما لا يخفى على منصف ، هذا وذكر الإمام أن السؤال عن الروح يقع على وجوه كثيرة وليس في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح ﴾ ما يدل على وجه منها إلا أن الجواب المذكور لا يليق إلا بوجهين منها الأول كونه سؤالاً عن الماهية ؛ والثاني كونه سؤالاً عن القدم والحدوث ، وحاصل الجواب على الأول أنها جوهر بسيط مجرد محدث بأمر الله تعالى وتكوينه وتأثيره إفادة الحياة للجسد ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة فإن أكثر حقائق الأشياء ماهياتها مجهولة ولم يلزم من كونها مجهولة نفيها ويشير إليه ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ومبنى هذا أيضاً الفرق بين عالم الأمر وعالم الخلق وقد سمعت ما فيه ، وحاصل الجواب على الثاني أنه حادث حصل بفعل الله تعالى وتكوينه وإيجاده ، وجعل قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ احتجاجاً على الحدوث بمعنى أن الأرواح في مبدأ الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم يحصل فيها

ذلك فلا تزال في تغير من حال إلى حال وهو من أمارات الحدوث ، وأنت تعلم أن حمل السؤال على ما ذكر وجعل الجواب إخباراً بالحدوث مع عدم ملاءمته لحال السائلين لا يساعده التعرض لبيان قلة علمهم فإن ما سألوا عنه مما يفي به علمهم حينئذٍ وقد أخبر عنه وجعل ذلك احتجاجاً على الحدوث من أعجب الحوادث كما لا يخفى على ذي روح والله تعالى أعلم.

(110/463)

وههنا أبحاث لا بأس بإيرادها : البحث الأول : في شرح مذاهب الناس في حقيقة الإنسان ، وظاهر كلاء الإمام أن الاختلاف في حقيقته عين الاختلاف في حقيقة الروح ، وفي القلب من ذلك ما فيه فذهب جمهور المتكلمين إلى أنه عبارة عن هذه البنية المحسوسة والهيكل الجسم المحسوس وهو الذي يشير إليه الإنسان بقوله وأبطل ذلك الإمام بسبع عشرة حجة نقلية وعقلية لكن للبحث في بعضها مجال ، منها ما تقدم من أن أجزاء البنية متغيرة زيادة ونقصاناً وذبولاً ونمواً والعلم الضروري قاض بأن الإنسان من حيث هو أمر باق من أول العمر إلى آخره وغير الباقي غير الباقي ، ومنها أن الإنسان قد يعتريه ما يشغله عن الالتفات

إلى أجزاء بنيته كلاً وبعضاً ولا يغفل عن نفسه المعينة بدليل أنه يقول مع ذلك الشاغل فعلت وتركت مثلاً وغير المعلوم غير المعلوم .

(111/463)

ومنها أنه قد توجد البنية المخصوصة وحقيقة الإنسان غير حاصلة فإن جبريل عليه السلام كثيراً ما رؤي في صورة دحية الكلبي وإبليس عليه اللعنة رؤي في صورة شيخ نجدي وقد تنتفي البنية مع بقاء حقيقة الإنسان فإن الممسوخ مثلاً قرداً باقية حقيقته مع انتفاء البنية المخصوصة وإلا لم يتحقق مسخ بل إماتة لذلك الإنسان وخلق قرد ، ومنها أنه جاء في الخبر أن الميت إذا حمل على النعش رفرف روحه فوق النعش ويقول : يا أهلي ، ويا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي جمعت المال من حله ومن غير حله ثم تركته لغيري فالهناء له والتبعة علي فاحذروا مثل ما حل بي فصرح صلى الله عليه وسلم بأن هناك شيئاً ينادي غير المحمول كان الأهل أهلاً له وكان الجامع للمال من الحلال والحرام وليس ذلك إلا الإنسان إلى غير ذلك مما ذكره في تفسيره ، وقيل إن الإنسان هو الروح الذي في القلب ، وقيل : إنه جزء لا يتجزأ في الدماغ ، وقيل : إنه أجزاء نارية مختلطة بالأرواح القلبية والدماغية وهي المسماة بالحرارة الغريزية ، وقيل : هو الدم الحال في البدن ، وقيل وقيل إلى نحو ألف قول

والمعول عليه عند المحققين قولان ، الأول أن الإنسان عبارة عن جسم نوراني علوي حي متحرك مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس سار فيه سريان الماء في الورد والدهن في الزيتون والنار في الفحم لا يقبل التحلل والتبدل والتفرق والتمزق مفيد للجسم المحسوس الحياة وتوابعها ما دام صالحاً لقبول الفيض لعدم حدوث ما يمنع من السريان كالأخلاط الغليظة ومتى حدث ذلك حصل الموت لانقطاع السريان والروح عبارة عن ذلك الجسم واستحسن هذا الإمام فقال هو مذهب قوي وقول شريف يجب التأمل فيه فإنه شديد المطابقة لما ورد في الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت ، وقال ابن القيم في كتابه الروح : إنه الصواب ولا يصح غيره وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة وذكر له مائة دليل وخمسة أدلة فليراجع .

(112/463)

الثاني أنه ليس بجسم ولا جسماني وهو الروح وليس بداخل العالم ولا خارجه ولا متصل به ، ولا منفصل عنه ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف وهو قول أكثر الإلهيين من الفلاسفة .

وذهب إليه جماعة عظيمة من المسلمين منهم الشيخ أبو القاسم الراغب الأصفهاني .

وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي ومن المعتزلة معمر بن عباد السلمي ومن الشيعة الشيخ المفيد ومن الكرامية جماعة ومن أهل المكاشفة والرياضة أكثرهم وقد قدمنا لك الأدلة على ذلك ، ومن أراد الإحاطة بذلك فليرجع إلى كتب الشيخين أبي علي .

وشهاب الدين المقتول وإلى كتب الإمام الرازي كالمباحث المشرقية وغيره ، وللشيخ الرئيس رسالة مفردة في ذلك سماها بالحجج الغر أحكمها وأتقنها ما يبتني على تعقل النفس لذاتها وابن القيم زيف حججه في كتابه وهو كتاب مفيد جداً يهب للروح روحاً ويورث للصدر شرحاً ، واستدل الإمام على ذلك في تفسيره بالآية المذكورة فقال : إن الروح لو كان جسماً منتقلاً من حالة إلى حالة ومن صفة إلى لكان مساوياً للبدن في كونه متولداً من أجسام اتصفت بصفات مخصوصة بعد أن كانت موصوفة بصفات أخر فإذا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وجب أن يبين أنه جسم كان كذا ثم صار كذا وكذا حتى صار روحاً مثل ما ذكر في كيفية تولد البدن أنه كان نطفة ثم علقة ثم مضغة فلما لم يقل ذلك وقال : هو من أمر ربي بمعنى أنه لا يحدث ولا يدخل في الوجود إلا لأجل أن الله تعالى قال له كن فيكون دل ذلك على أنه جوهر ليس من جنس الأجسام بل هو جوهر قدسي مجرد ، ولا يخفى أن ذلك من الإقناعيات الخطابية وهي كثيرة في هذا الباب ، منها قوله تعالى :

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر : 29] وقوله سبحانه : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ [النساء : 171] فإن هذه الإضافة مما تنبه على شرف الجوهر الإنسي وكونه عرياً عن الملابس الحسية ، ومنها قوله عليه الصلاة والسلام : " أنا النذير العريان " ففيه إلى تجرد الروح عن علائق الإجرام ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن " وفي رواية "على صورته" ، وقوله عليه الصلاة والسلام : " أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني " ففي ذلك إيذان بشرف الروح وقربه من ربه قرباً بالذات والصفات مجرداً عن علائق الإجرام وعوائق الأجسام إلى غير ذلك مما لا يحصى وهو على هذا المنوال وللبحث فيه مجال أي مجال ، وكان ثابت بن قرة يقول : إن الروح متعلق بأجسام سماوية نورانية لطيفة غير قابلة للكون والفساد والتفرق والتمزق وتلك الأجسام سارية في البدن وهي ما دامت سارية كان الروح مدبراً للبدن وإذا انفصلت عنه انقطع التعلق ، وهو قول ملفق وأنا لا أستبعده .

البحث الثاني في اختلاف الناس في حدوث الروح وقدمه : أجمع المسلمون على أنه حادث حدوثاً زمانياً كسائر أجزاء العالم إلا أنهم اختلفوا في أنه هل هو حادث قبل البدن أم بعده فذهب طائفة إلى الحدوث قبل منهم محمد بن نصر المروزي .

وأبو محمد بن حزم الظاهري وحكاه إجماعاً وقد افترى ، واستدل لذلك بما في الصحيحين

من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف " قال ابن الجوزي في تبصرته : قال أبو سليمان الخطابي معنى هذا الحديث الإخبار عن كون الأرواح مخلوقة قبل الأجساد ، وزعم ابن حزم أنها في برزخ وهو منقطع العناصر فإذا استعد جسد لشيء منها هبط إليه وأنها تعود إلى ذلك البرزخ بعد الوفاة ولا دليل لهذا من كتاب أو سنة .

وبعضهم استدل على ذلك بخبر خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بألفي عام ، وتعقبه ابن القيم بأنه لا يصح إسناده ، وذهب آخرون منهم حجة الإسلام الغزالي إلى الحدوث بعد ، ومن أدلة ذلك كما قال ابن القيم الحديث الصحيح " إن خلق ابن آدم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً دماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح " ووجه الاستدلال أن الروح لو كان مخلوقاً قبل لقيل ، ثم يرسل إليه الملك بالروح فيدخله فيه ، وصرح في "روضة المحبين" و"نزهة المشتاقين" باختيار هذا القول فقال إن القول بأن الأرواح خلقت قبل الأجساد قول فاسد وخطأ صريح ، والقول الصحيح الذي دل عليه الشرع والعقل أنها مخلوقة مع الأجساد وأن الملك ينفخ الروح أي يحدثه بالنفخ في

الجسد إذا مضى على النطفة أربعة أشهر ودخلت في الخامس ، ومن قال إنها مخلوقة قبل فقد غلط ، وأقبح منه قول من قال إنها قديمة انتهى ، وفيه تأمل ، ويوافق مذهب الحدوث قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ [المؤمنون : 14] فليفهم

(115/463)

وذهب افلاطون ومن تقدمه من فلاسفة إلى حدوثها مع حدوث البدن المستعد له كما ذهب إليه بعض الإسلاميين ، وقد تقدم الكلام في استدلال كل جرحاً وتعديلاً ، ويقال هنا : إن المعلم الأول قائل كغيره من الفلاسفة بتجرد الروح المسماة بالنفس الناطقة عندهم عن المادة فكيف يسعه القول بحدوثها مع قولهم كل حادث زماني يحتاج إلى مادة ، وأجيب بأن المادة ههنا أعم من المحل والمتعلق به والبدن مادة للنفس بهذا المعنى ، وأنت تعلم أن استعداد الشيء للشيء لا يكون إلا فيما إذا كان ذلك مقترناً به لا مبايناً عنه فالأولى أن يقال : إن البدن الإنساني لما استدعى لمزاجه الخاص صورة مدبرة له متصرفة فيه أي أمراً موصوفاً بهذه الصفة من حيث هو كذلك وجب على مقتضى جود الواهب الفياض وجود أمر يكون مبدأ للتدابير الإنسية والأفاعيل البشرية ومثل هذا الأمر لا يمكن إلا أن يكون ذاتاً مدركة للكليات مجردة في ذاتها فلا محالة قد فاض عليه حقيقة النفس لا من

حيث أن البدن استدعاها بل من حيث عدم انفكاكها عما استدعاه فالبدن استدعى باستعداده الخاص أمراً مادياً وجود المبدأ الفياض أفاد جوهراً قدسياً وكما أن الشيء الواحد قد يكون على ما قرروه جوهراً وعرضاً باعتبارين كذلك يكون أمر واحد مجرداً ومادياً باعتبارين فالنفس الإنسانية مجردة ذاتاً مادية فعلاً فهي من حيث الفعل من التدبير والتحريك مسبوقة باستعداد البدن مقترنة به وأما من حيث الذات والحقيقة فمنشأ وجودها وجود المبدأ الواهب لا غير فلا يسبقها من تلك الحيثية استعداد البدن ولا يلزمها الاقتران في وجودها به ولا يلحقها شيء من مثالب الماديات إلا بالعرض.

(116/463)

البحث الثالث: اختلف الناس في الروح والنفس هل هما شيء واحد أم شيئان فحكى ابن زيد عن أكثر العلماء أنهما شيء واحد فقد صح في الأخبار إطلاق كل منهما على الآخر وما أخرجه البزار بسند صحيح عن أبي هريرة رفعه "إن المؤمن ينزل به الموت ويعاين ما يعاين يود لو خرجت نفسه والله تعالى يحب لقاءه وأن المؤمن تصعد روحه إلى السماء فتأتيه أرواح المؤمنين فيستخبرونه عن معارفه من أهل الدنيا " الحديث ظاهر في ذلك.

وقال ابن حبيب : هما شيئان فالروح هو النفس المتردد في الإنسان والنفس أمر غير ذلك لها يدان ورجلان ورأس وعينان وهي التي تلتذ وتتألم وتفرح وتحزن وإنها هي التي تتوفى في المنام وتخرج وتسرح وترى الرؤيا ويبقى الجسد دونها بالروح فقط لا يلتذ ولا يفرح حتى تعود ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفس ﴾ [الزمر : 24] الآية .

(117/463)

وحكى ابن منده عن بعضهم أن النفس طينية نارية والروح نورية روحانية ، وعن آخر أن النفس ناسوتية والروح لاهوتية ، وذكر أن أهل الأثر على المغايرة وأن قوام النفس بالروح والنفس صورة العبد والهوى والشهوة والبلاء معجون فيها ولا عدو أعدى لابن آدم من نفسه لا تريد إلا الدنيا ولا تحب إلا إياها ، والروح تدعو إلى الآخرة وتؤثرها ، وظاهر كلام بعض محققي الصوفية القول بالمغايرة ففي منتهى المدارك للمحقق الفرغاني أن النفس المضافة إلى الإنسان عبارة عن بخار ضبابي منبعث من باطن القلب الصنوبري حامل لقوة الحياة متجنس بأثر الروح الروحانية المرادة بقوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر : 29] الثابت تعينها في عالم الأرواح وأثرها واصل إلى هذا البخار الحامل للحياة فالنفس إذن أمر مجتمع من البخار ووصف الحياة وأثر الروح الروحانية وهذه النفس بحكم

تجنسها بأثر الروح الروحانية متعينة لتدبير البدن الإنساني قابلة لمعالي الأمور وسفاسفها كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس ؛ 8] والروح الروحانية أمر لا يكتنه والحق أنهما قد يتحدان إطلاقاً وقد يتغايران ، وابن القيم اعتمد ما عليه الأكثرون من الاتحاد ذاتاً ، وذكر غير واحد أنه هو الذي عليه الصوفية بيد أنهم قالوا : إن النفس هي الأصل في الإنسان فإذا صقلت بالرياضة وأنواع الذكر والفكر صارت روحاً ثم قد تترقى إلى أن تصير سراً من أسرار الله تعالى .

(118/463)

وتفصيل الكلام حينئذٍ في هذا المقام أن للنفس مراتب تترقى فيها ، الأولى : تهذيب الظاهر باستعمال النواميس الإلهية من القيام والصيام وغيرهما ، الثانية : تهذيب الباطن عن الملكات الردية والأخلاق الدنية ، الثالثة : تحلي النفس بالصور القدسية ، الرابعة : فناؤها عن ذاتها وملاحظتها جلال رب العالمين جل جلاله ، ويقال في كيفية الترقي في هذه المراتب أن الإنسان أول ما يولد فهو كباقي الحيوانات لا يعرف إلا الأكل والشرب ثم بالتدريج يظهر له باقي صفات النفس من الشهوة .

والغضب .

والحرص .

والحسد وغير ذلك من الهيآت التي هي نتائج الاحتجاب والبعد من معدن الجود والصفات الكمالية ثم إذا تيقظ من سنة الغفلة وقام من نوم الجهل وبان له أن وراء هذه اللذات البهيمية لذات أخر وفوق هذه المراتب مراتب أخر كمالية يتوب عن اشتغاله بالمنهيات الشرعية وينيب إلى الله تعالى بالتوجه إليه فيشرع في ترك الفضول الدنيوية طلباً للكمالات الأخروية ويعزم عزماً تاماً ويتوجه إلى السلوك إلى ملك الملوك من مقام نفسه فيهاجر منه ويقع في الغربة ويا طوبى للغرباء وإن قيل : إنما الغربة للأحرار ذبح ثم إذا دخل في الطريق يزهد عن كل ما يعوقه عن مقصوده ويصده عن معبوده فيتصف بالورع والتقوى والزهد الحقيقي ثم يحاسب نفسه دائماً في أقواله وأفعاله ويتهمها في كل ما تأمر به وإن كان عبادة فإنها مجبولة على حب الشهوات ومطبوعة على الدسائس الخفيات فلا ينبغي أن يأمنها ويكون على ثقة منها .

يحكى عن بعض الأكابر أن نفسه لم تزل تأمره بالجهاد وتحثه عليه فاستغرب ذلك ثم فطن أنها تريد أن تستريح من نصب القيام والصيام بالموت فلم يجبها إلى ذلك فإذا خلص منها وصفا وقته وطاب عيشه بما يجده في طريق المحبوب يتنور باطنه ويظهر له لوامع أنوار الغيب

وينفتح له باب الملكوت وتلوح منه لوائح مرة بعد أخرى فيشاهد أموراً غيبية في صور مثالية فإذا ذاق شيئاً منها يرغب في العزلة والخلوة والذكر والمواظبة على الطهارة والعبادة والمراقبة والمحاسبة ويعرض عن الملاذ الحسية كلها ويفرغ القلب عن محبتها فيتوجه باطنه إلى الحق تعالى بالكلية فيظهر له الوجد والسكر والشوق والعشق والهيمان ويجعله فانياً عن نفسه غافلاً عنها فيشاهد الحقائق السرية والأنوار الغيبية فيتحقق بالمشاهدة والمعاينة والمكاشفة ويظهر له أنوار حقيقية تارة وتختفي أخرى حتى يتمكن ويتخلص من التلوين وينزل عليه السكينة الروحية والطمأنينة الإلهية ويصير ورود هذه البوارق والأحوال له ملكة فيدخل في عوالم الجبروت ويشاهد العقول المجردة والأنوار القاهرة من الملائكة المقربين والمهيمين ويتحقق بأنوارهم فيظهر له أنوار سلطان الأحدية وسواطع العظمة والكبرياء الإلهية فتجعله هباءاً منثوراً ويندك حينئذٍ جبال إنيته فيخر لله تعالى خروراً ويتلاشى في التعين الذاتي ويضمحل وجوده في الوجود الإلهي وهذا مقام الفناء والمحو وهو غاية السفر الأول للسالكين فإن بقي في الفناء والمحو ولم يجىء إلى البقاء والصحو صار مستغرقاً في عين الجمع محجوباً بالحق عن الخلق لا يزيغ بصره عن مشاهدة جماله عز شأنه وأنوار ذاته وجلاله فاضمحلت الكثرة في شهوده واحتجب التفصيل عن وجوده وذلك هو الفوز العظيم ، وفوق ذلك مرتبة يرجع فيها إلى الصحو بعد المحو وينظر إلى التفصيل في عين الجمع ويسع

صدره الحق والخلق فيشاهد الحق في كل شيء ويرى كل شيء بالحق على وجه لا يوجب التكثر والتجسم وهو طور وراء طور العقل ، ووقع

(120/463)

في عبارة بعضهم أنه قد يصير العارف متخلقاً بأخلاق الله تعالى بالحقيقة لا بمعنى صيرورة صفاته تعالى عرضاً قائماً بالنفس فإن هذا مما لا يتصور أبداً ، والقول به خروج عن الشريعة والطريقة والحقيقة بل بمعنى علاقة أخرى أتم من علاقتها مع الصفات الكونية البدنية وغيرها لا تعلم حقيقتها ، ولعل مرادهم بالمرتبة التي تترقى إليها النفس فتكون سراً من أسرار الله تعالى هي هذه المرتبة والاطلاع عليها يحتاج إلى سلوك طريقة الأبرار ولا يتم بمجرد الأنظار والأفكار والله تعالى الموفق للسلوك والمتفضل بالغنى على الصعلوك .

البحث الرابع : اختلف الناس في الروح هل تموت أم لا ؟ فذهبت طائفة إلى أنها تموت لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت وقد دل الكتاب على أنه لا يبقى إلا الله تعالى وحده وهو يستدعي هلاك الأرواح كغيرها من المخلوقات وإذا كانت الملائكة عليهم السلام يموتون فالأرواح البشرية أولى ، وأيضاً أخبر سبحانه عن أهل النار أنهم يقولون ﴿ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ [غافر : 11] ولا تحقق إلا ماتتان إلا بإماتة البدن مرة وإماتة الروح

أخرى .

وقالت طائفة : إنها لا تموت للأحاديث الدالة على نعيمها وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله تعالى إلى الجسد ، وإن قلنا بموتها لزم انقطاع النعيم والعذاب ، والصواب أن يقال : موت الروح هو مفارقتها الجسد فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت وإن أريد أنها تعدم وتضمحل فهي لا تموت بل تبقى مفارقة ما شاء الله تعالى ثم تعود إلى الجسد وتبقى معه في نعيم أو عذاب أبد الآبدين ودهر الداهرين وهي مستثناة ممن يصعق عند النفخ في الصور على أن الصعق لا يلزم منه الموت والهلاك ليس مختصاً بالعدم بل يتحقق بخروج الشيء عن حد الانتفاع به ونحو ذلك ، وما ذكر في تفسير الإماتين غير مسلم ، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام فيه .

وإلى أنها لا تموت بموت البدن ذهبت الفلاسفة أيضاً ، واحتج الشيخ عليه بأن قال : قد ثبت أن النفس يجب حدوثها عند حدوث البدن فلا يخلو إما أن يكونا معاً في الوجود أو لأحدهما تقدم على الآخر فإن كانا معاً فلا يخلو إما أن يكونا معاً في الماهية أولا في الماهية والأول باطل وإلا لكانت النفس والبدن متضايفين لكنهما جوهران هذا خلف وإن كانت

المعية في الوجود فقط من غير أن يكون لأحدهما حاجة في ذلك الوجود إلى الآخر فلا يخلو إما أن يكون المقدم هو النفس أو البدن فإن كان المقدم في الوجود هو النفس فذلك التقدم إما أن يكون زمانياً أو ذاتياً والأول باطل لما ثبت أن النفس ليست موجودة قبل البدن ، وأما الثاني فباطل أيضاً لأن كل موجود يكون وجوده معلول شيء كان عدمه معلول عدم ذلك الشيء إذ لو انعدم ذلك المعلول مع بقاء العلة لم تكن تلك العلة كافية في إيجابها فلا تكون العلة علة بل جزء من العلة هذا خلف فإذا لو كان البدن معلولاً لامتنع عدم البدن إلا لعدم النفس ، والتالي بطلان البدن قد ينعدم لأسباب أخر مثل سوء المزاج أو سوء التركيب أو تفرق الاتصال فبطل أن تكون النفس علة للبدن ، وباطل أيضاً أن يكون البدن علة للنفس لأن العلل كما عرف أربع ومحال أن يكون البدن علة فاعلية للنفس فإنه لا يخلو إما أن يكون علة فاعلية لوجود النفس بمجرد جسميته أو لأمر زائد على جسميته والأول باطل وإلا لكان كل جسم كذلك ، والثاني باطل أما أولاً فلما ثبت أن الصور المادية إنما تفعل بواسطة الوضع وكل ما لا يفعل إلا بواسطة الوضع استحال أن يفعل أفعالاً مجردة عن الحيز والوضع ، وأما ثانياً فلأن الصور المادية أضعف من المجرد القائم بنفسه والأضعف لا يكون سبباً للأقوى ومحال أن يكون البدن علة قابلية لما ثبت أن النفس مجردة مستغنية عن المادة ، ومحال أن يكون علة صورية للنفس أو تمامية فإن الأمر أولى أن يكون بالعكس فإذاً ليس بين البدن والنفس علاقة واجبة الثبوت

(122/463)

أصلاً فلا يكون عدم أحدهما علة لعدم الآخر .

فإن قيل : ألستم جعلتم البدن علة لحدوث النفس ؟ فنقول : قد بين أن الفاعل إذا كان منزهاً عن التغير ثم صدر عنه الفعل بعد أن كان غير صادر فلا بد وأن يكون لأجل أن شرط الحدوث قد حصل في ذلك الوقت دون ما قبله ثم إن ذلك الشرط لما كان شرطاً للحدوث فقط وكان غنياً في وجوده عن ذلك الشيء استحال أن يكون عدم ذلك الشرط مؤثراً في عدم ذلك الشيء ، ثم لما اتفق أن كان ذلك الشرط مستعداً لأن يكون آلة للنفس في تحصيل الكمالات والنفس لذاتها مشتاقة إلى الكمال لا جرم حصل للنفس شوق طبيعي إلى التصرف في ذلك البدن والتدبير فيه على الوجه الأصلح ومثل ذلك لا يمكن أن يكون عدمه علة لعدم ذلك الحادث بل ذهب الفلاسفة إلى استحالة انعدام النفس وبرهنوا على ذلك بما برهنوا وعندنا لا استحالة في ذلك .

(123/463)

البحث الخامس في تمايز الأرواح بعد مفارقتها الأبدان : نص ابن القيم على أن كل روح تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها وأن تمايز الأرواح أعظم من تمايز الأبدان إلا أنه زعم أنه لا يمكن التمايز بينها على القول بأنها جوهر مجرد عن المادة وفيه نظر فإن القائلين بذلك قائلون بالتمايز أيضاً باعتبار ما يحصل لها من التعلق بالبدن أو بنحو آخر من التمايز ، وذكر الشيخ إبراهيم الكوراني في بعض رسائله أن الأرواح بعد مفارقتها أبدانها المخصوصة تتعلق بأبدان أخر مثالية حسبما يليق بها وإلى ذلك الإشارة بالطير الخضر في حديث الشهداء ففي "صحيح مسلم" عن ابن مسعود أن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر ، وأخرج سعيد بن منصور عن مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم أن ذراري المؤمنين أرواحهم في عصافير في شجر في الجنة أي أنها تكون في أبدان على تلك الصور ، ويؤيد ذلك رواية ابن ماجه عن ابن مسعود أرواح الشهداء عند الله تعالى كطير خضر ، وفي لفظ عن كعب أرواح الشهداء طير خضر ، ولفظ ابن عمر في صورة طير بيض ، وفي رواية علي بن عثمان اللاحقي عن مكحول أن ذراري المؤمنين أرواحهم عصافير في الجنة ، وعلى هذا يكون إنكار قوم من المتكلمين خبر في أجواف طير وكذا خبر في عصافير لما في ذلك من تعلق روحين في بدن واحد وقد قالوا باستحالته ناشئاً من عدم التأمل والتثبت لأنه على ما قررنا لا يكون للطائر روح غير روح الشهيد على أنه لو بقي الخبر على ظاهره لم يلزم محال لجواز أن تكون الروح في جوف الطير على نحو كون الجنين في بطن أمه فتدبر .

البحث السادس في مستقر الأرواح بعد مفارقة الأبدان : الذي دلت عليه الأخبار أن مستقر الأرواح بعد المفارقة مختلف فمستقر أرواح الأنبياء عليهم السلام في أعلى عليين وصح أن آخر كلمة تكلم بها صلى الله عليه وسلم اللهم الرفيق الأعلى وهو يؤيد ما ذكر ، ومستقر أرواح الشهداء في الجنة ترد من أنهارها وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش ، وروي في أرواح أطفال المؤمنين ما هو قريب من ذلك ، وروي ابن المبارك عن كعب قال : جنة المأوى جنة فيها طير خضر ترعى فيها أرواح الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا ، ولعل هذا كما قال ابن رجب في عوام الشهداء وما تقدم في خواصهم أو لعل هذا في شهداء الآخرة كالغريق والمبطون إلى غير ذلك ، وأما مستقر أرواح سائر المؤمنين فقيل في الجنة أيضاً وهو نص الإمام الشافعي ، وقد أخرج الإمام مالك عن كعب بن مالك مرفوعاً "إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله تعالى في جسده حين يبعثه ، ورواه الإمام أحمد في مسنده وخرجه النسائي من طريق مالك وخرجه ابن ماجه ورواه خلق كثير ، وروي ابن منده من حديث أم بشر مرفوعاً ما هو نص في أن مستقر أرواح المؤمنين نحو مستقر أرواح الشهداء ،

وقال وهب بن منبه : إن لله تعالى في السماء السابعة داراً يقال لها البيضاء يجتمع فيها أرواح المؤمنين ومستقر أرواح الكفار في سجين ، وفي حديث أم بشر أن أرواح الكفار في حواصل طير سود تأكل من النار وتشرب من النار وتأوي إلى حجر في النار يقولون ربنا لا تلحق بنا اخواننا ولا تؤتنا ما وعدتنا ، وقيل : مستقر أرواح الموتى أفنية قبورهم ، وحكى هذا ابن حزم عن عامة أهل الحديث ، واستدل له بعضهم بحديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم :

(125/463)

" إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى " وبانه صلى الله عليه وسلم حين زار الموتى قال : " السلام عليكم دار قوم مؤمنين " ورجح ابن عبد البر أن مستقر أوراح ما عدا الشهداء بأفنية القبور ، وفيه أنه إن أريد أن الأرواح لا تفارق الأفنية فهو خطأ يرده نصوص الكتاب والسنة وإن أريد أنها تكون هناك وقتاً من الأوقات كما روي عن مجاهد الأرواح على القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت أولها اشراق على قبورها وهي في مقرها فهو حق لكن لا يقال مستقرها أفنية القبور ، وعول بعض المحققين

على أن الأرواح حيث كانت لها اتصال لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى وبذلك ترد السلام وتعرف المسلم ويعرض عليها مقعدها من الجنة أو النار ، وقال بعضهم : لا مانع من انتقالها من مستقرها وعودها إليه في أسرع وقت حيث يشاء الله تعالى ذلك ، نعم جاء في حديث البراء بن عازب ما يدل على أن أرواح المؤمنين تستقر في الأرض ولا تعود إلى السماء بعد عرضها حيث قال فيه في صفة قبض روح المؤمن فإذا انتهى إلى العرش كتب كتابه في عليين ويقول الرب تعالى شأنه : ردوا عبدي إلى مضجعه فإني وعدتهم اني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، وفي لفظ ردوا روح عبدي إلى الأرض فإني وعدتهم أن أردهم فيها ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ مِنْهَا خلقناكم ﴾ [طه : 55] الآية لكن قال الحافظ ابن رجب : إن حديث البراء وحده لا يعارض الأحاديث الكثيرة المصرحة بأن الأرواح في الجنة لا سيما الشهداء ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خلقناكم ﴾ [طه : 55] الخ باعتبار الأبدان ، وقالت طائفة : مستقر الأرواح مطلقاً في السماء الدنيا عن يمين آدم عليه السلام وعن شماله ويدل عليه ما في الصحيحين عن أبي ذر من حديث المعراج ففيه لما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه

أسودة وعلى يساره أسودة فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحباً بالنبي الصالح والإبن الصالح قلت لجبريل من هذا قال آدم وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه وأهل اليمين هم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار .

ويجاب بأن المراد أنه عليه السلام يرى هذين الصنفين من جهة يمينه وجهة شماله وهو يجامع كون أرواح كل فريق في مستقرها من الجنة والنار فقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم الجنة والنار في صلاة الكسوف وهو في الأرض والجنة ليست فيها ورآهما وهو في السماء والنار ليست فيها ، وفي حديث لأبي هريرة في الإسراء ما يؤيد ما قلنا .

والنسفي في بحر الكلام جعل الأرواح على أربعة أقسام أرواح الأنبياء عليهم السلام تخرج من جسدها ويصير مثل صورتها مثل المسك والكافور وتكون في الجنة تأكل وتشرب وتتنعم وتأوي بالليل إلى قناديل معلقة تحت العرش ، وأرواح الشهداء تخرج من جسدها وتكون في أجواف طير خضر في الجنة تأكل وتتنعم وتأوي إلى قناديل كأرواح الأنبياء عليهم السلام ، وأرواح المطيعين من المؤمنين بربض الجنة لا تأكل ولا تتمتع ولكن تنظر إلى الجنة ، وأرواح العصاة منهم تكون بين السماء والأرض في الهواء ، وأما أرواح الكفار ففي سجين في جوف طير سود تحت الأرض السابعة وهي متصلة بأجسادها فتعذب الأرواح وتتألم من ذلك الأجساد اه .

وما ذكره في أرواح المطيعين مخالف لما صح من أنها تتمتع في الجنة .

وفي الإفصاح أن المنعم من الأرواح على جهات مختلفة منها ما هو طائر في شجر الجنة ومنها ما هو في حواصل طير خضر ومنها ما يأوى إلى قناديل تحت العرش ومنها ما هو في حواصل طير بيض ومنها ما هو في حواصل طير كالزرازير ، ومنها ما هو في أشخاص صور من صور الجنة ومنها ما هو في صورة تخلق من ثواب أعمالهم ومنها ما تسرح وتتردد إلى جثتها وتزورها ومنها ما تتلقى أرواح المقبوضين وممن سوى ذلك ما هو في كفالة ميكائيل عليه السلام ومنها ما هو في كفالة آدم عليه السلام ومنها ما هو في كفالة إبراهيم عليه السلام اه ، قال القرطبي : وهذا قول حسن يجمع الأخبار حتى لا تدافع واترضاه الجلال السيوطي .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن مالك قال : بلغني أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت وهو إن صح ليس على إطلاقه .

وقيل في مستقر الأرواح غير ذلك حتى زعم بعضهم أن مستقرها العدم المحض وهو مبني على أنها من الأعراض وهي الحياة وهو قول باطل عاطل فاسد كاسد يرده الكتاب والسنة والإجماع والعقل السليم ، ويعجبني في هذا الفصل ما ذكره الإمام العارف ابن برحان في شرح أسماء الله تعالى الحسنى حيث قال : والنفس مبراة من باطن ما خلق منه الجسم وهي روح الجسم وأوجد تبارك وتعالى الروح من باطن ما برأ منه النفس وهو للنفس بمنزلة النفس للجسم والنفس حجابة والروح يوصف بالحياة بإحياء الله تعالى شأنه له وموته خمود إلا ما شاء الله تعالى يوم خمود الأرواح والجسم يوصف بالموت حتي يحيي بالروح وموته مفارقة الروح إياه وإذا فارق هذا العبد الروحاني الجسم صعد به فإن كان مؤمناً فتحت له أبواب السماء حتى يصعد إلى ربه عز وجل فيؤمر بالسجود فيسجد ثم يجعل حقيقته النفسانية تعمر السفل من قبره إلى حيث شاء الله تعالى من الجو وحقيقته الروحانية تعمر العلو من السماء الدنيا إلى السابعة في سرور ونعيم ولذلك لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى عليه السلام قائماً في قبره يصلي وإبراهيم عليه السلام تحت الشجرة قبل صعوده إلى السماء الدنيا ولقيهما في السموات العلى فتلك أرواحهما وهذه نفوسهما وأجسادهما في قبورهما ، وإن كان شقيا لم يفتح له فرمى من علو إلى الأرض اه ، وفيه القول بالمغايرة بين الروح والنفس ، وبهذا التحقيق تندفع معارضات كثيرة واعتراضات وفيرة ، ويعلم أن حديث ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا

فسلم عليه الا عرفه ورد عليه السلام ليس نصاً في أن الروح على القبر إذ يفهم منه أن الذي في القبر حقيقته النفسانية المتصلة بالروح اتصالاً لا يعلم كنهه إلا الله تعالى .

(129/463)

وللروح مع ذلك أحوالاً وأطواراً لا يعلمها إلا الله تعالى فقد تكون مستغرقة بمشاهدة جمال الله تعالى وجلاله سبحانه ونحو ذلك وقد تصحو عن ذلك الاستغراق وهو المراد برد الروح في خبر " >ما من أحد يسلم على الارد الله تعالى روحي فأرد عليه السلام " والذي ينبغي أن يعول عليه مع ما ذكر أن الأرواح وإن اختلف مستقرها بمعنى محلها الذي أعطيته بفضل الله تعالى جزاء عملها لكن لها جولانا في ملك الله تعالى حيث شاء جل جلاله ولا يكون إلا بعد الاذن وهي متفاوتة في ذلك حسب تفاوتها في القرب والزلفى من الله تعالى حتى أن بعض الأرواح الظاهرة لتظهر فيراها من شاء الله تعالى من الاحياء يقظة وان أرواح الموتى تتلاقى وتتزاور وتتذاكر وقد تتلاقى أرواح الأموات والأحياء مناما ولا ينكر ذلك إلا من يجعل الرؤيا خيالات لا أصل لها وذلك لا يلتفت إليه لكن لا ينبغي أن يبني على ذلك حكم شرعي لاحتمال عدم الصحبة وإن قامت قرينة عليها ، وما صح من أن ثابت بن قيس بن شماس خرج مع خالد بن الوليد إلى حرب مسيلمة فاستشهد رضي الله تعالى عنه وكان

عليه درع نفيسة فمر به رجل من المسلمين فأخذها فبينا رجل من الجند نائم إذ أتاه ثابت في منامه فقال له : أوصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه إني لما قتلت أمس مر بي رجل من المسلمين فأخذ درعي ومنزله غي أقصى الناس وعند خبائه فرس يستن في طوله وقد كفى على الدرع برمة وفوق البرمة رحل فات خالداً فمره أن يبعث إلى درعي فيأخذها وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : إن على من الدين كذا وكذا وفلان من رقيقي عتيق فاتى الرجل خالداً فأخبره فبعث إلى الدرع وأتى بها وحدث أبا بكر رضي الله تعالى عنه برؤياه فأجاز وصيته ، وقد ذكر ذلك ابن عبد البر وغيره مجاب عنه بأن ذلك كان بإجازة الوارث وهي بنته لغلبة ظن صدق الرؤيا بما قام من القرينة ولو لم تجز لم يسخ لأبي بكر رضي الله تعالى عنه ذلك بمجرد

(130/463)

الرؤيا ، وقيل : إن أبا بكر لم يرد الرد ففعل ذلك من حصة بيت المال ، ومثل هذه القصة قصة مصعب بن جثامة وعوف بن مالك وقد ذكرها ابن القيم في كتاب الروح وهي أغرب مما ذكر بكثير ، وربما يؤذن لأرواح بعض الناس في زيارة أهليهم كما ورد في بعض الآثار وبعض الأرواح تحبس في قبرها أو حيث شاء الله تعالى عن مقامها كروح من يموت وعليه دين

استدانه في محرم لا مطلقاً كما هو المشهور ، وتحقيقه في سرح الشمائل للعلامة بن حجر ثم أعلم أن اتصال الروح بالبدن لا يختص بجزء دون جزء بل هي متصلة مشرقة على سائر أجزائه وان تفرقت وكان جزء بالمشرق وجزء بالمغرب ، ولعل هذا الإشراق على الأجزاء الأصلية لأنها التي يقوم بها الإنسان من قبره يوم القيامة على ما اختاره جمع ، واعلم أيضاً أن الروح على القول بتجردها لا مستقر لها بل لا يقال إنها داخل العالم أو خارجه كام سمعت وإنما المستقر حينئذ للبدن الذي تتعلق به ، وقد نص بعض الصوفية على أنه لا مانه من أن تتعلق نفس ببدنين فأكثر بل هو واقع عندهم ، وذكر بعضهم أن أحد البدنين هو البدن الأصلي والآخر مثالي يظهر للعيان على وجه خرق العادة ، وقال آخر : إن الآخر من باب تطور الروح وظهورها بصورة على نحو ظهور جبريل عليه السلام بصورة دحية الكلبي وظهور القرآن لحافظه بصورة الرجل الشاحب يوم القيامة .

والفلاسفة قالوا لا يجوز أن تتعلق نفس واحدة بأبدان كثيرة لأنه يلزم أن يكون معلوم أحدها معلوم الآخر ومجهول أحدها مجهول الآخر ومعلوم أن الأمر ليس كذلك ، ولا يخفى أن هذا الدليل يدل على أن كل إنسانين يعلم أحدهما ما لا يعلم الآخر فإن نفسهما متغايرتان فلم لا

يجوز وجود إنسانين يتعلق ببدنهما نفس واحدة ويكون كل ما علمه أحدهما علمه الآخر لا محالة وما يجهله أحدهما يكون مجهولاً للآخر لا بد الجواز من دليل ، وعلى ما ذكره هؤلاء الصوفية يجوز أن تتعلق الروح ببدن في الجنة وببدن آخر حيث شاء الله تعالى بل يجوز أن تظهر في صور شتى في أماكن متعددة على حد ما قالوه في جبريل عليه السلام انه في حال ظهوره في صورة دحية أو أعرابي غيره بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم لم يفارق سدرة المنتهى ، وأنت تعلم ما يقولون في تجلي الله تعالى في الصور وسمعت خبر "إن الله تعالى خلق آدم على صورته" ومن هنا قالوا : من عرف نفسه فقد عرف ربه فافهم الإشارة ولعمري هي عبارة ، ثم إن أرواح سائر الحيوانات من البهائم ونحوها قيل : تكون بعد المفارقة في الهواء ولا اتصال لها بالأبدان ، وقيل : تعدم ولا يعجز الله تعالى شيء ، ومن الناس من قال : إن كان للحيوانات حشر يوم القيامة كما هو المشهور الذي تقتضيه ظواهر الآيات والأخبار فالأولى أن يقال ببقاء أرواحها في الهواء أو حيث شاء الله تعالى وإن لم يكن لها حشر كما ذهب إليه الغزالي وأول الظواهر فالأولى أن يقال بانعدامها ، هذا وبقيت أبحاث كثيرة تركناها لضيق القفص واتساع دائرة الغصص ، ولعل فيما ذكرناه هنا مع ما ذكرناه فيما قبل كفاية لأهل البداية وهداية لمن ساعدته العناية والله عز وجل ولي الكرم والجود ، ومنه سبحانه بدء كل شيء وإليه جل وعلا يعود . .

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾

من القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين والذي ثبتناك عليه حين كادوا يفتنونك عنه إلى غير ذلك من أوصافه التي يشعر بها السياق ، وإنما عبر عنه بالموصول تفخيماً لشأنه ووصفاً له بما في حيز الصلة ابتداء إعلاماً بحاله من أول الأمر وبأنه ليس من قبيل كلام المخلوق ، واللام الأولى موطئة للقسم ﴿ ولنذهبن ﴾ جوابه النائب مناب جزاء الشرط فهو مغن عن تقديره وليس جزاء لدخول اللام عليه وهو ظاهر وبذلك حسن حذف مفعول المشيئة ، والمراد بالذهاب به محوه عن المصاحف والصدور وهو أبلغ من الأفعال ، ويراد على هذا من القرآن على ما قيل صورته من أن تكون في نقوش الكتابة أو في الصور التي في القوة الحافظة ﴿ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ ﴾ أي القرآن ﴿ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ أي متعهداً وملتزما استرداده بعد الذهاب به كما يلتزم الوكيل ذلك فيما يتوكل عليه حال كونه متوقعاً أن يكون محفوظاً في السطور والصدور كما كان قبل فالوكيل مجاز عما ذكر .

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾

استثناء منقطع على ما اختاره ابن الأنباري .

وابن عطية .

وغيرهما وهو مفسر بلكن في المشهور ، والاستدراك على ما صرح به الطيبي .

وغيره .

(133/463)

واقتضاه ظاهر كلام جمع عن قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ ﴾ وقال في الكشف : إنه ليس استدراكاً عن ذلك فإن المستثنى منه ﴿ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : 86] وهذا من المنقطع الممتنع إيقاعه موقع الاسم الأول الواجب فيه النصب في لغتي الحجاز وتميم كما في قوله تعالى : ﴿ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله ﴾ [هود : 43] إلا من رحم في رأي ، وقولهم : لا تكونن من فلان إلا سلاماً بسلام فقد صرح الرضى وغيره بأن الفريقين يوجبون النصب ولا يجوزون الإبدال في المنقطع فيما لا يكون قبله اسم يصح حذفه ، وكون ما نحن فيه من ذلك ظاهر لمن له ذوق ، والمعنى ثم بعد الإذهاب لا تجد من يتوكل علينا بالاسترداد ولكن رحمة من ربك تركته غير منصوب فلم تحتج إلى من يتوكل للاسترداد مأيوس عنه بالفقدان المدلول عليه بـ ﴿ لاَ تَجِدُ ﴾ [الإسراء : 86] ، والتغاير المعنوي بين الكلامين من دلالة الأول على الاذهاب ضمناً والثاني على خلافه حاصل وهو كاف فافهم ، ويفهم صنيع البعض اختيار أنه استثناء متصل من ﴿ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : 86] أي لا تجد وكيلا

باسترداده إلا الرحمة فانك تجدها مستردة ، وأنت تعلم أن شمول الوكيل للرحمة يحتاج إلى نوع تكلف .

وقال أبو البقاء : إن ﴿ رَحْمَةً ﴾ نصب على أنه مفعول له والتقدير حفظناه عليك للرحمة ، ويجوز أن يكون نصباً على أنه مفعول مطلق أي ولكن رحمناك رحمة اه وهو كما ترى ، والآية على تقدير الانقطاع امتنان بإبقاء القرآن بعد الامتنان بتنزيله ، وذكروا أنها على التقدير الآخر دالة على عدم الإبقاء فالمنة حينئذ إنما هي في تنزيله ، ولا يخفى ما فيه من الخفاء وما يذكر في بيانه لا يروي الغليل .

والآية ظاهرة في أن مشيئة الذهاب به غير متحقق وأن فقدان المسترد إلا الرحمة إنما هو على فرض تحقق المشيئة لكن جاء في الأخبار أن القرآن يذهب به قبل يوم القيامة ، فقد أخرج البيهقي .

والحاكم وصححه .

وابن ماجه بسند قوي عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدري ما صيام ولا صدقة ولا نسك ويسري على

كتاب الله تعالى في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية ويبقى الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس .

وابن عمر قالا : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يا أيها الناس ما هذه الكتب التي بلغني أنكم تكتبونها مع كتاب الله تعالى يوشك أن يغضب الله تعالى لكتابه فيسري عليه ليلاً لا يترك في قلب ولا ورق منه حرف إلا ذهب به فقيل : يا رسول الله فكيف بالمؤمنين والمؤمنات ؟ قال : من أراد الله تعالى خيراً أبقى في قلبه لا إله إلا الله "

وأخرج ابن أبي حاتم .

والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : يسري على كتاب الله تعالى فيرفع إلى السماء فلا يبقى في الأرض آية من القرآن ولا من التوراة والإنجيل والزبور فينزع من قلوب الرجال فيصبحون في الضلالة لا يدرون ما هم فيه .

وأخرج الديلمي عن ابن عمر مرفوعاً لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث جاء له دوي حول العرش كدوي النحل فيقول الله عز وجل : مالك ؟ فيقول منك خرجت وإليك

أعود أتلي ولا يعمل بي ؛ وأخرجي محمد بن نصر نحو موقوفاً على عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأخرج غير واحد عن ابن مسعود أنه قال : سيرفع القرآن من المصاحف والصدور ، ثم قرأ ﴿ وَلَئِن شِئْنَا ﴾ [الإسراء : 86] الآية ، وفي البهجة أنه يرفع أولاً من المصاحف ثم يرفع لأعجل زمن من الصدور والذاهب به هو جبريل عليه السلام كما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن جده فيا لها من مصيبة ما أعظمها وبلية ما أوخمها فإن دلت الآية على الذهاب به فلا منافاة بينها وبين هذه الأخبار وإذا دلت على إبقائه فالمنافاة ظاهرة إلا أن يقال : إن الإبقاء لا يستلزم الاستمرار ويكفي فيه إبقاؤه إلى قرب قيام الساعة فتدبر ، ومما يرشد إلى أن سوق الآية للامتنان قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ ﴾ لم يزل ولا يزال ﴿ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ ومنه إنزال القرآن واصطفاؤه على جميع الخلق وختم الأنبياء عليهم السلام به وإعطاؤه المقام المحمود إلى غير ذلك وقال أبو سهل : إلى أنها سيقت لتهديد غيره صلى الله عليه وسلم بإذهاب ما أتوا ليصدهم عن سؤال ما لم يؤتوا كعلم الروح وعلم الساعة .

وقال صاحب التحرير : يحتمل أن يقال : أنه صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الروح وذي القرنين وأهل الكهف وأبطأ عليه الوحي شق عليه ذلك وبلغ منه الغاية فأنزل الله تعالى هذه الآية تسكيناً له صلى الله عليه وسلم .

والتقدير أيعز عليك تأخر الوحي فإنا إن شئنا ذهبنا بما أوحينا إليك جميعه فسكن ما كان

يجده صلى الله عليه وسلم وطاب قلبه انتهى ، وكلا القولين كما ترى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(136/463)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) ﴾

لما ذكر سبحانه الإلهيات والمعاد والجزاء أردفها بذكر أشرف الطاعات ، وهي الصلاة ، فقال : ﴿ أَقِمِ الصلاة لِدُلُوكِ الشمس ﴾ .

وقد أجمع المفسرون على أن هذه الآية المراد بها : الصلوات المفروضة .

وقد اختلف العلماء في الدلوك المذكور في هذه الآية على قولين : أحدهما : أنه زوال الشمس عن كبد السماء ، قاله عمر وابنه ، وأبو هريرة ، وأبو برزة ، وابن عباس ، والحسن ، والشعبي ، وعطاء ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وأبو جعفر الباقر ، واختاره ابن جرير .

والقول الثاني : أنه غروب الشمس ، قاله علي ، وابن مسعود ، وأبيّ بن كعب ، وروي عن

ابن عباس .

قال الفراء : دلوك الشمس : من لدن زوالها إلى غروبها .

قال الأزهري : معنى الدلوك في كلام العرب الزوال ، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار : دالكة ، وقيل لها إذا أفلت : دالكة ، لأنها في الحالتين زائلة .

قال : والقول عندي أنه زوالها نصف النهار لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس ، والمعنى : أقم الصلاة من وقت دلوك الشمس ﴿ إلى غسق الليل ﴾ فيدخل فيها الظهر والعصر وصلاتا غسق الليل ، وهما العشاءان ، ثم قال : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ هذه خمس صلوات .

وقال أبو عبيد : دلوكها غروبها ، ودلكت براح : يعني الشمس أي : غابت ، وأنشد قطرب على هذا قول الشاعر :

هذا مقام قدمي رباح . . . ذبّب حتى دلكت براح

اسم من أسماء الشمس على وزن حذام وقطام ، ومن ذلك قول ذي الرمة :

مصابيح ليست باللواتي تقودها . . . نجوم ، ولا بالآفلات الدوالك

أي : الغوارب ، وغسق الليل : اجتماع الظلمة .

قال الفراء والزجاج : يقال غسق الليل وأغسق : إذا أقبل بظلامه ، قال أبو عبيد : الغسق : سواد الليل .

قال قيس بن الرقيات :

إن هذا الليل قد غسقا . . . واشتكيت الهمّ والأرقا

(137/463)

وقيل : غسق الليل : مغيب الشفق ، ومنه قول زهير :

طلت تجود يداها وهي لاهية . . . حتى إذا جنح الإظلام والغسق

وأصل الكلمة من السيلان يقال : غسقت : إذا سالت .

وحكى الفراء غسق الليل وأغسق ، وظلم وأظلم ، ودجى وأدجى ، وغبش وأغبش ، وقد استدل بهذه الغاية ، أعني قوله : ﴿ إلى غسق الليل ﴾ من قال : إن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب ، روي ذلك عن الأوزاعي ، وأبي حنيفة وجوّزه مالك والشافعي في حال الضرورة ، وقد وردت الأحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعيين أوقات الصلوات ، فيجب حمل مجمل هذه الآية على ما بينته السنة فلا نطيل بذكر ذلك .

قوله : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ انتصاب ﴿ قرآن ﴾ لكونه معطوفاً على ﴿ الصلاة ﴾ أي : وأقم قرآن الفجر ، قاله الفراء .

وقال الزجاج والبصريون : انتصابه على الإغراء : أي فعليك قرآن الفجر .

قال المفسرون : المراد بقرآن الفجر صلاة الصبح .

قال الزجاج : وفي هذه فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة حتى سميت الصلاة قرآناً ، وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أنه " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب " ، وفي بعض الأحاديث الخارجة من مخرج حسن " وقرآن معها " ، وورد ما يدل على وجوب الفاتحة في كل ركعة ، وقد حررته في مؤلفاتي تحريراً مجوّداً .

ثم علّل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ إن قرآن الفجر مشهوداً ﴾ أي : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار كما ورد ذلك في الحديث الصحيح ، وبذلك قال جمهور المفسرين ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ : " من " للتبعيض ، وانتصابه على الظرفية بمضمر ، أي : قم بعض الليل فتهجد به ، والضمير المجرور راجع إلى القرآن ، وما قيل من أنه منتصب على الإغراء ، والتقدير : عليك بعض الليل ، فبعيد جداً ، والتهجد مأخوذ من الهجود .

(138/463)

قال أبو عبيدة وابن الأعرابي : هو من الأضداد ، لأنه يقال : هجد الرجل : إذا نام ، وهجد : إذا سهر ، فمن استعماله في السهر قول الشاعر :

ألا زارت وأهل منى هجود . . . فليت خيالها بمنى يعود

يعني : منتبهين ، ومن استعماله في النوم قول الآخر :

ألا طرقتنا والرفاق هجود . . . فباتت بعلات النوال تجود

يعني : نياماً .

وقال الأزهري : الهجود في الأصل هو النوم بالليل ، ولكن جاء التفعل فيه لأجل التجنب ومنه تأثم وتحرّج ، أي : تجنب الإثم والحرج ، فالمتهجد : من تجنب الهجود ، فقام بالليل .

وروي عن الأزهري أيضاً أنه قال : المتهجد : القائم إلى الصلاة من النوم ، هكذا حكى عنه الواحدي ، فقيد التهجد بالقيام من النوم ، وهكذا قال مجاهد ، وعلقمة ، والأسود فقالوا : التهجد بعد النوم .

قال الليث : تهجد إذا استيقظ للصلاة ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ معنى النافلة في اللغة : الزيادة على الأصل ، فالمعنى أنها للنبي صلى الله عليه وسلم نافلة زائدة على الفرائض ، والأمر بالتهجد وإن كان ظاهره الوجوب لكن التصريح بكونه نافلة قرينة صارفة للأمر ، وقيل : المراد بالنافلة هنا أنها فريضة زائدة على الفرائض الخمس في حقه صلى الله عليه وسلم ، ويدفع ذلك التصريح بلفظ النافلة ، وقيل : كانت صلاة الليل فريضة في حقه صلى الله عليه وسلم ، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعاً ، وعلى هذا يحمل ما ورد في الحديث أنها عليه فريضة ، ولأمته تطوع .

قال الواحدي : إن صلاة الليل كانت زيادة للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصة لرفع الدرجات ، لا للكفارات ، لأنه غفر له من ذنبه ما تقدّم وما تأخر ، وليس لنا بنافلة لكثرة ذنوبنا ، إنما نعمل لكفارتها ، قال : وهو قول جميع المفسرين .

(139/463)

والحاصل : أن الخطاب في هذه الآية وإن كان خاصاً بالنبيّ في قوله ﴿ أَقِمِ الصلاة ﴾ ، فالأمر له أمر لأمته ، فهو شرع عام ، ومن ذلك الترغيب في صلاة الليل ، فإنه يعمّ جميع الأمة ، والتصريح بكونه نافلة يدل على عدم الوجوب ، فالتهجد من الليل مندوب إليه ومشروع لكل مكلف .

ثم وعده سبحانه على إقامة الفرائض والنوافل فقال : ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ قد ذكرنا في مواضع أن ﴿ عسى ﴾ من الكريم إطماع واجب الوقوع ، وانتصاب ﴿ مقاماً ﴾ على الظرفية بإضمار فعل ، أو بتضمين البعث معنى الإقامة ، ويجوز أن يكون انتصابه على الحال أي : يبعثك ذا مقام محمود ؛ ومعنى كون المقام محموداً : أنه يحمده كل من علم به .

وقد اختلف في تعيين هذا المقام على أقوال : الأول أنه المقام الذي يقومه النبي صلى الله

عليه وسلم للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربهم سبحانه مما هو فيه ، وهذا القول هو الذي دلت عليه الأدلة الصحيحة في تفسير الآية ، وحكاه ابن جرير عن أكثر أهل التأويل ، قال الواحدي : وإجماع المفسرين على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة .

القول الثاني : أن المقام المحمود إعطاء النبيّ لواء الحمد يوم القيامة .

ويمكن أن يقال : إن هذا لا ينافي القول الأوّل ، إذ لا منافاة بين كونه قائماً مقام الشفاعة وبيده لواء الحمد .

القول الثالث : أن المقام المحمود : هو أن الله سبحانه يجلس محمداً صلى الله عليه وسلم معه على كرسيه ، حكاه ابن جرير عن فرقة منهم مجاهد ، وقد ورد في ذلك حديث .

وحكى النقاش عن أبي داود السجستاني أنه قال : من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم ، ما زال أهل العلم يتحدّثون بهذا الحديث .

قال ابن عبد البرّ : مجاهد وإن كان أحد الأئمة بالتأويل ، فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم : أحدهما هذا ، والثاني في تأويل ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22 23] .

قال : معناه تنتظر الثواب ، وليس من النظر .

انتهى .

وعلى كل حال فهذا القول غير منافٍ للقول الأوّل لإمكان أن يقعده الله سبحانه هذا المقعد ويشفع تلك الشفاعة .

القول الرابع : أنه مطلق في كل مقام يجلب الحمد من أنواع الكرامات ، ذكره صاحب الكشاف والمقتدون به في التفسير ، ويجاب عنه بأن الأحاديث الصحيحة الواردة في تعيين هذا المقام المحمود متواترة ، فالمصير إليها متعين ، وليس في الآية عموم في اللفظ حتى يقال : الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومعنى قوله : " وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد " أنه عام في كل ما هو كذلك ، ولكنه يعبر عن العام بلفظ المطلق ، كما ذكره في ذبح البقرة ، ولهذا قال هنا .

وقيل : المراد : الشفاعة ، وهي نوع واحد مما يتناوله ، يعني : لفظ المقام ، والفرق بين العموم البدليّ والعموم الشموليّ معروف ، فلا نطيل بذكره .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ .

قرأ الجمهور ﴿ مدخل صدق ومخرج صدق ﴾ بضم الميمين .

وقرأ الحسن ، وأبو العالية ، ونصر بن عاصم بفتحهما ، وهما مصدران بمعنى الإدخال والإخراج ، والإضافة إلى الصدق لأجل المبالغة نحو حاتم الجود أي : إدخالاً يستأهل أن

يسمى إدخالاً ، ولا يرى فيه ما يكره .

قال الواحدي : وإضافتهما إلى الصدق مدح لهما ، وكل شيء أضفته إلى الصدق فهو مدح .

(141/463)

وقد اختلف المفسرون في معنى الآية ، فقيل : نزلت حين أمر بالهجرة ، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة واختاره ابن جرير ، وقيل : المعنى : أمتني إماتة صدق ، وابعثني يوم القيامة مبعث صدق ، وقيل : المعنى : أدخلني فيما أمرتني به ، وأخرجني مما نهيتني عنه ، وقيل : إدخاله موضع الأمن وإخراجه من بين المشركين ، وهو كالقول الأوّل ، وقيل : المراد إدخال عزّ وإخراج نصر ، وقيل : المعنى أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوّة مدخل صدق ، وأخرجني منه إذا أمتني مخرج صدق ، وقيل : أدخلني القبر عند الموت مدخل صدق ، وأخرجني منه عند البعث مخرج صدق ، وقيل : أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق ، وأخرجني بالصدق .

وقيل : الآية عامة في كل ما تتناوله من الأمور فهي دعاء ، ومعناها : ربّ أصلح لي وردي في كل الأمور وصدري عنها .

﴿ واجعل لى مِن لَّدُنْكَ سلطانا نَّصِيرًا ﴾ أي : حجة ظاهرة قاهرة تنصرني بها على جميع من خالفني ، وقيل : اجعل لي من لدنك ملكاً وعزاً قويّاً وكأنه صلى الله عليه وسلم علم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلاّ بسلطان ، فسأل سلطاناً نصيراً .

وبه قال الحسن وقتادة واختاره ابن جرير .

قال ابن كثير : وهو الأرجح لأنه لا بدّ مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ، ولهذا يقول تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط وَأَنْزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ومنافع لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾ [الحديد : 25] وفي الحديث : " إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن " ، أي : ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمنع كثيراً من الناس بالقرآن ، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع .

انتهى .

(142/463)

﴿ وَقُلْ جَاءَ الحق وَزَهَقَ الباطل ﴾ المراد بالحق : الإسلام ، وقيل : القرآن ، وقيل : الجهاد ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك وعلى ما هو حق كائناً ما كان ، والمراد

بالباطل : الشرك ، وقيل : الشيطان ولا يبعد أن يحمل على كل ما يقابل الحق من غير فرق بين باطل وباطل .

ومعنى زهق : بطل واضمحل ، ومنه زهوق النفس وهو بطلانها ﴿ إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقًا ﴾ أي : إن هذا شأنه فهو يبطل ولا يثبت ، والحق ثابت دائماً .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرءان مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ ننزل ﴾ بالنون . وقرأ أبو عمرو بالتخفيف .

وقرأ مجاهد بالياء التحتية والتخفيف ، ورواها المروزي عن حفص ، و " من " لابتداء الغاية ، ويصح أن تكون لبيان الجنس .

وقيل : للتبعيض ، وأنكره بعض المفسرين لاستلزامه أن بعضه لا شفاء فيه ، ورده ابن عطية بأن المبعض هو إنزاله .

واختلف أهل العلم في معنى كونه شفاء على القولين : الأوّل : أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه .

القول الثاني : أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقي والتعوّذ ونحو ذلك ، ولا مانع من حمل الشفاء على المعنيين من باب عموم المجاز ، أو من باب حمل المشترك على معنييه .

ثم ذكر سبحانه أنه رحمة للمؤمنين لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدين والدنيا ، ولما في تلاوته وتدبره من الأجر العظيم الذي يكون سبباً لرحمة الله سبحانه

ومغفرته ورضوانه ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ هُدًى وَشِفَاء والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِى ءاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : 44] .

(143/463)

ثم لما ذكر سبحانه ما في القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين ، ذكر ما فيه لمن عداهم من المضرّة عليهم فقال : ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إَلاَّ خَسَارًا ﴾ أي : ولا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الظالمين الذي وضعوا التكذيب موضع التصديق ، والشك والارتياب موضع اليقين والاطمئنان ﴿ إَلاَّ خَسَارًا ﴾ أي : هلاكاً ، لأن سماع القرآن يغيظهم ويحنقهم ويدعوهم إلى زيادة ارتكاب القبائح تمرّداً وعناداً ، فعند ذلك يهلكون ؛ وقيل : الخسار : النقص كقوله : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة : 125] .

ثم نبّه سبحانه على فتح بعض ما جبل عليه الإنسان من الطبائع المذمومة فقال : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان ﴾ أي : على هذا الجنس بالنعم التي توجب الشكر كالصحة والغنى ﴿ أَعْرَضَ ﴾ عن الشكر لله والذكر له ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ النأي : البعد ، والباء للتعدية أو للمصاحبة ، وهو تأكيد للإعراض ، لأن الإعراض عن الشيء هو أن يوليه عرض وجهه أي : ناحيته ، والنأي بالجانب : أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره ، ولا يبعد أن يراد

بالإعراض هنا : الإعراض عن الدعاء والابتهال الذي كان يفعله عند نزول البلوى والمحنة به ، ويراد بالنأي بجانبه : التكبر والبعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم .

وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان وأبو جعفر (ناء) مثل باع بتأخير الهمزة على القلب ، وقرأ حمزة (نائى) بإمالة الفتحتين ووافقه الكسائي ، وأمال شعبة والسوسي الهمزة فقط .

وقرأ الباقون بالفتح فيهما ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر ﴾ من مرض أو فقر ﴿ كَانَ يَئُوساً ﴾ شديد اليأس من رحمة الله ، والمعنى : أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوي وظفر بالمقصود نسي المعبود ، وإن فاته شيء من ذلك استولى عليه الأسف ، وغلب عليه القنوط ، وكلتا الخصلتين قبيحة مذمومة ولا ينافي ما في هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ ﴾ [فصلت : 51] .

(144/463)

ونظائره ، فإن ذلك شأن بعض آخر منهم غير البعض المذكور في هذه الآية ، ولا يبعد أن يقال : لا منافاة بين الآيتين ، فقد يكون مع شدة يأسه وكثرة قنوطه كثير الدعاء بلسانه .

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ ﴾ الشاكلة قال الفراء : الطريقة ، وقيل : الناحية ، وقيل :

الطبيعة ، وقيل : الدين ، وقيل : النية ، وقيل : الجبلة ، وهي مأخوذة من الشكل ، يقال : لست على شكلي ولا على شاكلتي ، والشكل : هو المثل والنظير .

والمعنى : أن كل إنسان يعمل على ما يشاكل أخلاقه التي ألفها ، وهذا ذمّ للكافر ومدح للمؤمن ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهدى سَبِيلاً ﴾ لأنه الخالق لكم ، العالم بما جبلتم عليه من الطبائع وما تباينتم فيه من الطرائق ، فهو الذي يميز بين المؤمن الذي لا يعرض عند النعمة ولا ييأس عند المحنة ، وبين الكافر الذي شأنه البطر للنعم والقنوط عند النقم .

ثم لما انجرّ الكلام إلى ذكر الإنسان وما جبل عليه ، ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح فقال : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح ﴾ قد اختلف الناس في الروح المسئول عنه ، فقيل : هو الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته ، وبهذا قال أكثر المفسرين .

قال الفراء : الروح الذي يعيش به الإنسان لم يخبر الله سبحانه به أحداً من خلقه ، ولم يعط علمه أحداً من عباده فقال : ﴿ قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ أي : إنكم لا تعلمونه ، وقيل : الروح المسئول عنه جبريل ، وقيل : عيسى ، وقيل القرآن ، وقيل : ملك من الملائكة عظيم

الخلق ، وقيل : خلق كخلق بني آدم ، وقيل : غير ذلك مما لا طائل تحته ولا فائدة في إيراده ، والظاهر القول الأول ، وسيأتي ذكر سبب نزول هذه الآية ، وبيان السائلين لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح ، ثم الظاهر أن السؤال عن حقيقة الروح ، لأن معرفة حقيقة الشيء أهم وأقدم من معرفة حال من أحواله ، ثم أمره سبحانه أن يجيب على السائلين له عن الروح فقال : ﴿ قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبّى ﴾ "من" بيانية ، والأمر : الشأن ، والإضافة للاختصاص ، أي : هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأشياء التي لم يعلم بها عباده ، وقيل : معنى ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبّى ﴾ من وحيه وكلامه لا من كلام البشر .

وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شأن الروح المتكلفين لبيان ما هيئته وإيضاح حقيقته أبلغ زجر ويردعهم أعظم ردع ، وقد أطالوا المقال في هذا البحث بما لا يتم له المقام ، وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا .

وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح بلغت إلى ثمانية عشر مائة قول ، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع ، بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه ولم يطلع عليه أنبياءه ولا أذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث عن حقيقته فضلاً عن أممهم المقتدين بهم ، فيا لله العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول إلى هذا الحدّ الذي لم تبلغه ولا بعضه في غير هذه المسألة مما أذن الله بالكلام فيه ، ولم يستأثر بعلمه .

ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي : أن علمكم الذي علمكم الله ، ليس إلاّ المقدار القليل بالنسبة إلى علم الخالق سبحانه ، وإن أوتي حظاً من العلم وافراً ، بل علم الأنبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة إلى علم الله سبحانه إلاّ كما يأخذ الطائر في منقاره من البحر ، كما في حديث موسى والخضر عليهم السلام .

وقد أخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود قال : ﴿ دلوك الشمس ﴾ : غروبها ، تقول العرب إذا غربت الشمس : دلكت الشمس .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن علي قال : دلوكها : غروبها .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس ، قال : ﴿ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ : لزوال الشمس .

وأخرج البزار ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والديلمي عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دلوك الشمس زوالها " وضعف السيوطي إسناده .

وأخرجه مالك في الموطأ ، وعبد الرزاق ، والفريابي ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عمر من قوله .

وأخرج عبد الرزاق عنه قال : " دلوك الشمس : زياغها بعد نصف النهار " وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير عن ابن عباس قال : دلوكها : زوالها .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر عنه في قوله : ﴿ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ قال : إذا فاء الفيء .

وأخرج ابن جرير عن أبي مسعود وعقبة بن عمرو قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر " وأخرج ابن جرير عن أبي برزة الأسلمي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر إذا زالت الشمس ، ثم تلا ﴿ أَقِمِ الصلاةِ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ .

وأخرج ابن مردويه من حديث أنس نحوه .

(147/463)

ومما يستشهد به على أن الدلوك الزوال وسط النهار ما أخرجه ابن جرير عن جابر قال : دعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن شاء من أصحابه يطعمون عندي ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " أخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس " ، وفي إسناده رجل مجهول ولكنه أخرجه عنه من طريق أخرى

عن سهل بن بكار ، عن أبي عوانة ، عن الأسود بن قيس ، عن نبيح العنبري ، عن جابر فذكر نحوه مرفوعاً .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود في قوله : ﴿ إلى غسق الليل ﴾ قال : إلى العشاء الآخرة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : ﴿ غَسَقِ اليل ﴾ اجتماع الليل وظلمته .

وأخرج ابن جرير عنه قال : ﴿ غَسَقِ اليل ﴾ : بدّو الليل .

وأخرج عبد الرزاق عن أبي هريرة قال : دلوك الشمس : إذا زالت الشمس عن بطن السماء وغسق الليل : غروب الشمس .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ قال : صلاة الصبح .

وأخرج أحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ قال : " تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيها " ، وهو في الصحيحين عنه مرفوعاً بلفظ " تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر " ، ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني عن ابن مسعود موقوفاً نحوه .

(148/463)

وأخرج الحكيم الترمذي ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه عن أبي الدرداء قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ قال : " تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار " وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ يعني : خاصة للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، أمر بقيام الليل وكتب عليه .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، والبيهقي في سننه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاث هنّ عليّ فرائض وهنّ لكم سنّة : الوتر ، والسواك ، وقيام الليل " وأخرج أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي أمامة في قوله : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ قال : كانت للنبي صلى الله عليه وسلم نافلة ولكم فضيلة ، وفي لفظ : إنما كانت النافلة خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أحمد ، والترمذي وحسنه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي

عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ وسئل عنه ، قال : " هو المقام المحمود الذي أشفع فيه لأمتي " .

وأخرج أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تلّ ، ويكسوني ربى حلة خضراء ، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول ، فذلك المقام المحمود " وأخرج البخاري وغيره عن ابن عمر قال : إن كل أمة يوم القيامة تتبع نبيها ، يقولون : يا فلان ، اشفع ، يا فلان ، اشفع ، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً .

وأخرج عنه نحوه مرفوعاً ، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدّاً ثابتة في الصحيحين وغيرهما فلا نطيل بذكرها ، ومن رام الاستيفاء نظر في أحاديث الشفاعة في الأمهات وغيرها .

(149/463)

وأخرج الطبراني في قوله : ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ قال : يجلسه فيما بينه وبين جبريل ويشفع لأمته ، فذلك المقام المحمود .

وأخرج الديلمي عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ ، قال : يجلسني معه على السرير " وينبغي الكشف عن إسناد هذين الحديثين .

وأخرج أحمد ، والترمذي ، وصححه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي ، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أمر بالهجرة ، فأنزل الله ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ واجعل لّى مِن لَّدُنْكَ سلطانا نَّصِيرًا ﴾ .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في الدلائل عن قتادة في قوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى ﴾ الآية ، قال : أخرجه الله من مكة مخرج صدق ، وأدخله المدينة مدخل صدق .

قال : وعلم نبيّ الله أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلاّ بسلطان فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله وحدوده وفرائضه ولإقامة كتاب الله ، فإن السلطان عزة من الله جعلها بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض ، وأكل شديدهم ضعيفهم .

وأخرج الخطيب عن عمر بن الخطاب قال : والله لما يزع الله بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : دخل النبيّ صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : ﴿ جاء الحق

وَزَهَقَ الباطل إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقًا ﴾ و ﴿ جَاءَ الحق وَمَا يُبْدِئ الباطل وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ : 49] .

وفي الباب أحاديث .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ قال : تباعد .

(150/463)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ كَانَ يَئُوساً ﴾ قال : قنوطاً ، وفي قوله : ﴿ كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ ﴾ قال : على ناحيته .

وأخرج هناد ، وابن المنذر عن الحسن قال : على شاكلته : على نيته .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : كنت أمشي مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في خرب المدينة وهو متكىء على عسيب ، فمرّ بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض : اسألوه عن الروح ، فقال بعضهم : لا تسألوه ، فقالوا : يا محمد ، ما الروح؟ فما زال متكئاً على العسيب ، فظننت أنه يوحى إليه ، فقال : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبّى وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

وأخرج أحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن حبان ، وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل ، قالوا : سلوه عن الروح ، فنزلت ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبّى وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ قالوا : أوتينا علماً كثيراً ، أوتينا التوراة ، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً ، فأنزل الله ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لكلمات رَبّى لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كلمات رَبّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ [الكهف : 109] .

وفي الباب أحاديث وآثار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(151/463)

وقال القاسمى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً ﴾

أي : وننزل عليك من القرآن ما يستشفى به من الجهل والضلالة . ورحمة ببيان الحقائق وإقامة البراهين للمؤمنين به ، دون الكافرين ؛ لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله وشرائعه . فيدخلهم الجنة وينجيهم من العذاب . فهو لهم رحمة ونعمة . ولا يزيد الظالمين

، بكفرهم وشركهم ، إلا خساراً . أي : إهلاكاً ؛ لأنهم كلما جاءهم أمر من الله أو نهي ، كفروا به ، فزادهم خساراً إلى ما كانوا فيه قبلُ ، ورجساً إلى رجسهم .

قال الشهاب : (الشفاء) : استعارة تصريحية أو تخييلية . بتشبيه الكفر بالمرض . و (من) بيانية ، قدمت على المبين وهو (ما) اعتناء .

تنبيه :

(152/463)

ذهب بعضهم إلى أن القرآن مما يستشفى به من الأمراض الحسية لهذه الآية . بحمل قوله : ﴿ شِفَاءٌ ﴾ على معنيين من باب عموم المجاز . أو حمل المشترك على معنييه ، وممن قرر ذلك الرازي . وعبارته : اعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية . وشفاء أيضاً من الأمراض الجسمانية . أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر . وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان : الاعتقادات الباطلة . والأخلاق المذمومة . أما الاعتقادات الباطلة ، فأشدها فساد الاعتقادات في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر . والقرآن مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب ، وإبطال المذاهب الباطلة فيها . لا جرم كان شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني . وأما الأخلاق المذمومة ، فالقرآن

مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد ، والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة ، والأعمال المحمودة . فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض . فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية .

وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية ، فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض . ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأنه لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التي لا يفهم منها شيء آثاراً عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المفاسد ؛ فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم ، المشتمل على ذكر جلال الله وكبريائه ، وتعظيم الملائكة المقربين ، وتحقير المردة والشياطين سبباً لحصول النفع في الدين والدنيا كان أولى . ويتأكد ما ذكرنا بحديث : < من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله تعالى > . وأما كونه رحمة للمؤمنين ، فاعلم أنا بينا أن الأرواح البشرية مرضية بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة . والقرآن منه ما يفيد الخلاص من شبهات الضالين وتمويهات المبطلين ، وهو الشفاء . ومنه ما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية والأخلاق الفاضلة ، التي بها يصل الإنسان إلى جوار رب العالمين ، والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين ، وهو الرحمة . ولما كانت إزالة المرض مقدمة

على السعي في تكميل موجبات الصحة ، لا جرم بدأ الله تعالى ، في هذه الآية ، بذكر الشفاء ثم أتبعه بذكر الرحمة ، انتهى .

وقال الإمام ابن القيم في " زاد المعاد " في بحث الأدوية والأغذية المفردة ، التي جاءت على لسانه صلى الله عليه وسلم في حرف القاف (قرآن) : قال الله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . والصحيح أن (من) ها هنا لبيان الجنس ، لا للتبعيض . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ [يونس : 57] . فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية . وأدواء الدنيا والآخرة . وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به . وإذا أحسن العليل التداوي به ، ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام ، واعتقاد جازم ، واستيفاء شروطه ؛ لم يقاومه الداء أبداً . وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء ، الذي لو أنزل على الجبال لصدعها ، أو على الأرض لقطعها ؟ ! فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل للدلالة على دوائه وسببه والحمية منه ، لمن رزقه الله فهماً في كتابه . فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله . ومن لم يكفه فلا كفاه الله .

ثم قال في (حرف الكاف) : ورخص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه ، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعل الله فيه . ثم ذكر ما كان يكتبه شيخ الإسلام ابن تيمية للرعاف . فانظره .

(155/463)

وذكر قبلُ في فاتحة الكتاب ، من سر كونها شفاء ، حقائق بديعة . وكذا في بحث الرقي .

وذكر أيضاً أن من الأدوية التي تشفي من الأمراض ، ما لم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء ، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم ، من الأدوية القلبية والروحانية وقوة القلب واعتماده على الله والتوكل عليه والالتجاء إليه ، والانطراح والانكسار بين يديه ، والتذلل له والصدقة والصلاة والدعاء والتوبة والاستغفار ، والإحسان إلى الخلق وإغاثة الملهوف والتفريج عن المكروب . فإن هذه الأدوية قد جربتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها . فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لم يصل إليه علم أعلم الأطباء ، ولا تجربته ولا قياسه . وقد جربنا نحن وغيرنا من هذا أموراً كثيرة . ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية . وهذا جار على قانون الحكمة الإلهية ، ليس خارجاً عنها . ولكن الأسباب متنوعة ، فإن القلب متى اتصل برب العالمين ، وخالق الداء والدواء ، ومدبر الطبيعة ومصرفها على ما

يشاء ، كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التي يعانيها القلب البعيد منه ، المعرض عنه .

وقد علم أن الأرواح متى قويت وقويت النفس والطبيعة ؛ تعَاونَا على دفع الداء وقهره .

فكيف ينكر لمن قويت طبيعته ونفسه ، وفرحت بقربها من بارئها وأنسها به وحبها له وتنعمها بذكره ، وانصراف قواها كلها إليه ، وجمعها عليه ، واستعانتها به ، وتوكلها عليه ؛ أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية ، ويوجب لها هذا القوة دفع الألم بالكلية ؟ ! ولا ينكر هذا إلا أجهل الناس وأعظمهم حجاباً ، وأكثفهم نفساً ، وأبعدهم عن الله وعن حقيقة الإنسانية .

وقد أسهب ، عليه الرحمة ، أيضاً في كتاب " إغاثة اللهفان " في بيان تضمن القرآن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه ، بما تنبغي مراجعته ؛ ليزداد المريد علماً .

وقوله تعالى :

(156/463)

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً ﴾ إشارة إلى السبب في وقوع هؤلاء الضالين في أودية الضلال . وهو حب الدنيا وإيثارها على الأخرى ، وكفران نعمه تعالى ، بالإعراض عن شكرها ، والجزع واليأس من الفرج عند مس شر

قضى عليه . وكل ذلك مما ينافي عقد الإيمان . فإن المؤمن ينظر بعين البصيرة ، ويشاهد قدرة الله تعالى في كلتا الحالتين . ويتيقن في الحالة الأولى ؛ أن الشكر رباط النعم . وفي الثانية أن الصبر دفاع النقم . فيشكر ويصبر . ويعلم أن المنعم يقدر ، فلم يعرض عند النعمة بطراً وأشراً . ولم يغفل عن المنعم ولم يجزع عند النقمة جزعاً وضجراً .

فالآية وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة . كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود : 9 - 11] .

قال الزمخشري : ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ تأكيد للإعراض ؛ لأن الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه . والنأي بالجانب : أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره . أو أراد الاستكبار ، لأن ذلك من عادة المستكبرين .

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ أي : على مذهبه وطريقته وخليقته وملكته الغالبة عليه ، الحاصلة له من استعداد حقيقته ، التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة ، من قولهم : (طريق ذو شواكل) وهي الطرق التي تتشعب منه لتشاكلها . أي : تشابهها في الشكل . فسميت عادة المرء بها ، لأنها تشاكل حاله . والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً ﴾ أي : أسدُّ مذهباً وطريقة ، من العاملين : عامل الخير بمقتضى سجية القلب الفاضلة ، وعامل الشر بمقتضى طبيعة النفس ، فيجازيهما بحسب أعمالهما .

وقوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ قال القاشاني : أي : الذي يحيا به بدن الإنسان ويدبره : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ أي : ليس من عالم الخلق حتى يمكن تعريفه للظاهريين البدنيين ، الذين يتجاوز إدراكهم الحس والمحسوس ، بالتشبيه ببعض ما شعروا به ، والتوصيف . بل من عالم الأمر ، أي : الإبداع الذي هو عالم الذوات المجردة عن الهيولى ، والجواهر المقدسة عن الشكل واللون والجهة والأين ، فلا يمكنكم إدراكه أيها المحجوبون بالكون ؛ لقصور

إدراككم وعلمكم عنه : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ هو علم المحسوسات . وذلك شيء نزر حقير بالنسبة إلى علم الله والراسخين في العلم . – هذا ما قاله القاشاني –

وحاصل الجواب عليه : أن الروح موجود محدث بأمره تعالى بلا مادة ، وتولد من أصل كأعضاء الجسد ، حتى يمكن تعريفه ببعض مبادئه ، بل هو من عالم الأمر لا من عالم الخلق . فيكون الاقتصار في الجواب على قوله : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ كما اقتصر موسى في جواب قول فرعون : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : 23] ، على قوله : ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الشعراء : 24] ، إعلاماً بأن إدراكه بالكنه على ما هو عليه ، لا يعلمه إلا الله تعالى . وأنه شيء بمفارقته يموت الإنسان ، وبملازمته له يبقى . كما أومأ إليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي : علماً قليلاً تستعيدونه من طرق الحواس . وهو هذا القدر الإجمالي .

قال الشهاب : والسؤال – على هذا – عن حقيقتها . والجواب إجمالي بأنها من المبدعات من غير مادة . ولذا قيل : إنه من الأسلوب الحكيم . كما في قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ﴾ [البقرة : 189] ، إشارة إلى أن حقيقتها لا تعلم ، وإنما يعلم منها هذا المقدار .

فالمراد بـ (الأمر) على هذا التفسير (قول كن) ولذا قالوا لمثله : عالم الأمر . انتهى .

قال أبو السعود عليه الرحمة : وليس هذا من قبيل قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] ، فإن ذلك عبارة عن سرعة التكوين . سواء كان الكائن من عالم الأمر أو من عالم الخلق . بل إنه من الإبداعيات الكائنة بمحض الأمر التكويني من غير تحصل من مادة . وحكى ، عليه الرحمة ، قولاً آخر وهو : أن الأمر بمعنى الشأن . قال : والإضافة للاختصاص العلمي لا الإيجادي ، لاشتراك الكل فيه . وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى . كما في الإضافة الثانية من تشريف المضاف إليه . أي : هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر .

وعليه ، فـ (من) بيانية أو تبعيضية . ويكون نهياً لهم عن السؤال عنها ، وتركاً للبيان .

وهذا رأي كثيرين ، أمسكوا عن الخوض فيها ، وقالوا : إنها شيء استأثر الله بعلمه ولم يطلع أحداً من خلقه ، فلا يجوز البحث عنها بأكثر من أنها شيء موجود ، بل غلا بعضهم وقال : إن الإفاضة في بحث الروح بدعة في الدين . إذا لم يبينه الله لرسوله بأكثر مما في الآية . فالاشتغال بالتفتيش عنه غلو فيما لم يرد به قرآن ولم يقم عليه برهان ، وما كان كذلك فهو عناد .

وأجاب الخائضون في بحثها ، بأن الآية لا يدل معناها على ذكر دلالة قطعية ، ولا دلالة فيها على المنع من الخوض فيها ، ولا على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يعلمها . وغاية الأمر أنه أمر بترك الجواب عنها تفصيلاً . إما لأن الإمساك عن ذلك كان عند اليهود السائلين عنها ، من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ، أو لأن سؤالهم كان تعنتاً . فإنها تطلق على معان : منها الراحة وبرد النسيم . وعلى جبريل والقرآن وعيسى عليه السلام والحياة والقلب والرحمة وغير ذلك . فأضمروا على أنه إذا أجاب بأحد هذه الأمور ، قالوا : لم نرده ، وإنما أردنا كذا .

ثم الأقاويل فيها من الحكماء والعلماء الأقدمين مختلفة . ولا يتم الجواب في محل الخلاف . فأتى بالجواب مجملاً على وجه يصدق على كل من ذلك مرموزاً ، ليعلمه العلماء بالله . واقتضت المصلحة العامة منع الكلام فيه لغيرهم ؛ لأن الأفهام لا تحتمله . خصوصاً على طريقة الحكماء ؛ إذ من غلب على طبعه الجمود لا يقبله ولا يصدق به في صفة الباري . فكيف يصدق به في حق الروح الإنساني . بل قال بعض المدققين : إن في الآية والجواب

ببيان حقيقتها ، وأنها من إبداعاته الكائنة بتكوينه ، من غير سبق مادة – وهو ما ذكرناه أولاً – وفي الجواب بذلك ما فيه الكفاية لذوي البصائر والدراية . ومقنع لمن كان له في النزاع إذا فُصل مطمع . وقد استحسن بعضهم هذا الجواب وقال مذيلاً له : فيكون قوله : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ على أن السؤال عن حقيقتها مطابقاً ، إلا أنه إجمالي . أي : من الممكنات التي يمكن الوقوف على حقائقها ، وإن كان بإعمال روية وإيقاظ فكر كباقي عالم الأمر . وعلى أن السؤال عن قدمها وحدوثها كذلك ، إلا أنه تفصيلي . وأيّاً ما كان ، فلم يترك بيانها ، ولو كانت مما لا سبيل إلى معرفته لقيل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ كما قيل في الساعة ، أو نحو ذلك . بل لو لم يكن السبيل لمعرفته ، ولو بوجه ما ، متيسراً لكثير من الناس ؛ لم يكن لأمره بالتفكر فيها ، والتبصر في أمرها ، للاستدلال بها عليه ، والتوصل بواسطة معرفتها إليه ، الذي هو الغاية القصوى والثمرة العظمى ؛ من فائدة . بل كان عبثاً . فدل قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ﴾ [الروم : 8] ، وقوله : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 21] ، ونحو ذلك ، أنها أمر تدركه العقول ، وبه يكون إليه تعالى الوصول .

ثم إن الذين خاضوا في البحث عنها ، أثرت عنهم أقوال شتى . وقد أفردت لذلك تآليف قديمة وحديثة ، والذي يهمنا معرفته ما عول عليه الأئمة المدققون ، الذين نقبوا عن أقوال المتقدمين ، ونقدوها بمحك الكتاب والسنة ، فنبذوا ما يخالفهما وتمسكوا بما يوافقهما .

فمنهم الإمام ابن حزم . قال رحمه الله في كتابه "الملل والنحل" بعد سرد مذاهب شتى : وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقرة بالمعاد ، إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان . عاقلة مميزة مصرفة للجسد . قال : وبهذا نقول . والنفس والروح اسمان لمسمى واحد ، ومعناهما واحد . ثم قال : وأما من ذهب إلى أن النفس وليست جسماً ، فقول يبطل بالقرآن والسنة وإجماع الأمة . فأما القرآن ، فإن الله عز وجل قال : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾ [يونس : 30] ، وقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ [غافر : 17] ، وقال تعالى : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : 21] ، فصح أن النفس هي الفعالة الكاسبة المجيبة المخطئة . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف : 53] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر : 46] . وقال تعالى : ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : 154] ، وقال تعالى : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [آل عِمْرَان : 169 - 170] فصح أن الأنفس ، منها ما يعرض على النار قبل يوم القيامة ، فيعذب . ومنها ما يرزق وينعم فرحاً ، ويكون مسروراً قبل القيامة . ولا شك أن أجساد آل فرعون وأجساد المقتولين في سبيل الله ، قد تقطعت أوصالها وأكلها السباع والطير وحيوان الماء . فصح أن الأنفس منقولة من مكان إلى مكان . ولا شك في أن العرض لا يلقى العذاب ولا يحس ، فليست عرضاً . وصح أنها تنتقل في الأماكن قائمة بنفسها ، وهذه صفة الجسم لا صفة الجوهر عند القائل

(164/463)

به ، فصح ، ضرورةً ، أنها جسم .

وأما من السنن فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : > إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر في الجنة < . وقوله صلى الله عليه وسلم : إنه > رأى نسم بني آدم عند سماء الدنيا عن يمين آدم ويساره < . فصح أن الأنفس مرئية في أماكنها ، وقوله عليه السلام : > إن نفس المؤمن إذا قبضت ، عرج بها إلى السماء وفعل بها كذا ، ونفس الكافر إذا قبضت

فعل بها كذا > فصح أنها معذبة ومنعمة ومنقولة في الأماكن ، وهذه صفة الأجسام ضرورة .

وأما من الإجماع ، فلا اختلاف بين أحد من أهل الإسلام في أن أنفس العباد منقولة بعد خروجها من الأجساد ، إلى نعيم أو إلى صنوف ضيق وعذاب . وهذه صفة الأجسام .

ثم قال : ومعنى قول الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ إنما هو لأن الجسد مخلوق من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم عظماً ثم لحماً ثم أمشاجاً . وليس الروح كذلك . وإنما قال الله تعالى آمراً له بالكون (كن فكان) فصح أن النفس والروح والنسمة أسماء مترادفة لمعنى واحد ، وقد يقع الروح أيضاً على غير هذا . فجبريل عليه السلام الروح الأمين . والقرآن روح من عند الله .

(165/463)

وقال ابن حزم أيضاً ، قبل ذلك ، في بحث عذاب القبر : والذي نقول به في مستقر الأرواح ، هو ما قاله تعالى ونبيه صلى الله عليه وسلم لا نتعداه ، فهو البرهان الواضح وهو أن الله تعالى قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف :

172] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [الأعراف : 11] ، فصح أن الله عز وجل خلق الأرواح جملة ، وهي الأنفس . وكذلك أخبر عليه السلام : < إن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف > وهي العاقلة ، الحساسة – وأخذ عز وجل عهدها وشهادتها – وهي مخلوقة مصورة عاقلة ، قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم ، على جميعهم السلام ، وقبل أن يدخلها في الأجساد . والأجساد يومئذ تراب وماء . ثم أقرها تعالى حيث شاء . لأن الله تعالى ذكر ذلك بلفظة (ثم) التي توجب التعقيب والمهلة . ثم أقرها عز وجل حيث شاء . وهو البرزخ الذي ترجع إليه عند الموت . لا تزال يبعث منها الجملة ، بعد الجملة . فينفخها في الأجساد المتولدة من المني ، المنحدر من أصلاب الرجال وأرحام النساء ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ [القيامة : 37 – 38] . وقال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً ﴾ [المؤمنون : 12 – 14] ، الآية ، وكذلك أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : < أنه

يجمع خلق ابن آدم في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح > فيبلوهم الله عز وجل في الدنيا كما شاء . ثم يتوفاها فترجع إلى البرزخ الذي رآها فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به عند سماء الدنيا : أرواح أهل السعادة عن يمين آدم عليه الصلاة السلام ، وأرواح أهل الشقاوة عن يساره عليه السلام . وذلك عند منقطع العناصر ، وتعجل أرواح الأنبياء عليهم السلام وأرواح الشهداء إلى الجنة .

وقد ذكر محمد بن نصر المروزي عن إسحاق بن راهويه ، أنه ذكر هذا القول الذي قلنا بعينه ، وقال : على هذا أجمع أهل العلم .

ثم قال ابن حزم : ولا تزال الأرواح هنالك ، حتى يتم عدد الأرواح كلها بنفخها في أجسادها ، ثم برجوعها إلى البرزخ المذكور . فتقوم الساعة ، ويعيد عز وجل الأرواح ثانية إلى الأجساد . وهي الحياة الثانية . ويحاسب الخلق : فريق في الجنة وفريق في السعير ، مخلدين أبداً . انتهى .

فصل

ومنهم شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية ، عليه الرحمة ، قال في : " تفسير سورة الإخلاص " بعد أن ذكر نزاع المتكلمين المتفلسفة في الملائكة . هل هي متحيزة أم لا ؟ وكذلك نزاعهم

في روح الإنسان التي تفارقه بالموت ، على قول الجمهور الذين يقولون : هي عين قائمة بنفسها ليست عرضاً من أعراض البدن كالحياة وغيرها . ولا جزءاً من أجزاء البدن كالهواء الخارج منه . فإن كثيراً من المتكلمين زعموا أنها عرض قائم بالبدن ، أو جزء من أجزاء البدن . لكن هذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والخلف . ولقول جماهير العقلاء من جميع الأمم . ومخالف للأدلة ، وهذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام .

قال القاضي أبو بكر : أكثر المتكلمين على أن الروح عرض من الأعراض . وبهذا نقول ، إذا لم يعن بالروح النفس ، فإنه قال : الروح الكائن في الجسد ضربان : أحدهما الحياة القائمة به والآخر النفس . والنفس ريح ينبث به ، والمراد بالنفس ، ما يخرج بنفس التنفس من أجزاء الهواء المتحلل من المسام . وهذا قول الإسفرائيني وغيره . وقال ابن فورك : هو ما يجري في تجاويف الأعضاء . وأبو المعالي خالف هؤلاء وأحسن في مخالفتهم فقال : إن الروح أجسام لطيفة مشابكة للأجسام المحسوسة . أجرى الله العادة بحياة الأجساد ما استمرت مشابكتها لها . فإذا فارقتها تعقب الموت الحياة في استمرار العادة . ومذهب

الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر سلف الأمة وأئمة السنة ، وأن الروح عين قائمة بنفسها . تفارق البدن ، وتنعم وتعذب . ليست هي البدن ، ولا جزءاً من أجزاءه كالنفس المذكور .

ثم الذين قالوا : إنها عين ، تنازعوا : هل هي جسم متحيز ؟ على قولين : كتنازعهم في الملائكة . فالمتكلمون منهم يقولون : جسم . والمتفلسفة يقولون : جوهر عقلي ليس بجسم . وأصل تسميتهم المجردات والمفارقات ، هو مأخوذ من نفس الإنسان . فإنها لما كانت تفارق بدنه بالموت ، وتتجرد عنه سموها : مفارقة مجردة . ثم أثبتوا ما أثبتوه من العقول والنفوس وسموها : مفارقات ومجردات ؛ لمفارقتها المادة التي هي عندهم الجسم . وهذه المفارقات عندهم ما لا يكون جسماً ولا قائماً بجسم . لكن النفس متعلقة بالجسم تعلق التدبير . والعقل لا تعلق له بالأجسام أصلاً . ولا ريب أن جماهير العقلاء على إثبات الفرق بين البدن والروح التي تفارق .

والجمهور يسمون ذلك روحاً وهذا جسماً ، لكن لفظ الجسم في اللغة ليس هو الجسم في اصطلاح المتكلمين . بل الجسم هو الجسد . وهو الجسم الغليظ ، أو غلظه . والروح

ليست مثل البدن في الغلظ والكثافة ، ولذلك لا تسمى جسماً . فمن جعل الملائكة والأرواح جسماً بالمعنى اللغوي ، فما أصاب في ذلك . وأما أهل الاصطلاح من المتكلمة والمتفلسفة ، فيجعلون مسمى الجسم أعم من ذلك . وهو ما أمكنت الإشارة الحسية إليه . وما قيل إنه هنا وهناك وما قبل الأبعاد الثلاثة ونحو ذلك .

ثم قال عليه الرحمة : وما يقوله هؤلاء المتفلسفة في النفس الناطقة ، من أنها لا يشار إليها ولا توصف بحركة ولا سكون ولا صعود ولا نزول ، وليس داخل العالم ولا خارجه ؛ هو كلام باطل عند جماهير العقلاء . ولا سيما من يقول منهم ، كابن سينا وأمثاله : إنها لا تعرف شيئاً من الأمور الجزئية ، وإنما تعرف الأمور الكلية ، فإن هذا مكابرة ظاهرة ، فإنها تعرف بدنها وتعرف كل ما تراه بالبدن وتشمه وتسمعه وتذوقه وتقصده وتأمر به وتحبه وتكرهه ، إلى غير ذلك مما تتصرف فيه بعلمها وعملها . فكيف يقال : إنها لا تعرف الأمور المعينة وإنما تعرف أموراً كلية ! ؟ وكذلك قولهم : إن تعلقها بالبدن ليس إلا مجرد تعلق التدبير والتصريف ، كتدبير الملك لمملكته ؛ من أفسد الكلام . فإن الملك يدبر أمر مملكته ، فيأمر وينهى . ولكن لا يصرفهم هو بمشيئته وقدرته ، إن لم يتحركوا هم بإرادتهم وقدرتهم .

والملك لا يلتذ بلذة أحدهم ولا يتألم بتألمه ، وليس كذلك الروح والبدن . بل قد جعل الله بينهما من الاتحاد والائتلاف ما لا يعرف له نظير يقاس به . ولكن دخول الروح فيه ليس هو مماثلاً لدخول شيء من الأجسام المشهودة . فليس دخولها فيه كدخول الماء ونحوه من المائعات في الأوعية . فإن هذه إنما تلاقي السطح الداخل في الأوعية لا بطونها ولا ظهورها ، وإنما يلاقي الأوعية منها أطرافها دون أوساطها . وليس كذلك الروح والبدن . بل الروح متعلقة بجميع أجزاء البدن باطنه وظاهره . وكذلك دخولها فيها ليس كدخول الطعام والشراب في بدن الآكل . فإن ذلك له مجار معروفة ، وهو مستحيل إلى غير ذلك من صفاته . ولا جريانها في البدن كجريان الدم . فإن الدم يكون في بعض البدن دون بعض . ففي الجملة كل ما يذكر من النظائر لا يكون كل شيء منه متعلقاً بالآخر ، بخلاف الروح والبدن . لكن هي مع هذا في البدن قد ولجت فيه . وتخرج منه وقت الموت ، وتسلُّ منه شيئاً فشيئاً . فتخرج من البدن شيئاً فشيئاً . لا تفارقه كما يفارق الملك مدينته التي يدبرها . والناس لما لم يشهدوا لها نظيراً ، عسر عليهم التعبير عن حقيقتها . وهذا تنبيه لهم على رب العالمين ، حيث لم يعرفوا حقيقته ، ولا تصوروا كيف هو سبحانه وتعالى . وإن ما يضاف إليه من صفاته هو على ما يليق به جل جلاله . فإن الروح ، التي هي بعض عبيده ، توصف بأنها تعرج إذا نام الإنسان ، وتسجد تحت العرش . وهي مع هذا في بدن صاحبها لم تفارقه بالكلية . والإنسان ، في نومه ، يحس بتصرفات روحه تؤثر في بدنه . فهذا الصعود

الذي توصف به الروح لا يماثل صعود المشهودات . فإنها إذا صعدت إلى مكان فارقت الأول بالكلية . وحركتها إلى العلو حركة انتقال من مكان . وحركة الروح بعروجها وسجودها ليس كذلك . انتهى .

فصل

وكتب بعض المنقبين عن مباحث المدققين العصريين في الروح ما مثاله : إن نظرية الروحيين التي يستدلون عليها في أوربا بالحس في هذه الأيام ، هي أن للإنسان روحاً هبطت عليه من الملأ الأعلى . لا يصل العقل إلى إدراك كنهها . وإنها متصلة بهذا الجسد الطيني ، بواسطة هيكل لطيف شفاف على شكل الجسد تماماً . ولكنه ليس من طبيعته ولا محكوماً بقوانينه . وإنه كغلاف للسرّ الإلهي المسمى روحاً . ولعل في هذا ما يشبه قول الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه عن الروح (هي صورة كالجسد) ويقولون : إن الروح وغلافها هذا يخرجان من الجسد عند حصول الموت للشخص ، إلى عالم غير هذا العالم . ولكنهما لا ينفصلان عنه كل الانفصال ، بل أرواح الموتى منتشرة حولنا في كل جهة . ولكنا لا نراها بأعيننا ، لعدم استعداد أعيننا لذلك . كما أنها ليست مستعدة لرؤية أشعة (رونتجن)

مع أنها موجودة كما تدل عليه الآية التي صنعها له . وقد دخلت تطبيقاتها في علم الطب وأفادت العلم الطبيعي فائدة كبرى . ولكن يوجد أشخاص فيهم استعداد خاص به يرون الأرواح رائحة غادية ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، رؤية حقيقية . انتهى ملخصاً .

تنبيه :

جميع ما قدمناه ، بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان .

(171/463)

قال ابن القيم في كتاب " الروح " : وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف . وأكثر السلف ، بل كلهم ، على أن الروح المسؤول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم . بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه ، أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة ، وهو ملك عظيم . وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله قال : بينا أنا أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرَّة المدينة ، وهو متكئ على عسيب ، فمررنا على نفر من اليهود . فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه عسى أن يخبر فيه بشيء تكرهونه ، وقال بعضهم : نسأله ، فقام رجل فقال : يا أبا القاسم ! ما الروح ؟ فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعلمت أنه يوحى إليه فقمت . فلما تجلى عنه قال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ

﴾ الآية ، ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحي . وذلك هو الروح الذي عند الله لا يعلمها الناس . وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب . وقد تكلم فيها طوائف الناس من أهل الملل وغيرهم . فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة . فإن قيل : فقد روى أبو الشيخ عن السدي عن أبي مالك ، عن ابن عباس قال : بعثت قريش عقبة بن أبي معيط وعبد الله بن أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة يسألونهم عن النبي صلى الله عليه وسلم . فقالوا : إنه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبي ، وليس على ديننا . ولا على دينكم . قالوا : فمن تبعه ؟ قالوا : سفلتنا والضعفاء والعبيد ومن لا خير فيه . وأما أشراف قومه فلم يتبعوه ، فقالوا : إنه قد أظلَّ زمان نبي يخرج ، وهو على ما تصفون من أمر هذا الرجل ، فأتوه فاسألوه عن ثلاث خصال فأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي صادق ، وإن لم يخبركم بهن فهو كذاب ، سلوه عن الروح التي نفخ الله تعالى في آدم ، فإن قال لكم : هي من الله ، فقولوا : كيف يعذب الله في النار شيئاً هو منه ؟ فسأل جبريل عنها فأنزل الله الآية . يقول : هو خلق من خلق الله ليس هو

من الله .

قيل : مثل هذا الإسناد لا يحتج به . فإنه من تفسير السدي عن أبي مالك . وفيه أشياء منكرة . وسياق هذه القصة في السؤال ، من الصحاح والمسانيد ، كلها تخالف سياق السدي . وقد رواها الأعمش والمغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم على ملأ من اليهود ، وأنا أمشي معه ، فسألوه عن الروح ، قال : فسكت ، فظننت أنه يوحى إليه ، فنزلت : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ يعني اليهود : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ الآية . وكذلك هي في قراءة عبد الله . فقالوا : كذلك نجد مثله في التوراة أن الروح من أمر الله عز وجل . رواه جرير بن عبد الحميد وغيره عن المغيرة .

وروى يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، عن داود بن أبي هند ، عن عِكْرِمَة ، عن ابن عباس قال : أتت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه عن الروح . فلم يجبهم النبي صلى الله عليه وسلم بشيء . فأنزل الله عز وجل الآية . فهذا يدل على ضعف حديث السدي ، وأن السؤال كان بمكة ، فإن هذا الحديث وحديث ابن مسعود صريح أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود . ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة ، لم يسكت النبي صلى الله عليه وسلم ، ولبادر على جوابهم بما تقدم من إعلام الله له ، وما أنزل الله عليه . وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أعظم اضطراب . فإما أن تكون من قبل الرواة ، أو تكون أقواله قد اضطربت فيها . ثم ساق ابن القيم الروايات عنه مسندة ،

ثم قال : والروح في القرآن على عدة أوجه :

أحدها : الوحي ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : 52] ، وقوله : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر : 15] ، وسمى الوحي روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح .

(173/463)

الثاني : القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين ، كما قال : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ [المجادلة : 22] .

الثالث : جبريل كقوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : 193 – 194] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : 97] ، وهو روح القدس ، قال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ [النحل : 102] .

الرابع : الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله . وقد قيل إنها الروح المذكورة في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ [النبأ : 38] ، وإنها الروح المذكورة في قوله : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ [القدر : 4] .

الخامس: المسيح عيسى ابن مريم. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ [النساء: 171] أما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها بالقرآن إلا بالنفس، قال تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: 27]، وقال: ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: 2]، وقال: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف: 53]، وقال: ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [الأنعام: 93]، وقال: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: 7 – 8]، وقال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عِمْرَان: 185].

وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح. انتهى.

(174/463)

قال ابن كثير: رواية عبد الله في الصحيح المتقدمة، تقتضي فيما يظهر ببادئ الرأي، أن هذه الآية مدنية. وأنها إنما أنزلت حين سأله اليهود عن ذلك في المدينة. مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية. كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك. أو إنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ انتهى.

وقد روى ابن جرير عن قتادة : أن الروح في الآية هو جبريل عليه السلام وحكاه عن ابن عباس .

(175/463)

أقول : الذي أراه متعيناً في الآية ، لسابقها ولاحقها ، أن المراد بالروح الوحي بالقرآن ، وهو قريب من قول قتادة . ووجه تعينه أن هذه الآية في سياق ذكر القرآن وتنزيله والمنة بكونه شفاء ورحمة ، وقد سمى تعالى الوحي بالقرآن روحاً . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : 52] ، وقال تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر : 15] فكانوا إذا سمعوا الروح ، وصدعوا بالإيمان به ، يتعنتون في السؤال عنه ؛ استبعاداً لأن يكون من لدنه سبحانه ، ولأن يكون بشر مثله مبعوثاً بأمره تعالى أن يبين لهم أنه وحي أوحاه الله ، وأنه روح من لدنه ، وإلقاء من أمره . ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي ﴾ [يونس : 53] وقوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ [النبأ : 1 - 3] أي : بعضهم ينكره وبعضهم يتردد في صحته ، وذلك لأنهم قوم جاهليون ، لا عهد لهم بالعلوم والمعارف ، فضلاً عن الوحي وخصائص النبوة ؛ للأمية والجهالة الفاشيتين فيهم ، كما أشير

إليه بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي : مما تناله مشاعركم وتصل إليه فطنكم . وما هو في جنب معلومات لا تحصى ، إلا كالقطرة من البحر والذرة من الكثيب ، والقاعدة أن القرآن متجاوب الأطراف ، يفسر بعضه بعضاً .

وجميع ما ذكره المتقدمون ، غير ما ذكرناه ، جرى مع ما يحتمله نظم الآية الكريمة . وكذا رواية ابن مسعود أنه أجيب بها اليهود ؛ لأنها لما كان لها وجوه من المعاني ، ومنها ما سألوا عنه ، ألقموا بها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم أشار تعالى إلى نعمته فيما أوحاه من هذا التنزيل والهداية به ، بقوله سبحانه :

(176/463)

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي : من القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، وإنما عبر عنه بالموصول ، تفخيماً لشأنه . ووصفاً له بما هو في حيز الصلة ، وإعلاماً بأنه ليس من قبيل كلام المخلوق : ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ أي : من يتوكل علينا برده .

﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي : ولكن رحمة من ربك تركته غير مُشاءٍ الذهاب به بل تولت حفظه .

قال الزمخشري : وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً ، بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه . فعلى كل ذي علم أن لا يغفل عن ها تين المنتين والقيام بشكرهما . وهما منة الله عليه بحفظه العلم ورسوخه في صدره ، ومنته عليه في بقاء المحفوظ ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ﴾ أي : تفضله بالإيحاء والتعليم الرباني ، والاصطفاء للرسالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 516.530 ﴾

(177/463)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82) ﴾

عطف على جملة ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ﴾ [الإسراء : 81] على ما في تلك الجملة والجمل التي سبقتها من معنى التأيد للنبيء ومن الإغاظة للمشركين ابتداء من قوله :

﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذين أوحينا إليك ﴾ [الإسراء : 73] .

فإنه بعد أن امتن عليه بأن أيده بالعصمة من الركون إليهم وتبشيره بالنصرة عليهم وبالخلاص من كيدهم ، وبعد أن هددهم بأنهم صائرون قريباً إلى هلاك وأن دينهم صائر إلى الاضمحلال ، أعلن له ولهم في هذه الآية : أن ما منه غيظهم وحنقهم ، وهو القرآن الذي

طمعوا أن يسألوا النبي أن يبدله بقرآن ليس فيه ذكر أصنامهم بسوء ، أنه لا يزال متجدداً مستمراً ، فيه شفاء للرسول وأتباعه وخسارة لأعدائه الظالمين ، ولأن القرآن مصدرُ الحق ومَدحَض الباطل أعقب قولُه : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل ﴾ [الإسراء : 81] بقوله : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة ﴾ الآية .

ولهذا اختير للإخبار عن التنزيل الفعل المضارع المشتق من فَعَّلَ المضاعف للدلالة على التجديد والتكرير والتكثير ، وهو وعد بأنه يستمر هذا التنزيل زمناً طويلاً .

و﴿ ما هو شفاء ﴾ مفعول ﴿ ننزل ﴾ .

و﴿ من القرآن ﴾ بيان لما في (ما) من الإبهام كالتي في قوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ [الحج : 30] ، أي الرجس الذي هو الأوثان .

وتقديم البيان لتحصيل غرض الاهتمام بذكر القرآن مع غرض الثناء عليه بطريق الموصولية بقوله : ما هو شفاء ورحمة ﴾ إلخ ، للدلالة على تمكن ذلك الوصف منه بحيث يعرف به .

والمعنى : ننزل الشفاء والرحمة وهو القرآن .

وليست (مِن) للتبعيض ولا للابتداء .

والشفاء حقيقته زوال الداء ، ويستعمل مجازاً في زوال ما هو نقص وضلال وعائق عن النفع من العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة والأخلاق الذميمة تشبيهاً له ببرء السقم ، كقول عنترة:

ولقد شَفَى نفسي وابرأ سُقمها . . .

قيلُ الفوارس : وَيْكَ عنترَ أَقْدِمِ

والمعنى : أن القرآن كله شفاءٌ ورحمة للمؤمنين ويزيد خسارة للكافرين ، لأن كل آية من القرآن من أمره ونهيه ومواعظه وقصصه وأمثاله ووعده ووعيده ، كل آية من ذلك مشتملة على هَديٍ وصلاحِ حالٍ للمؤمنين المتبعينه ، ومشتملة بضد ذلك على ما يزيد غيظ المستمرين على الظلم ، أي الشرك ، فيزدادون بالغيظ كراهية للقرآن فيزدادون بذلك خساراً بزيادة آثامهم واستمرارهم على فاسد أخلاقهم وبُعْدِ ما بينهم وبين الإيمان .

وهذا كقوله : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ [التوبة : 124 - 125] .

وفي الآية دليل على أن في القرآن آيات يشتفى بها من الأدواء والآلام ورد تعيينها في الأخبار الصحيحة فشملتها الآية بطريقة استعمال المشترك في معنييه .

وهذا مما بينا تأصيله في المقدمة التاسعة من مقدمات هذا التفسير .

والأخبار الصحيحة في قراءة آيات معينة للاستشفاء من أدواء موصوفة بله الاستعاذة

بآيات منه من الضلال كثيرة في صحيح البخاري ﴾ و"جامع الترمذي" وغيرهما ، وفي الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه قال:

" بعثنا رسول الله في سرية ثلاثين راكباً فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا فلُدغ سيد الحَيّ فأتونا ، فقالوا : أفيكم أحد يَرقي من العقرب ؟ قال : قلت : نعم ولكن لا أفعل حتى يُعطونا ، فقالوا : فإنا نعطيكم ثلاثين شاة ، قال : فقرأت عليه فاتحة الكتاب سبع مرات فبرأ " الحديث .

(179/463)

وفيه : " حتى أتينا رسول الله فأخبرته فقال : وما يُدريكَ أنها رُقْيَة ، قلت : يا رسول الله شيءٌ أُلقي في روعي (أي إلهام ألهمه الله) ، قال : كلوا وأطعمونا من الغنم " فهذا تقرير من النبي صلى الله عليه وسلم بصحة إلهام أبي سعيد رضي الله عنه .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83) ﴾

لما كان القرآن نعمة عظيمة للناس ، وكان إعراض المشركين عنه حرماناً عظيماً لهم من خيرات كثيرة ، ولم يكن من شأن أهل العقول السليمة أن يرضوا بالحرمان من الخير ، كان الإخبار عن زيادته الظالمين خساراً مستغرباً من شأنه أن يثير في نفوس السامعين التساؤل

عن سبب ذلك ، أعقب ذلك ببيان السبب النفساني الذي يوقع العقلاء في مهواة هذا الحرمان ، وذلك بعد الاشتغال بما هو فيه من نعمة هَوِيها وأولع بها ، وهي نعمة تتقاصر عن أوج تلك النعم التي حرم منها لولا الهوى الذي علق بها والغرور الذي أراه إياها قصَارى المطلوب ، وما هي إلا إلى زوال قريب ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا ﴾ [المزمّل : 11] وقوله : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ﴾ [آل عمران : 196 - 197] .

فهذه الجملة مضمونها مقصود بذاته استفيد بيانها بوقوعها عقب التي قبلها .

والتعريف في الإنسان ﴾ تعريف الجنس ، وهو يفيد الاستغراق وهو استغراق عرفي ، أي أكثر أفراد الإنسان لأن أكثر الناس يومئذٍ كفار وأكثر العرب مشركون .

فالمعنى : إذا أنعمنا على المشركين أعرضوا وإذا مسهم الشر يئسوا .

وهذا مقابل حال أهل الإيمان الذين كان القرآن شفاءً لأنفسهم وشكر النعمة من شِيمهم والصبر على الضر من خلقهم .

والمراد بالإنعام : إعطاء النعمة .

وليس المراد النعم الكاملة من الإيمان والتوفيق ، كما في قوله : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ [الفاتحة : 7] .

وقوله : ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصدّيقين ﴾ [النساء : 69] .

والإعراض : الصد ، وضد الإقبال .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فأعرض عنهم وعِظهم ﴾ في سورة [النساء : 63] ، وقوله : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم ﴾ في سورة [الأنعام : 68] .

والنأي : البعد ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وينأون عنه ﴾ في سورة [الأنعام : 26] .

والجانب : الجنب .

وهو الجهة من الجسد التي فيها اليد ، وهما جانبان : يمين ويسار .

والباء في قوله : بجانبه ﴾ للمصاحبة ، أي بَعِدَ مصاحباً لجانبه ، أي مبعداً جانبه .

والبُعد بالجانب تمثيل الإجفال من الشيء ، قال عنترة:

وكأنما ينأى بجانب دفّها الْ . . .

وَحْشِيّ من هزج العشي مؤوم

فالمفاد من قوله : ﴿ وناء بجانبه ﴾ صد عن العبادة والشكر .

وهذا غير المفاد من معنى ﴿ أعرض ﴾ فليس تأكيداً له ، فالمعنى : أعرض وتباعد .

وحذف متعلق ﴿ أعرض ونأى ﴾ لدلالة المقام عليه من قوله : ﴿ أنعمنا على الإنسان ﴾ ، أي أعرض عنا وأجفل منا ، أي من عبادتنا وأمرنا ونهينا .

وقرأ الجمهور ﴿ ونأى ﴾ بهمزة بعد النون وألف بعد الهمزة .

وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان وأبو جعفر ﴿ وناء ﴾ بألف بعد النون ثم همزة .

وهذا من القلب المكاني لأن العرب قد يتطلبون تخفيف الهمزة إذا وقعت بعد حرف صحيح وبعدها مدة فيقلبون المدة قبل الهمزة لأن وقوعها بعد المد أخف .

من ذلك قولهم : راء في رأى ، وقولهم : آرام في أرْآم ، جمع رئم ، وقيل : ناء في هذه القراءة بمعنى ثقل ، أي عن الشكر ، أي في معنى قوله تعالى : ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾ [الأعراف : 176] .

(181/463)

وجملة ﴿ وإذا مسه الشر كان يؤساً احتراس من أن يَتوهم السامع من التقييد بقوله : ﴿ وإذا أنعمنا أنه إذا زالت عنه النعمة صلح حاله فبين أن حاله ملازم لنكران الجميل في السراء والضراء ، فإذا زالت النعمة عنه لم يقلع عن الشرك والكفر ويتب إلى الله ولكنه ييأس من الخير ويبقى حنقاً ضيق الصدر لا يعرف كيف يتدارك أمره .

ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله في سورة [فصلت : 51] ﴿ وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ كما سيأتي هنالك .

ودل قوله : كان يؤساً ﴾ على قوة يأسه إذ صيغ له مثال المبالغة .

وأقحم معه فعل (كان) الدال على رسوخ الفعل ، تعجيباً من حاله في وقت مس الضر إياه لأن حالة الضر أدعى إلى الفكرة في وسائل دفعه ، بخلاف حالة الإعراض في وقت النعمة فإنها حالة لا يستغرب فيها الازدهاء لما هو فيه من النعمة .

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (84) ﴾

هذا تذييل ، وهو تنهية للغرض الذي ابتدىء من قوله : ﴿ ربكم الذي يزجى لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله ﴾ [الإسراء : 66] الراجع إلى التذكير بنعم الله تعالى على الناس في خلال الاستدلال على أنه المتصرف الوحيد ، وإلى التحذير من عواقب كفران النعم .

وإذ قد ذكر في خلال ذلك فريقان في قوله : ﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ﴾ الآية [الإسراء : 71] ، وقوله : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ [الإسراء : 82] .

ولما في كلمة (كل) من العموم كانت الجملة تذييلاً .

وتنوين كل ﴾ تنوين عوض عن المضاف إليه ، أي كل أحد مما شمله عموم قوله : ﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى ﴾ [الإسراء : 72] وقوله : ﴿ ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ [الإسراء : 82] وقوله : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان

﴾ [الإسراء: 83].

والشاكلة: الطريقة والسيرة التي اعتادها صاحبها ونشأ عليها.

(182/463)

وأصلها شاكلة الطريق، وهي الشعبة التي تتشعب منه.

قال النابغة يذكر ثوباً يشبه به بُنيات الطريق:

له خُلج تهوي فُرادَى وترعوي...

إلى كل ذي نيرَين بادي الشواكل

وهذا أحسن ما فسر به الشاكلة هنا.

وهذه الجملة في الآية تجري مجرى المثل.

وفرع عليه قوله: فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ وهو كلام جامع لتعليم الناس بعموم علم الله، والترغيب للمؤمنين، والإنذار للمشركين مع تشكيكهم في حقية دينهم لعلهم ينظرون، كقوله: ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى ﴾ الآية [سبأ: 24].

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85) ﴾

وقْعُ هذه الآية بين الآي التي معها يقتضي نظمُه أن مرجع ضمير ﴿ يسألونك ﴾ هو مرجع

الضمائر المتقدمة، فالسائلون عن الروح هم قريش.

وقد روى الترمذي عن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل عنه، فقالوا: سَلوه عن الروح، قال: فسألوه عن الروح، فأنزل الله تعالى: ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ الآية.

وظاهر هذا أنهم سألوه عن الروح خاصة وأن الآية نزلت بسبب سؤالهم.

وحينئذٍ فلا إشكال في إفراد هذا السؤال في هذه الآية على هذه الرواية.

وبذلك يكون موقع هذه الآية بين الآيات التي قبلها والتي بعدها مسبباً على نزولها بين نزول تلك الآيات.

واعلم أنه كان بين قريش وبين أهل يثرب صلات كثيرة من صهر وتجارة وصحبة.

وكان لكل يثربي صاحب بمكة ينزل عنده إذا قدم الآخر بلده، كما كان بين أمية بن خلف وسَعْد بن معاذ.

وقصتهما مذكورة في حديث غزوة بدر من "صحيح البخاري".

روى ابن إسحاق أن قريشاً بعثوا النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي مُعيط إلى أحبار اليهود بيثرب يسألانهم عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم فقال اليهود لهما: سلوه عن ثلاثة.

وذكروا لهم أهل الكهف وذا القرنين وعن الروح كما سيأتي في سورة الكهف ، فسألْته قريش عنها فأجاب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين بما في سورة الكهف ، وأجاب عن الروح بما في هذه السورة .

وهذه الرواية تثير إشكالاً في وجه فصل جواب سؤال الروح عن المسألتين الأخريين بذكر جواب مسألة الروح في سورة الإسراء وهي متقدمة في النزول على سورة الكهف .

ويدفع الإشكال أنه يجوز أن يكون السؤال عن الروح وقع منفرداً أول مرة ثم جمع مع المسألتين الأخريين ثاني مرة .

ويجوز أن تكون آية سؤال الروح مما ألحق بسورة الإسراء كما سنبينه في سورة الكهف .

والجمهور على أن الجميع نزل بمكة ، قال الطبري عن عطاء بن يسار : نزل قوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم قليلاً ﴾ بمكة .

وأما ما روي في "صحيح البخاري" عن ابن مسعود أنه قال : "بينما أنا مع النبي في حرث بالمدينة إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح ، فسألوه عن الروح فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يردّ عليهم شيئاً ، فعلمتُ أنه يوحى إليه ، فقمت مقامي ، فلما نزل الوحي قال : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ الآية .

فالجمع بينه وبين حديث ابن عباس المتقدم : أن اليهود لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم

قد ظن النبي أنهم أقرب من قريش إلى فهم معنى الروح فانتظر أن ينزل عليه الوحي بما يجيبهم به أبين مما أجاب به قريشاً ، فكرر الله تعالى إنزال الآية التي نزلت بمكة أو أمره أن يتلوها عليهم ليعلم أنهم وقريشاً سواء في العجز عن إدراك هذه الحقيقة أو أن الجواب لا يتغير.

(184/463)

هذا ، والذي يترجح عندي : أن فيما ذكره أهل السير تخليطاً ، وأن قريشاً استقوا من اليهود شيئاً ومن النصارى شيئاً فقد كانت لقريش مخالطة مع نصارى الشام في رحلتهم الصيفية إلى الشام ، لأن قصة أهل الكهف لم تكن من أمور بني إسرائيل وإنما هي من شؤون النصارى ، بناءً على أن أهل الكهف كانوا نصارى كما سيأتي في سورة الكهف ، وكذلك قصة ذي القرنين إن كان المراد به الإسكندر المقدوني يظهر أنها مما عني به النصارى لارتباط فتوحاته بتاريخ بلاد الروم ، فتعين أن اليهود ما لقنوا قريشاً إلا السؤال عن الروح. وبهذا يتضح السبب في إفراد السؤال عن الروح في هذه السورة وذكر القصتين الأخريين في سورة الكهف.

على أنه يجوز أن يتكرر السؤال في مناسبات وذلك شأن الذين معارفهم محدودة فهم يلقونها في كل مجلس.

وسُؤالهم عن الروح معناه أنهم سألوا عن بيان ماهية ما يعبر عنه في اللغة العربية بالروح والتي يعرف كل أحد بوجه الإجمال أنها حالّة فيه .

والروح : يطلق على الموجود الخفي المنتشر في سائر الجسد الإنساني الذي دلت عليه آثاره من الإدراك والتفكير ، وهو الذي يتقوم في الجسد الإنساني حين يكون جنيناً بعد أن يمضي على نزول النطفة في الرحم مائة وعشرون يوماً .

وهذا الإطلاق هو الذي في قوله تعالى : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ [ص : 72] .

وهذا يسمى أيضاً بالنفس كقوله : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ [الفجر : 27] .

ويطلق الروح على الكائن الشريف المكون بأمر إلهي بدون سبب اعتيادي ومنه قوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [الشورى : 52] وقوله : ﴿ وروح منه ﴾ [النساء : 171] .

ويطلق لفظ (الروح) على المَلَك الذي ينزل بالوحي على الرسل .

وهو جبريل عليه السلام ومنه قوله : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾ [الشعراء : 193] .

واختلف المفسرون في الروح المسؤول عنه المذكور هنا ما هو من هذه الثلاثة .

فالجمهور قالوا : المسؤول عنه هو الروح بالمعنى الأول ، قالوا لأنه الأمر المشكل الذي لم تتضح حقيقته ، وأما الروح بالمعنيين الآخرين فيشبه أن يكون السؤال عنه سؤالاً عن معنى مصطلح قرآني .

وقد ثبت أن اليهود سألوا عن الروح بالمعنى الأول لأنه هو الوارد في أول كتابهم وهو سفر التكوين من التوراة لقوله في الإصحاح الأول وروح الله يرف على وجه المياه .

وليس الروح بالمعنيين الآخرين بوارد في كتبهم .

وعن قتادة والحسن : أنهم سألوا عن جبريل ، والأصح القول الأول .

وفي الروض الأنف ﴿ أن النبي صلى الله عليه وسلم أجابهم مرة ، فقال لهم : هو جبريل عليه السلام .

وقد أوضحناه في سورة الكهف .

وإنما سألوا عن حقيقة الروح وبيان ماهيتها ، فإنها قد شغلت الفلاسفة وحكماء المتشرعين ، لظهور أن في الجسد الحي شيئاً زائداً على الجسم ، به يكون الإنسان مدركاً وبزواله يصير الجسم مسلوبَ الإرادة والإدراك ، فعلم بالضرورة أن في الجسم شيئاً زائداً على الأعضاء الظاهرة والباطنة غير مشاهد إذ قد ظهر بالتشريح أن جسم الميت لم يفقد شيئاً من الأعضاء الباطنة التي كانت له في حال الحياة .

وإذ قد كانت عقول الناس قاصرة عن فهم حقيقة الروح وكيفية اتصالها بالبدن وكيفية انتزاعها منه وفي مصيرها بعد ذلك الانتزاع، أجيبوا بأن الروح من أمر الله، أي أنه كائن عظيم من الكائنات المشرفة عند الله ولكنه مما استأثر الله بعلمه.

فلفظ ﴿ أمر ﴾ يحتمل أن يكون مرادف الشيء.

فالمعنى: الروح بعض الأشياء العظيمة التي هي لله، فإضافة ﴿ أمر ﴾ إلى اسم الجلالة على معنى لام الاختصاص، أي أمر اختص بالله اختصاص علمٍ.

و(من) للتبعيض، فيكون هذا الإطلاق كقوله: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [الشورى: 52].

ويحتمل أن يكون الأمر أمرَ التكوين، فإما أن يراد نفس المصدر وتكون (من) ابتدائية كما في قوله: ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [النحل: 40]، أي الروح يصدر عن أمر الله بتكوينه؛ أو يراد بالمصدر معنى المفعول مثل الخلق و (من) تبعيضية، أي الروح بعض مأمورات الله فيكون المرادُ بالروح جبريلَ عليه السلام، أي الروح من المخلوقات الذين يأمرهم الله بتبليغ الوحي، وعلى كلا الوجهين لم تكن الآية جواباً عن

سؤالهم.

وروى ابن العربي في الأحكام عن ابن وهب عن مالك أنه قال: لم يأته في ذلك جواب اه.

أي أن قوله: قل الروح من أمر ربي ﴾ ليس جواباً ببيان ما سألوا عنه ولكنه صرف عن استعلامه وإعلام لهم بأن هذا من العلم الذي لم يؤتوه.

والاحتمالات كلها مرادة، وهي كلمة جامعة.

وفيها رمز إلى تعريف الروح تعريفاً بالجنس وهو رسم.

وجملة ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ يجوز أن تكون مما أَمَر الله رسولَه أن يقوله للسائلين فيكون الخطاب لقريش أو لليهود الذين لقنوهم، ويجوز أن يكون تذييلاً أو اعتراضاً فيكون الخطاب لكل من يصلح للخطاب، والمخاطبون متفاوتون في القليل المستثنى من المؤْتَى من العلم.

وأن يكون خطاباً للمسلمين.

والمراد بالعلم هنا المعلوم، أي ما شأنه أن يعلم أو من معلومات الله.

ووصفه بالقليل بالنسبة إلى ما من شأنه أن يعلم من الموجودات والحقائق.

وفي "جامع الترمذي" قالوا (أي اليهود): "أوتينا علماً كثيراً التوراةَ ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، فأنزلت: ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ﴾ الآية [الكهف: 109].

وأوضح من هذا ما رواه الطبري عن عطاء بن يسار قال : نزلت بمكة وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه أحبار يهود فقالوا : يا محمد ألم يبلغنا أنك تقول : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ ، أفعنينا أم قومَك ؟ قال : كُلاّ قد عنيت .

قالوا : فإنك تتلو أنا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء .

فقال رسول الله : هي في علم الله قليل ، وقد آتاكم ما إن عملتم به انتفعتم .

فأنزل الله ﴿ وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : 27] .

هذا ، والذين حاولوا تقريب شرح ماهية الروح من الفلاسفة والمتشرعين بواسطة القول الشارح لم يأتوا إلا برسوم ناقصة مأخوذة فيها الأجناس البعيدة والخواص التقريبية غير المنضبطة وتحكيم الآثار التي بعضها حقيقي وبعضها خيالي ، وكلها متفاوتة في القرب من شرح خاصاته وأماراته بحسب تفاوت تصوراتهم لماهيته المبنيات على تفاوت قوى مداركهم وكلها لا تعدو أن تكون رسوماً خيالية وشعرية معبرة عن آثار الروح في الإنسان .

وإذا قد جرى ذكر الروح في هذه الآية وصُرف السائلون عن مرادهم لغرض صحيح اقتضاه حالهم وحال زمانهم ومكانهم، فما علينا أن تتعرض لمحاولة تعرف حقيقة الروح بوجه الإجمال فقد تهيأ لأهل العلم من وسائل المعرفة ما تغيرت به الحالة التي اقتضت صرف السائلين في هذه الآية بعض التغير، وقد تتوفر تغيرات في المستقبل تزيد أهل العلم استعداداً لتجلي بعض ماهية الروح، فلذلك لا نجاري الذين قالوا: إن حقيقة الروح يجب الإمساك عن بيانها لأن النبي أمسك عنها فلا ينبغي الخوض في شأن الروح بأكثر من كونها موجودة.

فقد رأى جمهور العلماء من المتكلمين والفقهاء منهم أبو بكر بن العربي في العواصم ﴿، والنووي في "شرح مسلم": أن هذه الآية لا تصد العلماء عن البحث عن الروح لأنها نزلت لطائفة معينة من اليهود ولم يقصد بها المسلمون.

فقال جمهور المتكلمين: إنها من الجواهر المجردة، وهو غير بعيد عن قول بعضهم: هي من الأجسام اللطيفة والأرواح حادثة عند المتكلمين من المسلمين وهو قول أرسطاليس.

وقال قدماء الفلاسفة: هي قديمة.

وذلك قريب من مرادهم في القول بقدم العالم.

ومعنى كونها حادثة أنها مخلوقة لله تعالى .

فقيل : الأرواح مخلوقة قبل خلق الأبدان التي تنفخ فيها ، وهو الأصح الجاري على ظواهر كلام النبي صلى الله عليه وسلم فهي موجودة من الأزل كوجود الملائكة والشياطين ، وقيل : تخلق عند إرادة إيجاد الحياة في البدن الذي توضع فيه واتفقوا على أن الأرواح باقية بعد فناء أجسادها وأنها تحضر يوم الحساب .

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87) ﴾

هذا متصل بقوله : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ﴾ [الإسراء : 82] الآية أفضت إليه المناسبة فإنه لما تضمن قوله : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ [الإسراء : 85] تلقينَ كلمة علم جامعة ، و تضمن أن الأمة أوتيت علماً ومُنعت علماً ، وأن علم النبوءة من أعظم ما أوتيته ، أعقب ذلك بالتنبيه إلى الشكر على نعمة العلم دفعاً لغرور النفس ، لأن العلم بالأشياء يكسبها إعجاباً بتميزها عمن دونها فيه ، فأوقظت إلى أن الذي منح العلم قادر على سلبه ، وخوطب بذلك النبي لأن علمه أعظم علم ، فإذا كان وجود علمه خاضعاً لمشيئة الله فما الظن بعلم غيره ، تعريضاً لبقية العلماء .

فالكلام صريحُه تحذير ، وهو كناية عن الامتنان كما دل عليه قوله بعده إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً وتعريض بتحذير أهل العلم .

واللام موطئة للقسم المحذوف قبل الشرط .

وجملة لنذهبن بالذي أوحينا إليك ﴾ جواب القسم .

وهو دليل جواب الشرط ومغن عنه .

و ﴿ لنذهبن بالذي أوحينا ﴾ بمعنى لنذهبنه ، أي عنك ، وهو أبلغ من (نُذهبه) كما تقدم في قوله : ﴿ الذي أسرى بعبده ﴾ [الإسراء : 1] .

وما صدق الموصول القرآن .

و(ثم) للترتيب الرتبي ، لأن نفي الطمع في استرجاع المسلوب أشد على النفس من سلبه .

فذكره أدخل في التنبيه على الشكر والتحذير من الغرور .

والوكيل : من يوكل إليه المهم .

والمراد به هنا المدافع عنك والشفيع لك .

ولما فيه من معنى الغلبة عدي بـ (على) .

ولما فيه من معنى التعهد والمطالبة عدي إلى المردود بالباء ، أي متعهداً بالذي أوحينا إليك .

ومعنى التعهد : به التعهد باسترجاعه ، لأنه في مقابلة قوله : لنذهبن بالذي أوحينا إليك ﴾ ، ولأن التعهد لا يكون بذات شيء بل بحال من أحواله فجرى ، الكلام على الإيجاز .

وذكر هنا ﴿ وكيلاً ﴾ وفي الآية قبلها ﴿ نصيراً ﴾ لأن معنى هذه على فرض سلب نعمة الاصطفاء ، فالمطالبة بإرجاع النعمة شفاعة ووكالة عنه ، وأما الآية قبلها فهي في فرض إلحاق عقوبة به ، فمدافعة تلك العقوبة أو الثأر بها نصر .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ منقطع فحرف الاستثناء فيه بمعنى الاستدراك .

وهو استدراك على ما اقتضاه فعل الشرط من توقع ذلك ، أي لكن رحمة من ربك نفت مشيئة الذهاب بالذي أوحينا إليك فهو باقٍ غير مذهوب به .

وهذا إيماء إلى بقاء القرآن وحفظه ، قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : 9] .

وموقع إن فضله كان عليك كبيراً ﴾ موقع التعليل للاستثناء المنقطع ، أي لكن رحمة من ربك منعت تعلق المشيئة بإذهاب الذي أوحينا إليك ، لأن فضله كان عليك كبيراً فلا

يحرمك فضل الذي أوحاه إليك.

وزيادة فعل (كان) لتوكيد الجملة زيادة على توكيدها بحرف التوكيد المستعمل في معنى التعليل والتفريع. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(191/463)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82) ﴾

قد قدمنا في أول " سورة البقرة " الآيات المبينة لهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة. كقوله : ﴿ فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : 124-125] ، وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ في آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : 44] كما تقدم إيضاحه. وقوله في هذه الآية ﴿ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾ يشمل كونه شفاء للقلب من أمراضه. كالشك والنفاق وغير ذلك. وكونه شفاء للأجسام إذا رقى عليها به. كما تدل له قصة الذي رقى الرجل اللديغ بالفاتحة، وهو صحيحة مشهورة. وقرأ أبو عمرو ﴿ وَنُنَزِّلُ ﴾ بإسكان النون وتخفيف الزاي. والباقون بفتح

النون وتشديد الزاي. والعلم عند الله تعالى.

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83) ﴾

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه إذا أنعم على الإنسان بالصحة والعافية والرزق – أعرض عن ذكر الله وطاعته، ونأى بجانبه: اي تباعد عن طاعة ربه. فلم يمتثل أمره، ولم يجتنب نهيه.

وقال الزمخشري: أعرض عن ذكر الله كأنه مستغن عنه، مستبد بنفسه. ﴿ ونأى بجانبه ﴾ تأكيد للإعراض. لأن الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه. والنأي بالجانب: أن يلوي عنه عطفه، ويوليه ظهره، وأراد الاستكبار، لأن ذلك من عادة المستكبرين.

واليؤوس: شديد اليأس، أي القنوط من رحمة الله.

(192/463)

وقد أوضح جل وعلا هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتابه، كقوله " في سورة هود " ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السيئات عني إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: 9–10]، وقوله في " آخر فصلت ": ﴿ لاَّ يَسْأَمُ الإنسان مِن دُعَآءِ الخير وَإِن مَّسَّهُ الشر فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ

رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إلى ربي إِنَّ لِي عِندَهُ للحسنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الذين كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشر فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت : 49-51] ، وقوله : " في سورة الروم " ﴿ وَإِذَا مَسَّ الناس ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُمْ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : 33] وقوله فيها أيضاً : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم : 36] ، وقوله " في سورة يونس " : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ [يونس : 12] الآية ، وقوله " في سورة الزمر " : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يدعوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [

(193/463)

الزمر : 8] الآية ، وقوله فيها أيضاً : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 49] . إلى غير ذلك من الآيات .

وقد استثنى من هذه الأصفات عباده المؤمنين في قوله " في سورة هود " : ﴿ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أولئك لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود : 11] كما تقدم إيضاحه . وقرأ ابن ذكوان " وناء " كجاء ، وهو بمعنى نآى . كقولهم : راء في رأى .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه ما أعطى خلقه من العلم إلا قليلاً بالنسبة إلا علمه جل وعلا . لأن ما أعطيه الخلق من العلم بالنسبة إلى علم الخالق قليل جداً .

ومن الآيات التي فيها الإشارة إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ [الكهف : 109] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : 27] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ﴾ .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن فضله على نبيه صلى الله عليه وسلم كبير .

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء: 113]، وقوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ [الفتح: 1-3] وقوله: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: 1-4]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبين تعالى في موضع آخر: أن فضله كبير على جميع المؤمنين، وهو قوله: ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ الله فَضْلاً كِبِيراً ﴾ [الأحزاب: 47] وبين المراد بالفضل الكبير في قوله: ﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِي رَوْضَاتِ الجنات لَهُمْ مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الفضل الكبير ﴾ [الشورى: 22]. انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(195/463)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82) ﴾

الآية تُعطينا نموذجين لتلقّي القرآن: إنْ تلقّاه المؤمن كان له شفاء ورحمة، وإنْ تلقّاه الظالم كان عليه خَسَاراً، والقرآن حدّدَ الظالمين لِيُبيِّن أن ظلمهم هو سبب عدم انتفاعهم بالقرآن؛

لأن القرآن خير في ذاته وليس خساراً.

وقد سبق أن أوضحنا أن الفعل قد يكون واحداً، لكن يختلف القابل للفعل، ويختلف الأثر من شخص لآخر، كما أن الماء الزلال يشربه الصحيح، فيجد له لذة وحلاوة ويشربه العليل فيجده مُرّاً مائعاً، فالماء واحد لكن المنفعل للماء مختلف. كذلك أكل الدَّسم، فإنْ أكله الصحيح نفعه، وزاد في قوته ونشاطه، وإنْ أكله السقيم زاده سُقْماً وجَرَّ عليه علة فوق عِلّته.

وقد سبق أن أوضحنا في قصة إسلام الفاروق عمر -رضي الله عنه- أنه لما تلقى القرآن بروح الكفر والعناد كَرِهه ونَفَر منه، ولما تلقاه بروح العطف والرِّقّة واللين على أخته التي شجَّ وجهها أعجبه فآمن.

إذن: سلامة الطبع أو فساده لها أثر في تلقِّي القرآن والانفعال به. وما أشبه هذه المسألة بمسألة التفاؤل والتشاؤم، فلو عندك كوب ماءٍ قد مُلِئ نصفه، فالمتفائل يُلفِت نظره النصف المملوء، في حين أن المتشائم يُلفِت نظره النصف الفارغ، فالأول يقول: نصف الكوب ممتلئ. والآخر يقول: نصف الكوب فارغ، وكلاهما صادق لكن طبعهما مختلف.

وقد عالج القرآن مسألة التلقّي هذه في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: 124-125]

فالآية واحدة، لكن الطبع المستقل مختلف، فالمؤمن يستقبلها بمَلَكاتٍ سليمة، فيزداد بها إيماناً، والكافر يستقبلها بملكَات فاسدة فيزدادَ بها كفراً، إذن: المشكلة في تلقّي الحقائق واستقبالها أن تكون ملكاتُ التلقي فاسدة.

ومن هنا نقول: إذا نظرتَ إلى الحق، فإياك أنْ تنظره وفي جوفك باطل تحرص عليه، لا بُدّ أن تُخرِج ما عندك من الباطل أولاً، ثم قارن وفاضل بين الأمور.

وكذلك جاءت هذه المسألة في قول الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَآءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقُوَاهُمْ ﴾ [محمد: 16-17]

وقولهم: ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفاً . . ﴾ [محمد: 16] دليل على عدم اهتمامهم بالقرآن، وأنه شيء لا يُؤْبَهُ له.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أعْجَمِيّاً لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . .

﴾ [فصلت: 44]

ومثالٌ لسلامة التلقّي من حياتنا المعاصرة إرسال التلفاز مثلاً ، فقد تستقبله أنت في بيتك فتجده واضحاً في حَلْقة من الحلقات أو برنامج من البرامج ، فتتمتع بما شاهدت ، ثم تقابل صديقاً فيشكو لك سوء الإرسال وعدم وضوح الصورة فيؤكد لك سلامة الإرسال ، إلا أن العيب في جهاز الاستقبال عندك ، فعليك أولاً أن تضبط جهاز الاستقبال عندك لتستقبل آيات الله الاستقبال الصحيح .

إذن: قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . . ﴾ [الإسراء: 82] متوقف على سلامة الطبع ، وسلامة الاستقبال ، والفهم عن الله تعالى .

والشفاء: أن تعالج داءً موجوداً لتبرأ منه . والرحمة: أن تتخذ من أسباب الوقاية ما يضمن لك عدم معاودة المرض مرة أخرى ، فالرحمة وقاية ، والشفاء علاج .

لكن ، هل شفاءُ القرآن شفاءٌ معنويٌّ لأمراض القلوب وعِلَل النفوس ، فيُخلِّص المسلم من القلق والحَيْرة والغَيْرة ، ويجتثّ ما في نفسه من الغِلّ والحقد ، والحسد ، إلى غير هذا من أمراض معنوية ، أم هو شفاء للماديات ، ولأمراض البدن أيضاً ؟

والرأي الراجح ـ بل المؤكد ـ الذي لا شكَّ فيه أن القرآن شفاء بالمعنى العام الشامل لهذه

الكلمة ، فهو شفاء للماديات كما هو شفاء للمعنويات ، بدليل ما رُوِي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ وأنه خرج على رأس سرية وقد مَرُّوا بقوم ، وطلبوا منهم الطعام ، فأَبَوْا إطعامهم ، وحدث أنْ لُدِغ كبير القوم ، واحتاجوا إلى مَنْ يداويه فطلبوا مَنْ يرقيه ، فقالوا : لا نرقيه إلا بجُعْل ، وذلك لما رأوه من بُخْلهم وعدم إكرامهم لهم ، على حَدِّ قوله تعالى : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً . . ﴾ [الكهف: 77]

ولما اتفقوا معهم على جُعل من الطعام والشياه قام أحدهم برقية اللديغ بسورة الفاتحة فبرئ ، فأكلوا من الطعام وتركوا الشياه إلى أنْ عادوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسألوه عن حِلِّ هذا الجُعْل فقال صلى الله عليه وسلم : " ومَنْ أدراك أنها رقية " أي : أنها رُقْية يرقى بها المريض فيبرأ بإذن الله ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : "كلوا منها ، واجعلوا لي سهماً معكم " .

فشفاء أمراض البدن شيء موجود في السُّنة ، وليس عجيبة من العجائب ؛ لأنك حين تقرأ كلام الله فاعلم أن المتكلم بهذا الكلام هو الحق سبحانه ، وهو ربّ كل شيء ومليكه ، يتصرّف في كونه بما يشاء ، وبكلمة (كُنْ) يفعل ما يريد ، وليس ببعيد أنْ يُؤثّر كلام الله في المريض فيشفى .

ولما تناقش بعض المعترضين على هذه المسألة مع أحد العلماء، قالوا له: كيف يُشْفَى المريض بكلمة؟ هذا غير معقول، فقال العالم لصاحبه: اسكت أنت حمار!! فغضب الرجل، وهَمَّ بترك المكان وقد ثارت ثورته، فنظر إليه العالم وقال: انظر ماذا فعلتْ بك كلمة، فما بالُكَ بكلمة، المتكلّم بها الحق سبحانه وتعالى؟ ثم يقول تعالى: ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: 82] لأنهم بظُلْمهم واستقبالهم فُيوضات السماء بملَكَات سقيمة، وأجهزة متضاربة متعارضة، فلم ينتفعوا بالقرآن، ولم يستفيدوا برحمات الله.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾.

(199/463)

الله تعالى يريد أن يعطي الإنسان صورة عن نفسه؛ لتكون عنده المناعة الكافية إذا ما أصابه المرض، كما يعطي الطبيب جَرْعة الطُّعْم أو التحصين الذي يمنع حدوث مرض ما.

فها هي طبيعة الإنسان وسِمَته الغالية، وعليه أنْ يُخفّف من هذه الطبيعة، والمراد أن

الإنسان إذا أنعم الله عليه استغنى وأعرضَ.

ولكي نُوَضِّح هذه المسألة نمثّل لها - ولله المثل الأعلى - الوالد الذي يعطي للابن مصروفه كل شهر مثلاً، فترى الولد لا يلتفت إلى أبيه إلا أول كل شهر، حيث يأتي موعد ما تعوَّد عليه من مصروف، وتراه طوال الشهر منصرفاً عن أبيه لا يكاد يتذكره، أما إذا عوَّده على أنْ يُعطيه مصروفه كل يوم، فترى الولد في الصباح يتعرَّض لأبيه ويُظهِر نفسه أمامه ليُذكِّره بالمعلوم. فالولد حين أعرض عن أبيه وانصرف عنه، ما الذي دعاه إلى هذا التصرف؟ لأن الوالد أعطاه طاقة الاستغناء عنه طوال الشهر، فإنْ كان الابن باراً مؤمناً فإنه لا ينسى فَضْل والده الذي وَفَّر له طاقة الاستغناء هذه، فيُذكِر والده بالخير، ويحمل له هذا الجميل.

فإنْ كان هذا هو الحال مع الرب الأدنى فهو كذلك مع الربِّ الأعلى سبحانه، فيقول تعالى:

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإنْسَانِ أَعْرَضَ.. ﴾ [الإسراء: 83]

أي: أعرض عنا وعن ذِكْرنا وانصرف عن منهجنا، ومن الناس مَنْ يُعرِض عن ذكر الله، ولكنه يؤدّي منهجه، ولو أدَّى المنهج ذكر صاحب المنهج ما نسى المنعم أبداً.

وإذا شُغِل الإنسان بالنعمة عن المنعم، فكأنه يُخطِّئ المنعم، كما قال تعالى: ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق: 6-7]

فالاستغناء هنا ليس ذاتياً في الإنسان، بل هو استغناء موهوب، قد ينتهي في يوم من الأيام

ويعود الإنسان من جديد يطلب النعمة من المنعِم سبحانه ، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ [العلق: 8]

(200/463)

ثم يتحدث الحق عن صفة أخرى في الإنسان: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً ﴾ [الإسراء: 83] وهذه صفة مذمومة في الإنسان الذي إذا ما تعرّض لشرٍّ أو مسّه ضرٌّ يقنط من رحمة الله ، وكأن الحق سبحانه يخاطب عبده الذي يقنط: لا يليق بك أن تقنط إذا ضاقتْ بك الدنيا ، وأنت مؤمن لا تعيش مع الأسباب وحدها إنما مع المسبِّب سبحانه ، وما دُمْتَ في رحاب مُسبِّب الأسباب فلا تيأس ولا تقنط .

لذلك يقولون: "لا كَرْبَ وأنت ربٌّ" ، فيجوز لك القنوط إن لم يكُنْ لك رَبٌّ يتولاَّك ، أما والرب موجود فلا يليق بك ، كيف ومَنْ له أب لا يُلقي لهموم الدنيا بالاً ، ويستطيع أن يعتمد عليه في قضاء حاجاته ، فما بالك بمَنْ له ربٌّ يرعاه ويتولاَّه ، ويستطيع أن يتوجه إليه ، ويدعوه في كل وقت؟

والحق سبحانه حينما يُنبِّهنا إلى هذه المسألة يريد أنْ يُعطينا الأُسْوة به سبحانه وتعالى ، يريد أن يقول للإنسان: لا تحزن إن أدَّيْتَ للناس جميلاً فأنكروه ، أو معروفاً فجحدوه ،

وكيف تحزن وهم يفعلون هذا معي ، وأنا ربُّ العالمين ، فكثيراً ما أُنعِم عليهم ، ويُسيئون إليَّ ، ويكفرون بي وبنعمتي .

وسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ حينما طلب من ربه تعالى ألاَّ يقال فيه ما ليس فيه ، قال له ربه : كيف ، وأنا لم أفعل ذلك لنفسي ؟ ! إنهم يفترون على الله ما ليس فيه ، ويكفرون به سبحانه وينكرون إيجاده ونعمه ، فَمنْ يغضب لقول الكافرين أو إيذائهم له بعد هذا ؟

لكن ، لماذا ييأس الإنسان ويقنط ؟ لأنه في حال النعمة أعرض عن الله ونأى بجانبه : أي ابتعد عن ربه ، لم يَعُدْ له مَنْ يدعوه ويلجأ إليه أن يُفرِّج عنه ضيق الدنيا .

إذن : لما أعرض في الأولى يَئِس في الثانية . والله تعالى يجيب مَنْ دعاه ولجأ إليه حال الضيق حتى إنْ كان كافراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ . . ﴾ [الإسراء : 67]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً ﴾ .

أي: أن كل إنسان يعمل على طريقته، وعلى طبيعته، وعلى مقدار ما تكونت به من خلايا الإيمان، أو من خلايا إيمان اختلطت بخلايا عصيان، أو بما عنده من خلايا كفر، فالناس مختلفون وليسوا على طبع واحد، فلا تحاول ـ إذن ـ أن تجعل الناس على طبع واحد.

وما دام الأمر كذلك، فليعمل كل واحد على شاكلته، وحسب طبيعته، فإنْ أساء إليك إنسان سيئ الطبع فلا تقابله بسوء مثله، ولتعمل أنت على شاكلتك، ولتقابله بطبع طيّب؛ لذلك يقولون: لا تُكافئ مَنْ عصى الله فيك بأكثر من أنْ تطيع الله فيه. وبذلك يستقيم الميزان في المجتمع، ولا تتفاقم فيه أسباب الخلاف.

ثم يقول تعالى: ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: 84] والربُّ: المتولّي للتربية، والمتولّي للتربية لا شكّ يعلم خبايا المربَّى، ويعلم أسراره ونواياه، كما قال تعالى: ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: 14]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي . . . ﴾ .

(202/463)

والسؤال يَرِد في القرآن بمعان متعددة، ووردتْ هذه الصيغة ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ ﴾ في مواضع عِدّة، فإنْ كان السؤال عن شيء نافع يضر الجهل به أجابهم القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ [البقرة: 222]

وقوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 215]

فإنْ كان السؤال عن شيء لا يضر الجهل به ، لفت القرآن أنظارهم إلى ناحية أخرى نافعة ، كما في سؤالهم عن الأهِلّة: كيف يبدو الهلال صغيراً ثم يكبر ويكبر إلى أن يصير بدراً ، ثم يأخذ في التناقص ليعود كما بدأ ؟

فالحديث مع العرب الذين عاصروا نزول القرآن في هذه الأمور الكونية التي لم نعرفها إلا حديثاً أمر غير ضروري ، وفوق مستوى فهمهم ، ولا تتسع له عقولهم ، ولا يترتب عليه حكم ، ولا ينتج عن الجهل به ضرر ، ولو أخبرهم القرآن في إجابة هذا السؤال بحقيقة دوران القمر بين الأرض والشمس وما يترتب على هذه الدورة الكونية من ليل ونهار ، وهم أمة أمية غير مثقفة لاتهموا القرآن بالتخريف ، ولربما انصرفوا عن أصل الكتاب كله .

لكن يُحوّلهم القرآن ، ويُلفت أنظارهم إلى ما يمكن الانتفاع به من الأهِلّة: ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ . . ﴾ [البقرة: 189]

وقد يأتي السؤال ، ويُراد به اختبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك ما حدث من اتفاق كفار مكة واليهود حيث قالوا لهم: اسألوه عن الروح ، وهم يعلمون تماماً أن هذه

مسألة لا يعلمها أحد ، لكنهم أرادوا الكيد لرسول الله ، فلعله يقول في الروح كلاماً يأخذونه عليه ويستخدمونه في صَرْف الناس عن دعوته .

(203/463)

ولا شَكَّ أنه سؤال خبيث ؛ لأن الإنسان عامة يحب أن يظهر في مظهر العالم ، ولا يحب أن يعجز أمام محاوره فاستغلوا هذه العاطفة ، فالرسول لن يُصَغِّر نفسه أمام سائليه من أهل مكة ، وسوف يحاول الإجابة عن سؤالهم .

ولكن خَيَّب الله سَعْيهم ، فكانت الإجابة: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: 85]

فعندما سمع أهل الكتاب هذه الإجابة آمن كثيرون منهم ؛ لأنها طابقت ما قالته كتبهم عن الروح ، وأنها من عند الله .

و ﴿ الرُّوحِ ﴾ لها إطلاقات مُتعدّدة ، منها : الرُّوح التي تمدُّ الجسم بالحياة إن اتصلت به ، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: 29]

فإذا ما فارقتْ هذه الروح الجسد فقد فارق الحياة ، وتحوّل إلى جثة هامدة ، وفيها يقول

تعالى: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ [الواقعة: 83]

وقد تأتي الروح لتدل على أمين الوحي جبريل عليه السلام، كما في قوله تعالى:

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: 193]

وقد تُطلَق الروح على الوحي ذاته، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: 52]

وتأتي بمعنى التثبيت والقوة، كما في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة: 22]

وأُطلِقَتْ الروح على عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء: 171]

إذن: لهذه الكلمة إطلاقات مُتعدّدة، فما العلاقة بينها؟

(204/463)

قالوا: الروح التي بها حركة الحياة إذا وُجِدَتْ في الإنسان تعطي مادية الحياة، ومادية الحياة شيء، وقِيَمُ الحياة شيء آخر، فإذا ما جاءك شيء يعدل لك قيم الحياة فهل تُسمّيه روحاً؟ لا، بل هو روح الروح؛ لأن الروح الأُولى قصاراها الدنيا، لكن روح المنهج النازل

من السماء فخالدة في الآخرة، فأيُّهما حياته أطول؟

لذلك فالحق سبحانه يُنبِّهنا: إياك أنْ تظنَّ أن الحياة هي حياتك أنت وكونك تُحِسُّ وتتحرك وتعيش طالما فيك روح، لا بل هناك روح أخرى أعظم في دار أخرى أَبْقى وأَدْوم: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: 64]

لأن الروح التي تعيش بها في الدنيا عُرْضة لأنْ تُؤخَذ منك، وتُسلَب في أيّ مرحلة من مراحل حياتك منذ وجودك جنيناً في بطن أمك، إلى أنْ تصير شيخاً طاعناً في السنِّ..

أما روح الآخرة، وهي روح القيم وروح المنهج، فهي الروح الأَقْوى والأَبْقى؛ لأنها لا يعتريها الموت.

إذن: سُمّي القرآن، وسُمّي المَلك النازل به روحاً؛ لأنه سيعطي حياة أطول هي حياة القيم في الآخرة.

وهنا يقول تعالى: ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي.. ﴾ [الإسراء: 85]

أي: أن هذا من خصوصياته هو سبحانه، وطالما هي من خصوصياته هو سبحانه، فلن يطلع أحداً على سِرِّها. وهل هي جوهر يدخل الجسم فيحيا ويسلب منه فيموت، أم هي مراد (بكُنْ) من الخالق سبحانه، فإنْ قال لها كُنْ تحيا، وإنْ قال مِتْ تموت؟

إنّ علم الإنسان سيظل قاصراً عن إدراك هذه الحقيقة، وسيظل بينهما مسافات طويلة؛ لذلك قال تعالى بعدها: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: 85]

وهل عرف العقل البشري كل شيء حتى يبحث في أسرار الروح؟ !

ولما تعرَّض أحد رجال الصوفية للنقد ، واعترض عليه أحد الأشخاص فقال له الصوفي:

وهل أَحَطْتَ عِلْماً بكل شيء في الكون؟ قال الرجل: لا ، قال: فأنا من الذي لا تعلم .

(205/463)

والحق سبحانه وتعالى حينما يعطينا فكرة عن الأشياء لا يعطينا بحقائق ذاتها وتكوينها ؛ لأن أذهاننا قد لا تتسع لفهمها ، وإنما يعطينا بالفائدة منها . فحين حدثنا عن الأهِلّة قال: ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ . . ﴾ [البقرة: 189]

وهذه هي الفائدة التي تعود علينا والتي تهمنا من الأَهِلّة ، أما حركتها ومنازلها والمراحل التي تمر بها الأَهِلّة فأمور لا يضر الجهل بها ؛ ذلك لأن الاستفادة بالشيء ليستْ فرعاً لفهم حقيقته ، فالرجل الأُمي في ريفنا يقتني الآن التلفاز وربما الفيديو ، ويستطيع استعمالهما وتحويل قنواتهما وضبطهما ، ومع ذلك فهو لا يعرف كيف تعمل هذه الأجهزة؟ وكيف تستقبل؟

إذن: الاستفادة بالشيء لا تحتاج معرفة كل شيء عنها ، فيكفيك -إذن- أنْ تستفيد بها دون أن تُدخِل نفسك في متاهات البحث عن حقيقتها .

والحق سبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ.. ﴾ [الإسراء: 36] لأن الخالق سبحانه يريد للإنسان أن يُوفّر طاقاته الفكرية ليستخدمها فيما يُجدي، وألاَّ يُتعِب نفسه ويُجهدها في علم لا ينفع، وجهل لا يضر.

فعلى المسلم بدل أن يشغل تفكيره في مثل مسألة الروح هذه، أنْ ينشغل بعمل ذي فائدة له ولمجتمعه. وأيّ فائدة تعود عليك إنْ توصلت إلى سِرٍّ من أسرار الروح؟ وأيّ ضرر سيقع عليك إذا لم تعرف عنها شيئاً؟

إذن: مناط الأشياء أن تفهم لماذا وجدت لك، وما فائدتها التي تعود عليك.

والحق سبحانه حينما قال: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: 85] كان يخاطب بها المعاصرين لرسول الله منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام، ومازال يخاطبنا ويخاطب مَنْ بعدنا، وإلى أن تقوم الساعة بهذه الآية مع ما توصلتْ إليه البشرية من علم وكأنه سبحانه يقول: يا ابن آدم، الزم غرزك، فإن وقفت على سِرٍّ فقد غابتْ عنك أسرار.

وقد أوضح الحق سبحانه لنا هذه المسألة في قوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت:53]

وها هم العلماء والباحثون يقفون كل يوم على جديد في الكون الفسيح وفي الإنسان، ولو تابعتَ ما توصّل إليه علماء الفضاء ورجال الطب لَهالكَ ما توصَّلوا إليه من آيات وعجائب في خَلْق الله تعالى، لكن هل معنى ذلك أننا عرفنا كل شيء؟ إن كلمة ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ ستظل تعمل إلى قيام الساعة.

والمتتبع لطموحات العقول وابتكاراتها يجد التطور يسير بخُطىً واسعة، ففي الماضي كان التقدم يُقَاسُ بالقرون، أما الآن ففي كل يوم يطلع علينا حديث وجديد، ونرى الأجهزة تُصنع ولا تُستعمل؛ لأنها قبل أنْ تُبَاع يخرج عليها أحدث منها، لكن كلها زخارف الحياة وكمالياتها، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ.. ﴾ [يونس: 24]

فكلُّ مَا نراه من تقدُّم ليس من ضروريات الحياة، فقد كُنَّا نعيش بخير قبل أن نعرف الكهرباء، وكُنَّا نشرب في الفخار والآن في الكريستال، فابتكارات الإنسان في الكماليات، أما الضروريات فقد ضمنها الخالق سبحانه قبل أن يوجد الإنسان على هذه الأرض.

فإذا ما استنفدتْ العقول البشرية نشاطاتها، وبلغتْ مُنتهى مَا لديها من ابتكارات، حتى ظنَّ الناس أنهم قادرون على التحكم في زمام الكون، لا يعجزهم فيه شيء، كما قال

تعالى:

﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾ [يونس: 24]

فبعد ما أخذتم أسرار المنعِم في الكون على قَدْر ما استطعتم، فاذهبوا الآن إلى المنعِم ذاته لتروا النعيم على حقيقته، وكلما رأيت في دنيا الناس ابتكارات واختراعات تُسعِد الإنسان، فهذا ما أعدّ البشر للبشر، فكيف بما أعدّ الله الخالق لخَلْقه؟

(207/463)

فالمفروض أن زخارف الحياة وزينتها وكمالياتها لا تدعونا إلى الحقد والحسد لمن توفرتْ لديه، بل تدعونا إلى مزيد من الإيمان والشوق إلى النعيم الحقيقي عند المنعِم سبحانه.

ولو تأملتَ هذه الارتقاءات البشرية لوجدتها قائمة على المادة التي خلقها الله والعقل المخلوق لله والطاقة المخلوقة لله، فدَوْر الإنسان أنه أعمل عقله وفكره في المقوّمات التي خلقها الله، لكن مهما وصلتْ هذه الارتقاءات، ومهما تطورتْ هل ستصل إلى درجة: إذا خطر الشيء ببالك تجدْه بين يديك؟

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ .

(208/463)

الحق سبحانه في هذه الآية يريد أنْ يُربِّي الكفار ويُؤنّبهم ، ويريد أن يُبرّئ ساحة رسوله صلى الله عليه وسلم ويتحمل عنه المسئولية ، فهو مجرد مُبلّغ عن الله ، وإياكم أن تقولوا عنه مُفْترٍ ، أو أتى بشيء من عنده ، بدليل أنني لو شِئْتُ لسلبتُ ما أوحيتُه إليه وقرأه عليكم وسمعتموه أنتم وكتبه الصحابة .

فإنْ سأل متسائل: وكيف يذهب الله بوحي مُنزّل على رسوله ، وحفظه وكتبه الصحابة ، وسمعه الكفار ؟

نقول: أولاً: سياق الآية يدلُّنا على أن هذه العملية لم تحدث ؛ لأن الحق سبحانه يقول: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا . . ﴾ [الإسراء: 86] بمعنى: لو شِئْنا فعلنا ذلك ، فالفعل لم يحدث ، والمراد بيان إمكانية ذلك لِيُبرّئ موقف رسول الله ، وأنه ليس له من الأمور شيء .

والغريب أن يفهم البعض من قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ . . ﴾ [آل عمران: 128] أنها ضد رسول الله ، وقَدْح في شخصه ، وليس الأمر كذلك ؛ لأنه ربه تبارك

وتعالى يريد أنْ يتحمّل عنه ما يمكن أن يُفسِد العلاقة بينه وبين قومه ، وكأنه يقول لهم: لا تغضبوا من محمد فالأمر عندي أنا ، وشبَّهنا هذا الموقف بالخادم الذي فعل شيئاً ، فيأتي سيده ليدافع عنه ، فيقول: أنا الذي أمرته .

ثانياً: لماذا نستبعد في قدرة الخالق سبحانه أن يسلب مِنّا ما أوحاه لرسوله وحفظناه وكتبناه ، ونحن نرى فاقد الذاكرة مثلاً لا يكاد يذكر شيئاً من حياته ، فإذا ما أرادوا إعادة ذاكرته يقومون بإجراء عملية جراحية مثلاً ، فما أشبه هذه بتلك .

ونلاحظ في الآية جملة شرطية ، أداة الشرط فيها "إنْ" ، وهي تستخدم للأمر المشكوك في حدوثه ، على خلاف "إذا" فتأتي للأمر المحقق .

ثم يُوضِّح لنا الحق سبحانه أنه إنْ ذهب بما أوحاه لرسوله ، فلن يستطيع أحد إعادته ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: 86]

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ . . ﴾ [الإسراء: 87] أي: أنك لا تجد لك وكيلاً في أيِّ شيء إلا من جانب رحمتنا نحن ، لأن فَضْلنا عليك كبير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فائدة

قال ابن القيم :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

و"من" هنا لبيان الجنس لا للتبعيض فإن القرآن كله شفاء كما قال في الآية الأخرى فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أشجع في إزالة الداء من القرآن .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد قال: "انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب

فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء فقال: بعضهم لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء فأتوهم فقالوا : أيها الرهط إن سيدنا لدغ وسعينا له بكل شيء لا ينفعه فهل عند أحد منكم شيء فقال: بعضهم نعم والله إني لأرقى ولكن والله استضفناكم فلم تضيفونا فما أنا براق حتى

تجعلوا لنا جعلا فصالحوهم على قطيع من الغنم فانطلق يتفل عليه ويقرأ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فكأنما نشط من عقال فانطلق يمشي وما به قلبة فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه فقال بعضهم: اقتسموا فقال الذي رقى لا نفعل حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم فنذكر له الذي كان فننظر بما يأمرنا فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له ذلك فقال: وما يدريك إنها رقية؟ ثم قال: قد أصبتم اقتسموا واضربوا لي معكم سهما فقد أثر هذا الدواء في هذا الداء وأزاله حتى كأن لم يكن وهو أسهل دواء وأيسره ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيرا عجيبا في الشفاء ومكثت بمكة مدة تعتريني أدواء ولا أجد طبيبا ولا دواء فكنت أعالج نفسي بالفاتحة فأري لها تأثيرا عجيبا فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألما وكان كثير منهم يبرأ سريعا .

ولكن ها هنا أمر ينبغي التفطن له وهو أن الأذكار والآيات أو الأدعية التي يستشفى بها ويرقا بها هي في نفسها نافعة شافية ولكن تستدعى قبول المحل وقوة همة الفاعل وتأثيره فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل أو لعدم قبول المنفعل أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة

لذلك الدواء وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول فكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام وكان للراقى نفس فعالة وهمة مؤثرة في إزالة الداء .

وكذلك الدعاء فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب ولكن قد يتخلف أثره عنه إما لضعفه في نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء فيكون بمنزلة القوس الرخو جدا فإن السهم يخرج منه خروجا ضعيفا وإما لحصول المانع من الاجابة من أكل الحرام والظلم ورين الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو وغلبتها عليها كما في صحيح الحاكم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أدعو الله وأنتم موقنون بالاجابة"

واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه فهذا دواؤنا نافع مزيل للداء ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم "أيها الناس إن الله طيب لايقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ

طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك" وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه "أصاب بني إسرائيل بلاء فخرجوا

(212/463)

مخرجا فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة وترفعون الي أكفا قد سفكتم بها الدماء وملأتم بها بيوتكم من الحرام الآن حين اشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا مني الابعدا" وقال ابو ذر: "يكفى من الدعاء البرأ ما يكفى الطعام من الملح" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواب الكافى صـ 7.4 ﴾

(213/463)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) ﴾

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت ستون وثلثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ﴿ وجاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴾ [سبأ: 49].

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو يعلى وابن المنذر، عن جابر رضي الله عنه قال: " دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت ثلثمائة وستون صنماً فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكبت لوجهها وقال: ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ".

وأخرج الطبراني في الصغير وابن مردويه والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: " دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وعلى الكعبة ثلثمائة وستون صنماً، فشد لهم إبليس أقدامها بالرصاص، فجاء ومعه قضيب فجعل يهوي به إلى كل صنم منها فيخرّ لوجهه فيقول: ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ حتى مر عليها كلها ".

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ إن الباطل كان زهوقاً ﴾ قال: ذاهباً.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وقل جاء الحق ﴾ قال: القرآن ﴿ وزهق الباطل ﴾ قال: هلك، وهو الشيطان. وفي قوله: ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة ﴾ قال: الله تعالى جعل هذا القرآن ﴿ شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه.

(214/463)

وأخرج ابن عساكر عن أويس القرني رضي الله عنه قال: لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، قضاء الله الذي قضى ﴿ شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾.

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ ونأى بجانبه ﴾ قال: تباعد منا.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ كان يؤوساً ﴾ قال: قنوطاً. وفي قوله: ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ قال: على

ناحيته.

وأخرج هناد وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه في قوله: ﴿ على شاكلته ﴾ قال: على نيته.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ قال: يهود يسألونه.

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في خرب المدينة وهو متكئ على عسيب، فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. وقال بعضهم: لا تسألوه. فسألوه فقالوا: يا محمد، ما الروح؟ فما زال يتوكأ على العسيب، وظننت أنه يوحى إليه فأنزل الله ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾.

وأخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن حبان وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه فنزلت ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيراً: أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً. فأنزل الله تعالى ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ [الكهف: 109].

وأخرج ابن مردويه من طريق العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: "أخبرنا، ما الروح؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد؟ وإنما الروح من الله ولم يكن نزل عليه فيه شيء فلم يحر إليهم شيئاً، فأتاه جبريل عليه السلام فقال له: ﴿ قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقالوا: من جاءك بهذا؟ قال: جبريل. قالوا: والله ما قاله لك إلا عدوّ لنا. فأنزل الله تعالى ﴿ قل من كان عدوّا لجبريل... ﴾ [البقرة: 97] الآية".

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد، وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في الأسماء والصفات، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله: ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ قال: هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه، لكل وجه

منها سبعون ألف لسان . . . لكل لسان منها سبعون ألف لغة ، يسبح الله تعالى بتلك اللغات ، يخلق الله تعالى من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق عطاء ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ قال : هو ملك واحد له عشرة آلاف جناح ، جناحان منهما ما بين المشرق والمغرب له ألف وجه ، لكل وجه لسان وعينان وشفتان يسبحان الله تعالى إلى يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الروح أمر من أمر الله ، وخلق من خلق الله وصورهم على صور بني آدم ، وما ينزل من السماء من ملك إلا ومعه واحد من الروح . ثم تلا ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ [النبأ : 38] .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن عكرمة رضي الله عنه قال : سئل ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ لا تنال هذه المنزلة ، فلا تزيدوا عليها . قولوا كما قال الله وعلّم نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن عبد الله بن بريدة رضي الله عنه قال : لقد قبض النبي صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح.

وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن زياد ، أنه بلغه أن رجلين اختلفا في هذه الآية ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ فقال أحدهما : إنما أريد بها أهل الكتاب وقال الآخر : بل إنه محمد صلى الله عليه وسلم. فانطلق أحدهما إلى ابن مسعود رضي الله عنه فسأله فقال : ألست تقرأ سورة البقرة؟ فقال : بلى. فقال : وأي العلم ليس في سورة البقرة؟ إنما أريد بها أهل الكتاب.

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ قال : ﴿ الروح ﴾ ملك.

(217/463)

وأخرج ابن عساكر ، عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن أم الحكم الثقفي رضي الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض سكك المدينة ، إذ عرض له اليهود فقالوا : يا محمد ، ما الروح؟ وبيده عسيب نخل فاعتمد عليه - ورفع راسه إلى السماء - ثم قال : ﴿ ويسألونك عن الروح. . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ قليلاً ﴾ قال ابن عساكر : عن عبد

الرحمن بن عبد الله بن أم الحكم الثقفي قيل إن له صحبة .

وأخرج ابن الأنباري في كتاب الأضداد ، عن مجاهد رضي الله عنه قال : ﴿ الروح ﴾ خلق مع الملائكة لا يراهم الملائكة ، كما لا ترون أنتم الملائكة . ﴿ الروح ﴾ حرف استأثر الله تعالى بعلمه ولم يطلع عليه أحداً من خلقه . وهو قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن سلمان رضي الله عنه قال : الإنس والجن عشرة أجزاء : فالانس جزء ، والجن تسعة أجزاء . والملائكة والجن عشرة أجزاء : فالجن من ذلك جزء ، والملائكة تسعة . والملائكة والروح عشرة أجزاء : فالملائكة من ذلك جزء ، والروح تسعة أجزاء .

والروح والكروبيون عشرة أجزاء : فالروح من ذلك جزء ، والكروبيون تسعة أجزاء .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير ، عن عطاء بن يسار قال : نزلت بمكة ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ " فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، أتاه أحبار اليهود فقالوا : يا محمد ، ألم يبلغنا أنك تقول : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أفعنيتنا أم قومك ؟ قال : كلاًّ قد عنيت . قالوا : فإنك تتلو أنا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هي في علم الله قليل ، وقد آتاكم الله ما عملتم به

انتفعتم " فأنزل الله ﴿ وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ . . . ﴾ [لقمان : 27] إلى قوله : ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ [لقمان : 28] .

(218/463)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم ﴾ قال : يا محمد ، والناس أجمعون .

وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ يعني اليهود .

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87) ﴾

أخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس قال : " لما قدم وفد اليمن على رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم فقالوا : " أبيت اللعن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله . . . ! ! إنما يقال هذا للملك ولست ملكاً . . . أنا محمد بن عبد الله . فقالوا : إنا لا ندعوك باسمك . قال : فأنا أبو القاسم . فقالوا : يا أبا القاسم ، انا قد خبأنا لك خبيئاً . فقال : سبحان الله . . . ! إنما يفعل هذا بالكاهن ، والكاهن والمتكهن والكهانة في النار . فقال له أحدهم : فمن يشهد لك أنك رسول الله ؟ فضرب بيده إلى

حفنة حصا فأخذها فقال : هذا يشهد أني رسول الله فسبّحْنَ في يده فقلن : نشهد أنك رسول الله . فقالوا له : أسمعنا بعض ما أنزل عليك . فقرأ ﴿ والصافات صفاً ﴾ حتى انتهى إلى قوله : ﴿ فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ [الصافات : 1-10] فإنه لساكن ما ينبض منه عرق ، وإن دموعه لتسبقه إلى لحيته ، فقالوا له : إنا نراك تبكي . . . ! أمن خوف الذي بعثك تبكي ! ؟ قال : بل من خوف الذي بعثني أبكي ، إنه بعثني على طريق مثل حد السيف ، إن زغت عنه هلكت . ثم قرأ ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً ﴾ " .

(219/463)

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن مسعود قال : إن هذا القرآن سيرفع . قيل : كيف يرفع وقد أثبته الله في قلوبنا وأثبتناه في المصاحف . . . ! ؟ قال : يسرى عليه في ليلة واحدة فلا يترك منه آية في قلب ولا مصحف إلا رفعت ، فتصبحون وليس فيكم منه شيء . ثم قرأ ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ﴾ .

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ليسرَيَنَّ على

القرآن في ليلة فلا يترك آية في مصحف أحد إلا رفعت .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : يسرى على القرآن ليلاً فيذهب به من أجواف الرجال ، فلا يبقى في الأرض منه شيء .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : اقرؤوا القرآن قبل أن يرفع ، فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع . قالوا : هذه المصاحف ترفع ، فكيف بما في صدور الناس . . . . ! ؟ قال : يعدى عليه ليلاً فيرفع من صدورهم ، فيصبحون فيقولون : لكأنا كنا نعلم شيئاً ، ثم يقعون في الشعر .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي ، عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يُدرس الإسلام كما يدرس وشْيُ الثوب ، حتى لا يدرى ما صيام ولا صدقة ولا نسك . ويسرى على كتاب الله في ليلة ، فلا يبقى في الأرض منه آية ويبقى الشيخ الكبير والعجوز يقولون : أدركنا آبائنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها " .

وأخرج الخطيب في تاريخه ، عن حذيفة رضي الله عنه قال : يوشك أن يدرس الإسلام كما يدرس وَشْي الثوب ، ويقرأ الناس القرآن لا يجدون له حلاوة ، فيبيتون ليلة فيصبحون وقد

أسري بالقرآن وما قبله من كتاب ، حتى ينتزع من قلب شيخ كبير وعجوز كبير ، فلا يعرفون وقت صلاة ولا صيام ولا نسك . . . . حتى يقول القائل منهم : إنا سمعنا الناس يقولون : لا إله إلا الله ، فنحن نقول لا إله إلا الله .

وأخرج ابن أبي داود وابن أبي حاتم ، عن شمر بن عطية رضي الله عنه قال : يسرى على القران في ليلة فيقوم المتهجدون في ساعاتهم فلا يقدرون على شيء ، فيفزعون إلى مصاحفهم فلا يقدرون عليها ، فيخرج بعضهم إلى بعض فيلتقون فيخبر بعضهم بعضاً بما قد لقوا .

وأخرج ابن عدي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يأتي الناس زمان يُرْسَلُ إلى القرآن ويرفع من الأرض " .

وأخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : لا تقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل ، له دوي حول العرش كدوي النحل ، يقول : أُتْلَى ولا يُعْمَلُ بي .

وأخرج محمد بن نصر ، عن الليث بن سعد رضي الله عنه قال : إنما يرفع القرآن حين يقبل الناس على الكتب ويكبّون عليها ويتركون القرآن .

وأخرج الديلمي في مسند الفردوس ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أطيعوني ما دمت بين أظهركم ، فإن ذهبت

فعليكم بكتاب الله . . . أحلوا حلاله وحرّموا حرامه ، فإنه سيأتي على الناس زمان يسرى على القرآن في ليلة فَيُنْسَخُ من القلوب والمصاحف " .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : يسرى على كتاب الله فيرفع إلى السماء ، فلا يبقى على الأرض من القرآن ولا من التوراة والإنجيل والزبور ، فينزع من قلوب الرجال فيصبحون في الصلاة لا يدرون ما هم فيه .

(221/463)

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي ، عن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يسرى على كتاب الله ليلاً فيصبح الناس ليس في الأرض ولا في جوف مسلم منه آية " .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى يرفع الذِكْرُ والقرآن " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما قالا : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

" يا أيها الناس ، ما هذه الكتب التي بلغني أنكم تكتبونها مع كتاب الله ؟ يوشك أن يغضب

الله لكتابه فَيُسْرَى عليه ليلاً لا يترك في قلب ولا ورق منه حرفاً إلا ذهب به . فقيل : يا رسول الله ، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات ؟ قال : من أراد الله به خيراً أبقى في قلبه لا إله إلا الله " .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه عن جده قال : يسرى على القرآن في جوف الليل ، يجيء جبريل عليه السلام فيذهب به ، ثم قرأ ﴿ ولئن شئنا لنذهبن . . . ﴾ الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(222/463)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِنَ القرآن ﴾ :

في " مِنْ " هذه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنها لبيانِ الجنس ، قاله الزمخشري ، وابنُ عطية وأبو البقاء . وردَّ الشيخُ عليهم : بأنَّ التي للبيان لا بد أن يتقدَّمها ما تُبَيِّنُه ، لا أَنْ تتقدَّمَ هي عليه ، وهنا قد وُجِدَ تقديمُها عليه .

الثاني : أنها للتبعيض ، وأنكره الحوفي قال : " لأنه يَلْزَمُ أن لا يكونَ بعضُه شفاءً " . وأُجيب عنه : بأنَّ إنزالَه إنما هو مُبَعَّضٌ . وهذا الجوابُ ليس بظاهرٍ . وأجاب أبو البقاء بأنَّ منه ما يَشْفي من المرضِ . قلت : وهذا قد وُجِد بدليل رُقْيَةِ بعضِ الصحابةِ سَيِّدَ الحيِّ الذي لُدِغ ، بالفاتحةِ فشُفي .

الثالث : أنها لابتداءِ الغاية وهو واضح .

والجمهور على رفع " شِفاءٌ / ورحمةٌ " خبرين ل " هو " ، والجملةُ صلةٌ ل " ما " وزيدُ بن علي بنصبهما ، وخُرِّجَتْ قراءتُه على نصبِهما على الحال ، والصلةُ حينئذٍ " للمؤمنين " وقُدِّمَتْ الحالُ على عاملها المعنويِّ كقوله ﴿ والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر : 67] في قراءةِ مَنْ نصب " مَطْوِيَّاتٍ " . وقولِ النابغة :

3100- رَهْطُ ابنِ كُوْزٍ مُحْقِبي أَدراعَهم . . . فيهم ورَهْطُ ربيعةَ بنِ حُذارِ

(223/463)

وقيل : منصوبان بإضمارِ فعلٍ ، وهذا [عند] مَنْ يمنع تقديمَها على عامِلها المعنوي . وقال أبو البقاء : " وأجاز الكسائيُّ : " ورحمةً " بالنصب عطفاً على " ما " . فظاهرُ هذا أن الكسائيَّ بَقَّى " شفاء " على رفعِه ، ونَصَبَ " رحمة " فقط عطفاً على " ما " الموصولة

كأنه قيل : ونُنَزِّل من القرآن رحمةً ، وليس في نَقْله ما يؤذن بأنه تلاها قرآناً . وتقدَّم الخلاف [في] " وننزل " تخفيفاً وتشديداً . والعامَّة على نونِ العظمة . ومجاهد " ويُنْزِل " بياء الغيبة ، أي : الله .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَأَى ﴾ : قرأ العامَّة بتقديمِ الهمزة على حرف العلة مِن النَّأْي وهو البُعْدُ . وابن ذكوان - ونقلها الشيخ عن ابن عامر بكمالِه - : " ناءَ " بتقديم الألف على الهمزة . وفيها تخريجان أحدُهما : أنها مِنْ ناء يَنُوْءُ أي نهض . قال الشاعر :

3101- حتى إذا ما التأَمَتْ مَفاصِلُهْ . . . وناءَ في شِقِّ الشِّمالِ كاهِلُهْ

والثاني : أنه مقلوبٌ مِنْ نأى ، ووزنُه فَلَع كقولهم في " رأى " راءَ ، إلى غيرِ ذلك ، ولكن متى أمكن عدمُ القلبِ فهو أَوْلَى . وهذا الخلافُ جارٍ أيضاً في سورة حم السجدة .

وأمال الألفَ إمالةً محضةً الأخَوان وأبو بكر عن عاصم ، وبينَ بينَ بخلافٍ عنه السوسيُّ ، وكذلك في فُصِّلت ، إلا أبا بكرٍ فإنه لم يُمِلْه .

وأمال فتحةَ النونِ في السورتين خَلَف ، وأبو الحارث والدُّوري عن الكسائي .

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (84) ﴾

قوله تعالى : ﴿ على شَاكِلَتِهِ ﴾ : متعلِّقٌ ب "يَعْمل" . والشَّاكِلَةُ : أحسنُ ما قيل فيها ما قاله الزمخشريُّ : أنها مذهبه الذي يُشاكل حالَه في الهدى والضلالة مِنْ قولهم : "طريقٌ ذو شواكل" وهي الطرقُ التي تَشَعَّبَتْ منه ، والدليلُ عليه قولُه ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهدى سَبِيلاً ﴾ . وقيل : على دينه . وقيل : خُلُقه . وقال ابن عباس : "جانبه" . وقال الفراء : "هي الطريقةُ والمذهب الذي جُبِلَ عليه" .

وهو من "الشَّكْلِ" وهو المِثْل ، يقال : لستَ على شَكْلي ولا شاكلتي . وأمَّا "الشِّكْلُ" بالكسر فهو الهيئة . يقال : جاريةٌ حسنةُ الشِّكْل . وقال امرؤ القيس :

3102- حَيِّ الحُمولَ بجانب العَزْلِ . . . إذ لا يُلائم شَكْلُها شَكْلي

أي : لا يلائمُ مثلُها مثلي .

قوله : "أَهْدى" يجوز أن يكونَ مِنْ "اهْتَدى" ، على حذفِ الزوائد ، وأن يكونَ مِنْ "هَدَى" المتعدِّي . وأن يكونَ مِنْ "هدى" القاصر بمعنى اهتدى . و "سبيلاً" تمييز .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِّنَ العلم ﴾ : متعلِّقٌ ب "أُوْتِيْتُم" ، ولا يجوز تعلُّقُه بمحذوفٍ على أنه حال مِنْ "قليلاً" ؛ لأنه لو تأخَّر لكان صفةً ؛ لأنَّ ما في حَيِّز "إلاَّ" لا يتقدم عليها .

وقرأ عبد الله والأعمش " وما أُوْتُوا " بضمير الغيبة .

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87) ﴾

(225/463)

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا رَحْمَةً ﴾ : فيها قولان ، أحدُهما : أنها استثناء متصلٌ لأنها تَنْدَرِجُ في قولِه " وكيلا " . والثاني : أنها استثناء منقطعٌ فتتقدر ب " لكن " عند البصريين ، و " بل " عند الكوفيين . و " مِنْ ربِّك " : يجوز أن يتعلَّقَ ب " رحمة " وأن يتعلَّق بمحذوف ، صفةً لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 402 . 406 ﴾

(226/463)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الروح)

الرّوح – بالضم – : ما به حياة الأَنفس يؤنث ويذكّر ، والقرآن ، والوَحْى ، وجبريل ، /

وعيسى عليهما السَّلام ، والنفخ ، وأَمر النبوَّة ، وحكم الله تعالى ، وأَمره ، ومَلَكٌ وجهه كوجه الإِنسان وجسده كجسد الملائكة .

والرَّوْح - بالفتح - : الراحة ، والرّحمة ، ونَسيم الريح .

وقيل : الرُّوح والرَّوح فى الأَصل واحد ، وجُعل اسما للنَفَس كقول الشاعر فى صفة النّار :

*فقلت له ارفعها إِليك وأَحْيِها * برُوحك واجعله لها قِيتةً قَدْرًا*

وذلك لكون النّفَس بعض الرُوح ، فهو كتسمية النوع باسم الجنس ، نحو تسمية الإِنسان بالحيوان ، وجُعل اسما للجزءِ الَّذى به تحصل الحياة والتحريك ، واستجلاب المنافع واستدفاع المضَار ، وهو المذكور فى قوله : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، وقوله : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ ، وإِضافته تعالى إِلى نفسه إِضافة مِلْك ، وتخصيصه بالإِضافة تشريف له وتعظيم كقوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ .

وسُمِّى أَشراف الملائكة أَرواحًا ، وسمّى به عيسى عليه السلام : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ ، وذلك لِمَا كان له من إِحياءِ الأَموات .

وسمّى القرآن رُوحاً فى قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ وذلك لكون القرآن سبباً للحياة الأُخرويّة الموصوفة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ .

والرَّوح : التَّنفس .

وقد أَراح الإِنسان أَى تنفَّس .

وقوله : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ ، فالرَّيحان : ما له رائحة من النبات ، وقيل رِزْق ، ثم يقال للحبّ المأْكون رَيْحان فى قوله تعالى : ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ .

وقيل لأَعرابي : إِلى أَين ؟ فقال : أَطلب من رَيْحان الله ، أَى من رِزقه .

وفى الصَّحِيح : "الأَرْواح جُنُود مجنَّدة ، فما تعارف منها ائتلف ، ما تنكر منها اختلف" .

(227/463)

قال الشاعر :

*أَرواحنا مِثْل أَجنادٍ مجنَّدة * لله فى الأَرض بالأَهواءِ تختلف*

*فما تناكر منها فهو مختلف * وما تعارف منها فهو يأْتلف*

والرُّوح فى القرآن ورد على سبعة أَوجه :

الأَوّل : بمعنى الرّحمة : ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أَى رحمة .

الثانى : بمعنى المَلَك الذى يكون فى إِزاءِ جميع الخَلْق يوم القيامة : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً ﴾ .

الثالث : بمعنى جبريل : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ ، ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ .

الرّابع : بمعنى الوحى والقرآن : ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ .

الخامس : بمعنى عيسى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ ، ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ .

السادس : فى شأن آدم عليه السّلام واختصاصِه بفضله : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ .

السّابع : بمعنى اللطيفة التى فيها مَدَد الحياة : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ ، ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ .

وجميع ما تقدّم من الكلام على الرُّوح إنما هو تفصيل من حيث اللفظ .

أَمّا أَقسام الرّوح من حيث العِلْم فالرُّوح فى الأَصل ثلاثة أَنواع : حيوانى ، وطبيعىّ ، ونفسانى .

فمركز الرّوح الحيوانى القلب ، ومركز الرّوح الطَّبيعى الدم ، ومحلُّ الرّوح النفسانى الدماغ .

فالرّوح الحيوانى يصل إِلى جميع الأَعضاءِ بواسطة العُرُوق الضّوارب الَّتى تسمّى الشرايين .

والرُّوح الطبيعى يصل إِلى أَطراف البَدَن بواسطة الأَوردَة .

والرّوح النَّفسانى يَنْتشر من القَرْن إِلى القَدَم بواسطة / الأَعصاب .

وثمرة الرّوح الحيوانىّ الحياةُ والرَّاحة ، وثمرة الرّوح الطبيعى القوّة والقدرة ، وثمرة الرّوح النفسانى الحِسّ والحركة .

وأمَّا حقيقة الرّوح فهى لطيفة ربّانيّة ، وعُنصر من عناصر العالَم العلوىّ تتصل بمدَدٍ ربَّانىّ إلى العالم السُّفلىّ .

(228/463)

وعلى حسب درجة الحيوانات وتفاوت الحالات التى لهم تتَّصل بهم .

ولما كان الإنسان فى الصّورة والصّفة والمعنى أَكمل من جميع الحيوانات كان المتَّصل به من ذلك أَفضل الأَرواح .

وليس لأَحد من العالمين وقوف على سرِّ تلك اللَّطيفة وحقيقته ، والله سبحانه المنفرد بعلم ذلك .

والحكمة فيه - إن شاءَ الله تعالى - أَن يتأَمّل الإنسان ويُسلّطَ قوّة فهمه وفكره ، ويتحقَّق أَنّ الرُّوح الَّذى جعل الله الحياة والرَّوح والراحة والقُوّة والقدرة والحِسّ والحركة والفهم والفكر والسّمع والبصر والنُّطْق والفصاحة والعلم والعقل والمعرفة من ثمراته ونتائجه ، (وله به) نسب وإضافة من وجوه عدّة ، وهو يباشره ويعاشره مدَّة حياته وطول عمره ، فى اليقظة والمنام والقُعُود والقيام ، ودوام الموافقة والمرافقة والصّحبة ، ومع ذلك لا يصل عِلمُه إلى شىءٍ من كُنْه حقيقته ودَرْكِ معرفته ، فكيف يطمع فى الوصول إلى ساحة إدراك جلال من

تنزّه من الكمّ والكيف ، وتقدّس ذاتُه عن الرَّيْنِ والرّيب ، وبَعُدَتْ صفاته عن الشَّين والعيب في عزّة جلاله ، ولا وقوف عليه ولا وصول إليه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

والرِّيح معروفة ، وهى - فيما قيل - الهواءُ المتحرك .

وعامة المواضع الّتى ذكر الله تعالى فيها الرِّيح بلفظ الواحد فعبارةٌ عن العذاب ، وكلُّ موضع ذكر بلفظ الجمع فعبارة عن الرّحمة ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا ﴾ .

وأَمّا قوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ فالأَظهر فيه الرَّحمة ، وقرىءَ بلفظ الجمع وهو أَصحّ .

وقد يستعار الرِّيح للغلبة نحو : ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ ، وفى الأَثر : "لولا الريح لأَنتنَ ما بين السّماء والأَرض" .

ويقال لمن لا أَصل لكلامه : كلامه ريح فى فسيح وقال :

*وثقنا منك بالكرم الصّريح * فأَقدمنا على الفعل القبيح*

*فأَرسلْ لى رِياح الفَضْلِ بُشْرًا * فما بيدىَ شىءٌ غيرُ ريح*

وقد ورد الريح فى القرآن على سبعة

أَوجه:

الأَوّل: بمعنى القوّة والدَّولة: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

الثانى: بمعنى العذاب فى العقوبة: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾، ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾.

الثالث: بمعنى نَسَمَاتِ الرحمة: ﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾.

الرَّابع: بمعنى اللاَّقحات ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾.

الخامس: بمعنى مسخَّرات المراكب فى البحار لمنافع السُّفَّار والتُجَّار: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾.

السّادس: بمعنى رياح النَّصر: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

السّابع: بمعنى ريح المضَّرة والعذاب: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾، ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ أَى من فَرَجه ورحمته، وذلك بعض الرَّوح.

وراحَ فلان إِلى أَهله، وإِمّا لأَنه أَتاهم فى السرعة/ كالرِّيح، أَو لأَنَّه أَستفاد برجوعه إِليهم

رَوْحًا من المسرّة. والله أَعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 103. 109﴾

(230/463)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82) ﴾

القرآن شفاءٌ من داء الجهل للعلماء، وشفاءٌ من داء الشّرْكِ للمؤمنين، وشفاءٌ من داء النكرة للعارفين، وشفاء من لواعج الشوق للمحبين، وشفاء من داء الشطط للمريدين والقاصدين، وأنشدوا:

وكُتْبُكَ حَوْلِي لا تفارق مضجعي... وفيها شفاءٌ للذي أنا كاتِمُ

قوله: ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾: الخطاب خطابٌ واحد، الكتاب كتابٌ واحد، ولكنه لقوم رحمةٌ وشفاء، ولقوم سخطٌ وشقاء، قومٌ أنار بصائرهم بنور التوحيد فهو لهم شفاء، وقوم أغشي على بصائرهم بستر الجحود فهو لهم شقاء.

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83) ﴾

إذا نزعنا عنه موجباتِ الخوفِ ، وأرخينا له حَبْلَ الإمهال ، وهَيَّأْ له أسبابَ الرفاهية اعترته مغاليطُ النسيانِ ، واستولت عليه دواعي العصيان ، فأعرض عن الشكر ، وتباعد عن بساط الوفاق .

ويقال إعراضُه في هذا الموضوع نسيانُه ، ورؤية الفضل منه لا من الحقِ ، وتوهمه أنَّ ما به من النِّعم فباستحقاق طاعةٍ أخلصها أو شدةٍ قاساها . . وهذا في التحقيق شِرْكٌ .

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (84) ﴾

كُلٌّ يترشح بمُودَع باطنه ، فالأَسِرَّةُ تدل على السريرة ، وما تُكِنُّه الضمائرُ يلوح على السرائر ، فَمَنْ صفا مِنَ الكدورة جوهرُه لا يفوح منه إلا نَشْرُ مناقبه ، ومنْ طبِعَتْ على الكدورةِ طينتُه فلا يشمُّ مَنْ يحوم حوله إلا ريحَ مثالبه .

ويقال حركات الظواهر تدلُّ وتُخْبِرُ عن بواطنِ السرائر .

ويقال حَبٌّ (. . .) لا يُنْبِتُ غضَّ العود .

(231/463)

ويقال من عُجِنَتْ بماء الشِّقْوةِ طينتُه ، وطُبِعَتْ على النَّكِرَةِ جبلَّتُه لا تسمح بالتوحيد قريحتُه ، ولا تنطِقُ بالتوحيد عبارتُه .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85) ﴾

أرادوا أن يجادلوه ويُغلّطوه فأَمَرَه أن ينطق بلفظٍ يُفصِحُ عن أقسام الروح؛ لأنَّ ما يُطْلَقُ عليه لفظُ ﴿ الرُّوحِ ﴾ يدخل تحت قوله تعالى:

﴿ قل الرُّوحُ مِنْ أَمرِ رَبّى ﴾ .

ويقال إن روح العبد لطيفة أودعها الله سبحانه في القالب، وجعلها محل الأحوال اللطيفة والأخلاق المحمودة، (وكما يصح أن يكون البَصَرُ محلَّ الرؤية والأذنُ محلَّ السمع.. إلى آخره، والبصير والسامع إنما هو الجملة - وهو الإنسان - فكذلك محل الأوصاف الحميدة الروح، ومحل الأوصاف المذمومة النَّفْس، والحكمُ أو الاسمُ راجعٌ إلى الجملة).

وفي الجملة الروح مخلوقة، والحق أجرى العادة بأن يخلق الحياة للعبد ما دام الروح في جسده. والروح لطيفة تقررت للكافة طهارتها ولطافتها، وهي مخلوقة قبل الأجساد بألوفٍ من السنين. وقيل إنه أدركها التكليف، وإن لها صفاء التسبيح، وصفاء المواصلات، والتعريف من الحق.

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً ﴾: لأن أحداً لم يشاهد الروح ببصره.

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86) ﴾

سُنَّةُ الحقِّ - سبحانه - مع أحبائه وخواص عباده أن يُدِيمُ لهم افتقارهم إليه، ليكونوا في جميع الأحوال مُنْقادين لجريانِ حُكْمِه، وألا يتحركَ فيهم عِرقٌ بخلافِ اختياره، وعلى هذه

الجملة خاطب حبيبَه – صلوات الله عليه – بقوله : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ : فمن كان استقلاله بالله يقدِّم مرادَ سيده – في العزل والولاية – على مراد نفسه .

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87) ﴾

والمقصودُ من هذا إدامة تفرُّدِ سِرِّه صلى الله عليه وسلم به – سبحانه – دونَ غيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 365. 368 ﴾

بحث قيم بعنوان :

" عالج نفسك بالقرآن "

بقلم المهندس : عبد الدائم الكحيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ

[يونس : 57-58]

قبل أن نبدأ

لا بد أن ندرك هذه النقاط :

* إن العلاج بالقرآن لا يعني أبداً أن نتخلى عن الطب الحديث ، بل إن الاستفادة من الأبحاث الطبية ووسائل العلاج الحديثة هي سنَّة نبوية لقوله عليه الصلاة والسلام : (تداووا عباد الله !) ، فهذا الأمر النبوي الصريح يحضنا على الاستفادة من أي وسيلة علاجية ممكنة .

* إن هذا الكتاب يزودك بمعلومات جديدة يجهلها كثير من الإخوة القراء ، ويصحح نظرة الكثير إلى موضوع العلاج بالقرآن ، وهو محاولة لوضع الأساس العلمي الصحيح لعلم الشفاء بالقرآن .

* لقد أثبتت المشاهدات أن القرآن هو خير علاج للمؤمن ، وقد استفاد منه ملايين البشر ، ومن الخطأ أن نهمل هذا العلاج لأن الاعتماد على الطب وحده قد يضيع الخير الكثير ، وإن تجربتك هذا العلاج ليس فيها أي خسارة أو ضرر !

* العلاج بالقرآن هو علاج مجاني لن يكلّفك شيئاً ، وهو علاج بدون آثار جانبية ، وهو متوافر في أي لحظة وفي أي مكان أو ظرف .

* العلاج بالقرآن ليس مجرد علاج أو شفاء من مرض ما ، بل هو شفاء ورحمة وتربية

وسعادة وقرب من الله ، وهو طريقك للنجاح في الدنيا والآخرة ، بل إن العلاج بالقرآن إعادة شاملة وبرمجة متكاملة لحياتك وجسدك ونفسك وروحك . . . .

(234/463)

كلمة لابد منها

أحبتي في الله ! لقد جرَّبتُ العلاج بالقرآن في مختلف الظروف والمشاكل والمصاعب والأمراض ، فوجدته أفضل وسيلة علاجية لأي مرض كان . لقد كان القرآن حاضراً في كل لحظة من حياتي .

ففي حالة المرض كنتُ أقرأ القرآن وأستمع إليه فيهيئ لي الله وسائل الشفاء العاجل ، مهما كان نوع المرض . وحيث تعجز جميع الوسائل عن منحي السعادة ، كان القرآن يمنحني السعادة حتى في حالة المرض ! فلا أشعر بأي همّ أو حزن أو ملل .

وفي حالة التعرض لمشكلة صعبة الحل ، كان القرآن يزودني بطاقة هائلة على الصبر وتحمل المصاعب والرضا بالواقع وعلاج الأمور بالحكمة والتأني .

وعندما كنتُ أواجه موقفاً صعباً ، كان القرآن يعينني على اتخاذ القرار الصحيح دائماً .

وحتى العادات السيئة وضعف الشخصية والمخاوف أو الخوف من المواجهة أو الخوف

من المستقبل ، كان القرآن يمنحني القدرة على إزالة التوتر النفسي والخوف ، بل إن القرآن يمنحك القوة في كل شيء . فهل تجرِّب معي هذا العلاج الرائع ؟ !

(235/463)

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى وضع الأساس العلمي للعلاج بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وبالتالي إثبات جدوى العلاج بالقرآن من الناحية العلمية والطبية . فقد ظهرت حديثاً بعض الطرق البديلة للعلاج فيما يعرف بالطب البديل ، وإحدى هذه الطرق تسمى علمياً "العلاج بالصوت" sound healing حيث أثبت العلماء أن كل خلية من خلايا الدماغ تهتز بتردد محدد ، وأن هنالك برنامجاً دقيقاً داخل كل خلية ينظّم عملها طيلة فترة حياتها ، ويتأثر هذا البرنامج بالمؤثرات الخارجية مثل الصدمات النفسية والمشاكل الاجتماعية .

ولذلك فإن هذه الخلايا لدى تعرضها لمثل هذه التأثيرات سوف يختل عمل البرنامج الخاص بها مما يؤدي إلى الاضطرابات المختلفة ، وقد يؤدي إلى خلل في نظام عمل الجسم بالكامل فتظهر الأمراض على أنواعها النفسية والعضوية .

ويؤكد بعض الباحثين أن أفضل وأسهل طريقة لمعالجة معظم الأمراض يكون بإعادة برمجة هذه الخلايا ، أو بعبارة أخرى إعادة التوازن لها وتعديل اهتزازاتها إلى الحدود الطبيعية ، لأنهم وجدوا أن الخلية المتضررة تكون أقل اهتزازاً من الخلية السليمة . ومن هنا يحاول العلماء البحث عن الذبذبات الصوتية الصحيحة التي تؤثر لدى سماعها على الخلايا المتضررة ، وتعيد التوازن إليها ، ولا تزال التجارب العملية جارية حتى اليوم .

ولكن علماء الغرب يعتمدون على العلاج بالموسيقى وأصوات الطبيعة والذبذبات الثابتة فهذا ما لديهم . وهنا يأتي دور العلاج بالقرآن الكريم والأدعية المأثورة ، وكما نعلم فإن الصوت يصل إلى الدماغ من خلال الأذن والصوت هو عبارة عن ذبذبات ، وعندما يستمع المريض إلى تلاوة الآيات فإن الذبذبات القرآنية التي تصل إلى دماغه تحدث تأثيراً إيجابياً في اهتزاز الخلايا فتجعلها تهتز بالترددات المناسبة التي فطرها الله عليها . لأن القرآن يتميز بتناسق فريد من نوعه لا يتوافر في أي كلام آخر ، يقول تعالى : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) [النساء : 82] .

ولذلك فإن العلاج بالقرآن هو أفضل وأسهل طريقة لإعادة التوازن للخلية المتضررة ، فالله

تعالى هو خالق الخلايا وهو الذي أودع فيها هذه البرامج الدقيقة ، وهو أعلم بما يصلحها ، وعندما يخبرنا المولى تبارك وتعالى بأن القرآن شفاء بقوله (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) [الإسراء : 82] ، فهذا يعني أن تلاوة القرآن لها تأثير مؤكد على إعادة توازن الخلايا .

ولذلك فإننا نرى كثيراً من الحالات التي استعصت على الطب مثل بعض أنواع السرطان ، يأتي العلاج القرآني ليشفي هذه الأمراض بإذن الله ، لأن العلاج بالقرآن ببساطة هو إعادة لبرمجة الخلايا في الدماغ لتتحكم بالعمليات الأساسية عند الإنسان وتعيد الجسم لحالته الطبيعية وتزيد من مناعته وقدرته على مقاومة هذه الأمراض ، وبعبارة أخرى إن العلاج بالقرآن والرقية الشرعية هو عملية تنشيط خلايا الدماغ المسؤولة عن قيادة الجسم ورفع مستوى الطاقة فيها وجعلها تهتز بالطريقة الطبيعية .

ومن أهم نتائج هذا البحث إقناع المعارضين بأن العلاج بالقرآن له أساس علمي ، وإقناع الأطباء بأن يستفيدوا من العلاج بالقرآن بالإضافة إلى أدويتهم ، كذلك فإن مثل هذا البحث هو وسيلة لإقناع غير المسلمين بصدق كتاب الله تبارك وتعالى ، وإثبات إعجاز

القرآن من الناحية الطبية والنفسية .

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (الإسراء : 82)

(238/463)

مقدمة

الحمد لله الذي جعل كتابه شفاء ورحمة للمؤمنين ، وصلى الله على من أرسله الله رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه وسلم . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

وبعد :

فمنذ آلاف السنين بحث الإنسان عن الشفاء في كل مكان وبكلّ الأساليب ، فقد ظن بأن الشفاء في عبادة الآلهة ، أو السجود للشمس ، أو عبادة النار ، أو التقرب من الأصنام . . . . . وغير ذلك من المعتقدات الخاطئة . ولكن عندما جاء النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم حدّد لنا المنهج السليم في التداوي ، وأنزل الله عليه القرآن الذي جعله الله شفاء للمؤمنين .

وعلى مدى أربعة عشر قرناً كان العلاج بالقرآن من الأمور البديهية لدى المسلمين ، يعالجون

به أي مرض يتعرضون له إيماناً منهم بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : 57] .

وبعد التطور الكبير لأساليب العلاج الطبية والتي تعتمد على العلاج بالمواد الكيميائية ، حقق الأطباء نجاحات مبهرة في مختلف ميادين الطب ، وأصبح أطباء المسلمين في معظمهم بعيدين عن أسلوب العلاج بالقرآن الكريم والرقية الشرعية . فعلم الطب جاءنا من علماء الغرب وهم أناس ماديون لا يؤمنون بوجود خالق لهذا الكون ، ويردّون أي ظاهرة إلى الطبيعة .

ولذلك فقد تأثر أطباؤنا المسلمون بهذه النظرة ، ولم يعد لديهم الثقافة الشرعية التي تجعلهم يهتّمون بالعلاج بالقرآن ، ومن هنا كان لابدّ ونحن نرى حقائق مؤكدة عن شفاء القرآن لحالات مستعصية مثل السرطان ، أن نبحث عن الأساس العلمي للشفاء بالقرآن ، وبعبارة أخرى : كيف يمكن أن يُشفَى المريض بمجرَّد تلاوة بعض الآيات القرآنية ؟

وما هي العمليات التي تحدث في داخله بدقة ؟ والهدف من ذلك هو محاولة لوضع الأساس العلمي للعلاج بالقرآن عسى أن نقنع أطباءنا بهذا الأسلوب القوي في علاج أشد الأمراض خطورة .

وسوف نرى بأن القرآن الكريم له تأثير مذهل على جميع أجهزة الجسم وأهمها النظام المناعي ، وسوف نثبت أن قراءة الآيات القرآنية يؤدي إلى زيادة مناعة الجسم بصورة كبيرة ، وأيضاً يؤدي إلى إعادة التوازن لنظام عمل الخلايا ، وبخاصة خلايا الدماغ والقلب .

ويمكن القول إن هذا البحث هو بمثابة برهان ودليل على أن إعجاز القرآن لا يقتصر على علوم البلاغة والكون والتشريع ، بل هنالك إعجاز شفائي ، أي هنالك خاصية أودعها الله في آيات كتابه وهي عبارة عن معلومات عندما تصل إلى دماغ المستمع فإنها تعيد برمجة الخلايا وتغذيها بالتعليمات الصحيحة لتقوم بعملها على أكمل وجه .

فالدماغ والقلب عضوان سخرهما الله تعالى لنا وأودع فيهما أسراراً كثيرة ، وجعل القلب موجِّهاً للدماغ في عمله ، بل إن العلماء كشفوا وجود خلايا عصبية معقدة في القلب تؤثر على الجسد كاملاً .

وربما نتذكر حديث النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم عندما أكد لنا أن الجسد يحوي مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب .

وإن الاستماع إلى القرآن يؤدي إلى تنشيط عمل القلب واستقراره وإزالة التوتر والاضطراب ، وبالتالي اطمئنان القلب وهو ما ينعكس على عمل بقية أجهزة الجسم .

يتألف الدماغ البشري من أكثر من تريليون خلية ، وقد صمَّم الله هذا الدماغ بشكل معجز

، حيث تجري في داخله العمليات الضرورية التي تسيِّر الجسم وتحافظ على توازنه وحالته الصحيحة ، وإن أي خلل في الجسم يعني وجود خلل ما في الدماغ .

تظهر هذه الصورة الخلايا العصبية داخل القلب ، وهي خلايا معقدة جداً لم يعرف العلماء حتى الآن طريقة عملها ، ولكن هذه الخلايا مسؤولة عن تخزين المعلومات وتحميلها لخلايا الدم وبثها لكافة أنحاء الجسم ، وبالتالي فهي أشبه بذاكرة الكمبيوتر التي لا يعمل بدونها .

المرجع : معهد رياضيات القلب الأمريكي .

ولنبدأ بهذا السؤال : لماذا لا يقتنع بعض الناس بهذا العلاج ؟

إن عدم اقتناع بعض الناس بالعلاج بالقرآن هو عدم وجود الأساس العلمي المادي لهذا العلم ، ويمكن أن نطرح السؤال على الشكل التالي : عندما يستمع المريض إلى القرآن ماذا يحدث في داخله من عمليات دقيقة تؤدي إلى الشفاء ؟ في البداية دعونا نسأل سؤالاً آخر : ما هو العلاج بالقرآن ؟

إنه عبارة عن آيات تُتلى على المريض بالإضافة إلى الأدعية المأثورة ، والتي نكررها عدداً من المرات حتى يحدث الشفاء بإذن الله تعالى . إذن الشيء الذي يؤثر في المريض هو تلاوة

القرآن ، والتلاوة القرآنية تتألف من شيئين ، الصوت الذي يتكلم به المعالج ، والمعاني التي تحملها الآيات . وسوف نثبت من خلال الفقرات الآتية إن شاء الله أن الصوت له تأثير قوي جداً على خلايا الجسم ، ونثبت أيضاً أن أفضل تأثير للعلاج بالصوت هو كلام الله تعالى .

تأثير الصوت

في البداية عندما نتأمل هذا الكون من حولنا فإننا نلاحظ أن كل ذرة من ذراته تهتز بتردد محدد ، سواء كانت هذه الذرة جزءاً من معدن أو ماء أو خلية أو غير ذلك ، إذن كل شيء في هذا الكون يهتز ، وهذه حقيقة علمية لا ريب فيها .

إن وحدة البناء الأساسية للكون هي الذرة ، ووحدة البناء الأساسية لأجسامنا هي الخلية ، وكل خلية من خلايا جسدنا تتألف من بلايين الذرات ، وكل ذرة طبعاً تتألف من نواة موجبة تدور حولها إلكترونات سالبة ، وبسبب دوران الإلكترونات يتولد حقل كهربائي ومغنطيسي ، وهذه الحقول أشبه بالحقول التي يولدها المحرك أثناء دورانه .

تتألف الذرة من جسيمات متوضعة في النواة تهتز بشكل دائم ، وتدور حولها مجموعة من الإلكترونات في مدارات وهي تهتز أيضاً ، والذرة تهتز أيضاً ، وتنشر حولها مجالاً كهرطيسياً .

إن السرّ الذي يجعل دماغنا يفكر هو وجود برنامج دقيق داخل خلايا الدماغ ، هذا البرنامج موجود في كل خلية ويمارس مهمته بدقة فائقة ، حيث إن أقل خلل في عمل هذا البرنامج سيؤدي إلى خلل يظهر على بعض أجزاء الجسم . وسوف يصبح هناك عدم توازن .

إذن العلاج الأمثل هو إعادة التوازن لهذا الجسم . وقد اكتشف العلماء أن خلايا الجسم تتأثر بمختلف أشكال الاهتزازات ، مثل الأمواج الضوئية والأمواج الراديوية والأمواج الصوتية وغير ذلك .

ولكن ما هو الصوت ؟

طبعاً نعلم أن الصوت عبارة عن موجات أو اهتزازات تسير في الهواء بسرعة تبلغ 340 متراً في الثانية تقريباً ، ولكل صوت من الأصوات هناك تردد معين ، ويتراوح المجال المسموع للإنسان من 20 ذبذبة في الثانية إلى 20000 ذبذبة في الثانية[1] .

وتنتشر هذه الأمواج في الهواء ثم تتلقّاها الأذن ، ثم تنتقل عبر الأذن حيث تتحول إلى إشارات كهربائية وتسير عبر العصب السمعي باتجاه اللحاء السمعي في الدماغ ، وتتجاوب الخلايا معها ومن ثم تنتقل إلى مختلف مناطق الدماغ وخصوصاً المنطقة الأمامية منه ، وتعمل هذه المناطق معاً على التجاوب مع الإشارات وتترجمها إلى لغة مفهومة

للإنسان .

الصوت هو عبارة عن موجات تنتشر في الهواء ، وهذه الموجات هي عبارة عن ترددات أي اهتزازات تحرك الهواء ، تدخل الترددات الصوتية عبر الأذن وتحرك طبلة الأذن ثم تنتقل إلى العظيمات ومن ثم إلى العصب السمعي وتتحول إلى ترددات كهرطيسية يتلقاها الدماغ ويحللها ويعطي أوامره للجسم ليتفاعل ويتجاوب معها .

وهكذا يقوم الدماغ بتحليل الإشارات ويعطي أوامره إلى مختلف أجزاء الجسم ليستجيب لهذه الإشارات . ومن هنا نشأ علم العلاج بالصوت باعتبار أن الصوت اهتزاز ، وخلايا الجسم تهتز ، إذن هناك تأثير للصوت على خلايا الجسم ، وهذا ما وجده الباحثون حديثاً . ففي جامعة واشنطن وجد العلماء في أواخر القرن العشرين أن كل خلية من خلايا الدماغ لا يقتصر عملها على نقل المعلومات بل هي عبارة عن حاسوب صغير يقوم بجمع البيانات ومعالجتها وإعطاء الأوامر باستمرار وعلى مدار الساعة .

تبين أن الدماغ يحوي أكثر من تريليون خلية ، وكل خلية هي بمثابة جهاز كمبيوتر شديد التعقيد ، وتعمل جميعها بلا توقف وبلا أخطاء . ويؤكد العلماء أن الخلية هي معجزة من

معجزات الطبيعة ، ونحن نقول إن الخلية معجزة من معجزات الخالق سبحانه وتعالى ، وتصوروا لو أن جهاز الكمبيوتر بقي بلا صيانة ماذا سيحدث له ؟ كذلك خلايا الجسد تحتاج لصيانة وصيانتها تكون بذكر الله ، لأن القلوب تصدأ ولا يجلوها إلا تلاوة القرآن وذكر الله تعالى .

ويقول أحد الباحثين في الجامعة المذكورة وهو الدكتور Ellen Covey إننا للمرة الأولى ندرك أن الدماغ لا يعمل كحاسوب كبير ، بل هنالك عدد ضخم جداً من الكمبيوترات تعمل بالتنسيق مع بعضها ، ففي كل خلية هنالك جهاز كمبيوتر صغير ، وهذه الكمبيوترات تتأثر بأي اهتزاز حولها وبخاصة الصوت[2] .

ولذلك يمكن القول إن خلايا كل جزء من أجزاء جسم الإنسان تهتز بترددات محددة ، وتشكل بمجموعها نظاماً معقداً ومتناسقاً يتأثر بأي صوت يحيط به .

وهكذا فإن أي مرض يصيب أحد أعضاء الجسم فإنه يسبب تغيراً في طريقة اهتزاز خلايا هذا الجزء ، وبالتالي سوف يخرج هذا الجزء عن النظام العام للجسم ويؤثر على كامل الجسم .

صورة لخلايا إنسانية ، وكل خلية من خلايا الجسم تهتز بنظام محدد ، وإن أي مرض يصيب الجسم يحدث خللاً في هذا النظام المحكم . ويعتقد بعض الباحثين اليوم أن جميع الأمراض ما هي إلا أشكال لاهتزازات ، فلكل خلية هناك اهتزاز محدد فطرها الله عليه ، وعندما يحدث المرض يتغير هذا الاهتزاز وبالتالي نشعر بالمرض .

ولذلك فإن الجسم عندما يتعرض لصوت محدد فإن هذا الصوت سوف يؤثر على النظام الاهتزازي للجسم ويؤثر بشكل خاص على الجزء الشاذ ويقوم هذا الجزء بالتجاوب مع أصوات محددة بحيث يعيد نظامه الاهتزازي الأصلي .

وبكلمة أخرى يعود هذا الجزء إلى حالته الصحيحة لدى التأثير عليه بالترددات الصحيحة . هذه نتائج وصل إليها العلماء حديثاً ، فما هي قصة هذا العلم ، أي العلاج بالصوت ؟

---

[1] تقاس الترددات الصوتية بالهرتز وهي وحدة قياس تعني ذبذبة في الثانية ، وتختلف هذه الترددات الصوتية من إنسان لآخر وحسب نوع الكلام الذي يتكلم به .

قصة العلاج بالصوت

أجرى الطبيب الفرنسي Alfred Tomatis تجارب على مدى خمسين عاماً حول حواس الإنسان وخرج بنتيجة وهي أن حاسة السمع هي أهم حاسة عند الإنسان على الإطلاق ! ! فقد وجد أن الأذن تتحكم بكامل جسم الإنسان ، وتنظم عملياته الحيوية ، وتنظم توازن حركاته وتناسقها بإيقاع منتظم ، وأن الأذن تقود النظام العصبي عند الإنسان !

وخلال تجاربه وجد أن الأعصاب السمعية تتصل مع جميع عضلات الجسم ، ولذلك فإن توازن الجسم ومرونته وحاسة البصر تتأثر جميعها بالأصوات . وتتصل الأذن الداخلية مع جميع أجزاء الجسم مثل القلب والرئتين والكبد والمعدة والأمعاء ، ولذلك فإن الترددات الصوتية تؤثر على أجزاء الجسم بالكامل[1] .

إن الأذن من أعقد أجهزة الجسم ، ويؤكد الباحثون أن حاسة السمع مهمة جداً لتوازن الجسم بالكامل ، وعندما تختل هذه الحاسة فإن معظم أجهزة الجسد تتأثر وتختل ، ولذلك فإن أفضل طريقة للمحافظة على نظام مستقر لعمل أجهزة الجسم أن نؤثر بأصوات تستجيب لها خلايا الجسد ، وتعدّل وتصحح عملها وتعيد توازنها .

وفي عام 1960 وجد العالم السويسري Hans Jenny أن الصوت يؤثر على مختلف

المواد ويعيد تشكيل جزيئاتها ، وأن لكل خلية من خلايا الجسم صوتها الخاص وتتأثر بالأصوات وتعيد ترتيب المادة في داخلها [2] .

وفي عام 1974 قام الباحث Fabien Maman والباحث Joel Sternheimer باكتشاف مذهل ، وهو أن كل جزء من أجزاء الجسم له نظام اهتزازي خاص يخضع لقوانين الفيزياء .

وبعد عدة سنوات اكتشف Fabien مع باحث آخر هو Grimal أن الصوت يؤثر على الخلايا وبخاصة خلايا السرطان ، وأن هناك أصوات محددة يكون لها تأثير أقوى ، والشيء العجيب الذي لفت انتباه الباحثين أن أكثر الأصوات تأثيراً على خلايا الجسم هو صوت الإنسان نفسه ! !

وجد العلماء أن أي جرثومة أو فيروس يتأثر بالترددات الصوتية ، ولذلك يفكرون الآن بعلاج للفيروسات بالتأثير عليها بترددات صوتية محددة يمكن أن تبطل عملها !

قام العالم والموسيقي Fabien بوضع خلايا الدم من جسم صحيح ، وعرضها لأصوات متنوعة فوجد أن كل نغمة من نغمات السلم الموسيقي تؤثر على المجال الكهرمغنطيسي

للخلية .

قام فابيان بتعريض خلية سرطانية لترددات صوتية محددة فوجد أن بعض الترددات الصوتية تسبب انفجار الخلية السرطانية ، فاستنتج الأثر الكبير للصوت في الشفاء . إن الخلية تتجاوب مع الترددات الصوتية ، هذه الترددات الصوتية تجعل الخلية تهتز بل وتغير طريقة اهتزازها ، وبالتالي سوف تتنشَّط وتبدأ بالعمل بشكل جيد ، وهذا ما نلاحظه عندما يستمع الإنسان إلى خبر سار فتجده وكأن طاقة كبيرة انبعثت من جسده ! !

ولدى تصوير هذه الخلية بكاميرا Kirlian تبين أن شكل وقيمة المجال الكهرطيسي للخلية يتغير مع تعرض هذه الخلية للترددات الصوتية ، ويختلف هذا المجال تبعاً لنوع الصوت الذي يتحدث فيه القارئ .

ثم قام بتجربة أخرى حيث أخذ من إصبع أحد المرضى قطرة من الدم ، وقام بمراقبتها بكاميرا Kirlian ، وطلب من هذا الشخص أن يؤدي بصوته نغمات مختلفة ، وبعد معالجة الصور وجد بأن قطرة الدم تغير مجالها الكهرطيسي ، وعند نغمة محددة تجاوبت خلايا الدم مع صوت صاحبها واهتزت بتجاوب كامل .

صورة لخلية دم تم التأثير عليها بصوت محدد فأظهر التصوير بكاميرا Kirlian أن الخلية قد نشطت وأصبحت أكثر قدرة على أداء وظائفها ، ونحن نقول إن القرآن هو أفضل صوت يمكن أن نؤثر به على الخلايا .

وبالتالي استنتج هذا الباحث أن هناك نغمات محددة تؤثر على خلايا الجسم وتعمل على جعلها أكثر حيوية ونشاطاً بل وتجددها . وخرج بنتيجة مهمة وهي أن صوت الإنسان يملك تأثيراً قوياً وفريداً على خلايا الجسم ، هذا التأثير لا يوجد في أي وسيلة أخرى .

ويقول هذا الباحث بالحرف الواحد :

"إن صوت الإنسان يحمل الرنين الروحي الخاص والذي يجعل من هذا الصوت الوسيلة الأقوى للشفاء "[3] .

ووجد Fabien أن بعض الأصوات تفجِّر الخلية السرطانية بسهولة ، بينما نفس الأصوات تنشط الخلية الصحيحة . إن الصوت عندما يستمع إليه الإنسان فإنه يؤثر على خلايا دم هذا الإنسان وينقل اهتزازات هذا الصوت لجميع أنحاء الجسم عبر الدورة الدموية .

ولكن هل يقتصر تأثير الصوت على الخلايا ؟ لقد تبين أن الصوت يؤثر على كل شيء من حولنا ، وهذا ما أثبته العالم الياباني Masaru Emoto في تجاربه على الماء ، حيث وجد أن المجال الكهرطيسي لجزيئات الماء يتأثر بشكل كبير بالصوت ، وأن هناك نغمات

محددة تؤدي إلى التأثير على جزيئات الماء وتجعلها أكثر انتظاماً .

هذه صور لبلورات من الماء المجمد ، يقول الباحث الياباني إن هذه الأشكال تتغير مع الصوت الذي نؤثر به على الماء ، حيث تختزن هذه الجزيئات المعلومات المحملة على الصوت ، وتغير شكلها تبعاً للتردد الصوتي . ومن هنا ربما ندرك الحكمة من قراءة القرآن على الماء ثم شربه والاغتسال به أو مسح مكان الألم ، فالماء بعد التأثير عليه بصوت القرآن ينشط ويصبح أكثر قدرة على علاج المرض ، وكأننا نحمله طاقة هائلة تنتقل إلى خلايا الجسد بعد الشرب من هذا الماء ، وبخاصة ماء زمزم .

وإذا تذكرنا بأن جسم الإنسان يتألف من 70 بالمئة ماءً ، فإن الصوت الذي يسمعه له تأثير على انتظام جزيئات الماء في الخلايا وطريقة اهتزاز هذه الجزيئات ، وبالتالي تؤثر على شفاء الإنسان[4] .

ويؤكد مختلف الباحثين أن صوت الإنسان يمكن أن يشفي من العديد من الأمراض ومن ضمنها السرطان[5] . كما يؤكد المعالجون بالصوت أن هناك أصواتاً محددة تؤثر أكثر من غيرها ويكون لها تأثير الشفاء على الأمراض ، وبخاصة رفع كفاءة النظام المناعي للجسم[6] .

قوة الصوت

وجد العلماء أن العديد من المخلوقات الدقيقة تصدر ترددات صوتية ، مثل الخلايا والفيروسات والبكتريا ، وحتى جزيئات ال DNA داخل نواة الخلية ، وقد طور العلماء تقنية لتسجيل هذه الأصوات الخفية . وبما أن هذه المخلوقات تصدر أصواتاً إذن هي تتأثر بالصوت[1] .

حتى إن الباحثين اليوم يقولون بأنه يمكن التعرف المبكر على كثير من الأمراض الخطيرة باستخدام الصوت فقط ، بعدما ثبت لهم أن جميع الفيروسات والبكتريا تصدر أصواتاً بترددات مختلفة .

إن معظم الأمراض تسببها فيروسات ، هذه الفيروسات تتأثر بالصوت كثيراً ، ولكن ليست كل الأصوات ، بل كلمات محددة ، ونقول إن كلام الله تعالى الذي أودع فيه أسرار الشفاء هو الأكثر تأثيراً على نظام عمل الفيروسات ، حيث يبطل مفعولها بإذن الله تعالى . والعجيب أن العلماء يؤكدون أن بعض الترددات الصوتية (وهم يبحثون عنها) تبطل مفعول الفيروسات وبنفس الوقت تنشط الخلايا المريضة ، وهذا من عجائب الصوت ، وإنني على يقين بأن القرآن يتميز بهذه الميزة .

بل يمكنهم تتبّع السموم في الجسم ، لأن المواد السامة حيث تتركز في الخلايا فإن هذه الخلايا

سوف ينخفض مستوى ترددها ونشاطها ، كما يمكن بواسطة الصوت معرفة الأسباب المرضية في الجسم وملاحقتها بدقة مذهلة.

إن الكثير من الأطباء في الغرب من أمثال Dr Andy Weil, Dr Robert O. Becker, Dr William Tillis, Dr Josh Oschman, Dr Alfred Tomatis , Dr Richard Gerber وغيرهم كثير، يقتنعون تماماً بأن الصوت كشكل من أشكال الطاقة يمكن أن يكون أملاً واعداً لشفاء الكثير من الأمراض المزمنة والمستعصية في المستقبل[2] . فالصوت الآن يستخدم من قبل المهندسين بنجاح في تجميد الماء[3] ! !

(248/463)

ويستخدم علماء الفلك الصوت الصادر من الأجرام الكونية البعيدة لدراسة أسرار الكون[4] ! كما يحاول بعض الباحثين اليوم الاستفادة من تأثير الموجات الصوتية على المرضى حيث وجدوا نتائج مسكنة لهذه الأصوات. في هذه الحالة فإن الخلية وهي تهتز أصلاً تتأثر بأي اهتزاز يدخل إليها عن طريق الأذن ، وبالتالي فإن هذه الخلية والتي تعطي الأمر للجسم بأن يتوتر مثلاً ، فإنها ستتأثر بترددات معينة وتعطي أمراً للجسم ليهدأ

وسكن[5] .

لقد وجد العلماء أن الصوت يدخل إلى الدماغ بشكل شيفرة ، وأن الدماغ يعالج الصوت القادم بكفاءة عالية تتفوق على أي جهاز بشري[6] . واكتشفوا أيضاً تأثير الصوت على عدد خلايا الدماغ ، فقد تساهم بعض الأصوات في نمو خلايا جديدة ، ولذلك فقد قام العلماء بدراسة على بعض أدمغة الموسيقيين فوجدوا أن الدماغ لديهم في منطقة اللحاء السمعي أكبر من دماغ الشخص العادي ، أي أن هناك خلايا أكثر في هذه المنطقة[7] .

واكتشف العلماء كذلك أن الموجات الصوتية تؤثر على النشاط الكهربائي لخلايا الدماغ ، وأن بعض الأصوات يمكن أن تخفض النشاط الكهربائي للخلية ، حيث إن هذا النشاط إذا زاد عن حدّ معين فإنه يؤثر على الاستقرار النفسي للإنسان ، وقد يؤدي إلى بعض الأمراض[8] .

أثبت العلماء أن الصوت له تأثير على خلايا الجلد ، وربما يكون الاكتشاف الأهم أن الجلد لديه قدرة مذهلة على تخزين المعلومات وتذكرها ، ولذلك يجب أن نسمع جلودنا صوت القرآن باستمرار فهي تتأثر بكلام الله وتشهد علينا يوم القيامة .

كما وجد أستاذ الكيمياء في جامعة كاليفورنيا Jim Gimzewski أن خلايا القلب تصدر ترددات صوتية في المجال المسموع ولكن لا يمكن التقاطها إلا بأجهزة شديدة الحساسية، ووجد أيضاً بأن كل خلية حية تطلق ترددات صوتية أيضاً، كما وجد العلماء منذ مدة أيضاً أن الترددات الصوتية تؤثر على الدورة الدموية، وكذلك لاحظ Sergei Shushardzhan التأثير الكبير لمختلف أنواع الأصوات على الخلايا السرطانية. حتى إن العلماء اليوم يعتقدون أن النجوم والحيوانات والنباتات والبشر وحتى الفيروسات... كل شيء يصدر صوته الخاص[9].

يؤكد العلماء أن القلب يتأثر بالترددات الصوتية، ونحن نقول ونعتقد أن أفضل علاج للقلب هو الاستماع إلى آيات من كتاب الله كل يوم لمدة ساعة على الأقل، وهذا ما حدثنا عنه القرآن بقوله تعالى: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) [الرعد: 28]. وتصوروا معي ذلك الإنسان البعيد عن ذكر الله كيف سيكون قلبه، يقول تعالى: (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) [الزمر: 22].

الآلية الهندسية للشفاء

والآن دعونا نطرح السؤال المهم : ما الذي يحدث داخل خلايا الجسم ، وكيف يتم الشفاء بالصوت ؟ وكيف يؤثر هذا الصوت على الخلايا المتضررة فيعيد لها التوازن ؟ بعبارة أخرى ما هي الآلية الهندسية التي يحدث فيها الشفاء ؟

يبحث الأطباء دائماً عن وسيلة للقضاء على فيروس ما ، ولكن لو تفكَّرنا قليلاً في آلية عمل هذا الفيروس : مَن الذي يحرك هذا الفيروس ويعرِّفه طريقه إلى داخل الخلية ؟ مَن الذي أعطى الفيروس المعلومات التي يختزنها بداخله والتي تمكّنه من مهاجمة الخلايا والتكاثر في داخلها ؟ ومَن الذي يحرِّك الخلايا باتجاه هذا الفيروس فتقضي عليه ، بينما تجدها تقف عاجزة أمام فيروس آخر ؟ . . .

يؤكد العلماء اليوم وجود نظام اهتزازي داخل الخلية ، وهذا النظام هو الذي يؤمن للخلية التواصل مع بقية الخلايا . فقد وجد العلماء أن شوارد الكالسيوم Ca+2 تهتز باستمرار أثناء انتقالها من خلية لأخرى[1] . وقد استطاع العلماء أخيراً رؤية الخلية أثناء عملها باستخدام تكنولوجيا النانو Nanotechnology ، أو التكنولوجيا الدقيقة ، وقد تبين لهم أن آلية عمل الخلايا هو الرنين . حيث تهتز كل خلية وتؤثر على الخلية التي بجانبها وتنقل طاقة الاهتزازات إليها من دوم أن تمسَّها[2] .

تؤكد آخر الأبحاث العلمية أن نظام عمل الخلايا يعتمد على الاهتزاز ، وأن الخلايا العصبية

بشكل خاص تتأثر بأي اهتزاز صوتي أو كهرطيسي ، ومن هنا نؤكد أن تلاوة أي سورة من القرآن له أثر منشط على خلايا الدماغ والقلب . وأن جميع سور القرآن وآياته مفيدة في الشفاء ، وليس كما يعتقد البعض أن الشفاء موجود في آيات محددة .

(251/463)

ويؤكد الباحثون في مجال العلاج بالصوت أن جسم الإنسان يتجاوب مع بعض الترددات الصوتية ، فيحدث تغير في سرعة دقات القلب ، وحتى الأصم الذي لا يسمع ، فإنه طبقاً لبحث أجري في كلية الطب في جامعة "روشيستر" بيّن أن المناطق ذاتها التي تنشط في الدماغ لدى سماع صوت محدد ، هي ذاتها تنشط لدى الأصم عند سماعه لهذا الصوت ! وتدل الإحصائيات أن في الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من 3800 معالج بالصوت ، ومنهم أساتذة جامعات كبيرة[3] !

عندما تعمق العلماء في خلية الإنسان ودخلوا إلى أعماقها وجدوا عالماً جديداً يختلف كلياً عن العالم خارج الخلية . وكان الاكتشاف الأكثر أهمية هو اكتشاف خريطة الحياة ، أو الشيفرة الوراثية أو ما يسميه العلماء بالجينات والتي تتوضع على شريط يسمى دي إن آ DNA .

هذا الشريط أي DNA هو عبارة عن شريط ملفوف على نفسه ويتوضع في نواة الخلية ، في داخل هذا الشريط أكثر من 100000 جين gene مختلف ، أي أن الله تعالى خلق البشر وأودع في جسد كل منهم معلومات تختلف عن الشخص الآخر ، فلا يوجد تشابه أبداً ، مع العلم أن جميع البشر خلقوا من نطفة واحدة ! !

يؤكد العلماء أن هذا الشريط أي DNA يحوي أكثر من ثلاثة آلاف مليون معلومة ! ! !

ويحتار العلماء كيف يمكن لهذه المعلومات أن تسيطر على عمل الجسم ومرضه وشفائه ؟ ! ولكن يتوقع العلماء أن الإجابة عن مثل هذا السؤال سوف تستغرق أكثر من عشرين سنة إضافية[4] .

إن الخلايا داخل الجسم تعمل بنظام محدد ، والفيروسات تعمل بنظام محدد ، وجميع الأمراض التي تصيب الجسم تعمل وفق نظام محدد ، وحتى الشفاء منها يتم وفق نظام محدد ، وكل نظام له معلومات أو بيانات يعتمد عليها في حركته ، فنحن أمام سيل من المعلومات والمعلومات المضادة "وكأننا أمام حرب معلومات" إذن المرض هو معلومة والشفاء يأتي بواسطة معلومة يحملها العلاج مهما كان نوعه ، لنوضح أكثر .

لو أخذنا مثلاً الفيروسات التي تهاجم جسم الإنسان وتسبب له الكثير من الأمراض نلاحظ أن الفيروس عبارة عن شريط من المعلومات محاط بغطاء ، وهذا الشريط مصنوع من مادة DNA أو RNA حسب نوع الفيروس ، وعندما يصل إلى الجسم يدخل ويقترب من الخلية ويُدخل شريط المعلومات في الخلية ، ثم يبدأ شريط المعلومات بالعوم داخل الخلية لأن حجمه صغير جداً مقارنة بحجم الخلية ، ويبدأ بصنع أنزيمات من مادة الخلية هذه الأنزيمات سوف تقوم بمساعدته في صنع فيروسات جديدة تتكاثر حتى تملأ الخلية مما يؤدي إلى انفجارها ، إذن نحن أمام عمليات منظمة ومبرمجة داخل الفيروس بدقة فائقة .

والآن يأتي دور النظام المناعي للجسم ، حيث يقوم بتتبع هذه الفيروسات ويمنعها من الدخول إلى خلايا جديدة ، وبنفس الوقت يقوم بتتبع الخلايا الملوثة بالفيروسات فيقتلها ويزيلها ، وتعتمد كفاءة جهاز المناعة على قدرته على التعرف على الفيروس في اللحظة المناسبة ومعرفة البرنامج الذي يحمله هذا الفيروس لإبطال مفعوله ، لأن جهاز المناعة ما هو إلا برنامج أيضاً ، وبعبارة أخرى هنالك دفاع وهجوم ومقاومة وجميعها تعتمد على المعلومات ، إذن نحن أمام "حرب معلومات" .

إن الخطير في عمل كثير من الفيروسات أنها تغير شكلها ، لتخدع الخلايا وتبدو كأنها جزء من الجسم ، فالدواء الذي يأخذه الإنسان يؤثر مرة ولن يؤثر في المرة القادمة مع أن الفيروس نفسه لم يتغير ، فقط غير شكله .

لقد كشفت دراسة أجريت في مطلع هذا القرن أن بعض الترددات الصوتية تؤثر على كثير من الفيروسات فتكشف عنها القناع ليتعرف عليها الجسم بسهولة ، كما أن نفس الصوت يزيد من نشاط خلايا الدم البيضاء فتبدأ بمهاجمة هذه الفيروسات والقضاء عليها ، كما أشارت الدراسة إلى أن الصوت يؤثر في زيادة إنتاج الجسم للأجسام المناعية ، ولكن بشرط استخدام الترددات الصحيحة[5] .

(253/463)

تأثير تلاوة القرآن

منذ أشهر قليلة اعترف العلماء في جامعة "روشيستر" بأن أضرار العلاج الكيميائي للسرطان أكبر من منافعه ! وقد وجد الباحثون في هذه الجامعة أن العلاج الكيميائي يلحق أضراراً طويلة الأمد بالدماغ ، ويقولون بأنها المرة الأولى التي يبدأ العلماء فيها بفهم هذا التأثير والبحث عن البديل المناسب والآمن .

ويقول رئيس الفريق الطبي الدكتور "مارك نوبل" Mark Noble إن العلاج الكيميائي للسرطان يقتل عدداً من الخلايا الصحيحة (70-100%) أكبر بكثير مما يفعله مع الخلايا السرطانية (40-80%)[1] . ومن هنا تبرز الحاجة إلى البحث عن وسائل علاجية

أخرى أكثر أمناً وفائدة ، وقد يكون العلاج بالصوت هو البديل الأمثل .

فمعظم الباحثين في الغرب يؤمنون بالتأثير المذهل للصوت ، ولكنهم لم يعثروا بعد على الترددات الصوتية الصحيحة التي تشفي هذه الأمراض ، ولكننا نحن أصحاب أعظم كتاب – القرآن – لدينا السرّ الشافي وهو كلام الله تعالى .

إن تلاوة القرآن هي عبارة عن مجموعة من الترددات الصوتية التي تصل إلى الأذن وتنتقل إلى خلايا الدماغ وتؤثر فيها من خلال الحقول الكهربائية التي تولدها في الخلايا ، فتقوم الخلايا بالتجاوب مع هذه الحقول وتعدل من اهتزازها ، هذا التغير في الاهتزاز هو ما نحس به ونفهمه بعد التجربة والتكرار .

إن النظام الذي فطر الله عليه خلايا الدماغ هو النظام الطبيعي المتوازن ، وهذا ما أخبرنا به البيان الإلهي ، يقول تعالى : (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [الروم : 30] . وهنالك بعض الدراسات الطبية تشير إلى أن الإنسان بعد ولادته يكون دماغه مبرمجاً على الأشياء الحسنة مثل الصدق وحب الخير وعدم ارتكاب الأخطاء ! !

فقد أجرى العلماء تجارب على أناس يرتكبون أخطاء فوجدوا أن مناطق محددة في الدماغ تنشط وتجري فيها كمية أكبر من الدم ، بعكس الإنسان الذي يقوم بعمل صحيح فإنه لا يتطلب أي طاقة تُذكر[2] ، أي أن الأخطاء بأنواعها تتطلب طاقة أكبر من الدماغ ، وهذا ما جعل العلماء يؤكدون بأن النظام الافتراضي للدماغ هو الميل لعدم ارتكاب الأخطاء ، أي أن الدماغ مبرمج على الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها .

أثبت العلماء أن دماغ الإنسان يتأثر بأي معلومة يقولها أو يسمعها ، وربما يكون الاكتشاف الأهم أن منطقة الناصية هي المسؤولة عن الكذب ، وبالتالي فإن صوت القرآن يكون أشد تأثيراً على هذه المنطقة لأن كلام الله هو أفضل سلاح لعلاج الكذب . كما أن هذه المنطقة مسؤولة عن القيادة والخطأ واتخاذ القرارات .

ويقول العلماء اليوم إن النظام الافتراضي للدماغ هو الصدق[3] ، فقد بيّنت التجارب الحديثة باستخدام جهاز المسح بالرنين المغنطيسي functional magnetic resonance imaging على الدماغ أن الإنسان عندما يصدق فإن دماغه لا يصرف أي طاقة تُذكر ، ولكن حين يكذب فإنه يصرف طاقة كبيرة[4] !

إذن الأخطاء والكذب والأعمال السيئة تؤثر في عمل الدماغ وترهقه وتتعب خلاياه لأن الخلايا تقوم بأعباء كبيرة في هذه الحالة ، ومع مرور الزمن تتراكم هذه المتاعب وتسبب للخلايا خللاً في نظام عملها . وتسبب الكثير من الأمراض النفسية والجسدية ، ولابد من

إعادة التوازن إلى هذه الخلايا ، وأفضل طريقة هي "تغذيتها" بتلاوة القرآن الذي فُطرت عليه أصلاً .

(255/463)

قوة الشفاء بالقرآن

قد يقول قائل : لماذا آيات القرآن بالذات هي التي تشفي ؟ وما الذي يميز كلام القرآن عن كلام البشر ، أو عن بقية الأصوات في الطبيعة ؟ إن هذا السؤال يطرحه الكثير من الذين يشككون بأهمية العلاج بالقرآن والقوة الشفائية التي أودعها الله في كتابه ، ولذلك وحتى يكون الكلام مقنعاً لابد من الإجابة عن مثل هذا السؤال بطريقة علمية . هنالك أسباب عديدة تجعل القرآن مميزاً عن غيره في قوة التأثير والشفاء بإذن الله تعالى :

1- التناسق المحكم في كلمات القرآن وحروفه

القرآن يحوي تناسقاً دقيقاً لا يوجد في أي كتاب من كتب البشر . فقد ثُبت لي بعد دراسة عددية طويلة لآيات القرآن وكلماته وحروفه أن الله تعالى قد نظم هذه الكلمات والحروف بنظام محكم ، وقال في ذلك : (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) [هود : 1] . وثُبت أيضاً أن هذا النظام يقوم على الرقم سبعة ومضاعفاته ، ونتذكر هنا قول

الحق تبارك وتعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) [الحجر : 87] .

وإذا علمنا أن كل ذرة من ذرات جسمنا تتألف من سبع طبقات – وهذه حقيقة علمية مؤكدة – فإن هذا النظام لتكرار الكلمات والحروف يعطي تأثيراً وقوة في الشفاء بإذن الله تعالى ، لأن جسم الإنسان مؤلف من خلايا والخلايا مؤلفة من ذرات والذرة تتألف من سبع طبقات ، ولذلك يمكن أن تتأثر عند تكرار الآية أو الكلمة سبع مرات .

ومن هنا ربما ندرك لماذا أعطى النبي الكريم عليه الصلاة والسلام أهمية كبيرة للرقم سبعة ، ولماذا نجد أن الفاتحة هي السبع المثاني ، ولماذا نكررها سبع مرات في الرقية الشرعية ، ولماذا نكرر آيات محددة سبع مرات .

(256/463)

من عجائب سورة الفاتحة أننا إذا قمنا بعدّ حروف اسم (الله) أي الألف واللام والهاء وجدنا بالتمام والكمال 49 حرفاً ، وهذا العدد يساوي 7×7 ولا ننسى بأن الفاتحة هي السبع المثاني ، وكأن الله يريد أن يعطينا إشارة لطيفة إلى أهمية هذا الرقم [1] وأهمية التكرار في قوة تأثير قراءة الفاتحة على الشفاء ، وهو ما يلمسه كل من يعالج بالقرآن ، والله تعالى أعلم .

2- الإيقاع المتوازن للكلمات القرآنية وانسيابها

عندما تستمع إلى كلام الله تعالى تشعر بأن هذا الكلام لا يشبه الشعر ولا النثر ولا أي نوع من كلام البشر ، إنما تلاحظ وجود إيقاع خاص لا نجده في أي كلام آخر ، ولذلك قال تعالى : (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) [الفرقان : 32] .

هذا الإيقاع يتناسب مع إيقاع الدماغ البشري ، لأن الله تعالى جعل لكل شيء في هذا الكون ترددا ً طبيعيا ً خاصا ً به ، وعندما خلق البشر جعل لدماغ كل منهم إيقاعا ً وترددا ً طبيعيا يتناسب مع إيقاع القرآن ، والدليل على ذلك أن كل مولود يولد على الفطرة ، والله يقول : (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [الروم : 30] .

فالله تعالى فطر الناس على الإيمان ، وبلغة البرمجة : أودع الله في كل خلية من خلايا الدماغ برنامجا ً منضبطا ً ، وكلما تعرض الإنسان للصدمات النفسية والأمراض الجسدية اختل بعض هذه البرامج ، وهنا يأتي دور القرآن في إعادة برمجة الخلايا وإعادة التوازن لها من جديد ، وكلام الله الذي فطرها الله عليه منذ خلقها ، هو أفضل وسيلة لإعادة توازنها .

وقد أظهرت بعض الدراسات أن الأصوات ذات الإيقاع المتوازن لها تأثير كبير على نشاط الدماغ واستقراره ، وتأثير أيضاً على معدل ضربات القلب وتجعل الدماغ في حالة أكثر نشاطاً وحيوية ، وبالتالي أكثر قدرة في توجيه أنظمة الجسم المناعية ضد مختلف الأمراض . وأن خلايا الدماغ تتجاوب بشكل كبير فيما لو تعرضت لصوت بإيقاع متوازن[2] .

ولذلك فإن تلاوة القرآن تغذي الدماغ بالذبذبات الصوتية الصحيحة ، وبالتالي تؤثر على خلايا الدماغ وتعيد لها التوازن . وتساهم في التنسيق بين الخلايا ، لأن الذبذبات القرآنية لها تناسق عجيب . يقول تعالى : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) [النساء : 82] . فلا وجود لأي اختلاف في آيات القرآن وحروفه ، إنما نلمس التوازن في كل شيء في هذا القرآن ، وهذا التوازن يؤدي إلى شفاء الأمراض من خلال إعادة التوازن إلى الخلايا .

كذلك فإن الاستماع إلى تلاوة القرآن يحسن النظام المناعي للخلايا ، لأن التأثير بالذبذبات الصوتية الصحيحة والمتوازنة يجعل الخلية تعمل بكفاءة أعلى . وكمثال على ذلك نجد أن الحالة النفسية للمريض لها تأثير كبير على جسده ومقاومته للأمراض ، حيث إن الأخبار المفرحة إذا سمعها المريض فإنه يتحسن على الفور ، فما الذي يحدث ؟ إنها بكل بساطة عملية تغيير وتنشيط للخلايا الضعيفة الاهتزاز ، هذا الخبر يزيد من اهتزاز الخلية

ونشاطها ومقاومتها للأمراض .

3- المعاني الغزيرة التي تحملها كل آية

لو تأملنا آيات القرآن نجد فيها حديثاً عن كل شيء ، بل نجد فيها معاني لعلاج جميع الأمراض ، ولا يقتصر العلاج على الأمراض النفسية بل القرآن يعالج جميع الأمراض ، فقد أودع الله في كل آية من آيات كتابه قوة شفائية مذهلة ، هذه القوة تؤثر على أي شيء .

(258/463)

يقول تعالى : (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [الحشر : 21] .

ولو تأملنا عبارة (هَذَا الْقُرْآنَ) نعلم أن المقصود أن القرآن الذي بين أيدينا ذاته بحروفه وكلماته وآياته وسوره لو نزل على جبل لاهتزّ هذا الجبل وتصدّع وتشقق من ثقل كلام الله تعالى ، ولذلك يمكننا القول إن كلام الله عز وجل يؤثر تأثيراً كبيراً على جميع الأمراض ، وليس النفسية فقط بل الجسدية أيضاً .

4- التجربة العملية

ملايين من الناس قد شفاهم القرآن منذ أربعة عشر قرناً وحتى يومنا هذا ، وهذا أكبر دليل

على تأثير كلام الله تعالى في معالجة الأمراض .

وفي كل يوم نشاهد ونلمس مئات الحالات التي يشفيها الله تعالى ببركة القرآن ، وقد أخبرني أحد المعالجين بالقرآن أن جميع الحالات التي تأتيه يكون الطب قد يئس من شفائها ، وجميعها أمراض مستعصية ومزمنة وغير قابلة للشفاء ، وعند تلاوة كلام الله على هؤلاء المرضى تجدهم يستجيبون على الفور للعلاج الجديد ، كيف لا وهو أمام الشفاء المطلق !
ثم إن اليقين الذي يتحلى به المؤمن يزيد من احتمال الشفاء كثيراً ، ومن هنا ندرك أهمية أن يكون المريض مستيقناً بالشفاء ، فالثقة بالطبيب تعتبر نصف الشفاء ، فكيف إذا كان الطبيب هو الله ؟

إن الأمواج الصوتية التي تولدها تلاوة آيات القرآن سوف تتفاعل مع خلايا الدماغ ، وسوف تؤثر بها وتعيد لها التوازن ، لأن كلام الله سيذكِّر الخلايا بما فطرها الله عليه ، وسوف يكون التأثير أكبر ما يمكن عندما يكون الإنسان قد تعود على سماع القرآن وتعود على التأثر به .

إن الله تعالى هو من خلق الإنسان وجهزه بالبرامج الصحيحة ليقوم بعمله على أكمل وجه ، ولكنه عندما ينحرف عن طريق الله ، فإنه يرهق نفسه ويتعب خلايا دماغه ، وأفضل

طريقة لإعادة هذه الخلايا للوضع الافتراضي هو أن نؤثر عليها بكلام الله تعالى .

إن الله تعالى قد فطر الناس على الإيمان ، ولذلك فإن الطفل عندما يولد فإن خلايا جسمه تكون لها الاهتزازات المناسبة والصحيحة ، ولكن مع مرور الزمن وكثرة الحوادث والمشاكل النفسية والبيئية والتلوث والأمراض ، يتغير النظام الاهتزازي للجسم ، وبالتالي فإن القرآن يعيد هذا النظام إلى حالته الصحيحة ، ولذلك قال تعالى : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) [الإسراء : 9] . فالقرآن يقوّم سلوك الإنسان وكذلك يقوم سلوك كل خلية من خلايا جسمه .

لقد لاحظتُ أثناء تأملي لآيات القرآن أن كل آية من آياته تحمل أشبه ما يمكن أن نسميه "برامج أو بيانات" وهذه البيانات تستطيع التعامل مع الخلايا ، أي أن القرآن يحوي لغة الخلايا ! !

وقد يظن القارئ أن هذا الكلام غير علمي ، ولكنني وجدت الكثير من الآيات التي تؤكد أن آيات القرآن تحمل بيانات كثيرة ، تماماً مثل موجة الراديو التي هي عبارة عن موجة عادية ولكنهم يحمّلون عليها معلومات وأصوات وموسيقى وغير ذلك .

يقول تعالى : (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا) [الرعد : 31] . لو تأملنا هذه الآية بشيء من التعمق يمكن أن نتساءل : كيف يمكن للقرآن أن يسير الجبال ، أو يقطّع الأرض أي يمزقها ، أو يكلم الموتى ؟ إذن البيانات التي تخاطب الموتى وتفهم لغتهم موجودة في القرآن إلا أن الأمر لله تعالى ولا يطلع عليه إلا من يشاء من عباده . بالنسبة للجبال نحن نعلم اليوم أن ألواح الأرض تتحرك حركة بطيئة بمعدل عدة سنتمترات كل سنة ، وتحرك معها الجبال ، وهذه الحركة ناتجة عن أمواج حرارية تولدها المنطقة المنصهرة تحت القشرة الأرضية .

إذن يمكننا القول إن القرآن يحوي بيانات يمكن أن تتعامل مع هذه الأمواج الحرارية وتحركها وتهيجها فتسرع حركتها ، أو تحدث شقوقاً وزلازل في الأرض أي تقطّع القشرة الأرضية وتجزّئها إلى أجزاء صغيرة ، هذه القوى العملاقة يحملها القرآن ، ولكن الله تعالى منعنا من الوصول إليها (بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا) .

ولكنه أخبرنا عن قوة القرآن لندرك عظمة هذا الكتاب ، والسؤال : الكتاب الذي يتميز بهذه القوى الخارقة ، ألا يستطيع شفاء إنسان ضعيف من المرض ؟ ؟

ولذلك فإن الله تعالى عندما يخبرنا أن القرآن شفاء فهذا يعني أنه يحمل البيانات والبرامج الكافية لعلاج الخلايا المتضررة في الجسم ، بل لعلاج ما عجز الأطباء عن شفائه .

تجربة حدثت معي

وقد حدثت معي تجربة لم أدركها إلا بعدما أمضيت بحدود سنة كاملة في سماع القرآن الكريم بمعدل عدة ساعات كل يوم. وبعد ذلك كانت المفاجأة أن العديد من التغيرات قد حدثت معي، وكان سببها المداومة على الاستماع لآيات من كتاب الله تعالى، وهذه التغيرات هي: زيادة في مناعة الجسم، وزيادة في القدرة على الإبداع، وكذلك زيادة القدرة على التركيز، وعلاج لبعض الأمراض المزمنة مثل الإمساك، وكذلك تغيير ملموس في السلوك والقدرة على التعامل مع الآخرين وكسب ثقتهم.

ومن الأشياء التي تغيرت أيضاً بعد المداومة على الاستماع إلى القرآن زيادة الهدوء النفسي وعلاج التوتر العصبي، وعلاج الانفعالات والغضب وسرعة التهور، بالإضافة إلى القدرة على اتخاذ القرارات السليمة، والقضاء على أي توتر نفسي أو عصبي. أيضاً حدث تحسن في القدرة على النطق وسرعة الكلام، وتغير في العادات السيئة مثل الإفراط في الطعام وترك الدخان.

وهذه التجربة عشتها كما عاشها آلاف ممن حفظوا كتاب الله تعالى، وقضوا معظم وقتهم معه، ولذلك كنتُ أشعر أثناء حفظي واستماعي المستمر لآيات القرآن أن هذه الآيات تعيد برمجة خلايا الدماغ بشكل كامل!

يقول العلماء اليوم إن خلايا الجلد تتأثر بالترددات الصوتية بل وتتجاوب معها ، وبخاصة بعد أن اكتشف العلماء الذبذبات الصوتية التي يصدرها الشريط الوراثي المسمى DNA ، إذن الجلد عندما يقشعر بنتيجة الاستماع إلى خبر ما سار أو مؤلم فإن هذا نوع من التجاوب مع الصوت الذي استمع إليه هذا الإنسان .

(262/463)

وهنا يتجلى قول الحق تبارك وتعالى : (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) [الزمر : 23] . فهذه الآية تؤكد أن خلايا الجلد عند المؤمن تتأثر بصوت القرآن وتتجاوب وتقشعر ، بينما تجد الكافر لا يتأثر ، لماذا ؟ لأن خلايا جلده اختزنت النفاق والكفر والفواحش والأفعال السيئة فلم تعد تستجيب لأي ترددات صوتية إيمانية !

(263/463)

القسم العملي

هناك سؤال يتكرر كثيراً :

ما هي الآيات المناسبة لمرضي ؟ وأقول يا أحبتي إن الله أنزل القرآن كله شفاء ، وأعتقد أن في القرآن آيات محددة لكل مرض ولكن هذا الموضوع يحتاج لاجتهاد كبير .

فالنبي الأعظم صلى الله عليه وسلم لم يبين لنا هذا الأمر وتركه لنا لنجتهد فيه ونجرب ونبحث ونتدبر ، وربما يكون الشفاء الكامل عندما يستمع المريض إلى القرآن كاملاً باستمرار .

ولكن هناك بعض الاجتهادات من جهة وبعض الآيات والسور الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى رأسها سورة الفاتحة .

إن الله تعالى قد أودع في كل آية من آيات كتابه قوة شفائية إذا أصابت المرض برأ بإذن الله تعالى .

ويمكنني أن أخبركم إخوتي وأخواتي القراء أن الثقة بالله تعالى وبآياته مهمة جداً في الشفاء ، والصبر مهم أيضاً ، وأن تعلم أن الله لابد أن يستجيب لك دعاءك وقراءتك ، ولكن بالطريقة التي يحددها الله تعالى ، وليس أنت ! !

مثلاً عندما أقرأ القرآن على نية شفاء مرض ما وبعد فترة أجد أن هذا المرض لم يُشفى ، فماذا يعني ذلك ؟ قد يظن البعض أن هذه القراءة لم تنفع ! ! ولذلك أقول لا يجوز لمؤمن أن

يظن ذلك ، لأن الله تعالى أخبرنا بأن القرآن شفاء ، وكلام الله تعالى حق ، ولكن قد يصرف الله عنا ببركة هذه الآيات مرضاً آخر لم نكن نحس به ! وقد ينجينا الله تعالى من مصيبة كبيرة ببركة هذه الآيات التي قرأناها ، وقد يؤخر لنا الله الاستجابة إلى يوم القيامة حيث سنكون بأمس الحاجة إلى الرحمة والمغفرة والنجاة من النار .

أخي الحبيب : أيهما أفضل أن تُشفى من مرض مثل السرطان ، أم أنك تكون يوم القيامة مع الأنبياء في جنة عرضها السموات والأرض ؟ ! ولذلك لا تتعجل الشفاء لأن الأمر كله بيد الله هو يفعل ما يشاء ، وعليك أن تعتقد جازماً أن الله تعالى يستجيب دعاءك بطريقة ما قد لا تدركها أنت ، وأن أي آية تقرأها سوف تكون لك شفاء من مرض ربما تجهله ، وربما هذه الآية تصرف عنك مرضاً كان سيصيبك بعد أيام ولكن قراءتك لهذه الآية كانت سبباً في صرف ذلك المرض من دون أن تشعر بذلك !

ما هي الأمراض التي يشفيها القرآن ؟

اعلم أن القرآن شفاء لكل داء ، وأن الله تعالى جعل في آيات كتابه لغة عجيبة تفهمها الخلايا ولذلك قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[الأنفال : 24] ، فهذه الآية تدل على أن الله قد أودع في آياته حياة لنا ، فالخلية المصابة والمتضررة والتي أصبحت خاملة ومصابة بالأمراض ، فإن كلام الله تعالى إذا وقع عليها تنشَّطت وعادت إليها الحياة من جديد وأصبحت أكثر قدرة على مقاومة الأمراض ، ولذلك فإن تلاوة آيات محددة على أمراض محددة تؤثر على هذه الأمراض وتشفيها بإذن الله تعالى .

ولذلك فإنه يمكننا القول إن القرآن فيه شفاء لجميع الأمراض مهما كان نوعها سواء كانت أمراضاً نفسية أو جسدية أو كانت سحراً أو مسّاً أو غير ذلك . وينبغي على المريض أن يعتقد بذلك ، لأن الاعتقاد السليم هو نصف الشفاء إن لم نقل الشفاء كله !

في كل آية من آيات القرآن أودع الله جل جلاله لغة خفية تؤثر على المرض فتذهبه بإذن الله تعالى ، وهذه النتيجة مؤكدة ولكننا نجهل هذه اللغة الشفائية التي أودعها الله في آيات كتابه ، لذلك علينا أن نجتهد في تلاوة الآيات ونوقن بأننا سنُشفى بإذن الله تعالى ، واليقين بالشفاء يمثل نصف الشفاء أو أكثر .

كيف نقرأ القرآن على المريض ؟

ينبغي علينا أن ندرك بأن أفضل من يقرأ القرآن هو المريض نفسه ، لأن الأبحاث الجديدة في هذا المجال أثبتت أن صوت المريض هو الأكثر تأثيراً على مرضه ، وأن الخلايا تستجيب للترددات الصوتية الناتجة عن صاحبها أكثر من استجابتها لصوت آخر ، ولذلك فإنني أنصح كل مريض أن يقرأ على نفسه الآيات الخاصة بمرضه ، وهذا ما سمّيته "الرقية الذاتية" .

ولكن أحياناً يكون المريض في حالة صعبة فلا يستطيع التركيز والقراءة الصحيحة فيمكن الاستعانة بمن يقرأ له ، وينبغي على من يقرأ آيات الشفاء أن يركز تفكيره على المرض ويتخيل وكأن المرض قد شُفي تماماً ببركة هذه الآيات .

كما أنصح بأن تكون القراءة بصوت مرتفع قليلاً بحيث يسمعه المريض ، أي أن تكون القراءة جهرية وليست سرية . وذلك لأن الأبحاث أثبتت أن الترددات الصوتية تؤثر على خلايا الجسد المريض وبخاصة مرض السرطان أعاذنا الله منه .

ما هو الوقت المفضل للقراءة ؟

لا يوجد وقت محدد للعلاج بالقرآن إنما كل الأوقات مناسبة وبكل الوضعيات أي قائماً وجالساً ومضطجعاً ، ولكنني أفضل أن يقرأ المريض على نفسه صباحاً ومساءً ، أي بعد الاستيقاظ من النوم وقبيل النوم ، وأن يكرر الآيات التي يراها مناسبة لمرضه سبع مرات لأن

هذا الرقم له دلالات كثيرة وقد كان النبي الأعظم عليه الصلاة والسلام يكرر بعض آيات الشفاء وأدعيته سبع مرات .

(266/463)

العلاج بسماع القرآن

ينبغي على المريض كعلاج مكمل أن يسمع القرآن كل يوم لعدة ساعات ، وكلما أمكنه ذلك ، وينبغي عليه أن يفكر في الآيات التي يسمعها ، أن يتدبّرها لأن تدبر القرآن وفهم معانيه هو نوع من العلاج أيضاً .

ولكي يكون العلاج فعّالاً أنصح بأن يستمع المريض إلى القرآن المرتل أثناء النوم ، لأن الدماغ يبقى في حالة نشاط ويستجيب لصوت القرآن حتى لو كان الإنسان نائماً ! وهذه آية من آيات الله تبارك وتعالى ، ولذلك قال : (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) [الروم : 23] .

ما هي الرقية الشرعية الثابتة ؟

هناك آيات محددة ينبغي على المريض أن يتلوها دائماً ولأي مرض كان لأنه ثبت أنها مفيدة لشفاء جميع الأمراض وهي :

1- قراءة سورة الفاتحة سبع مرات : وهذه خطوة مهمة في أي علاج لأن سورة الفاتحة هي أعظم سورة في القرآن الكريم. وقد أودع الله في كلماتها أسراراً لا تُحصى ، وهي التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حقّها : (والذي نفسي بيده لم ينزِّل الله مثلها في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان !) . وسبب قراءتها سبع مرات هو أن الله تعالى سمّاها بالسبع المثاني .

2- قراءة آية الكرسي : وهي الآية رقم 255 من سورة البقرة ، وهي قوله تعالى : (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) ، وهذه أعظم آية من القرآن كما أخبر بذلك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذلك فهي مهمة جداً في الشفاء ، لأن الله تعالى سيحفظ من يقرؤها من كل سوء أو شر أو مرض .

وأنا أنصح بقراءة آية الكرسي كل يوم صباحاً ومساءً لأن الله قد وضع فيها قوة حفظ لمن

يقرؤها ، إذن كإجراء وقائي فإن هذه السورة لها مفعول قوي جداً في حفظ الإنسان من شر الأمراض بأنواعها . لأن فيها قوله تعالى : (وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) .

(268/463)

3- آخر آيتين من سورة البقرة : وهما قوله تعالى : (آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) . وقد أخبر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أنه من قرأ هاتين الآيتين في ليلة كفتاه من أي شر ومرض وهم وغم .

4- سورة الإخلاص : وهذه السورة تعدل ثلث القرآن كما أخبر بذلك الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام . وهي السورة التي أودع الله فيها صفات الوحدانية التي انفرد بها ، ولذلك فهي سورة مهمة جداً في العلاج لجميع الأمراض . ويفضل أن نقرأها 11 مرة بعدد حروف (قل هو الله أحد) ، ولأن هذا العدد له إعجاز مذهل في هذه السورة .

5- آخر سورتين من القرآن: وهما المعوذتين، سورة الفلق وسورة الناس، اللتين قال عنهما النبي الأعظم: ما تعوذ المؤمن بأفضل منهما، أي أن المؤمن عندما يلجأ إلى الله تعالى ويقرأ هاتين السورتين فإن الله سيحميه ويحصّنه من شر الأمراض.

وكما قلنا إن هذه السور نقرؤها في جميع حالات المرض، ولكننا نضيف لها الآيات المناسبة للمرض. وسوف أضرب لكم أمثلة على ذلك:

أمرض القلق والتوتر النفسي والخوف

(269/463)

بالإضافة للسور السابقة نقرأ قوله تعالى: (الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [الرعد: 28]. ونكرر هذه الآية سبع مرات صباحاً ومساءً..

كذلك يمكننا قراءة سورة قريش: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) [سورة قريش]. وهذه السورة يمكن أن نكررها مرات كثيرة لأن الله تعالى أودع فيها الأمن من الخوف.

أمراض الإحباط والفصام والخمول

يمكن قراءة سورة يوسف لأن هذه السورة العظيمة نزلت في أصعب الأوقات التي مر بها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، نزلت لتواسيه في دعوته إلى الله وتثبته على الحق وهي سورة التفاؤل والسورة التي تجعل المؤمن أكثر صبراً وفرحاً .

كذلك يمكن قراءة قوله تعالى ثلاث مرات : (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) [يونس : 58] . ففي هذه الآية أودع الله سراً عظيماً حيث تبعث الفرح والسرور في قلب صاحبها .

أمراض السرطان بأنواعها

السرطان هو خلل في برنامج عمل الجسم ، ولعلاجه لابد من تلاوة الآيات التي تصلح هذا الخلل ، ومن الآيات الرائعة لعلاج هذا الخلل قوله تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام : (إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) [يونس : 81-82] ، وهذه الآيات مفيدة لعلاج السحر أيضاً . ويجب تكرار هذه الآيات سبع مرات على الأقل .

كذلك يمكن قراءة سورة يس كاملة على هذا المرض ، ويمكن الاستماع كل يوم لسورة البقرة كاملة أو لجزء منها ، وتكرار سماع سورة البقرة وذلك كل يوم حسب المستطاع. كذلك أنصح مرضى السرطان أن يقرأوا سورة الطور ، وسورة الروم.

أمراض الجلد والأمراض المزمنة بأنواعها

نقرأ بالإضافة للرقية السابقة دعاء سيدنا أيوب الذي مسّه المرض سنوات طويلة فكشف الله عنه هذا الضر ببركة هذا الدعاء : (أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) [الأنبياء : 83]. كذلك قراءة قوله تعالى : (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) [الزمر : 23].

أمراض الوساوس والقهر والخوف والغم والهموم

يقرأ دعاء سيدنا يونس وهو في بطن الحوت : (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) [الأنبياء : 87]. فقد استجاب الله لسيدنا يونس ببركة هذا الدعاء . وأنصح من أصيب بالوساوس أن يكثر من التسبيح أن يقول : (سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) ، فإن التسبيح ينجي الإنسان من الغم والهم والحزن.

أمراض العقم والإنجاب

يدعو بدعاء سيدنا زكريا عليه السلام عندما طلب من ربه أن يهبه غلاماً زكياً فاستجاب

الله له يبركة هذا الدعاء : (رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) [الأنبياء : 87] . كما أنصح من تأخر في الإنجاب أن يكثر من قراءة سورة الإخلاص ، وسورة مريم .

مشاكل في السمع والبصر والتشوهات الخلقية

أنصح بقراءة سورة الأعلى سبع مرات مع الرقية الشرعية السابقة . والإكثار من قراءة فاتحة الكتاب . وكذلك سورة الأعلى وسورة البلد .

(271/463)

من أجل أمراض السحر والحسد والعين والمس والعقد

أنصح بقراءة سورة البقرة على مراحل ، كل يوم يقرأ ما يستطيع من هذه السورة العظيمة ، كذلك يستمع إلى سورة البقرة حسب المستطاع كل يوم . مع الإكثار من قراءة المعوذتين .

وهناك آية عظيمة يجب أن نكررها سبع مرات وذلك في حالة المرض أو السلامة ، وهي قوله تعالى : (وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ) [المؤمنون : 97-98] .

وهناك أيضاً آية لم أحس أو شعر بأن ضرراً ما سيحل به أو خاف من الشر أو شعر

بالوسوسة، فما عليه إلا أن يكرر هذه الآية: (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) [البقرة: 102] وذلك سبع مرات.

(272/463)

العلاج بالصيام

أقوى سلاح ضد جميع الأمراض هو الصوم، وهذه حقيقة علمية ثابتة، لذلك أكثر من الصيام، وسوف تجد تحسناً كبيرا مهما كان مرضك.

عالج السموم بالصيام

إن الدواء لكثير من الأمراض موجود في داخل كل منا، فجميع الأطباء يؤكدون اليوم أن الصوم ضرورة حيوية لكل إنسان حتى ولو كان يبدو صحيح الجسم، فالسموم التي تتراكم خلال حياة الإنسان لا يمكن إزالتها إلا بالصيام والامتناع عن الطعام والشراب. يدخل إلى جسم كل واحد منا في فترة حياته من الماء الذي يشربه فقط أكثر من مئتي كيلو غرام من المعادن والمواد السامة!! وكل واحد منا يستهلك في الهواء الذي يستنشقه عدة كيلوغرامات من المواد السامة والملوثة مثل أكاسيد الكربون والرصاص والكبريت.

فتأمل معي كم يستهلك الإنسان من معادن لا يستطيع الجسم أن يمتصها أو يستفيد منها،

بل هي عبء ثقيل تجعل الإنسان يحسّ بالوهن والضعف وحتى الاضطراب في التفكير ، بمعنى آخر هذه السموم تنعكس سلباً على جسده ونفسه ، وقد تكون هي السبب الخفي الذي لا يراه الطبيب لكثير من الأمراض المزمنة ، ولكن ما هو الحل ؟

إن الحل الأمثل لاستئصال هذه المواد المتراكمة في خلايا الجسم هو استخدام سلاح الصوم الذي يقوم بصيانة وتنظيف هذه الخلايا بشكل فعال ، وإن أفضل أنواع الصوم ما كان منتظماً . ونحن عندما نصوم لله شهراً في كل عام إنما نتبع نظاماً ميكانيكياً جيداً لتصريف مختلف أنواع السموم من أجسادنا .

عالج ضغوطك النفسية بالصيام

للصيام قدرة فائقة على علاج الاضطرابات النفسية القوية مثل الفصام ! ! حيث يقدم الصوم للدماغ وخلايا المخ استراحة جيدة ، وبنفس الوقت يقوم بتطهير خلايا الجسم من السموم ، وهذا ينعكس إيجابياً على استقرار الوضع النفسي لدى الصائم .

حتى إننا نجد أن كثيراً من علماء النفس يعالجون مرضاهم النفسيين بالصيام فقط وقد حصلوا على نتائج مبهرة وناجحة ! ولذلك يعتبر الصوم هو الدواء الناجع لكثير من

الأمراض النفسية المزمنة مثل مرض الفصام والاكتئاب والقلق والإحباط .

إن الصيام يحسِّن قدرتنا على تحمل الإجهادات وعلى مواجهة المصاعب الحياتية ، بالإضافة للقدرة على مواجهة الإحباط المتكرر . وما أحوجنا في هذا العصر المليء بالإحباط أن نجد العلاج الفعال لمواجهة هذا الخطر ! كما أن الصوم يحسن النوم ويهدّئ الحالة النفسية .

فلدى البدء بالصوم يبدأ الدم بطرح الفضلات السامة منه أي يصبح أكثر نقاء ، وعندما يذهب هذا الدم للدماغ يقوم بتنظيفه أيضاً فيكون لدينا دماغ أكثر قدرة على التفكير والتحمل ، بكلمة أخرى أكثر استقراراً للوضع النفسي .

عالج الوزن الزائد بالصيام

حالما يبدأ الإنسان بالصيام تبدأ الخلايا الضعيفة والمريضة أو المتضررة في الجسم لتكون غذاءً لهذا الجسم حسب قاعدة : الأضعف سيكون غذاءً للأقوى ، وسوف يمارس الجسم عملية الهضم الآلي للمواد المخزنة على شكل شحوم ضارة ، وسوف يبدأ بابتلاع النفايات السامة والأنسجة المتضررة ويزيل هذه السموم .

ويؤكد الباحثون أن هذه العملية تكون في أعلى مستوياتها في حالة الصيام الكامل ، أي الصيام عن الطعام والشراب ، وبكلمة أخرى الصيام الإسلامي ، فتأمل عظمة الصيام الذي فرضه الله علينا والفائدة التي يقدمها لنا .

عالج الشهوة الجنسية بالصيام

إن إنتاج الهرمون الجنسي يكاد يكون معدوماً أثناء الصوم ، ولذلك نجد أن للصيام تأثير كبير على استقرار الحالة الجنسية وتجنب الهيجان الذي يسببه امتلاء المعدة وقلّة الخشوع ، وإذا علمنا بأن الصوم يؤثر إيجابياً على استقرار الحالة النفسية وعلمنا بأن الحالة الجنسية تابعة بشكل كبير للحالة النفسية ، فإن الصوم يعني استقرار الحالة الجنسية وتخفيض أثرها للحدود الدنيا .

عالج شيخوختك بالصيام

أظهرت الدراسات والتجارب أن ممارسة الصيام على الحيوانات يضاعف من فترة بقائها أو حياتها ! ونجد كذلك المئات من الكتب الصادرة حول الصيام وهي لمؤلفين غير مسلمين ، وجميعهم يؤكدون علاقة الصيام بالعمر المديد ، ويؤكد كثير من العلماء أن الصوم هو أفضل طريقة للسيطرة على جسم صحيح ومعافى . وهذا بالنسبة لصيامهم وهو على عصير الفواكه فقط ولا يتميز بأي روحانية أو خشوع أو إحساس بمتعة الصيام كما في البلدان الإسلامية .

إن التنظيف المستمر للخلايا باستخدام الصيام يؤدي إلى إطالة عمر هذه الخلايا وبالتالي تأخر الشيخوخة لدى من ينتظم في الصيام. حتى إن حاجة الجسم من البروتين تخف خلال الصيام إلى الخمس! وهذا ما يعطي قدراً من الراحة للخلايا، حتى إن الصيام هو وسيلة لتجديد خلايا الجسم بشكل آمن وصحيح. فإذا كان هذا تأثير الصيام غير الإسلامي، فكيف بتأثير الصيام الإسلامي؟

عالج التدخين بالصيام

يساعد الصوم على ترك التدخين! فهو يعمل في جسم الإنسان مثل السلاح الخفي الذي لا يُرى، فيطرد المواد السامة مثل النيكوتين، وبنفس الوقت ينظف الدم فتنخفض الشهوة للدخان بسرعة مذهلة.

عالج أمراض المفاصل بالصيام

من الأشياء الغريبة في الصوم أنه يساعد على شفاء آلام الظهر والعمود الفقري والرقبة. وكذلك يعالج الصوم الكثير من حالات الوهن العام والالتهابات بأنواعها.

عالج أمراض الجهاز الهضمي بالصيام

كم هو عدد الأشخاص المصابين بالإمساك المزمن وقد تناولوا الكثير من الأدوية دون أية فائدة، ليتهم يجرّبون الصوم وسيجدون التحسُّن السريع لحالتهم بإذن الله تعالى. وكذلك الأمراض المزمنة للجهاز الهضمي يمكن أن يجدوا في الصيام حلاًّ مؤكداً لشفائها. وكذلك

التهاب الكولون والتهاب الأمعاء المزمن . ونجد الباحثين يؤكدون بأن 85 % من الأمراض تبدأ في الكولون غير النظيف والدم الملوث .

عالج ضغط الدم العالي

هنالك حالات كثيرة من الإصابة بضغط الدم المرتفع والمزمن حيث لا يعطي الدواء الكيميائي إلا نتائج محدودة ، وهذا المرض يعالجه الصيام بشكل جيد .

عالج مرض السكر

فإن الصوم لا يضُرّهم ، بل يساعدهم على الشفاء . وقد يكون السبب الرئيسي في ذلك هو أن الصائم يتمتع بنفسية جيدة وحالة مستقرة تغيب فيها الانفعالات والاضطرابات ، وتخيم عليه السكينة والطمأنينة ، وهذا ما ينظم عمل أجهزة الجسم ويجعلها أكثر قدرة وكفاءة في علاج السكر وتنظيم مستوياته .

عالج الربو بالصيام

الصوم وسيلة جيدة لعلاج الربو وأمراض الجهاز التنفسي . وكثير من الأمراض المزمنة للجهاز التنفسي تزول بمجرد المداومة على الصيام ، فسبحان الله !

عالج قلبك بالصيام

والصوم يعالج الأمراض القلبية وتصلب الشرايين . وإنني أعرف شخصاً منذ عشر سنوات وقد أكد له الأطباء بضرورة إجراء عملية للقلب بسبب انسداد قسم كبير من الشرايين والأوعية ، وأكدوا له جميعاً أن حالته في خطر شديد إذا لم يجر هذه العملية ولكنه لم يفعل أي شيء سوى أنه يصوم شهرين قبل رمضان وشهر بعده ، والعجيب أنه يتمتع بصحة جيدة مع العلم أن عمره فوق السبعين .

عالج الكبد بالصيام

أمراض الكبد مهما كان نوعها فقد أثبت الصوم قدرته على علاجها بدون آثار سلبية .

عالج أمراض الجلد بالصيام

يعالج الصيام أمراض الجلد وبشكل خاص الحساسية والأكزما المزمنة . ويحدث ذلك بسبب ارتفاع مناعة الجسم أثناء الصوم .

عالج الحصيات بالصيام

يفيد الصوم في الوقاية من مرض الحصى الكلوية . وكذلك الحصيات بأنواعها ، وأعود فأتحدث عن الشخص السابق مريض القلب ، فقد كان يعاني من وجود حصية كبيرة في المثانة ، ولكن الأطباء لم يستطيعوا إجراء أي عملية بسبب أن قلبه لا يتحمل التخدير ، إلا على مسؤوليته .

ولكنه رفض العملية الجراحية أيضاً وقرر أن يصوم فإذا به بعد عدة أشهر لم يعد يشكو من أي شيء ، وهذه معلومات مؤكدة ويؤكدها جميع الباحثين اليوم .

(276/463)

عالج السرطان بالصيام

إن الصيام ينفع في علاج الأمراض الخبيثة مثل السرطان . كما أن الصوم يعتبر السلاح رقم واحد في الطب الوقائي .

(277/463)

العلاج بأسماء الله تعالى

هناك طريقة رائعة للعلاج بأسماء الله الحسنى فلكل اسم عمل وتأثير وقوة شفائية وتستطيع اختيار الاسم الذي يناسب حالتك ، فاسم (الغني) لعلاج الفقر والحاجة ، واسم (السلام) لعلاج الخوف والقلق والإحباط ، واسم (القوي) لعلاج الضعف بكافة أنواعه ، واسم (البارئ) لعلاج كافة الأمراض . . . وهكذا . وتكرر أي اسم من أسماء الله الحسنى

عدداً كبيراً من المرات حتى يتم الشفاء ، طبعاً بالإضافة للآيات القرآنية السابقة . مع العلم أنه لا يوجد عدد محدد لتكرار الاسم ، كلما ذكرت الله أكثر كان الشفاء أسرع !

العلاج بالاستغفار

استغفر الله كل يوم مئة مرة صباحاً ومساءً : (أستغفر الله العظيم وأتوب إليه) ، فهذا الاستغفار مفيد للرزق وإصلاح الأولاد وسوف ينجيك الله من الأخطار والشرور ببركة الاستغفار ، وهو شفاء للأمراض بجميع أنواعها .

يقول تعالى على لسان سيدنا نوح: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا) [نوح: 10-12] . فالاستغفار هو طريقك إلى الشفاء وإلى مزيد من الرزق ومزيد من النجاح في الحياة .

العلاج بالتفكر في خلق الله

وهذه طريقة جديدة للعلاج بأن نتأمل مخلوقات الله مثل النباتات من حولنا ، والنجوم والقمر والسماء في الليل ، ونتأمل الحيوانات والحشرات وكيف أتقن الله صناعتها ، نتأمل عالم النمل ، وعالم النحل ، وعالم الإبل . . . . إنها أرقى طريقة في العلاج ، لأن التفكر في خلق الله تعالى يعطي قوة كبيرة للنظام المناعي للجسم ، وهذا الكلام عن تجربة شخصية طويلة ، وأنصح بها كل من يعاني من أمراض مستعصية جداً عجز الطب عن شفائها مثل السرطان ، والتهاب الكبد الوبائي والالتهابات بأنواعها ، والأمراض المزمنة والحادة مهما كان نوعها .

(280/463)

العلاج بالعسل وزيت الزيتون

أيضاً تقرأ الآيات القرآنية على العسل المذاب بالماء وتشربه ، وكذلك تقرأ هذه الآيات على زيت الزيتون وتشربه أو تدهن به جسدك مكان المرض .

يقول تعالى : (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [النحل : 69] .

بعد اختبارات طويلة وجد الدكتور Glenys Round اختصاصي أمراض

السرطان شيئاً غريباً في العسل ! فقد لاحظ أن للعسل تأثيراً مدهشاً في علاج السرطان .
ويقول إننا نستعمل العسل في علاج سرطان الجلد حيث يخترق الجلد ويعالج هذه السرطان بشكل تعجز عنه أفضل الأدوية .

كذلك يؤكد أن كل الأدوية وقفت عاجزة أمام علاج القروح ولكنهم تمكنوا أخيراً من شفائها بالعسل . والشيء الذي يؤكده جميع المرضى الذين تمت معالجتهم بالعسل أنهم يحسون بسعادة أثناء العلاج ، فلا آثار جانبية ، ولا ألم . .

في كتاب الله نجد أن المادة الغذائية الوحيدة التي وصفها الله تعالى بأن فيها شفاء للناس هي العسل . يقول عز وجل : (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) [النحل : 69] . وإذا تتبعنا الاكتشافات الحديثة نجد أن العسل يستخدم حديثاً في علاج الحروق والجروح المتقيحة وعلاج أمراض الجلد والحفاظ على صفاء ونقاء البشرة وعلاج الكلف والنمش . كذلك يفيد العسل في منع تساقط الشعر وعلاج تلف هذا الشعر . بالإضافة إلى فائدته في التهابات الأمعاء وكثير من أنواع السرطان .

لقد حيرت بعض أنواع الجراثيم باحثي الولايات المتحدة الأمريكية ولم يجدوا لها علاجاً ، ولكنهم اليوم يحاولون استخلاص المضادات الحيوية الموجودة في العسل لتعقيم المشافي حيث يؤكدون أنها من أفضل المضادات الحيوية !

كما يؤكد الخبراء أنه يتم إنفاق ستة بليون دولار سنوياً على علاج الجروح والحروق ، ولو تم الاعتماد على العسل لوفّروا نسبة كبيرة من الأموال . إذاً العسل يوفر المال أيضاً .

كما وجد بعض الباحثين أن العسل يملك قوة شفائية في علاج قروح المعدة والتهابات الحنجرة . ووجدوا أن الجراثيم تجتمع بطريقة خاصة لتدعم بقاءها وتجمعاتها ، وأثبت البحث العلمي أن العسل يقوم بتفريق دفاعات الجراثيم وبشتتها ويضعفها ، مما يساعد الجسم على القضاء عليها . وقد قام العلماء مؤخراً باكتشاف مادة في العسل تمنع التأكسد وبالتالي تفيد في علاج الكولسترول .

ولذلك يعجب العلماء من الطاقة الخفية الموجودة في العسل والتي تستطيع شفاء الأمراض المستعصية ، ويتساءلون : كيف يحدث الشفاء ؟ ما هو الشيء الذي يقوم به العسل داخل خلايا جسدنا فنجد أن السرطان يتوقف بشكل مفاجئ ، ونجد أن الكثير من البكتريا يتوقف نموها في الجسم ، ونجد أن الجهاز المناعي ينشط ويصبح أكثر فاعلية . . . . ما الذي يحدث ؟ لا أحد لديه الإجابة .

ولكننا بقليل من التأمل في هذا القرآن وتحديداً في قوله تعالى : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ

اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [النحل : 68-69] ، سوف نجد أن الله تعالى أودع في هذا العسل قوة شفائية من كلامه عز وجل من كلمة (وَأَوْحَى) ، فلذلك من الضروري أن نقرأ على العسل قبل أن نتناوله سواء للعلاج أو للغذاء .

يحتوي العسل على فيتامين (ب1) الذي يفيد في التهاب الأعصاب وتنميل الأطراف . كما يحتوي العسل على الفيتامين (ب2) المفيد لعلاج قرحة الفم وتشقق الشفاه والتهاب العين . كما يحتوي العسل على عدد من المعادن مثل البوتاسيوم والصوديوم والكالسيوم والمغنزيوم والحديد والنحاس والفوسفور والكبريت وهذه المجوعة تساعد على تهدئة الحالة النفسية لدى المريض المصاب باضطرابات نفسية .

(282/463)

يحوي العسل "المعلومات" التي انتقلت من النحل إلى هذا العسل أثناء إنتاجه ، هذه المعلومات موجودة في رحيق الأزهار حيث تتفاعل داخل بطون النحل وتعدّل ويزداد مفعولها لتكون جاهزة للاستفادة منها ، وهنا يكمن سر الشفاء بالعسل . فالله تعالى زود

كل نحلة ببرامج موجودة في خلايا دماغها ولذلك هي تقوم بخطة مرسومة لها مسبقاً وهو ما عبر عنه القرآن بقوله تعالى : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) [النحل : 68] . فهو إذاً طريق مرسوم ووحي من الله بأسلوب نجهله نحن البشر !

والعسل له حضور مهم جداً عند الأطفال الرضع ووقايتهم من فقر الدم والكساح ولعلاج التبول اللاإرادي لدى الأطفال ، ولكن يجب أن يتناولوا كميات صغيرة منه بالنسبة للأطفال دون العام . . كما أن مضغ القليل من شمع العسل مع العسل الصافي يساعد على علاج الزكام والتهاب الحلق والسعال ، ولشفاء الجيوب الأنفية وحساسية الأنف . كما يستفاد من العسل في معالجة الإرهاق العضلي والتشنجات العضلية . كذلك يفيد العسل في علاج أمراض الكبد وحالات التسمم .

أمراض يشفيها العسل

- يمكن علاج الأرق وقلة النوم شرب كأس ماء مذاب فيه ملعقة من العسل قبل النوم ، فقد وجد بعض الباحثين تأثيراً مهدئاً لشراب العسل .

- يمكن استعمال العسل لعلاج تشقق الشفاه ، وعلاج الجلد المتجعد ، أي لتجميل وتنشيط الجلد المترهل .

- ملعقة عسل كل يوم قد تقيك من نوبة قلبية قاتلة ، هذا ما يؤكده الباحثون من خلال الدراسات الجديدة على العسل ، حيث لاحظوا أنه يساهم في تنظيم عمل القلب .

- وفي بحث حديث جداً نصح وجد الأطباء أن تناول ملعقة من العسل كل يوم يعالج السعال المزمن ، بشكل أفضل من الأدوية الكيميائية المعروفة .

- بحث آخر وجد أنه حيث تعجز الأدوية الكيميائية عن علاج الربو والتهابات الرئتين والمجاري التنفسية ، فإن العسل أثبت قدرته الكبيرة على الشفاء !

- لعلاج التوتر النفسي والتهاب الأعصاب والاضطرابات المختلفة في أنظمة عمل الجسد ، فإن العسل له طاقة عجيبة في تنظيم وتخفيف هذه الاضطرابات وتهديء الحالة النفسية .

- لعلاج التهابات اللثة وتسوس الأسنان ، فقد أثبتت بعض التجارب الشعبية أن تدليك اللثة بالعسل يقوي اللثة الضعيفة وينشط حركة الدم ويقتل البكتريا المؤذية في الفم .

- لعلاج الضعف الجنسي وأمراض العقم ، فقد أثبتت بعض التجارب أن للعسل مفعول في تنشيط وتنظيم الحالة الجنسية لدى الرجل والمرأة على حد سواء ، كذلك هناك بعض الأبحاث بينت الدور المهم للعسل في علاج العقم .

- إذا كنتَ تعاني من حساسية ما فعليك بتناول القليل من شراب العسل وذلك بعد قراءة القرآن عليه بصوت مسموع وبخشوع وتأمل ، وبعد فترة يمكن أن تصل إلى ثلاثة أشهر سوف

تجد أن الحساسية التي عجز الطب عن علاجها سوف تخف كثيراً بإذن الله تعالى .

وأنصح يا أحبتي أن نلجأ إلى الشفاء بالعسل والقرآن وهذا ما نصحنا به النبي الأعظم عليه صلوات الله وسلامه ، فنكون بذلك قد أخذنا أسباب الشفاء . وقد وجدتُ بالتجربة أننا عندما نقرأ على العسل المذاب بالماء (شراب العسل) سورة الفاتحة سبع مرات وقوله تعالى (فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) سبع مرات أيضاً فإن هذا الشراب سيتأثر بتلاوة القرآن وتزداد فاعليته بإذن الله ويصبح أكثر قدرة على الشفاء ، والله أعلم .

(284/463)

العلاج بالأعشاب

يمكنك أن تستشير المختصين بالأعشاب ما هي العشبة المناسبة لمرضك ، وتغلي هذه العشبة بالماء ثم تقرأ عليها القرآن وتتناولها ، فالقراءة دائماً تزيد من الطاقة الشفائية للعشبة .

أحبتي في الله ! لماذا لا تستبدلون القهوة والمشروبات الغازية بالشاي الأخضر والبابونج والنعناع ؟ ! وقد دلت المشاهدة على أن الإنسان الذي يتناول شراب البابونج وغيره من الأعشاب الطبية مع قراءة الفاتحة وما استطاع من القرآن ، فإن مناعته تزداد ضد جميع

الأمراض ، وهذا الكلام عن تجربة .

ولا نريد أن ندخل في تفاصيل هذا العلاج ولكن ألخص لكم أحبتي كل ما قرأته في عالم العلاج بالأعشاب بجملة خفيفة : إن كل شيء خلقه الله من حولنا سواء كان نباتاً أو عشباً أو فاكهة ، إنما فيه فائدة طبية مؤكدة ، فاحرص على تناول الأشياء الطبيعية واترك الأشياء الاصطناعية قدر الإمكان ، واستمتع بصحة رائعة !

العلاج بالزيوت العشبية

وهو علاج رائع حيث نقوم باستخدام زيت الحبة السوداء وزيت بذور العنب ومختلف أنواع الزيوت العشبية والنباتية وذلك بعد القراءة عليها ودهن الجزء المريض .

لقد أثبت الباحثون أن تعريض الزيوت العشبية إلى الترددات الصوتية يرفع من طاقة هذه الزيوت وتصبح أكثر فاعلية في علاج المرض .

وإن أفضل ترددات صوتية نطبقها على هذه الزيوت هي كلام الله تعالى ، فهو خالق المرض وهو خالق الإنسان وهو خالق النباتات وهو أعلم بشفاء عباده من أنفسهم ، لذلك لا نشك أبداً في الأثر القوي لتلاوة القرآن بصوت مسموع على الزيوت قبل دهن مكان الألم .

العلاج بالأدوية الكيميائية

أحبتي في الله : علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف نداوي أنفسنا وينبغي ألا نهمل العلاج بالأدوية الكيميائية التي ينصح بها الأطباء ، ولكن الخطأ أن نهمل العلاج بالقرآن ونعتمد كلياً على الطب الكيميائي ، فالعلاج بالقرآن لا يكلف شيئاً ، وقد جربته كما جربه الملايين من المسلمين وحصلوا على نتائج مبهرة ، فلا تجعلوا اعتمادكم على الطب فقط ، بل جربوا علاج القرآن ، ولن تخسروا شيئاً ، بل إن أثر القرآن مؤكد مئة بالمئة ، نسأل الله تعالى أن يجعل القرآن شفاء لنا من كل داء .

وإنني أنصح أي واحد يتعرض لمرض ما أن يلجأ إلى الله أولاً وإلى تلاوة القرآن والدعاء ، ثم يستخير الله في الذهاب إلى الطبيب المناسب ، والله سييسر له الطبيب المناسب .

ثم يتوكل على الله ويتناول الدواء الكيميائي سواء كان على شكل إبر أو حبوب أو شراب أو علاج بالليزر أو غير ذلك ، ولكن لا ننسى أن نقرأ سورة الفاتحة سبع مرات قبل تناول أي مادة دوائية .

ويفضل أن تقرأ الفاتحة وآية الكرسي وسورة يس والمعوذتين على الدواء ثم تتناول هذا الدواء ، وسيصبح أكثر فاعلية وتأثيراً بإذن الله تعالى .

(287/463)

القراءة على الماء ترفع طاقته العلاجية

العلاج بالماء هو علاج مكمل ، وهو أن تأخذ كأساً من الماء وتقرأ عليه الرقية الشرعية والأدعية وأسماء الله الحسنى وبعض سور القرآن المناسبة لمرضك ، بصوت مرتفع قليلاً ، ثم تشرب من هذا الماء وتسقي منه أي مريض ، وتمسح به على وجهك ومكان الألم ، هذا الماء يقوم بتخزين المعلومات الشفائية التي أودعها الله في الآيات التي قرأتها ، وسوف تنتقل هذه المعلومات إلى كل خلية من خلايا جسدك ، فيحصل الشفاء بإذن الله تعالى . وحبذا لو كان الماء من نبع زمزم ، فهذا الماء له قدرة هائلة على الشفاء !

يستخدم اليوم العلماء الماء المقطر أي المنقى كمادة مطهرة في المشافي ، وكذلك يستخدمون الماء المنقى في علاج بعض الأمراض ، ويقولون إن الماء المقطر يحوي طاقة كبيرة في داخله والتي يستفيد منها الإنسان لدى شربه كل يوم لتراً منه .

ويقول الباحثون إن للماء خصائص مذهلة تتجلى في قدرته العلاجية والشفائية من كثير من

الأمراض. حتى إن بعضهم يقترح طريقة للعلاج بالماء حيث ينصح بأن يتناول الإنسان كل يوم لتراً من الماء صباحاً ويبقى دون طعام حتى ساعة متأخرة لضمان تغلغل الماء وتشرب الخلايا لهذا الماء، ويستمر هذا البرنامج العلاجي لمدة عشرين يوماً أو لمدة شهر كامل.

وقد وجدوا لهذه الطريقة نتائج ممتازة. وينصحون أيضاً بشرب الماء بعد تعريضه لذبذبات كهرطيسية، لأنهم وجدوا أن الماء يتأثر بهذه الذبذبات، ويتغير تركيبه الجزيئي. ووجدوا أيضاً أن الماء يتأثر بالصوت، أو الترددات الصوتية، حتى إنهم يستخدمون الصوت في تجميد الماء!

(288/463)

ولكن أخي وأختي! نحن لدينا طريقة أفضل وهي قراءة القرآن على الماء، فالماء الذي جعله الله طهوراً، لا يقتصر على تطهير الأوساخ بل يطهر الجسد من الفيروسات والبكتريا الضارة، ولكن عندما نقرأ القرآن الكريم على كأس من الماء وبصوت مرتفع قليلاً، ومن ثم نشرب هذا الماء سوف يتمتع الماء بخصائص جديدة لأن الله جعل فيه خاصية التأثر بآياته، كيف لا وهو القائل: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) [الأنبياء: 30].

يقول تعالى في الدنيا: (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) [الفرقان: 48-50]. ويقول في الآخرة: (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا) [الإنسان: 21-22].

(289/463)

عالج نفسك بالقرآن أثناء النوم

من الحقائق التي حدثنا عنها: آية النوم، فالنوم آية ومعجزة تشهد على عظمة الخالق ودقة صنعه وإتقانه، ويقول العلماء بعد سنوات طويلة من البحث: إن النوم عملية معقدة جداً وهي ضرورية لاستمرار الحياة، ومن دون النوم لا وجود للحياة!

ولكن قبل ذلك ينبغي أن ندرك أن النوم مهم جداً لبناء الإنسان واستمراره وتطوره وذكائه.

وقد قام الباحثون بتجارب كثيرة على النوم ولا زالوا وأجمعوا على أن النوم من العمليات المعقدة جداً، وكلما زادت معرفتهم بالنوم أكثر أدركوا جهلهم بهذه العملية المعقدة.

ولذلك فإن الله تبارك وتعالى أخبر البشر بأن علمهم محدود، يقول تعالى: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) [الإسراء: 85].

تبقى الأذن تعمل وتدخل إليها أي ترددات صوتية وتنقلها إلى الدماغ ، الذي يقوم بمعالجة هذه المعلومات الواردة ، ومع أن الإنسان وهو نائم لا يشعر بأي شيء ، إلا أن حاسة السمع تقوم بالكثير بل وتحافظ على التوازن أثناء النوم ، فالنوم هو آية تستحق أن نتفكر فيها ، وهذه الأذن سخرها اله لنا فأقل شيء نقدمه كشكر لله أن نستخدمها لنسمع بها كلام خالقنا ورازقنا سبحانه وتعالى .

إن النائم يغمض عينيه فلا يرى شيئاً ، وتتوقف لديه حاسة اللمس ، وكذلك حاسة الشمّ ، ولكن هناك حاسة وهي السمع تبقى متنبهة لأي صوت خارجي ، لذلك نرى كثيراً من النائمين وهو نائم يرى حلماً تدور أحداثه حول كلمة ألقيت بجانبه .

مثلاً إذا جئنا بإنسان نائم وأجرينا عليه مسحاً لدماغه بواسطة جهاز المسح بالرنين المغنطيسي الوظيفي fMRI فإننا نلاحظ أن دماغه يستجيب للأصوات التي تتردد بجانبه ، بل إن الدماغ يعالج هذه الأصوات وبالتالي يمكننا أن نقول إن حاسة السمع لها عمل مهم أثناء النوم .

صورة للدماغ بواسطة جهاز المسح fMRI وقد تبين للعلماء أن الدماغ يبقى في حالة نشاط أثناء النوم ، حيث يقوم بمعالجة المعلومات التي اختزنها طيلة النهار وترتيبها وتنسيقها في خلايا خاصة ، والإشارات الصفراء على الصور هي للمناطق التي تنشط من الدماغ أثناء النوم بعد التأثير على هذا النائم بكلمات محددة . طبعاً هذه المناطق تختلف من شخص لآخر وتختلف مع نفس الشخص حسب حالته النفسية وحسب الحلم الذي يراه وهو نائم وحسب الأصوات التي يسمعها وهو نائم .

هناك طريقة رائعة للعلاج بالقرآن من دون أي جهد ، أن تعالج نفسك أثناء النوم ، أي أن تستمع إلى صوت القرآن كل يوم قبل أن تنام وبعد نومك ، وسوف تستجيب خلايا دماغك وقلبك لكلام الله وسوف يتم برمجة الدماغ من جديد .

يتأثر الدماغ بالصوت ويقول العلماء إن النشاط الدماغي يختلف حسب نوع الصوت الذي يحيط به ، فكل كلمة ننطقها تؤدي إلى نشاط في الدماغ يختلف عن الكلمة الأخرى ! سبحان الله تأملوا كم من النشاطات التي تجري في الدماغ مع كل حرف ننطقه أو نسمعه ، ولذلك فإن عمل الدماغ أثناء النوم هو آية من آيات الله تعالى .

ويؤكد العلماء أن عمل الدماغ معقد جداً حيث يتأثر بالكلمات التي يسمعها ، ويحاولون رسم خرائط للدماغ بهدف معرفة ما يفكر به الإنسان . أي يقومون بعملية عكسية ، يرصدون نشاط الدماغ لتحويله إلى كلمات ! ويا ليت أطباء المسلمين يقومون بتجارب

حول تأثير القرآن على الدماغ، بل تأثير كل كلمة من كلمات القرآن على الدماغ وبخاصة كلمة (الله) سبحانه وتعالى. لماذا لا نجري تجارب عن تأثير القرآن على الإنسان النائم؟ مع أنها تجارب بسيطة جداً ولكن تجد أنه لا أحد يقوم بها ! !

(291/463)

طالما ظن الإنسان أن النوم عملية بسيطة، ولكن تبين حديثاً أنها من أعقد العمليات الطبيعية التي تحدث فقد اكتشف العلماء أن هناك مراحل للنوم، وأن الدماغ يطلق موجات كهرطيسية أثناء النوم بترددات مختلفة. ولذلك فإن الله تعالى نبّهنا إلى هذه النعمة العظيمة بقوله (ومن آياته) أي من معجزاته، فالنوم هو بحق معجزة ونعمة وآية تستحق أن نتفكر فيها. نلاحظ في الشكل خمس مراحل للنوم، كل مرحلة تتميز بإن الدماغ يصدر ترددات تختلف عن الأخرى (موجات كهرطيسية)، والمرحلة العميقة هي تلك التي يطلق الدماغ فيها ترددات منخفضة جداً (أقل من 3 هرتز) وهي مرحلة مهمة للإبداع والشفاء، وهذه الترددات تنطلق من منطقة الناصية التي كان النبي الأعظم يسلمها لله تعالى فيقول في دعائه: (ناصيتي بيدك). وربما هذه الترددات موجودة في صوت القرآن الذي نسمعه والله أعلم.

يتميز القرآن بأن كل عبارة فيه جاءت في موضعها المناسب، وقد أودع الله في هذه العبارات معجزة تشهد على أنه لا يمكن لأحد أن يغير حرفاً من كتاب الله ولو حدث ذلك سيختل النظام المحكم لهذه العبارات. ولكن دعونا نتساءل: هل هناك علاقة بين النوم والسمع؟ علمياً أثبت العلماء هذه العلاقة، ولكن قرآنياً كيف تحدث الله عن النوم؟ يقول تعالى: (وَمِنْ آَيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ) [الروم: 23]. وهنا نتوقف قليلاً ونتوقع ماذا يمكن أن يأتي بعد هذه الكلمات الإلهية الرائعة، فالآية تحدثنا عن آية النوم أي معجزة النوم، لأن كلمة (آية) تعني (معجزة)، أي أن تفسير الآية هو: ومن معجزاته نومكم في الليل وفي النهار.

والعجيب أن الله تعالى ختم هذه الآية بقوله جل وعلا: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) سبحان الله!! ربط بين النوم وبين السمع، وهذه إشارة قرآنية لطيفة إلى أهمية الاستماع إلى القرآن أثناء النوم، والله أعلم. ولذلك من المنطقي والطبيعي أننا عندما نتحدث عن النوم أن نتحدث عن السمع، وهذا ما فعله القرآن عندما ربط بين النوم بالليل والنهار: (مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) وبين السمع (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ).

مع العلم أن سورة الروم حيث وردت هذه الآية فيها كثير من هذه العبارات ، ودائماً تأتي العبارة مرتبطة بما قبلها وبما يتناسب مع النص القرآني ، وهذا إعجاز يُضاف للرصيد الإعجازي لكتاب الله تعالى .

تساؤلات مهمة

ما هو الإثبات العلمي على أن القرآن يمكن أن يعالج حتى أكثر الأمراض استعصاءً ؟

هنالك أناس يعملون في مجال العلاج بالقرآن وقد حصلوا على نتائج طيبة بسبب إخلاصهم لله تبارك وتعالى فهؤلاء وهم قلة قليلة جداً لا يبتغون الحياة الدنيا أو الشهرة أو الأجر إنما يريدون وجه الله ، فهم يتلون آيات من القرآن على المرضى ابتغاء وجه الله وببركة هذه القراءة فإن الله تبارك وتعالى يتمم هذا الشفاء . ولكن هنالك بعض الدجالين يدَّعون أنهم يستطيعون أن يعالجوا ويشفوا جميع الأمراض بهدف الكسب المادي أو الشهرة أو أهداف دنيوية .

لذلك ينبغي أن نميز بين هؤلاء وهؤلاء وينبغي أن نبني عقيدتنا على أساس علمي ، فلا يجوز لنا لو رأينا هذه المظاهر (الدجل والشعوذة) لا يجوز أن ننكر العلاج بالقرآن بشكل

كامل ، كذلك لا يجوز لنا أن نقبل بهذا الموضوع بشكل مطلق ، إذا جاءنا أي إنسان يقول أنا أعالج بالقرآن نقبله دون أي تحفظ مثلاً .

ومن هنا لا بد من وضع الأساس العلمي لهذا العلاج وتعرف على الأبحاث العلمية التي قام بها العلماء ، ولكن للأسف حتى الآن لا يوجد أبحاث علمية طبية عن تأثير قراءة القرآن تحديداً على المرض ، هنالك أبحاث في مجال العلاج بالصوت ، وهذا العلاج للأسف الذي بدأ به هم أناس غير مسلمين ، من دول غربية ، يعالجون الناس بالترددات الصوتية ، وأقول للأسف لأننا نحن المسلمين لدينا كتاب ، هذا الكتاب العظيم ، للأسف ننساه ونغفل عنه وننتظر الغرب حتى يكشف الحقائق ونأخذ الحقائق منه ، بينما هذا الكتاب العظيم الذي أودع الله فيه علمه تبارك وتعالى وجعله كتاباً مليئًا بالمعجزات والحقائق والأسرار ، ننساه ، ونغفل عنه ، ونجلس وننتظر الآخرين حتى يكشفوا لنا العلاج والحقائق العلمية .

العلاج بالصوت هو أن يأتي المعالج بترددات صوتية مثل أصوات موسيقى – أصوات طبيعية : خرير مياه أو بلابل أو حفيف الأشجار أو غير ذلك أو أصوات نقر على الزجاج وغيره ويطبقون هذه الأصوات ، يجعلون المريض يجلس ويستمع إلى هذه الأصوات لفترة من

الزمن ، يعني كل يوم مثلاً نصف ساعة لمدة – فرضاً – شهر .

لاحظوا أن بعض الأصوات تشفي من أمراض معينة ، وهنالك بعض الأمراض المستعصية مثل سرطان القولون وغيره قد تم شفاؤها بهذه الوسيلة العلاجية ، فقط باستخدام ترددات صوتية محددة ، ثم بعد ذلك وجدوا أن هذه الترددات الصوتية تؤثر على خلايا الجسد ، وتؤثر أيضاً على الفيروسات داخل الجسم ، وتؤثر على نظام المناعة بشكل كامل ، فبعض الترددات الصوتية تزيد من قدرة جهاز المناعة على مواجهة المرض .

ما هو المرض ؟

إن أحدنا عندما يصاب بمرض ما ، ما الذي يحدث في جسده ، لماذا بعض الناس يشفيهم هذا الدواء ، وبعضهم لا يُشفَى ؟ ولماذا تجد أن إنسان سليم الجسم ، وإنسان آخر تصيبه الأمراض ؟ لماذا هناك إنسان لديه نظام مناعة قوي جداً وإنسان آخر ليس لديه شيء من هذه المناعة ؟

السبب : أن الله تبارك وتعالى عندما خلق الإنسان أودع في كل خلية من خلايا جسده برنامجاً خاصاً يدير كل حركة من حركاته ، وهذا البرنامج موجود داخل كل خلية في الشريط الوراثي لهذه الخلية ، هو الذي يتحكم بهذه الخلية وباهتزازاتها وبتردداتها .

لذلك وجد العلماء بعد أبحاث طويلة أن كل خلية تصدر ترددات صوتية وكل خلية من خلايا الجسد تتأثر بالترددات الصوتية ، وكانت نتيجة هذه الاختبارات أنهم وجدوا أن

هنالك بعض الأصوات التي تشفي من أمراض معينة ، وفي رحلتهم في البحث عن الترددات الصحيحة لم يعثروا على أي نتيجة علمية حتى الآن .

ولكن إذا أصاب الإنسان أي مرض ماذا يحدث داخل الخلايا ؟

الذي يحدث هو خلل في برنامج هذه الخلايا الذي فطره الله تبارك وتعالى على الفطرة السليمة : (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [الروم : 30] . وربما نعجب إذا علمنا أن بعض الأطباء والباحثين اليوم يحاولون أن يبتكروا طرقاً جديدة في العلاج يسمونها : إعادة برمجة خلايا الدماغ ، فكل الأحداث التي يمر بها الإنسان وكل كلمة ينطقها وكل فعل يراه وكل حدث يتلقاه كلها يتم تخزينها في أماكن خاصة داخل خلايا الجسد وليس خلايا الدماغ بل خلايا الجلد وخلايا القلب وخلايا الرئتين . . . ويقولون : إن أي مرض لا بد أن يكون هنالك خلل من وراءه وبالتالي فإن هذا الخلل يمكن إعادته ويمكن علاجه من جديد وإعادة الخلية إلى وضعيتها الأولى التي كانت عليها .

ما هو الطريق الذي ينبغي علينا أن نسلكه لإعادة برمجة الخلايا ؟

علماء البرمجة اللغوية العصبية يستخدمون الإيحاءات والكلمات ولديهم أساليبهم في إعادة البرمجة والأطباء يستخدمون الأدوية الكيميائية ، وهي طبعاً الأكثر ضرراً على الإنسان لإعادة الخلية إلى طبيعتها ، وعلماء النفس يستخدمون أسلوب التحليل النفسي وغير ذلك . ولكن هناك أسلوب حديث بعدما اكتشف العلماء أن كل خلية من خلايا دماغ الإنسان تهتز بنظام بديع لا يحيد شعرة عن المسار الذي رسمه الله تعالى له .

(296/463)

فهؤلاء العلماء وجدوا أن خلايا الدماغ تهتز وخلايا الجسد تهتز أيضاً ، وهي تتأثر بالاهتزازات أي تتأثر بالأمواج الكهرطيسية ، تتأثر بالضوء ، تتأثر بالصوت ، ولذلك بدؤوا يفكرون بوسائل بديلة للعلاج وهي ما يسمونه العلاج بالصوت وهو أحد أنواعه الطب البديل أو الطب المكمل . فالعلاج بالصوت : يعني أن نأتي بالترددات التي توقظ هذه الخلايا وتنشطها ، وبنفس الوقت تقضي على الخلايا المريضة السرطانية وتبعدها وتزيلها وتقوي جهاز المناعة لدى الإنسان .

القرآن الكريم يقوم بهذا العمل ، والدليل على ذلك أن آيات القرآن وكلماته وحروفه قد رتبها الله تبارك وتعالى بنظام محكم لا يشبه أي نظام آخر ، والله تبارك وتعالى عندما أنزل هذا

القرآن وقال : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء : 82] . فهذا يعني أن الله أودع في كلمات هذا القرآن قدرة على العلاج ولغة خاصة تفهمها خلايا الدماغ لدى الإنسان ولدى تلاوة آيات معينة يحدث هذا الشفاء .

الصوت هو عبارة عن أمواج ميكانيكية تنتقل عبر الأذن للدماغ يعالجها ويعطي أوامره للجسد ، ولكن هذا الصوت أيها الإخوة يؤثر أيضاً على كل شيء من حولنا . فالعلماء حديثاً يقومون باستخدام الصوت من أجل التبريد أو التكييف أو من أجل تبريد المياه وتجميدها ، ويقومون أيضاً باستخدام الترددات الصوتية من أجل تفتيت الحصى في الكلية لدى الإنسان ، ويقومون أيضاً باستخدام الترددات الصوتية لتفجير بعض الخلايا السرطانية .

ونحن عندما نسمع كلام الله تبارك وتعالى عندما يقول : ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر : 21] هذا يعني أن الله تبارك وتعالى لو جعل هذا الجبل يعقل كلام الله تعالى ، إذاً لتصدَّع وتشقق وخرّ خاشعاً أمام عظمة هذا الكلام ، فهذا الكلام عندما نلقيه على إنسان

مصاب بمرض عضال ، فإن هذه الترددات الصوتية تدخل عبر الأذن إلى دماغ هذا المريض ، وتؤثر على هذه الخلايا ، وتجعلها خلايا خاشعة ، أو تميتها إذا كانت خلايا سرطانية أو تنشطها وتحييها من جديد ، لأن الله تبارك وتعالى يقول : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) [الأنفال : 24] . إذاً القرآن حياة ، حياة بالنسبة للإنسان ، وبالنسبة لكل خلية من خلايا جسد هذا الإنسان .

أيها المريض ينبغي أن تعتمد على نفسك في القراءة ! !

في البداية اعتمد على قراءتك لأن صوتك هو الأكثر تأثيراً . مثلاً أنا عندما أصاب بمرض معين ، إذا جلست وقرأت القرآن على نفسي ، فإن خلايا جسدي ستتأثر بشكل كبير بهذه القراءة ، بينما إذا لجأت إلى إنسان آخر سيكون التأثير أقل ، ولكن أحياناً يكون التأثير كبيراً إذا كان صاحب الصوت الذي يقرأ إنسان تقياً ومخلصاً في عبادته لله ، فإن الترددات الصوتية الصادرة عنه تختلف عن أي إنسان آخر ، لأن العلماء يقولون : إن تاريخنا والأحداث التي نقوم بها وتمر علينا ، مختزنة في أصواتنا ، فالترددات الصوتية التي تصدر عن إنسان تقي يحفظ القرآن ويخاف الله تبارك وتعالى سوف تختلف تماماً عن تلك الترددات

الصادرة عن إنسان يعصي الله تبارك وتعالى . . لماذا ؟

كيف يحدث هذا الصوت ؟ إنه عملية معقدة تتم في الدماغ بتعليمات معينة يتم إصدار هذا الصوت الذي هو عبارة عن موجات ميكانيكية ولكن كل إنسان له صوته الخاص ، وهذا الإنسان صوته يتأثر بالأحداث التي تمر عليه ، وهذا كلام وجده العلماء حديثاً ، ففي الماضي لم يكن أحد يدرك شيئاً عن موضوع أنه لكل إنسان بصمة خاصة بصوته ، وهنا ربما نتذكر قول الحق تبارك وتعالى : (وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) [الروم : 22] . ففي الترددات الصوتية هنالك اختلاف أيضاً من إنسان لآخر ، وفي تأثير هذا الصوت هنالك اختلاف .

فعندما يأتي إنسان ويصاب بمرض ويقرأ بصوته هو على نفسه ويكون مخلصاً لله ويكون في حالة تركيز شديد ورجاء شديد من الله أن يعافيه ، فإن هذه الترددات ستكون أشد تأثيراً مما لو كان لا يتمتع بهذه الصفات .

وهناك سؤال آخر : ما هو الشفاء بالقرآن وكيف يكون هذا الشفاء ، وهل صحيح أن القرآن يشفي من كل الأمراض أم أن هنالك أمراضاً محددة يمكن للقرآن أن يشفيها ؟

هذا هو البحث الذي قمت به واستغرق مني أكثر من ثلاث سنوات ووجدت بنتيجته أن القرآن الكريم يشفي من جميع الأمراض التي نعرفها والتي لا نعرفها .

ولكن ما هي الإثباتات والبراهين العلمية على ذلك ؟

عندما وُجد الإنسان على سطح هذه الأرض وعندما بدأت الأمراض تصيبه بدأ يلجأ إلى الآلهة وإلى الشمس أحياناً والقمر وبدأ يصنع الطقوس المختلفة على أمل أن تشفيه هذه الآلهة ، وفي زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام أنكر عليهم هذه الظواهر وأنكر عليهم هذه الأعمال فقال : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء : 80] أي أن الله تبارك وتعالى هو الذي يشفيني من أي مرض كان ، وبما أن الله تبارك وتعالى قال : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء : 82] فهذا يعني أن القرآن فيه شفاء لكل شيء .

الدماغ فيه أكثر من تريليون خلية والتريليون هو مليون مليون أو هو واحد وبجانبه اثنا عشر صفراً (1.000.000.000.000) هذه الخلايا تعمل جميعاً بتناسق مبهر وكل خلية هي بمثابة جهاز كمبيوتر ، وتأملوا معي لو أننا وضعنا مثلاً تريليون جهاز كمبيوتر لتعمل في نفس الوقت . . لا يمكن . تصوروا معي حجم هذا العمل وحجم التنسيق الذي سيتم وحجم المهندسين الذين سيشرفون على هذا العمل ، مع العلم أن ذلك مستحيل ، فوق طاقة البشر ، فإذا كان لدينا مثلاً مئة جهاز كمبيوتر وأردنا أن ننسق بينها نحتاج لعدة مهندسين ليبقوا ليلاً نهاراً لكي لا يحدث خلل أو أخطاء ، فكيف أن الله تبارك وتعالى

خلق لنا تريليون خلية في الدماغ بل أكثر وجميعها تعمل بتناسق مبهر ، وآلية عمل هذه الأجهزة أو هذه الخلايا تعتمد على الاهتزاز فكل خلية من خلال الجسم لها تردد اهتزازي معين ، لا توجد خلية ساكنة أو جامدة كل خلايا الجسم تهتز ، ونتيجة هذا الاهتزاز تتواصل مع بعضها وتنتقل المعلومات عبر الخلايا من الدماغ إلى أنحاء الجسم .

ولكن عندما تطور الطب الحديث ، بدأ الناس يلجؤون إلى الوسائل التجريبية ويعتمدون بشكل كبير على الأدوية الكيميائية لعلاج مختلف الأمراض ، وفي زمن النبي عليه الصلاة والسلام كان العلاج الطبيعي لجميع الأمراض هو القرآن الكريم ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بهذا العلاج ، وربما نعلم من خلال قراءة سورة الفاتحة سبع مرات على المرض وهنالك آيات محددة أيضاً إذا قرأها الإنسان فأصابت ذلك المرض فإنه يشفى بإذن الله تبارك وتعالى . ولكن نحن اليوم في عصر العلم ، وهنالك تطور هائل في العلوم لذلك لا بد أن يكون خطابنا بهذه الوسيلة أي بلغة العلم .

ولكن ما هو القرآن ؟ ما هو صوت القرآن ؟

إذا حللنا صوت القرآن نلاحظ أنه عبارة عن ترددات صوتية أو موجات تنتقل إلينا من

خلال الهواء ، وهذه الأمواج الصوتية تنتقل إلى الأذن ثم تدخل إلى الدماغ بعد أن تتحول في الأذن الداخلية طبعاً إلى نبضات أو إشارات كهربائية وإلى اهتزازات فتؤثر على مناطق معينة من الدماغ ثم تعطي هذه الخلايا أوامرها للجسم لكي يتأثر بهذا الصوت .

على سبيل المثال ولكي ندرك مدى تأثير الصوت ، أحياناً يسمع إنسان خبراً ساراًّ فتجده على الرغم من مرضه ينهض ويقوم ويحسّ كأنه شفي بسبب ذلك . وأحياناً تجد إنساناً يكون معافى وفي كامل صحته يأتيه خبر محزن فتجد أنه يصاب بجلطة قلبية أو دماغية أو قد يصاب بالموت المفاجئ أو غير ذلك .

إذاً . . ما الذي حدث ؟

الذي حدث أن هذه الترددات الصوتية التي تلقاها هذا الإنسان أثرت في خلايا دماغه فأعطى الدماغ تعليماته لأعضاء الجسد لتتفاعل مع هذه الترددات الصوتية ، ولذلك فإننا نجد أن الباحثين اليوم في الدول المتطورة يلجؤون إلى طريقة جديدة لعلاج الأمراض المستعصية ، فهنالك أمراض كثيرة استعصت على الطب مثل السرطان وغيره ، فهذه الأمراض لم يتمكن الأطباء من إيجاد علاج ناجع لها ، لذلك بدأ فريق من هؤلاء الباحثين

يلجؤون إلى طرق بديلة ، وربما يكون من أهم هذه الطرق ما يسمى العلاج بالصوت .

طبعاً يضعون هذا المريض ويؤثرون عليه بذبذبات صوتية معينة قد تكون صوت لموسيقى أو أصوات للطبيعة مثل خرير الماء أو غير ذلك أو أصوات نقر على أوعية زجاجية إلى آخره . .

فوجدوا بعد فترة من هذا العلاج أن العضو المصاب يتحسن ، أو أن هذا السرطان يبدأ بالتحسن ، فأصدروا آلاف الأبحاث وهنالك مؤتمرات كبيرة تعقد اليوم عن العلاج بالصوت كطريقة بديلة للطب الكيمائي .

فإذا تأملنا كتاب الله تبارك وتعالى ، وقرأنا آياته وجدنا أن هذه الآيات تؤكد على أن هذا القرآن فيه شفاء ، يقول تبارك وتعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ [الإسراء : 82] لم يقل لنا : شفاء من مرض نفسي أو مرض عضوي أو مرض محدد . . لا . . شفاء لكل شيء سواء كان المرض اضطراباً نفسياً أو اضطراباً في أحد أجهزة الجسم ، دائماً القرآن فيه شفاء .

والباحثون اليوم لا يشكون أبداً في أن الترددات الصوتية تؤثر على خلايا الدماغ فمنها ما ينشط هذه الخلايا ويجعلها أكثر نشاطاً وحيوية ، ومنها ما يؤثر أيضاً على خلايا السرطان فيفتتها ، وهذا البحث قام به باحث فرنسي اسمه "فابيان" هذا الباحث له قصة طريفة مع العلاج بالصوت .

في بداية حياته كان موسيقياً ، وكان كلما استمع إلى صوت الموسيقى ، أو كلما عزف على آلته فإن هذه الأصوات يُحسّ أنه يتفاعل معها ، حتى إنه قد أصيب بمرضٍ ذات يوم ، ولم يجد من يعالج هذا المرض من الأطباء ، كان هنالك لديه ورم معين في كتفه ، وبعد فترة لاحظ أن هذا الورم زال ، ثم بعد ذلك أصيب بمرض عضلي في جسده ، أيضاً لاحظ أن الموسيقى أثرت ، أو ليست كل الموسيقى بل ترددات معينة فنحن نعلم أن صوت الموسيقى أو صوت الإنسان أو صوت الحيوان أو صوت الرعد كلها عبارة عن ترددات تقاس بالهرتز (ذبذبة في الثانية) .

هل توجد علاقة بين الصوت وبين الشفاء ؟

بعد ذلك ذهب إلى أحد الأطباء وأخبره بهذا الأمر ، وقررا أن يقوما ببحث علمي عن خلايا الإنسان ، فقاما بإحضار خلية دم من إنسان وقاموا بتعريضها لمختلف أنواع الأصوات ، وعرضوها أيضاً لصوت الإنسان نفسه الذي أخذوا منه هذه الخلية من دمه ، وجدوا بعد أن أجروا هذه التجارب وأخذوا القياسات وجدوا أن هذه الخلية تتأثر تأثراً كبيراً بالصوت ، فقاموا بتصوير هذه الخلية بكاميرا اسمها كاميرا كيريليان وهذه الكاميرا

تصوّر الطيف الكهرطيسي المحيط بالخلية أو المحيط بالأجسام .

كل خلية كما يقول العلماء تنشر حولها مجال كهرطيسي ، لأن الخلية فيها كهرباء ، ونتيجة عملها فإنها تنشر هذا المجال الذي يظهر في الصور على شكل ألوان متنوعة فالخلية التي أخذوها هي خلية دم وجدوا أن أكثر تنشيطٍ لها يحدث عندما يتم التأثير عليها بصوت صاحب هذه الخلايا ، فأنا مثلاً عندما أتحدث فإن خلايا جسدي تتأثر أكثر من خلايا جسد الآخرين ، وكذلك عندما يتحدث شخص آخر يتأثر هو أكثر مني بهذا الصوت ، وهذه عمليات لا نحس بها ولكنها موجودة ، فخرجوا بنتيجة وهي أن للصوت تأثيراً مهماً على الخلايا .

لقد أخذ هذا الباحث خلية سرطانية وقام بالتأثير عليها بأصوات محددة ، ووجد أن عند تردد معين لهذا الصوت فإن هذه الخلية تنفجر وتتفتت وعند نفس التردد وجد أن الخلايا السليمة تنشط ، أي أن هنالك مفعول مزدوج للصوت يؤثر على الخلية المريضة فينشطها ، ويؤثر على الخلية السرطانية فيفتتها وحتى الخلية السليمة يزيد من طاقتها .

ما هو العلاج بصوت القرآن ؟

وإذا ما عدنا إلى القرآن الكريم ، ونحن نعلم أن القرآن تتلوه بصوتنا ، ويؤثر على الآخرين بهذه الترددات الصوتية والعلماء اليوم مشكلتهم أنهم يبحثون عن الترددات الصوتية الصحيحة المناسبة لهذه الأمراض ولكنهم وعلى الرغم من أن هذا البحث مضى عليه أكثر من ربع قرن إلا أنهم لم يعثروا على هذه الترددات الصحيحة بسبب أنهم يعتمدون على الموسيقى والأصوات الأخرى .

ولكن نحن لدينا شيء مهم وهو القرآن ، وبما أن الله تبارك وتعالى هو الذي أنزل هذا القرآن ورتب كلماته وحروفه بتناسق مبهر بشكل يعطي تناسقاً عظيماً يؤثر على العقول ويؤثر على القلوب أيضاً .

ولذلك فإننا عندما نقرأ سورة الفاتحة مثلاً فإن هذه الترددات الصوتية التي تأتي وتدخل إلى دماغ هذا الشخص المريض فيتأثر بها ويتفاعل معها وهذه الترددات تنتقل عبر الجسد كاملاً وعبر القلب أيضاً لأن القلب له دور مركزي في هذا العلاج ، فالله تبارك وتعالى يحدثنا في كثير من الآيات عن أهمية القلب حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ألا إن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب) فنحن عندما نقرأ القرآن فإن قلوبنا تتأثر بهذه القراءة وأكثر ما يكون التأثير إذا كان الإنسان يعتقد بهذا الكلام وإذا كان مستيقناً بأن هذا الكلام هو الحق .

ولذلك قال تبارك وتعالى ونتزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، أما الظالمين فلا يزدادون إلا مرضاً وفشلاً: (وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) مع العلم أن تلاوة القرآن لها أثر شفائي للناس جميعاً لأن الله تبارك وتعالى قال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) والخطاب لمن؟ للناس: (وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) [يونس: 57]. إذاً الهدى والرحمة والشفاء الكامل هو للمؤمن، أما غير المؤمن فقد يتأثر ولكن بشكل قليل، ويعتمد هذا التأثير على مدى إيمانه بصدق هذا القرآن.

هنالك أيضاً تأثير عجيب لقراءة القرآن ليس على الإنسان فحسب بل على المواد، وبخاصة الماء، فنحن عندما نقرأ آيات من القرآن على كأس من الماء مثلاً، فإن تركيب جزيئات الماء سوف يختلف انتظام هذه الجزيئات والمجال الكهرطيسي لها سوف يتأثر، وهذه التجربة قام بها عالم ياباني طبعاً فاستخدم أصوات الموسيقى وكلمات عادية، ووجد أن هنالك تأثيراً كبيراً حتى إنه خرج بنتيجة وهي: أن الماء يختزن المعلومات أو أن الترددات الصوتية تختزن في الماء بشكل أو بآخر، وهنا ربما ندرك الهدي النبوي الشريف عندما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على الماء، ويقرأ على الإنسان، ويقرأ على المريض، ونجد أن الشفاء يكون تاماً وشاملاً بإذن الله تبارك وتعالى.

هل يمكن لأي واحد منا أن يعالج بالقرآن؟

يمكن لأي إنسان أن يجرب العلاج بالقرآن على نفسه . وقد قمت بتجربة خلال ثلاث سنوات تقريباً ، كنت أستمع إلى القرآن كل يوم لا يقل عن عشر أو خمسة عشر ساعة ، وقد هيأ الله تعالى لي هذه الظروف في ذلك الوقت لحفظ القرآن وتأمله والاستماع إليه كل يوم لفترات طويلة . وبعد أن مضى عدة أشهر لاحظت شيئاً غريباً فقد كان لدي بعض الأمراض المزمنة التي كنت أعاني منها بشكل دائم ، مثل الإمساك ، ومثل بعض الآلام في الكتف . . وأشياء أخرى . . فوجئت بأن هذه الأمراض اختفت بشكل مفاجئ لم يعد لها أي أثر .

هنالك شيء آخر ، أنني كنت عندما أقرأ صفحة من كتاب ، لا أستطيع أن أستوعب هذه الصفحة من المرة الأولى ، فكنت أعيد القراءة عدة مرات وأحياناً لا أفهم شيئاً ، وفوجئت بعد حفظي للقرآن واستماعي له لساعات طويلة ، أنني عندما أفتح أي كتاب من أي علم كان ، أستطيع أن أستوعبه بسهولة وأستنبط ، أي أن القرآن يعطيك زيادة في القدرة على الاستيعاب وتطوير المدارك والإبداع أيضاً .

ولذلك : إن هذه الاستنباطات وهذه الاكتشافات التي منَّ الله بها علينا إنها ببركة القرآن

فقط ، ليس هنالك أي عوامل أخرى ، ليس هنالك مؤثر آخر إلا القرآن الكريم . ولذلك أنا أنصح كل إنسان يريد أن يصبح مبدعاً أن يقرأ القرآن . كل إنسان يحب أن يحمل في عقله أضخم موسوعة علمية على الإطلاق فليحفظ القرآن . وكل إنسان يعاني من أمراض سواء كانت نفسيه أو جسدية فعليه أن يستمع إلى القرآن لأكبر عدد ممكن من الساعات . وكل إنسان يريد أن ينجح في حياته أو في عمله فليحفظ هذا القرآن . وكل إنسان يريد أن يحصل على لغة عربية سليمة ويريد أن يمتلك تأثيراً مذهلاً على الآخرين ، فعليه أن يقرأ هذا القرآن ويحفظه ويعمل به أيضاً .

ففي كل آية من آيات هذا القرآن نجد أن الله تبارك وتعالى أودع قوة شفائية ، ولكن هذا لا يعني أن نترك وسائل الطب والعلاج الحديث ، بل نستفيد منها ولكن أولاً نلجأ إلى كتاب الله تبارك وتعالى ثم نلجأ إلى بقية الوسائل المتاحة ومن المستحسن أن ندمج بينها . يقول تبارك وتعالى مخاطباً الناس جميعاً : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) [يونس : 57-58] . هذه آية تتحدث عن القرآن الكريم وأن فيه شفاءً للناس

جميعاً . وفي آية أخرى يؤكد على أن القرآن فيه شفاء ، يقول تبارك وتعالى : (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) [الإسراء : 82] .

العلاج بالصلاة

الصلاة أيضاً معلومة تدخل إلى خلايا الدماغ خمس مرات في اليوم ، هذه المعلومة تقوم بإصلاح الخلل الذي أصاب البرنامج الموجود في دماغك ، لذلك حافظ على الصلوات الخمس وأكثر من صلاة الليل .

وللأسف الشديد لا توجد دراسات إسلامية طبية عن تأثير الصلاة على الأمراض وعلاجها والشفاء بها ، ولذلك فإننا نلجأ إلى الدراسات الغربية التي تؤكد يوماً بعد يوم على الأثر المذهل للصلاة على شفاء الأمراض . ولكن صلاتهم هي عبارة عن مجرد اعتقاد بقدرة الله على الشفاء ، فهم لا يراعون شروط الطهارة وشروط الإخلاص والتوجه إلى الله ، وليس لديهم تصور عن قدرة الله تعالى ، بل معظمهم يصلون وهم مشركون بالله ، فيدعون له ولداً ، أو يتصورونه بصورة إنسان أو غير ذلك مما لم ينزل الله به سلطاناً .

وعلى كل حال وحسب اعتقادي أن هذه الصلاة "الغربية" التي تجري عليها الاختبارات

غير صحيحة وعلى الرغم من ذلك يرى العلماء فوائدها الكثيرة ، فتصوروا معي لو أن هذه الاختبارات أُجريت على أناس مسلمين خاشعين في صلاتهم ، بالتأكيد ستكون النتائج أكثر وضوحاً ، وسيكون أثر هذه الصلاة أكبر بكثير .

كشفت دراسة أجريت عام 2006 عن الأثر المذهل للصلاة في الشفاء (ونود أن نشير إلى أن الصلاة على طريقتهم كما أسلفنا) ، كذلك كشفت هذه الدراسة أن الدعاء للمريض من قبل عائلته وأصدقائه له أثر في الشفاء أيضاً !

وربما يعجب البعض من هذه النتائج التي يقوم بها الغرب الذي غالباً ما يوصف بالإلحاد ، ولكنهم يدرسون أي ظاهرة تصادفهم ، ليس من منطلق الإيمان بالصلاة وفائدتها ولكن بهدف السبق العلمي !

وفي دراسة أجريت في جامعة ويسكونسون تبين أن مرضى السرطان (وبخاصة سرطان الثدي) قد استفادوا بالفعل من ممارسة الصلاة والحفاظ عليها ، وفي دراسة تمت في جامعة أريزونا تبين أن الصلاة والاستمرار فيها يؤدي إلى نتائج إيجابية وتحسن ملموس في حالة المريض بشكل عام .

وقد أكد الدكتور David R. Hodge أن نتائجه اعتمدت على 17 دراسة سابقة بالإضافة إلى الدراسة التي نشرها في مارس 2007 وأظهر من خلالها الطاقة الشفائية الكامنة في الصلاة ، كما أن أحد الباحثين في جامعة هارفارد وهو البروفسور هيربرت بنسن قد درس تأثير الصلاة على مرضى القلب ولاحظ وجود بعض الشفاء .

إن هذه النتائج يا أحبتي ينكرها الملحدون في الغرب ، بل ويتهمون الباحثين بأنهم يلفقون النتائج ، ولكن الأبحاث العلمية ولغة العلم والحقائق العلمية لا تعرف الكذب ، فالدراسات تتوالى وشيئاً فشيئاً يجد الملحدون أنفسهم محاصرين بهذه النتائج العلمية المحكمة .

لقد قام علماء في المركز الجديد لدراسات العلم والدين في جامعة كولومبيا بالعديد من الدراسات والتي أظهرت أن المنطقة الأمامية من الدماغ أو ما يسمى منطقة الناصية قد حدث فيها نشاط كبير أثناء الصلاة ، أي أن هناك علاقة بين الصلاة وبين الناصية ! وربما ندرك لماذا كان دعاء النبي في خطابه لربه : (ناصيتي بيدك) صلى الله عليه وسلم .

العالم Andrew Newberg وهو طبيب في جامعة بنسلفانيا ومؤلف كتاب Why We Believe What We Believe يؤكد على أن المنطقة الأكثر نشاطاً أثناء الصلاة والتأمل هي الناصية (أي المنطقة التي تقع خلف الجبهة) ، يقول في دراسة له (CNN) :

The frontal lobe, the area right behind our foreheads, helps us focus our attention in prayer

and meditation

إن المنطقة الأمامية من الدماغ والتي تقع تماماً خلف الجبهة ، تساعدنا على التركيز أثناء الصلاة والتأمل .

إن منطقة الناصية من الدماغ أهم منطقة حيث تنشط أثناء التركيز على شيء ما أو محاولة حل مشكلة ، ولذلك نرى سيدنا هوداً عليه السلام بعدما فقد الأمل من قومه وتولى عنهم ولم يجد حلاً أو طريقة يقنعهم بصدق رسالته ، ماذا قال ؟

لقد أكد على أن الله يمسك بناصية المخلوقات جميعاً وهو يتولى أمرها وقيادتها وتوجيهها ، قال : (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [هود : 56] .

ونود أن نشير إلى أن هذه النتائج الطبية قد أجريت في مراكز بحث "محترمة" علمياً ومرموقة ولا يتسرب الشك إليها ، فقد أُجريت دراسات عديدة في جامعة كولومبيا جاء بنتيجتها أن للصلاة طاقة شفائية مذهلة ، بل تؤثر الصلاة على القدرة على الإنجاب ، حيث أكدت الدراسة أن نسبة لا بأس بها ممن حافظوا على "الصلاة" و "الدعاء" قد تحسنت لديهم

القدرة على الإنجاب !

كما أن الدكتور Andrew Newberg وجد أن شكل الدماغ أثناء الصلاة والتأمل (الخشوع) مميز جداً ويختلف عن جميع النشاطات الأخرى التي يمارسها الإنسان في حياته ، وهذا ما دفعه وبعد بحث استمر أكثر من عشر سنوات إلى الإيمان بأن الله تعالى هو من صمم هذا الدماغ ليعمل بهذا الشكل ، وخزَّن فيه الكثير من الأسئلة التي تقود الإنسان للإيمان به ، مثل : كيف جئت إلى الدنيا ، إلى أين سأذهب ، ماذا بعد الموت ، من خلق العالم ، . . . ويقول : إن وجود هذه الأسئلة في دماغ كل منا منذ ولادته هو دليل على وجود الله !

من عظمة نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام أن أكبر همومه كانت الصلاة ، وحتى وهو على فراش الموت كان همه أن يطمئن على صلاة المسلمين ، وحتى في الحرب كان يحرص على إقامة الصلاة على وقتها ، كل هذا ليبقى المؤمن طاهراً نقي الجسد والقلب . فالصلاة ليست مجرد عبادة ، إنما هي وسيلة للشفاء كما أثبتت الدراسات الطبية . ولذلك كانت الصلاة أهم ركن بعد شهادة أن لا إله إلا الله !

يقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد : 22-24] .

العلاج بالصدقة

حتى لو كنت فقيراً أنصحك بالتصدق وإعطاء شيء من المال للفقراء وسوف يكون هذا العمل بمثابة معلومة قوية تدخلها إلى دماغك فيتأثر بها ، ويعطي تعليماته للجسد لإصلاح الخلل أو المرض الذي أصابك ، أو الذي سيصيبك مستقبلاً ، فالصدقة وقاية من الأمراض .

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام ، وغالباً ما نجد في القرآن الحديث عن الصلاة وبعدها الزكاة مباشرة . يقول عز وجل : ﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ [الحج : 78] .

وقد أكد الرسول الأعظم عليه صلوات الله وسلامه أن الصدقة تطفئ غضب الرب وأنها تزكي الإنسان . وأن الصدقة بمثابة برهان للمؤمن على صدق إيمانه وأنه ليس حريصاً على

الدنيا بل كل شيء في حياته هو ابتغاء رضوان الله تعالى.

إن إنفاق الأموال على الفقراء له أثر نفسي كبير على المنفق فهو يعلمه التسامح والإحساس بمعاناة أخيه المؤمن. ولكن هل يوجد أسرار علمية وراء هذه العبادة؟

تؤكد الأبحاث الطبية أن التسامح والعطاء يزيد من عمر الإنسان! وأن الإنسان إذا كان معطاءً وليس شديد الحرص على المال فإن هذا ينعكس إيجابياً على الوضع النفسي فيزداد استقراراً وهدوءاً ونحن نعلم بأن استقرار الحالة النفسية لدى الإنسان تؤثر إيجابياً على عمل أجهزة الجسم وتزيد مناعته ضد الأمراض.

إن كثيراً من الأمراض الجسدية ذات المنشأة العصبي والنفسي يكون للحرص على المال السبب الرئيسي فيها. وشفاء كثير منها لا يكلف المريض سوى إنفاق بعض المال لوجه الله تعالى.

إن الحرص على المال والمتاع إذا تطور يتحول إلى حالة مرضية تسبب لصاحبها الكثير من القلق والخوف والاكتئاب.

وليس غريباً أن نجد آخر الأبحاث النفسية تؤكد إن الإنسان المعطاء والكريم هو أطول عمراً وأكثر مقاومة للأمراض! وصدق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عندما قال: (والصدقة برهان).

وربما يكون من الأحاديث الجميلة التي قرأتها قوله عليه الصلاة والسلام : (وتبسّمك في وجه أخيك صدقة) ! ! وسبحان الله ! حتى عندما يبتسم الإنسان يعطيه الله أجراً !

فهل هنالك أعظم من هذا الدين ؟ ولا أدري ما هو السبب الذي يجعل بعض الناس يبتعد عن الإسلام . فهل وجدوا في تعاليم غيره ما هو أفضل منه ؟

إن الإسلام يجعل من حياتك وأفعالك وحركاتك كلها مجالاً للثواب والأجر ، فتصور أن حياة المؤمن مليئة برضا الله تعالى وثوبه وعطائه ، فماذا نطلب بعد ذلك ؟

(313/463)

العلاج بالرحمة

من وقت لآخر يخرج الغرب بنتائج جديدة بعد قيامه بتجارب مضنية ، ونجد علماء الغرب يؤكدون على ضرورة تطبيق هذه الاكتشافات من أجل سعادة البشر . والعجيب يا أحبتي أنني كلما تأملتُ اكتشافاً علمياً فيه النفع والفائدة وجدت الإسلام قد سبقهم إليه بأربعة عشر قرناً !

ومن آخر ما وصلت إليه أبحاثهم وبعد ما فقدوا الحب والرحمة والعاطفة بسبب المادية

المفرطة التي وصلوا إليها أنهم اكتشفوا أهمية "الرحمة" في سعادة الإنسان ، وإمكانية تعلم الرحمة منذ الطفولة ، وأنه ينبغي على الناس أن يعلموا أولادهم "الرحمة" ، فكيف بدأت القصة ؟

في بداية عام 2008 استخدم الباحثون تقنية المسح بالرنين المغنطيسي الوظيفي fMRI من أجل دراسة تأثير الرحمة لدى الإنسان على نظام المناعة لديه وعلى نظام عمل الدماغ . وقد كشف هذا الجهاز عن نشاط كبير يحدث في الجزء الأمامي من الدماغ الذي يلعب دوراً أساسياً في عاطفة الإنسان . وخرجوا بعدة نتائج سوف نلخصها لندرك يقيناً أن ديننا الحنيف قد أمرنا بهذه النتائج مسبقاً ، بل هي جزء من عقيدتنا وإيماننا .

1- إذا أردت أن تكون سعيداً فما عليك إلا أن تتمنى السعادة للآخرين :

هذه القاعدة يؤكدها العلماء اليوم ، فقد وجدوا بنتيجة أبحاثهم أن السعادة لا تتحقق بمجرد تحقيق رغبات الإنسان لنفسه ، بل لابد أن يسعى في تحقيق رغبات غيره بما يحبه الآخرون ، وأن الذي يسعد الآخرين يكون أكثر سعادة من الذي يهتم بنفسه فقط .

ويؤكد الباحثون على قاعدة ذهبية من أجل سعادة أكبر وعمر مديد ، وهي أن تحب الخير للآخرين ! فقد وجدوا بعد سؤال العديد من الناس أن الإنسان الذي يتمنى الخير لغيره هو أكثر سعادة من أولئك الذين تمنوا زوال النعمة عن غيرهم .

وقد لا نعجب عندما نعلم أن النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم قد دعا إلى ذلك قبل قرون طويلة بل اعتبر إيمان المؤمن لا يكتمل إلا بتحقيق هذه القاعدة، عندما قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)، سبحان الله! القاعدة التي وصلوا إليها ولم يستطيعوا تطبيقها هي جزء من إيماننا، ألسنا أولى منهم بتطبيق هذه القاعدة النبوية الشريفة؟

2- الرحمة تنشط نظام عمل الدماغ:

يؤكد العلماء الذين اهتموا بهذا البحث أن ممارسة رياضة "الرحمة" تفيد الدماغ وتنشط خلاياه بل وتحدث تغييراً في عدد الخلايا وشكل الدماغ والعمليات التي تتم فيه. وهذا يساعد على الشفاء من العديد من الأمراض، بمجرد أن تتعلم كيف ترحم الآخرين!

وأقول من جديد سبحان الله!! أليس هذا بالضبط هو ما أمرنا به النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم عندما قال: (من لا يرحم لا يُرحم)؟! فبقدر ما ترحم الآخرين وتعطف عليهم وتعفو عنهم بقدر ما يرحمك الله ويذهب عنك من الأمراض والشر ما لا يعلمه أحد إلا الله.

3- تعلم "الرحمة" يفيد في تقوية العلاقات الاجتماعية ويجعلك أكثر انسجاماً مع الآخرين:

أكدت الدراسة الجديدة التي أجريت مؤخراً أن ممارسة "الرحمة" تقوي النظام المناعي لدى

الإنسان. فقد وجدوا أن الإنسان الرحيم يتمتع بنظام مناعي قوي ومقاومة أعلى للأمراض. فمن خلال إجراء التجربة على عدد كبير من المتبرعين تبين أن الإنسان الرحيم والذي يحب الخير لغيره ويعطف عليهم، فإن نسبة إصابته بالأمراض أقل من غيره. وقد ربط العلماء هذه النتيجة بأبحاث أخرى تؤكد على ترابط السعادة مع طول العمر مع الرحمة، فكان الإنسان الأكثر سعادة هو الأكثر رحمة للآخرين، وهو الأكثر بعداً عن الأمراض وبخاصة أمراض القلب. وذلك لأن هذه الرحمة تجعلك أقرب من مجتمعك وأكثر ترابطاً وانسجاماً معه، وبالتالي فإن هذا ينعكس على استقرار عمل القلب.

وهنا نقول من جديد: أليس هذا ما نادى به نبي الرحمة عندما قال: (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)، والله لو رأى الغرب هذه التعاليم وعاشوا معها لكانوا أول من يعتنق الإسلام، ولكن قصرنا كثيراً في إيصال صوت الحق لهم، نسأل الله أن يهيء لهذه التعاليم من ينشرها ويبلغها لأناس هم بأشد الحاجة إليها.

4- ممارسة "الرحمة" يعالج الكآبة:

في هذه الدراسة وجد الباحثون أن الناس الرحماء هم أكثر الناس بعداً عن الاكتئاب

والإحباط واليأس. ومن هنا ندرك أهمية قوله تعالى عن القرآن: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: 57-58]. وانظروا كيف تكررت الرحمة مرتين، لتؤكد لنا أن الذي يرضى بالقرآن شفاء فإن رحمة الله ستكون وسيلة لسعادته وفرحه، فلا يحزن بعدها أبداً.

5- علماء الغرب: ينبغي علينا أن نعلم أطفالنا الرحمة:

بعد هذه التجارب دعا الباحثون إلى ضرورة أن نعلم الطفل الشفقة والرحمة والعطف، وقالوا بأن هذه الأشياء من السهل تعملها وسوف تعطي فوائد كبيرة للمجتمع. ويقول الباحثون: إن تعليم الطفل الرحمة سيساهم بشكل كبير في تخفيف الجريمة والعدوانية التي أصبحت مرضاً لا سبيل لعلاجه. وملخص هذا البحث كما يقول الباحث ديفيدسون من جامعة Wisconsin–Madison إن هذه الوسيلة أي تعلم الرحمة، مهمة جداً لعلاج الأطفال وبخاصة أولئك الذين هم على أبواب الانحراف.

يؤكد العلماء أن الرحمة ينبغي أن يتعلمها الإنسان منذ أن يكون طفلاً لتقيه شر الانحرافات وسوف تساهم في بناء شخصية أكثر اعتدالاً ، هذا ما وصلوا إليه بعد معاناة ومرارة وتجارب طويلة ، ولكن الإسلام وفر علينا عناء البحث وأعطانا المعلومة جاهزة ، ولكن للأسف نجد من يجحد ويستكبر ويعرض !

ونكرر من جديد ألم يطبق نبينا صلى الله عليه وسلم هذه الرحمة على أتم وجه ؟ لقد ضرب لنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة في الرحمة عندما عفا عن كفار قريش الذين أساؤوا إليه أشد الإساءة وذلك عندما عفا عنهم أثناء فتح مكة ، كذلك ضرب النبي لنا أمثلة رائعة في رحمة الأطفال وحسن تربيتهم .

فقد روى سيدنا أنس بن مالك أنه خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين لم يقل لشيء فعله لم فعلت كذا ، أو لشيء لم يفعله لَمْ لَمْ تفعل كذا ، هل بعد هذه الرحمة رحمة !

العلاج بالمودة

جاء في كتاب الله قبل أربعة عشر قرناً قوله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الروم :

21] . إنها آية عظيمة لا نزال نكتشف أسرارها يوماً بعد يوم. فالذي يتأمل هذه الآية يدرك أهمية العطف والرحمة والمودة بين الزوجين، ويدرك أيضاً أن الله وضع لنا طريقاً للنجاح والشفاء والسعادة في حياتنا الزوجية، وهو أن نسلك طريق المودة والرحمة.

ولكن وللأسف ابتعدنا كثيراً عن هذا الطريق فبدأت المشاكل بالظهور وبخاصة ظاهرة الطلاق التي انتشرت كالنار في الهشيم! وهناك العنف المنزلي وهناك ظاهرة التفكك الأسري، وهناك ملايين الأزواج لا يحسون بالسعادة مع أزواجهم، لماذا؟

الجواب نجده في الآية السابقة، وقد لخصه الله لنا بكلمتين: (مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)، فطالما بقيت المودة والتعاطف والتراحم بين الزوجين كانت الحياة سعيدة وهادئة، وبمجرد غاب هذين "المؤشرين" عن المنزل اختفت السعادة وانقلبت الحياة إلى جحيم لا يُطاق.

ولكن الجديد الذي كشفت عنه الدراسات العلمية أن الشجار العائلي هو سبب واضح لضعف المناعة، وأن آثار هذا الشجار لا تنعكس فقط على الراحة النفسية، وإنما تؤدي إلى هشاشة المناعة لدى الأشخاص الذين يعانون منه. وقد أثبت ذلك دراسة واختبارات أجراها خبراء من الولايات المتحدة مؤخراً (حسب وكالة الأنباء الألمانية فقد جاء على موقعهم ما يلي:

توصلت مجموعة من الخبراء الأمريكيين إلى نتيجة مفادها بأن مناعة الإنسان تتأثر سلبا في حال نشوب الخلافات العائلية. هذه هي نتيجة دراسة أُجريت على 42 عائلة تنشب فيها خلافات زوجية. في الوقت ذاته أكد الباحثون بأن الشجار العائلي وعدم الوفاق بين الزوجين يؤدي في غالب الأحيان إلى تردي الوضع الصحي للعائلة. وينطبق هذا الأمر بشكل خاص على الأشخاص الذين يعانون من أعراض مرضية.

وكان بعض الباحثين السويديين قد أثبتوا أن الخلافات العائلية تؤدي في معظم الحالات إلى نوبات قلبية مضاعفة لدى أولئك الذين يعانون أصلاً من أمراض قلبية! كذلك بينت الدراسات أن ضغط العمل قد لا يؤدي إلى المضاعفات التي قد يؤدي إليها الشجار العائلي.

صورة لخلايا عصبية في دماغ الإنسان وهي التي تخزن البرامج اللازمة لإعطاء الأوامر للنظام المناعي ليقوم بأداء مهامه، ولم يتعرف الخبراء حتى هذه الأيام على كيفية تأثير الضغط النفسي على النظام المناعي للجسم بالنسبة للأشخاص الذين يعانون من مشاكل عائلية. لكن من المتوقع أن حركة الأعصاب غير الاعتيادية تلعب دوراً هاماً في إضعاف جهاز المناعة لديهم. وبما أن المناعة على علاقة في شفاء أنسجة الأوعية التالفة لدى

الإنسان. وقد أثبت الباحثون أن اختفاء الرحمة بين الزوجين سبب رئيسي للإصابة بالأمراض وبخاصة الأمراض المزمنة!

(319/463)

قامت الدكتورة جانيس كييكولت-غلازر وزملاؤها ، من القسم النفسي والجراحة الداخلية في جامعة كولومبس في مدينة أوهايو ، بإجراء فحوصات على شفاء الجروح لدى الأزواج الذين يعانون من خلافات عائلية. وفي هذا الإطار قام الأطباء بوضع أجهزة قياس تحت إبط الأشخاص الذين سيتم إجراء البحوث حولهم. وكانت إحدى الممرضات تأخذ عينات من الدم قبل الجرح وبعده. وكان الخبراء يقومون بطرح أسئلة معينة على المعني فحصهم ، إلى جانب إجراء اختبارات نفسية معينة ، إضافة إلى الطلب من الأزواج النقاش حول مواضيع محددة ، وكانت نتائج هذه الاختبارات تبين كيفية تعامل الزوجين مع بعضهما البعض ، إضافة إلى تقييم العلاقة الزوجية بناء على هذه النتائج.

وقد أظهرت النتائج بأن أكثر من ثلث الأزواج الذين تم إخضاعهم للفحص يعيشون حالة عداء فيما بينهم. إذ قام هؤلاء بالتعبير عن غضبهم بكلمات نابية أثناء النقاشات في المواضيع المحددة. كما قاموا بحركات غير مألوفة في الحياة اليومية للزوجين مع اتهامات

غريبة .

وكان الأزواج الموضوعين تحت الاختبار لا يرغبون بالإصغاء لبعضهم أثناء الشجار . وقد أثبتت الدراسة بأن فترة شفاء الجروح لدى الأزواج الذين يتعاركون فيما بينهم تطول أكثر منها لدى الأزواج الذين تسود حياة الفرح والسعادة بينهم .

نتائج هذه الدراسة

إننا كمسلمين أكرمنا الله بنعمة الإيمان نفرح بأن الله تعالى قد أوصانا بالنساء وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول تعالى : (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) [النساء : 19] . والنبي يقول : (استوصوا بالنساء خيراً) [رواه البخاري] . فهذه هي عظمة الإسلام ، أنه جاء بالنفع والخير والشفاء لنا .

(320/463)

وإذا بحثنا في أقوال علماء النفس ودراسات البرمجة اللغوية العصبية نجد نصائحهم للزوجين ومن أهمها أنك إذا كنتَ تشتكي من مشاكل زوجية في منزلك فحاول أن تقنع نفسك بأن زوجتك مثالية وفتش عن الأشياء الجميلة فيها ، وحاول أن تبحث عن الأشياء التي

تجذبك إليها ، وأن تتذكر أن كل امرأة لديها الكثير من الأشياء الجميلة ولكن يجب أن تبحث وتنظر وترى الوجه المشرق ، وعندها سيختفي الوجه المظلم !

أحبتي هذه النصائح صدرت عن علماء نفس تخصصوا في علاج المشاكل الزوجية ، وهناك آلاف الكتب قد أُلفت حول هذا الموضوع ، ولكن القرآن لخص لنا كل ذلك بسطر واحد ، لنتأمل ونتعمق في هذه الكلمات الإلهية الرائعة ، والتي أنصح أي واحد يعاني من مشكلة عائلية أن يردد هذه الكلمات : (فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) .

أثر الاستماع إلى القرآن على استقرار عمل القلب

الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذ بها ، والقرآن فيه شفاء للمؤمن وخسارة للكافر ، يقول تعالى : (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) [الإسراء : 82] .

وربما يعترض بعض الملحدين إذا قلنا له إن صوت القرآن يؤثر على القلب ويجعله مستقراً وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ

تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد : 28] .

ولكن الاكتشاف الجديد أن أطباء من فنلندا عرضوا 60 مريضاً يعانون من نوبة قلبية إلى صوت الموسيقى ووجد أن للموسيقى أثر في شفاء القلب وزيادة مقاومته للمرض . ويقول الباحث Teppo Sarkamo من جامعة هلسنكي : الموسيقى يمكن أن تكون مهمة جداً لمرضى القلب والذين يعانون من نوبات قلبية وهي مادة رخيصة لا تكلف شيئاً .

لقد وجدوا أن النوبات القلبية التي يتعرض لها المريض تؤثر سلبياً على إدراكه وذاكرته ، ولكن بعد أن تم وضع كل مريض في الجو الموسيقي الذي يرغب به أو الذي يرتاح غليه حدث تحسن ملموس في مستوى الذاكرة ، واستقرار في أداء القلب .

ويؤكد الباحثون إن هذا البحث وللمرة الأولى يظهر تأثير الاستماع إلى الأصوات المرغوبة من قبل المريض وأثر هذه الترددات الصوتية على قلبه وبخاصة بعد تعرضه للنوبة القلبية مباشرة .

حتى إن بعض هؤلاء الباحثين بدأ ينظر إلى أهمية الصوت في علاج المشاكل النفسية العصبية مثل مشاكل النطق التي عجز الطب عن علاجها .

قالوا إن بعض الترددات الصوتية تؤثر على مناطق معينة من الدماغ فتنشط الخلايا وتجعلها

أكثر قدرة على العمل بكفاءة وترفع من قدرة نظام المناعة لدى المريض .

ويتساءل هؤلاء الباحثين عن سر تأثير الترددات الصوتية على خلايا القلب والدماغ .

(322/463)

قلب الإنسان هو ذلك الجزء الصغير والذي حيَّر العلماء ولازال يحيرهم . ففي كل يوم تكتشف لنا الأبحاث الطبية شيئاً جديداً عن القلب وأمراضه وعلاجه وتأثيره الحاسم على حياة الإنسان . وكما نعلم إذا كان قلب الإنسان بخير فلا بد أن بقية أعضاء جسده ستكون بخير . أما إذا اختل توازن هذه العضلة فإن ذلك سيؤثر على الجسم كله .

يعتبر القلب مضغة دم من الدرجة الأولى يضخ كل يوم ثمانية آلاف ليتر من الدم ! ! ويقوم بأكثر من ألفي مليون ضربة ! ! ! هذا الجزء المهم من جسد الإنسان يُعدُّ بمثابة المحرك للدورة الدموية ، ونحن نعلم بأن الدم يقوم بحمل الغذاء والأوكسجين لجميع أنحاء الجسم ويعود بالفضلات والسموم ليطرحها .

وهذا يعني أن تعطل القلب وحركته أو حدث أي خلل فيه سيؤدي ذلك إلى خلل في الدورة الدموية وبالتالي خلل في نظام غذاء أجهزة الجسم وبالنتيجة سوف يمتد الخلل لكافة أعضاء الجسد . إذن صلاح هذه المضغة وهي القلب يعني صلاح الجسد كله ، وفسادها يعني

فساد الجسد كله . هذه الحقيقة العلمية اليقينية تحدث عنها البيان النبوي قبل أربعة عشر قرناً !

يقول الرسول الكريم عليه وعلى آله الصلاة والتسليم : (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) [البخاري ومسلم] .

هذا الحديث موافق للحقائق الطبية الحديثة والتي تقرر الأهمية الفائقة للقلب وصحته وسلامته وتأثير ذلك على جسد الإنسان وصحته بشكل كامل .

إن مرض تضيق الشرايين والذبحة الصدرية يعتبر سبباً أساسياً في وفاة كثير من البشر .

حتى إننا نجد علوم التغذية والطب الحديث والطب الواقي جميعها يركز اهتمامه على أهمية العناية بالقلب من خلال عدم تناول الشحوم والدسم والتأكيد على الأغذية الخفيفة مثل الفواكه والخضار .

(323/463)

ومن عجائب هذه المضغة القلبية أنها تربط شبكة من الأوعية ، إذا وصلت مع بعضها لبلغ طولها (150) كيلو متراً ! ! ! وتأمل روعة الإعجاز الإلهي : عضلة لا يتجاوز حجمها قبضة اليد ووزنها الثلث كيلو غرام تقوم بضخّ الدم والوقود والغذاء إلى جميع أجهزة الجسم

عبر شبكة من الأوعية الدموية يتجاوز طولها 150 كيلو متراً ، وطيلة حياة الإنسان ، فتبارك القائل : (صنع الله الذي أتقن كل شيء) [النمل : 88] .

إذا تأملنا أقوال العلماء نجدهم يؤكدون على أهمية تأثير الصوت المرغوب فيه من قبل المريض ، وأود أن أقول لكم قصة حدثت معي من باب اسأل مجرباً . فقد كنت في وقت سابق أعزف على عدة آلات موسيقية وأتفاعل مع الموسيقى لدرجة أنني لم أكن أتخيل الحياة من دون موسيقى !

وبعد سنوات من اللهو والاستماع إلى الموسيقى ، صحيح كنتُ أتأثر بسماع الموسيقى ولكن كانت تسبب لي عدم ارتياح لأنني مؤمن بالله وأعلم أن العزف واللهو من أعمال الشيطان . وقدر الله لي أن استمع إلى حديث نبوي عظيم يقول : (من ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه) ، وقد أثر في هذا الحديث لدرجة قلت معها : هل يوجد ما هو خير من الموسيقى ؟ وتركت الموسيقى بالفعل وجلست أنتظر الخير من الله تعالى لأنني مؤمن بكلام الحبيب الأعظم عليه الصلاة والسلام .

وخلال أيام بدأتُ أحب الاستماع إلى القرآن ! وسبحان الله كنتُ أتفاعل مع صوت القرآن لدرجة كبيرة لم يعد معها تأثير للموسيقى . وهذا ما جعلني أحفظ القرآن بطريقة الاستماع فقط . لاحظتُ بعدها أن صوت القرآن له تأثير قوي جداً ، فأنت تشعر وكأنك تخرج من هذا العالم وتحلق في عالم الآخرة عندما تسمع القرآن .

وخلال سنة تقريباً لم يعد شيء يطربني ويفرحني إلا أن أستمع إلى صوت القرآن ، فإذا ضاقت بي الأمور وتعرضت لأي مشكلة نفسية أو اجتماعية أو ضائقة مادية لجأت إلى القرآن فكنتُ أجد فيه العلاج والشفاء والراحة والسكون . وأود أن أخبركم أن تأثير القرآن على الإنسان أكبر بكثير من تأثير الموسيقى ، فإذا كان علماء الغرب اليوم يتحدثون عن تأثير للموسيقى على الأمراض ، فإنهم لو جرّبوا القرآن لكانت النتائج مبهرة !

والآن يا أحبتي وبعد عشرين عاماً تقريباً وصلتُ إلى نتيجة وهي أن الله تعالى قد فطر كل خلية من خلايا دماغنا على صوت القرآن فإذا ما استمعنا إلى القرآن شعرنا بالحنين وكأن أحدنا طفلاً يحن إلى صوت أمه ! حتى إنني وصلتُ إلى نتيجة ثانية وهي أن دماغ الإنسان يحوي خلايا خاصة لتخزين المعلومات القرآنية ! !

وربما يعجب أحدكم من هذا الكلام ويقول أين المستند العلمي لذلك ؟ وأقول : للأسف لقد قصّرنا كثيراً بحق القرآن ونحن ندعي أننا نحب القرآن ! أليس غريباً أن الغرب ينتج كل يوم أكثر من ألف بحث علمي ، ونحن طيلة سنوات لم ننتج بحثاً قرآنياً واحداً نتباهى به أمام الغرب ؟ !

على كل حال سوف أحدثكم عن أحد المؤمنين الذي تعلق بالقرآن وكان يحافظ على تلاوته وحفظه والتلذذ بسماعه. أُصيب هذا المؤمن بعدة جلطات دماغية متتالية ففقد الذاكرة ولم يعد يذكر اسم ابنه! ولم يعد يتذكر أي شيء، ولكن الغريب أن ابنه كان يقرأ القرآن أمامه وأخطأ فصحح له الوالد قراءته!

إنه نسي كل شيء إلا القرآن! لماذا؟ إنه وهو على فراش الموت وقد عجزت المسكنات والدواء عن تخفيف الألم، ولكنه كان يطلب أن يستمع إلى القرآن فتجده يهدأ ويفرح بكلام الله وكان يشير إلى أهله أن يقرأوا له أكبر عدد من الآيات وكأنه يريد أن يتزود بها للقاء الله تعالى. ألا تثبت هذه الظاهرة أن هناك خلايا مسؤولة عن تخزين آيات القرآن في الدماغ؟

خلية عصبية من خلايا القلب، يؤكد بعض الباحثين من معهد رياضيات القلب أن لهذه الخلايا التي يبلغ عددها أبعين ألفاً تأثيراً قوياً على خلايا الدماغ، وأن للقلب دوراً مهماً في الإدراك والذاكرة وتخزين المعلومات والقلب يتأثر بالترددات الصوتية.

ويمكنني أن أقول إن هناك خلايا خاصة في القلب مسؤولة أيضاً عن تخزين آيات القرآن!

فهناك أحد الحفاظ للقرآن مات وتوقف دماغه عن العمل وكل أعضائه ماتت ولكن القلب

بقي ينبض ! وقد حيرت الأطباء هذه الظاهرة فسألوا أهله فقالوا إنه كان يستمع ويقرأ القرآن في كل لحظة ! وسبحان مات الدماغ وبقي القلب ينبض ، ألا يدل ذلك على الأثر القوي جداً للقرآن على القلب ، حتى بعد موته بقي قلبه يعمل ! ! !

لذلك نصيحتي لكل أخ وأخت : استمعوا إلى هذا القرآن قدر المستطاع ، فكلما سمعت أكثر تأثر قلبك ودماغك أكثر حتى تصل إلى درجة لا تعاني معها من أي مرض ، بل إن المرض يكون بمثابة تطهير لك من الذنوب ويساعدك على الاستماع أكثر إلى القرآن .

نشر موقع البي بي سي شهادات لأناس تعرضوا لجلطات قلبية وحوادث سير وبعضهم تعرض لالتهاب السحايا وجلطات دماغية وغير ذلك من الأمراض وأجمعوا على أنهم استفادوا كثيراً من الموسيقى التي كانوا يحافظون على سماعها كل يوم . وبعبارة أخرى يؤكدون على أهمية الاستماع إلى الأصوات التي يحبها المريض ، ولكننا كمؤمنين ندعي حبنا للقرآن هل هناك أحب إلينا من صوت القرآن ؟

إن القرآن له أثر عظيم في الشفاء لأنه ليس مجرد نغمات موسيقية بل هو كلام له معاني ودلالات ولحروفه قوة تأثير على الدماغ والقلب ، ولذلك إذا كانت الموسيقى تؤثر على المرض فإن تأثير القرآن هو أضعاف كثيرة ، ببساطة لأن خالق المرض هو منزل القرآن وهو أعلم بأنفسنا منا .

وسؤالي : أليس الأجدر بنا ونحن أصحاب أعظم كتاب على وجه الأرض أن نستفيد من هذا الكتاب العظيم فنستمع إليه كل يوم ولو لمدة ساعة ؟ لنتأمل هذه الآية العظيمة والتي تتحدث عن تأثير القرآن على أولئك الذين يخافون الله ويمكنك أن تطبق هذه الآية على نفسك لتختبر درجة خشيتك لله تعالى : (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) [الزمر : 23] .

العلاج بالخشوع

هل جربت أن تحس بمراقبة الله لك في كل ثانية ؟ هذه طريقة لعلاج أي مرض وهي أن تشعر بوجود الله بجانبك يسمعك ويراك ويستجيب دعاءك ، وأن تحاول الوصول إلى الإحساس بالجنة والنار وأن تفكر بالموت وما بعد الموت وبالجنة ونعيمها ، هذه سوف تدخل إلى دماغك معلومات فعالة تستطيع إصلاح الخلل الذي أصابك بنتيجة الأمراض . واعلم بأن الخشوع والخوف من الله هو أهم أسباب استجابة الدعاء .

يقول تعالى: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) [الحديد: 16]. هذه آية عظيمة تخاطب كل مؤمن لتذكره بأهمية الخشوع لله تعالى، ولو تأملنا آيات القرآن نلاحظ أنه يعطي أهمية كبيرة لهذا الأمر، فما السر في ذلك؟ لنتأمل هذه الحقائق العلمية والقرآنية.

هل للخشوع طاقة؟

يظن المؤمن أحياناً أن الله أمرنا بالخشوع فقط لنتقرب إليه، ولكن الدراسات العلمية أظهرت شيئاً جديداً حول ما يسميه العلماء "التأمل"، ولكن هذا التأمل هو مجرد أن يجلس المرء ويحدّق في جبل أو شمعة أو شجرة دون حركة ودون تفكير. ووجدوا أن هذا التأمل ذو فائدة كبيرة في معالجة الأمراض وتقوية الذاكرة وزيادة الإبداع والصبر وغير ذلك. ولكن القرآن لم يقتصر على التأمل المجرد، بل قرنه بالتفكر والتدبر وأخذ العبرة والتركيز على الهدف، وسماه "الخشوع" وكان الخشوع من أهم العبادات وأصعبها لأنه يحتاج لتركيز كبير، وهكذا فإن كلمة "الخشوع" تدل على أقصى درجات التأمل مع التفكير العميق، وهذا الخشوع ليس مجرد عبادة بل له فوائد مادية في علاج الأمراض واكتساب قدرات هائلة ومتجددة.

الخشوع والقلب

أظهرت دراسة جديدة نشرتها مجلة جمعية القلب الأمريكية أن التأمل لفترات طويلة ومنتظمة يقي القلب من الاحتشاء أو الاضطراب. ويعمل التأمل على علاج ضغط الدم العالي وبالتالي تخفيف الإجهاد عن القلب. ولذلك قال تعالى مخاطباً المؤمنين: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) [الحديد: 16].

كما أظهرت هذه الدراسة أن للقلب عملاً مهماً وليس مجرد مضخة، وتؤكد الدراسات أهمية التأمل والخشوع في استقرار عمل القلب، ويقول الأطباء اليوم إن أمراض القلب هي السبب الأول للموت في العالم، وسبب هذه الأمراض هو وجود اضطراب في نظام عمل القلب، ومن هنا ندرك أهمية الخشوع في استقرار وتنظيم أداء القلب.

إن الدراسات تثبت اليوم أن التأمل يعالج الاكتئاب والقلق والإحباط، وهي أمراض العصر التي تنتشر بكثافة اليوم. ليس هذا فحسب بل وجدوا أن التأمل المنتظم يعطي للإنسان ثقة أكثر بالنفس ويجعله أكثر صبراً وتحملاً لمشاكل وهموم الحياة. يقول تبارك وتعالى: (الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [الرعد: 28].

وهكذا إخوتي وأخواتي! إذا أردتم أن تبعدوا عنكم اضطرابات القلب فعليكم بالخشوع

ولو للحظات كل يوم.

الخشوع وعلاقته بالموجات التي يطلقها الدماغ

(329/463)

لقد وجد العلماء أن دماغ الإنسان يصدر ترددات كهرطيسية باستمرار، ولكن قيمة الترددات تتغير حسب نشاط الإنسان. ففي حالة التنبه والنشاط والعمل والتركيز يطلق موجات اسمها "بيتا" وهي ذبذبات يتراوح ترددها من 15 إلى 40 ذبذبة في الثانية (هرتز)، وفي حالة الاسترخاء والتأمل العادي يطلق الدماغ موجات "ألفا" ويتراوح ترددها من 9 إلى 14 ذبذبة في الثانية، أما في حالة النوم والأحلام والتأمل العميق فيعمل الدماغ على موجات "ثيتا" وهي من 5-8 هرتز، وأخيراً وفي حالات النوم العميق بلا أحلام يطلق الدماغ موجات "دلتا" وقيمتها أقل من 4 هرتز.

نستطيع أن نستنتج أن الإنسان كلما كان في حالة خشوع فإن الموجات تصبح أقل ذبذبةً، وهذا يريح الدماغ ويقوّيه ويساعد على إصلاح الخلل الذي أصابه نتيجة مرض أو اضطراب نفسي مثلاً، لذلك يعتقد بعض الباحثين أن الانفعالات ترهق الدماغ وبالتالي يقصر العمر، بينما التأمل يريح الدماغ ويطوِّل العمر!

إن أهم موجات يبثها الدماغ هي تلك الموجات ذات التردد المنخفض ، والتي تعتبر وسيلة شفائية للجسد بسبب تأثيرها على خلايا الجسم والنظام المناعي ، وبالتالي فإن التأمل وبكلمة أخرى "الخشوع" يعتبر وسيلة فعالة لتوليد هذه الموجات والتي تؤثر إيجابياً على خلايا الدماغ وتعيد برمجته وتصحيح الخلل الحاصل في برنامج عمل الدماغ ، إن ممارسة الخشوع يعتبر بمثابة تهيئة وتنظيم وتقوية لعمل الدماغ .

الخشوع يزيد حجم الدماغ

قام باحثون من كلية هارفارد الطبية حديثاً بدراسة التأثير المحتمل للتأمل على الدماغ فوجدوا أن حجم دماغ الإنسان الذي ينفق شيئاً من وقته على التأمل بانتظام أكبر من حجم دماغ الإنسان العادي الذي لم يعتد التأمل أو الخشوع ، ولذلك هناك اعتقاد بأن التأمل يزيد من حجم الدماغ أي يزيد من قدرات الإنسان على الإبداع والحياة السليمة والسعادة .

فقد وجدوا أن قشرة الدماغ في مناطق محددة تصبح أكثر سمكاً بسبب التأمل ، وتتجلى أهمية هذه الظاهرة إذا علمنا أن قشرة الدماغ تتناقص كلما تقدمنا في السن ، وبالتالي يمكن القول : إن التأمل يطيل العمر أو يبطئ تقدم الهرم !

كما أظهرت هذه الدراسة (William J. Cromie, Harvard University) أنه كلما كانت مدة التأمل أكبر كان التأثير أوضح على الدماغ من حيث الحجم واستقرار عمل الدماغ ، أي أن هناك علاقة بين التأمل وحجم وسلامة الدماغ .

طبعاً هذا التأثير على الدماغ يحدث بفعل التأمل فقط ، ولكن الخشوع يعطي نتائج أكبر ، ولكن للأسف لا توجد تجارب إسلامية في هذا المجال !

الخشوع يخفف الآلام

بعد فشل الطب الكيميائي في علاج بعض الأمراض المستعصية ، لجأ بعض الباحثين إلى العلاج بالتأمل بعدما لاحظوا أن التأمل المنتظم يساعد على تخفيف الإحساس بالألم ، وكذلك يساعد على تقوية جهاز المناعة .

وفي دراسة جديدة تبين أن التأمل يعالج الآلام المزمنة ، فقد قام بعض الباحثين بدراسة الدماغ لدى أشخاص طُلب منهم أن يغمسوا أيديهم في الماء الساخن جداً .

وقد تم رصد نشاط الدماغ نتيجة الألم الذي شعروا به ، وبعد ذلك تم إعادة التجربة مع أناس تعودوا على التأمل المنتظم ، فكان الدماغ لا يستجيب للألم ، أي أن التأمل سبّب تأثيراً عصبياً منع الألم من إثارة الدماغ .

وهكذا نستطيع أن نستنتج أن الخشوع يساعد الإنسان على تحمل الألم بل وتخفيفه بدرجة كبيرة . وهو أفضل وسيلة لتعلم الصبر ، وعلاج فعال للانفعالات ، فإذا كان لديكم مشكلة

نفسية مهما كان نوعها ، فما عليكم إلا أن تتأملوا كل يوم بمعجزة من معجزات القرآن مثلاً ، أو تستمعوا لآيات من القرآن بشيء من التدبر ، أي تعيشوا في جو الآيات ، عندما تسمعون آية عذاب تتخيلون نار جهنم وحرّها ، وعندما تستمعون لآية نعيم تتخيلون الجنة وما فيها من نعيم ، وهكذا كانت قراءة النبي عليه الصلاة والسلام للقرآن .

يحوي دماغ الإنسان أكثر من عشرة آلاف تريليون وصلة عصبية ، وهذه الوصلات تصل أكثر من تريليون خلية بعضها ببعض ، وتعمل كأعقد جهاز على وجه الأرض . ويقول العلماء إن خلايا الدماغ تحتاج للتأمل والتفكر دائماً لتستعيد نشاطها بل لتصبح أكثر فاعلية ، وإن الأشخاص الذين تعودوا على التفكر العميق في الكون مثلاً هو الأكثر إبداعاً ! !

وهنا ندرك أهمية قوله تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [آل عمران : 190-191].

الخشوع والعاطفة

لاحظ بعض العلماء عندما أجروا مسحاً للدماغ بالرنين المغنطيسي الوظيفي fMRI أن الإنسان الذي يتعود على التأمل، يكون أكثر قدرة على التحكم بعواطفه، وأكثر قدرة على التحكم بانفعالاته، وبالنتيجة أكثر قدرة على السعادة من غيره!

بل بيَّنت التجارب أن التأمل يساعد على التحكم بالغريزة الجنسية لدى الجنسين، كذلك فإن التأمل يؤدي إلى تنظيم عاطفة الإنسان وعدم الإسراف أو التهور في قراراته، لأن التأمل ينشط المناطق الحساسة في الدماغ تنشيطاً إيجابياً بحيث يزيل التراكمات السلبية والخلل الذي أصاب هذه الأجزاء بنتيجة الأحداث التي مر بها الإنسان.

الخشوع لعلاج الأمراض المستعصية

(332/463)

هناك مراكز خاصة في الغرب تعالج المرضى بالتأمل، ويقولون إن التأمل يشفي من بعض الأمراض التي عجز الطب عنها، ولذلك تجد اليوم إقبالاً كبيراً. وكلما قرأتُ عن مثل هذه المراكز أقول سبحان الله! ألسنا نحن أولى منهم بهذا العلاج، لأن القرآن جعل الخشوع والتأمل والتفكر في خلق الله عبادة عظيمة، وانظروا معي كيف مدح الله عبادة المتقين فقال: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ *

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [آل عمران: 190-191].

ولذلك يا إخوتي إذا كان لدى أحدكم مرضاً مستعصياً أو مزمناً، فما عليه إلا أن يجلس كل يوم لمدة ساعة مع معجزة من معجزات القرآن في الفلك أو الطب أو الجبال والبحار و غير ذلك ويحاول أن يتعمق في خلق الله وفي عظمة هذا القرآن، وهذه الطريقة أعالج بها نفسي من بعض الأمراض وكذلك من أي مشكلة نفسية، ولذلك أنصح كل مؤمن أن يلجأ إلى هذه الطريقة في العلاج.

الخشوع والناصية

وجد العلماء أن ناصية الإنسان أي الجزء الأمامي من الدماغ تنشط بشكل كبير أثناء التأمل والتفكير العميق والإبداعي، هذه المنطقة من الدماغ هي مركز القيادة أيضاً لدى الإنسان ومركز اتخاذ القرارات المهمة والمصيرية. ولهذا الجزء من الدماغ أثر كبير على سلوكنا وعواطفنا واستمرار حياتنا.

ولذلك نجد أن النبي الأعظم عليه الصلاة والسلام ركَّز على هذا الجزء في دعائه لربه فكان يقول: (ناصيتي بيدك) أي يا رب لقد أسلمتك ناصيتي وهي مركز القيادة والقرارات والسلوك، وأنت توجهها كيف تشاء. كذلك فإن أحد أساليب العلاج بالقرآن أن تضع يدك على منطقة الناصية ثم تقرأ آيات من القرآن بخشوع فيكون لها تأثير أكبر.

شكل يبين المنطقة المسؤولة عن الكذب والخطأ في الدماغ وهي المنطقة المشار إليها باللون الأحمر وهي في مقدمة الدماغ أو (الناصية) وهي مسؤولة عن اتخاذ القرارات الهامة ومسؤولة عن التوجه والسلوك، وهذه المنطقة هي ذاتها المسؤولة عن الإبداع والخشوع عند الإنسان، وبالتالي يمكن القول إن المؤمن عندما يمارس الخشوع في عباداته وفي عمله وفي تفكره وتدبره لكتاب ربه، وحتى في علاقاته الاجتماعية، فإن هذه المنطقة أي الناصية تنشط وتصبح أكثر قدرة على الإبداع وعلى توجيه الجسد وعلى اتخاذ القرارات الصحيحة، وبالتالي على درء الكذب، إذن الخشوع يساعد على الصدق!!

وهذا ما أشار إليه القرآن في آياته، مثلاً دعاء سيدنا هود عليه السلام: (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [هود: 56].

الخشوع والوساوس

وجد الدكتور Newberg بعد إجراء العديد من التجارب على رهبان بوذيين يتأملون

كل يوم لمدة ساعة ، أن المنطقة الأمامية من دماغهم تنشط أثناء التأمل ، أما المناطق الخلفية من الدماغ فلا تقوم بأي نشاط يُذكر . وتجدر الإشارة إلى أن المنطقة المسؤولة عن الوساوس موجودة في الجانب الخلفي للدماغ ، وبالتالي يمكن الاستنتاج بأن التأمل والخشوع يعالج الوسواس .

كذلك فإن الإحساس بالتوجه المكاني ينخفض عند الذي يمارس التأمل ، وهذا يقودنا للاستنتاج بأن الخشوع يؤدي إلى تخفيف الشعور بالبيئة المحيطة وبالتالي فإن أي خلل نفسي سببه البيئة (مثل الأصدقاء أو الأهل أو المجتمع) سوف يزول بتكرار التأمل . كما تبين من بعض الدراسات الحديثة أن التأمل يزيد الذاكرة ويقوي الانتباه عند الإنسان ، ولذلك فقد يكون هذا الأسلوب مفيداً لأولئك الذين يعانون من ضعف الذاكرة .

الخشوع والفصام

عندما درس بعض الباحثين أدمغة لأناس أصيبوا بالفصام (schizophrenia) وجدوا أن الفص الأمامي للدماغ يكون أصغر من الشخص السوي ، واستنتجوا الأثر الكبير للنشاط الذي يتم في هذه المنطقة الحساسة من الدماغ أي منطقة الناصية على مثل

هذا المرض.

ولذلك يمكننا القول إن الخشوع يعالج الانفصام في الشخصية بشكل أكثر فعالية من أي دواء كيميائي، لأن الخشوع والتفكر ينشط هذا الجزء بشكل كبير ويعدل الخلل الحاصل فيه.

إذن انفصام في الشخصية يمكن أن يسبب خسارة في خلايا الدماغ تصل إلى 10 % من حجمه، ويمكن تعويض هذه الخسارة بقليل من الخشوع كل يوم!

الخشوع والصلاة

يؤكد القرآن على الدور الكبير للخشوع في المحافظة على الصلاة، لأن كثيراً من المسلمين لا يلتزمون بالصلاة على الرغم من محاولاتهم المتكررة إلا أنهم يفشلون في المحافظة عليها لأنهم فقدوا الخشوع. ولذلك يقول تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) [البقرة: 45]. وهكذا يتبين الدور الكبير للخشوع في الصلاة، ولذلك ربط القرآن بين الصلاة والخشوع. والعجيب أن القرآن في هذه الآية ربط بين الصبر والخشوع، وقد وجد العلماء بالفعل أن التأمل يزيد قدرة الإنسان على التحمل والصبر ومواجهة الظروف الصعبة!

هناك بعض العلماء الأمريكيين أجروا تجارب على أناس يصلّون (على طريقتهم طبعاً) فوجدوا أن الصلاة لها أثر كبير على علاج اضطرابات القلب، وعلى استقرار عمل الدماغ. ولذلك نجد أن القرآن جمع لنا كلا الشفاءين "الصلاة والخشوع" فقال: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) [المؤمنون: 1-2].

كيف نمارس الخشوع في حياتنا اليومية؟

إنه القرآن! هو الوسيلة الرائعة لممارسة الخشوع لله تعالى، وهنا ينبغي أن نصحح الفكرة السائدة أن الخشوع يكون في الصلاة فقط أو في قراءة القرآن، والصواب أن الخشوع هو منهج يعيشه المؤمن كل لحظة كما كان أنبياء الله يفعلون، فإذا تأملنا حياة الأنبياء عليهم السلام نلاحظ أنها مليئة بالخشوع، بل كانوا في حالة خشوع دائم، وهذا ما أعانهم على التحمل والصبر على الأذى والاستهزاء وكان هذا الخشوع سبباً في استجابة دعائهم، ولذلك قال تعالى عنهم: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) [الأنبياء: 90]. وتأملوا معي عبارة (وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) فهي توحي بأن هؤلاء الأنبياء الكرام كانوا في حالة خشوع دائم، ولذلك لابد أن نقتدي بهم في حياتنا، ولكن كيف ذلك؟

فالمؤمن الحقيقي يكون في حالة خشوع في صلاته وعندما يتصدق تجده يتفكر في هذه الصدقة وعندما يزور مريضاً يفكر في أهمية هذه الزيارة فيطلب من الله أن يبعد عنه

الأمراض. وعندما يتعامل مع الناس في بيع وشراء وتجارة يحس بأن الله يراقبه ويراه فلا يغش ولا يكذب ويكون صدوقاً ليُحشر يوم القيامة مع الصديقين.

عندما يتعرض الشاب المؤمن لفتنة أو يكون على وشك أن ينظر إلى ما حرم الله، يتذكر على الفور أن الله يراه ولا يرضى عن ذلك، فيبتعد عن هذه المعصية ابتغاء وجه الله، ويحس وقتها بنوع من لذة وحلاوة الإيمان.

(336/463)

عندما يرى المؤمن شيئاً يكرهه من زوجته أو العكس ويدرك أن الله يأمره أن يعاشرها بالمعروف ولا يؤذيها وأن النبي أمره أن يستوصي بها خيراً، عند ذلك يبتعد عن إيذائها ويكون أكثر صبراً عليها، فهذا هو الخشوع.

عندما يتعرض المؤمن لمرض أو لظروف صعبة، أول شيء يقوم به هو الدعاء واللجوء إلى الله تعالى. ويدرك أن الله تعالى هو الذي ينفع ويضر وهو الذي بيده الخير هو الذي يشفي وهو الذي يرزق هو الذي بيده مفاتيح الخير كلها، هذا هو الخشوع الحقيقي...

ولذلك فإن الخشوع هو نتيجة العمل الصالح والدعاء والمسارعة في الخيرات، فإذا أردت أن يرزقك الله نعمة الخشوع وأن تكون مستجاب الدعوة كما استجاب الله لأنبيائه وهو في

أصعب الظروف ، فعليك أن تبحث عن الخيرات وتسارع فيها ، لا تنتظر حتى يأتي إليك من يحتاج المال لتعطيه ، بل اذهب أنت وسارع للإنفاق ، وهكذا . وأن تتذكر هذه الآية وتحفظها مثل اسمك لترددها كل يوم ، بل في كل موقف : {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء : 90] .

ربما بعد هذه الحقائق نعلم لماذا ألهم الله نبيه وحبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم قبل البعثة الشريفة أن يذهب إلى غار حراء ويخلو بنفسه ، ليتأمل في خلق هذا الكون ويتفكر في عظمة الخالق تبارك وتعالى ، لأن هذه المرحلة ضرورية جداً لتعطيه القدرة على الصبر والتحمل ليحمل أعباء أعظم رسالة على وجه الأرض .

وربما ندرك أيضاً لماذا كانت عبادة الحج تطهر الإنسان فيرجع كيوم ولدته أمه نقياً ، لأن عبادة الحج قائمة أساساً على التأمل والخشوع والتفكر في خلق الله وبخاصة الوقوف بعرفة وهو الركن الأساسي لعبادة الحج . لأن رحلة الحج هي فترة للنقاهة والعلاج بالنسبة للمؤمن إذا عرف كيف يستثمر كل لحظة في طاعة الله تعالى .

وربما ندرك لماذا كان الأنبياء أكثر الناس صبراً ، لأنهم كانوا يمارسون عبادة الخشوع في كل شيء ، طبعاً هذا في الدنيا ولكن في الآخرة هناك من الأجر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، يقول تعالى : (وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ . . .) ماذا أعد الله لهم ؟ يقول تعالى : (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) [الأحزاب : 35] .

(338/463)

العلاج بالدعاء النبوي الشريف

الأدعية النبوية كثيرة ، وقد ثبت أنها تشفي بإذن الله ، ومن أهم الأدعية : (اللهم أذهب الباس ، رب الناس ، اشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً) ، وتكرره ثلاث مرات . وتضع يدك على مكان الألم وتقول : (بسم الله) 3 مرات ثم تقول : (أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذِر) تكررها 7 مرات .

فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (الدعاء مخ العبادة) هذا حديث صحيح لسيد البشر عليه الصلاة والسلام يؤكد فيها على أهمية الدعاء لله تعالى . فماذا يخبرنا العلم الحديث ؟

لقد ثبت تأثير الدعاء لله تعالى واللجوء إليه ، ففي علم النفس نجد أن أفضل وأهم علاج

لكثير من الاضطرابات النفسية أن يلوذ المريض بشخص يثق به ، هذه الثقة لها دور يتجاوز نصف الشفاء !

وعندما يلتجأ المؤمن إلى خالقه ورازقه عز وجل فإن كل الأمراض النفسية الموجودة فيه تزول . إذن عبادة الدعاء هي علاج وشفاء لأمراض النفس ، وبالتالي هي علاج لأمراض الجسد لأن كثيراً من الأمراض الجسدية ذات منشأ نفسي .

إن أفضل إحساس تحصل عليه من الدعاء هو الإحساس بالقوة لأنك عندما تدعو الله وأنت موقن بالإجابة فهذا سيعيد لك الأمل مهما كنتَ محبطاً ، وسوف تزول كل الاضطرابات التي تعاني منها ، إذ أن هذه الاضطرابات سببها فقدان الأمل ، فكيف إذا كان أملك وقوتك هو الله تعالى رب العالمين ؟

لماذا كان النبي يدعو ربه وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟

لقد كان النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم كثير الدعاء حتى لا تمر لحظة إلا ويدعو ربه ، والحقيقة إن الذي يتعمق في حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام يلاحظ أشياء عجيبة . فقد كان أكثر دعائه : (اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك) هذا هو حال خير البشر وأعظم الخلق ، يطلب من ربه أن ينجيه من عذاب يوم القيامة ! ! !

هذا الدعاء يا أحبتي ليس مجرد كلمات ، بل له معاني كثيرة ، وكأن الرسول يذكر نفسه في كل لحظة بيوم القيامة وعذاب الله ، كأنه يشاهد الجنة والنار في كل لحظة ، فيستعيذ بالله من شر جهنم ويسأل الله الجنة ، وكأنه أيضاً يطلب من ربه أن ينجيه من أي نوع من أنواع العذاب ، ونتساءل : هل المرض نوع من أنواع العذاب ؟

هنالك دعاء عظيم يسبب لك السعادة المطلقة في الدنيا والآخرة ، ويصرف عذاب المرض في الدنيا والآخرة ، وهو : (اللهم إني أسألك العافية والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة) فإذا دعوت بهذا الدعاء كل يوم فإن النبي الكريم يقول لك : فإذا أُعطيتَ العافية في الدنيا وأُعطيتَها في الآخرة فقد أفلحتَ [رواه الترمذي] ! !

فهذا دعاء عظيم من أجل صرف الأمراض وإبعادها والتمتع بالعافية ، وقد جرَّبتُ هذا الدعاء حيث أدعو به كل يوم مراراً وتكراراً ووجدتُ أن الحالة النفسية والصحية تتحسن بشكل كبير . ولذلك أنصح كل أخ وأخت أن يدعو بهذا الدعاء ويكرره لما له من تأثير مذهل على صحة الإنسان .

علاج للمشاكل الصحية والاقتصادية

كلمات قليلة كان يقول عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإن هؤلاء تجمع لك خير الدنيا والآخرة ، فما هي هذه الكلمات ؟ إنها : (اللهم اغفر لي ، وارحمني ، واهدني ،

وعافني ، وارزقني) [رواه مسلم] . انظروا معي كم تحوي هذه الكلمات من فوائد :

1- المغفرة : وهذه أول خطوة قبل استجابة الدعاء ، لأن الله تعالى يريد أن تصلح العلاقة معه عز وجل ، وتتوب إليه وترجع عن ذنوبك ليغفر لك أولاً ثم تبدأ الخطوة الثانية .

2- الرحمة : وهي أعظم نعمة يمن الله بها علينا أن يرحمنا في حياتنا وفي أولادنا ، فيصرف عنا الأوبئة والأمراض ، ويسخر لنا الخيرات ، وأهم شيء ألا يعذبنا في الدنيا والآخرة .

3- الهداية : هل هناك أجمل من أن يهديك الله في كل شأنك ؟ فإذا درست مادة لتنجح فيها سخر لك الله أسباب الهداية للنجاح ، وإذا زرت طبيباً للعلاج سخر الله لك الطبيب المناسب وهداك للدواء المناسب للشفاء ، وإذا خطبت امرأة هيّأ الله لك أسباب الهداية إلى زوجة صالحة تعينك على خيري الدنيا والآخرة . . . وهكذا الهداية في تجارتك وفي تعاملك وفي مشاكلك يهديك الله للحل المناسب . . .

4- العافية : وهي أن يعافيك الله في بدنك وفي صحتك وفي عقلك وفي حالتك النفسية وفي أفكارك فلا يدخل فيها الشيطان ، ويعافيك في من كل شر من المحتمل أن يصيبك ، ويعافيك من شر الحوادث والأضرار وغير ذلك ، وكل هذا ببركة هذا الدعاء .

5- الرزق : أن يرزقك الله من حيث لا تحتسب ، فيسخر الله لك أسباب الرزق وأسباب المعيشة الطيبة ، ويسخر لك المال الحلال ، ويهيء لك المنزل المبارك ويرزقك أولاداً صالحين ، ويرزقك زوجة صالحة تكون سبباً في دخولك الجنة إن شاء الله .

علاج الإحباط والاكتئاب بدعاء واحد

يؤكد علماء النفس والأطباء أن معظم الأمراض النفسية وحالات الانتحار وأمراض الاكتئاب والإحباط خصوصاً إنما تعود أسبابها لشيء واحد وهو عدم الرضا عن الواقع والظروف المحيطة وعدم الرضا عن النفس . والعلاج سهل يا أحبتي ، فقد علمنا النبي الكريم دعاءً عظيماً ، ألا وهو : (رضيت بالله تعالى رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيّاً) [رواه أحمد] . فمن قال هذا الدعاء ثلاثاً حين يصبح وثلاثاً حين يمسي كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة ! ! يا لها من كلمات قليلة ولكن نتيجتها كبيرة جداً ، ألا تحب أخي القارئ أن يرضيك الله يوم القيامة ؟

وربما نعجب من اكتشافات علماء النفس اليوم عندما يقولون بأن العلاج الفعال لمئات الأمراض النفسية أن تجعل المريض يحس بالرضا عن الأشياء التي تحيط به !

هذا الدعاء كنتُ أقوله مباشرة عندما أتعرض لموقف صعب فيه نوع من الإحباط ، وبخاصة في بداية رحلتي مع القرآن عندما كنتُ أواجه عالماً "تقليدياً" لأستشيره في اكتشاف جديد من القرآن منّ الله به عليّ كما في موضوع الإعجاز الرقمي ، فأجده يقول قبل أن يقرأ البحث : لماذا لا تبحث عن عمل آخر ؟ فكنتُ أدعو بهذا الدعاء فأحس بحلاوة الإيمان ، وأقول لابد أن يسخر الله لهذا العلم من ينشره إذا كان فيه الخير والنفع ، وسبحان الله ! تُفتح أبواب كثيرة أمامي لدرجة أنني أفرح كثيراً بعد أن كنتُ "محبطاً" لولا هذا الدعاء وغيره .

العلاج الوقائي لكل شر

هنالك دعاء مهم جداً وأذكر أنني منذ أن تعلمته لم أتركه أبداً ، وكان هذا الدعاء سبباً في دفع الكثير من الضرر عني . هذا الدعاء هو : (بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم) [رواه ابن ماجة] . وكان النبي الكريم يقول عن هذا الدعاء : من قاله ثلاثاً إذا أصبح وثلاثاً إذا أمسى لم يضره شيء ! !

وقد قمتُ بتجربة بسيطة وهي أنني سألتُ مئات الناس ممن تعرضوا لمشاكل وأخطار وحوادث ، وقلتُ لهم : هل قال أحدكم هذا الدعاء أي (بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم) وصدِّقوني لم أجد واحداً قالها من بين هؤلاء جميعاً .

من هنا نؤكد أن هذا الدعاء مناسب جداً فلا نتركه أبداً ، فإذا كان حبيب الله وهو الذي يعيش في رعاية الله وحفظه والله قد عصمه وأيده بنصره والملائكة تحفُّه والله معه في كل لحظة وعلى الرغم من ذلك كان لا يترك هذا الدعاء ، فما بالنا نحن ؟

العلاج بالصلاة على النبي

(342/463)

وهذه طريقة أخرى للعلاج أيضاً أن تصلي على النبي الكريم كلما خطر ببالك ، وأن تصلي عليه بنية الشفاء ، وتكرر الصلاة عليه وستجد حلاوة في قلبك لا يمكن أن يصفها إلا من ذاقها ، هذه الصلاة تجعلك قريباً من النبي عليه الصلاة والسلام في الدنيا والآخرة ، فهل هنالك أجمل من أن يكون الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام شفيعاً لك يوم القيامة عندما يتخلى عنك حتى أقرب الناس إليك ؟ إنها كلمات بسيطة وبسيطة جداً لن تأخذ منك أكثر من ربع دقيقة ! ولكن نتيجتها أن الرسول عليه الصلاة والسلام سيكون قريباً منك يوم القيامة ويشفع لك . وهو أن تقول صباحاً (10) مرات ، ومساءً (10) مرات : (اللهم صلِّ على سيدنا محمد) وقد كان النبي الأعظم يقول : (من صلى عليّ حين يصبح عشراً وحين يمسي عشراً أدركته شفاعتي يوم القيامة) [رواه الطبراني] .

الصلاة على النبي من أجمل أساليب العلاج ، وهي أن تصلي على سيدنا محمد كل يوم صباحاً ومساءً مئة مرة ، أو أكثر ، وهذه الصلاة مفيدة جداً في حالات أمراض القلب والرئتين ، والأمراض الداخلية بشكل عام ، وكذلك أمراض القلق الخوف ولعلاج التردد ، وتمنحك الإحساس بالرضا ، والله تعالى أعلم .

علاج للهم والحزن والضيق

لقد كان الرسول الأعظم يدعو بالقرآن ، ففي كتاب الله تعلى آيات محددة لأمراض محددة ، ومن بين هذه الآيات آية عظيمة لا زال النبي الكريم يرددها كلما تعرض لأي همّ أو كرب أو ضيق ، وكان يقول عنها : من قالها حين يصبح وحين يمسي سبع مرات ، كفاه الله ما أهمّه من أمر الدنيا والآخرة ، إنها : (حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلتُ وهو ربُّ العرش العظيم) [التوبة : 129] .

فأنت عندما تدعو بهذه الآية إنما تعطي معلومة أو أمراً لدماغك أن يلجأ إلى الله فهو يكفيه ، وكأن هذه الآية تذكرك بأن همومك مهما كانت عظيمة فالله أعظم (وهو ربُّ العرش العظيم) ومهما تعرضت لمشاكل ومواقف صعبة في حياتك ، فإن الله يكفيك هذه الهموم

فهو حسبك أي يكفيك لا حاجة لتلجأ معه إلى أي مخلوق : (حسبي الله) أي : الله يكفيني ، أخي القارئ جرِّب هذا الدعاء سبع مرات صباحاً ومساءً ، وانظر كيف ستتغير الأمور إن شاء الله .

علاج للمشاكل الاقتصادية

وهذا دعاء عظيم إذا حفظته وكررته باستمرار وبأي عدد تشاء فإن الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام يؤكد لك أنه : لو كان عليك مثل جبل ديناً أدّاه الله عنك ! ! ! !

والدعاء هو : (اللهم اكفِني بحلالك عن حرامك ، وأغنني بفضلك عمَّن سواك) ، فما أحوجنا لمثل هذا الدعاء وبخاصة في عصرنا هذا ، حيث الغلاء وارتفاع الأسعار وقلة الأموال ، إن هذا الدعاء سييسر لك الرزق الحلال وهذا أهم شيء ، فما فائدة الأموال إذا كانت تجلب علينا غضب الله ؟

لذلك انظروا معي كيف ركَّز النبي في دعائه أول شيء على الحلال : (اللهم اكفِني بحلالك) ثم على الغنى (وأغنني بفضلك) فكأنما يريد أن يبث لك رسالة : إذا كنتَ تأكل مالاً حراماً فأسرع وابتعد عنه والجأ إلى الله ليرزقك الرزق الحلال ، فمتى أصبح رزقك حلالاً أغناك الله بعد ذلك من فضله .

العلاج بدعاء النوم

لقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء في حياتنا اليومية. وعند النوم هنالك وضعية يجب على المؤمن أن يتقيد بها، وهي أن ينام على جنبه الأيمن.

يقول الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام: (إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيّك الذي أرسلت فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به) [رواه البخاري ومسلم].

في هذا الحديث عدة معجزات كشفت عنها الأبحاث العلمية حديثاً علمياً ونفسياً:

1. هنالك فوائد عظيمة للوضوء!

فكما نعلم عندما يأوي الإنسان إلى فراشه للنوم فإنه سيبقى عدة ساعات نائماً، وهذه الفترة مناسبة لنموّ وتكاثر مختلف أنواع الجراثيم التي علقت في جسمه خلال اليوم. لذلك فإن الوضوء يقوم بتنظيف معظم هذه الجراثيم.

إن مضمضة الفم أثناء الوضوء تخلص الفم من ملايين الجراثيم الموجودة فيه، والتي لو تركت

لزاد عددها أضعافاً خلال فترة النوم . كما أن تنظيف الأنف باستنشاق الماء يخلصه من عدد كبير من الغبار والجراثيم العالقة به . كما أن غسل الوجه واليدين في عملية الوضوء يزيل معظم الغبار والجراثيم العالقة على الجسد والتي تعيق عمل خلايا الجلد وتسدّ مساماته . إذن نظافة الجسم قبل النوم ضرورية للوقاية من العديد من أمراض الفم والأنف والجلد وغيرها .

2.ما هي فائدة الاضطجاع أو النوم على الشق الأيمن (الجانب الأيمن للجسم) ؟

إن النوم على الجنب الأيمن يخفف ضغط الرئة على القلب ، فكما نعلم يقع القلب على الجانب الأيسر وإذا نام الإنسان على هذا الجانب الأيسر فإنه يسبب ضغط الرئة عليه ويعيق عمله . أما الكبد الذي يقع على الجانب الأيمن يستقر عمله عند النوم على الجنب الأيمن وتستقر عليه المعدة براحة مما يسهل عمل المعدة وهضم ما بقي فيها من الطعام .

3.في هذا الحديث إعجاز نفسي أيضاً !

فكما نعلم عندما يذهب الإنسان للنوم يكون محمّلاً بأعباء نفسية طيلة يومه كل هذه الأحداث سوف تتفاعل عند نومه وقد تسبب له أحلاماً مزعجة أو عدم استقرار في

النوم . لذلك جاء الهدي النبوي ليأمرنا بتفريغ الشحنات النفسية المزعجة قبل النوم من خلال الالتجاء إلى الله تعالى والاعتراف بتسليم الأمر لله تعالى .

إن هذا الدعاء مع اليقين به يخلِّص المؤمن من مختلف الاضطرابات النفسية الناتجة عن حياته اليومية . وتأمل معي قوله عليه الصلاة والسلام : (وفوضت أمري إليك) ، إنه تصريح من المؤمن واعتراف بتفويض كل أمره وهمومه ومشاكله ومصاعبه إلى الله تعالى .

إن بقاء هذه الهموم النفسية قد يؤدي إلى تراكمها وتفاقمها وتحولها إلى أمراض نفسية .

وهذا ما نجده عند غير المؤمنين الذي يعانون من القلق والاكتئاب ومختلف الانفعالات النفسية .

ومع هذا الدعاء لا داعي للقلق لأن الله تعالى سيتولى حلّ الصعوبات التي تعترض المؤمن ، ولا داعي للاكتئاب لأن رب العالمين سبحانه سيعالج الأشياء التي لا يرضى عنها المؤمن ويجعله راضياً قانعاً بما قسم له الله من الرزق والقدر .

ولا داعي للخوف لأن الالتجاء والاحتماء بالله تعالى هو أفضل وسيلة لعلاج الخوف ، فكيف يخاف المؤمن والله معه ؟ إذن في هذا الحديث النبوي الشريف علاج لأمراض القلب المادية والنفسية . فهل نطبق هذا الشفاء النبوي الذي لا يستغرق سوى بضع دقائق كل ليلة ؟ وهل هنالك أجمل من أن تكون حياتنا مثل حياة خير البشر عليه الصلاة والسلام ؟

نتائج البحث

1- من خلال الحقائق العلمية التي رأيناها في هذا البحث نجد أن العلاج بالقرآن هو علاج يعتمد على أساس علمي ، ولذلك يمكن للأطباء البدء بدراسة هذا النوع من أنواع العلاج دراسة علمية وسوف يخرجون بنتائج مبهرة .

2- لا يكفي أن نقول إن الغرب اكتشف حقائق علمية حول العلاج بالصوت أو غير ذلك من وسائل العلاج البديلة ، إنما ينبغي علينا ونحن أصحاب أعظم كتاب على الإطلاق وهو القرآن ، أن نقوم بالعديد من التجارب على تأثير آيات محددة من القرآن على خلايا الجسم بمختلف أنواعها ، وتقديم نتائج هذه الدراسة للعالم الغربي ، لتكون وسيلة لإثبات إعجاز القرآن في الشفاء ، وتقديم البراهين المادية على القوة الشفائية لآيات القرآن والرقية الشرعية .

فقد أثبت علماؤنا إعجاز القرآن في علوم الفلك والبحار والجبال والأرض وغير ذلك ، واليوم عليهم أن يبرهنوا على معجزة الشفاء بالقرآن ، وإنني على يقين بأن التجارب التي تحقق هذا البرهان هي تجارب بسيطة وغير مكلفة ، فقط تحتاج إلى من يتبنى هذه التجارب ، وسوف نبهر العالم بإذن الله تعالى .

3- لا يجوز لأحد بعد هذه الحقائق أن ينكر أثر القرآن في علاج الأمراض ، فالغرب الملحد

يعترف بقدرة بعض الأصوات على علاج الأمراض المستعصية ، وهنالك معاهد وأكاديميات تدرس هذا العلم وتوثقه وهنالك عشرات الآلاف من المعالجين بالصوت وذهب إليهم ملايين البشر . وأسلوبهم في العلاج لا يتجاوز أصوات الموسيقى أو النقر في وعاء أو دحرجة كرات زجاجية ، ولا نجد من علماء الغرب من ينكر عليهم هذه الأساليب ، فهل من المنطقي أن ننكر العلاج بكلام الله تعالى ، وهو أعظم كلام على الإطلاق ؟ ! !

(347/463)

4- يؤكد كثير من المعالجين والباحثين الغربيين أن صوت الإنسان لديه قدرة أكبر من أي صوت آخر على الشفاء ، وهذا بنتيجة تجارب عملية قاموا بها ، حيث أثبتوا أنه لكل صوت ملامح ومميزات تعكس نشاط الدماغ لديه ، وأن لكل إنسان صوت يختلف عن الآخر ، ومن هنا ندرك أهمية تحسين الصوت في الرقية ، وأهمية حفظ القرآن لأن حافظ القرآن سوف يكون في صوته قدرة أكبر على الشفاء بإذن الله تعالى ، وندرك أيضاً التقوى وإخلاص النية لله تعالى .

5- من خلال الحقائق السابقة يمكن أن نستنتج أنه لا يوجد صوتين متشابهين أبداً من

الأصوات البشرية ، فالصوت الذي تتكلم به يحمل مع اهتزازاته معلومات عن حالتنا النفسية ومعلومات عن حالة خلايا الدماغ ، لذلك تجد أن للمعالج أثر في الشفاء ، فقد يقوم شخصين بتلاوة الآيات ذاتها ولكنك تجد أن الشفاء يحصل بسبب أحدهما ، وذلك يعود إلى أن كثرة قراءة القرآن والاستماع إليه بالإضافة إلى التقوى كلها تحدث تأثيراً على خلايا الدماغ يظهر هذا التأثير على صوت المقرئ ، فتجد أن هذا الصوت محمّل باهتزازات لها القدرة أكثر على الشفاء ، والله تعالى أعلم . ويؤكد الباحثون اليوم أن الصوت يوصل اهتزازات إلى الآخرين تعبر عن أنفسنا ، والاهتزازات الصوتية التي نطلقها تكون متأثرة بجميع الأحداث التي مرت معنا ، ولذلك فإن الصوت الذي نتكلم به يؤثر على كل ما حولنا .

6- بنتيجة هذا البحث يمكن أن نؤكد أن القرآن فيه قوة شفائية تؤثر في جميع الأمراض ، وأنه يوجد لكل مرض آيات محددة يتناسب معناها مع هذا المرض ، وأن الشفاء بالقرآن لا يقتصر على الأمراض النفسية ، بل هنالك شفاء للأمراض الجسدية كالسرطان وغيره .

7- يؤكد الباحثون بنتيجة تجاربهم أن صوت المريض لديه قدرة كبيرة على شفائه ، فيما لو استخدم الكلمات الصحيحة التي ينبغي عليه أن يرددها لفترة محددة ، ومن هنا ندرك

أهمية الرقية الذاتية ، أي أن يرقي الإنسان نفسه ، ويقرأ آيات الشفاء على نفسه فتكون النتائج مذهلة في هذه الحالة . لأن قراءة الكلمات هي نتاج عمليات معقدة يقوم بها الدماغ ، فإذا ما أُضيف لها النية بالشفاء وتركيز التفكير أثناء القراءة على المريض ، وتصور بأن هذا المريض يتم شفاؤه بإذن الله تعالى ، فإن الترددات أو الموجات الصوتية سوف تكون أشد تأثيراً لأنها ستكون محمّلة بمعلومات إضافية .

أي أن قراءة القرآن إذا كانت بنية الشفاء ، وإذا كان معها الإخلاص موجوداً والتوجه الصادق إلى الله تعالى ، فإن الرقية ستكون أكثر تأثيراً ، وهو ما يؤكده عدد كبير من المعالجين بالقرآن الكريم والأدعية الصحيحة .

الخاتمة

للكلمات قوة تأثير كبيرة جداً ، ففي عالم الخلق نجد أن الله تعالى إذا أراد شيئاً فإنما يقول له (كُنْ) فيكون ، ولذلك فقد أودع الله في كلامه قوة تأثير كبيرة تؤثر في كل شيء ومنها الأمراض فتشفيها بإذن الله تبارك وتعالى .

وفي ظل التطور الصناعي والتكنولوجي وبسبب ضغوط هذه الأشياء وبسبب السفر

ومتابعة الأخبار والأصوات الضارة بالأذن مثل الأغاني . . . كل ذلك يؤثر سلبياً على عمل الخلايا ، ولذلك فإن تلاوة القرآن تزيل هذه التراكمات وتعيد بناء النظام البرمجي للخلية .

وبعبارة أخرى : إن الآيات القرآنية تعتبر بمثابة "فرمتة" للدماغ وإعادة تخزين البرامج الصحيحة ! أي العودة إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

يقوم بعض المعالجين بالصوت في دول الغرب باستخدام أصوات الموسيقى أو الأصوات الطبيعية مثل خرير المياه أم حفيف الأشجار أو أصوات الغابة وغير ذلك ، والسبب في استخدامهم لهذه الأصوات هو أنه ليس لديهم مرجع أو شيء مقدس يعتمدون عليه ، لأنهم يعودون دائماً إلى الطبيعة .

ولكن الحقيقة التي يقرها جميع المعالجين بالصوت هي أن صوت الإنسان هو الصوت الأكثر قدرة على التأثير والشفاء ! ! ولكنهم يجهلون الكلمات التي ينبغي ترديدها حتى يحصل الشفاء ، لأنهم كما قلنا يؤمنون بالطبيعة فقط .

وعلى الرغم من استخدامهم لهذه الأصوات فإنهم يحصلون على نتائج كبيرة ، فكيف لو لجأنا إلى صوت القرآن الذي جعله الله شفاء ورحمة لكل من أحبّ هذا القرآن ؟

لذلك ينبغي علينا أن نتنبّه إلى أهمية هذا العلم –علم العلاج بالقرآن– وأن نبدأ بوضع خطة لتوثيق هذا العلم وتبني إجراء تجارب علمية وفق مقاييس البحث العلمي ، وقد يكون هذا

البحث خطوة مهمة على هذا الطريق ، والذي نرجو أن يكون من ثمراته نتائج عملية تعود بالخير على المسلمين ، فما أحوجنا في عصر كهذا إلى التمسك بكتاب الله تعالى ليكون لنا نوراً وهدى وشفاء وقوة .

كلمة أخيرة

(350/463)

إخوتي وأخواتي : أساليب الشفاء لا حصر لها ، وكلها وسائل هيّأها الله لنا ، ولذلك أنصح كل أخ وأخت بقراءة هذه المقالة قبل أن يصيبه المرض لأننا بحاجة إلى ثقافة الشفاء ، لنكون مستعدين لمواجهة الأمراض ، وتذكر بأن الثقة بالله تعالى هي نصف الشفاء إن لم نقل الشفاء كله ! !

كما أنصح كل من يعاني من مرض أن يحاول قراءة أكبر عدد من سور القرآن ، لأننا لا ندري أين الشفاء ، فقد يكون شفاء مرض ما بقراءة سورة الرحمن مثلاً ولا ندري ذلك ، وهكذا كلما قرأنا كمية أكبر من السور كلما زاد احتمال الشفاء ، والله أعلم .

أقول يا أحبتي : إن الشفاء موجود بين يديك وبصوتك أنت ، وما عليك إلا أن تبدأ بمشروع الاستماع إلى القرآن وتدبره وحفظه وتلاوته وذلك كل يوم لمدة ساعة أو أكثر .

ولا تنتظر حتى تمرض بل سارع إلى الشفاء بالقرآن منذ هذه اللحظة كوقاية لك من الأمراض النفسية والجسدية، وسوف تشعر بسعادة لا يمكن وصفها، لأنك عندما تكون في كل لحظة مع القرآن فهذا يعني أنك ستكون في كل لحظة مع الله تعالى!

دعاء

نسأل الله تعالى أن يجعل القرآن شفاء لما في صدورنا ونوراً لنا في الدنيا والآخرة ولنفرح برحمة الله وفضله أن منّ علينا بكتاب كله شفاء ورحمة وخاطبنا فقال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[يونس: 57-58].

كما نسأله أن يجعل في هذا البحث الخير والنفع والإقناع لكل من يطلع عليه، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم لا نبتغي به شيئاً من هذه الدنيا إلا رضوانه تبارك وتعالى، إنه سميع قريب مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. انتهى انتهى. اهـ ﴿عالج نفسك بالقرآن / للمهندس: عبد الدائم الكحيل﴾

من فوائد الإمام الجصاص فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾

أَطْلَقَ ذَلِكَ عَلَى الْجِنْسِ وَفِيهِمْ الْكَافِرُ الْمُهَانُ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ كَرَّمَهُمْ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِمْ وَعَامَلَهُمْ مُعَامَلَةَ الْمُكَرَّمِ بِالنِّعْمَةِ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ فِي الصِّفَةِ ، وَالْوَجْهُ الْآخَرُ : أَنَّهُ لَمَّا كَانَ فِيهِمْ مَنْ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى أَجْرَى الصِّفَةَ عَلَى جَمَاعَتِهِمْ كَقَوْلِهِ : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ لِمَا كَانَ فِيهِمْ مَنْ هُوَ كَذَلِكَ أَجْرَى الصِّفَةَ عَلَى الْجَمَاعَةِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ قِيلَ : إنَّهُ يُقَالُ هَاتُوا مُتَّبِعِي إبْرَاهِيمَ هَاتُوا مُتَّبِعِي مُوسَى هَاتُوا مُتَّبِعِي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُومُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا الْأَنْبِيَاءَ وَاحِدًا وَاحِدًا فَيَأْخُذُونَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ ، ثُمَّ يَدْعُو بِمُتَّبِعِي أَئِمَّةِ الضَّلَالِ عَلَى هَذَا الْمِنْهَاجِ .

قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ : " إمَامُهُ نَبِيُّهُ " .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ : " إمَامُهُ كِتَابُ عَمَلِهِ " .

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : " بِمَنْ كَانُوا يَأْتَمُّونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا " .

وَقِيلَ : " بِإِمَامِهِمْ بِكِتَابِهِمْ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْفَرَائِضِ " .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ : " مَنْ كَانَ فِي أَمْرِ هَذِهِ الدُّنْيَا وَهِيَ شَاهِدَةٌ لَهُ مِنْ تَدْبِيرِهَا وَتَصْرِيفِهَا وَتَقْلِيبِ النِّعَمِ فِيهَا أَعْمَى عَنْ اعْتِقَادِ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ مُقْتَضَاهَا ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ الَّتِي هِيَ غَائِبَةٌ عَنْهُ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا " .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَقِمْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ قَالَا : " دُلُوكُهَا غُرُوبُهَا " .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ وَجَابِرٍ وَابْنِ عُمَرَ : " دُلُوكُ الشَّمْسِ مَيْلُهَا " وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ التَّابِعِينَ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةُ قَالُوا : إنَّ الدُّلُوكَ الْمَيْلُ ، وَقَوْلُهُمْ مَقْبُولٌ فِيهِ لِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ جَازَ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْمَيْلُ لِلزَّوَالِ وَالْمَيْلُ لِلْغُرُوبِ ، فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ الزَّوَالَ فَقَدْ انْتَظَمَ صَلَاةَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ الْآخِرَةِ ؛ إذْ كَانَتْ هَذِهِ أَوْقَاتًا مُتَّصِلَةً بِهَذِهِ الْفُرُوضِ ، فَجَازَ أَنْ يَكُونَ غَسَقُ اللَّيْلِ غَايَةً لِفِعْلِ هَذِهِ الصَّلَوَاتِ فِي مَوَاقِيتِهَا .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ أَنَّ غَسَقَ اللَّيْلِ انْتِصَافُهُ ، فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ آخِرُ الْوَقْتِ الْمُسْتَحَبِّ لِصَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ وَأَنَّ تَأْخِيرَهَا إلَى مَا بَعْدَهُ مَكْرُوهٌ .

(353/463)

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ غُرُوبَ الشَّمْسِ ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ بَيَانَ وَقْتِ الْمَغْرِبِ أَنَّهُ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إلَى غَسَقِ اللَّيْلِ .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي غَسَقِ اللَّيْلِ ، فَرَوَى مَالِكٌ عَنْ دَاوُد بْنِ الْحُصَيْنِ قَالَ : أَخْبَرَنِي مُخْبِرٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : " غَسَقُ اللَّيْلِ اجْتِمَاعُ اللَّيْلِ وَظُلْمَتُهُ " .

وَرَوَى لَيْثٌ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : " دُلُوكُ الشَّمْسِ حِينَ تَزُولُ الشَّمْسُ إلَى غَسَقِ اللَّيْلِ حِينَ تَجِبُ الشَّمْسُ " .

قَالَ : وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : " دُلُوكُ الشَّمْسِ حِينَ تَجِبُ الشَّمْسُ إلَى غَسَقِ اللَّيْلِ حِينَ يَغِيبُ الشَّفَقُ " .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَيْضًا أَنَّهُ لَمَّا غَرَبَتْ الشَّمْسُ قَالَ : " هَذَا غَسَقُ اللَّيْلِ " .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : " غَسَقُ اللَّيْلِ غَيْبُوبَةُ الشَّمْسِ " .

وَعَنْ الْحَسَنِ : " غَسَقُ اللَّيْلِ صَلَاةُ الْمَغْرِبِ

وَالْعِشَاءِ " .

وَعَنْ إبْرَاهِيمَ : " غَسَقُ اللَّيْلِ الْعِشَاءُ الْآخِرَةُ " .

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : " غَسَقُ اللَّيْلِ انْتِصَافُهُ " .

(354/463)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : مَنْ تَأَوَّلَ دُلُوكَ الشَّمْسِ عَلَى غُرُوبِهَا فَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُ غَسَقِ اللَّيْلِ عِنْدَهُ غُرُوبَهَا أَيْضًا لِأَنَّهُ جَعَلَ الِابْتِدَاءَ الدُّلُوكَ وَغَسَقُ اللَّيْلِ غَايَةً لَهُ ، وَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ غَايَةً لِنَفْسِهِ فَيَكُونُ هُوَ الِابْتِدَاءُ وَهُوَ الْغَايَةُ ، فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالدُّلُوكِ غُرُوبَهَا فَغَسَقُ اللَّيْلِ هُوَ إمَّا الشَّفَقُ الَّذِي هُوَ آخِرُ وَقْتِ الْمَغْرِبِ أَوْ اجْتِمَاعُ الظُّلْمَةِ وَهُوَ أَيْضًا غَيْبُوبَةُ الشَّفَقِ لِأَنَّهُ لَا يَجْتَمِعُ إلَّا بِغَيْبُوبَةِ الْبَيَاضِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ آخِرَ وَقْتِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ الْمُسْتَحَبِّ وَهُوَ انْتِصَافُ اللَّيْلِ ، فَيَنْتَظِمُ اللَّفْظُ حِينَئِذٍ الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ الْآخِرَةَ .

قَوْله تَعَالَى : { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا } قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : { أَقِمْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ } وَتَقْدِيرُهُ : أَقِمْ قُرْآنَ الْفَجْرِ وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى وُجُوبِ الْقِرَاءَةِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ لِأَنَّ الْأَمْرَ عَلَى الْوُجُوبِ وَلَا قِرَاءَةَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَاجِبَةٌ إلَّا فِي الصَّلَاةِ .

فَإِنْ قِيلَ : مَعْنَاهُ صَلَاةُ الْفَجْرِ .

قِيلَ لَهُ : هَذَا غَلَطٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ تَجْعَلَ الْقِرَاءَةَ عِبَارَةً عَنْ الصَّلَاةِ لِأَنَّهُ صَرْفٌ لِلْكَلَامِ عَنْ حَقِيقَتِهِ إلَى الْمَجَازِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ .

وَالثَّانِي : قَوْلُهُ فِي نَسَقِ التِّلَاوَةِ : ﴿ وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَك ﴾ وَيَسْتَحِيلُ التَّهَجُّدُ بِصَلَاةِ الْفَجْرِ لَيْلًا ، وَالْهَاءُ " فِي قَوْلِهِ " بِهِ كِنَايَةٌ عَنْ قُرْآنِ الْفَجْرِ الْمَذْكُورِ قَبْلَهُ ، فَثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ حَقِيقَةُ الْقِرَاءَةِ لَا مَكَانُ التَّهَجُّدِ بِالْقُرْآنِ الْمَقْرُوءِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَاسْتِحَالَةُ التَّهَجُّدِ بِصَلَاةِ الْفَجْرِ .

وَعَلَى أَنَّهُ لَوْ صَحَّ أَنَّ الْمُرَادَ مَا ذَكَرْت لَكَانَتْ دَلَالَتُهُ قَائِمَةً عَلَى وُجُوبِ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ الْقِرَاءَةَ عِبَارَةً عَنْ الصَّلَاةِ إلَّا وَهِيَ مِنْ أَرْكَانِهَا وَفُرُوضِهَا .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَك ﴾ رُوِيَ عَنْ حَجَّاجِ بْنِ عَمْرٍو الْأَنْصَارِيِّ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " يَحْسَبُ أَحَدُكُمْ إذَا قَامَ أَوَّلَ اللَّيْلِ إلَى آخِرِهِ أَنَّهُ قَدْ تَهَجَّدَ ، لَا ، وَلَكِنَّ التَّهَجُّدَ الصَّلَاةُ بَعْدَ رَقْدَةٍ ثُمَّ الصَّلَاةُ بَعْدَ رَقْدَةٍ ثُمَّ الصَّلَاةُ بَعْدَ رَقْدَةٍ ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ صَلَاةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " وَعَنْ الْأَسْوَدِ وَعَلْقَمَةَ قَالَا :

" التَّهَجُّدُ بَعْدَ النَّوْمِ " .

وَالتَّهَجُّدُ فِي اللُّغَةِ السَّهَرُ لِلصَّلَاةِ أَوْ لِذِكْرِ اللَّهِ ، وَالْهُجُودُ النَّوْمُ ، وَقِيلَ : التَّهَجُّدُ التَّيَقُّظُ بِمَا يَنْفِي النَّوْمَ .

(356/463)

وَقَوْلُهُ : ﴿ نَافِلَةً لَكَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : " وَإِنَّمَا كَانَتْ نَافِلَةً لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَكَانَتْ طَاعَاتُهُ نَافِلَةً أَيْ زِيَادَةً فِي الثَّوَابِ وَلِغَيْرِهِ كَفَّارَةً لِذُنُوبِهِ " .

وَقَالَ قَتَادَةُ : " نَافِلَةً : تَطَوُّعًا وَفَضِيلَةً " .

وَرَوَى سُلَيْمَانُ بْنُ حَيَّانَ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو غَالِبٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو أُمَامَةَ قَالَ : " إِذَا وَضَعْتَ الطُّهُورَ مَوَاضِعَهُ قَعَدْتَ مَغْفُورًا ، وَإِنْ قُمْتَ تُصَلِّي كَانَتْ لَكَ فَضِيلَةً وَأَجْرًا ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : يَا أَبَا أُمَامَةَ أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَ يُصَلِّي يَكُونُ لَهُ نَافِلَةً ؟ قَالَ : لَا إِنَّمَا النَّافِلَةُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ نَافِلَةً وَهُوَ يَسْعَى فِي الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا يَكُونُ لَكَ فَضِيلَةً وَأَجْرًا " فَمَنَعَ أَبُو أُمَامَةَ أَنْ تَكُونَ النَّافِلَةُ لِغَيْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الصَّامِتِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ كَيْفَ أَنْتَ إِذَا كَانَتْ

عَلَيْكَ أُمَرَاءُ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ ؟ قَالَ قُلْت : فَمَا تَأْمُرُنِي ؟ قَالَ : صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا فَإِنْ أَدْرَكْتَهُمْ فَصَلِّهَا مَعَهُمْ لَكَ نَافِلَةٌ ﴾ .

(357/463)

وَرَوَى قَتَادَةُ عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ الْوُضُوءُ يُكَفِّرُ مَا قَبْلَهُ ثُمَّ تَصِيرُ الصَّلَاةُ نَافِلَةً قِيلَ لَهُ : أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَ : نَعَمْ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلَا مَرَّتَيْنِ وَلَا ثَلَاثٍ وَلَا أَرْبَعٍ وَلَا خَمْسٍ .

﴾ فَأَثْبَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذَيْنِ الْخَبَرَيْنِ النَّافِلَةَ لِغَيْرِهِ ، النَّافِلَةُ هِيَ الزِّيَادَةُ بَعْدَ الْوَاجِبِ وَهِيَ التَّطَوُّعُ وَالْفَضِيلَةُ ، وَمِنْهُ النَّفَلُ فِي الْغَنِيمَةِ وَهُوَ مَا يَجْعَلُهُ الْإِمَامُ لِبَعْضِ الْجَيْشِ زِيَادَةً عَلَى مَا

يَسْتَحِقُّهُ مِنْ سِهَامِهَا ، بِأَنْ يَقُولَ : مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ وَمَنْ أَخَذَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : " عَلَى طَبِيعَتِهِ " .

وَقِيلَ : " عَلَى عَادَتِهِ الَّتِي أَلِفَهَا " .

وَفِيهِ تَحْذِيرٌ مِنْ إلْفِ الْفَسَادِ وَالْمُسَاكَنَةِ إلَيْهِ فَيَسْتَمِرُّ عَلَيْهِ .

وَقِيلَ : " عَلَى أَخْلَاقِهِ " .

قَالَ أَبو بَكْرٍ : شَاكِلَتُهُ مَا يُشَاكِلُهُ وَيَلِيقُ بِهِ وَيُشْبِهُهُ ، فَالَّذِي يُشَاكِلُ الْخَيْرَ مِنْ النَّاسِ الْخَيْرُ وَالصَّلَاحُ وَالَّذِي يُشَاكِلُ الشِّرِّيرَ الشَّرُّ وَالْفَسَادُ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ يَعْنِي : الْخَبِيثَاتِ مِنْ الْكَلَامِ لِلْخَبِيثِينَ مِنْ النَّاسِ ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ يَعْنِي : الطَّيِّبَاتِ مِنْ الْكَلَامِ لِلطَّيِّبِينَ مِنْ النَّاسِ .

(358/463)

وَيُرْوَى أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّ بِقَوْمٍ فَكَلَّمُوهُ بِكَلَامٍ قَبِيحٍ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ رَدًّا حَسَنًا ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : " إنَّمَا يُنْفِقُ كُلُّ إنْسَانٍ مَا عِنْدَهُ " .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَيَسْأَلُونَك عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ اُخْتُلِفَ فِي الرُّوحِ الَّذِي سَأَلُوا عَنْهُ ، فَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : " أَنَّهُ جِبْرِيلُ " .

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ : " أَنَّهُ مَلَكٌ مِنْ الْمَلَائِكَةِ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفِ وَجْهٍ لِكُلِّ وَجْهٍ سَبْعُونَ أَلْفِ لِسَانٍ يُسَبِّحُ اللَّهَ بِجَمِيعِ ذَلِكَ " .

وَقِيلَ : " إنَّمَا أَرَادَ رُوحَ الْحَيَوَانِ " وَهُوَ ظَاهِرُ الْكَلَامِ .

قَالَ قَتَادَةُ : " الَّذِي سَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ قَوْمٌ مِنْ الْيَهُودِ " .

وَرُوحُ الْحَيَوَانِ جِسْمٌ رَقِيقٌ عَلَى بِنْيَةٍ حَيَوَانِيَّةٍ فِي كُلِّ جُزْءٍ .

مِنْهُ حَيَاةٌ، وَفِيهِ خِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَكُلُّ حَيَوَانٍ فَهُوَ رُوحٌ، إِلَّا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ الْأَغْلَبُ عَلَيْهِ الرُّوحُ وَمِنْهُمْ مَنْ الْأَغْلَبُ عَلَيْهِ الْبَدَنُ.

وَقِيلَ: أَنَّهُ لَمْ يُجِبْهُمْ لِأَنَّ الْمَصْلَحَةَ فِي أَنْ يُوكَلُوا إِلَى مَا فِي عُقُولِهِمْ مِنْ الدَّلَالَةِ عَلَيْهَا لِلِارْتِيَاضِ بِاسْتِخْرَاجِ الْفَائِدَةِ.

وَرُوِيَ فِي كِتَابِهِمْ أَنَّهُ إِنْ أَجَابَ عَنْ الرُّوحِ فَلَيْسَ بِنَبِيٍّ، فَلَمْ يُجِبْهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِصْدَاقًا لِمَا فِي كِتَابِهِمْ.

وَالرُّوحُ قَدْ يُسَمَّى بِهِ أَشْيَاءَ، مِنْهَا الْقُرْآنُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ سَمَّاهُ رُوحًا تَشْبِيهًا بِرُوحِ الْحَيَوَانِ الَّذِي بِهِ يَحْيَى.

(359/463)

وَالرُّوحُ الْأَمِينُ جِبْرِيلُ، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ سُمِّيَ رُوحًا عَلَى نَحْوِ مَا سُمِّيَ بِهِ مِنْ الْقُرْآنِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ أَيْ مِنْ الْأَمْرِ الَّذِي يَعْلَمُهُ رَبِّي.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يَعْنِي: مَا أُعْطِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ كَثِيرٍ بِحَسَبِ حَاجَتِكُمْ إِلَيْهِ، فَالرُّوحُ مِنْ الْمَتْرُوكِ الَّذِي لَا يَصْلُحُ النَّصُّ عَلَيْهِ لِلْمَصْلَحَةِ.

وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى جَوَازِ تَرْكِ جَوَابِ السَّائِلِ عَنْ بَعْضِ مَا يَسْأَلُ عَنْهُ لِمَا فِيهِ مِنْ الْمَصْلَحَةِ فِي اسْتِعْمَالِ الْفِكْرِ وَالتَّدَبُّرِ وَالِاسْتِخْرَاجِ ، وَهَذَا فِي السَّائِلِ الَّذِي يَكُونُ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَاسْتِخْرَاجِ الْمَعَانِي ، فَأَمَّا إنْ كَانَ مُسْتَفْتِيًا قَدْ بُلِيَ بِحَادِثَةٍ احْتَاجَ إلَى مَعْرِفَةِ حُكْمِهَا وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ فَعَلَى الْعَالِمِ بِحُكْمِهَا أَنْ يُجِيبَهُ عَنْهَا بِمَا هُوَ حُكْمُ اللَّهِ عِنْدَهُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(360/463)

ومن فوائد ابن العربى فى الآيات

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَقِمْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ .

فِيهَا سَبْعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : ﴿ أَقِمْ الصَّلَاةَ ﴾ : أَيْ اجْعَلْهَا قَائِمَةً ، أَيْ دَائِمَةً .

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ : وَفِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : زَالَتْ عِنْدَ كَبِدِ السَّمَاءِ ؛ قَالَهُ عُمَرُ ، وَابْنُ عُمَرَ ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ ، وَطَائِفَةٌ سِوَاهُمْ مِنْ

عُلَمَاءِ التَّابِعِينَ وَغَيْرُهُمْ .

الثَّانِي : أَنَّ الدُّلُوكَ هُوَ الْغُرُوبُ ؛ قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ ، وَعَلِيٌّ ، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ، وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : ﴿ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ : فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : إقْبَالُ ظُلْمَتِهِ .

الثَّانِي : اجْتِمَاعُ ظُلْمَتِهِ .

الثَّالِثُ : مَغِيبُ الشَّفَقِ .

وَقَدْ قَيَّدْت عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الدُّلُوكَ إنَّمَا سُمِّيَ بِهِ ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ يَدْلُكُ عَيْنَيْهِ إذَا نَظَرَ إلَى الشَّمْسِ فِيهِ ، أَمَّا فِي الزَّوَالِ فَلِكَثْرَةِ شُعَاعِهَا ، وَأَمَّا فِي الْغُرُوبِ فَلِيَتَبَيَّنَهَا ، وَهَذَا لَوْ نُقِلَ عَنْ الْعَرَبِ لَكَانَ قَوِيًّا ، وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ : هَذَا مُقَامُ قَدَمَيْ رَبَاحِ حَتَّى يُقَالَ دَلَكْت بَرَاحِ كَقَوْلِهِ قَطَامِ وَجَذَامِ ، وَفِي ذَلِكَ كَلَامٌ .

وَقَدْ رَوَى مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّإِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : دُلُوكُ الشَّمْسِ مَيْلُهَا .

وَغَسَقُ اللَّيْلِ اجْتِمَاعُ اللَّيْلِ وَظُلْمَتُهُ وَرِوَايَةُ مَالِكٍ عَنْهُ أَصَحُّ مِنْ رِوَايَةِ غَيْرِهِ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ مَالِكٍ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ صَلَّى الْمَغْرِبَ وَالنَّاسُ يَتَمَارَوْنَ فِي الشَّمْسِ لَمْ تَغِبْ ، فَقَالَ : مَا شَأْنُكُمْ ؟ قَالُوا : نَرَى أَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبْ .

قَالَ : هَذَا وَالَّذِي لَا إلَهَ غَيْرُهُ وَقْتُ هَذِهِ الصَّلَاةِ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ أَقِمْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ ؛ قَالَ : وَهَذَا دُلُوكُ الشَّمْسِ ، وَهَذَا غَسَقُ اللَّيْلِ .

وَتَحْقِيقُ ذَلِكَ : أَنَّ الدُّلُوكَ هُوَ الْمَيْلُ ، وَلَهُ أَوَّلٌ عِنْدَنَا وَهُوَ الزَّوَالُ ، وَآخِرٌ وَهُوَ الْغُرُوبُ ، وَكَذَلِكَ الْغَسَقُ هُوَ الظُّلْمَةُ ، وَلَهَا ابْتِدَاءٌ وَانْتِهَاءٌ ، فَابْتِدَاؤُهَا عِنْدَ دُخُولِ اللَّيْلِ ، وَانْتِهَاؤُهَا عِنْدَ غَيْبُوبَةِ الشَّفَقِ ، فَرَأَى مَالِكٌ أَنَّ الْآيَةَ تَضَمَّنَتْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ ، فَقَوْلُهُ : دُلُوكِ الشَّمْسِ يَتَنَاوَلُ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ اقْتَضَى الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ قُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ اقْتَضَى صَلَاةَ الصُّبْحِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : وَسَمَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ قُرْآنًا لِيُبَيِّنَ أَنَّ رُكْنَ الصَّلَاةِ وَمَقْصُودَهَا الْأَكْبَرُ

الذِّكْرُ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ ﴾ ؛ مَعْنَاهُ صَلُّوا عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ ، أَطْوَلُ الصَّلَوَاتِ قِرَاءَةً ، وَلِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ ، يَقُولُ الْعَبْدُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، يَقُولُ اللَّهُ :

حَمِدَنِي عَبْدِي ﴾ .

﴿ وَيَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْأَعْرَابِيِّ الَّذِي عَلَّمَهُ الصَّلَاةَ : اقْرَأْ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَمَا تَيَسَّرَ مَعَك مِنْ الْقُرْآنِ ﴾ ، مَعْنَاهُ صَلُّوا عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ ، إنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَهِيَ أَطْوَلُ الصَّلَوَاتِ قِرَاءَةً .

(363/463)

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ الْفَجْرِ ﴾ : يَعْنِي سَيَلَانَ الضَّوْءِ ، وَجَرَيَانَ النُّورِ فِي الْأُفُقِ ، مِنْ فَجَرَ الْمَاءُ وَهُوَ ظُهُورُهُ وَسَيَلَانُهُ ، فَيَكُونُ كَثِيرًا ، وَمِنْ هَذَا الْفَجْرُ وَهُوَ كَثْرَةُ الْمَاءِ وَهُوَ ابْتِدَاءُ النَّهَارِ وَأَوَّلُ الْيَوْمِ وَالْوَقْتُ الَّذِي يَحْرُمُ فِيهِ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ عَلَى الصَّائِمِ ؛ وَتَجُوزُ فِيهِ صَلَاةُ الصُّبْحِ فِعْلًا وَتَجِبُ إلْزَامًا فِي الذِّمَّةِ وَحَتْمًا ، وَيُسْتَحَبُّ فِيهِ فِعْلُهَا نَدْبًا ، حَسْبَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُهُ فِيهَا مِنْ مُوَاظَبَتِهِ عَلَى صَلَاتِهَا فِي الْوَقْتِ الْأَوَّلِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُصَلِّيَ بِالْمَنَازِلِ ، لَا بِالطَّالِعِ مِنْهَا ، وَلَا بِالْغَارِبِ ، وَلَا بِالْمُتَوَسِّطِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ ؛ لِأَنَّك إذَا تَرَاءَيْت الطَّالِعَ أَوْ الْغَارِبَ فَتَرَاءَى الْفَجْرُ أَوَّلًا ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَرْكُ الْأَصْلِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ ، وَالرُّجُوعُ إلَى الْبَدَلِ ؛ وَإِنَّمَا جَعَلَ اللَّهُ مَوَاقِيتَ الصَّلَاةِ بَيِّنَةً لِيَتَسَاوَى فِي دَرْكِهَا الْعَامِّيُّ وَالْخَاصِّيُّ ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ نَصَبَهَا بَيِّنَةً لِلْأَبْصَارِ ، ظَاهِرَةً دُونَ اسْتِبْصَارٍ ، فَلَا عُذْرَ لِأَحَدٍ أَنْ

يُقَلِّبهَا خُفْيَةً؛ فَذَلِكَ عَكْسُ الشَّرِيعَةِ، وَخَلْطُ التَّكْلِيفِ وَتَبْدِيلُ الْأَحْكَامِ.

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾: يَعْنِي مَشْهُودًا بِالْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ وَالْكَاتِبِينَ.

ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ رِوَايَةِ الْأَئِمَّةِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَفِي صَلَاةِ الْعَصْرِ. ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ ﴾.

وَبِهَذَا فُضِّلَتْ صَلَاةُ الصُّبْحِ عَلَى سَائِرِ الصَّلَوَاتِ، وَيُشَارِكُهَا فِي ذَلِكَ الْعَصْرُ، فَيَكُونَانِ جَمِيعًا أَفْضَلَ الصَّلَوَاتِ، وَيَتَمَيَّزُ عَلَيْهَا الصُّبْحُ بِزِيَادَةِ فَضْلٍ حَتَّى تَكُونَ الْوُسْطَى، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ: ذَهَبَ قَوْمٌ إلَى أَنَّ صَلَاةَ الظُّهْرِ يَتَمَادَى وَقْتُهَا مِنْ الزَّوَالِ إلَى الْغُرُوبِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَلَّقَ وُجُوبَهَا عَلَى الدُّلُوكِ، وَهَذَا دُلُوكٌ كُلُّهُ؛ قَالَهُ الْأَوْزَاعِيُّ، وَأَبُو حَنِيفَةَ فِي تَفْصِيلٍ، وَأَشَارَ إلَيْهِ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ فِي حَالِ الضَّرُورَةِ.

وَقَالَ آخَرُونَ : وَقْتُ الْمَغْرِبِ يَكُونُ مِنْ الْغُرُوبِ إلَى مَغِيبِ الشَّفَقِ ؛ لِأَنَّهُ غَسَقٌ كُلُّهُ ، وَهُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ مَالِكٍ وَقَوْلُهُ فِي مُوَطَّئِهِ الَّذِي قَرَأَهُ طُولَ عُمُرِهِ ، وَأَمْلَاهُ حَيَاتَهُ .

وَمِنْ مَسَائِلِ أُصُولِ الْفِقْهِ الَّتِي بَيَّنَّاهَا فِيهَا ، وَأَشَرْنَا إلَيْهَا فِي كُتُبِنَا عِنْدَ جَرَيَانِهَا أَنَّ الْأَحْكَامَ الْمُعَلَّقَةَ بِالْأَسْمَاءِ ، هَلْ تَتَعَلَّقُ بِأَوَائِلِهَا أَمْ بِآخِرِهَا ؟ فَيَرْتَبِطُ الْحُكْمُ بِجَمِيعِهَا .

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ ، وَجَرَى الْخِلَافُ فِي مَسَائِلِ مَالِكٍ عَلَى وَجْهٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مُخْتَلَفٌ عِنْدَهُ .

وَالْأَقْوَى فِي النَّظَرِ أَنْ يَرْتَبِطَ الْحُكْمُ بِأَوَائِلِهَا ، لِئَلَّا يَعُودَ ذِكْرُهَا لَغْوًا ، فَإِذَا ارْتَبَطَ بِأَوَائِلِهَا جَرَى بَعْدَ ذَلِكَ النَّظَرُ فِي تَعَلُّقِهِ بِالْكُلِّ إلَى الْآخِرِ أَمْ اقْتِصَارُهُ عَلَى الْأَوَّلِ عَلَى مَا يُعْطِيهِ الدَّلِيلُ ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَعَلُّقِ الصَّلَاةِ بِالزَّوَالِ ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ الدُّلُوكِ .

وَكُنَّا نُعَلِّقُهَا بِالْجَمِيعِ ، إلَّا أَنَّ صَلَاةَ الْعَصْرِ قَدْ أَخَذَتْ مِنْهَا وَقْتَهَا ، مِنْ كَوْنِ ظِلِّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ ؛ فَانْقَطَعَ حُكْمُ الظُّهْرِ لِدُخُولِ وَقْتِ الْعَصْرِ ، فَبَقِيَ النَّظَرُ فِي اشْتِرَاكِهِمَا مَعًا ، بِدَلِيلٍ آخَرَ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْفِقْهِ وَشَرْحِ الْحَدِيثِ ، وَفِيهِ طُولٌ .

وَأَمَّا صَلَاةُ الْمَغْرِبِ فَأَمْرُهَا أَبْيَنُ مِنْ الْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِآخِرِ الدُّلُوكِ ، وَهُوَ الْغُرُوبُ ، وَلَيْسَ

بَعْدَهَا صَلَاةٌ تُقْطَعُ بِهَا ، وَتَأْخُذُ الْوَقْتَ مِنْهَا إلَى مَغِيبِ الشَّفَقِ ، فَهَلْ يَتَمَادَى وَقْتُهَا إلَى دُخُولِ وَقْتِ الصَّلَاةِ الْأُخْرَى ، أَمْ يَتَعَلَّقُ

بِالْأَوَّلِ خَاصَّةً ؟ وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ هَذَا كُلَّهُ ، فَقَالَ : ﴿ وَقْتُ الْمَغْرِبِ مَا لَمْ يَحْضُرْ وَقْتُ الْعِشَاءِ ﴾ .

وَقَالَ أَيْضًا فِيهِ : ﴿ وَقْتُ الْمَغْرِبِ مَا لَمْ يَسْقُطْ نُورُ الشَّفَقِ ﴾ ؛ فَارْتَفَعَ الْخِلَافُ بِبَيَانِ مُبَلِّغِ الشَّرِيعَةِ .

(366/463)

الْآيَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَك عَسَى أَنْ يَبْعَثَك رَبُّك مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ فَتَهَجَّدْ بِهِ ﴾ : يَعْنِي اسْهَرْ بِهِ .

وَالْهُجُودُ : النَّوْمُ ، وَالتَّهَجُّدُ تَفَعُّلٌ ، وَهُوَ لِاكْتِسَابِ الْفِعْلِ وَإِثْبَاتِهِ فِي الْأَصْلِ ، وَقَدْ يَأْتِي لِنَفْيِهِ فِي حُرُوفٍ مَعْدُودَةٍ ، جِمَاعُهَا سَبْعَةٌ : تَهَجَّدَ : نَفَى الْهُجُودَ ، تَخَوَّفَ : نَفَى الْخَوْفَ ، تَحَنَّثَ : نَفَى الْحِنْثَ ، تَنَجَّسَ : أَلْقَى النَّجَاسَةَ عَنْ نَفْسِهِ .

تَحَرَّجَ ، نَفَى الْحَرَجَ ، تَأَثَّمَ : نَفَى الْإِثْمَ ، تَعَذَّرَ : نَفَى الْعُذْرَ .

تَقَذَّرَ: نَفَى الْقَذَرَ.

وَفِي الْبُخَارِيِّ: تَجَزَّعَ: نَفَى الْجَزَعَ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ نَافِلَةً لَكَ ﴾: وَالنَّفَلُ هُوَ الزِّيَادَةُ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ؛ وَفِي وَجْهِ الزِّيَادَةِ هَاهُنَا قَوْلَانِ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ زِيَادَةٌ عَلَى فَرْضِهِ خَاصَّةً دُونَ النَّاسِ.

الثَّانِي: قَوْلُهُ: ﴿ نَافِلَةً لَكَ ﴾؛ أَيْ زِيَادَةً؛ لِأَنَّهُ لَا يُكَفِّرُ شَيْئًا؛ إذْ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ.

وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ؛ لِأَنَّ الثَّانِيَ فَاسِدٌ؛ إذْ نَفْلُهُ وَفَرْضُهُ لَا يُصَادِفُ ذَنْبًا، وَلَا صَلَاةُ اللَّيْلِ وَلَا صَلَاةُ النَّهَارِ تُكَفِّرَانِ خَطِيئَةً؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مَعْدُومٌ فِي حَدِّهِ وُجُودًا، مَعْدُومٌ فِي حَقِّهِ مُؤَاخَذَةً لَوْ كَانَ لِفَضْلِ الْمَغْفِرَةِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِ.

(367/463)

وَمِنْ خَصَائِصِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِيَامُ اللَّيْلِ، ﴿ وَكَانَ يَقُومُ حَتَّى تَرِمَ قَدَمَاهُ ﴾؛ وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي سُورَةِ "الْأَحْزَابِ" وَفِي سُورَةِ "الْمُزَّمِّلِ".

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: فِي صِفَةِ هَذَا التَّهَجُّدِ وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ النَّوْمُ، ثُمَّ الصَّلَاةُ، ثُمَّ النَّوْمُ، ثُمَّ الصَّلَاةُ.

الثَّانِي: أَنَّهُ الصَّلَاةُ بَعْدَ النَّوْمِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ.

وَهَذَا دَعَاوَى مِنْ التَّابِعِينَ فِيهَا، وَلَعَلَّهُمْ إنَّمَا عَوَّلُوا عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَنَامُ وَيُصَلِّي، وَيَنَامُ وَيُصَلِّي، فَعَوَّلُوا عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْفِعْلَ كَانَ امْتِثَالًا لِهَذَا الْأَمْرِ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فَالْأَمْرُ فِيهِ قَرِيبٌ.

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: فِي وَجْهِ كَوْنِ قِيَامِ اللَّيْلِ سَبَبًا لِلْمَقَامِ الْمَحْمُودِ وَفِيهِ قَوْلَانِ لِلْعُلَمَاءِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْبَارِئَ يَجْعَلُ مَا شَاءَ مِنْ فِعْلِهِ سَبَبًا لِفَضْلِهِ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِوَجْهِ الْحِكْمَةِ فِيهِ، أَوْ بِمَعْرِفَةِ وَجْهِ الْحِكْمَةِ.

الثَّانِي: أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ فِيهِ الْخَلْوَةُ مَعَ الْبَارِئِ وَالْمُنَاجَاةُ دُونَ النَّاسِ؛ فَيُعْطَى الْخَلْوَةَ بِهِ وَمُنَاجَاتَهُ فِي الْقِيَامَةِ، فَيَكُونُ مَقَامًا مَحْمُودًا، وَيَتَفَاضَلُ فِيهِ الْخَلْقُ بِحَسَبِ دَرَجَاتِهِمْ؛ فَأَجَلُّهُمْ فِيهِ دَرَجَةً مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ يُعْطَى مِنْ الْمَحَامِدِ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ، وَيَشْفَعُ وَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

الْآيَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ:

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلَّا قَلِيلًا ﴾ .

قَدْ أَطَلْنَا النَّفَسَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فِي كِتَابِ الْمُشْكَلَيْنِ وَشَرْحِ الصَّحِيحِ بِمَا يَقِفُ بِكُمْ فِيهَا عَلَى الْمَعْرِفَةِ ، فَأَمَّا الْآنَ فَخُذُوا نُبْذَةً تُشْرِفُ بِكُمْ عَلَى الْغَرَضِ : ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ طَرِيقِ ﴿ ابْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِ قَالَ بَيْنَا أَنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَرْثٍ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى عَسِيبٍ إذْ مَرَّ الْيَهُودُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : سَلُوهُ عَنْ الرُّوحِ .

فَقَالَ : مَا رَابَكُمْ إلَيْهِ ؟ لَا يَسْتَقْبِلُنَّكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ .

قَالُوا : سَلُوهُ ، فَسَأَلُوهُ عَنْ الرُّوحِ ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا فَعَلِمْت أَنَّهُ يُوحَى إلَيْهِ ، فَقُمْت مَقَامِي ، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ : يَسْأَلُونَك عَنْ " الرُّوحِ " الْآيَةَ ﴾ .

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ : لَمْ يَأْتِهِ فِي ذَلِكَ جَوَابٌ ، وَقَدْ قَالَ بَكْرُ بْنُ مُضَرَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ عَنْهُ : إنَّ الْيَهُودَ قَالُوا : سَلُوهُ عَنْ الرُّوحِ ، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ فَلَيْسَ بِنَبِيٍّ ، وَإِنْ لَمْ يُخْبِرْكُمْ فَهُوَ نَبِيٌّ ، فَسَأَلُوهُ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ .

ومَعْنَى هَذَا أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَتَكَلَّمُونَ مَعَ الْخَلْقِ فِي الْمُتَشَابِهَاتِ ، وَلَا يُفِيضُونَ مَعَهُمْ فِي الْمُشْكِلَاتِ ، وَإِنَّمَا يَأْخُذُونَ فِي الْبَيِّنِ مِنْ الْأُمُورِ الْمَعْقُولَاتِ ، وَالرُّوحُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى جَعَلَهُ اللَّهُ فِي الْأَجْسَامِ ، فَأَحْيَاهَا بِهِ ، وَعَلَّمَهَا وَأَقْدَرَهَا ، وَبَنَى عَلَيْهَا الصِّفَاتِ الشَّرِيفَةَ ، وَالْأَخْلَاقَ الْكَرِيمَةَ ، وَقَابَلَهَا بِأَضْدَادِهَا لِنُقْصَانِ الْآدَمِيَّةِ ، فَإِذَا أَرَادَ الْعَبْدُ إنْكَارَهَا لَمْ يَقْدِرْ لِظُهُورِ آثَارِهَا ، وَإِذَا أَرَادَ مَعْرِفَتَهَا وَهِيَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ لَمْ يَسْتَطِعْ ؟ ؛ لِأَنَّهُ قَصُرَ عَنْهَا وَقَصُرَ بِهِ دُونَهَا .

وَقَالَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ : إنَّهُ سُبْحَانَهُ رَكَّبَ ذَلِكَ فِيهِ عِبْرَةً ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ لِيَرَى أَنَّ الْبَارِئَ تَعَالَى لَا يُقْدَرُ عَلَى جَحْدِهِ لِظُهُورِ آيَاتِهِ فِي أَفْعَالِهِ : فَفِي كُلِّ شَيْءٍ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ وَلَا يُحِيطُ بِهِ لِكِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِهِ ، فَإِذَا وَقَفَ مُتَفَكِّرًا فِي هَذَا نَادَاهُ الِاعْتِبَارُ : لَا تَرْتَبْ ، فَفِيكَ مِنْ ذَلِكَ آثَارٌ ، انْظُرْ إلَى مَوْجُودٍ فِي إهَابِكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى إنْكَارِهِ لِظُهُورِ آثَارِهِ ، وَلَا تُحِيطُ بِمِقْدَارِهِ ، لِقُصُورِكَ عَنْهُ فَيَأْخُذُهُ الدَّلِيلُ ، وَتَقُومُ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَيْهِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾ بعقولهم ؛ وقال الضحاك : بالعقل والتمييز ؛ ويقال : إن الله تعالى خلق نبات الأرض والأشجار وجعل فيها الروح ، لأنه ينمو ويزداد بنفسه ما دام فيه الروح ؛ فإذا يبس ، خرج منه الروح وانقطع نماؤه وزيادته ؛ وخلق الدواب وجعل لهن زيادة روح تطلب بها رزقها ، وتسمع بها الصوت .

وخلق بني آدم وجعل لهم زيادة روح ، يعقلون بها ويميزون ويعلمون .

وخلق الأنبياء وجعل لهم زيادة روح ، يبصرون بها الملائكة ويأخذون بها الوحي ويعرفون أمر الآخرة .

ثم قال : ﴿ وحملناهم فِى البر والبحر ﴾ يعني : في البر على الرطوبة يعني : الدواب وفي البحر على اليبوسة وهي السفن ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ ، يعني : الحلالات ويقال : من نبات الحبوب والفواكه والعسل ، وجعل رزق البهائم التبن والشوك .

﴿ وفضلناهم على كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ ، يعني : على الجن والشياطين والبهائم . وروي عن ابن عباس أنه قال : فضلوا على الخلائق كلهم غير طائفة من الملائكة ، وهم جبريل وميكاييل وإسرافيل وأشباههم منهم ، وروي عن أبي هريرة أنه قال : المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده .

قوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ ، أي أذكر يوم ندعو كل أناس بكتابهم ، ويقال بداعيهم الذي دعاهم في الدنيا إلى ضلالة أو هدى يدعى إمامهم قبلهم ؛ وقال أبو العالية : بإمامهم أي بأعمالهم ، وقال مجاهد : بنبيهم ؛ وقال الحسن : بكتابهم الذي فيه أعمالهم .

﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ﴾ ، يعني : يقرؤون حسناتهم ويعطون ثواب حسناتهم .

﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ ، يعني : لا يمنعون من ثواب أعمالهم مقدار الفتيل ، وهو ما فتلته من الوسخ بين أصبعيك .

ثم قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى ﴾ ، أي من كان في هذه النعم أعمى ، يعني : لم يعلم أنها من الله ، ﴿ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى ﴾ عن حجته ، ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ؛ يعني : عن حجته .

قال مجاهد : ﴿ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ الدنيا أَعْمَى ﴾ عن الحجة فهو في الآخرة أعمى عن الحجة ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ، أي أخطأ طريقاً ؛ وقال قتادة : ﴿ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ الدنيا أَعْمَى ﴾ عمّا عاين من نعم الله وخلقه وعجائبه ، فهو في الآخرة التي هي غائبة عنه ولم

يرها أعمى ؛ وقال مقاتل : فيه تقديم ومعناه ﴿ وفضلناهم على كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ .

ومن كان عن هذه النعم أعمى ، فهو عما غاب عنه من أمر الآخرة أعمى ؛ وقال الزجاج : معناه إذا عمي في الدنيا وقد تبين له الهدى وجعل إليه التوبة فعمي عن رشده ، فهو في الآخرة لا يجد متاباً ولا مخلصاً مما هو فيه ، فهو أشد عمًى وأضلّ سبيلاً أي أضل طريقاً ، لأنه لا يجد طريقاً إلى الهداية فقد حصل على عمله .

وذكر عن الفرّاء أنه قال : تأويله من كان في هذه النعم التي ذكرتها أعمى ، لا يعرف حقها ولا يشكر عليها وهي محسوسة ، فهو في الآخرة أعمى ؛ يعني : أشد شكاً في الذي هو غائب عنه في الآخرة من الثواب والعقاب .

ثم قال تعالى ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ، أي : وقد كادوا ليصرفونك عن الذي أوحينا إليك إن قدروا على ذلك ؛ وذلك أن ثقيفاً أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : نحن إخوانك وأصهارك وجيرانك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَاذَا تُرِيدُونَ ؟ " قالوا : نريد أن نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال .

فقال صلى الله عليه وسلم : " وَمَا هُنَّ ؟ " قالوا : لا ننحني في الصلاة ، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا ، وأن تمتّعنا بالطاغية سنة يعني : بطاعة الأصنام سنة .

فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : " أَمَّا قَوْلُكُمْ لا نَنْحَنِي فِي الصَّلاةِ ، فَإِنَّهُ لا خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ وَلا سُجُودٌ " .

قالوا : فإنا نفعل ذلك وإن كان فيه دناءة .

" وَأَمَّا قَوْلُكُمْ : إنا لا نَكْسِرُ أَصْنَامَنَا بِأَيْدِينَا ، فَإِنَّا سَنَأْمُرُ مَنْ يَكْسِرُهَا " .

قالوا : فمتّعنا باللات سنة فقال : " إِنِّي غَيْرُ مُمَتِّعِكُمْ بِهَا " .

قالوا : يا رسول الله فإنا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا ما لم تعط غيرنا ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكره أن يقول لا ، مخافة أن يأبوا الإسلام ، فنزل ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ .

وقال السدي : إن قريشاً قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : إنك ترفض آلهتنا كل الرفض ، فلو أنك تأتيها فتلمسها أو تبعث بعض ولدك فيمسها ، كان أرق لقلوبنا وأحرى أن نتبعك ؛ فأراد أن يبعث ابنه الطاهر فيمسح ، فنهاه الله تعالى عن ذلك ونزل : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ وروى أبو العالية ، عن أصحابه منهم القرظي قال : لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النجم فبلغ ﴿ ومناة

الثالثة الاخرى ﴾ [النجم : 20] ، جرى على لسانه تلك الغرانيق العلى وأنَّ شفاعتهن لترتجى ؛ فلما بلغ السجدة ، سجد وسجد معه المشركون ، ثم جاء جبريل فقال : ما جئتك بهذا فنزل : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ ، فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم مغموماً حتى نزل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ الآية.

(373/463)

وروى سعيد بن جبير ، عن قتادة قال : ذكر لنا أن قريشاً خلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخمونه ويسودونه ويقاربونه ، وكان في قولهم أن قالوا : يا محمد إنك تأتي بشيء لم يأت به أحد من الناس ، وأنت سيدنا وابن سيدنا ، فما زالوا يكلمونه حتى كاد أن يقاربهم.

ثم إن الله تعالى منعه وعصمه عن ذلك ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : 74] الآية ؛ وذلك قوله : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ في القرآن.

﴿ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ ، يعني : لتقول أو تفعل غير الذي أمرتك في القرآن.

﴿ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ ، أي صفيا وصديقاً ؛ ويقال : إن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : اطرد عن مجلسك سقاط الناس ومواليهم حتى نجلس معك ، فهمَّ النبي صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك ، فنزل : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ من تقريب المسلمين .

﴿ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ لو فعلت ما طلبوا منك .

ثم قال ﴿ وَلَوْلاَ أَن ثبتناك ﴾ ، يقول : عصمناك ، ويقال : حفظناك .

﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾ ، يعني : لقد هممت أن تميل إليهم .

﴿ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ ، وتعطي أمنيتهم شيئاً قليلاً .

﴿ إِذاً لأذقناك ضِعْفَ الحياة ﴾ ، أي عذاب الدنيا ، ﴿ وَضِعْفَ الممات ﴾ ؛ يعني : عذاب الآخرة ، وهذا قول ابن عباس .

وروى ابن أبي نجيح ، عن مجاهد أنه قال : ضعف الحياة عذابها أي عذاب الدنيا ، وضعف الممات أي عذاب الآخرة ، وهذا مثل الأول ؛ ويقال : ضعف الممات أي عذاب القبر ؛ ويقال : هذا وعيد للنبي صلى الله عليه وسلم ، يعني : إنك لو فعلت ذلك ، يضاعف

لك العذاب على عذاب غيرك ؛ كما قال تعالى : ﴿ يانسآء النبى مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بفاحشة مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العذاب ضِعْفَيْنِ وكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً ﴾ [الأحزاب : 30] ، لأن درجة النبي صلى الله عليه وسلم ودرجة من وصفهم فوق درجة غيرهم ، فجعل لهم العذاب أشد .

وروي عن مالك بن دينار أنه قال سألت أبا الشعثاء عن قوله : ﴿ ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ الممات ﴾ ، فقال : ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة .

ثم قال : ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ ؛ يقول : مانعاً يمنعك من ذلك ، ويقال : مانعاً يمنع من العذاب .

قوله : ﴿ وَإِن كَادُواْ ﴾ وقد كادوا ﴿ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ ، أي ليستزلونك ليخرجوك من أرض مكة .

﴿ وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خلافك ﴾ ، أي بعدك ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ، فيهلكهم الله تعالى .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر أنه قال : قد فعلوا ذلك فأهلكهم الله تعالى يوم بدر ، ولم يلبثوا بعده إلا قليلاً ؛ وقال مقاتل : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض ﴾ ، يعني : من أرض المدينة .

نزلت الآية في حيي بن أخطب وغيره من اليهود حين دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة حسدوه وقالوا : إنك لتعلم أن هذه ليست من أرض الأنبياء إنما أرض الأنبياء الشام

، فإن كنت نبياً فاخرج منها ، فنزل : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ ، أي من أرض المدينة إلى الشام ﴿ وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خلافك إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ وأمر بالرجوع إلى المدينة .

ثم قال تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ ، أي هكذا سنتي فيمن قد مضى أن أهلك من عصوا الرسول ولم يتبعوه ، ولا أهلكهم ونبيهم بين أظهرهم ؛ فإذا خرج نبيهم من عندهم ، عذبوا .

﴿ وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ ، يعني : تغييرا أو تبديلاً .

قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية حفص : ﴿ لاَّ يَلْبَثُونَ خلافك ﴾ ، وقرأ الباقون : ﴿ خَلْفَكَ ﴾ ومعناهما قريب ، يعني بعدك .

ثم قال : ﴿ أَقِمِ الصلاة ﴾ ، يعني أتمم الصلاة ودم عليها ﴿ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ يعني : بعد زوالها الظهر والعصر ﴿ أَقِمِ الصلاة لِدُلُوكِ ﴾ يعني : إلى دخول الليل وهي المغرب والعشاء .

وروى سالم ، عن ابن عمر أنه قال : دلوكها زيغها بعد نصف النهار أي تزوالها ؛ وقال قتادة :

زيغها عن كبد السماء ؛ وروى ابن طاوس ، عن أبيه أنه قال : دلوكها غروبها ؛ وروى معمر ، عن الشعبي ، عن ابن عباس أنه قال : ﴿ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ حين نزول الشمس ؛ وروى مجاهد ، عن ابن عباس أنه قال : دلوكها غروبها ؛ وقال ابن مسعود : غروبها ؛ وقال القتبي : إلى غسق الليل .

الغسق ظلامه .

ثم قال : ﴿ أَقِمِ الصلاة ﴾ ، أي صلاة الغداة ؛ وإنَّما سميت صلاة الغداة قرآناً ، لأن القراءة فيها أكثر وأطول .

ويقال : لأنه يقرأ كلتا الركعتين ، وفي كلتا الركعتين القراءة فريضة .

﴿ أَقِمِ الصلاة لِدُلُوكِ الشمس إلى ﴾ ، أي صلاة الغداة مشهودة ، يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار ؛ ويقال : كان بمعنى صار ، يعني صار مشهوداً ، لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون في صلاة الغداة ، فينزل ملائكة النهار والقوم في صلاة الغداة قبل أن تعرج ملائكة الليل ؛ فإذا فرغ الإمام من صلاته ، عرجت ملائكة الليل فيقولون : ربنا إنا تركنا عبادك وهم يصلون لك .

ويقول الآخرون : ربنا أدركنا عبادك وهم يصلون لك .

﴿ وَقُرْءانَ ﴾ صار نصباً ، لأن معناه أقم قرآن الفجر ؛ ويقال : صار نصباً على وجه الإغراء أي عليك بقرآن الفجر

ثم قال : ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ ﴾ ، يعني : قم بالليل بعد النوم والتهجد القيام بعد النوم ؛ ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ ؛ روى شهر بن حوشب ، عن أبي أمامة أنه قال : كانت النافلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ؛ وقال مجاهد : لم تكن النافلة إلا للنبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؛ ويقال : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ ، أي فضلاً لك ؛ ويقال : خاصة لك ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ ؛ قال مقاتل : يعني : إن الشفاعة لأصحاب الأعراف يحمده الخلق كلهم ؛ ويقال : إخراج قوم من النار .

قال الفقيه : حدّثنا الخليل بن أحمد قال : حدّثنا محمد بن معاوية الأنماطي قال : حدّثنا الحسن بن الحسين ، عن عطية العوفي قال : حدّثنا أبو حنيفة ، عن عطية العوفي ، عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في قوله : ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ قال : "يُخرِجُ الله أَقْوَاماً مِنَ النَّارِ مِنْ أَهْلِ الإيمان بشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، فذلك المَقَامُ المَحْمُودُ ، فَيُؤْتَى بِهِمْ نَهَراً يُقَالُ لَهُ الحَيَوَانُ ، فَيُلْقَوْنَ فِيهِ ؛ فَيُنْبَتُونَ كَمَا ينبتُ التَّقَارِيرُ .

ثم يُخْرَجُونَ فَيُدْخَلُونَ الجَنَّةَ ، فَيُسَمَّوْنَ فِيهَا الجَهَنَّمِيُّونَ .

قال : ثم يطلبونَ إلى الله تعالى أَنْ يُذْهِبَ عَنْهُمْ هذا الاسْمَ ، فَيُذْهِبَهُ عَنْهُمْ " .

وروي عن حذيفة بن اليمان أنه قال : يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد ، ينفذهم البصر ويسمعهم المنادي ، فيقول : يا محمد ، فيقول : " لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ بِيَدَيْكَ " .

وهو المقام المحمود ، ويغبطه به الأولون والآخرون .

(377/463)

ثم قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ ، أي قال هذا حين أمره الله تعالى بالرجوع إلى المدينة بعدما خرج منها ، فأمره الله بأن يقول حين دخل المدينة : ﴿ رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ ، أي أدخلني في المدينة إدخال صدق .

﴿ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ ، يعني : من المدينة إلى مكة إخراج صدق ؛ ويقال : ﴿ أَدْخِلْنِى ﴾ في الدين ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ ، أي ثبتني على الدين ﴿ وَأَخْرِجْنِى ﴾ ، أي احفظني من الكفر ؛ ويقال : أخرجني من الدنيا إخراج صدق وأدخلني في الجنة ؛ ويقال : أدخلني بعز وشرف وإظهار الإسلام ؛ ويقال : أدخلني في القبر مدخل صدق وأخرجني من القبر مخرج صدق ؛ وقال مجاهد : أدخلني في النبوة والرسالة مدخل صدق ؛ وقال الحسن

: مخرج صدق من مكة إلى المدينة ومدخل صدق الجنة وقال السدي : أدخلني المدينة وأخرجني من مكة ؛ وعن أبي صالح : أدخلني في الإسلام وارفعني بالإسلام .

﴿ واجعل لّى مِن لَّدُنْكَ ﴾ ، يعني : من عندك ﴿ سلطانا نَّصِيرًا ﴾ ، أي ملكاً مانعاً لا زوال فيه ولا يرد قولي ويقال : حجة ثابتة ظاهرة .

قوله : ﴿ وَقُلْ جَاء الحق ﴾ ، ظهر الإسلام والقرآن ، ﴿ وَزَهَقَ الباطل ﴾ ؛ يقول هلك الشرك وأهله .

﴿ إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقًا ﴾ ، يعني : الشرك كان هالكاً لم يكن له قرار ولا دوام .

روي عن عبد الله بن الشخير ، عن عبد الله بن مسعود أنه قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : ﴿ وَقُلْ جَآءَ الحق وَزَهَقَ الباطل إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : 81] ﴿ جَاء الحق وَمَا يُبْدِىء الباطل وَمَا يُعِيدُ ﴾ وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول ذلك والصنم ينكب لوجهه .

ثم قال : ﴿ وَنُنَزّلُ مِنَ القرءان مَا هُوَ شِفَاء ﴾ ، أي بيان من العمى ؛ ويقال : شفاء للبدن ، إذا قرىء على المريض يبرأ أو يهون عليه .

﴿ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، أي ونعمة من العذاب لمن آمن بالقرآن .

﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ ، أي المشركين ما نزل من القرآن ما يزيدهم إلَّا خساراً ، أي تخسيراً وغبناً .

قوله : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ ﴾ ، أي إذا وسعنا على الكافر الرزق ورفعنا عنه العذاب في الدنيا ، ﴿ أَعْرَضَ ﴾ عن الدعاء ؛ ويقال : النعمة هي إرسال محمد صلى الله عليه وسلم ، أعرض عنه الكافر .

﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ ، يعني : تباعد عن الإيمان فلم يقربه .

قرأ ابن عامر : ﴿ وَنَاءَ ﴾ بمد الألف على وزن باع ؛ وقرأ أبو عمرو بنصب النون وكسر الألف ؛ وقرأ حمزة والكسائي بكسر النون والألف ؛ وقرأ الباقون بنصب النون والألف .

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ ﴾ ، يعني : إذا أصابه الفقر في معيشته والسقم في الجسم ، كان آيساً من رحمة الله تعالى .

ثم قال : ﴿ يَئُوسًا قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ ؛ قال القتبي : على خليقته وطبيعته وهو من الشكل ؛ وقال الحسن : ﴿ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ على بنيته وكذلك قال معاوية بن قرة ؛ وقال الكلبي : على ناحيته ومنهاجه وحديثه وأمره الذي هو عليه .

﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ ، أي بمن هو أصوب ديناً ، ويقال : هو عالم بمن هو

على الحق .

قوله : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ، أي لا علم لي فيه ؛ وقال مجاهد : الروح خلق من خلق الله تعالى ، له أيدٍ وأرجل ؛ وقال مقاتل : الروح ملك عظيم على صورة الإنسان ، أعظم من كل مخلوق .

وروى معمر ، عن قتادة والحسن أنهما قالا : الروح هو جبريل ؛ وقال قتادة : كان ابن عباس يكتمه ، أي يجعله من المكتوم الذي لا يفسر .

وروى الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن ابن مسعود أنه قال : كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه .

فقالوا : يا محمد ما الروح؟ فقام متوكئاً على عسيب ، فظننت أنه يوحى إليه ، فنزل : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ، فقال بعضهم لبعض : قد قلنا لكم لا تسألوه .

ويقال : الروح ، القرآن كقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ وروي في بعض

الروايات ، عن ابن عباس أنه قال : الروح ملك له مائة ألف جناح ، وكل جناح لو فتحه يأخذ ما بين المشرق والمغرب ؛ ويقال : إن جميع الملائكة تكون صفاً واحداً والروح وحده يكون صفاً واحداً ، كقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ﴾ [النبأ : 38] واحداً ويقال : معناه يسألونك عن الروح الذي هو في الجسد ، كيف هو؟ قل : الروح من أمر ربي ؛ ويقال : الروح جبريل ؛ كقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الامين ﴾ [الشعراء : 193] أي يسألونك عن إتيان جبريل كيف نزوله عليك؟

﴿ قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبّى ﴾ .

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ، أي ما أعطيتموه من العلم مما عند الله إلاَّ يسيراً .

ثم قال : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ، يعني : حفظ الذي أوحينا إليك من القرآن من قلبك ؛ ويقال : لئن شئنا لمحونا من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له أثر .

﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ ، أي لا تجد من تتوكل عليه في ردّ شيء منه ؛ ويقال : ثم لا تجد لك مانعاً يمنعني من ذلك .

قوله : ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مّن رَّبّكَ ﴾ ، يعني : لكن الله رحمك فأثبت ذلك في قلبك وقلوب المؤمنين .

وروى أبو حازم ، عن أبي هريرة أنه قال : سيؤتى على كتاب الله تعالى ، فيرفع إلى السماء فلا تصبح على الأرض آية من القرآن ، وينزع من قلوب الرجال فيصبحون ولا يدرون ما هو

؛ وروي عن ابن مسعود أنه قال : يصبح الناس كالبهائم .

ثم قرأ : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ الآية .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ ، أي بالنبوة والإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 321.328 ﴾

(380/463)

وقال الثعلبى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ ﴾

ميمون بن مهران عن ابن عبّاس في قوله ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ ﴾ قال : كل شيء يأكل بفيه إلاّ ابن آدم يأكل بيديه ، وعنه أيضاً بالعقل .

الضحاك : بالنطق وثمّ التمييز .

عطاء : تعديل العامّة وإمتدادها ، يمان : بحسن الصورة .

محمّد بن كعب : بأن جعل محمّداً منهم ، وقيل : الرجال باللحي والنساء بالذواب .

محمّد بن جرير : بتسليطهم على غيرهم من الخلق وتسخير سائر الخلق لهم .

﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البر والبحر وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ يعني لذيذ المطاعم والمشارب .

مقاتل: السمن والزبد والتمر والحلاوى وجعل رزق غيرهم مالا يخفى عليكم.

﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ على كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ .

قال قوم: قوله: (كثير ممن خلقنا) إستثناء للملائكة.

قال الكلبي: فُضلوا على الخلائق كلهم غير طائفة من الملائكة جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وأشباههم.

وقال الآخرون: المراد به جميع من خلقنا فالعرب قد تضع الأكبر والكثير في موضع الجمع والكل، كقول الله عزّ وجلّ ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشياطين * تَنَزَّلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السمع وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ [الشعراء: 221- 223] والمراد به جميع الشياطين.

معمر عن زيد بن أسلم، في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ ﴾ قال: قالت: الملائكة ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويتمعون ولم تعطنا ذلك فأعطنا في الآخرة، فقال: وعزتي وجلالي لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كما قلت له كن فيكون.

حماد بن سلمة عن أبي المهزم قال: سمعت أبا هريرة يقول: المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده.

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ قال مجاهد وقتادة : بنبيهم ، يدل عليه ما روى السدي عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ قال : بنبيهم .

وقال أبو صالح وأبو نضر والضحاك وابن زيد : بكتابهم الذي أنزل عليهم وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد وعن علي بن الحسين بن علي المرتضى (عليهم السلام) عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم ندعو كل أناس بإمامهم قال : " يوتى كل قوم بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنّة نبيهم " .

أبو العالية والحسن : بأعمالهم ، ودليل هذا التأويل قوله تعالى في سياق الآية ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فأولئك ﴾ الآية ونظيرها قوله ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : 12] فسمي الكتاب إماماً .

روى ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من الجنة يا عبد الله هذا خير فمن كان من باب الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب [الريان] " .

فقال أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) : يا رسول الله بأبي أنّت وأمي ما علي من دُعي من

تلك الأبواب من ضرورة فهل يدعى من تلك الأبواب كلها أحد ؟ قال : " نعم ، وأرجو أن تكون منهم " " .

وتصديق هذا القول أيضاً حديث الألوية والرايات .

باذان وسعيد بن جبير عن ابن عبّاس : بإمامهم الذي دعاهم في الدنيا إلى الضلالة أو الهدي .

عليّ بن أبي طلحة : بأئمتهم في الخير والشر .

قال الله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [الأنبياء : 73] قال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النار ﴾ [القصص : 41] ، وقيل : لمعبودهم .

محمّد بن كعب : بإمهاتهم .

قالت الحكماء : في ذلك ثلاثة أوجه من الحكمة أحدها : لأجل عيسى (عليه السلام) ، والثاني : أخيار الشرف الحسن والحسين (عليهما السلام) ، والثالث : لئلا يفضح أولاد الزنا .

﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فِي هذه أعمى ﴾ أختلفوا في هذه

الاشارة .

فقال قوم : هي راجعة إلى النعم التي عددها الله في هذه الآيات .

عكرمة : جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عبّاس فسأله رجل عن هذه الآية فقال : إقرأ ماقبلها ﴿ رَبُّكُمُ الذي يُزْجِي لَكُمُ الفلك ﴾ إلى قول الله ﴿ سَبِيلاً ﴾ فقال ابن عبّاس : من كان في هذه النعم التي رأى وعاين أعمى فهو في أمر الآخرة التي لم ير ولم يعاين أعمى وأضل سبيلاً .

وقال آخرون : هي راجعة إلى الدنيا يقول من كان في هذه الدنيا أعمى عن قدرة الله وآياته فهو في الآخرة أعمى .

وقال أبو بكر الوراق : من كان في هذه الدنيا أعمى عن حجته فهو في الآخرة أعمى عن جنته .

وقال الحسن : من كان في الدنيا ضالاً كافراً فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ، لأنه لم يتب في الدنيا ففي الآخرة لا تقبل توبته .

واختلف القراء في هذين الحرفين . فأمالها أهل الكوفة وفخمها الآخرون .

وأمّا أبو عمرو فكان يكسر الأول ويفتح الآخر يعني فهو في الآخرة أشد عمي لقوله : ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ هي اختيار أبي عبيدة .

قال الفراء : حدثني بالشام شيخ من أهل البصرة إنه سمع من العرب تقول : ما أسود شعره .

قال الشاعر :

أما الملوك فأنت اليوم الأمم . . . لؤماً وأبيضهم سربال طباخ

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ الآية اختلفوا في سبب نزولها .

فقال سعيد بن جبير : كان النبي صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود فمنعته قريش وقالوا : لاندعك حتّى تلم بآلهتنا فحدث نفسه وقال : ما عليّ أن ألّم بها والله يعلم إني لها كاره بعد أن يدعونني أستلم الحجر فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية .

قتادة : ذكر لنا أن قريشاً خلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة إلى الصباح يكلمونه ويخيرونه ويسودونه ويقارنونه وكان في قولهم أن قالوا : إنك تأتي بشيء لايأتي به أحد من الناس وأنت سيدنا فإبن سيدنا فمازالوا يكلمونه حتّى كاد يقاربهم في بعض مايريدون ثمّ عصمه الله تعالى من ذلك وأنزل هذه الآية .

مجاهد : مدح آلهتهم وذكرها ففرحوا . ابن [جموح] : أتوه وقالوا له : أئت آلهتنا فأمسها فذلك قوله ﴿ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ .

ابن عبّاس : قدم وفد ثقيف على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : نبايعك على أن

تعطينا ثلاث خصال .

قال : ماهن ؟

فقالوا : لا ننحني في الصلاة ولا نكسر أصناماً بأيدينا [وتمتعنا باللات] سنة .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود وأما أن لا تكسروا أصنامكم بأيديكم فذلك لكم وأما الطاعة للات فإني غير ممتعكم بها " .

فهنا قالوا لرسول الله : فإنا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا مالم تعطه غيرنا فإن كرهت ذلك وخشيت أن تقول العرب أعطيتهم مالم تعطنا فقل الله أمرني بذلك ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم ليؤمنوا ، فعرف عمر (رضي الله عنه) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لما سألوه فقال : ما لكم آذيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أحرق الله أكبادكم إن رسول الله لا يدع الأصنام في أرض العرب إما أن تسلموا وإما أن ترجعوا فلا حاجة لنا فيكم .

فأنزل الله تعالى هذه الآية ووعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك .

عطية عنه قالت ثقيف للنبي صلى الله عليه وسلم أجّلنا سنة حتّى نقبض ما تُهدي لآلهتنا فإذا قبضنا التي تُهدى لآلهتنا كسرناها وأسلمنا ، فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤجلهم فأنزل الله تعالى ﴿ وَإِن كَادُواْ ﴾ وقد هموا ﴿ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ ليستزلونك ويصرفونك ﴿ عَنِ الذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ ﴾ لتختلف ﴿ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً ﴾ لو فعلت ما دعوك إليه ﴿ لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ أي قالوك وصافوك ﴿ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ ﴾ على الحق بعوننا ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ ﴾ تميل ﴿ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ ولو فعلت ذلك ﴿ إِذاً لأذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ الممات ﴾ المحتضر أي ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات يعني ضعفّنا لك العذاب في الدنيا والآخرة ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾ ناصراً يمنعك من عذابنا .

قال قتادة : فلما نزلت هذه الآيات ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهم لا تكلّني إلى نفسي طرفة عين " .

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾ ليسخفونك ﴿ مِنَ الأرض لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا ﴾ الآية .

قال الكلبي : " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة حسدت اليهود مقامه بالمدينة وكرهوا قربه منهم فأتوا فقالوا : يا محمّد أنبيٌ أنت ؟ قال : نعم ، قالوا : والله لقد علمت ما هذه بارض الأنبياء وإن أرض الأنبياء الشام ، وكأنى بها إبراهيم و [الأنبياء] : فان كنت نبياً مثلهم فأت الشام وقد علمنا إنما يمنعك الخروج إليها مخافتك الروم وإن الله

سيمنعك بها من الروم إن كنت رسوله وهي الأرض المقدسة وإن الأنبياء لا يكونوا بهذا البلد .

فعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أميال من المدينة وأربعة أميال ، وفي بعض الروايات إلى ذي الحليفة ، حتّى ترتاد ويجتمع عليه أصحابه [وينظر] إليه الناس " فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ ﴾ التي كنت بها وهي أرض المدينة .

وروى شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن الحكم : إن اليهود أتوا نبي الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم إن كنت صادقاً أنك نبي فالحق بالشام فإنها أرض المحشر والنشر وأرض الأنبياء فصدّق رسول الله ما قالوا وقد كان في غزوة تبوك لا يريد بذلك إلاّ الشام فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آية من سورة بني إسرائيل بعدها ختمت السورة ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ ﴾ الآية وأمره بالرجوع إلى المدينة وقال : فيها خيلك وملكك وفيها مبعثك .

قال مجاهد وقتادة : همّ أهل مكة عمداً بإخراج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة ولو

فعلوا ذلك لما توطنوا ولكن الله كفهم عن إخراجه حتّى أمره ولقلما لبثوا مع ذلك بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة حتّى أهلكهم الله يوم بدر .

وهذا التأويل أليق بالآية لأن ماقبلها خبر من أهل مكة ولم يجد لليهود ذكر ولأن هذه السورة مكية .

وقيل : هم الكفار كلهم كادوا أن يستخفوه من أرض العرب بإجتماعهم وتظاهرهم عليه فمنع الله رسوله صلى الله عليه وسلم ولم ينالوا منه ما أملوا من الظفر ولو أخرجوه من أرض العرب لم يميلوا أن يقيموا فيها على كفرهم بل أهلكوا بالعذاب فذلك قوله ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا ﴾ ﴿ وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ ﴾ أي بعدك وهي قراءة أبي عمرو وأهل الحجاز وإختاره أبو عبيد .

وقرأ الباقون : خلافك وإختاره أبو حاتم إعتبارًا بقوله ﴿ فَرِحَ المخلفون بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ الله ﴾ [التوبة : 81] ومعناه أيضاً بعدك .

قال الشاعر :

عفت الديار خلافها فكأنما . . . بسط الشواطب منهن حصيرا

أيّ بعدها .

﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ حتّى تهلكوا ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ أيّ كسنّتنا فيمن أرسلنا قبلك من رسلنا إذا يكذبهم الأُمم أهلكنا هم بالعذاب ولايعذبهم ما دام فيهم بين أظهرهم فإذا خرج نبيهم من بين أظهرهم عذبناهم ﴿ وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ تبديلاً .

﴿ أَقِمِ الصلاة لِدُلُوكِ الشمس ﴾ قال إبراهيم النخعي ومقاتل بن حيان والسدي ويمان وابن زيد : دلوكها غروبها .

قال الشاعر :

هذا مقام قدمي رباح . . . غدوة حتّى هلكت براح

أي غربت الشمس ، وبراح اسم للشمس مثل قطام وجذام ورقاش .

ويروى ، براح بكسر الباء يعني إن الناظر يضع كفه على حاجبه من شعاعها لينظر ما بقى من غبارها ، ويقال ذلك للشمس إذا غاب .

قال ذو الرمة :

مصابيح ليست باللواتي يقودها . . . نجوم لا بالأفلات الدوالك

ودليل هذا التأويل حديث عبد الله بن مسعود إنه كان إذا غرب الشمس صلى المغرب وأفطر إن كان صائماً ويحلف بالله الذي لا إله إلاّ هو أن هذه الساعة لميقات هذه الصلاة

وهي التي قال الله ﴿ أَقِمِ الصلاةَ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ .

وقال ابن عمرة وابن عبّاس وجابر بن عبد الله وأبو العالية وعطاء وقتادة ومجاهد والحسن ومقاتل وجعفر بن محمّد وعبيد بن حجر : دلوكها زوالها ، وبه قال الشافعي (رضي الله عنه) ، يدل عليه حديث أبي مسعود عقبة بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أتاني جبرئيل لدلوك الشمس حين زالت الشمس فصلى بي الظهر " .

وقال أبو برزة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر إذا زالت الشمس ثمّ تلا هذه الآية ﴿ أَقِمِ الصلاةَ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ .

" قال جابر بن عبد الله : دعوت النبي صلى الله عليه وسلم ومن شاء من أصحابه فطعموا عندي ثمّ خرجوا حين زالت الشمس فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وقال : " أخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس " " .

وعلى هذا التأويل يكون الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها ، فدلوك الشمس صلاة الظهر والعصر ، وغسق الليل صلاتا العشاء ، وتصديق هذا التفسير إن جبرئيل (عليه السلام) حين علم رسول الله صلى الله عليه وسلم كيفية الصلاة إنما بدأ بصلاة الظهر .

وروى محمّد بن عمار عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " جاءني جبرئيل صلى الله عليه وسلم فصلى صلاة الظهر حين زاغت الشمس ثمّ جاءني فصلى العصر حين كان ظل كل شيء مثله ، ثمّ صلى بي المغرب حين غربت الشمس ثمّ صلى بي العشاء حين غاب الشفق ثمّ جاءني فصلى بي الصبح حين طلع الفجر ، ثمّ جاءني في الغد فصلى بي الظهر حين كان ظل كلّ شيء مثله ثمّ صلى بي العصر حين كان ظل كلّ شيء مثليه ثمّ صلى بي المغرب حين غربت الشمس ثمّ صلى بي العشاء حين ذهب ثلث الليل ثمّ صلى بي الصبح حين أسفر ثمّ قال : هذه صلاة النبيين من قبلك فالزمهم " .

عطاء بن أبي رياح عن جابر قال : أن جبرئيل أتى النبي صلى الله عليه وسلم يعلمه مواقيت الصلاة فتقدم جبرئيل ورسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه والناس خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى الظهر حين زالت الشمس وآتاه حين كان الظل مثل شخصه فصنع كما صنع فتقدم جبرئيل ورسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه والناس خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى العصر .

ثمّ أتاه حين وجبت فصلى المغرب وقد تقدم جبرئيل ورسول الله خلفه والناس خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى المغرب ثمّ أتاه حين غاب الشفق فتقدم جبرئيل ورسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه والناس خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى العشاء ثمّ أتاه جبرئيل حين انشق الفجر فتقدم جبرئيل ورسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه والناس خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى الغداة ثمّ أتاه اليوم الثاني حين كان ظل الرجل مثل شخصه فصنع مثل ما صنع بالأمس صلى الظهر . ثمّ أتاه حين كان ظل الرجل منّا مثل شخصيه فصنع كما صنع بالأمس فصلى العصر . ثمّ أتاه حين وجبت الشمس فصنع كما صنع بالأمس فصلى المغرب متمنياً ثمّ تمنا ثمّ قمنا فأتاه فصنع كما صنع بالأمس صلى العشاء . ثمّ ابتدأ الفجر وأصبح والنجوم بادية مشتبكة فصنع كما صنع بالأمس فصلى الغداة ثمّ قال : ما بين هاتين الصلاتين وقت .

وعن نافع بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عبّاس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتاني جبرئيل عند باب الكعبة مرتين فصلى الظهر حين كان الفيء مثل الشراك ثمّ صلى العصر حين كان كل شيء بقدر ظله ثمّ صلى المغرب حين أفطر الصائم ثمّ صلى العشاء حين غاب الشفق ثمّ صلى الصبح حين حرم الطعام والشراب على الصائم ثمّ صلى الظهر في المرة الأخيرة حين كان كل شيء بقدر ظله لوقت العصر بالأمس ، ثمّ صلى العصر حين كان ظل شيء مثليه ثمّ صلى المغرب للوقت الأول لم يؤخرها ثمّ صلى العشاء الأخيرة حين

ذهب ثلث الليل ثمّ صلى الصبح حين أسفره ثمّ التفت فقال : يا محمّد هذا وقت الأنبياء من قبلك ، الوقت فيما بين هذين الوقتين " .

﴿ إلى غَسَقِ اليل ﴾ إقباله بظلامه .

قال ابن عبّاس : بدو الليل . قتادة : صلاة المغرب .

مجاهد : غروب الشمس . أبو عبيدة : سواده .

ابن قيس الرقيات :

إن هذا الليل قد غسقا . . . فأشتكيت الهم والأرقا

وقيل : غسق يغسق غسوقاً .

(389/463)

﴿ وَقُرْآنَ الفجر ﴾ أيّ صلاة الفجر فسمى الصلاة قرآنا لأنها لا تجوز إلاّ بقرآن ، وقيل : يعني قرآن الفجر ما يقرأ به في صلاة الفجر .

وإنتصاب القرآن من وجهين : أحد هما : أنه عطف على الصلاة أي أقم قرآن الفجر ، قاله الفراء ، وقال أهل البصرة : على [الاغراء] أي وعليك بقرآن الفجر .

وقال بعضهم : إجتماعه وبيانه وحينئذ يكون مجاز أقم الصلاة لدلوك الشمس بقرآن

الفجر .

﴿ إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً ﴾ يشهد ملائكة الليل وملائكة النهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار ، وفي هذه الآية دليل واضح على تعلق وجوب الصلاة بأول الوقت فإستحباب التغليس بصلاة الفجر .

الزهوي عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح " .

قال : يقول أبو هريرة : إقرأوا إن شئتم (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) .

﴿ وَمِنَ اليل فَتَهَجَّدْ بِهِ ﴾ أي قم بعد نومك وصل .

قال المفسرون : لا يكون التهجد إلاّ بعد النوم يقال : تهجد إذا سهر ، وهجد إذا نام .

وقال بعض أهل اللغة : يقال تهجد إذا نام وتهجد إذا سهر وهو من الاضداد .

روى حميد بن عبد الرحمن بن عوف : عن رجل من الأنصار إنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر وقال : لأنظرنّ كيف يصلي النبي صلى الله عليه وسلم قال : فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمّ إستيقظ فرفع رأسه إلى السماء فتلا أربع آيات من سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف اليل والنهار لآيَاتٍ ﴾ [الآية : 190] ثمّ أهوى بيده إلى القربة وأخذ مسواكاً فأستن به ثمّ توضأ ثمّ صلى ثمّ نام ثمّ

إستيقظ ، فصنع كصنيعه أول مرة ، ويزعمون أنه التهجد الذي أمره الله تعالى .

﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ قال ابن عبّاس : خاصة لك ، مقاتل بن حيان : كرامة وعطاء لك .

ابن عبّاس : فريضتك .

وقال : أُمر النبي صلى الله عليه وسلم بقيام الليل خاصة وكتبت عليه ، ويكون معنى النافلة على هذا القول فريضة فرضها الله عليك فضلاً عن الفرائض التي فرضها الله علينا زيادة .

وقال قتادة : تطوعاً وفضيلة .

وقال بعض العلماء : كانت صلاة الليل فرضها عليه في الابتداء ثمّ رخص له في تركها فصارت نافلة . وقال مجاهد : والنافلة للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة من أجل أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فما عمل من عمل سوى المكتوبة فهو نافلة لك من أجل أنه لا يعمل ذلك كفارة لذنوبهم ، فهي نوافل له وزيادة للناس يعملون ويصلون ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها فليست للناس نوافل .

﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ .

قال أهل التأويل : عسى ولعلّ من الله جزاء لأنه لا يدع أن يفعل لعباده ما أطمعهم فيه من الجزاء على طاعاتهم لأنه ليس من صفته الغرور ، ولو أن رجلاً قال لآخر : اهدني والزمني لعلي أن أنفعك فلزمه ولم ينفعه مع إطماعه فيه ووعده لكان عاراً له وتعالى الله عن ذلك ، وأما المقام المحمود فالمقام الذي يشفع فيه لأُمته يحمده فيه الأولون والآخرون .

عاصم بن أبي النجود عن زيد عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو كنت متخذاً خليلاً لأتخذت ابن أبي قحافة خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله ثمّ قرأ ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ " " .

وعن حذيفة بن اليمان قال : يُجمع الناس في صعيد واحد فلا تكلم نفس فتكون أول من يدعو محمّداً صلى الله عليه وسلم فيقول : لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك والمهدي من هديت وبك وعبدك بين يديك وبك وإليك لا ملجأ ولا منجاً منك إلاّ اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت فذلك قوله تعالى ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ .

قتادة عن مأمون بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " " يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فأراحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم (عليه السلام) فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله عزّ وجلّ بيده وأسجد لك ملائكته وعلّمك أسماء كل شيء فإشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من هذا المكان فيقول لهم لست هناك ، ويذكر ذنبه الذي أصابه فيستحي ربَه من ذلك ولكن أئتوا نوحاً فإنه أول الرسل بعثه الله إلى أهل الأرض ، فيأتون نوحاً فيقول لست هناك ويذكر خطيئته وسؤاله ربه هلاك قومه فيستحي ولكن أئتوا إبراهيم خليل الرحمن فيأتون إبراهيم (عليه السلام) فيقول : لست هناك ولكن أئتوا موسى عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة فيأتون موسى (عليه السلام) فيقول : لست هناك ، ويذكر لهم النفس التي قتل بغير نفس فيستحي من ذلك فيقول أئتوا عيسى عبد الله ورسوله هو كلمة الله وروحه فيأتون عيسى (عليه السلام) فيقول لست هناك ولكن أئتوا محمّداً عبداً غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتونني فأقوم وأمشي بين سماطين من المؤمنين حتّى أستأذن على ربي فيؤذن لي فإذا رأيت ربي خررت ساجداً لربي فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثمّ يقول : إرفعك رأسك ثم يقول : قلْ يسمع وسّل تعط واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ثمّ أشفع فيحدّ لي حداً فأدخلهم الجنة ، ثمّ أعود إليه الثانية فإذا رأيت ربي وقعتَ أو خررتَ ساجداً لربي فيدعني ما شاء

الله أن يدعني ، ثمّ قال : إرفع يا محمّد رأسك قل يسمع وسل تعطه وإشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأحمد بتحميد يعلمنيه ثمّ أشفع فيحدّ لي حداً فأدخلهم الجنة .

(392/463)

ثمّ أعود إليه الثالثة فإذا رأيت ربي وقعتا وخررت ساجداً لربي فيدعني ماشاء الله أن يدعني ، ثمّ يقال إرفع يا محمّد رأسك قل تسمع وسل تعطه وإشفع فشفع فأرفع رأسي فأحمده تحميد يعلمنيه ثمّ أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ثمّ أعود إليه الرابعة ، وأقول يارب ما بقي إلاّ من حبسه القرآن " .

قال أنس بن مالك : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يخرج من النار من قال لا إله إلاّ الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ثمّ يخرج من النار من قال لا إله إلاّ الله وكان في قلبه من الخير مايزن ذرة " .

وروى أبو عاصم محمّد بن أبي أيوب الثقفي عن يزيد بن صهيب قال : كنت قد شغلني رأي من رأى الخوارج وكنت رجلاً شاباً ، قال : فخرجنا في عصابة ذوي عدد يزيد أن يحج ثمّ يخرج على الناس فمررنا على المدينة فإذا جابر بن عبد الله يحدث القوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إلى سارية وإذا هو قد ذكر الجهنميين فقلت له : يا صاحب

رسول الله ما هذا الذي تحدث والله عزّ وجلّ يقول : ﴿ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النار فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ [آل عمران : 192] و ﴿ كُلَّمَا أرادوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [السجدة : 20] .

فقال لي : تقرأ القرآن ؟ قلت : نعم فقال : فهل سمعت مقام محمد المحمود الذي يبعثه الله فيه ؟ قلت : نعم ، قال : فإنه مقام محمّد صلى الله عليه وسلم المحمود الذي يخرج الله به من يخرج من النار .

ثمّ نعت وضع الصراط ومرور الناس عليه قال : وأخاف أن لا أكون حفظت ذلك غير أنه قد زعم أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها ، قال : فيخرجون كأنهم عيدان السماسم فيدخلون نهراً من أنهار الجنة فيغتسلون فيه فيخرجون كأنهم القراطيس . قال : فرجعنا وقلنا أيرون كهذا الشيخ يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله ما خرج منا غير رجل واحد .

الزهري عن علي بن حسين قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " إذا كان يوم القيامة مدّ الأرض مدّ الأديم [بالعكاظي] حتّى لا يكون لبشر من الناس إلاّ موضع قدميه " .

قال النبي صلى الله عليه وسلم " فأكون أنا أول من يدعى وجبرئيل عن يمين الرحمن والله ما رآه قبلها ، وأقول : يا رب إن هذا أخبرني أنك أرسلته إليّ فيقول الله تعالى : صدق ، ثمّ أشفع فأقول يا رب عبادك عبدوك في أطراف الأرض قال : وهو المقام المحمود " .

وروى سفيان عن سلمة بن سهيل عن أبي الزعراء قال : قال عبد الله : يكون أول شافع يوم القيامة روح القدس جبرئيل ثمّ إبراهيم ثمّ موسى ثمّ عيسى ثمّ يقوم نبيكم صلى الله عليه وسلم رابعاً فلا يشفع أحد بعده فيما يشفع فيه وهو المقام المحمود .

سعيد بن عروبة عن قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن بالبراق قال لجبرائيل : والذي بعثك بالحق لا يركبني حتّى يضمن لي الشفاعة " .

عبد الله بن إدريس عن عبد الله عن نافع عن ابن عمرو قال : " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ .

قال : يدنيني فيقعدني معه على العرش " .

ابن فنجويه : أجلسني معه على سريره .

أبو أُسامة عن داود بن يزيد [الأزدي] عن أبيه عن أبي هريرة " عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ قال : " الشفاعة " " .

عاصم عن أبي وائل عن عبد الله قال : إن الله تعالى إتخذ إبراهيم خليلاً وإن صاحبكم خليل الله وأكرم الخلق على الله ثمّ قرأ ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ قال :

يقعده على العرش .

وروى سعيد الجروي عن سيف السدوي عن عبد الله بن سلام قال : إذا كان يوم القيامة يؤتي نبيكم صلى الله عليه وسلم فيقعد بين يدي الرب عزّ وجلّ على الكرسي .

وروى ليث عن مجاهد في قوله عزّ وجلّ ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ قال : يجلسه على العرش .

قال الأستاذ الإمام أبو القاسم الثعلبي : هذا تأويل غير مستحيل لأن الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء قائماً بذاته ثمّ خلق الأشياء من غير حاجة له إليها ، بل إظهاراً لقدرته وحكمته ليعرف وجوده وحده وكمال علمه وقدرته بظهور أفعاله المتقنة بالحكمة ، وخلق لنفسه عرشاً إستوى عليه كما يشاء من غير أن صار له مما شاء أو كان له العرش مكان بل هو الآن على الصفة التي كان عليها قبل أن خلق المكان والزمان ، فعلى هذا القول سواء أقعد محمداً صلى الله عليه وسلم على العرش أو على الأرض لأن إستواء الله على العرش ليس بمعنى الاستقبال والزوال أو تحول الأحوال من القيام والقعود أو الحال الذي يشغل العرش ، بل هو مستو على عرشه كما أخبر عن نفسه بلا كيف ، وليس إقعاده محمّداً صلى

الله عليه وسلم على العرش موجباً له صفة الربوبية أو مخرجاً إياه من صفة العبودية بل هو رفع لمحله وإظهار لشرفه وتفضيل له على غيره من خلقه ، وأما قولهم : في الأخبار معه ، فهو شابه قوله تعالى ﴿ إِنَّ الذين عِندَ رَبِّكَ ﴾ [الأعراف : 206] و ﴿ رَبِّ ابن لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة ﴾ [التحريم : 11] ونحوهما من الآيات ، كل ذلك راجع إلى الرتبة والمنزلة لا إلى المكان والجهة والله أعلم .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ قرأه العامّة : بضم الميمين على معنى الإدخال والاخراج .

وقرأ الحسن : بفتحهما على معنى الدخول والخروج .

واختلف المفسرون في تأويلها .

(395/463)

فقال ابن عبّاس والحسن وقتادة ﴿ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ المدينة ﴿ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ من مكة نزلت حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة فروى أبو حمزة الثمالي عن جعفر بن محمد عن محمّد بن المنكدر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

"حين دخل الغار ﴿ رَبِّ أَدْخِلْنِي ﴾ يعني الغار ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي ﴾ من الغار ﴿ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ إلى المدينة".

وقال الضحاك: ﴿ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ من مكة آمناً من المشركين ﴿ أَدْخِلْنِي ﴾ مكة ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ ظاهراً عليها بالفتح.

عطية عن ابن عبّاس ﴿ أَدْخِلْنِي ﴾ القبر ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ عند الموت ﴿ وَأَخْرِجْنِي ﴾ من القبر ﴿ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ عند البعث.

الكلبي ﴿ أَدْخِلْنِي ﴾ المدينة ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ حين أدخلها بعد أن قصد الشام ﴿ وَأَخْرِجْنِي ﴾ منها إلى مكة افتحها لي.

مجاهد ﴿ أَدْخِلْنِي ﴾ في أمرك الذي أدخلتني به من النبوة ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي ﴾ منه ﴿ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾.

قتادة عن الحسن: ﴿ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ في طاعتك ﴿ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ ﴾ بالصدق أي سالماً غير مقصر فيها.

وقيل: معناه ﴿ أَدْخِلْنِي ﴾ حيث ما أدخلتني بالصدق ﴿ وَأَخْرِجْنِي ﴾ بالصدق أي لتجعلني ممن أدخل بوجه وأخرج بوجه فإن ذا الوجهين لا يكون أميناً عند الله.

﴿ واجعل لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً ﴾ مجاهد: حجة بينة.

قال الحسن: يعني ملكاً قوياً ينصرني به على من والاني وعزّاً ظاهراً أُقيم به دينك، قال:

فوعده الله تعالى لينزعن ملك فارس والروم وعزتهما فيجعله له .

قتادة : إن نبي الله صلى الله عليه وسلم علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلاّ بسلطان فسأل سلطاناً نصيراً بكتاب الله وحدوده ، وفرائضه وإقامة دينه وإن السلطان رحمة من الله جعلها من أظهر عباده لايقدر بعضهم على بعض وأكل شديدهم ضعيفهم .

وقيل : هو فتح مكة .

وروى موسى بن إسماعيل عن حماد عن الكلبي في قوله ﴿ واجعل لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً نَّصِيرا ﴾ قال : سلطانه النصير .

عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية : إستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل مكة [قال له :] إنطلق فقد إستعملتك على أهل الله يعني مكة فكان شديداً على [المنافقين] ليّناً للمؤمنين .

قال : لا والله لا أعلم متخلفاً ينطلق عن الصلاة في جماعة إلاّ ضربت عنقه فإنه لا يتخلف عنها إلاّ منافق .

فقال أهل مكة : يا رسول الله تستعمل على آل الله عتاب بن أسيد إعرابياً حافياً ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني رأيت فيما يرى النائم ، كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقه الباب ففلقها لا شديداً حتّى فتح له فدخلها فأعز الله به الاسلام لنصرته المؤمنين على من يريد ظلمهم فذلك السلطان النصير " .

﴿ وَقُلْ جَآءَ الحق ﴾ يعني أتى ﴿ وَزَهَقَ الباطل ﴾ أي ذهب الشيطان وهلكه ، قاله قتادة .

وقال السدي : الحقّ الاسلام ، والباطل الشرك . وقيل : الحق دين الرحمن والباطل الأوثان .

وقال ابن جريج : الحق الجهاد والقتال .

﴿ إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقاً ﴾ ذاهباً .

يقال : زهقت نفسه إذا خرجت وزهق السهم إذا جاوز الفرض فإستمر على جهته .

قال ابن مسعود وابن عبّاس : لما إفتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وجد حول البيت ثلثمائة وستين صنماً ، صنم كل قوم بحيالهم ومعه مخصرة فجعل يأتي الصنم فيطعن في عينه أو في بطنه ثمّ يقول ﴿ جَآءَ الحق وَزَهَقَ الباطل إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقاً ﴾ بجعل الصنم ينكب لوجهه وجعل أهل مكة يتعجبون ، ويقولون فيما بينهم ما رأينا رجلاً أسحر من محمّد .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآنِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بيان من الضلالة والجهالة بيّن للمؤمن ما يختلف فيه ويشكل عليه، فيشفي به من الشبهة ويهدي به من الحيرة وإذا فعل ذلك رحمه الله، فهو شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها كما يشفي المريض إذا زالت العلل عنه.

قتادة: إذا سمعه المؤمن إنتفع به وحفظه ووعاه.

﴿ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إَلاَّ خَسَاراً ﴾ لأنه لاينتفع به ولا يحفظهُ ولا يعيه.

وقال همام: سمعت قتادة يقول: ما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان ثمّ قرأ هذه الآية.

وروت ساكنة بنت الجرود قالت: سمعت رجاء الغنوي يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَن لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله".

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ ﴾ عن ذكرنا ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ وتباعدنا بنفسه.

وقال عطاء: تعظم وتكبر.

واختلف القراء في هذا الحديث، فقرأ أبو عمرو وعاصم ونافع وحمزة في بعض الروايات عنهم: بفتح النون وكسر الهمزة على الامالة.

وقرأ الكسائي وخلف وحمزة في سائر الروايات: بكسرهما، اتبعوا الكسرة.

وقرأ أكثرهم : بفتحهما على التفخيم وهي اللغة العالية .

وقرأ أبو جعفر وعامر : بالنون ولها وجهان : أحدهما : مقلوبة من نأي كما يقال رأى ورأ ،

والثاني : إنها من النوء وهو النهوض والقيام ويقال أيضاً للوقوع الجلوس نوء وهو من

الاضداد .

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر ﴾ الشدة والضر ﴿ كَانَ يَئُوساً ﴾ قنوطاً ﴿ قُلْ ﴾ يا محمّد ﴿ كُلٌّ

يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ ﴾ .

قال ابن عبّاس : على ناحيته . مجاهد : عى حدته .

الحسن وقتادة : على نيته . ابن زيد : على دينه .

مقاتل : على [جدلته] . الفراء : على طريقته التي جبل عليها .

أبو عبيدة والقتيبي : على خليقته وطبيعته .

وهو من الشكل ، يقال : لست على شكلي وشاكلتي ، وقيل : على سبيله الذي إختاره

لنفسه ، وقيل : على اشتباهه من حولهم ، أشكل عليّ الأمر أي إشتبه ، وكل هذه الأقاويل

متقاربة .

يقول العرب : طريق ذو شواكل إذا ينشعب الطرق [منه] ، ومجاز الآية : كل يعمل ما يشبهه ، كما قيل في المثل السائر : كل إمرىء يشبه فعله ما فعل المروء فهو أهله . ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهدى سَبِيلاً ﴾ .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح ﴾

الاعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو متكيء على عسيب فمرَّ بقوم من اليهود ، فقال بعضهم : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لاتسألوه ، فقام متكأ على العسيب ، قال عبد الله ، وأنا خلفه فظنيت أنه يوحي إليه فقال ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

فقال بعضهم لبعض : قلنا لكم لا تسألوه ، وفي غير الحديث عن عبد الله ، قالوا : فكذلك نجد مثله إن الروح من أمر الله تعالى .

وقال ابن عبّاس : قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا ما الروح وكيف يعذب الروح في الجسد ولم يكن نزل فيهم شيء ؟ فلم يجبهم فأتاه جبرئيل (عليه السلام) بهذه الآية .

ويروى أن اليهود إجتمعوا فقالوا لقريش حين سألوهم عن شأن محمّد وحاله سألوا محمداً عن الروح . وعن فتية فقدوا في الزمان الأوّل ، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها ، فإن

أجاب في ذلك كله فهو بنبي وإن لم يجب من ذلك كله فليس بنبي ، وإن أجاب في بعض ذلك وأمسك عن البعض فهو نبي فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عنها فأنزل الله عزّ وجلّ فيما سألوه عن الفتية قوله ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكهف والرقيم ﴾ [الكهف : 9] إلى آخر القصة .

وأنزل عن الجواب الذي بلغ شرق الأرض وغربها ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين ﴾ [الكهف : 83] إلى آخر القصة .

وأنزل في الروح قوله ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح ﴾ الآية .

واختلفوا في هذا الروح المسؤل عنه ما هو : فقال الحسن وقتادة : هو جبرئيل .

قال قتادة : وكان ابن عبّاس يكتمه .

وروى أبو الميسرة ممن حدثه عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أنه قال : في قوله ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح ﴾ الآية ، قال : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه لكل وجه منها سبعون ألف لسان لكل لسان منها سبعون ألف لغة ، يسبح الله عزّ وجلّ بتلك اللغات كلها ، يخلق من كل تسبيحة ملك يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة .

ابن عبّاس : الروح خلق من خلق الله صورهم على صور بني آدم ، وما نزل من السماء ملك إلاّ ومعه واحد من الروح .

أبو صالح : الروح كهيئة الأنسان وليسوا بناس .

مجاهد : الروح على صورة بني آدم لهم أيد وأرجل ورؤوس يأكلون الطعام وليسوا بملائكة .

سعيد بن جبير : لم يخلق الله خلقاً أعظم من الروح غير العرش ولو شاء أن بلغ السماوات السبع والأرضين السبع ومن فيها بلقمة واحدة لفعل صورة ، خلقه على صورة الملائكة وصورة وجهه على صورة وجه الآدميين ، فيقوم يوم القيامة وهو ممن يشفع لأهل التوحيد لولا أن سندس الملائكة ستراً من نور لاحترق أهل السماوات من نوره .

وقال قوم : هو الروح المركب في الخلق الذي يفقده [فأوهم وبوجوده مقاديم] .

وقال بعضهم : أراد بالروح القرآن وذلك أن المشركين قالوا : يا محمّد من أتاك بهذا القرآن ، فأنزل الله تعالى بهذه الآية وبيّن أنه من عنده ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعني القرآن ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ ناصراً ينصرك ويرده عليك .

وقال الحسن : وكيلاً ناصراً يمنعك منا إذا أردناك .

﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ يعني لكن لا يشاء ربك رحمة من ذلك ، ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ﴾ .

هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو : " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وهو معصوب الرأس من وجع فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال : " أيها الناس ما هذه الكتب التي يكتبون الكتاب غير كتاب الله يوشك أن يغضب الله لكتابه فلا يدع ورقاً إلاّ قليلاً إلاّ أخذ منه " .

قالوا : يا رسول الله فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذ ؟ قال : " من أراد الله به خيراً أبقى في قلبه لا إله إلاّ الله " " .

وروى شداد بن معقل عن عبد الله بن مسعود قال : إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون الصلاة والمصلين قوم لا دين لهم ، وإن هذا القرآن تصبحون يوماً وما معكم منه شيء ، فقال رجل : كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة .

قال : يسري به في ليلة فيذهب بما في المصاحب ما في القلوب [فتصبح الناس كالبهائم] ثمّ قرأ عبد الله ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ الآية .

وروى موسى بن عبيدة عن صفوان بن سليم عن ناجية بن عبد الله بن عتبة عن أبيه عن عبد الله قال : إكثروا الطواف بالبيت قبل أن يرفع وينسى الناس مكانه وأكثروا تلاوة القرآن قبل أن يرفع ؟ قالوا : هذه المصاحف يرفع فكيف بما في صدور الرجال .

قال : يسري عليه ليلاً يصبحون منه فقراء [وينسون] قول لا إله إلاّ الله فيتبعون في قول أهل الجاهلية وإشعارهم فذلك حين يقع عليهم القول .

وعن عبد الله بن عمرو قال : لا يقوم الساعة حتّى يرفع القرآن من حيث نزل له دوي كدوي النحل فيقول الله تعالى : ما بالك ، فيقول : منك خرجت وإليك أعود اُتلى ولا يعمل فيَّ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 114.132 ﴾

(401/463)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

قيل في تكرمة ابن آدم : كرّمه الله بالعقل ، والنطق ، والتمييز ، والخط ، والصورة الحسنة والقامة المعتدلة ، وتدبير أمر المعاش والمعاد . وقيل بتسليطهم على ما في الأرض وتسخيره لهم .

وقيل : كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم . وعن الرشيد : أنه أحضر طعاما فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف ، فقال له : جاء في تفسير جدك ابن عباس قوله تعالى وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ جعلنا لهم أصابع يأكلون بها ، فأحضرت الملاعق فردّها وأكل بأصابعه عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ

خَلَقْنا هو ما سوى الملائكة ، «1» وحسب بنى آدم تفضيلا أن ترفع عليهم الملائكة وهم هم

---

(1) . قال محمود : «المراد فضلناهم على ما سوى الملائكة . . . الخ» قال أحمد : وقد بلغ إلى حد من السفه يوجب الحد ، ولسنا لمساجلته إلا من حيث العلم ، لا من حيث السفه . والقدر الذي تختص به هذه الآية أن حمل كثير على الجميع غير مستبعد ولا مستنكر . ألا ترى أنه ورد حمل القليل على العدم . والزمخشري يختار ذلك في قوله تعالى فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ وأشباهه كثير . وقد لمح الشاعر ذلك في قوله .

قليل بها الأصوات إلا بغامها

أى لا أصوات بها ، ولنا أن نبقيه على ما هو عليه ، ونقول : إن المخلوق قسمان : بنو آدم أحدهما وغيرهم من جميع المخلوقين القسم الآخر ، ولا شك أن غيرهم أكثر منهم وإن لم يكونوا أكثر منهم كثيرا ، فمعنى قوله وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا أى على غيرهم من جميع المخلوقين ، وتلك الأغيار كثير بلا مراء ، وذلك مرادف لقولك : وفضلناهم على جميع من عداهم ممن خلقنا ، فظاهر الآية إذا مع الأشعرية الذين سماهم مجبرة ، وتمشدق في سبهم وشقشق العبارات في ثلهم ، وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، والله ولى التوفيق والتسديد . [. . . . .]

ومنزلتهم عند اللّه منزلتهم. والعجب من المجبرة كيف عكسوا «1» في كل شيء وكابروا، حتى جسرتهم عادة المكابرة على العظيمة التي هي تفضيل الإنسان على الملك، وذلك بعد ما سمعوا تفخيم اللّه أمرهم وتكثيره مع التعظيم ذكرهم، وعلموا أين أسكنهم، وأنى قربهم، وكيف نزلهم من أنبيائه منزلة أنبيائه من أممهم، ثم جرّهم فرط التعصب عليهم إلى أن لفقوا أقوالا وأخبارا منها: قالت الملائكة «2»: ربنا إنك أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون منها ويتمتعون ولم تعطنا ذلك، فأعطناه في الآخرة. فقال: وعزتي وجلالي، لا أجعل ذرّية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان «3». ورووا عن أبى هريرة أنه قال: لمؤمن «4» أكرم على اللّه من الملائكة الذين عنده. ومن ارتكابهم أنهم فسروا كَثِيرٍ بمعنى «جميع» في هذه الآية، وخذلوا حتى سلبوا الذوق فلم يحسوا ببشاعة قولهم: وفضلناهم على جميع من خلقنا، على أن معنى قولهم «على

---

(1). قوله «والعجب من المجبرة كيف عكسوا» يعنى أهل السنة. وقوله «تفضيل الإنسان» يعنون المؤمن.

ويدل لمذهبهم إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ وأما الذين كفروا فهم

شر البرية ، ودعوى العكس من فرط التعصب للمعتزلة . (ع)

(2) . قوله «قالت الملائكة ربنا إنك أعطيت بنى آدم الدنيا» صدره كما في الخازن : لما خلق اللّه آدم وذريته قالت الملائكة ، وقوله «خلقت بيدي» في الخازن : ونفخت فيه من روحي . (ع)

(3) . أخرجه الطبراني في الأوسط من طريق محمد بن ماهان حدثنا طلحة بن زيد عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن عبد اللّه بن عمر عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال «إن الملائكة قالت رب أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون : ونحن نسبح بحمدك لا نأكل ولا نشرب ولا نلهو . فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة . قال : لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له . كن فكان» قال : لم يروه عن صفوان إلا طلحة وأبو غسان تفرد به طلحة محمد بن ماهان . وعن أبى غسان حجاج الأعور أخرج طريق حجاج في المعجم الكبير ورجاله ثقات . وله شاهد عند عبد الرزاق في تفسيره عن معمر عن زيد بن أسلم قال قالت الملائكة فذكر نحوه موقوفا عليه . وقال الدارقطني في العلل : روى عبد المجيد بن أبى داود عن معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عمر . فذكر نحوه قال : ورواه شريح بن يونس عن عبد المجيد موقوفا . وهو أصح . وله شاهد آخر أخرجه الطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الأسماء والصفات من رواية عبد ربه بن صالح عن عروة بن رويح أنه سمعه يحدث عن جابر قال قال رسول اللّه صلى

اللّه عليه وسلم «لما خلق اللّه آدم وذريته قالت الملائكة يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال تعالى لا أجعل من خلقت بيدي كمن قلت له: كن فكان» ومنها ما رواه عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أنه قال «لمؤمن أكرم على اللّه من الملائكة الذين عنده» البيهقي في الشعب من رواية حماد بن سلمة عن أبى المهزم عن أبى هريرة موقوفا. وأخرجه ابن ماجة من هذه الطريق موقوفا. وأبو المهزم متروك: وله شاهد أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من رواية عبيد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «ما شيء أكرم على اللّه يوم القيامة من بنى آدم. قيل:

ولا الملائكة. قال: ولا الملائكة. الملائكة مجبورون كالشمس والقمر» قال البيهقي: تفرد به عبيد اللّه بن تمام يروى أحاديث معاوية وهو ضعيف.

(4). قوله «قال لمؤمن أكرم على من الملائكة» في الخازن: المؤمن. (ع)

جميع ممن خلقنا» أشجى لحلوقهم وأقذى لعيونهم، ولكنهم لا يشعرون. فانظر إلى تمحلهم وتشبثهم بالتأويلات البعيدة في عداوة الملأ الأعلى، كأنّ جبريل عليه السلام غاظهم حين

أهلك مدائن قوم لوط، فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم «1»

[سورة الإسراء (17) : آية 71]

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (71)

قرئ: يدعو، بالياء والنون. ويدعى كل أناس، على البناء للمفعول. وقرأ الحسن: يدعوا كل أناس، على قلب الألف واوا في لغة من يقول: افعوا. والظرف نصب بإضمار اذكر. ويجوز أن يقال: إنها علامة الجمع، كما في وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا والرفع مقدّر كما في:

يدعى، ولم يؤت بالنون، قلة مبالاة بها، لأنها غير ضمير، ليست إلا علامة بِإِمامِهِمْ بمن ائتموا به من نبىّ أو مقدّم في الدين، أو كتاب، أو دين «2»، فيقال: يا أتباع فلان، يا أهل دين كذا وكتاب كذا. وقيل: بكتاب أعمالهم، فيقال: يا أصحاب كتاب الخير، ويا أصحاب كتاب الشرّ. وفي قراءة الحسن: بكتابهم. ومن بدع التفاسير: أن الإمام جمع أمّ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم، وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الاباء رعاية حق عيسى عليه السلام، وإظهار شرف الحسن والحسين، وأن لا يفتضح أولاد الزنا. وليت شعري أيهما أبدع؟ أصحة لفظه أم بهاء حكمته؟ فَمَنْ أُوتِيَ من هؤلاء المدعوّين كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ قيل أولئك، لأن من أوتى في معنى الجمع.

فإن قلت : لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم ؟ كأن أصحاب الشمال لا يقرؤن كتابهم . قلت :

بلى ، ولكن إذا اطلعوا على ما في كتابهم ، أخذهم ما يأخذ المطالب بالنداء على جناياته ، والاعتراف بمساويه ، أما التنكيل به والانتقام منه ، من الحياء والخجل والانخزال ، وحبسة اللسان ، والتتعتع ، والعجز عن إقامة حروف الكلام ، والذهاب عن تسوية القول ، فكأن قراءتهم كلا قراءة . وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك ، لا جرم أنهم يقرؤن كتابهم أحسن قراءة وأبينها ، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارئ لأهل المحشر : هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ

---

(1) . قوله «فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم» في الصحاح «السخيمة» الضغينة والموجدة في النفس . (ع)

(2) . قال محمود : «بإمامهم معناه بمن ائتموا به من نبى أو كتاب أو دين . . . الخ» قال أحمد : ولقد استبدع بدعا لفظا ومعنى ، فان جمع الأم المعروف أمهات ، أما رعاية عيسى عليه السلام بذكر أمهات الخلائق ليذكر بأمه ، فيستدعى أن خلق عيسى من غير أب غميزة في منصبه ، وذلك عكس الحقيقة ، فان خلقه من غير أب كان آية له ، وشرفا في حقه ، والله أعلم .

وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء، كقوله وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً، فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً.

[سورة الإسراء (17) : آية 72]

وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (72)

معناه: ومن كان في الدنيا أعمى، فهو في الآخرة أعمى كذلك وَأَضَلُّ سَبِيلًا من الأعمى. والأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته، لمن لا يهتدى إلى طريق النجاة: أما في الدنيا فلفقد النظر. وأما في الآخرة، فلأنه لا ينفعه الاهتداء إليه، وقد جوزوا أن يكون الثاني بمعنى التفضيل «1». ومن ثم قرأ أبو عمرو الأوّل ممالا، والثاني مفخما «2»، لأن أفعل التفضيل تمامه بمن، فكانت ألفه في حكم الواقعة في وسط الكلام «3»، كقولك: أعمالكم وأما الأوّل فلم يتعلق به شيء، فكانت ألفه واقعة في الطرف معرضة للإمالة.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 73 إلى 75]

وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73) وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74) إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ

وَضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً (75)

روى أنّ ثقيفا قالت للنبي صلى اللّه عليه وسلم : لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب : لا نعشر ، ولا نحشر ، ولا نجبى «4» في صلاتنا ، وكل ربا لنا فهو لنا ، وكل ربا علينا فهو موضوع عنا ، وأن تمتعنا باللات سنة ، ولا نكسرها بأيدينا عند رأس الحول ، وأن تمنع من قصد وادينا وجّ فعضد شجره ، فإذا سألتك العرب : لم فعلت ذلك؟ فقل : إن اللّه أمرنى

---

(1) . عاد كلامه . قال : «و قد جوزوا أن يكون الثاني بمعنى التفضيل . . . الخ» قال أحمد : أى لأنه من عمى القلب لا من عمي البصر ، فجاز أن ينبنى منه أفعل .

(2) . عاد كلامه . قال : «و من ثم أمال أبو عمرو الأولى وفخم الثانية . . . الخ» قال أحمد : يحتمل أن تكون هذه الآية قسيمة الأولى ، أى : فمن أوتى كتابه بيمينه فهو الذي يبصره ويقرؤه ، ومن كان في الدنيا أعمى غير مبصر في نفسه ولا ناظر في معاده ، فهو في الآخرة كذلك غير مبصر في كتابه ، بل أعمى عنه أو أشد عمى مما كان في الدنيا على اختلاف التأويلين ، واللّه أعلم .

(3) . قوله «الواقعة في وسط الكلام» لعله الكلمة ، كعبارة النسفي . (ع)

(4) . قوله «لا نعشر ولا نحشر ولا نجبى» في الصحاح «التجبية» أن يقوم الإنسان قيام الراكع . وقال أبو عبيدة : تكون في حالين ، أحدهما : أن يضع يديه على ركبتيه ، والآخر

ينكب على وجهه باركا وهو السجود ، وفيه «وجّ» بلد الطائف : وفيه أيضا : عضدت الشجر ، أى قطعته . (ع)

(405/463)

به ، وجاءوا بكتابهم فكتب : بسم اللّه الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد رسول اللّه لثقيف :

لا يعشرون ولا يحشرون ، فقالوا : ولا يجبون . فسكت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثم قالوا للكاتب : اكتب : ولا يجبون ، والكاتب ينظر إلى رسول اللّه ، فقام عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فسل سيفه وقال : أسعرتم قلب نبينا يا معشر ثقيف أسعر اللّه قلوبكم نارا ، فقالوا : لسنا نكلم إياك ، إنما نكلم محمدا «1» . فنزلت . وروى أنّ قريشا قالوا له : اجعل آية رحمة آية عذاب ، وآية عذاب آية رحمة ، حتى نؤمن بك . فنزلت وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ إن مخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية . والمعنى : أن الشأن قاربوا أن يفتنوك أى يخدعوك فاتنين عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا لتقول علينا ما لم نقل ، يعنى ما أرادوه عليه من تبديل الوعد وعيدا والوعيد وعدا ، وما اقترحته ثقيف من أن يضيف إلى اللّه ما لم ينزله عليه وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ

أى ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك خَلِيلًا ولكنت لهم وليا وخرجت من ولايتى وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ ولولا تثبيتنا لك وعصمتنا لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ لقاربت أن تميل إلى خدعهم ومكرهم ، وهذا تهييج من اللّه له وفضل تثبيت ، وفي ذلك لطف للمؤمنين إذاً لو قاربت تركن اليهم أدنى ركنة لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ أي لأذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين. فإن قلت : كيف حقيقة هذا الكلام؟ قلت : أصله لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات ، لأن العذاب عذابان : عذاب في الممات وهو عذاب القبر ، وعذاب في حياة الآخرة وهو عذاب النار . والضعف يوصف به ، نحو قوله فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ بمعنى مضاعفا ، فكان أصل الكلام : لأذقناك عذابا ضعفا في الحياة ، وعذابا ضعفا في الممات «2» . ثم حذف الموصوف

---

(1) . لم أجده . وذكره الثعلبي عن ابن عباس من غير سند .

(2) . قال محمود : «المراد ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات . . . الخ» قال أحمد : أما تقليل الكيدودة فالذي ينبغي أن يحمل عليه كونه الواقع في علم اللّه تعالى ، لأن اللّه عز وجل يعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فعلم تعالى أن الركون الذي كاد يحصل منه عليه السلام وإن كان ما حصل أمر قليل وخطب يسير ، فذلك إخبار من اللّه تعالى عن الواقع في علمه تقديرا ، فلا يليق أن يحمل على المبالغة والتنبيه . فان ذلك لا يكون في الاخبار .

ألا ترى أنه لو كان الواقع كيدودة ركون كثير ، لكان تقليله خلفا في الخبر ، ولا ينكر أن الذنب يعظم بحسب فاعله على ما ورد : حسنات الأبرار سيئات المقربين . وأما نقل الزمخشري عن مشايخه استعظام نسبة الفواحش والقبائح إلى اللّه عز وجل ، فلقد استعظموا عظيما حق على كل مسلم أن يستفظعه ، ولكنهم جهلوا باعتقاد القبح وصفا ذاتيا للقبيح ، فلزمهم على ذلك أن كل فعل استقبح من العبد استقبح من اللّه تعالى ، وهم غالطون في ذلك ، فمعنى كون الفعل قبحا أن اللّه تعالى نهى عنه عبده ، وإن كان للّه تعالى أن يفعله ، وهو حسن بالنسبة إليه لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ألا ترى أن الملك يصح منه أن يستقبح من عبده أن يجلس على كرسي الملك ، ونهاه عن ذلك ، ولا يستقبح ذلك من نفسه ، بل هو منه حسن جميل . ولقد كان لمشايخه شغل باستعظام ما لزمهم من الاشراك ، عن استعظام غيره مما هو توحيد محض وإيمان صرف ، ولكنهم زين لهم سوء اعتقادهم فرأوه حسنا ، واللّه الموفق .

وأقيمت الصفة مقامه وهو الضعف . ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف فقيل : ضعف الحياة وضعف الممات ، كما لو قيل : لأذقناك أليم الحياة وأليم الممات . ويجوز أن يراد

بضعف الحياة :

عذاب الحياة الدنيا ، وبضعف الممات : ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار .

والمعنى :

لضاعفنا لك العذاب المعجل للعصاة في الحياة الدنيا ، وما نؤخره لما بعد الموت . وفي ذكر الكيدودة وتقليلها ، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين - دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته ، ومن ثم استعظم مشايخ العدل والتوحيد «1» رضوان اللّه عليهم نسبة المجبرة القبائح إلى اللّه - تعالى عن ذلك علوا كبيرا - وفيه دليل على أن أدنى مداهنة للغواة مضادة للّه وخروج عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله .

فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها ، فهي جديرة بالتدبر ، وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين اللّه . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنها لما نزلت كان يقول : «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين» «2»

[سورة الإسراء (17) : الآيات 76 إلى 77]

وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (76)

سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً (77)

وَإِنْ كادُوا وإن كاد أهل مكة لَيَسْتَفِزُّونَكَ ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم مِنَ الْأَرْضِ من

أرض مكة وَإِذًا لا يَلْبَثُونَ لا يبقون بعد إخراجك إِلَّا زمانا قَلِيلًا فإن اللّه مهلكهم وكان كما قال، فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجه بقليل. وقيل: معناه ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم. ولم يخرجوه، بل هاجر بأمر ربه. وقيل: من أرض العرب. وقيل: من أرض المدينة، وذلك أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما هاجر حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم، فاجتمعوا إليه وقالوا: يا أبا القاسم، إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام وهي بلاد مقدّسة وكانت مهاجر إبراهيم، فلو خرجت إلى الشام لآمنا بك واتبعناك، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم، فإن كنت رسول اللّه فاللّه مانعك منهم، فعسكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على أميال من المدينة وقيل بذي الحليفة، حتى يجتمع إليه

---

(1). قوله «ومن ثم استعظم مشايخ العدل» يعنى المعتزلة. ويريد بالمجبرة: أهل السنة، حيث قالوا: إن الخير والشر كلاهما من عند اللّه بخلقه وإرادته، ولو كان من فعل العبد ظاهرا. (ع)

(2). لم أجده، وذكره الثعلبي عن قتادة مرسلا [.....]

أصحابه ويراه الناس عازما على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس في دين «1» اللّه، فنزلت، فرجع. وقرئ: لا يلبثون. وفي قراءة أبىّ: لا يلبثوا على إعمال «إذا». فإن قلت:

ما وجه القراءتين؟ قلت: أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل، وهو مرفوع لوقوعه خبر كاد، والفعل في خبر كاد واقع موقع الاسم. وأما قراءة أبىّ ففيها الجملة برأسها التي هي إذا لا يلبثوا، عطف على جملة قوله وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ. وقرئ: خلافك «2». قال:

عفت الدّيار خلافهم فكأنّما بسط الشّواطب بينهنّ حصيرا «3»

أى بعدهم سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا يعنى أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم، فسنة اللّه أن يهلكهم، ونصبت نصب المصدر المؤكد، أى: سن اللّه ذلك سنة.

[سورة الإسراء (17): الآيات 78 إلى 79]

أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (79)

دلكت الشمس: غربت. وقيل: زالت. وروى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم «4»: أتانى جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت الشمس، فصلى بى الظهر. واشتقاقه من الدلك، لأن الإنسان يدلك عينه عند النظر إليها، فإن كان الدلوك الزوال فالآية جامعة

للصلوات الخمس ، وإن كان الغروب فقد خرجت منها الظهر والعصر . والغسق : الظلمة ، وهو وقت صلاة العشاء وَقُرْآنَ الْفَجْرِ صلاة الفجر ، سميت قرآنا وهو القراءة ، لأنها ركن ، كما سميت ركوعا وسجودا

---

(1) . لم أجده . وذكره السهيلي في الروض عن عبد المجيد بن بهرام بن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم «أن اليهود أتوا النبي صلى اللّه عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ، إن كنت صادقا أنك نبى فالحق بالشام - فذكر نحوه ، لكن قال : فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام . فلما بلغ تبوك أنزل اللّه تعالى - فذكره - وزاد : وأمره بالرجوع «و قال : فيها محياك ومماتك ومنها تبعث» .

(2) . قوله «و قرئ خلافك» كانت القراءة التي سبق تفسيرها : خلفك . (ع)

(3) . عفت : درست وهلكت ، خلافهم : أى بعدهم . والشواطب : النساء يشققن شطب النخل : أى سعفه الأخضر ، يعملنه حصيرا : بصف ديارهم بعدهم بدروسها وكثرة قمامتها لعدم كنسها .

(4) . أخرجه البيهقي من طريق أيوب بن عتبة عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عروة عن ابن مسعود قال «جاء جبريل إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم حين دلكت الشمس - يعنى حين زالت - فقال : قم فصل : فقام فصلى الظهر» قال إسحاق في مسنده : حدثنا بشر بن عمر حدثنا سليمان بن بلال حدثنا يحيى بن سعيد حدثني أبو بكر بن

حزم عن ابن مسعود قال جاء جبريل إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال له : قم فصل . وذلك لدلوك الشمس حين مالت . فقام فصلى الظهر أربعا ومن هذا الوجه أخرجه ابن مردويه . وهذا منقطع .

(408/463)

وقنوتا . وهي حجة على ابن علية والأصم في زعمهما أن القراءة ليست بركن مَشْهُوداً يشهده ملائكة الليل والنهار ، ينزل هؤلاء ، ويصعد هؤلاء ، فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار . أو يشهده الكثير من المصلين في العادة . أو من حقه أن يكون مشهوداً بالجماعة الكثيرة . ويجوز أن يكون وَقُرْآنَ الْفَجْرِ حثا على طول القراءة في صلاة الفجر ، لكونها مكثورا عليها ، ليسمع الناس القرآن فيكثر الثواب ، ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة وَمِنَ اللَّيْلِ وعليك بعض الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ والتهجد ترك الهجود للصلاة ، ونحوه التأثم والتحرّج . ويقال أيضا في النوم : تهجد نافِلَةً لَكَ عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس ، وضع نافلة موضع تهجدا ، لأن التهجد عبادة زائدة فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد . والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة فريضة عليك خاصة دون غيرك ، لأنه تطوع لهم مَقاماً مَحْمُوداً نصب على الظرف ، أى : عسى أن

يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاما محمودا . أو ضمن يبعثك معنى يقيمك . ويجوز أن يكون حالا بمعنى أن يبعثك ذا مقام محمود . ومعنى المقام المحمود : المقام الذي يحمده القائم فيه ، وكل من رآه وعرفه وهو مطلق في كل ما يجب الحمد من أنواع الكرامات . وقيل : المراد الشفاعة ، وهي نوع واحد مما يتناوله . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : مقام يحمدك فيه الأولون والآخرون ، وتشرف فيه على جميع الخلائق :

تسأل فتعطى ، وتشفع فتشفع ، ليس أحد إلا تحت لوائك . وعن أبى هريرة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : هو المقام الذي أشفع فيه لأمّتى «1» . وعن حذيفة يجمع الناس في صعيد واحد ، فلا تتكلم نفس ، فأوّل مدعوّ محمد صلى اللّه عليه وسلم فيقول : «لبيك وسعديك والشرّ ليس إليك ، والمهدىّ من هديت ، وعبدك بين يديك وبك وإليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت» قال : فهذا قوله عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً «2» .

---

(1) . أخرجه أحمد وابن أبى شيبة والترمذي من طريق داود بن يزيد الأودى عن أبيه عن أبى هريرة قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في قوله تعالى عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً وسئل عنه فقال : هي الشفاعة» وفي الباب عن أنس عند البخاري في التوحيد وعن ابن عمر عنده في الزكاة . وعن ابن مسعود عند النسائي والحاكم وله طريق آخر عند أحمد والحاكم مطولا . وعن كعب بن مالك عند الحاكم . وأصله عند مسلم

وعن جابر عند أحمد والحاكم واختلف في وصله وإرساله على الزهري. عن على بن الحسين. وعن أبى سعيد عند الترمذي وابن ماجة وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند ابن مردويه مطولا. وعن سعد بن أبى وقاص عند ابن مردويه من رواية محمد بن الحسن عن أبى حنيفة عن عبد العزيز بن ربيع عن مصعب بن سعد عن أبيه قال «سئل النبي صلى اللّه عليه وسلم عن المقام المحمود فقال: هو الشفاعة»

(2). أخرجه النسائي والحاكم وابن أبى شيبة والطبري وأبو يعلى والبزار وأبو نعيم في ترجمة حذيفة في الحلية كلهم من طريق شعبة وإسرائيل كلاهما عن أبى إسحاق سمعت عتبة بن زفر يقول سمعت حذيفة يقول «يجمع الناس» فذكره.

[سورة الإسراء (17): آية 80]

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً (80)

قرئ: مدخل ومخرج بالضم والفتح: بمعنى المصدر. ومعنى الفتح: أدخلنى فأدخل مدخل صدق، أى: أدخلنى القبر مدخل صدق: إدخالا مرضيا على طهارة وطيب من

السيئات ، وأخرجني منه عند البعث إخراجا مرضيا ، ملقى بالكرامة ، آمنا من السخط ، يدل عليه ذكره على أثر ذكر البعث .

وقيل : نزلت حين أمر بالهجرة ، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة . وقيل : إدخاله مكة ظاهرا عليها بالفتح ، وإخراجه منها آمنا من المشركين . وقيل : إدخاله الغار وإخراجه منه سالما . وقيل إدخاله فيما حمله من عظيم الأمر - وهو النبوّة - وإخراجه منه مؤديا لما كلفه من غير تفريط . وقيل : الطاعة . وقيل : هو عام في كل ما يدخل فيه ويلابسه من أمر ومكان سُلْطاناً حجة تنصرني على من خالفني ، أو ملكا وعزا قويا ناصرا للإسلام على الكفر مظهرا له عليه ، فأجيبت دعوته بقوله وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ووعده لينزعنّ ملك فارس والروم ، فيجعله له . وعنه صلى اللّه عليه وسلم : أنه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال «انطلق فقد استعملتك على أهل اللّه» فكان شديدا على المريب ، لينا على المؤمن وقال : لا واللّه لا أعلم متخلفا يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه ، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق . فقال أهل مكة : يا رسول اللّه ، لقد استعملت على أهل اللّه عتاب بن أسيد أعرابيا جافياً ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : «إنى رأيت فيما يرى النائم كأنّ عتاب بن أسيد أتى باب الجنة ، فأخذ بحلقة الباب «1» فقلقلها قلقالا شديدا حتى فتح له فدخلها ، فأعز اللّه به الإسلام لنصرته المسلمين على من

يريد ظلمهم ، فذلك السلطان النصير» .

[سورة الإسراء (17) : آية 81]

وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً (81)

كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنما صنم كل قوم بحيالهم . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : كانت لقبائل العرب يحجون إليها وينحرون لها ، فشكا البيت إلى اللّه عز وجل فقال :

أى رب ، حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي دونك ، فأوحى اللّه إلى البيت : إنى سأحدث لك

---

(1) . أخرجه الثعلبي بإسناده عن الكلبي . قال سُلْطاناً نَصِيراً عتاب بن أسيد . استعمله رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على أهل مكة ، فذكره سواء . وأخرجه ابن مردويه من طريق إسماعيل بن خليفة الكلبي عن أبى صالح . عن ابن عباس . دون الحديث الذي في آخره .

نوبة جديدة ، فأملأك خدودا سجدا ، يدفون إليك دفيف النسور «1» ، يحنون إليك حنين الطير إلى بيضها . لهم عجيج حولك بالتلبية . ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح قال جبريل عليه السلام لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : خذ مخصرتك ثم ألقها ، فجعل يأتى صنما صنما وهو ينكت بالمخصرة في عينه ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعا ، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر فقال : يا على ، ارم به ، فحمله رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى صعد فرمى به فكسره ، فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون :

ما رأينا رجلا أسحر من محمد «2» صلى اللّه عليه وسلم . وشكاية البيت والوحى إليه : تمثيل وتخييل وَزَهَقَ الْباطِلُ ذهب وهلك ، من قولهم : زهقت نفسه ، إذا خرجت .

والحق : الإسلام .

والباطل : الشرك كانَ زَهُوقاً كان مضمحلا غير ثابت في كل وقت .

[سورة الإسراء (17) : آية 82]

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَساراً (82)

وَنُنَزِّلُ قرئ بالتخفيف والتشديد مِنَ الْقُرْآنِ من للتبيين ، كقوله : من الأوثان .

أو للتبعيض ، أى : كل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين ، يزدادون به إيمانا ، ويستصلحون به دينهم ، فموقعه منهم موقع الشفاء من المرضى . وعن النبي صلى اللّه عليه

وسلم : «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه اللّه «3»» ولا يزداد به الكافرون إِلَّا خَسارا ًأى

نقصانا لتكذيبهم به وكفرهم ، كقوله تعالى : فَزادَتْهُمْ رِجْسا ًإِلى رِجْسِهِمْ .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 83 إلى 84]

وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُسا ً(83) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ

عَلى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلاً (84)

وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ بالصحة والسعة أَعْرَضَ عن ذكر اللّه ، كأنه مستغن عنه

---

(1) . قوله «يدفون إليك دفيف النسور» في الصحاح «الدفيف» الدبيب . وهو السير اللين ، وفيه «العج» رفع الصوت ، وقد عج يعج عجيجا . (ع)

(2) . قال : لم أجده . وروى النسائي والحاكم من طريق ابن أبى مريم عن على . قال «انطلقت مع النبي صلى اللّه عليه وسلم حتى أتينا الكعبة فقال لي اجلس فجلست . وصعد على منكبى فنهضت به . فذكر الحديث» وليس فيه أن ذلك كان في فتح مكة . ولا تلاوة الآية . وروى النسائي [كذا بالأصلين اه مصححه]

(3) . أخرجه الثعلبي من طريق أحمد بن الحرث الغساني . حدثنا ساكنة بنت الجعد ، قالت : سمعت رجاء الغنوي يقول : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . فذكره .

مستبدّ بنفسه وَنَأى بِجانِبِهِ تأكيد للإعراض ، لأنّ الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه . والنأى بالجانب : أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره ، وأراد الاستكبار ، لأنّ ذلك من عادة المستكبرين وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل كانَ يَؤُساً شديد اليأس من روح اللّه إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ. وقرئ : وناء بجانبه ، بتقديم اللام على العين ، كقولهم «راء» في «رأى» ويجوز أن يكون من «ناء» بمعنى «نهض» قُلْ كُلٌّ أحد يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ أى على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة ، من قولهم «طريق ذو شواكل» وهي الطرق التي تتشعب منه ، والدليل عليه قوله فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلاً أى أسدّ مذهبا وطريقة .

[سورة الإسراء (17) : آية 85]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (85)

الأكثر على أنه الروح الذي في الحيوان . سألوه عن حقيقته فأخبر أنه من أمر اللّه ، أى مما استأثر بعلمه . وعن ابن أبى بريدة . لقد مضى النبي صلى اللّه عليه وسلم وما يعلم الروح «1» .

وقيل : هو خلق عظيم روحانى أعظم من الملك . وقيل : جبريل عليه السلام . وقيل : القرآن .

وِمنْ أَمْرِ رَبِّي أى من وحيه وكلامه ، ليس من كلام البشر ، بعثت اليهود إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، وعن الروح ، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبىّ ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبىّ ، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة ، فندموا على سؤالهم «2» وَما أُوتِيتُمْ الخطاب أم أنت معناه فيه ؟ فقال :

بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلا ، فقالوا : ما أعجب شأنك : ساعة تقول وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وساعة تقول هذا «3» ، فنزلت : وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ

---

(1) . ذكره الواحدي في الوسيط عن عبد اللّه بن بريدة بهذا في حديث لم يسبق إسناده

(2) . لم أجده هكذا . وذكره ابن هشام في السيرة عن زياد عن أبى إسحاق . وكذا أخرجه البيهقي في الدلائل من طريقه «أن أهل مكة بعثوا رهطا منهم إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقالوا لهم سلوه عن ثلاث ، فإذا عرفها فهو نبى : سلوه عن أقوام ذهبوا في الأرض فلم يدر ما صنعوا . . . القصة بطولها»

(3) . ذكره الثعلبي في تفسير لقمان بغير سند ولا راو . وروى ابن مردويه من طريق على بن عاصم عن داود ابن أبى هند عن عكرمة . لا أعلمه إلا عن ابن عباس . قال «لما نزلت هذه الآية وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا قالت اليهود : أوتينا علما كثيرا . أوتينا التوراة ومن

يؤت التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا . فأنزل اللّه تعالى قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ .

(412/463)

وليس ما قالوه بلازم ، لأنّ القلة والكثرة تدوران مع الإضافة ، فيوصف الشيء بالقلة مضافا إلى ما فوقه ، وبالكثرة مضافا إلى ما تحته ، فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها ، إلا أنها إذا أضيفت إلى علم اللّه فهي قليلة . وقيل : هو خطاب لليهود خاصة ، لأنهم قالوا للنبي صلى اللّه عليه وسلم : قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة ، وقد تلوت وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً فقيل لهم : إن علم التوراة قليل في جنب علم اللّه .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 86 إلى 87]

وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلاً (86) إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (87)

لَنَذْهَبَنَّ جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط . واللام الداخلة على إن موطئة للقسم . والمعنى : إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه عن الصدور والمصاحف فلم نترك له أثرا وبقيت كما كنت لا تدرى ما الكتاب ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بعد الذهاب بِهِ من يتوكل علينا

باسترداده وإعادته محفوظا مستورا إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك ، كأن رحمته تتوكل عليه بالرد ، أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى : ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به ، وهذا امتنان من اللّه تعالى ببقاء القرآن محفوظا بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه ، فعلى كل ذى علم أن لا يغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما ، وهما منة اللّه عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره ، ومنته عليه في بقاء المحفوظ . وعن ابن مسعود

:

إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، وليصلين قوم ولا دين لهم ، وإن هذا القرآن تصبحون يوما وما فيكم منه شيء . فقال رجل : كيف ذلك وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم ؟ فقال : يسرى عليه ليلا فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينزع ما في القلوب « 1 » . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 2 صـ 680. 691 ﴾

---

(1) . أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه الطبراني ، وأخرجه ابن أبى شيبة وابن مردويه كلهم من طريق شداد بن معقل عن عبد اللّه بن مسعود وزاد في آخره ثم قرأ عبد اللّه وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ . [. . . . .]

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾

قال ابن عباس : هو أنهم يأكلون بالأيدي وغير الآدمي يأكل بفيه من الأرض وقال أيضاً بالعقل وقيل بالنطق والتمييز والخط والفهم ، وقيل باعتدال القامة وامتدادها وقيل بحسن الصورة وقيل : الرجل باللحى والنساء بالذوائب .

وقيل : بتسليطهم على جميع ما في الأرض وتسخيره لهم وقيل : بحسن تدبيرهم أمر المعاش والمعاد .

وقيل بأن منهم خير أمة أخرجت للناس ﴿ وحملناهم في البر ﴾ أي على الإبل والخيل والحمير ﴿ والبحر ﴾ أي وحملناهم في البحر على السفن ، وهذا من مؤكدات التكريم لأن الله تعالى سخر لهم هذه الأشياء لينتفعوا بها ، ويستعينوا بها على مصالحهم ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ يعني لذيذ المطاعم والمشارب وقيل الزبد والتمر والحلواء ، وجعل رزق غيرهم مما لا يخفى ، وقيل : إن جميع الأغذية إما نباتية وإما حيوانية ولا يتغذى الإنسان إلا بأطيب القسمين بعد الطبخ الكامل والنضج التام ولا يحصل هذا لغير الإنسان ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ واعلم أن الله تعالى قال في أول الآية : ولقد كرمنا بني آدم وفي آخرها وفضلناهم ، ولا بد من الفرق بين التكريم والتفضيل والإلزام

التكرار والأقرب أن يقال : إن الله تعالى كرم الإنسان على سائر الحيوان بأمور خلقية ذاتية طبيعية ، مثل العقل والنطق والخط وحسن الصورة ، ثم إنه سبحانه وتعالى عرفه بواسطة ذلك العقل والفهم اكتساب العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة ، فالأول هو التكريم والثاني هو التفضيل .

ثم قال سبحانه وتعالى : على كثير ممن خلقنا تفضيلاً .

ظاهر الآية يدل على أنه فضل بني آدم على كثير ممن خلق لا على الكل فقال : قوم فضلوا على جميع الخلق إلا على الملائكة وهذا مذهب المعتزلة .

وقال الكلبي : فضلوا على الخلائق كلهم إلا على طائفة من الملائكة مثل جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزائيل وأشباههم .

وقيل : فضلوا على جميع الخلائق وعلى الملائكة كلهم .

فإن قلت : كيف تصنع بكثير ؟ قلت : يوضع الأكثر موضع الكل كقوله تعالى ﴿ يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ أراد كلهم وفي الحديث عن جابر يرفعه قال : " لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ، ولنا

الآخرة فقال : لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان "

وقيل بالتفضيل وهو الأولى والراجح أن خواص بني آدم وهم الأنبياء أفضل من خواص الملائكة ، وعوام الملائكة أفضل من عوام البشر من بني آدم ، وهذا التفضيل إنما هو بين الملائكة والمؤمنين من بني آدم لأن الكفار لا حرمة لهم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : المؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة الذين عنده .

وقوله ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ أي بنبيهم وقيل بكتابهم الذي أنزل عليهم ، وقيل بكتاب أعمالهم وعن ابن عباس : إمام زمانهم الذي دعاهم في الدنيا إما إلى هدى وإما إلى ضلالة وذلك أن كل قوم يجتمعون إلى رئيسهم في الخير والشر .

وقيل : بمعبودهم وقيل بإمامهم جمع أم يعني بأمهاتهم والحكمة فيه رعاية حق عيسى عليه السلام وإظهار شرف الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما ، وأن لا يفتضح أولاد الزنا ﴿ فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ﴾ فإن قلت : لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم ، مع أن أصحاب الشمال يقرؤونه أيضاً .

قلت : الفرق أن أصحاب الشمال إذا طالعوا كتابهم ، وجدوه مشتملاً على مشكلات عظيمة فيستولي عليهم الخجل والدهشة فلا يقدرون على إقامة حروفه فتكون قراءتهم كلا قراءة ، وأصحاب اليمين إذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملاً على الحسنات والطاعات

فيقرؤونه أحسن قراءة وأبينها ﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ أي ولا ينقصون من ثواب أعمالهم أدنى شيء .

﴿ ومن كان في هذه أعمى ﴾ المراد عمى القلب والبصيرة لا عمى البصر .

والمعنى : ومن كان في هذه الدنيا أعمى ، أي عن هذه النعم التي قد عدها في هذه الآيات ﴿ فهو في الآخرة ﴾ أي التي لم تعاين ولم تر ﴿ أعمى وأضل سبيلاً ﴾ قاله ابن عباس : وقيل معناه ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب عن رؤية قدرة الله وآياته ورؤية الحق فهو في الآخرة أعمى أي أشد عمى وأضل سبيلاً ، أي أخطأ طريقاً .

وقيل : معناه ومن كان في الدنيا كافراً ضالاً ، فهو في الآخرة أعمى لأنه في الدنيا تقبل توبته ، وفي الآخرة لا تقبل تبوته ، قوله سبحانه وتعالى ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك ﴾ قيل في سبب نزولها أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يستلم الحجر الأسود ، فمنعته قريش وقالوا : لا ندعك حتى تلم بآلهتنا وتمسها فحدث نفسه ما علي أن أفعل ذلك ، والله يعلم إني لها كاره بعد أن يدعوني أستلم الحجر .

وقيل طلبوا منه أن يذكر آلهتهم حتى يسلموا ، ويتبعوه فحدث نفسه فأنزل الله هذه الآية .

وقال ابن عباس : قد وفد ثقيف على النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالوا : نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال .

قال : وما هن ؟ قالوا : لا نحي في الصلاة أي لا ننحني ولا نكسر أصنامنا بأيدينا وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود ، وأما أن لا تكسروا أصنامكم بأيديكم ، فذلك لكم وأما الطاغية يعني اللات والعزى فإني غير ممتعكم بها " قالوا : يا رسول الله إنا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا ما لم تعط غيرها فإن خشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا فقل الله أمرني بذلك فسكت النبي (صلى الله عليه وسلم) فطمع القوم في سكوته أن يعطيهم ذلك فأنزل الله تعالى وإن كادوا أي هموا ليفتنونك أي ليصرفونك عن الذي أوحينا إليك ﴿ لتفتري ﴾ أي لتختلق وتبتعث ﴿ علينا غيره ﴾ ما لم تقله ﴿ وإذاً ﴾ أي لو فعلت ما دعوك إليه ﴿ لاتخذوك خليلاً ﴾ أي والوك ووافوك وصافوك ﴿ ولولا أن ثبتناك ﴾ أي على الحق بعصمتنا إياك ﴿ لقد كدت تركن ﴾ أي تميل ﴿ إليهم شيئاً قليلاً ﴾ أي قربت من الفعل .

فإن قلت كان النبي (صلى الله عليه وسلم) معصوماً فكيف يجوز أن يقرب مما طلبوه .

قلت : كان ذلك خاطر قلب ولم يكن عزماً وقد عفا الله تعالى عن حديث النفس وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول بعد ذلك " اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين " والجواب الصحيح هو أن الله سبحانه وتعالى قال ولولا أن ثبتناك وقد ثبته الله فلم يركن إليهم ﴿ إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ أي لو فعلت لأذقناك عذاب الحياة وضعف عذاب الممات يعني ضعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة ﴿ ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴾ أي ناصراً يمنعك من عذابنا .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾ قيل : هذه الآية مدنية وذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لما قدم المدينة كره اليهود مقامه بالمدينة ، وذلك حسداً فأتوه فقالوا : يا أبا القاسم لقد علمت ما هذه بأرض الأنبياء ، وإن أرض الأنبياء الشام ، وهي الأرض المقدسة وكان بها إبراهيم والأنبياء عليهم السلام ، فإن كنت نبياً مثلهم فأت الشام ، وإنما يمنعك من الخروج إليها مخافة الروم ، وإن الله سيمنعك من الروم إن كنت رسوله فعسكر النبي (صلى الله عليه وسلم) على ثلاثة أميال من المدينة وفي رواية إلى ذي الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ، فيخرج فأنزل الله هذه الآية فالأرض هنا

أرض المدينة ، وقيل الأرض أرض مكة والآية مكية والمعنى : همّ المشركون أن يخرجوه منها فكفهم الله عنه حتى أمره بالخروج للهجرة فخرج بنفسه وهذا أليق بالآية لأن ما قبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية .

وقيل : همّ المشركون كلهم وأرادوا أن يستفزوه من أرض العرب باجتماعهم وتظاهرهم عليه فمنع الله رسوله ولم ينالوا منه ما أملوه والاستفزاز الازعاج ﴿ وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً ﴾ إي لا يبقون بعد إخراجك إلا زماناً قليلاً حتى يهلكوا .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ﴾ يعني أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم فسنة الله أن يهلكهم وأن لا يعذبهم مادام نبيهم بينهم فإذا خرج من بين أظهرهم عذبهم ﴿ ولا تجد لسنتنا تحويلاً ﴾ أي تبديلاً .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ وروي عن ابن معسود أنه قال الدلوك الغروب وهو قول النخعي ومقاتل والضحاك والسدي .

قال ابن عباس وابن عمر وجابر : هو زوال الشمس .

وهو قول عطاء وقتادة ومجاهد والحسن وأكثر التابعين .

ومعنى اللفظ : يجمعهما ، لأن أصل الدلوك الميل والشمس : تميل إذا زالت وإذا غربت والحمل على الزوال أولى القولين : لكثرة القائلين به وإذا حملناه عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها فدلوك الشمس يتناول صلاة الظهر والعصر ﴿ إلى غسق الليل ﴾ أي ظهور ظلمته وقال ابن عباس : بدو الليل وهذا يتناول المغرب والعشاء ﴿ وقرآن الفجر ﴾ يعني صلاة الفجر سمى الصلاة قرآناً لأنها لا تجوز إلا بالقرآن ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ أي يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار (خ) .

عن أبي هريرة قال : " سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول تفضل صلاة الجمع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءاً وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر " ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم إن قرآن الفجر كان مشهوداً .

قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره : هذا دليل قاطع قوي على أن التغليس أفضل من التنوير لأن الإنسان ، إذا شرع فيها من أول الصبح ففي ذلك الوقت الظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين ، ثم إذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القرآن وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء ، وحضرت ملائكة النهار أما إذا ابتدأ بهذه الصلاة في وقت الإسفار فهناك لم يبق أحد من ملائكة الليل ، فلا يحصل المعنى المذكور في الآية فثبت أن قوله تعالى ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ دليل على أن الصلاة في أول وقتها أفضل .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ومن الليل فتهجد به ﴾ أي قم بعد نومك ، والتهجد لا يكون إلا بعد القيام من النوم .

والمراد من الآية قيام الليل للصلاة ، وكانت صلاة الليل فريضة على النبي (صلى الله عليه وسلم) وعلى الأمة في الابتداء لقوله تعالى ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً نصفه ﴾ ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخاً في حق الأمة بالصلوات الخمس ، وبقي قيام الليل على الاستحباب بدليل قوله تعالى ﴿ فاقرؤوا ما تيسر منه ﴾ وبقي الوجوب ثابتاً في حق النبي (صلى الله عليه وسلم) بدليل قوله تعالى ﴿ نافلة لك ﴾ أي زيادة لك يريد فريضة زائدة على سائر الفرائض التي فرضها الله عليك روي عن عائشة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال :

" ثلاث هن عليّ فريضة وهن سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل " وقيل : إن الوجوب صار منسوخاً في حقه كما في حق الأمة : فصار قيام الليل نافلة لأن الله سبحانه وتعالى قال : نافلة لك ولم يقل عليك .

فإن قلت : ما معنى التخصيص إذا كان زيادة في حق المسلمين كما في حقه (صلى الله

عليه وسلم) ؟ قلت : فائدة التخصيص أن النوافل كفارات لذنوب العباد والنبي (صلى الله عليه وسلم) ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانت له نافلة وزيادة في رفع الدرجات .

فصل

في الأحاديث الواردة في قيام الليل (ق) عن المغيرة بن شعبة قال : " قام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى انفتحت قدماه فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً " (م) عن زيد بن خالد الجهني : قال لأرمقن صلاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتوسدت عتبته أو فسطاطه فقال فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم صلى ركعتين طويلتين طويلتين طويلتين ثم صلّى ركعتين دون اللتين قبلهما ، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة لفظ أبي داود (ق) ، " عن أبي سلمة عبد الرحمن أنه سأل عائشة كيف كانت صلاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في رمضان ؟ قالت : ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على أكثر من أحدى عشر ركعة

يصلي أربعاً ، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثاً ، قالت عائشة : فقلت يا رسول الله أتنام قبل أن توتر فقال يا عائشة : إنّ عيني تنامان ولا ينام قلبي " (ق) عنها قالت "كان رسول الله صلى الله عليه سلم يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشر ركعة يسلم بين كل ركعتين ويوتر بواحدة ، ويسجد سجدتين قدر ما يسجد ، ويقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه فإذا سكت المؤذن من صلاة الفجر ، وتبين له الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن للإقامة " (خ) عنها قالت : "كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا قام من الليل افتتح صلاته بركعتين خفيفتين " عن عوف بن مالك الأشجعي قال : " قمت مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل ولا يمر بآية عذاب ، إلا وقف وتعوذ ثم ركع بقدر قيامه ، يقول في ركوعه .

سبحانه ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ، ثم سجد بقدر قيامه ثم قال في سجوده مثل ذلك ثم قام فقرأ بآل عمران ثم قرأ سورة النساء " أخرجه أبو داود النسائي .

" عن عائشة قالت : قام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بآية من القرآن ليلة " أخرجه الترمذي (ق) عن الأسود قال : " سألت عائشة كيف كانت صلاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الليل قالت كان ينام أوله ويقوم آخره فيصلي ثم يرجع إلى فراشه ، فإذا أذن المؤذن وثب ، فإن كانت به حاجة اغتسل وإلا توضأ وخرج" عن أنس قال : " ما كنا نشاء أن نرى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الليل مصلياً إلا رأيناه ولا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه " أخرجه النسائي .

زاد في رواية غيره قال : " وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئًا ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئًا " وقوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ أجمع المفسرون على أن عسى من الله واجب وذلك لأن لفظه عيسى تفيد الإطماع ومن أطمع إنساناً في شيء ثم أحرمه كان ذلك عاراً عليه والله أكرم من أن يطمع أحداً ثم لا يعطيه ما أطمعه فيه .

والمقام المحمود هو مقام الشفاعة لأنه يحمده فيه الأولون والآخرون (ق) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إن لكل نبي دعوة مستجابة وإني اختبات

دعوتي شفاة لأمتي ، فهي نائلة منكم إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً " (م) عن

عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " إذا سمعتم

المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ فمن صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ثم

سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تبتغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا

هو فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة " (م) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله (

صلى الله عليه وسلم) قال : " من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة

والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له

شفاعتي يوم القيامة " (ع) عن أنس أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : "يجمع الله

الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك وفي رواية فيلهمون لذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا ،

فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ، وأسكنك جنته

وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا

هذا فيقول : لست هناكم فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها ، ولكن ائتوا نوحاً

أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحاً فيقول لست هناكم فيذكر خطيئته التي

أصاب فيستحي ربه منها ولكن ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً فيأتون إبراهيم ، فيقول

: لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها ، ولكن ائتوا موسى الذي

كلمه الله ، وأعطاه التوراة قال فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي

أصاب فيستحي ربه منها ، ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته فيأتون عيسى روح الله وكلمته فيقول : لست هناكم ولكن ائتوا محمداً (

(423/463)

صلى الله عليه وسلم) عبداً قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : فيأتوني فأستأذن على ربي تعالى فيؤذن لي فإذا أنا رأيته ، وقعت ساجداً فيدعني ما شاء فيقول : يا محمد ارفع رأسك قل تسمع سل تعطه اشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة ثم أعود فأقع ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقال لي : ارفع يا محمد رأسك قل تسمع ، سل تعطه اشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة قال فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة فأقول يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن أي من وجب عليه الخلود "

(424/463)

وفي رواية البخاري ثم تلا هذه الآية عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ، قال وهذا المقام المحمود الذي وعده نبيكم (صلى الله عليه وسلم) زاد في رواية " فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة ، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة " قال يزيد بن زريع في حديث شعبة ذرة وفي رواية من إيمان مكان خير ، وفي حديث معبد بن هلال العنزي عن أنس في حديث الشفاعة ، وذكر نحوه وفيه فأقول يا رب أمتي أمتي فيقال انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار فانطلق فافعل قال فلما خرجنا من عند أنس ، مررنا بالحسن فسلمنا عليه فحدثناه بالحديث إلى هذا الموضع فقال : هيا ، فقلنا : لم يزدنا على هذا فقال لقد حدثني ، وهو يومئذ جميع منذ عشرين سنة كما حدثكم ، ثم قال : ثم أعود في الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجداً فيقال لي يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع فأقول يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله قال : ليس ذلك لك أو قال ليس ذاك إليك ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي ، لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله .

قوله : وهو يومئذ جميع أي مجتمع الذهن والرأي .

عن أبي سعيد قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيد لواء الحمد ، ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ، ولا فخر قال فيفزع الناس ثلاث فزعات فيأتون آدم فيقولون أنت أبونا اشفع لنا إلى ربك فيقول : إني أذنبت ذنباً عظيماً فأهبطت به إلى الأرض ولكن ائتوا نوحاً فيأتون نوحاً فيقول : إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا ولكن اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقول : إني كذبت ثلاث كذبات ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما منها كذبة إلا ما حل بها عن دينه الله ولكن ائتوا موسى فيأتون موسى فيقول قد قتلت نفساً ولكن ائتوا عيسى فيأتون عيسى فيقول : إني عبدت من دون الله ولكن ائتوا محمداً فيأتوني فأنطلق بهم " قال : ابن جدعان : قال أنس فكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه سلم قال فآخذ بحلقة باب فأقعقعها ، فيقال من هذا ؟ فيقال : محمد فيفتوحون لي ويقولون مرحباً فأخرج ساجداً فيلهمني الله من الثناء والحمد فيقال لي ارفع رأسك وسل تعط ، واشفع تشفع وقل يسمع لقولك وهو المقام المحمود الذي قال الله سبحانه وتعالى : عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً .

قال سفيان : ليس عن أنس غير هذه الكلمة فآخذ بحلقة باب الجنة فاقعقعها فيقال : من هذا فيقال محمد فيفتحون لي ويرحبون فيقولون : مرحباً فأخر ساجداً فيلهمني الله من الثناء والحمد " أخرجه الترمذي.

قوله : ماحل المماحلة : المخاصمة المجادلة.

والمعنى : أنه خاصم وجادل عن دين الله بتلك الألفاظ التي صدرت منه.

قوله : فاقعقعها أي أحركها حركة شديدة والقعقعة حكاية أصوات الترس وغيره مما له صوت.

عن أنس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا أيسوا ولواء حمد يومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر " أخرجه الترمذي زاد في رواية غير الترمذي : وأنا مستشفعهم إذا حبسوا الكرامة ، والمفاتيح يومئذ بيدي يطوف علي خدم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منثور " (م) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

" أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع وأول مشفع " زاد

الترمذي ، قال : " أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكس حلقة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش فليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري " عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه قال : إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك ، استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فيشفع ليقضي بين الخلائق فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب ، فيؤمئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده فيه أهل الجمع كلهم (م) عن يزيد بن صهيب قال : كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد أن نحج ثم نخرج على الناس قال : فمررنا على المدينة فإذا جابر بن عبد الله جالس إلى سارية يحدث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وإذا هو قد ذكر الجهنميين فقلت يا صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما هذا الذي تحدثونه والله يقول إنك من تدخل النار فقد أخزيته وكلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، فما هذا الذي تقولون قال : أتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم .

قال : فاقرأ ما قبله إنه في الكفار ثم قال فهل سمعت بمقام محمد الذي يبعثه الله فيه قلت : نعم قال فإن مقام محمد (صلى الله عليه وسلم) المحمود الذي يخرج الله به من يخرج من النار قال ثم نعت وضع الصراط ومر الناس عليه ، قال وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك .

قال غيره أنه قد زعم أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها .

قال : يعني فيخرجون كأنهم عيدان السماسم قال فيدخلون نهراً من أنهار الجنة فيغتسلون فيه ، فيخرجون منه كأنهم القراطيس فرجعنا فقلنا ويحكم أترون هذا الشيخ يكذب على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فرجعنا فلا والله ما خرج غير رجل واحد أو كما قال ، والأحاديث في الشفاعة كثيرة وأول من أنكرها عمرو ابن عبيد وهو مبتدع باتفاق أهل السنة .

وروى أبو وائل عن ابن مسعود أنه قال : إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً وإن صاحبكم خليل الله وأكرم الخلق عليه .

ثم قرأ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً قال يقعده على العرش .

وعن مجاهد مثله وعن عبد الله بن سلام قال يقعد على الكرسي .

قوله : ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق ﴾ المراد منهما الإدخال والإخراج قال ابن عباس : معناه أدخلني مدخل صدق المدينة وأخرجني مخرج صدق من مكة نزلت حين أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالهجرة .

وقيل : معناه أخرجني من مكة آمناً من المشركين ، وأدخلني مكة ظاهراً عليها بالفتح ، وقيل : أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوة مدخل صدق ، وأخرجني من الدنيا ،

وقد قمت بما وجب علي من حق النبوة مخرج صدق وقيل : معناه أدخلني في طاعتك مدخل صدق وأخرجني من المناهي مخرج صدق وقيل : معناه أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق ، وأخرجني بالصدق ولا تجعلني ممن يخرج بوجه ويدخل بوجه فإن ذا الوجهين لا يكون آمناً عند الله ﴿ واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ أي حجة بينة وقيل : ملكاً قوياً تنصرني به على من عاداني وعزاً ظاهراً أقيم به دينك فوعده الله لينزعن ملك فارس والروم وغيرهما ويجعله له ، وأجاب دعاءه فقال له والله يعصمك من الناس ، وقال يظهره على الدين كله وقال : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض الآية .

(428/463)

قوله تعالى ﴿ وقل جاء الحق ﴾ يعني الإسلام والقرآن ﴿ وزهق الباطل ﴾ أي الشرك والشيطان ﴿ إن الباطل كان زهوقاً ﴾ أي مضمحلاً غير ثابت ، وذلك أن الباطل وإن كان له دولة وصولة في وقت من الأوقات فهو سريع الذهاب والزوال (ق) .

عن عبد الله بن مسعود قال : دخل النبي (صلى الله عليه وسلم) مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : جاء الحق وزهق

الباطل إن الباطل كان زهوقاً جاء الحق ، وما يبدئ الباطل وما يعيد .

قوله تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ﴾ من في قوله تعالى من القرآن لبيان الجنس والمعنى : ننزل من هذا الجنس الذي هو القرآن ما هو شفاء أي بيان من الضلالة الجهالة ، يتبين به المختلف فيه ويتضح به المشكل ، ويستشفى به من الشبهة ويهتدى به من الحيرة وهو شفاء القلوب بزوال الجهل عنها .

وقيل : هو شفاء للأمراض الباطنة والظاهرة ، وذلك لأنها تنقسم إلى نوعين (1) أحدهما الاعتقادات الباطلة ، والثاني الأخلاق المذمومة أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فساداً والاعتقادات الفاسدة في الذات والصفات والنبوات والقضاء والقدر والبعث بعد الموت ، فالقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه الأشياء وابطال المذاهب الفاسدة ، لا جرم ، كان القرآن شفاء لما في القلوب من هذا النوع .

وأما النوع الثاني : وهو الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على التنفير منها ، والإرشاد إلى الأخلاق المحمودة والأعمال الفاضلة ، فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الباطنة وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية ، فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض .

---

(1) قوله لأنها تنقسم إلى نوعين أي الأمراض الغير الجسمانية بدليل قوله بعد وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية والعبارة في الفخر الرازي بغاية التهذيب فليراجع .

يدل عليه ما روي عن البني (صلى الله عليه وسلم) في فاتحة الكتاب، "وما يدريك أنها رقية" ﴿ ورحمة للمؤمنين ﴾ لما كان القرآن شفاء للأمراض الباطنة والظاهرة، فهو جدير بأن يكون رحمة للمؤمنين ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ لأن الظالم لا ينتفع به، والمؤمن ينتفع به فكان رحمة للمؤمنين وخساراً للظالمين، وقيل: لأن كل آية تنزل يتجدد لهم تكذيب بها فيزداد خسارهم قال قتادة: لم يجالس القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان قضاه الله الذي قضى شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان ﴾ أي بالصحة والسعة ﴿ أعرض ﴾ أي عن ذكرنا ودعائنا ﴿ ونأى بجانبه ﴾ أي تباعد منا بنفسه وترك التقرب إلينا بالدعاء وقيل: معناه تكبر وتعظيم ﴿ وإذ مسه الشر ﴾ إي الشدة والضر ﴿ كان ﴾ أي يائساً قنوطاً، وقيل: معناه إنه يتضرع ويدعو عند الضر والشدة، فإذا تأخرت الإجابة يئس فلا ينبغي للمؤمن أن يدع الدعاء ولو تأخرت الإجابة.

قوله ﴿ قل كل ﴾ أي كل أحد ﴿ يعمل على شاكلته ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته. وقيل: الشاكلة الطريقة أي على طريقته التي جبل عليها، وفيه وجه آخر وهو أن كل إنسان

يعمل على حسب جوهر نفسه ، فإن كانت نفسه شريفة طاهرة ، صدرت عنه أفعال جميلة وأخلاق زكية طاهرة وإن كانت نفسه كدرة خبيثة صدرت عنه أفعال خبيثة فاسدة ردية ﴿ فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ﴾ أي أوضح طريقاً وأحسن مذهباً واتباعاً للحق .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ (ق) عن عبد الله بن مسعود قال : بينما أنا أمشي مع النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح.

وقال بعضهم : لا تسألوه يسمعكم ما تكرهون فقاموا إليه ، وفي رواية ، فقام إليه رجل منهم فقال : يا ابا القاسم ما الروح؟ فسكت وفي رواية ، فقالوا حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ينتظر الوحي ، وعرفت أنه يوحى إليه فتأخرت حتى صعد الوحي قال : ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر بي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً .

فقال بعضهم لبعض : قد قلنا لكم لا تسألوه .

وفي رواية وما أتوا من العلم إلا قليلاً .

قال الأعمش هكذا في قراءتنا .

العسيب : جريد النخل وسعفه .

وقال ابن عباس : إن قريشاً اجتمعوا وقالوا إن محمداً نشأ فينا بالأمانة والصدق وما اتهمناه بكذب قط ، وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفراً إلى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فإنهم أهل كتاب ، فبعثوا جماعة إليهم فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة أشياء فإن أجاب عن كلها ، أو لم يجب عن شيء منها فليس بنبي وإن أجاب عن اثنتين ولم يجب عن واحد فهو نبي فسألوه عن فتية فقدوا في الزمن الأول ما كان شأنهم ، فإنه كان لهم حديث عجيب ، وعن رجل بلغ مشرق الأرض ومغربها ما خبره وعن الروح قال فسألوا النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال : أخبركم بما سألتم غداً ، ولم يقل إن شاء الله فلبث الوحي .

(431/463)

قال مجاهد : اثني عشر يوماً وقيل : خمسة عشر يوماً وقيل أربعين يوماً وأهل مكة يقولون : قد وعدنا محمداً غداً وقد أصبحنا لا يخبرنا بشيء ، حتى حزن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من مكث الوحي وشق عليه ما يقوله أهل مكة ثم نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ ونزل في الفتية ﴿

أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ نزل فيم بلغ المشرق والمغرب ، قوله ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين ﴾ ونزل في الروح ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ واختلفوا في الذي وقع السؤال عنه ، فروي عن ابن عباس أنه جبريل وعن علي أنه ملك له سبعن ألف وجه في كل وجه سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بكلها .

وقال مجاهد : خلق على صورة بني آدم ، لهم أيد وأرجل ورؤوس ليسوا بملائكة ولا ناس يأكلون الطعام .

وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله خلقاً أعظم من الروح غير العرش لو شاء أن يبتلع السموات والأرض ومن فيها بلقمة واحدة لفعل ذلك صورة خلقه على صورة الملائكة ، وصورة وجهه على صورة وجه الآدميين ، يقوم يوم القيامة على يمين العرش ، وهو أقرب الخلق إلى الله تعالى اليوم عند الحجب السبعين وأقرب الخلق إلى الله يوم القيامة وهو ممن يشفع لأهل التوحيد ، ولولا أن بينه وبين الملائكة ستراً من نور لاحترق أهل السموات من نوره .

وقيل : الروح هو القرآن لأن الله سماه روحاً ولأن به حياة القلوب .

وقيل : هو الروح المركب في الخلق الذي به يحيى الإنسان وهو أصح الأقوال .

وتكلم قوم في ما هية الروح فقال بعضهم : هو الدم ألا ترى أن الإنسان إذا مات لا يفوت منه شيء إلا الدم .

وقال قوم : هو نفس الحيوان بدليل أنه يموت باحتباس النفس .

وقال قوم : هو عرض .

وقال قوم : هو جسم لطيف يحيا به الإنسان .

(432/463)

وقيل : الروح معنى اجتمع فيه النور الطيب والعلم والعلو والبقاء ، إلا ترى أنه إذا كان موجوداً يكون الإنسان موصوفاً بجميع هذه الصفات إذا خرج منه ذهب الكل .

وأقاويل الحكماء والصوفية في ما هية الروح كثيرة ، وليس هذا موضع استقصائها وأولى الأقاويل أن يوكل علمه إلى الله هو قول أهل السنة قال عبد الله بن بريدة : إن الله لم يطلع على الروح ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً بدليل قوله : قل الروح من أمر ربي أي من علم ربي الذي استؤثر به ﴿ وما أوتيتم من العلم ﴾ من علم ربي ﴿ إلا قليلاً ﴾ أي في جنب علم الله الخطاب عام .

وقيل : هو خطاب لليهود فإنهم كانوا يقولون : أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير ، فقيل لهم : إن علم التوراة قليل في جنب علم الله .

وقيل إن القلة والكثرة تدوران مع الإضافة فوصف الشيء بالقلة مضافاً إلى ما فوقه ،

وبالكثرة مضافاً إلى ما تحته وقيل : إن النبي (صلى الله عليه وسلم) علم معنى الروح

ولكن لم يخبر به لأن ترك الإخبار به كان علماً لنبوته .

والقول الأصح هو أن الله استأثر بعلم الروح.

قوله ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ﴾ ومعناه أنا كما منعنا علم الروح عنك

وعن غيرك ، إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من الصدور والمصاحف ، فلم نترك له أثراً

وبقيت كما كنت ما تدري ما الكتاب ﴿ ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً ﴾ معناه لا تجد بعد

الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده عليك ، وإعادته محفوظاً مستوراً ﴿ إلا رحمة من

ربك ﴾ معناه إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك وقيل هو على الاستثناء المنقطع .

معناه لكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به ، وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن

محفوظاً ، فإن قلت كيف يذهب بالقرآن وهو كلام الله ؟ قلت : المراد منه محو ما في

المصاحف وإذهاب ما في الصدور وقال عبد الله بن مسعود : " اقرؤوا القرآن قبل أن يرفع

فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع " قيل : هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الناس قال

: يسرى عليه ليلاً فيرفع ما في صدورهم فيصبحون لا يحفظون شيئاً ، ولا يجدون مما في

المصاحف شيئاً ثم يفيضون في الشعر وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال " لا تقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل .

له دوي حول العرش كدوي النحل ، فيقول الرب : ما لك ؟ فيقول : يا رب أُتلى ولا يُعمل بي "

﴿ إن فضله كان عليك كبيراً ﴾ أي بسبب بقاء العلم والقرآن عليك وجعلك سيد ولد آدم ، وختم النبيين بك وإعطائك المقام المحمود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 170 . 183 ﴾

(434/463)

وقال النسفى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾

بالعقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المعتدلة وتدبير أمر المعاش والمعاد والاستيلاء وتسخير الأشياء وتناول الطعام بالأيدي .

وعن الرشيد أنه أحضر طعاماً فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف رحمه الله تعالى فقال له : جاء في تفسير جدك ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾ جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فأحضرت الملاعق فردها وأكل بأصابعه ﴿ وحملناهم فِى

البر ﴾ على الدواب ﴿ والبحر ﴾ على السفن ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ باللذيذات أو بما كسبت أيديهم ﴿ وفضلناهم على كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ أي على الكل كقوله ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كاذبون ﴾ [الشعراء : 223] قال الحسن : أي كلهم وقوله : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً ﴾ [يونس : 36] ذكر في الكشاف أن المراد بالأكثر الجميع. وعنه عليه السلام : " المؤمن أكرم على الله من الملائكة " وهذا لأنهم مجبولون على الطاعة ففيهم عقل بلا شهوة.

وفي البهائم شهوة بلا عقل ، وفي الآدمي كلاهما ، فمن غلب عقله شهوته فهو أكرم من الملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم ، ولأنه خلق الكل لهم وخلقهم لنفسه ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ ﴾ منصوب ب "اذكر" ﴿ كُلَّ أُنَاسٍ بإمامهم ﴾ الباء للحال والتقدير مختلطين بإمامهم أي بمن ائتموا به من نبي ، أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين فيقال : يا أتباع فلان ، يا أهل دين كذا أو كتاب كذا.

وقيل : بكتاب أعمالهم فيقال : يا أصحاب كتاب الخير ويا أصحاب كتاب الشر ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ ﴾ من هؤلاء المدعوين ﴿ كتابه بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءونَ كتابهم ﴾ وإنما قيل أولئك لأن "من" في معنى الجمع ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء.

ولم يذكر الكفار وإيتاء كتبهم بشمالهم اكتفاء بقوله :

﴿ وَمَن كَانَ فِى هذه ﴾ الدنيا ﴿ أعمى فَهُوَ فِى الآخرة أعمى ﴾ كذلك ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ من الأعمى أي أضل طريقاً ، والأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة ، أما في الدنيا فلفقد النظر وأما في الآخرة فلأنه لا ينفعه الاهتداء إليه .

وقد جوّزوا أن يكون الثاني بمعنى التفضيل بدليل عطف ﴿ وأضل ﴾ ومن ثم قرأ أبو عمرو الأول ممالاً والثاني مفخماً ، لأن أفعل التفضيل تمامه ب "من" فكانت ألفه في حكم الواقعة في وسط الكلمة فلا يقبل الإمالة وأما الأول فلم يتعلق به شيء فكانت ألفه واقعة في الطرف فقبلت الإمالة ، وأمالهما حمزة وعلي وفخمهما الباقون .

ولما قالت قريش اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك نزل ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ "إن" مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية ، والمعنى إن الشأن قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك فاتنين ﴿ عَنِ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا ﴿ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ لتتقول علينا ما لم نقل يعني ما اقترحوه من تبديل الوعد وعيداً والوعيد وعداً ﴿ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ أي ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك خليلا ولكنت لهم ولياً وخرجت من ولايتي ﴿ وَلَوْلاَ أَن ثبتناك ﴾ ولولا تثبيتنا وعصمتنا ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾ لقاربت أن تميل إلى مكرهم ﴿ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾

ركوناً ، قليلاً وهذا تهييج من الله له وفضل تثبيت .

﴿ إِذَا ﴾ لو قاربت تركن إليهم أدنى ركنة ﴿ إِذاً لأَذقناك ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ الممات ﴾ لأذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين لعظيم ذنبك بشرف منزلتك ونبوتك كما قال : ﴿ يانساء النبى مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بفاحشة ﴾ [الأحزاب : 30] الآية .

(436/463)

وأصل الكلام لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات لأن العذاب عذابان : عذاب في الممات وهو عذاب القبر ، وعذاب في حياة الآخرة وهو عذاب النار .

والعذاب يوصف بالضعف كقوله : ﴿ فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار ﴾ [الأعراف : 38] أي مضاعفاً فكأن أصل الكلام لأذقناك عذاباً ضعفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في الممات ، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وهو الضعف ، ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف فقيل ضعف الحياة وضعف الممات .

ويجوز أن يراد بضعف الحياة عذاب الحياة الدنيا ، وبضعف الممات ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار .

وفي ذكر الكيدودة وتقليلها مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين دليل

على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله ، ولما نزلت كان عليه السلام يقول : " اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين " ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ معيناً لك يمنع عذابنا عنك .

﴿ وَإِن كَادُواْ ﴾ أي أهل مكة ﴿ لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾ ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم ﴿ مِّنَ الأَرض ﴾ من أرض مكة ﴿ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ ﴾ لا يبقون ﴿ خلافك ﴾ بعدك أي بعد إخراجك ﴿ خلافك ﴾ كوفي غير أبي بكر وشامي بمعناه ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ زماناً قليلاً فإن الله مهلكهم وكان كما قال : فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجه بقليل ، أو معناه ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم ولم يخرجوه بل هاجر بأمر ربه .

وقيل : من أرض العرب أو من أرض المدينة ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ يعني أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم فسنة الله أن يهلكهم ، ونصبت نصب المصدر المؤكد أي سن الله ذلك سنة ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ تبديلاً .

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ لزوالها .

على هذه الآية جامعة للصلوات الخمس ، أو لغروبها وعلى هذا يخرج الظهر والعصر ﴿ إلى غَسقِ الليل ﴾ هو الظلمة وهو وقت صلاة العشاء ﴿ وقرءان الفجر ﴾ صلاة الفجر سميت قرآناً وهو القراءة لكونها ركناً كما سميت ركوعاً وسجوداً ، وهو حجة على الأَصم حيث زعم أن القراءة ليست بركن ، أو سميت قرآناً لطول قراءتها وهو عطف على ﴿ الصلاة ﴾ ﴿ إن قرءان الفجر كان مشهوداً ﴾ يشهده ملائكة الليل والنهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار ، أو يشهده الكثير من المصلين في العادة ﴿ وَمِنَ الليل ﴾ وعليك بعض الليل ﴿ فَتَهَجَّدْ ﴾ والتهجد ترك الهجود للصلاة ويقال في النوم أيضاً تهجد ﴿ بِهِ ﴾ بالقرآن ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس ، وضع ﴿ نافلة ﴾ موضع "تهجداً" لأن التهجد عبادة زائدة فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد ، والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة غنيمة لك أو فريضة عليك خاصة دون غيرك لأنه تطوع لهم ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ نصب على الظرف أي عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاماً محموداً ، أو ضمن يبعثك معنى يقيمك وهو مقام الشفاعة عند الجمهور ، ويدل عليه الأخبار أو هو مقام يعطى فيه لواء الحمد .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ هو مصدر أي أدخلني القبر إدخالاً مرضياً على

طهارة من الزلات ﴿ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ أي أخرجني منه عند البعث إخراجاً مرضياً ملقى بالكرامة آمناً من الملامة، دليله ذكره على أثر ذكر البعث.

(438/463)

وقيل: نزلت حين أمر بالهجرة يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة، أو هو عام في كل ما يدخل فيه ويلابسه من أمر ومكان ﴿ واجعل لّي مِن لَّدُنْكَ سلطانا نَّصِيرًا ﴾ حجة تنصرني على من خالفني أو ملكاً وعزاً قوياً ناصراً للإسلام على الكفر مظهراً له عليه ﴿ وَقُلْ جَاء الحق ﴾ الإسلام ﴿ وَزَهَقَ ﴾ وذهب وهلك ﴿ الباطل ﴾ الشرك أو جاء القرآن وهلك الشيطان ﴿ إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقًا ﴾ كان مضمحلاً في كل أوان.

﴿ وَنُنَزّلُ ﴾ وبالتخفيف: أبو عمرو ﴿ مِنَ القرآن ﴾ "من" للتبيين ﴿ مَا هُوَ شِفَاء ﴾ من أمراض القلوب ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ وتفريج للكروب وتطهير للعيوب وتكفير للذنوب ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وفي الحديث: "من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله" ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين ﴾ الكافرين ﴿ إَلاَّ خَسَارًا ﴾ ضلالاً لتكذيبهم به وكفرهم ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان ﴾ بالصحة والسعة ﴿ أَعْرَضَ ﴾ عن ذكر الله أو أنعمنا بالقرآن أعرض ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ تأكيد للإعراض لأن الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه والنأي بالجانب أي يلوي

عنه عطفه ويوليه ظهره، أو أراد الاستكبار لأن ذلك من عادة المستكبرين ﴿ نأى ﴾ بالأمالة: حمزة وبكسرها علي ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر ﴾ الفقر والمرض أو نازلة من النوازل ﴿ كَانَ يَئُوساً ﴾ شديد اليأس من روح الله ﴿ قُلْ كُلٌّ ﴾ أي كل أحد ﴿ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ ﴾ على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلال ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أهدى سَبِيلاً ﴾ أسد مذهباً وطريقة.

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ أي من أمر يعلمه ربي، الجمهور على أنه الروح الذي في الحيوان، سألوه عن حقيقته فأخبر أنه من أمر الله أي مما استأثر بعلمه.

(439/463)

وعن أبي هريرة: لقد مضى النبي صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح، وقد عجزت الأوائل عن إدراك ماهيته بعد إنفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه.

والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ليدل على أنه عن إدراك خالقه أعجز، ولذا رد ما قيل في حده أنه جسم دقيق هوائي في كل جزء من الحيوان.

وقيل: هو خلق عظيم روحاني أعظم من الملك.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو جبريل عليه السلام: ﴿ نزل به الروح الأمين على

قلبك ﴾ [الشعراء : 193] وعن الحسن : القرآن دليله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [الشورى : 52] ولأن به حياة القلوب و ﴿ من أمر ربي ﴾ أي من وحيه وكلامه ليس من كلام البشر .

ورُوي أن اليهود بعثت إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح ، فإن أجاب عن الكل أو سكت عن الكل فليس بنبي ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي ، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة فندموا على سؤالهم .

وقيل : كان السؤال عن خلق الروح يعني أهو مخلوق أم لا .

وقوله : ﴿ من أمر ربي ﴾ دليل خلق الروح فكان هذا جواباً ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ الخطاب عام

فقد رُوِيَّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا : نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه فقال : " بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلاً " وقيل : هو خطاب لليهود خاصة لأنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة وقد تلوت ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : 269] فقيل لهم : إن علم التوراة قليل في جنب علم الله .

فالقلة والكثرة من الأمور الإضافية ، فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها إلا أنها

إذا أضيفت إلى علم الله تعالى فهي قليلة .

ثم نبه على نعمة الوحي وعزاه بالصبر على أذى الجدال في السؤال بقوله :

(440/463)

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ﴿ لنذهبن ﴾ جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط ، واللام الداخلة على "إن" توطئة للقسم ، والمعنى إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من الصدور والمصاحف فلم نترك له أثراً ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ أي ثم لا تجد لك بعد الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظاً مسطوراً .

﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مّن رَّبّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ أي إلا إن يرحمك ربك فيرده عليك كأن رحمته تتوكل عليه بالرد ، أو يكون على الاستثناء المنقطع أي ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به ، وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه ونزل جواباً لقول النضر : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ [الأنفال : 21] .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 322. 326 ﴾

(441/463)

وقال البيضاوى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾

بحسن الصورة والمزاج الأعدل واعتدال القامة والتمييز بالعقل والإفهام بالنطق والإشارة والخط والتهدي ، أو أسباب المعاش والمعاد والتسلط على ما في الأرض والتمكن من الصناعات وانسياق الأسباب والمسببات العلوية والسفلية إلى ما يعود عليهم بالمنافع إلى غير ذلك مما يقف الحضر دون إحصائه ومن ذلك ما ذكره ابن عباس : وهو أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه إلا الإنسان فإنه يرفعه إليه بيده . ﴿ وحملناهم فِى البر والبحر ﴾ على الدواب والسفن من حملته حملا إذا جعلت له ما يركبه ، أو حملناهم فيهما حتى لم تخسف بهم الأرض ولم يغرقهم الماء . ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مّنَ الطيبات ﴾ المستلذات مما يحصل بفعلهم وبغير فعلهم . ﴿ وفضلناهم على كَثِيرٍ مّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ بالغلبة والاستيلاء أو بالشرف والكرامة ، والمستثنى جنس الملائكة عليهم الصلاة والسلام أو الخواص منهم ، ولا يلزم من عدم تفضيل الجنس عدم تفضيل بعض أفراده والمسألة موضع نظر ، وقد أول الكثير بالكل وفيه تعسف .

﴿ يَوْمَ نَدْعُو ﴾ نصب بإضمار اذكر أو ظرف لما دل عليه ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ ﴾ ، وقرىء "يدعو" و"يدعي" و"يدعو" على قلب الألف واواً في لغة من يقول أفعو في أفعى ، أو على أن

الواو علامة الجمع كما في قوله : ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ ﴾ أو ضميره وكل بدل منه والنون محذوفة لقلة المبالاة بها فإنها ليست إلا علامة الرفع ، وهو قد يقدر كما في "يدعي" . ﴿ كُلَّ أُنَاسٍ بإمامهم ﴾ بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين .

وقيل بكتاب أعمالهم التي قدموها فيقال يا صاحب كتاب كذا ، أي تنقطع علقة الأنساب وتبقى نسبة الأعمال . وقيل بالقوى الحاملة لهم على عقائدهم وأفعالهم . وقيل بأمهاتهم جمع أم كخف وخفاف ، والحكمة في ذلك ، إجلال عيسى عليه السلام وإظهار شرف الحسن والحسين رضي الله عنهما ، وأن لا يفتضح أولاد الزنا . ﴿ فَمَنْ أُوتِىَ ﴾ من المدعوين . ﴿ كتابه بِيَمِينِهِ ﴾ أي كتاب عمله . ﴿ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءونَ كتابهم ﴾ ابتهاجاً وتبجحاً بما يرون فيه . ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ ولا ينقصون من أجورهم أدنى شيء ، وجمع اسم الإشارة والضمير لأن من أوتي في معنى الجمع ، وتعليق القراءة بإيتاء الكتاب باليمين يدل على أن من أوتي كتابه بشماله إذا اطلع ما فيه غشيهم من الخجل والحيرة ما يحبس ألسنتهم عن القراءة ، ولذلك لم يذكرهم مع أن قوله :

﴿ وَمَن كَانَ فِى هذه أعمى فَهُوَ فِى الآخرة أعمى ﴾ أيضاً مشعر بذلك فإن الأعمى لا

يقرأ الكتاب ، والمعنى ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب لا يبصر رشده كان في الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة . ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ منه في الدنيا لزوال الاستعداد وفقدان الآلة والمهلة . وقيل لأن الاهتداء بعد لا ينفعه والأعمى مستعار من فاقد الحاسة . وقيل الثاني للتفضيل من عمي بقلبه كالأجهل والأبله ولذلك لم يمله أبو عمرو ويعقوب ، فإن أفعل التفضيل تمامه بمن فكانت ألفه في حكم المتوسطة كما في أعمالكم بخلاف النعت ، فإن ألفه واقعة في الطرف لفظاً وحكماً فكانت معرضة للامالة من حيث إنها تصير ياء في التثنية ، وقد أمالهما حمزة والكسائي وأبو بكر ، وقرأ ورش بين بين فيهما .

(443/463)

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ نزلت في ثقيف قالوا لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب لا نعشر ولا نحشر ولا نجبى في صلاتنا ، وكل رباً لنا فهو لنا وكل رباً علينا فهو موضوع عنا ، وأن تمتعنا باللات سنة وأن تحرم وادينا كما حرمت مكة ، فإن قالت العرب لم فعلت ذلك فقل إن الله أمرني . وقيل في قريش قالوا لا نمكنك من استلام الحجر حتى تلم بآلهتنا وتمسها بيدك . وإن هي المخففة واللام هي الفارقة والمعنى : أن الشأن قاربوا بمبالغتهم أن يوقعوك في الفتنة بالاستنزال . ﴿ عَنِ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ من

الأحكام ﴿ لِتفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ غير ما أوحينا إليك . ﴿ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك بافتتانك ولياً لهم بريئاً من ولايتي .

﴿ وَلَوْلاَ أَن ثبتناك ﴾ ولولا تثبيتنا إياك . ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ لقاربت أن تميل إلى اتباع مرادهم ، والمعنى أنك كنت على صدد الركون إليهم لقوة خدعهم وشدة احتيالهم لكن أدركتك عصمتنا فمنعت أن تقرب من الركون فضلاً أن تركن إليهم ، وهو صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما هَمَّ بإجابتهم مع قوة الدواعي . إليها ، ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه .

﴿ إِذاً لأذقناك ﴾ أي لو قاربت لأذقناك . ﴿ ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ الممات ﴾ أي عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ضعف ما نعذب به في الدارين بمثل هذا الفعل غيرك لأن خطأ الخطير أخطر ، وكان أصل الكلام عذاباً ضعفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في الممات بمعنى مضاعفاً ، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، ثم أضيفت كما يضاف موصوفها . وقيل الضعف من أسماء العذاب . وقيل المراد ب ﴿ ضِعْفَ الحياة ﴾ عذاب الآخرة ﴿ وَضِعْفَ الممات ﴾ عذاب القبر . ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ يدفع العذاب عنك .

﴿ وَإِن كَادُواْ ﴾ وإن كاد أهل مكة . ﴿ لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾ ليزعجوك بمعاداتهم . ﴿ مِّنَ الأرض ﴾ أرض مكة . ﴿ لِيُخرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خلافك ﴾ ولو خرجت لا يبقون بعد خروجك . ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ إلا زماناً قليلاً ، وقد كان كذلك فإنهم أهلكوا ببدر بعد هجرته بسنة . وقيل الآية : نزلت في اليهود حسدوا مقام النبي بالمدينة فقالوا : الشام مقام الأنبياء فإن كنت نبياً فالحق بها حتى نؤمن بك ، فوقع ذلك في قلبه فخرج مرحلة فنزلت ، فرجع ثم قتل منهم بنو قريظة وأجلي بنو النضير بقليل . وقرىء "لا يلبثوا" منصوباً ب ﴿ إِذاً ﴾ على أنه معطوف على جملة قوله : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾ لا على خبر كاد فإن إذا لا تعمل إذا كان معتمد ما بعدها على ما قبلها وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وحفص ﴿ خلافك ﴾ وهو لغة فيه قال الشاعر :

عفت الدِّيَار خِلافَهُمْ فَكَأَنَّمَا . . . بسط الشَّوَاطِبَ بَيْنَهُنَّ حَصِيراً

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ نصب على المصدر أي سن الله ذلك سنة ، وهو أن يهلك كل أمة لله أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم ، فالسنة لله وإضافتها إلى الرسل لأنها من أجلهم ويدل عليه . ﴿ وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ أي تغييراً .

﴿ أَقِمِ الصلاةِ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ لزوالها ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام " أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر " وقيل لغروبها وأصل التركيب للانتقال ومنه الدلك فإن الدلك لا تستقر يده ، وكذا كل ما تركب من الدال واللام : كدلج ودلح ودلع ودلف ودله . وقيل الدلوك من الدلك لأن الناظر إليها يدلك عينيه ليدفع شعاعها ، واللام للتأنيث مثلها في : لثلاث خلون ﴿ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ إلى ظلمته وهو وقت صلاة العشاء الأخيرة . ﴿ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ﴾ وصلاة الصبح ، سميت قرآناً لأنه ركنها كما سميت ركوعاً وسجوداً ، واستدل به على وجوب القراءة فيها ولا دليل فيه لجواز أن يكون التجوز لكونها مندوبة فيها ، نعم لو فسر بالقراءة في صلاة الفجر دل الأمر بإقامتها على الوجوب فيها نصاً وفي غيرها قياساً . ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾ تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ، أو شواهد القدرة من تبدل الظلمة بالضياء والنوم الذي هو أخو الموت بالانتباه أو كثير من المصلين أو من حقه أن يشهده الجم الغفير ، والآية جامعة للصلوات الخمس إن فسر الدلوك بالزوال ولصلوات الليل وحدها إن فسر بالغروب . وقيل المراد بالصلاة صلاة المغرب وقوله ﴿ لِدُلُوكِ الشمس إلى غَسَقِ اليل ﴾ بيان لمبدأ الوقت ومنتهاه ، واستدل به على أن الوقت يمتد إلى غروب الشفق .

(446/463)

﴿ وَمِنَ اليل فَتَهَجَّدْ بِهِ ﴾ وبعض الليل فاترك الهجود للصلاة والضمير لل ﴿ قُرْءانَ ﴾ . ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة ، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك . ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ مقاماً يحمده القائم فيه وكل من عرفه ، وهو مطلق في كل مكان يتضمن كرامة والمشهور أنه مقام الشفاعة . لما روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : " هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي " ولإشعاره بأن الناس يحمدونه لقيامه فيه وما ذاك إلا مقام الشفاعة ، وانتصابه على الظرف بإضمار فعله أي فيقيمك مقاماً أو بتضمين ﴿ يَبْعَثَكَ ﴾ معناه ، أو الحال بمعنى أن يبعثك ذا مقام .

(447/463)

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى ﴾ أي في القبر . ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ إدخالاً مرضياً . ﴿ وَأَخْرِجْنِى ﴾ أي منه عند البعث . ﴿ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ إخراجاً ملقى بالكرامة . وقيل

المراد إدخال المدينة والإخراج من مكة . وقيل إدخاله مكة ظاهراً عليها وإخراجه منها آمناً من المشركين . وقيل إدخاله الغار وإخراجه منه سالماً . وقيل إدخاله فيما حمله من أعباء الرسالة وإخراجه منه مؤدياً حقه . وقيل إدخاله في كل ما يلابسه من مكان أو أمر وإخراجه منه . وقرىء ﴿ مَدْخَلَ ﴾ و﴿ مَخْرَجَ ﴾ بالفتح على معنى أدخلني فأدخل دخولاً وأخرجني فأخرج خروجاً . ﴿ واجعل لّى مِن لَّدُنْكَ سلطانا نَّصِيرًا ﴾ حجة تنصرني على من خالفني أو ملكاً ينصر الإِسلام على الكفر ، فاستجاب له بقوله : ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الغالبون ﴾ ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلّهِ ﴾ ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِى الأرض ﴾ ﴿ وَقُلْ جَاء الحق ﴾ الإِسلام ﴿ وَزَهَقَ الباطل ﴾ وذهب وهلك الشرك من زهق روحه إذا خرج . ﴿ إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقًا ﴾ مضمحلاً غير ثابت ، عن ابن مسعود رضي الله عنه (أنه عليه الصلاة والسلام دخل مكة يوم الفتح وفيها ثلثمائة وستون صنماً ينكت بمخصرته في عين كل واحد منها فيقول جاء الحق وزهق الباطل ، فينكب لوجهه حتى ألقى جميعها وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من صفر فقال : يا علي ارم به فصعد فرمى به فكسره) .

﴿ وَنُنَزّلُ مِنَ القرءان مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ما هو في تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافي للمرضى ، و﴿ مِنْ ﴾ للبيان فإن كله كذلك . وقيل إنه للتبعيض

والمعنى أن منه ما يشفي من المرض كالفاتحة وآيات الشفاء . وقرأ البصريان ﴿ نُنْزِلُ ﴾ بالتخفيف . ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إَلاَّ خَسَارًا ﴾ لتكذيبهم وكفرهم به .

(448/463)

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان ﴾ بالصحة والسعة ﴿ أَعْرَضَ ﴾ عن ذكر الله . ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ لوى عطفه وبعد بنفسه عنه كأنه مستغن مستبد بأمره ، ويجوز أن يكون كناية عن الاستكبار لأنه من عادة المستكبرين ، وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان هنا وفي "فصلت" ﴿ وناء ﴾ على القلب أو على أنه بمعنى نهض . ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر ﴾ من مرض أو فقر . ﴿ كَانَ يَئُوساً ﴾ شديد اليأس من روح الله .

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ ﴾ قل كل أحد يعمل على طريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة ، أو جوهر روحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه . ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أهدى سَبِيلاً ﴾ أسد طريقاً وأبين منهجاً ، وقد فسرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدين .

(449/463)

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح ﴾ الذي يحيا به بدن الإنسان ويدبره . ﴿ قُلِ الروحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ من الإبداعيات الكائنة ب ﴿ كُنّ ﴾ من غير مادة وتولد من أصل كأعضاء جسده ، أو وجد بأمره وحدث بتكوينه على أن السؤال عن قدمه وحدوثه . وقيل مما استأثر الله بعلمه . لما روي : أن اليهود قالوا لقريش سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح ، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي ، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة . وقيل الروح جبريل وقيل خلق أعظم من الملك وقيل القرآن ، ومن أمر ربي معناه من وحيه . ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ تستفيدونه بتوسط حواسكم ، فإن اكتساب العقل للمعارف النظرية . إنما هو من الضروريات المستفادة من إحساس الجزئيات ، ولذلك قيل من فقد حساً فقد فقد علماً . ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحس ولا شيئاً من أحواله المعروفة لذاته ، وهو إشارة إلى أن الروح مما لا يمكن معرفة ذاته إلا بعوارض تميزه عما يلتبس به ، فلذلك اقتصر على هذا الجواب كما اقتصر موسى في جواب : وما رب العالمين بذكر بعض صفاته . روي : أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك قالوا : أنحن مختصون بهذا الخطاب ؟ فقال : بل نحن وأنتم ، فقالوا : ما أعجب شأنك ساعة تقول ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ وساعة تقول هذا فنزلت ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ﴾ وما قالوا لسوء فهمهم لأن الحكمة الإنسانية أن يعلم من الخير والحق ما تسعه القوة البشرية بل ما ينتظم به

معاشه ومعاده ، وهو بالإضافة إلى معلومات الله التي لا نهاية لها قليل ينال به خير الدارين وهو بالإضافة إليه كثيراً .

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ اللام الأولى موطئة للقسم و﴿ لنذهبن ﴾ جوابه النائب مناب جزاء الشرط . والمعنى إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من المصاحف والصدور ﴿ ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً ﴾ من يتوكل علينا استرداده مسطوراً محفوظاً .

﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبّكَ ﴾ فإنها إن نالتك فلعلها تسترده عليك ، ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً بمعنى ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به ، فيكون امتناناً بابقائه بعد المنة في تنزيله . ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ كإرساله وإنزال الكتاب عليه وإبقائه في حفظه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 457. 465 ﴾

وقال ابن جزى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70) ﴾

﴿ وفضلناهم على كَثِيرٍ مّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾

يعني فضلهم على الجن وعلى سائر الحيوان ، ولم يفضلهم على الملائكة ، ولذلك قال : على كثير وأنواع التفضيل كثيرة لا تحصى : وقد ذكر المفسرون منها كون الإنسان يأكل بيده ، وكونه منتصب القامة ، وهذه أمثلة .

﴿ بإمامهم ﴾ قيل : يعني بنبيهم ، يقال : يا أمة فلان ، وقيل : يعني كتابهم الذي أنزل عليهم ، وقيل : كتابهم الذي فيه أعمالهم ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ الفتيل هو الخيط الذي في شق نواة التمرة ، والمعنى أنهم لا يظلمون من أعمالهم قليلاً ولا كثيراً ، فعبر بأقل الأشياء تنبيهاً على الأكثر .

﴿ وَمَن كَانَ فِي هذه أعمى ﴾ الإشارة بهذه إلى الدنيا ، والعمى يراد به عمى القلب : أي من كان في الدنيا أعمى عن الهدى ، والصواب فهو في يوم القيامة أعمى : أي حيران يائس من الخير ، ويحتمل أن يريد بالعمى في الآخرة عمى البصر : كقوله ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ [طه : 124] ، وإنما جعل الأعمى في الآخرة أضل سبيلاً ، لأنه حينئذ لا ينفعه الاهتداء ، ويجوز في أعمى الثاني : أن يكون صفة للأول ، وأن يكون من الأفعال التي

للتفضيل ، وهذا أقوى لقوله وأضل سبيلاً فعطف أضل الذي هو من أفعل من كذا على ما هو شبهه ، قال سيبويه . لا يجوز أن يقال : هو أعمى من كذا ، ولكن إنما يمتنع ذلك في عمى البصر ، لا في عمى القلب .

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ الآية : سببها أن قريشاً قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : اقبل بعض أمرنا ونقبل بعض أمرك ، وقيل : إن ثقيفاً طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤخرهم بعد إسلامهم سنة يعبدون فيها اللات والعزى ، والآية على هذا القول مدنية ﴿ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ الافتراء هنا يراد به المخالفة لما أوحى إليه من القرآن وغيره ﴿ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ أي لو فعلت ما أرادوا منك لاتخذوك خليلاً ﴿ وَلَوْلاَ أَن ثبتناك لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ لولا تدل على امتناع شيء لوجود غيره ، فدلت هنا على امتناع مقاربة النبي صلى الله عليه وسلم الركون إليهم لأجل تثبيت الله له وعصمته ، وكدت تقتضي نفي الركون ، لأن معنى كاد فلان يفعل كذا أي : إنه لم يفعله فانتفى الركون إليهم ومقاربته ، فليس في ذلك نقص من جانب النبي صلى لله عليه وسلم ، لأن التثبيت منعه من مقاربة الركون ، ولو لم يثبته الله لكانت مقاربته للركون إليهم شيئاً قليلاً

، وأما منع التثبيت فلم يركن قليلاً ولا كثيراً ، ولا قارب ذلك ﴿ إِذاً لأذقناك ضِعْفَ الحياوة وَضِعْفَ الممات ﴾ أي عذابهما لو فعل ذلك .

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض ﴾ الضمير لقريش ، كانوا قد هموا أن يخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم من مكة ؛ وذلك قبل الهجرة ، فالأرض هنا يراد بها مكة لأنها بلدة ﴿ وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خلافك إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي لو أخرجوك لم يلبثوا بعد خروجك بمكة إلا قليلاً ، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم مهاجراً من مكة إلى المدينة لأجل إذاية قريش له ولأصحابه ، لم يبقوا بعد ذلك إلا قليلاً ، وقتلوا يوم بدر ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ انتصب سنة على المصدر ، ومعناه العادة أي هذه عادة الله مع رسله .

(453/463)

﴿ أَقِمِ الصلاة لِدُلُوكِ الشمس إلى غَسَقِ اليل وَقُرْآنَ الفجر ﴾ هذه الآية إشارة إلى الصلوات المفروضة فدلوك الشمس زوالها ، والإشارة إلى الظهر والعصر ، وغسق الليل ظلمته وذلك إشارة إلى المغرب والعشاء ، وقرآن الفجر صلاة الصبح ، وانتصب قرآن الفجر بالعطف على موضع اللام في قوله لدلوك الشمس ، فإن اللام فيه ظرفية بمعنى علم ، [كذا] وقيل : " هو عطف على الصلاة " وقيل : مفعول بفعل مضمر تقديره : إقرأ قرآن

الفجر ، وإنما عبر عن صلاة الصبح بقرآن الفجر ، لأن القرآن فيها أكثر من غيرها لأنها تصلى بسورتين طويلتين ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً ﴾ أي تشهده ملائكة الليل والنهار ، فيجتمعون فيه إذ تصعد ملائكة الليل وتنزل ملائكة النهار .

﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً ﴾ لما أمر بالفرائض أمر بعدها بالنوافل ، ومن للتبعيض ، والضمير في به للقرآن والتهجد والسهر هو ترك الهجود ومعنى الهجود : النوم فالتفعل هنا للخروج عن الشيء كالتحرج والتأثم : في الخروج عن الإثم والحرج ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ يعني الشفاعة يوم القيامة ، وانتصب مقاماً على الظرف ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ الآية : المدخل : دخولة إلى المدينة ، والمخرج خروجه من مكة ، وقيل : المدخل في القبر ، والمخرج إلى البعث ، واختار ابن عطية أن يكون على العموم في جميع الأمور ﴿ سلطانا نَّصِيراً ﴾ قيل : معناه حجة تنصرني بها ويظهر بها صدقي ، وقيل : قوة ورياسة تنصرني بها على الأعداء وهذا أظهر .

﴿ وَقُلْ جَآءَ الحق وَزَهَقَ الباطل ﴾ الحق الإيمان والباطل الكفر ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾ من للتبعيض ، أو لبيان الجنس ، والمراد بالشفاء أنه يشفى القلوب من الريبة

والجهل ، ويحتمل أن يريد نفعه من الأمراض بالرقيا به والتعويذ ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان ﴾ الآية : المراد بالإنسان هنا الجنس ، لأن ذلك من سجية الإنسان ، وقيل : إنما يراد الكافر لأنه هو الذي يعرض عن الله ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ أي بعُد ، وذلك تأكيد وبيان للإعراض ، وقرأ ابن عامر ناءٍ وهو بمعنى واحد ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ ﴾ أي مذهبه وطريقته التي تشاكله .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح ﴾ السائلون اليهود ، وقيل : قريش بإشارة اليهود ، والروح هنا عند الجمهور هو الذي في الجسم ، وقد يقال فيه : النفس وقيل : الروح هنا جبريل ، وقيل : القرآن ، والأول هو الصواب لدلالة ما بعده على ذلك ﴿ قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ أي من الأمور التي استأثر الله بها ولم يطلع عليها خلقه ، وكانت اليهود قد قالت لقريش اسألوه عن الروح ، فإن لم يجبكم فيه بشيء فهو نبيّ ، وذلك أنه كان عندهم في التوراة أن الروح مما انفرد الله بعلمه ، وقال ابن بريدة : لقد مضى النبي صلى الله عليه وسلم وما يعرف الروح ، ولقد كثر اختلاف الناس في النفس والروح ، وليس في أقوالهم في ذلك ما يعول عليه ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ خطاب عام لجميع الناس ، لأن علمهم قليل بالنظر إلى علم الله . وقيل

: خطاب لليهود خاصة ، والأول أظهر ، لأن فيه إشارة إلى أنهم لا يصلون إلى العلم بالروح ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي إن شئنا ذهبنا بالقرآن فمحوناه من الصدور والمصاحف ، وهذه الآية متصلة المعنى بقوله : وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً : أي في قدرتنا أن نذهب بالذي أوحينا إليك فلا يبقى عندك شيء من العلم ﴿ وَكِيلاً ﴾ أي من يتوكل بإعادته وردّه بعد ذهابه ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ يحتمل أن يكون استثناء متصلاً ، فمعنى أن رحمة ربك ترد القرآن بعد ذهابه لو ذهب ، أو استثناء منقطعاً بمعنى أن رحمة ربك تمسكه عن الذهاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 176 . 178 ﴾

(456/463)

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70) ﴾

ثم إنّ الله تعالى ذكر نعمة أخرى رفيعة جليلة على الإنسان وذكر فيها أربعة أنواع : النوع الأول : قوله تعالى:

﴿ ولقد كرّمنا ﴾ أي : بعظمتنا تكريماً عظيماً ﴿ بني آدم ﴾ وحذف متعلق التكريم فلذا اختلف المفسرون فيه فقال ابن عباس : كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم فإنه يأكل بيده.

وعن الرشيد أنه حضر طعاماً عنده فدعاه بالملاعق وعنده أبو يوسف فقال له : جاء في تفسير جدّك ابن عباس ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم ﴾ جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فأحضرت الملاعق فردّها وأكل بأصابعه. وروي عن ابن عباس أنه قال : بالعقل. وقال الضحاك : بالنطق والتمييز. وقيل على سائر الطين بالنموّ، وعلى النامي بالحياة وعلى سائر الحيوان بالنطق. وقال عطاء : بتعديل القامة وامتدادها والدواب منكسة على وجوهها. قال بعضهم : وينبغي أن يشترط مع هذا شرط وهو طول القامة مع استكمال القوّة العقلية والحسية والحركية وإلا فالأشجار أطول قامة من الإنسان قيل الرجال باللحى والنساء بالذوائب. وقيل بأن سخر لهم سائر الأشياء وقيل بأنّ منهم خير أمّة أخرجت للناس.

وقيل بحسن الصورة. قال تعالى : ﴿ وصوّركم فأحسن صوركم ﴾ (غافر،)

. ولما ذكر الله تعالى خلقة الإنسان وهي ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ (الحجر،)

الآية قال : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (المؤمنون،)

. قال الرازي : فإن شئت فتأمّل عضواً واحداً من أعضاء الإنسان وهي العين فخلق الحدقة سوداء ثم أحاط بذلك السواد بياض العين ، ثم أحاط بذلك البياض سواد الأشفار ثم أحاط بذلك السواد بياض الأجفان ثم خلق فوق بياض الجفن سواد الحاجبين ، ثم خلق فوق ذلك السواد بياض الجبهة ثم خلق فوق ذلك البياض سواد الشعر . وليكن هذا المثال الواحد أنموذجاً لك في هذا الباب انتهى .

واستدل أيضاً لشرف الإنسان بأنّ الموجود إمّا أن يكون أزلياً وأبدياً وهو الله تعالى وإمّا أن لا يكون لا أزلياً ولا أبدياً وهو عالم الدنيا مع كل ما فيه من المعادن والنبات والحيوان وهذا أحسن الأقسام وإمّا أن يكون أزلياً ولا يكون أبدياً وهذا ممتنع الوجود لأنّ ما ثبت قدمه امتنع عدمه ، وإمّا أن لا يكون أزلياً ولكنه يكون أبدياً وهو الإنسان والملك ولا شك أنّ هذا القسم أشرف من الثاني والثالث وذلك يقتضي كون الإنسان أشرف من أكثر المخلوقات .

النوع الثاني : قوله تعالى : ﴿ وحملناهم في البرّ ﴾ على الدوابّ وغيرها ﴿ و ﴾ في ﴿ البحر ﴾ على السفن وغيرها ، من حملته حملاً إذا جعلت له ما يركبه أو حملناهم فيهما حتى لم نخسف بهم الأرض ولم نغرقهم في الماء .

النوع الثالث : قوله تعالى : ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي : المستلذات من الثمرات والأقوات ، وذلك لأنّ الأغذية إمّا حيوانية وإمّا نباتية وكلا القسمين فإنّ الإنسان إنما يتغذى

بألطف أنواعها وأشرف أقسامها بعد التنقية التامّة والطبخ الكامل والنضج البالغ وذلك مما لا يحصل إلا للإنسان.

النوع الرابع: قوله تعالى: ﴿ وفضلناهم ﴾ في أنفسهم بإحسان الشكل وفي صفاتهم بالعلم المنتج لسعادة الدارين ﴿ على كثير ممن خلقنا ﴾ أي: بعظمتنا التي خلقناهم بها. وأكد الفعل بالمصدر إشارة إلى إعراقهم في الفضيلة فقال تعالى: ﴿ تفضيلاً ﴾. تنبيه: ظاهر الآية يدل على فضلهم على كثير من خلقه لا على الكل. وقال قوم: فضلوا على جميع الخلق إلا على الملائكة. وهو قول ابن عباس واختيار الزجاج على ما رواه الواحدي في بسيطه. وقال الكلبي: فضلوا على جميع الخلائق كلهم إلا على طائفة من الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وأشباههم. وقال قوم: فضلوا على جميع الخلق وعلى جميع الملائكة كلهم وقد يوضع الأكثر موضع الكل كقوله تعالى: ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وأكثرهم كاذبون ﴾ (الشعراء: ،)

أي: كلهم.

وروى جابر يرفعه قال: "لما خلق الله تعالى آدم وذرّيته قالت الملائكة: يا رب خلقتهم

يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال تعالى: لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه روحي كمن قلت له كن فكان" . والأولى كما قاله بعض المفسرين كالبغوي وابن عادل أن يقال عوامّ الملائكة أفضل من عوام المؤمنين، وخواص المؤمنين أفضل من خواص الملائكة. قال تعالى: ﴿إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ (البينة،)

. وروي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: المؤمن أكرم على الله من الملائكة عنده. رواه البغوي ورواه الواحدي في بسيطه. فإن قيل: قال تعالى في أوّل الآية: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾ وقال في آخرها: ﴿وفضلناهم﴾ فلا بدّ من الفرق بين التكريم والتفضيل وإلا لزم التكرار؟

(459/463)

أجيب: بأنه تعالى فضل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية كالعقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة ثم أنه سبحانه وتعالى عرّضه بواسطة العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة. ولما ذكر تعالى أنواع كرامات الإنسان في الدنيا شرح أحوال درجاته في الآخرة بقوله تعالى:

﴿ يوم ﴾ أي : اذكر يوم ﴿ ندعو ﴾ أي : بتلك العظمة ﴿ كل أناس ﴾ أي : منكم ﴿ بإمامهم ﴾ الإمام في اللغة كل من ائتمّ به قوم كانوا على هدى أو ضلالة فالنبيّ إمام أمّته والخليفة إمام رعيته والقرآن إمام المسلمين ، وإمام القوم هو الذي يقتدون به في الصلاة .

وذكروا في تفسير الإمام هنا أقوالاً أحدها إمامهم نبيهم . روي ذلك مرفوعاً عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "فينادى يوم القيامة يا أمّة إبراهيم يا أمّة موسى يا أمّة عيسى يا أمّة محمد صلى الله عليه وسلم فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الأنبياء فيأخذون كتبهم بأيمانهم ثم ينادى الأتباع يا أتباع ثمود يا أتباع فرعون يا أتباع فلان وفلان من رؤوساء الضلال وأكابر الكفر" . الثاني : أنّ إمامهم كتابهم الذي أنزل عليهم فينادى في القيامة يا أهل القرآن ، يا أهل التوراة ، يا أهل الإنجيل . الثالث : إمامهم كتاب أعمالهم قال تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ (يس)

فسمى الله تعالى هذا الكتاب إماماً . قال الزمخشري : ومن بدع التفاسير أنّ الإمام جمع أمّ وأنّ الناس يدعون يوم القيامة بأمّهاتهم دون آبائهم وان الحكمة فيه رعاية حق عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين وأن لا تفتضح أولاد الزنا . قال : وليت شعري أيهما أبدع

البدع؟ أصحة لفظه أم بهاء حكمته. قال ابن عادل: وهو معذور لأن أمّا لا يجمع على إمام هذا قول من لا يعرف الصناعة ولا لغة العرب. ﴿فمن أوتي﴾ أي: من المدعوّين ﴿كتابه﴾ أي: كتاب عمله ﴿بيمينه﴾ وهم السعداء أولو البصائر في الدنيا ﴿فأولئك يقرؤون كتابهم﴾ ابتهاجاً وتبجحاً بما يرون فيه من الحسنات ﴿ولا يظلمون﴾ بنقص حسنة ما من ظالم ما ﴿فتيلاً﴾ أي: شيئاً في غاية القلة والحقارة بل يزدادون بحسب إخلاص النيات وطهارة الأخلاق وزكاة الأعمال.

تنبيه: الفتيل القشرة التي في شق النواة تسمى بذلك لأنه إذا رام الإنسان إخراجه انفتل وهذا مثل يضرب للشيء الحقير التافه ومثله القطمير وهو الغلالة التي في ظهر النواة، والنقير وهي النقرة التي في ظهر النواة. وروى مجاهد عن ابن عباس قال: الفتيل هو الوسخ الذي يفتله الإنسان بين سبابته وإبهامه. فإن قيل: لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع أن أهل الشمال يقرؤونه؟

أجيب: بأن أصحاب الشمال إذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملاً على المهلكات العظيمة والقبائح الكاملة فيستولي الخوف على قلوبهم ويثقل لسانهم فيعجزون عن القراءة الكاملة وأمّا اصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك، لا جرم أنهم يقرؤون كتابهم على أحسن الوجوه ثم لا يقنعون بقراءتهم وحدهم بل يقول القارئ لأهل المحشر: ﴿هاؤم اقرؤوا

كتابيه ﴾ (الحاقة،)

جعلنا الله تعالى وجميع أحبابنا منهم. ثم قال الله تعالى:

﴿ ومن كان ﴾ منهم ﴿ في هذه ﴾ أي: الدار ﴿ أعمى ﴾ أي: ضالاً يعمل في الأفعال فعل الأعمى في أخذ الأعيان لا يهتدي إلى أخذ ما ينفعه وترك ما يضرّه ولا يميز بين حسن وقبيح ﴿ فهو في الآخرة أعمى ﴾ أي: أشدّ عمى مما كان عليه في هذه الدار لا ينجح له قصد ولا يهتدي لصواب ولم يقل تعالى أشدّ عمى كما يقال في الخلق اللازمة لحالة واحدة مثل العور والحمرة والسواد ونحوها لأن هذا مراد به عمى القلب الذي من شأنه التزايد والحدوث في كل لحظة شيئاً بعد شيء. ﴿ وأضلّ سبيلاً ﴾ لأنّ هذه الدار دار الأكتساب والترقي في الأسباب، وأمّا تلك فليس فيها شيء من ذلك. وقال عكرمة: جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسأله رجل عن هذه الآية فقال: اقرؤوا ما قبلها فقرؤوا: ﴿ ربكم الذي يزجي لكم الفلك ﴾ إلى قوله: ﴿ تفضيلاً ﴾. فقال ابن عباس: من كان أعمى في هذه النعم التي قد رأى وعاين فهو في الآخرة التي لم يعاين ولم ير أعمى وأضلّ سبيلاً، وعلى هذا فالإشارة في قوله هذه إلى النعم المذكورة في الآيات المتقدّمة، وحمل

بعضهم العمى الثاني على عمى العين والبصر كما قال تعالى : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ (الحجر ،)

. وقال تعالى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ﴾ (الإسراء ،)

وهذا العمى زيادة في عقوبتهم . ولما عدّد تعالى في الآيات المتقدّمة أقسام نعمه على خلقه وأتبعها بذكر درجات الخلق في الآخرة وشرح أحوال السعداء أردفه بما يجري مجرى تحذير السعداء عن الاغترار بوسواس أرباب الضلال والانخداع بكلماتهم المشتملة على المكر والتلبيس فقال تعالى:

(462/463)

﴿ وإن كادوا ﴾ أي : قاربوا في هذه الحياة الدنيا لعماهم في أنفسهم عن عصمة الله تعالى لك . ولما كانت إن هذه هي المخففة من الثقيلة أتى باللام الفارقة بينها وبين النافية بقوله تعالى : ﴿ ليفتنونك ﴾ أي : ليخالطونك مخالطة تميلك إلى جهة قصدهم لكثرة خداعهم . واختلف في سبب نزول هذه الآية فروى عطاء عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في وفد

ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال قال : وما هنّ قالوا أن لا نجبي في الصلاة بفتح الجيم والباء الموحدة المشدّدة ، أي : لا ننحني فيها ولا نكسر أصنامنا إلا بأيدينا ، وأن لا تمنعنا من اللات والعزى سنة من غير أن نعبدها فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم "لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود" . وأمّا أن تكسروا أصنامكم بأيديكم فذلك لكم وأمّا الطاغية يعني اللات والعزى فإني غير ممتعكم بها ، وفي رواية وحرّم وادينا كما حرّمت مكة شجرها وطيرها ووحشها فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم فقالوا : يا رسول الله إنا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا ما لم تعط غيرنا فإن خشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا فقل الله أمرني بذلك فسكت النبيّ صلى الله عليه وسلم فطمع القوم في سكوته أن يعطيهم ذلك فصاح عليهم عمر وقال : أما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمسك عن الكلام كراهة لما تذكرونه فأنزل الله تعالى هذه الآية" .

وقال سعيد بن جبير : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود فمنعه قريش وقالوا : لا ندعك حتى تلمّ بآلهتنا وتمسها فحدّث صلى الله عليه وسلم نفسه ما عليّ أن

أفعل ذلك والله يعلم أني لها لكاره بعد أن يدعوني حتى استلم الحجر فأنزل الله تعالى هذه الآية . وروي أنّ قريشاً قالوا له : اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك فنزلت : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ . ﴿ عن الذي أوحينا إليك ﴾ من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا ﴿ لتفتري ﴾ أي : لتقول ﴿ علينا غيره ﴾ أي : ما لم نقله ﴿ وإذاً ﴾ أي : لو ملت إلى ما دعوك إليه ﴿ لاتخذوك ﴾ أي : بغاية الرغبة ﴿ خليلاً ﴾ أي : لوالوك وصافوك وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم وراض بشركهم ومن يكن خليل الكفار لم يكن خليل الله تعالى ، ولكنك أبصرت رشدك فلزمت أمر الله واستمروا على عماهم إتماماً لتفضيلنا لك على كل مخلوق .

﴿ ولولا أن ثبتناك ﴾ أي : على الحق بعصمتنا إياك ﴿ لقد كدت ﴾ أي : قاربت ﴿ تركن ﴾ أي : تميل ﴿ إليهم ﴾ أي : إلى الأعداء ﴿ شيئاً ﴾ أي : ركوناً ﴿ قليلاً ﴾ لمحبتك في هدايتهم وحرصك على منفعتهم ولكنا عصمناك فمنعناك أن تقرب من الركون فضلاً من أن تركن إليهم لأنّ كلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره تقول لولا زيد لهلك عمرو ومعناه أنّ وجود زيد منع من حصول الهلاك لعمرو فكذلك ههنا قوله تعالى : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم ﴾ معناه لولا حصل تثبيت الله لمحمد صلى الله عليه وسلم فكان تثبيت الله مانعاً من حصول قرب الركون وهذا صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما همّ بإجابتهم مع قوّة الداعي إليها ودليل على أنّ العصمة بتوفيق الله وحفظه .

﴿ إذاً ﴾ أي : لو قاربت الركون الموصوف إليهم ﴿ لأذقناك ضعف ﴾ عذاب ﴿ الحياة وضعف ﴾ عذاب ﴿ الممات ﴾ أي : مثلي ما يعذب غيرك في الدنيا والآخرة وكان أصل الكلام عذاباً ضعفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في الممات ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ثم أضيفت كما يضاف موصوفها وقيل المراد بضعف الحياة عذاب الآخرة وضعف الممات عذاب القبر ، والسبب في تضعيف هذا العذاب أن أقسام نعمة الله تعالى في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أكثر فكانت ذنوبهم أعظم فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر ونظيره قوله تعالى : ﴿ يا نساء النبيّ من يأت منكنّ بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ (الأحزاب ،)

وقيل الضعف من أسماء العذاب ﴿ ثم لا تجد لك ﴾ أي : وإن كنت أعظم الخلق وأعلاهم مرتبة وهمة ﴿ علينا نصيراً ﴾ أي : مانعاً يمنعك من عذابنا . واختلفوا في سبب نزول قوله تعالى:

﴿ وإن ﴾ أي : وإن هم ﴿ كادوا ﴾ أي : الأعداء ﴿ ليستفزونك ﴾ أي : ليزعجونك بمعاداتهم ﴿ من الأرض ليخرجوك منها ﴾ فقال ابن عباس : إنّ رسول الله صلى الله عليه

وسلم لما هاجر إلى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم ، فقالوا : يا أبا القاسم إنّ الأنبياء إنما بعثوا بالشأم وهي بلاد مقدسة وكانت مسكن إبراهيم فلو خرجت إلى الشام آمنا بك وأتبعناك ، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم فإن كنت رسول الله فالله يمنعك منهم فعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أميال من المدينة وقيل بذي الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازماً على الخروج إلى الشام فيدخلون في دين الله فنزلت هذه الآية فرجع وهذا قول الكلبيّ وعلى هذا فالآية مدنية والمراد بالأرض أرض المدينة .

(465/463)

وقال قتادة ومجاهد : الأرض أرض مكة والآية مكية ، همّ المشركون أن يخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكفهم الله تعالى عنه حتى أمره بالهجرة فخرج بنفسه . قال ابن عادل تبعاً للرازي : وهذا أليق بالآية لأنّ ما قبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية وهذا اختيار الزجاج وكثير في التنزيل ذكر الأرض والمراد منها مكان مخصوص كقوله تعالى : ﴿ أو ينفوا من الأرض ﴾ (المائدة ،)

أي : من مواضعهم . وقوله تعالى حكاية عن أخي يوسف : ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾

(يوسف ،)

يعني الأرض التي كان قصدها لطلب الميرة. فإن قيل : قال تعالى : ﴿ وكأين من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك التي أخرجتك ﴾ (محمد ،)

يعني أهل مكة فالمراد أهلها ، فذكر تعالى أنهم أخرجوه ، وقال تعالى : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾ فكيف الجمع بينهما على القول الثاني ؟

أجيب : بأنهم هموا بإخراجه وهو صلى الله عليه وسلم ما خرج بسبب إخراجهم وإنما خرج بأمر الله تعالى وحينئذٍ فلا تناقض ﴿ وإذاً ﴾ أي : وإذا أخرجوك ﴿ لا يلبثون خلفك ﴾ أي : بعد إخراجك لو أخرجوك ﴿ إلا ﴾ زمناً ﴿ قليلاً ﴾ وقد كان كذلك على القول الثاني ، فإنهم أهلكوا ببدر بعد هجرته ، وعلى القول الأوّل قتل منهم بني قريظة وأجلى بني النضير بقليل . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة بفتح الخاء وسكون اللام والباقون بكسر الخاء وفتح اللام وبعدها ألف ، قال الشاعر :

عفت الديار ، أي : اندرست. خلافهم ، أي : خلفهم .

*فكأنما بسط الشواطب بينهنّ حصيرا

الشواطب النساء اللاتي يشققن الجريد ليعملن منه الحصير والشطب والشواطب سعف النخل الأخضر يصف دروس ديار الأحبة بعدهم وأنها غير منكوسة كأنما بسط فيها سعف النخل . ولما أخبره بذلك أعلمه أنه سنة في جميع الرسل بقوله تعالى:

﴿ سنة ﴾ أي : كسنة أو سننا بك سنة ﴿ من قد أرسلنا قبلك ﴾ أي : في الأزمان الماضية كلها ﴿ من رسلنا ﴾ أنا نهلك كل أمّة أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم ، والسنة لله وإضافتها إلى الرسل لأنها من أجلهم ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ ولا تجد لسنتنا تحويلاً ﴾ (الإسراء ،)

أي : تغييرا . ولما قرّر تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم الآلهيات والمعاد والنبوّات أردفها بذكر الأمر بالطاعة وأشرف الطاعة بعد الإيمان الصلاة فلذلك قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ أقم الصلاة ﴾ بفعل جميع أركانها وشرائطها بحيث تصير كأنها قائمة بنفسها فإنها لب العبادة لما فيها من المناجاة والإعراض عن كل غير ، وفناء عن كل سوى ، بما أشرق من أنوار الحضرة التي قد اضمحل إليها كل فان ، وفي ذلك إشارة عظيمة إلى أنّ الصلاة أعظم ناصر على الأعداء الذين يريدون بمكرهم استفزاز الأولياء ولذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ثم عين له الأوقات بقوله تعالى : ﴿ لدلوك الشمس ﴾ في هذه اللام قولان أحدهما أنها بمعنى بعد ، أي : بعد دلوك الشمس ومثله قول متمم:

*فلما تفرّقنا كأني ومالكاً

** لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

(467/463)

والثاني أنها على بابها لأنها إنما تجب بزوال الشمس والدلوك مصدر دلكت الشمس وفيه أقوال أحدها : أنه الزوال وهو قول ابن عباس وابن عمر وجابر وأكثر التابعين ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم "أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر" وقول أهل اللغة معنى الدلوك في كلام العرب الزوال ، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار دالكة . والثاني أنه الغروب وهو قول ابن مسعود ونقله الواحدي في "البسيط" عن عليّ رضي الله عنه ، وبه قال إبراهيم النخعي والضحاك والسدي وهو اختيار الفراء وكما يقال للشمس إذا زالت نصف النهار دالكة يقال لها أيضاً إذا غربت دالكة لأنها في الحالين زائلة . قال الأزهري : والثالث أنه من الزوال إلى الغروب وقال في "القاموس" دلكت الشمس غربت أو اصفرّت أو مالت أو زالت عن كبد السماء فحينئذ في هذه اللفظة دلالة على الظهر والعصر والمغرب من استعمال المشترك في معانيه أمّا في الظهر والمغرب فواضح لما مرّ وأمّا العصر فلأنّ أول وقتها أوّل أخذ الشمس في الاصفرار وأدل دليل على ذلك أنه تعالى

غيا الإقامة لوقت العشاء بقوله تعالى : ﴿ إلى غسق الليل ﴾ أي : ظلمته وهو وقت صلاة عشاء الآخرة والغاية أيضاً هنا داخلة لما سيأتي وقد أجمعوا على أنّ المراد من قوله تعالى : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ أي : صلاة الصبح وهو منصوب قيل على الإغراء ، أي : وعليك بقرآن الفجر ورد أسماء الأفعال لا تعمل مضمرة . وقال الفراء : أنه منصوب بالعطف على الصلاة في قوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة ﴾ والتقدير أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر وحينئذٍ تدخل الصلوات الخمس في هذه الآية . قال ابن عادل كالرازي : وحمل كلام الله تعالى على ما يكون أكثر فائدة أولى انتهى .

(468/463)

وسميت صلاة الصبح قرآناً لاشتمالها عليه وإن كانت بقية الصلوات أيضاً مشتملة عليه لأنه يطوّل فيها في القراءة ما لا يطوّل في غيرها فالمقصود من قوله تعالى : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ الحث على طول القراءة فيها أكثر من غيرها لأنّ التخصيص بالذكر يدل على كونه أكمل من غيره . ولما كان القيام عن المنام يشق علل مرغباً مظهراً غير مضمر لأنّ المقام مقام تعظيم فقال:

(469/463)

﴿ إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ أي : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل ، وأوّل ديوان النهار . قال الرازي : ثم أنّ ملائكة الليل إذا صعدت قالت : يا رب إنا تركنا عبادك يصلون لك وتقول ملائكة النهار ربنا إننا أتينا عبادك وهم يصلون فيقول الله تعالى لملائكته : اشهدوا بأني قد غفرت لهم . وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "تفضل صلاة الجمع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ، ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ " وهذا يدل على أنّ التغليس أولى من التنوير لأنّ الإنسان إذا شرع فيها من أوّل الوقت ففي ذلك الوقت ظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرة ثم امتدّت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار ، وأمّا إذا ابتدأ بهذه الصلاة في وقت التنوير فهناك لم يبق أحد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور فقوله : ﴿ كان مشهوداً ﴾ يدل على أنّ التغليس أفضل ، وأيضاً الإنسان إذا شرع في صلاة الصبح من أوّل هذا الوقت فكانت الظلمة القوية في العالم فإذا امتدّت القراءة ففي أثناء هذا الوقت ينقلب العالم من الظلمة إلى الضوء والظلمة مناسبة للموت والعدم ، والضوء مناسب للحياة

والوجود ، فالإنسان لما قام من منامه فكأنه انتقل من الموت إلى الحياة ومن العدم إلى الوجود ومن السكون إلى الحركة ، وهذه الحالة

(470/463)

العجيبةتشهد العقول بأنه لا يقدر على هذا التقليب إلا الخالق المدبر بالحكمة البالغة فحينئذ يستنير العقل بنور هذه المعرفة ويتخلص من مرض قلبه ، فإن أكثر الخلق وقعوا في أمراض القلوب وهي حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر وهذه الدنيا مثل دار المرضى إذا كانت مملوءة من المرضى والأنبياء كالأطباء الحاذقين والمريض ربما كان قد يقوى مرضه فلا يعود إلى الصحة إلا بمعالجات قوية وربما كان المريض جاهلاً فلا ينقاد للطبيب ويخالفه في أكثر الأمر لأنّ الطبيب إذا كان مشفقاً حاذقاً فإنه يسعى في إزالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه وإن لم يقدر على إزالته فإنه يسعى في تقليله وفي تخفيفه فلما كان مرض الدنيا مستولياً على الخلق ولا علاج له إلا بالدعوى إلى معرفة الله سبحانه وتعالى وخدمته وطاعته وهذا علاج شاق على النفوس وقل من يقبله وينقاد له لا جرم أنّ الأنبياء اجتهدوا في تقليل هذا المرض فحملوا الخلق على الشروع في الطاعة والعبودية من أوّل وقت القيام من النوم لأنه مما ينفع في إزالة هذا المرض .

ثم حث سبحانه وتعالى على التهجد لأفضليته وارشديته بقوله عز من قائل:

﴿ وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا * وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا * وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا * وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا ﴾

(471/463)

﴿ ومن الليل ﴾ أي : وعليك أو وقم بعض الليل ﴿ فتهجد به ﴾ أي : واترك الهجود للصلاة يقال هجد وتهجد نام ليلاً وهجد وتهجد سهر فهو من الأضداد ومنه قيل لصلاة الليل التهجد قاله في الصحاح. والضمير في به لمطلق القرآن والمراد من الآية قيام الليل لصلاة النافلة فلا يحصل التهجد إلا بصلاة نفل بعد نوم ، وكانت فريضة على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى أمّته في الابتداء بقوله تعالى : ﴿ يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً ﴾ (المزمل : ،) ثم نسخ بما في آخرها ، ثم نسخ بما في الصلوات الخمس وبقي قيام الليل على الاستحباب بقوله تعالى : ﴿ فاقرؤوا ما تيسر منه ﴾ (المزمل ،)

(472/463)

وبقي الوجوب في حقه صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى : ﴿ نافلة لك ﴾ أي : زيادة لك مختصة بك . وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ثلاث هنّ عليّ فريضة وهنّ سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل" والصحيح أنه نسخ في حقه أيضاً ودليل النسخ رواه مسلم وقد وردت أحاديث كثيرة في قيام الليل منها ما روي "عن المغيرة بن شعبة أنه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه فقيل له : أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً" . ومنها ما روي عن زيد بن خالد الجهني أنه قال : لأرمقنّ صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فتوسدت عتبته أو فسطاطه فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين طويلتين ، ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ، ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة ، فلهذا قيل : إنه أكثر الوتر وهو أحد قولي الشافعيّ والمرجح عنده أن أكثره إحدى عشرة ركعة ، لما رواه أبو سلمة أنه سأل عائشة رضي الله تعالى عنها عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة . ، أي : وتراً يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهنّ وطولهنّ ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهنّ وطولهنّ ثم يصلي ثلاثاً قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : فقلت : يا رسول الله أتنام قبل أن توتر ؟ فقال : "يا عائشة إن عيني تنام ولا ينام

قلبي" . ومنها ما روي عن أنس بن مالك قال : "ما كنا نشاء أن نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليل مصلياً إلا رأيناه وما نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه" وفي رواية غيره قال : وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئاً ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئاً ثم قال تعالى : ﴿عسى أن يبعثك ربك﴾ أي : المحسن إليك ﴿مقاماً محموداً﴾ أتفق المفسرون على أنّ كلمة عسى من الله واجب . قال أهل المعاني : لأن لفظة

(473/463)

عسى تفيد الأطماع

ومن أطمع إنساناً في شيء ثم حرمه كان عاراً والله أكرم من أن يطمع أحدنا في شيء ثم لا يعطيه ذلك .

وأمّا المقام المحمود فقال الواحدي : أجمع المفسرون على أنه مقام الشفاعة كما قال صلى الله عليه وسلم في هذه الآية : "هو المقام الذي أشفع فيه لأمّتي" . وقال حذيفة : يجمع الناس في صعيد واحد فلا تتكلم نفس فأوّل مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول : "لبيك وسعديك والشر ليس إليك ، والمهدي من هديت وعبدك بين يديك وبك وإليك لا ملجأ

ولا منجى منك إلا إليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت" . فقال هذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ .

(474/463)

ويدل للأوّل أحاديث ؛ منها ما روي عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لكل نبيّ دعوة مستجابة وإني اختبأت دعوتي شفاعتي لأمتي وهي نائلة منكم إن شاء الله تعالى من مات لا يشرك بالله شيئاً" . ومنها ما روي عن جابر أنه قال : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته . حلت له شفاعتي يوم القيامة" . ومنها ما روي عن أنس أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهموا بذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب أكله من الشجرة وقد نهي عنها ولكن ائتوا نوحاً أوّل نبيّ بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحاً فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب بسؤال

ربه بغير علم ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن فيأتون إبراهيم فيقول لست هناكم ويذكر ثلاث كذبات كذبهنّ ولكن ائتوا موسى عبداً آتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجياً . قال : فيأتون موسى فيقول : لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب قتله النفس ولكن ائتوا عيسى عبد الله وكلمته قال : فيأتون عيسى فيقول لست هناكم ولكن ائتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر قال : فيأتوني فاستأذن على ربي فيؤذن لي فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني فيقول : ارفع رأسك يا محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه . قال : فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء يعلمنيه قال ثم أشفع فيحدّ لي حدّاً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود فأقع ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول ارفع يا محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه قال

: فأرفع

رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه قال : ثم أشفع فيحد لي حدّاً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة قال : فلا أدري في الثالثة أو الرابعة فأقول : يا رب ما بقي إلا من حبسه القرآن ، أي : وجب عليه الخلود" . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : مقاماً محموداً

يحمدك فيه الأولون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق سل فتعطى واشفع فتشفع ليس أحد إلا تحت لوائك والأخبار في الشفاعة كثيرة وفي هذا القدر كفاية لأولي البصائر جعلنا الله تعالى وجميع أحبابنا من أهلها الداخلين تحت شفاعة سيد الأنبياء والمرسلين آمين . واختلف أهل التفسير في قوله تعالى:

﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق ﴾ فقال ابن عباس والحسن : أدخلني مدخل صدق المدينة وأخرجني مخرج صدق مكة ، نزل حين أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالهجرة . وقال الضحاك : أخرجني مخرج صدق من مكة آمنا من المشركين وأدخلني مدخل صدق ظاهراً عليها بالفتح . وقال مجاهد : أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوّة مدخل صدق وأخرجني من الدنيا وقد قمت بما وجب عليّ من حقها مخرج صدق . وقيل إدخاله الغار وإخراجه منه سالماً . وقيل : أدخلني مدخل صدق الجنة وأخرجني مخرج صدق من مكة . وقيل : أدخلني في القبر مدخل صدق إدخالاً مرضياً وأخرجني منه عند البعث مخرج صدق إخراجاً ملقى بالكرامة . والجامع لهذه الأقوال ما جرى عليه البقاعي في تفسيره بقوله في كل مقام تريد إدخالي فيه حسيّ

ومعنويّ دنيا وأخرى مدخل صدق يستحق الداخل فيه أن يقال له أنت صادق في قولك وفعلك فإنّ ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً . وأخرجني من كل ما تخرجني منه مخرج صدق انتهى . والمراد من المدخل والمخرج الإدخال والإخراج ومعنى إضافة المدخل والمخرج إلى الصدق مدحهما ، كأنه سأل الله تعالى إدخالاً حسناً وإخراجاً حسناً لا يرى فيهما ما يكره . ثم سأل الله تعالى أن يرزقه التقوية بالحجة وبالقهر والقدرة فقال : ﴿ واجعل لي من لدنك ﴾ أي : عندك ﴿ سلطاناً نصيراً ﴾ أي : حجة ظاهرة تنصرني بها على جميع من خالفني وقد أجاب الله تعالى دعاءه وأعلمه أنه يعصمه من الناس بقوله تعالى :

﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ (المائدة ،)

. وقال تعالى : ﴿ فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ (المائدة ،)

. وقال تعالى : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ (التوبة ،)

وقال تعالى : ﴿ ليستخلفنهم في الأرض ﴾ (النور ،)

. ووعده تعالى ليظهره على الدين ووعده تعالى لينزعن ملك فارس والروم فيجعله له .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال : "انطلق فقد

استعملتك على أهل الله" فكان شديداً على المرائين المنافقين ليناً على المؤمنين ، وقال : والله لا أعلم متخلفاً يتخلف عن الصلاة إلا منافقاً فقال : أهل مكة يا رسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد أعرابياً جافياً فقال صلى الله عليه وسلم "إني رأيت فيما يرى النائم كأنّ عتاب بن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالاً شديداً حتى فتح له فدخلها" فأعز الله تعالى الإسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم فذلك السلطان النصير ، ثم أمره الله تعالى أن يخبر بالإجابة بقوله تعالى:

﴿ وقل ﴾ أي : لأوليائك وأعدائك ﴿ جاء الحق ﴾ وهو ما أمرني به ربي وأنزله إليّ ﴿ وزهق ﴾ أي : اضمحل وبطل وهلك ﴿ الباطل ﴾ وهو كل ما يخالف الحق ثم علل زهوقه بقوله تعالى : ﴿ إنّ الباطل ﴾ أي : وإن ارتفعت له دولة وصولة ﴿ كان ﴾ في نفسه بجبلته وطبعه ﴿ زهوقاً ﴾ أي : لا يبقى بل يزول على أسرع الوجوه وقت وأسرع رجوع قضاء قضاه الله تعالى من الأزل. قوله على أسرع الوجوه وقت الخ هكذا في جميع النسخ ولعله على أسرع الوجوه كل وقت ويرجع اه .

روى البخاري في التفسير عن ابن مسعود قال : "دخل النبيّ صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً صنم كل قوم بحيالهم فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل ﴾ فجعل الصنم ينكب لوجهه" حديث وعن ابن عباس كانت لقبائل العرب أصنام يحجون إليها ويخرون لها فشكى البيت إلى الله تعالى

فقال: ، أي: رب إلى متى تعبد هذه الأصنام حولي دونك فأوحى الله تعالى إلى البيت أني سأحدث لك نوبة جديدة فاملؤك خدوداً سجداً يدفون إليك دفيف النسور ويحنون إليك حنين الطير إلى بيضها لهم عجيج حولك بالتلبية.

(478/463)

ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح جاء جبريل عليه السلام وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم خذ مخصرتك ثم ألقها فجعل يأتي صنماً صنماً وهو ينكت بالمخصرة في عينه ويقول : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل ﴾ فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعاً وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان قوارير صفر فقال : "يا علي الزم به" فحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد ورمى به فكسره فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون : ما رأينا رجلاً أسحر من محمد . قال الزمخشري : وشكاية البيت والوحي إليه تخييل وتمثيل ولما بين سبحانه وتعالى الآلهيات والنبوّات والحشر والنشر والبعث وإثبات القضاء والقدر ثم أتبعه بالأمر بالصلاة ونبه على ما فيها من الأسرار وكان القرآن هو الجامع لجميع ذلك أتبعه ببيان كونه شفاء ورحمة بقوله تعالى:

(479/463)

﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ أي : ما هو شفاء في تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافي للمريض . تنبيه : في من هذه ثلاثة أوجه أحدها : أنه لبيان الجنس قاله الزمخشريّ والبيضاويّ وابن عطية وأبو البقاء ورد عليهم أبو حيان بأنّ التي للبيان لا بدّ أن تتقدّمها عليه ما تبينه لا أن تتقدّم عليه وهنا قد وجد تقديمها عليه . الثاني : أنها للتبعيض وأنكره الحوفي لأنه يلزم أن لا يكون بعضه شفاء . وأجاب أبو البقاء بأنّ منه ما يشفي من المرض وهذا قد وجد بدليل رقية بعض الصحابة سيد الحيّ الذي لدغ بالفاتحة فشفي من المرض فيكون التبعيض بالنسبة للأمراض الجسمانية وإلا فهو كله شفاء للأبدان وللقلوب من الاعتقادات وغيرها . الثالث : أنها لابتداء الغاية وهو كما قال ابن عادل واضح . ﴿ و ﴾ من العجيب أنّ هذا الشفاء ﴿ لا يزيد الظالمين ﴾ وهم الذين يضعون الشيء في غير موضعه بإعراضهم هما يجب قبوله ﴿ إلا خسارا ﴾ أي : نقصاناً لأنه إذا جاءهم وقامت به الحجة عليهم أعرضوا عنه فكان إعراضهم ذلك زيادة في كفرهم كما أن قبول المؤمنين له وإقبالهم على تدبره زيادة في إيمانهم ، وفي الدارمي عن قتادة قال : ما جالس أحد القرآن فقام عنه إلا بزيادة أو نقصان ثم قرأ هذه الآية ، ثم إنه تعالى ذكر السبب الأصلي في وقوع هؤلاء الكافرين الجاهلين الضالين في أودية الضلال ومقامات الخزي

والنكال وهو حب الدنيا والرغبة في المال والجاه واعتقادهم أنّ ذلك إنما يحصل بسبب جدّهم واجتهادهم فقال تعالى:

(480/463)

﴿ وإذا أنعمنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ على الإنسان ﴾ أي : هذا النوع هؤلاء وغيرهم وقال ابن عباس : إنّ الإنسان ههنا هو الوليد بن المغيرة . قال الرازي : وهذا بعيد بل المراد ، أي : نوعُ الإنسان إذا أنعمنا عليه ﴿ أعرض ﴾ أي : عن ذكرنا ودعائنا إذ شأن نوع الإنسان أنه إذا فاز بمقصوده ووصل إلى مطلوبه اغتر وصار غافلاً عن عبودية الله متمرّداً عن طاعة الله كما قال تعالى : ﴿ إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ (العلق : /)

.

﴿ ونأى ﴾ عن ذكر الله ﴿ بجانبه ﴾ أي : لوى عطفيه وبعد نفسه كأنه مستغني بأمره ويجوز أن يكون كناية عن الاستكبار لأنه من عادة المستكبرين ومعنى النأي في اللغة البعد والإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه . وقرأ ابن ذكوان بألف ممدودة بعد النون وتأخير الهمزة مثل جاء وفي هذه القراءة تخريجان أحدهما من نأى ينوء ، أي : نهض .

والثاني : أنه مقلوب من نأى فيكونان بمعنى . قال ابن عادل : ولكن متى أمكن عدم القلب فهو أولى . وقرأ الباقون بالهمزة بعد النون وألف بعد همزة وآمال الألف بعد الهمزة السوسيّ وشعبة وخلاد محضة بخلاف عن السوسي وأمالها ورش بين بين وأمال الهمزة والنون محضة خلف والكسائيّ وفتح الباقون . ﴿ وإذا مسه الشرّ ﴾ أي : هذا النوع وإن قل ﴿ كان يؤساً ﴾ أي : شديد اليأس عما عهده من رحمة ربه والحاصل أنه إن فاز بالنعمة والدولة اغتربها ونسي ذكر الله وإن بقي في الحرمان عن الدنيا استولى عليه الأسف والحزن ولم يتفرغ لذكر الله فهذا المسكين محروم أبداً عن ذكر الله تعالى ونظيره قوله تعالى : ﴿ فأمّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن ، وأمّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ﴾ (الفجر : ،)

وكذلك ﴿ إنّ الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشرّ جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ (المعارج : ، ،)

إلا من حفظه الله وشرّفه بالإضافة إليه فليس للشيطان عليه سلطان ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ قل كل ﴾ من الشاكر والكافر ﴿ يعمل على شاكلته ﴾ أي: طريقته التي تشاكل روحه وتشاكل ما طبعناه عليه من خير أو شرّ ﴿ فربكم ﴾ أي: فتسبب عن ذلك أنّ الذي خلقكم وصوّركم ﴿ أعلم ﴾ من كل أحد ﴿ بمن هو ﴾ منكم ﴿ أهدى سبيلاً ﴾ أي: أوضح طريقاً واتباعاً للحق فيشكر ويصبر احتساباً فيعطيه الثواب ومن هو منكم أضلّ سبيلاً فيجعل له العقاب لأنه يعلم ما طبعهم عليه في أصل الخلقة وغيره تعالى إنما يعلم أمور الناس في طرائقهم بالتجربة وقد روى الإمام أحمد لكن بسند منقطع عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا وإذا سمعتم برجل تغير عن طبعه فلا تصدقوا فإنه يصير إلى ما جبل عليه".

واختلف في سبب نزول قوله تعالى:

﴿ ويسئلونك ﴾ أي: تعنتا وامتحانا ﴿ عن الروح ﴾ فعن عبد الله بن مسعود قال بينما أنا أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوكأ على عسيب معه فمرَّ بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض اسألوه عن الروح وقال بعضهم: لا تسألوه لا يجيء بشيء تكرهونه فقال بعضهم: لنسألنّ فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت

فقلت أنه يوحى إليه فقمت فلما انجلى عنه قال : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قال بعضهم لبعض : قد قلنا لكم لا تسألوه . وقال ابن عباس : إنّ قريشاً اجتمعوا فقالوا : إنّ محمداً نشأ فينا بالصدق والأمانة وما اتهمناه بكذب وقد ادّعى ما ادّعى فابعثوا نفراً إلى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فإنهم أهل كتاب فبعثوا جماعة إليهم فقالت اليهود : سلوه عن ثلاثة أشياء فإن أجاب عن كلها أو لم يجب عن شيء منها فليس بنبيّ وإن أجاب عن اثنين فهو نبيّ فسألوه عن فتية فقدوا في الزمن الأوّل ما كان أمرهم فإنه كان لهم حديث عجيب . وعن رجل بلغ مشرق الأرض ومغربها وعن الروح فسألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : أخبركم بما سألتم غداً ولم يقل إن شاء الله فلبث الوحي . قال مجاهد : اثنى عشر ليلة وقيل خمسة عشر يوماً وقيل أربعين يوماً وأهل مكة يقولون وعدنا محمد غداً وقد أصبحنا لا يخبرنا بشيء حتى حزن صلى الله عليه وسلم من مكث الوحي وشق عليه ما يقوله أهل مكة ثم نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى :

﴿ ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ (الكهف : ،)

. ونزل في الفتية : ﴿ أم حسبت أنّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ (الكهف ،)

. ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين ﴾ (الكهف :)

ونزل في الروح: ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ . وقول الرازي : ومن الناس من طعن في هذه الرواية من وجوه ، وذكر من جملة ذلك كيف يليق به أن يقول إني لا أعرف هذه المسألة مع أنها من المسائل المشهورة المذكورة مع جمهور الخلق غير لائق لأنّ ذلك علامة على نبوّته . قال الزمخشري : فبيّن لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة فندموا على سؤالهم انتهى . واختلفوا في الروح الذي وقع السؤال عنه ، فروى عن ابن عباس أنه جبريل عليه السلام وهو قول الحسن وقتادة ، وروي عن علي أنه قال : ملك له سبعون ألف وجه لكل وجه سبعون ألف لسان يسبح الله تعالى بكلها . وقال مجاهد : خلق على صورة بني آدم لهم أيد وأرجل ورؤوس وليسوا بملائكة ولا ناس يأكلون الطعام . وقال سعيد بن جبير : لم يخلق الله تعالى خلقاً أعظم من الروح غير العرش ، لو شاء أن يبتلع السموات السبع والأرضين السبع ومن فيهنّ بلقمة واحدة لفعل ، صورة خلقه على صورة الملائكة ، وصورة وجهه على صورة وجه الآدميين يقوم يوم القيامة على يمين العرش وهو أقرب الخلق إلى الله تعالى عند الحجب السبعين وأقرب إلى الله تعالى وهو ممن يشفع لأهل التوحيد ولولا أنّ بينه وبين الملائكة ستراً من نور لاحترق أهل السموات من نوره . وقيل الروح هو القرآن وقيل المراد منه عيسى فإنه روح الله تعالى وكلمته ومعناه أنه ليس كما تقوله اليهود ولا كما تقوله النصارى . وقال بعضهم : هو الروح المركب في الخلق الذي يحيا به

الإنسان. قال البغوي: وهو الأصح وتكلم فيه قوم فقال بعضهم: هو الدم ألا ترى أنّ الحيوان إذا مات لا يفوت منه إلا الدم. وقال قوم: هو نفس الحيوان بدليل أنه يموت باحتباس النفس. وقال قوم: عرض. وقال قوم: هو جسم لطيف. وقال بعضهم: الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء ألا ترى أنه إذا كان موجوداً يكون الإنسان موصوفاً بجميع هذه الصفات وإذا خرج ذهب الكل. قال البغوي: وأولى

الأقاويل أن

يوكل علمه إلى الله عز وجل، وهو قول أهل السنة. قال عبد الله بن بريدة: إنّ الله تعالى لم يطلع على الروح ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً بدليل قوله تعالى: ﴿ قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أي: في جنب علم الله تعالى:

تنبيه: اختلف في المخاطب بقوله تعالى: ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾

فقيل هو النبيّ صلى الله عليه وسلم وقيل اليهود فإنهم يقولون: أوتينا التوراة وفيها العلم الكبير وقيل عام. روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا: نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه فقال: "نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلاً". فقالوا

: ما أعجب شأنك ساعة تقول ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ (البقرة ،) وساعة تقول : هذا فنزلت . ﴿ وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ ﴾ (لقمان ،)

(485/463)

الآية قال الزمخشري : وليس ما قالوا بلازم لأنّ القلة والكثرة يدوران مع الإضافة فيوصف الشيء بالقلة مضافاً إلى ما فوقه ، وبالكثرة مضافاً إلى ما تحته ، فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها إلا أنها إذا أضيفت إلى علم الله فهي قليلة . وقيل : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يعلم معنى الروح ولكن لم يخبر به لأن ترك أخباره كان علماً لنبوّته . قال البغوي : والأوّل أصح أنّ الله استأثره بعلمه انتهى . وعن أبي يزيد لقد مضى النبيّ صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح . وقال الرازي : قوله تعالى : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ من فعل ربي وهذا الجواب يدل على أنهم سألوه أنّ الروح قديمة أو حادثة فقال : بل هي حادثة ، وإنما حصلت بفعل الله وتكوينه وإيجاده ، ثم احتج على إحداث الروح بقوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ بمعنى أنّ الروح في مبدأ الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم تحصل المعارف والعلوم فهي لا تزال تكون في التغير من حال إلى حال ، وفي التبديل من نقصان إلى

كمال والتغير والتبدّل من أمارات الحدوث . فقوله : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ يدل على أنهم سألوه أنّ الروح هل هي حادثة أو قديمة فأجاب بأنها حادثة واقعة بتخليق الله تعالى وتكوينه وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ . ثم استدل على حدوث الأرواح بتغيرها من حال إلى حال ، وهو المراد بقوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ فهذا ما نقوله في هذا الباب انتهى . وهو نص لطيف . ولما بيّن سبحانه وتعالى أنهم ما آتاهم من العلم إلا قليلاً بيّن أنه لو شاء أن يأخذ منهم ذلك القليل أيضاً لقدر عليه بقوله تعالى:

(486/463)

﴿ ولئن شئنا ﴾ أي : ومشيئتنا لا يتعاظمها شيء واللام موطئة للقسم وأجاب عن القسم بما أغنى عن جواب الشرط فقال : ﴿ لنذهبنّ ﴾ أي : بما لنا من العظمة ذهاباً محققاً ﴿ بالذي أوحينا إليك ﴾ بأن نمحو حفظه من القلوب وكتابته من الكتب وهذا وإن كان امراً مخالفاً للعادة إلا أنه تعالى قادر عليه . ﴿ ثم ﴾ أي : بعد الذهاب به ﴿ لا تجد لك به علينا وكيلاً ﴾ أي : لا تجد من تتوكل عليه في ردّ شيء منه وإعادته مسطوراً محفوظاً .

وقوله تعالى:

﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ استثناء متصل لأنه مندرج في قوله وكيلاً . والمعنى إلا أن يرحمك

ربك فيردّه عليك أو منقطع فتقدر لكن عند البصريين أو بل رحمة من ربك عند الكوفيين .

والمعنى ولكن رحمة من ربك أو بل رحمة من ربك بتركه غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن . قال الرازي : وهذا تنبيه على أنّ لله تعالى على جميع العلماء نوعين من المنة أحدهما : تسهيل ذلك العلم عليهم . والثاني : إبقاء حفظه عليهم فعلى كل ذي علم أن لا يغفل عن هاتين النعمتين وعن القيام بشكرهما وهما منة من الله تعالى عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره ومنته عليه في بقاء المحفوظ . فإن قيل : كيف يذهب القرآن وهو كلام الله تعالى ؟

أجيب : بأنّ المراد محوما في المصاحف وإذهاب ما في الصدور . قال عبد الله بن مسعود : اقرؤوا القرآن قبل أن يرفع فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع قيل هذه المصاحف ترفع فكيف ما في صدور الناس قال : يسري عليه ليلاً فيرفع ما في صدورهم فيصبحون لا يحفظون شيئاً ولا يجدون في المصاحف شيئاً ثم يفيضون في الشعر .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : لا تقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل له دويّ تحت العرش كدويّ النحل فيقول الرب ما لك ؟ فيقول : يا رب أتلى ولا يعمل بي . وفي

رواية لابن مسعود أوّل ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون الصلاة وليصلين قوم ولا دين لهم وأنّ هذا القرآن تصبحون يوماً وما فيكم منه شيء فقال رجل : كيف ذلك وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا وتعلمه أبناؤنا ويعلمه أبناؤنا أبناؤهم ؟ فقال : يسري عليه ليلاً فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينزع ما في القلوب وقوله تعالى : ﴿ إن فضله كان ﴾ أي : ولم يزل ﴿ عليك كبيراً ﴾ فيه قولان أحدهما المراد منه أنّ فضله كان عليك كبيراً بسبب إبقاء العلم والقرآن عليك . ثانيهما أنّ المراد أنّ فضله كان عليك كبيراً بسبب أنه جعلك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام المحمود ، وقد أنعم عليك أيضاً بإبقاء العلم والقرآن عليك .

ونزل حين قال الكفار للنبيّ صلى الله عليه وسلم لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 460.479 ﴾

(488/463)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والستون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والستون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 88 ﴾ من سورة الإسراء

وحتى الآية ﴿ 104 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان بمعرض أن يقولوا : إن ذهب عليك من شيء فائت بمثله من عند نفسك ومما اكتسبته منه من الأساطير ، أمره أن يجيبهم عن هذا بقوله دلالة على مضمون ما قبله :

﴿ قل ﴾ .

ولما أريد هنا المماثلة في كل التفصيل إلى جميع السور في المعاني الصادقة ، والنظوم الرائقة ، كما دل عليه التعبير بالقرآن ، زاد في التحدي قيد الاجتماع من الثقلين وصرف الهمم للتظاهر والتعاون والتظافر بخلاف ما مضى في السور السابقة ، فقال تعالى مؤكداً باللام الموطئة للقسم لادعائهم أنهم لو شاؤوا أتوا بمثله ، والجواب حينئذ للقسم ، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم : ﴿ لئن اجتمعت الإنس ﴾ الذين تعرفونهم وتعرفون ما أتوا من البلاغة والحكمة والذين لا تعرفونهم ، وقدمهم لسهولة اجتماعهم بهم ولأنهم عندهم الأصل في البلاغة ﴿ والجن ﴾ الذين يأتون كهانكم ويشجعون لهم ويعلمونهم ببعض المغيبات عنهم ، وترك الملائكة لأنهم لا عهد لهم بشيء من كلامهم ﴿ على أن يأتوا ﴾ أي يجددوا إيتاءً ما في وقت ما في حال اجتماعهم ﴿ بمثل هذا القرآن ﴾ أي جميعه على ما هو عليه من التفصيل ، وخصه بالإشارة تنبيهاً على أن ما يقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الله وحي من الله ، ليس فيه شيء من عند نفسه ، وأن المراد في هذا السياق المتحدى به الذي اسمه القرآن خاصة ﴿ لا يأتون ﴾ .

ولما كانت هذه السورة مكية ، فكان أكثر ما يمكن في هذه الآية أن يكون آخر المكي فيختص التحدي به ، وكان المظهر إذا أعيد مضمراً أمكن فيه الخصوص ، وكان المراد إنما هو الشمول ، ومتى أريد الشمول استؤنف له إحاطة باستئناف إظهار محيط كما يأتي عن الحرالي في أواخر سورة الكهف ، لم يقل هنا " به " لذلك ، ولئلا يظن أنه يعود على القرآن لا على مثله ، بل أظهر فقال دالاً على أن المراد جميع المكي والمدني : ﴿ بمثله ﴾ أي لا مع التقيد بمعانيه الحقة الحكيمة حتى يأتوا بكلام في أعلى طبقات البلاغة ، مبيناً لأحسن المعاني بأوضح المباني ، ولا مع الانفكاك عنها إلى معانٍ مفتراة ؛ ثم أوضح أن المراد الحكم لعجزهم مجتمعين ومنفردين متظاهرين وغير متظاهرين فقال تعالى : ﴿ ولو ﴾ ولما كان المكلفون مجبولين على المخالفة وتنافي الأغراض قال تعالى : ﴿ كان ﴾ أي جبلة وطبعاً على خلاف العادة ﴿ بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ أي معيناً بضم أقوى ما فيه إلى أقوى ما في صاحبه ، وقد تقدم في السور المذكور فيها التحدي ما يتم هذا المعنى .

ولما تمت هذه الجمل على هذا الوجه الجميل ، والوصف الجليل ، نبه على ذلك سبحانه بقوله عطفاً على نحو : صرفنا هذه الأمثال كما ترون على أعلى منهاج وأبلغ سياق في أبدع

انتظام : ﴿ ولقد صرفنا ﴾ أي رددنا وكررنا تكريراً كثيراً بما لنا من العظمة ، ولما كان مبنى السورة على بيان العناية بالناس الذين اتقوا والذين هم محسنون ، اقتضى المقام لمزيد الاهتمام تقديم قوله تعالى : ﴿ للناس ﴾ أي الذين هم ناس ﴿ في هذا القرءان ﴾ الهادي للتي هي أقوم ﴿ من كل مثل ﴾ أي من كل ما هو في غرابته وسيره في أقطار الأرض وبلاغته ووضوحه ورشاقته كالمثل الذي يجب الاعتبار به ؛ والتصريف : تصيير المعنى دائراً في الجهات المختلفة بالإضافة والصفة والصلة ونحو ذلك ﴿ فأبى ﴾ أي فتسبب عن ذلك الذي هو سبب للشفاء والشكر والهدى ، تصديقاً لقولنا ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ أنه أبى ﴿ أكثر الناس ﴾ وهم من هم في صورة الناس وقد سلبوا معانيهم .
ولما كان " أبى " متأولاً بمعنى النفي ، فكان المعنى : فلم يرضوا مع الكبر والشماخة ، استقبله بأداة الاستثناء فقال تعالى : ﴿ إلا كفوراً ﴾ لما لهم من الاضطراب .

(8/464)

ولما كان هذا أمراً معجباً ، عجب منهم تعجيباً آخر ، عاطفاً له على ﴿ ويسئلونك ﴾ إن كان المراد بالناس في قوله ﴿ فأبى أكثر الناس ﴾ الكل ، وعلى " فأبى " إن كان المراد بهم قريشاً فقال تعالى : ﴿ وقالوا ﴾ أي كفار قريش ومن والاهم تعنتاً بعد ما لزمهم من الحجة

ببيان عجزهم عن المعارضة ولغير ذلك فعل المبهوت المحجوج المعاند ، مؤكدين لما لزمهم من الحجة التي صاروا بها في حيز من يؤمن قطعاً من غير توقف : ﴿ لن نؤمن ﴾ أي نصدق بما تقول مذعنين ﴿ لك حتى تفجر ﴾ أي تفجيراً عظيماً ﴿ لنا ﴾ أي أجمعين ﴿ من الأرض ينبوعاً ﴾ أي عيناً لا ينضب ماءها ﴿ أو تكون لك ﴾ أي أنت وحدك ﴿ جنة من نخيل و ﴾ أشجار ﴿ عنب ﴾ عبر عنه بالثمرة لأن الانتفاع منه بغيرها قليل ﴿ فتفجر ﴾ أي بعظمة زائدة ﴿ الأنهار ﴾ الجارية ﴿ خلالها تفجيراً ﴾ وهو تشقيق عما يجري من ماء أو ضياء أو نحوهما ؛ فالفجر : شق الظلام من عمود الصبح ، والفجور : شق جلباب الحياء بما يخرج إلى الفساد ﴿ أو تسقط السماء ﴾ أي نفسها ﴿ كما زعمت ﴾ فيما توعدنا به ﴿ علينا كسفاً ﴾ أي قطعاً جمع كسفه وهي القطعة ، ويجوز أن يكون المراد بذلك الحاصب الآتي من جهة العلو وغيره مما توعدوا به في نحو قوله ﴿ أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ [الأنعام : 65] وتسمية ذلك سماء كتسمية المطر بل والنبات سماء :

إذا نزل السماء بأرض قوم . . .

رعيناه وإن كانوا غضابا

﴿ أو تأتي ﴾ معك ﴿ بالله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ والملائكة قبيلاً ﴾ أي إتياناً عياناً ومقابلة ينظر إليه لا يخفى على أحد منا شيء منه ، وكان أصله الاجتماع الذي يلزم منه المواجهة بالإقبال من قبائل الرأس الجامعة ﴿ أو يكون لك ﴾ أي خاصاً بك ﴿ بيت من زخرف ﴾ أي ذهب كامل الحسن والزينة ﴿ أو ترقى ﴾ أي تصعد ﴿ في السماء ﴾ درجة درجة ونحن ننظر إليك صاعداً ﴿ ولن نؤمن ﴾ أي نصدق مذعنين ﴿ لرقيك ﴾ أي أصلاً ﴿ حتى تنزل ﴾ وحققوا معنى كونه ﴿ من السماء ﴾ بقولهم : ﴿ علينا كتاباً ﴾ ومعنى كونه ، ﴿ في رق ﴾ أو نحو قولهم : ﴿ نقرؤه ﴾ يأمرنا فيه باتباعك . فلما تم تعنتهم فكان لسان الحال طالباً من الله تعالى الجواب عنه ، أمره الله تعالى بجوابهم بقوله : ﴿ قل سبحان ربي ﴾ أي تنزه عن أن يكون له شريك في ملكه يطلب منه ما لا يطلب إلا من الإله ، فهو تنزيه لله وتعجيب منه لوضوح عنادهم بطلبهم ما لا قدرة عليه إلا للإله ممن لا قدرة له على شيء منه إلا بإذن الله ، ولم يدّع قط أنه قادر على شيء منه ، فحسن الاستفهام جداً في قوله تعالى : ﴿ هل كنت إلا بشراً ﴾ لا يقدر على غير ما يقدر عليه البشر ﴿ رسولاً ﴾ كما كان من قبلي من الرسل ، لا أتعدى ما أمرت به من التبليغ ، فلا آتي بشيء إلا بإذن الله ، ولم أقل : إني إله ، حتى يطلب مني ما يطلب من الإله ورتبوا أنفسهم هذا الترتيب لأنهم حصروا حاله في دعوى أن يكون عظيماً بالرسالة أو غيرها ليتبعه الناس ، فإن كان الأول كان مقبول القول عند مرسله ، وحينئذ فإما أن يسأله في نفع

عام بالينبوع، أو خاص به بالجنة إن بخل بالعام، أو ضر بالكشف أو يسأله في الإتيان مع جنده لأن يصدقه، وإن كانت عظمته بغير ذلك فإما أن يكون ملكاً ليكون له البيت المذكور بما جرت العادة أن يكون تابعاً له، أو يكون ممن يجتمع بالملك الذي أرسله فيرقى على ما قالوا. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 424. 426﴾

(10/464)

فصل

قال الفخر:

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى:

اعلم أنا في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مّن مّثْلِهِ﴾ [البقرة: 23] بالغنا في بيان إعجاز القرآن، وللناس فيه قولان منهم من قال: القرآن معجز في نفسه، ومنهم من قال إنه ليس في نفسه معجزاً إلا أنه تعالى لما

صرف دواعيهم عن الإثبات بمعارضته مع أن تلك الدواعي كانت قوية كانت هذه الصرفة معجزة والمختار عندنا في هذا الباب أن نقول القرآن في نفسه إما أن يكون معجزاً أو لا يكون فإن كان معجزاً فقد حصل المطلوب ، وإن لم يكن معجزاً بل كانوا قادرين على الإتيان بمعارضته وكانت الدواعي متوفرة على الإتيان بهذه المعارضة وما كان لهم عنها صارف ومانع .

وعلى هذا التقدير كان الإتيان بمعارضته واجباً لازماً فعدم الإتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضاً للعادة فيكون معجزاً فهذا هو الطريق الذي نختاره في هذا الباب .

المسألة الثانية :

لقائل أن يقول هب أنه قد ظهر عجز الإنسان عن معارضته فكيف عرفتم عجز الجن عن معارضته ؟ وأيضاً فلم لا يجوز أن يقال إن هذا الكلام نظم الجن ألقوه على محمد صلى الله عليه وسلم وخصوه به على سبيل السعي في إضلال الخلق فعلى هذا إنما تعرفون صدق محمد صلى الله عليه وسلم إذا عرفتم أن محمداً صادق في قوله أنه ليس من كلام الجن بل هو من كلام الله تعالى فحينئذ يلزم الدور وليس لأحد أن يقول كيف يعقل أن يكون هذا من قول الجن لأنا نقول إن هذه الآية دلت على وقوع التحدي مع الجن ، وإنما يحسن هذا التحدي لو كانوا فصحاء بلغاء ، ومتى كان الأمر كذلك كان الاحتمال المذكور قائماً .

أجاب العلماء عن الأول بأن عجز البشر عن معارضته يكفي في إثبات كونه معجزاً وعن الثاني أن ذلك لو وقع لوجب في حكمة الله أن يظهر ذلك التلبيس وحيث لم يظهر ذلك دل على عدمه وعلى أنه تعالى قد أجاب عن هذا السؤال بالأجوبة الشافية الكافية في آخر سورة الشعراء في قوله : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء : 221 ، 222] وقد شرحنا هذه الأجوبة هناك فلا فائدة في الإعادة .

المسألة الثالثة :

قالت المعتزلة الآية دالة على أن القرآن مخلوق لأن التحدي بالقديم وهذه المسألة قد ذكرناها أيضاً بالاستقصاء في سورة البقرة فلا فائدة في الإعادة .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89) ﴾

وهذا الكلام يحتمل وجوهاً .

أحدها : أنه وقع التحدي بكل القرآن كما في هذه الآية ، ووقع التحدي أيضاً بعشر سور منه كما في قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود : 13] ووقع التحدي

بالسورة الواحدة كما في قوله تعالى : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة : 23] ووقع التحدي بكلام من سورة واحدة كما في قوله : ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ [الطور : 34] فقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه التحدي كما شرحناه ، ثم أنهم مع ظهور عجزهم في جميع هذه المراتب بقوا مصرين على كفرهم .

وثانيها : أن يكون المراد من قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أنا أخبرناهم بأن الذين بقوا مصرين على الكفر مثل قوم نوح وعاد وثمود كيف ابتلاهم بأنواع البلاء وشرحنا هذه الطريقة مراراً وأطواراً ثم إن هؤلاء الأقوام يعني أهل مكة لم ينتفعوا بهذا البيان بل بقوا مصرين على الكفر .

(12/464)

وثالثها : أن يكون المراد أنه تعالى ذكر دلائل التوحيد ونفي الشركاء والأضداد في هذا القرآن مراراً كثيرة ، وذكر شبهات منكري النبوة والمعاد مراراً وأطواراً ، وأجاب عنها ثم أردفها بذكر الدلائل القاطعة على صحة النبوة والمعاد ، ثم إن هؤلاء الكفار لم ينتفعوا بسماعها بل بقوا مصرين على الشرك وإنكار النبوة .

يريد (أبى) أكثر أهل مكة ﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي جحودا للحق، وذلك أنهم أنكروا ما لا حاجة إلى إظهاره، فإن قيل كيف جاز: ﴿ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلَّا كُفُورًا ﴾ ولا يجوز أن يقال ضربت إلا زيداً، قلنا لفظ أبى يفيد النفي كأنه قيل فلم يرضوا إلا كفورا.

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) ﴾

(13/464)

اعلم أنه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزاً وظهر هذا المعجز على وفق دعوى محمد صلى الله عليه وسلم فحينئذ تم الدليل على كونه نبياً صادقاً لأنا نقول إن محمداً ادعى النبوة وظهر المعجزة على وفق دعواه وكل من كان كذلك فهو نبي صادق، فهذا يدل على أن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق وليس من شرط كونه نبياً صادقاً تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها لأنا لو فتحنا هذا الباب للزم أن لا ينتهي الأمر فيه إلى مقطع وكلما أتى الرسول بمعجز اقترحوا عليه معجزاً آخر ولا ينتهي الأمر فيه إلى حد ينقطع عنده عناد المعاندين وتغلب الجاهلين لأنه تعالى حكى عن الكفار أنهم بعد أن ظهر كون القرآن معجزاً التمسوا من الرسول صلى الله عليه وسلم ستة أنواع من المعجزات القاهرة كما حكى عن ابن عباس "أن رؤساء أهل مكة أرسلوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهم جلوس

عند الكعبة فأتاهم فقالوا يا محمد إن أرض مكة ضيقة فسير جبالها لننتفع فيها وفجر لنا فيها ينبوعاً أي نهراً وعيوناً نزرع فيها فقال لا أقدر عليه ، فقال قائل منهم أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً فقال لا أقدر عليه ، فقيل أو يكون لك بيت من زخرف أي من ذهب فيغنيك عنا فقال لا أقدر عليه ، فقيل له أما تستطيع أن تأتي قومك بما يسألونك فقال لا أستطيع ، قالوا فإذا كنت لا تستطيع الخير فاستطع الشر فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أي قطعاً بالعذاب وقوله كما زعمت إشارة إلى قوله : ﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾ [الإنشقاق : 1] ، ﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : 1] فقال عبد الله بن أمية المخزومي وأمه عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا والذي يحلف به لا أومن بك حتى تشد سلماً فتصعد فيه ونحن ننظر إليك فتأتي بأربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ثم بعد ذلك لا أدري أؤمن بك أم لا " فهذا شرح هذه القصة كما رواها ابن عباس .

المسألة الثانية :

اعلم أنهم اقترحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنواعاً من المعجزات أولها : قولهم ﴿ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرضِ يَنْبُوعًا ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي تفجر بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة واختاره أبو حاتم قال لأن الينبوع واحد والباقون بالتشديد واختاره أبو عبيدة ولم يختلفوا في الثانية مشددة لأجل الأنهار ، لأنها جمع يقال فجرت الماء فجراً وفجرته تفجيراً ، فمن ثقل أراد به كثرة الأشجار من الينبوع وهو وإن كان واحداً فلكثرة الانفجار فيه يحسن أن يثقل كما تقول ضرب زيد إذا كثر الضرب منه فيكثر فعله وإن كان الفاعل واحداً ومن خفف فلأن الينبوع واحد ، وقوله ﴿ ينبوعاً ﴾ ، يعني : عيناً ينبع الماء منه ، تقول نبع الماء ينبع نبعاً ونبوعاً ونبعاً ذكره الفراء ، قال القوم أزل عنا جبال مكة ، وفجر لنا الينبوع ليسهل علينا أمر الزراعة والحراثة .

وثانيها : قولهم : ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهارَ خلالها تَفْجِيرًا ﴾ والتقدير كأنهم قالوا هب أنك لا تفجر هذه الأنهار لأجلنا ففجرها من أجلك .

وثالثها : قولهم : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السماءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ ابن عامر كسفاً بفتح السين ها هنا وفي سائر القرآن بسكونها ، وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم ها هنا ، وفي الروم بفتح السين ، وفي باقي القرآن بسكونها ؛ وقرأ حفص في سائر القرآن بالفتح إلا في الروم ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي في الروم بفتح السين ، وفي سائر القرآن بسكون السين ، قال الواحدي رحمه الله ﴿ كسفاً ﴾ ، فيه وجهان من القراءة سكون السين وفتحها ، قال أبو زيد يقال : كسفت الثوب أكسفه كسفاً إذا قطعته قطعاً ، وقال الليث : الكسف ، قطع العرقوب ، والكسفة : القطعة ، وقال الفراء : سمعت أعرابياً يقول لبزاز : أعطني كسفة : يريد قطعة ، فمن قرأ بسكون السين احتمل قوله وجوهاً ، أحدها : قال الفراء أن يكون جمع كسفة مثل : دمنة ودمن وسدرة وسدر .

وثانيها : قال أبو علي : إذا كان المصدر الكسف ، فالكسف الشيء المقطوع كما تقول في الطحن والطبخ السقي ، ويؤكد هذا قوله : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ السماء ساقطا ﴾ [الطور : 44] .

وثالثها : قال الزجاج : من قرأ : ﴿ كسفاً ﴾ كأنه قال أو يسقطها طبقاً علينا واشتقاقه من كسفت الشيء إذا غطيته ، وأما فتح السين فهو جمع كسفة مثل قطعة وقطع وسدرة وسدر ، وهو نصب على الحال في القراءتين جميعاً كأنه قيل أو تسقط السماء علينا مقطعة .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ كَمَا زَعَمْتَ ﴾ فيه وجوه .

الأول : قال عكرمة كما زعمت يا محمد أنك نبي فأسقط السماء علينا .

والثاني : قال آخرون كما زعمت أن ربك إن شاء فعل .

الثالث : يمكن أن يكون المراد ما ذكره الله تعالى في هذه السورة في قوله : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البر أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ [الإسراء : 68] فقيل اجعل السماء قطعاً متفرقة كالحاصب وأسقطها علينا .

ورابعها : قولهم : ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بالله والملئكة قَبِيلاً ﴾ وفي لفظ القبيل وجوه .

(16/464)

الأول : القبيل بمعنى المقابل كالعشير بمعنى المعاشر ، وهذا القول منهم يدل على جهلهم حيث لم يعلموا أنه لا يجوز عليه المقابلة ويقرب منه قوله : ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْء قُبُلاً ﴾ [الأنعام : 111] .

والقول الثاني : ما قاله ابن عباس يريد فوجاً بعد فوج .

قال الليث وكل جند من الجن والإنس قبيل وذكرنا ذلك في قوله :

﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ [الأعراف : 27] .

القول الثالث : إن قوله ﴿ قبيلاً ﴾ معناه ها هنا ضامناً وكفيلاً ، قال الزجاج : يقال قبلت به أقبل كقولك كفلت به أكفل ، وعلى هذا القول فهو واحد أريد به الجمع كقوله تعالى : ﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾ [النساء : 69] .

والقول الرابع : قال أبو علي معناه المعاينة والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملئكة أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ [الفرقان : 21] .

وخامسها : قولهم : ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مّن زُخْرُفٍ ﴾ قال مجاهد : كنا لا ندري ما الزخرف حتى رأيت في قراءة عبد الله : ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مّن ذَهَبَ ﴾ قال الزجاج : الزخرف الزينة يدل عليه قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت ﴾ [يونس : 24] أي أخذت كمال زينتها ولا شيء في تحسين البيت وتزيينه كالذهب .

وسادسها : قولهم : ﴿ أَوْ ترقى فِى السماء ﴾ قال الفراء : يقال رقيت وأنا أرقى رقي ورقيا وأنشد :

أنت الذي كلفتني رقي الدرج . . على الكلال والمشيب والعرج

وقوله ﴿ في السماء ﴾ أي في معارج السماء فحذف المضاف ، يقال رقي السلم ورقي الدرجة ثم قالوا : ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيّكَ ﴾ أي لن نؤمن لأجل رقيك : ﴿ حَتَّى تُنَزّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً مّنَ السماء ﴾ فيه تصديقك قال عبد الله بن أمية : لن نؤمن حتى تضع على السماء

سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتي معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أن الأمر كما تقول .

(17/464)

ولما حكى الله تعالى عن الكفار اقتراح هذه المعجزات قال لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ سبحان رَبّى هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ وفيه مباحث :

المبحث الأول : أنه تعالى حكى من قول الكفار قولهم : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعًا ﴾ إلى قوله : ﴿ قُلْ سبحان رَبّى ﴾ [الإسراء : 90-93] وكل ذلك كلام القوم وإنا لا نجد بين تلك الكلمات وبين سائر آيات القرآن تفاوتاً في النظم فصح بهذا صحة ما قاله الكفار لو نشاء لقلنا مثل هذا .

والجواب : أن هذا القرآن قليل لا يظهر فيه التفاوت بين مراتب الفصاحة والبلاغة فزال هذا السؤال .

البحث الثاني : هذه الآيات من أدل الدلائل على أن المجيء والذهاب على الله محال لأن كلمة سبحان للتنزيه عما لا ينبغي ، وقوله ﴿ سبحان ربي ﴾ تنزيه لله تعالى عن شيء لا يليق به أو نسب إليه مما تقدم ذكره وليس فيما تقدم ذكره شيء لا يليق بالله إلا قولهم أو

﴿ تأتي بالله ﴾ فدل هذا على أن قوله : ﴿ سبحان ربّى ﴾ تنزيه لله عن الإتيان والمجيء وذلك يدل على فساد قول المشبهة في أن الله تعالى يجيء ويذهب ، فإن قالوا : لم لا يجوز أن يكون المراد تنزيه الله تعالى عن أن يتحكم عليه المتحكمون في اقتراح الأشياء ؟ قلنا القوم لم يتحكموا على الله ، وإنما قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم إن كنت نبياً صادقاً فاطلب من الله أن يشرفك بهذه المعجزات فالقوم تحكموا على الرسول وما تحكموا على الله فلا يليق حمل قوله : ﴿ سبحان ربّى ﴾ على هذا المعنى فوجب حمله على قولهم أو تأتي بالله .

البحث الثالث : تقرير هذا الجواب أن يقال : إما أن يكون مرادكم من هذا الاقتراح أنكم طلبتم الإتيان من عند نفسي بهذه الأشياء أو طلبتم مني أن أطلب من الله تعالى إظهارها على يدي لتدل على كوني رسولاً حقاً من عند الله .

(18/464)

والأول باطل لأني بشر والبشر لا قدرة له على هذه الأشياء والثاني أيضاً باطل لأني قد أتيتكم بمعجزة واحدة وهي القرآن والدلالة على كونها معجزة فطلب هذه المعجزات طلب لما لا حاجة إليه ولا ضرورة فكأن طلبها يجري مجرى التعنت والتحكم وأنا عبد

مأمور ليس لي أن أتحكم على الله فسقط هذا السؤال فثبت أن قوله : ﴿ قُلْ سبحان ربِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ جواب كاف في هذا الباب ، وحاصل الكلام أنه سبحانه بين بقوله : ﴿ سبحان ربِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ كونهم على الضلال في الإلهيات ، وفي النبوات .

أما في الإلهيات فيدل على ضلالهم قوله ﴿ سبحان ربي ﴾ أي سبحانه عن أن يكون له إتيان ومجيء وذهاب وأما في النبوات فيدل على ضلالهم قوله : ﴿ هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ وتقريره ما ذكرناه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 45. 50 ﴾

(19/464)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجُر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾

التفجير تشقيق الأرض لينبع الماء منها ، ومنه سمي الفجر لأنه ينشق عن عمود الصبح ، ومنه سمي الفجور لأنه شق الحق بالخروج إلى الفساد .

الينبوع : العين التي ينبع منها الماء ، قال قتادة ومجاهد : طلبوا عيوناً ببلدهم .

﴿ أو تكون لك جنةٌ من نخيلٍ وعنب ﴾ سألوا ذلك في بلد ليس ذلك فيه .

﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ﴾ أي قطعاً . قرىء بتسكين السين وفتحها ، فمن قرأ بالتسكين أراد السماء جميعها ، ومن فتح السين جعل المراد به بعض السماء ، وفي تأويل ذلك وجهان :

أحدهما : يعني حيزاً ، حكاه ابن الأنباري ، ولعلهم أرادوا به مشاهدة ما فوق السماء .

الثاني : يعني قطعاً ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة . والعرب تقول . أعطني كسفة من هذا الثوب أي قطعة منه . ومن هذا الكسوف لانقطاع النور منه ، وعلى الوجه الثاني لتغطيته بما يمنع من رؤيته .

﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يعني كل قبيلة على حدتها ، قاله الحسن .

الثاني : يعني مقابلة ، نعاينهم ونراهم ، قاله قتادة وابن جريج .

الثالث : كفيلاً ، والقبيل الكفيل ، من قولهم تقبلت كذا أي تكفلت به ، قاله ابن قتيبة .

الرابع : مجتمعين ، مأخوذ من قبائل الرأس لاجتماع بعضه إلى بعض ومنه سميت قبائل العرب لاجتماعها ، قاله ابن بحر .

قوله عز وجل : ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الزخرف النقوش ، وهذا قول الحسن .

الثاني : أنه الذهب ، وهذا قول ابن عباس وقتادة ، قال مجاهد : لم أكن أدري ما الزخرف حتى سمعنا في قراءة عبد الله : بيت من ذهب .

وأصله من الزخرفة وهو تحسين الصورة ، ومنه قوله تعالى ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ﴾ [يونس : 24] .

(20/464)

والذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك نفر من قريش قال ابن عباس : هم عتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان والأسود بن عبد المطلب بن أسد وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام وعبد الله بن أمية والعاص بن وائل وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(21/464)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن ﴾ الآية ،

سبب هذه الآية أن جماعة من قريش قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد جئتنا بآية غريبة غير هذا القرآن ، فإنا نقدر على المجيء بمثل هذا ، فنزلت هذه الآية المصرحة بالتعجيز ، المعلمة بأن جميع الخلائق لو تعاونوا إنساً وجناً على ذلك لم يقدروا عليه ، والعجز في معارضة القرآن إنما وقع في النظم والرصف لمعانيه ، وعلة ذلك الإحاطة التي لا يتصف بها إلا الله عز وجل ، والبشر مقصر ضرورة بالجهل والنسيان والغفلة وأنواع النقص ، فإذا نظم كلمة خفي عنه للعلل التي ذكرنا أليق الكلام بها في المعنى ، وقد ذكرت هذه المسألة في صدر هذا الديوان ، وقوله ﴿ لا يأتون بمثله ﴾ في موضع رفع ، و ﴿ لا ﴾ متلقية قسماً ، واللام في قوله ﴿ لئن ﴾ مؤذنه غير لازمة قد تحذف أحياناً ، وقد تجيء هذه اللام مؤكدة فقط ، ويجيء الفعل المنفي مجزوماً ، وهذا اعتماد على الشرط ومنه قول الأعمش : [البسيط]

لئن منيت بنا عن غر معركة . . . لا تلفنا عن دماء القوم ننتقل

و " الظهير " المعين ، ومنه قوله عز وجل ﴿ وإن تظاهرا عليه ﴾ [التحريم : 4] الآية :

وفهمت العرب بخلوص فهمها في ميز الكلام ودربتها به ما لا نفهمه نحن ، ولا كل من خالطته حضارة ، ففهموا العجز عنه ضرورة ومشاهدة ، وعلمه الناس بعدهم استدلالاً ونظراً ، ولكل حصل علم قطعي ، لكن ليس في مرتبة واحدة ، وهذا كما علمت الصحابة شرع النبي وأعماله مشاهدة علم ضرورة وعلمنا نحن المتواتر من ذلك بنقل التواتر ، فحصل

للجميع القطع ، لكن في مرتبتين ، وفهم إعجاز القرآن أرباب الفصاحة الذين لهم غرائب في ميز الكلام ، ألا ترى إلى فهم الفرزدق شعر جرير في شعر ذي الرمة في قوله : يُعد الناسبون إلى تميم .

الأبيات كلها ، وألا ترى قصة جرير في نوادره مع الفرزدق : في قول الفرزدق : على م تلفتين ، وفي قوله : تلفت أنها تحت ابن قين .

(22/464)

وألا ترى إلى قول الأعرابي : عز فحكم فقطع ، وألا ترى إلى استدلال الآخر على البعث بقوله ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ [التكاثر : 2] فقال إن الزيارة تقتضي الانصراف ومنه علم بشار بقول أبي عمرو بن العلاء في شعر الأعشى : وأنكرتني وما كان الذي نكرت ، ومنه قول الأعرابي للأصمعي : من أحوج الكريم إلى أن يقسم ؟ ومن فهمهم أنهم ببدائههم يأتون بكلمة منثورة تفضل المنقح من الشعر ، وأمثلة ذلك محفوظة ، ومن ذلك أجوبتهم المسكتة إلى غير ذلك من براعتهم في الفصاحة ، وكونهم فيها النهاية ، كما كان السحر في زمن موسى ، والطب في زمن عيسى ، فهم مع هذه الأفهام أقروا بالعجز ، ولجأ المحاد منهم إلى السيف ، ورضي بالقتل والسبا وكشف الحرم ، وهو كان يجد المندوحة عن ذلك بالمعارضة ،

وكذلك التحدي بالعشر السور ، والتحدي بالسورة إنما وقع كله على حد واحد في النظم خاصة ، وقيد العشر بالافتراء لأنهم ذكروا أن القرآن مفترى ، فدعاهم بعقب ذكر ذلك إلى الإتيان بعشر سور مفتريات ، ولم يذكر الافتراء في السورة لأنه لم يجر عنهم ذكر ذلك قبل ، بل قال

﴿ إن كنتم في ريب ﴾ [البقرة : 23] على أنه قد جاء ذكر السورة مع ذكرهم الافتراء في سورة هود وقد اختلف الناس في هذا الموضع فقيل دعوا إلى السورة المماثلة في النظم والغيوب وغير ذلك من الأوصاف ، وكان ذلك من تكليف ما لا يطاق ، فلما عسر عليهم خفق بالدعوة إلى المفتريات ، وقيل غير هذا مما ينحل عند تحصيله .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89) ﴾

(23/464)

هذه الآية تنبه على فضل الله في القرآن على العالم ، وتوبيخ للكفار منهم على قبيح فعلهم ، وتصريف القول هو ترديد البيان عن المعنى ، وقرأ الجمهور " صرّفنا " بتشديد الراء ، وقرأ الحسن " صرَفنا " بفتح الراء خفيفة ، وقوله ﴿ من كل مثل ﴾ يجوز أن تكون ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية ، ويكون المفعول ب ﴿ صرفنا ﴾ مقدراً تقديره " ولقد صرفنا في هذا

القرآن التنبيه والعبر من كل مثل ضربناه " ، ويجوز أن تكون مؤكدة زائدة ، التقدير " ولقد صرفنا كل مثل " ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ [البقرة : 125] . وقوله ﴿ فأبى ﴾ عبارة عن تكسب الكفار الكفر وإعراضهم عن الإيمان ، وفي العبارة يأبى تغليظ ، والكفر بالخلق والاختراع هو من فعل الله تعالى ، وبالتكسب والدؤوب هو من الإنسان ، و﴿ كفوراً ﴾ مصدر كالخروج ، وقوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك ﴾ الآية ، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر " حتى تُفجّر " ، وقرأ عاصم وحمزة الكسائي حتى " تَفجُر " بفتح التاء وضم الجيم ، وفي القرآن ﴿ فانفجرت ﴾ [البقرة : 60] ، وانفجر مطاوع فجر فهذا مما يقوي القراءة الثانية ، وأما الأولى فتقتضي المبالغة في التفجير . و" الينبوع " الماء النابع ، وهي صفة مبالغة إنما تقع للماء الكثير ، وطلبت قريش هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، وإياها عنوا ب ﴿ الأرض ﴾ ، وإنما يراد بإطلاق لفظة ﴿ الأرض ﴾ هنا الأرض التي يكون فيها المعنى المتكلم فيه ، كقوله ﴿ أو ينفوا من الأرض ﴾ [المائدة : 33] فإنما يريد من أرض تصرفهم وقطعهم السبل ومعاشهم ، وكذلك أيضاً اقتراحهم الجنة إنما هو بمكة لامتناع ذلك فيها ، وإلا ففي سائر البلاد كان ذلك يمكنه وإنما طلبوه بأمر إلهي في ذلك الموضع الجدب ، وقرأ الجمهور " جنة " ، وقرأ " حبة " المهدوي ، وقوله ﴿ فتفجّر ﴾ . تضعيف مبالغة لا تضعيف تعدية ، كغلقت الأبواب ، و﴿ خلالها ﴾ ظرف ، ومعناه أثناءها وفي داخلها ،

وروي في قول هذه المقالة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حديث طويل ، مقتضاه أن عتبة وشيبة ابني ربيعة ، وعبد الله بن أبي أمية ، والنضر بن الحارث وغيرهم من مشيخة قريش وسادتها ، اجتمعوا عليه فعرضوا عليه أن يملكوه إن أراد الملك ، أو يجمعوا له كثيراً من المال إن أراد الغنى ، أو يطبوه إن كان به داء ونحو هذا من الأقاويل ، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك إلى الله ، وقال " إنما جئتكم عند الله بأمر فيه صلاح دينكم ودنياكم ، فإن سمعتم وأطعتم فحسن ، وإلا صبرت لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم بما شاء " ، فقالوا له حينئذ فإن كان ما تزعمه حقاً ففجر ينبوعاً ونؤمن لك ، ولتكن لك جنة إلى غير ذلك مما كلفوه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا كله إلى الله ، ولا يلزمني هذا ولا غيره ، وإنما أنا مستسلم لأمر الله " ، هذا هو معنى الحديث . وفي الألفاظ اختلاف وروايات متشعبة يطول سوق جميعها ، فاختصرت لذلك . وقوله تعالى : ﴿ أو تسقط السماء ﴾ الآية ، قرأ الجمهور " أو تُسقط " بضم التاء ، " السماءَ " نصب ، وقرأ مجاهد " أو تَسقط السماءُ " برفع " السماءُ " وإسناد الفعل إليها ، وقوله ﴿ كما زعمت ﴾ إشارة إلى ما تلي عليهم قبل ذلك في قوله عز وجل ﴿ إن نشأ

نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ﴾ [سبأ : 9] ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي "كسْفاً" بسكون السين إلا في الروم ، فإنهم حركوها ، ومعناه قطعاً واحداً ، قال مجاهد : السماء جميعاً وتقول العرب : كسفت الثوب ونحوه قطعته ، ف "الكسَف" بفتح السين المصدر ، والكسف الشيء المقطوع ، قال الزجاج : المعنى أو تسقط السماء علينا قطعاً ، واشتقاقه من كسفت الشيء إذا غطيته .

(25/464)

قال القاضي أبو محمد : وليس بمعروف في دواوين اللغة كسف بمعنى غطى ، وإنما هو بمعنى قطع ، وكأن كسوف الشمس والقمر قطع منهما ، وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر "كسَفاً" بفتح السين أي قطعاً جمع كسفه ، وقوله ﴿ قبيلاً ﴾ قيل معناه مقابلة وعياناً ، وقيل معناه ضامناً وزعيماً بتصديقك ، ومنه القبالة وهي الضمان والقبيل ، والمتقبل الضامن ، وقيل معناه نوعاً وجنساً لا نظير له عندنا ، وقرأ الأعرج "قبلاً" وقيل بمعنى المقابلة .

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ﴾

قال المفسرون : "الزخرف" الذهب في هذا الموضع ، والزخرف ما تزين به ، كان بذهب

أو غيره ، ومنه ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ﴾ [يونس : 24] وفي قراءة عبد الله بن مسعود " أو يكون لك بيت من ذهب " ، قال مجاهد ما كنا نعرف الزخرف حتى قرأنا في حرف عبد الله " من ذهب " ، وقوله ﴿ من السماء ﴾ يريد في الهواء علواً ، والعرب تسمي الهواء علواً سماء لأنه في حيز السمو . ويحتمل أن يريدوا السماء المعروفة ، وهو أظهر لأنه أعلمهم أن إله الخلق فيها وأنه تأتيه خبرها ، و ﴿ ترقى ﴾ معناه تصعد ، والرقي الصعود ، ويروى أن قائل هذه المقالة هو عبد الله بن أبي أمية ، فإنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا لا أؤمن لك حتى تأتي بكتاب أراك هابطاً به فيه من الله عز وجل إلى عبد الله بن أبي أمية ، وروي أن جماعتهم طلبت هذا النحو منه ، فأمره الله عز وجل أن يقول ﴿ سبحان ربي ﴾ أي تنزيهاً له من الإتيان مع الملائكة قبيلاً ، ومن أن يخاطبكم بكتاب كما أردتم ، ومن أن اقترح أن عليه هذه الأشياء ، وهل أنا إلا بشر منكم ، أرسلت إليكم بالشريعة ، فإنما علي التبليغ فقط ، وقرأ ابن كثير وابن عامر " قال سبحان ربي " على معنى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سبح عند قولهم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل لَئِن اجتمعت الإِنس والجنُّ ﴾

قال المفسرون : هذا تكذيب للنَّضْر بن الحارث حين قال : "لو شئنا لقلنا مثل هذا" .

والمِثْل الذي طُلِبَ منهم : كلام له نظم كنظم القرآن ، في أعلى طبقات البلاغة .

والظهير : المُعين .

قوله تعالى : ﴿ ولقد صرَّفْنا للناس في هذا القرآن ﴾

قد فسَّرناه في هذه السورة [الاسراء : 41] ، والمعنى : من كل مَثَل من الأمثال التي يكون بها الاعتبار ﴿ فأبى أكثر الناس ﴾ يعني أهل مكة ﴿ إِلا كُفوراً ﴾ أي : جحوداً للحق وإِنكاراً .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجِّر لنا من الأرض يَنبوعا ﴾ سبب نزول هذه الآية وما يتبعها ، "أن رؤساء قريش ، كعُتبة ، وشيبة ، وأبي جهل ، وعبد الله بن أبي أُمية ، والنضر بن الحارث في آخرين ، اجتمعوا عند الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إِلى محمد فكلِّموه وخاصموه حتى تُعذَروا فيه ، فبعثوا إِليه : إِن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلِّموك ، فجاءهم سريعاً ، وكان حريصاً على رشدهم ، فقالوا : يا محمد ، إِنا والله لا نَعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفَّهت الأحلام ، وفرَّقت الجماعة ، فإن كنتَ إِنما جئتَ بهذا لتطلب مالاً ،

جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً ، وإن كنتَ إنما تطلب الشرف فينا ، سوَّدناك علينا ، وإن كان هذا الرَّئيُّ الذي يأتيك قد غلب عليك ، بذلنا أموالنا في طلب الطِّب لك حتى نُبْرِئك منه ، أو نُعْذَرَ فيك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن تقبلوا مِنّي [ما جئتكم به] ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردُّوه عليّ ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم" .

(27/464)

قالوا : يا محمد ، فإن كنتَ غير قابل مِنّا ما عرضنا ، فقد علمتَ أنه ليس من الناس أحد أضيقَ بلاداً ولا أشد عيشاً منا ، سل لنا ربك يُسيِّر لنا هذه الجبال التي ضيّقت علينا ، ويُجري لنا أنهاراً ، ويبعث من مضى من آبائنا ، ولْيكن فيمن يبعث لنا منهم قصيّ بن كلاب ، فإنه كان شيخاً صدوقاً ، فنسألهم عما تقول : أحق هو ؟ فإن فعلتَ صدّقناك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما بهذا بُعثتُ ، وقد أبلغتكم ما أُرسلتُ به" ؛ قالوا : فَسَلْ ربّك أن يبعث مَلَكاً يصدّقك ، وسله أن يجعل لك جناناً ، وكنوزاً ، وقصوراً من ذهب وفضة تغنيك ؛ قال : "ما أنا بالذي يسأل ربه هذا" ؛ قالوا : فأسقط السماء [علينا] كما زعمت بأن ربّك إن شاء فعل ؛ فقال : "ذلك إلى الله عز وجل" ؛ فقال قائل منهم : لن

نؤمن لك حتى تأتيَ بالله والملائكة قبيلاً ، وقال عبد الله بن أبي أُمية : لا أؤمن لك حتى تتخذ إلى [السماء] سُلَّماً ، وترقى فيه وأنا أنظر ، وتأتي بنسخة منشورة معك ، ونفرٍ من الملائكة يشهدون لك ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حزيناً لِمَا رأى من مباعدتهم إياه " ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك . . . .

﴾ الآيات ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ حتى تفجر ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "حتى تُفَجِّرَ" بضم التاء ، وفتح الفاء ، وتشديد الجيم مع الكسرة .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : "حتى تَفْجُرَ" بفتح التاء ، وتسكين الفاء ، وضم الجيم مع التخفيف .

فمن ثقَّل ، أراد كثرة الانفجار من الينبوع ، ومن خفَّف ، فلأن الينبوع واحد .

فأما الينبوع : فهو عين ينبع الماء منها ؛ قال أبو عبيدة : هو يَفعول ، من نبع الماء ، أي : ظهر وفار .

قوله تعالى : ﴿ أو تكونَ لك جَنَّة ﴾ أي : بستان ﴿ فتفجر الأنهار ﴾ أي : تفتحها وتجريها ﴿ خلالها ﴾ أي : وسط تلك الجنة .

قوله تعالى : ﴿ أو تُسْقطَ السماء ﴾ وقرأ مجاهد ، وأبو مجلز ، وأبو رجاء ، وحميد ، والجحدري : "أو تَسقُط" بفتح التاء ، ورفع القاف "السماءُ" بالرفع .

قوله تعالى : ﴿ كِسفاً ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : "كِسْفاً" بتسكين السين في جميع القرآن إلا في [الروم : 48] فإنهم حرّكوا السين .

وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم بتحريك السين في الموضعين ، وفي باقي القرآن بالتسكين .

وقرأ ابن عامر هاهنا بفتح السين ، وفي باقي القرآن بتسكينها .

قال الزجاج : من قرأ "كِسَفاً" بفتح السين ، جعلها جمع كِسفة ، وهي : القطعة ، ومن قرأ "كِسْفاً" بتسكين السين ، فكأنهم قالوا : أَسْقِطها طبقاً علينا ؛ واشتقاقه من كسفتُ الشيء : إذا غطيّته ، يعنون : أسقطها علينا قطعة واحدة .

وقال ابن الأنباري : من سكّن قال : تأويله : ستراً وتغطية ، من قولهم : قد انكسفت الشمس : إذا غطاها ما يحول بين الناظرين إليها وبين أنوارها .

قوله تعالى : ﴿ أو تأتيَ بالله والملائكة قبيلاً ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : عياناً ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، وابن جريج ، ومقاتل .

وقال أبو عبيدة : معناه : مقابلة ، أي : معاينة ، وأنشد للأعشى :

نُصَالِحُكُمْ حَتَّى تَبُوؤُوا بِمِثْلِهَا . . .

كَصَرْخَةِ حُبْلَى يَسَّرَتْهَا قَبِيلُهَا

أي: قابِلتُها .

ويروى: وجَّهتْها [يعني بدل: يسرتها] .

والثاني: كفيلاً أنك رسول الله، قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره الفراء، قال:

القبيل، والكفيل، والزعيم، سواء؛ تقول: قبلت، وكفلت، وزعمت .

والثالث: قبيلة قبيلة، كل قبيلة على حِدَتها، قاله الحسن، ومجاهد .

فأما الزخرف، فالمراد به الذهب، وقد شرحنا أصل هذه الكلمة في [يونس: 24] ،

و"ترقى": بمعنى "تصعد"؛ يقال: رَقِيتُ أرقَى رُقِيّاً .

(29/464)

قوله تعالى: ﴿ حتى تُنَزِّل علينا كتاباً ﴾ قال ابن عباس: كتاباً من رب العالمِين إلى فلان بن فلان يصبح عند كل واحد منا يقرؤه .

قوله تعالى: ﴿ قل سبحان ربي ﴾ قرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي : "قل" .

وقرأ ابن كثير، وابن عامر: "قال"، وكذلك هي في مصاحف أهل مكة والشام، ﴿ هل

كنتُ إلا بشراً رسولاً ﴾ ، أي : أن هذه الأشياء ليست في قوى البشر .

فإن قيل : لِم اقتصر على حكاية "قالوا" من غير إيضاح الرد ؟

فالجواب : أنه لما خصهم بقوله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ﴾ فلم يكن في وسعهم ، عجَّزهم ، فكأنه يقول : قد أوضحت لكم بما سبق من الآيات ما يدل على نبوّتي ، ومن ذلك التحدِي بمثل هذا القرآن ، فأما عَنَتُكم فليس في وسعي ، ولأنهم ألحُّوا عليه في هذه الأشياء ، ولم يسألوه أن يسألَ ربه ، فردَّ قولهم بكونه بشراً ، فكفى ذلك في الردِّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(30/464)

وقال القرطبى :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) ﴾

أي عوناً ونصيراً ؛ مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعر فيقيمونه .

نزلت حين قال الكفار : لو نشاء لقلنا مثل هذا ؛ فأكذبهم الله تعالى .

وقد مضى القول في إعجاز القرآن في أوّل الكتاب .

والحمد لله .

و﴿ لا يَأْتُونَ ﴾ جواب القسم في "لئن" وقد يجزم على إرادة الشرط .

قال الشاعر :

لئن كان ما حُدِّثْتِهِ اليوم صادقاً . . .

أَقِم في نهار القَيْظ للشمس بادِيَا

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾

أي وجهنا القول فيه بكل مثل يجب به الاعتبار ؛ من الآيات والعبر والترغيب والترهيب ، والأوامر والنواهي وأقاصيص الأوّلين ، والجنة والنار والقيامة .

﴿ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً ﴾ يريد أهل مكة ، بيّن لهم الحقّ وفتح لهم وأمهلهم حتي تبيّن لهم أنه الحق ، فأبوا إلا الكفر وقت تبيّن الحق .

قال المهدويّ : ولا حجة للقدريّ في قولهم : لا يقال أبى إلا لمن أبى فعل ما هو قادر عليه ؛ لأن الكافر وإن كان غير قادر على الإيمان بحكم الله عليه بالإعراض عنه وطبعه على قلبه ، فقد كان قادراً وقت الفسحة والمهلة على طلب الحق وتمييزه من الباطل .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً ﴾

الآية نزلت في رؤساء قريش مثل عتبة وشيبة ابني ربيعة ، وأبي سفيان والنضر بن الحارث ،

وأبي جهل وعبد الله بن أبي أمية ، وأمية بن خلف وأبي البختريّ ، والوليد بن المغيرة وغيرهم .

(31/464)

وذلك أنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن ولم يرضَوْا به معجزة ، " اجتمعوا فيما ذكر ابن إسحاق وغيره بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك فأتهم ، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بدو ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصاً يحبّ رشدهم ويعزّ عليه عَنَتهم ، حتى جلس إليهم فقالوا له : يا محمد ! إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمتَ الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفّهت الأحلام وفرّقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك ، أو كما قالوا له .

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا ، وإن كنت تريد به ملكاً

ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئِيًّا تراه قد غَلَب عليك وكانوا يسمّون التابع من الجن رئياً فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نُعذر فيك.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما بي ما تقولون ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلّغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم" أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

(32/464)

قالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقلّ ماء ولا أشدّ عيشاً منا ، فسَلْ لنا ربّك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا وليخرق لنا فيها أنهاراً كأنهار الشأم ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا قُصي بن كلاب ؛ فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول ، أحقٌّ هو أم باطل ، فإن صدّقوك وصنعت ما سألناك صدّقناك ، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى ، وأنه بعثك رسولاً كما

تقول .

فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه : ما بهذا بعثت إليكم إنما جئتكم من الله تعالى بما بعثني به وقد بلّغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ! سَلْ ربك أن يبعث معك مَلَكاً يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك ، واسأله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عمّا نراك تبتغي ؛ فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربّه هذا وما بعثت بهذا إليكم ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً أو كما قال فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم قالوا : فاسقط السماء علينا كسَفاً كما زعمت أن ربّك إن شاء فعل ؛ فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل .

قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك إلى الله عز وجل إن شاء أن يفعله بكم فعل قالوا : يا محمد ، أَفَما عَلم ربّك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدّم إليك فيعلمك بما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به .

إنه قد بلغنا أنك إنما يعلّمك هذا رجل من اليمامة يقال له الرحمن ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا .

وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله .

وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً .

فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وهو ابن عمته ، هو لعاتكةَ بنت عبد المطلب ، فقال له : يا محمد ! عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ! ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ! ثم سألوك أن تعجّل لهم بعض ما تخوّفهم به من العذاب فلم تفعل ! أو كما قال له فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلَّماً ، ثم تَرْقَى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ، ثم تأتي معك بصَكٍّ معه أربعةٌ

من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول .

وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك ! ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزيناً آسفاً لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه "

؛ كلّه لفظ ابن إسحاق .

وذكر الواحديّ عن عكرمة عن ابن عباس : فأنزل الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً ﴾ ﴿ يَنْبُوعاً ﴾ يعني العيون ؛ عن مجاهد .

(34/464)

وهي يفعول ، من نَبَع ينبع .

وقرأ عاصم وحمزة والكسائيّ "تفجر لنا" مخفّفة ؛ واختاره أبو حاتم لأن الينبوع واحد .

ولم يختلفوا في تفجّر الأنهار أنه مشدّد .

قال أبو عبيد : والأولى مثلها .

قال أبو حاتم : ليست مثلها ؛ لأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد ، والثانية بعدها الأنهار وهي جمع ، والتشديد يدل على التكثير .

أجيب بأن "ينبوعاً" وإن كان واحداً فالمراد به الجمع ، كما قال مجاهد .

الينبوع عين الماء ، والجمع الينابيع .

وقرأ قتادة "أو يكون لك جنة" .

﴿ خِلاَلَهَا ﴾ أي وسطها .

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السمآء ﴾ قراءة العامة .

وقرأ مجاهد "أو يسقط السماء" على إسناد الفعل إلى السماء .

﴿ كِسَفاً ﴾ قطعاً ؛ عن ابن عباس وغيره .

والكِسَف (بفتح السين) جمع كسفة ، وهي قراءة نافع وابن عامر وعاصم .

الباقون "كسفاً" بإسكان السين .

قال الأخفش : من قرأ كسْفاً من السماء جعله واحداً ، ومن قرأ كسفاً جعله جمعاً .

قال المهدَويّ : ومن أسكن السين جاز أن يكون جمع كسفة وجاز أن يكون مصدراً ؛ من كسفت الشيء إذا غطّيته .

فكأنهم قالوا : أسقطها طبقاً علينا .

وقال الجوهريّ : الكِسْفة القطعة من الشيء ؛ يقال : أعطني كِسْفة من ثوبك ، والجمع كِسْف وكِسَف .

ويقال : الكِسْف والكِسْفة واحد .

﴿ أَوۡ تَأۡتِيَ بِاللهِ وَالۡمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ أي معاينة ؛ عن قتادة وابن جريج .

وقال الضحاك وابن عباس : كفيلاً .

قال مقاتل : شهيداً .

مجاهد : هو جمع القبيلة ؛ أي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة .

وقيل : ضمناء يضمنون لنا إتيانك به .

﴿ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٌ مِّن زُخۡرُفٍ ﴾ أي من ذهب ؛ عن ابن عباس وغيره .

وأصله الزينة .

والمزخرف المزين .

وزخارف الماء طرائقه .

وقال مجاهد : كنت لا أدري ما الزُّخرف حتى رأيته في قراءة ابن مسعود "بيت من ذهب"

أي نحن لا ننقاد لك مع هذا الفقر الذي نرى .

﴿ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي السَّمَآءِ ﴾ أي تصعد ؛ يقال : رقيت في السلم أرقى رَقْياً ورُقِيّاً إذا

صعدت .

وارتقيت مثله .

﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ أي من أجل رقيّك ، وهو مصدر ؛ نحو مضى يمضي مضياً ، وهوى يهوي هوياً ، كذلك رقى يرقى رقياً .

﴿ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ ﴾ أي كتاباً من الله تعالى إلى كل رجل منا ؛ كما قال تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرِىءٍ مِّنْهُمْ أَن يؤتى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ [المدثر : 52] .

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ وقرأ أهل مكة والشام ﴿ قَلْ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ يعني النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي قال ذلك تنزيهاً لله عز وجل عن أن يعجز عن شيء وعن أن يعترض عليه في فعل .

وقيل : هذا كله تعجب عن فرط كفرهم واقتراحاتهم .

الباقون "قل" على أمر ؛ أي قل لهم يا محمد ﴿ هَلْ كُنتُ ﴾ أي ما أنا "إلاّ بشراً رسولاً" أتبع ما يوحى إليّ من ربّي ، ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التي ليست في قدرة البشر ، فهل سمعتم أحداً من البشر أتى بهذه الآيات ! وقال بعض الملحدين : ليس هذا جواباً مقنعاً ، وغلطوا ؛ لأنه أجابهم فقال : إنما أنا بشر لا أقدر على شيء مما سألتموني ، وليس لي أن أتخيّر على ربي ، ولم تكن الرسل قَبْلي يأتون أممهم بكل ما يريدونه ويبغونه ، وسبيلي سبيلهم ، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوّتهم ، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها ، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من

الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل ، ولوجب لكل إنسان أن يقول : لا أؤمن حتى أوتى بآية خلاف ما طلب غيري .

وهذا يؤول إلى أن يكون التدبير إلى الناس .

وإنما التدبير إلى الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(36/464)

وقال أبو حيان :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾

لما ذكر تعالى إنعامه على نبيه (صلى الله عليه وسلم) بالنبوّة بإنزال وحيه عليه وباهر قدرته بأنه تعالى لو شاء لذهب بالقرآن ، ذكر ما منحه تعالى من الدليل على نبوته الباقي بقاء الدهر ، وهو القرآن الذي عجز العالم عن الإتيان بمثله ، وأنه من أكبر النعم والفضل الذي أبقى له ذكراً إلى آخر الدهر ورفع له قدراً به في الدنيا والآخرة ، وإذا كان فصحاء اللسان الذي نزل به وبلغاؤهم عجزوا عن الإتيان بسورة واحدة مثله فلأن يكونوا أعجز عن ﴿ أن يأتوا بمثل ﴾ جميعه ، ولو تعاون الثقلان عليه ﴿ لا يأتون بمثله ولو كان ﴾ الجنّ تفعل أفعالاً مستغربة كما حكى الله عنهم في قصة سليمان عليه السلام أدرجوا مع الإنس

في التعجيز ليكون ذلك أبلغ في العجز ، ويحتمل أن تكون الملائكة مندرجين تحت لفظ الجن لأنه قد يطلق عليهم هذا الاسم كقوله ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ وإن كان الأكثر استعماله في غير الملائكة من الأشكال الجنية المستترين عن أبصار الإنس ، ويحتمل أن يكون ذكر الجن هنا لأنه عليه السلام بعث إلى الإنس والجن فوقع التعجيز للثقلين معاً لذلك .

وروي أن جماعة من قريش قالوا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : جئنا بآية غريبة غير هذا القرآن فإنّا نحن نقدر على المجيء بمثل هذا ، فنزلت ﴿ ولا يأتون ﴾ جواب القسم المحذوف قبل اللام الموطئة في ﴿ لئن ﴾ وهي الداخلة على الشرط كقوله ﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴾ فالجواب في نحو هذا للقسم المحذوف لا للشرط ، ولذلك جاء مرفوعاً .

فأما قول الأعشى :

لئن منيت بنا عن غب معركة . . . .

لأتلفنا عن دماء القوم ننتفل

فاللام في ﴿ لئن ﴾ زائدة وليست موطئة لقسم قبلها .

فلذلك جزم في قوله لأتلفنا وقد احتج بهذا ونحوه الفراء في زعمه أنه إذا اجتمع القسم والشرط وتقدم القسم ولم يسبقهما ذو خبر أنه يجوز أن يكون الجواب للقسم وهو الأكثر وللشرط، ومذهب البصريين يحتم الجواب للقسم خاصة.

وذكر ابن عطية هنا فصلاً حسناً في ذكر الإعجاز نقلناه بقصته.

قال: وفهمت العرب بخلوص فهمها في ميز الكلام ودربتها به ما لا نفهمه نحن ولا كل من خالطته حضارة، ففهموا العجز عنه ضرورة وشاهده وعلمه الناس بعدهم استدلالاً ونظراً ولكل حصل علم قطعي لكن ليس في مرتبة واحدة، وهذا كما علمت الصحابة شرع النبيّ (صلى الله عليه وسلم) وأعماله ومشاهده علم ضرورة، وعلمنا نحن المتواتر من ذلك بنقل التواتر فحصل للجميع القطع لكن في مرتبتين، وفهم إعجاز القرآن أرباب الفصاحة الذين لهم غرائب في ميز الكلام، ألا ترى إلى فهم الفرزدق شعر جرير وذي الرمّة في قول الفرزدق:

علام تلفتين وأنت تحتي . . .

وفي قول جرير:

تلفت إنها تحت ابن قين . . .

وألا ترى قول الأعرابي: عز فحكم فقطع، وألا ترى إلى الاستدلال الآخر على البعث بقوله ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ فقال: إن الزيارة تقتضي الانصراف، ومنه علم بشار بقول أبي

عمرو بن العلاء في شعر الأعشى :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت . . .

ومنه قول الأعرابي للأصمعي :

من أحوج الكريم أن يقسم . . .

فهم مع هذه الأفهام أقروا بالعجز ، ولجأ النجاد منهم إلى السيف ورضي بالقتل والسباء وكشف الحرم .

وهو كان يجد المندوحة عن ذلك بالمعارضة انتهى .

ما اقتصرنا عليه من كلامه وكان قد قدم قبل ذلك قوله والعجز في معارضة القرآن إنما وقع في النظم ، وعلة ذلك الإحاطة التي لا يتصف بها إلاّ الله عز وجل والبشر مقصر ضرورة بالجهل والنسيان والغفلة وأنواع النقص ، فإذا نظم كلمة خفي عنه العلل التي ذكرنا .

وقال الزمخشري : ﴿ ولا يأتون ﴾ جواب قسم محذوف ، ولولا اللام الموطئة لجاز أن تكون جواباً للشرط .

كقوله :

يقول لا غائب مالي ولا حرم . . .

لأن الشرط وقع ماضياً انتهى .

يعني بالشرط قوله وهو صدر البيت :

وإن أتاه خليل يوم مسألة . . .

فأتاه فعل ماض دخلت عليه أداة الشرط فخلصته للاستقبال ، وأفهم كلام الزمخشري أن يقول : وإن كان مرفوعاً هو جواب الشرط الذي هو وإن أتاه ، وهذا الذي ذهب إليه هو مخالف لمذهب سيبويه ولمذهب الكوفيين والمبرد ، لأن مذهب سيبويه في مثل هذا التركيب وهو أن يكون فعل الشرط ماضياً وبعده مضارع مرفوع أن ذلك المضارع هو على نية التقديم وجواب الشرط محذوف ، ومذهب الكوفيين والمبرد أنه الجواب لكنه على حذف الفاء ، ومذهب ثالث وهو أنه هو جواب الشرط وهو الذي قال به الزمخشري والكلام على هذه المذاهب مذكور في علم النحو .

وقال الزمخشري : والعجب من المذاهب ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز ، وإنما يكون المعجز حيث تكون القدرة فيقال : الله قادر على خلق الأجسام والعباد عاجزون عنه ، والمحال الذي لا مجال للقدرة فيه ولا مدخل لها فيه كثاني القديم فلا يقال للفاعل قد عجز عنه ولا هو معجز ، ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال إلاّ أن يكابروا فيقولوا : هو قادر على المحال فإن رأس مالهم

المكابرة وقلب الحقائق انتهى .

وتكرر لفظ مثل في قوله : ﴿ لا يأتون بمثله ﴾ على سبيل التأكيد والتوضيح ، وأن المراد منهم ﴿ أن يأتوا ﴾ بمثله إذ قد يراد بمثل الشيء في موضع الشيء نفسه ، فبين بتكرار ﴿ بمثله ﴾ ولم يكن التركيب ﴿ لا يأتون ﴾ به رفعاً لهذا الاحتمال ، وأن المطلوب منهم أن يأتوا بالمثل لا أن يأتوا بالقرآن .

ولما ذكر تعالى عجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن نبه على فضله تعالى بما ردّد فيه وضرب من الأمثال والعبر التي تدل على توحيده تعالى ، ومع كثرة ما ردد من الأمثلة وأسبغ من النعم لم يكونوا إلاّ كافرين به وبنعمه .

(39/464)

وقرأ الجمهور : ﴿ صرّفنا ﴾ بتشديد الراء والحسن بتخفيفها ، والظاهر أن مفعول ﴿ صرّفنا ﴾ محذوف تقديره البينات والعبر و ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية .

وقال ابن عطية : ويجوز أن تكون مؤكدة زائدة التقدير ولقد ﴿ صرّفنا ﴾ ﴿ كل مثل ﴾ انتهى .

يعني فيكون مفعول ﴿ صرّفنا ﴾ ﴿ كل مثل ﴾ وهذا التخريج هو على مذهب

الكوفيين والأخفش لا على مذهب جمهور البصريين ، والظاهر أن المراد بالمثل هو القول الغريب السائر في الآفاق ، والقرآن ملآن من الأمثال التي ضربها الله تعالى .

وقال الزمخشري : ﴿ من كل مثل ﴾ من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه .

وقال أبو عبد الله الرازي : ﴿ من كل مثل ﴾ إشارة إلى التحدّي به بالجهات المختلفة كالتحدي بكل القرآن كالذي هنا ، وبسورة مثله وبكلام من سورة كقوله ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ ومع ظهور عجزهم أبوا ﴿ إلاّ كفوراً ﴾ انتهى ملخصاً .

وقيل : ﴿ من كل مثل ﴾ من الترغيب والترهيب وأنباء الأولين والآخرين وذكر الجنة والنار وأكثر الناس .

قيل : من كان في عهد الرسول من المشركين وأهل الكتاب .

وقيل : أهل مكة وهو الظاهر بدليل ما أتى بعده من قوله ﴿ وقالوا لن نؤمن لك ﴾ وتقدم القول في دخول ﴿ إلاّ ﴾ بعد ﴿ أبى ﴾ في سورة براءة .

وروي في مقالتهم هذه أخبار مطولة هي في كتب الحديث والسير ملخصها أن صناديد قريش اجتمعوا وسيروا للنبيّ (صلى الله عليه وسلم) ، فلما جاء إليهم جرت بينهم محاورات في ترك دينهم وطلبه منهم أن يوحدوا ويعبدوا الله فأرغبوه بالمال والرئاسة والملك فأبى ، فقال : "لست أطلب ذلك" .

فاقترحوا عليه الست الآيات التي ذكرها الله هنا ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما

تحداهم بأن ﴿ يأتوا بمثل هذا القرآن ﴾ فتبين عجزهم عن ذلك وإعجازه ، وانضمت إليه معجزات أخر وبينات واضحة فلزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح آيات فعل الحائر المبهوت المحجوج ، فقالوا ما حكاه الله عنهم .

(40/464)

وقرأ الكوفيون : ﴿ تفجره ﴾ من فجر مخففاً وباقي السبعة من فجر مشدداً ، والتضعيف للمبالغة لا للتعدية ، والأعمش وعبد الله بن مسلم بن يسار من أفجر رباعياً وهي لغة في فجر الأرض هنا أرض مكة وهي الأرض التي فيها تصرف العالمين ومعاشهم ، روي عنهم أنهم قالوا له : أزل جبال مكة وفجر لنا ﴿ ينبوعاً ﴾ حتى يسهل علينا الحرث والزرع وأحي لنا قصياً فإنه كان صدوقاً يخبرنا عن صدقك اقترحوا لهم أولاً هذه الآية ثم اقترحوا أخرى له عليه السلام أن ﴿ تكون ﴾ له ﴿ جنة من نخيل وعنب ﴾ وهما كانا الغالب على بلادهم ، ومن أعظم ما يقتنون ، ومعنى ﴿ خلالها ﴾ أي وسط تلك الجنة وأثناءها .

فتسقي ذلك النخل وتلك الكروم وانتصب ﴿ خلالها ﴾ على الظرف .

وقرأ الجمهور : ﴿ تسقط ﴾ بتاء الخطاب مضارع أسقط السماء نصباً ، ومجاهد بياء

الغيبة مضارع سقط السماء رفعاً ، وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿ كسْفاً ﴾ بسكون السين وباقي السبعة بفتحها .

وقولهم ﴿ كما زعمت ﴾ إشارة إلى قوله تعالى ﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ﴾ وقيل : ﴿ كما زعمت ﴾ إن ربك إن شاء فعل .

وقيل : هو ما في هذه السورة من قوله ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو نرسل عليكم حاصباً ﴾ قال أبو عليّ ﴿ قبيلاً ﴾ معاينة كقوله ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ وقال غيره : ﴿ قبيلاً ﴾ كفيلاً من تقبله بكذا إذا كفله ، والقبيل والزعيم والكفيل بمعنى واحد .

وقال الزمخشري : ﴿ قبيلاً ﴾ كفيلاً بما تقول شاهداً لصحته ، والمعنى أو تأتي بالله ﴿ قبيلاً ﴾ والملائكة ﴿ قبيلاً ﴾ كقوله :

كنت منه ووالدي بريا . . .

وإني وقيار بها لغريب

أي مقابلاً كالعشير بمعنى المعاشر ونحوه ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ أو جماعة حالاً من الملائكة .

وقرأ الأعرج قبلاًم المقابلة .

وقرأ الجمهور : ﴿ من زخرف ﴾ وعبد الله من ذهب ، ولا تحمل على أنها قراءة لمخالفة السواد وإنما هي تفسير.

(41/464)

وقال مجاهد : كنا لا ندري ما الزخرف حتى رأيت في قراءة عبد الله من ذهب .

وقال الزجّاج : الزخرف الزينة وتقدم شرح الزخرف .

﴿ وفي السماء ﴾ على حذف مضاف ، أي في معارج السماء .

والظاهر أن ﴿ السماء ﴾ هنا هي المظلة .

وقيل : المراد إلى مكان عال وكل ما علا وارتفع يسمى سماء .

وقال الشاعر :

وقد يسمى سماء كل مرتفع . . .

وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

قيل : وقائل هذه هو ابن أبي أمية قال : لن نؤمن حتى تضع على السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتي معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أن الأمر كما تقول ، ويحتمل أن يكون مجموع أولئك الصناديد قالوا ذلك وغيوا إيمانهم بحصول

واحد من هذه المقترحات ، ويحتمل أن يكون كل واحد اقترح واحداً منها ونسب ذلك للجميع لرضاهم به أو تكون ﴿ أو ﴾ فيها للتفضيل أي قال كل واحد منهم مقالة مخصوصة منها ، وما اكتفوا بالتغيية بالرقي ﴿ في السماء ﴾ حتى غيوا ذلك بأن ينزل عليهم ﴿ كتاباً ﴾ يقرؤونه ، ولما تضمن اقتراحهم ما هو مستحيل في حق الله تعالى وهو أن يأتي ﴿ بالله والملائكة قبيلاً ﴾ أمره تعالى بالتسبيح والتنزيه عما لا يليق به ، ومن أن يقترح عليه ما ذكرتم فقال ﴿ سبحان ربي هل كنت إلاّ بشراً رسولاً ﴾ أي ما كنت إلاّ بشراً رسولاً أي من الله إليكم لا مقترحاً عليه ما ذكرتم من الآيات .

وقال الزمخشري : وما كانوا يقصدون بهذه الاقتراحات إلاّ العناد واللجاج ، ولو جاءتهم كل آية لقالوا هذا سحر كما قال عز وعلا ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس ﴾ ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ﴾ وحين أنكروا .

الآية الباقية التي هي القرآن وسائر الآيات ، وليست بدون ما اقترحوه بل هي أعظم لم يكن انتهى وشق القمر أعظم من شق الأرض ونبع الماء من بين أصابعه أعظم من نبع الماء من الحجر .

وقرأ ابن كثير وابن عامر قال ﴿ سبحان ربي ﴾ على الخبر تعجب عليه الصلاة والسلام من اقتراحاتهم عليه ، ونزه ربه عما جوزوا عليه من الإتيان والانتقال وذلك في حق الله مستحيل ﴿ هل كنت إلاّ بشراً ﴾ مثلهم ﴿ رسولاً ﴾ ، والرسل لا تأتي إلاّ بما يظهره الله عليهم من الآيات وليس أمرها إليهم إنما ذلك إلى الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(43/464)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ ﴾ للذين لا يعرِفون جلالةَ قدرِ التنزيل ولا يفهمون فخامةَ شأنه الجليل ، بل يزعُمون أنه من كلام البشر ﴿ لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن ﴾ أي اتفقوا ﴿ على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرءان ﴾ المنعوتِ بما لا تدركه العقولُ من النعوت الجليلةِ في البلاغة وحسنِ النظم وكمالِ المعنى . وتخصيصُ الثقلين بالذكر لأن المنكِرَ لكونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما لا لأن غيرَهما قادرٌ على المعارضة ﴿ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ أوثر الإظهارُ على إيراد الضميرِ الراجع إلى المِثْل المذكورِ احترازاً عن أن يُتوَهّم أن له مِثْلاً معيناً وإيذاناً بأن المرادَ نفيُ الإتيانِ بمثْلٍ ما ، أي لا يأتون بكلام مماثلٍ له فيما ذكر من الصفات البديعةِ وفيهم العربُ العاربة أربابُ

البراعةِ والبيانِ ، وهو جوابٌ للقسم الذي ينبىء عنه اللامُ الموطئةُ وسادٌّ مسدَّ جزاءِ الشرطِ ولولاها لكان جواباً له بغير جزمٍ لكون الشرط ماضياً كما في قول زهير

وإنْ أتاه خليلٌ يومَ مسألة . . . يقول لا غائبٌ مالي ولا حرِمُ

(44/464)

وحيث كان المرادُ بالاجتماع على الإتيان بمثل القرآنِ مطلقَ الاتفاقِ على ذلك سواءٌ كان التصدِّي للمعارضة من كل واحدٍ منهم على الانفراد ، أو من المجموع بأن يتألّبوا على تلفيق كلامٍ واحد بتلاحق الأفكارِ وتعاضدِ الأنظار قيل : ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ أي في تحقيق ما يتوخّوْنه من الإتيان بمثله وهو عطفٌ على مقدّر ، أي لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضُهم ظهيراً لبعض ولو كان الخ ، وقد حُذف المعطوفُ عليه حذفاً مطّرداً لدِلالة المعطوفِ عليه دِلالةً واضحةً فإن الإتيانَ بمثله انتفى عند التظاهرِ فلأَنْ ينتفيَ عند عدمه أولى ، وعلى هذه النكتةِ يدور ما في إن ولو الوصليتين من التأكيد كما مر غيرَ مرة ، ومحلُّه النصبُ على الحالية حسبما عُطف عليه ، أي لا يأتون بمثله على كل حال مفروضٍ ولو في هذه الحال المنافيةِ لعدم الإتيانِ به فضلاً عن غيرها وفيه حسمٌ لأطماعهم الفارغةِ في رَوْم تبديل بعض آياته ببعض ، ولا مساغَ لكون الآية تقريراً لما قبلها من قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ كما قيل ، لكن لا لِما قيل من أن الإتيانَ بمثله أصعبُ من استرداد عينِه ، ونفيُ الشيءِ إنما يقرره نفيُ ما دونه لا نفيُ ما فوقه فإن أصعبيةَ الاستردادِ بغير أمره تعالى من الإتيان بمثله مما لا شُبهةَ فيه بل لأن الجملةَ القسميةَ ليست مَسوقةً إلى النبي صلى الله عليه وسلم بل إلى المكابرين من قِبَله عليه السلام .

(45/464)

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ كررنا ورددنا على أنحاءٍ مختلفةٍ توجب زيادةَ تقريرٍ وبيان ووكادةِ رسوخٍ واطمئنان ﴿ لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان ﴾ المنعوتِ بما ذكر من النعوت الفاضلة ﴿ مِن كُلّ مَثَلٍ ﴾ من كل معنى بديعٍ هو الحسنُ والغرابةُ واستجلابُ النفس كالمَثَل ليتلقَّوْه بالقبول ﴿ فأبى أَكْثَرُ الناس ﴾ أوثر الإظهارُ على الإضمار تأكيداً وتوضيحاً ﴿ إِلاَّ كُفُورًا ﴾ أي إلا جُحوداً ، وإنما صح الاستثناءُ من الموجبُ مع أنه لا يصِح ضربتُ إلا زيداً لأنه متأوّل بالنفي كأنه قيل : ما قَبل أكثرُهم إلا كفوراً ، وفيه من المبالغة ما ليس في أبَوْا الإيمانَ لأن فيه دِلالةً على أنهم لم يرضَوا بخَصلة سوى الكفور من الإيمان والتوقفِ في الأمر ونحو ذلك وأنهم بالغوا في عدم الرضا حتى بلغوا مرتبةَ الإباءِ .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ عند ظهور عجزهم ووضوحِ مغلوبيّتِهم بالإعجاز التنزيليّ وغيرِه من

المعجزات الباهرةِ متعللين بما لا يمكن في العادة وجودُه ولا تقتضي الحكمةُ وقوعَه من الأمور كما هو دَيدَنُ المبهوتِ المحجوج ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ ﴾ وقرىء بالتشديد ﴿ لَنَا مِنَ الأرض ﴾ أرضِ مكة ﴿ يَنْبُوعًا ﴾ عيناً لا ينضُب ماؤُها ، يفعولٌ من نبع الماءُ كيعْبوب من عبّ الماءَ إذا زخر .

(46/464)

﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ ﴾ أي بستانٌ تستر أشجارُه ما تحتها من العَرْصة ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجّرَ الأنهار ﴾ أي تجريها بقوة ﴿ خلالها تَفْجِيرًا ﴾ كثيراً ، والمرادُ إما إجراءُ الأنهارِ خلالَها عند سقْيها أو إدامةُ إجرائها كما ينبىء عنه الفاءُ لا ابتداؤه ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السماء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ جمع كِسْفة كقطعة وقِطَع لفظاً ومعنى ، وقرىء بالسكون كسِدْرة وسِدْر وهي حالٌ من السماء والكاف في كما في محل النصب على أنه صفةُ مصدرٍ محذوف أي إسقاطاً مماثلاً لما زعمتَ يعنون بذلك قوله تعالى : ﴿ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مّنَ السماء ﴾ .

﴿ أَوْ تَأْتِىَ بالله والملائكة قَبِيلاً ﴾ أي مقابلاً كالعشير والمعاشِر أو كفيلاً يشهد بصِحة ما تدعيه ، وهو حالٌ من الجلالة وحالُ الملائكةِ محذوفةٌ لدِلالتها عليها أي والملائكةِ قُبَلاً كما

حذف الخبرُ في قوله

فإني وقيّارٌ بها لغريب . . . أو جماعةً فيكون حالاً من الملائكة .

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾

من ذهب وقد قرىء به وأصلُه الزينة ﴿ أَوْ ترقى فِى السماء ﴾ أي في معارجها فحُذف المضافُ ، يقال : رقيَ في السُّلّم وفي الدرجة ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيّكَ ﴾ أي لأجل رُقِيّك فيها وحده أو لن نصدق رقيّك فيها ﴿ حتى تُنَزّلَ ﴾ منها ﴿ عَلَيْنَا كِتَابًا ﴾ فيه تصديقُك ﴿ نَّقْرَءهُ ﴾ نحن من غير أن يُتلقّى من قِبلك . عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال عبدُ الله بنُ أمية : لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سُلّماً ثم ترقى فيه وأنا أنظُر حتى تأتيَها وتأتيَ معك بصك منشورٍ معه أربعةٌ من الملائكة يشهدون أنك كما تقول ، وما كانوا يقصِدون بها تيك الاقتراحاتِ الباطلة إلا العنادَ واللَّجاجَ ولو أنهم أُوتوا أضعافَ ما اقترحوا من الآيات ما زادهم ذلك إلا مكابرةً وإلا فقد كان يكفيهم بعضُ ما شاهدوا من المعجزات التي تخِرُّ لها صُمُّ الجبال .

﴿ قُلْ ﴾ تعجباً من شدة شكيمتِهم وتنزيهاً لساحة السُّبحات عما لا يكاد يليق بها من مثل هذه الاقتراحاتِ الشنيعة التي تكاد السمواتُ يتفطّرن منها أو عن طلبك ذلك وتنبيهاً على بطلان ما قالوه ﴿ سبحان ربّى ﴾ وقرىء قال : سبحان ربي ﴿ هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا ﴾ لا ملَكاً حتى يُتصور مني الرقيُّ في السماء ونحوُه ﴿ رَسُولاً ﴾ مأموراً من قبل ربي بتبليغ الرسالةِ من غير أن يكون لي خِيرَةٌ في الأمر كسائر الرسلِ وكانوا لا يأتون قومَهم إلا بما يظهره الله على أيديهم حسبما يلائم حالَ قومِهم ولم يكن أمرُ الآياتِ إليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله سبحانه بشيء منها ، وقولُه بشراً خبرٌ لكنت ورسولاً صفتُه . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(48/464)

وقال الآلوسى :

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ﴾

أي اتفقوا ﴿ على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرءان ﴾ المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة الشأن من البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى ، وتخصيص الثقلين بالذكر لأن المنكر لكونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما والتحدي إنما كان معهما وإن كان النبي صلى

الله عليه وسلم مبعوثاً إلى الملك كما هو مبعوث إليهما لا لأن غيرهما قادر على المعارضة فإن الملائكة عليهم السلام على فرض تصديهم لها وحاشاهم إذ هم معصومون لا يفعلون إلا ما يؤمرون عاجزون كغيرهم ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ أي هذا القرآن وأوثر الاظهار على إيراد الضمير الراجع إلى المثل المذكور احترازاً عن أن يتوهم أن له مثلا معيناً وإيذاناً بأن المراد نفي الإتيان بمثل ما أي لا يأتون بكلام مماثل له فيما ذكر من الصفات الجليلة الشأن وفيهم العرب العرباء أرباب البراعة والبيان ، وقيل : المراد تعجيز الإنس وذكر الجن مبالغة في تعجيزهم لأنهم إذا عجزوا عن الإتيان بمثله ومعهم الجن القادرون على الأفعال المستغربة فهم عن الإتيان بمثله وحدهم أعجز وليسس بذاك ، وقيل : يجوز أن يراد من الجن ما يشمل الملائكة عليهم السلام وقد جاء إطلاق الجن على الملائكة كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ [الصافات : 158] نعم الأكثر استعماله في غير الملائكة عليهم السلام ولا يخفى أنه خلاف الظاهر ، وزعم بعضهم أن الملائكة عليهم السلام حيث كانوا وسائط في إتيانه لا ينبغي ادراجهم إذ لا يلائمه حينئذ ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ وفيه أنه ليس المراد نفي الإتيان بمثله من عند الله تعالى في شيء ممن أسند إليهم الفعل ، وجملة ﴿ لَا يَأْتُونَ ﴾ جواب القسم الذي ينبىء عنه اللام الموطئة وساد مسد جزاء الشرط ولولاها لكان ﴿ لَا يَأْتُونَ ﴾ جزاء الشرط وإن كان مرفوعاً بناءاً على القول بأن فعل الشرط إذا كان ماضياً يجوز الرفع في الجواب كما في قول زهير :

وإن أتاه خليل يوم مسغبة . . .

يقول لا غائب مالي ولا حرم

لأن أداة الشرط إذا لم تؤثر في الشرط ظاهراً مع قربه جاز أن لا تؤثر في الجواب مع بعده ، وهذا القول خلاف مذهب سيبويه ومذهب الكوفيين والمبرد كما فصل في موضعه ، ولا يجوز عند البصريين مع وجود هذه اللام جعل المذكور جواب الشرط خلافاً للفراء ، وأما قول الأعشى :

لئن منيت بنا عن غب معركة . . .

لا تلفنا عن دماء الخلق تنتفل

فاللام ليست الموطئة بل هي زائدة على ما قيل فافهم ، وحيث كان المراد بالاجتماع على الإتيان بمثل القرآن مطلق الاتفاق على ذلك سواء كان التصدي للمعارضة من كل واحد منهم على الانفراد أو من المجموع بأن يتألبوا على تلفيق كلام واحد بتلاحق الأفكار وتعاضد الأنظار قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ أي معينا في تحقيق ما يتوخونه من الإتيان بمثله ، والجملة عطف على مقدر أي لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضهم

لبعض ظهيراً ولو كان الخ؛ وهي في موضع الحال كالجملة المحذوفة، والمعنى لا يأتون بمثله على كل حال مفروض ولو في مثل هذه الحال المنافية لعدم الإتيان به فضلاً عن غيرها وفيه رد لليهود أو قريش في زعمهم الإتيان بمثله، فقد روي أن طائفة من الأولين قالوا: أخبرنا يا محمد بهذا الحق الذي جئت به أحق من عند الله تعالى فانا لا نراه متناسقاً كتناسق التوراة فقال صلى الله عليه وسلم لهم: أما والله إنكم لتعرفونه أنه من عند الله تعالى قالوا: إنا نجيئك بمثل ما تأتي به فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(50/464)

وفيه رواية أن جماعة من قريش قالوا له صلى الله عليه وسلم: جئنا بآية غريبة غير هذا القرآن فانا نحن نقدر على المجيء بمثله فنزلت، ولعل مرادهم بهذه الآية الغريبة ما تضمنه الآيات بعد وهي قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ [الإسراء: 90] الخ وحينئذ قيل يمكن أن تكون هذه الآية مع الآيات الأخر رد لجميع ما عنوه بهذا الكلام إلا أنه ابتدأ برد قولهم: نحن نقدر الخ اهتماماً به فإن قولهم ذلك منشأ طلبهم الآية الغريبة.

وفي إرشاد العقل السليم أن في هذه الآية حسم أطماعهم الفارغة في روم تبديل بعض آياته ببعض ولا مساغ لكونها تقريراً لما قبلها من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾

[الإسراء : 86] كما قيل لكن لا لما قيل من أن الإتيان بمثله أصعب من استرداد عينه ونفي الشيء إنما يقرره نفي ما دونه دون نفي ما فوقه لأن أصعبية الاسترداد بغير أمره تعالى من الإتيان المذكور مما لا شبهة فيه بل لأن الجملة القسمية ليست مسوقة إلى النبي صلى الله عليه وسلم بل إلى المكابرين من قبله عليه الصلاة والسلام انتهى ، ومنه يعلم ما في قول بعضهم في وجه التقرير : أن عدم قدرة الثقلين على رده بعد إذهابه مساو لعدم قدرتهم على مثله لأن رده بعينه غير ممكن لعدم وصولهم إلى الله تعالى شأنه فلم يبق ألا رده بمثله فصرح بنفيه تقريراً له من النظر وعدم الجدوى ، هذا واستدل صاحب الكشاف بإعجاز القرآن على حدوثه إذ لم كان قديماً لم يكن مقدوراً فلا يكون معجزاً كالمحال ، وتعقبه في الكشف بأنه لا نزاع في حدوث النظم وإن تحاشى أهل السنة من إطلاق المخلوق عليه للإيهام وهو المعجز إنما النزاع في المعبر بهذه العبارة المعجزة وهو المسمى بالكلام النفسي فهو استدلال لا ينفعه وذكر نحوه ابن المنير .

(51/464)

وقال صاحب التقريب : الجواب منع الملازمة إذ مصحح المقدورية الإمكان وهو حاصل لا الحدوث وأيضاً المعجز لفظه ولا يقال بقدمه والقديم كلام النفس ولا يقال بإعجازه وأيضاً

سلمنا أن القديم لا يقدر البشر على عينه لكن لم لا يقدر على مثله ، واختار العلامة الطيبي هذا الأخير في الجواب ، وقد ذكرنا في المقدمات من الكلام ما ينفعك في هذا المقام فتدبر والله تعالى ولي الأنعام ومسدد الأفهام .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾

كررنا ورددنا على أساليب مختلفة توجب زيادة تقرير ورسوخ ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ أهل مكة وغيرهم كما هو الظاهر ﴿ فِى هذا القرءان ﴾ المنعوت بما ذكر من النعوت الفاضلة ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ من كل معنى بديع هو في الحسن والغرابة واستجلاب النفوس كالمثل ومفعول ﴿ صَرَفْنَا ﴾ على ما استظهره أبو حيان محذوف أي البيان وقدره البينات والعبر ، ومن لابتداء الغاية وجوز ابن عطية أن تكون سيف خطيب فكل هو المفعول وهذا مبني على مذهب الكوفيين والأخفش لأنهم يجوزون زيادة من في الإيجاب دون جمهور البصريين .

وقرأ الحسن ﴿ صَرَفْنَا ﴾ بتخفيف الراء وقراءة الجمهور أبلغ ، وأيا ما كان فالمراد فعلنا ذلك للناس ليذعنوا ويتلقوه بالقبول ﴿ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُورًا ﴾ أي جحوداً وفسر به لثبوت الصدق بأصل الاعجاز ، والمراد بالناس المذكورون أولاً وأوثر الإظهار على الإضمار تأكيداً وتوضيحاً ، والمراد بالأكثر قيل : من كان في عهده صلى الله عليه وسلم من المشركين وأهل الكتاب .

واستظهر في البحر أنهم أهل مكة بدليل أن الضمائر الآتية لهم ونصب ﴿ كُفُورًا ﴾ على أنه مفعول أبى والاستثناء مفرغ وصح ذلك هنا مع أنه مشروط بتقدم النفي فلا يصح ضربت الازيدا لأن أبي قريب من معنى النفي فهو مؤول به فكأنه قيل ما قبل أكثرهم إلا كفورا وفيه من المبالغة ما ليس في أبوا الإيمان لأن فيه زيادة على أنهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفر من الإيمان والتوقف في الأمر ونحو ذلك وأنهم بالغوا في عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الآباء ، وإنما لم يجز ذلك في الإثبات لفساد المعنى إذ لا قرينة على تقدير أمر خاص والعموم لا يصح إذ لا يمكن في المثال أن تضرب كل أحد إلا زيداً فإن صح العموم في مثال جاز التفريغ في غير تأويل بنفي فيجوز صليت إلا يوم كذا إذ يجوز أن تصلي كل يوم غيره ، وجوز أن تكون الآية من هذا القبيل بأن يكون المراد أبوا كل شيء فيما اقترحوه إلا كفوراً .

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90)

﴿ وَقَالُوا ﴾ عند ظهور عجزهم ووضوح مغلوبيتهم بالإعجاز التنزيلي وغيره من المعجزات الباهرة متعللين بما لا تقتضي الحكمة وقوعه من الأمور ولا توقف لثبوت المدعي عليه وبعضه من المحالات العقلية ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ ﴾ بالتخفيف من باب نصر المتعدي وبذلك قرأ الكوفيون أي تفتح ، وقرأ باقي السبعة ﴿ تُفَجِّرَ ﴾ من فجر مشدداً والتضعيف للتكثير لا للتعدية .

وقرأ الأعمس .

وعبد الله بن مسلم بن يسار ﴿ تَفْجُرَ ﴾ من أفجر رباعياً وهي لغة في تجر ﴿ لَنَا مِنَ الأرض ﴾ أي أرض مكة لقلة مياهها فالتعريف عهدي ﴿ يَنْبُوعًا ﴾ مفعول من نبع الماء كيعبوب من عب الماء إذا زخر وكثر موجه فالياء زائدة للمبالغة ، والمراد عينا لا ينضب ماؤها ، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى أن الينبوع هو النهر الذي يجري من العين ، والأول مروى عن مجاهد وكفى به .

﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ ﴾

(53/464)

خاصة ﴿ جَنَّةٌ ﴾ بستان تستر أشجارها ما تحتها من العرصة ﴿ مّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ ﴾ خصوهما بالذكر لأنهما كانا الغالب في هاتيك النواحي مع جلالة قدرهما ﴿ فَتُفَجِّرَ الأنهار ﴾ أي تجريها ﴿ خِلاَلَهَا ﴾ نصب على الظرفية أي وسط تلك الجنة واثنائها ﴿ تَفْجِيرًا ﴾ كثيراً والمراد اما إجراء الأنهار خلالها عند سقيها أو إدامة إجرائها كما ينبىء الفاء .

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السماء ﴾

الجرم المعلوم ﴿ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ جمع كسفة كقطعة وقطع لفظاً ومعنى وهو حال من السماء والكاف في ﴿ كَمَا ﴾ في محل النصب على أنه صفة مصدر محذوف أي إسقاطاً مماثلاً لما زعمت يعنون بذلك قوله تعالى : ﴿ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السماء ﴾ وزعم بعضهم أنهم يعنون ما في هذه السورة من قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البر أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ [الإسراء : 68] وليس بشيء ، وقيل : أن المعنى كما زعمت أن ربك إن شاء فعل وسيأتي ذلك أن شاء الله تعالى في خبر ابن عباس ، وقرأ مجاهد ﴿ فِى السماء ﴾ بياء الغيبة ورفع ﴿ السماء ﴾ وقرأ ابن كثير.

وأبو عمرو.

وحمزة.

والكسائي.

ويعقوب ﴿ كِسَفًا ﴾ بسكون السين في جميع القرآن إلا في الروم وابن عامر إلا في هذه السورة ونافع.

وأبو بكر في غيرهما .

وحفص فيما عدا الطور في قول.

وفي النشر إنهم اتفقوا على إسكان السين في الطور وهو إما مخفف من المفتوح لأن السكون من الحركة مطلقاً كسدر وسدر أو هو فعل صفة بمعنى مفعول كالطحن بمعنى المطحون أي شيئاً مكسوفاً أي مقطوعاً ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴾ أي مقابلا كالعشير والمعاشر وأرادوا كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس عياناً وهذا كقولهم ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ [الفرقان : 21] وفي رواية أخرى عن الحبر والضحاك تفسير القبيل بالكفيل أي كفيلاً بما تدعيه يعنون شاهداً يشهد لك بصحة ما قلته وضامناً يضمن ما يترتب عليه وهو على الوجهين حال من الجلالة وحال الملائكة محذوفة لدلالة الحال المذكورة عليها أي قبلاء كما حذف الخبر في قوله :

ومن يك أمسى في المدينة رحله . . .

فإني وقيار بها لغريب

وذكر الطبرسي عن الزجاج أنه فسر قبيلاً بمقابلة ومعاينة ، وقال إن العرب تجريه في هذا المعنى مجرى المصدر فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث فلا تغفل ، وعن مجاهد القبيل الجماعة كالقبيلة فيكون حالاً من الملائكة ، وفي "الكشف" جعله حالاً من الملائكة لقرب اللفظ وسداد المعنى لأن المعنى تأتي بالله تعالى وجماعة من الملائكة لا تني بهما جماعة ليكون حالاً على الجمع إذ لا يراد معنى المعية معه تعالى ألا ترى إلى قوله سبحانه حكاية عنهم ﴿

أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ [الفرقان : 21] والقرآن يفسر بعضه بعضاً انتهى .

وقرأ الأعرج ﴿ قُبُلاً ﴾ من المقابلة وهذا يؤيد التفسير الأول .

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مّن زُخْرُفٍ ﴾

من ذهب كما روى عن ابن عباس .

(55/464)

وقتادة وغيرهما ، وأصله الزينة وإطلاقه على الذهب لأن الزينة به أرغب وأعجب ، وقرأ عبد الله ﴿ مّن ذَهَبٍ ﴾ وجعل ذلك في البحر تفسيراً لا قراءة لمخالفته سواد المصحف ﴿ أَوْ ترقى فِى السماء ﴾ أي تصعد في معارجها فحذف المضاف يقال رقى في السلم والدرجة والظاهر أن السماء هنا المظلة ، وقيل : المراد المكان العالي وكل ما ارتفع وعلا يسمى سماء قال الشاعر :

وقد يسمى سماء كل مرتفع . . .

وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيّكَ ﴾ أي لأجل رقيك فيها وحده أو لن نصدق رقيك فيها ﴿ حتى تُنَزّلَ منها ﴿ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَءهُ ﴾ بلغتنا على أسلوب كلامنا وفيه تصديقك ﴿ قُلْ ﴾

تعجباً من شدة شكيمتهم وفرط حماقتهم ﴿ سبحان ربّى ﴾ أو قل ذلك تنزيهاً لساحة الجلال عما لا يكاد يليق بها من مثل هذه الاقتراحات التي تضمنت ما هو من أعظم المستحيلات كاتيان الله تعالى على الوجه الذي اقترحوه أو عن طلب ذلك ، وفيه تنبيه على بطلان ما قالوه .

وقرأ ابن كثير .

(56/464)

وابن عامر ﴿ قَالَ سبحانك ربّى ﴾ أي قال النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ كسائر الرسل عليهم السلام وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله تعالى على أيديهم حسبما تقتضيه الحكمة من غير تفويض إليهم فيه ولا تحكم منهم عليه سبحانه ، و﴿ بَشَرًا ﴾ خبر كان و﴿ رَسُولاً ﴾ صفته وهو معتمد الكلام وكونه بشراً توطئة لذلك رداً لما أنكروه من جواز كون الرسول بشراً ودلالة على أن الرسل عليهم السلام من قبل كانوا كذلك ولهذا قال الزمخشري هل كنت إلا رسولاً كسائر الرسل بشراً مثلهم ، وزعم بعض أن ذكر ﴿ بَشَرًا ﴾ ليس للتوطئة فإن طلب القوم منه عليه الصلاة والسلام ما طلبوه يحتمل أن يكون طلب أن يأتي به بقرة نفسه صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون

طلب أن يأتي به بقدرة الله تعالى فذكر ﴿ بَشَرًا ﴾ لنفي أن يأتي بذلك بقدرة نفسه كأنه قال: هل كنت إلا بشراً والبشر لا قدرة له على الإتيان بذلك، وذكر رسولاً لنفي أن يأتي به بقدرة الله تعالى كأنه قيل هل كنت إلا رسولاً والرسول لا يتحكم على ربه سبحانه.

وتعقب بأن هذا مع ما فيه من مخالفة الآثار كما ستعلمه قريباً إن شاء الله تعالى ظاهر في جعل الاسمين خبرين وهو مما يأباه الذوق السليم، وقال الخفاجي: إن كون الاسمين خبرين غير متوجه لأنه يقتضي استقلالها وأنهم أنكروا كلا منهما حتى رد عليهم بذلك ولم ينكر أحد بشريته صلى الله عليه وسلم، وتعقب بأنهم لما طلبوا منه عليه الصلاة والسلام ما لا يتأتى من البشر كالرقي في السماء كانوا بمنزلة من أنكر بشريته وهو كما ترى.

وجوز بعضهم كون بشراً حالاً من النكرة وسوغ ذلك تقدمه عليها وهو ركيك لأنه يقتضي أنه له صلى الله عليه وسلم حالاً آخر غير البشرية ولا يقول بذلك أحد اللهم إلا أن يكون من الوجودية.

هذا والظاهر اتحاد القائل لجميع ما تقدم ويحتمل عدم الاتحاد بأن يكون بعض اقترح شيئاً وبعض آخر اقترح آخر لكن نسب القول إلى الجميع لرضا كل بما اقترح الآخر.

وأخرج سعيد بن منصور .

وغيره عن ابن جبير أن قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ [الإسراء : 90] الخ نزل في

عبد الله بن أبي أمية وهو ظاهر في أنه القائل ولا يعكر عليه ضمير الجمع لما أشرنا إلينا ،

وأخرج ابن إسحق .

وجماعة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن عتبة .

وشيبة ابني ربيعة .

وأبا سفيان بن حرب .

والأسود بن المطلب وزمعة بن الأسود .

والوليد بن المغيرة .

وأبا جهل .

وعبد الله بن أبي أمية .

وأمية بن خلف وناسا آخرين اجتمعوا بعد غروب الشمس عند الكعبة فقال بعضهم

لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه حتى تعذروه فيه فبعثوا إليه فجاءهم صلى الله عليه

وسلم سريعاً وهو يظن أنهم قد بدا لهم في أمره بداء وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم فقالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذرك وإنا والله ما نعلم رجلاً من الغرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب ما لا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بي ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله تعالى بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله تعالى بيني وبينكم فقالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً ولا أقل مالاً ولا أشد عيشاً منا فاسأل ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من قد مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخاً صدوقاً

فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك وعرفنا به منزلته عند الله تعالى وأنه بعثك رسولاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهذا بعثت

إنما جئتكم من عند الله تعالى بما بعثني به فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله تعالى بيني وبينكم قالوا فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك فاسأل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول فيراجعنا عنك وتسأله أن يجعل لك جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة يغنيك عما نراك تبتغي فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم فقال صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل ما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت إليكم بهذا ولكن الله تعالى بعثني بشيراً ونذيراً فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله تعالى بيني وبينكم قالوا : فتسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك إلى الله تعالى إن شاء فعل بكم ذلك فقالوا : يا محمد فاعلم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما

نطلب فيتقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به ويخبرك بما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن وأنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً فقد أعذرنا إليك يا محمد أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً فلما قالوا ذلك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية فقال : يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك لأنفسهم أموراً يتعرفوا بها منزلتك من الله تعالى فلم تفعل ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب فوالله لا نؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة معك بأربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما

تقول وأيم الله لو فعلت ذلك لظنن إني لأصدقك ثم انصرف وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ولما رأى من مباعدتهم فأنزل عليه هذه الآيات وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ ﴾ [

الرعد : 30] الآية وقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ [الرعد : 31]

الآية اه والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(61/464)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86) ﴾

لما بيّن سبحانه أنه ما آتاهم من العلم إلاّ قليلاً بيّن أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل ، فقال : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ واللام هي الموطئة ، و ﴿ لنذهبن ﴾ جواب القسم سادّ مسد جواب الشرط .

قال الزجاج : معناه : لو شئنا لمحوناه من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له أثر . انتهى .

وعبر عن القرآن بالموصول تفخيماً لشأنه ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ ﴾ أي : بالقرآن ﴿ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ أي : لا تجد من يتوكل علينا في ردّ شيء منه بعد أن ذهبنا به ، والاستثناء بقوله : ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مّن رَّبّكَ ﴾ إن كان متصلاً فمعناه : إلاّ أن يرحمك ربك فلا نذهب به ، وإن كان منقطعاً فمعناه : لكن لا يشأ ذلك رحمة من ربك ، أو لكن رحمة من ربك تركته غير

مذهوب به ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ حيث جعلك رسولاً وأنزل عليك الكتاب وصيرك سيد ولد آدم ، وأعطاك المقام المحمود وغير ذلك مما أنعم به عليه .

(62/464)

ثم احتج سبحانه على المشركين بإعجاز القرآن فقال : ﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرءان ﴾ المنزل من عند الله الموصوف بالصفات الجليلة من كمال البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ ﴿ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ أظهر في مقام الإضمار ، ولم يكتف بأن يقول : لا يأتون به على أن الضمير راجع إلى المثل المذكور ، لدفع توهم أن يكون له مثل معين ، وللإشعار بأن المراد نفي المثل على أي صفة كان ، وهو جواب قسم محذوف كما تدل عليه اللام الموطئة ، وسادّ مسدّ جواب الشرط ، ثم أوضح سبحانه عجزهم عن المعارضة سواء كان المتصدي لها كل واحد منهم على الانفراد ، أو كان المتصدر بها المجموع بالمظاهرة فقال : ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ أي : عوناً ونصيراً ، وجواب لو محذوف ، والتقدير : ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً لا يأتون بمثله ، فثبت أنهم لا يأتون بمثله على كل حال ، وقد تقدّم وجه إعجاز القرآن في أوائل سورة البقرة .

وفي هذه الآية ردّ لما قاله الكفار : ﴿ لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هذا ﴾ [الأنفال : 31] ،

وإكذاب لهم .

ثم بين سبحانه أن الكفار مع عجزهم عن المعارضة استمروا على كفرهم وعدم إيمانهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي : رددنا القول فيه بكل مثل يوجب الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي وأقاصيص الأوّلين والجنة والنار والقيامة ﴿ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُورًا ﴾ يعني : من أهل مكة ، فإنهم جحدوا وأنكروا كون القرآن كلام الله بعد قيام الحجة عليهم ، واقترحوا من الآيات ما ليس لهم ، وأظهر في مقام الإضمار حيث قال : ﴿ فأبى أكثر الناس ﴾ توكيداً أو توضيحاً ، ولما كان ﴿ أبى ﴾ مؤولاً بالنفي ، أي : ما قبل ، أو لم يرض ، صح الاستثناء منه قوله : ﴿ إِلاَّ كُفُورًا ﴾ .

(63/464)

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ أي قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي سفيان والنضر بن الحرث ، ثم علقوا نفي إيمانهم بغاية طلبوها فقالوا : ﴿ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ﴿ حتى تفجر ﴾ مخففاً ، مثل : تقتل .

وقرأ الباقون بالتشديد ، ولم يختلفوا في ﴿ فتفجر الأنهار ﴾ أنها مشدّدة ، ووجه ذلك أبو حاتم بأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد ، والثانية بعدها الأنهار وهي جمع .

وأجيب عنه : بأن الينبوع وإن كان واحداً في اللفظ فالمراد به الجمع ، فإن الينبوع العيون التي لا تنضب .

ويردّ بأن الينبوع : عين الماء ، والجمع : الينابيع ، وإنما يقال للعين ينبوع إذا كانت غزيرة من شأنها النبوع من غير انقطاع ، والياء زائدة كيعبوب ، من عبّ الماء .

﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ ﴾ أي : بستان تستر أشجاره أرضه .

والمعنى : هب أنك لا تفجر الأنهار لأجلنا ففجرها من أجلك بأن تكون لك جنة ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار ﴾ أي : تجريها بقوة ﴿ خلالها تَفْجِيرًا ﴾ أي : وسطها تفجيراً كثيراً ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السماء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ قرأ مجاهد (أو تسقط) مسنداً إلى السماء .

وقرأ من عداه (أو تسقط) على الخطاب ، أي : أو تسقط أنت يا محمد السماء .

والكسف بفتح السين جمع كسفة .

وهي قراءة نافع وابن عامر ، وعاصم ، والكسفة : القطعة .

وقرأ الباقون "كسفاً" بإسكان السين .

قال الأخفش : من قرأ بإسكان السين جعله واحداً ومن قرأ بفتحها جعله جمعاً .

قال المهدوي : ويجوز أن يكون على قراءة الكون جمع كسفة ، ويجوز أن يكون مصدراً .

قال الجوهري : الكسفة القطعة من الشيء ، يقال : أعطني كسفة من ثوبك ، والجمع كِسْفٌ وكِسَفٌ ، ويقال : الكسف والكسفة واحد ، وانتصاب ﴿ كسفاً ﴾ على الحال ، والكاف في ﴿ كما زعمت ﴾ في محل نصب على أنه صفة مصدر محذوف ، أي : إسقاطاً مماثلاً لما زعمت ، يعنون بذلك قول الله سبحانه ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأرض أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مّنَ السماء ﴾ [سبأ : 9] .

قال أبو علي : الكسف بالسكون : الشيء المقطوع ، كالطحن للمطحون ، واشتقاقه على ما قال أبو زيد من كسفت الثوب كسفاً : إذا قطعته .

وقال الزجاج : من كسفت الشيء ، إذا غطيته ، كأنه قيل : أو تسقطها طبقاً علينا ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بالله والملئكة قَبِيلاً ﴾ .

اختلف المفسرون في معنى ﴿ قَبِيلاً ﴾ فقيل : معناه : معاينة ، قاله قتادة وابن جريج ، واختاره أبو علي الفارسي فقال : إذا حملته على المعاينة كان القبيل مصدراً كالنكير

والنذير .

وقيل : معناه : كفيلاً ، قاله الضحاك ، وقيل : شهيداً ، قاله مقاتل ، وقيل هو جمع القبيلة ، أي : تأتي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة ، قاله مجاهد وعطاء ، وقيل : ضمناً ، وقيل : مقابلاً كالعشير والمعاشر .

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ أي : من ذهب ، وبه قرأ ابن مسعود ، وأصله : الزينة ، والمزخرف : المزين ، وزخارف الماء : طرائقه ، وقال الزجاج : هو الزينة ، فرجع إلى الأصل معنى الزخرف ، وهو بعيد ؛ لأنه يصير المعنى : أو يكون لك بيت من زينة ﴿ أَوْ ترقى فِى السماء ﴾ أي : تصعد في معارجها يقال : رقيت في السلم : إذا صعدت وارتقيت .

(65/464)

مثله ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ أي : لأجل رقيك ، وهو مصدر نحو : مضى يمضي مضياً ، وهوى يهوي هوياً ﴿ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَءُهُ ﴾ أي : حتى تنزل علينا من السماء كتاباً يصدقك ويدل على نبوّتك نقرؤه جميعاً ، أو يقرؤه كل واحد منا ، وقيل : معناه : كتاباً من الله إلى كل واحد منا كما في قوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يؤتى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً

﴾ [المدثر : 52] فأمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بما يفيد التعجب من قولهم ، والتنزيه للربّ سبحانه عن اقتراحاتهم القبيحة فقال : ﴿ قُلْ سبحان ربّى ﴾ أي : تنزيهاً لله عن أن يعجز عن شيء .

وقرأ أهل مكة والشام (قال سبحان ربي) يعني النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا ﴾ من البشر لا ملكاً حتى أصعد السماء ﴿ رَسُولاً ﴾ مأموراً من الله سبحانه بإبلاغكم ، فهل سمعتم أيها المقترحون لهذه الأمور أن بشراً قدر على شيء منها ؟ وإن أردتم أني أطلب ذلك من الله سبحانه حتى يظهرها على يدي ، فالرسول إذا أتى بمعجزة واحدة كفاه ذلك ، لأن بها يتبين صدقه ، ولا ضرورة إلى طلب الزيادة ، وأنا عبد مأمور ليس لي أن أتحكم على ربي بما ليس بضروري ، ولا دعت إليه حاجة ، ولو لزمتني الإجابة لكل متعنت لاقترح كل معاند في كل وقت اقتراحات ، وطلب لنفسه إظهار آيات ، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً ، وتنزّه عن تعنتاتهم ، وتقدّس عن اقتراحاتهم .

(66/464)

وقد أخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال :

إن هذا القرآن سيرفع ، قيل : كيف يرفع وقد أثبته الله في قلوبنا وأثبتناه في المصاحف ؟ قال : يسري عليه في ليلة واحدة فلا يترك منه آية في قلب ولا مصحف إلاّ رفعت ، فتصبحون وليس فيكم منه شيء ، ثم قرأ ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ وقد روي عنه هذا من طرق .

وأخرج ابن عدّي عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه .

وأخرج محمد بن نصر عن عبد الله بن عمرو نحوه موقوفاً .

وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن معاذ بن جبل مرفوعاً نحوه أيضاً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن أبي هريرة موقوفاً نحوه أيضاً .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، والديلمي عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً نحوه أيضاً .

وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعاً نحوه أيضاً .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر مرفوعاً نحوه .

وأخرج ابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم محمود بن شيخان ونعيمان بن آصي وبحري بن عمرو وسلام بن مشكم ، فقالوا : أخبرنا يا محمد بهذا الذي جئت به أحق من عند الله ، فإنا لا نراه متناسقاً كما تناسق التوراة ؟ فقال لهم : " والله إنكم لتعرفونه أنه من عند الله " ، قالوا : إنا نجيئك بمثل ما تأتي به ، فأنزل الله ﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن ﴾ " ، الآية .

وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب، ورجلاً من بني عبد الدار، وأبا البحتري أخا بني أسيد والأسود بن عبد المطلب وربيعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيهاً ومنبها ابني الحجاج السهميين اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه، وذكر حديثاً طويلاً يشتمل على ما سألوه عنه وتعنتوه، وأن ذلك كان سبب نزول قوله: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ .

وإسناده عند ابن جرير هكذا: حدّثنا أبو كريب، حدّثنا يونس بن بكير، حدّثنا محمد بن إسحاق، حدّثني شيخ من أهل مصر، قدم منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس فذكره، ففيه هذا الرجل المجهول.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ قال: نزلت في أخي أمّ سلمة عبد الله بن أبي أمية.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿ يَنبُوعًا ﴾ قال:

عيوناً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي قال : الينبوع : هو النهر الذي يجري من العين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ ﴾ يقول : ضيعة .

وأخرج ابن جرير عنه ﴿ كسفاً ﴾ قال : قطعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ قَبِيلاً ﴾ قال : عياناً .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ﴿ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ قال : من ذهب .

وأخرج أبو عبيد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري ، وأبو نعيم عن مجاهد قال : لم أكن أحس ما الزخرف ؟ حتى سمعتها في قراءة عبد الله (أو يكون لك بيت من ذهب) .

(68/464)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ كِتَاباً نَّقْرَءُهُ ﴾ قال : من ربّ العالمين إلى فلان ابن فلان .

يصبح عند كل رجل صحيفة عند رأسه موضوعة يقرؤها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمى :

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ ﴾

أي : اتفقت : ﴿ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ أي : معيناً . وفي تقاصر قوى هؤلاء جميعهم عن ذلك ، مع طول الزمن ، دليل قاطع على أنه ليس مما اعتيد صدوره عن البشر ، بل هو كلام عالم الغيب والشهادة .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أي : رددنا وكررنا وبينا : ﴿ لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي : من كل معنى ، هو كالمثل في غرابته وحسنه ، ليتقرر ويرسخ في نفوسهم ، ويزدادوا تدبراً وإذعاناً . فكان حالهم على العكس ، إذ لم يزدادوا إلا كفراً ، كما قال سبحانه : ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ أي : جحوداً .

ولما تبين إعجاز القرآن ، وأنه الآية الكبرى ، ولزمتهم الحجة وغلبوا ، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات ، فعل المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة ، فيما حكاه تعالى عنهم بقوله :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً ﴾ أي : تشقق لنا من أرض مكة عيوناً .

﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ ﴾ أي : بستان منهما : ﴿ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ﴾ وإنما قدموا في عنتهم هذا المقترح ؛ لأنهم كانوا يَرِدُونَ بلاد الشام والعراق ، ويرون ما فيها من البساتين والأنهار .

قال ابن جرير فيما رواه ، إنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً ، ولا أقل مالاً ، ولا أشد عيشاً منا . فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق . ثم زادوا في الاقتراح فقالوا :

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ أي : قطعاً بالعذاب : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً ﴾ أي : كفيلاً بما تقول ، شاهداً بصحته .

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ أي : ذهب : ﴿ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ أي : وحده : ﴿ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ ﴾ أي : كتاباً من السماء ، فيه تصديقك : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ أي : تنزيهاً له . والمراد به التعجب من اقتراحاتهم : ﴿ هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ أي : كسائر الرسل . وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات ، حسبما يلائم حال قومهم . ولم يكن أمر الآيات إليهم ، ولا لهم أن

يتحكموا على الله بشيء منها .

تنبيه :

(71/464)

لا يخفى ما في اقتراح هذه الآيات من الجهل الكبير بسنة الله في خلقه ، وبحكمته وجلاله . وبيان ذلك – كما في كتاب " لسان الصدق " – أن ما اقترحته قريش فيها (منه) ما أرادوا به مصلحتهم دون مصلحة العباد مما يخالف حكمة الله تعالى المقتضية لإخلاء بعض البقاع من العيون النابعة والأنهار الجارية والجنان الناضرة دون بعض . وإرساء الجبال الشم في موضع دون آخر ؛ لمصالح يعلمها هو جلت عظمته ، ولا يعلمها الخلق . فليس مقترحهم هذا من العجز في شيء . مع أن مثله لا تثبت به النبوة . فإننا نعلم أن أناساً قد استنبطوا العيون وغرسوا الجنان من النخيل والأعناب ونحتوا الجبال ولم يكونوا بذلك أنبياء . (ومنه) ما يناقض إرادة الله سبحانه وهو قولهم : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ فإن إنزال السماء قطعاً مقتض لهلاك العالم بجذافيره . والله يريد إبقاءه إلى أجل معلوم . (ومنه) ما هو مستحيل في نفسه غير ممكن وقوعه أصلاً وهو قولهم : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً ﴾ فإن الإتيان بالله والملائكة حتى يشاهدهم المشركون أو غيرهم مما لا

يمكن أن يكون . فلا يجوز طلبه ، وليس من أنواع المعجز . (ومنه) ما لا يصلح للأنبياء ، ولو حصل لم يكن معجزاً وهو قولهم : ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ فإن هذا غير صالح للأنبياء . وليس بمعجز ، لحصول مثله عند أشباه فرعون . (ومنه) ما وعدوا بعدم إيمانهم به لو حصل ، وأردفوه بما لا يجوز وهو قولهم : ﴿ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾ فيه – على ما ذكر في الرواية – من الله العظيم إلى فلان وفلان وفلان ، لقوم من قريش بأسمائهم . أما بعد : فإن محمداً رسولي فآمنوا به . والصعود في السماء لا مرية فيه ، لأنهم قالوا : ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ فلو كان ، لكان عبثاً .

(72/464)

وإنزال كتاب عليهم على المعنى المذكور يستلزم جعلهم أنبياء ، لأن ذلك وحي مثل التوراة والإنجيل . والوحي مختص بالأنبياء ، والكفار عنه معزولون . فلم يكن شيء مما اقترحوه في الآيات معجزاً ، وإنما هي أمور مستحيلة في نفسها ، أو لأمر آخر اقترحوها تكبراً وتعنتاً وجهلاً ، على أنهم بعد تلك الأقوال كلها ، قال قائل منهم : وأيم الله ! لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك . وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا

عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ [الأنعام : 111] ، فكان الأولى في جوابهم عما اقترحوه ، هو ما أجاب به صلى الله عليه وسلم من قوله تعالى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ أي : تنزه ربي عن فعل ما اقترحتموه من المحال وما يناقض حكمته . وما أنا إلا بشر رسول . عليّ أن أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم . وقد أتيتكم بما يدل على صدق رسالتي مما أوحاه إلي . وذلك ما تحديتكم بالإتيان بسورة مثله في الهداية والإصلاح ، كما أمرني ربي . ولا أقترح عليه ، سبحانه ، ما لا يجوز أن يكون أو ما يكون فعله عبثاً ، لخلوه عن الفائدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 530 . 532 ﴾

(73/464)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) ﴾

استئناف للزيادة في الامتنان .

وهو استئناف بياني لمضمون جملة ﴿ إن فضله كان عليك كبيراً ﴾ [الإسراء : 87] .

وافتتاحه بـ (قل) للاهتمام به .

وهذا تنويه بشرف القرآن فكان هذا التنويه امتناناً على الذين آمنوا به وهم الذين كان لهم شفاء ورحمة ، وتحدياً بالعجز على الإتيان بمثله للذين أعرضوا عنه وهم الذين لا يزيدهم إلا خساراً .

واللام موطئة للقسم .

وجملة لا يأتون بمثله ﴾ جواب القسم المحذوف .

وجرد الجواب من اللام الغالب اقترانها بجواب القسم كراهية اجتماع لامين : لام القسم ، ولام النافية .

ومعنى الاجتماع : الاتفاق واتحاد الرأي ، أي لو تواردت عقول الإنس والجن على أن يأتي كل واحد منهم بمثل هذا القرآن لما أتوا بمثله .

فهو اجتماع الرأي لا اجتماع التعاون ، كما تدل عليه المبالغة في قوله بعده : ﴿ ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ .

وذكر الجن مع الإنس لقصد التعميم ، كما يقال : "لو اجتمع أهل السماوات والأرض" ، وأيضاً لأن المتحدِّين بإعجاز القرآن كانوا يزعمون أن الجن يقدرون على الأعمال العظيمة .

والمراد بالمماثلة للقرآن : المماثلة في مجموع الفصاحة والبلاغة والمعاني والآداب والشرائع ، وهي نواحي إعجاز القرآن اللفظي والعلمي .

وجملة ﴿ لا يأتون ﴾ جواب القسم الموطَأ له باللام .

وجواب (إن) الشرطيّة محذوف دل عليه جواب القسم .

وجملة ﴿ ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ في موقع الحال من ضمير ﴿ لا يأتون ﴾ .

و(لو) وصلية ، وهي تفيد أن ما بعدها مظنة أن لا يشمله ما قبلها .

وقد تقدم معناها عند قوله : ﴿ ولو افتدى به ﴾ في سورة [آل عمران : 91] .

والظهير : المعين .

(74/464)

والمعنى : ولو تعاون الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله فكيف بهم إذا حاولوا ذلك متفرقين .

وفائدة هذه الجملة تأكيد معنى الاجتماع المدلول بقوله : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ﴾ أنه اجتماع تظافر على عمل واحد ومقصد واحد .

وهذه الآية مفحمة للمشركين في التحدي بإعجاز القرآن .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89) ﴾

لما تحدى الله بلغاء المشركين بالإعجاز تطاول عليهم بذكر فضائل القرآن على ما سواه من

الكلام ، مدمجاً في ذلك النعي عليهم إذ حرموا أنفسهم الانتفاع بما في القرآن من كل مثَل .

وذكرت هنا ناحية من نواحي إعجازه ، وهي ما اشتمل عليه من أنواع الأمثال .

وتقدم ذكر المثل عند قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما ﴾ في سورة [البقرة : 26] .

ويجوز أن يراد بالمثل الحال أي من كل حال حسن من المعاني يجدر أن يمثل به ويشبه ما يزاد بيانه في نوعه .

فجملة ولقد صرفنا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن ﴾ مشاركة لها في حكمها المتقدم بيانه زيادة في الامتنان والتعجيز .

وتأكيدها بلام القسم وحرف التحقيق لرد أفكار المشركين أنه من عند الله ، فمورد التأكيد هو فعل ﴿ صرفنا ﴾ الدال على أنه من عند الله .

والتصريف تقدم آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا ﴾ [الإسراء : 41] .

وزيد في هذه الآية قيد للناس ﴾ دون الآية السابقة لأن هذه الآية واردة في مقام التحدي والإعجاز ، فكان الناس مقصودين به قصداً أصلياً مؤمنهم وكافرهم بخلاف الآية المتقدمة فإنها في مقام توبيخ المشركين خاصة فكانوا معلومين كما تقدم .

ووجه تقديم أحد المتعلقين بفعل ﴿ صرفنا ﴾ على الآخر : أن ذكر الناس أهم في هذا المقام لأجل كون الكلام مسوقاً لتحديهم والحجة عليهم ، وإن كان ذكر القرآن أهم بالأصالة إلا أن الاعتبارات الطارئة تُقدّم في الكلام البليغ على الاعتبارات الأصلية ، أن الاعتبارات الأصلية لتقررها في النفوس تصير متعارَفة فتكون الاعتبارات الطارئة أعز منالاً .

ومن هذا باب تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر .

والأظهر كون التعريف في ﴿ الناس ﴾ للعموم كما يقتضيه قوله : ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ .

وذكر في هذه الآية متعلق التصريف بقوله : ﴿ من كل مثل ﴾ بخلاف الآية السابقة ، لأن ذكر ذلك أدخل في الإعجاز ، فإن كثرة أغراض الكلام أشد تعجيزاً لمن يروم معارضته عن أن يأتي بمثله ، إذ قد يقدر بليغ من البلغاء على غرض من الأغراض ولا يقدر على غرض آخر ، فعجزهم عن معارضة سورة من القرآن مع كثرة أغراضه عجز بيِّن من جهتين ، لأنهم عجزوا عن الإتيان بمثله ولو في بعض الأغراض ، كما أشار إليه قوله تعالى في سورة [البقرة : 23] ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ فإن (من) للتبعيض وتنوين (مثل) للتعظيم والتشريف ، أي من كل مثل شريف .

والمراد : شرفه في المقصود من التمثيل .

و(من) في قوله : من كل مثل ﴾ .

للتبعيض ، و (كل) تفيد العموم ، فالقرآن مشتمل على أبعاض من جميع أنواع المثل .

وحذف مفعول ﴿ أبى ﴾ للقرينة ، أي أبى العمل به .

وفي قوله : ﴿ إلا كفوراً ﴾ تأكيد الشيء بما يشبه ضده ، أي تأكيد في صورة النقص ، لما فيه من الإطماع بأن إبايتهم غير مطردة ، ثم يأتي المستثنى مؤكداً لمعنى المستثنى منه ، إذ الكفور أخص من المفعول الذي حذف للقرينة .

وهو استثناء مُفرغ لما في فعل ﴿ أبى من معنى النفي الذي هو شرط الاستثناء المفرغ لأن المدار على معنى النفي ، مثل الاستثناء من الاستفهام المستعمل في النفي كقوله : ﴿ هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ [الإسراء : 93] .

(76/464)

والكُفور بضم الكاف الجحود ، أي جحدوا بما في القرآن من هدى وعاندوا .

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) ﴾

عطف جملة ﴿ وقالوا ﴾ على جملة ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ [الإسراء : 89] ، أي كفروا بالقرآن وطالبوا بمعجزات أخرى .

وضمير الجمع عائد إلى أكثر الناس الذين أبوا إلا كفوراً ، باعتبار صدور هذا القول بينهم وهم راضون به ومتمالئون عليه متى علموه ، فلا يلزم أن يكون كل واحد منهم قال هذا القول كله بل يكون بعضهم قائلاً جميعه أو بعضهم قائلاً بعضه .

ولما اشتمل قولهم على ضمائر الخطاب تعين أن بعضهم خاطب به النبي مباشرة إما في مقام واحد وإما في مقامات .

وقد ذكر ابن إسحاق : أن عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، والأسود بن المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية ، وأمية بن خلف ، وناساً معهم اجتمعوا بعد غروب الشمس عند الكعبة وبعثوا إلى النبي أن يأتيهم .

فأسرع إليهم حرصاً على هداهم ، فعاتبوه على تسفيه أحلامهم والطعن في دينهم .

وعرضوا عليه ما يشاء من مال أو تسويد .

وأجابهم بأنه رسول من الله إليهم لا يبتغي غير نصحهم ، فلما رأوا منه الثبات انتقلوا إلى طلب بعض ما حكاه الله عنهم في هذه الآية .

وروي أن الذي سأل ما حكي بقوله تعالى : أو ترقى في السماء ﴾ إلى آخره ، هو عبد الله بن أبي أمية المخزومي .

وحكى الله امتناعم عن الإيمان بحرف (لن) لمفيد للتأييد لأنهم كذلك قالوه .

والمراد بالأرض : أرض مكة ، فالتعريف للعهد .

ووجه تخصيصها أن أرضها قليلة المياه بعيدة عن الجنات .

والتفجير : مصدر فجر بالتشديد مبالغة في الفَجْر ، وهو الشق باتساع .

ومنه سمي فجر الصباح فجراً لأن الضوء يشق الظلمة شقاً طويلاً عريضاً ، فالتفجير أشد من مطلق الفجر وهو تشقيق شديد باعتبار اتساعه .

(77/464)

ولذلك ناسب الينبوع هنا والنهر في قوله تعالى : ﴿ وفجرنا خلالها نهراً ﴾ [الكهف : 33] وقوله : فتفجر الأنهار ﴾ .

وقرأه الجمهور بضم التاء وتشديد الجيم على أنه مضارع (فجر) المضاعف .

وقرأه عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة على أنه مضارع فجر كنصَر ، فلا التفات فيها للمبالغة لأن الينبوع يدل على المقصود أو يعبر عن مختلف أقوالهم الدالة على التصميم في الامتناع .

ومعنى ﴿ لن نؤمن لك ﴾ لن نصدقك أنك رسول الله إلينا .

والإيمان : التصديق .

يقال: آمنه، أي صدقه.

وكثر أن يعدى إلى المفعول باللام، قال تعالى: ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ [يوسف: 17]

وقال ﴿ فآمن له لوط ﴾ [العنكبوت: 26].

وهذه اللام من قبيل ما سماه في مغني اللبيب ﴾ لام التنبيين.

وغفل عن التمثيل لها بهذه الآية ونحوها، فإن مجرور اللام بعد فعل ﴿ نؤمن ﴾ مفعول لا التباس له بالفاعل وإنما تذكر اللام لزيادة البيان والتوكيد.

وقد يقال: إنها لدفع التباس مفعول فعل "آمن" بمعنى صدق بمفعول فعل (آمن) إذا جعله أميناً.

وتقدم قوله تعالى؛ ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ﴾ في سورة [يونس: 83].

والينبوع: اسم للعين الكثيرة النبع التي لا ينضب ماؤها.

وصيغة يفعول صيغة مبالغة غير قياسية، والينبوع مشتقة من مادة النبع؛ غير أن الأسماء الواردة على هذه الصيغة مختلفة، فبعضها ظاهر اشتقاقه كالينبوع واليتبوت، وبعضها خفي كاليعبوب للفرس الكثير الجري.

وقيل: اشتق من العَب المجازي.

ومنه أسماء معربة جاء تعريبها على وزن يفعول مثل؛ يَكْسوم اسم قائد حبشي، ويرموك اسم نهر.

وقد استقرى الحسن الصاغاني ما جاء من الكلمات في العربية على وزن يفعول في مختصر له مرتب على حروف المعجم .

وقال السيوطي في المزهر ﴾ : إن ابن دريد عقد له في "الجمهرة" باباً .

(78/464)

والجنة ، والنخيل ، والعنب ، والأنهار تقدمت في قوله : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار ﴾ في سورة [البقرة : 266] .

وخصوا هذه الجنة بأن تكون له ، لأن شأن الجنة أن تكون خاصة لملك واحد معين ، فأروه أنهم لا يبتغون من هذا الاقتراح نفع أنفسهم ولكنهم يبتغون حصوله ولو كان لفائدة المقترح عليه .

والمقترح هو تفجير الماء في الأرض القاحلة ، وإنما ذكروا وجود الجنة تمهيداً لتفجير أنهار خلالها فكأنهم قالوا : حتى تفجر لنا ينبوعاً يسقي الناس كلهم ، أو تفجر أنهاراً تسقي جنة واحدة تكون تلك الجنة وأنهارها لك .

فنحن مقتنعون بحصول ذلك لا بغية الانتفاع منه .

وهذا كقولهم : أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ .

وذكر المفعول المطلق بقوله : ﴿ تفجيراً ﴾ للدلالة على التكثير لأن ﴿ تُفجر قد كفى في الدلالة على المبالغة في الفَجْر ، فتعين أن يكون الإتيان بمفعوله المطلق للمبالغة في العدد ، كقوله تعالى : ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ [الإسراء : 106] ، وهو المناسب لقوله : خلالها ﴾ ، لأن الجنة تتخللها شعب النهر لسقي الأشجار .

فجمع الأنهار باعتبار تشعب ماء النهر إلى شعب عديدة .

ويدل لهذا المعنى إجماع القراء على قراءة ﴿ فتفجر ﴾ هنا بالتشديد مع اختلافهم في الذي قبله .

وهذا من لطائف معاني القراءات المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم فهي من أفانين إعجاز القرآن .

وقولهم : ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ﴾ انتقال من تحديه بخوارق فيها منافع لهم إلى تحديه بخوارق فيها مضرتهم ، يريدون بذلك التوسيع عليه ، أي فليأتهم بآية على ذلك ولو في مضرتهم .

وهذا حكاية لقولهم كما قالوا .

ولعلهم أرادوا به الإغراق في التعجيب من ذلك فجمعوا بين جعل الإسقاط لنفس السماء .

وعززوا تعجيبهم بالجملة المعترضة وهي ﴿ كما زعمت ﴾ إنباء بأن ذلك لا يصدق به أحد .

وعنوا به قوله تعالى : ﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ﴾ [سبأ : 9] وبقوله : ﴿ وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم ﴾ [الطور : 44] ، إذ هو تهديد لهم بأشراط الساعة وإشرافهم على الحساب .

وجعلوا (من) في قوله تعالى : ﴿ كسفاً من السماء ﴾ [الطور : 44] تبعيضية ، أي قطعة من الأجرام السماوية ، فلذلك أبوا تعدية فعل تسقط ﴾ إلى ذات السماء .

واعلم أن هذا يقتضي أن تكون هاتان الآيتان أو إحداها نزلت قبل سورة الإسراء وليس ذلك بمستبعد .

و"الكسف" بكسر الكاف وفتح السين جمع كسْفة ، وهي القطعة من الشيء مثل سِدرة وسدر .

وكذلك قرأه نافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم ، وأبو جعفر .

وقرأه الباقون بسكون السين بمعنى المفعول ، أي المكسوف بمعنى المقطوع .

والزعم : القول المستبعد أو المحال .

والقبيل : الجماعة من جنس واحد .

وهو منصوب على الحال من الملائكة ، أي هم قبيل خاص غير معروف ، كأنهم قالوا : أو تأتي بفريق من جنس الملائكة .

والزخرف : الذهب .

وإنما عدي ﴿ ترقى في السماء ﴾ بحرف (في) الظرفية للإشارة إلى أن الرقي تدرج في السماوات كمن يصعد في المرقاة والسلم .

ثم تفننوا في الاقتراح فسألوه إن رقى أن يرسل إليهم بكتاب ينزل من السماء يقرؤونه ، فيه شهادة بأنه بلغ السماء .

قيل : قائل ذلك عبد الله بن أبي أمية ، قال : حتى تأتينا بكتاب معه أربعة من الملائكة يشهدون لك .

ولعلهم إنما أرادوا أن ينزل عليهم من السماء كتاباً كاملاً دفعة واحدة ، فيكونوا قد ألحدوا بتنجيم القرآن ، توهماً بأن تنجيمه لا يناسب كونه منزلاً من عند الله لأن التنجيم عندهم يقتضي التأمل والتصنع في تأليفه ، ولذلك يكثر في القرآن بيان حكمة تنجيمه .

واللام في قوله : ﴿ لرقيك ﴾ يجوز أن تكون لام التبيين .

على أن "رقيك" مفعول ﴿ نؤمن ﴾ مثل قوله : ﴿ لن نؤمن لك ﴾ فيكون ادعاء الرقي منفياً عنه التصديق حتى ينزل عليهم كتاب .

ويجوز أن تكون اللام لام العلة ومفعول ﴿ نؤمن ﴾ محذوفاً دل عليه قوله قبله : ﴿ لن نؤمن لك ﴾ .

والتقدير : لن نصدقك لأجل رقيك هي تنزل علينا كتاباً .

والمعنى : أنه لو رقى في السماء لكذبوا أعينهم حتى يرسل إليهم كتاباً يرونه نازلاً من السماء .

وهذا تورك منهم وتهكم .

ولما كان اقتراحهم اقتراح مُلاجّة وعناد أمره الله بأن يجيبهم بما يدل على التعجب من كلامهم بكلمة ﴿ سبحان ربي ﴾ التي تستعمل في التعجب كما تقدم في طالع هذه السورة ، ثم بالاستفهام الإنكاري ، وصيغة الحصر المقتضية قصر نفسه على البشرية والرسالة قصراً إضافياً ، أي لستُ رباً متصرفاً أخلق ما يطلب مني ، فكيف آتي بالله والملائكة وكيف أخلق في الأرض ما لم يخلق فيها .

وقرأ الجمهور ﴿ قل ﴾ بصيغة فعل الأمر .

وقرأه ابن كثير ، وابن عامر ﴿ قال ﴾ بألف بعد القاف بصيغة الماضي على أنه حكاية لجواب الرسول صلى الله عليه وسلم عن قولهم : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ على طريقة الالتفات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) ﴾

يبن جل وعلا في هذه الآيات الكريمة شدة عناد الكفار وتعنتهم ، وكثرة اقتراحاتهم لأجل التعنت لا لطلب الحق . فذكر أنهم قالوا له صلى الله عليه وسلم : إنهم لن يؤمنوا له - أي لن يصدقوه - حتى يفجر لهم من الأرض ينبوعاً . وهو يفعول من نبع : اي ماء غزير . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرض ﴾ [الزمر : 21] ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ ﴾ أي بستان من نخيل وعنب . فيجر خلالها ، أي وسطها أنهاراً من الماء ، أو يسقط السماء عليهم كسفاً : أي قطعاً كما زعم . أي في قوله تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأرض أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السمآء ﴾ [سبأ : 9] الآية . أو يأتيهم بالله والملائكة قبيلاً : أي معاينة . قال قتاده وابن جريج "كقوله : ﴿ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الملائكة أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ [الفرقان : 21] .

وقال بعض العلماء : قبيلاً : أي كفيلاً . من تقبله بكذاك إذا كفله به . والقبيل والكفيل والزعيم بمعنى واحد .

وقال الزمخشري قبيلاً : بما تقول ، شاهداً بصحته . وكون القبيل في هذه الآية بمعى الكفل مروي عن ابن عباس والضحاك . وقال مقاتل : ﴿ قبيلاً ﴾ شهيداً . وقال مجاهد : هو جمع قبيلة . أي تأتي بأصناف الملائكة . وعلى هذا القول فهو حال من الملائكة ، أو يكون له بيت من زخرف : أي من ذهب : ومنه قوله " في الزخرف " : ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَاس أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الزخرف : 33] إلى قوله ﴿ وَزُخْرُفاً ﴾ [الزخرف : 35] أي ذهباً . او يرقى في السماء : أي يصعد فيه ، وإنهم لن يؤمنوا لرقيه : اي من أجل صعوده ، حتى ينزل عليهم كتاباً يقرؤونه . وهذا التعنت والعناد العظيم الذي ذكره جل وعلا عن الكفار هنا بينه في مواضع أخر .

وبين أنهم لو فعل الله ما اقترحوا ما آمنوا . لأن من سبق عليه الشقاء لا يؤمن . كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الذين كفروا إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام : 7] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيؤمنوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ [الأنعام : 111] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السماء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ

مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : 14-15] ، وقوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : 109] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الذين حقت عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ [يونس : 96-97] ، والآيات بمثل هذا كثيرة .

(83/464)

وقوله في هذه الآية ﴿ كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ ﴾ اي كتاباً من الله إلى كل رجل منا .

ويوضح هذا قوله تعالى " في المدثر " : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يؤتى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ [المدثر : 52] كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حتى نؤتى مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ الله ﴾

[الأنعام : 124] الاية . وقوله في هذه الأية الكريمة : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَاّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ اي تنزيهاً لربي جل وعلى عن كل ما لا يليق بهن ويدخل فيه تنزيهه عن العجز عن فعل ما اقترحتم . فهم قادر على كل شيء ، لا يعجزه شيء ، وأنا بشر أتبع ما يوحيه إليّ ربي .

ويين هذا المعنى في مواضع أخر . كقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ [

الكهف : 110] ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَهكم إِله وَاحِدٌ فاستقيموا إِلَيْهِ واستغفروه ﴾ [فصلت : 6] الآية . وكقوله تعالى عن جميع الرسل : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ولكن الله يَمُنُّ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم : 11] إلى غير ذلك من الآيات . وقرأ ﴿ تَفْجُرَ ﴾ الأولى عاصم وحمزة والكسائي بفتح التاء وإسكان الفاء وضم الجيم . والباقون بضم التاء وفتح الفاء وتشديد الجيم مكسورة . واتفق الجميع على هذا في الثانية . وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ﴿ كِسَفاً ﴾ بفتح السين والباقون بإسكانها . وقرأ أبو عمرو ﴿ تُنْزِل ﴾ بإسكان النون وتخفيف الزاي ، والباقون بفتح النون وشد الزاي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(84/464)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) ﴾

(قُلْ) لا يقولها الحق سبحانه بينه وبين رسوله ، بل المراد : أعلنها يا محمد على الملأ ، وأَسْمِعْ

بها الناس جميعاً ؛ لأن القضية قضية تَحَدٍّ للجميع .

﴿ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ . . ﴾ [الإسراء: 88] وهما الثَّقَلان اللذان يكونان أمة التكليف لما منحهما الله من نعمة الاختيار الذي هو مناطُ التكليف . وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهما جميعاً ، وقد استمعت الجن إلى القرآن كما استمعت إليه البشر: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ [الجن: 1-2]

والتحدِّي معناه الإتيان بآية معجزة يعجز عنها المعارض ، لكن من جنس ما نبغ فيه المعارض ، فلا يتحدّاهم بشيء لا عِلْم لهم به ، ولا خبرة لهم فيه ؛ لأنه لا معنى للتحدي في هذه الحالة ولا جدوى منه ، كما لو تحدَّيْتَ إنساناً عادياً برفع الأثقال ولم يسبق له أن ارتاض هذه الرياضة ، إنما تتحدَّى بها بطلاً معروفاً عنه ممارسة هذه العملية .

لذلك جاءت كل معجزات الرسل من جنس ما نبغ فيه القوم ليكون التحدّي في محلّه ، ولا يعترضون عليه بأنه خارج عن نطاق علمهم ومقدرتهم ، فكانت معجزة موسى -عليه السلام- العصا واليد ، وهي من جنس ما نبغ فيه قومه من السِّحْر ، وجاءت معجزة عيسى -عليه السلام- إحياء الموتى بإذن الله ، وإبراء الأكمة والأبرص ؛ لأن قومه نبغوا في الطب ، وكانت معجزته صلى الله عليه وسلم في البلاغة والفصاحة التي نبغ فيها العرب .

وقد اقترح كفار مكة على رسول الله آيات معينة لإثبات صِدْق رسالته ، لكن الآيات لا تُقترح على الله تعالى ؛ لأنه سبحانه هو الذي يختار الآيات التي تناسب الطباع وتكون معجزة تثبت صِدْق رسوله ، وقد اقترحوا على رسول الله آيات ومعجزاتٍ في مجالات لا عِلْم لهم بها ، فكيف يتحدّاهم الله في مجال لا نبوغَ لهم فيه ، وليس لهم دراية به ؟

والحق سبحانه أنزل القرآن ، وجعله المعجزة الوحيدة لصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو المعجزة الوحيدة لكل أمة الإسلام من لَدُن رسول الله إلى قيام الساعة . وهذا لا يمنع أن توجد معجزات كونية حدثتْ لرسول الله ليراها القوم الذي عاصروه ، ومِثْل هذه المعجزات لا نطالب بها نحن ، ولا نطالب بالإيمان بها ، إلا إذا وردتْ من صادق معصوم ؛ لأن الهدف من هذه المعجزات تثبيت الإيمان برسول الله في نفوس مَنْ شاهدوها ، فنُبوع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ، وكَوْنُ الشجرة تسعى إليه والحيوان يُكلِّمه ، فالمقصود بهذه المعجزات مَنْ شاهدها وعاصرها ، لا مَنْ أتى بعد عصره صلى الله عليه وسلم .

وفي القرآن خاصية تفرّد بها عن الكتب السابقة ، حيث نزل جامعاً بين أمرين : أنه منهج سماوي يُنظِّم حركة الحياة ، وهو في الوقت نفسه معجزة مصاحبة للمنهج لا تنفكّ عنه إلى قيام الساعة .

أما الكتب السابقة فكانت تأتي بمنهج فقط ، أما المعجزة فشيء آخر منفصل عن الكتاب ، فمعجزة موسى العصا واليد وكتابه التوراة ، ومعجزة عيسى إبراء الأكمة والأبرص ، وكتابه الإنجيل ، أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد انفرد بأن تكون معجزته هي منهجه .

لذلك لما طلب كفار مكة من رسول الله أنْ يُفسِح لهم جبال مكة ، ويُوسّع عليهم الأرض ، وأنْ يُحيي لهم موتاهم ليشهدوا بصدقه ، خاطبهم الحق سبحانه بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل للَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً . . ﴾ [الرعد: 31]

(86/464)

أي: كان في القرآن غَنَاءٌ لكم عن كُلِّ هذه المسائل .

وقد اعترض المستشرقون على هذه القضية ، فقالوا: إنْ كانت الرسالة المحمدية للناس كافة ، وجاءت معجزته في البلاغة والفصاحة ليتحدَّى بها قومه من العرب ، فما لَوْنُ الإعجاز لغير العرب ؟

نقول: أولاً: إذا كان العرب ارتاضوا على الملَكَة العربية وأساليبها قد عجزوا أمام هذا التحدي ، فغيرهم مِمَّنْ اتخذ العربية صناعة لا شكَّ أعجز .

ثانياً: مَنْ قال إن المعجزة في القرآن في فصاحته وبلاغته فقط؟

لقد جاءت بلاغة القرآن وفصاحته للأمة المتلقِّية للدعوة الأولى، هؤلاء الذين سيحملون عِبْءَ الدعوة، ويَسِيحُون بها في شتى بقاع الأرض، فإذا ما انتشرت الدعوة كانت المعجزة للناس الآخرين من غير العرب شيئاً آخر.

فالغيبيات التي يخبرنا بها، والكونيات التي يُحدّثنا عنها، والتي لم تكُنْ معلومة لأحد نجدها موافقة تماماً لما جاء به القرآن، وهو مُنزّل على نبي أُميٍّ، وفي أمة أُميّة غير مثقفة، فهذه كلها نواحي إعجاز للعرب ولغيرهم، وما زِلْنا حتى الآن نقف أمام آيات، وننتظر من العلم أنْ يكشفَ لنا عن معناها.

وفي الماضي القريب توصّل العلم إلى أن الذرة أصغر شيء في الوجود، وقد ذكر القرآن الذرة في مثل قوله: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: 7-8]

وبتقدُّم وسائل البحث توصّلوا إلى تفتيت الذرة أو شطرها، ووجدنا في الكون ما هو أقل من الذرة، فظنّ البعض أن هذه لا ذِكْر لها في القرآن، وظنوا أنهم تصيّدوا على القرآن مأخذاً، ولو أمعنوا النظر في كتاب الله لوجدوا لهذا التطور العلمي رصيداً في كتاب الله حيث قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَالِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: 61]

والقرآن يقول ﴿ أَصْغَرَ ﴾ لا صغير ، فلو فتَّتْنَا أجزاء الذرة لوجدنا لها رصيداً واحتياطاً في كتاب الله ، ألاَ ترى في ذلك إعجازاً ؟

إذن: تحدَّاهم الحق سبحانه بقوله: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ .

. ﴾ [الإسراء: 88] وأُدخِل الجنّ في مجال التحدي ؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن لكل شاعر نابغ ، أو أديب مُفوّه ، أو عبقري عنده نبوغ بياني شيطاناً يلهمه ، وهذه الشياطين تسكن وادياً عندهم يسمونه " وادي عَبْقَر " ، لذلك لم يكتَف القرآن بتحديهم هم ، بل تحدى أيضاً مَنْ يُلهمونهم ، أو مَنْ ينسبونَ إليهم القوة في هذا الأمر .

ثم يقول تعالى: ﴿ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَاذَا الْقُرْآنِ . . ﴾ [الإسراء: 88] فالتحدّي أنْ يأتوا (بمثله) لأنه لا يمكن أنْ يأتوا به نفسه ؛ لأنه نزل من عند الله وانتهى الأمر ، فمستحيل أنْ يأتوا به نفسه مرة أخرى ؛ لأنَّ الواقع لا يقع مرتين .

إذن: المتصوَّر في مجال التحدي أنْ يأتوا بمثله ، فلو قلت: هذا الشيء مثل هذا الشيء ، فلا شَكَّ أن المشبّه به أقوى وأصدق من المشبه ، ولا يرتقي المشبه ليكون هو المشبه به بل مثله ، فإذا انتفى المثل فقد انتفى الأصل من باب أَوْلَى .

فالحق سبحانه في قوله: ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ . . ﴾ [الإسراء: 88] لا ينفي عنهم أن يأتوا بقرآن، بل بمثل القرآن، فإذا كانوا لا يأتون بالصورة، فهل يقدرون على الأصل؟!

ثم يقول تعالى زيادة في التحدّي: ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: 88]

(88/464)

والظهير: هو المعاون والمساعد والمعين على الأمر، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: 4] لأنه قد يقول قائل: إن هذه المهمة لا يقوم بها فرد واحد، فقال لهم سبحانه: بل هاتوا كل ما لديكم من طاقات إبداعية وعبقريات بيانية، واستعينوا بما تزعمون من إلهام الجن، وتعاونوا جميعاً في سبيل هذا التحدي، حتى إذا كان في أحدكم نقص أكمله الآخر.

لكن، هل ظَلَّ التحدي قائماً على أنْ يأتوا بمثل القرآن؟

المتتبع لهذا الموضوع في القرآن الكريم يجد الحق تبارك وتعالى يتنزل معهم في القدر المطلوب للتحدِّي، وهذا التنزّل يدل على ارتقاء التحدِّي، فبعد أنْ تحدّاهم بأنْ يأتوا بمثل القرآن، تحدّاهم بعشْر سُور، ثم تحدّاهم بسورة واحدة، وكلما تنزل معهم درجة ارتقى بالتحدي، فلا شكّ أن تحديهم بسورة واحدة أبلغ من تحديهم بمثل هذا القرآن.

وهذا التنزُّيل الذي يفيد الارتقاء كما نجمع مثلاً بين المتناقضات، فنقول: صعد إلى الهاوية ، وانحدر إلى القمة. ومع هذا التنزُّل لم يستطيعوا الإتيان بمثل آية واحدة من كتاب الله.

ويجب أن نلتفت إلى مغزى آخر من وراء هذا التحدّي، فليس الهدف منه تعجيز القوم، بل أن نثبت لهم السواسية بين الخَلْق، فالجميع أمام الإله الواحد سواء، وهذه هي القضية التي تُزعجهم وتقضّ مضاجعهم، والقرآن سيثبت لهم صِدْق محمد، وسيرفع من مكانته بين القوم، وهم الذين يحاولون إيذاءه ويُدبّرون لقتله.

ولذلك من غبائهم أن قالوا: ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَاذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[الزخرف: 31]

(89/464)

إذن: فاعتراضهم ليس على القرآن في حَدّ ذاته، بل على محمد الذي نزل القرآن عليه، فهم يحسدونه على هذه المكانة، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ.. ﴾[النساء: 54]

وسبحان الله، إذا كان الخَلْق يختلفون أمام رحمة الله في مسائل الدنيا التي لهم فيها أسباب وسَعْي واجتهاد، فكيف بالأمر الذي ليس في أيديهم؟ كيف يريدون التدخُّل فيه: ﴿ أَهُمْ

يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . . ﴾ [الزخرف: 32]

ثم يتحدث الحق سبحانه عن طبيعة الأداء القرآني ، فيقول: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَاذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ . . ﴾ .

(90/464)

التصريف: هو التحويل والتنويع بأساليب مختلفة لزيادة البيان ، والمراد أن القرآن الكريم لا يعالج القضايا بأسلوب رتيب جامد ، بل يُحوِّل الكلام بين أساليب متعددة ؛ لأنه يخاطب طباعاً متعددة ، ويتعرض أيضاً لموضوعات متعددة ومعاني مختلفة ، فلا بُدَّ أن يصرف الأسلوب ويَقلِبه على أكثر من وجه ، فالذي لا يفهم هذه يفهم هذه ، فيعرض المعنى الواحد بأساليب متعددة وأمثال مختلفة .

ونأخذ مثالاً على ذلك قضية القمة ، وهي الألوهية ووحدانية الله تعالى ، فنرى القرآن يعرضها في معارض مختلفة هكذا: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا . . ﴾ [الأنبياء: 22]

أي: في السماء والأرض .

وهذا الأسلوب قد لا يفهمه غير العربي ؛ لأنه يفتقد المَلَكَة اللغوية التي يتلّقى بها كلام الله ، وقد يعترض فيقول: (إلا) أداة استثناء . فالمعنى: لو كان فيهما آلهة خارج منهم الله لَفَسدَتا ، فلو كانت هناك آلهة ومعهم الله فهذه لا تجوز ؛ لأنها مشاركة ، لكنها تفيد أن الله تعالى موجود ، وإنْ كان معه آخرون ، والمنطق في هذه الحالة يقول: لو كان في السماء والأرض آلهة ومعهم الله لا تفسد .

لكن الحقيقة أن ﴿ إِلاَّ ﴾ هنا ليس للاستثناء ، بل هي اسم بمعنى (غير) . فالمعنى إذن: لو كان فيهما آلهة غير الله لَفسدَتا .

ثم يعرضها بأسلوب آخر ، فيقول تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَاهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ . . ﴾ [المؤمنون: 91]

فالحق تبارك وتعالى مُنزّه عن الولد والشريك ، إذ لو كان معه إله آخر لَذهبَ كل إله بما خلق ، واختصّ نفسه بمنطقة معينة ، ولعلا بعضُهم على بعض ، فإن أرادوا إبراز شيء للوجود ، فأيهما يبرزه ؟ إنْ قدر على إبراز واحد فالآخر عاجز ، وإنْ لم يقدر عليه واحد بمفرده ، فهما عاجزان لا يصلحان للألوهية .

ثم يعرض نفس القضية بأسلوب آخر، فيقول: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: 42]

أي: إنْ كان مع الله آلهة كما يدّعي المشركون لذهب هؤلاء الآلهة إلى ذي العرش يُعاتبونه أو يُؤدّبونه، أو يُعاقبونه؛ لأنه انفرد بالمُلْك من دونهم.

وبأسلوب آخر يقول تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَاهَ إِلاَّ هُوَ.. ﴾ [آل عمران: 18]

ولم يَأْتِ مَنْ ينازعه هذه المكانة، أو يدّعيها لنفسه، إذن: فقد ثبتتْ له هذه القضية إلى أنْ يُوجَد معارض، فالمختلف فيه يتفق عليه إنْ لم يظهر له معارض.

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً، ولله المثل الأعلى: هَبْ أن جماعة انصرفوا من مجلس، ثم وجد صاحب البيت حافظة نقود في مكان مجلسهم فعرضها عليهم، فلم يدّعها أحد لنفسه إلا رجل واحد قال: هي لي، أيشكُّ صاحب البيت أنها له؟

نرى هذا التصرف أيضاً في أسلوب القرآن في مسألة ادعاء أن لله تعالى ولداً، تعالى الله عما يقول المبطلون عُلواً كبيراً، فيعرضها القرآن هكذا:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبة: 30]

فيردُّ القرآن هذا الزعْم بقوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ.. ﴾ [الأنعام: 101]

وفي موضع آخر يعرض المسألة هكذا: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ

﴾ [النحل: 57]

أي: فإن كنتم تريدون مقاسمة الخالق سبحانه، فهل يليق أنْ تأخذوا أنتم البنين؛ لأنهم المفضلون حَسْب زعمكم، وتتركوا له تعالى البنات: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ [النجم: 21-22] أي: قسمة جائرة.

(92/464)

وهكذا يُصرِّف القرآن أسلوبه، ويُحوّله ليقنع به جميع العقول؛ ليناسب كل الطبائع. وتمتاز لغة العرب بالمثل والحكمة؛ لذلك كان من التصريف في أسلوب القرآن استخدام المثل، وهو تعبير مُوجَز، يحمل المعاني الكثيرة وتعشق لفظه، وتقوله كما هو دون تغيير إذا جاءت مناسبته.

فإذا أرسلتَ أحداً في مهمة أو جماعة، فيمكنك حين عودتهم تقول لهم مستفهماً: (ماذا وراءكِ يا عصام؟) هكذا بصيغة المؤنثة المفردة، لأن المثل قيل هكذا، حيث أرسل أحدهم امرأة تسمى عصام لتخطب له إحدى النساء وحينما أقبلت عليه خاطبها بهذه العبارة، فصارت مثلاً.

وكما تقول لصاحبك الذي يتعالى عليك: (إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً) إذن: المثل

يمتاز بأنه يثبت على لفظه الأول ولا يتغير عنه .

أما الحكمة فهي: قول شارد يقوله كل واحد ، وهو كلام يقلُّ لفظه ، ويجِلُّ معناه .

كما تقول: " رُبَّ أخ لك لم تَلِدْهُ أمك " .

" لا تُعلِّم العَوانُ الخِمْرة " .

" إن المنبتّ لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى " أي: أن الذي يُجهِد دابته في السير لن يصل إلى ما يريد ؛ لأنها ستنقطع به ولا تُوصّله .

ومن الحكمة هذه الأبيات الشعرية التي صارت حكمة متداولة: وَمَنْ يكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدْ مُرّاً بِهِ المَاءَ الزُّلالا وقوله: وأَتْعَس النّاسِ حَظّاً مَنْ تكونُ لَه نَفْسُ المُلوكِ وحالاتُ المسَاكينوهَبْ أن ولدك أهمل دروسه طوال العام وعند الامتحان أخذ يجدّ وَيَجْتهد وَيُرهِق نفسه ، هنا يمكنك أن تقول له: (قبل الرماء تُملأ الكنائن) والكنانة هي المخلاة التي تُوضَع بها السهام ، وهذه لا بُدّ أنْ يُعِدّها الصياد قبل صَيْده لا وقت الصيد .

إذن: لأهمية المثل في لغة العرب جعله القرآن لَوْناً أسلوبياً ، وأداةً للإقناع ، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . ﴾ [البقرة: 26]

(93/464)

لأن الله تعالى يخاطب بالقرآن عقولاً مختلفة وطبائع متعددة؛ لذلك لا يستحي أن يضرب المثل بأحقر مخلوقاته لِيُقنِعَ الجميع كلاًّ بما يناسبه.

وقوله: ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ قد يقول قائل: ولماذا قال ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾، فالعجيب هنا مسألة الصِّغَر؟

نقول: المراد بما فوقها.

أي: في المعنى المراد، وهو الصِّغر. أي: ما فوقها في الصِّغر لا أكبر منها.

ثم يأتي بالمعنى في صورة أخرى: ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: 73]

وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: 41]

إذن: يُصرِّف الله الأمثال ويُحوِّلها ليأخذ كل طَبْع ما يناسبه وما يقتنع به، وليس القرآن على وتيرة واحدة أو مزيج واحد يعطي للجميع. بل يُشخِّص الداءات ويُحلِّلها ويعالجها بما يناسبها؛ لذلك يأتي الأسلوب مختلفاً.

وهذه المسألة واضحة في الحديث النبوي الشريف، حيث كان الصحابة يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم السؤال الواحد، وتأتي الإجابة مختلفة من شخص لآخر، فقد

سُئِل صلى الله عليه وسلم كثيراً: ما أفضل الأعمال يا رسول الله؟ فقال للسائل: " الصلاة لوقتها " وقال لآخر: " بر الوالدين " وقال لآخر: " أنْ تلقىَ أخاك بوجه طَلْق " .

وهكذا جاءت الإجابة مختلفة من شخص لآخر؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يراعي حال سائله، ويحاول أنْ يعالج نقطة الضعف فيه، فالأمر ليس (أكلشيه) ثابتاً يعطيه للجميع، بل هي مراعاة الأحوال والطباع.

(94/464)

ثم يقول تعالى: ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ [الإسراء: 89]

نعرف أن (إلاّ) أداة استثناء، تُخرِج ما بعدها من حكم ما قبلها، كما تقول: جاء القوم إلا زيداً، ولو طبّقْنَا هذه القاعدة على الآية لا يستقيم معناها، كما لو قلت: ضربت إلا زيدا، والآية أسلوب عربي فصيح.

نقول: لأن معنى أبى: لم يقبل ولم يرْضَ، فالمراد: لم يَرْضَ إلا الكفور، فلا بُدّ للاستثناء المفرّغ أنْ يُسبق بنفي.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ .

(95/464)

(لَنْ) تفيد تأبيد نَفْي الفعل في المستقبل، تقول: أنا لم أصنع هذا، ولن أصنعه. أي: في المستقبل.

ومعلوم أن الإنسان ابن أغيار، ولا يحكمه حال واحد بل هو مُتقلّب بين أحوال شتى طوال حياته، والله تعالى وحده هو الذي لا يتغيّر، وما دام الإنسان ابنَ أغيار ويطرأ عليه حال بعد حال، فليس له أنْ يحكمَ على شيء حُكْماً قاطعاً في مستقبل هو لا يملكه، فالذي يملك الحكم القاطع هو الحق سبحانه الذي لا تتناوله الأغيار.

لذلك فالإنسان مثلاً إذا صعد حتى القمة نخاف عليه الهبوط؛ لأنه من أهل الأغيار، ولا يدوم له حال، إذن: فماذا بعد القمة؟

وقد عبّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله:إذَا تَمَّ شَيءٌ بَدَا نَقْصُهُ تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيل تَمّوالعجيب أن الناس يتطلعون في نعمة الله إلى التمام، فيقول أحدهم: يا حبَّذا، لو حدث كذا لَتَمتْ هذه النعمة، وهم لا يدرون أن هذا النقص في النعمة سبب بقائها، فلو تَمَّتْ لك النعمة وأنت من أهل الأغيار، فماذا تنتظر إلا زوالها؟

فَلْيرْضَ كلٌّ صاحب نعمة بما فيها من نقص، فلعل هذا النقص يردُّ عنه عَيْن حاسد، أو حقد حاقد.

فبعض الناس يرزقه الله بالأولاد ويُعينه على تربيتهم، ولحكمة يفشل أحدهم فيحزن لذلك

ويألم أشد الألم، ويقول: لو أن هذا الولد . . وهو لا يدرك حكمة الله من وراء هذا النقص، وأنه حارسٌ للنعمة في الآخرين، وأنه التميمة التي تحميه وتردُّ عنه ما يكره.

لذلك لما أراد المتنبي أن يمدح سيف الدولة قال له: شَخِصَ الأَنَامُ إلى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذْ مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِمْ بعَيْبٍ وَاحِدِ أي: نظروا إليك معجبين بما فيك من كمال، فاعمل عملاً سيئاً واحداً يصد عنك شرَّ أعينهم.

(96/464)

إذن: (لن) تفيد تأبيد النفي في المستقبل، وهذا أمر لا يملكه إلا مالك الأحداث سبحانه وتعالى، أمّا صاحب الأغيار فليس له ذلك، والذين آمنوا فيما بعد برسول الله ممَّنْ قالوا هذه المقولة: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ [الإسراء: 90]

نستطيع أن نقول لهم: لقد أوقعتْكم (لن) في الكذب؛ لأنكم أبَّدتم نَفْي الإيمان، وها أنتم مؤمنون، ولم يُفجر لكم النبي ينبوعاً من الأرض.

وعند فتح مكة وقف عكرمة بن أبي جهل وقال في الخَنْدَمَة ما قال، ثم رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً معتذراً وخرج محارباً مع خالد بن الوليد في اليرموك، وحين طُعِن الطعنة المميتة، وحمله خالد، فإذا به يقول له: أهذه ميتة تُرضِي عني رسول الله؟

إذن: مَنْ يقول كلمة عليه أن يكون قادراً على تنفيذها ، مالكاً لزمامها ، ضامناً لنفسه ألاَّ يتغير ، وألاَّ تتناوله الأغيار ، ولا يملك ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

والمتدبّر لأسلوب القرآن في سورة (الكافرون) يجد هذه المسألة واضحة ، حيث يقول تعالى: ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ [الكافرون: 1-4]

هكذا نفتْ الآية عبادة كل منهما لإله الآخر في الزمن الحاضر ، ثم يقول تعالى: ﴿ وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون: 4-5] لينفي أيضاً احتمال العبادة في المستقبل ، إذن: فليس في الآية تكرار ، كما يرى بعض قِصَار النظر .

ولك الآن أنْ تسألَ: كيف نفى القرآن الحديث في المستقبل ؟ نقول: لأن المتكلّم هنا هو الحق سبحانه وتعالى الذي يملك الأحداث ولا تُغيِّره الأغيار ، ولا تتسلط عليه ، فحكم على المستقبل هذا الحكم القاطع وأبّد النّفي فيه .

ثم يقول تعالى: ﴿ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ [الإسراء: 90]

(97/464)

وفي آية أخرى قال: ﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً . . ﴾ [القمر: 12]

فالتفجير: أن تعمل في الأرض عملية تُخرِج المستتر في باطنها على ظهرها، وعين الماء تُخرِج لك الماء من الأرض، وتأخذ من حاجتك فلا ينقص؛ لأنها تعوض ما أُخِذ منها بقانون الاستطراق، وقد يحدث أن يغيض الماء فيها قليلاً.

أما الينبوع فتراه يفيض باستمرار دون أن ينقص فيه منسوب الماء، كما في زمزم مثلاً، ولا شكّ أن هذا المطلب منهم جاء نتيجة حرمانهم من الماء، وحاجتهم الشديدة إليه.

ويذكر الحق سبحانه أنهم واصلوا حديثهم للرسول صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ﴾.

(98/464)

سبق أن طلبوا الماء لأنفسهم، وهنا يطلبون للرسول ﴿ جَنَّةٌ ﴾ أي: بستان أو حديقة من النخيل والعنب؛ لأنهما الصِّنْفان المشهوران عن العرب ﴿ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ﴾ [الإسراء: 91] أي: خلال هذه الحديقة حتى تستمر ولا تذبل.

ويواصلون تحديهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴾.

الزَّعْم: هو القول المخالف للواقع، ويقولون: الزعم مطيّة الكذب، قال تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا . . ﴾ [التغابن: 7]

وإنْ كانوا اتهموا رسول الله بالزعم، فما هو إلا مُبلّغ عن الله، وناقل إليهم منهج ربه، فإنْ أرادوا أنْ يتّهموا فليتهموا الحق سبحانه وتعالى؛ لأن رسوله لا ذنبَ له، وقد جاءوا بمسألة إسقاط السماء عليهم؛ لأن الحق سبحانه سبق أنْ قال عنهم: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَآءِ ﴾ [سبأ: 9]

ولذلك طلبوا من رسول الله أنْ يُوقِع بهم هذا التهديد .

و ﴿ كِسَفاً . . ﴾ [الإسراء: 92] أي: قِطَعاً، ومفردها كسفة كقطعة.

ويقول تعالى: ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلاۤئِكَةِ قَبِيلاً ﴾ [الإسراء: 92] أي: نراهم أمامنا هكذا مُقابلةً عياناً، وقد جاء هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا . . ﴾ [الفرقان: 21]

والمتأمل فيما طلبه الكفار من رسول الله صلى الله عليه وسلم يجده تعجيزاً بعيداً كُلَّ البعد

عن الواقع ، مما يدلنا على أنهم ما أرادوا الإيمان والهداية ، بل قصدوا الجدل والعناد ؛ لذلك يقول الحق سبحانه ردّاً على لجج هؤلاء وتعنّتهم: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ [الأنعام: 111]

ثم يقول تعالى عنهم أنهم قالوا : ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ . . ﴾ .

(100/464)

البيت: هو المكان المعدّ للبيتوتة ، والزخرف: أي المزّين ، وكان الذهب وما يزال أجمل أنواع الزينة ؛ لأن كل زُخْرف من زخارف الزينة يطرأ عليه ما يُغيّره فيبهت لونه ، وينطفئ بريقه ، وتضيع ملامحه إلا الذهب ، ونقصد هنا الذهب الخالص غير المخلوط بمعدن آخر ، فالذهب الخالص هو الذي لا يتأكسد ولا يتفاعل مع غيره ؛ لذلك يظل على بريقه ورَوْنقه ، فإنْ كان البيت نفسه من زخرف ، فماذا سيكون شكله ؟

ونرى الذين يُحبُّون أن ينافقوا نفاق الحضارات ، ويتبارَوْنَ في زخرفة الصناعات يُلصِقون على المصنوعات الخشبية مثلاً طبقة أو قشرة من الذهب ؛ لتظلّ محتفظة بجمالها ، كما في الأطقم الفرنساوي أو الإنجليزي مثلاً .

ثم يقول تعالى: ﴿ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ . . ﴾ [الإسراء: 93]

أي: يكون لك سُلَّم تصعد به في السماء ، ويظهر أنهم تسرعوا في هذا القول ، ورأَوْا إمكانية ذلك ، فسارعوا إلى إعلان ما تنطوي عليه نفوسهم من عناد: ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ . . ﴾ [الإسراء: 93]

وكأنهم يُبيِّتون العناد لرسول الله ، فهم كاذبون في الأولى وكاذبون في الثانية ، ولو نزَّل الله عليهم الكتاب الذي أرادوا ما آمنوا ، وقد ردَّ عليهم الحق سبحانه بقوله: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَاذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: 7]

وانظر إلى رد القرآن على كل هذا التعنت السابق: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي . . ﴾ [الإسراء: 93] وكلمة ﴿ سُبْحَانَ ﴾ كلمة التنزيه العُلْيا للحق سبحانه وتعالى ، وقد تحدَّى بها الكون كله ؛ لأنها كلمة لا تُقَال إلا لله تعالى ، ولم يحدث أبداً بين الناس أنْ قالها أحد لأحد ، مع ما في الكون من جبابرة وعُتَاة ، يحرص الناس على منافقتهم وتملُّقهم ، وهذه كلمة اختيارية يمكن أن يقولها كل إنسان ، لكن لم يجرؤ أحد على قَوْلها لأحد .

والحق سبحانه وتعالى يتحدَّى الكون كله بأمور اختيارية يقدرون عليها ، وتحدى المختار في المثل معناها أنه سبحانه عالم بأن قدرته لن تستطيع أن تفعل ذلك ، ومثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد: 1-3]

نزلت هذه الآيات في أبي لهب ، وهو كافر ، ويحتمل منه الإيمان كما آمن غيره من الكفرة ، فقد آمن عمر والعباس وغيرهم ، فما كان يُدرِي رسول الله أن أبا لهب لن يؤمن ، لكنه يُبلِّغ قول ربه قرآناً يُتلَى ويُحفظ ويُسجَّل ، وفيه تقرير وشهادة بأن أبا لهب سيموت كافراً ، وأن مصيره النار .

وهنا نقول: أَمَا كان في إمكان أبي لهب أنْ يُكذِّب هذا القول ، فيقوم في قومه مُنادياً بلا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . ولو نِفَاقاً . وله بعد ذلك أن يتهم محمداً وقرآن محمد بالكذب ؟ لكن هذا لم يحدث ؛ لأن المتكلم هو الله ربُّ العالمين .

ومن هذا التحدي أن الحق سبحانه له صفات وله أسماء ، الأسماء مأخوذة من الصفات ، إلا اسم واحد مأخوذ للذات ، هو لفظ الجلالة (الله) ، فهو عَلَم على الذات الإلهية لم يُؤخَذ من صفة من صفاته تعالى ، فالقادر والغفور والحيّ القيوم وغيرها من الأسماء مأخوذة من صفات ، إنما (الله) عَلَم على الذات الجامعة لكُلِّ هذه الصفات .

لذلك تحدّى الخالق سبحانه جميع الخَلْق ، وقد أعطاهم الحرية في اختيار الأسماء أنْ يُسمُّوا

أنفسهم أو أبناءهم بهذا الاسم (الله) ، ويعلن هذا التحدي في كتابه الكريم وعلى رؤوس الأشهاد يقول: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم: 65] ؟

(102/464)

ومع ذلك لم يجرؤ كافر واحد على أنْ يُسمِّيَ هذا الاسم ليظلَّ هذا التحدي قائماً إلى قيام الساعة ؛ لأن الله تعالى حق ، والإيمان به وبوجوده تعالى متغلغل حتى في نفوس الكفار ، فلو كانوا يعلمون أن هذه الكلمة كذب ، أو لا وجودَ لها لأقدموا على التسمية بها دون أن يُبالُوا شيئاً ، أمَا وهم يعلمون أن الله حق فلن يجرؤ أحد ، ويُجرِّب هذه التسمية في نفسه ؛ لأنه يخشى عاقبة وخيمة لا يدري ما هي.

لذلك ردَّ الحق سبحانه على تعنُّت الكفار فيما طلبوه من رسوله صلى الله عليه وسلم قائلاً: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي . . ﴾ [الإسراء: 93] لأن الأمور التي طلبوها أمور بلغتْ من العجب حَدّاً ، ولا يمكن أن يُتعجب منها إلا بسبحان الله ؛ لأنها كلمة التعجُّب الوحيدة والتي لا تُطلَق لغير الله ، وكأنه أرجع الأمور كلها لله ، ولقد كان لهم غِنىً عن ذلك في كتاب الله الذي نزل إليهم: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذالِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: 51]

والهمزة هنا للاستفهام المراد به التعجُّب أيضاً : أيطلبون هذه الآيات ، ولم يكْفِهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب ، وقد كان فيه غناءٌ لهم .

ثم يقول تعالى: ﴿ هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء: 93]

هل ادعيْتُ لكم أنِّي إله ؟ ! ما أنا إلا بشر أبلغكم رسالة ربي ، وأفعل ما يأمرني به ، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس: 15] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(103/464)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لاَ يَأْتُونَ ﴾ : فيه وجهان ، أظهرهما : أنه جوابٌ للقسم الموطَّأ له باللام .

والثاني : أنه جواب الشرط ، واعتذروا به عن رفعِه بأنَّ الشرطَ ماضٍ فهو كقوله :

3103- وإنْ أتاه خليلٌ يومَ مسألةٍ . . . يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حِرِمُ

واستشهدوا عليه بقولِ الأعشى :

3104- لِئِنْ مُنِيْتَ بنا عن غِبِّ معركةٍ . . . لا تُلْفِنا مِنْ دماءِ القومِ نَنْتَفِلُ

فأجاب الشرطَ مع تقدُّمِ لامِ التوطئة ، وهو دليلٌ للفراء ومَنْ تبعه على ذلك . وفيه رَدٌّ على البصريين ، حيث يُحَتِّمون جوابَ القسمِ عند عدمِ تقدُّمِ ذي خبرٍ .

وأجاب بعضهم بأنَّ اللامَ في البيت ليست للتوطِئةِ بل مزيدةٌ ، وهذا ليس / بشيء لأنه لا دليلَ عليه . وقال الزمخشري : " ولولا اللامُ الموطِّئة لجاز أن يكونَ جواباً للشرط كقولِه :

3105- . . . . يقولُ لا

غائبٌ . . . .

لأنَّ الشرطَ وقع ماضياً . وناقشه الشيخُ : بأنَّ هذا ليس مذهبَ سيبويه ولا الكوفيين والمبرد ؛ لأنَّ مذهب سيبويه في مثِله أن النيةَ به التقديمُ ، ومذهبَ الكوفيين والمبرد أنه على حذف الفاء ، وهذا مذهبٌ ثالثٌ قال بعضُ الناس .

قوله : ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ جملةٌ حاليةٌ ، وقد تقدَّم تحقيق هذا ، وأنه كقولِه عليه السلام " أَعطُوا السائل ولو جاء على فرس " و " لبعض " متعلِّقٌ ب " ظَهِير " .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ : مفعولُه محذوف . وقيل : " مِنْ " زائدة في ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ وهو المفعولُ ، قاله ابن عطية وهو مذهبُ الكوفيين والأخفش .

وقرأ الحسن " صَرَفْنا " بتخفيفِ الراء ، وقد تقدَّم نظيره .

قوله : ﴿ إِلَّاَ كُفُوراً ﴾ مفعولٌ به ، وهو استثناءٌ مفرغ لأنه في قوة : لم يَفْعلوا إلا الكُفور .

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (90) ﴾

قوله تعالى : ﴿ حتى تَفْجُرَ ﴾ : قرأ الكوفيون " تَفْجُرَ " بفتح التاء وسكونِ الفاء وضمِّ الجيم خفيفةً ، مضارعَ " فَجَر " . والباقون بضمِّ التاءِ وفتحِ الفاء وكسرِ الجيم شديدةً ، مضارع فَجَّر للتكثير . ولم يختلفوا في الثانية أنها بالتثقيلِ للتصريح بمصدرها . وقرأ الأعمش " تُفْجِرَ " بضمِّ التاءِ وسكونِ الفاء وكسر الجيم خفيفةً ، مضارعَ أَفْجر بمعنى فَجَرَ ، فليس التضعيفُ ولا الهمزةُ مُعَدِّيَيْن .

و" يَنبوعاً " مفعولٌ به ، ووزنه يَفْعُول لأنَّه مِنْ النَّبْع ، واليَنْبُوعُ : العَيْنُ تفورُ من الأرض .

أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91)

قوله تعالى : ﴿ خِلالَهَا ﴾ نصبٌ على الظرفِ ، وتقدَّم تحقيقُه أول السورة .

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ﴾ : العامَّةُ على إسناد الفعل للمخاطب . و " السماءَ " مفعولٌ

بها . ومجاهد على إسنادِه إلى " السماء " فَرَفْعُها به .

قوله : "كِسْفاً " قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وعاصمٌ هنا بفتح السين ، وفَعَل ذلك حفصٌ في الشعراء وفي سبأ . والباقون بسكونها في المواضعِ الثلاثةِ . وقرأ ابن ذكوان بسكونها في الروم بلا خلافٍ ، وهشامٌ عنه الوجهان ، والباقون بفتحها .

(105/464)

فمَنْ فتح السينَ جعله جمعَ كِسْفة نحو : قِطْعَة وقِطَع ، وكِسْرة وكِسَر ، ومَنْ سَكَّن جعله جمع كِسْفَة أيضاً على حَدّ سِدْرة وسِدْر ، وقَمْحة وقَمْح .

وجوَّز أبو البقاء فيه وجهين آخرين ، أحدُهما : أنه جمعٌ على فَعَل بفتح العينِ ، وإنما سُكِّن تخفيفاً ، وهذا لا يجوز لأنَّ الفتحة خفيفةٌ يحتملُها حرفُ العلة ، حيث يُقَدَّر فيه غيرُها فكيف بالحرف الصحيح ؟ . قال : " والثاني : أنه فَعْل بمعنى مَفْعول "كالطَّحْن بمعنى مَطْحون ، فصار في السكون ثلاثة أُوجهٍ .

وأصل الكَسْفِ القَطْع . يقال : كَسَفْتُ الثوبَ قطعتُه . وفي الحديثِ في قصة سليمان مع الصافنات الجياد : أنه "كَسَفَ عراقيبها " أي : قطعها . وقال الزجاج "كَسَفَ الشيء بمعنى غَطَّاه " . وقيل : ولا يُعرفُ هذا لغيرِه .

وانتصابُه على الحال، فإنْ جَعَلْناه جمعاً كان على حَذْفِ مضافٍ، أي: ذات كِسَفٍ، وإنْ جعلناه فِعْلاً بمعنى مَفْعول لم يَحْتَج إلى تقدير، وحينئذ فيقال: لِمَ لَمْ يؤنَّث؟ ويجاب: بأنَّ تأنيثَ السماء غيرُ حقيقي، أو بأنها في معنى السقف.

قوله: "كما زَعَمْتَ" نعتٌ لمصدرٍ محذوف، أي: إسقاطاً مثلَ مَزْعُومِك، كذا قدَّره أبو البقاء.

قوله: "قَبِيْلاً" حالٌ من "الله والملائكة" أو مِنْ أحدِهما، والآخرُ محذوفةٌ حالُه، أي: بالله قبيلاً والملائكةِ قبيلاً. كقوله:

3106- . . . . كنتُ منه ووالدي . . . بريئاً . . . . . .

. . . .

[وكقولِه]

3107- . . . . فإنِّي وقَيَّارٌ بها

لغريبُ

ذكرَه الزمخشريُّ، هذا إذا جَعَلْنا "قبيلاً" بمعنى كفيلاً، أي: ضامِناً، أو بمعنى معايَنة كما قاله الفارسيُّ. وإنْ جعلناه بمعنى جماعة كان حالاً من "الملائكة".

وقرأ الأعرج "قِبَلاً" من المقابلة.

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أَوْ ترقى ﴾ : فعل مضارعٌ منصوبٌ تقديراً، لأنه معطوفٌ على "تَفْجُّرَ"، أي: أو حتى تَرْقَى في السماء، أي: في معارجها، والرُّقِيُّ: الصُّعودُ. يقال: رَقِي بالكسرِ يَرْقى بالفتح رُقِيّاً على فعول، والأصل رُقُوْي، فَأُدْغم بعد قلبِ الواو ياءً، ورَقْياً بزنة ضَرْب. قال الراجز:

3108- أنتَ الذي كلَّفْتني رَقْيَ الدَّرَجْ . . . على الكَلالِ والمَشِيْبِ والعَرَجْ

قوله: "نَقْرَؤُه" يجوز فيه وجهان، أحدهما: أن يكون نعتاً ل "كتاباً". والثاني: أن يكونَ [حالاً] مِنْ "ن" في "علينا" قاله أبو البقاء، وهي حالٌ مقدرةٌ، لأنهم إنما يقرؤونه بعد إنزاله لا في حال إنزاله.

قوله: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ ﴾ قرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامر "قال" فعلاً ماضياً إخباراً عن الرسولِ عليه السلام بذلك، والباقون "قُلْ" على الأمر/ أمراً منه تعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم بذلك، وهي مرسومةٌ في مصاحف المكيين والشاميين: "قال" بألف، وفي مصاحِفِ غيرِهم "قُلْ" بدونها، فكلٌ وافق مصحفَه.

قوله: ﴿ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ "بشراً" خبرَ "كنتُ" و "رسولاً" صفتَه،

ويجوز أن يكون " رسولاً " هو الخبر ، و " بَشَرًا " حالٌ مقدمةٌ عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 406.412 ﴾

(107/464)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) ﴾

سائر الأنبياء معجزاتهم باقيةٌ حُكْماً ، ونبيُّنا - صلى الله عليه وسلم - معجزته باقيةٌ عيناً ، وهي القرآن الذي نتلوه ، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِنْ خَلْفِه .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89) ﴾

لا شيءَ أَحْظَى عند الأحباب من كتاب الأحباب ، فهو شفاء من داء الضنى ، وضياء لأسرارهم عند اشتداد البَلاَ ، وفي معناه أنشدوا :

وكتبك حولي لا تفارق مضجعي . . . وفيها شفاء للذي أنا كاتم

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) ﴾

اقترحوا الآيات تعد إزاحة العِلَة وزوالِ الحاجة، فَركَضُوا في مضمارِ سوءِ الأدب، وحُرِموا الوُصْلة والقُربة. ولو أُجيبوا إلى ما طلبوا ما ازدادوا إلا جُحْدًا ونَكرةً، وقد قيل:

إنَّ الكريمَ إذا حباك بودّه... سَتَرَ القبيحَ وأظهر الإحسانا

وكذا الملولُ إذا أراد قطيعةً... مَلَّ الوصالَ وقال كان وكانا

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾: قل يا محمد: سبحان ربي! مِنْ أين لي الإتيان بما سألتم من جهتي؟ فهل وَصْفِي إلا العبودية؟ وهل أنا إلا بَشَرٌ؟ قال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ [النساء: 172]. انتهى انتهى. اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 368. 389 ﴾

(108/464)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة:

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) ﴾

التفسير: لما عدد في الآيات المتقدمة أقسام نعمه على بني آدم وشرح أحوال السعداء أردفه

بما يجري مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس الأشقياء . عن ابن عباس في رواية عطاء أن وفد ثقيف قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب ، لا نعشر - أي لا تؤخذ عشور أموالنا - ولا نحشر ولا نجبي في صلاتنا أي لا نسجد ، وكل رباً لنا فهو لنا ، وكل رباً علينا فهو موضوع عنا ، وأن تمتعنا باللات سنة ولا نكسرها بأيدينا عند رأس الحول ، وأن تمنع من قصد وادينا وجّ فعضد شجره فإذا سألتك العرب لم فعلت ذلك ؟ فقل : إن الله أمرني به وجاؤا بكتابهم فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لثقيف لا يعشرون ولا يحشرون فقالوا : ولا يجبون ، فسكت رسول الله ثم قالوا للكاتب : اكتب " ولا يجبون " والكاتب ينظر إلى رسول الله . فقام عمر بن الخطاب فسل سيفه وقال : أسعرتم قلب نبينا يا معشر ثقيف أسعر الله قلوبكم ناراً . فقالوا : لسنا نكلمك إنما نكلم محمداً . وقال عمر : أما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عن الكلام كراهية لما تذكرونه فأنزل الله الآية . وهذه القصة وقعت بعد الهجرة فلهذا قال المفسرون إنها ليست بمكية . وروي أن قريشاً قالوا له اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة فنزلت . وقال الحسن : إن الكفار أخذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة فقالوا : كف يا محمد عن ذم آلهتنا وشتمها ، ولو كان ذلك حقاً كان فلان وفلان بهذا الأمر أحق منك .

فوقع في قلب رسول الله أن يكف عن شتم آلهتهم . وعن سعيد بن جبير أنه صلى الله عليه وسلم كان يستلم الحجر فتمنعه قريش ويقولون : لا ندعك حتى تستلم بآلهتنا فوقع في نفسه أن يفعل ذلك مع كراهية فنزلت . قال القفال : من المعلوم أن المشركين كانوا يسعون في إبطال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقصى ما يقدرون عليه ، فتارة كانوا يقولون : لو عبدت آلهتنا عبدنا آلهك فنزلت : ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ﴾ [الكافرون : 1 ، 2] وقوله : ﴿ ودّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ [القلم : 9] وتارة عرضوا عليه الأموال الكثيرة والنسوان الجميلة ليترك ادعاء النبوة فنزلت ﴿ ولا تمدّن عينيك إلى ما متعنا ﴾ [طه : 131] وأخرى دعوه إلى طرد المؤمنين فنزل : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ [الأنعام : 52] وكل ذلك دليل على أنهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه ويزيلوه عن منهجه . فلو لم يكن شيء من الروايات المذكورة موجوداً لكان للآية محمل صحيح . والمعنى وإن الشأن قاربوا أن يخدعوك فاتنين . وأصل الفتنة الاختبار ومنه فتن الصائغ الذهب ثم استعمل في كل من أزال الشيء عن حده وجهته ، وذلك في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن وافتراء على الله من تبديل الوعد بالوعيد وغير ذلك ﴿ وإذا لاتخذوك ﴾ أي لو اتبعت مرادهم لاتخذوك ﴿ خليلاً ﴾ ولكنت لهم ولياً وخرجت من ولايتي ﴿ ولولا أن ثبتناك ﴾ لولا تثبيتنا وعصمتنا لك ﴿ لقد كدت تركن إليهم ﴾

لقاربت أن تميل إلى مرادهم ﴿ شيئاً قليلاً ﴾ أي ركوناً قليلاً. قال ابن عباس: يريد حيث سكت عن جوابهم.

قال قتادة: لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم: "اللَّهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين." ثم توعده في ذلك أشد الوعيد فقال: ﴿ إذا لأذقناك ﴾ أي لو قاربت أن تركن إليهم أدنى ركون لأذقناك ﴿ ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ أي عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. والضعف عبارة عن ضم الشيء إلى مثله. وقال صاحب الكشاف: المراد عذاب الممات وهو عذاب القبر، وعذاب الحياة وهو عذاب حياة الآخرة أي عذاب النار. والعذاب يوصف بالضعف كقوله: ﴿ فزده عذابا ضعفاً في النار ﴾ [ص: 61] بمعني مضاعفاً فكان أصل الكلام عذاباَ ضعفاً في الحياة الدنيا وعذاباً ضعفاً في الممات، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، ثم أضيفت الصفة كإضافة الموصوف فقيل: ضعف الحياة وضعف الممات كما لو قيل: لأذقناك أليم الحياة وأليم الممات. وقال التفسير الكبير: حاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون إليه همك لاستحققت تضعيف العذاب عليك في الدنيا والآخرة، ولصار عذابك مثلي

عذاب المشرك في الدنيا ومثلي عذابه في الآخرة . والسبب في تضعيف هذا العذاب أن أقسام نعم الله تعالى في حق الأنبياء أكثر فكانت ذنوبهم وكذا عقوبتهم أعظم نظير

﴿ يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ [الأحزاب : 30] ثم إن إثبات الضعف لا يدل على نفي الزائد عليه لأن دليل الخطاب لا حجة فيه فقد يرتقى الضعف إلى ما لا حد له كما جاء في الحديث : " من سن سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " ﴿ ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴾ يعني لو أذقناك ذلك لم تجد أحداً يخلصك من عذابنا . واعلم أن القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها . والتهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها فلا يلزم من الآية طعن في عصمة النبي صلى الله عليه وسلم . وفيه أنه لا عصمة من المعاصي إلا بتوفيق الله وتثبيته على الحق . وقالت المعتزلة : المراد بهذا التثبيت الألطاف الصارفة عن ذلك وهي ما أخطر الله بباله من ذكر وعده ووعيده كونه نبياً من عنده . وأجيب بأنه لو لم يوجد المقتضى للإقدام على ذلك الفعل المحذور لم يكن إلى إيجاد المانع حاجة ، وليس ذلك المقتضي إلا القدرة مع

الداعي ولا ذلك المانع إلا داعية أخرى معارضة للداعي الأول وقد أوجدها الله تعالى عقيب ذلك.

(112/464)

ثم ذكر طرفاً آخر من مكايدهم فقال: ﴿ وإن كادوا ليستفزونك ﴾ "إن" مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة كما في الآية الأولى ومعنى ﴿ ليستفزونك ﴾ ليزعجونك كما مر في قوله: ﴿ واستفزز ﴾ [الآية: 64] والأرض إما أرض مكة، كما قال قتادة ومجاهد ويرد عليه أن "كاد" للمقاربة لا للحصول لكن الإخراج قد حصل قوله: ﴿ وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك ﴾ [محمد: 13] ويمكن أن يقال: إنهم هموا بإخراجه ولكن الله منعهم من ذلك حتى هاجر بأمر ربه، فأطلق الإخراج على إرادة الإخراج مجوزاً يؤيده قوله: ﴿ وإذا لا يلبثون ﴾ وهو معطوف على ﴿ يستفزونك ﴾ أي لا يبقون بعد إخراجك إلا زماناً قليلاً أي لو أخرجوك لاستؤصلوا لكنه لم يقع الاستئصال فدل ذلك على عدم وقوع الإخراج. ومن جوز وقوع الإخراج قال: المراد بعدم اللبث أنهم أهلكوا ببدر بعد إخراجه بقليل. واما أرض المدينة على ما روي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم وقالوا: يا

أبا القاسم إن الأنبياء بعثوا بالشام وهي بلاد مقدسة وكانت مهاجر إبراهيم ، فلو خرجت إلى الشام لآمنا بك واتبعناك . وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم ، فإن كنت رسول الله فالله مانعك منهم فعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أميال من المدينة أو بذي الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازماً على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس في دين الله فنزلت الآية فرجع .

وعلى هذا القول تكون هذه الآية أيضاً مدنية ، والخلاف في معنى الخلف كما مر في قوله : ﴿ بمقعدهم خلاف رسول الله ﴾ [التوبة : 81] وقرىء : ﴿ وإذا لا يلبثوا ﴾ بحذف النون على إعمال " إذن " فتكون الجملة برأسها معطوفة على جملة قوله : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك ﴾ . ثم بين أن عادته تعالى جارية بأن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم فإنه يهلكهم ﴿ فقال سنة من قد أرسلنا ﴾ وهو منصوب على المصدر المؤكد أي سن الله ذلك سنة ﴿ ولا تجد لسنتنا تحويلاً ﴾ لأن الأسباب الكلية في الأزل اقتضت توزع كل من أجزاء الزمان على حادث معين بسبب معين ، فتبيدل إحدى الحوادث وتحويلها إلى وقت آخر يقتضي تغيير الأسباب عن أوضاعها وهو محال عقلاً وعادة .

وقال أهل النظم : لما قرر الإلهيات والمعاد والجزاء أردفها بذكر أشرف الطاعات وهي الصلاة. وأيضاً لما قال : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك ﴾ أمره بالاشتغال بعبادته تفويضاً للأمور إلى الله وتعويلاً على فضله في دفع شر أعدائه نظيره قوله في سورة طه : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ [طه : 130] ذهب كثير من المفسرين كابن قتيبة وسعيد بن جبير منقولاً عن ابن عباس ، أن دلوك الشمس هو غروبها . وعلى هذا لا تشمل الآية صلاتي الظهر والعصر . وأكثر الصحابة والتابعين على أن دلوك الشمس زوالها عن كبد السماء ويؤيده ما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : " أتاني جبرائيل لدلوك الشمس حين زالت الشمس فصلى بي الظهر . " قالوا : واشتقاقه من الدلك لأن الإنسان يدلك عينيه إذ ينظر إليها وهي في كبد السماء . وعلى هذا التفسير تشمل الآية جميع الصلوات الخمس . وحمل كلام الله على ما هو أكثر فائدة أولى واللام بمعنى الوقت أو للتعليل أي أدم الصلاة في هذا الوقت أو لأجل دخول هذا الوقت ﴿ إلى غسق الليل ﴾ أي ظلمته . قال الكسائي : غسق الليل غسوقاً أي أظلم ، والاسم الغسق بفتح السين والتركيب يدور على السيلان ومنه يقال : غسقت العين إذا هملت

وكأن الظلام انهمل على الدنيا وتراكم. وهذا عند سيبويه الشفق الأبيض، فاستدل به بعض الشافعية على أن أول وقت العشاء الآخرة يدخل بغروب الشفق الأحمر لأن المحدود إلى غاية يكون مشروعاً قبل حصول تلك الغاية. وهذا الاستدلال مبني على أن الغاية لا تدخل في ذي الغاية، وعلى أن الآية يجب أن تشمل جميع الصلوات، وللخصم المنع في المقامين. ثم إن المفسرين أجمعوا على أن المراد بقرآن الفجر هو صلاة الصبح تسمية للشيء ببعض أجزائه، ومثله تسمية الصلاة ركوعاً وسجوداً وقنوتاً. قال جار الله: إنه حجة علي ابن علية والأصم في زعمهما أن القراءة ليست بركن.

(115/464)

قلت: أجزاء الصلاة أعم من أركانها ولهذا قسمت الفقهاء الصلاة إلى أركان وأبعاض وهيئات فلا يتم هذ الاعتراض.

وفي الآية مسائل: الأولى: استدل بعض الشيعة بها على جواز الجميع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء مطلقاً. وأجيب بأن الآية مخصوصة بفعل الرسول أو بقوله: "صلوا كما رأيتموني أصلي" ويستثنى منه عذر السفر والمطر لعدم الدليل المخصص في تلك الصورة فلزم إبقاؤها على الجواز الأصلي.

الثاني: استدل بعض الشافعية بها على أن التغليس في صلاة الصبح أفضل من التنوير لوجوه منها: أنه أضاف القرآن إلى الفجر والتقدير: أقم قرآن الفجر. وظاهر الآية للوجوب فلا أقل من الندب حتى لا تكثر مخالفة الدليل. والفجر انفجار ظلمة الليل فيلزم أن تكون إقامة الفجر في أول الوقت أفضل. ومنها أنه خص الفجر بإضافة القراءة إليه فدل ذلك على أن طول القراءة في هذه الصلاة مطلوب، ولن يتم هذا المطلوب إلا إذا شرع في أدائه في أول الوقت، ومنها أنه وصف قرآن الفجر بكونه مشهوداً فقيل: أي يشهده الكثير من المصلين في العادة، أو من حقه أن يكون مشهوداً بالجماعة الكثيرة. وقال أكثر المفسرين: معناه أن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون في صلاة الصبح تنزل هؤلاء وتصعد هؤلاء في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار. وقيل: إنهم يجتمعون خلف الإمام تنزل ملائكة النهار عليهم وهم في صلاة الصبح قبل أن تعرج ملائكة الليل. فإذا فرغ الإمام من صلاته عرجت ملائكة الليل ومكثت ملائكة النهار. ثم إن ملائكة الليل إذا صعدت قالت: يا رب إنا تركنا عبادك لك، وتقول ملائكة النهار: ربنا لقينا عبادك وهم يصلون. فيقول الله لملائكته: اشهدوا فإني قد غفرت لهم. والغرض أن المكلف إذا شرع في صلاة الصبح في

آخر الظلمة الذي هو أول الفجر كانت ملائكة الليل حاضرين بعد . ثم إذا امتدت هذه الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة بالكل أو بالأكثر وحضرت ملائكة النهار ، وهذا المعنى لا يحصل إذا ابتدىء بها وقت التنوير . قال أهل التحقيق : إذا شرع في صلاة الصبح في أول وقتها شاهد في أثنائها انقلاب العالم من الظلمة – التي هي نظيره الموت – إلى الضياء الذي هو نظير الحياة ، فإنه يفيء عقله من هذه الحالة إلى عجيب صنع الخلاق المدبر للأنفس والآفاق ، فيزداد بصيرة وإيقاناً ومعرفة وإيماناً ، وتنفتح عليه أبواب المكاشفة والمشاهدة . وإذا كان هذا المعنى في الجماعة

الكثيرة صارت نفوسهم كالمرايا المشرقة المتقابلة المتعاكسة أضواؤها الواقعة على كل منها ، فيزداد كل منهم نورية وبهاء . فيحتمل أن يكون قوله : ﴿ مشهوداً ﴾ إشارة إلى هذه الأحوال المشاهدة . ولا ريب أنه إذا شرع في الصلاة أول انتباهه من النوم قبل أن يرد على لوح عقله وفكره النقوش الفاسدة من الأمور الدنيوية الدنية ، كان أولى فإن الأنبياء ما بعثوا إلا لإزالة مثل هذه الأمراض عن النفوس .

ثم حث على قيام الليل فقال : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ قال أبو عبيدة وابن الأعرابي : هذا من الأضداد لأنه يقال : هجد الرجل إذا نام وهجد أيضاً إذا صلى من الليل ، وبوسط الأزهري فقال : الهجود في الأصل هو النوم بالليل ، ولكن تاء التفعل فيه لأجل التجنب به ومنه " تأثم " " وتحرج " وإذا ألقى الإثم والحرج عن نفسه . فكأن به المتهجد يدفع الهجود عن نفسه . وبوجه آخر لما كان غرض المصلي بالليل أن يطيب رقاده وهجوده بعد الموت سمي بذلك الاعتبار متهجداً . وربما يقال : سمي تهجداً لأن الأصل فيه أن يرقد ثم يصلي ثم يرقد ثم يصلي ، فهو صلاة بعد رقاد كما كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولداود كما جاء في الحديث : " أفضل القيام قيام داود كان ينام ثلثه ويقوم سدسه ثم ينام ثلثه ويقوم سدسه " قال جار الله : معنى ﴿ ومن الليل ﴾ وعليك بعض الليل ﴿ فتهجد به ﴾ وقال في التفسير الكبير : تقديره وأقم الصلاة في بعض الليل فتهجد به أي بالقرآن ومعنى نافلة زائدة كما مر في أول " الأنفال " . ثم من ذهب إلى أن صلاة الليل كانت واجبة على النبي صلى الله عليه وسلم . زعم أن معناها كونها فريضة له زائدة على الصلوات الخمس ، أو المراد أن فرضيتها نسخت عنك فصارت تطوعاً زائدة على الفرائض . ويرد عليه أن الأمر ظاهره الوجوب فيكون بين قوله : ﴿ فتهجد ﴾ وبين قوله ﴿ نافلة ﴾ تعارض ، وكذا الاعتراض على قول من يقول إن صلاة الليل لم تكن واجبة

عليه . ويمكن أن يجاب عنه بأن قوله : ﴿ نافلة ﴾ قرينة صارفة للوجوب إلى الندب .

وعن مجاهد والسدي أن كل طاعة يأتي بها النبي سوى المكتوبة فإن تأثيرها لا يكون في كفارة الذنوب لأنه غفر له ذنبه ما تقدم منه وما تأخر ، وإنما تكون مؤثرة في زيادة الدرجات وكثرة الثواب ولا كذلك حال الأمة فكأنه قيل للنبي : إن هذه الطاعات زوائد ونوافل في حقك لا في حق غيرك ، لأن غيرك يحتاج إليها في تكفير السيئات ومن تقييد التهجد بقوله : ﴾

(119/464)

نافلة لك ﴾ يعلم أن قوله : ﴿ أقم الصلاة ﴾ عام له ولكل أمته وإن كان ظاهره خطاباً معه .

ثم وعده على إقامة الفرائض والنوافل بقوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك ﴾ ولا ريب أن " عسى " من الكريم أطماع واجب قال في الكشاف : انتصب ﴿ مقاماً محموداً ﴾ على الظرف أي عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاماً محموداً ، أو ضمن يبعثك معنى يقيمك ، أو هو حال أي يبعثك ذا مقام محمود ، وقيل : إنه مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات .

والأولى أن يخص ذلك بالشفاعة لأنه الحمد إنما يكون بإزاء إنعام ولا إنعام للنبي على أمته في الآخرة إلا إنعام الشفاعة ، أو لا إنعام أجل منها لأن السعي في تخليص الغير من العقاب أهم من السعي في إيصال الثواب إليه ، ويؤيده رواية أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : " هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي . " وأما ما روى عن حذيفة أن المقام المحمود هو أن يجمع الناس في صعيد واحد ولا تتكلم نفس ، فأول مدعو محمد فيقول : لبيك وسعديك والشر ليس إليك ، والمهدي من هديت وعبدك بين يديك وبك وإليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت . فليس بقوي لأن هذا القول من محمد لا يوجب حمداً له من أمته إلا أن يكون من مقامات الشفاعة فيرجع إلى الأول . وقيل : أراد مقاماً تحمد عاقبته . وروى الواحدي عن ابن مسعود أن ذلك حين يقعد محمد معه على العرش وزيف بلزوم التحيز له تعالى . قوله : ﴿ مدخل صدق ﴾ و ﴿ مخرج صدق ﴾ مصدران بمعنى الإدخال والإخراج ، والإضافة إلى الصدق لأجل المبالغة نحو " حاتم الجود " أي إدخالاً يستأهل أن يسمى إدخالاً ولا يرى فيه ما يكره . قال الحسن وقتادة : نزلت حين أمر بالهجرة يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة ، وقيل : إن اليهود لما قالوا له اذهب

إلى الشام فإنه مسكن الأنبياء وعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذهاب إليه فكأنه قيل له المعبود واحد في كل البلاد ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ فداوم على الصلاة وارجع إلى مقرك ومسكنك . ﴿ وقل رب أدخلني ﴾ في المدينة ﴿ مدخل صدق وأخرجني ﴾ منها إلى مكة ﴿ مخرج صدق ﴾ أي افتحها لي فعلى هذين القولين يكون الكلام عوداً إلى الواقعة المذكورة في قوله ﴿ وإن كادوا ليستفزونك ﴾ والأولى أن يقال إنه عام في كل ما يدخل فيه ويلابسه ثم يتركه من أمر ومكان . وقيل : أراد إدخاله مكة ظاهراً عليها الفتح وإخراجه منها آمناً من المشركين . وقيل : إدخاله الغار وإخراجه منه

(121/464)

سالماً . وقيل : إدخاله فيما حمله من عظيم الأمر وهو النبوّة ، وإخراجه منه مؤدياً لما كلفه من غير تفريط . وقيل : أراد رب أدخلني الصلاة وأخرجني منها مع الصدق والإخلاص والقيام بلوازم الحضور ، أو أدخلني في مجاري دلائل التوحيد وأخرجني من الاشتغال بالدليل إلى ضياء معرفة المدلول . وقال صاحب الكشاف : أدخلني القبر إدخالاً مرضياً وأخرجني منه عند البعث ملقى بالكرامة . يدل على هذا التفسير ذكره على أثر ذكر البعث ﴿ واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ حجة ظاهرة تنصرني بها جميع من

خالفني أو ملكاً وعزاً ناصراً للإسلام وذويه .

ثم شرفه باستجابة دعائه بقوله : ﴿ وقل جاء الحق ﴾ أي الإسلام ﴿ وزهق الباطل ﴾ اضمحل الشرك من زهقت نفسه إذا خرجت ﴿ إن الباطل كان زهوقاً ﴾ غير ثابت في كل وقت وإن اتفقت له دولة وصولة كانت كنار العرفج .

عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة يوم الفتح وحول البيت ثلثمائة وستون صنماً لقبائل العرب . صنم كل - قوم بحيالهم - فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل . فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعاً وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة - وكان من قوارير صفر - فقال : يا علي ارم به . فحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد فرمى به فكسره ، فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون : ما رأينا رجلاً أسحر من محمد فلا جرم كذبهم الله وصدق نبيه بقوله : ﴿ وننزل من القرآن ﴾ " من " للبيان كقوله : ﴿ من الأوثان ﴾ [الحج : 30] أو للتبعيض أي ننزل ما هو شفاء . وهو هذا القرآن أو بعض هذا الجنس . وقيل : زائدة ولما كانت إزالة المرض مقدمة على السعي في تكميل موجبات الصحة ذكر كون القرآن شفاء من الأمراض الروحانية كالعقائد

الفاسدة والأخلاق الذميمة ومن الأمراض الجسمانية أيضاً لما في قراءته من التيمن والبركة وحصول الشفاء للمرض كما قال صلى الله عليه وسلم : " من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله " ثم بين أنه رحمة للمؤمنين لما فيه من كيفية اقتناص العلوم الجليلة والأخلاق الفاضلة التي بها يصل الإنسان إلى جوار الملائكة المقرّبين بل إلى جناب رب العالمين ، ولما كان قبول القابل شرطاً في ظهور الأثر من الفاعل فلاجرم ﴿ لا يزيد ﴾ القرآن ﴿ الظالمين ﴾ الذي وضعوا التكذيب مقام التصديق والشك موضع الإيقان والاطمئنان ﴿ إلا خساراً ﴾ لأن البدن غير النقي كلما غذوته زدته شراً فلا يزال سماع القرآن يزيد المشركين غيظاً وحنقاً ويدعوهم ذلك إلى زيادة ارتكاب الأعمال القبيحة وهلم جراً إلى أن يدفع الله مكرهم ونكرهم .

(123/464)

ثم ذكر قبح شيمة الإنسان الذي جبل عليه فقال : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان ﴾ أي على هذا الجنس بالصحة والغنى . وعن ابن عباس أنه الوليد بن المغيرة . وفي التخصيص نظر إلا أن يكون سبب النزول ﴿ أعرض ونأى بجانبه ﴾ النأي البعد ، والباء للتعدية أو للمصاحبة وهو تأكيد للإعراض ، لأن الإعراض عن الشيء هو أن يوليه عرض وجهه أي

ناحيته. والنأي بالجانب أن يلوي عن عطفه ويوليه ظهره، أو أراد الاستكبار لأن هذا الفعل من شأن المستكبرين. ومن قرأ ﴿ ناء ﴾ فإما من النوء بمعنى النهوض مستثقلاً. وإما مقلوب كقولهم: "راء" في رأى. ﴿ وإذا مسه الشر ﴾ من مرض أو فقر ﴿ كان يؤساً ﴾ شديد اليأس من روح الله. والحاصل أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوي وظفر بالمقصود الدني نسي المنعم الحقيقي، وإن فاته شيء من ذلك استولى عليه الأسف حتى كاد يتلف أو يدنف، وكلتا الخصلتين مذمومة ولا مقتضى لهما إلا العجز والطيش وكل بقدر كما قال: ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ أي كل واحد من الخلائق إنما يتيسر له أن يعمل على سيرته وطريقته التي تشاكل حاله التي جبل عليها من قولهم "طريق ذو شواكل" وهي الطرق التي تتشعب منه.

﴿ فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ﴾ لأنه الذي خلق كل شيء ورباه وهو عالم بخاصية كل نفس وبمقتضى جوهرها المشرق، أو المظلم سواء قلنا إن النفوس مختلفة بالماهيات، أو هي متساوية الحقائق واختلاف أحوالها لاختلاف أمزجة أبدانها، كما أن الشمس تعقد الملك وتلين الدهن وتبيض ثوب القصار وتسود وجهه.

ولما انجر الكلام إلى ذكر الإنسان وما جبل هو عليه لزم البحث عن ماهية الروح فلذلك قال : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ ذكر المفسرون في سبب نزوله أن اليهود قالوا لقريش : سلوا محمداً عن ثلاث : عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح. فإن أجاب عن الأولين وأبهم الثالثة فهو نبي لأن ذكر الروح مبهم في التوراة ، وإن أجاب عن الكل أو سكت فليس بنبي. فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح إذا قال : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ أي مما استأثر الله بعلمه فندموا على سؤالهم. ومن الناس من طعن في هذه الرواية لوجوه منها : أن الروح ليس أعلى شأناً من الله تعالى ، وإذا كانت معرفة الله تعالى. ممكنة بل حاصلة فما المانع من معرفة الروح : ومنها أن هذه المسألة تعرفها الفلاسفة والمتكلمون فكيف يليق بالنبي صلى الله عليه وسلم أن يقول إني لا أعرفها مع وفور علمه وكمال معرفته ؟ وكيف يصح ما روي عن ابن أبي بريدة لقد مضى النبي صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح.

ومنها أن جعل الحكاية دليلاً على النبوة غير معقول. ونحن نتقصى عن المسألة فنقول : السؤال عن الروح إما أن يكون عن حقيقته أو عن حال من أحواله ككونه متحيزاً أو غير متحيز ، أو قديماً أو حادثاً أو باقياً بعد البدن أو فانياً ، وعلى تقدير البقاء ما سعادته وشقاوته. وبالجملة فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة. وقوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ ليس فيه ما يدل على تعيين شيء من هذه المسائل ، فالأولى أن يحمل السؤال على السؤال عن الحقيقة لأن معرفة حقيقة النبي أهم وأقدم من معرفة حال من أحواله ، فيكون

قوله : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ رمز إلى أن الروح جوهر بسيط مجرد حصل بمجرد الأمر وهو قوله : ﴿ كن فيكون ﴾ [يس : 82] لأن الآية دلت على أن الروح من أمر الرب . وقال في آخر سورة يس ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس : 82] ينتج أن الروح إذا أراده فإنما يقول له كن فيكون ، ومنه يعلم أنه

شيء مغاير للأجسام المتوقعة على المادة والمدة وللأعراض الموقوفة على الأجسام ، وأنه بسيط محض وإلا لتوقف على انضمام أجزائه .

ولا يلزم من كون الروح كذلك كونه مشاركاً للباري تعالى في الحقيقة ، فإن الاشتراك في اللوازم لا يقتضي الاشتراك في الملزومات . وليس في الآية دلالة على حدوث الروح إلا بحسب الذات ، بل لمستدل أن يستدل بها على قدمه بالزمان إذا لو كان متوقفاً على الزمان لم يكن حاصلاً بمجرد الأمر والمفروض خلافه .

ولما كان أمر الروح مشتبهاً على الناس كلهم أو جلهم ختم الآية بقوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً ﴾ وذلك أن الإنسان وإن كمل علمه وكثرت معرفته بحقائق الأشياء ودقائقها فإن ما علم يكون أقل ما لم يعلم ، فإذا نسب معلومه إلى معلومات الله المشار إليها بقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ [لقمان : 27] ﴿ قل لو كان البحر مداد الكلمات ربي ﴾ [الكهف : 109] كان كلا شيء فإنه لا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي أصلاً . وقال بعض المفسرين : هو خطاب لليهود خاصة لأنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة وقد تلوت : ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾ [البقرة : 269] فقيل لهم : إن علم التوراة قليل في جنب علم الله ، وذكر الإمام فخر الدين الرازي أن قوله : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ يدل على أن الروح حادث لأن الأمر قد جاء بمعنى الفعل . قال تعالى : ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ [هود : 97] أي فعله وقال : ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ [هود : 94] أي فعلنا . وإذا حصل الروح بفعل الله وتكوينه كان من المحدثات . ثم ذكر حجة أخرى على حدوث الروح مستنبطة من قوله سبحانه : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ ووجه تقريرها أن الإنسان بل روحه في مبدأ الفطرة خال عن العلوم والمعارف ، ثم لا يزال يحصل له المعارف فهو دائماً في التبدل والتغير من النقصان إلى الكمال وكل متغير محدث . ومنع كلية هذه القضية عند الخصم مشهور على أن حمل وقت قلة العلم على أول الفطرة تخصيص من غير دليل ، مع أن ظاهر

الآية يدل على أن الإنسان وإن أوتي حظاً من العلم وافراً ، فإنه قليل بالإضافة إلى علم عالم الذات . وقيل : الروح المذكور في الآية هو القرآن الذي تسبب لحياة الروح كأن القوم استعظموا أمره فسألوا إنه من جنس الشعر أو من جنس الكهانة فأجابهم الله تعالى بأنه ليس من جنس كلام البشر وإنما هو كلام ظهر بأمر الله ووحيه وتنزيله .

(127/464)

وقيل : هو ملك في غاية العظم والشرف وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ [النبأ : 38] ونقل عن علي عليه السلام أن له سبعين ألف وجه ، ولكل وجه سبعون ألف لسان ، لكل لسان سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ويخلق الله من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة يوم القيامة ولم يخلق الله خلقاً أعظم من الروح غير العرش ، ولو شاء الله أن يبتلع السموات السبع والأرضين السبع بلقمة واحدة لفعل .

وأمثال هذه الروايات مسرحة إلى بقعة الإمكان ولا وجه للاعتراض عقلاً عليه . وقال الحسن وقتادة : هذا الروح جبرائيل كأنهم سألوا الرسول كيف جبرائيل في نفسه وكيف قيامه بتبليغ الوحي ؟ فأمر بأن يقول الروح من أمر ربي أن نزوله بأمر الرب كقوله : ﴿ ما

تتنزل إلا بأمر ربك ﴾ [مريم : 64] وقال مجاهد : الروح خلق ليسوا بالملائكة على صورة بني آدم لهم أيد وأرجل ورؤوس يأكلون كما يأكل الناس ، وليسوا بالناس . وزيفت هذه الأقوال بأن صرف السؤال عن الروح الإنساني الذي تتوفر دواعي العقلاء على معرفته إلى أشياء مجهولة الوجود مستنكر .

(128/464)

واعلم أن للعقلاء في حقيقة الإنسان اختلافات كثيرة ، وإذا كان حال العلم بأقرب الأشياء إلى الإنسان وهو نفسه هكذا ، فمنا ظنك بما هو الأبعد ! ولنذكر بعض تلك المذاهب فلعل الحق يلوح في تضاعيف ذلك فنقول : العلم الضروري حاصل بوجود شيء يشير إليه كل واحد بقوله " أنا " فذلك المشار إليه إما أن يكونه جوهراً مفارقاً ، أو جسماً هو هذه البنية ، أو جسماً داخلاً فيها أو خارجاً عنها أو عرضاً . أما المتكلمون فالجمهور منهم ذهبوا إلى أن الإنسان هو هذا الهيكل المحسوس ، وزيف بأن البدن دائماً في التغير والتبدل . والمشار إليه بأنا واحد من أول العمر إلى آخره ، وبأن الإنسان غير غافل عن نفسه حين ما يكون ذاهلاً عن أجزاء بدنه ، بأن النصوص الواردة في القرآن والخبر كقوله عز من قائل : ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتاً بل أحياء ﴾ [البقرة : 154] ، ﴿ يا أيتها النفس

المطمئنة ارجعي ﴾ [الفجر : 28] ﴿ النار يعرضون عليها غدواً أو عشياً ﴾ ﴿ الزمر : 46] وكقوله صلى الله عليه وسلم : " أولياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار إلى دار " " القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران " وقوله في خطبة طويلة : " حتى إذا حمل الميت على نعشه رفرف روحه فوق النعش ويقول يا أهلي ويا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي جمعت المال من حله وغير حله فالهناء لغيري والتبعة عليّ فاحذر وامثل ما حل بي " توجب مغايرة النفس للبدن ، وبأن جميع فرق الدنيا من أرباب الملل والنحل يتصدقون عن موتاهم يزورونهم ويدعون لهم بالخير ، وبأن الميت قد يرى في المنام فيخبر عن أمور غائبه وتكون كما أخبر ، وبأن الإنسان قد يقطع عضو من أعضائه ويعلم يقيناً أنه هو الذي كان قبل ذلك ، وبثبوت المسخ في حق طائفة من أهل الكتاب وليس المسخ إلا تغيير البنية مع بقاء الحقيقة ، وبأن جبرائيل قد رؤي في صورة دحية ، وإبليس رؤي في صورة الشيخ النجدي ، فعلم أن لا عبرة بالبنية ،

وبأن الزاني يزني بفرجه فيضرب على ظهره ، فعلم أن المتلذذ والمتألم شيء آخر سوى العضوين ، وبأنا نعلم ضرورة أن العالم الفاهم للخطاب إنما هو في ناحية القلب ليس جملة

البدن ولا شيئاً من الأعضاء .

أما إن قيل : الإنسان جسم هو في داخل البدن . فاعلم أن أحداً من العقلاء لم يقل بأن الإنسان عبارة عن الأعضاء الكثيفة الصلبة التي غلبت عليها الأرضية كالعظم والغضروف والعصب والوتر والرباط والشحم واللحم والجلد ، ولكن منهم من قال : إنه الجسم الذي غلب عليه المائية من الأخلاط الأربعة ، أعني الدم بدليل أنه إذا خرج لزم الموت . ومنهم من قال : إنه الذي غلب عليه الهوائية والنارية وهو الروح الذي في القلب ، أو جزء لا يتجزأ في الدماغ ، ومنهم من يقول : اختلطت بهذه الأرواح القلبية والدماغية أجزاء نارية مسماة بالحرارة الغريزية وهي الإنسان . ومنهم من قال : إذا تكوّن بدن الإنسان وتم استعداده نفذت فيه أجرام سماوية نورانية لطيفة الجوهر على طبيعة ضوء الشمس غير قابلة للتبديل والتحويل ولا للتفرق والتمزق ، نفوذاً يشبه نفوذ النار في الفحم والدهن في السمسم وماء الورد في الورد . وهذا النفوذ هو المراد بقوله : ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ [ص : 72] ثم إذا تولد في البدن من أخلاط غليظة منعت من سريان تلك الأجسام فيها ، فانفصلت لذلك عن البدن فحينئذ يعرض الموت للجوهر .

وقال الإمام فخر الدين الرازي : هذا مما ذهب إليه ثابت بن قرة وغيره وهو مذهب قوي شريف يجب التأمل فيه فإنه شديد المطابقة لما في الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت . قلت : أما نفوذ الجوهر النوري في البدن كنفوذ الدهن في السمسم فمسلم ، وأما أنه أجرام وأجسام ففيه نظر ، واعلم أنه لم يذهب أحد إلى أن الإنسان جسم خارج عن البدن ، ولا إلى أنه عرض حال في البدن إلا ما نقل عن الأطباء ، وعن أبي الحسين البصري من المعتزلة ، أن الإنسانية عبارة عن امتزاجات أجزاء العناصر بمقدار مخصوص وعلى نسبة معلومة تخص هذا الصنف . ومن شيوخ المعتزلة من قال : الإنسان عبارة عن أجزاء مخصوصة بشرط كونها موصوفة بأعراض مخصوصة هي الحياة والعلم والقدرة . ومنهم من قال : إنه يمتاز عن سائر الحيوانات بشكل جسده وهيئة أعضائه . والصحيح من المذاهب عند أكثر علماء الإسلام – كالشيخ أبي القاسم الراغب الأصفهاني والشيخ أبي حامد الغزالي ، من قدماء المعتزلة معمر بن عباد السلمي ، ومن الشيعة الشيخ المفيد رضي الله عنه ، ومن الكرامية جماعة ، ومن الفلاسفة الإلهيين كلهم – أن الروح الإنساني جوهر مجرد ليس داخل العالم الجسماني ولا خارجه ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه ، ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف كما أن إله العالم لا تعلق له بالعالم إلا على سبيل التصرف والتدبير ، ومهما انقطعت علاقته عن البدن بقي البدن معطلاً ميتاً ، واستدلوا على هذا المطلوب بحجج منها ما اختاره الإمام فخر الدين الرازي وهي لو كان الإنسان جوهراً متحيزاً لكان

كونه متحيزاً عن ذاته المخصوصة إذ لو كان صفة قائمة بها لزم كون الشيء الواحد متحيزاً مرتين ولزم اجتماع المثلين .

(131/464)

وأيضاً لم يكن جعل أحدهما ذاتاً والآخر صفة أولى من العكس . وأيضاً التحيز الثاني إن كان عين الذات فهو المقصود ، وإن كان صفة لزم التسلسل ، وإذا كان التحيز عين ذاته لزم أنه متى عرف ذاته عرف تحيزه لكنا قد نعرف ذاتنا مع الجهل بالتحيز والامتداد في الجهات الثلاث وذلك ظاهر عند الاختبار والامتحان ، وإذا كان اللازم باطلاً فالملزوم منتفٍ وعورض بأنه لو كان الإنسان جوهراً مجرداً لكان كل من عرف ذاته عرف تجرده وليس كذلك . وأجيب بالفرق بين التحيز – وهو صفة ثبوتية – وبين التجرد وهو صفة سلبية ، ومنها أن الشيء الذي يشير إليه كل واحداً بقوله : " أنا واحد " بالبديهة ، ولأن الغضب مثلاً حالة نفسانية تحدث عند محاولة دفع المنافي مشروطاً بالشعور بكون الشيء منافياً . فالذي يغضب لا بد أن يكون هو بعينه مدركاً ، ولأن اشتغال الإنسان بالغضب وانصبابه إليه يمنعه من الاشتغال بالشهوة والانصباب إليها . فعلمنا أنهما صفتان مختلفتان لجوهر واحد إذ لو كان لكل منهما مبدأ مستقل لم يكن اشتغال أحدهما بفعله مانعاً للآخر ، وأيضاً

شيئاً فقد يكون الإدراك سبباً لحصول الشهوة ، وقد يكون سبباً للغضب ، فعلمنا أن صاحب الإدراك بعينه هو صاحب الشهوة والغضب . وأيضاً النفس لا يمكنها أن تتحرك بالإرادة إلا عند حصول الداعي ولا معنى للداعي إلا الشعور بخير يرغب في جذبه أو بشر يرغب في دفعه ، وهذا يقتضي أن المتحرك بالإرادة هو بعينه المدرك للخير والشر واللذيذ والمؤذي والنافع والضار ، وهو المبصر والسامع والشام والذائق واللامس والمتخيّل والمتفكر والمشتهي والغاضب بوساطة آلات مختلفة وقوى متغايرة . وإذا ثبت ذلك فلو كانت النفس عبارة عن جملة البدن كان للكل أثر واحد ، ولو كانت جزءاً من أجزاء البدن كانت قوة سارية في جميع أجزاء البدن ، والوجود بخلاف الكل فحصل اليقين بأن النفس شيء مغاير لكل البدن ولكل جزء من أجزائه . ومنها أن الاستقراء يدل على أحوال النفس

بالضد من أحوال الجسد لأن الجسم إذا قبل شكل التثليث مثلاً امتنع أن يقبل حينئذ شكل التربيع ولا كذلك حال النفس ، فإن إدراك كل صورة يعينها على إدراك ما عداها ولذلك يزداد الإنسان فهماً وذكاء بازدياد العلوم . وأيضاً كثرة الأفكار توجب قوة للنفس

وتستدعي استيلاء النفس على الدماغ وقد تصير أبدان أرباب الرياضة في غاية النحافة والهزال وتقوى نفوسهم بحيث لا يلتفتون إلى السلاطين وأصحاب الشوكة والقوة ، ومما يختص بهذه الآية التي نحن في تفسيرها أن الروح لو كان جسماً منتقلاً من حالة إلى حالة لكان مساوياً للبدن في كونه متولداً من أجسام متغيرة من صفة إلى صفة ، فحيث سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح كان الأنسب أن يقول : إنه جسم كان كذا ثم صار كذا وكذا كما ذكر في كيفية تولد البدن أنه كان نطفة ثم صار علقة ثم مضغة إلى آخره .

والأحاديث الواردة في أن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد تؤكد ذلك الرأي الذي ادعينا من أن النفس شيء مغاير للبدن ولأجزائه والله أعلم بحقائق الأمور .

(133/464)

قال أهل النظم : لما بين أنه ما أتاهم من العلم إلا القليل أراد يبين أنه لو شاء أن يأخذ منهم ذلك القليل لقدر عليه فقال : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ﴾ قلت : في نسبة علم القرآن إلى القلة خروج من الأدب فالأولى في وجه النظم أن يقال : إنه لما كشف لهم الغطاء عن مسألة الروح ، وبين أن ذلك من العلوم الإلهية التي لا نهاية لها لا من العلوم

الإنسانية القليلة ، وكان فيه بيان كمال علمه تعالى ونقصان علم الإنسان ، أراد أن يبين غاية قدرته ونهاية ضعف الإنسان أيضاً فبين أنه قادر على ذهاب القرآن ونحوه عن الصدور والمصاحف ، وسيكون ذلك في آخر الزمان كما جاء في الروايات ثم لا يجد النبي – الذي هو أكمل أنواع الإنسان – من يتوكل عليه باسترداده فضلاً عن غيره ﴿ إلاَّ رحمة من ربك ﴾ استثناء متصل أي إلا أن يرحمك بربك فيرده عليك كأن رحمته تتوكل عليه بالرد ، أو منقطع معناه ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به ﴿ إن فضله ﴾ بإيحاء القرآن إليك ثم إبقائه عليك أو بهذا وبسائر الخصائص والمزايا ﴿ كان عليك كبيراً ﴾ وفيه أن نعمة القرآن وبقاءه محفوظاً في الصدور مسطوراً في الدفاتر من أجلّ النعم وأشرفها ، فعلى كل ذي علم أن لا يغفل عن شكرها والقيام بمواجبها جعلنا الله ممن يراعي حق القرآن ويعمل بمقتضاه . واحتج الكعبي بالآية على أن القرآن مخلوق لن ما يمكن إزالته والذهاب به يستحيل أن يكون قديماً ، وأجيب بأن إزالة العلم عن القلوب والذهاب بالنقوش الدالة عليه في المصاحف لا يوجب حدوث الكلام النفسي الذي هو محل النزاع . ثم دل على أن الذي أوحى إليه ليس من جنس كلام المخلوقين فقال : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن ﴾ الآية . وقد مرّ وجه إعجاز القرآن في أوائل سورة البقرة . فإن قيل : هب أنه ظهر عجز الإنسان عن معارضته فكيف يعرف عجز الجن عن معارضته ، ولم لا يجوز أن يقال : إن الجن أعانوه على هذا التأليف سعياً في إضلال الخلق ؟ وإخبار محمد بأنه

ليس من كلام الجن يوجب الدور وليس لأحد أن يقول : إن الجن ليسوا بفصحاء ، فكيف يعقل أن يكون القرآن كلامهم لأنا نقول : التحدي مع الجن إنما يحسن لو كانوا فصحاء ؟ فالجواب أن عجز البشر عن معارضته يكفي في إثبات كونه معجزاً .

ثم إن الصادق لذي ثبت صدقه بظهور المعجز على وفق دعواه أخبر أن الجن أيضاً عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن فسقط السؤال بالكلية . على أنه سبحانه قد أجاب عنه في آخر سورة الشعراء بقوله : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ﴾ [الشعراء : 221] وسوف يجيء تفسيره إن شاء الله تعالى . قالت المعتزلة : التحدي بالقديم محال . وأجيب بمثل ما مر أن محل النزاع هو الكلام النفس لا الألفاظ التي يقع التحدي بها وبفصاحتها . ثم بين أنهم مع ظهور عجزهم بقوا مصرين على كفرهم فقال : ﴿ ولقد صرفنا ﴾ رددنا وكررنا ﴿ للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ " من كل " معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه وذلك كدلائل التوحيد والنبوة والمعاد وكالقصص اللائقة وغيرها من المواعظ والنصائح . ﴿ فأبى أكثر الناس ﴾ فيه معنى النفي كأنه قيل : فلم يرضوا ﴿ إلا كفوراً ﴾ وجحوداً . قال أهل البرهان : إنما لم يذكر الناس في أوائل السورة حين قال :

﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا ﴾ [الآية : 41] لتقدم ذكرهم في السورة.

وذكرهم في " الكهف " إذا لم يجر ذكرهم وذكر الناس ههنا وإن جرى ذكرهم دفعاً للالتباس ،لأن ذكر الجن أيضاً قد جرى وقدم للناس على قوله : ﴿ في هذا القرآن ﴾ كما قدمه في قوله : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن ﴾ وأما في " الكهف " فعكس الترتيب لأن اليهود سألته عن قصة أصحاب الكهف وغيرها . وقد أوحاها الله تعالى إليه في القرآن فكانت العناية بالقرآن أكثر فكان تقديمه أجدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 387.372﴾

(135/464)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾

أي من عمى قلوبهم ﴿ ولولا أن ثبتناك ﴾ بالقول الثابت وهو قول " لا إله إلا الله " إلى أن بلغت حقيقة " لا إله إلا الله " ﴿ شيئًا قليلاً ﴾ وإنما وصفه بالقلة لأن بشريته مغلوبة وروحانيته غالبة. ﴿ ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ أي نحيي نفسك وأذقناك

عذاب حياتها واستيلائها على الروح ونميت قلبك . وأذقناك عذاب مماته وضعف روحك وبعده عن الحق . ﴿ سنة من قد أرسلنا ﴾ أي جرت عادة الله تعالى بأن يجعل لكل نبي عدواً يؤذيه ويمكر به . ثم بين طريق خلاص الأنبياء والأولياء عن ورطة الابتلاء فقال : ﴿ أقم الصلاة ﴾ أي أدّها بالقلب الحاضر نهاراً وليلاً . ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ بشواهد الحق بل الحق مشهود له . ثم ﴿ أدخلني مدخل صدق ﴾ يعني السير في الله بالله ﴿ وأخرجني مخرج صدق ﴾ من حولي وأنانيتي ﴿ واجعل لي من لدنك ﴾ لا من لدن غيرك .

وفيه أن كل ذي مقام فإنه لا يصل إلى مقام إلا بسعي يلائم الوصول إلى ذلك المقام كقوله : ﴿ وسعى لها سعيها ﴾ [الإسراء : 19] . " روي أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعرض حاجة فقال صلى الله عليه وسلم : ما تريد ؟ فقال : مرافقتك في الجنة . فقال صلى الله عليه وسلم : أو غير ذلك ؟ فقال الرجل : بلى مرافقتك في الجنة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فأعني على نفسك بكثرة السجود " ﴿ جاء الحق ﴾ من الواردات والشواهد وتجلي صفات الجمال والجلال ﴿ وزهق الباطل ﴾ وهو كل ما خلا الله من الموجودات ومن الخواطر كقوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل . . . ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ﴾ لأن كلام الحبيب طبيب القلوب

إن الأحاديث من سلمى تسليني . . . ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ قال العارفون : لله تعالى عالمان : عالم الأمر الذي خلق لا من شيء ، وعالم الخلق الذي خلق من شيء ويعبر عنهما بالآخرة والدنيا والملكوت والملك والغيب والشهادة . والمعنى والصورة والباطن والظاهر والأرواح والأجسام ، وما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : " أول ما خلق الله جوهرة " – وفي رواية – " درّة فنظر إليها فذابت " " أول ما خلق الله اللوح " " أول ما خلق الله روحي " وفي رواية " نوري " " وأول ما خلق الله العقل " " وأول ما خلق الله القلم " وما قيل عن بعض السلف إن أول ما خلق الله على الإطلاق ملك كروبي . فالأسماء مختلفة والمسمى واحد وهو روح النبي صلى الله عليه وسلم . فباعتبار أنه كان درة صدف الموجودات سمي درة وجوهرة ، وباعتبار نورانيته سمي نوراً ، وباعتبار وفور عقله سمي عقلاً ، إذ قال له أقبل إلى الدنيا رحمة للعالمين فأقبل . ثم قال له : أدبر أي ارجع إلى ربك فأدبر عن الدنيا ورجع إلى المعراج ، ثم قال له : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إليّ منك ، بك أعرف ، وبك آخذ ، يعني طاعة من أخذ منك الدين والشريعة ، وبك أعطي أي بشفاعتك أعطي الدرجات العالية ، وبك أعاقب الكافرين وبك أثبت المؤمنين .

وباعتبار جريان الأمور على وفق متابعته والاقتداء به سمي قلماً ، وباعتبار غلبات صفات الملائكة عليه سمي ملكاً كروبياً ، ولأن كل الأرواح خلقت من روحه كان أم الأرواح وروحها فلهذا قيل له " أمي " . وقد ورد في الحديث : " آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة " ولما كان الروح خليفة الله تعالى اتصف بالأزلية دون الأبدية ، ولما كان الجسد خليفة الروح فبالروح قوامه وقيامه لم يكن الجسد أزلياً ولا أبدياً إلا بتبعية الروح. ثم أخبر عن عزة القرآن وغيرة الرحمن بقوله : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن ﴾ الآية . وفيه أنه لا يقدر على الإتيان والذهاب به إلا الله تعالى لكنه أكد هذا المعنى بقوله : ﴿

قل لئن اجتمعت الإنس والجن ﴾ والمراد بالجن كل ما هو مستور عن العيون فيتناول الملائكة أيضاً . وفيه أنه لا مثل لصفاته حتى الكلام كما أنه لا مثل لذاته والله تعالى أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 387.388 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أمر بما تضمن أنه كإخوانه من الرسل في كونه بشراً ، أتبعه قوله تعالى عطفاً على : ﴿ فأبى ﴾ أو ﴿ فقالوا ﴾ : ﴿ وما منع الناس ﴾ أي قريشاً ومن قال بقولهم لما لهم من الاضطراب ﴿ أن يؤمنوا ﴾ أي لم يبق لهم مانع من الإيمان ، والجملة مفعول " منع " ﴿ إذ جاءهم الهدى ﴾ أي الدليل القاطع على الإيمان وهو القرآن وغيره من الأدلة ﴿ إلا ﴾ وفاعل منع ﴿ أن قالوا ﴾ أي منكرين غاية الإنكار متعجبين متهكمين : ﴿ أبعث الله ﴾ أي بما له من العظمة الباهرة من صفات الجلال والإكرام ﴿ بشراً ورسولاً ﴾ وسبب اتباع الضلال – مع وضوح ضره – وترك الهدى – مع ظهور نفعه – وقوع الشبهة أو الشهوة لضعفاء العقول – وهم أكثر الناس – في أوله ثم تقليد الرؤساء وتمكن العادة السيئة فيما بعد ذلك ، فلما أنكروا كون الرسول بشراً بعد أن جعلوا الإله حجراً ، علمه جوابهم بقوله تعالى : ﴿ قل ﴾ لهم : قال ربي سبحانه وتعالى : ﴿ لو كان ﴾ أي كوناً متمكناً ﴿ في الأرض ﴾ التي هي مسكن الآدميين ﴿ ملائكة يمشون ﴾ عليها كالآدميين من غير طيران

كالملائكة إلى السماء ﴿ مطمئنين ﴾ باتخاذهم لها قراراً كما فعل البشر ﴿ لنزلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ عليهم ﴾ مرة بعد مرة كما فعلنا في تنزيل جبريل عليه السلام على الأنبياء من البشر ، وحقق الأمر بقوله تعالى : ﴿ من السماء ملكاً رسولاً ﴾ لتمكنهم من التلقي منه لمشاكلتهم له بخلاف البشر كما هو مقتضى الحكمة ، لأن رسول كل جنس ينبغي أن يكون منهم ، إذ الشيء عن شكله أفهم ، وبه آنس ، وإليه أحسن ، وله آلف ، إلا من فضله بتغليب نفسه وعقله على شهوته فأقدره بذلك على التلقي من الملك .

ولما نصب البرهان القاطع على أن القرآن الموحى إليه من عند الله ، ونفى شبهتهم في إنكار كون الرسول بشراً ، بأنه ما خرج عن عادة من قبله ممن كانوا مقرين بأنهم أنبياء ، وبأن الجنس لا يفهم عن جنس آخر ، فالبشر لا يفهم عن الملك إلا بخارقة ، ولا يكون ذلك إلا للرسل ومن أراد الله من أتباعهم ، لم يبق إلا محض العناد الذي لا رجوع فيه إلا إلى السيف عند القدرة ، وإلى الله عند فقدها ، وكان في مكة المشرفة غير قادر على السيف ، أمره الله تعالى بالرجوع إلى السيف فقال تعالى : ﴿ قل كفى بالله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ شهيداً ﴾ أي فيصلاً يكون ﴿ بيني وبينكم ﴾ يعامل كلاًّ منا بما يستحق ؛ ثم

علل كفايته لذلك بقوله تعالى : ﴿ إنه كان بعباده ﴾ قبل أن يخلقهم ﴿ خبيراً ﴾ بما يؤول إليه أمرهم بعد إيجاده لهم ﴿ بصيراً ﴾ بما يكون منهم بعد وجوده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 426.427 ﴾

(140/464)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ تفجر ﴾ من الفجر : يعقوب وعاصم وحمزة وعلي وخلف سوى المفضل وابن الغالب . الآخرون من التفجير تكثيراً للفعل وإن كان الفاعل والمفعول مفرداً ﴿ حتى تنزل ﴾ بالتخفيف : أبو عمرو ويعقوب . الآخرون بالتشديد ﴿ كسفاً ﴾ بفتح السين : أبو جعفر ونافع وعاصم وابن ذكوان . الباقون بالإسكان ﴿ قال سبحان ﴾ بلفظ الماضي : ابن كثير وابن عامر الباقون ﴿ قل ﴾ على الأمر ﴿ هو المهتدي ﴾ بإثبات الياء في الحالين : سهل ونافع وأبو عمرو وفي الوصل . الباقون بحذف الياء ﴿ ربي إذا ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو ﴿ خبت زدناهم ﴾ بإدغام التاء في الزاي : أبو عمرو وحمزة وعلي وخلف وهشام وسهل . ﴿ لقد علمت ﴾ بضم التاء ، على التكلم :

عليّ. الآخرون بالفتح على الخطاب ﴿ قل ادعو ﴾ بكسر اللام للساكنين: عاصم وحمزة وسهل ويعقوب وعباس: الآخرون بضمها للإتباع ﴿ أو ادعوا ﴾ بكسر الواو: عاصم وحمزة وسهل. الباقون بالضم ﴿ أياما ً ﴾ حمزة ورويس يقفان على ﴿ أيا ﴾ ثم يبتدئان ﴿ ما تدعوا ﴾ ويسمى هذا الوقف وقف البيان. الباقون على كلمة واحدة.

(141/464)

الوقوف: ﴿ ينبوعا ً ﴾ 5 لا ﴿ تفجيرا ً ﴾ 5 لا ﴿ قبيلاً ﴾ 5 لا ﴿ في السماء ﴾ ط لابتداء النفي بعد طول القصة. وقيل: الأصح الوصل لأن قوله: ﴿ ولن نؤمن لرقيك ﴾ من كلامهم ﴿ نقرؤه ﴾ ط ﴿ رسولاً ﴾ 5 ﴿ رسولاً ﴾ 5 ﴿ رسولاً ﴾ 5 ﴿ وبينكم ﴾ ط ﴿ بصيرا ً ﴾ 5 ﴿ المهتد ﴾ ج لعطف جملتي الشرط مع التضاد ﴿ من دونه ﴾ لا لأن الواو لا يحتمل الاستئناف ﴿ وصما ً ﴾ 5 ﴿ جهنم ﴾ ط ﴿ سعيرا ً ﴾ 5 ﴿ جديدا ً ﴾ 5 ﴿ لا ريب فيه ﴾ ط لتناهي الاستفهام إلى الإخبار ﴿ كفورا ً ﴾ 5 ﴿ الإنفاق ﴾ ط ﴿ قتورا ً ﴾ 5 ﴿ مسحورا ً ﴾ 5 ﴿ بصائر ﴾ ط للابتداء بأن مع اتحاد القائل ﴿ مثبورا ً ﴾ 5 ﴿ جميعا ً ﴾ 5 لا للعطف ﴿ لفيفا ً ﴾ ، ط لانقطاع النظام والمعنى. ﴿ نزل ﴾ ط لابتداء النفي ﴿ ونذيرا ً ﴾ ، احترازاً من إيهام

العطف ﴿ تنزيلاً ﴾ 5 ﴿ أولا تؤمنوا ﴾ ط ﴿ سجداً ﴾ ، لا ﴿ لمفعولاً ﴾ 5 ﴿ خشوعاً ﴾ 5 ﴿ الرحمن ﴾ ط لتصدير الشرط ﴿ الحسنى ﴾ ج لانقطاع نظم الشرط إلى النهي مع اتحاد المراد . ﴿ سبيلاً ﴾ 5 ﴿ تكبيراً ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 389 ـ 390 ﴾

(142/464)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى شبهة القوم في اقتراح المعجزات الزائدة وأجاب عنها حكى عنهم شبهة أخرى وهي أن القوم استبعدوا أن يبعث الله إلى الخلق رسولاً من البشر بل اعتقدوا أن الله تعالى لو أرسل رسولاً إلى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه .

الأول : قوله : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الهدى ﴾ وتقرير هذا الجواب أن بتقدير أن يبعث الله ملكاً رسولاً إلى الخلق فالخلق إنما يؤمنون بكونه رسولاً من عند الله

لأجل قيام المعجز الدال على صدقه وذلك المعجز هو الذي يهديهم إلى معرفة ذلك الملك في إدعاء رسالة الله تعالى فالمراد من قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءهُمُ الهدى ﴾ هو المعجز فقط فهذا المعجز سواء ظهر على يد الملك أو على يد البشر وجب الإقرار برسالته فثبت أن يكون قولهم بأن الرسول لا بد وأن يكون من الملائكة تحكماً فاسداً وتعنتاً باطلاً .

الوجه الثاني : من الأجوبة التي ذكرها الله في هذه الآية عن هذه الشبهة هو أن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة لأن الجنس إلى الجنس أميل أما لو كان أهل الأرض من البشر لوجب أن يكون رسولهم من البشر وهو المراد من قوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِى الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مّنَ السماء مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ .

(143/464)

الوجه الثالث : من الأجوبة المذكورة في هذه الآية قوله : ﴿ قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ وتقريره أن الله تعالى لما أظهر المعجزة على وفق دعواي كان ذلك شهادة من الله تعالى على كوني صادقاً ومن شهد الله على صدقه فهو صادق فبعد ذلك قول القائل بأن الرسول يجب أن يكون ملكاً لا إنساناً تحكم فاسد لا يلتفت إليه ولما ذكر الله تعالى هذه الأجوبة الثلاثة أردفها بما يجري مجرى التهديد والوعيد فقال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا

بَصِيرًا ﴾ يعني يعلم ظواهرهم وبواطنهم ويعلم من قلوبهم أنهم لا يذكرون هذه الشبهات إلا لمحض الحسد وحب الرياسة والاستنكاف من الانقياد للحق. انتهى. اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 50 ﴾

(144/464)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا ﴾

يعني برسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ إذ جاءَهم الهُدى ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : القرآن.

الثاني : الرسول.

﴿ إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ وهذا قول كفار قريش أنكروا أن يكون البشر رُسُل الله تعالى، وأن الملائكة برسالاته أخص كما كانوا رسلاً إلى أنبيائه، فأبطل الله تعالى عليهم ذلك بقوله :

﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾

يعني أن الرسول إلى كل جنس يأنس بجنسه ، وينفر من غير جنسه ، فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر ملكاً لنفروا من مقاربته ولما أنسوا به ولداخلهم من الرهب منه والاتقاء له ما يكفهم عن كلامه ويمنعهم من سؤاله ، فلا تعمّ المصلحة . ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به ويسكنوا إليه لقالوا لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك ، وعادوا إلى مثل حالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(145/464)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا ﴾

هذه الآية على معنى التوبيخ والتلهف من النبي عليه السلام والبشر ، كأنه يقول متعجباً منهم ما شاء الله كان ، ما نمنع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا هذه العلة النزرة والاستبعاد الذي لا يستند إلى حجة ، وبعثة البشر رسلاً غير بدع ولا غريب ، فيها يقع الإفهام والتمكن من النظر كما ﴿ لو كان في الأرض ملائكة ﴾ يسكنونها ﴿ مطمئنين ﴾ ، أي وادعين فيها مقيمين لكان الرسول إليهم من الملائكة ليقع الإفهام ، وأما البشر فلو بعث إليهم ملك لنفرت طباعهم من رؤيته ، ولم تحتمله أبصارهم ولا تجلدت له قلوبهم ، وإنما أراد الله جري

أحوالهم على معتادها .

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾

روى البخاري أن الملأ من قريش الذين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم المقالات التي تقدم ذكرها من عرض الملك عليه والغنى وغير ذلك ، قالوا له في آخر قولهم : فلتجيء معك طائفة من الملائكة تشهد لك بصدقك في نبوتك ، قال المهدوي : روي أنهم قالوا له : فمن يشهد لك ؟ .

(146/464)

قال القاضي أبو محمد : ومعنى أقوالهم إنما هو طلب شهادة دون أن يذكروها ، ففي ذلك نزلت الآية ، أي الله يشهد بيني وبينكم الذي له الخبر والبصر لجميعنا صادقنا وكاذبنا ، ثم رد الأمر إلى خلق الله تعالى واختراعه الهدى والضلال في قلوب البشر ، أي ليس بيدي من أمركم أكثر من التبليغ ، وفي قوله ﴿ فلن تجد لهم أولياء من دونه ﴾ وعيد ، ثم أخبر عز وجل أنهم يحشرون على الوجوه ﴿ عمياً وبكماً وصماً ﴾ ، وهذا قد اختلف فيه ، فقيل هي استعارات إما لأنهم من الحيرة والهم والذهول يشبهون أصحاب هذه الصفات ، وإما من حيث لا يرون ما يسرهم ولا يسمعونه ولا ينصفونه بحجة ، وقيل هي حقيقة كلها ،

وذلك عند قيامهم من قبورهم ، ثم يرد الله إليهم أبصارهم وسمعهم ونطقهم ، فعند رد ذلك إليهم يرون النار ويسمعون زفيرها ويتكلمون بكل ما حكي عنهم في ذلك ، ويقال للمنصرف عن أمر خائفاً مهموماً : انصرف على وجهه ، ويقال للبعير المتفه كأنما يمشي على وجهه ، ومن قال ذلك في الآية حقيقة ، قال : أقدرهم الله على النقلة على الوجوه ، كما أقدر في الدنيا على النقلة على الأقدام ، وفي هذا المعنى حديث قيل يا رسول الله : كيف يمشي الكافر على وجهه ؟ قال : " أليس الذي أمشاه في الدنيا على رجلين قادراً أن يمشيه في الآخرة على وجهه " ؟ . قال قتادة : بلى وعزة ربنا ، وقوله ﴿ كلما خبت ﴾ أي كلما فرغت من إحراقهم فسكن اللهيب القائم عليهم قدر ما يعادون ، ثم تثور ، فتلك " زيادة السعير " قاله ابن عباس ، فالزيادة في حيزهم ، وأما جهنم فعلى حالها من الشدة لا يصيبها فتور ، وخبت النار معناه سكن اللهيب والجمر على حاله ، وخمدت معناه سكن الجمر وضعف ، وهمدت معناه طفيت جملة ، ومن هذه اللفظة قول الشاعر : [الهزج]

أمن زينب ذي النار قبيل الصبح ما تخبو . . . إذا ما خبت يلقى عليها المندل الرطب

ومنه قول عدي بن زيد : [الخفيف]

وسطة كاليراع أو سرج المج . . . دل طوراً تخبو وطوراً تنير

ومنه قول القطامي :

فتخبوا ساعة وتهب ساعا . . . وقوله ﴿ ذلك جزاؤهم ﴾ الآية ، الإشارة إلى الوعيد المتقدم بجهنم ، وقوله ﴿ بآياتنا ﴾ يعم الدلائل والحجج التي جاء بها محمد عليه السلام ، ويعم آيات القرآن وما تضمن من خبر وأمر ونهي ، ثم عظم عليهم أمر إنكار البعث ، وخصه بالذكر مع كونه في عموم الكفر بآيات القرآن ، ووجه تخصيصه التعظيم له والتنبيه على خطارة الكفر في إنكاره ، وقد تقدم اختلاف القرآء في الاستفهامين في غير هذا الموضع ، و" الرفات " بقية الشيء التي قد أصارها البلى إلى حال التراب ، و" البعث " تحريك الشيء الساكن ، وهذا الاستفهام منهم هو على جهة الإنكار والاستبعاد للحال بزعمهم .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾

هذه الآية احتجاج عليهم فيما استبعدوه من العبث ، وذلك أنهم قرروا على خلق الله تعالى واختراعه لهذه الجملة التي البشر جزء منها ، فهم لا ينكرون ذلك ، فكيف يصح لهم

أن يقروا بخلقه للكل وإخراجه من خمول العدم وينكرون إعادته للبعض؟ فحصل الأمر في حيز الجواز، وأخبر الصادق الذي قامت دلائل معجزاته بوقوع ذلك الجائز، و" الرؤية " في هذه الآية رؤية القلب، و" الأجل " هنا يحتمل أن يريد به القيامة ويحتمل أن يريد أجل الموت، و" الأجل " على هذا التأويل اسم جنس لأنه وضعه موضع الآجال، ومقصد هذا الكلام بيان قدرة الله عز وجل وملكه لخلقه، وبتقرير ذلك يقوى جواز بعثه لهم حين يشاء لا إله إلا هو، وقوله ﴿ فأبى ﴾ عبارة عن تكسبهم وجنوحهم، وقد مضى تفسير هذه الآيات آنفاً، وقوله تعالى: ﴿ قل لو أنتم تملكون ﴾ الآية حكم لو أن يليها الفعل إما مظهراً وإما مضمراً يفسره الظاهر بعد ذلك، فالتقدير هنا، قل لو تملكون خزائن، ف ﴿ أنتم ﴾ رفع على تبع الضمير، و" الرحمة " في هذه الآية المال والنعم التي تصرف في الأرزاق، ومن هذا سميت ﴿ رحمة ﴾، و ﴿ الإنفاق ﴾ المعروف ذهاب المال وهو مؤد إلى الفقر، فكأن المعنى خشية عاقبة الإنفاق، وقال بعض اللغويين أنفق الرجل معناه افتقر كما تقول أترب وأقتر، وقوله ﴿ وكان الإنسان قتوراً ﴾ أي ممسكاً، يريد أن في طبعه ومنتهى نظره أن الأشياء تتناهى وتفنى، فهو لو ملك خزائن رحمة الله لأمسك خشية الفقر، وكذلك يظن أن قدرة الله تعالى تقف دون البعث، والأمر ليس كذلك، بل قدرته لا تتناهى، فهو مخترع من الخلق ما يشاء، ويخترع من الرحمة الأرزاق، فلا يخاف نفاد خزائن رحمته، وبهذا النظر تتلبس هذه الآية بما قبلها، والله ولي التوفيق برحمته، ومن الإقتار قول أبي

داود : [الخفيف]

لا أعد الإقتار عدماً ولكن . . . فقد من قد رزئته الإعدام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(149/464)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا ﴾

قال ابن عباس : يريد أهل مكة .

قال المفسرون : ومعنى الآية : وما منعهم من الإِيمان ﴿ إِذ جاءهم الهُدى ﴾ وهو البيان والإِرشاد في القرآن ﴿ إِلا أن قالوا ﴾ [أي : إِلا] قولهم في التعجب والإِنكار : ﴿ أَبَعَثَ الله بَشَراً رسولاً ﴾ ؟ وفي الآية اختصار ، تقديره : هلا بعث الله مَلَكاً رسولاً ، فأُجيبوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ﴾ أي : مستوطنين الأرض .

ومعنى الطمأنينة : السكون ؛ والمراد من الكلام أن رسول كل جنس ينبغي أن يكون منهم .

قوله تعالى : ﴿ قل كفى بالله شهيداً ﴾ قد فسرناه في [الرعد : 43] ﴿ إِنه كان بعباده

خبيراً بصيراً ﴾ قال مقاتل : حين اختص الله محمداً بالرسالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسيرحـ 5 صـ ﴾

(150/464)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى ﴾

يعني الرسل والكتب من عند الله بالدعاء إليه .

﴿ إِلاَّ أَن قالوا ﴾ جهلاً منهم .

﴿ أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً ﴾ أي الله أجل من أن يكون رسوله من البشر .

فبيّن الله تعالى فرط عنادهم لأنهم قالوا : أنت مثلنا فلا يلزمنا الانقياد ، وغفلوا عن المعجزة .

ف"أنْ" الأولى في محل نصب بإسقاط حرف الخفض .

و"أن" الثانية في محل رفع ب"منع" أي وما منع الناس من أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا قولهم أبعث الله بشراً رسولاً .

﴿ قُل لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا

﴾ (95)

أعلم الله تعالى أن المَلَك إنما يُرسل إلى الملائكة ؛ لأنه لو أرسل ملكاً إلى الآدميّين لم يقدروا أن يروه على الهيئة التي خلق عليها ، وإنما أقدر الأنبياء على ذلك وخلقَ فيهم ما يقدرون به ؛ ليكون ذلك آية لهم ومعجزة .

وقد تقدّم في "الأنعام" نظير هذه الآية ؛ وهو قوله : ﴿ وَقَالُواْ لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمر ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ [الأنعام : 8-9] وقد تقدّم الكلام فيه .

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96) ﴾

يروى أن كفار قريش قالوا حين سمعوا قوله : ﴿ هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 93] : فمن يشهد لك أنك رسول الله ؟ فنزل : ﴿ قُلْ كَفَى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(151/464)

وقال أبو حيان :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) ﴾

الظاهر أن قوله : ﴿ وما منع الناس ﴾ إخبار من الله تعالى عن السبب الضعيف الذي منعهم من الإيمان ، إذ ظهر لهم المعجز وهو استبعاد أن يبعث الله رسولاً إلى الخلق واحداً منهم ولم يكن ملكاً ، وبعد أن ظهر المعجز فيجب الإقرار والاعتراف برسالته فقولهم : لا بد أن يكون من الملائكة تحكم فاسد ، ويظهر من كلام ابن عطية أن قوله ﴿ وما منع الناس ﴾ هو من قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال هذه الآية على معنى التوبيخ والتلهف من النبيّ عليه الصلاة والسلام كأنه يقول متعجباً منهم ما شاء الله كان ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلاّ ﴾ هذه العلة النزرة والاستبعاد الذي لا يسند إلى حجة ، وبعثة البشر رسلاً غير بدع ولا غريب فيها يقع الإفهام والتمكن من النظر كما لو كان في الأرض ملائكة يسكنونها مطمئنين لكان الرسول إليهم من الملائكة ليقع الإفهام ، وأما البشر فلو بعث إليهم ملك لنفرت طبائعهم من رؤيته ولم تحتمله أبصارهم ولا تجلدت له قلوبهم ، وإنما الله أجرى أحوالهم على معتادها انتهى .

و﴿ أن يؤمنوا ﴾ في موضع نصب و﴿ أن قالوا ﴾ : في موضع رفع ، و﴿ إذ ﴾ ظرف العامل فيه منع والناس كفار قريش القائلون تلك المقالات السابقة و﴿ الهدى ﴾ هو القرآن ومن جاء به ، وليس المراد مجرد القول بل قولهم الناشىء عن اعتقاد والهمزة في ﴿ أبعث ﴾ للإنكار و﴿ رسولاً ﴾ ظاهره أنه نعت ، ويجوز أن يكون ﴿ رسولاً ﴾ مفعول بعث ، و﴿ بشراً ﴾ حال متقدمة عليه أي ﴿ أبعث الله رسولاً ﴾ في حال كونه ﴿ بشراً ﴾

، وكذلك يجوز في قوله ﴿ ملكاً رسولاً ﴾ أي ﴿ لنزلنا عليهم من السماء ﴾ ﴿ رسولاً ﴾ في حال كونه ﴿ ملكاً ﴾ .

(152/464)

وقوله ﴿ يمشون ﴾ يتصرفون فيها بالمشي وليس لهم صعود إلى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلمون ما يجب علمه ، بل هم مقيمون في الأرض يلزمهم ما يلزم المكلفين من عبادات مخصوصة وأحكام لا يدرك تفصيلها بالعقل ، ﴿ لنزلنا عليهم ﴾ من جنسهم من يعلمهم ذلك ويلقيه إليهم .

ولما دعاهم (صلى الله عليه وسلم) إلى الإيمان وتحدى على صدق نبوته بالمعجز الموافق لداعوه ، أمره تعالى أن يعلمهم بأنه تعالى هو الشهيد بينه وبينهم على تبليغه وما قام به من أعباء الرسالة وعدم قبولهم وكفرهم ، وما اقترحوا عليه من الآيات على سبيل العناد ، وأردف ذلك بما فيه تهديد وهو قوله ﴿ إنه كان بعباده خبيراً ﴾ بخفيات أسرارهم ﴿ بصيراً ﴾ مطلقاً على ما يظهر من أفعالهم وأقوالهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(153/464)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا مَنَعَ الناس ﴾

أي الذين حُكيت أباطيلُهم ﴿ أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ مفعولٌ ثانٍ لمنع وقوله : ﴿ إِذْ جَاءهُمُ الهدى ﴾ أي الوحيُ ظرفٌ لمنع أو يؤمنوا أي وما منعهم وقت مجيءِ الوحي المقرونِ بالمعجزاتِ المستدعيةِ للإيمان أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوّتك أو ما منعهم أن يؤمنوا بذلك وقت مجيءِ ما ذكر ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ في محل الرفعِ على أنه فاعلُ منع أي إلا قولُهم : ﴿ أَبَعَثَ الله بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ منكِرين أن يكون رسولُ الله تعالى من جنس البشرِ ، وليس المرادُ أن هذا القولَ صدر عن بعضهم فمنع بعضاً آخرَ منهم ، بل المانعُ هو الاعتقادُ الشاملُ للكل المستتبعُ لهذا القول منهم ، وإنما عبّر عنه بالقول إيذاناً بأنه مجردُ قولٍ يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهومٌ ومِصْداقٌ ، وحصرُ المانعِ من الإيمان فيما ذكر مع أن لهم موانعَ شتّى لما أنه معظمُها أو لأنه هو المانعُ بحسب الحال ، أعني عند سماعِ الجواب بقوله تعالى : ﴿ هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ إذ هو الذي يتشبّثون به حينئذ من غير أن يخرِمَ بالهم شبهةٌ أخرى من شبههم الواهيةِ ، وفيه إيذانٌ بكمال عنادِهم حيث يشير إلى أن الجوابَ المذكورَ مع كونه حاسماً لموادّ شُبَهِهم ملجئاً إلى الإيمان يعكُسون الأمرَ ويجعلونه مانعاً منه .

﴿ قُلْ ﴾ لهم أولاً من قِبلنا تبييناً للحكمة وتحقيقاً للحق المُزيحِ للرَّيب ﴿ لَّوْكَانَ ﴾ أي لو وجد واستقر ﴿ فِى الأرض ﴾ بدل البشر ﴿ ملائكةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ قارّين فيها من غير أن يعرُجوا في السماء ويعلموا ما يجب أن يُعلم ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السماء مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ يهديهم إلى الحق ويُرشِدُهم إلى الخير لتمَكُّنهم من الاجتماع والتلقي منه ، وأما عامةُ البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضةِ الملكية فكيف لا وهي منوطةٌ بالتناسب والتجانس ، فبعثُ الملكِ إليهم مزاحِمٌ للحكمة التي عليها مبنى التكوينِ والتشريع ، وإنما يُبعث الملَك من بينهم إلى الخواصّ المختصين بالنفوس الزكية المؤيَّدين بالقوة القُدسية المتعلقين بكِلا العالَمَين الروحاني والجُسماني ليتلقَّوا من جانب ويُلْقوا إلى جانب ، وقوله تعالى : ﴿ مَلَكًا ﴾ يحتمل أن يكون حالاً من رسولاً وأن يكون موصوفاً به وكذلك بشراً في قوله تعالى : ﴿ أَبَعَثَ الله بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ والأول أُولى .

﴿ قُلْ ﴾ لهم ثانياً من جهتك بعد ما قلت لهم من قِبلنا ما قلتَ وبينتَ لهم ما تقضيه الحكمةُ في البعثة ولم يرفعوا إليه رأساً ﴿ كفى بالله ﴾ وحده ﴿ شَهِيداً ﴾ على أني أدّيتُ ما عليّ من مواجب الرسالةِ أكملَ أداءٍ وأنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعِناد ،

وتوجيهُ الشهادةِ إلى كونه عليه السلام رسولاً بإظهار المعجزةِ على وفق دعواه كما اختير لا يساعده قوله تعالى : ﴿ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ وما بعده من التعليل ، وإنما لم يقل : بيننا تحقيقاً للمفارقة وإبانةً للمباينة ، وشهيداً إما حالٌ أو تمييزٌ ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ ﴾ من الرسل والمرسَلِ إليهم ﴿ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ محيطاً بظواهر أحوالِهم وبواطنها فيجازيهم على ذلك وهو تعليلٌ للكفاية ، وفيه تسليةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديدٌ للكفار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(155/464)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ ﴾

أي الذين حكيت أباطيلهم ﴿ أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ مفعول منع وقوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءهُمُ الهدى ﴾ ظرف منع أو يؤمنوا أي ما منعهم وقت مجيء الوحي المقرون بالمعجزات المستدعية للايمان أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك أو ما منعهم أن يؤمنوا وقت مجيء ما ذكر ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ فاعل منع أي إلا قولهم : ﴿ أَبَعَثَ الله بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ ؟ منكرين أن يكون رسول الله عليه الصلاة والسلام من جنس البشر وليس المراد أن هذا القول صدر عن بعض فمنع

آخرين بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل المستتبع لهذا القول منهم .

وإنما عبر عنه بالقول إيذاناً بأنه مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهوم ومصداق ، وحصر المانع فيما ذكر مع أن لهم موانع شتى لما أنه معظمها أو لأنه هو المانع بحسب الحال أعني عند سماع الجواب بقوله تعالى : ﴿ هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 93] إذ هو الذي يتشبثون به حينئذ من غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى من شبههم الواهية ، وفيه على هذا إيذان بكمال عنادهم حيث يشير إلى أن الجواب المذكور مع كونه حاسماً لمواد شبههم مقتضياً للإيمان يعكسون الأمر ويجعلونه مانعاً قاله بعض المحققين ، وظاهر ذلك أن القول لا يقولون برسالة أحد من الرسل المشهورين كإبراهيم وموسى عليهما السلام أصلاً ، وصرح بعضهم بأنهم لم ينكروا إرسال غيره صلى الله عليه وسلم منهم وبأن قولهم هذا كان تعنتاً وهذا خلاف الظاهر هنا ، ولعل القوم كانوا في ريب وتردد لا يستقيمون على حال فتدبر .

والظاهر أن الآية أخبار منه عز مجده عن الأمر المانع إياهم عن الإيمان ، ويظهر من كلام ابن عطية أن هذا الكلام منه عليه الصلاة والسلام قاله على معنى التوبيخ والتلهف وحاشا من له أدنى ذوق من أن يذهب إلى ذلك .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95) ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهم أولاً من قبلنا تبيينا للحكمة وتحقيقاً للحق المزيح للريب ﴿ لَّوْ كَانَ ﴾ أي لو وجد ﴿ فِى الأرض ﴾ بدل البشر ﴿ ملائكة يَمْشُونَ ﴾ كما يمشي البشر ولا يطيرون إلى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه ﴿ مُطْمَئِنّينَ ﴾ ساكنين مقيمين فيها ، وقال الجبائي : أي مطمئنين إلى الدنيا ولذاتها غير خائفين ولا متعبدين بشرع لأن المطمئن من زال الخوف عنه ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مّنَ السماء مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ يعلمهم ما لا تستقل قدرهم بعلمه ليسهل عليهم الاجتاع به والتلقي منه وأما عامة البشر فلا يسهل عليهم ذلك لبعد ما بين الملك وبين فلا يبعث إليهم وإنما يبعث إلى خواصهم لأن الله تعالى قد وهبهم نفوساً زكية وأيدهم بقوى قدسية وجعل لهم جهتين جهة ملكية بها من الملك يستفيضون وجهة بشرية بها على البشر يفيضون ، وجعل كل البشر كذلك مخل بالحكمة ، وإنزال الملك عليهم على وجه يسهل التلقي منه بأن يظهر لهم بصورة بشر كما ظهر جبريل عليه السلام مراراً في صورة دحية الكلبي .

وقد صح أن إعرابياً جاء وعليه أثر السفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وغيرها فأجابه عليه الصلاة والسلام بما أجابه ثم انصرف ولم

يعرفه أحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم فقال صلى الله عليه وسلم " هذا جبريل جاء كم يعلمكم أمر دينكم " مما لا يجدي نفعاً لأولئك الكفرة كما قال تعالى جده ﴿ وَلَوْ جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : 9] وقيل علة تنزيل الملك عليهم أن الجنس إلى الجنس أميل وهو به آنس ، ولعل الأول أولى وإن زعم خلافه .

وحكى الطبرسي عن بعضهم أنه قال في الآية : إن العرب قالوا كنا ساكنين مطمئنين فجاء محمد صلى الله عليه وسلم فازعجنا وشوش علينا أمرنا فبين سبحانه أنه لو كان ملائكة مطمئنين لاوجبت الحكمة إرسال الرسل إليهم ولم يمنع اطمئنانهم الإرسال فكذلك الناس لا يمنع كونهم مطمئنين إرسال الرسل إليهم ، وأنت تعلم أن هذا بمراحل عن السياق ولا يصح فيه أثر كما لا يخفى على المتتبع .

ونصب ﴿ مَلَكًا ﴾ يحتمل أن يكون على الحالية من رسولاً صفة له ، وكذا الكلام في قوله تعالى ﴿ أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ [الإسراء : 94] ، ورجح غير واحد الأول بأنه أكثر موافقة للمقام وأنسب ، ووجه ذلك القطب وصاحب التقريب بأنه على الحالية يفيد المقصود بمنطوقه وعلى الوصفية يفيد خلاف المقصود بمفهومه ، أما الأول : فلأن منطوقه

ابعث الله تعالى رسولاً حال كونه بشراً لا ملكاً ولنزلنا عليهم رسولاً حال كونه ملكاً لا بشراً وهو المقصود ، وأما الثاني : فلأن التقييد بالصفة يفيد أبعث الله تعالى بشراً مرسلاً لا بشراً غير مرسل ولنزلنا عليهم ملكاً مرسلاً لا ملكاً غير مرسل وهو خلاف المقصود بل غير مستقيم ، وقال "صاحب الكشف" تبعاً لشيخه العلامة الطيبي في ذلك : لأن التقديم إزالة عن موضعه الأصلي دلالة على أنه مصب الإنكار في الأول أعني

﴿ أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ [الإسراء : 94] فيدل على أن البشرية منافية لهذا الثابت أعني الرسالة كما تقول أضربت قائماً زيداً ولو قلت أضربت زيداً قائماً أو القائم لم يفد تلك الفائدة لأن الأول يفيد أن المنكر ضربه قائماً لا الضرب مطلقاً ، والثاني يفيد أن المنكر ضرب زيد لاتصافه بهذه المانعة ولا يفيد أن أصل الضرب حسن ومسلم والجهة منكرة هذا إن جعل التقديم للحصر وإن جعل للاهتمام دل على كونه مصب الإنكار وإن لم يدل على ثبوت مقابله ، وعلى التقديرين فائدة التقديم لائحة اه ، وهو أكثر تحقيقاً .

واستشكل بعضهم هذه الآية بأنها ظاهرة في أنه إنما يرسل إلى كل قبيل ما يناسبه ويجانسه كالبشر للبشر والملك للملك ولا يرسل إلى قبيل ما لا يناسبه ولا يجانسه وهو ينافي كونه

صلى الله عليه وسلم مرسلاً إلى الجن الإنس إجماعاً معلوماً من الدين بالضرورة فيكفر منكره ومن نازع في ذلك فقد وهم وأجيب بمنع كونها ظاهرة في ذلك بل قصارى ما تدل عليه أن القوم أنكروا أن يبعث الله تعالى إلى البشر بشراً وزعموا أنه يجب أن يكون المبعوث إليهم ملكاً ومرامهم نفي أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إليهم فأجيبوا بما حاصله أن الحكمة تقتضي بعث الملك إلى الملائكة لوجود المناسبة المصححة للتلقي لا إلى عامة البشر لانتفاء تلك المناسبة فأمر الوجوب الذي يزعمونه بالعكس وليس في هذا أكثر من الدلالة على أن أمر البعث منوط بوجود المناسبة فمتى وجدت صح البعث ومتى لم توجد لا يصح البعث وأنها موجودة بين الملك والملك لا بينه وبين عامة البشر كالمنكرين المكورين وهذا لا ينافي بعثته صلى الله عليه وسلم إلى الجن لأنه عليه الصلاة والسلام متى صح فيه المناسبة المصححة للاجتماع مع الملك والتلقي منه صح فيه المناسبة المصححة للاجتماع مع الجن والإلقاء إليهم كيف لا وهو عليه الصلاة والسلام نسخة الله تعالى الجامعة وآيته الكبرى الساطعة وإذا قلنا أن اجتمعه عليه الصلاة والسلام بالجن وإلقاءه عليهم بعد تشكلهم له فأمر المناسبة أظهر وليس تشكل الملك لو أرسل إلى البشر بمجد لما سمعت آنفاً ، ويقال نحو هذا في إرساله صلى الله عليه وسلم إلى الملائكة لما فيه عليه الصلاة والسلام من قوة الإلقاء إليهم كالتلقي منهم ، وإلى كونه عليه الصلاة والسلام مرسلاً إليهم ذهب من الشافعية تقي الدين السبكي والبارزي والجلال المحلي في خصائصه ، ومن الحنابلة ابن

تيمية وابن مفلح في كتاب الفروع، ومن المالكية عبد الحق وقال كابن تيمية لا نزاع بين العلماء في جنس تكليفهم بالأمر

والنهي.

وقال إبراهيم اللقاني: لا شك في ثبوت أصل التكليف بالطاعات العملية في حقهم وأما نحو الإيمان فهو فيهم ضروري فيستحيل تكليفهم به، وقال السبكي في "فتاويه": الجن مكلفون بكل شيء من هذه الشريعة لأنه إذا ثبت أنه عليه الصلاة والسلام مرسل إليهم كما هو مرسل إلى الإنس وأن الدعوة عامة والشريعة كذلك لزمتهم جميع التكاليف التي توجد فيهم أسبابها إلا أن يقوم دليل على تخصيص بعضها فنقول: إنه يجب عليهم الصلاة والزكاة إن ملكوا نصاباً بشرطه والحج وصوم رمضان وغيرها من الواجبات ويحرم عليهم كل حرام في الشريعة بخلاف الملائكة فإنا لا نلتزم أن هذه التكاليف كلها ثابتة في حقهم إذا قلنا بعموم الرسالة إليهم بل يحتمل ذلك ويحتمل الرسالة في شيء خاص اه.

ولا مانع من أن يكلفهم كلهم بما جاءه من ربه جل جلاله بواسطة بعضهم على أنه ليس كل ما جاء به عليه الصلاة والسلام حاصلاً بوساطة الملك فيمكن أن يكون ما كلفوا به لم يكن

بوساطة أحد منهم ، وأنكر بعضم إرساله صلى الله عليه وسلم إليهم وبعدم الإرسال إليهم جزم الحليمي .

والبيهقي من الشافعية .

ومحمود بن حمزة الكرماني في كتابه العجائب والغرائب من الحنفية بل نقل البرهان النسفي والفخر الرازي في تفسيريهما الاجماع عليه وجزم به من المتأخرين زين الدين العراقي في نكتة علي ابن الصلاح والجلال المحلي في "شرح جمع الجوامع" وصريح آية ﴿ لِيَكُونَ لِلعالمين نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] إذ العالم ما سوى الله تعالى وصفاته ، وخبر مسلم أرسلت إلى الخلق كافة يؤيد المذهب الأول ، نعم استدل أهل المذهب بما استدلوا به وفيه ما فيه ، وقد ادعى بعض الناس أن الآية تؤيد مذهبهم لأنه تعالى خص فيها الملك بالإرسال إلى الملائكة فيتعين أن يكون هو الرسول إليهم لا البشر سواء كان بينه وبينهم مناسبة أم لا وقد سمعت ما نقل عن العلامة القطب وصاحب التقريب من أن المراد لنزلنا عليهم رسولاً حال كونه ملكاً لا بشراً .

وأجيب بأنه بعد إرخاء العنان لا تدل الآية إلا على تعين إرسال الملك إلى الملائكة إذا كانوا

في الأرض يمشون مطمئنين بدل البشر ولا يلزم منه أن لا يصح إرسال البشر إليهم إذا لم يكونوا

كذلك لجواز أن يكون حكمة التعين في الصورة الأولى سوى المناسبة المترتب عليها سهولة

الاجتماع والتلقي شيء آخر لا يوجد في الصورة الثانية وذلك أنه إذا كان أهل الأرض

ملائكة وأرسل إليهم بشر له قوة الإلقاء إليهم والإفاضة عليهم ، نحو إرسال رسل البشر

عليهم السلام إليهم صعب بحسب الطبع على ذلك الرسول بقاؤه معهم زمناً يعتد بهم كما

يبقى رسل البشر مع البشر كذلك إلا أن يجعل مشاركاً لهم فيما جبلوا عليه ويلحق بهم وهو

أشبه شيء بإخراجه عن الطبيعة البشرية بالمرة فيكون العدول عن إرسال ملك إلى

إرساله أشبه شيء بالعبث المنافي للحكمة اهـ فتدبر .

فلعل الله سبحانه يمن عليك بما روى الغليل وتأمل في جميع ما تقدم فلعلك توفق بعون الله

تعالى إلى الجرح والتعديل .

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96) ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهم ثانياً من جهتك بعد ما قلت لهم من قبلنا ما قلت وبينت لهم ما تقتضيه الحكمة في البعثة ولم يرفعوا إليه رأساً ﴿ كفى بالله ﴾ عز وجل وحده ﴿ شَهِيداً ﴾ على أني قد أديت ما على من مواجب الرسالة أكمل أداء وإنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد ، وقيل شهيداً على أني رسول الله تعالى إليكم بإظهار المعجزة على وفق دعواي ، ورجح الأول بأنه أوفق بقوله تعالى : ﴿ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ وكذا بقوله سبحانه تعليلاً للكفاية ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ ﴾ أي الرسل والمرسل إليهم ﴿ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أي محيطاً بظواهرهم وبواطنهم فيجازيهم على ذلك ، وزعم الخفاجي أن الثاني أوفق بالسباق منه إذ يكون الكلام عليه كالسابق رداً لإنكارهم أن يكون الرسول بشراً وإلى ذلك ذهب الإمام وأن كون الأول أوفق بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ﴾ الخ لا وجه له لأن معناه التهديد والوعيد بأنه سبحانه يعلم ظواهرهم وبواطنهم وأنهم إنما ذكروا هذه الشبهة للحسد وحب الرياسة والاستنكاف عن الحق وفيه من التسلية لحبيبه صلى الله عليه وسلم ما فيه ، وأنت تعلم أن إنكار كون الأول أوفق بذلك مما لا وجه له لظهور خلافه ، ولا ينافيه تضمن الجملة الوعيد والتسلية ، وأيضاً يبقى أمر أوفقيته بيني وبينكم في البيت ومع ذلك في تصدير الكلام بقل نوع تأييد لإرادة الأول كما لا يخفى على الذكى ، هذا وإنما لم يقل سبحانه بيننا تحقيقاً للمفارقة وإبانة للمباينة ، ونصب ﴿ شَهِيداً ﴾ أما على الحال أو على التمييز .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) ﴾

بعد أن عُدّت أشكال عنادهم ومَظاهر تكذيبهم أعقبت ببيان العلة الأصلية التي تبعث على الجحود في جميع الأمم وهي توهمهم استحالة أن يبعث الله للناس برسالة بشراً مثلهم. فذلك التوهم هو مثار ما يأتونه من المعاذير ، فالذين هذا أصل معتقدهم لا يرجى منهم أن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية ، وما قصدهم من مختلف المقتَرحات إلا إرضاءُ أوهامهم بالتنصل من الدخول في الدين ، فلو أتاهم الرسول بما سألوه لانتقلوا فقالوا : إن ذلك سحر ، أو قلوبنا غلف ، أو نحو ذلك .

ومع ما في هذا من بيان أصل كفرهم هو أيضاً رد بالخصوص لقولهم : ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾ [الإسراء : 92] ورد لقولهم : ﴿ أو ترقى في السماء ﴾ [الإسراء : 93] إلى آخره .

وقوله : إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا ﴾ يقتضي بصريحه أنهم قالوا بألسنتهم وهو مع ذلك كناية عن اعتقادهم ما قالوه .

ولذلك جعل قولهم ذلك مانعاً من أن يؤمنوا لأن اعتقاد قائليه يمنع من إيمانهم بضده ونطقهم بما يعتقدونه يمنع من يسمعونهم من متبعي دينهم.

وإلقاء هذا الكلام بصيغة الحصر وأداة العموم جعله تذييلاً لما مضى من حكاية تفننهم في أساليب التكذيب والتهكم.

فالظاهر حمل التعريف في ﴿ الناس ﴾ على الاستغراق.

أي ما منع جميع الناس أن يؤمنوا إلا ذلك التوهم الباطل لأن الله حكى مثل ذلك عن كل أمة كذبت رسولها فقال حكاية عن قوم نوح ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ [المؤمنون: 24].

وحكى مثله عن هود ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ﴾ [المؤمنون: 33 – 34]، وعن قوم صالح ﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ سورة [الشعراء: 154]، وعن قوم شُعيب ﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ [الشعراء: 186]، وحكى عن قوم فرعون ﴿ قالوا أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ [المؤمنون: 47].

وقال في قوم محمد ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ [ق: 2].

وإذ شمل العموم كفار قريش أمر الرسول بأن يجيبهم عن هذه الشبهة بقوله: لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ﴾ الآية، فاختص الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم باجتثاث هذه الشبهة من أصلها اختصاصاً لم يُلقنه من سَبق من الرسل، فإنهم تلقوا تلك الشبهة باستنصار الله تعالى على أقوامهم فقال عن نوح ﴿ قال رب إن قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين ﴾ [الشعراء: 118].

وقال مثله عن هود وصالح، وقال عن موسى وهارون، ﴿ فكذبوهما فكانوا من المهلكين ﴾ [المؤمنون: 48]، فقد ادخر الله لرسوله قواطع الأدلة على إبطال الشرك وشبه الضلالة بما يناسب كونه خاتم الرسل، ولهذا قال في خطبة حجّة الوداع: إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي أن يطاع فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

ومعنى قوله: لو كان في الأرض ملائكة يمشون ﴾ الخ: أن الله يرسل الرسول للقوم من نوعهم للتمكين من المخالطة لأن اتحاد النوع هو قوام تيسير المعاشرة، قال تعالى: ﴿ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلاً ﴾ [الأنعام: 9]، أي في صورة رجل ليمكن التخاطب بينه وبين الناس.

وجملة يمشون ﴾ وصف ل ﴾ ملائكة ﴾ .

و﴾ مطمئنين ﴾ حال .

والمطمئن : الساكن .

وأريد به هنا المتمكن غير المضطرب ، أي مشي قرار في الأرض ، أي لو كان في الأرض ملائكة قاطنون على الأرض غير نازلين برسالة للرسل لنزلنا عليهم ملكاً .

(164/464)

ولما كان المشي والاطمئنان في الأرض من صفة الإنسان آل المعنى إلى : لو كنتم ملائكة لنزلنا عليكم من السماء ملكاً فلما كنتم بشراً أرسلنا إليكم بشراً مثلكم .

ومجيء الهدى هو دعوة الرسل إلى الهُدى .

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96) ﴾

بعد أن خص الله محمداً صلى الله عليه وسلم بتلقين الحجة القاطعة للضلالة أردف ذلك بتلقينه أيضاً ما لقنه الرسل السابقين من تفويض الأمر إلى الله وتحكيمه في أعدائه ، فأمره ب ﴾ قل كفى بالله ﴾ تسلية له وتثبيتاً لنفسه وتعهداً له بالفصل بينه وبينهم كما قال نوح وهود ﴾ رب انصرني بما كذبون ﴾ [المؤمنون : 26] ، وغيرهما من الرسل قال قريباً من

ذلك .

وفي هذا رد لمجموع مقترحاتهم المتقدمة على وجه الإجمال .

ومفعول ﴿ كفى ﴾ محذوف ، تقديره : كفاني .

والشهيد : الشاهد ، وهو المخبر بالأمر الواقع كما وقع .

وأريد بالشهيد هنا الشهيد للمُحق على المبطل ، فهو كناية عن النصير والحاكم لأن الشهادة سبب الحكم ، والقرينَة قوله : ﴿ بيني وبينكم ﴾ لأن ظرف (بين) يناسب معنى الحُكم .

وهذا بمعنى قوله تعالى : ﴿ حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ [الأعراف : 87] وقوله : ﴿ يوم القيامة يفصل بينكم ﴾ [الممتحنة : 3] .

والباء الداخلة على اسم الجلالة زائدة لتأكيد لصوق فعل كفى ﴾ بفاعله .

وأصله : كفى الله شهيداً .

وجملة ﴿ إنه كان بعباده خبيرا بصيراً ﴾ تعليل للاكتفاء به تعالى ، والخبير : العليم .

وأريد به العليم بالنوايا والحقائق ، والبصير : العليم بالذوات والمشاهدات من أحوالها .

، والمقصود من اتباعه به إحاطة العلم وشموله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) ﴾

هذا امانع المذكور هنا عادي . لأنه جرت عادة جميع الأمم باستغرابهم بعث الله رسلاً من البشر . كقوله : ﴿ قالوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [إبراهيم : 10] الآية ، وقوله : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ [المؤمنون : 47] الآية ، وقوله : ﴿ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر : 24] ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن : 6] الآية ، وقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون : 34] إلى غير ذلك من الآيات .

والدليل على أن المانع في هذه الآية عادي : أنه تعالى بمانع آخر غير هذا " في سورة الكهف " وهو قوله : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأولين أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب قُبُلاً ﴾ [الكهف : 55] فهذا المانع المذكور " في الكهف " مانع حقيقي . لأن من أراد الله به سنة الأولين : من الإهلاك ، أةأن يأتيه العذاب قبلاً – فإرادته به ذلك مانعة من خلاف المراد . لاستحالة أن يقع خلاف مراده جل وعلا . بخلاف المانع " في آية بني إسرائيل " هذه ، فهو مانع عادي يصح تخلفه . وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا " دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب " .

﴿ قُلْ لَوْكَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95) ﴾

بين جل وعلا في هذه الآية : أن الرسول يلزم أن يكون من جنس المرسل إليهم . فلو كان مرسلاً رسولاً إلى الملائكة لنزل عليهم ملكاً مثلهم . أي وإذا ارسل إلى البشر أرسل لهم بشراً مثلهم .

وقد اوضح هذا المعنى في مواضع أخر . كقوله : ﴿ وَقَالُوا لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمر ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : 8-9] ، وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رجالاً نوحي إِلَيْهِمْ ﴾ [الأنبياء : 7] ، وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِي الأسواق ﴾ [الفرقان : 20] كما تقدم إيضاحه . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) ﴾

أي: ما منعهم من الإيمان إلا هذه المسألة: أن يكون الرسول بشراً ، هذه هي القضية التي وقفت في حلوقهم: ﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء: 94]

والمتأمّل في مسألة التبليغ عن الله يجد أنها لا يمكن أنْ تتم إلا ببشر ، فكيف يبلغ البشر جنس آخر ، ولا بُدَّ للتلقّي عن الله من وسائط بين الحق سبحانه وتعالى وبين الناس ؛ لأن البشر لا يستطيع أنْ يتلقّى عن القُوة العليا مباشرة ، فإذنْ: هناك مراحل: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: 51]

لكن الرسول البشري كيف يُكلِّم الله ؟ لا بُدَّ أنْ نأتي برسول من الجنس الأعلى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً . . ﴾ [الحج: 75] وهذا مرحلة ، ثم يصطفي رسولاً من البشر يتلقّى عن الملَكِ كي يستطيع أنْ يُبلِّغكم ؛ لأنكم لا تقدرون على اللقاء المباشر يتلقى عن الملك كي يستطيع أن يبلغكم ؛ لأنكم لا تقدرون على اللقاء المباشر مع الحق سبحانه .

ونضرب لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى: أنت إذا أردتَ إضاءة لمبة صغيرة وعندك تيار كهربائي عالٍ ، هل يمكن أنْ توصِّله بهذه اللمبة ؟ لا لأنها ستحرق فوراً ، إذن: ما الحل ؟ الحل أنْ تأتي بجهاز وسيط يُقلِّل لك هذا التيار القوي ، ويعطي اللمبة على قَدْر حاجتها

فتضيء .

كذلك الحق سبحانه يصطفي من الملائكة رسلاً يمكنهم التلّقي عن الله ويصطفي من البشر رسلاً يمكنهم التلقّي عن الملائكة، ثم يُبلّغ الرسول المصطفى من البشر بني جنسه. إذن: فماذا يُزعجكم في أنْ يكون الرسول بشراً؟ ولماذا تعترضون على هذه المسألة وهي أمر طبيعي؟

(168/464)

يقول تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ . . ﴾ [يونس: 2]

وفي موضع آخر يقول سبحانه: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ * قَالُوا مَآ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ الرَّحْمَانُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾ [يس: 13-15]

إذن: فاعتراضهم على بشرية الرسول أمر قديم توارثه أهل الكفر والعناد من أيام نوح. عليه السلام. ألم يقل له قومه: ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا . . ﴾ [هود: 27]

وقالوا: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون: 34]

وقالوا: ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر: 24]

لذلك يدعونا الحق سبحانه وتعالى إلى النظر في السُّنة المتبعة في الرسل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ. . ﴾ [النحل: 43]

أي: ليسوا ملائكة، لا بُدَّ أنْ يكونوا رجالاً ليتمّ اللقاء بينكم، وإلاّ فلو جاء الرسول مَلَكاً كما تقولون، هل سترون هذا المَلَك؟ قالوا: لا هو مُستتر عنّا، لكنه يرانا، لكن تبليغ الرسالة لا يقوم على مجرد الرؤية، فتبليغ الرسالة يحتاج إلى مخالطة ومخاطبة، وهنا لا بُدَّ أنْ يتصوّر لكم المَلَك في صورة رجل ليؤدي مهمة البلاغ عن الله، وهكذا نعود من حيث بدأنا؛ لأنها الطبيعة التي لا يمكن لأحد الخروج عنها.

(169/464)

لذلك يقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: 9] إذن: لا داعي للتمحُّك والعناد، ومصادمة الفطرة التي خلقها الله، والطبيعة التي ارتضاها لخَلْقه.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ .

(170/464)

﴿ قُلْ ﴾ أي: رَدّاً عليهم: لو أن الملائكة يمشون في الأرض مطمئنين لَنزّلنا عليهم مَلَكاً رسولاً لكي يكون من طبيعتهم، فلا بُدّ أنْ يكون المبلِّغ من جنس المبلَّغ، وهذا واضح في حديث جبريل الطويل حينما جاء إلى رسول الله يسأله عن بعض أمور الدين لِيُعلم الصحابة: ما الإحسان؟ ما الإيمان؟ ما الإسلام. فيأتي جبريل مجلس رسول الله في صورة رجل من أهل البادية، وبعد أنْ أدّى مهمته انصرف دون أنْ يشعر به أحد، فلما سألوا عنه قال لهم رسول الله: "إنه جبريل، أتاكم لِيُعلّمكم أمور دينكم".

شيء آخر يقتضي بشرية الرسول، وهو أن الرسول أسوة سلوك لقومه، كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ.. ﴾ [الأحزاب: 21]

وبالله، كيف تتم هذه الأسوة؟ وكيف يقتدي الناس بها إنْ كان الرسول مَلَكاً؟

فالرسول عندما يُبلِّغ منهج الله عليه أنْ يُطبّق هذا المنهج في نفسه أولاً، فلا يأمرهم أمراً، وهو عنه بِنَجْوَة، بل هو إمامهم في القول والعمل.

لذلك فالحاكم الحق الناصح يُطبّق القانون عليه أولاً ، فكان سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ إذا أراد أن يُقنّن قانوناً ويرى أنه سيتعب بعض الظالمين والمنحرفين فيجمع أهله ويخبرهم بما أراد ، ثم يُحذّرهم من المخالفة: " فوالذي نفسي بيده ، مَنْ خالفني منكم إلى شيء لأجعلنّه نكَالاً للمسلمين ، وأنا أول مَنْ أُطبِّقه على نفسي " .

لذلك حكم عمر الفاروق الدنيا كلها في عصره ، ولما رآه الرجل نائماً مطمئناً تحت شجرة قال قولته المشهورة: " حكمتَ ، فعدلْتَ ، فأمنت ، فنمْتَ يا عمر " وعمر ما حكم الدنيا والبشر ، بل حكم نفسه أولاً فحُكمت له الدنيا ؛ لأن الحاكم هو مركز الدائرة ، وحَوالَيْه دوائر أخرى صغيرة تراه وتقتدي به ، فإنْ رأوه مستقيماً استقاموا ، ولم يجرؤ أحد منهم على المخالفة ، وإنْ رأوْه منحرفاً فاقوه في المخالفة ، وأفسدوا أضعاف ما يُفسد .

(171/464)

لذلك ، لا يمكن أبداً لحاكم أن يحكم إلا إذا حكم نفسه أولاً ، بعدها تنقاد له رعيته ويكونون طوعاً لأمره دون جهد منه أو تعب .

ولقد رأينا في واقعنا بعض الحكام الذين فهموا الأُسْوة على حقيقتها ، فترى الواحد من رعيته يركب أفخم السيارات ، ويسكن أعظم القصور ، حتى إن معظم أدواتها تكون من

الذهب ، في حين ترى هذا الحاكم يعيش عيشة متواضعة وربما يعيش في قصر ورثه عن أبيه أو جَدِّه ، وكأنه يُغلِظ على نفسه ويبغي الرفاهية لرعايته .

وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أتى بمنهج ، وهو في الوقت نفسه أُسْوة سلوك وقُدْوة ، فنراه صلى الله عليه وسلم يحثّ الغنيّ على الصدقة للفقير ، ثم يحرم أهل بيته من هذه الصدقة فلا يقبلها لهم ، وإنْ توارث الناس فيما يتركونه من أموال فإن ما تركه الرسول لا يُورَّثُ لأهله من بعده ، بل هو صدقة لفقراء المسلمين ، وهكذا يحرم رسول الله أهل بيته مما أعطاه للآخرين لتكون القدوة صحيحة ، ولا يجد ضعاف النفوس مأخذاً عليه صلى الله عليه وسلم .

إذن: فليس المراد من الحكم أن يتميز الحاكم عن المحكوم ، أو يفضل بعض الرعية على بعض ، فإذا ما أحسَّ الناس بالمساواة خضعوا للحاكم ، وأذعنوا له ، وأطاعوا أمره ؛ لأنه لا يعمل لمصلحته الشخصية بل لمصلحة رعيته ، بدليل أنه أقلُّ منهم في كُلِّ مستويات الحياة .

فالرسول إنْ جاء مَلَكاً فإن الأُسْوة لا تتمّ به ، فإنْ أمرنا بشيء ودعانا إلى أن نفعل مثله فسوف نحتجّ عليه: كيف وأنت مَلَكٌ لا شهوةَ لك ، لا تأكل ولا تشرب ولا تتناكح ولا تتناسل ، إن هذه الأوامر تناسبك أنت ، أما نحن فلا نقدر عليها .

ومن هنا لا بُدَّ أن يكون الرسول بشراً فإنْ حمل نفسه على منهج فلا عُذْر لأحد في التخلُّف عنه ؛ لأنه يطبق ما جاء به ويدعوكم إلى الاقتداء بسلوكه .

وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً وقُلْنا : هَبْ أنك رأيتَ في الغابة أسداً يصول ويجول ويفتك بفريسته ، بالله هل يراودك أن تكون أسداً ؟ إنما لو رأيتَ فارساً على صَهْوة جواده يصول ويجول ويحصد رقاب الأعداء ، ألاَّ تتطلع إلى أن تكون مثله ؟

إذن: لا تتمّ القُدْوة ولا تصح إلا إنْ كان الرسول بشراً ، ولا داعي للتمرُّد على الطبيعة التي خلقها الله .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً . . . ﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ أي: رَدّاً على ما اقترحوه من الآيات وعلى اعتراضهم على بشرية الرسول: ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ . . ﴾ [الإسراء: 96]

والشهيد إنما يُطلَب للشهادة في قضية ما ، فما القضية هنا ؟ القضية هي قضية تعنُّت الكفار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم طلبوا منه مَا ليس في وُسْعه . والرسول لا يعنيه المتعنتون في شيء ؛ لأن أمره مع ربه عز وجل ؛ لذلك قال: ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً . . ﴾ [الإسراء: 96]

فإنْ كانت شهادة الشاهد في حوادث الدنيا تقوم على الإخبار بما حدث ، وعليها يترتب

الحكم فإن شهادة الحق سبحانه تعني أنه تعالى الشهيد الذي رأى ، والحاكم الذي يحكم ، والسلطة التنفيذية التي تنفذ .

لذلك قال: ﴿ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً . . ﴾ [الإسراء: 96]

فهو كافيك هذا الأمر ؛ لأنه كان بعباده ﴿ خَبِيراً ﴾ يعلم خفاياهم ويطّلع على نواياهم من وراء هذا التعنُّت ﴿ بَصِيراً ﴾ لا يخفي عليه شيء من أمرهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(173/464)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا) (الإسراء : 94) ، وفي سورة الكهف : (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) (الكهف : 55) ، فورد في الثانية : (وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ) ولم يرد في الأولى ، فيسأل عن ذلك ؟

(174/464)

والجواب ، والله أعلم : أن الآية الأولى تقدمها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (الإسراء : 89) ، فقوله تعالى مخبراً عن عتاة قريش : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ (الإسراء : 90) إلى الثامنة من مقترحاتهم ، وهي تمنيهم تنزل كتاب يقرؤونه ، فبالغوا في شنيع اقتراحاتهم ، وتوغلوا في مطالبهم المفصحة باليأس (من) فلاحهم ، فحصل من جملة حالهم بعدهم عن الإنابة إلى الإيمان ، فلم يكن ذكر الاستغفار ليناسب هنا ، لأنه إنما يكون مما (لا) يبلغ الكفر من المعاصي ، هذا الغالب في وروده ، أما حيث يفصح بالكفر فليس موضع ورود الاستغفار ، ولما كان المتقدم قبل آية الكهف لا يبلغ مبلغ الآية المتقدمة في الإفصاح بتمردهم وعتوهم ناسبه ذكر الاستغفار ، ألا ترى أن قوله تعالى قبل آية الكهف : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ (الكهف : 54) ، وليس قوله فيها : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ في قوله في آية الإسراء : ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (الإسراء : 89) ، لأن الجدال لا يلزم منه أن يكون مرتكبه كافراً ، وإنما مظنة الجدال التناظر في الطرفين والاحتجاج بمتقابل المذهبين إلى ما يرجع إلى هذا ، وقد قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل : 125) ، والمراد بذلك ملاطفتهم في الاحتجاج عليهم والصبر والتحمل لما عسى أن يكون منهم .

(175/464)

فلما كان الوارد في آية الكهف من وصف حالهم لا يبلغ مبلغ الوارد في آية الإسراء ورد فيه ذكر الاستغفار موازنه للين ما بني عليه من الإخبار بكثرة جدالهم ، إذ ليس كالوارد في الآية الأخرى من الإفصاح بكفرهم وسوء حالتهم ، ولم يناسب آية سورة الإسراء أن يرد فيها ذكر الاستغفار ، وإن كان حال المحكي عنهم في الآيتين غير مفارق للكفر ولا نازح عنه حال الإخبار ، وقد تقدم هذا في أول آية من هذه السورة ، ولكن تناسب النظم في الشدة واللين مراعى معتمد ، فجاء كل على ما يجب ، (والله سبحانه أعلم بما أراد) . انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 315.316 ﴾

(176/464)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا

رَسُولاً﴾:

هذه الآية يظهر تعارضها مع قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾,

ووجه الجمع أن الحصر في آية الإسراء حصر في المانع العادي والحصر في آية الكهف في المانع الحقيقي.

وإيضاحه: هو ما ذكره ابن عبد السلام من أن معنى آية الكهف وما منع الناس أن يؤمنوا إلا أن الله أراد أن تأتيهم سنة الأولين من أنواع الهلاك في الدنيا أو يأتيهم العذاب قبلاً في الآخرة، فأخبر أنه أراد أن يصيبهم أحد الأمرين ولا شك أن إرادة الله مانعة من وقوع ما ينافي مراده فهذا حصر في المانع الحقيقي لأن الله هو المانع في الحقيقة.

ومعنى آية سبحان الذي أسرى أنه ما منع الناس من الإيمان إلا استغرابهم أن الله يبعث رسولا من البشر واستغرابهم لذلك ليس مانعا حقيقيا بل عاديا يجوز تخلفه فيوجد الإيمان معه بخلاف الأول فهو حقيقي لا يمكن تخلفه ولا وجود الإيمان معه.

ذكر هذا الجمع صاحب الإتقان, والعلم عند الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿دفع إيهام الاضطراب صـ 186. 187﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) ﴾

أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم محمود بن سيحان ونعيمان بن أُصَي ومجزئ بن عمر وسلام بن مشكم فقالوا : يا محمد ، هذا الذي جئت به حق من عند الله ؟ فانا لا نراه متناسقاً كما تتناسق التوراة . فقال لهم : أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله قالوا : انا نجيئك بمثل ما تأتي به . فأنزل الله ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن . . . ﴾ الآية . قال : يقول : لو برزت الجن وأعانهم الإنس فتظاهروا ، لم يأتوا بمثل هذا القرآن .

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) ﴾

أخرج ابن جرير وابن إسحق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب ورجلا من بني عبد الدار وأبا البختري – أخا بني أسد – والأسود بن المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيهاً ومنبهاً ابني الحجاج السهميين ، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا إليه : أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك ، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً وهو يظن أنهم قد بدا لهم في أمره بدء ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم فقالوا : "يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لنعذرك ، وإنا والله . . . ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة ، فما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك . فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ؛ وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا ؛ وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ؛ وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك – وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي – فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك ، فقال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : ما بي ما تقولون . . . ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا فيئكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم . . . . فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ؛ وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

فقالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منّا ما عرضنا عليك ، فقد علمت

أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً ولا أقل مالاً ولا أشد عيشاً منا ، فاسأل ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا وليجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من قد مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخاً صدوقاً فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل ؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك ، صدقناك وعرفنا به منزلتك من عند الله ، وإنه بعثك رسولاً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بهذا بعثت ، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به ، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم . فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم . قالوا : فإن لم تفعل لنا فخر لنفسك فاسأل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وتسأله أن يجعل لك جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ويغنيك عما نراك تبتغي - فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه - حتى نعرف منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل . . . . ما أنا بالذي يسأل ربه هذا . . . وما بُعثتُ إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ؛ وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم . قالوا : فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فانا لن نؤمن لك إلا أن تفعل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك . قالوا : يا محمد ، قد علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به ويخبرك بما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً فقد أعذرنا إليك يا محمد أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا . وقال قائلهم : لن نؤمن لك

حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً . فلما قالوا ذلك ، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية فقال : يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك عند الله فلم تفعل ذلك ، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب . فوالله ما أؤمن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر ، حتى

تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك . ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ، ولما رأى من متابعتهم إياه . وأنزل عليه فيما قال له عبد الله بن أبي أمية : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ بشراً رسولاً ﴾ وأنزل عليه في قولهم لن نؤمن بالرحمن

﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت . . . . ﴾ [الرعد : 30] الآية . وأنزل عليه فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال وتقطيع الجبال ، وبعث من مضى من آبائهم الموتى ﴿

ولو أن قرآناً سيرت به الجبال . . . . ﴾ [الرعد : 31] الآية .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن بن جبير رضي الله عنه في قوله : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك ﴾ قال : نزلت في أخي أم سلمة ، عبد الله بن أبي أمية .

وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعي رضي الله عنه ، أنه قرأ ﴿ حتى تفجر لنا ﴾ خفيفة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ أي ببلدنا هذا .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ينبوعاً ﴾ قال : عيوناً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال : الينبوع ، هو الذي يجري من العين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ﴾ يقول : ضيعة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ﴾ قال : قطعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أو تأتي بالله والملائكة

قبيلاً ﴾ قال : عياناً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ قال : من ذهب .

وأخرج أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف وأبو نعيم في الحلية ، عن مجاهد رضي الله عنه قال : لم أكن أحسن ما الزخرف حتى سمعتها في قراءة عبد الله ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ قال : من ذهب .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه قال : الزخرف ، الذهب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ قال : من عند رب العالمين إلى فلان بن فلان ، يصبح عند كل رجل منا صحيفة عند رأسه موضوعة يقرؤها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أن يؤمنوا ﴾ :

" أَنْ يُؤْمِنُوا " مفعولٌ ثانٍ ل " مَنَع " ، أي/ ما مَنَعَهم إيمانَهم أو مِنْ إيمانهم ، و " أنْ قالوا " هو الفاعلُ ، و " إذ " ظرفٌ ل " مَنَعَ " ، والتقدير : وما مَنَعَ الناسَ من الإِيمانِ وقتَ مجيءِ الهُدى إياهم إلا قولُهم " أَبَعَثَ الله .

وهذه الجملةُ المنفيَّةُ يُحتمل أَنْ تكونَ مِنْ كلام الله ، فتكونَ مستأنفةً ، وأن تكونَ مِنْ كلامِ الرسولِ فتكونَ منصوبةَ المحلِّ لاندراجِها تحت القولِ في كلتا القراءتين .

قوله : ﴿ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ كما تقدَّم مِنَ الوجهين في نظيره ، وكذلك قولُه ﴿ لَنَزَّلْنَا [عَلَيْهِم] مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِي الأرض ﴾ : يجوز في " كان " هذه التمامُ ، أي : لو وُجِد وحَصَل ، و " يمشون " صفةٌ ل " ملائكةٌ " و ﴿ فِي الأرض ﴾ متعلقٌ به ، و " مطمئنين " حالٌ من

فاعل "يَمْشُون" . ويجوز أن تكونَ الناقصة ، وفي خبرها أوجهٌ ، أظهرُها : أنه الجارّ ، و " يَمْشُون " و " مطمئنين " على ما تقدَّم . وقيل : الخبر "يَمْشُون " و ﴿ فِي الأَرض ﴾ متعلّق به . وقيل : الخبرُ " مطمئنين " و " يَمْشُون " صفةٌ . وهذان الوجهان ضعيفان لأنَّ المعنى على الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 412 . 413 ﴾

(184/464)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) ﴾

تعجَّبوا مما ليس بمحلِ شُبهة ، ولكن حَمَلَهم على ذلك فَرْطُ جَهْلهم ، ثم أصرُّوا على تكذيبهم وجحدهم .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95) ﴾

الجنسُ إلى الجنسِ أميلُ ، والشكلُ بالشكلِ آنسُ ، فقال سبحانه لو كان سكانُ الأرضِ ملائكةً لجعَلْنا الرسولَ إليهم مَلَكاً ، فلمّا كانوا بَشَراً فلا ينبغي أن يُسْتَبعَدَ إرسالُ

البشر إلى البشر .

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96) ﴾

الحقّ - سبحانه - هو الحاكم وهو الشاهد ، ولا يُقَاس حُكْمه على حُكْم الخَلْق ، ولا يجوز في صفةِ المخلوقِ أن يكونَ الحاكمُ هو الشاهد ، فكما لا تشبه ذاته ذات الخَلْقِ لا تشبه صفتُه صفةَ الخَلْق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 390 ﴾

(185/464)

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (99) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (100) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تقدم أنه سبحانه وتعالى أعلم بالمهتدي والضال، وكان ختم هذه الآية مرشداً إلى أن المعنى: فمن علم منه بجوابه قابلية للخير وفقه للعمل على تلك المشاكلة، ومن علم منه قابلية للشر أضله، عطف عليه قوله تعالى: ﴿ومن يهد الله﴾ أي الذي له الأمر كله لأنه لا شريك له، بخلق الهداية في قلبه، وأشار إلى قلة المهتدي على طريقة الإحسان بإفراد ضميره، وإلى كثرة الضال بجمعه فقال تعالى: ﴿فهو﴾ أي لا غيره ﴿المهتد﴾ لا يمكن أحداً غيره أن يضله ﴿ومن يضلل﴾ فهو الضال لا هادي له، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿فلن تجد لهم﴾ أي للضالين ﴿أولياء﴾ أي أنصاراً في هذه الدنيا ﴿من دونه﴾ يهدونهم ولا ينفعونهم بشيء أراد الله غيره، ولذلك نفوا أصلاً ورأساً، لأنهم إذا انتفى نفعهم كانوا كالعدم، وإذا انتفى على الجمع انتفى عن المفرد من باب الأولى؛ فالآية من الاحتباك: خبر الأول يدل على حذف ضده ثانياً، ونتيجة الثاني تدل على حذف ضدها من الأول.

ولما كان يوم الفصل يوماً يظهر فيه لكل أحد في كل حالة من عظمته تعالى ما يضمحل معه كل عظمة قال تعالى: ﴿ونحشرهم﴾ بنون العظمة أي نجمعهم بكره ﴿يوم القيامة﴾ أي الذي هو محط الحكمة ﴿على وجوههم﴾ يمشون أو مسحوبين عليها إهانة لهم فيها كما لم يذلوها بالسجود لنا ﴿عمياً وبكماً وصماً﴾ كما كانوا في الدنيا لا ينتفعون بأبصارهم ولا نطقهم ولا أسماعهم، بل يكون ضرراً عليهم لما ينظرون من المعاطب، ويسمعون من

المصائب ، وينطقون به من المعايب ؛ قال الرازي في اللوامع إذ يحشر المرء على ما مات عليه ، فلم يكن له في الآخرة شيء إلا حصل أوله ومبدأه في الدنيا وتمامه في الآخرة - انتهى .

(186/464)

ولما كان المقام للانتقال من مقام إلى آخر ، قدم البصر لأنه العمدة في ذلك ، وثنى بالنطق لأنه يمكن الأعمى الاسترشاد ، وختم بالسمع لأنه يمكن معه وحده نوع رشاد ، وعطفها بالواو إن كان لتشريك الكل في كل من الأوصاف فللتهويل ، لأن المتكلم إذا نطق بالعاطف ظن السامع الانتقال إلى شيء آخر ، فإذا أتى بالوصف كان أروع للعلم بأن صاحبه عريق فيه ، لما تقدم في براءة ، وإن كان للتنويع فلتصويرهم بأقبح صورة من حيث إنه لا ينتفع فريق منهم بالآخر كبير نفع ، فكأنه قيل : إلى أيّ مكان يحشرون ؟ فقال تعالى : ﴿ مأواهم جهنم ﴾ تستعر عليهم وتتجهمهم ، كل واحد منهم يقاسي عذابها وحده وإن كان وجهه إلى وجه صاحبه ، لأنه لا يدرك سوى العذاب للختم على مشاعره ، فيا طولها من غربة ! ويا لها من كربة ! فكأنه قيل : هل يفتر عنهم عذابها ؟ فقيل : لا بل هم كل ساعة في زيادة ، لأنها ﴿ كلما خبت ﴾ أي أخذ لهبها في السكون عند إنضاجها لجلودهم ﴿ زدناهم ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ سعيراً ﴾ بإعادة الجلود ؛ ثم بين علة تعذيبهم ليرجع منهم من قضى

بسعادته فقال تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي العذاب العظيم ﴿ جزاؤهم بأنهم ﴾ أهل الضلالة ﴿ كفروا بآيتنا ﴾ القرآنية وغيرها ، مع ما لها من العظمة بنسبتها إلينا ، وكانوا كل يوم يزدادون كفراً ، وهم عازمون على الدوام على ذلك ما بقوا ﴿ وقالوا ﴾ إنكاراً لقدرتنا ﴿ إذا كنا عظاماً ورفاتاً ﴾ ممزقين في الأرض ؛ ثم كرروا الإنكار كأنهم على ثقة من أمرهم هذا الذي بطلانه أوضح من الشمس بقولهم : ﴿ أإنا لمبعوثون ﴾ أي ثابت بعثنا ﴿ خلقاً جديداً ﴾ فنحن نريهم جزاء على هذا الإنكار المكرر الخلق الجديد في جلودهم مكرراً كل لحظة

(187/464)

﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ [النساء : 56] ثم أتبعه بقاطع في بيان جهلهم فقال منبهاً على أنهم أولى بالإنكار عاطفاً على ما تقديره : ألم يروا أن الله الذي ابتدأ خلقهم قادر على أن يعيدهم ﴿ أو لم يروا ﴾ أي يعلموا بعيون بصائرهم علماً هو كالرؤية بعيون أبصارهم لما قام عليه من الدلائل ، ونادى بصحته من الشواهد الجلائل ﴿ أن الله ﴾ أي الملك الأعلى المحيط بكل شيء قدرة وعلماً لا غيره ﴿ الذي خلق السماوات ﴾ جمعها لما دل على ذلك من الحسن ، ولما لم يكن للأرض مثل

ذلك أفردها مريداً الجنس الصالح للجمع فقال تعالى : ﴿ والأرض ﴾ على كبر أجرامها ، وعظم أحكامها ، وشدة أجزائها ، وسعة أرجائها ، وكثرة ما فيها من المرافق والمعاون التي يمزقها ويفنيها ثم يجددها ويحييها ﴿ قادر على أن يخلق ﴾ أي يجدد في أي وقت أراد ﴿ مثلهم ﴾ بدءاً فكيف بالإعادة وهم أضغف أمراً وأحقر شأناً ﴿ و ﴾ أنه ﴿ جعل لهم أجلاً ﴾ لعذابهم أو موتهم أو بعثهم لأنه معلوم في نفسه ﴿ لا ريب فيه ﴾ بوجه من الوجوه لما تكرر لهم من مشاهدة أنه لا تؤخر نفس إذا جاء أجلها ، وكذا لا تقدم على أجلها ، فكم ممن اجتهد الضراغمة الأبطال وفحول الرجال في ضره أو قتله ؛ وهم قاطعون أنه في قبضتهم فلم يقدروا على ذلك ، ثم كان ذلك بأضعف الناس أو بأوهى سبب فعلم بذلك أنه المنفرد بالقدرة على الإيجاد والإعدام ﴿ فأبى ﴾ أي بلى قد علموا ذلك علماً كالمحسوس المرئي فتسبب عن ذلك السبب للإيمان أن أبوا - هكذا كان الأصل فأظهر تعميماً وتعليقاً بالوصف فقال : ﴿ الظالمون ﴾ أي أبى هؤلاء المتعنتون لظلمهم ﴿ إلا كفوراً ﴾ أي جحوداً لعدم الشركة .

ولما قدم في هذه السورة أنه هو المعطي وأن عطاءه الجم - الذي فات الحصر ، وفضل عن الحاجة ، وقامت به الحجة على العباد في تمام قدرته وكمال علمه - غير محظور عن أحد ، وأنهم يقتلون أولادهم مع ذلك خشية الإملاق ، وهم يطلبون أن يظهر لهم من جنس ما خلق من الينابيع والجنات والذهب والزخرف على كيفيات مخصوصة لغير حاجة ما تقدم ذكره ، وقد امتنعوا بخلاً وأنفة وجهلاً عن الاعتراف له بما أوجبه عليهم شكراً لنعمته ، واستدفاعاً لنقمته ، بعد قيام الدلائل وزوال الشبه فلا أبخل منهم لأنهم بخلوا مما يجب عليهم من الكلام كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم :

" أبخل الناس من بخل بالسلام " أمره أن ينبههم على سفههم في ذلك بقوله تعالى : ﴿ قل لو ﴾ .

(189/464)

ولما كان من حق " لو " الدخول على الأفعال ، علم أن بعدها فعلاً من جنس ما بعد تقديره : تملكون ولكنه حذفه وفصل الضمير لأن المقصود الحكم عليهم بادىء بدء فقال تعالى : ﴿ أنتم ﴾ أي دون غيركم ﴿ تملكون خزائن ﴾ عبر بصيغة منتهى الجموع ، لأن المقام جدير المبالغة ﴿ رحمة ﴾ أي إرزاق وإكرام ﴿ ربي ﴾ المحسن إليّ بإيتائي جميع ما ثبت

أمري وأوضحه ، وهي مقدوراته التي يرحم بها عباده بإضافتها عليهم ﴿ إذاً لأمسكتم ﴾ أي لوقع منكم الإمساك عن الإنفاق في بعض الوجوه التي تحتاجونها ﴿ خشية ﴾ عاقبة ﴿ الإنفاق ﴾ أي الموصل إلى الفقر ، ثم استدل على صحة هذا المفروض بالمشاهد من مضمون قوله تعالى : ﴿ وكان ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ الإنسان ﴾ أي الذي من شأنه الإنس بنفسه ، فهو لذلك لا يعقل الأمور حق عقلها ﴿ قتوراً ﴾ أي بخيلاً ممسكاً غاية الإمساك لإمكان أن يكون فقيراً فلا تراه إلا مضيقاً في النفقة على نفسه ، ومن تلزمه نفقته ، شديداً في ذلك وإن اتسعت أحواله ، وزادت على الحد أمواله ، لما فيه من صفة النقص اللازمة بلزوم الحاجة له ، طبع على ذلك فهو في غريزته بالقوة ، فكلهم يفعله إلا من وفقه الله تعالى فغلب عقله على هواه وقليل ما هم ! أي فإذا كان هذا أمركم فيما تملكونه مع الحاجة إلى الوجوه المنفق فيها فكيف تطلبون من النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما لا يملكه ، ولا ادعى القدرة عليه ؟ أو من الخالق الحكيم أن يفعل ما تعنتون به عبثاً بغير حاجة أصلاً ، لأنه إن كان لإثبات قدرته فأنتم لا تمترون فيها ، وإن كان لإثبات رسالة نبيكم فقد ثبت بأمور أعظمها هذا القرآن الذي مر آنفاً إقامة الدليل عليها به ، وهتك أستار شبهتكم في استبعاد كون الرسول بشراً ، والله تعالى قد أكرمكم بنبيكم عن أن يعاجلكم بالاستئصال عند العصيان بعد كشف الغطاء كما جرت به سنته في جميع

الأمم ، وإن كان لإثبات غناكم فهو شيء لا يغني نفوسكم فيردها عن طلب المزيد وعن التقتير لما طبعتم عليه .

(190/464)

بل تكونون عند حصول ذلك لكم لحصول الغنى كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وهو قد قضى أنه يظهر أمره على كل من ناواه وإن كره الكافرون ، وقد علم من يؤمن فييسر له الإيمان ويجعله عوناً لحزب الرحمن ، ومن لا يؤمن فهو يجعله مع أولياء الشيطان ، ويذيق الكل الهوان ، ويجعلهم وقوداً للنيران ، فلم يبق بعد هذا كله في إجابتكم إلى تعنتكم إلا العبث الذي هو سبحانه متعال عنه ، فلا وجه يحصل به الإنسان الغني إلا اتباع السنة والانسلاخ عن الهوى ، فمن وصل إلى ذلك استوى عنده الذهب والحصباء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 427 . 430﴾

(191/464)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات القوم في إنكار النبوة وأردفها بالوعيد الإجمالي وهو قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء : 96] ذكر بعده الوعيد الشديد على سبيل التفصيل ، أما قوله : ﴿ مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ﴾ فالمقصود تسلية الرسول وهو أن الذين سبق لهم حكم الله بالإيمان والهداية وجب أن يصيروا مؤمنين ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل استحال أن ينقلبوا عن ذلك الضلال واستحال أن يوجد من يصرفهم عن ذلك الضلال ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على صحة مذهبهم في الهدى والضلال والمعتزلة حملوا هذا الإضلال تارة على الإضلال عن طريق الجنة وتارة على منع الألطاف وتارة على التخلية وعدم التعرض له بالمنع وهذه المباحث قد ذكرناها مراراً فلا فائدة في الإعادة ، أما قوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ فإن قيل كيف يمكنهم المشي على وجوههم قلنا الجواب من وجهين : الأول : إنهم يسحبون على وجوههم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النار على وُجُوهِهِمْ ﴾ [القمر : 48] .

الثاني : روى أبو هريرة قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إن الذي يمشيهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، قال حكماء الإسلام الكفار أرواحهم شديدة التعلق بالدنيا ولذاتها وليس لها تعلق بعالم الأبرار وحضرة الإله سبحانه وتعالى فلما كانت وجوه قلوبهم وأرواحهم متوجهة إلى الدنيا لا جرم كان حشرهم على وجوههم ، وأما قوله : ﴿ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ فاعلم أن واحداً قال لابن عباس رضي الله عنه : أليس أنه تعالى يقول : ﴿ وَرَأَى المجرمون النار ﴾ [الكهف : 53] وقال : ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ [الفرقان : 12] وقال : ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ [الفرقان : 13] وقال : ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تجادل عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل : 111] وقال حكاية عن الكفار : ﴿ والله رَبّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] فثبت بهذه الآيات أنهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف قال ههنا : ﴿ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ أجاب ابن عباس وتلامذته عنه من وجوه .

الأول : قال ابن عباس عمياً لا يرون شيئاً يسرهم صماً لا يسمعون شيئاً يسرهم بكماً لا ينطقون بحجة .

الثاني : قال في رواية عطاء عمياً عن النظر إلى ما جعله الله لأوليائه بكماً عن مخاطبة الله ومخاطبة الملائكة المقربين صماً عن ثناء الله تعالى على أوليائه .

الثالث : قال مقاتل إنه حين يقال لهم : ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ [المؤمنون : 108] يصيرون عمياً بكماً صماً ، أما قبل ذلك فهم يرون ويسمعون وينطقون .

الرابع : أنهم يكونون رائين سامعين ناطقين في الموقف ولولا ذلك لما قدروا على أن يطالعوا كتبهم ولا أن يسمعوا إلزام حجة الله عليهم إلا أنهم إذا أخذوا يذهبون من الموقف إلى النار جعلهم الله عمياً وبكماً وصماً .

والجواب : أن الآيات السابقة تدل على أنهم في النار يبصرون ويسمعون ويصيحون ، أما قوله تعالى : ﴿ مأواهم جهنم ﴾ فظاهر ، وأما قوله : ﴿ كلما خبت زدناهم سعيرا ﴾ ففيه مباحث :

البحث الأول : قال الواحدي الخبو سكون النار ، يقال : خبت النار تخبوا إذا سكن لهبها ومعنى خبت سكنت وطفئت يقال في مصدره الخبو وأخبأها المخبىء إخباء أي أخمدها ثم قال : ﴿ زدناهم سعيرا ﴾ قال ابن قتيبة زدناهم سعيراً أي تلهباً .

البحث الثاني : لقائل أن يقول إنه تعالى لا يخفف عنهم العذاب وقوله : ﴿ كلما خبت ﴾ يدل على أن العذاب يخف في ذلك الوقت قلنا كلما خبت يقتضي سكون لهب النار ، أما لا

يدل هذا على أنه يخف العذاب في ذلك الوقت . (1)

البحث الثالث : قوله : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ ظاهره يقتضي وجوب أن تكون الحالة الثانية أزيد من الحالة الأولى وإذا كان كذلك كانت الحالة الأولى بالنسبة إلى الحالة الثانية تخفيفاً .

والجواب : الزيادة حصلت في الحالة الأولى أخف من حصولها في الحالة الثانية فكان العذاب شديداً ويحتمل أن يقال لما عظم العذاب صار التفاوت الحاصل في أوقاته غير مشعور به نعوذ بالله منه ولما ذكر تعالى أنواع هذا الوعيد قال ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ ﴾ والباء في قوله : ﴿ بأنهم كفروا ﴾ باء السببية وهو حجة لمن يقول العمل علة الجزاء ، والله أعلم .

---

(1) مقتضى الكلام أن يقال : لكن لا يدل هذا على أن يخفف العذاب إلخ .

(194/464)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (99) ﴾

اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات منكري النبوة عاد إلى حكاية شبهة منكري الحشر

والنشر ليجيب عنها وتلك الشبهة هي أن الإنسان بعد أن يصير رفاتاً ورميماً يبعد أن يعود هو بعينه وأجاب الله تعالى عنه بأن من قدر على خلق السموات والأرض لم يبعد أن يقدر على إعادتهم بأعيانهم وفي قوله : ﴿ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ قولان : الأول : المعنى قادر على أن يخلقهم ثانياً فعبر عن خلقهم ثانياً بلفظ المثل كما يقول المتكلمون أن الإعادة مثل الابتداء .

القول الثاني : المراد قادر على أن يخلق عبيداً آخرين يوحدونه ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويتركون ذكر هذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا التفسير فهو كقوله تعالى : ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم : 19] وقوله : ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ [التوبة : 39] قال الواحدي والقول هو الأول لأنه أشبه بما قبله ولما بين الله تعالى بالدليل المذكور أن البعث والقيامة أمر ممكن الوجود في نفسه أردفه بأن لوقوعه ودخوله في الوجود وقتاً معلوماً عند الله وهو قوله : ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فأبى الظالمون إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي بعد هذه الدلائل الظاهرة أبوا إلا الكفر والنفور والجحود .

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (100) ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أن الكفار لما قالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء : 90] طلبوا إجراء الأنهار والعيون في بلدتهم لتكثر أموالهم وتتسع عليهم معيشتهم فبين الله تعالى لهم أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم وشحهم ولما أقدموا على إيصال النفع إلى أحد وعلى هذا التقدير فلا فائدة في إسعافهم بهذا المطلوب الذي التمسوه فهذا هو الكلام في وجه النظم ، والله أعلم .

(195/464)

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ لَّوْ أَنتُمْ ﴾ فيه بحث يتعلق بالنحو وبحث آخر يتعلق بعلم البيان ، أما البحث النحوي : فهو أن كلمة " لو " من شأنها أن تختص بالفعل لأن كلمة " لو " تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره والاسم يدل على الذوات والفعل هو الذي يدل على الآثار والأحوال والمنتفى هو الأحوال والآثار لا الذوات فثبت أن كلمة " لو " مختصة بالأفعال وأنشدوا قول المتلمس :

لو غير أخوالي أرادوا نقيصتي . . نصبت لهم فوق العرانين مأتما

والمعنى لو أراد غير أخوالي وأما البحث المتعلق بعلم البيان فهو أن التقديم بالذكر يدل على التخصيص فقوله : ﴿ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ ﴾ دلالة على أنهم هم المختصون بهذه الحالة الخسيسة

والشح الكامل .

المسألة الثالثة :

خزائن فضل الله ورحمته غير متناهية فكان المعنى أنكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لا نهاية لها لبقيتم على الشح وهذا مبالغة عظيمة في وصفهم بهذا الشيء ثم قال تعالى :

﴿ وَكَانَ الإنسان قَتُورًا ﴾ أي بخيلاً يقال قتر يقتر قترا وأقتر إقتارا وقتر تقتيراً إذا قصر في الإنفاق فإن قيل فقد دخل في الإنسان الجواد الكريم فالجواب من وجوه .

الأول : أن الأصل في الإنسان البخل لأنه خلق محتاجاً والمحتاج لا بد أن يحب ما به يدفع الحاجة وأن يمسكه لنفسه إلا أنه قد يجود به لأسباب من خارج فثبت أن الأصل في الإنسان البخل .

الثاني : أن الإنسان إنما يبذل لطلب الثناء والحمد وللخروج عن عهدة الواجب فهو في الحقيقة ما أنفق إلا ليأخذ العوض فهو في الحقيقة بخيل .

الثالث : إن المراد بهذا الإنسان المعهود السابق : وهم الذين قالوا ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء : 90] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 51 . 53 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ومن يهد الله فهو المهتدِ ﴾

معناه من يحكم الله تعالى بهدايته فهو المهتدي بإخلاصه وطاعته .

﴿ ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ومن يحكم بضلاله فلن تجد له أولياء من دونه في هدايته .

الثاني : ومن يقض الله تعالى بعقوبته لم يوجد له ناصر يمنعه من عقابه .

﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم ، من قول العرب : قدم القوم على وجوههم إذا أسرعوا .

الثاني : أنه يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كمن يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه .

﴿ عُمْياً وبكماً وصماً ﴾ فه وجهان :

أحدهما : أنهم حشروا في النار عُمي الأبصار بُكم الألسن صُمّ الأسماع ليكون ذلك يزادة في عذابهم ، ثم أبصروا لقوله تعالى ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ﴾ [الكهف : 53] وتكلموا لقوله تعالى ﴿ دَعوا هنالك ثبوراً ﴾ [الفرقان : 13] وسمعوا ،

لقوله تعالى ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ [الفرقان : 12] .

وقال مقاتل بن سليمان : بل إذا قال لهم ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمُون ﴾ [المؤمنون : 18] صاروا عمياً لا يبصرون ، صُمّاً لا يسمعون ، بكماً لا يفقهون .

الثاني : أن حواسهم على ما كانت عليه ، ومعناه عمي عما يسرّهم ، بكم عن التكلم بما ينفعهم ، صم عما يمتعهم ، قاله ابن عباس والحسن .

﴿ مأواهم جهنم ﴾ يعني مستقرهم جهنم .

﴿ كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : كلما طفئت أوقدت ، قاله مجاهد .

الثاني : كلما سكن التهابها زدناهم سعيراً والتهاباً ، قاله الضحاك ، قال الشاعر :

وكُنّا كَالحَرِيقِ أَصَابَ غَاباً . . . فَيَخْبُو سَاعَةً وَيَهُبُّ سَاعا

وسكون التهابها من غير نقصان في آلامهم ولا تخفيف من عذابهم .

قوله عز وجل : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : خزائن الأرض الأرزاق ، قاله الكلبي .

الثاني : خزائن النعم ، وهذا أعم .

﴿ إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لأمسكتم خشية الفقر ، والإنفاق الفقر ، قاله قتادة وابن جريج .

الثاني : يعني أنه لو ملك أحد المخلوقين خزائن الله تعالى لما جاد بها كجود الله تعالى لأمرين :

أحدهما : أنه لا بدّ أن يمسك منها لنفقته وما يعود بمنفعته .

الثاني : أنه يخاف الفقر ويخشى العدم ، والله عز وجل يتعالى في جوده عن هاتين الحالتين .

﴿ وكان الإنسان قتوراً ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : مقتراً ، قاله قطرب والأخفش .

الثاني : بخيلاً ، قاله ابن عباس وقتادة .

واختلف في هذا الآية على قولين :

أحدهما : أنها نزلت في المشركين خاصة ، قاله الحسن . الثاني : أنها عامة ، وهو قول الجمهور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾

قرأ نافع ، وأبو عمرو بالياء في الوصل ، وحَذَفا ها في الوقف .

وأثبتها يعقوب في الوقف ، وحذفها الأكثرون في الحالتين .

"من يهد الله" قال ابن عباس : من يرد الله هداه ﴿ فهو المهتد ومن يُضْلِل فلن تجد لهم أولياء من دونه ﴾ يَهدونهم .

قوله تعالى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه يمشّيهم على وجوههم ، وشاهِده ما روى البخاري ومسلم في "صحيحيهما" من حديث أنس بن مالك " أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : "إِن الذي أمشاه على رجليه في الدنيا ، قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة " .

والثاني : أن المعنى : ونحشرهم مسحوبين على وجوههم ، قاله ابن عباس .

والثالث : نحشرهم مسرعين مبادرين ، فعبَّر بقوله : "على وجوههم" عن الإِسراع ، كما تقول العرب : قد مَرَّ القوم على وجوههم : إِذا أسرعوا ، قاله ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ عمياً وبكماً وصماً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : عمياً لا يرون شيئاً يَسرُّهم ، وبكماً لا ينطقون بحجّة ، وصماً لا يسمعون شيئاً يسرُّهم ، قاله ابن عباس .

وقال في رواية : عمياً عن النظر إلى ما جعل لأوليائه ، وبكماً عن مخاطبة الله ، وصماً عما مدح به أولياءه ، وهذا قول الأكثرين .

والثاني : أن هذا الحشر في بعض أحوال القيامة بعد الحشر الأول .

قال مقاتل : هذا يكون حين يقال لهم : ﴿ اخسؤوا فيها ﴾ [المؤمنون : 108] فيصيرون عمياً بكماً صماً لا يرون ولا يسمعون ولا ينطقون بعد ذلك .

قوله تعالى : ﴿ كلما خَبَتْ ﴾ قال ابن عباس : أي : سكنت .

قال المفسرون : وذلك أنها تأكلهم ، فإذا لم تُبق منهم شيئاً وصاروا فحماً ولم تجد شيئاً تأكله ، سكنت ، فيُعادُون خلقاً جديداً ، فتعود لهم .

وقال ابن قتيبة : يقال : خبت النار : إذا سكن لهبها .

(199/464)

فاللَّهب يسكن ، والجمر يعمل ، فإن سكن اللَّهب ، ولم يُطفأ الجمر ، قيل : خَمَدت تَخْمُدُ خُمُوداً ، فإن طُفئت ولم يبق منها شيء ، قيل : هَمَدت تَهْمُد هُمُوداً .

ومعنى ﴿ زدناهم سعيراً ﴾ : ناراً تتسعر ، أي : تتلهّب .

وما بعد هذا قد سبق تفسيره [الاسراء : 49] إلى قوله : ﴿ قادر على أن يخلق مثلهم ﴾ أي : على أن يخلقهم مرة ثانية ، وأراد ب "مثلهم" إياهم ، وذلك أن مِثْل الشيءِ مساوٍ له ، فجاز أن يعبّر به عن نفس الشيء ، يقال : مِثْلُك لا يفعل هذا ، أي : أنت ، ومثله قوله : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ﴾ [البقرة : 137] ، وقد تم الكلام عند قوله : ﴿ مِثْلَهم ﴾ ، ثم قال : ﴿ وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ﴾ يعني : أجل البعث ﴿ فأبى الظالمون إلا كُفوراً ﴾ أي : جحوداً بذلك الأجل .

قوله تعالى : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي ﴾ قال الزجاج : المعنى : لو تملكون أنتم ، قال المتلمِّس :

وَلَوْ غيرُ أَخْوَالِي أَرَادُوا نَقِيصَتِي . . .

نَصبْتُ لهم فَوْقَ العرانينِ مِيسَما

المعنى : لو أراد غير أخوالي .

وفي هذه الخزائن قولان .

أحدهما : خزائن الأرزاق .

والثاني : خزائن النِّعم ، فيخرج في الرحمة قولان .

أحدهما : الرِّزق .

والثاني: النِّعمة.

وتحرير الكلام: لو ملكتم ما يملكه الله عز وجل لأمسكتم عن الإنفاق خشية الفاقة.

﴿ وكان الإنسان ﴾ يعني: الكافر ﴿ قتوراً ﴾ أي: بخيلاً مُمْسِكاً؛ يقال: قَتَرَ يَقْتُرُ، وقَتَرَ يَقْتِرُ: إذا قصَّر في الإنفاق.

وقال الماوردي: لو ملك أحد من المخلوقين من خزائن الله تعالى، لما جاد كجود الله تعالى، لأمرين.

أحدهما: أنه لا بد أن يُمسِك منه لنفقته ومنفعته.

والثاني: أنه يخاف الفقر، والله تعالى منزَّه في جُوده عن الحالين.

ثم إن الله تعالى ذكر إنكار فرعون آيات موسى، تشبيهاً بحال هؤلاء المشركين، فقال: ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات ﴾ وفيها قولان.

أحدهما: أنها بمعنى المعجزات والدلالات، ثم اتفق جمهور المفسرين على سبع آيات منها، وهي: يده، والعصا، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، واختلفوا في الآيتين الآخرتين على ثمانية أقوال.

أحدها : أنهما لسانه والبحر الذي فلق له ، رواه العوفي عن ابن عباس ؛ يعني بلسانه : أنه كان فيه عقدة فحلَّها الله تعالى له .

والثاني : البحر والجبل الذي نُتق فوقهم ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : السّنون ونقص الثمرات ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والشعبي ، وعكرمة ، وقتادة .

وقال الحسن : السِّنون ونقص الثمرات آية واحدة .

والرابع : البحر والموت أُرسل عليهم ، قاله الحسن ، ووهب .

والخامس : الحَجَر والبحر ، قاله سعيد بن جبير .

والسادس : لسانه وإلقاء العصا مرتين عند فرعون ، قاله الضحاك .

والسابع : البحر والسِّنون ، قاله محمد بن كعب .

والثامن : ذكره [محمد بن إسحاق عن] محمد بن كعب أيضاً ، فذكر السبع الآيات الأولى ، إلا أنه جعل مكان يده البحر ، وزاد الطمسة والحجر ، يعني قوله : ﴿ اطمس على أموالهم ﴾ [يونس : 88] .

والثاني : أنها آيات الكتاب ، روى أبو داود السجستاني من حديث صفوان بن عسّال ، " أن يهودياً قال لصاحبه : تعال حتى نسأل هذا النبيّ ، فقال الآخر : لا تقل : إنه نبيٌّ ، فإنه لو سمع ذلك ، صارت له أربعة أعين ؛ فأتَيَاه ، فسألاه عن تسع آيات بيِّنات ، فقال : "لا

تشركوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تَسرقوا ، ولا تأكلوا الرِّبا ، ولا تمشوا بالبريء إلى السلطان ليقتلَه ، ولا تَسْحَروا ، ولا تقذفوا المحصنات ، ولا تَفِرُّوا من الزَّحف ، وعليكم خاصّةً يهودُ ألاّ تَعْدُوا في السبتِ" ، قال : فقبّلا يده ، وقالا : نشهد أنك نبيّ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(201/464)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد ﴾

أي لو هداهم الله لاهتدوا .

﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ ﴾ أي لا يهديهم أحد .

﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم ؛ من قول العرب : قدم القوم على وجوههم إذا أسرعوا .

الثاني : أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه .

وهذا هو الصحيح ؛ لحديث أنس " أن رجلاً قال : يا رسول الله ، الذين يحشرون على

وجوههم ، أيحشر الكافر على وجهه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس الذي أمشاه على الرجلين قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة " قال قتادة حين بلغه : بَلى وعِزّة ربّنا .

أخرجه البخاريّ ومسلم .

وحسبك .

﴿ عميا وبكماً وصماً ﴾ قال ابن عباس والحسن : أي عُمْيٌ عمّا يسرّهم ، بُكْمٌ عن التكلم بحجة ، صُمٌّ عما ينفعهم ؛ وعلى هذا القول حواسهم باقية على ما كانت عليه .

وقيل : إنهم يحشرون على الصفة التي وصفهم الله بها ؛ ليكون ذلك زيادة في عذابهم ، ثم يخلق ذلك لهم في النار ، فأبصروا ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَرَأَى المجرمون النار فظنوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف : 53] وتكلموا ؛ لقوله تعالى : ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ [الفرقان : 13] وسمعوا ؛ لقوله تعالى : ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ [الفرقان : 12] .

وقال مقاتل بن سليمان : إذا قيل لهم : ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] صاروا عمياً لا يبصرون صُمًّا لا يسمعون بُكماً لا يفقهون .

وقيل : عموا حين دخلوا النار لشدّة سوادها ، وانقطع كلامهم حين قيل لهم : اخسؤوا فيها ولا تكلمون .

وذهب الزفير والشهيق بسمعهم فلم يسمعوا شيئًا .

﴿ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي مستقرّهم ومقامهم .

﴿ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ أي سكنت ؛ عن الضحاك وغيره .

مجاهد طفئت .

يقال : خبت النار تخبو خبوا أي طفئت ، وأخبيتها أنا .

﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ أي نارا تتلهب .

وسكون التهابها من غير نقصان في آلامهم ولا تخفيف عنهم من عذابهم .

وقيل : إذا أرادت أن تخبو .

كقوله : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقرآن ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا ﴾

أي ذلك العذاب جزاء كفرهم ﴿ وَقَالُواْ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً ﴾ أي ترابا .

﴿ أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ فأنكروا البعث فأجابهم الله تعالى فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض قَادِرٌ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ

فِيهِ ﴾ قيل : في الكلام تقديم وتأخير ، أي أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ، وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم .

والأجل : مدّة قيامهم في الدنيا ثم موتهم ، وذلك ما لا شك فيه إذ هو مشاهد .

وقيل : هو جواب قولهم : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السمآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ .

وقيل : هو يوم القيامة .

﴿ فأبى الظالمون إِلاَّ كُفُوراً ﴾ أي المشركون إلا جحوداً بذلك الأجل وبآيات الله .

وقيل : ذلك الأجل هو وقت البعث ، ولا ينبغي أن يشكّ فيه .

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾

أي خزائن الأرزاق .

وقيل : خزائن النّعم ، وهذا أعم .

﴿ إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنفاق ﴾ من البخل ، وهو جواب قولهم : "لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً" حتى نتوسّع في المعيشة .

أي لو توسعتم لبخلتم أيضاً .

وقيل : المعنى لو ملك أحد المخلوقين خزائن الله لما جاد بها كجود الله تعالى ؛ لأمرين :

أحدهما : أنه لا بد أن يمسك منها لنفقته وما يعود بمنفعته .

الثاني : أنه يخاف الفقر ويخشى العدم .

(203/464)

والله تعالى يتعالى في وجوده عن هاتين الحالتين .

والإنفاق في هذه الآية بمعنى الفقر ؛ قاله ابن عباس وقتادة .

وحكى أهل اللغة أنفق وأصرم وأعدم وأقتر إذا قلّ ماله .

﴿ وَكَانَ الإنسان قَتُوراً ﴾ أي بخيلاً مضيقاً .

يقال : قَتَر على عياله يَقْتِر ويَقْتُر قترا وقتوراً إذا ضيق عليهم في النفقة ، وكذلك التقتير والإقتار ، ثلاث لغات .

واختلف في هذه الآية على قولين :

أحدهما : أنها نزلت في المشركين خاصة ؛ قاله الحسن .

والثاني : أنها عامة ، وهو قول الجمهور ؛ وذكره الماورديّ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(204/464)

وقال أبو حيان:

﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ ﴾

والظاهر أن قوله: ﴿ ومن يهد الله ﴾ إخبار من الله تعالى وليس مندرجاً تحت ﴿ قل ﴾ لقوله ﴿ ونحشرهم ﴾ ويحتمل أن يكون مندرجاً لمجيء ﴿ ومن ﴾ بالواو، ويكون ﴿ ونحشرهم ﴾ إخباراً من الله تعالى.

وعلى القول الأول يكون التفاتاً إذ خرج من الغيبة للتكلم، ولما تقدم دعوة الرسول إلى الإيمان وتحدى بالمعجز الذي آتاه الله، ولجوّا في كفرهم وعنادهم ولم يجد فيهم ما جاء به من الهدى أخبر بأن ذلك كله راجع إلى مشيئته تعالى وأنه هو الهادي وهو المفضل، فسلاه تعالى بذلك وأخبر تعالى على سبيل التهديد لهم والوعيد الصدق لحالهم وقت حشرهم يوم القيامة.

وقال الزمخشري: ﴿ ومن يهد الله ﴾ ومن يوفقه ويلطف به ﴿ فهو المهتدي ﴾ لأنه لا يلطف إلاّ بمن عرف أن اللطف ينفع فيه ﴿ ومن يضلل ﴾ ومن يخذل ﴿ فلن تجد لهم أولياء ﴾ أنصاراً انتهى.

وهو على طريقة الأعتزال ومن مفعول بيهد وبيضلل، وحمل على اللفظ في قوله ﴿ فهو المهتدي ﴾ فأفرد ملاحظة لسبيل الهدى وهي واحدة فناسب التوحيد التوحيد، وحمل على المعنى في قوله ﴿ فلن تجد لهم أولياء ﴾ لا على اللفظ ملاحظة لسبيل الضلال فإنها

متشعبة متعددة فناسب التشعيب والتعديد الجمع ، وهذا من المواضع التي جاء فيها الحمل على المعنى ابتداءً من غير أن يتقدّم الحمل على اللفظ وهي قليلة في القرآن ، والظاهر أن قوله ﴿ على وجوههم ﴾ حقيقة كما قال تعالى ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم .

وفي هذا حديث قيل : "يا رسول الله كيف يمشي الكافر على وجهه ؟ قال : "أليس الذي أمشاه في الدنيا على رجلين قادراً أن يمشيه في الآخرة على وجهه" " قال قتادة : بلى وعزة ربنا .

وقيل : ﴿ على وجوههم ﴾ مجاز يقال للمنصرف عن أمر خائباً مهموماً انصرف على وجهه ، ويقال للبعير كأنما يمشي على وجهه .

وقيل : هو مجاز عن سحبهم على وجوههم على سرعة من قول العرب قدم القوم على وجوههم إذا أسرعوا .

والظاهر أن قوله ﴿ عمياً وبكماً وصماً ﴾ هو حقيقة وذلك عند قيامهم من قبورهم ، ثم يرد الله إليهم أبصارهم وسمعهم ونطقهم فيرون النار ويسمعون زفيرها وينطقون بما حكى

الله عنهم .

وقيل : هي استعارات إما لأنهم من الحيرة والذهول يشبهون أصحاب هذه الصفات ، وإما من حيث لا يرون ما يسرهم ولا يسمعونه ولا ينطقون بحجة .

وقال الزمخشري : كما كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ويتصامّون عن سماعه فهم في الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقرّ أعينهم ولا يسمعون ما يلذ أسماعهم ولا ينطقون بما يقبل منهم ، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى انتهى .

وهذا قول ابن عباس والحسن قالا المعنى ﴿ عمياً ﴾ عما يسرهم ، ﴿ بكماً ﴾ عن التكلم بحجة ﴿ صماً ﴾ عما ينفعهم .

وقيل : ﴿ عمياً ﴾ عن النظر إلى ما جعل الله لأوليائه ، ﴿ بكماً ﴾ عن مخاطبة الله ، ﴿ صماً ﴾ عما مدح الله به أولياءه ، وانتصب ﴿ عمياً ﴾ وما بعده على الحال والعامل فيها ﴿ نحشرهم ﴾ .

وقيل : يحصل لهم ذلك حقيقة عند قوله ﴿ قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ فعلى هذا تكون حالاً مقدرة لأن ذلك لم يكن مقارناً لهم وقت الحشر .

﴿ كلما خبت ﴾ قال ابن عباس : كلما فرغت من إحراقهم فيسكن اللهيب القائم عليهم قدر ما يعادون ثم يثور فتلك زيادة السعير ، فالزيادة في حيزهم ، وأما جهنم فعلى حالها من الشدّة لا يصيبها فتور ، فعلى هذا يكون ﴿ خبت ﴾ مجازاً عن سكون لهبها مقدار ما تكون إعادتهم كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها ثم يعيدها ، لا يزالون على الإفناء والإعادة ليزيد ذلك في تحسيرهم على تكذيبهم ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد ، وقد دل على ذلك بقوله ﴿ ذلك جزاؤهم ﴾ والإشارة بذلك إلى ما تقدم من حشرهم على تلك الحال وصيرورتهم إلى جهنم والعذاب فيها ، والآيات تعم القرآن والحجج التي جاء بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ونص على إنكار البعث إذ هو طعن في القدرة الإلهية وهذا مع اعترافهم بأنه تعالى منشىء العالم ومخترعه ، ثم إنهم ينكرون الإعادة فصار ذلك تعجيزاً لقدرته .

وتقدم الكلام على قوله ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ في هذه السورة فأغنى عن إعادته ، ولما أنكروا البعث نبههم تعالى على عظيم قدرته وباهر حكمته فقال : ﴿ أو لم يروا ﴾ وهو استفهام إنكار وتوبيخ لهم على ما كانوا يستبعدونه من الإعادة ، واحتجاج عليهم بأنهم قد رأوا قدرة الله على خلق هذه الأجرام العظيمة التي بعض ما تحويه البشر ، فكيف يقرون بخلق هذا المخلوق العظيم ثم ينكرون إعادة بعض مما حله وذلك مما لا يحيله العقل بل هو مما يجوزه ، ثم أخبر الصادق بوقوعه فوجب قبوله

والرؤية هنا رؤية القلب وهي العلم ، ومعنى ﴿ مثلهم ﴾ من الإنس لأنهم ليسوا أشد خلقاً منهن كما قال ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء ﴾ وإذا كان قادراً على إنشاء أمثالهم من الإنس من العدم الصرف فهو قادر على أن يعيدهم كما قال ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ وهو أهون عليه .

(207/464)

وعطف قوله ﴿ وجعل لهم ﴾ على قوله ﴿ أو لم يروا ﴾ لأنه استفهام تضمن التقرير والمعنى قد علموا بدليل العقل كيت وكيت ﴿ وجعل لهم ﴾ أي للعالمين ذلك ﴿ أجلاً لا ريب فيه ﴾ وهو الموت أو القيامة ، وليس هذا الجعل واحداً في الاستفهام المتضمن التقرير ،أو إن كان الأجل القيامة لأنهم منكروها وإذا كان الأجل الموت فهو اسم جنس واقع موقع آجال : ﴿ فأبى الظالمون ﴾ وهم الواضعون الشيء غير موضعه على سبيل الاعتداء ﴿ إلاّ كفوراً ﴾ جحوداً لما أتى به الصادق من توحيد الله وإفراده بالعبادة ، وبعثهم يوم القيامة للجزاء .

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (100) ﴾

مناسبة قوله ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن ﴾ الآية أن المشركين قالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً .

فطلبوا إجراء الأنهار والعيون في بلدهم لتكثر أقواتهم وتتسع عليهم ، فبين تعالى أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم وشحهم ، ولما قدموا على إيصال النفع لأحد ، وعلى هذا فلا فائدة في إسعافهم بما طلبوا هذا ما قيل في ارتباط هذه الآية .

(208/464)

وقال العسكري : والذي يظهر لي أن المناسب هو أنه عليه السلام قد منحه الله ما لم يمنحه لأحد من النبوة والرسالة إلى الإنس والجن ، فهو أحرص الناس على إيصال الخير وإنقاذهم من الضلال يثابر على ذلك ويخاطر بنفسه في دعائهم إلى الله ، ويعرض ذلك على القبائل وأحياء العرب سمحاً بذلك لا يطلب منهم أجراً ، وهؤلاء أقرباؤه لا يكاد يجيب منهم أحد إلاّ الواحد بعد الواحد قد لجوا في عناده وبغضائه ، فلا يصل منهم إليه إلاّ الأذى ، فنبه تعالى بهذه الآية على سماحته عليه السلام وبذله ما آتاه الله ، وعلى امتناع هؤلاء أن يصل منهم شيء من الخير إليه فقال : لو ملكوا التصرف في ﴿ خزائن رحمة ﴾ الله التي هي وسعت كل شيء كانوا أبخل من كل أحد بما أوتوه من ذلك بحيث لا يصل منهم لأحد شيء من النفع

إذ طبيعتهم الإقتار وهو الإمساك عن التوسع في النفقة ، هذا مع ما أوتوه من الخزائن ، فهذه الآية جاءت مبينة تبين ما بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام من حرصه على نفعهم وعدم إيصال شيء من الخير منهم إليه ، والمستقرأ في ﴿ لو ﴾ التي هي حرف لما كان سيقع لوقوع غيره أن يليها الفعل إما ماضياً وإما مضارعاً .

كقوله ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ أو منفياً بلم أو أن وهنا في قوله ﴿ قل لو أنتم تملكون ﴾ وليها الاسم فاختلفوا في تخريجه ، فذهب الحوفي والزمخشري وابن عطية وأبو البقاء وغيرهم إلى أنه مرفوع بفعل محذوف يفسره الفعل بعده ، ولما حذف ذلك الفعل وهو تملك انفصل الضمير وهو الفاعل بتملك كقوله : .

وإن هو لم يحمل على النفس ضميها . . .

التقدير وإن لم يحمل فحذف لم يحمل وانفصل الضمير المستكن في يحمل فصار هو ، وهنا انفصل الضمير المتصل البارز وهو الواو فصار ﴿ أنتم ﴾ ، وهذا التخريج بناء على أن ﴿ لو ﴾ يليها الفعل ظاهراً ومضمراً في فصيح الكلام ، وهذا ليس بمذهب البصريين .

قال الأستاذ أبو الحسن بن عصفور : لا تلي لو إلاّ الفعل ظاهر أو لا يليها مضمراً إلاّ في ضرورة أو نادر كلام مثل : ما جاء في المثل من قولهم :

لو ذات سوار لطمتني . . .

وقال شيخنا الأستاذ أبو الحسن بن الصائغ : البصريون يصرحون بامتناع لو زيد قام لأكرمته على الفصيح ، ويجيزونه شاذاً كقولهم :

لو ذات سوار لطمتني . . .

وهو عندهم على فعل مضمر كقوله تعالى ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره ﴾ فهو من باب الاشتغال انتهى .

وخرّج ذلك أبو الحسن عليّ بن فضال المجاشعي على إضمار كان ، والتقدير ﴿ قل لو ﴾ كنتم ﴿ أنتم ﴾ تملكون فظاهر هذا التخريج أنه حذف كنتم برمته وبقي ﴿ أنتم ﴾ توكيداً لذلك الضمير المحذوف مع الفعل ، وذهب شيخنا الأستاذ أبو الحسن الصائغ إلى حذف كان فانفصل اسمها الذي كان متصلاً بها ، والتقدير ﴿ قل لو ﴾ كنتم ﴿ تملكون ﴾ فلما حذف الفعل انفصل المرفوع ، وهذا التخريج أحسن لأن حذف كان بعد ﴿ لو ﴾ معهود في لسان العرب ، والرحمة هنا الرزق وسائر نعمه على خلقه .

والكلام على ﴿ إذاً لأمسكتم ﴾ تقدم نظيره في قوله ﴿ إذاً لأذقناك ﴾ و﴿ خشية ﴾ مفعول من أجله ، والظاهر أن ﴿ الإنفاق ﴾ على مشهور مدلوله فيكون على حذف

مضاف ، أي ﴿ خشية ﴾ عاقبة ﴿ الإنفاق ﴾ وهو النفاد .

وقال أبو عبيدة : أنفق وأملق وأعدم وأصرم بمعنى واحد ، فيكون المعنى خشية الافتقار .

والقتور المسك البخيل ﴿ والإنسان ﴾ هنا للجنس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(210/464)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَن يَهْدِ الله ﴾

كلامٌ مبتدأٌ يفصل ما أشار إليه الكلامُ السابق من مجازاة العبادِ إشارةً إجمالية ، أي من يهدِه الله إلى الحق بما جاء من قبله من الهدى ﴿ فَهُوَ المهتد ﴾ إليه وإلى ما يؤدّي إليه من الثواب أو المهتدِ إلى كل مطلوب ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ﴾ أي يخلُقْ فيه الضلالَ بسوء اختياره كهؤلاء المعاندين ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ ﴾ أوثر ضميرُ الجماعة اعتباراً لمعنى (مَنْ) غِبّ ما أوثر في مقابله الإفرادُ نظراً إلى لفظها تلويحاً بوَحدة طريق الحقّ وقلةِ سالكيه وتعددِ سبلِ الضلال وكثرة الضلال ﴿ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ ﴾ من دون الله تعالى أي أنصاراً يهدونهم إلى طريق الحقّ أو إلى طريق يوصلهم إلى مطالبهم الدنيويةِ والأخروية ، أو إلى طريق النجاةِ من العذاب الذي

يستدعيه ضلالُهم، على معنى لن تجدَ لأحد منهم وليًّا على ما تقتضيه قضيةُ مقابلةِ الجمعِ بالجمع من انقسام الآحادِ إلى الآحاد ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ ﴾ التفاتٌ من الغَيبة إلى التكلم إيذاناً بكمال الاعتناءِ بأمر الحشرِ ﴿ يَوْمُ القيامة عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ على وجوههم أو مشياً، فقد روي أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف يمشون على وجوههم؟ قال:

(211/464)

"إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يُمشِيَهم على وجوههم" ﴿ عُمْيًا ﴾ حال من الضمير المجرورِ في الحال السابقة ﴿ وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ لا يُبصِرون ما يُقِرّ أعينَهم ولا ينطِقون ما يُقبل منهم ولا يسمعون ما يُلِذّ مسامعَهم لما قد كانوا في الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبرِ ولا ينطِقون بالحق ولا يستمعونه، ويجوز أن يُحشَروا بعد الحسابِ من الموقف إلى النار مُوفَيْ القُوى والحواسّ وأن يحشروا كذلك ثم يعاد إليهم قواهم وحواسُّهم، فإن إدراكاتِهم بهذه المشاعرِ في بعض المواطنِ مما لا ريب فيه ﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ إما حالٌ أو استئنافٌ وكذا قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ أي كلما سكَن لهبُها بأن أكلت جلودَهم ولحومَهم ولم يبق فيهم ما تتعلق به النارُ وتحرقه زدناهم توقداً بأن بدّلناهم جلوداً غيرَها فعادت ملتهبةً ومستعرةً، ولعل ذلك عقوبةٌ لهم على إنكارهم الإعادةَ بعد

الفناءِ بتكريرها مرةً بعد أخرى ليروها عِياناً حيث لم يعلموها برهاناً كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي ذلك العذابُ ﴿ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كَفَرُواْ بآياتنا ﴾ العقليةِ والنقليةِ الدالةِ على صحة الإعادةِ دَلالةً واضحة ، فذلك مبتدأٌ وجزاؤُهم خبرُه ويجوز أن يكون مبتدأً ثانياً وبأنهم خبرُه ، والجملةُ خبراً لذلك وأن يكون جزاؤهم بدلاً من ذلك أو بياناً له والخبرُ هو الظرف ﴿ وَقَالُواْ ﴾ منكرين أشدَّ الإنكار ﴿ أَءذَا كُنَّا عظاما ورفاتا أَءنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ إما مصدرٌ مؤكدٌ من غير لفظِه أي لمبعوثون بعثاً جديداً وإما حالٌ أي مخلوقين مستأنفين .

(212/464)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ أي ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿ أَنَّ الله خَلَقَ السموات والأرض ﴾ من غير مادةٍ مع عظمهما ﴿ قَادِرٌ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ في الصغر على أن المِثْلَ مقحَمٌ والمرادُ بالخلق الإعادةُ كما عبر عنها بذلك حيث قيل : خلقاً جديداً ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ عطف على أولم يروا فإنه في قوة قد رأوا ، والمعنى قد علموا أن من قدَر على خلق السموات والأرضِ فهو قادرٌ على خلق أمثالِهم من الإنس وجعل لهم ولبعثهم أجلاً محققاً لا ريب فيه هو يومُ القيامة ﴿ فأبى الظالمون ﴾ وُضع موضعَ الضميرِ تسجيلاً عليهم بالظلم

وتجاوز الحدّ بالمرة ﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي جحوداً .

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى ﴾ خزائنَ رزقِه التي أفاضها على كافة الموجوداتِ ، وأنتم مرتفعٌ بفعل يفسّره المذكورُ كقول حاتم

لو ذاتُ سِوارٍ لطَمَتْني . . . وفائدة ذلك المبالغةُ والدلالةُ على الاختصاص .

﴿ أَذاً لأَمْسَكْتُمْ ﴾ لبخِلتم ﴿ خَشْيَةَ الإنفاق ﴾ إذ ليس في الدنيا أحدٌ إلا وهو يختار النفعَ لنفسه ، ولو آثر غيرَه بشيء فإنما يُؤثره لِعوَض يفوقه ، فإذن هو بخيلٌ بالإضافة إلى جودِ الله سبحانه ﴿ وَكَانَ الإنسان قَتُوراً ﴾ مبالغاً في البخل لأن مبنى أمرِه على الحاجة والضِّنّة بما يحتاج إليه وملاحظةِ العِوض بما يبذُله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(213/464)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَن يَهْدِ الله ﴾

كلام مبتدأ غير داخل في حيز ﴿ قُلْ ﴾ يفصل ما أشار إليه الكلام السابق من مجازاة العباد لما أن علمه تعالى في مثل هذا الموضع مستعمل بمعنى المجازاة أي من يهد الله تعالى إلى

الحق ﴿ فَهُوَ المهتد ﴾ إليه وإلى ما يؤدي إليه من الثواب أو المهتدي إلى كل مطلوب والأكثرون حذفوا ياء المهتدي ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ﴾ يخلق فيه الضلال لسوء اختياره وقبح استعداده كهؤلاء المعاندين ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء ﴾ أي أنصاراً ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ عز وجل يهدونهم إلى طريق الحق أو إلى طريق يوصلهم إلى مطالبهم الدنيوية والأخروية أو إلى طريق النجاة من العذاب الذي يستدعيه ضلالهم على معنى لن تجد لأحد منهم ولياً على ما يقتضيه قضية مقابلة الجمع بالجمع من انقسام الآحاد على الآحاد على ما هو المشهور وقيل قال سبحانه ﴿ أَوْلِيَاء ﴾ مبالغة لأن الأولياء إذا لم تنفعهم فكيف الولي الواحد ، وضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ عائد على من باعتبار معناه كما أن ﴿ هُوَ ﴾ عائد عليه باعتبار لفظه فلذا أفرد الضمير تارة وجمع أخرى .

وفي إيثار الأفراد والجمع فيما أوثرا فيه تلويح بوحدة طريق الحق وقلة سالكيه وتعدد سبل الضلال وكثرة الضلال ، وذكر أبو حيان وتبعه بعضهم أن الجملة الثانية من المواضع التي جاء فيها الحمل على المعنى ابتداء من غير أن يتقدمه الحمل على اللفظ وهي قليلة في القرآن . وتعقب ذلك الخفاجي بأنه لا وجه له فإنه حمل فيها الضمير على اللفظ أولاً إذ في قوله تعالى : ﴿ يُضْلِلِ ﴾ ضمي محذوف مفرد إذ تقديره يضلله على الأصل وهو راجع إلى لفظ من فلا يقال إنه لم يتقدمه حمل على اللفظ ثم قال : وأغرب من ذلك ما قيل إنه قد يقال إن الحمل على اللفظ قد تقدمه في قوله سبحانه ﴿ مَن يَهْدِ الله ﴾ وإن كان في جملة أخرى اه .

وفيه أن وجهه جعل أبي حيان من مفعول ﴿ يُضْلِلِ ﴾ كما نص عليه في البحر وكذا نص على أنها في الجملة الأولى مفعول ﴿ يَهْدِ ﴾ وحيئنذ ليس هناك ضمير مفرد محذوف كما لا يخفي فتفطن ، وجوز كون الجملتين داخلتين في حيز ﴿ قُلْ ﴾ لمجيء ومن بالواو ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ ﴾ أوفق بالأول وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم للإيدان بكمال الاعتناء بأمر الحشر ، وعلى الاحتمال الثاني يجعل حكاية لما قاله الله تعالى له عليه الصلاة والسلام ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ حين يقومون من قبولهم ﴿ عَلَى وُجُوهِهِمْ في موضع الحال من الضمير المنصوب أي كائنين عليها إما مشيًا بأن يزحفون منكبين عليها ويشهد له ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أنس قال : قيل يا رسول الله كيف يحشر الناس على جوههم ؟ قال الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، والمراد كيف يحشر هذا الجنس على الوجه لأن ذلك خاص بالكفار وغيرهم يحشر على وجه آخر .

فقد أخرج أبو داود .

والترمذي وحسنه وابن جرير وغيرهم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف صنف كمشاة أي على العادة وصنف ركبان وصنف على وجوههم قيل يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم أنهم يتقون بوجوههم كل حدب " وإما سحباً بأن تجرهم الملائكة منكبين عليها كقوله تعالى ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ [القمر : 48] ويشهد له ما أخرجه أحمد .

والنسائي .

والحاكم وصححه عن أبي ذر أنه تلا هذه الآية ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ ﴾ الخ فقال : حدثني الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج فوج طاعمين كاسين راكبين وفوج يمشون ويسعون وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم ، وأخرج أحمد .

والنسائي .

والترمذي وحسنه عن معاوية بن حيدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنكم تحشرون رجالاً وركباناً وتجرون على وجوهكم ﴾ وليطلب وجه الجمع فإن لم يوجد

فالمعول عليه ما شهد له حديث الشيخين ، ولا تعين الآية أعني قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النار على وُجُوهِهِمْ ﴾ [القمر : 48] الثاني لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً لأنها في حالهم بعد دخول النار وما هنا في حالهم قبل فتغايرا ، وزعم بعضهم أن الكلام على المجاز وذلك كما يقال للمنصرف عن أمر خائباً مهموماً انصرف على وجهه فالمراد ونحشرهم يوم القيامة مهمومين خائبين ، وكأن الداعي لهذا الارتكاب أنه قد روى عن ابن عباس حمل الأحوال الآتية على المجاز وحينئذ تكون جميع الأحوال على طرز واحد ولا يخفى عليك فإياك أن تلتفت إلى تأويل نطقت السنة النبوية بخلافه ولا تعبأ بقوم يفعلون ذلك ﴿ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمّا ﴾ أحوال من الضمير المجرور في الحال السابقة ، والأول أبعد عن القيل والقال ، وجوز أبو البقاء كون ذلك بدلاً من تلك الحال وهو كما ترى .

واستظهر أبو حيان كون المراد مما ذكر حقيقته ويكون ذلك في مبدأ الأمر ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم فيرون النار ويسمعون زفيرها وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع .

نعم قد يختم على أفواههم في البين ، وقيل هو على المجاز على معنى أنهم لفرط الحيرة والذهول يشبهون أصحاب هذه الصفات أو على معنى أنهم لا يرون شيئاً يسرهم ولا يسمعون كذلك ولا ينقطون بحجة كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا يسمعونه وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس وروى أيضاً عن الحسن فنزل ما يقولونه ويسمعونه ويبصرونه منزلة العدم لعدم الانتفاع به ، ولا يعكر عليه أن بعض الآيات يدل على سلب بعض القوى عنهم لاختلاف الأوقات ، وقيل عمياً عن النظر إلى ما جعل الله تعالى لأوليائه بكما عن الكلام معه سبحانه صماً عما مدح الله تعالى به أولياءه ، وقيل : يحصل لهم ذلك حقيقة بعد و قوله تعالى لهم

﴿ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] وعلى هذا تكون الأحوال مقدرة كقوله تعالى : ﴿ مَأْوَاهُمْ ﴾ أي مستقرهم ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ على تقدير جعله حالاً ويحتمل أن يكون استئنافاً ، وقوله سبحانه : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ يحتمل أيضاً الاستئناف ويحتمل أن يكون حالاً من جهنم كما قال أبو البقاء ، وجعل العامل في الحال معنى المأوى ، وقال الطبرسي : هو حال منها لأنها توضع متلظ ومتسعر ولولا ذلك ما جعل حالاً منها .

وجوز جعله حالاً مما جعلت الجملة الأولى منه لكن بعد اعتبارها في النظم والرابط الضمير المنصوب في ﴿ زِدْنَاهُمْ ﴾ وهو كما ترى والاستئناف أقل مؤنة ، والخبو وكذا الخبو

بضمتين وتشديد وهما مصدراً خبت النار سكون اللهب قال في "البحر" يقال خبت النار تخبو إذا سكن لهبها وخمدت إذا سكن جمرها وضعف وهمدت إذا طفئت جملة، وقال الراغب: خبت النار سكن لهبها وصار عليها خباء من رماد أي غشاء، وفي "القاموس" تفيسر خبت بسكنت وطفئت وتفسير طفئت بذهب لهبها وفيه مخالفة لما في البحر والأكثرون على ما فيه.

(217/464)

ومن الغريب ما أخرجه ابن الأنباري عن أبي صالح من تفسير ﴿ خَبَتْ ﴾ في الآية بحميت وهو خلاف المشهور والمأثور، والسعير اللهب، والمعنى كلما سكن لهبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق ما تتعلق به النار وتحرقه زدناهم لهباً وتوقداً بأن أعدناهم على ما كانوا فاستعرت النار بهم وتوقدت.

أخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية إن الكفرة وقود النار فإذا أحرقتهم فلم يبق شيء صارت جمراً تتوهج فذلك خبوها فإذا بدلوا خلقاً جديداً عاودتهم، ولعل ذلك على ما قاله بعض الأجلة عقوبة لهم على إنكارهم الإعادة بعد الأفناء بتكررها مرة بعد الأخرى ليروها عياناً حيث لم يروها برهاناً

كما يفصح عند ما بعد .

واستشكل ما ذكر بأن قوله تعالى ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بدلناهم جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾ [النساء : 56] يدل على أن النار لا تتجاوز عن انضاجهم إلى إحراقهم وإفنائهم فيعارض ذلك ، وأجاب بعضهم بأن تبديلهم جلوداً غيرها بإحراقها وإفنائها وخلق غيرها فكأنه قيل كلما نضجت جلودهم أحرقناها وأفنيناها وخلقنا لهم غيرها ، وبعض بأن المراد كلما نضجت جلودهم كمال النضج بأن يبلغ شيها إلى حد لو بقيت عليه لا يحس صاحبها بالعذاب وهو مرتبة الاحتراق بدلناهم الخ ويدل على ذلك قوله تعالى :

﴿ لِيَذُوقُواْ العذاب ﴾ [النساء : 56] وقال الخفاجي : أجيب بأنه يجوز أن يحصل لجلودهم تارة النضج وتارة الإفناء أو كل منهما في حق قوم على أنه لا سد لباب المجاز بأن يجعل النضج عبارة عن مطلق تأثير النار إذ لا يحصل في ابتداء الدخول غير الإحراق دون النضج اه .

ولا يخفى ما في قوله بأن يجعل : النضج عبارة عن مطلق تأثير النار من المساهلة ، وفي قوله : إذ لا يحصل الخ منع ظاهر ، وذكر أنه أورد على الجواب الأول أن كلمة كلما تنافيه وفيه بحث

فتأمل، وربما يتوهم أن بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ﴾ [البقرة: 162] تعارضاً لأن الخبو يستلزم التخفيف وهو مدفوع بأن الخبو سكون اللهب كما سمعت واستلزامه تخفيف عذاب النار ممنوع، على أنا لو سلمنا الاستلزام، فالعذاب الذي لا يخفف ليس منحصراً بالعذاب بالنار والإيلام بحرارتها وحينئذٍ فيمكن أن يعوض ما فات منه بسكون اللهب بنوع آخر من العذاب مما لا يعلمه إلا الله تعالى.

وذكر الإمام أن قوله سبحانه: ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ يقتضي ظاهره أن الحالة الثانية أزيد من الحالة الأولى فتكون الحالة الأولى تخفيفاً بالنسبة إلى الحالة الثانية، وأجاب بأنه حصل في الحالة الأولى خوف حصول الثانية فكان العذاب شديداً.

ويحتمل أن يقال: لما عظم العذاب صار التفاوت الحاصل في أثنائه غير مشعور به نعوذ بالله تعالى منه اه، وقد يقال: ليس في الآية أكثر من ازدياد توقدهم ولعله لا يستلزم ازدياد عذابهم، والمراد من الآية كلما أحرقوا أعيدوا إلا أنه عبر بما عبر للمبالغة، ويشير إلى كون المراد ذلك قوله تعالى: ﴿ زِدْنَاهُمْ ﴾ دون زدناها فتدبر.

﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) ﴾

﴿ ذلك ﴾ أي العذاب المفهوم من قوله سبحانه ﴿ كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ [الإسراء : 97] أو إلى جميع ما ذكر من حشرهم على وجوههم عمياً وبكماً وصماً الخ ، والمفهوم مما ذكرنا مندرج فيه ﴿ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كَفَرُواْ بآياتنا ﴾ القرآنية والآفاقية الدالة على صحة الإعادة دلالة واضحة أو على صحة ما أرسلناك به مطلقاً فيشمل ما ذكر ، و﴿ ذلك ﴾ مبتدأ وجزاؤهم خبره والظرف متعلق به ، وجوز أن يكون ﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ مبتدأً ثانياً والظرف خبره والجملة خبر لذلك ، وأن يكون ﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ بدلاً من ذلك أو بياناً والخبر هو الظرف ، وقيل ذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك وما بعده مبتدأ وخبر ، وليس بشيء ﴿ وَقَالُواْ ﴾ منكرين أشد الإنكار ﴿ أَءذَا كُنَّا عظاما ورفاتا ﴾ هو في الأصل كما قال الراغب كالفتات ما تكسر وتفرق من التبن والمراد هنا بالين متفرقين ﴿ ائنا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ إما مصدر مؤكد من غير لفظه أي لمبعوثون بعثاً جديداً وإما حال أي مخلوقين مستأنفين .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾

أي ألم يتفكروا ولم يعلموا أن الله تعالى الذي قدر على خلق هذه الأجرام والأجسام الشديدة العظيمة التي بعض ما تحويه البشر ﴿ قَادِرٌ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ من الأنس أي ومن هو قادر على ذلك كيف لا يقدر على إعادتهم وهي أهون عليه جل وعلا ، وقال بعض المحققين : مثل هنا مثلها في مثلك لا يبخل أي قادر على أن يخلقهم ، والمراد بالخلق الإعادة كما عبر عنها أولاً بذلك حيث قيل : ﴿ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ [الإسراء : 98] ولا يخلو عن بعد ، وزعم بعضهم أن المراد قادر على أن يخلق عبيداً آخرين يوحدونه تعالى ، ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويتركون ذكر هذه الشبهات الفاسدة كقوله تعالى : ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم : 19] وقوله سبحانه : ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ [التوبة : 39] وفيه أنه لا يلائم السياق كما لا يخفى على ذوي الأذواق ، ثم اعلم أن ظاهر الآية أن الكفرة أنكروا إعادتهم يوم القيامة على معنى جمع أجزائهم المتفرقة وعظامهم المتفتتة وتأليفها وإفاضة الحياة عليها كما كانت في الدنيا فهو الذي عنوه بقولهم ﴿ أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ [الإسراء : 98] بعد قولهم ﴿ ائذا كنا عظاماً ورفاتاً ﴾ [الإسراء : 98] فرد عليهم بإثبات ذلك بطريق برهاني ، وعلى هذا تكون الآية أحد أدلة من يقول : إن الحشر بإعادة أجزاء الأبدان التي تتفرق كأبدان ما عدا الأنبياء عليهم السلام ومن لم يعمل خطيئة قط والمؤذنين احتساباً ونحوهم ممن حرمت أجسادهم على الأرض كما جاء في الأخبار وجمعها بعد تفرقها وعنوا بذلك الأجزاء الأصلية وهي الحاصلة في أول الفطرة

حال نفخ الروح وهي عندهم محفوظة من أن تصير جزءاً لبدن آخر فضلاً عن أن تصير جزأً أصلياً له ، والذاهبون إلى هذا هم الأقل وحكاه الآمدي بصيغة قيل لكن رجحه الفخر الرازي وذكر أن الأكثر على أن الله سبحانه يعدم الذوات بالكلية ثم يعيدها وقال : إنه الصحيح ، وكذا قال البد الزركشي ،

وذكر اللقاني أنه قول أهل السنة والمعتزلة القائلين بصحة الفناء والعدم على الأجسام بل بوقوعه وإن اختلفوا في أن ذلك هل هو بحدوث ضد أو بانتفاء شرط أو بلا ولا فذهب إلى الأخير القاضي من أهل السنة وأبو الهذيل من المعتزلة قالا : إن الله تعالى يعدم ما يريد إعدامه على نحو إيجاده إياه فيقول له عند أبي الهذيل افن فيفنى كما يقول له كن فيكون .

وذهب جمهور المعتزلة إلى الأول فقالوا : إن فناء الجوهر بحدوث ضد له وهو الفناء ثم اختلفوا فذهب ابن الاخشيد إلى أن الله تعالى يخلق الفناء في جهة من جهات الجواهر فتعدم الجواهر بأسرها ، وقال ابن شبيب : إنه تعالى يحدث في كل جوهر بعينه فناءً يقتضي عدم الجوهر في الزمان الثاني وذهب أبو علي .

وأبو هاشم واتباعهما إلى أن الله تعالى يعدم الجوهر بخلق فناء لا في محل معين منه ثم اختلفا

فقال أبو علي وأتباعه : إن الله سبحانه يخلق فناءً واحداً لا في محل فيفنى به الجواهر بأسرها وقال أبو هاشم وأتباعه أنه تعالى يخلق لكل جوهر فناء لا في محل .

وذهب إمام الحرمين وأكثر أهل السنة .

وبشر المريسي .

والكعبي من المعتزلة إلى الثاني ثم اختلفوا في تعيين الشرط فقال بشر : إنه بقاء يخلقه سبحانه لا في محل فإن لم يخلقه عدم الجوهر .

وقال الأكثر والكعبي : إنه بقاء قائم بالجوهر يخلقه جل وعلا فيه حالاً فحالاً فإذا لم يخلقه تعالى فيه انتفى الجوهر .

وقال إمام الحرمين : إنه الإعراض التي يجب اتصاف الجسم بها فإن الله تعالى شأنه يخلقها في الجسم حالاً فحالاً فمتى لم يخلقها سبحانه فيه انعدم .

وقال النظام : إنه خلق الله تعالى الجوهر حالاً فحالاً فإن الجواهر عنده لا بقاء لها بل هي متجددة بتجدد الاعراض فإذا لم يوالى عز مجده على الجوهر خلقه فني ، وأنت تعلم أن أكثر هذه الأقاويل من قبيل الأباطيل سيما القول بأن الفناء أمر محقق في الخارج ضد للبقاء قائم

بنفسه أو بالجوهر وكون البقاء موجوداً لا في محل ، ولعل وجه البطلان غني عن البيان .

واحتجوا لهذا المذهب بقوله سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : 26] وأجابوا عن الآية بأن الكفار اكتفوا بأقل اللازم وأرادوا المبالغة في الإنكار لأنه إذا لم يمكن بزعمهم الحشر بعد كونهم عظاماً ورفاتاً فعدم إمكانه بعد فنائهم بالمرة أظهر وأظهر ، وفيه أن هلاك كل شيء خروجه عن صفاته المطلوبة منه والتفرق كذلك فيقال له هلاك ويسمى أيضاً فناء عرفاً فالاحتجاج بالآيتين غير تام وإن ما قالوه في الجواب عن الآية خلاف الظاهر .

ولا يرد عليهم أن إعادة المعدوم محال لما ذكره الفلاسفة من الأدلة لما ذكره المسلمون في إبطالها .

ومن الناس من قال : إن عجب الذنب لا يفنى وإن فنى ما عداه من أجزاء البدن لحديث الصحيحين " ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب منه خلق الخلق يوم القيامة " .

وفي رواية مسلم " كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق ومنه يركب " وصحح المزني أنه يفنى أيضاً وتأول الحديث بأن المراد منه أن كل الإنسان يبلى بالتراب ويكون سبب فنائه إلا عجب الذنب فإن الله تعالى يفنيه بلا تراب كما يميت ملك الموت بلا ملك موت ، والخلق منه والتركيب يمكن أي يكون بعد إعادته فليس ما ذكر نصاً في بقائه ، ووافقه على

ذلك ابن قتيبة ، وأنت تعلم أن ظواهر الأخبار تدل على عدم فنائه مطلقاً ، وتوقف بعض العلماء عن الجزم بأحد المذهبين السابقين في كيفية الحشر .

وقال السعد : إنه الحق وهو اختيار أمام الحرمين .

وفي المواقف وشرحه للسيد السند هل يعدم الله تعالى الأجزاء البدنية ثم يعيدها أو يفرقها ويعيد فيها التأليف الحق أنه لم يثبت في ذلك شيء فلا جزم فيه نفياً ولا إثباتاً لعدم الدليل على شيء من الطرفين .

وقال حجة الإسلام الغزالي في كتاب الاقتصاد : فإن قيل ما تقولون هل تعدم الجواهر والاعراض ثم يعادان جميعاً أو تعدم الاعراض دون الجواهر ثم تعاد الاعراض فقط ؟ قلنا : كل ذلك ممكن ، والحق أنه ليس في الشرع دليل قاطع على تعيين أحد الأمرين الممكنين .

وقال بعضهم : الحق وقوع الأمرين جميعاً إعادة ما انعدم بعينه وإعادة ما تفرق بإعراضه وهو حسن ، والكلام في هذا المقام طويل جداً ولعل الله سبحانه وتعالى يمن علينا باستيفائه ولو في مواضع متعددة .

﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً ﴾ وهو ميقات إعادتهم وحشرهم أو موتهم وهو على هذا اسم

جنس لأن لكل أحد أجلاً للموت يخصه ، وقد جاء إطلاق الأجل على الموت ووجهه أنه يطلق على مدة الحياة وعلى آخرها والموت مجاور لذلك ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لا ينبغي الريب فيه والإنكار لمن تدبره أو النفي على ظاهره ، والجملة معطوفة على ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ وهي وإن كانت إنشائية وفي عطف الإخبارية عليها مقال مؤولة بخبرية والعطف على الصلة فيما مر متعذر للفصل بخبر أن .

(224/464)

وكذا على ما بعد أن المصدرية لفظاً ومعنى والمعنى كما في "الكشف" وغيره قد علموا بدليل العقل أن الله تعالى قادر على إعادتهم وقد جعل أجلاً لها لا ريب فيه فلا بد منها أي إذا كان ذلك ممكناً في نفسه واجب الوقوع بخبر الصادق لا يبقى للإنكار معنى فإن كان الأجل بمعنى ميقات إعادتهم أي يوم القيامة لقولهم ﴿ أَءذَا كُنَّا عظاما ورفاتا ﴾ [الإسراء : 98] وهو الظاهر فهو واضح ، وإن كان بمعنى الموت فوجهه أنهم قد علموا إمكانه وأنهم ميتون لا محالة منسلخون من هذه الحياة وأنه لا بد لهم من جزاء فلم يخلقوا عبثاً ولم يتركوا سدى ففيم الإنكار ، وكأنه قد اكتفى بالموت عما بعده لأنه أول القيامة ومن مات فقد قامت قيامته فالعطف في التقدير على قد علموا ، ويعلم من هذا التقرير أن الجامع

بين الجملتين لصحة العطف في غاية القوة .

وزعم القطب أن الأولى العطف على ما بعد أن المصدرية أما أولاً فلأنه أقرب ، وأما ثانياً فلأن جعل الأجل يدخل حينئذٍ تحت قدرته تعالى وتحت علمهم بخلاف ما إذا عطف على قوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ الخ ولا يخفى ما فيه على من استدارت كرة فكره على محور التحقيق ﴿ فأبى الظالمون ﴾ الذين كفروا بالآيات وقالوا ما قالوا ، ووضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم وتجاوز الحد بالمرة ﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي جحوداً .

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ ﴾

أي خزائن نعمه التي أفاضها على كافة الموجودات فالرحمة مجاز عن النعم والخزائن استعارة تحقيقية أو تخييلية ، و﴿ أَنتُمْ ﴾ على ما ذهب إليه الحوفي .

والزمخشري .

وأبو البقاء .

وابن عطية وغيرهم فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور لأن لو يمتنع أن يليها الاسم والأصل لو تملكون تملكون فلما حذف الفعل انفصل الضمير ، ومثل ذلك قول حاتم وقد أسر فلطمته جارية لو ذات سوار لطمتني ، وقول الملتمس :

ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي . . .

جعلت لهم فوق العرانين ميسما

وفائدة الحذف والتفسير على ما قيل الإيجاز فإنه بعد قصد التوكيد لو قيل تملكون تملكون لكان إطناباً وتكراراً بحسب الظاهر ، والمبالغة لتكرير الإسناد أو لتكرير الشرط فإنه يقتضي تكرر ترتب الجزاء عليه والدلالة على الاختصاص وذلك بناءً على أن ﴿ أَنتُمْ ﴾ بعينه ضمير ﴿ تَمْلِكُونَ ﴾ المؤخر فهو في المعنى فاعل مقدم وتقديم الفاعل المعنوي يفيد الاختصاص إذا ناسب المقام فيفيد الكلام حينئذٍ ترتب الإمساك ، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى المراد منه على تفردهم بملك الخزائن ويعلم منه ترتبه على ملكها بالاشتراك بالطريق الأولى ، وإلى تخريج مثل هذا التركيب على هذا الطرز ذهب البصريون بيد أن أبا الحسن بن الصائغ وغيره صرحوا بأنهم يمنعون إيلاءً لو فعلاً مضمراً في الفصيح ويجيزونه في الضرورة وفي نادر كلام ، ولعل شعر المتلمس ومثل حاتم عندهم من ذلك والحق خلاف ذلك .

وقال أبو الحسن علي بن فضالة المجاشعي : إن التقدير لو كنتم أنتم تملكون ، وظاهره أن أنتم عنده توكيد للضمير المحذوف مع الفعل وليس بشيء ، وقال أبو الحسن بن الصائغ : إن

الأصل لو كنتم تملكون فحذفت كان وحدها وانفصل الضمير فهو عنده اسم لكان محذوفة وجملة ﴿ تَمْلِكُونَ ﴾ خبرها وعلى هذا تخرج نظائره.

قال أبو حيان بعد نقل ما تقدم: وهذا التخريج أحسن لأن حذف كان بعد لو معهود في "لسان العرب"، ولا يخفى أن الكلام على ما سمعت أولاً أفيد وإن كان الظاهر أن الإمساك على هذا يكون على استمرار الملك، والمراد من الإمساك البخل وذلك لأن البخل إمساك خاص فلما حذف المفعول ووجه إلى نفس الفعل بمعنى لفعلتم الإمساك جعل كناية عن أبلغ أنواعه وأقبحها، وإلى كونه كناية عما ذكر ذهب صاحب الفرائد وغيره.

وجوز أن يكون مضمناً معنى البخل.

وتعقب بأنه ليس بشيء لفظاً ومعنى، وعلى ما ذكرنا يتخرج قولهم للبخيل ممسك ﴿ خَشْيَةَ الإنفاق ﴾ أي مخافة الفقر كما أخرجه ابن جرير.

وابن المنذر عن ابن عباس وروي نحو عن قتادة وإليه ذهب الراغب قال: يقال أنفق فلان إذا افتقر، وأبو عبيدة قال: أنفق وأملق وأعدم وأصرم بمعنى واحد، وقال بعضهم: الإنفاق بمعناه المعروف وهو صرف المال، وفي الكلام مقدر أي خشية عاقبة الإنفاق.

وجوز أن يكون مجازاً عن لازمه وهو النفاد ، ونصب ﴿ خَشْيَةَ ﴾ على أنه مفعول له ، وجعله مصدراً في موضع الحال كما جوزه أبو البقاء خلاف الظاهر ، وقد بلغت هذه الآية من الوصف بالشح الغاية القصوى التي لا يبلغها الوهم حيث أفادت أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله تعالى التي لا تتناهى وانفردوا بملكها من غير مزاحم أمسكوها من غير مقتض إلا خشية الفقر ، وإن شئت فوازن بقول الشاعر :

ولو أن دارك أنبتت لك أرضها . . .

ابرا يضيق بها فناء المنزل

وأتاك يوسف يستعيرك إبرة . . .

ليخيط قد قميصه لم تفعل

مع أن فيه من المبالغات ما يزيد على العشرة ترى التفاوت الذي لا يحصر ، وجعل غير واحد الخطاب فيها عاماً فيقتضي أن يكون كل واحد من الناس بخيلاً كما هو ظاهر ما بعد مع أنه قد أثبت لبعضهم الإيثار مع الحاجة .

وأجيب بأن ذلك بالنسبة إلى الجواد الحقيقي والفياض المطلق عز مجده فإن الإنسان إما ممسك أو منفق والإنفاق لا يكون إلا لغرض للعاقل كعوض مالي أو معنوي كثناء جميل أو خدمة واستمتاع كما في النفقة على الأهل أو نحو ذلك وما كان لعوض كان مبادلة لا مباذلة أو هو بالنظر إلى الأغلب وتنزيل غيره منزلة العدم كما قيل :

عدنا في زماننا . . .

عن حديث المكارم

من كفى الناس شره . . .

فهو في جود حاتم

(227/464)

وهذا الجواب عندي أولى من الأول وعلى ذلك يحمل قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الإنسانُ قَتُورًا ﴾ مبالغاً في البخل ، وجاء القتر بمعنى تقليل النفقة وهو بإزاء الإسراف وكلاهما مذموم ويقال قترت الشيء واقترته وقترته أي قللته وفلان مقتر فقير ، وأصل ذلك كما قال الراغب من القتار والقتر وهو الدخان الساطع من الشواء والعود ونحوهما فكأن المقتر والمقتر هو الذي يتناول من الشيء قتاره ، وقيل الخطاب لأهل مكة الذين اقترحوا ما اقترحوا من الينبوع والأنهار وغيرها ، والمراد من الإنسان كما في القول الأول الجنس ولا شك في أن جنس الإنسان مجبول على البخل لأن مبنى أمره الحاجة ، وقيل الإنسان وعليه الإمام ، ووجه ارتباط الآية بما قبلها على تخصيص الخطاب أن أهل مكة طلبوا ما طلبوا من الينبوع والأنهار لتكثر أقراتهم وتتسع عليهم فبين سبحانه أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله تعالى

لبخلوا وشحوا ولما قدموا على إيصال النفع لأحد ، والمراد التشنيع عليهم بأنهم في غاية الشح ويقترحون ما يقترحون أو المراد أن صفتهم هذه فلا فائدة في إسعافهم بما طلبوا كذا قال العسكري وغيره فالآية عندهم مرتبطة بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾

[الإسراء : 90] ويكفي على العموم اندراج أهل مكة فيه .

وقال أبو حيان : المناسب في وجه الارتباط أن يقال : إنه عليه الصلاة والسلام قد منحه الله تعالى ما لم يمنحه لأحد من النبوة والرسالة إلى الإنس والجن فهو صلى الله عليه وسلم أحرص الناس على إيصال الخير إليهم وإنقاذهم من الضلال يثابر على ذلك ويخاطر بنفسه في دعائهم إلى الله تعالى ويعرض ذلك على القبائل وأحياء العرب سمحاً بذلك لا يطلب منهم أجراً وهؤلاء أقرباؤه لا يكاد يجيب منهم أحد إلا الواحد بعد الواحد قد لجوا في عناده وبغضائه فلا يصل منهم إليه إلا الأذى فنبه تعالى شأنه بهذه الآية على سماحته عليه الصلاة والسلام وبذل ما آتاه الله تعالى وعلى امتناع هؤلاء أن يصل منهم شيء من الخير إليه صلى الله عليه وسلم فهي قد جاءت مبنية تباين ما بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم من

حرصه على نفعهم وعدم إيصال شيء من الخير منهم إليه اه .

فالارتباط بين الآية وبين مجموع الآيات السابقة من حيث أنها تشعر بحرصه صلى الله عليه وسلم على هدايتهم ولعمري إن هذا مما يأباه الذوق السليم والذهن المستقيم .

ويحتمل أن يكون وجه الارتباط اشتمالها على ذمهم بالشح المفرط كما أن ما قبلها مشتمل على ذمهم بالكفر كذلك وهما صفتان سيئتان ضرر إحداهما قاصر وضرر الأخرى متعد فتأمل فلمسلك الذهن اتساع والله تعالى أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(229/464)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) ﴾

حكى سبحانه عنهم شبهة أخرى قد تكرر في الكتاب العزيز التعرّض لإيرادها وردّها في غير موضع فقال : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ المراد : الناس على العموم ، وقيل : المراد : أهل مكة على الخصوص أي : ما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وهو المفعول الثاني لمنع ، ومعنى ﴿ إِذْ جَاءهُمُ الهدى ﴾ : أنه جاءهم الوحي من

الله سبحانه على رسوله ، وبيّن ذلك لهم وأرشدهم إليه ، وهو ظرف ل ﴿ منع ﴾ أو ﴿ يؤمنوا ﴾ أي : ما منعهم وقت مجيء الهدى أن يؤمنوا بالقرآن والنبوّة ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ ﴾ أي : ما منعهم إلاّ قولهم ، فهو في محل رفع على أنه فاعل منع ، والهمزة في ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ للإنكار منهم أن يكون الرسول بشراً ، والمعنى : أن هذا الاعتقاد الشامل لهم ، وهو إنكار أن يكون الرسول من جنس البشر ، هو الذي منعهم عن الإيمان بالكتاب وبالرسول ، وعبّر عنه بالقول للإشعار بأنه ليس إلاّ مجرد قول قالوه بأفواههم .

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب عن شبهتهم هذه فقال : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ أي : لو وجد وثبت أن في الأرض بدل من فيها من البشر ، ملائكة يمشون على الأقدام كما يمشي الإنس مطمئنين مستقرين فيها ساكنين بها .

(230/464)

قال الزجاج : ﴿ مطمئنين ﴾ : مستوطنين في الأرض ، ومعنى الطمأنينة : السكون ، فالمراد ها هنا : المقام والاستيطان ، فإنه يقال : سكن البلد فلان : إذا أقام فيها وإن كان ماشياً متقلباً في حاجاته ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مّنَ السماء مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ حتى يكون من جنسهم ، وفيه إعلام من الله سبحانه بأن الرسل ينبغي أن تكون من جنس المرسل إليهم ،

فكأنه سبحانه اعتبر في تنزيل الرسول من جنس الملائكة أمرين : الأوّل : كون سكان الأرض ملائكة ، والثاني : كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم إلى السماء ، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها ، وسمعوا من أهلها ما يجب معرفته وسماعه فلا يكون في بعثة الملائكة إليهم فائدة .

وانتصاب ﴿ بشراً ﴾ و ﴿ ملكاً ﴾ على أنهما مفعولان للفعلين ، و ﴿ رسولاً ﴾ في الموضعين وصف لهما .

وجوّز صاحب الكشاف أن يكونا حالين في الموضعين من ﴿ رسولاً ﴾ فيهما وقوّاه صاحب الكشاف ، ولعل وجه ذلك أن الإنكار يتوجه إلى الرسول المتصف بالبشرية في الموضع الأوّل ، فيلزم بحكم التقابل أن يكون الآخر كذلك .

ثم ختم الكلام بما يجري مجرى التهديد ، فقال : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي قل لهم يا محمد من جهتك : كفى بالله وحده شهيداً على إبلاغي إليكم ما أمرني به من أمور الرسالة ، وقال : ﴿ بيني وبينكم ﴾ ولم يقل : بيننا ؛ تحقيقاً للمفارقة الكلية ، وقيل : إن إظهار المعجزة على وفق دعوى النبيّ شهادة من الله له على الصدق ، ثم علّل كونه سبحانه شهيداً كافياً بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أي : عالماً بجميع أحوالهم محيطاً بظواهرها وبواطنها بصيراً بما كان منها وما يكون .

ثم بيّن سبحانه أن الإقرار والإنكار مستندان إلى مشيئته فقال : ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى ﴾ أي : من يرد الله هدايته فهو المهتدي إلى الحق أو إلى كل مطلوب ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ﴾ أي : يرد إضلاله ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء ﴾ ينصرونهم ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ يعني : الله سبحانه ، ويهدونهم إلى الحق الذي أضلهم الله عنه أو إلى طريق النجاة ، وقوله : ﴿ فَهُوَ الْمُهْتَدِى ﴾ حملاً على لفظ "من" ، وقوله : ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ ﴾ حملاً على المعنى ، والخطاب في قوله : ﴿ فَلَن تَجِدَ ﴾ إما للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح له ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ ﴾ هذا الحشر على الوجوه فيه وجهان للمفسرين : الأوّل : أنه عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم ، من قول العرب : قد مرّ القوم على وجوههم : إذا أسرعوا .

الثاني : أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم حقيقة كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في إهانته وتعذيبه ، وهذا هو الصحيح ، لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النار على وُجُوهِهِمْ ﴾ [القمر : 48] .

ولما صح في السنة كما سيأتي ، ومحل ﴿ على وجوههم ﴾ النصب على الحال من ضمير المفعول .

و ﴿ عُمْيًا ﴾ منتصب على الحال ﴿ وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ معطوفان عليه ، والأبكم : الذي

لا ينطق ، والأصمّ : الذي لا يسمع ، وهذه هيئة يبعثون عليها في أقبح صورة ، وأشنع منظر ، قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم ، ثم من وراء ذلك ﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي : المكان الذي يأوون إليه ، والجملة في محل نصب على الحال أو هي مستأنفة لا محل لها ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ أي : كلما سكن لهبها ، يقال : خبت النار تخبو خبواً : إذا خمدت وسكن لهبها .

قال ابن قتيبة : ومعنى ﴿ زدناهم سعيراً ﴾ : تسعراً ، وهو التلهب .

وقد قيل : إن في خبوّ النار تخفيفاً لعذاب أهلها ، فكيف يجمع بينه وبين قوله : ﴿ لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب ﴾ [البقرة : 162] ؟ وأجيب بأن المراد بعدم التخفيف : أنه لا يتخلل زمان محسوس بين الخبوّ والتسعر ، وقيل : إنها تخبو من غير تخفيف عنهم من عذابها .

﴿ ذلك ﴾ أي : العذاب ﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ الذي أوجبه الله لهم واستحقوه عنده ، والباء في قوله : ﴿ بأنهم كفروا بآياتنا ﴾ للسببية أي : بسبب كفرهم بها فلم يصدّقوا بالآيات التنزيلية ، ولا تفكّروا في الآيات التكوينية ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره ﴿ جزاؤهم ﴾ ، و ﴿ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ ﴾ خبر آخر ، ويجوز أن يكون ﴿ جزاؤهم ﴾ مبتدأً ثانياً ، وخبره ما

بعده ، والجملة خبر المبتدأ الأوّل .

﴿ وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عظاما ورفاتا ﴾ الهمزة للإنكار ، وقد تقدم تفسير الآية في هذه السورة ، و ﴿ خلقاً ﴾ في قوله : ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ مصدر من غير لفظه أو حال أي : مخلوقين ، فجاء سبحانه بحجة تدفعهم عن الإنكار وتردّهم عن الجحود .

فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الذى خَلَقَ السموات والأرض *قَادِرٌ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أي : من هو قادر على خلق هذا ، فهو على إعادة ما هو أدون منه أقدر ، وقيل : المراد أنه قادر على إفنائهم وإيجاد غيرهم ، وعلى القول الأوّل يكون الخلق بمعنى الإعادة ، وعلى هذا القول هو على حقيقته ، وجملة : ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ عطف على ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ ، والمعنى : قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم ، لأنهم ليسوا بأشدّ خلقاً منهنّ كما قال : ﴿ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السماء ﴾ [النازعات : 27] .

﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ وهو الموت أو القيامة ، ويحتمل أن تكون الواو للاستئناف ، وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، أي : أولم يروا أن الله الذي خلق السموات

والأرض وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم ﴿ فأبى الظالمون إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي : أبى المشركون إلاّ جحوداً ، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر للحكم عليهم بالظلم ومجاوزة الحدّ .

ثم لما وقع من هؤلاء الكفار طلب إجراء الأنهار والعيون في أراضيهم لتتسع معايشهم ، بيّن الله سبحانه أنهم لا يقنعون ، بل يبقون على بخلهم وشحهم فقال : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى ﴾ : ﴿ أنتم ﴾ مرتفع على أنه فاعل فعل محذوف يفسره ما بعده ، أي : لو تملكون أنتم تملكون على أن الضمير المنفصل مبدل من الضمير المتصل وهو الواو ، وخزائن رحمته سبحانه : هي خزائن الأرزاق .

قال الزجاج : أعلمهم الله أنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لأمسكوا شحاً وبخلاً ، وهو خشية الإنفاق ، أي : خشية أن ينفقوا فيفتقروا ، وفي حذف الفعل الذي ارتفع به أنتم ، وإيراد الكلام في صورة المبتدأ والخبر دلالة على أنهم هم المختصون بالشحّ .

قال أهل اللغة : أنفق وأصرم وأعدم وأقتر بمعنى : قلّ ماله ، فيكون المعنى : لأمسكتم خشية قلّ المال ﴿ وَكَانَ الإنسان قَتُورًا ﴾ أي : بخيلاً مضيقاً عليه .

يقال : قتر على عياله يقتر ويقتر قتراً وقتوراً : ضيق عليهم في النفقة ، ويجوز أن يراد : وكان الإنسان قتوراً أي : قليل المال ، والظاهر : أن المراد : المبالغة في وصفه بالشح ، لأن الإنسان ليس بقليل المال على العموم .

بل بعضهم كثير المال ، إلاّ أن يراد أن جميع النوع الإنساني قليل المال بالنسبة إلى خزائن الله وما عنده .

وقد اختلف في هذه الآية على قولين : أحدهما أنها نزلت في المشركين خاصة ، وبه قال الحسن ، والثاني : أنها عامة وهو قول الجمهور ، حكاه الماوردي .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال ؛ قيل يا رسول الله : كيف يحشر الناس على وجوههم قال :

" الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم " وأخرج أبو داود ، والترمذي وحسنه ، وابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقي عن أبي هريرة .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف : صنف مشاة ، وصنف ركباناً ، وصنف على وجوههم " ، ثم ذكر نحو حديث أنس .

وفي الباب أحاديث .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ قال : يعني : أنهم وقودها .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عنه في قوله : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ قال : سكنت .

وأخرج هؤلاء عنه أيضاً في الآية قال : كلما أحرقهم سعرتهم حطباً ، فإذا أحرقتهم فلم يبق منهم شيء صارت جمراً تتوهج فذلك خبوها ، فإذا بدّلوا خلقاً جديداً عاودتهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله : ﴿ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى ﴾ قال : الرزق .

وأخرج أيضاً عن عكرمة في قوله : ﴿ إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنفاق ﴾ قال : إذا ما أطعمتم أحداً شيئاً .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ خَشْيَةَ الإنفاق ﴾ قال : الفقر ﴿ وَكَانَ الإنسان قَتُورًا ﴾ قال : بخيلاً .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ خَشْيَةَ الإنفاق ﴾ قال : خشية الفاقة ﴿ وَكَانَ الإنسان قَتُورًا ﴾ قال : بخيلاً ممسكاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(235/464)

وقال القاسمي :

﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ ﴾

أي : إلى الحق بما جاء من قبله إلى الهدى : ﴿ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ ﴾ أي : يخلق فيه الضلال بسوء اختياره ، كهؤلاء المعاندين : ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ﴾ أي : أنصاراً يهدونهم ويحفظونهم من قهره ، وإنما أوثر ضمير الجماعة في (لهم) حملاً على معنى (من) وأوثر في ما قبله الإفراد ، حملاً على اللفظ . وسر الاختلاف في المتقابلين الإشارة إلى وحدة طريق الحق ، وقلة سالكيه ، وتعدد سبل الضلال وكثرة الضُّلال : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ أي : يسحبون عليها كقوله : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ [القمر : 48] .

وقال القاشاني : أي : ناكسي الرؤوس لانجذابهم إلى الجهة السفلية ! وعلى وجوداتهم وذواتهم التي كانوا عليها في الدنيا . كقوله (كما تعيشون تموتون وكما تموتون تبعثون) إذ (الوجه) يعبر به عن الذات الموجودة مع جميع عوارضها ولوازمها . أي : على الحالة الأولى من غير زيادة ونقصان . وقوله تعالى : ﴿ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً ﴾ أي : كما كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ، ويتصامّون عن استماعه ؛ فهم في الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقر أعينهم ، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى ﴾ [الإسراء : 72] . كذا في " الكشاف " .

﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ أي : سكن لهيبها ، بأن أكلت جلودهم ولحومهم : ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ أي : توقداً . بأن نبدل جلودهم ولحومهم ، فتعود ملتهبة مستعرة .

قال الزمخشري : كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء ، جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها ، ثم يعيدها . لا يزالون على الإفناء والإعادة ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم البعث . ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد .

وقد دل على ذلك بقوله : ﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ أي : لمحيون خلقاً جديداً ، بإعادة الروح فينا ، إذا تلف لحمنا وبقينا عظاماً . بل رقت عظامنا فصارت رفاتاً . ثم احتج تعالى عليهم ، ونبههم على قدرته على ذلك بقوله :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أي: يعلموا: ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أي: يوم القيامة. ينشئهم نشأة أخرى ويعيدهم كما بدأهم. والمعنى: قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السماوات والأرض، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس؛ لأنهم ليسوا بأشد خلقاً منهن. كما قال: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ ﴾ ولا الإعادة أصعب عليه من الإبداء، بل هي أهون.

قال الشهاب: ولا حاجة إلى جعل (مثل) هنا كناية عنهم. كقوله: (مثلك لا يبخل) مع أنه صحيح. ولو جعل خلق مثلهم عبارة عن الإعادة، كان أحسن: ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انقضائها. كما قال تعالى: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴾ [هود: 104]، ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ ﴾ أي: بعد قيام الحجة عليهم ووضوح الدليل: ﴿ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ أي: جحوداً وتمادياً في باطلهم وضلالهم.

لطيفة:

قال الشهاب: هذه الجملة - جملة وجعل الخ - معطوفة على جملة: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ لأنها وإن كانت إنشائية، فهي مؤولة بخبرية - كما في "شرح الكشاف" إذ معناها: قد علموا بدلالة العقل أنه قادر على البعث والإعادة: ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ ﴾ أي: لإعادتهم: ﴿ أَجَلاً ﴾ وهو يوم القيامة، يعني أنهم علموا إمكانها وإخبار الصادق بها وضربه لها أجلاً.

فيجب التصديق به . أو جعل لهم أجلاً ، وهو الموت والانسلاخ عن الحياة . ولا يخفى على عاقل أنه لم يخلق عبثاً . فلا بد أن يجزى بما عمله في هذه الدار . فلا معنى للإنكار . فظهر ارتباط المتعاطفين ، لفظاً ومعنى ، و : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ ظاهر على الثاني . وعلى الأول معناه : لا ينبغي إنكاره لمن تدبر . وقيل : إنها معطوفة على قوله : ﴿ يَخْلُقَ ﴾ .

وقوله تعالى :

(238/464)

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ أي : رزقه وسائر نعمه على خلقه : ﴿ إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ ﴾ أي : لبخلتم بها مخافة نفادها بالإنفاق ، مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً ؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم . ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُوراً ﴾ أي : بخيلاً .

تنبيهات :

الأول : هذه الآية بلغت بالمشركين ، من الوصف بالشح ، الغاية التي لا يبلغها الوهم ، كما قاله الزمخشري .

الثاني : ما اقتضاه آخر الآية من بخل كل أحد ، فأما بالنسبة إلى الجواد الحقيقي سبحانه ؛ لأن المرء إما ممسك أو منفق . والثاني لا يكون إلا لغرض للعاقل ، إما دنيوي كعوض مالي ، أو معنوي كثناء جميل أو خدمة واستمتاع ، كما في النفقة على الأهل . وما كان لعوض مالي كان مبادلة لا مباذلة . أو هو بالنظر إلى الأغلب ، وتنزيل غيره منزلة العدم كما قيل :

~عدنا في زماننا عن حديث المكارم

~من كفى الناس شره فهو في جود حاتم

أفاده الشهاب .

وقال ابن كثير : إن الله تعالى يصف الإنسان من حيث هو ، إلا من وفقه الله وهداه ، فإن البخل والجزع والهلع صفة له . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج : 19 – 22] ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز .

الثالث : ذكر هذه الآية إثر ما قبلها ، لتقرير انفراده تعالى بملك خزائن الرحمة ، وسعة كرمه وجوده وإحسانه . كما انفرد بتلك القدرة الباهرة من خلق السماوات والأرض ، كي تتجلي لهم قدرته العظمى ، وسعة خزائنه الملأى ، فيصلوا بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحقية ما يدعوهم إليه .

وذكر هذا المعنى في أسلوب بيان ما فطر عليه الإنسان ، تذكيراً له بنقصه وضعفه ، وإشفاقه وحرصه ؛ ليعلم أنه غير مخلوق سدى ، يُخلى بينه وبين ما تتقاضاه به نفسه وهواه . والمعنى : أفلا تعتبرون بسعة رحمته وعميم فضله ومما يبرهن على وحدانيته في ألوهيته ، ولا ترون ما أنتم عليه من أنكم لو ملكتم ما لا نفاد له من خزائنه ، لضننتم بها ، مما يدلكم على أنه هو مالك الملك ، وأنكم مُسخرون لأمره ؟ ! وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً ﴾ [النساء : 53] أي : لو أن لهم نصيباً في ملك الله ، لما أعطوا أحداً شيئاً ولا مقدار نقير . وقد جاء في الصحيحين : < يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه > . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 534.

537 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾

يجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ﴾ [الإسراء : 94] جمعاً بين المانع الظاهر المعتاد من الهدى وبين المانع الحقيقي وهو حرمان التوفيق من الله تعالى ، فمن أصَرّ على الكفر مع وضوح الدليل لذوي العقول فذلك لأن الله تعالى لم يوفقه .

وأسباب الحرمان غضب الله على من لا يُلقِي عقله لتلقي الحق ويتخذُ هواه رائداً له في مواقف الجد .

ويجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة ﴿ قل كفى باللَّه شهيداً بيني وبينكم ﴾ [الإسراء : 96] ارتقاء في التسلية ، أي لا يحزنك عدم اهتدائهم فإن الله حرمهم الاهتداء لما أخذوا بالعناد قبل التدبر في حقيقة الرسالة .

والمراد بالهُدى الهدى إلى الإيمان بما جاء به الرسول .

والتعريف في المهتد ﴾ تعريف العهد الذهني ، فالمعرف مساوٍ للنكرة ، فكأنه قيل : فهو مهتدٍ .

وفائدة الإخبار عنه بأنه مهتد التوطئة إلى ذكر مقابله وهو ﴿ ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء ﴾ ، كما يقال من عَرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا فُلان .

ويجوز أن تجعل التعريف في قوله : ﴿ المهتد ﴾ تعريف الجنس فيفيد قصر الهداية على الذي هداه الله قصراً إضافياً ، أي دون من تريد أنتَ هداه وأضله الله .

ولا يحتمل أن يكون المعنى على القصر الادعائي الذي هو بمعنى الكمال لأن الهدى المراد هنا هدي واحد وهو الهدي إلى الإيمان .

وحُذفت ياء ﴿ المهتد ﴾ في رسم المصحف لأنهم وقفوا عليها بدون ياء على لغة من يقف على الاسم المنقوص غيرِ المنون بحذف الياء ، وهي لغة فصيحة غير جارية على القياس ولكنها أوثرت من جهة التخفيف لثقل صيغة اسم الفاعل مع ثقل حرف العلة في آخر الكلمة .

ورسمت بدون ياء لأن شأن أواخر الكلم أن ترسم بمراعاة حال الوقف .

(241/464)

وأما في حال النطق في الوصل فقرأها نافع وأبو عَمرو بإثبات الياء في الوصل وهو الوجه ، ولذلك كتبوا الياء في مصاحفهم باللون الأحمر وجعلوها أدق من بقية الحروف المرسومة في المصحف تفرقة بينها وبين ما رسمه الصحابة كتّاب المصحف .

والباقون حذفوا الياء في النطقِ في الوصل إجراء للوصل مجرى الوقف .

وذلك وإن كان نادراً في غير الشعر إلا أن الفصحاء يُجرون الفواصل مجرى القوافي ، واعتبروا الفاصلة كل جملة تم بها الكلام ، كما دل عليه تمثيل سيبويه في كتابه الفاصلة بقوله

تعالى : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ [الفجر : 4] وقوله : ﴿ قال ذلك ما كنا نبغ ﴾ [الكهف : 64] .

وقد تقدم شيء من هذا عند قوله تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ في سورة [الرعد : 9] .

والخطاب في فلن تجد لهم أولياء من دونه ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم لأن هذا الكلام مسوق لتسليته على عدم استجابتهم له ، فنفي وجدان الأولياء كناية عن نفي وجود الأولياء لهم لأنهم لو كانوا موجودين لوجدهم هو وعرفهم .

والأولياء : الأنصار ، أي لن تجد لهم أنصاراً يخلصونهم من جزاء الضلال وهو العذاب .

ويجوز أن يكون الأولياء بمعنى متولي شأنهم ، أي لن تجد لهم من يُصلح حالهم فينقلهم من الضلال كقوله تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ [البقرة : 257] .

وجُمع الأولياء باعتبار مقابلة الجمع بالجمع ، أي لن تجد لكل واحد ولياً ولا لجماعته ولياً ، كما يقال : ركب القوم دوابهم .

ومن دونه ﴾ أي غيره .

ذكر المقصود من نفي الولي أو المآل له بذكر صورة عقابهم بقوله : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ الآية .

والحشر : جمع الناس من مواضع متفرقة إلى مكان واحد .

ولما كان ذلك يستدعي مشيهم عدي الحشر بحرف (على) لتضمينه معنى (يمشون .

وقد فهم الناس ذلك من الآية فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم كيف يمشون على وجوههم ؟ فقال : إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم .

والمقصود من ذلك الجمعُ بين التشويه والتعذيب لأن الوجه أرق تحملاً لصلابة الأرض من الرجل .

وهذا جزاء مناسب للجرم ، لأنهم روّجوا الضلالة في صورة الحق ووسموا الحق بسمات الضلال فكان جزاؤهم أن حولت وجوههم أعضاءَ مشي عِوضاً عن الأرجل .

ثم كانوا ﴿ عميا وبكما ﴾ جزاء أقوالهم الباطلة على الرسول وعلى القرآن ، و ﴿ صمّاً ﴾ جزاء امتناعهم من سماع الحق ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ [فصّلت : 5] .

وقال عنهم : ﴿ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ [طه : 125 – 126] ، وقال عنهم : ﴿ ومن كان في هذه

أعمى فهو في الآخرة أعمى ﴾ [الإسراء : 72] أي من كان أعمى عن الحق فهو في الحشر يكون محروماً من متعة النظر .

وهذه حالتهم عند الحشر .

والمأوى محل الأوِيّ ، أي النزول بالمأوى .

أي المنزل والمقر .

وخبت النار خُبُوّاً وخَبْواً .

نقص لهيبها .

والسعير : لهب النار ، وهو مشتق من سعّر النارَ إذا هيج وقودها .

وقد جرى الوصف فيه على التذكير تبعاً لتذكير اللهب .

والمعنى : زدناهم لهباً فيها .

وفي قوله : كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ إشكال لأن نار جهنم لا تخبو .

وقد قال تعالى : ﴿ فلا يخفف عنهم العذاب ﴾ [البقرة : 86] .

فعن ابن عباس : أن الكفرة وقود للنار قال تعالى : ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ [البقرة : 24] فإذا أحرقتهم النار زال اللهب الذي كان متصاعداً من أجسامهم فلا يلبثون أن يعادوا كما كانوا فيعود الالتهاب لهم .

فالخُبُوّ وازدياد الاشتعال بالنسبة إلى أجسادهم لا في أصل نار جهنم .

ولهذه النكتة سلط فعل زدناهم ﴾ على ضمير المشركين للدلالة على أن ازدياد السعير كان فيهم ، فكأنه قيل : كلما خبت فيهم زدناهم سعيراً ، ولم يقل : زدناها سعيراً .

وعندي : أن معنى الآية جارٍ على طريق التهكّم وبادىء الإطماع المسفر عن خيبة ، لأنه جعل ازدياد السعير مقترناً بكل زمان من أزمنة الخُبُوّ ، كما تفيده كلمة (كلما) التي هي بمعنى كل زمان .

وهذا في ظاهره إطماع بحصول خبو لورود لفظ الخبو في الظاهر ، ولكنه يؤول إلى يأس منه إذ يدل على دوام سعيرها في كل الأزمان ، لاقتران ازدياد سعيرها بكل أزمان خبوها .

فهذا الكلام من قبيل التمليح ، وهو من قبيل قوله تعالى : ﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ [الأعراف : 40] ، وقول إياس القاضي للخصم الذي سأله : على من قَضيت ؟ فقال : على ابن أخت خالك .

﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) ﴾

استئناف بياني لأن العقاب الفظيع المحكي يثير في نفوس السامعين السؤال عن سبب تركب

هذه الهيئة من تلك الصورة المفظعة ، فالجواب بأن ذلك بِسبب الكفر بالآيات وإنكار المعاد .

فالإشارة إلى ما تقدم من قوله : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ [الإسراء : 97] إلى آخر الآية بتأويل : المذكور .

والجزاء : العوض عن عمل .

والباء في بأنهم كفروا ﴾ للسببية .

والظاهر أن جملة ﴿ وقالوا أإذا كنا عظاما ﴾ الخ .

عطف على جملة ﴿ بأنهم كفروا ﴾ .

فذكر وجه اجتماع تلك العقوبات لهم ، وذُكر سببان :

أحدهما : الكفر بالآيات ويندرج فيه صنوف من الجرائم تفصيلاً وجمعاً تناسبها العقوبة التي في قوله : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم ﴾ [الإسراء : 97] .

وثانيهما : ﴿ إنكارهم البعث بقولهم : ﴿ أإذا كنا عظاما ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقا جديداً ﴾ المناسب له أن يُعاقبوا عقاباً يناسب ما أنكروه من تجدد الحياة بعد المصير رفاتاً ، فإن رفات الإحراق أشد اضمحلالاً من رفات العظام في التراب .

والاستفهام في حكاية قولهم : ﴿ أإذا كنا عظاماً ﴾ وقوله : ﴿ أئنا لمبعوثون ﴾ إنكاري .

وتقدم اختلاف القراء في إثبات الهمزتين في قوله : ﴿ أإذا ﴾ وفي إثباتها في قوله : ﴿ أإذا لمبعوثون ﴾ في نظير هذه الآية من هذه السورة .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾

جملة ﴿ أولم يروا ﴾ عطف على جملة ﴿ ذلك جزاؤهم ﴾ [الإسراء : 98] باعتبار ما تضمنته الجملة المعطوفُ عليها من الردع عن قولهم : ﴿ أإذا كنا عظاما ورفاتاً ﴾ [الإسراء : 98] .

فبعدَ زجرهم عن إنكارهم البعث بأسلوب التهديد عطف عليه إبطال اعتقادهم بطريق الاستدلال بقياس التمثيل في الإمكان ، وهو كاف في إقناعهم هنا لأنهم إنما أنكروا البعث باعتقاد استحالته كما أفصح عنه حكاية كلامهم بالاستفهام الإنكاري .

وإحالتهم ذلك مستندة إلى أنهم صاروا عظاماً ورفاتاً ، أي بتعذر إعادة خلق أمثال تلك الأجزاء ، ولم يستدلوا بدليل آخر ، فكان تمثيل خلق أجسام من أجزاء بالية بخلق أشياء

أعظم منها من عدم أوْغَل في الفناء دليلاً يقطع دعواهم .

والاستفهام في أو لم يروا ﴾ إنكاري مشوب بتعجيب من انتفاء علمهم ، لأنهم لما جرت عقائدهم على استبعاد البعث كانوا بحال من لم تظهر له دلائل قدرة الله تعالى ، فيؤول الكلام إلى إثبات أنهم علموا ذلك في نفس الأمر .

والرؤية مستعملة في الاعتقاد لأنها عديت إلى كون الله قادراً ، وذلك ليس من المبصرات .

والمعنى : أو لم يعلموا أن الله قادر على أن يخلق مثلهم .

(245/464)

وضمير ﴿ مثلهم ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ يروا ﴾ وهو ﴿ الناس ﴾ في قوله : ﴿ وما منع الناس ﴾ [الإسراء : 94] أي المشركين .

والمِثْل : المماثل ، أي قادر على أن يخلق ناساً أمثالهم ، لأن الكلام في إثبات إعادة أجسام المردود عليهم لا في أن الله قادر على أن يخلق خلقاً آخر ، ويكون في الآية إيماء إلى أن البعث إعادة أجسام أخرى عن عدم ، فيخلق لكل ميت جسد جديد على مِثال جسده الذي كان في الدنيا وتوضع فيه الروح التي كانت له .

ويجوز أن يكون لفظ مِثل هنا كناية عن نفس ما أضيف إليه ، كقول العرب : مثلك لا يبْخل ،

وقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى : 11] على أحد تأويلين فيه ، أي على جعل الكاف الداخلة على لفظ مثله غيرَ زائدة .

والمعنى : قادر على أن يخلقهم ، أي أن يعيد خلقهم ، فإن ذلك ليس بأعجب من خلق السماوات والأرض .

ولعلمائنا طرق في إعادة الأجسام عند البعث فقيل : تكون الإعادة عن عدم ، وقيل تكون عن جمع ما تَفرق من الأجسام .

وقيل : يَنبت من عَجْب ذنب كل شخص جسد جديد مماثل لجسده كما تنبت من النواة شجرة مماثلة للشجرة التي أثمرت ثمرةَ تلك النواة .

ووصف اسم الجلالة بالموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر ، وهو الإنكار عليهم ، لأن خلق السماوات والأرض أمر مشاهد معلوم ، وكونه من فعل الله لا ينازعون فيه .

وجملة وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ﴾ معطوفة على جملة ﴿ أو لم يروا ﴾ لتأويلها بمعنى قد رأوا ذلك لو كان لهم عقول ، أي تحققوا أن الله قادر على إعادة الخلق وقد جعل لهم أجلاً لا ريب فيه .

والأجل : الزمان المجعول غايةً يُبلغ إليها في حال من الأحوال .

وشاع إطلاقه على امتداد الحياة ، وهو المدة المقدرة لكل حي بحسب ما أودع الله فيه من سلامة آلات الجسم ، وما علمه الله من العوارض التي تعرض له فتخرم بعض تلك السلامة أو

تقويها .

والأجل هنا محتمل لإرادة الوقت الذي جعل لوقوع البعث في علم الله تعالى .

(246/464)

ووجه كون هذا الجعل لهم أنهم داخلون في ذلك الأجل لأنهم من جملة من يُبعث حينئذٍ ، فتخصيصهم بالذكر لأنهم الذين أنكروا البعث ، والمعنى : وجعل لهم ولغيرهم أجلاً .

ومعنى كون الأجل لا ريب فيه : أنه لا ينبغي فيه : ريب ، وأن ريب المرتابين فيه مكابرة أو إعراض عن النظر ، فهو من باب قوله : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ [البقرة : 2] .

ويجوز أن يكون الأجل أجل الحياة ، أي وجَعل لحياتهم أجلاً ، فيكون استدلالاً ثانياً على البعث ، أي ألم يروا أنه جعل لهم أجلاً لحياتهم ، فما أوجدهم وأحياهم وجعل لحياتهم أجلاً إلا لأنه سيعيدهم إلى حياة أخرى ، وإلا لَمَا أفناهم بعد أن أحياهم ، لأن الحكمة تقتضي أن ما يوجده الحكيم يحرص على بقائه وعدم فنائه ، فما كان هذا الفناء الذي لا ريب فيه إلا فناءً عارضاً لاستقبال وجود أعظم من هذا الوجود وأبقى .

وعلى هذا الوجه فوجه كون هذا الجعل لهم ظاهر لأن الآجال آجالهم .

وكونه لا ريب فيه أيضاً ظاهر لأنهم لا يرتابون في أن لحياتهم آجالاً .

وقد تضمن قوله : لهم أجلا ﴾ تعريضاً بالمنة بنعمة الإمهال على كلا المعنيين وتعريضاً بالتذكير بإفاضة الأرزاق عليهم في مدة الأجل لأن في ذكر خلق السماء والأرض تذكيراً بما تحتويه السماوات والأرض من الأرزاق وأسبابها .

وجملة ﴿ فأبى الظالمون إلا كفوراً ﴾ تفريع على الجملتين باعتبار ما تضمنتاه من الإنكار والتعجيب ، أي علموا أن الذي خلق السماوات والأرض قادر على إعادة الأجسام ومع علمهم أبوا إلا كفوراً .

فالتفريع من تمام الإنكار عليهم والتعجيب من حالهم .

واستثناء الكفور من الإباية تأكيد للشيء بما يشبه ضده .

والكفور : جحود النعمة ، وتقدم آنفاً .

واختير "الكفور" هنا تنبيهاً على أنهم كفروا بما يجب اعتقاده ، وكفروا نعمة المنعم عليهم فعبدوا غير المنعم .

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾

اعتراض ناشىء عن بعض مقترحاتهم التي توهموا عدم حصولها دليلاً على انتفاء إرسال بَشيرٍ ، فالكلام استئناف لتكملة رد شبهاتهم .

وهذا رد لما تضمنه قولهم : ﴿ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ إلى قوله : ﴿ تفجيراً ﴾ [الإسراء : 90 - 91] ، وقولهم : ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ [الإسراء : 93] من تعذر حصول ذلك لعظيم قيمته .

ومعنى الرد : أن هذا ليس بعظيم في جانب خزائن رحمة الله لو شاء أن يظهره لكم .

وأدمج في هذا الرد بيانُ ما فيهم من البخل عن الإنفاق في سبيل الخير .

وأدمج في ذلك أيضاً تذكيرهم بأن الله أعطاهم من خزائن رحمته فكفروا نعمته وشكروا الأصنام التي لا نعمة لها .

ويصلح لأن يكون هذا خطاباً للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم كل على قدر نصيبه .

وشأن (لو) أن يليها الفعل ماضياً في الأكثر أو مضارعاً في اعتبارات ، فهي مختصة بالدخول على الأفعال ، فإذا أوقعوا الاسم بعدها في الكلام وأخروا الفعل عنه فإنما يفعلون ذلك لقصدٍ بليغ : إما لقصد التقوي والتأكيد للإشعار بأن ذكر الفعل بعد الأداة ثم ذكر فاعله ثم ذكر الفعل مرةً ثانية تأكيدٌ وتقويةٌ ؛ مثل قوله : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك ﴾ [التوبة : 6] وإما للانتقال من التقوي إلى الاختصاص ، بناءً على أنه ما قدم الفاعل من مكانه إلا لمقصد طريقٍ غير مطروق .

وهذا الاعتبار هو الذي يتعين التخريج عليه في هذه الآية ونحوها من الكلام البليغ، ومنه قول عُمر لأبي عبيدة لَوْ غيرُك قالها.

والمعنى: لو أنتم اختصصتم بملك خزائن رحمة الله دون الله لَما أنفقتم على الفقراء شيئاً.

وذلك أشد في التقريع وفي الامتنان بتخييل أن إنعام غيره كالعدم.

وكلا الاعتبارين لا يُنَاكد اختصاص (لو) بالأفعال للاكتفاء بوقوع الفعل في حَيزها غيرَ مُوال إياها وموالاته إياها أمر أغلبي، ولكن لا يجوز أن يقال: لو أنت عالم لبذذت الأقران.

واختير الفعل المضارع لأن المقصود فرض أن يملكوا ذلك في المستقبل.

(248/464)

وأمسكتم ﴾ هُنا منزل منزلة اللازم فلا يقدر له مفعول، لأن المقصود: إذن لاتصفتم بالإمساك، أي البخل.

يقال: فلان مُمسك، أي بخيل.

ولا يراد أنه ممسك شيئاً معيناً.

وأكد جواب (لو) بزيادة حرف (إذن) فيه لتقوية معنى الجوابية، ولأن في (إذن) معنى الجزاء كما تقدم آنفاً عند قوله: ﴿ قل لو كان معه آلهة كما تقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش

سبيلا ﴾ [الإسراء : 42] .

ومنه قول بشر بن عَوانة:

أفاطم لو شهدت ببطن خَبْتٍ . . .

وقد لاقَى الهزبرُ أخاكِ بشرَا

إذن لرأيتِ لَيْثا أمَّ لَيثا . . .

هِزَبْرا أغلبا لاقَى هِزبرا

وجملة وكان الإنسان قتوراً ﴾ حالية أو اعتراضية في آخر الكلام ، وهي تفيد تذييلاً لأنها عامةُ الحكم .

فالواو فيها ليست عاطفة .

والقتور : الشديد البخل ، مشتق من القتر وهو التضييق في الإنفاق . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض قَادِرٌ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ

﴾ .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن من خلق السموات والأرض مع عظمهما قادر على بعث الإنسان بلا شك . لأن من لق الأعظم الأكبر فهو على خلق الأصغر قادر بلا شك .

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر . كقوله : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [غافر : 57] الآية ، أي من قدر على خلق الأكبر فهو قادر على خلق الأصغر . وقوله : ﴿ أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ على أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بلى ﴾ [يس : 81] ، وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى بلى ﴾ [الأحقاف : 33] ، وقوله : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا والجبال أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [النازعات : 27-33] .

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (100) ﴾

بين تعالى في هذه الآية : أن بني آدم لو كانوا يملكون خزائن رحمته – اي خزائن الأرزاق والنعم – لبخلوا بالرزق على غيرهم ، ولأمسكوا عن الإعطاء . خوفاً من الإنفاق لشدة بخلهم .

وبين أن الإنسان قتور : أي بخيل مضيق . من قولهم : قتر على عياله ، أي ضيق عليهم .

وبين ذا المعنى في مواضع أخر . كقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الملك فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ الناس نَقِيراً ﴾ [النساء : 53] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً إِلاَّ المصلين ﴾ [المعارج : 19-22] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

والمقرر في علم العربية أن " لو " لا تدخل إلا على الأفعال . فيقدر لها في الآية فعل محذوف ، والضمير المرفوع بعد " لو " أصله فاعل الفعل المحذوف . لما حذف الفعل فصل الضمير .

والأصل قل لو تملكون ، فحذف الفعل فبقيت الواو فجعلت ضميراً منفصلاً : هو أنتم .

هكذا اله غير واحد ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ﴾

سبق أنْ قلْنا : إن الهداية نوعان: هداية الدلالة المطلقة والتي تكون لجميع الخلق المؤمن والكافر ، فقد دلَّ الله المؤمن والكافر على الطريق المستقيم وبيَّنه لهم وأرشدهم إليه .

والأخرى: هداية التوفيق والمعونة للقيام بمطلوبات المنهج الذي آمنوا به ، وهذه خاصّة بالمؤمن ، فبعد أنْ دلَّه الله آمن وصدّق واعترف لله تعالى بالفضل والجميل ، بأن أنزل له منهجاً ينظم حياته . فأتحفه الله تعالى بهداية التوفيق والمعونة .

وعن الهداية يقول الحق سبحانه: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى .. ﴾ [فصلت: 17]

أي: دَلَلْناهم على الطريق المستقيم ، لكنهم استحبُّوا العمى والضلال على الهدى ، فمنع الله عنهم معونته وتوفيقه .

والحق سبحانه يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بأسلوبين قرآنيين يوضّحان هذيْن النوعيْن من الهداية ، يقول تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .. ﴾ [القصص: 56]

فنفى عن رسول الله هداية التوفيق والمعونة ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لا يملكها ، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: 52]

فأثبتَ له هداية البيان والدلالة ؛ لأن هذه هي مهمته كمبلّغ عن الله ، وهكذا أثبتَ له الحدث ونفاه عنه ؛ لأن الجهة مُنفكّة أي: أن جهة الإثبات غير جهة النفي ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . ﴾ [الروم: 6-7]

(252/464)

فمرة: نفَى عنهم العلم ، ومرة أخرى: أثبتَ لهم العلم . والمراد أنهم لا يعلمون حقائق الأمور ، ولكنهم يعلمون العلوم السطحية الظاهرة منها . ونحن نكرّر مثل هذه القضايا لكي تستقرّ في النفس الإنسانية ، وفي مواجيد المتدينين فينتفعوا بها .

ومن ذلك أيضاً قول الحق سبحانه: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى . . ﴾ [الأنفال: 17]

فأثبت للرسول رَمْياً ، ونفى عنه رَمْياً ، لكن إذا جاء هذا الكلام من بليغ حكيم فاعلم أن الجهة مُنفكّة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر أخذ حَفْنة من التراب ورمى بها نحو أعدائه ، وهذا هو الرّمْي الذي أثبتته الآية ، وقد تولّتْ القدرة الإلهية إيصال ذرات هذه الحفنة إلى عيون الأعداء ، فأصابتهم جميعاً وشغلْتهم عن القتال ، وهذا هو الرَّمْي الذي

نفاه الحق عن رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولتقريب هذه المسألة: ابنك الذي تحمله على المذاكرة وتُرغمه عليها يأتي بالكتب ويضعها أمامه ويُقلِّب فيها ليوهمك أنه يذاكر ، فإذا ما راجعت معه ما ذاكر لا تجدْه حصَّل شيئاً فتقول له: ذاكرتَ وما ذاكرت ، فتُثبِت له الحدث مرة ، وتنفيه عنه أخرى ؛ لأنه ذاكر شكلاً ، ولم يذاكر موضوعاً .

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يهدي الجميع هداية إرشاد وبيان ودلالة ، ويختص مَنْ آمن بهداية المعونة والتوفيق للقيام بمقتضيات المنهج ، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾

[محمد: 17]

وقال عن الآخرين: ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الصف: 7] لكن يهدي العادلين .

وقال: ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف: 5] . . لكن يهدي الطائعين .

وقال: ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 264] . . لكن يهدي المؤمنين .

إذن: بيَّن الحق سبحانه في أساليب القرآن مَنْ شاء هدايته، أما مَن آثر الكفر وصمم ألاَّ يؤمن فهو وشأنه، بل ويزيده الله من الكفر ويختم على قلبه، كما قال تعالى: ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: 110]

نعود إلى ﴿ مَن ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ. . ﴾ [الإسراء: 97]

قلنا: إن (مَن) اسم موصول بمعنى الذي، واستخدام (مَن) كاسم موصول لا يقتصر على (الذي) فقط، بل تستخدم لجميع الأسماء الموصولة: الذي، التي، اللذان، اللتان، الذين، اللاتي. فتقول: مَنْ جاءك فأكرِمْه، ومَنْ جاءتك فأكرمْها، ومَنْ جاءاك فأكرمهم، ومَنْ جاءتاك فأكرمهما، ومَنْ جاءوك فأكرمهم، ومَنْ جِئْنَكَ فأكرمْهُن.

فهذه ستة أساليب تؤديها (مَن) فهي -إذن- صالحة للمذكّر وللمؤنّث وللمفرد وللمثنى وللجمع، وعليك أن تلاحظ (مَنْ) في الآية: ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ. . ﴾ [الإسراء: 97] جاءت (مَنْ) دالَّة على المفرد المذكر، وهي في نفس الوقت دالّة على المثنى والجمع المذكر والمؤنث، فنقول: مَنْ يهدِهَا الله فهي المهتدية، ومَنْ يهدهم الله فهم المهتدون. وهكذا.

ونسأل: لماذا جاءت (مَنْ) دالة على المفرد المذكر بالذات دون غيره في مجال الهدى، أما في الضلال فجاءتْ (مَنْ) دالة على الجمع المذكر؟ نقول: لأنه لاحظ لفظ (من) فأفرد الأولى، ولاحظ ما تطلق عليه (من) فجمع الثانية: ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن

دُونِهِ . . ﴾ [الإسراء: 97]

وهنا مَلْحظ دقيق يجب تدبُّره: في الاهتداء جاء الأسلوب بصيغة المفرد: ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ . . ﴾ [الإسراء: 97] لأن للاهتداء سبيلاً واحداً لا غير، هو منهج الله تعالى وصراطه المستقيم، فللهداية طريق واحد أوضحه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " .

(254/464)

أما في الضلال، فجاء الأسلوب بصيغة الجمع: ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ . . ﴾ [الإسراء: 97] لأن طرق الضلال متعددة ومناهجه مختلفة، فللضلال ألف طريق، وهذا واضح في قول الحق سبحانه: ﴿ وَأَنَّ هَاذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ . . ﴾ [الأنعام: 153]

والنبي صلى الله عليه وسلم حينما قرأ هذه الآية خَطَّ للصحابة خَطّاً مُسْتقيماً، وخَطَّ حوله خطوطاً مُتعرّجة، ثم أشار إلى الخط المستقيم وقال: " هذا ما أنا عليه وأصحابي " .

إذن: الهداية طريق واحد، وللضلال ألف مذهب، وألف منهج؛ لذلك لو نظرتَ إلى أهل

الضلال لوجدت لهم في ضلالهم مذاهب ، ولكل واحد منهم هواه الخاص في الضلال .

فعليك أنْ تقرأ هذه الآية بوعي وتأمُّل وفَهْم لمراد المتكلّم سبحانه ، فلو قرأها غافل لَقال: فمن تجد له أولياء من دونه ، ولأتبع الثانية الأولى .

ومن هنا تتضح توقيفية القرآن ، حيث دقة الأداء الإلهي التي وضعتْ كُلَّ حَرْف في موضعه .

وقوله: ﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي: نُصَراء ومعاونين ومُعينين ﴿ مِن دُونِه ﴾ أي: من بعده ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ [الإسراء: 97]

الحشْر: القيام من القبر والجمع للحساب ﴿ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ هنا تعجب بعض الصحابة ، فسألوا رسول الله: وكيف يسير الإنسان على وجهه؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "إن الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يُمشيهم على وجوههم " .

وما العجب في ذلك ونحن نرى مخلوقات الله: ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ . . ﴾ [النور: 45]

ألم ترَ الثعبان، كيف هو سريع في مِشْيته، خفيف في حركته، فالذي خلق قادر أن يُمشِيَ من ضَلَّ في القيامة على بطنه، لأن المسألة إرادة مريد لِيُوقع بهم غاية الذِّلة والهوان، ويا ليتهم تنتهي بهم المهانة والمذلّة عند هذا الحدّ، بل: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً .. ﴾ [الإسراء: 97]

هذا استطراق لوسائل الإهانة، ففضلاً عن مَشْيهم على الوجوه فهم عُمْي لا يروْنَ شيئاً، ولا يهتدون، وهم صُمٌّ لا يسمعون نداءً، وهم بُكْمٌ لا يقدرون على الكلام، ولك أنْ تتصوَّر إنساناً جمعت عليه كل هذه الوسائل ليس في يوم عادي، بل في يوم البعث والنشور، فإذا به يُفَاجأ بهْول البعث، وقد سُدَّت عليه جميع منافذ الإدراك، فهو في قلب هذا الهَوْل والضجيج، ولكنه حائر لا يدري شيئاً، ولا يدرك ما يحدث من حوله.

ولنا هنا لفتة على هذه الآية، فقد ورد في القرآن كثيراً: صُمٌّ بُكْم بهذا الترتيب إلا في هذه الآية جاءت هكذا: ﴿ وَبُكْماً وَصُمّاً ﴾ ومعلوم أن الصَّمَم يسبق البَكَم؛ لأن الإنسان يحكي ما سمعه، فإذا لم يسمع شيئاً لا يستطيع الكلام، واللغة بنت السماع، وهي ظاهرة اجتماعية ليستْ جنساً وليست دَماً.

وسبق أنْ قُلْنا: إن الولد الإنجليزي إذا تربَّى في بيئة عربية يتكلم بالعربية والعكس؛ لأن اللغة ليست جنساً، بل ظاهرة اجتماعية تقوم على السماع، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان.

حتى العربي نفسه الذي يعيش في بيئة عربية، إلا أنه لم يسمع هذه الألفاظ الغريبة المتقعِّرة لا

يستطيع محاكاتها ولا يعرف معناها .

لكن في هذه الآية جاء البكَم أولاً ، لماذا ؟ لأنه ساعة يُفاجأ بهوْلِ البعث والحشر كان المفروض أن يسأل أولاً عَمَّا يحدث ، ثم يسمع بعد ذلك إجابة على ما هو فيه ، لكنه فُوجِئ بالبعث وأهواله ، ولم يستطع حتى الاستفسار عَمَّا حوله ، وهكذا سبق البكَم الصَّمَم في هذا الموقف .

(256/464)

وهنا أيضاً اعتراض لبعض المستشرقين ومَنْ يجارونهم مِمَّنْ أسلموا بألسنتهم ، ولم تطمئن قلوبهم لنور الله ، يقولون: القرآن يقول: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا . ﴾ [الإسراء: 97] فينفي عنهم الرؤية ، وفي آيات أخرى يقول: ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ . . ﴾ [مريم: 75] ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا . . ﴾ [الكهف: 53]

فأثبت لهم الرؤية ، فكيف نجمع بين هذه الآيات ؟ والمتأمل في حال هؤلاء المعذَّبين في موقف البعث يجد أن العمى كان ساعة البعث ، حيث قاموا من قبورهم عُمْياً لِيتحققَ لهم الإذلال والحيرة والارتباك ، ثم بعد ذلك يعودون إلى توازنهم ويعود إليهم بصرهم ليشاهدوا

به ألوان العذاب الخاصة بهم ، وهكذا جمع الله عليهم الذل في الحالين: حال العمى وحال البصر .

لذلك يقول تعالى: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَاذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[ق: 22]

ثم يقول تعالى: ﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ [الإسراء: 97] مأواهم: أي: مصيرهم ونهايتهم. خَبَتْ: خبت النار. أي: ضَعُفَت أو انطفأتْ ، لكن ما دام المراد من النار التعذيب ، فلماذا تخبو النار أو تنطفئ؟ أليس في ذلك راحة لهم من العذاب؟ المتأمل في الآية يجد أن خفوت النار وانطفاءها هو في حَدّ ذاته لَوْنٌ من العذاب؛ لأن استدامة الشيء يُوطِّن صاحبه عليه ، واستدامة العذاب واستمراره يجعلهم في إِلْف له ، فإنْ خبَتِ النار أو هدأتْ فترةً فإنهم سيظنون أن المسألة انتهت ، ثم يُفاجئهم العذاب من جديد ، فهذا أنكى لهم وآلَم في تعذيبهم .

(257/464)

وهذا يُسمُّونه في البلاغة " اليأس بعد الإطماع " ، كما جاء في قول الشاعر: فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الغَداةَ كَقَابِضٍ عَلَى المَاء خَانَتْهُ فُرُوجُ الأَصَابِعفي السجون والمعتقلات يحدث مثل

هذا ، فترى السجين يشتد به العطش إلى حَدٍّ لا يطيقه ، فيصيح بالحارس ويتحنن إليه ويرجوه كوباً من الماء ، فيأتي له بكوب الماء حتى يكون على شَفَتَيْه ، ويطمع في أنْ يبلّ ريقه ويطفئ غُلَّته ، فإذا بالحارس يسكبه على الأرض ، وهذا أنكى وأشدّ في التعذيب .

وقد عبر الشاعر عن هذا المعنى بقوله: كَمَا أبرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ فَلَمَّا رَجَوْهَا أَقْشَعَتْ وتَجَلَّتِأي: ساعةأَنْ رأوْهَا ، واستشرفوا فيها الماء إذا بها تنقشع وتتلاشى ، وتُخيِّب رجاءهم فيها .

وكذلك من ألوان العذاب التي قد يظنُّها البعض لَوْناً من الراحة في جهنم والعياذ بالله ، أن الله تعالى يُبَدِّل جلودهم بجلود أخرى جديدة ، لا رحمةً بهم بل نكايةً فيهم ، كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ . . ﴾ [النساء: 56]

لأن الجلود إذا نضجتْ وتفحَّمت امتنع الحِسُّ ، وبالتالي امتنعتْ إذاقة العذاب ، إذن: العلة من تبديل الجلود تجديد الحسِّ ليذوقوا العذاب إذاقةً مستديمة . ومنذ عهد قريب كانوا يظنون أن الحسَّ يأتي من المخ ، إلا أنهم لاحظوا على الإنسان إحساساً قبل أن يصل شيء للمخ .

فمثلاً: لو أشرت بأصبعك إلى عين إنسان تراه يُغمِض عينه قبل أنْ تلمسه ، وفسَّروا ذلك بما يسمونه العكس في النخاع الشوكي ، ثم توالت البحوث للتعرف على مناط الحسِّ في الإنسان أين هي ؟ إلى أن انتهت تلك الأبحاث إلى ما أخبر به القرآن منذ أكثر من أربعة عشر

قرناً من الزمان ، من أن الجلد هو مركز الإحساس في الإنسان ، بدليل أنك إذا أخذتَ حقنة مثلاً ، فبمجرد أن تخترق طبقة الجلد لا تشعر بألمها .

(258/464)

فمن أين عرف العرب هذه النظريات العلمية الدقيقة؟ ومَنْ أخبر بها الرسول صلى الله عليه وسلم؟ إنه لَوْنٌ من ألوان الإعجاز القرآني للعرب ولغيرهم .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا . . . ﴾ .

(259/464)

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي: ما حدث لهم من العذاب الذي تستبشعه أنت ﴿ جَزَآؤُهُم ﴾ أي: حاق بهم العذاب عَدْلاً لا ظُلْماً ، فإياك حين تسمع آيات العذاب هذه أن تأخذَك بهم رَأْفة أو رحمة؛ لأنهم أخذوا جزاء عملهم وعنادهم وكفرهم ، والذي يعطف قلوب الناس على أهل الإجرام هو تأخير العقاب .

فهناك فَرْقٌ بين العقوبة في وقت وقوع الجريمة ، وهي ما تزال بشعةً في نفوس الناس ، وما تزال

نارها تشتعل في القلوب، فإنْ عاقبتَ في هذا الجو كان للعقوبة معنىً، وأحدثتْ الأثر المرجوّ منها وتعاطفَ الناس مع المظلوم بدل أَنْ يتعاطفوا مع الظالم.

فحين نؤخِّر عقوبة المجرم في ساحات المحاكم لعدة سنين فلا شَكَّ أن الجريمة ستُنْسَى وتبرد نارها، وتتلاشى بشاعتها، ويطويها النسيان، فإذا ما عاقبتَ المجرم فلن يبدو للناس إلاَّ ما يحدث من عقوبته، فترى الناس يرأفون به ويتعاطفون معه.

إذن: قبل أن تنظر إلى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ.. ﴾ [النساء: 56]

وإلى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ [الإسراء: 97]

انظر إلى ما فعلوه، واعلم أن هذا العذاب بعدل الله، فاحذر أنْ تأخذك بهم رحمة، ففي سورة النور يقول تعالى: ﴿ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: 2]

ثم يوضح سبحانه وتعالى حيثية هذا العذاب: ﴿ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا . . ﴾ [الإسراء: 98] والآيات تطلق على الآيات الكونية، أو على آيات المعجزات المؤيِّدة لِصِدْق الرسول، أو آيات القرآن الحاملة للأحكام . . وقد وقع منهم الكفر بكل الآيات، فكفروا بالآيات الكونية، ولم يستدلوا بها على الخالق سبحانه، ولم يتدبّروا الحكمة من خَلْق هذا الكون البديع، وكذلك كفروا بآيات القرآن ولم يُؤمنوا بما جاءتْ به.

وهذا كله يدلُّ على نقص في العقيدة، وخَلَل في الإيمان الفطري الذي خلقه الله فيهم، وكذلك كذَّبوا بمعجزات الرسول، فدلَّ ذلك على خَلَل في التصديق.

ومن باطن هذا الكفر ومن نتائجه أنْ قالوا: ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ [الإسراء: 98] وهذا القول منهم تكذيبٌ لآيات القرآن التي جاءتْ على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لتخبرهم أنهم مبعوثون يوم القيامة ومُحاسَبُون، وهم بهذا القَوْل قد نقلوا الجدل إلى مجال جديد هو: البعث بعد الموت.

وقوله: ﴿ عِظَاماً وَرُفَاتاً . . ﴾ [الإسراء: 98] الرفات: هو الفُتَات وَزْناً ومعنىً، وهو: الشيء الجاف الذي تكسّر؛ لذلك جاءت لترتيب هكذا: عظاماً ورُفاتاً؛ لأن جسم الإنسان يتحلّل وتمتصُّ الأرض عناصر تكوينه، ولا يبقى منه إلا العظام، وبمرور الزمن تتكسّر هذه العظام، وتتفتتْ وتصير رفاتاً، وهم يستبعدون البعث بعد ما صاروا عظاماً ورفاتاً.

وقوله تعالى: ﴿ أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . . ﴾ [الإسراء: 98] والهمزة هنا استفهام يفيد الإنكار، فلماذا ينكر هؤلاء مسألة البعث بعد الموت؟

نقول: لأن الكافر عنده لَدَدٌ في ذات إيمانه، ومن مصلحة آماله وتكذيب نفسه أنْ ينكر البعث، وعلى فَرْض أنه سيحدث فإنهم سيكونون في الآخرة سادة، كما كانوا سادةً في الدنيا. وهؤلاء القوم يفهمون الحياة على ظاهرها، فالحياة عندهم هي الحركة الحسية التي يمارسونها، وبها يعيشون حياتهم هذه، ولا يدركون أن لكل شيء حياةً تناسبه.

فمثلاً: علماء الجيولوجيا والحَفْريات يقولون: إن الأشياء المطمورة في باطن الأرض تتغيّر بمرور الزمن، وتتحول إلى موادّ أخرى، إذن: ففيها حركة وتفاعل أو قُلْ فيها حياة خاصة بها تناسبها، فليست الحياة قاصرة على حركتنا في الحياة الدنيا، بل للحياة معنى آخر أوسع بكثير من الحياة التي يفهمها هؤلاء.

فالإنسان الحيّ مثلاً له في مظهرية أموره حالتان: حالة النوم وحالة اليقظة، فحياته في النوم محكومة بقانون، وحياته في اليقظة محكومة بقانون، هذا وهو ما يزال حياً يُرزَق، إذن: عندما نخبرك أن لك قانوناً في الموت وقانوناً في البعث فعليك أنْ تُصدّق.

ألم ترَ النائم وهو مُغْمَض العينين يرى الرؤيا ، ويحكيها بالتفصيل وفيها حركة وأحداث وألوان ، وهو يدرك هذا كله وكأنه في اليقظة؟ حتى مكفوف البصر الذي فقد هذه الحاسة ، هو أيضاً يرى الرؤيا كما يراها المبصر تماماً ويحكيها لك ، يقول: رأيتُ كذا وكذا ، كيف وهو في اليقظة لا يرى؟

نقول: لأن للنوم قانوناً آخر ، وهو أنك تدرك بغير وسائل الإدراك المعروفة ، ولك في النوم حياة مستقلة غير حياة اليقظة. ألاَ ترى الرجلين ينامان في فراش واحد ، وهذا يرى رؤيا سعيدة مفرحة يصحو منها ضاحكاً مسروراً ، والآخر إلى جواره يرى رؤيا مؤلمة مُحزِنة يصحو فيها مُكدّراً محزوناً ، ولا يدري الواحد منهم بأخيه ولا يشعر به ، لماذا؟ لأن لكل منهما قانونه الخاص ، وحياته المستقلة التي لا يشاركه فيها أحد .

وقد ترى الرؤيا تحكيها لصاحبك في نصف ساعة ، في حين أن العلماء توصلوا إلى أن أقصى ما يمكن للذهن متابعته في النوم لا يتجاوز سبع ثوان ، مما يدلُّ على أن الزمن في النوم مُلْغي ، كما أن أدوات الإدراك ملغاة ، إذن: فحياتك في النوم غير حياتك في اليقظة ، وكذلك في الموت لك حياة ، وفي البعث لك حياة ، ولكل منهما قانون يحكمها بما يتناسب

معها .

وقد يقول قائل عن الرُّؤَى: إنها مجرد تخيُّلات لا حقيقةَ لها ، لكن يَرُدّ هذا القول ما نراه في الواقع من صاحب الرُّؤْيا الذي يحكي لك أنه أكل طعاماً ، أو شرب شراباً ما يزال طَعْمه في فمه ، وآخر ضُرِب ، ويُريك أثر الضرب على ظهره مثلاً ، وآخر يصحو من النوم يتصبَّب عَرَقاً ، وكأنه كان في عراك حقيقي لا مجرد منام .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُوضّح لنا أننا في النوم لنا حياة خاصة وقانون خاص ، لنأخذ من هذا دليلاً على حياة أخرى بعد الموت .

والعلماء قالوا في هذه المسألة بظاهرة المتواليات ، والمراد بها : إذا كانت اليقظة لها قانون ، والنوم له قانون ألطف وأخفّ من قانون اليقظة ، فبالتالي للموت قانون أخفّ من قانون النوم ، وللبعث قانون أخف من قانون الموت .

وقد حسَمَ القرآن الكريم هذه القضية في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . ﴾ [القصص: 88]

أي: كلّ ما يُقَال له شيء في الوجود هالك إلا الله تعالى فهو الباقي ، والهلاك ضدّه الحياة ، بدليل قوله تعالى: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . ﴾ [الأنفال: 42] إذن: لكل شيء مهما صَغُر في كَوْن الله حياة خاصة تناسبه قبل أنْ يعتريه الهلاك .

ولذلك نعجب حينما يطالعنا العلماء بأن في علبة الكبريت هذه التي نضعها في جيوبنا قوة تجاذب بين ذراتها، تصلح هذه القوةَ لتسيير قطار حول العالم لمدة ست سنوات، سبحان الله.. أين هذه القوة؟ إنها موجودة لكِنّنا لا نشعر بها ولا ندركها، إنما الباحثون في معاملهم يمكنهم ملاحظة مثل هذه الحركة وتسجيلها.

وأقرب من ذلك ظاهرة الجاذبية التي تعلَّمناها منذ الصِّغَر والتي تعتمد على ترتيب الذرّات ترتيباً مُعيناً، ينتج عنه المُوجَب والسالب، فيتم التجاذب فكانوا يضعون لها بُرادَة الحديد في أنبوبة، ويُمَرِّرون عليها قضيباً مُمغْنَطاً، فنرى برادة الحديد تتحرك في نفس اتجاه القضيب.

إذن: في الحديد حركة وحياة بين ذراته، حياة تناسبه بلغتْ من الدقة مَبْلَغاً فوق مستوى إدراكك.

إذن: نستطيع القول بأن للعظام وللرفات حياةً، ولك أيها المنكر وجود حتى بعد أنْ صِرْتَ رُفاتاً، فشيء منك موجود يمكن أن يكون نواةً لخلْقك من جديد، وبمنطق هؤلاء المنكرين أيهما أهونُ في الخَلْق: الخَلْق من شيء موجود، أم الخَلْق ابتداءً؟

وقد رد عليهم الحق سبحانه بقوله: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق: 4]

أي: في علمه سبحانه عدد ذرات كل مِنّا ، وكم في تكوينه من مواد ، لا ينقص من ذلك شيء ، وهو سبحانه قادر على جمع هذه الذرات مرة أخرى ، وليس أمره تعالى متوقفاً على العلم فقط ، بل عنده كتاب دقيق يحفظ كل التفاصيل ، ولا يغيب عنه شيء .

وقال تعالى كذلك في الرد عليهم: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: 15] أي: في خَلْط وشَكٍّ وتردُّد .

(264/464)

وقد ناقشنا مِنْ منكري البعث الشيوعيين الذي قتَّلوا في أعدائهم ، وأخذوا أموالهم مُعاقبةً لهم على ما اقترفوه من ظلم الناس ، فكنت أقول لهم: فما بال الذين ماتوا من هؤلاء ، ولم يأخذوا حظّهم من العقاب ؟ وكيف يذهبون هكذا ويُفلتون بجرائمهم ؟ لقد كان الأَوْلَى بكم أنْ تؤمنوا بالآخرة التي يُعاقب فيها هؤلاء الذين أفلتوا من عقاب الدنيا ، حتى تتحقق عدالة الانتقام .

وقوله تعالى: ﴿ أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ [الإسراء: 98]

إنهم يستبعدون البعث من جديد ؛ لذلك فالحق سبحانه وتعالى يجاري هؤلاء ويتسامح معهم ، فيقول: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . ﴾ [الروم: 27]

فإعادة شيء كان موجوداً أسهل وأهونُ من إيجاده مِنْ لا شيء ، والحديث هنا عن بَعْث الإنسان ، هذا المخلوق الذي أبدعه الخالق سبحانه ، وجعله سيد هذا الكون ، وجعل عمره محدوداً ، فما بالكم تنشغلون بإنكار بعث الإنسان عن باقي المخلوقات وهي أعظم الخَلْق في الإنسان ، وأطول منه عُمراً ، وأثبت منه وأضخم .

فلا تَنْسَ أيها الإنسان أن خَلْقك أهونُ وأسهل من مخلوقات أخرى كثيرة هي أعظم منك ، ومع ذلك تراها خاضعة لله طائعة ، لم تعترض يوماً ولم تنكر كما أنكرت ، يقول تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ . . ﴾ [غافر: 57]

فمَنْ ينكر بَعْث الإنسان بعد أن يصير رفاتاً عليه أن يتأمل مثلاً الشمس كآية من آيات الله في الكون ، وقد خلقها الله قبل خَلْق الإنسان ، وستظل إلى ما شاء الله ، وهي تعطي الضوء والدفء دون أنْ تتوقف أو تتعطّل ، ودون أن تحتاج إلى صيانة أو قطعة غيار ، وهي تسير بقدرة الخالق سبحانه مُسخَّرة لخدمتك ، ما تخلَّفتْ يوما ولا اعترضتْ . فماذا يكون خَلْقك أنت أيها المنكر أمام قدرة الخالق سبحانه ؟

والحق سبحانه يقول: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ . . . ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ . . ﴾ [الإسراء: 99]

إذا جاءت همزة الاستفهام بعدها واو العطف وبعدها نفي، فاعلم أن الهمزة دخلتْ على شيء محذوف، إذن: فتقدير الكلام هنا: أيقولون ذلك ويستبعدون البعث ولم يَرَوْا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أنْ يخلق مثلهم.

وقوله تعالى: ﴿ مِثْلَهُمْ ﴾ أي: يخلقهم ويُعيدهم من جديد؛ لأن الخَلْق إنشاء جديد، فهُمْ خَلْق جديد مُعَادٌ، فالمثلية هنا في أنهم مُعَادون، أو يكون المراد ﴿ مِثْلَهُمْ ﴾ أي: ليسوا هم، بل خَلْق مختلف عنهم على اعتبار أنهم كانوا في الدنيا مختارين، ولهم إرادات، أما الخلق الجديد في الآخرة وإنْ كان مثلهم في التكوين إلا أنه عاد مقهوراً على كل شيء لا إرادة له؛ لأنه الآن في الآخرة التي سينادي فيها الخالق سبحانه: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: 16]

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ [الإسراء: 99]

أي: أن القيامة التي كذَّبوا بها وأنكروها واقعة لا شكّ فيها، لكن هؤلاء معاندون مُصِرُّون على الكفر مهما أتيتَ لهم بالأدلة، ومهما ضربتَ لهم الأمثلة، فإنهم مُصمّمون على الإنكار؛ لأن الإيمان سيسلبهم ما هم فيه من السيادة وما يدعونه من العظمة، الإيمان سيُسوّي بينهم وبين العبيد، وسيُقيّد حريتهم فيما كانوا فيه من ضلال وفساد.

لكن هؤلاء السادة والعظماء الذين تأبَّوْا على الإيمان، وأنكروا البعث خوفاً على مكانتهم

وسيادتهم وما عندهم من سلطة زمنية، ألم تتعرَّضوا لظلم من أحد في الدنيا؟ ألم يعتَدِ عليكم أحد؟ ألم يسرق منكم أحد ولم تتمكنوا من الإمساك به ومعاقبته؟ لقد كان أَوْلَى بكم الإيمان بالآخرة حيث تتحقق عدالة العقاب وتنالون حقوقكم مِمَّنْ ظلمكم، أو اعتدى عليكم.

ثم ينتقل السياق القرآني إلى موضوع جديد، حيث يقول تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي... ﴾.

(266/464)

قوله تعالى: ﴿ قُل ﴾ أمر من الحق سبحانه وتعالى أنْ يقولَ لأمته هذا الكلام، وكان يكفي في البلاغ أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم لأمته: لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي.. لكن النبي هنا يحافظ على أمانة الأداء القرآني، ولا يحذف منه شيئاً؛ لأن المتكلم هو الله، وهذا دليلٌ على مدى صدق الرسول في البلاغ عن ربه.

ومعنى ﴿ خَزَآئِنَ ﴾ هي ما يُحفظ بها الشيء النفيس لوقته، فالخزائن مثلاً لا نضع بها التراب، بل الأشياء الثمينة ذات القيمة.

ومعنى: ﴿ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي.. ﴾ [الإسراء: 100] أي: خَيْرات الدنيا من لَدُن آدم

عليه السلام وحتى قيام الساعة ، وإنْ من شيء يحدث إلى قيام الساعة إلا عند الله خزائنه ، فهو موجود بالفعل ، ظهر في عالم الواقع أو لم يظهر: ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: 21] أي: أنه موجود في عِلْم الله ، إلى حين الحاجة إليه .

لذلك لما تحدَّث الحق سبحانه عن خلق الآيات الكونية في السماء والأرض قال: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [فصلت: 9-10]

نلاحظ أن قوله تعالى ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ جاءت بعد ذِكْر الجبال الرواسي ، ثم قال: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا . . ﴾ [فصلت: 10] كأن الجبال هي مخازن القوت ، وخزائن رحمة الله لأهل الأرض . والقوت: وهو الذي يتمّ به استبقاء الحياة ، وهذا ناشئ من مزروعات الأرض ، وهذه من تصديقات القرآن لطموحات العلم وأسبقية إخبار بما سيحدث ، فها هو القرآن يخبر بما اهتدى إليه العلم الحديث من أن العناصر التي تُكوِّن الإنسان هي نفس عناصر التربة الزراعية التي نأكل منها .

لكن، كيف تكون الجبال مخازن القوت الذي جعله الله في الأرض قبل أن يُخْلَق الإنسان؟

نقول: إن الجبال هي أساس التربة التي نزرعها، فالجبل هذه الكتلة الصخرية التي تراها أمامك جامدة هي في الحقيقة ليست كذلك؛ لأن عوامل التعرية وتقلبات الجو من شمس وحرارة وبرودة، كل هذه عوامل تُفتِّت الصخر وتُحدِث به شروخاً وتشققات، ثم يأتي المطر فيحمل هذا الفُتات إلى الوادي، ولو تأملتَ شكل الجبل وشكل الوادي لوجدتهما عبارة عن مثلثين كل منهما عكس الآخر، فالجبل مثلث رأسه إلى أعلى، وقاعدته إلى أسفل، والوادي مثلث رأسه إلى أسفل وقاعدته إلى أعلى.

وهكذا، فكُلُّ ما ينقص من الجبل يزيد في الوادي، ويُكوِّن التربة الصالحة للزراعة، وهو ما يسمى بالغِرْيَن أو الطمى؛ لذلك حدَّثونا أن مدينة دمياط قديماً كانت على شاطئ البحر الأبيض، ولكن بمرور الزمن تكوَّنت مساحات واسعة من هذا الغِرْيَن أو الطمي الذي حمله النيل من إفريقيا ففصل دمياط عن البحر، والآن وبعد بناء السد وعدم تكوُّن الطمي بدأت المياة تنحت في الشاطئ، وتنقص فيه من جديد.

إذن: فقوله تعالى عن بداية خلق الأرض: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا.. ﴾ [فصلت: 10] كأنه يعطينا تسلسلاً لخَلْق القُوت في الأرض، وأن خزائن الله لا حدودَ لها ولا نفادَ لخيراتها.

ثم يقول تعالى: ﴿ إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإنْسَانُ قَتُوراً ﴾ [الإسراء: 100]

أي: لو أن الله تعالى ملَّك خزائن خيراته ورحمته للناس ، فأصبح في أيديهم خزائن لا تنفد ، ولا يخشى صاحبها الفقر ، لو حدث ذلك لأمسك الإنسان وبَخِلَ وقَتَّرَ خوف الفقر ؛ لأنه جُبِلَ على الإمساك والتقتير حتى على نفسه ، وخوف الإنسان من الفقر ولو أنه يملك خزائن رحمة الله التي لا نفادَ لها ناتج عن عدم مقدرته على تعويض ما أَنفق ؛ ولأنه لا يستطيع أنْ يُحدِث شيئاً .

والبخل يكون على الغير ، فإنْ كان على النفس فهو التقتير ، وهو سُبَّة واضحة ومُخزِية ، فقد يقبل أن يُضيِّق الإنسانُ على الغير ، أما أنْ يُضيق على نفسه فهذا منتهى ما يمكن تصوّره ؛ لذلك يقول الشاعر في التندُّر على هؤلاء: يُقتِّر عِيسَى عَلَى نَفْسِه وَلَيْسَ بِبَاقٍ وَلاَ خَالِدِ فَلَوْ يستطيعُ لتَقتِيرِه تنفَّسَ مِنْ مَنْخرٍ وَاحِدِ ويقول أيضاً: لَوْ أنَّ بيتَكَ يَا ابْنَ يوسف كُلَّه إبرٌ يَضِيقُ بها فَضَاءُ المنْزِلِ وأتاكَ يُوسُفُ يَستعِيرُكَ إبْرةً لِيَخيطَ قدَّ قميصِهِ لَمْ تَفعَلِ فالإنسان يبخل على الناس ويُقتّر على نفسه ؛ لأنه جُبِل على البخل مخافة الفقر ، وإنْ أُوتي خزائن السماوات والأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا) (الإسراء : 98) ، وفي سورة الكهف : (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا) (الكهف : 106) ، ففي هذه الآية (جهنم) ولم ترد في الأولى مع وحدة المعنى ، فيسأل عن ذلك ؟

والجواب ، والله أعلم : أن قوله في الأولى : (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ) إلى ما اتصل به من قوله : (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ) (الإسراء : 97) ، ثم قال (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ) . الإشارة إلى ضروب عقابهم ومأواهم ، واسم الإشارة متصل بما أشير بع إليه ، لم يفصل بينهما إلا بوصف جهنم التي هي مأواهم ، فجاء على ما يجب .

أما قوله في الثانية : (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ) فالإشارة إلأى جهنم المتقدم ذكرها في قوله (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ) (الكهف : 100) وقوله (إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ) (الكهف : 102) ، لما بعد ما بين اسم الإشارة والمشار إليه بما فصل به بينهما من قوله : (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا) (الكهف : 103) وقوله : (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ . . . .) (الكهف : 105) الآيتين ، فلبعد اسم الإشارة عما أشير به إليه أعيد مظهراً فقيل : (ذَلِكَ

جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ) ، وجاء كل على كا جيب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 316 ﴾

(270/464)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّا ﴾ الآية ،

هذه الآية الكريمة يدل ظاهرها على أن الكفار يبعثون يوم القيامة عمياً وبكماً وصماً .

وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ , وكقوله ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ ، وكقوله: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحا ﴾ .

الآية والجواب عن هذا من أوجه:

الوجه الأول:هو ما استظهره أبو حيان من كون المراد مما ذكر حقيقته ويكون ذلك في مبدأ الأمر ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم فيرون النار ويسمعون زفيرها وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع .

الوجه الثاني: أنهم لا يرون شيئًا يسرهم ولا يسمعون كذلك ولا ينطقون بحجة كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا يسمعونه وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس وروى أيضا عن الحسن كما ذكره الألوسى في تفسيره فتزل ما يقولونه ويسمعونه ويبصرونه منزلة العدم لعدم الانتفاع به كما تقدم نظيره.

الوجه الثالث: أن الله إذا قال لهم اخسأوا فيها ولا تكلمون وقع بهم ذاك العمى والصم والبكم من شدة الكرب واليأس من الفرج قال تعالى: ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ ﴾ وعلى هذا القول تكون الأحوال الثلاثة مقدرة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 187.188 ﴾

(271/464)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ﴾

أخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وأبو نعيم في المعرفة، وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات، عن أنس رضي الله عنه قال : " قيل

: يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال : الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم " .

واخرج ابن جرير عن الحسن رضي الله عنه قال : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ الذين يحشرون على وجوههم ﴾ [الفرقان : 34] الآية . فقالوا : يا نبي الله وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : أرأيت الذي أمشاهم على أقدامهم ؟ أليس قادراً على أن يمشيهم على وجوههم ؟ ؟ . . . " .

وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه ، وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في البعث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف : صنف مشاة ، وصنف ركبان ، وصنف على وجوههم . قيل : يا رسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم . أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك " .

وأخرج أحمد والنسائي والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث ، عن أبي ذر رضي الله عنه أنه تلا هذه الاية ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ﴾ فقال : حدثني الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم : " أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج : فوج طاعمين كاسين راكبين ، وفوج يمشون ويسعون ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن مردويه والحاكم ، عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنكم تحشرون رجالاً وركباناً ، وتجرون على وجوهكم ههنا ، ونحى بيده نحو الشام " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ عمياً ﴾ قال : لا يرون شيئاً يسرهم ﴿ وبكماً ﴾ قال : لا ينطقون بحجة ﴿ وصماً ﴾ قال : لا يسمعون شيئاً يسرهم .

وأخرج البخاري في تاريخه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تغبطن فاجراً بنعمة ، فإن من ورائه طالباً حثيثاً " وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ .

وأخرج البيهقي في الشعب ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الدنيا خضرة حلوة ؛ من اكتسب فيها مالاً من غير حله وأنفقه في غير حله ، أحلّه دار الهوان . ورُبَّ متخوض في مال الله ورسوله له النار يوم القيامة . يقول الله : ﴿

كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ مأواهم جهنم ﴾ يعني ، أنهم وقودها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر من طريق علي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ كلما خبت ﴾ قال : سكنت .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ . قال : كلما طفئت أسعرت وأوقدت .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ قال : كلما أحرقتهم سعر بهم حطباً ، فإذا أحرقتهم فلم يبق منهم شيء صارت حمراء تتوهج . فذلك خبوؤها ، فإذا بدلوا خلقاً جديداً عاودتهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ يقول : كلما احترقت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب .

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ كلما خبت ﴾ قال : الخبء ، الذي يطفأ مرة ويشعل أخرى . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت الشاعر وهو يقول :

وتخبو النار عن أدنى أذاهم . . . وأضرمها إذا ابتردوا سعيراً

وأخرج ابن الأنباري عن أبي صالح في قوله : ﴿ كلما خبت ﴾ قال : معناه كلما حميت .

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (100) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله : ﴿ خزائن رحمة ربي ﴾ قال : الرزق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه في قوله : ﴿ إذا لأمسكتم خشية الإنفاق ﴾ قال : إذن ما أطعمتم أحداً شيئاً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ خشية الإنفاق ﴾ قال : الفقر ، وفي قوله : ﴿ وكان الإنسان قتوراً ﴾ قال : بخيلاً .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ خشية الإنفاق ﴾ قال : خشية الفاقة ﴿ وكان الإنسان قتوراً ﴾ قال : بخيلاً ممسكاً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَهْدِ اللهُ ﴾ :

يجوز أن تكونَ هذه الجملةُ مندرجةً تحت المَقُولِ ، فيكون محلُّها نصباً ، وأن تكونَ مِنْ كلامِ اللهِ ، فلا مَحَلَّ لها لاستئنافِها ، ويكون في الكلامِ التفاتٌ ؛ إذ فيه خروجٌ مِنْ غَيْبَةٍ إلى تكلُّمٍ في قوله " ونَحْشُرهم " .

وحُمِل على لفظِ " مَنْ " في قولِه " فهو المهتدِ " فَأُفْرِد ، وحُمِل على معنى " مَنْ " الثانيةِ في قولِه ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ ﴾ . فجُمعَ . ووجهُ المناسبةِ في ذلك –والله أعلم– : أنه لمَّا كان الهَدْي شيئاً واحداً غيرَ متشعبِ السبلِ ناسَبَه التوحيدُ ، ولمَّا كان الضلالُ له طرقٌ نحو : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : 153] ناسب الجمعُ الجمعَ ، وهذا الحملُ الثاني مِمَّا حُمِل فيه على المعنى ، وإن لم يتقدَّمْه حَمْلٌ على اللفظ . قال الشيخُ : " وهو قليلٌ في القرآن " . يعني بالنسبةِ إلى غيرِه . ومثلُه قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ [يونس : 42] ويمكن أن يكونَ المُحسِّنَ لهذا كونُه تقدَّمَه حَمْلٌ على

اللفظِ وإنْ كان في جملةٍ أخرى غيرِ جملتِه .

وقرأ نافعٌ وأبو عمرو بإثباتِ ياء " المُهْتدي " وصلاً وحَذْفها وقفاً ، وكذلك في التي تحت هذه السورة ، وحَذَفها الباقون في الحالين .

قوله : ﴿ على وُجُوهِهِمْ ﴾ يجوز أَنْ يتعلَّقَ بالحشر ، وأن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من المفعول ، أي : كائنين ومَسْحوبين على وجوههم .

قوله : " عُمْياً " يجوز أن تكونَ حالاً ثانية ، أو بدلاً من الأولى ، وفيه نظرٌ ؛ لأنه تَظْهَرُ أنواعُ البدلِ وهي : كلٌّ من كل ، ولا بعضٌ من كل ، ولا اشتمالٌ ، وأن تكونَ حالاً من الضمير المرفوعِ في الجارِّ لوقوعِهِ حالاً ، وأن تكونَ حالاً من الضميرِ المجرورِ في " وجوهِهم " .

(275/464)

قوله : ﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ يجوز في هذه الجملةِ الاستئنافُ والحاليةُ : إمَّا من الضميرِ المنصوبِ أو المجرور .

قوله : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ يجوز فيها الاستئنافُ والحاليةُ مِنْ " جهنم " ، والعاملُ فيها معنى المَأْوَى .

وخَبَتِ النار تَخْبُو : إذا سكن لهبُها ، فإذا ضَعُفَ جَمْرُها قيل : خَمَدَتْ ، فإذا طُفِئَتْ

بالجملة قيل : هَمَدَت . قال :

3019- وَسْطه كاليَراعِ أو سُرُجِ المجْ . . . دَلِ حِيْناً يَخْبُو وحِيناً ينيرُ

وقال آخر :

3100- لِمَنْ نارٌ قبيل الصُّبْ . . . حِ عند البيتِ ما تَخْبُو

إذا ما أُخْمِدَتْ أُلْقِيْ . . . عليها المَنْدَلُ الرَّطْبُ

وأَدْغَم التاءَ في زاي " زِدْناهم " وأبو عمروٍ والأخوان وورشٌ ، وأظهرها الباقون .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ ﴾ :

يجوز أَنْ يكونَ مبتدأً وخبراً ، و " بأَنَّهم " متعلِّقٌ بالجزاء ، أي : ذلك العذابُ المتقدِّمُ جزاؤهم بسببِ أنهم ، ويجوز أَنْ يكونَ " جزاؤهم " مبتدأً ثانياً ، والجارُّ خبرُه ، والجملةُ خبرُ " ذلك " ، ويجوز أن يكونَ " جزاؤهم " بدلاً أو بياناً ، و " بأَنَّهم " الخبرُ .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (99) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ ﴾ : معطوفٌ على قوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ لأنه في قوة : قد رَأَوْا ، فليس داخلاً في حَيِّز الإِنكار ، بل معطوفاً على جملته برأسها .

قوله : ﴿ لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ صفةٌ ل " أجلاً " ، أي : أجلاً غيرَ مرتابٍ فيه . فإن أريد به يومُ

القيامة فالإِفرادُ واضحٌ، وإن أريد به الموتُ فهو اسم جنسٍ/ إذ لكلِّ إنسان أجلٌ يَخُصه .

قوله: ﴿ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ قد تقدَّم قريباً .

(276/464)

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾

قوله تعالى: ﴿ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجهٍ، أحدُها: - وإليه ذهب الزمخشري والحوفي وابن عطية وأبو البقاء ومكي - أن المسألة من باب الاشتغال، ف "أنتم" مرفوعٌ بفعلٍ مقدرٍ يُفَسِّره هذا الظاهرُ، لأنَّ "لو" لا يليها إلا الفعلُ ظاهراً أو مضمراً، فهي ك "إنْ" في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: 6] وفي قوله:

3111- وإن هو لم يَحْمِلْ على النفس ضَيْمَها . . . فليس إلى حُسْنِ الثَّناء سبيلُ

والأصل: لو تملكون، فحذف الفعلَ لدلالةِ ما بعده عليه فانفصل الضميرُ وهو الواوُ؛ إذ لا يمكن بقاؤُه متصلاً بعد حَذْف رافِعِه . ومثلُه: "وإن هو لم يَحْمِلْ" الأصلُ: وإن لم يَحْمل، فلمَّا حُذِف الفعلُ انفصل ذلك الضميرُ المستتر وبَرَزَ، ومثلُه فيما نحن فيه قولُ الشاعر: لو ذاتُ سِوارٍ لَطَمَتْني"، وقولُ المتلمس:

3112- ولو غيرُ أَخْوالي أرادُوا نَقِيصَتي . . . .

. . . .

ف " ذاتُ سوار " مرفوعةٌ بفعلٍ مفسَّرٍ بالظاهرِ بعده .

الثاني : أنه مرفوعٌ ب "كان " وقد كَثُرَ حَذْفُها بعد " لو " والتقدير : لو كنتم تملكون ، فَحُذِفَتْ "كان " فانفصل الضمير ، و " تملكون " في محلِّ نصبٍ ب "كان " وهو قولُ ابنِ الصائغِ . وقريبٌ منه قولُه :

3113- أبا خُراشَةَ أمَّا أنتَ ذا نَفَرٍ . . . .

. . . .

فإنَّ الأصلَ : لأَنْ كنتَ ، فحُذِفَتْ "كان " فانفصل الضمير إلا أنَّ هنا عُوِّض مِنْ "كان " " ما " ، وفي " لو " لم يُعَوَّض منها .

(277/464)

الثالث : أنَّ " أنتم " توكيدٌ لاسمِ "كان " المقدرِ معها ، والأصلُ " لو كنتم أنتم تمِلكُون " فَحُذِفَتْ "كان " واسمها وبقي المؤكِّد ، وهو قولُ ابن فضَّال المجاشعي . وفيه نظرٌ من حيث إنَّا نحذِفُ ما في التوكيد ، وإن كان سيبويه يُجيزه .

وإنما أحوجَ هذين القائلَيْن إلى ذلك : كونُ مذهب البصريين في " لو " أنَّه لا يليها إلا الفعلُ

ظاهراً ، ولا يجوز عندهم أَنْ يليَها مضمراً مفسّراً إلى في ضرورةٍ أو ندورٍ كقوله : " لو ذاتَ سِوَارٍ لطمَتْني " . فإن قيل : هذان الوجهان : أيضاً فيهما إضمار فعلٍ . قيل : ليس هو الإِضمارَ المَعْنِيَّ ؛ فإنَّ الإِضمارَ الذي أَبَوْه على شريطةِ التفسيرِ في غير "كان" ، وأمَّا "كان" فقد كَثُر حَذْفُها بعد "لو" في مواضعَ كثيرةٍ . وقد وقع الاسمُ الصريحُ بعد "لو" غيرَ مذكورٍ بعده فعلٌ ، أنشد الفارسي :

3114- لو بغيرِ الماءِ حَلْقي شَرِقٌ . . . كنت كالغصَّانِ بالماءِ اعتصاري

إلا أنه خرَّجه على أنه مرفوعٌ بفعلٍ مقدرٍ يُفَسِّره الوصفُ مِنْ قولِه "شَرِقٌ" . وقد تقدَّم تحقيق القول في "لو" فلنقتصِرْ على هذا .

قوله : ﴿ لأَمْسَكْتُمْ ﴾ يجوز أن يكونَ لازماً لتضمُّنِه معنى بَخَلْتُم ، وأن يكونَ متعدِّياً ، ومفعولُه محذوفٌ ، لأَمْسَكْتُم المال ، ويجوز أن يكونَ كقولِه ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة : 258] .

قوله : ﴿ خَشْيَةَ الإنفاق ﴾ فيه وجهان ، أظهرهما : أنه مفعولٌ مِنْ أجله .

والثاني : أنه مصدرٌ في موضع الحال ، قاله أبو البقاء ، أي : خاشِين الإِنفاقَ . وفيه نظرٌ ؛ إذ لا يقع المصدرُ المعرَّفُ موقعَ الحالِ إلا سماعاً نحو : " جَهْدَك " و " طاقَتَك " و [كقوله :]

3115- وأرسلها العِراكَ . . . .

. . . .

ولا يُقاسُ عليه . والإنفاق مصدرُ أنفق ، أي : أَخْرَجَ المالَ . وقال أبو عبيدة : " وهو بمعنى الافتقار والإقتار " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 413.419 ﴾

(278/464)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ﴾

مَنْ أراده بالسعادةِ في آزاله استخلصه في آباده بأفضاله ، ومَنْ عَلِمَه في الأزل بالشقاء وَسَمَه وفي أبده بِسِمةِ الأعداء . فلا لِحُكْمِه تحويل ، ولا لِقَوْلِه تبديل .

﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) ﴾

لَمَّا أَصرّوا على تكذيبهم جازاهم الحقُّ بإدامة تعذيبهم ، ولو ساعدهم التوفيقُ لَوُجِدَ منهم التحقيق ، لكنهم عَدِمُوا التأييد فحُرِموا التوحيد .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾

مَهّدَ بهذه الآية طريق إثبات القياس ، فلم يغادر في الكتاب شيئاً من أحكام الدِّين لم يؤيده

بالدليل والبيان ، فَعَلِمَ الكل أن الركونَ إلى التقليد عينُ الخطأ والضلال .

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (100) ﴾

إذ البُخْلُ غريزةُ الإنسان ، والشحُّ سجيته [(. . . .) المعروف لا يعرف الخلقة] . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 390 . 391 ﴾

(279/464)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (103) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قدم سبحانه أن أكثر الناس جحد الآيات لكونه حكم بضلاله ، ومن حكم بضلاله لا

يمكن هداه ، وختم بأن من جبل على شيء لم ينفك عنه ، شرع يسلي نبيه عليه الصلاة والسلام بما اتفق لمن قبله من إخوانه الأنبياء ، مع التنبيه على أنه يجود بالآيات على حسب المقتضيات ، وعلى أن خوارق العادات لا تنفع في إيمان من حكم عليه بالضلال ، وتوجب - كما في سنه الله - إهلاك من عصى بعد ذلك بعذاب الاستئصال ، فقال عاطفاً على قوله ﴿ ولقد صرفنا للناس ﴾ : ﴿ ولقد ءاتينا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ موسى ﴾ بن عمران المتقي المحسن عليه السلام لما أرسلناه إلى فرعون ﴿ تسع آيات بينات ﴾ وهي - كما في التوراة : العصى ، ثم الدم ، ثم الضفادع ، ثم القمل ، ثم موت البهائم ، ثم البرد الكبار التي أنزلها الله مع النار المضطرمة ، فكانت تهلك كل ما مرت عليه من نبات وحيوان ، ثم الجراد ، ثم الظلمة ، ثم موت الأبكار من الآدميين وجميع الحيوان - كما مضى ذلك في هذا الكتاب عن التوراة في سورة الأعراف ، وكأنه عد اليد مع العصى آية ، ولم يفرد اليد لأنه ليس فيها ضرر عليهم ، وقد نظمتها ليهون حفظها فقلت :

عصى قمل موت البهائم ظلمة . . .

جراد دم ثم الضفادع والبرد

وموت بكور الآدمي وغيره . . .

من الحيّ آتاها الذي عز وانفرد

وهي ملخصة في الزبور فإنه قال في المزمور السابع والسبعين : صنع آياته وعجائبه في

مصارع صاعان ، وجعل أنهارهم دماً وصهاريجهم لكيلا يشربوا الماء : أرسل عليهم الهوام وذباب الكلاب فأكلهم الضفادع وأفسدهم ، أطعم القمل ثمارهم والجراد كدهم ، كسر بالبرد كرومهم ، وبالجليد تبنهم ، أسلم للبرد مواشيهم وللحريق أموالهم ، أرسل عليهم شدة حنقه سخطاً وغضباً ، أرسل ملائكة الشر ، فتح طرق سخطه ، ولم يخلص من الموت أنفسهم ، أسلم للموت دوابهم ، قتل جميع أبكار مصر وأول أولادهم في مساكن حام .

(280/464)

وقال في المزمور الرابع بعد المائة بعد أن ذكر صنائع الله عند بني إسرائيل وآبائهم : بعث جوعاً على الأرض ، حطم زرع أرضهم ، أرسل أمامهم رجلاً ، بيع يوسف للعبودية ، وأوثقوا بالقيود رجليه ، صارت نفسه في الحديد حتى جاءت كلمته ، وقول الرب ابتلاه ، أرسل الملك فأطلقه ، وجعله رئيساً على شعبه ، وأقامه رباً على بنيه ، وسلطانه على كل ما له ، ليؤدب أراجينه كنفسه ويفقه مشايخه ، دخل إسرائيل مصر ، وتغرب يعقوب في أرض حام ، وكثر شعبه جداً ، وعلا على أعدائه ، وصرف قلبه ليبغض شبعه ويغدر بعبيده ، أرسل موسى عبده وهارون صفيه ، فصنعا فيهم آياته وعجائبه في أرض حام ، بعث ظلمة فصار ليلاً ، وأسخطوا كلامه ، فحول مياههم دماً ، وأمات حيتانهم ،

وانبعثت أرضهم ضفادع في قياطين ملوكهم ، أمر الهوام فجاء وذباب الكلب والقمل في جميع تخومهم ، جعل أمطارهم برداً ، واشتعلت النار في أرضهم ، ضرب كرومهم وتبنهم ، وكسر شجر تخومهم ، أذن للجراد فجاء وذباب لا يحصى ، فأكل جميع عشب الأرض وثمارها ، وقتل كل أبكار مصر وأول ولد ولد لهم غير أنه لم يذكر العصى ، وكأن ذلك لشهرتها جداً عندهم ، ولأن جميع الآيات كانت بها ، فهي في الحقيقة الآية الجامعة للكل ، وإنما قلت : إن الآيات هذه ، لأن السياق يدل على أن فرعون رآها كلها ، وعاند بعد رؤيتها ، وذلك إشارة إلى أنه لو أعطى كفار قريش ما اقترحوه من تفجير الينبوع وما معه ، لم يكفهم عن العناد ، فالإتيان به عبث لا مصلحة فيه .

(281/464)

ولما كان اليهود الذين أمروا قريشاً بسؤال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الروح التي مضى الجواب عنها - كما في بعض الروايات - وعن أهل الكهف وذي القرنين الآتي شرح قصتيهما في الكهف ، نبههم على سؤالهم - إن كانوا يقبلون كلامهم - عن أمر موسى عليه السلام في كونه كهذا النبي الكريم في أنه بشر مع كونه رسولاً وفي كونه أتى بالخوارق فكذب بها المعاندون فاستؤصل المكذب ، فقال تعالى : ﴿ فسئل ﴾ أي يا أعظم خلقنا !

﴿ بني إسرائيل ﴾ أي عامة الذين نبهوا قريشاً على أمر الروح عن حديث موسى عليه السلام أو المؤمنين كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ إذ ﴾ أي عن ذلك حين ﴿ جاءهم ﴾ أي جاء آباءهم ، فوقع له من التكذيب بعد إظهار المعجزات الباهرات ما وقع لك ، ولم يكذب لخلل من أمره ولا لقوة من عدوه على مدافعة العذاب ، وإنما كان جهلاً وعناداً ، ليكون ذلك مسلاة لك وعلماً على خبث طباعهم وحجة قاطعة عليهم ﴿ فقال ﴾ أي فذهب إلى فرعون فأمره بإرسالهم معه فأبى فأظهر له الآيات واحدة بعد أخرى فتسبب عن ذلك ضد ما يقتضيه الحال ، وهو أن قال ﴿ له فرعون ﴾ عتواً واستكباراً : ﴿ إني لأظنك ﴾ أكد قوله لما أظهر موسى عليه السلام مما يوجب الإذعان له والإيمان والإنكار لأن يكذب به أحد ﴿ يا موسى مسحوراً ﴾ أي فكل ما ينشأ عنك فهو من آثار السحر الذي بك ، خيال لا حقيقة له ، وأنت في الحقيقة مسحور ، ولوجود السحر عنك ساحر ، قال أبو عبيد : كما يقال : ميمون - بمعنى يأمن .

وكأنه موه على جنوده لما أراهم آية اليد بهذه الشبهة ، وهذا كما قالت قريش ﴿ إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ وقالوا في موضع آخر : ساحر ، فإنهم ربما أطلقوا اسم المفعول

مريدين اسم الفاعل مبالغة في أنه كالمجبر على الفعل ، وفي الأمر بسؤال اليهود تنبيه على ضلالهم ، قال الشيخ ولي الدين الملوي : ولعل منه اقتباس الأئمة في المناظرة مطالبة اليهود والنصارى ونحوهم بإثبات نبوة أنبيائهم ، فكل طريق يسلكون يسلك مثله في تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وكل اعتراض يوردونه يورد عليهم مثله ، وما كان جواباً لهم فهو جواب لنا ، ومن تفطن للآية الكريمة رأى منها العجب في ذلك - انتهى ولم يؤمن فرعون على تواتر تلك الآيات وعظمها ، فكأنه قيل : فما قال موسى عليه السلام؟ فقيل :

﴿ قال ﴾ لفرعون : ﴿ لقد علمت ﴾ أي أنا بضم التاء على قراءة الكسائي ليفيد أن عنده العلم القطعي بأن ما أتى به منزل من ربه ، فهو أعقل أهل ذلك الزمان وليس على ما ادعاه فرعون ، أو بفتح التاء - على قراءة الباقين أي أنك يا فرعون صرت بما أظهرته أنا من الأدلة في عداد من يعلم أنه ﴿ ما أنزل ﴾ على يدي ﴿ هؤلاء ﴾ الآيات ﴿ إلا رب السماوات والأرض ﴾ أي خالقهما ومدبرهما حال كون هذه الآيات ﴿ بصائر ﴾ أي بينات ثابتاً أمرها علياً قدرها ، يبصر بها صدقي ، وأما السحر فإنه لا يخفى على أحد أنه خيال لا حقيقة له ﴿ وإني ﴾ أي وإن ظننتني يا فرعون مسحوراً ﴿ لأظنك ﴾ أكد لما كان مع فرعون من ينكر قوله ويظهر القطع بسعادة فرعون ﴿ يا فرعون مثبوراً ﴾ أي ملعوناً مطروداً مغلوباً مهلكاً ممنوعاً من الخير فاسد العقل ، وظني قريب إلى الصحة بخلاف ظنك لعنادك لرب العالمين ، لوضوح مكابرتك للبصائر التي كشف عنها وبها الغطاء ، فهي أوضح

من الشمس ، وذلك لإخلادك إلى الحال التي أنت بها وكسلك عن الانتقال عنها إلى ما هو أشرف منها ، وقد بينت مدار " ثبر " في ﴿ لا تثريب ﴾ في سورة يوسف عليه السلام ، فإذا

راجعتها اتضح لك ما أشرت إليه ﴿ فأراد ﴾ أي فما تسبب عن هذا الذي هو موجب الإيمان في العادة إلا أن فرعون أراد ﴿ أن يستفزهم ﴾ أي يستخف موسى ومن آمن معه ويخرجهم فيكونوا كالماء إذا سال ، من قولهم : فز الجرح : سال ﴿ من الأرض ﴾ بالنفي والقتل للتمكن من استعباد الباقين كما أراد هؤلاء أن يستفزوك من الأرض ليخرجوك منها للتمكن مما هم عليه من الكفر والعناد ؛ ثم أخذ يحذرهم سطواته بما فعل بمن كانوا أكثر منهم وأشد فقال : ﴿ فأغرقناه ﴾ أي فتسبب عن ذلك أن رددنا - بما لنا من العظمة - كيده في نحره : فلم نقدره على مراده واستفززناه نحن فلم يقدر على الامتناع ، بل خف غير عالم بما نريد به حتى أدخلناه في البحر حيث أدخلنا بني إسرائيل فأنجيناهم وأغرقناه ﴿ ومن معه جميعاً ﴾ كما جرت به سنتنا فيمن عاند بعد أن رأى الخوارق وكفر النعمة وأفرط في البغي بعد ظهور الحق ، فليحذر هؤلاء مثل ذلك ولا سيما إذا أخرجنا رسولنا من بين ظهرانيهم

ففي هذه الآية وأمثالها بشارة له بإسلاكنا له في النصرة ، والتمكن سبيل إخوانه من الرسل عليهم السلام ﴿ وقلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا يتعاظمها شيء .

(284/464)

ولما كان هذا القول غير مستغرق لزمان البعد ، أثبت الجار فقال تعالى : ﴿ من بعده ﴾ أي الإغراق ﴿ لبني إسراءيل ﴾ الذين كانوا تحت يده أذل من العبيد لتقواهم وإحسانهم : ﴿ اسكنوا الأرض ﴾ أي مطلق الأرض إشارة إلى أن فرعون كان يريد محوهم عن الأرض أو إلى أن سكناهم مع وجوده كانت عدماً ، لما بهم من الذل - والأرض التي أراد أن يستفزهم منها ، وهي أرض مصر ، أي صيروا بحيث تسكنونها لا يد لأحد عليكم ، ولا مانع لكم مما تريدون منها ، كما كان فرعون وجنوده إذا شئتم مملكين فيها بعد أن كنتم عبيداً تسامون سوء العذاب ﴿ فإذا جاء ﴾ أي مجيئاً محققاً ﴿ وعد الآخرة ﴾ أي القيامة بعد أن سكنتم الأرض أحياء ودفنتم فيها أمواتاً ﴿ جئنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ بكم ﴾ منها ﴿ لفيفاً ﴾ أي بعثناكم وإياهم مختلطين ، لا حكم لأحد على آخر ، ولا دفع لأحد عن آخر على غير الحالة التي كانت في الدنيا ، ثم ميزنا بعضكم عن بعض ، ونعمنا الطيب منكم بإهانة الخبيث ، أن يسأل بنو إسرائيل الذين يقبل هؤلاء المشركون الجهلة كلامهم

ويستنصحونهم في أمورهم – عن هذا الذي تلوناه عليك يخبروا به كما أخبرناك ، فيثبت حينئذ عندهم أمر الآخرة ، وإلا كان قبولهم لبعض كلامهم دون بعض بغير دليل تحكماً وترجيحاً من غير مرجح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 431.434 ﴾

(285/464)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن المقصود من هذا الكلام أيضاً الجواب عن قولهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بهذه المعجزات القاهرة فقال تعالى : إنا آتينا موسى معجزات مساوية لهذه الأشياء التي طلبتموها بل أقوى منها وأعظم فلو حصل في علمنا أن جعلها في زمانكم مصلحة لفعلناها كما فعلنا في حق موسى فدل هذا على إنا إنما لم نفعلها في زمانكم لعلمنا أنه لا مصلحة في

فعلها .

المسألة الثانية :

اعلم أنه تعالى ذكر في القرآن أشياء كثيرة من معجزات موسى عليه الصلاة والسلام .

أحدها : أن الله تعالى أزال العقدة من لسانه قيل في التفسير ذهبت العجمة وصار فصيحاً .

وثانيها : إنقلاب العصا حية .

وثالثها : تلقف الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها .

ورابعها : اليد البيضاء وخمسة أخر وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم .

والعاشر : شق البحر وهو قوله : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر ﴾ [البقرة : 50] والحادي عشر : الحجر وهو قوله : ﴿ أَنِ أَضْرِب بِّعَصَاكَ الحجر ﴾ [الأعراف : 160] .

الثاني عشر : إظلال الجبل وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف : 171] .

والثالث عشر : إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه .

والرابع عشر والخامس عشر : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءالَ فِرْعَوْنَ بالسنين وَنَقْصٍ مّن الثمرات ﴾ [الأعراف : 130] .

والسادس عشر : الطمس على أموالهم من النحل والدقيق والأطعمة والدراهم والدنانير ، روى أن عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب عن قوله : ﴿ تِسْعَ ءايات بَيِّنَاتٍ ﴾ فذكر محمد بن كعب في مسألة التسع حل عقدة اللسان والطمس فقال عمر بن عبد العزيز هكذا يجب أن يكون الفقيه ثم قال : يا غلام اخرج ذلك الجراب فأخرجه فنفضه فإذا فيه بيض مكسور نصفين وجوز مكسور وفول وحمص وعدس كلها حجارة إذا عرفت هذا فنقول إنه تعالى ذكر في القرآن هذه المعجزات الستة عشر لموسى عليه الصلاة والسلام وقال في هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى تِسْعَ ءايات بَيِّنَاتٍ ﴾ وتخصيص التسعة بالذكر لا يقدح فيه ثبوت الزائد عليه لأنا بينا في أصول الفقه أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد بل نقول إنما يتمسك في هذه المسألة بهذه الآية ثم نقول : أما هذه التسعة فقد اتفقوا على سبعة منها وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وبقي الاثنان ولكل واحد من المفسرين قول آخر فيهما ولما لم تكن تلك الأحوال مستندة إلى حجة ظنية فضلاً عن حجة يقينية لا جرم تركت تلك الروايات ، وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ تِسْعَ ءايات بَيِّنَاتٍ ﴾ أقوال أجودها ما روى صفوان بن عسال أنه قال : إن يهودياً قال لصاحبه إذهب بنا إلى هذا النبي نسأله عن تسع آيات فذهبا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألاه عنها فقال : هن أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا ولا تسحروا ولا تأكلوا

الربا ولا تقذفوا المحصنة ولا تولوا الفرار يوم الزحف وعليكم خاصة اليهود أن تعدوا في السبت فقام اليهوديان فقبلا يديه ورجليه وقالوا نشهد إنك نبي ولولا نخاف القتل وإلا اتبعناك .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ فاسأل بَنِى إسرائيل إِذْ جَاءهُمْ ﴾ فيه مباحث :

البحث الأول : فيه وجوه : الوجه الأول : أنه اعتراض دخل في الكلام والتقدير : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات إذ جاء بني إسرائيل فاسألهم وعلى هذا التقدير فليس المطلوب من سؤال بني إسرائيل أن يستفيد هذا العلم منهم بل المقصود أن يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ما ذكره الرسول فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد .

والوجه الثاني : أن يكون قوله ﴿ فاسأل بني إسرائيل ﴾ أي سلهم عن فرعون .

وقل له أرسل معي بني إسرائيل .

والوجه الثالث : سل بني إسرائيل أي سلهم أن يوافقوك والتمس منهم الإيمان الصالح .

وعلى هذا التأويل فالتقدير فقلنا له سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك .

البحث الثاني : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يسأل بني إسرائيل معناه الذين كانوا موجودين في زمان النبي صلى الله عليه وسلم والذين جاءهم موسى عليه الصلاة والسلام هم الذين كانوا في زمانه إلا أن الذين كانوا في زمان محمد صلى الله عليه وسلم لما كانوا أولاد أولئك الذين كانوا في زمان موسى حسنت هذه الكناية .

ثم أخبر تعالى أن فرعون قال لموسى : ﴿ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يا موسى مَّسْحُورًا ﴾ وفي لفظ المسحور وجوه .

الأول : قال الفراء : إنه بمعنى الساحر كالمشؤوم والميمون وذكرنا هذا في قوله : ﴿ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء : 45] أنه مفعول من السحر أي أن الناس سحروك وخبلوك فتقول هذه الكلمات لهذا السبب .

الثالث : قال محمد بن جرير الطبري معناه أعطيت علم السحر ، فهذه العجائب التي تأتي بها من ذلك السحر ثم أجابه موسى عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السموات والأرض ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : قرأ الكسائي ﴿ علمت ﴾ بضم التاء أي علمت أنها من علم الله فإن علمت وأقررت وإلا هلكت والباقون بالفتح وضم التاء قراءة علي وفتحها قراءة ابن عباس وكان علي رضي الله عنه يقول والله ما علم عدو الله ولكن موسى هو الذي علم فبلغ ذلك ابن عباس رضي الله عنهما فاحتج بقوله : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل : 14] على أن فرعون وقومه كانوا قد عرفوا صحة أمر موسى عليه السلام قال الزجاج الأجود في القراءة الفتح لأن علم فرعون بأنها آيات نازلة من عند الله أوكد في الحجة فاحتجاج موسى عليه الصلاة والسلام على فرعون بعلم فرعون أوكد من الاحتجاج بعلم نفسه .

وأجاب الناصرون لقراءة علي عليه السلام عن دليل ابن عباس فقالوا قوله : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ يدل على أنهم استيقنوا شيئاً ما فأما أنهم استيقنوا كون هذه الآيات نازلة من عند الله فليس في الآية ما يدل عليه ، وأجابوا عن الوجه الثاني بأن فرعون قال ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : 27] قال موسى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ فكأنه نفي ذلك وقال لقد علمت صحة ما أتيت به علماً صحيحاً علم العقلاء .

واعلم أن هذه الآيات من عند الله ولا تشك في ذلك بسبب سفاهتك .

البحث الثاني : التقدير ما أنزل هؤلاء الآيات ونظيره قوله : والعيش بعد أولئك الأقوام .

وقوله ﴿ بصائر ﴾ أي حججاً بينة كأنها بصائر العقول وتحقيق الكلام أن المعجزة فعل خارق للعادة فعله فاعله لغرض تصديق المدعى ومعجزات موسى عليه الصلاة والسلام كانت موصوفة بهذين الوصفين لأنها كانت أفعالاً خارقة للعادة وصرائح العقول تشهد بأن قلب العصا حية معجزة عظيمة لا يقدر عليها إلا الله ثم إن تلك الحية تلقفت حبال السحرة وعصيهم على كثرتها ثم عادت عصا كما كانت فأصناف تلك الأفعال لا يقدر عليها أحد إلا الله ، وكذا القول في فرق البحر وإظلال الجبل فثبت أن تلك الأشياء ما أنزلها إلا رب السموات .

الصفة الثانية : أنه تعالى إنما خلقها لتدل على صدق موسى في دعوة النبوة ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السموات والأرض ﴾ حال كونها بصائر أي دالة على صدق موسى في دعواه وهذه الدقائق لا يمكن فهمها من القرآن إلا بعد إتقان علم الأصول

وأقول يبعد أن يصير غير علم الأصول العقلي قاهراً في تفسير كلام الله ثم حكى تعالى أن موسى قال لفرعون : ﴿ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء : 103] واعلم أن فرعون قال لموسى : ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يا موسى مَسْحُورًا ﴾ فعارضه موسى وقال له : ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يافرعون مَثْبُورًا ﴾ قال الفراء : المثبور الملعون المحبوس عن الخير والعرب تقول ما ثبرك عن هذا أي ما منعك منه وما صرفك ، وقال أبو زيد : يقال ثبرت فلاناً عن الشيء أثبره أي رددته عنه ، وقال مجاهد وقتادة هالكاً ، وقال الزجاج : يقال ثبر الرجل فهو مثبور إذا هلك ، والثبور الهلاك ، ومن معروف الكلام فلان يدعو بالويل والثبور عند مصيبة تناله ، وقال تعالى : ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً * لاَّ تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً واحدا وادعوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾ [الفرقان : 13 ، 14] واعلم أن فرعون لما وصف موسى بكونه مسحوراً أجابه موسى بأنك مثبور يعني هذه الآيات ظاهرة ، وهذه المعجزات قاهرة ولا يرتاب العاقل في أنها من عند الله وفي أنه تعالى إنما أظهرها لأجل تصديقي وأنت تنكرها فلا يحملك على هذا الإنكار إلا الحسد والعناد والغي والجهل وحب الدنيا ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور .

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرض ﴾ يعني أراد فرعون أن يخرجهم يعني موسى وقومه بني إسرائيل ، ومعنى تفسير الاستفزاز تقدم (1) في هذه السورة من الأرض يعني أرض مصر ، قال الزجاج : لا يبعد أن يكون المراد من استفزازهم إخراجهم منهم بالقتل أو بالتنحية ثم قال : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴾ المعنى ما ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] أراد فرعون أن يخرج موسى من أرض مصر لتخلص له تلك البلاد والله تعالى أهلك فرعون وجعل ملك مصر خالصة لموسى ولقومه وقال : لبني إسرائيل اسكنوا الأرض خالصة لكم خالية من عدوكم قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الأخرة ﴾ يريد القيامة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ من ها هنا وها هنا ، واللفيف الجمع العظيم من أخلاط شتى من الشريف والدنيء والمطيع والعاصي والقوي والضعيف .

وكل شيء خلطته بشيء آخر فقد لففته ، ومنه قيل لففت الجيوش إذا ضربت بعضها ببعض وقوله التفت الزحوف ومنه ، ﴿ التفت الساق بالساق ﴾ [القيامة : 29] والمعنى جئنا بكم من قبوركم إلى المحشر أخلاطاً يعني جميع الخلق المسلم والكافر والبر والفاجر .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 53 . 56 ﴾

---

(1) يريد تفسير معنى الاستفزاز فقلب ، ولعلها حرفت إلى ما تراه .

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ ولقد آتينا موسى تسْع آيات بيناتٍ ﴾

فيها أربعة أقاويل :

أحدها : أنها يده وعصاه ولسانه والبحر والطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم آيات مفصلات ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها نحو من ذلك إلا آيتين منهن إحداهما الطمس ، والأخرى الحجر ، قاله محمد بن كعب القرظي .

الثالث : أنها نحو من ذلك ، وزيادة السنين ونقص من الثمرات ، وهو قول الحسن .

الرابع : ما روى صفوان بن عسال عن النبي صلى الله عليه وسلم أن قوماً من اليهود سألوه عنها فقال : " لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببرىء الى السلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة ، ولا تفرُّوا من الزحف ، وأنتم يا يهود خاصة لا تعدُوا في السبت " فقبلوا يده ورجله .

﴿ فاسأل بني إسرائيل . . ﴾ وفي أمره بسؤالهم وإن كان خبر الله أصدق من خبرهم ثلاثة أوجه :

أحدها : ليكون ألزم لهم وأبلغ في الحجة عليهم .

الثاني : فانظر ما في القرآن من أخبار بني إسرائيل فه سؤالهم ، قاله الحسن .

الثالث : إنه خطاب لموسى عليه أن يسأل فرعون في إطلاق بني إسرائيل قاله ابن عباس .

وفي قوله ﴿ إني لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ أربعة أوجه :

أحدها : قد سُحرت لما تحمل نفسك عليه من هذا القول والفعل المستعظمين .

الثاني : يعني ساحراً لغرائب أفعالك . الثالث : مخدوعاً .

الرابع : مغلوباً : قاله مقاتل .

﴿ . . . وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : مغلوباً ، قاله الكلبي ومقاتل . وقال الكميت :

وَرَأَت قُضَاعَةُ في الأَيا . . . مِن رَأْيَ مَثْبُورٍ وَثَابِرِ

الثاني : هالك ، وهو قول قتادة .

الثالث : مبتلى ، قاله عطية .

الرابع : مصروفاً عن الحق ، قاله الفراء .

الخامس : ملعوناً ، قاله أبان بن تغلب وأنشد :

يا قَوْمَنَا لا تَرُومُوا حَرْبَنَا سَفَهاً

(293/464)

إنّ السَّفَاهَ وإنّ البَغْيَ مَثْبُورُ

قوله عز وجل : ﴿ فأراد أن يستفزهم من الأرض ﴾ وفيه وجهان :

أحدهما : يزعجهم منها بالنفي عنها ، قاله الكلبي .

الثاني : يهلكهم فيها بالقتل . ويعني بالأرض مصر وفلسطين والأردن .

قوله عز وجل : ﴿ . . . فإذا جاءَ وعد الآخرة ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : وعد الإقامة وهي الكرة الآخرة ، قاله مقاتل .

الثاني : وعد الكرة الآخرة في تحويلهم إلى أرض الشام .

الثالث : نزول عيسى عليه السلام من السماء ، قاله قتادة .

﴿ جئنا بكم لفيفاً ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : مختلطين لا تتعارفون ، قاله رزين .

الثاني : جئنا بكم جميعاً من جهات شتى ، قاله ابن عباس وقتادة . مأخوذ من لفيف الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(294/464)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾

اتفق المتأولون والرواة أن الآيات الخمس التي في سورة الأعراف هي من هذه التسع ، وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، واختلفوا في الأربع ، فقال ابن عباس : هي يده ولسانه حين انحلت عقدته ، وعصاه والبحر ، وقال محمد بن كعب القرطبي : هي البحر والعصا والطمسة والحجر ، وقال سألني عن ذلك عمر بن عبد العزيز فأخبرته ، فقال لي : وما الطمسة ؟ فقلت دعا موسى وآمن هارون فطمس الله أموالهم وردها حجارة ، فقال عمر : وهل يكون الفقه إلا هكذا ؟ ثم دعا بخريطة فيها غرائب كانت لعبد العزيز بن مروان ، جمعها بمصر ، فاستخرج منها الحوزة والبيضة والعدسة وهي كلها حجر كانت من بقايا أموال آل فرعون ، وقال الضحاك : هي إلقاء العصا مرتين ، واليد ، وعقدة لسانه ، وقال عكرمة ومطر الوراق ، والشعبي : هي العصا واليد والسنون ونقص الثمرات ، وقال الحسن

: هي العصا في كونها ثعباناً وتلقف العصا ما يأفكون ، وقال ابن عباس : هي السنون في بواديهم ، ونقص الثمرات في قراهم ، واليد ، والعصا ، وروى مطرف عن مالك أنها العصا ، واليد ، والجبل إذ نتق ، والبحر ، وروى ابن وهب عنه مكان البحر الحجر ، والذي يلزم من الآية أن الله تعالى خص من آيات موسى إذ هي كثيرة جداً تنيف على أربع وعشرين ، تسعاً بالذكر ووصفها بالبيان ولم يعينها ، واختلف العلماء في تعيينها بحسب اجتهادهم في بيانها أو روايتهم التوقيف في ذلك ، وقالت فرقة آيات موسى إنما أريد بها آيات التوراة التي هي أوامر ونواه ، روى في هذا صفوان بن عسال ، أن يهود المدينة قال لآخر : سر بنا إلى هذا النبي نسأله عن آيات موسى ، فقال له الآخر : لا تقل إنه نبي ، فإنه لو سمعك صار له أربع أعين ، قال : فسارا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه ، فقال

" هن أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرفوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تمشوا ببريء إلى سلطان ليقتله ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا المحصنة ، ولا تفروا يوم الزحف ، وعليكم خاصة يهود أن لا تعدوا في السبت " ، وقرأ الجمهور " فاسأل بني إسرائيل " وروي عن الكسائي " فسل " على لغة من قال سأل يسأل ،

وهذا كله على معنى الأمر لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أي اسأل معاصريك عما أعلمناك به من غيب القصة ، ثم قال ﴿ إذ جاءهم ﴾ يريد آباءهم ، وأدخلهم في الضمير إذ هم منهم ، ويحتمل أن يريد ﴿ فاسأل بني إسرائيل ﴾ الأولين الذين جاءهم موسى وتكون إحالته إياه على سؤالهم بطلب إخبارهم والنظر في أحوالهم وما في كتبهم نحو قوله تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ [الزخرف : 45] وهذا كما تقول لمن تعظه : سل الأمم الخالية هل بقي منها مخلد ؟ ونحو هذا مما يجعل النظر فيه مكان السؤال ، قال الحسن : سؤالك نظرك في القرآن وقرأ ابن عباس " فسأل بني إسرائيل " أي فسأل موسى فرعون بني إسرائيل أي طلبهم لينجيهم من العذاب ، وقوله ﴿ مسحوراً ﴾ اختلف فيه المتأولون ، فقالت فرقة هو مفعول على بابه ، أي إنك قد سحرت ، فكلامك مختل ، وما تأتي به غير مستقيم ، وقال الطبري : هو مفعول بمعنى فاعل كما قال ﴿ حجاباً مستوراً ﴾ [الإسراء : 45] وكما قالوا مشؤوم وميمون وإنما هو شايم ويامن .

قال القاضي أبو محمد : وهذا لا يتخرج إلى على النسب أي ذا سحر ملكته وعلمته ، فأنت تأتي بهذه الغرائب لذلك ، وهذه مخاطبة تنقص ، فيستقيم أن يكون ﴿ مسحوراً ﴾ مفعولاً على ظاهره ، وعلى أن يكون بمعنى ساحر يعارضنا ما حكي عنهم أنهم قالوا له على جهة المدح ﴿ يا أيها الساحر ادع لنا ربك ﴾ [الزخرف : 49] فإما أن يكون

القائلون هنالك ليس فيهم فرعون وإما أن يكون فيهم لكنه تنقل من تنقصه إلى تعظيمه ، وفي هذا نظر .

(296/464)

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾

(297/464)

روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أنه قرأ " علمتُ " بتاء المتكلم مضمومة ، وقال ما علم عدو الله قط ، وإنما علم موسى ، وتتقوى هذه القراءة لمن تأول ﴿ مسحوراً ﴾ [الإسراء : 101] على بابه ، فلما رماه فرعون بأنه قد سحر ففسد نظره وعقله وكلامه ، رد هو عليه بأنه يعلم آيات الله ، وأنه ليس بمسحور ، بل محرر لما يأتي به ، وهي قراءة الكسائي ، وقرأ الجمهور " لقد علمتَ " بتاء المخاطب مفتوحة ، فكأن موسى عليه السلام رماه بأنه يكفر عناداً ، ومن قال بوقوع الكفر عناداً فله تعلق بهذه الآية ، وجعلها كقوله عز وجل : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ [النمل : 14] ، وقد حكى

الطبري ذلك عن ابن عباس ، ونحا إلى ذلك الزجاج ، وهي معرضة للاحتمال على أن يكون قول موسى عليه السلام إبلاغاً على فرعون في التوبيخ ، أي أنت بحال من يعلم هذا ، وهي من الوضوح بحيث تعلمها ، ولم يكن ذلك على جهة الخبر عن علم فرعون ، ومن يريد من الآية وقوع الكفر عناداً فإنما يجعل هذا خبراً من موسى عن علم فرعون ، والإشارة ب ﴿ هؤلاء ﴾ إلى التسع الآيات ، وقوله ﴿ بصائر ﴾ جمع بصيرة ، وهي الطريقة أي طرائق يهتدي بها ، وكذلك غلب على البصيرة أنها تستعمل في طريقة النفس في نظرها واعتقادها ، ونصب ﴿ بصائر ﴾ على الحال ، و" المثبور " المهلك ، قاله مجاهد ، وقال ابن عباس والضحاك هو المغلوب ، وقال ابن زيد هو المخبول ، وروي عن ابن عباس أنه فسره بالملعون ، وقال بعض العلماء : كان موسى عليه السلام في أول أمره يجزع ، ويؤمر بالقول اللين ، ويطلب الوزير ، فلما تقوت نفسه بقوى النبوءة ، تجلد وقابل فرعون بأكثر مما أمره به بحسب اجتهاده الجائز له ، قال ابن زيد : اجترأ موسى أن يقول له فوق ما أمره الله به ، وقالت فرقة بل " المثبور " المغلوب المختدع ، وما كان موسى عليه السلام ليكون لعاناً ، ومن اللفظة قول عبد الله بن الزبعرى : [الخفيف]

إذا جاري الشيطان في سنن الغ . . . ي ومن مال ميله مثبورا

وقوله عز وجل ﴿ فأراد أن يستفزهم ﴾ الآية ، ﴿ يستفزهم ﴾ معناه يستخفهم ويقلعهم ، إما بقتل أو بإجلاء ، و﴿ الأرض ﴾ أرض مصر ، وقد تقدم أنه متى ذكرت الأرض عموماً فإنما يراد بها ما يناسب القصة المتكلم فيها ، وقد يحسن عمومها في بعض القصص .

قال القاضي أبو محمد : واقتضبت هذه الآية قصص موسى مع فرعون وإنما ذكرت عظم الأمر وخطيره ، وذلك طرفاه ، أراد فرعون غلبتهم وقتلهم وهذا كان بدء الأمر " فأغرقه " الله أغرق جنوده وهذا كان نهاية الأمر ، ثم ذكر تعالى أمر ﴿ بني إسرائيل ﴾ بعد إغراق فرعون بسكنى أرض الشام ، و﴿ وعد الآخرة ﴾ هو يوم القيامة ، و" اللفيف " الجمع المختلط الذي قد لف بعضه إلى بعض ، فليس ثم قبائل ولا انحياز ، قال بعض اللغويين : هو من أسماء الجموع ولا واحد له من لفظه ، وقال الطبري هو بمعنى المصدر كقول القائل لففته لفاً و﴿ لفيفاً ﴾ وفي هذا نظر فتأمله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بني إِسرائيل ﴾

قرأ الجمهور : "فاسأل" على معنى الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإِنما أُمر أن يسأل من آمن منهم عما أخبر [به] عنهم ، ليكون حُجَّة على من لم يؤمن منهم .

وقرأ ابن عباس : "فَسَأَلَ بني إِسرائيل" ، [على معنى] الخبر عن موسى أنه سأل فرعون أن يرسل معه بني إِسرائيل .

﴿ فقال له فرعونُ إِني لأظنُّك ﴾ أي : لأحسِبك ﴿ يا موسى مسحوراً ﴾ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مخدوعاً ، قاله ابن عباس .

والثاني : مسحوراً قد سُحِرْتَ ، قاله ابن السائب .

والثالث : ساحراً ، فوضع مفعولاً في موضِع فاعلٍ ، هذا مروي عن الفراء ، وأبي عبيدة .

فقال موسى : ﴿ لقد علمت ﴾ قرأ الجمهور بفتح التاء .

وقرأ علي عليه السلام بضمها ، وقال : والله ما عَلِم عدوُّ الله ، ولكنّ موسى هو الذي عَلِم ، فبلغ ذلك ابنَ عباس ، فاحتج بقوله تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ [النمل : 14] .

واختار الكسائي وثعلب قراءة علي عليه السلام ، وقد رُويت عن ابن عباس ، وأبي رزين

، وسعيد بن جبير ، وابن يعمر .

واحتج من نصرها بأنه لما نَسَبَ موسى إلى أنه مسحور ، أعلمه بصحة عقله بقوله : "لقد علمتُ" ، والقراءة الأولى أصح ، لاختيار الجمهور ، ولأنه قد أبان موسى من المعجزات ما أوجب علم فرعون بصدقه ، فلم يردّ عليه إلا بالتعلل والمدافعة ، فكأنه قال : لقد علمتَ بالدليل والحجة "ما أنزل هؤلاء" يعني الآيات .

وقد شرحنا معنى "البصائر" في [الأعراف : 203] .

قوله تعالى : ﴿ وإِني لأظنك ﴾ قال أكثر المفسرين : الظن ها هنا بمعنى العِلم ، على خلاف ظن فرعون في موسى ، وسوّى بينهما بعضهم ، فجعل الأول بمعنى العِلم أيضاً .

وفي المثبور ستة أقوال .

أحدها : أنه الملعون ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .

والثاني : المغلوب ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : الناقص العقل ، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس .

والرابع : المُهْلَك ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال أبو عبيدة ، وابن قتيبة .

قال الزجاج : يقال : ثُبر الرجل ، فهو مثبور : إِذا أُهلك .

والخامس : الهالك ، قاله مجاهد .

والسادس : الممنوع من الخير ؛ تقول العرب : ما ثبرك عن هذا ، أي : ما منعك ، قاله الفراء .

قوله تعالى : ﴿ فأراد أن يستفزَّهم من الأرض ﴾ يعني : فرعون أراد أن يستفزَّ بني إِسرائيل من أرض مصر .

وفي معنى "يستفزَّهم" قولان .

أحدهما : يستأصلهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : يستخفّهم حتى يخرجوا ، قاله ابن قتيبة .

وقال الزجاج : جائز أن يكون استفزازُهم إِخراجَهم منها بالقتل أو بالتنحية .

قال العلماء : وفي هذه الآية تنبيه على نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لما خرج موسى فطلبه فرعون ، هلك فرعون وملَك موسى ، وكذلك أظهر الله نبيَّه بعد خروجه من مكة حتى رجع إِليها ظاهراً عليها .

قوله تعالى : ﴿ وقلنا من بعده ﴾ أي : من بعد هلاك فرعون ﴿ لبني إِسرائيل اسكنوا الأرض ﴾ وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : فلسطين والأردنّ ، قاله ابن عباس .

والثاني : أرضٌ وراء الصِّين ، قاله مقاتل .

والثالث : أرض مصر والشام .

قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ يعني : القيامة ﴿ جئنا بكم لفيفاً ﴾ أي : جميعاً ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وابن قتيبة .

وقال الفراء : لفيفاً ، أي : مِنْ هاهنا ومِن هاهنا .

وقال الزجاج : اللفيف : الجماعات من قبائل شتى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(301/464)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾

اختلف في هذه الآيات ؛ فقيل : هي بمعنى آيات الكتاب ؛ كما روى الترمذي والنسائي عن صفوان بن عسّال المرادي " أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبيّ نسأله ؛ فقال : لا تقل له نبيّ فإنه إن سمعنا كان له أربعة أعين ؛ فأتيا النبيّ صلى الله عليه

وسلم فسألاه عن قول الله تعالى : "ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تمشوا ببريء إلى سلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تفرّوا من الزحف شك شعبة وعليكم (يا معشر) اليهود خاصة ألا تعدوا في السبت" فقبلا يديه ورجليه وقالا : نشهد أنك نبيّ.

قال : "فما يمنعكما أن تسلما" قالا : إن داود دعا الله ألا يزال في ذريته نبيّ وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود" قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح.

وقد مضى في البقرة.

وقيل : الآيات بمعنى المعجزات والدلالات.

قال ابن عباس والضحاك : الآيات التسع : العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم ؛ آيات مفصّلات.

وقال الحسن والشعبيّ : الخمس المذكورة في "الأعراف" ؛ يعنيان الطوفان وما عطف عليه ، واليد والعصا والسنين والنقص من الثمرات.

وروي نحوه عن الحسن ؛ إلا أنه يجعل السنين والنقص من الثمرات واحدة ، وجعل التاسعة تلقّف العصا ما يأفكون.

وعن مالك كذلك ؛ إلا أنه جعل مكان السنين والنقص من الثمرات : البحر والجبل.

وقال محمد بن كعب : هي الخمس التي في "الأعراف" والبحر والعصا والحجر والطمس على أموالهم .

وقد تقدّم شرح هذه الآيات مستوفًى والحمد لله .

﴿ فاسأل بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ أي سلهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات ، حسبما تقدّم بيانه في يونس .

(302/464)

وهذا سؤال استفهام ليعرف اليهود صحة ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ فقال له فِرْعَونُ إِنّي لأظنّك يا مُوسى مَسْحُوراً ﴾ أي ساحراً بغرائب أفعالك ؛ قاله الفراء وأبو عبيدة .

فوضع المفعول موضع الفاعل ؛ كما تقول : هذا مشؤوم وميمون ، أي شائم ويامن .

وقيل مخدوعاً .

وقيل مغلوباً ؛ قاله مقاتل .

وقيل غير هذا ؛ وقد تقدّم .

وعن ابن عباس وأبي نهيك أنهما قرأا "فسأل بني إسرائيل" على الخبر ؛ أي سأل موسى

فرعون أن يخلي بني إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هؤلاء ﴾

يعني الآيات التسع .

و"أنزل" بمعنى أوجد .

﴿ إِلاَّ رَبُّ السماوات والأرض بَصَآئِرَ ﴾ أي دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته .

وقراءة العامة "علمت" بفتح التاء ، خطاباً لفرعون .

وقرأ الكسائي بضم التاء ، وهي قراءة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ وقال : والله ما علم عدوّ الله ولكن موسى هو الذي علم ، فبلغت ابن عباس فقال : إنها "لقد علمت" ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ .

ونسب فرعون إلى العناد .

وقال أبو عبيد : والمأخوذ به عندنا فتح التاء ، وهو الأصح للمعنى الذي احتج به ابن عباس ؛ ولأن موسى لا يحتج بقوله : علمت أنا ، وهو الرسول الداعي ، ولو كان مع هذا كلّه تصح به القراءة عن عليّ لكانت حجة ، ولكن لا تثبت عنه ، إنما هي عن كلثوم المراديّ وهو مجهول لا يعرف ، ولا نعلم أحداً قرأ بها غير الكسائي .

وقيل : إنما أضاف موسى إلى فرعون العلم بهذه المعجزات ؛ لأن فرعون قد علم مقدار ما يتهيأ للسحرة فعله ، وأن مثل ما فعل موسى لا يتهيأ لساحر ، وأنه لا يقدر على فعله إلا من

يفعل الأجسام ويملك السموات والأرض .

وقال مجاهد : دخل موسى على فرعون في يوم شات وعليه قطيفة له ، فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان ، فرأى فرعون جانبي البيت بين فُقْمَيْها ، ففزع وأحدث في قطيفته .

(الفقم بالضم اللحى ، وفي الحديث " من حفظ ما بين فقميه " أي ما بين لحييه) .

﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يا فرعون مَثْبُوراً ﴾ الظن هنا بمعنى التحقيق .

والثبور : الهلاك والخسران أيضاً .

قال الكُمَيْت :

ورأتْ قُضاعة في الأيا . . .

مِن رأي مَثْبُورٍ وثابر

أي مخسور وخاسر ، يعني في انتسابها إلى اليمن .

وقيل : ملعوناً رواه المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس .

وقاله أبان بن تغلب .

وأنشد :

يا قومنا لا تَرُومُوا حَرْبَنَا سَفَهاً . . .

إنّ السَّفاه وإن البَغْيَ مثبورُ

أي ملعون .

وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس : "مثبوراً" ناقص العقل .

ونظر المأمون رجلاً فقال له : يا مثبور ؛ فسئل عنه قال : قال الرشيد قال المنصور لرجل :

مثبور ؛ فسألته فقال : حدثني ميمون بن مهران . . .

فذكره .

وقال قتادة هالكاً .

وعنه أيضاً والحسن ومجاهد : مهلكاً .

والثُّبُور : الهلاك ؛ يقال : ثَبَر الله العدوّ ثبوراً أهلكه .

وقيل : ممنوعاً من الخير .

حكى أهل اللغة : ما ثبرك عن كذا أي ما منعك منه .

وثبره الله يثبره ويُثَبّره لغتان .

قال ابن الزِّبَعْرَى :

إذ أُجاري الشيطان في سنَن الغَ . . .

يّ ومن مال مَيْلَه مثبور

الضحاك : "مثبوراً" مسحوراً .

ردّ عليه مثل ما قال له باختلاف اللفظ .

وقال ابن زيد : "مثبوراً" مخبولاً لا عقل له .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرض ﴾

أي أراد فرعون أن يخرج موسى وبني إسرائيل من أرض مصر إما بالقتل أو بالإبعاد ؛

فأهلكه الله عز وجل .

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد إغراقه .

﴿ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأرض ﴾ أي أرض الشام ومصر .

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة ﴾ أي القيامة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ أي من قبوركم مختلطين

من كل موضع ، قد اختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته

وحَيّه .

وقال ابن عباس وقتادة : جئنا بكم جميعاً من جهات شتّى .

والمعنى واحد .

قال الجوهري : واللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى ؛ يقال : جاء القوم بلفّهم ولفيفهم ، أي وأخلاطهم .

وقوله تعالى : ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ أي مجتمعين مختلطين .

وطعام لفيف إذا كان مخلوطاً من جنسين فصاعداً .

وفلان لفيف فلان أي صديقه .

قال الأصمعي : اللفيف جمعٌ وليس له واحد ، وهو مثل الجميع .

والمعنى : أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر ، مختلطين لا يتعارفون .

وقال الكلبي : "فإذا جاء وعد الآخرة" يعني مجيء عيسى عليه السلام من السماء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(305/464)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾

ولما حكى الله تعالى عن قريش ما حكى من تعنتهم في اقتراحهم وعنادهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) سلاه تعالى بما جرى لموسى مع فرعون ومع قومه من قولهم ﴿ أرنا الله

جهرة ﴾ إذ قالت قريش ﴿ أو تأتي بالله ﴾ وقالت ﴿ أو نرى ربنا ﴾ وسكن قلبه ونبه على أن عاقبتهم للدمار والهلاك كما جرى لفرعون إذ أهلكه الله ومن معه .

و ﴿ تسع آيات ﴾ قال ابن عباس وجماعة من الصحابة : هي اليد البيضاء ، والعصا ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم هذه سبع باتفاق ، وأما الثنتان فعن ابن عباس لسانه كان به عقد فحلها الله ، والبحر الذي فلق له .

وعنه أيضاً البحر والجبل الذي نتق عليهم .

وعنه أيضاً السنون ونقص من الثمرات وقاله مجاهد والشعبي وعكرمة وقتادة .

وقال الحسن : السنون ونقص الثمرات آية واحدة ، وعن الحسن ووهب البحر والموت أرسل عليهم .

وعن ابن جبير الحجر والبحر .

وعن محمد بن كعب : البحر والسنون .

وقيل : ﴿ تسع آيات ﴾ هي من الكتاب ، وذلك أن يهودياً قال لصاحبه : تعالى حتى نسأل هذا النبيّ فقال الآخر لا تقل إنه نبيّ فإنه لو سمع كلامك صارت له أربعة أعين ، فأتياه وسألاه عن ﴿ تسع آيات بينات ﴾ فقال : لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببريء إلى سلطان ليقتله ، ولا تسخروا ، ولا تقذفوا المحصنات ، ولا تفروا من الزحف ، وعليكم خاصة يهود أن لا تعتدوا في السبت ، قال : فقبلا يده وقالا : نشهد أنك

نبيّ فقال : ما منعكما أن تسلما ؟ قالا : إن داود دعا الله أن لا يزال في ذريته نبيّ وإنّا نخاف إن أسلمنا تقتلنا اليهود .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وقرأ الجمهور : فسل ﴿ بني إسرائيل ﴾ وبنو إسرائيل معاصروه ، وفسل معمول لقول محذوف أي فقلنا سل ، والظاهر أنه خطاب للرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) أمره أن يسألهم عما أعلمه به من غيب القصة .

(306/464)

ثم قال : ﴿ إذ جاءهم ﴾ يريد آباءهم وأدخلهم في الضمير إذ هم منهم .

وقال الزمخشري : سلهم عن إيمانهم وعن حال دينهم ، أو سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك .

ويدل عليه قراءة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

فسأل ﴿ بني إسرائيل ﴾ على لفظ الماضي بغير همز وهي لغة قريش .

وقيل : فسل يا رسول الله المؤمنين من بني إسرائيل وهم عبد الله بن سلام وأصحابه عن الآيات لتزداد يقيناً وطمأنينة قلب ، لأن الدلالة إذا تظافرت كان ذلك أقوى وأثبت كقول

إبراهيم عليه السلام ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ انتهى .

وهذا القول هو الأول وهو ما أعلمه به من غيب القصة .

ولما كان متعلق السؤال محذوفاً احتمل هذه التقديرات ، والظاهر أن الأمر بالسؤال لبني إسرائيل هو حقيقة .

وقال ابن عطية ما معناه : يحتمل أن يكون السؤال عبارة عن تطلب أخبارهم والنظر في أحوالهم وما في كتبهم .

نحو قوله ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ جعل النظر والتطلب معبراً عنه بالسؤال ، ولذلك قال الحسن : سؤالك إياهم نظرك في القرآن ، والظاهر أن ﴿ إذ ﴾ معمولة لآتينا أي ﴿ آتينا ﴾ حين جاء أتاهم .

وقال الزمخشري : فإن قلت : بم تعلق ﴿ إذ جاءهم ﴾ ؟ قلت : أما على الوجه الأول فبالقول المحذوف أي فقلنا له سلهم حين جاءهم ، وأما على الآخر فبآتينا أو بإضمار اذكر أو يخبرونك انتهى .

ولا يتأتى تعلقه باذكر ولا بيخبرونك لأنه ظرف ماض .

وقراءة فسأل مروية عن ابن عباس .

قال ابن عباس : كلام محذوف وتقديره فسأل موسى فرعون بني إسرائيل أي طلبهم لينجيهم من العذاب انتهى .

وعلى قراءة فسل يكون التقدير فقلنا له سل ﴿ بني إسرائيل ﴾ أي سل فرعون إطلاق بني إسرائيل .

وقال أبو عبد الله الرازي : فسل ﴿ بني إسرائيل ﴾ اعتراض في الكلام والتقدير ، ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ إذ جاء ﴿ بني إسرائيل ﴾ فسلهم وليس المطلوب من سؤال بني إسرائيل أن يستفيد هذا العلم منهم ، بل المقصود أن يظهر لعامة اليهود صدق ما ذكره الرسول عليه السلام ، فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد انتهى .

وعلى قراءة فسأل ماضياً وقدره فسأل فرعون ﴿ بني إسرائيل ﴾ يكون المفعول الأول لسأل محذوفاً ، والثاني هو ﴿ بني إسرائيل ﴾ وجاز أن يكون من الأعمال لأنه توارد على فرعون سأل وفقال فأعمل ، الثاني على ما هو أرجح .

والظاهر أن قوله ﴿ مسحوراً ﴾ اسم مفعول أي قد سحرت بكلامك هذا مختل وما يأتي به غير مستقيم وهذا خطاب بنقيض .

وقال الفراء والطبري : مفعول بمعنى فاعل أي ساحراً ، فهذه العجائب التي يأتي بها من أمر السحر ، وقالوا : مفعول بمعنى فاعل مشؤوم وميمون وإنما هو شائم ويامن .

وقرأ الجمهور : ﴿ لقد علمت ﴾ بفتح التاء على خطاب موسى لفرعون وتبكيته في قوله عنه أنه مسحور أي لقد علمت أن ما جئت به ليس من باب السحر ، ولا أني خدعت في عقلي ، بل علمت أنه ما أنزلها إلاّ الله ، وما أحسن ما جاء به من إسناد إنزالها إلى لفظ ﴿ رب السموات والأرض ﴾ إذ هو لما سأله فرعون في أول محاورته فقال له : وما رب العالمين قال : ﴿ رب السموات والأرض ﴾ ينبهه على نقصه وأنه لا تصرّف له في الوجود فدعواه الربوبية دعوى استحالة ، فبكّته وأعلمه أنه يعلم آيات الله ومن أنزلها ولكنه مكابر معاند كقوله

﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ وخاطبه بذلك على سبيل التوبيخ أي أنت بحال من يعلم هذا وهي من الوضوح بحيث تعلمها وليس خطابه على جهة إخباره عن علمه .

وقرأ عليّ بن أبي طالب وزيد بن عليّ والكسائي ﴿ علمت ﴾ بضم التاء أخبر موسى عن نفسه أنه ليس بمسحور كما وصفه فرعون ، بل هو يعلم أن ﴿ ما أنزل هؤلاء ﴾ الآيات إلاّ الله .

وروي عن عليّ أنه قال : ما علم عدوّ الله قط وإنما علم موسى ، وهذا القول عن عليّ لا يصح لأنه رواه كلثوم المرادي وهو مجهول ، وكيف يصح هذا القول وقراءة الجماعة بالفتح على خطاب فرعون .

و﴿ ما أنزل ﴾ جملة في موضع نصب علق عنها ﴿ علمت ﴾ .

ومعنى ﴿ بصائر ﴾ دلالات على وحدانية الله وصدق رسوله والإشارة بهؤلاء إلى الآيات التسع .

وانتصب ﴿ بصائر ﴾ على الحال في قول ابن عطية والحوفي وأبي البقاء ، وقالا : حال من ﴿ هؤلاء ﴾ وهذا لا يصح إلاّ على مذهب الكسائي والأخفش لأنهما يجيزان ما ضرب هنداً هذا إلاّ زيد ضاحكة .

ومذهب الجمهور أنه لا يجوز فإن ورد ما ظاهره ذلك أول على إضمار فعل يدل عليه ما قبله التقدير ضربها ضاحكة ، وكذلك يقدرون هنا أنزلها ﴿ بصائر ﴾ وعند هؤلاء لا يعمل ما قبل إلاّ فيما بعدها إلاّ أن يكون مستثنى منه أو تابعاً له .

وقابل موسى ظنه بظن فرعون فقال : ﴿ وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾ وشتان ما بين الظنين ظن فرعون ظن باطل ، وظن موسى ظن صدق ، ولذلك آلَ أمر فرعون إلى الهلاك كان أولاً موسى عليه السلام يتوقع من فرعون أذى كما قال ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ فأمر أن يقول له قولاً ليناً فلما قال له الله : لا تخف وثق بحماية الله ، فصال على

فرعون صولة المحمي .

وقابله من الكلام بما لم يكن ليقابله به قبل ذلك .

ومثبور مهلك في قول الحسن ومجاهد ، وملعون في قول ابن عباس ، وناقص العقل فيما روى ميمون بن مهران ، ومسحور في قول الضحاك قال : رد عليه مثل ما قال له فرعون مع اختلاف اللفظ ، وعن الفراء مثبور مصروف عن الخير مطبوع على قلبك من قولهم : ما ثبرك عن هذا ؟ أي ما منعك وصرفك .

وقرأ أبيّ وإن أخالك يا فرعون لمثبوراً وهي أن الخفيفة ، واللام الفارقة واستفزازه إياهم هو استخفافه لموسى ولقومه بأن يقلعهم من أرض مصر بقتل أو جلاء ، فحاق به مكره وأغرقه الله وقبطه أراد أن تخلو أرض مصر منهم فأخلاها الله منه .

(309/464)

ومن قومه والضمير في ﴿ من بعده ﴾ عائد على فرعون أي من بعد إغراقه ، و ﴿ الأرض ﴾ المأمور بسكناها أرض الشام ، والظاهر أن يكون الأمر بذلك حقيقة على لسان موسى عليه السلام ووعد الآخرة قيام الساعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(310/464)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى تِسْعَ ءايات بَيّنَاتٍ ﴾

واضحاتِ الدِلالة على نبوته وصِحّةِ ما جاء به من عند الله وهي العَصا واليدُ والجَرادُ والقُمّل والضفادعُ والدمُ والطوفانُ والسّنونَ ونقصُ الثمرات ، وقيل : انفجارُ الماء من الحجر ونتْقُ الطورِ على بني إسرائيلَ وانفلاقُ البحرِ بدل الثلاث الأخيرة ، ويأباه أن هذه الثلاثَ لم تكن منزلةً إذ ذاك وأن الأولَين لا تعلقَ لهما بفرعون وإنما أوتيهما بنو إسرائيلَ ، وعن صفوانَ بن عسّال أن يهودياً سأل النبيَ عليه الصلاة والسلام عنها فقال : " ألا تشركوا به شيئاً ولا تسرِقوا ولا تزنوا ، ولا تقتُلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تسحرَوا ولا تأكُلوا الربا ، ولا تمشوا ببريءٍ إلى ذي سلطان ليقتُله ولا تقذِفوا مُحصنةً ولا تفِرّوا من الزحف ، وعليكم خاصّةَ اليهودِ أن لا تعْدوا في السبت " فقبّل اليهوديّ يدَه ورجلَه عليه السلام ، ولا يساعده أيضاً ما ذكر ولعل جوابَه عليه السلام بذلك لما أنه المُهم للسائل وقبولُه لما أنه كان في التوراة مسطوراً ، وقد عِلم أنه ما علمه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلا من جهة الوحي .

﴿ فاسأل بَنِى إسراءِيل ﴾ وقرىء فسَلْ أي فقلنا له : سلْهم من فرعون ، وقل له : أرسلْ معيَ بني إسرائيلَ أو سلهم عن إيمانهم أو عن حال دينِهم أو سلْهم أن يعاضدوك ، ويؤيده قراءةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم على صيغة الماضي ، وقيل : الخطابُ للنبي عليه الصلاة والسلام أي فاسألهم عن تلك الآياتِ لتزدادَ يقيناً وطُمأْنينةً أو ليظهر صِدقُك ﴿ إِذْ جَاءهُمُ ﴾ متعلق بقلنا وبسأل على القراءة المذكورةِ وبآتينا أو بمضمر هم يخبروك أو اذكر على تقدير كونِ الخطابِ للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ ﴾ الفاءُ فصيحةٌ أي فأظهرَ عند فرعون ما آتيناه من الآيات البيناتِ وبلّغه ما أُرسل به ، فقال له فرعونُ : ﴿ إِنّى لاظُنُّكَ يا موسى مَّسْحُورًا ﴾ سُحِرْت فتخبّط عقلك .

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء ﴾ يعني الآياتِ التي أظهرها ﴿ إِلاَّ رَبُّ السموات والأرض ﴾ خالقُهما ومدبرُهما ، والتعرّضُ لربوبيته تعالى لهما للإيذان بأنه لا يقدِر على إيتاء مثلِ هاتيك الآياتِ العظامِ إلا خالقُهما ومدبّرهما ﴿ بَصَائِرَ ﴾ حالٌ من الآيات أي بيناتٍ مكشوفاتٍ تُبصّرك صدقي ولكنك تعاند وتكابر ، نحوُ : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ ومن ضرورة ذلك العلمِ العلمُ بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال رصانةِ العقلِ فضلاً عن توهم المسحورية ، وقرىء علمتُ على صيغة التكلمِ أي لقد علمتُ بيقين أن هذه الآياتِ الباهرةَ أنزلها الله عز سلطانه فكيف يُتوهم أن يحومَ حولي سحر ﴿ وَإِنّى لاظُنُّكَ يافرعون مَثْبُورًا ﴾ مصروفاً عن الخير مطبوعاً على الشر ، من

قولهم : ما ثبَركَ عن هذا أي ما صرفك ، أو هالكاً ولقد قارع عليه السلام ظنَّه بظنه وشتان بينهما ، كيف لا وظنّ فرعونَ إفكٌ مُبينٌ وظنُّه عليه الصلاة والسلام يتاخم اليقين .

(312/464)

﴿ فَأَرَادَ ﴾ أي فرعون ﴿ أَن يَسْتَفِزَّهُم ﴾ أي يستخِفَّهم ويُزعجَهم ﴿ مّنَ الأرض ﴾ أرضِ مصرَ أو من الأرض مطلقاً بالقتل كقوله : ﴿ سَنُقَتّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِى نِسَاءهُمْ ﴾ ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴾ فعكسنا عليه مكرَه واستفززناه وقومَه بالإغراق .

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ ﴾ من بعد إغراقِهم ﴿ لِبَنِى إسراءيل اسكنوا الأرض ﴾ التي أراد أن يستفزّكم منها ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الأخرة ﴾ الكرةُ الآخرةُ أو الحياةُ أو الساعةُ والدارُ الآخرة أي قيامُ القيامة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ مختلطين إياكم وإياهم ثم نحكم بينكم ونميز سعداءَكم من أشقيائكم واللفيفُ الجماعاتُ من قبائلَ شتى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(313/464)

وقال الآلوسى :

ولما حكى سبحانه عن قريش ما حكى من التعنت والعناد مع رسوله صلى الله عليه وسلم سلاه تعالى جده بما جرى لموسى عليه السلام مع فرعون وما صنع سبحانه بفرعون وقومه فقال عز قائلاً :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾

ظاهر السياق والنظائر يقتضيان كون المعنى تسع أدلة واضحات الدلالة على نبوة موسى عليه السلام وصحة ما جاء به من عند الله تعالى ولا ينافيه أنه قد أوتي من ذلك ما هو أكثر مما ذكر لأن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد كما حقق في الأصول وإلى هذا ذهب غير واحد إلا أنه اختلف في تعيين هذه التسع ففي بعض التفاسير هي كما في التوراة العصا ثم الدم ثم الضفادع ثم القمل ثم موت البهائم ثم برد كنار أنزل مع نار مضطرمة أهلكت ما مرت به من نبات وحيوان ثم جراد ثم ظلمة ثم موت عم كبار الآدميين وجميع الحيوانات .

وأخرج عبد الرزاق .

وسعيد بن منصور .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين ونقص من الثمرات ، وروي ذلك عن مجاهد .

والشعبي .

وقتادة .

وعكرمة .

وتعقب هذا بأن السنين والنقص من الثمرات آية واحدة كما روي عن الحسن .

ورد بأنه ليس بالحسن إذ ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءالَ فِرْعَوْنَ بالسنين وَنَقْصٍ مّن الثمرات ﴾ [الأعراف : 130] يقتضي المغايرة فيحمل الأول على الجدب في بواديهم والثاني على النقصان في مزارعهم أو على نحو ذلك وقد تقدم الكلام فيه فلا ضير في عدهما آيتين .

وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم في رواية أخرى عن الحبر أنها يده عليه السلام ولسانه وعصاه والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم .

وفي "الكشاف" عنه رضي الله تعالى عنه أنها العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والطور الذي نتقه الله تعالى على بني إسرائيل .

وتعقبه في "الكشف" بقوله فيه : إن الحجر والطور ليسا من الآيات المذهوب بها إلى فرعون وقال تعالى : ﴿ فى تسع آيات إلى فرعون وقومه ﴾ [النمل : 12] وذكر سبحانه في هذه السورة ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء ﴾ [الإسراء : 102] والإشارة إلى الآيات ثم قال : والجواب جاز أن يكون التسع البينات بعضاً منها غير البعض من تلك التسع وليس في هذه الآية أن الكل لفرعون وقومه وأما الإشارة فإلى البعض بالضرورة لأن الكل إنما حصلت على التدريج وفلق البحر لم يكن في معرض التحدي بل عندما حق الهلاك اه ، ولا يخلو عن ارتكاب خلاف الظاهر ، وما روي عن ابن عباس أولاً لائح الوجه ما فيه أشكال ؛ ونسبه في "الكشاف" إلى الحسن وهو خلاف ما وجدناه في الكتب التي يعول عليها في أمثال ذلك ، وروي أن عمر بن عبد العزيز عليه الرحمة سأل محمد بن كعب عن هذه الآيات فعد ما عد وذكر فيه الطمس فقال عمر : كيف يكون الفقيه إلا هكذا ثم قال : يا غلام أخرج ذلك الجراب فأخرجه فنفضه فإذا بيض مكسور بنصفين وجوز مكسور وفوم وحمص وعدس كلها حجارة هذا وظاهر بعض الأخبار يقتضي خلاف ذلك .

فقد أخرج أحمد .

والبيهقي .

والطبراني .

والنسائي .

وابن ماجه .

والترمذي وقال حسن صحيح .

والحاكم وقال صحيح لا نعرف له علة وخلق آخرون عن صفوان بن عسال "أن يهوديين قال : أحدهما لصاحبه انطلق بنا إلى هذا النبي نسأله فأتياه صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى تِسْعَ ءايات بَيّنَاتٍ ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام : لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببريء إلى سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف" .

وفي رواية "أو قال لا تفروا من الزحف شك شعبة وعليكم يا يهود خاصة أن لا تعتدوا في السبت فقبلا يديه ورجليه وقالا نشهد إنك نبي" الخبر ، ومن هنا قيل المراد بالآيات الأحكام ، وقال الشهاب الخفاجي : إنه التفسير الصحيح ، ووجه إطلاقها عليها بأنها علامات على السعادة لمن امتثلها والشقاوة لغيره ، وقيل أطلقت عليها لأنها نزلت في ضمن

آيات بمعنى عبارات دالة على المعاني نحو آيات الكتاب فيكون من قبيل إطلاق الدال وإرادة المدلول ، وقيل لا ضير أن يراد على ذلك بالآيات العبارات الإلهية الدالة على تلك الأحكام من حيث أنها دالة عليها ، وفيه وكذا في سابقه القول بإطلاق الآيات على ما أنزل على غير نبينا صلى الله عليه وسلم من العبارات الإلهية كإطلاقها على ما أنزل عليه عليه الصلاة والسلام منها .

واستشكل بأن الآيات في الرواية التي لا شك فيها عشرة وما في الآية المسؤول عنها تسع ، وأجيب بأن الأخير فيها أعني لا تعتدوا في السبت ليس من الآيات لأن المراد بها أحكام عامة ثابتة في الشرائع كلها وهو ليس كذلك ولذا غير الأسلوب فيه فهو تذييل للكلام وتميم له بالزيادة على ما سألوه صلى الله عليه وسلم ، وفي "الكشف" أنه من الأسلوب الحكيم لأنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر التسع العامة في كل شريعة ذكر خاصاً بهم ليدل على إحاطة علمه صلى الله عليه وسلم بالكل وهو حسن وليس الأسلوب الحكيم فيه بالمعنى المشهور فإطلاق القول بأنه ليس من الأسلوب الحكيم كما فعل الخفاجي ليس في محله .

وقال بعض الآجلة : إن هذه الأشياء لا تعلق لها بفرعون وإنما أوتيها بنو إسرائيل ولعل جوابه صلى الله عليه وسلم بما ذكر لما أنه المهم للسائل وقبوله لما أنه كان في التوراة مسطوراً وقد علم أنه ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من جهة الوحي اه .

وتعقب بأنا لا نسلم أنه يجب في الآيات المذكورة في الآية أن تكون مما له تعلق بفرعون وما بعد ليس نصاً في ذلك نعم هو كالظاهر فيه لكن كثيراً ما تترك الظواهر للأخبار الصحيحة سلمنا أنه يجب أن يكون لها تعلق لكن لا نسلم أن تلك الأحكام لا تعلق لها لجواز أن يكون كلها أو بعضها مما خوطب به فرعون وبنو إسرائيل جميعاً لا بد لنفي ذلك من دليل ، وكأن حاصل ما أراد من قوله لعل جوابه صلى الله عليه وسلم الخ أن ذلك الجواب من الأسلوب الحكيم بأن يكون موسى عليه السلام قد أوتي تسع آيات بينات بمعنى المعجزات الواضحات وهي المرادة في الآية وأوتي تسعاً أخرى بمعنى الأحكام وهي غير مرادة إلا أن الجواب وقع عنها لما ذكر وهو كما ترى فتأمل .

فمؤيدات كل من التفسيرين أعني تفسير الآيات بالأدلة والمعجزات وتفسيرها بالأحكام متعارضة وأقوى ما يؤيد الثاني الخبر ﴿ مَعِىَ بَنِى إسرائيل ﴾ وقرأ جمع ﴿ فسل ﴾ والظاهر أنه خطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم والسؤال بمعناه المشهور إلا أن الجمهور على أنه خطاب لموسى عليه السلام ، والسؤال إما بمعنى الطلب أو بمعناه المشهور لقراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرجها أحمد في الزهد وابن المنذر .

وابن جرير وغيرهم عن ابن عباس فسال على صيغة الماضي بغير همز كقال وهي لغة قريش فإنهم يبدلون الهمزة المتحركة وذلك لأن هذه القراءة دلت على أن السائل موسى عليه السلام وإنه مستعقب عن الإيتاء فلا يجوز أن يكون فاسأل خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم لئلا تتخالف القراءتان ولا بد إذ ذاك من إضمار لئلا يختلفا خبراً وطلبا أي فقلنا له اطلبهم من فرعون وقل له أرسل معي بني إسرائيل أو اطلب منهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك أو سلهم عن إيمانهم وعن حال دينهم واستفهم منهم هل هم ثابتون عليه أو اتبعوا فرعون ويتعلق بالقول المضمر قوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ ﴾ وهو متعلق بسال على قراءته صلى الله عليه وسلم والدليل على ذلك المضمر في اللفظ قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ ﴾ لأنه لو كان فاسأل خطاباً لنبينا عليه الصلاة والسلام لانفك النظم وأيضاً لا يظهر استعقابه ولا تسببه عن إيتاء موسى عليه السلام نعم جعل الذاهبون إلى الأول فاسأل اعتراضاً من باب زيد فاعلم فقيه والفاء تكون للاعتراض كالواو وعلى ذلك قوله:

واعلم فعلم المرء ينفعه . . .

ان سوف يأتي كل ما قدرا

وهذا الوجه مستغن عن الإضمار و ﴿ إِذْ جَاءهُمُ ﴾ متعلق عليه بآتينا ظرفاً ولا يصح تعلقه بسل إذ ليس سؤاله صلى الله عليه وسلم في وقت مجيء موسى عليه السلام ، قال في "الكشف" : والمعنى فاسأل يا محمد مؤمني أهل الكتاب عن ذلك إما لأن تظاهر الأدلة أقوى ، وإما من باب التهييج والإلهاب ، وإما للدلالة على أنه أمر محقق عندهم ثابت في كتابهم وليس المقصود حقيقة السؤال بل كونهم أعني المسؤولين من أهل علمه ولهذا يؤمر مثلك بسؤالهم وهذا هو الوجه الذي يحمل به موقع الاعتراض ، وجوز أن يكون منصوباً باذكر مضمراً على أنه مفعول به وجاز على هذا أن لا يجعل ﴿ فَاسْأَلِ ﴾ اعتراضاً ويجعل اذكر بدلاً عن اسأل لما سمعت من أن السؤال ليس على حقيقته وكذا جوز أن يكون منصوباً كذلك بيخبروك مضمراً وقع جواب الأمر أي سلهم يخبروك إذ جاءهم .

ولا يجوز على هذا الاعتراض ، نعم يجوز الاعتراض على هذا بأن أخبر يتعدى بالباء أو عن لا بنفسه فيجب أن يقدر بدل الإخبار الذكر ونحوه مما يتعدى بنفسه وإما جعله ظرفاً له غير صحيح إذ الإخبار غير واقع في وقت المجيء ، واعترض أيضاً بأن السؤال عن الآيات والجواب بالإخبار عن وقت المجيء أو ذكره لا يلائمه .

ويمكن الجواب بأن المراد يخبروك بذلك الواقع وقت مجيئه لهم أو يذكروا ذلك لك وهو كما ترى ، وبعضهم جوز تعلقه بيخبروك على أن إذ للتعليل ، وعلى هذا يجوز تعلقه باذكر ، والمعنى على سائر احتمالات كون الخطاب لنبينا عليه الصلاة والسلام إذ جاء آباءهم إذ بنو إسرائيل حينئذٍ هم الموجودون في زمانه صلى الله عليه وسلم وموسى عليه السلام ما جاءهم فالكلام إما على حذف مضاف أو على ارتكاب نوع من الاستخدام ، والاحتمالات على تقدير جعل الخطاب لمن يسمع هي الاحتمالات التي سمعت على تقدير جعله لسيد السامعين عليه الصلاة والسلام .

(319/464)

والفاء في ﴿ فَقَالَ ﴾ على سائر الاحتمالات والأوجه فصيحة والمعنى إذ جاءهم فذهب إلى فرعون وادعى النبوة وأظهر المعجزة وكيت وكيت فقال : ﴿ إِنِّي لأظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴾ سحرت فاختل عقلك ولذلك اختل كلامك وادعيت ما ادعيت وهو كقوله : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : 27] .

وقال الفراء .

والطبري : مسحوراً بمعنى ساحراً على النسب أو حقيقة وهو يناسب قلب العصا ونحوه

على تفسير الآيات بالمعجزات.

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام رداً لقوله المذكور ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ يا فرعون ﴿ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء ﴾ أي الآيات التسع أو بعضها والإشارة إلى ذلك بما ذكر على حد قوله على إحدى الروايتين:

والعيش بعد أولئك الأيام...

وقد مر ﴿ إِلاَّ رَبُّ السموات والأرض ﴾ أي خالقهما ومدبرهما، وحاصل الرد أن علمك بأن هاتيك الآيات من الله تعالى إذ لا يقدر عليها سواه تعالى يقتضي أني لست بمسحور ولا ساحر وأن كلامي غير مختل لكن حب الرياسة حملك على العناد في التعرض لعنوان الربوبية إيماءً إلى أن إنزالها من آثار ذلك، وفي "البحر" ما أحسن إسناد إنزالها إلى رب السموات والأرض إذ هو عليه السلام لما سأله فرعون في أول محاورته فقال له: ﴿ وما رب العالمين؟ قال: رب السموات والأرض ﴾ [الشعراء: 23] تنبيهاً على نقصه وأنه لا تصرف له في الوجود فدعواه الربوبية دعوى مستحيل فبكته وأعلمه أنه يعلم آيات الله تعالى

ومن أنزلها ولكنه مكابر معاند كقوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 14] وخاطبه بذلك على سبيل التوبيخ أي أنت بحال من يعلم هذه أو هي من الوضوح بحيث تعلمها وليس خطابه على جهة إخباره عن علمه أو العلم بعلمه ليكون إفادة لازم الخبر كقولك لمن حفظ التوراة حفظت التوراة .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما .

والكسائي ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ بضم التاء فيكون موسى عليه السلام قد أخبر عن نفسه أنه ليس بمسحور كما زعم عدو الله تعالى وعدوه بل هو يعلم أن ما أنزل تلك الآيات إلا خالق السموات والأرض ومدبرهما ، وروي عن الأمير كرم الله تعالى وجهه أنه قال : والله ما علم عدو الله تعالى ولكن موسى عليه السلام هو الذي علم ، وتعقبه أبو حيان بأنه لا يصح لأنه رواه كلثوم المرادي وهو مجهول وكيف يقول ذلك باب مدينة العلم كرم الله تعالى وجهه ، ووجه نسبة العلم إليه ظاهر .

وقد ذكر الجلال السيوطي في "الدر المنثور" أن سعيد بن منصور .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم أخرجوا عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه كان يقرأ بالضم ويقول ذلك ولم يتعقبه بشيء ، ولعل هذا المجهول الذي ذكره أبو حيان في أسانيدهم والله تعالى أعلم .

وجملة ﴿ أَنزَلَ الله ﴾ الخ معلق عنها سادة مسد ﴿ عَلِمَتِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ بَصَائِرَ ﴾ حال من هؤلاء والعامل فيه أنزل المذكور عند الحوفي .

وأبي البقاء .

وابن عطية وما قبل إلا يعمل فيما بعدها إذا كان مستثنى منه أو تابعاً له وقد نص الأخفش .

والكسائي على جواز ما ضرب هنداً إلا زيد ضاحكة ومذهب الجمهور عدم الجواز فـءن ورد ما ظاهره ذلك أول عندهم على إضمار فعل يدل عليه ما قبل ؛ والتقدير هنا أنزلها بصائر أي بينات مكشوفات تبصرك صدقي على أنه جمع بصيرة بمعنى مبصرة أي بينة وتطلق البصائر على الحجج بجعلها كأنها بصائر العقول أي ما أنزلها إلا حججاً وأدلة على صدقي وتكون بمعنى العبرة كما ذكره الراغب ، هذا ولا يخفى عليك أنه إذا كان المراد من الآيات التسع ما اقتضاه خبر صفوان السابق يجوز أن تكون ﴿ هَؤُلاء ﴾ إشارة إلى ما أظهره عليه السلام من المعجزات ويعتبر إظهار ذلك فيما يفصح عنه الفاء الفصيحة وإن أبيت إلا جعلها إشارة إلى الآيات المذكورة بذلك المعنى لتحقق جميعها من أول الأمر

وثبوتها وقت المحاورة وشدة ملاءمة الإنزال لها احتجت إلى ارتكاب نوع تكلف فيما لا يخفى عليك ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يافرعون فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ أي هالكاً كما روي عن الحسن ومجاهد على أنه من ثبر اللازم بمعنى هلك ، ومفعول فيه للنسب بناءاً على أنه يأتي له من اللازم والمتعدي ، وفسره بعضهم بمهلكاً وهو ظاهر ، وعن الفراء أنه قال : أي مصروفاً عن الخير مطبوعاً على الشر من قولهم : ما ثبرك عن هذا أي ما منعك وإليه يرجع ما أخرجه الطستي عن ابن عباس من تفسيره بملعوناً محبوساً عن الخير .

وأخرج الشيرازي في الألقاب .

(322/464)

وابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عنه رضي الله تعالى عنه تفسيره بناقص العقل ، وفي معناه تفسير الضحاك بمسحور قال : رد موسى عليه السلام بمثل ما قال له فرعون مع اختلاف اللفظ ، وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن أنس بن مالك أنه سئل عن ﴿ مَثْبُورًا ﴾ في الآية فقال : مخالفاً ثم قال : الأنبياء عليهم السلام من أن يلعنوا أو يسبوا ، وأنت تعلم أن هذا معنى مجازي له وكذا ناقص العقل ولا داعي إلى ارتكابه ، وما ذكره الإمام مالك فيه ما فيه ، نعم قيل : إن تفسيره بهالكاً ونحوه مما فيه خشونة ينافي قوله تعالى خطاباً

لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه : 44] وأشار أبو حيان إلى جوابه بأن موسى عليه السلام كان أولاً يتوقع من فرعون المكروه كما قال : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يطغى ﴾ [طه : 45] فأمر أن يقول له قولاً ليناً فلما قال سبحانه له : ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ [النمل : 10] وثق بحماية الله تعالى فصال عليه صولة المحمى وقابله من الكلام بما لم يكن ليقابله به قبل ذلك ، وفيه كلام ستطلع عليه إن شاء الله تعالى في محله ، وبالجملة التفسير الأول أظهر التفاسير ولا ضير فيه لا سيما مع تعبير موسى عليه السلام بالظن ثم إنه عليه السلام قد قارع ظنه بظنه وشتان ما بين الظنين فإن ظن فرعون إفك مبين وظن موسى عليه السلام يحوم حول اليقين .

وقرأ أبي .

وابن كعب ﴿ وَأَنْ إخالك يَا فِرعون لمثبوراً ﴾ على إن المخففة واللام الفارقة ، وأخال بمعنى أظن بكسر الهمزة في الفصيح وقد تفتح في لغة كما في "القاموس" .

﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (103) ﴾

﴿ فَأَرَادَ ﴾ فرعون ﴿ أَن يَسْتَفِزَّهُم ﴾ أي موسى وقومه ، وأصل الاستفزاز الإعاج وكني به عن إخراجهم ﴿ مِّنَ الأَرض ﴾ أي أرض مصر التي هم فيها أو من جميع الأرض ويلزم إخراجهم من ذلك قتلهم واستئصالهم وهو المراد ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴾ أي فعكسنا عليه مكره حيث أراد ذلك لهم دونه فكان له دونهم فاستفز بالإغراق هو وقومه وهذا التعكيس أظهر من الشمس على الثاني وظاهر على الأول لأنه أراد إخراجهم من مصر فاخرج هو أشد الإخراج بالإهلاك والزيادة لا تضر في التعكيس بل تؤيده .

﴿ وَقُلْنَا ﴾ على لسان موسى عليه السلام ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد فرعون على معنى من بعد إغراقه أو الضمير للإغراق المفهوم من الفعل السابق أي من بعد إغراقه وإغراق من معه ﴿ لِبَنِى إسرائيل ﴾ الذين أراد فرعون استفزازهم ﴿ اسكنوا الأرض ﴾ التي أراد أن يستفزكم منها وهي أرض مصر ، وهذا ظاهر أن ثبت أنهم دخلوها بعد أن خرجوا منها واتبعهم فرعون وجنوده وأغرقوا وإن لم يثبت فالمراد من بني إسرائيل ذرية أولئك الذين أراد فرعون استفزازهم ، واختار غير واحد أن المراد من الأرض الأرض المقدسة وهي أرض الشام ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخرة ﴾ أي الكرة أو الحياة أو الساعة أو الدار الآخرة ، والمراد على جميع ذلك قيام الساعة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أي مختلطين أنتم وهم ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم وأصل اللفيف الجماعة من قبائل شتى فهو اسم جمع كالجميع ولا واحد له أو هو مصدر شامل للقليل والكثير لأنه يقال لف لفاً

ولفيفاً ، والمراد منه ما أشير إليه ، وفسره ابن عباس بجميعاً وكيفما كان فهو حال من الضمير المجرور في بكم ، ونص بعضهم على أن في ﴿ بِكُمْ ﴾ تغليب المخاطبين على الغائبين ، والمراد بهم وبكم وما ألطفه ﴿ مَّعَ لَفِيفًا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

وقال القاسمى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾

واضحات الدلالة على صحة ما أرسله الله به . وقد مضى الكلام عليها في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيهِمُ الطُّوفَانَ ﴾ الآية ﴿ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي : عنها : فإنهم يعلمونها ، مما لديهم من التوراة . فيظهر للمشركين صدقك ، ويزداد المؤمن بك طمأنينة قلب . لأن الأدلة إذا تظاهرت ، كان ذلك أقوى وأثبت : ﴿ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً ﴾ أي : فذهب إلى فرعون وأظهر آياته ، ودعاه للإيمان به تعالى ولإرسال بني إسرائيل معه . فقال له فرعون ما قال . وقوله : ﴿ مَسْحُوراً ﴾ بمعنى سُحِرْتَ فخولط عقلك . أو بمعنى ساحر ، على النسب . أو

حقيقة، وهو يناسب قلب العصا ثعباناً . وعلى الأول هو كقوله : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : 27] .

(325/464)

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ أي : يا فرعون : ﴿ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ ﴾ أي : الآيات التسع : ﴿ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ أي : بينات مكشوفات لا سحر ولا تخيل . ولكنك معاند مكابر ، ونحوه : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 14] ، و (البصائر) جمع بصير بمعنى مبصرة أي : بيّنة . أو المراد الحجج ، بجعلها كأنها بصائر العقول . وتكون بمعنى عبرة : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً ﴾ أي : هالكاً .

﴿ فَأَرَادَ ﴾ أي : فرعون : ﴿ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ ﴾ أي : يفزعهم ويزعجهم بما يحملهم على خفة الهرب فَرَقاً منه . أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال . والضمير لموسى وقومه . و (الأرض) أرض مصر . أو الأرض التي أذن لهم بالمسير إليها وسكناها وهي فلسطين ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً ﴾ أي : فحاق به مكره ، لأنه تعقبهم بجنوده بعد ما أذن لهم بالسفر من مصر إلى فلسطين ، ليرجعهم إلى عبوديته ، فدمره الله تعالى وجنوده بالإغراق .

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ ﴾ أي : من بعد إغراقه : ﴿ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ ﴾ وهي أرض كنعان ، بلد أبيهم إسرائيل التي وعدوا بها .

قال ابن كثير : في هذا بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم بفتح مكة ، مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة . وكذلك وقع ، فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ [الإسراء : 76] . ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة ، على أشهر القولين ، وقهر أهلها ، ثم أطلقهم حلماً وكرماً . كما أورث الله القوم ، الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل ، مشارق الأرض ومغاربها ، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم كما قال : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : 59] وقال ها هنا : ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ ﴾ أي : قيام الساعة : ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ أي : جمعاً مختلطين أنتم وعدوكم . ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم . ثم نزه سبحانه ساحة القرآن أن يكون مفترى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 537.539 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) ﴾

بَقي قولهم : ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ﴾ [الإسراء : 92] غيرَ مردود عليهم ، لأن له مخالفة لبقية ما اقترحوه بأنه اقتراح آية عِذاب ورعب ، فهو من قبيل آيات موسى عليه السلام التسع .

فكان ذكر ما آتاه الله موسى من الآيات وعدم إجداء ذلك في فرعون وقومه تنظيراً لما سأله المشركون .

والمقصود : أننا آتينا موسى عليه السلام تسع آيات بيّنا تتِ الدلالة على صدقه فلم يهتد فرعون وقومه وزعموا ذلك سحراً ، ففي ذلك مَثلٌ للمكابرين كلهم وما قريش إلا منهم .

ففي هذا مثَل للمعاندين وتسلية للرسول .

والآيات التسع هي : بياض يده كلما أدخلها في جيبه وأخرجَها ، وانقلاب العصا حية ، والطوفان ، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدم ، والرجز وهو الدمل ، والقحط وهو السنون ونقص الثمرات ، وهي مذكورة في سورة الأعراف .

وجمعها الفيروزآبادي في قوله:

عَصًا ، سَنَةٌ ، بَحْر ، جراد ، وقُمّل

يَدٌ ، ودَمٌ ، بعد الضفادع طُوفَانُ

فقد حصلت بقوله : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ الحجة على المشركين الذين يقترحون الآيات .

ثم لم يزل الاعتناء في هذه السورة بالمقارنة بين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالة موسى عليه السلام إقامةً للحجة على المشركين الذين كذبوا بالرسالة بعلة أن الذي جاءهم بشر ، وللحجة على أهل الكتاب الذين ظاهروا المشركين ولقنوهم شُبه الإلحاد في الرسالة المحمدية ليصفو لهم جوّ العلم في بلاد العرب وهم ما كانوا يحسبون لما وراء ذلك حساباً .

فالمعنى : ولقد آتينا موسى تسع آيات على رسالته .

(327/464)

وهذا مثل التنظير بين إيتاء موسى الكتاب وإيتاء القرآن في قوله في أول السورة ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ [الإسراء : 2] الآيات ، ثم قوله : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ [الإسراء : 9] .

فتكون هذه الجملة عطفاً على جملة ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ [الإسراء : 93] أو على جملة ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي ﴾ الآية [الإسراء :

100] .

ثم انتقل من ذلك بطريقة التفريع إلى التسجيل ببني إسرائيل استشهاداً بهم على المشركين ، وإدماجاً للتعريض بهم بأنهم سَاووا المشركين في إنكار نبوءة محمد ومظاهرتهم المشركين بالدس وتلقين الشبه ، تذكيراً لهم بحال فرعون وقومه إذ قال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ .

والخطاب في قوله : ﴿ فسئل ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم والمراد : سؤال الاحتجاج بهم على المشركين لا سؤال الاسترشاد كما هو بين .

وقوله : ﴿ مسحوراً ﴾ ظاهره أن معناه متأثراً بالسحر ، أي سحَرَكَ السحرة وأفسدوا عقلك فصُرت تهرف بالكلام الباطل الدال على خلل العقل (مثل المَيْمون والمشؤوم) .

وهذا قول قاله فرعون في مقام غير الذي قال له فيه ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ [الشعراء : 35] ، والذي قال فيه ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ ، [الشعراء : 34] فيكون إعراضاً عن الاشتغال بالآيات وإقبالاً على تطلع حال موسى فيما يقوله من غرائب الأقوال عندهم .

ألا ترى إلى قوله تعالى حكاية عنه قال ﴿ لمن حوله ألا تستمعون ﴾ [الشعراء : 25] .

وكل تلك أقوال صدرت من فرعون في مقامات محاوراته مع موسى عليه السلام فحكي في كل آية شيء منها .

و(إذا) ظرف متعلق بـ﴿ آتينا ﴾ .

والضمير المنصوب في ﴿ جاءهم ﴾ عائد إلى بني إسرئيل .

وأصل الكلام : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات إذ جاء بني إسرائيل ، فاسألْهم .

وكان فرعون تعلق ظنه بحقيقة ما أظهر من الآيات فرجح عنده أنها سحر ، أوْ تعلق ظنه بحقيقة حال موسى فرجح عنده أنه أصابه سحر ، لأن الظن دون اليقين ، قال تعالى : ﴿ إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين ﴾ [الجاثية : 32] .

وقد يستعمل الظن بمعنى العلم اليقين .

ومعنى ولقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض ﴾ : أن فرعون لم يبق في نفسه شك في أن تلك الآيات لا تكون إلا بتسخير الله إذ لا يقدر عليها غيرُ الله ، وأنه إنما قال : ﴿ إني لأظنك يا موسى مسحورا ﴾ عناداً ومكابرة وكبرياء .

وأكد كلام موسى بلام القسم وحرف التحقيق تحقيقاً لحصول علم فرعون بذلك .

وإنما أيقن موسى بأن فرعون قد علم بذلك : إما بوحي من الله أعلمه به ، وإما برأي مُصيب ، لأن حصول العلم عند قيام البرهان الضروري حصول عقلي طبيعي لا يتخلف عن عقل

سليم .

وقرأ الكسائي وحده ﴿ لقد علمتُ ﴾ بضم التاء ، أي أن تلك الآيات ليست بسحر كما زعمتَ كناية على أنه واثق من نفسه السلامة من السحر .

والإشارة بـ ﴿ هؤلاء ﴾ إلى الآيات التسع جيء لها باسم إشارة العاقل ، وهو استعمال مشهور .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾ [الإسراء : 36] ، وقول جرير :

ذُم المنازل بعد منزلة اللوى . . .

والعيشَ بعد أولِئك الأيام

والأكثر أن يشار بـ (أولاء) إلى العاقل .

والبصائر : الحجج المفيدة للبصيرة ، أي العلم ، فكأنها نفس البصيرة .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ هذا بصائر من ربكم ﴾ في آخر سورة [الأعراف : 203] .

وعبر عن الله بطريق إضافة وصف الرب للسماوات والأرض تذكيراً بأن الذي خلق السماوات والأرض هو القادر على أن يخلق مثل هذه الخوارق .

والمثبور : الذي أصابه الثُبور وهو الهلاك .

وهذا نذارة وتهديد لفرعون بقرب هلاكه .

(329/464)

وإنما جعله موسى ظناً تأدباً مع الله تعالى ، أو لأنه علم ذلك باستقراء تام أفاده هلاك المعاندين للرسل ، ولكنه لم يدر لعل فرعون يقلع عن ذلك وكان عنده احتمالاً ضعيفاً ، فلذلك جعل توقع هلاك فرعون ظناً .

ويجوز أن يكون الظن هنا مستعملاً بمعنى اليقين كما تقدم آنفاً .

وفي ذكر هذا من قصة موسى إتمام لتمثيل حال معاندي الرسالة المحمدية بحال من عاند رسالة موسى عليه السلام .

وجاء في جواب موسى عليه السلام لفرعون بمثل ما شافهه فرعون به من قوله : إني لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ مقارعة له وإظهاراً لكونه لا يخافه وأنه يعامله معاملة المثل قال تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ [البقرة : 194] .

﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (103) ﴾

أُكملت قصة المثل بما فيه تعريض بتمثيل الحالين إنذاراً للمشركين بأن عاقبة مكرهم

وكيدهم ومحاولاتهم صائرة إلى ما صار إليه مكر فرعون وكيده ، ففرع على تمثيل حالي الرسالتين وحالي المرسل إليهما ذكر عاقبة الحالة الممثل بها نذارة للممثلين بذلك المصير .

فقد أضمر المشركون إخراج النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين من مكة ، فمثلت إرادتهم بإرادة فرعون إخراج موسى وبني إسرائيل من مصر ، قال تعالى : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلا ﴾ [الإسراء : 76] .

والاستفزاز : الاستخفاف ، وهو كناية عن الإبعاد .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ﴾ في هذه السورة [الإسراء : 76] .

والمراد بمن معه جنده الذين خرجوا معه يتبعون بني إسرائيل .

والأرض الأولى هي المعهودة وهي أرض مصر ، والأرض الثانية أرض الشام وهي المعهودة لبني إسرائيل بوعد الله إبراهيمَ إياها .

ووعد الآخرة ما وعد الله به الخلائق على ألسنة الرسل من البعث والحشر .

واللفيف : الجماعات المختلطون من أصناف شتى ، والمعنى : حكمنا بينهم في الدنيا بغرق الكفرة وتمليك المؤمنين ، وسنحكم بينهم يوم القيامة .

ومعنى جئنا بكم ﴿ أحضرناكم لدينا .

والتقدير : جئنا بكم إلينا . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(331/464)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ الآية .

قال بعض أهل العلم : هذه الآيات التسع ، هي : العصا ، واليد ، والسنون . والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ى يات مفصلات .

وقد بين جل وعلا هذه الآيات في مواضع أخر . كقوله : ﴿ فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الأعراف : 107-108] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بالسنين وَنَقْصٍ مِّنَ الثمرات ﴾ [الأعراف : 130] الآية ، وقوله : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ [الشعراء : 63] ، وقوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم

آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ ﴾ [الأعراف : 133] إلى غير ذلك من الآيات المبينة لما ذكرنا .

وجعل بعضهم الجبل بدل " السنين " وعليه فقد بين ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف : 171] ونحوها من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هؤلاء إِلاَّ رَبُّ السماوات والأرض بَصَآئِرَ ﴾ الآية .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن فرعون عالم بأن الآيات المذكورة ما أنزلها إلا رب السموات والأرض بصائر : اي حججا واضحة . وذلك يدل على أن قول فرعون ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ [طه : 49] ، وقوله : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ [الشعراء : 23] كل ذلك منه تجاهل عارف .

(332/464)

وقد اوضح جل وعلا هذا المعنى مبيناً سبب جحوده لما علمه " في سورة النمل " بقوله : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء فِي تِسْعِ آيَاتٍ إلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتهآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 12-14] الآية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) ﴾

وقد سبق أن اقترح كفار مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة آيات ذُكرَتْ في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾[الإسراء: 90-93]

فأراد الحق سبحانه أنْ يلفت نظره أن سابقيهم من اليهود أتتهم تسع آيات ونزلت عليهم دون أنْ يطلبوها ، ومع ذلك كفروا ، فالمسألة كلها تعنّت وعناد من أهل الكفر في كل زمان ومكان .

ومعنى ﴿ بَيِّنَاتٍ . . ﴾ [الإسراء: 101] أي: واضحات مشهورات بَلْقَاء كالصبح ،

لأنها حدثت جميعها على مَرْأىً ومشهد من الناس .

والمراد بالآيات التسع هنا هي الآيات الخاصة بفرعون ؛ لأن كثيرين يخلطون بين معجزات موسى إلى فرعون ، ومعجزاته إلى بني إسرائيل .

إذن: فقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . ﴾ [الإسراء: 101] هي الآيات التي أُرسِل بها إلى فرعون وقومه وهي: العصا التي انقلبتْ حية ، واليد التي أخرجها من جيبه بيضاء مُنورة ، وأَخْذ آل فرعون بالسنين ونَقْصٍ من الأموال والأنفس والثمرات ، ثم لما كذَّبوا أنزل الله عليهم الطوفان ، والجراد ، والقُمّل ، والضفادع ، والدم ، هذه تسع آيات خاصة بما دار بين موسى وفرعون .

(334/464)

أما المعجزات الأخرى مثل العصا التي ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، ونتق الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة ، وإنزال المنّ والسَّلْوى عليهم ، فهذه آيات خاصة ببني إسرائيل .

وقوله تعالى: ﴿ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ . . ﴾ [الإسراء: 101] والأمر هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن كيف يسأل بني إسرائيل الذين جاءهم موسى -عليه السلام- وقد ماتوا ، والموجود الآن ذريتهم ؟ نقول: لأن السؤال لذريتهم هو عَيْن سؤالهم ، لأنهم

تناقلوا الأحداث جيلاً بعد جيل ؛ لذلك قال تعالى مُخاطباً بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَالِكُمْ بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [إبراهيم: 6]

والنجاة لم تكُنْ لهؤلاء ، بل لأجدادهم المعاصرين لفرعون ، لكن خاطبهم الحق بقوله ﴿ أَنجَاكُمْ ﴾ لأنه سبحانه لو أهلك أجدادهم لما وُجِدُوا هم ، فكأن نجاة السابقين نجاةٌ للاحقين .

ويسأل رسول الله بني إسرائيل لأنهم هم الأمة التي لها ممارسة مع منهج الله ووحيه ، ولها اتصال بالرسل وبالكتب المنزَّلة كالتوراة والإنجيل ، أما مشركو قريش فليس لهم صِلَة سابقة بوَحْي السماء ؛ لذلك لما كذَّبوا رسول الله خاطبه بقوله:

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: 43]

لأن الذي عنده عِلْم من الكتاب: اليهود أو النصارى عندهم عِلْم في كتابهم وبشارة ببعثة محمد ، وهم يعرفونه ويعرفون أوصافه وزمن بعثته ، بل ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، بل وأكثر من معرفتهم لأبنائهم ، كما قال واحد منهم .

وسؤال رسول الله لبني إسرائيل سؤال حُجَّةٍ واستشهاد ؛ لأن قومه سألوه وطلبوا أنْ يظهر لهم عدة آيات ـ سبق ذِكْرها ـ لكي يؤمنوا به ، فأراد أنْ يُنبِّههم إلى تاريخ إخوانهم وسابقيهم على مَرِّ العصور ، وقد أنزل الله لهم الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات ومع ذلك كفروا ولَجُّوا ولم يؤمنوا ، فقوم فرعون رَأَوْا من موسى تسع آيات وكفروا ، وقوم صالح: ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا . . ﴾ [الإسراء: 59] ولَيْتهم كذَّبوا وكفروا بهذه الآية فحَسْب ، بل واعتدَوْا عليها وعقروها .

لذلك قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ . . ﴾ [الإسراء: 59] أي: التي اقترحوها ﴿ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ . . ﴾ [الإسراء: 59] وما دام كذَّب بها الأولون فسوف يُكذِّب بها هؤلاء ؛ لأن الكفر مِلَّة واحدة في كل زمان ومكان .

إذن: مسألة طلب الآيات واقتراح المعجزات ليستْ في الحقيقة رغبة في الإيمان ، بل مجرد عناد ولَجَج ومحاولة للتعنُّت والجدَل العقيم لإضاعة الوقت .

ثم يقول تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ ﴾ [الإسراء: 101] أي: بعد أنْ رأى الآيات كلها: ﴿ إِنِّي لأَظُنُّكَ يا مُوسَى مَسْحُوراً ﴾ [الإسراء: 101] فاتهمه بالسحر بعد أنْ أراه كُلَّ هذه الدلائل والمعجزات .

وكلمة ﴿ مَسْحُوراً ﴾ [الإسراء: 101] اسم مفعول بمعنى سحره غيره ، وقد يأتي

اسم المفعول دالاً على اسم الفاعل لحكمة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ [الإسراء: 45]

والحجاب يكون ساتراً لا مستوراً، لكن الحق سبحانه جعل الحجاب نفسه مستوراً مبالغة في السَّتْر، كما نبالغ نحن الآن في استعمال الستائر، فنجعلها من طبقتين مثلاً.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء: 57]

(336/464)

فالظل نفسه مُظَلَّل، ونستطيع أن نلاحظ هذه الظاهرة إذا جلسنا في الحرّ تحت شجرة، فسوف نجد الهواء تحتها رَطباً بارداً، لماذا؟ لأن أوراق الشجر مُتراكمة يُظلّل بعضها بعضاً، فتجد أعلاك طبقات متعددة من الظل، فتشعر في النهاية بجو لطيف مُكيف تكييفاً ربانياً.

إذن: قوله ﴿ مَسْحُوراً ﴾ تفيد أنه سحَرَ غيره، أو سحره غيره؛ لأن المسحور هو الذي أَلَمَّ به السحر، إما فاعلاً له، أو مفعولاً عليه. وهذه الكلمة قالها كفار مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ [الإسراء: 47]

والمسحور بمعنى المخبول الذي أثّر في السحر، فصار مخبولاً مجنوناً، وهذا كذب وافتراء

على رسول الله من السهل رَدُّه وضحْده.

فإنْ كان ساحراً، فكيف يسحره غيره؟! ولماذا لم يسحركم كما سحر الذين آمنوا به؟ لماذا تأَبَّيتم أنتم على سحره فلم تؤمنوا؟ وإنْ كان مسحوراً مَخْبُولاً، والمخبول تتأتّى منه حركات وأقوال دون أنْ تَمُرّ على العقل الواعي الذي يختار بين البديلات، فلا يكون له سيطرة على إراداته ولا على خُلقه، فهل عهدكم بمحمد أنْ كان مَخبولاً؟ هل رأيتم عليه مثل هذه الصفات؟

لذلك رَدَّ الحق سبحانه عليهم هذا الافتراء بقوله تعالى:

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم: 1-4]

والمجنون لا يكون على خُلق أبداً.

وسوف يناقض فرعون نفسه، فبعد أنْ اتهم موسى بالسحر، ثم كانت الغَلَبة لموسى، وخَرَّ السحرة ساجدين، قال: ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ.. ﴾[طه: 71] وهذا دليل على التخبُّط والإفلاس.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَاؤُلاۤءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ.. ﴾.

أي: قال موسى لفرعون، والتاء في ﴿ عَلِمْتَ ﴾ مفتوحة أي: تاء الخطاب، فهو يُكلّمه مباشرة ويُخاطبه: لقد علمتَ يا فرعون عِلْمَ اليقين أنني لستُ مسحوراً ولا مخبولاً، وأن ما معي من الآيات مما شاهدته وعاينته من الله رب السماوات والأرض، وأنت تعلم ذلك جيداً إلا أنك تنكره، كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً . . ﴾ [النمل: 14]

إذن: فعندهم يقينٌ بصدق هذه المعجزات، ولكنهم يجحدونها؛ لأنها ستزلزل سلطانهم، وتُقوّض عروشهم.

وقوله تعالى: ﴿ بَصَآئِرَ . . ﴾ [الإسراء: 102] أي: أنزل هذه الآيات بصائر تُبصِّر الناس، وتفتح قلوبهم، فيُقبلوا على ذلك الرسول الذي جاء بآية معجزة من جنس ما نبغَ فيه قومه.

ثم لم يَفُتْ موسى ـ عليه السلام ـ وقد ثبتتْ قدمه، وأرسى قواعد دعوته أمام الجميع أنْ يُكلِّم فرعونَ من منطلق القوة، وأن يُجابهه واحدة بواحدة، فيقول: ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يافِرْعَونُ مَثْبُوراً ﴾ [الإسراء: 102] فقد سبق أنْ قال فرعون: ﴿ إِنِّي لأَظُنُّكَ يامُوسَىٰ مَسْحُوراً ﴾ [الإسراء: 101] فواحدة بواحدة، والبادي أظلم.

والمثبور: الهالك، أو الممنوع من كُلِّ خير، وكأن الله تعالى أَطْلعَ موسى على مصير فرعون،

وأنه هالكٌ عن قريب . وعلى هذا يكون المجنون على أية حال أحسن من المثبور ، فالمجنون وإنْ فقد نعمة العقل إلا أنه يعيش كغيره من العقلاء ، بل ربما أفضل منهم ، لأنك لو تأملتَ حال المجنون لوجدته يفعل ما يشاء ويقول ما يشاء دون أنْ يتعرّض له أحد أو يُحاسبه أحد ، وهذا مُنْتَهى ما يتمناه السلاطين والحكام وأهل الجبروت في الأرض ، فماذا ينتظر القادة والأمر إلاَّ أن تكون كلمتهم نافذة ، وأمرهم مُطَاعاً ؟ وهذا كله ينعَم به المجنون .

وهنا يقول قائل : ما الحكمة من بقاء المجنون على قَيْد الحياة ، وقد سلبه الله أعظم ما يملك ، وهو العقل الذي يتميز به ؟

(338/464)

نقول : أنت لا تدري أن الخالق سبحانه حينما سلبه العقل ماذا أعطاه ؟ لقد أعطاه ما لو عرفته أنت أيُّها العاقل لتمنيتَ أنْ تُجَنّ ! ! أَلاَ تراه يسير بين الناس ويفعل ما يحلو له دون أنْ يعترضه أحد ، أو يؤذيه أحد ، الجميع يعطف عليه ويبتسم في وجهه ، ثم بعد ذلك لا يُحاسَب في الآخرة ، فأيُّ عِزٍّ أعظم من هذا ؟

إذن : سَلْب أيّ نعمة مساوية لنعم الآخرين فيها عطاء لا يراه ولا يستنبطه إلا اللبيب ، فحين ترى الأعمى مثلاً فإياك أنْ تظنّ أنك أفضل منه عند الله ، لا ليس مِنّا مَنْ هو ابنٌ لله ، وليس

مِنّا مَنْ بينه وبين الله نسب ، نحن أمام الخالق سبحانه سواء ، فهذا الذي حُرِم نعمة البصر عُوِّض عنها في حواس أخرى ، يفوقك فيها ـ أنت أيها المبصر ـ بحيث تكون الكِفَّة في النهاية مُسْتوية .

واسمع إلى أحد العِمْيان يقول: عَمِيتُ جَنِيناً والذكاءُ مِنَ العَمَى فجئتُ عَجِيبَ الظَّنِّ للعِلْم مَوْئِلاً وغَابَ ضِيَاءُ العَيْن للقلْبِ رافداً لِعِلْمٍ إذَا مَا ضيَّع الناسُ حَصّلا فحدّث عن ذكاء هؤلاء وفِطْنتهم وقوة تحصيلهم للعلم ولا حرج ، وهذا أمر واضح يُشاهده كُلُّ مَنْ عاشر أعمى . وهكذا تجد كُلَّ أصحاب العاهات الذين ابتلاهم الخالق سبحانه بنقص في تكوينهم يُعوِّضهم عنه في شيء آخر عزاءً لهم عما فَاتهم ، لكن هذا التعويض غالباً ما يكون دقيقاً يحتاج إلى مَنْ يُدرِكه ويستنبطه .

وكذلك نرى كثيرين من هؤلاء الذين ابتلاهم الله بنقْصٍ ما يحاولون تعويضه ويتفوقون في نواحٍ أخرى ، ليثبتوا للمجتمع جدارتهم ويُحدِثوا توازناً في حياتهم ليعيشوا الحياة الكريمة الإيجابية في مجتمعهم .

ومن ذلك مثلاً العالم الألماني (شاخْت) وقد أُصيب بِقصَرٍ في إحدى ساقيْه أعفاه من الخدمة العسكرية مع رفاقه من الشباب، فأثَّر ذلك في نفسه فصمَّم أنْ يكون شيئاً، وأنْ يخدُمَ بلده في ناحية أخرى، فاختار مجال الاقتصاد، وأبدع فيه، ورسم لبلاده الخُطّة التي تعينها في السِّلْم وتعويضها ما فاتها في الحرب، فكان (شاخْت) رجل الاقتصاد الأول في ألمانيا كلها.

ويجب أن نعلم أن التكوين الإنساني وخَلْق البشر ليس عملية ميكانيكية تعطي نماذج متماثلة تماماً، إبداع الخالق سبحانه ليس ماكينة كالتي تصنع الأكواب مثلاً، وتعطينا قِطَعاً متساوية، بل لا بُدَّ من الشذوذ في الخَلْق لحكمة؛ لأن وراء الخلق إرادة عليا للخالق سبحانه، ألا ترى الأولاد من أب واحد وأم واحدة وتراهم مختلفين في اللون أو الطول أو الذكاء.. الخ؟!

يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ.. ﴾ [الروم: 22]

إنها قدرةٌ في الخَلْق لا نهاية لها، وإبداعٌ لا مثيلَ له فيما يفعل البشر.

وهناك ملْمح آخر يجب أن نتنبه إليه، هو أن الخالق سبحانه وتعالى جعل أصحاب النقص في التكوين وأصحاب العاهات كوسائل إيضاح، وتذكُّر للإنسان إذا ما نسى فضْل الله عليه، لأنه كما قال تعالى: ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق: 6-7]

فالإنسان كثيراً ما تطغيه النعمة ، ويغفل عن المنعم سبحانه ، فإذا ما رأى أصحاب الابتلاءات انتبه وتذكّر نعمة الله ، وربما تجد المبصر لا يشعر بنعمة البصر ولا يذكرها إلا إذا رأى أعمى يتخبَّط في الطريق ، ساعتها فقط يذكر نعمة البصر فيقول: الحمد لله .

إذن: هذه العاهات ليستْ لأن أصحابها أقلُّ مِنّا ، أو أنهم أهوَنُ على الله . . لا ، بل هي ابتلاء لأصحابها ، ووسيلة إيضاح للآخرين لِتلفِتهم إلى نعمة الله .

(340/464)

لكن الآفة في هذه المسألة أنْ ترى بعض أصحاب العاهات والابتلاءات لا يستر بَلْوَاه على ربه ، بل يُظهرها للناس ، وكأنه يقول لهم: انظروا ماذا فعل الله بي ، ويتخذ من عَجْزه وعاهته وسيلةً للتكسُّب والترزق ، بل وابتزاز أموال الناس وأَخْذها دون وَجْه حق .

وفي الحديث الشريف: " إذا بُلِيتم فاستتروا " .

والذي يعرض بَلْواه على الناس هكذا كأنه يشكو الخالق للخَلْق ، ووالله لو ستر صاحب العاهة عاهته على ربه وقبلها منه لساق له رزقه على باب بيته . والأدْهَى من ذلك أن يتصنّع الناس العاهات ويدَّعوها ويُوهِموا الناس بها لِيُوقِعوهم ، وليبتزّوا أموالهم بسيف الضعف والحاجة .

نعود إلى قصة موسى وفرعون لنستنبط منها بعض الآيات والعجائب ، وأوّل ما يدعونا للعجب أن فرعون هو الذي ربّى موسى منذ أنْ كان وليداً ، وفي وقت كان يقتل فيه الذكور من أبناء قومه ، لنعلم أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأن إرادته سبحانه نافذة . فقد وضع محبة موسى في قلب فرعون وزوجته فقالت: ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ [القصص: 9]

فأين ذهب عداوتُه وبُغْضه للأطفال؟ ولماذا أحبَّ هذا الطفلَ بالذات؟ ألم يكُنْ من البديهي أنْ يطرأ على ذِهْن فرعون أن هذا الطفل ألقاه أهله في اليمّ لينجو من القتل؟ ولماذا لم تطرأ هذه الفكرة البديهية على ذِهْنه؟ اللهم إلا قوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ . . ﴾ [الأنفال: 24]

لقد طمس الله على قلب فرعون حتى لا يفعل شيئاً من هذا ، وحال بينه وبين قلبه لِيُبيِّن للناس جهل هذا الطاغية ومدى حُمْقه ، وأن وراء العناية والتربية للأهل والأُسرة عناية المربّي الأعلى سبحانه .

لذلك قال الشاعر: إذَا لَمْ تُصادِفْ مِنْ بَنيكَ عِنَايةً فَقَدْ كَذَبَ الرّاجِي وَخَابَ المؤمّلفمُوسَى الذِي رَبّاهُ جِبْرِيل كَافِرٌ وَمُوسَى الذِي رَبّاه فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ . . ﴾ .

﴿ فَأَرَادَ ﴾ أي: فرعون. ﴿ أَن يَسْتَفِزَّهُم ﴾ كلمة "استفزّ" سبق الكلام عنها في قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ.. ﴾ [الإسراء: 64] فالاستفزاز هو الإزعاج بالصوت العالي، يقوم المنادَى ويخفّ من مكانه، وهذا الصوت أو هذه الصَّيْحة يُخرجها الفارس أو اللاعب كما نرى في لعبة الكراتيه مثلاً لِيُزعِج الخصم ويُخيفه، وأيضاً فإن هذه الصيحة تشغَل الخَصْم، وتأخذ جزءاً من تفكيره، فيقِلّ تركيزه، فيمكن التغلُّب عليه. ومن الاستفزاز قَوْل أحدِنا لابنه المتكاسل: فِزْ. أي: انهض وخِفّ للقيام.

إذن: المعنى: فأراد فرعون أنْ يستفزّهم ويخدعهم خديعة تُخرِجهم من الأرض، فتخلو له من بعدهم، وهذا دليلٌ على غباء فرعون وتغفيله وحماقته، فما جاء موسى إلا ليأخذ بني إسرائيل، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: 16-17]

فكأن غباء فرعون أعان القدر الذي جاء به موسى -عليه السلام- ولكن كان لله تعالى إرادة فوق إرادة فرعون، فقد أراد أن يُخرج بني إسرائيل وتخلو له الأرض، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يستفزّه هو من الأرض كلها ومن الدنيا، فأغرقه الله تعالى وأخذه أَخْذَ عزيز مقتدر، وعاجله قبل أنْ يُنفذ ما أراد.

كما يقولون في الأمثال عند أهل الريف للذي هدّد جاره بأنْ يحرق غلّته وهي في الجرن،

فإذا بالقدر يعالجه (والغلة لسه فريك) أي: يعاجله الموت قبل نُضْج الغلة التي هدد بحرقها ، فأغرقه الله ومَنْ معه جميعاً .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ . . ﴾ .

(342/464)

قوله تعالى: ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي: من بعد موسى ﴿ اسْكُنُوا الأَرْضَ ﴾ أغلب العلماء قالوا: أي الأرض المقدسة التي هي بيت المقدس ، التي قال تعالى عنها: ﴿ يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ . . ﴾ [المائدة: 21] فكان ردّهم على أمر موسى بدخول بيت المقدس: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا . .

﴾ [المائدة: 22]

وقالوا: ﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ

﴾ [المائدة: 24]

لكن كلمة ﴿ الأَرْضِ ﴾ هنا جاءت مجرّدة عن الوَصْف ﴿ اسْكُنُوا الأَرْضَ ﴾ دون أنْ يُقيِّدها بوصف ، كما نقول: أرض الحرم ، أرض المدينة ، وإذا أردتَ أنْ تُسكِنَ إنساناً وتُوطّنه تقول: اسكن أي: استقر وتوطّن في القاهرة أو الإسكندرية مثلاً ، لكن اسكن

الأرض ، كيف وأنا موجود في الأرض بالفعل ؟ ! لا بُدَّ أن تُخصّص لي مكاناً اسكن فيه .

نقول: جاء قوله تعالى ﴿ اسْكُنُوا الأَرْضَ ﴾ هكذا دون تقييد بمكان معين ، لينسجم مع آيات القرآن التي حكمتْ عليهم بالتفرّق في جميع أنحاء الأرض ، فلا يكون لهم وطن يتجمعون فيه ، كما قال تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً . . ﴾ [الأعراف: 168]

والواقع يُؤيد هذا ، حيث نراهم مُتفرقِين في شتّى البلاد ، إلا أنهم ينحازون إلى أماكن مُحدَّدة لهم يتجمّعون فيها ، ولا يذوبون في الشعوب الأخرى ، فتجد كل قطعة منهم كأنها أمة مُستقلة بذاتها لا تختلط بغيرها .

(343/464)

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ [الإسراء: 104] والمراد بوَعْد الآخرة: هو الإفساد الثاني لبني إسرائيل ، حيث قال تعالى عن إفسادهم الأول على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً * فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً ﴾ [الإسراء: 4-5]

فقد جاس رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال ديارهم في المدينة ، وفي بني قريظة وبني

قَيْنُقاع ، وبني النضير ، وأجلاهم إلى أَذْرُعَات بالشام ، ثم انقطعت الصلة بين المسلمين واليهود فترة من الزمن .

ثم يقول تعالى عن الإفسادة الثانية لبني إسرائيل: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً ﴾ [الإسراء : 7]

وهذه الإفسادة هي ما نحن بصدده الآن ، حيث سيتجمع اليهود في وطن واحد ليتحقق وَعْد الله بالقضاء عليهم ، وهل يستطيع المسلمون أن ينقضُّوا على اليهود وهم في شتيت الأرض ؟ لا بُدَّ أن الحق سبحانه أوحى إليهم بفكرة التجمُّع في وطن قومي لهم كما يقولون ، حتى إذا أراد أَخْذهم لم يُفلتوا ، ويأخذهم أخْذ عزيز مقتدر .

وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ [الإسراء : 104] أي: مجتمعين بعضكم إلى بعض من شَتّى البلاد ، وهو ما يحدث الآن على أرض فلسطين . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(344/464)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) ﴾

أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ قال : اليد والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين ونقص من الثمرات .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ تسع آيات بينات ﴾ قال : يده وعصاه ولسانه والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم .

وأخرج الطيالسي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه ، والنسائي وابن ماجة وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن قانع والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل ، عن صفوان بن عسال : " أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبي نسأله ، فأتياه فسألاه عن قول الله : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان فيقتله ، ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة . أو قال : ولا تفروا من الزحف ، شك شعبة ، وعليكم يا يهود خاصة أن لا تعتدوا في السبت ، فقبلا يديه وقالا : نشهد أنك نبي . قال : فما يمنعكما أن تسلما ؟ ! . . . قالا : إن داود

دعا أن لا يزال في ذريته نبي ، وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الغضب ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سئل عن قول الله تعالى : ﴿ وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾ قال : مخالفاً . وقال : الأنبياء أكرم من أن تُلعَنَ أو تُسَبّ .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ ﴿ فاسأل بني إسرائيل ﴾ يقول : سأل موسى فرعون بني إسرائيل أن أرسلهم معي . قال مالك بن دينار : وإنما كتبوا " فسل " بلا ألف ، كما كتبوا قال : " قَلَ " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن علي رضي الله عنه أنه كان يقرأ ﴿ لقد علمت ﴾ يعني بالرفع . قال علي : والله ما علم عدوّ الله ، ولكن موسى هو الذي علم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ ﴿ لقد علمت ﴾ بالنصب - يعني فرعون - ثم تلا ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾

[النمل : 14] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ مثبوراً ﴾ قال : ملعوناً .

وأخرج ابن جرير من طريق علي عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله .

وأخرج الشيرازي في الألقاب وابن مردويه من طريق ميمون بن مهران ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ مثبوراً ﴾ قال : قليل العقل .

وأخرج الطستي عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ مثبوراً ﴾ قال : ملعوناً ، محبوساً عن الخير . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت عبد الله بن الزبعرى يقول :

إذ أتاني الشيطان في سنة النو . . . م ومن مال ميلة مثبوراً

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ لفيفاً ﴾ قال : جميعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 ص ﴾

(346/464)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾

قوله تعالى : ﴿ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ :

يجوز في " بيِّنات " النصبُ صفةً للعددِ ، والجرُّ صفةً للمعدود .

قوله : ﴿ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أن يكونَ معمولاً ل " آتَيْنا " ، ويكون قولُه ﴿ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ اعتراضاً . والثاني : أنَّه منصوبٌ بإضمار اذكُرْ . والثالث : أنه منصوبٌ ب يُخْبرونك مقدَّراً . الرابع : أنه منصوبٌ بقولٍ مضمرٍ ، إذ التقديرُ : فَقُلْنا له : سَلْ بني إسرائيل حين جاءهم . وقد ذكر هذه الأوجهَ الزمخشريُّ مرتبةً على مقدمةٍ ذكرها قبل ذلك فلنذكُرْها . قال : ﴿ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، أي : فقلنا له : سَلْ بني [إسرائيل] ، أي : سَلْهُمْ عن فرعونَ ، وقل/له : أرسلْ معي بني إسرائيل ، أو سَلْهُم عن إيمانهم وحالِ دينهم ، أو سَلْهُمْ أن يُعاضِدوك ، وتَدُلُّ عليه قراءةُ رسولِ الله " فسال " على لفظ الماضي بغيرِ همزٍ وهي لغةُ قُريش .

وقيل : فَسَلْ يا رسولَ الله المُؤْمِنَ من بني إسرائيل كعبدِ الله بن سلام وأصحابه عن الآيات ليزدادوا يقيناً وطُمَأْنينة كقوله : ﴿ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : 260] . ثم قال : " فإن قلتَ بِمَ تعلَّق " إذ جاءهم " ؟ قلت : أمَّا على الوجهِ الأولِ فبالقولِ المحذوفِ ، أي :

فقلنا له : سَلْهُمْ حين جاءهم ، أو ب " سال " في القراءة الثانية . وأمّا على الأخير فب " آتَيْنا " أو بإضمار اذكُرْ ، أو بيُخْبِرونك . ومعنى إذ جاءهم : إذ جاء آباءهم " . انتهى .

قال الشيخ : " ولا يتأَّتى تَعَلُّقه ب " اذكر " ولا ب يُخبرونك لأنه ظرفٌ ماضٍ " . قلت : إذا جعله معمولاً ل " اذكُرْ " ، أو ل يُخْبِرونك لم يَجْعَلْه ظرفاً بل مفعولاً به ، كما تقرَّر ذلك غيرَ مرة .

(347/464)

الخامس : أنه مفعولٌ به والعاملُ فيه " فَسَلْ " . قال أبو البقاء : " فيه وجهان ، أحدُهما : هو مفعولٌ به باسْأَلْ على المعنى لأنَّ المعنى : اذكُرْ لبني إسرائيل [إذ جاءهم] وقيل : التقديرُ اذكر إذ جاءهم وهي غيرُ " اذكر " الذي قَدَّرْتَ به اسْأَلْ " . يعني أن اذكرْ المقدرةَ غيرُ " اذكر " الذي فَسَّرْتَ " اسأَلْ " بها ، وهذا يؤيد ما ذكرْتُه لك مِنْ أَنَّهم إذا قدَّروا " اذكر " جعلوا " إذ " مفعولاً به لا ظرفاً .

إلا أنَّ أبا البقاء ذكر حال كَونِه ظرفاً ما يقتضي أنْ يعملَ فيه فعلٌ مستقبلٌ فقال : " والثاني : أن يكونَ ظرفاً . وفي العامل فيه أوجهٌ ، أحدُها : " آتَيْنا " . والثاني : " قلنا " مضمرة . والثالث : " قُلْ " ، تقديرُه قل لخصمِك : سَلْ . والمرادُ به فرعونُ ، أي : قُلْ يا موسى ، وكان

الوجهُ أن يُقال : إذ جئتهم بالفتح ، فرجع من الخطاب إلى الغيبة " .

قلت : فظاهرُ الوجهِ الثالثِ أنَّ العاملَ فيه " قُلْ " وهو ظرفٌ ماض ، على أنَّ هذا المعنى الذي نحا إليه ليس بشيءٍ ؛ إذ يرجع إلى : يا موسى قُلْ لفرعونَ : سَلْ بني إسرائيل ، فيعودُ فرعون هو السائلَ لبني إسرائيل ، وليس المرادُ ذلك قطعاً ، وعلى التقدير الذي قَدَّمْتُه عن الزمخشريّ - وهو أنَّ المعنى : يا موسى سَلْ بني إسرائيل ، أي : اطْلُبْهم من فرعونَ - يكون المفعولُ الأول للسؤال محذوفاً ، والثاني هو " بني إسرائيل " ، والتقدير : سَلْ فرعونَ بني إسرائيل ، وعلى هذا فيجوز أن تكونَ المسألةُ من التنازع ، وأعمل الثانيَ ، إذ التقديرُ : سَلْ فرعونَ فقال فرعونُ ، فأعمل الثانيَ فرَفَع به الفاعلَ ، وحَذَفَ المفعولَ مِنَ الأول وهو المختار من المذهبين .

والظاهرُ غيرُ ذلك كلِّه ، وأنَّ المأمورَ بالسؤال إنما هو سيدُنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه ، وبنو إسرائيل كانوا معاصِرِيه .

(348/464)

والضميرُ في ﴿ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ : إمَّا للآباء ، وإمَّا لهم على حَذْفِ مضافٍ ، أي : جاء آباءهم .

قوله : " مَسْحُوراً " فيه وجهان ، أظهرُهما : أنه بمعناه الأصلي ، أي : إنك سُحِرْتَ ، فمِنْ ثَمَّ اختلَّ كلامُك ، قال ذلك حين جاءَه بما لا تَهْوَى نفسُه الخبيثةُ . الثاني : أنه بمعنى فاعِل كمَيْمون ومَشْؤوم ، أي : أنت ساحرٌ ؛ فلذلك تأتي بالأعاجيبِ ، يشير لانقلابِ عصاه حيةً وغيرِ ذلك .

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ : قرأ الكسائيُّ بضم التاء أَسْند الفعلَ لضمير موسى عليه السلام ، أي : إني متحققٌ أني ما جئت به هو مُنَزَّلٌ مِنْ عندِ الله . والباقون بالفتح على إسناده لضميرِ فرعونَ ، أي : أنت متحقِّقٌ أنَّ ما جئتُ به هو مُنَزَّل من عند الله وإنما كفرُك عِنادٌ ، وعن عليٍّ رضي الله عنه أنه أنكر الفتحَ ، وقال : " ما عَلِم عدوُّ الله قط ، وإنما عَلِم موسى " ، والجملةُ المنفيَّةُ في محلِّ نصبٍ لأنها معلِّقةٌ للعِلْم قبلها .

قوله : " بَصائر " حالٌ وفي عاملها قولان ، أحدُهما : أنه " أَنْزَلَ " هذا الملفوظُ به ، وصاحبُ الحال هؤلاء ، وإليه ذهب الحوفيُّ وابنُ عطيةَ وأبو البقاء ، وهؤلاء يُجيزون أن يَعْمل ما قبلَ " إلا " فيما بعدها ، وإنْ لم يكنْ مستثنى ، ولا مستثنى منه ، ولا تابعاً له . والثاني : وهو مذهب الجمهور أنَّ ما بعد " إلا " لا يكون معمولاً لما قبله ، فيُقدَّر لها عاملٌ تقديرُه : أَنْزلها بصائرَ ، وقد تقدَّم نظيرُ هذه في " هود " عند قوله ﴿ إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرأي ﴾ [هود : 27] .

قوله : " مَثْبورا " " مَثْبوراً " مفعول ثانٍ ، واعترض بين المفعولين بالنداء . والمَثْبُور : المُهْلَكُ . يقال : ثَبَره الله ، أي : أهْلكه ، قال ابن الزِّبَعْرَى :

3116- إذ أُجاريْ الشيطانَ في سَنَنِ الغَيْ . . . يِ ومَنْ مال مَيْلَه مَثْبورُ

والثُّبور : الهَلاكُ قال تعالى : ﴿ لاَّ تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً وَاحِداً ﴾ [الفرقان : 14] .

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَفِيفاً ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنه حالٌ ، وأنَّ أصلَه مصدرٌ لفَّ يَلُفُّ لفيفاً نحو : النَّذير والنكير ، أي : جِئْنا بكم منضمّاً بعضُكم إلى بعض ، مِنْ لفَّ الشيءَ يَلُفُّه لَفَّاً ، والألَفُّ : المتداني الفَخْذَيْن ، وقيل : العظيمُ البطن . والثاني : أنه اسمُ جمعٍ لا واحدَ له من لفظِه ، والمعنى : جئنا بكم جميعاً فهو في قوةِ التأكيدِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 420.423 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾

هي أمارات كرامته وعلامات محبته .

قوله جلّ ذكره ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّى لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَآءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِني لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ .

أنت – يا فرعون – سلكت طريق الاستدلال فعلِمْتَ أن مثل هذه الأشياء لا يكون أمرها إلا منْ قِبَلِ الله ، ولكنّكَ رَكَنْتَ إلى الغفلةِ في ظلمات الجهل .

﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (103) ﴾

أراد فرعونْ إهلاكَ بني إسرائيل واستئصالهم ، وأراد الحقُّ – سبحانه – نصرتهم وبقاءهم ، فكان ما أراد الحقّ لا ما كاد اللعين .

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104) ﴾

أورثهم منازل أَعدائهم ، ومكَّنهم من ذخائرهم ومساكنهم ، واستوصى بهم شُكرَ نعمته ،

وعرَّفهم أنهم إنْ سلكوا في العصيان مَسْلَكَ مَنْ تَقَدَّمَهم ذاقوا من العقوبة مثلَ عقوبتهم.

انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 371. 372﴾

(351/464)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والستون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾

(3/465)

الجزء الخامس والستون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 105 ﴾ من سورة الإسراء

وحتى الآية ﴿ 111 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/465)

قوله تعالى ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (106) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ثبت أمر الحشر بإثبات القدرة على كل ممكن تارة ، وبإخبار بني إسرائيل الذين ألزموا

أنفسهم قبول كلامهم وقطع المفاوز إليهم لسؤالهم عن بعض الأمور أخرى ، ثبت أن هذا القرآن المخبر بذلك حق ، وكانوا قد سألوه عن المسائل المذكورة فأجابهم عن أولها وهي الروح بأمر مجمل وعقبه بأنهم سألوه في أشياء اقترحوها وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفعلها ، وأشار تعالى بالإخبار عن آيات موسى عليه السلام إلى أنه لم يترك إجابتهم بخلاً ولا عجزاً ، فإنها من جنس ما سألوا من التصرف في المياه تارة بإنزالها وتارة بتبديلها دماً الموجب للقدرة على إنبات الأشجار بها ، ومن إسقاط السماء كسفاً بإسقاط البرد المهلك ، فثبت بذلك صحة الإخبار بتصريف الأمثال في هذا الكتاب ، فعطف على قوله :

﴿ ولقد صرفنا ﴾ قوله تعالى : ﴿ وبالحق ﴾ أي من المعاني الثابتة التي لا مرية فيها لا بغيره ﴿ أنزلناه ﴾ نحن القرآن أو هذا الذي أخبر منه بالحشر لبني إسرائيل ملتفين بالقبط وبما قبله على ما لنا من العظمة ﴿ وبالحق ﴾ لا بغيره ﴿ نزل ﴾ هو ووصل إليهم على لسانك بعد إنزاله عليك كما أنزلنا سواء غضاً طرياً محفوظاً لم يطرأ عليه طارئ ، فليس فيه شيء من تحريف ولا تبديل كما وقع في كتاب اليهود الذين يسألهم قومك ، فأفاد هذا أن القرآن معجز بكونه مع إعجازه بالبلاغة في تصريف الأمثال ، وغيرها من نظم المقال ﴿ وما أرسلناك ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ إلا مبشراً ونذيراً ﴾ على غاية التمكن في كل من الوصفين - بما أشار إليه الواو والصيغة ، تبلغهم ما فيه من بشارة لمن آمن بذلك اليوم ، ونذارة لمن لم يؤمن به ، فإن قبلوا فهو حظهم ، وإن لم يقبلوا كان عليهم وزرهم ، ولم يكن عليك

لوم ، فإنا ما أرسلناك عليهم وكيلاً ، وسنزهق باطلهم بهذا الحق لا محالة ، فلا تستعجل لهم ﴿ إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ولم نرسلك لتفجير الأنهار ولا إنبات الأشجار ؛ ثم أخبر أن الحكمة في إنزال القرآن منجماً فقال تعالى : ﴿ وقرءاناً ﴾ أي

(5/465)

وفصلنا أو وأنزلنا قرآناً ﴿ فرقناه ﴾ أي أنزلناه منجماً في أوقات متطاولة وميزناه بالحقيقة عن كل باطل ، وبالإعجاز عن كل كلام ﴿ لتقرأه على الناس ﴾ أي عامة كل من أمكنك منهم ، فإنك مرسل إليهم كلهم .

(6/465)

ولما كانوا لما لهم من النوس في غاية الزلزلة ، لا يتهذبون إلا في أزمان طويلة وعلاج كبير ، قال مشيراً إلى ذلك : ﴿ على مكث ﴾ أي تؤدة وترسل بأن تقرأ منه كل نجم في وقته الذي أنزلناه فيه مدة ثلاث وعشرين سنة ﴿ ونزلناه ﴾ من عندنا بما لنا من العظمة ﴿ تنزيلاً ﴾ بعضه في إثر بعض ، مفرقاً بحسب الوقائع لأنه أتقن في فصلها ، وأعون على الفهم لطول التأمل

لما نزل من نجومه في مدة ما بين النجمين لغزارة ما فيه من المعاني ، وكثرة ما تضمنه من الحكم ، وذلك أيضاً أقرب للحفظ ، وأعظم تثبيتاً للفؤاد ، وأشرح للصدر ، لأن أخبار الحبيب إذا كانت متواصلة كان المحب كل يوم في عيد ، بهناء جديد ، فعلنا بك ذلك لما تقدم من أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، فلما طالت الدلائل ، وزالت الشبه ، وعلم أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، فلما طالت الدلائل ، وزالت الشبه ، وعلم أن الحظ لمن أقبل ، والخيبة لمن أدبر ، أمره أن يقول منبهاً لهم على ذلك مبكتاً لهم بتقاعسهم عنه وعنادهم فيه بقوله تعالى : ﴿ قل آمنوا به ﴾ أي القرآن ﴿ أو لا تؤمنوا ﴾ فالإيمان به غير محتاج إليكم ولا موقوف عليكم لأنكم إن آمنتم به كان الحظ لكم ، وإلا لم تضروا إلا أنفسكم ، وهو احتقار لهم حيث صرف لهم من كل مثل فأبوا إلا كفوراً ، ثم علل ذلك بما يقبل بكل ذي لب إليه ، فإن كان ل " قل " فهو تسلية له صل الله عليه وعلى آله وسلم ، وإن كان لما بعدها فهو تبكيت لهم وتحقير ، فقال تعالى : ﴿ إن الذين أوتوا العلم ﴾ وبني للمفعول دلالة على أن العلم الرباني – وهو العلم في الحقيقة من أيّ مؤتٍ كان ، حاث على الإيمان بهذا القرآن ، وتنبيهاً على أن من كان يعلم ولا يحمله علمه على الإيمان بهذا الكتاب الذي لا شيء أبين من حقيقته بمصادقته لكتب الأنبياء الذين ثبتت رسالاتهم ومضت عليها الدهور ، واطمأنت بها النفوس ، وزيادته عليها بما أودعه الله من الإعجاز والحكم – فعلمه كلا علم بل هو

أجهل الجهلة ، سواء كان ممن سألتموه عني أو من غيرهم – كما سيأتي إن شاء الله تعالى تحقيقه في الزمر .

ولما كان المراد أن من اتصف بهذا الوصف ولو زمناً يسيراً نفعه ، أدخل الجار فقال مرغباً في العلم ليحمل على الإيمان بالقرآن : ﴿ من قبله ﴾ أي قبل إنزاله ممن آمن من بني إسرائيل الذين أمرني الله بسؤالهم تسميعاً لكم وتثبيتاً لكونكم أقبلتم عليهم بالسؤال وجعلتموهم محط الوثوق : ﴿ إذا يتلى ﴾ أي من أيّ تالٍ كان ﴿ عليهم ﴾ في وقت من الأوقات ، ينقلهم من حال إلى حال ، فيرقيهم في مدارج القرب ومعارج الكمال ، إلى أعلى الرتب ، بأنهم ﴿ يخرون ﴾ أي يسقطون بسرعة ؛ وأكد السرعة وأفاد الاختصاص بقوله تعالى : ﴿ للأذقان ﴾ باللام دون إلى أو على ، دالاً بالأذقان على أنهم من شدة ما يحصل لهم من الخشوع يسقطون سقوط من ليس له اختيار ، وأول ما يلاقي الأرض ممن يسقط كذلك ذقنه ، وهو مجتمع اللحيين من منبت لحيته – فإن الإنسان مجبول بالطبع على صيانة وجهه ، فهو يرفع رأسه فتصير ذقنه وفمه أقرب ما في وجهه إلى الأرض حال السقوط ، ولهذا قال شاعرهم : فخر سريعاً لليدين وللفم .

ثم بين أن ذلك ليس سقوطاً اضطرارياً من كل جهة بقوله تعالى : ﴿ سجداً ﴾ أي يفعلون ذلك لما يعلمون من حقيته بما أوتوا من العلم السالف ، وما في قلوبهم من الإذعان ، والخشية للرحمن ﴿ ويقولون ﴾ أي على وجه التحديد المستمر : ﴿ سبحان ربنا ﴾ أي تنزه الموجد لنا ، المدبر لأمورنا ، المحسن إلينا ، عن شوائب النقص ، لأنه وعد على ألسنة رسلنا أن يبعثنا بعد الموت ووعده الحق ، فلا بد أن يكون ، ووعد أن يأتي بهذا الكتاب على لسان هذا النبي العربي ، وأوصل هذا الوعد إلينا في الكتب السالفة فأنجز ما سبق به وعده ﴿ إن ﴾ أي أنه ﴿ كان ﴾ أي كوناً لا ينفك ﴿ وعد ربنا ﴾ أي المحسن إلينا بالإيمان ، وما تبعه من وجوه العرفان ﴿ لمفعولاً ﴾ دون خلف ، ولا بد أن يأتي جميع ما وعد به من الثواب والعقاب ، وهو تعريض بقريش حيث كانوا يستهزئون بالوعيد في قولهم ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ﴾ ونحوه مما معناه الطعن في قدرة الله القادر عل كل شيء ﴿ ويخرون ﴾ عند تكرار سماعه ﴿ للأذقان ﴾ مع سجودهم ﴿ يبكون ويزيدهم ﴾ تكراره ﴿ خشوعاً ﴾ أي خضوعاً وتواضعاً وإخباتاً ، فإن كان سؤالكم إياهم لتؤمنوا إذا أخبروكم أني على الحق فآمنوا ، وإن كان لغير ذلك فقد تبين سفهكم وضعف أمركم وسوء

رأيكم ، وعبر في البكاء بالفعل إشارة إلى تجدده في بعض الأحيان لما لهم في بعضها من السرور ببعض ما أبيح من الملاذ ، وفي السجود بالاسم إشارة إلى دوام ذلهم بالسجود المشروع ، أو بمطلق الخضوع ، وسيأتي في سورة مريم ما يزيده وضوحاً . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 434 . 437 ﴾

(9/465)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن القرآن معجز قاهر دال على الصدق في قوله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن ﴾ [الإسراء : 88] ثم حكى عن الكفار أنهم لم يكتفوا بهذا المعجز بل طلبوا سائر المعجزات ، ثم أجاب الله بأنه لا حاجة إلى إظهار سائر المعجزات وبين ذلك بوجوه كثيرة ، منها أن قوم موسى عليه الصلاة والسلام آتاهم الله تسع آيات بينات فلما جحدوا بها أهلكهم الله فكذا ها هنا ، ثم إنه تعالى لو آتى قوم محمد تلك المعجزات التي اقترحوها ثم كفروا بها وجب إنزال عذاب الاستئصال بهم وذلك غير جائز في الحكمة

لعلمه تعالى أن منهم من يؤمن والذي لا يؤمن فسيظهر من نسله من يصير مؤمناً ، ولما تم هذا الجواب عاد إلى تعظيم حال القرآن وجلالة درجته فقال : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ والمعنى أنه ما أردنا بإنزاله إلا تقرير الحق والصدق وكما أردنا هذا المعنى فكذلك وقع هذا المعنى وحصل وفي هذه الآية فوائد .

الفائدة الأولى : أن الحق هو الثابت الذي لا يزول كما أن الباطل هو الزائل الذاهب ، وهذا الكتاب الكريم مشتمل على أشياء لا تزول وذلك لأنه مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والإكرام وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوة الأنبياء وإثبات الحشر والنشر والقيامة وكل ذلك مما لا يقبل الزوال ومشتمل أيضاً على شريعة باقية لا يتطرق إليها النسخ والنقض والتحريف ، وأيضاً فهذا الكتاب كتاب تكفل الله بحفظه عن تحريف الزائغين وتبديل الجاهلين كما قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ [الحجر : 9] فكان هذا الكتاب حقاً من كل الوجوه .

(10/465)

الفائدة الثانية : أن قوله : ﴿ وبالحق أَنْزَلْنَاهُ ﴾ يفيد الحصر ومعناه أنه ما أنزل لمقصود آخر سوى إظهار الحق وقالت المعتزلة ، وهذا يدل على أنه ما قصد بإنزاله إضلال أحد من

الخلق ولا إغواؤه ولا منعه عن دين الله .

الفائدة الثالثة : قوله : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ يدل على أن الإنزال غير النزول ، فوجب أن يكون الخلق غير المخلوق وأن يكون التكوين غير المكون على ما ذهب إليه قوم .

الفائدة الرابعة : قال أبو علي الفارسي الباء في قوله : ﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ بمعنى مع كما تقول نزل بعدته وخرج بسلاحه ، والمعنى أنزلنا القرآن مع الحق وقوله : ﴿ وبالحق نزل ﴾ فيه احتمالان ، أحدهما : أن يكون التقدير نزل بالحق كما تقول نزلت بزيد وعلى هذا التقدير الحق محمد صلى الله عليه وسلم لأن القرآن نزل به أي عليه .

الثاني : أن تكون بمعنى مع كما قلنا في قوله : ﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ والمقصود أن هؤلاء الجهال الذين يقترحون عليك هذه المعجزات ويتمردون عن قبول دينك لا شيء عليك من كفرهم فإني ما أرسلتك إلا مبشراً للمطيعين ونذيراً للجاحدين فإن قبلوا الدين الحق انتفعوا به وإلا فليس عليك من كفرهم شيء .

ثم قال : ﴿ وَقُرْءانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : أن القوم قالوا : هب إن هذا القرآن معجز إلا أنه بتقدير أن يكون الأمر كذلك فكان من الواجب أن ينزله الله عليك دفعة واحدة ليظهر فيه وجه الإعجاز فجعلوا إتيان الرسول بهذا القرآن متفرقاً شبهة في أنه يتفكر في فصل فصل ويقرأه على الناس فأجاب الله

عنه بأنه إنما فرقه ليكون حفظه أسهل ولتكون الإحاطة والوقوف على دقائقه وحقائقه أسهل .

(11/465)

البحث الثاني : قال سعيد بن جبير نزل القرآن كله ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء السفلى ، ثم فصل في السنين التي نزل فيها ، قال قتادة : كان بين أوله وآخره عشرون سنة والمعنى قطعناه آية آية وسورة سورة ولم ننزله جملة لتقرأه على الناس على مكث بالفتح والضم على مهل وتؤدة أي لا على فورة .

قال الفراء : يقال مكث ومكث يمكث ، والفتح قراءة عاصم في قوله : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [النمل : 22] .

البحث الثالثة : الاختيار عند الأئمة فرقناه بالتخفيف وفسره أبو عمرو بيناه قال أبو عبيد : التخفيف أعجب إلي لأن تفسيره بيناه ومن قرأ بالتشديد لم يكن له معنى إلا أنه أنزل متفرقاً فالفرق يتضمن التبيين ويؤكده ما روى ثعلب عن ابن الأعرابي أنه قال : فرقت أفرق بين الكلام وفرقت بين الأجسام ويدل عليه أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم : " البيعان بالخيار ما لم يتفرقا " ولم يقل يفترقا والتفرق مطاوع التفريق والافتراق مطاوع الفرق ثم قال :

﴿ ونزلناه تَنْزِيلاً ﴾ أي على الحد المذكور والصفة المذكورة ثم قال : ﴿ قُلْ ءامِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ ﴾ يخاطب الذين اقترحوا تلك المعجزات العظيمة على وجه التهديد والإنكار أي إنه تعالى أوضح البينات والدلائل وأزاح الأعذار فاختاروا ما تريدون ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل نزول القرآن قال مجاهد : هم ناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم خروا سجداً منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام ثم قال : ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ وفيه أقوال : القول الأول : قال الزجاج : الذقن مجمع اللحيين وكلما يبتدىء الإنسان بالخرور إلى السجود فأقرب الأشياء من الجبهة إلى الأرض الذقن .

(12/465)

والقول الثاني : أن الأذقان كناية عن اللحى والإنسان إذا بالغ عند السجود في الخضوع والخشوع ربما مسح لحيته على التراب فإن اللحية يبالغ في تنظيفها فإذا عفرها الإنسان بالتراب فقد أتى بغاية التعظيم .

والقول الثالث : أن الإنسان إذا استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على الأرض في معرض السجود كالمغشي عليه ومتى كان الأمر كذلك كان خروره على الذقن في موضع

السجود فقوله : ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ ﴾ كناية عن غاية ولهه وخوفه وخشيته ثم بقي في الآية سؤالان .

السؤال الأول : لمَ قال : ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ ولم يقل يسجدون ؟ والجواب المقصود من ذكر هذا اللفظ مسارعتهم إلى ذلك حتى أنهم يسقطون .

السؤال الثاني : لمَ قال : ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ ﴾ ولم يقل على الأذقان والجواب العرب تقول إذا خر الرجل فوقع على وجهه خر للذقن ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ والمعنى أنهم يقولون في سجودهم : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا ﴾ أي ينزهونه ويعظمونه : ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ أي بإنزال القرآن وبعث محمد وهذا يدل على أن هؤلاء كانوا من أهل الكتاب لأن الوعد ببعثة محمد سبق في كتابهم فهم كانوا ينتظرون إنجاز ذلك الوعد ثم قال : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ والفائدة في هذا التكرير اختلاف الحالين وهما خرورهم للسجود وفي حال كونهم باكين عند استماع القرآن ويدل عليه قوله : ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ ويجوز أن يكون تكرار القول دلالة على تكرار الفعل منهم وقوله : ﴿ يَبْكُونَ ﴾ معناه الحال :

﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ أي تواضعاً واعلم أن المقصود من هذه الآية تقرير تحقيرهم والازدراء بشأنهم وعدم الاكتراث بهم وبإيمانهم وامتناعهم منه وأنهم وإن لم يؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 56 . 58 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نَزَل ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : أن إنزاله حق .

الثاني : أن ما تضمنه من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد حق .

﴿ وبالحق نزل ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : وبوحينا نزل .

الثاني : على رسولنا نزل .

﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ يعني مبشراً بالجنة لمن أطاع الله تعالى ، ونذيراً بالنار لمن عصى الله تعالى .

قوله عز وجل : ﴿ وقرآناً فرقناه ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : فرقنا فيه بين الحق والباطل ، قاله الحسن .

الثاني : فرّقناه بالتشديد وهي قراءة ابن عباس أي نزل مفرّقاً آية آية وهي كذلك في

مصحف ابن مسعود وأُبيٍّ بن كعب : فرقناه عليك .

الثالث : فصّلناه سُوراً وآيات متميزة ، قاله ابن بحر .

﴿ لتقرأه على الناس على مُكْثٍ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني على تثبت وترسّل ، وهو قول مجاهد .

الثاني : أنه كان ينزل منه شيء ، ثم يمكثون بعد ما شاء الله ، ثم ينزل شيء آخر .

الثالث : أن يمكث في قراءته عليهم مفرقاً شيئاً بعد شيء ، قاله أبو مسلم .

قوله عز وجل : ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾

يعني القرآن ، وهذا من الله تعالى على وجه التبكيت لهم والتهديد ، لا على وجه التخيير .

﴿ إن الذين أوتوا العلم من قَبله ﴾ فيهم وجهان :

أحدهما : أنهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله الحسن .

الثاني : أنهم أناس من اليهود ، قاله مجاهد .

﴿ إذا يتلى عليهم يخرُّون للأذقان سُجّداً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : كتابهم إيماناً بما فيه من تصديق محمد صلى الله عليه وسلم .

الثاني : القرآن كان أناس من أهل الكتاب إذا سمعوا ما أنزل منه قالوا : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ، وهذا قول مجاهد .

وفي قوله ﴿ يخرُّون للأذقان ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الأذقان مجتمع اللحيين .

الثاني : أنها ها هنا الوجوه ، قاله ابن عباس وقتادة .

الثالث : أنها اللحى ، قاله الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(14/465)

وقال ابن عطية :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105) ﴾

الضمير في قوله ﴿ أنزلناه ﴾ عائد على القرآن المذكور ، وفي قوله ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ [الإسراء : 89] ويجوز أن يكون الكلام آنفاً . وأشار بالضمير إلى القرآن على ذكر متقدم لشهرته ، كما قال ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [ص : 32] .

(15/465)

وهذا كثير ، قال الزهراوي : معناه بالواجب الذي هو المصلحة والسداد للناس ﴿ بالحق ﴾ في نفسه ، وقوله ﴿ وبالحق نزل ﴾ ، يريد ﴿ بالحق ﴾ في أوامره ونواهيه وأخباره فبهذا التأويل يكون تكرار اللفظ لمعنى غير الأول ، وذهب الطبري إلى أنهما بمعنى واحد ، أي بأخباره وأوامره وبذلك نزل ، وقوله ﴿ وقرآناً ﴾ مذهب سيبويه أن نصبه بفعل مضمر يفسره الظاهر بعد ، أي " وفرقنا قرآناً " ويصح أن يكون معطوفاً على الكاف في ﴿ أرسلناك ﴾ من حيث كان إرسال هذا وإنزال هذا المعنى واحد ، وقرأ جمهور الناس " فرَقناه " بتخفيف الراء ، ومعناه بيناه وأوضحناه وجعلناه فرقاناً ، وقرأ ابن عباس وقتادة وأبو رجاء وعلي بن أبي طالب وابن مسعود وأبي بن كعب والشعبي والحسن بخلاف ، وحميد وعمرو بن فائد " فرّقناه " بتشديد الراء ، إلا أن في قراءة ابن مسعود وأبيّ " فرقناه عليه لتقرأه " أي أنزلناه شيئاً بعد الشيء لا جملة واحدة ويتناسق هذا المعنى مع قوله ﴿ لتقرأه على الناس على مكث ﴾ ، وهذا كان مما أراد الله من نزوله بأسباب تقع في الأرض من أقوال وأفعال في أزمان محدودة معينة ، واختلف أهل العلم في كم القرآن من المدة؟ فقيل : في خمس وعشرين سنة ، وقال ابن عباس : في ثلاث وعشرين سنة ، وقال قتادة في عشرين سنة ، وهذا بحسب الخلاف في سن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن الوحي بدأ وهو ابن أربعين ، وتم بموته ، وحكى الطبري عن الحسن البصري أنه قال : نزل القرآن في ثمان عشرة سنة ، وهذا قول يختل لا يصح عن الحسن والله أعلم ، وتأولت فرقة

قوله عز وجل ﴿ على مكث ﴾ أي على ترسل في التلاوة، وهو ترتيل، هذا قول مجاهد وابن عباس وابن جريج وابن زيد، والتأويل الآخر أي ﴿ على مكث ﴾ وتطاول في المدة شيئاً بعد شيء، وقوله ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ مبالغة وتأكيد بالمصدر للمعنى المتقدم ذكره في ألفاظ الآية، وأجمع القراء على ضم الميم من ﴿ مُكث ﴾، ويقال مَكث ومِكث بفتح الميم

(16/465)

ومكث بكسرها، وقوله ﴿ قل آمنوا به ﴾ الآية تحقير للكفار، وفي ضمنه ضرب من التوعد، والمعنى أنكم لستم بحجة، فسواء علينا آمنتم أم كفرتم، وإنما ضرّ ذلك على أنفسكم، وإنما الحجة أهل العلم من قبله وهم بالصفة المذكورة، واختلف الناس في المراد ب ﴿ الذين أوتوا العلم من قبله ﴾، فقالت فرقة: هم مؤمنو أهل الكتاب وقالت فرقة: هم ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل ومن جرى مجراهما.

وقيل إن جماعة من أهل الكتاب جلسوا وهم على دينهم فتذاكروا أمر النبي صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه، وقرىء عليهم منه شيء فخشعوا وسبحوا لله، وقالوا هذا وقت نبوة المذكور في التوراة، وهذه صفته، ووعد الله به واقع لا محالة وجنحوا إلى الإسلام هذا

الجنوح، فنزلت الآية فيهم، وقالت فرقة: المراد ب ﴿ الذين أوتوا العلم من قبله ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم، والضمير في ﴿ قبله ﴾ عائد على القرآن حسب الضمير في ﴿ به ﴾، ويبين ذلك قوله ﴿ إذا يتلى ﴾، وقيل الضميران لمحمد. واستأنف ذكر القرآن في قوله ﴿ إذا يتلى ﴾، وقوله ﴿ للأذقان ﴾ أي لناحيتها، وهذا كما تقول تساقط لليد والفم أي لناحيتهما، وعليهما قال ابن عباس: المعنى للوجوه، وقال الحسن: المعنى للحي، و" الأذقان " أسافل الوجوه حيث يجتمع اللحيان، وهي أقرب ما في رأس الإنسان إلى الأرض، لا سيما عند سجوده، وقال الشاعر: [الطويل]

فخروا لأذقان الوجوه تنوشهم . . . سباع من الطير العوادي وتنتف

و ﴿ إن ﴾ في قوله ﴿ إن كان ﴾ هي عند سيبويه المخففة من الثقيلة، واللام بعدها لام التوكيد، وهي عند الفراء النافية، واللام بمعنى إلاّ، ويتوجه في هذه الآية معنى آخر وهو أن يكون قوله ﴿ آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ مخلصاً للوعيد دون التحقير، والمعنى فسترون ما تجازون به، ثم ضرب لهم المثل على جهة التقريع بمن تقدم من أهل الكتاب، أي أن الناس لم يكونوا كما أنتم في الكفر، بل الذين أوتوا التوراة والإنجيل والزبور والكتب المنزلة في الجملة،

﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ ما نزل عليهم خشعوا وآمنوا .

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109) ﴾

هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم وحض لكل من ترسم بالعلم وحصل منه شيئاً أن يجري إلى هذه الرتبة ، وحكى الطبري عن التميمي أنه قال : إن من أوتي من العلم ما لم يبكه لخليق أن لا يكون أوتي علماً ينفعه ، لأن الله تعالى نعت العلماء ، ثم تلا هذه الآية كلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(18/465)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وبالحق أنزلناه ﴾

الهاء كناية عن القرآن ، والمعنى : أنزلنا القرآن بالأمر الثابت والدِّين المستقيم ، فهو حَقٌّ ، ونزوله حق ، وما تضمنه حق .

وقال أبو سليمان الدمشقي : "وبالحق أنزلناه" أي : بالتوحيد ، "وبالحق نزل" يعني : بالوعد والوعيد ، والأمر والنهي .

قوله تعالى : ﴿ وقرآنا فرَقناه ﴾ قرأ علي عليه السلام ، وسعد بن أبي وقاص ، وأُبيّ بن

كعب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو رزين ، ومجاهد ، والشعبي ، وقتادة ، والأعرج ، وأبو رجاء ، وابن محيصن : "فرَّقناه" بالتشديد .

وقرأ الجمهور بالتخفيف .

فأما قراءة التخفيف ، ففي معناها ثلاثة أقوال .

أحدها : بيَّنَّا حلاله وحرامه ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : فرقنا فيه بين الحق والباطل ، [قاله الحسن] .

والثالث : أحكمناه وفصَّلناه ، كقوله تعالى : ﴿ فيها يُفرَق كُلُّ أمر حكيم ﴾ [الدخان : 4] ، قاله الفراء .

وأما المشددة ، فمعناها : أنه أُنزل متفرِّقاً ، ولم ينزل جملة واحدة .

وقد بيَّنَّا في أول كتابنا هذا مقدار المدة التي نزل فيها .

قوله تعالى : ﴿ لتقرَأَه على الناس على مُكْثٍ ﴾ قرأ أنس ، والشعبي ، والضحاك ، وقتادة ، وأبو رجاءٍ ، وأبان عن عاصم ، وابن محيصن : بفتح الميم ؛ والمعنى : على تُؤدة وترسُّل ليتدبَّروا معناه .

قوله تعالى : ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ هذا تهديد لكفار [أهل] مكة ، والهاء كناية عن القرآن .

﴿ إِن الذين أوتوا العلم ﴾ وفيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم ناس من أهل الكتاب ، قاله مجاهد .

والثاني : أنهم الأنبياء عليهم السلام ، قاله ابن زيد .

والثالث : طلاب الدِّين ، كأبي ذر ، وسلمان ، وورقة بن نوفل ، وزيد ابن عمرو ، قاله الواحدي .

وفي هاء الكناية في قوله : ﴿ من قبله ﴾ قولان .

أحدهما : أنها ترجع إِلى القرآن ، والمعنى : من قبل نزوله .

والثاني : ترجع إِلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن زيد .

(19/465)

فعلى الأول ﴿ إِذا يتلى عليهم ﴾ القرآن .

وعلى قول ابن زيد ﴿ إِذا يتلى عليهم ﴾ ما أُنزل إِليهم من عند الله .

قوله تعالى : ﴿ يَخِرُّون للأذقان ﴾ اللام هاهنا بمعنى "على" .

قال ابن عباس : قوله "للأذقان" أي : للوجوه .

قال الزجاج : الذي يَخِرُّ وهو قائم ، إِنما يَخِرُّ لوجهه ، والذَّقَن : مُجْتَمع اللَّحيَين ، وهو عضو من أعضاء الوجه ، فإذا ابتدأ يَخِرُّ ، فأقرب الأشياء من وجهه إِلى الأرض الذقن .

وقال ابن الأنباري: أول ما يلقى الأرضَ من الذي يَخِرُّ قبل أن يصوِّب جبتهه ذقنُه، فلذلك قال: "للأذقان".

ويجوز أن يكون المعنى: يَخِرُّون للوجوه، فاكتفى بالذقن من الوجه كما يُكتفى بالبعض من الكُلِّ، وبالنوع من الجنس.

قوله تعالى: ﴿ ويقولون سبحان ربِّنا ﴾ نزَّهوا الله تعالى عن تكذيب المكذِّبين بالقرآن، وقالوا: ﴿ إن كان وعد ربنا ﴾ بإنزال القرآن وبعثِ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لمفعولاً ﴾ واللام دخلت للتوكيد.

وهؤلاء قوم كانوا يسمعون أن الله باعثٌ نبيّاً من العرب، ومُنزِلٌ عليه كتاباً، فلما عاينوا ذلك، حمدوا الله تعالى على إنجاز الوعد، ﴿ ويَخِرُّون للأذقان ﴾ كرَّر القول ليدل على تكرار الفعل منهم.

﴿ ويزيدهم خشوعاً ﴾ أي: يزيدهم القرآن تواضعاً.

وكان عبد الأعلى التيمي يقول: من أوتي من العلم ما لا يُبكيه، لَخليق أن لا يكون أوتيَ علماً ينفعه، لأن الله تعالى نعت العلماء فقال: ﴿ إن الذين أوتوا العلم . . .

﴾ إلى قوله: "يبكون". انتهى انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وبالحق أَنزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ ﴾

هذا متصل بما سبق من ذكر المعجزات والقرآن .

والكناية ترجع إلى القرآن .

ووجه التكرير في قوله "وبالحق نزل" يجوز أن يكون معنى الأول : أوجبنا إنزاله بالحق .

ومعنى الثاني : ونزل وفيه الحق ؛ كقوله خرج بثيابه ، أي وعليه ثيابه .

وقيل الباء في "وبالحق" الأول بمعنى مع ، أي مع الحق ؛ كقولك ركب الأمير بسيفه أي مع سيفه .

"وبالحق نزل" أي بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أي نزل عليه ؛ كما تقول نزلت بزيد .

وقيل : يجوز أن يكون المعنى وبالحق قدرنا أن ينزل ، وكذلك نزل .

قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى الناس على مُكْثٍ ﴾

مذهب سيبويه أن "قرآناً" منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر .

وقرأ جمهور الناس "فَرَقناه" بتخفيف الراء ، ومعناه بيناه وأوضحناه ، وفرقنا فيه بين الحق والباطل ؛ قاله الحسن .

وقال ابن عباس : فصلناه .

وقرأ ابن عباس وعليّ وابن مسعود وأبيّ بن كعب وقتادة وأبو رجاء والشعبيّ "فرّقناه" بالتشديد ، أي أنزلناه شيئاً بعد شيء لا جملةً واحدة ؛ إلا أن في قراءة ابن مسعود وأُبَيّ "فرقناه عليك" .

واختلف في كم نزل القرآن من المدّة ؛ فقيل : في خمس وعشرين سنة .

ابن عباس : في ثلاث وعشرين .

أنس : في عشرين .

وهذا بحسب الخلاف في سن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا خلاف أنه نزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة .

وقد مضى هذا في "البقرة" .

﴿ على مُكْثٍ ﴾ أي تطاوُل في المدّة شيئاً بعد شيء .

ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود ، أي أنزلناه آية آية وسورةً سورة .

وأمّا على القول الأول فيكون "على مكث" أي على ترسّل في التلاوة وترتيل ؛ قاله مجاهد وابن عباس وابن جريج .

فيعطي القارىء القراءة حقّها من ترتيلها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تلحين ولا تطريب مؤد إلى تغيير لفظ القرآن بزيادة أو نقصان فإن ذلك حرام على ما تقدم أوّل الكتاب .

وأجمع القراء على ضم الميم من "مكث" إلا ابن محيصن فإنه قرأ "مكث" بفتح الميم.

ويقال.

مَكْث ومُكْث ومِكْث؛ ثلاث لغات.

قال مالك: "على مُكْث" على تثبّت وترسّلٍ.

قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ مبالغة وتأكيد بالمصدر للمعنى المتقدم، أي أنزلناه نَجْماً بعد نجم؛ ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تؤمنوا ﴾

يعني القرآن.

وهذا من الله عز وجل على وجه التبكيت لهم والتهديد لا على وجه التخيير.

﴿ إِنَّ الذين أُوتُوا العلم مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل نزول القرآن وخروج النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهم مؤمنو أهل الكتاب؛ في قول ابن جريج وغيره.

قال ابن جريج: معنى ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ كتابهم.

وقيل القرآن.

﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ﴾ وقيل : هم قوم من ولد إسماعيل تمسّكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبيّ عليه السلام ، منهم زيد بن عمرو بن نُفيل وورقة بن نَوْفل .

وعلى هذا ليس يريد أوتوا الكتاب بل يريد أوتوا علم الدِّين .

وقال الحسن : الذين أوتوا العلم أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال مجاهد : إنهم ناس من اليهود ؛ وهو أظهر لقوله "مِنْ قَبْله" .

﴿ إِذَا يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ يعني القرآن في قول مجاهد .

كانوا إذا سمعوا ما أنزل الله تعالى من القرآن سجدوا وقالوا : "سبحان ربّنا إن كان وعد ربّنا لمفعولاً" .

وقيل : كانوا إذا تلَوْا كتابهم وما أنزل عليه من القرآن خشعوا وسجدوا وسبحوا ، وقالوا : هذا هو المذكور في التوراة ، وهذه صفته ، ووعد الله به واقع لا محالة ، وجنحوا إلى الإسلام ؛ فنزلت الآية فيهم .

وقالت فرقة : المراد بالذين أوتوا العلم من قبله محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، والضمير في "قَبْله" عائد على القرآن حسب الضمير في قوله "قل آمنوا به" .

وقيل : الضميران لمحمد صلى الله عليه وسلم ، واستأنف ذكر القرآن في قوله : "إذا يتلى عليهم" .

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) ﴾

دليل على جواز التسبيح في السجود .

وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في سجوده وركوعه "سبحانك اللهمّ ربّنا وبحمدك اللّهمّ اغفر لي" ".

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم .

وحقّ لكل من توسّم بالعلم وحصّل منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبة ، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل .

وفي مسند الدّارميّ أبي محمد عن التَّيْميّ قال : من أوتيَ من العلم ما لم يبكّه لخليق ألا يكون أوتي علماً ؛ لأن الله تعالى نعت العلماء ، ثم تلا هذه الآية .

ذكره الطبري أيضاً .

والأذقان جمع ذقن ، وهو مجتمع اللّحيين .

وقال الحسن : الأذقان عبارة عن اللِّحَى ؛ أي يضعونها على الأرض في حال السجود ، وهو

غاية التواضع .

واللام بمعنى على ؛ تقول سقط لِفيه أي على فيه .

وقال ابن عباس : "ويخرون للأذقان سُجّداً" أي للوجوه ، وإنما خص الأذقان بالذكر لأن الذقن أقرب شيء من وجه الإنسان .

قال ابن خُوَيْز منداد : ولا يجوز السجود على الذقن ؛ لأن الذقن ها هنا عبارة عن الوجه ، وقد يعبّر بالشيء عما جاوره وببعضه عن جميعه ؛ فيقال : خر لوجهه ساجداً وإن كان لم يسجد على خدّه ولا عينه .

ألا ترى إلى قوله :

فخرّ صَرِيعاً لليدين ولِلفَم . . .

فإنما أراد : خر صريعاً على وجهه ويديه .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ يَبْكُونَ ﴾ دليل على جواز البكاء في الصلاة من خوف الله تعالى ، أو على معصيته في دين الله ، وأن ذلك لا يقطعها ولا يضرها .

ذكر ابن المبارك عن حماد بن سلمة عن ثابت البُنَانيّ عن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال : أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزِيز كأزير المِرْجل من البكاء .

وفي كتاب أبي داود : وفي صدره أزير كأزير الرحى من البكاء .

الثالثة : واختلف الفقهاء في الأنين ؛ فقال مالك : الأنين لا يقطع الصلاة للمريض ، وأكرهه للصحيح ؛ وبه قال الثوري .

وروى ابن الحكم عن مالك : التنحنحُ والأنين والنفخ لا يقطع الصلاة ، وقال ابن القاسم : يقطع .

وقال الشافعيّ : إن كان له حروف تُسمع وتُفهم يقطع الصلاة .

وقال أبو حنيفة : إن كان من خوف الله لم يقطع ، وإن كان من وجع قطع .

وروي عن أبي يوسف أن صلاته في ذلك كلّه تامة ؛ لأنه لا يخلو مريض ولا ضعيف من أنين .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ تقدّم القول في الخشوع في "البقرة" ويأتي .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(24/465)

وقال أبو حيان :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾

﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ هو مردود على قوله ﴿ لئن اجتمعت الإنس والجن ﴾ الآية وهكذا طريقة كلام العرب وأسلوبها تأخذ في شيء وتستطرد منه إلى شيء آخر ثم إلى آخر ثم تعود إلى ما ذكرته أولاً ، وأبعد من ذهب إلى أن الضمير في ﴿ أنزلناه ﴾ عائد على موسى عليه السلام وجعل منزلاً كما قال ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾ أو عائد على الآيات التسع ، وذكر على المعنى أو عائد على الوعد المذكور قبله .

وقال أبو سليمان الدمشقي ﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ أي بالتوحيد ، ﴿ وبالحق نزل ﴾ أي بالوعد والوعيد والأمر والنهي .

وقال الزهراوي : بالواجب الذي هو المصلحة والسداد للناس ، ﴿ وبالحق نزل ﴾ أي بالحق في أوامره ونواهيه وأخباره .

وقال الزمخشري : وما أنزلنا القرآن إلاّ بالحكمة المقتضية لإنزاله وما نزل إلاّ ملتبساً بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير ، وما أنزلناه من السماء إلاّ بالحق محفوظاً بالرصد من الملائكة ، وما نزل على الرسول إلاّ محفوظاً بهم من تخليط الشياطين انتهى .

وقد يكون ﴿ وبالحق نزل ﴾ توكيداً من حيث المعنى لما كان يقال أنزلته فنزل ، وأنزلته فلم ينزل إذا عرض له مانع من نزوله جاء ، ﴿ وبالحق نزل ﴾ مزيلاً لهذا الاحتمال ومؤكداً

حقيقة ، ﴿ وبالحق نزل ﴾ وإلى معنى التأكيد نحا الطبري .

وانتصب ﴿ مبشراً ونذيرا ﴾ على الحال أي ﴿ مبشرا ً ﴾ لهم بالجنة ومنذراً من النار ليس لك شيء من إكراههم على الدين .

وقرأ الجمهور : ﴿ فرقناه ﴾ بتخفيف الراء أي بيّنا حلاله وحرامه قاله ابن عباس ، وعن الحسن فرقنا فيه بين الحق والباطل .

وقال الفراء : أحكمناه وفصلناه كقوله ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ وقرأ أبيّ وعبد الله وعليّ وابن عباس وأبو رجاء وقتادة والشعبي وحميد وعمرو بن قائد وزيد بن عليّ وعمرو بن ذر وعكرمة والحسن بخلاف عنه بشد الراء أي ﴿ أنزلناه ﴾ نجماً بعد نجم . وفصلناه في النجوم .

(25/465)

وقال بعض من اختار ذلك : لم ينزل في يوم ولا يومين ولا شهر ولا شهرين ولا سنة ولا سنتين .

قال ابن عباس : كان بين أوله وآخره عشرون سنة ، هكذا قال الزمخشري عن ابن عباس .

وحكي عن ابن عباس في ثلاث وعشرين سنة .

وقيل : في خمس وعشرين ، وهذا الاختلاف مبني على الاختلاف في سنه عليه السلام ،

وعن الحسن نزل في ثمانية عشر سنة .

قال ابن عطية : وهذا قول مختل لا يصح عن الحسن .

وقيل معنى : ﴿ فرّقناه ﴾ بالتشديد فرقنا آياته بين أمر ونهي ، وحكم وأحكام ، ومواعظ وأمثال ، وقصص وأخبار مغيبات أتت وتأتي .

وانتصب ﴿ قرآناً ﴾ على إضمار فعل يفسره ﴿ فرقناه ﴾ أي وفرقنا ﴿ قرآناً فرقناه ﴾ فهو من باب الاشتغال وحسن النصب ، ورجحه على الرفع كونه عطفاً على جملة فعلية وهي قوله ﴿ وما أرسلناك ﴾ .

ولا بد من تقدير صفة لقوله ﴿ وقرآناً ﴾ حتى يصح كونه كان يجوز فيه الابتداء لأنه نكرة لا مسوغ لها في الظاهر للابتداء بها ، والتقدير ﴿ وقرآناً ﴾ أي قرآن أي عظيماً جليلاً ، وعلى أنه منصوب بإضمار فعل يفسره الظاهر بعده خرّجه الحوفي والزمخشري .

وقال ابن عطية وهو مذهب سيبويه .

وقال الفراء : هو منصوب بأرسلناك أي ﴿ ما أرسلناك إلاّ مبشراً ونذيراً وقرآناً ﴾ كما تقول رحمة لأن القرآن رحمة وهذا إعراب متكلف وأكثر تكلفاً منه قول ابن عطية ، ويصح أن يكون معطوفاً على الكاف في ﴿ أرسلناك ﴾ من حيث كان إرسال هذا وإنزال هذا المعنى واحد .

وقرأ أُبيّ وعبد الله ﴿ فرّقناه ﴾ عليك بزيادة عليك و ﴿ لتقرأه ﴾ متعلق بفرقناه ،

والظاهر تعلق على مكث بقوله ﴿ لتقرأه ﴾ ولا يبالي بكون الفعل يتعلق به حرفاً جر من جنس واحد لأنه اختلف معنى الحرفين الأول في موضع المفعول به ، والثاني في موضع الحال أي متمهلاً مترسلاً .

قال ابن عباس ومجاهد وابن جريج : ﴿ على مكث ﴾ على ترسل في التلاوة .

وقيل : ﴿ على مكث ﴾ أي تطاول في المدة شيئاً بعد شيء .

(26/465)

وقال الحوفي : ﴿ على مكث ﴾ بدل من ﴿ على الناس ﴾ وهذا لا يصح لأن قوله ﴿ على مكث ﴾ هو من صفة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو القارىء ، أو صفات المقروء في المعنى وليس من صفات الناس فيكون بدلاً منهم .

وقيل يتعلق ﴿ على مكث ﴾ بقوله ﴿ فرقناه ﴾ ويقال مكث بضم الميم وفتحها وكسرها .

وقال ابن عطية : وأجمع القراء على ضم الميم من ﴿ مكث ﴾ .

وقال الحوفي : والمكث بالضم والفتح لغتان ، وقد قرىء بهما وفيه لغة أخرى كسر الميم .

﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ على حسب الحوادث من الأقوال والأفعال .

﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ يتضمن الإعراض عنهم والاحتقار لهم والازدراء بهم وعدم الاكتراث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم منه ، وأنهم لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك ، فإن خيراً منهم وأفضل هم العلماء الذي قرؤوا الكتاب وعلموا ما الوحي وما الشرائع ، قد آمنوا به وصدقوه وثبت عندهم أنه النبيّ العربي الموعود في كتبهم ، فإذا تُلي عليهم خروا ﴿ سُجَّدًا ﴾ وسبحوا الله تعظيماً لوعده ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد (صلى الله عليه وسلم) وإنزال القرآن عليه ، وهو المراد بالوعد في قوله ﴿ إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾ .

و ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله ﴾ يجوز أن يكون تعليلاً لقوله ﴿ آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ أي إن لم تؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منكم ، وأن يكون تعليلاً لقل على سبيل التسلية كأنه قيل ﴿ قل ﴾ عن إيمان الجاهلية بإيمان العلماء انتهى من كلام الزمخشري ، وفيه بعض تلخيص .

وقال غيره : ﴿ قل آمنوا ﴾ الآية تحقير للكفار ، وفي ضمنه ضرب من التوعد والمعنى أنكم لستم بحجة فسواء علينا أآمنتم أم كفرتم وإنما ضرر ذلك على أنفسكم ، وإنما الحجة أهل العلم انتهى .

والظاهر أن الضمير في ﴿ قل آمنوا به ﴾ عائد على القرآن ، و ﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب .

وقيل : ورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ومَن جري مجراهما ، فإنهما كانا ممن أوتي العلم واطّلعاً على التوراة والإنجيل ووجدا فيهما صفته عليه الصلاة والسلام .

وقيل : هم جماعة من أهل الكتاب جلسوا وهم على دينهم ، فتذكروا أمر النبيّ (صلى الله عليه وسلم) وما أنزل عليه .

وقرىء عليهم منه شيء فخشعوا وسجدوا لله وقالوا : هذا وقت نبوّة المذكور في التوراة وهذه صفته ، ووعد الله به واقع لا محالة ، وجنحوا إلى الإسلام هذا الجنوح فنزلت هذه الآية فيهم .

وقيل : المراد بالذين ﴿ أوتوا العلم من قبله ﴾ هو محمد (صلى الله عليه وسلم) ، والظاهر أن الضمير في ﴿ من قبله ﴾ عائد على القرآن كما عاد عليه في قوله : ﴿ به ﴾ ويدل عليه ما قبله وما بعده .

وقيل الضمير إن في ﴿ به ﴾ وفي ﴿ من قبله ﴾ عائدان على الرسول عليه الصلاة والسلام .

واستأنف ذكر القرآن في قوله ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ والظاهر في قوله ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾

أن الضمير في ﴿ يتلى ﴾ عائد على القرآن .

وقيل : هو عائد على التوراة وما فيها من تصديق القرآن ومعرفة النبيّ عليه الصلاة والسلام ، والخرور هو السقوط بسرعة ، ومنه ﴿ فخر عليهم السقف ﴾ وانتصب ﴿ سجداً ﴾ على الحال ، والسجود وهو وضع الجبهة على الأرض هو غاية الخرور ونهاية الخضوع ، وأول ما يلقي الأرض حالة السجود الذقن ، أو عبر عن الوجوه بالأذقان كما يعبر عن كل شيء ببعض ما يلاقيه .

وقال الشاعر :

فخروا الأذقان الوجوه تنوشهم . . .

سباع من الطير العوادي وتنتف

وقيل : أريد حقيقة الأذقان لأن ذلك غاية التواضع وكان سجودهم كذلك .

وقال ابن عباس : المعنى للوجوه .

وقال الزمخشري : فإن قلت : حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت خر على وجهه وعلى ذقنه فما معنى اللام في خر لذقنه ؟ قال :

فخر صريعاً لليدين وللفم . . .

قلت : معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور ، واختصه به لأن اللام للاختصاص انتهى .

وقيل : اللام بمعنى على و ﴿ سبحان ربنا ﴾ نزهوا الله عما نسبته إليه كفار قريش وغيرهم من أنه لا يرسل البشر رسلاً وأنه لا يعيدهم للجزاء ، وأن هنا المخففة من الثقيلة المعنى أن ما وعد به من إرسال محمد عليه الصلاة والسلام وإنزال القرآن عليه قد فعله وأنجزه ، ونكر الخرور لاختلاف حالي السجود والبكاء ، وجاء التعبير عن الحالة الأولى بالاسم وعن الحالة الثانية بالفعل لأن الفعل مشعر بالتجدد ، وذلك أن البكاء ناشىء عن التفكر فهم دائماً في فكرة وتذكر ، فناسب ذكر الفعل إذ هو مشعر بالتجدد ، ولما كانت حالة السجود ليست تتجدد في كل وقت عبر فيها بالاسم .

﴿ ويزيدهم ﴾ أي ما تُلي عليهم ﴿ خشوعاً ﴾ أي تواضعاً .

وقال عبد الأعلى التيمي : من أوتي من العلم ما لا يبكيه خليق أن لا يكون أوتي علماً ينفعه لأن تعالى نعت العلماء فقال : ﴿ إن الذين أوتوا العلم ﴾ الآية .

وقال ابن عطية : ويتوجه في هذه الآية معنى آخر ، وهو أن يكون قوله ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ مخلصاً للوعيد دون التحقير ، المعنى فسترون ما تجازون به ، ثم ضرب لهم المثل على جهة التقريع بمن تقدم من أهل الكتاب أي إن الناس لم يكونوا كما أنتم في الكفر بل كان الذين أوتوا التوراة والإنجيل والزبور والكتب المنزلة في الجملة إذا يتُلى عليهم ما نزل عليهم

خشعوا وآمنوا انتهى .

وقد تقدمت الإشارة إلى طرف من هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(29/465)

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ وبالحق أَنْزَلْنَاهُ ﴾

يعني القرآن نَزَلَ بالمصالحِ والسَّدادِ للناس ، و ﴿ بالحق نَزَلَ ﴾ يريد : بالحقِّ في أوامره ونواهيه وأخباره ، وقرأ جمهور الناس : «فَرَقْنَاهُ» بتخفيف الراء ، ومعناه : بيَّنَّاه وأوضَحْناه وجَعَلْناه فرقاناً ، وقرأ جماعةٌ خارجَ السبْعِ : «فَرَّقْنَاهُ» بتشديد الراء ، أي : أنزلناه شيئاً بعد شيء ، لا جملةً واحدة ، ويتناسق هذا المعنى مع قوله : ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى الناس على مُكْثٍ ﴾ ، وتأوّلت فرقةٌ قوله : ﴿ على مُكْثٍ ﴾ أي : على ترسُّلٍ في التلاوةِ ، وترتُّل ، هذا قول مجاهد وابن عباس وابن جُرَيْج وابن زيد ، والتأويلُ الآخر ، أي على مُكْثٍ وتطاوُلٍ في المدة شيئاً بعد شيء .

وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْلاَ تُؤْمِنُواْ ﴾ فيه تحقيرٌ للكفَّار ، وضَرْب من التوعُّد ، و ﴿ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ ﴾ : قالت فرقة : هم مؤمنو أهْلِ الكتابِ ، و«الأذقان» :

أسافل الوجوه حيث يجتمع اللَّحْيَان .

قال الواحِدِيُّ : ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا ﴾ أي : بإنزال القرآن ، وبعث محمَّد ﴿ لَمَفْعُولاً ﴾ . انتهى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ هذه مبالغةٌ في صفتهم ، ومَدْحٌ لهم وحضٌّ لكل من توسَّم بالعلم ، وحصَّل منه شيئاً أَنْ يجري إلى هذه الرتبة النفيسَةِ وحكَى الطبريُّ عن التميميّ : أن من أوتي من العلْمِ ما لم يُبْكِهِ لخَلِيقٌ ألاَّ يكونَ أوتي عِلْماً ينفعه ؛ لأن الله سبحانه نعت العلماء ، ثم تَلاَ هذه الآية كلَّها .

(30/465)

ت : وإِنه واللهِ لكذلكَ ، وإِنما يخشَى اللَّهَ مِنْ عباده العلماءُ ، اللهمَّ انْفَعْنَا بما عَلَّمتنا ، ولا تجعْلُه علينا حجَّةً بفضلك ، ونقل الغَزَّاليُّ عن ابن عبَّاس ؛ أنه قال : إذا قرأتم سَجْدَةَ «سُبْحَانَ» ، فلا تعجلوا بالسُّجُود حتى تَبْكُوا ، فإِن لم تَبْكِ عينُ أحدِكُمْ ، فَلْيبكِ قلبه . قال الغَزَّاليُّ : فإِن لم يحضره حُزْن وبكاءٌ ؛ كما يحضر أرباب القلوب الصافيَةِ فليَبْكِ على فَقْدِ الحُزْن والبكاء ، فإِن ذلك من أعظم المصائب . قال الغَزَّاليُّ : واعلم أنَّ الخشوع ثمرةُ الإِيمان ، ونتيجةُ اليقينِ الحاصلِ بعظمةِ اللَّه تعالى ، ومَنْ رُزِقَ ذلك ، فإِنه يكون خاشعاً في

الصلاة وغيرها ؛ فإن موجب الخشوع استشعارُ عظمة اللَّه ، ومعرفةُ اطلاعه على العَبْد ، ومعرفةُ تقصير العَبْد ، فمن هذه المعارفِ يتولَّد الخشوعُ ، وليْسَتْ مختصّةً بالصلاة ، ثم قال : وقد دلَّت الأخبار على أن الأصل في الصَّلاة الخشوعُ ، وحضورُ القَلْب ، وأن مجرَّد الحركاتِ مع الغَفْلة قليل الجدوى في المعادِ ، قال : وأعلم أنَّ المعاني التي بها تتمُّ حياة الصلاة تجمعها ستُّ جُمَلٍ ، وهي : حضورُ القَلْب ، والتفهُّمُ ، والتعظيمُ ، والهَيْبَة ، والرجاءُ ، والحياءُ ، فحضور القَلْب : أن يفرّغه من غير ما هو ملابسٌ له ، والتفهُّم : أمر زائد على الحُضُور ، وأما التعظيم ، فهو أمر وراءَ الحضور والفَهْمِ ، وأما الهَيْبة ، فأمر زائد علي التعظيمِ ، وهي عبارة عن خَوْفٍ مَنْشَؤه التعظيم ، وأما التعظيم ، فهو حالة للقَلْب تتولّد من معرفتين : إحداهما : معرفة جلال اللَّه سبحانه وعظمته ، والثانية : معرفة حقارة النفْسِ ، واعلَمْ أنَّ حضور القلب سببه الهِمَّة ، فإن قلبك تابعٌ لهمّتك ، فلا يحضر إلا فيما أهمّك ، ومهما أهمّك أمر ، حَضَر القَلْب ، شاء أم أبى ، والقلب إذا لم يحضُرْ في الصلاة ، لم يَكُنْ متعطّلاً ؛ بل يكون حاضراً فيما الهمة مصروفةٌ إليه . انتهى من «الإحياء» . انتهى انتهى .

اهـ ﴿الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾

أي وما أنزلنا القرآنَ إلا ملتبساً بالحق المقتضي لإنزاله وما نزل إلا ملتبساً بالحق الذي اشتمل عليه ، أو ما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً وما نزل على الرسول إلا محفوظاً من تخليط الشياطين ، ولعل المرادَ بيانُ عدم اعتراءِ البطلان له أولَ الأمر وآخره ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا ﴾ للمطيع بالثواب ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للعاصي من العقاب ، وهو تحقيقٌ لحقية بعثِه عليه الصلاة والسلام إثرَ تحقيقِ حقية إنزالِ القرآن .

﴿ وَقُرْءانًا ﴾ منصوب بمضمر يفسّره قوله تعالى : ﴿ فَرَقْنَاهُ ﴾ وقرىء بالتشديد دلالةً على كثرة نجومِه ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى الناس على مُكْثٍ ﴾ على مَهل وتثبُّتٍ فإنه أيسرُ للحفظ وأعونُ على الفهم ، وقرىء بالفتح وهو لغة فيه ﴿ ونزلناه تَنْزِيلاً ﴾ حسبما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة ويقع من الحوادث والواقعات .

﴿ قُلْ ﴾ للذين كفروا ﴿ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ ﴾ فإن إيمانَكم به لا يزيده كمالاً وامتناعَكم لا يورثه نقصاً ﴿ إِنَّ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ ﴾ أي العلماءَ الذين قرأوا الكتبَ السالفةَ من قبل تنزيله وعرَفوا حقيقةَ الوحي وأماراتِ النبوةِ وتمكّنوا من التمييز بين الحقّ والباطلِ والمُحقّ والمبطلِ ورأوا فيها نعتَك ونعتَ ما أنزل إليك ﴿ إِذَا يتلى ﴾ أي القرآنُ ﴿ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ ﴾ أي يسقطون على وجوههم ﴿ سُجَّدًا ﴾ تعظيماً

لأمر الله تعالى أو شكراً لإنجاز ما وعد به في تلك الكتبِ من بعثتك ، وتخصيصُ الأذقانِ بالذكر للدِلالة على كمال التذللِ إذ حينئذ يتحقق الخُرور عليها ، وإيثارُ اللام للدِلالة على اختصاص الخُرور بها كما في قوله

(32/465)

فخرَّ صريعاً لليدين وللفمِ . . . وهو تعليلٌ لما يفهم من قوله تعالى : ﴿ ءَامِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ ﴾ من عدم المبالاة بذلك أي إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسنَ إيمانٍ مَنْ هو خيرٌ منكم ، ويجوز أن يكون تعليلاً لقُلْ على سبيل التسليةِ لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل : تسلَّ بإيمان العلماءِ عن إيمان الجهلةِ ولا تكترث بإيمانهم وإعراضِهم .

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ في سجودهم ﴿ سُبْحَانَ رَبّنَا ﴾ عما يفعل الكفرةُ من التكذيب أو عن خُلْف وعده ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ إن مخففةٌ من المثقّلة ، واللامُ فارقةٌ أي إن الشأن هذا .

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ كرر الخُرورَ للأذقان لاختلاف السبب فإن (الأولَ) لتعظيم أمر الله تعالى أو الشكرِ لإنجاز الوعدِ (والثاني) لِما أثّر فيهم من مواعظ القرآنِ حالَ

كونهم باكين من خشية الله ﴿ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ أي القرآنُ بسماعهم ﴿ خُشُوعًا ﴾ كما يزيدهم علماً ويقيناً بالله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(33/465)

وقال الآلوسى :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾

عود إلى شرح حال القرآن الكريم فهو مرتبط بقوله تعالى : ﴿ لَئِنِ اجتمعت الإنس والجن ﴾ [الإسراء : 88] الآية وهكذا طريقة العرب في كلامها تأخذ في شيء وتستطرد منه إلى آخر ثم إلى آخر ثم تعود إلى ما ذكرته أولاً والحديث شجون فضمير الغائب للقرآن وأبعد من ذهب إلى أنه لموسى عليه السلام ، والآية مرتبطة بما عندها ، والإنزال فيها كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الحديد ﴾ [الحديد : 25] وقد حمله بعضهم على هذا المعنى فيما قبل أو للآيات التسع وذكر على المعنى أو للوعد المذكور آنفاً ، والظاهر أن الباء في الموضعين للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال من ضمير القرآن واحتمال أن يكون أولاً حالاً من ضميره تعالى خلاف الظاهر ، والمراد بالحق الأول على ما قيل الحكمة الإلهية المقتضية لإنزاله وبالثاني ما اشتمل عليه من العقائد والأحكام ونحوها أي ما أنزلناه إلا

ملتبساً بالحق المقتضي لإنزاله وما نزل إلا ملتبساً بالحق الذي اشتمل عليه ، وقيل الباء الأولى للسببية متعلقة بالفعل بعد والثانية للملابسة ، وقيل : هما للسببية فيتعلقان بالفعل وقال أبو سليمان الدمشقي : الحق الأول التوحيد والثاني الوعد والوعيد والأمر والنهي ، وقيل الحق في الموضعين الأمر المحفوظ الثابت ، والمعنى ما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً بالرصد من الملائكة وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين ، وحاصله أنه محفوظ حال الإنزال وحال النزول وما بعده لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(34/465)

وأبعد من جوز كون المراد بالحق الثاني النبي صلى الله عليه وسلم ومعنى نزوله به نزوله عليه وحلوله عنده من قولهم نزل بفلان ضيف ، وعلى سائر الأوجه لا تخفى فائدة ذكر الجملة الثانية بعد الأولى ، وما يتوهم من التكرار مندفع ونحا الطبري إلى أن الجملة الثانية توكيد للأولى من حيث المعنى لأنه يقال أنزلته فنزل وأنزلته فلم ينزل إذا عرض له مانع من النزول فجاءت الجملة الثانية مزيلة لهذا الاحتمال وتحاشي بعضهم من إطلاق التوكيد لما بين الإنزال والنزول من المغايرة وادعى أنه لو كانت الثانية توكيداً للأولى لما جاز العطف لكمال الاتصال ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشّرًا ﴾ للمطيع بالثواب ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للعاصي من

العقاب فلا عليك إلا التبشير والإنذار لا هداية الكفرة المقترحين وإكراههم على الدين ولعل الجملة لتحقيق حقية بعثه صلى الله عليه وسلم أثر تحقيق حقية القرآن ونصب ما بعد إلا على الحال.

﴿ وَقُرْءانًا ﴾ نصب بفعل مضمر يفسره قوله تعالى: ﴿ فَرَقْنَاهُ ﴾ فهو من باب الاشتغال ورجع النصب على الرفع العطف على الجملة الفعلية ولو رفع على الابتداء في غير القرآن جاز إلا أنه لا بد له من ملاحظة مسوغ عند من لا يكتفي في صحة الابتداء بالنكرة بحصول الفائدة وعلى هذا أخرجه الحوفي.

وقال ابن عطية: هو مذهب سيبويه، وقال الفراء: هو منصوب بأرسلناك أي مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشّرًا وَنَذِيرًا وَقُرْءانًا كما تقول رحمة لأن القرآن رحمة، ولا يخفى إنه إعراب متكلف لا يكاد يقوله فاضل، ومما يقضي منه العجب ما جوزه ابن عطية من نصبه بالعطف على الكاف في ﴿ أرسلناك ﴾ [الإسراء: 105].

(35/465)

وقال أبو البقاء: وهو دون الأول وفوق ما عداه إنه منصوب بفعل مضمر دل عليه ﴿ ءاتَيْنَا ﴾ [الإسراء: 101] السابق أو ﴿ أرسلناك ﴾ [الإسراء: 105] وجملة ﴿

فَرَقْنَاهُ ﴾ في موضح الصفة له أي آتيناك قرآناً فرقناه أي أنزلناه منجماً مفرقاً أو فرقنا فيه بين الحق والباطل فحذف الجار وانتصب مجروره على أنه مفعول به على التوسع كما في قوله :

ويوماً شهدناه سليماً وعامراً . . .

وروي ذلك عن الحسن ، وعن ابن عباس بينا حلاله وحرامه ، وقال الفراء : أحكمناه وفصلناه كما في قوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان : 4] وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس .

وأبي : وعبد الله .

وأبو رجاء .

وقتادة .

والشعبي .

وحميد .

وعمر بن قائد .

وزيد بن علي .

وعمرو بن ذر .

وعكرمة .

والحسن بخلاف عنه ﴿ فَرَقْنَاهُ ﴾ بشد الراء ومعناه كالمخفف أي أنزلناه مفرقاً منجماً بيد أن التضعيف للتكثير في الفعل وهو التفريق ، وقيل فرق بالتخفيف يدل على فصل متقارب وبالتشديد على فصل متباعد والأول أظهر ، ولما كان قوله تعالى الآتي ﴿ على مُكْثٍ ﴾ يدل على كثرة نجومه كانت القراءتان بمعنى ، وقيل معناه فرقنا آياته بين أمر ونهي وحكم وأحكام ومواعظ وأمثال وقصص وأخبار مغيبات أتت وتأتي والجمهور على الأول .

وقد أخرج ابن أبي حاتم .

وابن الأنباري وغيرهما عن ابن عباس قال : نزل القرآن جملة واحدة من عند الله تعالى من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا فنجمته السفرة على جبريل عليه السلام عشرين ليلة ونجمه جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم عشرين سنة ، وفي رواية أنه أنزل ليلة القدر في رمضان ووضع في بيت العزة في السماء الدنيا ثم أنزل نجوماً في عشرين ، وفي رواية في ثلاث وعشرين سنة وفي أخرى في خمس وعشرين ، وهذا الاختلاف على ما في "البحر" مبني على الاختلاف في سنه صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن الضريس من طريق قتادة عن الحسن كان يقول : أنزل الله القرآن على نبي الله صلى الله عليه وسلم في ثماني عشرة سنة ثمان سنين بمكة وعشر بعد ما هاجر .

وتعقبه ابن عطية بأنه قول مختل لا يصح عن الحسن ، واعتمد جمع أن بين أوله وآخره ثلاثاً وعشرين سنة وكان ينزل به جبريل عليه السلام على ما قيل خمس آيات خمس آيات ، فقد أخرج البيهقي في الشعب عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال : تعلموا القررن خمس آيات خمس آيات فـءن جبريل عليه السلام كان ينزل به خمساً خمساً .

وأخرج ابن عساكر من طريق أبي نضرة قال : كان أبو سعيد الخدري يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة وخمس آيات بالعشي ويخبر أن جبريل عليه السلام نزل به خمس آيات خمس آيات ، وكان المراد في الغالب فإنه قد صح أنه نزل بأكثر من ذلك وبأقل منه .

وقرأ أبي وعبد الله ﴿ فَرَقْنَاهُ عَلَيْكَ ﴾ ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى الناس على مُكْثٍ ﴾ أي تؤدة وتأن فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقيل أي تطاول في المدة وتقضيها شيئاً فشيئاً ، والظاهر تعلق لتقرأه بفرقناه وعلى الناس بتقرأه وعلى مكث به أيضاً إلا أن فيه تعلق حرفي جر بمعنى بمتعلق واحد .

وأجيب بأن تعلق الثاني بعد اعتبار تعلق الأول به فيختلف المتعلق ، وفي "البحر" لا يبالي بتعلق هذين الحرفين بما ذكر لاختلاف معناهما لأن الأول في موضع المفعول به والثاني في موضع الحال أي متمهلاً مترسلاً ، ولما في ذلك من القيل والقال اختار بعضهم تعلقه بفرقناه ،

وجوز الخفاجي تعلقه بمحذوف أي تفريقاً أو فرقاً على مكث أو قراءة على مكث منك كمكث تنزيله ، وجعله أبو البقاء في موضع الحال من الضمير المنصوب في فرقناه أي متمكثاً .

(37/465)

ومن العجيب قول الحوفي أنه بدل من ﴿ عَلَى النَّاسِ ﴾ وقد تعقبه أبو حيان بأنه لا يصح لأن ﴿ على مُكْثٍ ﴾ من صفات القارىء أو من صفات المقروء وليس من صفات الناس ليكون بدلاً منهم ، والمكث مثلث الميم وقرىء بالضم والفتح ولم يقرأ بالكسر وهو لغة قليلة ، وزعم ابن عطية إجماع القراء على الضم .

﴿ ونزلناه تَنْزِيلاً ﴾ على حسب الحوادث والمصالح فذكر هذا بعد قوله تعالى : ﴿ فَرَقْنَاهُ ﴾ الخ مفيد وذلك لأن الأول دال على تدريج نزوله ليسهل حفظه وفهمه من غير نظر إلى مقتض لذلك وهذا أخص منه فإنه دال على تدريجه بحسب الاقتضاء .

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) ﴾

﴿ قُلْ ﴾ للذين كفروا ﴿ بِهِ أَوْ ﴾ أي بالقرآن ﴿ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ أي به على معنى أن إيمانكم به وعدم إيمانكم به سواء لأن إيمانكم لا يزيده كمالاً وعدم إيمانكم لا يورثه نقصاً .

(38/465)

﴿ إِنَّ الذين أُوتُوا العلم مِن قَبْلِهِ ﴾ أي العلماء الذين قرؤوا الكتب السالفة من قبل تنزل القرآن وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة وتمكنوا من تمييز الحق والباطل والمحق والمبطل أو رأوا نعتك ونعت ما أنزل إليك ﴿ إِذَا يتلى ﴾ أي القرآن ﴿ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ ﴾ الخرور السقوط بسرعة ، والأذقان جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين ويطلق على ما ينبت عليه من الشعر مجازاً وكذا يطلق على الوجه تعبيراً بالجزء عن الكل قيل وهو المراد وروي عن ابن عباس فكأنه قيل يسقطون بسرعة على وجوههم ﴿ سُجَّدًا ﴾ تعظيماً لأمر الله تعالى أو شكراً لإنجاز ما وعد به في تلك الكتب من بعثتك ؛ والظاهر أن هنا خروراً وسجوداً على الحقيقة ، وقيل : لا شيء من ذلك وإنما المقصود أنهم ينقادون لما سمعوا ويخضعون له كمال الانقياد والخضوع فاخرج الكلام على سبيل الاستعارة التمثيلية ، وفسر الخرور للأذقان بالسقوط على الوجوه الزمخشري ثم قال : وإنما ذكر الذقن لأنه أول ما يلقى الساجد به الأرض من وجهه ، وقيل : فيه نظر لأن الأول هو الجبهة والأنف ثم وجه بأنه إذا

ابتدأ الخرور فاقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض هو الذقن ، وكأنه أريد أول ما يقرب من اللقاء ، وجوز أن تبقى الأذقان على حقيقتها والمراد المبالغة في الخشوع وهو تعفير اللحا على التراب أو أنه ربما خروا على الذقن كالمغشي عليهم لخشية الله تعالى ، وقيل : لعل سجودهم كان هكذا غير ما عرفناه وهو كما ترى .

وقال صاحب الفرائد المراد المبالغة في التحامل على الجبهة والأنف حتى كأنهم يلصقون الأذقان بالأرض وهو وجه حسن جداً واللام على ما نص عليه الزمخشري للاختصاص وذكر أن المعنى جعلوا أذقانهم للخرور واختصوها به .

ومعنى هذا الاختصاص على ما في "الكشف" أن الخرور لا يتعدى الأذقان إلى غيرها من الأعضاء المقابلة وحقق ذلك بما لا مزيد عليه .

(39/465)

واعترض القول بالاختصاص بأنه مخالف لما سبق من قوله : إن الذقن أول ما يلقى الساجد به الأرض وأجيب بما أجيب .

وتعقبه الخفاجي بأنه مبني على أن الاختصاص الذي تدل عليه اللام بمعنى الحصر وليس كذلك وإنما هو بمعنى تعلق خاص ولو سلم فمعنى الاختصاص بالذقن الاختصاص بجهته

ومحاذيه وهي جهة السفل ولا شك في اختصاصه به إذ هو لا يكون لغيره فمعنى ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ ﴾ يقعون على الأرض عند التحقيق ، والمراد تصوير تلك الحالة كما في قوله :

فخر صريعاً لليدين وللفم . . .

فتأمل .

واختار بعضهم كون اللام بمعنى على ، وزعم بعض عود ضميري ﴿ بِهِ ﴾ على النبي صلى الله عليه وسلم ويأباه السباق واللحاق ، وأخرج ابن المنذر .

وابن جرير أن ضمير ﴿ مَا يتلى ﴾ لكتابهم ولا يخفى حاله ؛ والظاهر أن الجملة الاسمية داخلة في حيز ﴿ قُلْ ﴾ وهي تعليل لما يفهم من قوله تعالى : ﴿ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ ﴾ من عدم المبالاة بذلك أي إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن إيمان من هو خير منكم ، ويجوز أن لا تكون داخلة في حيز قل بل هي تعليل له على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل تسل بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة ولا تكترث بإيمانهم وأغراضهم وقد ذكر كلا الوجهين الكشاف قال في "الكشف" والحاصل أن المقصود التسلي والازدراء وعدم المبالاة المفيد للتوبيخ والتقريع مفرع عليه مدمج أو بالعكس والصيغة في الثاني أظهر والتعليل بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين أُوتُوا العلم ﴾ في الأول .

وقال ابن عطية يتوجه في الآية معنى آخر وهو أن قوله سبحانه : ﴿ قُلْ ءامِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ ﴾ إنما جاء للوعيد والمعنى افعلوا أي الأمرين شئتم فسترون ما تجازون به ثم ضرب لهم المثل على جهة التقريع بمن تقدم من أهل الكتاب أي إن الناس لم يكونوا كما أنتم في الكفر بل كان الذين أوتوا التوراة والإنجيل والزبور والكتب المنزلة إذا يتلى عليهم ما أنزل عليهم خشعوا وآمنوا اه ، وهو بعيد جداً ولا يخلو عن ارتكاب مجاز .

وربما يكون في الكلام عليه استخدام .

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبّنَا لَمَفْعُولاً (108) ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أي في سجودهم أو مطلقاً ﴿ سُبْحَانَ رَبّنَا ﴾ عن خلف وعده أو عما يفعل الكفرة من التكذيب ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ إن مخففة من المثقلة واسمها ضمير شأن واللام فارقة أي إن الشأن هذا .

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾

كرر الخرور للأذقان لاختلاف السبب فإن الأول لتعظيم أمر الله تعالى أو الشكر لإنجاز الوعد والثاني لما أثر فيهم من مواعظ القرآن، والجار والمجرور إما متعلق بما عنده أو بمحذوف وقع حالاً إما قبل أو مما بعد أي ساجدين، وجملة ﴿ يَبْكُونَ ﴾ حال أيضاً أي باكين من خشية الله تعالى، ولما كان البكاء ناشئاً من الخشية الناشئة من التفكر الذي يتجدد جيء بالجملة الفعلية المفيدة للتجدد، وقد جاء في مدح البكاء من خشيته تعالى أخبار كثيرة فقد أخرج الحكيم الترمذي عن النضر بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أن عبداً بكى في أمة لأنجى الله تعالى تلك الأمة من النار ببكاء ذلك العبد وما من عمل إلا له وزن وثواب إلا الدمعة فإنها تطفىء بحوراً من النار وما أغرورقت عين بمائها من خشية الله تعالى إلا حرم الله تعالى جسدها على النار فإن فاضت على خده لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة" وأخرج أيضاً عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله تعالى وعين باتت تحرس في سبيل الله تعالى" وأخرج هو والنسائي ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يلج النار رجل بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع ولا اجتمع على عبد غبار في سبيل الله تعالى ودخان جهنم" زاد النسائي في منخريه ومسلم أبداً، وينبغي أن يكون ذلك حال العلماء فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن عبد الأعلى التيمي أنه قال: إن من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق أن قد

أوتي من العلم ما لا ينفعه لأن الله تعالى نعت أهل العلم فقال : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ ﴿ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ أي القرآن بسماعهم ﴿ خُشُوعًا ﴾ لما يزيدهم علماً ويقيناً بأمر الله تعالى على ما حصل عندهم من الأدلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(42/465)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى تِسْعَ ءايات ﴾

أي : علامات دالة على نبوّته ، قيل : ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن المعجزات المذكورة كأنها مساوية لتلك الأمور التي اقترحها كفار قريش ، بل أقوى منها ، فليس عدم الاستجابة لما طلبوه من الآيات إلاّ لعدم المصلحة في استئصالهم إن لم يؤمنوا بها .

قال أكثر المفسرين : الآيات التسع : هي الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، واليد ، والسنين ، ونقص الثمرات .

وجعل الحسن مكان السنين ونقص الثمرات البحر والجبل .

وقال محمد بن كعب القرظي : هي الخمس التي في الأعراف ، والبحر ، والعصا ، والحجر ، والطمس على أموالهم .

وقد تقدم الكلام على هذه الآيات مستوفى ، وسيأتي حديث صفوان بن عسال في تعداد هذه الآيات التسع .

﴿ فاسأل بَنِى إسراءيل ﴾ قرأ ابن عباس وابن نهيك (فسأل) على الخبر ، أي : سأل موسى فرعون أن يخلي بني إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه ، وقرأ الآخرون ﴿ فاسأل ﴾ على الأمر أي : سلهم يا محمد حين ﴿ جَاءهُمُ ﴾ موسى ، والسؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمأنينية والإيقان ، لأن الأدلة إذا تظافرت كان ذلك أقوى ، والمسئولون : مؤمنو بني إسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنّى لأظُنُّكَ يا موسى مَّسْحُورًا ﴾ الفاء هي الفصيحة ، أي : فأظهر موسى عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات وبلغه ما أرسل به فقال له فرعون .

المسحور : الذي سحر فخولط عقله .

وقال أبو عبيدة والفراء : هو بمعنى الساحر ، فوضع المفعول موضع الفاعل ، ف ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء ﴾ يعني : الآيات التي أظهرها ، وأنزل بمعنى : أوجد ﴿ إِلاَّ رَبُّ السموات والارض بَصَائِرَ ﴾ أي : دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته ، وانتصاب ﴿ بصائر ﴾ على الحال .

قرأ الكسائي بضمّ التاء من " علمت " على أنها لموسى ، وروي ذلك عن عليّ ، وقرأ الباقون بفتحها على الخطاب لفرعون .

ووجه القراءة الأولى أن فرعون لم يعلم ذلك ، وإنما علمه موسى .

ووجه قراءة الجمهور أن فرعون كان عالماً بذلك كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 14] .

قال أبو عبيد : المأخوذ به عندنا فتح التاء ، وهو الأصح للمعنى ، لأن موسى لا يقول : علمت أنا وهو الداعي ، وروي نحو هذا عن الزجاج .

﴿ وَإِنّى لاظُنُّكَ يافرعون مَثْبُوراً ﴾ الظنّ هنا بمعنى اليقين ، والثبور : الهلاك والخسران . قال الكميت :

ورأت قضاعة في الأيا . . . من رأى مثبور وثابر

أي : مخسور وخاسر ، وقيل : المثبور : الملعون ، ومنه قول الشاعر :

يا قومنا لا تروموا حربنا سفها . . . إن السفاه وإن البغي مثبور

أي : ملعون ، وقيل : المثبور : ناقص العقل ، وقيل : هو الممنوع من الخير ، يقال : ما ثبرك عن كذا : ما منعك منه ، حكاه أهل اللغة ، وقيل : المسحور .

﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرض ﴾ أي أراد فرعون أن يخرج بني إسرائيل وموسى ويزعجهم من الأرض ، يعني : أرض مصر بإبعادهم عنها ، وقيل : أراد أن يقتلهم ، وعلى هذا يراد بالأرض مطلق الأرض ، وقد تقدم قريباً معنى الاستفزاز ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴾ فوقع عليه وعليهم الهلاك بالغرق ، ولم يبق منهم أحداً ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِى إسراءيل اسكنوا الأرض ﴾ أي : من بعد إغراقه ومن معه ، والمراد بالأرض هنا : أرض مصر التي أراد أن يستفزّهم منها ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخرة ﴾ أي الدار الآخرة وهو القيامة ، أو الكرّة الآخرة ، أو الساعة الآخرة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ قال الجوهري : اللفيف : ما اجتمع من الناس من قبائل شتى ، يقال : جاء القوم بلفهم ولفيفهم أي : بأخلاطهم ، فالمراد هنا جئنا بكم من قبوركم مختلطين من كل موضع ، قد اختلط المؤمن بالكافر .

قال الأصمعي : اللفيف جمع وليس له واحد ، وهو مثل الجمع .

﴿ وبالحق أَنْزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ ﴾ الضمير يرجع إلى القرآن ، ومعنى ﴿ بالحق أنزلناه ﴾ : أوحيناه متلبساً بالحق ، ومعنى ﴿ وبالحق نَزَلَ ﴾ : أنه نزل وفيه الحق ، وقيل : الباقي ،

وبالحق الأول بمعنى : مع ، أي : مع الحق أنزلناه كقولهم : ركب الأمير بسيفه أي : مع سيفه ، و ﴿ بالحق نزل ﴾ أي : بمحمد كما تقول : نزلت بزيد .

وقال أبو علي الفارسي : الباء في الموضعين بمعنى : مع ، وقيل : يجوز أن يكون المعنى : وبالحق قدرنا أن ينزل وكذلك نزل ، أو : ما أنزلناه من السماء إلاّ محفوظاً ، وما نزل على الرسول إلاّ محفوظاً من تخليط الشياطين ، والتقديم في الموضعين للتخصص .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : مبشراً لمن أطاع بالجنة ونذيراً مخوّفاً لمن عصى بالنار .

(45/465)

﴿ وَقُرْءانًا فَرَقْنَاهُ ﴾ انتصاب ﴿ قرآناً ﴾ بفعل مضمر يفسره ما بعده ، قرأ عليّ ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وأبيّ بن كعب ، وقتادة ، وأبو رجاء ، والشعبي (فرقناه) بالتشديد ، أي : أنزلناه شيئاً بعد شيء لا جملة واحدة .

وقرأ الجمهور ﴿ فرقناه ﴾ بالتخفيف ، أي : بيناه وأوضحناه ، وفرقنا فيه بين الحق والباطل .

وقال الزجاج : فرقه في التنزيل ليفهمه الناس .

قال أبو عبيد : التخفيف أعجب إليّ ، لأن تفسيره بيناه ، وليس للتشديد معنى إلاّ أنه نزل متفرقاً .

ويؤيده ما رواه ثعلب عن ابن الأعرابي أنه قال : فرقت مخففاً بين الكلام ، وفرقت مشدداً بين الأجسام ، ثم ذكر سبحانه العلة لقوله : فَرَقْنَاهُ ، فقال : ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى الناس على مُكْثٍ ﴾ أي : على تطاول في المدّة شيئاً بعد شيء على القراءة الأولى ، أو أنزلناه آية آية ، وسورة سورة .

ومعناه على القراءة الثانية ﴿ على مكث ﴾ أي : على ترسل وتمهل في التلاوة ، فإن ذلك أقرب إلى الفهم وأسهل للحفظ .

وقد اتفق القراء على ضم الميم في : ﴿ مكث ﴾ إلاّ ابن محيصن فإنه قرأ بفتح الميم ﴿ ونزلناه تَنْزِيلاً ﴾ التأكيد بالمصدر للمبالغة ، والمعنى : أنزلناه منجماً مفرّقاً لما في ذلك من المصلحة ، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا ولم يطيقوا .

﴿ قُلْ ءامِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ ﴾ أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للكافرين المقترحين للآيات : آمنوا به أو لا تؤمنوا ، فسواء إيمانكم به وامتناعكم عنه لا يزيده ذلك ولا ينقصه .

وفي هذا وعيد شديد لأمره بالإعراض عنهم واحتقارهم ، ثم علّل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ ﴾ أي : أن العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقة قبل إنزال القرآن وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوّة كزيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعبد الله بن سلام ﴿ إِذَا يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ أي : القرآن ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ أي : يسقطون على وجوههم ساجدين لله سبحانه ، وإنما قيد الخرور ، وهو السقوط ، بكونه للأذقان ، أي : عليها ، لأن الذقن ، وهو مجتمع اللحيين أوّل ما يحاذي الأرض .

قال الزجاج : لأن الذقن مجتمع اللحيين ، وكما يبتدىء الإنسان بالخرور للسجود ، فأوّل ما يحاذي الأرض به من وجهه الذقن ، وقيل : المراد تعفير اللحية في التراب ، فإن ذلك غاية الخضوع ، وإيثار اللام في الأذقان على " على " للدلالة على الاختصاص ، فكأنهم خصوا أذقانهم بالخرور ، أو خصوا الخرور بأذقانهم ، وقيل : الضمير في قوله ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والأولى ما ذكرناه من رجوعه إلى القرآن لدلالة السياق على ذلك ، وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحاصلها : أنه إن لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لا علم عندهم ولا معرفة بكتب الله ولا بأنبيائه ، فلا تبال بذلك ، فقد آمن به أهل العلم وخشعوا له وخضعوا عند تلاوته عليهم خضوعاً ظهر أثره البالغ بكونهم يخرّون على أذقانهم سجداً لله .

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا ﴾ أي : يقولون في سجودهم تنزيهاً لربنا عما يقوله الجاهلون من التكذيب ، أو تنزيهاً له عن خلف وعده ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ "إن" هذه هي المخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة .

(47/465)

ثم ذكر أنهم خروا لأذقانهم باكين فقال : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ وكرّر ذكر الخرور للأذقان ، لاختلاف السبب ، فإن الأول لتعظيم الله سبحانه وتنزيهه ، والثاني : للبكاء بتأثير مواعظ القرآن في قلوبهم ومزيد خشوعهم ، ولهذا قال : ﴿ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ أي : سماع القرآن ، أو القرآن بسماعهم له ﴿ خُشُوعًا ﴾ أي : لين قلب ورطوبة عين .

وقد أخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ تِسْعَ ءايات ﴾ فذكر ما ذكرناه عن أكثر المفسرين .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه قال : يده ، وعصاه ولسانه ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

وأخرج الطيالسي ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن ماجه ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني

، وابن قانع ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم ، والبيهقي ، وابن مردويه عن صفوان بن عسال : أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبيّ نسأله ، فأتياه فسألاه عن قول الله ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى تِسْعَ ءايات بَيِّنَاتٍ ﴾ فقال :

" لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تزنوا ، ولا تسرفوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ، ولا تسرقوا ، ولا تسحروا ، ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان فيقتله ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا محصنة - أو قال : لا تفروا من الزحف - شكّ شعبة - وعليكم يا يهود خاصة أن لا تعتدوا في السبت " ، فقبلا يديه ورجليه وقالا : نشهد أنك نبيّ الله ، قال : فما يمنعكما أن تسلما ؟ قالا : إن داود دعا الله أن يزال في ذريته نبيّ ، وإنا نخاف إن أسلمنا أن يقتلنا اليهود .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذمّ الغضب عن أنس بن مالك أنه سئل عن قوله : ﴿ وَإِنّى لأَظُنُّكَ يافرعون مَثْبُورًا ﴾ قال : مخالفاً ، وقال : الأنبياء أكرم من أن تلعن أو تسبّ .

(48/465)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس "مثبوراً" قال : ملعوناً .

وأخرج الشيرازي في الألقاب ، وابن مردويه عنه قال : قليل العقل .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ﴿ لفيفاً ﴾ قال : جميعاً .

وأخرج النسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي عن ابن عباس أنه قرأ : (وقرآناً فرقناه) مثقلاً قال : نزل القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر من رمضان جملة واحدة ، فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث لهم جواباً ، ففرقه الله في عشرين سنة .

وقد روي نحو هذا عنه من طرق .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿ فَرَقْنَاهُ ﴾ قال : فصلناه على مكث بأمد ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ ﴾ يقول : للوجوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد ﴿ إِذَا يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ قال : كتابهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(49/465)

وقال القاسمى :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ ﴾

أي : بالحقيقة أنزلناه كتاباً من لدنا فأين تذهبون ؟ كما قال تعالى : ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ [النساء : 166] ، ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ أي : متلبساً بالحق الذي هو ثبات نظام العالم على أكمل الوجوه . وهو ما اشتمل عليه من العقائد والأحكام ومحاسن الأخلاق وكل ما خالف الباطل . كقوله تعالى : ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت : 42] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ ﴾ أي : نزلناه مفرقاً منجماً . وقرئ بالتشديد . والقراءتان بمعنى : ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾ أي : على مهل وتؤدة وتثبت ، فإنه أيسر للحفظ وأعون في الفهم : ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ أي : من لدنا على حسب الأحوال والمصالح .

(50/465)

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ﴾ .

قال الزمخشري : أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم ، وأن لا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه . وإنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك ، فإن خيراً منهم وأفضل ، وهم العلماء الذين قرأوا الكتب وعلموا ما

الوحي وما الشرائع ، قد آمنوا به وصدقوه ، وثبت عندهم أنه النبي العربي الموعود في كتبهم . فإذا تلي عليهم خروا سجداً وسبحوا الله تعظيماً لأمره ، ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة ، وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن عليه . وهو المراد بالوعد في قوله : ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ .

فإن قلت : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ ﴾ تعليل لماذا ؟ قلت : يجوز أن يكون تعليلاً لقوله : ﴿ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ ﴾ ، وأن يكون تعليلاً لـ (قل) على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتطييب نفسه . كأنه قيل : تسلَّ عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء . وعلى الأول : إن لم تؤمنوا به لقد آمن به من هو خير منكم . فإن قلت : ما معنى الخرور للذقن ؟ قلت : السقوط على الوجه . وإنما ذكر الذقن ، وهو مجتمع اللحيين ؛ لأن الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه الذقن . فإن قلت : حرف الاستعلاء ظاهر المعنى ، إذا قلت خرَّ على وجهه وعلى ذقنه ، فما معنى اللام في (خرّ لذقنه ولوجهه) ؟ قال :

~فخر صريعا لليدين وللفم

قلت : معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور . واختصه به لأن اللام للاختصاص . فإن قلت : لِمَ كرر يخرون للأذقان ؟ قلت : لاختلاف الحالين ، وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين ، وخرورهم في حال كونهم باكين . انتهى .

تنبيه :

دلَّ نعت هؤلاء ومدحهم بخرورهم باكين ، على استحباب البكاء والتخشع . فإن كل ما حمد فيه من النعوت والصفات التي وصف الله تعالى بها من أحبه من عباده ، يلزم الاتصاف بها . كما أن ما ذم منها من مقته منهم ، يجب اجتنابه .

وقد عدَّ الإمام الغزالي في " الإحياء " من آداب ظاهر التلاوة البكاء . قال : البكاء مستحب مع القراءة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا > . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إذا قرأتم سجدة سبحان ، فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم ، فليبك قلبه . وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن . فمن الحزن ينشأ البكاء ، ووجه إحضار الحزن ، أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود . ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره ، فيحزن لا محالة ويبكي . فإن لم يحضره حَزْن وبكاء ، كما يحضر أرباب القلوب الصافية ، فليبك على فقد الحزن والبكاء . فإن ذلك أعظم المصائب . انتهى .

وذكر السيوطي في " الإكليل " أن الشافعي استدل بقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبحَانَ رَبِّنَا

﴿ الآية ، على استحباب هذا الذكر في سجود التلاوة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 539. 541 ﴾

(52/465)

وقال ابن عاشور :

﴿ وبالحق أنْزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ ﴾

عود إلى التنويه بشأن القرآن فهو متصل بقوله : ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ [الإسراء : 89] .

فلما عطف عليه ﴿ وقالوا لن نؤمن لك ﴾ [الإسراء : 90] الآيات إلى هنا وسمحت مناسبة ذكر تكذيب فرعون موسى عليه السلام عاد الكلام إلى التنويه بالقرآن لتلك المناسبة .

وقد وُصف القرآن بصفتين عظيمتين كل واحدة منهما تحتوي على ثناء عظيم وتنبيه للتدبر فيهما .

وقد ذُكر فعل النزول مرتين ، وذكر له في كل مرة متعلق متماثل اللفظ لكنه مختلف المعنى ، فعلق إنزال الله إياه بأنه بالحق فكان معنى الحق الثابت الذي لا ريب فيه ولا كذب ، فهو

كقوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ [البقرة : 2] وهو رد لتكذيب المشركين أن يكون القرآن وحياً من عند الله .

وعلق نزول القرآن ، أي بلوغه للناس بأنه بالحق فكان معنى الحق الثاني مقابلَ الباطل ، أي مشتملاً على الحق الذي به قوام صلاح الناس وفوزهم في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ﴾ [الإسراء : 81] ، وقوله : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ [النساء : 105] .

وضمائر الغيبة عائدة إلى القرآن المعروف من المقام .

والباء في الموضعين للمصاحبة لأنه مشتمل على الحق والهدي ، والمصاحبة تشبه الظرفية .

ولولا اختلاف معنى الباءين في الآية لكان قوله : وبالحق نزل ﴾ مجرد تأكيد لقوله : ﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ لأنه إذا أنزل بالحق نزل به ولا ينبغي المصير إليه ما لم يتعين .

وتقديم المجرور في المَوضعين على عامله للقصر رداً على المنكرين الذين ادعوا أنه أساطير الأولين أو سحر مبين أو نحو ذلك .

جملة معترضة بين جملة ﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ وجملة ﴿ وقرآنا فرقناه ﴾ [الإسراء : 106] .

أي وفي ذلك الحق نفع وضر فأنت به مبشر للمؤمنين ونذير للكافرين .

والقصر للرد على الذين سألوه أشياء من تصرفات الله تعالى والذين ظنوا أن لا يكون الرسول بشرا .

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (106) ﴾

عطف على جملة ﴿ أنزلناه ﴾ [الإسراء : 105] .

وانتصب قرآناً ﴾ على الحال من الضمير المنصوب في ﴿ فرقناه ﴾ مقدمة على صاحبها تنويهاً الكون قرآناً ، أي كونه كتاباً مقروءاً .

فإن اسم القرآن مشتق من القراءة ، وهي التلاوة ، إشارة إلى أنه من جنس الكلام الذي يحفظ ويتلى ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ [الحجر : 1] ، وقد تقدم بيانه .

فهذا الكتاب له أسماء باختلاف صفاته فهو كتاب ، وقرآن ، وفرقان ، وذكر ، وتنزيل .

وتجري عليه هذه الأوصاف أو بعضها باختلاف المقام ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ [الإسراء : 78] وقوله : ﴿ فاقرأوا ما تيسر من القرآن ﴾ [المزمل : 20] باعتبار أن المقام للأمر بالتلاوة في الصلاة أو مطلقاً ، وإلى قوله : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان

على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ [الفرقان : 1] في مقام كونه فارقاً بين الحق والباطل ، ولهذا لم يوصف من الكتب السماوية بوصف القرآن غيرُ الكتاب المنزل على محمد .

ومعنى فرقناه ﴿ جعلناه فِرَقاً ، أي أنزلناه منجما مفرقاً مفرقاً غير مجتمع صبُرة واحدة .

يقال : فرق الأشياء إذا باعد بينها ، وفرق الصبرة إذا جزأها .

ويطلق الفرق على البيان لأن البيان يشبه تفريق الأشياء المختلطة ، فيكون ﴿ فرقناه ﴾ محتملاً معنى بيناه وفصلناه ، وإذ قد كان قوله : ﴿ قرآناً ﴾ حالاً من ضمير ﴿ فرقناه ﴾ آل المعنى إلى : أنا فرقناه وأقرأناه .

وقد عُلل بقوله : ﴿ لتقرأه على الناس على مكث ﴾ .

فهما علتان : أن يُقرأ على الناس وتلك علة لجعله قرآناً ، وأن يقرأ على مُكْث ، أي مَهل وبطء وهي علة لتفريقه .

والحكمة في ذلك أن تكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين .

(54/465)

وجملة ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وقرآنا فرقناه ﴾ .

وفي فعل ﴿ نزلناه ﴾ المضاعف وتأكيده بالمفعول المطلق إشارة إلى تفريق إنزاله المذكور في

قوله : ﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ [الإسراء : 105] .

وطوي بيان الحكمة للاجتزاء بما في قوله : لتقرأه على الناس على مكث ﴾ من اتحاد الحكمة .

وهي ما صَرح به قوله تعالى : ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ [الفرقان : 32] .

ويجوز أن يراد : فرقنا إنزاله رعياً للأسباب والحوادث .

وفي كلام الوجهين إبطال لشبهتهم إذ قالوا : ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان : 32] .

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) ﴾

استئناف خطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم ليلقنه بما يقوله للمشركين الذين لم يؤمنوا بأن القرآن منزل من عند الله ، فإنه بعد أن أوضح لهم الدلائل على أن مثل ذلك القرآن لا يكون إلا منزلاً من عند الله من قوله : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ [الإسراء : 88] فعجزوا عن الإتيان بمثله ، ثم ببيان فضائل ما اشتمل عليه بقوله : ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ [الإسراء : 89] ، ثم بالتعرض إلى ما اقترحوه من الإتيان بمعجزات أخر ، ثم بكشف شبهتهم التي يموهون

بها امتناعهم من الإيمان برسالة بشَر ، وبيّن لهم غلطهم أو مغالطتهم ، ثم بالأمر بإقامة الله شهيداً بينه وبينهم ، ثم بتهديدهم بعذاب الآخرة ، ثم بتمثيل حالهم مع رسولهم بحال فرعون وقومه مع موسى وما عُجل لهم من عذاب الدنيا بالاستئصال ، ثم بكشف شبهتهم في تنجيم القرآن ؛ أعقب ذلك بتفويض النظر في ترجيح الإيمان بصدق القرآن وعدم الإيمان بقوله : آمنوا به أو لا تؤمنون ﴾ للتسوية بين إيمانهم وعدمه عند الله تعالى .

(55/465)

فالأمر في قوله : ﴿ آمنوا ﴾ للتسوية ، أي إن شئتم .

وجُزم ﴿ لا تؤمنوا ﴾ بالعطف على المجزوم .

ومثله قوله في سورة الطور (16) ﴿ فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم ﴾ ، فحرف (لا) حرف نفي وليس حرف نهي ، ولا يقع مع الأمر المراد به التسوية إلا كذلك ، وهو كناية عن الإعراض عنهم واحتقارهم وقلة المبالاة بهم ، ويندمج فيه مع ذلك تسلية الرسول .

وجملة إن الذين أوتوا العلم ﴾ تعليل لمعنى التسوية بين إيمانهم به وعدمه أو تعليل لفعل ﴿ قل ﴾ ، أو لكليهما ، شأن العلل التي ترد بعد جُمل متعددة ، ولذلك فصلت .

وموقع (إن) فيها موقع فاء التفريع ، أي إنما كان إيمانكم بالقرآن وعدمُه سواء لأنه مستغن

عن إيمانكم به بإيمان الذين أوتوا العلم من قبل نزوله ، فهم أرجح منكم أحلاماً وأفضل مقاماً

، وهم الذين أوتوا العلم ، فإنهم إذا يسمعونه يؤمنون به ويزيدهم إيماناً بما في كتبهم من الوعد

بالرسول الذي أنزل هذا عليه .

وفي هذا تعريض بأن الذين أعرضوا عن الإيمان بالقرآن جهلة وأهل جاهلية .

والمراد بالذين أوتوا العلم أمثالُ : ورقة بن نَوفل ، فقد تسامع أهل مكة بشهادته للنبيء صلى

الله عليه وسلم ومن آمن بعد نزول هذه السورة من مِثل : عبد الله بن سلام ، ومعيقيب ،

وسَلمان الفارسي .

ففي هذه الآية إخبار بمغيّب .

وضمائر "به ، ومن قبله ، ويتلى" عائدة إلى القرآن .

والكلام على حذف مضاف معلوم من المقام معهود الحذف ، أي آمنوا بصدقة .

ومن قبل نزوله .

والخرور : سقوط الجسم .

قال تعالى : ﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم ﴾ (النحل : 26 .

(وقد تقدم في قوله:

﴿ وخر موسى صعقاً ﴾ في سورة الأعراف (143 .

(واللام في للأذقان ﴾ بمعنى (على) كما في قوله تعالى : ﴿ وتله للجبين ﴾ [الصافات :

103] ، وقول تأبط شراً :

. . . .

صريعاً لليدين وللجران

وأصل هذه اللام أنها استعارة تبعية .

(56/465)

استعير حرف الاختصاص لمعنى الاستعلاء للدلالة على مزيد التمكن كتمكن الشيء بما هو مختص به .

والأذقان : جمع الذَقَن بفتح الذال وفتح القاف مجتمع اللحيين .

وذكر الذقن للدلالة على تمكينهم الوجوه كلها من الأرض من قوة الرغبة في السجود لما فيه من استحضار الخضوع لله تعالى .

وسجداً ﴿ جمع ساجد ، وهو في موضع الحال من ضمير ﴿ يخرون ﴾ لبيان الغرض من هذا الخرور ، وسجودهم سجود تعظيم لله عند مشاهدة آية من دلائل علمه وصدق رسله وتحقيق وعده .

وعطفت ﴿ ويقولون سبحان ربنا ﴾ على ﴿ يخرون ﴾ للإشارة إلى أنهم يجمعون بين

الفعل الدال على الخضوع والقول الدال على التنزيه والتعظيم .

ونظيره قوله : ﴿ خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم ﴾ [السجدة : 15] .

على أن في قولهم : سبحان ربنا ﴾ دلالة على التعجب والبهجة من تحقق وعد الله في التوراة والإنجيل بمجيء الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم

وجملة ﴿ إن كان وعد ربنا لمفعولا ﴾ من تمام مقولهم .

وهو المقصود من القول ، لأن تسبيحهم قبله تسبيح تَعجب واعتبار بأنه الكتاب الموعود به وبرسوله في الكتب السابقة .

و(إن) مخففة من الثقيلة ، وقد بطل عملها بسبب التخفيف ، ووليها فعل من نواسخ المبتدأ جرياً على الغالب في استعمال المخففة .

وقرن خبر الناسخ باللام الفارقة بين المخففة والنافية .

والوعد باق على أصله من المصدرية .

وتحقيق الوعد يستلزم تحقيق الموعود به فحصل التصديق بالوعد والموعود به .

ومعنى ﴿ مفعولا ﴾ أن الله يفعل ما جاء في وعده ، أي يكونه ويحققه ، وهذا السجود سجود تعظيم لله إذ حقق وعده بعد سنين طويلة .

وقوله : ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ﴾ تكرير للجملة باختلاف الحال المقترنة بها ، أعيدت الجملة تمهيداً لذكر الحال .

وقد يقع التكرير مع العطف لأجل اختلاف القيود ، فتكون تلك المغايرة مصححة العطف ، كقول مُرة بن عَداء الفقعسي:

فَهَلاّ أعدّوني لِمثلي تفاقدوا . . .

إذا الخصم أَبْزى مائلُ الرأس أنكبُ

(57/465)

وهلا أعدوني لِمثلي تفاقدوا . . .

وفي الأرض مبثوث شُجاع وعقربُ

فالخرور المحكي بالجملة الثانية هو الخرور الأول ، وإنما خروا خروراً واحداً ساجدين باكين ، فذكر مرتين اهتماماً بما صحبه من علامات الخشوع .

وذكر ﴿ يبكون ﴾ بصيغة المضارع لاستحضار الحالة .

والبكاء بكاء فرح وبهجة .

والبكاء : يحصل من انفعال باطني ناشىء عن حزن أو عن خوف أو عن شوق .

ويزيدهم القرآن خشوعاً على خشوعهم الذي كان لهم من سماع كتابهم .

ومن السنة سجود القارىء والمستمع له بقصد هذه الآية اقتداء بأولئك الساجدين بحيث

لا يذكر المسلم سجود أهل الكتاب عند سماع القرآن إلا وهو يرى نفسه أجدر بالسجود عند تلاوة القرآن. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(58/465)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وبالحق أنْزَلْنَاهُ ﴾ .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : انه أنزل هذا القرآن بالحق : اي متلبساً به متضمناً له. فكل ما فيه حق. فأخباره صدق، وأحكامه عدل. كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام : 115] وكيف لا ! وقد أنزله جل وعلا بعلمه. كما قال تعالى : ﴿ لَّكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء : 166] الآية، وقوله : ﴿ وبالحق نَزَلَ ﴾ يدل على أنه لم يقع فيه تغيير ولا تبديل في طريق إنزاله. لأن الرسول المؤتمن على إنزاله قوي لا يغلب عليه حتى يغير فيه، أمين لا يغير ولا يبدل. كما أشار إلى هذا بقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : 193-194] الآية، وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : 19-21] الآية، وقوله : في هذه الآية : ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾ اي لتبليغه عن ربه. بدلالة

لفظ الرسول لأنه يدل على أنه مرسل به.

قوله تعالى: ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾.

قرأ هذا الحرف عامة القرآء "فَرَقْنَاهُ" بالتخفيف: أي بيناه وأوضحناه، وفصلناه وفرقنا فيه بين الحق والباطل.

وقرأ بعض الصحابة ﴿ فرقناه ﴾ بالتشديد: أى أنزلناه مفرقاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة. ومن إطلاق فرق بمعنى بين وفصل قوله تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: 4] الآية.

(59/465)

وقد بين جل وعلا أنه بين هذا القرآن لنبيه ليقرأة على الناس على مكث، أي مهل وتؤدة وتثبت، وذلك يدل على أن القرآن لا ينبغي أن يقرأ إلا كذلك. وقد أمر تعالى بما يدل على ذلك في قوله: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل: 4] ويدل لذلك أيضاً قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان: 32] وقوله تعالى: ﴿ وَقُرْآناً ﴾ منصوب بفعل محذوف يفسره ما بعده. على حد قوله في الخلاصة:

فالسابق انصبه بفعل أضمرا . . . حتما موافق لما قد أظهرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(60/465)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله تعالى: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ . . ﴾ [الإسراء: 105]

الحق من حقَّ الشيء . أي: ثبت ، فالحقّ هو الشيء الثابت الذي لا يطرأ عليه التغيير أبداً ، أما الباطل فهو مُتغير مُتلوّن لأنه زَهُوق ، والباطل له ألوان متعددة ، والحق ليس له إلا لون واحد .

لذلك لما ضرب الله لنا مثلاً للحق والباطل ، قال سبحانه: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: 17]

فإنْ رأيت في عَصْر من العصور خَوَراً يصيب أهل الحق ، وعُلُواً يحالف أهل الباطل فلا تغترّ به ، فهو عُلُوّ الزَّبَد يعلو صفْحة الماء ، ولا ينتفع الناس به ، وسرعان ما تُلقِى به الريح هنا

وهناك لتجلوَ صفحة الماء الناصعة المفيدة، أما الزَّبَد فيذهب جُفَاءً دون فائدة، ويمكث في الأرض الماء الصافي الذي ينتفع الناس به في الزراعة ونحوها.

وهكذا الباطل مُتغيِّر مُتقلِّب لا ينتفع به، والحق ثابت لا يتغير لأنه مَظْهرية من مَظْهريات الحق الأعلى سبحانه، وهو سبحانه الحق الأعلى الذي لا تتناوله الأغيار.

وقوله: ﴿ أَنْزَلْنَاهُ.. ﴾ [الإسراء: 105]

ونلاحظ هنا أن ضمير الغائب في ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ لم يتقدَّم عليه شيء يُوضِّح الضمير ويعود إليه، صحيح أن الضمير أعْرفُ المعارف، لكن لا بُدَّ له من مرجع يرجع إليه. وهنا لم يُسبق الضمير بشيء، كما سُبق بمرجع في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَاذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ.. ﴾[الإسراء: 88]

(61/465)

فهنا يعود الضمير في ﴿ بِمِثْلِهِ ﴾ إلى القرآن الذي سبق ذكره.

نقول: إذا لم يسبق ضمير الغائب بشيء يرجع إليه، فلا بُدَّ أن يكون مرجعه مُتعيّناً لا يختلف فيه اثنان، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾[الإخلاص: 1]

فهو ضمير للغائب لم يسبق بمرجع له؛ لأنه لا يرجع إلا إلى الله تعالى، وهذا أمر لا يُختَلفُ

عليه.

كذلك في قوله تعالى: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ.. ﴾ [الإسراء: 105]

أي: القرآن؛ لأنه شيء ثابت مُتعيّن لا يُختلف عليه. وجاء الفعل أنزل للتعدية، فكأن الحق سبحانه كان كلامه. وهو القرآن. محفوظاً في اللوح المحفوظ، إلى أنْ يأتيَ زمان مباشرة القرآن لمهمته، فأنزله الله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر: 1]

وهذا هو المراد من قوله ﴿ أَنزَلْنَاهُ ﴾ ثم نزَّله مُنَجّماً حَسْب الأحداث في ثلاث وعشرين سنة مُدَّة الدعوة كلها، فكلما حدث شيء نزل القسط أو النجم الذي يعالج هذه الحالة.

و﴿ أَنزَلْنَاهُ.

. ﴾ [الإسراء: 105] أي: نحن، فالمراد الحق سبحانه وتعالى هو الذي حفظه في اللوح المحفوظ، وهو الذي أنزله، وأنزله على الأمين من الملائكة الذي اصطفاه لهذه المهمة.

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ [الشعراء: 193] أي: جبريل. عليه السلام. الذي كرَّمه الله وجعله روحاً، كما جعل القرآن روحاً في قوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا.. ﴾ [الشورى: 52]

وقال عنه أيضاً: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [التكوير: 19]

والكريم لا يكتم شيئاً مِمّا أُوحى إليه: ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير: 20-21]

(62/465)

هذه صفات جبريل الذي نزل بالوحي من الحق سبحانه، ثم أوصله لمن؟ أوصله للمصطفى الأمين من البشر: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [التكوير: 22-25]

إذن: فالقرآن الذي بين أيدينا هو هو الذي نزل من اللوح المحفوظ، وهو الحق الثابت الذي لا شَكَّ فيه، والذي لم يتغيّر منه حرفٌ واحدٌ، ولن يجد فيه أحد ثُغْرة للاتهام إلى أنْ تقومَ الساعة.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ.. ﴾ [الإسراء: 105] الأولى كانت: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ.. ﴾ [الإسراء: 105]

أي: الوسائل التي نزل بها كلمة ثابتة، وكلها حَقٌّ لا رَيْبَ فيه ولا شَكّ ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ.. ﴾ [الإسراء: 105] أي: مضمونه، وما جاء به منهج، معجزة حقٌّ لأنه تحدّى الفُصَحاء والبلغاء وأهل اللغة فأعجزهم في كل مراحل التحدي، والقرآن يحتوي على

منهج حق .

وأول شيء في منهج القرآن أنّه تكلّم عن العقائد التي هي الأصْل الأصيل لكل دين ، فقبل أنْ أقول لك: قال الله ، وأَمر الله لا بُدّ أن تعرف أولاً مَنْ هو الله ، ومَنْ الرسول الذي بلّغ عن الله ، فالعقائد هي ينبوع السُّلوكيات .

إذن: تعرّض القرآن للإلهيات ، وأوضح أن الله تعالى إله واحد له صفات الكمال المطلق ، وتعرَّض للملائكة وللنبوات والمعجزات والمعاد واليوم الآخر ، كُلُّ هذا في العقائد ؛ لأن الإسلام حرصَ أولاً على تربية العقيدة ، فكانت الدعوة في مكة تُركّز على هذا الجانب دون غيره من جوانب الدين ليُربّيَ في المسلمين هذا الأصل الأصيل ، وهو الاستسلام لله ، وإلقاء الزمام إليه سبحانه وتعالى .

والإنسان لا يُلقي زمام حركته إلا لمَنْ يثق به ، فلا بُدّ إذنْ من معرفة الله تعالى ، ثم الإيمان به تعالى ، ثم التصديق للمبلّغ عن الله .

(63/465)

وفي القرآن أيضاً أحكامٌ وشرائع ثابتة لا تتغير ، ولن تُنسخ بشريعة أخرى ؛ لأنها الشريعة الخاتمة ، كما قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

الإِسْلامَ دِيناً ﴾ [المائدة: 3]

إذن: نزل القرآن بما هو حَقٌّ من: إلهيات وملائكة ونبوّات ومعجزات وأحكام وشرائع، كلها حَقٌّ ثابت لا شَكَّ فيه، فنزل الحق الثابت من الله بواسطة مَنِ اصطفاه من الملائكة وهو جبريل على مَنِ اصطفاه من الناس وهو محمد، وفي طي ما نزل الحق الثابت الذي لا يتغير.

وصدق الحق سبحانه حين قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: 9]

ونسوق هنا دليلاً عصرياً على أن كتاب الله جاء بالحق الثابت الذي لا يتغير على مَرِّ العصور، ففي ألمانيا استحدث أحد رجال القانون قانوناً للتعسف في استعمال الحق، وظنّوا أنهم جاءوا بجديد، واكتشفوا سلاحاً جديداً للقانون ليعاقب مَنْ له حَقّ ويتعسّف في استعمال حقه.

ثم سافر إلى هناك محامٍ من بني سويف للدراسة، فقرأ عن القانون الجديد الذي ادعَوْا السبق إليه، فأخبرهم أن هذا القانون الذي تدَّعُونه لأنفسكم قانون إسلامي ثابت وموجود في سُنّة رسول الله، فعمدوا إلى كتب السيرة، فوجدوا قصة الرجل الذي شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلاً له نخلة يمتلكها داخل بيته، أو أنها تميل في بيته، فأخذها ذريعة وجعل منها مسمار رجحا، وأخذ يقتحم على صاحب البيت بيته بحجة أنه يباشر نخلته، فماذا كان حكم الرسول في هذه المسألة؟

هذا الرجل له حَقٌّ في النخلة، فهي مِلْكٌ له لكنه تعسَّف في استعمال حقه، وأتى بما لا يليق

من المعاملة ، فالمفروض ألاَّ يذهب إلى نخلته إلا لحاجة ، مثل: تقليمها ، أو تلقيحها ، أو جمع ثمارها .

لقد أحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل وقال له: " إما أن تهبَ له هذه النخلة ، وإما أنْ تبيعها له ، وإما قطعناها " .

(64/465)

أليس ذلك من الحق الذي سبق به الإسلام؟ وأليس دليلاً على استيعاب شرع الله لكل كبيرة وصغيرة في حياة الناس؟

أَضِفْ إلى ذلك ما قاله بعض العلماء من أهل الإشراقات في معنى: ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ أي: وعلى الحق الذي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل القرآن كما تقول: ذهبت إلى القاهرة ونزلت بفلان . أي: نزلت عنده أو عليه .

ثم يقول تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الإسراء: 105]

والبشارة تكون بالخير ، والنذارة تكون بالشر ، ويُشترط في التبشير والإنذار أن تُعطَى للمبشَّر أو للمُنْذَر فرصة يراجع فيها نفسه ، ويُعدّل من سلوكه ، وإلا فلا فائدة ، ولا جدوى منهما ، فتُبشّر بالجنة وتُنذَر بالنار في مُتَّسع من الوقت ليتمكن هذا من العمل للجنة ،

ويتمكن هذا من الإقلاع عن سبيل النار .

ومثال ذلك: أنك تُبشِّر ولدك بالنجاح والمستقبل الباهر إن اجتهد ، وتحذره من الفشل إن أهمل ، وهذا بالطبع لا يكون ليلة الامتحان ، بل في مُتَّسَع أمامه من الوقت لينفذ ما تريد .

والحق سبحانه وتعالى هنا يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بحقيقة مهمته كرسول عليه البلاغ بالبشارة والنذارة ، فلا يُحمّل نفسه فوق طاقتها ؛ لأنه ليس مُلْزَماً بإيمان القوم ، كما قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ [الكهف: 6]

أي: مُهلكها حُزْناً على عدم إيمانهم ، وفي آية أخرى قال: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: 3]

فكأنه سبحانه يُخفف العِبْءَ عن رسوله ، ويدعوه ألاَّ يُتعِب نفسه في دعوتهم ، فما عليه إلا البلاغ ، وعلى الله تبارك وتعالى الهداية للإيمان .

لكن حِرْص رسول الله على هداية قومه نابع من قضية تحكمه وتستولي عليه لخَّصها في قوله: " والله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .

فالنبي صلى الله عليه وسلم كامل الإيمان ، ويحب لقومه أن يكونوا كذلك ، حتى أعداؤه الذين وقفوا في وجه دعوته كان إلى آخر لحظة في الصراع يرجو لهم الإيمان والنجاة ؛ لذلك لما مُكِّن منهم لم يعالجهم بالعقوبة ، بل قال: " بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يُشرك به شيئاً " .

وفعلاً صدق الله ورسوله ، وجاء من ذريات هؤلاء مَنْ حملوا راية الدين ، وكانوا سيوفاً على أعدائه ، أمثال عكرمة بن أبي جهل ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وكثير من المسلمين كانوا حريصين على قَتْل هؤلاء حال كفرهم في معارك الإسلام الأولى ، وهم لا يعلمون أن الله لم يُمكِّنهم من هؤلاء لحكمة ، إنهم سوف يكونون معك من سيوف الإسلام وقادته .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ . . . ﴾ .

(66/465)

معنى ﴿ فَرَقْنَاهُ ﴾ أي: فصّلناه ، أو أنزلناه مُفرّقاً مُنجّماً حَسْب الأحداث ﴿ عَلَى مُكْثٍ ﴾ على تمهّل وتُؤدَة وتأنٍّ .

وقد جاءت هذه الآية للردِّ على الكفار الذين اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة ، كما

قال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً . . ﴾ [الفرقان: 32]

وأول ما نلحظه عليهم أن أسلوبهم فضحهم، وأبان ما هُمْ فيه من تناقض، ألم يسبق لهم أن اتهموا الرسول بافتراء القرآن. وها هم الآن يُقِرُّون بأنه نزل عليه، أي: من جهة أعلى، ولا دَخْلَ له فيه، وقد سبق أن أوضحنا أنهم لا يتهمون القرآن، بل يتهمون رسول الله الذي نزل عليه القرآن.

ثم يتولّى الحق سبحانه الردّ عليهم في هذا الاقتراح، ويُبيِّن أنه اقتراح باطل لا يتناسب وطبيعة القرآن، فلا يصح أن ينزل جملة واحدة كما اقترحوا للأسباب الآتية:

1. ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ . . ﴾ [الفرقان: 32]

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي: أنزلناه كذلك على الأمر الذي تنتقدونه من أنه نزل مُفرّقاً مُنجّماً حسْب الأحداث ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ . . ﴾ [الفرقان: 32] لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتعرّض لكثير من تعنّتات الكفار، وسيقف مواقف مُحرِجة من تعذيب وتنكيل وسخرية واستهزاء، وهو في كل حالة من هذه يحتاج لتثبيت وتسلية.

وفي نزول الوحي عليه يَوْماً بعد يَوْم، وحسْب الأحداث ما يُخفّف عنه، وما يزيل عن كاهله ما يعاني من مصاعب ومَشَاقِ الدعوة وفي استدامة الوحي ما يصله دائماً بمَنْ بعثه

وأرسله ، أما لو نزل القرآن جملةً واحدة لكان التثبيت أيضاً مرة واحدة ، ولَفقد رسول الله جانب الصلة المباشرة بالوحي ، وهذا هو الجانب الذي يتعلق في الآية برسول الله .

(67/465)

---

2 . ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان: 32] أي: نَزَّلْنَاه مُرتّلاً مُفرّقاً آيةً بعد آية ، والرتل: هو المجموعة من الشيء . كما تقول: رتل من السيارات ، وهكذا نزل القرآن مجموعة من الآيات بعد الأخرى ، وهذه الطريقة في التنزيل تيسِّر للصحابة حِفْظ القرآن وفَهْمه والعمل به ، فكانوا رضوان الله عليهم يحفظون القدر من الآيات ويعملون بها ، وبذلك تيسَّر لهم حفظ القرآن والعمل به ، فكانت هذه المِيْزَة خاصة بالصحابة الذي حفظوا القرآن ، وما زلنا حتى الآن نُجزِّئ القرآن للحفظة ، ونجعله ألواحاً ، يحفظ الله تلو الآخر .

3 . ﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ [الفرقان: 33]

وهذه للمخالفين لرسول الله ، وللمعاندين لمنهج الله الذين سيعترضون عليه ، ويحاولون أن يستدركوا عليه أموراً ، وإن يتهموا رسول الله ، فلا بُدَّ من الردّ عليهم وإبطال حُجَجهم في وقتها المناسب ، ولا يتأتى ذلك إذا نزل القرآن جملة واحدة .

﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أي: بشيء عجيب يستدركون به عليك ﴿ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾

أي: ردّاً عليهم بالحق الثابت الذي لا جدال فيه.

وإليك أمثلة لِردّ القرآن عليهم ردّاً حيّاً مباشراً.

فلما اتهموا رسول الله وقالوا: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ [الإسراء: 47] ردّ القرآن عليهم بقوله تعالى: ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 1-4]

ولما قالوا: ﴿ مَالِ هَاذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ.. ﴾ [الفرقان: 7] يردُّ القرآن عليهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ.. ﴾ [الفرقان: 20]

(68/465)

فليس محمد صلى الله عليه وسلم بدعاً في هذه المسألة، فهو كغيره من الرسل الذين عُرفت عنهم هذه الصفات، وفي هذا ما يؤكد سلامة الأُسْوة في محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه بشر مثل الذين أرسلنا إليهم من قبله، إنما لو كانت في محمد خاصية ليست في غيره ربّما اعترضوا عليها واحتجُّوا بها.

لذلك كان من أدب النبي صلى الله عليه وسلم مع ربه ومع صحابته أنه قال: " إنما أنا بشر

يرد عليَّ ـ أي بالوحي ـ فأقول: أنا لست كأحدكم، ويؤخذ مني فأقول: ما أنا إلا بشر مثلكم ".

فانظر إلى أيّ حدٍّ كان تواضعه صلى الله عليه وسلم؟

ولما اتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ﴿ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ .. ﴾ [سبأ: 8] فردّ عليهم الحق سبحانه بقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: 13]

ثم يتنزّل معهم في هذا التحدي، ويترأف بهم: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. ﴾ [البقرة: 23]

ثم يناقشهم في هذه المسألة بهذا الأدب الرفيع والنموذج العالي للحوار: ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود: 35]

وفي آية أخرى يقول: ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: 25]

فانظر إلى هذا الأدب: رسول الله حين يتحدّث عن نفسه يقول ﴿ أَجْرَمْنَا ﴾ وحين يتحدث عن أعدائه لا ينسب إليهم الإجرام، بل يقول: ﴿ وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

هذا كله من الحق الذي جاء به القرآن ليردّ عن رسول الله اتهامات القوم، وبالله لو نزل القرآن جملةً واحدة، أكان من الممكن الردُّ على هذه الاتهامات ومجادلة القوم فيما يُثيرونه من قضايا؟

إنْ كانت هذه الأمثلة خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرئة ساحته في مجال الدعوة إلى الله، فهناك أيضاً ما يتعلق بالأحكام والتشريع، فالقرآن نزل بالعقائد والأحكام والتشريعات، ونزل ليكون دائماً ثابتاً لا يتغير إلى يوم القيامة، ولن يُنسَخ منه حرف واحد كما حدث في الكتب السابقة عليه.

فإن نظرتَ إلى العقائد وجدتَ الكلام فيها قاطعاً لا هوادةَ فيه، يأتي هكذا قَوْلاً واحداً، فالله واحد أحد لا شريك له، له صفات الكمال المطلق، وكذلك الحديث عن الملائكة والبَعْث والحساب.

لكن تجد الأمر يختلف في الحديث عن العادات التي أَلِفها الناس في حركة الحياة، فهذه أمور تحتاج إلى تلطُّف وتدرُّج، ولا يناسبها القصْر والقَطْع. ألم ترَ إلى المشرّع سبحانه حينما أراد أنْ يُحرِّم الخمر، كيف تدرّج في تحريمها على عدة مراحل حتى يجتثّ هذه العادة التي تحكّمتْ في نفوس الناس وتملّكتهم، أكان يمكن معالجة هذه المسألة بهذه الطريقة إذا نزل القرآن جملة واحدة؟

انظر كيف لفتَ أنظارَ القوم بلُطْف إلى أن في الخمر شيئاً، فقال تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ

النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً . . ﴾[النحل: 67]

ولما سمع بعض الصحابة هذه الآية قال: والله لكأن الله يُبيِّت للخمر شيئاً ، لقد فهم بملكته العربية أن الله تعالى طالما وصف الرزق بأنه حسن ، وسكت عن السَّكَر فلم يَصِفْه بالحُسْن ، فإن وراء هذا الكلام أمراً في الخمر ؛ لأنه يتلف نعمة الله ويُفسِدها على أصحابها .

ثم يُحوِّل هذه المسألة إلى عِظَة وإرشاد ، فيقول: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا . . ﴾[البقرة: 219]

(70/465)

وهكذا قرَّر لهم الحقيقة بعد أن سألوا هم عنها ، وترك لهم حرية الاختيار ، فالأمر ما زال عِظَة ونصيحة لا تشريعاً مُلْزماً ، إلا أنه مهَّد الطريق للقطع بتحريمها بعد ذلك .

ثم حدث من أحدهم أن صلّى وهو مخمور لا يدري ما يقول ، فلما سمعوه يقول: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ، فغمزه مَنْ بجواره وعرف أنه مخمور ، ووصل خبره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ . . ﴾[النساء: 43]

وبذلك أطال مدّة الامتناع عن شُرْب الخمر، فالصلاة خمس مرات في اليوم والليلة، فإذاً لا بُدَّ من الامتناع عن الخمر قبل الصلاة بوقت كافٍ، وهكذا عوّدهم الامتناع ودرَّبهم على الصبر عن هذه الآفة التي تمكَّنتْ منهم. ثم يتحيَّن الحق سبحانه فرصة منهم، حيث اجتمع القوم في مجلس من مجالس الشراب، ولما لعبتْ الخمر بالعقول تشاجروا حتى سالتْ دماؤهم، وعندما ذهبوا بأنفسهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه: يا رسول الله بيِّن لنا في الخمر رأياً شافياً، وهنا ينزل الوحي على رسول الله بالحكم القاطع: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾[المائدة: 90]

فكيف كانت معالجة هذه الآفة التي تمكّنتْ من الناس لو نزل القرآن جملة واحدة؟

إن الحق تبارك وتعالى بنزول القرآن مُفرّقاً مُنجّماً حَسْب الأحداث، كأنه يُجري مشاركة بين آيات التنزيل والمنفعلين بها الذين يُصِرّون على تنفيذ مطلوباتها، حتى إنهم ليبادرون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسؤال، مع أنه صلى الله عليه وسلم قد نهاهم أن يبدأوه بالسؤال، كما قال تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ.. ﴾[المائدة: 101]

ولكنهم مع هذا تغمزهم المسألة فيبادرون بها رسول الله ، كما حكى القرآن: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ . . ﴾ [البقرة: 219]

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ . . ﴾ [البقرة: 219]

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ . . ﴾ [البقرة: 189]

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ . . ﴾ [طه: 105]

إذن: وراء نزول القرآن مُفرّقاً مُنجّماً حِكَم بالغة يجب تدبُّرها ، هذه الحِكَم ما كانت لتحدث لو نزل القرآن جملةً واحدةً .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا . . . ﴾ .

(72/465)

قوله تعالى: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا . . ﴾ [الإسراء: 107] آمنوا: أمر ، ولا تؤمنوا: نَهْي . والأمر والنهي نوعان من الطلب ، والطلب أن تطلب من الأدنى أن يفعل ، والنهي أنْ تطلبَ من الأدنى ألاَّ يفعل ، فإنْ كان الطلب من مُساوٍ لك فهو التماس ، وإنْ كان من أعلى منك فهو دعاء .

لذلك حينما نقول للطالب أعرب: (رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ) يقول: اغفر فعل أمر، نقول له: أنت سطحيّ العبارة؛ لأن الأمر هنا من الأدنى للأعلى، من العبد لربه تبارك وتعالى، فلا يقال: أمر، إنما يقال: دعاء.

والطاعة أن تمتثل الأمر والنهي، فهل نقول في قوله تعالى: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا .. ﴾ [الإسراء: 107] أنها للتخيير، فإنْ آمنوا فقد أطاعوا، وكذلك إنْ لم يؤمنوا فقد أطاعوا أيضاً؟

نقول: الأمر والنهي هنا لا يُراد منه الطلب، بل يراد به التهديد أو التسوية كما تقول لابنك حين تلاحظ عليه الإهمال: ذاكر أو لا تذاكر، أنت حر؛ لا شك أنك لا تقصد النهي عن المذاكرة، بل تقصد تهديده وحثّه على المذاكرة.

فقوله: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا .. ﴾ [الإسراء: 107] للتسوية، كما قال: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ .. ﴾ [الكهف: 29]

فهذا ليس أمراً بحيث أن الذي يفعل الأمر أو النهي يكون طائعاً، بل المراد هنا التهديد أو التسوية، فسواء آمنوا أو كفروا؛ لأن الحق سبحانه جعل في ذلك عزاءً لرسوله صلى الله عليه وسلم في إيمان أهل الكتاب.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ .. ﴾ [الإسراء: 107] أي: اليهود والنصارى الذين ارتاضوا بالكتب السماوية، واستمعوا للتوارة والإنجيل، ونقلوها إلى غيرهم من

المعاصرين للقرآن فهؤلاء شاهدون بأن الرسول حَقٌّ بما عندهم من بشارة به في التوراة والإنجيل ؛ لذلك يتركون دينهم ويسارعون إلى الإسلام ؛ لأنهم يعلمون عِلْم اليقين أنه الدين الحق .

(73/465)

ومن هؤلاء عبد الله بن سلام ، وكان من علماء اليهود ، وكان يعلم أوصاف رسول الله وزمن بَعْثته ؛ لذلك قال : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشدّ .

ولما اختمر الإسلام في نفسه ذهب إلى رسول الله وصارحه بما نوى من اعتناق الإسلام ، وقال : " يا رسول الله إن اليهود قوم بُهْتٌ فإن أعلنتُ إسلامي الآن قالوا فيَّ ما ليس فيَّ ، فاسألهم عني وأنا ما زلت على دينهم ، وانظر ما يقولون ، فسألهم رسول الله : ما تقولون في ابن سلام ؟ فقالوا : حَبْرنا وابن حَبْرنا ، ووصفوه بخير الصفات ، وأطيب الخصال ، فقال عبد الله : يا رسول الله ، أما وقد قالوا فيَّ ما قالوا فأشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فإذا بهم يذمونه ويتهمونه بأخسِّ الخصال ، فقال : يا رسول الله ألم أَقُلْ لك إنهم قوم بُهْتٌ " .

إذن : ففي إيمان عبد الله بن سلام وغيره من اليهود والنصارى الذين عرفوا رسول الله بأوصافه في كتبهم وعرفوا موعد بعثته وأنه حق ، في إيمان هؤلاء عَزَاءٌ لرسول الله حين كفر

به قومه وكذّبوه لذلك قال تعالى: ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: 43]

ونحن مُكْتفون بشهادة هؤلاء؛ لأنهم قوم صادقون مع أنفسهم، صادقون مع أنبيائهم ومع كتبهم التي تلقوْهَا، فحينما بشّرت بمحمد ووصفته لم ينكروا هذه الصفات ولم يُحرِّفوها، بل كانوا يسارعون إلى المدينة انتظاراً لمبعث النبي الجديد الذي سيظهر فيها، لقد كانوا يقولون لكفار مكة: لقد أظلّ زمان نبي جديد نتبعه قبلكم، ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 89] إلا أن الله أبقى للحق خلية، وجعل له خميرة استجابت لرسول الله، وتفاعلت مع الدين الجديد.

(74/465)

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ.. ﴾ [الإسراء: 107] أي: القرآن ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ﴾ [الإسراء: 107]

كلمة ﴿ يَخِرُّونَ ﴾ توحي بأنهم يسارعون إلى السجود، وكأنها عملية انفعالية غير إرادية ليس لهم فيها تصرُّف، فبمجرد سماع القرآن يرتمون على الأرض ساجدين؛ لأنهم تفاعلوا معه، واختمر الإيمان في نفوسهم. ليس ذلك وفقط، بل ويخرون ﴿ لِلأَذْقَانِ ﴾ جمع ذَقَن

، وهي أسفل الفَكِ السفلي ، ومعلوم أن السجود يكون على الجبهة ، أما هؤلاء فيسجدون بالوجه كله ، وهذا دليل على الخضوع والاستسلام لله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ . . . ﴾ .

(75/465)

أي: يقولون حال سجودهم: سبحان ربنا الذي وَفّى بوعده في التوراة والإنجيل ، وبعث الرسول الخاتم ومعه القرآن ، سبحانه حقق لنا وَعْده وأدركناه وآمنا به ، وكأن هذه نعمة يحمدون الله عليها .

ويقول الحق سبحانه عنهم: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ . . . ﴾ .

لقد خَرُّوا ساجدين لله تعالى قبل ذلك لأنهم أدركوا القرآن الذي نزل على محمد ، وتحقَّق لهم وعد الله فعاصروه وآمنوا به . أما هذه المرة فيخرون ساجدين لما سمعوا القرآن تفصيلاً وانفعلوا به ، فيكون له انفعال آخر ، لذلك يزيد هنا الخشوع والخضوع ، فيقول: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ . . . ﴾ [الإسراء: 109] فكلما قرأوا آية ازدادوا بها خشوعاً وخضوعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(76/465)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (106) ﴾

أخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ أنه قرأ ﴿ وقرآناً فرقناه ﴾ مثقلة . قال : نزل القرآن إلى سماء الدنيا في ليلة القدر من رمضان جملة واحدة ، فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً ، أحدث الله لهم جواباً . ففرقه الله في عشرين سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم ومحمد بن نصر وابن الأنباري في المصاحف من طريق الضحاك ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزل القرآن جملة واحد من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا ، فنجمته السفرة على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم عشرين سنة . فقال المشركون : لولا نزل عليه القرآن جملة واحد . فقال الله ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ﴾ [الفرقان : 32] أي أنزلناه عليك متفرقاً ليكون عندك جواب ما يسألونك عنه ، ولو أنزلناه عليك جملة واحدة ثم سألوك لم يكن عندك جواب ما يسألونك عنه .

وأخرج البزار والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أنزل القرآن جملة واحدة

حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا ، ونزله جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم بجواب كلام العباد وأعمالهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر من طريق أبي العالية ، عن ابن عباس أنه قرأها مثقلة ، يقول : أنزل آية آية .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان ، عن عمر رضي الله عنه قال : تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي صلى الله عليه وسلم خمساً خمساً .

وأخرج ابن عساكر من طريق أبي نضرة قال : كان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة وخمس آيات بالعشي ، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات .

(77/465)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ وقرآناً فرقناه ﴾ مخففاً ، يعني بيّناه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وقرآناً فرقناه ﴾ قال : فصلناه ﴿ على مكث ﴾ بأمد ﴿ يخرون للأذقان ﴾ يقول : للوجوه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد ﴿ على مكث ﴾ في ترسل.

وأخرج ابن الضريس عن قتادة في قوله: ﴿ وقرآناً فرقناه ﴾ الآية. قال: لم ينزل في ليلة ولا ليلتين ولا شهر ولا شهرين ولا سنة ولا سنتين، وكان بين أوله وآخره عشرون سنة، أو ما شاء الله من ذلك.

وأخرج ابن الضريس من طريق قتادة، عن الحسن رضي الله عنه قال: كان يقال: أنزل القرآن على نبي الله صلى الله عليه وسلم ثمان سنين بمكة وعشراً بعد ما هاجر.

وكان قتادة يقول: عشر بمكة وعشر بالمدينة.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله ﴾ هم ناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل الله على محمد.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله: ﴿ من قبله ﴾ من قبل النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إذا يتلى ﴾ ما أنزل عليهم من عند الله.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر، عن مجاهد ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ قال: كتابهم.

وأخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن عبد الأعلى التيمي قال: إن من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق، أن قد أوتي من العلم ما لا ينفعه؛ لأن الله نعت أهل العلم فقال: ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ﴾.

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي الجراح، عن أبي حازم: "أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل عليه جبريل وعنده رجل يبكي، فقال: من هذا؟ قال: فلان. قال جبريل: إنا نزن أعمال بني آدم كلها إلا البكاء، فإن الله يطفئ بالدمعة نهوراً من نيران جهنم".

(78/465)

وأخرج الحكيم الترمذي، عن النضر بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أن عبداً بكى في أمة من الأمم، لأنجى الله تلك الأمة من النار ببكاء ذلك العبد؛ وما من عمل إلا له وزن وثواب إلا الدمعة، فإنها تطفئ بحوراً من النار. وما اغرورقت عين بمائها من خشية الله، إلا حرم الله جسدها على النار، وإن فاضت على خده لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة".

وأخرج ابن أبي شيبة، عن الجعد أبي عثمان قال: بلغنا أن داود عليه السلام قال: "إلهي... ما جزاء من فاضت عيناه من خشيتك؟... قال: جزاؤه أن أؤمنه يوم الفزع الأكبر". انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(79/465)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ وبالحق أَنْزَلْنَاهُ ﴾ :

في الجارِّ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه متعلق بأَنْزَلْناه ، والباء سببية ، أي : أنزلناه بسبب الحق . والثاني : أنه حالٌ من مفعول " أنزلناه " ، أي : ومعه الحق . والثالث : أنه حالٌ من فاعِله ، أي : ملتبسين بالحقِّ . وعلى هذين الوجهين يتعلَّقُ بمحذوفٍ .

والضميرفي " أَنْزَلْناه " الظاهرُ عَوْدُه للقرآن : إمَّا الملفوظِ به في قولِه قبل ذلك ﴿ على أَنْ يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن ﴾ [الإسراء : 88] ، ويكون ذلك جَرْياً على قاعدةِ أساليب كلامِهم ، وهو أَنْ يستطردَ المتكلمُ في ذِكْر شيءٍ لم يَسْبِقْ له كلامُه أولاً ، ثم يعودُ إلى كلامِه الأولِ ، وإمَّا للقرآنِ غيرِ الملفوظ أولاً ؛ لدلالة الحالِ عليه كقولِه تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] وقيل : يعودُ على موسى كقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الحديد ﴾ [الحديد : 25] .

وقيل : على الوعد . وقيل : على الآيات التسعِ ، وذكَّر الضميرَ وأفرده حملاً على معنى الدليل والبرهان .

قوله : ﴿ وبالحق نَزَلَ ﴾ فيه الوجهان الأوَّلان دونَ الثالث لعدمِ ضميرٍ آخرَ غيرِ ضمير القرآن . وفي هذه الجملةِ وجهان ، أحدُهما : أنها للتأكيد ، وذلك أنه يُقال : أنزلْتُه فنَزَل ، وأنزلْتُه فلا يَنْزِلْ ، فجيْءَ بقولِه ﴿ وبالحق نَزَلَ ﴾ دَفْعاً لهذا الوهم . وقيل : ليست للتأكيد ، والمغايرةُ تَحْصُل بالتغاير بين الحقَّيْنِ ، فالحقُّ الأول التوحيد ، والثاني الوعدُ والوعيدُ والأمر والنهي . وقال الزمخشري : " وما أَنْزَلْنا القرآنَ إلا بالحكمةِ المقتضيةِ لإِنزاله ، وما نَزَلَ إلا ملتبساً بالحق والحكمةِ لاشتماله على الهداية إلى كلِّ خير ، أو ما أَنْزَلْنَاه من السماء إلا بالحقِّ محفوظاً بالرَّصْدِ من الملائكةِ ، وما نَزَلَ على الرسول إلا محفوظاً بهم مِنْ تخليط الشياطين " . و " مبشّراً ونذيراً حالان من مفعول أَرْسَلْناك " .

قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ ﴾ :

في نصبه أوجهٌ ، أحدُها : أنه منصوبٌ بفعلٍ مقدَّرٍ ، أي : وآتَيْناك قرآناً " يدلُّ عليه قوله ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى ﴾ [الإسراء : 101] . الثاني : أنه منصوبٌ عطفاً على الكافِ في " أَرْسَلْناك " . قال ابنُ عطية : " من حيث كان إرسالُ هذا وإنزال هذا معنى واحداً " .

الثالث : أنه منصوبٌ عطفاً على ﴿ مُبَشّراً وَنَذِيراً ﴾ قال الفراء : هو منصوبٌ ب " أَرْسَلْناك " ، أي : ما أرسلناك إلا مبشِّراً ونذيراً وقرآناً ، كما تقول : ورحمةً لأنَّ القرآنَ رحمةً

" . قلت : يعني أنه جُعِل نفسُ القرآن مُراداً به الرحمةُ مبالغةً ، ولو ادّعى ذلك على حَذْفِ مضافٍ كان أقربَ ، أي : وذا قرآنٍ . وهذان الوجهان متكلّفان .

(81/465)

الرابع : أن ينتصِبَ على الاشتغال ، أي : وفَرَقْنا قرآناً فرقناه . واعتذر الشيخُ عن ذلك ، أي : عن كونِه لا يَصِحُّ الابتداءُ به لو جَعَلْناه مبتدأً لعدم مُسَوِّغٍ ؛ لأنه لا يجوزُ الاشتغالُ إلا حيث يجوز في ذلك الاسمِ الابتداءُ ، بأنَّ ثَمَّ محذوفةً ، تقديرُه : وقرآناً أيَّ قرآنٍ ، بمعنى عظيم . و " فَرَقْناه " على هذا لا محلَّ له بخلاف الأوجهِ المتقدمةِ ؛ فإن محلّه النصبُ لأنَّه نعتٌ لـ " قرآناً " .

والعامَّةُ " فَرَقْناه " بالتخفيف ، أي : بَيَّنَا حلالَه وحرامَه ، أو فَرَقْنا فيه بين الحق والباطل . وقرأ علي بن أبي طالب - كرَّم الله وجهَه - وأُبَيّ وعبدُ الله وابنُ عباس والشعبي وقتادة وحميد في آخرين بالتشديد . وفيه وجهان ، أحدُهما : أنَّ التضعيفَ فيه للتكثير ، أي : فَرَّقْنا آياتِه بين أمرٍ ونهيٍ وحِكَمٍ وأحكامٍ ومواعظ وأمثال وقصص وأخبار ماضيةٍ ومستقبلةٍ . والثاني : أنه دالٌّ على التفريق والتنجيم .

قال الزمخشري : " وعن ابن عباس أنه قرأ مشدَّداً ، وقال : لم يَنْزِلْ في يومين ولا في ثلاثةٍ ، بل

كان بين أولِه وآخره عشرون سنةً، يعني أنَّ "فَرَقَ" بالتخفيف يدلُّ على فصلٍ متقاربٍ".

قال الشيخ: "وقال بعضُ من اختار ذلك - يعني التنجيمَ - لم يَنْزِلْ في يومٍ ولا يومين ولا شهرٍ ولا شَهْرَيْن، ولا سنةٍ ولا سنتين. قال ابنُ عباس: كان بين أوله وآخره عشرون سنة، كذا قال الزمخشريُّ عن ابن عباس". قلت: وظاهرُ/ هذا أنَّ القولَ بالتنجيم ليس مرويّاً عن ابن عباس ولا سيما وقد فَصَلَ قولَه "قال ابن عباس" مِنْ قولِه "وقال بعضُ مَنْ اختار ذلك"، ومقصودُه أنه لم يُسْنِده لابن عباس لِيَتِمَّ له الردُّ على الزمخشري في أنَّ فَعَّل بالتشديد لا يَدُلُّ على التفريق، وقد تقدَّم له معه هذا المبحثُ أولَ هذا الموضوع.

(82/465)

قوله: "لتقرأَه" متعلقٌ ب "فَرَقْناه". و "على مُكْثٍ" فيه ثلاثةُ أوجهٍ، أحدُها: أنه متعلّق بمحذوفٍ، على أنه حالٌ من الفاعل أو المفعول في "لتقرأه"، أي: متمهّلاً مترسّلاً.

والثاني: أنه بدلٌ مِنْ "على الناس" قاله الحوفيُّ، وهو وهمٌ، لأنَّ قوله "على مُكْثٍ" من صفاتِ القارئِ أو المقروءِ من جهةِ المعنى، لا من صفاتِ الناس حتى يكون بدلاً منهم.

الثالث: أنه متعلّقٌ ب "فَرَقْناه".

وقال الشيخ: "والظاهرُ تَعَلُّق "على مُكْث" بقوله "لتقرأه"، ولا يُبالَى بكونِ الفعلِ يتعلَّق

به حرفا جرٍّ من جنسٍ واحدٍ لأنه اختلف معنى الحرفين ؛ لأنَّ الأولَ في موضعِ المفعول به ، والثاني في موضعِ الحالِ ، أي : متمهّلاً مترسِّلاً " .

قلت : قولُه أولاً إنه متعلقٌ بقوله " لتقرأَه " ينافي قولَه في موضع الحال ؛ لأنه متى كان حالاً تعلَّق بمحذوف . لا يُقال : أراد التعلق المعنوي لا الصناعي لأنه قال : ولا يُبالَى بكون الفعل يتعلق به حرفا جرّ من جنسِ [واحد "] ، وهذا تفسيرُ إعرابٍ لا تفسيرُ معنى .

والمُكْثُ : التطاولُ في المدة وفيه ثلاثةُ لغاتٍ : الضمُّ والفتحُ - ونقل القراءةَ بهما الحوفي وأبو البقاء - والكسرُ ، ولم يُقرأ به فيما علمتُ . وفي فعله الفتحُ والضم وسيأتيان إن شاء الله تعالى في النمل .

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلأَذْقَانِ ﴾ في هذه اللامِ ثلاثةُ أوجه ، أحدُها : أنها بمعنى " على " ، أي : على الأذقان كقولِهم : خرَّ على وجهه . والثاني : أنها للاختصاص ، قال الزمخشري : " فإن قُلْتَ : حرفُ الاستعلاءِ ظاهرُ المعنى إذا قلت : خَرَّ على وجهه وعلى ذَقَنه فما معنى اللامِ في " خرَّ لذَقْنه ولوجهه " ؟ قال :

3117- . . . . فخرَّ

صريعاً لليدين وللفمِ

قلت: معناه: جعَلَ ذَقَنَه ووجهَه للخُرور، واختصَّ به؛ لأنَّ اللامَ للاختصاص. وقال أبو البقاء: "والثاني هي متعلقةٌ ب"يَخِرُّون" واللامُ على بابها، أي: مُذِلُّون للأذقان".

والأَذْقان: جمعُ ذَقَنٍ وهو مُجْتَمَعُ اللَّحْيَيْن. قال الشاعر:

3118- فَخَرُّوا لأَذْقانِ الوجوه تنوشُهُمْ . . . سِباعٌ من الطير العوادِي وتَنْتِفُ

و"سُجَّداً" حال. وجوَّز أبو البقاء في "للأذقان" أن يكونَ حالاً. قال: "أي: ساجدين للأذقان" وكأنه يعني به "للأذقان" الثانية؛ لأنه يصير المعنى: ساجدين للأذقان سُجَّداً، ولذلك قال: "والثالث: أنها -يعني اللامَ- بمعنى "على"، فعلى هذا تكون حالاً مِنْ "يَبْكُون" و"يَبْكُون" حال".

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُهُمْ ﴾: فاعلُ "يزيد": إمَّا القرآنُ، أو البكاءُ أو السجودُ أو المتلوُّ، لدلالةِ قوله: "إذ يُتْلى". وتكرَّر الخُرور لاختلافِ حالتِه بالبكاء والسجود، وجاءتِ الحالُ الأولى اسماً لدلالتِه على الاستقرار، والثانية فعلاً لدلالتِه على التجدُّدِ والحدوث.

انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 423. 429﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105) ﴾

القرآن حقٌّ ، ونزوله بحق ، ومُنَزِّلُه حق ، والمُنَزَّل عليه حق ، فالقرآن بحقّ أنزل ومِنْ حقّ نزل وعلى حقِّ نزل . وقد فرّق القرآنَ القرآنَ لِيُهَوِّنَ عيه - صلوات الله عليه - حِفْظَه ، وليكثر تردد الرسول من ربِّه عليه ، وليكون نزوله في كل وقت وفي كل حادثة وواقعة دليلاً على أنه ليس مما أعان عليه غيره .

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) ﴾

إنْ آمنتم حصَلَ النفعُ لكم ، وإنْ جحدْتُم ففي إيمان مَنْ آمن مِنْ أوليائنا عنكم خَلَفٌ ، وإنّ الضَّررَ عائدٌ عليكم .

وإنّ مَنْ أضأْنا عليهم شموس إقبالنا لتُشْرِق أنوار معارفهم ؛ فإذا تُليت عليهم آياتنا سَجَدُوا بَدَلَ جحْدِهم ، واستجابوا بدل تمردهم ، وقابلوا بالتصديق ما يقال لهم .

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109) ﴾

تأثيره في قلوب قوم يختلف ؛ فتأثير السماع في قلوب العلماء بالتبصُّر ، وتأثير السماع في أنوار الموحِّدين بالتحير ؛ تبصُّر العلماء بصحة الاستدلال ، وتحيُّر الموحدين في شهود الجمال والجلال .

وبكاء كل واحدٍ على حسب حاله : فالتائب يبكي لخوف عقوبته لما أَسْلَفَهُ من زلَّته وحَوْبته ، والمطيعُ يبكي لتقصيره في طاعته ، ولكيلا يفوته ما يأمله من مِنَّته .

وقوم يبكون لاستبهام عاقبتهم وسابقتهم عليهم .

وآخرون بكاؤهم بلا سبب متعين . وآخرون يبكون تحسراً على ما يفوتهم من الحق .

والبكاء عند الأكابر معلول ، وهو في الجملة يدل على ضعف حال الرجل ، وفي معناه أنشدوا :

خُلِقْنا رجالاً للتجلدِ والأَسَى . . . وتلك الغواني للبُكا والمآتِم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 373 . 374 ﴾

(85/465)

قوله تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (111) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان إيمان أهل العلم الأول به وإذعانهم له وتركهم لأديانهم -التي أخذوها عن الأنبياء الآتين إليهم بالكتب لأجله بعد إقامة الدليل القاطع على أنه من عند الله- موجباً لكل من له أدنى إنسانية أن يؤمن به ويقبل عليه ويدعو من أنزله دون غيره دائماً ، لا في أوقات الشدة فقط ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ وكانت أوقات الإجابة أولى بالدعاء من غيرها ، وكانت حالة السجود لا سيما مع البكاء والخشوع أولاها " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد "كان المعاندون من العرب كأنهم قالوا لأن ذلك من شأنهم ومن حقهم بعد ما قام من الأدلة : آمنا فعلّمنا كيف ندعو وبأيّ اسم نهتف ؟ ولما كان الجلالة هو الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى ، وكان قد ورد في النحل من التنويه به ما لم يرد في غيرها لما تقدم من الأسرار مع أنه عد فيها من النعم ما لم يعد في غيرها ، ومنها تعليم الإنسان البيان ، وذلك أليق باسم الرحمن ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ [الرحمن : 1] الآيات ، وكانت الرحمة دنيوية وأخروية من الخالق ومن الخلائق قد كررت في هذه السورة

ثماني مرات ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ ، ﴿جناح الذل من الرحمة﴾ ، ﴿وقل رب ارحمهما﴾ ﴿ابتغاء رحمة من ربك﴾ ، ﴿ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم﴾ ، ﴿إنه كان بكم رحيماً﴾ ، ﴿إلا رحمة من ربك﴾ خزائن رحمة ربي وكان ذلك ظاهراً في إرادة عمومها ، فكان اسم الرحمن به أليق ، وقع الجواب بقوله تعالى : ﴿قل ادعوا الله﴾ أي الملك الأعظم ذا الجلال والإكرام في ذات إحاطته ﴿أو ادعوا الرحمن﴾ في معنى استغراقه بالرحمة ، أي سموا - أي أوقعوا الدعاء مسمين في حال دعائكم - ربكم الذي سبحتموه في السجود بأي اسم أردتم مما أذن فيه ، فاهتفوا بهذا الاسم الدال على الجلال ، واستحقاق مسماه الدعاء لذاته ، أو بهذا الاسم الدال على الجمال واستحقاقه الدعاء لإنعامه ، مطلقاً وفي حالة السجود ﴿أياً ما تدعوا﴾ أي به من أسمائه فقد حصلتم

(86/465)

به على القصد ، فإن المسمى واحد وإن تعددت أسماؤه الدالة على الشرف .

ولما كان في الرحمن جمال ظاهر في باطنه جلال ، لأن عموم الرحمة لبعض نعمة ، ولبعض استدراج ونقمة ، فكان لذلك جامعاً لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى ، سبب عن ذكر كل من الاسمين : العلم الجامع ، والوصف الواقع موقعه ، قوله : ﴿فله﴾ أي المسمى

بهذين الاسمين وحده ، وهو الواحد الأحد ﴿ الأسماء الحسنى ﴾ هذان الاسمان وغيرهما مما ورد عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو دال على التحميد والتمجيد والتقديس والتعظيم ، فهذا الضمير استخدام ، وقد تضمن هذا القول أن معنى اسم الرحمن أشمل من اسم الرحيم وإن كان بناء كل منهما للمبالغة ؛ قال الإمام أبو الحسن الحرالي رحمه الله في شرحه للأسماء الحسنى : الرحمانية استغراق الخلق بالرحمة في إنشائهم ، والرحيمية إجراء الخلق على ما يوافق حسهم ويلائم خَلقهم وخُلقهم ومقصد أفئدتهم ، فإذا اختص ذلك بالبعض كان رحيمية ، وإذا استغرق كان رحمانية ولاستغراق معنى اسم الرحمن لم يكن لتمام معناه وجود الخلق ، فلم يجر بحق على أحد منهم ، وإنما يوجد فيهم حظ خاص من معناه يجري عليهم به اسم الرحيم لا اسم الرحمن ، فلذلك لحق اسم الرحمن في معنى استغراقه باسم الله في ذات إحاطته فقال تعالى ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ فإذا تحقق القلب اختصاصه بالله علماً كان أصلاً للفظ به قولاً فعلمت أنه لا رحمن إلا الله كما أنه لا إله إلا الله ، ولحق باسم الإله فقد علم فقد التمام لمعناه في الخلق كما قد فقد أصل علم الاعتبار من معناه في اسم إله ، والتوحيد في اسم الرحمن واجب لاحق بالفرض في توحيد الإله ، ولذلك ولي اسم الله في موارده في الكتب وفي هذا التعديد أي الوارد في حديث الترمذي والبزار وغيرهما من أسماء الله الحسنى عن أبي هريرة.رضى

الله عنهم ـ -انتهى .

وقد مر في آخر الحجر ما ينفع هنا .

(87/465)

ولما ذكر السجود وعقبه بالدعاء ، أشار إلى أنه في كل حالة حسن ، وفي الصلاة أولى وأحسن ، بعد أن ذكر قريباً الصلوات الخمس ، وكان ربما فهم من قوله ﴿ إن قرءان الفجر كان مشهوداً ﴾ ، ومن قوله : ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ قوة الجهر به قال تعالى : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ أي بقراءتك فيها ، أو سمى القراءة صلاة لأنها شرط فيها جهراً قوياً حتى تسمعه المشركون ، فإن المخالفين قد عرف عنادهم فلا يؤمن سبهم للقرآن ولمن أنزله ولمن جاء به ، بل كانوا يفعلون ذلك ويلغون ، وربما صفقوا وصفروا ليغلطوا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ويخلطوا عليه قراءته ﴿ ولا تخافت ﴾ أي تسر ﴿ بها ﴾ إسراراً بليغاً كأنك تناظر فيه آخر بحيث لا تسمع من وراءك ليأخذوه عنك ﴿ وابتغ ﴾ أي اطلب بغاية جهدك ﴿ بين ذلك ﴾ أي الجهر والمخافتة التي أفهمت أداة البعد عظمة شأنهما ﴿ سبيلاً ﴾ أي طريقاً وسطاً ؛ روى البخاري في التفسير عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ في هذه الآية قال : نزلت ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مختفٍ بمكة ،

كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ أي بقراءتك ، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿ ولا تخافت بها ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم – انتهى .

أطلق هنا اسم الكل على الجزء إشارة إلى أن المقصود الصلاة وفيما تقدم اسم الجزء على الكل لأن المقصود الأعظم هناك القراءة في الفجر ، وروى البخاري عن عائشة ـ رضى الله عنهم ـ ا أن هذه الآية نزلت في الدعاء ، وقد تقدم غير مرة أنه ليس ببدع أن يكون للشيء أسباب كثيرة .

(88/465)

ولما تقدم إحاطة هذين الاسمين ، أما الله فبجميع معاني الأسماء الحسنى ، وأما الرحمن فبالرحمانية ، المأمور بالدعاء بهما كل مخاطب ، خصه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالأمر بالتحميد الذي معناه الإحاطة واسمه صلى الله عليه وعلى آله وسلم مشتق منه لاتصافه به حامداً ومحموداً ، وبالتكبير عن كل ما يفهمه العباد من أسمائه الحسنى فقال تعالى : ﴿ وقل الحمد ﴾ أي الإحاطة بالأوصاف الحسنى ﴿ لله ﴾ أي الملك الأعظم

﴿ الذي لم يتخذ ﴾ لكونه محيطاً بالصفات الحسنى ﴿ ولداً ﴾ فإن ذلك لا يكون إلا للحاجة وبالحاجة وهي من أسوأ الأوصاف ﴿ ولم يكن ﴾ أي يوجد بوجه من الوجوه ﴿ له شريك في الملك ﴾ ولا ولد ولا غيره فإن ذلك لا يكون إلا بالعجز ﴿ ولم يكن له ولي ﴾ ناصر أعم من أن يكون ذلك الناصر ولداً أو شريكاً أو غيره : ثم قيده واصفاً بقوله تعالى : ﴿ من الذل ﴾ إفهاماً بأن له أولياء جاد عليهم بالتقريب وجعلهم أنصاراً لدينه رحمة منه لهم لا احتياجاً منه إليهم ﴿ وكبره ﴾ عن أن يشاركه أحد في شيء من الأشياء وعن كل ما يفهمه فاهم ، ويصفه به واصف ، والتكبير أبلغ لفظ للعرب في معنى التعظيم والإجلال – قاله أبو حيان .

وأكد بالمصدر تحقيقاً له وإبلاغاً في معناه ، أي فقال : ﴿ تكبيراً ﴾ عن أن يدرك أحد كنه معرفته أو يجهله أحد من كل وجه ، بل احتجب سبحانه بكبريائه وجلاله فلا يعرف ، وتجلى بإكرامه وكماله فلا ينكر ، فكان صريح اتصافه بالحمد أنه تعالى متصف بجميع صفات الكمال ، وصريح وصفه بنفي ما ذكر أنه منزه عن شوائب النقص وأنه أكبر من كل ما يخطر للعباد المطبوعين على النقص المجبولين على غرائز العجز ، ولذلك وغيره من المعاني العظمى سمى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم هذه الآية آية العز كما رواه الإمام أحمد عن سهل عن أبيه -رضى الله عنهما - ، وذلك عين ما افتتحت به السورة من التنزيه

وزيادة – والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب . انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 437. 440 ﴾

(89/465)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

قال صاحب "الكشاف" المراد بهما الاسم لا المسمى و " أو " للتخيير بمعنى : ﴿ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ أي سموا بهذا الاسم أو بهذا أو اذكروا إما هذا وإما هذا والتنوين في ﴿ أَيّا ﴾ عوض عن المضاف إليه و ﴿ مَا ﴾ صلة للإبهام المؤكد لما في أي والتقدير أي هذين الاسمين سميتم وذكرتم فله الأسماء الحسنى والضمير في قوله : ﴿ فَلَهُ ﴾ ليس براجع إلى أحد الإسمين المذكورين ولكن إلى مسماهما وهو ذاته عز وعلا والمعنى : أياً ما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله : ﴿ فَلَهُ الأسماء الحسنى ﴾ لأنه إذا حسنت أسماؤه فقد حسن هذان الإسمان لأنهما منها ومعنى حسن أسماء الله كونها مفيدة لمعاني التحميد والتقديس وقد سبق الاستقصاء في هذا الباب في آخر سورة الأعراف في تفسير قوله :

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ [الأعراف : 180] واحتج الجبائي بهذه الآية فقال : لو كان تعالى هو الخالق للظلم والجور لصح أن يقال يا ظالم وحينئذ يبطل ما ثبت في هذه الآية من كون أسمائه بأسرها حسنة .

والجواب : أنا لا نسلم أنه لو كان خالقاً لأفعال العباد لصح وصفه بأنه ظالم وجائر كما أنه لا يلزم من كونه خالقاً للحركة والسكون والسواد والبياض أن يقال يا متحرك ويا ساكن ويا أسود ويا أبيض (1) فإن قالوا فيلزم جواز أن يقال يا خالق الظلم والجور قلنا فيلزمكم أن تقولوا يا خالق العذرات والديدان والخنافس وكما أنكم تقولون أن ذلك حق في نفس الأمر ولكن الأدب أن يقال يا خالق السموات والأرض فكذا قولنا هنا ،

---

(1) يقتضي القياس في الرد على الجبائي أن يقول : يا محرك ويا مسكن ويا مسود ويا مبيض وهذه الأسماء وإن صلحت أسماء لله إلا أن الحق أن أسماء الله توقيفية وهي تسعة وتسعون كلها في القرآن فلا ينبغي أن يسمى بغيرها . (الصاوي) .

(90/465)

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : قوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ فيه أقوال .

الأول : روى سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بالقراءة فإذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من جاء به فأوحى الله تعالى إليه : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ فيسمع المشركون فيسبوا الله عدواً بغير علم : ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ فلا تسمع أصحابك وابتغ بين ذلك سبيلا .

القول الثاني : روى أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف بالليل على دور الصحابة ، وكان أبو بكر يخفي صوته بالقراءة في صلاته وكان عمر يرفع صوته ، فلما جاء النهار وجاء أبو بكر وعمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر لم تخفي صوتك ؟ فقال أناجي ربي ، وقد علم حاجتي وقال لعمر لم ترفع صوتك ؟ فقال أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع صوته قليلاً وعمر أن يخفض صوته قليلاً .

القول الثالث : معناه : ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلاً بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار .

والقول الرابع : أن المراد بالصلاة الدعاء وهذا قول عائشة رضي الله عنها وأبي هريرة ومجاهد قالت عائشة رضي الله عنها هي في الدعاء وروى هذا مرفوعاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية إنما ذلك في الدعاء والمسألة لا ترفع صوتك فتذكر ذنوبك فيسمع ذلك فتعير بها فالجهر بالدعاء منهى عنه والمبالغة في الإسرار غير جائزة والمستحب من ذلك التوسط وهو أن يسمع نفسه كما روي عن ابن مسعود أنه قال لم

يخافت من أسمع أذنيه .

والقول الخامس : قال الحسن لا تراه بعلانيتها ولا تسيء بسريتها .

البحث الثاني : الصلاة عبارة عن مجموع الأفعال والأذكار والجهر والمخافتة من عوارض الصوت ، فالمراد ههنا من الصلوات بعض أجزاء ماهية الصلاة وهو الأذكار والقرآن وهو من باب إطلاق اسم الكل لإرادة الجزء .

(91/465)

البحث الثالث : يقال خفت صوته يخفت خفتاً وخفوتاً إذا ضعف وسكن وصوت خفيت أي خفيض ومنه يقال للرجل إذا مات قد خفت أي انقطع كلامه وخفت الزرع إذا ذبل وخفت الرجل يخافت بقراءته إذا لم يبين قراءته برفع الصوت وقد تخافت القوم إذا تساروا بينهم وأقول ثبت في كتب الأخلاق أن كلا طرفي الأمور ذميم والعدل هو رعاية الوسط ولهذا المعنى مدح الله هذه الأمة بقوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : 143] وقال في مدح المؤمنين : ﴿ والذين إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان : 67] وأمر الله رسوله فقال : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ [الإسراء : 29] فكذا ههنا نهى عن الطرفين وهو الجهر

والمخافتة وأمر بالتوسط بينهما فقال : ﴿ وابتغ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً ﴾ ومنهم من قال الآية منسوخة بقوله : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف : 55] وهو بعيد واعلم أنه تعالى لما أمر أن لا يذكر ولا ينادى إلا بأسمائه الحسنى علمه كيفية التحميد فقال :

﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِى الملك وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذل وكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ فذكر ههنا من صفات التنزيه والجلال وهي السلوب ثلاثة أنواع من الصفات .

النوع الأول : من الصفات أنه لم يتخذ ولداً والسبب فيه وجوه .

الأول : أن الولد هو الشيء المتولد من جزء من أجزاء شيء آخر فكل من له ولد فهو مركب من الأجزاء والمركب محدث والمحدث محتاج لا يقدر على كمال الإنعام فلا يستحق كمال الحمد .

الثاني : أن كل من له ولد فإنه يمسك جميع النعم لولده فإذا لم يكن له ولد أفاض كل تلك النعم على عبيده .

الثالث : أن الولد هو الذي يقوم مقام الوالد بعد انقضائه وفنائه فلو كان له ولد لكان منقضياً ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الإنعام في كل الأوقات فوجب أن لا يستحق الحمد على الإطلاق .

والنوع الثاني : من الصفات السلبية قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك فحينئذ لا يعرف كونه مستحقاً للحمد والشكر .

والنوع الثالث : قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو جاز عليه ولي من الذل لم يجب شكره لتجويز أن غيره حمله على ذلك الإنعام أو منعه منه ، أما إذا كان منزهاً عن الولد وعن الشريك وكان منزهاً عن أن يكون له ولي يلي أمره كان مستوجباً لأعظم أنواع الحمد ومستحقاً لأجل أقسام الشكر ثم قال تعالى : ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ ومعناه أن التحميد يجب أن يكون مقروناً بالتكبير ويحتمل أنواعاً من المعاني .

أولها : تكبيره في ذاته وهو أن يعتقد أنه واجب الوجود لذاته وأنه غني عن كل ما سواه .

وثانيها : تكبيره في صفاته وذلك من ثلاثة أوجه .

أولها : أن يعتقد أن كل ما كان صفة له فهو من صفات الجلال والعز والعظمة والكمال وهو منزه عن كل صفات النقائص .

وثالثها : أن يعتقد أن كل واحد من تلك الصفات متعلق بما لا نهاية له من المعلومات وقدرته متعلقة بما لا نهاية له من المقدورات والممكنات .

ورابعها : أن يعتقد أنه كما تقدست ذاته عن الحدوث وتنزهت عن التغير والزوال والتحول والانتقال فكذلك صفاته أزلية قديمة سرمدية منزهة عن التغير والزوال والتحول والانتقال .

(93/465)

النوع الثالث : من تكبير الله تكبيره في أفعاله وعند هذا تختلف أهل الجبر والقدر فقال أهل السنة إنا نحمد الله ونكبره ونعظمه على أن يجري في سلطانه شيء لا على وفق حكمه وإرادته فالكل واقع بقضاء الله وقدرته ومشيئته وإرادته ، وقالت المعتزلة إنا نكبر الله ونعظمه عن أن يكون فاعلاً لهذه القبائح والفواحش بل نعتقد أن حكمته تقتضي التنزيه والتقديس عنها وعن إرادتها وسمعت أن الأستاذ أبا إسحاق الإسفراييني كان جالساً في دار الصاحب بن عباد فدخل القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني فلما رآه قال سبحان من تنزه عن الفحشاء فقال الأستاذ أبو إسحاق : سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء . (1)

النوع الرابع : تكبير الله في أحكامه وهو أن يعتقد أنه ملك مطاع وله الأمر والنهي والرفع والخفض وأنه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أحكامه يعز من يشاء ويذل من يشاء .

النوع الخامس: تكبير الله في أسمائه وهو أن لا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة العالية المنزهة.

النوع السادس: من التكبير هو أن الإنسان بعد أن يبلغ في التكبير والتعظيم والتنزيه والتقديس مقدار عقله وفهمه وخاطره يعترف أن عقله وفهمه لا يفي بمعرفة جلال الله، ولسانه لا يفي بشكره، وجوارحه وأعضاؤه لا تفي بخدمته فكبر الله عن أن يكون تكبيره وافياً بكنه مجده وعزته.

وهذا أقصى ما يقدر عليه العبد الضعيف من التكبير والتعظيم ونسأل الله تعالى الرحمة قبل الموت وعند الموت وبعد الموت إنه الكريم الرحيم وبالله العصمة والتوفيق وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال المصنف رحمه الله تعالى: "تم تفسير هذه السورة يوم الثلاثاء بين الظهر والعصر يوم العشرين من شهر المحرم في بلدة غزنين سنة إحدى وستمائة والحمد لله والصلاة على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً". انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 59 61﴾.

---

(1) لهذه المحاورة تتمة وهي أن القاضي عبد الجبار رد عليه بقوله: أيريد ربك أن يعصى؟ فحجه أبو إسحاق بقوله: أيعصى ربك كرها عنه؟ والاسفرائيني من أهل السنة وعبد الجبار من المعتزلة.

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾

في سبب نزولها قولان :

أحدهما : قاله الكلبي . أن ذكر الرحمن كان في القرآن قليلاً وهو في التوراة كثير ، فلما أسلم ناس من اليهود منهم ابن سلام وأصحابه ساءَهم قلة ذكر الرحمن في القرآن ، وأحبوا أن يكون كثيراً فنزلت .

الثاني : ما قاله ابن عباس أنه كان النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً يدعو " يا رحمن يا رحيم " فقال المشركون هذا يزعم أن له إلهاً واحداً وهو يدعو مثنى ، فنزلت الآية .

﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه عنى بالصلاة الدعاء ، ومعنى ذلك ولا تجهر بدعائك ولا تخافت به ، وهذا قول عائشة رضي الله عنها ومكحول . قال إبراهيم : لينتهين أقوام يشخصون بأبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لا ترجع إليهم أبصارهم .

الثاني : أنه عنى بذلك الصلاة المشروعة ، واختلف قائلو ذلك فيما نهى عنه من الجهر بها

والمخافتة فيها على خمسة أقاويل :

أحدها : أنه نهى عن الجهر بالقراءة فيها لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة كان يجهر بالقراءة جهراً شديداً ، فكان إذا سمعه المشركون سبّوه ، فنهاه الله تعالى عن شدة الجهر ، وأن لا يخافت بها حتى لا يسمعه أصحابه ، ويبتغي بين ذلك سبيلاً ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه نهى عن الجهر بالقراءة في جميعها وعن الإسرار بها في جميعها وأن يجهر في صلاة الليل ويسر في صلاة النهار .

الثالث : أنه نهي عن الجهر بالتشهد في الصلاة ، قاله ابن سيرين .

الرابع : أنه نهي عن الجهر بفعل الصلاة لأنه كان يجهر بصلاته ، بمكة فتؤذيه قريش ، فخافت بها واستسر ، فأمره الله ألاّ يجهر بها كما كان ، ولا يخافت بها كما صار ، ويبتغي بين ذلك سبيلاً ، قاله عكرمة .

(95/465)

الخامس : يعني لا تجهر بصلاتك تحسنها مرائياً بها في العلانية ، ولا تخافت بها تسيئها في السريرة ، قال الحسن : تحسّن علانيتها وتسيء سريرتها .

وقيل : لا تصلّها رياءً ولا تتركها حياء . والأول أظهر .

روي أن أبا بكر الصديق كان إذا صلى خفض من صوته فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " لم تفعل هذا " قال : أناجي ربي وقد علم حاجتي ، فقال صلى الله عليه وسلم " أحسنت " . وكان عمر بن الخطاب يرفع صوته فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " لم تفعل هذا " فقال أُوقظ الوسنان وأطرد الشيطان فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أحسنت " . فلما نزلت هذه الآية قال لأبي بكر : " ارفع شيئًا " وقال لعمر : " أخفض شيئاً " . قوله تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أمره بالحمد لتنزيه الله تعالى عن الولد .

الثاني : لبطلان ما قرنه المشركون به من الولد .

﴿ ولم يكن له شريك في الملك ﴾ لأنه واحد لا شريك له في ملك ولا عبادة .

﴿ ولم يكن له وليٌّ من الذل ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لم يحالف أحداً .

الثاني : لا يبتغي نصر أحد .

الثالث : لم يكن له وليٌّ من اليهود والنصارى لأنهم أذل الناس ، قاله الكلبي .

﴿ وكبره تكبيراً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : صِفه بأنه أكبر من كل شيء .

الثاني : كبّره تكبيراً عن كل ما لا يجوز في صفته .

الثالث : عظِّمْه تعظيماً والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون جـ 3 صـ ﴾

(96/465)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾

(97/465)

سبب نزول هذه الآية أن المشركين سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو " يا الله يا الرحمن " ، فقالوا كان محمد أمرنا بدعاء إله واحد وهو يدعو إلهين ، قاله ابن عباس ، وقال مكحول : تهجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة ، فقال في دعائه " يا رحمن يا رحيم " ، فسمعه رجل من المشركين ، وكان باليمامة رجل يسمى الرحمن ، فقال ذلك السامع : ما بال محمد يدعو رحمن اليمامة ، فنزلت مبينة أنها لمسمى واحد ، فإن دعوتموه بالله فهو ذلك ، وإن دعوتموه بالرحمن فهو ذلك ، وقرأ طلحة بن مصرف " أيّاً ما تدعوا فله الأسماء "

، أي وله سائر الأسماء الحسنى ، أي التي تقتضي أفضل الأوصاف وهي بتوقيف ، لا يصح وضع اسم الله بنظر إلا بتوقيف من القرآن أو الحديث ، وقد روي " أن لله تسعة وتسعين اسماً " ؛ الحديث ، ونصها كلها الترمذي وغيره بسند ، وتقدير الآية أي الأسماء تدعوا به فأنت مصيب له الأسماء الحسنى ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن " لا يجهر " بصلاته وأن " لا يخافت بها " ، وهو الإسرار الذي لا يسمعه المتكلم به ، هذه هي حقيقته ، ولكنه في الآية عبارة عن خفض الصوت وإن لم ينته إلى ما ذكرناه ، واختلف المتأولون في الصلاة ما هي ؟ فقال ابن عباس وعائشة وجماعة : هي الدعاء ، وقال ابن عباس أيضاً : هي قراءة القرآن في الصلاة ، فهذا على حذف مضاف ، التقدير ﴿ ولا تجهر ﴾ بقراءة صلاتك ، قال : والسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جهر بالقرآن فسمعه المشركون فسبوا القرآن ومن أنزله ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوسط ، ليسمع أصحابه المصلون معه ، ويذهب عنه أذى المشركين ، قال ابن سيرين : كان الأعراب يجهرون بتشهدهم ، فنزلت الآية في ذلك ، وكان أبو بكر رضي الله عنه يسر قراءته ، وكان عمر يجهر بها ، فقيل لهما في ذلك ، فقال أبو بكر : إنما أناجي ربي وهو يعلم حاجتي ، وقال عمر أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان ، فلما نزلت هذه الآية ،

قيل لأبي بكر : ارفع أنت قليلاً ، وقيل لعمر اخفض أنت قليلاً ، وقالت عائشة أيضاً : " الصلاة " يراد بها في هذه الآية التشهد ، وقال ابن عباس والحسن : المراد والمعنى : ولا تحسن صلاتك في الجهر ولا تسئها في السر ، بل اتبع طريقاً وسطاً يكون دائماً في كل حالة ، وقال ابن زيد : معنى الآية النهي عما يفعله أهل الإنجيل والتوراة من رفع الصوت أحياناً فيرفع الناس معه ، ويخفض أحياناً فيسكت من خلفه ، وقال ابن عباس في الآية : إن معناها ﴿ ولا تجهر ﴾ بصلاة النهار ﴿ ولا تخافت ﴾ بصلاة الليل ، واتبع سبيلاً من امتثال الأمر كما رسم لك ، ذكره يحيى بن سلام والزهراوي ، وقال عبد الله بن مسعود لم يخافت من أسمع أذنيه ، وما روي من أنه قيل لأبي بكر ارفع أنت قليلاً يرد هذا ، ولكن الذي قال ابن مسعود هو أصل اللغة ، ويستعمل الخفوت بعد ذلك في ارفع من ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ وقل الحمد لله ﴾ الآية ، هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذاً : عزير وعيسى والملائكة ذرية لله سبحانه وتعالى عن أقوالهم ، ورادة على العرب في قولهم لولا أولياء الله لذل وقيد لفظ الآية نفي الولاية لله عز وجل بطريق الذي وعلى جهة الانتصار ، إذ ولايته موجودة بتفضله ورحمته لمن والى من صالحي عباده ، قال مجاهد : المعنى لم يحالف أحداً ولا ابتغى نصر أحد ، وقوله ﴿ وكبره تكبيراً ﴾ أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال ، ثم أكدها بالمصدر تحقيقاً لها وإبلاغاً في معناها ، وروى مطرف

عن عبد الله بن كعب قال: افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام وختمت بخاتمة هذه السورة. نجز تفسير سورة سبحان والحمد لله رب العالمين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(99/465)

وقال ابن الجوزى:

قوله تعالى: ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن . . . ﴾ الآية.

هذه الآية نزلت على سببين.

[نزل] أولها إلى قوله: ﴿ الحسنى ﴾ على سبب، وفيه ثلاثة أقوال.

أحدها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تهجَّد ذات ليلة بمكة، فجعل يقول في سجوده: "يا رحمن، يا رحيم": فقال المشركون: كان محمدٌ يدعو إلهاً واحداً، فهو الآن يدعو إلهين اثنين: الله، والرحمن، ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون: مسيلمة، فأنزل الله هذه الآية، قاله ابن عباس.

والثاني: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب في أول ما أوحي إليه: باسمك اللهم، حتى نزل: ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ [النمل: 30]،

فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال مشركو العرب : هذا الرحيم نعرفه ، فما الرحمن ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله ميمون بن مهران .

والثالث : أن أهل الكتاب قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لَتُقِلُّ ذِكْرَ الرحمن وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم ، فنزلت هذه الآية ، قاله الضحاك .

فأما قوله : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ فنزل على سبب ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرفع صوته بالقرآن بمكة ، فيسُبُّ المشركون القرآن و مَنْ أتى به ، فخفض رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بعد ذلك حتى لم يسمع أصحابه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ أي : بقراءتك ، فيسمع المشركون فيسبُّوا القرآن ، ﴿ ولا تخافت بها ﴾ عن أصحابك ، فلا يسمعون ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن الأعرابيّ كان يجهر في التشهُّد ويرفع صوته ، فنزلت هذه الآية ، هذا قول عائشة .

والثالث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلِّي بمكة عند الصفا ، فجهر بالقرآن في صلاة الغداة ، فقال أبو جهل : لا تفترِ على الله ، فخفض النبي صلى الله عليه وسلم صوته ، فقال أبو جهل للمشركين : ألا ترون ما فعلت بابن أبي كبشة ؟ ! رددته عن قراءته ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

فأما التفسير ، فقوله : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ المعنى : إِن شئتم فقولوا : يا ألله ، وإِن شئتم فقولوا : يا رحمن ، فانهما يرجعان إِلى واحد ، ﴿ أيّاً ما تدعوا ﴾ المعنى : أيَّ أسماء الله تدعوا ؛ قال الفراء : و"ما" قد تكون صلة ، كقوله : ﴿ عما قليلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادمين ﴾ [المؤمنون : 40] ، وتكون في معنى : "أيّ" معادةً لمَّا اختلف لفظهما .

قوله تعالى : ﴿ ولا تجهر بصَلاتك ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنها الصلاة الشرعية .

ثم في المراد بالكلام ستة أقوال .

أحدها : لا تجهر بقراءتك ، ولا تخافت بها ، فكأنه نهي عن شدة الجهر بالقراءة ، وشدة المخافتة ، قاله ابن عباس .

فعلى هذا في تسمية القراءة بالصلاة قولان ذكرهما ابن الأنباري .

أحدهما : أن يكون المعنى : فلا تجهر بقراءة صلاتك .

والثاني : أن القراءة بعض الصلاة ، فنابت عنها ، كما قيل لعيسى : كلمة الله ، لأنه بالكلمة

كان .

والثاني : لا تصلِّ مراءاة للناس ، ولا تَدَعْها مخافة الناس ، قاله ابن عباس أيضاً .

والثالث : لا تجهر بالتشهُّد في صلاتك ، روي عن عائشة في رواية ، وبه قال ابن سيرين .

والرابع : لا تجهر بفعل صلاتك ظاهراً ، ولا تخافت بها شديد الاستتار ، قاله عكرمة .

والخامس : لا تُحسِنْ علانيتها ، وتُسِيءْ سريرتها ، قاله الحسن .

والسادس : لا تجهر بصلاتك كلِّها ، ولا تُخافت بجميعِها .

فاجهر في صلاة الليل ، وخافِت في صلاة النهار ، على ما أمرناك به ، ذكره القاضي أبو يعلى .

والقول الثاني : أن المراد بالصلاة : الدعاء ، وهو قول عائشة ، وأبي هريرة ، ومجاهد .

(101/465)

قوله تعالى : ﴿ ولا تخافت بها ﴾ المخافتة : الإِخفاء ، يقال : صوت خفيت .

﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ أي : اسلك بين الجهر والمخافتة طريقاً .

وقد روي عن ابن عباس أنه قال : نُسخت هذه الآية بقوله : ﴿ واذكر ربَّك في نفسك تضرعاً وخِيفة ، ودون الجهر من القول ﴾ [الأعراف : 205] ، وقال ابن السائب :

نُسخت بقوله: ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ [الحجر: 94]؛ وعلى التحقيق، وجود النسخ هاهنا بعيد.

قوله تعالى: ﴿ ولم يكن له شريك في المُلك ﴾ وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وطلحة بن مصرِّف: "في المِلك" بكسر الميم، ﴿ ولم يكن له وليٌّ من الذُّلِّ ﴾ قال مجاهد: لم يحالف أحداً، ولم يبتغ نصر أحد؛ والمعنى: أنه لا يحتاج إِلى موالاة أحد لِذُلٍّ يلحقه، فهو مستغن عن الولي والنصير.

﴿ وكَبِّره تكبيرا ً﴾ أي: عظِّمه تعظيماً تامّاً. انتهى انتهى. ا هـ ﴿زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(102/465)

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأسمآء الحسنى ﴾

سبب نزول هذه الآية: "أن المشركين سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو "يا الله يا رحمن" فقالوا: كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد وهو يدعو إلهين"؛ قاله ابن عباس.

وقال مكحول: "تهجّد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال في دعائه: "يا رحمن يا

رحيم" فسمعه رجل من المشركين ، وكان باليمامة رجل يسمى الرحمن ، فقال ذلك السامع : ما بال محمد يدعو رحمان اليمامة" فنزلت الآية مبيِّنة أنهما اسمان لمسمّى واحد ؛ فإن دعوتموه بالله فهو ذاك ، وإن دعوتموه بالرحمن فهو ذاك .

وقيل : كانوا يكتبون في صدر الكتب : باسمك اللهم ؛ فنزلت ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم ﴾ فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم "بسم الله الرحمن الرحيم" فقال المشركون : هذا الرحيم نعرفه فما الرحمن ؛ فنزلت الآية .

وقيل : إن اليهود قالت : ما لنا لا نسمع في القرآن اسما هو في التوراة كثير .

يعنون الرحمن ؛ فنزلت الآية .

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف "أيًّا مَنْ تدعوا فله الأسماء الحسنى" أي التي تقتضي أفضل الأوصاف وأشرف المعاني .

وحسنُ الأسماء إنما يتوجه بتحسين الشرع ؛ لإطلاقها والنصّ عليها .

وانضاف إلى ذلك أنها تقتضي معاني حساناً شريفة ، وهي بتوقيف لا يصح وضع اسم الله بنظر إلا بتوقيف من القرآن أو الحديث أو الإجماع .

حسبما بيناه في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : اختلفوا في سبب نزولها على خمسة أقوال :

الأول : ما روى ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قال : نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم مُتَوارٍ بمكة ، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سَبُّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ؛ فقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ فيسمع المشركون قراءتك .

"ولا تخافت بها" عن أصحابك .

أسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر .

﴿ وابتغ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً ﴾ قال : يقول بين الجهر والمخافتة ؛ أخرجه البخاريّ ومسلم والترمذي وغيرهم .

واللفظ لمسلم .

والمخافتة : خفض الصوت والسكون ؛ يقال للميت إذا بَرَد : خفت .

قال الشاعر :

لم يبق إلا نَفَس خافت . . .

ومُقْلَة إنسانها باهت

رَثَى لها الشامت مما بها . . .

يا وَيْحَ من يَرْثي له الشّامت

الثاني : ما رواه مسلم أيضاً عن عائشة في قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قالت : أنزل هذا في الدعاء .

الثالث : قال ابن سيرين : كان الأعراب يجهرون بتشهّدهم فنزلت الآية في ذلك .

قلت : وعلى هذا فتكون الآية متضمنة لإخفاء التشهد ، وقد قال ابن مسعود : من السنّة أن تخفي التشهد ؛ ذكره ابن المنذر .

الرابع : ما روي عن ابن سيرين أيضاً أن أبا بكر رضي الله عنه كان يُسِر قراءته ، وكان عمر يجهر بها ، فقيل لهما في ذلك ؛ فقال أبو بكر : إنما أناجي ربي ، وهو يعلم حاجتي إليه . وقال عمر : أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوَسْنان ؛ فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر : ارفع قليلاً ، وقيل لعمر اخفض أنت قليلاً ؛ ذكره الطبري وغيره .

الخامس : ما روي عن ابن عباس أيضاً أن معناها ولا تجهر بصلاة النهار ، ولا تخافت بصلاة الليل ؛ ذكره يحيى بن سلام والزهراويّ .

فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة في النوافل والفرائض ، فأما النوافل فالمصلي مخيّر في الجهر والسر في الليل والنهار ، وكذلك روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يفعل الأمرين جميعاً .

وأما الفرائض فحكمها في القراءة معلوم ليلاً ونهاراً .

وقول سادس : قال الحسن : يقول الله لا ترائي بصلاتك تحسّنها في العلانية ولا تسيئها في السر .

وقال ابن عباس : لا تصلّ مرائياً للناس ولا تدعها مخافة الناس .

الثانية : عبّر تعالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبر بالقراءة عن الصلاة في قوله : ﴿ وَقُرْآنَ الفجر إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً ﴾ لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر ؛ لأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود فهي من جملة أجزائها ؛ فعبر بالجزء عن الجملة وبالجملة عن الجزء على عادة العرب في المجاز وهو كثير ؛ ومنه الحديث الصحيح : " قسمت الصلاة بيني وبين عبدي " أي قراءة الفاتحة على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾

هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذاً : عزير وعيسى والملائكة ذرية الله سبحانه ؛ تعالى الله عن أقوالهم ! ﴿ وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الملك ﴾ لأنه واحد لا شريك له في ملكه ولا في عبادته .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذل ﴾ قال مجاهد : المعنى لم يحالف أحداً ولا ابتغى نصر أحد ؛ أي لم يكن له ناصر يجيره من الذل فيكون مدافعاً .

وقال الكلبي : لم يكن له وليّ من اليهود والنصارى ؛ لأنهم أذل الناس ، رداً لقولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه .

وقال الحسن بن الفضل : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذل ﴾ يعني لم يذلّ فيحتاج إلى وليّ ولا ناصر لعزته وكبريائه .

﴿ وكبّره تكبيراً ﴾ أي عظمة تامة.

ويقال : أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال : الله أكبر ؛ أي صفه بأنه أكبر من كل شيء .

قال الشاعر :

رأيتُ الله أكبر كل شيء . . .

محاولة وأكثرهم جنوداً

" وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا دخل في الصلاة قال : "الله أكبر" " وقد تقدّم أوّل

الكتاب .

وقال عمر بن الخطاب : قول العبد الله أكبر خير من الدنيا وما فيها .

وهذه الآية هي خاتمة التوراة .

روى مطرِّف عن عبد الله بن كعب قال : افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام وختمت بخاتمة هذه السورة .

وفي الخبر : " أنها آية العز " ؛ رواه معاذ بن جبل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه "وقل الحمد لله الذي" الآية .

وقال عبد الحميد بن واصل : سمعت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قرأ وقل الحمد لله الآية كتب الله له من الأجر مثل الأرض والجبال لأن الله تعالى يقول فيمن زعم أن له ولداً تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتَخِرّ الجبال هَدّاً " وجاء في الخبر .

" أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر رجلاً شكا إليه بالدَّين بأن يقرأ "قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن" إلى آخر السورة ثم يقول توكلت على الحي الذي لا يموت ؛ ثلاث مرات " . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

قال ابن عباس : تهجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذات ليلة بمكة فجعل يقول في سجوده : "يا رحمن يا رحيم" .

فقال المشركون : كان محمد يدعو إلهاً واحداً فهو الآن يدعو إلهين اثنين الله والرحمن ، ما الرحمن إلاّ رحمن اليمامة يعنون مسيلمة فنزلت قاله في التحرير .

ونقل ابن عطية نحواً منه عن مكحول .

وقال عن ابن عباس : سمعه المشركون يدعو يا الله يا رحمن ، فقالوا : كان يدعو إلهاً واحداً وهو يدعو إلهين فنزلت .

وقال ميمون بن مهران : كان عليه السلام يكتب : باسمك اللهم حتى نزلت إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم فكتبها فقال مشركوا العرب : هذا الرحيم نعرفه ، فما الرحمن ؟ فنزلت : وقال الضحاك : قال أهل الكتاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) : إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم ، فنزلت لما لجوّا في إنكار القرآن أن يكون الله نزله على رسوله عليه السلام وعجزوا عن معارضته ، وكان عليه الصلاة والسلام قد جاءهم بتوحيد الله والرفض لآلهتهم عدلوا إلى رميه عليه الصلاة والسلام بأن

ما نهاهم عنه رجع هو إليه ، فردّ الله تعالى عليهم بقوله ﴿ قل ادعوا الله ﴾ الآية .

والظاهر من أسباب النزول أن الدعاء هنا قوله يا رحمن يا رحيم أو يا الله يا رحمن من الدعاء بمعنى النداء ، والمعنى : إن دعوتم الله فهو اسمه وإن دعوتم الرحمن فهو صفته .

قال الزمخشري : والدعاء بمعنى التسمية لا بمعنى النداء وهو يتعدّى إلى مفعولين ، تقول : دعوته زيداً ثم تترك أحدهما استغناءً عنه ، فتقول : دعوت زيداً انتهى .

ودعوت هذه من الأفعال التي تتعدّى إلى اثنين ثانيهما بحرف جر ، تقول : دعوت والدي بزيد ثم تتسع فتحذف الباء .

وقال الشاعر في دعا هذه :

دعتني أخاها أم عمرو ولم أكن . . .

أخاها ولم أرضع لها بلبان

وهي أفعال تتعدى إلى واحد بنفسها وإلى الآخر بحرف الجر ، يحفظ ويقتصر فيها على السماع وعلى ما قال الزمخشري يكون الثاني لقوله ﴿ ادعوا ﴾ لفظ الجلالة ، ولفظ ﴿ الرحمن ﴾ وهو الذي دخل عليه الباء ثم حذف وكأن التقدير ﴿ ادعوا ﴾ معبودكم بالله

أو ادعوه بالرحمن ولهذا قال الزمخشري : المراد بهما اسم المسمى وأو للتخيير ، فمعنى ﴿ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ سموا بهذا الاسم أو بهذا ، واذكروا إما هذا وإما هذا انتهى .

وكذا قال ابن عطية هما اسمان لمسمى واحد ، فإن دعوتموه بالله فهو ذاك ، وإن دعوتموه بالرحمن فهو ذاك وأي هنا شرطية .

والتنوين قيل عوض من المضاف و﴿ ما ﴾ زائدة مؤكدة .

وقيل : ﴿ ما ﴾ شرط ودخل شرط على شرط .

وقرأ طلحة بن مصروف .

﴿ أياً ﴾ من ﴿ تدعوا ﴾ فاحتمل أن تكون من زائدة على مذهب الكسائي إذ قد ادّعى زيادتها في قوله :

يا شاة من قنص لمن حلت له . . .

واحتمل أن يكون جمع بين أداتي شرط على وجه الشذوذ كما جمع بين حرفي جر نحو قول الشاعر :

فأصبحن لا يسألنني عن بما به . . .

وذلك لاختلاف اللفظ .

والضمير في ﴿ فله ﴾ عائد على مسمى الاسمين وهو واحد ، أي فلمسماهما ﴿

الأسماء الحسنى ﴾ ، وتقدم الكلام على قوله ﴿ الأسماء الحسنى ﴾ في الأعراف .

وقوله : ﴿ فله ﴾ هو جواب الشرط .

قيل : ومن وقف على ﴿ أياً ﴾ جعل معناه أي اللفظين دعوتموه به جاز ، ثم استأنف فقال ما تدعوه ﴿ فله الأسماء الحسنى ﴾ وهذا لا يصح لأن ما لا تطلق على آحاد أولي العلم ، ولأن الشرط يقتضي عموماً ولا يصح هنا ، والصلاة هنا الدعاء قاله ابن عباس وعائشة وجماعة .

وعن ابن عباس أيضاً : هي قراءة القرآن في الصلاة فهو على حذف مضاف أي بقراءة الصلاة ، ولا يلبس تقدير هذا المضاف لأنه معلوم أن الجهر والمخافتة معتقبان على الصوت لا غير ، والصلاة أفعال وأذكار وكان عليه الصلاة والسلام يرفع صوته بقراءته فيسب المشركون ويلغون فأمر بأن يخفض من صوته حتى لا يسمع المشركين ، وأن لا يخافت حتى يسمعه من وراءه من المؤمنين .

﴿ وابتغ بين ذلك ﴾ أي بين الجهر والمخافتة ﴿ سبيلاً ﴾ وسطاً وتقدم الكلام على ﴿ بين ذلك ﴾ في قوله ﴿ عوان بين ذلك ﴾ وقال ابن عباس أيضاً والحسن : لا تحسن

علانيتها وتسيء سرّيتها .

وعن عائشة : الصلاة يراد بها هنا التشهد .

وقال ابن سيرين : كان الأعراب يجهرون بتشهدهم فنزلت الآية في ذلك ، وكان أبو بكر يسرّ قراءته وعمر يجهر بها .

فقيل لهما في ذلك فقال أبو بكر : إنما أناجي ربي وهو يعلم حاجتي .

وقال عمر : أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان ، فلما نزلت قيل لأبي بكر ارفع أنت قليلاً .

وقيل لعمر : اخفض أنت قليلاً .

وعن ابن عباس أيضاً : المعنى ﴿ ولا تجهر ﴾ بصلاة النهار ﴿ ولا تخافت ﴾ بصلاة الليل .

وقال ابن زيد : معنى الآية على ما يفعله أهل الإنجيل والتوراة من رفع الصوت أحياناً فيرفع الناس معه ، ويخفض أحياناً فيسكت الناس خلفه انتهى .

كما يفعل أهل زماننا من رفع الصوت بالتلحين وطرائق النغم المتخذة للغناء .

ولما ذكر تعالى أنه واحد وإن تعددت أسماؤه أمر تعالى أن يحمده على ما أنعم به عليه مما آتاه من شرف الرسالة والاصطفاء ، ووصف نفسه بأنه ﴿ لم يتخذ ولداً ﴾ فيعتقد فيه تكثّر بالنوع ، وكان ذلك ردّاً على اليهود والنصاري والعرب الذين عبدوا الأصنام وجعلوها شركاء لله ، والعرب الذين عبدوا الملائكة واعتقدوا أنهم بنات الله .

ونفى أولاً الولد خصوصاً ثم نفى الشريك في ملكه وهو أعم من أن ينسب إليه ولد فيشركه أو غيره ، ولما نفى الولد ونفى الشريك نفى الولي وهو الناصر ، وهو أعم من أن يكون ولداً أو شريكاً أو غير شريك .

ولما كان اتخاذ الولي قد يكون للانتصار والاعتزاز به والاحتماء من الذلّ وقد يكون للتفضل والرحمة لمن والى من صالحيّ عباده كان النفي لمن ينتصر به من أجل المذلة ، إذ كان مورد الولاية يحتمل هذين الوجهين فنفى الجهة التي لأجل النقص بخلاف الولد والشريك فإنهما نفيا على الإطلاق .

وجاء الوصف الأول بقوله ﴿ الذي لم يتخذ ولداً ﴾ والمعنى أنه تعالى لم يسم ولم يعدّ أحداً ولداً ولم ينفه بجهة التوالد لاستحالة ذلك في بدائه العقول ، فلا يتعرض لنفيه بالمنقول ولذلك جاء ما اتخذ الله من ولد لم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

وقال مجاهد : في قوله ﴿ ولم يكن له وليّ من الذلّ ﴾ المعنى لم يخالف أحداً ولا ابتغى نصر أحد .

وقال الزمخشري : ﴿ وليّ من الذلّ ﴾ ناصر من الذل ومانع له منه لاعتزازه به ، أو لم يوال

أحداً من أجل المذلة به ليدفعها بموالاته انتهى .

وقيل : ولم يكن له ﴿ ولي ﴾ من اليهود والنصاري لأنهم أذل الناس فيكون ﴿ من الذل ﴾ صفة لولي انتهى .

أي ﴿ ولي من ﴾ أهل ﴿ الذل ﴾ ، فعلى هذا وما تقدّم يكون ﴿ من ﴾ في معنى المفعول به أو للسبب أو للتبعيض .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد ؟ قلت : لأن من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة فهو الذي يستحق جنس الحمد ، والذي تقرر أن النفي تسلط من حيث المعنى على القيد أي لا ذل يوجد في حقه فيكون له ولي ينتصر به منه ، فالذل والولي الذي يكون اتخاذه بسببه منتفيان .

(110/465)

﴿ وكبره تكبيراً ﴾ التكبير أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال ، وأكد بالمصدر تحقيقاً له وإبلاغاً في معناه ، وابتدئت هذه السورة بتنزيه الله تعالى واختتمت به ، وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية

﴿ وقل الحمد لله ﴾ إلى آخرها والله أعلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ
﴾

(111/465)

وقال الثعالبى :

وقوله سبحانه : ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن . . . ﴾ الآية

: سبب نزول هذه الآية : أنَّ بعض المشركين سمع النبيَّ صلى الله عليه وسلم يدعو : يا اللَّه يا رَحْمَانَ، فقالوا : كان محمَّدٌ يأمرنا بدعاءِ إله واحدٍ، وهو يدْعو إلَهَين، قاله ابن عباس، فنزلَتِ الآية مبيّنةً، أنها أسماء لمسمًّى واحد، وتقدير الآية : أيُّ الأسماءِ تدعو به، فأنت مصيبٌ، فله الأسماءُ الحسنى، وفي «صحيحِ البخاريّ» بسنده عن ابن عباس في قوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قَالَ : نَزَلَتْ ورسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مُخْتَفٍ بمكَّةَ، كان إذا صَلَّى بأصحابه، رَفَعَ صَوْتَهُ بالقرآن، فإذا سمعه المشْرِكُون، سَبُّوا القرآن، ومن أنزله، ومن جاء به، فقال اللَّه تبارك وتعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ ﴾، أي : بقراءتك، فيسمعَ المشركونَ فيسبوا القرآن، ﴿ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك ؛ فلا تسمعهم، ﴿ وابتغ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً ﴾،

وأسند البخاريُّ عن عائشة : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قالتْ : أُنزل ذلك في الدعاءِ انتهى .

(112/465)

قال الغَزَّاليُّ في «الإِحياء» : وقد جاءت أحاديثُ تقتضي استحبابَ السِّرِّ بالقرآن ، وأحاديثُ تقتضي استحبابَ الجَهْر به ، والجَمْع بينهما أنْ يقال : إِن التالي إِذا خاف على نفسه الرِّياءَ والتصنُّع أو تشويش مُصَل ، فالسر أفضلُ ، وإِن أَمِنَ ذلك ، فالجهر أَفْضَلُ ؛ لأن العمل فيه أكثر ؛ ولأن فائدته أيضاً تتعدَّى إِلى غيره ؛ والخير المتعدّي أفضلُ من اللازم ؛ ولأنه يوقظ قَلْبَ القارىء ، ويجمع هِمَّتَه إِلى الفكْر فيه ، ويصرف إِليه سَمْعَه ، ويطرد عنه النوْمَ برفْعِ صوته ، ولأنه يزيدُ في نشاطه في القراءة ، ويقلّل من كسله ؛ ولأنه يرجو بجهره تيقُّظ نائمٍ ، فيكون سَبَباً في إِعانته على الخير ، ويسمعه بَطَّال غافلٌ ، فينشط بسببه ، ويشتاقُ لخدمة خالقه ، فمهما حَضَرَتْ نيّةٌ من هذه النيّات ، فالجهر أفضلُ ، وإِن اجتمعتْ هذه النيَّاتُ ، تضاعفَ الأجر ، وبكثرة النياتِ يزكُو عمل الأبرار وتتضاعف أجورهم . انتهى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذل ﴾ هذه الآية رادَّة على كَفَرة العرب في قولهم : لولا أولياءُ الله ، لَذَلَّ - تعالى الله عن قولهم - وقيَّد سبحانه نَفْيَ الولاية له بطريق الذُّلِّ ،

وعلى جهة الانتصار ؛ إذ ولايته سبحانه موجُودَةٌ بفضله ورحمته لمن والى من صَالح عباده .

قال مجاهد : المعنى لم يخَالِفْ أحداً ولا ابتغى نصْرَ أحد سبحانه ، لا إله إلا هو وصلَّى اللَّه على سيدِنا ومولانا محمَّد وعلى آله وصَحْبه وسلَّم تسليماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(113/465)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾

نزل حين سمع المشركون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يا ألله يا رحمن" فقالوا : إنه ينهانا عن عبادة إلهين وهو يدعو إلها آخرَ . وقالت اليهود : إنك لتُقِلّ ذكرَ الرحمن وقد أكثره الله تعالى في التوراة . والمرادُ على الأول هو التسويةُ بين اللفظين بأنهما عبارتان عن ذات واحدةٍ وإن اختلف الاعتبارُ والتوحيدُ إنما هو للذات الذي هو المعبودُ ، وعلى الثاني أنهما سيّان في حسن الإطلاقِ والإفضاء إلى المقصود وهو أوفق لقوله تعالى : ﴿ أَيّا مّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأسماء الحسنى ﴾ والدعاءُ بمعنى التسمية وهو يتعدى إلى مفعولين حُذف أولُهما استغناءً عنه ، وأو للتخيير والتنوينُ في أياً عوضٌ عن المضاف إليه وما مزيدةٌ لتأكيد

ما في أي من الإبهام ، والضميرُ في له للمسمّى لأن التسميةَ له لا للاسم وكان أصلُ الكلامِ أياً ما تدعوا فهو حسنٌ فوضع موضعَه فله الأسماءُ الحسْنى للمبالغة والدِلالة على ما هو الدليلُ عليه ، إذ حسنُ جميعِ أسمائِه يستدعي حسنَ ذينك الاسمين وكونُها حُسنى لدلالتها على صفات الكمالِ من الجلال والجمال والإكرام .

(114/465)

﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ﴾ أي بقراءة صلاتِك بحيث تُسمع المشركين فإن ذلك يحملهم على السب واللغوِ فيها ﴿ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾ أي بقراءتها بحيث لا تُسمع من خلفك من المؤمنين ﴿ وابتغ بَيْنَ ذلك ﴾ أي بين الجهرِ والمخافتة على الوجه المذكور ﴿ سَبِيلاً ﴾ أمراً وسَطاً قصْداً فإن خيرَ الأمور أوساطُها ، والتعبيرُ عن ذلك بالسبيل باعتبار أنه أمرٌ يتوجه إليه المتوجهون ويؤُمّه المقتدون ويوصلُهم إلى المطلوب ، وروي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه كان يخفِت ويقول : أناجي ربي وقد علم حاجتي ، وعمر رضي الله عنه كان يجهر بها ويقول : أطرُد الشيطان وأوقظ الوسْنان ، فلما نزلت أمرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفعَ قليلاً وعمرَ أن يخفِض قليلاً ، وقيل : المعنى لا تجهَرْ بصلاتك كلِّها ولا تخافت بها بأسرها وابتغِ بين ذلك سبيلاً بالمخافتة نهاراً والجهرِ ليلاً ، وقيل : بصلاتك

بدعائك وذهب قوم إلى أنها منسوخةٌ بقوله تعالى : ﴿ ادعوا ربَّكُمْ تضرُّعًا وَخُفْيَة . ﴾

﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾

(115/465)

كما يزعم اليهودُ والنصارى وبنو مليح ، حيث قالوا : عزيرٌ ابنُ الله والمسيحُ ابنُ الله والملائكةُ بناتُ الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِى الملك ﴾ أي الألوهيةِ كما يقوله الثنويةُ القائلون بتعدد الآلهة ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذل ﴾ ناصرٌ ومانعٌ منه لاعتزازه ، أو لم يوالِ أحداً من أجل مذلةٍ ليدفعها به ، وفي التعرض في أثناء الحمدِ لهذه الصفاتِ الجليلة إيذانٌ بأن المستحقَّ للحمد مَنْ هذه نعوتُه دون غيره ، إذ بذلك يتم الكمالُ والقُدرةُ التامة على الإيجاد ، وما يتفرّع عليه من إفاضة أنواعِ النعم وما عداه ناقصٌ مملوكٌ نعمةٌ أو منقماً عليه ، ولذلك عُطف عليه قولُه تعالى : ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ وفيه تنبيهٌ على أن العبدَ وإن بالغ في التنزيه والتمجّد واجتهد في الطاعة والتحميد ينبغي أن يعترِف بالقصور في ذلك . رُوي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أفصح الغلامُ من بني عبد المطلب علّمه هذه الآية الكريمة .

وعنه عليه الصلاة والسلام : " من قرأ سورةَ بني إسرائيلَ فرقّ قلبُه عند ذكرِ الوالدَين كان له

قنطارٌ في الجنة " والقنطارُ ألفُ أوقية ومائتا أوقية والحمد لله سبحانه وله الكبرياء والعظمة والجبروت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 5 صـ ﴾

(116/465)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : صلى صلى الله عليه وسلم بمكة ذات يوم فدعا الله تعالى فقال في دعائه : يا الله يا رحمن فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابىء ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين فنزلت ، وعن الضحاك أنه قال : قال أهل الكتاب للرسول صلى الله عليه وسلم : إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله تعالى في التوراة هذا الاسم فنزلت ، والمراد على الأول التسوية بين اللفظين بأنهما عبارتان عن ذات واحد وإن اختلف الاعتبار والتوحيد إنما هو للذات الذي هو المعبود وهو يلائم قوله تعالى فيما بعد :

﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِى الملك ﴾ [الإسراء : 111]

وعلى الثاني التسوية في حسن الإطلاق والإفضاء إلى المقصود فإن أهل الكتاب فهموا أحسنية الرحمن لكونه أحب إليه تعالى إذ أكثر ذكره في كتابهم وكأن حكمة ذلك أن موسى

عليه السلام كان غضوباً كما دلت عليه الآثار فأكثر له من ذكر الرحمن ليعامل أمته بمزيد الرحمة لأن الأنبياء عليهم السلام يتخلقون بأخلاق الله تعالى ، قال القاضي البيضاوي : وهذا أجوب لقوله تبارك اسمه ﴿ أَيًا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأسماء الحسنى ﴾ لأن توصيف الأسماء بالحسنى يفهم منه أن المقول لهم ذلك يظنون أحسنية اسم من اسم لا التغاير ، وقال صاحب الكشف : الغرض على الوجهين التسوية بين اللفظين في الحسن والاختلاف إنما هو بأن الاستواء في الحسن رد لمن قال : إنك لتقل الخ بأن الإتيان بأحد الحسنين كاف أو لمن قال : ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو بأن الاختلاف بين اللفظين الدالين على كماله تعالى لا بين كاملين فالأجوبية ممنوعة انتهى .

(117/465)

وتعقب بأن أنسبية التوصيف بالحسنى للثاني ظاهرة مما لا تكاد تنكر ، ووجه الطيبي الأجوبية بأن اعتراض اليهود كان تعييراً للمسلمين على ترجيح أحد الاسمين على الآخر واعتراض المشركين كان تعييراً على الجمع بين اللفظين ، وقوله تعالى : ﴿ أَيًا مَّا تَدْعُواْ ﴾ يطابق الرد على اليهود لأن المعنى أي اسم من الاسمين دعوتموه فهو حسن وهو لا ينطبق على اعتراض المشركين ثم قال : هذا مسلم إذا كان أو للتخيير ويجوز أن تكون للإباحة

والانطباق حينئذٍ ظاهر فإن المشركين حظروا الجمع بين الاسمين فيكون ردهم بإباحة الجمع بين الأسماء المتكاثرة فضلاً عن الجمع بين الاسمين على أن الجواب بالتخيير في الرد على أهل الكتاب غير مطابق لأنهم اعترضوا بالترجيح .

وأجيب بالتسوية لأن أو تقتضيها ، وكان الجواب العتيد أن يقال : إنما رجحنا الله على الرحمن في الذكر لأنه جامع لجميع صفات الكمال بخلاف الرحمن ، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى تتمة الكلام فيما يتعلق بهذا .

ومنع الأجوبة أيضاً الجلبي بأن تقديم الخبر في قوله تعالى : ﴿ فَلَهُ الأَسماء الحسنى ﴾ يقتضي أجوبة الأول إذ معناه هذه الأسماء لله تعالى لا لغيره كما زعم المشركون إلا أن يقال أو للتخيير وهو غير مسلم بل يتعين كونها للإباحة لأنها كما قال الرضي وغيره يجوز الجمع فيها بين المتعاطفين والاقتصار على أحدهما وفي التخيير لا يجوز الجمع وهو هنا جائز .

(118/465)

ودفع بأن المعنى لله تعالى أسماء متفقة في الحسن لأنها لا تختلف مدلولاتها بالذات بخلاف غيره سبحانه فإن أسماءه تختلف فالقصر إذا كان بأن لم يكن التقديم لمجرد التشويق ناظر إلى الوصف لا للأسماء وهذا لا يتوقف على تسليم التخيير ، ثم إنه لا مانع من إرادته بل أي

تقتضيه لأنها لأحد الشيئين فإذا قلت لأحد : أي الأمرين تفعل فافعل لم تأمره بفعلهما بل بفعل أحدهما وأما الدلالة على جواز الجمع فمن خارج النظم ودلالة العقل لأنهما إذا لم يتنافيا جاز الجمع بينهما ، ومن هنا تعلم أنه لا حاجة إلى حمل التخيير في كلام من عبر به على غير الاصطلاح المشهور الذي هو اصطلاح النحاة فيه إذا قوبل بالإباحة بأن يقال : مراده به التسوية بين الاسمين في الدلالة على ذات واحدة وسواء فيه الإفراد والجمع ، قال في التلويح : وفي التخيير قد يجوز الجمع بحكم الإباحة الأصلية وهذا يسمى التخيير على سبيل الإباحة اه .

(119/465)

والظاهر أن الحق مع مانع الأجوبة والقائل بالإباحة فتدبر ، والدعاء على ما اختاره أبو حيان وجماعة بمعنى النداء ، وقال الزمخشري : هو بمعنى التسمية لا بمعنى النداء وهو يتعدى إلى مفعولين تقول دعوته زيداً ثم يترك أحدهما استغناءً عنه فتقول دعوت زيداً ، والأصل على ما قيل أن يتعدى إلى الثاني بالباء لكنه يتسع فيحذف الباء والمفعول الآخر هنا محذوف أي سموه بهذا الاسم أو بهذا الاسم وكذا يقال في الدعاء الثاني ، وعلل ذلك بأنه لو حمل على الحقيقة المشهورة يلزم إما الاشتراك أن تغاير مدلولاً الاسمين أو عطف

الشيء على نفسه بأو وهو إنما يجوز بالواو أن اتحدا ، وبحث فيه بأنا نختار الثاني ولا يلزم ما ذكر لأنه قصد اللفظ كما تقول نادى النبي صلى الله عليه وسلم بمحمد أو بأحمد مع أن اختلاف مفهوميهما يكفي لصحته ، وما روي في سبب النزول أولاً ينادي على ما قيل على إرادة النداء ، وقيل إن كانت الآية رداً على المشركين فهو بمعنى التسمية وإن كانت رداً على اليهود فهو بمعنى النداء وجعل الطيبي لذلك تفسير الزمخشري إياه بالتسمية مؤذناً بميله إلى أنها رد على المشركين وفي ذلك تأمل ، و﴿ أَيًّا ﴾ اسم شرط جازم منصوب بتدعوا وجازم له فهو عامل ومعمول من جهتين والتنوين عوض عن المضاف إليه المحذوف والتقدير أي هذين الاسمين وما حرف مزيد للتأكيد ، وقيل إنها اسم شرط مؤكد به .

وقرأ طلحة بن مصرف ﴿ مِنْ ﴾ بدل ما وخرج على زيادتها على مذهب الكسائي أو جعلها أداة شرط والجمع بين أداتي الشرط كالجمع بين حرفي الجر في قوله :

فأصبحن لا يسألنني عن بما به . . .

(120/465)

شاذ ، وجملة ﴿ فَلَهُ الأسماء الحسنى ﴾ واقعة موقع جواب الشرط وهي في الحقيقة تعليل له ، وكأن أصل الكلام أياماً تدعوه به فهو حسن لأن له سبحانه الأسماء الحسنى

اللاتي منها هذان ، وفي العدول عن حق الجواب إقامة الشيء بدليله وفيه مبالغة لا تخفى ، وهذا التقدير ظاهر على القول الثاني في سبب النزول ويقدر على القول الأول فيه فمدلوله واحد ونحوه ، ولا حاجة إلى ذلك بل يقدر على القولين فهو حسن على ما سمعت عن صاحب الكشف .

وقال الطيبي وقد حمل أو على الإباحة وجعل الخطاب للمشركين : التقدير قل سموا ذاته المقدسة بالله وبالرحمن فهما سيان في استصواب التسمية بهما فبأيهما سميته فأنت مصيب وإن سميته بهما جميعاً فأنت أصوب لأن له الأسماء الحسنى وقد أمرنا سبحانه بأن ندعوه بها في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأسماء الحسنى فادعوه بِهَا ﴾ [الأعراف : 180] فجواب الشرط الأول قولنا فأنت مصيب ودل على الشرط الثاني وجوابه قوله تعالى : ﴿ فَلَهُ الأسماء الحسنى ﴾ والآية على هذا فن من فنون الإيجاز الذي هو من حلية التنزيل ، وعلى تقدير فهو حسن حسبما سمعت أولاً من باب الإطناب اه وهو كما ترى .

ونقل في "البحر" أن منهم من وقف على ﴿ أَيّا ﴾ على معنى أي اللفظين تدعوه به جاز ثم استأنف فقال ما تدعوا فله الأسماء الحسنى .

وتعقبه بأن هذا لا يصح لأن ﴿ مَا ﴾ لا يطلق على آحاد ذوي العلم ولأن الشرط يقتضي عموماً وهو لا يصح هنا ، وضمير ﴿ فَلَهُ ﴾ عائد على المسمى أو المنادي المفهوم من الكلام والقرينة عقلية وهي أن الأسماء تكون للمسمى وللمنادي لا للاسم واللفظ المنادى به ، وسيأتي إن شاء الله تعالى عن محيى الدين قدس سره غير ذلك في باب الإشارة ، ووصف الأسماء بالحسنى لدلالتها على ما هو جامع لجميع صفات الكمال بحيث لا يشذ منها شيء وما هو من صفات الجلال والجمال والإكرام ، هذا واعلم أن الظاهر مما روى عن اليهود أنهم لا ينكرون حسن سائر أسمائه تعالى وإنما يزعمون أن الرحمن منها أحب أسمائه تعالى إليه وأعظمها وأشرفها لكثرة ذكره تعالى في التوراة واختلاف أسمائه عزت أسماؤه في الشرف والعظم مما ذهب إليه المسلمون أيضاً .

ويدل عليه تخصيصه صلى الله عليه وسلم بعض الأسماء بأنه الاسم الأعظم فقد روى : " أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يدعو وهو يقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد فقال عليه الصلاة والسلام : والذي نفسي بيده لقد سأل الله تعالى باسمه الأعظم الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى "

وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال : اسم الله تعالى الأعظم في هاتين الآيتين ﴿ وإلهكم إله واحد لاَّ إله إلاَّ هُوَ الرحمن الرحيم ﴾ [البقرة : 163] وفاتحة آل عمران ﴿ الم الله لاَ إله إلاَّ هُوَ الحى القيوم ﴾ [آل عمران : 1 ، 2] ونص حجة الإسلام الغزالي في أوائل كتابه المقصد الأسني على أن الله أعظم الأسماء التسعة والتسعين لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الإلهية كلها وسائر الأسماء لا يدل آحادها إلا على آحاد المعاني من علم أو قدرة أو فعل أو غيره ولأنه أخص الأسماء إذ لا يطلقه أحد على غيره تعالى لا حقيقة ولا مجازاً وسائر الأسماء قد يسمى به غيره عز وجل كالقادر والعليم والرحيم وغيرها ، واسمه تعالى الرحمن لا يسمى به غيره تعالى أيضاً وهو من هذا الوجه قريب من اسم الله سبحانه وإن كان مشتقاً من الرحمة قطعاً ولذا جمع عز وجل بينهما في قوله سبحانه ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ اه .

وقال في أواخره : فإن قيل ما بال تسعة وتسعين من أسمائه تعالى اختصت بأن من أحصاها دخل الجنة مع أن الكل أسماء الله تعالى فنقول : الأسامي يجوز أن تتفاوت فضيلتها لتفاوت

معانيها في الجلالة والشرف فتكون تسعة وتسعون منها تجمع أنواعاً من المعاني المنبئة عن الجلال لا يجمع ذلك غيرها مختص بزيادة شرف انتهى ، وقال الإمام الرازي في هذه الآية : تخصيص هذين الاسمين يعني الله والرحمن بالذكر يدل على أنهما أشرف من سائر الأسماء ، وتقديم اسم الله على اسم الرحمن يدل على قولنا : الله أعظم الأسماء إلى غير ذلك مما ذكره غير واحد من الأجلة ، والآية إنما تصلح بحسب الظاهر رداً لما فهمه اليهود إذا كان المراد منها نفي التفاوت الذي زعموه وحينئذ يقع التعارض بينها وبين ما يدل على التفاوت من الأخبار ، وقد يجعل هذا وجهاً لاختيار كون سبب النزول قول المشركين ولعل أثره أصح ، وما نقلناه فيما سبق عن العلامة الطيبي مؤيد لما قلناه ، واحتج الجبائي بالآية على أنه تعالى ليس خالق الظلم وإلا لصح اشتقاق اسم له سبحانه منه وحينئذ يبطل ما دلت عليه الآية من كون أسمائه تعالى بأسرها حسنى .

وأجيب بمنع الملازمة لأن الظلم ليس صفته عز وجل وكونه خالقاً له لا يصحح الاشتقاق منه وإلا لصح الاشتقاق من الطول والقصر والسواد والبياض لأنه تعالى خالق لذلك بالاتفاق ، نعم لا ينبغي أن يقال لله تبارك وتعالى خالق القبيح للزوم الأدب معه سبحانه ويقال خالق كل شيء وما هو من أسمائه جلت أسماؤه الخالق لا خالق كذا فافهم سلك الله تعالى بنا وبك الطريق الأقوم .

وهذه الآية على ما قيل من آيات الحفظ بناء على ما أخرج البيهقي في الدلائل من طريق نهشل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ إلى آخر الآية هو أمان من السرق وأن رجلاً من المهاجرين تلاها حين أخذ مضجعه فدخل عليه سارق فجمع ما في البيت وحمله والرجل ليس بنائم حتى انتهى إلى الباب فوجده مردوداً فوضع الكارة وفعل ذلك ثلاث مرات فضحك صاحب الدرا ثم قال: إني أحصنت بيتي ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وابتغ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً ﴾ أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن حبان وغيرهم عن ابن عباس قال: نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختف بمكة فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك وابتغ بين ذلك سبيلاً يقول بين الجهر والمخافتة، وظاهره أن المراد بالصلاة القراءة التي هي أحد أجزائها مجازاً، ويجوز أن يكون الكلام على تقدير مضاف أي بقراءة صلاتك، والظاهر أن المراد بالقراءة ما يعم البسملة وغيرها وبعض الأخبار يفيد ظاهره تخصيصها بالبسملة، فقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن

سعيد قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يرفع صوته ببسم الله الرحمن الرحيم وكان مسيلمة قد تسمى الرحمن فكان المشركون إذا سمعوا ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم عليه الصلاة والسلام قالوا : قد ذكر مسيلمة إله اليمامة ثم عارضوه بالمكاء والتصدية والصفير فأنزل الله تعالى هذه الآية ، ولا يخفى على هذه الرواية أشدية مناسبة الآية لما قبلها .

(125/465)

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع قال : كان أبو بكر إذا صلى من الليل خفض صوته جداً وكان عمر إذا صلى من الليل رفع صوته جداً فقال عمر : يا أبا بكر لو رفعت من صوتك شيئاً ؛ وقال أبو بكر : يا عمر لو خفضت من صوتك شيئاً فأتياه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه بأمرهما فأنزل الله تعالى الآية فأرسل عليه الصلاة والسلام إليهما فقال : يا أبا بكر ارفع من صوتك شيئاً وقال لعمر اخفض من صوتك شيئاً ، وفي رواية أنه قيل لأبي بكر : لم تصنع هذا ؟ فقال : أناجي ربي وقد عرف حاجتي ، وقيل لعمر : لم تصنع هذا ؟ قال : اطرد الشيطان وأوقظ الوسنان ، وأمر التجوز أو حذف المضاف على هذا مثله على الأول وكذا على ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن المعنى لا تجهر بصلاتك

كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلاً بالجهر في بعض كالمغرب والعشاء والمخافتة في بعض كما فيما عدا ذلك .

وقيل الصلاة بمعنى الدعاء لما أخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة قالت : إنما نزلت هذه الآية ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ في الدعاء ، وأخرج نحوه ابن أبي شيبة عن مجاهد ، وروى ذلك عن ابن عباس أيضاً ابن جرير وابن المنذر وجماعة وكانوا يجهرون باللهم ارحمني ، وأخرجوا عن عبد الله بن شداد أن أعراباً من بني تميم كانوا إذا سلم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : أي جهراً اللهم ارزقنا أبلاً وولداً فنزلت ، وفي رواية أخرى عن عائشة أن الصلاة هنا التشهد وكان الأعراب كما نقل عن ابن سيرين يجهرون بتشهدهم فنزلت ، وقيل : الصلاة على حقيقتها الشرعية فقد أخرج ابن عساكر عن الحسن أنه قال : المعنى لا تصل الصلاة رياء ولا تدعها حياء ، وروى نحوه ابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس أيضاً ، والأكثرون على التفسير المروي عنه أولاً ، والمخافتة أسرار الكلام بحيث لا يسمعه المتكلم ، ومن هنا قال ابن مسعود كما أخرجه عنه ابن أبي شيبة .

وابن جرير : لم يخافت من اسمه أذنيه ، وخفت وهو من باب ضرب وخافت بمعنى يقال خفت يخفت خفتاً وخفوتاً وخافت مخافتة إذا أسر وأخفى ، والتعبير عن الأمر الوسط بالسبيل باعتبار أنه مر يتوجه إليه المتوجهون ويؤمه المقتدون ويوصلهم إلى المطلوب ، وقد جاء عن عبد الله بن الشخير وأبي قلابة خير الأمور أوساطها ، والآية على ما يقتضيه كلام الأكثرين محكمة ، وقيل منسوخة بناء على ما أخرجه ابن مردويه وابن أبي حاتم عن ابن عباس من أنه صلى الله عليه وسلم أمر بمكة بالتوسط بأن لا يجهر جهراً شديداً ولا يخفض حتى لا يسمع أذنيه فلما هاجر إلى المدينة سقط ذلك ، وقيل هي منسوخة بقوله تعالى : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف : 55] وهو كما ترى ، ولا يخفى عليك حكم رفع الصوت بالقراءة فوق الحاجة وحكم المخافتة بالمعنى الذي سمعته المسطوران في كتب الفقه فراجعها إن لم يكن ذلك على ذمر منك ، وأخرج ابن أبي داود في المصاحف عن أبي رزين قال قرأ عبد الله ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِصَوْتِكَ وَلَا تُحَرِّكْ بِهِ ﴾ .

﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾

رد على اليهود والنصارى وبني مليح حيث قالوا : عزير ابن الله والمسيح ابن الله تعالى والملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ، ونفى اتخاذ الولد ظاهر في نفي التبني ويعلم منه نفي أن يكون له سبحانه ولداً لصلب من باب أولى ، وقد نفى ذلك صريحاً في قوله تعالى ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ [الإخلاص : 3] ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِى الملك ﴾ ظاهره أنه رد على الثنوية وهم المشركون في الربوبية ، ويجوز أن يكون كناية عن نفي الشركة في الألوهية فيكون رداً على الوثنية ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذل ﴾ أي ناصر ومانع له سبحانه من الذل لاعتزازه تعالى بنفسه فمن صلة لولي وضمن معنى المنع والنصر أو لم يوال تعالى أحداً من أجل مذلة فالولاية بمعنى المحبة على أصلها ومن تعليلية ، وليس المعنى على الوجهين ففي الذل والنص في الأول والموالاة والذل في الثاني على أسلوب لا يهتدي بمناره بل المراد أنه تعلى إذا اتخذ عبداً له ولياً فذلك محض الاصطناع في شأن العبد لا أن هناك حاجة ، وكذلك نصر الله تعالى كمال للناصر لا إن ثمة حاجة ألا ترى إلى قوله سبحانه : ﴿ إِن تَنصُرُواْ الله يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد : 7] وإلى هذا ذهب "صاحب الكشف" وهو حسن ، وجعل ذلك على الوجهين الفاضل الطيبي من ذاك الأسلوب ، وفي "الحواشي الشهابية" في بيان ثاني الوجهين أن المراد نفى أن يكون له تعالى مولى يلتجىء هو سبحانه إليه ، وأما الولي الذي يوصف به المؤمن فليس الولاية فيه بهذا المعنى بل بمعنى من يتولى أمره لمحبته له تفضلاً منه عز وجل ورحمة فغاير بين الولايتين ، ولعل الحق مع صاحب "الكشف"

، ومن عجيب ما قيل إن ﴿ مَّنَ الذل ﴾ في موضع الصفة لولي ومن فيه للتبعيض وأن الكلام على حذف مضاف أي لم يكن له ولي من أهل الذل والمراد بهم اليهود والنصارى ، ولعمري أنه لا ينبغي أن يلتفت إليه .

(128/465)

وربما يتوهم أن المقام مقام التنزيه لا مقام الحمد لأنه يكون على الفعل الاختياري وبه وما ذكر من الصفات العدمية ويدفع بأنه لاق وصفه تعالى بما ذكر بكلمة التحميد لأنه يدل على نفي الإمكان المقتضي للاحتياج وإثات أنه تعالى الواجب الوجود لذاته الغني عما سواه المحتاج إليه ما عداه فهو الجواد المعطي لكل قابل ما يستحق فهو تعالى المستحق للحمد دون غيره عز وجل ، وهذا الذي عناه الزمخشري وقال في "الكشف" : لك أن تخذ نفي هذه الصفات وهي ذرائع منع المعروف أما الولد فلأنه مبخلة ، وأما الشريك فلأنه مانع من التصرف كيف يشاء ، وأما الاحتياج إلى من يعتز به أو يذب عنه فاظهر رديفاً لإثبات أضادها على سبيل الكناية وهو وجه حسن ؛ ولو حمل الكلام على ظاهره أيضاً لكان له وجه وذلك لأن قول القائل الحمد لله فيه ما ينبىء أن الإلهية تقتضي الحمد فإذا قلت الحمد لله المنزه عن النقائص مثلاً يكون قد قويت معنى الإلهية المفهومة من اللفظ فيكون وصفاً لائقاً مؤيداً

لاستحقاقه تعالى الحمد من غير نظر إلى مدخلية الوصف في الحمد بالاستقلال وهذا يين مكشوف إلا أن الزمخشري حاول أن ينبه على مكان الفائدة الزائدة اه .

وتعقب بأن ما ذكره من أن الحمد لله ما ينبىء أن الإلهية تقتضي الحمد لا يتم على مذهب مانعي الاشتقاق في الاسم الكرمي وفيه تأمل .

(129/465)

والآية على ما قال العلامة الطيبي من التقسيم الحاصر لأن المانع من إيتاء النعم إما فوقه سبحانه وتعالى أو دونه أو مثله عز وجل فبنى الكلام على الترقي وبدىء من الأدون وختم بالأعلى فنفى الكل فمنه ولد الكثرة ولد القل والدق والجل تعالى كبرياؤه وعظمت نعماؤه ، ولدلالة ما تقدم على أنه تعالى هو الكامل وما عداه ناقص استحق التكبير أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال ، وفي الأمر بذلك بعدما تقدم مؤكداً بالمصدر المنكر من غير تعيين لما يعظم به تعالى إشارة إلى أنه مما لا تسعه العبارة ولا تفي به القوة البشرية وإن بالغ العبد في التنزيه والتمجيد واجتهد في العبادة والتحميد فلم يبق إلا الوقوف بأقدام المذلة في حضيض القصور والاعتراف بالعجز عن القيام بحقه جل وعلا وإن طالت القصور ، وروى غير واحد أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم الغلام من بني عبد المطلب إذا أفصح الحمد

لله إلى آخر الآية سبع مرات وسماها عليه الصلاة والسلام كما أخرج أحمد والطبراني عن معاذ آية العز ، وأخرج أبو يعلى وابن السني عن أبي هريرة قال : خرجت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم ويدي في يده فاتي على رجل رث الهيئة فقال : أي فلان ما بلغ بك ما أرى قال : السقم والضر قال صلى الله عليه وسلم ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر توكلت على الحي الذي لا يموت الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً الآية فاتى عليه رسول الله عليه الصلاة والسلام وقد حسنت حالته فقال : مهيم .

فقال : لم أزل أقول الكلمات التي علمتني .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج والبيهقي في الأسماء والصفات عن إسماعيل بن أبي فديك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما كربني أمر إلا مثل لي جبريل عليه السلام فقال : يا محمد قل : توكلت على الحي الذي لا يموت والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً "

إلى آخر الآية ، وأخرج ابن السني والديلمي عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لها إذا أخذت مضجعك فقولي : " الحمد لله الكافي سبحان الله الأعلى حسبي الله وكفى ما شاء الله قضى سمع الله لمن دعا ليس

من الله ملجأ ولا وراء الله ملتجي توكلت على ربي وربكم ما من دابة إلا هو وآخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقين ، الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً إلى وكبره تكبيراً ثم قال صلى الله عليه وسلم : ما من مسلم يقرأها عند منامه ثم ينام وسط الشياطين والهوام فتضره " هذا وما ألطف المناسبة بين ابتداء هذه السورة ، وهذا الختام وليس ذلك بدعا في كلام اللطيف العلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(131/465)

وقال الشوكانى :

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

أراد سبحانه أن يعلم عباده كيفية الدعاء والخشوع فقال : ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ ومعناه : أنهما مستويان في جواز الإطلاق وحسن الدعاء بهما ، ولهذا قال : ﴿ أَيًّا ما تَدْعُواْ فَلَهُ الاسماء الحسنى ﴾ التنوين في " أيا " عوض عن المضاف إليه ، و " ما " مزيدة لتوكيد الإبهام في : " أيا " والضمير في " له " راجع إلى المسمى ، وكان أصل الكلام : أيا ما تدعوا فهو حسن ، فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة ، وللدلالة على أنها

إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الإسمان ، ومعنى حسن الأسماء : استقلالها بنعوت الجلال والإكرام ، ذكر معنى هذا النيسابوري وتبعه أبو السعود .

(132/465)

قال الزجاج : أعلمهم الله أن دعاءهم الله ودعاءهم الرحمن يرجعان إلى قول واحد ، وسيأتي ذكر سبب نزول الآية ، وبه يتضح المراد منها ، ثم ذكر كيفية أخرى للدعاء فقال : ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾ أي : بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بأن الجهر والمخافتة من نعوت الصوت ، لا من نعوت أفعال الصلاة ، فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء ، يقال : خفت صوته خفوتاً : إذا انقطع كلامه وضعف وسكن ، وخفت الزرع إذا ذبل ، وخافت الرجل بقراءته : إذا لم يرفع بها صوته ، وقيل معناه : لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها ، والأوّل أولى ﴿ وابتغ بَيْنَ ذلك ﴾ أي : الجهر والمخافتة المدلول عليها بالفعلين ﴿ سَبِيلاً ﴾ أي : طريقاً متوسطاً بين الأمرين فلا تكن مجهورة ولا مخافتاً بها ، وعلى التفسير الثاني يكون معنى ذلك : النهي عن الجهر بقراءة الصلوات كلها ، والنهي عن المخافتة بقراءة الصلوات كلها ، والأمر بجعل البعض منها مجهوراً به ، وهو صلاة الليل والمخافتة بصلاة النهار ، وذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ ادعوا

رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف: 55].

ولما أمر أن لا يذكر ولا ينادى إلاّ بأسمائه الحسنى نبه على كيفية الحمد له فقال: ﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ كما تقوله اليهود والنصارى، ومن قال من المشركين: إن الملائكة بنات الله، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ﴿ وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِى الملك ﴾ أي: مشارك له في ملكه وربوبيته كما تزعمه الثنوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِىٌّ مّنَ الذل ﴾ أي: لم يحتج إلى موالاة أحد لذل يلحقه فهو مستغنٍ عن الوليّ والنصير.

(133/465)

قال الزجاج: أي لم يحتج أن ينتصر بغيره، وفي التعرّض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذان بأن المستحق للحمد من له هذه الصفات، لأنه القادر على الإيجاد وإفاضة النعم لكون الولد مجبنة ومبخلة، ولأنه أيضاً يستلزم حدوث الأب لأنه متولد من جزء من أجزائه، والمحدث غير قادر على كمال الإنعام، والشركة في الملك إنما تتصور لمن لا يقدر على الاستقلال به، ومن لا يقدر على الاستقلال عاجز فضلاً عن تمام ما هو له، فضلاً عن نظام ما هو عليه، وأيضاً الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين، فقد يمنعه الشريك من إفاضة

الخير إلى أوليائه ومؤدية إلى الفساد :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] .

والمحتاج إلى وليّ يمنعه من الذلّ وينصره على من أراد إذلاله ، ضعيف لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغني بنفسه ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ أي : عظمه تعظيماً وصفه بأنه أعظم من كل شيء .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : "صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ذات يوم فقال في دعائه : "يا ألله يا رحمن" فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين ، وهو يدعو إلهين ، فأنزل الله ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي قال : إن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرحمن ، وكان لهم كاهن باليمامة يسمونه الرحمن ، فنزلت الآية .

وهو مرسل .

وأخرج ابن جرير عن مكحول : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يتهجد بمكة ذات ليلة يقول في سجوده : "يا رحمن يا رحيم" فسمعه رجل من المشركين ، فلما أصبح قال لأصحابه : إن ابن أبي كبشة يدعو الليلة الرحمن الذي باليمن ، وكان رجل باليمن يقال له : رحمن ، فنزلت .

وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق نهشل بن سعيد عن الضحاك، عن ابن عباس قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله: ﴿ قُلِ ادعوا اللهَ أَوِ ادعوا الرحمن أَيًّا ما تَدْعُواْ ﴾ إلى آخر الآية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هو أمان من السرق وإن رجلاً من المهاجرين من أصحاب رسول الله تلاها حيث أخذ مضجعه، فدخل عليه سارق فجمع ما في البيت وحمله والرجل ليس بنائم حتى انتهى إلى الباب فوجد الباب مردوداً، فوضع الكارة، ففعل ذلك ثلاث مرات، فضحك صاحب الدار ثم قال: إني حصنت بيتي.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ﴾ الآية قال: نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوارٍ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله لنبيه: ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ﴾ أي: بقراءتك، فيسمع المشركون، فيسبوا القرآن ﴿ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿ وابتغ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً ﴾ يقول: بين الجهر والمخافتة.

وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان نبيّ الله صلى الله عليه وسلم يجهر بالقراءة بمكة فيؤذى ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عنه أيضاً نحوه .

وأخرج أبو داود في ناسخه عنه نحوه .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عنه أيضاً قال : كان مسيلمة الكذاب قد سمي الرحمن ، فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا صلى فجهر ببسم الله الرحمن الرحيم قال المشركون : يذكر إله اليمامة ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ .

(135/465)

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في الشعب عن محمد بن سيرين قال : نبئت أن أبا بكر كان إذا قرأ خفض ، وكان عمر إذا قرأ جهر ، فقيل لأبي بكر : لم تصنع هذا ؟ قال : أنا أناجي ربي ، وقد عرف حاجتي ، وقيل لعمر : لم تصنع هذا ؟ قال : أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان ، فلما نزل ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قيل لأبي بكر : ارفع شيئًا ، وقيل لعمر اخفض شيئاً .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، والبخاري ، ومسلم وغيرهم عن عائشة

قالت : إنما نزلت هذه الآية ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ في الدعاء .

وأخرج ابن جرير ، والحاكم عنها قالت : نزلت في التشهد .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن منيع ، وابن جرير ، ومحمد بن نصر ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس مثل حديث عائشة الأوّل .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال : إن اليهود والنصارى قالوا : اتخذ الله ولداً ، وقالت العرب : لبيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك ، وقال الصابئون والمجوس : لولا أولياء الله لذلّ .

فأنزل الله هذه الآية : ﴿ وقل الحمد لِلَّهِ ﴾ إلى آخرها .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذل ﴾ قال : لم يحالف أحداً ولم يبتغ نصر أحد .

وأخرج أحمد ، والطبراني عن معاذ بن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "آية العزّ ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ " الآية كلها .

وأخرج أبو يعلى وابن السني عن أبي هريرة قال : "خرجت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم ويده في يدي ، فأتى عليّ رجل رثّ الهيئة فقال : "أي فلان ما بلغ بك ما أرى "؟ قال : السقم والضرّ ، قال : "ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضرّ؟ توكلت على الحي الذي لا يموت ، الحمد لِلَّهِ الذى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا " إلى آخر الآية ، فأتى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حسنت حاله فقال : " ممّ "؟ قال : لم أزل أقول الكلمات التي علمتني .

وفي لفظ أن النبي صلى الله عليه وسلم علم ذلك أبا هريرة .

قال ابن كثير : وإسناده ضعيف وفي متنه نكارة .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم أهله هذه الآية : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ إلى آخرها الصغير من أهله والكبير .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبد الكريم بن أبي أمية قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم الغلام من بني هاشم إذا أفصح سبع مرات : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ إلى آخر السورة .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف من طريق عبد الكريم ، عن عمرو بن شعيب فذكره .

وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جدّه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ ﴾

ردٌّ لما أنكره المشركون من تسمية الرحمن ، وإذنٌ بتسميته بذلك . أي : سموه بهذا الاسم أو بهذا . و (أو) للتخيير ﴿ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ أي : أي : هذين الاسمين سميتم وذكرتم فهو حسن . وقد وضع موضعه قوله : ﴿ فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه ؛ إذ حسن جميع أسمائه يستدعي حسن ذينك الاسمين . فأقيم فيه دليل الجواب مقامه ، وهو أبلغ .

ومعنى كونها أحسن الأسماء ، أنها مستقلة بمعاني الحمد والتقديس والتعظيم . وهذه الآية كآية : ﴿ وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : 180] ، ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ ﴾ أي : بقراءة صلاتك . بتقدير مضاف . أو تسمية القراءة صلاة ؛ لكونها من أهم أركانها . كما تسمى الصلاة ركعة : ﴿ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾ أي : تُسرّ وتخفي : ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾ أي : بين الجهر والمخافتة ، أمراً وسطاً . فإن خير الأمور أوساطها .

قال أبو السعود : والتعبير عن ذلك بالسبيل ، باعتبار أنه أمر يتوجه إليه المتوجهون ، ويؤمه المقتدون ، ويوصلهم إلى المطلوب .

روى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرفع صوته بقراءته . فإذا سمعها المشركون لغوا وسبوا ، فأمر بأن يتوسط في صوته كيلا يسمع المشركون ، وليبلغ من خلفه قراءته .

(138/465)

ثم بيَّن سبحانه استحقاقه للحمد لاختصاصه بنعوت الكمال وصفات الجلال بقوله تعالى :

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ أي : لم يكن علة لموجود من جنسه ؛ لضرورة كون المعلول محتاجاً إليه ، ممكناً بالذات ، معدوماً بالحقيقة . فكيف يكون من جنس الموجود حقاً ، الواجب بذاته من جميع الوجوه ؟ : ﴿ وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ أي : من يساويه في قوة القهر والمملكة من الشريك في الملك . وإلا لكان مشتركين في وجوب الوجود والحقيقة . فامتياز كل واحد منهما عن الآخر ، لا بد وأن يكون بأمر غير الحقيقة الواجبة . فلزم تركبهما ، فكانا كلاهما ممكنين لا واجبين . وأيضاً فإن لم يستقلا بالتأثير ، لم يكن أحدهما إلهاً . وإن استقل أحدهما دون الآخر فذلك هو الإله دونه ، فلا شريك له .

وإن استقلا جميعاً ؛ لزم اجتماع المؤثرين المستقلين على معلول واحد ، إن فعلا معاً . وإلا لزم إلهية أحدهما دون الآخر ، رضي بفعله أو لم يرض . أفاده القاشاني .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ ﴾ أي : ناصر من الذل ومانع له منه ، لاعتزازه به . أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ، ليدفعها بموالاته : ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ أي : عظمه عن أن يلحقه شيء من هذه النقائص تعظيماً جليلاً .

تم ما علقناه على هذه السورة الكريمة ، ضحوة السبت في 26 شوال سنة 1323 في سدة جامع السنانية بدمشق الشام . يسر الله لنا بعونه الإتمام ، والحمد لله وحده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 541.542 ﴾

(139/465)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

لا شك أن لنزول هذه الآية سبباً خاصاً إذ لا موجب لذكر هذا التخيير بين دعاء الله تعالى باسمه العَلَم وبين دعائه بصفة الرحمان خاصة دون ذكر غير تلك الصفة من صفات الله مثل : الرحيم أو العزيز وغيرهما من الصفات الحسنى .

ثم لا بد بعد ذلك من طلب المناسبة لوقوعها في هذا الموضع من السورة.

فأما سبب نزولها فروى الطبري والواحدي عن ابن عباس قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً يدعو يا رحمان يا رحيم، فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو مثنى مثنى، فأنزل الله تعالى: ﴿قل ادعوا اللَّه أو ادعو الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾.

وعليه فالاقتصار على التخيير في الدعاء بين اسم الله وبين صفة الرحمان اكتفاء، أي أو الرحيم.

وفي "الكشاف": عن ابن عباس سمع أبو جهل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: يا الله يا رحمان.

فقال أبو جهل: إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر.

وأخرجه ابن مردويه.

وهذا أنسب بالآية لاقتصارها على اسم الله وصفة الرحمان.

وأما موقعها هنا فيتعين أن يكون سبب نزولها حدثَ حين نزول الآية التي قبلها.

والكلام رد وتعليم بأن تعدد الأسماء لا يقتضي تعدد المسمى، وشتان بين ذلك وبين دعاء المشركين آلهة مختلفة الأسماء والمسميات، والتوحيد والإشراك يتعلقان بالذوات لا بالأسماء.

و(أي) اسم استفهام في الأصل ، فإذا اقترنت بها (ما) الزائدة أفادت الشرط كما تفيده كيف إذا اقترنت بها (ما) الزائدة .

ولذلك جزم الفعل بعدها وهو ﴿ تدعوا ﴾ شرطاً ، وجيء لها بجواب مقترن بالفاء ، وهو ﴿ فله الأسماء الحسنى ﴾ .

والتحقيق أن ﴿ فله الأسماء الحسنى ﴾ علة الجواب .

والتقدير : أي اسم من أسمائه تعالى تَدعون فلا حرج في دعائه بعدة أسماء إذ له الأسماء الحسنى وإذ المسمى واحد .

(140/465)

ومعنى ﴿ ادعوا اللَّه أو ادعوا الرحمن ﴾ ادعوا هذا الاسم أو هذا الاسم ، أي اذكروا في دعائكم هذا أو هذا ، فالمسمى واحد .

وعلى هذا التفسير قد وقع تجوز في فعل ﴿ ادعوا ﴾ مستعملاً في معنى اذكروا أو سموا في دعائكم .

ويجوز أن يكون الدعاء مستعملاً في معنى سمّوا ، وهو حينئذٍ يتعدى إلى مفعولين .

والتقدير : سموا ربكم اللّهَ أو سموه الرحمان ، وحذف المفعول الأول من الفعلين وأبقي الثاني

لدلالة المقام .

لا شك أن لهذه الجملة اتصالاً بجملة ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ يؤيد ما تقدم في وجه اتصال قوله : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن ﴾ بالآيات التي قبله ، فقد كان ذلك بسبب جهر النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه باسم الرحمان .

والصلاة : تحتمل الدعاء ، وتحتمل العبادة المعروفة .

قود فسرها السلف هنا بالمعنيين .

ومعلوم أن من فسر الصلاة بالعبادة المعروفة فإنما أراد قراءتها خاصة لأنها التي توصف بالجهر والمخافتة .

وعلى كلا الاحتمالين فقد جهر النبي صلى الله عليه وسلم بذكر الرحمان ، فقال فريق من المشركين : ما الرحمان ؟ وقالوا : إن محمداً يدعو إلهين ، وقام فريق منهم يسب القرآن ومن جاء به ، أو يسب الرحمان ظناً أنه رب آخر غيرُ الله تعالى وغيرُ آلهتهم ، فأمر الله رسوله أن لا يجهر بدعائه أو لا يجهر بقراءة صلاته في الصلاة الجهرية .

ولعل سفهاء المشركين توهموا من صدع النبي صلى الله عليه وسلم بالقراءة أو بالدعاء أنه يريد بذلك التحكك بهم والتطاول عليهم بذكر الله تعالى مجرداً عن ذكر آلهتهم فاغتاظوا وسبوا ، فأمره الله تعالى بأن لا يجهر بصلاته هذا الجهر تجنباً لما من شأنه أن يثير حفائظهم

ويزيد تصلبهم في كفرهم في حين أن المقصود تليين قلوبهم .

والمقصود من الكلام النهي عن شدة الجهر .

(141/465)

وأما قوله تعالى : ﴿ ولا تخافت بها ﴾ فالمقصود منه الاحتراس لكيلا يجعل دعاءه سراً أو صلاته كلها سراً فلا يبلغ أسماع المتهيئين للاهتداء به ، لأن المقصود من النهي عن الجهر تجنب جهر يُتوهم منه الكفارُ تحككاً أو تطاولاً كما قلنا .

والجهر : قوة صوت الناطق بالكلام .

والمخافتة مفاعلة : من خَفَتَ بكلامه ، إذا أسر به .

وصيغة المفاعلة مستعملة في معنى الشدة ، أي لا تُسرها .

وقوله : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى المذكور ، أي الجهر والمخافتة المعلومين من فعلي ﴿ تجهر وتخافت أي اطلب سبيلاً بين الأمرين ليحصل المقصود من إسماع الناس القرآن وينتفي توهم قصد التطاول عليهم .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾

لما كان النهي عن الجهر بالدعاء أو قراءة الصلاة سداً لذريعة زيادة تصميمهم على الكفر

أعقب ذلك بأمره بإعلان التوحيد لقطع دابر توهم من توهموا أن الرحمان اسم لمسمى غير مسمى اسم الله ، فبعضهم توهمه إلهاً شريكاً ، وبعضهم توهمه مُعيناً وناصراً ، أمر النبي بأن يقول ما يقلع ذلك كله وأن يعظمه بأنواع من التعظيم .

وجملة ﴿ الحمد لله ﴾ تقتضي تخصيصه تعالى بالحمد ، أي قصر جنس الحمد عليه تعالى لأنه أعظم مستحق لأن يحمد .

فالتخصيص ادعائي بادعاء أن دواعي حمد غير الله تعالى في جانب دواعي حمد الله بمنزلة العدم ، كما تقدم في سورة الفاتحة .

و(مِن) في قوله : ﴿ من الذل ﴾ بمعنى لام التعليل .

والذل : العجز والافتقار ، وهو ضدّ العز ، أي ليس له ناصر من أجل الذل .

والمراد : نفي الناصر له على وجه مؤكد ، فإن الحاجة إلى الناصر لا تكون إلا من العجز عن الانتصار للنفس .

ويجوز تضمين (الولي) معنى (المانع) فتكون (من) لتعدية الاسم المضمن معناه .

ومعنى ﴿ كبره ﴾ اعتقد أنه كبير ، أي عظيم العِظم المعنوي الشامل لوجوب الوجود والغِنى المطلق ، وصفات الكمال كلها الكاملة التعلقات ، لأن الاتصاف بذلك كله كمال ، والاتصاف بأضداد ذلك نقص وصغار معنوي .

وإجراء هذه الصلات الثلاث على اسم الجلالة الذي هو متعلق الحمد لأن في هذه الصلاة إيماء إلى وجه تخصيصه بالحمد .

والإتيان بالمفعول المطلق بعد ﴿ كَبّره ﴾ للتوكيد ، ولما في التنوين من التعظيم ، ولأنّ من هذه صفاته هو الذي يقدر على إعطاء النعم التي يعجز غيره عن إسدائها . انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(143/465)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأسمآء الحسنى ﴾ .

أمر جل وعلا عباده في هذع الآية الكريمة : ان يدعوه بما شاؤوا من أسمائه ، إن شاؤوا ! قالوا : يا الله ، وإن شاؤوا قالوا : يا رحمن ، إلى غير ذلك من أسمائه جل وعلا .

ويين هذا المعنى في غير عذا النوضع . كقوله : ﴿ وَلِلَّهِ الأسمآء الحسنى فادعوه بِهَا وَذَرُواْ

الذين يُلْحِدُونَ في أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 180] ، وقوله : ﴿ هُوَ الله الذي لا إِله إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغيب والشهادة هُوَ الرحمن الرحيم هُوَ الله الذي لاَ إله إِلاَّ هُوَ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سُبْحَانَ الله عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ الله الخالق البارىء المصور لَهُ الأسمآء الحسنى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السماوات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ [الحشر : 22-24] .

وقد بين جل وعلا في غير هذا الموضع : أنهم تجاهلوا اسم الرحمن في قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسجدوا للرحمن قَالُواْ وَمَا الرحمن ﴾ [الفرقان : 60] الآية . وبين لهم بعض أفعال الرحمن جل وعلا في قوله : ﴿ الرحمن عَلَّمَ القرآن خَلَقَ الإنسان عَلَّمَهُ البيان ﴾ [الرحمن : 1-4] ولذل قال بعض العلماء : إن قوله ﴿ الرحمن عَلَّمَ القرآن ﴾ جواب لقولهم : ﴿ قَالُواْ وَمَا الرحمن ﴾ الآية . وسيأتي لهذا إن شاء الله زيادة إيضاح " في سورة الفرقان " .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (111) ﴾

أمر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة الناس على لسان نبيه محمد صلى اله عليه وسلم.

لأن أمر القدوة أمر لاتباعه كما قدمنا – أن يقولوا : "الحمد لله" اي كل ثنا جميل لائق بكماله وجلاله ، ثابت له ، مبينا أنه منزه عن الأولاد الشركاء والعزة بالأولياء ، سبحانه ةتعالى عن ذلك كله علواً كبيرا .

فبين تنزهه عن الولد والصاحبة في مواضع كثيرة . كقوله : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] إلى آخر السورة ، وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتخذ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً ﴾ [الجن : 3] ، وقوله : ﴿ بَدِيعُ السماوات والأرض أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : 101] ، وقوله : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ [مريم : 88–92] الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وبين في مواضع أخر : أنه لا شريك له في ملكه ، أي ولا عبادته . كقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ : 22] ، وقوله : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد

القهار ﴾ [غافر : 16] ، وقوله : ﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك : 1] ، وقوله : ﴿ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران : 26] الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة . ومعنى قوله في هذه الآية ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذل وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ يعني أنه لا يذل فيحتاج إلى ولي يعزبه . لأنه هو العزيز القهار ، الذي كل شيء تحته قهره وقدرته ، كما بينه في مواضع كثيرة كقوله : ﴿ والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ ﴾ [يوسف : 21] الآية ، وقوله : ﴿ إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : 220] والعزيز : الغالب . وقوله : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام : 18] والآيات بمثل ذلك كثير . وقوله ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ أي عظمه تعظيماً شديداً . ويظهر تعظيم الله في شدة المحافظة على امتثال أمره واجتناب نهيه ، والمسارعة إلى كل ما يرضيه ، كقوله تعالى : ﴿ وَلِتُكَبِّرُواْ الله على مَا هَدَاكُمْ ﴾ [البقرة : 185] ونحوها من الآيات ، والعلم عند الله تعالى .

وروى ابن جرير في تفسير هذه الآية الكريمة عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم الصغير والكبير من أهله هذه الآية ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ الآية . وقال ابن كثير : قلت وقد جاء في حديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمى هذه الآية آية العز . وفي بعض الآثار : أنها ما قرئت في بيت في ليلة فيصيبه سرق أو آفة ، والله تعالى أعلم .

وصلى الله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(146/465)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

﴿ ادْعُوا ﴾ اذكروا ، أو نادوا ، أو اطلبوا ﴿ اللَّهَ ﴾ عَلَم على واجب الوجود سبحانه ، ومعنى: علم على واجب الوجود أنها إذا أُطْلِقَتْ انصرفتْ للذات الواجبة الوجود وهو الحق سبحانه ، كما نُسمِّي شخصاً ، فإذا أُطْلِق الاسم ينصرف إلى المسمَّى .

والأسماء عندنا أنواع كثيرة: إما اسم ، أو كُنْية ، أو لَقَب .

الاسم: وهو أغلب الأعلام ، ويُطلَق على المولود بعد ولادته ويُعرَف المولود به .

والكُنْية: وتُطلَق على الإنسان ، وتُسبَق بأب أو أم أو ابن أو بنت ، كما تقول: أبو بكر ، وأم المؤمنين .

واللقب: وصف يُشْعِر بالمدح أو الذم ، كما تقول: الصِّديق ، الشاعر ، الفاروق .

فإذا كان الاسم معه شريك غيره لا بُدَّ لتمييزه من وَصْفه وَصْفاً يُعْرف به ، كما يحدث أن

يألف شخص أن يسمي أولاده جميعاً: محمد فالتسمية في هذه الحالة لا تُشخِّص ولا تُعيِّن المسمّي؛ لذلك لا بُدَّ أن نصف كل واحد منهم بصفة فنقول: محمد الكبير، محمد الصغير. محمد المهندس. فإذا أُطلِق الاسم بصفته ينصرف إلى شخص معين.

وإذا كُنّا نحن نُسمِّي أولادنا: فإن الحق سبحانه سَمَّى نفسه بأسمائه التي قال عنها: الأسماء الحُسْنى، وكلمة (حُسْنى) أفعل تفضيل للمؤنث، مثل: كبرى. والمذكر منها أحسن.

لكن لماذا وَصَفَ أسماءه تعالى بالحسنى؟

الاسم يُبيِّن المسمّي، لكن الأسماء عند البشر قد لا تنطبق على المسمَّى الذي أُطلقت عليه، فقد نُسمِّي شخصاً "سعيد" وهو شقي، أو نسمي شخصاً "ذكي" وهو غبي.

وهذا ليس بحَسنٍ في الأسماء، الحسَن في الاسم أنْ يطابق الاسم المسمَّى، ويتوفّر في الشخص الصفة التي أُطلِقت عليه، فيكون الشخص الذي سميناه "سعيد" سعيداً فعلاً.

(147/465)

وهكذا يكون الاسم حسناً، لكنه لا يأخذ الحُسْن الأعلى؛ لأن الحُسن الأعلى لأسماء الله التي سَمّى بها نفسه، فله الكمال المطلق.

فهذه ـ إذن ـ لا تتأتَّى في تسمية البشر ، فكثيراً ما تجد " عادل " وهو ظالم ، و " شريف " وليس بشريف ؛ لذلك قلنا : وأَقْبَحُ الظُّلْمِ بَعْد الشّرْكِ منزلةً أنْ يظلم اسمٌ مُسمّى ضِدّه جُعلاَفَشَارِع كعِمَادِ الدين تَسْمية لكِنْه لِعِنَادِ الدّين قَدْ جُعِلاَفَالاسم قد يظلم المسمَّى كما حدث أنْ سَمَّوْا الشارع (عماد الدين) ، وهذا الشارع كان في الماضي بُؤْرَة لِلفِسْق والفجور ، وما أبعده سابقاً عن هذه التسمية .

فلفظ الجلالة (الله) عَلَم على واجب الوجود ، وبعد ذلك جاءت صفات غلبت عليه ، بحيث إذا أُطلِقَتْ لا تنصرف إلا إليه . فإذا قُلْنا : العزيز على إطلاقه فإنها لا تنصرف إلا لله تعالى ، لكن يمكن أن نقول فلان العزيز في قومه ، فلان الرحيم بمَنْ معه ، فلان النافع لمَنْ يتصل به ، إنما لو قُلْت: النافع على إطلاقه فهو الله سبحانه وتعالى .

لذلك ؛ حَلَّتْ الصفات محلَّ اسم الذات ﴿ اللَّهَ ﴾ ؛ لأنها إذا أُطْلِقَتْ لا تنصرف إلا لله تعالى ، فأسماءُ الله الحُسْنى هي في الأصل صفات له سبحانه .

ولو تأملنا هذه الأسماء لوجدناها على قسمين: أسماء ذات ، وأسماء صفات فعلية ، اسم الذات لا يتصف الله بمقابله ، فالعزيز مثلاً اسم ذات فلا نقول في مقابله الذليل ، والحيّ اسم ذات فلا نقول: الميت . أما اسم الصفة الفعلية فيكون له مقابل ، فالمعزّ صفة فعل يعني يُعِزّ غيره ، ومقابلها المذلّ ، والضَّارّ مقابلها النافع ، والمحيي مقابلها المميت وهكذا . . إنْ

وجدتَ للاسم مقابلاً فاعلم أنه اسمٌ لصفة الفعل من الله تعالى، وإذا لم يكن له مقابل فهو اسم ذات.

(148/465)

لكن تقف مثلاً عند السَّتَّار وهي صفة فعل لأنه يستر غيره، لكن ليس لها مقابل فلا تقول الفضَّاح، لماذا؟ لأنه تبارك وتعالى يريد أنْ يتخلق خَلْقه بهذه الصفة، وأنْ يُربِّب صفة الستر عند الناس للناس، فلو علم الناس، عن أحد أمراً فاضحاً لزهدوا في كل ما يأتي من عنده ولو كان حسنة، وبذلك يُحرَم المجتمع من طاقات كثيرة من الخير.

لكن حين تستر على صاحب العيب عيبه، فإنك تعطي للمجتمع فرصة لينتفع بما لديه من صفات الخير؛ لذلك الله تعالى يُعصَى ويحب أن يُستَر على عبده العاصي؛ لكي يستمر دولاب الحياة؛ لأنه لا يوجد أحد له كمال إلا النبي صلى الله عليه وسلم، وصدق القائل: مَنْ ذَا الذِي مَا سَاءَ قَطُّ وَمَنْ لَهُ الحُسْنى فَقَطْإذن: فمن الحكمة أن يأمر الله تعالى بستر غَيْب خَلْقه عن خَلْقه حتى تستمر حركة الحياة؛ لأن الإنسان ابن أغيار، وقلبه سريعاً ما يتقلب، ولربما لو عرفتُ عنك شيئاً مستوراً لتغيَّرْتُ لك وأنت كذلك، ولربما تقطعت بيننا حبال المودة، إنما بالستر ينتفع كُلٌّ مِنّا بالآخر.

ومن هنا قالوا: لو تكاشفتم ما تدافنتم، أي: لو تكشفتْ الأسرار، وعرف كُلٌّ منكم عَيْب أخيه ما دفنتم مَنْ يموت منكم، وهذا منتهى ما يمكن تصوُّره من التقاطع بين الناس.

فقوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُواْ اللَّهَ.. ﴾ [الإسراء: 110] فاختار هذا الاسم بالذات ﴿ اللَّهَ ﴾ العَلَم على واجب الوجود، وهو اسم ذات لا يدل على صفة معينة، لكنه يحمل في طياته كل صفات الكمال فيه، فإنْ كانت للأسماء الأخرى مجالات، فالقادر في القدرة، والحكيم في الحكمة، والقابض في القبض، والعزيز في العِزّة. فإن لكل اسم مجالاً وسيالاً، فإن ﴿ اللَّهَ ﴾ هو الاسم الجامع لكل الصفات.

لذلك في الحديث النبوي الشريف: "كُلُّ شيء لا يُبدأ باسم الله فهو أبتر".

(149/465)

لماذا؟ لأنك حين تُقدِم على أيّ فعل تحتاج أولاً إلى حكمة لتعرف من خلالها لماذا تفعل، وتحتاج إلى قدرة تُعينك على إنجازه، وتحتاج إلى علم بمصير هذا الفعل وعاقبته، إذن: تحتاج إلى صفات كثيرة، فحين تُقبل على العمل لا تَقُل: يا حكيمُ يا قادرُ يا عليمُ، إنما الحق سبحانه يُريحك، ويكفي أن تقول في الإقدام على الفعل: باسم الله.

لأنك ذكرتَ الاسم الجامع لكلِ صفات الكمال.

﴿ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَانَ . . ﴾ [الإسراء: 110] واختار الرحمن دون الجبار أو القهار ؛ لأن الرحمة صفة التحنين للخلق ، فالحق سبحانه وتعالى يُظهِر هذه الصفة لعباده حتى في أسماء الجبار والقهار ؛ لأنها من خدَم الرحمة ومن أسبابها ؛ لأن العبد إذا عرف لله: صفة الجبروت ، وصفة القهر ، وصفة الانتقام انتهى عن أسباب الوقوع تحت طائلة هذه الصفات ، فكأنه يرحم عباده حتى بصفات القهر والانتقام .

ومن هذا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولِي الأَلْبَابِ . . ﴾ [البقرة: 179] لأنه إذا علم القاتل أنه سيُقتل انتهى عن القتل . وفي الأثر: " القتل أنْفَى للقتل " .

إذن: فتشريع القصاص وإقامة الحدود والعقوبات لا لتعذيب الخلق ، وإنما رحمة بهم حتى يقفوا بعيداً عن ارتكاب ما يُوجِب القصاص أو الحد أو العقوبة ، حتى الذي يقهره الله مرحوم أيضاً ؛ لأنه ما دام قال: أنا قهار . فاحذرني ، فهو بذلك يرحمه لأنه يُحذِّره من أسباب الوقوع فيما يستوجب غضبه وانتقامه .

وكذلك اختار اسم ﴿ الرَّحْمَانَ ﴾ لأن مجال التكليف كله الرحمة ، وما نزل المنهج من الله إلا لينظم حياة الناس ويُحقِّق لهم السعادة في حركة الحياة ، فيتكامل الخَلْق فيما بينهم ، ويتعاونون ، ويتساندون ولا يتعاندون ، ويكونون جميعاً على قلب رجل واحد ، هذه غاية المنهج الإلهيّ في دنيا الناس أنْ يعيشَ المجتمع المسلم آمناً سالماً .

فالرحمانية الإلهية هي الغالبة في كل التشريع ، وهي السِمَة العامة ، أَلاَ ترى قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَانُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ [الرحمن: 1-2]

فالقرآن الذي نزل لِيُنظّم حياة الناس ويحكمها ، ويصلح حركة الحياة ، ويضع السلام بينك وبين الله ، وبينك وبين نفسك ، وبينك وبين الناس ، هذا القرآن مظهر من مظاهر هذه الرحمانية الإلهية .

وقد اعترض بعض المستشرقين على قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: 13] والآلاء هي النعم ، وأنها جاءت تذييلاً لقوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن: 35] فالآية تتحدث عن النار والشواظ ، فكيف تُختم هذه الخاتمة التي تدلّ على النعمة ؟

ولو تدبَّر القوم ما اعترضوا ؛ لأن في الناس والتحذير منها والتخويف بها نعمة ، كأن القرآن يقول لك: إياك أنْ تفعل ما يُوجِب النار والشُّواظ فتقلع وترتدع من قريب ، أليست هذه من نعم الله على عباده ؟ أليست رحمة بهم ؟ وماذا كنتم ستقولون إنْ لم يُقدِّم لكم الحق سبحانه تحذيراً وإنذاراً ، ثم فاجأكم بالعذاب ؟

ونقف على لطيفة أخرى لاستخدام اسم الله ﴿ الرَّحْمَانَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان: 59]

أي: بعد أن خلق الخَلْق كل بسمائه وأرضه وما فيهما استوى على العرش؛ لأن الاستواء على العرش يعني أن كل شيء تَمَّ له سبحانه خَلْقاً وإيجاداً، وانتهى إلى الجلوس على العرش، وهذا تمثيل بالملوك الذين لا يجلسون على العرش إلا بعد أنْ يستتبّ لهم الأمر، فجلوس الملك على العرش يعني أنه الأوحد الذي لا يعارضه أحد.

(151/465)

فالحق سبحانه ينبهنا بقوله: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان: 59] واختار صفة الرحمة لِيُوحِي لنا أن قعوده على العرش لا يعني القَهْر والجبروت، إنما قعد على عرشه رحمةً بكم، قعد على العرش لِيُنظِّم حياتكم، ويرحم بعضكم ببعض، فتسعدوا بالحياة، فالاستواء هنا لا استواءَ قهر وغلبة، بل استواء رحمة لمصلحتكم أنتم.

وفي آية أخرى قال: ﴿ الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه: 5]

وقد ورد استواؤه سبحانه على العرش في سبعة مواضع في كتاب الله، نظمها الناظم في

قوله: وَذِكْرُ اسْتواء الله في كَلماتِهِ على العَرْشِ فِي سَبْعِ مَواضِعَ فَاعْدُدِ فَفِي سُورَةِ الأَعرافِ ثمة يُونُس وفي الرعْدِ مع طه فللعَدِّ أكدِ وَفِي سُورة الفُرْقانِ ثمة سَجْدة كَذَا فِي الحديدِ افْهَمُوا فَهْم مؤيّد وكل صفة من صفات جلاله سبحانه إنما هي في خدمة رحمانيته ، لأنه يُخَوِّف عباده بصفات الجلال حتى لا يقعوا في المخالفة ، فيأخذوا نعمة الله في الدنيا ، ويسعدوا بها ، ويأخذوا نعيم الآخرة فيسعدوا بها ، فهي -إذن- الرحمانية المستولية والسمة العامة لمنهج الله في الدنيا والآخرة .

وفي الحديث " في آخر ليلة من رمضان يتجلى الجبار بالمغفرة . . " ولم يقُلْ: تجلى الغفار بالمغفرة ، فلماذا آثر صفة الجبار في مجال المغفرة ؟

قالوا : لأن المغفرة تُوحِي بوجود ذنب ، والذنب يقتضي العقوبة ، وهذه من اختصاص صفة الجبار ، فهل تغلَّبتْ صفة الغفار على صفة الجبار ، وأخذت اختصاصها ؟ لا بل تشفع صفة الغفار عند صفة الجبار : الموقف لكِ أيتها الصفة ، لكن نستسمحك في أن نشفع في هؤلاء ، فكأن صفات الجمال تشفع عند صفات الجلال .

لذلك ، فالذين يُفسّرون الحديث يقولون: شفع المؤمنون ، وشفع الأنبياء ، وشفعت الملائكة ، وبقيت شفاعة أرحم الراحمين فعند مَنْ سيشفع أرحم الراحمين؟ قالوا: تشفع ذاته عند ذاته ، وهكذا تشفع صفة الجمال (الغفار) عند صفة الجلال (الجبار) تبارك وتعالى.

ثم يقول تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُواْ اللَّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَانَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَآءَ الْحُسْنَىا . . ﴾ [الإسراء: 110] فأيُّ اسم تدعو به لأن أسماءه كلها حُسْنى ، لكن ليكُنْ عندك ذكاء في الدعاء ، فتدعو بما يناسب حاجتك ، فإنْ أردت عِلْماً فقُلْ: يا عالم علّمني ، وإنْ كنتَ ضعيفاً فقُلْ: يا قوي قوِّني ، وإنْ أردتَ العزة فقُلْ: يا عزيز أعِزّني وهكذا . . فإن أردتَ الاختصار فقُلْ: يا الله. تكفيك كل شيء.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذالِكَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: 110] الصلاة يراد بها كل أعمال الصلاة ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ ﴾ فالجهر منهيٌّ عنه ، وكذلك ﴿ وَلاَ تُخَافِتْ ﴾ أي: لا تُسِرَّها بحيث لا يَسْمعك من خلفك ، وهذا منهيّ عنه أيضاً.

فكِلاَ الطرفين مذموم ، وخَيْر الأمور الوسط.

ونُوضِّح هنا: إذا كان الجهر بالصلاة منهيّاً عنه فارتفاع الصوت عالياً من باب أَوْلَى ، فلا يليق أبداً رَفْع الصوت بالصلاة ، ثم استعمال الميكروفونات أيضاً ، وما تُسبِّبه من إزعاج للناس.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: 204]

(153/465)

فأنت حين ترفع صوتك بالقرآن، وخاصة في الميكروفون تلزم الناس بالإنصات، وتُوقِعهم في الإثم والحرج، أو تعطل مصالحهم، ولعل غيرك في هذا الوقت يريد أن يقرأ هو الآخر، أو يستغفر، أو يُسبِّح أو يصلي، فكيف تجعل الأمر المندوب عندك حاكماً على غيرك؟ هذا لا يجوز، بل اترك الناس وشئونهم فكل منهم حُرّ فيما يتنفّل به، ولا تكُنْ من الذين قال الله في حقهم: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف: 103-104]

كالذي يُشعِل الميكروفون قبل صلاة الفجر، ويأخذ في إنشاد كلام ما نزل به الشرع، يزعج به الناس، ويُقلق به المريض، ولا يراعي للناس حُرْمة. فمتى يفيق المسلمون؟ ومتى ينتبهون إلى هذه البدع التي تشوِّش على الناس وتُفسِد عليهم عبادتهم؟

أما إنْ كان رَفْع الصوت بالقرآن لغرض دنيوي ومكْسَب شخص، وأن نجعل الأمر مَعْرضاً للأصوات، ومِضْماراً للسباق، إنْ كان الأمر استغلالاً للدين لحساب الدنيا والعياذ بالله،

فقد دخل صاحبه في شريحة أخرى من الإثم، عافانا الله وإياكم.

والحق سبحانه يقول: ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَالِكَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: 110]

أي: بين الجهر والإسرار، واسلك سبيل الوسطية التي جاء بها الشرع، وتأسّ برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان يتفقد الصحابة ليلاً فوجد أبا بكر -رضي الله عنه- يقرأ، ولا يكاد يسمع صوته، فلما سأله. قال: يا رسول الله، أناجي ربي وهو عالم بي، فلما ذهب إلى عمر -رضي الله عنه- وجده يقرأ بصوت عالٍ، فلما سأله قال: يا رسول الله أزجر به الشيطان. عندها أمر صلى الله عليه وسلم أبا بكر أنْ يرفع صوته قليلاً، وأمر عمر أن يخفض صوته قليلاً.

وهذا الاعتدال وهذه الوسطية أُمِرْنَا بها حتى في الدعاء، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [الأعراف: 205]

فكلمة: ﴿ بَيْنَ ذَالِكَ.. ﴾ [الإسراء: 110] البينية هذه تكاد تشيع في كل أحكام الدين؛ لأن القرآن جاء لأمة وسط بالأمور الوسط في كل شئون الحياة، ففي قمة المسائل وهي الأمور العَقَدية مثلاً يقف الإسلام موقفَ الوسطية بين مَنْ يُنكِرون وجود الإله ومن

يقول بآلهة متعددة ، فينفي هذه وهذه ويقول بوجود إله واحد أحد لا شريكَ له .

وفي الإنفاق يختار الوسط ، فيقول: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾

[الفرقان: 67]

وبذلك ضمن لأهله نظاماً اقتصادياً ناجحاً يُثري حياة الجماعة ، ويَرْقى بحياة الفرد ، وقد لخّص هذا المنهج الاقتصادي في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾ [الإسراء: 29] فالممسك المقتّر الذي يقبض يده على الإنفاق يتسبّب في ركود البضائع وتوقف حركة الحياة ، وهذا خطر على المجتمع ، وفي التبذير خطر على الفرد حيث ينفق كل مَا معه ، ولا يُبقي على شيء يرتقي به في الحياة ، فإذا لم تتبع هذا المنهج الحكيم فسوف تقعد ملوماً على الإمساك ، محسوراً على التبذير الذي فوّتَ عليك فرصة الترقّي مثل الآخرين .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ .

فما المحمود عليه في الآية؟

الحق سبحانه يقول: ﴿ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً . . ﴾ [الإسراء: 111]

فكَوْنه سبحانه لم يتخذ ولداً نعمة كبيرة على العباد يجب أنْ يحمدوه عليها ، فإنْ كان له ولد فسوف يخصُّه برعايته دون باقي الخَلْق ، فقد تنزّه سبحانه عن الولد ، وجعل الخَلْق جميعهم عياله ، وكلُّهم عنده سواء ، فليس من بينهم مَنْ هو ابن لله أو مَنْ بينه وبين الله قرابة ، وأحبّهم إليه تعالى أتقاهم له ، وهكذا ينفرد الخَلْق بكل حنان ربهم وبكل رحمته .

ثم ، ما الحكمة من اتخاذ الولد ؟ الناس يتخذون الولد ويحرصون على الذَّكَر ، خاصة لأمرين: أن يكون الولد ذكرى وامتداداً لأبيه بعد موته ، كما قال الشاعر: أُبنيّ يا أنا بَعْدَمَا أَقْضِي والحق سبحانه وتعالى باقٍ دائمٌ ، فلا يحتاج لمَنْ يُخلّد ذكراه ، أو يكون امتداداً له ، تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً ، فالحمد لله أنه لم يتخذ ولداً .

أو يكون الولد للعِزْوة والمكاثرة والتقوّي به من ضعف ، والحق سبحانه وتعالى هو الغالب القهار ، فلا يحتاج إلى عِزْوة أو كثرة ، لذلك يأمرنا سبحانه أن نُمجّده لأنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، والمتأمل في حال الملوك والسلاطين يجد أكثر فسادهم إما من الولد وإما من الصاحبة .

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ . . ﴾ [الإسراء: 111]

وهذا أيضاً من النعم التي تستوجب الحمد ، ولك أنْ تتصوّر لو أن لله تعالى شريكاً في الملْك ،

كم تكون حَيْرة العباد ، فأيُّهما تُطيع وأيهما تُرضِي ؟

لقد أوضح لنا الحق سبحانه هذه المسألة في هذا المثل الذي ضربه لنا : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً . . ﴾ [الزمر: 29]

(156/465)

لذلك ، ففي أعراف الناس وأمثالهم يقولون: (المركب التي بها ريسين تغرق) وكَوْنه سبحانه واحداً لا شريك له يجعلك تطمئن إلى أمره ونَهْيه فتُطيعه وأنت مطمئن ، فأوامره سبحانه نافذة لا مُعقِّب لها ، ولا مُعترِض عليها ، فليس هناك إله آخر يأمرك بأمر مخالف ، أليست هذه نعمة تستوجب الحمد ؟

وأيضاً فإن الحق سبحانه يقول: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ . . ﴾ [الإسراء: 111]

الوليّ: هو الذي يليك ، وأنت لا تجعل أمرك إلا لمن تثق به أنه يجلب لك نَفْعاً ، أو يدفع عنك ضُرّاً ، أو ينصرك أمام عدو ، أو يُقوِّي ضعفك ، فإذا لم يكُنْ لك ذاتية تحقق بها ما تريد تلجأ لمن له ذاتية ، وتحتمي برحابه ، وتجعل ولاءك له .

والحق سبحانه ليس له وليٌّ يلجأ إليه ليعزه ؛ لأنه سبحانه العزيز المعِزّ القائم بذاته سبحانه ، ولا حاجة له إلى أحد .

ثم يقول تعالى: ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ [الإسراء: 111]

لأن عظمة الحق سبحانه في نفس المؤمن أكبر من كل شيء ، وأكبر من كل كبير ؛ لذلك جُعلتْ (الله أكبر) شعار أذانك وصلاتك ، فلا بُدَّ أن تكبِّر الله ، وتجعله أكبر مِمّا دونه من الأغيار ، فإنْ ناداك وأنت في أيّ عمل فقُلْ: الله أكبر من عملي ، وإنْ ناداك وأنت في حضرة عظيم ، فقل: الله أكبر من أيِّ عظيم ، كبِّره تكبيراً بأن تُقدِّم أوامره ونواهيه على كل أمر ، وعلى كل نهي .

ولا تنسَ أنك إن كبَّرْتَ الحق سبحانه وتعالى أعززْتَ نفسك بعزة الله التي لا يعطيها إلا لمَنْ يخلص العبودية له سبحانه ، فَضْلاً عن أن العبودية لله شرفٌ للعبد ، وبها يأخذ العبد خَيْر سيده ، أما العبودية للبشر فهي مذمومة مكروهة ، وهي مذلة وهوان ، حيث يأخذ السيد خير عبده .

(157/465)

وصدق الشاعر حين قال:حَسْبُ نَفْسِي عِزّاً بأنّي عَبْدٌ يَحْتفِي بي بلاَ مَواعِيدَ ربٌّهُوَ في قُدْسِهِ الأعَزّ ولَكِنْ أنَا ألْقَي متى وأيْنَ أحِبٌّفكم تتحمل من المشقة والعنت في مقابلة عظيم من عظماء الدنيا ، أما في مقابلة رب العزة سبحانه ، فبمجرد أنْ آمنتَ به أصبح الزمام في

يدك تلقاه متى شئتَ ، وفي أيِّ مكان أردتَ ، وتُحدّثه في أيّ أمر أحببتَ ، فأيُّ عِزّة بعد هذا ؟

ولذلك كانت حيثية الرفعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسراء والمعراج أنه عبد لله ، حيث قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى . . ﴾ [الإسراء: 1]

فالعزة في العبودية لله ، والعزة في السجود له تعالى ، فعبوديتك لله تعصمك من العبودية لغيره ، وسجودك له تعالى يعصمك من السجود لغيره ، ألاَ ترى قول الشاعر: وَالسُّجُودُ الذِي تَجْتَوِيه مِنْ أُلُوفِ السُّجودِ فِيهِ نَجَاةُ إذن: فكبِّر الله تكبيراً وعَظِّمه ، والتجئ إليه ، فمن التجأ إلى الله تعالى كان في معيته ، وأفاض عليه الحق من صفاته ، وعصمه من كَيْد الآخرين وقهرهم . وسبق أنْ ضربنا مثلاً بالولد الصغير الذي يعتدي عليه أقرانه إنْ سار وحده ، فإنْ كان في يد أبيه فلا يجرؤ أحد على الاعتداء عليه .

فعليك ـ إذن ـ أن تكون دائماً في معيّة ربك تأمن كيد الكائدين ومكْر الماكرين ، ولا ينالك أحدٌ بسوء ، فإن ابتلاه الله بشيء فكأنما يقول له: أبتليك بنعمتي لتأخذ من ذاتي ، لأن الصحيح المعَافَى إنْ كان في معية نعمة الله ، فالمبتلى في معية الله ذاته .

ألم يَقُلْ الحق سبحانه في الحديث القدسي: "يا بن آدم مرضْتُ فلم تَعُدْني ، قال: يا رب

وكيف أعودك وأنت ربُّ العالمين ؟ فيقول: أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تَعُدْه ، أما علمتَ أنك لو عُدْتَهُ لوجدتني عنده " .

(158/465)

فالمريض الذي يأنس بزائريه ويسعد بهم ويرى في زيارتهم تخفيفاً من آلامه ومواساة له في شدته ، ما باله إن أنس بالله وكان في جواره وكلاءته ، والله الذي لا إله إلا هو لا يشعر بوخْز المرض أبداً ، ويستحي أن يتأوّه من ألم ، ولا ييأس مهما اشتد عليه البلاء ؛ لأنه كيف يتأوه من معية الله ؟ وكيف ييأس والله تعالى معه ؟

إذن: كبِّره تكبيراً .

أي: اجعل أمره ونَهْيه فوق كل شيء ، وقُلْ: الله أكبر من كل كبير حتى الجنة قل: الله أكبر من الجنة . ألاَ ترى قَوْل رابعة العدوية: كُلُّهُمْ يعبدُونَك من خَوْف نارٍ ويَروْن النجاةَ حَظّاً جَزِيلاأَوْ بأَنْ يَسْكنُوا الجنَانَ فَيَحْظوْا بقُصُورٍ ويَشْرُبون سَلْسَبيلالَيْسَ لِي بالجنان وَالنَّارِ حَظٌّ أَنَا لاَ أَبْتغِي بحُبّي بَدِيلاوفي الحديث القدسي: " أَوَلَوْ لَمْ أخلق جنة وناراً ، أما كنتُ أهلاً لأنْ أُعبد ؟ " .

فالله تعالى بذاته سبحانه أكبر من أيّ شيء ، حتى إن كانت الجنة ، ففي آخر سورة

الكهف يقول تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً ﴾ [الكهف: 110]

فلم يَقُلْ: مَنْ كان يرجو جزاء ربه، أو جنة ربه، أو نعيم ربه، إن المؤمن الحق لا ينظر إلى النعيم، بل يطمع في لقاء المنعم سبحانه، وهذا غاية أمانيه.

وفي حديث آخر يقول الحق سبحانه للملائكة: "أما رأيتم عبادي، أنعمتُ عليهم بكذا وكذا، وأسلب عنهم نعمتي ويحبونني".

وبهذه الآية خُتِمَتْ سورة الإسراء، فجعلنا الحق سبحانه نختمها بما أنعم علينا من هذه النعم الثلاث، وليس هذه هي كل نعم الله علينا، بل لله تعالى علينا نِعَم لا تُعَدّ ولا تُحصَى، لكن هذه الثلاث هي قِمة النعم التي تستوجب أنْ نحمده عليها.

(159/465)

فالحمد لله الذي لم يتخذ ولداً؛ لأنه لم يلد ولم يولد وهو واحد أحد، والحمد لله الذي لم يتخذ شريكاً لأنه واحد، والحمد لله الذي لم يكُنْ له وليٌّ من الذل لأنه القاهر العزيز المعز، ولهذا يجب أن نُكبِّر هذه الإله تكبيراً في كل نعمة نستقبلها منه سبحانه. انتهى. اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن عائشة رضي الله عنها قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر بالدعاء فجعل يقول : يا الله . . . يا رحمن . . . فسمعه أهل مكة فأقبلوا عليه ، فأنزل الله ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ذات يوم ، فدعا ربه فقال في دعائه : يا الله . . . يا رحمن . . . فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابئ ، ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين . فأنزل الله ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ الآية " .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن إبراهيم النخعي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم في حرث في يده جريدة ، فسأله اليهود عن الرحمن – وكان لهم كاهن باليمامة يسمونه الرحمن – فأنزلت ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عن مكحول : " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتهجد بمكة ذات ليلة يقول في سجوده : يا رحمن . . . يا رحيم . . . فسمعه رجل من المشركين ، فلما أصبح قال لأصحابه : انظروا ما قال ابن أبي كبشة ، يزعم الليلة الرحمن الذي باليمن - وكان باليمن رجل يقال له رحمن - فنزلت ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن . . . ﴾ الآية " .

وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق نهشل بن سعيد ، عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى . . . . ﴾ إلى آخر الآية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هو أمان من السرق " .

(161/465)

وإن رجلاً من المهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاها ، حيث أخذ مضجعه فدخل عليه سارق ، فجمع ما في البيت وحمله - والرجل ليس بنائم - حتى انتهى إلى الباب فوجد الباب مردوداً ، فوضع الكارة ففعل ذلك ثلاث مرات ، فضحك صاحب الدار ثم قال : إني أحصنت بيتي .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ﴿ أياً ما تدعوا ﴾ قال : باسم

من أسمائه ، والله أعلم .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه والطبراني والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولا تجهر بصلاتك . . . ﴾ الآية . قال : نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة متوار ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ أي بقراءتك ، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿ ولا تخافت بها ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ يقول : بين الجهر والمخافتة .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير والطبراني وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جهر بالقرآن وهو يصلي ، تفرقوا عنه وأبوا أن يستمعوا منه ، فكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو وهو يصلي ، استرق السمع دونهم فرقاً منهم ، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ، ذهب خشية أذاهم فلم يستمع . فإن خفض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يستمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً . فأنزل الله ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ فيتفرقوا عنك ﴿

ولا تخافت بها ﴾ فلا تسمع من أراد أن يسمعها ممن يسترق ذلك ، لعله يرعوي إلى بعض ما يستمع فينتفع به ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ .

(162/465)

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يجهر بالقراءة بمكة فيؤذي ، فأنزل الله ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى عند البيت جهر بقراءته ، فكان المشركون يؤذونه ، فنزلت ﴿ ولا تجهر بصلاتك . . . ﴾ الآية .

وأخرج أبو داود في ناسخه وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى يجهر بصلاته ، فآذى ذلك المشركين فأخفى صلاته هو وأصحابه . فلذلك قال الله : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ وقال : في الأعراف ﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾ [الأعراف : 205] الآية .

وأخرج الطبراني والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ قال : كان الرجل إذا دعا في الصلاة رفع صوته .

وأخرج الطبراني وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان مسيلمة الكذاب قد تسمّى الرحمن ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى فجهر ببسم الله الرحمن الرحمن ، قال المشركون : يذكر إله اليمامة . فأنزل الله ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، عن سعيد رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته ببسم الله الرحمن الرحيم . وكان مسيلمة قد تسمّى الرحمن ، فكان المشركون إذا سمعوا ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : قد ذكر مسيلمة إله اليمامة ، ثم عارضوه بالمكاء والتصدية والصفير . فأنزل الله ﴿ ولا تجهر بصلاتك . . . ﴾ الآية .

(163/465)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا جهر بالقرآن شق ذلك على المشركين ، فيؤذون النبي صلى الله عليه وسلم بالشتم - وذلك بمكة - فأنزل الله : يا محمد ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ لا تخفض صوتك حتى لا تسمع اذنيك ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ يقول : اطلب الاعلان والجهر ، وبين التخافت والجهر طريقاً .

. . لا جهراً شديداً ولا خفضاً حتى لا تسمع أذنيك . فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ترك هذا كله .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان ، عن محمد بن سيرين قال : نبئت أن أبا بكر رضي الله عنه كان إذا قرأ خفض . وكان عمر رضي الله عنه إذا قرأ جهر . فقيل لأبي بكر رضي الله عنه : لم تصنع هذا ؟ قال : أناجي ربي وقد علم حاجتي . وقيل لعمر رضي الله عنه : لم تصنع هذا ؟ قال : اطرد الشيطان وأوقظ الوسنان . فلما نزلت ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ قيل لأبي بكر رضي الله عنه : ارفع شيئاً . وقيل لعمر رضي الله عنه : اخفض شيئاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال : كان أبو بكر رضي الله عنه إذا صلى من الليل خفض صوته جداً ، وكان عمر رضي الله عنه إذا صلى رفع صوته جداً . فقال عمر رضي الله عنه : يا أبا بكر ، لو رفعت من صوتك شيئاً . وقال أبو بكر رضي الله عنه : يا عمر ، لو خفضت من صوتك شيئاً . فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه بأمرهما فأنزل الله ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها . . . ﴾ الآية . فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهما فقال : "يا أبا بكر ، ارفع من صوتك شيئاً . وقال لعمر رضي الله عنه : اخفض من صوتك شيئاً" .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة في المصنف ، والبخاري ومسلم وأبو داود في الناسخ ، والبزار والنحاس وابن نصر وابن مردويه والبيهقي في سننه ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : إنما نزلت هذه الآية ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ في الدعاء .

وأخرج ابن جرير والحاكم ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : نزلت هذه الآية في التشهد ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن عائشة رضي الله عنها في قوله : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ قال : نزلت في المسألة والدعاء .

وأخرج محمد بن نصر وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى عند البيت رفع صوته بالدعاء وآذاه المشركون ، فنزل ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور والبخاري في تاريخه وابن المنذر وابن مردويه ، عن دراج أبي السمح : أن شيخاً من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ إنما نزلت في الدعاء ، لا ترفع صوتك في دعائك فتذكر ذنوبك فتسمع منك فتعير بها " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن منيع وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن مردويه ، عن

ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ قال : نزلت في الدعاء ، كانوا يجهرون بالدعاء : اللهم ارحمني . فلما نزلت ، أمروا أن يخافتوا ولا يجهروا .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن جرير وابن المنذر ، عن عبد الله بن شداد رضي الله عنه قال : كان أعراب من بني تميم إذا سلم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : اللهم ارزقنا إبلاً وولداً . فنزلت هذه الآية ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ قال : ذلك في الدعاء والمسألة .

(165/465)

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ ولا تصلِ مراياة الناس ﴿ ولا تخافت بها ﴾ قال : لا تدعها مخافة الناس .

وأخرج ابن عساكر عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ قال : لا تُصلِّها رياء ولا تدعها حياء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ لا تجعلها كلها جهراً ﴿ ولا تخافت بها ﴾ قال : لا تجعلها كلها سراً .

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف ، عن أبي رزين رضي الله عنه قال : في قراءة عبد الله بن عمر ﴿ ولا تخافت ﴾ بصوتك ولا تعال به .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير ، عن ابن مسعود قال : لم يخافت من أسمع أذنيه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال : العلم خير من العمل ، وخير الأمور أوسطها ، والحسنة بين تلك السيئتين ، وذلك لأن الله تعالى يقول : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي قلابة قال : خير الأمور أوسطها .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (111) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه قال : إن اليهود والنصارى قالوا ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ [البقرة : 116] وقالت العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . وقال الصابئون والمجوس : لولا أولياء الله لذل ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولم يكن له ولي من الذل ﴾ قال : لم يحالف أحداً ولم يبتغ نصر أحد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله : ﴿ وكبره تكبيراً ﴾ قال : كبره أنت يا محمد على ما يقولون تكبيراً .

وأخرج أحمد والطبراني ، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آية العز : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً . . . ﴾ " الآية كلها .

وأخرج أبو يعلى وابن السني ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " خرجت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم ويدي في يده ، فأتى على رجل رث الهيئة فقال : أي فلان ، ما بلغ بك ما أرى ؟ قال : السقم والضر . قال : ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر ؟ . . . قل : توكلت على الحي الذي لا يموت ، و ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً ﴾ فأتى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حسنت حالته ، فقال : مهيم ؟ فقال : لم أزل أقول الكلمات التي علمتني " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن إسماعيل بن أبي فديك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما كربني أمر إلا تمثل لي جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ، قل توكلت على الحي الذي لا يموت و ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم يعلم أهله هذه الآية ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ﴾ إلى آخرها . الصغير من أهله والكبير .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبد الكريم بن أبي أمية قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم الغلام من بني هاشم إذا أفصح سبع سنوات ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً ﴾ .

(167/465)

وأخرج ابن أبي شيبة من طريق عبد الكريم ، عن عمرو بن شعيب رضي الله عنه قال : كان الغلام إذا أفصح من بني عبد المطلب ، علمه النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية سبع مرات ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ﴾ الآية .

وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

وأخرج ابن السني والديلمي ، عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : " إذا أخذت مضجعك فقولي : الحمد لله الكافي . . . سبحان الله الأعلى . . . حسبي الله وكفى ما شاء الله . . . قضى ، سمع

الله لمن دعا ، ليس من الله ملجأ ولا وراء الله ملتجأ . . . توكلت على ربي وربكم . . . ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها . . . إن ربي على صراط مستقيم ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً ﴾ من يقولها عند منامه ثم ينام وسط الشياطين والهوام فلا تضره " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل ، ثم تلا ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾ والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(168/465)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ ﴾ :

" أيَّاً " منصوب ب " تَدْعُوا " على المفعول به ، والمضافُ إليه محذوفٌ ، أي : أيَّ الاسمين .

و " تَدْعوا " مجزوم بها فهي عاملةٌ معمولةٌ ، وكذلك الفعلُ ، والجوابُ الجملةُ الاسميةِ مِنْ قوله

﴿ فَلَهُ الأَسْمَآءَ الحسنى ﴾ . وقيل : هو محذوفٌ تقديرُه : جاز ، ثم استأنفَ فقال : فله الأسماءُ الحسنى " . وليس بشيءٍ .

والتنوين في " أيَّاً " عوضٌ من المضافِ إليه . وفي " ما " قولان ، أحدهما : أنها مزيدةٌ للتأكيد . والثاني : أنها شرطيةٌ جُمِعَ بينهما تأكيداً كما جُمِع بين حَرْفَيْ الجرِّ للتأكيد ، وحَسَّنه اختلافُ اللفظ كقوله :

3119- فَأَصْبَحْنَ لا يَسْأَلْنني عن بما به . . . .

والثاني : أنها شرطية ...

ويؤيِّد هذا ما قرأ به طلحة بن مصرف " أياً مَنْ تَدْعُوا " فقيل : " مَنْ " تحتمل الزيادة على رأيِ الكسائي كقوله في قوله :

310- يا شاةَ مَنْ قَنَصٍ لِمَنْ حَلَّتْ له . . . .

واحتُمِل أن تكونَ شرطيةً ، وجُمِع بينهما تأكيداً لِما تقدم . و " تَدْعُوا " هنا يحتمل أن يَكونَ من الدعاء وهو النداء فيتعدَّى لواحدٍ ، وأن يكونَ بمعنى التسمية فيتعدَّى لاثنين ، إلى الأولِ بنفسه ، وإلى الثاني بحرفِ الجر ، ثم يُتَّسَعُ في الجارِّ فيُحذف كقوله :

3121- دَعَتْني أخاها أمُّ عمروٍ . . . .

والتقدير: قل: ادعُوا معبودَكم بالله أو بالرحمن/ بأيِّ الاسمين سَمَّيتموه. وممَّن ذهب إلى كونها بمعنى "سَمَّى" الزمخشري.

(169/465)

ووقف الأخوان على "أيًا" بإبدال التنوين ألفاً، ولم يقفا على "ما" تبييناً لانفصالِ "أيَّ" مِنْ "ما". ووقف غيرُهما على "ما" لامتزاجها ب "أيّ"، ولهذا فُصِل بها بين "أيّ" وبين ما أُضيفت إليه في قوله تعالى ﴿ أَيَّمَا الأجلين ﴾ [القصص: 28]. وقيل: "ما" شرطيةٌ عند مَنْ وقف على "أياً" وجعل المعنى: أيَّ الاسمين دَعَوْتموه به جاز ثم استأنف ﴿ مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأسمآء الحسنى ﴾ يعني أنَّ "ما" شرطٌ ثانٍ، و "فله الأسماءُ" جوابُه، وجوابُ الأول مقدَّرٌ. وهذا مردودٌ بأنَّ "ما" لا تُطْلَق على آحاد أولي العلم، وبأنَّ الشرطَ يقتضي عموماً، ولا يَصِحُّ هنا، وبأن فيه حَذْفَ الشرط والجزاء معاً.

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (111) ﴾

قوله تعالى: ﴿ مِّنَ الذل ﴾ فيه ثلاثةُ أوجه،

أحدُها: أنها صفةٌ ل "وليّ"، والتقدير: وليّ من أهلِ الذل، والمرادُ بهم: اليهودُ

والنصارى ؛ لأنهم أذلُّ الناسِ . والثاني : أنها تبعيضية . الثالث : أنها للتعليل ، أي : مِنْ أجل الذُّلِّ . وإلى هذين المعنيين نحا الزمخشريُّ فإنه قال : " وليٌّ من الذل : ناصرٌ من الذل ، ومانعٌ له منه ، لاعتزازه به ، أو لم يُوالِ أحداً لأَجْلِ مَذَلَّةٍ به ليدفعَها بموالاتِه " .

وقد تقدَّم الفرقُ بين الذُّل والذّل في أول هذه السورة .

والمخافَتَةُ : المُسَارَّةُ بحيث لا يُسْمَعُ الكلامُ . وضَرَبْتُه حتى خَفَتَ ، أي : لم يُسْمَعْ له حِسٌّ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 429 . 431 ﴾

(170/465)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ قلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيَاًمَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَآءُ ﴾ .

مِنْ عظيم نعمته – سبحانه – على أوليائه تَنَزُّهُهم بأسرارهم في رِياض ذِكْرِه بتعداد أسمائه الحسنى من روضة إلى روضة ، ومن مَأْنسٍ إلى مأنس .

ويقال الأغنياءُ ترددهم في بساتينهم ، والأولياءُ تنزههم في مشاهد تسبيحهم ، يستروحون إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جلاله وجماله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ .

لا تجهر بجميعها ، ولا تخافت بكُلِّها ، وارفع صوتك في بعضها دون بعض .

ويقال ولا تجهر بها جهراً يَسْمَعهُ الأعداءُ ، ولا تخافت بها حيث لا يسمع الأولياء .

﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ : يكون للأحباب مسموعاً ، وعن الأجانب ممنوعاً .

ويقال : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ : بالنهار ، ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ : بالليل .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (111) ﴾

احْمَدْه بذكر تقدسه عن الولد ، وأنه لا شريك له ؛ ولا ولي له من الذل ؛ إما على أنه لم يَذَلّ فيحتاج إلى ولي ، أو على أنه لم يوالِ أحداً من أجل مذلة به فيدفعها بموالاته . ويقال اشكره على نعمته العظيمة حيث عرّفك بذلك .

ويقال له الأولياءُ ولكن لا يعتريهم بذُلِّهم ، إذ يصيرون بعبادته أَعِزَّةً .

﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ بأَنْ تَعْلَمَ أَنَّك تصل إليه به لا بتكبيرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 374 . 375 ﴾

من فوائد الإمام الجصاص فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنْس وَالْجِنّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآن ﴾ الْآيَةُ فِيهِ الدَّلَالَة عَلَى إعْجَاز الْقُرْآن ، فَمِنْ النَّاس مَنْ يَقُول : " إعْجَازه فِي النَّظْم عَلَى حِيَالِهِ وَفِي الْمَعَانِي وَتَرْتِيبهَا عَلَى حِيَالِهِ " وَيَسْتَدِلّ عَلَى ذَلِكَ بِتَحَدِّيهِ فِي هَذِهِ الْآيَة الْعَرَب وَالْعَجَم وَالْجِنّ وَالْإِنْس ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْعَجَم لَا يُتَحَدَّوْنَ بِهِ مِنْ طَرِيق النَّظْم فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ التَّحَدِّي لَهُمْ مِنْ جِهَة الْمَعَانِي وَتَرْتِيبهَا عَلَى هَذَا النِّظَام دُونَ نَظْم الْأَلْفَاظِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْبَى أَنْ يَكُونَ إعْجَازُهُ إلَّا مِنْ جِهَة نَظْم الْأَلْفَاظ وَالْبَلَاغَة فِي الْعِبَارَة ، فَإِنَّهُ يَقُولُ : إنَّ إعْجَاز الْقُرْآن مِنْ وُجُوه كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا حُسْنُ النَّظْم وَجَوْدَةُ الْبَلَاغَة فِي اللَّفْظِ وَالِاخْتِصَارُ وَجَمْعُ الْمَعَانِي الْكَثِيرَة فِي الْأَلْفَاظِ الْيَسِيرَة مَعَ تَعَرِّيهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ لَفْظ مَسْخُوطٌ أَوْ مَعْنًى مَدْخُولٌ وَلَا تَنَاقُض وَلَا اخْتِلَاف تَضَادّ ، وَجَمِيعُهُ فِي هَذِهِ الْوُجُوه جَارٍ عَلَى مِنْهَاجٍ وَاحِدٍ ، وَكَلَامُ الْعِبَادِ لَا يَخْلُو إذَا طَالَ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْأَلْفَاظ السَّاقِطَة وَالْمَعَانِي الْفَاسِدَةُ وَالتَّنَاقُضُ فِي الْمَعَانِي .

وَهَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي ذَكَرْنَا مِنْ عُيُوبِ الْكَلَامِ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ سَائِرِ اللُّغَاتِ لَا يَخْتَصُّ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ دُونَ غَيْرِهَا ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ التَّحَدِّي وَاقِعًا لِلْعَجَمِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي الْإِتْيَانِ بِهَا عَارِيَّةً مِمَّا يَعِيبُهَا وَيُهَجِّنُهَا مِنْ الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا ، وَمِنْ جِهَةِ أَنَّ الْفَصَاحَةَ لَا تَخْتَصُّ بِهَا لُغَةُ الْعَرَبِ دُونَ سَائِرِ اللُّغَاتِ وَإِنْ كَانَتْ لُغَةُ الْعَرَبِ أَفْصَحَهَا ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْقُرْآنَ فِي أَعْلَى طَبَقَاتِ الْبَلَاغَةِ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ التَّحَدِّي لِلْعَجَمِ وَاقِعًا بِأَنْ يَأْتُوا بِكَلَامٍ فِي أَعْلَى طَبَقَاتِ الْبَلَاغَةِ بِلُغَتِهِمْ

الَّتِي يَتَكَلَّمُونَ بِهَا .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾ قَوْلُهُ : ﴿ فَرَقْنَاهُ ﴾ يَعْنِي فَرَقْنَاهُ بِالْبَيَانِ عَنْ الْحَقِّ مِنْ الْبَاطِلِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾ يَعْنِي عَلَى تَثَبُّتٍ وَتَوَقُّفٍ لِيَفْهَمُوهُ بِالتَّأَمُّلِ وَيَعْلَمُوا مَا فِيهِ بِالتَّفَكُّرِ وَيَتَفَقَّهُوا بِاسْتِخْرَاجِ مَا تَضَمَّنَ مِنْ الْحِكَمِ وَالْعُلُومِ الشَّرِيفَةِ .

وَقَدْ قِيلَ : إنَّهُ كَانَ يَنْزِلُ مِنْهُ شَيْءٌ فَيَمْكُثُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يَنْزِلُ شَيْءٌ آخَرُ ، وَهُوَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ عُبَيْدٍ الْمُكْتِبِ قَالَ : سُئِلَ مُجَاهِدٌ عَنْ

رَجُلَيْنِ قَرَأَ أَحَدُهُمَا الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ وَرَجُلٌ قَرَأَ الْبَقَرَةَ جُلُوسُهُمَا وَسُجُودُهُمَا وَرُكُوعُهُمَا سَوَاءٌ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ ؟ قَالَ : الَّذِي قَرَأَ الْبَقَرَةَ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾ وَرَوَى مُعَاوِيَةُ بْنُ قُرَّةَ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُغَفَّلِ قَالَ : ﴿ رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ أَوْ مِنْ سُورَةِ الْفَتْحِ قِرَاءَةً بَيِّنَةً ﴾ .

وَرَوَى حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ أَبِي حَمْزَةَ الضُّبَعِيِّ قَالَ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " لَأَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ فَأُرَتِّلَهَا وَأَتَدَبَّرَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ هَذَا " .

وَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ عُمَارَةَ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : " لَا تَقْرَءُوا الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ وَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ " .

وَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُهُ فِي سَبْعٍ وَالْأَسْوَدُ فِي سِتٍّ وَعَلْقَمَةُ فِي خَمْسٍ .

وَرُوِيَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ أَنَّهُ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةٍ .

رَوَى ابْنُ أَبِي لَيْلَةَ عَنْ صَدَقَةَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : ﴿ بُنِيَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَقْفٌ فِي الْمَسْجِدِ وَاعْتَكَفَ

فِيهِ فِي آخِرِ رَمَضَانَ وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ ، فَأَخْرَجَ رَأْسَهُ فَرَأَى النَّاسَ يُصَلُّونَ فَقَالَ : إِنَّ الْمُصَلِّيَ إِذَا صَلَّى يُنَاجِي رَبَّهُ فَلْيَعْلَمْ أَحَدُكُمْ بِمَا يُنَاجِيهِ ﴾ ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُسْتَحَبَّ التَّرْتِيلُ ؛ لِأَنَّهُ بِهِ يَعْلَمُ مَا يُنَاجِي رَبَّهُ بِهِ وَيَفْهَمُ عَنْ نَفْسِهِ مَا يَقْرَأُهُ .

بَابُ السُّجُودِ عَلَى الْوَجْهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : "لِلْوُجُوهِ" .

وَرَوَى مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ قَالَ : "لِلْوُجُوهِ" .

وَقَالَ مَعْمَرٌ : وَقَالَ الْحَسَنُ : " اللِّحَى " .

وَسُئِلَ ابْنُ سِيرِينَ عَنْ السُّجُودِ عَلَى الْأَنْفِ فَقَالَ : ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ وَرَوَى طَاوُسٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ وَلَا أَكُفَّ شَعْرًا وَلَا ثَوْبًا ﴾ ، قَالَ طَاوُسٌ : وَأَشَارَ إِلَى الْجَبْهَةِ وَالْأَنْفِ هُمَا عَظْمٌ وَاحِدٌ .

وَرَوَى عَامِرُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ إِذَا سَجَدَ الْعَبْدُ سَجَدَ مَعَهُ سَبْعَةُ آرَابٍ : وَجْهُهُ وَكَفَّاهُ وَرُكْبَتَاهُ وَقَدَمَاهُ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إِذَا سَجَدْتَ فَمَكِّنْ جَبْهَتَكَ وَأَنْفَكَ مِنْ الْأَرْضِ ﴾ .

وروى وائل بن حجر قال : ﴿ رأيت النبي صلى الله عليه وسلم إذا سجد وضع جبهته وأنفه على الأرض ﴾ .

وروى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي سعيد الخدري : أنه ﴿ رأى الطين في أنف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرنبته من أثر السجود وكانوا مطروا من الليل ﴾ .

وروى عاصم الأحول عن عكرمة قال : ﴿ رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا ساجدا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تقبل صلاة إلا بمس الأنف منها ما يمس الجبين ﴾ .

وهذه الأخبار تدل على أن موضع السجود هو الأنف والجبهة جميعا وروى عبد العزيز بن عبد الله قال : قلت لوهب بن كيسان : يا أبا نعيم

ما لك لا تمكن جبهتك وأنفك من الأرض ؟ قال : ذاك لأني سمعت جابر بن عبد الله يقول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يسجد على جبهته على قصاص الشعر ﴾ .

وروى أبو الشعثاء قال : رأيت ابن عمر سجد فلم يضع أنفه على الأرض ، فقيل له في ذلك

، فَقَالَ : " إنَّ أَنْفِي مِنْ حُرِّ وَجْهِي وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ أَشِينُ وَجْهِي " .

وَرُوِيَ عَنْ الْقَاسِمِ وَسَالِمٍ أَنَّهُمَا كَانَا يَسْجُدَانِ عَلَى جِبَاهِهِمَا وَلَا تَمَسُّ أُنُوفُهُمَا الْأَرْضَ .

(176/465)

وَأَمَّا حَدِيثُ جَابِرٍ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْجُدُ عَلَى قِصَاصِ شَعْرِهِ لِعُذْرٍ كَانَ بِأَنْفِهِ تَعَذَّرَ مَعَهُ السُّجُودُ عَلَيْهِ ، وَتَأْوِيلُ مَنْ تَأَوَّلَهُ عَلَى الْوُجُوهِ عَلَى اللِّحَى يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ الِاقْتِصَارِ بِالسُّجُودِ عَلَى الْأَنْفِ دُونَ الْجَبْهَةِ وَإِنْ كَانَ الْمُسْتَحَبُّ فِعْلُ السُّجُودِ عَلَيْهِمَا ؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ السُّجُودَ عَلَى الذَّقَنِ ؛ لِأَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ لَا يَقُولُ ذَلِكَ ، فَثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ الْأَنْفُ لِقُرْبِهِ مِنْ الذَّقَنِ ، وَمِنْ مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ إنْ سَجَدَ عَلَى الْأَنْفِ دُونَ الْجَبْهَةِ أَجْزَأَهُ ، وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ : " لَا يُجْزِئُهُ " وَإِنْ سَجَدَ عَلَى الْجَبْهَةِ دُونَ الْأَنْفِ أَجْزَأَهُ عِنْدَهُمْ جَمِيعًا .

وَرَوَى الْعَطَّافُ بْنُ خَالِدٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : " إذَا وَقَعَ أَنْفُكَ عَلَى الْأَرْضِ فَقَدْ سَجَدْتَ " .

وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ حَنْظَلَةَ عَنْ طَاوُسٍ قَالَ : " الْجَبْهَةُ وَالْأَنْفُ مِنْ السَّبْعَةِ فِي الصَّلَاةِ وَاحِدٌ " .

وَرَوَى إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَيْسَرَةَ عَنْ طَاوُسٍ قَالَ : " إِنَّ الْأَنْفَ مِنَ الْجَبِينِ " وَقَالَ : هُوَ خَيْرُهُ .

بَابُ مَا يُقَالُ فِي السُّجُودِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ فَمَدَحَهُمْ بِهَذَا الْقَوْلِ عِنْدَ السُّجُودِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمَسْنُونَ فِي السُّجُودِ مِنَ الذِّكْرِ هُوَ التَّسْبِيحُ .

(177/465)

وَرَوَى مُوسَى بْنُ أَيُّوبَ عَنْ عَمِّهِ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : ﴿ لَمَّا نَزَلَ : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ فَلَمَّا نَزَلَ : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ ﴾ .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي لَيْلَى عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ صِلَةَ بْنِ زُفَرَ عَنْ حُذَيْفَةَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ : سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ وَفِي سُجُودِهِ : سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى ثَلَاثًا .

﴾ وَرَوَى قَتَادَةُ عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ : سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ ﴾ .

وروى ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ عَنْ إسْحَاقَ بْنِ يَزِيدَ عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إذَا رَكَعَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ فِي رُكُوعِهِ سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ ثَلَاثًا ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ تَمَّ رُكُوعُهُ وَذَكَرَ فِي سُجُودِهِ : سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى ثَلَاثًا ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ قَالَ : أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ وَأَمَّا السُّجُودُ فَأَكْثِرُوا فِيهِ الدُّعَاءَ ، فَإِنَّهُ قَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ .

(178/465)

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ : ﴿ اللَّهُمَّ لَك سَجَدْت وَبِك آمَنْت ﴾ فِي كَلَامٍ كَثِيرٍ .

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَا رَوَاهُ عَلِيٌّ وَابْنُ عَبَّاسٍ إنَّمَا ﴿ كَانَ يَقُولُهُ قَبْلَ نُزُولِ : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّك الْأَعْلَى ﴾ ثُمَّ لَمَّا نَزَلَ ذَلِكَ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُجْعَلَ فِي السُّجُودِ ﴾ ، كَمَا رَوَاهُ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ .

وَقَالَ أَصْحَابُنَا وَالثَّوْرِيُّ وَالشَّافِعِيُّ : "يَقُولُ فِي الرُّكُوعِ سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ ثَلَاثًا وَفِي السُّجُودِ سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى ثَلَاثًا " .

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ : "يُسْتَحَبُّ لِلْإِمَامِ أَنْ يَقُولَهَا خَمْسًا فِي الرُّكُوعِ وَفِي السُّجُودِ حَتَّى يُدْرِكَ الَّذِينَ

خَلْفَهُ ثَلَاثَ تَسْبِيحَاتٍ " .

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ إِذَا أَمْكَنَ وَلَمْ يُسَبِّحْ فَهُوَ يُجْزِئُ عَنْهُ ، وَكَانَ لَا يُوَقِّتُ تَسْبِيحًا .

وَقَالَ مَالِكٌ فِي السُّجُودِ وَالرُّكُوعِ : " قَوْلُ النَّاسِ فِي الرُّكُوعِ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ وَفِي السُّجُودِ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى لَا أَعْرِفُهُ " فَأَنْكَرَهُ وَلَمْ يَحُدَّ فِيهِ دُعَاءً مُوَقَّتًا ، قَالَ : " وَلَكِنْ يُمَكِّنُ يَدَيْهِ مِنْ رُكْبَتَيْهِ فِي الرُّكُوعِ وَيُمَكِّنُ جَبْهَتَهُ مِنَ الْأَرْضِ فِي السُّجُودِ " وَلَيْسَ فِيهِ عِنْدَهُ حَدٌّ .

(179/465)

بَابُ الْبُكَاءِ فِي الصَّلَاةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ الْبُكَاءَ فِي الصَّلَاةِ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ لَا يَقْطَعُ الصَّلَاةَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ مَدَحَهُمْ بِالْبُكَاءِ فِي السُّجُودِ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ سُجُودِ الصَّلَاةِ وَسُجُودِ التِّلَاوَةِ وَسَجْدَةِ الشُّكْرِ .

وَرَوَى سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا إسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : سَمِعْت عَبْدَ اللَّهِ بْنَ شَدَّادٍ قَالَ : سَمِعْت نَشِيجَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَإِنِّي لَفِي آخِرِ الصُّفُوفِ ، وَقَرَأَ فِي

صَلَاةِ الصُّبْحِ سُورَةَ يُوسُفَ حَتَّى إِذَا بَلَغَ ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ نَشَجَ وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَقَدْ كَانُوا خَلْفَهُ ، فَصَارَ إِجْمَاعًا وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي وَلِصَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ مِنْ الْبُكَاءِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ يَعْنِي بِهِ أَنَّ بُكَاءَهُمْ فِي حَالِ السُّجُودِ يَزِيدُهُمْ خُشُوعًا إِلَى خُشُوعِهِمْ وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ مَخَافَتَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى حَتَّى تُؤَدِّيَهُمْ إِلَى الْبُكَاءِ دَاعِيَةٌ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ عَلَى مَا يَجِبُ مِنْ الْقِيَامِ بِحُقُوقِ نِعَمِهِ .

وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ .

(180/465)

بَابُ الْجَهْرِ بِالْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ وَالدُّعَاءِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رِوَايَةٌ وَعَائِشَةَ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ : " لَا تَجْهَرْ بِدُعَائِك وَلَا تُخَافِتْ بِهِ " .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَقَتَادَةَ : ﴿ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا جَهَرَ وَلَا يُسْمِعُ مَنْ خَلْفَهُ إذَا خَافَتَ ، وَذَلِكَ بِمَكَّةَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ وَأَرَادَ بِهِ الْقِرَاءَةَ فِي الصَّلَاةِ ﴾ .

وَقَالَ الْحَسَنُ : " لَا تَجْهَرْ بِالصَّلَاةِ بِإِشَاعَتِهَا عِنْدَ مَنْ يُؤْذِيكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا عِنْدَ مَنْ يَلْتَمِسُهَا " فَكَانَ عِنْدَ الْحَسَنِ أَنَّهُ أُرِيدَ تَرْكُ الْجَهْرِ فِي حَالٍ وَتَرْكُ الْمُخَافَتَةِ فِي أُخْرَى .

وَقِيلَ : " وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ كُلِّهَا وَلَا تُخَافِتْ بِجَمِيعِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا بِأَنْ تَجْهَرَ بِصَلَاةِ اللَّيْلِ وَتُخَافِتَ بِصَلَاةِ النَّهَارِ عَلَى مَا أَمَرْنَاكَ بِهِ " .

وَرُوِيَ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ نُسَيٍّ عَنْ غُضَيْفِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ : سَأَلْتُ عَائِشَةَ أَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ يَجْهَرُ بِالْقُرْآنِ أَوْ يُخَافِتُ ؟ قَالَتْ : رُبَّمَا جَهَرَ وَرُبَّمَا خَافَتَ .

﴾ وَرَوَى أَبُو خَالِدٍ الْوَالِبِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : ﴿ أَنَّهُ كَانَ إذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ يَخْفِضُ طَوْرًا وَيَرْفَعُ طَوْرًا وَقَالَ : هَكَذَا كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ .

(181/465)

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ رَأَى النَّاسَ يُصَلُّونَ فِي آخِرِ رَمَضَانَ فَقَالَ : إنَّ الْمُصَلِّيَ إذَا صَلَّى يُنَاجِي رَبَّهُ فَلْيَعْلَمْ أَحَدُكُمْ بِمَا يُنَاجِيهِ وَلَا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ .

وَرَوَى أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ الْحَارِثِ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ : ﴿ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَرْفَعَ الرَّجُلُ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ قَبْلَ الْعِشَاءِ وَبَعْدَهَا

يُغلط أُصْحابه في الصَّلَاةِ ﴾ .

وَرُوِيتْ أَخْبَارٌ فِي الْجَهْرِ بِالْقِرَاءَةِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ ، رَوَى كُرَيْبٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي بَعْضِ حُجَرِهِ فَيَسْمَعُ قِرَاءَتَهُ مَنْ كَانَ خَارِجًا ﴾ .

وَرَوَى إبْرَاهِيمُ عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ : " صَلَّيْت مَعَ عَبْدِ اللَّهِ لَيْلَةً فَكَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالْقِرَاءَةِ فَيُسْمِعُ أَهْلَ الدَّارِ " .

وَرُوِيَ لِأَبِي بَكْرٍ ﴿ كَانَ إذَا صَلَّى خَفَضَ صَوْتَهُ وَأَنَّ عُمَرَ كَانَ إذَا صَلَّى رَفَعَ صَوْتَهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بَكْرٍ : لِمَ تَفْعَلُ هَذَا قَالَ : أُنَاجِي رَبِّي وَقَدْ عَلِمَ حَاجَتِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَحْسَنْتَ وَقَالَ لِعُمَرَ : لِمَ تَفْعَلُ هَذَا ؟ فَقَالَ : أُوقِظُ الْوَسْنَانَ وَأَطْرُدُ الشَّيْطَانَ ، فَقَالَ : أَحْسَنْتَ فَلَمَّا نَزَلَ : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِك ﴾ الْآيَةَ ، قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ : ارْفَعْ شَيْئًا وَقَالَ لِعُمَرَ : اخْفِضْ شَيْئًا ﴾ .

(182/465)

وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوْتَ أَبِي مُوسَى فَقَالَ : ﴿ لَقَدْ أُوتِيَ أَبُو مُوسَى مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُد ﴾ ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ لَمْ يُنْكِرْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَرَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْسَجَةَ عَنْ الْبَرَاءِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

﴿ زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ ﴾ .

وَرَوَى حَمَّادٌ عَنْ إبْرَاهِيمَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : " حَسِّنُوا أَصْوَاتَكُمْ بِالْقُرْآنِ " .

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ طَاوُسٍ قَالَ : ﴿ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ أَحْسَنُ النَّاسِ قِرَاءَةً ؟ قَالَ : الَّذِي إذَا سَمِعْتَ قِرَاءَتَهُ رَأَيْتَ أَنَّهُ يَخْشَى اللَّهَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(183/465)

ومن فوائد ابن العربى فى الآيات

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إسْرَائِيلَ إذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إنِّي لَأَظُنُّك يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ : وَفِيهَا خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هِيَ يَدُهُ ،

وَعَصَاهُ، وَلِسَانُهُ، وَالْبَحْرُ، وَالطُّوفَانُ، وَالْجَرَادُ، وَالْقُمَّلُ، وَالضَّفَادِعُ، وَالدَّمُ.

الثَّانِي: أَنَّهَا الطُّوفَانُ، وَالْجَرَادُ، وَالْقُمَّلُ، وَالضَّفَادِعُ، وَالدَّمُ، وَالْبَحْرُ، وَعَصَاهُ، وَالطَّمْسَةُ، وَالْحَجَرُ؛ قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَا الطَّمْسَةُ قَالَ قَوْلُهُ: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ﴾.

قَالَ: فَدَعَا عُمَرُ بِخَرِيطَةٍ كَانَتْ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أُصِيبَتْ بِمِصْرَ، فَإِذَا فِيهَا الْجَوْزَةُ وَالْبَيْضَةُ وَالْعَدَسَةُ، مُسِخَتْ حِجَارَةً كَانَتْ مِنْ أَمْوَالِ فِرْعَوْنَ بِمِصْرَ.

الثَّالِثُ: رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ هِيَ: الْحَجَرُ، وَالْعَصَا، وَالْيَدُ، وَالطُّوفَانُ، وَالْجَرَادُ، وَالْقُمَّلُ، وَالضَّفَادِعُ، وَالدَّمُ، وَالطَّوْدُ.

وَقَالَ مَالِكٌ: الطُّوفَانُ: الْمَاءُ.

الرَّابِعُ: رَوَى مُطَرِّفٌ عَنْ مَالِكٍ هِيَ: الطُّوفَانُ، وَالْجَرَادُ، وَالْقُمَّلُ، وَالضَّفَادِعُ، وَالدَّمُ، وَالْعَصَا، وَالْيَدُ، وَالْبَحْرُ وَالْجَبَلُ، فِي أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ.

الْخَامِسُ: رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ الْمُرَادِيِّ أَنَّ ﴿ يَهُودِيَّيْنِ سَأَلَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ التِّسْعِ الْآيَاتِ؛ فَقَالَ: هِيَ أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا،

وَلَا تَزْنُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلَّا بِالْحَقِّ وَلَا تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إلَى ذِي سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ ، وَلَا تَسْحَرُوا ، وَلَا تَقْذِفُوا الْمُحْصَنَاتِ ، وَلَا تُوَلُّوا الْأَدْبَارَ عِنْدَ الزَّحْفِ ، وَعَلَيْكُمْ خَاصَّةً يَهُودُ أَلَّا تَعْتَدُوا فِي

السَّبْتِ .

فَقَبَّلَا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ، وَقَالَا : نَشْهَدُ أَنَّك نَبِيٌّ .

فَقَالَ : وَمَا يَمْنَعُكُمَا أَنْ تَتَّبِعَانِي ؟ فَقَالَا : إنَّ دَاوُد دَعَا أَلَّا يَزَالَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ ، وَإِنَّا نَخَافُ إنْ اتَّبَعْنَاك أَنْ تَقْتُلَنَا يَهُودُ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : الَّذِي جَرَى مِنْ الْأَحْكَامِ هَاهُنَا ذِكْرُ الْعَصَا ، وَسَنَسْتَوْفِي الْقَوْلَ فِيهَا فِي سُورَةِ " طَه " إنْ شَاءَ اللَّهُ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ اُدْعُوا اللَّهَ أَوْ اُدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِك وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : وَفِي ذَلِكَ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : رَوَى الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الصَّلَاةَ هُنَا الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَاةِ قَالَ : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ ، وَمَنْ أَنْزَلَ وَمَنْ جَاءَ بِهِ ؛ فَقَالَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِك ﴾ فَيَسْمَعَ الْمُشْرِكُونَ ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ حَتَّى لَا يَسْمَعَك أَصْحَابُك الْآيَةَ ﴾ .

الثَّانِي : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الدُّعَاءِ ؛ قَالَهُ الْبُخَارِيُّ ، وَغَيْرُهُ عَنْ عَائِشَةَ ، وَابْنِ وَهْبٍ أَيْضًا ، رَوَاهُ عَنْ مَالِكٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ .

الثَّالِثُ : قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : قِيلَ لِمُحَمَّدٍ : لَا تُحْسِنْ صَلَاتَك فِي الْعَلَانِيَةِ مُرَاءَاةً ، وَلَا تُسِيئُهَا فِي الْمُخَافَتَةِ .

(186/465)

الرَّابِعُ : رُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ إنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ لِأَمْرٍ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ لَمَّا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ فِي عَدَدِ خَزَنَةِ النَّارِ : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ قَالُوا فِي ذَلِكَ مَا قَالُوا ، وَجَعَلُوا إذَا سَمِعُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَفَرَّقُونَ عَنْهُ ، فَكَانَ الرَّجُلُ إذَا أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَ اسْتَرَقَ السَّمْعَ دُونَهُمْ فَرَقًا مِنْهُمْ ، فَإِذَا رَأَى أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ يَسْتَمِعُ] ذَهَبَ خَشْيَةَ أَذَاهُمْ ، وَإِنْ

خَفَضَ صَوْتَهُ يَظُنُّ الَّذِي يَسْمَعُ أَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ مِنْ قِرَاءَتِهِ شَيْئًا وَسَمِعَ هُوَ شَيْئًا مِنْهُمْ أَصَاخَ لَهُ يَسْمَعُ مِنْهُ ، فَقِيلَ لَهُ : لَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ فَيَتَفَرَّقُوا عَنْكَ ، وَلَا تُخَافِتْ بِهَا فَلَا يَسْمَعُهَا مَنْ يَسْتَرِقُ

السَّمْعَ ، رَجَاءَ أَنْ يَرْعَوِيَ إِلَى بَعْضِ مَا يَسْمَعُ فَيَنْتَفِعُ بِهِ الْوَسْنَانُ .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ : كَانَ أَبُو بَكْرٍ يُخَافِتُ ، وَعُمَرُ يَجْهَرُ ، فَقِيلَ لِأَبِي بَكْرٍ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : أُسْمِعُ مَنْ أُنَاجِي .

وَقِيلَ لِعُمَرَ فِيهِ ، فَقَالَ : أُوقِظُ الْوَسْنَانَ ، وَأَطْرُدُ الشَّيْطَانَ ، وَأَذْكُرُ الرَّحْمَنَ .

فَقِيلَ لِأَبِي بَكْرٍ : ارْفَعْ قَلِيلًا .

وَقِيلَ لِعُمَرَ : اخْفِضْ قَلِيلًا ، وَذَكَرَ هَذَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ .

(187/465)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : عَبَّرَ اللَّهُ هَاهُنَا بِالصَّلَاةِ عَنْ الْقِرَاءَةِ ، كَمَا عَبَّرَ بِالْقِرَاءَةِ عَنْ الصَّلَاةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُرْتَبِطٌ بِالْآخَرِ ؛ الصَّلَاةُ تَشْتَمِلُ عَلَى قِرَاءَةٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ ، فَهِيَ مِنْ جُمْلَةِ أَجْزَائِهَا ، فَيُعَبَّرُ بِالْجُزْءِ عَنْ

الْجُمْلَةِ وَبِالْجُمْلَةِ عَنْ الْجُزْءِ ، عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي الْمَجَازِ وَهُوَ كَثِيرٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِي تَتَبُّعِ الْأَسْبَابِ بِالتَّنْقِيحِ : أَمَّا رِوَايَاتُ ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَصَحُّهَا الْأَوَّلُ وَأَمَّا رِوَايَةُ عَائِشَةَ فَيُعَضِّدُهَا مَا رُوِيَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي مَسِيرٍ ، فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ ، وَلَا غَائِبًا ، وَإِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا ؛ إنَّهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رُءُوسِ رِحَالِكُمْ ﴾ .

وَأَمَّا الثَّالِثُ فَإِنْ صَحَّ فَيَكُونُ خِطَابًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ أُمَّتُهُ ، إذْ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ .

وَأَمَّا الرَّابِعُ فَمُحْتَمَلٌ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَصِحَّ .

وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَيُشْبِهُ الْحَدِيثَ الْوَارِدَ فِي الدُّعَاءِ ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى الزِّيَادَةِ فِي الْجَهْرِ ، حَتَّى يَضُرَّ ذَلِكَ بِالْقَارِئِ ، وَلَا يُمْكِنُهُ التَّمَادِي عَلَيْهِ ، فَأَخَذَ بِالْوَسَطِ مِنْ الْجَهْرِ الْمُتْعِبِ وَالْإِسْرَارِ الْمُخَافِتِ .

وَقَدْ رَأَيت بَعْضَ الْعُلَمَاءِ قَالَ فِيهَا قَوْلًا سَادِسًا ؛ وَهُوَ لَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِك بِالنَّهَارِ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا بِاللَّيْلِ ، وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا سَنَّهَا اللَّهُ لِنَبِيِّهِ وَأَوْعَزَ بِهَا إلَيْكُمْ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(189/465)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرءان لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ أي بمثل هذا القرآن على نظمه وإيجازه ونسقه مع كثير مما ضمن فيه من الأحكام والحدود وفنونها ؛ ويقال : مثل هذا القرآن من تعريه عن التناقض مع كثرة الأقاصيص والأخبار ؛ ويقال : ﴿ على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرءان لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ ، لأن فيه علم ما كان وعلم ما يكون ، ولا يعرف ذلك إلاَّ بالوحي ؛ ويقال : بمثل هذا القرآن ، لأنه كلام منثور لا على وجه الشعر ، لأن تحت كل كلمة معاني كثيرة .

﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ، أي معيناً .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ ﴾ ، يعني : بينّا للناس .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان ﴾ ، أي من كل لون ، ومن الحلال والحرام ، والأحكام والحدود ، والوعد والوعيد .

﴿ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُورًا ﴾ ، أي ثباتاً على الكفر ؛ ويقال : أبوا عن الشكر إلاَّ كفوراً ، أي كفراناً مكانه ؛ ويقال : لم يقبلوه .

قوله : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ ؛ أي لن نقربك ولن نصدقك ، وهو عبد الله بن أبي أمية المخزومي وأصحابه ، قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ .

﴿ حتى تَفْجُرَ لَنَا ﴾ ، يعني : تشقق الماء ﴿ مِنَ الأرض يَنْبُوعًا ﴾ ، أي عيوناً .

قرأ أهل الكوفة ، عاصم وحمزة والكسائي ﴿ تَفْجُرَ ﴾ بنصب التاء وجزم الفاء وضم الجيم مع التخفيف ، وقرأ الباقون : ﴿ تَفْجُرَ ﴾ بضم التاء ونصب الفاء مع التشديد ؛ وقال أبو عبيدة : هذا أحب إليّ ، لأنهم اتفقوا في الذي بعده ولا فرق بينهما في اللغة .

فمن قرأ بالتشديد فللتكثير والمبالغة ، كما يقال : قَبّل تَقْبيلاً للمبالغة .

ثم قال : ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ ﴾ ، أي بستاناً ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ ﴾ ، أي الكروم .

﴿ فَتُفَجِّرَ الأنهار ﴾ ، أي تشقق الأنهار ﴿ خِلاَلَهَا ﴾ ، يعني : وسطها .

﴿ تَفْجِيرًا ﴾ ، أي تشقيقاً .

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السماء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ ، أي قطعاً .

قرأ ابن عامر وعاصم ونافع ﴿ كِسَفًا ﴾ بنصب السين ، وقرأ الباقون بالجزم ؛ ومعناهما واحد ، أي تسقط علينا طبقاً .

واشتقاقه من كسفت الشيء ، إذا غطيته .

ومن قرأ بالنصب ، جعلها جمع كسفة وهي القطعة ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بالله والملئكة قَبِيلاً ﴾ ، أي ضميناً كفيلاً ، والقبيل الكفيل ؛ ويقال : من المقابلة أي معاينة شهيداً ، يشهدون لك بأنك نبي الله تعالى .

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مّن زُخْرُفٍ ﴾ ، أي من ذهب .

﴿ أَوْ ترقى فِى السماء ﴾ ، أي تصعد إلى السماء .

﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيّكَ ﴾ ، أي لصعودك .

﴿ حتى تُنَزّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَءهُ ﴾ ، روى أسباط ، عن السدي أنه قال : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، جاءه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أمية المخزومي أخو أم سلمة ، فأبى أن يبايعهما ، فقالت أم سلمة : ما بال أخي يكون أشقى الناس بك يا رسول الله وابن عمك ؟ فقال : " أَمَّا ابْنُ عَمِّي ، فَإِنَّهُ كَانَ يَهْجُونا ؛ وأَمَّا

أَخُوكِ ، فَإِنَّهُ زَعَمَ أَنَّهُ لا يُؤْمِنُ بِي حَتَّى أَرْقَى فِي السَّمَاءِ ؛ وَلَوْ رَقِيتُ إِلَى السَّمَاءِ ، لَنْ يُؤْمِنَ حَتَّى آتِيَهُ بِكِتَابٍ يَقْرَؤُهُ" .

ثم دعاهما ، فقبل منهما وبايعهما .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ سبحان رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ ، فإني لا أقدر على ما تسألوني .

قرأ ابن كثير وابن عامر ﴿ قَالَ سبحانك رَبِّى ﴾ بالألف على وجه الحكاية وقرأ الباقون : ﴿ قُلْ سبحان ﴾ بغير ألف على وجه الأمر .

ثم قال ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يُؤْمِنُوا ﴾ ، يعني : أهل مكة ﴿ إِذْ جَاءهُمُ الهدى ﴾ ، يعني : القرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم .

(191/465)

﴿ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ الله بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ ، يعني : الرسول من الآدميين ، ومعناه أنه ليست لهم حجة سوى ذلك القول .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد : ﴿ لَوْ كَانَ فِى الأرض ملائكة يَمْشُونَ ﴾ ، أي لو كان سكانُ ملائكة يمشون ﴿ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ ، أي مقيمين في الأرض ؛ ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مّنَ

السماء مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ ، أي لبعثنا عليهم رسولاً من الملائكة .

وإنما يبعث الملك إلى الملائكة والبشر إلى البشر ، فلما قال لهم ذلك ، قالوا له : من يشهد لك بأنك رسول الله تعالى ؟ قال الله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ بأني رسول الله ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ ﴾ ، أي من يكرمه الله تعالى بالإسلام ويوفقه ، ﴿ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ ؛ يعني : فهو على الهدى وعلى الصواب .

قرأ نافع وأبو عمرو ﴿ المهتدي ﴾ بالياء عند الوصل ؛ وقرأ الباقون بغير ياء .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ﴾ ، أي ومن يخذله الله عن دينه ، ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ﴾ ، أي يهدونهم من الضلالة .

﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ ، أي نبعثهم يوم القيامة ونسوقهم منكبين على وجوههم ، يسحبون عليها ﴿ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ ، عن الهدى ؛ ويقال : في ذلك الوقت يكونون عمياً وبكماً وصماً كما وصفهم .

﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ ، أي : مصيرهم إلى جهنم ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ .

يقول : كلما سكن لهبها ولم تجد شيئاً تأكله ، ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ ، أي وقوداً ، أعيدوا خلقاً جديداً .

قال مقاتل : وذلك أن النار إذا أكلتهم ، فلم يبقَ منهم شيء غير عظام وصاروا فحماً ، سكنت النار فهو الخبو .

(192/465)

ثم بدلوا جلوداً غيرها ، فتشتعل وتسعر عليهم ، فذلك قوله : ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ ؛ وقال أهل اللغة : يقال خبت النار ، إذا سكن لهبها ، وإذا بقي من جمرها شيء ، يقال خمدت ، فإذا طفئت ولم يبقَ شيء ، قالوا همدت .

ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُم ﴾ ، أي ذلك العذاب عقوبتهم وجزاء أعمالهم .

﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ ﴾ ، أي بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ﴿ وَقَالُوا أَءذَا كُنَّا عظاما ورفاتا ﴾ ، أي تراباً .

﴿ أَءنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ بعد الموت .

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ ، يعني : أو لم يخبروا في القرآن ؟ ﴿ أَنَّ اللهَ الذى خَلَقَ السموات والأرض قَادِرٌ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ ، يعني : يحييهم بعد الموت .

﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، أي لا شك فيه عند المؤمنين أنه كائن .

﴿ فأبى الظالمون إَلاَّ كُفُورًا ﴾ ، أي أبى المشركون عن الإيمان ، ولم يقبلوا إلاّ الكفر .

ثم قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى ﴾ ، يقول : لو تقدرون على مفاتيح رزق ربي ، ﴿ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ ﴾ ؛ أي لبخلتهم وامتنعتم عن الصدقة ﴿ خَشْيَةَ الإِنفاق ﴾ ، أي مخافة الفقر .

﴿ وَكَانَ الإِنسان قَتُورًا ﴾ ، أي ممسكاً بخيلاً .

قال الزجاج هذا جواب لقولهم : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء : 90] وقال بعضهم : هذا ابتداء وصف بخلهم .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى تِسْعَ ءايات بَيّنَاتٍ ﴾ ، أي علامات واضحات ، مضيئات بالحجة عليهم وهاديات ، إذ جاءهم موسى بالبينات .

(193/465)

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ تِسْعَ ءايات بَيّنَاتٍ ﴾ ، وهي في سورة الأعراف ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءالَ فِرْعَوْنَ بالسنين وَنَقْصٍ مِّن الثمرات لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 130] قال : السنين لأهل البوادي ، ونقص الثمرات لأهل القرى ، فهاتان آيتان .

والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وهذه خمسة ؛ ويد موسى إذ أخرجها بيضاء

من غير سوء ، وعصاه إذ ألقاها فإذا هي ثعبان مبين .

قال الفقيه : حدّثنا الخليل بن أحمد قال : حدّثنا أبو موسى محمد بن إسحاق وخزيمة قالا : حدّثنا علي بن حزم بن حشرم قال : حدّثنا عيسى بن يونس ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن عبد الله بن سلمة ، عن صفوان بن عسال قال : قال يهودي لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبي ، فنسأله عن هذه الآيات : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى تِسْعَ ءايات ﴾ .

فقال : لا تقل نبي ، فإنه لو سمعها صارت له أربعة أعين .

فأتوه فسألوه ، فقال : " أَلاّ تُشْرِكُوا بالله شَيْئاً ، وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالحَقّ ، وَلا تَسْرِقُوا ، وَلا تَزْنُوا ، وَلا تَأْكُلُوا الرِّبَا ، وَلا تَسْحَرُوا ، وَلا تَقْذِفُوا مُحْصَناً أو قال : وَلا تَفِرُّوا يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَلا تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إلى سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ ، وَعَلَيْكُمْ خَاصَّةً يا مَعْشَرَ اليَهُودِ أَلا تَعْتَدُوا فِي السَّبْتِ " .

فقبّلا يديه ورجليه وقالوا نشهد إنك نبي الله ورسوله .

فقال : " وَمَا يَمْنَعُكُمَا أَنْ تُسْلِمَا ؟ " فقالا : إن داود دعا ربه ألاَّ يزال في ذريته نبي ، فنخاف أن يقتلنا اليهود .

ثم قال تعالى : ﴿ فاسأل بَنى إسراءيل ﴾ ، يعني : سل مؤمني أهل الكتاب عن هذه الآيات .

﴿ إِذْ جَاءهُمْ ﴾ ، يعني : حين جاءهم موسى ، ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنّى لأظُنُّكَ يا موسى موسى مَّسْحُورًا ﴾ ؛ أي مغلوب العقل .

(194/465)

قوله : ﴿ قَالَ ﴾ أي موسى : يا فرعون ، ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء ﴾ ؛ الآيات .

قرأ الكسائي : ﴿ عَلِمَتِ ﴾ بضم التاء ، يعني : علمت أنا من أنزل هؤلاء الآيات ﴿ إِلاَّ رَبُّ السموات والأرض ﴾ ، يعني : إن لم تصدقوني ، فأنا على يقين من ذلك ؛ وقرأ الباقون بالنصب ، يعني : إنك تعلم ذلك ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ [النمل : 14] .

﴿ بَصَائِرَ ﴾ ، أي علامات لنبوتي ، ويقال : علامات بينات .

﴿ وَإِنّى لأظُنُّكَ ﴾ ، أي لأعلمنك ﴿ لأظُنُّكَ يافرعون مَثْبُورًا ﴾ ، أي ملعوناً هالكاً .

قال الحسن : ﴿ مَثْبُورًا ﴾ أي مهلكاً ، وكذا قال قتادة .

وروى مجاهد ، عن ابن عباس أنه قال : ﴿ مَثْبُورًا ﴾ أي ملعوناً ، وكذا روى الكلبي والضحاك .

﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مّنَ الأرض ﴾ ﴿ أي يَسْتَنْزِلهُمْ ويخرجهم ، ويقال : أي يستخفهم

من الأرض ، يعني : من الأردن وفلسطين ومصر .

﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، الذين مع موسى : ﴿ اسكنوا الأرض ﴾ ، أي انزلوا أرض الأردن وفلسطين ومصر .

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ ﴾ ، أي البعث بعد الموت ، ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ ؛ أي جميعاً .

واللفيف الجماعة من كل قبيلة .

ثم قال : ﴿ وبالحق أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ، أي أنزلنا عليك جبريل بالقرآن .

﴿ وبالحق نَزَلَ ﴾ ، أي بالقرآن نزل جبريل ؛ ويقال : أنزلناه بالحق والحكمة والحجة .

ثم قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا ﴾ بالجنة للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ بالنار للكافرين .

ثم قال تعالى : ﴿ وَقُرْءانًا فَرَقْنَاهُ ﴾ ، حين أنزلنا به جبريل متفرقاً ، آية بعد آية ، وسورة بعد سورة .

﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾ ، أي على ترسل ، وسهل ليفهموه ويحفظوه .

وكان ابن عباس يقرأ : ﴿ فَرَقْنَاهُ ﴾ بالتشديد ، أي بيّنا فيه الحلال والحرام ؛ ويقال : أنزلناه متفرقاً .

﴿ ونزلناه تَنْزِيلاً ﴾ ، أي بيّناه تبييناً .

قوله : ﴿ قُلْ ءامِنُواْ بِهِ ﴾ ، أي صدقوا بالقرآن .

﴿ أَوْلاَ تُؤْمِنُواْ ﴾ ، يعني : أو لا تصدقوا ؛ ومعناه إن صدقتم به أو لم تصدقوا ، فإنه غني عن إيمانكم وتصديقكم .

﴿ إِنَّ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ ﴾ ، يعني : أعطوا علم كتابهم وهم مؤمنو أهل الكتاب من قبل القرآن .

﴿ إِذَا يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ ، أي يعرض عليهم القرآن عرفوه .

﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ ﴾ ، أي يقعون على الوجه ﴿ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبّنَا ﴾ ، أي تنزيهاً لربنا ؛ وقال الكلبي : أي نصلي لربنا .

﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ وقد كان وعد ربنا لمفعولاً أي كائناً ومقدوراً .

قوله : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ ﴾ ، أي يقعون على الوجوه .

﴿ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ ، أي تواضعاً ومذلة .

﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ ؛ قال الكلبي : كان ذكر الرحمن في القرآن قليلاً في بدىء ما نزل من القرآن ، وقد كان أسلم ناس من اليهود ، منهم عبد الله بن سلام وأصحابه

، وكان ذكره في التوراة كثيراً ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فنزل :

﴿ قُلِ ادعوا اللهَ أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ .

قرأ حمزة والكسائي : ﴿ قُلِ ادعوا اللهَ أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ بكسر اللام والواو ؛ وقرأ أبو عمرو بكسر اللام في ﴿ قُلِ ادعوا ﴾ وضم الواو في ﴿ أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ ، وقرأ الباقون كليهما بالضم ، ومعناهما واحد .

﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الاسماء الحسنى ﴾ يعني : بأي الاسمين تدعون ، فهو حسن ﴿ فَلَهُ الاسماء الحسنى ﴾ ، أي له الصفات العلى .

(196/465)

ثم قال : ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾ ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بمكة وكان يصلي بأصحابه ، وإذا رفع صوته ، أذاه المشركون ؛ وإذا خفض لا يسمع صوته الذين خلفه ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ﴾ ، أي بقراءتك فيؤذيك المشركون ﴿ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾ في جميع الصلوات ، يعني : لا تسر بقراءتك فلا يسمع أصحابك قراءتك .

﴿ وابتغ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً ﴾ ؛ يقول : بين الرفع والخفض ، ويقال : معناه ولا تجهر في جميع

الصلوات ، ولا تخافت في جميع الصلوات .

﴿ وابتغ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً ﴾ ، أي اجهر في بعض الصلوات ، وخافت في البعض .

ثم قال : ﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ ؛ قال الكلبي : وذلك أنه لما نزل : ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ ، قالت كفار قريش : كان محمد يدعو إلهاً واحداً ، وهو اليوم يدعو إلهاين ما نعرف الرحمن إلاَّ صاحب اليمامة مسيلمة الكذاب .

فنزل : ﴿ وَمِنَ الاحزاب مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ ، يعني : ذكر الرحمن ، وأمره بأن يقول : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِى الملك ﴾ ، أي لم يتخذ ولداً فيرث ملكه .

﴿ وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِى الملك ﴾ في عظمته ؛ وقال أبو العالية : معناه وقل الحمد لله الذي لم يجعلني ممن يتخذ له ولداً ، ولم يجعلني ممن يقول له شريك في الملك .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذل ﴾ ، أي من اليهود والنصارى ؛ وهم أذل خليقة الله تعالى ، يؤدون الجزية ؛ وقال مقاتل : معناه لم يذل فيحتاج إلى ولي يعينه ، أي لم يكن له ولي ينتصر به من الذل .

﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ ، أي عظمه تعظيماً ، ولا تقل له شريك .

وروى إبراهيم بن الحكم ، عن أبيه أنه قال : بلغني أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، إني رجل كثير الدين ، كثير الهم .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " اقْرَأْ آخِرَ سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ قُلِ ادعوا اللهَ أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ حَتَّى تَخْتِمَهَا ، ثُمَّ قُلْ : تَوَكَّلْتُ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ " .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 328 . 333 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾

لايقدرون على ذلك .

قال السدي : لا يأتون بمثله لأنه غير مخلوق ولو كان مخلوقاً لأتوا بمثله .

﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ عوناً .

نزلت هذه الآية حين قال الكفار : لو شئنا لقلنا مثل هذا فأكذبهم الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ ﴾ إلى قوله ﴿ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ جحوداً .

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ .

عكرمة عن ابن عبّاس " أن عتبة وشيبة إبني ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحرث وأبا البحتري بن هشام ، والاسود بن المطلب وزمعة ابن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيهاً ومنبهاً إبني الحجاج إجتمعوا أو من إجتمع منهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة .

فقال بعضهم لبعض : إبعثوا إلى محمّد وكلموه وخاصموه حتّى تعذروا فيه ، فبُعث إليه أن أشراف قومك قد إجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً وهو [يظن بأنه] بدا لهم في أمره بداءً ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم .

فقالوا : يا محمّد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء وعنّت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فما بقي أمر قبيح إلاّ وقد جئته فيما بيننا [وبينك] ، وإن كنت إنما جئت بهذا الحدث تطلب به مالاً حظنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالاً وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك به رأي قد غلب عليك فكانوا يسمون من الجن من يأتي الأنسان بالخير والشر فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتّى نبرئك منه أو نعذر فيك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بي ما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم أطلب به أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فأن تقبلوا مني ما جئتكم فهو حظكم في الدنيا والآخرة وأن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتّى يحكم الله بيني وبينكم " .

فقالوا : يا محمّد وإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت إنه ليس من الناس أحد أضيق بلاداً ولا أقل مالاً ولا أشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليُسيّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن ممن يبعث لنا فيهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخاً صدوقاً فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما بهذا بعثت إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به فقد بلغتكم ما أرسلت به فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليَّ

أصبر لأمر الله حتّى يحكم الله بيني وبينكم " .

قالوا : فإن لم تفعل هذا فخذ لنفسك فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك وسله فيجعل لك تيجان وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ويغنيك بها عما نراك فإذن نراك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " [ما أنا بفاعل] ما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بُعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً " .

قالوا : فأسقط السماء [علينا كسفاً] كما زعمت أن ربك [إن] شاء فعل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك " .

(200/465)

قالوا : قد بلغنا إنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن ، وإنّا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً فقد أعذرنا إليك يا محمّد أما والله لا نتركك وما بلغت منا حتّى نهلكك أو تهلكنا .

وقال قائل منهم ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴾ .

فلما قالوا ذلك قام النبي صلى الله عليه وسلم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ابن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب فقال له : يا محمّد

عرض عليك ما عرضوا فلم تقبل منهم ثمّ سألوك لأنفسهم أمراً فليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك ، ثمّ سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ، فوالله لا أومن بك أبداً حتّى تتخذ إلى السماء سلماً ثمّ ترقى فيه وأنا أنظر حتّى تأتيها وتأتي بنسخة مصورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت ألاّ أصدقك ، ثمّ انصرف وإنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أبو جهل ، حين قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر قريش إن محمّد قد أتى إلا ما ترون مَنْ عيّب ديننا وشتم آلهتنا وسفّه أحلامنا وسبّ آباءنا فإني أعاهد الله لأجلسنّ له عند الحجر قدر ما أطيق حمله وإذا سجد في صلاته رضخت به رأسه .

وإنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزيناً لما فاته من متابعة قومه ولما رأى من مباعدتهم فأنزل الله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتى تَفْجُرَ ﴾ .

قال أهل الكوفة : (تفجر) خفيفة بفتح التاء وضم الجيم ، وإختاره أبو حاتم لأن الينبوع واحد .

[قرأ] الباقون بالتشديد على التفعيل ، وإختاره أبو عبيد ولم يختلفوا في الثانية أنها مشددة لأجل الأنهار لأنها جمع ، والتشديد يدل على التكثير من الأرض يعني أرض مكة ينبوعاً يعني عيوناً هو مفعول من نبع الماء .

﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا ﴾ وسطها ﴿ تَفْجِيراً ﴾ [رقيقاً] ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ قرأ أكثر قراء العراق : بسكون السين أي قطعة أجمع كسفه وهو جمع الكثير ، مثل تمرة وتمر وسدرة وسدر .

تقول العرب : أعطني كسفة من هذا الثوب أي قطعة ، ويقال : منه جاءنا بيريد كسف أي قطع خبز ، وقيل : أراد جاثياً .

وفتح الباقون السين ، وهو القطع أيضاً جمع القليل للكسفة .

﴿ أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً ﴾ .

قال ابن عبّاس : كفيلاً . الضحاك : ضامناً . مقاتل : شهيداً .

مجاهد : جمع القبيلة أيّ بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة .

قتادة : عياناً . الفراء : هو من قول العرب : لقيت فلاناً قبلاً وقبلاً أي معاينة .

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ من ذهب وأصله الزينة .

مجاهد : كنت لا أدري ما الزخرف حتّى رأيته في قراءة ابن مسعود : بيت من ذهب .

﴿ أَوْ ترقى ﴾ تصعد ﴿ فِي السمآء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ أيّ من أجل رقيك صعودك ﴿ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ ﴾ أمرنا فيه بإتباعك ﴿ قُلْ ﴾ يا محمّد ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ .

وقرأ أهل مكة والشام : ﴿ قال سبحان ربي ﴾ يعني محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ وليس ما سألتم في طوق البشر ولا قدرة الرسل ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا ﴾ جهلاً منهم ﴿ أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً ﴾ وإن الأُولى في محل النصب والثانية في محل الرفع وفي الآية إختصار فتأويلها هلاَّ بعث الله ملكاً رسولاً فأجابهم الله تعالى ﴿ قل لو كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ مستوطنين مقيمين ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ لأن الملائكة إنما تبعث إلى الملائكة ويراهم الملائكة ﴿ قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ إنه رسوله إليكم ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾ إلى قوله ﴿ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ ﴾ دونهم ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ ﴾ .

شيبان عن قتادة عن أنس : " إن رجلاً قال : يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟

فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم إن الذي أمشاه على رجاله قادر أن يمشيه على وجهه [في النار] " .

وروى حماد بن سلمة عن علي بن يزيد عن أوس بن خالد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنفاً مشاة وصنفاً ركبان وصنفاً يمشون على وجوههم " .

قيل : يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : "إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك " .

﴿ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً ﴾ إن قيل : وكيف وصف الله عزّ وجلّ هؤلاء يأتيهم يوم القيامة عمي وصم وبكم ، وقال تعالى

(203/465)

﴿ ورَءَا المجرمون النار ﴾ [الكهف : 53] فقال : ﴿ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ [الفرقان : 12] وقال ﴿ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ [الفرقان : 13] والجواب عنه ما قال ابن عبّاس : عميّاً لايرون شيئاً يسرهم ، بكماً لاينطقون بحجة ، صماً لايسمعون شيئاً يسرهم .

وقال الحسن : هذا حين [جاءتهم] الملائكة وحين يساقون إلى الموقف عُمي العيون وزرقها سود الوجوه إلى أن يدخلوا النار .

مقاتل : هذا حين يقال لهم : إخسؤا فيها ولا تكلمون ، فيصيرون بأجمعهم عمياً بكماً صماً لايرون ولا يسمعون ولا ينطقون بعد ذلك .

وقيل : عمياً لايبصرون الهدى ، وبكماً لاينطقون بخير ، وصماً لايسمعون الحق .

﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ قال ابن عبّاس : [سكنت] مجاهد : [طفيت] قتادة : لانت وضعفت .

﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ وقوداً ﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ فأجابهم الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض ﴾ في عظمها وشدتها وكثرة أجزائها وقوتها ﴿ قَادِرٌ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ في صغرهم وضعفهم نظيره قوله ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [غافر : 57] وقوله ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء ﴾ [النازعات : 27] .

(204/465)

﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً ﴾ أي وقتاً لعذابهم وهلاكهم ﴿ لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ إنه إليهم ، وقيل : إن هذا جواب لقولهم أو يسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، وقيل : هو يوم القيامة ، وقيل : هو الموت الذي يعاينونه ﴿ فأبى الظالمون ﴾ الكافرون ﴿ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ جحوداً

﴿ قُل لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ أيّ أملاك ربي وأمواله وأراد بالرحمة هاهنا الرزق ﴿ إِذاً لأَمْسَكْتُمْ ﴾ لبخلتم وحبستم ﴿ خَشْيَةَ الإِنفاق ﴾ أي الفاقة ، ﴿ وَكَانَ الإنسان قَتُوراً ﴾ أي بخيلاً ممسكاً ضيقاً .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ قال ابن عبّاس والضحاك : هي العصا واليد البيضاء والعقدة التي كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم .

وقال : عكرمة : مطر ، الوراق وقتادة ومجاهد والشعبي وعطاء : هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون ونقص من الثمرات .

وعن محمّد بن كعب القرظي قال : سألني عمر بن عبد العزيز عن الآيات التسع ، فقلت : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات وعصا موسى ويده والطمس والبحر .

فقال عمر : وأنا أعرف إن الطمس إحداهن .

قال محمّد بن كعب : إن رجل منهم كان مع أهله في فراشه وقد صار حجرين ، وإن المرأة منهم لقائمة تختبز وقد صارت حجراً ، وإن المرأة منهم لفي الحمام وإنها تصير حجراً .

فقال عمر : كيف يكون الفقه إلاّ هكذا ثمّ دعا بخريطة فيها أشياء مما كانت أُصيبت لعبد العزيز بن مروان بمصر حين كان عليها من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة مشقوقة [

قطعاً] وإنها لحجر وأخرج الجوزة مشقوقة وإنها لحجر وإخرج أشباه ذلك من الفواكة وإنها لحجارة ، وأخرج دراهم ودنانير وفلوساً وإنها لحجارة . فعلى هذا القول يكون الآيات بمعنى الدلالات والمعجزات .

وقال بعضهم : هي بمعنى آيات الكتاب .

روى شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن صفوان بن غسان المرادي : " إن يهودياً قال لصاحبه : تعالَ حتّى نسأل هذا النبي ، فقال الآخر : لا تقل نبي لأنه لو سمع صارت له أربعة أعين فأتياه فسألاه عن هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَات ﴾ .

فقال صلى الله عليه وسلم لا تشركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا بالبرىء إلى سلطان ليقتله ولا تسرقوا ولا تقذفوا المحصنة ولا تولوا يوم الزحف ، وعليكم خاصة في اليهود أن لا يتعدوا في السبت " .

فقبّلوا يده (ورجله) وقالوا : نشهد أنّك نبي ، قال : " فما يمنعكم أن تتبعوني ؟ " قالوا : إن داود دعا أن لا يزال في ذريته نبي ، وإنّا نخاف إن اتبعناك تقتلنا اليهود " .

﴿ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ موسى (عليه السلام) ، وهو قراءة العامة ، وروى حنظلة السّدوسي عن شهر بن حوشب عن ابن عباس أنّه قرأ ﴿ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ على الخبر وقال : سأل موسى فرعون أن يخلّي سبيل بني إسرائيل ويرسلهم معه .

فقال له فرعون : ﴿ إِنِّي لأَظُنُّكَ يا موسى مَسْحُوراً ﴾ أي قد سحروك ، قاله الكلبي ، وقال ابن عباس : مخدوعاً ، وقال محمد بن جرير : يعطي علم السحر فهذه العجائب التي يفعلها من سحرك ، وقال الفرّاء وأبو عبيد : ساحراً فوضع المفعول موضع الفاعل ، كما يقال : هو مشؤوم وميمون أي شائم ويامن ، وقيل : معناه : وإنّي لأعلمك يا موسى بشراً ذا سحر ، أي له رئة .

قال موسى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ قراءة العامة بفتح التاء خطاباً لفرعون ، وقرأ الكسائي بضم التاء وهي قراءة علي .

(206/465)

روى شعبة عن أبي إسحاق عن رجل من مراد عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أنه قرأها : لقد علمتُ برفع التاء وقال : والله ما علم عدواً لله ولكن موسى هو الذي علم ،

قال : فبلّغت ابن عباس فقال : إنها لقد علمتُ تصديقاً لقوله : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل : 14] .

قال أبو عبيد : والمأخوذ عندنا نصب التاء ، وهو أصح من المعنى الذي احتجّ به ابن عباس ، ولأن موسى (عليه السلام) لا يحتج بأن يقول علمت أنا وهو الرسول الداعي ، ولو كان مع هذا كلّه تصح تلك القراءة [عن علي] لكانت حجة ، ولكنها ليست تثبت عنه إنما هي عن رجل مجهول ، ولا نعلم أحداً من القرّاء تمسك بها غير الكسائي ، والرجل المرادي الذي روى عنه أبو إسحاق هو كلثوم المرادي .

﴿ مَا أَنزَلَ هؤلاء ﴾ الآيات التسع ﴿ إِلاَّ رَبُّ السماوات والأرض بَصَآئِرَ ﴾ جمع بصيرة ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يا فرعون مَثْبُوراً ﴾ قال ابن عباس : يعني ملعوناً ، مجاهد : هالكاً ، قتادة : مهلكاً .

وروى عيسى بن موسى عن عطية العوفي في قوله : ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يا فرعون مَثْبُوراً ﴾ قال : مُبدّلا ، ابن زيد : مخبولا ، لا عقل لك ، مقاتل : مغلوباً ، ابن كيسان : بعيداً عن الخيرات ، وروى سفيان بن حصين عن الحسن في قوله : ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يا فرعون مَثْبُوراً ﴾ قال [سلاحاً] في القطيفة .

قال مجاهد : دخل موسى على فرعون في يوم شات وعليه قطيفة له فألقى موسى عصاه فرأى فرعون جانبي البيت بين [فقميها] ، ففزع فرعون وأحدث في قطيفته .

وعن إبراهيم بن سعيد الجوهري قال : كنت قائماً على رأس المأمون وهو يناظر رجلا فسمعته يقول : يا مثبور ، ثم أقبل عليّ فقال : يا إبراهيم ما معنى : يا مثبور ؟ قلت : لا أدري ، فقال : حدّثني الرشيد قال : حدّثني أمير المؤمنين المنصور فسمعته يقول لرجل يا مثبور ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ما معنى مثبور ؟ قال : قال ميمون بن مهران قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يافرعون مَثْبُوراً ﴾ قال : ناقص العقل ، قال الفرّاء : يعني مصروفاً ممنوعاً من الخير ، والعرب تقول : ما ثبرك عن هذا الحق ؟ أي ما منعك عنه وصرفك ، وثبره الله يثبره ومثبره وهو لغتان ، وقال ابن الزهري : الغليظ الأرب إذا بارى الشيطان في سنن الغي ومن مال ميله مثبور .

﴿ فَأَرَادَ ﴾ فرعون ﴿ أَن يَسْتَفِزَّهُم ﴾ يعني يخرجهم ، أي بني إسرائيل ﴿ مِّنَ الأرض ﴾ أي أرض مصر والشام .

﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعا ﴾ ونجّينا موسى وقومه ﴿ وَقُلْنَا ﴾ ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد هلاك فرعون وقومه ﴿ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأرض ﴾ يعني مصر والشام ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة ﴾ وهي الساعة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ ﴾ من قبوركم الى موقف القيامة

﴿ لَفِيفاً ﴾ مختلطين وقد التفَّ بعضكم ببعض لا تتعارفون ولا ينحاز [أحدكم] إلى قبيلته وحيّه ، وهو من قول الجيوش إذا اختلطوا ، وكل شيء اختلط بشيء تعطّف به والتفّ .

وقال مجاهد والضحاك : [لفيفاً] أي جميعاً ، ووحّد اللفيف وهو خبر عن الجمع لأنه بمعنى المصدر كقول القائل : لففته لفاً ولفيفاً .

وقال الكلبي ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة ﴾ يعني مجيء عيسى ابن مريم من السماء جئنا بكم لفيفاً وقال البزّار : من ههنا وههنا ، يقول : جميعاً .

(208/465)

وهذه القصة تعزية لنبيّنا صلى الله عليه وسلم وتقوية لقلبه ، يقول الله تعالى : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن ﴾ [طه : 2] فكذبك كفار قومك من مكة كذلك آتيت موسى التوراة فكذبه فرعون وقومه ، وكما أراد أهل مكة أن يستفزّوك منها ، كذلك أراد فرعون أن يستفزّ موسى وبني إسرائيل من مصر ، فأنجيناهم منهم وأظفرتهم عليهم ، وكذلك أظفرتك على أعدائك ، وأتمّ نعمتي عليك وعلى من اتّبعك نصرةً للدين ولو كره الكافرون ، فأنجز الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده وله الحمد والمنّة .

﴿ وبالحق أنْزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ يا محمد ﴿ إلاَّ مُبَشّراً وَنَذِيراً * وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ ﴾ أي وأنزلناه قرآناً ففصّلناه.

قرأ ابن عباس: فرّقناه بالتشديد وقال: لأنه لم ينزل مرة واحدة وانما أنزل [نجوماً] في عشرين سنة، وتصديقه قراءة أُبي بن كعب وقرآناً فرّقناه عليك، وقرأ الباقون بالتخفيف كقوله ﴿ فِيهَا يُفرَقُ كُلُّ أمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: 4].

قال ابن عباس فصّلناه، قال الحسن: فرّق الله به بين الحق والباطل، وقرأ الآخرون: بيّناه.

(209/465)

﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى الناس على مُكْثٍ ﴾ أي تؤدة ومهل في ثلاث وعشرين سنة ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً * قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْلاَ تؤمنوا ﴾ أمر وعد وتهديد ﴿ إِنَّ الذين أُوتُوا العلم مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل نزول القرآن وخروج محمد صلى الله عليه وسلم وهم مؤمنو أهل الكتاب ﴿ إذَا يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ يعني القرآن ﴿ يَخِرُّونَ ﴾ يسقطون ﴿ لِلأَذْقَانِ ﴾ على الأذقان وهي جمع الذقن وهو مجتمع اللحيين، قال ابن عباس أراد الوجوه ﴿ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ قال مجاهد: هم ناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ خَرُّواْ سُجَّداً ﴾ [السجدة: 15] ان كان أي وقد

كان وعد ربنا لمفعولا ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ نزول القرآن ﴿ خُشُوعاً ﴾ وخضوعاً وتواضعاً لربّهم .

قال عبد الأعلى التيمي : من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق أنْ لا يكون أوتي علماً ينفعه ، وتلا هذه الآية ، نظيرها قوله : ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرحمن خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ [مريم : 58] .

﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ الآية ، قال ابن عباس : تهجّد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فجعل يقول في سجوده : يا الله يا رحمن يا رحيم ، فقال المشركون : كان محمد يدعو إلهاً واحداً فهو الآن يدعوا إلهين اثنين الله والرحمن ، والله ما نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية .

قال ميمون بن مهران : كان النبي صلى الله عليه وسلم في أول ما أوحي إليه يكتب : باسمك اللهم حتى نزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ الله الرحمن الرحيم ﴾ [النمل : 30] فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال مشركو العرب : هذا الرحيم نعرفه فما الرحمن ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

الضحاك : قال أهل الكتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنّك لتقلّ ذكر الرحمن وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ الآية .

﴿ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ ﴾ من هذين الاسمين ومن جميع أسمائه ﴿ فَلَهُ الأسمآء الحسنى ﴾ [. . . . . . .] مجازه : أيّاً تدعوا ، كقوله : ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ [المؤمنون : 40] و ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ ﴾ [ص : 11] .

﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قال ابن عباس : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلّى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فاذا سمع ذلك المشركون سبّوا القرآن ومن أنزله ومن تلا به كما حكاه القرآن : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ ﴾ [فصلت : 26] ربما صفّروا ليغلّطوا النبي صلى الله عليه وسلم ويخلطوا عليه قراءته فأنزل الله تعالى ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وابتغ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً ﴾ أي في الصلاة فيسمع المشركون فيؤذوك ، ولا تخافت بها فلا يسمع أصحابك حتى يأخذوا عنك .

وقال سعيد : كان النبي صلى الله عليه وسلم يجهر بقراءة القرآن في المسجد الحرام ، فقالت قريش : لا تجهر بالقراءة فتؤذي آلهتنا فنهجو ربك ، وقال مقاتل : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّي في دار أبي سفيان بن حرب عند الصفا ، يجهر بقرائته فمرَّ به أبو جهل فقال : لا تفتر على الله ، فجعل يخفت صوته ، فقال أبو جهل للمشركين : ألا ترون ما فعلت

بابن أبي كبشة ، رددته عن قراءته فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وروى [علقمة] عن ابن سيرين في هذه الآية قال : كان أبو بكر (رضي الله عنه) يخافت بالقراءة في الصلاة ويقول : أناجي ربي ، وقد علم بحاجتي ، وكان عمر بن الخطاب يرفع صوته ويقول : أزجر الشيطان وأوقظ المنان ، فأمر أبو بكر حين نزلت هذه الآية أن يرفع صوته شيئًا ، وأمر عمر أن يخفض شيئًا .

(211/465)

وقالت عائشة رضي (رضي الله عنه) : نزلت هذه الآية في التشهد ، كان الأعرابي يجهر فيقول : التحيات لله والصلوات ويرفع بها صوته ، فنزلت هذه الآية ، وقال الحسن : (لا تراءِ) بصلاتك في العلانية ولا [تُسئها] في السر .

الوالي عن ابن عباس : لا تصلِّ مرائيًا الناس ، ولا تدعها مخافة الناس ، ابن زيد : كان أهل الكتاب يخافتون في الصلاة ، لم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح ويصيح من وراءه ، فنهاه الله أن يصيح كما يصيحون ، وخافت كما يخافتون ، والسبيل الذي بين ذلك الذي بيّن له جبرئيل في الصلاة .

وقال : علي والنخعي ومجاهد وابن مكحول : هي في الدعاء ، [وبه قال أشعث عن]

عطية عن ابن عباس ، وقال عبد الله بن شدّاد : "كان أعراب من بني تميم إذا سلّم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : "اللهم ارزقنا " ، فقال لهم : أتجهرون ؟ فأنزل الله هذه الآية " .

ابن وهب عن عمرو بن الحرث عن دراج أبي السمح أن شيخاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حدّثه " أن رسول الله قال في هذه الآية : إنما أُنزلت في الدعاء ، يقول : لا ترفع صوتك في الدعاء عند استغفارك واذكر ذنوبك فيسمع منك فتعبِّر بها وتخافت في الصوت والسكون " ، ومنه يقال للميّت إذا برد خفت .

﴿ وابتغ بَيْنَ ذلك ﴾ أي بين الجهر والإخفات ﴿ سَبِيلاً * وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ قال الحسين بن الفضل : يعني الذي عرّفني أنّه لم يتخذ ولداً ﴿ وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الملك وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذل ﴾ قال مجاهد : لم يذل فيحتاج الى ولي يتعزز به .

﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ وعظّمه أن يكون له شريك أو ولي ، قال عمر بن الخطاب ح : قول العبد : " الله أكبر " خير من الدنيا وما فيها .

وروى سهل بن معاذ عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " آية العزّ ﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ " الى آخره .

وروى سفيان بن وكيع عن سفيان بن عيينة عن عبد الكريم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علّمه هذه الآية سبع مرات .

وروى محمد بن سلمة عن عبد الحميد بن واصل قال : من قرأ آخر بني إسرائيل كتب الله له من الأجر ملء السموات والأرض ؛ لأن الله يقول فيمن زعم أن له ولدا ﴿ تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً * أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً ﴾ [مريم : 90-91] قال : فيكتب له من الأجر على قدر ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 132.143 ﴾

(213/465)

وقال الزمخشري :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) ﴾

لا يَأْتُونَ جواب قسم محذوف ، ولولا اللام الموطئة ، لجاز أن يكون جوابا للشرط ، كقوله :

يقول لا غائب مالى ولا حرم «1»

لأن الشرط وقع ماضيا ، أى : لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه ، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان لعجزوا عن الإتيان بمثله ، والعجب من النوابت «2» ومن زعمهم أن القرآن قديم «3» مع اعترافهم بأنه معجز «4» ، وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة ، فيقال : اللّه قادر على خلق الأجسام والعباد عاجزون عنه . وأما المحال الذي لا مجال فيه للقدرة ولا مدخل لها فيه كثانى القديم ، فلا يقال للفاعل : قد عجز عنه ، ولا هو معجز . ولو قيل ذلك لجاز وصف اللّه بالعجز ، لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال ، إلا أن يكابروا فيقولوا هو قادر على المحال ، فإن رأس ما لهم «5» المكابرة وقلب الحقائق .

[سورة الإسراء (17) : آية 89]

وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (89)

وَلَقَدْ صَرَّفْنا رددنا وكرّرنا مِنْ كُلِّ مَثَلٍ من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه . والكفور : الجحود . فإن قلت : كيف جاز فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ولم يجوز ضربت إلا زيدا ؟ قلت : لأن أبى متأوّل بالنفي ، كأنه قيل : فلم يرضوا إلا كفورا .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 90 إلى 93]

وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ

تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً (93)

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص 537 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) . قوله «النوابت» في الصحاح «النوابت من الأحداث» الأغمار . وفيه : رجل غمر : لم يجرب . (ع)

(3) . قال محمود : «و العجب من النوابت ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز . . . الخ» قال أحمد :

ومما يدلك على حيد المصنف عن سنن المنصف أنه تدلس على الضعفة في مثل هذه المسألة التي طبقت طبق الأرض ظهورا وشيوعا ، ومع ذلك يرضى لنفسه أن يتجاهل فيها عن معتقد القوم ، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات صفة قديمة قائمة بذات الباري تعالى ، يطلق عليها قرآن ، ويطلق أيضا على أدلتها وهي هذه الكلمات الفصيحة والآي الكريمة قرآن ، وأن المعجز عندهم الدليل لا المدلول ، لكنهم يتحرزون من إطلاق القول بأنه مخلوق لوجهين . أحدهما : أنه إطلاق موهم . والثاني : أن السلف الصالح كفوا عنه فاقتفوا آثارهم واقتبسوا أنوارهم .

وكم من معتقد لا يطلق القول به خشية إيهام غيره مما لا يجوز اعتقاده ، فلا ربط بين الاعتقاد والإطلاق ، ولا كرامة لمعتقد ذلك والمتعنت بالزامه ، واللّه يقول الحق وهو يهدى السبيل .

(4) . قوله «ومن زعمهم أن القرآن قديم» يريد بهم أهل السنة حيث يقولون : إن القرآن قديم ، لكن لا بمعنى اللفظ الذي يسمعه بعضنا من بعض ، فان هذا حادث بل بمعنى كلام اللّه الذي هو صفة له قائمة بذاته تعالى ، فهذا هو القديم ، كعلمه تعالى وإرادته . (ع)

(5) . قوله «فان رأس ما لهم المكابرة» ليس كما قال غفر اللّه له ، بل رأس ما لهم التمسك بالكتاب والسنة ، وتحرى الحقائق . (ع)

(214/465)

لما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه المعجزات الأخر والبينات ولزمتهم الحجة وغلبوا ، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات : فعل المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة ، فقالوا : لن نؤمن لك حتى . . . وحتى تَفْجُرَ تفتح . وقرئ : تفجر ، بالتخفيف مِنَ الْأَرْضِ يعنون أرض مكة يَنْبُوعاً عينا غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع : «يفعول» من نبع الماء ، كيعبوب من عب الماء كَما زَعَمْتَ يعنون قول اللّه تعالى إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ . قرئ : كسفا ، بسكون السين جمع كسفة ، كسدرة وسدر . وبفتحه قَبِيلًا كفيلا بما تقول شاهدا بصحته . والمعنى : أو تأتى باللّه قبيلا ، وبالملائكة قبيلا ، كقوله :

. . . كنت منه ووالدي بريّا «1» . . .

فإنّى وقيّار بها لغريب «2»

أو مقابلا ، كالعشير بمعنى المعاشر ، ونحوه لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا أو جماعة حالا من الملائكة مِنْ زُخْرُفٍ من ذهب فِي السَّماءِ في معارج السماء ، فحذف المضاف. يقال : رقى في السلم وفي الدرجة وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ولن نؤمن لأجل رقيك حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً

---

(1) رمانى بأمر كنت منه ووالدي بريا ومن جول الطوى رمانى

للفرزدق . يقول : قذفني بأمر أنا بريء منه ووالدي ، فكان : مجردة عن المضي ، وحذف خبر الوالد للدلالة عليه ، والعطف من عطف الجمل . وبريا : في نية التقديم ، فلم يلزم تقدم شيء من المعطوف عليه على المعطوف : هذا رأى الجمهور . وأجاز بعضهم أن «والدي» عطف على اسم كان ، فيكون «بريا» خبره ، وخبر اسمها محذوفا أو بالعكس ، والعطف من عطف المفردات . ويجوز أن «بريا» خبر عنهما ، لأن فعيلا يقال للواحد والمتعدد ، لموازنته المصدر :

كصهيل وضجيج ونحيب ونسيب ، وإن كان استعماله كذلك بمعنى فاعل قليلا . وجول الطوى - بالضم - : جانب البئر المطوى . والمعنى : أنه رمانى بأمر يرجع عليه هو ، كأنه رمانى وهو في أسفل البئر بحجر فيرجع عليه ، كناية عن مكافأته بأمر أعظم مما رماه به .

ويجوز أن الأمر الذي رماه به متصف به الرامي ، وهو أنسب بالتشبيه .

ويروى ومن أجل الطوى . فليحرر .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص 629 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(215/465)

من السماء فيه تصديقك . عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : قال عبد اللّه بن أبى أمية : لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلما . ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتى معك بصك منشور ، معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول . وما كانوا يقصدون بهذه الاقتراحات إلا العناد واللجاج ، ولو جاءتهم كل آية لقالوا : هذا سحر ، كما قال عز وجل وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ ، وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ وحين أنكروا الآية الباقية التي هي القرآن وسائر الآيات وليست بدون ما اقترحوه - بل هي أعظم - لم يكن إلى تبصرتهم سبيل قُلْ سُبْحانَ رَبِّي وقرئ : قال سبحان ربى ، أى قال الرسول . وسُبْحانَ رَبِّي تعجب من اقتراحاتهم عليه هَلْ كُنْتُ إِلَّا رسولا كسائر الرسل بَشَراً مثلهم ، وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره اللّه عليهم من الآيات ، فليس أمر الآيات إلىّ ، وإنما هو إلى اللّه فما بالكم تتخيرونها علىّ .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 94 إلى 95]

وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلاَّ أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً (94) قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً (95)

أَنْ الأولى نصب مفعول ثان لمنع. والثانية رفع فاعل له. والْهُدى الوحى، أى: وما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلا شبهة تلجلجت في صدورهم، وهي إنكارهم أن يرسل الله البشر. والهمزة في أَبَعَثَ اللَّهُ للإنكار، وما أنكروه فخلافه هو المنكر عند الله، لأن قضية حكمته أن لا يرسل ملك الوحى إلا إلى أمثاله، أو إلى الأنبياء، ثم قرر ذلك بأنه لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ على أقدامهم كما يمشى الإنس ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء «1» فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه مُطْمَئِنِّينَ ساكنين في الأرض قارّين لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا يعلمهم الخير ويهديهم المراشد. فأما الإنس فما هم بهذه المثابة، إنما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوة، فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم. فإن قلت: هل يجوز أن يكون بشرا وملكا، منصوبين على الحال من رسولا؟ قلت: وجه حسن، والمعنى له أجوب.

[سورة الإسراء (17) : آية 96]

قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (96)

---

(1) . قال محمود: «معناه لو كانوا يمشون مشى الانس ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء

. . . الخ» قال أحمد :

وقد اشتمل كلامه هذا على جواب حسن عن سؤال مقدر ، وهو قول القائل : إن مجرد وجود الملائكة في الأرض يناسب إرسال الملك إليهم ، فما فائدة هذه الزيادة ؟ فيكون جوابه ما تقدم ، واللّه الموفق .

شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ على أنى بلغت ما أرسالات به إليكم ، وأنكم كذبتم وعاندتم إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ المنذرين والمنذرين خَبِيراً عالما بأحوالهم ، فهو مجازيهم . وهذه تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ووعيد للكفرة . وشهيدا : تمييز أو حال .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 97 إلى 98]

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً (97) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (98)

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ ومن يوفقه ويلطف به فَهُوَ الْمُهْتَدِي لأنه لا يلطف إلا بمن عرف أن اللطف ينفع فيه وَمَنْ يُضْلِلْ ومن يخذل فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ أنصارا . عَلى وُجُوهِهِمْ كقوله : يَوْمَ يُسْحَبُونَ

فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ وقيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : كيف يمشون على وجوههم قال : «إن الذي أمشاهم على أقدامهم ، قادر على أن يمشيهم على وجوههم» » عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا كما كانوا في الدنيا ، لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ، ويتصامّون عن استماعه ، فهم في الآخرة كذلك : لا يبصرون ما يقرّ أعينهم ، ولا يسماعون ما يلذ مسامعهم «2» ولا ينطقون بما يقبل منهم . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى . ويجوز أن يحشروا مؤفى الحواس من الموقف إلى النار بعد الحساب ، فقد أخبر عنهم في موضع آخر أنهم يقرؤن ويتكلمون كُلَّما خَبَتْ كلما أكلت جلودهم ولحومهم وأفنتها فسكن لهبها ، بدلوا غيرها ، فرجعت ملهبة مستعرة ، كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جعل اللّه جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها ثم يعيدها ، لا يزالون على الإفناء والإعادة ، ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم البعث ، ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد ، وقد دل على ذلك بقوله ذلِكَ جَزاؤُهُمْ إلى قوله أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً .

---

(1) . أخرجه الترمذي وأحمد وإسحاق والبزار من حديث أبى هريرة بهذا في حديث . وفيه على بن مرثد وهو ضعيف . قال البزار لا نعلمه من حديث أبى هريرة إلا بهذا الاسناد . ورواه ابن مردويه من رواية أبى داود نفيع عن أنس مثله . وأصله في الصحيحين عن أنس أن رجلا قال : يا رسول اللّه ، كيف يحشر الكافر على وجهه ؟ قال : «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم

القيامة» ؟ .

(2) . قوله «ولا يسماعون ما يلذ مسامعهم» الذي في الصحاح : لذذت الشيء - بالكسر - : وجدته لذيذا . (ع)

(217/465)

[سورة الإسراء (17) : آية 99]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً (99)

فإن قلت : علام عطف قوله وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا ؟ قلت : على قوله أَوَلَمْ يَرَوْا لأن المعنى قد علموا بدليل العقل أنّ من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس ، لأنهم ليسوا بأشد خلقا منهن كما قال : أأنتم أشد خلقا أم السماء وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لا رَيْبَ فِيهِ وهو الموت أو القيامة ، فأبوا مع وضوح الدليل إلا جحودا .

[سورة الإسراء (17) : آية 100]

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً (100)

لَوْ حقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء ، فلا بد من فعل بعدها في لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ وتقديره لو تملكون ، فأضمر تملك إضمارا على شريطة التفسير ، وأبدل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضمير منفصل ، وهو أنتم ، لسقوط ما يتصل به من اللفظ ، فأنتم : فاعل الفعل المضمر ، وتملكون : تفسيره ! وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب . فأمّا ما يقتضيه علم البيان ، فهو : أنّ أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص ، وأنّ الناس هم المختصون بالشح المتبالغ ، ونحوه قول حاتم :

لو ذات سوار لطمتنى

وقول المتلمس :

ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى «1»

وذلك لأنّ الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر ، وبرز الكلام في صورة المبتدإ والخبر . ورحمة الله : رزقه وسائر نعمه على خلقه ، ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التي لا يبلغها الوهم .

وقيل : هو لأهل مكة الذين اقترحوا ما اقترحوا من الينبوع والأنهار وغيرها ، وأنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لبخلوا بها قَتُوراً ضيقا بخيلا . فإن قلت : هل يقدر لَأَمْسَكْتُمْ مفعول ؟

قلت : لا ، لأن معناه : لبخلتم ، من قولك للبخيل : ممسك .

---

(1) ولو غير إخوانى أرادوا نقيصتى جعفت لهم فوق العرانين ميسما

وهل كنت إلا مثل قاطع كفه بكف له أخرى عليه تقدما

للمتلمس خال طرفة بن العبد ، و«لو» من حروف الشرط ، فمتى كان في حيزها فعل فهي أحق به ، فغير إخوانى فاعل لمحذوف يفسره المذكور ، أى : ولو أراد غير إخوانى . ويروى : أخوالى ، نقيصتى : أى ظلمى ، لوسمتهم بالذل وسما ظاهرا ، كأنه فوق الأنوف ، وخصها لأنها لا تخفى . والميسم : آلة الوسم بالنار ، والمراد أثره وهو السمة .

وهل : استفهام إنكارى ، أى : لو كافأت إخوانى لا أكون إلا مثل من قطع كفه بكفه الأخرى ، والكف يذكر ويؤنث ، فلذلك وصفه بأنه تقدم على الكف الآخر واعتدى عليه ووصفه بأخرى . والمقابلة بين الكفين تؤيد رواية إخوانى بالنون .

(218/465)

[سورة الإسراء (17) : آية 101]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً (101)

عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هي العصا ، واليد ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ،

والدم ، والحجر ، والبحر ، والطور الذي نتقه على بنى إسرائيل . وعن الحسن : الطوفان ، والسنون ، ونقص الثمرات : مكان الحجر ، والبحر ، والطور . وعن عمر بن عبد العزيز أنه سأل محمد بن كعب فذكر اللسان والطمس «1» ، فقال له عمر : كيف يكون الفقيه إلا هكذا ، أخرج يا غلام ذلك الجراب ، فأخرجه فنفضه ، فإذا بيض مكسور بنصفين ، وجوز مكسور ، وفوم «2» وحمص وعدس ، كلها حجارة . وعن صفوان بن عسال أنّ بعض اليهود سأل النبي صلى اللّه عليه وسلم عن ذلك فقال : أوحى اللّه إلى موسى : أن قل لبنى إسرائيل : لا تشركوا باللّه شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرّم اللّه إلا بالحق ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببريء إلى ذى سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة ، ولا تفرّوا من الزحف ، وأنتم يا يهود خاصة لا تعدوا في السبت «3»

فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ فقلنا له : سل بنى إسرائيل ، أى : سلهم من فرعون «4» وقل له : أرسل معى بنى إسرائيل . أو سلهم عن إيمانهم وعن حال دينهم . أو سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك . وتدلّ عليه قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : فسال بنى إسرائيل ، على لفظ الماضي بغير همز ، وهي لغة قريش . وقيل :

فسل يا رسول اللّه المؤمنين من بنى إسرائيل ، وهم عبد اللّه بن سلام وأصحابه عن الآيات ليزدادوا يقينا وطمأنينة قلب ، لأن الأدلة إذا تظاهرت كان ذلك أقوى وأثبت ، كقول إبراهيم وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . فإن قلت : بم تعلق إِذْ جاءَهُمْ ؟ قلت : أمّا على الوجه الأول

فبالقول المحذوف ، أى فقلنا لهم سلهم حين جاءهم ، أو بسأل في القراءة الثانية . وأمّا على الأخير فبآتينا . أو بإضمار

---

(1) . قوله «فذكر اللسان والطمس» لعله العقدة التي كانت بلسانه فحلها كما عده الخازن. وأما الطمس : فهو إجابة دعائه في قوله رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ ويشير إلى ذلك ذكر ما في الجواب. (ع)

(2) . قوله «و فوم» في الصحاح «الفوم» الثوم. ويقال له : الحنطة. (ع)

(3) . أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم. وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والطبراني : كلهم من رواية عبد اللّه بن سلام عن صفوان بن عسال أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله : فقال لا تقل له نبى فان سمعك صارت له أربعة أعين. فأتيا النبي صلى اللّه عليه وسلم فسألاه. فذكر الحديث. ولم يقل أحد منهم «أوحى إلى موسى أن قل لبنى إسرائيل» والباقي سواء ، عبد اللّه بن سلام كبر فساء حفظه وكان المسئول عنه العشر كلمات ، لأن عددها عشرة لا التسع آيات. لأن العشر وصايا كهذه ، والتسع حجج على فرعون وقومه. [. . . . .]

(4) . قوله «سلهم من فرعون» يعنى اطلبهم منه. (ع)

اذكر ، أو يخبروك . ومعنى إِذْ جاءَهُمْ إذ جاء آباءهم مَسْحُوراً سحرت فخولط عقلك .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 102 إلى 104]

قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (102) فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (103) وَقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً (104)

لَقَدْ عَلِمْتَ يا فرعون ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ الآيات إلا الله عز وجل بَصائِرَ بينات مكشوفات ، ولكنك معاند مكابر : ونحوه : وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا وقرئ «علمت» بالضم ، على معنى : إنى لست بمسحور كما وصفتني ، بل أنا عالم بصحة الأمر .

وأنّ هذه الآيات منزلها رب السموات والأرض . ثم قارع ظنه بظنه ، كأنه قال : إن ظننتني مسحورا فأنا أظنك مَثْبُوراً هالكا ، وظنى أصح من ظنك ، لأن له أمارة ظاهرة وهي إنكارك ما عرفت صحته ، ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها . وأما ظنك فكذب بحت ، لأن قولك مع علمك بصحة أمرى ، إنى لأظنك مسحورا قول كذاب . وقال الفرّاء : مَثْبُوراً مصروفا عن الخير مطبوعا على قلبك ، من قولهم : ما ثبرك عن هذا ؟ أى : ما منعك وصرفك ؟

وقرأ أبىّ بن كعب : وإن إخالك يا فرعون لمثبورا ، على : إن المخففة واللام الفارقة فَأَرادَ فرعون أن يستخف موسى وقومه من أرض مصر ويخرجهم منها ، أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال ، فحاق به مكره بأن استفزه اللّه بإغراقه مع قبطه اسْكُنُوا الْأَرْضَ التي أراد فرعون أن يستفزكم منها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ يعنى قيام الساعة جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً جمعا مختلطين إياكم وإياهم ، ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم : واللفيف : الجماعات من قبائل شتى .

[سورة الإسراء (17) : آية 105]

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (105)

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة المقتضية لإنزاله ، وما نزل إلا ملتبسا بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير . أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق محفوظا بالرصد من الملائكة ، وما نزل على الرسول إلا محفوظا بهم من تخليط الشياطين وَما أَرْسَلْناكَ إلا لتبشرهم بالجنة وتنذرهم من النار ، ليس إليك وراء ذلك شيء ، من إكراه على الدين أو نحو ذلك .

[سورة الإسراء (17) : آية 106]

وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً (106)

وَقُرْآناً منصوب بفعل يفسره فَرَقْناهُ وقرأه أبىّ : فرّقناه ، بالتشديد ، أى : جعلنا نزوله مفرّقا منجما . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه أنه قرأ مشدّدا وقال : لم ينزل في يومين أو ثلاثة ، بل كان بين أوّله وآخره عشرون سنة ، يعنى : أن فرق بالتخفيف يدل على فصل متقارب «على مكث» بالفتح والضم : على مهل وتؤدة وتثبت وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا على حسب الحوادث

[سورة الإسراء (17) : الآيات 107 إلى 109]

قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً (107) وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (109)

قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم ، وأن لا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه ، وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدّقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك ، فإن خيرا منهم وأفضل - وهم العلماء الذين قرءوا الكتب وعلموا ما الوحى وما الشرائع - قد آمنوا به وصدّقوه ، وثبت عندهم أنه النبي العربىّ الموعود في كتبهم ، فإذا تلى عليهم خرّوا سجدا وسبحوا اللّه تعظيما لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد صلى اللّه عليه وسلم وإنزال القرآن عليه ، وهو المراد بالوعد في قوله إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا . . . . . . وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً أى يزيدهم القرآن

لين قلب ورطوبة عين - فإن قلت : إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ تعليل لما ذا ؟ قلت : يجوز أن يكون تعليلا لقوله آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا وأن يكون تعليلا لقل على سبيل التسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وتطييب نفسه ، كأنه قيل : تسلّ عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء . وعلى الأوّل : إن لم تؤمنوا به لقد آمن «1» به من هو خير منكم . فإن قلت : ما معنى الخرور للذقن ؟ قلت : السقوط على الوجه ، وإنما ذكر الذقن وهو مجتمع اللحيين ، لأنّ الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه الذقن . فإن قلت : حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت خرّ على وجهه وعلى ذقنه ، فما معنى اللام في خرّ لذقنه ولوجهه ؟ قال :

فخرّ صريعا لليدين وللفم «2»

---

(1) . قوله «لقد آمن» لعله «فقد» . (ع)

(2) فيوم الكلاب قد أزالت رماحنا شرحبيل إذ آلى آلية مقسم

لينتزعن أرماحنا فأزاله أبو حنش عن ظهر شنقاء صلدم

تناوله بالرمح ثم انثنى له فخر صريعا لليدين وللفم

لجابر الثعلبي . وقيل : البيت الثالث لشريح العبسي . وقيل : لزهير . والكلاب بالضم اسم موضع الواقعة . وآلي : أى حلف . والشنقاء : الطويلة من الخيل ، والصلدم - بكسر المهملتين - : القوية . ويروى : ثم انثنى له . وأصله :

اثنى ، فأدغمت النون بعد قلبها ثاء في الثاء . ولو قرئ : ثم ائثني ، من أتانى وتمهل لجاز .

ويروى : دلفت له بالرمح من تحت بزه . ويروى : شققت له بالرمح جيب قميصه . ولعل اختلاف الروايات لاختلاف القائل . والتناول :

الأخذ ، فالمعنى : لحقه فطعنه بالرمح ، كأنه أخذه ، ثم اثنى له : أى طعنه مرة أخرى ، فسقط مطروحا ، وجعل ذلك ليديه وفمه ، لأنها التي يستقبل بها الأرض أولا حين سقوطه على وجهه ، واللام هنا بمعنى على كما ذكره النحاة ، وإن أنكره النحاس . ودلف دلفا كتعب تعبا : إذا تقدم بسرعة وقارب بين خطاه . وجيب قميصه : كناية عن صدره ، لأنه إذا شق طوق القميص بالرمح فقد شق الصدر .

(221/465)

قلت : معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به ، لأن اللام للاختصاص . فإن قلت : لم كرّر يخرون للأذقان ؟ قلت : لاختلاف الحالين وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين ، وخرورهم في حال كونهم باكين .

[سورة الإسراء (17) : آية 110]

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً (110)

عن ابن عباس رضى اللّه عنهما سمعه أبو جهل يقول : يا اللّه يا رحمن ، فقال : إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعوا إلها آخر . وقيل : إن أهل الكتاب قالوا : إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر اللّه في التوراة هذا الاسم فنزلت . والدعاء بمعنى التسمية لا بمعنى النداء ، وهو يتعدّى إلى مفعولين ، تقول : دعوته زيدا ، ثم يترك أحدهما استغناء عنه فيقال : دعوت زيدا . واللّه والرحمن ، المراد بهما الاسم لا المسمى . وأو للتخيير ، فمعنى ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ سموا بهذا الاسم أو بهذا ، واذكروا إما هذا وإما هذا . والتنوين في أَيًّا عوض من المضاف إليه . وما صلة للإبهام المؤكد لما في أىّ ، أى : أىّ هذين الاسمين سميتم وذكرتم فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى والضمير في فَلَهُ ليس براجع إلى أحد الاسمين المذكورين ، ولكن إلى مسماهما وهو ذاته تعالى ، لأن التسمية للذات لا للاسم . والمعنى : أياما تدعوا فهو حسن ، فوضع موضعه قوله فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى لأنه إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان : لأنهما منها ، ومعنى كونهما أحسن الأسماء . أنها مستقلة بمعاني التحميد والتقديس والتعظيم بِصَلاتِكَ بقراءة صلاتك على حذف المضاف ، لأنه لا يلبس ، من قبل أن الجهر والمخافتة صفتان تعتقبان على الصوت لا غير ، والصلاة أفعال وأذكار وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يرفع صوته بقراءته ، فإذا سمعها المشركون لغوا

وسبوا ، فأمر بأن يخفض من صوته ، والمعنى : ولا تجهر حتى تسمع المشركين وَلا تُخافِتْ حتى لا تسمع من خلفك وَابْتَغِ بَيْنَ الجهر المخافتة سَبِيلًا وسطا . وروى أنّ أبا بكر رضى اللّه عنه كان يخفى صوته بالقراءة في صلاته ويقول :

(222/465)

أناجى ربى وقد علم حاجتي ، وكان عمر رضى اللّه عنه يرفع صوته ويقول : أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان ، فأمر أبا بكر أن يرفع قليلا وعمر أن يخفض «1» قليلا . وقيل : معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها ، وابتغ بين ذلك سبيلا بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار . وقيل بِصَلاتِكَ بدعائك . وذهب قوم إلى أنّ الآية منسوخة بقوله ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً وابتغاء السبيل : مثل لانتحاء الوجه الوسط في القراءة وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ناصر من الذل ومانع له منه لاعتزازه به ، أو لم يوال أحدا من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته .

[سورة الإسراء (17) : آية 111]

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (111)

فإن قلت : كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد «2» ؟ قلت : لأنّ من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة ، فهو الذي يستحق جنس الحمد ، وكان النبي صلى اللّه عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه هذه الآية «3» .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة بنى إسرائيل فرقّ قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في الجنة ، والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية» . رزقنا اللّه بفضله العميم وإحسانه الجسيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 692. 701﴾

---

(1) . أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم من رواية يحيى بن إسحاق السليحينى عن حماد عن ثابت عن عبد اللّه بن رباح عن أبى قتادة بمعناه . وليس فيه قوله «قد علم حاجتي» وفيه أن كلام كل منهما كان لما سأله النبي صلى اللّه عليه وسلم عن ذلك . قال الترمذي . رواه أكثر الناس فلم يذكروا أبا قتادة . وقال ابن أبى حاتم عن أبه لفظا فيه يحيى بن إسحاق والصواب مرسلا ، وفي الباب عن على أخرجه البيهقي في الشعب . وعن أبى هريرة أخرجه أبو داود من رواية محمد بن عمر . وعن أبى سلمة عنه مختصرا . وأخرجه الطبري من رواية محمد بن سيرين قال «نبئت أن أبا بكر فذكره» وقال فيه : أناجى ربى وقد علم حاجتي»

(2) . قال محمود : «إن قلت : كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك . . . الخ» قال أحمد

: وقد لاحظ الزمخشري هاهنا ما أغفله عند قوله تعالى الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ وقد رددت هذا الوجه فيما تقدم ، بأن هذه الجملة لا يليق اقترانها بكلمة التحميد ولا تناسبها ، فإنك لو قلت ابتداء : الحمد للّه الذي الذين كفروا به يعدلون ، لم يكن مناسبا ، واللّه أعلم .

(3) . أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الرزاق . قالا أخبرنا ابن عيينة عن عبد الكريم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾

أي لا يقدرون على ذلك ﴿ ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ أي عوناً .

نزلت حين قال المشركون : لو نشاء لقلنا مثل هذا فكذبهم الله ، فالقرآن معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب ، وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق لأنه كلام الخالق وهو غير مخلوق ولو كان مخلوقاً لأتوا بمثله .

قوله : ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي رددنا وكررنا من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه .

وقيل : معناه من كل وجه من العبر والأحكام والوعد والوعيد والقصص وغيره ﴿ فإبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ أي جحوداً .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وقالوا لن نؤمن لك ﴾ أي لن نصدقك ﴿ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ لما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه معجزات أخر وبينات ، ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتغالون باقتراح الآيات ، فقالوا : لن نؤمن لك .

روى عكرمة عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبا البختري بن هشام والأسود بن عبد المطلب ، وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ، ونبيهاً ومنبهاً أبني الحجاج اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إليّ محمداً فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سريعاً وهو يظن أنه بدا لهم في أمره بدء ، وكان حريصاً يحب رشدهم حتى جلس إليهم فقالوا : " يا محمد إن بعثنا إليك لنعذر فيك وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك .

لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، ما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جعلنا لك من أموالنا حتى أكثرنا مالاً وإن كنت تريد الشرف سودناك علينا وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي بك رئي تراه قد غلب عليك لا تستطيع رده بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه ونعذر فيك وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ما بي ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ، ولا للشرف عليكم ولا للملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن ترده عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم فقالوا : يا محمد إن كنت غير قابل منّا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد أضيق بلاداً ولا أشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، ويبسط لنا بلادنا ويفجر لنا فيها الأنهار كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخاً صدوقاً فنسألهم عما

تقول أحق هو أم باطل فإن صدقوك صدقناك .

فقال رسول الله صلى الله عليه سلم : ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ما أرسلت به ، فإن تقبلوه فهو حظكم وإن تردوه أصبر لأمر الله تعالى .

قالوا : فإن لم تفعل هذا فسل لنا ربك أن يبعث ملكاً يصدقك ، وسله أن يجعل لك جنات وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يعينك بها على ما تريد ، فإنك بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه فقال : ما بعثت بهذا ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً .

قالوا : فأسقط السماء كما زعمت إن ربك إن شاء فعل .

فقال : ذلك إلى الله إن شاء فعل ذلك بكم "

وقال قائل منهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً فلما قالوا ذلك قام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقام معه عبد الله بن أبي أمية ، هو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب فقال يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفهسم أموراً يعرفون بها منزلتك من الله فلم تفعل ثم سألوك أن تجعل ما تخوفهم به من العذاب ، فلم تفعل فوالله ما أؤمن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء مرقى ترقى فيه ، وأنا أنظر حتى تأتيها

فتأتي بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول ، وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك .

فانصرف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى أهله حزيناً من مباعدتهم فأنزل الله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ﴾ يعني أرض مكة ﴿ ينبوعاً ﴾ أي عيوناً أو ﴿ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ﴾ أي بستان فيه نخيل وعنب ﴿ فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ﴾ أي تشقيقاً ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ﴾ أي قطعاً ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾ قال ابن عباس : كفيلاً أي يكفلون بما تقول . وقيل هو جمع القبيلة أي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة ، يشهدون لك بصحة ما تقول .

(226/465)

وقيل : معناه تراهم مقابلة عياناً ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ أي من ذهب وأصله الزينة ﴿ أو ترقى ﴾ أي تصعد ﴿ في السماء ولن نؤمن لرقيك ﴾ أي لأجل رقيك ﴿ حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ أمرنا فيه باتباعك وهذا قول عبد الله بن أبي أمية ﴿ قل ﴾ أي قل يا محمد ﴿ سبحان ربي ﴾ أمره بتنزيهه وتمجيده وفيه معنى التعجب ﴿ هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ أي كسائر الرسل لأممهم وكان الرسل لا يؤتون قومهم إلا بما يظهره

الله عليهم من الآيات ، فليس أمر الآيات إليهم إنما هو إلى الله تعالى ، ولو أراد أن ينزل ما طلبوا لفعلن ولكن لا ينزل الآيات على ما اقترحه البشر وما أنا إلا بشر ، وليس ما سألتم في طرق البشر واعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى النبي (صلى الله عليه وسلم) من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله ، مثل القرآن وانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه وما أشبهها من الآيات ، وليست بدون ما اقترحوه بل هي أعظم مما اقترحوه والقوم عامتهم كانوا متعنتين ولم يكن قصدهم طلب الدليل ليؤمنوا فرد الله تعالى عليهم سؤالهم .

قوله : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ﴾ أي الحي .

والمعنى : وما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) إلا شبهة تلجلجت في صدورهم هي إنكارهم أن يرسل الله البشر وهو قوله تعالى ﴿ إلا أن قالوا ﴾ أي جهلاً منهم ﴿ أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ وذلك أن الكفار كانوا يقولون لن نؤمن لك لأنك بشر وهلا بعث الله إلينا ملكاً فأجابهم الله بقوله : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ﴾ أي مستوطنين مقيمين فيها ﴿ لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ أي من جنسهم لأن الجنس إلى الجنس أميل ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ﴾

أي على أني رسوله إليكم وإني قد بلغت ما أرسلت به إليكم ، وأنكم كذبتم وعاندتم ﴿ إنه كان بعباده ﴾ يعني المنذرين والمنذرين ﴿ خبيراً بصيراً ﴾ أي عالماً بأحوالهم ، فهو مجازيهم وفيه تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) ووعيد الكفار ﴿ ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ﴾ أي يهدونهم وفيه أيضاً تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، وهو أن الذين حكم لهم بالإيمان والهداية وجب أن يصيروا مؤمنين ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل استحال أن ينقلبوا عن ذلك ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ (ق) " عن أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله قال الله الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أيحشر الكافر على وجهه قال رسول الله : (صلى الله عليه وسلم) أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا ، قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ؟ قال قتادة حين بلغه بلى وعزة ربنا " وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفاً مشاة ، وصنفاً ركباناً ، وصنفاً على وجوههم .

قيل يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم قال : إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك " أخرجه الترمذي الحدب كل ما ارتفع من الأرض ﴿ عمياً وبكماً وصماً ﴾ أي لا يبصرون ولا ينطقون ولا يسمعون .

فإن قلت : كيف وصفهم بأنهم عمي وبكم وصم وقد قال الله تعالى ﴿ ورأى المجرمون النار ﴾ وقال ﴿ دعوا هنالك ثبوراً ﴾ وقال ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ فأثبت لهم الرؤية والكلام والسمع .

قلت فيه أوجه : أحدهما قال ابن عباس معناه عمياً لا يبصرون ما يسرهم بكماً لا ينطقون بحجة صماً لا يسمعون ما يسرهم .

الوجه الثاني : قيل معناه يحشرون على ما وصفهم الله وتعالى : ثم تعاد إليهم هذه الأشياء .

الوجه الثالث : قيل معناه هذا حين يقال لهم اخسئوا فيها ، ولا تكلمون فيصيرون بأجمعهم عمياً وبكماً وصماً لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون ﴿ مأواهم جهنم كلما خبت ﴾ اي سكن لهيبها .

وقيل : ضعفت وهدأت من غير أن يوجد نقصان في إيلام الكفار ، لأن الله سبحانه وتعالى قال : لا يفتر عنهم وقيل معناه أرادت أن تخبو ﴿ زدناهم سعيراً ﴾ أي وقوداً وقيل معناه

خبت أي نضجت جلودهم واحترقت أعيدوا إلى ما كانوا عليه ، وزيد في سعير النار لتحرقهم .

﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا ﴾ لما ذكر الوعيد المتقدم قال : ذلك جزاؤهم بما كفروا يعني ذلك العذاب جزاؤهم بسبب كفرهم بآياتنا ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ أجابهم الله ورد عليهم بقوله ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ﴾ أي في عظمها وشدتها ﴿ قادر على أن يخلق مثلهم ﴾ أي في صغرهم وضعفهم ﴿ وجعل لهم أجلاً ﴾ أي وقتاً لعذابهم ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه أنه يأتيهم قبل الموت ، وقيل يوم القيامة ﴿ فأبى الظالمون إلا كفوراً ﴾ أي جحوداً وعناداً ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي ﴾ أي خزائن نعمه ورزقه وقيل : إن خزائن الله غير متناهية .

(229/465)

والمعنى : لو أنكم ملكتم من النعم خزائن لا نهاية لها ﴿ إذاً لأمسكتم ﴾ أي لبخلتم وحبستم ﴿ خشية الإنفاق ﴾ والفقر والنفاد وهذا مبالغة عظيمة في وصفهم بهذا الشيء ﴿ وكان الإنسان قتوراً ﴾ أي ممسكاً بخيلاً .

فان قلت : قد يوجد في جنس الإنسان من هو جواد كريم ، فكيف وصفه بالبخل ؟ قلت : الأصل في الإنسان البخل ، لأن خلق محتاجاً والمحتاج لا بد وأن يحب ما يدفع به عنه ضرر الحاجة ، ويمسكه لنفسه إلا أنه قد يجود لأسباب خارجة مثل أن يحب المدحة أو رجاء ثواب ، فثبت بها أن الأصل في الإنسان البخل .

قوله تعالى ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ أي دلالات واضحات .

قال ابن عباس : هي العصا واليد البيضاء والعقدة التي كانت بلسانه ، فحلها وفلق البحر والطوفان والجواد والقمل والضفادع والدم وقيل عرض فلق البحر ، واليد والسنون نقص من الثمرات وقيل : الطمس والبحر بدل السنين والنقص .

قيل كان الرجل منهم مع أهله في الفراش وقد صارا حجرين والمرأة قائمة تخبز ، وقد صارت حجراً وقد روي أن عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب القرظي عن الآيات فذكر منها الطمس فقال عمر : هذا يجب أن يكون الفقيه ثم قال يا غلام اخرج ذلك الجراب فأخرجه .

فإذا فيه بيض مكسر نصفين ، وجوز مكسر نصفين وثوم وحمص وعدس كلها حجارة .

وقيل : التسع آيات هي آيات الكتاب وهي الأحكام يدل عليه ما روي عن صفوان بن غسان أن يهودياً قال لصاحبه : تعالى حتى نسأل هذا النبي فقال الآخر : لا تقل نبي .

فإنه لو سمع صارت له أربع أعين ، فأتياه فسألاه عن هذه الآية .

ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فقال : "لا تشركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ، ولا تسحروا ولا تمشوا بالبريء إلى سلطان ليقتله ولا تسرفوا ولا تقذفوا المحصنات ولا تفروا من الزحف ، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت فقبلا يده وقالا : نشهد إنك نبي قال : فما يمنعكم أن تتبعوني " قالا إن داود دعا ربه أن لا يزال في ذريته نبي ، وإنا نخاف إنا اتبعناك أن تقتلنا اليهود ﴿ فاسأل ﴾ يا محمد ﴿ بني إسرائيل ﴾ يجوز الخطاب معه والمراد غيره ويجوز أن يكون خاطبه وأمره بالسؤال ليتبين كذبهم مع قومهم ﴿ إذا جاءهم ﴾ يعني جاء موسى إلى فرعون بالرسالة من عند الله ﴿ فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ قال ابن عباس : مخدوعاً وقيل : مطبوباً اي سحروك وقيل معناه ساحراً معطى علم السحر ، فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك .

﴿ قال ﴾ موسى ﴿ لقد علمت ﴾ خطاباً لفرعون .

قال ابن عباس : علمه فرعون ولكنه عانده ﴿ ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض ﴾ يعني الآيات التسع ﴿ بصائر ﴾ أي بينات يبصر بها ﴿ وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً

﴾ قال ابن عباس : ملعوناً .

وقيل : هالكاً .

وقيل : مصروفاً عن الخير ﴿ فأراد أن يستفزهم من الأرض ﴾ معناه أراد فرعن أن يخرج موسى وبين إسرائيل من أرض مصر ﴿ فأغرقناه ومن معه جميعاً ﴾ أي أغرقنا فرعون وجنوده ونجينا موسى وقومه ﴿ وقلنا من بعده ﴾ أي من بعد هلاك فرعون ﴿ لنبي إسرائيل اسكنوا الأرض ﴾ يعني أرض مصر والشام ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ يعني القيامة ﴿ جئنا بكم لفيفاً ﴾ أي جميعاً إلى موقف القيامة ، واللفيف : الجمع الكثير إذا كانوا مختلفين من كل نوع فيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر وقيل : أراد بوعد الآخرة نزول عيسى من السماء .

(231/465)

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ يعني أنا ما أردنا بإنزال القرآن إلا تقريره للحق فلما أردنا هذا المعنى فكذلك وقع وحصل .

وقيل : معناه وما أنزلنا القرآن إلا بالحق المقتضي لإنزاله وما نزل إلا ملتبساً بالحق لاشتماله على الهداية إلى كل خير ﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ﴾ يعني بالجنة للمطيعين ﴿ ونذيراً

﴾ أي مخوفاً بالنار للعاصين.

قوله ﴿ وقرآناً فرقناه ﴾ أي فصلناه وبيناه وقيل فرقنا به بين الحق الباطل، وقيل: معناه أنزلنا نجوماً لم ينزل مرة واحدة بدليل قوله تعالى ﴿ لتقرأه على الناس على مكث ﴾ أي على تؤده وترسل في ثلاث وعشرين سنة ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ أي على حسب الحوادث ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ فيه وعيد وتهديد ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله ﴾ قيل: هم مؤمنوا أهل الكتاب الذين كانوا يطلبون الدين قبل مبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم أسلموا بعد مبعثه مثل زيد بن عمرو بن نفيل وسلمان الفارسي وأبي ذر وغيرهم ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ يعني القرآن ﴿ يخرون للأذقان ﴾ قال ابن عباس: أراد بها الوجوه ﴿ سجداً ﴾ أي يقعون على الوجوه سجداً ﴿ ويقولون سبحان ربنا ﴾ أي تعظيماً لربنا لإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة، من بعثة محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾ أي كائناً واقعاً ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ أي خضوعاً لربهم وقيل يزيدهم القرآن لين قلب، ورطوبة عين فالبكاء مستحب عند قراءة القرآن.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا اجتمع على عبدي غبار في سبيل الله ودخان جنهم" أخرجه الترمذي والنسائي.

وزاد النسائي " في منخري مسلم أبداً " الولوج الدخول والمنخر الأنف عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله يقول " عينان لا تسمهما النار عين بكت من خشية الله وعين با تت تحرس في سبيل الله " أخرجه الترمذي .

قوله : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ قال ابن عباس : سجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذات ليلة فجعل يقول في سجوده : يا الله يا رحمن فقال أبو جهل : إن محمداً ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين فأنزل الله هذه الآية ومعناه أنهما اسمان لله تعالى فسموه بهذا الاسم أو بهذا الاسم ﴿ أياً ما تدعوا ﴾ ما صلة ومعناه أي هذين الاسمين سميتم وذكرتم ، أو من جميع أسمائه ﴿ فله الأسماء الحسنى ﴾ يعني إذا حسنت أسماؤه كلها فهذان الاسمان منها ومعنى كونها حسنى أنها مشتملة على معاني التقديس ، والتعظيم والتمجيد ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ (ق) عن ابن عباس في قوله : ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قال : نزلت ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) مختف بمكة وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه سلم : ولا تجهر بصلاتك أي

بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم وابتغ بين ذلك سبيلاً زاد في رواية وابتغ بين ذلك سبيلاً أسمعهم ، ولا تجهر حتى يأخذوا عنك القرآن وقيل نزلت الآية في الدعاء وهو قول عائشة والنخعي ومجاهد ومكحول .

(ق) عن عائشة " ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها " قالت : نزل ذلك في الدعاء .

وقيل : كان أعراب من بني تميم إذا سلم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قالوا : اللهم ارزقنا مالاً وولداً يجهرون بذلك فأنزل الله " ولا تجهر بصلاتك أي لا ترفع صوتك بقراءتك ودعائك ولا تخافت بها " المخافتة خفض الصوت ، والسكوت ﴿ وابتغ ﴾ أي اطلب ﴿ بين ذلك سبيلاً ﴾ أي طريقاً وسطاً بين الجهر والاخفاء .

عن أبي قتادة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لأبي بكر : " مررت بك وأنت تقرأ القرآن وأنت تخفض من صوتك فقال إني أسمعت من ناجيت فقال ارفع قليلاً وقال لعمر مررت بك ، وأنت تقرأ وأنت ترفع من صوتك فقال إني أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان فقال : أخفض قليلاً " أخرجه الترمذي ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ﴾ أمر الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) بأن يحمده على وحدانيته .

وقيل : معناه الحمد لله الذي عرفني أنه لم يتخذ ولداً وقيل إن كل من له ولد فهو يمسك جميع النعم لولده وإذا لم يكن له ولد أفاض نعمه على عبيده .

وقيل : إن الولد يقوم مقام والده بعد انقضائه والله يتعالى عن جميع النقائص فهو المستحق لجميع المحامد ﴿ ولم يكن له شريك في الملك ﴾ والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك ، لم يكن مستحقاً للحمد والشكر وكذا قوله ﴿ ولم يكن له ولي من الذل ﴾ ومعناه أنه لم يذل فيحتاج إلى ناصر يتعزز به ﴿ وكبره تكبيراً ﴾ أي وعظمه عن أن يكون له ولد أو شريك أو ولي .

وقيل : إذا كان منزهاً عن الولد والشريك والولي كان مستوجباً لجميع أنواع المحامد .

عن ابن عباس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " أول ما يدعى إلى الجنة يوم القيامة ، الذين يحمدون الله في السراء والضراء " عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " الحمد لله رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده " عن جابر بن عبد الله أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا إله إلا الله " أخرجه الترمذي .

وقال حديث حسن غريب عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أحب الكلام إلى الله لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بأيهن بدأت " أخرجه مسلم .

والله أعلم بمراده وأسرار كتابه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 183 . 190 ﴾

(234/465)

وقال النسفى :

﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرءان لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ معيناً و ﴿ لا يأتون ﴾

جواب قسم محذوف ، ولولا اللام الموطئة لجاز أن يكون جواباً للشرط كقوله :

يقول لا غائب مالي ولا حرم . . .

لأن الشرط وقع ماضياً أي لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه لعجزوا عن الإتيان بمثله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ رددنا وكررنا ﴿ لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه ﴿ فأبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ جحوداً .

وإنما جاز ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ ولم يجز "ضربت إلا زيداً" لأن أبى متأول بالنفي كأنه قيل : فلم يرضوا إلا كفوراً .

ولما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه المعجزات الآخر ولزمتهم بالحجة وغلبوا اقترحوا الآيات فعل المبهوت المحجوج المتحير.

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تفْجُرَ لَنَا ﴾ وبالتخفيف: كوفي ﴿ مِنَ الأَرْضِ ﴾ أي مكة ﴿ يَنبُوعاً ﴾ عيناً غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع، يفعول من نبع الماء ﴿ أَوْ تكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ﴾ والتشديد هنا مجمع عليه ﴿ الأَنْهَارَ خلالَهَا ﴾ وسطها ﴿ تَفْجِيراً ﴾.

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ بفتح السين: مدني وعاصم. أي قطعاً يقال: أعطني كسفة من هذا الثوب.

(235/465)

وسكون السين: غيرهما جمع كسفة كسدرة وسدر يعنون قوله ﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ﴾ [سبأ: 9] ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴾ كفيلاً بما تقول شاهداً بصحته، والمعنى أو تأتي بالله قبيلاً وبالملائكة قبلاً كقوله: "كنت منه ووالدي بريا" أو مقابلاً كالعشير بمعنى المعاشر ونحوه: ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ [الفرقان: 21] أو جماعة حالاً من الملائكة ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ

بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ ذهب ﴿ أَوْ ترقى فِي السَّمَآءِ ﴾ تصعد إليها ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ لأجل رقيك ﴿ حتى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا ﴾ وبالتخفيف : أبو عمرو ﴿ كِتَاباً ﴾ أي من السماء فيه تصديقك ﴿ تقرؤه ﴾ صفة كتاب ﴿ قُلْ ﴾ ﴿ قال ﴾ مكي وشامي أي قال الرسول ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ تعجب من اقتراحاتهم عليه ﴿ هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ أي أنا رسول كسائر الرسل بشر مثلهم ، وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات فليس أمر الآيات إلى إنما هو إلى الله ، فما بالكم تتخيرونها علي ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ ﴾ يعني أهل مكة ، ومحل ﴿ أَن يُؤْمِنُوا ﴾ نصب بأنه مفعول ثان ل ﴿ منع ﴾ ﴿ إِذْ جَآءَهُمُ الهدى ﴾ النبي والقرآن ﴿ إِلاَّ أَن قَالُوا ﴾ فاعل ﴿ منع ﴾ والتقدير : وما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلا قولهم ﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ أي إلا شبهة تمكنت في صدورهم وهي إنكارهم أن يرسل الله البشر ، والهمزة في ﴿ أبعث الله ﴾ للإنكار وما أنكروه ففي قضية حكمته منكر .

ثم رد الله عليهم بقوله :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ ﴾ على أقدامهم كما يمشي الإنس ، ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه ﴿ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ حال أي ساكنين في الأرض قارين ﴿ لَنزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ يعلمهم الخير ويهديهم المراشد ، فأما الإنس فإنما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوة فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم و ﴿ بشراً ﴾ و ﴿ ملكاً ﴾ حالان من ﴿ رسولاً ﴾ ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ على أني بلغت ما أرسلت به إليكم وأنكم كذبتك وعاندتم .

﴿ شهيداً ﴾ تمييز أو حال ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ ﴾ المنذرين والمنذرين ﴿ خَبِيراً ﴾ عالماً بأحوالهم ﴿ بَصِيراً ﴾ بأفعالهم فهو مجازيهم وهذه تسلية لرسول الله عليه السلام ووعيد للكفرة ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ وبالياء : يعقوب وسهل ، وافقهما أبو عمرو ، ومدني في الوصل أي من وفقه الله لقبول ما كان من الهدى فهو المهتدي عند الله ﴿ وَمَن يُضْلِلْ ﴾ أي ومن يخذله ولم يعصمه حتى قبل وساوس الشيطان ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ ﴾ أي أنصاراً ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ ﴾ أي يسحبون عليها كقوله ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ [القمر : 48] وقيل لرسول الله عليه الصلاة والسلام كيف يمشون على وجوههم ؟ قال : " إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم " ﴿ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً ﴾ كما كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ويتصامون عن استماعه ، فهم في الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا

يسمعون ما يلذ مسامعهم ولا ينطقون بما يقبل منهم ﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ طفئ لهبها ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ توقدا .

(237/465)

﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم كذبوا بالإعادة بعد الإفناء فجعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها ثم يعيدها ، لا يزالون على ذلك ليزيد في تحسرهم على تكذيبهم البعث .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أو لم يعلموا ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ من الإنس ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ وهو الموت أو القيامة ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ جحوداً مع وضوح الدليل ﴿ قُل لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ ﴾ تقديره : لو تملكون أنتم لأن "لو" تدخل على الأفعال دون الأسماء فلا بد من فعل بعدها فأضمر تملك على شريطة التفسير وأبدل من الضمير المتصل وهو الواو ضمير منفصل وهو أنتم لسقوط ما يتصل به من اللفظ ف ﴿ أنتم ﴾ فاعل الفعل المضمر و ﴿ تملكون ﴾ تفسيره ، وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب .

وأما ما يقتضيه علم البيان فهو أن ﴿ أنتم تملكون ﴾ فيه دلالة على الاختصاص وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ ﴿ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ ربي ﴾ رزقه وسائر نعمه على خلقه ﴿ إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنفَاقِ ﴾ أي لبخلتم خشية أن يفنيه الإنفاق ﴿ وَكَانَ الإنْسانُ قَتُوراً ﴾ بخيلاً.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما : هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والطور الذي نتقه على بني إسرائيل.

وعن الحسن : الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور ﴿ فَاسْأَلْ بني إِسْرَاءِيلَ ﴾ فقلنا له اسأل بني إسرائيل أي سلهم من فرعون وقل له أرسل معي بني إسرائيل.

وقوله ﴿ إِذْ جاءهم ﴾ متعلق بقوله المحذوف أي فقلنا له سلهم حين جاءهم ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يا موسى مَسْحُوراً ﴾ سحرت فخولط عقلك

.

﴿ قَالَ ﴾ أي موسى ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ يا فرعون ﴿ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ ﴾ الآيات ﴿ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ خالقهما ﴿ بَصَآئِرَ ﴾ حال أي بينات مكشوفات إلا أنك معاند ونحوه ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ [النمل : 14] ﴿ علمت ﴾ بالضم : عليّ أي إني لست بمسحور كما وصفتني بل أنا عالم بصحة الأمر ، وأن هذه الآيات منزلها رب السماوات والأرض .

ثم قارع ظنه بظنه بقوله : ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ كأنه قال : إن ظننتني مسحوراً فأنا أظنك مثبوراً هالكاً وظني أصح من ظنك لأن له أمارة ظاهرة وهي إنكارك ما عرفت صحته ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها ، وأما ظنك فكذب بحت ، لأن قولك مع علمك بصحة أمري ﴿ إني لأظنك مسحوراً ﴾ قول كذب .

وقال الفراء : مثبوراً مصروفاً عن الخير من قولهم "ما ثبرك عن هذا" أي ما منعك وصرفك ؟ ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم ﴾ يخرجهم أي موسى وقومه ﴿ مِّنَ الأَرْضِ ﴾ أي أرض مصر أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً ﴾ فحاق به مكره بأن استفزه الله بإغراقه مع قبطه ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ ﴾ من بعد فرعون ﴿ لبني إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ ﴾ التي أراد فرعون أن يستفزكم منها .

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة ﴾ أي القيامة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ جمعاً مختلطين إياكم

وإياهم ثم نحكم بينكم ونميز بين سعدائكم وأشقيائكم ، واللفيف الجماعات من قبائل شتى .

(239/465)

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ وما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة وما نزل إلا ملتبساً بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير ، أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق محفوظاً بالرصد من الملائكة ، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين .

قال الراوي : اشتكى محمد بن السماك فأخذنا ماءه وذهبنا به إلى طبيب نصراني ، فاستقبلنا رجل حسن الوجه طيب الرائحة نقي الثوب فقال لنا : إلى أين ؟ فقلنا له : إلى فلان الطبيب نريه ماء ابن السماك .

فقال : سبحان الله تستعينون على ولي الله بعدو الله ! اضربوه على الأرض وارجعوا إلى ابن السماك وقولوا له : ضع يدك على موضع الوجع وقل : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ ثم غاب عنا فلم نره فرجعنا إلى ابن السماك فأخبرناه بذلك فوضع يده على موضع الوجع وقال ما قال الرجل وعوفي في الوقت وقال : كان ذلك الخضر عليه السلام ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً ﴾ بالجنة ﴿ وَنَذِيراً ﴾ من النار .

﴿ وَقُرْآناً ﴾ منصوب بفعل يفسره ﴿ فَرَقْنَاهُ ﴾ أي فصلناه أو فرقنا فيه الحق من الباطل ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ على مُكْثٍ ﴾ على تؤدة وتثبت ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ على حسب الحوادث ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا ﴾ أي اختاروا لأنفسكم النعيم المقيم أو العذاب الأليم.

(240/465)

ثم علل بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي التوراة من قبل القرآن ﴿ إِذَا يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ القرآن ﴿ يُخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ﴾ حال ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ لقوله ﴿ آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ أي أعرض عنهم فإنهم إن لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بالقرآن فإن خيراً منهم وهم العلماء الذين قرءوا الكتب قد آمنوا به وصدقوه، فإذا تلي عليهم خروا سجداً وسبحوا الله تعظيماً لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن عليه وهو المراد بالوعد المذكور.

"إن" بمعنى "إنه" وهي تؤكد الفعل كما أن "إن" تؤكد الاسم، وكما أكدت "إن" باللام في ﴿ إنهم لمحضرون ﴾ [الصافات: 158] أكدت "إن" باللام في ﴿ لمفعولا ﴾

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ ومعنى الخرور للذقن السقوط على الوجه ، وإنما خص الذقن لأن أقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض عند السجود الذقن .

يقال : خر على وجهه وعلى ذقنه ، وخر لوجهه ولذقنه .

أما معنى "على" فظاهر ، وأما معنى اللام فكأنه جعل ذقنه ووجهه للخرور ، واختصه به إذ اللام للاختصاص .

وكرر ﴿ يخرون للأذقان ﴾ لاختلاف الحالين وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين وخرورهم في حال كونهم باكين ﴿ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ القرآن ﴿ خُشُوعاً ﴾ لين قلب ورطوبة عين .

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرحمن ﴾ لما سمعه أبو جهل يقول يا الله يا رحمن قال : إنه نهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلها آخر فنزلت .

وقيل : إن أهل الكتاب قالوا : إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم فنزلت .

والدعاء بمعنى التسمية لا بمعنى النداء ، وأو للتخيير أي سموا بهذا الاسم ، أو بهذا أو اذكروا إما هذا وإما هذا ، والتنوين في ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُوا ﴾ عوض من المضاف إليه و"ما" زيدت للتوكيد و"أياً" نصب ب ﴿ تدعوا ﴾ وهو مجزوم بأي أي أي هذين الاسمين ذكرتم وسميتم ﴿ فَلَهُ الأَسْمَآءُ الحسنى ﴾ والضمير في ﴿ فله ﴾ يرجع إلى ذات الله تعالى ، والفاء لأنه جواب الشرط أي أيّاماً تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله : ﴿ فله الأسماء الحسنى ﴾ لأنه إذا حسنت أسماؤه حسن هذان الاسمان لأنهما منها ، ومعنى كونها أحسن الأسماء إنها مستقلة بمعاني التمجيد والتقديس والتعظيم ﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ﴾ بقراءة صلاتك على حذف المضاف لأنه لا يلبس ، إذ الجهر والمخافتة تعتقبان على الصوت لا غير ، والصلاة أفعال وأذكار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بقراءته فإذا سمعها المشركون لغوا وسبوا فأمر بأن يخفض من صوته ، والمعنى ولا تجهر حتى تسمع المشركين ﴿ وَلا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ حتى لا تسمع من خلفك ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ بين الجهر والمخافتة ﴿ سَبِيلاً ﴾ وسطاً ، أو معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلاً بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار أو بصلاتك بدعائك ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ كما زعمت اليهود والنصارى وبنو مليح ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ كما زعم المشركون ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ﴾ أي لم يذل فيحتاج إلى ناصر أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته ﴿ وَكَبِّرْهُ

تَكْبِيراً ﴾ وعظمه وصفه بأنه أكبر من أن يكون له ولد أو شريك وسمى النبي عليه السلام الآية آية العز وكان إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 331.326 ﴾

(242/465)

وقال البيضاوى :

﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرءان ﴾

في البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى . ﴿ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ وفيهم العرب العرباء وأَرباب البيان وأهل التحقيق ، وهو جواب قسم محذوف دل عليه اللام الموطئة ، ولولا هي لكان جواب الشرط بلا جزم لكون الشرط ماضياً كقول زهير :

وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْأَلَة . . . يَقولُ لاَ غَائِبٌ مَالِي وَلاَ حَرَمُ

﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ولو تظاهروا على الإتيان به ، ولعله لم يذكر الملائكة لأن إتيانهم بمثله لا يخرجه عن كونه معجزاً ، ولأنهم كانوا وسائط في إتيانه ، ويجوز أن تكون الآية تقريراً لقوله : ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ كررنا بوجوه مختلفة زيادة في التقرير والبيان . ﴿ لِلنَّاسِ فِى هذا

القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ من كل معنى كالمثل في غرابته ووقوعه موقعها في الأنفس. ﴿ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُورًا ﴾ إلا جحوداً، وإنما جاز ذلك ولم يجز: ضربت إلا زيداً لأنه متأول بالنفي.

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعًا ﴾ تعنتاً واقتراحاً بعد ما لزمتهم الحجة بيان إعجاز القرآن وانضمام غيره من المعجزات إليه. وقرأ الكوفيون ويعقوب ﴿ تَفْجُرَ ﴾ بالتخفيف والأرض أرض مكة والينبوع عين لا ينضب ماؤها يفعول من نبع الماء كيعبوب من عب الماء إذا زخر.

﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خلالها تَفْجِيرًا ﴾ أو يكون لك بستان يشتمل على ذلك.

(243/465)

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السماء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ يعنون قوله تعالى: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السماء ﴾ وهو كقطع لفظاً ومعنى، وقد سكنه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب في جميع القرآن إلا في "الروم" وابن عامر إلا في هذه السورة، وأبو بكر ونافع في غيرهما وحفص فيما عدا "الطور"، وهو إما مخفف من المفتوح كسدرة وسدر أو

فعل بمعنى مفعول كالطحن . ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ والملائكة قَبِيلاً ﴾ كفيلاً بما تدعيه أي شاهداً على صحته ضامناً لدركه ، أو مقابلاً كالعشير بمعنى المعاشر وهو حال من الله وحال الملائكة محذوفة لدلالتها عليها كما حذف الخبر في قوله :

(فإني وقيار بها لغريب)

أو جماعة فيكون حالا من ﴿ الملائكة ﴾

﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ من ذهب وقد قرئ به وأصله الزينة ﴿ أو ترقى في السماء ﴾ في معارجها ﴿ ولن نؤمن لرقيك ﴾ وحده ﴿ حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ﴾ وكان فيه تصديقك ﴿ قل سبحان ربي ﴾ تعجبا من اقتراحاتهم أو تنزيها لله من أن يأتي أو يتحكم عليه أو يشاركه أحد في القدرة وقرأ ابن كثير وابن عامر : قال سبحان ربي أي قال الرسول : ﴿ هل كنت إلا بشرا ﴾ كسائر الناس ﴿ رسولا ﴾ كسائر الرسل وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم على ما يلائم حال قومهم ولم يكن أمر الآيات إليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله حتى يتخيروها علي هذا هو الجواب المجمل وأما التفصيل فقد ذكر في آيات أخر كقوله : ﴿ ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس ﴾ ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا ﴾

﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الهدى ﴾ أي وما منعهم الإيمان بعد نزول الوحي وظهور الحق . ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ إلا قولهم هذا ، والمعنى أنه لم يبق

لهم شبهة تمنعهم عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن إلا أنكارهم أن يرسل الله بشراً .

(244/465)

﴿ قُلْ ﴾ جواباً لشبهتهم . ﴿ لَوْ كَانَ فِى الأرض ملائكة يَمْشُونَ ﴾ كما يمشي بنو آدم . ﴿ مُطْمَئِنّينَ ﴾ ساكنين فيها . ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مّنَ السماء مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ لتمكنهم من الاجتماع به والتلقي منه ، وأما الإِنس فعامتهم عماة عن إدراك الملك والتلقف منه ، فإن ذلك مشروط بنوع من التناسب والتجانس ، وملكاً يحتمل أن يكون حالاً من رسولاً وأن يكون موصوفاً به وكذلك بشراً والأول أوفق .

﴿ قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ على أني رسول الله إليكم بإظهاره المعجزة على وفق دعواي ، أو على أني بلغت ما أرسلت به إليكم وأنكم عاندتم وشهيداً نصب على الحال أو التمييز . ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ يعلم أحوالهم الباطنة منها والظاهرة فيجازيهم عليها ، وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد للكفار .

﴿ وَمَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ ﴾ يهدونه . ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ ﴾ يسحبون عليها أو يمشون بها . روي (أنه قيل

لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يمشون على وجوههم قال : " إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم " ﴿ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ولا ينطقون بما يقبل منهم ، لأنهم في دنياهم لم يستبصروا بالآيات والعبر وتصاموا عن استماع الحق وأبوا أن ينطقوا بالصدق ، ويجوز أن يحشروا بعد الحساب من الموقف إلى النار مؤفي القوى والحواس . ﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ سكن لهبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم . ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ توقداً بأن نبدل جلودهم ولحومهم فتعود ملتهبة مستعرة ، كأنهم لما كذبوا بالإِعادة بعد الإِفناء جزاهم الله بأن لا يزالوا على الإِعادة والإِفناء وإليه أشار بقوله :

﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بآياتنا وَقَالُواْ أَءذا كُنَّا عظاما ورفاتا أَءنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ لأن الإِشارة إلى ما تقدم من عذابهم .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ أو لم يعلموا . ﴿ أَنَّ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض قَادِرٌ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ فإنهم ليسوا أشد خلقاً منهن ولا الإعادة أصعب عليه من الإبداء . ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ هو الموت أو القيامة . ﴿ فأبى الظالمون ﴾ مع وضوح الحق . ﴿

﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ إلا جحوداً .

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى ﴾ خزائن رزقه وسائر نعمه ، وأنتم مرفوع بفعل يفسره ما بعده كقول حاتم : لو ذات سوار لطمتني . وفائدة هذا الحذف والتفسير المبالغة مع الإيجاز والدلالة على الاختصاص . ﴿ إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنفاق ﴾ لبخلتم مخافة النفاد بالإنفاق إذ لا أحد إلا ويختار النفع لنفسه ولو آثر غيره بشيء فإنما يؤثره لعوض يفوقه فهو إذن بخيل بالإضافة إلى جود الله تعالى وكرمه هذا وإن البخلاء أغلب فيهم . ﴿ وَكَانَ الإنسان قَتُورًا ﴾ بخيلاً لأن بناء أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج إليه وملاحظة العوض فيما يبذله .

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى تِسْعَ ءايات بَيّنَاتٍ ﴾ هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفجار الماء من الحجر وانفلاق البحر ونتق الطور على بني إسرائيل . وقيل الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الثلاثة الأخيرة . وعن صفوان أن يهودياً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عنها فقال : أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف ، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت ، فقبل اليهودي يده ورجله .

فعلى هذا المراد بالآيات الأحكام العامة للملل الثابتة في كل الشرائع، سميت بذلك لأنها تدل على حال من يتعاطى متعلقها في الآخرة من السعادة أو الشقاوة. وقوله وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا، حكم مستأنف زائد على الجواب ولذلك غير فيه سياق الكلام. ﴿ فاسأل بَنِى إسراءِيل إِذْ جَاءهُمْ ﴾ فقلنا له سلهم من فرعون ليرسلهم معك، أو سلهم عن حال دينهم ويؤيده قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم "فسأَل" على لفظ المضي بغير همز وهو لغة قريش و ﴿ إِذْ ﴾ متعلق بقلنا أو سأل على هذه القراءة أو فاسأل يا محمد بني إسرائيل عما جرى بين موسى وفرعون إذ جاءهم، أو عن الآيات ليظهر للمشركين صدقك أو لتتسلى نفسك، أو لتعلم أنه تعالى لو أتى بما اقترحوا لأصروا على العناد والمكابرة كمن قبلهم، أو ليزداد يقينك لأن تظاهر الأدلة يوجب قوة اليقين وطمأنينة القلب وعلى هذا كان ﴿ إِذْ ﴾ نصباً بآتينا أو بإضمار يخبروك على أنه جواب الأمر، أو بإضمار اذكر على الاستئناف. ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّى لأَظُنُّكَ يا موسى مَّسْحُورًا ﴾ سحرت فتخبط عقلك.

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ يا فرعون وقرأ الكسائي بالضم على إخباره عن نفسه. ﴿ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء ﴾ يعني الآيات. ﴿ إِلاَّ رَبُّ السموات والأرض بَصَائِرَ ﴾ بينات تبصرك صدقي ولكنك تعاند وانتصابه على الحال. ﴿ وَإِنِى لأَظُنُّكَ يافرعون مَثْبُورًا ﴾ مصروفاً عن

الخير مطبوعاً على الشر من قولهم : ما ثبرك عن هذا ، أي ما صرفك أو هالكاً قارع ظنه بظنه وشتان ما بين الظنين فإن ظن فرعون كذب بحت وظن موسى يحوم حول اليقين من تظاهر أماراته . وقرىء "وإن أخالك يا فرعون لمثبوراً" على إن المخففة واللام هي الفارقة .

(247/465)

﴿ فَأَرَادَ ﴾ فرعون . ﴿ أَن يَسْتَفِزَّهُم ﴾ أن يستخف موسى وقومه وينفيهم . ﴿ مِّنَ الأرض ﴾ أرض مصر أو الأرض مطلقاً بالقتل والاستئصال . ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴾ فعكسنا عليه مكره فاستفززناه وقومه بالإغراق .

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ ﴾ من بعد فرعون أو إغراقه . ﴿ لِبَنِى إسراءيل اسكنوا الأرض ﴾ التي أراد أن يستفزكم منها . ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخرة ﴾ الكرة أو الحياة أو الساعة أو الدار الآخرة يعني قيام القيامة . ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ مختلطين إياكم وإياهم ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم ، واللفيف الجماعات من قبائل شتى .

﴿ وبالحق أَنْزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ ﴾ أي وما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحق المقتضي لإنزاله ، وما نزل على الرسول إلا ملتبساً بالحق الذي اشتمل عليه . وقيل وما أنزلناه من السماء إلا

محفوظاً بالرصد من الملائكة ، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين .
ولعله أراد به نفي اعتراء البطلان له أول الأمر وآخره ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشّرًا ﴾ للمطيع بالثواب . ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للعاصي بالعقاب فلا عليك إلا التبشير والإنذار .
﴿ وَقُرْءانًا فَرَقْنَاهُ ﴾ نزلناه مفرقاً منجماً . وقيل فرقنا فيه الحق من الباطل فحذف الجار كما في قوله : ويوماً شهدناه ، وقرىء بالتشديد لكثرة نجومه فإنه نزل في تضاعيف عشرين سنة . ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَاس على مُكْثٍ ﴾ على مهل وتؤدة فإنه أيسر للحفظ وأعون في الفهم وقرىء بالفتح وهو لغة فيه . ﴿ ونزلناه تَنْزِيلاً ﴾ على حسب الحوادث .

(248/465)

﴿ قُلْ ءامِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ ﴾ فإن إيمانكم بالقرآن لا يزيده كمالاً وامتناعكم عنه لا يورثه نقصاً وقوله : ﴿ إِنَّ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ ﴾ تعليل له أي إن لم تؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منكم وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقة وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة ، وتمكنوا من الميز بين المحق والمبطل ، أو رأوا نعتك وصفة ما أنزل إليك في تلك الكتب ، ويجوز أن يكون تعليلاً لـ ﴿ قُلْ ﴾ على سبيل التسلية كأنه قيل : تسل بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة ولا تكترث بإيمانهم وإعراضهم . ﴿ إِذَا يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ القرآن .

﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ يسقطون على وجوههم تعظيماً لأمر الله أو شكراً لإنجاز وعده في تلك الكتب ببعثه محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل وإنزال القرآن عليه.

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا ﴾ عن خلف الموعد. ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ إنه كان وعده كائناً لا محالة.

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ كرره لاختلاف الحال والسبب فإن الأول للشكر عند إنجاز الوعد والثاني لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله، وذكر الذقن لأنه أول ما يلقى الأرض من وجه الساجد، واللام فيه لاختصاص الخرور به. ﴿ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ سماع القرآن ﴿ خُشُوعًا ﴾ كما يزيدهم علماً ويقيناً بالله

(249/465)

﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ نزلت حين سمع المشركون رسول الله يقول: يا الله يا رحمن فقالوا إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر. أو قالت اليهود: إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثره الله في التوراة، والمراد على الأول هو التسوية بين اللفظين بأنهما يطلقان على ذات واحدة وإن اختلف اعتبار إطلاقهما، والتوحيد إنما هو للذات الذي هو المعبود

المطلق وعلى الثاني أنهما سيان في حسن الإطلاق والإفضاء إلى المقصود وهو أجود لقوله : ﴿ أَيًا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْماء الحسنى ﴾ والدعاء في الآية بمعنى التسمية وهو يتعدى إلى مفعولين حذف أولهما استغناء عنه وأو للتخيير والتنوين في ﴿ أَيًا ﴾ عوض عن المضاف إليه، و﴿ مَا ﴾ صلة لتأكيد ما في ﴿ أَيًا ﴾ من الإبهام، والضمير في ﴿ فَلَهُ ﴾ للمسمى لأن التسمية له لا للاسم، وكان أصل الكلام ﴿ أَيًا مَّا تَدْعُواْ ﴾ فهو حسن، فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه وكونها حسنى لدلالتها على صفات الجلال والإكرام. ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ﴾ بقراءة صلاتك حتى تسمع المشركين، فإن ذلك يحملهم على السب واللغو فيها . ﴿ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾ حتى لا تسمع من خلفك من المؤمنين. ﴿ وابتغ بَيْنَ ذلك ﴾ بين الجهر والمخافتة. ﴿ سَبِيلاً ﴾ وسطاً فإن الاقتصاد في جميع الأمور محبوب. روي أن أبا بكر رضي الله عنه كان يخفت ويقول: أناجي ربي وقد علم حاجتي، وعمر رضي الله عنه كان يجهر ويقول أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان، فلما نزلت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع قليلاً وعمر أن يخفض قليلاً. وقيل معناه لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها بأسرها وابتغ بين ذلك سبيلاً بالإخفات نهاراً والجهر ليلاً.

﴿ وَقُلِ الحمدُ لِلَّهِ الذى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِى الملك ﴾ في الألوهية . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذل ﴾ ولي يواليه من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته نفي عنه أن يكون له ما يشاركه من جنسه ومن غير جنسه اختيارا واضطرارا ، وما يعاونه ويقويه ، ورتب الحمد عليه للدلالة على أنه الذي يستحق جنس الحمد لأنه الكامل الذات المنفرد بالإيجاد ، المنعم على الإطلاق وما عداه ناقص مملوك نعمة ، أو منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله : ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ وفيه تنبيه على أن العبد وإن بالغ في التنزيه والتمجيد واجتهد في العبادة والتحميد ينبغي أن يعترف بالقصور عن حقه في ذلك .

روي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية ، وعنه عليه السلام " من قرأ سورة بني إسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين ، كان له قنطار في الجنة " والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية ، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 465. 473 ﴾

وقال ابن جزى :

﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾

عجز الخلف عن الإتيان بمثله لما تضمنه من العلوم الإلهية ، والبراهين الواضحة والمعاني العجيبة التي لم يكن الناس يعلمونها ، ولا يصلون إليها ، ثم جاءت فيه على الكمال ، وقال أكثر الناس : إنهم عجزوا عنه لفصاحته وحسن نظمه . ووجوه إعجازه كثيرة قد ذكرنا في غير هذا منها خمسة عشر وجهاً ﴿ ظَهِيراً ﴾ أي معيناً .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي بينا لهم كل شيء من العلوم النافعة ، والبراهين القائمة ، والحجج الواضحة ، وهذا يدل على إن إعجاز القرآن بما فيه من المعاني والعلوم كما ذكرنا ﴿ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً ﴾ الكفور : الجحود ، وانتصب بقوله أبى لأنه في معنى النفي ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً ﴾ الذين قالوا هذا القول هم أشراف قريش طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أنواعاً من خوارق العادات ، وهي التي ذكرها الله في هذه الآية ، وقيل : إن الذي قاله عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، وكان ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أسلم بعد ذلك والينبوع العين ، قالوا له : إن مكة قليلة الماء ففجر لنا فيها عيناً من الماء ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأرض أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السمآء ﴾ [سبأ : 9] ، وكسفاً بفتح السين جمع كسفة وهي القطعة ، وقرئ

بالإسكان : أي قطعاً واحداً ﴿ قَبِيلاً ﴾ قيل معناه مقابلة ومعاينة وقيل : ضامنا شاهداً بصدقك ، والقبالة في اللغة : الضمان .

(252/465)

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ أي من ذهب ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ تعجب من اقتراحاتهم ، أو تنزيه لله عن قولهم : تأتي بالله ، وعن أن يطلب منه هذه الأشياء التي طلبها الكفار ، لأن ذلك سوء أدب ﴿ هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ أي : إنما أنا بشر ، فليس في قدرتي شيء مما طلبتم ، وأنا رسول فليس علي إلا التبليغ ﴿ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ المعنى أن الذي منع الناس من الإيمان إنكارهم لبعث الرسول من البشر .

﴿ قُل لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ ﴾ الآية : معناها أنه لو كان أهل الأرض ملائكة لكان الرسول إليهم ملكاً ، ولكنهم بشر ، فالرسول إليهم بشر من جنسهم ، ومعنى مطمئنين : ساكنين في الأرض ﴿ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ ذكر في [الأنعام : 19] .

﴿ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً ﴾ قيل : هي استعارة بمعنى أنهم يوم القيامة حيارى ، وقيل : هي حقيقة ، وأنهم يكونون عمياً وبكماً وصماً حين قيامهم من قبورهم ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ معناه في اللغة سكن لهبها ، والمراد هنا : كلما أكلت لحومهم فسكن لهبها بدلوا أجساداً

أخر ، ثم صارت ملتهبة أكثر مما كانت .

﴿ وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عظاما ﴾ استبعاد للحشر وقد تقدم معنى الرفات والكلام في الاستفهامين ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ ﴾ الآية احتجاج على الحشر ، فإن السموات والأرض أكبر من الإنسان ، فكما قدر الله على خلقها ؛ فأولى وأحرى أن يقدر على إعادة جسد الإنسان بعد فنائه ، والرؤية في الآية ، رؤية قلب ﴿ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ القيامة أو أجل الموت .

(253/465)

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ ﴾ لو حرف امتناع ، ولا يليها الفعل إلا ظاهراً أو مضمراً ، فلا بد من فعل يقدر هنا بعدها تقديره : تملكون ثم فسره بتملكون الظاهر ، وأنتم تأكيد للضمير الذي في تملكون المضمر ﴿ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ أي الأموال والأرزاق ، ﴿ إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفاق ﴾ أي لو ملكتم الخزائن لأمسكتم عن الإعطاء خشية الفقر ، فالمراد بالإنفاق عاقبة الإنفاق وهو الفقر ، ومفعول أمسكتم محذوف ، وقال الزمخشري : لا مفعول هل لأن معناه بخلتم ، من قولهم للبخيل ممسك ، ومعنى الآية وصف الإنسان بالشح وخوف الفقر ، بخلاف وصف الله تعالى بالجود والغنى .

﴿ تِسْعَ آيَات ﴾ بينات الخمس منها الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، والأربع انقلاب العصا حية ، وإخراج يده بيضاء ، وحل العقدة من لسانه ، وفلق البحر وقد وعد فيها رفع الطور فوقه ، وانفجار الماء من الحجر على أن يسقط اثنان من الآخر ، وقد وعد فيها أيضاً السنون ، والنقص من الثمرات ، روي أن بعض اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عنها فقال : ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تمشوا ببريء إلى السلطان ليقتله ، ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا المحصنات ، ولا تفروا يوم الزحف ، وعليكم خاصة اليهود ألا تعدوا في السبت ﴿ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي اسأل المعاصرين لك من بني إسرائيل عما ذكرنا من قصة موسى لتزداد يقيناً ، والآية على هذا خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقال الزمخشري : إن المعنى قلنا لموسى اسأل بني إسرائيل من فرعون أي اطلب منه أن يرسلهم معك ، فهو كقوله : أن أرسل معنا بني إسرائيل ، فلا يرد قوله اسأل لموسى على إضمار القول ، وقال أيضاً : يحتمل أن يكون المعنى : اسأل بني إسرائيل أن يعضدوك ويكونوا معك ، وهذا أيضاً على أن يكون الخطاب لموسى ، والأول أظهر .

﴿ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ الضمير لبني إسرائيل ، والمراد آباؤهم الأقدمون والعامل في إذ على القول الأوّل آتينا موسى أو فعل مضمر ، والعامل فيه على قول الزمخشري القول المحذوف ﴿ مَسْحُوراً ﴾ هنا وفي الفرقان : أي سحرت واختلط عقلك ، وقيل : ساحر ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ بفتح التاء خطاب لفرعون ، والمعنى أنه علم أن الله أنزل الآيات ، ولكنه كفر بها عناداً كقوله : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتهآ أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل : 14] والإشارة بهؤلاء إلى الآيات مثبوراً أي هالكاً ، وقيل : مصروفاً عن الخير ، قابل موسى قول فرعون : إني لأظنك يا موسى مسحوراً بقوله وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً .

﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأرض ﴾ أي أرض مصر ﴿ اسكنوا الأرض ﴾ يعني أرض الشام ﴿ لَفِيفاً ﴾ أي جميعاً مختلطين ﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ الضمير للقرآن ، وبالحق معناه في الموضعين بالواجب من المصلحة والسداد وقيل : معنى الأول كذلك : ومعنى الثاني ضد الباطل . أي بالحق في إخباره وأوامره ونواهيه .

﴿ وَقُرْآناً فرقناه ﴾ انتصب بفعل مضمر يدل عليه فرقناه ، ومعناه بيناه وأوضحناه ﴿ على مُكْثٍ ﴾ قيل : معناه على تمهل وترتيل في قراءته ، وقيل : على طول مدة نزوله شيئاً فشيئاً من حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى وفاته ، وذلك عشرون سنة ، وقيل ثلاث وعشرون .

﴿ قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تؤمنوا ﴾ أمر باحتقارهم وعدم الاكتراث بهم ، كأنه يقول : سواء آمنتم أو لم تؤمنوا ، لكونكم لستم بحجة ، وإنما الحجة أهل العلم من قبله ، وهم المؤمنون من أهل الكتاب ﴿ إِنَّ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ ﴾ يعني المؤمنين من أهل الكتاب وقيل : الذين كانوا على الحنيفية قبل البعثة : كزيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، والأوّل أظهر ، وهذه الجملة تعليل لما تقدم ، والمعنى : إن لم تؤمنوا به أنتم ، فقد آمن به من هو أعلم منكم ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ ﴾ أي لناحية الأذقان كقولهم : خرّ لليدين وللفم ، والأذقان جمع ذقن ، وهو أسفل الوجه حيث اللحية ، وإنما كرر يخرون للأذقان ، لأن الأول للسجود ، والآخر للبكاء .

﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ سببها أن الكفار سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يدعو يا الله يا رحمن ، فقالوا إن كان محمد ليأمرنا بدعاء إله واحد ، وها هو يدعو إليهن ، فنزلت الآية مبينة أن قوله الله أو الرحمن اسم لمسمى واحد ، وأنه مخيّر في الدعاء بأيّ الاسمين شاء ، والدعاء في الآية بمعنى التسمية كقولك : دعوت ولدي زيداً لا بمعنى النداء ﴿ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأسمآء الحسنى ﴾ أيّاً اسم شرط منصوب بتدعوا ، والتنوين فيه عوض من المضاف إليه ، وما زائدة للتأكيد ، والضمير في به لله تعالى ، وهو المسمى ، والمعنى أيّ هذين الاسمين تدعو فحسن ، لأن الله له الأسماء الحسنى فموضع قوله : لله

الأسماء الحسنى موضع الحال ، وهو في المعنى تعليل للجواب ، لأنه إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان .

(256/465)

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ المخافتة هي الإسرار ، وسبب الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جهر بالقرآن في الصلاة ، فسمعه المشركون ، فسبوا القرآن ومن أنزله ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوسط بين الإسرار والجهر ، ليسمع أصحابه الذين يصلون معه ، ولا يسمع المشركون ، وقيل : المعنى لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها ، واجعل منها سراً وجهراً ، حسبما أحكمته السنة ، وقيل : الصلاة هنا الدعاء .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذل ﴾ أي ليس له ناصر يمنعه من الذل ، لأنه تعالى عزيز لا يفتقر إلى وليّ يحميه ، فنفى الولاية على هذا المعنى لأنه غنيّ عنها ، ولم ينف الولاية على وجه المحبة والكرامة لمن شاء من عباده ، وحكى الطبري أن قوله : لم يتخذ ولداً رد على النصارى واليهود والذين نسبوا لله ولداً ، وقوله : ولم يكن له شريك : رد على المشركين ، وقوله : ولم يكن له وليّ من الذل رد على الصابئين في قولهم : لولا أولياء الله لذل الله ، تعالى

الله عن قولهم علواً كبيراً ﴿ وَكَبِّرْهُ ﴾ معطوف على قل ، ويحتمل هذا التكبير أن يكون بالقلب وهو التعظيم ، أو باللسان وهو قوله أن يقول الله أكبر مع قوله الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 178.181 ﴾

(257/465)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) ﴾

التفسير : ليس من شرط كون النبي صادقاً تواتر المعجزات وتتالي الآيات ، لأن فتح هذا الباب يوجب نقيض المقصود وهو أن لا تثبت نبوته أبداً ، ولكن المعجز الواحد يكفي في صدق النبي ، واقتراح الزيادة من جملة العناد فلا جرم لما بين الله سبحانه إعجاز القرآن حكى مقترحات المعاندين بياناً لتصميمهم على الكفر . قال ابن عباس : إن رؤساء مكة أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهم جلوس عند الكعبة - فأتاهم فقالوا : يا محمد إن أرض مكة ضيقة فسير جبالها لتتسع وفجر لنا ينبوعاً نزرع فيها . فقال : لا أقدر عليه . فقال قائل منهم : أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا .

فقال : لا أقدر عليه . فقيل له : أو يكون لك بيت من زخرف أي من ذهب فيغنيك عنا . فقال : لا أقدر عليه . فقيل له : فإذا كنت لا تستطيع الخير فاستطع الشر فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً . فقال عبد الله ابن أمية المخزومي – وأمه عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم – لا والذي يحلف به لا أؤمن بك حتى تتخذ سلماً فتصعد عليه ونحن ننظر فتأتي بأربعة من الملائكة فيشهدون لك بالرسالة ، ثم بعد ذلك لا أدري أؤمن بك أم لا . فأنزل الله هذه الآيات . ولنشرع في تفسير اللغات . فقوله : ﴿ ينبوعاً ﴾ أي عيناً غزيرة من شأنها النبوع من غير انقطاع ، والياء زائدة كيعبوب من عب الماء . وقوله : ﴿ أو تكون لك جنة ﴾ معناه هب أنك لا تفجر الأنهار لأجلنا ففجرها من أجلك . وقوله : ﴿ كما زعمت ﴾ إشارة إلى قوله سبحانه : ﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ﴾ [سبأ : 9] أو إشارة إلى ما مرّ في السورة من قوله : ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ﴾ [الإسراء : 68] أي أجعل السماء قطعاً متفرقة كالحاصب واسقطها علينا . وقال عكرمة : كما زعمت يا محمد أنك نبي فاسقط السماء علينا . وقيل : كما زعمت أن ربك إن شاء فعل . قال في الكشاف :

الكسف بسكون السين وفتحها جمع "كسفة" بالسكون كسدرة وسدر وسدر . وقال أبو علي : الكسف بالسكون الشيء المقطوع كالطحن للمطحون . واشتقاقه – على ما قال أبو زيد – من كسفت الثوب كسفا إذا قطعته . وقال الزجاج : من كسفت الشيء إذا غطيته كأنه قيل : أو تسقطها طبقاً علينا ، وهو نصب على الحال في القراءتين . ومعنى ﴿ قبيلاً ﴾ كفيلاً بما تدعي من صحة النبوة والمراد أو تأتي بالله قبيلاً وبالملائكة قبيلاً فاختصر ، أو المراد المقابل كالعشير بمعنى المعاشر . وفيه دليل على غاية جهلهم حيث لم يعلموا أنه تعالى لا يجوز عليه المعاينة نظير قولهم : ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ [الفرقان : 21] وقال ابن عباس :

(259/465)

أراد فوجاً بعد فوج. وقال الليث : كل جند من الجن والإنس قبيل وقد مر في تفسير قوله : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله ﴾ [الأعراف : 27] .

قوله : ﴿ بيت من زخرف ﴾ قال مجاهد : كنا لا ندري ما الزخرف حتى رأينا في قراءة عبد الله " أو يكون لك بيت من ذهب " . وقال الزجاج : هو الزينة ولا شيء في تحسين البيت وتزيينه كالذهب . ﴿ أو ترقى في السماء ﴾ أي في معارجها فحذف المضاف .

يقال : رقي في السلم وفي الدرجة . والمصدر " رقى " وأصله " فعول " كقعود ﴿ و ﴾ معنى ﴿ لن نؤمن لرقيك ﴾ لن نؤمن لك لأجل رقيك ﴿ حتى تنزل علينا كتاباً ﴾ من السماء فيه تصديقك . قال الرسول : متعجباً من اقتراحاتهم أو تنزيهاً لله من تحكماتهم أو من قولهم : ﴿ أو تأتي بالله ﴾ ﴿ سبحان ربي هل كنت ﴾ أي لست ﴿ إلا بشراً رسولاً ﴾ فإن طلبتم هذه الأشياء أن آتي بها من تلقاء نفسي فالبشر لا يقدر على أمثال ذلك فكيف أقدر أنا عليها ؟ وإن أردتم أن أطلب من الله إظهارها على يدي فالرسول إذا أتى بمعجز واحد وجب الاكتفاء به ، ولا ضرورة إلى طلب الزيادة وأنا عبد مأمور ليس لي أن أتحكم على الله بما ليس بضروري في الدعوة .

ثم حكى عنهم شبهة أخرى فقال : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا ﴾ أي الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد ﴿ إذ جاءهم الهدي ﴾ وهو الوحي المعجز الهادي إلى طريق النجاة ﴿ إلا أن قالوا ﴾ منكرين ﴿ أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ ثم أجاب عن شبهتهم بقوله : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون ﴾ على الأقدام كما يمشي الإنس ﴿ مطمئنين ﴾ ساكنين فيها ﴿ لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ لأن الرسول لا بد أن يكون من جنس

المرسل إليهم. فكأنه اعتبر لتنزيل الرسول من جنس الملائكة أمرين: أحدهما كون سكان الأرض ملائكة، والثاني كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم إلى السماء، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا أو سمعوا من أهلها ما يجب معرفته وسماعه فلا يكون في بعثة الملك إليهم فائدة. وجوز في الكشاف أن يكون قوله: ﴿ بشراً ﴾ و ﴿ ملكاً ﴾ منصوبين على الحال من ﴿ رسولاً ﴾ بل زعم أن المعنى له أجوب، ولعل ذلك لأن الإنكار توجه إلى كون الرسول متصفاً بحالة البشرية لا الملكية، وإذا كان أحد الصنفين المقابلين حالاً لزم أن يكون الآخر كذلك.

ثم ختم الكلام بما يجري مجرى التهديد قائلاً: ﴿ قل كفى بالله ﴾ الآية. وذلك أن إظهار المعجزة على وفق دعوى النبي شهادة من الله تعالى له على الصدق. فإذا لم تسمع هذه الشهادة وهو عليم ببواطن الأمور وخفيات الضمائر فكيف بظواهرها؟ علم أن هذا مجرد الحسد والعناد من العباد فيجزيهم على حسب ذلك. ثم بين أن الإقرار والإنكار مستندان إلى مشيئته وتقديره فقال: ﴿ ومن يهد الله ﴾ الآية. وقد مر خلاف المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة في مثله في آخر "الأعراف" وغيره. وقوه: ﴿ فهو المهتد ﴾ حمل على

اللفظ وقوله : ﴿ فلن تجد ﴾ حمل على المعنى . والخطاب في ﴿ لن تجد ﴾ إما للنبي أو لكل من يستحق الخطاب . والأولياء الأنصار ، والحشر على الوجوه إما بمعنى السحب عليها كقوله : ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ [القمر : 48] وإما بمعنى المشي عليها كما روي أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال : " إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم " وقيل لابن عباس : قد أخبر الله تعالى عنهم بأنهم يرون وينطقون ويسمعون حيث قال : ﴿ رأى المجرمون النار ﴾ ﴿ دعوا هنالك ثبوراً ﴾ ﴿ سمعوا لها ﴾ الجمع بين ذاك تغيظاً وزفيراً فكيف وبين قوله : ﴿ عمياً وبكماً وصماً ﴾ ؟ فأجاب بأنهم لا يرون ما يسرهم ، ولا ينطقون بحجة تقبل منهم ، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم .

(262/465)

وفي رواية عطاء أنهم عمي عن النظر إلى ما جعله الله لأوليائه ، بكم عن مخاطبة الله ، ومخاطبة الملائكة المقربين ، صم عن ثناء الله على أوليائه ، وقال مقاتل : هذه الأحوال بعد قوله تعالى لهم : ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ [المؤمنون : 108] أو بعد أن يحاسبوا فيذهب بهم إلى النار . وإنما جعلوا مؤوفي الحواس جزاء على ما كانوا عليه في الدنيا من

التعامي والتصامم عن الحق ومن عدم النطق به ﴿ كلما خبت ﴾ أي سكن لهبها . خبت النار تخبوا خبواً وأخباها غيرها أي أخمدها ﴿ زدناهم سعيراً ﴾ قال ابن قتيبة : أي تسعراً وهو التهلب . ولا ريب أن خبو النار تخفيف لأهليها فكيف يجمع بينه وبين قوله : ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ﴾ [البقرة : 162] وأجيب بأنه يحصل لهم في الحال الأولى خوف حصول الحالة الثانية فيستمر العذاب ، أو يقال : لما عظم العذاب صار التفاوت الحاصل في الوقتين غير مشعور به ، ويحتمل أن يقال : المراد بعدم التخفيف أنه لا يتخلل زمان محسوس أو معتد به بين الخبو والتعسر . وقال في الكشاف : لأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجرامهم تأكلها وتفنيها . ثم يعيدها . وفيه زيادة في تحسرهم وفي الانتقام منهم . ومما يدل على هذا التفسير قوله : ﴿ ذلك جزاؤهم ﴾ الآية .

(263/465)

ثم أبدى للجاحدين حجة يستبصر المذعن للحق إذا تأمل فقال : ﴿ أولم يروا ﴾ الآية . وذلك أن من قدر على خلق السموات والأرض كان على إعادة من هو أدون منها أقدر ، وعلى هذا فالمراد من خلق مثلهم إعادتهم بعد الإفناء كما يقول المتكلمون من أن الإعادة

مثل الابتداء . ومن قال : أراد أنه قادر على إفنائهم وإيجاد غيرهم بصورتهم ليوحدوه ويتركوا الاعتراض عليه كقوله : ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ [فاطر : 16] أي يبعثهم . وحين بيّن أن البعث أمر ممكن في نفسه ذكر أن لوقوعه وقتاً معلوماً ما عنده فقال : ﴿ وجعل لهم ﴾ أي لبعثهم ﴿ أجلاً لا ريب فيه ﴾ قال جار الله : قوله : ﴿ وجعل ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أو لم يروا ﴾ والمعنى قد علموا بدليل العقل أنه قادر على خلق أمثالهم وجعل لهم . وأقول : يحتمل أن يكون الواو للاستئناف ووجه النظم كما مر لما طلبوا إجراء الأنهار والعيون في أراضيهم لتتسع معايشهم بين الله تعالى أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله وهي رزقه وسائر نعمه على خلقه التي لا نهاية لها لبقوا على بخلهم وشحهم فضلاً أن يملكوا خزائن هن بصدد الفناء والنفاد . قال النحويون : كلمة " لو " حقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء ، لأنها حين تكون على معناها الأصلي تفيد انتفاء الشي لانتفاء غيره .

والاسم يدل على الذوات والفعل هو الذي يدل على الآثار والأحوال لا الذوات . وأيضاً إنها ههنا بمعنى " إن " الشرطية وهي مختصة بالفعل فلا بد من تقدير فعل بعدها ، فأصل

الكلام : لو تملكون تملكون مرتين : فأضمر " تملك " إضماراً على شريطة التفسير فصار الضمير المتصل منفصلاً لسقوط ما كان يتصل هو به ف ﴿ أنتم ﴾ فاعل الفعل المضمر ﴿ تملكون ﴾ تفسيره . وقال علماء البيان : فائدة هذا التصرف الدال على الاختصاص أنهم هم المختصون بالشح المتبالغ ، وذلك لأن الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر من حيث إنه لا يقصد الفعل بل الفاعل كما في قول حاتم : لو ذات سوار لطمتني . لا يقصد اللطمة بل اللاطمة أي لو حرة لطمتني وقوله : ﴿ خشية الإنفاق ﴾ أي خوف الفقر من أنفق ماله إذا ذهب وأمسكتم متروك المفعول معناه لبخلتم ﴿ وكان الإنسان قتوراً ﴾ أي بخيلاً شحيحاً ، والقتر والإقتار والتقتير والتقصير في الإنفاق . وهذا الخبر لا ينافي ما قد يوجد في الإنسان من هو كريم جواد لأن اللام للجنس أي هذا الجنس من شأنه الشح إذ كان باقياً على طبعه لأنه خلق محتاجاً إلى ضرورات المسكن والملبس والمطعوم والمنكوح ، ولا بد له في تحصيل هذه الأشياء من المال فيه تندفع حاجاته وتتم الأمور المتوقفة على التعاون ، فلا جرم يحب المال ويمسكه لأيام الضرورة والفاقة . ومن الناس من يحب المال محبة ذاتية لا عرضية فإذاً الأصل في الإنسان هو البخل والجود منه إنما هو أمر تكلفي أو عرضي طلباً للثناء أو الثواب . وقيل : المراد بهذا الإنسان المعهود السابق ممن قالوا ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا ﴾ بين الله تعالى أنهم لو ملكوا خزائن الأرض لبخلوا بها .

ثم قال : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات ﴾ فكأنه أراد أنا آتيناه معجزات مساوية لهذه الأمور التي اقترحتموها بل أقوى منها وأعظم ، فليس عدم الاستجابة إلى ما طلبتموه من البخل ولكن لعدم المصلحة أو لعدم استتباع الغاية لعلمنا بإصراركم والختم على قلوبكم ، عن ابن عباس : أن الآيات التسع هن : العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والطور الذي نتقه على بني إسرائيل . وعن الحسن : الطوفان والسنون ونقص الثمرات . مكان الحجر والبحر والطور . وعن عمر بن عبد العزيز أنه سأل محمد بن كعب عنهن فذكر من جملتها : حل عقدة اللسان والطمس على أموالهم . فقال له عمر : لا يكون الفقيه إلا هكذا . أخرج يا غلام الجراب فأخرجه فنفضه فإذا بيض مكسور بنصفين وجوز مكسور وفوم وحمص وعدس كلها حجارة . وعن صفوان بن عسال أن بعض اليهود سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : " أوحى الله إلى موسى أن قل لبني إسرائيل : لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تفشوا سر أحد إلى ذي سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة

ولا تفروا من الزحف ، وأنتم يا يهود خاصة لا تعدوا في السبت ، فقام اليهوديان فقبلا يديه ورجليه وقالا : " إنك نبي ولولا أنا نخاف القتل لاتبعناك "

(266/465)

قال الإمام فخر الدين الرازي : هو أجود ما قيل في الآيات التسع . وأقول : عد الأحكام من الآيات البينات فيه بعد ، اللَّهم إلا أن يقال : النهي عن مساوىء الأخلاق والعادات من جملة علامات النبوة . قال بعد العلماء : أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم بتسع وزاد واحدة تختص بهم . وروى أبو داود هذا الحديث ولم يذكر : " ولا تقذفوا محصنة " وشك شعبة في أنه صلى الله عليه وسلم : " ولا تقذفوا محصنة " أو قال : " تولوا الفرار " وقيل : إنه كان لموسى آيات أخر كإنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه ، وكالآيات التي عدها بعضهم من التسع وتركها بعضهم . إلا أن تخصيص العدد بالذكر لا يقدح في الزيادة عليه . هكذا قال الأصوليون ، ولكن الذوق يأبى أن لا يكون للتخصيص فائدة .

(267/465)

والذي يدور في خلدي أن سبب التخصيص هو أن مرجع جميع معجزاته إلى تسع أنواع كلمتين ونقص الثمرات مثلاً فإنهما نوع واحد وهو القحط وقد يعسر إبداء ما به الاشتراك ولكن لا بد عندي من اعتقاد الانحصار في التسع لأجل خبر الصادق. أما قوله: ﴿ فاسأل بني إسرائيل ﴾ فالخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم والسؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمأنينة والإيقان، لأن الأدلة إذا تظاهرت كان ذلك أقوى وأثبت. والمسؤولون مؤمنو بني إسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه. وقوله: ﴿ إذا جاءهم ﴾ يتعلق ب ﴿ آتينا ﴾. وينتصب بإضمار "اذكر"، أو هو للتعليل. والمراد فاسألهم يخبروك لأنه جاءهم أي جاء أباهم. ويحتمل أن يكون الخطاب لموسى بتقدير القول أي فقلنا له حين جاءهم سل بني إسرائيل أي سلهم من فرعون وقل له أرسل معي بني إسرائيل، أو سلهم عن إيمانهم وعن حال دينهم أو سلهم عن أن يعاضدوك ويساعدوك في الأمور والمسحور الذي سحر فخولط عقله. وقيل: هو بمعنى الساحر كالمشؤوم والميمون قاله الفراء. وعن محمد بن جرير الطبري أن معناه أعطى علم السحر. ومن قرأ "علمت" بضم التاء فظاهر لأن موسى كان علماً بصحة الأمر وأن هذه الآيات منزلها رب السموات والأرض، فأراد أني لا أشك في أمري بسبب تشكك مكذب مثلك. ومن قرأ بفتحها فالمراد تبين أن كفر فرعون كفر جحود وعناد كقوله ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ [النمل: 14]. وقوله للآيات: ﴿ هؤلاء ﴾ كقوله:

والعيش بعد أولئك الأيام . . . ومعنى ﴿ بصائر ﴾ بينات مكشوفات وانتصابها على الحال كأنه أشار بقوله : ﴿ ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض ﴾ إلى أنها أفعال خالقة للعادة ، وبقوله : ﴿ بصائر ﴾ إلى أن فاعله إنما فعله لغرض تصديق المدعي فتم حد المعجز بمجموع القيدين .

(268/465)

ثم قارع موسى ظن فرعون بظنه فقال : ﴿ إني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾ قال الفراء : أي ملعوناً محبوساً عن الخير من قولهم " ما ثبرك عن هذا " أي ما منعك وصرفك . وقال مجاهد وقتادة ، أي هالكاً من الثبور الهلاك . ولا ريب أن ظن موسى أصح من ظنه لأن إنكار ما علم صحته يستعقب لا محالة ويلاً وثبوراً وحسرة وندامة ، ولهذا قال : ﴿ فأراد ﴾ أي فرعون ﴿ أن يستفزهم من الأرض ﴾ أي يستخف موسى وقومه من بسيط الأرض أو من أرض مصر بالقتل والاستئصال أبو بالنفي والإخراج . والحاصل أن فرعون عورض بنقيض المقصود فأغرق هو وقومه وأسكن بنوإسرائيل مكانه تحقيقاً لقوله : ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ [فاطر : 34] ثم أخبر عن المعاد قائلاً ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ وهو قيام الساعة ﴿ جئنا بكم ﴾ يعني معشر المكلفين كلهم ﴿ لفيفاً

﴾ جماعات من قبائل شتى ذوي أديان ومذاهب مختلفة ، وذلك لأجل الحكم والجزاء والفصل والقضاء .

(269/465)

ولما بين إعجاز القرآن وأجاب عن شبهات القوم أراد أن يعظم شأن القرآن ويذكر جلالة قدره فقال : ﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ التقديم للتخصيص أي ما أردنا بإنزاله إلا تقرير الحق في مركزه وتمكين الصواب في نصابه . قال جار الله : أي ما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة المقتضية لإنزاله ، وما نزل إلا ملتبساً بالحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير ، أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق محفوظ بالرصد من الملائكة وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين . وقال آخرون : الحق هو الثابت كما أن الباطل هو الزاهق ، ولا ريب أن هذا الكتاب الكريم يشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والإكرام ، وعلى تعظيم الملائكة وإقرار النبوات وإثبات المعاد ، وعلى أصول الأديان والملل التي لا يتطرق إليها النسخ والتبديل ، وكل هذه الأمور تدل على المعنى المذكور لأنها مما تبقى ببقاء الدهور . قال أبو علي الفارسي : بالباء في الموضعين بمعنى " مع " كما في قولك " خرج بسلاحه " أي أنزل القرآن مع الحق ونزل هو مع الحق . ويحتمل أن تكون الباء الثانية بمعنى " على " كما في

قولك " نزلت بزيد " فيكون الحق عبارة عن محمد صلى الله عليه وسلم لأن القرآن نزل به أي عليه ﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ﴾ بالجنة ﴿ ونذيراً ﴾ من النار ليس إليك وراء هذين شيء من إكراه على الدين والإتيان بشيء مما اقترحوه. ثم إن القوم كأنهم من تعنتهم طعنوا في القرآن من جهة أنه لم ينزل دفعة واحدة فأجاب عن شبهتهم بقوله: ﴿ وقرآناً ﴾ وهو منصوب بفعل يفسره ﴿ فرقناه ﴾ أي جعلنا نزوله مفرقاً منجماً.

(270/465)

وعن ابن عباس أنه قرأه مشدداً وقال: إنه لم ينزل في يومين أو ثلاثة بل كان بين أوله وآخره عشرون سنة يعني أن فرق بالتخفيف يدل على فصل مقارب. وقال أبو عبيدة: التخفيف أعجب إليّ لأن تفسيره بيناه وليس للتشديد معنى إلا أنه نزل متفرقاً. فالفرق يتضمن التبين ويؤكده ما رواه ثعلب عن ابن الأعرابي أنه قال: فرقت أفرق بين الكلام وفرقت بين الأجسام. وأقول: إن ابن عباس اعتبر الفصل بين أول نزوله وبين آخره، فرأى التشديد أولى. ولعل المراد الفصول المتقاربة التي فيما بين المدة بدليل قوله: ﴿ لتقرأه على الناس على مكث ﴾ بضم الميم أي على مهل وتؤدة ولقوله: ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ أي على حسب المصالح والحوادث.

ثم خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول للمقترحين ﴿ آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ وهو أمر وعيد وتهديد وخذلان. قال جار الله: قوله: ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله ﴾ إما أن يكون تعليلاً لقل على سبيل التسلية كأنه قيل: تسل عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء الذي قرأوا الكتب من قبل نزول القرآن. قال مجاهد: هم أناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم خروا وسجدوا منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام، وفي قوله: ﴿ يخرون للأذقان سجداً ﴾ دون أن يقول " يسجدون " مبالغة من وجهين: أحدهما إنه قيد الخرور وهو السقوط بالذقن. فقال الزجاج: لأن الذقن مجتمع اللحيين، وكما يبتدئ الإنسان بالخرور للسجود فأول ما يحاذي به الأرض من وجهه الذقن. قلت: هذا تصحيح للمعنى ولا يظهر منه لتغيير العبارة فائدة. وقال غيره. المراد تعفير اللحية في التراب فإن ذلك غاية الخضوع وإن الإنسان إذا استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على الأرض مغشياً عليه. وثانيهما أنه لم يقل " يخرون على الأذقان " كما هو ظاهر وإنما قال ﴿ للأذقان ﴾ لأن اللام للاختصاص فكأنهم خصوا أذقانهم بالخرور، أو خصوا الخرور بأذقانهم. ثم حكى أنهم في سجودهم أنهم

يراعون شرائط التنزيه والتعظيم قائلين ﴿ سبحان ربنا إن كان وعد ربنا ﴾ بإنزال القرآن وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم في كتبنا ﴿ لمفعولاً ﴾ أي منجراً " وإن " مخففة من الثقيلة ولهذا دخلت اللام في خبر كان ، ثم ذكر أنهم كما خروا لأذقانهم في حال كونهم ساجدين فقد خروا لها حال كونهم باكين ، ويجوز أن يكون التكرير لأجل الدلالة على تكرير الفعل منهم بدليل قوله ﴿ ويزيدهم ﴾ أي القرآن ﴿ خشوعاً ﴾ لين قلب ورطوبة عين ، ثم أرد أن يعلمهم كيفية الخشوع والدعاء فقال : ﴿ قل ادعوا ﴾ عن ابن عباس : سمعه أبو جهل يقول : يا الله يا رحمن .

فقال : إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر . وقيل : أن أهل الكتاب قالوا : إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم فنزلت . قال جار الله : الدعاء بمعنى التسمية لا النداء وهو يتعدى إلى مفعولين . تقول : دعوته زيداً ثم تترك أحدهما استغناء عنه فتقول : دعوت زيداً و " أو " للتخيير والمعنى على السبب الأول سموه بهذا الاسم أو بهذا ، وعلى السبب الثاني اذكروا إما هذا وإما هذا ﴿ أياماً تدعوا ﴾ يعني أي هذين الاسمين سميتم وذكرتم فالتنوين عوض عن المضاف إليه " وما " صلة زيدت لتأكيد الإبهام .

والضمير " في ﴿ فله ﴾ لا يرجع إلى أحد الاسمين ولكن إلى مسماهما ، وكان أصل الكلام أن يقال : فهو أي ذلك الاسم حسن فوضع موضعه . قوله : ﴿ فله الأسماء الحسنى ﴾ . لأنه إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان . ومعنى حسن الأسماء استقلالها بنعوت الجلال والإكرام وقد مر في آخر " الأعراف " .

(273/465)

ثم ذكر كيفية أخرى للدعاء فقال : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ أي بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بأن الجهر والمخافتة من نعوت الصوت لا الصلاة أفعالها فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء ، ومنه يقال : خفت صوته خفوتاً إذا انقطع كلامه أو ضعف وسكن ، وخفت الزرع إذا ذبل ، وخافت الرجل بقراءته إذا لم يبين قراءته برفع الصوت . روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرفع صوته لعله أو من إطلاق الصلاة على بعض أفعالها فهو ألح تأمل . مصححه بالقراءة ، فإذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من جاء به فأوحى الله إليه ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ فيسمعه المشركون فيسبوا الله عدواً بغير علم ﴿ ولا تخافت بها ﴾ فلا تسمع أصحابك ﴿ وابتغ بين ذلك ﴾ الذ ذكر من الجهر المخافتة ﴿ سبيلاً ﴾ وسطاً ، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم

طاف بالليل دور الصحاغبة فكان أبو بكر يخفي صوته في صلاته ويقول : أناجي ربي وقد علم حاجتي . وكان عمر يرفع صوته ويقول : أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع صوته قليلاً ، وأمر عمر أن يخفض قليلاً فنزلت الآية على حسب ذلك . وقيل : معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ، ولا تخافت بها كلها . وابتغ بين ذلك سبيلاً بأن تجهر بصلاة الليل ، وتخافت بصلاة النهار ، وعن عائشة وأبي هريرة ومجاهد أن الصلاة ههنا الدعاء . وقد يروى هذا مرفوعاً قال الحسن : لا يرائي بعلانيتها ولا يسيء بسريرتها ، وأيضاً في الجهر إسماع غيره الذنوب وهو الموجب للتغيير والتوبيخ ، وعلى هذا ذهب قوم إلى أن الآية منسوخة بقوله : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ [الأعراف : 55] قال جار الله : ابتغاء السبيل مثل لابتغاء الوجه الوسط في القراءة .

(274/465)

ولما أمر أن لا يذكر ولا ينادى إلا بأسمائه الحسنى نبه على كيفية التحميد بقوله : ﴿ وقل الحمد لله ﴾ الآية قال في الكشاف : كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد ؟ وأجاب بأن هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة ، فهو الذي يستحق جنس الحمد ، وأقول : الولد يتولد من جزء من أجزاء الوالد ، فالوالد مركب وكل مركب

محدث والمحدث محتاج والمحتاج لا يقدر على كمال الإنعام فلا يستحق كمال الحمد ، وأيضاً الولد مبخلة لا يستحق الحمد والشركة في الملك إنما تتصور لمن لا يستقل بالمالكية فيفتقر إلى من يتم بمشاركته أمور مملكته ومصالح تمدنه ، وكل من كان كذلك كان عاجزاً بالنظر إلى ذاته ، فلا يتم فيضانه فلا يستحق الحمد على الإطلاق ، وهكذا حكم من كان له لي من الذل أي اتخذ حبيباً من أجل ذل به واستفادة لا من عزة وقوة إفاضة ، أو الولي بمعنى الناصر أي ناصر من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته . وأيضاً قد يمنعه الشريك من إصابه الخير إلى أوليائه ، والذي يكون له ولي من الذل يكون محتاجاً إليه فينعم عليه دون من استغنى عنه . أما إذا كان منزهاً عن الولد وعن الشريك وعن أن يكون له ولي ينصره ويلي أمره كان مستوجباً لأعظم أنواع الحمد ومستحقاً لأجلّ أقسام الشكر . قال الإمام فخر الدين الرازي : التكبير أنواع منها : تكبير الله في ذاته وهو أن يعتقد أنه واجب الوجود لذاته غني عن كل ما سواه . ومنها تكبيره في صفاته بأن يعتقدها كلها من صفات الجلال والإكرام وفي غاية العظمة ونهاية الكمال وأنها منزهة عن سمات التغير والزوال والحدوث والانتقال . ومنها تكبيره في أفعاله وعند هذا تعود مسألة الجبر والقدر . قال : سمعت أن الأستاذ أبا إسحق الإسفرايني كان جالساً في دار الصاحب بن عباد فدخل القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني . فلما رآه قال : سبحان من تنزه عن الفحشاء . فقال الأستاذ : سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء . ومنها تكبير الله في

أحكامه وهو أن يعتقد أن أحكامه كلها جارية على سنن الصواب وقانون العدالة وقضية الاستقامة. ومنها تكبيره عن هذا التكبير وتعظيمه عن هذا التعظيم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 390. 399﴾

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة:

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) ﴾

﴿ قل ﴾ أي: لهؤلاء البعداء ﴿ لئن اجتمعت الأنس ﴾ الذين تعرفونهم وتعرفون ما أوتوا من البلاغة والحكمة والذين لا تعرفونهم ﴿ والجنّ ﴾ الذين يأتون كهانهم ويعلمونهم ببعض المغيبات عنهم وغيرهم وترك الملائكة لأنهم لا عهد لهم بشيء من التصدي ولأنهم كانوا

وسائط ﴿على أن يأتوا بمثل هذا القرآن﴾ في البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى ﴿لا يأتون بمثله﴾ أي: لا يقدرون على ذلك فالقرآن معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق ولو كان مخلوقاً لأتوا بمثله.

تنبيه: في قوله تعالى: لا يأتون بمثله قولان أظهرهما أنه جواب للقسم الموطأ له باللام والثاني: أنه جواب لشرط واعتذروا عن رفعه بأنّ الشرط ماض فهو كقوله:

وإن أتاه خليل، أي: فقير. يوم مسغبة يقول لا غائب مالي ولا حرم

لأنّ الشرط وقع ماضياً وناقشه أبو حيان بأنّ هذا ليس مذهب سيبويه ولا الكوفيين والمبرد لأنّ مذهب سيبويه في مثله أنّ النية به التقديم ومذهب الكوفيين والمبرد أنه على حذف الفاء وهذا مذهب ثالث قال به بعض الناس: ﴿ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ أي: معيناً بضم أقوى ما فيه إلى أقوى ما في صاحبه. تنبيه: قد تقدّم في سورة البقرة أنّ الله تعالى قال: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ (البقرة،)

وقدّمنا الكلام على ذلك وفي وجه كون القرآن معجزاً قولان أحدهما: أنه معجز في نفسه.

والثاني: أنه ليس في نفسه معجزاً إلا أنه تعالى لما صرف دواعيهم عن الإتيان بمعارضته وكانت الدواعي متوفرة على الإتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضاً للعادة فيكون معجزاً والقول الأوّل أظهر.

﴿ ولقد صرّفنا ﴾ أي : بينا بوجوه مختلفة زيادة في التقرير والبيان ﴿ للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي : من كل معنى هو كالمثل في غرابته ووقوعه متوقعاً في الأنفس . وقيل معناه من كل وجه من العبر والأحكام والوعد والوعيد والقصص وغيرها . وقيل صفة لمحذوف ، أي : مثلاً من جنس كل مثل ليتعظوا ﴿ فأبى أكثر الناس ﴾ وهم من هم في صورة الناس ككفار قريش وقد سلبوا معانيهم ﴿ إلا كفوراً ﴾ أي : جحوداً . فإن قيل : كيف جاز ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ ولم يجز ضربت إلا زيداً ؟

أجيب : بأنّ أبى متأول بالنفي كأنه قيل فلم يرضوا إلا كفوراً .

ولما تبين بالدليل إعجاز القرآن على وفق دعوى محمد صلى الله عليه وسلم ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فعل المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة وذكروا من ذلك ستة أنواع من المعجزات أوّلها :

﴿ وقالوا ﴾ أي : كفار قريش ومن والاهم ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر ﴾ أي : تفجيراً عظيماً ﴿ لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ أي : عيناً غزيرة الماء من شأنها أن تنبع بالماء ولا ينضب ماؤها . وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة والباقون بضم التاء وفتح الياء وكسر الجيم المشدّدة ثانيها قولهم:

﴿ أو تكون لك ﴾ أنت وحدك ﴿ جنة من نخيل وعنب ﴾ أي : وأشجار عنب عبر عنه

بالثمرة لأنّ الانتفاع منه بغيرها قليل ﴿ فتفجّر الأنهار ﴾ الجارية ﴿ خلالها ﴾ أي: وسطها ﴿ تفجيراً ﴾ أي: تشقيقاً والفجر شق الظلام عن عمود الصبح والفجور شق جلباب الحياء بما يخرج إلى الفساد ثالثها قولهم:

﴿ أو تسقط السماء ﴾ أي: نفسها ﴿ كما زعمت ﴾ فيما تتوعدنا به ﴿ علينا كسفاً ﴾ أي: قطعاً جمع كسفة وهي القطعة. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بنصب السين مثل قطعة وقطع وسدرة وسدر، والباقون بسكونها مثل دمنة ودمن وسدرة وسدر وهو نصب على الحال في القراءتين جميعاً كأنه قيل أو تسقط السماء علينا مقطعة. رابعها: قولهم: ﴿ أو تأتي ﴾ معك ﴿ بالله ﴾ أي: الملك الأعظم ﴿ والملائكة قبيلاً ﴾ أي: عياناً ومقابلة ننظر إليه لا يخفى علينا شيء منه. وقال الضحاك: هو جمع قبيلة، أي: أصناف الملائكة قبيلة قبيلة. قال ابن هانئ كفيلاً، أي: يكفلون بما تقول. خامسها: قولهم:

﴿ أو يكون لك ﴾ أي : خاصاً بك ﴿ بيت من زخرف ﴾ أي : ذهب كامل الحسن والزينة. سادسها : قولهم : ﴿ أو ترقى ﴾ أي : تصعد ﴿ في السماء ﴾ درجة درجة ونحن ننظر إليك صاعداً ﴿ ولن نؤمن ﴾ أي : نصدق مذعنين ﴿ لرقيك ﴾ أي : أصلاً ﴿ حتى تنزل ﴾ وحققوا معنى كونه من السماء بقولهم ﴿ علينا كتاباً ﴾ ومعنى كونه في رق أو نحوه بقولهم ﴿ نقرؤه ﴾ يأمرنا فيه بأتباعك. روى عكرمة عن ابن عباس أنّ عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا البحتري بن هشام وعبد الله بن أمية وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام والعاص بن وائل ونبهاناً ومنبهاً ابني الحجاج اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا إليه أنّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك يكلمونك فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً وهو يظنّ أنهم بدا لهم في أمره بداء وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم حتى جلس إليهم فقالوا : يا محمد إنا بعثنا إليم لنعذر فيك وإنا والله لا نعلم أنّ رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعيبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد الشرف سودناك علينا وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ،

وإن كان هذا الذي بك رئيا تراه قد غلب عليك لا تستطيع ردّه بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيك وكانوا يسمون التابع من الجنّ الرئي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما بي مما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف عليكم ولا للملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه إليّ أصبر لأمر الله تعالى

(280/465)

حتى يحكم

الله بيني وبينكم . فقالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد أضيق بلاداً وأشدّ عيشاً منا فسل لنا ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت ويبسط لنا بلادنا ويفجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخاً صدوقاً فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فإن صدّقوك صدّقناك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ما أرسلت به وإن تقبلوه فهو حظكم وإن تردّوه أصبر لأمر الله . قالوا :

فإن لم تفعل فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدّقك وسله أن يجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك فإنا نقوم بالأسواق ونلتمس المعاش كما تلتمسه فقال صلى الله عليه وسلم ما بعثت بهذا ولكنّ الله بعثني بشيراً ونذيراً . قالوا : فأسقط السماء كما زعمت إنّ ربك إن شاء فعل ؟ فقال : ذاك إلى الله إن شاء فعل ذلك بكم . فقال قائل منهم : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، فلما قالوا ذلك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام معه عبد الله بن أمية وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب ، وقال له : عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك أن تجعل ما تخوّفهم به من العذاب فلم تفعل فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ترقى به ، وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي بنسخة منشورة معك ، ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدّقك فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزيناً لما رأى من مباعدتهم فأنزل الله هذه الآية" وفيها إشارة إلى أنه ليس من شرط كونه نبياً صادقاً تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها إذ لو فتح هذا الباب لزم أن لا ينتهي الأمر فيه إلى مقطع وكلما أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم بمعجز اقترحوا عليه بمعجز آخر ولا ينتهي الأمر فيه إلى حدّ ينقطع عنه عناد المعاندين

وتعنت الجاهلين مع أنه صلى الله عليه وسلم أعطى من الآيات والمعجزات ما أغنى عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر وتفجير العيون من بين الأصابع وما أشبه ذلك .

ولما تمّ تعنتهم وكان لسان الحال طالباً من الله تعالى الجواب عنه أمر الله تعالى بجوابهم بقوله تعالى : ﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء البعداء والأشقياء : ﴿ سبحان ربي ﴾ أي : تعجباً من اقتراحاتهم وتنزيهاً لله من أن يأتي أو يتحكم عليه أو يشاركه أحد في القدرة . وقرأ ابن كثير وابن عامر بصيغة الماضي والباقون قل بصيغة الأمر و ﴿ هل كنت إلا بشراً ﴾ لا يقدر على غير ما يقدر عليه البشر ﴿ رسولاً ﴾ كما كان من قبلي من الرسل وكانوا لا يؤتون قومهم إلا بما يظهره الله تعالى على أيديهم بما يلائم حال قومهم ولم يكن أمر الآيات إليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله حتى يتخيروها .

هذا هو الجواب المجمل ، وأمّا التفصيلي فقد ذكر في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم ﴾ (الأنعام ،)

﴿ ولو فتحنا عليهم باباً ﴾ (الحجر ،)

ونحو ذلك . ولما أمر بما تضمن أنه كإخوانه من الرسل في كونه بشراً أتبعه قوله عطفاً على فأبى أو وقالوا :

﴿ وما منع الناس ﴾ أي: قريشاً ومن قال بقولهم لما لهم من الاضطراب ﴿ أن يؤمنوا ﴾ أي: لم يبق لهم مانع من الإيمان والجملة مفعول منع ﴿ إذ جاءهم الهدى ﴾ أي: الدليل القاطع على الإيمان وهو القرآن وغيره من الأدلة. وقرأ أبو عمرو وهشام بإدغام ذال إذ عند الجيم والباقون بالإظهار وأمال الألف بعد الجيم حمزة وابن ذكوان محضة وإذا وقف حمزة على جاءهم سهل الهمزة مع المدّ والقصر. ﴿ إلا أن قالوا ﴾ فاعل منع أن قالوا، أي: منكرين عليه غاية الإنكار متعجبين متهكمين ﴿ أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ لأنّ الكفار كانوا يقولون: لن نؤمن لك لأنك بشر، ولو بعث الله تعالى رسولاً إلى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿ قل ﴾ أي: لهؤلاء المطرودين عن الرحمة ﴿ لو كان في الأرض ملائكة يمشون ﴾ عليها كالآدميين ﴿ مطمئنين ﴾ أي: مستوطنين فيها كالبشر ﴿ لنزلنا عليهم ﴾ مرّة بعد مرّة كما فعلنا في تنزيل جبريل عليه السلام على الأنبياء من البشر وحقق الأمر بقوله تعالى: ﴿ من السماء ملكاً رسولاً ﴾ يعلمهم الخير ويهديهم المراشد لتمكنهم من التلقي منه لمشاكلتهم له بخلاف البشر كما هو مقتضى الحكمة لأنّ رسول كل جنس ينبغي أن يكون منهم إذ الشيء عن شكله أفهم وبه

آنس وإليه أحنّ وله آلف إلا من فضله الله تعالى بتغلب روحه على نفسه ، وبتغلب عقله على شهوته فأقدره بذلك على التلقي من الملك كالمرسلين ثم أجابهم الله تعالى جواباً آخر بقوله عزّ وجل:

(283/465)

﴿ قل كفى بالله ﴾ أي : المحيط بكل شيء قدرة وعلماً . وأمال الألف حمزة والكسائي محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح ﴿ شهيداً بيني وبينكم ﴾ على أني رسوله إليكم ليظهر المعجزات على وفق دعواهم وإني بلغت ما أرسلت به إليكم وأنكم عاندتم ومن يشهد الله على صدقه فهو صادق فعند ذلك قول القائل بأنّ الرسول يجب أن يكون ملكاً لا إنساناً تحكم فاسد لا يلتفت إليه . تنبيه : شهيداً نصب على الحال أو التمييز ، ثم إنه تعالى ذكر ما هو كالتهديد والوعيد بقوله تعالى : ﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ يعلم ظواهرهم وبواطنهم ، ويعلم من قلوبهم أنهم لا ينكرون هذا إلا لمحض الحسد وحب الرياسة والاستنكاف من الانقياد للحق . ولما تقدّم أنه تعالى أعلم بالمهدي والضال عطف عليه قوله تعالى:

﴿ ومن يهد الله ﴾ بأن يخلق الهداية في قلبه ﴿ فهو المهتدى ﴾ لا يمكن أحد غيره أن

يضله . تنبيه : أثبت نافع وأبو عمرو الياء بعد الدال مع الوصل دون الوقف وحذفها الباقون وقفاً ووصلاً . ﴿ ومن يضلل فلن تجد لهم ﴾ أي : الضالين ﴿ أولياء ﴾ يهدونهم ﴿ من دونه ﴾ ولا ينفعونهم بشيء أراد الله تعالى غيره . ولما كان يوم القيامة يظهر الله فيه لكل أحد ما كان يعمله نبه على ذلك بقوله تعالى : ﴿ ونحشرهم ﴾ بنون العظمة ، أي : نجمعهم بكره ﴿ يوم القيامة ﴾ الذي هو محط الحكمة ﴿ على وجوههم ﴾ مسحوبين عليها إهانة لهم فيها كما لم يذلوها بالسجود لنا . قال تعالى : ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ (القمر ،)

(284/465)

أي : يمشون عليها . روى أبو هريرة قيل : يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال : "إنّ الذي يمشيهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم" . قال حكماء الإسلام : إنّ الكفار أرواحهم شديدة التعلق بالدنيا ولذاتها وليس لها تعلق بعالم الأنوار وحضرة الإله سبحانه وتعالى ، فلما كانت وجوه قلوبهم وأرواحهم متوجهة إلى الدنيا لا جرم كان حشرهم على وجوههم ، وأمّا قوله تعالى : ﴿ عمياً وبكماً وصماً ﴾ فقد استشكله شخص على ابن عباس فقال : أليس قد قال الله تعالى : ﴿ ورأى المجرمون

النار ﴾ (الكهف ،)

وقال تعالى : ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ (الفرقان ،)

وقال تعالى : ﴿ دعوا هنالك ثبوراً ﴾ (الفرقان ،)

وقال تعالى : ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ (النحل ،)

. وقال تعالى حكاية عن الكفار : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ (الأنعام ،)

(285/465)

. فثبت بهذه الآيات أنهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف قال تعالى هنا : ﴿ عمياً وبكماً وصماً ﴾ ؟ أجاب ابن عباس وتلامذته عنه من وجوه الأوّل : قال ابن عباس عمياً لا يرون شيئاً يسرّهم صماً لا يسمعون شيئاً يسرّهم بكما لا ينطقون بحجة الثاني قال في رواية عطاء عمياً عن النظر ، أي : عما جعله الله تعالى لأوليائه وبكماً عن مخاطبة الله تعالى ومخاطبة الملائكة المقرّبين صماً عن ثناء الله تعالى عليهم . الثالث : قال مقاتل : إنه حين يقال لهم اخسؤوا فيها ولا تكلمون يصيرون عمياً بكماً صماً ، أمّا قبل ذلك فهم يرون ويسمعون وينطقون . الرابع : أنهم يكونون رائين سامعين ناطقين في الموقف ولولا ذلك لما قدروا أن يطالعوا كتبهم ولا أن يسمعوا لإلزام حجة الله تعالى عليهم إلا أنهم إذا أخذوا

يذهبون من الموقف إلى النار جعلهم الله تعالى عمياً بكماً صماً . قال الرازي : والجواب الأول أولى لأنّ الآيات السابقة تدل على أنهم في النار يبصرون ويسمعون ويصيحون . ثم بيّن تعالى مكانهم بقوله عز وجلّ : ﴿ مأواهم جهنم ﴾ تسعر عليهم ﴿كلما خبت ﴾ أي : أخذ لهبها في السكون عند أكلها لحومهم وجلودهم ﴿ زدناهم سعيراً ﴾ توقد بإعادة الجلود واللحوم ملتهبة مسعرة كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جزاهم الله تعالى بأن لا يزالوا على الإعادة والإفناء . وقرأ نافع وابن كثير وعاصم وابن عامر بإظهار تاء التأنيث عند الزاي وأدغمها الباقون . ثم بين علة تعذيبهم ليرجع منهم من قضى بسعادته بقوله تعالى:

﴿ ذلك ﴾ أي : العذاب العظيم ﴿ جزاؤهم بأنهم ﴾ أي : أهل الضلالة ﴿ كفروا بآياتنا ﴾ القرآنية وغيرها وكانوا كل يوم يزدادون كفراً وهم عازمون على الدوام على ذلك ما بقوا ﴿ وقالوا ﴾ إنكاراً لقدرتنا ﴿ أئذا كنا عظاماً ورفاتاً ﴾ ممزقين في الأرض ثم كرّروا الإنكار كأنهم على ثقة من أمرهم هذا الذي بطلانه أوضح من الشمس بقولهم ﴿ أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ فنحن نريهم جزاء على هذا الإنكار المكرّر الخلق الجديد في

جلودهم ولحومهم مكرّراً كل لحظة ، قال تعالى : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ (النساء ،)

. ثم أتبعه بقاطع في بيان جهلهم بقوله تعالى:

﴿ أو لم يروا ﴾ أي : يعلموا بعيون بصائرهم على ما هو كالرؤية بعيون أبصارهم لما قام عليه من الدلائل بصحته من الشواهد الجلائل ﴿ أنّ الله الذي خلق السموات ﴾ جمعها لما دل على ذلك من الحسن ، ولما لم تكن الأرض مثل ذلك أفردها مريداً الجنس الصالح للجميع بقوله تعالى : ﴿ والأرض ﴾ على كبر أجرامها وعظم أحكامها ، وقوله تعالى : ﴿ قادر على أن يخلق مثلهم ﴾ فيه قولان الأوّل : المعنى قادر على أن يخلقهم ثانياً ، فعبر عن خلقهم ثانياً بلفظة المثل كما يقوله المتكلمون أنّ الإعادة مثل الابتداء . الثاني : أنّ المراد قادر على أن يخلق عبيداً آخرين يوحدونه ويقرّون بكمال حكمته وقدرته ويتركون ذكر هذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا فهو كقوله تعالى : ﴿ ويأت بخلق جديد ﴾ (إبراهيم ،)

. وقوله تعالى : ﴿ ويستبدل قوماً غيركم ﴾ (التوبة ،)

. قال الواحدي : والقول هو الأوّل لأنه أشبه بما قبله .

ولما بيّن الله تعالى بالدليل المذكور أنّ البعث والقيام أمر ممكن الوجود في نفسه أردفه ببيان أن لوقوعه في الوجود وقتاً معلوماً عند الله وهو قوله تعالى : ﴿ وجعل لهم أجلاً لا ريب ﴾ أي : لا شك ﴿ فيه ﴾ وهو الموت أو القيامة ﴿ فأبى الظالمون إلا كفوراً ﴾ أي : بعد هذه الدلائل الظاهرة أبوا إلا الكفر والجحود . ولما قال الكفار : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ فطلبوا إجراء الأنهار والعيون في بلدتهم لتكثر أموالهم ويتسع عيشهم ، بيّن تعالى أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم وشحهم بقوله تعالى:

﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء المتعنتين ﴿ لو أنتم ﴾ أي : دون غيركم ﴿ تملكون خزائن ﴾ عبر بصيغة منتهى الجموع لأنّ المقام جدير بالمبالغة ﴿ رحمة ربي ﴾ أي : خزائن رزقه وسائر نعمه وذلك غير متناه . ﴿ إذاً لأمسكتم ﴾ أي : لوقع منكم الإمساك عن الإنفاق في بعض الوجوه التي تحتاجونها ﴿ خشية ﴾ أي : مخافة عاقبة ﴿ الإنفاق ﴾ أي : الموصل إلى الفقر فكان المعنى أنكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لا نهاية لها لبقيتم على الشح والدناءة وهذا مبالغة عظيمة في وصفهم بهذا الشح . وقول البيضاويّ تبعاً للزمخشريّ : أنتم مرفوع بفعل يفسره ما بعده . قال الزمخشريّ : تقديره لو تملكون جرى فيه على مذهب

الكوفيين من أن لو يليها الفعل مضمراً كما يليها ظاهراً والبصريون يمنعون إيلاء لها مضمراً إلا في شذوذ كقول حاتم لو ذات سوار لطمتني، وأصل هذا المثل أنّ امرأة عطلاء من الحلي والهيئة لطمت حاتماً على نحر الناقة وقالت له بقسوة إنما أردناك بفصدها والفصد عندهم أن يقطع عرق من عروق ثم يجمع دمها فيشوى وقيل أصله أنّ المرأة المذكورة لطمت رجلاً فقال: لو ذات سوار لطمتني لاحتملتها فصار مثلاً يضرب لكريم يلطمه الدني، ثم استدل على صحة هذا المفروض بالشاهد من مضمون قولهم ﴿ وكان ﴾ أي: جبلة وطبعاً ﴿ الإنسان ﴾ أي: الذي من شأنه الأنس بنفسه فهو لذلك لا يعقل الأمور حق عقلها ﴿ قتوراً ﴾ أي: بخيلاً. تنبيه: فتح الياء في ربي نافع وأبو عمرو، وسكنها الباقون وهم على مراتبهم في المدّ. فإن قيل: قد يوجد في جنس الإنسان من هو جواد كريم؟

أجيب: من وجوه الأوّل: أن الأصل في الإنسان البخل لأنه خلق محتاجاً والمحتاج لا بدّ وأن يحبس ما به يدفع الحاجة وأن يمسكه لنفسه إلا أنه قد يجود به لأسباب من خارج فثبت أن الأصل في الإنسان البخل. الثاني: أنّ الإنسان إنما يبذل لطلب الثناء والحمد وليخرج عن عهدة الواجب فهو في الحقيقة ما أنفق إلا ليأخذ العوض فهو في الحقيقة بخيل. الثالث: أنّ

المراد بهذا الإنسان المعهود

السابق وهم الذين قالوا : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ . ولما قدم سبحانه وتعالى أن أكثر الناس جحدوا الآيات لكونه تعالى حكم بضلالهم ومن حكم بضلاله لا يمكن هداه شرع يسلي نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بما أتفق لمن قبله من الأنبياء بقوله تعالى:

﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ أي : واضحات

واختلف في هذه الآيات فقال ابن عباس والضحاك هي العصا واليد البيضاء والعقدة التي كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . وقال مجاهد وعطاء : هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون ونقص من الثمرات . وقال البقاعي : وهي كما في التوراة : العصا ثم الدم ثم الضفادع ثم القمل ثم موت البهائم ثم البرد الكبار التي أنزلها الله تعالى مع النار المضطرمة فكانت تهلك كل ما مرّت عليه من نبات وحيوان ثم الجراد ثم الظلمة ثم موت الأبكار من الآدميين وجميع الحيوان ثم قال : وقد نظمتها ليهون حفظها فقلت:

*عصا قمل موت البهائم ظلمة

** جراد دم ثم الضفادع والبرد

*وموت بكور الآدميّ وغيره

** من الحيّ آتاه الذي عز وانفرد

(290/465)

قال : وكأنه عدّ اليد مع العصا آية ، ولم تفرد اليد لأنه ليس فيها ضرر عليهم اه . وقال البيضاويّ : هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفجار الماء من الحجر وانفلاق البحر ونتق الطور على بني إسرائيل وذكر محمد بن كعب القرظي الطمس والبحر بدل السنين ونقص من الثمرات . وقال : كان الرجل منهم مع أهله في فراشه وقد صارا حجرين والمرأة منهم قائمة تخبز وقد صارت حجراً . وقال بعضهم : هي آيات الكتاب وهي أحكام يدل عليها . ما روي عن صفوان "أن يهودياً قال لصاحبه : تعال نسأل هذا النبيّ فقال الآخر : لا تقل نبيّ ، فإنه لو سمع صارت له أربعة أعين فأتياه فسألاه عن هذه الآية : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ فقال لا تشركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا بالبريء إلى سلطان ليقتله ولا تسرفوا ولا تقذفوا المحصنة ولا تفروا من الزخف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت فقبلوا يده ، وقالوا : نشهد أنك نبيّ . قال : فما منعكم أن تتبعوني ؟ قالوا : إن داود

دعا ربه أن لا يزال في ذريته نبيّ وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا اليهود " .

وقال الرازيّ : علم أنه تعالى ذكر في القرآن أشياء كثيرة من معجزات موسى عليه السلام ، أحدها : أنه تعالى أزال العقدة من لسانه ، قيل في التفسير ذهب أعجم وجاء فصيحاً . ثانيها : انقلاب العصا حية . ثالثها : تلقف الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها . رابعها : اليد البيضاء . وخمسة أخرى وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعاشر شق البحر وهو قوله تعالى : ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ (البقرة ،)

والحادي عشر الحجر ، وهو قوله تعالى : ﴿ أن اضرب بعصاك الحجر ﴾ ، (الأعراف ،)

والثاني عشر : إظلال الجبل ، وهو قوله تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ﴾ . (الأعراف ،)

والثالث عشر : إنزال المنّ والسلوى عليه وعلى قومه . والرابع عشر والخامس عشر : قوله تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ﴾ (الأعراف ،)

والسادس عشر : الطمس على أموالهم حجارة من النخل والدقيق والأطعمة والدراهم والدنانير . روي أنّ عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب عن قوله تعالى : ﴿ تسع آيات

بينات ﴾

فذكر محمد بن كعب في جملة التسع حل عقدة اللسان والطمس . فقال عمر بن عبد العزيز : هكذا يجب أن يكون الفقيه ثم قال : يا غلام أخرج ذلك الجراب فأخرجه فنفضه فإذا بيض مكسور نصفين وجوز مكسور وفوم وعدس وحمص كلها حجارة ، وقوله تعالى : ﴿ فاسأل ﴾ ، أي : يا أعظم خلقنا ﴿ بني إسرائيل ﴾ يجوز أن يكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد غيره . وقرأ ابن كثير والكسائيّ بفتح السين ولا همزة بعدها ، والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ويجوز أن يكون الخطاب له خاصة وأمره بالسؤال لهم ليتبين له كذبهم مع قومهم ، أي : فاسأل بني إسرائيل عامّة الذين نبهوا قريشاً على السؤال عن الروح كما في بعض الروايات ، وعن أهل الكهف وذي القرنين وعن حديث موسى عليه السلام والمؤمنين منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ إذ ﴾ ، أي : عن ذلك حين ﴿ جاءهم ﴾ ، أي : جاء آباءهم فوقع له من التكذيب بعد إظهار المعجزات الباهرات ما وقع لك ﴿ فقال ﴾ ، أي : فذهب إلى فرعون فأمره بإرسالهم معه فأبى فأظهر له الآيات واحدة بعد أخرى فتسبب عن ذلك صدق ما يقتضيه الحال وهو أن قال : ﴿ له فرعون ﴾ عتوًّا واستكباراً ﴿ إني لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ ، أي : مخدوعاً مغلوباً على عقلك فكل ما ينشأ عنك فهو من آثار السحر وهذا كما قالت قريش للنبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ . (الإسراء ،)

وقال في موضع آخر ساحر وأنهم ربما أطلقوا اسم المفعول مريدين اسم الفاعل مبالغة لأنه كالمخبر عن الفعل وفي الأمر بسؤال اليهود تنبيه على ضلالهم ولما لم يؤمن فرعون على تواتر تلك الآيات وعظمها فكأنه قيل فما قال موسى عليه السلام؟ فقيل:

﴿ قال ﴾ لفرعون ﴿ لقد علمت ﴾ بفتح التاء قراءة غير الكسائيّ وقرأ الكسائيّ بضمها على إخباره عن نفسه. ﴿ وما أنزل هؤلاء ﴾ ، أي: الآيات ﴿ إلا رب السموات والأرض ﴾ ، أي: خالقهما ومدبرهما حال كون هذه الآيات ﴿ بصائر ﴾ ، أي: بينات يبصر بها صدقي، وأمّا السحر فإنه لا يخفى أنه خيال لا حقيقة له ولكنك تعاند. تنبيه: قوله تعالى: هؤلاء الكلام عليه من جهة الهمزتين كالكلام على هؤلاء إن كنتم في البقرة وقد تقدّم الكلام على ذلك.

ثم حكى الله تعالى أن موسى قال لفرعون : ﴿ وإني ﴾ ، أي : وإن ظننتني يا فرعون مسحوراً ﴿ لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾ ، أي : ملعوناً مطروداً ممنوعاً من الخير فاسد العقل فعارضه موسى بذلك وشتان بين الظنين فإن ظنّ فرعون كذب صرف لعناده لرب العالمين لوضوح مكابرته للبصائر التي كشف عنها ربها الغطاء فهي أوضح من الشمس ، وظنّ موسى عليه السلام قريب إلى الصحة واليقين من نظائر أماراته لأن هذه الآيات ظاهرة وهذه المعجزات قاهرة . ولا يرتاب العاقل أنها من عند الله وفي أنه تعالى أظهرها لأجل تصديقي وأنت منكرها فلا يحملنك على هذا الإنكار إلا الحسد والعناد والبغي والجهل وحب الدنيا ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور ﴿ فأراد ﴾ ، أي : فما تسبب عن هذا الذي هو موجب للإيمان في العادة إلا أن فرعون أراد ﴿ أن يستفزهم ﴾ ، أي : يستخف بموسى وبمن آمن معه ويخرجهم فيكونوا كالماء إذا سال من قولهم فز الجرح إذا سال . ﴿ من الأرض ﴾ بالنفي والقتل للتمكن منهم كما أراد هؤلاء أن يستفزوك منها مما هم عليه من الكفر والعناد . ثم أخذ تعالى يحذرهم سطواته بما فعل بمن كان قبلهم وأكثر منهم وأشدّ بقوله تعالى : ﴿ فأغرقناه ﴾ ، أي : فتسبب عن ذلك أن رددنا كيده في نحره كما قال تعالى : ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ (فاطر ،)

. أراد فرعون أن يخرج موسى من أرض مصر لتتخلص له تلك البلاد والله تعالى أهلك فرعون وجعل تلك الأرض خالصة لموسى ولقومه فأدخله البحر حين أدخل بني إسرائيل

فأنجاهم وأغرق آل فرعون ﴿ ومن معه جميعاً ﴾ كما جرت به سنة الله تعالى فيمن عاند بعد أن رأى الخوارق وكفر النعمة وأفرط في البغي بعد ظهور الحق فليحذر هؤلاء مثل ذلك ولا سيما إذا خرج رسولنا من بين أظهرهم ففي هذه الآية وأمثالها بشارة له صلى الله عليه وسلم في أنّ الله تعالى يسلك به في النصرة والتمكن سبيل إخوانه من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

﴿ وقلنا من بعده ﴾ ، أي : الإغراق ﴿ لبني إسرائيل ﴾ الذين كانوا تحت يده أذل من العبيد لتقواهم وإحسانهم ﴿ اسكنوا الأرض ﴾ ، أي : التي أراد أن يستفزكم منها ﴿ فإذا جاء ﴾ ، أي : مجيئًا محققاً ﴿ وعد الآخرة ﴾ ، أي : القيامة بعد أن سكنتم الأرض أحياء ودفنتم فيها أمواتاً ﴿ جئنا ﴾ ، أي : بما لنا من العظمة والقدرة ﴿ بكم ﴾ منها ﴿ لفيفاً ﴾ ، أي : بعثناكم وإياهم مختلطين لا حكم لأحد على آخر ولا دفع لأحد عن آخر على غير الحالة التي كانت في الدنيا ثم ميزنا بعضكم عن بعض ، ثم عطف سبحانه وتعالى على قوله تعالى : ﴿ ولقد صرّفنا ﴾ قوله عز وجلّ:

﴿ وبالحق ﴾ ، أي : من المعاني الثابتة التي لا مرية فيها لا بغيره ﴿ أنزلناه ﴾ نحن ، أي :

القرآن فهو ثابت لا يزول كما أنّ الباطل هو الذاهب الزائل وهذا القرآن الكريم مشتمل على أشياء لا تزول وذلك لأنه مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والإكرام وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوّة الأنبياء وإثبات الحشر والنشر والقيامة ، وكل ذلك مما لا يقبل الزوال ويشتمل أيضاً على شريعة باقية لا يتطرّق إليها النقص والتغيير والتحريف وأيضاً هذا القرآن تكفل الله تعالى بحفظه عن تحريف الزائغين وتبديل الجاهلين كما قال تعالى :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (الحجر ،)

. ﴿ وبالحق ﴾ لا بغيره ﴿ نزل ﴾ هو ووصل إليهم على لسانك بعد إنزاله عليك كما أنزلناه سواء غضاً طرياً محفوظاً لم يطرأ عليه طارئ فليس فيه من تحريف ولا تبديل كما وقع في كتاب اليهود الذين سألهم قومك ثم قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك ﴾ يا أفضل الخلق بما لنا من العظمة ﴿ إلا مبشراً ﴾ للمطيع ﴿ ونذيراً ﴾ للعاصي من العقاب فلا عليك إلا التبشير والإنذار لا ما يقترحونه عليك من المعجزات فإن قبلوا الدين الحق انتفعوا به وإلا فليس عليك من كفرهم شيء ، ثم إنّ الله تعالى أخبر أنّ الحكمة في إنزال القرآن مفرّقاً بقوله عزّ وجل:

﴿ وقرآناً ﴾ ، أي : وفصلنا أو وأنزلنا قرآناً ﴿ فرقناه ﴾ ، أي : أنزلناه منجماً في أوقات متطاولة قال سعيد بن جبير نزل القرآن كله ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء السفلى ، ثم فصل في السنين التي نزل فيها .

قال قتادة : كان بين أوّله وآخره عشرون سنة وقيل ثلاث وعشرون سنة والمعنى قطعناه آية آية وسورة سورة ولم ينزل جملة ﴿ لتقرأه على الناس ﴾ ، أي : عامّة ﴿ على مكث ﴾ ، أي : مهل وتؤدة ليفهموه ﴿ ونزلناه ﴾ من عندنا بما لنا من العظمة ﴿ تنزيلاً ﴾ بعضه إثر بعض مفرّقاً بحسب الوقائع لأنه أتقن في فصلها وأعون على الفهم لطول التأمّل لما نزل من نجومه في مدّة ما بين النجمين لغزارة ما فيه من المعاني ثم إن الله تعالى هدّدهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:

﴿ قل ﴾ لهؤلاء المضلين ﴿ آمنوا به ﴾ ، أي : القرآن ﴿ أو لا تؤمنوا ﴾ فالإيمان به غير محتاج إليكم ولا موقوف عليكم لأنكم إن آمنتم به كان الحظ لكم وإلا لم تضروا إلا أنفسكم فاختاروا ما تريدون فإن إيمانكم بالقرآن لا يزيده كمالاً وامتناعكم منه لا يورثه نقصاناً وقوله تعالى : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله ﴾ ، أي : من قبل إنزاله ممن آمن به من بني إسرائيل

تعليل له ، أي : إن لم تؤمنوا به وأنتم أهل جاهلية وشرك فإنّ خيراً منكم وأفضل وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع قد آمنوا به وصدّقوه وثبت عندهم أنه النبيّ العربيّ الموعود في كتبهم ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ ، أي : القرآن ﴿ يخرون للأذقان ﴾ منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام . قال الزجاج : الذقن مجمع اللحيين وكما يبتدئ الإنسان بالخرور إلى السجود فأقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض الذقن . وقيل : إنّ الأذقان كناية عن اللحى والإنسان إذا بالغ عند السجود في الخشوع والخضوع ربما مسح لحيته على التراب ، فإنّ اللحية يبالغ في تنظيفها فإذا عفرها الإنسان بالتراب في حوض المبالغة فقد أتى بغاية التعظيم ، وقيل : إنّ الإنسان إذا استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على الأرض في معرض السجود كالمغشي عليه فيكون حينئذ خروره على الذقن فقوله ﴿ يخرّون للأذقان ﴾ كناية عن غاية ولهه وخوفه وخشيته . فإن قيل : لم قال : ﴿ يخرّون للأذقان سجداً ﴾ ولم يقل يسجدون ؟ أجيب : بأنّ المقصود من ذكر هذا اللفظ مسارعتهم إلى ذلك حتى كأنهم يسقطون . فإن قيل : لم قال : ﴿ يخرّون للأذقان ﴾ ولم يقل على الأذقان ؟ اجيب : بأن العرب تقول إذا خرّ الرجل فوقع لوجهه خرّ للذقن ثم بين أن ذلك ليس سقوطاً اضطرارياً من كل جهة بقوله تعالى : ﴿ سجداً ﴾ ، أي : يفعلون ذلك لما يعلمون من خيفته بما أوتوا من العلم السالف وما في قلوبهم من الإذعان والخشية للرحمن .

﴿ ويقولون ﴾ ، أي : على وجه التجديد المستمرّ ﴿ سبحان ربنا ﴾ تنزيهاً له عن خلف الوعد ﴿ إن ﴾ ، أي : انه ﴿ كان ﴾ ، أي : كوناً لا ينفك ﴿ وعد ربنا ﴾ ، أي : المحسن إلينا بالإيمان وما تبعه من وجوه العرفان ﴿ لمفعولاً ﴾ ، أي : دون خلف ولا بدّ أن يأتي جميع ما وعد به في الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال الفرقان عليه ومن الثواب والعقاب وهو تعريض بقريش حيث كانوا يستهزؤون بالوعيد في قولهم أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ونحوه مما في معناه الطعن في قدرة الله تعالى القادر على كل شيء وقوله تعالى :

﴿ ويخرّون للأذقان يبكون ﴾ كرّره لاختلاف الحال والسبب فإنّ الأول للشك عند إنجاز الوعد والثاني لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله

﴿ ويزيدهم ﴾ ، أي : سماع القرآن خشوعاً ، أي : خضوعاً وتواضعاً ولين قلب ورطوبة عين . ولما طالت الكلمات في المناظرة مع المشركين ومنكري النبوّات والجواب عن شبهاتهم أتبعها ببيان كيف يدعون الله ويطيعونه وكيف يذكرونه في وقت الاشتغال بأداء العبودية فقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ قل ﴾ لهم ﴿ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ذات ليلة وهو ساجد يا الله يا رحمن فسمعها ابو جهل وهم لا يعرفون الرحمن . فقال : إنّ محمداً ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر مع الله تعالى يقال له الرحمن ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، أي : إن شئتم قولوا يا الله وإن شئتم قولوا يا رحمن" . وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر بالدعاء يقول : يا الله يا رحمن فسمعه أهل مكة فأقبلوا عليه فأنزل الله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ الآية" . وعن ابن عباس أنّ ذكر الرحمن كان في القرآن قليلاً في أوّل ما أنزل وكان الذين قد أسلموا من اليهود يسوءهم قلة ذلك لكثرته في التوراة كابن سلام وابن يامين وابن صوريا وغيرهم ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فنزل قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ ، فقال قريش : ما بال محمد كان يدعو إلهاً واحداً وهو الآن يدعو إلهين ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة فنزل ﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ (الأنبياء ،) ، ونزل أيضاً قوله تعالى : ﴿ قالوا وما الرحمن ﴾ (الرحمن ،) ، وفرح مؤمنو أهل الكتاب وهو قوله تعالى : ﴿ الذين

آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب ﴾ ، أي : مشركي قريش ﴿ من ينكر بعضه ﴾ (الرعد ،)

(299/465)

. وعن ابن عباس "سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى : ﴿ قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن ﴾ إلى آخر الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أمان من السرقة ، فإنّ رجلاً من المهاجرين تلاها حين أخذ مضجعه فدخل عليه سارق فجمع ما في البيت وحمله والرجل ليس بنائم حتى انتهى إلى الباب فوجد الباب مردوداً فوضع الكارة ففعل ذلك ثلاث مرّات فضحك صاحب الدار فقال : إني أحصن بيتي" . فإن قيل : إذا قال الرجل ادع زيداً أو عمراً فهم منه كون زيد مغايراً لعمرو فيوهم كون الله تعالى غير الرحمن وحينئذ تقوى شبهة أبي جهل لعنه الله تعالى ؟

أجيب : بأنّ الدعاء هنا بمعنى التسمية لا بمعنى النداء والتسمية تتعدّى إلى مفعولين يقال دعوته زيداً ثم يترك أحدهما استغناء عنه فيقال دعوت زيداً والله والرحمن المراد بهما الاسم لا المسمى و أو للتخيير فمعنى الآية ادعوا باسم الله أو ادعوا باسم الرحمن ، أي : اذكروه بهذا الاسم أو اذكروه بذلك الاسم فقوله ادعوا الله ينبه على ملزم في كرمه بحكم

الوعد من إفاضة الرحمة والكرم ، وأيضاً تخصيص هذين الاسمين بالذكر يدل على على أنهما أشرف من سائر الأسماء وتقديم اسم الله على اسم الرحمن يدل على أنّ قولنا الله أعظم الأسماء وتقدّم الكلام على ذلك في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم والتنوين في قوله تعالى : ﴿ أياً مّا تدعوا ﴾ عوض عن المضاف إليه وما صلة للأبهام المؤكد والمعنى أياً تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله تعالى : ﴿ فله الأسماء الحسنى ﴾ لأنه إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان لأنهما منها ومعنى كونها أحسن الأسماء أنها مستقلة بمعاني التمجيد والتقديس والتعظيم وقد قدّمنا ذكر الأسماء الحسنى في الأعراف عند قوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ (الأعراف ،)

وبعض الأحاديث الواردة في فضلها فليراجع ، ووقف حمزة والكسائيّ على الألف بعد الياء ووقف الباقون على الألف بعد الميم ، واختلف في تفسير ونزول قوله تعالى : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ فروى ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم كان يرفع صوته بالقراءة فإذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من جاء به فأوحى الله تعالى إليه ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ فيسمعه المشركون فيسبوا الله تعالى عدواً بغير علم ﴿ ولا تخافت بها ﴾ فلا

تسمع أصحابك ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ وروي "أنه صلى الله عليه وسلم طاف بالليل على دور الصحابة فكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه يخفي صوته بالقراءة في صلاته وكان عمر يرفع صوته ، فلما جاء النهار وجاء أبو بكر وعمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : لم تخفي صوتك فقال : أناجي ربي وقد علم حاجتي ، وقال لعمر : لم ترفع صوتك ؟ فقال : أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع صوته قليلاً وعمر أن يخفض صوته قليلاً" . وقيل معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلاً ، بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار ، وقيل إنّ المراد بالصلاة الدعاء ، وهذا قول عائشة رضي الله تعالى عنها وأبي هريرة ومجاهد ، قالت عائشة : هي الدعاء . وروي هذا مرفوعاً أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية : "إنما ذلك في الدعاء والمسألة" . قال عبد الله بن شدّاد كان أعراب من بني تميم إذا سلم النبيّ صلى الله عليه وسلم قالوا : اللهمّ ارزقنا مالاً وولداً يجهرون فأنزل الله تعالى هذه ، والمخافتة خفض الصوت والسكون يقال : صوت خفيت ، أي : خفيض ، ويقال للرجل إذا مات قد خفت ، أي : انقطع كلامه وخفت الزرع إذا ذبل والمستحب من ذلك التوسط وهو أن يسمع نفسه كما روي عن ابن مسعود أنه قال : من لم يخافت لم يسمع أذنيه وقد مدح الله تعالى المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان

بين ذلك

قواماً ﴾ (الفرقان،)

وأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال عز من قائل : ﴿ ولا تجعل يدك

مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ (الإسراء،)

وبعضهم قال الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرّعا ً وخفية ﴾ (الأعراف،)

. قال الرازي : وهو بعيد . ولما أمر الله تعالى أنه لا يذكر ولا ينادى إلا بأسمائه الحسنى علم

كيفية التحميد بقوله تعالى:

﴿ وقل الحمد لله ﴾ ، أي : الملك الأعظم ثم ذكر سبحانه وتعالى من صفات التنزيه

والجلال وهي السلوب ثلاثة أنواع الأوّل قوله تعالى : ﴿ الذي لم يتخذ ﴾ ، أي : لكونه محيطاً

بالصفات الحسنى ﴿ ولداً ﴾ والسبب فيه وجوه الأوّل أنّ الولد هو الشيء المتولد من

جزء من أجزاء ذلك الشيء فكل من له ولد فهو مركب من الأجزاء والمركب محدث

والمحدث محتاج والمحتاج لا يقدر على كمال الإنعام فلا يستحق كمال الحمد . الثاني : أنّ كل

من له ولد فإنه يمسك جميع النعم لولده فإذا لم يكن له ولد أفاض تلك النعم على عبيده .

الثالث : أنّ الولد هو الذي يقوم مقام الوالد بعد انقضائه وفنائه فلو كان له ولد لكان منقضياً

ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الإنعام في كل الأوقات ، فوجب أن لا يستحق الحمد على

الإطلاق . النوع الثاني : من الصفات السلبية قوله تعالى : ﴿ ولم يكن له ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ شريك في الملك ﴾ والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك لم يعرف حينئذ أنّ هذه النعم والمنافع حصلت منه أو من شريكه فلا يعرف كونه مستحقاً للحمد والشكر . النوع الثالث قوله تعالى : ﴿ ولم يكن له وليّ من الذل ﴾ ، أي : ولم يواله من أجل مذلة به يدفعها بموالاته والسبب في اعتباره أنه لو جاز عليه وليّ يلي أمره كان مستوجباً لأعظم أنواع الحمد ومستحقاً لأقسام الشكر فنفي عنه أن يكون له ما يشاركه من جنسه ومن غير جنسه اختياراً أو اضطراراً أو ما يعاونه ويقويه ورتب الحمد عليه للدلالة على أنه الذي يستحق جنس الحمد لأنه كامل الذات المنفرد

(302/465)

بالإيجاد

المنعم على الإطلاق وما عداه ناقص مملوك نعمة أو منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله تعالى : ﴿ وكبره تكبيراً ﴾ ، أي : وعظمه تعظيماً على نفي اتخاذ الولد والشريك والذل وكل ما لا يليق به وترتيب الحمد على ذلك للدلالة على أنه المستحق لجميع المحامد لكمال ذاته وتفرّده في صفاته .

روى الإمام أحمد في مسنده عن معاذ الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : "آية العز ﴿ الحمد لله الذين لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ﴾ إلى آخر السورة" . وعن ابن عباس أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أوّل من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدونه في السراء والضراء" . وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده" . وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنّ أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا إله إلا الله" . وعن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أحب الكلام إلى الله تعالى أربع لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بأيهنّ بدأت" . أخرجه مسلم . وروي أنّ قول العبد الله أكبر خير له من الدنيا وما فيها . وعن عمرو بن شعيب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه وقل الحمد لله الآية ، يقال أفصح الصبيّ في منطقه فهم ما يقول . وعن عبد الله بن كعب قال : افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام وختمت بخاتمة هذه السورة . وأمّا ما رواه البيضاويّ تبعاً للزمخشريّ وتبعهما ابن عادل أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة بني إسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في الجنة والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية" فحديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 479 . 495 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) ﴾

هذا الدرس الأخير في سورة الإسراء يقوم على المحور الرئيسي للسورة . شخص الرسول صلى الله عليه وسلم وموقف القوم منه . والقرآن الذي جاء به وخصائص هذا القرآن .

وهو يبدأ بالإشارة إلى محاولات المشركين مع الرسول ليفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه ، وما هموا به من إخراجه من مكة وعصمة الله له من فتنتهم ومن استفزازهم ، لما سبق في علمه تعالى من إمهالهم وعدم أخذهم بعذاب الإبادة كالأمم قبلهم . ولو اخرجوا الرسول لحاق بهم الهلاك وفق سنة الله التي لا تتبدل مع الذين يخرجون رسلهم من الأقوام .

ومن ثم يؤمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يمضي في طريقه يصلي لربه ويقرأ قرآنه ويدعو الله أن يدخله مدخل صدق ويخرجه مخرج صدق ويجعل له سلطاناً نصيراً ، ويعلن مجيء وزهوق الباطل . فهذا الاتصال بالله هو سلاحه الذي يعصمه من الفتنة ويكفل له النصر والسلطان .

ثم بيان لوظيفة القرآن فهو شفاء ورحمة لمن يؤمنون به ، وهو عذاب ونقمة على من يكذبون ، فهم في عذاب منه في الدنيا ويلقون العذاب بسببه في الآخرة .

وبمناسبة الرحمة والعذاب يذكر السياق شيئاً من صفة الإنسان في حالتي الرحمة والعذاب . فهو في النعمة متبطر معرض ، وهو في النقمة يؤوس قنوط . ويعقب على هذا بتهديد خفي بترك كل إنسان يعمل وفق طبيعته حتى يلقى في الآخرة جزاءه .

كذلك يقرر أن علم الإنسان قليل ضئيل . وذلك بمناسبة سؤالهم عن الروح . والروح غيب من غيب الله ، ليس في مقدور البشر إدراكه . . والعلم المستيقن هو ما أنزله الله على رسوله . وهو من فضله عليه ولو شاء الله لذهب بهذا الفضل دون معقب ، ولكنها رحمة الله وفضله على رسوله .

ثم يذكر أن هذا القرآن المعجز الذي لا يستطيع الإنسان والجن أن يأتوا بمثله ولو اجتمعوا وتظاهروا ، والذي صرف الله فيه دلائل الهدى ونوعها لتخاطب كل عقل وكل قلب . . هذا القرآن لم يغن كفار قريش ، فراحوا يطلبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم خوارق مادية ساذجة كتفجير الينابيع في الأرض ، أو أن يكون له بيت من زخرف ؛ كما تعنتوا

فطلبوا ما ليس من خصائص البشر كأن يرقى الرسول في السماء أمامهم ويأتي إليهم بكتاب مادي يقرأونه، أو يرسل عليهم قطعاً من السماء تهلكهم. وزادوا عنتاً وكفراً فطلبوا أن يأتيهم بالله والملائكة قبيلاً!

وهنا يعرض السياق مشهداً من مشاهد القيامة يصور فيه عاقبتهم التي تنتظرهم جزاء هذا العنت، وجزاء تكذيبهم بالآخرة، واستنكارهم البعث وقد صاروا عظاماً ورفاتاً.

ويسخر من اقتراحاتهم المتعنتة، وهم لو كانوا خزنة رحمة الله، لأدركهم الشح البشري فأمسكوا خشية نفاد الخزائن التي لا تنفد! وهم مع ذلك لا يقفون عند حد فيما يطلبون ويقترحون!

وبمناسبة طلبهم الخوارق يذكرهم بالخوارق التي جاء بها موسى فكذب بها فرعون وقومه فأهلكهم الله حسب سنته في إهلاك المكذبين.

فأما هذا القرآن فهو المعجزة الباقية الحقة. وقد جاء متفرقاً حسب حاجة الأمة التي جاء لتربيتها وإعدادها. والذين أوتوا العلم من قبله من مؤمني الأمم السابقة يدركون ما فيه من حق ويذعنون له ويخشعون، ويؤمنون به ويسلمون.

وتنتهي السورة بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عبادة الله وحده، وإلى تسبيحه وحمده، كما بدأت بالتسبيح والتنزيه..

﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره . وإذاً لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا . إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيرا . وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ، وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾ . .

يعدد السياق محاولات المشركين مع الرسول صلى الله عليه وسلم وأولها محاولة فتنته عما أوحى الله إليه ، ليفتري عليه غيره ، وهو الصادق الأمين .

لقد حاولوا هذه المحاولة في صور شتى . . منها مساومتهم له أن يعبدوا إلهه في مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم . ومنها مساومة بعضهم له أن يجعل أرضهم حراماً كالبيت العتيق الذي حرمه الله . ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء . . .

والنص يشير إلى هذه المحاولات ولا يفصلها ، ليذكر فضل الله على الرسول في تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة ، ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن إليهم فاتخذوا خليلاً .

وللقي عاقبة الركون إلى فتنة المشركين ، وهي مضاعفة العذاب في الحياة والممات ، دون أن يجد له نصيراً منهم يعصمه من الله .

هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله ، هي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائماً . محاولة إغرائهم لينحرفوا ولو قليلاً عن استقامة الدعوة وصلابتها . ويرضوا بالحلول الوسط التي يغرونهم بها في مقابل مغانم كثيرة . ومن حملة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هيناً ، فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلية ، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق . وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة ، فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها !

ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق .

وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها ولو يسير ، وفي إغفال طرف منها ولو ضئيل ، لا يملك أن يقف عند ما سلم به أول مرة .

لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء !

والمسألة مسألة إيمان بالدعوة كلها . فالذي ينزل عن جزء منها مهما صغر ، والذي يسكت عن طرف منها مهما ضؤل ، لا يمكن أن يكون مؤمناً بدعوته حق الإيمان . فكل جانب من جوانب الدعوة في نظر المؤمن هو حق كالآخر . وليس فيها فاضل ومفضول . وليس فيها ضروري ونافلة . وليس فيها ما يمكن الاستغناء عنه ، وهي كلٌّ متكامل يفقد خصائصه كلها حين يفقد أحد أجزائه . كالمركب يفقد خواصه كلها إذا فقد أحد عناصره !

وأصحاب السلطان يستدرجون أصحاب الدعوات . فإذا سلموا في الجزء فقدوا هيبتهم وحصانتهم ، وعرف المتسلطون ان استمرار المساومة ، وارتفاع السعر ينتهيان إلى تسليم الصفقة كلها !

والتسليم في جانب ولو ضئيل من جوانب الدعوة لكسب أصحاب السلطان إلى صفها ؛ هو هزيمة روحية بالاعتماد على أصحاب السلطان في نصرة الدعوة . والله وحده هو الذي يعتمد عيه المؤمنون بدعوتهم . ومتى دبت الهزيمة في أعماق السريرة ، فلن تنقلب الهزيمة نصراً !

لذلك امتن الله على رسوله صلى الله عليه وسلم أن ثبته على ما أوحى الله ، وعصمه من فتنة المشركين له ، ووقاه الركون إليهم ولو قليلاً ورحمه من عاقبة هذا الركون ، وهي عذاب الدنيا والآخرة مضاعفاً ، وفقدان المعين والنصير .

وعندما عجز المشركون عن استدارج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الفتنة حاولوا استفزازه من الأرض أي مكة ولكن الله أوحى إليه أن يخرج هو مهاجراً ، لما سبق في علمه من عدم إهلاك قريش بالإبادة. ولو أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم عنوة وقسراً لحل بهم الهلاك ﴿ وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً ﴾ فهذه هي سنة الله النافذة: ﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾ .

ولقد جعل الله هذه سنة جارية لا تتحول ، لأن إخراج الرسل كبيرة تستحق التأديب الحاسم. وهذا الكون تصرفه سنن مطردة ، لا تتحول أمام اعتبار فردي. وليست المصادفات العابرة هي السائدة في هذا الكون ، إنما هي السنن المطردة الثابتة. فلما لم يرد الله أن يأخذ قريشاً بعذاب الإبادة كما أخذ المكذبين من قبل ، لحكمة علوية ، لم يرسل الرسول بالخوارق ، ولم يقدر أن يخرجوه عنوة ، بل أوحى إليه بالهجرة. ومضت سنة الله في طريقها لا تتحول..

بعد ذلك يوجه الله رسوله صلى الله عليه وسلم إلى الاتصال به ، واستمداد العون منه ، والمضي في طريقه ، يعلن انتصار الحق وزهوق الباطل :

﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ، وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهودا ؛ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا ، وقل ربِّ أدخلني

مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيرا .

وقل : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا . وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ . .

(308/465)

ودلوك الشمس هو ميلها إلى المغيب . والأمر هنا للرسول صلى الله عليه وسلم خاصة . أما الصلاة المكتوبة فلها أوقاتها التي تواترت بها أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وتواترت بها سنته العملية . وقد فسر بعضهم دلوك الشمس بزوالها عن كبد السماء ، والغسق بأول الليل ، وفسر قرآن الفجر بصلاة الفجر ، وأخذ من هذا أوقات الصلاة المكتوبة وهي الظهر والعصر والمغرب والعشاء من دلوك الشمس إلى الغسق ثم الفجر . وجعل التهجد وحده هو الذي اختص رسول الله بأن يكون مأموراً به ، وأنه نافلة له . ونحن نميل إلى الرأي الأول . وهو أن كل ما ورد في هذه الآيات مختص بالرسول صلى الله عليه وسلم وأن أوقات الصلاة المكتوبة ثابته بالسنة القولية والعملية .

﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ﴾ . . أقم الصلاة ما بين ميل الشمس للغروب وإقبال الليل وظلامه ؛ واقرأ قرآن الفجر ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ . .

ولهذين الآنين خاصيتهما وهما إدبار النهار وإقبال الليل . وإدبار الليل وإقبال النهار . ولهما وقعهما العميق في النفس ، فإن مقدم الليل وزحف الظلام ، كمطلع النور وانكشاف الظلمة . . كلاهما يخشع فيه القلب ، وكلاهما مجال للتأمل والتفكر في نواميس الكون التي لا تفتر لحظة ولا تختل مرة . وللقرآن كما للصلاة إيقاعه في الحس في مطلع الفجر ونداوته ، ونسماته الرخية ، وهدوئه السارب ، وتفتحه بالنور ، ونبضه بالحركة ، وتنفسه بالحياة .

﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ . . والتهجد الصلاة بعد نومة أول الليل . والضمير في ﴿ به ﴾ عائد على القرآن ، لأنه روح الصلاة وقوامها .

(309/465)

﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ . . بهذه الصلاة وبهذا القرآن والتهجد به ، وبهذه الصلة الدائمة بالله . فهذا هو الطريق المؤدي إلى المقام المحمود وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤمر بالصلاة والتهجد والقرآن ليبعثه ربه المقام المحمود المأذون له به ، وهو المصطفى المختار ، فما أحوج الآخرين إلى هذه الوسائل لينالوا المقام المأذون لهم به في درجاتهم . فهذا هو الطريق . وهذا هو زاد الطريق .

﴿ وقل : رب أدخلني مدخل صدق . وأخرجني مخرج صدق ، واجعل لي من لدنك

سلطاناً نصيرا ﴾ .

وهو دعاء يعلمه الله لنبيه ليدعوه به . ولتتعلم أمته كيف تدعو الله وفيم تتجه إليه . دعاء بصدق المدخل وصدق المخرج ، كناية عن صدق الرحلة كلها . بدئها وختامها . أولها وآخرها وما بين الأول والآخر . وللصدق هنا قيمته بمناسبة ما حاوله المشركون من فتنته عما أنزل الله عليه ليفتري على الله غيره .

وللصدق كذلك ظلاله : ظلال الثبات والاطمئنان والنظافة والإخلاص . ﴿ واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيرا ﴾ قوة وهيبة استعلي بهما على سلطان الأرض وقوة المشركين وكلمة ﴿ من لدنك ﴾ تصور القرب والاتصال بالله والاستمداد من عونه مباشرة واللجوء إلى حماه .

وصاحب الدعوة لا يمكن أن يستمد السلطان إلا من الله . ولا يمكن أن يهاب إلا بسلطان الله . لا يمكن أن يستظل بحاكم أو ذي جاه فينصره ويمنعه ما لم يكن اتجاهه قبل ذلك إلى الله . والدعوة قد تغزو قلوب ذوي السلطان والجاه ، فيصبحون لها جنداً وخدماً فيفلحون ، ولكنها هي لا تفلح إن كانت من جند السلطان وخدمه ، فهي من أمر الله ، وهي أعلى من ذوي السلطان والجاه .

﴿ وقل : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ . .

بهذا السلطان المستمد من الله ، أعلن مجيء الحق بقوته وصدقه وثباته ، وزهوق الباطل

واندحاره وجلاءه. فمن طبيعة الصدق أن يحيا ويثبت، ومن طبيعة الباطل أن يتوارى ويزهق..

(310/465)

﴿ إن الباطل كان زهوقا ﴾ .. حقيقة لدنية يقررها بصيغة التوكيد. وإن بدا للنظرة الأولى أن للباطل صولة ودولة. فالباطل ينتفخ ويتنفج وينفش، لأنه باطل لا يطمئن إلى حقيقة؛ ومن ثم يحاول أن يموه على العين، وأن يبدو عظيماً كبيراً ضخماً راسخاً، ولكنه هش سريع العطب، كشعلة الهشيم ترتفع في الفضاء عالياً ثم تخبو سريعاً وتستحيل إلى رماد؛ بينما الجمرة الذاكية تدفئ وتنفع وتبقى؛ وكالزبد يطغو على الماء ولكنه يذهب جفاء ويبقى الماء.

﴿ إن الباطل كان زهوقا ﴾ .. لأنه لا يحمل عناصر البقاء في ذاته، إنما يستمد حياته الموقوته من عوامل خارجية وأسناد غير طبيعية؛ فإذا تخلخلت تلك العوامل، ووهت هذه الأسناد تهاوى وانهار. فأما الحق فمن ذاته يستمد عناصر وجوده. وقد تقف ضده الأهواء وتقف ضده الظروف ويقف ضده السلطان.. ولكن ثباته واطمئنانه يجعل له العقبى ويكفل له البقاء، لأنه من عند الله الذي جعل ﴿ الحق ﴾ من أسمائه وهو الحي

الباقي الذي لا يزول.

﴿ إن الباطل كان زهوقاً ﴾ . . ومن ورائه الشيطان، ومن ورائه السلطان. ولكن وعد الله أصدق، وسلطان الله أقوى. وما من مؤمن ذاق طعم الإيمان، إلا وذاق معه حلاوة الوعد، وصدق العهد. ومن أوفى بعهده من الله؟ ومن أصدق من الله حديثاً؟

﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ . .

وفي القرآن شفاء، وفي القرآن رحمة، لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان، فأشرقت وتفتحت لتلقي ما في القرآن من روْح، وطمأنينة وأمان.

في القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة. فهو يصل القلب بالله، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن؛ ويرضى فيستروح الرضى من الله والرضى عن الحياة؛ والقلق مرض، والحيرة نصب، والوسوسة داء.

ومن ثم هو رحمة للمؤمنين.

وفي القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان. . وهي من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب، وتدفع به إلى التحطم والبلى والانهيار. ومن ثم

هو رحمة للمؤمنين .

وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلة في الشعور والتفكير . فهو يعصم العقل من الشطط ، ويطلق له الحرية في مجالاته المثمرة ، ويكفه عن إنفاق طاقته فيما لا يجدي ، ويأخذه بمنهج سليم مضبوط ، يجعل نشاطه منتجاً ومأموناً . ويعصمه من الشطط والزلل . كذلك هو في عالم الجسد ينفق طاقاته في اعتدال بلا كبت ولا شطط فيحفظه سليماً معافى ويدخر طاقاته للإنتاج المثمر . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

وفي القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء الجماعات ، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها . فتعيش الجماعة في ظل نظامه الاجتماعي وعدالته الشاملة في سلامة وأمن وطمأنينة . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ . .

فهم لا ينتفعون بما فيه من شفاء ورحمة . وهم في غيظ وقهر من استعلاء المؤمنين به ، وهم في عنادهم وكبريائهم يشتطون في الظلم والفساد ، وهم في الدنيا مغلوبون من أهل هذا القرآن ، فهم خاسرون . وفي الآخرة معذبون بكفرهم به ولجاجهم في الطغيان ، فهم خاسرون : ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ . .

فأما حين يترك الإنسان بلا شفاء ولا رحمة . حين يترك لنزعاته واندفاعاته فهو في حال النعمة متبطر معرض لا يشكر ولا يذكر ، وهو في حال الشدة يائس من رحمة الله ، تظلم في

وجهه فجاج الحياة :

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يؤوسا ﴾ . .

والنعمة تطغى وتبطر ما لم يذكر الإنسان واهبها فيحمد ويشكر ، والشدة تيئس وتقنط ما لم يتصل الإنسان بالله ، فيرجو ويأمل ، ويطمئن إلى رحمة الله وفضله ، فيتفاءل ويستبشر .

ومن هنا تتجلى قيمة الإيمان وما فيه من رحمة في السراء والضراء سواء .

ثم يقرر السياق أن كل فرد وكل فريق يعمل وفق طريقته واتجاهه ؛ والحكم على الاتجاهات والأعمال موكول لله :

﴿ قل : كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ . .

وفي هذا التقرير تهديد خفي ، بعاقبة العمل والاتجاه ، ليأخذ كل حذره ، ويحاول أن يسلك سبيل الهدى ويجد طريقه إلى الله .

وراح بعضهم يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الروح ما هو ؟ والمنهج الذي سار عليه القرآن وهو المنهج الأقوام أن يجيب الناس عما هم في حاجة إليه ، وما يستطيع إدراكهم البشري بلوغه ومعرفته ؛ فلا يبدد الطاقة العقلية التي وهبها الله لهم فيما لا ينتج ولا

يثمر ، وفي غير مجالها الذي تملك وسائله وتحيط به . فلما سألوه عن الروح أمره الله أن يجيبهم بأن الروح من أمر الله ، اختص بعلمه دون سواه :

﴿ ويسألونك عن الروح.

قل : الروح من أمر ربي . وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ . .

وليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل . ولكن فيه توجيهاً لهذا العقل أن يعمل في حدوده وفي مجاله الذي يدركه . فلا جدوى من الخبط في التيه ، ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه لأنه لا يملك وسائل إدراكه . والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه ، وسر من أسراره القدسية أودعه هذا المخلوق البشري وبعض الخلائق التي لا نعلم حقيقتها . وعلم الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق ، وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشري المحدود . والإنسان لا يدبر هذا الكون فطاقاته ليست شاملة ، إنما وهب منها بقدر محيطة وبقدر حاجته ليقوم بالخلافة في الأرض ، ويحقق فيها ما شاء الله أن يحققه ، في حدود علمه القليل .

ولقد أبدع الإنسان في هذه الأرض ما أبدع ؛ ولكنه وقف حسيراً أمام ذلك السر اللطيف الروح لا يدري ما هو ، ولا كيف جاء ، ولا كيف يذهب ، ولا أين كان ولا أين يكون ، إلا ما يخبر به العليم الخبير في التنزيل .

وما جاء في التنزيل هو العلم المستيقن ، لأنه من العليم الخبير . ولو شاء الله لحرم البشرية منه ، وذهب بما أوحى إلى رسوله ؛ ولكنها رحمة الله وفضله .

﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ، ثم لا تجد لك به علينا وكيلا . إلا رحمة من ربك ، إن فضله ، كان عليك كبيرا ﴾ . .

والله يمتن على رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا الفضل . فضل إنزال الوحي ، واستبقاء ما أوحى به إليه ؛ المنة على الناس أكبر ، فهم بهذا القرآن في رحمة وهداية ونعمة ، أجيالاً بعد أجيال .

وكما أن الروح من الأسرار التي اختص الله بها فالقرآن من صنع الله الذي لا يملك الخلق محاكاته ، ولا يملك الإنس والجن وهما يمثلان الخلق الظاهر والخفي ان يأتوا بمثله ، ولو تظاهروا وتعانوا في هذه المحاولة :

﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ . .

فهذا القرآن ليس ألفاظاً وعبارات يحاول الإنس والجن أن يحاكوها . إنما هو كسائر ما يبدعه الله يعجز المخلوقون أن يصنعوه . هو كالروح من أمر الله لا يدرك الخلق سره الشامل الكامل ، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وآثاره .

والقرآن بعد ذلك منهج حياة كامل . منهج ملحوظ فيه نواميس الفطرة التي تصرف النفس البشرية في كل أطوارها وأحوالها ، والتي تصرف الجماعات الإنسانية في كل ظروفها وأطوارها . ومن ثم فهو يعالج النفس المفردة ، ويعالج الجماعة المتشابكة ، بالقوانين الملائمة للفطرة المتغلغلة في وشائجها ودروبها ومنحنياتها الكثيرة .

يعالجها علاجاً متكاملاً متناسق الخطوات في كل جانب ، في الوقت الواحد ، فلا يغيب عن حسابه احتمال من الاحتمالات الكثيرة ولا ملابسة من الملابسات المتعارضة في حياة الفرد وحياة الجماعة . لأن مشرع هذه القوانين هو العليم بالفطرة في كل أحوالها وملابساتها المتشابكة .

أما النظم البشرية فهي متأثرة بقصور الإنسان وملابسات حياته . ومن ثم فهي تقصر عن الإحاطة بجميع الاحتمالات في الوقت الواحد ؛ وقد تعالج ظاهرة فردية أو اجتماعية بدواء يؤدي بدوره إلى بروز ظاهرة أخرى تحتاج إلى علاج جديد !

إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه ، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله هو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه يحيط بما يحيط به .

﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ؛ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ؛ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ؛ أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ؛ أو يكون لك بيت من زخرف ؛ أو ترقى في السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . . . ﴾ .

وهكذا قصر إدراكهم عن التطلع إلى آفاق الإعجاز القرآنية ، فراحوا يطلبون تلك الخوارق المادية ، ويتعنتون في اقتراحاتهم الدالة على الطفولة العقلية ، أو يتبجحون في حق الذات الإلهية بلا أدب ولا تحرج . . لم ينفعهم تصريف القرآن للأمثال والتنويع فيها لعرض حقائقه في أساليب شتى تناسب شتى العقول والمشاعر ، وشتى الأجيال والأطوار . ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ وعلقوا إيمانهم بالرسول صلى الله عليه وسلم بأن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً ! أو بأن تكون له جنة من نخيل وعنب يفجر الأنهار خلالها تفجيراً ! أو أن يأخذهم بعذاب من السماء ، فيسقطها عليهم قطعاً كما أنذرهم أن يكون ذلك يوم القيامة ! أو أن يأتي بالله والملائكة قبيلاً يناصره ويدفع عنه كما يفعلون هم في قبائلهم ! أو أن يكون له بيت من المعادن الثمينة . أو أن يرقى في السماء . ولا يكفي أن يعرج إليها وهم ينظرونه ، بل لا بد أن يعود إليهم ومعه كتاب محبر يقرأونه !

وتبدو طفولة الإدراك والتصور، كما يبدو التعنت في هذه المقترحات الساذجة. وهم يسوون بين البيت المزخرف والعروج إلى السماء! أو بين تفجير الينبوع من الأرض ومجيء الله سبحانه والملائكة قبيلاً! والذي يجمع في تصورهم بين هذه المقترحات كلها هو أنها خوارق. فإذا جاءهم بها نظروا في الإيمان له والتصديق به!

وغفلوا عن الخارقة الباقية في القرآن، وهم يعجزون عن الإتيان بمثله في نظمه ومعناه ومنهجه، ولكنهم لا يلمسون هذا الإعجاز بحواسهم فيطلبون ما تدركه الحواس!

والخارقة ليست من صنع الرسول، ولا هي من شأنه، إنما هي من أمر الله سبحانه وفق تقديره وحكمته.

وليس من شأن الرسول أن يطلبها إذا لم يعطه الله إياها. فأدب الرسالة وإدراك حكمة الله في تدبيره يمنعان الرسول أن يقترح على ربه ما لم يصرح له به.. ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا﴾ يقف عند حدود بشريته، ويعمل وفق تكاليف رسالته، لا يقترح على الله ولا يتزيد فيما كلفه إياه.

ولقد كانت الشبهة التي عرضت للأقوام من قبل أن يأتيهم محمد صلى الله عليه وسلم ومن بعد ما جاءهم، والتي صدتهم عن الإيمان بالرسل وما معهم من الهدى، أنهم استبعدوا أن يكون الرسول بشراً؛ ولا يكون ملكاً:

﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشرا رسولا ؟ ﴾ .

وقد نشأ هذا الوهم من عدم إدراك الناس لقيمة بشريتهم وكرامتها على الله ، فاستكثروا على بشر أن يكون رسولاً من عند الله . كذلك نشأ هذا الوهم من عدم إدراكهم لطبيعة الكون وطبيعة الملائكة ، وأنهم ليسوا مهيئين للاستقرار في الأرض وهم في صورتهم الملائكية حتى يميزهم الناس ويستيقنوا أنهم ملائكة .

﴿ قل : لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا ﴾ .

فلو قدر الله أن الملائكة تعيش في الأرض لصاغهم في صورة آدمية ، لأنها الصورة التي تتفق مع نواميس الخلق وطبيعة الأرض ، كما قال في آية أخرى : ﴿ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلاً ﴾ والله قادر على كل شيء ، ولكنه خلق نواميس وبرأ مخلوقاته وفق هذه النواميس بقدرته واختياره ، وقدر أن تمضي النواميس في طريقها لا تتبدل ولا تتحول ، لتحقق حكمته في الخلق والتكوين غير أن القوم لا يدركون !

وما دامت هذه سنة الله في خلقه ، فهو يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينهي معهم

الجدل ، وأن يكل أمره وأمرهم إلى الله يشهده عليهم ، ويدع له التصرف في أمرهم ، وهو الخبير البصير بالعباد جميعاً :

﴿ قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، إنه كان بعباده خبيراً بصيرا ﴾ . .

وهو قول يحمل رائحة التهديد . أما عاقبته فيرسمها في مشهد من مشاهد القيامة مخيف :

﴿ ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصما ، مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا . ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا ، وقالوا : أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديدا ؟ أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ؟ وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ، فأبى الظالمون إلا كفورا ﴾ . .

ولقد جعل الله للهدى وللضلال سنناً ، وترك الناس لهذه السنن يسيرون وفقها ، ويتعرضون لعواقبها .

ومن هذه السنن أن الإنسان مهيأ للهدى والظلال ، وفق ما يحاوله لنفسه من السير في طريق الهدى أو طريق الضلال . فالذي يستحق هداية الله بمحاولته واتجاهه يهديه الله ؛ وهذا

هو المهتدي حقاً ، لأنه اتبع هدى الله . والذين يستحقون الضلال بالإعراض عن دلائل الهدى وآياته لا يعصمهم أحد من عذاب الله : ﴿ فلن تجد لهم أولياء من دونه ﴾ ويحشرهم يوم القيامة في صورة مهينة مزعجة : ﴿ على وجوهم ﴾ يتكفأون ﴿ عمياً وبكماً وصماً ﴾ مطموسين محرومين من جوارحهم التي تهديهم في هذا الزحام . جزاء ما عطلوا هذه الجوارح في الدنيا عن إدراك دلائل الهدى . و ﴿ مأواهم جهنم ﴾ في النهاية ، لا تبرد ولا تفتر ﴿ كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ .

وهي نهاية مفزعة وجزاء مخيف . ولكنهم يستحقونه بكفرهم بآيات الله : ﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا ﴾ واستنكروا البعث واستبعدوا وقوعه : ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟ ﴾

والسياق يعرض هذا المشهد كأنه هو الحاضر الآن ، وكأنما الدنيا التي كانوا فيها قد انطوت صفحتها وصارت ماضياً بعيداً . . وذلك على طريقة القرآن في تجسيم المشاهد وعرضها واقعة حية ، تفعل فعلها في القلوب والمشاعر قبل فوات الأوان .

ثم يعود ليجادلهم بالمنطق الواقعي الذي يرونه فيغفلونه .

﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ؟ ﴾ فأية غرابة في البعث ؛ والله خالق هذا الكون الهائل قادر على أن يخلق مثلهم ، فهو قادر إذاً على أن يعيدهم أحياء . ﴿ وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ﴾ أنظرهم إليه ، وأجلهم إلى

موعده ﴿ فأبى الظالمون إلا كفورا ﴾ فكان جزاؤهم عادلاً بعد منطق الدلالات ومنطق المشاهدات ، ووضوح الآيات .

(318/465)

على أن أولئك الذين يقترحون على الرسول صلى الله عليه وسلم تلك المقترحات المتعنتة ، من بيوت الزخرف ، وجنات النخيل والأعناب ، والينابيع المتفجرة . . بخلاء أشحاء حتى لو أن رحمة الله قد وكلت إليهم خزائنها لأمسكوا وبخلوا خوفاً من نفادها ، ورحمة الله لا تنفد ولا تغيض :

﴿ قل : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا ﴾ .

وهي صورة بالغة للشح ، فإن رحمة الله وسعت كل شيء ، ولا يخشى نفادها ولا نقصها . ولكن نفوسهم لشحيحة تمنع هذه الرحمة وتبخل بها لو أنهم كانوا هم خزنتها !

وعلى أية حال فإن كثرة الخوارق لا تنشئ الإيمان في القلوب الجاحدة . وها هو ذا موسى قد أوتي تسع آيات بينات ثم كذب بها فرعون وملؤه ، فحل بهم الهلاك جميعاً .

﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون :

إني لأظنك يا موسى مسحورا . قال : لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر ، وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً .

فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا . وقلنا من بعده لبني إسرائيل : اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴾ . . .

وهذا المثل من قصة موسى وبني إسرائيل يذكر لتناسقه مع سياق السورة وذكر المسجد الأقصى في أولها وطرف من قصة بني إسرائيل وموسى . وكذلك يعقب عليه بذكر الآخرة والمجيء بفرعون وقومه لمناسبة مشهد القيامة القريب في سياق السورة ومصير المكذبين بالبعث الذي صوره هذا المشهد .

والآيات التسع المشار إليها هنا هي اليد البيضاء والعصا وما أخذ الله به فرعون وقومه من السنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . . ﴿ فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم ﴾ فهم شهداء على ما كان بين موسى وفرعون :

(319/465)

﴿ فقال له فرعون : إني لأظنك يا موسى مسحورا ﴾ . . فكلمة الحق وتوحيد الله والدعوة إلى ترك الظلم والطغيان والإيذاء لا تصدر في عرف الطاغية إلا من مسحور لا

يدري ما يقول! فما يستطيع الطغاة من أمثال فرعون أن يتصوروا هذه المعاني؛ ولا أن يرفع أحد رأسه ليتحدث عنها وهو يملك قواه العقلية!

فأما موسى فهو قوي بالحق الذي أرسل به مشرقاً منيراً؛ مطمئن إلى نصرة الله له وأخذه للطغاة:

﴿ قال: لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض. بصائر. وإني لأظنك يا فرعون مثبورا ﴾ هالكاً مدمراً، جزاء تكذيبك بآيات الله وأنت تعلم أن لا أحد غيره يملك هذه الخوارق. وإنها لواضحة مكشوفة منيرة للبصائر، حتى لكأنها البصائر تكشف الحقائق وتجلوها.

عندئذ يلجأ الطاغية إلى قوته المادية، ويعزم أن يزيلهم من الأرض ويبيدهم، ﴿ فأراد أن يستفزهم من الأرض ﴾ فكذلك يفكر الطغاة في الرد على كلمة الحق.

وعندئذ تحق على الطاغية كلمة الله، وتجري سنته بإهلاك الظالمين وتوريث المستضعفين الصابرين: ﴿ فأغرقناه ومن معه جميعاً. وقلنا من بعده لبني إسرائيل: اسكنوا الأرض. فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴾..

وهكذا كانت عاقبة التكذيب بالآيات. وهكذا أورث الله الأرض للذين كانوا يستضعفون، موكولين فيها إلى أعمالهم وسلوكهم وقد عرفنا كيف كان مصيرهم في أول السورة أما هنا فهو يكلهم هم وأعداءهم إلى جزاء الآخرة، ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا

﴾ .

ذلك مثل من الخوارق ، وكيف استقبلها المكذبون ، وكيف جرت سنة الله مع المكذبين .

فأما هذا القرآن فقد جاء بالحق ليكون آية دائمة ، ونزل مفرقاً ليقرأ على مهل في الزمن الطويل :

﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيرا ، وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ . .

(320/465)

لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة ، ويقيم لها نظاماً ، فتحمله هذه الأمة إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وتعلم به البشرية هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل .

ومن ثم فقد جاء هذا القرآن مفرقاً وفق الحاجات الواقعية لتلك الأمة ، ووفق الملابسات التي صاحبت فترة التربية الأولى . والتربية تتم في الزمن الطويل ، وبالتجربة العملية في الزمن الطويل . جاء ليكون منهجاً عملياً يتحقق جزءاً جزءاً في مرحلة الإعداد ، لا فقهاً نظرياً ولا فكرة تجريدية تعرض للقراءة والاستمتاع الذهني !

وتلك حكمة نزوله متفرقاً ، لا كتاباً كاملاً منذ اللحظة الأولى .

ولقد تلقاه الجيل الأول من المسلمين على هذا المعنى . تلقوه توجيهاً يطبق في واقع الحياة كلما جاءهم منه أمر أو نهي ، وكلما تلقوا منه أدباً أو فريضة . ولم يأخذوه متعة عقلية أو نفسية كما كانوا يأخذون الشعر والأدب ؛ ولا تسلية وتلهية كما كانوا يأخذون القصص والأساطير فتكيفوا به في حياتهم اليومية . تكيفوا به في مشاعرهم وضمائرهم ، وفي سلوكهم ونشاطهم . وفي بيوتهم ومعاشهم . فكان منهج حياتهم الذي طرحوا كل ما عداه مما ورثوه ، ومما عرفوه ، ومما مارسوه قبل أن يأتيهم هذا القرآن .

قال ابن مسعود رضي الله عنه كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

ولقد انزل الله هذا القرآن قائماً على الحق : ﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ فنزل ليقر الحق في الأرض ويثبته : ﴿ وبالحق نزل ﴾ . . فالحق مادته والحق غايته . ومن الحق قوامه ، وبالحق اهتمامه . . الحق الأصيل الثابت في ناموس الوجود ، والذي خلق الله السماوات والأرض قائمين به ، متلبساً بهما ، والقرآن مرتبط بناموس الوجود كله ، يشير إليه ويدل عليه وهو طرف منه . فالحق سداه ولحمته ، والحق مادته وغايته . والرسول مبشر ومنذر بهذا الحق الذي جاء به .

وهنا يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ان يجبه القوم بهذا الحق ، ويدع لهم أن يختاروا طريقهم . إن شاءوا آمنوا بالقرآن وإن شاءوا لم يؤمنوا . وعليهم تبعة ما يختارون لأنفسهم . ويضع أمام أنظارهم نموذجاً من تلقي الذين أوتوا العلم من قبله من اليهود والنصارى المؤمنين لهذا القرآن ، لعل لهم فيه قدوة وأسوة وهم الأميون الذين لم يؤتوا علماً ولا كتاباً :

﴿ قل : آمنوا به أو لا تؤمنوا . إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ، ويقولون : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ؛ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ . .

وهو مشهد موح يلمس الوجدان . مشهد الذين أوتوا العلم من قبله ، وهم يسمعون القرآن ، فيخشعون ، و ﴿ يخرون للأذقان سجداً ﴾ إنهم لا يتمالكون أنفسهم ، فهم لا يسجدون ولكن ﴿ يخرون للأذقان سجداً ﴾ ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وعده : ﴿ سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ﴾ . ويغلبهم التأثر فلا تكفي الألفاظ في تصوير ما يجيش في صدورهم منه ، فإذا الدموع تنطلق معبرة عن ذلك التأثر الغامر الذي لا تصوره الألفاظ : ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ﴾ .

. ﴿ ويزيدهم خشوعاً ﴾ فوق ما استقبلوه به من خشوع .

إنه مشهد مصور لحالة شعورية غامرة ، يرسم تأثير هذا القرآن في القلوب المتفتحة لاستقبال

فيضه ؛ العارفة بطبيعته وقيمته بسبب ما أوتيت من العلم قبله . والعلم المقصود هو ما أنزله الله من الكتاب قبل القرآن ، فالعلم الحق هو ما جاء من عند الله .

هذا المشهد الموحي للذين أوتوا العلم من قبل يعرضه السياق بعد تخيير القوم في أن يؤمنوا بهذا القرآن أو لا يؤمنوا ، ثم يعقب عليه بتركهم يدعون الله بما شاءوا من الأسماء وقد كانوا بسبب أوهامهم الجاهلية ينكرون تسمية الله بالرحمن ، ويستبعدون هذا الإسم من أسماء الله فكلها اسماؤه فما شاءوا منها فليدعوه بها :

﴿ قل : ادعوا الله أو ادعوا الرحمن . أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ .

وإن هي إلا سخافات الجاهلية وأوهام الوثنية التي لا تثبت للمناقشة والتعليل .

كذلك يؤمر الرسول صلى الله عليه وسلم ان يتوسط في صلاته بين الجهر والخفوت لما كانوا يقابلون به صلاته من استهزاء وإيذاء ، أو من نفور وابتعاد ولعل الأمر كذلك لأن التوسط بين الجهر والخفاء أليق بالوقوف في حضرة الله :

﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ . .

وتختم السورة كما بدأت بحمد الله وتقرير وحدانية بلا ولد ولا شريك ، وتنزيهه عن

الحاجة إلى الولي والنصير . وهو العلي الكبير . فيلخص هذا الختام محور السورة الذي دارت عليه ، والذي بدأت ثم ختمت به :

﴿ وقل : الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك . ولم يكن له ولي من الذل . وكبره تكبيراً ﴾ . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2244 . 2254 ﴾

(323/465)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك ﴾

كانوا أرباب الحس فلم يبصروا شواهد الحق ودلائل النبوة ولم يطلبوا منه ما كان هو عليه من تزكية النفوس وتصفية القلوب وتجلية الأرواح وتفجير ينابيع الحكمة من أرض القلوب لإنبات نخيل المشاهدات وأعناب المكاشفات في جنات المواصلات . ﴿ أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ تعجبوا من كون البشر رسولاً حين ظن أن الملك أعلى حالاً من البشر ، وغفلوا عن رتبة الإنسان الكامل حيث جعل سجود الملائكة المقربين وأودع فيه سر الخلافة ﴿ مأواهم جهنم ﴾ الحرص والشهوات ، كلما سكنت نار شهوة باستيفاء حظها ﴿ زدناهم سعيراً

﴿ باشتغال طلب شهوة أخرى ﴾ تسع آيات بينات ﴿ قال الشيخ المحقق نجم الحق : والدين المعروف بداية أرادة الآيات التي تدل على نبوته فيما يتعلق بنفسه خاصة كإلقائه في اليم وإخراجه منه وتربيته في حجر العدوة وتحريم المراضع عليه ونحو ذلك : ﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ لأن الأرواح المتعلقة بالعالم السفلي احتاجت في الرجوع إلى عالم العلو إلى حبل متين هو القرآن كقوله :

(324/465)

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ﴾ ﴿ آل عمران : 103] ﴿ وبالحق نزل ﴾ التميز بين أهل السعادة والشقاوة بالاتباع وعدمه ﴿ إن الذين أوتوا العلم من ﴾ قبل نزوله في الأزل ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ في الأزل عند خطاب ﴿ ألست بربكم ﴾ [الأعراف : 172] ﴿ يخرون للأذقان سجداً ﴾ للإجابة يقولون " بلى " ﴿ ويخرون للأذقان ﴾ في عالم الصورة يبكون . فالتواضع والسجود من شأن الأرواح والبكاء والخشوع عن شأن الأجساد . ثم بين أن الأرواح إنما أرسلت إلى الأبدان للعبودية وذكر الله فقال : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ أي كل اسم من أسمائه حسن فادعوه حسناً وهو الدعاء بالإخلاص ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ رياء وسمعة ﴿

ولا تخافت بها ﴾ أن تخفيها بالكلية فيحرموا المتابعة والأسوة الحسنة ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ بإظهار الفرائض وإخفاء النوافل والله تعالى أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 399. 400﴾

(325/465)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : وأن كادوا ليفتنونك إلى آخره تنبيه لحبيبه صلى الله عليه وسلم عن الوقوع فيما يخل بحفظ شرائط المحبة وفيه إشارة إلى أيصاله إلى مقام التمكين ﴿ أَقِمِ الصلاة لِدُلُوكِ الشمس إلى غَسَقِ الليل ﴾ الآية، ذكر أن الصلاة على خمسة أقسام صلاة المواصلة والمناغاة في مقام الخفي وصلاة المشاهدة في مقام الروح وصلاة المناجاة في مقام السر وصلاة الحضور في مقام القلب وصلاة المطاوعة والانقياد في مقام النفس.

(326/465)

فدلوك الشمس إشارة إلى زوال شمس الوحدة عن الاستواء على وجود العبد بالفناء المحض فإنه لا صلاة في حال الاستواء إذ لا وجود للعبد حينئذ ولا شعور له بنفسه ، وإنما تجب بالزوال وحدوث ظل وجود العبد سواء عند الاحتجاب بالخلق وهو حالة الفرق قبل الجمع أو عند البقاء وهو حالة الفرق بعد الجمع ، وغسق الليل إشارة إلى غسق ليل النفس وقرآن الفجر إشارة إلى قرآن فجر القلب ، وأدل الصلوات وألطفها صلاة المواصلة وأفضلها صلاة الشهود المشار إليها بصلاة العصر وأخفها صلاة السر المشار إليها بصلاة المغرب وأشدها تثبيتاً للنفس صلاة النفس المشار إليها بصلاة العشاء وأزجرها للشيطان صلاة الحضور المشار إليها بالفجر ﴿ إِنَّ قُرآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾ [الإسراء : 78] أي تشهده ملائكة الليل والنهار ؛ وهذا إشارة إلى نزول صفات القلب وأنوارها وذهاب صفات النفس وزوالها ، ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أي زيادة على الفرائض الخمس خاصة بك قيل لكونه علامة مقام النفس فيجب تخصيصه بزيادة الطاعة لزيادة احتياج هذا المقام إلى الصلاة بالنسبة إلى سائر المقامات ، وقيل إنما خص صلى الله عليه وسلم بالتهجد لأن الليل وقت خلوة المحب بالحبيب وهو عليه الصلاة والسلام الحبيب الأعظم ، والخليل المكرم ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : 79] وهو مقام الحاق الناقص بالكامل والكامل بالأكمل ﴿ وَقُلْ رَّبِّى أَدْخِلْنِى ﴾ حضرة الوحدة في عين الجمع ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ إدخالاً مرضياً بلا آفة زيغ البصر إلى الالتفات

إلى الغير أصلاً ؛ ﴿ وَأَخْرِجْنِى ﴾ إلى فضاء الكثرة عند الرجوع إلى التفصيل بالوجود الموهوب الحقاني ﴿ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ سالماً من آفة التلوين والانحراف عن جادة الاستقامة

(327/465)

﴿ واجعل لّى مِن لّدُنْكَ سلطانا نّصِيرًا ﴾ [الإسراء : 80] حجة ناصرة بالتثبيت والتمكين ﴿ وَقُلْ ﴾ إذا زالت نقطة الغين عن العين ﴿ جَاءَ الحق ﴾ أي ظهر الوجود الثابت وهو الوجود الواجبي ﴿ وَزَهَقَ الباطل ﴾ [الإسراء : 81] وهو الوجود الإمكاني ، ففي الحديث الصحيح أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

إلا كل شيء ما خلا الله باطل . . .

ويقال الحق العلم والباطل الجهل والحق ما بدا من الإلهام والباطل هو أجس النفس ووساوس الشيطان .

وقال فارس : كا ما يحملك على سلوك سبيل الحقيقة فهو حق وكل ما يحجبك ويفرق عليك وقتك فهو باطل ﴿ وَنُنَزّلُ مِنَ القرءان مَا هُوَ شِفَاء ﴾ من أمراض الصفات الذميمة ﴿ وَرَحْمَةٌ لّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالغيب يفيدهم الكمالات والفضائل العظيمة فالأول إشارة إلى

التخلية والثاني إلى التحلية ، ويقال هو شفاء من داء الشك لضعفاء المؤمنين ومن داء النكرة للعارفين ومن وجع الاشتياق للمحبين ومن داء القنوط للمريدين والقاصدين ، وأنشدوا :

وكتبك حولي لا تفارق مضجعي . . .

وفيها شفاء للذي أنا كاتم

(328/465)

﴿ وَلَا يَزِيدُ الظالمين ﴾ الباخسين حظوظهم من الكمال بالميل إلى الشهوات النفسانية ﴿ إَلاَّ خَسَارًا ﴾ [الإسراء : 82] بزيادة ظهور أنفسهم بصفاتها من إنكار ونحوه ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ فاحتجب بالنعمة عن المنعم ولم يشكر ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر كَانَ يَئُوساً ﴾ [الإسراء : 83] لجهله بعظيم قدرة الله تعالى ولم يصبر ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ ﴾ [الإسراء : 84] على طريقته التي تشاكل استعداده وكل اناء بالذي فيه يرشح ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبّى ﴾ أي من عالم الإبداع وهو عالم الذوات المقدسة عن الشكل واللون والجهة والاين فلا يمكن إدراك المحجوبين لها ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85] وهو علم المحسوسات ﴿ مَن يَهْدِ

الله ﴾ بنوره بمقتضى العناية الأزلية ﴿ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ دون غيره ﴿ وَمَن يُضْلِلْ ﴾ بمنع ذلك النور عنه ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء ﴾ ن دونه تعالى يهدونه أو يحفظونه من قهره عز وجل ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ لانجذابهم إلى الجهة السفلية ﴿ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء : 97] لأنها أحوال تناسب أحوالهم في الدنيا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء : 107] لعلمهم بحقيته ، ووقوفهم على ما أودع فيه من الأسرار ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ [الإسراء : 109] لعظمته أو شوقاً لمنزله وحباً للقائه ، قال أبو يعقوب السوسي : البكاء على أنواع بكاء من الله تعالى وهو أن يبكي خوفاً مما جرى به القلم في الفاتح ويظهر في الخاتمة وبكاء على الله عز وجل وهو أن يبكي تحسراً على ما يفوته من الحق تعالى ، وبكاء لله تبارك وتعالى وهو أن يبكي عند ذكره سبحانه وذكر وعده ووعيده وبكاء

(329/465)

بالله تعالى وهو أن يبكي يلاحظ منه في بكائه ، وقال القاسم : البكاء على وجوه بكاء الجهال على ما جهلوا وبكاء العلماء على ما قصروا وبكاء الصالحين مخافة الفوت ، وبكاء الأئمة مخافة السبق وبكاء الفرسان من أرباب القلوب للهيبة والخشية ولا بكاء للموحدين ،

وفي الآية إشارة ما إلى السماع ولا أشرف من سماع القرآن فهو الروح والريحان ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ قيل دعاء الله بالفناء في الذات ودعاء الرحمن بالفناء في الصفة وصفة الرحمانية هي أم الصفات وبها استوى سبحانه على عرشه ، ومن ذلك يعلم أنه ليس المراد من الإيجاد إلا رحمة الموجودين ﴿ أَيًا مَّا تَدْعُواْ ﴾ أي ما طلبت من هذين المقامين ﴿ فَلَهُ ﴾ تعالى في هذه المقامين

﴿ الأسماء الحسنى ﴾ [الإسراء : 110] لا لك إذ لست هناك بموجود أما في الفناء في الذات فظاهر وأما في الفناء في الصفة المذكورة فلأن الرحمن لا يصلح اسماً لغير تلك الذات ولا يمكن ثبوت تلك الصفة لغيرها ، ولا يخفى عليك أن ضمير له على هذا التأويل عائد على ما عاد إليه على التفسير .

وفي الفتوحات المكية أنه تعالى جعل الأسماء الحسنى لله كما هو للرحمن غير أن الاسم له معنى وصورة فيدعى الله بمعنى الاسم ويدعى الرحمن بصورته لأن الرحمن هو المنعوت بالنفس وبالنفس ظهرت الكلمات الإلهية في مراتب الخلاء الذي ظهر فيه العالم فلا ندعوه إلا بصورة الاسم وله صورتان صورة عندنا من أنفاسنا وتركيب حروفنا وهي التي ندعوه

بها وهي أسماء الأسماء الإلهي وهي كالخلع عليها ونحن بصورة هذه الأسماء مترجمون عن الأسماء الإلهية ولها صور من نفس الرحمن من كونه قائلاً ومنعوتاً بالكلام وخلف تلك الصور المعاني التي هي كالأرواح للأسماء الإلهية التي يذكر الحق بها نفسه وهي من نفس الرحمن فله الأسماء الحسن وأرواح تلك الصور هي التي لاسم الله خارجة عن حكم النفس لا تنعت بالكيفية وهي لصور الأسماء النفسية الرحمانية كالمعاني للحروف، ولما علمنا هذا وأمرنا بأن ندعوه سبحانه وخيرنا بين الاسمين الجليلين فإن شئنا دعوناه بصور الأسماء النفسية الرحمانية وهي الهمم الكونية التي في أرواحنا وإن شئنا دعوناه بالأسماء التي من أنفاسنا بحكم الترجمة فإذا تلفظنا بها أحضرنا في نفوسنا أما الله فننظر المعنى وأما الرحمن فننظر صورة الاسم الإلهي النفسي الرحماني كيفما شئنا فعلنا فإن دلالة الصورتين منا ومن الرحمن على المعنى واحد سواء علمنا ذلك أو لم نعلمه اه، وهو كلام يعسر فهمه إلا على من شاء الله تعالى بيد أن ليس فيه حمل الدعاء على ما سمعت ﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ فضلاً عن أن يكون له سبحانه ولد بطريق التولد ﴿ وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِى الملك ﴾ فلا مدخل لغيره تعالى في ملكية شيء على الحقيقة وما يوجد بسبب ليس السبب إلا آلة له ولا تملك الآلة شيئاً بل لا شيء إلا وهو صنعه تعالى على الحقيقة والسرير مثلاً وإن أضيف إلى النجار من حيث الصنعة إلا أنه في الحقيقة آلة كالقدوم ولا يضاف العمل إلى الآلة على الحقيقة

(331/465)

كذا قيل ، وللشيخ قدس سره كلام في هذا المقام يفصح عن بعض هذا ذكره في الباب الثامن والتسعين بعد المائة فارجع إليه وتدبر ، وكذا له كلام في قوله سبحانه ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذل ﴾ لكن يغني عنه ما قدمناه

﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء : 111] قال بعضهم .

تكبيره تعالى أن تعلم أنك لا تطيق أن تكبره إلا به ، وقال ابن عطاء تكبيره عز وجل بتعظيم منته وإحسانه في القلب بالعلم بالتقصير في الشكر وكيف يوفي أحد شكره تعالى ونعمه جل وعلا لا تحصى وآلاؤه لا تستقصى ، هذا وقد تم بفضل الله تعالى تفسير هذه السورة الكريمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(332/465)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة الإسراء (17) : الآيات 56 إلى 57]

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (56) أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً (57)

الإعراب:

(قل) فعل أمر، والفاعل أنت (ادعوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون.. و(الواو) فاعل (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (زعمتم) فعل ماض مبنيّ على السكون.. و(تم) ضمير فاعل..

ومفعولا الفعل محذوفان أي زعمتموهم آلهة (من دون) جارّ ومجرور متعلّق بحال من الموصول (الذين) "1".. و(الهاء) مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) نافية (يملكون) مضارع مرفوع.. و(الواو) فاعل (كشف) مفعول به منصوب (الضرّ) مضاف إليه مجرور (عن) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بالمصدر كشف (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (تحويلا) معطوف على كشف منصوب.

جملة: "قل..." لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "ادعوا..." في محلّ نصب مقول القول وجملة: "زعمتم..." لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة: "لا يملكون..." في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم..

---

(1) والعامل في الحال فعل ادعوا.. ويبعد تعليق الجارّ بحال من المفعول الأول المقدّر لأنّ

العامل يصبح فعل زعمتم، والمشركون لا يزعمون الآلهة معبودين من دون اللّه بل هم شركاء له.

(333/465)

والجملة الاسمية في محلّ جزم جواب الشرط المقدّر أي إن دعوتموهم فهم لا يملكون.

57 - (أولئك) اسم إشارة مبتدأ " 1 "، (الذين) اسم موصول في محلّ رفع بدل من اسم الإشارة - أو عطف بيان - (يدعون) مثل يملكون، وعائد الموصول محذوف أي يدعونهم آلهة (يبتغون) مثل يملكون (إلى ربهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يبتغون)، (الوسيلة) مفعول به منصوب (أيّهم) اسم موصول مبنيّ على الضمّ في محلّ رفع بدل من فاعل يبتغون " 2 ".. و(هم) ضمير مضاف إليه (أقرب) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو، مرفوع (الواو) عاطفة في الموضعين (يرجون رحمته، يخافون عذابه) مثل يملكون كشف الضرّ (إنّ) حرف توكيد ونصب (عذاب) اسم إنّ منصوب (ربّك) مضاف إليه مجرور، و(الكاف) مضاف إليه (كان) فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (محذورا) خبر منصوب.

وجملة: "أولئك الذين..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة: "يدعون..." لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة: "يبتغون..." في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) " 3 "

وجملة: " (هو) أقرب ... " لا محلّ لها صلة الموصول (أيّ) وجملة: " يرجون ... " في محلّ رفع معطوفة على جملة يبتغون " 4 " وجملة: " يخافون ... " في محلّ رفع معطوفة على جملة يبتغون " 5 "

---

(1) والإشارة إلى الآلهة العقلاء كعيسى وعزير والملائكة .. وغير العقلاء.

(2) جاء المؤوّل (أيّ) مبنيّا لأنّه مضاف حذف منه صدر صلته .. ويجوز أن يكون اسم استفهام مبتدأ خبره أقرب.

(3) يجوز أن تكون الجملة حالا من فاعل يدعون إن كان خبر المبتدأ الموصول (الذين).

(4، 5) أو في محلّ نصب.

(334/465)

وجملة: " إنّ عذاب ... " لا محلّ لها تعليليّة وجملة: " كان محذورا ... " في محلّ رفع خبر إنّ

الصرف:

(كشف)، مصدر سماعيّ لفعل كشف الثلاثيّ، وزنه فعل بفتح فسكون (تحويلا)، مصدر قياسيّ لفعل حوّل الرباعيّ، وزنه تفعيل (يبتغون)، فيه إعلال بالحذف، وإعلال

بالتسكين، أصله يبتغيون - بضمّ الياء الثانية - استثقلت الضمّة على الياء فنقلت إلى الغين وسكّنت الياء - إعلال بالتسكين - ثمّ حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة فأصبح يبتغون، وزنه يفتعون (محذورا)، اسم مفعول من حذر الثلاثيّ، وزنه مفعول

الفوائد

- أَيُّهُمْ أَقْرَبُ.

لخص النحاة الأوجه التي تأتي بها "أي" فكانت ستة:

1 - شرطية: "أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى" بدليل جزم تدعو، وإدخال الفاء الرابطة في جوابها.

2 - استفهامية: "أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً"..؟

3 - موصولية: "لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ".

4 - أن تكون دالة على الكمال نحو: زيد رجل أي رجل؟

5 - أن تكون وصلة لنداء ما فيه "ال" نحو: يا أيها الرجل.

6 - أن تكون للتعجب: سبحان الله أي رجل هذا! وهي معربة في جميع أحوالها، إلا إذا كانت موصولة مضافة وحذف صدر صلتها، فتبني على الضم. ولها تفصيل في المطولات.

[سورة الإسراء (17): الآيات 58 إلى 59]

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (58) وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (59)

الإعراب:

(335/465)

(الواو) استئنافيّة (إن) نافية (من) زائدة (قرية) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ (إلّا) أداة حصر (نحن) ضمير منفصل مبتدأ (مهلكوها) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو.. و(ها) ضمير مضاف إليه (قبل) ظرف زمان منصوب متعلّق ب (مهلكوها)، (يوم) مضاف إليه مجرور (القيامة) مضاف إليه مجرور (أو) حرف عطف (معذّبوها) معطوف على (مهلكوها) يعرب مثله (عذابا) مفعول مطلق منصوب عامله اسم الفاعل معذوبها (شديدا) نعت ل (عذابا) منصوب (كان... مسطورا) مثل كان محذورا " 1 "، (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع اسم كان.. و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (في الكتاب) جارّ ومجرور متعلّق ب (مسطورا).

جملة: " إن من قرية... " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: " نحن مهلكوها... " في محلّ

رفع خبر المبتدأ (قرية) وجملة: "كان ذلك . . . مسطورا "لا محلّ لها استئناف بيانيّ

59 - (الواو) عاطفة (ما) نافية (منعنا) فعل ماض، و(نا) ضمير مفعول به (أن) حرف مصدريّ ونصب (نرسل) مضارع منصوب، والفاعل نحن

---

(1) في الآية السابقة (57).

(336/465)

للتعظيم (بالآيات) جارّ ومجرور متعلّق بحال من مفعول نرسل المقدّر أي نرسل نبيّا متلبّسا بالآيات " 1 " والمصدر المؤول (أن نرسل . . .) في محل جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (منعنا) أي منعنا من أن نرسل (إلّا) أداة حصر (أن) حرف مصدريّ (كذّب) فعل ماض (الباء) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (كذّب)، (الأوّلون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو.

والمصدر المؤوّل (أن كذّب . . .) في محلّ رفع فاعل منع (الواو) حالية (آتينا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير فاعل (ثمود) مفعول به أوّل منصوب ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (الناقة) مفعول به ثان منصوب (مبصرة) حال منصوبة (الفاء) عاطفة (ظلموا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . و(الواو) فاعل (الباء) حرف جرّ و(ها) ضمير في

محلّ جرّ متعلّق بـ (ظلموا) بتضمينه معنى كفروا (الواو) عاطفة (ما) نافية (نرسل بالآيات) مثل الأولى، والفعل مرفوع.. (إلّا) مثل الأولى (تخويفا) مفعول لأجله منصوب "2".

جملة: "ما منعنا ..." لا محلّ لها معطوفة على جملة إن من قرية ...

وجملة: "نرسل ..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أنّ) وجملة: "كذّب بها الأوّلون ..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني وجملة: "آتينا ..." لا محلّ لها اعتراضيّة "3"

---

(1) يجوز أن يكون الباء حرف جرّ زائدا.. والآيات مفعول نرسل. [.....]

(2) يجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال من الفاعل أي مخوّفين - بكسر الواو - أو من المفعول أي مخوّفا بها.

(3) أو في محلّ نصب حال بتقدير (قد).

وجملة: "ظلموا بها ..." لا محلّ لها معطوفة على الاعتراضيّة وجملة: "ما نرسل بالآيات إلّا ..." لا محلّ لها معطوفة على جملة منعنا

الصرف:

(مهلكوها) ، بلفظ الجمع للتعظيم، مفرده مهلك . . انظر الآية (164) من سورة الأعراف (معذّبوها) ، بلفظ الجمع للتعظيم، مفرده معذّب . . انظر الآية (164) من سورة الأعراف (مسطورا) ، اسم مفعول من سطر الثلاثيّ، وزنه مفعول (تخويفا) ، مصدر قياسيّ لفعل خوّف الرباعيّ، وزنه تفعيل

البلاغة

1 - الإسناد المجازي:

في قوله تعالى: "وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ" .

المنع محال في حقه تعالى، لأن الله لا يمنعه عن إرادته شيء . فالمنع مجاز عن الترك . أي ما كان سبب ترك إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين .

2 - المجاز العقلي:

في قوله تعالى: "النَّاقَةَ مُبْصِرَةً" .

لما كانت الناقة سببا في إبصار الحق والهدى، نسب إليها الإبصار ففيه مجاز عقلي، علاقته السببية .

[سورة الإسراء (17) : آية 60]

وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْياناً كَبِيراً (60)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إذ) اسم ظرفيّ مبنيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (قلنا) فعل ماض وفاعله (اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (ربّك) اسم إنّ منصوب، و(الكاف) مضاف إليه (أحاط) فعل ماض، والفاعل هو (بالناس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أحاط)، (الواو) عاطفة (ما) نافية (جعلنا) مثل قلنا (الرؤيا) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (التي) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت للرؤيا (أريناك) مثل قلنا..

و(الكاف) ضمير مفعول به، (إلا) أداة حصر (فتنة) مفعول به ثان لفعل جعلنا، منصوب (للناس) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (فتنة) " 1 "، (الشجرة) معطوف على الرؤيا بالواو منصوب (الملعونة) نعت للشجرة منصوب (في القرآن) جارّ ومجرور متعلّق بـ (الملعونة) (الواو) عاطفة (نخوّفهم) مضارع مرفوع، و(هم) ضمير مفعول به، والفاعل نحن للتعظيم (الفاء) عاطفة (ما) نافية (يزيدهم) مضارع مرفوع، و(هم) مثل الأخير، والفاعل هو أي التخويف (إلّا) مثل الأولى (طغيانا) مفعول به ثان منصوب (كبيرا) نعت لـ (طغيانا)

منصوب .

جملة : " قلنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " إنّ ربّك . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " أحاط . . . " في محلّ رفع خبر إنّ وجملة : " ما جعلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة المقدّرة وهي جملة اذكر

---

(1) أو متعلّق بفتنة . . أو هي لام التقوية زائدة والمجرور بها في محلّ نصب مفعول به .

وجملة : " أريناك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) وجملة : " نخوّفهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " ما يزيدهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نخوّفهم

الصرف :

(الرؤيا) ، هي الرؤية البصريّة لا الرؤيا الحلميّة ، لأنّ هذه الرؤية حصلت حين أسري بالرسول الكريم وعرج به إلى السماء ، وحصل ذلك باليقظة لا بالنوم .

(الملعونة) ، مؤنّث الملعون ، اسم مفعول من لعن الثلاثيّ ، وزنه مفعولة

[سورة الإسراء (17) : آية 61]

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (61)

الإعراب:

(وإذ قلنا للملائكة) مثل وإذ قلنا لك " 1 "، (اسجدوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون و(الواو) فاعل (لآدم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اسجدوا)، وعلامة الجرّ الفتحة (الفاء) عاطفة (سجدوا) فعل ماض وفاعله (إلّا) للاستثناء (إبليس) مستثنى بإلّا منصوب على الاستثناء المنقطع أو المتصل (قال) فعل ماض والفاعل هو (الهمزة) للاستفهام، (أسجد) مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (اللام) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أسجد) (خلقت) فعل ماض وفاعله (طينا) منصوب على نزع الخافض أي من طين " 2 ".

جملة: " قلنا ... " في محلّ جرّ مضاف إليه

---

(1) في الآية السابقة (60).

(2) أجاز العكبريّ أن يكون حالا على الرغم من كونه جامدا، وذلك لما فيه من معنى الأصالة..

وجملة: "اسجدوا ... " في محلّ نصب مقول القول وجملة: "سجدوا ... " في محلّ جرّ معطوفة على جملة قلنا وجملة: "قال ... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة: "أأسجد ... " في محلّ نصب مقول القول وجملة: "خلقت ... " لا محلّ لها صلة الموصول (من)

[سورة الإسراء (17) : الآيات 62 إلى 67]

قالَ أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (62) قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً (63) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُرُوراً (64) إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (65) رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (66)

وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً (67)

الإعراب:

(قال) فعل ماض، والفاعل ضمير تقديره هو أي الشيطان (الهمزة) للاستفهام (رأيتك) فعل ماض وفاعله ... و(الكاف) حرف

خطاب " 1 " ، أي أخبرني (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب بدل من اسم الإشارة – أو عطف بيان – (كرّمت) مثل رأيت (على) حرف جرّ و(الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (كرّمت) . . . والمفعول الثاني جملة استفهاميّة مقدّرة دلّت عليها صلة الموصول أي لم كرّمته عليّ (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (أخّرتن) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و(التاء) ضمير فاعل ، و(النون) للوقاية ، و(الياء) المحذوفة للتخفيف ضمير مفعول به (إلى يوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أخّرت) (القيامة) مضاف إليه مجرور (اللام) لام القسم (أحتنكنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع ، و(النون) نون التوكيد ، والفاعل أنا (ذرّيّته) مفعول به منصوب . . و(الهاء) مضاف إليه (إلّا) أداة استثناء (قليلا) منصوب على الاستثناء .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " أرأيتك . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " كرّمت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) وجملة : " أخّرت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " أحتنكنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب

الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم 63 - (قال) مثل الأول، والفاعل هو أي الّله

(اذهب) فعل أمر، والفاعل أنت (الفاء) عاطفة (من) اسم شرط مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ

(تبعك) فعل ماض، و(الكاف) ضمير مفعول به، والفاعل هو، والفعل في محلّ جزم فعل

الشرط (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من الفاعل

---

(1) انظر مزيد تفصيل في إعراب نظير الآية في سورة الأنعام، الآية (40).

(342/465)

(الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (جهنّم) اسم إنّ منصوب ومنع من

التنوين للعلميّة والتأنيث (جزاؤكم) خبر إنّ مرفوع..

و(كم) ضمير مضاف إليه (جزاء) مفعول مطلق منصوب عامله المصدر قبله " 1 "،

(موفورا) نعت لجزاء منصوب.

وجملة: "قال..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة: "اذهب..." في محلّ نصب

مقول القول وجملة: "من تبعك..." لا محلّ لها معطوفة على جملة قال وجملة: "تبعك

..." في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) وجملة: "إنّ جهنّم جزاؤكم..." في محلّ جزم

جواب الشرط مقترنة بالفاء 64 - (الواو) استئنافيّة (استفزز) فعل أمر، والفاعل أنت

(من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (استطعت) مثل كرّمت (منهم) مثل الأول متعلّق بحال من العائد المحذوف أي استطعت أن تستفزّه منهم (بصوتك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استفزز) . . و(الكاف) مضاف إليه (الواو) عاطفة (اجلب) مثل استفزز (عليهم) مثل منهم متعلّق بـ (اجلب) ، (بخيلك) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل اجلب " 2 " . . و(الكاف) مثل الأخير (الواو) عاطفة (رجلك) معطوف على خيلك ويعرب مثله (الواو) عاطفة (شاركهم) مثل استفزز . . و(هم) ضمير مفعول به (في الأموال) جارّ ومجرور متعلّق

---

(1) أو مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره تجزون . . وأجاز العكبريّ أن يكون مصدرا في موضع الحال ، وأن يكون تمييزا .

(2) قال الجمل في حاشيته : " وفي المختار : وجلب على فرسه يجلب جلبا بوزن طلب يطلب طلبا صاح به من خلفه واستحثّه للسبق وكذا أجلب عليه . وهذا يقتضي زيادة الباء ويكون المعنى عليه : وحثّ وأسرع عليهم جندك خيلا ومشاة لتدركهم وتتمكّن منهم " أ ه.

ب (شارك) ، (الواو) عاطفة (الأولاد) معطوف على الأموال مجرور (الواو) عاطفة

(عدهم) مثل شاركهم (الواو) حاليّة (ما) نافية (يعدهم) مضارع مرفوع . . و(هم)

مفعول به (الشيطان) فاعل مرفوع (إلّا) للحصر (غرورا) مفعول مطلق نائب عن المصدر

لأنّه صفته أي إلّا وعدا غرورا " 1 " .

وجملة : " استفزز . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول وجملة : " استطعت . . . "

لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة : " اجلب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة

استفزز وجملة : " شاركهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة استفزز وجملة : " عدهم

. . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة استفزز وجملة : " يعدهم الشيطان . . . " في محلّ

نصب حال 65 - (إنّ عبادي) مثل إنّ جهنّم ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما

قبل الياء . . . و(الياء) مضاف إليه (ليس) فعل ماض ناقص جامد (اللام) حرف جرّ

و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر ليس (عليهم) مثل منهم متعلّق بالخبر " 2 "

(سلطان) اسم ليس مرفوع (الواو) عاطفة (كفى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر

(الباء) حرف جرّ زائد (ربّك) مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل كفى . . و(الكاف) مضاف

إليه (وكيلا) حال منصوبة " 3 " .

وجملة : " إنّ عبادي ليس لك . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول وجملة : " ليس لك

عليهم سلطان . . . " في محلّ رفع خبر إنّ وجملة : " كفى بربّك وكيلا . . . " لا محلّ لها

معطوفة على جملة إنّ عبادي . . .

---

(1) وانظر الآيات (120) من النساء و(112) من الأنعام .

(2) أو متعلّق بمحذوف حال من سلطان - نعت تقدّم المنعوت -

(3) أو تمييز منصوب .

---

66 - (ربّكم) مبتدأ مرفوع . . و(كم) مضاف إليه (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر (يزجي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل هو وهو العائد (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يزجي) (الفلك) مفعول به منصوب (في البحر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يزجي) " 1 " ، (اللام) للتعليل (تبتغوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون . . و(الواو) فاعل (من فضله) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تبتغوا) ، و(الهاء) مضاف إليه .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من الفلك .

والمصدر المؤوّل (أن تبتغوا . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يزجي) (إنّه) حرف مشبّه بالفعل . . و(الهاء) اسم إنّ (كان) فعل ماض ناقص واسمه ضمير مستتر تقديره هو (بكم) مثل لكم متعلّق بـ (رحيما) وهو خبر كان منصوب.

وجملة: "ربّكم الذي . . ." لا محلّ لها تعليل لكفاية القدرة وبيانها وجملة: "يزجي لكم الفلك . . ." لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) وجملة: "تبتغوا . . ." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر وجملة: "إنّه كان بكم . . ." لا محلّ لها تعليل لقوله يزجي وجملة: "كان بكم رحيما . . ." في محلّ رفع خبر إنّ 67 - (الواو) عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (ضلّ)، (مسّكم) فعل ماض . . . و(كم) ضمير مفعول به (الضرّ) فاعل مرفوع (في البحر) جارّ ومجرور حال من الفاعل أو من المفعول (ضلّ) فعل ماض (من) اسم موصول فاعل في محلّ رفع (تدعون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل (إلّا) أداة استثناء (إيّاه) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع أو المتّصل (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بـ (أعرضتم)، (نجّاكم) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر . . و(كم) ضمير مفعول به، والفاعل هو (إلى البرّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نجّاكم)

بتضمينه معنى أوصلكم (أعرضتم) فعل ماض وفاعله (الواو) استئنافيّة (كان . . . كفورا) مثل كان . . رحيما (الإنسان) اسم كان مرفوع.

(346/465)

وجملة: " مسّكم الضرّ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة: " ضلّ من تدعون . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة: " تدعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة: " نجّاكم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة: " أعرضتم . . . " لا محلّ لها جواب الشرط (لمّا) وجملة: " كان الإنسان كفورا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

الصرف:

(موفورا)، اسم مفعول من وفر الثلاثيّ، وزنه مفعول، وقد استعمل بمعنى اسم الفاعل أي وافرا على أسلوب المجاز العقليّ.

(رجلك)، اسم جمع بمعنى المشاة، وزنه فعل بفتح فكسر، وقد تسكّن العين (عدهم)، فيه إعلال بالحذف، ماضيه وعد، معتلّ مثال مكسور العين في المضارع، تحذف فاؤه في المضارع والأمر، وزنه عل بكسر العين (يعدهم)، الإعلال فيه من نوع الإعلال في (عدهم)

البلاغة

1 - المجاز المرسل :

في قوله تعالى : " أَرَأَيْتَكَ هذا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ " .

هذا مجاز في استعمال الرؤية بمعنى الإخبار ، فيكون المعنى أخبرني عن هذا الذي كرمته علي ، لم كرمته علي وأنا أكرم منه ، والعلاقة ما بين العلم والإخبار من السببية والمسببية واللازمية والملزومية .

2 - الاستعارة التمثيلية :

في قوله تعالى : " وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ " .

الآية مثّلت حال الشيطان ، حيث أن استفزازه بصوته وإجلابه بخيله ورجله ، تمثيلا لتسلطه على من يغويه ، فكأن مغوارا وقع على قوم ، فصوت بهم صوتا يزعجهم من أماكنهم ، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة ، حتى استأصلهم .

3 - الالتفات :

في قوله تعالى : " وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً " .

حيث حصل الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : وما تعدهم إلا غرورا ولكنه عدل عن ذلك لتقوية معنى الاعتراض ، مع ما فيه من صرف الكلام عن خطابه وبيان حاله للناس ، ومن الإشعار بعلية شيطنته للغرور ، وهو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب .

الفوائد

1 - يعمل بالمفعول المطلق عامل من أربعة :

أ- مصدر مثله لفظا ومعنى ، كما في الآية .

ب - أو مصدر معنى لا لفظا ، نحو :

" أعجبني إيمانك تصديقا " .

ج - ما اشتق منه من فعل " وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً " .

ء - أو اسم فاعل أو مفعول للمبالغة اشتقا من فعله ، نحو :

" وَالصَّافَّاتِ صَفًّا " أو (الخبز مأكول أكلا) الأول مبالغة اسم الفاعل ، والثاني مبالغة اسم المفعول ، وللحديث تتمة فيما سيأتي بإذن الله .

2 - الحال الموطّأة ، هو الاسم الجامد الذي يذكر ويوطأ له بصفة مشتقة ليجوز اعتباره حالا ، نحو : " فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا "

.

وبيان ذلك : أن الاسم الجامد لما وصف بما يجوز أن يكون حالا صحّ نفسه أن يكون حالا ،

فتبصّر . . !

3 - لمّا الظرفية :

هي التي تكون بمعنى " حين أو إذا " وتطلب جملتين فعلاهما ماضيان .

وهي منصوبة بجوابها .

وهي مضافة إلى فعلها الأول وبعبارة أخرى : الجملة الأولى تكون في محل جر بإضافة " لمّا " إليها .

والمحققون من العلماء ، يرون أنها وسيلة للربط بين جملتين ، ولذلك أطلقوا عليها " حرف وجود لوجود " .

أي أنه للدلالة على وجود شيء لوجود غيره . وقد نزيده توضيحا في مكان آخر ان شاء الله .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 68 إلى 69]

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً (69)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الفاء) استئنافيّة " 1 "، (أمنتم) فعل ماض مبنيّ على السكون.. و(تم) ضمير فاعل (أن) حرف مصدريّ ونصب (نخسف) مضارع منصوب، والفاعل نحن للتعظيم (الباء) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من جانب البرّ " 2 "، (جانب) مفعول به منصوب " 3 "، (البرّ) مضاف إليه مجرور والمصدر المؤوّل (أن نخسف..) في محلّ نصب مفعول به (الواو) عاطفة (نرسل عليكم حاصبا) مثل نخسف بكم جانب ومعطوف عليه (ثمّ) حرف عطف (لا) نافية (تجدوا) مضارع منصوب معطوف على (نرسل) المنصوب، وعلامة النصب حذف النون.. و(الواو) فاعل (لكم) مثل بكم متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (وكيلا) مفعول أوّل منصوب.

جملة: " أمنتم... " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: " نخسف... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة: " نرسل... " لا محلّ لها معطوفة على جملة نخسف وجملة: " تجدوا... " لا محلّ لها معطوفة على جملة نرسل 69 - (أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة (أمنتم أن نعيدكم) مثل أمنتم أن نخسف.. و(كم) ضمير مفعول به، (في) حرف

جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نعيدكم) ، (تارة) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مرادفه (أخرى) نعت لتارة منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف .

---

(1) هي عاطفة عند المعربين عطفت الظاهر على مقدّر أي أنجوتم من الغرق فأمنتم . .

(2) يجوز أن تكون الباء سببيّة فتتعلّق بفعل نخسف . [. . . . . .]

(3) أجاز بعضهم أن يكون ظرفا . . والمفعول مقدّر .

والمصدر المؤوّل (أن نعيدكم . .) في محلّ نصب مفعول به (الفاء) عاطفة (نرسل عليكم قاصفا) مثل نرسل عليكم حاصبا ، والفعل معطوف على (نعيدكم) ، (من الريح) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (قاصفا) ، (الفاء) عاطفة (يفرقكم) مضارع منصوب معطوف على نرسل . .

و(كم) ضمير مفعول به والفاعل هو (الباء) حرف جرّ سببيّة (ما) حرف مصدريّ (كفرتم) مثل أمنتم .

والمصدر المؤوّل (ما كفرتم . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (يغرقكم) (ثمّ لا تجدوا لكم . . . تبيعا) مثل ثمّ لا تجدوا لكم وكيلا ، والفعل معطوف على يغرقكم (على) حرف جرّ

و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تبيعا) ، (به) مثل بكم متعلّق بـ (تجدوا) " 1 " .

وجملة : " أمنتم (الثانية) . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " وجملة : " نعيدكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة : " نرسل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نعيدكم وجملة : " يغرقكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نرسل وجملة : " كفرتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " لا تجدوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يغرقكم

الصرف :

(جانب) ، اسم بمعنى الجهة على صيغة اسم الفاعل ، وزنه فاعل (حاصبا) ، اسم بمعنى الريح أو السحاب ، جاء على صيغة اسم الفاعل

---

(1) يجوز أن يتعلّق بـ (تبيعا) ، أو بمحذوف حال من (تبيعا) .

(2) يجوز أن تكون (أم) هي المتّصلة ، فتعطف الجملة على جملة أمنتم الأولى .

لفعل حصبه من باب ضرب أي رماه بالحصباء ، وهي الحجارة الصغيرة (قاصفا) ، اسم للريح الشديدة التي تقصف الأشياء وتكسرها ، جاءت على وزن فاعل من قصف

الثلاثيّ بمعنى كسر، من باب ضرب (تبيعا)، لفظ مشتقّ، وزنه فعيل بمعنى فاعل، وهو المطالب بحقّ الملازم للطلب.

[سورة الإسراء (17): آية 70]

وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً (70)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (كرّمنا) فعل ماض وفاعله (بني) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء (آدم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (الواو) عاطفة (حملناهم) مثل كرّمنا.. و(هم) ضمير مفعول به (في البرّ) جارّ ومجرور حال من الضمير المفعول (البحر) معطوف على البرّ بالواو مجرور (الواو) عاطفة (رزقناهم) مثل حملناهم (من الطيّبات) جارّ ومجرور حال من ضمير المفعول أي آكلين " 1 "، (الواو) عاطفة (فضّلناهم) هم حملناهم (على كثير) جارّ ومجرور متعلّق بـ (فضّلنا)، (من) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بنعت لكثير (خلقنا) مثل كرّمنا (تفضيلا) مفعول مطلق منصوب.

جملة: "كرّمنا..." لا محلّ لها جواب القسم المقدّر... وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "حملناهم..." لا محلّ لها معطوفة على جملة كرّمنا وجملة: "

رزقناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كرّمنا

---

(1) يجوز أن يكون متعلّقا بـ (رزقناهم) بتضمينه معنى أطعمناهم.

وجملة: " فضّلناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كرّمنا وجملة: " خلقنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من)

[سورة الإسراء (17) : الآيات 71 إلى 72]

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (71) وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (72)

الإعراب:

(يوم) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر " 1 "، (ندعو) مضارع مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو، والفاعل نحن للتعظيم (كلّ) مفعول به منصوب (أناس) مضاف إليه مجرور (بإمامهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ندعو) " 2 " . . و (هم) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أوتي) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو

، وهو العائد (كتابه) مفعول به منصوب، و(الهاء) مضاف إليه (بيمينه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أوتي)، و(الهاء) مثل الأخير (الفاء) رابطة لجواب الشرط (أولئك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ.. و(الكاف) للخطاب (يقرءون) مضارع مرفوع.. و(الواو) فاعل (كتابهم) مثل كتابه (الواو) عاطفة (لا) نافية (يظلمون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع.. و(الواو) نائب الفاعل (فتيلا) مفعول مطلق منصوب نائب عن المصدر فهو صفته.

جملة: "(اذكر) يوم ندعو..." لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) أو هو ظرف زمان لفعل محذوف يفسّره ما بعده أي لا يظلمون يوم ندعو.

(2) أو متعلّق بحال أي مختلطين بإمامهم.

(352/465)

وجملة: "ندعو..." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "من أوتي..." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "أوتي كتابه..." في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) "1".

وجملة: "أولئك يقرءون" في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: "يقرءون..." في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك).

وجملة: "لا يظلمون ... " في محلّ رفع معطوفة على جملة يقرءون.

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا.

(353/465)

---

72 - (الواو) عاطفة (من) مثل الأول (كان) فعل ماض ناقص مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (في) حرف جرّ (ها) حرف تنبيه (ذه) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعمى) وهو خبر كان منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (الفاء) رابطة لجواب الشرط (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (في الآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أعمى) الثاني، وهو خبر المبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (أضلّ) معطوف على الخبر أعمى مرفوع (سبيلا) تمييز منصوب.

وجملة: "من كان ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة من أوتي ...

وجملة: "كان ... أعمى" في محلّ رفع خبر المبتدأ (من).

وجملة: "هو ... أعمى" في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

الصرف:

(أعمى) ، صفة مشبّهة من فعل عمي يعمى باب فرح ، وزنه أفعل ، ويجوز أن يكون اللفظ اسم تفضيل لورود اسم التفضيل أضلّ بعده . .

وانظر الآية (60) من سورة المائدة.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 73 إلى 76]

وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73) وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74) إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً (75) وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (76)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إن) مخفّفة من الثقيلة مهملة وجوبا (كادوا) فعل ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . . و(الواو) اسم كاد (اللام) هي الفارقة (يفتنون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل و(الكاف) ضمير مفعول به (عن) حرف جرّ (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يفتنون) بتضمينه معنى يصرفونك (أوحينا) فعل ماض وفاعله (إلى) حرف جرّ

و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أوحينا) ، (اللام) للتعليل (تفتري) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل أنت (على) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تفتري) ، (غيره) مفعول به منصوب ، و(الهاء) مضاف إليه . .

والمصدر المؤوّل (أن تفتري . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يفتنونك) .

(الواو) عاطفة (إذا) - بالتنوين - حرف جواب لا عمل له (اللام) واقعة في جواب شرط مقدّر " 1 " (اتّخذوك) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . و(الواو) فاعل ، و(الكاف) مثل الأول في الآية (خليلا) مفعول به ثان منصوب .

جملة : "كادوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يفتنونك . . . " في محلّ نصب خبر كادوا .

وجملة : " أوحينا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " تفتري . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " اتّخذوك . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي لو فعلت ذلك لاتّخذوك خليلا ، وجملة الشرط لا محلّ لها معطوفة على استئنافيّة .

74 - (الواو) عاطفة (لولا) حرف شرط غير جازم (أن) حرف مصدريّ (ثبّتناك) مثل أوحينا . . و(الكاف) ضمير مفعول به (اللام) واقعة في جواب لولا (قد) حرف توقّع - أو تقليل - (كدت) فعل ماض ناقص . . و(التاء) ضمير في محلّ رفع اسم كاد (تركن) مضارع

مرفوع، والفاعل أنت (إليهم) مثل إليك متعلّق بـ (تركن)، (شيئًا) مفعول مطلق نائب عن المصدر منصوب (قليلا) نعت لـ (شيئًا) منصوب..

---

(1) أي: لو فعلت لاتّخذوك - كما ذكر بعد ذلك - والجمل في حاشيته جعلها لام القسم لقسم مقدّر، ولكنّ هذه تقتضي (قد) في الغالب كقوله تعالى: تاللّه لقد آثرك اللّه علينا.

(355/465)

والمصدر المؤوّل (أن ثبّتناك..) في محلّ رفع مبتدأ، والخبر محذوف وجوبا تقديره موجود.

وجملة: "لولا تثبيتنا أيّاك بالعصمة..." لا محلّ لها معطوفة على جملة كادوا.

وجملة: "ثبّتناك..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "كدت تركن..." لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "تركن..." في محلّ نصب خبر كدت.

75 - (إذا لأذقناك) مثل إذا لاتّخذوك (ضعف) مفعول به ثان منصوب (الحياة) مضاف إليه مجرور وفي الكلام حذف مضاف أي: ضعف عذاب الحياة (الواو) عاطفة (ضعف الممات) مثل ضعف الحياة ومعطوف عليه (ثمّ) حرف عطف (لا) نافية (تجد) مضارع

مرفوع، والفاعل أنت (اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول ثان (على) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نصيرا) وهو مفعول به أوّل منصوب.

وجملة: "أذقناك... " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي: لو فعلت - أو ركنت - لأذقناك..

وجملة: "لا تجد ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة أذقناك.

76 - (الواو) عاطفة (إن كادوا ليستفزّونك من الأرض) مثل إن كادوا ليفتنونك عن الذي.. (اللام) للتعليل (يخرجوك) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون.. و(الواو) فاعل، و(الكاف) مفعول به (من) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يخرجوك)..

والمصدر المؤوّل (أن يخرجوك..) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يستفزّونك).

(الواو) عاطفة (إذا) بالتنوين، مثل الأول (لا) نافية (يلبثون) مثل يفتنون (خلافك) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يلبثون)، و(الكاف) مضاف إليه (إلّا) للحصر (قليلا) نائب عن المصدر مفعول مطلق منصوب "1".

---

(1) أو نائب عن الظرف أي إلّا زمانا قليلا.

وجملة: "إن كادوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة كادوا الأولى.

وجملة: "يستفزّونك . . . "في محلّ نصب خبر كادوا.

وجملة: "يلبثون . . . "لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي لو أخرجوك لا يلبثون . . .

وجملة الشرط المقدّرة لا محلّ لها معطوفة على جملة إن كادوا (الثانية).

الصرف:

(خليلا)، صفة مشبّهة من خلّه أي صادقة، وقد جاءت الصفة من غير الثلاثيّ شذوذا، وزنه فعيل.

(أذقناك)، فيه، إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون، أصله أذاقناك، فلمّا اجتمع ساكنان حذفت الألف - عين الفعل - لأنه معتلّ أجوف، وزنه أفلناك.

البلاغة

1 - المبالغة في تقليل الكيدودة:

في قوله تعالى: "وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ".

في هذه الآية الكريمة يوجد مبالغة في تقليل الكيدودة، لأن مجرد الملاينة التي تقتضيها

السياسة واستماله القوم ، أخذت على النبيّ (صلّى اللّه عليه وسلّم) لأن الذنب يعظم

بحسب فاعله ، على ما

ورد من أن " حسنات الأبرار سيئات المقربين " .

2 - الحذف :

في قوله تعالى : " لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ " .

أصل الكلام : لأذقناك عذابا ضعفا في الحياة ، وعذابا ضعفا في الممات . ثم حذف

الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وهو الضعف . ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف فقيل

: ضعف الحياة ، وضعف الممات ، كما لو قيل :

لأذقناك أليم الحياة وأليم الممات .

الفوائد

1 - موقف الرسول من ثقيف .

حدثنا التاريخ أن ثقيفا طلبت إلى الرسول / صلّى اللّه عليه وسلّم / أن يخصها بأمور تفخر

بها على العرب ، منها قولهم أن لا نعشر ولا نحشر ولا نجبّي في صلاتنا ، وكل ربا لنا فهو لنا ،

وكل ربا علينا فهو موضوع عنا وأن تمتعنا باللات سنة ، حتى نأخذ ما يهدى لها فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا ، وأن تحرم وادينا كما حرمت مكة ، فإن قالت العرب : لم فعلت ذلك ، فقل : إن الله أمرني به . وجاؤوا بكتابهم ، فكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لثقيف ، لا يعشرون ولا يحشرون فقالوا : ولا يجبّون .

فسكت رسول الله/ صلّى اللّه عليه وسلّم/ . ثم قالوا للكاتب : اكتب لا يجبّون ، والكاتب ينظر إلى رسول الله ، فقام عمر بن الخطاب فسلّ سيفه فقال : أسعرتم قلب نبينا – يا معشر ثقيف – أسعر الله قلوبكم نارا ، فقالوا : لسنا نكلم إياك ، وإنما نكلم محمدا .

فكان ذلك سببا لنزول الآيات المذكورة .

وطبعا : لا نعشر : أي لا يؤخذ منا عشر أموالنا . ولا نحشر : أي لا نساق للجهاد .

ولا نجبّي في صلاتنا : أي لا يركعون ولا يسجدون .

و

في رواية ، أنهم طلبوا إعفاءهم من الصلاة . وقد أجابهم الرسول إلى الطلبين الأولين ، ولكن قال : لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود ، أو كما قال .

ومن الطبعي أن هذه الآيات قد ألغت الاتفاق الذي حاولت ثقيف أن تمليه على رسول الله/ صلّى اللّه عليه وسلّم/ وحددت موقف الإسلام منهم ومن أمثالهم . وبعد ، لا بد أن نتناول في البحث الفعل كاد فقد تكرر في هذه الآيات عدة مرات .

ولابن هشام كلام ممتع عن هذا الفعل ، يردّ فيه على بعض النحاة والمعربين بعض ما اشتهروا به ، والذي منه : قولهم : إن "كاد " إثباتها نفي ونفيها إثبات ، فإذا قيل : كاد يفعل ، معناه انه لم يفعل . وإذا قيل : لم يكد يفعل ، فمعناه أنه فعل . وقد ذهب إلى مثل ذلك المعمري في كلام نحن بغنى عن سرده ، مخافة الإطالة . والصواب أن

حكمها حكم سائر الأفعال ، في أن نفيها نفي ، وإثباتها إثبات بدليل أن معناها المقاربة ، " فمعنى كاد يفعل " أي قارب من الفعل ، ومعنى " ما كاد يفعل " أي ما قارب الفعل . مثال ذلك " إذا أخرج يده لم يكد يراها " . فتأمل وتبصّر ، ألهمك الله الرشد . . . !

[سورة الإسراء (17) : آية 77]

سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً (77)

الإعراب :

(سنّة) مفعول مطلق لفعل محذوف ، والتقدير : سنّنا ذلك سنّة " 1 " ، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (قد) حرف تحقيق (أرسلنا) فعل ماض وفاعله (قبلك) ظرف زمان متعلّق بـ (أرسلنا) ، و(الكاف) مضاف إليه (من رسلنا) جارّ ومجرور متعلّق

بحال من مفعول أرسلنا المحذوف أي أرسلناه من رسلنا (الواو) عاطفة (لا تجد . .

تحويلا) مثل لا تجد . . نصيرا " 2 " ، (لسنّتنا) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف مفعول به

ثان ، و(نا) مضاف إليه .

جملة : " قد أرسلنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " لا تجد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سنّنا المقدّرة .

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا به لفعل محذوف تقديره اتّبع . . وأجاز الفرّاء نصبه على نزع الخافض أي : كسنّة اللّه فيمن قد أرسلنا ، والجارّ متعلّق بـ (يستفزّونك) أو بـ (لا يلبثون) في السابقة .

(2) في الآية (75) من هذه السورة .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 78 إلى 81]

أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (78)

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (79) وَقُلْ رَبِّ

أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً

(80) وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً (81)

الإعراب :

(أقم) فعل أمر ، والفاعل أنت (الصلاة) مفعول به منصوب (لدلوك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أقم) " 1 " ، (الشمس) مضاف إليه مجرور (إلى غسق) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أقم) " 2 " ، (الليل) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (قرآن) معطوف على الصلاة منصوب " 3 " ، (الفجر) مضاف إليه مجرور (إنّ) حرف توكيد ونصب (قرآن) اسم إنّ منصوب (الفجر) مضاف إليه مجرور (كان) فعل ماض ناقص - ناسخ - واسمه ضمير مستتر تقديره هو (مشهودا) خبر كان منصوب .

جملة : " أقم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) هذه اللام بمعنى بعد أي بعد دلوك الشمس كقولهم كتبته لثلاث خلون ، وقد تكون للتعليل أي لأجل دلوك الشمس أو بسبب دلوك الشمس .

(2) يجوز أن يكون حالا من الصلاة أي مستمرّة . .

(3) أو هو مفعول به لفعل محذوف تقديره أقم أو الزم ، والعطف حينئذ يكون من عطف الجمل . [. . . . .]

وجملة: "إنّ قرآن الفجر . . . " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "كان مشهودا " في محلّ رفع خبر إنّ.

79 - (الواو) عاطفة (من الليل) جارّ ومجرور متعلّق بفعل محذوف تقديره اسهر من الليل "1"، (الفاء) عاطفة (تهجّد) مثل (أقم) (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تهجّد) والضمير يعود على القرآن "2" (نافلة) حال منصوبة من المفعول المحذوف أي فصلّ التهجّد حال كونه نافلة "3"، (اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نافلة) (عسى) فعل ماض تام (أن) حرف مصدريّ ونصب (يبعثك) مضارع منصوب . . و(الكاف) ضمير مفعول به (ربّك) فاعل مرفوع . . و(الكاف) مضاف إليه (مقاما) حال منصوبة بتقدير مضاف أي ذا مقام "4"، (محمودا) نعت لـ (مقاما) منصوبا . .

والمصدر المؤوّل (أن يبعثك . .) في محلّ رفع فاعل عسى.

وجملة: "(اسهر) من الليل " لا محلّ لها معطوفة على جملة أقم . .

وجملة: "تهجّد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (اسهر).

وجملة: "عسى أن يبعثك " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليل - .

وجملة: "يبعثك ربّك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

(1) (من) هنا إمّا تبعيضيّة أي بعضا من الليل وإمّا بمعنى (في) أي اسهر في الليل أو قم في الليل .

(2) أي فصلّ بالقرآن التهجّد ، فالتهجّد بمعنى الصلاة . . أو يعود الضمير على الليل أي فاسهر بالليل .

(3) يجوز أن يكون مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر لأنّه بمعناه أي فتنفّل به نافلة ، وإذا فسّر التهجّد بالصلاة كان (نافلة) مفعولا به .

(4) يجوز أن يكون مفعولا مطلقا لفعل محذوف أي تقوم مقاما ، ويجوز أن يكون ظرفا متعلّقا بـ (يبعثك) .

---

80 - (الواو) عاطفة (قل) مثل أقم (ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف . . و(الياء) المحذوفة مضاف إليه (أدخلني) فعل أمر ، و(النون) للوقاية ، و(الياء) ضمير مفعول به ، والفاعل أنت ومفعول أدخلني الثاني محذوف تقديره المدينة (مدخل) مفعول مطلق منصوب (صدق) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (أخرجني مخرج صدق) مثل نظيرها المتقدّمة (الواو) عاطفة

(اجعل) مثل أدخل (اللام) حرف جرّ و(الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (من لدنك) جارّ ومجرور متعلّق بالمفعول الثاني . . و(الكاف) مضاف إليه (سلطانا) مفعول به أوّل منصوب (نصيرا) نعت لـ (سلطانا) منصوب .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تهجّد .

وجملة : " النداء وجوابها . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أدخلني . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أخرجني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أدخلني .

وجملة : " اجعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أدخلني .

81 - (الواو) عاطفة (قل) مثل السابق (جاء) فعل ماض (الحقّ) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (زهق الباطل) مثل جاء الحقّ (إنّ الباطل كان زهوقا) مثل إنّ قرآن الفجر كان مشهودا .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل (الأولى) .

وجملة : " جاء الحقّ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " زهق الباطل . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة جاء الحقّ .

وجملة : " إنّ الباطل كان . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كان زهوقا " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(دلوك) ، مصدر فعل دلكت الشمس دلوكا باب نصر أي زالت عن الاستواء أو مالت إلى الغروب ، وهو مشتقّ عند الزمخشريّ من الدلك ، لأنّ الإنسان يدلك عينيه عند النظر إلى الشمس ، وزنه فعول بضمّ الفاء .

(غسق) مصدر الفعل الثلاثيّ غسق يغسق الليل باب ضرب أي اشتدّت ظلمته ، وزنه فعل بفتحتين .

(نافلة) ، اسم للصلاة الزائدة على الفريضة على وزن فاعلة .

(مقاما) ، قد يراد به المصدر الميميّ من قام الثلاثيّ ، وقد يراد به اسم المكان . . انظر الآية (125) البقرة .

(محمودا) اسم مفعول من حمد الثلاثيّ على وزن مفعول .

(مدخل) مصدر ميميّ من الرباعيّ أدخل ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين .

(مخرج) مصدر ميميّ من الرباعيّ أخرج ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين .

(زهوقا) ، صفة مشبهة من الثلاثيّ زهق يزهق باب فتح بمعنى اضمحلّ وزال ، ويجوز أن

يكون مبالغة اسم الفاعل ، وزنه فعول بفتح الفاء .

البلاغة

1 - المجاز المرسل :

في قوله تعالى : " وَقُرْآنَ الْفَجْرِ " .

أطلق الجزء على الكل . أي قراءة الفجر ، والمراد بها الصلاة ، لأن القراءة جزء منها ، فالعلاقة الجزئية .

2 - الإظهار في مقام الإضمار :

في قوله تعالى : " إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً " بعد قوله : " وَقُرْآنَ الْفَجْرِ " .

فقد حصل الإظهار في مقام الإضمار ، ولم يقل سبحانه إنه ، لمزيد الاهتمام والعناية .

3 - المقابلة اللطيفة :

في قوله تعالى : " أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ " و " أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ " وبين " جاءَ الْحَقُّ " وَزَهَقَ الْباطِلُ " .

4 - في التذييل :

في قوله تعالى : " وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً " .

وهذا الفن هو : أن يذيل الناظم والناثر كلامه ، بعد تمامه وحسن السكوت عليه ، بجملة تحقيق ما قبلها من الكلام ، وتزيده توكيدا ، وتجري فيه مجرى المثل ، لزيادة التحقيق .

وهذه الآية من أعظم الشواهد عليه ، فالجملة الأخيرة هي التذييل الذي خرج مخرج المثل السائر .

الفوائد

1 – اسم المكان واسم الزمان .

1 – هما اسمان مصوغان لزمان وقوع الفعل أو مكانه :

2 – يصاغان من الثلاثيّ ، الذي مضارعه مضموم العين أو مفتوحها ، على وزن " مفعل " ، وكذلك إذا كان الفعل معتل اللام نحو مرمى ومسعى .

3 – ويصاغان من الثلاثي ، إذا كان مكسور العين ، أو مثالا ، على وزن " مفعل " نحو مجلس وموعد وميسر .

4 – يستثني من مضموم العين أحد عشر لفظا ، جاءت بالكسر ، وهي : منسك ومطلع ومشرق ومغرب ومرفق ومفرق ومجزر ومنبت ومسقط ومسكن ومسجد .

5 – يصاغان من غير الثلاثي على وزن اسم المفعول مثل : مدخل ومخرج ومنطلق

ومستودع، كما لاحظنا ذلك في الآية التي نحن بصددها .

ملاحظة : إذن صيغة الزمان والمكان والمصدر الميمي واسم المفعول من غير الثلاثي على وزن واحد ، وكذلك في بعض أوزان الثلاثي ، والتفريق بالقرينة .

6 - يصاغ بكثرة، من الاسم الجامد ، اسم مكان على " مفعلة " ، للدلالة على كثرة الشيء في المكان نحو " مأسدة " و " مسبعة " و " مقثأة " ، للموضع الذي تكثر فيه الأسود أو السباع أو القثاء . ومع كثرة وروده ليس قياسيا ، وانما أكثره سماعي .

ملاحظة : كما رأينا قد تلحق اسمي الزمان والمكان تاء مربوطة، نحو مقبرة ومطبعة ومدرسة . وكل ذلك سماعي لا قياس عليه .

2 - إذا فتحنا مغني اللبيب نجد أن " اللام " الجارة لها اثنان وعشرون معنى، نذكرها لك دون التمثيل تحاشي الإطالة :

الملك، شبه الملك، التعدية، التعليل، التوكيد ، وهي المعترضة والمقحمة، ولام المستغاث، ثم تقوية العامل وموافقة إلى، ولام القسم، ولام التعجب، ولام الصيرورة والتعدية، والاستعلاء ، وموافقة في، وموافقة عند ، وموافقة من، ولام التبليغ، وموافقة

عن، والتمليك، والتعليل، والداخلة على المضارع، ولام توكيد النفي، ولام التبيين وهي ثلاثة أقسام: لتبيين المفعول، وتبيين الفاعلية الملتبسة لمفعولين، وبالعكس.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 82 إلى 83]

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَساراً (82) وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً (83)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ننزل) مضارع مرفوع، والفاعل نحن للتعظيم (من القرآن) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ننزّل) " 1 " (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (شفاء) خبر مرفوع (رحمة) معطوف على شفاء مرفوع (للمؤمنين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (شفاء ورحمة)، (الواو) عاطفة (لا) نافية (يزيد) مضارع مرفوع، والفاعل هو (الظالمين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء (إلّا) للحصر (خسارا) مفعول به ثان منصوب.

جملة: " ننزّل... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " هو شفاء... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: " لا يزيد... " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

83 - (الواو) عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط متعلّق بـ

(أعرض) ، (أنعمنا) فعل ماض وفاعله (على الإنسان) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنعمنا) ، (أعرض) فعل ماض ، والفاعل هو (الواو) عاطفة (نأى) مثل أعرض ، والفتح مقدّر على الألف (بجانبه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نأى) ،

---

(1) (من) هنا لابتداء الغاية أو تبعيضيّة . . وقد تكون بيانيّة فتتعلّق بحال من (ما) . وأبو حيّان لا يجيز ذلك لأنّ (من) البيانيّة لا تتقدّم على ما تبيّنه .

(365/465)

و (الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (إذا) مثل الأول (مسّه) فعل ماض . .

و (الهاء) ضمير مفعول به (الشرّ) فاعل مرفوع (كان يئوسا) مثل كان مشهودا " 1 " .

وجملة : " أنعمنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أعرض . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " نأى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الشرط .

وجملة : " مسّه الشرّ " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " كان يئوسا " لا محلّ لها جواب الشرط الثاني .

الصرف :

(خسارا) ، مصدر سماعيّ لفعل خسر الثلاثيّ باب فرح ، وزنه فعال بفتح الفاء . . وثمّة مصادر أخرى للفعل هي خسر بفتح فسكون أو فتح ، وخسر بضمّتين أو ضمّ فسكون ، وخسارة بفتح الخاء ، وخسران بضمّ الخاء .

(نأى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله نأي - بياء في آخره - لأنّ المصدر النأي ، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا ، وزنه فعل .

البلاغة

- إسناد الخير إلى الله والشر لغيره :

في قوله تعالى : "أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ . . وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ" لتعليم الأدب مع الله تعالى .

---

(1) في الآية (78) من هذه السورة .

(366/465)

[سورة الإسراء (17) : آية 84]

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلاً (84)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (كلّ) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (يعمل) مضارع مرفوع ، والفاعل

هو (على شاكلته) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يعمل) ، و(الهاء) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (ربّكم) مبتدأ مرفوع . .

و(كم) مضاف إليه (أعلم) خبر مرفوع (الباء) حرف جرّ (من) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعلم) (هو أهدى) مثل هو شفاء " 2 " ، وعلامة الرفع في أهدى الضمّة المقدّرة على الألف (سبيلا) تمييز منصوب .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كلّ يعمل . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يعمل " في محلّ رفع خبر المبتدأ (كلّ) .

وجملة : " ربّكم أعلم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " هو أهدى " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

الصرف :

(شاكلة) ، مؤنّث شاكل ، اسم بمعنى المثل والنظير ، وزنه فاعلة .

---

(1) الذي سوّغ البدء بالنكرة كون (كلّ) يدلّ على عموم ، ثمّ هو على تأويل مضاف أي كلّ امرئ .

(2) في الآية (82) من هذه السورة .

[سورة الإسراء (17) : آية 85]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (85)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يسألونك) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل ، و(الكاف) ضمير مفعول به (عن الروح) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يسألونك) ، (قل) كالسابق " 1 " ، (الروح) مبتدأ مرفوع (من أمر) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ (ربّي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء . . و(الياء) مضاف إليه (الواو) استئنافيّة " 2 " ، (ما) نافية (أوتيتم) فعل ماض مبنيّ للمجهول . . و(تم) ضمير نائب الفاعل (من العلم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أوتيتم) " 3 " (إلّا) للحصر (قليلا) مفعول به منصوب .

جملة : " يسألونك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قلّ . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " الروح من أمر ربّي " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أوتيتم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 4 " .

الصرف :

(الروح) ، اسم لما يحلّ في البدن إشعارا بحياته ، وقال بعض المفسّرين إنّه جبريل . .

---

(1) في الآية السابقة (84) .

(2) أو عاطفة إذا كان الكلام بعدها من تمام قول الرسول الكريم وهو اختيار الجمل .

(3) لا يتعلّق الجارّ بمحذوف حال من (قليلا) لوجود (إلّا) حيث لا يعمل ما بعدها في ما قبلها . .

(4) أو معطوفة على جملة مقول القول في محلّ نصب .

الفوائد

- تعنّت اليهود وتعجيزهم للرسل :

روى البخاري ومسلم والترمذي ، عن عبد الله قال : بينا أنا مع النبي / صلّى اللّه عليه وسلّم / في حرث وهو متكئ على عسيب إذ مرّ به اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح. فقال : ما رابكم إليه ؟ وقال بعضهم لا يستقبلنكم بشيء تكرهونه ، فقالوا : سلوه ، فسألوه عن الروح ، فأمسك النبي / صلّى اللّه عليه وسلّم / فلم يرد عليهم

شيئًا ، فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامي ، فلما نزل الوحي قال :

ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي . . إلخ .

وقد اختلف الناس في الروح المسؤول عنه . . فذهبوا بذلك مذاهب . الذي نرتاح إليه ما ذهب إليه أهل التأويل :

أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد وقال أهل النظر منهم : انما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه في بدن الإنسان ، وكيفيّة امتزاجه بالجسم واتصال الحياة به . وهذا شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وهكذا ليعرف الإنسان عجزه عن معرفة حقيقة نفسه مع العلم بوجودها .

وحكمة ذلك ، تعجيز العقل عن معرفة مخلوق مجاور له ، دلالة على أنه عن معرفة خالقه أعجز . .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 86 إلى 87]

وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلاً (86) إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (87)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة – أو عاطفة – (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (شئنا) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و(نا) ضمير فاعل (اللام) لام القسم (نذهبنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع ، و(النون) للتوكيد ، والفاعل نحن للتعظيم (الباء) حرف جرّ (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بفعل نذهبنّ (أوحينا) مثل شئنا لا محلّ له (إلى) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أوحينا) ، (ثمّ) حرف عطف (لا تجد . . وكيلا) مثل نظيرها " 1 " ، والجارّ والمجرور (به) متعلّق بالاستقرار الذي تعلّق به الجارّ (لك) وهو المفعول الثاني .

وجملة : " شئنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة – أو معطوفة على استئناف سابق – .

وجملة : " نذهبنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : " أوحينا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " لا تجد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة القسم .

87 – (إلّا) أداة استثناء (رحمة) منصوبة على الاستثناء المنقطع " 2 " ، (من ربّك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (رحمة) " 3 " ، و(الكاف) مضاف إليه (إنّ) حرف مشبّه بالفعل

(فضله) اسم إنّ منصوب، و(الهاء) مضاف إليه (كان) فعل ماض ناقص - ناسخ - واسمه ضمير مستتر تقديره هو (على) حرف جرّ (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (كبيرا) وهو خبر كان منصوب.

---

(1) في الآية (75) من هذه السورة.

(2) أو المتّصل لأنّ الرحمة من جنس الوكيل على رأي بعض المفسّرين.. وهو عند العكبريّ مفعول لأجله بعد إلّا التي للاستدراك أي لكن حفظناه للرحمة، كما يجوز عنده أن يكون مفعولا مطلقا لفعل محذوف والتقدير لكن رحمناك رحمة. [.....]

(3) أو متعلّق بمحذوف نعت لرحمة.

وجملة: "إنّ فضله كان..." لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "كان عليك كبيرا" في محلّ رفع خبر إنّ.

[سورة الإسراء (17) : آية 88]

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (88)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (لئن) مثل السابق " 1 " ، (اجتمعت) فعل ماض ، و(التاء) للتأنيث وحرّكت بالكسر لالتقاء الساكنين (الإنس) فاعل مرفوع (الجنّ) معطوف على الإنس بالواو مرفوع (على) حرف جرّ (أن) حرف مصدريّ ونصب (يأتوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . و(الواو) فاعل (بمثل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأتوا) ، (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (القرآن) بدل من ذا - أو عطف بيان - مجرور (لا) نافية (يأتون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل (بمثله) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأتون) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه . .

والمصدر المؤوّل (أن يأتوا . . .) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بـ (اجتمعت) .

(الواو) حاليّة (لو) حرف شرط غير جازم (كان) فعل ماض ناقص (بعضهم) اسم كان مرفوع . . و(هم) ضمير مضاف إليه (لبعض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ظهيرا) وهو خبر كان منصوب .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) في الآية (86) من هذه السورة .

وجملة : " إن اجتمعت الإنس . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا يأتون . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : " كان بعضهم . . . " في محلّ نصب حال .

الصرف :

(ظهيرا) ، صفة مشبّهة من فعل ظهر الثلاثيّ بمعنى أعان ، وزنه فعيل .

الفوائد

- اجتماع واو العطف و " لو " الشرطية : عند ما يتقدم حرف العطف " الواو " قبل " لو " يكون عاطفا على مقدر ، ويكون حذف المعطوف عليه مطردا لدلالة المعطوف دلالة واضحة عليه .

ففي قوله تعالى: "وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً" فالعطف هنا على مقدّر أي لا يأتون بمثله.

[سورة الإسراء (17) : آية 89]

وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (89)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (صرّفنا) فعل ماض وفاعله (للناس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (صرّفنا) ، (في) حرف جرّ (هذا القرآن) مثل السابقة " 1 " متعلّق بـ (صرّفنا) ، (من كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لمفعول صرّفنا أي صرّفنا عبرة من كلّ مثل - أو مثلا

---

(1) في الآية (88) السابقة.

من كل مثل (مثل) مضاف إليه مجرور (الفاء) عاطفة (أبى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (أكثر) فاعل مرفوع (الناس) مضاف إليه مجرور (إلّا) أداة حصر " 1 " ، (كفورا) مفعول به منصوب.

جملة: "صرّفنا... "لا محلّ لها جواب قسم مقدّر.. وجملة القسم المقدّر لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أبى أكثر... "لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم.

الصرف:

(كفورا)، مصدر سماعيّ لفعل كفر الثلاثيّ، وزنه فعول بضمّ الفاء.

[سورة الإسراء (17): الآيات 90 إلى 93]

وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً (93)

الإعراب:

---

(1) في الفعل المتقدّم (أبى) معنى النفي أي لم يرضوا إلّا كفورا.

(الواو) استئنافيّة (قالوا) فعل ماض وفاعله (لن) حرف نفي ونصب (نؤمن) مضارع منصوب، والفاعل نحن (اللام) حرف جرّ و(الكاف)

ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نؤمن)، (حتّى) حرف غاية وجرّ (تفجّر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى، والفاعل أنت (لنا) مثل لك متعلّق بـ (تفجّر)، (من الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تفجّر) "1"، (ينبوعا) مفعول به منصوب..

والمصدر المؤوّل (أن تفجّر..) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (نؤمن).

جملة: "قالوا..." لا محلّ لها استئنافيّة "2".

وجملة: "لن نؤمن..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "تفجّر..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

91- (أو) حرف عطف (تكون) مضارع ناقص منصوب معطوف على (تفجّر)، (لك) مثل الأول متعلّق بخبر تكون، (جنّة) اسم تكون مرفوع (من نخيل) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لجنّة (عنب) معطوف على نخيل بالواو (الفاء) عاطفة (تفجّر) مثل تفجر معطوف على (تكون)، (الأنهار) مفعول به منصوب (خلالها) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (تفجّر) و(ها) مضاف إليه (تفجيرا) مفعول مطلق منصوب.

وجملة: "تكون لك جنّة..." لا محلّ لها معطوفة على جملة تفجر.

وجملة: "تفجّر" لا محلّ لها معطوفة على جملة تكون.

92 - (أو تسقط السماء) مثل تفجّر الأنهار (الكاف) حرف جرّ " 3 " ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محل جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق أي إسقاطا كالذي

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من (ينبوعا) .

(2) يجوز أن تكون معطوفة على جملة أبى أكثر الناس السابقة.

(3) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي إسقاطا مثل الذي زعمته.

زعمته (زعمت) فعل ماض وفاعله ، والعائد محذوف (على) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تسقط) ، (كسفا) حال منصوبة على حذف مضاف أي ذات كسف

(أو تأتي) مثل أو تسقط (بالله) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تأتي) ، (الملائكة) معطوف على لفظ الجلالة بالواو مجرور (قبيلا) حال منصوبة من لفظ الجلالة والملائكة " 1 " .

وجملة : " تسقط . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تكون . .

وجملة : " زعمت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تأتي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تسقط .

93 - (أو يكون لك بيت من زخرف) مثل أو تكون لك جنّة . . (أو ترقى) مثل أو تسقط ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (في السماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ترقى) ، (الواو) عاطفة (لن نؤمن . . علينا كتابا) مثل لن نؤمن . . . ينبوعا (نقرؤه) مضارع مرفوع . . و(الهاء) ضمير مفعول به ، والفاعل نحن .

والمصدر المؤوّل (أن تنزّل . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (نؤمن) .

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب (ربّي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء . . و(الياء) ضمير مضاف إليه (هل) حرف استفهام للنفي (كنت) فعل ماض ناقص واسمه (إلّا) أداة حصر (بشرا) خبر منصوب (رسولا) نعت لـ (بشرا) منصوب " 2 " .

---

(1) أو من الملائكة فقط إذا كان جمع قبيلة . . وصحّ ذلك على تأويل مشتقّ أي مجتمعين .

(2) يجوز أن يكون هو الخبر ويكون (بشرا) حينئذ حالا من (رسولا) .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " (أسبّح) سبحان " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " هل كنت إلّا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(ينبوعا) ، اسم جامد بمعنى عين الماء ، وزنه يفعول كيعقوب من عبّ الماء إذا زخر وكثر موجه (تفجيرا) ، مصدر قياسيّ لفعل فجّر الرباعيّ ، وزنه تفعيل .

(كسفا) ، جمع كسفة بمعنى قطعة من كسفت الثوب أي قطعته وزنه فعلة بكسر الفاء .

(قبيلا) ، إمّا صفّة مشبّهة بمعنى مقابل وزنه فعيل ، وإمّا جمع قبيلة اسم جامد .

(ترقى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله ترقي بالياء في آخره تحركت بعد فتح قلبت ألفا " 1 "

.

الفوائد

- حجاج قريش :

حفظ لنا التاريخ أن رجال قريش ، مثل عتبة وشيبة ابني ربيعة ، وأبي سفيان والنضر بن الحارث ، وأبي جهل وعبد اللّه بن أمية ، وأمية بن خلف وأبي البختري ، والوليد بن المغيرة وغيرهم ، لما عجزوا عن معارضة القرآن ، ولم يرضوا به معجزة ، اجتمعوا - فيما ذكر ابن إسحاق وغيره - بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى

محمد / صلّى اللّه عليه وسلّم / فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه : أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلمونك فأتهم .

---

(1) (رقيّك) ، مصدر سماعيّ للثلاثي رقي وزنه فعول بضمتين ، فيه إعلال بالقلب اجتمعت الواو والياء والأولى ساكنة فقلبت الواو ياء وأدغمت ثم كسر ما قبل الياء للمناسبة .

فجاءهم رسول اللّه / صلّى اللّه عليه وسلّم / وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بدو ، وكان حريصا ، يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم . فقالوا له : يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا واللّه ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفّهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك . أو كما قالوا له ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا ، فنحن نسوّدك علينا وان كنت تريد به ملكا ، ملكناك علينا وان كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه ، قد غلب عليك – وكانوا يسمون التابع

من الجن رئيا – فربما كان ذلك ، بذلنا أموالنا في طلب الطلب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيك .

فقال لهم رسول اللّه/ صلّى اللّه عليه وسلّم/ :

ما بي ما تقولون . ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن اللّه بعثني إليكم رسولا ، وأنزل علي كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فان تقبلوا مني ما جئتكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليّ ، أصبر لأمر اللّه ، حتى يحكم اللّه بيني وبينكم ، أو كما قال/ صلّى اللّه عليه وسلّم/ قالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئًا مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ، ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشا منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسيّر عنا هذه الجبال التي ضيّقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليخرق لنا فيها أنهارا كأنهار الشام ، وليبعث لنا ما مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا قصيّ بن كلاب ، فإنه كان شيخا صدوقا فنسألهم عما تقول ، أحق هو أم باطل ، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك ، وعرفنا به

منزلتك من الله تعالى ، وأنه بعثك رسولا كما تقول ، فقال لهم /صلّى اللّه عليه وسلّم/ ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئتكم من الله تعالى بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر اللّه ، حتى يحكم اللّه بيني وبينكم . قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ،

سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، واسأله ، فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة ، يغنيك بها عما نراك تبغي ، فإنك تقوم بالأسواق ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك ، إن كنت رسولا كما تزعم ، فقال لهم /صلّى اللّه عليه وسلّم/ ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت بهذا إليكم ، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر اللّه ، حتى يحكم اللّه بيني وبينكم . قالوا : فأسقط علينا كسفا من السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل ، فقال رسول اللّه /صلّى اللّه عليه وسلّم/ : ذلك إلى اللّه عز وجل ، إن شاء أن يفعله بكم فعل .

قالوا يا محمد : أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك فيعلمك بما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ؟ انما بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل من اليمامة ، يقال له الرحمن ، وإنا واللّه لن نؤمن بالرحمن أبدا ، فإنا أعذرنا إليك يا محمد ، وانا واللّه لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلك أو تهلكنا .

فلما قالوا ذلك : قام عنهم رسول اللّه / صلّى اللّه عليه وسلّم / وانصرف حزينا آسفا إلى أهله ، لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه .

فنزل من القرآن ما نزل بحق هؤلاء المعاندين الظالمين المشركين .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 94 إلى 96]

وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلاَّ أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً (94) قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً (95) قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (96)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (منع) فعل ماض (الناس) مفعول به مقدّم منصوب (أن) حرف مصدريّ ونصب (يؤمنوا) مضارع منصوب ، وعلامة النصب حذف النون . . و(الواو) فاعل (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (يؤمنوا) ، (جاءهم) مثل منع . . و(هم) ضمير مفعول به (الهدى) فاعل جاء مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (إلّا) أداة حصر (أن) حرف مصدريّ (قالوا) فعل ماض وفاعله (الهمزة) للاستفهام التعجبّي (بعث) مثل منع (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (بشرا) حال من (رسولا) منصوبة (رسولا) مفعول به منصوب .

والمصدر المؤوّل (أن يؤمنوا . . .) في محلّ نصب مفعول به ثان عامله منع .

والمصدر المؤوّل (أن قالوا . .) في محلّ رفع فاعل منع .

جملة : " منع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يؤمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " جاءهم الهدى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

وجملة : " أبعث اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

95 - (قل) فعل أمر والفاعل أنت (لو) حرف شرط غير جازم (كان) فعل ماض ناقص -

ناسخ - (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بخبر مقدّم (ملائكة) اسم كان مرفوع (يمشون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل (مطمئنّين) حال منصوبة من فاعل يمشون (اللام) واقعة في جواب لو (نزّلنا) فعل ماض وفاعله (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نزّل) (من السماء) جارّ

ومجرور متعلّق بـ (نزّلنا) ، (ملكا) حال منصوبة من (رسولا) المفعول به لفعل نزّلنا .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كان في الأرض ملائكة . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يمشون . . . " في محلّ رفع نعت لملائكة .

وجملة : " نزّلنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

96 - (قل) مثل الأول (كفى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (بالله) مجرور لفظا بالباء ومرفوع محلّا فاعل كفى (شهيدا) تمييز منصوب " 1 " ، (بيني) ظرف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء متعلّق بـ (شهيدا) . . و(الياء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (بينكم) معطوف على الظرف الأول ويعرب مثله ، ويتعلّق بما تعلّق به

وعلامة النصب الفتحة الظاهرة، (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (كان) فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (بعباده) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خبيرا - بصيرا).. و(الهاء) مضاف إليه (خبيرا) خبر كان منصوب (بصيرا) خبر ثان منصوب.

وجملة: "قل..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر.

وجملة: "كفى باللّه..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "إنّه كان..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "كان بعباده خبيرا..." في محلّ رفع خبر إنّ.

---

(1) أو حال منصوبة.

(382/465)

[سورة الإسراء (17) : الآيات 97 إلى 98]

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً (97) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (98)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ نصب مفعول به مقدّم (يهد) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف حرف العلّة (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الفاء) رابطة لجواب الشرط (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (المهتد) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء - وقد حذفت من الرسم تخفيفا - (الواو) عاطفة (من يضلل) مثل من يهد ، والسكون ظاهر ، والفاعل هو (الفاء) مثل الأولى (لن) حرف نفي ونصب (تجد) مضارع منصوب ، والفاعل أنت (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمفعول ثان مقدّر (أولياء) مفعول به منصوب ، ومنع من التنوين لانتهائه بألف التأنيث الممدودة على وزن أفعلاء (من دونه) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لأولياء و(الهاء) مضاف إليه (الواو) استئنافيّة (نحشرهم) مضارع مرفوع . . و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل نحن للتعظيم (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (نحشرهم) ، (القيامة) مضاف إليه مجرور (على وجوههم) جارّ ومجرور متعلّق بحال من ضمير المفعول في (نحشرهم) أي ماشين . . و(هم) ضمير مضاف إليه (عميا) حال ثانية من الضمير منصوبة

(الواو) عاطفة (بكما) معطوف على (عميا) وكذلك (صمّا) ، (مأواهم) مبتدأ مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف . . و(هم) ضمير مضاف إليه (جهنّم) خبر المبتدأ مرفوع ، ومنع من التنوين للعلميّة والتأنيث (كلّما) ظرف مبنيّ متضمّن معنى الشرط

متعلّق بـ (زدناهم) ، (خبت) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و(التاء) للتأنيث ، والفاعل هي (زدناهم) فعل ماض وفاعله ، و(هم) ضمير مفعول به أوّل (سعيرا) مفعول به ثان منصوب .

جملة : " يهد اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هو المهتدي . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " يضلل . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " لن تجد . . . " في محلّ جزم جواب الشرط الثاني مقترنة بالفاء .

وجملة : " نحشرهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " مأواهم جهنّم . . . " استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " خبت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه " 2 " .

وجملة : " زدناهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

98 - (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، والإشارة إلى العذاب ، و(اللام) للبعد ، و(الكاف) للخطاب (جزاؤهم) خبر مرفوع " 3 " . . و(هم) مضاف إليه (الباء) حرف

جرّ للسببيّة (أنّهم) حرف توكيد ونصب . . و(هم)

---

(1) أو في محلّ نصب حال من ضمير الغائب في (نحشرهم) .

(2) يجوز جعل (كلّ) وحده منصوبا على الظرفية وإضافته إلى المصدر المؤوّل من (ما) المصدريّة الظرفيّة والفعل أي: كلّ مدة خبو من النار زدناهم . . والظرف وما أضيف إليه حال من جهنّم .

(3) أو هو بدل من المبتدأ (ذا) ، و(بأنّهم . .) خبر ، ويجوز أن يكون مبتدأ ثانيا خبره (بأنهم . .) والجملة خبر الأول. [. . . . .]

(384/465)

ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (كفروا) فعل ماض وفاعله (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كفروا) ، و(نا) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أنّهم كفروا . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بالمصدر جزاؤهم . . أو بحال منه والعامل الإشارة .

(الواو) عاطفة (قالوا) مثل كفروا (الهمزة) للاستفهام التعجّبيّ - أو الإنكاريّ - (إذا) ظرف للزمن المستقبل مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بمضمون الجواب (كنّا) فعل ماض ناقص

واسمه (عظاما) خبر كان منصوب (الواو) عاطفة (رفاتا) معطوف على (عظاما) منصوب (الهمزة) مثل الأولى (إنّا) حرف مشبّهة بالفعل.. و(نا) ضمير اسم إنّ (اللام) هي المزحلقة للتوكيد (مبعوثون) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو (خلقا) مفعول مطلق منصوب نائب عن المصدر فهو مرادفه والعامل مبعوثون أي: مبعوثون بعثا جديدا "1"، (جديدا) نعت لـ (خلقا) منصوب.

---

(1) أو مصدر في موضع الحال أي مخلوقين.. وانظر الآية (49) من هذه السورة.

وجملة: "ذلك جزاؤهم..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "كفروا..." في محلّ رفع خبر أنّ.

وجملة: "قالوا..." في محلّ رفع معطوفة على جملة كفروا.

وجملة: "الشرط وفعله وجوابه..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "كنّا..." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "إنّا لمبعوثون..." لا محلّ لها تفسير للجواب المقدّر أي: أإذا كنّا عظاما.. نبعث من جديد.

الصرف :

(خبت) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله خبات ، التقى ساكنان فحذف حرف العلّة ، وزنه فعت .

البلاغة

- الالتفات :

في قوله تعالى : " وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ " .

فيه التفات من الغيبة إلى التكلم للإيذان بكمال الاعتناء بأمر الحشر .

[سورة الإسراء (17) : آية 99]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً (99)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (الواو) استئنافيّة (لم) حرف نفي وجزم (يروا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . و(الواو) فاعل (أنّ) حرف توكيد ونصب (اللّه) لفظ الجلالة اسم أنّ منصوب (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت للفظ الجلالة (خلق) فعل ماض ، والفاعل هو (السموات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (الأرض) معطوف على السموات بالواو منصوب (قادر) خبر مرفوع (على) حرف جرّ (أن) حرف مصدريّ

ونصب (يخلق) مضارع منصوب، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (مثلهم) مفعول به منصوب.. و(هم) مضاف إليه.

والمصدر المؤوّل (أنّ الله.. قادر) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يروا..

والمصدر المؤوّل (أن يخلق) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بـ (قادر).

(الواو) عاطفة (جعل) فعل ماض، والفاعل هو (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (أجلا) مفعول به منصوب (لا) نافية للجنس (ريب) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (في) حرف جرّ (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر لا (الفاء) عاطفة (أبي) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر (الظالمون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو (إلّا) للحصر (كفورا) مفعول به منصوب " 1 ".

جملة: " لم يروا... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " خلق... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة: " يخلق... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: " جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئنافيّة.

وجملة: " لا ريب " في محلّ نصب نعت لـ (أجلا).

وجملة: " أبى الظالمون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعل.

[سورة الإسراء (17) : آية 100]

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً (100)

الإعراب:

(قل) فعل أمر، والفاعل أنت (لو) حرف شرط غير جازم (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف يفسّره ما بعده " 2 "، (تملكون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل (خزائن) مفعول به منصوب (رحمة) مضاف إليه مجرور (ربّي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء . . و(الياء) ضمير مضاف إليه (إذا) - بالتنوين - حرف

---

(1) انظر الآية (89) من هذه السورة.

(2) أو هو اسم لـ (كان) مقدّرا بعد لو . . وجملة تملكون هي خبر كان في محلّ نصب.

جواب (اللام) واقعة في جواب لو (أمسكتم) فعل ماض وفاعله (خشية) مفعول لأجله منصوب (الإنفاق) مضاف إليه مجرور (الواو) استئنافيّة (كان) فعل ماض ناقص (الإنسان) اسم كان مرفوع (قتورا) خبر كان منصوب .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (تملكون) المقدّرة " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تملكون الظاهرة " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " أمسكتم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " كان الإنسان قتورا " لا محلّ لها استئنافيّة فيها معنى التعليل .

الصرف :

(قتورا) ، صفة مشبّهة من (قتر) الثلاثيّ باب نصر وباب ضرب ، وزنه فعول بفتح الفاء .

الفوائد

1 - يرى النحاة ، أن الشرط لا يتعلق الا بالأفعال ، لأن الفعل يتصف بالحدوث ، ولذلك يتعلق الشرط على وقوع الحدث أما الاسم ، فهو ثابت ومجرد عن معنى الحدوث .

لذلك رأوا أنه إذا دخل اسم الشرط أو حرفه على الاسم ، فنحن بحاجة أن نقدر فعلا محذوفا يقع بين أداة الشرط والاسم المباشر لها .

وقد ورد عن بعضهم قوله : " لو ذات سوار لطمتني " والتقدير " لو لطمتني ذات سوار " .

2 - بعض المتأخرين من النحاة ، رأى أن يعامل " إذا " عند ما تنون معاملة " إذ " عند ما تنون أيضا . وكلا التنوينين في " إذا " و " إذ " هو تنوين العوض وهو عوض عن جملة محذوفة ، حلّ التنوين محلها ، وتفهم من سياق الكلام .

وأتبعوا كلامهم هذا بأن " إذا " المنونة ليست الناصبة للفعل المضارع ، لأنها تدخل على الفعل الماضي ، كما تدخل على الاسم .

وممن رأى هذا الرأي أبو حيان والزركشي وغيرهما وليس ذلك ببعيد .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 101 إلى 104]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً (101) قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (102) فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (103) وَقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً (104)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (آتينا) فعل ماض وفاعله (موسى) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة (تسع) مفعول به ثان منصوب (آيات) مضاف إليه مجرور (بيّنات) نعت لـ (تسع) منصوب " 1 "، وعلامة النصب الكسرة (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اسأل) فعل أمر، والفاعل أنت " 2 "، (بني) مفعول به

---

(1) أو نعت لآيات مجرور.

(2) والخطاب للرسول عليه السلام وهو اختيار ابن كثير.. ويجيز السيوطي أن يكون الخطاب لموسى عليه السلام أيضا بحسب اختلاف التفسير.

منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر (إسرائيل) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف " 1 "، (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (آتينا) " 2 "، (جاءهم) فعل ماض.. و(هم) ضمير مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي موسى (الفاء) عاطفة (قال) مثل جاء (اللام) حرف جرّ

و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (قال)، (فرعون) فاعل مرفوع، ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (إنّي) حرف مشبّهة بالفعل.. و(الياء) في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة للتوكيد (أظنّك) فعل مضارع مرفوع.. و(الكاف) ضمير مفعول به والفاعل أنا (يا) أداة نداء (موسى) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (مسحورا) مفعول به ثان منصوب.

جملة: "آتينا..." لا محلّ لها جواب القسم المقدّر.. وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "اسأل..." لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي: إذا جاءك بنو إسرائيل فاسألهم عن الآيات التسع.. "3" وجملة الشرط والجواب لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: "جاءهم..." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "قال له فرعون" في محلّ جرّ معطوفة على جملة جاءهم.

وجملة: "إنّي لأظنّك..." في محلّ نصب مقول القول.

---

(1) والمفعول الثاني محذوف أي اسألهم يا محمّد عنها سؤال إقرار لأخذ الحجّة عليهم.

(2) أو متعلّق بفعل محذوف تقديره قلنا له - أي موسى - اسأل فرعون بني إسرائيل - أي اطلبهم منه - إذ جاءهم - أي موسى -.. وفي الكلام التفات. وأجاز العكبريّ أن يكون اسما ظرفيّا مفعولا به لفعل محذوف تقديره اذكر.

(3) أو هي مقول القول لقول مقدّر بحسب التخريج الثاني في توجيه ضمير اسأل أي فقلنا له اسأل . .

(390/465)

وجملة : " أظنّك . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " النداء : يا موسى . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

102 - (قال) فعل ماض ، والفاعل هو أي موسى (لقد علمت) مثل لقد آتينا (ما) نافية (أنزل) مثل قال (ها) حرف تنبيه (أولاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (إلّا) أداة حصر (ربّ) فاعل مرفوع (السموات) مضاف إليه مجرور (الأرض) معطوف على السموات بالواو مجرور (بصائر) حال منصوبة والعامل مقدّر بعد إلّا " 1 " ، (الواو) عاطفة (إنّي لأظنّك . . مثبورا) مثل إنّي لأظنّك . . مسحورا .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " علمت " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجملة القسم المقدّرة في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما أنزل . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل العلم الذي تعلّق عن العمل المباشر

بالنفي .

وجملة : " إنّي لأظنّك . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " أظنّك . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " النداء : يا فرعون " لا محلّ لها اعتراضيّة .

103 - (الفاء) عاطفة (أراد) مثل قال والفاعل فرعون (أن) حرف مصدريّ ونصب (يستفزّهم) مضارع منصوب . . و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو

---

(1) أي : أنزلها بصائر وهو مذهب الجمهور الذي لا يجيز أن يعمل ما قبل (إلّا) في ما بعدها . . وابن عطيّة والحوفيّ وأبو البقاء العكبريّ يجيزون هذا الإعمال ، فبصائر حال من (هؤلاء) والعامل أنزل الظاهر .

(من الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يستفزّهم) بتضمينه معنى يخرجهم (الفاء) عاطفة (أغرقناه) مثل آتينا . . و(الهاء) مفعول به (الواو) عاطفة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب معطوف على ضمير المفعول (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف صلة من

و(الهاء) مضاف إليه (جميعا) حال منصوبة.

والمصدر المؤوّل (أن يستفزّهم) في محلّ نصب مفعول به.

وجملة: "أراد... " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال...

وجملة: "يستفزّهم... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

(392/465)

وجملة: "أغرقناه... " لا محلّ لها معطوفة على جملة أراد.

104 - (الواو) عاطفة (قلنا) مثل آتينا (من بعده) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قلنا)، و(الهاء) مضاف إليه (لبني) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قلنا)، وعلامة الجرّ الياء (إسرائيل) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (اسكنوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون.. و(الواو) فاعل (الأرض) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (جئنا)، (جاء) فعل ماض مبنيّ (وعد) فاعل مرفوع (الآخرة) مضاف إليه مجرور (جئنا) مثل آتينا (الباء) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (جئنا)، (لفيفا) حال منصوبة من الضمير المجرور في (بكم) أي مجتمعين.

وجملة: " قلنا... " لا محلّ لها معطوفة على جملة أغرقناه.

وجملة : " اسكنوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " جاء وعد . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " جئنا بكم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

الصرف :

(مثبورا) ، اسم مفعول من (ثبر) الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

(لفيفا) ، اسم جمع بمعنى الجمع العظيم من أخلاط شتّى ، وزنه فعيل ، أو هو مصدر لفّ يلفّ باب نصر أي ضمّ بعضه إلى بعض .

الفوائد

- لقد اختلف في هذه الآيات التسع :

وأهم ما يستفاد من هذا الخلاف رأيان أحدهما

أن يهوديين أتيا محمدا / صلّى اللّه عليه وسلّم/ فسألاه عن قوله تعالى : " وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ " فقال رسول اللّه/ صلّى اللّه عليه وسلّم/ : " لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تسرقوا ، ولا تسحروا ، ولا تمشوا ببري ء إلى السلطان فيقتله ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا محصنة ، ولا تفرقوا من الزحف . ثم قال : وعليكم يا معشر اليهود خاصة ألا تعدوا يوم السبت ، فقبّلا يديه ورجليه وقالا : نشهد أنك نبي . . . . ! "

و ثانيهما عن ابن عباس والضحاك أن الآيات التسع هي :

العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم ، آيات مفصلات

. . وثمة خلافات جزئية ، حول بعض الآيات ، نتجاوزها خشية الاطناب والتطويل ، وبين

أيديكم كتب التفسير ، ففيها لكل مجتهد نصيب .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 105 إلى 106]

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (105) وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ

عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً (106)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بحال من الهاء

في (أنزلناه) " 1 " أو من الفاعل (أنزلناه) فعل ماض وفاعله . . و(الهاء) ضمير مفعول به

(الواو) عاطفة (بالحقّ) مثل الأول " 2 " ، (نزل) فعل ماض ، والفاعل هو أي القرآن (الواو)

عاطفة (ما) نافية (أرسلناك) مثل أنزلناه (إلّا) أداة حصر (مبشّرا) حال منصوبة من ضمير

الخطاب (نذيرا) معطوف على (مبشّرا) بالواو منصوب .

جملة : " أنزلناه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نزل . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " أرسلناك . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

106 - (الواو) عاطفة (قرآنا) مفعول به لفعل محذوف يفسّره ما بعده " 3 " ، (فرقناه) مثل أنزلناه (اللام) للتعليل (تقرأه) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام . . و(الهاء) ضمير مفعول به والفاعل أنت (على الناس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تقرأه) ، (على مكث) جارّ ومجرور حال من فاعل تقرأ أي متمهّلا .

والمصدر المؤوّل (أن تقرأه . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (فرقناه) .

(الواو) واو الحال (نزّلناه) مثل أنزلناه (تنزيلا) مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " (فرقنا) قرآنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزلناه .

وجملة : " فرقناه . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " تقرأه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

---

(1) أي أنزلناه ملتبسا بالحق . . أو ملتبسين أي ومعنا الحقّ ، ويجوز أن يكون متعلّقا بـ (أنزلناه) أي بسبب إقامة الحقّ .

(2) أو متعلّق بفعل محذوف تقديره آتيناك ، يدل عليه قوله : ولقد آتينا موسى . . وجملة

فرقناه نعت لـ (قرآنا) .

(3) ولا يكون حالا إلّا من ضمير القرآن وحده .

وجملة : " نزّلناه . . . " في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

الصرف :

(مكث) ، مصدر سماعيّ لفعل مكث الثلاثيّ باب نصر وهو التطاول في المدّة ، وزنه فعل بضمّ فسكون وقد يأتي بفتح وقد قرئ به ، وبكسر ولم يقرأ به .

(تنزيلا) ، مصدر قياسيّ لفعل نزّل الرباعيّ ، وزنه تفعيل .

البلاغة

1 - الذكر أو التصريح :

في قوله تعالى : " وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ " .

فلو ترك الإظهار وعدل عنه إلى الإضمار ، كما يقتضي السياق ، فقال :

وبالحق أنزلناه وبه نزل ، لم يكن فيه من الفخيمة ما فيه الآن . ويسميه بعضهم بالتصريح .

2 - فن الاستطراد :

في قوله تعالى " وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ " .

عود إلى شرح حال القرآن الكريم ، فهو مرتبط بقوله تعالى " لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ " الآية . وهكذا طريقة العرب في كلامها ، تأخذ في شيء ، وتستطرد منه إلى آخر ، ثم إلى آخر ، ثم إلى آخر ، ثم تعود إلى ما ذكرته أولا .

3 - القصر :

في قوله تعالى " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً " .

في الكلام قصر إضافي . والقصر هو : تخصيص شيء بشيء ، بطريق مخصوص .

وينقسم إلى : حقيقي وإضافي . فالحقيقي : ما كان الاختصاص فيه بحسب الواقع والحقيقة ، لا بحسب الإضافة إلى شيء آخر . نحو : لا كاتب في المدينة إلا علي ، إذا لم

يكن فيها غيره من الكتاب والإضافي : ما كان الاختصاص فيه بحسب الإضافة إلى شيء معين ، نحو ما علي إلا قائم أي أن له صفة القيام لا صفة القعود .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 107 إلى 109]

قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً

(107) وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (109)

الإعراب:

(قل) فعل أمر، والفاعل أنت (آمنوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون.. و(الواو) فاعل (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق ب (آمنوا)، (أو) حرف عطف (لا) ناهية جازمة (تؤمنوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون.. و(الواو) فاعل، و(به) الثاني مقدّر (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب اسم إنّ (أوتوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ مبنيّ للمجهول.. و(الواو) نائب الفاعل (العلم) مفعول به منصوب (من قبله) جارّ ومجرور متعلّق ب (أوتوا)، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بالجواب يخرّون (يتلى) مضارع مبنيّ للمجهول.. ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي القرآن (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق ب (يتلى)، (يخرّون) مضارع مرفوع.. و(الواو) فاعل (للأذقان) جارّ ومجرور متعلّق ب (يخرّون) بتضمينه معنى يذلّون "1"، (سجّدا) حال منصوبة.

---

(1) أو اللام بمعنى على أي يخرّون على الوجوه.. ويجوز أن يتعلّق الجارّ ب (سجّدا).

جملة: "قل . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "آمنوا به . . . "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "لا تؤمنوا . . . "في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

وجملة: "إنّ الذين أوتوا . . . "لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "أوتوا العلم . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "الشرط وفعله وجوابه" في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "يتلى . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "يخرّون . . . "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

108 - (الواو) عاطفة - أو حاليّة - (يقولون) مثل يخرّون (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف، (ربّنا) مضاف إليه مجرور . . و(نا) ضمير مضاف إليه (إن) مخفّفة من الثقيلة واجبة الإهمال (كان) فعل ماض ناقص - ناسخ - (وعد) اسم كان مرفوع (ربّنا) مثل الأول (اللام) هي الفارقة (مفعولا) خبر كان منصوب.

وجملة: "يقولون . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة يخرّون" 1 ".

وجملة: " (نسبح) سبحان ... " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة.

وجملة: "كان وعد ... " في محلّ نصب مقول القول.

109 - (الواو) عاطفة (يخرّون للأذقان) مثل الأولى (يبكون) مثل يخرّون (الواو) عاطفة -أو حاليّة- (يزيدهم) مضارع مرفوع .. و(هم) ضمير مفعول به، والفاعل هو أي القرآن أو البكاء أو السجود .. (خشوعا) مفعول به ثان منصوب.

---

(1) أو هي في محلّ نصب حال من فاعل يخرّون، أي يخرّون حالة كونهم يقولون ..

[......]

وجملة: " يخرّون (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة يخرّون (الأولى).

وجملة: " يبكون ... " في محلّ نصب حال من فاعل يخرّون.

وجملة: " يزيدهم ... " في محلّ نصب معطوفة على جملة يبكون " 1 " .

الصرف:

(الأذقان)، جمع ذقن، اسم جامد للعضو المعروف وزنه فعل بفتح فسكون، ووزن أذقان أفعال.

(خشوعا) ، مصدر سماعيّ لفعل خشع الثلاثيّ باب فتح ، وزنه فعول بضمّ الفاء .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 110 إلى 111]

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (111)

الإعراب :

(قل ادعوا) مثل قل آمنوا " 2 " ، (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به (أو) حرف عطف (ادعوا الرحمن) مثل ادعوا اللّه (أيّا) اسم شرط جازم مفعول به منصوب (ما) زائدة (تدعوا) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف النون . . و(الواو) فاعل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (الأسماء) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الحسنى) نعت للأسماء مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف

---

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل يكون .

(2) في الآية (107) من هذه السورة .

(الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تجهر) مضارع مجزوم، والفاعل أنت (بصلاتك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجهر)، و(الكاف) مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا تخافت) مثل لا تجهر (الباء) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تخافت)، (الواو) عاطفة (ابتغ) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة، والفاعل أنت (بين) ظرف منصوب متعلّق بـ (سبيلا) "1" وهو مفعول به.

جملة: "قل..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ادعوا اللّه..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "ادعوا الرحمن..." في محلّ نصب معطوفة على جملة ادعوا اللّه.

وجملة: "تدعوا..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "له الأسماء..." في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: "لا تجهر..." لا محلّ لها معطوفة على جملة قل.

وجملة: "لا تخافت..." لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تجهر.

وجملة: "ابتغ..." لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تجهر.

111 - (الواو) عاطفة (قل) مثل الأول (الحمد) مبتدأ مرفوع (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ (الذي) موصول في محلّ جرّ نعت للفظ الجلالة (لم) حرف نفي وجزم (يتّخذ)

مضارع مجزوم ، والفاعل هو (ولدا) مفعول به ثان " 2 " منصوب (الواو) عاطفة (لم) مثل الأول (يكن) مضارع ناقص مجزوم (له) مثل الأول متعلّق بخبر كان (شريك) اسم كان مرفوع (في الملك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (شريك) (الواو) عاطفة (لم يكن له وليّ) مثل لم يكن له شريك (من الذلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (وليّ) ، ومن سببيّة أي من أجل الذلّ (الواو)

---

(1) أو متعلّق بحال من (سبيلا) - نعت تقدّم على المنعوت - .

(2) والمفعول الأول مقدّر أي لم يتّخذ أحدا ولدا .

عاطفة (كبّره) فعل أمر . . و(الهاء) ضمير مفعول به والفاعل أنت (تكبيرا) مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل ادعوا . . .

وجملة : " الحمد للّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لم يتّخذ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " لم يكن له شريك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " لم يكن له وليّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة: "كبّره... " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل..

الصرف:

(ابتغ)، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء، وزنه افتع.

(تكبيرا)، مصدر قياسيّ لفعل كبّر الرباعيّ، وزنه تفعيل.

الفوائد

1 - أسماء الله الحسنى:

أجمع الفقهاء أن لله تسعة وتسعين اسما وهي ما يلي:

هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الخليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الصمد القادر المقتدر المقدم

المؤخر الأول الآخر الباطن الظاهر الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف ، مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور .

2 - حيرة قريش حيال القرآن :

مما حفظ لنا التاريخ أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول اللّه/ صلّى اللّه عليه وسلّم/ وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل منهم مجلسا يستمع فيه دون أن يراه صاحباه ، فباتوا يستمعون حتى طلع الفجر ، تفرقوا فجمعهم الطريق ، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودا لمثلها ، لو رآكم سفهاؤكم لأوقعتم في نفوسهم شيئا ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عادوا لما كانوا عليه في ليلتهم البارحة . ثم انصرفوا وتلاقوا في الطريق ، فقالوا مقالتهم الأولى ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة ، عادوا فاستمعوا ، ثم انصرفوا ، فتلاقوا فتعاتبوا ، ثم تعاهدوا على أن لا يعودوا لمثلها . . . . !

فلما أصبح الأخنس ، أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته ، فقال له : أخبرني يا أبا حنظلة ، عن رأيك فيما سمعت ، فقال : يا أبا ثعلبة ، واللّه لقد سمعت أشياء

أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها ، فقال الأخنس :

وأنا والذي حلفت به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فقال له : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا :

منا نبيّ يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه . . واللّه لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه انتهت بعون اللّه سورة الإسراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجدول جـ 15 صـ 136.70﴾

(402/465)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ) جملة ادعوا الذين مقول القول وادعوا فعل أمر وفاعل والذين مفعول به وجملة زعمتم صلة ومفعولا زعمتم محذوفان للعلم بهما وهما زعمتموهم آلهة ، ومن دونه الجار والمجرور متعلقان بمحذوف نصب على الحال . (فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلًا) الفاء استئنافية ولا نافية ويملكون كشف الضر فعل مضارع

وفاعل ومفعول به وعنكم متعلقان بكشف والواو حرف عطف ولا نافية وتحويلا معطوف على كشف الضر . (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ)

(403/465)

أولئك مبتدأ والذين يدعون بدل منه وجملة يبتغون خبر والواو فاعل والى ربهم متعلقان بالوسيلة ، والوسيلة مفعول به ويجوز لك أن تعرب الذين هي الخبر وجملة يبتغون حال من فاعل يدعون . (أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) أيهم بدل من فاعل يبتغون وأي موصولة ويجوز أن تكون استفهامية فهي مبتدأ وأقرب خبر وعبارة أبي حياة : " واختلفوا في اعراب أيهم أقرب وتقديرة ، فقال الحوفي أيهم أقرب ابتداء وخبر والمعنى ينظرون أيهم أقرب فيتوسلون به ويجوز أن يكون أيهم أقرب بدلا من الواو في يبتغون " ففي الوجه الأول أضمر فعل التعليق وأيهم أقرب في موضع نصب على إسقاط حرف الجر لأن نظر إن كان بمعنى الفكر تعدى بفي وان كانت بصرية تعدت بإلى فالجملة المعلق عنها الفعل على كلا التقديرين تكون في موضع نصب على إسقاط حرف الجر كقوله فلينظر أيها أزكى طعاما ، وفي إضمار الفعل المعلق نظر والوجه الثاني قاله الزمخشري قال : " وتكون أي موصولة أي يبتغي من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى اللّه فكيف بغير الأقرب " فعلى

هذا الوجه يكون أقرب خبر مبتدأ محذوف واحتمل أن يكون أيهم معربا وهو الوجه واحتمل أن يكون مبنيا لوجود مسوغ البناء ، وسيأتي حكم "أي" في باب الفوائد . وأقرب خبر لمبتدأ محذوف والمعنى يبتغون من هو أقرب منهم وأمت إليهم بزلفى الوسيلة إلى اللّه فما بالك بغير الأقرب فكيف يزعمون انهم آلهة ، ويرجون رحمته عطف على يبتغون ويرجون فعل مضارع وفاعل وحذفت لام الفعل وهي الواو لالتقاء الساكنين ورحمته مفعول به ويخافون عذابه عطف على يرجون رحمته . (إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً) تعليل للخوف وان واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو ومحذورا خبر كان .

الفوائد :

1- معنى تفضيل بعض الأنبياء على بعض :

(404/465)

تفضيل بعض الأنبياء على بعض يكون بتفاوت الفضائل النفسانية ولهذا اشتهر منهم أولو العزم المستهدفون للبلاء فما وهنوا وما استكانوا وكان محمد صلى اللّه عليه وسلم خاتمة الأنبياء الذين اتسموا بكامل الصفات وتخصيص داود بالزبور فيه رد على اليهود الذين زعموا انه لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة وقد استعمل الزبور بلام التعريف ومجردا

عنها لمحا للأصل لأنه فعول بمعنى المفعول كالحلوب بمعنى المحلوبة أو لأنه أراد بعضا من الزبور .

2- أي :

تأتي على ستة أوجه :

1- شرطية : " أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى " بدليل جزم تدعوا وإدخال الفاء رابطة على الجملة الاسمية وأيا ما مفعول تدعوا .

2- استفهامية : " أيكم زادته هذه إيمانا " " فبأي حديث بعده يؤمنون " .

3- موصولية : " لننزعنّ من كل شيعة أيهم أشد " التقدير لننزعن الذي هو أشد .

4- أن تكون دالة على الكمال فتقع صفة للنكرة نحو : زيد رجل أيّ رجل ، وحالا للمعرفة نحو مررت بعبد اللّه أيّ رجل .

5- أن تكون وصلة إلى نداء ما فيه أل نحو يا أيها الرجل ، وإنما التزم بناؤها على الضم لتكون على صورة المنادى المفرد المقصود بالنداء لأنه مضموم الآخر .

6- أن تكون للتعجب نحو : سبحان اللّه أيّ رجل هذا .

وأيّ تعرب في جميع أحوالها إلا إذا كانت موصولة مضافة ومحذوفا صدر صلتها كما تقدم فتبنى على الضم ، ولأيّ تفاصيل يرجع إليها في المطولات وسيأتي المزيد من بحثها .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 58 إلى 60]

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (58) وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (59) وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً (60)

الإعراب:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً) الواو استئنافية وإن نافية ومن حرف جر زائد وقرية

مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ وإلا أداة حصر ونحن مبتدأ ومهلكوها خبر والجملة الاسمية خبر قرية وقبل يوم القيامة الظرف متعلق بمهلكوها وأو حرف عطف ومعذبوها عطف على مهلكوها وعذابا مفعول مطلق وشديدا صلة. (كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً) كان واسمها وفي الكتاب متعلقان بمسطورا، ومسطورا خبر كان. (وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) الواو عاطفة وما نافية ومنعنا فعل ماض ومفعول به مقدم وأن

نرسل المصدر المؤول مفعول ثان لمنع وبالآيات الباء حرف جر زائد على حد زيادتها في قول عمرو بن كلثوم :

وقد علم القبائل من معد إذا قبب بأبطحها بنينا

بأنا المطعمون إذا أردنا وأنا النازلون بحيث شينا

(406/465)

ولك أن تجعلها أصلية فتكون للملابسة والمفعول محذوف أي في محل نصب حال والمعنى وما منعنا أن نرسل نبيا حالة كونه ملتبسا بالآيات ، وإلا أداة حصر وأن الثانية وما في حيزها في محل رفع فاعل منع وبها متعلقان بكذب والأولون فاعل . (وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها) هذه آية من الآيات التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها وآتينا فعل وفاعل وثمود مفعول به أول والناقة مفعول به ثان ومبصرة حال فظلموا الفاء عاطفة وظلموا فعل وفاعل وهو متضمن معنى كفروا وبها متعلقان به . (وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً) الواو للحال وما نافية ونرسل فعل مضارع وفاعل مستتر وبالآيات تقدم القول في هذه الباء وإلا أداة حصر وتخويفا مفعول لأجله ولك أن تجعله مصدرا في موضع نصب على الحال إما من الفاعل أي مخوفين بها أو من المفعول أي مخوّفا بها . (وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ)

الظرف متعلق

بمحذوف أي اذكر ولك متعلقان بقلنا وان واسمها وجملة أحاط بالناس خبرها . (وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) الواو عاطفة وما نافية وجعلنا الرؤيا فعل وفاعل ومفعول به وأراد بها ما رآه بعد الوحي في منامه أو ليلة الاسراء على خلاف وإذا كانت ليلة الاسراء فتسميتها رؤيا على أنها كانت في الليل ولأنها وشيكة سريعة الانقضاء لأن الرؤيا للحكم أما الرؤية البصرية فلا يطلق عليها رؤيا ولذلك أخذوا على المتنبي قوله :

" ورؤياك أحلى في الجفون من الغمض " ويبرر المتنبي أنه استعملها في الجفون لأن الرؤيا لا تكون إلا فيها .

و التي صفة وأريناك صلة الموصول وإلا أداة حصر وفتنة مفعول به ثان لجعلنا وللناس صفة لفتنة . (وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ) عطف على الرؤيا والملعونة نعت لها وفي القرآن جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال والمراد بها شجرة الزقوم وسيأتي الحديث عنها في موضعها من هذا الكتاب ، فقد سخروا من محمد صلى اللّه عليه وسلم عند ما سمعوا بشجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم وقالوا : انه يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول

ان الشجر ينبت فيها . (وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً) الواو استئنافية ونخوفهم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ، فما الفاء عاطفة وما نافية ويزيدهم فعل ومفعول به والفاعل مستتر تقديره تخويفنا وإلا أداة حصر وطغيانا مفعول به ثان وكبيرا نعت .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 61 إلى 65]

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (61) قالَ أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (62) قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً (63) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُرُوراً (64) إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (65)

اللغة :

)

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ لأستأصلن ذريته بالإغواء من احتنك الجراد الأرض إذا جرّد ما عليها أكلا مأخوذ من الحنك ومنه ما ذكر سيبويه من قولهم أحنك الشاتين أي آكلهما ، وقيل معنى لأحتنكن لأسوقنهم وأقودنهم حيث شئت من حنك الدابة إذا جعل الرسن في حنكها ، وفي المختار : " حنك الفرس جعل في فيه الرسن وبابه نصر وضرب وكذا احتنكه واحتنك الجراد الأرض أكل ما عليها وأتى على نبتها وقوله تعالى :

حاكيا عن إبليس : "لأحتنكن ذريته" قال الفراء : لأستولين عليهم ، والحنك المنقار يقال

أسود مثل حنك الغراب وأسود حانك مثل حالك

والحنك ما تحت الذقن من الإنسان وغيره" ولهذه المادة شعاب يضيق عن استيعابها الحصر ففي القاموس وتاج العروس واللسان ما خلاصته :

حنك يحنك ويحنك بالضم والكسر حنكا الشيء فهمه وأحكمه ، واحتنك الفرس جعل في فيه الرسن وحنك وحنّك : مضغ فدلك بحنكه وحنك يحنك ويحنك بالضم والكسر أيضا حنكا وحنكا وحنّك وأحنك واحتنك الدهر الرجل : جعلته التجارب والأمور وتقلبات الدهر حكيما فهو حنيك وتحنّك أدار العمامة من تحت حنكه واحتنك أيضا الجراد الأرض أكل ما عليها واحتنكه استولى عليه ، واستحنك اشتد أكله بعد قلته والحنك والحنك والحنكة : الاسم من حنّكه الدهر والحنك : أعلى باطن الفم والأسفل من طرف مقدّم اللحيين .

(وَاسْتَفْزِزْ) : استفزه : استخفه والفزّ الخفيف وفي القاموس والتاج : " فزّ يفزّ فزّا انفرد وفز عنه تنحى وعدل وفزّ الظبي فزع وفزه عزه وغلبه وطير فؤاده وأفزعه وأزعجه وأزاله عن مكانه وفز يفزّ فزيزا الجرح سال بما فيه وفز فزازة وفزوزة : اضطرب وتوقد وافتزّ عليه غلب وتفازّ الرجلان : تبارزا واستفزه : استخفّه واستدعاه وجعله يضطرب وأزعجه وأخرجه من داره وقتله والفزّ الرجل الخفيف وولد البقرة الوحشية والفزة الوثبة بانزعاج.

)

(409/465)

وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ) صح عليهم وتصرف فيهم بكل ما تقدر وفي المختار : " وجلب على فرسه يجلب جلبا بوزن طلب يطلب طلبا صاح به من خلفه واستحثه للسبق وكذا أجلب عليه " وفي القاموس والتاج :

جلبه يجلبه بالضم والكسر جلبا وجلبا بالسكون والفتح ساقه وجاء به وجلب الرجل انساق وجلب الجرح برىء وأجلب القوم : جمعهم وجلبه وأجلبه توعده بالسر وجلب واجلب لأهله كسب وجلب وأجلب

على الفرس : صاح به واستحثه للسبق وجلب وأجلب القوم : ضجوا واختلطت

أصواتهم والجلبة: اختلاط الأصوات والصياح والجلب بفتحتين ما يجلبه من بلد إلى بلد وجمعه أجلاب فما يقوله العامة عن المتاع هو جلب بفتحتين صحيح لا غبار عليه.

(ورَجِلك) بفتح فكسر الركاب والمشاة وفي القاموس: الرجل:

الراجل ومن يمشي على رجليه والراجل: من يمشي على رجليه لا راكبا وجمعه رجل ورجّالة ورجّال ورجال ورجالى ورجالى ورجلان ويقال: جاءت الخيالة والرجالة وأغار عليهم بخيله ورجله والخيل الخيالة ومنه الحديث: يا خيل اللّه اركبي.

الإعراب:

)

(410/465)

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) الواو استئنافية والظرف متعلق بمحذوف أي اذكر وقد تقدم اعراب هذه الآية المكررة كثيرا. (قالَ: أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً) الهمزة للاستفهام الانكاري الصادر عن تعنت وسوء تقدير وجهل وغباء ولمن متعلقان بأسجد وجملة خلقت صلة وطينا حال من الموصول والعامل فيه أأسجد، أو من عائد هذا الموصول أي خلقته طينا فالعامل فيها خلقته، وجاز وقوع طينا حال وإن كان

جامدا لدلالته على الأصالة كأنه قال متأصلا من طين وأعربه بعضهم منصوبا بنزع الخافض أي من طين بدلالة آية أخرى صرح فيها بالجار . قال " وخلقته من طين " وقال الزجاج وغيره هو تمييز وفيه بعد (قالَ أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ) تقدم القول مفصلا في أرأيتك وانها بمعنى أخبرني والكاف لتأكيد

الخطاب لا محل لها من الاعراب وهذا مفعول أول والموصول صفة أو بدل عنه والثاني محذوف لدلالة الصلة عليه أي أخبرني عن هذا الذي كرمته عليّ بأن أمرتني بالسجود له لم كرمته علي ، ولم يجبه الله تعالى عن هذا السؤال استصغارا لأمره واحتقارا لشأنه فاختصر الكلام بحذف ذلك ثم ابتدأ بالقسم فقال :

(لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا) اللام موطئة للقسم وان شرطية وأخرتني فعل وفاعل ومفعول به والنون للوقاية وهو فعل الشرط والى يوم القيامة متعلقان بأخرتني ولأحتنكن اللام واقعة في جواب القسم وأحتنكن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل مستتر تقديره أنا وذريته مفعول به وإلا أداة استثناء وقليلا مستثنى من ذريته منصوب وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه وسيأتي مزيد بحث عنه في باب البلاغة .

)

قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً) اذهب فعل أمر وفاعل مستتر والجملة مقول القول وليس المراد بالذهاب نقيض المجيء وانما معناه امض لشأنك الذي اخترته بمحض مشيئتك وسيأتي أنه أمره بأمور أربعة أخرى فيكون المجموع خمسة وكلها تهدف إلى التنديد به وتهديده واستدراجه ، فمن الفاء استئنافية ومن شرطية مبتدأ وتبعك فعل ماض والفاعل مستتر والكاف مفعول به وهو في محل جزم فعل الشرط ومنهم حال ، فإن الفاء رابطة لجواب الشرط وان واسمها وخبرها وجزاء مفعول مطلق لفعل دل عليه جزاؤكم أي تجزون جزاء ، ولا مانع عندي من أن يكون مصدرا انتصب بمثله وسيأتي مزيد بحث عنه في باب الفوائد ، وقيل هو حال موطئة وقيل تمييز وليس ذلك ببعيد وسيأتي القول في هذا الالتفات في باب البلاغة وموفورا

صفة (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ) واستفزز أمر ثان للشيطان ، من استطعت : من اسم موصول مفعول استفزز وجملة استطعت صلة ومفعول استطعت محذوف تقديره من استطعت أن تستفزه ، ومنهم متعلقان بمحذوف

حال وبصوتك متعلقان باستفزز وأجلب أمر ثالث وعليهم متعلقان بمحذوف حال وبخيلك متعلقان بأجلب ورجلك عطف على بخيلك أي استخف منهم من استطعت بصوتك وصح عليهم وسقهم حال كونك مصحوبا بخيلك ورجلك . (وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً) وشاركهم أمر رابع والهاء مفعول به وفي الأموال متعلقان بشاركهم والمشاركة في الأموال أي حملهم على جمعها بالطرق الحرام غير المشروعة كالربا والميسر وإنفاقها في الأمور المحرمة والفسوق والعصيان وعدهم هذا هو الأمر الخامس والهاء مفعول به ولم يذكر الموعود اختصارا والمراد المواعيد الكاذبة الباطلة ، وما الواو للحال أو اعتراضية وما نافية ويعدهم الشيطان فعل مضارع ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وفي الكلام التفات سيأتي الكلام عنه وإلا أداة حصر وغرورا يجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أي إلا وعدا غرورا ونسبة الغرور للمصدر سيأتي في باب البلاغة ولك أن تعربه مفعولا من أجله أي ما يعدهم ويمنيهم من الوعود الكاذبة والأماني المعسولة إلا لأجل الغرور والجملة حالية أو معترضة . (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا) جملة تعليلية للأمر بالوعد أي إنما نأمرك بذلك لأننا نعلم أنه ليس لك سلطان على عبادنا الصالحين ، وان واسمها وجملة ليس خبرها ولك خبر مقدم لليس وعليهم حال لأنه كان في الأصل صفة لسلطان وسلطان اسم ليس مؤخر وكفى فعل ماض والباء زائدة في الفاعل ووكيلا تمييز .

البلاغة :

اشتملت هذه الآيات على فنون شتى منها :

(413/465)

1- المجاز المرسل في استعمال الرؤية بمعنى الأخبار في قوله " أ رأيتك " لأنها سببه فالعلاقة فيها السببية وقد تقدم بحث ذلك .

2- الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة وكان مقتضى الظاهر أن يقال : وما تعدهم إلا غرورا ولكنه عدل عن ذلك تهوينا لأمره واستصغارا لأمر الغرور الذي يعدهم به من جهة وليتولى الكلام على طريق الغيبة متحدثا إلى الناس جميعا ليعلم الجاهل ، ويخلد المبطل إلى الصواب .

3- المجاز العقلي في نسبة الغرور إلى الوعد على حد قوله :

نهاره صائم وليله قائم وقد تقدم تفصيل ذلك في مواضعه .

الفوائد :

1- عامل المفعول المطلق :

عامل المفعول المطلق إما مصدر مثله لفظا ومعنى مثل " فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا "

فجزاء مفعول مطلق وعامله جزاؤكم وهو مصدر مثله أو معنى لا لفظا نحو أعجبني إيمانك تصديقا ، أو ما اشتق منه من فعل نحو " وكلم اللّه موسى تكليما " أو من وصف أي اسم فاعل أو اسم مفعول أو للمبالغة دون التفضيل والصفة المشبهة فاسم الفاعل نحو " والصافات صفا " واسم المفعول نحو : الخبز مأكول أكلا ، وأمثلة المبالغة نحو : زيد ضرّاب ضربا ولا يجوز زيد حسن وجهه حسنا ولا أقوم منك قياما ، وأما قول الشاعر :

أما الملوك فأنت اليوم ألأمهم لؤما وأبيضهم سربال طباخ

فلؤما منصوب بمحذوف . ونعود إلى الآية فقد اعترض بعضهم على انتصاب جزاء بالمصدر وهو جزاؤكم قال : إنه وإن كان لفظه مصدرا معناه المجزي به لحمله على جهنم فمعنى الآية ان جهنم هي الشيء الذي أنتم مجزيون به . ولو جاهة هذا الاعتراض قلنا انه يجوز أن ينتصب بفعل محذوف دل عليه جزاؤكم والمعنى تجازون ، أو على الحال الموطئة .

2- الحال الموطئة :

والحال الموطئة بكسر الطاء أو بفتحها هي الجامدة الموصوفة لأنها ذكرت توطئة للنعت بالمشتق أو شبهه نحو " فتمثل لها بشرا سويا " فإنما ذكر بشرا توطئة لذكر سويا ومعنى هذا

الكلام ان الاسم الجامد لما وصف بما يجوز أن يكون حالا صح أن يكون حالا والموطئة لغة

[سورة الإسراء (17) : الآيات 66 إلى 69]

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (66) وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً (67) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً (69)

هي المهيئة وسيأتي المزيد منها أثناء الكلام على هذه الآية في سورة مريم.

اللغة:

(يُزْجِي) : يجري ويسير وفي القاموس: " زجاه ساقه ودفعه كزجّاه وأزجاه ومنه قول الشاعر:

يا أيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسد ما هذه الصوت

(حاصِباً) الحاصب: الريح التي تحصب أي ترمي بالحصباء، والحصباء الحجارة الصغيرة واحدتها حصبة كقصبة وفي المصباح:

" وحصبته حصبا من باب ضرب وفي لغة من باب قتل رميته بالحصاء " .

قال أبو عبيدة والقيتبي: الحصب الرمي: أي ريحا شديدة حاصبة وهي التي ترمي

بالحصى الصغار ، وقال الزجاج : الحاصب التراب الذي فيه حصباء فالحاصب ذو الحصباء والحصباء كاللابن والتامر ويقال للسحابة التي ترمي بالبرد حاصب ومنه قول الفرزدق :

مستقبلين جبال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور

)

(415/465)

قاصِفاً) القاصف : الريح التي لها قصيف وهو الصوت الشديد كأنها تتقصف أي تتكسر وقيل : التي لا تمر بشيء إلا قصفته .

(تَبِيعاً) التبيع المطالب . قال الشماخ يصف عقابا :

تلوذ ثعالب الشرقين منها كما لاذ الغريم من التبيع

أي تهرب منها ثعالب الشرقين بمعنى المشرقين كما هرب والتجأ الغريم أي المدين من التبيع أي الدائن المطالب .

الاعراب :

)

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) الجملة تعليل لبيان قدرته تعالى وربكم مبتدأ والذي خبره وجملة يزجي صلة ولكم متعلقان بيزجي والفلك مفعول به وفي البحر متعلقان بمحذوف حال ولتبتغوا اللام للتعليل وتبتغوا مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بتبتغوا أي تبتغوا الربح من فضله (إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) ان واسمها وجملة كان خبرها وبكم متعلقان برحيما ، ورحيما خبر كان . (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة مسكم مضافة للظرف والكاف مفعول به والضر فاعل وفي البحر متعلقان بمحذوف حال أي حالة كونكم في البحر وجملة ضل لا محل لأنها جواب شرط غير جازم ومن فاعل ضل وجملة تدعون صلة وإلا إياه استثناء أي ذهب عن خواطركم كل من تدعونه إلا إياه فانكم عندئذ وفي ذلك الوقت بالذات تذكرونه فهو استثناء متصل لأنه اندرج مع من ذكروه ويجوز أن يكون منقطعا أي ضل من تدعونه من الآلهة عن إغاثتكم ولكن الله وحده وهو الذي ترجونه وحده . (فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً) لما أداة شرط غير جازمة ونجاكم فعل ماض ومفعول به وهو فعل الشرط وفاعله هو

، والى البر متعلقان بنجاكم وأعرضتم جواب الشرط وكان واسمها وخبرها . (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً) الهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم فحملتكم نجاتكم على الإعراض . وأمنتم فعل وفاعل وأن يخسف مصدر مؤول في محل نصب بنزع الخافض أن من أن يخسف

(417/465)

والجار والمجرور متعلقان بأمنتم وبكم حال أي مصحوبا بكم فالباء للمصاحبة ، ويجوز أن يتعلق بيخسف وتكون الباء للسببية . وجانب البر مفعول يخسف وأو حرف عطف ويرسل عطف على يخسف وعليكم متعلقان بيرسل وحاصبا مفعول به . (ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا) ثم حرف عطف للتراخي ولا نافية وتجدوا عطف على يرسل أيضا ولكم متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لوكيلا وتقدمت عليه ووكيلا مفعول به .

(أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى) أم حرف عطف وهي متصلة أي أي الأمرين كائن وأمنتم فعل وفاعل وأن يعيدكم مصدر مؤول في محل نصب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بأمنتم وفيه متعلقان بيعيدكم وتارة ظرف متعلق بيعيدكم أيضا وأخرى صفة .

(فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ) الفاء عاطفة ويرسل عطف على أن

يعيدكم وعليكم متعلقان بيرسل وقاصفا مفعول به ومن الريح صفة والفاء حرف عطف ويغرقكم عطف على يرسل وبما متعلقان بيغرقكم وما مصدرية أي بسبب كفركم.

(ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً) ثم حرف عطف ولا تجدوا عطف على يغرقكم ولكم متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لتبيعا وتقدمت عليه فهو على حد قول أبي الطيب المتنبي:

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سبلا

فقوله لها متعلق بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لسبلا ولا يجوز تعليقه بوجدت لأن وجد لا يتعدى باللام وإنما يتعدى بنفسه.

وعلينا متعلقان بمحذوف حال أيضا وبه متعلق بتبيعا ويجوز أن يتضمن تبيعا معنى ناصرا لأن المطالب بحق الملازم للطلب فيكون علينا متعلقا به أي ناصرا علينا.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 70 إلى 72]

وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً (70) يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ

يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (71) وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (72)

اللغة:

(فَتِيلًا): تقدم القول في النقير والقطمير فالفتيل هو الخيط الذي في نقرة النواة طولا وأما القشرة فهي القطمير وأما الخيط الذي في ظهرها فهو النقير ففي النواة أمور ثلاثة: فتيل وقطمير ونقير وفي القاموس: الفتيل: السحاة في شق النواة والقطمير والقطمار بكسر القاف فيهما: القشرة الرقيقة بين النواة والثمرة، والنقير: النكتة في ظهر النواة.

الاعراب:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) الواو استئنافية واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وكرمنا فعل وفاعل وبني آدم مفعول به وحملناهم عطف على كرمنا وهو فعل وفاعل ومفعول به وفي البر والبحر متعلقان بحملناهم. (وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ
وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا)

ورزقناهم فعل وفاعل ومفعول به أيضا ومن الطيبات متعلقان برزقناهم وفضلناهم عطف أيضا وعلى كثير متعلقان بفضلناهم وممن خلقنا صفة لكثير وجملة خلقنا صلة وتفضيلا مفعول مطلق. (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) الظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر وندعو فعل مضارع والفاعل مستتر تقديره نحن وكل أناس مفعول به وجملة ندعو مضافة للظرف وبإمامهم يجوز أن يتعلق بندعو وأن يتعلق بمحذوف حال أي موسومين ومعروفين والمراد بالإمام من ائتموا به في دنياهم وفوضوا اليه أمورهم وأحكام معايشهم، وقلدوه في شؤون دنياهم وأخراهم. (فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) الفاء عاطفة ومن شرطية أو موصولة وهي في محل رفع مبتدأ وأوتي فعل ماض مبنى للمجهول ونائب الفاعل مستتر وكتابه مفعول به ثان وبيمينه متعلقان بأوتي والفاء رابطة وجملة أولئك جواب الشرط أو خبر الموصول وأولئك مبتدأ وجملة يقرءون خبر وكتابهم مفعول به، ولا: الواو حرف عطف ولا نافية ويظلمون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وفتيلا نائب مفعول مطلق أي ظلما قدر الفتيل وقد تقدمت له نظائر. (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى) الواو عاطفة ومن شرطية أو موصولة وكان فعل ماض ناقص وفي هذا خبر مقدم والاشارة للدنيا وأعمى اسم كان مؤخر وهي بمعنى فاعل. (فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا) الفاء رابطة وهو مبتدأ وفي الآخرة حال وأعمى خبر وهي إما بمعنى فاعل كالأولى أي من كان في هذه الدنيا عميا عن حجته فهو في الآخرة كذلك وإما بمعنى أفعل التفضيل

التي تقتضي من، والمعنى: من كان في هذه الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى أيضا والمراد العمى القلبي الذي لا يبصر الهداية. وأضل عطف على أعمى وسبيلا تمييز.

]

سورة الإسراء (17) : الآيات 73 إلى 77]

(420/465)

وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73) وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74) إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً (75) وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً (77)

الإعراب:

(وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ) الواو استئنافية وإن مخففة من الثقيلة مهملة ويجوز إعمالها قليلا كما تقدم وكادوا فعل ماض ناقص من أفعال المقاربة والواو اسمها واللام الفارقة وجملة يفتنونك خبر كادوا وعن الذي متعلقان بيفتنونك وقد

ضمّن يفتنونك معنى يصرفونك فلذلك عدي بعن وجملة أوحينا صلة وإليك متعلقان بأوحينا ، لتفتري : اللام لام التعليل وتفتري مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وعلينا متعلقان بتفتري والفاعل مستتر تقديره أنت وغيره مفعول به (وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا) الواو عاطفة وإذن حرف جزاء وجواب يقدر بلو الشرطية أي ولو اتبعت مرادهم وحققت مقترحاتهم التي حاولوا أن يستنزلوك لتحقيقها ، واللام

(421/465)

موطئة للقسم والتقدير والله لا تخذوك والكاف مفعول به أول وخليلا مفعول به ثان . (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) لولا حرف امتناع لوجود وان وما في حيزها مبتدأ محذوف الخبر أي ولولا تثبيتا لك وعصمتنا إياك واللام جواب لولا وقد حرف تحقيق وكاد واسمها وجملة تركن خبرها وإليهم متعلقان بتركن وشيئا مفعول مطلق فهو بمعنى الركون أي وشيئا قليلا من الركون . (إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) إذن حرف جواب وجزاء يقدر بلو الشرطية أيضا أي ولو اتبعت مرادهم وحققت مقترحاتهم التي حاولوا أن يستنزلوك لتحقيقها ، اللام موطئة للقسم وأذقناك فعل وفاعل ومفعول به وضعف مفعول ثان والحياة مضاف ولا بد من تقدير محذوف أي ضعف

عذاب الحياة وضعف عذاب الممات وثم حرف عطف وتراخ ولا نافية وتجد فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنت ، ولك متعلقان بتجد وعلينا متعلقان بنصيرا ، ونصيرا مفعول به . (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا) الواو عاطفة وان مخففة يجوز إهمالها وإعمالها وكادوا من أفعال المقاربة والواو اسمها واللام الفارقة وجملة يستفزونك خبر كادوا ، ومن الأرض متعلقان بيستفزونك وليخرجوك متعلقان بيستفزونك ومنها متعلقان بيخرجوك والضمير يعود إلى الأرض وهي أرض المدينة .

(وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا) الواو عاطفة واذن حرف جواب وجزاء مهمل ولا نافية ويلبثون فعل مضارع مرفوع وخلافك أي خلفك ظرف متعلق بيلبثون وعليه قول الشاعر :

عفت الديار خلافهم فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيرا

يصف الشاعر ديارهم بعدهم بدروسها وكثرة قمامتها لعدم كنسها

و وجود من يتعهدها والشواطب النساء يشققن شطب النخل أي سعفه الأخضر يعملنه حصيرا . وإلا أداة حصر وقليلا صفة لظرف محذوف أي زمانا قليلا أو صفة لمصدر محذوف أي لبثا قليلا فهي ظرف أو مفعول مطلق . (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا

وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا) نصبت سنة نصب المصدر المؤكد أي سن اللّه ذلك سنة واختيار الفراء نصبها على نزع الخافض أي كسنة الله وإذن ينبغي على هذا الاعراب أن لا يوقف على قليلا واختار آخرون أن تنصب بفعل محذوف أي اتبع سنة ولا مانع من ذلك فالاوجه كلها متساوية.

البلاغة :

- قصة ثقيف واقتراحاتها :

في هذه الآيات ضروب من البلاغة ولا بد لتقريرها من إيراد قصة تنزيلها فقد روي أن ثقيفا قالت للنبي صلى اللّه عليه وسلم لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب : لا نعشر ولا نحشر ولا نجبّي في صلاتنا وكل ربا لنا فهو لنا وكل ربا علينا فهو موضوع عنا وأن تمتعنا باللات سنة حتى نأخذ ما يهدى لها فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا وأن تحرم وادينا كما حرمت مكة فإن قالت العرب لم فعلت ذلك ؟ فقل إن اللّه أمرني به ، وجاءوا بكتابهم فكتب : بسم اللّه الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول اللّه لثقيف : لا يعشرون ولا يحشرون فقالوا : ولا يجبون فسكت رسول اللّه ثم قالوا للكاتب اكتب ولا يجبون والكاتب ينظر إلى رسول اللّه فقام عمر بن الخطاب فسلّ سيفه فقال : أسعرتم قلب نبينا يا معشر ثقيف أسعر اللّه قلوبكم

نارا فقالوا لسنا نكلم إياك وإنما نكلم محمدا فنزلت ، ولا بد من شرح بعض المفردات فقولهم لا نعشر بالبناء للمجهول أي لا يؤخذ منا عشر أموالنا ولا نحشر بالبناء للمجهول أيضا أي لا نساق للجهاد ولا نجبي في صلاتنا بالبناء للمجهول أيضا من التجبية وهي - كما في الصحاح- أن يقوم الإنسان قيام الراكع وقال أبو عبيدة تكون في حالين أحدهما أن يضع يديه على ركبتيه والآخر أن ينكب على وجهه باركا وهو السجود والمراد لا نركع ولا نسجد والقصة طريفة تمثل أمورا هامة .

أ- إصرار القوم وعتوهم وتماديهم في الكبرياء والعنفوان .

ب- حلم النبي صلى اللّه عليه وسلم وأخذه القوم باللين والاستمالة وفي ذلك منتهى الكياسة والسياسة .

ح- صلابة عمر وجرأته ولأمر ما سمي الفاروق أما أوجه البلاغة في الآية فهي :

1- الاطناب في ذكر هذا الموقف الذي يثبت لك دهاء السياسي وأحوذيته ، يأخذ قومه بالملاينة والصبر ولا تذهب نفسه شعاعا وهو يرى التمادي في الغي والإصرار على الخطل .

2- المبالغة في تقليل الكيدودة لأن مجرد الملاينة التي تقتضيها السياسة واستمالة القوم أخذت على النبي لأن الذنب يعظم بحسب فاعله على ما ورد من أن حسنات الأبرار

سيئات المقربين .

3- الاستعارة المكنية في أذقناك ضعف الحياة وقد تقدمت أمثالها كثيرا .

4- الحذف فقد حذف العذاب تكريما لمقام النبي صلى اللّه عليه وسلم وهو في الأصل

موصوف أي عذابا ضعفا في الحياة وعذابا

ضعفا في الممات ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وهو الضعف ثم أضيفت

الصفة إضافة الموصوف فقيل ضعف الحياة وضعف الممات كما لو قيل أذقناك أليم الحياة

وأليم الممات .

- ولابن هشام فصل ممتع عن كاد أورده في الباب السادس من كتابه المغني في التحذير من

أمور اشتهرت بين المعربين والصواب خلافها :

"

الثامن عشر قولهم إن كاد إثباتها نفي ونفيها إثبات فإذا قيل "كاد يفعل " فمعناه أنه لم يفعل

وإذا قيل " لم يكد يفعل " فمعناه أنه فعله ، دليل الأول " وإن كادوا ليفتنونك عن الذي

أوحينا إليك " وقوله :

"كادت النفس أن تفيض عليه" ودليل الثاني "وما كادوا يفعلون" .

وقد اشتهر ذلك بينهم حتى جعله المعري لغزا فقال :

أنحويّ هذا العصر ما هي لفظة جرت في لسائي جرهم وثمود

إذا استعملت في صورة الجحد أثبتت وإن أثبتت قامت مقام جحود

والصواب أن حكمها حكم سائر الأفعال في أن نفيها نفي وإثباتها إثبات ، وبيانه : أن معناها المقاربة ولا شك أن معنى "كاد يفعل" قارب الفعل وأن معنى "ما كاد يفعل" ما قارب الفعل فخبرها منفي دائما أما إذا كانت منفية فواضح لأنه إذا انتفت مقاربة الفعل انتفى عقلا حصول ذلك الفعل ودليله "إذا أخرج يده لم يكد يراها" ولهذا كان أبلغ من أن يقال "لم يرها" لأن

من لم ير قد يقارب الرؤية وأما إذا كانت المقاربة المثبتة فلأن الإخبار بقرب الشيء يقتضي عرفا عدم حصوله وإلا لكان الإخبار حينئذ بحصوله لا بمقاربة حصوله إذ لا يحسن في العرف أن يقال لمن صلى قارب الصلاة ، وإن كان ما صلى حتى قارب الصلاة ولا فرق فيما ذكرنا بين كاد ويكاد فإن أورد على ذلك "وما كادوا يفعلون" مع أنهم قد فعلوا إذ المراد بالفعل الذبح وقد قال تعالى "فذبحوها" فالجواب أنه إخبار عن حالهم في أول الأمر فانهم كانوا أولا بعداء من ذبحها بدليل ما يتلى علينا من تعنتهم وتكرر سؤالهم ولما كثر استعمال مثل هذا فيمن انتفت عنه مقاربة الفعل أولا ثم فعله بعد ذلك توهم من توهم ان هذا الفعل

بعينه هو الدال على حصول ذلك الفعل بعينه وليس كذلك وانما فهم حصول الفعل من دليل آخر كما فهم في الآية من قوله تعالى فذبحوها " .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 78 إلى 81]

(425/465)

أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (78)
وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (79) وَقُلْ رَبِّ
أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً
(80) وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً (81)

اللغة :

(لِدُلُوكِ الشَّمْسِ) أي من وقت زوالها يقال دلكت الشمس أي غربت وقيل زالت واشتقاقه من الدلك لأن الإنسان يدلك عينيه عند النظر إليها فإن كان الدلوك الزوال فالآية جامعة للصلوات الخمس المفروضة وإن كان الغروب فقد خرجت منها الظهر والعصر ، وأصل هذه المادة أي ما كانت فاؤه وعينه دالا ولاما يدل على التحول والانتقال فالدلبة واحدة الدّلب وهو شجر عظيم الورق لا زهر له ولا ثمر وهي تتسامى صعدا في الجو كأنها

انتقلت من الأسفل إلى الأعلى ومنه قولهم : " هو من أهل الدّربة ، بمعالجة الدّلبة " ومنه تتخذ النواقيس أي هو نصراني . وسقى أرضه بالدّولاب بفتح الدال وهم يسقون بالدواليب وهي تستعمل لنقل المياه من مكان إلى مكان لسقاية الأرض ودلج من الدلجة وهي سير الليل والانتقال فيه من مكان إلى آخر ودلج ومنه وكفت عيناه وكيف غربي دالج وهو الذي يختلف بالدلو من البئر إلى الحوض وبات لبلته يدلج دلوجا قال :

كأنها وقد براها الإخماس ودلج الليل وهاد قياس

(426/465)

شرائح النبع براها القوّاس ودلح بالحاء المهملة إذا مشى مشيا متثاقلا ودلدل أعضاءه دلدلة أي حركها في المشي وتدلدل في مشيه اهتز واضطرب ، ودلس الظلام معروف وخرج في الدّلس والغلس ودلّس المحدّث في حديثه أتى فيه بغير الراهن كأنما انتقل من واقعة إلى واقع آخر ومنه تدليس البائع يكتم المساويء فيما يبيعه ويظهر المحاسن وأرض دلصتها السيول انتقلت بها من حال إلى حال فجعلتها ملساء ومنه درع دلاص قال أبو الطيب :

لأمة فاضة أضاة دلاص أحكمت نسجها يدا داوود

ودلع وأدلع لسانه أخرجه من فمه ودلع بنفسه واندلع خرج واسترخى من كرب أو عطش

كما يدلع الكلب ومن المجاز : اندلع السيف من غمده واندلق ، واندلعت ألسنة النيران والمدلّع المتربي في العز والنعمة والاسم الدلاعة وهو من كلام العامة فهو عامي فصيح ،

ودلف إذا مشى مشي المقيد يقال دلف الشيخ والمقيّد دليفا ودلوفا وهو فوق الدبيب وشيخ دالف وعجائز دوالف قال طرفة :

لا كبير دالف من هرم أرهب الناس ولا كلّ الظفر

وجاء يدلف بحمله لثقله . ودلق عليهم السيل ودلقت عليهم الخيل واندلقت ، ودلقوا عليهم الغارة شنوها ودلق البعير شقشقته أخرجها ، وضربه فاندلقت أقتاب بطنه ، ودلك الشيء مرسه بيده وقد تقدم ودله على الطريق وهو دليل المفازة ، ودلت تدلّ وهي حسنة الدل والدلال ، أي أخرجت كل ما لديها من مفاتن جسمية لتستهوي بها الآخرين ودله فلان دلها تحير وذهب عقله من هم أو عشق ففيه انتقال معنوي وأدليت دلوي في البئر أرسلتها فيها ودلى رجليه من السرير وتدلت الثمرة من الشجرة همت بالانتقال منها وأدلى بحقه وبحجته أحضرها فكأنه نقلها إلى مكان النقاش ويطول بنا القول إن رحنا تتقصى ما في هذه المادة العجيبة .

(

غَسَقِ اللَّيْلِ) : الغسق الظلمة وقيل دخول أول الليل قاله النضر بن شميل وقيل هو سواد الليل وظلمته وأصله من السيلان يقال :

عسقت العين أي سال دمعها فكأن الظلمة تنصب على العالم وتسيل عليهم وفي الأساس :

" يقولون من الغسق إلى الفلق وهو دخول أول الليل حين يختلط الظلام وقد غسق الليل

يغسق غسقا ، وبنو تميم على أغسق ، قال ابن قيس :

إن هذا الليل قد غسقا واشتكيت الهمّ والأرقا

وقال جساس :

أزور إذا ما أغسق الليل خلّتي حذار العدى أو أن يرجّم قائل

(فَتَهَجَّدْ) : الهجود ترك النوم للصلاة وفيه خلاف بين أهل اللغة فقيل هو النوم وقيل الهجود

مشترك بين النائم والمصلّي وقال ابن الأعرابي تهجد صلى من الليل وتهجد نام وهو قول أبي

عبيد والليث ووزن تفعّل يأتي للسلب نحو تحرّج وتأثم وتحوّب وفي الأساس :

وهجد الرجل هجودا وتهجّد : ترك الهجود للصلاة (فَتَهَجَّدْ بِهِ) وبات فلان متهجدا :

متوحدا ، وهجّدنا مكنّا من الهجود قال لبيد :

قال هجّدنا فقد طال السّرى وقدرنا إن خنى الدهر غفل

وفي القاموس والتاج : " الهجود النوم بالنهار والهجوع النوم بالليل والتهجد صلاة الليل " .

(نَافِلَةً) : زائدة .

الاعراب :

(أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ) أقم الصلاة فعل أمر وفاعل مستتر تقديره أنت ومفعول به ولدلوك في هذه اللام وجهان

أحدهما أن تكون بمعنى بعد أي بعد دلوك الشمس كقولهم كتبت كتابي لثلاث خلون وستأتي معاني اللام في باب الفوائد والثاني أن تكون على بابها أي لأجل دلوكها وقد انتفى اتحاد الوقت واتحاد الفاعل في أقم الصلاة لدلوك الشمس ، ففاعل القيام المخاطب وفاعل لدلوك هو الشمس ، وزمنهما مختلف فزمن الاقامة متأخر عن زمن الدلوك فلذلك جر بلام التعليل ، وقيل هي لابتداء الغاية وان في الكلام حذف مضاف ، والجار والمجرور متعلقان بأقم على كل حال . والى غسق الليل فيه وجهان أحدهما أن تعلقه بأقم أيضا لانتهاء غاية إقامة الصلاة والثاني انه متعلق بمحذوف حال من الصلاة أي أقمها ممتدة إلى غسق الليل .

(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً) الواو عاطفة وقرآن عطف على الصلاة أو نصب على الإغراء فالأول معناه وأقم صلاة الصبح عبّر عن الصلاة بالقراءة وهي أحد

أركانها والثاني معناه وعليك قرآن الفجر أي الزمه والأول أقل تكلفا كما انه لم يسمع إضمار أسماء الأفعال وهي عاملة وجملة إن قرآن إلخ تعليل للأمر وإن واسمها وجملة كان مشهودا خبرها ، ومشهودا خبر كان واسمها مستتر تقديره هو . (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ) الواو عاطفة ومن الليل متعلقان بتهجد أي تهجد بالقرآن بعض الليل ولك أن تعلقهما بمحذوف أي قم قومة من الليل وقال الحوفي من متعلقة بفعل دل عليه معنى الكلام تقديره واسهر من الليل بالقرآن ، والفاء عاطفة وتهجد فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وبه متعلقان بتهجد ونافلة حال ولك صفة لنافلة أي صل حال كون الصلاة نافلة لك ويجوز أن تكون نافلة مصدرا كالعافية والعاقبة فتكون مفعولا مطلقا والمعنى فتنفل نافلة ولا أدري كيف أعربها بعضهم مفعولا لتهجد وهو فعل لازم إلا أن يقال انه ضمنه معنى أعبد وما أغنانا عن ذلك . (

عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً) عسى من أفعال الرجاء والرجاء من الله قطعي الوقوع واسم عسى مستتر

وأن يبعثك خبرها وربك فاعل يبعثك أو المسألة من باب التنازع ومقاما نصب على

الظرف أي يبعثك في مقام أو مفعول مطلق لأن يبعثك هنا معناها يقيمك أو حال أي يبعثك ذا مقام ومحمودا صفة مقاما .

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ) رب منادى محذوف منه حرف النداء وأدخلني فعل دعاء وفاعل مستتر والياء مفعول به ومدخل صدق مفعول مطلق لأنه مصدر ميمي وإضافته لصدق من إضافة الموصوف إلى صفته أو للبيان وأخرجني مخرج صدق عطف على الجملة المماثلة . (وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً) واجعل عطف على ادخلني وأخرجني ولي مفعول ثان لاجعل وسلطانا مفعول أول لاجعل ونصيرا صفة ومن لدنك حال لأنه كان صفة لسلطانا أو متعلق بما تعلق به الأول . (وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ) أي قل عند دخولك مكة فاتحا وجملة جاء الحق مقول القول وزهق الباطل عطف عليه . (إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً) ان واسمها وجملة كان خبرها وزهوقا خبر كان .

البلاغة :

في قوله " وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا " .

فن التذييل وهو أن يذيل الناظم والناثر كلامه بعد تمامه وحسن السكوت عليه بجملة تحقق ما قبلها من الكلام وتزيده توكيدا وتجري منه مجرى المثل لزيادة التحقيق والفرق بينه وبين التكميل أن التكميل يرد على معنى يحتاج إلى الكمال والتذييل لم يفد غير تحقيق الكلام

الأول وتوكيده وهذه الآية من أعظم الشواهد عليه فالجملة الأخيرة هي التذييل الذي خرج مخرج المثل السائر ومن شواهده في النظم قول النابغة الذبياني :

ولست بمستبق أخا لا تلمّه على شعث أيّ الرجال المهذّب

أي المنفي الفعال المرضي الخصال فصدر البيت دل بمفهومه على نفي الكامل من الرجال وعجزه تأكيد لذلك وتقرير لأن الاستفهام فيه للانكار أي لا مهذب في الرجال وقد اتفق علماء البديع على ان قوله :

أي الرجال المهذب ، من أحسن تذييل وقع في شعر لأنه خرج مخرج المثل ومن ثم قالوا ان النابغة كان أشعر الناس بربع بيت .

الفوائد :

1 - تحققت البشارة ، وأتى أمر اللّه ودخل محمد مكة فاتحا ، كما هو معروف في تاريخ السيرة ، وقال جبريل لمحمد - صلى اللّه عليه وسلم - عند ما نزل بهذه الآية يوم الفتح : خذ مخصرتك ثم ألقها فجعل يأتي صنما صنما وهو ينكث بالمخصرة في عينه ويقول : جاء الحق وزهق الباطل فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعا وبقي منها صنم خزاعة فوق

الكعبة وكان من قوارير صفر فقال : يا علي ارم به فصعد فرمى به فكسره إلى آخر هذه القصة الفريدة .

2- معاني اللام الجارة :

أورد ابن هشام في مغني اللبيب أن للاّم الجارة اثنين وعشرين معنى واكتفى غيره بذكر اثني عشر معنى فقط وأنكر أن يكون لها هذه المعاني الأخرى وفيما يلي تلخيص مفيد لذلك :

1- الملك نحو " للهّ ما في السموات " .

2- شبه الملك . وجعل ابن هشام هذا القسم قسمين وهما الاختصاص نحو : السرج للدابة والاستحقاق وهي الواقعة بين معنى وذات نحو " العزة للهّ " والأمر للهّ .

3- التعدية إلى المفعول به نحو " فهب لي من لدنك وليا " ورجح ابن هشام وغيره أن يمثل لها بنحو : ما أضرب زيدا لعمرو لأن ضرب متعد في الأصل ولكنه لما بني منه فعل التعجب نقل إلى فعل بضم العين فصار لازما فعدي بالهمزة إلى زيد وباللام إلى عمرو .

4- التعليل كقول أبي صخر الهذلي :

وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بللّه القطر

أي لأجل ذكري إياك .

5- التوكيد وهي الزائدة وهي أنواع منها :

آ- اللام المعترضة بين الفعل المتعدي ومفعوله كقول ابن ميادة الرماح يمدح عبد الملك بن مروان:

(431/465)

وملكت ما بين العراق ويثرب ملكا أجار لمسلم ومعاهد

أي أجار مسلما ومعاهدا.

ب- ومنها اللام المقحمة بين المتضايفين كقول زهير بن أبي سلمى:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

والأصل لا أباك موجود وهو تعبير يحتمل المدح والذم وانجرار ما بعدها بالاضافة.

ح- ومنها لام المستغاث، فإنها زائدة عند المحققين بدليل صحة إسقاطها.

6- تقوية العامل الذي ضعف إما بكونه فرعا في العمل كالمصدر واسمي الفاعل والمفعول وأمثلة المبالغة نحو "مصدقا لما معهم" ونحو "فعّال لما يريد" واما بتأخره عن المعمول نحو "إن كنتم للرؤيا تعبرون" والأصل إن كنتم تعبرون الرؤيا فلما أخر الفعل وقدم معموله عليه ضعف عمله فقوي باللام وجعلها ابن هشام في المغني زائدة والأصح أنها ليست كذلك.

7- موافقة "إلى" أي لانتهاء الغاية نحو "كل يجري لأجل مسمى" أي إلى أجل مسمى.

8- القسم وتختص بالجلالة لأنها خلف عن التاء نحو :

للّه لا يؤخر الأجل .

9- التعجب نحو : للّه درك أي ما أكثر درك وأكثر ما تستعمل في النداء كقول امرئ القيس

:

فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

10- الصيرورة أو العاقبة أو المآل نحو " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا " وقول

أبي العتاهية :

لدوا للموت وابنوا للخراب فإن الموت ليس علة للولد والخراب ليس علة للبناء ولكن صار

عاقبتهما ومآلهما إلى ذلك وأنكرها الزمخشري وقال : والتحقيق انها لام العلة وان التعليل

فيها وارد على المجاز دون الحقيقة " .

11- البعدية نحو " أقم الصلاة لدلوك الشمس " وقد تقدم ذكرها لأن الوقت إنما يدخل

ونعلمه بالدلوك فلا تقام الصلاة إلا بعد الدلوك وهو ميل الشمس عن الاستواء ومنه قوله

صلى اللّه عليه وسلم :

" صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته " وقول متمم بن نويرة :

فلما تفرقنا كأني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

12- الاستعلاء أي موافقة على حقيقة نحو " يخرون للأذقان " جمع ذقن أي عليها ومجازا نحو " وإن أسأتم فلها " أي عليها .

13- موافقة في نحو " قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو " أي لا يجليها في وقتها إلا هو .

14- موافقة " عند " كقراءة الجحوري " بل كذبوا بالحق لما جاءهم " بكسر اللام وتخفيف اللام أي عند مجيئه إياهم .

15- موافقة " مع " كقول متمم بن نويرة الآنف الذكر : فلما تفرقنا إلخ .

16- موافقة " من " نحو سمعت له صراخا وقول جرير :

لنا الفضل في الدنيا وأنفك راغم ونحن لكم يوم القيامة أفضل

أي ونحن منكم أفضل .

17- التبليغ نحو " قل لعبادي " وضابطها أن تجر اسم السامع لقول .

18- موافقة " عن " إذا استعملت مع القول نحو " وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه " .

19- التمليك نحو : وهبت لزيد دينارا .

20- التعليل نحو قول امرئ القيس :

ويوم عقرت للعذارى مطيتي فيا عجبا من كورها المتحمل

ومنها اللام الداخلة لفظا على المضارع نحو " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس " وانتصاب الفعل بعدها بأن مضمرة .

21- توكيد النفي وهي الداخلة في اللفظ على الفعل مسبوقا بما كان أو بلم يكن نحو " وما كان اللّه ليطلعكم على الغيب " ويسميها أكثر النحاة لام الجحود .

22- التبيين وقد تقدم ذكرها ونعيدها هنا مفصلة فنقول هي ثلاثة أقسام :

آ- ما تبين المفعول من الفاعل وضابطها أن تقع بعد فعل تعجب أو اسم تفضيل مفهمين حبا أو بغضا تقول ما أحبني وما أبغضني فإن قلت لفلان : أنت فاعل الحب والبغض وهو مفعولهما وإن قلت : إلى فلان فالأمر بالعكس .

ب وج- ما يبين فاعلية غير ملتبسة بمفعولية وما يبين مفعولية غير ملتبسة بفاعلية ومصحوب كل منهما إما غير معلوم مما قبلها أو معلوم لكن استؤنف بيانه تقوية للبيان وتوكيدا له واللام في ذلك كله

متعلقة بمحذوف ، مثال المبينة للمفعولية : سقيا لزيد وجدعا له ، فهذه اللام ليست متعلقة بالمصدرية ولا بفعليهما المقدرين لانهما متعديان ولا هي مقوية للعامل لضعفه بالفرعية وإنما هي لام مبينة للمدعو له أو عليه .

واختلف في قوله تعالى " هيهات هيهات لما توعدون " فقيل اللام زائدة وما فاعل وقيل الفاعل ضمير مستتر راجع إلى البعث والإخراج فاللام للتبيين والبحث في اللام طويل ومرجعه للمطولات .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 82 إلى 84]

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَساراً (82) وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً (83) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلاً (84)

اللغة :

(نَأى) : النأي بالجانب أن يوليه عطفه ويوليه ظهره وأراد الاستكبار لأن ذلك ديدن المستكبرين وفي المصباح : " ونأى نأيا من باب نفع بعد " ويتعدى بنفسه وبالحرف وهو الأكثر فيقال نأيته ونأيت عنه ويتعدى بالهمزة فيقال أنأيته .

(شاكِلَتِهِ) : مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة من قولهم طريق ذو شواكل وهي الطريق التي تتشعب منه والمعنى كل

إنسان يعمل حسب جوهر نفسه فإن كانت نفسه شريفة طاهرة صدرت عنه أفعال جميلة وإن كانت نفسه كدرة خبيثة صدرت عنه أفعال خبيثة فاسدة .

الاعراب :

(434/465)

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) الواو عاطفة وننزل فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره نحن ومن القرآن حال على أن من للتبيين ويجوز أن تكون لابتداء الغاية أو تبعيضية فهي متعلقة بننزل كما اختار أبو حيان وما مفعول به وهو مبتدأ وشفاء خبر والجملة صلة الموصول ورحمة عطف على شفاء وللمؤمنين متعلقان بشفاء .

(وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً) الواو حالية ولا نافية ويزيد الظالمين فعل وفاعل مستتر ومفعول به وإلا أداة حصر وخسارا مفعول به ثان .

(وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ) الواو حرف عطف وإذا ظرف مستقبل وجملة أنعمنا مضافة للظرف وهو فعل وفاعل وعلى الإنسان متعلقان به وجملة أعرض لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ونأى عطف على أعرض وبجانبه متعلقان بنأى .

(وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً) عطف على ما تقدم وجملة مسه الشر مضافة للظرف وجملة

كان لا محل لها واسم كان مستتر تقديره هو ويئوسا خبر كان. (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ) كل مبتدأ أي كل أحد وجملة يعمل خبر وعلى شاكلته متعلقان بيعمل. (فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلًا) الفاء استئنافية وربكم مبتدأ وأعلم خبره وبمن متعلقان بأعلم وهو مبتدأ وأهدى خبر والجملة صلة وسبيلا تمييز.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 85 إلى 87]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (85) وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلاً (86) إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (87)

الإعراب:

(435/465)

(وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) الواو استئنافية ويسألونك فعل مضارع وفاعل ومفعول به وعن الروح متعلقان بيسألونك والضمير يعود على اليهود المتعنتين الذين سألوه تجنيا منهم عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة. (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) الروح مبتدأ ومن أمر ربي

خبر أي انه مما استأثر الله بعلمه والواو عاطفة أو حالية وما نافية وأوتيتم فعل ماض مبني للمجهول ومن العلم متعلقان بأوتيتم وإلا أداة حصر وقليلا مفعول به ثان لأوتيتم أي شيئا قليلا بالنسبة إلى علمه تعالى وان كان كثيرا في حد ذاته . (وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وان شرطية وشئنا فعل ماض وفاعل في محل جزم فعل الشرط واللام جواب القسم وجواب الشرط محذوف أي ذهبنا به على القاعدة في اجتماع الشرط والقسم من حذف جواب المتأخر استغناء عنه بجواب المتقدم وبالذي متعلقان بنذهبن وجملة أوحينا صلة وإليك متعلقان بأوحينا .

(ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلًا) ثم حرف عطف ولا نافية وتجد فعل مضارع مرفوع وفاعله أنت ولك متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لوكيلا وبه متعلقان بتجد وعلينا متعلقان بوكيلا ووكيلا مفعول به أي لا تجد من يتوكل علينا باسترداده بعد رفعه .

)

(إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً) يجوز في هذا الاستثناء أن يكون متصلا لأن الروح يندرج في قوله وكيلا أي إلا رحمة فيكون مستثنى أو بدلا من وكيلا ويجوز أن يكون منقطعا . وإلا بمعنى لكن فتعرب رحمة مفعولا من أجله والتقدير حفظناه عليك للرحمة أو مفعولا مطلقا والتقدير لكن رحمناك رحمة ومن ربك صفة لرحمة وان واسمها وجملة كان خبرها وعليك حال لأنه كان صفة لكبيرا وكبيرا خبر كان .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 88 إلى 89]

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (89)

الإعراب :

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ) لئن اللام موطئة للقسم وإن شرطية واجتمعت فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والانس فاعل والجن عطف على الانس وعلى أن يأتوا : أن وما في حيزها في محل جر بعلى والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال

أي متظاهرين ومتعاونين وبمثل متعلقان بيأتوا وهذا مضاف لمثل والقرآن بدل . (لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) لا يأتون لا نافية ويأتون فعل مضارع مرفوع لأنه جواب القسم المحذوف لتقدمة لا جواب الشرط والواو فاعل وبمثله متعلقان بيأتون ولو : الواو حالية ولو وصلية وكان فعل ماض ناقص وبعضهم اسم كان ولبعض متعلقان بظهيرا وظهيرا خبر كان وجملة لو كان إلخ حالية ولهذا التركيب قاعدة نوردها في باب الفوائد . (وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وصرفنا فعل وفاعل وفي هذا متعلقان بصرفنا والقرآن بدل ومن كل مثل صفة للمفعول به المحذوف أي من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه . (فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً) فأبى عطف على صرفنا وأكثر الناس فاعل وإلا أداة حصر لأن أبى متأول بالنفي كأنه قيل فلم يرضوا إلا كفورا ، وكفورا مفعول به .

الفوائد :

إذا أتى حرف العطف قبل لو الوصلية كان عاطفا على مقدر ويكون حذف المعطوف عليه مطردا لدلالة المعطوف دلالة واضحة عليه ففي قوله تعالى " ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا " فالعطف هنا على مقدر أي لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرا لبعض ولو كان بعضهم ظهيرا لبعض فإن الإتيان بمثله حيث انتفى عند التظاهر فلأن ينتفي عند عدمه

أولى وعلى هذه النكتة يدور ما في إن ولو الوصليتين من التأكيد ومحله النصب على الحال حسبما عطف عليه أي لا يأتون بمثله على كل حال مفروض ولو في هذه الحال المنافية لعدم الإتيان به فضلا عن غيرها .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 90 إلى 93]

وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً (93)

اللغة :

(يَنْبُوعاً) : الينبوع بفتح الياء عين غزيرة لا ينصب ماؤها وهو يفعول من نبع الماء كيعبوب من عب الماء إذا زخر وكثرت أمواجه وللنون مع الباء فاء وعينا للكلمة سرّ عجيب مطرد وهو أنها تدل على الظهور والبروز وقد أحصيناها في جميع تراكيبها فرأيناها لا تنفك عن أداء هذا المعنى : فنبأ معناها ارتفع والنبأ الخبر والنبوءة ، والنبوة الاخبار عن الغيب أو

المستقبل ، والنابئ المكان المرتفع المحدودب وسيل نابىء طارئ من حيث لا يدرى وكل شيء يظهر ، قال :

ألا فاسقياني وانفيا عنكما القذى وليس القذى بالعود يسقط في الخمر

ولكن قذاها كل أشعث نابىء أتتنا به الأقدار من حيث لا ندري

ونبّ التيس نبا : صاح عند الهياج وليس أظهر من ذلك ورمح مطرد الأنابيب وشرب من أنبوب الكوز وله أنبوب من نخل وغيره ، قال :

أو من مشعشعة ورهاء نشوتها أو من أنابيب رمّان وتفّاح

ونبت المكان صار ذا نبت ظاهر وظهر النبت والنبات في الأرض والنابتة مؤنث النابت والناشئة من الأولاد والأنعام ونبث التراب من الحفرة استخرجه ، ونبثوا عن الأمر : بحثوا عنه ولا يزالون يتنابثون عن الأسرار ويتباحثون عن الأخبار والانبوثة بضم الهمزة : لعبة للصبيان يدفنون شيئًا في حفيرة فمن استخرجه غلب ، وانه لنفّاج نبّاج ليس معه إلا الكلام ، ونبحته الكلاب معروفة واستنبح الضيف الكلاب عند ظهوره ، قال الأخطل وهو أهجى بيت :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم : بولي على النار

ونبذ الشيء من يده طرحه ورمى به وصبي منبوذ والتقط فلان منبوذا ونبذ أمري وراء ظهره ونبذ النبيذ وهو أن يلقي الثمر في الجرّ وغيره ، والنبيذ التمر المنبوذ والخمر المعتصر من العنب وغيره وجمعه أنبذة والنبّاذ بائع النبيذ ، ونبر الغلام ترعرع ونبر المغنّي رفع صوته بعد خفض ونبر الحرف همزه والمنبر محل مرتفع يرتقيه الخطيب أو

الواعظ يكلم منه الجمع سمي بذلك لارتفاعه وكسرت الميم على التشبيه بالآلة والجمع منا بر ، والنبز اللقب ونبزه بكذا لقبه ليعرف به وهو شائع في الألقاب القبيحة ، ونبس بالمجلس ونبّس تكلم وأكثر استعماله بعد النفي يقال : ما نبس بكلمة وتقول كلّمته فعبس وما نبس ، ونبش الشيء المستور أبرزه وأظهره ونبش الكنز من الأرض كشفه واستخرجه وهو ينبش الأسرار ، قال :

مهلا بني عمنا مهلا موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

وهو ينبش لعياله ويحترش إذا استخرج رزقهم من هنا وهنا واحتال ، وانتبش العروق من الأرض استخرجها قال الكميت :

موتهنّ انتباشهن من الأرض ويحيين ما سكنّ القبورا

أي ما دامت العروق تحت الأرض كانت حية فإذا انتبشت ماتت ، والنبّاش فعال للمبالغة الذي ينبش القبور ، ونبص الغلام بالطائر والكلب وهو أن يضمّ شفتيه ويدعوه ، ونبض عرقه نبضا ونبضانا وتقول : رأيت ومضة برق كنبضة عرق ، ونبط الماء نبع ، واستنبط البئر أخرج ماءها واستنبط العرب صاروا نبطا ، قال خالد بن الوليد لعبد المسيح بن بقيلة : أعرب أنتم أم نبيط ؟ فقال : عرب استنبطنا ونبيط استعربنا ، وقال أبو العلاء المعري :

أين امرؤ القيس والعذارى إذ مال من تحته الغبيط

استنبط العرب في الموامي بعدك واستعرب النبيط

وتقدم القول في النبع والينبوع ونبغ الشيء خرج وظهر ونبغ الرجل : قال الشعر وأجاده ويقال إن النابغة قال الشعر على كبر سنه فاجاد فسمي النابغة وقيل بل لقوله :

وحلت في بني القين بن جسر فقد نبغت لنا منهم شئون

وهو نابغة من النوابغ ونبغ في العلم وفي كل صناعة . ونبق الشيء ينبق ظهر والنّبق والنّبق والنّبق والنّبق : حمل شجر السدر الواحدة نبقة وعن بعض العرب : ان النبق ليعجبني وان النّبق لي لمؤذ وفي الحديث " ونبقها كقلال هجر " ، ووقعنا في نبك من الأرض ونباك جمع نبكة وهي الأكمة المحددة الرأس ونبك المكان ارتفع وهضاب نوابك ، قال ذو الرمة :

طواهن تغويري إذا الآل أرفلت به الشمس أزر الحزورات النوابك

ونبل الرجل كان ذا نبالة وفضل ظاهرتين ورجل نابل ونّبال معه نبل قال امرؤ القيس :

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وليس بذي رمح فيطعنني به وليس بذي سيف وليس بنبّال

ورجل تنبال : قصير ، ونبه ينتبه للأمر فطن له وكان ذا نباهة وشرف ، ونبا السيف عن الضريبة نبوّا ونبوة وسيف ناب ولكل صارم نبوة ، قال :

أنا السيف إلا أن للسيف نبوة ومثلي لا تنبو عليك مضاربه

وقد رمق سماء هذا المعنى حافظ ابراهيم فقال :

(441/465)

لا تلم كفي إذا السيف نبا صحّ مني العزم والدهر أبى

(كِسَفاً) : قطعا يقال : كسفت الثوب قطعته وقال الزجاج كسف الشيء بمعنى غطاه قيل ولا يعرف هذا لغيره وفي الأساس : " وهذه كسفة وكسف وكسف من السحب وأعطني كسفة من الثوب :

قطعة " .

(قَبِيلًا) : كفيلا بما تقول شاهدا بصحته وقيل مقابلة وعيانا وقيل هو جمع قبيلة أي

بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة يشهدون بصحة ما تقول واللغة تحتمل الجميع .

(زُخْرُفٍ) ذهب وهو المراد هنا ولها معان شتى منها حسن الشيء وزخرف الكلام أباطيله المموهة وزخرف الأرض ألوان نباتها والجمع زخارف وزخرف الشيء حسنه وزينه ، والكلام موّهه بالكذب .

الاعراب :

(وَقالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً) الواو عاطفة وقالوا فعل وفاعل ولن حرف نفي ونصب واستقبال ونؤمن نصب بها وفاعل نؤمن مستتر تقديره نحن ولك متعلقان بنؤمن وحتى حرف غاية وجر وتفجر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى ولنا جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ومن الأرض متعلقان بتفجر وينبوعا

(442/465)

مفعول به . (أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً) أو حرف عطف وتكون عطف على تفجر وهو المطلب الثاني من مطالبهم الستة . ولك جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر تكون المقدم ، وجنة اسمها المؤخر ، فتفجر : الفاء عطف وتفجر عطف على تكون وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت والأنهار مفعول به وخلالها

ظرف متعلق بمحذوف حال أي كائنة خلالها وتفجيرا مفعول مطلق . (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً) أو حرف عطف وتسقط عطف على ما تقدم وهو المطلب الثالث والسماء مفعول به والكاف حرف جر أو اسم بمعنى مثل وهي مع ما المصدرية المؤولة بمصدر نعت لمصدر محذوف أو نصب على الحال وعلينا متعلقان بتسقط وكسفا حال من السماء والاشارة إلى قوله تعالى "إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء" . (أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا) وهذا هو المطلب الرابع من مطالبهم المتعنتة وبالله متعلقان بتأتي والملائكة عطف على اللّه وقبيلا حال من اللّه والملائكة وقد تقدم معناها في باب اللغة . (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ) وهذان هما المطلبان الخامس والسادس . ولك خبر يكون المقدم وبيت اسم يكون المؤخر ومن زخرف متعلقان بمحذوف صفة لبيت أو حرف عطف وترقى عطف على ما تقدم وبه تكتمل المطالب الستة المتعنتة وفي السماء جار ومجرور متعلقان بترقى ومعنى الرقي الصعود في السماء .

)

وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ) الواو عاطفة ولن حرف نفي ونصب واستقبال ونؤمن منصوب بها وفاعله ضمير مستتر تقديره نحن ولرقيك متعلقان بنؤمن وحتى حرف غاية وجر وتنزل فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت وعلينا متعلقان بتنزل وكتابا مفعول به وجملة نقرؤه نعت لكتابا أو حال مقدرة من نا في علينا . (قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا)

قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت أي قل في الرد على العناد واللجاج وسبحان ربي مفعول مطلق والجملة مقول القول ومعناها التعجب من هذا اللجاج وتنزيه اللّه سبحانه عن أن يشاركه أحد في قدرته وهل حرف استفهام معناه النفي والإنكار وكنت فعل ماض ناقص والتاء اسمها وإلا أداة حصر وبشرا خبر كنت أو حال ورسولا نعت أو خبر كنت .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 94 إلى 96]

وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلاَّ أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً (94) قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً (95) قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (96)

الإعراب :

)

(وَما مَنَعَ النّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى) الواو عاطفة أو استئنافية وما نافية ومنع فعل ماض والناس مفعول به مقدم وأن وما في حيزها في محل نصب مفعول به ثان لمنع وإذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بمنع أي وما منع الناس الايمان وقت مجيء الهدى وجملة جاءهم الهدى مضاف إليها الظرف. (إِلّا أَنْ قالُوا: أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَسُولًا) إلا أداة حصر وأن وما في حيزها في محل رفع فاعل منع والهمزة للاستفهام الانكاري وما أنكروه هو المنكر، وبعث اللّه فعل وفاعل وبشرا حال من رسولا لأنه كان نعتا له وتقدم عليه كما هي القاعدة ورسولا مفعول به. (قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ)

قل فعل أمر ولو شرطية وكان فعل ماض ناقص وفي الأرض متعلقان بمحذوف خبر كان المقدم وملائكة اسمها المؤخر وجملة يمشون صفة لملائكة ومطمئنين حال ويجوز في كان التمام وملائكة هي الفاعل (لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا) اللام واقعة في جواب لو ونزّلنا فعل وفاعل وعليهم متعلقان بنزلنا ومن السماء متعلقان بنزلنا أيضا وملكا حال من رسولا، ورسولا مفعول نزلنا. (قُلْ كَفى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) كفى فعل ماض والباء حرف جر زائد واللّه مجرور بالباء لفظا وهو فاعل كفى محلا وشهيدا تمييز وبيني الظرف متعلق بشهيدا وبينكم عطف على الظرف الأول. (إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) إن

واسمها وجملة كان خبرها وخبيرا بصيرا خبران لكان.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 97 إلى 100]

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً (97) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (98) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً (99) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً (100)

الاعراب:

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ) الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل نصب مفعول مقدم ليهد، ويهد فعل الشرط والله فاعل فهو الفاء رابطة لجواب الشرط لأنه جملة اسمية وهو مبتدأ والمهتدي خبره وتحذف الياء في رسم المصحف وجملة هو المهتدي في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من على الأصح. (وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ

أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ) الواو عاطفة والجملة معطوفة على سابقتها ولهم متعلقان بأولياء ومن دونه حال. (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا) ونحشرهم الواو استئنافية ونحشرهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به ويوم القيامة متعلق بنحشرهم وعلى وجوههم حال من الهاء في نحشرهم وعميا وما عطف عليه أحوال أيضا.

)

(446/465)

مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً) مأواهم جهنم جملة مستأنفة مؤلفة من مبتدأ وخبر وكلما ظرف متضمن معنى الشرط وقد تقدم وهو متعلق بالجواب وهو زدناهم وسعيرا مفعول به ثان وجملة كلما خبت حال من جهنم. (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا) ذلك اسم اشارة مبتدأ وجزاؤهم خبره وبأنهم أن وما في حيزها في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بجزاؤهم ويجوز أن يكون جزاؤهم بدلا من ذلك وبأنهم هو الخبر وجملة كفروا خبر أن وبآياتنا متعلقان بكفروا (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً) الهمزة للاستفهام الانكاري وإذا ظرف مستقبل وكنا عظاما كان واسمها وخبرها ورفاتا عطف على عظاما والهمزة للاستفهام الإنكاري أيضا وان واسمها واللام

المزحلقة ومبعوثون خبر إنا وخلقا حال وجديدا نعت ولك أن تجعل خلقا مفعولا مطلقا من معنى الفعل أي نبعث بعثا جديدا .

(447/465)

(

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) الهمزة للاستفهام الانكاري للرد على إنكارهم ، والواو عاطفة على محذوف وقد تقدم تحقيقه كثيرا وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي يروا والذي صفة للّه وجملة خلق السموات والأرض صلة وقادر خبر أن وعلى أن متعلقان بقادر ومثلهم صفة للمفعول المحذوف أي خلقا مثلهم وتقرير ذلك أن مثل الشيء مساويا له في حال فجاز أن يعبر به عن الشيء نفسه . (وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لا رَيْبَ فِيهِ) الواو عاطفة وجعل معطوف على أو لم يروا لأنه في تقدير قد رأوا والمعنى قد علموا بالدلائل العقلية أن من قدر على خلق السموات والأرض هو قادر على خلق أمثالهم وجعل أجل لهم ، ولهم متعلقان بمحذوف مفعول جعل الثاني وأجلا مفعول جعل لأول ولا ريب فيه الجملة صفة لأجلا ولا نافية للجنس وريب اسمها المبني على الفتح وفيه خبرها . (فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً) تقدم تقريره قريبا فجدد به

عهدا . (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي) لو شرطية وحقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء فلا بد من تقدير فعل يفسره ما بعده أي لو تملكون فلما أضمر على شريطة التفسير انفصل الضمير فأنتم تأكيد للفاعل المستتر في الفعل المحذوف الذي يفسره ما بعده وسيأتي بحث ذلك مفصلا في باب الفوائد .

وغلط من أعرب أنتم فاعلا لأن ضمير المخاطب لا يجوز إظهاره وجملة تملكون مفسرة لا محل لها وخزائن رحمة ربي مفعول به .

(

إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً) اذن حرف جواب وجزاء مهمل ، ولأمسكتم اللام واقعة في جواب لو والجملة لا محل لها وخشية الانفاق مفعول لأجله والواو حالية وكان الإنسان قتورا كان واسمها وخبرها والجملة نصب على الحال وسيرد تقرير هذا المعنى في باب الفوائد .

الفوائد :

1- " لو " والاسم بعدها :

تقدم القول في غير موضع من هذا الكتاب أن الشرط لا يكون إلا بالأفعال لأنك تعلق وجود غيرها على وجودها والأسماء ثابتة موجودة لا يصح تعليق وجود شيء على وجودها ولذلك لا يلي حرف الشرط إلا الفعل ويقبح أن يتقدم الاسم فيه على الفعل ، ولو داخلة في هذا التحديد وإذا وقع بعدها الاسم وبعده الفعل فالاسم محمول على فعل قبله مضمر يفسره الظاهر وذلك لاقتضائها الفعل دون الاسم ومن كلام حاتم " لو ذات سوار لطمتني " على تقدير لو لطمتني ذات سوار .

2- معنى " وكان الإنسان قتورا " :

أورد بعض المتعنتين سؤالا اعترض فيه على قوله تعالى " وكان الإنسان قتورا " وقال على طريق التعنت والجدل اللفظي : كيف يصح هذا السلب الكلّيّ ؟ وكيف يكون عموم الجنس الانساني ممسكا بخيلا ونحن نرى من بني الإنسان الجواد الكريم ؟ والجواب في غاية البساطة وهو أن بناء أمر الإنسان في الأصل قائم على الحاجة والبخل بما يحتاج إليه للحفاظ على ما فيه قوام معيشته وملاك أمره وكسب الذكر الجميل والثناء العطر غاية لما يبذله حتى أن من بينهم - كما قال المعترض - لا الجواد الكريم فحسب بل الذي يرى بذل النفس والنفيس على حد قوله :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

3- ذهب بعض المتأخرين من النحاة إلى قياس إذا الظرفية على إذ في إلحاق التنوين بها و" إذا " ذا حذفت الجملة التي تضاف هي إليها عوض عنها التنوين كقوله تعالى " وإذا لآتيناهم " و" إذا لأمسكتم " و" إذا لأذقناك " و" إذا لا يلبثون " و" إنكم إذا لمن المقربين " قالوا وليست إذا في هذه الأمثلة الناصبة للمضارع لأن تلك تختص به ولذا عملت فيه ولا يعمل إلا ما يختص وهذه لا تختص به بل تدخل على الماضي وعلى الاسم وممن ذكر هذا الكافجي وأبو حيان في تذكرته والزركشي في البرهان وما نحسبه بعيدا قالوا " وتقول لمن قال أنا آتيك إذا أكرمك " بالرفع على معنى إذا أتيتني أكرمتك فحذف أتيتني وعوض التنوين من الجملة فسقطت الألف لالتقاء الساكنين .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 101 إلى 104]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً (101) قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (102) فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (103) وَقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ

وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً (104)

اللغة :

(بَصائِرَ) : عبر وبينات جمع بصيرة قال قس بن ساعدة الإيادي :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

وله فراسة ذات بصيرة وذات بصائر وهي الصادقة ورأيت عليك ذات البصائر قال الكميت :

ورأوا عليك ومنك في المهد النهى ذات البصائر (مَثْبُوراً) هالكا أو مصروفا عن الخير وفي المصباح : " وثبر الله الكافر ثبورا من باب قعد أهلكه وثبر هو يتعدى ويلزم " .

)

(450/465)

لَفِيفاً) : قيل هو مصدر لف يلف لفيفا نحو النذير والنكير من لف الشيء يلفه لفا والألف المتداني الفخذين أو عظيم البطن وقيل هو اسم جمع لا واحد له من لفظه والمعنى جئنا بكم جميعا .

الاعراب :

(وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ) الواو استئنافية واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وآتينا فعل وفاعل وموسى مفعول به أول وتسع آيات مفعول به ثان وبينات صفة للعدد فهي منصوبة أو صفة للمعدود فهي مجرورة وقد تقدم ذكر هذه الآيات وما فيها من خلاف ونوجزها هنا في رواية ابن عباس قال: هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والطور الذي نتقه على بني إسرائيل وعن الحسن

هي الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور وقيل غير ذلك مما لا علاقه له بكتابنا هذا. (فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ: إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً) الفاء الفصيحة إذا كان الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل الخطاب لموسى فتكون عاطفة على قول محذوف أي فقلنا له اسأل بني إسرائيل أي اسأل فرعون، وبني إسرائيل مفعول ثان وإذ ظرف لما مضى متعلق بآتينا على الأول وبالقول المقدر على الثاني وجملة جاءهم مضافة إليها الظرف فقال له عطف على مقدر أي إذ جاءهم وبلغهم الرسالة، فقال له فرعون فعل وفاعل وله متعلقان بقال، وإني ان واسمها واللام المزحلقة وأظنك فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره أنا ومفعول به ويا موسى يا حرف

نداء وموسى منادى مفرد علم ومسحورا مفعول به ثان أي سحرت فخولط عقلك واختل كلامك . (قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ) قال فعل ماض وفاعله مستتر أي موسى واللام جواب للقسم المحذوف وعلمت فعل وفاعل وما نافية وأنزل فعل ماض وهؤلاء مفعول به أي الآيات التي جئت بها وإلا أداة حصر ورب السموات والأرض فاعل وبصائر حال أي أنزلها بصائر وإنما احتجنا إلى هذا التقدير لأن ما بعد إلا لا يكون معمولا لما قبلها وأجازه بعضهم فهي حال من هؤلاء . (وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً) الواو عاطفة وان واسمها واللام المزحلقة وجملة أظنك خبر إن ويا فرعون نداء ومثبورا مفعول ثان لأظنك . (فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ) الفاء عاطفة وأراد فعل وفاعل مستتر أي فرعون وأن وما في حيزها مصدر مؤول مفعول أراد ومن الأرض متعلقان بيستفزهم . (

فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً) الفاء عاطفة وأغرقناه فعل وفاعل ومفعول به ومن الواو واو المعية ومن مفعول معه ويجوز عطفه على الهاء و

ظرف مكان صلة من وجميعا حال . (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ) وقلنا عطف على ما تقدم ومن بعده حال ولبني إسرائيل متعلقان بقلنا .

(اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً) جملة اسكنوا مقول القول والأرض مفعول به على السعة وقد تقدم تفصيل ذلك فإذا الفاء عاطفة وإذا ظرف مستقبل وجاء وعد الآخرة فعل وفاعل وجملة جئنا لا محل لها وبكم متعلقان بجئنا ولفيفا حال .

الفوائد :

حالات المفعول معه :

للمفعول معه خمس حالات :

1- وجوب العطف نحو : كل رجل وعمله ونحو اشترك زيد وعمرو لأن الاشتراك لا يتأتى الا من اثنين .

2- ترجيح العطف نحو : جاء زيد وعمرو ، لأنه الأصل .

3- وجوب المفعول معه نحو : مالك وزيدا ، لامتناع العطف ، ونحو : مات زيد وطلوع الشمس لأن العطف يقتضي التشريك وهو باطل هنا .

4- ترجيح المفعول معه نحو قوله :

فكونوا أنتم وبني أبيكم مكان الكليتين من الطحال

ونحو قمت وزيدا ، ففي المثال الأول يكون المعنى مع العطف كونوا لهم وليكونوا لكم وذلك

خلاف المقصود وفي المثال الثاني

لا يحسن العطف على الضمير المتصل المرفوع إلا بعد توكيده بضمير منفصل .

5- امتناع كليهما نحو :

علفتها تبنا وماء باردا حتى غدت همالة عيناها

وقول الآخر :

إذا ما الغانيات برزن يوما وزججن الحواجب والعيونا

أما امتناع العطف فلانتفاء المشاركة لأن الماء لا يشاركه التبن في العلف والعيون لا تشارك الحواجب في التزجيج لأن تزجيج الحواجب تدقيقها وتطويلها يقال رجل أزج وامرأة زجاء إذا كانت حاجباهما دقيقين طويلين وأما امتناع المفعول معه فلانتفاء المعية في البيت الأول لأن الماء لا يصاحب التبن في العلف وانتفاء فائدة الاعلام بمصاحبة العيون للحواجب في البيت الثاني إذ أن المعلوم أن العيون مصاحبة للحواجب فلا فائدة في الاعلام بذلك ويجب في ذلك إضمار فعل ناصب للاسم الواقع بعد الواو على أنه مفعول به أي علفتها تبنا وسقيتها ماء باردا ، وزججن الحواجب وكحلن العيون .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 105 إلى 111]

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (105) وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً (106) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً (107) وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (109)

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (111)

اللغة:

(مُكْثٍ) بتثليث الميم أي تطاول في المدة وعلى مهل وتؤدة ولم ترد قراءة بالكسر.

)

(الْأَذْقانِ) : جمع ذقن وهو مجتمع اللحيتين وسيأتي تفصيل واسع في باب البلاغة.

(تُخافِتْ) : تسر، يقال خفت الصوت من بابي ضرب وجلس إذا سكن ويعدى بالباء

فيقال خفت الرجل بصوته إذا لم يرفعه وخافت بقراءته مخافته إذا لم يرفع صوته بها وخفت الزرع ونحوه مات فهو خافت .

الاعراب :

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) الكلام هنا مرتبط بما تقدم من كلامه تعالى عن القرآن وقوله : " قل لئن اجتمعت الانس والجن " إلخ على طريق الاستطراد المتبع في أساليب العرب حيث ينتقلون من الصدد الذي هم فيه إلى غيره ثم يعودون إليه ، وعلى كل فالواو استئنافية وبالحق متعلقان بأنزلناه وأنزلناه فعل وفاعل ومفعول به وبالحق متعلقان بنزل فالباء سببية فيهما ولك أن تجعلها للملابسة فيتعلق الجار والمجرور بمحذوف حال أي ملتبسا والحال من المفعول به أو ملتبسين بالحق فالحال من الفاعل وسيأتي المزيد من هذا البحث في باب البلاغة .

(

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) الواو عاطفة وما نافية وأرسلناك فعل وفاعل ومفعول به وإلا أداة حصر ومبشرا حال ونذيرا معطوف عليه وسيأتي الحديث عن هذا القصر في

باب البلاغة . ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ وقرآنا منصوب على الاشتغال بفعل محذوف يفسره ما بعده فتكون جملة فرقناه مفسرة أي جعلنا نزوله مفرقا منجما حسب الحوادث والوقائع ومقتضيات الأحوال ، ولتقرأه اللام للتعليل وتقرأه مضارع منصوب بأن مضمرة والجار والمجرور متعلقان بفرقناه وفرقناه فعل وفاعل ومفعول به وعلى الناس متعلقان بتقرأه وعلى مكث في موضع الحال من الفاعل أي مترينا متمهلا وشيئا بعد شيئا رعاية لمصالح العباد ومعايشهم ، ونزلناه فعل وفاعل ومفعول به وتنزيلا مفعول مطلق . ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ جملة آمنوا مقول القول والأمر للاحتقار أي سواء علينا إيمانكم أو عدمه فما أنتم بمن يؤبه لهم أو لا تؤمنوا وأو حرف عطف ولا ناهية وتؤمنوا مجزوم بلا . ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾

ان واسمها وجملة أوتوا العلم صلة والعلم مفعول ثان لأوتوا والأول نائب الفاعل وهو الواو ومن قبله حال والجملة تعليلية للقول على سبيل التسلية له صلى الله عليه وسلم وإذا ظرف مستقبل متعلق بيخرون وجملة يتلى مضاف إليها الظرف وعليهم متعلقان بيتلى وجملة يخرون لا محل لها لأنها جواب إذا وللأذقان متعلقان بيخرون وسجدا حال . ﴿وَيَقُولُونَ

سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا) ويقولون عطف على يخرون وسبحان ربنا مفعول مطلق وإن مخففة مهملة واسمها ضمير الشأن وجملة كان خبرها ووعد ربنا اسم كان واللام الفارقة ومفعولا خبرها . (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً) الجملة معطوفة على سابقتها وسيأتي سر هذا التكرير في باب البلاغة وجملة يبكون حالية والواو للحال ويزيدهم فعل وفاعل مستتر والهاء مفعول به أول وخشوعا مفعول به ثان وسيأتي سر هذين الحالين المتتابعين في باب البلاغة .

(قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ) سمعوا محمدا يدعو مرة في سجوده ويقول يا اللّه يا رحمن فقال أبو جهل إن محمدا ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين اثنين فنزلت ، وجملة ادعوا اللّه مقول القول والدعاء بمعنى التسمية لا بمعنى النداء وهي تنصب مفعولين حذف أحدهما استغناء عنه للعلم به ولفظ الجلالة مفعول به وأو للتخيير فهي عاطفة وادعوا معطوف على ادعوا الأولى والرحمن مفعول به أي سموه بهذا الاسم أو بذاك (أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى) أيا شرطية وهي منصوبة بتدعوا على أنها مفعول مقدم وما زائدة للابهام المؤكد وتدعوا فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والفاء رابطة للجواب لأنه جملة اسمية وله خبر مقدم والأسماء مبتدأ مؤخر والحسنى صفة وقيل ما شرطية وجمع بين أداتي الشرط للتأكيد ولاختلاف اللفظين ولا داعي لهذا وستأتي الأسماء

الحسنى في باب الفوائد . (وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً) الواو عاطفة ولا ناهية وتجهر مضارع مجزوم بلا والفاعل مستتر تقديره أنت نهي عن المجاهرة تفاديا لشتائمهم وهذا من محاسن الأخلاق ولا تخافت عطف على ولا تجهر أي لا تجعلها غير مسموعة لمن خلفك من المصلين وابتغ فعل أمر بني على حذف حرف العلة وبين ظرف متعلق بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لسبيلا وذلك مضاف للظرف والاشارة إلى اثنين وهما المجاهرة والمخافتة ولذلك صح دخول بين ، وسبيلا مفعول ابتغ . (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً) جملة الحمد للّه مقول القول والحمد مبتدأ وللّه خبر والذي صفة وجملة لم يتخذ ولدا صلة وترتيب الحمد على عدم اتخاذ الولد لأن من كان هذا وصفه فهو القادر ولا شك على إسباغ النعم وايلائها أما صاحب الولد فهو مستهدف للتلهي بولده عن غيرهم والاشتغال بهم عمن سواهم .

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) عطف على لم يتخذ ولم حرف نفي وقلب وجزم ويكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلم وله خبرها المقدم وشريك اسمها المؤخر وفي الملك متعلقان بشريك ونفي الشريك أدعى إلى الحمد لعدم وجود المزاحم الذي تتعارض إرادته معه . (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً) عطف على ما تقدم ونفي النصير يدل على الاستغناء وإنما يستغني القوي القادر على زيادة الإنعام ومن الذل متعلقان بولي أي ناصر وكبّره عطف على

قل وهو فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وتكبيرا مفعول مطلق للتأكيد .

البلاغة :

حفلت خواتم سورة الاسراء بطائفة من فنون البلاغة نوجزها فيما يلي فأولها :

1- الذكر أو التصريح :

بقوله تعالى " وبالحق أنزلناه وبالحق نزل " فإنه لو ترك الإظهار وعدل عنه إلى الإضمار كما يقتضي السياق فقال : وبالحق أنزلناه وبه نزل ، لم يكن فيه من الفخمية ما فيه الآن ويسميه بعضهم بالتصريح ويورد عليه شاهدا قول البحتري :

قد طلبنا فلم نجد لك في السوء دد والمجد والمكارم مثلا

والمعنى قد طلبنا مثلا فلم نجده وحذف لأن هذا المدح إنما يتم في المثل وأما الطلب فكالشيء الذي يذكر ليبنى عليه الغرض المطلوب وإذا كان ذلك كذلك فقد قال قد طلبنا مثلا في السؤدد والمجد فلم نجده ومنه قوله تعالى " قل هو اللّه أحد اللّه الصمد " فلو ترك الإظهار إلى الإضمار فقال : قل هو اللّه وهو الصمد ، لم يكن له الوقع الملائم .

2- فن الاستطراد :

الاستطراد : ذكر الحاتمي في قواعد الشعر : انه نقل هذه التسمية عن البحتري الشاعر وسماه ابن المعتز الخروج من معنى إلى معنى وعرفه غيره بأنه أن يكون المتكلم في غرض من الأغراض يوهم أنه مستمر فيه لم يخرج منه إلى غيره لمناسبة بينهما ثم يرجع إلى الأول ويقطع الكلام فقد انتقل سبحانه من كلامه عن القرآن وان الانس والجن عاجزون عن الإتيان بمثله في فصاحته وبلاغته ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، انتقل إلى ما في منطوياته من مثل وعبر وبصائر وانساق الكلام إلى تعنت

الكافرين وتماديهم في اللجاج وسدورهم في الغي والمكابرة وطمس الحقائق وإنكار الوقائع ثم أورد شاهدا على ذلك ما لاقاه موسى من مكابرة فرعون وملئه وضرب مثلا في المغبة التي نالها فرعون ومن معه ثم عاد إلى الموضوع الذي شرع فيه وهو كون القرآن نازلا بالحق واليه هادفا ومن طريف الاستطراد قول عبد المطلب المشهور :

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة فإن تسلّت أسلناها على الأسل

لا ينزل المجد إلا في منازلنا كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

فقد استطرد من ذكر المجد إلى النوم وقد استغله الشعراء للهجاء قال بعضهم يهجو شعر خالد الكاتب :

وشادن بالدلال عاتبني ومنيتي في تدلل العاتب

فكان ردي عليه من خجلي أبرد من شعر خالد الكاتب

فما أجمل هذا الاستطراد ، لقد كان يتغزل بالشادن ، وليس ثمة أبرد ممن يعاتب الحلو الجميل ، ويرد عليه إذا تدلل أو عتب ، وان من يتكلف مثل هذا الرد لن يأتي إلا بالبارد من الكلام الذي يشبه شعر خالد الكاتب ، وجميل قول بعضهم يهجو قاضي القضاة منتقلا من وصف البستان إلى ما هو بصدده قال :

للّه بستان حللنا دوحه في جنة قد فتحت أبوابها

والبان تحسبه سنانيرا رأت قاضي القضاة فنفشت أ . ذنابها

وأورد الباخرزي في دمية القصر للظاهر الحرمي هذه الأبيات يهجو فيها مغنيا اسمه البرقعيدي وهي :

وليل كوجه البرقعيدي ظلمة وبرد أغانيه وطول قرونه

قطعت دياجيه بنوم مشرّد كعقل سليمان بن فهد ودينه

على أولق فيه التفات كأنه أبو جابر في خبطه وجنونه

إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه سنا وجه قرواش وضوء جبينه

3- القصر وطرقه :

وفي قوله : " وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا " قصر إضافي ، والقصر هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص وينقسم إلى حقيقي وإضافي فالحقيقي ما كان الاختصاص فيه بحسب الواقع والحقيقة لا بحسب الإضافة إلى شيء آخر نحو لا كاتب في المدينة إلا علي إذا لم يكن فيها غيره من الكتاب ، والإضافي ما كان الاختصاص فيه بحسب الإضافة إلى شيء معين نحو ما علي إلا قائم أي أن له صفة القيام لا صفة القعود وكل منهما ينقسم إلى قصر صفة على موصوف نحو لا فارس إلا علي وقصر موصوف على صفة نحو وما محمد إلا رسول .

والقصر الإضافي ينقسم باعتبار حال المخاطب إلى ثلاثة أقسام قصر إفراد إذا اعتقد المخاطب الشركة وقصر قلب إذا اعتقد العكس وقصر تعيين إذا اعتقد واحدا غير معين .

وللقصر طرق أربع مشهورة وطرق كثيرة غير مشهورة أما الأربع المشهورة فهي :

آ – النفي والاستثناء وهنا يكون المقصور عليه ما بعد أداة

الاستثناء مثل : لا يفوز إلا المجد فالفوز مقصور والمجد مقصور عليه وهو قصر صفة على موصوف .

ب- " انما " ويكون المقصور عليه مؤخرا وجوبا وقد تقدم كلام عبد القاهر على انما نحو : انما الحياة تعب فالحياة مقصورة والتعب مقصور عليه وهو قصر موصوف على صفة .

ج- العطف بلا أو بل أو لكن فإن كان العطف بلا كان المقصور عليه مقابلا لما بعدها نحو : الأرض متحركة لا ثابتة وإن كان العطف ببل أو لكن كان المقصور عليه ما بعدهما نحو ما الأرض ثابتة بل متحركة وما الأرض ثابتة لكن متحركة .

ه- تقديم ما حقه التأخير وهنا يكون المقصور عليه هو المقدم نحو على الرجال العاملين نثني .

وهناك طرق أخرى للقصر غير هذه الأربع منها ضمير الفصل نحو علي هو الشجاع ومنها التصريح بلفظ " وحده " الحالية أو ليس غير نحو أكرمت عليا وحده ولكنها لا تعدّ من طرقه الاصطلاحية .

4- التكرير المعنوي :

وقد تقدم بحث التكرير في اللفظ وهذا التكرير الذي نحن بصدده يتعلق بالمعنى فقد كرر الخرور للذقن وهو السقوط على الوجه لاختلاف الحالين فالأول خرورهم في حال كونهم

ساجدين والثاني خرورهم في حال كونهم باكين أو الأول في حالة سماع القرآن أو قراءته
والثاني في سائر الحالات ثم عقب الحالين بحال ثالثة وهي

زيادتهم خشوعا كلما قرءوا وكلما سجدوا فاستوفى بذلك سائر أحوالهم وهم الكملة
الذين أوتوا العلم ومما لا بد من التنويه انه أتى بالحال الأولى اسما وهي قوله سجدا للدلالة
على الاستمرار وأتى بالحال الثانية فعلا للدلالة على التجدد والحدوث فكأنما بكاؤهم
يتجدد بتجدد الأحوال الطارئة والعظات المتتالية وهذا موضع من التكرير مشكل وتدق
معرفته على الأغمار ومما ورد منه حديث حاطب بن بلتعة في غزوة الفتح وذاك أن النبي
صلى اللّه عليه وسلم أمر علي بن أبي طالب والزبير والمقداد رضي اللّه عنهم فقال :
اذهبوا إلى روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فأتوني به ، قال علي رضي اللّه عنه :
فخرجنا تتعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة وإذا فيها الظعينة فأخذنا الكتاب من
عقاصها وأتينا به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وإذا هو من حاطب بن بلتعة إلى ناس
من المشركين بمكة يخبرهم ببعض شأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال له : ما هذا يا
حاطب ؟ فقال : يا رسول اللّه لا تعجل عليّ إني كنت امرأ ملصقا في قريش ولم أكن من

أنفسهم ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون بها أموالهم وأهليهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب أن أتخذ عندهم يدا يحمون قرابتي وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : " انه قد صدقكم " . فقوله : ما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام من التكرير الحسن يظنه بعض الجهال تكريرا لا فائدة فيه ، فإن الكفر والارتداد عن الدين سواء وكذلك الرضا بالكفر بعد الإسلام وليس كذلك والذي يدل عليه اللفظ هو اني لم أفعل ذلك وأنا كافر : أي باق على الكفر ولا مرتدا : أي اني كفرت بعد إسلامي ، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام :

أي ولا إيثارا لجانب الكفار على جانب المسلمين وهذا حسن حسن

(462/465)

واقع في مكانه ولكن هي مقتضيات الأحوال ومتشعبات لا يرود ثناياها إلا الطلعة المتذوق . ومما ورد شعرا من هذا التكرير المعنوي قول المقنع الكندي ونوردها كاملة لأهميتها :

يعاتبني في الدّين قومي وإنما ديوني في أشياء تكسبهم حمدا

أسدّ به ما قد أخلوا وضيعوا ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدا

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جدا

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هووا عني هويت لهم رشدا

وان زجروا طيرا بنحس تمر بي زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا

ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

وليسوا إلى نصري سراعا وان هم دعوني إلى نصر أتيتهم

شدا وإني لعبد الضيف ما دام ثاويا وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

فإن كل لحم يؤكل للانسا ن هو تضييع لغيبه وليس كل تضييع لغيبه أكلا للحمه ألا ترى أن أكل اللحم هو الاغتياب وأما تضييع الغيب فمنه الاغتياب ومنه التخلي عن النصرة والاعانة ومنه إهمال السعي في كل ما يعود بالنفع كائنا ما كان وهو موضع يرد في الكلام البليغ ويظن الجاهل انه لا فائدة فيه .

الفوائد :

1- الأسماء الحسنى :

" إن للّه عز وجل تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا إنه وتر يحب الوتر من أحصاها دخل الجنة وهي : هو اللّه الذي لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ،

المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت (أي المقتدر) الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ،

المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدئ ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الاول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعالي ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرءوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور .

2- الجهر والمخافتة وبيان السبب في ذلك :

بعد أن وجدت قريش أن دخولها في محاورات مع النبي لن يجديها شيئًا بعد أن تكررت هزيمتها أمام الحجج الرائعة والمعاجز الإلهية التي كان يبدها بها ، وبعد أن شعرت أنه لا قبل

لها بتحدي القرآن وسلطانه المقدس على النفوس قرّ رأيها على أن تلجأ إلى ضرب آخر من المقاومة السلبية وذلك أن تمتنع تماما عن سماع القرآن ، روى ابن اسحق : جعلوا إذا جهر الرسول بالقرآن وهو يصلي يتفرقون عنه ويأبون أن يستمعوا له وكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول اللّه بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقا منهم فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم فلم يستمع ، وإن خفض رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم صوته فظن الذي يستمع انهم لا يستمعون شيئا من قراءته وسمع هو شيئا دونهم أصاخ له يستمع منه .

وروى ابن عباس انما أنزلت هذه الآية " ولا تجهر بصلاتك " إلخ من أجل هؤلاء النفر .

وإذا كان سادة قريش قد دعوا أهل مكة إلى الانصراف عن سماع القرآن فما كانت بهم طاقة على تنفيذ هذا الأمر لما يحسون في أنفسهم من رقة ومن شغف لسماع هذا التنزيل الذي لا عهد لهم به .

وروى ابن اسحق أيضا :

أن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول اللّه وهو يصلي من الليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد أن لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال له :

- أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد فقال :

- يا أبا ثعلبة ، واللّه لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها

وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها ، فقال له الأخنس :

- وأنا والذي حلفت به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته وقال له :

- يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال :

- ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا وأعطوا فأعطينا

حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا هنا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه؟ واللّه لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه، فقام عنه الأخنس وتركه.

وهكذا كانت قريش في حيرة من أمرها: ترق قلوبها وتخشع أفئدتها للقرآن لإدراكها أسراره ونفاذها إلى بيانه وسبرها غوره بيد أن نزاع العصبية وشارات الرياسة وأوضاع الجاهلية كل ذلك كان يحجبها عن الإسلام. وسيأتي المزيد من هذا البحث الطريف الجليل... انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 5 صـ 459. 527﴾

(465/465)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والستون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/466)

الجزء السادس والستون بعد الأربعمائة

(سورة الكهف)

(4/466)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الكهف)

(5/466)

"فصل فى فضل السُّورة"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

لم يُذكر فيها سوى أَحاديث واهية ، وحديثٍ صحيح .

أَما الحديث الصَّحيح فقوله صلَّى الله عليه وسلم "من حفظ عشر آيات من أَوّل الكهف عُصِمَ من الدجَّال" وفى لفظ : مَنْ قرأَ عشر آيات من سورة الكهف حِفظاً لم يضره فتنة الدجال ، ومن قرأَها كلَّها دخل الجنَّة .

والأَحاديث الواهية ، منها : أَلا أَدلكم على سورة شَيَعها سبْعون أَلف مَلك حتى نزلت ، ملأَ عِظَمها بين السّماءِ والأَرض .

قالوا : بلى يا رسول الله قال : هى سورة أَصحاب الكهف .

من قرأَها يوم الجمعة غُفِرَ له إِلى الجمعة الأُخرى وزيادة ثلاثة أَيام ، ولياليها مثل ذلك ، وأَعطى نوراً يبلغ السّماء ، ووُقى فتنة الدّجّال .

وعن جعفر : من قرأَ هذه السّورة فى كلِّ ليلة جمعة لم يمت إِلاَّ شهيداً وبُعث مع الشهداءِ ، ووقف يوم القيامة معهم ، ولا يصيبه آفة الدّجّال .

وروى أَنَّ سورة الكهف يوم الجمعة أَشركه الله فى ثواب أَصحاب الكهف ؛ لأَنهم وجدوا الولاية يوم الجمعة ، وأَحياهم يوم الجمعة ، واستجاب دعاءَهم يوم الجمعة ، والسَّاعة تقومُ يوم

الجمعة ، وقال : يا عليّ مَنْ قرأ سورة الكهف فكأنّما عبد الله عشرة آلاف سنة ، وكأنّما تصدّق بكلِّ آية قرأها بألف دينار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 304.303 ﴾

(6/466)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الكهف

مكية وآياتها عشر ومائة

مقدمة سورة الكهف أخرج النحاس في ناسخه وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت سور الكهف بمكة

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير رضي الله عنه قال : نزلت سورة الكهف بمكة

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن الضريس وابن حبان والحاكم والبيهقي في سننه وابن مردويه عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : " من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال "

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي وأبو عبيد في فضائله عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من

فتنة الدجال "

وأخرج أبو عبيد وابن مردويه عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : " من

حفظ عشرة آيات من أول سورة الكهف ثم أدركه الدجال لم يضره

ومن حفظ خواتيم سورة الكهف كانت له نورا يوم القيامة "

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن الضريس والنسائي وابن أبي حاتم وابن حبان وابن

مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي العالية قال : قرأ رجل سورة الكهف وفي الدار دابة

فجعلت تنفر

فينظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته فذكر للنبي صلى الله عليه و سلم قال : " أقرا

فلان فإنها السكينة نزلت للقرآن "

وأخرج الطبراني عن أسيد بن حضير أنه أتى النبي صلى الله عليه و سلم فقال : " يا رسول

الله إني كنت أقرأ البارحة سورة الكهف فجاء شيء حتى غطى فمي

فقال النبي صلى الله عليه و سلم : مه

تلك السكينة جاءت حين تلوت القرآن "

وأخرج الترمذي وصححه عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : "

من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف عصم من فتنة الدجال "

وأخرج ابن الضريس والنسائي وأبو يعلى والروياني عن ثوبان عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : " من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف فإنه عصمة له من الدجال "

(7/466)

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " من قرأ من سورة الكهف عشر آيات عند منامه عصم من فتنة الدجال ومن قرأ خاتمتها عند رقاده كان له نورا من لدن قرنه إلى قدمه يوم القيامة "

وأخرج ابن مردويه والضياء في المختارة عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " من قرأ الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة تكون وإن خرج الدجال عصم منه "

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في السنن والطبراني في الأوسط وابن مردويه والضياء عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " من قرأ سورة الكهف كانت له نورا من مقامه إلى مكة ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره "

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد لأن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال :

" من قرأ سورة الكهف كما أنزلت كانت له نورا يوم القيامة "

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في السنن عن أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : " من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين "

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور والدارمي وابن الضريس والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدري قال : من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " من قرأ سورة الكهف كما أنزلت ثم خرج الدجال لم يسلط ولم يكن له عليه سبيل "

وأخرج أحمد والطبراني وابن مردويه عن معاذ بن أنس عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : " من قرأها كلها كانت له نورا ما بين الأرض إلى السماء "

وأخرج ابن مردويه عن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين "

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " ألا أخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السماء والأرض ولكاتبها من الأجر مثل ذلك ؟ ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ومن قرأ العشر الأواخر منها عند نومه بعثه الله أي الليل شاء ؟ قالوا : بلى يا رسول الله

قال : سورة أصحاب الكهف "

وأخرج سعيد بن منصور عن خالد بن معدان قال : من قرأ سورة الكهف في كل يوم جمعة قبل أن يخرج الإمام كانت له كفارة ما بينه وبين الجمعة وبلغ نورها البيت العتيق

وأخرج ابن الضريس عن أبي المهلب قال : من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة كانت له كفارة إلى الجمعة الأخرى

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : " سورة الكهف تدعى في التوراة الحائلة تحول بين قارئها وبين النار "

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مغفل قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " البيت الذي تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة "

وأخرج أبو عبيد والبيهقي في شعب الإيمان عن أم موسى قالت : كان الحسن بن علي يقرأ سورة الكهف كل ليلة وكانت مكتوبة له في لوح يدار بلوحه حيثما دار في نسائه في كل ليلة

وأخرج ابن أبي شيبة عن زيد بن وهب أن عمر رضي الله عنه قرأ في الفجر بالكهف

وأخرج ابن سعد عن صفية بنت أبي عبيد أنها سمعت عمر بن الخطاب يقرأ في صلاة الفجر بسورة أصحاب الكهف

وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أنس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : " نزلت سورة الكهف جملة معها سبعون ألفا من الملائكة "

وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن عباس قال : " بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا : سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى أتيا المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه و سلم ووصفا لهم أمره وبعض قوله وقالا : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا

فقالوا لهما : سلوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هو فإن أخبركم بذلك فإنه نبي فاتبعوه وإلا فهو متقول

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما قريش فقالا : يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور - فأخبراهم بها - فجاؤوا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالوا : يا محمد أخبرنا - فسألوه عما أمروهم به - فقال لهم رسول الله صلى الله عليه و سلم : أخبركم غدا بما سألتم عنه - ولم يستثن - فانصرفوا عنه ومكث رسول الله صلى الله عليه و سلم خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة وأحزن رسول الله صلى الله عليه و سلم مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاء جبريل من الله عز و جل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله : ويسألونك عن الروح

الإسراء الآية 85 الآية "

وأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس : " أن قريشا بعثوا خمسة رهط – منهم عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث – يسألون اليهود عن رسول الله صلى الله عليه و سلم ووصفوا لهم صفته فقالوا لهم : نجد نعته وصفته ومبعثه في التوراة فإن كان كما وصفتم لنا فهو نبي مرسل وأمره حق فاتبعه ولكن سلوه عن ثلاث خصال فإنه يخبركم

بخصلتين ولا يخبركم بالثالثة

إن كان نبيا فإنا قد سألنا مسيلمة الكذاب عن هؤلاء الثلاث فلم يدر ما هي

فرجعت الرسل إلى قريش بهذا الخبر من اليهود فأتوا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالوا : يا محمد أخبرنا عن ذي القرنين الذي بلغ المشرق والمغرب وأخبرنا عن الروح وأخبرنا عن أصحاب الكهف

فقال : أخبركم بذلك غدا

ولم يقل إن شاء الله

فأبطأ عليه جبريل خمسة عشر يوما فلم يأته لترك الاستثناء فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم أتاه جبريل عليه السلام بما سألوه فقال : يا جبريل أبطأت علي فقال : بتركك الاستثناء ألا تقول : إن شاء الله ؟ قال : ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله الكهف آية 23 ثم أخبره عن حديث ذي القرنين وخبر الروح

وأصحاب الكهف ثم أرسل إلى قريش فأتوه فأخبرهم عن حديث ذي القرنين وقال لهم :

الروح من أمر ربي يقول : من علم ربي لا علم لي به فلما وافق قول اليهود أنه لا يخبركم بالثالث

قالوا : سحران تظاهرا القصص آية 48 تعاونا – يعني التوراة والفرقان – وقالوا : إنا بكل

كافرون القصص آية 48 وحدثهم بحديث أصحاب الكهف "

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فكان

أكثر خطبته ذكر الدجال فكان فيما قال لنا يومئذ : " إن الله عز وجل لم يبعث نبيا إلا حذر

أمته وإني آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم وهو خارج فيكم لا محالة فإن يخرج وأنا بين أظهركم

فأنا ; حجيج كل مسلم وإن يخرج فيكم بعدي فلكل إمرئ حجيج نفسه

(11/466)

والله خليفتي على كل مسلم وإن يخرج من خلة بين العراق والشام وعاث يمينا وعاث شمالا

يا عباد الله اثبتوا فإنع يبدأ يقول : أنا نبي ولا نبي بعدي وإنه مكتوب بين عينيه "كافر" يقرؤه

كل مؤمن فمن لقيه منكم فليتفل في وجهه وليقرأ بقوارع سورة أصحاب الكهف وإنه يسلط

على نفس من بني آدم فيقتلها ثم يحييها وإنه لا يعدو ذلك ولا يسلط على نفس غيرها وإن

من فتنته : أن معه جنة ونارا فناره جنة وجنته نارا فمن ابتلى بناره فليغمض عينيه

وليستعن بالله تكون عليه بردا وسلاما كما كانت النار بردا وسلاما على إبراهيم وإن أيامه

أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة ويوم كالأيام وآخر أيامه كالسراب يصبح

الرجل

عند باب المدينة فيمسي قبل أن يبلغ بابها الآخر

قالوا : وكيف نصلي يا رسول الله في تلك الأيام القصار

! ؟ قال : تقدرون فيها كما تقدرون في الأيام الطوال . والله وأعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ 354.359 ﴾

(12/466)

فصل في نزول السورة الكريمة

قال ابن الجوزى :

فصل في نزولها

روى أبو صالح عن ابن عباس أن سورة الكهف مكية وكذلك قال الحسن ومجاهد وقتادة

وهذا اجماع المفسرين من غير خلاف نعلمه إلا أنه قد روي عن ابن عباس وقتادة أن منها

آية مدنية وهي قوله واصبر نفسك الكهف 28 وقال مقاتل من أولها الى قوله تعالى صعيدا

جرزا الكهف 8 مدني وقوله تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات الكهف 107108 الآيتان مدنية وباقيها مكي وروى أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال من حفظ عشر آيات من أول الكهف ثم أدرك الدجال لم يضره ومن حفظ خواتيم سورة الكهف كانت له نورا يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ 102 ﴾

(13/466)

فصل

وقال الآلوسى :

سورة الكهف

81 – ويقال سورة أصحاب الكهف كما في حديث أخرجه ابن مردويه وروى البيهقي من حديث ابن عباس مرفوعا أنها تدعى في التوراة الحائلة تحول بين قارئها وبين النار إلا أنه قال : إنه منكر وهي مكية كلها في المشهور واختاره الداني وروي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهما وعدها بعضهم من السور التي نزلت جملة لما أخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أنس عن النبي قال : نزلت سورة الكهف جملة معها سبعون ألفا من الملائكة وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنها مكية إلا قوله تعالى واصبر نفسك الآية فمدني

وروي ذلك عن قتادة وقال مقاتل : هي مكية إلا أولها إلى جرزا وقوله تعالى : إن الذين آمنوا إلى آخرها فمدني وهي مائة وإحدى عشرة آية عند البصريين ومائة وعشرة عند الكوفيين ومائة وست عند الشاميين ومائة وخمس عند الحجازيين ووجه مناسبة وضعها بعد الإسراء على ما قيل افتتاح تلك بالتسبيح وهذه بالتحميد وهما مقترنان في الميزان وسائر الكلام نحو فسبح بحمد ربك فسبحان الله وبحمده وأيضا تشابه اختتام تلك وافتتاح هذه فإن في كل منهما حمدا نعم فرق بينهما بأن الحمد الأول ظاهر الحمد الذاتي والحمد المفتتح به في هذه يدل على الإستحقاق الغير الذاتي وقال الجلال السيوطي في ذلك : إن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا النبي عن ثلاثة أشياء عن الروح وعن قصة أصحاب الكهف وعن قصة ذي القرنين وقد ذكر جواب السؤال الأول في آخر السورة الأولى وجواب السؤالين الآخرين في هذه فناسب اتصالهما ولم تجمع الأجوبة الثلاثة في سورة لأنه لم يقع الجواب عن الأول بالبيان فناسب أن يذكر وحده في سورة واختيرت سورة الإسراء لما بين الروح وبين الإسراء من المشاركة بأن كلا منهما مما لا يكاد تصل إلى حقيقته العقول وقيل : إنما ذكر هناك لما أن الإسراء متضمن العروج إلى المحل الأرفع والروح متصفة بالهبوط من ذلك المحل ولذا قال ابن سينا فيها : هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز

وتمنع ثم قال: ظهر لي وجه آخر وهو أنه تعالى لما قال في تلك وما أوتيتم من العلم إلا قليلا والخطاب لليهود استظهر على ذلك بقصة موسى نبي بني إسرائيل مع الخضر عليهما السلام التي كان سبب ذكر العلم والأعلم وما دلت عليه من كثرة معلومات الله تعالى التي لا تحصى فكانت هذه الصورة كإقامة الدليل لما ذكر من الحكم في تلك السورة

وقد ورد في الحديث أنه لما نزل وما أوتيتم من العلم إلا قليلا قال اليهود: قد أوتينا التوراة فيها علم كل شيء نزل قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي الآية فتكون هذه السورة من هذه الجهة جوابا عن شبهة الخصوم فيما قرر في تلك وأيضا لما قال سبحانه هناك فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا شرح ذلك هنا وبسطه بقوله سبحانه فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء إلى قوله تعالى ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ا ه وللمناسبة أوجه أخر تظهر بأدنى تأمل وأما فضلها فمشهور

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت

قدمه إلى عنان السماء يضيء له إلى يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين

وروى غير واحد عن أبي سعيد الخدري من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق وكان الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما كما أخرج أبو عبيد والبيهقي عن أم موسى يقرأها كل ليلة

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مغفل مرفوعا البيت الذي تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله الشيطان تلك الليلة وإلى سنية قراءتها يوم الجمعة وكذا ليلتها ذهب غير واحد من الأئمة وقالوا بندب تكرار قراءتها

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان وجماعة عن أبي الدرداء عن النبي من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال وفي رواية أخرى عنه رواها أحمد ومسلم والنسائي وابن حبان أيضا قال : قال رسول الله : من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال

وأخرج الترمذي وصححه عنه مرفوعا من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف عصم الخ وجاء في حديث أخرجه ابن مردويه عن عائشة رضي الله تعالى عنها مرفوعا إن من قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه الله تعالى أي الليل شاء وقد جربت ذلك مرارا فليحفظ والله تعالى الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ 199 . 200 ﴾

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الكهف مكية – آياتها مائة عشرة مقصودها وصف الكتاب بأنه قيم ، لكونه زاجراً عن الشريك الذي هو خلاف ما قام عليه الدليل في (سبحان) من أنه لا وكيل دونه ، ولا إله إلا هو ، وقاصّاً بالحق أخبار قوم قد فضلوا في أزمانهم وفق ما وقع الخبر به في (سبحان) من أنه يفضل من يشاء ، ويفعل ما يشاء ، وأدل ما فيها على هذا المقصد قصة أهل الكهف لأن خبرهم أخفى ما فيها من القصص مع أن سبب فراقهم لقومهم الشرك ، وكان أمرهم موجباً – بعد طول رقادهم – للتوحيد وإبطال الشرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 441 ﴾

(17/466)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى .. الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب)

السّورة مكِّيّة بالاتّفاق.

وعدد آياتها مائة وعشر عند الكوفيين، وست عند الشّاميّين، وخمس عند الحجازيّين، وإحدى عشرة عند البصريّين.

وكلماتها أَلف وخمسمائة وتسع وسبعون.

وحروفها ستَّة آلاف وثلثمائة وستّ.

المختلف فيها إِحدى عشرة آية ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ ﴿إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ ﴿ذلك غَداً﴾ ﴿زَرْعًا﴾ ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ ﴿هذه أَبداً﴾ ﴿عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ذرّيته (فى) موضع ﴿الأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾.

فواصل آياتها على الأَلف.

وسُمّيت سورة الكهف؛ لاشتمالها على قصّة أَصحاب أَهل الكهف بتفصيلها.

(18/466)

مقصود السّورة مجملاً: بيانُ نزول القرآن على سَنَن السّداد، وتسلية النّبىّ صَلَّى الله عليه وسلم فى تأخّر الكفَّار عن الإِيمان، وبيان عجائب حديث الكهف، وأَمر النّبىّ صلَّى الله

عليه وسلَّم بالصّبرِ على الفقراءِ ، وتهديد الكفَّار بالعذاب ، والبلاءِ ، ووعد المؤمنين بحسن الثَّواب ، وتمثيل حال المؤمن والكافر بحال الأَخوين الإِسرائيليّين ، وتمثيل الدنيا بماء السّماءِ ونبات الأَرض ، وقراءَة الكُتُب ، وعَرْض الخَلْق على الحقِّ ، وإِباءُ إِبليس من السّجود ، وذلّ الكافر ساعة دخولهم النار ، وجدال أَهل الباطل مع المحقِّين الأَبرار ، والتخويف بإِهلاك الأُمم الماضية وإِذلالهم ، وحديث موسى ويوشَع وخَضِر ، وعجائب أَحوالهم ، وقصّة ذى القَرْنَيْن ، وإِتيانه إِلى المشرقين والمغربين ، وبنيانه لسدّ يأجوج ومأجوج ، وما يتَّفق لهم آخر الزمان من الخروج ، وذكر رحمة أَهل القيامة ، وضياع عمل الكفر ، وثمرات مساعى المؤمنين الأَبرار ، وبيان أَن كلمات القرآن بحور علم : لا نهاية لها ، ولا غاية لأَمَدِها ، والأَمر بالإِخلاص فى العلم الصّالح أَبداً ، فى قوله : ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

أَكثر المفسّرين على أَنَّ السّورة خالية من الناسخ والمنسوخ.

وقال قتادة : فيه آية م ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ ن ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 297. 299 ﴾

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الكهف

247 - مسألة :

قوله تعالى - : (هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) وظاهره ، إفرادهم لها بالعبادة دونه تعالى .

وقال تعالى بعده : (وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) فاستثنى الرب سبحانه من معبوداتهم .

جوابه :

أن اتخذوا للماضي ، وكانوا مفردين لهم في العبادة ويعبدون للاستقبال ، وقد يعبدون الله تعالى في المستقبل ، وكذلك كان الواقع فصح الاستثناء أدبا وتحرزاً .

248 - مسألة :

قوله تعالى : (ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ) و (خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ) وقال : (وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) بزيادة الواو ؟ .

جوابه :

من وجهين :

الأول : أن الواو عاطفة على فعل مقدر معناه : صدقوا وثامنهم كليهم .

الثاني : أن كل واحد من القولين المتقدمين بعده قول آخر في معناه فكأن الكلام لم ينقض ، والثاني غاية ما قيل : وليس بعده قول آخر ، فناسب ذلك مجئ الواو العاطفة المشعرة بانقضاء الكلام الأول ، والعطف عليه .

وما يقال ههنا إنه من واو الثمانية ، فكلام فيه نظر .

249 - بمسألة :

قوله تعالى : (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَب) وكذلك في الزخرف .

وقال تعالى في "هل أتى" : (وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ) ؟ .

جوابه :

من وجوه : أحدها : أن الضمير للولدان في "الإنسان" وفى "الكهف" والزخرف" للعباد .

الثاني أنهم يحلون بهما فجمع لأهل الجنة التحلى بالذهب والفضة .

الثالث : أن الأمزجة مختلفة في ذلك في الدنيا ، فمنهم من يؤثر الذهب ومنهم من يؤثر الفضة ، فعوملوا في الجنة بمقتضى ميلهم في الدنيا .

250 - مسألة :

قوله تعالى : (وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي) وفى حم السجدة :

(وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي) ؟ .

جوابه :

بعد تنويع الخطاب : أن في لفظ "الرد" من الكراهية للنفوس

(20/466)

ما ليس في لفظ الرجوع فلما كان آية صاحب الكهف ، وصف جنته بغاية المراد بالجنان ، كانت مفارقته لها أشد على النفس من مفارقة صاحب حم السجدة لما كانت فيه ، لأنه لم يبالغ في وصف ما كان فيه كما بالغ صاحب آية الكهف فناسب ذلك لفظ الرد هنا ، ولفظ الرجوع ثمة .

251 - مسألة :

قوله تعالى : (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا) وقال فى القمر : (كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7) ؟ .

جوابه :

الأول : عند السؤال ، والثانى عند خروجهم من القبور وحشرهم إلى القيامة

252 - مسألة :

قوله تعالى : (فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) وقال في السجدة : ((ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا)

هنا " بالفاء " ، وثَمَّ بـ " ثُمَّ "

جوابه :

الإعراض : إما مصادمة ورد بالصدر من غير مهلة ، وإما أن

يكون عن مهلة وروية ، فلما تقدم في الكهف : (وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ) الآية .

ناسب ذلك " الفاء " المؤذنة

بالتعقيب بالإعراض منهم عند مجادلتهم ودحضهم الحق .

ولم يتقدم مثل ذلك في السجدة ، بل قال : (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا) أي استمروا على فسقهم

فناسب ذلك " ثُمَّ "

المؤذنة بالتراخي .

253 - مسألة :

قوله تعالى : (نَسِيَا حُوتَهُمَا) . والناسى : فتاه ، بدليل : (فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ) وقوله (آتِنَا

غَدَاءَنَا) ؟ .

جوابه :

أن النسيان بمعنى : الترك ، فمن موسى عليه السلام : ترك التفقد ، ومن فتاه : الذهول عنه

أو النسيان منهما في مجمع البحرين ، ومن فتاه لما جاوزا ذلك .

254 - مسألة:

قوله تعالى: (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)، وبعده: (شَيْئًا نُكْرًا) ما معناهما ؟ .

جوابه:

أن "الإمر" ما يخشى منه، والنكر: ما تنكره العقول

والشرائع.

والسفينة لم تغرق وإنما عابها، وخشى منه، وقتل الغلام إعداما له بالكلية، فناسب كل

لفظ مكانه.

255 - مسألة:

(21/466)

قوله تعالى: (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ) وقال: (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ) ؟ .

جوابه:

أن الخضر قصد بالأولى: تذكير موسى عليهما السلام بما شرط عليه فخاطبه بلطف

وأدب معه.

وفى الثانية: كرر موسى الإنكار عليه، فشدد الخضر عليه، وأكد القول بقوله (لك) لأن

كاف الخطاب أبلغ في

التنبيه.

256 - مسألة:

قوله تعالى: (لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) وقال بعده: (فَأَرَدْنَا) ، وقال في

الثالثة: (فَأَرَادَ رَبُّكَ) ؟ .

جوابه:

أن هذا حسن أدب من الخضر مع الله تعالى.

أما في الأول: فإنه لما كان عيبا نسبه إلى نفسه.

وأما الثاني: فلما كان يتضمن العيب ظاهرا ، وسلامة الأبوين من الكفر ، ودوام إيمانهما

باطنا قال: أردنا ، كأنه قال: أردت أنا القتل وأراد الله سلامتهما من الكفر وإبدالهما خيرا

منه.

وأما الثالث: فكان خيرا محضا ليس فيه ما ينكر لا عقلا ولا

شرعا نسبه إلى الله وحده فقال: فأراد ربك.

257 - مسألة:

السورة.

قوله تعالى: (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78)

ثم قال : ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿82﴾

وقال في قصة ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿97﴾ ؟ .

جوابه :

أنه تقدم أولا : ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ﴾ فخفف الثاني لدلالة الأول

عليه ، وفى قصة ذي القرنين أن تعلق الفعل بالمفعول المفرد

أخفف من تعلقه بالمركب ، و﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ مفعول مركب ،

فناسب التخفيف ، و " نقبا " مفعول مفرد فكمل لفظ الفعل

معه لعدم المقتضى للتخفيف .

258 - مسألة :

قوله تعالى : ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ظاهره أنه بمكان معين لغروبها .

وقال تعالى : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿17﴾ الآية ، و﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ وهو

المعروف للشمس ؟ .

جوابه :

(22/466)

أنه معين بالنسبة إلى ذلك المكان وذلك الزمان لا بالنسبة إلى سائر الأزمنة والأقطار كما تقول : غابت في البحر ، وإنما هي في السماء ، وإنما هو بالنسبة إلى نظرك .

259 - مسألة :

قوله تعالى : (وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106) وفيما قبله من هذه السورة : (وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (56)) .

جوابه :

أن الآية الأولى : تقدمها : (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54) ، وقوله تعالى : (مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ) فناسب ذلك (وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (56)

والآية الثانية : تقدمها قصة موسى والخضر وذي القرنين وسؤال اليهود ذلك ، فناسب : (رُسُلِي) .

جواب آخر : أن المراد تنويع كفر الكفار لأنه إنما بالرسل كقولهم : ساحر كاهن ، أو بما جاءوا به ، كقولهم : سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا ، وشبه ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿كشف المعاني صـ 237.245﴾

(23/466)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ بغير واو ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ بزيادة واو .

وفى هذا الواو أَقوال أَحدها أَنَّ الأَول والثانى وصفان لما قبلهما ، أَى هم ثلاثة رابعهم كلبهم .

وكذلك الثانى أَى هم خمسة سادسهم كلبهم .

والثالث عطف على ما قبله ، أَىّ هم سبعة ، ثمّ عطف عليهم ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ .

وقيل : كلّ واحد من الثلاثة جملة ، وقعت بعدها جملة فيها عائد يعود منها إِليها .

فأَنت فى إِلحاق واو العطف وحذفها بالخِيار .

وليس فى هذين القولين ما يوجب تخصيص الثالث بالواو .

وقال بعض النَّحويّين : السّبعة نُهاية العدد ، ولهذا كَثُر ذكرها فى القرآن والأَخبار ، والثَّمانية تَجْرى مَجْرى استئناف كلام .

ومن ههنا لقَّبه جماعة من المفسّرين بواو الثمانية .

واستدلُّوا بقوله سبحانه : ﴿ التَّائِبُونَ ﴾ الآية وبقوله : ﴿ مُسْلِمَاتٍ ﴾ الآية وبقوله : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ ولكلّ واحدة ، من هذه الآيات وجوه ذكرت فى مباسيط التفسير .

وقيل : إنّ الله تعالى حكى القولين الأوّلين ، ولم يرتضهما ، وحكى القول الثّالث فارتضاه .

وهو قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ ﴾ ثمّ استأنف فقال : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ .

ولهذا قال : عقيب الأوّل والثّانى ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ ولم يقل فى الثالث .

فإن قيل : وقد قال فى الثالث : ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ فالجواب تقديره : قل ربّى أعلم بعدتهم وقد أخبركم أنّهم سبعة وثامنهم كلبهم ؛ بدليل قوله تعالى ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ .

ولهذا قال ابن عباس : أنا من ذلك القليل .

فعدّ أسماءهم .

وقال بعضهم الواو فى قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ ﴾ يعود الى الله تعالى ، فذكر بلفظ الجمع ؛ كقوله إنّا وأمثاله .

(24/466)

هذا على سبيل الاختصار .

قوله : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي ﴾ وفى حم : ﴿ وَلَئِن رَّجِعْتُ إِلَى رَبِّي ﴾ لأن الرّدّ عن شىء يتضمن كراهة المردود ، ولما كان [ما فى الكهف تقديره : ولئن رددت عن جنّتى التى أظنّ أنها لا تبيد أبدا إلى ربى ، كان لفظ الرد الذى يتضمن الكراهة أولى ، وليس فى

حم ما يدل على كراهة، فذكر بلفظ الرَجْع ليأْتى لكل مكان ما يليق به.

قوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ [وفى السجدة ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾] لأَن الفاء للتعقيب وثم للتراخى.

وما فى هذه السورة فى الأَحياء من الكفار، أَى ذُكِّروا فأَعرضوا عقيب ما ذُكِّروا، ونَسُوا ذنوبهم، و[هم] بعدُ متوقَّع منهم أَن يؤمنوا.

وما فى السّجدة فى الأَموات من الكفار؛ بدليل قوله: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَى ذُكِّروا مرّةً بعد أُخرى، وزماناً بعد زمان [بآياتِ ربِّهم] ثم أعرضوا عنها بالموتِ، فلم يؤمنوا، وانقطع رجاءُ إِيمانهم.

قوله: ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ ﴾ والآية الثالثة ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ ﴾ لأَنَّ الفاءَ للتعقيب والعطف، فكان اتخاذ الحوت السّبيلَ عقيب النّسيان، فذكِر بالفاءِ [و] فى الآية الأُخرى لمَّا حيل بينهما بقوله: ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ زال معنى التعقيب وبقى العطف المجرّد، وحرفه الواو.

قوله: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ وبعده ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ لأَنَّ الإِمْر: العَجَب، والعجب يستعمل فى الخير والشرِّ، بخلافِ النُّكر؛ لأَنَّ النُّكْر ما ينكِره العقلُ، فهو شرّ، وخَرْق السفينة لم يكن معه غرق، فكان أَسهل من قتل الغلام وإِهلاكِه، فصار لكلِّ واحد

معنى يخصّه .

قوله : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ ﴾ وبعده ﴿ قَالَ أَلَمْ

(25/466)

أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ ﴾ لأَنّ الإِنكار فى الثانية أَكبر .

وقيل : أَكَّد التقرير الثَّانى بقوله (لك) كما تقول لمن توبّخه : لك أَقول ، وإِيَّاك أَعنى : وقيل : بيّن فى الثّانى المقول لَه ، لمّا لم يبيّن فى الأَوّل .

قوله فى الأَوّل : ﴿ فَأَرَدْتُّ ﴾ ، وفى الثَّانى : ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ وفى الثالث : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ ؛ لأَنَّ الأَوّل فى الظاهر إِفساد ، فأَسنده إِلى نفسه ، والثَّالث إِنْعام محض ، فأَسنده إِلى الله عزَّ وجلّ .

وقيل : لأَنَّ القتل كان منهُ ، وإِزهاق الرّوح كان من الله عزَّ وجلّ .

قوله : ﴿ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ ﴾ جاءَ فى الأَوّل على الأَصل ، وفى الثانى ﴿ تَسْطِعْ ﴾ على التخفيف ؛ لأَنَّه الفرع .

قوله : ﴿ فَمَا اسْطَاعُواْ أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْباً ﴾ اختار التخفيف فى الأَوّل ؛ لأَنَّ مفعوله حرف وفعل وفاعل ومفعول ، فاختير فيه الحذف .

والثّانى مفعوله اسم واحد ، وهو قوله (نَقْبًا) وقرأَ حمزة بالتّشديد ، وأَدغم التّاءَ فى الطّاءِ .

وقرئ فى الشّواذِّ : فما أَسطاعوا بفتح الهمزة .

ووزونه أَسفعلوا ومثله أَهْراق ووزنه أَهْفَعل ، ومثلها استخَذَ فلان أَرضاً ، أَى أَخذ ،

ووزنه اسفعل وقيل : استعل ، من وجهين .

وقيل : السّين بدل من التّاء ، ووزنه افتعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1

صـ 299.303 ﴾

(26/466)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة الكهف

283 - قوله تعالى سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم 22 بغير

واو ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم 22 بزيادة واو

في هذه الواو أقوال إحداها أن الأول والثاني وصفان لما قبلها أي هم ثلاثة وكذلك الثاني أي

هم خمسة سادسهم كلبهم والثالث عطف على ما قبله أي هم سبعة عطف عليه وثامنهم

كلبهم

وقيل كل واحد من الثلاثة جملة وقعت بعدها جملة وكل جملة وقعت بعدها جملة فيها

عائد يعود منها إليها فأنت في إلحاق واو العطف وحذفها بالخيار وليس في هذين القولين ما

يوجب تخصيص الثالث بالواو

وقال بعض النحويين السبعة نهاية العدد ولهذا كثر ذكرها في القرآن والأخبار والثمانية

تجري مجرى استئناف كلام ومن هنا لقبه جماعة من المفسرين بواو الثمانية واستدلوا بقوله

سبحانه التائبون العابدون الحامدون إلى والناهون عن المنكر 9 112 الآية وبقوله

مسلمات مؤمنات قانتات إلى ثيبات وأبكارا 66 5 الآية وبقوله وفتحت أبوابها 39 73

وزعموا أن هذه الواو تدل على أن أبوابها ثمانية ولكل واحد من هذه الآيات وجوه ذكرتها

في موضعها

وقيل إن الله حكى القولين الأولين ولم يرضهما وحكى القول الثالث فارتضاه وهو قوله

ويقولون سبعة ثم استأنف فقال وثامنهم كلبهم ولهذا عقب الأول والثاني بقوله رجما

بالغيب 22 ولم يقل في الثالث

فإن قيل وقد قال في الثالث قل ربي أعلم بعدتهم 22

فالجواب تقديره قل ربي أعلم بعدتهم وقد أخبركم أنهم سبعة وثامنهم كلبهم بدليل قوله ما

يعلمهم إلا قليل 22 ولهذا قال ابن عباس أنا من ذلك القليل فعد أسماءهم

وقال بعضهم الواو في قوله ويقولون سبعة 22 يعود إلى الله تعالى فذكر بلفظ الجمع كقوله أما وأمثاله هذا على الاختصار

(27/466)

---

284 - قوله ولئن رددت إلى ربي 36 وفي حم فصلت ولئن رجعت إلى ربي 50 لأن الرد عن الشيء يتضمن كراهة المردود ولما كان في الكهف تقديره ولئن رددت عن جنتي هذه التي أظن ألا تبيد أبدا إلى ربي كان لفظ الرد الذي يتضمن الكراهة أولى وليس في حم ما يدل على الكراهة فذكر بلفظ الرجع ليقع في كل سورة ما يليق بها

285 - قوله ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها 57 وفي السجدة ثم أعرض عنها 22 لأن الفاء للتعقيب وثم للتراخي وما في هذه السورة في الأحياء من الكفار إذ ذكروا فأعرضوا عقيب ما ذكروا ونسوا ذنوبهم وهم بعد متوقع منهم أن يؤمنوا وما في السجدة في الأموات من الكفار بدليل قوله ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم 12 أي ذكروا مرة بعد أخرى وزمانا بعد زمان ثم أعرضوا عنها بالموت فلم يؤمنوا وانقطع رجاء إيمانهم

286 - قوله نسيا حوتهما فاتخذ سبيله 61 وفي الآية الثالثة واتخذ سبيله 63 لأن الفاء

للتعقيب والعطف فكان اتخاذ الحوت للسبيل عقيب النسيان فذكر بالفاء وفي الآية الأخرى لما حيل بينهما بقوله وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره 63 زال معنى التعقيب وبقي العطف المجرد وحرفه الواو

287 - قوله لقد جئت شيئا إمرا 71 وبعده لقد جئت شيئا نكرا 74 لأن الأمر العجب والمعجب والعجب يستعمل في الخير والشر بخلاف النكر لأن ما ينكره العقل فهو شر وخرق السفينة لم يكن معه غرق فكان أسهل من قتل الغلام وإهلاكه فصار لكل واحد معنى يخصه

288 - قوله ألم أقل إنك 72 وبعده ألم أقل لك إنك 75 لأن الإنكار في الثانية أكثر وقيل أكد التقدير الثاني بقوله لك كما تقول لمن توبخه لك أقول وإياك أعني وقيل بين في الثاني المقول له لما لم يبين في الأول

(28/466)

---

289 - قوله في الأول فأردت أن أعيبها 79 وفي الثاني فأردنا أن يبدلهما ربهما 81 وفي الثالث فأراد ربك أن يبلغا أشدهما 82 لأن الأول في الظاهر إفساد فأسنده إلى نفسه والثالث إنعام محض فأسنده إلى الله عز وجل والثاني إفساد من حيث القتل إنعام من

حيث التأويل فأسنده إلى نفسه وإلى الله عز و جل

وقيل القتل كان منه وإزهاق الروح كان من الله سبحانه

قوله ما لم تسطع عليه صبرا 78 جاء في الأول على الأصل وفي الثاني تستطع عليه صبرا

87 على التخفيف لأنه الفرع

290 - قوله فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا 97 اختار التخفيف في

الأول لأن مفعوله حرف وفعل وفاعل ومفعول فاختار فيه الحذف والثاني مفعوله اسم

واحد وهو قوله نقبا

وقرأ حمزة بالتشديد وأدعم التاء في الطاء في الشواذ فما اسطاعوا بفتح الهمزة وزنه

استفعلوا ومثلها استخذ فلان أرضا أي أخذ أرضا وزنه استفعل ومن أهراق ووزنه

استفعل وقيل استعمل من وجهين وقيل السين بدل التاء ووزنه افتعل . انتهى . ا هـ

﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 131. 135﴾

(29/466)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

سورة الكهف

تمهيد :

سميت هذه السورة بسورة الكهف ، لأن أهل الكهف وقصتهم أخذت شطرا كبيرا ، وعدد آياتها عشرة ومائة آية ، وهى مكية ، وجاء فى المصحف أن الآية الثامنة والثلاثين مدنية وكذلك الآيات من 83 إلى 101 ، والله أعلم وكلها قرآنه الحكيم .

ابتدأ سبحانه وتعالى السورة الكريمة بحمد الله تعالى الذى أنزل على عبده الكتاب ، كما اختتم سورة الإسراء بالتكبير ، ونفى اتخاذ الولد ، وبين أنه شىء نكر لا يقع من عقلاء ، (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) ثم أشار سبحانه إلى زينة الأرض .

وبعد ذلك ذكر قصة أهل الكهف ، وهى دليل على صبر أهل الحق ، وعلى قدرة الله تعالى على الإحياء بعد الموت ، أو شبهه ، وعلى عجائب الله تعالى فى خلقه ، وقد استغرقت قصتهم وأحوالهم إلى قوله تعالى : (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (27)

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28)

بين سبحانه وتعالى الحق ، وما يكون من عقاب على الباطل : (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا

أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29) .

(30/466)

ثم يبين سبحانه جزاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات ، ويذكر سبحانه وتعالى قصة تصور غرور غير المؤمن وإيمان المؤمن وألا يغتر بالله غرورا ، وأن نعيم الدنيا عرضة للزوال وينصح الغرور فيقول : (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41)

ولكنه بعد هذه النصيحة يستمر في غيه وغروره حتى يزول ثمره ، (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (43) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44)

وقد ضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما يدل على فنائها وذهاب زخرفها .

ويذكر سبحانه أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا ، وخير أملا ، ويذكر لهم سبحانه حالهم يوم القيامة والميزان والحساب .

ثم يذكرهم سبحانه بأصل خلق الإنسان وعداوة إبليس لآدم وذريته ، وفسقه عن أمر ربه ، وقد اتخذ بنو آدم إبليس وذريته أولياء من دون الله ، (وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا .

(31/466)

إن الله خلق السموات والأرض ، وإن لم يشهدوا خلقها ، ثم ذكرهم سبحانه بيوم القيامة وما يكون فيه ، ورؤية المجرمين النار وظنهم أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفا .

ولقد ذكرهم سبحانه بالقران وتصريفه سبحانه فيه ، وأنذرهم بسنة الأولين أو أن يأتيهم العذاب قبلا ، ويجادل الذين كفروا بالباطل .

وبين سبحانه وتعالى ظلم من ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ، ثم ذكر سبحانه ظلم القرى وهلاكها بسبب الظلم .

قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع العبد الصالح :

ثم ذكر سبحانه وتعالى ، (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ

حُقُبًا (60)

حتى وجدا عبدا من عباد الله صالحا ، (قال له موسى

هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ، ثم كانت بينهما المحاورة ، وسارا فانطلقا حتى

إذا أتيا سفينة فركباها فخرقها ، (قال أخرقتها لتغرق أهلها) ، ثم سارا (حتى إذا لقيا

غلاما فقتله) ، قال موسى : (أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا) ، . (

فانطلقا حتى إذا وجدا أهل قرية فأراد أن يضيفوهما

فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77)

، وقد أجابه بعد ذلك عن السفينة بأن (وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) ، وعن قتل

الغلام بأن أبويه كانا صالحين (فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) ، (وأما الجدار فكان

لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا

أشدهما ويستخرجا كنزهما .

ذو القرنين :

بعد ذلك جاء ذكر ذى القرنين : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا

(83) ،

ثم ذكر سبحانه أعماله الصالحة وكيف مكن الله له في الأرض وهيأ له الأسباب ، وبلوغه مغرب الشمس ، وعدله مع من ظلم ومع من عدل ، وعندما بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم يجعل لهم من دونها سترا ، ثم كان ما من يأجوج ومأجوج ، وقد أقام بينه وبينهم سدا ، ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98)﴾ .

وقد ذكر سبحانه جزاء جهنم للظالمين وجزاء المتقين ، وقال في جزاء الكافرين : ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106)﴾

وبين أن جزاء المؤمنين جنة الفردوس خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ، واختتم السورة بهاتين الآيتين : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110)﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿زهرة التفاسير صـ 4483.4481﴾

وقال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

18- سورة الكهف

سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الكهف .

روى مسلم ، وأبو داود ، عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف " وفي رواية لمسلم : " من آخر الكهف ، عصم من فتنة الدجال " .

ورواه الترمذي عن أبي الدرداء بلفظ " من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف عصم من فتنة الدجال " .

قال الترمذي : " حديث حسن صحيح " .

وكذلك وردت تسميتها عن البراء بن عازب في " صحيح البخاري " .

قال : "كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدنو ، وتدنو ، وجعل فرسه ينفر ، فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فقال : " تلك السكينة تنزلت بالقرآن " .

وفي حديث أخرجه ابن مردويه عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه سماها سورة أصحاب الكهف " .

وهي مكية بالاتفاق كما حكاه ابن عطية.

قال: " وروي عن فرقد أن أول السورة إلى قوله: ﴿ جُرُزاً ﴾ نزل بالمدينة"، قال: " والأول أصح".

وقيل قوله: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ [الكهف: 28] نزلتا بالمدينة،

وقيل قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾ [الكهف: 107] إلى آخر السورة نزل بالمدينة.

وكل ذلك ضعيف كما سيأتي التنبيه عليه في مواضعه.

نزلت بعد سورة الغاشية وقبل سورة الشورى.

وهي الثامنة والستون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد.

(34/466)

وقد ورد في فضلها أحاديث متفاوتة أصحها الأحاديث المتقدمة.

وهي من السور التي نزلت جملة واحدة.

روى الديلمي في سند الفردوس عن أنس قال: نزلت سورة الكهف جملة معها سبعون ألفا من الملائكة.

وقد أغفل هذا صاحب " الإتقان " .

وعدت آيها في عدد قراء المدينة ومكة مائة وخمسا ، وفي عدد قراء الشام مائة وستا ، وفي عدد قراء البصرة مائة وإحدى عشرة ، وفي عد قراء الكوفة مائة وعشرا ، بناء على اختلافهم في تقسيم بعض الآيات إلى آيتين .

وسبب نزولها ما ذكره كثير من المفسرين ، وبسطه ابن إسحاق في سيرته بدون سند ، وأسنده الطبري إلى ابن عباس بسند فيه رجل مجهول : " أن المشركين لما أهمهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم وازدياد المسلمين معه وكثر تساؤل الوافدين إلى مكة من قبائل العرب عن أمر دعوته ، بعثوا النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة يثرب يسألونهم رأيهم في دعوته ، وهم يطمعون أن يجد لهم الأحبار ما لم يهتدوا إليه مما يوجهون به تكذيبهم إياه .

قالوا : فإن اليهود أهل الكتاب الأول وعندهم من علم الأنبياء أي صفاتهم وعلاماتهم علم ليس عندنا ، فقدم النضر وعقبة إلى المدينة ووصفا لليهود دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وأخبراهم ببعض قوله .

فقال لهم أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث؟ فإن أخبركم بهن فهو نبئ وإن لم يفعل فالرجل متقول ، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وسلوه عن الروح ما هي .

فرجع النضر وعقبة فأخبرا قريشا بما قاله أحبار اليهود ، فجاء جمع من المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن هذه الثلاثة ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبركم بما سألتم عنه غدا وهو ينتظر وقت نزول الوحي عليه بحسب عادة يعلمها .

ولم يقل : إن شاء الله .

(35/466)

فمكث رسول الله ثلاثة أيام لا يوحى إليه ، وقال ابن إسحاق : خمسة عشر يوما ، فأرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدا وقد أصبحنا اليوم عدة أيام لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه ، حتى أحزن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وشق عليه ، ثم جاءه جبريل عليه السلام بسورة الكهف وفيها جوابهم عن الفتية وهم أهل الكهف ، وعن الرجل الطواف وهو ذو القرنين .

وأنزل عليه فيما سألوه من أمر الروح ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الاسراء : 85] في سورة الإسراء .

قال السهيلي : وفي رواية عن ابن إسحاق من غير طريق البكائي " أي زياد ابن عبد الله البكائي الذي يروي عنه ابن هشام " أنه

(36/466)

قال في هذا الخبر : " فناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو أي الروح جبريل .

وهذا خلاف ما روى غيره أن يهود قالت لقريش : سلوه عن الروح فإن أخبركم به فليس بنبئ وإن لم يخبركم به فهو نبي " ا هـ .

وأقول : قد يجمع بين الروايتين بأن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أجابهم عن أمر الروح بقوله تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الاسراء : 85] بحسب ما عنوه بالروح عدل بهم إلى الجواب عن أمر كان أولى لهم العلم به وهو الروح الذي تكرر ذكره في القرآن مثل قوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ [الشعراء : 193] وقوله ﴿ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر : 4] وهو من ألقاب جبريل على طريقة الأسلوب الحكيم مع ما فيه من الإغاظة لليهود ، لأنهم أعداء جبريل كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ ﴾ [البقرة : 97] الآية .

ووضحه حديث عبد الله ابن سلام في قوله للنبي صلى الله عليه وسلم حين ذكر جبريل عليه السلام ذاك عدو اليهود من الملائكة فلم يترك النبي صلى الله عليه وسلم لهم منفذا قد

يلقون منه التشكيك على قريش إلا سده عليهم .

وقد يعترضك هنا : أن الآية التي نزلت في أمر الروح هي من سورة الإسراء فلم تكن مقارنة للآية النازلة في شان الفنية وشأن الرجل الطواف فماذا فرق بين الآيتين ، وأن سورة الإسراء يروي أنها نزلت قبل سورة الكهف فإنها معدودة سادسة وخمسين في عداد نزول السور ، وسورة الكهف معدودة ثامنة وستين في النزول .

وقد يجاب عن هذا بأن آية الروح قد تكون نزلت على أن تلحق بسورة الإسراء فإنها نزلت في أسلوب سورة الإسراء وعلى مثل فواصلها ، ولأن الجواب فيها جواب بتفويض العلم إلى الله ، وهو مقام يقتضي الإيجاز ، بخلاف الجواب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين فإنه يستدعي بسطا وإطنابا ففرقت آية الروح عن القصتين .

(37/466)

على أنه يجوز أن يكون نزول سورة الإسراء مستمرا إلى وقت نزول سورة الكهف ، فأنزل قرآن موزع عليها وعلى سورة الكهف .

وهذا على أحد تأويلين في معنى كون الروح من أمر ربي كما تقدم في سورة الإسراء .

والذي عليه جمهور الرواة أن آية ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ [الاسراء : 85] مكية إلا ما

روي عن ابن مسعود .

وقد علمت تأويله في سورة الإسراء .

فاتضح من هذا أن أهم غرض نزلت فيه سورة الكهف هو بيان قصة أصحاب

(38/466)

الكهف ، وقصة ذي القرنين .

وقد ذكرت أولاهما في أول السورة وذكرت الأخرى في آخرها .

كرامة قرآنية :

لوضع هذه السورة على هذا الترتيب في المصحف مناسبة حسنة ألهم الله إليها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رتبوا المصحف فإنها تقارب نصف المصحف إذ كان في أوائلها موضع قيل هو نصف حروف القرآن وهو التاء من قوله تعالى : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ [الكهف : 19] وقيل نصف حروف القرآن وهو " النون " من قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً ﴾ [الكهف : 74] في أثنائها ، وهو نهاية خمسة عشر جزءا من أجزاء القرآن وذلك نصف أجزائه ، وهو قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ [الكهف : 75] ، فجعلت هذه السورة في مكان قرابة نصف المصحف .

وهي مفتتحة بالحمد حتى يكون افتتاح النصف الثاني من القرآن بـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ كما كان افتتاح النصف الأول بـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ .

وكما كان أول الربع الرابع منه تقريبا بـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [فاطر : 1] .

أغراض السورة

افتتحت بالتحميد على إنزال الكتاب للتنويه بالقرآن تطاولا من الله تعالى على المشركين وملقنيهم من أهل الكتاب .

وأدمج فيه إنذار المعاندين الذين نسبوا لله ولدا ، وبشارة للمؤمنين ، وتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أقوالهم حين تريث الوحي لما اقتضته سنة الله مع أوليائه من إظهار عتبه على الغفلة عن مراعاة الآداب الكاملة .

وذكر افتتان المشركين بالحياة الدنيا وزينتها وأنها لا تكسب النفوس تزكية .

وانتقل إلى خبر أصحاب الكهف المسؤول عنه .

وحذرهم من الشيطان وعداوته لبني آدم ليكونوا على حذر من كيده .

وقدم لقصة ذي القرنين قصة أهم منها وهي قصة موسى والخضر عليهما السلام ، لأن كلتا القصتين تشابهتا في السفر لغرض شريف .

فذو القرنين خرج لبسط سلطانه على الأرض ، وموسى عليه السلام خرج في طلب العلم .

(39/466)

وفي ذكر قصة موسى تعريض بأحبار بني إسرائيل إذ تهمموا بخبر ملك من غير قومهم ولا من أهل دينهم ونسوا خبرا من سيرة نبيهم .

وتخلل ذلك مستطردات من إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيته .

وأن الحق فيما أخبر به ، وأن أصحابه الملازمين له خير من صناديد المشركين ، ومن الوعد والوعيد ، وتمثيل المؤمن والكافر ، وتمثيل الحياة الدنيا وانقضائها ، وما يعقبها من البعث والحشر ، والتذكير بعواقب الأمم الدنيا وانقضائها ، وما يعقبها من البعث والحشر ، والتذكير بعواقب الأمم المكذبة للرسل ، وما ختمت به من إبطال الشرك ووعيد أهله ؛ ووعد المؤمنين بضدهم ، والتمثيل لسعة علم الله تعالى .

وختمت بتقرير أن القرآن وحي من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فكان في هذا الختام محسن رد العجز على الصدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ 5. 9 ﴾

(40/466)

وقال الشيخ سيد قطب :

التعريف بسورة الكهف

القصص هو العنصر الغالب في هذه السورة . ففي أولها تجيء قصة أصحاب الكهف , وبعدها قصة الجنتين , ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس . وفي وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح . وفي نهايتها قصة ذي القرنين . ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة , فهو وارد في إحدى وسبعين آية من عشر ومائة آية ; ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها . وإلى جوار القصص بعض مشاهد القيامة , وبعضمشاهد الحياة التي تصور فكرة أو معنى , على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير .

أما المحور الموضوعي للسورة والذي ترتبط به موضوعاتها , ويدور حوله سياقها , فهو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر . وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة .

فأما تصحيح العقيدة فيقرره بدؤها وختامها .

في البدء : (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما . لينذر بأسا شديدا من لدنه ; ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولدا . ما لهم به من علم ولا لآبائهم . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) .

وفي الختام:(قل:إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد , فمن كان يرجو لقاء ربه

فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) .

وهكذا يتساوق البدء والختام في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك , وإثبات الوحي , والتمييز المطلق بين الذات الإلهية وذوات الحوادث .

ويلمس سياق السورة هذا الموضوع مرات كثيرة في صور شتى:

في قصة أصحاب الكهف يقول الفتية الذين آمنوا بربهم: ربنا رب السماوات والأرض لن ندعوا من دونه إلها , لقد قلنا إذا شططا .

وفي التعقيب عليها : (ما لهم من دونه من ولي , ولا يشرك في حكمه أحدا) . .

وفي قصة الجنتين يقول الرجل المؤمن لصاحبه وهو يحاوره: أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا , لكن هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا .

(41/466)

وفي التعقيب عليها :(ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا , هنالك الولاية لله الحق , هو خير ثوابا وخير عقبا) .

وفي مشهد من مشاهد القيامة:(ويوم يقول:نادوا شركائي الذين زعمتم , فدعوهم فلم يستجيبوا لهم , وجعلنا بينهم موبقا) .

وفي التعقيب على مشهد آخر :(أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ? إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) .

أما تصحيح منهج الفكر والنظر فيتجلى في استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به علم , والذين لا يأتون على ما يقولون ببرهان . وفي توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعداه , وما لا علم له به فليدع أمره إلى الله .

ففي مطلع السورة: (وينذر الذين قالوا :اتخذ الله ولدا , ما لهم به من علم ولا لآبائهم) والفتية أصحاب الكهف يقولون: (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسلطان بين !)وعندما يتساءلون عن فترة لبثهم في الكهف يكلون علمها لله: (قالوا :ربكم أعلم بما لبثتم) .

وفي ثنايا القصة إنكار على من يتحدثون عن عددهم رجما بالغيب: (سيقولون:ثلاثة رابعهم كلبهم ; ويقولون:خمسة سادسهم كلبهم - رجما بالغيب - ويقولون:سبعة وثامنهم كلبهم . قل:ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل ; فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا , ولا تستفت فيهم منهم أحدا) .

وفي قصة موسى مع العبد الصالح عندما يكشف له عن سر تصرفاته التي أنكرها عليه موسى يقول: (رحمة من ربك وما فعلته عن أمري)فيكل الأمر فيها لله .

فأما تصحيح القيم بميزان العقيدة , فيرد في مواضع متفرقة , حيث يرد القيم الحقيقية إلى

الإيمان والعمل الصالح , ويصغر ما عداها من القيم الأرضية الدنيوية التي تبهر الأنظار .

فكل ما على الأرض من زينة إنما جعل للابتلاء والاختبار , ونهايته إلى فناء وزوال:(إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا , وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا) .

(42/466)

وحمى الله أوسع وأرحب , ولو أوى الإنسان إلى كهف خشن ضيق . والفتية المؤمنون أصحاب الكهف يقولون بعد اعتزالهم لقومهم:(وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون - إلا الله - فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته , ويهيئ لكم من أمركم مرفقا)

والخطاب يوجه إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليصبر نفسه مع أهل الإيمان ; غير مبال بزينة الحياة الدنيا وأهلها الغافلين عن الله (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه , ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا , ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ; واتبع هواه وكان أمره فرطا . وقل:الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

وقصة الجنتين تصور كيف يعتز المؤمن بإيمانه في وجه المال والجاه والزينة . وكيف يجبه

صاحبها المنتفش المنتفخ بالحق , ويؤنبه على نسيان الله: ال له صاحبه وهو يحاوره:أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ؟ لكن هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا . ولولا إذ دخلت جنتك قلت:ما شاء الله , لا قوة إلا بالله . إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا . فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك , ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا , أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا .

وعقب القصة يضرب مثلا للحياة الدنيا وسرعة زوالها بعد ازدهارها :(واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء , فاختلط به نبات الأرض , فأصبح هشيما تذروه الرياح , وكان الله على كل شيء مقتدرا) .

ويعقب عليه ببيان للقيم الزائلة والقيم الباقية:(المال والبنون زينة الحياة الدنيا , والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) .

(43/466)

وذو القرنين لا يذكر لأنه ملك , ولكن يذكر لأعماله الصالحة . وحين يعرض عليه القوم الذين وجدهم بين السدين أن يبني لهم سدا يحميهم من يأجوج ومأجوج في مقابل أن يعطوه مالا , فإنه يرد عليهم ما عرضوه من المال , لأن تمكين الله له خير من أموالهم (قال:ما مكني فيه ربي

خير) . وحين يتم السد يرد الأمر لله لا لقوته البشرية:(قال:هذا رحمة من ربي , فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا) .

وفي نهاية السورة يقرر أن أخسر الخلق أعمالا , هم الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ; وهؤلاء لا وزن لهم ولا قيمة وإن حسبوا أنهم يحسنون صنعا :(قل:هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ? أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) .

وهكذا نجد محور السورة هو تصحيح العقيدة . وتصحيح منهج الفكر والنظر . وتصحيح القيم بميزان العقيدة .

ويسير سياق السورة حول هذه الموضوعات الرئيسية في أشواط متتابعة:

تبدأ السورة بالحمد لله الذي أنزل على عباده الكتاب للإنذار والتبشير . تبشير المؤمنين وإنذار الذين قالوا :اتخذ الله ولدا ; وتقرير أن ما على الأرض من زينة إنما هو للابتلاء والاختبار , والنهاية إلى زوال وفناء . . ويتلو هذا قصة أصحاب الكهف . وهي نموذج لإيثار الإيمان على باطل الحياة وزخرفها , والالتجاء إلى رحمة الله في الكهف , هربا بالعقيدة أن تمس .

ويبدأ الشوط الثاني بتوجيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه , وأن يغفل الغافلين عن ذكر الله . . ثم تجيء

قصة الجنتين تصور اعتزاز القلب المؤمن بالله , واستصغاره لقيم الأرض . . وينتهي هذا الشوط بتقرير القيم الحقيقية الباقية .

(44/466)

والشوط الثالث يتضمن عدة مشاهد متصلة من مشاهد القيامة تتوسطها إشارة قصة آدم وإبليس . . وينتهي ببيان سنة الله في إهلاك الظالمين , ورحمة الله وإمهاله للمذنبين إلى أجل معلوم .

وتشغل قصة موسى مع العبد الصالح الشوط الرابع . وقصة ذي القرنين الشوط الخامس .

ثم تختم السورة بمثل ما بدأت: تبشيرا للمؤمنين وإنذارا للكافرين , وإثباتا للوحي وتنزيها لله عن الشريك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2256. 2259 ﴾

(45/466)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الكهف

مكية وآياتها عشرة ومائة

بين يدي السورة

* سورةُ الكهف من السور المكية ، وهي إحدى سورٍ خمس بُدئت ب " الحمدُ لله ، وهذه السور هي الفاتحة ، الأنعام ، الكهف ، سبأ ، فاطر وكلها تبتدىء بتمجيد الله جل علا وتقديسه ، والاعتراف له بالعظمة والكبرياء ، والجلال والكمال .

* تعرضت السورة الكريمة لثلاث قصص من روائع قصص القرآن ، في سبيل تقرير أهدافها الأساسية لتثبيت العقيدة ، والإيمان بعظمة ذي الجلال . أما الأولى فهي قصة (أصحاب الكهف وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة ، وهم الفتية المؤمنون الذين خرجوا من بلادهم فرارا بدينهم ، ولجئوا إلى غار في الجبل ، ثم مكثوا فيه نياما ثلاثمائة وتسع سنين ، ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة . والقصة الثانية : قصة موسى مع الخضر ، وهي قصة التواضع في سبيل طلب العلم ، وما جرى من الأخبار الغيبية التي اطلع الله عليها ذلك العبد الصالح " الخضر " ولم يعرفها موسى عليه السلام حتى أعْلمه بها الخضر كقصة السفينة ، وحادثة قتل الغلام ، وبناء الجدار . والقصة الثالثة : قصة ذي القرنين وهو ملك مكَّن الله تعالى له بالتقوى والعدل أن يبسط سلطانه على المعمورة ، وأن يملك مشارق الأرض ومغاربها ، وما كان من أمره في بناء السد العظيم .

* وكما استخدمت السورة – في سبيل هدفها – هذه القصص الثلاث ، استخدمت

أمثلة واقعية ثلاثة ، لبيان أن الحقَّ لا يرتبط بكثرة المال والسلطان ، وإنما هو مرتبط بالعقيدة ، المثل الأول : للغني المزهو بماله ، والفقير المعتز بعقيدته وإيمانه ، في قصة أصحاب الجنتين . والثاني : للحياة الدنيا وما يلحقها من فناء وزوال ، والثالث : مثل التكبر والغرور مصورا في حادثة امتناع إبليس عن السجود لآدم ، وما ناله من الطرد والحرمان ، وكل هذه القصص والأمثال بقصد العظة والاعتبار .

التسمية :

سميت " سورة الكهف " لما فيها من المعجزة الربانية ، فى تلك القصة العجيبة الغريبة قصة أصحاب الكهف . انتهى انتهى . اهـ ﴿صفوة التفاسير حـ 2 صـ 181﴾

(46/466)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الكهف

العوج : (بالكسر والفتح) : الانحراف والميل عن الاستقامة ، فلا خلل فى لفظه ولا فى معناه ، قيما : أي معتدلا لا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف حتى يشق على العباد ،

ولا تفريط فيه بإهمال ما تمس الحاجة إليه ، والبأس : العذاب الشديد فى الآخرة ، من لدنه : أي من عنده ، كبرت : (بضم الباء) كلمة : أي ما أعظمها مقالة قيلت ، وهذا أسلوب فى الكلام يدل على التعجب والاستغراب مما حدث من قول أو فعل ، باخع : أي قاتل (منتحر) قاله ابن عباس وأنشد قول لبيد :

لعلك يوما إن فقدت مزارها على بعده يوما لنفسك باخع

على آثارهم : أي من بعدهم أي من بعد توليهم عن الإيمان وتباعدهم عنه ، والحديث : هو القرآن ، والأسف : المبالغة فى الحزن والغضب ، وصعيدا : أي ترابا ، وجرزا : أي لا نبات فيه

أم : حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر ، وهو بمعنى بل وهمزة الاستفهام أي بل أحسبت ، والخطاب فى الظاهر للنبى عليه الصلاة والسلام ، والمراد غيره كما سبق نظيره ، والكهف : النقب المتسع فى الجبل ، فإن لم يكن متسعا فهو غار ، والرقيم : لوح حجرى رقمت فيه أسماؤهم كالألواح الحجرية المصرية التي يذكر فيها تاريخ الحوادث وتراجم العظماء ، أوى إلى المكان : اتخذه مأوى ومكانا له ، والفتية واحدهم فتى وهو الشاب الحدث ، وقد كانوا من أبناء أشراف الروم وعظمائهم ، لهم أطواق وأسورة من الذهب ، وهيىء : أي يسر ، والرشد (بفتحتين وضم فسكون) الهداية إلى الطريق الموصل للمطلوب ، فضربنا على آذانهم أي ضربنا عليها حجابا يمنع السماع ، كما يقال بنى على امرأته ،

يريدون بنى عليها قبة ، والمراد أنمناهم نومة لا تنبههم الأصوات الموقظة .

عددا : أي ذوات عدد والمراد التكثير ، لأن القليل لا يحتاج إلى العدّ غالبا ، بعثناهم :

(47/466)

أي أيقظناهم وأثرناهم من نومهم ، والحزبين : هما الحزب القائل لبثنا يوما أو بعض يوم ، والحزب القائل ربكم أعلم بما لبثتم ، وأحصى : أي أضبط لاوقات لبثهم ، والأمد : مدة لها حد وغاية

النبأ : الخبر العظيم ، وبالحق : أي بالصدق ، والربط : الشد ، وربطت الدابة : شددتها بالرباط ، والمربط : الحبل ، وربط اللّه على قلبه ، أي قوّى عزيمته ، قاموا : أي وقفوا بين يدى ملكهم الجبار دقيانوس ، إلها : أي معبود آخرا لا استقلالا ولا اشتراكا ، اتخذوا من دونه آلهة : أي نحتوا أصناما وعبدوها ، والسلطان : الحجة ، والبيّن : الظاهر ، والاعتزال والتعزل : تجنب الشيء بالبدن أو بالقلب كما قال :

يا بيت عاتكة التي أتعزّل حذر العدا وبه الفؤاد موكّل

فأووا إلى الكهف : أي التجئوا إليه ، وينشر لكم : أي يبسط لكم ، والمرفق : ما يرتفق وينتفع به ، وتزاور : تتنحى ، وذات اليمين : أي جهة يمين الكهف ، وتقرضهم : أي

تعدل عنهم ، قال الكسائي : يقال : قرضت المكان : إذا عدلت عنه ولم تقربه ، فجوة : أي متسع ، والأيقاظ ، واحدهم يقظ (بضم القاف وكسرها) والرقود :
واحدهم راقد ، أي نائم ، وباسط ذراعيه : أي مادّهما ، والوصيد : فناء الكهف ، والرعب : الخوف يملأ الصدر

(48/466)

بعثناهم : أي أيقظناهم ، لبثتم : أي أقمتم ، والورق : الفضة ، مضروبة كانت أو غير مضروبة ، وأزكى : أجود وأطيب ، وليتلطف : أي يتكلف اللطف فى المعاملة ، كى لا تقع خصومة تجرّ إلى معرفته ، ولا يشعرنّ : أي لا يفعلنّ ما يؤدى إلى شعور أحد من أهل المدينة بكم ، إن يظهروا عليكم : أي إن يطّلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم وأصل العثور السقوط للوجه ، يقال عثر عثورا وعثارا : إذا سقط لوجهه ، ويقال فى المثل " من سلك الجدد أمن العثار " ، ثم استعمل فى الاطلاع على أمر من غير طلب له ، والساعة : يوم القيامة حين يبعث اللّه الخلائق جميعا للحساب والجزاء ، والتنازع : التخاصم ، والذين غلبوا على أمرهم : هم رؤساء البلد ، لأنهم هم الذين لهم الرأى فى مثل هذا ، والمسجد :
معبد المؤمنين من تلك الأمة وكانوا نصارى على المشهور ، والرجم : القول بالظن ويقال لكل

ما يخرص : رجم فيه وحديث مرجوم ومرجّم كما قال :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجّم

والغيب : ما غاب عن الإنسان فالمراد أن يرمى الإنسان ما غاب عنه ولا يعرفه بالحقيقة ، كما يقال فلان يرمى بالكلام رميا : أي يتكلم من غير تدبر ، والمراد هنا القول بالظن والتخمين ، والمراء : المحاجة فيما فيه مرية وتردد ، والمراد الظاهر : ما لا تعمّق فيه بألا يكذّبهم فى تعيين العدد ، بل يقول هذا التعيين لا دليل عليه ، فيجب عدم الجزم به ولا تستفت : أي لا تطلب الفتيا منهم .

لا مبدل : أي لا مغيّر ، لكلماته أي لأحكامها ، فلا يستطيع أحد نسخ أحكام ما جاء فى كتابه ، ملتحدا : أي ملجأ تعدل إليه إذا ألّمت بك ملمّة ، واصبر نفسك :

أي احبسها وثبّتها ، بالغداة والعشى : أي فى طرفى النهار ، وخصهما بالذكر ، لأنهما محل الغفلة ، وفيهما يشتغل الناس بأمور دنياهم ، وجهه : أي رضاه وطاعته لأن من رضى

(49/466)

عن شخص يقبل عليه ، ومن غضب عليه يعرض عنه ، ولا تعد عيناك عنهم : أي لا تصرف عيناك النظر عنهم إلى أبناء الدنيا والمراد لا تحتقرهم وتصرف النظر عنهم إلى

غيرهم لرثاثة منظرهم ، تريد زينة الحياة الدنيا : أي تطلب مجالسة من لم يكن مثلهم من الأغنياء وأصحاب الثراء ، أغفلنا قلبه : أي جعلناه غافلا ، فرطا : أي تفريطا وتضييعا لما يجب عليه أن يتّبعه من أمر الدين ، وأعتدنا : أي أعددنا وهيأنا ، والسرادق : لفظ فارسى معرّب يراد به الفسطاط (الخيمة) شبه به ما يحيط بهم من لهب النار المنتشر منها فى سائر الجهات ، المهل : دردىّ الزيت أو ما أذيب من المعادن كالرّصاص والنّحاس ، يشوى الوجوه : أي ينضجها إذا قدّم ليشرب ، لشدة حره ، ومرتفقا : أي متكأ يقال بات فلان مرتفقا أي متكئا على مرفق يده ، وجنات عدن : أي جنات إقامة واستقرار يقال عدن بالمكان إذا أقام فيه واستقر ، ومنه المعدن لاستقرار الجواهر فيه ، والأساور : واحدها سوار ، والسندس : رقيق الديباج واحده سندسة وهو فارسى معرّب ، والإستبرق : ما غلظ منه وهو رومى معرب ، والأرائك واحدها أريكة – سرير عليه حجلة (ناموسية) .

الجنة : البستان ، سميت بذلك لاجتنان أرضها واستتارها بظل الشجر ، وكل مادة (ج ن ن) تفيد الخفاء والاستتار كالجنين والجن والمجنون لاستتار عقله وجن الليل : أي أظلم إلى نحو ذلك ، أعناب : أي كروم منوعة ، وحففناهما بنخل : أي جعلنا النخل محيطا بهما مطبقا بحفافيهما : أي جانبيهما ، يقال حفّه القوم : أي طافوا به ، ومنه قوله " حافّين من حول العرش " وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله ، أكلها : أي ثمرها ، ولم تظلم : أي لم

تنقص ، والنهر لغة فى النهر : وهو مجرى الماء العذب ، ثمر : أي أنواع من المال يقال ثمر فلان ماله وأثمره : إذا نماه. قال الحرث ابن كلدة :

ولقد رأيت معاشرا قد أثمروا مالا وولدا

(50/466)

و الصاحب : المصاحب لك ، يحاوره : أي يجادله ويراجعه الكلام بالوعظ والدعاء إلى الإيمان بالله والبعث ، والمراد من النفر الخدم والحشم والأعوان ، أن تبيد : أي تفنى وتهلك ، قائمة : أي كائنة متحققة ، ومنقلبا : أي مرجعا وعاقبة ، سواك : أي عدلك وكملك إنسانا ، لكنا هو الله ، أصل التركيب لكن أنا هو الله ربى (دخله نقل وحذف) لولا : حرف يفيد الحث على الشيء والتوبيخ على تركه ، ما شاء الله : أي ماشاء الله كائن ، حسبانا من السماء : أي مطرا عظيما يقلع زرعها وأشجارها ، والصعيد : وجه الأرض وزلقا : أي تصير بحيث تزلق عليها الرجل والمراد أنها تصير ترابا أملس لا تثبت فيه قدم ، والغور : الغائر فى الأرض الغائص فيها ، طلبا : أي عملا وحركة لرده ، وأحيط بثمره : أي أهلكت أمواله ، يقال أحاط به العدو : إذا استولى عليه وغلبه ، ثم استعمل فى كل إهلاك ، ويقلب كفيه ، هذا أسلوب فى اللغة يفيد الندامة والحسرة ، فإن من تعظم حسرته يصفق بإحدى

يديه على الأخرى متأسفا متلهفا ، خاوية : أي ساقطة ، يقال خوت الدار وخوت وخويت خيا وخويا : تهدمت وخلت من أهلها ، والعروش : واحدها عرش وهى الأعمدة التي توضع عليها الكروم ، منتصرا :

أي ممتنعا بقوة عن انتقام اللّه ، عقبا : أي عاقبة .

المثل : الصفة ، وهشيما : أي يابسا متفتتا ، تذروه : أي تنثره وتفرقه ، ومقتدرا : أي كامل القدرة ، والباقيات الصالحات : هى الأعمال الصالحة كلها ، وثوابا : أي جزاء .

(51/466)

بارزة أي ظاهرة ، إذ لم يبق على وجهها شىء من العمائر ولا من الجبال والأشجار ، وحشرناهم : أي سقناهم إلى الموقف من كل أوب ، فلم نغادر : أي لم نترك يقال غادره وأغدره إذا تركه ، ومنه الغدر وهو ترك الوفاء ، وعرضوا : أي أحضروا لفصل القضاء ، صفا : أي مصطفين ، موعدا : أي وقتا ننجز فيه ما وعدنا من البعث وما يتبعه ، ووضع الكتاب : أي جعل كتاب كل عامل فى يد صاحبه حين الحساب ، مشفقين : أي خائفين ، والويل : الهلاك ، ويا ويلتنا : أي يا هلاك أقبل فهذا أوانك ، أحصاها : أي عدّها ، حاضرا ، أي مسطورا فى كتاب كل منهم ، ولا يظلم ربك : أي لا يتجاوز ما حدّه

من الثواب والعقاب .

فسق : خرج يقال فسق الرطب إذا خرج عن قشره ، أفتتخذونه ، الهمزة فى مثل هذا تفيد الإنكار والتعجب ممن يفعل مثل ذلك ، والذرية : الأولاد وبذلك قال جمع من العلماء ، منهم الضحاك والأعمش والشعبي ، وقيل المراد بهم الأتباع من الشياطين ، والعدو يطلق على الواحد والكثير كما قال : " فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ " وقال : " هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ " والعضد : أصله ما بين المرفق إلى الكتف ، ويستعمل بمعنى المعين كاليد ونحوها وهو المراد هنا ، فدعوهم . أي فاستغاثوا بهم ، فلم يستجيبوا لهم : أي فلم يغيثوهم ، والموبق : مكان الوبوق : أي الهلاك وهو النار يقال وبق وبوقا كوثب وثوبا : إذا هلك ، مواقعوها : أي داخلوها وواقعون فيها ، ومصرفا : أي مكانا ينصرفون إليه .

صرّفنا : أي ردّدنا وكررنا ، والمثل : الصفة الغريبة ، والجدل : المنازعة بالقول ويراد به هنا المماراة والخصومة بالباطل ، وسنة الأولين : الإهلاك بعذاب الاستئصال ، والقبل (بضمتين) الأنواع والألوان واحدها قبيل ، ليدحضوا به الحق : أي ليبطلوه ويزيلوه من قولهم دحضت رجله أي زلقت ودحضت حجته بطلت ، وما أنذروا :

أي ما خوفوه من أنواع العقاب ، ونسى ما قدمت يداه ، أي لم يتدبر عواقبه ، أكنة :

أي أغطية واحدها كنان ، أن يفقهوه : أي أن يفهموه . وقرا : أي ثقلا فى السمع ، الموعد :

يوم القيامة ، موئلا : أي ملجأ يقال وأل فلان إلى كذا وألا ووءولا : إذا لجأ إليه ، القرى : أي

قرى عاد وثمود وقوم لوط وأشباههم .

لا أبرح : أي لا أزال سائرا ، والحقب (بضمتين وبضم فسكون) الدهر ، وقيل ثمانون سنة ،

وعن الحسن سبعون ، مجمع بينهما ، أي مكان اجتماعهما ، سربا :

أي مسلكا كالسرب : وهو النفق فصار الماء عليه كالقنطرة ، والغداء : الطعام الذي يؤكل

أول النهار والمراد به هنا الحوت ، نصبا : أي تعبا وإعياء ، أوينا : أي التجأنا نبغى : نطلب

، ارتد : رجع ، على آثارهما : أي على طريقهما الذي جاءا منه ، قصصا :

أي اتباعا من قولهم أثره إذا اتبعه ، رحمة : هى النبوة هنا ، الرشد (بضم فسكون

وبفتحتين) إصابة الخير ، والإحاطة بالشيء : معرفته معرفة تامة ، والخبر : المعرفة ،

وذكرا : أي بيانا ، إمرا : (بكسر الهمزة) أي منكرا : من أمر الأمر بمعنى كثر ، والعرب

تصف الدواهي بالكثرة ، لا ترهقنى : أي لا تحملني ، والعسر : ضد اليسر وهو المشقة ،

زكية : أي طاهرة من الذنوب ، بغير نفس : أي بغير حق قصاص لك عليها ، والنكر :

المنكر الذي تنكره العقول وتنفر منه النفوس .

فلا تصاحبنى : أي فلا تجعلنى صاحبا لك . بلغت من لدنى عذرا : أي وجدت عذرا من

قبلى ، قرية : هى أنطاكية كما روى عن ابن عباس أو الأبلة أو الناصرة ، ولا يوثق بصحة شىء من هذا ، استطعما أهلها : أي طلبا منهم أن يطعموهما ، أن يضيفوهما : أي ينزلوهما أضيافا : يقال ، ضافه إذا كان له ضيفا ، وأضافه وضيّفه : أنزله لديه ضيفا وأصل ضاف : مال ، من قولهم ضاف السهم عن الهدف : أي مال ، جدارا : أي حائط أن ينقض : أي يسقط بسرعة ، وقد كثر فى كلامهم إسناد ما يكون من أفعال العقلاء إلى غيرهم كما قال :

(53/466)

يريد الرمح صدر أبى براء ويعدل عن دماء بنى عقيل

أقامه : أي مسحه بيده فقام كما روى عن ابن عباس ، والتأويل : من آل الأمر إلى كذا : أي صار إليه ، فإذا قيل ما تأويله : أي ما مصيره .

المساكين : واحدهم مسكين وهو الضعيف العاجز عن الكسب ، لأمر فى نفسه وفى بدنه ، يعملون فى البحر ، أي يؤاجرون ويكتسبون ، أعيبها : أي أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها ، وراءهم : أي أمامهم وهو لفظ يستعمل فى الشيء وضده كما قال :

أليس ورائي أن أدبّ على العصا فيأمن أعدائى ويسأمنى أهلى ؟

وعن ابن عباس أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان يقرأ : أمامهم .

خشينا : أي خفنا ، أن يرهقهما : أي يحملهما ، طغيانا : أي مجاوزة للحدود الإلهية ، زكاة : أي طهارة من الذنوب ، رحما : أي رحمة كالكثر والكثرة ، عن أمرى :

أي عن رأيى واجتهادي ، ما لم تسطع : أي تستطع ماضيه اسطاع ، الذي أصله استطاع .

ذكرا : أي نبأ مذكورا وهو القرآن . ومكنه ومكن له ، كنصحه ونصح له :

أي مهد له الأسباب وجعله قادرا على التصرف فى الأرض من حيث التدبير والرأى ، سببا : أي طريقا يوصله إليه من علم أو قدرة أو آلة ، حمئة : أي ذات حمأة وهى الطين الأسود ، حسنا : أي أمرا ذا حسن ، نكرا : أي منكرا فظيعا ، الحسنى : أي المثوبة الحسنى ، يسرا : أي سهلا ميسرا غير شلقّ ، سترا : أي بناء وكانوا إذا طلعت الشمس تغوّروا فى المياه ، وإذا غربت خرجوا ، خبرا أي علما يتعلق بظواهره وخفاياه .

السدين أي الجبلين ، يفقهون : يفهمون ، خرجا أي جعلا من أموالنا على سبيل التبرع ، والخراج :

ما لزمك أداؤه. بقوة أي بما يتقوى به على المقصود من الآلات والناس، ردما أي حاجزا حصينا، والردم: أكبر من السد وأوثق، يقال ثوب مردّم: أي فيه زقاع فوق رقاع، وزبر: واحدها زبرة (بضم فسكون) كغرفة: وهى القطعة العظيمة، والصدفين: واحدها صدف، وهو جانب الجبل، قطرا: أي نحاسا مذابا، وقيل رصاصا مذابا، أن يظهروه أي أن يعلوه ويرقوا فوقه لارتفاعه وملاسته. رحمة أي أثر رحمة:

دكاء أي مثل دكاء وهى الناقة لا سنام لها والمراد بها الأرض المستوية، حقا أي ثابتا واقعا لا محالة، يموج أي يضطرب اضطراب البحر، والصور: قرن ينفخ فيه.

عرضنا: أي أظهرنا وأبرزنا، غطاء: أي غشاوة محيطة بها، عن ذكرى: أي عن الآيات الموصلة إلى ذكرى بتوحيدي وتمجيدى، أولياء: أي معبودات يقونهم بأسى، أعتدنا: أي هيأنا، نزلا: أي طعاما يتمتعون به حين ورودهم إلى ربهم، ولقائه: أي حين البعث والحشر وما يتبع ذلك، الهزؤ: السخرية والاحتقار.

الفردوس: البستان بالرومية. وقال السدى: إنه الكرم بالنبطية وأصله فرداسا، حولا: أي تحولا، والمداد: ما يمد به الشيء واختصّ بما تمد به الدواة من الحبر،

كلمات ربى: معلوماته غير المتناهية، والرجاء: طمع حصول ما فيه مسرة مستقبلة، ولقاء ربه: هو البعث وما يتبعه. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير المراغى جـ 15 صـ 114: جـ 16 صـ 25﴾. باختصار.

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الكهف

وهي مكية

1 - من ذلك قوله جل وعز الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما

في هذا قولان أحدهما أنها على التقديم والتأخير والمعنى الحمد لله الذي أنزل على عبده

الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا يروى هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد

قال أبو جعفر حدثنا بكر بن سهل قال نا عبد الله بن صالح قال نا معاوية بن صالح قال

حدثني علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ولم يجعل له عوجا قيما يقول أنزل الكتاب عدلا

قيما ولم يجعل له عوجا ملتبسا والقول الأخر رواه سعيد عن قتادة قال في بعض القراءات

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ولكن جعله قيما 2 - وفي قوله

تعالى ولم يجعل له عوجا قولان أحدهما أنه لم يجعله مختلفا كما قال سبحانه ولو كان من عند

غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا والقول الأخر أنه لم يجعله مخلوقا كما روى عن ابن عباس

انه قال في قوله تعالى قرآنا عربيا غير ذي عوج قال غير مخلوق

3 - وفي قوله جل وعز قيما قولان أحدهما رواه جويبر عن الضحاك قال مستقيما والقول الآخر أنه قيما على الكتب أي يصدقها 4 - ثم قال جل وعز لينذر بأسا شديدا من لدنه المعنى لينذركم بأسا شديدا كما قال تعالى إنما ذلكم

الشيطان يخوف أولياءه 5 - ثم قال جل وعز كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا المعنى كبرت تلك الكلمة كلمة عند الله وهي قولهم إتخذ الله ولدا أي كبرت من كلمة وقيل فيه معنى التعجب كما يقال لقاض قضى بالحق ما أقضاه فيكون المعنى ما أكبرها من كلمة وقرأ الحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر كبرت كلمة تخرج من أفواههم ومعناه عظمت يقال كبر الشئ إذا عظم وكبر إذا أسن 6 - وقوله جل وعز فلعلك باخع نفسك على آثارهم روى سعيد عن قتادة قال قاتل نفسك ثم قال على آثارهم أي بعدهم

---

7 - ثم قال جل وعز إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا قال قتادة أي غضبا قال مجاهد أي جزعا

وهذا أشبه أي حزنا عليهم 8 - وقوله جل وعز إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها قال

قطرب أي ما على الأرض مما تزين به 9 - ثم قال جل وعز لنبلوهم أيهم أحسن عملا أي لنختبرهم

10 - وقوله جل وعز وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا روى سعيد عن قتادة قال أي لا شجر فيها ولا نبات ولا بناء وقال مجاهد أي بلقعا قال أبو جعفر والصعيد في اللغة وجه الأرض ومنه قيل للتراب صعيد والجرز في اللغة الأرض التي لا نبات فيها قال الكسائي يقال جرزت الأرض تجرز وجرزها القوم يجرزونها إذا أكلوا كل ما فيها من النبات والزرع فهي مجروزة وجرز 11 - وقوله جل وعز أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا

قال الضحاك الكهف الغار في الوادي والرقيم الوادي

وقال يزيد بن درهم سئل أنس بن مالك عن الكهف والرقيم فقال الكهف الجبل والرقيم الكلب وروى سفيان بن سعيد عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس أنه سأل كعبا ما الرقيم فقال هو اسم القرية التي خرجوا منها وقال عكرمة الرقيم الدواة وقال مجاهد الرقيم الكتاب وقال السدي الصخرة وقال الفراء الرقيم لوح من رصاص كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم ودينهم وممن هربوا

وقال أبو عبيد الرقيم الوادي الذي فيه الكهف وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال كل القرآن أعلم إلا أربعا غسلينا وحنانا والأواه والرقيم وروى سفيان بن

حسين عن يعلي بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه ذكر أصحاب الكهف

فقال إن الفتية فقدوا فطلبهم أهلوهم فلم يجدوهم فرفع ذلك إلى الملك فقال ليكونن لهم نبأ

وأحضر لوحا من رصاص فكتب فيه أسماءهم وجعله في خزائنه فذلك اللوح هو الرقيم

وروى وكيع عن أبى مكين عن سعيد بن جبير قال الرقيم لوح فيه أسماء فتية رقمت

أسماؤهم في الصخرة فذلك

الكتاب وفي بعض الروايات أنه كتب أسماؤهم وخبرهم في لوح وجعل على باب الكهف

(57/466)

قال أبو جعفر والروايات التي رويت عن ابن عباس ليست بمتناقضة لأن القول الأول إنما

سمعه من كعب والقول الثاني يجوز أن يكون عرف الرقيم بعده وأحسن ما قيل فيه أنه

الكتاب وذلك معروف في اللغة يقال رقمت الشئ أي كتبته قال الله عز وجل كتاب مرقوم

ورقيم بمعنى مرقوم كما يقال قتيل بمعنى مقتول وروى ابن جريج عن مجاهد في قوله تعالى

كانوا من آياتنا عجبا قال هم عجب قال أبو جعفر يذهب مجاهد إلى أنه ليس بإنكار على

النبي (ص) أن يكون عنده انهم عجب

وقد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال يقول ليس هم بأعجب آياتنا 12 - وقوله جل وعز

إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهئ لنا من أمرنا رشدا أي

أرشدنا إلى أحب الأشياء إليك

13 - وقوله جل وعز فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا أي منعناهم من أن

يسمعوا والمعنى أنمناهم لأنهم إذا سمعوا انتبهوا ثم قال سنين عددا

وفي الفائدة في قوله عددا قولان أحدهما أنه توكيد وإفراد من الواحدة والآخر أنه توكيد

معنى الكثرة لأن القليل لا يحتاج إلى عدد لأنه قد عرف 14 - وقوله جل وعز ثم بعثناهم

أي من نومهم يقال لمن أحيي أو أقيم من نومه مبعوث لأنه كان ممنوعا من الانبعاث والتصرف

15 - ثم قال جل وعز لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا

قال مجاهد أي عددا قال أبو جعفر والأمد في اللغة الغاية 16 - وقوله جل وعز وربطنا

على قلوبهم قال قتادة أي بالإيمان والمعنى عند أهل اللغة صبرناهم كان وثبتناهم أبو 17

- ثم قال جل وعز إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض

لن ندعو من دونه إلها فأنكروا أن يعبد مع الله غيره 18 - ثم قال تعالى لقد قلنا إذا شططا

قال قتادة أي كذبا قال أبو جعفر والشطط في اللغة التجاوز في الجور 19 - ثم قال جل وعز

هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا

يأتون عليهم بسلطان بين روى ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس كل سلطان في القرآن فهو حجة 20 - وقوله جل وعز وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله والمعنى اعتزلتم ما يعبدون إلا الله فإنكم لم تتركوا عبادته رووى أو سعيد عن قتادة قال في قراءة ابن مسعود وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون من دون الله

21 - ثم قال جل وعز فأووا إلى الكهف أي صيروه مأواكم ثم قال جل وعز ينشر لكم ربكم من رحمته ويهئ لكم من أمركم مرفقا قرئ بفتح الميم وكسرها وهو ما يرتفق به وكذلك مرفق

الإنسان ومرفقه ومنهم من يجعل المرفق بفتح الميم وكسر الفاء من الأمر والمرفق من الإنسان وقد قيل المرفق بفتح الميم الموضع كالمسجد وهما لغتان 22 - وقوله جل وعز ولا تقولن لشئ إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله روى أن النبي (ص) سئل عن فتية مضوا في الزمن الأول

وعن رجل طواف وعن الروح فقال رسول الله (صلع) غدا أخبركم عن ذلك ولم يستثن فمكث عنه جبريل بضع عشرة ليلة ثم جاءه بسورة الكهف ونزل في قوله أخبركم به غدا ولا تقولن لشئ إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله 23 - ثم قال جل وعز وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا اي عسى أن يعطيني من الآيات والدلائل ما هو أرشد

وأبين من خبر أصحاب الكهف 24 - ثم قال جل وعز ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا في معناه ثلاثة أقوال

أقال مجاهد هذا عدد ما لبثوا ب وقال قتادة في قراءة ابن مسعود وقالوا لبثوا في كهفهم ج والقول الثالث أن الله خبر بما لبثوا إلى أن بعثوا من الكهف ولا نعلم كم مذ بعثوا إلى هذا الوقت فقال سبحانه قل الله أعلم بما لبثوا أي من أي وقت مبعثهم إلى هذا الوقت قال أبو جعفر واحسن هذه الأقوال الأول وإنما يقع الإشكال فيه لقوله جل وعز قل الله أعلم بما لبثوا ففر قوم إلى أن قالوا هو معطوف على قوله تعالى سيقولون قال أبو جعفر وإنما اخترنا القول الأول لأنه أبلغ وأن

(59/466)

ابن فضيل روى عن الأجلح عن الضحاك قال لما أنزلت ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة قالوا أسنين) أم شهروا أم أياما فأنزل الله جل وعز سنين قال أبو جعفر فأما ما أشكل من قوله تعالى قل الله أعلم بما لبثوا فنحن نبينه يجوز أن يكون لما اختلفوا في مقدار ما لبثوا ثم أخبر الله جل وعز به فقال قل الله أعلم بما لبثوا أي هو أعلم به من المختلفين فيه وقول آخر أحسن من هذا أن يكون اعلم بمعنى عالم وذلك كثير موجود في كلام العرب قال الله جل وعز وهو

الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه أجود الأقوال فيه أن معناه هو هين عليه وهو

اختيار أبي العباس ومنه الله اكبر بمعنى كبير ومنه قول الفرزدق

* إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول * وقول الآخر * أصبحت

أمنحك الصدود وإنني * قسما إليك مع الصدود لأميل * وقول الآخر * لعمرك ما أدري

وإني لأوجل * على أينا تعدو المنية أول * 25 - وقوله جل وعز أبصر به وأسمع المعنى

ما أبصره وأسمعه أي هو عالم بقصة أصحاب الكهف وغيرهم

26 - ثم قال جل وعز ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا نظيره قوله تعالى

فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ومن قرأ ولا تشرك في حكمه أحدا

فمعناه عنده لا تنسب أحدا إلى أنه يعلم الغيب 27 - وقوله جل وعز لا مبدل لكلماته ولن

تجد من دونه ملتحدا قال مجاهد أي ملجأ أي يمنعك منه جل وعز قال أبو جعفر وهو

حسن في اللغة وأصله في اللغة من اللحد

وهو من الميل والملحد المائل عن الحق العادل عنه فإذا ألحدت عبد إلى الشئ فقد ملت إليه

28 - قوله جل وعز واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه

روى ابن عجلان عن نافع عن ابن عمر قال الصلاة المكتوبة قال مجاهد وإبراهيم الصلوات

الخمس 29 - ثم قال جل وعز ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا أي لا

تتجاوزهم إلى المترفين وروى عن الحسن أنه قرأ ولا تعد عينيك عنهم

بتشديد الدال والنصب 30 - ثم قال جل وعز ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا قال مجاهد أي ضياعا قال أبو جعفر وقيل إسرافا وقيل ندما وهذه الأقوال متقاربة وهو من الإفراط في الشئ والتجاوز فيه وبين هذا أن سفيان بن سعيد قال هو عيينه بن حصن

وقال غيره قال أنا أشرف مضر وأجلها فهذا هو التجاوز بعينه

وقال الفراء فرطا متروكا قد تركت فيه الطاعة 31 - ثم قال جل وعز وقل الحق من ربكم المعنى وقل الذي جئتكم به الحق من ربكم 32 - ثم قال جل وعز فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر هذا على التهديد 33 - ثم قال جل وعز إنا أعتدنا للظالمين نارا أي جعلناها لهم عتادا والعتاد الثابت اللازم وهو مثل العدة 34 - ثم قال جل وعز أحاط بهم سرادقها السرادق في اللغة كل شئ محيط بشئ

قيل أنه يراد به الدخان الذي يحيط بالكفار يوم القيامة وهو الذي ذكره الله في قوله سبحانه انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب 35 - ثم قال جل وعز وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه روى هشيم عن عوف عن الحسن قال جاء قوم إلى عبد الله بن مسعود

يسألونه عن المهل فأخذ فضة فاذابها عليه حتى انماعت ثم أذن لهم بالدخول فقال لهم هذا أشبه بالمهل

وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال

المهل دردي الزيت وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال المهل القيح والدم قال أبو جعفر وهذه الأقوال متقاربة وإنما هو ما تمهل وسكن وأكثر ما يستعمل لدردي أبي الزيت كما قال ابن عباس 36 - ثم قال جل وعز يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا المعنى وساءت النار مرتفقا قال مجاهد أي مجتمعا وقال غيره أي مجلسا

قال أبو جعفر والمعروف في اللغة أن المرتفق المتكأ وانشد أهل اللغة * إني أرقت فبت الليل مرتفقا * كأن عيني فيها الصاب مذبوح * قال أبو جعفر ولا يمتنع أن يكون المعنى موضع مرتفق 37 - وقوله جل ذكره إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا قال أبو جعفر حدثنا أبو عبد الله أحمد بن علي بن سهل قال حدثنا محمد بن حميد قال نا يحيى بن الضريس

عن زهير بن معاوية عن أبي اسحاق عن البراء بن عازب قال قدم أعرابي إلى رسول الله

(ص) في حجة الوداع والنبي واقف بعرفات على ناقته الصهباء فقال إني رجل متعلم

فأخبرني عن قول الله إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا قال

النبي عليه السلام يا أعرابي ما أنت منهم ببعيد وما هم منك ببعيد هؤلاء الأربعة الذين هم

وقوف معي

أبو بكر وعمر وعثمان وعلي فاعلم قومك أن هذا الآية نزلت في هؤلاء الأربعة 38 وقوله

جل وعز أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار العدن الإقامة ثم قال تجري من

تحتهم الأنهار أي ماء الأنهار 39 - ثم قال جل وعز يحلون فيها من أساور من ذهب

أساور جمع أسورة وأسورة جمع سوار ويقال سوار

وحكى قطرب أن أساور جمع أسوار ولا يعرف ذلك 40 - ثم قال جل وعز ويلبسون ثيابا

خضرا من سندس وإستبرق السندس رقيق الديباج

والإستبرق ثخينه 41 - ثم قال جل وعز متكئين فيها على الأرائك وهي السرر في

الحجال 42 - ثم قال جل وعز نعم الثواب وحسنت مرتفقا أي حسنت الجنة مرتفقا 43

- وقوله جل وعز واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب

يروى أن اليهود قالوا سلوه عن أصحاب الكهف وعن الروح وعن رجلين فأنزل الله عز وجل هذا وجعله مثلا لجميع الناس 44 - ثم قال جل وعز وحففناهما بنخل أي حوطناهما (به وقد حف القوم بفلان إذا حدقوا 45 - ثم قال جل وعز وجعلنا بينهما زرعا فأخبر أنه ليس بينهما إلا عمران 46 - ثم أخبر أنهما في تأدية الحمل والثمر على النهاية فقال كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا أي ولم تنقص 47 - ثم قال جل وعز وفجرنا خلالهما نهرا

فأخبر أن شربهما كان من نهر وهو أغزر الشرب 48 - ثم قال جل وعز وكان له ثمر ويقرأ ثمر فالثمر معروف وفي الثمر قولان أ قال مجاهد كل ما كان في القرآن من ثمر فهو المال وما كان من ثمر فهو من الثمار ب وقال أبو عمران الجوني الثمر أنواع المال والثمر الثمرات ج وقال أبو يزيد المدني الثمر الأصل والثمر الثمرة قال أبو جعفر وكأنه يريد بالأصل الشجر وما أشبهها وهذه الثلاثة الأقوال ترجع إلى معنى واحد وهو ان الثمر المال

والقول الآخر حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني عمران بن بكار قال حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي قال حدثنا شعيب بن إسحق قال حدثنا هارون قال حدثني أبان بن تغلب عن الأعمش أن الحجاج قال لو سمعت أحدا يقول وكان له ثمر لقطعت لسانه فقلت للأعمش اتأخذ بذلك قال لا ولا نعمة عين فكان يقرأ ثمر ويأخذه من جمع الثمر قال أبو جعفر فالتقدير على هذا القول أنه جمع ثمرة على ثمار ثم جمع ثمارا على ثمر وهو حسن في

العربية إلا أن القول الأول أشبه والله أعلم لأن قوله تعالى كلتا الجنتين آتت أكلها يدل على أن له ثمرا 49 - ثم قال جل وعز فقال لصاحبه وهو يحاوره أي يخاطبه أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا

(63/466)

النفر الرهط وهو ما دون العشرة وأراد ها هنا الأتباع والخدم والولد 50 - قال الله جل وعز ودخل جنته وهو ظالم لنفسه وكل من كفر فقد ظلم نفسه لأنه يولجها ما النار 51 - ثم قال تعالى قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة فكفر بالبعث وبأن الدنيا تفنى 52 - ثم قال جل وعز ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا وهذا مما يسأل عنه فيقال كيف ينكر البعث ويقول ولئن رددت إلى ربي ويحكم أنه يعطي خيرا منهما فالجواب أن المعنى ولئن رددت إلى ربي على قولك وقد أعطاني في الدنيا فكما أعطاني في الدنيا فهو يعطيني في الآخرة

ونظير هذا قوله جل وعز أين شركائي أي على قولكم

ومن قرأ منها أراد الجنة 53 - ثم قال جل وعز قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة فألزمه الكفر بقوله 54 - ثم قال جل وعز ثم سواك رجلا أي

كملك 55 - ثم قال جل وعز لكن هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا فدل هذا على أنه كان مشركا

والمعنى لكن أنا 56 - ثم قال جل وعز ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله المعنى هذه الجنة هي لا ما شاء الله ويجوز أن يكون المعنى ما شاء الله كان والمعنى لا يكون لأحد إلا ما شاء الله وليس لأحد في بدنه ولا ماله قوة إلا بالله وروى عمرو بن ميمون عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة من تحت العرش قال قلت بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال لا قوة إلا بالله إذا قالها العبد قال الله أسلم عبدي واستسلم

57 - ثم قال جل وعز إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك يجوز أن يكون أراد في الدنيا وأن يكون أراد في الآخرة 58 - ثم قال جل وعز ويرسل عليها حسبانا من السماء قال قتادة والضحاك أي عذابا

وقال أبو عبيدة هي المرامي جمع مرماة وشئ فيه الحصب والمعروف في اللغة ان الحسبان والحساب واحد قال الله جل وعز الشمس والقمر بحسبان وقول قتادة والضحاك صحيح

المعنى كأنه قال أو يرسل عليها عذاب حساب ما كسبت يداه وهو مثل قوله تعالى واسأل

القرية 59 - ثم قال جل وعز فتصبح صعيدا زلقا الصعيد في اللغة وجه الأرض الذي لا

نبات عليه والزلق ما نزل فيه الأقدام

60 - ثم قال جل وعز أو يصبح ماؤها غورا أي غائرا والتقدير ذا غور 61 - ثم قال جل

وعز فلن تستطيع له طلبا أي لم يبق له أثر فيطلب من أجله

62 - ثم قال جل وعز وأحيط بثمره أي أحاط الله العذاب بثمره 63 - ثم قال تعالى

فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهذا يوصف به النادم 64 - ثم قال جل وعز وهي

خاوية على عروشها

الخاوية في اللغة الخالية والعروش السقوف والمعنى أن حيطانها قيام وقد سقطت سقوفها

فكان الحيطان على السقوف 65 - وقوله جل وعز ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله

قال مجاهد أي عشيرة 66 - وقوله جل وعز هنالك الولاية لله الحق أي يؤمنون بالله وحده

ويتبرءون مما كانوا يعبدون ويقرأ الولاية بكسر الواو والمعنى على الفتح لأن الولاية المعروف

أنها الإمارة 67 - ثم قال جل وعز هو خير ثوابا وخير عقبا

العقب عند أهل اللغة والعقبى والعاقبة واحد وهو ما يصير إليه الأمر 68 - ثم قال جل

وعز واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من

السماء فاختلط به نبات الأرض فاصبح هشيما الهشيم ما جف من الثياب أو تفتت

ويقال هشمته أي كسرته 69 - ثم قال جل وعز تذروه الرياح أي تنسفه ضرب الله هذا المثل للحياة الدنيا لأن ما مضى منها بمنزلة ما لم يكن 70 - وقوله جل وعز والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا

(65/466)

قال أبو جعفر حدثنا أبو بكر جعفر بن محمد قال حدثنا قتيبة بن سعيد قال حدثنا خالد هو ابن عبد الله عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عباس قال الباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وحدثنا أبو بكر قال حدثنا قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيب أنه كان يقول في الباقيات الصالحات إنها قول العبد سبحان الله والله أكبر والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله

قال أبو جعفر وروى عن ابن عباس أيضا أنه قال

الباقيات الصالحات الصلاة والصوم والحج والغزو والتهليل والتسبيح ولا يمتنع شئ من هذا عند أهل اللغة لأنه كل ما بقي ثوابه جاز أن يقال له هذا 71 - ثم قال جل وعز وخير أملا أي خير ما يؤمل 72 - ثم قال جل وعز ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة في قوله بارزة أن قولان أحدهما قد اجتثت ثمارها وقلعت جبالها وهدم بنيانها فهي بارزة أي ظاهرة

وعلى هذا القول أهل التفسير وهو البين

والقول الآخر إن معنى بارزة قد أبرز من فيها من الموتى فيكون هذا على النسب كما قال كليني لهم يا أميمة ناصب 73 - ثم قال جل وعز وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا أي لم نبق 74 - ثم قال جل وعز وعرضوا على ربك صفا أي لا يسترهم شئ ولا يحجبهم

75 - ثم قال جل وعز لقد جئتمونا كما خلقناكم أول

مرة قيل معناه بعثناكم كما خلقناكم أول مرة وقيل هو كما روى أنهم يحشرون حفاة عراة غرلا 76 - ثم قال جل وعز بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا أي كنتم تنكرون البعث

77 - ثم قال جل وعز ووضع الكتاب في الكلام حذف والمعنى ووضع الكتاب في يد كل أمرئ إما في يمينة وإما في شماله

(66/466)

---

78 - ثم يبين هذا بقوله فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها أي تراهم خائفين وجلين مما فيه من أعمالهم السيئة ويقولون ما شأن هذا الكتاب لا يبقى صغيرة من ذنوبنا ولا كبيرة إلا حفظها وضبطها 79 - ثم قال جل وعز ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا أي إنما تقع العقوبة على

المجازاة وأصل الظلم في اللغة وضع الشئ في غير موضعه 80 - وقوله جل وعز وإذ قلنا للملائكة أسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن

في هذا قولان أحدهما أنه نسب إلى الجن لأنه عمل عملهم والقول الآخر أنه منهم

81 - ثم قال جل وعز ففسق عن أمر ربه أي فخرج وحكى الفراء فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها وقال رؤبة يهوين في نجد وغورا غائرا فواسقا عن قصدها جوائرا وفي هذه الآية سؤال

يقال ما معنى ففسق عن أمر ربه ففي هذا قولان أحدهما وهو مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى اتاه الفسق لما أمر فعصى فكان سبب الفسق أمر ربه كما تقول أطعمته عن جوع والقول الآخر وهو مذهب محمد بن قطرب أن المعنى ففسق عن رد أمر ربه 82 - ثم قال جل وعز أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم

على عدو

أي عداء 83 - ثم قال جل وعز بئس للظالمين بدلا أي بئس ما استبدلوا من طاعة الله طاعة إبليس 84 - ثم قال جل وعز ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم أي لم يكونوا موجودين إذ ذاك 85 - ثم قال جل وعز وما كنت متخذ المضلين عضدا روى معمر عن قتادة قال أعوانا قال أبو جعفر وكذلك هو في اللغة يقال عضدني الله فلان وعاضدني قال أي أعانني وأعزني عن

86 - وقوله جل وعز ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا وفي معناه أقوال روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال مهلكا وكذلك قال الضحاك وروى معمر عن قتادة قال هلاكا وروى يزيد بن درهم عن أنس بن مالك في قوله تعالى وجعلنا بينهم موبقا قال واديا من قيح ودم في جهنم وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال واد في جهنم

وكذلك قال نوف إلا أنه قال يحجر بينهم وبين المؤمنين وقال أبو عبيدة موبقا موعدا وقال عوف موبقا أي جعلنا بينهم عداوة قال أبو جعفر واصح هذه الأقوال الأول لأنه معروف في اللغة أن يقال وبق يوبق ويابق وييبق من ووبق يبق إذا هلك وأوبقه الله أي أهلكه ومنه أو يوبقهن بما كسبوا ومنه أوبقت فلانا ذنوبه فالمعنى جعلنا تواصلهم في الدنيا مهلكا لهم في الآخرة إلا أنه يجوز أن يسمى الوادي موبقا لأنه يهلك 87 - ثم قال جل وعز ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها روى معمر عن قتادة قال أيقنوا

88 - ثم قال جل وعز ولم يجدوا عنها مصرفا قال أبو عبيدة أي معدلا 89 - وقوله جل وعز ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شئ جدلا قيل يراد

بالإنسان ها هنا الكفار وهو في معنى جماعة كما قال تعالى إن الإنسان لفى خسر إلا الذين

آمنوا وعملوا

الصالحات وقيل هو عام وفي الحديث ما يدل على أنه عام أن النبي (ص) لما لام على بن أبي

طالب رضى الله عنه وفاطمة معه في ترك الصلاة بالليل قال علي أنفسنا بيد الله إذا شاء

أطلقها فخرج النبي (ص) وهو يقول وكان الإنسان أكثر شئ جدلا

(68/466)

---

90 - وقوله جل وعز وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن

تأتيهم سنة الأولين في الكلام حذف والمعنى إلا طلب أن تأتيهم سنة الأولين وسنة الأولين

معاينة العذاب لأنهم قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من

السماء أو ائتنا بعذاب أليم فطلبوا العذاب 91 - ثم قال جل وعز أو يأتيهم في العذاب قبلا

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال فجأة

قال الكسائي أي عيانا والمعنيان متقاربان ويقرأ قبلا فأكثر أهل اللغة على أنه جمع قبيل أي

أنواعا وضروبا

وقال بعضهم معنا يقابلهم كما يقال جاءه من قبل ومعنى قبلا أي استئنافا كما يقال لا أكلمك

إلى عشر من ذي قبل 92 - وقوله جل وعز بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا

روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال ملجأ وحكى أهل اللغة وأل يئل إذا نجا 93 -

وقوله جل وعز وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا والمعنى أهل القرى 94 - ثم قال جل عز

وجعلنا لمهلكهم موعدا يجوز أن يكون المعنى لإهلاكهم فيكون مصدرا ويجوز أن يكون

المعنى لوقت إهلاكهم ومن قرأ لمهلكهم ذهب إلى أن المعنى لهلاكهم كما يقال جلس مجلسا

واسم الموضع المجلس

وهلك مهلكا واسم الموضع المهلك قال مجاهد موعدا أي أجلا 95 - ثم قال جل وعز وإذ

قال موسى لفتاة لا أبرح قيل إنما قيل له فتاه لأنه كان يخدمه وهو

يوشع ومعنى لا أبرح أي لا أزال وليس معناه لا أزول 96 - ثم قال جل وعز حتى أبلغ مجمع

البحرين روى معمر عن قتادة قال بحر الروم بحر فارس

وقال غيره هو الموضع الذي وعده الله أن يلقى فيه الخضر 97 - ثم قال تعالى أو أمضى

حقبا روى عمرو بن ميمون عن عبد الله بن عمرو قال الحقب ثمانون سنة وروى ابن نجيح

قال الحقب سبعون خريفا وروى معمر عن قتادة قال الحقب زمان قال أبو جعفر الذي يعرفه

أهل اللغة أن الحقب

والحقبة زمان من الدهر مبهم غير محدود كما أن قوما ورهطا مبهم غير محدود والحقب بضمتين جمعه أحقاب ويجوز أن يكون أحقاب جمع حقب وحقب جمع حقبة 98 - ثم قال جل وعز فلما بلغا مجمع بينهما قال مجاهد أي بين البحرين

وقال أبي بن كعب رحمه الله افريقية 99 - ثم قال جل وعز نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا قيل كان النسيان من موسى (ص) أن يتقدم إلى يوشع بشئ من أمر الحوت وكان النسيان من يوشع عليه السلام يخبره بسربه بن وقيل أن يقدمه ثم قال فاتخذ سيله في البحر سربا السرب في اللغة المذهب والمسلك 100 - وقوله جل وعز قال ذلك ما كنا نبغ أي الذي كنا نبغي لأنه وعد أن يلقى الخضر في الموضع الذي ينسرب فيه 101 - ثم قال جل وعز فارتدا على آثارهم قصصا أي رجعا في الطريق الذي سلكاه يقصان الأثر قصصا والقصص أتباع الأثر

102 - وقوله جل وعز فوجدوا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما يعني به الخضر وقيل إنما سمى الخضر لأنه كان إذا صلى في مكان اخضر ما حوله وفيما فعله موسى وهو من جله الأنبياء وقد أوتى التوراة

من طلبه العلم والرحلة في ذلك ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته وأحاط بأكثر ما يدركه أهل زمانه وأن يتواضع لمن هو أعلم منه 103 -

وقوله جل وعز قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا هذا سؤال الملاطف والمخاطب المبالغ في حسن الأدب والمعنى هل يتفق لك ويخف عليك أن تأذن لي في مرافقتك لأقتبس من علمك ما يرشدني وهذا كما في الحديث هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله (ص) يتوضأ والرشد والرشد بمعنى واحد وهو كثير في اللغة العربية نحو

(70/466)

البخل والبخل والعرب والعرب 104 - وقوله جل وعز قال إنك لن تستطيع معي صبرا هذا قول الخضر لموسى ثم أعلمه العلة في ترك الصبر فقال وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا أي وكيف تصبر على ما ظاهره خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه والأنبياء لا يقرون على منكر ولا يسعهم التقرير أي لا يسعك السكوت جريا على عادتك وحكمك 105 - وقوله جل وعز قال ستجدني إن شاء الله صابرا هذا قول موسى للخضر أي سأصبر بمشيئة الله ولا أعصي لك أمرا أي قد ألزمت نفسي طاعتك ولن أعصي أمرك إن شاء الله 106 - وقوله جل وعز قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا أي إن إنكرته هذه فلا تعجل بالمسألة إلى أن أبين لك الوجه فيه وحتى أكون أنا الذي أفسره

لك شرط عليه قبل بدء الرحله ألا يسأله ولا يستفسر عن شئ من تصرفاته حتى يكشف

له عن سرها فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم مع العالم 107 - وقوله جل وعز

فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها انطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر

حتى مرت بهما سفينه فعرفوا الخضر فحملوهما بدون أجر فلما ركبا في السفينة عمد

الخضر إلى فأس فقلع لوحا من ألواح السفينة بعد أن أصبحت في لجة البحر فذلك قوله تعالى

حتى إذا ركبا في السفينة خرقها أي خرقها الخضر 108 - وقوله جل وعز قال أخرقتها

لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا أي قال له موسى منكرا عليه أخرقت السفينة لتغرق

ركابها لقد فعلت شيئا عظيما هائلا

ومعنى إمرا أي شيئا عظيما من المنكر ويروي أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فجعله

مكان

(71/466)

الخرق ثم قال للخضر قوم حملونا بغير أجر عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد

فعلت أمرا هائلا عظيما قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا أي قال له الخضر ألم أخبرك

من أول الأمر إنك لا تستطيع أن تصبر على ما ترى من صنيعي ذكره بلطف في مخالفته

للشرط 109 - ثم قال جل وعز قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا

معنى ترهقني تغشيني سنة أي عاملني باليسر لا بالعسر روى عن النبي (ص) أنه قال كانت

الأولى من موسى نسيانا وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له

الخضر ما علمي وعلمك من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر

110 - وقوله جل وعز فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله أي فقبل عذره وانطلقا بعد

نزولهما من عمرو السفينة يمشيان فمرا بغلمان قبل يلعبون وفيهم غلام وضئ الوجه جميل

الصورة فأمسكه الخضر واقتلع رأسه بيده ثم رماه في الأرض قال أقتلت نفسا زكية بغير

نفس لقد جئت شيئا نكرا أي قال له موسى أقتلت نفسا طاهرة بريئة لم تذنب قط ولم تقتل

نفسا حتى تقتل به لقد فعلت شيئا منكرا عظيما لا يمكن السكوت عنه قال ألم أقل لك إنك

لن تستطيع معي صبرا أي قال له الخضر ألم

أخبرك أنك لن تستطيع الصبر على ما ترى مني وقره في الأول ثم واجهة بكاف الخطاب بقوله

لك لعدم العذر هنا ومعنى زكية أي بريئة لم ير ما يوجب قتلها وقال هنا نكرا أي منكرا

فظيعا أنكر من الأمر الأول وهو أبلغ من قوله إمرا في الآية السابقة وهو منصوب على ضربين

احدهما معناه أتيت شيئا نكرا

والثاني معناه جئت بشئ نكر فلما حذف الباء أفضى إلى الفعل فنصبه 111 - ثم قال جل وعز قال إن سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا أي إن انكرت عليك بعد هذه المرة واعترضت على ما يصدر منك فلا تصحبني معك فقد أعذرت إلى ونبهتني يحيى على مخالفتي الشرط فأنت معذور عندي 112 - وقوله جل وعز فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها أي مشيا حتى وصلا إلى قرية فطلبا طعاما فلم يعطوهما واستضافاهم فلم يضيفوهما قال ابن عباس هي انطاكية وقال ابن سيرين هي الأيلة 113 - ثم قال تعالى فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه والمعنى وجدا في القرية حائطا مائلا يوشك أن يسقط ويقع فمسحه الخضر بيده فاستقام وقيل إنه هدمه ثم بناه وروى أن موسى قال للخضر قوم استطعمناهم فلم يطعمونا وضفناهم فل يضيفونا ثم قعدت تبني لهم الجدار لو شئت لتخذت عليه أجرا وقوله تعالى يريد ان ينقض أي يوشك ان يسقط وهذا مجاز وتوسع وهو في كلام العرب وأشعارها كثير فمن ذلك قول عنترة * وازور من وقع القنا بلبانه * وشكا إلى بعبرة وتحمحم * وقول الآخر * يريد الرمح صدر أبي براء * ويرغب عن دماء بني عقيل *

114 - وقوله جل وعز قال هذا فراق بيني وبينك سيبويه يذهب إلى أن إعادة بين في مثل هذا على التوكيد أي فراق بيننا كما يقال أخزى الله الكاذب مني ومنك أي منا 115 -

وقوله جل وعز أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر

أهل اللغة جميعا لا نعلم بينهم اختلافا يقولون المسكين الذي لا شئ له والفقير الذي له الشئ اليسير وأكثر الفقهاء على ضد هذا فيهما ويحتجون بهذه الآية قال أبو جعفر قيل وليس قوله كانت لمساكين

(73/466)

يعملون في البحر يدل على أنهم كانوا يملكونها ألا ترى أن النبي (ص) قال من باع عبدا له مال فماله للبائع فليس قوله له مال مما يوجب أنه يملكه وهذا كثير جدا منه قول الله جل وعز وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ومنه قولهم باب الدار وجل الدابة والأشياء تضاف إلى الأشياء ولا يوجب ذلك ملكا فأضيفت إليهم لأنهم كانوا يعملون فيها كما أضيف المال إلى العبد لأنه معه والاشتقاق يوجب ما قال أهل اللغة لأن مسكينا مأخوذ من السكون وهو عدم الحركة فكأنه بمنزلة الميت والفقير كأنه الذي كسر فقاره فقد بقيت له بقية

ويدل على هذا أيضا حديث النبي (ص) حدثنا أحمد بن منصور الحاسب قال حدثنا علي بن الجعد قال أنبأنا حماد ابن سلمة عن محمد بن زياد قال سمعت أبا هريره يقول سمعت أبا القاسم عليه السلام يقول إن المسكين ليس بالطواف الذي ترده التمرة والتمرتان والأكله

والأكلتان ولكن المسكين

الذي لا يجد غنى يغنيه ويسأل الناس إلحافا 116 - وقوله جل وعز وكان وراءهم ملك

يأخذ كل سفينة غصبا روى ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن

عباس أنه قرأ وكان أمامهم ملك قال أبو جعفر في وراء ها هنا قولان أحدهما أنه بمعنى أمام

والآخر أنه بمعنى خلف على بابه كأنه قال على

طريقهم إذا رجعوا والقول الأول أحسن لقراءة ابن عباس رحمه الله به وأن اللغة تجيزه لأن ما

توارى عنك فهو وراء فهذا يقع لما كان أماما ثم قال يأخذ كل سفينه غصبا وقرأ عثمان

رحمه الله كل سفينه صالحة غصبا 117 - ثم قال جل وعز وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين

روى ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قرأ وكان أبواه

مؤمنين وكان كافرا

وروى أبي بن كعب عن النبي (ص) قال طبع على الكفر فألقى على أبويه محبته 118 - ثم

قال جل وعز فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فخشينا أن يرهقهما

فأردنا أن يبدلهما قال أبو حاتم هذا من كلام صاحب موسى يعني الخضر وقال غيره هو من قول الله جل وعز فان قال قائل كيف يجوز أن يكون فخشينا إخبارا عن الله فالجواب عنه أن الفراء قال فخشينا بمعنى فعلمنا كما يقال ظننا بمعنى علمنا

وقال البصريون يقال خشيت الشئ بمعنى كرهته وبمعنى فزعت منه كما يقال للرجل أخشى أن يكون كذا وكذا أي أكره وقال الأخفش وفي قراءة أبي فخاف ربك أن يرهقهما طغيانا وكفرا وقال غيره وكذلك هو في مصحف عبد الله والكلام في خفت وخشيت واحد حكى الأخفش خفت أن تقولا بمعنى كرهت أن تقولا ومعنى أن يرهقهما أن يلحقهما أي أن يحملهما على الرهق وهو الجهل

وقال أبو زيد أرهقته كلفته

119 - وقوله جل وعز فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما قال ابن جريج زكاة أي إسلاما وقال الفراء إصلاحا قال ابن جريج وحدثني عبد الله بن عثمان بن خشم عن سعيد بن جبير قال أبدلا منه جارية قال ابن جريج وهما بها أرحم قال ابن عباس أبدلا منه جارية فولدت نبيا وحكى الفراء رحمته رحمة ورحمة وحكى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء رحمة الله رحما

ويجوز على مذهب الخليل رحما بالفتح 120 - وقوله جل وعز وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما قال سعيد بن جبير ومجاهد علم وقال قتادة وعكرمة

مال وهذا القول أولى من جهة اللغة لأنه إذا قيل عند فلان كنز فإنما يراد به المال المدفون والمدخر فإن أراد غير ذلك بين فقال عنده كنز علم وكنز فهم ويحتمل أن يكون كما روى أنه لوح من ذهب مكتوب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله فهذا يجمع المال والعلم

121 - وقوله جل وعز وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا يدل على أن ذلك كان بوحي

(75/466)

---

122 - وقوله جل وعز ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا روى أبو الطفيل أن ابن الكوا سأل علي بن أبي طالب رضى الله عنه عن ذي القرنين أكان نبيا أو ملكا فقال لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان عبدا صالحا أحب الله فأحبه ونصح الله فنصحه الله ضرب على قرنه الأيمن فمات فبعثه الله ثم ضرب على قرنه الأيسر فمات ففيكم مثله قال أبو جعفر وهذا أجل اسناد روى في تسميه بذي القرنين

وقد قيل كانت له ضفيرتان وقيل لأنه بلغ قطري الأرض المشرق والمغرب قال محمد بن إسحاق حدثني من يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علمه إن ذا القرنين كان رجلا من أهل مصر اسمه مرزبان بن مردبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح قال ابن

هشام واسمه الاسكندر وهو الذي بنى

الاسكندرية فنسبت إليه قال محمد بن إسحق وقد حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن

معدان الكلاعي وكان رجلا قد أدرك الناس أن رسول الله (ص) سئل عن ذي القرنين فقال

ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب وقال خالد سمع عمر بن الخطاب رحمه الله عليه

رجلا يقول يا ذا القرنين فقال عمر اللهم غفرا أما رضيتم أن تسموا بالنبيين حتى تسميتم

بالملائكة 123 - وقوله جل وعز إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شئ سببا روى على

بن أبي طلحة عن ابن عباس قال علما والمعنى على هذا التفسير علما يصل به إلى المسير في

أقطار الأرض 124 - ثم قال تعالى فاتبع سببا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال منزلا

وطريقا بين المشرق والمغرب 125 - ثم قال جل وعز حتى إذا بلغ مغرب الشمس

وجدها تغرب في عين حمئة

قرأ عبد الله بن مسعود وابن الزبير حامية وقرأ ابن عباس حمئة

(76/466)

قال أبو جعفر حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرفة قال حدثنا محمد بن عبد الملك قال حدثنا

يزيد بن هارون قال حدثنا عمرو بن ميمون قال سمعت أبا حاضر يقول سمعت ابن عباس

يقول كنت عند معاوية فقرأ تغرب في عين حامية فقلت ما نقرؤها إلا حمئة فقال لعبد الله بن عمرو كيف تقرؤها يا عبد الله بن عمرو قال كما قرأتها يا أمير المؤمنين فقلت في بيتي يا أمير المؤمنين أنزل القرآن فأرسل معاوية إلى كعب فقال أين تجد الشمس تغرب في التوراة فقال أما في العربية فأنتم أعلم بها وأما أنا فأجد الشمس في التوراة تغرب في ماء وطين وأشار بيده إلى المغرب فقلت لابن عباس لو كنت عندك فرفدتك الرحمن بكلمة تزداد بها بصيرة في حمئة قال ابن عباس ما هي قلت فيما نأثر من قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين من قوله * بلغ المشارق والمغارب يبتغي * أسباب أمر من حكيم مرشد فرأى مغيب الشمس عند غروبها * في عين ذي خلب وثاط حرمد * فقال ابن عباس ما الخلب فقال الطين بكلامهم قال وما الثاط قلت الحمأة قال وما الحرمد قلت الأسود قال أبو جعفر فهذا تفسير الحمأة يقال حمئت البئر إذا صارت فيها الحمأة وأحمأتها ألقيت فيها الحمأة

وحمأتها وكان أخرجت منها الحمأة فأما قراءة من قرأ حامية فيحتمل معنيين أحدهما أن يكون المعنى حمئة فكأنه قال حامئة أي ذات حمأة ثم خففت الهمزة والمعنى الآخر أن يكون بمعنى حارة

ويجوز أن تكون حارة وهي ذات حمأ والله أعلم بحقيقته قال القتبي يجوز أن تكون هذه العين من البحر ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءها أو معها أو عندها فيقام حرف الصفة مقام صاحبة والله اعلم بذلك 126 – وقوله جل وعز ووجد عندها قوما قلنا يا ذا

القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا قال إبراهيم بن السري خيره بين هذين كما خير محمدا (ص) فقال فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وقال علي بن سليمان المعنى قلنا يا محمد قالوا يا ذا القرنين

(77/466)

قال لأن بعده قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا فكيف يقول لربه ثم يرد إلى ربه وكيف يقول فسوف نعذبه والعبد لا يخاطب بهذا ولم يصح أن ذا القرنين نبي فيقول الله قلنا يا ذا القرنين قال أبو جعفر وهذا موضع مشكل وليس بممتنع حذف القول والله أعلم بما أراد وروى معمر عن قتادة في قوله جل وعز فسوف نعذبه قال بالقتل 127 - وقوله جل وعز ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا

لأن عذاب الآخرة أنكر من القتل 128 - ثم قال جل وعز وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى قيل الحسنى ها هنا الجنة ويقرأ فله جزاء الحسنى أي الإحسان 129 - ثم قال جل وعز وسنقول له من أمرنا يسرا أي قولا جميلا 130 - وقوله جل وعز ثم اتبع سببا ويقرأ ثم أتبع بقطع الألف أي سببا من الأسباب التي تؤدية روى إلى أقطار الأرض قال الأصمعي يقال أتبعت القوم بقطع الألف أي لحقتهم

واتبعتهم بوصل الألف إذا مررت في آثارهم وإن لم تلحقهم 131 - ثم قال جل وعز حتى

إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع

على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا أي ليس لهم بنيان ولا قمص قال الحسن إذا طلعت نزلوا

الماء حتى تغرب فأما معنى كذلك فقيل فيه حكمهم كحكم الذين تغرب عليهم الشمس أي

هم كأولئك 132 - وقوله جل وعز ثم اتبع سببا حتى إذا بلغ بين السدين ويقرأ السدين

وقد فرق بينهما أبو عمرو وجماعة من أهل اللغة فقال بعضهم السد ما كان من صنع الله

والسد بالفتح ما كان من صنع الآدميين وقيل السد ما رأيته والسد ما ستر عينيك

والصحيح في هذا ما قاله الكسائي أنهما لغتان بمعنى وإن زيد في هذا قيل السد المصدر

والسد الأسم 133 - وقوله جل وعز قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في

الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ويقرأ خراجا

قال الفراء الخرج المصدر والخراج الاسم

وروى معمر عن قتادة خرجا قال عطية وكذلك هو في اللغة يقال لك عندي خرج أي عطية

وجعل والخراج هو المتعارف وإن كان اصله من ذا 134 - وقوله جل وعز قال ما مكني فيه ربي خير أي خير مما بذلتم لي 135 - ثم قال جل وعز فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما والردم في اللغة أكثر من السد لأنه شئ متكاثف بعضه على بعض وروى عطاء الخراساني عن ابن عباس بين السدين الجبلين أرمينية وأذربيجان

136 - ثم قال جل وعز آتوني زبر الحديد الزبر القطع الكبار من الحديد 137 - ثم قال تعالى حتى إذا ساوى بين الصدفين روى علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال الجبلين 138 - وقوله جل وعز قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قيل جعل قطع الحديد وجعل بينهما الحطب والفحم وأوقد عليها والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار فذلك قوله حتى إذا جعله نارا ثم أذاب الصفر فأفرغه عليه فذلك قوله تعالى قال آتوني أفرغ عليه قطرا أي أعطوني قطرا أفرغ عليه

ومن قرأ ائتوني فالمعنى عنده تعالوا أفرغ عليه

نحاسا 139 - قال جل اسمه فما اسطاعوا أن يظهروه أي أن يعلوا عليه لطوله واملاسه يقال ظهرت على السطح أي علوت عليه قال كعب فهم يعالجون فيه كل يوم فإذا أمسوا قالوا غدا ننقضه ولا يوفق لهم أن يقولوا إن شاء الله فإذا أذن الله في إخراجهم قالوا ان شاء الله فينقضونه ولم فيخرجون فيشرب أولهم دجله والفرات حتى يمر آخرهم فيقول قد كان هنا هنا مرة ماء ويتأذى بهم أهل الأرض ويدعو عليهم عيسى صلى الله عليه وسلم فيهلكون

140 - وقوله جل وعز قال هذا رحمة من ربي أي هذا التمكين رحمة من ربي ثم قال تعالى فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء أي لاصقا بالأرض يقال ناقة دكاء أي لا سنام لها

141 - وقوله جل وعز وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ويجوز أن يكون يعني ب يومئذ يوم يخرجون من السد وأن يعني به يوم القيامة لقوله تعالى ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا

142 - وقوله جل وعز وكانوا لا يستطيعون سمعا

(79/466)

أي لعداوتهم النبي (ص) لا يستطيعون أن يسمعوا منه شيئا أي يثقل ذلك عليهم كما تقول أنا لا أستطيع أن أكلمك 143 - وقوله جل وعز أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء قال أبو إسحاق المعنى أفحسب الذين كفروا أن ينفعهم أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء وروى عباد بن الربيع أن علي بن أبي طالب رحمة الله عليه قرأ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء قال أبو عبيدة أي أرضوا بذلك أكفاهم ذلك 144 - ثم قال جل وعز إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا

النزل عند أهل اللغة ما هيئ للضيف وما أشبهه والنزل بفتحتين الريع 145 - ثم قال جل وعز قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم

يحسنون صنعا روى أبو الطفيل أن عليا قال هم أهل حروراء وروى عبد الله بن قيس عن علي قال هم الرهبان قال الأسود رؤى من علي بن أبي طالب فرح ومزاح فقام ابن الكوا اليشكري فقال يا أمير المؤمنين من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا أهم الحرورية فقال لا هم أهل الكتاب كان أولهم على الحق ثم كفروا وأشركوا وروى شعبة عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد

قال قلت لسعد من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا أهم الخوارج فقال هم اليهود والنصارى أما اليهود فلم يؤمنوا

بمحمد وأما النصارى فلم يؤمنوا بالقيامة لأنهم قالوا ليس في الجنة أكل ولا شرب فضل سعيهم وبطل عملهم وهم يحسبون أنهم على هدى أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه وأما الخوارج فهم الذين قال الله فيهم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل 146 - ثم قال جل وعز فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا روى أبو هريرة عن النبي (ص) قال يؤتى يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكول الشروب فلا يزن جناح بعوضه اقرءوا إن شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا

147 - وقوله جل وعز إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا

سئل أبو أمامة عن الفردوس فقال هي سرة الجنة وقال كعب هي التي فيها الأعناب قال أبو اسحاق الفردوس البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين وكذلك هو عند أهل اللغة ولم نسمعه إلا في بيت حسان * وإن ثواب الله كل موحد * جنان من الفردوس فيها يخلد *

قرئ على جعفر بن محمد الفريابي عن قتيبة بن سعيد قال حدثنا عبد العزيز بن محمد عن زيد بن أسلم قال إن في الجنة مائة درجة بين كل درجتين ما بين السماء والأرض والفردوس أعلى الجنة وفوقها عرش الرحمن ومنها تفجر أنهار الجنة فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس

148 - وقوله جل وعز خالدين فيها لا يبغون عنها حولا روى ابن نجيح عن مجاهد قال متحولا وقال غيره هو من الحيلة أي لا يحتالون في غيرها 149 - وقوله جل ذكره قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي

قال مجاهد يعني العلم 150 - ثم قال تعالى ولو جئنا بمثله مددا قيل مددا بمعنى مدادا وقيل هو من قولهم نحن مدد له وقرأ ابن عباس ولو جئنا بمثله مدادا 151 - وقوله جل وعز فمن كان يرجو لقاء ربه قيل يرجو بمعنى يخاف كما قال الشاعر إذا لسعته النحل لم يرج لسعها * وحالفها في بيت نوب عوامل *

وقال سعيد بن جبير لقاء ربه أي ثواب ربه قال أبو جعفر وعلى هذا يكون يرجو على بابه

وإذا رجا ثواب ربه خاف عقابه 152 – وقوله جل وعز ولا يشرك بعبادة ربه احدا قال مجاهد يعني الرياء وقال سعيد بن جبير أي لا يرائي وقال كثير بن زياد سألت الحسن عن قوله فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا فيمن نزلت فقال نزلت في المؤمن قلت أيكون مشركا فقال يشرك في العمل إذا عمل عملا أراد الله له والناس وذلك الذي يرد عليه انتهت سورة الكهف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 4 صـ 210 . 303 ﴾

(81/466)

وقال الفراء :

ومن سورة الكهف

قوله تبارك وتعالى : وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً قَيِّماً المعنى : الحمد للّه الذي أنزل على عبده الكتاب قيّما ، ولم يجعل له عوجا . ويقال فى القيّم : قيّم على الكتب أي أنه يصدّقها .

وقوله (لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً) مع البأس أسماء مضمرة يقع عليها الفعل قبل أن يقع على البأس . ومثله فى آل عمران (إِنَّمَا ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ) معناه : يخوفكم أولياءه .

وقوله : ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبائِهِمْ معناه ولا لأسلافهم : آبائهم وآباء آبائهم [ولا] يعنى الآباء الذين هم لأصلابهم فقط .

(82/466)

وقوله : (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ) نصبها أصحاب عبد الله ، ورفعها الحسن وبعض «1» أهل المدينة . فمن نصب أضمر فى (كَبُرَتْ) : كبرت تلك الكلمة كلمة . ومن رفع لم يضمر شيئا كما تقول : عظم قولك وكبر كلامك .

وقوله فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ [6] أي مخرج نفسك قاتل نفسك .

وقوله : (إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا) تكسرها «2» إذا لم يكونوا آمنوا على نيّة الجزاء ، وتفتحها إذا أردت أنها قد مضت مثل قوله فى موضع آخر : (أَفَنَضْرِبُ «3» عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ) و(أن كنتم) .

ومثله قول الشاعر :

أتجزع أن بان الخليط المودّع وحبل الصّفا من عزّة المتقطع

وقوله : صَعِيداً [8] الصعيد التراب . والجرز : أن تكون الأرض لا نبات فيها . يقال : جرزت الأرض وهى مجروزة . وجرزها الجراد أو الشاء أو الإبل فأكلن ما عليها .

وقوله : أَمْ حَسِبْتَ [9] يخاطب محمدا صلّى اللّه عليه وسلم (أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ)

الكهف :

الجبل «4» الذي أووا إليه . والرقيم : لوح رصاص كتبت فيه أنسابهم ودينهم وممّ هربوا .

وقوله : هَيِّئْ [10] كتبت الهمزة بالألف (وهيّأ) بهجائه . وأكثر ما يكتب الهمز على ما قبله . فإن كان ما قبله مفتوحا كتبت بالألف . وإن كان مضموما كتب بالواو ، وإن كان مكسورا كتبت بالياء . وربما كتبتها العرب بالألف فى كل حال لأن أصلها ألف . قالوا نراها إذا ابتدئت

---

(1) وقد نسبت هذه القراءة إلى ابن محيصن

(2) الكسر قراءة العامة

(3) الآية 5 سورة الزخرف والكسر قراءة نافع وحمزة والكسائي وأبى جعفر وخلف ، وافقهم الحسن والأعمش ، والباقون بالفتح

(4) فى الطبري : «الكهف كهف الجبل» وهى أولى . فالكهف هو المغارة فى الجبل

[.....]

تكتب بالألف فى نصبها وكسرها وضمّها مثل قولك : أمروا ، وأمرت ، وقد جئت «1» شيئا إمرا فذهبوا هذا المذهب . قال : ورأيتها «2» فى مصحف عبد اللّه (شيأ) فى رفعه وخفضه بالألف .

ورأيت يستهزءون يستهزأون بالألف وهو القياس . والأوّل أكثر فى الكتب ، وقوله : فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ [11] بالنوم «3» .

وقوله : (سِنِينَ عَدَداً) العدد هاهنا فى معنى معدودة واللّه أعلم . فإذا كان ما قبل العدد مسمّى مثل المائة والألف والعشرة والخمسة كان فى العدد وجهان :

أحدهما : أن تنصبه على المصدر فتقول : لك عندى عشرة عددا . أخرجت العدد من العشرة لأن فى العشرة معنى عدّت ، كأنك قلت : أحصيت وعدّت عددا وعدّا . وإن شئت رفعت العدد ، تريد : لك عشرة معدودة فالعدد هاهنا مع السنين بمنزلة قوله تبارك وتعالى فى يوسف (وَشَرَوْهُ «4» بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ) لأن الدراهم ليست بمسمّاة «5» بعدد . وكذلك ما كان يكال ويوزن تخرجه (إذا جاء «6») بعد أسمائه على الوجهين «7» . فتقول لك عندى عشرة أرطال وزنا ووزن وكيلا وكيل على ذلك .

وقوله : 103 ا - لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى [12] رفعت أيّا بأحصى لأن العلم ليس بواقع على أيّ إنما هو : لنعلم بالنظر والمسألة وهو كقولك اذهب فاعلم لى أيّهم قام ، أفلا ترى أنك إنما توقع العلم على من تستخبره . ويبيّن ذلك أنك تقول : سل عبد اللّه أيّهم قام فلو حذفت

عبد اللّه لكنت له مريدا ، ولمثله من المخبرين .

---

(1) فى الآية 71 سورة الكهف : «لقد جئت شيئًا إمرا»

(2) أي الهمزة

(3) ش : «فى النوم»

(4) الآية 20 سورة يوسف

(5) ش ، ب : «بمسميات»

(6) سقط ما بين القوسين فى ا

(7) ب : «وجهين»

(84/466)

وقوله : (أَيُّ الْحِزْبَيْنِ) فيقال : إنّ طائفتين من المسلمين فى دهر أصحاب الكهف اختلفوا فى عددهم . ويقال : اختلف الكفّار والمسلمون . وأما (أَحْصى) فيقال : أصوب : أي أيهم قال بالصواب .

وقوله : (أَمَداً) الأمد يكون نصبه على جهتين إن شئت جعلته خرج من (أَحْصى) مفسّرا ، كما تقول : أيّ الحزبين أصوب قولا وإن شئت أوقعت عليه اللباث : للباثهم أمدا .

وقوله : وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ [16] يعنى أصحاب الكهف «1» فقال : وإذ اعتزلتم جميع ما يعبدون من الآلهة إلّا اللّه . و(ما) فى موضع نصب . وذلك أنهم كانوا يشركون باللّه ، فقال :

اعتزلتم الأصنام ولم تعتزلوا اللّه تبارك وتعالى ولا عبادته :

وقوله : (فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ) جواب لإذ كما تقول : إذ فعلت ما فعلت فتب .

وقوله : (مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً) كسر «2» الميم الأعمش والحسن ، ونصبها أهل المدينة وعاصم .

فكأنّ الذين فتحوا الميم وكسروا الفاء أرادوا أن يفرقوا بين المرفق من الأمر والمرفق من الإنسان وأكثر العرب على كسر الميم من الأمر ومن الإنسان . والعرب أيضا تفتح الميم من مرفق الإنسان .

لغتان فيهما .

وقوله تَتَزاوَرُ [17] وقرئت (تزاور) «3» وتريد (تتزاور) فتدغم التاء عند الزاى . وقرأ بعضهم (تزورّ) «4» وبعضهم «5» (تزوارّ) مثل تحمرّ وتحمارّ . والازورار فى هذا الموضع أنها كانت تطلع

---

(1) أي فقال اللّه فى الحديث عن قولهم . أو فقال بعضهم . وقد يكون الأولى : فقالوا .

(2) فى الإتحاف أن فتح الميم قراءة نافع وابن عامر وأبى جعفر ، وأن الكسر للباقين ،

ومنهم عاصم. وقد نسب الفراء الفتح إلى عاصم، فكأنه فى بعض الروايات عنه.

(3) قرأ (تزوار) ابن عامر ويعقوب، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف (تزوار) بتخفيف الزاى وافقهم الأعمش. وقرأ الباقون (تزاور) بتشديد الزاى.

(4) قرأ (تزوار) ابن عامر ويعقوب، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف (تزوار) بتخفيف الزاى وافقهم الأعمش. وقرأ الباقون (تزاور) بتشديد الزاى.

(5) فى البحر 6/ 107 أن هذه قراءة أبى رجاء وأيوب السختياني وابن أبى عبلة. وهى قراءة شاذة.

(85/466)

على كهفهم ذات اليمين ولا تدخل عليهم، وذات الشمال. والعرب تقول: قرضته ذات اليمين وحذوته وكذلك ذات الشمال وقبلا ودبرا، كلّ ذلك أي كنت بحذائه من كلّ ناحية.

وقوله: ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ [18] الوصيد: الفناء. والوصيد والأصيد لغتان مثل الإكاف «1» والوكاف «2»، ومثل أرّخت الكتاب وورّخته، ووكّدت الأمر وأكّدته، ووضعته يتنا «3» وأتنا «4» ووتنا «5» يعنى الولد. فأمّا قول العرب: واخيت

ووامرت وواتيت وواسيت فإنها بنيت على المواخاة والمواساة والمواتاة والمؤامرة ، وأصلها الهمز كما قيل : هو سول منك ، وأصله الهمز فبدّل واوا وبنى على السؤال .

وقوله «6» : (فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ) أي ناحية متّسعة .

وقوله : (وَلَمُلِئْتَ) بالتخفيف قرأه عاصم والأعمش وقرأ «7» أهل المدينة (ولملّئت منهم) مشدّدا . وهذا خوطب به محمّد صلّى اللّه عليه وسلم .

وقوله : بِوَرِقِكُمْ [19] قرأها عاصم والأعمش بالتخفيف «8» وهو الورق . ومن العرب من يقول الورق ، كما يقال كبد وكبد وكبد ، وكلمة وكلمة وكلمة .

وقوله (فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى) يقال : أحل ذبيحة لأنهم كانوا مجوسا .

وقوله : أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ [21] أظهرنا وأطلعنا . ومثله فى المائدة (فَإِنْ عُثِرَ «9») : اطّلع (واحد «10» الأيقاظ يقظ ويقظ) .

---

(1) هو برذعة الحمار .

(2) هو برذعة الحمار . [. . . . .]

(3) هو أن تخرج رجلا المولود قبل يديه .

(4) هو أن تخرج رجلا المولود قبل يديه .

(5) هو أن تخرج رجلا المولود قبل يديه .

(6) هذا فى الآية 17

(7) ش ، ب : «قرأها» .

(8) أي بإسكان الراء . والتخفيف عند عاصم فى رواية أبى بكر ، أما رواية حفص عنه فكسر الراء .

(9) الآية 107 سورة المائدة .

(10) ما بين القوسين مكانه فى الآية 17 السابقة ففيها : «وتحسبهم أيقاظا وهم رقود» .

(86/466)

قوله : وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ [22] قال ابن عباس : كانوا سبعة وثامنهم كلبهم .

وقال ابن عباس : أنا من القليل الذين قال اللّه عزّ وجلّ : (ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) .

ثم قال اللّه تبارك وتعالى لنبيه عليه السّلام (فَلا تُمارِ فِيهِمْ) يا محمد (إِلَّا مِراءً ظاهِراً) إلا أن تحدّثهم به حديثا .

وقوله : (وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ) فى أهل الكهف (مِنْهُمْ) من النصارى (أَحَداً) وهم فريقان أتوه من أهل نجران : يعقوبىّ ونسطورىّ . فسألهم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عن عددهم ، فنهى .

فذلك قوله (وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً) .

وقوله : وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً [23] إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ [24] إلّا أن تقول : إن شاء الله (ويكون مع القول «1» : ولا تقولنّه إلا أن يشاء الله) أي إلّا ما يريد الله .

وقوله (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ) قال ابن عبّاس : إذا حلفت فنسيت أن تستثنى فاستثن متى ما ذكرت ما لم تحنث .

وقوله : ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ [25] مضافة «2» . وقد قرأ كثير من القراء (ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ) يريدون ولبثوا فى كهفهم سنين ثلاثمائة فينصبونها بالفعل .

ومن العرب من يضع السنين فى موضع سنة فهى حينئذ فى موضع خفض لمن أضاف .

ومن نوّن على هذا المعنى يريد الإضافة نصب السّنين بالتفسير للعدد كقول عنترة :

فيها اثنتان وأربعون حلوبة سودا كخافية الغراب الأسحم «3»

فجعل (سودا) وهى جمع مفسّرة كما يفسّر الواحد .

---

(1) سقط ما بين القوسين فى ا .

(2) هذه قراءة حمزة والكسائي وخلف ، وافقهم الحسن والأعمش .

(3) هذا من معلقته . وقوله : «فيها» أي في حمولة أهل محبوبته التي يتغزل بها . والحلوبة : المحلوبة يريد ؟ ؟ ؟ .

وخافية الغراب آخر ريش الجناح مما يلى الظهر . والأسحم : الأسود .

وقوله : أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ [26] يريد اللّه تبارك وتعالى كقولك فى الكلام : أكرم بعبد اللّه

ومعناه : ما أكرم عبد اللّه وكذلك قوله (أَسْمِعْ «1» بِهِمْ وَأَبْصِرْ) : ما أسمعهم ما أبصرهم .

وكلّ ما كان فيه معنى من المدح والذمّ فإنك تقول «2» فيه : أظرف به وأكرم به ، ومن الياء

والواو : أطيب به طعاما ، وأجود به ثوبا ، ومن المضاعف تظهر فيه التضعيف ولا يجوز

الإدغام ، كما لم يجز نقص الياء ولا الواو لأن أصله ما أجوده وما أشدّه وأطيبه فترك على

ذلك ، وأما أشدد به فإنه ظهر التضعيف لسكون اللام من الفعل ، وترك فيه التضعيف فلم

يدغم لأنه لا يثنّى ولا يؤنّث ، لا تقول للاثنين :

أشدّا بهما ، ولا للقوم أشدّوا بهم . وإنما استجازت العرب أن يقولوا مدّ فى موضع امدد

لأنهم قد يقولون فى الاثنين : مدّا وللجميع : مدّوا ، فبنى الواحد على الجميع .

وقوله (وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً) ترفع إذا كان «3» بالياء على : وليس يشرك . ومن

«4» قال (لا تشرك) جزمها لأنها نهى .

وقوله : مُلْتَحَداً [27] الملتحد : الملجأ .

وقوله : بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ [28] قرأ «5» أبو عبد الرحمن السّلمىّ (بالغدوة والعشىّ) ولا

أعلم أحدا قرأ غيره . والعرب لا تدخل الألف واللام فى الغدوة لأنها معرفة بغير ألف ولام سمعت أبا الجراح يقول : ما رأيت كغدوة قطّ ، يعنى غداة يومه . وذاك أنها كانت باردة ألا ترى أن العرب لا تضيفها فكذلك لا تدخلها الألف واللام .

إنما يقولون : أتيتك غداة الخميس ، ولا يقولون : غدوة الخميس . فهذا دليل على أنها معرفة .

---

(1) الآية 38 سورة مريم .

(2) سقط فى ا .

(3) ا : «كانت» . [. . . . .]

(4) هو ابن عامر ، وافقه المطوعى والحسن .

(5) هى قراءة ابن عامر من السبعة . وقد ورد تنكير غدوة حكاه سيبويه والخليل عن العرب ، فعلى هذا جاءت هذه القراءة ولا يصح إنكارها . وانظر البحر المحيط 4/ 136

(88/466)

وقوله (وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ) الفعل للعينين : لا تنصرف عيناك عنهم . وهذه نزلت فى سلمان وأصحابه .

وقوله (وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) متروكا قد ترك فيه الطاعة وغفل عنها . ويقال إنه أفرط فى القول فقال : نحن رءوس مضر وأشرافها ، وليس كذلك . وهو عيينة ابن حصن . وقد ذكرنا «1» حديثه فى سورة الأنعام .

وقوله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ [30] خبر (الَّذِينَ آمَنُوا) فى قوله (إِنَّا لا نُضِيعُ) وهو مثل قول الشاعر :

إن الخليفة إنّ الله سربله سربال ملك بها تزجى الخواتيم «2»

كأنه فى المعنى : إنا لا نضيع أجر من عمل صالحا فترك الكلام الأول واعتمد على الثاني بنيّة التكرير كما قال (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ «3») ثم قال (قِتالٍ فِيهِ) يريد : عن قتال فيه بالتكرير ويكون أن تجعل (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا) فى مذهب جزاء ، كقولك : إن من عمل صالحا فإنا لا نضيع أجره ، ب : فتضمر فتضمّن الفاء فى قوله (فإنا) وإلقاؤها جائز . وهو أحبّ الوجوه إلىّ .

وإن شئت جعلت خبرهم مؤخّرا كأنك قلت : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم جنّات عدن .

وقوله : يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ [31] لو ألقيت (من) من الأساور كانت نصبا . ولو ألقيت (من) من الذهب جاز نصبه على بعض القبح ، لأن الأساور ليس بمعلوم عددها ، وإنما يحسن «4»

---

(1) انظر ص 336 من الجزء الأولى.

(2) «بها» كذا والسربال مذكر فكأنه أراد الحلة. وفى الطبري: «به» وقوله: «تزجى» أي تدفع وتساق. وفى الطبري: «ترجى».

(3) الآية 217 سورة البقرة.

(4) ا: «حسن».

(89/466)

النصب فى المفسّر إذا كان معروف العدد، كقولك: عندى جبّتان خزّا، وأسواران ذهبا، وثلاثة أساور ذهبا. فإذا قلت: عندى أساور ذهبا فلم تبيّن عددها كان بمن، لأن المفسّر ينبغى لما قبله أن يكون معروف المقدار. ومثله قول اللّه تبارك وتعالى (وَيُنَزِّلُ «1» مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ) المعنى: فيها جبال برد، فدخلت (من) لأن الجبال غير معدودة فى اللفظ. ولكنه يجوز كأنك تريد بالجبال والأساور الكثيرة، كقول القائل: ما عنده إلا خاتمان ذهبا قلت أنت: عنده خواتم ذهبا لمّا أن كان ردّا على شىء معلوم العدد فأنزل الأساور والجبال من برد على هذا المذهب.

فأمّا (يُحَلَّوْنَ) فلو قال قائل: يحلون لجاز، لأن العرب تقول: امرأة حالية، وقد حليت فهى

تحلى إذا لبست الحلىّ فهى تحلى حليّا وحليا .

وقوله ﴿نِعْمَ الثَّوابُ﴾ ولم يقل : نعمت الثواب ، وقال ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ فأنّث الفعل على معنى الجنّة ولو ذكّر بتذكير المرتفق كان صوابا ، كما قال ﴿وَبِئْسَ «2» الْمِهادُ﴾ ، وبئس «3» القرار ، ﴿وَبِئْسَ «4» الْمَصِيرُ﴾ وكما قال ﴿بِئْسَ «5» لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ يريد إبليس وذرّيّته ، ولم يقل بئسوا .

وقد يكون ﴿بئس﴾ لإبليس وحده أيضا . والعرب توحّد نعم وبئس وإن كانتا بعد الأسماء فيقولون :

أمّا قومك فنعموا قوما ، ونعم قوما ، وكذلك بئس . وإنما جاز توحيدها لأنهما ليستا «6» بفعل يلتمس معناه ، إنما أدخلوهما لتدلّا على المدح والذمّ ، ألا ترى أن لفظهما لفظ فعل «7» وليس معناهما كذلك ، وأنه لا يقال منهما يبأس الرجل زيد ، ولا ينعم الرجل أخوك ، فلذلك استجازوا الجمع

---

(1) الآية 43 سورة النور .

(2) الآية 197 سورة آل عمران . وورد فى مواضع أخر .

(3) الآية 29 سورة إبراهيم .

(4) الآية 126 سورة البقرة . وورد فى مواطن أخر .

(5) الآية 50 سورة الكهف .

(6) ا : «ليسا» .

(7) يريد لفظ الفعل الماضي .

(90/466)

والتوحيد فى الفعل . ونظيرهما (عَسى أَنْ يَكُونُوا «1» خَيْراً مِنْهُمْ) وفى قراءة عبد اللّه

(عسوا أن يكونوا خيرا منهم) ألا ترى أنك لا تقول ، هو يعسى كما لم تقل يبأس .

وقوله : كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها

[33] ولم يقل : آتتا . وذلك أن (كِلْتَا) ثنتان لا يفرد واحدتهما ، وأصله كلّ كما تقول

للثلاثة : كلّ : فكان القضاء أن يكون للثنتين ما كان للجمع ، لا أن يفرد للواحدة شىء فجاز

توحيده 104 ب على مذهب كلّ . وتأنيثه جائز للتأنيث الذي ظهر فى كلتا . وكذلك

فافعل بكلتا وكلا وكلّ إذا أضفتهنّ إلى معرفة وجاء الفعل بعدهن ، فاجمع ووحّد .

من التوحيد قوله (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ «2» يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً) ومن الجمع (وَكُلٌّ أَتَوْهُ «3» داخِرِينَ)

و(آتوه) مثله . وهو كثير فى القرآن وسائر الكلام . قال الشاعر :

وكلتاهما قد خطّ لى فى صحيفتى فلا العيش أهواه ولا الموت أروح

وقد تفرد العرب إحدى كلتا وهم يذهبون بإفرادها إلى اثنتيها ، أنشدنى بعضهم .

فى كلت رجليها سلامى واحده كلتا هما مقرونة بزائده «4»

يريد بكلت كلتا .

والعرب تفعل ذلك أيضا فى (أىّ) فيؤنثون ويذكّرون ، والمعنى التّأنيث ، من ذلك قول اللّه

تبارك

---

(1) الآية 11 سورة الحجرات . [. . . . .]

(2) الآية 95 سورة مريم .

(3) الآية 87 سورة النمل .

(4) ورد هذا الرجز فى الخزانة فى الشاهد الثالث عشر . وفيها أنه فى وصف نعامة .

والسلامى : عظم فى فرسن البعير ، وعظام صغار طول إصبع أو أقل فى اليد والرجل

والفرسن للبعير بمنزلة الحافر للفرس والضمير فى كلتا هما للرجلين .

والشطر الأخير مؤكد لما فى الشطر الأول فالزائدة هى السلامى . وقد ضبط «كلت»

بالكسر ، والذي فى الخزانة والإنصاف ضبطه بالفتح ، وقد يسر هذا للبصريين أن يقولوا :

الأصل كلتا فحذفت الألف . والأقرب إلى مذهب الفراء والكوفيين الجر بالكسر إذ

يجعلونها مفرد كلتا . وفى الخزانة أورد عبارة الفراء هكذا . «وقد تفرد العرب إحدى

كلتى بالإحالة وهم يذهبون بافرادها إلى اثنينيتها وأنشد فى بعضهم البيت . يعنى الظليم

يريد بكلت كلّى» .

وتعالى (وَما تَدْرِي «1» نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) ويجوز فى الكلام بأَيّة أرض . ومثله (فى أيّ «2» صورة) يجوز فى الكلام فى أيّة صورة . وقال الشاعر :

بأيّ بلاء أم بأيّة نعمة يقدّم قبلى مسلم والمهلّب

ويجوز أيّتهما قال ذاك . وقالت ذاك أجود . فتذكّر وقد أدخلت الهاء ، تتوهّم أنّ الهاء ساقطة إذا جاز للتأنيث (بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) وكذلك يجوز أن تقول للاثنتين «3» : كلاهما وكلتاهما .

قال الشاعر :

كلا عقبيه قد تشعّب رأسها من الضرب فى جنبى ثفال مباشر

الثفال : البعير البطيء فإن قال قائل : إنما استجزت توحيد (كِلْتَا) لأن الواحد منهما لا يفرد فهل تجيز : الاثنتان قام وتوحّد ، والاثنان قام إذ لم يفرد له واحد ؟

قلت : إن الاثنين بنيا على واحد ولم يبن (كلا) على واحد ، ألا ترى أن قولك : قام عبد الله كلّه خطأ ، وأنك تجد معنى الاثنين على واحد كمعنى الثلاثة وزيادات «4» العدد ، ولا يجوز إلا أن تقول : الاثنان قاما والاثنتان قامتا .

وهى فى قراءة عبد اللّه.

كلّ الجنتين آتى أكله

ومعناه كلّ شىء من ثمر الجنتين آتى أكله. ولو أراد جمع الثنتين ولم يرد كل الثمر لم يجز إلّا كلتاهما، ألا ترى أنك لا تقول: قامت المرأتان كلهما، لأن (كل) لا تصلح لإحدى المرأتين وتصلح لإحدى الجنّتين. فقس على هاتين كل ما يتبعّض مما يقسم أولا يقسم.

---

(1) الآية 34 سورة لقمان.

(2) الآية 8 سورة الانفطار.

(3) ا، ش، ب «للاثنين» والمناسب ما أثبت.

(4) يريد أربعة فما فوقها.

(92/466)

وقوله (وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً) يقال: كيف جاز التّشديد وإنما النهر واحد؟ قلت: لأن النهر يمتدّ حتى صار التفجر كأنه فيه كلّه فالتخفيف فيه والتثقيل جائزان. ومثله (حَتَّى تَفْجُرَ «1» لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً) يثقّل ويخفّف «2».

(قوله: وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ [34]) حدّثنا محمد قال حدثنا الفراء قال: وحدثنى المعلّي بن هلال

الجعفىّ عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : ما كان فى القرآن من ثمر بالضمّ «3» فهو مال ، وما كان من ثمر مفتوح فهو من الثمار .

وقوله : خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً [36] مردودة على الجنّة وفى بعض مصاحف «4» أهل المدينة (منهما منقلبا) مردودة على الجنّتين .

وقوله : لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي [38] معناه : لكن أنا هو اللّه ربّى ترك همزة الألف من أنا ، وكثر بها الكلام «5» ، فأدغمت النون من (أنا) مع النون من (لكن) ومن العرب من يقول : أنا قلت ذاك بتمام الألف فقرئت لكنّا على تلك اللغة وأثبتوا الألف فى اللغتين فى المصحف : كما قالوا : رأيت يزيدا وقواريرا فثبتت «6» فيهما الألف فى القولين «7» إذا وقفت . ويجوز الوقوف بغير ألف فى غير القرآن فى أنا . ومن العرب من يقول إذا وقف : أنه وهى فى لغة جيّدة . وهى فى عليا تميم وسفلى قيس وأنشدنى أبو ثروان :

وترميننى بالطّرف أي أنت مذنب وتقليننى لكنّ إيّاك لا أقلى

يريد : لكن أنا إيّاك لا أقلى ، فترك الهمز فصار كالحرف الواحد . وزعم الكسائي

---

(1) الآية 90 سورة الإسراء .

(2) التخفيف لعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف وافقهم الحسن والأعمش ، والتثقيل للباقين .

(3) قرأ بالفتح هنا ، وفى الآية الآتية «وأحيط بثمره» عاصم وأبو جعفر وروح ، وقرأ

الباقون بالضم. وفى اللسان (ثمر) أن يونس لم يقبل هذه التفرقة فكأنهما عنده سواء.

(4) هى قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وأبى جعفر وافقهم ابن محيصن.

(5) فى ا: فى «الكلام».

(6) ا: «تثبت».

(7) أي عند من يقول فى الوصل: «لكنا» بالألف وهم ابن عامر وأبو جعفر ورويس، وعند من يقول فى الوصل: «لكنا» بدون ألف وهم الباقون. [. . . . .]

(93/466)

أنه سمع العرب تقول لكنّ واللّه، يريدون: لكن أنا واللّه. وقال الكسائي: سمعت بعض العرب يقول: إنّ قائم يريد إن أنا قائم فترك الهمز: وأدغم فهى نظير «1» للكن.

وقوله: ما شاءَ اللَّهُ [39] ما، فى موضع رفع، إن شئت رفعته بإضمار (هو) تريد: هو ما شاء اللّه. وإن شئت أضمرت ما شاء اللّه كان فطرحت (كان) وكان موضع (ما) نصبا بشاء، لأن الفعل واقع عليه. وجاز طرح الجواب كما قال (فَإِنِ «2» اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ) ليس له جواب لأن معناه «3» معروف.

وقوله: (إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ) (أنا) إذا نصبت (أقلّ) عماد «4». وإذا رفعت (أقل) فهى

اسم والقراءة بهما «5» جائزة.

وقوله: صَعِيداً زَلَقاً [40] الزلق: التراب الذي لا نبات فيه محترق «6» رميم [قوله:]

ماؤُها غَوْراً [41] العرب تقول: ماء غور، وماءان غور، ومياه غور بالتوحيد فى كل شىء.

وقوله: خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها [42] على سقوفها.

وقوله: وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ ينصرنه [43] ذهب إلى الرجال. ولو قيل: تنصره يذهب إلى الفئة - كما قال (فِئَةٌ) تقاتل فى «7» سبيل اللّه وأخرى كافرة - لجاز:

وقوله: هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ [44] رفع «8» من نعت (الْوَلايَةُ) وفى قراءة أبىّ

---

(1) ش: «نظيرة».

(2) الآية 35 سورة الأنعام.

(3) يريد أن معنى الجواب لا يحتاج إلى ذكره وهو: «فافعل» كما ذكره المؤلف فى ص 331 من الجزء الأول.

(4) هو ضمير الفصل عند البصريين.

(5) قراءة النصب للجمهور. وقراءة الرفع لعيسى بن عمر. وهى قراءة شاذة. وانظر البحر 6/ 129.

(6) كذا. وكأن الأصل. «فما فيها محترق رميم» أي الشجر الذي كان فى الجنة.

(7) الآية 13 سورة آل عمران.

(8) الرفع قراءة أبى عمرو والكسائي والباقون بالجر.

(94/466)

(هنالك الولاية الحق لله) وإن شئت خفضت تجعله من نعت (اللّه) والولاية «1» الملك.

ولو نصبت «2» (الْحَقِّ) على معنى حقّا كان صوابا.

وقوله: تَذْرُوهُ الرِّياحُ [45] من ذروت وذريت لغة، وهى كذلك فى قراءة عبد اللّه

(تذريه الريح) ولو قرأ قارئ (تذريه الريح) من أذريت أي تلقيه كان وجها وأنشدنى المفضّل

:

فقلت له صوّب ولا تجهدنّه فيذرك من أخرى القطاة فتزلق «3»

تقول «4»: أذريت الرجل عن الدابّة وعن «5» البعير أي ألقيته.

وقوله: وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ [46] يقال هى الصلوات الخمس ويقال هى سبحان اللّه

والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر.

وقوله: (وَخَيْرٌ أَمَلًا) (يقول خير ما يؤمل) والأمل للعمل الصّالح خير من الأمل للعمل السيّء.

وقوله وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ [47] و(تَسِيرُ «6» الْجِبالُ).

وقوله : (وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً) يقول : أبرزنا أهلها من بطنها . ويقال : سيّرت عنها الجبال فصارت كلها بارزة لا يستر بعضها بعضا .

---

(1) هذا على القراءة بكسر الواو . وهى لحمزة والكسائي وخلف . فأما على فتح الواو فمعناها الموالاة والنصرة .

(2) هى قراءة عمرو بن عبيد كما فى الكشاف .

(3) من قصيدة لامرئ القيس . وهو فى البيت يخاطب غلامه وقد حمله على فرس جواد للصيد ويقال : صوب الفرس إذا أرسله للجرى . والقطاة من الفرس : موضع الردف . يقول لا تجهده فى العدو فيصرعك . وانظر الديوان 174 ، ص 206 من الجزء الأول .

(4) ا : «يقال» .

(5) سقط فى ا .

(6) هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو وابن عامر . [. . . . .]

وقوله (فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ) هذه القراءة (ولو «1» قرئت «ولم نغدر» كان صوابا) ومعناهما واحد يقال: ما أغدرت منهم أحدا، وما غادرت وأنشدنى بعضهم «2»:

هل لك والعائض منهم عائض فى هجمة يغدر منها القابض

سدسا وربعا تحتها فرائض قال، الفراء سدس وربع من أسنان الإبل.

وقوله فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ [50] أي خرج «3» عن طاعة ربّه. والعرب تقول، فسقت الرّطبة من (جلدها «4») وقشرها لخروجها منه وكأنّ الفأرة إنها سمّيت فويسقة لخروجها من جحرها على الناس.

وقوله: وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً [52] يقال: جعلنا تواصلهم فى الدنيا (مَوْبِقاً) يقول مهلكا لهم فى الآخرة ويقال: إنه واد فى جهنم.

وقوله: فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها [53] أي علموا.

وقوله: وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا [55] يقال: الناس هاهنا فى معنى رجل واحد. وقوله (إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) أن فى موضع رفع وقوله (سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) يقول: سنتنا فى إهلاك الأمم المكذّبة. وقوله (أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلًا) : عيانا. وقد تكون (قُبُلًا «5») لهذا المعنى.

وتكون (قُبُلًا) كأنه جمع قبيل وقبل أي عذاب متفرق يتلو بعضه بعضا.

---

(1) ما بين القوسين فى ش وفى ا بدله: «ولم تغدر جائزة لو قرئت».

(2) ا ، ب «بعض بنى فقعس» والرجز لأبى محمد الفقعسي كما فى اللسان (عرض) وهو يخاطب امرأة خطبها إلى نفسه ورغبها أن تنكحه . والهجمة من الإبل أولها الأربعون إلى ما زادت وأراد أنها إبل كثيرة لا يقدر القابض على سوقها فهو يترك بعضها . وقوله : والعائض منك عائض أي الذي يعطيك عوضا أوقع الشيء موقعه فهو عائض . ويروى : والعارض منك عائض والسدس جمع سدبس وهو فى أسنان الإبل قبل البازل والبازل يكون فى تاسع سنيه والربع جمع رباع للذى ألقى الرباعية وهى السن بين الثنية والناب وهو فى الإبل فى السنة السابعة . والفرائض ما يؤخذ من الإبل فى الزكاة وكأنه يريد أن معها ما يؤخذ فى زكاتها .

(3) ا : «من» .

(4) سقط فى ا .

(5) هذه قراءة غير عاصم وحمزة والكسائي وأبى جعفر وخلف والأعمش أما هؤلاء فقراءتهم ضم القاف والباء .

وقوله : لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا [58] (الموئل «1» المنجى) وهو الملجأ فى المعنى واحد .

والعرب تقول : إنه ليوائل إلى موضعه يريدون : يذهب إلى موضعه وحرزه .

وقال الشاعر :

لا وألت نفسك خلّيتها للعامريّين ولم تكلم «2»

(يريد «3» : لا نجت) .

وقوله : لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً [59] يقول : لإهلاكنا إيّاهم (مَوْعِداً) أجلا وقرأ «4» عاصم (لمهلكهم) فتح الميم واللام ويجوز (لمهلكهم) بكسر اللام تبنيه على هلك يهلك . فمن أراد الاسم «5» ممّا يفعل منه مكسور العين كسر مفعلا .

ومن أراد المصدر فتح العين . مثل المضرب والمضرب والمدبّ والمدبّ والمفرّ المفرّ فإذا كان يفعل مفتوح العين آثرت العرب فتحها فى مفعل ، اسما كان أو مصدرا . وربما كسروا العين فى مفعل إذا أرادوا به الاسم . منهم من قال (مَجْمَعَ «6» الْبَحْرَيْنِ) وهو القياس «7» وإن كان قليلا .

فإذا كان يفعل مضموم العين مثل يدخل ويخرج آثرت العرب فى الاسم منه والمصدر فتح العين إلا أحرفا من الأسماء ألزموها كسر العين فى مفعل . من ذلك المسجد والمطلع والمغرب والمشرق والمسقط والمفرق والمجزر والمسكن والمرفق من رفق يرفق والمنسك من

نسك ينسك ، والمنبت .

---

(1) فى ا فى مكان ما بين القوسين : «منجى مقصور» .

(2) وردفى اللسان (وأل) وفيها : «واءلت» .

(3) فى ا : «يقول : لا نجت نفسك» .

(4) أي فى رواية أبى بكر أما فى رواية حفص فيفتح الميم وكسر اللام والباقون بضم الميم وفتح اللام

(5) أي اسم الزمان والمكان .

(6) ورد فى الآية 60 سورة الكهف . وقرأ بكسر الميم الضحاك وعبد اللّه بن مسلم كما فى البحر 6/ 144 .

(7) كذا وكأنه يريد بالقياس أن الأصل الفرق بين المصدر والاسم فالفتح للمصدر والكسر للاسم فهذا هو القياس فى الأصل ، ولكن خولف فى بعض المواطن .

(97/466)

فجعلوا الكسر علامة للاسم ، والفتح علامة للمصدر . وربما فتحه بعض العرب (فى الاسم «1») وقد قرئ مسكن «2» ومسكن . وقد سمعنا المسجد والمسجد وهم

يريدون الاسم ، والمطلع والمطلع .

والنصب فى كلّه جائز وإن لم تسمعه فلا تنكرنه إن أتى .

وما كان من ذوات الياء والواو من دعوت وقضيت فالمفعل منه فيه مفتوح اسما كان أو مصدرا ، إلا المأقى من العين فإن العرب كسرت هذا الحرف . وبعض العرب يسمّى مأوى الإبل مأوى فهذان نادران . وإنما امتنعوا من (كسر «3» العين) فى الياء والواو لأن الياء والواو تذهبان فى السكت للتنوين الذي يلحق ، فردّوها إلى الألف إذ كانت لا تسقط فى السكوت .

وإذا كان المفعل من كال يكيل وشبهه من الفعل فالاسم منه مكسور ، والمصدر مفتوح من ذلك مال مميلا ومما لا تذهب بالكسر إلى الأسماء ، وبالفتح إلى المصادر . ولو فتحتهما جميعا أو كسرتهما فى المصدر والاسم لجاز . تقول العرب : المعاش . وقد قالوا : المعيش . وقال رؤبة ابن العجّاج :

إليك أشكو شدّة المعيش 106 ا ومرّ أعوام نتفن ريشى

نتف الحبارى عن قرا رهيش «4» القرا : الظهر ، وقال الآخر :

أنا الرجل الذي قد عبتموه وما فيكم لعيّاب معاب «5»

---

(1) سقط فى ا .

(2) ورد فى الآية 15 سورة سبأ «لقد كان سبأ . فى مسكنهم آية جنتان» قرأ بفتح

الكاف حفص وحمزة ، وقرأ بكسرها الكسائي وخلف . [. . . . .]

(3) ا : «الكسر» .

(4) الرهيش من الإبل : المهزولة .

(5) ورد البيت فى اللسان والتاج (عيب) . وفيهما : «فيه» فى مكان «فيكم» . وكأن المعنى هنا أنكم ليس عندكم شىء تعابون به إذ إن العيب يكون للاديم الصحيح ، فأما الأديم الفاسد فلا مجال للعيب فيه .

(98/466)

ومثله مسار ومسير ، وما كان يشبهه فهو مثله .

وإذا كان يفعل مفتوحا من ذوات الياء والواو مثل يخاف ويهاب فالاسم والمصدر منه مفتوحان مثل المخاف والمهاب :

وما كان من الواو مضموما مثل يقوم ويقول ويعود ويقود وأشباهه فالاسم والمصدر فيه «1» مفتوحان ، وإنما فتحوه إذا نووا الاسم ولم يكسروه كما كسر المغرب لأنهم كرهوا تحول الواو إلى الياء فتلتبس الواو بالياء .

وما كان أوّله واوا مثل وزنت وورثت ووجلت فالمفعل فيه اسما كان أو مصدرا مكسور

مثل قوله لَنْ

«2»جْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً) وكذلك يوحل ويوجل المفعل منهما مكسور (فى الوجهين «3»)

وزعم الكسائىّ أنه سمع موجل وموحل. قال الفراء: وسمعت أنا موضع. وإنما كسروا ما

أوّله الواو، لأن الفعل فيه إذا فتح يكون على وجهين. فأمّا الذي يقع «4» فالواو منه

ساقطة مثل وزن يزن. والذي لا يقع «5» تثبت «6» واوه فى يفعل. والمصادر تستوى

فى الواقع وغير الواقع. فلم يجعلوا فى مصدريهما فرقا «7»، إنما تكون الفروق فى فعل

يفعل.

وما كان من الهمز فإنه مفتوح فى الوجهين. وكأنهم بنوه على يفعل لأن ما لامه همزة يأتى

بفتح العين من فعل ومن فعل. فإن قلت: فلو «8» كسروه إرادة الاسم كما كسروا مجمعا

«9». قلت:

---

(1) ا: «منه».

(2) الآية 48 سورة الكهف.

(3) سقط فى ا. ويريد الاسم والمصدر.

(4) يريد الكوفيون بالفعل الواقع المتعدى، وبالذي لا يقع اللازم.

(5) يريد الكوفيون بالفعل الواقع المتعدى، وبالذي لا يقع اللازم.

(6) مثل وجل يوجل.

(7) كأنه يريد أنه لو أريد الفرق لكان المصدر من وزن الموزن بكسر العين ، ومن وجل الموجل بفتحها . «وقد يقال : هلا استويا فى فتح العين ، كما هو الأصل فى المصدر .

(8) جواب لو محذوف أي فماذا يكون مثلا .

(9) ش ، ب : «مجمع» على حكاية الرفع .

(99/466)

لم يأت . وكأنهم أنزلوا المهموز . بمنزلة الياء والواو لأن الهمز قد يترك فتلحقهما «1» .

وما كان مفعل مشتقّا من أفعلت فلك فيه ضمّ الميم من اسمه ومصدره . ولك أن تخرجه على أوّليته قبل أن تزاد عليه «2» الألف . فتقول : أخرجته مخرجا ومخرجا ، وأنزلته منزلا ومنزلا .

وقرئ (أَنْزِلْنِي «3» مُنْزَلًا «4» مُبارَكاً) (وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) و(مُنْزَلًا «5») .

وما كان ممّا يعمل به من الآلة مثل «6» المروحة والمطرقة وأشباه ذلك مما تكون فيه الهاء «7» أو لا تكون فهو مكسور الميم منصوب العين مثل المدرع والملحف والمطرق وأشباه ذلك . إلا أنهم . قالوا : المطهرة والمطهرة ، والمرقاة والمرقاة والمسقاة والمسقاة . فمن كسرها شبّهها بالآلة التي يعمل بها . ومن فتح قال : هذا موضع يفعل فيه فجعله مخالفا ففتح

«8» الميم ألا ترى أن المروحة وأشباهها آلة يعمل بها ، وأن المطهرة والمرقاة فى موضعهما لا تزولان يعمل «9» فيهما .

وما كان مصدرا مؤنّثا فإنّ العرب قد ترفع عينه مثل المقدرة وأشباهه «10» . ولا يفعلون ذلك فى مذكّر ليست فيه الهاء لأن الهاء إذا أدخلت «11» سقط عنها بناء فعل يفعل فصارت اسما مختلفا ، ومفعل يبنى على يفعل ، فاجتنوا الرّفعة فى مفعل ، لأن خلقة يفعل التي يلزمها الضمّ كرم يكرم فكرهوا «12» أن يلزموا العين من 106 ب مفعل ضمّة فيظنّ الجاهل أن فى مفعل فرقا يلزم كما يلزم فعل يفعل الفروق ، ففتحت إرادة أن تخلط بمصادر الواقع . فأمّا قول الشاعر :

---

(1) أي تدركهما فى الحكم ، وهو فتح العين فى المفعل .

(2) ا : «عليها» أي على أوليته . [. . . . .]

(3) الآية 29 سورة المؤمنين .

(4 ، 5) قراءة فتح الميم لأبى بكر ، وقراءة الضم للباقين .

(6) ا : «نحو» .

(7) ا : «و» .

(8) ا : «بفتح» .

(9) ا : «بفعل» .

(10) ا: «أشباهها».

(11) ا: «دخلت».

(12) ا: «فتركوا».

(100/466)

ليوم روع أو فعال مكرم «1»

فإنه جمع مكرمة ومكرم. ومثله قول الآخر «2»:

بثين الزمى لا إنّه إن لزمته على كثرة الواشين أىّ معون

أراد جمع معونة. وكان الكسائي يقول: هما مفعل نادران «3» لا يقاس عليهما وقد ذهب مذهبا. إلّا أنى أجد الوجه الأول أجمل للعربية ممّا قال. وقد تقلب فيه الياء إلى الواو فيقال:

وكنت إذا جارى دعا لمضوفة أشمّر حتى ينصف الساق مئزرى «4»

جعلها مفعلة وهى من الياء فقلبها إلى الواو لضمّة ما قبلها، كما قالوا: قد سور به.

وقد قالت العرب فى أحرف فضمّوا الميم والعين، وكسروا الميم والعين جميعا. فممّا ضمّوا عينه وميمه قولهم: مكحلة ومسعط ومدهن ومدقّ. ومما «5» كسروا ميمه وعينه

منخر ومنتن .

ومما زادوا عليه ياء للكسر ، وواوا للضم مسكين ومنديل ومنطيق . والواو نحو مغفور ومغثور وهو الذي يسقط على الثمام ويقال «6» للمنخر : منخور وهم «7» طيّىء .

والذين ضمّوا أوله وعينه شبّهوا الميم بما هو من الأصل ، كأنه فعلول . وكذلك الذين كسروا الميم والعين شبّهوه بفعليل وفعلل .

---

(1) هو لأبى الأخزر الحماني : وقبله :

مروان مروان أخو اليوم اليمى

وانظر شرح شواهد الشافية للبغدادى 68

(2) هو جميل . وانظر المرجع السابق 68

(3) ا : «نادرتان» .

(4) هو لأبى جندب الهذلي . والمضوفة : الأمر يشفق منه ويخاف ، وانظر ديوان الهذليين 92/3

(5) ا : «ما» . [. . . . .]

(6) ا : «تقول» .

(7) يريد أصحاب هذه اللغة .

وما كان من ميم زائدة أدخلتها على فعل رباعى قد زيد على ثلاثيّه شيء من الزيادات فالميم منه فى الفاعل والمفعول به والمصدر مضمومة. من ذلك قولك رجل مستضرب (ومستضرب «1») ومسطعم ومستطعم.

يكون المستطعم - بالفتح - مصدرا ورجلا وكذلك المضارب هو الفاعل والمضارب - بالفتح - مصدر ورجل. وكلّ الزيادات على هذا لا ينكسر، ولا يختلف فيه فى لغات ولا غيرها إلا أن من العرب - وهم قليل - من يقول فى المتكبّر: متكبّر كأنهم بنوه عل يتكبّر. وهو من لغة الأنصار.

وليس مما يبنى عليه. قال الفراء: وحدّثت أن بعض العرب يكسر الميم فى هذا النوع إذا أدغم فيقول هم المطّوّعة والمسّمع المستمع. وهم من الأنصار. وهى من المرفوض. وقالت العرب: موهب فجعلوه اسما موضوعا على غير بناء، وموكل «2» اسما موضوعا. ومنه موحد لأنهم لم يريدوا مصدر وحد، إنما جعل اسما فى معنى واحد مثل مثنى وثلاث ورباع. وأما قولهم: مزيد ومزود فهما أيضا اسمان مختلفان على غير بناء الفعل ولك فى الاختلاف أن تفتح ما سبيله الكسر إذا أشبه بعض المثل، وتضمّ المفتوح أو تكسره إذا

وجّهته «3» إلى مثال من أسمائهم كما قيل معفور للذى يسقط على الثمام وميمه زائدة فشبه «4» بفعلول، وكما قالت العرب (فى المصير وهو «5» من صرت مصران للجميع) ومسيل الماء وهو مفعل: مسلان للجميع فشبّهوا مفعلا بفعيل ألا ترى أنهم قالوا سؤته مسائية وإنما هى مساءة على مفعلة فزيدت عليها الياء من آخرها كما تزاد على فعالة نحو كراهة وكراهية وطبانة «6» وطبانية.

وقوله: وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ [60] يريد: لا أزال حتى أبلغ، لم يرد: لا أبرح مكانى. وقوله (فَلَنْ أَبْرَحَ «7» الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي) غير معنى أزال، هذه إقامة. وقوله (لَنْ نَبْرَحَ «8» عَلَيْهِ عاكِفِينَ)

---

(1) سقط فى ا.

(2) هو اسم حصن أو جبل.

(3) ا: «واجهته».

(4) ا: «فيشبه».

(5) فى ش: «مصير وهو من صرت فجمعوه مصران».

(6) الطبانة والطبانية «الفطنة» وفى هامش ا: «رجل طبن أي فطين».

(7) الآية 80 سورة يوسف.

(8) الآية 91 سورة طه.

: لن نزال عليه عاكفين. ومثلها ما فتئت وما فتأت - لغة - ولا أفتأ أذكرك.

وقوله (تَاللَّهِ «1» تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ) معناه: لا تزال تذكر يوسف. ولا يكون تزال وأفتأ وأبرح إذا كانت فى معناهما إلّا بجحد ظاهر أو مضمر. فأما الظاهر فقد تراه فى القرآن (وَلا يَزالُونَ «2» مُخْتَلِفِينَ) (وَلا يَزالُ «3» الَّذِينَ كَفَرُوا) (فَما زالَتْ تِلْكَ «4» دَعْواهُمْ) وكذلك (لا أَبْرَحُ) والمضمر فيه الجحد قول اللّه (تَفْتَؤُا) ومعناه: لا تفتأ. لا تزال تذكر يوسف: ومثله قول الشاعر:

فلا وأبى دهماء زالت عزيزة على قومها ما فتّل الزّند قادح»

وكذلك قول امرئ القيس:

فقلت يمين اللّه أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

قوله: (أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً) الحقب فى لغة قيس: سنة. وجاء التفسير أنه ثمانون سنة. وأمّا قوله:

مجمع البحرين فبحر فارس والروم. وإنما سمّى فتى موسى لأنه كان لازما له يأخذ عنه العلم. وهو يوشع بن نون.

وقوله : ﴿نَسِيا حُوتَهُما﴾ [61] وإنما نسيه يوشع فأضافه إليهما ، كما قال ﴿يَخْرُجُ«6» مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ﴾ وإنما يخرج من الملح دون العذب . وقوله ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾ كان مالحا فلمّا حيى بالماء «7» الذي أصابه من العين فوقع فى البحر جمد طريقه فى البحر فكان كالسرب .

وقول : واتّخذ سبيله .

يقول : اتخذ موسى سبيل الحوت ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَباً﴾ .

---

(1) الآية 85 سورة يوسف .

(2) الآية 118 سورة هود .

(3) الآية 31 سورة الرعد ، والآية 55 سورة الحج .

(4) الآية 15 سورة الأنبياء . [. . . . . .]

(5) آخر هذا البيت فى ا عن بيت امرئ القيس . وسبق البيتان فى سورة يوسف .

(6) الآية 220 سورة الرحمن .

(7) ش : «فى الماء» .

ثم قال حين أخبره بقصّة الحوت : ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ [64] أي هذا الذي كنّا نبغى .

وقوله حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً [70] يقول : حتّى أكون أنا الذي أسألك .

وقوله : ليغرق أهلها [71] قرأها يحيى «1» بن وثّاب والحسن بالرفع والياء وقرأها سائر الناس (لِتُغْرِقَ أَهْلَها) .

وقوله : لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ [73] حدّثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدثنى يحيى بن المهلّب - وكان من أفاضل أهل الكوفة - عن رجل عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب الأنصارىّ قال : لم ينس ولكنها من معاريض الكلام .

وقوله (وَلا تُرْهِقْنِي) يقول : لا تعجلنى .

وقوله : أَقَتَلْتَ نَفْساً (زَكِيَّةً) [74] مرّ بغلام لم تجن جناية رآها موسى فقتله . وقوله (زَكِيَّةً) قرأها عاصم ويحيى بن وثاب والحسن (زَكِيَّةً) وقرأها أهل الحجاز وأبو الرحمن السّلمىّ (زاكية) بألف «2» . وهى مثل قوله (وَجَعَلْنا «3» قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً) (وقسيّة) «4» .

وقوله : فَلا تُصاحِبْنِي [76] و(فلا تصحبنى «5») نفسك ولا تصحبنى أنت كل ذلك صواب والله محمود .

وقوله : فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما [77] (سألوهم القرى : الإضافة فلم يفعلوا . فلو قرئت «6» (أَنْ يُضَيِّفُوهُما) كان صوابا . ويقال القرية أنطاكية) [وقوله] (يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ) يقال : كيف

يريد

---

(1) هى قراءة حمزة والكسائي وخلف وافقهم الأعمش.

(2) ا: «بالألف».

(3) الآية 13 سورة المائدة. والقراءة الأخيرة لحمزة والكسائي وافقهما الأعمش.

والأولى للباقين.

(4) هذه القراءة تروى عن روح عن يعقوب.

(5) جاء نظم الكلام فى ا هكذا: «وقال: القرية انطاكية. القرى: الإضافة. سألوهم

الإضافة فلم يفعلوا.

فلو قرئت يضيفوهما كان صوابا».

(6) وردت هذه القراءة عن ابن محيصن والمطوعى.

الجدار أن ينقضّ؟ وذلك «1» من كلام العرب أن يقولوا: الجدار يريد أن يسقط. ومثله

قول الله (وَلَمَّا سَكَتَ «2» عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) والغضب لا يسكت (إنما يسكت «3»

صاحبه) وإنما معناه:

سكن ، وقوله : (فَإِذا «4» عَزَمَ الْأَمْرُ) [و] إنما يعزم الأمر أهله وقد قال الشاعر :

إن دهرا يلفّ شملى بجمل لزمان يهمّ بالإحسان «5»

107 ب وقال الآخر :

شكا إلى جملى طول السّرى صبرا جميلا فكلانا مبتلى «6» .

والجمل لم يشك ، إنما تكلّم به على أنه لو نطق لقال ذلك . وكذلك قول عنترة .

فازورّ من وقع القنا بلبانه وشكا إلىّ بعبرة وتحمحم «7»

وقد ذكرت (ينقاض) للجدار والانقياض : الشقّ فى طول الجدار «8» وفى طىّ البئر وفى سنّ الرّجل يقال : انقاضت سنّه إذا انشقّت طولا . فقال موسى لو شئت [لم تقمه حتّى يقرونا فهو الأجر . وقرأ «9» مجاهد] (لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً) وأنشدنى القنانىّ .

تخذها سرّية تقعّده «10»

وأصلها اتّخذ : افتعل .

وقوله : هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ [78] .

[ولو نصبت الثانية كان صوابا ، يتوهم أنه كان (فراق ما بينى «11» وبينك)] .

---

(1) هذا جواب السؤال .

(2) الآية 154 سورة الأعراف .

(3) سقط ما بين القوسين فى ا .

(4) الآية 21 سورة محمد .

(5) يعزى إلى حسان . [. . . . .]

(6) سبق هذا البيت فى سورة يوسف .

(7) هذا البيت من معلقته . وهو فى الحديث عن فرسه فى حومة الحرب . والازورار :

الميل . والقنا : الرماح.

واللبان : الصدر ، والتحمحم : صوت مقطع ليس بالصهيل .

(8) ا : «الحائط» .

(9) هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو ويعقوب وافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن :

(10) تقعده : تخدمه . والسرية : الأمة تتخذ للفراش ويعد لها بيت .

(11) ا : «بينى وبينك فراق بغير نون» .

(105/466)

وقوله : وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ [79] يقول : أمامهم ملك . وهو كقوله (مِنْ «1» وَرائِهِ جَهَنَّمُ)

أي أنها بين يديه . ولا يجوز أن تقول لرجل وراءك : هو بين يديك ، ولا لرجل هو بين يديك :

هو وراءك ، إنما يجوز ذلك فى المواقيت من الأيام والليالى والدهر أن تقول : وراءك برد شديد : وبين يديك برد شديد لأنك أنت وراءه فجاز لأنه شىء يأتى ، فكأنه إذا لحقك صار من ورائك ، وكأنك إذا بلغته صار بين يديك . فلذلك جاز الوجهان .

وقوله : فَخَشِينا [80] : فعلمنا . وهى فى قراءة أبىّ (فخاف ربّك أن يرهقهما) على معنى : علم ربّك . وهو مثل قوله (إِلَّا أَنْ «2» يَخافا) قال : إلا أن يعلما ويظنّا . والخوف والظنّ يذهب بهما مذهب العلم .

وقوله : خَيْراً مِنْهُ زَكاةً [81] صلاحا «3» (وَأَقْرَبَ رُحْماً) يقول : أقرب أن يرحما به . وهو مصدر رحمت .

وقوله : كَنْزٌ لَهُما [82] يقال : علم .

وقوله (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) نصب : فعل ذلك رحمة منه . وكلّ فعل رأيته مفسّرا للخبر الذي قبله فهو منصوب . وتعرفه بأن ترى هو وهى تصلحان قبل المصدر ، فإذا ألقيتا اتّصل المصدر بالكلام الذي قبله فنصب ، كقوله (فَضْلًا «4» مِنْ رَبِّكَ) وكقوله (إِنَّكَ لَمِنَ «5» الْمُرْسَلِينَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) معناه : إنك من المرسلين وهو تنزيل العزيز (وهذا «6» تنزيل العزيز الرحيم) وكذلك قوله (فِيها «7» يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِنْ عِنْدِنا) معناه : الفرق فيها أمر من عندنا .

فإذا ألقيت ما يرفع المصدر اتّصل بما قبله فنصب .

---

(1) الآية 16 سورة إبراهيم.

(2) الآية 229 سورة البقرة.

(3) سقط فى ا.

(4) الآية 57 سورة الدخان.

(5) الآيات 3 - 5 سورة يس.

(6) سقط ما بين القوسين فى ا.

(7) الآيتان 4، 5 سورة الدخان.

(106/466)

وقوله: فَأَتْبَعَ سَبَباً [85] قرئت (فأتبع «1») و(اتّبع «2») وأتبع أحسن من اتّبع، لأن اتّبعت الرجل إذا كان يسير وأنت تسير وراءه. وإذا قلت أتبعته بقطع الألف فكأنك قفوته.

وقوله: حَمِئَةٍ [86] حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدثنى حبّان عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس (حمئة) قال: تغرب فى عين سوداء.

وكذلك قرأها ابن عباس حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال

حدثنى سفيان ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أنه قرأ (حمِئة) حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدثنى محمد بن عبد العزيز عن مغيرة عن مجاهد أن ابن الزبير قرأ (حامية) وذكر بعض المشيخة عن خصيف عن أبى عبيدة (أن ابن «3» مسعود قرأ) (حامية).

وقوله (إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً) موضع «4» أن كلتيهما نصب. ولو رفعت كان صوابا أي فإنما هو هذا أو هذا. وأنشدنى بعض العرب:

فسيرا فإمّا حاجة تقضيانها وإما مقيل صالح وصديق

108 ا ولو كان قوله (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ «5» وَإِمَّا فِداءً) رفعا كان «6» صوابا والعرب تستأنف بإمّا وإمّا.

أنشدنى بعض بنى عكل:

ومن لا يزل يستودع الناس ماله تربه على بعض الخطوب الودائع

ترى الناس إمّا جاعلوه وقاية لمالهم أو تاركوه فضائع

---

(1) القراءة بقطع الهمزة لابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف، وافقهم الأعمش. والقراءة بوصل الهمزة للباقين. [.....]

(2) وهى قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو وحفص ويعقوب. وافقهم اليزيدي. والباقون عندهم (حامية).

(3) ا : «عن ابن مسعود» .

(4) ا : «فموضع» .

(5) الآية 4 سورة محمد .

(6) ا : «لكان» .

(107/466)

وقاية ووقاءهم . والنصب على افعل بنا هذا أو هذا ، والرفع على هو «1» هذا أو هذا .

وقوله : فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى [88] أي فله جزاء الحسنى نصبت الجزاء على التفسير وهذا مما فسّرت لك . وقوله (جَزاءً الْحُسْنى) مضاف «2» . وقد تكون الحسنى حسناته فهو جزاؤها . وتكون الحسنى الجنة ، تضيف الجزاء إليها ، وهى هو ، كما قال (حَقُّ «3» الْيَقِينِ) و(دِينُ «4» الْقَيِّمَةِ) (وَلَدارُ «5» الْآخِرَةِ خَيْرٌ) ولو جعلت (الْحُسْنى) رفعا وقد رفعت الجزاء ونوّنت فيه كان وجها . ولم يقرأ به «6» أحد . فتكون كقراءة مسروق (إنّا زيّنا السّماء «7» الدّنيا بزينة الكواكب) فخفض الكواكب ترجمة عن «8» الزينة .

وقوله : لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً [90] يقول : لا جبل ولا ستر ولا شجر هم عراة .

وقوله : يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ [94] همزهما عاصم ولم يهمزهما غيره [وقوله : (فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً)] الخراج «9» الاسم الأوّل. والخرج كالمصدر كأنه الجعل.

وقوله : ما مَكَّنِّي [95] أدغمت نونه فى النون التي بعدها. وقد ذكر عن مجاهد (ذكره أبو طلحة «10» الناقط ما يحضرنى عن غيره) قال : (ما مكّننى) بنونين ظاهرتين وهو الأصل.

وقوله : حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ [96].

---

(1) سقط فى ا.

(2) القراءة الأولى لحفص وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب، وافقهم الأعمش. وقراءة الإضافة هذه للباقين.

(3) الآية 95 سورة الواقعة.

(4) الآية 5 سورة البينة.

(5) الآية 109 سورة يوسف.

(6) ش «فيه».

(7) الآية 6 سورة الصافات. وهذه القراءة بتنوين (زينة) قراءة حمزة وحفص، وافقهما الحسن والأعمش.

(8) ش : «على».

(9) قراءة الخراج بالألف لحمزة والكسائي وخلف وافقهم الحسن والأعمش. وقراءة الخرج للباقين. [. . . . . .]

(10) سقط ما بين القوسين فى ا.

(108/466)

و(الصَّدَفَيْنِ) «1» و(الصّدفين «2») ساوى وسوّى بينهما واحد.

[قوله: آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ]: قرأ حمزة والأعمش (قال أتوني) (مقصورة) فنصبا «3» القطر بها وجعلاها «4» (من «5» جيئونى) و(آتوني) أعطونى. إذا طوّلت الألف كان جيّدا (آتِنا غَداءَنا «6») : آتوني قطرا أفرغ عليه. وإذا لم تطوّل الألف أدخلت الياء فى المنصوب فقلت «7» ائتنا بغدائنا. وقول حمزة والأعمش صواب جائز من وجهين. يكون مثل قولك: أخذت الخطام وأخذت بالخطام. ويكون على ترك الهمزة الأولى فى (آتُونِي) فإذا أسقطت الأولى همزت الثانية.

وقوله: جَعَلَهُ دَكَّاءَ [98] حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدثنى قيس بن الربيع عن سعيد بن مسروق عن الشّعبىّ عن الربيع بن خيثم الثورىّ أن رجلا قرأ عليه (دكا «8») فقال (دكّاء) «9» فخمها. قال الفراء: يعنى: أطلها.

وقوله : وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ [100] : أبرزناها حتى نظر إليها الكفار وأعرضت هى : استبانت وظهرت .

وقوله : لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً [101] كقولك : لا يستطيعون سمع الهدى فيهتدوا .

وقوله : أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا [102] قراءة أصحاب عبد اللّه ومجاهد (أ فحسب)

حدّثنا أبو العباس قال حدّثنا محمد قال حدثنا الفراء قال : حدثنى محمد بن المفضّل «10» الخراسانى عن الصلت

---

(1) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بضم الصاد والدال ، وافقهم اليزيدي وابن محيصن والحسن . وقرأ أبو بكر بضم الصاد وإسكان الدال ، وقرأ الباقون بفتح الصاد والدال .

(2) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بضم الصاد والدال ، وافقهم اليزيدي وابن محيصن والحسن . وقرأ أبو بكر بضم الصاد وإسكان الدال ، وقرأ الباقون بفتح الصاد والدال .

(3) ا : «فنصب» «وجعلها» .

(4) ا : «فنصب» «وجعلها» .

(5) أي بمعنى جيئونى .

(6) الآية 62 سورة الكهف .

(7) ا : «قلت» .

(8) هذه قراءة غير عاصم وحمزة والكسائي وخلف .

(9) هذه قراءة غير عاصم وحمزة والكسائي وخلف .

(10) ش ، ب : «الفضل» .

(109/466)

بن بهرام عن رجل قد سمّاه عن علىّ أنه قرأ (أفحسب الذين كفروا) فإذا قلت (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا) . فأن رفع وإذا قلت (أَفَحَسِبَ) كانت أن نصبا .

قوله : عَنْهَا حِوَلًا [108] : تحوّلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 161.133 ﴾

(110/466)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الكهف

(الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا [1] قيماً) [2] أي: أنزل الكتاب قيماً على الكتب كلها. وقيل: مستقيماً، إليه يرجع، ومنه يؤخذ. (ولم يجعل له عوجا) أي: عدولاً عن الحق والاستقامة. (كبرت كلمة) [5] أي: كبرت الكلمة كلمة، نصب على القطع. (باخع نفسك) [6] قاتلها.

(صعيداً) [8] أرضاً مستوية. (جرزا) يابسة لا نبات فيها. أو كأنه حصد نباتها، من الجزر وهو القطع. (والرقيم) [9] اسم الجبل الذي كان فيه الكهف. وقيل: إنه واد عند الكهف، ورقمة الوادي: موضع الماء. (فضربنا على ءاذانهم) [11]

[كقولك]: ضربت على يده: إذا منعته التصرف. قال الأسود بن يعفر: 713- ومن العجائب لا أبا لك أنني ضربت على الأرض بالأسداد 714- لا أهتدي [فيها لموضع] تلعة بين بين العذيب وبين أرض مراد. (أي الحزبين أحصى) [12] الفتية أم أهل زمانهم.

(مرفقاً) [16] معاشاً في سعة.

وقيل: مخلصاً. ويجوز أن يكون اسماً وآلة لما يرتفق به، والاسم كمرفق اليد، وكالدرهم، والمسحل للحمار الوحشي، والآلة: كالمقطع والمثقب. (تزاور) [17] تميل وتنحرف. (تقرضهم) [تحاذيهم]. وقيل: تقطعهم.

(فجوة) متسع، وإنما كان هذا لئلا يفسدهم ضيق المكان بعفنه، ولا يؤذيهم عين الشمس بحرها. الوصيد: فناء الباب. وقيل: عتبة الباب، أو الباب نفسه، ومنه أوصدت

الباب: إذا أطبقته. (وكذلك أعثرنا عليهم) [21] أي [كما] أطلعناهم على أمرهم وحالهم/في مدة نومهم، أطلعناهم على

(111/466)

أمر القيامة، [فنومهم] الطويل شبيه بالموت، و[البعث] بعده [شبيه بالبعث]. وإنما دخل الواو في الثامن، لأنه ابتداء العطف بها، لأن الكلام كأنه [تم] بالسبعة، لأن السبعة عدد كامل -كما سبق ذكره-، وبعض الناس يقول: إن هذه واو الثمانية لا يذكر إلا بها. (ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً) [25] لتفاوت ما بين السنين المذكورة على التقريب من مدة قطع الشمس البروج [الإثنى] عشر في كل ثلاث مائة وخمسة وستين يوماً، ومن قطع القمر إياها في كل ثلاث مائة وأربعة وخمسين يوماً وكسراً.

وتنوين "ثلاث مائة" على أن يكون سنين بدلاً، أو عطف بيان، أو تمييزاً، لأن "ثلاث مائة" تتناول الشهور والأيام. ومن لم ينون للإضافة، اعتمد على الثلاث دون المائة، لأنه لا يقال: مائة سنين، بل مائة سنة، وإنما يقال: ثلاث سنين بالجمع فيما دون العشر. (ملتحداً) [27] معدلاً، عن الأخفش، ومهرباً عن قطرب.

(ولا تطع من أغفلنا قلبه) [28] وجدناه غافلاً، قال: 715- [فأصممت] عمراً

وأعميته عن الجود والمجد يوم الفخار . [وقال]: 716- لقد أخبرت لقحة آل عمر[و]

وأخبر دونها الفرس الخبير. أي وجدتها خبراً ، والخبر: الغزيرة. وفسر خالد بن كلثوم:

717- فما [أفجرت] حتى أهب بسدفة غلاجيم [عين] ابني صباح [تثيرها] على رؤية

الفجر ومصادفته. وقال أبو الفتح بن جني في الخصائص: "لو كان [أغفلنا] بمعنى صددنا ،

ولم يكن بمعنى صادفنا ، لكان العطف بالفاء دون الواو ، أي: كان "فاتبع هواه"/حتى

يكون الأول على للثاني ، والثاني مطاوعاً ، كقولك: سألته فبذل ، وجذبته فانجذب" .

(فرطاً) [28] ضياعاً ، والتفريط في حق الله: تضييعه. وقيل: قدماً في الشر ، فرس

فرط: يقدم الخيل. وقيل: سرفاً وإفراطاً .

(112/466)

(أحاط بهم سرادقها) [29] [روى] [يعلى بن] أمية ، عن النبي عليه السلام "أن سرادقها

هي البحر المحيط بالدنيا" . وقال قتادة: سرادقها دخانها ولهبها . المهل: دردي الزيت ،

عن ابن عباس ، والصديد ، عن مجاهد . وكل جوهر معدني إذا أذيب أزبد [وانماع] ، عن

ابن مسعود .

الأساور: جمع إسوار ، وأسورة. والأرائك: الأسرة. وقيل: الأكلة. (كلتا الجنتين ئاتت

أكلها) [33] كلتا وإن كانت في المعنى جمعاً ، فلفظها واحد ، [فلذلك] لم يقل آتتا ، قال الأعشى: 718- وما ذنبنا أن جاش بحر ابن عمركم وبحرك ساج لا يواري الدعامصا 719- كلا أبويكم كان فرعاً دعامة ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصا .

([و]لم تظلم) [33] لم [تنقص] . (وكان له ثمر) [34] أموال مثمرة نامية . (حسباناً) [40] ناراً ، وقيل: برداً . وقيل: عذاباً بحساب ، لأن عذاب الله يكون بحساب [الذنب] ، وقيل: إن أصل الحساب ، سهام ترمى في مرمى واحد .

(صعيداً زلقاً) أرضاً ملساء ، لا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قدم . (أو يصبح ماؤها غوراً) [41] أي: ويصبح غائراً ، أقيم المصدر مقام الوصف . قال الراجز: 720- شتان هذا والغناء والنوم والمشرب البارد والظل الدوم . (يقلب كفيه) [42] يضرب إحداهما على الأخرى تحسراً . (لكنا) [38] أصله "لكن أنا"/بإشباع ألف "أنا" ، فألقيت حركة الهمزة من "أنا" على النون الساكنة في "لكن" ، كما قالوا في الأحمر: الحمر ، فصار "لكننا" بنونين ، فأدمغت إحداهما في الأخرى ، فصار "لكنا" ، كقوله: (مالك لا تأمنا) .

وفي (أنا) بعد [لكن] ضمير الشأن والحديث ، أي: لكن أنا ، الشأن والحديث (الله ربي) . قال: 721- [وترميني] بالطرف أي: أنت مذنب [وتقلينني] لكن إياك لا أقلي . (هنالك الولاية) [44] بالفتح ، مصدر الولي: أي: يتولون الله يومئذ ويتبرؤون مما سواه . وبالكسر:

مصدر الوالي، أي: الله [يلي جزاءهم] يومئذ. وقيل: عما سواء، [كالجداية] والجداية في الأسماء، والوصاية في المصادر.

(113/466)

(لله الحق) [44] كسر الحق على الصفة لله، أي: الله على الحقيقة، ورفعه على النعت للولاية. (وخير عقبا) أي: الله خير لهم في العاقبة. (كماء أنزلناه) [45] تمثيل الدنيا بالماء، من حيث إن أمورها في السيلان، ومن حيث إن قليلها كاف، وكثيرها إتلاف، ومن حيث اختلاف أحوال بنيها، كاختلاف ما ينبت بالماء من النبات. (فأصبح هشيماً) [45] الهشيم: النبت إذا جف وتكسر، فذرته الرياح، ويشبه به فانية المتاع، وضعفة الناس، قال ابن ميادة: 722- أمرتك يا رياح بأمر حزم فقلت هشيمة من أهل نجد.

723- نهيتك عن رجال من قريش على محبو[كة] [الأصلاب] جرد. (تذروه الرياح) [45] يقال: ذرته الريح، وذرته، [وأذرته] إذا نسفته فطارت به. (وخير أملاً) [46] لأنه لا يكذب، بخلاف سائر الآمال. (وترى الأرض بارزة) [47] لا يسترها جبل. وقيل: قد برز ما في بطنها من الأموات والكنوز.

(لقد/جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) [48] أي: أحياء. (موبقاً) [52] [محبساً]،

وقيل: مهلكاً . (قبلاً) [55] مفاجأة . وقيل: أنواعاً من العذاب ، كأنه جمع قبيل .

وقيل: مقابلة وهو معنى "قبلاً" . (ليدحضوا به الحق) [56] ليبطلوه ويزيلوه . والدحض: المزل المزلق ، قال: 724- وأستنقذ المولى من الأمر بعدما يزل كما زل البعير عن الدحض . (موئلاً) [58] منجاً .

وقيل: ملجأ ، كما قال حسان: 725- أقمنا على الرس النزوع لياليا بأرعن جرار عظيم المبارك 726- [نسير] فلا تنجو اليعافير وسطنا وإن وألت منا بشد [مواشك] .

(لمهلكهم) [59] أي: لإهلاكهم فهو على هذا مصدر ، كقوله تعالى: (مدخل صدق

قال: 727- ألم تعلم مسرحي القوافي فلا عياً بهن ولا اجتلابا

(114/466)

أي: تسريحي . ويجوز أن يكون "مهلكهم" اسماً لزمان الهلاك ، أي: جعلنا لقوت إهلاكهم موعداً . ولكن المصدر أولى وأفصح [لتقدم] (أهلكناهم) ، والفعل يقتضي المصدر وجوداً وحصولاً ، وهو المفعول المطلق ، ويقتضي الزمان والمكان محلاً وظرفاً . وكل فعل زاد على ثلاثة أحرف ، فالمصدر ، واسم الزمان ، والمكان ، [منه] على مثال المفعول به .

وإذا كان المهلك اسماً لزمان الهلاك ، لا يجوز الموعد اسماً للزمان أيضاً ، لأن الزمان وجد

في المهلك، فلا يكون للزمان زمان، بل يكون الموعد بمعنى المصدر، أي: جعلنا لزمان هلاكهم وعداً، وكذلك على العكس: إذا جعل المهلك مصدراً، كان الموعد اسم الزمان. وهذا من المشكل على كثير من الناس، حتى على الأصمعي، فإنه أنشد للعجاج:

728- جاأباً ترى تليله مسحجاً. فقال أبو حاتم: إنما هو بليته. فقال: من أخبرك/بهذا؟، فقال: من سمعه من فلق [في] رؤبة -يعني أبا زيد- قال: هذا لا يكون، فقال: بلى جعل "مسحجاً" مصدراً، كما قال: 729- ألم تعلم مسرحي القوافي . . . .

. . . . فكأنه أراد أن يدفعه، فقال: قال الله عز اسمه: (ومزقناهم كل ممزق)، فسكت.

(وإذ قال موسى لفتاه) [60] وهو ابن أخته يوشع بن نون. (لا أبرح) [60] لا [أ]زال أمشي. (مجمع البحرين) [60] بحر روم، وبحر فارس، يبتدئ أحدهما من المشرق، والآخر من

المغرب، حتى يلتقيا. وقيل: أراد بالبحرين الخضر وإلياس بغزارة علمهما. (حقباً) [60] حيناً طويلاً. يقال: إنه ثمانون سنة،

وقيل: أقل من ذلك. (فلما بلغا مجمع بينهما) [61] أي: أفريقية. (فاتخذ سبيله في البحر) [61] أي: الحوت أحياه الله، فطفر في البحر. (سرباً) مسلكاً. (ذلك ما كنا نبغي) [64] كان أوحي إلى موسى، أنك تلقى الخضر حيث تنسى شيئاً من متاعك.

(فارتدا على ءاثارهما قصصاً) أي: رجعا يقصان الأثر ويتبعانه. (شيئاً إمراً) [71] عجباً. (لا تؤاخذني بما نسيت) [73] أي: تركت. (ولا ترهقني) [73] ولا تعاسرني.

(زاكية) [74] التي لم تذنب، و(زكية) التي غفر لها ذنبها.

وقيل: الزكية: في الدين والعقل، والزاكية: في البدن، أي: تامة نامية، وهو معنى قول ابن عباس: "إن المقتول كان شاباً يقطع الطريق". والبالغ يقال له: الغلام، أيضاً، كما قالت الأخيلية: 729- إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها 730- شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هز [القناة] سقاها. (يريد أن ينقض) [77] يكاد أن ينقض.

وحكى الصولي في معانيه: أن بعض الكتاب أنكر الإرادة للجماد، وتكلم على وجه الطعن، فألقمته الحجر بقول الراعي/: 731- في مهمه فلقت بها هاماتها فلق الفؤوس إذا أردن [نصولا]. (فخشينا) [80] كرهنا.

وقيل: علمنا. وخشي مثل حسب، وظن، من الأفعال التي تقارب أفعال الاستقرار والثبات. (وأقرب رحماً) [81] أكثر براً لوالديه، وأتم نفعاً. (من كل شيء سبباً) [84]

علماً يتسبب به إلى نيله. (فأتبع سبباً) [85] أي: طريقاً من المشرق والمغرب، كقوله: (أسباب السماوات)، أي: طرائقها. (وجدها تغرب في عين حمئة) [86] ذات حمأة. فإن من ركب البحر وجد الشمس تطلع وتغرب منها رؤية لا حقيقة. (جزاء الحسنى) [88] أي: الجنة الحسنى، فحذف الموصوف اكتفاءً بالصفة. وربما نون الجزاء، ثم يكون الحسنى بدلاً منه. (لم نجعل لهم من دونها ستراً) [90] أي: كنا ببناء أو بخمر، وقيل: بل أراد دوام طلوعها عليهم في الصيف، وإلا فالحيوان يحتال للكن، حتى الإنسان.

ولكن وراء بربر من تلقاء بلغار، إذا سلك السالك منهم لحق القطب في البحر -لامتناع المسير في البر- وصل إلى حيث يبطل الليل في الصيف بواحدة، وتدور الشمس ظاهرة فوق الأرض. وقد حكي أن رسولاً من أهل بلغار، ورد على الأمير الماضي -أنار الله برهانه- وكان بلغ الموضع المذكور، فحكاه بين يديه، وكان -رحمه الله- عظيم الصلابة في دين الله، فتسارع إلى شتم الرجل، ونسبته إلى إلحاد على براءة أولئك القوم عنه حتى قال له الشيخ أبو نصر بن مشكان: إن هذا لا

يذكره عن رأي ومذهب، وإنما يحكيه عن رؤية وعيان، والقرآن يشهد له بذلك في قوله: (لم

نجعل لهم من دونها ستراً) فلم يقنعه حتى سأل/أصحاب العلم بالنجوم عنه، فوصفوا له بصور إقناعية. فقال: كيف تعرفون؟ والله يقول: (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض)؟! فقيل: كما نعرف تشريح أبداننا، وقد قال: (ولا خلق أنفسهم) فكف عن الرجل. (خرجاً) [94] خراجاً، [كالنبت والنبات]، والحصد والحصاد، وقيل: الخرج: الفيء، والخراج: الضريبة والجزية.

وقال الفراء: الخراج من الأرض، والخرج: فيما يخرج من سائر الأموال. (زبر الحديد) [96] قطعاً منه. (بين الصدفين) بين الجبلين، كل واحد منهما يصادف صاحبه ويقابله. وقيل: بل كل واحد منهما ينحرف ويتزاور عن صاحبه، فيكون بمعنى الصدوف والصدود. (قطراً) نحاساً مذاباً. (أن يظهروه) [97] أن يعلوه.

(وما استطاعوا له نقباً) [97] من أسفله. (دكاء) [98] هدماً، حتى يندك ويستوي بالأرض. (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) [99] أي: يختلط كما يختلط أمواج البحر بعضها في بعض.

[تمت سورة الكهف]. انتهى انتهى. اهـ ﴿باهر البرهان صـ 848. 880﴾

(117/466)

وقال الأخفش:

سورة (الكهف)

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا * قَيِّماً لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴾

قال ﴿ عِوَجَا ﴾ ﴿ قَيِّماً ﴾ أي: أنزل على عبده الكتاب قَيِّما ولم يجعل له عِوَجا.

﴿ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ﴾

وقال ﴿ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ﴾ حال على ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴾ [2].

﴿ مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً ﴾

وقال ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ لأنها في معنى: أَكْبِرْ بها كَلِمةً. كما قال ﴿ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ وهي في النصب مثل قول الشاعر: [من الكامل وهو الشاهد الرابع والأربعون بعد المئتين]:

وَلَقَدْ عَلِمْتَ إِذْ الرِّيَاحُ تَرَوَّحَت * هَدجَ الرِّئَالِ تَكُبُّهُنَّ شِمَالا

أي: تَكُبُّهُنَّ الرِّيَاحُ شمالا. فَكَأَنَّهُ قال: كَبُرَتْ تِلْكَ الكَلِمَةُ. وقد رفع بعضهم الكلمة لأنها هي التي كبرت.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾

وأَمَّا قوله ﴿ أَسَفاً ﴾ فإِنَّما هو [147] ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ ﴿ أَسَفاً ﴾.

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾

وقال ﴿ سِنِينَ عَدَداً ﴾ أي: نَعُدُّها عددا .

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقاً ﴾

(118/466)

وقال ﴿ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقاً ﴾ أي: شَيْئاً يرتفقون بِهِ مثل: "الِمقْطَع" و ﴿ مَرْفَقاً ﴾ جعله أسما كـ"المَسْجِد" او يكون لغة يقولون: "رَفَقَ" "يَرْفُقُ" . وإِنْ شئت ﴿ مَرْفَقَا ﴾ يريد : "رِفْقاً" ولم تُقرأ .

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذلك مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً ﴾

وقال ﴿ تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ فـ ﴿ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ نصب على الظرف .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾

وقال ﴿ أَيْقَاظاً ﴾ واحدهم "اليَقِظ" ، واما "اليَقْظانُ" فجماعُهُ "اليِقاظ" .

﴿ وكَذَلكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَم لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَاذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴾

وقال ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَى طَعَاماً ﴾ فلم يوصل ﴿ فَلْيَنْظُرْ ﴾ الى ﴿ أَيّ ﴾ لأنه من الفعل الذي يقع بعده حرف الاستهفام تقول: "انْظُرْ أَزَيْدٌ أَكْرَمُ أَمْ عَمْرٌو" .

(119/466)

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِراً وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾

[147 ب] وقال ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ أي: ما يَعْلَمُهُمْ من الناس إلاّ قليلٌ. والقليل يعلمونهم.

﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً ﴾

وقال ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ ﴾ أي: إِلاّ أَنْ تقولَ: "إِنْ شاءَ اللهُ" فَأَجْزَأَ من ذلك هذا ، وكذلك

اذا طال الكلام أَجْزَأ فيه شبيه بالإِيْماءِ لأَنَّ بَعْضَه يدل على بعض.

﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً ﴾

وقال ﴿ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ ﴾ على البدل من ﴿ ثَلاثَ ﴾ ومن "المِئَة" أي: لَبِثُوا ثلاث مِئَةٍ" فان كانت السنون تفسير للمئة فهي جرّ وان كانت تفسيرا للثَّلاثِ فيه نصب.

﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾

وقال ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ أي: ما أَبْصَرَهُ وأَسْمَعَه كما تقول: "أَكْرِمْ بِهِ" أي: ما أَكْرَمَهُ. وذلك ان العرب تقول: "يا أَمَةَ اللهِ أَكْرِمْ بِزَيْدٍ" فهذا معنى ما أَكْرَمَهُ ولو كان يأمرها أن تفعل لقال "أَكْرِمِي زَيْداً".

(120/466)

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾

وقال ﴿ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ أي: العَيْنانِ فلا تَعْدُوانِ.

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾

وقال ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أيْ: قلْ هُوَ الحَقُّ. وقوله ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ أي: وساءت الدار مرتفقا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾

وقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ لأنه لما قال ﴿ لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ كان في معنى: لا نضيعُ أُجُورَهُم لأنهم ممن أَحْسَنَ عملا .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَراً * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾

وقوله ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾ وقال ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ وإِنَّما ذكر الرجُلَيْنِ في المعنى وكان لأَحدِهما ثمر فأجزأ ذلك من هذا .

وقال ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ فجعل الفعل واحد ولم يقل "آتتا" لأنه جعل ذلك لقوله ﴿ كِلْتَا ﴾ في اللفظ. ولو جعله على معنى قوله ﴿ كِلْتَا ﴾ لقال: "آتَتَا".

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لأَدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾

وقال ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ يقول: عَنْ رَدِّ أَمْرِ رَبِّهِ" نحو قول العرب: "أُتْخِمَ عَنِ الطَّعامِ" أي: عَنْ مَأْكَلِهِ أُتْخِمَ، ولما رَدَّ هذا الأمر فسق.

وقال ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ كما تقول: "بِئْسَ فِي الدّارِ رَجُلا".

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾

وقال ﴿ مَّوْبِقاً ﴾ مثل ﴿ مَّوْعِداً ﴾ من "وَبَقَ" "يَبِقُ" وتقول "أَوْبَقْتُهُ حتى وَبَقَ".

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً ﴾

وقال ﴿ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾ لأَنَّ "أَنْ" في موضع اسم "إلاّ" إتيانُ سُنَّةِ الأَوّلِينَ.

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾

وقال ﴿ مَوْئِلا ﴾ من "وَأَلَ" "يَئِلُ" "وَأْلاً" .

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾

(122/466)

وقال ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ يعني: أَهْلَهَا كما قال ﴿ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ ولم يجيء بلفظ "القُرَى" ولكن اجرى اللفظ على القوم وأجرى اللفظ في "القَرْيَة" عليها ، الى قوله ﴿ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ ، وقال ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ ولم يقل "أَهْلَكْنَاهَا" حمله على القوم كما قال "وجاءَتْ تميمُ" وجعل الفعل لـ"بَنِي تَميم" ولم يجعله لـ"تَمِيم" [148] ولو فعل ذلك لقال: "جاءَ تَميم" وهذا لا يحسن في نحو هذا لأنه قد أراد غير تميم في نحو هذا الموضع فجعله اسما ولم يحتمل اذا اعتل ان يحذف ما قبله كله يعني التاء من "جاءَتْ" مع "بني" وترك الفعل على ما كان ليدل على انه قد حذف شيئا قبل "تَمِيم" .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾

وقال ﴿ لا أَبْرَحُ ﴾ أي: لا أَزالُ. قال الشاعر: [من الطويل وهو الشاهد الخامس والأربعون بعد المئتين]:

وَمَا بَرِحُوا حتَّى تَهادَتْ نِساؤُهُمْ * بِبَطْحاءِ ذي قارٍ عِيابَ اللَّطَائِمِ

أَي: ما زالوا .

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً ﴾

وقال ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ ان شئت جعلته من "آتى الغداءَ" أو "أَتيتُه" كما تقول "ذَهَبَ" و"أَذْهَبْتُهُ" وإن شئت من "أَعْطى" وهذا كثير .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً ﴾

وقال ﴿ حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَماً فَقَتَلَهُ ﴾ قال ﴿ فَقَتَلَهُ ﴾ لأَن اللّقاء كان علة للقتل .

﴿ وَأَمَّا الْغُلاَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾

(123/466)

وأما ﴿ فَخَشِينَآ ﴾ فمعناه: كَرِهنا ، لأَنَّ الله لا يَخْشى . وهو في بعض القراءات ﴿ فَخَافَ رَبُّكَ ﴾ وهو مثل "خِفْتُ الرَّجُلَيْنِ أَنْ يَقُولا" وهو لا يخاف من ذلك اكثر من انه يكرهه لهما .

﴿ قَالُواْ يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴾

وقال ﴿ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ فهمز وجعل الألف من الأصل وجعل "يأجوج" من "يَفْعُول" و"مأجوج" [من] "مَفْعُول" والذي لا يهمز يجعل الألفين فيهما زائدتين ويعجلهما من فعل مختلف ويجعل "يَاجُوج" من "يَجَجْتَ" ومَاجُوج من "مَجَجْتُ" .

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴾

وقال ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ فادغم ورفع بقوله ﴿ خَيْرٌ ﴾ لأن ﴿ مَا مَكَّنِّي ﴾ اسم مستأنف .

﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴾

وقال ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا ﴾ لأن لغة للعرب تقول "اِسْطاعَ" "يَسْطِيع" يريدون به "اِسْتَطاع" "يَستطيع" ولكن حذفوا التاء اذا جامعت الطاء [148 ب] لأن مخرجهما واحد وقال بعضهم "اِسْتَاعَ" فحذف الطاء لذلك وقال بعضهم "أَسْطاع" "يُسْطِيع" فجعلها من القطع كأنها "أَطَاعَ" "يُطِيع" فجعل السين عوضا عن اسكان الياء .

﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ﴾

وقال ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أي: هذا الرَّدْمُ رحمة من ربي .

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾

وقال ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي ﴾ فجعلها ﴿ أَنْ ﴾ التي تعمل في الأفعال فاستغنى بها "حَسِبُوا" كما قال ﴿ إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا ﴾ و ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَاذِهِ ﴾ استغنى ها هنا بمفعول واحد لأن معنى ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ ﴾ : ما أظنها أَنْ تبيدَ .

وقال بعضهم ﴿ أَفَحَسْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي ﴾ يقول: "أَفَحَسْبُهُم ذلك" .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾

وقال ﴿ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾ لأنه لما ادخل الألف واللام والنون في ﴿ الأَخْسَرِينَ ﴾ لم يوصل الى الاضافة وكانت "الأعمال" من ﴿ الأَخْسَرِينَ ﴾ فلذلك نُصِبَ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾

وقال ﴿ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾ فـ"النُزُل" من نزول* بعض الناس على بعض . اما "النزَلُ" فـ"الرَّيْعُ" تقول: "ما لِطَعَامِهِم نزَلٌ" و"ما وَجَدْنَا عِنْدَهُمْ نزَلا" .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾

وقال ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ يقول[149] "مِدَاداً يكتب به" ﴿ لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ يقول: "مَدَدٌ لكُم" وقال بعضهم

﴿ مِدَادًا ﴾ تكتب به . ويعني بالمداد أنه مدد للمداد يمد به ليكون معه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 436.427 ﴾

(125/466)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الكهف

مكية كلها

1 – الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً مقدّم ومؤخّر . أراد : انزل الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا .

2 – لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً أي لينذر ببأس شديد ، أي عذاب .

6 – باخِعٌ نَفْسَكَ أي قاتل نفسك ومهلك نفسك . قال ذو الرّمّة :

إلا أيها الباخع الوجد نفسه لشيء نحته عن يديه المقادر

أَسَفاً : حزنا .

الصعيد : المستوي . ويقال : وجه الأرض . ومنه قيل للتراب : صعيد ، لأنه وجه الأرض .

و(الجزر) : التي لا تنبت شيئا . يقال : أرض جزر وأرضون أجراز .

9 - أَمْ حَسِبْتَ أي أحسبت «1» .

---

(1) أخرج ابن جرير من طريق ابن إسحاق عن شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس قال : بعثت قريش النضر بن الحارث وعتبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى أتيا المدينة

والرَّقِيمِ : لوح «1» كتب فيه خبر اصحاب الكهف ، ونصب على باب الكهف والرّقيم : الكتاب . وهو فعيل بمعنى مفعول . ومنه : كِتابٌ مَرْقُومٌ [سورة المطففين آية : 9] أي مكتوب .

11 - فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ أي أنمناهم . ومثله قول أبي ذرّ : قد ضرب اللّه على أصمختهم «2» .

والْأَمَدُ : الغاية .

14 - رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أي ألهمناهم الصبر وثبّتنا قلوبهم .

شَطَطاً أي غلوا . يقال : قد أشطّ عليّ : إذا غلا في القول .

16 - مِرفَقاً : ما يرتفق به .

17 - تَزَاوَرُ : تميل .

تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ تعدل عنهم وتجاوزهم «3» . قال ذو الرّمّة :

فسألوا أحبار اليهود وعن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ووصفوا لهم أمره وبعض قوله ، فقالوا لهم :

سلوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل مقتول ، سلوه عن فتية في الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه كان لهم أمر عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان بنؤه ، وسلوه عن الروح ما هو ؟ فأقبلا حتى قدما على قريش فقالا : قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، فجاؤوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فسألوه ، فقال : أخبركم غدا بما سألتم عنه ولم يستثن ، فانصرفوا وسكت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم خمس عشرة ليلة لا يحدث اللّه في ذلك إليه وحيا ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة وحتى أحزن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبريل من اللّه بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول اللّه ، وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ .

(1) الرقيم الكتاب قاله البخاري. وقال سعيد وابن عباس: الرقيم اللوح من رصاص كتب عاملهم أسماءهم ثم طرحه خزانته فضرب اللّه على آذانهم فناموا.

(2) الصماخ بالكسر: خرق الأذن، وقيل هو الأذن نفسها والسين لغة نية.

(3) قال مجاهد: تقرضهم: تتركهم.

إلى ظعن يقرضن أجواز مشرف شمالا وعن أيمانهن الفوارس

وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ أي متسع وجمعها فجوات وفجاء. ويقال: في مقناة والتفسير الأول أشبه بكلام العرب.

وبِالْوَصِيدِ: الفناء «1». ويقال: عتبة الباب. وهذا اعجب إليّ، لأنهم يقولون: أوصد بابك. أي أغلقه. ومنه إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ [سورة الهمزة آية: 8] أي مطبقة مغلقة.

وأصله أن تلصق الباب بالعتبة إذا أغلقته. ومما يوضح هذا: أنك إن جعلت الكلب بالفناء كان خارجا من الكهف. وإن جعلته بعتبة الباب أمكن ان يكون داخل الكهف. والكهف وإن لم يكن له باب وعتبة - فإنما أراد أن الكلب منه بموضع العتبة من البيت.

فأستعير على ما أعلمتك من مذاهب العرب في كتاب «المشكل».

وقد يكون الوصيد الباب نفسه . فهو على هذا كأنه قال : وكلبهم باسط ذراعيه بالباب .

قال الشاعر «2» :

بأرض فضاء لا يسد وصيدها عليّ ومعروفي بها غير منكر

19 - وَكَذلِكَ بَعَثْناهُمْ أحييناهم من هذه النّومة التي تشبه الموت .

(الورق) الفضة دراهم كانت او غير دراهم . يدلك على ذلك أن عرفجة بن اسعد أصيبت أنفه يوم الكلاب فأتخذ أنفا من ورق فأنتن عليه - أي من فضة - فأمره النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ان يتخذ أنفا من ذهب .

19 - أَيُّها أَزْكى طَعاماً يجوز أن يكون أكثر ، ويجوز أن يكون أجود ، ويجوز أن يكون أرخص . واللّه اعلم . وأصل الزكاء : النّماء والزيادة .

وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً أي لا يعلمن . ومنه يقال : ما أشعر بكذا .

---

(1) الوصيد : الفناء جمعه وصائد ، ويقال : الوصيد : الباب قاله البخاري .

(2) البيت لعبيد بن وهب العبسي ، قاله ابن هشام .

وليت شعري . ومنه قيل : شاعر ، لفطنته .

20 - يَرْجُمُوكُمْ يقتلوكم . وقد تقدم هذا .

21 - أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ أي أظهرنا عليهم وأطلعنا ، ومنه يقال : ما عثرت على فلان بسوء قط .

قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ يعني المطاعين والرؤساء .

22 - رَجْماً بِالْغَيْبِ أي ظنا غير يقين .

25 - وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ ولم يقل : سنة . كأنه قال : ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة . ثم قال : سنين «1» . أي ليست شهورا ولا أياما . ولم يخرج مخرج ثلاثمائة درهم .

وروي ابن فضيل عن الأجلح ، عن الضحاك ، قال : نزلت ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة . فقالوا : أيام أو أشهر أو سنين ؟ فنزلت : سِنِينَ . وَازْدادُوا تِسْعاً .

26 - ثم قال : قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا وقد بيّن لنا قبل هذا كم لبثوا . والمعنى انهم اختلفوا في مدة لبثهم . فقال اللّه عز وجل : ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا . وأنا اعلم بما لبثوا من المختلفين .

أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ أي ما أبصره وأسمعه ! .

27 - مُلْتَحَداً أي معدلا . وهو من ألحدت ولحدت : إذا عدلت .

28 - وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ أي لا تتجاوزهم إلى زينة الحياة الدنيا .

وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً أي ندما . [هذا] قول أبي عبيدة : وقول

---

(1) أخرج ابن مردوية عن ابن عباس قال : أنزلت : وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ فقيل : يا رسول اللّه ، سنين أو شهورا ، فأنزل اللّه : سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً .

[. . . . .]

المفسرين : سرفا . وأصله العجلة والسّبق . يقال : فرط مني قول قبيح : أي سبق . وفرس فرط : أي متقدم .

و(السّرادق) الحجرة التي تكون حول الفسطاط . وهو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة .

وهو الظل ذو الثلاث شعب ، الذي ذكره اللّه في سورة والمرسلات عرفا .

29 - (والمهل) دردي الزيت «1» . ويقال : ما أذيب من النّحاس والرّصاص .

وَساءَتْ مُرْتَفَقاً أي مجلسا . وأصل الارتفاق : الاتكاء على المرفق .

31 - أَساوِرَ جمع : إسوار .

و(السّندس) رقيق الديباج.

و(الإستبرق) ثخينه. ويقول قوم: فارسي معرب، أصله: استبره، وهو الشديد.

و(الأرائك) السّرر في الحجال، واحدها اريكة.

33 - وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا أي لم تنقص منه.

40 - حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ أي مرامي. واحدها: حسبانة.

(الصّعيد) الأملس المستوي.

و(الزّلق) الذي تزل عنه الأقدام.

41 - أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا أي غائرا. فجعل المصدر صفة. كما يقال: رجل نوم ورجل صوم ورجل فطر، ويقال للنساء: نوح: إذا نحن.

---

(1) قاله أبو عمرو والمهل أيضا القيح والصديد، وفي حديث أبي بكر رضي اللّه عنه ادفنوني في ثوبي هذين فإنما هما للمهل والتراب.

---

42 - وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ أي أهلك.

فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ أي نادما. وهذا مما يوصف [به] النادم.

خاوِيَةٌ خربة.

(العروش) السّقوف .

44 – هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ يريد : يومئذ [يتولون اللّه ويؤمنون ويتبرءون مما كانوا يعبدون] .

وَخَيْرٌ عُقْباً أي عاقبة .

و(الهشيم) من النبت المتفتت . وأصله : من هشمت الشيء إذا كسرته ومنه سمي الرجل : هاشما .

45 – تَذْرُوهُ الرِّياحُ أي تنسفه .

مُقْتَدِراً مفتعل من قدرت .

46 – وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ يقال : الصلوات الخمس . ويقال :

سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر .

وَخَيْرٌ أَمَلًا أي خير ما تؤمّلون .

47 – فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً أي لم نخلّف . يقال : غادرت كذا وأغدرته : إذا خلفته .

ومنه سمي الغدير ، لأنه ماء تخلّفه السيول .

50 – فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أي خرج عن طاعته . يقال : فسقت الرّطبة إذا خرجت من قشرها .

52 – وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً أي مهلكا بينهم وبين آلهتهم في جهنم .

ومنه يقال: اوبقته ذنوبه. وقوله: أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا [سورة الشورى آية: 42]. ويقال: موعدا.

---

53 - فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها أي علموا.

وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً أي معدلا.

55 - إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أي سنتنا في إهلاكهم.

أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلًا وقبلا أي مقابلة وعيانا. ومن قرأ بفتح القاف والباء أراد استئنافا.

58 - لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا أي ملجأ. يقال: وأل فلان [إلى كذا وكذا]، إذا [لجأ].

ويقال: لا وألت نفسك، أي لا نجت. وفلان يوائل، أي يسابق لينجو.

60 - حُقُباً أي زمانا ودهرا. ويقال الحقب: ثمانون سنة «1».

61 - فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ أي فاتخذ الحوت طريقه في البحر.

سَرَباً أي مذهبا ومسلكا.

63 - وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سبيلا عَجَباً.

64 - قَصَصاً أي يقتصّان الأثر الذي جاء فيه.

71 - شَيْئاً إِمْراً أي عجبا .

73 - وَلا تُرْهِقْنِي أي لا تغشني عُسْراً .

74 - وشَيْئاً نُكْراً أي منكرا .

77 - يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ أي ينكسر ويسقط .

79 - وكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ أمامهم .

81 - وأَقْرَبَ رُحْماً أي رحمة وعطفا .

---

(1) والحقب وهي السنون والحقب بضمتين الدهر وجمعه أحقاب .

(132/466)

فَأَتْبَعَ سَبَباً أي طريقا .

68 - تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ذات حمأة . ومن قرأ : حامية ، أراد حارة قال الشاعر يذكر ذا القرنين :

فأتي مغيب الشمس عند مآبها في عين ذي خلب وثأط حرمد «1»

والخلب : الطين في بعض اللغات . والثّأط : الحمأة . والحرمد : الأسود .

93 - بَيْنَ السَّدَّيْنِ أي بين الجبلين . ويقال للجبل : سدّ .

96 - زُبَرَ الْحَدِيدِ قطعه . واحدها : زبرة . والزّبر : القطع .

والْقِطْرِ النّحاس .

97 - فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ أي يعلوه . يقال : ظهر فلان السّطح ، أي علاه .

98 - جَعَلَهُ دَكَّاءَ أي ألصقه بالأرض . يقال : ناقة دكاء : إذا لم يكن لها سنام .

102 - إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا والنزل ما يقدم للضيف ولأهل العسكر .

108 - لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا أي تحوّلا .

110 - فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ أي يخاف لقاء ربه . قال الهذلي :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وحالفها في بيت نوب عوامل «2»

أي لم يخف لسعها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن ص 223. 230 ﴾

---

(1) ينسب هذا البيت لتبع اليماني .

(2) ينسب هذا البيت لأبي ذؤيب الهذلي .

وقال الغزنوي:

ومن سورة الكهف

1، 2 أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً: أي: أنزل الكتاب قيّما على الكتب كلّها «1». وقيل «2»: مستقيما، إليه يرجع، ومنه يؤخذ.

وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً: عدولا عن الحق.

5 كَبُرَتْ كَلِمَةً: أي: كبرت الكلمة.

كَلِمَةً: نصب على القطع «3»، ولفظ البصريين نصب على التمييز «4»، أي: كبرت مقالتهم بالولد كلمة.

6 باخِعٌ نَفْسَكَ: قاتل لها «5». بخع الشاة: بالغ في ذبحها، وبخع الأرض: نهكها وتابع حراثها «6».

إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا: كسرت إِنْ لأنّها في معنى الجزاء، ولو فتحت

---

(1) معاني القرآن للفراء: 2/ 133، وتفسير الطبري: 15/ 190، وتفسير الماوردي: 2/ 465.

(2) عن تفسير الماوردي: 2/ 465، وانظر تفسير الطبري: 15/ 190، وتفسير البغوي: 3/ 144.

(3) أي: على الحال، وهو اصطلاح الكوفيين.

البحر المحيط: 6/ 97.

(4) ينظر تفسير الطبري: 15/ 193، ومعاني القرآن للزجاج: 3/ 268، وإعراب القرآن للنحاس: 2/ 447، والبيان لابن الأنباري: 2/ 100، والتبيان للعكبري: 2/ 838، والبحر المحيط: 6/ 97. [.....]

(5) معاني القرآن للفراء: 2/ 134، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 263، وتفسير الطبري:

15/ 194، ومعاني القرآن للزجاج: 3/ 268، والمفردات للراغب: 38.

(6) تهذيب اللغة: 1/ 168، واللسان: 8/ 5 (بخع).

(134/466)

في مثل هذا جاز».

8 صَعِيداً: أرضا مستوية، جُرُزاً: يابسة لا نبات فيها، أو كأنه حصد نباتها، من «الجرز»: القطع «2».

9 وَالرَّقِيمِ: واد عند الكهف «3». ورقمة الوادي: موضع الماء «4».

وقيل «5» الرَّقِيمِ : لوح كتب فيه قصّة أصحاب الكهف .

11 فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ : كقوله : ضربت على يده إذا منعته عن التصرف .

12 أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى : الفتية أم أهل زمانهم «6» ؟ .

أَمَداً : غاية «7» .

---

(1) في معاني القرآن للفراء : «و تفتحها إذا أردت أنها قد مضت مثل قوله في موضع آخر :

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ وإِنْ كُنْتُمْ اه .

(2) تفسير الطبري : (15/ 196 ، 197) ، وتفسير البغوي : 3/ 144 ، والمفردات

للراغب :

91 ، والبحر المحيط : 6/ 92 .

(3) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 394 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 15/

198 عن ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 467 عن الضحاك ، وعزاه ابن عطية في المحرر الوجيز :

9/ 237 إلى ابن عباس ، وقتادة .

(4) تفسير الطبري : 15/ 199 ، والمحرر الوجيز : 9/ 239 ، واللسان : 12/

250 (رقم) .

(5) ذكره الفراء في معاني القرآن : 2/ 134 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 263

، وأخرجه الطبري في تفسيره: 15/ 199 عن سعيد بن جبير، وابن زيد.

ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 467، عن مجاهد.

وأورده البغوي في تفسيره: 3/ 145، وابن عطية في المحرر الوجيز: 9/ 238 عن سعيد بن جبير.

ورجح الطبري هذا القول في تفسيره: 15/ 199، وأورده ابن كثير في تفسيره: 5/ 135، ثم قال: «وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير...».

(6) ذكره الماوردي في تفسيره: 2/ 469 دون عزو.

(7) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 394، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 264، وتفسير الطبري: 15/ 206، ومعاني القرآن للزجاج: 3/ 271.

(135/466)

---

16 مِرفَقاً: معاشا في سعة، ويجوز/ اسما وآلة لما يرتفق به[57/ أ] الاسم «1» كمرفق اليد، وكالدرهم، والمسحل للحمار الوحشي «2»، والآلة كالمقطع والمثقب.

17 تَتَزاوَرُ: تميل وتنحرف «3».

تَقْرِضُهُمْ: تقطعهم، أي: تجوزهم منحرفة عنهم «4».

18 وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً : لانفتاح عيونهم ، أو لكثرة تقليبهم «5» .

فَجْوَةٍ : متّسع «6» ، وإنّما هذا لئلا يفسدهم ضيق المكان لعفنه ، ولا تؤذيهم الشمس

بحرّها .

«الوصيد» «7» : فناء الباب «8» ، أو الباب نفسه «9» ، أوصدت الباب : أطبقته .

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 395 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 264 ، ومعاني الزجاج : 3/ 272 .

(2) اللسان : 11/ 329 (سحل) .

(3) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 395 ، وتفسير الطبري : 15/ 210 ، والمفردات للراغب :

217 .

(4) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 2/ 470 ، وانظر هذا المعنى في مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 396 ، وتفسير الطبري : 15/ 211 ، ومعاني الزجاج : 3/ 273 ، والمفردات :

400 .

(5) في «ج» : تقليبهم . [. . . . .]

(6) معاني القرآن للفراء : 2/ 137 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 396 ، وتفسير

غريب القرآن لابن قتيبة: 264، ومعاني الزجاج: 3/ 273، وتفسير الماوردي: 2/ 470.

(7) في قوله تعالى: وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ [آية: 18].

(8) ذكره الفراء في معانيه: 2/ 137، وأبو عبيدة في مجاز القرآن: 1/ 397، والطبري في تفسيره: 15/ 214.

(9) المصادر السابقة، وأورد ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 264 قولا آخر، ورجحه، فقال: «ويقال: عتبة الباب. وهذا أعجب إليّ لأنهم يقولون: أوصد بابك، أي: أغلقه، ومنه: إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ أي: مطبقة مغلقة.

وأصله أن تلصق الباب بالعتبة إذا أغلقته، ومما يوضح هذا: أنك إن جعلت الكلب بالفناء كان خارجا من الكهف. وإن جعلته بعتبة الباب أمكن أن يكون داخل الكهف. والكهف وإن لم يكن له باب وعتبة- فإنما أراد أن الكلب منه بموضع العتبة من البيت...».

(136/466)

---

19 وَكَذلِكَ بَعَثْناهُمْ: أي: كما حفظناهم طول تلك المدة كذلك بعثناهم من الرقدة «1».

21 وَكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ: كما أطلعناهم على حالهم في مدّة نومهم أطلعناهم على القيامة، فنومهم الطويل شبيه الموت، والبعث بعده شبيه البعث.

وقيل: أطلعنا ليعلم منكروا البعث أنّ وعد اللّه حقّ.

إِذْ يَتَنازَعُونَ: إِذْ منصوب ب أَعْثَرْنا أي: فعلنا ذلك إذ وقعت المنازعة في أمرهم.

وتنازعهم أنّه لما ظهر عليهم وعرف خبرهم أماتهم اللّه، فقال بعضهم: ابنوا عليهم مسجدا.

وقيل: بنيانا يعرفون به. وقيل «2»: قال بعضهم: ماتوا، وقال بعضهم: نيام كما هم أول مرة.

22 رَجْماً بِالْغَيْبِ: أي: يقولونه ظنا. وإنّما دخل الواو في الثامن لابتداء العطف بها لتمام الكلام بالسبعة التي هي عدد كامل «3».

ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ: قال ابن عبّاس «4» رضي اللّه عنه: أنا من

---

(1) ينظر هذا المعنى في تفسير الطبري: 15/ 216، وتفسير البغوي: 3/ 155.

(2) راجع القولين في تفسير الماوردي: 2/ 474، والمحرر الوجيز: 9/ 271، والبحر المحيط: 6/ 113.

(3) قال البغوي في تفسيره: 3/ 156: «قيل: هذه واو الثمانية، وذلك أن العرب تعدل فتقول:

واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، وثمانية لأن العقد كان عندهم سبعة كما هو عندنا عشرة . . . » .

وانظر الكشاف : (2/ 478 ، 479) ، والمحرر الوجيز : 9/ 274 ، وزاد المسير : 5/ 125 .

(4) أخرجه الطبري في تفسيره : 15/ 226 .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 375 ، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق ، والفريابي ، وابن سعد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(137/466)

القليل الذي استثنى اللّه ، كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، ولم يكن الكلب من شأنهم ، ولكنهم مرّوا براعي غنم فقال لهم : أين تذهبون ؟ فقالوا : إلى ربنا .

فقال الراعي : ما أنا بأغنى عن ربّي منكم فتبعه الكلب .

24 وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ : أمرا ثم تذكرته ، فإن لم تذكره فقل : عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً .

وقيل : أيّ وقت ذكرت أنك لم تستثن [فاستثن] «1» .

25 وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدادُوا تِسْعاً : لتفاوت ما بين السنين المذكورة ، شمسيها ثلاث مائة وخمسة وستّون يوما وكسرا ، وقمريّها ثلاث مائة وأربعة وخمسون/ يوما وكسرا .

وتنوين ثَلاثَ مِائَةٍ «2» على أن يكون سِنِينَ بدلا «3» ، أو عطف بيان «4» ، أو تمييزا «5» لأنّ ثَلاثَ مِائَةٍ يتناول الشهور والأيام والأعوام .

---

(1) في الأصل : «واستثن» ، والمثبت في النص عن «ك» ، وهو الصواب لأنه في جواب الشرط الواقع طلبا فيقترن بالفاء ويبدو أن مصدر المؤلف - رحمه اللّه - في هذا القول هو معاني القرآن للزجاج : 3/ 278 ، فقد جاء فيه : «أي : أيّ وقت ذكرت أنك لم تستثن ، فاستثن ، وقل : إن شاء اللّه» اه .

وانظر تفسير الطبري : 15/ 229 ، وتفسير البغوي : 3/ 157 .

(2) قراءة ابن كثير ، ونافع ، وأبي عمرو ، وعاصم ، وابن عامر .

السبعة لابن مجاهد : 389 ، وحجة القراءات : 414 ، والتبصرة لمكي : 248 .

(3) يكون في موضع خفض بدلا من «مائة» ، لأن «المائة» في معنى «سنين» ، ويجوز أن يكون منصوبا على البدل من «ثلاث» .

إعراب القرآن للنحاس : 2/ 453 ، والبيان لابن الأنباري : 2/ 106 ، والتبيان للعكبري :

2/ 844 .

(4) فيكون في موضع نصب عطف بيان على «ثلاث» .

مشكل إعراب القرآن لمكي: 1/ 440، والبيان لابن الأنباري: 2/ 106 .

(5) ينظر تفسير الطبري: 15/ 232، وإعراب القرآن للنحاس: 2/ 453 ، والكشف لمكي:

2/ 58 ، والمحرر الوجيز: 9/ 284 ، وتفسير القرطبي: 10/ 387 .

ومن لم ينوّن للإضافة «1» اعتمد على «الثلاث» في المعنى دون «المائة» «2» ، وإن كان هو نعت «مائة» .

26 قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا: أي: إن حاجوك فيهم، أو الله أعلم به إلى وقت أن أنزل نبأهم» .

أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ: خرج على التعجب في صفته تعالى على جهة التعظيم له «4» .

27 مُلْتَحَداً: معدلا أو مهربا «5» .

28 وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ: وجدناه غافلا «6» ، ولو كان بمعنى صددنا لكان العطف

بالفاء فاتبع هواه حتى يكون الأول علة للثاني ، كقولك : سألته فبذل «7» .

فُرُطاً : ضياعا «8» ، والتفريط في حق اللّه تعالى : تضييعه .

---

(1) وهي قراءة حمزة والكسائي .

السبعة لابن مجاهد : 390 ، والتبصرة لمكي : 248 ، والتيسير للداني : 143 .

[.....]

(2) ينظر الكشف لمكي : 2/ 58 ، والبيان لابن الأنباري : 2/ 106 .

(3) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 2/ 477 .

وانظر تفسير الطبري : 15/ 232 ، وتفسير القرطبي : 10/ 287 .

(4) قال الزجاج في معانيه : 3/ 280 : «أجمعت العلماء أن معناه : ما أسمعه وأبصره ،

أي : هو عالم بقصة أصحاب الكهف وغيرهم» اه .

(5) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 398 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 266 ،

وتفسير الطبري : 15/ 233 ، ومعاني الزجاج : 3/ 280 ، واللسان : 3/ 389

(لحد) .

(6) أورده الماوردي في تفسيره : 2/ 478 ، وبه قال الزمخشري في الكشاف : 2/

482 ، وذكره الفخر الرازي في تفسيره : (21/ 116 - 118) ، ونسب هذا القول

إلى المعتزلة ، ثم أورد الأدلة على بطلانه ، وأثبت أن المراد بقوله تعالى : وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا

قَلْبَهُ هو إيجاد الغفلة لا وجدانها .

(7) ينظر تفسير الفخر الرازي : 21/ 118 .

(8) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 15/ 236 عن الحسن رحمه اللّه تعالى .

ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 133 عن مجاهد .

وقيل «1» : سرفا وإفراطا .

29 أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها : [عن] «2» يعلى بن أميّة «3» عن النبيّ صلى اللّه عليه وسلم :

«سرادقها : البحر المحيط بالدنيا» «4» .

وعن قتادة «5» : سُرادِقُها : دخانها ولهبها .

«المهل» : كل جوهر معدني إذا أذيب أزبد «6» .

30 قوله تعالى : إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا : قيل : إنّه خبر «إن» الأولى بمعنى : لا نضيع أجرهم فأوقع المظهر وهو مَنْ موقع المضمر .

---

(1) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 2/ 479 .

وانظر معناه في مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 398 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 266 ، والمحرر الوجيز : 9/ 293 .

(2) ما بين معقوفين عن نسخة «ح» .

(3) هو يعلى بن أمية بن أبيّ بن عبيدة بن همام التميمي الحنظلي ، صحابي جليل ، أسلم يوم الفتح ، وشهد حنينا والطائف وتبوك .

راجع ترجمته في الاستيعاب : 4/ 1584 ، وأسد الغابة : 5/ 523 ، والإصابة : 6/ 685 .

(4) عن تفسير الماوردي : 2/ 479 .

وأخرج الإمام أحمد في مسنده : 4/ 223 عن صفوان بن يعلى عن أبيه أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال :

«البحر هو جهنم» ، قالوا ليعلى فقال : ألا ترون أن اللّه عز وجل يقول : ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها . . .» .

وأخرجه الإمام البخاري في التاريخ الكبير : 1/ 70 ، والطبري في تفسيره : 15/ 239 .

وأخرج نحوه الحاكم في المستدرك : 5/ 596 ، كتاب الأهوال ، وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد» ، ووافقه الذهبي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 385 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي الدنيا ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في «البعث» عن يعلى بن أمية رضي اللّه عنه .

(5) في تفسير الماوردي : 2/ 479 ، وتفسير القرطبي : 10/ 393 .

وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز : 9/ 298 دون عزو ، وكذا الفخر الرازي في تفسيره : 21/ 121 .

(6) تفسير الطبري : 15/ 240 ، وتفسير الماوردي : 2/ 479 ، وتفسير الفخر الرازي : 21/ 121 .

(140/466)

وقيل : «إن» الثانية بدل من الأولى فلا تحتاج الأولى إلى خبر «1» .

«الأساور» «2» : جمع أسوار . ذكر قطرب «3» الأساور جمع «إسوار» على حذف الياء لأنّ جمع «أسوار» : أساوير «4» .

وقيل : الأسورة جمع سوار اليد - بالكسر - ، وقد حكي سوار - بالضم - مجموع على أسورة «5» .

و«الأرائك» : الأسرة «6» .

32 وَحَفَفْناهُما : جعلنا النّخل مطيفا بهما «7» . وكان عمر – رضي اللّه عنه – أصلع

له حفاف ، وهو أن ينكشف الشّعر عن قمّة الرأس ويبقى

---

(1) ينظر ما سبق في إعراب القرآن للنحاس : 2/ 454 ، ومشكل إعراب القرآن لمكي

:

1/ 441 ، والبيان لابن الأنباري : 2/ 107 ، والتبيان للعكبري : (2/ 845 ،

846) ، والبحر المحيط : 6/ 121 . [. . . . .]

(2) من قوله تعالى : أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ

مِنْ ذَهَبٍ . . . [آية : 31] .

(3) قطرب : (؟ – 206 ه) .

هو محمد بن المستنير بن أحمد البصري ، أبو علي ، النحوي ، اللغوي ، تلميذ إمام النحو

سيبويه .

قال عنه ابن خلكان في وفيات الأعيان : 4/ 312 : «كان من أئمة عصره» .

صنف معاني القرآن ، والأضداد ، وغريب الحديث . . . وغير ذلك .

أخباره في : طبقات النحويين للزبيدي : (99 ، 100) ، وبغية الوعاة : 4/ 242 ،

وطبقات المفسرين للداودي : 2/ 254 .

(4) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 401 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 267 ،

والمحرر الوجيز : 9/ 301 ، واللسان : 4/ 388 (سور) .

(5) اللسان : 4/ 387 (سور) .

(6) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 401 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 267 ، والمفردات للراغب : 16 .

(7) عن معاني القرآن للزجاج : 3/ 284 .

وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 402 ، وتفسير الطبري : 15/ 244 ، والكشاف :

2/ 483 .

(141/466)

ما حوله «1» .

33 وَلَمْ تَظْلِمْ : لم تنقص «2» .

34 وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ : أموال مثمرة نامية .

40 حُسْباناً : نارا أو عذابا بحساب الذنب «3» .

وقيل «4» : الحسبان سهام ترمى في مرمى واحد .

صَعِيداً زَلَقاً: أرضا ملساء، لا ينبت فيها نبات ولا يثبت قدم «5».

41 ماؤُها غَوْراً: غائرا «6».

42 يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ: يضرب إحداهما على الأخرى تحسّرا.

38 لكِنَّا

: «لكن أنا» بإشباع ألف «أنا» فألقيت حركة همزة «أنا» على نون «لكن»، كما قالوا/ في الأحمر: «الحمر»، فصار «لكننا» فأدغمت [58/ أ] كقوله «7»: ما لَكَ لا تَأْمَنَّا، وإثبات الألف للعوض عن الهمزة المحذوفة.

---

(1) الفائق: 1/ 297، وغريب الحديث لابن الجوزي: 1/ 224، والنهاية: 1/ 408.

(2) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 402، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 267، وتفسير الطبري: 15/ 244، ومعاني القرآن للزجاج: 3/ 284.

(3) هذا قول الزجاج في معانيه: 3/ 290، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير: 5/ 145 عن الزجاج.

وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 403، وتفسير الطبري: 15/ 248، والمفردات للراغب: 116.

(4) ذكره القرطبي في تفسيره: 10/ 408 دون عزو.

(5) عن تفسير الماوردي: 2/ 482، وانظر معاني القرآن للفراء: 2/ 145، ومجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 403، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 267، ومعاني الزجاج: 3/ 290، والمفردات للراغب: 215.

(6) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 267، وقال: «فجعل المصدر صفة، كما يقال:

رجل نوم ورجل صوم ورجل فطر، ويقال للنساء: نوح: إذا نحن».

وانظر هذا المعنى في مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 403، وتفسير الطبري: 15/ 249، ومعاني الزجاج: 3/ 290، وتفسير القرطبي: 10/ 409.

(7) سورة يوسف: آية: 11.

(142/466)

وفي «أنا» ضمير الشأن والحديث أي: لكن أنا الشأن. والحديث، اللّه ربّي «1».

44 هُنالِكَ الْوَلايَةُ: بالفتح «2» مصدر «الوليّ»، أي: يتولون اللّه في مثل تلك الحال ويتبرّؤون مما سواه. وبالكسر «3» مصدر «الوالي»، أي: اللّه يلي جزاءهم.

لِلَّهِ الْحَقِّ: كسر الْحَقِّ على الصّفة للّه، أي: اللّه على الحقيقة، ورفعه على النعت ل

«الولاية» «4» .

هُوَ خَيْرٌ ثَواباً : أي : لو كان يثيب غيره لكان هو خير «5» ثوابا .

وَخَيْرٌ عُقْباً : أي : الله خير لهم في العاقبة .

45 كَماءٍ أَنْزَلْناهُ : تمثيل الدّنيا بالماء من حيث إنّ أمورها في السّيلان ، ومن حيث إنّ قليلها كاف وكثيرها إتلاف ، ومن حيث اختلاف أحوال بينهما كاختلاف ما ينبت بالماء .

و«الهشيم» : النّبت جفّ وتكسّر «6» .

تَذْرُوهُ الرِّياحُ : ذرته الريح وذرّته وأذرته : نسفته وطارت به «7» .

---

(1) ينظر ما سبق في معاني الفراء : (2/ 144 ، 145) ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 403 ، وتفسير الطبري : 15/ 247 ، ومعاني الزجاج : 3/ 286 . [. . . . .]

(2) قراءة ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم .

السبعة لابن مجاهد : 392 ، وحجة القراءات : 418 ، والتبصرة لمكي : 249 .

(3) وهي قراءة حمزة والكسائي .

(4) قرأ برفع : الحق الكسائي ، وأبو عمرو ، وباقي السبعة بكسر القاف .

السبعة لابن مجاهد : 392 .

ينظر توجيه قراءات هذه الآية في حجة القراءات : 419 ، وإعراب القرآن للنحاس : 2/ 459 ، والكشف لمكي : 2/ 63 ، والتبيان للعكبري : 2/ 849 .

(5) في «ح» : خيرا .

(6) قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 268 : «وأصله : من هشمت بالشيء إذا كسرته ، ومنه سمي الرجل : هاشما» .

(7) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 405 ، وتفسير الطبري : 15/ 252 ، والمفردات للراغب :

178 ، وتفسير القرطبي : 10/ 413 ، واللسان : 14/ 282 (ذرا) .

(143/466)

وَكانَ اللَّهُ : تأويل كانَ إن ما شاهدتم من قدرته ليس بحادث وأنه كان كذلك لم يزل .

46 وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ : كل عمل [صالح] «1» يبقى ثوابه .

وَخَيْرٌ أَمَلًا : لأنّه لا يكذب بخلاف سائر الآمال .

47 وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً : لا يسترها جبل ، أو برز ما في بطنها من [الأموات] «2» والكنوز .

دْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

: أي : أحياء .

52 مَوْبِقاً : محبسا «3» . وقيل «4» : مهلكا . وبق يبق وبوقا «5» .

55 قُبُلًا : مقابلة «6» ، أو أنواعا من العذاب كأنه جمع «قبيل» أو

---

(1) ما بين معقوفين عن «ك» و«ح» .

(2) في الأصل : «الأموال» والمثبت في النص عن «ك» وانظر هذا القول في تفسير القرطبي :

10/ 416 عن عطاء .

(3) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 156 عن الربيع بن أنس .

ونقل الأزهري في تهذيب اللغة : 9/ 354 عن ابن الأعرابي قال : «كل حاجز بين شيئين فهو موبق» .

(4) ذكره الفراء في معاني القرآن : 2/ 147 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 269 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 15/ 264 عن ابن عباس ، وقتادة .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 3/ 295 ، وتفسير الماوردي : 2/ 489 ، وزاد المسير : 5/ 155 .

(5) ينظر معاني القرآن للزجاج : 3/ 295 ، وتهذيب اللغة : 9/ 355 ، واللسان : 10/ 370 (وبق) .

(6) في «ح» : مفاجأة .

وذكر أبو عبيدة هذا المعنى الذي ورد في الأصل في مجاز القرآن: 1/ 407، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 269، ومكي بن أبي طالب في الكشف: 2/ 64 توجيها لقراءة من كسر القاف، وأشار - أيضا - إلى أن من قرأ بضم القاف يحتمل هذا المعنى.

ونقل عن أبي زيد الأنصاري أنه قال: «لقيت فلانا قبلا ومقابلة وقبلا وقبلا وقبيلا وقبليا، كله بمعنى مقابلة، أي: عيانا، فالمعنى في الآية: أن يأتيهم العذاب مقابلة يرونه».

(144/466)

«مقابلة»، وهي بمعنى «قبلا»، وفي الحديث «1»: «إنّ الله كلّم آدم قبلا»، أي: معاينة.

و«قبلا»: مستأنفا «2».

56 لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ: يبطلوه ويزيلوه.

58 مَوْئِلًا: منجى «3» وملجأ.

59 لِمَهْلِكِهِمْ: لإهلاكهم، مصدر «4»، كقوله «5»: مُدْخَلَ صِدْقٍ.

ويجوز «مهلكهم» اسم زمان الهلاك، أي: جعلنا لوقت إهلاكهم موعدا، ولكنّ المصدر أولى لتقدم أَهْلَكْناهُمْ «6»، والفعل يقتضي المصدر وجودا وحصولا، وهو المفعول

المطلق، ويقتضي الزّمان والمكان محلا وظرفا، وكلّ فعل زاد على ثلاثة/ أحرف فالمصدر واسم الزّمان والمكان منه على

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: (5/ 265، 266) عن أبي أمامة رضي اللّه عنه مرفوعا.

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد: 1/ 164 وقال: «رواه أحمد والطبراني في الكبير ... ومداره على علي بن يزيد وهو ضعيف».

وأخرجه الخطابي في غريب الحديث: 2/ 157 عن أبي ذر رضي اللّه تعالى عنه مرفوعا.

(2) قال الخطابي في غريب الحديث: 2/ 157: «وقوله: «قبلا»، إذا كسرت القاف كان معناه المقابلة والعيان، وكذلك قبلا، يقال: لقيت فلانا قبلا وقبلا: أي مقابلة، وإذا فتحت القاف والباء كان معناه الاستقبال والاستئناف».

وانظر غريب الحديث لابن الجوزي: 2/ 217، والنهاية: 4/ 8. [.....]

(3) في الأصل: «منجاء».

وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 408، وتفسير الطبري: 15/ 369، ومعاني القرآن للزجاج: 3/ 297.

(4) على قراءة الكسائي، ونافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، بضم الميم وفتح اللام الثانية.

ينظر معاني القرآن للزجاج: 3/ 297، وحجة القراءات: (421، 422)، والكشف لمكي: 2/ 66.

(5) سورة الإسراء: آية: 80.

(6) في قوله تعالى: وَتِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا . . . .

مثال «المفعول» «1»، وإذا كان «المهلك» اسم زمان «الهلاك» لا يجوز «الموعد» اسم الزمان لأنّ الزّمان وجد في المهلك فلا يكون للزّمان زمان بل يكون الموعد بمعنى المصدر، أي: جعلنا لزمان هلاكهم وعدا وعلى العكس «2». وهذا من المشكل حتى على الأصمعي «3»، فإنه أنشد للعجاج «4»:

جا أبا «5» ترى تليله مسحجا

---

(1) أي يأتي على وزن اسم المفعول بأن يؤتى بالمضارع من الفعل المزيد فيضم أوله ويفتح ما قبل آخره.

(2) ينظر ما سبق في معاني القرآن للزجاج : 3/ 397 .

(3) الأصمعي : (122 - 216 ه) .

هو عبد الملك بن قريب بن علي الباهلي ، أبو سعيد .

الإمام اللغوي المشهور .

من كتبه : خلق الإنسان ، والخيل ، واشتقاق الأسماء .

أخباره في تاريخ بغداد : 10/ 410 ، وطبقات النحويين للزبيدي : 167 ، وبغية الوعاة

:

2/ 112 .

(4) العجاج : (؟ - نحو 90 ه) .

هو عبد اللّه بن رؤبة بن لبيد بن صخر التميمي ، أبو رؤبة .

راجز من أهل البصرة ، قوي العارضة ، كثير الرجز .

ذكر ابن قتيبة في الشعر والشعراء : 2/ 591 أنه لقي أبا هريرة وسمع منه أحاديث .

أخباره في طبقات فحول الشعراء : 2/ 738 .

والبيت في ديوانه : 373 .

(5) الجأب : الحمار الوحشي الضخم ، يهمز ولا يهمز ، والجمع جؤوب .

وجاء في شرح ديوان العجاج : الجأب الغليظ ، ويروى : بليته ، قال أبو حاتم :

كان الأصمعي ينشد : ترى تليله . والتليل العنق ، وهو الذي كان يختاره . وغيره يقول : بليته ، أي بعنقه ، والليتان ناحيتا العنق . قال أبو حاتم : رواه الناس كلهم : بليته مسحّجا ، فقال الأصمعي : هذا تصحيف . قال أبو حاتم : ويخلط الأصمعي ، فقلت له : لم؟ قال : كيف يكون ترى بعنقه مسحّجا ؟ لو كان ذاك لقال : تسحيجا ، قلت له : في كتاب الله وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ يريد كل تمزيق . فسكت وعرف الحق» اه .

راجع هذه المناظرة - أيضا - في الخصائص لابن جني : (1/ 366 ، 367) ، وشرح ما يقع فيه التصحيف للعسكري : 100 ، والمزهر للسيوطي : (2/ 375 ، 376) ، واللسان :

2/ 296 (سحج) .

(146/466)

فقال أبو حاتم «1» : إنّما هو «بليته» ، فقال : من أخبرك بهذا ؟

فقال : من سمعه من فلق في رؤبة «2» - يعني أبا زيد «3» - فقال : هذا لا يكون . قال : بلى ، جعل «مسحّجا» مصدرا ، كما قال «4» :

ألم تعلم مسرّحي القوافي

فكأنه أراد أن يدفعه، فقال: فقد قال اللّه «5»: وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ.

60 وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ: وهو ابن أخيه يوشع بن نون «6».

---

(1) أبو حاتم: (؟ - 248 ه).

هو سهل بن محمد بن عثمان الجشعي السجستاني.

المقرئ، اللغوي، النحوي، الشاعر.

له كتاب «المعمرين»، وما تلحن فيه العامة، والأضداد... وغير ذلك.

وقيل: إن وفاته كانت سنة 255 ه، وقيل: سنة 250 ه.

أخباره في الفهرست لابن النديم: 64، ووفيات الأعيان: 2/ 430، وسير أعلام النبلاء:

12/ 268، وطبقات المفسرين للداودي: 1/ 216.

(2) رؤبة: (؟ - 145 ه).

هو رؤبة بن عبد اللّه العجاج بن رؤبة التميمي.

الراجز المشهور، له ديوان مطبوع.

أخباره في طبقات فحول الشعراء: 2/ 761، والشعر والشعراء: 2/ 594، ووفيات الأعيان: 2/ 303.

(3) هو أبو زيد الأنصاري، وقد تقدم التعريف به.

(4) هو جرير الشاعر المشهور ، والبيت في ديوانه : 2/ 651 .

(5) سورة سبأ : آية : 19 . [. . . . . .]

(6) ثبت ذلك في رواية أخرجها الإمام البخاري في صحيحه : 5/ 230 ، كتاب التفسير ، «سورة الكهف» ، باب وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ . . . عن ابن عباس رضي اللّه عنهما مرفوعا .

وانظر التعريف والإعلام للسهيلي : 103 ، وتفسير القرطبي : 11/ 9 ، ومفحمات الأقران :

. 140

(147/466)

لا أَبْرَحُ : لا أزال أمشي .

مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ : بحر روم وبحر فارس «1» ، يبتدئ أحدهما من المشرق والآخر من المغرب فيلتقيان .

وقيل «2» : أراد بالبحرين الخضر وإلياس لغزارة علمهما .

حُقُباً : حينا طويلا «3» .

61 فَلَمّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما : إفريقيّة «4» .

فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ : الحوت ، أحياه اللّه فطفر «5» في البحر .

سَرَباً : مسلكا «6» ، وهو مفعول كقولك : اتخذت طريقي مكان كذا ، ويجوز مصدرا يدل عليه «اتخذ» أي سرب الحوت سربا «7» .

63 وَما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ : «أن» بدل من الهاء ، لاشتمال

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 15/ 271 عن قتادة ، ومجاهد .

ونقله البغوي في تفسيره : 3/ 171 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 164 عن قتادة .

(2) ذكره الماوردي في تفسيره : 2/ 492 عن السدي .

وقيل : إن البحرين موسى والخضر .

ذكره الزمخشري في الكشاف : 2/ 490 ، ووصفه بأنه من بدع التفاسير .

وضعفه ابن عطية في المحرر الوجيز : 9/ 350 ، والقرطبي في تفسيره : 11/ 9 .

(3) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 269 ، وتفسير الطبري : 15/ 271 ، والمفردات للراغب : 126 .

(4) نقل البغوي هذا القول في تفسيره : 3/ 171 عن أبي بن كعب ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 164 .

وأورده السيوطي في مفحمات الأقران : 141 ، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم عن أبي

بن كعب رضي اللّه عنه.

(5) الطفر بمعنى الوثوب.

اللسان: 4/ 501 (طفر).

(6) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 409، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 269، وتفسير الطبري: 15/ 273.

(7) عن معاني القرآن للزجاج: 3/ 299.

(148/466)

الذكر على الهاء في المعنى، أي: ما أنساني أن أذكره إلّا الشّيطان «1»، شغل قلبي بوسوسته حتى نسيت ذلك.

64 ما كُنَّا نَبْغِ «2»: أوحى إلى موسى أنك لتلقى الخضر حيث تنسى شيئًا من زادك.

فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً: رجعا يقصان الأثر ويتبعانه.

71 شَيْئاً إِمْراً: عجيبا «3».

73 لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ: تركت.

وَلا تُرْهِقْنِي: لا تعاسرني «4».

74 زاكية «5» : تامة نامية «6» ، وكان المقتول شابا يقطع الطريق «7» .

وزكية في الدين والعقل فهو على ظاهر الأمر «8» .

---

(1) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 3/ 300 ، وانظر تفسير الطبري : 15/ 275 .

(2) وهي قراءة نافع ، وأبي عمرو ، والكسائي بإثبات الياء في الوصل ، وقرأ ابن كثير بإثبات الياء في الحالين ، وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة بحذف الياء في الحالين .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 403 ، والكشف لمكي : 2/ 83 ، والمحرر الوجيز : 9/ 356 ، وزاد المسير : 5/ 167 ، والبحر المحيط : 6/ 147 .

(3) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 269 ، وتفسير البغوي : 3/ 174 .

(4) معاني القرآن للزجاج : 3/ 302 ، والكشاف : 2/ 493 ، وزاد المسير : 5/ 171 .

(5) هذه قراءة ابن كثير ، ونافع ، وأبي عمرو ، كما في السبعة لابن مجاهد : 395 ، وحجة القراءات : 424 ، والتبصرة لمكي : 250 .

(6) أورده الماوردي في تفسيره : 2/ 498 ، وقال : «قاله كثير من المفسرين» .

وانظر هذا القول في زاد المسير : 5/ 173 . [. . . . .]

(7) نقله البغوي في تفسيره : 3/ 174 ، والقرطبي في تفسيره : 11/ 21 عن الكلبي .

وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: 9/ 365 دون عزو.

(8) عن أبي عبيدة في تفسير الماوردي: 2/ 498، ونص قوله: إن الزاكية في البدن، والزكية في الدين.

وقد ذكر هذا التوجيه لقراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر زَكِيَّةً بغير ألف.

(149/466)

---

77 يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ: يكاد يسقط «1»، ويقال: قضضنا عليهم الخيل [59/ أ] فانقضّت «2».

80 فَخَشِينا: كرهنا «3»، أو علمنا «4»، مثل «حسب» و«ظنّ» تقارب أفعال الاستقرار والثبات.

81 وَأَقْرَبَ رُحْماً: أكثر برا لوالديه ونفعا «5»، وأصل الرحم العطف من الرحمة «6».

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً: علما يتسبّب به إليه «7».

85 فَأَتْبَعَ سَبَباً: طريقا من المشرق والمغرب «8»،

---

(1) عن تفسير الماوردي: 2/ 499.

وانظر نحو هذا القول في تفسير غريب القرآن: 270، ومعاني الزجاج: 3/ 306،

وتفسير البغوي: 3/ 175، والمحرر الوجيز: 9/ 373.

(2) في اللسان: 7/ 219 (قضض): «قضّ عليهم الخيل يقضّها قضا: أرسلها. وانقضت عليهم الخيل: انتشرت، وقضضناها عليهم فانقضت عليهم».

(3) هذا قول الأخفش في معانيه: 2/ 620، وعلل قائلا: «لأن اللّه لا يخشى».

وهو قول الزجاج في معانيه: 3/ 305، وقال: «لأن الخشية من اللّه عز وجل معناه الكراهة، ومعناها من الآدميين الخوف».

قال ابن عطية في المحرر الوجيز: 9/ 382: «والأظهر عندي في توجيه هذا التأويل - وإن كان اللفظ يدافعه - أنها استعارة، أي: على ظن المخلوقين والمخاطبين لو علموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين. وقرأ ابن مسعود: فخاف ربك، وهذا بيّن في الاستعارة، وهذا نظير ما يقع في القرآن في جهة اللّه تعالى من «لعل» و«عسى»، فإن جميع ما في هذا كله من ترجّ وتوقّع وخوف وخشية إنما هو بحسبكم أيها المخاطبون» اه.

(4) ذكر الفراء هذا القول في معاني القرآن: 2/ 157، والماوردي في تفسيره: 2/ 502، والبغوي في تفسيره: 3/ 176، ونقله ابن عطية في المحرر الوجيز: 9/ 382 عن الطبري.

(5) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 16/ 4 عن قتادة.

ونقله ابن الجوزي في زاد المسير: 5/ 180 عن ابن عباس، وقتادة.

(6) ينظر المفردات للراغب: 191، وزاد المسير: 5/ 180.

(7) تفسير الطبري: 16/ 9، ومعاني القرآن للزجاج: 3/ 308، وتفسير الماوردي: 2/ 504.

(8) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 16/ 10 عن مجاهد.

ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 504 عن مجاهد، وقتادة.

كقوله «1»: أَسْبابَ السَّماواتِ: طرائقها.

86 تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ: ذات حمأة «2»، فإنّ من ركب البحر وجد الشّمس تطلع وتغرب فيه، وحامية «3»: حارّه.

إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ: أي: بالقتل لإقامتهم على الشّرك، أو تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً: تحسن إليهم بأن تأسرهم فتعلّمهم الهدى.

88 جَزاءً الْحُسْنى: الجنّة الحسنى، فحذف الموصوف «4».

ومن قرأه بالنصب والتنوين «5» يكون مصدرا في موضع الحال، أي: فله الحسنى مجزيا بها جزاء «6».

---

(1) سورة غافر : آية : 37 .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 16/ 11 عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقال الزجاج في معانيه : 3/ 308 : «من قرأ «حمئة» أراد في عين ذات حمأة ، ويقال :

حمأت البئر إذا أخرجت حمأتها ، وأحمأتها : إذا ألقيت فيها الحمأة ، وحمئت هي تحمأ

فهي حمئة إذا صارت فيها الحمأة» .

وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 413 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 270 ،

وتفسير الماوردي : 2/ 505 .

والحمأة : الطين الأسود المنتن . اللسان : 1/ 61 (حمأ) .

(3) قرأ بها عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية أبي بكر .

السبعة لابن مجاهد : 398 ، وحجة القراءات : 428 ، والتبصرة لمكي : 251 .

وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 270 ، وتفسير الطبري : 16/ 12 ، ومعاني

الزجاج:

3/ 308 ، والكشف لمكي : 2/ 73 .

(4) على قراءة ابن كثير ، ونافع ، وأبي عمرو ، وابن عامر ، وعاصم في رواية أبي بكر -

بالرفع والإضافة .

ينظر تفسير الطبري : 16/ 13 ، ومعاني القرآن للزجاج : 3/ 309 ، وحجة القراءات

:

430 . [. . . . .]

(5) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم.

ينظر السبعة لابن مجاهد: 399، وحجة القراءات: 430، والتبصرة لمكي: 251.

(6) نص هذا الكلام في معاني القرآن للزجاج: 3/ 309.

وانظر تفسير الطبري: 16/ 13، والكشف لمكي: (2/ 74، 75).

(151/466)

---

90 لَمْ نَجْعَلْ [لَهُمْ] «1» مِنْ دُونِها سِتْراً: كنّا «2» ببناء، أو خمرا.

والمراد دوام طلوعها عليهم في الصّيف، وإلا فالحيوان يحتال المكن حتى الإنسان، وهذا المكان وراء بريّة من تلقاء «بلغار» «3»، تدور الشّمس فيه بالصّيف ظاهرة فوق الأرض إلّا أنّها لا تسامت رؤوسهم «4».

94 خَرْجاً: خراجا كالنبت والنبات «5».

95 رَدْماً: هو ما جعل بعضه على بعض، ثوب مردّم رقّع رقعة فوق رقعة.

96 زُبَرَ الْحَدِيدِ: قطعا منه.

ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ: بين الجبلين، كلّ واحد يصادف صاحبه ويقابله «6». أو ينحرف عن صاحبه بمعنى الصّدوف «7»، والمعنى: حتى إذا

---

(1) في الأصل: «لها».

(2) المراد ب «الكن» و«الخمر» هنا ما يسترهم ويحجبهم عن الشمس من بناء أو شجر أو لباس.

(3) بلغار: بضم الباء، والغين معجمة بلد معروف بأوروبا.

قال ياقوت في معجم البلدان: 1/ 485: «مدينة الصقالبة ضاربة في الشمال...».

(4) عقب ابن عطية - رحمه الله - على الأقوال التي قيلت في هؤلاء القوم، وصفتهم، ومكان وجودهم بقوله: وكثّر النقّاش وغيره في هذا المعنى، والظاهر من الألفاظ أنها عبارة عن قرب الشمس منهم، وفعلها بقدرة اللّه - تبارك وتعالى - فيهم، ونيلها منهم، ولو كان لهم أسراب تغني لكان سترا كثيفا، وإنما هم في قبضة القدرة سواء كان لهم أسراب أو دور أو لم يكن...».

ينظر المحرر الوجيز: 9/ 398.

(5) ينظر تفسير الطبري: 16/ 22، ومعاني القرآن للزجاج: 3/ 310.

و«خراجا» قراءة حمزة والكسائي كما في السبعة لابن مجاهد: 400، والتيسير للداني: 146.

(6) في تهذيب اللغة للأزهري: 12/ 146: «يقال لجانب الجبلين إذا تحاذيا: صُدُفان وصَدَفان لتصادفهما أي تلاقيهما، يلاقي هذا الجانب الجانب الذي يلاقيه، وما بينهما فج أو شعب أو واد، ومن هذا يقال: صادفت فلانا، أي لاقيته».

(7) ذكره الماوردي في تفسيره: 2/ 508 عن ابن عيسى.

(152/466)

وازى رؤوسهما بما جعل بينهما.

قِطْراً: نحاسا مذابا.

97 أَنْ يَظْهَرُوهُ: يعلوه.

98 دَكَّاءَ: هدما حتى يندكّ «1» ويستوي بالأرض.

99 يَمُوجُ فِي بَعْضٍ: يضطرب ويختلط كما تختلط أمواج البحر.

100 وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ: أظهرناها.

101 لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً: لعداوتهم النّبيّ صلى الله عليه وسلم.

103 بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا: تمييز لإبهامه «2».

108 حِوَلًا: تحوّلا، مصدر «حال حولا»، مثل «صغر صغرا»، وعظم عظما «3».

وقيل «4» : حيلة ، أي : لا يحتالون منزلا غيرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 513.532 ﴾

---

(1) في «ح» : ينفك .

(2) قال الزجاج في معاني القرآن : 3/ 314 : «منصوب على التمييز ، لأنه إذ قال : بِالْأَخْسَرِينَ دل على أنه كان منهم ما خسروه ، فبين ذلك الخسران في أي نوع وقع ، فأعلم - جل وعز - أنه لا ينفع عمل مع الكفر به شيئا فقال : الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا . . .» .

(3) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 3/ 315 .

وانظر معاني القرآن للفراء : 2/ 161 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 416 ، وتفسير الطبري : 16/ 38 .

(4) ذكره الزجاج في معانيه : 3/ 315 .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الكهف

عدد 19 - 69 - 18

نزلت بمكة بعد الغاشية ، عدا الآيات 28 ومن 83 إلى 101 فإنهن نزلن بالمدينة ، وهي مئة وعشر آيات ، وألف وخمسمائة وسبع وخمسون كلمة ، وستة آلاف وثلاثمائة وستون حرفا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ" محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب "الْكِتابَ" القرآن العظيم العربي السوي "وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً" 1 في مبانيه ولا بمعانيه ، لأن العوج في المعاني كالعوج في الأعيان ، يقال في رأيه عوج كما يقال في عصاه عوج ، ولكن يقال لما يدرك بالعين بفتح العين ، ولما لا يدرك بكسرها .

ومن هذا القبيل الغبن بفتحتين الخديعة في الرأي ، وبفتح وسكون الخديعة في البيع والشراء ، والسكن بالفتح ما سكنت إليه ، وبالسكون أصل الدار ، والغول بالفتح البعد ، وبالضم ما اغتال الإنسان ، واللحن بالفتح الفطنة ، وبالسكون الخطأ بالكلام ، والخمرة بالفتح الريح الطيبة ، وبضم الخاء في اللبن والعجين والنبيذ ، والجد بالفتح الحظ ، وبالكسر الاجتهاد ، راجع الآية 17 من سورة الفرقان في ج 1 والآية 56 من سورة المؤمن المارة تجد ما يتعلق بهذا البحث "قَيِّماً" عدلا مستقيما جيء بهذه تأكيدا لأن

نفي العوج يغني عن الاستقامة ، ولذلك وصفه به إذ رب مستقيم مشهود له في الاستقامة لا يخلو عن أدنى عوج أو عوج في ذاته ورأيه عند تصفحه وتفحصه "لِيُنْذِرَ بَأْساً" عذابا عظيما في الدنيا والآخرة "شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ" للكافرين به "وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ" عند الله "أَجْراً حَسَناً" 2 لا أحسن منه وهو الجنة ونعيمها الدائم ، يدل عليه قوله "ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً" 3 لا يتحولون عنه "وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً" 4 من الملائكة وهم قريش ومن حذا حذوهم ، ويدخل في هذه الآية الذين اتخذوا عزيرا والمسيح ولدين له من النصارى واليهود ، تنزه عن ذلك تأسيا بهم ، راجع الآية 30 من سورة التوبة والآية 16 من سورة المائدة في ج 3 ، وبما أن قولهم هذا كله بهت وافتراء محض قال تعالى "ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ" أبدا وإنما صدر منهم هذا القول عن جهل مفرط بذات الإله المنزه عن ذلك ، وانتفاء العلم قد يكون للجهل بالطريق الموصل إليه ، وقد يكون في نفسه محالا لا يستقيم تعلق العلم به كهذا القول ، لأنه ليس من العلم لاستحالته "وَلا لِآبائِهِمْ" به علم فإنهم قالوه عن جهل أيضا وتلقوه عنهم جهلا دون نظر وتدبر وتفكر "كَبُرَتْ" هذه الكلمة منهم وعظمت "كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ" من غير أن تحكم بها عقولهم ولكن لا عقل لمن يقولها ما أكبرها من كلمة "إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً" 5 بحتا غير مطابق للواقع ، وبعضهم عرّف الكذب بأنه الخبر الغير مطابق للواقع مع علم قائله أنه غير مطابق للواقع ، ولا وجه لهذه

الزيادة في الحد لأن الكثيرين يقولون هذا القول ولا يعلمون كونه باطلا غير مطابق للواقع ، فظهر أن هذه الزيادة باطلة "فَلَعَلَّكَ" يا سيد الرسل "باخِعٌ نَفْسَكَ" مهلكها "عَلَى آثارِهِمْ" حين تولوا عنك لما أنذرتهم ودعوتهم للإيمان حزنا

(155/466)

عليهم وتتبع طرفك حسرات عليهم لتباعدهم عنك ، شبهه وإياهم برجل فارق أحبته فصار يساقط الدموع على آثارهم وأطلال ديارهم وجدا عليهم وتلهفا على فراقهم ، راجع الآية الثانية من سورة الشعراء في ج 1 ، وهنا كأنه يشير إلى ما جاء آخر السورة امارة من قوله (إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ) وهو وجه المناسبة بمجيئها بعدها ، وقد أبان اللّه تعالى سبب تأسفه

وتأوهه عليهم بقوله "إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ"

الجليل الشأن أي القرآن المعبر عنه بصدر السورة بالكتاب ووصفه بالحديث بالنسبة لما تتلوه نحن لأن تلاوتنا له حادثة وهو قديم منزه عن الحدوث ، راجع بحث خلق القرآن بالمقدمة "أَسَفاً" 6 مفعول لأجله أي أنك قاتل نفسك لأجل التأسف عليهم لعدم إيمانهم ، فلما ذا يكون منك هذا ؟ أخرج ابن مردويه عن ابن عباس : أن عتبة وشيبة ابني ربيعة

وأبا جهل والنضر بن الحارث وأمية بن خلف والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأبا البحتري ، في نفر من قريش اجتمعوا (على خلاف رسول اللّه ومناوأته) وكان صلّى اللّه عليه وسلم قد كبر عليه ما يرى من خلافهم إياه وإنكارهم ما جاء به من الهدى فأهمه ذلك وأغمه ، فأنزل اللّه هذه الآية يسليه بها .

وقال بعض المفسّرين إن معنى باخع قاتل والقتل والإهلاك شيء واحد ، قال ابن الأزرق :

لعلك يوما إن فقدت مزارها على بعده يوما لنفسك باخع

أي مهلك .

وقال الفرزدق :

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه لشيء نحّته عن يديه المقادر

أي القاتل .

قال تعالى "إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ" من الجبال والأودية والبحار والأنهار والنبات والأشجار والمعادن والحيوان "زِينَةً لَها" كما زينا السماء الدنيا بالكواكب المختلفة ليغتر أهلها بها وتأخذ قلوبهم زخارفها وذلك "لِنَبْلُوَهُمْ" نختبرهم ونمتحنهم "أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا"

7 فيها وأزهد لما يعطى منها من غيره المنهمك في حبها لنظهر للناس ذلك وليعلموا من يميل إليها بكليته ممن يرغب عنها ، وإلا فالله عالم بذلك قبل ذلك "وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها" من الزينة بعد كمالها وتطاول أهلها "صَعِيداً" أرضا ملساء "جُرُزاً" 8 يابسة بعد أن كانت خضراء زاهية ونفعل بأهلها كذلك بأن نسلبهم ما جمعوه منها حتى يأتونا صفر اليدين خاسرين الدنيا والآخرة ، راجع الآية 94 من سورة الأنعام المارة ، وقد أكدت الجملة بأن واللام إيذانا بتحقيق وقوعه وهو واقع لا محالة في الوقت المقدر لخراب الدنيا ، راجع الآية 25 من سورة يونس المارة .

مطلب قصة أهل الكهف ومن التوكل حمل الزاد والنفقة ، وخطيب أهل الكهف :

(157/466)

قال ابن عباس : إن قريشا اجتمعوا وقالوا إن محمدا نشأ فينا بالأمانة والصدق وما اتهمناه بكذب قط ، وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفرا منكم إلى يهود المدينة واسألوهم عنه ، فإنهم أهل كتاب ، فبعثوا جماعة إليهم ، فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة أشياء فإن أجاب عن كلها أو لم يجب عن شيء منها فليس بنبي ، وإن أجاب عن اثنتين ولم يجب عن واحدة فهو نبي ، فاسألوه عن فتية فقدوا في الزمن الأول ما كان شأنهم فإنه كان لهم حديث عجيب ، وعن

رجل بلغ مشرق الشمس ومغربها ما خبره ، وعن الروح (راجع الآية 85 من الإسراء في ج 1) فرجعوا وأخبروا قومهم بذلك ، ثم انهم سألوا النبي صلّى اللّه عليه وسلم فأنزل اللّه تعالى "أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ" الغار الواسع يكون في الجبل "وَالرَّقِيمِ" اللوح المكتوب عليه أسماؤهم وقصتهم "كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً" 9 أتظنّ يا محمد أن شأنهم أعجب من آياتنا التي منها خلق السماء والأرض وما فيهما وعليهما كلا ، بل في خلقنا ما هو أعجب وفي صنعنا ما هو أبدع من ذلك ، وإذ سألوك عنهم يا حبيبي فاذكر لهم ما نوحيه إليك مما هو أوضح مما عند أهل الكتاب وغيرهم وأصح "إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ" جمع فتى وهو الطريّ من الشباب والجمع للقلة "إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً" هدى ونصرا وأمنا من أعدائنا ورزقا ومغفرة "وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا" الذي نحن عليه من مفارقة الكفرة والركون إلى دينك القويم "رَشَداً" 10 واهتداء للطريق الموصل إليك.

(158/466)

قال تعالى "فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً" 11 أي أجبنا دعاءهم وهديناهم الدخول في الغار الذي صاروا إليه وألقينا في قلوبهم أن يناموا فيه فناموا حالا مع أن الخائف لا ينام وجعلنا عليهم حجابا ثقيلا بحيث لا تنبههم الأصوات إلى الوقت المقدر

ليقظتهم منه كما سيأتي "ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ" أيقظناهم من نومهم "لِنَعْلَمَ" لا شك أنه تعالى عالم وإنما أراد إعلام الناس بذلك ليعرفوا "أَيُّ الْحِزْبَيْنِ" المختلفين في مدة نومهم "أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا" 12 الأمد المدة التي لها حد والفرق بينه وبين الزمان أن الأمد يقال باعتبار الغاية بخلاف الزمن فإنه عام في المبدأ

(159/466)

والغاية ومثله المدى "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ" يا سيد الرسل "نَبَأَهُمْ" خبرهم قصصا صحيحا "بِالْحَقِّ" الذي لا مرية فيه وهو "إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى" 13 بإيمانهم وبصيرة في تصديقهم ومعرفة بإسلامهم "وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ" الطاهرة المملوءة بالعقيدة الراسخة بوجود الإله الواحد والبعث والجنة والنار لأنا نورناها بنور البصيرة، ثم أوقرناها بالصبر، وقويناها باليقين "إِذْ قَامُوا فَقَالُوا" لملكهم الجبّار دقيانوس حين أنبهم على عدم عبادة الأوثان وعدم الاعتراف بألوهيتها "رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا" إن دعونا غير إلهنا الحق تبعا إلى هواكم وخوفا من عقابكم فيكون قولنا قولا "شَطَطًا" 14 أشرا كذبا محضا وبهتا، لأن الشطط هو الغاية في البعد والنهاية في مجاوزة الحد، وقالوا أيضا "هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا" الذين اتبعوا "اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً" وفي هذا تبكيت وتقريع،

لأن الإتيان بالحجّة على صحة عبادة الأوثان محال "لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ" وإذا لم يأتوا فقد ظلموا أنفسهم "فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً" 15 لا أظلم ممن زعم أن للّه شريكا .

(160/466)

قال تعالى "وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ" تركتم قومكم "وَما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ" من الأوثان فرارا من دينهم الذي يريدونكم عليه قسرا أيتها الفئة الصالحة حفظا لدينكم وحرصا عن صدكم عنه ، وذلك أنهم هربوا من أمام الملك لما رأوه يريد الفتك بهم لما سمعه منهم من الطعن في دينه وهجروا أوطانهم وفارقوا قومهم حبا بدينهم وحرصا عليه وقال بعضهم لبعض أثناء الهرب "فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ" وكلهم يعرفه بدليل مجيئه معرفا ، فتراكضوا نحوه ولجأوا إليه وأعمى اللّه جماعة الملك الذين لحقوهم ليقبضوهم ويحضروهم أمامه ليعذبهم على ما وقع منهم ، إن يروهم ، كيف لا وقد ألهمهم اللّه تعالى قوله "يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً" 16 منتفعا ويسرا وسهولة ، ثم اختفوا فيه وألقى اللّه عليهم النوم الثقيل .

وقد ذكر اللّه تعالى ما خصهم به من اللطف والعطف لقوة يقينهم وثبات عزيمتهم فقال "وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ" تميل وتعدل "عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ" جانبه

وجهته "وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ" تتركهم وتزورّ عنهم "ذَاتَ الشِّمَالِ" لجانبه وجهته "وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ" من متسع الغار "ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ" وعجائبه وبدائعه لأن من كان في ذلك السمت لتصيبه الشمس وهي لا تمسهم إكراما لهم وهم لم يقصدوا ذلك الغار إلا بهداية اللّه "مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ" وفي هذه الجملة ثناء عليهم لسلوكهم سبل الهداية وعطفا عليهم لتخصيصهم بتلك الكرامة ولطفا بهم لإنقاذهم من الضلالة "وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا" 17 من دونه البتة "وَتَحْسَبُهُمْ" أيها الناظر إليهم "أَيْقَاظًا" لأن أعينهم مفتحة "وَهُمْ رُقُودٌ" نيام ، والواو هنا للحال ، وهذا من جملة ما خصّهم اللّه به ليهابهم منّ يدخل عليهم فيتحاشاهم وينكص خوفا منهم لأنهم جماعة وفي ظل كهف فلا يتجاسر أحد من أن يقربهم .

قال تعالى "وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ" من جانب لآخر بصورة متمادية بدليل تضعيف الفعل لئلا تأكلهم الأرض وزيادة في حرمتهم حفظا لكيانهم وإكراما لشأنهم

"وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ" عتبة باب الكهف ومحل غلقه لو كان له باب يغلق كالحارس لهم من الهوام وغيرها يقلب معهم أيضا مفتوحة عيناه وقد سعد بسعادتهم ويدخل الجنة معهم فلا يوجد فيها من نوعه غيره فهو من المخصوصين كحمار عزير وعصا موسى وناقة صالح وكبش إسماعيل ، ولهذا صار بعض الشيعة يسمون أولادهم كلب علي وسمي ما وراء عتبة الدار وصيدا لأنه يوصد بالعمد ويدقر بها لئلا يفتح .
راجع آخر سورة الهمزة في ج 1 ، "لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ" أيها الإنسان الكامل وهم

(162/466)

على حالتهم تلك "لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا" لما ترى عليهم من الهيبة التي ألقاها اللّه عليهم ليبقوا على حالتهم حتى انقضاء الأجل المضروب لقيامهم كما سيأتي "وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا" 18 لما ألقى اللّه عليهم من الهيبة ووضعية كلهم ووحشة مكانهم ، قال ابن عباس : غزونا الروم مع معاوية فمررنا بالكهف ، فقال معاوية لو كشف اللّه لنا عنهم لنظرناهم ، فقال ابن عباس منع اللّه ذلك من هو خير منك ، وتلا عليه (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ) الآية ، لأن المخاطب بها سيد المخاطبين صلّى اللّه عليه وسلم .
قال تعالى "وَكَذلِكَ" مثل ما أمتناهم بذلك اليوم "بَعَثْناهُمْ" أحييناهم من موتهم

بانقضاء آجالهم المقدرة في علمنا "لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ" عن مدته لاشتباههم بها كما سيأتي في القصة "قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ" بعد إفاقتهم "كَمْ لَبِثْتُمْ" في رقدتكم هذه، لأنهم لم يروا تغييرا ما من أنفسهم إلا ما أنكروه من طول أظفارهم وشعورهم "قالُوا" بعضهم لبعض "لَبِثْنا يَوْماً" كعادة النائم إذ لا يزيد على اليوم غالبا، ولما نظروا إلى الشمس، وقد بقي منها بقية، وكان نومهم غدوة النهار، ورأوا آثار النوم بأعينهم كأنهم لم يستوفوا معتادهم منه، فقالوا "أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ" إلا أنهم في شك من قولهم هذا لما رأوا طول أظفارهم وشعورهم، بما يدل على أن نومهم أكثر من أن يقدر، فارتبكوا و"قالُوا" بعضهم لبعض "رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ" فوضوا العلم إلى اللّه لئلا يخطئوا في التقدير، ثم أحسوا بالجوع فقال بعضهم لبعض "فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ" الفضة المضروبة المتعامل بها تداولا بين الناس وهو بكسر الراء المال من الدراهم فقط، وبفتحها المال و ؟ ؟ ؟ والإبل كما في أدب الكاتب لابن قتيبة، وقيل في المعنى:

أعطيتني ورقا لم تعطني ورقا قل لي بلا ورق هل ينفع الورق

وفي رواية الحكم، والكاغد الذي يكتب عليه بفتح الراء، ويطلق على الفضة الغير مضروبة أيضا "هذِهِ" إشارة إلى ورقكم.

وفي حملهم هذه النقود عند فرارهم دليل على جواز حمل النفقة وما يصلح للمسافر لئلا يكون عالة على غيره أو يعرض نفسه للهلاك الحسي أو للتسوّل وهو الهلاك المعنوي ، وهذا رأي المتوكلين على اللّه ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : اعقلها وتوكل ، وقال بعض الأجلة : إن توكل الخواص ترك لأسباب بالكلية ، مستدلا بما روي عن خالد بن الوليد أنه شرب السم فلم يصبه شيء ، وأن سعد ابن أبي وقاص وأبا مسلم الخولاني مشيا بالجيوش على متن البحر ، وكذلك البراء الحضرمي خاض بقومه البحر ، وتميم الداري دخل الغار الذي فيه النار ليردّها بأمر عمر رضي اللّه عنهم .

وقال الإمام أحمد وإسحق وغيرهما من الأئمة بجواز دخول المفاوز بغير زاد وترك التكسب والتطبيب لمن قوي يقينه وتوكله ، ودليل الاحتياط مع التوكل فعل موسى عليه السلام وفتاه حينما سارا إلى الخضر إذ حملا معهما حوتا كما سيأتي في الآية 61 الآتية وعمل هؤلاء الأبرار

وحبري تبّع المار ذكره في الآية 37 من الدخان المارة وقول خاتم الرسل المار ذكره أكبر برهان على ذلك ، "إِلَى الْمَدِينَةِ" هي اخنوس ويطلق عليها الآن طرطوس وهي غير

طرطوس اللاذقية "فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكَى طَعَاماً" أي الباعة الذي طعامه زكيّ حلال نظيف "فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ" لنا نأكله "وَلْيَتَلَطَّفْ" في مشيه وحركته وبلين الكلام مع أهل المدينة من باعة الطعام وغيرهم ، ويترفق بمن يكلمه أثناء ذهابه وإيابه وشرائه ومن يعامله أو يسأله ويستر حاله ويكتم شأنه "وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً" 19 من أهل المدينة وغيرها ولا بما كان لنا مع ملكها ، ولا عما نحن فيه الآن "إِنَّهُمْ" الكفرة من أهلها "إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ" أيها الإخوان ويعرفوا مكانكم ويطلعوا على قصتكم "يَرْجُمُوكُمْ" بالحجارة حتى تموتوا شر موتة وأعيبها "أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ" التي هربنا منها وصرنا إلى ما نحن فيه من أجلها "وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً" إن عدتم إلى الكفر بعد إذ نجاكم اللّه منه "أَبَداً" 20 لا في الدنيا ولا في الآخرة ، إذ يستعبدونكم في الدنيا ويسترقونكم فلا يتيسر لكم الخلاص منهم والرجوع بالتوبة إلى ربكم فتموتمون على ملتهم ، وفي الآخرة تردون إلى عذاب النار .

وقد بالغ خطيبهم رحمه اللّه في تحذيرهم ونصحهم بما لا مزيد عليه ، مما يدل على صدق إيمانه بربه وزهده بدنياه طمعا بآخرته ، وإن إصغاءهم لمرشدهم دليل على أنهم كلهم ذلك الرجل .

قال تعالى "وَكَذَلِكَ" مثل ما أمتناهم لحكمة أحييناهم لحكمة و"أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ" أطلعنا أهل المدينة عليهم لحكمة أيضا و"لِيَعْلَمُوا" أي الذين ينكرون البعث أشباه قومك يا سيد الرسل "أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ" بالبعث بعد الموت "وَأَنَّ السَّاعَةَ" المعينة لخراب الكون الدنيوي وظهور الأخروي حق "لا رَيْبَ فِيهَا" أيضا واذكر لقومك يا حبيبي "إِذْ يَتَنَازَعُونَ" أهل المدينة الذين اطلعوا عليهم "بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ" وقت توفاهم اللّه من كيفية إخفائهم في الغار وإظهارهم ، فاتفقوا بعد أن رأوهم رجعوا إلى كهفهم وماتوا فيه ثانيا "فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً" أي سدوا باب الكهف عليهم حتى يحفظوا من تطرق الناس إليهم ، ولا حاجة لأن يعلم الغير مكانهم "رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ"

وعلمه كاف عن علم الناس "قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ" أي حكام المدينة الملك وأعوانه الذين أسلموا عند ظهور آيتهم كما سنوضحه بعد في قصتهم "لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً" 21 وكان كذلك ، ومن هنا استنبط جواز المحافظة على قبور الأنبياء والأولياء بالبناء عليها تخليدا لذكرهم ، تدبر .

ثم إن الخائضين في أمرهم من أهل الكتاب والمسلمين الذين يكونون بعدهم عند ما يزورون قبورهم هذه "سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ" وهذا قول اليهود "وَيَقُولُونَ" أي النصارى "خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ" وقولهما هذا "رَجْماً بِالْغَيْبِ" من غير علم واستناد "وَيَقُولُونَ" المسلمون "سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ" يا سيد الرسل لهؤلاء لا أحد منكم يعلم عددهم على الحقيقة وإنما "رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ" منكم و"ما يَعْلَمُهُمْ" من الناس "إِلَّا قَلِيلٌ" من الأولين والآخرين ، وهذا هو الحق من الحق لأن العلم بتفاصيل العوالم والكائنات وما فيهما من الماضي والحال والمستقبل لا يكون إلا اللّه .

مطلب أسماء أهل الكهف وقول في الاستثناء وقول أبو يوسف فيه والملك الصالح في قصة أهل الكهف :

قال ابن عباس رضي اللّه عنهما : أنا من أولئك القليل كانوا سبعة ، وهم :

1 مكسليخا 2 يمليخا 3 مرطونس 4 بيلونس 5 سارينوس 6 ذوقواس 7 كشفيططنوس وهو الراعي وكلبهم قطمير .

وقوله هذا حق ، واللّه أعلم ، لأن اللّه تعالى أردف الجملتين الأوليين وهما (ثَلاثَةٌ) إلخ و(خَمْسَةٌ) إلخ بقوله جل قوله (رَجْماً بِالْغَيْبِ) ولم يقل بعد جملة (سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ) إلخ شيئا وتخصيص الشيء بالوصف يدل على أن الحال في الباقي بخلافه فوجب أن يكون المخصوص بالظن القولين الأولين وأن يكون الثالث هو الصواب واللّه أعلم .

"فَلا تُمارِ فِيهِمْ" لا تجادل يا سيد الرسل بعددهم وشأنهم أحدا "إِلَّا مِراءً ظاهِرًا" بلا توغل فيه ولا قطع في حقيقته، وعليك أن تقف عند حد ما قصصناه عليك من أمرهم ولا تزد عليه شيئا "وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا" 22 من أهل الكتابين أي الذين سألهم وقد قريش عنهم ليسألوك عنهم، ولا ترجع لقول أحد بشأنهم بعد أن أخبرناك عنهم وبينا لك حقيقتهم.

(167/466)

هذا، ولما سألت قريش حضرة الرسول عنهم كما ذكرنا في الآية الثامنة المارة آنفا قال لهم غدا أخبركم، لأنه لا يعرف عنهم شيئا ولم يوح إليه بهم قبل سؤالهم ولا وقته، فأخّر الجواب انتظارا لنزول الوحي عليه لأنه لا ينطق عن هوى، وبما أنه عليه السلام لم يقل إن شاء اللّه لم يوح إليه في الغد، ولبث الوحي أياما لئلا يغفل مرة ثانية عن إسناد المشيئة للّه في كل حركاته وسكناته، ثم أنزل اللّه تعالى أثر قصتهم هذه قوله جل قوله "وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ" من الأشياء أبدا "إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَدًا" 23 على الجزم بل لا بد من أن تعلقه بالمشيئة فتقول "إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ" إذ لا يقع شيء دون مشيئته، فإذا قلت إني عازم أن أفعل أو أتكلم كذا فقل متصلا إن شاء اللّه، لأنك لا تدري أتوفق لذلك أم لا، وهذا نهي تأديب من اللّه لحضرة رسوله وتعليم

لأمته كي تقتدي به "وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ" المشيئة في قول أو فعل وقلها عند تذكرك .

الحكم الشرعي : يمتد الاستثناء عند ابن عباس سنة ، مثلا إذا قال قولا أو حلف فيجوز لديه أن يتبع قوله ذلك على الفعل والقول بالمشيئة إلى سنة .

وقال الحسن إلى أن يتفرقا من المجلس ولا يمتد بأكثر من ذلك ، وجوّز بعض العلماء إلحاقها في الزمن القريب ولم يجوزه الآخرون إلا متصلا بالقول أو الفعل ، وهذا ما عليه العمل الآن ، وقد دسّ بعض الناس إلى الخليفة العباسي بأن أبا يوسف يخالف في حكمه قول جده ابن عباس بقصد أن ينال منه ، فأرسل إليه وسأله قال له نعم ، لأن هذا القائل يريد أن يبايعك اليوم ويعطيك ما شئت من عهد وميثاق ويمين ويقول بعد ذلك إن شاء اللّه فينقضي بغيك ، وقد أردت سد هذا الباب لئلا يتمسك أحد بقول جدك فيكون حجة عليك ، فاستحسن ذلك منه وأقره وجعل عليه العمل ، وهو رحمه اللّه أخذه من هذه الآية إلا أنها مقيدة بالنسيان فلا يجوز تطبيقها بعدمه .

(168/466)

"وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا" 24 من هذا الذي أنا عليه في نبأ أصحاب الكهف وغيرهم من الآيات والحجج الدالة على نبوتي ، وهذا لأن الكامل لا يزال

يترقى في الكمالات مهما علت رتبته فيها ، وعليه فلا محل للقول بأن الذي عليه الرسول هو غاية الرشد ولا أقرب مما هو عليه ، لأن الكمالات

لا نهاية لها ، وفي هذا رد أيضا لمن قال إن حضرة الرسول لا يحتاج إلى إنشاء الصلاة عليه لكماله وعلو مرتبته .

قال تعالى "وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ" شمسية "وَازْدَادُوا تِسْعاً" 25 بحساب الأشهر القمرية وهذه المدة مدة لبثهم نياما في الكهف وهي كالبيان للمدة المتقدمة ، وجواب السائلين عن مدة لبثهم فإن جادلوك يا سيد الرسل في مدة لبثهم بعد هذا اليمان فلا تلتفت إليهم لأنه محض عناد ولا تمارهم فيه و"قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا" لا أنا ولا أنتم وهو الأجدر والأحسن بك من الأخذ والرد معهم لأنه هو الذي "لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" وحده جلّ علمه "أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ" به وقد حذف بدلالة الأول ، أي ما أسمعه بكل مسموع وأبصره بكل مبصر ويبصر جلّ شأنه ما لا نبصره ويسمع ما لا نسمعه ، لأن قوانا كليلة عاجزة ، وهاتان الكلمتان صيغتا تعجب أي ان ذلك أمر عجيب من شأنه أن يتعجب منه ولا امتناع من صدور التعجب من صفاته تعالى ، أما التعجب منه فممتنع ، راجع الآية 11 من سورة الصافات المارة ، وقل لمن يقول لك إن للكفرة أولياء يشفعون لهم عند اللّه الذي تدعوهم إليه "ما لَهُمْ" أي أهل السموات والأرض كلم "مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ" غير الإله

المنفرد في أمره الذي لا يقبل أن يتدخل أحد فيه "وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا" 26 من خلقه، فلئن لا يشرك معه من مصنوعاته شيئًا من باب أولى.

(169/466)

هذا آخر ما قصة اللّه تعالى علينا من شأن أهل الكهف، فيجب الوقوف عنده وإسناد علم ما عداه إليه تعالى بأن يقول المسئول إذا سئل عن أكثر من هذا، اللّه أعلم بشأنهم، لأنا لا نعلم إلا ما قصة اللّه علينا فيهم.

هذا، وإن في قوله تعالى في الآية 9 المارة (أصحاب الكهف والرقيم) ردا لما قاله بعضهم إن أصحاب الكهف هم المعنيون في هذه الآيات، وأصحاب الرقيم هم الذين ذكرهم حضرة الرسول في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم والبخاري عن أبي هريرة عن سالم عن ابن عمر أنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم: انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم فآواهم المبيت إلى غار، فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل وسدت عليهم باب الغار، فقالوا واللّه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا اللّه بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم كان لي أبوان شيخان كبيران إلخ.

وهو حديث طويل يراجع في محله، لأن هؤلاء يطلق عليهم أهل الكهف وأهل الغار،

والمذكورون في الآيات أهل الكهف وأهل الرقيم ، كما سيتبين لك من القصة الآتية إن شاء اللّه التي خلاصتها كما قاله الأخباريون :

إن غالب أهل الإنجيل بعد عيسى عليه السلام عظمت فيهم الأحداث والخطايا وطغت ملوكهم ، فعبدوا الأوثان وأكرهوا قومهم على عبادتهم ، ولما صار الأمر إلى دقيانوس شدد في ذلك كثيرا وأراد هؤلاء الفتية الذين هم من أشراف قومهم على عبادتها فأبوا وصاروا يجادلونه في عدم صلاحيتها للعبادة ، فخاف أن يتبعهم قومه ، فهددهم بالقتل إذا لم يوافقوه على عبادتها ، فأبوا وانصرفوا من أمامه ، فأمر بإحضارهم فهربوا ومروا براعي غنم ، فلما عرف أمرهم ترك غنمه وتبعهم هو وكلبه ، وما زالوا حتى بلغوا الكهف ، فدخلوه واختبارا به وناموا ، وأضل اللّه جنود الملك عنهم كما أضل جنود فرعون عن اللحاق بموسى عليه السلام ، راجع الآية 22 من سورة القصص فما بعدها ج 1 ، وأعمى الناس عن مكانهم طيلة هذه المدة وحفظهم اللّه من البلى بما قصه علينا في كتابه وهو خير حافظا ، كما أعمى اللّه قريشا عن حضرة الرسول حينما تخبأ في الغار الوارد في الآية 40 من سورة التوبة في ج 3 ، راجع تفصيلها في بحث الهجرة آخر هذا الجزء .

ولما لم يقفوا على خبرهم ولم يهتدوا لهم وقد أيسوا منهم بعد أن صرفوا غاية جهدهم ، فأمر الملك أعوانه أن يكتبوا أسماءهم وأنسابهم وتاريخ فقدهم والمكان الذي فقدوا به والسبب الداعي لهربهم على صحيفة من نحاس ففعلوا ، ثم أمر بحفظها في خزانته ليطلع عليها من بعدهم ، وبقي دقيانوس ومن بعده على حالتهم ، ثم بعد زمن عظيم ملك تلك المدينة رجل صالح اسمه بندوسيس فتحزب قومه معه وصار منهم من يدعو إلى الإيمان تبعا للملك ويقر بالبعث والحشر ، ومنهم من أصر على التكذيب وعبادة الأوثان ، ولما رأى الملك ظهور الكفرة على غيرهم حزن ودخل بيته وجعل تحته رمادا ولبس مسحا وصار يتضرع إلى اللّه بأن يظهر له آية تحق الحق وتبطل الباطل ، فألقى اللّه في نفس أولياس من أهل البلد الذي فيه الكهف أن يبني حظيرة لغنمه على باب الكهف ، ونزع ما كان من الحجارة عليه ، فأذن اللّه تعالى لهم باليقظة فقاموا كأنما استيقظوا

من ساعتهم ، فقالوا ليمليخا صاحب نفقتهم اذهب إلى المدينة متنكرا مترفقا وانظر ماذا يقول الجبار دقيانوس فينا وأتنا بطعام تشتريه من أحد المؤمنين ، وقال مكسليخا اثبتوا يا إخواني على الإيمان وارفضوا الأوثان رفضا باتا ولا تخافوا من أحد أبدا على فرض عثورهم علينا ومطاردتنا ، لأننا ملاقو اللّه ، ثم تكلموا بينهم على مدة لبثهم وكلوا يظنون أنهم ناموا ليلة وقعدوا على عادتهم ، ولما رأوا حالتهم وطول أظفارهم وشعرهم عرفوا أن نومهم كان كثيرا جدا ، فقوضوا أمر علم موتهم إلى اللّه كما ذكر اللّه ، ثم خرج يمليخا من الكهف ورأى الأحجار مبعثرة فلم يلق لها بالا ، وتوجه نحو المدينة حتى إذا دخلها تخيل له أشياء لم يعهدها قبل ، حتى انها غير مدينتهم ، فدنا إلى بياع الطعام فأعطاه قطعة من فضة وقال له أعطني بها طعاما ، فلما تناولها رأى نقشها قبل ثلاثة قرون وأكثر ، فقال له من أين لك هذه لعلك وجدت كنزا من هذا الورق ؟ فلم يعرف ما يقول له ، فاجتمع الناس وصاروا يكلمونه وهو لم يرد عليهم ، فأخذوه إلى مدير المدينة وكان مؤمنا اسمه اريوس واسم صاحبه الذي معه طنطيوس وهو مؤمن أيضا ، وظن يمليخا أنهم أخذوه إلى دقيانوس ، فانقطع قلبه من الخوف وصار يبكي ويقول يا ليت إخوتي معي فنقدم جميعا بين يدي هذا الجبار لأنا تواثقنا على الإيمان وعدم الافتراق أحياء وأمواتا ، فقال له يا فتى أين الكنز ؟ فقال لا كنز عندي هذا ورق آبائي ونقش هذه المدينة وو اللّه ما أدري ما شأني وشأنكم وماذا أقول لكم ، فقالا له من أنت ؟ فقال يمليخا من أهل هذه المدينة ، فقالا أنت

بمن يعرفك ، فصار ينظر إلى وجوه القوم فلم يعرف أحدا ، فقالا له أنت كذاب ، فاغتاظ من وصمهم له بالكذب ، فلم يرد عليهم ونكس بصره إلى الأرض واختار السكوت إذ لم يعرف ماذا يقول لهم ، فقالا له لا نرسلك ولا نصدق قولك أبدا ، لأن نقش هذا الورق قديم وأنت شاب فكيف تزعم أنه مال أبيك ونقش هذه

(173/466)

البلدة ، ولكن بين لنا الحقيقة لنتركك ، قال أخبروني ما فعل الملك دقيانوس ؟ فقالا لا يوجد على الأرض ملك بهذا الاسم ، إن كان قديما فقد هلك ، فقال إني حيران وإن قلت لكم حقيقتي لا

تصدقوني ، فقالا قل لعلنا نستنبط من كلامك ما نستدل به على خفية الأمر ، فقال نحن فتية

كنا على دين واحد وهو عبادة اللّه وحده ، فأكرهنا الملك دقيانوس على عبادة الأوثان ، فهربنا منه وتبعنا راعي غنم وكلبه ، وقد أوينا إلى الكهف بجبل مخلوس ونمنا فيه ، فلما انتبهنا لم نعلم المدة التي نمنا فيها لما رأينا من هيأتنا ، وقد أرسلني إخوتي لأشتري لهم طعاما والتجسس الأخبار ، وقد ظهر لي تبدل كثير في المدينة وأهلها ، ولما أعطيت قطعة من

ورقي لبائع الطعام صار على ما ترون ، وإن لم تصدقوا فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي ، فانطلقا وغالب أهل المدينة معهم ، ولما قربوا من الكهف سمع أصحابه اللغط ، فظنوا أن جنود الملك جاءت لتأخذهم فسلم بعضهم على بعض وقالوا لنذهب إلى الجبار ونرى صاحبنا ، فلما هموا ليخرجوا فإذا المديران ويمليخا وأهل البلد على باب الكهف ، فتقدم يمليخا وقص عليهم الخبر ، فعرفوا أنهم كانوا نياما بأمر اللّه ذلك الزمن الطويل ، وأوقظوا ليكونوا آية للناس على صدق البعث ، ثم رأوا تابوتا من نحاس داخل الكهف مختوما ، وكان رجلان مؤمنان بدروس وروماس يكتمان إيمانهما زمن الملك دقيانوس كتبا أنساب الفتية في لوح من رصاص ووضعاه في التابوت وطرحاه في الكهف ، ففتحوه فإذا فيه :

إن مكسليخا ويمليخا ومخشلينا وطرطوس وكشطونس ويبرونس وديموس وبطيوش وقالوس والكلب قطمير كان هؤلاء فتية هربوا من ملكهم دقيانوس مخافة أن يفتنهم عن دينهم ، فدخلوا الكهف ، فلما أخبر الملك بمكانهم أمر بسده عليهم بالحجارة وإنا كتبنا أسماءهم وشأنهم ليعلم من بعدهم حقيقتهم .

فلما رأوا ذلك عجبوا ودهشوا ، وأرسلوا خبرا إلى ملكهم الصالح بندوسيس أن أقبل ، فإن اللّه أظهر لك آية على البعث ، فجاء ودخل الكهف هو ومديراه وحيوهم بالسجود المعتاد إذ ذاك وتعانقوا معهم وصاروا يسبحون اللّه تعالى ويحمدونه ويمجدونه ، ثم ان الفتية بعد ذلك قالوا للملك ومديريه إنا نستودعكم اللّه وناموا فتوفاهم اللّه تعالى .

ثم إن الملك أمر بأن يصنع تابوت لكل منهم ليوضع فيه وأن يدفنوا في الكهف كل بمحل نومته وأن يعمر مسجد على باب الكهف ، وكان ذلك ، ولما رجعوا تحروا خزانة الملك فوجدوا لوحا مكتوبا فيه أسماؤهم وأنسابهم وشأنهم كما في اللوح الذي وجدوه بالتابوت الكائن معهم في الكهف ، وقد آمن أهل البلد كلهم لظهور هذه الآية العظيمة ، واللّه أعلم .

هذا على القول بأنهم كانوا بعد المسيح ، وهناك قول آخر بأنهم كانوا قبل موسى عليه السلام ، والقرآن لم يبين لنا زمانهم ، لذلك يجب أن نحيل العلم بزمانهم وعددهم إلى العليم الخبير وهو أسلم .

وفي إكرام هؤلاء الفتية دليل على صحة كرامات الأولياء ، وكذلك قصة عرش بلقيس المارة في الآية 39 من سورة النمل وما ذكرناه أول سورة الجن وما ذكر في سورة مريم في الآية 16 فما بعدها من سورتها في ج 1 وآخر سورة الأحقاف المارة وما ذكر في الآية 37 من سورة آل عمران ج 3 عن مريم وزكريا ، والأدلة السمعية والنقلية والعقلية تدل على ثبوتها ، والأخبار متواترة والآثار شاهدة ومؤكدة على وجودها ولا ينكرها إلا فاسق مارق .

قال تعالى "وَاتْلُ" يا أكرم الرسل "ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ" مما أخبرك به عن هذه القصة وغيرها ولا تلتفت إلى الأقاويل فيما يخالف ذلك لأنه محرف مبدل مغير وإن ربك "لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ" ولا مغيّر لها البتة "وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً" 27 حرزا تلجأ إليه فيه منه عند إلمام ملمة.

(175/466)

وملتحد في الأصل المدخل في الأرض، قال خصيب الضمري:

يا لهف نفسي ولهف غير مجدية عني وما عن قضاء اللّه ملتحدا

ويأتي بمعنى الميل والعدول، والأنسب هنا ما ذكر أولا.

وهذه الآية المدينة الأولى من هذه السورة.

مطلب أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلم بملازمة الفقراء المؤمنين والإعراض عن الكفرة مهما كانوا، وقصة أصحاب الجنة:

قال تعالى "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ" إلى غيرهم وتتركهم "تُرِيدُ" بمجالسة غيرهم من الأشراف والأغنياء بقصد "زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا" فتستبدل محبتهم وهم مؤمنون بسبب فقرهم وميلهم للآخرة بأناس

كفرة دنيويين لكونهم أغنياء ورؤساء كلا لا تفعل "وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ" في شهوات الدنيا وملاذها وهو عيينة الآتي ذكره النازلة في حقه هذه الآية ، وأمية ابن خلف الذي يقول في حقه جل قوله "وَكَانَ أَمْرُهُ"

في الآخرة "فُرُطاً" 28 هلاكا وخسرانا ، والفرط الظلم والاعتداء ومجاوزة الأمر عن حده وضياع الأمر عن وقته وتعطيل العمر في اللهو والسرف في الشيء الباطل ، نزلت هذه الآية قيل وما بعدها في سيدنا سلمان الفارسي ورفقائه رضي اللّه عنهم ، وذلك حين أتى عيينة بن حصن الفزاري إلى حضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم قبل أن يسلم وهو من المؤلفة قلوبهم ، وكان عند حضرة الرسول جماعة من فقراء المسلمين ، فقال له أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها إن أسلمنا أسلم الناس ، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء ، فنحهم عنك ، حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلسا على حده لأنا لا نرضى أن نجالسهم ، فلم يلتفت لقولهم .

ومن قال إنها نزلت في أمية ابن خلف ، قال إن هذه الآية مكية بالنظر لأن السورة مكية ، والصواب ما جرينا عليه وعليه أكثر المفسرين ، وقد أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية

والبيهقي في شعب الإيمان عن سلمان رضي اللّه عنه ، وروى أبو الشيخ عنه ذلك ، وإن حضرة الرسول صار يلتمسهم ويتعاهدهم أكثر من ذي قبل ، حتى قال الحمد للّه الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، ثم قال إلى سلمان وأبي ذر وأمثالهما معكم الحياة والممات .

أما الآية المكية التي نزلت في سيدنا بلال ورفقائه الخمسة التي تضاهي هذه الآية ، فهي الآية 52 من سورة الأنعام المارة كما أشرنا بها عن هذا فراجعها .

ثم التفت إلى حبيبه صلّى اللّه عليه وسلم وخاطبه بقوله "وَقُلِ" يا سيد الرسل لقومك عاملي القلوب عما يراد بهم في الآخرة "الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ" أيها الغافلون عن ذكره انتبهوا فإليه الأمر ومنه التوفيق والخذلان ، وبيده الهدى والضلال "فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ" بهذا القرآن المنزل عليّ من ربي "وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ" : وهذه الجملة جارية مجرى التهديد على حد قوله تعالى (اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ) الآية 40 من فصّلت المارة ، وإني لست بمعرض عن هؤلاء لأجل إيمانكم ، فإن آمنتم فلكم الجنة ، وإن أصررتم على كفركم وظلمتم أنفسكم فاللّه تعالى يقول "إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها" السرادق الحجرة التي تحيط بالقسطاط ، وهذه الكلمة لم تكرر في القرآن فقد شبه اللّه تعالى ما يحيط بهم من النار بالسرادق حول الحجرة ، أخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : قال

رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم سرادق النار أربعة جدر كثف كل جدار أربعون سنة ، أي مسافة عرضه "وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا" من شدة العطش فيها "يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ" يشبه عكر الزيت المذاب الشديد الحرارة "يَشْوِي الْوُجُوهَ" لعظم حرارته عند شربه "بِئْسَ الشَّرابُ" ذلك "وَساءَتْ" النار "مُرْتَفَقاً" 29 منزلا لأهلها ومتكأ ومجتمعا ، وجيء بهذه اللفظة للمشاكلة مع الآية الآتية وإلا ليس لأهل النار ارتفاق ولا منزل يتكأ فيه ولا مجمع محمود ، أخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم في قوله تعالى (كَالْمُهْلِ) كعكر الزيت ، فإذا قربه إليه سقطت فروة وجهه ، أي جلدته أعاذنا اللّه تعالى منه وأدخلنا في قوله "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا" 30 في دنياه ، وجملة إنا فما بعدها معترضة بين صدر آيتها وصدر قوله تعالى "أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ" ذلك الثواب عند رب الأرباب "وَحَسُنَتْ" جنة عدن دار الإقامة والخلود "مُرْتَفَقاً" 31 متكأ ومقرا ومجلسا لأهلها ، راجع معنى السندس وما بعده في الآية 53 من سورة الدخان المارة ومعنى الأساور في الآية 53 من سورة الزخرف المارة وجعل بعض القراء والمفسرين هاتين

الآيتين 30/ 31 آية واحدة وقال إن جملة (لا نضيع) إلخ معترضة بين صدر الآية وعجزها وهو سديد لولا وجود كلمة (أولئك) لهذا فهي آيتان مرتبطتان ببعضهما .

(178/466)

قال تعالى "وَاضْرِبْ لَهُمْ" يا سيد الرسل "مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً" 32 لتكون جامعة للقوت والفاكهة والخضر والزينة معا "كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها" ثمرها من كل ذلك "وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً" إشعار بأنها حملت حملها المعتاد ونبت حب الزرع كله فلم تجحد منه الأرض شيئا يؤدي إلى نقص الحاصل "وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً" 33 لإتمام النفع وإكمال الزينة لأن أحسن القصور وألطف البساتين ما يجري فيها الأنهار "وَكانَ لَهُ" لصاحبها "ثَمَرٌ" بالفتح جمع ثمرة وبالضم الأموال المثمرة على الإطلاق "فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ" حالة مخاطبته له "أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَأَعَزُّ نَفَراً" 34 أنصارا وحشما ، لأن من كان كذلك كثر أصحابه قال :

الناس أعوان من والته دولته وهم عليه إذا عادته أعوان

(179/466)

والناس عبيد الدرهم والدينار ، قال هذا القول لأخيه المؤمن "وَدَخَلَ جَنَّتَهُ" أفردها بالذكر لأنها في الأصل واحدة ولكن لما فصل بينها بالنهر صارت اثنتين بحائط واحد "وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ" بما قاله وما خطر بباله من القول السيء الذي أخبر اللّه عنه بقوله جل قوله "قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا" 35 شك الخبيث في دمارها لطول أمله في الدنيا وغروره بعاقبته وتماديه في غفلته وأكثر الناس الآن هكذا مسجلين في الديوان مسلمين ، ولم يعملوا عمل الإسلام ويزعمون أنهم مؤمنون وذلك بسبب انهماكهم في الدنيا وغرورهم فيها ، ثم تطاول هذا الكافر ولم يكتف بإنكاره وما قاله لأخيه بل تطرق لإنكار البعث أيضا فقال "وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً" كما يقال ثم بغى وطغى وقال على فرض صحة ما تزعمون أننا نحيا ونرد إلى اللّه فأنا أقسم لكم "وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا" من هذه الجنة التي ترونها "مُنْقَلَبًا" 36 مرجعا وعاقبة في الآخرة التي تقولون بوجودها كما أعطاني في هذه الدنيا ، ومن هذا القبيل تفوهات بعض السفهة الآن ردهم اللّه للهدى ووفقهم للرشد ووقانا وإياهم من الردى "فَقَالَ" أخوه المؤمن "له" لأخيه الكافر وقد محى اللّه كلا منهما صاحبا فقال "لِصَاحِبِهِ" لأن الصاحب يطلق على الأخ لغة وعلى غيره فلا منافاة لما ذكر من أنهما أخوان "وَهُوَ يُحَاوِرُهُ" يجادله بما مر ذكره مستفهما منه بقوله "أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا" 37 حتى قلت ما قلت ذكره رحمه اللّه بنعمة الخلق

والذكورة والتعديل في الخلقة لعله يتذكر نعم الله عليه فيرجع عما هو عليه ، ولما لم يرد عليه لما رأى من كلامه له من التأنيب مضى ونفخ إبليس في أنفه ، أعرض عنه أخوه المؤمن وقال له "لكِنَّا" أصلها لكن انا حذفت الهمزة من أنا ونقلت حركتها إلى

نون لكن فتلاقت النونان نون لكن ونون انا

فأدغمتا بعد أن سكنت الثانية فصارت لكنا "هُوَ اللَّهُ رَبِّي" وقرىء لكن أنا على الأصل وهو استدراك لقوله أكفرت ، أي أنت بمقالتك تلك كافر لكن أنا مؤمن "وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً" 38 أبدا ، ثم قال على طريق الأمر بالحث والإزعاج وهلا "وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ" بدل مقالتك السيئة تلك "ما شاءَ اللَّهُ" اعترافا بأن ما فيها منه وبأمره ومشيئته "لا قُوَّةَ" على عمارة وإنبات ما فيها وحفظه من الآفات لأحد ما "إِلَّا بِاللَّهِ" بمعونته ولطفه في ذاتك أيها المغرور "إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالًا وَوَلَداً" 39 تكبرت على وتعاظمت "فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ" في الدنيا أو في الآخرة "خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَ" ما تدري لعله "يُرْسِلَ عَلَيْها" على جنتك التي أطغتك "حُسْباناً" شهبا وصواعق أو نارا ، قال حسان :

بقية معشر صبّت عليهم شآبيب من الحسبان شهب

نازلة "مِنَ السَّماءِ" فيدمرها أو يحرقها "فَتُصْبِحَ صَعِيداً" أرضا غبراء لا شية فيها يدل على أنها كانت جنة ذات أشجار وزروع "زَلَقاً" 40 جرداء ملساء تزلق فيها الأقدام لا ثبات فيها ، وأصل الزلق المشي في الوحل والزّلل في الرجل ، شبه عروها من النبات بعد أن كانت ملتفة بأرض وحلة أو رملة لا شيء فيها مما يستمسك به "أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً" في أعماق الأرض "فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً" 41 لا تناله الأيدي ولا الدلاء فتيبس أشجارها ونباتها .

قال تعالى "وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ" من جميع جهات الجنة إذ أرسل عليها نارا فأحرقتها كلها وصاعقة فأحرق نباتها وغار ماؤها "فَأَصْبَحَ" صاحبها ذلك المغرور بها عند مشاهدتها والنظر إليها "يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ" يضرب أحدهما بالأخرى تأسفا ولهفا عليها ، قال عمر ابن أبي ربيعة :

وضربنا الحديث ظهرا لبطن وأتينا من أمرنا ما اشتهينا

وذلك حزنا وندما "عَلى ما أَنْفَقَ فِيها" من المال والتعب وحرمانه من منافعها وبهجتها "وَهِيَ خاوِيَةٌ" ساقطة متراكمة "عَلى عُرُوشِها" أي سقطت جدران الجنة على عروش

الكرم ، وهذا كناية عن تدميرها كلها وخلائها

من كل ما كان فيها لأن خوا بمعنى خلا "وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا" 42 قال هذا لما سقط في يده وقال يا ليتني سمعت موعظة أخي ، لأنه عرف أن ما أتاه كان بسبب الكفر والطغيان ، لذلك أظهر ندمه حين لات مندم ، وقد خاب أمله من الناس لأنهم كانوا يلتفون حوله بغية ما عنده ، فلما ذهب ذهبوا عنه على حد قوله :

رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهب

ومن لا عنده ذهب فعنه الناس قد ذهبوا

يدل على هذا قوله تعالى "وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ" فيحفظون له جنته "وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا" 43 هو أيضا لعجزه .

قال تعالى "هُنَالِكَ" في ذلك المقام مقام نزول الهلاك وإيقاع الهوان وصبّ العذاب "الْوَلَايَةُ" الحقيقية بكسر الواو بمعنى السلطان والملك وبفتحها النصرة والتولي "لِلَّهِ الْحَقِّ" وحده لا يملكها غيره فلا حائل يحول دون تنفيذها ولا مانع يمنع وقوعها "هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا" لأهل طاعته "وَخَيْرٌ عُقْبًا" 44 بضم القاف وسكونها وعلى وزن فعلى شاذا وكلّها بمعنى العاقبة ،

ضرب اللّه تعالى هذا المثل بمناسبة الآية المتقدمة النازلة بحق عيينة بن حصن الفزاري وأصحابه المار ذكرهم وفقراء المسلمين سلمان وأصحابه ، وذلك أن رجلين من بني إسرائيل ورثا ثمانية آلاف دينار فاقتسماها بينهما ، فأما أحدهما فتزوج بألف وبنى قصرا بألف وشرى جنة بألف واشترى متاعا وخدما بألف واسمه قطروس ، وأما الآخر واسمه يهوذا فتصدق بها وطلب ثوابها جنة وقصرا وزوجة ومتاعا وخدما في جنته ، فأصابته حاجة فتعرض إلى صاحبه ، فقال له ما فعلت بمالك ؟ فأخبره الخبر ، فقال له وإنك لمن المصدقين بأنك تثاب وتعطى وأنك تبعث ؟ قال نعم ، فقال واللّه لا أعطيك شيئا ما دامت هذه عقيدتك ، فقال واللّه لا أحول عنها أبدا ، وسيغنيني اللّه عنك ويرديك ، فأنزل اللّه هذه الآية بحقهما وهذان هما المشار إليهما في الآية 50 من سورة الصافات المارة لا المشار إليها في سورة نون ج 1 ، تأمل .

مطلب مثل الدنيا وتمثيل الأعمال بمكانها وزمانها ونطقها يوم القيامة كما في السينما :

قال تعالى "وَاضْرِبْ" يا سيد الرسل "لَهُمْ" لقومك على صحة البعث "مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ" من كل صنف ونوع وجنس ولون وشكل

كان ملتفا بعضه على ببعض متكاثفا زاهيا رابيا تهتز به الأرض ابتهاجا وحسنا "فَأَصْبَحَ" بعد ذلك "هَشِيماً" يابسا مفتتا "تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ" واعلم أن كلمتي تذروه والذاريات لم تكررا في القرآن ، أي تنسفه يمينا وشمالا "وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً" 45 ضرب اللّه تعالى هذا المثل يشبه به حال الدنيا في نضرتها وزينتها وما يطرأ عليها من الهلاك والفناء بالنبات في الأرض يخضر ويزهو ثم ييبس ويتكسر فتطيره الرياح ثم يحييه اللّه تعالى بالمطر فيعود كما كان كأن لم يطرأ عليه شيء ، وهكذا الخلق ينشأ من الماء أيضا فيكثرون ويتباهون بالأموال والأولاد والرياسة والجاه ثم يموتون ثم يحييهم اللّه تعالى كما كانوا ، ثم يعاملون بمثل أعمالهم ، فيحيا حياة طيبة دائمة من حيّ على بينة ويهلك هلاكا قبيحا دائما من هلك على بينة .

ونظير هذه الآية في المعنى الآية 34 من سورة يونس المارة .

قال تعالى "الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" يتفاخر بها أهلها "وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ" زينة الحياة الآخرة وهذه "خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً" من زينة الدنيا "وَخَيْرٌ أَمَلًا" 46 ممّا يؤمله الإنسان من جميع خيرات الدنيا لعظيم جزائها عند اللّه ، وهو نائلكم حقا ، لأن وعد اللّه بها صادق ، وأكثر آمال الدنيا كاذبة قد لا ينالها الإنسان ، روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لأن أقول سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس .

وأخرج مالك في الموطأ أن هذه الكلمات هي الباقيات الصالحات ، والحقيقة أنها كل عمل صالح.

(184/466)

قال تعالى "وَ" اذكر يا محمد لقومك "يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ" عن مواقعها هذه فتجعلها هباء منثورا ، راجع الآية 107 من سورة طه والآية 4 من سورة الواقعة في ج 1 ، وأمثالها كثير في القرآن "وَتَرَى الْأَرْضَ" بعد ذلك "بارِزَةً"

ظاهرة للعيان لا بناء فيها يسترها ولا شجر يحجبها ولا جبل يغطيها ولا خلق عليها ولا فيها ، راجع الآية 4 من سورة الإنشقاق في ج 1 والآية 2 من سورة الزلزلة في ج 3 ولا أنهار ولا بحار ، وذلك عند النفخة الأولى "وَحَشَرْناهُمْ" الموتى المدفونين فيها أحياء بعد ذلك وسقناهم إلى الموقف فأحضرناهم فيه بعد النفخة الثانية "فَلَمْ نُغادِرْ" نترك في بطن الأرض والماء والحيوان والحوت والهواء "مِنْهُمْ أَحَداً" 47 إلا أحضرناه في أرض المحشر "وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا"

للحساب والجزاء كما يستعرض القائد العام جنوده لا يخفى عليه منهم أحد ، أما القائد فقد يخفى عليه آحاد وشتان بين الخالق والمخلوق فيقول لهم اللّه عزّ وجل وعزتي وجلالي

قَدْ جِئْتُمُونا"

أيها الخلق ما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ"

في الدنيا وحدانا لا مال ولا ولد ولا نشب ولا رياش عندكم َلْ زَعَمْتُمْ"

في الدنياأَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً"

48 في الآخرة نلاقيكم فيه ونقاضيكم على أعمالكم من صدق وإيمان وكفر وخسران .

ونظير هذه الآية الآية 94 من سورة الأنعام المارة .

(185/466)

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال : قام فينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم

بموعظة فقال : أيها الناس إنكم تحشرون إلى اللّه حفاة عراة غرلا (قلفا) - لأن الغرلة القطعة

التي تقطع من جلدة الذكر وهي موضع الختان - كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا

كنا فاعلين ، ألا وان أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ، ألا وإنه سيجاء

برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول يا رب أصحابي ، فيقول إنك لا تدري ما

أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح - يريد عيسى عليه السلام - : (وكنت عليهم

شهيدا ما دمت فيهم) إلى قوله (العزيز الحكيم) ، قال فيقال لي إنهم لم يزالوا مرتدين على

أعقابهم منذ فارقتهم ، زاد في رواية فأقول سحقا سحقا .

قال بعض العلماء المراد بهم – واللّه أعلم – هم الذين ارتدوا بعده ومنعوا الزكاة من العرب ، ولكن الحديث عام فيشمل هؤلاء وغيرهم من أمثالهم ، وان من خصّه فيهم استنبط اختصاصه من قوله صلّى اللّه عليه وسلم (أصحابي) إذ لا يسمى صاحبا إلا من شاهد حضرة الرسول أو شاهده الرسول ليدخل الأعمى ومات على ذلك "وَوُضِعَ الْكِتَابُ" أل فيه للجنس إذا أريد به أهل اليمين

وأهل الشمال ، وظاهر ما بعده تخصيصه بأهل الشمال فقط ، فتكون أل فيه للعهد أي الكتاب المعهود الذي فيه صحف أعمالهم ، قال صاحب الجوهرة في منظومته :

وواجب أخذ العباد الصحفا كما من القرآن نصا عرفا

وقال بدء الأمالي :

وتعطى الكتب بعضا نحو يمنى وبعضا نحو ظهر أو شمال

والحكم الشرعي : وجوب اعتقاد هذا ، ومن أنكره فهو كافر لإنكاره كلام اللّه دون تأويل أو تفسير ، قدمنا ما يتعلق بهذا في الآيتين 36/ 37 من سورة الإسراء المارة في ج 1 ، وله

صلة في الآية 9 فما بعدها من سورة المطففين الآتية ، "فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ" خائفين من سوء أعمالهم "وَيَقُولُونَ" عند مشاهدته "يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ" استفهام تعجب من كونه "لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً" من أعمال بني آدم وغيرهم "إِلَّا أَحْصاها" أثبتها ودونها فيه "وَوَجَدُوا" فيه كل "ما عَمِلُوا" في دنياهم "حاضِراً" بحيث يخيل إليهم فعلهم وقولهم كما أوقعوه في الدنيا بتخييل حقيقي وتمثيل واقعي بحيث ينطق كل بما وقع منه ، بخلاف تمثيل أهل الدنيا (سينما) فإنه صوري وما يسمعونه من الكلام ليس من كلام الأشباح المخيلة نفسها بل من الشريط المعروض كالأسطوانات التي تمر عليها الإبرة ، ونظير هذه الآية الآية 21 من آل عمران ج 3 ، فيسمعون كلامهم أنفسهم وكلام من تكلموا معه ويسمعون نطق جوارحهم بما عملت وبأي مكان وزمان يرونه أيضا ويرون جزاءه مهيأ بنسبته "وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً" 49 بحيث لا ينقص ثوابا ولا يزيد عقابا ولا يعذب أحدا بغير جرم ، ولا يثيب أحدا بغير عمل صالح ، وهذا لا على سبيل الوجوب إذ له جل جلاله إثابة العاصي وعقاب الطائع إذ لا يسأل عما يفعل وإنما يعامل العاصي بمقتضى العدل والطائع بحسب الفضل ، فمن أين لكم أيها الناس بعد هذا تنكرون إعادة خلقكم وتكذبون رسلكم ، وقد ضرب لكم الأمثال الحقيقية عليه وقص عليكم رسله نتيجة ما تؤولون إليه .

مطلب إبليس من الجن لا من الملائكة وانواع ذريته وما جاء فيهم من الأخبار :

قال تعالى "وَ" اذكر يا محمد لقومك بعد قصة أهل الكهف وأصحاب الجنة وحال البعث ومنكريه "إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ" وهذا السجود للتحية والتكريم لا للعبادة ، لأن سجودها خاص بالمعبود العظيم وحده ، وكان اسمه عليه اللعنة بالسريانية عزازيل ، وبالعربية الحارث ، فلمّا عصى سمي إبليس لأنه أبلس وأيس من رحمة اللّه وغيرت صورته إلى السمرة والزرقة بعد البياض والصفرة والحمرة .

وهذا الخبيث الذي لم يتمثل أمر ربه "كانَ مِنَ الْجِنِّ" وهذا كلام مستأنف كأنه قيل لم لم يسجد مع الملائكة ، فقيل لأن أصله من الجن لا من الملائكة إذ لو كان منهم لما تخلف عن أمر ربه لأنهم لا يعصون اللّه فيما يأمرهم طرفة عين ولا يغفلون عن ذكره ، فثبت أنه من الجن بنص هذه الآية التي لا تقبل التأويل .

واعلم أن قبيلة إبليس انقرضت ولم يبق منها غيره فهو أصل الجن والشياطين ، كما أن آدم أصل البشر ، أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال : قاتل اللّه أقواما زعموا أن إبليس من الملائكة واللّه تعالى يقول كان من الجن .

وأخرج عنه ابن جرير وابن الأنباري في كتاب الأضداد وأبو الشيخ في العظمة أنه قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين وانه الأصل الجن كما أن آدم أصل البشر فهو في الجن كنوح

عليه السلام في الإنس من غير تشبيه ، لأن نوحا أبو البشر الثاني بسبب إهلاك من قبله من ذرية آدم ، وإبليس أبو الجن الثاني بسبب انقراض الجن قبله من ذرية أبيهم الجان .

(188/466)

ومن هذا يعلم أن ما قيل إنه من الملائكة لا يستند إلى دليل صحيح ، وهو قيل مخالف لصراحة القرآن ، وإن من قال أنه منهم عده من أقربهم إلى اللّه ، وهذا يقدح في عصمة الملائكة الذين لا خلاف في عصمتهم ، راجع الآية 158 من الصافات المارة وما ترشدك إليه فقيه ما تريده ، ولهذا فإن الاستثناء في هذه الآية منقطع على حد قوله تعالى (إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي) الآية 58 من الزخرف المارة على العكس في المعنى أي في المستثنى والمستثنى منه ، ومثله في قوله تعالى (لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلَّا سَلاماً) الآية 63 من سورة مريم في ج 1 ، لأن المستثنى فيها ليس

من جنس المستثنى منه .

(189/466)

أما إطلاق لفظ الجن على الملائكة في قوله تعالى (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً) الآية 158 من سورة الصافات المارة على قول من قال إن المراد بالجنة فيها الملائكة، لأن العرب تقول إن الملائكة بنات الله، لأنه مأخوذ من الاجتنان وهو الستر، ومنه سمي الجنين لاستتاره في بطن أمه، فتدخل الملائكة في هذا اللفظ من هذه الحيثية فقط، وعليه يجوز إطلاق لفظ الجن على كل الملائكة على هذا المعنى، وإلا فالجنّ جنس والملك جنس آخر مخالف، وقد أثبت اللّه في قوله الآتي أنه له ذرية بنص لا يقبل التأويل ولا يحتمله، وأنت خبير بأن الملائكة لا يتوالدون فلا ذرية لهم، وأنهم خلقوا من نور اللّه، والجن من ناره بنص القرآن، فلا مشابهة بينهم في أصل الخلقة، تدبر "فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ" بعدم الامتثال تكبرا لزعمه أنه أفضل منه، راجع هذا البحث في الآية 12 من سورة الأعراف في ج 1، "أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ" يا بني آدم "أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي" بعد أن خالف أمري وطرد من رحمتي "وَهُمْ" إبليس وذريته "لَكُمْ عَدُوٌّ" أيها الناس ثابت العداوة مع أبيكم آدم بالنص القطعي، فإذا كنتم إليه ولذريته ظلمتم أنفسكم بدل أن ترحموها، واللّه تعالى يقول "بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ" المتخذين أعداءهم أولياء "بَدَلًا" 50 من اللّه تعالى، قيل إن إبليس يوسوس للعبد بترك الصلاة ويوسوس له فيها أيضا ليقطعها عليه، وله من نوع الذرية خمس:

(1) الأعر يحبب للناس الزنى (2) ووتير يجزّعهم على المصائب (3) ومسوط يلقي في

قلوبهم الأراجيف (4) وداسم يأكل ويشرب مع من لم يسم اللّه تعالى (5) وذو بنور الذي يرغب الناس للدخول في الأسواق .

(190/466)

وقد أخرج ما بمعناه ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم عن مجاهد ، وروى مسلم عن عثمان ابن أبي العاص قال : قلت يا رسول اللّه إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وبين قراءتي يلبسها عليّ ، قال فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ذلك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ باللّه منه واتفل على يسارك ثلاثا ، قال ففعلت ذلك فأذهبه اللّه عني .

وروى مسلم عن جابر قال :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئا ، ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته ، قال فيدنيه منه ويقول نعم أنت .

قال الأعمش أراه قال فيلتزمه أي يضمه إلى صدره تحيذا لفعله ، عليه وعلى ذريته الكافرة اللعنة والغضب .

وروى ابن زيد أن الله تعالى قال لإبليس إني لا أخلق لآدم ذرية إلا ذرأت لك مثلها ، فليس يولد لآدم ولدا إلا ولد معه شيطان يقرن به ، ولا علينا أن نعلم كيفية توالده ، لأن كثيرا من الأشياء لم يطلع الله عليها خلقه ، والقصد وجوب الاعتقاد بحصول الذرية له ، سواء أكان ذلك كالبشر أم كالحيوان أو كالطير أو الحوت أو الحشرات وغيرها .

(191/466)

قال تعالى "ما أَشْهَدْتُهُمْ" أي إبليس وجنوده وذريتهم "خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ" أي ما أطلعتهم على ذلك ، لأني خلقتها قبل خلقهم ، فافردوني أيها الناس بالعبادة كما انفردت بالخلق ، وإياكم أن تشركوا في ذلك غيري فتظلموا أنفسكم "وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً" 51 أعوانا أستعين بهم على خلقهما أو خلق شيء مما فيهما وعليهما فكيف تتخذونهم أولياء من دوني أيها الكفرة "وَ" اذكر يا محمد لقومك حالة أولئك المتخذين شريكا معي "يَوْمَ يَقُولُ" لهم يوم القيامة "نادُوا شُرَكائِيَ" الذين عبدتموهم في الدنيا "الَّذِينَ زَعَمْتُمْ" أنهم شركائي وأنهم يشفعون لكم في الآخرة هذه "فَدَعَوْهُمْ" واستغاثوا بهم هلم انقذونا مما نحن فيه واشفعوا لنا كما وعدتمونا في الدنيا "فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ" لأنهم إن كانوا من الملائكة أو عزيز وعيسى وعلي عليهم السلام أو غيرهم من البشر فإنهم يتبرءون

منهم ويستعيذون بالله من عبادتهم ويتضرعون إلى الله بالعفو عنهم من هذه النسبة الباطلة ، وإن كانوا من الأصنام فهي حجارة أو خشب أو غيرها من الجماد الذي لا يسمع ولا يتكلم ، ثم يحال بينهم وبين ما يعبدون لقوله تعالى "وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ" وبين أوثانهم "مَوْبِقاً" 52 مهلكا ، قال ابن عباس هو واد في النار يجتمعون فيه في جهنم "وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا" أيقنوا وتحققوا "أَنَّهُمْ مُواقِعُوها" مدفعون إليها وداخلون فيها وذلك بعد أن أراهم عجز أوثانهم وتبرأ الأولين وإهلاك الآخرين في الموقف بعد الحساب والقضاء "وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً" 53 لأنهم بعد أن أوقعوا فيها أحاطت بهم من

كل جانب فلا محيص لهم غير الاحتراق فيها .

(192/466)

قال تعالى "وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ" ليتعظوا فلم ينجع بهم "وَكانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا" 54 في الباطل ، وقيل إن هذه الآية نزلت في النّضر بن الحارث ، وقيل في أبي بن خلف ، لأنهما أكثر الكفرة جدالا في القرآن ، والآية عامة فيهما وفي غيرهما ممن عمل ويعمل عملهما إلى يوم القيامة ، وفي كل من يجادل في آيات الله بالباطل .

روى البخاري ومسلم عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم طرقه

وفاطمة ليلا ، فقال ألا تصليان ؟ فقلت يا رسول اللّه أنفسنا بيد اللّه ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا (أي لما تريده منا) فانصرف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئا ، ثم سمعته يقول وهو مول يضرب فخذه بيده (وكان الإنسان أكثر شيء جدلا) .

وهذا الحديث لا يعني أن الآية نزلت في ذلك ، وإنما ذكرها حضرة الرسول بمناسبة ما قاله علي تعجبا من سرعة جوابه وعدم موافقته له على القيام إلى الصلاة ، وفيه إيماء إلى عدم قبول قوله ، ولهذا ضرب فخذه .

قال تعالى "وَما مَنَعَ النّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ" مما هم عليه "إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ" هلاك الاستئصال "أَوْ" انتظار لأن "يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلًا" 55 عيانا مقابلا لهم يشاهدونه بأعينهم ، وهو جمع قبيل ، وإذ ذاك لم يقبل منهم الإيمان ، لأن الحالة حالة يأس وبأس ، راجع الآية 158 من سورة الأنعام المارة ، أي انهم لا يؤمنون بأحد هذين الشيئين ، وذلك ليس من شأن العاقل ، إذ عليه أن يؤمن بمجرد وضوح الدلائل على الإيمان ، وقرىء قبلا بضم القاف والباء ، وبكسر القاف وفتح الباء ، والمعنى ضروب من أنواع العذاب وبفتحتين مستقبلا ، وهو ما يجوز فيه ثلاث لغات كالعمر والقصر والدهر والولد والرغم والشط والسقط والفتك

والشرب والفم والضر والزعم والوجد والقلب والضب والطب والقطب والحرض .

قال تعالى "وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ" الأمم بعقاب العاصي وثواب الطائع "وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا" أنبياءهم "بِالْبَاطِلِ" مثل قولهم (ما أنتم إلا بشر مثلنا) وقولهم (لو شاء الله لقلنا مثل هذا) (ولو شاء الله لأنزل ملائكة)

(194/466)

(ولولا أنزل هذا القرآن على رجل) الآية ، وأشباه هذه الآيات كقولهم ساحر وكاهن وشاعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين واختلاق وافتراء إلى غير ذلك "لِيُدْحِضُوا" يزيلوا ويبطلوا ويمحقوا "بِهِ" بجدالهم هذا "الْحَقَّ" الذي جاءهم من عندنا على أيدي رسلهم "وَاتَّخَذُوا" أولئك الكفرة "آيَاتِي" التي أنزلتها إليهم بواسطة رسلي "وَمَا أُنْذِرُوا" به منها وما فيها من التهديد والوعيد والتقريع والتوبيخ والتبكيت "هُزُوًا" 56 سخرية بضم الزاي وإسكانها "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ" يريد القرآن خاصة بدليل تذكير الضمير فيما يأتي "فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ" من الكفر والعصيان ، أي لا أظلم من هذا أبدا "إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ" أي الذين ذكروا فأعرضوا "أَكِنَّةً" أغطية كثيفة "أَنْ يَفْقَهُوهُ" لئلا يعوه

ويفهموه "وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا" لئلا يسمعوه ويعقلوه "وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى" الذي تريده لهم يا سيد الرسل "فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا" 57 لسابق سقائهم وإحقاق الكلمة عليهم ، لأن هذه الآية خاصة في أقوام منهم علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون أبدا "وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ" على كفرهم ، ولكن من مقتضى رحمته تأخيره ، ولذلك جاء الإضراب بعده بقوله "بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ" لتعذيبهم في الدنيا كما لهم موعد لعذابهم في الآخرة لا خلف فيه "لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا" 58 منجى وملجأ قال الأعشى :

وقد أخالس رب الدار غفلته وقد يحاذر مني ثم مائيل

ينجو .

(195/466)

قال تعالى "وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا" أعاد الضمير لأهلها ، والمراد بهم هنا الذين يعلمونهم أكثر أهل مكة وهم قوم نوح فما بعده ، لأن القرى لا تهلك إلا بهلاك أهلها ، وإلا فما داموا فيها فهي عامرة بهم ، وكان سبب إهلاكهم الظلم "وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا" 59 أجلا فاجأناهم به ، والمراد به هلاك الاستئصال عقابا لهم على ظلمهم لأن غيره يحصل لكل الأمم ، أي وكذلك قومك يا محمد إن لم يؤمنوا فيحل بهم ما حل بهم .

مطلب قصة موسى عليه السلام مع الخضر رضي اللّه عنه :

قال تعالى "وَ" اذكر لقومك هذه القصة العظيمة أيضا "إِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ" يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليه السلام ، وهو ابن أخت موسى كما ذكروا وأكبر أصحابه ، وخليفته في شريعته بعد هرون عليهم السلام ، وهو من عظماء بني إسرائيل وسمي فتى ، وهو هنا بمعنى خادم وعبد لقيامه في خدمته ودوام متابعته له وكثرة تعلمه منه ، وإلا فمعنى الفتى الشاب الطري السجي الكريم ، والفتوة لقب شرف ويأتي بمعنى الحديث في السن ، ولهذا يقال لليل والنهار الفتيان ، والتلميذ عبد حكمي لأستاذه مهما كان شريفا أو حقيرا .

قال شعبة : من كتبت عنه أربعة أحاديث فأنا عبده ، ومن علمني حرفا كنت له عبدا .

(196/466)

ومقول القول "لا أَبْرَحُ" لا أزال أسير "حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ" قالوا بحر فارس والروم وملتقاهما مما يلي المشرق ولعل المراد بما يقرب من مجمعها لأنهما لا يجتمعان إلا في البحر المتوسط وهما شعبتان فيه "أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا" 60 أداوم على السير زمنا طويلا ، والحقب ثمانون سنة ، وذلك أن اللّه تعالى وعد موسى أن يلقى الخضر هناك ، وموسى هذا هو ابن

عمران ، وما قيل إنه ابن ميشا من أولاد يوسف لا صحة له ولا ثقة بالمنقول عنه وهو كعب الأحبار ، لأن اللّه تعالى لم يذكر في كتابه مسمى بهذا الاسم غير صاحب التوراة ، ولو أراد غيره لذكره وعرفه ليتميز عنه ، روى البخاري ومسلم عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس إن نوفل البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو بني بني إسرائيل ، فقال ابن عباس كذب عدو اللّه ، حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول إن موسى عليه السلام قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم ؟ فقال أنا فعتب اللّه عليه ، إذ لم يرد العلم إليه (أي لم يقل اللّه أعلم) فأوحى اللّه سبحانه وتعالى إليه أن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال يا رب فكيف لي به ؟

قال فخذ معك حوتا فاجعله في مكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتا فجعله في مكتل ثم انطلق ، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون ، حتى أتيا الصخرة (بوجد بقرب ملتقى نهر الكلب والبحر الأبيض المتوسط في بيروت صخرة عظيمة

يزعمون أنها هي تلك الصخرة ، وأن المراد بملتقى البحرين نهر الكلب والبحر الأبيض هناك ، وهو قول لم يثبت ، وقد ذكرنا غير مرة بأن أشياء كهذه لا يمكن القطع بها ، وأن كل ما لم

يبينه اللّه يجب أن نحيل العلم فيه إليه) وضعا رءوسهما فناما ، فاضطرب الحوت في المكتل ، فخرج منه فسقط في البحر ، وتيقظ يوشع عند ذاك فرآه ، قال تعالى "فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهما نَسِيا حُوتَهُما" أي نسي يوشع أن يخبر موسى بما رآه من أمر الحوت وهو قوله تعالى "فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً" 61 إذ أمسك اللّه عن الحوت جرية الماء وموجه فصار عليه مثل الطاق ، وان موسى لم يسأله عن المكتل الذي فيه الحوت ولهذا نسب اللّه تعالى النسيان إليهما وبقيا يمشيان بقية يومهما وليلتهما "فَلَمَّا جاوَزا" المكان الذي فقدا فيه الحوت وداوما على السير ألقى اللّه على موسى الجوع ليتذكر موعد ربه ، حتى إذا كان الغد من هذا اليوم "قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً" 62 وذلك لأنه جاوز المحل الذي أمره اللّه به ، أما قبله فلم يحس بتعب لأنه لا يكلف عبده بما لا قدرة له به ولا طاقة له عليه سواء في العمل أو في العبادة ، راجع الآية الأخيرة من سورة البقرة في ج 3 ، فتيقظ إذ ذاك يوشع و"قالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ" قال له موسى بلى ، قال "فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ" أي نسيت أن أقص عليك خبره ، فذكر له شأنه وقال "وَما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ" لك ، قال هذا على سبيل الاعتذار ، ثم قال "وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً"

63 أي أن خروجه من المكتل ودخوله البحر وصيرورة البحر عليه طاقا كالسرب كان عجبا ، قيل كان في أصل الصخرة عين ماء يقال لها عين الحياة لا يصيب شيء من مائها إلا حيّ ، وقد أصاب ذلك الحوت منها شيء ، فتحرك وانسل من المكتل إلى البحر ، مع أنه كان مطبوخا ، ولهذا كان لموسى وفتاه عجبا ، لأنه حوت مطبوخ وقد أكلا منه ، والأعجب منه أيضا ماء البحر مع شدة موجه ، وما يحصل فيه من الجريان يمينا وشمالا بسببه يكون سربا مثل الطاق ويبقى على حاله زمنا ، إلا أنه ليس بأعجب من فلق البحر له عليه السلام ، وإنما لم يتعجب منه لأن اللّه وعده به "قالَ"

موسى لفتاه "ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ" من المكان الذي نطلبه "فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً" 64 حتى وصلا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجّى بثوب وهو المعني بقوله تعالى "فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا" هو الخضر عليه السلام واسمه بليا بن ملكان ، وقالوا إن من عرف اسمه واسم أبيه ومات مسلما دخل الجنة ، نقله الباجوري في حاشيته على شرح ابن قاسم ، ونقل ابن زياد في فتاويه غاية بلوغ المرام عن العلامة أحمد بن زيد الجيش من كتب (علي عليه السلام ولد في 10 رجب سنة 30 من عام الفيل دخل الجنة) واللّه يرزق من يشاء بغير حساب إذا أراد فعل ، ثم وصف ذلك العبد بقوله "آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً" 65 وهو الإخبار بالمغيبات التي خصه اللّه بها ، قالوا فلم عليه موسى فقال عليه السلام ،

وانا بأرضنا السلام ، ثم رد عليه وقال من أنت ؟ قال موسى ، قال موسى بني إسرائيل ، قال نعم ، قال وما شأنك "قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا" 66 وقد ثبت عن حضرة الرسول أن هذا هو الخضر عليه السلام ، روى البخاري عن أبي هريرة قال :

(199/466)

قال رسول اللّه صلّي اللّه عليه وسلم إنما سمي خضرا لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء (الفروة القطعة من النبات اليابس المجتمع ، وتطلق على وجه الأرض أيضا) قالوا وكنيته أبو العباس وكان من أبناء الملوك الأقدمين الذين تزهدوا وتركوا الدنيا ، قالوا قال يا موسى أما يكفيك التوراة والوحي وتكليم اللّه لك ، قال إن ربي أرسلني إليك ، ثم قال له من أين عرفتني موسى نبي إسرائيل ، قال عرّفني الذي أرسلك إليّ ثم "قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا" 67 يا موسى لأني على علم علمنيه ربي لا تعرفه "وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا" 68 ولا تقدر أن تعرفه لأنك على علم علمكه اللّه لا أعلمه أنا وقد أعمل بخلافه لأنك تنظر إلى ظاهر الأمور وأنا إلى باطنها "قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صابِرًا" استثنى عليه السلام لعدم وثوقه من نفسه بالصبر ، ثم قال "وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا"

69 من الأمور ولا أخالفك في شيء تريده لأني جئتك متعلما

"قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ" يتعلق بصفات الألوهية الذي لا يحل السؤال عنه

(200/466)

لأن ما أفعله مخالف ظاهره لظاهر الشرع، لأني سأفعله مبدئيا وان أنكرته، وقرىء تسألّني بفتح اللام وتشديد النون وثبوت الياء فيه وفيما قبله إجماعا، بخلاف ياء (نبغ) لأن منهم من حذفها ومنهم من أثبتها وعليه الوقف والقراءة في المصاحف بتخفيف النون وإسكان اللام "حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً" 70 فأبينه لك من تلقاء نفسي، فرضي موسى على هذا الشرط وترافقا "فَانْطَلَقَا" يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، فكلموهما أن يحملوهما فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول، فلم ير موسى إلا الخضر عمد إلى لوح من السفينة، فقلعه، وذلك قوله تعالى "حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا" ثقبها فالتفت إليه موسى وقال له قوم حملونا بغير نول تعمد إلى سفينتهم فتخرقها، وهو قوله تعالى "قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً" 71 كبيرا عظيما يقال امر الأمر إذا كبر، ومنه قول أبي جهل لعنه اللّه أمر أمر ابن أبي كبشة يعني محمدا صلّى اللّه عليه وسلم وأبو كبشة زوج مرضعته حليمة، فيكون أباه من الرضاع، ولم ينسبه لأبيه عبد اللّه

استحقارا به حقره اللّه في ناره "قالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً" 72 وقد وعدتني بالصبر واشترطته عليك وعدم السؤال فلم توف بالشرط "قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي" تحملني وتغشني "مِنْ أَمْرِي عُسْراً" 73 فلا تشدد وتعسر علي متابعتك واعف عن هفوتي وعاملني باليسر والسهولة ، وإنما قال له ذلك لأنه لم ير الماء دخل السفينة من الثقب ، ولم يعارضه أهلها بذلك لأنهم يعرفونه لا يعمل شيئًا عبثا ، قالوا وجاء عصفور فوقع على خرق السفينة فنقر في البحر نقرة ، فقال الخضر لموسى ما نقص علمي وعلمك من علم اللّه إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، وإنما اعترض عليه موسى لأن فعله مخالف للظاهر ، ولا يجوز للأنبياء

السكوت على ما يرونه مخالفا لشريعتهم وهم معذورون إذا لم يصبروا لا سيما وأن في عمله ذلك خطر على أهل السفينة الراكبين فيها ومضرة على أصحابها ، وكلا الأمرين غير جائز بل ممنوع شرعا بحسب الظاهر ، ثم خرجا من السفينة وصارا يمشيان على الساحل ، فأبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأمسكه واقتلع رأسه من جثته بيده فمات حالا ،

وهو قوله تعالى "فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا" 74 منكرا عظيما لا يتلافى وهو بخلاف خرق السفينة إذ يمكن تلافيه ولأنه قد لا يؤدي إلى الهلاك ، وتقرأ نكرا بضم الكاف وسكونها "قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ" أكد إنكاره عليه بأن واللام لقوله "لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا" 75 وإنما زاد في جملته هذه (لك) لأنه نقض العهد مرتين ، فلما أحس موسى بانفعال الخضر من اعتراضه عليه ثانيا ، لأن في هذه الجملة تعنيفا له "قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا" 76 إذا فارقتني لوضوح العذر ولا لوم عليك البتة "فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ" بسقط لشدة ميلانه للانهدام "فَأَقَامَهُ" أشار إليه بيده فاعتدل "قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا" 77 لأنهم لم يضيفونا ولم يطعمونا فلبسوا بأهل لتعمل لهم ذلك عفوا ، قالوا إن هذه القرية (أنطاكية) مدفن الرجل الصالح حبيب النجار من أصحاب عيسى عليه السلام ، قال أبي بن كعب : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم كانت الأولى من موسى نسيانا والثانية شرطا والثالثة عمدا "قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ" لأني لا أقدر على مصاحبتك لعدم صبرك على ما ترى مني وعدم علمك نتيجته ولكن "سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا" 78 روى البخاري ومسلم عن أبي بن كعب قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم رحمة اللّه علينا وعلى موسى

(وكان إذا ذكر أحدا من الأنبياء بدأ بنفسه) لو لا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من

صاحبه ذمامه (حياء وإشفاق من الذم واللوم) فقال (إن سألتك) الآية ،

فلو صبر لرأى العجب .

قال تعالى مبينا ما استنكره السيد موسى بقوله "أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ" قيل كانوا عشرة خمسة منهم زمنى وخمسة يعملون بها "فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا" حتى لا يأخذها أحد منهم "وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ" قال

سعيد بن جبير : كان ابن عباس يقرأ (وكان أمامهم ملك) وليس بشيء "يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا" 79 لم تتكرر هذه الكلمة بالقرآن

أي يأخذها مصادرة لاحتياجه إليها في الحرب وإذا رآها معيبة تركها فكان ما فعلته

صلاحا لأهلها إذ يمكنهم إصلاح ما أفسدته منها والانتفاع بها .

وفي هذه الآية دليل على أن العامل الذي لا يكفيه عمله يسمى مسكينا ويعطى من الزكاة ، قالوا وكان ذلك كافرا اسمه الجلندى ، وتوجد في العراق عائلة كريمة تدعى بيت الشاوى من رؤساء عشائر العبيد ينتسبون إلى هذا الملك ولهم مكانة في العراق ، وكانت رؤساء

العشائر حينما يأتون بغداد يدخلون معرضين رماحهم ويمرون من تحت الطاق العائد لهم إذعانا واحتراما لهم.

مطلب عدم جواز القراءة بما يخالف ما عليه المصاحف والقول في نبوة الخضر وولايته وحياته ومماته:

(204/466)

قال تعالى "وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ" وكان ابن عباس يقرأ (وكان كافرا) وليس بشيء، راجع الآية 6 من الزخرف المارة تعلم أنها تفسير لا قراءة وأن كل ما هو مخالف لرسم المصاحف لا تجوز قراءته "فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً" 80 بعقوقه وسوء صنيعه فيحملهما حبه على اتباعه فيكفران "فَأَرَدْنا" بقتله "أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً" صلاحا وتقى "وَأَقْرَبَ رُحْماً" 81 بهما وعطفا عليهما منه، روى البخاري ومسلم عن عن أبي بن كعب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش لأرهق أبويه طغيانه وكفره، ولذلك فإن أبوي الولد لم يعارضا الخضر عليه السلام بشأن قتله لعلمهما أنه لا يفعل شيئا إلا لحكمة وقد جربوه وهذا أقصى حد في الاعتقاد بالأولياء إذ لا يمكن الأحد أن يحذو حذوه، فاعتبروا يا أولي الأبصار، قال تعالى

"وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما" روى أبو داود عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال: كان الكنز ذهبا وفضة - أخرجه الترمذي - "وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً" قالوا اسمه كاشح واسم ولديه أحرم وحريم، قال محمد بن المنكدر: إن اللّه تعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته وأهل دويرات حوله، فلا يزالون في حفظ اللّه تعالى ما دام فيهم، قال سعيد بن المسيب: إني لأصلي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي

راجع الآية 22 من الطور الآتية تجد هذا البحث، "فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما" إذا كبرا وعقلا ويا أخي موسى إنما أقمت لهم الجدار "رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ" بهما حتى يبقى الكنز محفوظا لهما ولا يليق بنا أن نترك هذا لعدم قيام أهل البلدة بضيافتنا.

(205/466)

واعلم أن الذي وقع مني كله بأمر اللّه "وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي" ولا باختياري ورأيي "ذلِكَ" الذي ذكرته لك "تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً" 82 واعترضت به علي، هذا وفي قول الخضر عليه السلام عند ذكر العيب (أردت) أضافه إلى نفسه على سبيل الأدب مع ربه،

وفي الحقيقة إن ذلك من اللّه لأنه بأمره فعل ما فعل كما قضاه في الأزل عز وجل ، وفي ذكر القتل قال (أردنا) بلفظ الجمع تنبيه على أنه من العارفين بعلمه تعالى ، العاملين بأمره فيما يؤول إليه الأمر ، وأنه لم يقدم على فعل القتل إلا لحكمة عالية بإلهام من ربه ، ولذلك أذعن والداه كما مر آنفا ، وقال ثالثا (فَأَرادَ رَبُّكَ) لأن حفظ الأنبياء وصلاح أحوالهم لرعاية حق الآباء ليس إلا للّه وحده ، ولذلك أضافه إليه .

هذا ، وقد استدل بعض العلماء بقوله تعالى (ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) إلخ على أن الخضر نبي لأن النبي من لم يفعل بأمره بل بالوحي ، والوحي من شأن الأنبياء ، وأول هذا المستدل قوله تعالى (آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا) بأنها النبوة لأن لفظ الرحمة أطلقت في مواضع كثيرة على الرحمة والنبوة والرسالة في القرآن العظيم ، وقد أخرج هذا القول ابن ابي حاتم عن ابن عباس ، ولذلك مشى عليه جمهور من العلماء على أنه نبي لا رسول ، وقال القشيري وجماعة أنه ولي وهو الصحيح ، وأجابوا عن قوله تعالى (ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) بأنه إلهام من اللّه والأولياء ملهمون والإلهام من درجات الأنبياء لأنهم أول ما يرون الرؤيا الصالحة الصادقة ، ثم الإلهام ، ثم الوحي بواسطة الملك ، وعن قوله (آتيناه رحمة) إلخ أنه علم الباطن ، وعلى هذا أكثر العارفين وأهل العلم .

وكما اختلفوا في نبوته وولايته اختلفوا في حياته ومماته فقال أكثر العلماء أنه حي واتفقت الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة على حياته وذكروا عنه حكايات كثيرة وأجمعوا على رؤيته والاجتماع به ووجوده في المواقع الشريفة كما ذكر الشيخ الأكبر في فتوحاته المكية وأبو طالب المكي في كتبه والحكيم الترمذي في نوادره وغيرهم من المحققين الذين لا يتصور اجتماعهم على الكذب لا سيما وفيهم الإمام النووي .

وقال الشيخ عمر بن الصلاح في فتاواه : هو حي عند جماهير العلماء والصالحين ، وقالوا إنه يجتمع بالناس كل سنة بالموسم وانه شرب من عين الحياة وإذ ثبت وجوده بنص القرآن وإجماع المفسرين على أنه هذا العبد الذي أرشد اللّه رسوله موسى إليه هو الخضر ، وقد اكتسب هذا القول درجة التواتر في أقوال الكثيرين فلا يكون عدمه إلا

بدليل على موته ، ولا نص فيه في كتاب أو سنة أو إجماع أو نقل عن بعض الثقات ، وقد وردت أحاديث كثيرة في حياته ضربنا عنها صفحا لعدم وجود ما يقابلها في مماته من صحة السند وثقة الرواة المشهورين من الرجال .

هذا وقد احتج من قال بوفاته دون أن يعين زمانا أو مكانا أو معاصرا له من ملك أو مملوك أو حادثة أو واقعة ما ، بأن البخاري سئل عنه وعن الياس عليهما السلام هل هما حيان ؟ فقال كيف يكون هذا ، وقد قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم قبل وفاته بقليل لا يبقى على

رأس المائة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد .

وما جاء في صحيح مسلم عن جابر قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قبل موته :

ما من نفس منفوسة يأتي عليها مئة سنة وهي يومئذ حية .

(207/466)

وما قاله بعض الأئمة عند سؤاله عنه أنه قرأ ﴿وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ﴾ الآية 31 من الأنبياء الآتية ، ولا يخفى على ذي الرّوية أن هذه الأحاديث والآية في معرض العام ، وما من عام إلا وخصص وما يدرينا لعل اللّه خصه من ذلك ، على أن الآية قد يدخل فيها الخضر لأنه لا بد سيموت ، وما قاله ابن تيمية لو كان الخضر حيا لوجب عليه أن يأتي إلى الرسول ويجاهد بين يديه ، وقوله صلّى اللّه عليه وسلم يوم بدر : اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض ، وكانوا ثلاثمائة رجل وثلاثة عشر رجلا ، معروفين بأسمائهم وأنسابهم ، ولم يكن الخضر معهم ، لهذا أصح وأقوى ما جاء في هذا الباب على أنه يجوز أن يكون مخصوصا من عموم ما جاء في ذلك كله كما ذكرنا آنفا ، إذ لا عامّ إلا وخصص ولا مطلق إلا وقيد ، أو أنه كان يعبد اللّه تعالى على الماء أو في الهواء لا على الأرض فلا يشتمله قوله صلّى اللّه عليه وسلم لا تعبد على الأرض ، ولا يبعد أنه جاء

إلى الرسول وبايعه وجاهد معه إلا أنه

لم يره أحد كالملائكة ، ولم يخبر الرسول عنه لأمر ما وكم من مؤمن في زمانه صلّى اللّه عليه وسلم موجودا ولم يتيسر له الوصول إليه والجهاد معه ، وهذا أويس القرني من أخيار التابعين لم يتيسر له الوصول إليه والمرافقة له في الجهاد ولا التعليم ، وكذا النجاشي رضي اللّه عنهما ، أما الخبر القائل : لو كان الخضر حيا لزآني ، فقد قال الحافظ إنه موضوع لا أصل له ، ولا مانع من القول إنه كان يأتي الرسول ويتعلم منه خفية ، لأنه غير مأمور بالظهور لحكمة إلهية ، على أن كثيرا من الأصحاب والتابعين رأوه وصافحوه حتى في الجهاد منهم عبد اللّه بن المبارك الشائع الصيت دفين هيت رضي اللّه عنه الذي لا يشك أحد في صدقه .

(208/466)

قال تعالى مبينا القسم الثاني مما سألوه عنه "وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ" اعلم أن ما قالوه بأن اسمه مزربان ابن مرزية بن قيلقوس بن يافث بننوح عليه السلام ، وما قالوا بأنه الإسكندر المشهور غير صحيح ، وان اللّه تعالى لم يسمه الإسكندر وإنما سماه ذا القرنين الذي ملك الدنيا إذ قالوا ملكها مؤمنان هذا وسليمان ، وكافران نمروذ وبختنصر واختلف في نبوته ونبوة لقمان وعزيز على أقوال لم يترجح أحدها على الآخر عند الأكثر خوفا من إدخال من

لم يكن نبيا مع الأنبياء أو إخراج من كان نبيا منهم وهو أمر عظيم لم يقدم عليه الكاملون العارفون، على أنه رجح صاحب بدء الأمالي عدم نبوتهم بقوله:

وذو القرنين لم يعرف نبا كذا لقمان فاحذر عن جدال

راجع الآية 20 من سورة لقمان لماره، وللبحث صلة في الآية 260 من سورة البقرة في ج 3 نوضحه فيها إن شاء اللّه، هذا ومن قال بنبوة ذى القرنين استدل بقوله تعالى (قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ) الآية الآتية بأن خطاب اللّه تعالى لا يكون إلا مع الأنبياء، وهو غير وجيه، لأن اللّه تعالى خاطب مريم في آل عمران، راجع الآية 17 منها في ج 3 وليست نبية بالاتفاق، راجع الآية 57 من سورة مريم في ج 1، وقال في بدء الأمالي:

ولم تكن نبيا قط أنثى ولا عبد وشخص ذو افتعال

ومن قال إنه ملك احتج بقول عمر رضي اللّه عنه حين سمع رجلا يقول لآخر

يا ذا القرنين، فقال تسميتم بأسماء الأنبياء فلم ترضوا حتى تسميتم بأسماء الملائكة، لأن الرسول قال: خير الأسماء ما عبد وحمد، وان الرسول كان ينهى عن التسمية ببعض الأسماء مثل فلاح ونافع وشبههما، فساغ لعمر أن ينهى عن ذلك، وهذا لا حجة فيه،

لاحتمال علم سيدنا عمر بأن أحد الملائكة اسمه ذو القرنين ، فنهى عن ذلك ، ولو فرض أن اسمه وافق أسماء الملائكة فلا يفرض أنه ملك ، والقصد من قول عمر على فرض صحته عدم رغبته بأن يسمى الناس بغير ما حبذه حضرة الرسول .

مطلب من هو ذو القرنين وسيرته وأعماله والآيات المدنيات :

وأصح الأقوال انه عبد صالح ملكه اللّه تعالى أرضه والبسه الهيبة وأعطاه العلم والحكمة والشجاعة ، وسبب تسميته بذلك طوافه قرني الدنيا شرقها وغربها ، وكما اختلف في تسميته ونبوته اختلف في نسبه ، فمنهم من قال إنه من حمير ومنهم من قال إنه من الفرس ومنهم من قال إنه من الروم ، وأصح الأقوال في نسبه واسمه ومن هو على الحقيقة ما سيأتي في الآية 99 الآتية ، فراجعها ، وقد ذكرنا في المقدمة أن كل قول يصدر بلفظ قالوا دليل على ضعفه وعدم تحققه .

قال تعالى "قُلْ" يا سيد الرسل لهؤلاء السائلين "سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ" من حاله وقصته "ذِكْراً" 83 من أنبائه صحيحا لوروده في الذكر الحكيم القرآن الذي لا أصح منه ، ولا يوجد في الكتب القديمة ما هو مفصل مثله لكونه منزلا من اللّه بلفظه ومعناه .

قال تعالى "إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ" وثبتناه فيها وقدرناه على أهلها ومهدنا له سبلها "وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ" يحتاجه لإصلاح الدنيا "سَبَبًا" 84 بإرشادنا إليه وهدايتنا لأتباعه "فَأَتْبَعَ سَبَبًا" 85 أي سلك طريقا "حَتَّى إِذَا بَلَغَ" منتهى الغمار مما يلي "مَغْرِبَ الشَّمْسِ" بحيث لا يمكن لأحد إذ ذاك مجاوزة الحد الذي وصل إليه "وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ" ذات طين أسود ، أي في مطمح نظره رآها كأنها تغرب في هوة مظلمة كما أن راكب البحر يرى أن الشمس تغيب فيه وتطلع منه ، إذ لم ير الساحل وهي في الحقيقة تغيب وراءه وتطلع أمامه ، لأن الشمس أكبر من الأرض بأكثر من ثلاثمائة ألف مرة وهي في الفلك الرابع فكيف يمكن دخولها في عين من عيون الأرض ، على أن اللّه تعالى

(211/466)

قادر على أكثر من ذلك ، وليس عليه بكثير أن يدخل الجسم الكبير في الأصغر ولا يبعد أن يطوي الأرض لعباده حتى يقطعوا منها ما لا تقطعه الطائرات ولا غيرها ، وان اللّه تعالى لم يخبر أحدا عن حقيقة غروبها في تلك العين ، وإنما أخبر عن وجدان ذى القرنين غروبها فيها ، لأنه ركب البحر متجها إلى الغرب إلى أن بلغ موضعا لم يتمكن معه من السير فيه ، فنظر إلى الشمس عند غروبها فوجدها بنظره كذلك "وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا" 86 أي عند

تلك العين في الموضع الذي وقف به سيره "قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ" من لم يسلم منهم "وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً" 87 بأن نأسرهم ونعلمهم الإيمان تدريجيا "قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ" بقي على ظلمه ولم يتب من كفره بل بقي مصرا "فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ" بالقتل الآن "ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ" في الآخرة "فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً" 88 فظيعا متجاوزا الحد "وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى" الجنة في الآخرة والعفو عما اقترفه في الدنيا "وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً" 89 فنعامله باللين والعطف.

قال تعالى "ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً" سلك طريقا آخر

(212/466)

حَتَّى إِذا بَلَغَ" منتهى العمار مما يلي "مَطْلِعَ الشَّمْسِ" أي منتهى الأرض المعمورة في زمنه التي تطلع عليها الشمس قبل غيرها من جهتها إذ لا يمكن أن يبلغ موضع الطلوع لنفسه "وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً" 90 بحيث لا يوجد جبل ولا شجر يظللهم منها، وان الأرض هناك رخوة جدا لا تحمل البناء، وإنما فيها أسراب يدخلونها عند طلوعها تظلهم منها، حتى إذا زالت وبعدت عنهم خرجوا لمعاشهم الذي هيأه اللّه لهم هنالك "كَذلِكَ" حكم فيهم كما حكم بالذين وجدهم عند غروبها، ولم نتكلم على هؤلاء وأولئك

، كما قيل إن الأولين من قوم صالح ، والآخرين من قوم هود ، إذ لا دليل يعتمد عليه ولا نقل يوثق به ، قال الأصوليون إذا كنت مدعيا فالدليل ، وإذا كنت ناقلا فصحة النقل .

ولا يوجد دليل قاطع ولا نقل صحيح في ذلك ولذلك نكل علمهم إلى اللّه القائل "وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً" 91 به وبما وعده وبمن معه وعدته وآلاته وعدد جنده وبما عمل في ذلك وما فعل وقصد

ونوى وحدثته به نفسه أو خطر بباله .

هذا ولم يقص اللّه تعالى علينا ما وقع بينه وبين أهل المغرب والمشرق غير تلك المكالمة .

قال تعالى "ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً" 92 سلك طريقا آخر أيضا "حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ" هما جبلان في ناحية الشمال مرتفعان ، قالوا إن الواثق باللّه العباسي بعث من يثق به لمعاينتهما فخرجوا من باب الأبواب وشاهدوه وأخبروه بأنهم رأوه بناء من لبن حديد مشدود بالنحاس ، إلا أنه حتى الآن لم يطلع عليه أحد ، كمدينة إرم التي لم يطلع عليها إلا رجل واحد كما قيل ، راجع الآية 8 من سورة الفجر في ج 1 ، ولا بد أن يحين الوقت للعثور عليهما لا سيما وأن يأجوج ومأجوج من وراء السد ، وخروجهما من أمارات الساعة ، وهم

المعنيون بقوله تعالى "وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا" 93 إلا بجهد شديد ، لذلك فهم منهم مرادهم بمشقة وبالإشارة وهو ما قصه اللّه تعالى بقوله "قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ" يقرآن بالهمزة وبغيره ، ولم يأت ذكرهما في القرآن إلا هنا وفي سورة الأنبياء في الآية 66 الآتية "مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ" التي هم فيها ، إذ يأكلون عشبهم ويحملون كلاهم ويتعدون عليهم "فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً" جعلا وأجرة من أموالنا "عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا" 94 يمنعهم من الوصول إلينا لنأمن تجاوزهم على حدودنا ، لأن لهم ما بين الجبلين ، فلما رأى صحة قولهم "قالَ" لا أريد منكم شيئا وإني لم آخذ على إحقاق الحق أجرا ، وإن "ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي" من القوة والغلبة والمال "خَيْرٌ" مما تعطونه لي ، وإن من واجبي أن أصونكم وغيركم من التعدي ، لا سيما وقد دخلتم في حوزتي ، لذلك لا أكلفكم بمال ما ولكن إذا أردتم الاستعجال فيه "فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ" من أبدانكم وأشخاصكم "أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً"

---

99 جدارا منيعا مرتفعا حصينا يحول دون وصولهم إليكم ، قالوا فما هذه القوة التي تريدها منّا والتي تعنيها بقولك من أبداننا ؟ قال لهم "آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ" قطعه وعملة وبنائين

وحطبا لأريكم ماذا أفعل ، فأحضروا له ما شاء ، قالوا وقد حفر الأساس ما بين الجبلين حتى بلغ الماء وجعل فيه الصخر وبناه بلبن الحديد ، وجعل بينه الفحم والحطب ، وكان بطول فرسخ وعرض خمسين ذراعا وبعلو ذروة الجبلين .

قال تعالى "حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ" جانبي الجبلين لأنهما متصادفان ، أي متقابلان ومتقاربان في العلو ، أعطى الحطب النار و"قالَ انْفُخُوا" عليه بالمنافيخ ففعلوا وسبت النار والفحم تدريجا ولم يزالوا كذلك "حَتَّى إِذا جَعَلَهُ" أي البناء "ناراً" بأن صار كله نار "قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً" 96 نحاسا مذابا فأتوه به فأفرغه على البناء فتداخل فيه حتى صار كأنه قطعة واحدة ، قال تعالى "فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ" يعلموا عليه ولا يتسوروه لارتفاعه وملاسته "وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً" 97 لصلابته وسمكه ، وكان الجبلان مما يليهم قائمين بصورة مستقيمة كأنهما مشقوقان بمنشار لا يتمكنون من الصعود إلى قمتهما ، قال ذو القرنين لأولئك القوم الذين هم أمام السد بعد أن طرد أولئك المشكو منهم إلى ما وراءه وعمر عليهم ذلك البناء العظيم "قالَ هذا" السد المنيع الذي سويته لكم "رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي" بكم تفيكم شر أعدائكم الآن "فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي" بخروجهم بعد

"جَعَلَهُ" أي هذا البناء العظيم "دَكَّاءَ" أرضا مستوية لكم منخفضة من الأرض كأنه لم يكن لأن اللّه لا يعجزه شيء "وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا" 98 واقعا لا مرية فيه "وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ" يوم تم إنشاء السدّ "يَمُوجُ فِي بَعْضٍ" فيبقون كذلك إلى اليوم الذي يأذن فيه اللّه بخروجهم فيندك إذ ذاك وينفلتون ، فتراهم يسعون في الأرض فسادا ويعبثون في البلاد والعباد ، ولا يزالون كذلك إلى أن يحين الوقت المقدر لتدميرهم فيهلكوا "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ" بعد ذلك ، لأن خروجهم من علامات الساعة الكبرى ، فيموت كل الخلق الموجودين على وجه الأرض وفي البحار وغيرها ، وتبقى الحال على هذه مدة أربعين سنة ، أو إلى ما شاء اللّه ، ثم ينفخ النفخة الثانية فيحيون كلهم الأولون والآخرون ويساقون إلى المحشر المعني بقوله تعالى "فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً" 99 للحساب والجزاء .

تدل هذه الآية على أن خروجهم يكون قريبا من قيام الساعة .

قال الأخباريون هم قوم من أولاد يافث بن نوح عليه السلام ، ومن أولاده الترك والخزر والصقالبة ، وأولاد حام الحبشة والزنج والنوبة ، وأولاد سام العرب والروم والعجم ، وإن تفسير الموج المذكور في الآية من قبلهم في البشر أولى من تفسيره فيما بينهم ، لأن سياق ما قبلها وسياق ما بعدها من الآيات يدل على هذا ، تأمل .

واعلم أن كل أمة منهما أربعة آلاف أمة لا يموت الواحد منهم حتى ينظر ألفا من صلبه ، وهم أصناف مختلفة باللون والطول والعرض والشكل ، أقوى من كل حيوان ، يأكلون من يموت

منهم ، وإذا خرجوا أكلوا الحيوانات ، وشربوا المياه ، وعاثوا في الأرض ، ثم يهلكون .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد بيده الشريفة تسعين (وذلك أن تجعل رأس السبابة وسط الإبهام وهي من موضوعات الحساب) .

(216/466)

وعنه قال في السد يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال بعضهم ارجعوا فستحفرونه غدا ، قال فيعيده الله كأشدّ ما كان ، حتى إذا بلغوا مدتهم وأراد اللّه أن يبعثهم على الناس قال الذي عليه ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله تعالى ، قال فيرجعون فيجدونه على هيئته حين تركوه ، فيخرقونه ، فيخرجون على الناس ، فيستقون المياه ، ونفر منهم الناس لشدة وحشيتهم ، ولأنهم يأكلون ولا يشبعون ، ويشربون ولا يروون ، لا يخلص منهم إنسان ولا حيوان ولا حوت ، يفسدون كل ما عثروا عليه ، فيختفي الناس منهم ليسلموا من أذاهم ، لأنهم لا يتركون شيئا إلا أكلوه أو أفسدوه ، حتى إنك لترى الأرض عارية من الشجر والنبات .

هذا وقد جاء في بعض القصص أن السدّ هو الموجود الآن المشاهد في ناحية الشمال فيما

بين الجبلين في منقطع أراضي الترك ، وهذا لعمري غير صحيح ، لأنه من مجرد كلس والله أخبرنا بأن هذا السد من حديد ونحاس ، وما يقال إن الحديد والنحاس تفتنانهما رطوبة الأرض لا جدال فيه ، وإنما الأخذ والرد بالعثور عليه ليس إلا ، وان الذي حدا بهم لهذا القول عدم العثور عليه ، لأنهم على زعمهم أحاطوا بالمعمور كله فلم يجدوه ، على أنهم يعترفون بأنهم لم يكتشفوا القطبين الشمالي والجنوبي ، وإذا لم يكتشفوهما لا يليق بهم أن يقولوا أحطنا بالأرض أو بالمعمور منها ، إذ قد يكون فيهما أو وراءهما ، ويقول ابن خلدون في مقدمته إن السدّ وسط جبل قوقيا المحيط الكائن في القسم الشرقي من الجزء التاسع في الإقليم السادس ، ولهذا فإن القول

رجما بالغيب في أشياء كهذه ، لا يجدر بالعاقل الخوض فيها ، بل عليه أن يكل علمها إلى الله ، ومن يعش ير هذا ، وجاء في رواية : تتحصن الناس في حصونهم فيرمون بسهام إلى السماء ، فترجع مخضبة بالدماء ، فيقولون قهرنا من في الأرض ، وعلونا من في السماء ، فيزدادون قسوة وعتوا ، فيبعث الله عليهم نغفا (ذودا يكون في أنوف الإبل) في رقابهم فيهلكون ، فو الذي نفسي بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر من لحومهم شكرا ، أي

يمتلىء أجسادها لحما ، يقال شكرت الدابة إذا امتلأ ضرعها ، أخرجه الترمذي .

وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : ليحجنّ البيت ، وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج .

يدل هذا الحديث على أن الإسلام يتجدد بعد هلاكهم ، واللّه أعلم .

مطلب أن ذا القرنين ليس اسمه إسكندر وليس بالمقدوني ولا اليوناني ولا الروماني وإنما هو ذو القرنين :

وليعلم أن لفظ إسكندر الذي أطلق على ذي القرنين هذا ليس هو الإسكندر الرومي الذي ملك الفرس والروم والذي يؤرخ الروم بأيامه ، لأن هذا الذي نحن بصدده كان على عهد إبراهيم عليه السلام بعد نمرود وقد عاش ألفا وستمئة سنة قبل إسكندر المقدوني بأكثر من ألفي سنة ، لأن إسكندر المقدوني ولد قبل المسيح بثلاثمائة وست وخمسين سنة ، وولايته قبلها في سنة 236 ، ووفاته سنة 340 ، فيكون عمره 33 سنة ، وكان وزيره أرسطو طاليس الفيلسوف المشهور الذي حارب دارا وأذلّ ملوك الفرس ووطئ أرضهم ، وعمر الإسكندرية وغيرها ، وكان كافرا ، وقد غلط كثير من العلماء والمفسرين فظنوه هو

المذكور في القرآن ، وحاشا كلام اللّه أن يشمل هذا الكافر بما ذكر من الثناء ، وليس هو الإسكندر اليوناني الذي ولي الملك بعد أبيه مرزين ، واسمه المرزبان المار ذكره أول الآية 84 وإنما هو غيرهما ، وهو رجل اسمه ذو القرنين فقط ، كما ذكر اللّه ، وهو رجل صالح ، نا به طيب ، وقد قبض اللّه له قرناء صالحين ، فأطاع اللّه وأصلح سيرته ، وقصد الملوك والجبابرة وقهرهم ، ودعا الناس لطاعته على طاعة اللّه تعالى وتوحيده ، قالوا ولما أقبل إلى مكة شرفها اللّه ونزل بالأبطح قالوا له في هذه البلدة خليل الرحمن ، فدخلها ماشيا وقال ما ينبغي لي أن أدخل بلدة فيها خليل الرحمن وأنا راكب ، حتى جاء إلى إبراهيم عليه السلام وسلم عليه وعانقه ، فهو أول من عانق عند السلام ، وسخر اللّه له السحاب والنور والظلمة فإذا سرى بجيوشه يظله السحاب من فوقه وتحوطه الظلمة ويهديه النور ، وكان على مقدمته الخضر عليه السلام ، فحظي بعين الحياة ، وأخطأها ذو القرنين ، وانقادت له البلاد ، وإن ما قصّ اللّه علينا من أمره كاف من عظمته ، ومات في مدينة شهرزور ودفن فيها ، وقالوا إنه دار في الدنيا مدة خمسمائة سنة ، وقال بعضهم إنه مات في بيت المقدس ، واللّه أعلم .

وقد ذكرنا آنفا في تفسير الآية 9 المارة أن سبب نزول هذه الآيات بذكر ذي القرنين وأصحاب الكهف هو ما ذكره اليهود أن كفار قريش الذين ذهبوا إلى المدينة لهذه الغاية وعند مجيئهم منها أخبروا قومهم ثم سألوا الرسول عنها ، وقد نزلت هذه الآيات بالقصتين المذكورتين ، وآية 85 من الإسراء المارة في ج 1 في السؤال عن الروح دفعة واحدة ، لأن السؤال عنها دفعة واحدة ، ووضعت كل منها في موضعها الآن بأمر من حضرة الرسول ودلالة من الأمين جبريل عليهما السلام بما هو موافق لما عند اللّه في لوحه وعلمه ، كما ذكرناه في المقدمة .

واعلم أن اللّه تعالى لم يذكر في القرآن العظيم اسم الإسكندر حتى يقال إنه اليوناني أو المقدوني أو الرومي ويؤولون الآية عليه ، وإنما سماه ذا القرنين وإن المؤرخين من عند أنفسهم لقبوه بالإسكندر ، ولهذا حصل الالتباس بينه وبين الإسكندر المقدوني أو الرومي أو اليوناني ووقع الخطأ بنسبة ما جاء في القرآن إلى أحدهم ، والصحيح واللّه أعلم أنه ليس بأحد هؤلاء الثلاثة وإنما هو ذو القرنين أبو كرب صعب بن جبل الحميري ، واسم أمه هيلانه ، وكان يتيما في بني حمير كما ذكره الإمام الغزالي رحمه اللّه في كتابه سر العالمين وكشف ما في بني الدارين في ص 3 وهو ثقة فيما ينقل ويكتب ، كيف لا وقد لقب بحجة الإسلام ورضيه الخاص والعام ، يؤيد هذا ما جاء في حاشية بدء الأمالي ص 37 وما ذكره الزيلعي صاحب الكنز بأنه لقي إبراهيم خليل الرحمن وعانقه كما ذكرنا آنفا وقد سئل ابن عباس

عن المعانقة فقال أول من عانق إبراهيم خليل الرحمن لما كان بمكة وأقبل إليها ذو القرنين حتى

(220/466)

صار بالأبطح ، قيل له في هذه البلدة إبراهيم خليل الرحمن ، فقال ما ينبغي لي أن أركب في بلدة فيها إبراهيم خليل الرحمن ، فنزل ومشى إليه فسلم واعتنقه كما مر آنفا ، فكان هو أول من عانق وعمره يزيد على الألفي سنة ، كما يروى أن قيس ابن ساعدة خطب بسوق عكاظ فقال : يا معشر إياد بن الصعب ذو القرنين ملك الخافقين قد أذل الثقلين وعمر ألفين ، ثم كان كلمحة العين ، ولهذا فإنه ليس بالإسكندر المقدوني ولا الرومي ولا اليوناني ولا اسمه إسكندر البتة ، لأن عمرهم ودينهم وسيرتهم تخالف عمره ودينه وسيرته ، وإنما هو ذو القرنين وكل ما نقله المفسرون بأنه يوناني أو مقدوني أو رومي وأن اسمه مرزبه أو غيره لا نصيب له من الصحة لأنهم تناقلوه بعضهم عن بعض دون أن يعرفوا مصدر الناقل الأول ، وقد تهاونوا فيه ولم يبعثوا عما يؤيده ، هذا والله أعلم .

قال تعالى "وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ" أي بعد النفخة الثانية "لِلْكافِرِينَ عَرْضاً" 100 ليشاهدوها عيانا فتنقطع فرائضهم من رؤيتها ، ثم بين هؤلاء الكافرين بقوله جل قوله "الَّذِينَ

كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي" فلا يبصرون طرق الهدى والرشد فيها "وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً" 101 له من رسلي ويعرضون عنهم لئلا يفقهوه وليعلم أن هذه الآيات من قوله تعالى (وَيَسْئَلُونَكَ) 83 إلى هنا عدها أكثر العلماء من القسم المدني الذين تبعنا أقوالهم ومشينا عليها في تفسيرنا، هذا والصحيح أنها مكيات، إلا أنها لم تنزل مع سورتها لما قدمناه هنا وفي الآية 58 من الإسراء في ج 1، ولعل السهو بعدّها مدنيات جاء من هذه الجهة، لأن الصحيح أن لا مدني في هذه السورة إلا الآية 28 المارة لا آية 38 التي ذكرها الغير.

(221/466)

قال تعالى "أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي" الملائكة كما اتخذ اليهود عزيزا والنصارى المسيح "مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ" لهم، كلا لا سبيل إلى زعمهم هذا فأخبرهم يا سيد الرسل بفساد ظنهم، وأنهم سيتبرءون منهم يوم القيامة ويكونوا لهم أعداء بسبب كفرهم "إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا" 102 هو ما يقدم للضيف عند نزوله وبئس ذلك النزل في ذلك اليوم العصيب، وإذا كان أول قراهم جهنم والعياذ باللّه فما هو آخره يا ترى؟ لأنهم إذ ذاك يستغيثون ولا يغاثون، لأنهم عن ربهم محجوبون، ولا أعظم عذابا من هذا كما لا

أعظم لأهل الجنة من نعيم رؤية اللّه تعالى ، كما سيأتي في الآية 107 .

"قُلْ" لهم يا أكرم الرسل "هَلْ نُنَبِّئُكُمْ" أيها الكفرة "بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا" 103 في الدنيا والآخرة هم "الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا" عن طريق الصواب ومحجة السداد وجنحوا إلى ما فيه الهلاك والدمار "وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً" 104 في عملهم ولا يدرون أنه سبب خسارتهم في الآخرة "أُولئِكَ" الضّال سعيهم الظانون بحسن صنيعهم وهو شيء هم "الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ" ولم يصدقوا رسله "وَ" مع نكران "لِقائِهِ" في الآخرة كما أنكروا كلامه في الدنيا "فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ" ومحق ثوابها الذي كانوا يأملونه لأنهم ماتوا على كفرهم وقد كافأهم اللّه عليها في الدنيا بما أنعم عليهم فيها ، ولذلك "فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً" 105 إذ لا قيمة لهم ولا قدر ولا مكانة ولا حظ لهم عندنا ولا نصيب في الآخرة ، وعدم إقامة وزنهم ازدراء بهم ، وهؤلاء الموصوفون بما ذكرهم الخاسرون في الدنيا والآخرة لا كما يقولون إنهم الفقراء والصعاليك الذين شرفوا بالإيمان ، لأن هؤلاء هم الناجحون الراجحون الناجون .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال صلّى اللّه عليه وسلم إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند اللّه جناح بعوضة ، وقال اقرءوا إن شئتم (فَلا نُقِيمُ لَهُمْ) الآية.

وذلك لأن الوزن للأعمال لا الأجساد "ذلِكَ" إشارة إلى حبوط عمالهم وخمسة قدرهم ، أي الذين ذلك شأنهم "جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً" 106 زيادة على كفرهم فلم يكتفوا به حتى ضاعفوه بالسخرية بكلام اللّه وذات رسله وكتبه.

قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" في دنياهم "كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ." مكافأة لهم على أعمالهم الطيبة في الدنيا "نُزُلًا" في الآخرة أول قراهم عند ربهم وبعده ما هو أعظم وأعظم إذا كان أوله الجنة ، وهذه بمقابل الآية 102 بحق الكافرين الذين أول قراهم جهنم وآخره بما هو أفظع وأشنع ، وآخر قرى هؤلاء الأبرار رؤية الملك الغفار التي لا تعد جميع الجنان شيئا بالنسبة إليها عند أهل الجنة ، والفردوس بالعربية البستان ، وكذلك بالرومية والحبشية ، راجع الآية 182 من سورة الشعراء في ج 1 ، ويطلق على ربوة الجنة "خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا" 108 إلى غيرها ، وما قيل إن كلمة الفردوس لم تسمع في كلام العرب إلا من حسان بعد الإسلام لقوله :

وإن ثواب اللّه كل موحد جنان من الفردوس فيها يخلد

لا يصح ، لأن أمية بن الصلت قبل الإسلام سبقه بذلك بقوله :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة فيها الفراديس ثم الفوم والبصل

وقال جرير يمدح خالد بن عبد اللّه القسري :

وإنا لنرجو أن نرافق رفقة يكونون في الفردوس أول وارد

ومن سمع قبل الإسلام من الجاهليين كثير أيضا .

وهذه الكلمة مكررة في القرآن في الآية 11 من سورة المؤمنين الآتية فقط ، أخرج البخاري ومسلم وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : إذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ، ومنها تفجر أنهار الجنة .

فلو لم تكن العرب تعلم هذه اللفظة لما ذكرهم حضرة الرسول بطلبها ، وتفيد هذه الآية أن الجنات غير الفردوس لإضافتها إليه ، وهو كذلك ، قال أبو حبان إن جنات الفردوس بساتين حول الفردوس ، ولهذا يندفع ما يقال إن الآية تفيد أن كل المؤمنين في الفردوس ، مع أن درجاتهم متفاوتة ، ولا يعارض الحديث السابق ما رواه أحمد عن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم : إذا صليتم علي فاسألوا اللّه تعالى لي الوسيلة أعلى درجة في الجنة

لا ينالها إلا رجل واحد ، وأرجو أن أكون أنا ، إذ لا مانع من انقسام الدرجة الواحدة إلى درجات بعضها فوق بعض ، وتكون الوسيلة هي أعلى درجات الفردوس التي هي أعلى درجات الجنة ، على أن المراد والله أعلم في هذا الحديث علو المكانة لا المكان .

قال تعالى "قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي" التي هي في علمه والمقدرة في حكمه "وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا" 109 مرارا كثيرة لنفد ولم تنفد كلمات الله ، وما قيل إن هذه الآية نزلت بالمدينة عند ما قال اليهود إنا أوتينا علم التوراة ، فكيف تتلو (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) الآية 85 من الإسراء

(224/466)

في ج 1 لا صحة له ، وقد أوضحنا هذه في تفسير هذه الآية فراجعها يظهر لك مكيّتها ، والآية المدينة في هذا الصدد هي الآية 27 من سورة لقمان المارة فما بعدها كما بيناه هناك ، ولذلك كانت أبلغ من هذه في المعنى لما فيها من لفظ أبلغ في العدد والكمية ، وهكذا دائما تكون الآية المتأخرة في النزول أبلغ بحكم التدريج تأمل ، أما هذه فمكية ، وقد توهم من قال إنها مدنية لما أنه وقع السؤال عنها والبحث فيها في المدينة ، وما كل ما جرى البحث فيه بالمدينة مدني ، تنبه فقهك الله في أمر دينك ودنياك .

"قُلْ" يا سيد الرسل لقومك إني كما تقولون "إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ" لا ميزة لي عليكم بالبشرية ، ولكن بما خصني اللّه به من النبوة والرسالة ، وما أكرمني به من الوحي الذي "يُوحى إِلَيَّ" من لدنه ، وهذا تعليم له عليه الصلاة والسلام لسلوك طريق التواضع في أقواله وأفعاله ، ولئلا يزمو على أمته بما منحه اللّه به ، وهذا وشبهه ما يشير إليه صلّى اللّه عليه وسلم بقوله : أدّبني ربي فأحسن تأديبي .

"أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ" هو ربي وربكم لا شريك له "فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ" في الدار الآخرة ، ويقر بأن المصير إليه ، ويعتقد ذلك اعتقادا جازما لا مرية فيه "فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً" في دنياه يعضد به إيمانه لينتفع فيه بآخرته "وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً" 110 ولا شيئا أبدا ، بل يخلص له في قوله وعمله وفعله ونيته .

روى البخاري ومسلم عن جندب بن عبد اللّه البجلي قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من سمّع سمع اللّه به ومن يرائي يرائى به .

وروى مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول إن اللّه تعالى يقول أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه .

وفي رواية : وأنا منه بريء ، وسبب نزول هذه الآية أن جبذ بن زهير قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : إني أعمل العمل لله فإذا اطلع عليه أحد سرّني ، فقال عليه السلام إن اللّه لا يقبل ما شورك فيه .

وقيل إنه قال له : لك أجران ، أجر في السر وأجر في العلانية .

فالرؤية الأولى محمولة على قصد الرياء والسمعة ، والثانية على قصد الاقتداء به ، فالمقام الأول مقام المبتدئين ، والثاني مقام الكاملين .

روى مسلم عن أبي الدرداء قال : قال صلّى اللّه عليه وسلم من حفظ عشر آيات من أول الكهف

عصم من فتنة الدجال .

وفي رواية : من آخرها .

فعلى من أراد الحفظ من فتنته – عصمنا اللّه منها بيقين – فليحفظ عشرا من أولها وعشرا من آخرها عملا بالروايتين .

ويوجد سورة أخرى فقط مختومة بما ختمت به هذه السورة وهي الإخلاص في ج 1 .

وليعلم أن كلمة الشرك المزجور عنها تكررت في القرآن في مواضع كثيرة لأنها أعظم شيء مكروه عند اللّه ، ولهذا فإن كل شيء داخل تحت المشيئة بالعفو عنه والمغفرة إلا الشرك ، لأنه الكفر الظاهر ، وقد شبه به الرياء إذ ورد الرياء هو الشرك الخفي ، لعظم وزره عند اللّه

، راجع الآية 33 من سورة الأعراف في ج 2 والآيتين 22/ 79 من الإسراء أيضا ،

وسنبحث عنه كلما مررنا بما ينم عليه في اللفظ والمعنى كما جعلنا ذلك قبل .

هذا ، واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 162. 210 ﴾

(226/466)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ المَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والستون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/467)

الجزء السابع والستون بعد الأربعمائة

فصل فى الوقف والابتداء

(4/467)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الكهف

مكية إلا قوله تعالى واصبر نفسك الآية فمدني

والوقف اولى على عوجا ويبتدأ بقيما أي أنزله قيما وقيل أنما يوقف على قيما لأن المعنى

أنزل الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا جاور حج الأول بأنه رأس آية وبأن الوقف على عوجا

تخلص به من كراهة الابتداء بلام كي والوقفان عليهما صالحان وان كان الأول أصلح أبدا

جائز ولد تام وكذا ولا لآبائهم من أفواههم صالح وإلا كذبا أسفا تام أحسن عملا كاف وكذا

حرزا عجبا مفهوم من لدنك رحمة جائز رشدا كاف سنين عددا مفهوم أمدا تام بالحق

حسن وزدناهم هدى صالح وكذا والأرض شططا حسن آلهة كاف بسلطان بين حسن

كذبا كاف وقال أبو عمرو فيهما تام وما يعبدون إلا الله لا يحسن الوقف عليه لتعلق ما بعده

به مرفقا كاف وكذا في فجوة منه وقال أبو عمرو فيهما تام من آيات الله تام المهتدي كاف

وكذا مرشدا ورقود وذات الشمال وبالوصيد ورعبا بينهم صالح وكذا لبثتم وبعض يوم

بكم أحد احسن في ملتهم جائز إذا أبدا كاف بنيتنا حسن ربهم أعلم بهم تام مسجدا

حسن وقال أبو عمرو تام رابعهم كلبهم مفهوم بالغيب صالح وثامنهم كابهم حسن إلا قليلا

كاف مراء ظاهرا جائز منهم أحدا كاف إلا أن يشاء الله تام إذا نسيت صالح رشدا حسن

وقال أبو عمرو تام وازدادوا تسعا تام وكذا لبثوا والارض صالح وأسمع كاف من ولى حسن

في حكمه أحدا تام ملتحدا حسن يريدون وجه كاف زينة الحياة الدنيا حسن فرطا تام

فليكفر كاف وكذا سرادقها يشوى الوجوه حسن بئس الشراب صالح مرفقا تام وكذا من

أحسن عملا إن جعل انا لا نضيع الخ خبران الذين آمنوا بخلاف ما إذا جعل خبره أولئك لهم

الخ وجعل انا لا نضيع الخ اعتراضا بين وخبره على الارائك تام نعم الثواب مرتفقا تام رجلين

صالح زرعا كاف وكذا منه شيئا ونهرا ونفرا ولنفسه منقلبا حسن سواك رجلا كاف وكذا بربي أحدا وإلا بالله مالا وولدا صالح طلبا كاف بربي أحد تام من دون الله كاف منتصرا تام لله الحق حسن وقال أبو عمرو كاف عقبا تام الرياح كاف مقتدرا تام زينة الحياة الدنيا حسن وقال

أبو عمرو كاف أملا تام منهم أحد كاف صفا صالح موعدا تام مما فيه صالح أحصاها كاف وقال أبو عمرو تام حاضرا تام وكذا أحدا عن أمر به حسن لكم عدوّ تام وكذا بدلا وأنفسهم وعضدا موبقا حسن وقال أبو عمرو تام مصرفا تام من كل مثل كاف جدلا تام وكذا قبلا ومنذرين كاف هزوا تام يداه كافوقرا تام وكذا إذا أبدا ذو الرحمة حسن وقال أبو عمرو كاف العذاب تام موئلا حسن موعدا تام حقبا حسن وكذا سربا ونصبا الحوت صالح أن أذكره تام وقال أبو عمرو كاف واتخذ سبيله في البحر كاف إن جعل عجبا من كلام موسى وليس بوقف إن جعل من تتمة كلام يوشع لن ذلك كلام واحد عجبا لذلك عجبا أو يفعل فعلا عجبا ما كنا نبغ صالح وقال أبو عمرو تام على آثارهما كاف قصصا صالح أي يقصان الأرض قصا من لدنا علما حسن رشدا كاف معي صبرا صالح خبرا حسن لك

أمرا كاف وكذا ذكرا وخرقها وشيئا امرا أو معي صبرا وعسرا ولو وقف على نسيت جاز فقتله صالح نكرا كاف وكذا معي صبرا وعذرا فأقامه صالح أجرا كاف بيني وبينك حسن صبرا تام غضبا كاف وكذا رحما وكنزهما ورحمة من ربك وعن أمري صبرا تام منه ذكرا حسن عندها قوما كاف وكذا حسنا ونكرا الحسنى صالح يسرا مفهوم وكذا سببا سترا وقيل الوقف على كذلك خبرا صالح سببا صالح أو مفهوم قولا كاف وكذا سدا وخير ورد ما فأن وصلته بآتوني كان الوقف على الحديد حسنا قال انفحوا صالح قطرا كاف وكذا نقبا رحمة من ربي صالح حقا تام في بعض حسن وقال أبو عمرو كاف جمعا كاف سمعا تام أولياء حسن نزلا تام بالاخسرين أعمالا تام إن جعل ما بعده مبتدأ وخبرا ليس بوقف إن جعل نعتا للأخسرين صنعا تام على التقدير الثاني وزنا كاف هزؤا تام وكذا حولا ومددا اله واحد كاف عملا صالحا جائز آخر السورة تام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ المقصد صـ 474.460 ﴾

(6/467)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الكهف

مكية إلاَّ قوله ﴿ واصبر نفسك . . . الآية ﴾ فمدني وهي مائة وخمس آيات في المدنيين والمكي وست في الشامي وعشر في الكوفي وإحدى عشرة في البصري اختلافهم في إحدى عشرة آية وزدناهم هدى لم يعدها الشامي ما يعلمهم إلاَّ قليل عدها المدني الأخير إنَّي فاعل ذلك غداً لم يعدها المدني وجعلنا بينهما زرعاً لم يعدها المدني الأول والمكي أن تبيد هذه أبداً لم يعدها المدني الأخير والشامي من كل شيء سبباً لم يعدها المدني الأول والمكي فأتبع سبباً ثم أتبع سبباً ثم أتبع سبباً ثلاثتهن عدها الكوفي والبصري عندها قوماً لم يعدها المدني الأخير والكوفي بالأخسرين أعمالاً لم يعدها المدنيان والمكي وكلمها ألف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة وحروفها ستة آلاف وثلاثمائة وستون حرفاً فيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع خمسة مواضع بأساً شديداً بسلطان بين بياناً مراءً ظاهراً ولم تظلم منه شيأً

عوجاً (حسن) وهو رأس آية باتفاق ثم تبتديء قيماً أي أنزله قيماً فقيماً حال من الهاء في أنزله المحذوف دل عليه أنزل بين الوقف على عوجاً أنَّ قيماً منفصل عن عوجاً وقيل في الآية تقديم وتأخير كأنَّه قال الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً على أنَّ قيماً نصب على الحال من الكتاب وفيه الفصل بين الحال وذيها بقوله ولم يجعل له عوجاً والأوّل أولى لأنَّه رأس آية ويخلص به من كراهة الابتداء بلام كي يقال في دينه عوج بكسر العين وفي العصا عوج بفتحها فالفتح في الأجسام والكسر في المعاني

أبداً (جائز) وسمه شيخ الإسلام بجائز مع أنَّ ما بعده معطوف على ما قبله لأنَّ هذا من عطف الجمل عند بعضهم

ولداً (تام) لأنَّه قد تم قول الكفار وانقضى ثم استأنف ما لهم به من علم ولا لآبائهم وذلك نفي لما قالوه فهو كالمتعلق به من جهة المعنى

(7/467)

ولا لآبائهم (حسن) وقيل تام لأنَّه قد تمّ الرّد عليهم ثم ابتدأ الأخبار عن مقالتهم

من أفواههم (حسن) وهي مقالتهم اتخذ الله ولداً

إلاَّ كذباً (كاف) وهو رأس آية

أسفاً (تام)

زينةً لها ليس بوقف لأنَّ اللام بعده موضعها نصب بالجعل وكذا لنبلوهم لأنَّ أيهم وإن كان ظاهرها الاستفهام فهي في المعنى متصلة بما قبلها

عملاً (كاف) ومثله جرزاً وقيل تام لتمام القصة وأيضاً الابتداء بأم وهي بمعنى ألف الاستفهام التقريري

عجباً (تام) قاله العباس بن الفضل على أن إذ بمعنى اذكر إذ أوى وخولف في هذا فقيل إنَّ

إذ هنا متعلقة بما قبلها فلا يوقف على عجباً

من لدنك رحمة (جائز) فصلاً بين الدعوتين

رشداً (كاف) ومثله عدداً على استئناف ما بعده

أمداً (تام) أي الحزبين مبتدأ ومضاف إليه وأحصى أفعل تفضيل خبر وأمداً تمييز لأنَّ الأمد هو الغاية وهو عبارة عن المدة وليس هو محصياً بل يحصى ومثل أعماله في التمييز أيضاً أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً هم أحسن أثاثاً ورئياً وقيل أحصى فعل ماض وأمداً مفعول

بالحق (كاف) ومثله وزدناهم هدى على استئناف ما بعده وهو رأس آية في غير الشامي

على قلوبهم ليس بوقف

والأرض (جائز)

إلهاً (حسن) واللام في لقد للتوكيد أي لقد قلنا إذ دعونا من دونه إلهاً قولاً ذا شطط أي جور

شططاً (كاف) على استئناف ما بعده

من دونه آلهة (كاف) للابتداء بلولا وهي هنا للتخضيض بمعنى هلاَّ يأتون على عبادتهم الأصنام بحجة واضحة ولا يجوز أن تكون هذه الجملة التحضيضية صفةً لآلهة لفساده معنى وصناعة لأنَّها جملة طلبية

بيِّن (حسن)

كذباً (كاف) لأنَّ ذا منصوبة بفعل محذوف تقديره فقال بعضهم لبعض وقت اعتزالهم

(8/467)

إلاَّ الله (تام) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن علق ما بعده بما قبله لأنَّ قوله فأووا عند الفراء جواب إذ لأنّها قد تكون للمستقبل كإذا ومثل هذا في الكلام إذا فعلت كذا فانج بنفسك فلا يحسن الفصل في هذا الكلام دون الفاء لأنَّ هنا جملاً محذوفة دل عليها ما تقدم مرتبطة بعضها ببعض والتقدير فأووا إلى الكهف فألقى الله عليهم النوم واستجاب دعاءهم وأرفقهم في الكهف بأشياء

مرفقاً (كاف) قرأ الجمهور بكسر الميم وفتح الفاء ونافع وابن عامر بالعكس

ذات اليمين وذات الشمال (حسن)

في فجوة منه (تام) لأنَّ ذلك مبتدأ ومن آيات الله الخبر أو ذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك ومن آيات الله حال

من آيات الله (حسن)

المهتد (كاف) للابتداء بالشرط ومثله مرشداً

وهم رقود (حسن) لأنَّ ما بعده يصلح مستأنفاً وحالاً قرأ العامة تقلبهم بالنون وقريء

بالتحتية أي الله أو الملك

وذات الشمال (حسن) لأنَّ الجملة بعده تصلح مستأنفة وحالاً

بالوصيد (كاف) والوصيد باب الكهف أو الفناء وباسط اسم فاعل حكاية حال ماضية

ولذا عمل في المفعول لكن يشترط في عمل اسم الفاعل كونه بمعنى الحال أو الاستقبال

ومعنى حكاية الحال الماضية أن تقدر كأنَّك موجود في ذلك الزمان أو تقدر ذلك الزمان

كأنَّه موجود الآن واسم الفاعل حقيقة في الحال إذا كان محكوماً به نحو زيد تائب وإذا كان

محكوماً عليه فلا يكون حقيقة في الحال كما في قوله والسارق والسارقة فاقطعوا الزانية

والزاني فاجلدوا فإنَّه يقتضي على هذا أنَّ الأمر بالقطع أو الجلد لا يتعلق إلاَّ بمن تَلَبَّسَ

بالسرقة أو الزنا حال التكلم إي حال نزول الآيتين لا على من تَلَبَّسَ بهما بعد مع أنَّ الحكم

عام قاله ابن عبد السّلام وقال السبكي اسم الفاعل حقيقة في حال التلبس بالفعل سواء

قارن حال التكلم حال التلبس أو تقدمه

رعباً (كاف)

بينهم (حسن) ومثله لبثتم وكذا أو بعض يوم

أعلم بما لبثتم ليس بوقف ومثله المدينة لمكان الفاء فيهما

وليتلطف (جائز)

أحداً (كاف)

في ملتهم (جائز) للابتداء بالنفي

أبداً (كاف) ولا وقف من قوله وكذلك أعثرنا عليهم إلى بينهم أمرهم فلا يوقف على حق لعطف وإن على ما قبلها ولا على لا ريب فيها لأنَّ إذ ظرف لأعثرنا فهي ظرف للإثار عليهم أي أعثرنا على الفتية أو معمولة ليعلموا والأولى أن تكون مفعولاً لمحذوف أي اذكر إذ يتنازعون بينهم أمرهم فيكون من عطف الجمل تنازعوا في شأن الفتية فقال المسلمون نبني عليهم مسجداً وقال الكفار نبني عليهم بنياناً على قاعدة ديننا

بنياناً (حسن) وكذا ربهم أعلم بهم

مسجداً (تام)

رابعهم كلبهم (جائز) للفصل بين المقالتين

رجماً بالغيب (حسن) وقال الزجاج

ويقولون سبعة (تام) لأنَّه آخر كلام المتنازعين في حديثم قبل ظهورهم عليهم والواو في وثامنهم قيل هي واو الثمانية وهي الواقعة بعد السبعة إيذاناً بأنَّها عدد تام وأنَّ ما بعدها مستأنف كذا قيل والصحيح أنَّ الواو للعطف على الجملة السابقة أي يقولون هم سبعة

وثامنهم كلبهم ثم أخبروا إخبارا ثانياً أنَّ ثامنهم كلبهم فهما جملتان

وثامنهم كلبهم (كاف)

قل ربي أعلم بعدتهم (جائز) للابتداء بالنفي

إلاَّ قليل (كاف) ورأس آية في المدني الأخير

مراءً ظاهراً (جائز)

أحداً (تام) لتوكيد الفعل بعده بالنون وما قبله مطلق رسموا الشاىء بألف بعد الشين كما

ترى

ذلك غداً ليس بوقف لوجود الاستثناء بعده

(10/467)

إلاَّ أن يشاء الله (تام) اعلم أنَّه لا يصح رجوع الاستثناء لقوله إنِّي فاعل ذلك غداً لأنَّ مفعول يشاء إما الفعل وإما الترك فإن كان الفعل فالمعنى إنِّي فاعل ذلك غداً إلاَّ أن يشاء الله فعله فلا أفعله ولا يخفى فساده إذ ما يشاء الله وقوعه وجب وقوعه وإن كان الترك فهو فاسد أيضاً من حيث تعلق النهي به إذ قوله إنّي فاعل ذلك غداً إلاَّ أن يشاء الله تركه صحيح لكن تعلق النهي بهذا فاسد إذ يفيد أنَّ الله نهى عن قول القائل إنِّي فاعل ذلك إلاَّ أن يشاء الله

تركه مع أنَّه لا ينهى عن ذلك فتعين أن يرجع الاستثناء للنهي أي لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً في حال من الأحوال إلاَّ في حال كون القول ملتبساً بذكر إلاَّ أن يشاء الله فهو استثناء مفرغ وفيه حذف الباء وحذف المضاف قاله شيخ مشايخنا الأجهوري تغمده الله برحمته ورضوانه

إذا نسيت (حسن)

رشداً (كاف)

تسعاً (تام)

بما لبثوا (حسن) ومثله الأرض

وأسمع (كاف) للابتداء بالنفي ومن وليِّ فاعل أو مبتدأ

ومن وليِّ (حسن) على قراءة من قرأ ولا يشرك بالتحتية ورفع الكاف مستأنفاً لاختلاف الجملتين وليس بوقف لمن قرأه بالفوقية وجزم الكاف على النهي وحينئذ فلا يوقف من قوله أبصر به وأسمع إلى أحداً

وأحداً (تام) على القراءتين

من كتاب ربك (جائز) ومثله لكلماته

ملتحداً (كاف)

والعشيِّ ليس بوقف لأنَّ قوله يريدون وجهه في موضع الحال كأنَّه قال واصبر نفسك مع

الذين يدعون ربهم يريدون وجهه أي يدعون الله في هذه الحالة

وجهه (كاف)

ولا تعد عيناك عنهم (جائز) لأنَّ ما بعده يصلح حالاً لأنَّ الخطاب للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أي لا تصرف عيناك النظر عن عمار وصهيب وسلّمان ونحوهم لمَّا قال المشركون إنَّ ريح جباههم تؤذينا ويصلح استفهاماً محذوفاً أي أتريد زينة الحياة الدنيا وقريء ولا تعد بضم الفوقية من أعدى وقريء ولا تعد من عدى بالتشديد

الحياة الدنيا (حسن) ومثله عن ذكرنا وكذا واتبع هواه

(11/467)

فرطاً (تام)

الحق من ربكم (حسن) والحق خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا الحق أو الحق مبتدأ ومن ربكم الخبر وقرأ أبو السمال قعنب وقل الحق بضم اللام اتباعاً لحركة القاف ونصب الحق أي وقل القول الحق

فليكفر (كاف) وقال السجاوندي لا يوقف عليه لأنَّه أمر تهديد بدلالة إنَّا أعتدنا ولو فصل بين الدال والمدلول عليه لصار الأمر مطلقاً والأمر المطلق للوجوب فلا يحمل على غيره إلاَّ

بدلالة نظير قوله اعملوا ما شئتم

نارا ً (جائز)

سرادقها (كاف) والسرادق حائط من نار محيط ولا يوقف على كالمهل لأنَّ ما بعده صفة لما

الوجوه (حسن)

بئس الشراب (جائز)

مرتفقا ً (تام) لتناهي صفة النار ومثله في التمام من أحسن عملاً إن جعل إنّا لا نضيع خبر إن الأولى ونظير هذا قول الشاعر :

إنَّ الخليفة إن الله سربله سربال ملك به ترجى الخواتيم

فجعل إن الثانية خبر إن الأولى أي إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نضيع أجرهم أو يجازيهم الله على أعمالهم الحسنة أو لا نترك أعمالهم تذهب ضياعا ً بل نجازيهم عليها وليس بوقف إن جعل قوله أولئك لهم جنات عدن خبر إن الأولى لأنَّ لا يوقف على اسم دون خبرها وجملة إنَّا لا نضيع اعتراض بين اسم إنَّ وخبرها

وإستبرق ليس بوقف لأنَّ ما بعده حال مما قبله وهمزة إستبرق همزة قطع وقرأ ابن محيصن بوصل الهمزة في جميع القرآن اهـ سمين

على الأرائك (تام)

نعم الثواب (كاف)

مرتفقاً (تام) ووسم أبو حاتم السجستاني نعم الثواب بالكافي ومرتفقاً بالتمام قال ومعناه حسنت الجنة مرتفقاً قال الكواشي ولو وسم نعم الثواب بالجائز ومرتفقاً بالتمام لكان فيما أراه أوجه ولا وقف بعد قوله ظالم لنفسه إلى منقلباً فلا يوقف على أبداً ولا على قائمة لتعلق بعضه ببعض من جهة المعنى

رجلين (جائز)

زرعاً (كاف)

آتت أكلها (جائز)

شيأً (كاف)

(12/467)

والوقف على نهراً و ثمر و نفراً و لنفسه و أبداً كلها حسان وضعف قول من كره الابتداء بما يقوله منكر البعث وهو قوله وما أظن الساعة قائمة لأنَّه إخبار وحكاية قول قائلها حكاها الله عنه

منقلباً (حسن)

خلقك من تراب ليس بوقف لأنَّ ثم للعطف

رجلاً (كاف) لتمام الاستفهام ولكن إن تلتها جملة صلح الابتداء بها على بعد وإذا تلاها

مفرد كانت عاطفة فلا يصلح الابتداء بها وهنا تلتها جملة وأصل لكنا لكن أنا نقلت حركة

همزة أنا إلى نون لكن وحذفت الهمزة فالتقى مثلان فأدغم وإعرابها أنَّا مبتدأ وهو مبتدأ

ثان وهو ضمير الشأن والله مبتدأ ثالث وربي خبر الثالث والثالث وخبره الثاني والثاني

وخبره خبر الأوّل والرابط بين الأول وخبره الياء في ربي 0

أحداً (كاف)

ما شاء الله (جائز)

إلاّ بالله (حسن) لتمام المقول 0

وولداً (جائز) وجواب إن محذوف تقديره إن ترني أنا أقل منك مالاً وولداً تحتقرني لقلة المال

مع اتحاد القائل والمقول له ولا وقف من قوله فعسى ربي إلى طلباً فلا يوقف على من جنتك

ولا على من السماء ولا على زلقاً للعطف في كل واتصال الكلام بعضه ببعض .

طلباً (كاف) والوقف على بثمره وأنفق فيها وعروشها كلها وقوف جائزة 0

بربي أحداً (كاف) ومثله من دون الله

منتصراً (تام) على استئناف الجملة بعده وقطعها عما قبلها بأنَّ تقدر هنالك بجملة فعلية والولاية فاعل بالظرف قبلها أي استقرت الولاية لله على رأي الأخفش من حيث أنَّ الظرف رفع الفاعل من غير اعتماد على نفي أو استفهام ولا يوقف على من دون الله ولا على منتصراً إن جعل هنالك من تتمة ما قبله أي ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله هنالك والابتداء بقوله الولاية لله فتكون جملة من مبتدأ وخبر أي في تلك الحالة يتبين نصر الله وليه وقرأ الأخوان الولاية بكسر الواو وحكى عن أبي عمرو والأصمعي أن كسر الواو لحن قالا إن فعالة إنَّما تجيء فيما كان صنعة نحو خياطة وتجارة وعطارة وحياكة أو معنى متقلداً نحو ولاية وقضاية وفعالة بالفتح للأخلاق الحميدة نحو السماحة والفصاحة وفعالة بالضم لما يطرح من المحتقرات نحو كناسة وغسالة وليس هنالك تولي أمور

لله الحق (تام) لمن رفعه وهو أبو عمرو والكسائي ورفعه من ثلاثة أوجه أحدها أنَّه صفة للولاية الثاني أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو أي ما أوحيناه إليك الحق الثالث أنَّه مبتدأ وخبره محذوف أي الحق ذلك وحسن لمن جره صفة للجلالة وقرأ زيد بن علي وأبو حيوة لله الحق نصباً على المصدر المؤكد لمضمون الجملة نحو هذا عبد الله الحق لا الباطل 0

ثواباً ليس بوقف لعطف وخير على خير الأول 0

عقباً (تام)

الرياح (كاف)

مقتدراً (تام)

الحياة الدنيا (كاف) فصلاً بين المعجل الفاني والمؤجل الباقي مع اتفاق الجملتين لفظاً

خير ليس بوقف لتعلق الظرف بما قبله

أملاً (تام) وفي الحديث أنَّه صلى الله عليه وسلّم خرج على قومه فقال خذوا جنتكم فقالوا

يا رسول الله من عدو حضر قال بلى من النار قالوا وما جنتنا قال سبحان الله والحمد لله

ولا إله إلاَّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلاَّ بالله العليّ العظيم فإنهن يأتين يوم القيامة

مقدمات ومجنبات ومعقبات وهن الباقيات الصالحات

بارزة ليس بوقف لأنَّ التقدير وقد حشرناهم

(14/467)

منهم أحداً (كاف)

صفاً (جائز) ومثله أوّل مرة لأنَّ بل قد يبتدأ بها مع أن الكلام متحد

موعداً (كاف)

مما فيه (جائز)

إلاّ أحصاها (كاف) لاستئناف ما بعده

حاضراً (كاف)

أحداً (تام)

إلاّ إبليس (جائز)

عن أمر ربه (كاف) للابتداء بالاستفهام بعده

من دوني (جائز)

وهم لكم عدوّ (تام)

بدلاً (كاف)

ولا خلق أنفسهم (حسن) ومن قرأ وما كنت بفتح الفوقية كان أحسن وبها قرأ الحسن والجحدري وأبو جعفر خطاباً للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقرأ العامة بضمها

عضداً (تام)

فلم يستجيبوا لهم (جائز)

موبقاً (كاف) أي سجناً وقال عكرمة نهر في النار يسيل ناراً على حافته حيات مثل البغال الدهم فإذا ثارت لتأخذهم استغاثوا بالاقتحام في النار منها وأصل الموبق الهلاك يقال أوبقه يوبقه إباقاً أي أهلكه

مواقعوها (جائز)

مصرفاً (تام)

من كل مثل (حسن)

جدلاً (تام) ومثله قبلاً

ومنذرين (كاف) على استئناف ما بعده

الحق (حسن)

هزواً (تام)

يداه (كاف)

وقراً (تام) ومثله إذن أبداً

ذو الرحمة (كاف) عند أبي عمرو

لعجل لهم العذاب (تام)

بل لهم موعد (حسن)

موئلاً (كاف)

لما ظلموا (حسن)

موعداً (تام)

حقباً (كاف)

حوتهما (جائز)

سرباً (حسن) ومثله غداءنا و نصباً و الحوت كلها حسان

إلاّ الشيطان ليس بوقف لأنّ َقوله أن أذكره بدل من الهاء في أنسانيه بدل ظاهر من مضمر 0

أن أذكره (كاف)

واتخذ سبيله في البحر (كاف) إن جعل عجباً من كلام موسى ويقوي هذا خبر كان للحوت سرباً ولموسى ولفتاه عجباً فكأنَّه قال أعجب لسيره في البحر قالوا وكان مشوياً مأكولاً بعضه فلذلك كان مضيه وذهابه عجباً وليس بوقف إن جعل من تتمة كلام يوشع لأنَّ َذلك كلام واحد 0

عجباً (كاف) أي أعجب لذلك عجباً فعجباً منصوب على المصدرية 0

(15/467)

ما كنا نبغ (حسن) حذف نافع وأبو عمرو والكسائي الياء وقفاً وأثبتوها وصلاً وابن كثير أثبتها في الحالتين والباقون حذفوها وقفاً ووصلاً اتباعاً للرسم العثماني على لغة هذيل يجتزون بالكسرة عن الياء 0

على آثارهما (تام)

قصصاً (جائز) أي يقصان الأثر قصاً

من لدنا علماً (كاف) ومثله رشداً

معي صبراً (جائز) ومثله خبراً

صابراً ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله 0

أمراً (كاف)

منه ذكراً (جائز) ورسموا فإن اتبعتني فلا تسألني بياء 0

فانطلقا (أحسن) مما قبله لأنَّ حتى بعد إذا ابتدائية 0

خرقها (حسن)

لتغرق أهلها (جائز)

أمراً (حسن) ومثله صبراً 0

بما نسيت (جائز)

عسراً (حسن)

فانطلقا (أحسن منه)

فقتله (جائز) وقيل ليس بوقف لأنَّ قال جواب إذا

بغير نفس (جائز) فصلاً بين الاستخبار والإخبار

نكراً (كاف) ومثله معي صبراً

فلا تصاحبني (جائز) ومثله عذراً

فانطلقا (أحسن) مما قبله

فأقامه (جائز)

أجراً (كاف)

بيني وبينك (حسن) على استئناف ما بعده

صبراً (تام)

غصباً (كاف)

وكفراً (جائز)

رحماً (كاف)

صالحاً (جائز) كان ذلك الكنز ذهباً وفضة ولو سقط الجدار لأُخذ وكان أبوهما صالحاً ذكر أنَّهما حفظا لصلاح أبيهما ولم يذكر منهما صلاحاً وكان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء

رحمةً من ربك (كاف)

عن أمري (تام) ومثله صبراً لأنَّه آخر القصة

ذي القرنين (جائز)

منه ذكراً (كاف)

في الأرض (حسن) ومثله سبباً

فأتبع سبباً (أحسن منه)

حمئة (جائز)

قوماً (كاف) ومثله حسناً وكذا نكراً

جزاء (جائز) لمن قرأ بالنصب وهو حمزة والكسائي ووقفا عليها بالألف وليس بوقف لمن رفع وأضاف

الحسنى (جائز) وكذا يسراً

سبباً (كاف)

ستراً (جائز) وقد اختلف في الكاف من كذلك فقيل في محل نصب وقيل في محل رفع فإن كانت في محل رفع أي الأمر كذلك أي بلغ مطلع الشمس كما بلغ مغربها أو كما وجد عند مغربها قوماً وحكم فيهم وجد عند مطلعها قوماً وحكم فيهم أو كما أتبع سبباً إلى مغرب الشمس كذلك أتبع سبباً إلى مطلعها وكذلك إن كانت الكاف في محل نصب أي فعلنا مثل ذلك فعلى هذه التقديرات التشبيه من تمام الكلام وصار ما بعد الكاف وما قبلها كالكلام الواحد فيبتديء وقد أحطنا وإن لم تكن الكاف لا في محل رفع ولا في محل نصب كان

التشبيه مستأنفاً منقطع لفظاً متصل معنى فيبتديء كذلك أي علمنا هم ليس لهم ما

يستترون به فالستر بكسر السين اسم لما يستتر به وأما بالفتح فهو مصدر فكذلك من الكلام

الثاني

خبراً (كاف) وكذا ثم أتبع سبباً

قوماً ليس بوقف لأنَّ الجملة بعده صفة لقوماً

قولاً (كاف) ومثله في الأرض

خرجاً ليس بوقف

سداً (كاف) ومثله خير عللا استئناف الأمر

فأعينوني بقوة ليس بوقف لأنَّ قوله اجعل مجزوم على جواب الأمر فكأنَّه قال إن تعينوني

أجعل بينكم وبينهم ردماً

وردماً (كاف) على استئناف ما بعده وإن وصلته بآتوني كان الوقف على الحديد أحسن

منه وهي قراءة حمزة وعلى قراءته يبتديء آتوني

قال انفخوا (جائز)

ناراً ليس بوقف لأنَّ قال جواب إذا

قطراً (كاف) ومثله أن يظهروه وكذا نقباً

رحمة من ربي (حسن) وأباه بعضهم لأنَّ ما بعده أيضاً من بقية كلام الإسكندر وهو قوله

فإذا جاء وعد ربي فلا يقطع عما قبله

دكاً (كاف)

حقاً (تام) لأنَّه آخر كلام ذي القرنين

في بعض (حسن)

جمعاً (كاف) ومثله عرضاً إذا جعلت ما بعده منقطعاً عما قبله وليس بوقف إن جر نعتاً للكافرين أو بدلاً منهم ومن حيث كونه رأس آية يجوز

عن ذكري (حسن)

سمعاً (كاف)

(17/467)

أولياء (تام) ومثله نزلاً وأعمالاً إن جعل ما بعده مبتدأ أو خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين أو في موضع نصب بمعنى أعني وليس بوقف إن جعل تفسيراً للأخسرين كأنَّه قال من هم فقال هم الذين ضل سعيهم وكذا إن جعل بدلاً

صنعاً (تام) إن رفع الذين بالابتداء أو خبر مبتدأ محذوف أو رفع نعتاً أو بدلاً من الأخسرين وليس بوقف إن جعل الذين مبتدأ والخبر أولئك الذين كفروا

وزناً (كاف)

هزواً (تام)

نزلاً ليس بوقف لأنَّ خالدين منصوب على الحال مما قبله فلا يفصل بين الحال وذيها بالوقف ومن حيث كونه رأس آية يجوز

خالدين فيها (حسن)

حولاً (تام)

لكلمات ربي الأولى ليس بوقف لأنَّ جواب لو لنفد ولو الثانية جوابها محذوف تقديره لم تنفد الكلمات وهذا هو الأكثر في لسان العرب تأخير جواب لو وليس هو المتقدم عليها خلافاً للمبرد وأبي زيد النحوي والكوفيين

والوقف على كلمات ربي الثانية (حسن) لوجهين أحدهما حذف جواب لو والثاني أنَّ قوله ولو جئنا التفات من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم وذلك من مقتضيات الوقف وعلاماته

مدداً (تام) ومثله مثلكم

يوحى إليَّ (جائز) على قراءة من قرأ إنَّما يوحى إليّ بكسر الهمزة مستأنفاً وليس بوقف لمن فتحها وموضعها رفع لأنَّه قد قام مقام الفاعل في يوحى والموحى إليه صلّى الله عليه وسلّم مقصور على استئثار الله تعالى بالوحدانية وقول أبي حيان يلزم الزمخشري انحصار الوحي

في الوحدانية مردود بأنَّه حصر مجازّي باعتبار المقام

إله واحد (كاف) للابتداء بالشرط

(18/467)

عملاً صالحاً ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله وإنَّما وسمه شيخ الإسلام بجائز إذ عطف الجمل وإن كان في اللفظ منفصلاً فهو في المعنى متصل وجائز لمن قرأ يشرك بالرفع مستأنفاً أي ليس يشرك وفي الحديث من حفظ عشر آيات أو عشرين آية من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال وقال من قرأ سورة الكهف فهو معصوم ثمانية أيام من كل فتنة فإن خرج الدجال في تلك الأيام الثمانية عصمه الله من فتنته نقله الكواشي وقال الفضيل ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس إشراك والإخلاص الخلاص من هذين .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ 460 . 474 ﴾

(19/467)

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة ابن جنى :

سورة الكهف :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ "كَبُرَتْ كَلِمَةٌ" رفعا يحيى بن يعمر والحسن وابن محيصن وابن أبي إسحاق والثقفي والأعرج – بخلاف – وعمرو بن عبيد .

قال أبو الفتح : أخلص الفعل "لكَلِمَةٍ" هذه الظاهرة ، فرفعها ، وسَمَّى قولهم : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ ، – كما سمَّوا القصيدة وإن كانت مائة بيت – "كلمةً" . وهذا كوضعهم الاسم الواحد على جنسه ، كقولهم : أهلك الناسَ الدرهمُ والدينارُ ، وذهب الناسُ بالشاة والبعير .

ولله فصاحة الحجاج ، وكثرة قوله على منبره : يأيها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل ! ألا تراه لما أشفق أن يظن به أنه يريد رجلا واحدا بعينه قال : وكلكم ذلك الرجل ؟

ومن ذلك قراءة أبي رجاء : "بِوِرْقِكُّمْ" ، مكسورة الواو ، مدغمة .

قال أبو الفتح : هذا ونحوه عند أصحابنا مخفي غير مدغم ، لكنه أخفى كسرة القاف ، فظنها القراء مدغمة . ومعاذ الله لو كانت مدغمة [93ظ] لوجب نقل كسرة القاف إلى الراء ، كقولهم : يَرُدّ ويَفِرّ ويَصُبّ . ألا ترى أن الأصل يرْدُدُ ويفْرِرُ ويَصْبُبُ ، فلما أسكن

الأول ليدغمه نقل حركته إلى الساكن قبله ؟

وللقراء في نحو هذا عادة : أن يعبروا عن المخفي بالمدغم ؛ وذلك للطف ذلك عليهم . منه قولهم في قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ : إنه أدغم نون "نحنُ" في نون "نَزلنا"

---

1 للأعشى ، وروي فأية مكان وأية ، وبمرحل بالحاء مكان بمرجل بالجيم . ديوان الأعشى : 355 .

2 الجامل : القطيع من الإبل مع رعاته . والباقر : جماع البقر .

3 روي : طوائفها مكان جوانبها . والفرج : موضع مخافة العدو ، وهو والثغر بمعنى . جبل ، وفي الأصل خرس ، وهو تحريف . وبيضاء حرس : شمراخ فيه . والشمراخ : رأس مستدير طويل دقيق في أعلى الجبل . يريد أنهم ضربوا دون موضع المخافة بكتيبة منهم كأنها لعظمها بيضاء حرس . يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف في هذه القصيدة .

وانظر الديوان : 107

4 سورة البقرة : 239 .

5 سورة الإسراء : 71 .

6 وتكون "كل" مرفوعة بـ"يدعو" ، ويضيف أبو حيان تخريجا آخر ، وهو أن تكون الواو ضميرا مفعولا لما لم يسم فاعله ، وأصله "يدعون" ، فحذف النون كما حذفت في قوله :

أبيتُ أسرِي وتبيتِي تدْلُكِي وجهَكِ بالعنْبَرِ والمسكِ الذكِي

أي تبيتين تدلكين، و"كل" بدل من واو الضمير. وانظر البحر: 6: 63.

(20/467)

حتى كأنهم لم يسمعوا أن هذا ونحوه مما لا يجوز مع الانفصال، وأنه أمر يختص به المتصل.

فاستدل صاحب الكتاب 1 على أنه إخفاء بقولهم: اسمُ مُوسى وابنُ نُوح، قال: فلو كان إدغام لوجب تحريك سين "اسم" وباء "ابن"، ولو تحركتا لإدغام ما بعدهما لسقطت ألف الوصل من أولهما، وهذا واضح.

وإذا جاز مثل هذا على قطرب مع تخصصه حتى جرى في بعض ألفاظه فالقراء بذلك أولى، وهم فيه أظهر عذرًا. وقد ذكرنا ذلك فيما مضى، وإنما هي "بورِقِكُم"، بإخفاء كسرة القاف، كأنه يريد الإدغام تخفيفا ولا يبلغه.

وحكى أبو حاتم -فيما روينا عنه- أن ابن محيصن قرأ: "بوَرِقكُّمْ 2" مدغمة، ولم يحك قراءة أبي رجاء بالإدغام، وهذا لا نظر في جوازه.

ومن ذلك قراءة الجحدري: "تَزْوارُّ 3".

قال أبو الفتح: هذا افْعالَّ وتَزَاوَرُ تَفَاعَلُ وقلما جاءت افعالّ إلا في الألوان، نحو: اسوادّ

وابياضّ واحمارّ واصفارّ ، أو العيوب الظاهرة ، نحو : احولّ واحوالّ واعورّ واعوارّ واصيدّ واصيادّ4 . وقد جاءت افعالّ وافعلّ ، وهي مقصورة من افعالّ – في غير الألوان ، قالوا : ارعوى وهو افعلّ ، واقتوى أي : خدم ، وساس . قال يزيد بن الحكم :

تبدَّل خليلا بي كشكلك شكلُه فإني خليلا صالحا بك مُقْتَوِي5

فمقتو مفتعل من القتو ، وهو الخدمة . قال :

إني امرؤ من بني خُزَيمة لا أحسن قتوَ الملوكِ والحفَدَا6

---

1 الكتاب : 2 : 407 .

2 قال في البحر "6 : 11" : وقرأ أبو رجاء بكسر الواو وإسكان الراء وإدغام القاف في الكاف . . . ، وعن ابن محيصن أيضا كذلك ، إلا أنه كسر الراء ليصح الإدغام . ا . هـ فكأن الذي يذكره أبو الفتح هنا عن ابن محيصن وجه آخر ، فيه الواو مفتوحة .

3 سورة الكهف : 17 .

4 إصابة الصيد ، ويقال : بعير أصيد ، وبه صيد ، وهو داء بالعنق لا يستطيع أن يلتفت معه .

5 انظر الأمالي : 1 : 68 ، والخزانة : 1 : 496 ، والخصائص 2 : 104 .

6 روي الخبب مكان الحفد . والخبب : الخبث وقيل أراد به مصدر خب بمعنى عدا .

والحفد : مصدر حفد كضرب ، أي : خدم ، ثم حرك الفاء من سكون, وانظر الخصائص 2 : 104 ، واللسان : "قتا ، وخب" .

(21/467)

وخليلا عندنا منصوب بفعل مضمر يدل عليه "مُقْتَوٍ" ، وذلك أن افعلّ لا يتعدى إلى المفعول به ، فكأنه قال : فإني أخدم ، أو أسوس ، أو أتعهد ، أو استبدل بك خليلا صالحا 1 . ودل مقتوٍ على ذلك الفعل . وقالوا : اضرابّ الشيء أي : املسّ ، وقالوا : اشعانّ رأسه ، أي : تفرق شعره ، في أحرف غير هذه .

ومن ذلك قراءة2 الحسن : "وَتَقَلُّبُهُمْ3" ، بفتح التاء والقاف ، وضم اللام ، وفتح الباء .

قال أبو الفتح : هذا منصوب بفعل دل عليه ما قبله من قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ4 ﴾ ، وقوله : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ5 ﴾ : فهذه6 أحوال مشاهدة ، فكذلك "تَقَلُّبَهُمْ" داخل في معناه ، فكأنه قال : ونرى أو نشاهد تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال . فإن قيل : إن التقلب حركة ، والحركة غير مرئية ، قيل : هذا غَوْر آخر ليس من القراءة في شيء إلا أنك تراهم يتقلبون ، والمعنى مفهوم . وليس كل أحد يقول : إن الحركة لا ترى ولا غرض في الإطالة هنا ، لكن ما أوردناه قد مضى على الغرض

فيه والمراد منه.

ومن ذلك قراءة ابن محيصن: "ثَلاثٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ7"، بإدغام ثاء ثلاثة في التاء التي تبدل في الوقف هاء من ثلاثة.

قال أبو الفتح: الثاء لقربها من التاء تدغم فيها، كقولك: ابعث تّلك، وأغث تّلك. وجاز الإدغام [94و] وإن كان قبل الأول ساكن لأنه ألف، فصارت كشابّة ودابّة، ولم يدغمها فيها إلا ابن محيصن وحده8.

---

1 ويصح أن ينصب بمقتوٍ، على تضمينه معنى متبدل. وانظر الخصائص: "2: 104"

2 سقط في ك: قراءة الحسن.

3 سورة الكهف: 18.

4 سورة الكهف: 17.

5 من الآية 18 من سورة الكهف.

6 في ك: هذه.

7 سورة الكهف: 22.

8 سقطت "وحده" في ك.

ومن ذلك أنه لم يقرأ أحد "خَمَسَةَ" 1

، بفتح الميم إلا ابن كثير وحده في رواية حسن بن محمد 2 عن شبل .

قال أبو الفتح : لم يحرك3 ميم خمسة إلا عن سماع ، وينبغي أن يكون أُتبعت عشرة ، وليس يحسن أن يقال إنه أتبع الفتح الفتح ، كقول رؤبة :

مُشْتَبِهِ الأَعْلَامِ لَمَّاعِ الخَفَقْ4 .

وهو يريد "الخَفْق" ؛ لأن هذا أمر يختص5 به ضرورة الشعر .

قال أبو عثمان عن الأصمعي : سألت أعرابيا – ونحن بالموضع الذي ذكره زهير في قوله :

ثُمَّ استمَرُّوا وقالوا إنَّ مَوْعِدُكُمْ ماءً بِشَرقيِّ سلمَى فيدُ أو رَكَكُ6

أتعرف رَكَكًا هذا ؟ فقال : قد كان ههنا ماء يسمى "رَكًّا" ، فعلمت أن زهيرا احتاج إليه فحركه ، وقد يجوز أن يكونا7 لغتين : رَكٌّ ورَكَكٌ ، كالقصِّ والقصَصِ ، والنَشْزِ8 والنَّشَزِ .

وقد كان يجب على الأصمعي ألا يسرع إلى أنه ضرورة .

ومن ذلك قراءة الحسن : "وَلا تُعْدِ عَيْنَيْكَ9" .

قال أبو الفتح : هذا منقول من : عدت عيناك أي جاوزتا . من قولهم : جاء القوم عدا زيدا ، أي : جاوز بعضهم زيدا ، ثم نقل إلى أعديت عيني عن كذا ، أي : صرفتها عنه .

قال :

حتى لَحِقْنا بهم تَعْدِي فَوَارِسُنا كأننا رَعْنُ قُفٍّ يَرْفَعُ الآلا10

1من قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ في سورة الكهف : 22 .

2 هو الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد أبو محمد المكي ، مقرئ متصدر . قرأ على شبل بن عباد ، عن ابن كثير وابن محيصن جميعا . وروى القراءة عنه حامد بن يحيى البلخي وأحمد بن محمد بن أبي بزة . أمّ بالمسجد الحرام ، وروى عن الشافعي ، رحمه الله . طبقات ابن الجزري : 1 : 232 .

3 في ك : لم تحرك .

4 انظر المحتسب : 1 : 86 .

5 في ك : تختص .

6 روي مشربكم مكان موعدكم . واستمروا : استقاموا واستقام أمرهم فمروا ، أي : اتفق رأيهم ، واجتمعت كلمتهم . وسلمى : أحد جبلي طيئ ، وهما أجأ وسلمى . وفيد : نجد قريب منهما . الديوان : 167 .

7 في ك : أن تكونا .

8 النشز : المكان المرتفع .

9 سورة الكهف : 28 .

10 للجعدي. والرعن: أول كل شيء. والقف: ما غلظ من الأرض، ولم يبلغ أن يكون جبلا. أراد يرفعه الآل، فقلب. وانظر الخصائص: 1: 134، واللسان: "أول"

(23/467)

أي: تعدي فوارسنا خيلهم عن كذا، فحذف المفعول بعد المفعول. وتعديها 1 من عدا الفرس، كقولنا: جرى، وعلى أن أصلهما واحد، لأن الفرس إذا عدا فقد جاوز مكانا إلى غيره.

ومن ذلك قراءة عمرو بن فائد: "مَنْ أَغْفَلَنَا قَلْبُهُ2".

قال أبو الفتح: يقال: أغفلْتُ الرجل: وجته غافلا، كقول عمرو بن معد يكرب: والله يا بني سليم لقد قاتلناكم فما أجبنّاكُمْ، وسألنَاكم فما أبخلْناكم، وهاجيْناكُم فما أفحمْناكُم، أي: لم نجدْكُم جبناء، ولا بخلاء، ولا مفحَمِين. وكقول الأعشى:

أَثْوَى وقَصَّرَ ليلةً لِيُزَوَّدَا فَمَضَى وَأَخْلَفَ من قُتَيْلَةَ مَوْعِدَا3

أي صادفه مُخْلِفًا. وقال رؤبة:

وَأَهْيَجَ الخَلْصَاءَ مَنْ ذَاتِ البُرَقْ3

أي صادفها هائجة النبت. وقال الآخر:

فَأَتْلَفْنا المَنَايا وأَتْلَفُوا4

أي : صادفناها مُتْلَفَةً .

فإن قيل : فكيف يجوز أن يجدَ اللهُ غافلا ؟ قيل : لَمّا فَعَلَ أفعالَ من لا يرتقبُ ولا يخافُ صار كأن الله سبحانه غافل عنه ، وعلى هذا وقع النفي عن هذا الموضع ، فقال : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ5 ﴾ ، أي : لا تظنوا الله غافلا عنكم . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ6 ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظ7 ﴾ ، ونحو هذا في القرآن كثير ، فكأنه قال : ولا تُطِعْ مَنْ ظَنَّنَا غافِلِينَ عنه .

---

1 في ك : وتعدي .

2 سورة الكهف : 28 .

3 انظر المحتسب : 1 : 140 .

4 انظر المحتسب : 1 : 139 .

5 وردت في الآية : "74" من سورة البقرة ، وفي مواطن أخرى من القرآن المجيد ، وفي ك : "يعملون" بالياء ، وهي في الآية : 144 من البقرة ، والآية : 132 من الأنعام .

6 سورة الجاثية : 29 .

7 سورة ق : 4 ، وفي الأصل : "ولدينا" مكان وعندنا ، وهي من قوله تعالى : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ في الآية : 62 من سورة المؤمنون .

وعليه قول آخر :

أَخْشَى عليها طَيِّئًا وأَسَدَا وَخَارِبَيْنِ خَرَبَا فَمَعَدَا

لا يحسبانِ اللهَ إلا رَقَدَا 1

وهذا هو ما نحن فيه البتة .

ومن ذلك قراءة ابن محيصن : "مِنْ سُنْدُسٍ واسْتَبْرَقَ2" ، بوصل الألف .

قال أبو الفتح : هذا عندنا سهو أو كالسهو ، وسنذكره في سورة الرحمن بإذن الله3 .

ومن ذلك قراءة أبي بن كعب والحسن : "لَكِنْ أَنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي4" .

وقرأ : "لَكِنْ هُوَ اللَّهُ رَبِّي" -ساكنة النون من ألف- عيسى الثقفي [94ظ] .

قال أبو الفتح : قراءة أبي هذه هي أصل قراءة أبي عمرو وغيره : "لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي"5 ، فخففت همزة "أنا" بأن حذفت وألقيت حركتها على ما قبلها ، فصارت "لكِنَنَا" ، ثم التقت النونان متحركتين ، فأسكنت الأولى ، وأدغمت في الثانية ، فصارت "لكنّ" في الإدراج. فإذا وقفت ألحقت الألف لبيان الحركة ، فقلت : "لكنَّا" ، فـ "أنا" على هذا مرفوع بالابتداء وخبره الجملة ، وهي مركبة من متبدأ وخبر ، فالمبتدأ "هو"6 ، وهو

ضمير الشأن والحديث ، والجملة بعده خبر عنه ، وهي مركبة من مبتدأ وخبر ، فالمبتدأ "الله" ، والخبر "ربي" ، والجملة خبر عن "هو" ، و"هو" وما بعده من الجملة خبر عن "أنا" ، والعائد عليه من الجملة بعده الياء في "ربي" ، كقولك : أنا قائم غلامي .

فإن قلت : فما العائد على "هو" من الجملة بعده التي هي خبر عنه ؟ فإنه لا عائد على المبتدأ

---

1 وراه اللسان "خرب ، ومعد" . ولم ينسبه . وخرب فلان : صار لصا . ومعد الشيء : اختطفه فذهب به .

2 سورة الكهف : 31 .

3 يحيل على الآتي ، وكان العكس أولى . ومما قاله هناك : هذه صورة الفعل البتة ، بمنزلة استخرج ، وكأنه سمي بالفعل ، وفيه ضمير الفاعل ، فحكي كأنه جملة . وفي البحر "6 : 122" : جعله فعلا ماضيا على وزن استفعل ، من البريق . ويكون استفعل فيه موافقا للمجرد الذي هو برق ، كما تقول : قر واستقر ، بفتح القاف .

4 سورة الكهف : 38 .

5 في ك : "لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ" ، سقط .

6 سقط في ك ، من كلمة "هو" إلى : فالمبتدأ .

أبدا إذا كان ضمير الشأن والقصة، كقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ 1، فـ"الله أحد" خبر عن "هو"، و"هو" ضمير الشأن والحديث، ولا عائد عليه من الجملة بعده التي هي "الله أحد"، وإنما كان كذلك من قبل أن المبتدأ إنما احتاج إلى العائد من الجملة بعده إذا كانت خبرًا عنه؛ لأنها ليست هي المبتدأ، فاحتاجت إلى عود ضمير منها عليه؛ ليلتبس2 بذلك الضمير بجملته.

وأما "هو" من قولنا: "هُوَ اللَّهُ رَبِّي" ونحوه فهو الجملة نفسها، ألا تراه ضمير الشأن، وقولنا: الله ربي3 شأن وحديث في المعنى؟ فلما كانت هذه الجملة هي نفس المبتدأ لم يحتج إلى عائد عليه منها، وليس كذلك: زيد قام أخوه؛ لأن زيدا ليس بقولك: قام أخوه في المعنى، فلم يكن له بد من أن يعود عليه ضمير منه ليلتبس به؛ فيصير خبرا عنه. ومن قرأ: "لَكِنْ هُوَ اللَّهُ رَبِّي" فـ"هو" ضمير الشأن، والجملة بعده خبر عنه على ما مضى آنفا4، وهذا واضح.

ومن ذلك قراءة عبد الله بن مسلم بن يسار5: "مَجْمِعَ الْبَحْرَيْنِ6".

قال أبو الفتح: المصدر من فَعَلَ يفعَل والمكان والزمان7 كلهن على مَفْعَل بالفتح، كقولك:

ذهبت مذْهَبًا ، أي : ذهابا ، ومذهبا ، أي : مكانا يذهب فيه . وهذا مذهبك أي : زمان ذهابك ، وكذلك سأل يسأل مَسْألا ، فهو مصدر ومكان وزمان8 ، وبعث يبعث مَبْعَثًا وهو مصدر ومكان وزمان . ومنه : مبْعَثُ الجيوش ، هو زمان بعثها ، إلا أنه قد جاء المفعِل بكسر العين موضع المفتوح ، منه : المشرِق ، والمغرِب ، والمنسِك ، والمطلِع . وبابه فتح عينه لأنه من يَفْعُل ، يشرُق ، ويغرُب ، وينسُك ، ويطلُع . فعلى نحو من هذا يكون "مَجْمِعَ الْبَحْرَيْن" وهو مكان - كما ترى - من جمع يجمع ، فقياسه "مجْمَع" ، لولا ما ذكرنا من الحمل على نظيره .

---

1 سورة الإخلاص : 1 .

2 يريد ليخالطه ويتصل به .

3 في ك : الله شأن .

4 في ك : أيضا .

5 مولى عبيد الله التيمي من قريش ، كما في طبقات ابن سعد : 7 : 239 .

6 سورة الكهف : 60 ، وفي ك ، مجمع ، بدون البحرين .

7 ف ك : والزمان والمكان .

8 في ك : وزمان ومكان .

ومن ذلك قراءة النبي "صلى الله عليه وسلم" : "جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يُنْقَضَ" ، برفع الياء وبالضاد2 .

وقرأ : "يَنْقَاصُ" بالصاد غير معجمة ، وبالألف -علي بن أبي طالب وعكرمة3 وأبو شيخ الهنائي4 ويحيى بن يعمر .

وفي قراءة عبد الله : "يُرِيدُ لِيُنْقَضَ5" ، وكذلك روي عن الأعمش .

قال أبو الفتح : [95و] معناه : قد قارب أن يُنقض ، أو شارف ذلك, وهو عائد إلى معنى يكاد ، وقد جاء ذلك عنهم . وأنشد أبو الحسن :

كادَتْ وكِدْتُ وتلكَ خَيْرُ إرادَةٍ لَوْ عادَ مِنْ لَهْوِ الصَّبابَةِ مَا مَضَى6

وحَسُنَ هنا لفظ "الإرادة" لأنه أقوى في وقوع الفعل ؛ وذلك لأنها داعية إلى وقوعه ، وهي أيضا لا تصح إلا مع الحياة ، ولا يصح الفعل إلا لذي الحياة . وليس كذلك كاد ، لأنه قد يقارب الأمرَ ما لا حياة فيه ، نحن مَيِل الحائط وإشراق ضوء الفجر ، فاعرف ذلك .

و"يَنْقَاصُ" مطاوع قِصْتُه فانْقَاص ، أي : كسرته فانكَسَرَ . قال :

فِرَاقًا كَقَيْصِ السِّنِّ فالصَّبْرُ إنهُ لِكُلِّ أُنَاسٍ عثرةٌ وجُبُورُ7

يجوز أن يكون جُبُور جمع جَبْرَة، كبَدْرَة وبُدُور، ومَأَنَة8 ومُؤُون. وقد قالوا: قِضْتُه فانْقَاضَ، أي: هَدَمْتُه فانْهَدَمَ، بالضاد معجمة. قال:

---

1 سورة الكهف: 77، وفي ك: ينقص، بالصاد، وهو تحريف.

2 في ك: وبالصاد، وهو تحريف.

3 لعله عكرمة بن خالد بن العاص، أبو خالد المخزومي المكي، تابعي ثقة جليل حجة. روى القراءة عرضا عن أصحاب ابن عباس، ولا يبعد أن يكون عرض عليه، فقد روى عنه كثيرا، وعرض عليه أبو عمرو بن العلاء، وحنظلة بن أبي سفيان. مات سنة 115. طبقات ابن الجزري: 1: 515.

4 اسمه حيوان، أوله مهملة أو معجمة، والياء ساكنة، روى عن عمر ومعاوية. وروى عنه بيهس وقتادة. وثقَّه ابن حبان. ومات بعد المائة. خلاصة تهذيب الكمال: 381.

5 في ك: لتنقص، وهو تحريف.

6 رواه اللسان "كيد" ولم ينسبه، وفيه "كان" مكان "عاد".

7 لأبي ذؤيب الهذلي. ويروى قيض مكان قيص، وهما بمعنى الانشقاق. والجبور: مصدر جبَرَ العظمَ، أي: أصلحه من كسر. والمراد صلاح الأمر واستقامته. وفي ك: الحبور، بالحاء، وهو تحريف. انظر ديوان الهذليين: 1: 138، والصحاح، واللسان

"قيض وقيص" .

8 المائة : السرة.

(27/467)

كَأَنَّها هَدَمٌ في الجَفْرِ مُنْقَاضُ1

وقَيْضُ البيضةِ : قِشْرُها الذي انفلق عن الفرخ.

وقراءة العامة : ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ أشبه أولا منها بآخر ؛ لأن الإرادة في اللفظ له ، والانقضاض أيضا كذلك . وأما "يَنْقَضُّ" فيحتمل أمرين : أحدهما أن يكون ينفَعِل من القَضّة ، وهي الحصا الصغار ، وقال أبو زيد : يقال طعام قَضَضٌ : إذا كانت فيه القَضّة . والآخر أن يكون يفعلّ من : نَقَضْت الشيء ، كقراءة النبي "صلى الله عليه وسلم" : "يُرِيدُ أَنْ يُنْقَضَ" ، ويكون يفعل هنا من غير الألوان والعيوب كيَزْوَرُّ ويَرْعَوي ، وقد مضى ذلك2 . وقراءة عبد الله والأعمش : "يُرِيدُ لِيُنْقَضَ" إن شئت قلت : إن اللام زائدة ، واحتججت فيه بقراءة النبي "صلى الله عليه وسلم" ، وإن شئت قلتَ : تقديره : إرادته لكذا ، كقولك : قيامه لكذا ، وجلوسه لكذا ، ثم وضع الفعل موضع مصدره ، كما أنشد أبو زيد :

فَقَالُوا : مَا تَشَاءُ ؟ فَقُلْتُ : أَلْهُو إلى الإِصْبَاحِ آثِرَ ذِي أَثِيرِ3

أي : اللهو ، فوضع "ألهو" موضع مصدره ، وأنشد أيضا :

وَأَهْلَكَنِي لَكُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ تَعَوُّجُكُمْ عَلَيَّ وَأَسْتَقِيمُ4

أي : واستقامتي ، واللام هنا اللام في قوله :

أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا تَمَثَّلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلِ5

---

1 صدره

تَمْضِي إِذَا زُجِرَتْ عَنْ سَوْءَةٍ قُدُمًا

يهجو امرأة فاجرة . والهدَم - بالتحريك : ما انهدم من نواحي البئر ، فسقط في جوفها . والجوف : البئر الواسعة التي لم تطو . وقيل هي التي طُوِيَ بعضها ، ولم يطو بعض . كأنه يريد أنها تمضي متخلعة متفككة ، أو مندفعة لا تلوي على شيء . وانظر الأساس واللسان "هدم" .

2 انظر ما مضى آنفاص : 25 من هذا الجزء .

3 لعروة بن الورد ، وكان سبى امرأة من بني كنانة ، فأعتقها وتزوجها ، ثم كان معها في بني النضير ، وكانت له بهم صلة ، فجاءه أهلها ، فعرضوا عليه أن يفتدوها ، فقبل على أن يخيروها بينه وبينهم ، فقبلوا ، وقال : دعوني أله بها الليلة ، فلما كان الغد خيروها ، فاختارت أهلها . وآثر ذي أثير ، أي : أول كل شيء . وانظر الأغاني طبعة الدار : 3 : 76 وما بعدها ، والخصائص : 2 : 433 ، واللسان "أثر" ، ولم نعثر عليه في النوادر .

4 لعلي بن طفيل السعدي، شاعر جاهلي. النوادر: 161.

5 الكثير، وانظر الأغاني: 7: 75، والأمالي: 2: 65.

(28/467)

تحتمل اللام هنا الوجهين اللذين تقدم ذكرهما.

ومن ذلك قراءة أبي سعيد الخدري1: "وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَانِ2".

أحدهما: أن يكون اسم "كان" ضمير الغلام، أي: فكَانَ هُوَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَانِ2، والجملة بعده خبر كان.

والآخر: أن يكون اسم "كان" مضمرا فيها، وهو ضمير الشأن والحديث، أي: فكان الحديث أو الشأن أَبَوَاهُ مُؤْمِنَانِ2، والجملة بعده خبر لـ "كان" على ما مضى، إلا أنه في هذا الوجه الثاني لا ضمير عائدا على اسم "كان"؛ لأن ضمير الأمر والشأن لا يحتاج من الجملة التي هي بعده خبر عنه إلى ضمير عائد عليه منها، من حيث كان هو الجملة في المعنى.

وقد مضى ذلك آنفا3، ومثله قول النبي "صلى الله عليه وسلم": "كلُّ مولودٍ يُولَدُ عَلَى الفطرةِ حتَّى يكونَ أبواهُ هُمَا اللَّذانِ يُهَوِّدَانِهِ ويُنَصِّرانِهِ4".

إن شئت كان ضمير المولود في "كان" اسما لها، [95ظ] وأبواه ابتداء، "هما" فصل لا

موضع لها من الإعراب ، و"اللذان" خبر "لكان" ، والعائد على اسم "كان" الضمير في "أبواه" ؛ لأنه أقرب إليه مما بعده .

وإن شئت جعلت اسم "كان" على ما كان عليه5 ، وجعلت "أبواه" ابتداء ، والجملة بعدهما خبرا عنها ، وهي مركبة من مبتدأ وخبر : فالمبتدأ "هما" ، وخبرهما "اللذان" ، و"هما" وخبره خبر عن "أبواه" ، و"أبواه" وما بعدهما خبر "كان" .

وإن شئت كان في "كان" ضمير الشأن والحديث ، وما بعدها خبر عنه .

---

1 هو سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر ، وهو خدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج الأنصاري الخدري . وكان من الحفاظ المكثرين ، العلماء العقلاء ، وأخباره تشهد له بذلك . مات سنة 74 . الاستيعاب : 4 : 1671 .

2 سورة الكهف : 80 .

3 انظر ما مضى قريبا ص : 30 من هذا الجزء .

4 انظر الكتاب : 1 : 396 وقد أخرجه الطبراني والبيهقي عن الأسود بن سريع بلفظ : "كلُّ مولودٍ يُولَدُ علَى الفطرةِ حتَّى يعرب عنه لسانه ، فأبواه يُهَوِّدَانِه أو يُنَصِّرانِه أو يمجسانه" . وقد رمز إليه السيوطي برمز الصحيح . ورواه مسلم من حديث أبي هريرة بنحو هذا اللفظ ، ورواه أيضا البخاري بلفظ آخر . انظر الجامع الصغير : 5 : 33

5 ساقطة في ك .

وإن شئت رفعت "أبواه" لأنهما اسم "كان" وجعلت ما بعدهما الخبر على ما مضى من كون "هما" فصلا إن شئت، ومبتدأ إن شئت، ويجوز فيه هما اللذين.

ومن ذلك قراءة الماجشون1 : "الصَّدُفَيْنِ2" ، بفتح الصاد ، وضم الدال.

قال أبو الفتح: فيها لغات: صَدَفَانِ، وصُدُفَانِ، وصُدْفَانِ، وصَدُفَانِ. وقد قرئ بجميعها ، إلا أنهما الجبلان المتقابلان، فكأن أحدهما صادف صاحبه، ولذلك لا يقال ذلك لما انفرد بنفسه عن أن يلاقي مثله من الجبال.

ومن ذلك قراءة علي وابن عباس "عليهما السلام" وابن يعمَر والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة وابن كثير بخلاف، ونعيم بن ميسرة والضحاك ويعقوب وابن أبي ليلى: "أَفَحَسْبُ الَّذِينَ3" .

قال أبو الفتح: أي أفَحَسْبُ الَّذِينَ كفروا وحظُّهم ومطلوبُهم أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء؟ بل يجب أن يعتدُّوا أنفسهم مثلهم، فيكونوا كلهم عبيدا وأولياء لي. ونحوه قول4 الله "تعالى" : "وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائيلَ5" ، أي: اتخذتهم عبيدًا لك ، وهذا أيضا هو المعنى إذا كانت القراءة: "أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا" ، إلا أن "حَسْبُ"

ساكنة السين أذهب في الذم لهم ؛ وذلك لأنه جعله غاية مرادهم ومجموع مطلبهم ، وليست القراءة الأخرى كذا .

---

1 هو أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون ، واسمه ميمون ، وقيل : دينار ، القرشي التيمي المنكدري مولاهم ، المدني الأعمى الفقيه المالكي . تفقه على الإمام مالك رضي الله عنه . قال أحمد بن حنبل "رضي الله عنه" : قدم علينا وحدث ، وكان من الفصحاء . مات سنة 213 ، وقيل غير ذلك . وفيات الأعيان : 2 : 340

2 سورة الكهف : 96 .

3 سورة الكهف : 102 .

4 في ك : قوله تعالى .

5 سورة الشعراء : 22 .

ومن ذلك قراءة ابن عباس وابن مسعود والأعمش ، - بخلاف - ومجاهد وسليمان التيمي 1 "وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مِدَادًا 2"0

قال أبو الفتح : "مدادًا" منصوب على التمييز ، أي : بمثله من "المداد" ؛ فهو كقولك : لي مثلُه عبدًا ، أي : من العبيد ، وعلى التمرة مثلها زبدًا ، أي : من الزبد . وأما ﴿ مَدَدًا ﴾ فمنصوب على الحال ، كقولك : جئتك بزيد عونا لك ويدًا معك ، وإن شئت نصبته على المصدر بفعل مضمر يدل عليه قوله ﴿ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ كأنه قال : ولو أمددناه به إمدادا ، ثم وضع "مددًا"3 موضع إمداد ، ولهذا نظائر كثيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 34.23 ﴾

---

1 هو سليمان بن بلال التيمي القرشي مولاهم ، أبو محمد ، ويقال أبو أيوب المدني ، روى عن زيد بن أسلم وعبد الله بن دينار وصالح بن كيسان وغيرهم ، وروى عنه عبد الله بن المبارك وأبو سلمة الخزاعي وعبد الله بن وهب وغيرهم ، وكان ثقة صالحا كثير الحديث . مات بالمدينة سنة 172 ، وقيل غير ذلك . تهذيب التهذيب : 4 : 175 .

2 سورة الكهف : 109 .

3 في نسختي الأصل "مِدَادًا" ، والسياق يقتضي "مَدَدًا" . وانظر البحر : 6 : 169 .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الكهف

مكية وآيها مائة وخمس حرمي وست شامي وعشر كوفي وإحدى عشرة بصري خلافها إحدى عشرة وزدناهم هدى غير شامي إلا قليل مدني أخير غدا غيره بينهما زرعا من كل شيء سببا مدني أخير وعراقي وشامي هذه أبدا مدني أول ومكي وعراقي فأتبع سببا ثم أتبع سببا معا عراقي عندها قوما غير مدني أخير وكوفي بالأخسرين أعمالا عراقي وشامي مشبه الفاصلة قيما شديد المؤمنين رقود بنيانا بين ظاهرا خضرا منه شيأ صفا وقرأ من دونهما قوما القراآت تقدم كسر دال الحمد لله عن الحسن وسكت حفص بخلف عنه من طريقيه على الألف المبدلة من التنوين في (عوجا) الآية 1 سكتة لطيفة من غير تنفس إشعارا بأن قيما ليس متصلا بعوجا وسكت أيضا على ألف مرقدنا ويبتدىء هذا لئلا يوهم أنه صفة لمرقدنا وعلى نون من ويبتدىء راق لئلا يتوهم أنها كلمة واحدة وسكت أيضا على لام بل ويبتدىء ران ومن لازمه عدم الإدغام والباقون بغير سكت على الأصل في الأربعة

واختلف في (من لدنه) الآية 2 فأبو بكر بإسكان الدال مع إشمامها الضم وكسر النون والهاء وصلتها بها لفظية فتصير لدنهي فتسكين الدال تخفيفا كتسكين عين عضد فالتقت مع النون الساكنة فكسرت النون وتبعه كسر الهاء وكان حقه أن يكسر أول الساكنين إلا أنه

يلزم منه العود إلى ما فر منه ووصلت بهما لأنها بين متحركين والسابق كسر وإشمام الدال للتنبيه على أصلها في الحركة وهو هنا عبارة عن ضم الشفتين مع الدال بلا نطق قال الفارسي وغيره كمكي ومن تابعه هو تهيئة العضو بلا صوت فليس هو حركة وتجوز الأهوازي بتسميته اختلاسا والباقون بضم الدال وسكون النون وضم الهاء وابن كثير أبدلها بواو على أصله

(32/467)

وقرأ (ويبشر) الآية 2 بالتخفيف حمزة والكسائي وخلف ومر بآل عمران وعن ابن محيصن الحسن كبرت كلمة بالرفع على الفاعلية والجمهور بالنصب على التمييز وهو أبلغ ومعنى الكلام بها تعجب أي ما أكبرها كلمة وأبدل همز هيىء لنا ويهيء لكم أبو جعفر فتصير يائين الثانية خفيفة ويوقف عليه لحمزة وهشام بخلفه بوجه واحد فقط كما في النشر وهو إبدالها ياء كأبي جعفر وأما تخفيفها لعروض السكون فلا يصح وكذا إبدالها ألفا للرسم كحذف حرف المد المبدل فهي أربعة والمقروء به الأول

وأمال الألف الثانية من ( ) آذانهم ( ) الآية 11 57 الدوري عن الكسائي

وأمال (أحصى) وأحصاها وأحصاهم بمريم أحصاه بالمجادلة حمزة والكسائي وخلف

وبالفتح والصغرى الأزرق وأبدل همز فأوا ألفا الأصبهاني وأبو عمرو بخلفه وأبو جعفر

كوقف حمزة ومر إدغام الراء في اللام من نحو ينشر لكم لأبي عمرو بخلف عن الدوري

واختلف في (مرفقا) اية 16 فنافع وابن عامر وأبو جعفر بفتح الميم وكسر الفاء والباقون

بكسر الميم وفتح الفاء قيل هما بمعنى واحد وهو ما يرتفق به وقيل بفتح الميم مصدر

كالمرجع وبكسرها للعضو ومن فتح الميم فخم الراء حتما ومن كسر رققها على الصواب

كما في النشر خلافا للصقلي لأنه يجعل الكسرة عارضة كما مر

وأمال (وترى الشمس) وصلا السوسي بخلفه وفتحه الباقون وفي الوقف كل على أصله

واختلف في (تزاور) الآية 17 فابن عامر ويعقوب بإسكان الزاي وتشديد الراء بلا ألف

كتحمر وأصله الميل والأزور المائل بعينه وبغيرها وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف

بفتح الزاي مخففة وألف بعدها وتخفيف الراء مضارع تزاور وأصله تتزاور حذفت إحدى

التاءين تخفيفا وافقهم الأعمش والباقون بفتح الزاي مشددة وألف بعدها وتخفيف الراء

على إدغام التاء في الزاي وأثبت ياء المهتدي وصلا نافع وأبو عمرو وأبو جعفر في الحالين

يعقوب

وقرأ بفتح سين (وتحسبهم) الآية 18 ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر وعن الحسن

وتقلبهم بتاء مفتوحة وقاف ساكنة ولام مخففة مضارع قلب مخففا وعن المطوعي لو

اطلعت بضم الواو وتقدم تفخيم راء فرارا للأزرق كغيره من أجل التكرير

واختلف في (ولملئت منهم) الآية 18 فنافع وابن كثير وأبو جعفر بتشديد اللام الثانية

للمبالغة وافقهما ابن محيصن والباقون بتخفيفها وأبدل همزها ياء ساكنة أبو عمرو بخلفه

والأصبهاني وابو جعفر كوقف حمزة وقرأ رعبا بضم العين ابن عامر والكسائي وأبو جعفر

ويعقوب وأدغم ثاء (لبثتم) أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر

واختلف فيبورقكم) الآية 19 فنافع وابن كثير وابن عامر وحفص والكسائي وأبو جعفر

وروبس بكسر الراء وافقهم ابن محيصن والحسن وعن ابن محيصن إدغام القاف في الكاف

والباقون بإسكان الراء والكسر هو الأصل والإسكان تخفيف منه كنبق ونبق

وقرأ حمزة بخلفه بمد (لا ريب) متوسطا كما مر وعن الحسن (غلبوا) بضم الغين وكسر

اللام مبنيا للمفعول وعن ابن محيصن من المبهج خمسة بكسر الميم وعنه كسر الخاء والميم

وفي المفردة عنه إدغام التنوين في السين بغير غنة وفتح ياء الإضافة من (ربي أعلم) نافع

وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر

وأمال (فلا تمار) الدوري عن الكسائي من طريق أبي عثمان الضرير وفتحه من طريق

جعفر كالباقين ورقق الأزرق راء مراء بخلفه والوجهان في جامع البيان

وأمال (عسى) حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق والدوري عن أبي عمرو بخلفهما

(34/467)

واختلف في ( ) ثلاث مائة سنين ( ) الآية 25 فحمزة والكسائي وخلف بغير تنوين على الإضافة أوقعوا الجمع في سنين موقع المفرد ومائة واحد وقع موقع الجمع لأن مميز الثلاثة إلى العشرة مجموع مجرور كثلاثة أيام فقياسه ثلاث مئات أو مئين لكن وحد اعتمادا على العقد السابق ومميز المائة موحد مجرور فقياسه مائة سنة وجمع تنبيها على الأصل قال الفراء في العرب من يضع سنين موضع سنة وافقهم الحسن والأعمش والباقون بالتنوين لأنه لما عدل عن قياسه عدل عن إضافته فيكون سنين بدلا من ثلاثمائة أو عطف بيان عند الكوفيين

وأبدل أبو جعفر همز مائة مفتوحة وعن الحسن تسعا هنا و (تسع) بص و (وتسعون) بها بفتح التاء

واختلف في ( ) ولا يشرك في حكمه ( ) الآية 26 فابن عامر بالتاء على الخطاب وجزم الكاف على النهي وافقه المطوعي والحسن والباقون بالغيب ورفع الكاف على الخبر

وقرأ ابن عامر ﴿ بالغدوة ﴾ الآية 28 بضم الغين وإسكان الدال وقلب الألف واوا ومر

بالأنعام وعن الحسن ولا تعد عيناك بضم التاء وفتح العين وكسر الدال مشددة هنا من عدى عينيك بالنصب على المفعولية والجمهور بفتح التاء وسكون العين وضم الدال مخففة وعيناك مرفوع بالألف على الفاعلية ومفعوله محذوف تقديره النظر وكسر ميم تحتهم الأنهار مع الهاء وصلا أبو عمرو ويعقوب وضمهما حمزة والكسائي

وخلف وكسر الهاء وضم الميم الباقون وعن ابن محيصن واستبرق حيث جاء بوصل الهمزة وفتح القاف بلا تنوين قال أبو حيان جعله فعلا ماضيا على وزن استفعل من البريق وعنه في سورة الإنسان خلف وافقه الحسن في سورة الإنسان والجمهور على قطع الهمزة والتنوين في الكل لأنه اسم جنس فعومل معاملة المتمكن من الأسماء في الصرف وهو عربي غليظ الديباج والسندس رقيقة وجمع بينهما للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفس وحذف أبو جعفر همز متكين كوقف حمزة على الوجه الرسمي والقياسي يين يين وأما الإبدال ياء فضعيف جدا

واختلف في إمالة (كلتا) وقفا فنص على إمالتها لأصحاب الإمالة العراقيون قاطبة كأبي العز وابن سوار وابن فارس وسبط الخياط وغيرهم وعللوه بما ذهب إليه البصريون أن

الألف للتأنيث وزنها فعلى كإحدى وسيما والتاء مبدلة من واو والأصل كلوى والجمهور على الفتح على أن ألفها للتثنية وواحد كلتا كلت وهو مذهب الكوفيين فعلى الأول تقلل لأبي عمرو بخلفه كالأزرق قال في النشر والوجهان جيدان ولكني إلى الفتح أجنح فقد جاء به منصوصا عن الكسائي وابن المبارك وسكن الكاف من أكلها نافع وابن كثير وأبو عمرو وعن الأعمش وفجرنا خلالهما بتخفيف الجيم

واختلف في ( ) وكان له ثمر ( ) وأحيط بثمره ( ) الآية 34 فعاصم وأبو جعفر وروح بفتح الثاء والميم يعني حمل الشجر وافقهم ابن محيصن من المفردة وقرأ رويس الأول كذلك فقط وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم فيهما تخفيفا أو جمع ثمرة كبدنة وبدن وافقه الحسن واليزيدي والباقون بضم الثاء والميم جمع ثمار

وقرأ أنا أكثر وأنا أقل بالمد نافع وابو جعفر

واختلف في (خيرا منها) الآية 36 فنافع وابن كثير وابن عامر وابو جعفر بزيادة ميم بعد الهاء على التثنية وعود الضمير إلى الجنتين وعليه مصاحفهم وافقهم ابن محيصن والباقون بغير ميم على الإفراد وعود الضمير على الجنة المدخولة وهي واحدة وعليه مصاحف الكوفة والبصرة

واختلف في ﴿ (لكنا هو الله) ﴾ الآية 38 فابن عامر وابو جعفر ورويس بإثبات الألف بعد النون وصلا ووقفا والأصل لكن أنا فنقل حركة همزة أنا إلى نون ولكن وحذفت الهمزة

وأدغم أحد المثلين في الآخر فإثبات الألف في الوصل لتعويضها عن الهمزة أو لإجراء الوصل مجرى الوقف والباقون بحذفها وصلا وإثباتها وقفا على حد أنا يوسف فالوقف محل وفاق للرسم وعن الحسن لكن بتخفيف النون وزيادة أنا على

(36/467)

الأصل بلا نقل ولا إدغام وفتح ياء الإضافة من (بربي أحدا) في الموضعين و (ربي ان) نافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر وأدغم دال إذ دخلت أبو عمرو وهشام وابن ذكوان من طريق الأخفش وحمزة والكسائي وخلف وأثبت ياء (ترن أنا) وصلا قالون والأصبهاني وأبو عمرو وأبو جعفر وفي الحالين ابن كثير ويعقوب وأثبت ياء (أن يؤتين) وصلا نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وفي الحالين ابن كثير ويعقوب

واختلف في ﴿ ولم يكن له فئة ﴾ الآية 50 فحمزة والكسائي وخلف بالياء على التذكير لأن تأنيث فئة مجازي وافقهم الأعمش والباقون بالتاء على التأنيث وأبدل أبو جعفر همز فئة ياء مفتوحة كوقف حمزة

وقرأ (الولاية) الآية 44 بكسر الواو حمزة والكسائي وكذا خلف وذكر بالأنفال

واختلف في (لله الحق) الآية 44 فأبو عمرو والكسائي برفع الحق صفة للولاية أو خير

مضمر أي هو الحق أو مبتدأ خبره محذوف أي الحق ذلك أي ما قلناه وافقهم اليزيدي والباقون بالجر صفة للجلالة الشريفة

وقرأ (عقبا) الآية 44 بسكون القاف عاصم وحمزة وخلف وضمهما الباقون

وقرأ (الرياح) الآية 45 بالتوحيد حمزة والكسائي وخلف

واختلف ﴿ تسير الجبال ﴾ الآية 47 فابن كثير وابو عمرو وابن عامر بضم التاء المثناة فوق وفتح الياء المثناة تحت مشددة على البناء للمفعول الجبال بالرفع لقيامه مقام الفاعل وحذف الفاعل للعلم به وهو الله تعالى أو من يأمره من الملائكة وعن ابن محيصن تسير بفتح التاء المثناة فوق وكسر السين وسكون الياء (الجبال) بالرفع على الفاعلية والباقون بنون العظيمة مضمومة وفتح السين وكسر الياء مشددة من سير بالتشديد (الجبال) بالنصب مفعول به لقوله وحشرناهم

وأمال (وترى الأرض) وصلا السوسي بخلفه وفتحه الباقون وأدغم دال (لقد جئتمونا) أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وأدغم لام (بل زعمتم) الكسائي وهشام على ما صوبه عنه في النشر

وأمال (فترى المجرمين) السوسي وصلا بخلفه ووقف على ما من مال هذا أبو عمرو والكسائي بخلفه كما ذكره لهما الشاطبي كالداني وجمهور المغاربة ومقتضى كلام هؤلاء أن الباقين يقفون على اللام دون ما والأصح كما مر عن النشر جواز الوقف على ما للكل وأما اللام فيحتمل الوقف عليها لانفصالها رسما ويحتمل المنع لكونها لام جر وتقدم ما فيه ومر إمالة أحصيها وتقليلها

وقرأ (للملائكة اسجدوا) الآية 50 بضم التاء أبو جعفر وله من رواية ابن وردان إشمام الكسرة الضم والوجهان صحيحان عنه كما مر

واختلف في (ما أشهدتهم خلق) الآية 51 فأبو جعفر بنون وألف على الجمع للعظمة والباقون بالتاء المضمومة ضمير المتكلم بلا ألف

واختلف في ( ) وما كنت متخذ المضلين (الآية 51 فأبو جعفر بفتح التاء خطابا للنبي ليعلم أمته أنه لم يزل محفوظا من أول نشأته لم يعتضد بمضل ولا مال إليه وافقه الحسن والباقون بالضم إخبارا من الله تعالى عن ذاته المقدسة وعن الحسن عضدا بفتح الضاد لغة فيه

واختلف في (ويوم يقول) الآية 52 فحمزة بنون العظمة لقوله وجعلنا وافقه الأعمش والباقون بياء الغيبة أي اذكر يا محمد يوم يقول الله نادوا

وأمال الراء فقط من ( ) ورأى المجرمون النار ( ) أبو بكر وحمزة وخلف والباقون بفتحها كالهمزة هذا هو الصواب كما في النشر وأما حكاية الخلاف في إمالة الحرفين معا للسوسي

ولشعبة في الهمز فتعقبه في النشر كما مر في باب الإمالة وغيره فإن وقف على رأي فكل على أصله فيما بعده متحرك كما تقدم وأدغم دال ولقد صرفنا أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف ونقل همز القرآن ابن كثير

وقرأ (قبلا) الآية 55 بضم القاف والباء عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف جمع قبيل أي أنواعا وألوانا وافقهم الأعمش والباقون بكسر القاف وفتح الباء أي عيانا وقيل الضم لغة فيه

(38/467)

وقرأ (هزوا) الآية 56 حفص بإبدال همزة واوا في الحالين وأسكن الزاي منه حمزة وخلف وضمها الباقون وما نبه في الأصل لأبي جعفر في هذا الحرف تقدم التنبيه عليه في سورة البقرة ويوقف عليه لحمزة بوجهين النقل على القياسي والإبدال واوا اتباعا للرسم ومر إمالة آذانهم للدوري عن الكسائي وأبدل همز يواخذهم واوا مفتوحة ورش وابو جعفر وقصره الأزرق وجها واحدا كما مر ويوقف على موئلا لحمزة بالنقل وبالإدغام فقط وحكي ثالث وهو إبدالها ياء مكسورة على الرسم وضعفه في النشر وحكي فيها ثلاثة أخرى أولها بين بين ثانيها إبدالها ياء ساكنة وكسر الواو قبلها ثالثها إبدالها واوا بلا إدغام وهو أضعفها

وكلها ضعيفة

واختلف في (لمهلكهم) الآية 59 هنا و (مهلك أهله) بالنمل الآية 49 فأبو بكر بفتح الميم واللام التي بعد الهاء فيهما مصدر هلك أو اسم زمان منه أي لهلاكهم كمشهد وهو مضاف للفاعل أو المفعول عنده معديه بنفسه وهم التميميون على حد ليهلك من هلك قاله الجعبري وتبعه النويري وغيره وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام فيهما مصدرا أو اسم زمان من هلك على غير قياسه كمرجع والباقون بضم الميم وفتح اللام فيهما على جعله مصدرا ميميا لأهلك مضافا للمفعول كمخرج أو اسم زمان منه أي لإهلاكهم وما شهدنا إهلاك أهله أو لوقته

وأمال ﴿ لفتيه ﴾ حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

وقرأ أرأيت بتسهيل الثانية نافع وأبو جعفر وللأزرق وجه ثان إبدالها ألفا مع المد للساكنين وحذفها الكسائي وحققها الباقون

وأمال (أنسانيه) الآية 63 الكسائي فقط وقلله الأزرق بخلفه ووصل الهاء ابن كثير بياء على قاعدته وضم الهاء حفص من غير صلة وصلا وكذا ضم هاء عليه الله بالفتح والباقون بالكسر وأثبت ياء نبغ وصلا نافع وابو عمرو والكسائي وأبو جعفر وفي الحالين ابن كثير ويعقوب وأثبتها في تعلمن وصلا نافع وابو عمرو وأبو جعفر وفي الحالين ابن كثير ويعقوب

واختلف في) مما علمت رشدا ( ) الآية 66 فأبو عمرو ويعقوب بفتح الراء والشين وافقهما الحسن واليزيدي والباقون بضم الراء وسكون الشين ومر بالأعراف أنهما لغتان كالبخل والبخل وخرج بالقيد هيء لنا من أمرنا رشدا ولأقرب من هذا رشدا المتفق على الفتح فيهما وفتح ياء الإضافة من معي صبرا في الثلاثة حفص وحده وسكنها الباقون وعن الحسن خبرا معا بضم الباء وفتح ياء الإضافة من ستجدني إن شاء الله نافع وابو جعفر وقرأ (فلا تسألني) الآية 70 نافع وابن عامر وأبو جعفر بفتح اللام وتشديد النون والأصل تسألنني حذفت نون الوقاية لاجتماع النونات وكسرت الشديدة للياء والباقون بإسكان اللام وتخفيف النون على أن النون للوقاية واتفقوا على إثبات الياء بعد النون في الحالين إلا ما روي عن ابن ذكوان من الخلف فروى الحذف عنه في الحالين جماعة من طريقيه حملا للرسم على الزيادة تجاوزا للرسم في حروف المد ونص في جامع البيان على أنه قرأ بالحذف والإثبات على ابن غلبون وبالإثبات على فارس وعلى الفارسي عن النقاش عن الأخفش وهي طريق التيسير وقد ذكر بعضهم الحذف في الوصل فقط والمشهور عنه الإثبات في الحالين كالباقين كما في التبصرة وغيرها والوجهان في الشاطبية والكافي وغيرهما قال في النشر والحذف والإثبات كلاهما صحيح عن ابن ذكوان نصا وأداء

واختلف عن الأزرق في ترقيقذكرا وسترا وأمرا) وبابه فرققه جماعة في الحالين وفخمه

آخرون كذلك والجمهور على تفخيمه في الحالين

واختلف في (لتغرق أهلها) الآية 71 فحمزة والكسائي وخلف بفتح الياء المثناة من تحت وفتح الراء على الغيب (أهلها) بالرفع على الفاعلية وافقهم الأعمش والباقون بضم التاء المثناة من فوق وكسر الراء مخففة مع سكون الغين على الخطاب وأهلها بالنصب على المفعولية وعن الحسن بضم التاء المثناة من فوق وكسر الراء المشددة للتكثير ويلزم منه فتح الغين وأهلها بالنصب ومر إبدال همز لا تؤاخذني واوا لورش وأبي جعفر

(40/467)

واختلف في ﴿ زاكية ﴾ الآية 74 فنافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر ورويس بألف بعد الزاي وتخفيف الياء اسم فاعل من زكا أي طاهرة من الذنوب ووصفها بهذا الوصف لأنه لم يرها إذ ثبت قبل أو لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث وافقهم ابن محيصن واليزيدي والباقون بتشديد الياء من غير ألف أخرج إلى فعلية للمبالغة

وقرأ (نكرا) الآية 74 في الموضعين بضم الكاف نافع وابو بكر وابن ذكوان وأبو جعفر ويعقوب والباقون بالسكون فيهما وذكر بالبقرة واتفقوا على فلا تصاحبني إلا ما انفرد به هبة الله عن المعدل عن روح من فتح التاء وإسكان الصاد وفتح الحاء من صحبه يصحبه

وأسقطها من الطيبة على قاعدته

واختلف في (من لدني) الآية 76 فنافع وأبو جعفر بضم الدال وتخفيف النون وهو أحد لغاتها قال في البحر وهي نون لدن اتصلت بياء المتكلم وهو القياس لأن أصل الأسماء إذا أضيفت إلى ياء المتكلم لم تلحق نون الوقاية نحو غلامي وفرسي انتهى وقرأ أبو بكر بتخفيف النون واختلف عنه في ضمة الدال فأكثر أهل الأداء على إشمامها الضم بعد إسكانها وهو الإيماء بالشفتين إلى الضمة بعد سكون الدال وهو الذي في الكافي والتذكرة وغيرهما ولم يذكر في الشاطبية كالتيسير غيره وذهب كثير إلى اختلاس ضمة الدال كالهذلي وغيره والوجهان في جامع البيان وغيره ويحتمل في هذه القراءة أن تكون النون أصلية فالسكون حينئذ تخفيف كضاد عضد وأن تكون للوقاية والباقون بضم الدال وتشديد النون دخلت نون الوقاية على لدن لتقيها من الكسر محافظة على سكونها كما حوفظ على نون من وعن فقيل مني وعني بالتشديد فأدغمت النون الأولى في نون الوقاية المتصلة بياء المتكلم وعن ابن محيصن والمطوعي (يضيفوهما) بكسر الضاد وسكون الياء مخففة من أضافه وعن المطوعي (أن ينقض) بضم الياء

وتخفيف الضاد مبنيا للمفعول وهي مروية عنه كما في البحر والجمهور على فتح الياء وتشديد الضاد أي يسقط فوزنه انفعل نحو انجر

واختلف في ﴿ لتخذت ﴾ الآية 77 فابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتاء مفتوحة مخففة وخاء مكسورة بلا ألف وصل من تخذ بكسر عينه يتخذ بفتحها كعتب يعتب وافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن والباقون بهمزة وصل وتشديد التاء وفتح الخاء افتعل من اتخذ أدغمت التاء التي هي فاء الكلمة في تاء الأفتعال وأظهر ذالها ابن كثير وحفص ورويس بخلفه

واختلف في (أن يبدلهما) الآية 81 هنا وفي التحريم الآية 5 (أن يبدله) وفي نون الآية 32 (أن يبدلنا) فنافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الموحدة وتشديد الدال في الثلاثة من بدل وافقهم اليزيدي والباقون بسكون الموحدة وتخفيف الدال من أبدل في الثلاثة

وقرأ (رحما) الآية 81 بضم الحاء ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب والباقون بالسكون وسبق بالبقرة

واختلف في ( ) فأتبع سببا ( ) ثم أتبع سببا (الآية 85 89 92 في الثلاثة فابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بقطع الهمزة وإسكان التاء في الكل وافقهم الأعمش والباقون بوصل الهمزة وتشديد التاء مفتوحة والقراءتان بمعنى واحد والفعل متعد لواحد وقيل أتبع بالقطع متعد لاثنين حذف أحدهما أي أتبع أمره سببا

واختلف في (عين حمئة) الآية 86 فنافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب بالهمز من

غير ألف صفة مشبهة يقال حمئت البئر تحمأ حمأ فهي حمئة إذا صار فيها الطين وفي التوراة تغرب في وئاط وهو الحمأة وافقهم اليزيدي والباقون بألف بعد الحاء وإبدال الهمزة ياء مفتوحة اسم فاعل من حمى يحمي أي حارة ولا تنافي بينهما لجواز أن تكون العين جامعة للوصفين الحرارة وكونها من طين وضم يعقوب هاء فيهم

واختلف في) فله جزاء الحسنى (الآية 88 فحفص وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب بفتح الهمزة منونة منصوبا على مصدر في موضع الحال نحو في الدار قائما زيد وقيل إنه مصدر مؤكد أي يجزى جزاء وافقهم الأعمش والباقون بالرفع من غير تنوين على الابتداء والخبر الظرف قبله والحسنى مضاف إليها

(42/467)

وأمال الحسنى حمزة والكسائي وخلف ويعقوب بفتح الهمزة منونة منصوبا على انه مصدر في موضع الحال نحو في الدار قائما زيد وقيل إنه مصدر مؤكد أي يجزى جزاء وافقهم الأعمش والباقون بالرفع من غير تنوين على الابتداء والخبر الظرف قبله والحسنى مضاف إليها وأمال الحسنى حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق وابو عمرو بخلفهما وعن ابن محيصن والحسن مطلع بفتح اللام وهو القياس والجمهور بكسرها قال السمين والمضارع

يطلع بالضم فكان القياس فتح اللام في الفعل ولكنها مع أخوات لها سمع فيها الكسر

واختلف في (بين السدين) الآية 93 فابن كثير وابو عمرو وحفص بفتح السين وافقهم ابن محيصن واليزيدي والباقون بضمها لغتان بمعنى واحد وقيل المضموم لما خلقه الله تعالى والمفتوح لما عمله الناس وتعقب

واختلف في (يفقهون) الآية 93 فحمزة والكسائي وخلف بضم الياء وكسر القاف من أفقه غيره معدى بالهمزة فالمفعول الأول محذوف قال في البحر أي لا يفقهون السامع كلامهم وافقهم الأعمش والباقون بفتح الباء والقاف من فقه الثلاثي فيتعدى إلى واحد أي لا يفقهون كلام غيرهم لجهلهم بلسان من يخاطبهم وقلة فطنتهم

وقرأ (يأجوج ومأجوج) الآية 94 هنا والأنبياء الآية 96 بهمزة ساكنة فيهما عاصم لغة بني أسد والباقون بألف خالصة بلا همز وهما ممنوعان للعلمية والعجمة أو والتأنيث لأنهما اسما قبيلة على أنهما عربيان وأدغم لام فهل نجعل الكسائي وافقه ابن محيصن بخلفه

واختلف في (خرجا) الآية 94 هنا والأول من قد أفلح) الآية 72 فحمزة والكسائي وخلف بفتح الراء وألف بعدها فيهما وافقهم الحسن والأعمش والباقون بإسكان الراء بلا ألف فيهما وقرأ ابن عامر ثاني قد أفلح وهو فخراج ربك خير بإسكان الراء والباقون بالألف بعد الفتح وهما بمعنى كالنول والنوال أو بالألف ما ضرب على الأرض كل عام وبغيرها بمعنى الجعل وقيل الخرج المصدر والخراج اسم لما يعطى

واختلف في (سدا) هنا وموضعي يس الآية 9 فحفص والكسائي وخلف بفتح السين في الثلاثة وافقهم الأعمش وقرأ أبن كثير وأبو عمرو كذلك في الكهف فقط وافقهما ابن محيصن واليزيدي والباقون بضمها في الثلاثة ومر توجيهه قريبا

وقرأ (مكني) الآية 95 ابن كثير وحده بنونين خفيفتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة على الإظهار على الأصل والباقون بنون واحدة مشددة مسكورة بإدغام النون التي هي لام الفعل في نون الوقاية

واختلف في ﴿ ردما ائتوني ﴾ و ﴿ قال ائتوني ﴾ الآية 95 96 فأبو بكر من طريق العليمي وأبي حمدون عن يحيى عنه بهمزة ساكنة مع كسر التنوين قبلها في الأول وصلا وبهمزة ساكنة بعد اللام في الثاني وصلا أيضا أمر من الثلاثي بمعنى المجيء والابتداء حينئذ بكسر همزة الوصل وإبدال الهمزة التي هي فاء الكلمة ياء ساكنة في الكلمتين وبذلك قرأ الداني على فارس بن أحمد واختاره في المفردات ولم يذكر في العنوان غيره وروى شعيب عن يحيى عن أبي بكر بقطع الهمزة ومدها فيهما في الحالين من آتى الرباعي بمعنى أعطى وبه قطع العراقيون قاطبة والابتداء حينئذ بهمزة مفتوحة كالوصل وروى عنه بعضهم الأول

بوجهين والثاني بالقطع وجها واحدا وبه قرأ الداني على أبي الحسن وقطع له بعضهم
بالوصل في الأول وفي الثاني بالوجهين وهو الذي في الشاطبية كأصلها وأطلق بعضهم له
الوجهين في الحرفين جميعا والصواب هو الأول قاله في النشر وقرأ حمزة الثاني بهمزة ساكنة
بعد اللام من الإتيان كالوجه الأول لأبي بكر ويبتدىء مثله وافقه المطوعي والباقون بقطع
الهمزة ومدها فيهما في الحالين من الإعطاء كالوجه الثاني لأبي بكر

واختلف في (الصدفين) الآية 96 فابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بضم الصاد
والدال لغة قريش وافقهم اليزيدي وابن محيصن من المبهج والحسن وقرأ أبو بكر بضم الصاد
وإسكان الدال تخفيف من القراءة قبلها وافقه ابن محيصن من المبهج أيضا والمفردة والباقون
بفتحهما لغة الحجاز

(44/467)

واختلف في ﴿ فما اسطاعوا ﴾ الآية 97 فحمزة بتشديد الطاء أدغم التاء فيها لاتحاد
المخرج وطعن الزجاج وابي علي فيها من حيث الجمع بين الساكنين مردود بأنها متواترة
والجمع بينهما في مثل ذلك سائغ جائز مسموع في مثله كما سبق موضحا آخر باب الإدغام
ومما يقوي ذلك ويسوغه كما في النشر نقلا عن الداني أن الساكن الثاني لما كان اللسان عنده

يرتفع عنه وعن المدغم ارتفاعة واحدة صار بمنزلة حرف متحرك فكان الساكن الأول قد ولي متحركا انتهى وقرأ الباقون بتخفيفها بحذف التاء مخففا وما استطاعوا المجمع على إظهاره

وقرأ (دكاء) الآية 98 بالمد والهمز ممنوع الصرف عاصم وحمزة والكسائي وخلف والباقون بتنوين الكاف بلا همز دككته قال في البحر والظاهر أن جعله بمعنى صيره فدكا مفعول ثان ومر بالأعراف وعن ابن محيصن أفحسب بسكون السين أي إفكا فيهم ورفع الباء على الابتداء وأن يتخذوا خبره والمعنى أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله والجمهور بكسر السين وفتح الباء فعلا ماضيا وأن يتخذوا ساد مسد المفعولين والاستفهام للإنكار وفتح ياء الإضافة من دوني أولياء نافع وأبو عمرو وابو جعفر

وسهل الثانية كالياء من أولياء أن نافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر ورويس وأدغم لام هل ننبئكم الكسائي وتقدم إمالة الدنيا لحمزة والكسائي وخلف وتقليلها للأزرق وابي عمرو بخلفهما وعن الدوري عن أبي عمرو وتمحيضها أيضا من طريق ابن فرح وصححه في النشر

وقرأيحسبون) بفتح السين على الأصل ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر والباقون بكسرها وأبدل همز هزوا واوا خالصة في الحالين حفص وأسكن حمزة وخلف الزاي

ويوقف عليها حمزة كما مر بوجهين النقل عن القياس والإبدال واوا مفتوحة على وجه الرسم

(45/467)

واختلف في (أن تنفد) الآية 6 فحمزة والكسائي وخلف بالياء المثناة تحت على التذكير وافقهم الأعمش والباقون بالتاء من فوق ووجههما بين لأن التأنيث مجازي وعن ابن محيصن والمطوعي بمثله مدادا بكسر الميم وألف بين الدالين ونصبه على التمييز أو على المصدر كما نقل عن الرازي بمعنى ولو أمددناه بمثله إمدادا ثم ناب المدد مناب الإمداد مثل أنبتكم من الأرض نباتا ويوقف لحمزة على ربه أحدا بالتحقيق مع عدم السكت وبالسكت على الياء قبل الهمزة وبالإدغام فقط فهي ثلاثة وهو متوسط بغيره المنفصل وأما النقل بلا إدغام فلم يأخذ به صاحب النشر قال لأن الياء زائدة لمجرد الصلة أي بخلاف نحو في أنفسكم ففيه النقل أيضا كما مر في بابه

(46/467)

المرسوم نافع كبقية الرسوم على حذف ألف تزور لتحتمل القراءتين وكذا زكية ولتخذت ولكلمت ربي وأن تنفد كلمت ربي واتفقوا على إثبات ألف كتاب ربك وعلى رسلا كلتا الجنتين بالألف وفي بعض المصاحف تذروه الرياح بألف وفي بعضها بحذفها وكذلك خرجا هنا وتسألهم خرجا بالمؤمنين واتفقوا على إثبات فخراج ربك بالمؤمنين وفي المدني فلا تصاحبني بلا ألف وكتبوا ردما أتوني وقال أتوني بألف وتاء من غير ألف ثانية وكتبوا لأجدن خيرا منها بغير ميم بعد الهاء في الكوفي والبصري وبميم في المدني والمكي والشامي وكتبوا فإن اتبعتني فلا تسألني بالياء ومكنني بنونين في المكي وكتبوا موبلا بياء بعد الواو وكتب في الكوفي والبصري فله جزاوا بواو وألف المقطوع والموصول اتفقوا على وصل ألن نجعل هنا ألن نجمع بالقيامة واتفقوا على قطع لام الجر في مال هذا الكتاب كالنساء والفرقان وسأل ياآت الإضافة تسع (ربي أعلم) الآية 22 (بربي أحدا) الآية 38 (ربي أن) الآية 40 (ستجدني إن) الآية 69 (معي صبرا) الآية 67 72 75 ثلاثة (دوني أولياء) الآية 102 والزوائد ست (المهتد) الآية 17 (أن يهدين) الآية 24 (أن يؤتين) الآية 66 و (أن تعلمن) الآية 66 (إن ترن) الآية 39 (ما كنا نبغ) الآية 64 وأما (تسألني) الآية 70 فليست من الزوائد. انتهى انتهى. اهـ ﴿إتحاف فضلاء البشر ص 363.

﴿374

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الكهف "

" عوجا قيما " قرأ حفص حال وصل عوجا بقيما بالسكت على الألف المبدلة من التنوين سكتة يسيرة من غير تنفس ، والباقون بغير سكت مع إخفاء التنوين في القاف .

" لينذر " بأسا فيه ، وينذر ، يؤمنوا ، يأتون ، عليم ، أظلم ، جلي .

" من لدنه " قرأ شعبة بإسكان الدال مع إشمامها الضم وكسر النون والهاء ووصلها بياء في اللفظ . قال في الغيث: والمراد بالإشمام هنا ضم الشفتين عقب النطق بالدال الساكنة على ما ذكره مكى والداني وعبد الله الفارسى وغيرهم . وقال الجعبري لا يكون الإشمام بعد الدال بل معه تنبهها على أن أصلها الضم وسكنت تخفيفا ، انتهى . والظاهر أن الحق مع الجعبري . والباقون بضم الدال وإسكان النون وضم الهاء من غير صلة إلا للمكي . فمع الصلة .

" ويبشر " قرأ الأخوان بفتح الياء وإسكان الباء وضم الشين مخففة ، والباقون بضم الياء وفتح الباء وكسر الشين مشددة .

" وهيئ . ويهيئ " أبدل الهمز فيهما أبو جعفر وحده في الحالين وهشام وحمزة في الوقف فقط .

" فأووا " أبدل همزه مطلقا السوسي وأبو جعفر وفي الوقف حمزة .

" مرفقا " قرأ المدنيان والشامي بفتح الميم وكسر الفاء والباقون بكسر الميم وفتح الفاء ومن فتح الميم فخم الراء ومن كسرها رققها . وهو آخر الربع .

الممال

" فأبى ، وهدى " وأوى عند الوقف عليها ، ويتلى وأحصى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . موسى ويا موسى والحسنى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، افترى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش . جاءهم وجاء لابن ذكوان وحمزة وخلف ، الناس لدوري البصري ، آثارهم بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش آذانهم لدوري الكسائي .

المدغم

" الصغير " إذ جاءهم لهشام والبصري ، ينشر لكم للبصري بخلف عن الدوري .

(48/467)

" الكبير " وجعل لهم . خزائن رحمة فقال له ، قال لقد ، الآخرة جئنا ، العلم من قبله ، إلى الكهف فقالوا ، نحن نقص ، أظلم ممن . ولا إدغام في يخرون للأذقان معا لسكون ما قبل

النون .

" طلعت " غلظ اللام ورش: منه ، فهو ، ذراعيه ، اطلعت ، عليهم ، يشعرن ، مراء ظاهرا ، فيهم ، بئس ، أساور ، ثيابا خضرا ، جلي .

" تزاور " قرأ الشامي ويعقوب بإسكان الزاي وتشديد الراء من غير ألف مثل تحمر ، وعاصم والأخوان وخلف بفتح الزاي مخففة وألف بعدها وتخفيف الراء ، والباقون كذلك إلا أنهم شددوا الزاي .

" المهتد " حكمها حكم ما في سورة الإسراء .

" وتحسبهم " فتح السين الشامي وعاصم وحمزة وأبو جعفر وكسرها غيرهم .

" فرارا " لا ترقيق فيه لورش لتكرير الراء .

" ولملئت " شدد اللام المدنيان والمكي وخففها غيرهم وأبدل همزة في الحالين السوسي وأبو جعفر ، وفي الوقف حمزة .

" رعبا " ضم العين الشامي والكسائي وأبو جعفر ويعقوب ، وأسكنها غيرهم .

" بورقكم " أسكن الراء البصري وشعبة وحمزة وخلف وروح ، وكسرها غيرهم .

" ربي أعلم " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" يهدين " أثبت الياء وصلا المدنيان والبصري وفي الحالين المكي ويعقوب وحذفها الباقون مطلقا .

" ثلاثمائة سنين " قرأ الأخوان وخلف بحذف تنوين مائة والباقون بإثباته . وأبدل أبو جعفر همزة مائة مطلقا وحمزة وقفا .

" ولا يشرك " قرأ الشامي بتاء الخطاب وجزم الكاف على أن لا ناهية ، والباقون بياء الغيبة ورفع الكاف على أنها نافية .

" بالغداة " قرأ الشامي بضم الغين وإسكان الدال وبعده واو مفتوحة والباقون بفتح الغين والدال وبعدها ألف لفظا لا خطًا .

" تحتهم الأنهار " سبق مثله قريبا .

" متكئين " فيه لأبي جعفر الحذف مطلقا ، ولحمزة في الوقف الحذف والتسهيل ، ولا يخفى ما فيه من البدل لورش .

" وحسنت مرتفقا " آخر الربع .

الممال

وترى الشمس عند الوقف على ترى بالإمالة للبصري والأخوين وخلف والتقليل لورش وعند الوصل بالإمالة للسوسي بخلف عنه . أزكى وعسى وهواه بالإمالة للأصحاب

والتقليل لورش بخلف عنه . الدنيا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، شاء معا لابن ذكوان وخلف وحمزة ، ولا إمالة ولا تقليل في تمُار لأن الراء ليست متطرفة بل متوسطة بالياء التي حذفت للجازم .

المدغم

" الصغير " لبثتم معا للبصري والشامي والأخوين وأبي جعفر .

" الكبير " أعلم بما معا ، أعلم بهم ، أعلم بعدتهم ، لا مبدل لكلماته ، تريد زينة ، للظالمين نارا . ولا إدغام في: أقرب من هذا ، إذ الباء لا تدغم إلا إذا كانت ياء يعذب في ميم من .

" أكلها " أسكن الكاف نافع وابن كثير وأبو عمرو وضمها غيرهم .

" ثمر " قرأ عاصم وأبو جعفر ويعقوب بفتح الثاء والميم وأبو عمر بضم الثاء وإسكان الميم والباقون بضم الثاء والميم .

وهو معا ، يحاوره ، أنا أكثر ، أنا أقل ، خيرا ، طلبا ، كفيه ، منتصرا ، خير معا مقتدرا ، يغادر ، صغيرة ، كبيرة حاضرا ، بئس ، جلي .

" منها منقلبا " قرأ المدنيان والمكي والشامي بزيادة ميم بعد الهاء مع ضم الهاء على التثنية والباقون بحذف الميم وفتح الهاء على الإفراد .

" لكنا هو " قرأ الشامي وأبو جعفر ورويس بإثبات الألف بعد النون وصلا ، والباقون بحذفها وأجمعوا على إثباتها وقفا اتباعا للرسم .

" بربي أحدا معا " و " ربي أن " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" إن ترني " قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلا وابن كثير ويعقوب بإثباتها في الحالين .

" يؤتين " أثبت الياء المدنيان والبصري وصلا في الحالين ابن كثير ويعقوب .

" بثمره " قرأ عاصم وأبو جعفر وروح بفتح الثاء والميم وأبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم ، والباقون بضمهما .

" ولم تكن " قرأ الأخوان وخلف بياء التذكير والباقون بتاء التأنيث .

" فئة " أبدل الهمز ياء خالصة مطلقا أبو جعفر وفي الوقف حمزة .

" الولاية " كسر الواو والأخوان وخلف وفتحها غيرهم .

" الحق " قرأ أبو عمرو والكسائي برفع القاف والباقون بخفضها .

" عقبا " أسكن القاف عاصم وخلف وحمزة وضمها غيرهم .

" الرياح " قرأ الأخوان وخلف بالإفراد والباقون بالجمع .

" نسير الجبال " قرأ المكي والبصري والشامي بتاء مثناة مضمومة مع فتح الياء المشددة

ورفع لام الجبال ، والباقون بالنون المضمومة مع كسر الياء المشددة ونصب لام الجبال .

" مال هذا الكتاب " سبق مثله في سورة النساء .

" للملائكة اسجدوا " سبق في الإسراء مثله .

" بدلا " آخر الربع .

الممال

سواك ، فعسى ، وأحصاها بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . شاء لحمزة وخلف وابن ذكوان . الدنيا معا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . وترى الأرض فترى المجرمين عند الوقف عليهما بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش وعند وصلها بالإمالة للسوسي وحده بخلف عنه . وأما كلتا فاختلف في ألفها فقيل إنها للتأنيث كإحدى وسيما وقيل إنها للتثنية فعلى الأول تمال للأخوين وخلف وتقلل للبصري وورش بخلف عنه . وعلى الثاني لا يكون فيها تقليل ولا إمالة . قال في النشر : والوجهان جيدان ولكني إلى الفتح أجنح .

المدغم

" الصغير " إذ دخلت للبصري والشامي والأخوين وخلف . لقد جئتمونا للبصري وهشام والأخوين وخلف ، بل زعمتم لهشام والكسائي .

" الكبير " فقال لصاحبه ، قال له ، جئتك قلت ، نجعل لكم ، عن أمر ربه ، ولا إدغام في

خلقك لعدم وجود الميم .

" ما أشهدتهم " قرأ أبو جعفر أشهدناهم بالنون والألف ، والباقون بالتاء المضمومة وحذف الألف .

" وما كنت " قرأ أبو جعفر بفتح التاء والباقون بضمها .

" ويوم يقول " قرأ حمزة بالنون والباقون بالياء التحتية .

" شركائي " أجمعوا على فتح الياء وصلا وإسكانها وقفا .

" ويستغفروا " تأتيهم ، يأتيهم ، أنذروا ، أظلم ، ذكر ، تصبر ، صابرا فانطلقا كله جلي .

(51/467)

" قبلا " قرأ أبو جعفر والكوفيون بضم القاف والباء ، وغيرهم بكسر القاف وفتح الباء .

" هزوا " قرأ حفص بضم الزاي والواو في الحالين ، وحمزة بإسكان الزاي وبالهمز وصلا وأما وقفا فله النقل والإبدال واوا وخلف بإسكان الزاي وبالهمز في الحالين والباقون بضم الزاي مع الهمز في الحالين .

" يؤاخذهم " أبدل الهمز واوا خالصة مطلقا ورش أبو جعفر وفي الوقف حمزة .

" موئلا " وزرش فيه كغيره ولحمزة في الوقف عليه نقل حركة الهمزة إلى الواو وحذف الهمزة

فيصير النطق بواو مكسورة وبعدها اللام وله إبدال الهمزة واوا وإدغام التي قبلها فيها فيصير النطق بواو مشددة مكسورة .

" لمهلكهم " قرأ شعبة بفتح الميم واللام وحفص بفتح الميم وكسر اللام والباقون بضم الميم وفتح اللام .

" أرأيت " سهل الهمزة الثانية نافع وأبو جعفر ولورش إبدالها حرف مد مع الإشباع غير أن هذا الوجه لا يأتى إلا في الوصل وأما في الوقف فيتعين له التسهيل والكسائي بحذف الهمزة والباقون بإثباتها محققة مطلقا إلا حمزة عند الوقف فله فيها التسهيل فقط .

" أنسانيه " ضم الهاء حفص وكسرها غيره ، ووصلها ابن كثير وحده .

" نبغ " أثبت الياء وصلا المدنيان والبصري والكسائي وفي الحالين ابن كثير ويعقوب وحذفها الباقون في الحالين .

" على أن تعلمن " أثبت الياء وصلا المدنيان والبصري وفي الحالين يعقوب والمكي وحذفها في الحالين سواهم .

" رشدا " قرأ البصريان بفتح الراء والشين وغيرهما بضم الراء وسكون الشين وأما من أمرنا رشدا ولأقرب من هذا رشدا فبفتح الراء والشين لسائر القراء .

" معي صبرا " الثلاثة فتح حفص الياء فيها وأسكنها الباقون .

" ستجدني إن شاء الله " فتح الياء المدنيان وأسكنها سواهما . .

" فلا تسألني " قرأ المدنيان والشامي بفتح اللام وتشديد النون والباقون بإسكان اللام وتخفيف النون ، وأجمعوا على إثبات الياء في الحالين إلا ابن ذكوان فله الاثبات والحذف وصلا ووقفا . قال في النشر : والوجهان صحيحان عن ابن ذكوان .

" ذكرا ، وإمرا " فيهما لورش التفخيم والترقيق والأرجح الأول .

" لتغرق أهلها " قرأ الأخوان وخلف بياء تحتية مفتوحة وفتح الراء ورفع لام أهلها والباقون بتاء مثناة مضمومة مع كسر الراء ونصب لام أهلها .

" تؤاخذني " سبق مثله قريبا .

" عسرا " ضم السين أبو جعفر وسكنها غيره .

" زكية " قرأ الشامي والكوفيون وروح بغير ألف بعد الزاي مع تشديد الياء ، والباقون بألف بعد الزاي مع تخفيف الياء .

" نكرا " ضم الكاف المدنيان وابن ذكوان ويعقوب وشعبة وأسكنها غيرهم وهو آخر الربع .

الممال

ورأى المجرمون عند وصلها بإمالة الراء فقط لشعبة وحمزة وخلف وعند الوقف عليها بإمالة الراء والهمزة لابن ذكوان وشعبة والأخوين وخلف ، وبإمالة الهمزة وحدها للبصري وبتقليل الراء والهمزة لورش مع ثلاثة البدل وبفتحها للباقين ، للناس لدوري البصري.

جاءهم وشاء لابن ذكوان وحمزة وخلف ، الهدى معا ولفتاه معا بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه. آذانهم لدوري الكسائي. القرى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش. موسى معا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، أنسانيه بالإمالة للكسائي وحده والتقليل لورش بخلف عنه ، آثارهما بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش.

المدغم

" الصغير " ولقد صرفنا للبصري وهشام والأخوين وخلف ، إذ جاءهم ، للبصري وهشام لقد جئت معا للبصري وهشام والأخوين وخلف.

" الكبير " بالباطل ليدحضوا ، أظلم ممن ، لعجل لهم ، العذاب بل ، لا أبرح حتى ، فاتخذ سبيله ، قال لفتاه ؛ واتخذ سبيله قال له ، قال : قال لا ، لا تؤاخذني ولا إدغام في جئت شيئا معا لوجود تاء الخطاب المفتوحة.

" لدني " قرأ المدنيان بضم الدال وتخفيف النون ، ولشعبة وجهان: الأول إسكان الدال مع الإيماء بالشفتين فيصير النطق بدال ساكنة مشمة فيكون الإشمام مقارنا للإسكان .

والثاني اختلاس ضمة الدال وكلا الوجهين مع تخفيف النون والوجه الثاني وإن لم يذكره الشاطبي تبعا للداني في التيسير قوي صحيح نص عليه كثير من أئمة القراءة ومنهم الداني في المفردات وجامع البيان والباقون بضم الدال وتشديد النون .

" لاتخذت " قرأ المكي والبصريان بتخفيف التاء الأولى وكسر الخاء من غير ألف وصل والباقون بألف الوصل وتشديد التاء الأولى وفتح الخاء .

" فراق " راؤه مفخم للجميع لوجود حرف الاستعلاء بعده .

" أن يبدلهما " قرأ المدنيان والبصري بفتح الباء وتشديد الدال والباقون بإسكان الباء وتخفيف الدال .

" رحما " ضم الحاء الشامي وأبو جعفر ويعقوب وأسكنها غيرهم .

" ذكرا وسترا " فيهما التفخيم والترقيق لورش والأول أرجح .

" فأتبع سببا ثم اتبع سببا معا " قرأ الشامي والكوفيون بقطع الهمزة وإسكان التاء في الثلاثة وغيرهم بوصل الهمزة وتشديد التاء .

" حمئة " قرأ الشامي وشعبة والأخوان وأبو جعفر وخلف بألف بعد الحاء وإبدال الهمزة

ياء خالصة وصلا ، ووقفا والباقون بحذف الألف وتحقيق الهمزة .

" فيهم " ظلم ، نكرا ، جلي .

" فله جزاء الحسنى " قرأ حفص والأخوان ويعقوب وخلف بفتح الهمزة منونة مع كسر التنوين وصلا للساكن والباقون بالرفع من غير التنوين ولحمزة عند الوقف تسهيل الهمزة مع المد والقصر مثل بناء ودعاء ولهشام عند الوقف إبدال الهمزة ألفا مع القصر والتوسط والمد ، ثم تسهيلها بالروم مع المد والقصر وله إبدالها واوا خالصة مع القصر والتوسط والمد ، وكل منها مع السكون المحض والإشمام وله القصر مع الروم وهذا على القول برسمها بواو ، وأما على القول بعدم رسمها على واو فلا يكون له إلا خمسة القياس .

" يسرا " ضم السين أبو جعفر وأسكنها غيره .

(54/467)

" السدين " فتح السين المكي والبصري وحفص وضمها غيرهم .

" يفقهون " قرأ الأخوان وخلف بضم الياء وكسر القاف والباقون بفتحهما .

" يأجوج ومأجوج " قرأ عاصم بالهمز المحقق فيهما والباقون بإبداله حرف مد .

" خرجا " قرأ الأخوان وخلف بفتح الراء وبعدها ألف والباقون بإسكانها من غير ألف .

" سدا " قرأ المدنيان والشامي وشعبة ويعقوب بضم السين والباقون بفتحها .

" مكني " قرا المكي بنونين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة مخففة وغيره بنون واحدة مشددة مكسورة .

" ردما ائتوني " قرأ شعبة بكسر تنوين وهمزة ساكنة بعده وصلا فإن وقف على ردما وابتدأ بائتوني فيبتدئ بهمزة وصل مكسورة وإبدال الهمزة الساكنة بعدها ياء والباقون بإسكان التنوين وهمزة قطع مفتوحة وبعدها ألف وصلا ووقفا .

" الصدفين " قرأ شعبة بضم الصاد وإسكان الدال والمكي والبصريان والشامي بضم الصاد والدال والباقون بفتحهما .

" قال آتوني " قرأ حمزة وشعبة بخلف عنه بهمزة ساكنة بعد اللام وصلا فإن وقفا على قال فالابتداء بائتوني بهمزة وصل مكسورة ثم ياء ساكنة بدلا عن الهمزة التيهي فاء الكلمة والباقون بهمزة قطع مفتوحة بعدها ألف وصلا ووقفا وهو الوجه الثاني لشعبة .

" قطرا " لا خلاف في تفخيم رائه في الحالين .

" فما استطاعوا " قرأ حمزة بتشديد الطاء والباقون بتخفيفها . ولا خلاف بينهم في تخفيف قوله تعالى وما استطاعوا .

" دكاء " قرأ الكوفيون بمد الكاف وهمزة مفتوحة بعدها غير منونة والباقون بتنوين الكاف من غير همز بعدها .

" حقا " آخر الربع .

المال

" الحسنى " بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . ساوى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . جاء لابن ذكوان وحمزة وخلف .

المدغم

" الصغير " لاتخذت لغير حفص ورويس والمكي ، فهل نجعل للكسائي مع الغنة .

" الكبير " قال لو ، وسنقول له . تطلع على ، نجعل لك .

" من دوني أولياء " فتح الياء المدنيان والبصري وأسكنها غيرهم .

(55/467)

" أولياء إنا " سهل الثانية بين بين المدنيان والمكي والبصري ورويس وحققها الباقون وأجمعوا على تحقيق الأولى .

" يحسبون " هزوا ، نزلا خالدين ، جلي .

" أن تنفذ " قرأ الأخوان وخلف بياء التذكير والباقون بتاء التأنيث . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البدور الزاهرة صـ 193 . 201 ﴾

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة بني إسرائيل الإسراء

قوله تعالى ﴿ ألا يتخذوا ﴾ يقرأ بالياء والتاء فالحجة لمن قرأه بالياء أنه رده على بني إسرائيل والحجة لمن قرأه بالتاء أنه جعل النبي عليه السلام مواجها لهم بالخطاب قوله تعالى ليسوءوا وجوهكم يقرأ بفتح الهمزة علامة للنصب وبضمها وواو بعدها وبالياء والنون فالحجة لمن قرأ بفتح الهمزة أنه جعله فعلا للوعد وللعذاب والحجة لمن قرأه بالضم أنه جعله فعلا للعباد في قوله عبادا لنا ليسوءوا وجوهكم ودليله قوله وليدخلوا المسجد وليتبروا والقراءة بالياء في هذين الوجهين فأما النون فإخبار عن الله عز وجل أخبر به عن نفسه وخص الوجوه وهو يريد الوجوه والأبدان ودليله قوله تعالى كل شيء هالك إلا وجهه يريد إلا هو والفعل في الإفراد والجمع منصوب بلام كي قوله تعالى كتابا يلقاه يقرأ بتخفيف القاف وسكون اللام وبتشديدها وفتح اللام فالحجة لمن خفف أنه جعل الفعل للكتاب والهاء للإنسان والحجة لمن شدد أنه جعل الفعل لما لم يسم فاعله واسمه مستتر فيه والهاء للكتاب

قوله تعالى أمرنا مترفيها يقرأ بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد أنه أراد به الإمارة والولاية منها والحجة لمن خفف أنه أراد أمرناهم بالطاعة فخالفوا إلى العصيان وأما قول العرب أمر بنو فلان فمعناه كثروا والله آمرهم أي كثرهم وبارك فيهم

(57/467)

قوله تعالى فلا تقل لهما أف يقرا بالكسر منونا وغير منون وبالفتح من غير تنوين فالحجة لمن نون أنه أراد بذلك الإخبار عن نكر معناه فلا تقل لهما القبيح والحجة لمن كسر ولم ينون أنه أراد إسكان الفاء فكسر لالتقاء الساكنين وفيها سبع لغات الفتح والتنوين والكسر والتنوين والضم والتنوين وأفى على وزن فعلى وزاد ابن الأنباري أف بتخفيف الفاء وبإسكانها وهي كلمة تقال عند الضجر ولو علم الله تعالى أوجز منها في ترك العقوق لأتى بها ومعناها كناية عن كل قبيح فإن قيل فلم جاز إجراء الفاء في أف لجميع الحركات فقل لأن حركتها ليست بحركة إعراب إنما هي لالتقاء الساكنين فأجروها مجرى ما انضم أوله من الأفعال عند الأمر بها وإدغام آخرها كما قال فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا فالضاد تحرك بالضم اتباعا للضم وبالفتح لالتقاء الساكنين وبالكسر على أصل ما يجب في تحريك الساكنين إذا التقيا فإن قيل إفيجوز مثل ذلك في رب وثم فقل لا لأن هذين حرفان

وحق الحروف البناء على السكون فلما التقى في أواخرها ساكنان حركت بأخف الحركات واتسع في أف لأنها لمنهى عنه كما وقعت إيه لمأمور به كما اتسعوا في حركات أواخر الأفعال عند الأمر والنهي

(58/467)

قوله تعالى إما يبلغن عندك الكبر يقرأ بإثبات الألف بعد الغين وبطرحها وبتشديد النون في الوجهين فالحجة لمن أثبت الألف أنه جعلها ضميرا للوالدين وكناية عنهما لتقدمهما وأسقط النون التي هي علامة الإعراب لدخول حرف الشرط وأتى بنون التأكيد الشديدة وبني الفعل معها لأنها مانعة من الإعراب وكسرت تشبيها بنون الأثنين والحجة لمن طرح الألف أنه صاغ الفعل لقوله أحدهما ونصب الكبر بتعدى الفعل إليه وأتى بالنون الشديدة لدخول إما على الفعل لأنها قلما تدخل على فعل إلا أتى فيه بالنون الشديدة للتأكيد فإن قيل فإذا رفعت أحدهما ها هنا بفعله فبم ترفعه مع الألف فقل في ذلك غير وجه أحدهما أنه يرتفع بدلا من الألف التي في الفعل والثاني أنه يرتفع بتجديد فعل مضمر ينوب عنه الظاهر والثالث أنه يرتفع على إعادة سؤال وإجابة كانه قيل من يبلغ الكبر فقل أحدهما أو كلاهما وعلى هذا الوجه يحمل قوله تعالى وأسروا النجوى الذين ظلموا فإن قيل فلم خصا بالبر عند الكبر

فقل إنما خصا بذلك وإن كان لهما واجبا في سائر الأوقات لأنهما عند الكبر يثقل عليهما الاضطراب والخدمة فخصا بالبر فيه لذلك وتقول العرب فلان أبر بوالديه من النسر لأن أباه إذا كبر ولم ينهض للطيران لزم وكره وعاد الفرخ عليه فزقه كما كان أبوه يفعل به قوله تعالى كان خطأ يقرأ بكسر الخاء وإسكان الخاء وإسكان الطاء والقصر وبفتحهما والقصر وبكسر الخاء وفتح الطاء والمد فالحجة لمن كسر وأسكن وقصر أنه جعله مصدرا لقولهم خطئت خطأ ومعناه أثمت إثما والحجة لمن فتحهما وقصر أنه أراد الخطأ الذي هو ضد العمد ودليله قوله تعالى وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ وقال بعض أهل اللغة هما لغتان بمعنى كما قالوا قتب وقتب وبدل وبدل

(59/467)

والحجة لمن كسر الخاء وفتح الطاء ومد فوزنه فعال من الخطيئة وهو مصدر كالصيام والقيام والعرب تقول هذا مكان مخطوء فيه من خطئت ومخطا فيه من أخطأت هذان بالهمز ومكان مخطو فيه من المشي بتشديد الواو من غير همز قوله تعالى فلا يسرف في القتل يقرأ بالياء والتاء فمن قرأه بالياء رده على الولي لأنه غير مقصود بمواجهة الخطاب والحجة لمن قرأه بالتاء فالمعنى للولي والخطاب له وللحاضرين أي فلا تسرف يا ولي ولا أنتم يا من

حضر ودليله قراءة أبي فلا تسرفوا في القتل ومعنى الإسراف أن تقتل عشرة بواحد أو يقتل غير القاتل لشرفه في قومه وخمول القاتل فيهم قوله تعالى وزنوا بالقسطاس يقرأ بكسر القاف وضمها وهما لغتان فصيحتان والضم أكثر لأنه لغة أهل الحجاز ومعناه الميزان وأصله رومي والعرب إذا عربت اسما من غير لغتها اتسعت فيه كما قلنا في إبراهيم وما شاكله قوله تعالى كان سيئه يقرأ بفتح الهمزة وإعراب الهاء وتنوينها وبرفع الهمزة وضم الهاء لأنها هاء كناية فالحجة لمن فتح الهمزة وأعرب الهاء أنه جعلها واحدة من السيئات ودليله أن كل ما نهى الله عز وجل عنه سيئ مكروه ليس فيه مستحسن لقوله خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فالسيئ ضد الصالح والحجة لمن قرأه بالإضافة قوله مكروها ولو أراد السيئة لقال مكروهة لأنها أقرب من ذلك دليله أنه في قراءة أبي كل ذلك كان سيئاته عند ربك

(60/467)

فإن قيل لفظ كل يقتضي الجمع فلم لم يؤت بعده بجمع فقل ما بعده بمعنى الجمع وإن أتى بلفظ الواحد فمن أتى بعده بالجمع فعلى معناه ومن أتى بعده بالواحد فعلى لفظه قوله تعالى ليذكروا وما يزيدهم يقرأ بالتشديد والتخفيف وقد ذكر القول فيه آنفا قوله تعالى عما يقولون وعما تقولون يسبح له يقرأن بالتاء والياء فالحجة لمن قرأه يقولون في الموضعين بالياء والتاء

مذكورة فيما مضى والحجة لمن قرأ تسبح بالتاء قراءة أبي سبحت له السموات والحجة لمن قرأه بالياء أنه جمع قليل والعرب تذكره ودليله قوله تعالى فإذا انسلخ الأشهر الحرم وقال نسوة والعلة في ذلك أن الجمع القليل قبل الكثير والتذكير قبل التأنيث يحمل الأول على الأول والحجة لمن قرأ بعضا بالتاء وبعضا بالياء ما قدمنا ه من العلة في الجمع قوله تعالى أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا مذكور في الأعراف والعلل فيه قوله تعالى لئن أخرتن يقرأ بإثبات الياء وحذفها فالحجة لمن أثبتها أنه أتى به على الأصل والحجة لمن حذفها أنه أجتزأ بالكسرة منها فإن قيل لئن حرف شرط وحروف الشرط لا يليها إلا مستقبل أو ماض في

معنى المستقبل فقل إن اللام حرف تأكيد يرفع بعده الفعل وإن حرف شرط ينجزم بعده الفعل فلما جمعوا بينهما لم يجز اجتماع الرفع والجزم في فعل واحد فعدلوا عن المستقبل إلى فعل لا يتبين فيه رفع ولا جزم فوجدوه الماضي فأولوه لئن في جميع المواضع فاعرفه قوله تعالى بخيلك ورجلك يقرأ بإسكان الجيم وكسرها فالحجة لمن أسكن أنه أتى بالجمع على حقه لأنه جمع راجل والحجة لمن كسر فلمجاورة اللام لأن اللام كسرت للخفض وكسرت الجيم للقرب منها كما قالوا حجل وأنشد أرتني حجلا على ساقها فهش الفؤاد لذلك الحجل قوله

تعالى أفأمنتم أن نخسف أو فيرسل فيغرقكم يقرأ كله بالنون والياء فالحجة لمن قرأه بالنون أنه جعله من إخبار الله عن نفسه والحجة لمن قرأه بالياء أنه جعله من إخبار النبي صلى الله عليه عن ربه قوله تعالى ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى يقرآن بالإمالة والتفخيم معا وبإمالة الأول وتفخيم الثاني فالحجة لمن أمالهما أنه دل بالإمالة على أنهما من ذوات الياء لأنهم يميلون الرباعي وإن كان من ذوات الواو فذوات الياء بذلك أولى والحجة لمن فخمها أنه أتى بالكلام على أصله لأنه قد انقلبت الياء ألفا لفتح ما قبلها فاستعمال اللفظ أولى من استعمال المعنى ومعنى ذلك ومن كان فيما وصفنا من نعيم الدنيا أعمى فهو في نعيم الآخرة أعمى وأضل والحجة لمن أمال الأول وفخم الثاني أنه جعل الأول صفة والثاني بمنزلة أفعل منك ومعناه ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى منه في الدنيا

(62/467)

قوله تعالى وإذا لا يلبثون خلفك يقرأ بفتح الخاء وإسكان اللام وبكسر الخاء وألف بعد اللام ومعناهما بعدك وهما لغتان وليس من المخالفة قال الشاعر نؤي أقام خلاف الحي أو وتد

قوله تعالى ونأى بجانبه يقرأ بفتح النون والهمزة وبكسرها وبفتح النون وكسر الهمزة وإثبات الهمزة في ذلك كله وبفتح النون وتأخير الهمزة وفتحة قبلها كالمدة فالحجة لمن قرأه بفتحهما

أنه أتى بالكلمة على أصلها لأنها في حقيقة اللفظ نأي على وزن فعل والحجة لمن قرأه بكسرهما أنه أمال الياء للدلالة عليها فكسر لها الهمزة ليقربها منها بالمجاورة وكسر النون لمجاورة الهمزة كما قالوا شعير وبعير والحجة لمن فتح النون أنه بقاها على أصلها وكسر الهمزة لمجاورة الياء ومعنى ذلك كله بعد والاسم منه النأي والحجة لمن قرأه بتأخير الهمزة أنه أراد معنى ناء ينوء إذا نهض بثقل مطيقا لحمله ودليله قوله تعالى لتنوء بالعصبة وأصله نوأ فانقلبت الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ومدها تمكينا للهمزة بعدها قوله تعالى حتى تفجر لنا يقرأ بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد أنه أخذه من فجر يفجر ودليله قوله تفجيرا كما قال وكلم الله موسى تكليما والحجة لمن خفف أنه أخذه من فجر يفجر إذا شق الأنهار وأجرى فيها الماء قوله تعالى كسفا يقرأ بفتح السين وإسكانها فالحجة لمن فتح أنه أراد به جمع كسفة كقولك قطعة وقطع والحجة لمن أسكن أنه شبهه بالمصدر في قولهم علم وحلم

(63/467)

قوله تعالى قل سبحان ربي يقرأ بإثبات ألف على الإخبار وبطرحها على الأمر فالحجة لمن أتى به على الإخبار أنه اتى به على الحكاية عن الرسول عليه السلام وهي بالألف في

مصاحف أهل مكة والشام والحجة لمن قرأه على الأمر أنه أراد ما لفظ به جبريل عليه السلام فكأنه قال قل يا محمد تنزيها لله ربي من قولكم قوله تعالى لقد علمت يقرأ بفتح التاء وضمها فالحجة لمن فتح أنه جعل التاء لفرعون دلالة على المخاطبة والحجة لمن ضم أنه جعل التاء لموسى دلالة على إخبار المتكلم عن نفسه فإن قيل فما وجه الخلف في هذه الآية فقل الخلف في القرآن على ضربين خلف المغايرة وهو فيه معدوم وخلف الألفاظ وهو فيه موجود ووجه الخلف في هذه الآية أن موسى قال لفرعون لما كذبه ونسب آياته إلى السحر لقد علمت أنها ليست بسحر وأنها منزلة فقال له فرعون أنت أعلم فأعاد عليه موسى لقد علمت أنا أيضا أنها من عند الله قوله تعالى قل ادعوا يقرأ بالضم والكسر وقد ذكر في البقرة قوله تعالى فهو المهتدي يقرأ بإثبات الياء وحذفها وقد ذكر في الأعراف. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 212.214 ﴾

(64/467)

وقال ابن زنجلة :

سورة الكهف

قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه 2

قرأ أبو بكر من لدنهي بإسكان الدال وإشمام الضم وكسر والنون والهاء ووصل الهاء بالياء الأصل لدن بضم الدال ثم إنه أسكن الدال استثقالا للضمة كما تقول عضد فلما أسكن الدال التقى ساكنان النون والدال فكسر النون لالتقاء الساكنين وكسر الهاء لمجاورة حرف مكسور و وصلها بياء كما تقول مررت به ي يا فتى وأما إشمام الضمة في الدال ف ليعلم أن الأصل كان في الكلمة الضمة ومثل ذلك قيل وجيء فاعرفه فإنه حسن

وقرأ الباقون من لدنه بضم الدال وسكون النون وضم الهاء على أصل الكلمة كقوله من لدن حكيم عليم

فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا 16

قرأ نافع وابن عامر من أمركم مرفقا بفتح الميم وكسر الفاء وقرأ الباقون مرفقا بكسر الميم وفتح الفاء

قال أبو عمرو مرفق اليد بكسر الميم وفتح الفاء وكذلك مرفق الأمر مثل مرفق اليد سواء وكذا قال أيضا أبو الحسن الأخفش

قال هما لغتان لا فرق بينهما وقال الفراء فكأن الذين فتحوا الميم أرادوا أن يفرقوا بين المرفق من الأمر والمرفق من الإنسان وأكثر العرب على كسر الميم في الأمر و في المرفق من الإنسان وقد تفتح العرب أيضا الميم من مرفق الإنسان وهما لغتان في هذا وفي هذا

وترى الشمس إذا طلعت تزور عن كهفهم ذات اليمين 17

قرأ ابن عامر تزور عن كهفهم مثل تحمر وتصفر ومعناه تعدل وتميل

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو تزاور بالتشديد وقرأ أهل الكوفة بالتخفيف من شدد أراد

تتزاور فأدغمت التاء في الزاي ومن خفف حذف إحدى التاءين وهي الثانية

لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا 18

قرأ نافع وابن كثير ولملئت منهم بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف وهما لغتان يقال ملئ فلان

رعبا فهو مملوء و ملئ فهو مملأ

فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة 19

(65/467)

قرأ أبو بكر وحمزة وأبو عمرو بورقكم ساكنة الراء وقرأ الباقون بكسر الراء على أصل

الكلمة من سكن الراء طلب التخفيف بإسكان الراء لأن الراء ب تكررها بمنزلة حرفين

ولبثوا في كهفهم ثلث مائة سنين وازدادوا تسعا 25

قرأ حمزة والكسائي ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين مضافا بغير تنوين قال قوم ليست هذه

القراءة مختارة لأن العرب غذ أضافت هذا الجنس أفردت فيقولون عندي ثلثمائة دينار ولا

يقولون ثلثمائة دنانير ولا يقولون هؤلاء ثلثمائة رجال إنما يقولون ثلثمائة رجل بل هذه القراءة

مختارة وحجتهما أنهما أتيا بالجمع بعد قوله ثلثمائة على الأصل لأن المعنى في ذلك هو الجمع وذلك أنك إذا قلت عندي مئة درهم فالمعنى مئة من الدراهم والجمع هو المراد من الكلام والواحد إنما اكتفي به من الجمع إذا قيل ثلثمائة سنة و ثلثمائة رجل لأن الواحد ها هنا يؤدي على معنى الجمع بذكر العدد قبله فعاملوا الأصل الذي هو مراد المتكلم ولم يكتفيا بالواحد من الجمع هذا مذهب قطرب قال الكسائي العرب تقول أقمت عنده مئة سنة ومئة سنين وقرأ الباقون ثلثمائة سنين منونا أوقعوا اللباث على السنين ثم بينوا عددها بعد فقالوا ولبثوا في كهفهم سنين ثلثمائة قوله سنين بدل من ثلاث

قال الزجاج سنين جائز أن يكون نصبا وجائز أن يكون جرا فأما النصب فعلى معنى ولبثوا في كهفهم سنين ثلثمائة ويكون على تقدير العربية سنين معطوفا على معطوفا على ثلاث عطف البيان والتوكيد و جائز أن يكون سنين من نعت المئة وهو راجع في المعنى إلى ثلاث

ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا 26

قرأ ابن عامر ولا تشرك في حكمه أحدا بالتاء والجزم على النهي أي لا تنسبن أحدا إلى علم الغيب فالخطاب لرسول الله صلى الله عليه والمراد غيره ويقوي التاء ما بعده وهو قوله واتل ما أوحي قال الفراء وهو وجه غير مدفوع كما قال ولا تدع مع الله آلها آخر

وقرأ الباقون ولا يشرك بالياء وضم الكاف على الخبر المعنى ولا يشرك الله في حكمه أحدا

قال الزجاج قد جرى ذكر علمه وقدرته فأعلم جل وعز أنه لا يشرك في حكمه مما يخبر به من الغيب أحدا كما قال جل وعز عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا وكان السدي يقول ولا يشرك في حكمه أحدا أي لا يشاور في أمره وقضائه أحدا

يدعون ربهم بالغدوة والغشي 28

قرأ ابن عامر بالغدوة والعشي بضم الغين وقرأ الباقون بالفتح وحجتهم أن غداة نكرة تعرف بالألف واللام و غدوة معرفة فلا يجوز دخول تعريف على تعريف كما لا يقال مررت بالزيد

وحجة ابن عامر هي أن العرب تدخل الألف واللام على المعرفة

إذا جاورت ما فيه الألف واللام ليزدوج الكلام كما قال الشاعر . . . وجدنا الوليد بن اليزيد مباركا . . . شديدا بأحناء الخلافة كاهله . . .

وكان له ثمر وأحيط بثمره 34 و42

قرأ عاصم وكان له ثمر و أحيط بثمره بفتح الثاء والميم في الحرفين جمع ثمرة وثمر ك بقرة وبقر الفرق بين الواحد والجمع إسقاط الهاء وحجته قوله قبلها كلتا الجنتين آتت أكلها يعني ثمرها

وقرأ أبو عمرو ثمر و أحيط بثمره بضم الثاء وسكون الميم جمع ثمرة ك بدنة وبدن وخشبة وخشب وثمرة وثمر ويجوز أن يكون جمع ثمار كما يخفف كتب ويجوز أن يكون ثمر واحدة ك

عنق وطنب فعلى أي هذه الوجوه جاز إسكان العين منه

وقرأ الباقون ثمر بضم الثاء والميم جمع ثمار وثمر كقولك كتاب وكتب وحمار وحمر

ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا 36

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر لأجدن خيرا منهما منقلبا بزيادة ميم وكذلك في مصاحفهم

وحجتهم قوله قبلها جعلنا

لأحدهما جنتين 32 فذكر جنتين فكذلك منهما منقلبا

وقرأ الباقون منها منقلبا بغير ميم وحجتهم قوله ودخل جنته وهو ظالم لنفسه 35

لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا 38

قرأ نافع في رواية إسماعيل وابن عامر لكنا هو الله ربي بإثبات الألف في الوصل

وقرأ الباقون لكن بغير ألف في الوصل وأجمعوا كلهم على الوقف بالألف

أصل الكلمة لكن أنا أقول هو الله ربي فطرحت الهمزة على النون فتحركت بالفتح فصار

لكننا فاجتمع حرفان من جنس واحد فأدغمت النون الأولى في الثانية فصار لكنا هو الله

حجة من لم يثبت الألف في الوصل قولك أن قلت محذوفة الألف فإذا وقفت عليها أثبت

الألف فقلت أنا وتحذف في الوصل في أجود اللغات نحو أن قمت بغير ألف ويجوز أنا قمت بإثبات الألف وهو ضعيف ومن قرأ لكنا بإثبات الألف في الوصل ف على لغة من قال أنا قمت قال الشاعر . . . أنا شيخ العشيرة فاعرفوني . . . حميدا قد تذريت السناما فكذلك لكنا تحذف الألف في الوصل وتثبتها في الوقف لأنهم زادوا الألف للوقف فإذا أدرجوا القراءة طرحوها لزوال السبب الذي من أجله زادوها ومن أثبت الألف في الوصل أجرى الوصل مجرى الوقف

قال الزجاج إثبات الألف جيد لأن الهمزة قد حذفت من أنا فصار إثبات الألف عوضا من الهمزة

ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله 43

قرأ حمزة والكسائي ولم يكن له فئة بالياء وحجتهما قوله ينصرونه ولم يقل تنصره كما قال في موضع آخر فئة تقاتل في سبيل الله وكان تذكير ما تقدم من فعلهم من أجل تذكير ما تأخر من فعلهم أولى ليأتلف الفعلان على لفظ واحد وقيل إنه قد حيل بين الفعل والاسم بحائل وهو قوله له والحائل صار كالعوض من التأنيث

وقرأ الباقون ولم تكن بالتاء لتأنيث الفئة وقد سقط السؤال

هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا 44

قرأ حمزة والكسائي هنالك الولاية بكسر الواو أي السلطان والقدرة لله

وقرأ الباقون هنالك الولاية بالفتح أي النصرة لله

قال الفراء من فتح الواو يقول النصرة يقال هم أهل ولاية عليك أي متناصرون عليك وكان

تأويل الكلام هنالك النصرة

لله جل وعز ينصر أولياءه ويعزه ويكرمهم وهما مصدران فالكسر مصدر الوالي تقول وليت

الشيء ولاية وهو بين الولاية والمفتوح مصدر للولي تقول هذا ولي بين الولاية

(68/467)

قرأ أبو عمرو والكسائي هنالك الولاية لله الحق بالضم جعلا الحق نعتا للولاية أي الولاية الحق

لله أي لا يستحقها غيره

وقرأ الباقون لله الحق بالكسر جعلوا نعتا لله وهو مصدر كما وصفه بالعدل والسلام

والمعنى ذو الحق وذو السلام وكذلك الإله معناه ذو العبادة وحجتهم قوله ثم ردوا إلى الله

مولاهم الحق

قرأ عاصم وحمزة وخير عقبا ساكنة القاف وقرأ الباقون بضمها وهما لغتان وبمعنى العاقبة

ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا 47

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويوم تسير الجبال بضم التاء وفتح السين الجبال رفع على

ما لم يسم فاعله وحجتهم قوله وسيرت الجبال فكانت سرابا فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه

وقرأ الباقون نسير بالنون الجبال بالنصب الله أخبر عن نفسه و الجبال نصب مفعول بها وحجتهم قوله وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ولم يقل وحشروا فكان إلحاق الكلام بما أتى عقيبه ليأتلف على نظام واحد أولى

وما كنت متخذ المضلين عضدا ويوم يقول نادوا شركاءي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا 51 و52

قرأ حمزة ويوم نقول نادوا شركائي الله أخبر عن نفسه وحجته ما تقدم وما تأخر فأما ما تقدم فقوله وما كنت متخذ المضلين عضدا فكما أن كنت للتكلم كذلك تقول وأما ما تأخر فقوله وجعلنا بينهم موبقا

وقرأ الباقون ويوم يقول بالياء أي قل يا محمد يوم يقول الله تعالى وحجتهم قوله نادوا شركائي الذين زعمتم ولم يقل شركاءنا أو يأتيهم العذاب قبلا 55

قرأ عاصم وحمزة والكسائي أو يأتيهم العذاب قبلا بالضم جمع قبيل مثل سبيل وسبل المعنى أو يأتيهم العذاب صنفا صنفا أي أنواعا من العذاب وقال الزجاج قبلا بمعنى من قبل أي مما يقابلهم ومن قبل وجوههم وفي التنزيل إن كان قيمصه قد من قبل أي من قبل وجهه

وقرأ الباقون قبلا بالكسر أي عيانا مواجهة قال أبو زيد لقيت فلانا قبلا ومقابلة و قبلا و قبلا كله واحد

(69/467)

وجعلنا لمهلكهم موعدا 59

قرأ أبو بكر عن عاصم وجعلنا لمهلكهم موعدا بفتح الميم واللام أي جعلنا لهلاكهم موعدا جعله مصدرا ل هلك يهلك مهلكا وكل ما كان على فعل يفعل فاسم المكان منه على مفعل والمصدر على مفعل بفتح العين

وقرأ حفص لمهلكهم بفتح الميم وكسر اللام أي لوقت هلاكهم

قال الزجاج مهلك اسم للزمان على هلك يهلك وهذا زمن مهلكه مثل جلس يجلس فإذا أردت المصدر قلت مهلك بفتح اللام كقولك مجلس فإذا أردت المكان قلت مجلس بكسر اللام حكى سيبويه عن العرب أنهم يقولون أتت الناقة على مضربها أي على وقت ضرابها

وقرأ الباقون لمهلكهم بضم الميم وفتح اللام أي جعلنا لإهلاكنا إياهم موعدا

قال أهل البصرة تأويل المهلك على ضربين على المصدر وعلى الوقت فمعنى المصدر لإهلاكهم ومعنى الوقت لوقت إهلاكهم قالوا وهو الاختيار لأن المصدر من أفعل في المكان

والزمان يجيء على مفعل كقوله وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق

وما أنسنيه إلا الشيطن أن أذكره 63

قرأ حفص عن عاصم وما أنسانيه بضم الهاء على أصل الكلمة واصلها الضم وإنما عدل عن كسر الهاء إلى الضم لما رأى الكسرات من أنسانيه وكانت الهاء أصلها الضم رأى العدول إلى الضم ليكون أخف على اللسان من الاستمرار على الكسرات ومن كسر فلمجاورة الياء كما تقول فيه عليه

قرأ الكسائي أنسانيه بإمالة الألف وأنما أمال لأن الألف مبدلة من ياء وبعد الألف كسرة والعرب تميل كل ألف بعدها كسرة نحو عابد وعالم

قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا 66

قرأ أبو عمرو مما علمت رشدا بفتح الراء والشين وقرأ الباقون رشدا بإسكان الشين وضم الراء وهما لغتان مثل الحزن والحزن وقال آخرون الرشد الصلاح كقوله فإن آنستم منهم رشدا والرشد في الدين وأجود الوجهين الرشد بضم الراء وإنما قلت ذلك لتوفيق ما بينه وبين ما قبله وما بعده من أواخر الآي وذلك أن الآي قبلها وبعدها أتت بسكون الحرف

الأوسط من الكلمة وهو قوله وعلمناه من لدنا علما 65 معي صبرا

67 - و72 ما لم تحط به خبرا 68 فكان الوجه فيما توسط أن يجري بلفظ ما تقدم وما

تأخر إذ كان في سياقه فكان أولى من مخالفة ما بينها ليأتلف رؤوس الآيات على نظام واحد

قال فإن اتبعتني فلا تسئلني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا 70

قرأ العجمي عن ابن عامر فلا تسألن عن شيء بفتح النون والتشديد وقرأ نافع وابن عامر

فلا تسألني بكسر النون والتشديد وقرأ الباقون فلا تسألني ساكنة اللام وقد بينت في سورة

هود

قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا 71

قرأ حمزة والكسائي ليغرق بفتح الياء والراء أهلها رفع جعلا الفعل لهم كأنه قال أخرقت

السفينة لترسو في البحر فيغرق فيه أهلها

وقرأ الباقون لتغرق بالتاء أهلها نصبا وحجتهم قوله تعالى أخرقتها فجعلوا الفعل الثاني مثل

الأول ويقوي هذا قوله لقد جئت شيئا إمرا

قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا 74

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو زاكية بالألف وقرأ الباقون زكية بغير ألف

قال أبو عمرو الزاكية التي لم تذنب قط والزكية التي أذنبت ثم غفر لها وإنما قتل الخضر صغيرا

لم يبلغ الحنث وقال آخرون زاكية أي طاهرة وقال قتادة نامية وزكية تقية دينة وقال الحسن

بريئة وقال آخرون منهم الكسائي هما لغتان مثل عالم وعليم وسامع وسميع إلا أن فعيلا أبلغ

في الوصف والمدح من فاعل ويقوي التشديد قوله غلاما زكيا

قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر نكرا بضم الكاف في جميع القرآن

(71/467)

وقرأ إسماعيل عن نافع نكرا ساكنة الكاف وبه قرأ الآخرون وهما لغتان مثل الرعب

والرعب والسفل والسفل

قد بلغت من لدني عذرا 76

قرأ نافع وأبو بكر من لدني عذرا بإشمام الدال وتخفيف النون وقرأ الباقون من لدني عذرا

بضم الدال وتشديد النون

الأصل لدن بإسكان النون فإذا أضفتها إلى نفسك زدت

نونا ليسلم سكون النون الأولى تقول لدن زيد فتسكن النون ثم تضيف إلى نفسك فتقول

لدني فتدغم النون في النون كما تقول عني ومن خفف النون كره اجتماع النونين فحذف

واحدة وهي الثانية لأنها زائدة كما حذف من قوله تأمروني وكما حذفت من قدني وقدي

قال الشاعر . . . قدني من ذكر الخبيبين قدي . . .

وأما إشمام الدال فإنه علام على أن الدال كانت مضمومة

قال لو شئت لتخذت عليه أجرا 77

قرأ ابن كثير وأبو عمرو لتخذت بتخفيف التاء وكسر الخاء وحجتهما أن أصل هذا الفعل

من تخذ يتخذ تخذا فالتاء فاء الفعل مثل تبع يتبع وأنشد أبو عمرو

وقد تخذت رجلي إلى جنب غرزها . . .

فقرأ أبو عمرو على أصل بنية الفعل من غير زيادة

وقرأ الباقون لاتخذت بفتح الخاء على افتعلت في هذه القراءة قولان أحدهما أن تكون التاء

الأولى أصلية والتاء الثانية تاء زائدة في افتعل زائدة والأصل تخذ يتخذ فلا نظر فيه أنه

افتعل منه والقول الثاني أن يكون اتخذ مأخوذا من أخذ والفاء همزة فإذا بني منه افتعل شابه

افتعل من وعد فيصير ائتخذ يأتخذ ائتخاذا كما تقول ايتعد ياتعد ايتعادا فهو موتعد ثم تقول

اتعد يتعد اتعادا كذلك اتخذ يتخذ اتخاذا فأبدلوا من مكان الهمزة تاء كما جرت مجرى

الواو في التثقيل والأصل إأتخذ فاجتمع همزتان فقلبت الثانية ياء لسكونها وانكسار ما

قبلها فصارت إيتخذ ثم أبدلوا من الياء تاء ثم أدغموا في التاء التي بعدها فقالوا اتخذ يتخذ

فهو متخذ

فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكوة وأقرب رحما 81

قرأ نافع وأبو عمرو فأردنا أن يبدلهما بالتشديد في جميع القرآن وقرأ الباقون بالتخفيف وهما لغتان تقول بدل وأبدل مثل نزل وأنزل

وحجة التشديد قوله وإذا بدلنا آية وقال لا تبديل لكلمات الله ولم يقل لا إبدال

وحجة التخفيف قوله وإن أردتم استبدال زوج فهذا قد يكون بمعنى الإبدال كما أن قوله

. . . فلم يستجبه عند ذاك مجيب . . .

بمعنى لم يجبه

قرأ ابن عامر وأقرب رحما بضم الحاء وحجته قول الشاعر . . . وكيف بظلم جارية . . .

ومنها اللين والرحم . . .

وقرأ الباقون رحما وهما لغتان مثل الرعب والرعب

فأتبع سببا 85

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فاتبع سببا بالتشديد وحجتهما في ذلك أن المشهور في كلام العرب أن يقال اتبع فلان أثر فلان إذا سلك طريقه وسار بعده واتبعت الرجل إذا لحقته

ومعلوم أن الله أخبر عن مسير ذي القرنين في الأرض التي مكن له فيها

وقرأ الباقون فأتبع بالتخفيف أي لحق سببا تقول اتبعت الرجل إذا سرت من ورائه و أتبعت الرجل ألحقته خيرا أو شرا كقوله تعالى فأتبعه شهاب ثاقب

قال أبو زيد رأيت القوم فأتبعتهم بالتخفيف إتباعا إذا سبقوك فأسرعت نحوهم و مروا

علي فاتبعتهم اتباعا بالتشديد إذا ذهبت معهم ولم يسبقوك

قال أبو عبيد القراءة عندي فاتبع بالتشديد لأنها من المسير إنما هو افتعل وأما الإتباع فإن

معناه اللحاق كقوله فأتبعوهم مشرقين وقال قوم لغتان أتبع يتبع واتبع يتبع افتعل

وجدها تغرب في عين حمئة 86

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر في عين حامية بالألف أي حارة من حميت تحمى

فهي حامية قال تعالى تصلى نارا حامية أي حارة وحجتهم ما روي عن أبي ذر رحمه

الله قال كنت ردف النبي صلى الله عليه وهو على حمار والشمس عند غروبها فقال

يا أبا ذر هل تدري أين تغرب هذه قلت الله ورسوله أعلم قال

إنها تغرب في عين حامية

(73/467)

وقرأ الباقون في عين حمئة مهموزا فالحمأة الطين المنتن المتغير اللون والطعم وحجتهم ما روي

في حديث ذي القرنين أنه رأى مغيب الشمس عند غروبها في ماء وطين تغرب قال الشاعر

. . . في عين ذي خلب وثأط حرمد . . .

فالخلب الطين والثأط الحمأة والحرمد الأسود

قال ابن عباس كنت عند معاوية فقرأ تغرب في عين حامية فقلت ما نقرؤها إلا حمئة فقال لعبد الله بن عمرو بن العاص كيف تقرؤها فقال كما قرأتها يا أمير المؤمنين قال ابن عباس فقلت في بيتي نزل القرآن فأرسل معاوية إلى كعب أين تجد الشمس تغرب في التوراة فقال أما العربية فأنتم أعلم بها وأما أنا فأجد الشمس في التوراة تغرب في ماء وطين أراد أنها تغرب في عين ذات حمئة وهذا القول ليس ينفي قول من قرأها حامية إذا كان جائزا أن تكون العين التي تغرب الشمس فيها حارة

وقد تكون حارة وذات حمأة وطينة سوداء فتكون موصوفة بالحرارة وهي ذات حمأة

فله جزاء الحسنى 28

قرأ حمزة والكسائي وحفص فله جزاء الحسنى منونا منصوبا المعنى فله الحسنى جزاء و جزاء مصدر منصوب في موضع الحال والمعنى فله الحسنى مجزيا بها جزاء فالنصب على التقديم والتأخير

وقرأ الباقون فله جزاء الحسنى بالرفع والإضافة فالحسنى على هذه القراءة تحتمل أن تكون الطاعة المعنى فله جزاء إحسانه أي له جزاء الأعمال الحسنى ويحتمل أن يجعل الحسنى الجنة ويكون الجزاء مضافا إليها وهو لاختلاف اللفظين كما قال لهو حق اليقين و لدار الآخرة يضاف الاسم إلى نفسه إذا اختلف لفظ المضاف والمضاف إليه وهو هو في الحقيقة

حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا 93

قرأ ابن كثير وأبو عمرو بين السدين و بينهم سدا 94 بالفتح وفي يس سدا بالرفع قال أبو عمرو السد الشيء الحاجز بينك وبين الشيء والسد في العين والعرب تقول بعينه سدة بالرفع واستدل على ذلك بقوله فأغشيناهم فهم

لا يبصرون أي جعلنا على أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون طريق الهدى والحق

(74/467)

قرأ حمزة والكسائي بين السدين بالرفع وبينهم سدا بالفتح وكذلك في يس

قال أبو عبيد كل شيء وجدته العرب من فعل الله من الجبال والشعاب فهو سد بالضم وما بناه الآدميون فهو سد بالفتح وكذا قال أيضا عكرمة فذهب حمزة والكسائي في قوله أن تجعل بيننا وبينهم سدا أنه من صنع الناس وفي يس إلى المعنى وذلك أنه يجوز أن يكون الفتح فيهما على معنى المصدر الذي صدر عن غير لفظ الفعل لأنه لما قال وجعلنا من بين أيديهم سدا كأنه قال وسددنا ثم أخرج المصدر على معنى الجعل إذا كان معلوما أنه لم يرد بقوله في يس سدا ما أريد به في قوله بين السدين لأنهما جبلان وهي ها هنا عارض في العين

قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر جميع ذلك بالرفع وقرأ حفص جميع ذلك بالنصب

وحجتهم أنهما لغتان بمعنى واحد كالضعف والضعف والفقر والفقر

قرأ حمزة والكسائي لا يكادون يفقهون بضم الياء أي لا يفقهون غيرهم إذا كلموهم تقول أفقهني ما تقول أي أفهمني

وقرأ الباقون لا يكادون يفقهون بالفتح أي لا يفهمون ما يقال لهم كما تقول كلمته ولم يفقه أي لم يفهم

واعلم أن فقهت فعل يتعدى إلى مفعول تقول فقهت السنة فإذا نقلته بالهمزة تعدى إلى مفعولين فالمعنى فيمن ضم لا يكادون يفقهون أحدا قولا فحذف أحد المفعولين كما حذف من قوله لينذر بأسا شديدا

قالوا يذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا 94

قرأ عاصم إن يأجوج ومأجوج بالهمز وفي الأنبياء مثله جعله من أجه الحر ومن قوله ملح أجاج وأجة الحر شدته وتوقده ومن هذا قولهم أججت النار ويكون التقدير في يأجوج يفعول نحو يربوع وفي مأجوج مفعول وامتنعا من الصرف على هذا للتأنيث والتعريف كأنه اسم القبيلة

وقرأ الباقون ياجوج وماجوج ياجوج فاعول وماجوج فاعول أيضا الياء فاء الفعل

قال النحويون وهو الاختيار لأن الأسماء الأعجمية سوى هذا الحرف غير مهموزة نحو طالوت و جالوت و حاروت و ماروت

(75/467)

قرأ حمزة والكسائي فهل نجعل لك خراجا بالألف وقرأ الباقون بغير ألف

قال الزجاج الخرج الفيء والخراج الضريبة وقيل الجزية قال والخراج عند النحويين الاسم لما يخرج من الفرائض في الأموال والخرج المصدر وقال غيره خرجا أي عطية نخرجه إليك من أموالنا وأما المضروب على الأرض فالخراج ويدل على العطية قوله في جوابه لهم ما مكني فيه ربي خير 95

قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ءاتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال ءاتوني أفرغ عليه قطرا 95 و96

قرأ ابن كثير ما مكنني فيه ربي خير بنونين إنما أظهر النونين لأنهما من كلمتين الأولى لام الفعل أصلية والثانية تدخل مع الاسم لتسلم فتحة النون الأولى والنون الثانية مع الياء في موضع نصب

وقرأ الباقون مكني بالتشديد أدغموا النون في النون لاجتماعهما و ما بمعنى الذي وصلته

مكني و خير خبر الابتداء المعنى الذي مكني فيه ربي خير لي ما يجمعون لي من الخراج

قرأ أبو بكر ردما ايتوني بوصل الألف جعله من الإتيان أي جيئوني يقال أتيته أي جئته

والعرب تقول خذ بالخطام وخذ الخطام وحجته في قوله ردما ايتوني لأن إيتوني أشبه بقوله

فأعينوني لأنه كلفهم المعونة على عمل السد ولم يقبل الخرج الذي بذلوه له فقوله إيتوني معناه

جيئوني بما هو معونة على ما يفهم من قوله فأعينوني بقوة

وقرأ الباقون آتوني ممدودة أي أعطوني والأصل آتيوني فاستثقلوا الضمة على الياء

فحذفوها فالتقى ساكنان الواو والياء فحذفوا الياء لالتقاء الساكنين

قرأ أبو بكر بين الصدفين بإسكان الدال وضم الصاد كأنه استثقل الضمتين وسكن الدال

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر الصدفين بضم الصاد والدال وقرأ الباقون بفتح الصاد

والدال وهما لغتان

قرأ حمزة وأبو بكر قال إيتوني قطرا أي جيئوني به وقرأ الباقون آتوني أي أعطوني

قال أبو عمرو كيف يقول لهم جيئوني وهم معه يكلمونه ويخاصمونه

فما اسطعوا أن يظهروه وما استطعوا له نقبا 97

قرأ حمزة فما اسطاعوا بتشديد الطاء أراد فما استطاعوا فأدغم التاء في الطاء لأنهما أختان

وحجته قراءة الأعمش فما استطاعوا بالتاء

وقرأ الباقون فما اسطاعوا بتخفيف الطاء والأصل فما استطاعوا فحذفوا التاء كراهة الإدغام والجمع بين حرفين متقاربي المخرج

فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء 98

قرأ حمزة وعاصم والكسائي جعله دكاء بالمد والهمز أي جعله مثل دكاء ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه وتقول العرب ناقة دكاء أي لا سنام لها ولابد من تقدير الحذف لأن الجبل مذكر فلا يوصف بدكاء لأنها من وصف المؤنث وقال قطرب قوله دكاء صفة التقدير جعله أرضا دكاء أي ملساء فأقيمت الصفة مقام الموصوف وحذف الموصوف كما قال سبحانه وقولوا للناس حسنا أي قولا حسنا

وقرأ الباقون دكا منونا غير ممدود وفي هذه القراءة وجهان أحدهما أن تجعل دكا بمعنى مدكوكة دكا فمقام المصدر مقام المفعول والعرب تجعل المصدر بمعنى المفعول فيقولون هذا درهم ضرب الأمير أي مضروب الأمير والوجه الآخر أن يكون معناه دكه دكا فتجعل دكا مصدرا عن معنى الفعل لا عن لفظه

أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء 102

قرأ الأعشى عن أبي بكر أفحسب الذين كفروا برفع الباء وسكون السين و تأويله أفيكفيهم أن يتخذوا العباد أولياء من دون الله وموضع أن يتخذوا رفع بفعله

وقرأ الباقون أفحسب الذين كفروا أي أفحسبوا أن ينفعهم اتخاذهم عبادي أولياء وموضع أن نصب بوقوع الظن عليه

لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي 109

قرأ حمزة والكسائي قبل أن ينفد كلمات ربي بالياء ذهبا بالكلمات إلى معنى المصدر فكأنه قال كلام ربي فذكرا لتذكير الكلام

وقرأ الباقون قبل أن تنفد بالتاء أخرجوا الفعل على لفظ الأسماء المؤنثة إذ لم يحل بين الاسم والفعل حائل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 436.412 ﴾

(77/467)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الكهف

مكية وقد تقدم نظيرتها في البصري ولا نظير لها في غيره

وكلمها ألف وخمس مئة وسبع وسبعون كلمة

وحروفها ستة آلاف وثلاث مئة وستون حرفا

وهي مئة وخمس آيات في المدنيين والمكي وست في الشامي وعشر في الكوفي وإحدى عشرة في البصري

اختلافها إحدى عشرة آية (﴿ وزدناهم هدى ﴾) لم يعدها الشامي وعدها الباقون (﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾) عدها المدني الأخير ولم يعدها الباقون (﴿ إني فاعل ذلك غدا ﴾) لم يعدها المدني الأخير وعدها الباقون (﴿ وجعلنا بينهما زرعا ﴾) لم يعدها المدني الأول والمكي وعدها الباقون (﴿ أن تبيد هذه أبدا ﴾) لم يعدها المدني الأخير والشامي وعدها الباقون (﴿ من كل شيء سببا ﴾) لم يعدها المدني الأول والمكي وعدها الباقون (﴿ فأتبع سببا ﴾ ثم اتبع سببا) عدهن الكوفي والبصري ولم يعدهن الباقون (﴿ عندها قوما ﴾) لم يعدها الكوفي والمدني الأخير وعدها الباقون (﴿ بالأخسرين أعمالا ﴾) لم يعدها المدنيان والمكي وعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع خمسة مواضع

(﴿ عليهم بنيانا ﴾ بأسا شديدا) (﴿ بسلطان بين ﴾ مراء ظاهرا) (﴿ ولم تظلم منه شيئا ﴾

ورؤوس الآي

عوجا

1حسنا

2أبدا

3ولدا

4كذبا

5أسفا

6عملا

7جرزا

8عجبا

9رشدا

10عددا

11أمدا

12 هدى

13 شططا

14 كذبا

15 مرفقا

16 مرشدا

17 رعبا

18 أحدا

19 أبدا

20 مسجدا

21 إلا قليل

* أحدا

22 رشدا

24 تسعا

25 أحدا

26 ملتحدا

27 فرطا

28 مرتفقا

29 عملا

30 مرتفقا

31 زرعا

32 نهرا

33 نفرا

34 منقلبا

36 رجلا

37 أحدا

38 وولدا

39 زلقا

40 طلبا

41 أحدا

42 منتصرا

43 عقبا

44 مقتدرا

45 أملا

46 أحدا

47 موعدا

48 أحدا

49 بدلا

50 عضدا

51 موبقا

52 مصرفا

53 جدلا

54 قبلا

55 هزوا

56 أبدا

57 موئلا

58 موعدا

59 حقبا

60 سربا

61 نصبا

62 عجبا

63 قصصا

64 علما

65 رشدا

66 صبرا

67 خبرا

68 أمرا

69 ذكرا

70 إمرا

71 صبرا

72 عسرا

73 ذكرا

74 صبرا

75 عذرا

76 أجرا

77 صبرا

78 غصبا

79 كفرا

80 رحما

81 صبرا

82 ذكرا

83 سببا

84 حسنا

86 نكرا

87 يسرا

88 سترا

90 خبرا

91 قولا

93 سدا

94 ردما

95 قطرا

96 نقبا

97 حقا

98 جمعا

99 عرضا

100 سمعا

101 نزلا

102 صنعا

104 وزنا

105 هزوا

106 نزلا

107 حولا

108 مددا

109 أحدا . انتهى انتهى . اهـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ ﴾

(79/467)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (قيما) فيه وجهان: أحدهما هو حال من الكتاب، وهو مؤخر عن موضعه: أي أنزل الكتاب قيما قالوا وفيه ضعف لأنه يلزم منه التفريق بعض الصلة وبعض، لأن قوله تعالى (ولم) معطوف على أنزل، وقيل قيما حال، ولم يجعل حال أخرى.

والوجه الثاني أن قيما منصوب بفعل محذوف تقديره: جعله قيما، فهو حال أيضا، وقيل هو حال أيضا من الهاء في ولم يجعل له، والحال مؤكدة، وقيل منتقلة.

قوله تعالى (لينذر) أي لينذر العباد، أو لينذركم (من لدنه) يقرأ بفتح اللام وضم الدال وسكون النون وهى لغة، ويقرأ بفتح اللام وضم الدال وكسر النون، ومنهم من يختلس ضمة الدال، ومنهم من يختلس كسرة النون.

قوله تعالى (ماكثين) حال من المجرور في لهم، والعامل فيها الاستقرار، وقيل هو صفة لأجر، والعائد الهاء في فيه.

قوله تعالى (كبرت) الجمهور على ضم الباء وقد أسكنت تخفيفا، و (كلمة) تمييز، والفاعل مضمر: أي كبرت مقالتهم، وفي (تخرج) وجهان: أحدهما هو في موضع نصب صفة

لكلمة .

والثانى في موضع رفع تقديره: كلمة كلمة تخرج ، لأن كبر بمعنى بئس .

فالمحذوف هو المخصوص بالذم ، و (كذبا) مفعول يقولون أو صفة لمصدر محذوف: أي قولا كذبا ، و (أسفا) مصدر في موضع الحال من الضمير في باخع ، وقيل هو مفعول له ، والجمهور على أن لم بالكسر على الشرط ، ويقرأ بالفتح أي لأن لا يؤمنوا .

قوله تعالى (زينة) مفعول ثان على أن جعل بمعنى صير ، أو مفعول له أو حال على أن جعل بمعنى خلق .

قوله تعالى (أم حسبت) تقديره: بل أحسبت (والرقيم) بمعنى المرقوم على قول من جعله كتابا ، و (عجبا) خبر كان .

و(من آياتنا) حال منه ، ويجوز أن يكون خبرين ، ويجوز أن يكون عجبا حالا من الضمير في الجار .

قوله تعالى (إذ) ظرف لعجبا ، ويجوز أن يكون التقدير: اذكر إذ .

قوله تعالى (سنين) ظرف لضربنا ، وهو بمعنى أنمناهم ، و (عددا) صفة لسنين: أي معدودة أو ذوات عدد ، وقيل مصدر أي تعد عددا .

قوله تعالى (أي الحزبين) مبتدأ و (أحصى) الخبر ، وموضع الجملة نصب بنعلم ، وفي أحصى وجهان: أحدهما هو فعل ماض ، و (أمدا) مفعوله ولما لبثوا نعت له قدم عليه فصار حالا أو مفعولا له ، أي لإجل لبثهم ، وقيل اللام زائدة ، وما بمعنى الذى ، وأمدا مفعول لبثوا ، وهو خطأ ، وإنما الوجه أن يكون تمييزا ، والتقدير: لما لبثوه والوجه الثاني هو اسم ، وأمدا منصوب بفعل دل عليه الاسم ، وجاء أحصى على حذف الزيادة ، كما جاء هو أعطى للمال وأولى بالخير .

قوله تعالى (شططا) مفعول به أو يكون التقدير: قولا شططا .

قوله تعالى (هؤلاء) مبتدأ ، و (قومنا) عطف بيان ، و (اتخذوا) الخبر .

قوله تعالى (وإذ اعتزلتموهم) " إذ " ظرف لفعل محذوف: أي وقال بعضهم لبعض (وما يعبدون) في " ما " ثلاثة أوجه: أحدها هي اسم بمعنى الذى و (إلا الله) مستثنى من " ما " أو من العائد المحذوف .

والثانى هي مصدرية ، والتقدير: اعتزلتموهم وعبادتهم إلا عبادة الله .

والثالث أنها حرف نفى ، فيخرج في الاستثناء وجهان: أحدهما هو منقطع .

والثانى هو متصل ، والتقدير: وإذ اعتزلتموهم

إلا عبادة الله ، أو وما يعبدون إلا الله ، فقد كانوا يعبدون الله مع الأصنام ، أو كان منهم من يعبد الله (مرفقا) يقرأ بكسر الميم وفتح الفاء ، لأنه يرتفق به فهو كالمنقول المستعمل مثل المبرد والمنخل ، ويقرأ بالعكس وهو مصدر : أي ارتفاقا ، وفيه لغة ثالثة وهى فتحهما ، وهو مصدر أيضا مثل المضرب والمنزع .

قوله تعالى (تزاور) يقرأ بتشديد الزاى ، وأصله تتزاور فقلبت الثانية زايا وأدغمت ، ويقرأ بالتخفيف على حذف الثانية ، ويقرأ بتشديد الراء مثل تحمر ،

ويقرأ بألف بعد الواو مثل: تحمار ويقرأ بهمزة مكسورة بين الواو والراء مثل تطمئن و (ذات اليمين) ظرف لتزاور .

(81/467)

قوله تعالى (ونقلبهم) المشهور أنه فعل منسوب إلى الله عزوجل ، ويقرأ بتاء وضم اللام وفتح الباء وهو منصوب بفعل دل عليه الكلام: أي ونرى تقلبهم ، و (باسط) خبر المبتدأ ، و (ذراعيه) منصوب به ، وإنما عمل اسم الفاعل هنا وإن كان للماضي لأنه حال محكية (لو اطلعت) بكسر الواو على الأصل ، وبالضم ليكون من جنس الواو (فرارا) مصدر لأن وليت بمعنى فررت ، ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال ، وأن يكون مفعولا له (ملئت)

بالتخفيف ، ويقرأ بالتشديد على التكثير ، و (رعبا) مفعول ثان ، وقيل تمييز .

قوله تعالى (وكذلك) في موضع نصب: أي وبعثناهم كما قصصنا عليك ، و (كم) ظرف و (بورقكم) في موضع الحال ، والأصل فتح الواو وكسر الراء ، وقد قرئ به .

وبإظهار القاف على الأصل وبإدغامها لقرب مخرجها من الكاف واختير الإدغام لكثرة الحركات والكسرة ، ويقرأ بإسكان الراء على التخفيف وبإسكانها وكسر الواو على نقل الكسرة إليها ، كما يقال فخذ وفخذ وفخذ (أيها أزكى) الجملة في موضع نصب ، والفعل معلق عن العمل في اللفظ ،

و (طعاما) تمييز .

قوله تعالى (إذ يتنازعون) إذ ظرف ليعلموا أو لأعثرنا ، ويضعف أن يعمل فيه الوعد لأنه قد أخبر عنه ، ويحتمل أن يعمل فيه معنى حق (بنيانا) مفعول وهو جمع بنيانة ، وقيل هو مصدر .

قوله تعالى (ثلاثة) يقرأ شاذا بتشديد الثاء على أنه سكن التاء وقلبها ثاء وأدغمها في تاء التأنيث ، كما تقول ابعث تلك (ورابعهم كلبهم) رابعهم مبتدأ ، وكلبهم خبره ، ولا يعمل اسم

الفاعل هنا لأنه ماض ، والجملة صفة لثلاثة ، وليست حالا إذ لا عامل لها ، لأن التقدير : هم ثلاثة ، وهو لا يعمل ، ولا يصح أن يقدر هؤلاء لأنها إشارة إلى حاضر ، ولم يشيروا إلى حاضر ، ولو كانت الواو هنا وفي الجملة التى بعدها لجاز كما جاز في الجملة الأخيرة ، لأن الجملة إذا وقعت صفة لنكرة جاز أن تدخلها الواو ، وهذا هو الصحيح في إدخال الواو في ثامنهم ، وقيل دخلت لتدل على أن ما بعدها مستأنف حق ، وليس من جنس المقول برجم الظنون ، وقد قيل فيها غير هذا وليس بشئ ، و (رجما) مصدر : أي يرجمون رجما .

روى عن ابن كثير "خمسة"

بالنصب : أي يقولون نعدهم خمسة ، وقيل يقولون بمعنى يظنون ، فيكون قوله تعالى " سادسهم كلبهم " في موضع المفعول الثاني ، وفيه ضعف .

قوله تعالى (إلا أن يشاء الله) في المستثنى منه ثلاثة أوجه : أحدها هو من النهى والمعنى لا تقولن أفعل غدا إلا أن يؤذن لك في القول .

والثانى هو من فاعل : أي لا تقولن إنى فاعل غدا حتى تقرن به قوله إن شاء الله .

والثالث أنه منقطع ، وموضع أن يشاء الله نصب على وجهين : أحدهما على الاستثناء ، والتقدير : لا تقولن ذلك في وقت إلا وقت أن يشاء الله : أي يأذن ، فحذف الوقت وهو مراد .

والثانى هو حال ، والتقدير : لا تقولن أفعل غدا إلا قائلا إن شاء الله ، فحذف القول وهو

كثير

وجعل قوله أن يشاء في معنى إن شاء ، وهو مما حمل على المعنى ، وقيل التقدير : إلا بأن يشاء الله : أي متلبسا بقول إن شاء الله .

(83/467)

قوله تعالى (ثلثمائة سنين) يقرأ بتنوين مائة ، وسنين على هذا بدل من ثلاث ، وأجاز قوم أن تكون بدلا من مائة ، لأن مائة في معنى مئات ويقرأ بالإضافة وهو ضعيف في الاستعمال ، لأن مائة تضاف إلى المفرد ، ولكنه حمله على الأصل ، إذ الإصل إضافة العدد إلى الجمع ، ويقوى ذلك أن علامة الجمع هنا جبرلما دخل السنة من الحذف ، فكأنها تتمة الواحد (تسعا) مفعول ازدادوا ، وزا متعد إلى اثنين ، فإذا بنى على افتعل تعدى إلى واحد (أبصر به وأسمع) الهاء تعود على الله عزوجل ، وموضعها رفع لأن التقدير : أبصر الله ، والباء زائدة ، وهكذا في فعل التعجب الذى هو على لفظ الامر .

وقال بعضهم : الفاعل مضمر ، والتقدير : أوقع أيها المخاطب إبصارا بأمر الكهف فهو أمر حقيقة (ولا يشرك) يقرأ بالياء وضم الكاف على الخبر عن الله ، وبالتاء على النهى : أي أيها المخاطب .

قوله تعالى (واصبر) هو متعد لأن معناه احبس ، و (بالغداة والعشي) قد ذكرا في الأنعام

(ولا تعد عيناك) الجمهور على نسبة الفعل إلى العينين ، وقرأ الحسن تعد عينيك بالتشديد

والتخفيف: أي لا تصرفها (أغفلنا) الجمهور على إسكان اللام ، و (قلبه) بالنصب: أي

أغفلناه عقوبة له أو وجدناه غافلا ، ويقرأ بفتح اللام وقلبه بالرفع وفيه وجهان: أحدهما

وجدنا قلبه معرضين عنه .

والثانى أهمل أمرنا عن تذكرنا .

قوله تعالى (يشوى الوجوه) يجوز أن يكون نعتا لما ، وأن يكون حالا من المهل

وأن يكون حالا من الضمير في الكاف في الجار (وساءت) أي ساءت النار (مرتفقا) أي

متكأ أو معناه المنزل .

قوله تعالى (إن الذين آمنوا) في خبر إن ثلاثة أوجه: أحدها أولئك لهم جنات عدن ، وما

بينهما معترض مسدد .

والثانى تقديره: لا نضيع أجر من أحسن عملا منهم ، فحذف العائد للعلم به .

والثالث أن قوله تعالى " من أحسن " عام فيدخل فيه الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ويغنى ذلك عن ضمير كما أغنى عن دخول زيد تحت الرجل في باب نعم عن ضمير يعود عليه وعلى هذين الوجهين قد جعل خبر إن الجملة التى فيها إن .

قوله تعالى (من أساور) يجوز أن تكون " من " زائدة على قول الأخفش ، ويدل عليه قوله " وحلوا أساور " ويجوز أن تكون غير زائدة: أي شيئًا من أساور فتكون لبيان الجنس أو للتبعيض ، و (من ذهب) من فيه لبيان الجنس أو للتبعيض وموضعها جر نعتا لأساور ، ويجوز أن تتعلق بيحلون ، وأساور جمع أسورة ، وأسورة جمع سوار ، وقيل هو جمع أسوار (متكئين) حال إما من الضمير في تحتهم ، أو من الضمير في يحلون أو يلبسون .

والسندس جمع سندسة .

وإستبرق جمع إستبرقة ، وقيل هما جنسان .

قوله تعالى (مثلا رجلين) التقدير: مثلا مثل رجلين ، و (جعلنا) تفسير المثل فلا موضع له ، ويجوز أن يكون موضعه نصبا نعتا لرجلين كقولك: مررت برجلين جعل لأحدهما جنة (كلتا الجنتين) مبتدأ ، و (آتت) خبره ، وأفرد الضمير حملا على لفظ كلتا (وفجرنا) بالتخفيف والتشديد ، و (خلالهما) ظرف والثمر بضمتين جمع ثمار ، فهو جمع الجمع مثل كتاب وكتب ، ويجوز تسكين الميم تخفيفا ، ويقرأ ثمر جمع ثمرة .

قوله تعالى (ودخل جنته) إنما أفرد ، ولم يقل جنتيه لأنهما جميعا ملكه فصارا كالشئ

الواحد ، وقيل اكتفاء بالواحدة عن الثنتين ، كما يكتفى بالواحد عن الجمع ، وهو كقول الهذلى:

والعين بعدهم كأن حداقها * سملت بشوك فهى عور تدمع قوله تعالى (خيرا منها) يقرأ على الإفراد ، والضمير لجنته ، وعلى التثنية ، والضمير للجنتين.

(85/467)

قوله تعالى (لكنا هو) الأصل لكن أنا فألقيت حركة الهمزة على النون ، وقيل حذفت حذفا وأدغمت النون في النون ، والجيد حذف الألف في الوصل وإثباتها في الوقف ، لأن أنا كذلك والألف فيه زائدة لبيان الحركة ، ويقرأ بإثباتها في الحالين وأنا مبتدأ ، وهو مبتدأ ثان ، و (الله) مبتدأ ثالث ، و (ربى) الخبر والياء عائدة على المبتدأ الأول ، ولا يجوز أن تكون لكن المشددة العاملة نصبا ، إذ لو كان كذلك لم يقع بعدها هو لأنه ضمير مرفوع ، ويجوز أن يكون اسم الله بدلا من هو.

قوله تعالى (ما شاء الله) في " ما " وجهان: أحدهما هي بمعنى الذى ، وهى مبتدأ والخبر محذوف: أو خبر مبتدأ محذوف: أي الأمر ما شاء الله.

والثانى هي شرطية في موضع نصب بشاء ، والجواب محذوف: أي ما شاء الله كان (إلا

بالله) في موضع رفع خبره (أنا) فيه وجهان: أحدهما هي فاصلة بين المفعولين.

والثانى هو توكيد للمفعول الأول فموضعها نصب، ويقرأ (أقل) بالرفع على أن يكون أنا مبتدأ، وأقل خبره والجملة في موضع المفعول الثاني.

قوله تعالى (حسبانا) هو جمع حسبانة، و (غورا) مصدر بمعنى الفاعل: أي غائرا: وقيل التقدير: ذا غور.

قوله تعالى (يقلب كفيه) هذا هو المشهور، ويقرأ " تقلب " أي تتقلب كفاه بالرفع (على ما أنفق) يجوز أن يتعلق بيقلب، وأن يكون حالا: أي متحسرا على ما أنفق فيها: أي في عمارتها (ويقول) يجوز أن يكون حالا من الضمير في يقلب، وأن يكون معطوفا على يقلب.

قوله تعالى (ولم تكن له) يقرأ بالتاء والياء وهما ظاهران (ينصرونه) محمول على المعنى لان الفئة ناس، ولو كان تنصره لكان على اللفظ.

قوله تعالى (هنالك) فيه وجهان: أحدهما هو ظرف، والعامل فيه معنى الاستقرار في لله، و (الولاية) مبتدأ، و (لله) الخبر.

والثانى هنالك خبر الولاية ، والولاية مرفوعة به ، ولله يتعلق بالظرف أو بالعامل في الظرف أو بالولاية ، ويجوز أن يكون حالا من الولاية فيتعلق بمحذوف ، والولاية بالكسر والفتح لغتان ، وقيل للكسر في الإمارة والفتح في النصرة ، و (الحق) بالرفع صفة الولاية ، أو خبر مبتدأ محذوف: أي هي الحق أو هو الحق ، ويجوز أن يكون مبتدأ ، و (هو خير) خبره ويقرأ بالجر نعتا لله تعالى .

قوله تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا) يجوز أن تجعل اضرب بمعنى اذكر فيتعدى إلى واحد ، فعلى هذا يكون (كماء أنزلناه) خبر مبتدأ محذوف: أي هو كماء ، وأن يكون بمعنى صير ، فيكون كماء مفعولا ثانيا (فاختلط به) قد ذكر في يونس (تذروه) هو من ذرت الريح تذروه ذروا : أي فرقت ، ويقال ذرت تذرى ، وقد قرئ به ، ويقال أذرت تذرى كقولك أذريته عن فرسه إذا ألقيته عنها ، وقرئ به أيضا .

قوله تعالى (ويوم نسير الجبال) أي واذكر يوم ، وقيل هو معطوف على عند ربك: أي الصالحات خير عند الله وخير يوم نسير .

وفي نسير قراآت كلها ظاهرة (وترى) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل لكل إنسان ، و (بارزة) حالا (وحشرناهم) في موضع الحال ، وقد مرادة: أي وقد حشرناهم .

قوله تعالى (صفا) حال بمعنى مصطفين: أي مصفوفين ، والتقدير: يقال لهم (لقد جئتمونا) أو مفعولا لهم ، فيكون حالا أيضا ، و (بل) هاهنا للخروج

من قصة إلى قصة .

قوله تعالى (لا يغادر) في موضع الحال من الكتاب .

قوله تعالى (وإذ قلنا) أي واذكر (إلا إبليس) استثناء من غير الجنس ، وقيل من الجنس ، و (كان من الجن) في موضع الحال ، وقد معه مرادة (ففسق) إنما أدخل الفاء هنا لأن معنى إلا إبليس امتنع ففسق (بئس) اسمها مضمر فيها ، والمخصوص بالذم محذوف: أي بئس البدل هو وذريته ، (للظالمين) حال من (بدلا) وقيل يتعلق ببئس .

(87/467)

قوله تعالى (ما أشهدتهم) أي إبليس وذريته ويقرأ أشهدناهم (عضدا) يقرأ بفتح العين وضم الضاد ، وبفتح العين وضمها مع سكون الضاد ، والإصل هو الأول ، والثانى تخفيف ، وفي الثالث نقل ، ولم يجمع لأن الجمع في حكم الواحد إذ كان المعنى أن جميع المضلين لا يصلح أن ينزلوا في الاعتضاد بهم منزلة الواحد ، ويجوز أن يكون اكتفى بالواحد عن الجمع .

قوله تعالى (ويوم نقول) أي واذكر يوم نقول ، ويقرأ بالنون والياء ، (وبينهم) ظرف ، وقيل هو مفعول به: أي وصيرنا وصلهم إهلاكا لهم .

والموبق مكان وإن شئت كان مصدرا يقال وبق يبق وبوقا وموبقا ، وويق يوبق وبقا قوله

تعالى (مصرفا) أي انصرافا ، ويجوز أن يكون مكانا : أي لم يجدوا مكانا ينصرف إليه عنها والله أعلم .

قوله تعالى (من كل مثل) أي ضربنا لهم مثلا من كل جنس من الأمثال والمفعول محذوف ، أو يخرج على قول الأخفش أن تكون من زائدة (أكثر شئ جدلا) فيه وجهان: أحدهما أن شيئا هنا في معنى مجادل ، لأن أفعل يضاف إلى ما هو بعض له ، وتمييزه بجدلا يقتضى أن يكون الأكثر مجادلا ، وهذا من وضع العام موضع الخاص .

والثانى أن في الكلام محذوفا تقديره: وكان جدال الإنسان أكثر شئ ثم ميزه .

قوله تعالى (أن يؤمنوا) مفعول منع (أن تأتيهم) فاعله ، وفيه حذف مضاف: أي إلا طلب أو انتظار أن تأتيهم .

قوله تعالى (وما أنذروا) " ما " بمعنى الذى ، والعائد محذوف ، و (هزوا) مفعول ثان ، ويجوز أن تكون " ما " مصدرية .

قوله تعالى (أن يفقهوه) أي كراهية أن يفقهوه .

قوله تعالى (لو يؤاخذهم) مضارع محكى به الحال ، وقيل هو بمعنى الماضي والوعد هنا يصلح للمكان والمصدر ، والموئل مفعل من وأل يئل إذا لجأوا ، ويصلح لهما أيضا .

قوله تعالى (وتلك) مبتدأ ، و (أهلكناهم) الخبر ، ويجوز أن يكون تلك في موضع نصب

يفسره المذكور ، و (لمهلكهم) مفعل بضم الميم ، وفتح اللام وفيه وجهان: أحدهما هو مصدر بمعنى الإهلاك مثل المدخل .

(88/467)

والثانى هو مفعول: أي لمن أهلك ، أو لما أهلك منها ، ويقرأ بفتحهما وهو مصدر هلك يهلك ، ويقرأ بفتح الميم وكسر اللام وهو مصدر أيضا ويجوز أن يكون زمانا وهو مضاف إلى الفاعل ويجوز أن يكون إلى المفعول على لغة من قال هلكته أهلكه ، والموعد زمان .

قوله تعالى (وإذ قال) أي واذكر (لا أبرح) فيه وجهان: أحدهما هي الناقصة وفي اسمها وخبرها وجهان: أحدهما خبرها محذوف: أي لا أبرح أسير ، والثانى الخبر (حتى أبلغ) والتقدير: لا أبرح سيرى ، ثم حذف الإسم وجعل ضمير المتكلم عوضا منه ، فأسند الفعل إلى المتكلم .

والوجه الآخر هي التامة ، والمفعول محذوف أي لا أفارق السير حتى أبلغ ، كقولك: لا أبرح المكان: أي لا أفارق (أو أمضى) في "أو" وجهان: أحدهما هي لأحد الشيئين: أي أسير حتى يقع إما بلوغ المجمع أو مضى الحقب .

والثانى أنها بمعنى إلا أن: أي إلا أن أمضى زمانا أتيقن معه فوات

مجمع البحرين ، والمجمع ظرف ، ويقرأ بكسر الميم الثانية حملا على المغرب والمطلع .

قوله تعالى (سبيله) الهاء تعود على الحوت ، و (في البحر) يجوز أن يتعلق باتخذ ، وأن يكون حالا من السبيل أو من (سربا) .

قوله تعالى (أن أذكره) في موضع نصب بدلا من الهاء في أنسانيه: أي ماأنسانى ذكره ، وكسر الهاء وضمها جائزان ، وقد قرئ بهما (عجبا) مفعول ثان لاتخذ ، وقيل هو مصدر : أي قال موسى عجبا ، فعلى هذا يكون المفعول الثاني لاتخذ في البحر .

قوله تعالى (نبغى) الجيد إثبات الياء ، وقد قرئ بحذفها على التشبيه بالفواصل وسهل ذلك أن الهاء لا تضم هاهنا (قصصا) مصدر : فارتدا على المعنى ، وقيل هو مصدر فعل محذوف: أي يقصان قصصا ، وقيل هو في موضع الحال: أي مقتصين و (علما) مفعول به ، ولو كان مصدرا لكان تعليما .

(89/467)

قوله تعالى (على أن تعلمن) هو في موضع الحال: أي أتبعك بإذلالى ، والكاف صاحب الحال ، و (رشدا) مفعول تعلمن ، ولايجوز أن يكون مفعول علمت لأنه لا عائد إذن على الذى ، وليس بحال من العائد المحذوف ، لأن المعنى على ذلك يبرز والرشد والرشد لغتان

وقد قرئ بهما .

قوله تعالى (خبرا) مصدر ، لأن تحيط بمعنى تخبر .

قوله تعالى (تسألني) يقرأ بسكون اللام وتخفيف النون وإثبات الياء ، وبفتح اللام وتشديد النون ، ونون الوقاية محذوفة ، ويجوز أن تكون النون الخفيفة دخلت على نون الوقاية ، ويقرأ بفتح النون وتشديدها .

قوله تعالى (لتغرق أهلها) يقرأ بالتاء على الخطاب مشددا ومخففا ، وبالياء وتسمية الفاعل .

قوله تعالى (عسرا) هو مفعول ثان لترهق ، لأن المعنى لاتولنى أو تغشني .

قوله تعالى (بغير نفس) الباء تتعلق بقتلت أي قتلته بلا سبب ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف: أي قتلا بغير نفس ، وأن تكون في موضع الحال: أي قتلته ظالما أو مظلوما ، والنكر والنكر لغتان قد قرئ بهما ، وشيئا مفعول: أي أتيت شيئا منكرا ، ويجوز أن يكون مصدرا أي مجيئا منكرا .

قوله تعالى (من لدنى) يقرأ بتشديد النون ، والاسم لدن ، والنون الثانية وقاية وبتخفيفها وفيه وجهان: أحدهما هو كذلك إلا أنه حذف نون الوقاية كما قالوا قدنى وقدى .

والثانى أصله ولد وهى لغة فيها ، والنون للوقاية ، و (عذرا) مفعول به كقولك: بلغت

الغرض .

قوله تعالى (استطعما أهلها) هو جواب إذا ، وأعاد ذكر الأهل توكيدا (أن ينقض) بالضاد المعجمة المشددة من غير ألف ، وهو من السقوط شبه بانقضاض الطائر ، ويقرأ بالتخفيف على ما لم يسم فاعله من النقض ، ويقرأ بالألف والتشديد مثل يحمار ، ويقرأ كذلك بغير تشديد ، وهو من قولك انقضاض البناء إذا تهدم ، وهو ينفعل ، ويقرأ بالضاد مشددة من قولك انقاضت السن إذا انكسرت (لتخذت) يقرأ بكسر الخاء مخففة ، وهو من تخذ يتخذ إذا عمل شيئا ، ويقرأ بالتشديد وفتح الخاء وفيه وجهان: أحدهما هو افتعل من تخذه .

(90/467)

والثانى أنه من الأخذ وأصله أيتخذ ، فأبدلت الياء تاء وأدغمت ، وأصل الياء الهمزة .

قوله تعالى (فراق بينى) الجمهور على الإضافة ، أي تفريق وصلنا ، ويقرأ بالتنوين ، وبين منصوب على الظرف .

قوله تعالى (غصبا) مفعول له أو مصدر في موضع الحال ، أو مصدر أخذ من معناه .

قوله تعالى (مؤمنين) خبر كان ، ويقرأ شاذا بالألف على أن في كان ضمير الغلام أو الشأن ، والجملة بعدها خبرها .

قوله تعالى (زكاة) تمييز ، والعامل خيرا منه ، و (رحما) كذلك ، والتسكين والضم لغتان .

قوله تعالى (رحمة من ربك) مفعول له أو موضع الحال .

قوله تعالى (منه ذكرا) أي من إخباره ، فحذف المضاف .

قوله تعالى (مكنا له) المفعول محذوف: أي أمره .

قوله تعالى (فأتبع) يروى بوصل الهمزة والتشديد ، و (سببا) مفعوله ، ويقرأ بقطع الهمزة والتخفيف ، وهو متعد إلى اثنين أي أتبع سببا سببا .

قوله تعالى (حمئة) يقرأ بالهمز من غير ألف ، وهو من حمئت البئر تحمأ إذا صارت فيها حمأة ، وهو الطين الأسود ، ويجوز تخفيف الهمزة ، ويقرأ بالألف من غير همز ، وهو مخفف من المهموز أيضا ، ويجوز أن يكون من حمى الماء إذا اشتد حره ، كقوله تعالى " نارا حامية "

(إما أن تعذب) " أن " في موضع رفع

بالأبتداء ، والخبر محذوف: أي إما العذاب واقع منك بهم ، وقيل هو خبر: أي إما هو أن تعذب وإما الجزاء أن تعذب ، وقيل هو في موضع نصب: أي إما توقع أن تعذب أو تفعل (حسنا) أي أمرا ذا حسن .

قوله تعالى (جزاء الحسنى) يقرأ بالرفع والإضافة ، وهو مبتدأ أو مرفوع بالظرف ، والتقدير: فله جزاء الخصلة الحسنى بدل ، ويقرأ بالرفع والتنوين ، والحسنى بدل أو خبر مبتدأ محذوف ، ويقرأ بالنصب والتنوين: أي فله الحسنى جزاء ، فهو مصدر في موضع

الحال: أي مجزيا بها ، وقيل هو مصدر على المعنى: أي يجزى بها جزاء ، وقيل تمييز ، ويقرأ بالنصب من غير تنوين ، وهو مثل المنون إلا أنه حذف

التنوين لالتقاء الساكنين (من أمرنا يسرا) أي شيئا ذا يسر .

(91/467)

قوله تعالى (مطلع الشمس) يجوز أن يكون مكانا ، وأن يكون مصدرا ، والمضاف محذوف: أي مكان طلوع الشمس .

قوله تعالى (كذلك) أي الأمر كذلك ، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف .

قوله تعالى (بين السدين) بين هاهنا مفعول به ، والسد بالفتح مصدر سد ، وهو بمعنى المسدود ، وبالضم اسم للمسدود ، وقيل المضموم ما كان من خلق الله ، والمفتوح ما كان من صنعة الآدمى ، وقيل هما لغتان بمعنى واحد وقد قرئ بهما .

قوله تعالى (يأجوج ومأجوج) هما اسمان أعجميان لم ينصرفا للعجمة والتعريف ويجوز همزهما وترك همزهما ، وقيل هما عربيان ، فيأجوج يفعول مثل يربوع ، ومأجوج مفعول مثل معقول ، وكلاهما من أج الظليم إذا أسرع ، أن من أجت النار إذا التهبت ، ولم ينصرفا للتعريف والتأنيث .

والخرج يقرأ بغير ألف مصدر خرج ، والمراد به الأجر ، وقيل هو بمنى مخرج ، والخراج بالألف وهو بمعنى الأجر أيضا ، وقيل هو المال المضروب على الأرض أو الرقاب .

قوله تعالى (مامكنى فيه) يقرأ بالتشديد على الإدغام ، وبالإظهار على الأصل و " ما " بمعنى الذى وهو مبتدأ ، و (خير) خبره (بقوة) أي برجال ذى ذوى قوة أو متقوى به ، والردم بمعنى المردوم به أو الرادم (آتونى) يقرأ بقطع الهمزة والمد : أي أعطوني ، وبوصلها : أي جيئونى ، والتقدير : بزبر الحديد ، أو هو بمعنى أحضروا لأن جاء وحضر متقاربان ، و (الصدفين) يقرأ بضمتين ، وبضم الأول وإسكان الثاني ، وبفتحتين ، وبفتح الأول وإسكان الثاني ، وبفتح الأول

وضم الثاني وكلها لغات ، والصدف جانب الجبل (قطرا) مفعول آتونى ومفعول أفرغ محذوف : أي أفرغه ، وقال الكوفيون : هو مفعول أفرغ ، ومفعول الأول محذوف .

قوله تعالى (فما اسطاعوا) يقرأ بتخفيف الطاء .

أي استطاعوا ، وحذف التاء تخفيفا : ويقرأ بتشديدها وهو بعيد لما فيه من الجمع بين الساكنين .

قوله تعالى (دكاء) ودكا قد ذكر في الأعراف .

قوله تعالى (الذين كانت) في موضع جر صفة للكافرين ، أو نصب بإضمار أعنى : أو رفع بإضمارهم .

قوله تعالى (أفحسب) يقرأ بكسر السين على أنه فعل (أن يتخذوا) سد مسد المفعولين ، ويقرأ بسكون السين ورفع الباء على الابتداء ، والخبر أن يتخذوا .

قوله تعالى (هل ننبئكم) يقرأ بالإظهار على الأصل ، وبالإدغام لقرب مخرج الحرفين ، (أعمالا) تمييز ، وجاز جمعه لأنه منصوب عن أسماء الفاعلين .

قوله تعالى (فلا نقيم لهم) يقرأ بالنون والياء وهو ظاهر ، ويقرأ يقوم ، والفاعل مضمر : أي فلا يقوم عملهم أو سعيهم أو صنيعهم ، و (وزنا) تمييز أو حال .

قوله تعالى (ذلك) أي الأمر ذلك ، وما بعده مبتدأ وخبر ، ويجوز أن يكون ذلك مبتدأ ، و (جزاؤهم) مبتدأ ثان ، و (جهنم) خبره ، والجملة خبر الأول ، والعائد محذوف : أي جزاؤهم به ، ويجوز أن يكون ذلك مبتدأ ، وجزاؤهم بدلا أو عطف بيان ، وجهنم الخبر ، ويجوز أن تكون جهنم بدلا من جزاء أو خبر ابتداء محذوف ، أي هو جهنم ، و (بما كفروا) خبر ذلك ، ولايجوز أن تتعلق الباء بجزاؤهم للفصل بينهما بجهنم (واتخذوا) يجوز أن يكون معطوفا على كفروا ، وأن يكون مستأنفا .

قوله تعالى (نزلا) يجوز أن يكون حالا من جنات ، ولهم الخبر ، وأن يكون نزلا خبر كان ولهم

يتعلق بكان أو بالخبر أو على التبيين.

قوله تعالى (لا يبغون) حال من الضمير في خالدين.

والحلول مصدر بمعنى التحول.

قوله تعالى (مددا) هو تمييز، ومدادا بالألف مثله في المعنى.

قوله تعالى (إنما إلهكم) أن هاهنا مصدرية، ولا يمنع من ذلك دخول " ما "

الكافة عليها، و (بعبادة ربه) أي في عبادة ربه، ويجوز أن تكون على بابها: أي بسبب

عبادة ربه، والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 98.

110﴾

(93/467)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة الكهف

[سورة الكهف (18) : الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (1) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً

مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4)

(94/467)

"الْحَمْدُ" مبتدأ "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بالخبر المحذوف والجملة ابتدائية "الَّذِي" اسم الموصول صفة لله "أَنْزَلَ" ماض فاعله مستتر "عَلَى عَبْدِهِ" متعلقان بأنزل "الْكِتَابَ" مفعول به والجملة صلة "وَلَمْ" الواو عاطفة ولم جازمة "يَجْعَلْ" مضارع فاعله مستتر "لَهُ" متعلقان بيجعل "عِوَجًا" مفعول به والجملة معطوفة "قَيِّمًا" حال "لِيُنْذِرَ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وفاعله مستتر واللام وما بعدها متعلقان بأنزل "بَأْسًا" مفعول به ثان "شَدِيدًا" صفة "مِنْ لَدُنْهُ" متعلقان بينذر والهاء مضاف إليه "وَيُبَشِّرَ" مضارع منصوب فاعله مستتر "الْمُؤْمِنِينَ" مفعول به والجملة معطوفة "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب صفة "يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ" مضارع مرفوع بثبوت النون وفاعله الواو والصالحات مفعوله المنصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم والجملة صلة "أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا" أن واسمها المؤخر ولهم متعلقان بالخبر المقدم "حَسَنًا" صفة وأن ما بعدها في محل نصب مفعول به ثان ليبشر "مَاكِثِينَ" حال "فِيهِ" متعلقان بماكثين "أَبَدًا" ظرف زمان

متعلق به أيضا "وَيُنْذِرَ" الواو عاطفة ومضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة "الَّذِينَ" اسم موصول مفعول به "قالُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً" ماض ولفظ الجلالة فاعله وولدا مفعوله والجملة مقول القول.

[سورة الكهف (18) : الآيات 5 الى 7]

ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً (5) فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (6) إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (7)

(95/467)

"ما لَهُمْ" ما نافية ولهم متعلقان بخبر محذوف مقدم "بِهِ" متعلقان بعلم "مِنْ" حرف جر زائد "عِلْمٍ" مبتدأ مؤخر مجرور لفظا مرفوع محلا والجملة مستأنفة "وَلا" الواو عاطفة لا زائدة "لِآبائِهِمْ" معطوفان على لهم "كَبُرَتْ" ماض لإنشاء الذم والفاعل محذوف يعود على كلمة الكفر "كَلِمَةً" تمييز والجملة مستأنفة "تَخْرُجُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صفة لكلمة "مِنْ أَفْواهِهِمْ" متعلقان بتخرج "إِنْ" حرف نفي "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "إِلَّا" أداة حصر "كَذِباً" مفعول به والجملة مستأنفة "فَلَعَلَّكَ" الفاء استئنافية لعل

واسمها "باخِعٌ" خبر "نَفْسَكَ" مفعول به لباخع والكاف مضاف إليه "عَلَى آثَارِهِمْ" متعلقان بباخع "إِنْ" شرطية "لَمْ" جازمة "يُؤْمِنُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة ابتدائية لا محل لها "بِهذَا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة ومتعلقان بيؤمنوا "الْحَدِيثِ" بدل أو عطف بيان "أَسَفاً" مفعول لأجله وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه "إِنَّا" إن واسمها والجملة مستأنفة "جَعَلْنا" ماض وفاعله والجملة خبر "ما" اسم موصول مفعول به "عَلَى الْأَرْضِ" متعلقان بصلة محذوفة "زِينَةً" مفعول به ثان أو مفعول لأجله "لَها" متعلقان بزينة "لِنَبْلُوَهُمْ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وفاعله مستتر والهاء مفعول به واللام وما بعدها متعلقان بجعلنا "أَيُّهُمْ" اسم استفهام مبتدأ والهاء مضاف إليه "أَحْسَنُ" خبر "عَمَلًا" تمييز والجملة سدّت مسد مفعولي نبلوهم.

[سورة الكهف (18) : الآيات 8 الى 11]

(96/467)

وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً (8) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ

أَمْرِنا رَشَداً (10) فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (11)

"وَإِنَّا لَجاعِلُونَ" إن واسمها وخبرها واللام المزحلقة والجملة معطوفة "ما" ما موصولية مفعول به لجاعلون "عَلَيْها" متعلقان بمحذوف صلة "صَعِيداً" مفعول به ثان "جُرُزاً" صفة "أَمْ" عاطفة "حَسِبْتَ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَنَّ أَصْحابَ" أن واسمها "الْكَهْفِ" مضاف إليه "وَالرَّقِيمِ" معطوف على الكهف والمصدر المؤول سد مسد مفعولي حسب "كانُوا" كان واسمها "مِنْ آياتِنا" متعلقان بعجبا نا مضاف إليه "عَجَباً" خبر كانوا والجملة خبر إن "إِذْ" ظرف "أَوَى الْفِتْيَةُ" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "إِلَى الْكَهْفِ" متعلقان بأوى "فَقالُوا" الفاء عاطفة وماض وفاعله "رَبَّنا" منادى بأداة نداء محذوفة وهو منصوب على النداء ونا مضاف إليه والجملة مقول القول "آتِنا" فعل دعاء فاعله مستتر ونا مفعول به أول والجملة مقول القول "مِنْ لَدُنْكَ" متعلقان بآتنا والكاف مضاف إليه "رَحْمَةً" مفعول به ثان "وَهَيِّئْ" معطوف على آتنا وفاعله مستتر "لَنا" و"مِنْ أَمْرِنا" كلاهما متعلقان بهيئ "رَشَداً" مفعول به "فَضَرَبْنا" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "عَلَى آذانِهِمْ" متعلقان بضربنا والهاء مضاف إليه "فِي الْكَهْفِ" متعلقان بضربنا "سِنِينَ" مفعول فيه ظرف زمان منصوب بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "عَدَداً" صفة.

[سورة الكهف (18) : الآيات 12 الى 14]

ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14)

"ثُمَّ" عاطفة "بَعَثْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "لِنَعْلَمَ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر واللام وما بعدها متعلقان ببعثناهم "أَيُّ" اسم استفهام مبتدأ "الْحِزْبَيْنِ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه مثنى "أَحْصى" فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على

(98/467)

الألف للتعذر والجملة في محل رفع خبر أي "لِما" اللام حرف جر وما موصولية في محل جر ومتعلقان بأحصى "لَبِثُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "أَمَداً" تمييز "نَحْنُ" مبتدأ والجملة استئنافية "نَقُصُّ" مضارع فاعله ضمير مستتر والجملة خبر "عَلَيْكَ" متعلقان بنقص "نَبَأَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال "إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ" إن واسمها وخبرها والجملة استئنافية "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صفة لفتية "بِرَبِّهِمْ"

متعلقان بآمنوا "وَزِدْناهُمْ" معطوف على آمنوا ماض وفاعله ومفعوله "هُدىً" تمييز

منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر أو مفعول به ثان لزدناهم "وَرَبَطْنا" ماض

وفاعله والجملة معطوفة "عَلى قُلُوبِهِمْ" متعلقان بربطنا "إِذْ" ظرف زمان "قامُوا" ماض

وفاعله والجملة مضاف إليه "فَقالُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "رَبُّنا" مبتدأ ونا

مضاف إليه "رَبُّ" خبر والجملة مقول القول "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف

على السموات "لَنْ" ناصبة "نَدْعُوَا" مضارع منصوب بلن "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بندعو والهاء

مضاف إليه "إِلهاً" مفعول به "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق

"قُلْنا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم "إِذاً" جرف جواب "شَطَطاً"

مفعول به منصوب.

[سورة الكهف (18) : الآيات 15 الى 16]

هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى

اللَّهِ كَذِباً (15) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ

رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً (16)

"هؤُلاءِ" الها للتنبيه أولاء اسم إشارة في محل رفع مبتدأ "قَوْمُنَا" خبر ونا مضاف إليه والجملة استئنافية "اتَّخَذُوا" ماض والواو فاعله "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بمحذوف حال والهاء مضاف إليه "آلِهَةً" مفعول به والجملة حالية "لَوْلا" حرف تحضيض "يَأْتُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "عَلَيْهِمْ" متعلقان بيأتون "بِسُلْطانٍ" متعلقان بيأتون "بَيِّنٍ" صفة "فَمَنْ" الفاء استئنافية ومن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ "أَظْلَمُ" خبر والجملة صلة "مِمَّنِ" من اسم موصول في محل جر ومتعلقان بأظلم "افْتَرى" ماض فاعله مستتر "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى متعلقان بافترى "كَذِباً" مفعول به والجملة صلة الموصول "وَإِذِ" الواو استئنافية إذ ظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر "اعْتَزَلْتُمُوهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مضاف إليها "وَما" الواو عاطفة وما موصولية "يَعْبُدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "إِلَّا" أداة حصر "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "فَأْوُوا" الفاء الفصيحة وفعل أمر وفاعله والجملة لا محل لها "إِلَى الْكَهْفِ" متعلقان بأووا "يَنْشُرْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب "لَكُمْ" متعلقان بينشر "رَبُّكُمْ" فاعل والكاف مضاف إليه "مِنْ رَحْمَتِهِ" متعلقان بينشر والهاء مضاف إليه "وَيُهَيِّئْ" معطوف على ينشر "لَكُمْ" متعلقان بيهيء "مِنْ أَمْرِكُمْ" متعلقان بمحذوف حال والكاف مضاف إليه "مِرفَقاً" مفعول به.

[سورة الكهف (18) : الآيات 17 الى 18]

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَتَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (17) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18)

"وَتَرَى الشَّمْسَ" الواو استئنافية ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر وفاعله مستتر والشمس مفعوله والجملة مستأنفة "إذا" ظرف للزمان المستقبل متعلق بجوابه "طَلَعَتْ" ماض فاعله مستتر والتاء التأنيث والجملة مضاف إليه "تَتَزَاوَرُ" مضارع مرفوع وفاعله مستتر والجملة جواب الشرط لا محل لها "عَنْ كَهْفِهِمْ" متعلقان بتزاور والهاء مضاف إليه "ذاتَ" ظرف مكان متعلق بتزاور "الْيَمِينِ" مضاف إليه "وَإِذا غَرَبَتْ" الواو عاطفة وجملة غربت مضاف إليه وانظر إعراب إذا طلعت "تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ" وانظر

إعراب تزاور عن كهفهم ذات اليمين فإعرابها مثل إعرابها "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ "فِي فَجْوَةٍ" متعلقان بالخبر والجملة حالية "ذِلكَ" ذا اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "مِنْ آياتِ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة استئنافية "اللَّهِ" مضاف إليه "مِنْ" شرطية في محل نصب مفعول به مقدم "يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة ولفظ الجلالة فاعل "فَهُوَ" الفاء رابطة وهو مبتدأ "الْمُهْتَدِ" خبر وحذفت الياء للتخفيف والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ" إعرابها شبيه بإعراب سابقتها ولن حرف ناصب وتجد مضارع منصوب وفاعله مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط "لَهُ" متعلقان بتجد "وَلِيًّا" مفعول به "مُرْشِداً" صفة "وَتَحْسَبُهُمْ أَيقاظاً" مضارع فاعله مستتر ومفعولاه والجملة معطوفة "وَهُمْ رُقُودٌ" الواو حالية ومبتدأ وخبر والجملة حالية "وَنُقَلِّبُهُمْ" مضارع فاعله مستتر والهاء مفعوله والجملة معطوفة "ذاتَ" ظرف مكان متعلق بنقلبهم "الْيَمِينِ" مضاف إليه "وَذاتَ الشِّمالِ" معطوف على ما سبق وإعرابه مثله "وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ" مبتدأ وخبر والجملة حالية "ذِراعَيْهِ" مفعول به لباسط منصوب بالياء لأنه مثنى و

الهاء مضاف إليه "بِالْوَصِيدِ" متعلقان بباسط "لَوِ" حرف شرط غير جازم "اطَّلَعْتَ" ماض فاعله مستتر والتاء للتأنيث والجملة لا محل لها "عَلَيْهِمْ" متعلقان باطلعت "لَوَلَّيْتَ" اللام واقعة في جواب لو وماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "مِنْهُمْ" متعلقان بوليت "فِراراً" نائب مفعول مطلق لأن ولى بمعنى فر "وَلَمُلِئْتَ" الواو عاطفة واللام واقعة في جواب لو وماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والجملة معطوفة "مِنْهُمْ" متعلقان بملئت "رُعْباً" تمييز.

[سورة الكهف (18) : آية 19]

وَكَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَسائَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (19)

(103/467)

"وَكَذلِكَ" الواو استئنافية والكاف حرف تشبيه وجر وذا اسم إشارة متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف واللام للبعد والكاف للخطاب "بَعَثْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة استئنافية "لِيَتَسائَلُوا" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بحذف النون الواو

فاعل واللام وما بعدها متعلقان ببعثناهم "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان متعلق بيتساءلوا والهاء مضاف إليه "قالَ قائِلٌ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "مِنْهُمْ" متعلقان بقائل "كَمْ" اسم استفهام ظرف زمان "لَبِثْتُمْ" ماض وفاعله والجملة مقول القول "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "لَبِثْنا" ماض وفاعله والجملة مقول القول "يَوْماً" ظرف زمان متعلق بلبثنا "أَوْ بَعْضَ" معطوف على ما سبق "يَوْمٍ" مضاف إليه "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "رَبُّكُمْ أَعْلَمُ" مبتدأ وخبر والجملة مقول القول "بِما" ما موصولية ومتعلقان بأعلم "لَبِثْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة "فَابْعَثُوا" الفاء حرف عطف وأمر وفاعله "أَحَدَكُمْ" مفعول به والجملة معطوفة والكاف مضاف إليه "بِوَرِقِكُمْ" متعلقان بابعثوا "هذِهِ" الها للتنبيه وذا اسم إشارة صفة لورقكم "إِلَى الْمَدِينَةِ" متعلقان بابعثوا "فَلْيَنْظُرْ" الفاء عاطفة واللام لام الأمر ومضارع مجزوم بلام الأمر وفاعله مستتر والجملة معطوفة "أَيُّها" اسم استفهام في محل رفع مبتدأ والهاء مضاف إليه "أَزْكى" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "طَعاماً" تمييز والجملة مقول القول "فَلْيَأْتِكُمْ" إعرابها مثل إعراب فلينظر والكاف مفعول به "بِرِزْقٍ" متعلقان بيأتكم "مِنْهُ" متعلقان بصفة محذوفة لرزق "وَلْيَتَلَطَّفْ" إعرابها مثل فلينظر "وَلا يُشْعِرَنَّ" الواو عاطفة ولا ناهية ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله مستتر والجملة معطوفة "بِكُمْ" متعلقان بيشعرنّ "أَحَداً" مفعول

به.

[سورة الكهف (18) : الآيات 20 الى 21]

إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20) وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (21)

"إِنَّهُمْ" إن واسمها "إِنْ يَظْهَرُوا" إن شرطية ومضارع مجزوم بحذف النون لأنه فعل الشرط والواو فاعل والجملة ابتدائية "عَلَيْكُمْ" متعلقان بيظهروا "يَرْجُمُوكُمْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط بحذف النون والواو فاعل والكاف مفعول به والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط لم يقترن بالفاء "أَوْ يُعِيدُوكُمْ" معطوف على ما سبق "فِي مِلَّتِهِمْ" متعلقان بيعيدوكم "وَلَنْ" الواو عاطفة ولن حرف نصب "تُفْلِحُوا" مضارع منصوب بحذف النون والواو فاعل والجملة معطوفة "إِذًا" حرف جواب

"أَبداً" مفعول فيه ظرف زمان متعلق بتفلحوا "وَكَذلِكَ" انظر إعراب الآية السابقة "أَعْثَرْنا" ماض وفاعله "عَلَيْهِمْ" متعلقان بأعثرنا "لِيَعْلَمُوا" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل واللام وما بعدها متعلقان بأعثرنا والواو فاعل "أَنَّ وَعْدَ" أن واسمها "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي ليعلموا "حَقٌّ" خبر أن "وَأَنَّ السَّاعَةَ" أن واسمها والجملة معطوفة "لا رَيْبَ فِيها" لا نافية للجنس وريب اسمها والجار والمجرور متعلقان بالخبر والجملة خبر أن "إِذْ" ظرف زمان متعلق بأعثرنا "يَتَنازَعُونَ" مضارع والواو فاعله "بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ" بينهم ظرف مكان وأمرهم مضاف إليه والهاء مضاف إليه والجملة مضاف إليه "فَقالُوا" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "ابْنُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة مقول القول "عَلَيْهِمْ" متعلقان بابنوا "بُنْياناً" مفعول به "رَبُّهُمْ أَعْلَمُ" مبتدأ وخبره والهاء مضاف إليه والجملة اعتراضية "بِهِمْ" متعلقان بأعلم "قالَ الَّذِينَ" ماض واسم الموصول فاعل والجملة مستأنفة "غَلَبُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "عَلى أَمْرِهِمْ" متعلقان بغلبوا "لَنَتَّخِذَنَّ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله مستتر "عَلَيْهِمْ" متعلقان بنتخذ "مَسْجِداً" مفعول به والجملة مقول القول.

[سورة الكهف (18) : آية 22]

سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (22)

(106/467)

"سَيَقُولُونَ" السين للاستقبال ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "ثَلاثَةٌ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم والجملة مقول القول "رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ" مبتدأ وخبر والهاء في محل جر مضاف إليه والجملة صفة ثلاثة "وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ" معطوف على ما سبق "وَيَقُولُونَ" الواو عاطفة والمضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "سَبْعَةٌ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم "وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ" الواو عاطفة ومبتدأ وخبر والجملة معطوفة "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "رَبِّي أَعْلَمُ" مبتدأ وخبر والياء مضاف إليه "بِعِدَّتِهِمْ" متعلقان بأعلم والجملة مقول القول "ما يَعْلَمُهُمْ" ما نافية ومضارع ومفعوله المقدم والجملة حالية "إِلَّا" أداة حصر "قَلِيلٌ" فاعل مؤخر "فَلا تُمارِ" الفاء الفصيحة ولا ناهية تمار مضارع مجزوم بحذف حرف العلة وفاعله مستتر "فِيهِمْ" متعلقان بتمار "إِلَّا" أداة حصر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "مِراءً"

مفعول مطلق "ظاهِرًا" صفة "وَلا تَسْتَفْتِ" كسابقتها "فِيهِمْ" متعلقان بمحذوف حال

"أَحَدًا" مفعول به.

[سورة الكهف (18) : الآيات 23 الى 25]

وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَدًا (23) إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَقُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَدًا (24) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25)

(107/467)

"وَلا" الواو استئنافية ولا ناهية "تَقُولَنَّ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "لِشَيْءٍ" متعلقان بتقولن "إِنِّي فاعِلٌ" إن واسمها وخبرها والجملة مقول القول "ذلِكَ" ذا اسم إشارة في محل نصب مفعول به لفاعل واللام للبعد والكاف للخطاب "غَدًا" ظرف زمان متعلق بفاعل "إِلَّا" أداة حصر "أَنْ" ناصبة "يَشاءَ اللَّهُ" مضارع منصوب بأن ولفظ الجلالة فاعله والجملة في محل نصب على الحال "وَاذْكُرْ رَبَّكَ" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر وربك مفعول به والكاف مضاف إليه والجملة معطوفة "إِذا نَسِيتَ" إذا ظرف زمان متعلق باذكر وماض وفاعله والجملة مضاف

إليه "وَقُلْ" الواو استئنافية وأمر فاعله مستتر "عَسَى" ماض ناقص من أفعال الرجاء واسمها محذوف "أَنْ" ناصبة "يَهْدِيَنِ" مضارع منصوب والنون للوقاية والياء مفعول به "رَبِّي" فاعل مؤخر والياء مضاف إليه "لِأَقْرَبَ" متعلقان بيهدين "مِنْ هذا" الهاء للتنبيه وذا اسم إشارة والجار والمجرور متعلقان بأقرب "رَشَداً" تمييز والجملة خبر عسى "وَلَبِثُوا" الواو استئنافية وماض وفاعله والجملة استئنافية "فِي كَهْفِهِمْ" متعلقان بلبثوا والها مضاف إليه "ثَلاثَ مِائَةٍ" ثلاث ظرف زمان متعلق بلبثوا "مِائَةٍ" مضاف إليه "سِنِينَ" بدل من ثلاث ومحله النصب مثله بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "وَازْدَادُوا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "تِسْعاً" مفعول به.

[سورة الكهف (18) : الآيات 26 الى 27]

قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26) وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (27)

"قُلِ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "اللَّهُ أَعْلَمُ" لفظ الجلالة مبتدأ وأعلم خبر والجملة مقول القول "بِما" ما موصولية ومتعلقان بأعلم "لَبِثُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "لَهُ غَيْبُ" مبتدأ مؤخر والجار والمجرور متعلقان بالخبر المقدم المحذوف "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "أَبْصِرْ" للتعجب ماض جاء على صيغة الأمر فاعله مستتر "بِهِ" حرف جر زائد والهاء فاعل أبصر "وَأَسْمِعْ" معطوف على أبصر والكلام مقول القول "ما" نافية "لَهُمْ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بالخبر المحذوف والهاء مضاف إليه "مِنْ" حرف جر زائد "وَلِيٍّ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "يُشْرِكُ" مضارع وفاعله مستتر والجملة معطوفة "فِي حُكْمِهِ" متعلقان بيشرك والهاء مضاف إليه "أَحَداً" مفعول به "وَاتْلُ" الواو عاطفة وأمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله مستتر والجملة معطوفة "ما" موصولية في محل نصب مفعول به "أُوحِيَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "إِلَيْكَ" متعلقان بأوحي "مِنْ كِتابِ" متعلقان بحال محذوفة "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "لا" نافية للجنس تعمل عمل إن "مُبَدِّلَ" اسمها "لِكَلِماتِهِ" متعلقان بالخبر المحذوف والهاء مضاف إليه والجملة حالية "وَلَنْ" الواو استئنافية ولن حرف ناصب "تَجِدَ" مضارع منصوب وفاعله مستتر "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بتجد والهاء مضاف إليه "مُلْتَحَداً" مفعول به والجملة مستأنفة.

[سورة الكهف (18) : آية 28]

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28)

(109/467)

"وَاصْبِرْ" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر "نَفْسَكَ" مفعول به والكاف مضاف إليه "مَعَ" ظرف مكان متعلق باصبر "الَّذِينَ" اسم موصول مضاف إليه "يَدْعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "رَبَّهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "بِالْغَداةِ" متعلقان بيدعون "وَالْعَشِيِّ" معطوف على الغداة "يُرِيدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "وَجْهَهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه والجملة في محل نصب على الحال "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَعْدُ" مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف حرف العلة "عَيْناكَ" فاعل مرفوع بالألف لأنه مثنى والكاف مضاف إليه والجملة معطوفة "عَنْهُمْ" متعلقان بتعد "تُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر "زِينَةَ" مفعول به "الْحَياةِ" مضاف إليه "الدُّنْيا" صفة مجرورة بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تُطِعْ" مضارع مجزوم بلا وفاعله مستتر والجملة معطوفة "مَنْ" موصولية مفعول به "أَغْفَلْنا" ماض وفاعله "قَلْبَهُ"

مفعول به والجملة صلة "عَنْ ذِكْرِنا" متعلقان بأغفلنا "وَاتَّبَعَ" الواو عاطفة وماض فاعله مستتر "هَواهُ" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً" كان واسمها وخبرها والجملة معطوفة.

[سورة الكهف (18) : الآيات 29 الى 30]

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً (29) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (30)

(110/467)

"وَقُلِ" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر والجملة معطوفة "الْحَقُّ" مبتدأ "مِنْ رَبِّكُمْ" متعلقان بالخبر والكاف مضاف إليه والجملة مقول القول "فَمَنْ" الفاء استئنافية ومن اسم شرط جازم مبتدأ "شاءَ" ماض فاعله مستتر "فَلْيُؤْمِنْ" الفاء رابطة للجواب واللام لام الأمر ويؤمن مضارع مجزوم بلام الأمر والفاعل مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط في محل رفع خبر المبتدأ "وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ" إعرابها كسابقتها وهي معطوفة عليها "إِنَّا" إن واسمها "أَعْتَدْنا" ماض وفاعله والجملة خبر إن وجملة إنا إلخ تعليل لا محل لها "لِلظَّالِمِينَ"

متعلقان بأعتدنا "نارا" مفعول به "أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها" ماض وفاعله والجار والمجرور متعلقان بأحاط والها مضاف إليه والجملة صفة لنارا "وَإِنْ" الواو استئنافية وإن شرطية "يَسْتَغِيثُوا" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط بحذف النون والواو فاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "يُغاثُوا" مضارع مبني للمجهول مجزوم لأنه جواب الشرط بحذف النون والواو نائب فاعل

(111/467)

والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط لم تقترن بالفاء . "بِماءٍ" متعلقان بيغاثوا "كَالْمُهْلِ" متعلقان بصفة محذوفة لماء "يَشْوِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر "الْوُجُوهَ" مفعول به والجملة صفة ثانية لماء "بِئْسَ" فعل ماض لإنشاء الذم "الشَّرابُ" فاعل والجملة استئنافية لا محل لها "وَساءَتْ" ماض لإنشاء الذم وفاعله مستتر والجملة معطوفة "مُرْتَفَقاً" تمييز "إِنَّ الَّذِينَ" إن واسم الموصول اسمها والجملة مستأنفة "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "إِنَّا" إن ونا اسمها والجملة خبر إنّ "لا نُضِيعُ" لا نافية نضيع مضارع فاعله مستتر "أَجْرَ" مفعول به والجملة خبر إنا "مَنْ" اسم موصول مضاف إليه

"أَحْسَنَ" ماض فاعله محذوف "عَمَلًا" مفعول به والجملة صلة لا محل لها .

[سورة الكهف (18) : الآيات 31 الى 32]

أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (31) وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً (32)

(112/467)

"أُولئِكَ" اسم إشارة مبتدأ والكاف للخطاب "لَهُمْ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "جَنَّاتُ" مبتدأ مؤخر والجملة خبر أولئك "عَدْنٍ" مضاف إليه "تَجْرِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل "مِنْ تَحْتِهِمُ" متعلقان بتجري والهاء مضاف إليه "الْأَنْهارُ" فاعل والجملة في محل رفع خبر ثان "يُحَلَّوْنَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل "فِيها" متعلقان بيحلون "مِنْ" حرف جر "أَساوِرَ" اسم مجرور ومتعلقان بصفة مفعول به محذوف "مِنْ ذَهَبٍ" متعلقان بصفة محذوفة لأساور والجملة حالية "وَيَلْبَسُونَ" معطوف على يحلّون مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "ثِياباً" مفعول به "خُضْراً" صفة "مِنْ

سُنْدُسٍ" متعلقان بصفة محذوفة "وَإِسْتَبْرَقٍ" معطوف على سندس "مُتَّكِئِينَ" حال "فِيها" متعلقان بمتكئين "عَلَى الْأَرائِكِ" متعلقان بمتكئين "نِعْمَ" فعل ماض لإنشاء المدح "الثَّوابُ" فاعل والجملة مستأنفة "وَحَسُنَتْ" ماض فاعله مستتر "مُرْتَفَقاً" تمييز والجملة معطوفة "وَاضْرِبْ" الواو استئنافية وأمر فاعله مستتر "لَهُمْ" متعلقان باضرب "مَثَلًا" مفعول به "رَجُلَيْنِ" بدل من مثلا منصوب بالياء لأنه مثنى "جَعَلْنا" ماض وفاعله "لِأَحَدِهِما" متعلقان بجعلنا والهاء مضاف إليه "جَنَّتَيْنِ" مفعول به منصوب بالياء لأنه مثنى "مِنْ أَعْنابٍ" متعلقان بمحذوف صفة لجنتين "وَحَفَفْناهُما" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "بِنَخْلٍ" متعلقان بحففناهما "وَجَعَلْنا" ماض وفاعله "بَيْنَهُما" ظرف مكان متعلق بجعلنا "زَرْعاً" مفعول به.

[سورة الكهف (18) : الآيات 33 الى 35]

(113/467)

كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (33) وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (35)

"كِلْتَا" مبتدأ مرفوع بالضمة المقدرة على الألف لأنه اسم مقصور "الْجَنَّتَيْنِ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه مثنى والجملة مستأنفة "آتَتْ" ماض فاعله مستتر والتاء للتأنيث "أُكُلَهَا" مفعول به والهاء مضاف إليه والجملة خبر "وَلَمْ" الواو عاطفة ولم جازمة "تَظْلِمْ" مضارع مجزوم وفاعله مستتر "مِنْهُ" متعلقان بتظلم "شَيْئًا" مفعول به والجملة معطوفة "وَفَجَّرْنَا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "خِلالَهُما" مفعول فيه ظرف مكان والهاء مضاف إليه "نَهَرًا" مفعول به والجملة معطوفة "وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ" الواو استئنافية وكان واسمها والجار والمجرور متعلقان بالخبر والجملة مستأنفة "فَقالَ" الفاء عاطفة وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "لِصاحِبِهِ" متعلقان بقال "وَهُوَ" الواو حالية ومبتدأ "يُحاوِرُهُ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة خبر والجملة الاسمية حالية "أَنَا أَكْثَرُ" مبتدأ وخبر والجملة مقول القول "مِنْكَ" متعلقان بأكثر "مالًا" تمييز "وَأَعَزُّ نَفَرًا" معطوفة على سابقتها وإعرابها مثل إعرابها "وَدَخَلَ" الواو عاطفة ودخل ماض فاعله مستتر "جَنَّتَهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "وَهُوَ ظالِمٌ" مبتدأ وخبر والجملة حالية "لِنَفْسِهِ" متعلقان بظالم "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "ما" نافية "أَظُنُّ" مضارع فاعله مستتر

والجملة مقول القول "أَنْ" ناصبة "تَبِيدَ" مضارع منصوب بأن وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي ظن "هذِهِ" اسم إشارة في محل رفع فاعل والها للتنبيه "أَبَداً" ظرف زمان متعلق بتبيد .

[سورة الكهف (18) : الآيات 36 الى 38]

(115/467)

وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً (36) قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (37) لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً (38)

"وَما" الواو عاطفة وما نافية "أَظُنُّ" مضارع فاعله مستتر "السَّاعَةَ قائِمَةً" مفعولا أظن والجملة معطوفة "وَلَئِنْ" اللام موطئة للقسم وإن حرف شرط جازم "رُدِدْتُ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والجملة لا محل لها لأنها ابتدائية "إِلى رَبِّي" متعلقان برددت والياء مضاف إليه "لَأَجِدَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير مقترن بالفاء "خَيْراً" مفعول به "مِنْها" متعلقان بخيرا "مُنْقَلَباً" تمييز "قالَ لَهُ صاحِبُهُ" ماض وفاعله

والجار والمجرور متعلقان بقال والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَهُوَ" الواو حالية وهو مبتدأ والجملة في محل نصب على الحال "يُحاوِرُهُ" مضارع فاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة خبر "أَكَفَرْتَ" الهمزة للاستفهام وماض وفاعله والجملة مقول القول "بِالَّذِي" اسم موصول ومتعلقان بكفرت "خَلَقَكَ" ماض فاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة صلة "مِنْ تُرابٍ" متعلقان بخلقك "ثُمَّ" عاطفة "مِنْ نُطْفَةٍ" معطوف على من تراب "ثُمَّ" عاطفة "سَوَّاكَ" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر والكاف مفعول به أول والجملة معطوفة "رَجُلًا" مفعول به ثان "لكِنَّا" مؤلفة من لكن وأنا لكن حرف استدراك وأنا مبتدأ وجملته استئنافية "هُوَ" مبتدأ ثان "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ ثالث "رَبِّي" خبر والياء مضاف إليه وجملة:

(116/467)

هو الله ربي خبر المبتدأ أنا "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "أُشْرِكُ" مضارع مرفوع وفاعله مستتر والجملة معطوفة "بِرَبِّي" متعلقان بأشرك والياء مضاف إليه "أَحَداً" مفعول به.

[سورة الكهف (18) : الآيات 39 الى 41]

وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً

(39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (41)

(117/467)

"وَلَوْلا" الواو عاطفة ولولا حرف تحضيض "إِذْ" ظرف زمان "دَخَلْتَ جَنَّتَكَ" ماض وفاعله ومفعوله والكاف مضاف إليه "قُلْتَ" ماض وفاعله "ما" موصولية في محل رفع مبتدأ خبره محذوف تقديره ما شاء الله كائن وهو مقول القول "شاءَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة "لا قُوَّةَ" لا نافية للجنس وقوة اسمها "إِلَّا" أداة حصر "بِاللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بالباء متعلقان بالخبر المحذوف "إِنْ" شرطية "تَرَنِ" مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة والنون للوقاية والياء مفعول به أول "أَنَا" ضمير فصل لا محل له من الإعراب "أَقَلَّ" مفعول به ثان "مِنْكَ" متعلقان بأقل "مالًا" تمييز "وَوَلَداً" معطوف على مالا "فَعَسى" الفاء رابطة للجواب وعسى ماض جامد "رَبِّي" اسم عسى والياء مضاف إليه وجملة عسى في محل جزم جواب الشرط "أَنْ" ناصبة "يُؤْتِيَنِ" مضارع منصوب والنون للوقاية والياء مفعول به وأن وما بعدها خبر عسى "خَيْراً" مفعول به ثان "مِنْ جَنَّتِكَ" متعلقان بخيرا "وَيُرْسِلَ" الواو عاطفة ومضارع فاعله مستتر "عَلَيْها" متعلقان

يرسل "حُسْبانًا" مفعول به "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بصفة محذوفة لحسبانا والجملة معطوفة "فَتُصْبِحَ" الفاء فاء عاطفة ومضارع ناقص اسمه محذوف "صَعِيدًا" خبر "زَلَقًا" صفة "أَوْ" عاطفة "يُصْبِحَ ماؤُها غَوْرًا" مضارع ناقص واسمه وخبره والجملة معطوفة "فَلَنْ" الفاء عاطفة ولن حرف ناصب "تَسْتَطِيعَ" مضارع منصوب بلن وفاعله مستتر "لَهُ" متعلقان بطلبا "طَلَبًا" مفعول به والجملة معطوفة.

[سورة الكهف (18) : الآيات 42 الى 44]

(118/467)

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مُنْتَصِرًا (43) هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44)

"وَأُحِيطَ" الواو استئنافية وماض مبني للمجهول ونائب فاعله مستتر "بِثَمَرِهِ" متعلقان بأحيط والجملة مستأنفة "فَأَصْبَحَ" ماض ناقص واسمه محذوف والجملة معطوفة "يُقَلِّبُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر أصبح "كَفَّيْهِ" مفعول به منصوب بالياء لأنه مثنى والهاء

مضاف إليه "عَلَى ما" ما موصولية ومتعلقان بيقلب "أَنْفَقَ" ماض فاعله مستتر "فِيها" متعلقان بأنفق والجملة صلة "وَهِيَ خاوِيَةٌ" مبتدأ

(119/467)

وخبر والجملة حالية "عَلى عُرُوشِها" متعلقان بخاوية والهاء مضاف إليه "وَيَقُولُ" الواو عاطفة ومضارع فاعله مستتر "يا" أداة تنبيه "لَيْتَنِي" ليت والنون للوقاية والياء اسمها والجملة مقول القول "لَمْ" حرف نفي وجزم وقلب "أُشْرِكْ" مضارع مجزوم وفاعله مستتر "بِرَبِّي" متعلقان بأشرك "أَحَداً" مفعول به والجملة خبر ليت "وَلَمْ" الواو عاطفة ولم جازمة "تَكُنْ" مضارع ناقص "لَهُ" متعلقان بالخبر المحذوف "فِئَةٌ" اسمها المؤخر والجملة معطوفة "يَنْصُرُونَهُ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والهاء مفعول به والجملة صفة لفئة "مِنْ دُونِ" متعلقان بينصرونه "اللَّهِ" لفظ الجلالة في محل جر بالإضافة "وَما" الواو عاطفة وما نافية "كانَ مُنْتَصِراً" كان وخبرها واسمها محذوف والجملة معطوفة "هُنالِكَ" هنا اسم إشارة منصوب على الظرفية المكانية متعلق بمحذوف خبر مقدم واللام للبعد والكاف للخطاب "الْوَلايَةُ" مبتدأ مؤخر "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بالولاية والجملة مستأنفة "الْحَقِّ" صفة "هُوَ خَيْرٌ" مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة "ثَواباً" تمييز "وَخَيْرٌ عُقْباً"

معطوف على خير ثوابا .

[سورة الكهف (18) : الآيات 45 الى 46]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً (45) الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (46)

(120/467)

"وَاضْرِبْ" الواو استئنافية وأمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "لَهُمْ" متعلقان باضرب "مَثَلَ" مفعول به "الْحَياةِ" مضاف إليه "الدُّنْيا" صفة مجرورة بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "كَماءٍ" متعلقان باضرب "أَنْزَلْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صفة ماء "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بأنزلناه "فَاخْتَلَطَ" الفاء عاطفة وماض مبني على الفتح "بِهِ" متعلقان باختلط "نَباتُ" فاعل اختلط "الْأَرْضِ" مضاف إليه والجملة معطوفة "فَأَصْبَحَ" الفاء عاطفة وماض ناقص واسمه محذوف "هَشِيماً" خبر "تَذْرُوهُ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل والهاء مفعول به مقدم "الرِّياحُ" فاعل والجملة خبر ثان لأصبح وكان الواو استئنافية كان ماض ناقص "اللَّهُ" لفظ الجلالة اسمها "عَلى كُلِّ" متعلقان بمقتدرا

والجملة مستأنفة "الْمالُ" مبتدأ "وَالْبَنُونَ" معطوفة بالواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "زِينَةُ" خبر "الْحَياةِ" مضاف إليه "الدُّنْيا" صفة مجرورة بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر والجملة مستأنفة "وَالْباقِياتُ" الواو عاطفة والباقيات مبتدأ "الصَّالِحاتُ" صفة "خَيْرٌ" خبر والجملة معطوفة "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بخير "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "ثَواباً" تمييز "وَخَيْرٌ" معطوف على خير "أَمَلًا" تمييز.

[سورة الكهف (18) : الآيات 47 الى 48]

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (47) وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً (48)

"وَيَوْمَ" الواو عاطفة يوم ظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر "نُسَيِّرُ" مضارع فاعله محذوف

"الْجِبالَ" مفعول به والجملة مضاف إليه "وَتَرَى" الواو عاطفة ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر وفاعله مستتر "الْأَرْضَ" مفعول به "بارِزَةً" حال والجملة معطوفة "وَحَشَرْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "فَلَمْ" الفاء عاطفة ولم جازمة

"نُغَادِرْ" مضارع مجزوم وفاعله مستتر والجملة معطوفة "مِنْهُمْ" متعلقان بحال محذوفة

"أَحَدًا" مفعول به والجملة معطوفة عُرِضُوا"

الواو عاطفة وماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفةلَى ربِّكَ"

متعلقان بعرضوا والكاف مضاف إليهَ فًّا"

حال قَدْ"

اللام واقعة في جواب قسم محذوف قد حرف تحقيق ئْتُمُونا"

ماض وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لهاَما"

الكاف حرف جر وما مصدريةَلَقْناكُمْ"

ماض وفاعله ومفعوله وما وما بعدها متعلقان بجئتموناوَّلَ"

ظرف زمان متعلق بخلقناكمَ رَّةٍ"

مضاف إليهَ لْ"

حرف إضرابَ عَمْتُمْ"

ماض وفاعله والجملة مستأنفة "أن" مخففة من أنّ واسمها ضمير الشأن محذوف "لن"

حرف ناصبَ جْعَلَ"

مضارع منصوب وفاعله مستتر والجملة خبر أنَ كُمْ"

متعلقان بنجعلَ وْعِداً"

مفعول به .

[سورة الكهف (18) : الآيات 49 الى 50]

وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا مالِ هذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (49) وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (50)

(122/467)

"وَوُضِعَ الْكِتابُ" الواو عاطفة وماض مبني للمجهول ونائب فاعله والجملة معطوفة "فَتَرَى" الفاء عاطفة ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر وفاعله مستتر "الْمُجْرِمِينَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "مُشْفِقِينَ" حال منصوبة بالياء لأنها جمع مذكر سالم "مِمَّا" ما موصولية ومتعلقان بمشفقين "فِيهِ" متعلقان بمحذوف صلة "وَيَقُولُونَ" الواو عاطفة ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "يا" حرف تنبيه "وَيْلَتَنا" مفعول مطلق وهو مصدر لا فعل له "ما" اسم استفهام مبتدأ "لِهذَا" ذا اسم إشارة في محل جر باللام متعلقان بمحذوف خبر والها للتنبيه "الْكِتابُ" بدل أو عطف

بيان والجملة مقول القول "لَا يُغَادِرُ" لا نافية يغادر مضارع فاعله مستتر والجملة حالية "صَغِيرَةً" مفعول به "وَلَا كَبِيرَةً" معطوف عليه "إِلَّا" أداة حصر "أَحْصَاهَا" ماض فاعله مستتر والها مفعول به والجملة صفة لصغيرة "وَوَجَدُوا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "مَا" اسم موصول مفعول به "عَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "حَاضِرًا" مفعول به ثان "وَلَا" الواو حالية ولا نافية "يَظْلِمُ رَبُّكَ" مضارع وفاعله والكاف مضاف إليه "أَحَدًا" مفعول به والجملة حالية "وَإِذْ" الواو استئنافية وإذ ظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر "قُلْنَا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "لِلْمَلَائِكَةِ" متعلقان بقلنا "اسْجُدُوا" أمر وفاعله والجملة مقول القول "لِآدَمَ" متعلقان باسجدوا وآدم

(123/467)

مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "فَسَجَدُوا" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "إِلَّا" أداة استثناء "إِبْلِيسَ" مستثنى بإلا منصوب "كَانَ مِنَ الْجِنِّ" كان واسمها المحذوف والجار والمجرور متعلقان بالخبر المحذوف والجملة حالية "فَفَسَقَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "عَنْ أَمْرِ" متعلقان بفسق "رَبِّهِ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "أَفَتَتَّخِذُونَهُ" الهمزة للاستفهام ومضارع وفاعله ومفعوله الأول والجملة مستأنفة "وَذُرِّيَّتَهُ"

معطوفة على الهاء "أَوْلِياءَ" مفعول ثان "مِنْ دُونِي" متعلقان بأولياء "وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ" مبتدأ وخبر والجملة حالية والجار والمجرور متعلقان بعدو "بِئْسَ" ماض لإنشاء الذم وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "لِلظَّالِمِينَ" متعلقان ببدلا "بَدَلًا" تمييز.

[سورة الكهف (18) : الآيات 51 الى 52]

ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (51) وَيَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً (52)

(124/467)

"ما" نافية "أَشْهَدْتُهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله الأول. "خَلْقَ" مفعول به ثان "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على خلق "وَلا خَلْقَ" معطوف على ما قبله "أَنْفُسِهِمْ" مضاف إليه "وَما" الواو عاطفة وما نافية "كُنْتُ مُتَّخِذَ" كان واسمها وخبرها والجملة معطوفة "الْمُضِلِّينَ" مضاف إليه من إضافة اسم الفاعل لمفعوله مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم "عَضُداً" مفعول به ثان لمتخذ "وَيَوْمَ" الواو عاطفة ويوم ظرف زمان متعلق بفعل اذكر المحذوف "يَقُولُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مضاف إليه "نادُوا" أمر وفاعله والجملة

مقول القول "شُرَكائِيَ" مفعوله به منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة والياء مضاف إليه والجملة مقول القول "الَّذِينَ" اسم موصول صفة أو بدل من شركائي في محل نصب مثله "زَعَمْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة "فَدَعَوْهُمْ" الفاء عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "فَلَمْ" الفاء عاطفة ولم جازمة "يَسْتَجِيبُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة معطوفة "وَجَعَلْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "بَيْنَهُمْ" ظرف متعلق بجعلنا "مَوْبِقاً" مفعول به.

[سورة الكهف (18) : الآيات 53 الى 55]

وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً (53) وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (54) وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً (55)

"وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ" الواو استئنافية وماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة "فَظَنُّوا" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "أَنَّهُمْ مُواقِعُوها" أن واسمها وخبرها والهاء

مضاف إليه والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي ظن "وَلَمْ" الواو عاطفة ولم جازمة "يَجِدُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة معطوفة "عَنْها" متعلقان بيجدوا "مَصْرِفاً" مفعول به "وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "صَرَّفْنا" ماض وفاعله "فِي هذَا" ذا اسم إشارة ومتعلقان بصرفنا "الْقُرْآنِ" بدل أو عطف بيان "لِلنَّاسِ" متعلقان بصرفنا "مِنْ كُلِّ" متعلقان بمحذوف صفة مفعول به "مَثَلٍ" مضاف إليه والجملة لا محل لها لأنها وقعت جواب قسم "وَكانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ" كان واسمها وخبرها والجملة مستأنفة "شَيْءٍ" مضاف إليه "جَدَلًا" تمييز "وَما" الواو استئنافية وما نافية "مَنَعَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "النَّاسَ" مفعول به "أَنْ يُؤْمِنُوا" أن نافية ومضارع منصوب بحذف النون والمصدر المؤول في محل نصب مفعول به ثان لمنع "إِذْ" ظرف زمان "جاءَهُمُ الْهُدى" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة مضاف إليه "وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ" الواو عاطفة ومضارع وفاعله ومفعوله "إِلَّا" أداة حصر "أَنْ" ناصبة "تَأْتِيَهُمْ" مضارع ومفعوله "سُنَّةُ" فاعل مؤخر "الْأَوَّلِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم "أَوْ" عاطفة "يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ" مضارع والهاء مفعوله المقدم والعذاب فاعله "قُبُلًا" حال.

[سورة الكهف (18) : الآيات 56 الى 57]

وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آياتِي وَما أُنْذِرُوا هُزُواً (56) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (57)

(127/467)

"وَما" الواو استئنافية وما نافية "نُرْسِلُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مستأنفة "الْمُرْسَلِينَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "إِلَّا" أداة حصر "مُبَشِّرِينَ" حال "وَمُنْذِرِينَ" معطوف على مبشرين "وَيُجادِلُ الَّذِينَ" الواو عاطفة ومضارع واسم الموصول في محل رفع فاعل والجملة معطوفة "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِالْباطِلِ" متعلقان بجادل "لِيُدْحِضُوا" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل واللام وما بعدها في تأويل مصدر متعلقان بيجادل "بِهِ" متعلقان بيدحضوا "الْحَقَّ" مفعول به "وَاتَّخَذُوا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "آياتِي" مفعوله الأول والياء مضاف إليه "وَما" الواو عاطفة وما اسم موصول معطوف

على آياتي "أُنذِرُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة "هُزُواً" مفعول به ثان "وَمَنْ" الواو استئنافية ومن اسم استفهام مبتدأ "أَظْلَمُ" خبر والجملة مستأنفة "مِمَّنْ" من اسم موصول في محل جر بمن ومتعلقان بأظلم "ذُكِّرَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة صلة "بِآياتِ" متعلقان بذكر "رَبِّهِ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "فَأَعْرَضَ" الفاء عاطفة وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "عَنْها" متعلقان بالفعل "وَنَسِيَ" الواو عاطفة وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "ما" موصولية مفعول به "قَدَّمَتْ" ماض والتاء للتأنيث "يَداهُ" فاعل مرفوع بالألف لأنه مثنى والهاء مضاف إليه والجملة صلة "إِنَّا" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً" ماض وفاعله وأكنة مفعوله والجار والمجرور متعلقان بأكنة والهاء مضاف إليه والجملة خبر "أَنْ" ناصبة "يَفْقَهُوهُ" مضارع منصوب بحذف النون والواو فاعله والهاء مفعوله "وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً"

معطوف على قلوبهم

"وَإِنْ" الواو استئنافية وإن شرطية "تَدْعُهُمْ" مضارع مجزوم فعل الشرط بحذف حرف العلة وفاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة ابتدائية لا محل لها "إِلَى الْهُدى" متعلقان بتدعهم "فَلَنْ" الفاء رابطة للجواب ولن حرف ناصب "يَهْتَدُوا" مضارع منصوب بلن بحذف النون والواو فاعل والجملة في محل جزم جواب الشرط "إِذاً" حرف جواب "أَبَداً" ظرف زمان متعلق بيهتدوا .

[سورة الكهف (18) : الآيات 58 الى 60]

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (58) وَتِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (59) وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (60)

"وَرَبُّكَ الْغَفُورُ" الواو استئنافية ومبتدأ وخبر والكاف مضاف إليه والجملة ابتدائية "ذُو" خبر ثان مرفوع بالواو "الرَّحْمَةِ" مضاف إليه "لَوْ" حرف شرط غير جازم "يُؤاخِذُهُمْ" مضارع فاعله مستتر والهاء مفعوله والجملة ابتدائية "بما" ما موصولية ومتعلقان بيؤاخذهم "كَسَبُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "لَعَجَّلَ" اللام واقعة في جواب لو وماض

فاعله مستتر والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها من الإعراب "بَلْ" حرف إضراب "لَهُمْ" متعلقان بخبر مقدم "مَوْعِدٌ" مبتدأ مؤخر والجملة استئنافية "لَنْ" ناصبة "يَجِدُوا" مضارع منصوب بحذف النون والواو فاعل والجملة صفة موعد "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بيجدوا والهاء مضاف إليه "مَوْئِلًا" مفعول به "وَتِلْكَ" الواو استئنافية واسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "الْقُرى" بدل أو عطف بيان وجملته استئنافية "أَهْلَكْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر "لَمَّا" الظرفية الحينية "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "وَجَعَلْنا" الواو عاطفة وماض وفاعله "لِمَهْلِكِهِمْ" متعلقان بجعلنا والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "مَوْعِداً" مفعول به "وَإِذْ" الواو استئنافية وإذ ظرف متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر وهي مستأنفة "قالَ مُوسى" ماض وفاعله المرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة مضاف إليه "لِفَتاهُ" فتاه مجرور بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر والهاء مضاف إليه ومتعلقان بقال "لا أَبْرَحُ" مضارع ناقص واسمه محذوف والجملة مقول القول "حَتَّى" حرف غاية وجر "أَبْلُغَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى وحتى وما بعدها متعلقان بفعل محذوف تقديره أسير وفاعل أبلغ مستتر "مَجْمَعَ" مفعول به "الْبَحْرَيْنِ" مضاف إليه بالياء "أَوْ" عاطفة "أَمْضِيَ" معطوف على أبلغ وفاعله مستتر "حُقُباً" ظرف زمان متعلقان بأمضي.

[سورة الكهف (18) : الآيات 61 الى 63]

فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63)

"فَلَمَّا" الفاء استئنافية ظرف زمان بمعنى حين "بَلَغَا" ماض والألف فاعله والجملة مضاف إليه "مَجْمَعَ" مفعول به "بَيْنِهِمَا" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "نَسِيَا" ماض وفاعله "حُوتَهُمَا" مفعول به والهاء مضاف إليه والجملة لا محل لها "فَاتَّخَذَ" الفاء عاطفة وماض فاعله مستتر "سَبِيلَهُ" مفعول به أول والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "فِي الْبَحْرِ" متعلقان باتخذ "سَرَبًا" مفعول به ثان "فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما الظرفية الحينية "جَاوَزَا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "قَالَ" ماض وفاعله والجملة لا محل لها جواب لما "لِفَتَاهُ" متعلقان بقال "آتِنَا" أمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله مستتر ونا مفعوله الأول

"غَدَاءَنَا" مفعول به ثان ونا مضاف إليه "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "لَقِينا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم "مِنْ سَفَرِنَا" متعلقان بلقينا ونا مضاف إليه "هذا" الها للتنبيه ذا اسم إشارة في محل جر صفة لسفر "نَصَبًا" مفعول به "قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَرَأَيْتَ" الهمزة للاستفهام وفعل ماض فاعله وهو بمعنى أخبرني ومفعولاه محذوفان والجملة مقول القول "إِذْ" ظرف زمان "أَوَيْنا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "إِلَى الصَّخْرَةِ" متعلقان بأوينا "فَإِنِّي" الفاء عاطفة وإن واسمها والجملة معطوفة "نَسِيتُ الْحُوتَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر "وَما" الواو اعتراضية وما نافية "أَنسانِيهُ" ماض والنون للوقاية والياء مفعول به أول والهاء مفعول به ثان "إِلَّا" أداة حصر "الشَّيْطانُ" فاعل والجملة اعتراضية "أَنْ" ناصبة "أَذْكُرَهُ" مضارع منصوب والهاء مفعوله وفاعله مستتر والمصدر الأول بدل من الهاء في أنسانيه "وَاتَّخَذَ" الواو عاطفة وماض فاعله مستتر "سَبِيلَهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "فِي الْبَحْرِ"

متعلقان باتخذ "عَجَبًا" مفعول به.

[سورة الكهف (18) : الآيات 64 الى 67]

قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً (64) فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (65) قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (66) قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً (67)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "ذِلكَ" ذا اسم إشارة في محل رفع مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "ما" موصولية في محل رفع خبر والجملة مقول القول "كُنَّا" كان واسمها والجملة صلة "نَبْغِ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء المحذوفة من المصحف وفاعله مستتر والجملة خبر "فَارْتَدَّا" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "عَلى آثارِهِما" متعلقان بارتدا والهاء مضاف إليه "قَصَصاً" مفعول مطلق لفعل محذوف "فَوَجَدا" الفاء عاطفة وماض وفاعله "عَبْداً" مفعول به "مِنْ عِبادِنا" متعلقان بمحذوف صفة لعبد والجملة معطوفة "آتَيْناهُ رَحْمَةً" ماض وفاعله ومفعولاه "مِنْ عِنْدِنا" متعلقان برحمة ونا مضاف إليه والجملة صفة ثانية لرحمة "وَعَلَّمْناهُ" الواو عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "مِنْ لَدُنَّا" متعلقان بعلمناه ونا مضاف إليه "عِلْماً" مفعول مطلق

"قَالَ لَهُ مُوسى " ماض وفاعله والجار والمجرور متعلقان بقال والجملة مستأنفة "هَلْ" حرف استفهام "أَتَّبِعُكَ" مضارع فاعله مستتر والكاف مفعول به والجملة مقول القول "عَلى " حرف جر "أَنْ" ناصبة "تُعَلِّمَنِ" مضارع منصوب والنون للوقاية والياء مفعول به أول وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر ومتعلقان بمحذوف حال "مِمَّا" أصلها من الجارة وما الموصولية ومتعلقان بعلمت "عُلِّمْتَ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والجملة صلة "رُشْداً" مفعول به ثان "قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنَّكَ" إن واسمها والجملة مقول القول "لَنْ" حرف ناصب "تَسْتَطِيعَ" مضارع منصوب والجملة خبر "مَعِيَ" ظرف مكان متعلق بتستطيع والياء مضاف إليه "صَبْراً" مفعول به .

[سورة الكهف (18) : الآيات 68 الى 70]

وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (68) قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (69) قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (70)

"وَكَيْفَ" الواو استئنافية وكيف اسم استفهام في محل نصب حال والجملة مستأنفة "تَصْبِرُ" مضارع مرفوع وفاعله مستتر "عَلى " حرف جر "ما" اسم موصول ومتعلقان بتصبر "لَمْ"

حرف نفي وجزم وقلب "تُحِطْ" مضارع مجزوم وفاعله مستتر والجملة صلة "بِهِ" متعلقان بتحط "خُبْراً" تمييز "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "سَتَجِدُنِي" السين للاستقبال ومضارع مرفوع والنون للوقاية والياء في محل نصب مفعول به أول وفاعله مستتر والجملة مقول القول "إِنْ" شرطية "شاءَ اللَّهُ" ماض وفاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "صابِراً" مفعول به ثان "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "أَعْصِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والجملة معطوفة "لَكَ" متعلقان بأعصي "أَمْراً" مفعول به والجملة جواب الشرط محذوفة دل عليها ما قبلها. "قالَ" ماض فاعله مستتر "فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي" الفاء حرف عطف وإن شرطية وماض وفاعله والنون للوقاية والياء مفعول به "فَلا" الفاء رابطة ولا ناهية جازمة "تَسْئَلْنِي" مضارع مجزوم والياء مفعوله والنون للوقاية وفاعله أنت "عَنْ شَيْءٍ" متعلقان بالفعل "حَتَّى أُحْدِثَ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد حتى والمصدر المؤول في محل جر "لَكَ" متعلقان بالفعل قبلهما "مِنْهُ" متعلقان بمحذوف حال "ذِكْراً" مفعول به.

[سورة الكهف (18) : الآيات 71 الى 73]

فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قالَ أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (71) قالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً (72) قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (73)

"فَانْطَلَقَا" الفاء استئنافية انطلقا فعل ماض مبني على الفتح وألف الاثنين في محل رفع فاعل والجملة مستأنفة "حَتَّى" حرف غاية وجر "إِذا" ظرف لما يستقبل من الزمان أو أداة شرط غير جازمة "رَكِبا" فعل ماض وفاعله وجملة ركبا فعلية في محل جر بالاضافة "فِي السَّفِينَةِ" متعلقان بركبا "خَرَقَها" ماض فاعله مستتر والها مفعول به والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب إذا "قالَ" ماض فاعله مستتر

والجملة مستأنفة "أَخَرَقْتَها" الهمزة للاستفهام وخرقتها ماض والتاء فاعل والها مفعول به "لِتُغْرِقَ" لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر "أَهْلَها" مفعول به منصوب والها مضاف إليه "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم المحذوف وقد حرف تحقيق "جِئْتَ" ماض والتاء فاعل "شَيْئاً" مفعول به "إِمْراً" صفة لشيئا "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَلَمْ" الهمزة للاستفهام ولم حرف جزم ونفي وقلب "أَقُلْ" مضارع مجزوم بلم وفاعله مستتر "إِنَّكَ" إن واسمها "لَنْ" حرف ناصب "تَسْتَطِيعَ" مضارع منصوب والفاعل مستتر "مَعِي" ظرف مكان متعلق بتستطيع والياء مضاف إليه والجملة خبر إن "صَبْراً" مفعول به "قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "لا تُؤاخِذْنِي" لا

ناهية ومضارع مجزوم بلا الناهية والنون للوقاية والفاعل مستتر والياء مفعول به "بِما" الباء حرف جر وما اسم موصول في محل جر بحرف الجر متعلقان بتؤاخذني "نَسِيتُ" ماض وفاعله والجملة صلة "وَلا" الواو استئنافية ولا ناهية "تُرْهِقْنِي" مضارع مجزوم والنون للوقاية وفاعله مستتر والياء مفعوله "مِنْ أَمْرِي" متعلقان بترهقني والياء مفعول به أول "عُسْراً" مفعول به ثان والجملة مستأنفة.

[سورة الكهف (18) : آية 74]

(136/467)

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (74)

"فَانْطَلَقَا" الفاء استئنافية وماض والألف فاعله "حَتَّى" حرف غاية وجر "إِذا" ظرف لما يستقبل من الزمن يتضمن معنى الشرط "لَقِيا" ماض والألف فاعل والجملة مضاف إليه "غُلاماً" مفعول به "فَقَتَلَهُ" الفاء حرف عطف وماض ومفعوله وفاعله مستتر "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَقَتَلْتَ" الهمزة للاستفهام وماض وفاعله "نَفْساً" مفعول به والجملة مقول القول "زَكِيَّةً" صفة "بِغَيْرِ" متعلقان بزكية "نَفْسٍ" مضاف إليه "لَقَدْ" اللام

واقعة في جواب القسم المحذوف وقد حرف تحقيق "جِئْتَ" ماض وفاعله "شَيْئًا" مفعول به "نُكْرًا" صفة والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم.

[سورة الكهف (18) : الآيات 75 الى 76]

قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76)

(137/467)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَلَمْ" الهمزة للاستفهام ولم حرف جزم "أَقُلْ" مضارع مجزوم والفاعل مستتر "لَكَ" متعلقان بالفعل والجملة مقول القول "إِنَّكَ" إن واسمها والجملة مقول القول "لَنْ" حرف ناصب "تَسْتَطِيعَ" مضارع منصوب وفاعله مستتر والجملة خبر "مَعِيَ" ظرف مكان متعلق بتستطيع والياء مضاف إليه "صَبْرًا" مفعول به "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنْ" حرف شرط جازم "سَأَلْتُكَ" ماض وفاعله ومفعوله وهو في محل جزم والجملة ابتدائية "عَنْ شَيْءٍ" متعلقان بسألت "بَعْدَها" ظرف زمان متعلق بمحذوف صفة لشيء والها مضاف إليه "فَلا" الفاء رابطة للجواب لا ناهية جازمة "تُصاحِبْنِي" مضارع مجزوم بلا الناهية وفاعله مستتر والنون للوقاية والياء مفعول به

والجملة في محل جزم جواب الشرط "قَدْ" حرف تحقيق "بَلَغْتَ" ماض وفاعله "مِنْ" حرف جر "لَدُنِّي" ظرف في محل جر بحرف الجر متعلقان ببلغت والياء مضاف إليه "عُذْراً" مفعول به.

[سورة الكهف (18) : الآيات 77 الى 78]

فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (77) قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (78)

(138/467)

"فَانْطَلَقا" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "حَتَّى" حرف غاية وجر "إِذا" ظرف يتضمن معنى الشرط "أَتَيا" ماض والألف فاعله والجملة مضاف إليه "أَهْلَ" مفعول به "قَرْيَةٍ" مضاف إليه "اسْتَطْعَما" ماض والألف فاعله "أَهْلَها" مفعول به والها مضاف إليه والجملة لا محل لها لأنها جواب إذا "فَأَبَوْا" الفاء عاطفة وماض مبني على الضم المقدر على الألف المحذوفة والواو فاعل والجملة معطوفة "أَنْ" حرف ناصب "يُضَيِّفُوهُما" مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو فاعل والهاء مفعول

به وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به "فَوَجَدا" الفاء عاطفة وماض والألف فاعل والجملة معطوفة "فِيها" متعلقان بوجدا والها مضاف إليه "جِدارًا" مفعول به "يُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صفة لجدار "أَنْ يَنْقَضَّ" أن حرف ناصب ومضارع منصوب وفاعله مستتر والمصدر الأول مفعول به "فَأَقامَهُ" الفاء عاطفة وماض فاعله مستتر والهاء مفعول به "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "لَوْ" حرف شرط غير جازم "شِئْتَ" ماض والتاء فاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "لَاتَّخَذْتَ" اللام واقعة في جواب الشرط وماض فاعله التاء "عَلَيْهِ" متعلقان باتخذت "أَجْرًا" مفعول به والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير

جازم "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "هذا فِراقُ" الها للتنبيه وذا اسم إشارة مبتدأ وفراق خبر والجملة مقول القول "بَيْنِي" ظرف مكان متعلق بفراق والياء مضاف إليه "وَبَيْنِكَ" الواو عاطفة وظرف مكان معطوف على ما قبله "سَأُنَبِّئُكَ" السين للاستقبال ومضارع ومفعوله وفاعله مستتر "بِتَأْوِيلِ" متعلقان بأنبئك والجملة مقول القول "ما" اسم موصول في محل جر بالإضافة "لَمْ تَسْتَطِعْ" لم حرف جازم ومضارع مجزوم وفاعله مستتر

"عَلَيْهِ" متعلقان بتستطع "صَبْراً" مفعول به.

[سورة الكهف (18) : الآيات 79 الى 81]

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (79) وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً (80) فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً (81)

(140/467)

"أَمَّا" حرف شرط وتفصيل "السَّفِينَةُ" مبتدأ "فَكانَتْ" الفاء رابطة لجواب الشرط وماض ناقص والتاء تاء التأنيث واسمه مستتر والجملة خبر السفينة "لِمَساكِينَ" متعلقان بخبر كانت المحذوف "يَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صفة لمساكين "فِي الْبَحْرِ" متعلقان بيعملون "فَأَرَدْتُ" الفاء استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَنْ" حرف ناصب "أَعِيبَها" مضارع منصوب وفاعله مستتر والها مفعول به وأن وما بعدها في محل نصب مفعول به لأردت "وَكانَ" الواو عاطفة وماض ناقص "وَراءَهُمْ" ظرف مكان متعلق بالخبر المحذوف والهاء في محل جر بالإضافة "مَلِكٌ" اسم كان المؤخر "يَأْخُذُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة صفة لملك "كُلَّ" مفعول به "سَفِينَةٍ" مضاف إليه

"غَضْباً" حال منصوبة "وَأَمَّا" الواو عاطفة أما حرف شرط وتفصيل "الْغُلامُ" مبتدأ "فَكانَ" الفاء رابطة للجواب "كان" فعل ماض ناقص "أَبَواهُ" اسمها مرفوع بالألف لأنه مثنى والهاء مضاف إليه "مُؤْمِنَيْنِ" خبر كان المنصوب بالياء لأنه مثنى والجملة خبر "فَخَشِينا" الفاء استئنافية وخشينا ماض وفاعله والجملة استئنافية "أَنْ" حرف ناصب "يُرْهِقَهُما" مضارع منصوب والفاعل مستتر والهاء مفعول به أول "طُغْياناً" مفعول به ثان "وَكُفْراً" اسم معطوف على طغيانا "فَأَرَدْنا" الفاء استئنافية وماض وفاعله "أَنْ" حرف ناصب "يُبْدِلَهُما" مضارع منصوب والهاء مفعول به "رَبُّهُما" فاعل والهاء في محل جر بالاضافة وأن وما بعدها مفعول به "خَيْراً" مفعول به ثان "مِنْهُ" متعلقان بخيرا "زَكاةً" تمييز "وَأَقْرَبَ" معطوف على خيرا "رُحْماً" تمييز.

[سورة الكهف (18) : الآيات 82 الى 83]

(141/467)

وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (82) وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً

"وَأَمَّا" الواو عاطفة أما حرف شرط "الْجِدارُ" مبتدأ "فَكانَ" الفاء رابطة للجواب وكان فعل ماض ناقص واسمه ضمير مستتر تقديره هو يعود على الجدار "لِغُلامَيْنِ" متعلقان بالخبر المحذوف "يَتِيمَيْنِ" صفة "فِي الْمَدِينَةِ"

(142/467)

متعلقان بصفة محذوفة لغلامين "وَكانَ" الواو عاطفة وماض ناقص "تَحْتَهُ" ظرف مكان متعلق بالخبر المقدم المحذوف والهاء مضاف إليه "كَنْزٌ" اسم كان "لَهُما" متعلقان بصفة لكنز محذوفة "وَكانَ" معطوفة على كان الأولى "أَبُوهُما" اسم كان مرفوع بالواو لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه "صالِحاً" خبر كان "فَأَرادَ" الفاء رابطة وماض "رَبُّكَ" فاعل والكاف مضاف إليه "أَنْ" حرف ناصب "يَبْلُغا" مضارع منصوب وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة وألف الاثنين فاعل "أَشُدَّهُما" مفعول به والهاء مضاف إليه والمصدر مفعول به "وَيَسْتَخْرِجا" معطوف على يبلغا وإعرابه مثله "كَنزَهُما" مفعول به والهاء مضاف إليه "رَحْمَةً" مفعول لأجله "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان برحمة "وَما" الواو استئنافية وما نافية "فَعَلْتُهُ" ماض والتاء فاعله والهاء مفعوله والجملة مستأنفة "عَنْ أَمْرِي"

متعلقان بحال محذوفة "ذلِكَ" ذا اسم إشارة في محل رفع مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "تَأْوِيلُ" خبر والجملة مستأنفة "ما" اسم موصول في محل جر بالإضافة "لَمْ" حرف جزم ونفي وقلب "تَسْطِعْ" فعل مضارع مجزوم وفاعله مستتر والجملة صلة "عَلَيْهِ" متعلقان بصبرا "صَبْراً" مفعول به منصوب "وَيَسْئَلُونَكَ" الواو استئنافية ومضارع مرفوع بثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو فاعله والكاف مفعوله والجملة مستأنفة "عَنْ" حرف جر "ذِي" اسم مجرور وعلامة جره الياء لأنه من الأسماء الخمسة "الْقَرْنَيْنِ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه مثنى "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "سَأَتْلُوا" السين للاستقبال ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل وفاعله مستتر "عَلَيْكُمْ" متعلقان بأتلو "مِنْهُ" متعلقان بمحذوف حال لذكرا "ذِكْراً" مفعول به والجملة مقول القول.

[سورة الكهف (18) : الآيات 84 الى 87]

(143/467)

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (84) فَأَتْبَعَ سَبَباً (85) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (86) قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ

فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87)

"إِنَّا" إن ونا اسمها "مَكَّنَّا" ماض وفاعله والجملة خبر إن "لَهُ" متعلقان بمكنا "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمكنا "وَآتَيْنَاهُ" الواو عاطفة وماض وفاعله والهاء مفعول به "مِنْ كُلِّ" متعلقان بسببا "شَيْءٍ" مضاف إليه مجرور "سَبَبًا" مفعول به "فَأَتْبَعَ" الفاء عاطفة وماض فاعله مستتر "سَبَبًا" مفعول به "حَتَّى" حرف غاية وجر "إِذَا" ظرف لما يستقبل من الزمن يتضمن معنى الشرط والجملة مضاف إليه "بَلَغَ" ماض فاعله مستتر تقديره هو "مَغْرِبَ" مفعول به "الشَّمْسِ" مضاف إليه "وَجَدَهَا" ماض فاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة لا محل لها من الاعراب لأنها جواب شرط غير جازم "تَغْرُبُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مفعول به لوجد "فِي عَيْنٍ" متعلقان بتغرب "حَمِئَةٍ" صفة "وَوَجَدَ" الواو عاطفة وماض فاعله مستتر "عِنْدَهَا" ظرف مكان متعلق بوجد والهاء مضاف إليه "قَوْمًا" مفعول به "قُلْنَا" ماض وفاعله والجملة

مستأنفة "يا ذَا" يا أداة نداء وذا منادى مضاف منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة "الْقَرْنَيْنِ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه مثنى والجملة مقول القول "إِمَّا" حرف شرط

وتفصيل "أَنْ" حرف ناصب "تُعَذِّبَ" مضارع منصوب والفاعل مستتر والمصدر المؤول في رفع مبتدأ أخبره محذوف "وَإِمَّا" الواو حرف عطف وإما حرف شرط وتفصيل "أَنْ تَتَّخِذَ" أن حرف ناصب ومضارع منصوب فاعله مستتر "فِيهِمْ" متعلقان بالفعل تتخذ "حُسْناً" مفعول به "قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَمَّا" حرف شرط وتفصيل "مَنْ" اسم موصول مبتدأ "ظَلَمَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "فَسَوْفَ" الفاء رابطة للجواب وسوف حرف استقبال "نُعَذِّبُهُ" مضارع فاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة خبر من "ثُمَّ" حرف عطف "يُرَدُّ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "إِلى رَبِّهِ" متعلقان بيرد "فَيُعَذِّبُهُ" الفاء عاطفة ومضارع مرفوع والفاعل مستتر والهاء مفعول به "عَذاباً" مفعول مطلق "نُكْراً" صفة.

[سورة الكهف (18) : الآيات 88 الى 95]

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً (88) ثُمَّ أَتْبَعَ
سَبَباً (89) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً
(90) كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً (91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (92)
حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (93) قالُوا يا ذَا
الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا

وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا
(95)

(145/467)

"وَأَمَّا" عطف على أما السابقة "مَنْ" اسم موصول مبتدأ "آمَنَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة لا محل لها من الإعراب "وَعَمِلَ" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر "صالِحاً" مفعول به "فَلَهُ" الفاء رابطة للجواب وله متعلقان بالخبر المقدم "جَزاءً" تمييز منصوب "الْحُسْنى" مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "وَسَنَقُولُ" الواو عاطفة ومضارع فاعله مستتر "لَهُ" متعلقان بنقول "مِنْ أَمْرِنا" متعلقان بحال محذوفة ونا مضاف إليه "يُسْراً" مفعول به ثان "ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً" مر إعرابها قريبا "حَتَّى" حرف غاية وجر "إِذا" ظرف لما يستقبل من الزمن يتضمن معنى الشرط "بَلَغَ" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "مَطْلِعَ" مفعول به "الشَّمْسِ" مضاف إليه والجملة في محل جر بالإضافة "وَجَدَها" ماض فاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم "تَطْلُعُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مفعول به ثان "عَلى قَوْمٍ" متعلقان بتطلع "لَمْ نَجْعَلْ" لم جازمة ومضارع مجزوم والفاعل مستتر والجملة صفة لقوم "لَهُمْ" متعلقان

بنجعل "مِنْ دُونِها" متعلقان بمحذوف حال والهاء مضاف إليه "سِتْراً" مفعول به "كَذلِكَ" جار ومجرور ، خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك واللام للبعد والكاف للخطاب وذا اسم إشارة "وَقَدْ" الواو عاطفة قد حرف تحقيق "أَحَطْنا" ماض وفاعله "بِما" الباء حرف جر وما اسم موصول في محل جر بحرف الجر ومتعلقان

بأحطنا "لَدَيْهِ" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة والهاء مضاف إليه "خُبْراً" مفعول به "ثُمَّ" حرف عطف "أَتْبَعَ" ماض فاعله مستتر "سَبَباً" مفعول به والجملة معطوفة .

(146/467)

"حَتَّى" حرف غاية وجر "إِذا" ظرف لما يستقبل من الزمن يتضمن معنى الشرط "بَلَغَ" ماض وفاعله مستتر "بَيْنَ" ظرف مكان متعلق ببلغ "السَّدَّيْنِ" مضاف إليه مجرور بالياء "وَجَدَ" ماض فاعله مستتر والجملة جواب الشرط "مِنْ دُونِهِما" متعلقان بوجد والهاء مضاف إليه "قَوْماً" مفعول به "لا يَكادُونَ" لا نافية ومضارع ناقص مرفوع بثبوت النون والواو في محل رفع اسمها والجملة صفة لقوما "يَفْقَهُونَ" مضارع والواو فاعله والجملة خبر يكادون "قَوْلًا" مفعول به "قالُوا" ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة والواو فاعل "يا ذَا" يا أداة نداء وذا منادى منصوب وعلامة نصبه الألف لأنه من الأسماء الخمسة "الْقَرْنَيْنِ"

مضاف إليه مجرور بالياء لأنه مثنى "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "يَأْجُوجَ" اسمها "وَمَأْجُوجَ" اسم معطوف على يأجوج "مُفْسِدُونَ" خبر إن مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمفسدون وجملة النداء وما بعدها مقول القول "فَهَلْ" الفاء عاطفة "هل" حرف استفهام "نَجْعَلُ" مضارع فاعله مستتر "لَكَ" متعلقان بنجعل "خَرْجاً" مفعول به والجملة معطوفة "عَلَى " حرف جر "إِنَّ" حرف ناصب "تَجْعَلَ" مضارع منصوب بأن فاعله مستتر وعلى وما بعدها متعلقان بتجعل "بَيْنَنا" ظرف مكان متعلق بتجعل ونا ضمير متصل في محل جر بالإضافة "وَبَيْنَهُمْ" معطوف على بيننا "سَدًّا" مفعول به "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "ما" اسم موصول مبتدأ "مَكَّنِّي" ماض مبني على الفتح والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة صلة "فِيهِ" متعلقان بمكني "رَبِّي" فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة والياء مضاف إليه "خَيْرٌ" خبر ما "فَأَعِينُونِي" الفاء استئنافية وأمر مبني على حذف النون لاتصاله بواو الجماعة والواو فاعل والنون للوقاية والياء مفعول به و

الجملة مستأنفة "بِقُوَّةٍ" متعلقان بأعينوني "أَجْعَلْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وفاعله مستتر "بَيْنَكُمْ" ظرف مكان متعلق بأجعل والكاف في محل جر بالإضافة "وَبَيْنَهُمْ" ظرف مكان معطوف على بينكم "رَدْماً" مفعول به.

[سورة الكهف (18) : الآيات 96 الى 98]

آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (96) فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً (97) قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98)

"آتُونِي" فعل أمر وواو الجماعة فاعل والنون للوقاية والياء في محل نصب مفعول به أول "زُبَرَ" مفعول به ثان منصوب "الْحَدِيدِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "حَتَّى" حرف غاية وجر "إِذا" ظرف لما يستقبل من الزمن يتضمن معنى الشرط "ساوى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر فاعله مستتر والجملة مضاف إليه "بَيْنَ" ظرف مكان متعلق بساوى "الصَّدَفَيْنِ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه مثنى

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة جواب إذا "انْفُخُوا" أمر مبني على حذف النون لاتصاله

بواو الجماعة والواو فاعل "حَتَّى" حرف غاية وجر "إِذا" ظرف لما يستقبل من الزمن

يتضمن معنى الشرط "جَعَلَهُ" ماض فاعله مستتر والهاء مفعول به أول والجملة مضاف إليه

"ناراً" مفعول به ثان "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها

من الإعراب "آتُونِي" سبق إعرابها قريبا والجملة مقول القول "أُفْرِغْ" مضارع مجزوم لأنه

جواب الطلب فاعله مستتر تقديره أنا "عَلَيْهِ" متعلقان بأفرغ "قِطْراً" مفعول به "فَمَا" الفاء

عاطفة وما نافية لا عمل لها "اسْطاعُوا" ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة والواو

فاعل والجملة معطوفة "أَنْ" حرف ناصب "يَظْهَرُوهُ" مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه

حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو فاعل والهاء مفعول به والمصدر المؤول في محل

نصب مفعول به لاسطاعوا "وَمَا اسْتَطاعُوا" معطوف على ما قبله وإعرابه مثله "لَهُ"

متعلقان باستطاعوا "نَقْباً" مفعول به "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "هذا" الها

للتنبيه وذا اسم إشارة مبتدأ "رَحْمَةٌ" خبر والجملة مقول القول "مِنْ رَبِّي" متعلقان بصفة

محذوفة والتقدير رحمة كائنة من ربي والياء مضاف إليه "فَإِذا" الفاء استئنافية وإذا ظرفية

شرطية غير جازمة "جاءَ" ماض "وَعْدُ" فاعل والجملة مضاف إليه "رَبِّي" مضاف إليه

والياء في محل جر بالإضافة "جَعَلَهُ" ماض وفاعله مستتر والهاء مفعول به أول "دَكَّاءَ"

مفعول به ثان والجملة جواب إذا "وَكانَ وَعْدُ" الواو عاطفة وكان اسمها "رَبِّي" مضاف إليه

والياء مضاف إليه "حَقًّا" خبر كان والجملة معطوفة.

[سورة الكهف (18) : الآيات 99 الى 102]

(149/467)

وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (99) وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً (100) الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (101) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً (102)

"وَتَرَكْنا" الواو استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "بَعْضَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان وإذ ظرف زمان في محل جر مضاف إليه "يَمُوجُ" مضارع والجملة حال "فِي بَعْضٍ" متعلقان بيموج "وَنُفِخَ" الواو عاطفة وماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "فِي الصُّورِ" متعلقان بنفخ والجملة معطوفة "فَجَمَعْناهُمْ" الفاء عاطفة وماض وفاعله والهاء مفعول به "جَمْعاً" مفعول مطلق "وَعَرَضْنا" الواو عاطفة وماض وفاعله "جَهَنَّمَ" مفعول به "يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان متعلق بعرضنا وإذ مضاف إليه "لِلْكافِرِينَ" متعلقان بعرضنا "عَرْضاً" مفعول مطلق "الَّذِينَ" اسم موصول مبني على الفتح في محل جر

صفة للكافرين "كانَتْ أَعْيُنُهُمْ" كان واسمها والهاء مضاف إليه والجملة صلة "فِي غِطاءٍ" متعلقان بخبر كان المحذوف "عَنْ ذِكْرِي" متعلقان بمحذوف صفة لغطاء والياء مضاف إليه "وَكانُوا" الواو عاطفة وكان واسمها والجملة معطوفة "لا يَسْتَطِيعُونَ" لا نافية ومضارع فاعله واو الجماعة والجملة في محل نصب خبر كانوا "سَمْعاً" مفعول به "أَفَحَسِبَ الَّذِينَ" الهمزة للاستفهام

و ماض واسم الموصول فاعل "كَفَرُوا" ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة والواو فاعل والجملة صلة "أَنْ يَتَّخِذُوا" أن حرف ناصب ومضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو في محل رفع فاعل وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي حسب "عِبادِي" مفعول به أول والياء في محل جر بالإضافة "مِنْ دُونِي" متعلقان بيتخذوا والياء مضاف إليه "أَوْلِياءَ" مفعول به ثان "إِنَّا" حرف مشبه بالفعل ونا اسمها والجملة مستأنفة "أَعْتَدْنا" ماض وفاعله والجملة خبر "جَهَنَّمَ" مفعول به "لِلْكافِرِينَ" متعلقان بأعتدنا "نُزُلًا" مفعول به ثان.

[سورة الكهف (18) : الآيات 103 الى 106]

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104) أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً (105) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً (106)

(151/467)

"قُلْ" أمر والفاعل مستتر والجملة مستأنفة "هَلْ" أداة استفهام "نُنَبِّئُكُمْ" مضارع فاعله مستتر والكاف مفعول به والجملة مقول القول "بِالْأَخْسَرِينَ" متعلقان بننبئكم "أَعْمالًا" تمييز "الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم "ضَلَّ" ماض "سَعْيُهُمْ" فاعل والهاء مضاف إليه والجملة صلة "فِي الْحَياةِ" متعلقان بضل "الدُّنْيا" صفة لحياة مجرور بالكسرة المقدرة على الألف "وَهُمْ" الواو حالية وهم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ "يَحْسَبُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر والجملة الاسمية حال "أَنَّهُمْ" حرف مشبه بالفعل والهاء اسمه وإن واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي يحسبون "يُحْسِنُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر أن "صُنْعاً" مفعول به "أُولئِكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ والكاف للخطاب "الَّذِينَ" اسم موصول في

محل رفع خبر "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِآيَاتِ" متعلقان بكفروا "رَبِّهِمْ" مضاف إليه والهاء في محل جر بالإضافة "وَلِقَائِهِ" اسم معطوف بالواو على ما قبله مجرور مثله "فَحَبِطَتْ" الفاء عاطفة وماض والتاء للتأنيث والجملة معطوفة "أَعْمَالُهُمْ" فاعل والهاء في محل جر بالإضافة "فَلا" الفاء عاطفة ولا نافية "نُقِيمُ" مضارع والفاعل مستتر "لَهُمْ" متعلقان بنقيم "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بنقيم "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "وَزْناً" مفعول به "ذلِكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "جَزاؤُهُمْ" مبتدأ والهاء في محل جر بالإضافة "جَهَنَّمُ" خبر وجملة المبتدأ والخبر في محل رفع خبر للمبتدأ الأول ذلك "بِما" الباء حرف جر وما اسم موصول في محل جر بحرف الجر متعلقان بجزاؤهم "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَاتَّخَذُوا" الواو عاطفة وماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة والواو في محل رفع

(152/467)

فاعل والجملة معطوفة "آياتِي" مفعول به أول والياء مضاف إليه "وَرُسُلِي" اسم معطوف على آياتي "هُزُواً" مفعول به ثان.

[سورة الكهف (18) : الآيات 107 الى 109]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (107) خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً (108) قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً (109)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب اسم إن "آمَنُوا" ماض مبني على الضم والواو فاعل وجملة آمنوا صلة الموصول لا محل لها من الإعراب "وَعَمِلُوا" معطوفة على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم "كانَتْ" ماض ناقص والتاء تاء التأنيث والجملة خبر "لَهُمْ" متعلقان بالخبر نزلا "جَنَّاتُ" اسم كان "الْفِرْدَوْسِ" مضاف إليه "نُزُلًا" خبر كان "خالِدِينَ" حال منصوبة بالياء لأنها جمع مذكر سالم "فِيها" متعلقان بخالدين "لا يَبْغُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة حالية "عَنْها" متعلقان بيبغون "حِوَلًا" مفعول به "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "لَوْ" حرف شرط غير جازم "كانَ الْبَحْرُ مِداداً" كان واسمها وخبرها والجملة مقول القول "لِكَلِماتِ" متعلقان بمدادا "رَبِّي" مضاف إليه والياء مضاف إليه "لَنَفِدَ" اللام واقعة في جواب الشرط والجملة لا محل لها لأنها جواب الشرط "الْبَحْرُ" فاعل "قَبْلَ" ظرف زمان "أَنْ تَنْفَدَ" أن حرف ناصب ومضارع منصوب "كَلِماتُ" فاعل "رَبِّي" مضاف إليه والياء مضاف إليه "وَلَوْ" الواو حرف عطف ولو حرف شرط غير

جازم "جِئْنا" ماض وفاعله "بِمِثْلِهِ" متعلقان بجئنا "مَدَدًا" مفعول به.

[سورة الكهف (18) : آية 110]

(153/467)

قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110)

"قُلْ" أمر والفاعل مستتر والجملة مستأنفة "إِنَّما" كافة ومكفوفة "أَنَا بَشَرٌ" مبتدأ وخبر والجملة مقول القول "مِثْلُكُمْ" صفة لبشر "يُوحى" مضارع مبني للمجهول مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة صفة لبشر "إِلَيَّ" متعلقان بيوحى "إِنَّما" كافة مكفوفة "إِلهُكُمْ" مبتدأ والكاف مضاف إليه "إِلهٌ" خبر "واحِدٌ" صفة والجملة في محل رفع نائب فاعل "فَمَنْ" الفاء استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ "كانَ" ماض ناقص واسمه محذوف "يَرْجُوا" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل والفاعل مستتر والجملة خبر "لِقاءَ" مفعول به "رَبِّهِ" مضاف إليه "فَلْيَعْمَلْ" الفاء رابطة لجواب الشرط واللام لام الأمر ومضارع مجزوم بلام الأمر والفاعل مستتر "عَمَلًا" مفعول مطلق "صالِحاً" صفة لعمل منصوبة "وَلا يُشْرِكْ" الواو عاطفة ولا ناهية ومضارع مجزوم والفاعل مستتر والجملة

معطوفة "بِعِبادَةِ" متعلقان بيشرك "رَبِّهِ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "أَحَداً" مفعول به. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 2 صـ 209. 235﴾

(154/467)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَةَ الْكَهْف

ذكر فِيهَا سِتَّة عشر حَدِيثا

735 - قَوْله رُوِيَ أَن مُعَاوِيَة غزا الرّوم فَمر بالكهف فَقَالَ لَو كشف لنا عَن هَؤُلَاءِ فَنَظَرْنَا إِلَيْهِم فَقَالَ لَهُ ابْن عَبَّاس لَيْسَ لَك ذَلِك قد منع الله من هُوَ خير مِنْك فَقَالَ لَو اطَّلَعت عَلَيْهِم لَوَلَّيْت مِنْهُم فِرَارًا وَلَمُلِئت مِنْهُم رعْبًا

فَقَالَ مُعَاوِيَة لَا أَنْتَهِي حَتَّى أعلم علمهمْ فَبعث نَاسا لينظروهم فَلَمَّا دخلُوا جَاءَتْهُم ريح فَأَحْرَقَتْهُمْ

قلت رَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط من طَرِيق أبي بكر بن أبي شيبَة حَدثنَا يزِيد بن هَارُون حَدثنَا سُفْيَان بن حُسَيْن عَن يعلي بن مُسلم عَن سعيد بن جُبَير أَنه غزا مَعَ مُعَاوِيَة

غَزْوَة الْمضيق نَحْو الرّوم فمروا بالكهف فَقَالَ مُعَاوِيَة لَو كشف لنا . . . إِلَى آخِره

736 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَن عرْفجَة أُصِيب أَنفه يَوْم الْكلاب فَاتخذ أنفًا من ورق فَأَنْتن فَأمره النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَن يتَّخذ أنفًا من ذهب

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ من حَدِيث عبد الرَّحْمَن بن طرفَة عَن عرْفجَة بن أسعد أَنه قطع أَنفه يَوْم الْكلاب فَاتخذ أنفًا من ورق . . . إِلَى آخِره

وَفِيه كَلَام مَبْسُوط فِي أَحَادِيث الْهِدَايَة

737 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (هُوَ كعكر الزَّيْت) يَعْنِي الْمهل

(155/467)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه فِي صفة جَهَنَّم من حَدِيث رشدين بن سعد عَن عَمْرو بن الْحَارِث عَن دراج أبي السَّمْح عَن سُلَيْمَان بن عَمْرو أبي الْهَيْثَم عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ كالمهل كعكر الزَّيْت فَإِذا قرب إِلَيْهِ سقطت فَرْوَة وَجهه فِيهِ)

انْتَهَى وَأَعَادَهُ فِي تَفْسِير سُورَة المعارج وَقَالَ هَذَا حَدِيث غَرِيب لَا نعرفه إِلَّا من حَدِيث رشدين بن سعد وَقد تكلم فِيهِ من قبل حفظه

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع التَّاسِع وَالسبْعين من الْقسم الثَّالِث وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه كِلَاهُمَا من طَرِيق ابْن وهب أَخْبرنِي عَمْرو بن الْحَارِث عَن دراج بِهِ قَالَ الْحَاكِم صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي الْبَعْث والنشور بِسَنَدِهِ وَمَتنه

وَرَوَاهُ أَحْمد وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مسنديهما من حَدِيث ابْن لَهِيعَة عَن دراج بِهِ

738 - قَوْله قَالَت عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها لمن سَأَلَهَا عَن مُحرم يشد عَلَيْهِ هِمْيَانه قَالَت أوثق عَلَيْك نفقتك

قلت رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي كتاب الْمَنَاسِك حَدثنَا حَفْص بن غياث عَن يحْيَى بن سعيد عَن الْقَاسِم عَن عَائِشَة أَنَّهَا سُئِلت عَن الْهِمْيَان للْمحرمِ فَقَالَت أوثق عَلَيْك نفقتك

انْتَهَى

739 - قَوْله يُحْكَى عَن الْمَنْصُور أَنه بلغه أَن أَبَا حنيفَة خَالف ابْن عَبَّاس فِي الِاسْتِثْنَاء الْمُنْفَصِل فَغَضب عَلَيْهِ فَقَالَ أَبُو حنيفَة هَذَا يرجع عَلَيْك افترض لمن يُبَايِعك بِالْإِيمَان أَن يخرج من عنْدك فَيَسْتَثْنِي فَاسْتَحْسَنَهُ

قلت قَول ابْن عَبَّاس رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْإِيمَان وَالنُّذُور من حَدِيث الْأَعْمَش عَن مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس قَالَ إِذا حلف الرجل عَلَى يَمِين فَلهُ أَن يَسْتَثْنِي وَلَو إِلَى سنة وَإِنَّمَا نزلت هَذِه الْآيَة فِي هَذَا وَاذْكُر رَبك إِذا نسيت قَالَ إِذا ذكر اسْتثْنى وَكَانَ الْأَعْمَش يَأْخُذ بهَا

انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ

انْتَهَى

وَقَالَ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره وَمَعْنَاهُ أَنه إِذا نسي أَن يَقُول فِي كَلَامه أَو حلفه إِن شَاءَ الله وَذكر وَلَو بعد سنة فَالسنة أَن نقُول لَهُ ذَلِك ليَكُون آتِيَا بِسنة الِاسْتِثْنَاء حَتَّى وَلَو بعد الْحِنْث لَا أَنه يكون رَافعا لحنث الْيَمين وَمُسْقطًا لِلْكَفَّارَةِ

انْتَهَى

قَالَ بعض الْعلمَاء وَهَذَا الْأَلْيَق بِحمْل كَلَام ابْن عَبَّاس عَلَيْهِ

وَرَوَى الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط عَن الْوَلِيد بن مُسلم عَن عبد الْعَزِيز بن الْحصين عَن ابْن

أبي نجيح عَن مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس فِي قَول الله تَعَالَى وَاذْكُر رَبك إِذا نسيت قَالَ إِذا نسيت الِاسْتِثْنَاء فَاسْتَثْنِ إِذا ذكرت قَالَ هِيَ لرَسُول الله خَاصَّة وَلَيْسَ لأحد منا أَن يَسْتَثْنِي إِلَّا بصلَة الْيَمين

انْتَهَى

740 - الحَدِيث الثَّالِث

فِي الحَدِيث (ليقل أحدكُم فَتَاي وفتاتي وَلَا يقل عَبدِي وَلَا أمتِي)

قلت رَوَاهُ الْجَمَاعَة إِلَّا التِّرْمِذِيّ فَرَوَاهُ البُخَارِيّ فِي الْعتْق وَمُسلم فِي الْأَلْفَاظ من الْأَدَب ... وَأَبُو دَاوُد فِي الْأَدَب وَالنَّسَائِيّ فِي الْيَوْم وَاللَّيْلَة وَابْن ماجة فِي الْأَدَب كلهم عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا يقل أحدكُم أطْعم رَبك

(157/467)

أَرض رَبك اسْقِ رَبك وليقل سَيِّدي مولَايَ وَلَا يقل أحدكُم عَبدِي أمتِي وليقل فَتَاي وفتاتي وَغُلَامِي)

انْتَهَى

وَلم يعزه الطَّيِّبِيّ إِلَّا لمُسْند أَحْمد

741 - قَوْله عَن سعيد بن جُبَير أَنه قَالَ لِابْنِ عَبَّاس إِن نَوْفًا ابْن امْرَأَة كَعْب يزْعم أَن الْخضر لَيْسَ بِصَاحِب مُوسَى وَأَن مُوسَى هُوَ مُوسَى بن مِيشَا فَقَالَ كذب عَدو الله

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي التَّفْسِير وَمُسلم فِي فَضَائِل الْأَنْبِيَاء فِي قصَّة مُوسَى وَالْخضر من حَدِيث عَمْرو بن دِينَار عَن سعيد بن جُبَير قَالَ قلت لِابْنِ عَبَّاس إِن نَوْفًا الْبكالِي يزْعم أَن مُوسَى صَاحب الْخضر لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحب بني إِسْرَائِيل فَقَالَ ابْن عَبَّاس كذب عَدو الله ثمَّ ذكر قصَّة مُوسَى وَالْخضر

انْتَهى

وروى مُحَمَّد ابْن إِسْحَاق فِي سيرته عَن الْحسن بن عمَارَة عَن الحكم بن عُيَيْنَة عَن سعيد بن جُبَير قَالَ جَلَست عِنْد ابْن عَبَّاس وَعِنْده نفر من أهل الْكتاب فَقَالَ بَعضهم يَا أَبَا الْعَبَّاس إِن نَوْفًا ابْن امْرَأَة كَعْب يزْعم أَن مُوسَى الَّذِي طلب الْعَالم إِنَّمَا هُوَ مُوسَى بن مِيشَا فَقَالَ ابْن عَبَّاس أَنْت سمعته يَا سعيد قَالَ نعم قَالَ كذب نوف ثمَّ ذكر الْقِصَّة بِطُولِهَا

742 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن ابْن عَبَّاس أَن نجدة الحروري كتب إِلَيْهِ كَيفَ جَازَ قَتله يَعْنِي غُلَام مُوسَى وَقد نهى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن قتل الْولدَان فَكتب إِلَيْهِ إِن علمت من حَال الْولدَان مَا علمه عَالم مُوسَى فلك أَن تقتل

قلت الحَدِيث فِي مُسلم بغَيْر هَذَا اللَّفْظ رَوَاهُ فِي الْجِهَاد من حَدِيث يزِيد ابْن هُرْمُز قَالَ كتب نجدة بن عَامر إِلَى ابْن عَبَّاس يسْأَله عَن العَبْد وَالْمَرْأَة يحضرَانِ

(158/467)

الْمغنم هَل يقسم لَهما وَعَن قتل الْولدَان وَعَن الْيَتِيم مَتى يَنْقَطِع عَنهُ الْيُتْم وَعَن ذَوي الْقُرْبَى من هم فَكتب إِلَيْهِ ابْن عَبَّاس سَأَلتنِي عَن العَبْد وَالْمَرْأَة يحضرَانِ الْمغنم هَل يقسم لَهما شَيْء إنَّهُمَا ليسَا لَهما شَيْء من الْمغنم إِلَّا أَن يحذيا من الْغَنِيمَة وَسَأَلتنِي عَن قتل الْولدَان فَإِن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لم يقتلهُمْ إِلَّا أَن علم مِنْهُم مَا علم صَاحب مُوسَى من الْغُلَام الَّذِي قَتله وَسَأَلتنِي عَن الْيَتِيم مَتى يَنْقَطِع عَنهُ الْيُتْم فَإِنَّهُ لَا يَنْقَطِع عَنهُ اسْم الْيُتْم حَتَّى يبلغ وَيُؤْنس مِنْهُ الرشد وَسَأَلتنِي عَن ذَوي الْقُرْبَى من هم فَإنَّا زعمنَا أَنا هم فَأَبى علينا ذَلِك قَومنَا انْتَهَى

رَوَاهُ من طرق فِي بَعْضهَا الْخضر عوض صَاحب مُوسَى

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَقَالَ الْخضر

وَرَوَاهُ أَبُو يعلي فِي مُسْنده وَقَالَ فِيهِ فَأن كنت تعلم من الْولدَان مَا يُعلمهُ عَالم مُوسَى كَانَ ذَلِك لَك وَفِي لفظ فَقلت وَلَكِن لَا تعلم فَاجْتَنبْهُمْ

743 - الحَدِيث الْخَامِس

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ رحم الله أخي مُوسَى اسْتَحى فَقَالَ ذَلِك) يَعْنِي قَوْله قد بلغت من لدني عذرا

قلت رَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث مسلمة بن عَلْقَمَة عَن دَاوُد ابْن أبي هِنْد عَن عبد الله بن عبيد بن عُمَيْر عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَامَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام خَطِيبًا فِي بني إِسْرَائِيل . . . فذكر الحَدِيث قَالَ ابْن عَبَّاس قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (رَحْمَة الله علينا وَعَلَى مُوسَى اسْتَحى عِنْد ذَلِك فَقَالَ إِن سَأَلتك عَن شَيْء بعْدهَا فَلَا تُصَاحِبنِي قد بلغت من لدني عذرا

انْتَهَى

بِحُرُوفِهِ

(159/467)

---

744 - الحَدِيث السَّادِس

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (رحم الله أخي مُوسَى لَو لبث مَعَ صَاحبه لأبصر أعجب الْأَعَاجِيب)

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي كتاب الْقِرَاءَات من سنَنه وَالنَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير وَاللَّفْظ لَهُ عَن حَمْزَة الزيات عَن أبي إِسْحَاق عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس عَن أبي بن كَعْب قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذا ذكر أحدا فَدَعَا لَهُ بَدَأَ بِنَفسِهِ فَقَالَ ذَات يَوْم (رَحْمَة الله علينا وعَلى مُوسَى لَو لبث مَعَ صَاحبه لأبصر الْعجب العاجب وَلكنه قَالَ إِن سَأَلتك عَن شَيْء بعْدهَا فَلَا تُصَاحِبنِي قد بلغت من لدني عذرا

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه كَذَلِك

وَرَوَاهُ مُسلم فِي فَضَائِل الْأَنْبِيَاء قَرِيبا من هَذَا اللَّفْظ وَلَفظه قَالَ رَحْمَة الله علينا وعَلى مُوسَى لَوْلَا أَنه عجل لرَأى الْعجب وَلَكِن أَخَذته من صَاحبه ذمامة فَقَالَ إِن سَأَلتك عَن شَيْء بعْدهَا فَلَا تُصَاحِبنِي قد بلغت من لدني عذرا وَلَو صَبر لرَأى الْعجب

مُخْتَصر

745 - الحَدِيث السَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (كَانُوا أهل قَرْيَة لئاما)

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ أخبرنَا مُحَمَّد بن عَليّ حَدثنَا الْفرْيَابِيّ حَدثنَا إِسْرَائِيل عَن أبي إِسْحَاق عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس عَن أبي بن كَعْب عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْله فَأَبَوا أَن يُضَيِّفُوهُمَا قَالَ (كَانُوا أهل قَرْيَة لئاما)

انْتَهى

وَهُوَ فِي مُسلم فِي فِي حَدِيث مُوسَى وَالْخضر فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذا أَتَيَا أهل قَرْيَة لِئَامًا فطافا فِي الْمجَالِس فَاسْتَطْعَمَا فَأَبوا أَن يُضَيِّفُوهُمَا

وَلَفظ النَّسَائِيّ هُوَ لفظ الْكتاب

(160/467)

---

746 - قَوْله وَكَانَ تَحْتَهُ كنز لَهما

فَقيل كنز من ذهب وَفِضة

وَقيل لوح من ذهب مَكْتُوب فِيهِ عجبت لمن يعرف الْمَوْت كَيفَ يفرح وَعَجِبت لمن يعرف النَّار كَيفَ يضْحك وَعَجِبت لمن يعرف الدُّنْيَا وَتَقَلُّبهَا بِأَهْلِهَا ثمَّ هُوَ يطمئن إِلَيْهَا لَا إِلَه إِلَّا الله مُحَمَّد رَسُول الله

قلت

الأول رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ من حَدِيث يزِيد بن يُوسُف الصَّنْعَانِيّ عَن يزِيد بن يزِيد ابْن جَابر عَن مَكْحُول عَن أم الدَّرْدَاء عَن أبي الدَّرْدَاء عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْله تَعَالَى وَكَانَ تَحْتَهُ كنز لَهما قَالَ ذهب وَفِضة

انْتَهَى وَسكت عَنهُ

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَسكت عَنهُ وَتعقبه الذَّهَبِيّ فِي مُخْتَصره وَقَالَ يزِيد بن يُوسُف مَتْرُوك وَإِن كَانَ حَدِيثه أشبه مَا رُوِيَ فِي تَفْسِير الْكَنْز

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَزَّار فِي مُسْنده وَقَالَ إِسْنَاده حسن وَيزِيد بن يُوسُف لَيْسَ بِهِ بَأْس وَمن قبله وَبعده ثِقَات

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وَأعله بيزِيد بن يُوسُف وَضَعفه عَن النَّسَائِيّ وَابْن معِين وَلينه هُوَ وَقَالَ وَهُوَ مَعَ ضعفه يكْتب حَدِيثه

الثَّانِي رُوِيَ مَرْفُوعا وموقوفا

(161/467)

فَالْمَرْفُوع رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن سعيد الْجَوْهَرِي حَدثنَا بشر ابْن الْمُنْذر حَدثنَا الْحَارِث بن عبد الله الْيحصبي عَن عَيَّاش بن عَبَّاس العتباني عَن ابْن حُجَيْر عَن أبي ذَر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (الْكَنْز الَّذِي ذكره الله فِي كِتَابه لوح من ذهب

مَكْتُوب فِيهِ بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم عجبت لمن يعرف الْمَوْت كَيفَ يفرح وَعَجِبت لمن يعرف النَّار كَيفَ يضْحك وَعَجِبت لمن يعرف الدُّنْيَا وتَحْوِيلهَا بِأَهْلِهَا ثمَّ هُوَ يطمئن إِلَيْهَا وَعَجِبت لمن أَيقَن بِالْقضَاءِ وَالْقدر كَيفَ ينصب فِي طلب الرزق وَعَجِبت لمن يُوقن بِالْحِسَابِ كَيفَ يعْمل الْخَطَايَا لَا إِلَه إِلَّا الله

مُحَمَّد رَسُول الله)

انْتَهَى

وَقَالَ لَا نعلمهُ يرْوى عَن أبي ذَر إِلَّا من هَذَا الْوَجْه بِهَذَا الْإِسْنَاد

انْتَهَى

وَالْمَوْقُوف رُوِيَ عَن ابْن عَبَّاس وَعَن عَليّ

فَحَدِيث ابْن عَبَّاس لَهُ ثَلَاث طرق

أَحدهَا عِنْد الطَّبَرَانِيّ فِي كتاب الدُّعَاء لَهُ عَن رشدين بن سعد عَن أبي حَازِم عَن ابْن عَبَّاس قَالَ الْكَنْز الَّذِي ذكره الله فِي كِتَابه لوح من ذهب . . . فَذكره

وَالثَّانِي عِنْد الدَّارَقُطْنِيّ فِي غرائب مَالك عَن جَعْفَر بن مُحَمَّد بن عون حَدثنَا مُحَمَّد بن صَالح بن فَيْرُوز حَدثنَا مَالك عَن نَافِع عَن ابْن عمر قَالَ سُئِلَ ابْن عَبَّاس عَن هَذِه الْآيَة وَكَانَ تَحْتَهُ كنز لَهما قَالَ لوح من ذهب . . . فَذكره أَيْضا نَحوه ثمَّ قَالَ هَذَا بَاطِل عَن مَالك وجعفر بن مُحَمَّد وَمُحَمّد بن صَالح مَجْهُولَانِ

انْتَهى

وَالثَّالِث عِنْد ابْن عدي فِي الْكَامِل عَن أيين بن سُفْيَان عَن أبي حَازِم عَن ابْن عَبَّاس نَحوه

قَالَ ابْن عدي وَأيين بن سُفْيَان أَحَادِيثه كلهَا مَنَاكِير

انْتَهى

(162/467)

وَحَدِيث عَلّي رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْخَامِس من حَدِيث جُوَيْبِر عَن الضَّحَّاك عَن النزال بن سُبْرَة عَن عَلّي بن أبي طَالب فِي قَوْله تَعَالَى وَكَانَ تَحْتَهُ كنز لَهما قَالَ لوح من ذهب مَكْتُوب فِيهِ عجبا لمن يعرف الْمَوْت كَيفَ يفرح . . . إِلَى آخِره بِلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره مَرْفُوعا فَقَالَ حَدثنَا عبد الرَّحْمَن بن الْحسن حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن الْحُسَيْن حَدثنَا عَتيق بن يَعْقُوب حَدثنَا عَلّي بن عبيد الله بن عمر بن عَلّي بن أبي طَالب عَن أَبِيه عَن جده يرفعهُ إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله وَكَانَ تَحْتَهُ كنز لَهما قَالَ لوح من ذهب . . . الحَدِيث

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط من حَدِيث ضرار بن صرد حَدثنَا مُحَمَّد

ابْن مَرْوَان حَدثنَا أبان عَن أنس قَالَ سُئِلَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن قَوْله تَعَالَى وَكَانَ تَحْتَهُ كنز لَهما قَالَ كَانَ لوح من ذهب مَكْتُوب فِيهِ) إِلَى آخِره

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَبُو حَفْص بن شاهين فِي كتاب الْجَنَائِز حَدثنَا مُحَمَّد بن هَارُون ابْن عبد الله الْحَضْرَمِيّ حَدثنَا زيد بن سعيد الوَاسِطِيّ حَدثنَا مُوسَى بن بِلَال الْعَنسِي حَدثنَا مُحَمَّد بن مَرْوَان بِهِ

747 - قَوْله قيل ملك الدُّنْيَا أَرْبَعَة مُؤمنَانِ الْإِسْكَنْدَر ذُو القرنين وَسليمَان ابْن دَاوُد وكافران نمْرُود وبختنصر

قلت رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي كتاب الْفَضَائِل بِسَنَدِهِ عَن مُجَاهِد قَالَ لم يملك الأَرْض كلهَا إِلَّا أَرْبَعَة مُؤمنَانِ وكافران . . . فَذكره

748 - الحَدِيث الثَّامِن

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (سمي ذَا القرنين لِأَنَّهُ طَاف قَرْني الدُّنْيَا)

قلت غَرِيب وَرَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي كِتَابه المؤتلف والمختلف من قَول الزُّهْرِيّ فَقَالَ حَدثنَا مُسلم بن عبد الله الْحُسَيْنِي حَدثنَا الْخضر بن دَاوُد حَدثنَا الزبير بن بكار حَدثنَا إِبْرَاهِيم

بن الْمُنْذر حَدثنِي عبد الْعَزِيز بن عمرَان عَن سُلَيْمَان بن أسيد عَن ابْن شهَاب الزُّهْرِيّ قَالَ إِنَّمَا سمي ذَا القرنين لِأَنَّهُ بلغ قرن الشَّمْس من مغْربهَا وقرن الشَّمْس من مطْلعهَا فَسُمي ذَا القرنين

749 - الحَدِيث التَّاسِع

عَن أبي ذَر رَضِي اللَّهُ عَنْه قَالَ كنت رَدِيف رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جمل فَرَأَى الشَّمْس حِين غَابَتْ فَقَالَ أَتَدْرِي يَا أَبَا ذَر أَيْن تغرب هَذِه) قلت الله وَرَسُوله أعلم قَالَ (فَإِنَّهَا تغرب فِي عين حامية)

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سنَنه فِي كتاب الْحُرُوف من حَدِيث يزِيد بن هَارُون عَن سُفْيَان بن حُسَيْن عَن الحكم بن عتيبة عَن إِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ عَن أَبِيه عَن أبي ذَر قَالَ كنت مَعَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى حمَار وَالشَّمْس عِنْد غُرُوبهَا فَقَالَ هَل تَدْرِي أَيْن تغرب هَذِه) قلت الله وَرَسُوله أعلم قَالَ (فَإِنَّهَا تغرب فِي عين حامية)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْقرَاءَات كَذَلِك إِلَّا أَنه زَاد فِي عين حامية غير مَهْمُوزَة

انْتَهَى

وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد وَأَبُو يعلي الْموصِلِي بِلَفْظ الْبَزَّار وَابْن أبي شيبَة وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم

وَمن طَرِيق ابْن أبي شيبَة رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِلَفْظ أبي دَاوُد

(164/467)

وَزَاد الْبَزَّار قَالَ تَنْطَلِق حَتَّى تخر لرَبهَا سَاجِدَة تَحت الْعَرْش فَإِذا كَانَ خُرُوجهَا أذن الله لَهَا

فَإِذا أَرَادَ الله أَن يطْلعهَا من مغْربهَا حبسهَا فَيَقُول اطلعي من حَيْثُ غربت فَذَلِك حِين لَا

ينفع نفسا إيمَانهَا

انْتَهَى

قَالَ وَقد رَوَاهُ عَن إِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ يُونُس بن عبيد وَسليمَان الْأَعْمَش وَهَارُون ابْن سعيد وَلَا

نعلم رَوَاهُ عَن الحكم بن عتيبة عَن إِبْرَاهِيم إِلَّا سُفْيَان بن حُسَيْن

انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي سُورَة الْأَنْعَام عِنْد قَوْله تَعَالَى يَوْم يَأْتِي بعض آيَات رَبك

وَعَجِبت لِلْمُنْذِرِيِّ كَيفَ عزا هَذَا الحَدِيث فِي مُخْتَصره للصحيحين مُقَلدًا

لأَصْحَاب الْأَطْرَاف وَحَدِيث الصَّحِيحَيْنِ لَيْسَ هُوَ هَذَا وَلَفْظهمَا عَن أبي ذَر قَالَ دخلت

الْمَسْجد حِين غَابَتْ الشَّمْس وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالس فَقَالَ يَا أَبَا ذَر أَتَدْرِي أَيْن تذْهب هَذِه) قلت الله وَرَسُوله أعلم قَالَ فَإِنَّهَا تذْهب فَتَسْتَأْذِن فِي السُّجُود فَيُؤذن لَهَا وَكَأَنَّهَا قد قيل اطلعِي من حَيْثُ جِئْت فَتَطلع من مغْربهَا) وَهَذَا الْمَتْن لَيْسَ هُوَ متن أبي دَاوُد وَلَكِن فِيهِ بعضه

750 - الحَدِيث الْعَاشِر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صفتهمْ يَعْنِي يَأْجُوج وَمَأْجُوج لَا يَمُوت أحد مِنْهُم حَتَّى ينظر إِلَى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السِّلَاح)

(165/467)

قلت رَاه ابْن عدي فِي الْكَامِل وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط من حَدِيث يَحْيَى بن سعيد عَن مُحَمَّد بن سعيد عَن مُحَمَّد بن إِسْحَاق عَن الْأَعْمَش عَن شَقِيق أبي وَائِل عَن حُذَيْفَة قَالَ سَأَلت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن يَأْجُوج وَمَأْجُوج فَقَالَ يَأْجُوج أمة وَمَأْجُوج أمة كل أمة أَرْبَعَة آلَاف أمة لَا يَمُوت الرجل مِنْهُم حَتَّى ينظر إِلَى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السِّلَاح)

انْتَهَى

قَالَ ابْن عدي هَذَا حَدِيث مُنكر مَوْضُوع وَمُحَمّد بن إِسْحَاق هَذَا لَيْسَ هُوَ صَاحب الْمَغَازِي وَإِنَّمَا هُوَ مُحَمَّد بن إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد بن عكاشة بن مَحِيض الْأَسدي وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات ثمَّ قَالَ وَمُحَمّد بن إِسْحَاق هَذَا هُوَ الْعُكَّاشِي قَالَ ابْن مِعين كَذَّاب وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ يضع الحَدِيث

انْتَهى

وَمن هَذَا الطَّرِيق رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه والواحدي والثعلبي فِي تفاسيرهم

وروى النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير فِي سُورَة الْأَنْبِيَاء عَن عَمْرو بن أَوْس عَن أَبِيه قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِن يَأْجُوج وَمَأْجُوج لَهُم قدرَة يُجَامِعُونَ مَا شَاءُوا وَشجر يُلَقِّحُونَ مَا شَاءُوا وَلَا يَمُوت رجل مِنْهُم إِلَّا ترك من ذُرِّيَّته ألفا فَصَاعِدا)

انْتَهى

وَفِي صَحِيح ابْن حبَان عَن عمرَان بن مَيْمُون الأودي عَن ابْن مَسْعُود عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (إِن يَأْجُوج وَمَأْجُوج أقل مَا يتْرك أحدهم لصلبه ألفا)

انْتَهى

وَفِي مُسْتَدْركِ الْحَاكِمِ فِي الْفِتَنِ عَن وهب بن جَابر عَن عبد الله بن عَمْرو عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (إِن يَأْجُوج وَمَأْجُوج من ولد آدم وَلنْ يَمُوت مِنْهُم رجل إِلَّا ترك من ذُرِّيَّته ألفا فَصَاعِدا) مُخْتَصر

751 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَن رجلا أخبرهُ بِهِ يَعْنِي السد فَقَالَ لَهُ كَيفَ رَأَيْته قَالَ كَالْبردِ المحبر طَرِيقَة سَوْدَاء وَطَرِيقَة حَمْرَاء قَالَ قد رَأَيْته)

قلت وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنَا بشر بن معَاذ حَدثنَا يزِيد بن هَارُون حَدثنَا سعيد بن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة قَالَ ذكر لنا أَن رجلا قَالَ يَا رَسُول الله قد رَأَيْت سد يَأْجُوج وَمَأْجُوج قَالَ (انْعَتْهُ لي) قَالَ كَالْبردِ المحبر طَرِيقَة سَوْدَاء وَطَرِيقَة حَمْرَاء قَالَ (قد رَأَيْته) انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا سُلَيْمَان بن أَحْمد وَهُوَ الطَّبَرَانِيّ حَدثنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن يحيى بن حَمْزَة حَدثنَا أَبُو الْجَمَاهِر حَدثنَا سعيد بن بشير عَن قَتَادَة عَن رجل عَن أبي بكرَة الثَّقَفِيّ أَن رجلا أَتَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ إِنِّي قد رَأَيْته يَعْنِي السد قَالَ كَيفَ هُوَ) قَالَ كَالْبردِ المحبر قَالَ قد رَأَيْته وَحدثنَا قَتَادَة أَنه قَالَ طَرِيقَة حَمْرَاء من نُحَاس وَطَرِيقَة سَوْدَاء من حَدِيد)

انْتَهَى

حَدثنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن إِبْرَاهِيم حَدثنَا عبد الله بن مُحَمَّد حَدثنَا ابْن أبي عمر حَدثنَا سُفْيَان عَن سعيد بن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة عَن رجل من أهل الْمَدِينَة أَنه قَالَ للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا رَسُول الله قد رَأَيْت الرَّدْم الَّذِي بَين يَأْجُوج وَمَأْجُوج قَالَ

(167/467)

كَيفَ رَأَيْته) قَالَ رَأَيْته مثل الْبرد الْحبرَة طَرِيقَة حَمْرَاء وَطَرِيقَة سَوْدَاء قَالَ رَأَيْته)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُسْند الشاميين بِالسَّنَدِ الأول والمتن سَوَاء

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده بِنَقص يسير فَقَالَ حَدثنَا عَمْرو بن مَالك حَدثنَا مُحَمَّد ابْن عمرَان حَدثنَا عبد الْملك بن أبي نعَامَة الْحَنَفِيّ عَن يُوسُف بن أبي مَرْيَم الْحَنَفِيّ قَالَ بَينا أَنا قَاعد مَعَ أبي بكرَة إِذْ جَاءَ رجل فَسلم عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ أَبُو بكرَة من أَنْت قَالَ تعلم رجلا أَتَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأخْبرهُ أَنه رأى الرَّدْم فَقَالَ لَهُ أَبُو بكرَة وَأَنت هُوَ قَالَ نعم قَالَ اجْلِسْ حَدثنَا قَالَ انْطَلَقت حَتَّى انْتَهَيْت إِلَى أَرض لَيْسَ لَهُم إِلَّا الْحَدِيد يعْملُونَهُ فَدخلت بَيْتا فاستلقيت فِيهِ عَلَى ظَهْري وَجعلت رجْلي عَلَى جِدَاره فَلَمَّا كَانَ عِنْد الْغُرُوب سَمِعت صَوتا لم أسمع مثله فَجَلَست فَقَالَ لي رب الْبَيْت لَا تذعرن فَإِن هَذَا لَا يَضرك هَذَا

صَوت قوم يَنْصَرِفُونَ هَذِه السَّاعَة من هَذَا السد ثمَّ قَالَ لي أَيَسُرُّكَ أَن ترَاهُ قلت نعم قَالَ

فَغَدَوْت إِلَيْهِ فَإِذا ألبنه حَدِيد كل وَاحِدَة مثل الصَّخْرَة وَإِذا كَأَنَّهُ الْبرد المحبر مَسَامِيرهُ مثل

الْجُذُوع فَأتيت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ صفه لي) فَقلت كَأَنَّهُ الْبرد المحبر

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام من سره أَن ينظر إِلَى رجل قد أَتَى الرّوم فَلْينْظر إِلَى هَذَا)

انْتَهَى

ثمَّ قَالَ لَا نعلم يرويهِ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير أبي بكرَة وَلَا نعلم لَهُ طَرِيقا غير هَذَا

الطَّرِيق

انْتَهَى

752 - الحَدِيث الثَّانِي عشر

رُوِيَ أَن جُنْدُب بن زُهَيْر قَالَ لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي أعمل الْعَمَل لله فَإِذا

اطلع عَلَيْهِ سرني فَقَالَ إِن الله لَا يقبل مَا شُورِكَ فِيهِ)

قلت غَرِيب وَذكره الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول عَن ابْن عَبَّاس فَقَالَ قَالَ

ابْن عَبَّاس نزلت هَذِه الْآيَة فَمن كَانَ يَرْجُو لِقَاء ربه فليعمل عملا صَالحا فِي جُنْدُب بن زُهَيْر

أنه قَالَ لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . إِلَى آخِره

753 - الحَدِيث الثَّالِث عشر

ورُوِيَ أنه قَالَ (لَهُ أَجْرَانِ أجر السِّرّ وَأجر الْعَلَانِيَة)

قلت رُوِيَ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث أبي مَسْعُود الْأَنْصَارِيّ وَمن حَدِيث أبي ذَر

فَحَدِيث أبي هُرَيْرَة رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن ماجة فِي الزّهْد من حَدِيث أبي سِنَان سعيد بن سِنَان الشَّيْبَانِيّ عَن حبيب بن أبي ثَابت عَن أبي صَالح عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رجل يَا رَسُول الله إِنِّي أعمل الْعَمَل فيطلع عَلَيْهِ فيُعْجِبنِي قَالَ (لَك أَجْرَانِ أجر السِّرّ وَأجر الْعَلَانِيَة)

انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث غَرِيب وَقد رَوَاهُ الْأَعْمَش عَن حبيب بن أبي ثَابت عَن أبي صَالح عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسلا

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ فِي مُسْنده حَدثنَا سعيد بن سِنَان بِهِ

وَمن طَرِيقه رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده وَالْبَزَّار فِي مُسْنده وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْخَامِس وَالْأَرْبَعين

وَقَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي علله قَالَ أبي الصَّحِيح عِنْدِي مُرْسل

انْتَهَى

وَأما حَدِيث أبي مَسْعُود الْأنْصَارِيّ فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث سُفْيَان عَن حبيب بن أبي ثَابت عَن أبي صَالح عَن أبي مَسْعُود قَالَ جَاءَ رجل إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ إِنِّي أعمل الْعَمَل فأسره فيظهر فأفرح بِهِ قَالَ كتب لَك أَجْرَانِ) الحَدِيث

وَأما حَدِيث أبي ذَر فَرَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة يُوسُف بن أَسْبَاط عَن سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن حبيب بن أبي ثَابت عَن أبي صَالح عَن أبي ذَر نَحوه

ثمَّ قَالَ لم يقل أحد عَن أبي صَالح عَن أبي ذَر غير يُوسُف عَن الثَّوْرِيّ وَقد اخْتلف فِيهِ عَلَى الثَّوْرِيّ فَرَوَاهُ يحيى بن يمَان عَنهُ فَقَالَ عَن أبي مَسْعُود الْأنْصَارِيّ وَرَوَاهُ قبيصَة عَنهُ فَقَالَ عَن الْمُغيرَة بن شُعْبَة وَرَوَاهُ أَبُو سِنَان عَن حبيب عَن أبي صَالح عَن أبي هُرَيْرَة وَالْمَحْفُوظ عَن الثَّوْرِيّ عَن حبيب عَن أبي صَالح مُرْسلا

754 - الحَدِيث الرَّابِع عشر

وَعنهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (اتَّقوا (الشّرك الْأَصْغَر) قَالُوا وَمَا الشّرك الْأَصْغَر يَا رَسُول الله قَالَ (الرِّيَاء)

قلت رَوَاهُ أَبُو الْقَاسِم الْأَصْبَهَانِيّ فِي كِتَابه التَّرْغِيب والترهيب من حَدِيث أبي بكر أَحْمد

بن مُوسَى بن مرْدَوَيْه حَدثنَا دعْلج بن أَحْمد حَدثنَا حَامِد بن مُحَمَّد حَدثنَا سُرَيج ابْن يُونُس حَدثنَا إِسْمَاعِيل بن جَعْفَر عَن الْعَلَاء بن عبد الرَّحْمَن عَن أَبِيه عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . ذكره سَوَاء

وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره فِي سُورَة الرَّعْد حَدثنَا دعْلج بن أَحْمد بِهِ سندا ومتنا

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ فِي هَذِه السُّورَة

(170/467)

وَرَوَى أَيْضا حَدثنَا سُلَيْمَان بن أَحْمد هُوَ الطَّبَرَانِيّ حَدثنَا أَحْمد بن حَمَّاد ابْن رَغْبَة حَدثنَا سعيد بن أبي مَرْيَم حَدثنَا ابْن لَهِيعَة عَن عمَارَة بن غزيَّة عَن يعلي ابْن شَدَّاد بن أَوْس عَن أَبِيه قَالَ كُنَّا نعد الرِّيَاء عَلَى عهد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الشّرك الْأَصْغَر

وَرَوَى الدَّارَقُطْنِيّ فِي غرائب مَالك من حَدِيث عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد بن سَلام حَدثنَا إِسْحَاق بن عِيسَى الطباع عَن مَالك بن أنس عَن عَمْرو بن أبي عَمْرو عَن عَاصِم بن عَمْرو بن قَتَادَة عَن مَحْمُود بن لبيد قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِن أخوف مَا أَخَاف عَلَيْكُم الشّرك الْأَصْغَر) قَالُوا يَا رَسُول الله وَمَا

الشّرك الْأَصْغَر قَالَ الرِّيَاء)

انْتَهى ثمَّ قَالَ غَرِيب من حَدِيث مَالك تفرد بِهِ إِسْحَاق الطباع وَهُوَ ثِقَة وَلَا أعلم رَوَاهُ عَنهُ غير عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد ابْن سَلام وَهُوَ من الثِّقَات

انْتَهى

وَرَوَاهُ أَحْمد حَدثنَا يُونُس حَدثنَا لَيْث عَن يزِيد بن الْهَاد عَن عَمْرو بن أبي عَمْرو بِهِ

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْخَامِس وَالْأَرْبَعِينَ من حَدِيث ابْن أبي مَرْيَم حَدثنَا ابْن أبي الزِّنَاد عَن عَمْرو بن أبي عَمْرو بِهِ

755 - الحَدِيث الْخَامِس عشر

عَن رَسُول الله قَالَ (من قَرَأَ سُورَة الْكَهْف من آخرهَا كَانَت لَهُ نورا من قرنه إِلَى قدمه وَمن قَرَأَهَا كلهَا كَانَت لَهُ نورا من الأَرْض إِلَى السَّمَاء)

(171/467)

قلت رَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَأَبُو بكر بن السّني فِي كِتَابه عمل الْيَوْم وَاللَّيْلَة من حَدِيث ابْن لَهِيعَة حَدثنِي زبان بن فائد عَن سهل بن معَاذ عَن أَبِيه معَاذ ابْن أنس الْجُهَنِيّ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ أول سُورَة الْكَهْف كَانَت لَهُ نورا من قرنه إِلَى قدمه وَمن

قَرَأَهَا كلهَا كَانَت لَهُ نورا من الأَرْض إِلَى السَّمَاء)

انْتَهى

بِلَفْظ أَحْمد ولَفظ ابْن السّني هُوَ لفظ المُصَنّف

وَبِهَذَا السَّنَد رَوَاهُ الْبَغَوِيّ فِي تَفْسِيره

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث رشدين بن سعد عَن زبان بن فائد بِهِ بِلَفْظ أَحْمد

وَبِهَذَا السَّنَد رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره وَكَذَلِكَ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره

756 - الحَدِيث السَّادِس عشر

وَعَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ عِنْد مضجعه قل إِنَّمَا أَنا بشر مثلكُمْ كَانَ لَهُ فِي مضجعه نور يتلألأ إِلَى مَكَّة حَشْو ذَلِك النُّور مَلَائِكَة يصلونَ عَلَيْهِ حَتَّى يقوم وَإِن كَانَ مضجعه بِمَكَّة كَانَ لَهُ نور يتلألأ من مضجعه إِلَى الْبَيْت الْمَعْمُور حَشْو ذَلِك النُّور مَلَائِكَة يصلونَ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْتَيْقِظ)

قلت رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده مُخْتَصرا أخبرنَا النَّضر بن شُمَيْل حَدثنَا أَبُو قُرَّة الْأَسدي ثمَّ الصَّيْدَاوِيُّ رجل من أهل الْبَادِيَة قَالَ سَمِعت سعيد بن الْمسيب يحدث عَن عمر بن الْخطاب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من قَرَأَ فِي ليلته فَمن كَانَ يَرْجُو لِقَاء ربه فليعمل عملا صَالحا وَلَا يُشْرك بِعبَادة ربه أحدا كَانَ لَهُ نور من عدن أبين إِلَى مَكَّة

حشْوَة الْمَلَائِكَة)

انْتَهى

(172/467)

وَكَذَلِك رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده بِهَذَا السَّنَد والمتن بحُرُوفِهِ وَقَال هَذَا حَدِيث لَا نعلمهُ يرْوَى عَن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا من هَذَا الْوَجْه بِهَذَا الْإِسْنَاد

انْتَهى

وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره لكنه زَاد (يصلونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ)

انْتَهى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمَذْكُورين فِي آل عمرَان وَمَتْن الْمُصَنّف سَوَاء .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار جـ 2 صـ 301 . 317 ﴾

(173/467)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)

سورة الكهف

قوله تعالى : (إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) ، الآية/ 7 .

وذلك يدل على أن ما جعله على وجه الأرض ، جعله لطفا لعباده ، الذين أراد بهم الخير في إختيار الطاعات .

قوله تعالى : (فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ) ، الآية/ 19 .

يدل ذلك على جواز خلط دراهم الجماعة والشراء بها ، والأكل من الطعام الذي بينهم بالشركة ، وإن كان فيهم من يأكل أكثر ومن يأكل أقل ، وهو الذي يسميه الناس المناهدة ، ويفعلونه في الأسفار ، وذلك أنه قال : (فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ) فأضاف الورق إلى الجميع .

ومثله قوله تعالى : (وَإِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ) «1» .

---

(1) سورة البقرة آية 220 .

وفي الآية دليل على جواز الوكالة بالشراء ، لأن الذي بعثوا به كان وكيلا .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ، الآية/ 23 .

لأن المقصود بذلك ألا يكون محققا لحكم المخبر عنه ، فإنه إذا قال لأفعلن ذلك فلم يفعل كان كاذبا ، وإن قال لأفعلن ذلك إن شاء الله ، خرج عن كونه محققا للمخبر عنه .

فإن قال قائل : أي معنى في ذلك ، ولا يتصور أن يفعل فاعل فعلا إلا أن يشاء الله ، هل ذكر ذلك وعدم ذكره إلا بمثابة واحدة ، وهل هذا إلا بمثابة من يقول لأفعلن ذلك إن كنت فاعلا وإن كنت قادرا وإن شئت ، وأي أثر لذكر شرط للفعل لا محالة في العقل . والجواب : أن الأمر وإن كان على ما ذكرتم ، غير أنه إذا قال القائل لأفعلن في وقت كذا ، فقد أوهم أنه يفعل لا محالة ، وأبان أن شرط الفعل يوجد ، فإذا لم يفعل لعدم الشرط وهو مشيئة الله تعالى ، أو عائق آخر ، كان كاذبا في قوله عرفا ، وإذا قال لأفعلن كذا إن شاء الله ، أو إن شاء زيد ، فلم يقطع بأنه يفعل ، بل ردد وميل القول ، فكأنه قال : لا أدري هل أفعل أم لا ، فهذا هو المعنى فيه . وكأن الله سبحانه أدب رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ .

أي كن متذكرا للعوائق ، وناظرا في العواقب ، ولعل عائقا يعترض دون مرامك ، فردد القول فيما لا يعلمه ، لئلا يجري ما ينسب فيه إلى خلف في القول عرفا .

ومن أجله قال علماؤنا : إذا حلف واستثنى لم يحنث إذا كان موصولا ، وإن انفصل يؤثر الاستثناء .

(175/467)

وروي عن معاذ بن جبل ، عن رسول اللّه أنه قال : «إذا قال الرجل لعبده : أنت حر إن شاء اللّه ، فهو حر ، وإذا قال لامرأته أنت طالق إن شاء اللّه فليس بطالق» «1» .

وهذا حديث ضعيف ، واهي السند مخالف للإجماع .

وقيل للمعتزلة : عندكم أن فعل الفاعل لا يتعلق بمشيئة اللّه تعالى ، فما معنى قوله عندكم لأفعلن إن شاء اللّه تعالى ، وهو يفعل وإن لم يشأ اللّه .

فأجابوا بأن معناه : إلا أن يشاء اللّه ألا يلجئني إليه ، أو يقطعني عنه باخترام أو موت ، فيخرج عن كونه قاطعا على الخبر ، فيحسن منه الخبر «2» .

وقال آخرون منهم : الغرض بالاستثناء ، إخراج الخبر عن أن يكون قطعا وخبرا تاما من غير إرادة ما يجرى مجرى الشرط ، فكأنه وضع في اللغة لهذه الطريقة التي تقتضي التوقف في الخبر ، وهذا أقرب ، لأن الاستثناء يؤثر في هذا الخبر ، سواء وقع ممن له قصد إلى ما ذكرناه أو من لا قصد له . فحمله على هذا الوجه الثاني أولى .

ومما قيل للمعتزلة : إذا قال القائل عبدي حر إن شاء اللّه فلا يعتق ، وقياس قولكم أنه يعتق ، لأن اللّه تعالى قد شاء ذلك تعبدا ، وجوابهم عنه على ما قاله أبو علي الجبائي ، أنه لم يخصص المتنى المشيئة بطريق التعبد ، ولو خصصه بذلك لصار حرا بأن ينوي بالاستثناء ، مشيئة التعبد فقط .

نعم إذا أطلق الاستثناء فلا حرية ، فأما إذا قيد الاستثناء ، صار كأنه قال للمملوك : أنت حر إن أراد اللّه مني إعتاقك ، وقد علم أن اللّه تعالى أراد ذلك مع سلامة الأحوال ، وإنما تصح هذه الطريقة متى قيل لا بد في

---

(1) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير .

(2) انظر تفسير الفخر الرازي ، وتفسير القرطبي والدر المنثور للسيوطي

الاستثناء من تقييد ، حتى يصير كالشرط ، ويجري مجرى قول القائل :

أنت حر إن دخل زيد الدار ، وإن شاء زيد ، فيمكن عند ذلك ادعاء مخالفة الإجماع على المعتزلة ، فأما إذا قيل بالوجه الآخر ، وهو أن الاستثناء يخرج الخبر عن كونه خبرا ، إلى أن يكون مشكوكا فيه موقوفا فليس فيه دلالة «1» .

قوله تعالى : (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) ، الآية/ 24 .

قال ابن عباس : إنه إن نسي الاستثناء ثم ذكر ولو بعد سنة ، لم يحنث إن كان حالفا .

وذكر إسماعيل بن اسحق ذلك عن أبي العالية في قوله : (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) ، قال يستثنى إذا ذكر .

والأصح أن قوله : (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) ابتداء كلام .

قوله تعالى : (هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا) ، الآية/ 103 .

فيه دليل على أن من الناس من يعمل العمل وهو يظن أنه محسن فيه ، وقد حبط سعيه ، الذي يوجب إحباط السعي إما فساد الإعتقاد أو المراءاة .

والمراد به هاهنا الكفر ، فإن الله تعالى قال بعد ذكر هؤلاء :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ) .

أبان عن كفرهم وأنه سبب ضياع أعمالهم .

قوله تعالى : (وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) ، الآية/ 110 .

دل على أن من عمل لغير الله تعالى مراءاة ومباهاة وطلبا للنجاة ، فلا نصيب له في الآخرة ، وقد مضى شرحه غير مرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 268.265﴾

---

(1) انظر سبب نزول الآية في أسباب النزول للواحدي النيسابوري .

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

«سورة الكهف» (18)

«مِنْ لَدُنْهُ» (2) من عنده .

«فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ» (6) مهلك نفسك ، قال ذو الرّمّة :

ألا أيّهذا الباخع الوجد نفسه لشىء نحته عن يديه المقادر «1»

أي نحّته مشدّد ، ويقال : بخعت له نفسى ونصحى أي جهدت له .

«بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً» (6) أي ندما «2» وتلهّفا ، وأسى .

«صَعِيداً» (8) أي مستويا ، وجه الأرض .

«جرزا» (8) أي غلظا لا ينبت شيئا والجميع أرضون أجراز ، ويقال للسنة الجدبة : جرز وسنون أجراز لجدوبها ويبسها وقلّة مطرها ،

---

(1) : ديوانه 251 والطبري 15/ 120 والقرطبي 10/ 348 والصحاح والراغب

والأساس واللسان والتاج (نجع) وفتح الباري 8/ 308 .

(2) «أسفا . . . ندما» : فى البخاري «أسفا ندما» قال ابن حجر (8/ 308) هو قول أبى عبيدة .

(178/467)

[قال ذو الرّمّة :

طوى النّحر والأجراز ما فى عروضها فما بقيت إلا الصدور الجراشع] «1»

وقال :

قد جرّفتهن السّنون الأجراز «2»

«وَالرَّقِيمِ» (9) الوادي «3» الذي فيه الكهف .

«أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً» (12) أي غاية . «4»

«وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ» (14) مجازه : صيّرناهم وألهمناهم الصبر .

«قُلْنا إِذاً شَطَطاً» (14) أي جورا وغلوّا قال :

ألا يا لقوم قد أشطّت عواذلى ويزعمن أن أودى بحقي باطلى «5»

[ويلحيننى فى اللّهو أن لا أحبّه وللّهو داع دائب غير غافل] (25)

---

(1) : ديوانه 341 والقرطبي 10/ 349.

(2) : الطبري 15/ 121 اللسان (جرز) .

(3) «الوادي . . . الكهف» : رواه الطبري (15/ 122) عن بعض أهل التأويل ولعله أبو عبيدة.

(4) «أي غاية» : كذا فى البخاري، قال ابن حجر (8/ 308) هو قول أبى عبيدة.

(5) : البيتان للأحوص وقد مر تخريج الثاني وأما الأول فهو فى الكامل 49 والطبري 15/ 128 واللسان والتاج (شطط) وشواهد الكشاف 217.

(179/467)

«وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً» (16) هو ما ارتفق به ويقرؤه قوم مرفقا «1» [فأما فى اليدين فهو مرفق] .

«تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ» (17) أي تميل وتعدل وهو من الزور يعنى العوج والميل، [قال ابن مقبل:

فينا كراكر أجواز مضبّرة فيها درو إذا شئنا من الزّور] «2»

وقال [أبو الزّحف الكليبىّ:

ودون ليلى بلد سمهدر] جدب المندّى عن هوانا أزور «3»

[ينضى المطايا خمسه العشنزر

العشنزر الشديد المندّى حيث يرتع بعيرك ساعة من النهار] .

---

(1) «مرفقا . . . مرفقا» : وهو فى البخاري بمعناه وقال ابن حجر (8/ 308) هو قول أبى عبيدة أيضا .

(2) : ولعله من الكلمة التي بعضها فى حماسة البحتري 291 .

(3) : «أبو الزحف» : عم جرير ، له ترجمة فى الشعراء 462 . والرجز فى اللسان والتاج (زور ، سمهد ، عشنزر) ، والأول والثاني فى الجمهرة 1/ 443 ، 3/ 370 والثاني مع الثالث فى القرطبي 10/ 350 .

(180/467)

«تَقْرِضُهُمْ «1» ذاتَ الشّمالِ» (17) أي تخلّفهم شمالا وتجاورهم وتقطعهم وتتركهم عن شمالها ، ويقال : هل مررت بمكان كذا وكذا ، فيقول المسئول :

قرضته ذات اليمين ليلا «2» ، [و قال ذو الرّمّة :

إلى ظعن يقرضن أجواز مشرف شمالا وعن أيمانهن الفوارس] «3»

«وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ» (17) أي متّسع، والجميع فجوات، وفجاء «4» مكسورة الفاء.

«وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً» (18) واحدهم: يقظ، [ورجال أيقاظ، وكذلك جميع يقظان أيقاظ، يذهبون به إلى جميع يقظ]، وقال رؤبة:

---

(1) «تقرضهم»: أنظر ما روى عن بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة (لعله أبو عبيدة) وعن الكوفيين فى الطبري 15/ 130.

(2) «أي... ليلا»: روى الجوهري (قرض) هذا الكلام عن أبى عبيدة.

(3): ديوانه 313 والطبري 15/ 130 والقرطبي 10/ 350 والصحاح واللسان والتاج (قرض) ومعجم البلدان 4/ 538. [.....]

(4) «متسع... فجاء»: كذا فى الطبري 95/ 130 والقرطبي 10/ 369. وفى البخاري أيضا، قال ابن حجر (8/ 308) هو قول أبى عبيدة.

ووجدوا إخوانهم أيقاظا وسيف غيّاظ لهم غياظا «1»

«وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ» (18) أي على أيمانهم وعلى شمائلهم.

«باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ» (18) على الباب وبفناء الباب جميعا لأن الباب يوصد ، أي يغلق ، والجميع وصائد ووصد .

«وكَذلِكَ بَعَثْناهُمْ» (19) أي أحييناهم ، «2» وهو من يوم البعث .

«أَيُّها أَزْكى طَعاماً» (19) أي أكثر ، قال :

قبائلنا سبع وأنستم ثلاثة وللسّبع أزكى من ثلاث وأكثر (268)

«وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ» (19) لا يعلمنّ بكم ، [يقال : شعرت بالأمر ، أي علمت به ، ومنه الشاعر] .

---

(1) : الشطران فى ديوان العجاج 81 - 82 الأول هو الثامن ، والثاني هو 16 من رقم 31 والثاني مع آخر فى التاج (غيض) لرؤبة ، وقال : ويروى للعجاج وهما فى الطبري 15/ 131 .

(2) «بعثناهم أحييناهم» : كذا فى البخاري وقال ابن حجر (8/ 308) هو قول أبى عبيدة .

«رَجْماً بِالْغَيْبِ» (23) والرجم ما لم تستيقنه، وقال: «1» ظن مرجّم لا يدرى أحق هو أم باطل [قال زهير:

وما الجرب إلّا ما رأيتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجّم] «2»

«ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ» (26) مقدّم ومؤخّر، مجازه: سنين ثلاثمائة.

«وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً» (28) أي معدلا واللّحد منه والإلحاد.

«وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ» (29) جزم لأن مجازه مجاز النهى، والموضع: لا تجاوز عيناك، ويقال: ما عدوت ذلك أي ما جاوزته.

«وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» (29) «3» أي سرفا وتضييعا.

«إِنَّا أَعْتَدْنا» (30) من العتاد وموضعه موضع أعددنا من العدة.

«أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها» (30) كسرادق الفسطاط وهى الحجرة التي تطيف بالفسطاط، «4» قال رؤبة:

---

(1) «و قال»: لا أدرى من هو القائل.

(2): من معلقته فى ديوانه 17 وشرح العشر 60 والأساس (رجم) والقرطبي 10/ 383 والخزانة 3/ 435.

(3) «فرطا»: روى ابن حجر تفسير أبى عبيدة لهذه الكلمة فى فتح الباري 8/ 309.

(4) «وهى... بالفسطاط»: كذا فى الطبري 15/ 147، وبفرق يسير فى

البخاري وقال ابن حجر (8/ 309) إنه قول أبى عبيدة لكنه تصرف فيه قال أبو عبيدة فى قوله «أحاط بهم سرادقها» . . . قال الشاعر سرادق. الشطر.

(183/467)

يا حكم بن المنذر بن الجارود [أنت الجواد بن الجواد المحمود] «1»

سرادق المجد إليك ممدود

[و قال سلامة بن جندل] :

هو المولج النّعمان بيتا سماؤه صدور الفيول بعد بيت مسردق «2»

أي له سرادق.

---

(1) : قد اختلفت المصادر ونسخ المجاز فى عزو هذا الرجز فنسبه سيبويه (1/ 272) والشنتمرى 1/ 314 وصاحب اللسان (سردق) ، والعيني (4/ 210) للكذاب الحرمازي ورواه الطبري (15/ 146) والجوهري (سردق) والقرطبي (10/ 393) وهو فى الكامل 263 بغير عزو. وفى ملحق ديوان رؤبة 263. - مدح أحد بنى المنذر بن الجارود . . . ، وحكم هذا هذا ولاة البصرة لهشام بن عبد الملك، وسمى جده الجارود لأنه أغار على قوم فاكتسح أموالهم فشبه بالسيل الذي يجرد ما مر به (الأعلم) .

(2) : الطبري 15/ 146 والجمهرة 3/ 333 والصحاح واللسان والتاج (سردق) والقرطبي 10/ 393.

(184/467)

«يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ» «1» (30) كل شىء أذبته من نحاس أو رصاص ونحو ذلك فهو مهل، وسمعت المنتجع بن نبهان يقول: واللّه لفلان أبغض إلىّ من الطّلياء والمهل، فقلنا: وما هما فقال: الجرباء والملّة التي تنحدر عن جوانب الخبزة إذا ملت فى النار من النار كأنه مهلة حمراء مدقّقة فهى جمرة. «2»

«وَساءَتْ مُرْتَفَقاً» (30) أي متّكئا، قال أبو ذؤيب الهذلىّ.

إنى أرقت فبتّ الليل مرتفقا كأنّ عينى فيها الصاب مذبوح «3»

---

(1) «هو كل... المهل» الذي ورد فى الفروق: رواه القرطبي 10/ 394 عن أبى عبيدة

(2) «المنتجع... جمرة»: روى الطبري (15/ 147) هذا الكلام عن أبى عبيدة، وقوله «ابغض... والمهل» مثل كما فى اللسان (طلى) والفرائد 1/ 95.

(3) : ديوان الهذليين 1/ 104 والطبري 15/ 148 والكشاف 1/ 570 والقرطبي

10/ 395 والصحاح واللسان والتاج (صوب) وابن يعيش 2/ 460 وشواهد المغني 72.

(185/467)

وذبجه: انفجاره، قال: وهو شديد وحكى عن أبى عمرو بن العلاء أو غيره يقال: انفقأت واحدة فقطّرت فى عينى فكأنه كان فى عينى وتد.

«أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ» (31) واحدها: إسوار ومن جعلها سوار فإن جمعه سور وما بين الثلاثة إلى العشرة أسورة.

«مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ» (31) واحدتها أريكة وهى السّرر فى الحجال قال ذو الرّمّة:

خدودا جفت فى السّير حتى كأنما يباشرن بالمعزاء مسّ الأرائك «1»

وقال الأعشى:

بين الرّواق وجانب من سترها منها وبين أريكة الأنضاد «2»

---

(1): ديوانه 422 والطبري 15/ 148.

(2): ديوانه 97 والطبري 15/ 148. [.....]

«وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ» (32) مجازه: أطفناهما وحجزناهما من جوانبهما [قال الطّرمّاح:

تظلّ بالأكمام محفوفة ترمقها أعين جرّامها] «1»

«وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً» (33) ولم تنقص، ويقال: ظلمنى فلان حقى أي نقصنى، وقال

رجل لابنه:

تظلّمنى مالى كذا ولوى يدى لوى يده اللّه الذي لا يغالبه «2»

«وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً» (33) أي وسطهما، وبينهما، وبعضهم يسكّن هاء النهر.

«وكانَ لَهُ ثَمَرٌ» (34) «3» وهو جماعة الثّمر.

---

(1): «الطرماح»: من فحول الشعراء الإسلاميين وفصحائهم، انظر أخباره فى الأغانى 10/ 148. - والبيت فى اللسان والتاج (كمم).

(2): فى الحماسة (4/ 19) من كلمة لفرعان بن الأعرف فى منازل وهو فى الطبري 15/ 149 واللسان والتاج (ظلم).

تظلمنى: أي ظلمنى مالى، تقتضيها ضرورة الوزن إن كان «ظلمنى» أولى استشهادا.

(3) «ثمر»: قال الطبري (15/ 149 - 150). اختلفت القراء فى قراءة ذلك

فقرأته عامة قراء الحجاز والعراق «وكان له ثمر» بضم الثاء والميم واختلف قارئو - ذلك

. . . وأولى القراآت فى ذلك عندى بالصواب قراءة من قرأ . . . بضم الثاء والميم.

(187/467)

«وَهُوَ يُحاوِرُهُ» (37) أي يكلّمه، ومعناه من المحاورة. «1»

«لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي» (38) مجازه: لكن أنا هو اللّه ربى، ثم حذفت الألف الأولى وأدغمت إحدى النونين فى الأخرى فشددت، والعرب تفعل ذلك.

«حُسْباناً مِنَ السَّماءِ» (40) مجازها: مرامى، «2» وواحدتها حسبانة [أي نارا تحرقها].

«صَعِيداً زَلَقاً» (40) الصعيد وجه الأرض، والزّلق الذي لا يثبت فيه القدم.

«أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً» (41) أي غائرا، والعرب قد تصف الفاعل بمصدره وكذلك الاثنين والجميع على لفظ المصدر، قال [عمرو بن كلثوم]:

---

(1) «وهو . . . المحاورة»: رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 309.

(2) «مرامى»: روى القرطبي (10/ 309) تفسيره هذا عنه.

تظلّ جياده نوحا عليه مقلّدة أعنتها صفونا «1»

أي ناحيات، وقال [باك يبكى هشام «2» بن المغيرة] :

هريقى من دموعها سجاما ضباع وجاوبى نوحا قياما «3»

وقال [لقيط بن زرارة يوم جبلة] :

شتّان هذا والعناق والنوم والمشرب البارد والظلّ الدّوم «4»

أي الدائم.

«فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها» (42) أي فأصبح نادما، والعرب تقول ذلك للنادم: أصبح فلان يقلّب كفيه ندما وتلهّفا على ذلك وعلى ما فاته.

---

(1) : من معلقته فى شرح العشر 113 وجمهرة الأشعار 77 والطبري 15/ 151 والقرطبي 10/ 409.

(2) «هشام» : لعله هشام بن عقبة بن عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وانظر الأغانى 19/ 74- 78 والإصابة 3/ 1248 ورقم 8481.

(3) : الطبري 15/ 152 والقرطبي 10/ 409.

(4) «لقيط بن زرارة» : بن عدس بن زيد بن دارم، السيد الكريم والفارس المشهور قتل يوم جبلة، ترجم له فى المؤتلف 175 . - والبيت فى النقائض 664 والبيان والتبيين 3/ 196 .

(189/467)

«وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها» (42) مجازه: خالية على بيوتها .

«فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ» (43) أي جماعة، وقال العجّاج:

كما يحوز الفئة الكمىّ «1» (169)

«هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ» (44) مصدر الولي، فإذا كسرت الواو فهو مصدر وليت العمل والأمر تليه .

«خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً» (44) مجازه مجاز العاقبة والعقبى والعقبة، كلهن واحدة والمعنى الآخرة .

«هَشِيماً» (46) أي يابسا متفتّتا «2» [قال لبيد :

ولا للضّيف إن طرقت بليل بأفنان العضاة وبالهشيم] «3»

«تَذْرُوهُ الرِّياحُ» (45) أي تطيّره وتفرقه، ويقال: ذرته الريح تذروه وأذرته تذريه .

---

(1) «الولاية» : أخذ البخاري تفسير أبى عبيدة لهذه الكلمة. وقال ابن حجر (8/ 309) هو قول أبى عبيدة.

(2) «متفتنا» : كذا فى القرطبي 10/ 412.

(3) : ديوانه 1/ 8.

(190/467)

«وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً» (48) أي ظاهرة.

«فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» (50) جار عنه وكفر به، وقال رؤبة:

يهوين فى نجد وغورا غائرا فواسقا عن قصدها جوائرا «1» «2»

«مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً» (51) أي أنصارا وعزّا وأعوانا، ويقال: فلان عضدى أي ناصرى وعزّى وعونى، ويقال: قد عاضد فلان فلانا وقد عضده، أي قوّاه ونصره.

«وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً» (54) أي موعدا، «3» قال:

وحاد شرورى والسّتار فلم يدع تعارا له والواديين بموبق «4»

---

(1) «ففسق . . . جوائرا» : رواه فى التاج (فسق) عن أبى عبيدة.

(2) ملحق ديوانه 190 والطبري 15/ 158 وشواهد الكشاف 110 والتاج

والشطر الثاني فقط فى اللسان (فسق) . [. . . . . .]

(3) «أي موعدا» : قال الطبري : (15/ 170) : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يقول الموبق الموعد ويستشهد لقيله ذلك بقول الشاعر . إلخ .

(4) : فى الطبري 15/ 160 واللسان والتاج (وبق) .

(191/467)

«وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً» (53) أي معدلا ، وقال أبو كبير الهذلي :

أزهير هل عن شيبة من مصرف أم لا خلود لباذل متكلّف «1»

«أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلًا» (55) «2» أي أولا يقال : من ذى قبل ، فإن فتحوا أولها فالمعنى : استئنافا ، قال :

لن يغلب اليوم جباكم قبلى «3»

أي استئنافى ، وإن ضمّوا أوّلها فالمعنى : مقابلة ، يقال : أقبل قبل فلان : انكسر ، وله موضع آخر : أن يكون جميع قبيل فمعناه : أو يأتيهم العذاب قبلا ، أي قبيلا قبيلا ، أي ضربا ضربا ولونا لونا .

---

(1) : ديوان الهذليين 2/ 104 والطبري 15/ 160 واللسان (صرف) وشواهد

الكشاف 192.

(2) «قبلا» : قال الطبري (15/ 161) : وقد اختلفت القراء فى قراءة ذلك فقرأته جماعة ذات عدد «أو يأتيهم العذاب قبلا» بضم القاف والباء بمعنى أنه يأتيهم من العذاب ألوان وضروب ووجهوا القبل إلى جمع قبيل كما يجمع القتيل القتل والجديد الجدد وقرأته جماعة أخرى أو يأتيهم العذاب قبلا بكسر القاف وفتح الباء بمعنى أو يأتيهم العذاب عيانا من قولهم : كلمته قبلا. وفى البخاري : قبلا وقبلا وقبلا استئناف قال ابن حجر (8/ 309) قال أبو عبيدة فى قوله «أو يأتيهم العذاب قبلا» أي أولا فإن فتحوا أولها فالمعنى استئنافا وغفل ابن التين فقال : لا اعرف للاستئناف هنا معنى وإنما هو استقبالا وهو على قبلا بفتح القاف.

(3) : لم أجده فيما رجعت إليه.

(192/467)

«لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ» (56) مجازه : ليزيلوا به الحق ويذهبوا به، ودحض هو ويقال : مكان دحض، أي مزل مزلق، لا يثبت فيه خفّ ولا قدم ولا حافر، «1» قال [طرفة] :

وردت ونحّى اليشكرىّ حذاره وحاد كما حاد البعير عن الدّحض «2»

«لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا» (58) مجازه: منجى، وهو من قولهم:

فلا وألت نفس عليها تحاذر «3»

أي لا نجت. وقال الأعشى:

وقد أخالس ربّ البيت غفلته وقد يحاذر منّى ثم ما يئل «4»

أي لا ينجو.

---

(1) «ليزيلوا... حافر». نقله الطبري (15/ 161) ببعض نقص وزيادة ورواه ابن حجر فى فتح الباري 8/ 310.

(2): لم أجد البيت فى ديوانه من الستة وهو عند الطبري 15/ 161 والجمهرة 2/ 123 والأساس واللسان والتاج (دحض).

(3): فى فتح الباري 8/ 309.

(4): ديوانه 45 والطبري 15/ 162 والقرطبي 11/ 8.

«أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً» (60) أي زمانا وجميعه أحقاب، ويقال فى معناه: مضت له حقبة والجميع حقب على تقدير كسرة والجميع كسر كثيرة.

«فِي الْبَحْرِ سَرَباً» (61) أي مسلكا ومذهبا أي يسرب فيه، وفى آية أخرى «وَسارِبٌ بِالنَّهارِ» (13/ 11).

«فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً» (64) مجازه: نكصا على أدبارهما فرجعا قصصا، رجعا يقصان الأثر.

«جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً» (71) أي داهية نكرا عظيما، وفى آية أخرى:

«شَيْئاً إِدًّا» (19/ 90) قال:

قد لقى الأقران منى نكرا داهية دهياء إدّا إمرا «1»

---

(1): الطبري 15/ 169 والصحاح واللسان والتاج (امر) والقرطبي 11/ 19 وشواهد الكشاف 130.

(194/467)

«وَلا تُرْهِقْنِي» (73) أي لا تغشنى [وقال زهير:

ومرهّق النّيران يحمد فى اللأواء غير ملعّن القدر] «1»

«زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ» (74) أي مطهرّة.

«شَيْئاً نُكْراً» (74) أي داهية: أمرا عظيما.

«فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما» (77) أي أن ينزلوهما منزل الأضياف، ويقال:

ضفت أنا، وأضافنى الذي أنزلنى.

«يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ» (77) وليس للحائط إرادة ولا للموات ولكنه إذا كان فى هذه الحال من

ربه فهو إرادته، وهذا قول العرب «2» فى غيره قال [الحارثىّ]:

يريد الرمح صدر بنى براء ويرغب عن دماء بنى عقيل «3»

---

(1): ديوانه 91 والأساس واللسان والتاج (رهق).

(2) «وليس... العرب»: قال الطبري (15/ 171) واختلف أهل العلم بكلام العرب فى معنى قول الله... فقال بعض أهل البصرة (يعنى أبا عبيدة) ليس... العرب وانشد البيت.

(3): فى الطبري 15/ 171 والقرطين 1/ 168 والكشاف 1/ 577 والقرطبي 11/ 26 واللسان (رود). وقال ابن قتيبة: وأنشدنى السجستاني عن أبى عبيدة فى مثل قول اللّه تعالى يريد... إلخ (القرطين).

ومجاز «أن ينقضّ» مجاز يقع، يقال: انقضت الدار إذا انهدمت وسقطت وقرأ قوم «أن ينقاضّ» ومجازه: أن ينقلع من أصله ويتصدع بمنزلة قولهم: قد انقاضت السن، أي انصدعت وتقلعت من أصلها، يقال: فراق كقيض السنّ أي لا يجتمع أهله، «1» وقال:

فراق كقيض السّنّ فالصّبر إنه لكل أناس عثرة وجبور «2»

«لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً» (77) الخاء مكسورة، ومعناها معنى أخذت فكان مخرجها مخرج فعلت تفعل، قال [الممزّق العبدىّ]:

وقد تخذت رجلى إلى جنب غرزها نسيفا كأفحوص القطة المطّرق «3»

---

(1) «أن ينقاض... أهله»: نقل الطبري (15/ 171) هذا الكلام ثم قال وقد اختلف أهل العلم بكلام العرب إذا قرئ ذلك كذلك فى معناه فقال بعض أهل البصرة منهم (يعنى أبا عبيدة) مجاز ينقاض... إلخ. ورواه ابن حجر (8/ 321) عن أبى عبيدة.

[.....]

(2): لأبى ذؤيب الهذلي فى ديوان الهذليين 1/ 138 والأضداء للأصمعى 14 والجمهرة 1/ 207، 3/ 86 والصحاح واللسان والتاج (قيص، قيض) والسمط 656.

(3): «الممزق العبدى»: اسمه شاس بن نهار وهو جاهلى قديم ترجم له فى الشعرا 236 والمؤتلف 185 ومعجم المرزباني 495 الاشتقاق 199. - والبيت فى

الأصمعيات 47 والجمهرة 2/ 6، 163، 372، 3/ 39 واللسان والتاج (نخذ فحص، طرق، نسف) والعيني 4/ 590 وشواهد المغني 233.

(196/467)

[النسيف موضع العقب الأثر الذي يكون فى خلال الرجل وأفحوص القطاة: الموضع الذي تبيض فيه]. والمطرق التي تريد أن تبيض، يقال: قد طرّقت المرأة لولدها إذا استقام ليخرج.

«وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ» (79) أي بين أيديهم وأمامهم، قال:

أترجو بنو مروان سمعى وطاعتى وقومى تميم والفلاة ورائيا (387)

أي أمامى.

«أَنْ يُرْهِقَهُما» (80) أي يغشيهما.

«وَأَقْرَبَ رُحْماً» (81) «1» معناها معنى رحما مثل عمر وعمر وهلك وهلك، [قال الشاعر:

فلا ومنزّل الفرقان مالك عندها ظلم «2»

---

(1) «رحم»: قال الطبري (16/ 4): وكان بعض البصريين (يعنى أبا عبيدة) يقول: من

الرحم والقرابة وقد يقال: رحم ورحم . . . واستشهد لفيله ذلك ببيت العجاج . . . ولا وجه للرحم فى هذا الموضع . . . إلخ.

(2) : فى اللسان والتاج (رحم) والقرطبي 11/ 37 دون الصدر الأول.

(197/467)

وكيف بظلم جارية ومنها اللّين والرّحم]

قال العجّاج:

ولم تعوّج رحم من تعوّجا «1»

«فَأَتْبَعَ سَبَباً» (85) أي طريقا وأثرا ومنهجا.

«فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ» (86) تقديرها: فعلة ومرسة «2» وهى مهموزة، لأن مجازها مجاز ذات حمأة، قال:

تجيء بملئها يوما ويوما تجيء بحمأة وقليل ماء «3»

وقال حاتم [طىّ]:

وسقيت بالماء النّمير ولم أترك الأطم حمأة الجفر «4»

النمير الماء الذي تسمن عنه الماشية. ومن لم يهمزها جعل مجازه مجاز فعلة من الحرّ الحامى

وموضعها حامية.

---

(1) : ديوانه 10 والطبري 16/ 4 واللسان (رحم).

(2) «مرسة» : لم أجد كلمة بهذا الوزن فى مادة مرس فى كتب اللغة.

(3) : لم أجده فيما رجعت إليه.

(4) : ديوانه 36.

(198/467)

«بَيْنَ السَّدَّيْنِ» (93) مضموم إذا جعلوه مخلوقا من فعل الله وإن كان من فعل الآدميين فهو سدّ، مفتوح.

«يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ» (94) لا ينصرفان، وبعضهم يهمز ألفيهما وبعضهم لا يهمزها، قال رؤبة:

لو أن يأجوج وماجوج معا وعاد عاد واستجاشوا تبّعا «1»

فلم يصرّفها.

«زُبَرَ الْحَدِيدِ» (96) أي قطع الحديد واحدتها زبرة.

«بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ» (96) فبعضهم يضمها وبعضهم يفتحها ويحرّك الدال، ومجارهما ما بين

الناحيتين من الجبلين ، وقال :

قد أخذت ما بين عرض الصّدفين ناحيتيها وأعالى الرّكنيين «2»

---

(1) : ديوانه 92 ، والطبري 16/ 12 ، والقرطبي 11/ 55 ، واللسان والتاج (أجج) .

(2) فى الطبري 16/ 18 .

(199/467)

«أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً» (96) أي أصبّ عليه حديدا ذائبا ، «1» قال :

حساما كلون الملح صاف حديده جرازا من أقطار الحديد المنعّت «2»

جمع قطر ، وجعله قوم الرّصاص النّقر .

«فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ» (97) أي أن يعلوه ، ويقال : ظهرت فوق الجبل وفوق البيت ، أي علوته .

«جَعَلَهُ دَكَّاءَ» (98) أي تركه مدكوكا أي ألزقه بالأرض ، ويقال :

ناقة دكّاء أي لا سنام لها مستوية الظهر ، [قال الأغلب :

هل غير غار دكّ غارا فانهدم]

(1) «حديدا ذائبا» : قال الطبري (16/ 19) : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة (يعنى أبا عبيدة) يقول : القطر الحديد المذاب ويستشهد لقوله ذلك بقول الشاعر . . . إلخ.

(2) : فى الطبري 16/ 19 .

والعرب تصف الفاعل والمفعول بمصدرهما فمن ذلك «جعله دكّا» أي مدكوكا .

«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ» (99) واحدتها صورة خرجت مخرج سورة المدينة والجميع سور المدينة ، ومجازه مجاز المختصر المضمر فيه أي نفخ فيها أرواحها .

«يُحْسِنُونَ صُنْعاً» (104) أي عملا والصنع والصنعة والصنيع واحد ، ويقال فرس صنيع أي مصنوع.

«لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا» (108) أي لا يريدون ولا يحبّون عنها تحويلا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مجاز القرآن حـ 1 صـ 393.416 ﴾

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الكهف»

[سورة الكهف (18) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (1) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (2)

قوله سبحانه : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً ، قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ [1] وهذه استعارة . لأن حقيقة العوج أن يكون فيما يصح عليه أن ينصاب أو يميل ويضطرب ويستقيم . وهذه من صفات الأجسام ، لا من صفات الكلام .

فنقول : إنما وصف القرآن - والله أعلم - بأنه قيّم لا عوج فيه ، ذهابا إلى نفى الاختلاف عن معانيه ، والتناقض فى أوضاعه ومبانيه . وأنه غير ناكب عن المنهاج ، ولا مستمر على الاعوجاج .

[سورة الكهف (18) : آية 5]

ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً (5)

وقوله سبحانه : كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً [5] ووصف الكلمة هاهنا بالكبر استعارة . والمراد أن معناها فظيع ، وفحواها عظيم . وتقدير الكلام : كبرت الكلمة كلمة .

وللنصب هاهنا وجهان : أحدهما أن يكون على تفسير المضمر . مثل قولهم : نعم رجلا زيد ، وبئس صاحبا عمرو . والوجه الآخر أن يكون على التمييز فى الفعل المنقول ، نحو : ساءت مرتفقا ، وتصبّب عرقا .

[سورة الكهف (18) : آية 8]

وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً (8)

وقوله سبحانه : وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً [8] وهذه استعارة . لأن المراد بالجرز هاهنا الأرض التي لا نبات فيها ، وذلك مأخوذ من قولهم : ناقة جروز . إذا كانت كثيرة الأكل ، لا يكاد لحياها يسكنان من قضم الأعلاف «1» ،

---

(1) فى الأصل : الأحلاف . ولا معنى له هاهنا والأعلاف جمع علف ، وهو ما تعلفه الدابة .

ونشط «1» الأعشاب. ومن ذلك قولهم: سيف جراز. إذا كان يبرى المفاصل، ويقط الضرائب.

وإنما سمّيت تلك الأرض جرزا إذ كانت كأنّها تأكل نبتها، فلا تدع منه نابغة، ولا تترك طالعة. ونظير ذلك قولهم: أرض جدّاء: لا ماء فيها. تشبيها بالناقة التي لا لبن فيها، وهى الجدّاء «2».

[سورة الكهف (18): آية 11]

فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (11)

وقوله سبحانه: فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً [11].

وهذه استعارة. لأن المراد بها منع آذانهم من استماع الأصوات، وهمس الحركات.

قال بعضهم: وذلك كالضرب على الكتاب لتشكل حروفه، فتمتنع على القارئ قراءته.

وإنما دلّ تعالى على عدم الإحساس بالضّرب على الآذان، دون الضرب على الأبصار، لأن ذلك أبلغ فى الغرض المقصود، من حيث كانت الأبصار قد يضرب عليها من غير عمى، ولا يبطل إدراك بقية الحواس جملة، وذلك عند تغميض الإنسان عينه. وليس كذلك منع الاستماع من غير صمم، لأنه إذا ضرب عليها من غير صمم بالنوم الذي هو السهو على صفة دل ذلك على عدم الإحساس من كل جارحة يصح بها الإدراك. ولأن الأذن لما كانت طريقا إلى الأنباء ثم ضرب عليها، لم يكن سبيل إلى الانتباه، فبطل استماعهم. وفى

هذا القول بعض التخليط .

---

(1) نشطت الدابة العشب : إذا أكلته بسرعة وخفة . وقد نشطت الدابة : أي سمنت .

[. . . . . .]

(2) الناقة الجداء : هى الصغيرة الثدي ، أو المقطوعة الأذن ، أو التي ذهب لبنها . انظر الفيروزآباذى مادة «جدد» .

(203/467)

والذي أذهب إليه فى ذلك ما ذكرته فى كتابى الكبير على شرح واستقصاء ، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى : فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ والله أعلم ، أي أخذنا أسماعهم .

ويكون ذلك من قول القائل : قد ضرب فلان على مالى . أي أخذه وحال بينى وبينه ، فأما تشبيه ذلك بالضرب على الكتاب حتى تشكل حروفه على المتأمل ففيه بعد وتعسّف .

وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك : وضربناهم على آذانهم ، من الضرب الحقيقي ، تشبيها بمن ضرب على سماخه «1» ، فهو موقوذ «2» مأموم «3» ، ومشدوه «4» مغمور .

[سورة الكهف (18) : آية 14]

وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً (14)

وقوله سبحانه : وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ [14] . الآية . وهذه استعارة . لأن الربط هو الشدّ . يقال : ربطت الأسير . إذا شددته بالحبل والقدّ»

.

والمراد بذلك : شددنا على قلوبهم كما تشد الأوعية بالأوكية «6» ، فتنضمّ على مكنونها ، ويؤمن التبدد على ما استودع فيها . أي فشددنا على قلوبهم لئلا تنحلّ معاقد صبرها «7» وتهفو عزائم جلدها . ومن ذلك قول القائل لصاحبه :

ربط اللّه على قلبك بالصبر .

---

(1) السماخ والصماخ واحد . وهو خرق الأذن الباطن الماضي إلى تجويف الرأس .

(2) الموقوذ : المضروب ضربا شديدا حتى أشرف على الموت .

(3) أمه : شجه ، فهو مأموم .

(4) المشدوه : المشدوخ الرأس .

(5) القد : السير من الجلد .

(6) الأوكية : جمع وكاء ، وهو رباط القربة أو ما تشد به .

(7) فى الأصل: صعرها. وهو تحريف، وقد أصلحناه من السياق فى لفظة الجلد المقابلة.

(204/467)

[سورة الكهف (18) : الآيات 16 الى 17]

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً (16) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً (17)

وقوله سبحانه: فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً [16]. وفى هذه الآية استعارتان: إحداهما قوله تعالى: يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ والرحمة هاهنا بمعنى النعمة. ولم يكن هناك مطوى فينشر، ولا مكنون فيظهر. وإنما المراد بذلك: يسبغ اللّه عليكم نعمته، على وجه الظهور والشياع، دون الإخفاء والإسرار. فيكون ذلك كنشر الثوب المطوى وإظهار الشيء الخفي، فى شياع الأمر، وانتشار الذكر. والاستعارة الأخرى قوله تعالى: وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً [16].

وأصل المرفق ما ارتفق به . وهو مأخوذ من المرفقة . وهى التي يرتفق عليها ، أي يعتمد عليها بالمرفق .

ويقال مرفق ، ومرفق بمعنى واحد . وقد قرىء بهما جميعا بمعنى واحد . فكأنه قال : يهيىء لكم من أمركم ما تعتمدون عليه وتستندون إليه ، ويكون لظهوركم عمادا ، ولأعضادكم سنادا .

وقوله سبحانه : وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ ، وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ [17] . وفى هذه الآية استعارتان : أولاهما قوله تعالى فى ذكر الشمس : تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ لأن التزاور أصله الميل ، وهو مأخوذ من الزّور ، وهو الصدر . فكأنه سبحانه قال : إن الشمس تميل عن هذا الموضع ، كما يميل المتزاور عن الشيء بصدره ووجهه . ويبين بذلك عن موضع الكهف المشار إليه من جهات المشرق والمغرب أن الشمس لا يلحقه ثوبها عند الشروق ، ولا ينفض عليه «1» . . . آخر الغروب .

---

(1) هنا لفظة غير واضحة بالأصل .

والاستعارة الأخرى قوله تعالى : وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ . وفى ذلك قولان : أحدهما أن يكون المراد أنها تقرضهم فى ذات الشمال ، أي أنها تجوزهم عادلة بمطرح شعاعها عنهم . من قولهم : قرضت الشيء بالمقراض . إذا قطعته به . والمقراض متجاوز لأجزائه أولا حتى ينتهى إلى آخره . والقول الثاني : أن يكون المراد أنها تعطيهم القليل من شعاعها عند مرها بهم ، ثم تسترجعه عند انصرافها عنهم . تشبيها بقرض المال الذي يعطيه المعطى ليسترده ، ويقدمه ليرتجعه . ومعنى قرض المال أيضا مأخوذ من القطع ، لأن المقرض يعطى للمقترض شقة من ماله ، وقطعة من حاله .

[سورة الكهف (18) : الآيات 21 الى 22]

وَكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (21) سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِراءً ظاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (22)

وقوله سبحانه : وَكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ [21] .

وهذه استعارة . والمراد - والله أعلم - وكذلك أطلعنا عليهم . إلا أن فى لفظ الإعثار فائدة ، وهى مصادفة الشيء عن غير طلب له ولا إحساس به ، وهو «أفعلنا» من

الإعثار .

وأصله أن الساعي في طريقه إذا صدّ قدمه ، أو نكب أصبعه شيء ، ففي الأغلب أنه يقف عليه متأملا له ، وناظرا إليه . فكأنه استفاد علم ذلك من غير أن تتقدم معرفته به .

ومن ذلك قول القائل لغيره : لأعثرنّ عليك بخطيئة فأعاقبك . أي لأقفن على ذلك منك .

وعلى هذا قوله سبحانه : فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً «1» . أي اطّلع على ذلك منهما ، واستفيد العلم به من باطن أمرهما .

وقوله سبحانه : وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ [22] .

وهذه استعارة لأن الرجم هاهنا هو القذف بالظن ، والقول بغير علم . ومن عادة

---

(1) سورة المائدة . الآية رقم 107 .

(206/467)

العرب أن تسمى القائل بالظن راجما وقاذفا ، وتسمى السّابّ الشاتم راميا راجما .

ويقولون : هذا الأمر غيب مرجّم . أي يرميه الناس بظنونهم ، ويقدرونه بحسابهم .

ومرجّم إنما جاء لتكثير العمل ، كأنه يرمى من هاهنا ، ومن هاهنا . وإنما سمى الظان راجما لأنه يوجه الظن إلى غير جهة مطلوبة ، بل يظن هذا ، ويظن هذا ، كالراجم الذي لا

يعلم مواقع أحجاره إذا رمى بها فى الجهات. فتارة تقع يمينا وتارة تقع شمالا.

[سورة الكهف (18) : الآيات 28 الى 29]

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً (29)

وقوله سبحانه: وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً [28] وهذه استعارة. على أحد التأويلات فى هذه الآية. وهو أن يكون المراد بذلك: أننا تركنا قلبه غفلا من السّمات التي تتسم بها قلوب المؤمنين، فتدل على زكاء أعمالهم، وصلاح أحوالهم. كقوله سبحانه: أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ «1» وذلك تشبيه بالبعير إذا أغفل فترك بلا سمة يعرف بها، على عادة العرب فى إقامة السّمات مقام العلامات المميزة بين أموالهم فى الموارد والمراعى وتعريف الضوالّ.

وفى هذه الآية أقوال أخر، القول الذي قدمناه أدخلها فى باب الاستعارة. منها أن يكون معنى أَغْفَلْنا قَلْبَهُ أي نسبناه إلى الغفلة. كقول القائل أكفرت فلانا. إذا نسبته إلى الكفر، وأبخلته إذا نسبته إلى البخل.

ومنها أن يكون المراد : سميناه غافلا بتعرضه للغفلة ، فكأن المعنى : حكمنا عليه بأنه غافل . كما يقول القائل : قد حكمت على فلان بأنه جاهل . أي لما ظهر الجهل منه وجب هذا القول فيه .

ومنها أن يكون ذلك من باب المصادفة . فيكون المعنى : صادفنا قلبه غافلا . كقول

---

(1) سورة المجادلة الآية رقم 22

القائل أحمدت فلانا . أي وجدته محمودا . وذلك يؤول إلى معنى العلم . فكأنه تعالى قال : علمناه غافلا . وعلى هذا قول عمرو بن معديكرب «1» لبنى سليم : (للّه درّكم يا بنى سليم ! واللّه لقد قاتلناكم فما أجبنّاكم ، وهاجيناكم فما أفحمناكم ، وسألناكم فما أبخلناكم) أي لم نصادفكم على هذه الصفات ، من الجبن عند النزال ، والبخل عند السؤال ، والعىّ عند المقال «2» .

وعلى ذلك قول نافع «3» بن خليفة الغنوىّ .

سألنا فأحمدنا ابن كلّ مرزأ جواد وأبخلنا ابن كلّ بخيل

أي وجدنا هذا محمودا ، ووجدنا هذا بخيلا مذموما .

وفيما علقته عن قاضى القضاة أبى الحسين عبد الجبار «4» بن أحمد - أدام اللّه توفيقه- عند قراءتى عليه كتابه الموسوم «بتقريب الأصول» فى أخريات من الكلام فى

---

(1) عمرو بن معديكرب الزبيدي كان فارسا من فرسان اليمن وصاحب غارات مشهورة. وقد على النبي عليه السلام سنة 9 ه فأسلم وقومه، ولما توفى النبي ارتد عن الإسلام، ثم رجع إليه فحسن إسلامه وشهد واقعة القادسية وسائر الفتوح. ومن شعره قصيدته التي يقول فيها:

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع وتوفى سنة 21 ه على مقربة من مدينة الري.

(2) كان مقتضى الترتيب هنا أن يقول: من الجبن عند النزال، والعي عند المقال، والبخل عند السؤال، ليصح التقسيم.

(3) نافع بن خليفة الغنوي شاعر روى القالي قطعة من شعره فى «ذيل الأمالى» ص 116، كما ذكر الجاحظ فى «البيان والتبيين» أبياتا من شعره ج 1 ص 176. وقد جهدت- بعد جهد العلامة عبد العزيز الميمنى- فى معرفة شىء عنه فلم أوفق. ويقول عنه فى «سمط اللآلى»: (ونافع لم أعرفه، ولا ذكره الآمدى) ج 3 من السمط ص 55.

[.....]

(4) هو أبو الحسين الشافعي المعتزلي. وكان أحد شيوخ المؤلف. قرأ عليه فى مجازات

القرآن وفى المجازات النبوية . وكان شيخ الاعتزال فى عصره . ويلقب بقاضى القضاة ولا يطلقون هذا اللقب على غيره .

توفى بالري سنة 415 . انظر الأعلام للزركلى ، والغدير ج 4 للأمينى ص 163 . وقد كان فى الأصل «أبو الحسن» فأصلحناه عن «الأعلام»

(208/467)

التعديل والتجوير ، أنه لو لم يكن الأمر على ما قلناه فى إغفال القلب من أن المراد بذلك مصادفته غافلا ، وكان على ما قاله الخصوم من أنه تعالى صدف به عن أمره ، وصرفه عن ذكره لوجب أن يقول سبحانه : فاتّبع هواه . لقول القائل : أعطيته فأخذ ، وبسطته فانبسط ، وأكرهته فأذل . أي كانت هذه الأفعال منه مسببة عن أفعالى به .

لأن هذا وجه الكلام فى الأغلب الأعرف . فلما جاء بالواو صار كأنه قال : ولا تطع من غفل قلبه عن ذكرنا واتبع هواه . لأنه إذا وجد غافلا فهو الذي غفل ، والفعل حينئذ له ومنسوب إليه .

وقوله سبحانه : إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً [29] . وفى هذه الآية استعارتان :

أولاهما قوله تعالى : أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها والسرادق هو الفسطاط المحيط به . فوصفه «1» - سبحانه - النار بالإحاطة والاشتمال فلا ينجو منها ناج ، ولا يطلق منها عان .

وذلك كقوله تعالى : وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً «2» .

أي حبسا تحصرهم ، وطولا تقصرهم ، ومثل قوله سبحانه أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها قوله : إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ، فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ «3» والمؤصدة : المغلقة المطبقة . من قولهم أوصدت الباب وأصّدته «4» . إذا أغلقته وأطبقته . وقرىء : عمد وعمد .

والمراد بقوله سبحانه : فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ مثل المراد فى قوله : أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها

---

(1) هكذا بالأصل . وهو تحريف من الناسخ صوابه «فوصف» .

(2) سورة الإسراء . الآية رقم 8 .

(3) سورة الهمزة الآيتان 8 ، 9 .

(4) ويقال أيضا آصد الباب على وزن أفعل مثل أصد بالتضعيف .

تشبيها بتمديد الأخبية والسرادقات بالأطناب ، وإقامتها على الأعماد .

والاستعارة الأخرى قوله تعالى : وَساءَتْ مُرْتَفَقاً والمرتفق : المتكأ ، وهو ما يعتمد عليه

بالمرفق ، ومنه المرفقة وهى المخدّة . وذلك نظير قوله سبحانه : وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ «1» فلما جاء سبحانه بذكر السرادق جاء بذكر المرافق ، ليتشابه الكلام .

[سورة الكهف (18) : آية 31]

أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (31)

وروى عن بعضهم أنه قال : معنى مرتفقا . أي مجتمعا ، كأنه ذهب إلى معنى : وساءت مرافقه . والمرافقة لا تكون إلا بالاجتماع جماعة . وهذا القول يخرج الكلام عن حدّ الاستعارة فيدخله فى باب الحقيقة . والوجه الأول أقوى . ويشهد له قوله سبحانه : مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ ، نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً [31] فجاء بذكر الارتفاق لما قدّم ذكر الاتكاء . وهذا أوضح «2» مشاهد .

[سورة الكهف (18) : آية 33]

كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (33)

وقوله سبحانه : كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً [33] .

وهذه استعارة . لأن الظلم هاهنا ليس على أصله فى اللغة ، ولا على عرفه فى الشريعة . لأنه فى اللغة اسم لوضع الشيء فى غير موضعه . وفى الشريعة اسم للضرر المفعول ، لا

على وجه الاستحقاق ، ولا فيه استجلاب نفع ، ولا دفع ضرر .

والمراد بقوله تعالى هاهنا : وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً أي لم تمنع منه شيئا . وإنما حسن أن يعبر عن هذا المعنى باسم الظلم من حيث كان ثمر تلك الجنة التي هى البستان كالمستحق لمالكها . فإذا أخذ حقه على كماله وتمامه حسن أن يقال : إنها لم تظلم منه شيئا . أي لم

---

(1) سورة الرعد . الآية رقم 20 وفى سورة آل عمران . آية رقم 197 قوله تعالى «ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد» فالآيتان متشابهتان إلا فى «ثم» بدلا من الواو .

(2) هكذا بالأصل . ولعلها : واضح .

(210/467)

تمنع منه مستحقا ، فتكون فى حكم الظالم إذ أضرت بمالكها فى نقصان زروعها ، وإخلاف ثمارها . ومما يقوى ذلك قوله سبحانه : آتَتْ أُكُلَها . أي أعطت أكلها . فلما جاء بلفظ الإعطاء حسن أن يجىء بلفظ الظلم . ومعناه هاهنا المنع . فكأنه تعالى قال : أعطت ما استحق عليها ، ولم تمنع منه شيئا .

[سورة الكهف (18) : الآيات 56 الى 57]

وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ

وَاتَّخَذُوا آياتِي وَما أُنْذِرُوا هُزُواً (56) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (57)

وقوله تعالى : وَيُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ [56] وهذه استعارة . وأصل الدّحض الزّلق . ومكان دحض : أي مزلق . فكأنه سبحانه قال : ليزلّوا الحق بعد ثباته ، ويزيلوه عن مستقراته . فيكون كالكسير بعد قوته ، والمائل بعد استقامته .

وقوله سبحانه : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ [57] . وهذه استعارة . لأن المراد بذكر اليدين هاهنا ما كسبه الإنسان من العمل الذي يجر العقاب ، ويوجب النكال . ومثله فى القرآن كثير . كقوله سبحانه : ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ «1» وذلك على طريقة للعرب معروفة . وهو أن يقولوا للجانى المعاقب : هذا ما جنت يداك . وهذا ما كسبت يداك . وإن لم تكن جنايته عملا بيد ، بل كانت قولا بفم . لأن الغالب على أفعال الفاعلين أن يفعلوها بأيديهم ، فحمل الأمر على الأعرف ، وخرج على الأكثر . وعلى هذا المعنى تسمى النعمة يدا ، لأن المنعم فى الأغلب يعطى بيده ما ينعم به ، وإن لم يقع ذلك فى كل حال ، وإنما الحكم للأظهر ، والقول على الأكثر .

[سورة الكهف (18) : آية 77]

فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (77)

وقوله سبحانه: فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ [77] وهذه استعارة. لأن الإرادة على حقيقتها لا تصح على الجماد. والمعنى: يكاد أن ينقضّ، أي

---

(1) سورة آل عمران. الآية رقم 182.

يقارب أن ينقضّ. على التشبيه بحال من يريد أن يفعل فى الباني، لأنه لما ظهرت فيه أمارات الانقضاض، من ميل بعد انتصاب، واضطراب بعد ثبات، حسن أن يطلق عليه إرادة الوقوع، على طريقة الاتساع «1».

وترد فى كلامهم كاد بمعنى أراد، وأراد بمعنى كاد. وجاء فى القرآن العظيم قوله تعالى: كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ «2» أي أردنا ليوسف.

وقوله سبحانه: إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها «3» معناه- على أحد الأقوال- أريد أخفيها. ومما ورد فى أشعارهم شاهدا على ذلك قول عمر بن أبى ربيعة:

كادت وكدت، وتلك خير إرادة لو عاد من لهو الصّبابة ما مضى «4»

فقال: وتلك خير إرادة، والإشارة إلى كادت، وكدت.

وأوضح من هذا قول الأفوه الأودى «5»

فإن تجمّع أوتاد وأعمدة وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا

أي الذي أرادوا.

---

(1) فى الأصل. «الأتسباع» وهو تحريف من الناسخ.

(2) سورة يوسف. الآية رقم 76.

(3) سورة طه. الآية رقم 15.

(4) هذا البيت لم ينسب لقائله فى «شرح شواهد الكشاف» المسمى «تنزيل الآيات، على الشواهد من الأبيات» للعلامة محب الدين أفندى، ولم ينسبه القرطبي لأحد وإنما نقل عن الأنبارى قوله:

وشاهد هذا قول الفصيح من الشعر - انظر «جامع أحكام القرآن» ج 11 ص 184.

(5) هو صلاءة بن عمرو بن مالك. وهو شاعر يمانى جاهلى اشتهر بالسيادة والقيادة.

وهذا البيت من قصيدة مشهورة يقول فيها:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا وقبل بيت الشاهد هذا البيت:

والبيت لا يبتنى إلا له عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد وقد نسبه صاحب «شواهد الكشاف» للراقدة الأودى ، وهو تحريف مطبعى ، لأن مثل هذا لا يخفى على العلامة محب الدين .

(212/467)

فأما قول الشاعر «1» .

يريد الرمح صدر أبى براء ويرغب عن دماء بنى عقيل

فليس يصح حمله على مقاربة الفعل ، كما قلنا فى قوله سبحانه : جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ لأنه لا يستقيم على الكلام أن يقول : يكاد الرمح صدر أبى براء . وإنما ذلك على سبيل الاستعارة ، لأن صاحب الرمح إذا أراد ذلك كان الرمح كأنه مريد له . فأما قول الراعي يصف الإبل :

فى مهمه فلقت به هاماتها فلق الفؤوس إذا أردن نصولا «2»

فإنه بمعنى مقاربة الفعل ، لأن الفؤوس إذا فلقت فى نصبها قاربت أن تسقط ، فجعل ذلك كالإرادة منها . والنصول هاهنا مصدر نصل نصولا ، مثل وقع وقوعا . وهذا البيت من أقوى الشواهد على الآية .

[سورة الكهف (18) : آية 99]

وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (99)

وقوله سبحانه : وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ [99] وهذه استعارة.

لأن أصل الموجان من صفات الماء الكثير ، وإنما عبّر سبحانه بذلك عن شدة اختلافهم ودخول بعضهم فى بعض لكثرة أضدادهم ، تشبيها بموج البحر المتلاطم ، والتفاف الدبا «3» المتعاظل.

---

(1) لم ينسب هذا البيت لقائله فى «جامع أحكام القرآن» ج 11 ص 26 ، وكذلك لم ينسبه ابن مطرف الكناني فى كتابه «القرطين» طبع الخانجى ص 269 واكتفى بما أنشده السجستاني عن أبى عبيدة. وكذلك لم ينسبه ابن قتيبة فى «تأويل مشكل القرآن» ولا «لسان العرب». وأبو براء هو عامر بن مالك ولقبه ملاعب الأسنة. وترى أخباره فى «الشعر والشعراء» لابن قتيبة صفحات 231 ، 235 ، 295 ، 340 ، 341.
وقد كان البيت فى الأصل : «تريد الريح ... إلخ» فأصلحناه عن القرطبي وابن مطرف الكناني. [.....]

(2) لم ينسب هذا البيت لقائله فى القرطبي ج 11 ص 26.

(3) الدبا : الجراد الصغير ، أو النمل. والمتعاظل : المتراكب بعضه فى بعض

[سورة الكهف (18) : آية 101]

الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (101)

وقوله سبحانه : الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي [101] وهذه استعارة. وليس المراد أن عيونهم على الحقيقة كانت فى غطاء يسترها وحجاز يحجزها .

وإنما المعنى أنهم كانوا ينظرون فلا يعتبرون ، أو تعرض لهم العبر فلا ينظرون . ومن الدليل على ذلك قوله تعالى : عَنْ ذِكْرِي لأن الأعين لا توصف بأنها فى غطاء عن ذكر اللّه تعالى ، لأن ذلك من صفات ذوى العيون . وإنما المراد أن أعينهم كانت تذهب صفحا عن مواقع العبر ، فلا يفكرون فيها ، ولا يعتبرون بها ، فيذكرون اللّه سبحانه عند إجالة أفكارهم ، وتصريف خواطرهم . وهذا من غرائب القرآن وعجائبه ، وغوامض هذا الكلام ومناسبه .

[سورة الكهف (18) : الآيات 104 الى 105]

الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104) أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً (105)

وقوله سبحانه : الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً [104] وهذه استعارة . وأصل الضلال ذهاب القاصد عن سنن «1» طريقه .

فكأنّ سعيهم لما كان فى غير الطريق المؤدية إلى رضا اللّه سبحانه ، حسن أن يوصف بالضلال ، والعدول عن سنن الرشاد .

وقوله سبحانه : أُولئِكَ «2» الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ ، فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ ، فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً [105] . وفى هذه الآية استعارتان إحداهما قوله سبحانه : بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ وتأويل لقائه هاهنا على وجهين : أحدهما أن يكون فيه مضاف محذوف .

فكأنه تعالى قال : ولقاء ثوابه وعقابه . أو جنّته وناره .

والوجه الآخر أن يكون معنى ذلك رجوعهم إلى دار لا أمر فيها لغير اللّه سبحانه .

فيصيرون إليها من غير أن يكون لهم عنها محيص ، أو دونها محيد . وذلك مأخوذ من مقابلتك الشيء من غير أن تصرف عنه وجهك يمينا ولا شمالا .

---

(1) فى الأصل «سر» وهو تحريف من الناسخ .

(2) فى الأصل بدئت الآية بغير لفظة أولئك وهو تحريف من الناسخ .

يقول القائل : لقيت فلانا . أي قابلته بجملتى . وتقول : دارى تلقاء دار فلان . أي مقابلتها . فكانت كل واحدة منهما كالمقبلة على الأخرى . فلما كان لا أحد يوم القيامة يستطيع انصرافا عن الوجهة التي أمر اللّه سبحانه بجمع الناس إليها ، وحشرهم نحوها ، سمّى ذلك لقاء اللّه سبحانه على السّعة والمجاز .

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه : فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً والمراد بذلك - واللّه أعلم - أنا لا نجد لهم أعمالا صالحة تثقل «1» بها موازينهم يوم القيامة .

والميزان إذا كان ثقيلا سمّى مستقيما ، وقائما . وإذا كان خفيفا سمّى عادلا ، ومائلا .

وقد يجوز أن يكون معنى ذلك أنهم لا اعتداد بهم ، ولا نباهة لذكرهم فى يوم القيامة .

كما يقال فى التحقير للشىء : هذا لا وزن له ولا قيمة . وكما تقول : فلان عندى بالميزان الراجح ، إذا كان كريما عليك ، أو حبيبا إليك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان ص 219.206 ﴾

---

(1) فى الأصل : يثقل بالياء وهى تحريف .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الكهف

الكون يدل على الله والوحى يقود إليه ! والإيمان الصحيح يستمد حقيقته من الدلالتين معا : من دراسة الكون ، وتدبر الوحى ، وفى لفت النظر إلى الدلالة يقول تعالى: "الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور . . . " . ويتكرر الحمد .أول سورة الكهف .للفت النظر إلى الدلالة الثانية " الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا " . وقد طلب الله من عباده أن يدرسوا الحياة ، وأن يتأملوا فى كل شئ ! كما طلب منهم أن يدرسوا هذا القرآن ويتدبروا آياته ، وبين أن من حرم هاتين الدراستين فقد رشده " أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون " ؟ . والعالم يصرخ بأن ليس له إلا رب واحد ، فى أى زوايا الأرض أو الفضاء يقبع هذا الإله الآخر المسكين ؟ ومواريث السماء متفقة على أن الله واحد ، وكل ما عداه مخلوق له ، ليس لله بنون ولا بنات ، الله ليس لأحد والداً ! ! . وقد شرح القرآن ذلك أوفى شرح ، فمبلغ القرآن " محمد " عبد لله كغيره من حملة سائر الوحى ، ومن قال غير ذلك فهو يهرف بما لا يعرف " وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا * ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا " . والقرآن

المصدر الأول ـ أو قل المصدر الأوحد ـ لتقرير الوحدانية ، ولذلك وصف بأنه قويم الفكرة والتوجيه برئ مما لحق غيره من آفات . وتوضيح الحق وتحديد مصدره نعمة سابغة ، ولذلك فتحت سورة الكهف بهذه الآيات "الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا * ماكثين فيه أبدا " . وقد تضمنت

هذه السورة أطرافا من تاريخ الحياة الإنسانية تشهد بصدق موضوعها : وهو التوحيد ، وما ذكر هنا نماذج لما لم يذكر من أحوال الناس . ففيها قصة الفتية أهل الكهف ، والرجلين: صاحب الجنة ، ومحاوره الفقير ، وحكاية موسى مع الخضر ، ونبذة مجملة عن حياة ذى القرنين ! . وبعد كل قصة تعليق شاف رائع يهدى إلى الله ويعد للقائه . وقبل الإفاضة فى شرح هذه الأحداث قيل لمحمد : بلغ ولا تحزن لتكذيب مكذب ، قد كان فؤاده يطفح بالكآبة وهو يدعو إلى الله بإخلاص فيفجؤه انصراف الناس ، وتهجم المكذبين . إنه صاحب حق ضلوا عنه ، وتبعوا أوهاما لن تقودهم إلا إلى الردى . وما أكثر الحيارى التائهين فى هذه الدنيا ، وما أشد صدودهم عن الهدى ! . لكن الله يقول له : " فلعلك

باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا " لا يقتلنك الحزن على حالهم ، إن عليك إلا البلاغ . . إن كل إنسان أوتى عقلا يحاسب به ، ويساءل عن الفترة التى يقضيها على ظهر الأرض . فمن أحسن العمل نجا ، ومن أساء هوى ، ولا يظلم ربك أحدا . . . ثم بدأ سرد قصة أهل الكهف . . . وأهل الكهف شباب آمنوا بالله الواحد ، وعلموا أن ما دونه أصفار لا تضر ولا تنفع ، لكن قومهم كانوا يؤمنون بآلهة أخرى ما أنزل الله بها من سلطان ، فوقعت النفرة واشتدت الخصومة " هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا " . "وفى مراحل الفتنة التى مرت بهم فروا إلى كهف يؤويهم من الظلمة ، ويحميهم من بطشهم ، فشاء الله أن يجعل من سيرتهم وحيا يتلى إلى آخر الدهر ! . ومأساة الاستبداد السياسى والمقاومة المؤمنة تتكرر على اختلاف الليل والنهار ، وكذلك نصر الله للمؤمنين وخذلانه للكافرين " أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا " ؟ إن تاريخهم ليس بدعا فى التاريخ ! . على أنى أنظر إلى مقامهم فى الكهف . كما أراد الله لهم . فأشعر بالدهشة . يقول العلم : إن " الشمس على بعد مائة وخمسين مليون كيلو ،

وإن شعاعها ينطلق منها ليصل إلينا فى ثمانى دقائق .

وها هو ذا ضوءها يسقط على الكهف المعمور بأهله ، إن الشعاع يميل عن فم الكهف فى الصباح يمينا ، وفى المساء شمالا ، حتى لا يشعر مار بأن فى الكهف أحدا ! . ما هذه الآية الحانية على الشباب المؤمن ؟ "وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله . . " . ما أكثر آيات الله فى الأولين والآخرين ، وما أكثرها حولنا ونحن فى غيبوبة لا نشعر بها . . وبعد ثلاثمائة سنة يستيقظون ، فماذا يعنيهم بعدما صحوا جياعا عقب نوم طويل ؟ يرسلون أحدهم ليشترى طعاما ، ويقولون له: احذر أن يعرفك أحد من المشركين " إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا " . إنهم لا يدرون شيئًا مما عراهم ، كل ما يغنيهم الثبات على الحق ، ونبذ الضلالة ، والفرار من الفتنة ، ولذلك ختمت قصتهم بقوله تعالى: " قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا " . إن القصة كلها لدعم عقيدة التوحيد ، ذلك وقد جاء أول السورة قول تعالى " . . . أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا " فلا عجب إذا جاء بعد ختام القصة " واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا " . . والناس من هذا الكتاب فريقان: فريق آمن به وتبع رسوله ، وفريق آخر زاغ عن الحق وتبع هواه ، وهنا نجد الله سبحانه يوصى نبيه بأن يكون مع الفريق الأول برا

ودودا " واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه" . ومع الفريق الآخر نابذا مباعدا " ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا " ولكلا الفريقين مصيره العدل عندما تقوم الساعة " إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها " أما أهل التقى والشرف فلهم جزاء آخر " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا "

(218/467)

وبعد هذا البيان الشافى يقال لأهل الأرض أجمعين : " وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر "

(219/467)

المؤمن إنسان يعرف ربه ، ويحيا له ، ويستعد للقائه ، ويعلم أن الموت لا يقطع خط الحياة ، فإن هذا الخط لا يقطعه شىء ، إن الموت نقطة تحول – وحسب – من حياة إلى أخرى . أما الكافر فامرؤ يعرف نفسه ويحيا لها ، ويقضى العمر فى تحصيل حاجاته ، وإدراك لباناته ،

ولاينتظر بعثا بعد الموت ، فإن حياته الحاضرة هى عنده الأولى والآخرة . . وفى سورة الكهف حوار بين كافر على جانب من الثراء ومؤمن قليل المال " واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا . . . " ولم تكن للآخر أمثال ! هذه الحدائق الزاهرة . . فإذا الغنى المغرور يقول له مفاخرا مكاثرا : " أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا . . " لماذا تعير إنسانا مثلك بفقره ؟ ساعده إن استطعت ، واحفظ لسانك عنه . . ! من يدرى ! قد يكون خيرا منك عند الله . . ؟ . إن الله جمره من مطيع تطاول بطاعته ، وقال ! لرجل مقصر : والله لايغفر الله لك . ! فقال الله له يوم القيامة : " أكنت على مافى يدى قادرا ؟ ! فإنى قد غفرت له وأحبطت عملك . . . ! ! " . أدب الإسلام أن تنظر إلى نعم الله عندك على أنها فضل الله عليك ومنته ، ومن دعاء المسلم لربه : "اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت " . ومن المكثرين من يحسب أنه جمع ماله بما أوتى من ذكاء ، ويقول كما قال قارون : " إنما أوتيته على علم عندي . . " فلنفرض أنك عبقرى ، وأنك جمعت ثروتك بذكائك الخارق ، فمن منحك هذا الذكاء ؟ وميزك بتلك المقدرة ؟ . إنه الله الذى ينبغى أن ترد إليه ما عندك كله ، وهذا ما شرحه المؤمن الفقير لصاحبه المغرور " ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترني أنا أقل منك مالا وولدا * فعسى ربي أن يؤتيني خيرا من جنتك ويرسل عليها

حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا . . . " ! ! وكان ما توقعه المؤمن المنكسر ، فإن جوائح السماء هبطت على

(220/467)

الجنة المزدهرة فجعلتها قاعا صفصفا ، وتركت صاحبها يصيح من الندم يقول: "يا ليتني لم أشرك بربي أحدا * ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا " . من الذى أشرك به هذا المسكين ؟ لقد أشرك بالله نفسه التى بين جنبيه . إنها الوثن الذى عبده ، لقد جعل إلهه هواه .

(221/467)

الإنسان عادة حريص على مصلحته ويحسن الجرى وراء حاجته ، لكن هذا السعى قد يتورم ويربو ويسد عليه الآفاق فلا يعرف إلا ما يريد ، ومايبقى لله مكان فى ضميره ولا فى سلوكه ! إنه هو الأول والآخر ! ! . والحضارة الحديثة صنعت أجيالا من هذا القبيل ارتبطت بهذا التراب ، فلا تبصر وراءه شيئا . . . بل لقد استبعدت ذكر الآخرة من

حسابها ، وجعلت التفكير فيها أو الحديث عنها لونا من الخرافة لايخوض فيه العقلاء . أو يخطر لهم ببال . . فى هؤلاء يقول الله تعالى : " واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا " على أن الحياة الدنيا – مع انقضائها وانتهائها – ليست شرا محضا ، فقد يكون التمكين فيها من رحمة الله ، كما قال الله بعدما منح يوسف – عليه السلام – أرفع المناصب : " وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين " . إن هذا التمكين قد يكون دعما للحق وعونا للضعاف وسندا للمروءة ، كما قال عروة بن الورد : أليس شديدا أن تلم ملمة – وليس علينا فى الحقوق معول ؟ كما إن دراسة الأرض والسماء ينبوع دفاق يزيد الإيمان ازدهارا ، ويعزف الناس بربهم معرفة حسنة ، والقرآن الكريم بنى صدق الإيمان على التفكر الذكى فى ملكوت الله . . على أن الله لم يحرم اليسار والغنى على عباده الصالحين ليختص بهما العباد المجرمين . وهو لم يغضب على صاحب الجنة المغرور إن كانت له جنة أو جنان ، إنما غضب عليه لأنه كان ذا فكرا سخيف ومنطق غبى ! . ما معنى أن يقول : " ما أظن أن تبيد هذه أبدا * وما أظن

الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا" . لماذا ؟ مكافأة على الكفر والتطاول على الله ؟ إن هذا الأحمق جدير أن يكون حطب النار فى الآخرة ، كما هو جدير بالحرمان فى الدنيا . . وعلى ضوء هذا نفهم التعليق الإلهى على هذه القصة : " المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا" . إن المال والبنين كما يكونان زينة الحياة الدنيا يكونان عدة النصر فى معركة التحرير والشرف ،

كما قال تعالى لبنى إسرائيل حين نصرهم على عدوهم: " ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا " وفى الحديث: " نعم المال ! الصالح للعبد الصالح" . حين تنهزم دوافع الفداء والجهاد أمام حب الدنيا تكون الدنيا مصيبة ! ! . وعندما يغلب الشره والبخل عند وجود المال يكون المال نكبة . أما صاحب المال الذى يساند به الإيمان وينفقه فى الجهاد فهو عابد رفيع الأجر . ونحن ينبغى أن نفهم المرويات فى ذم الدنيا وألا نتجاوز بها حدودها . ومن ذلك هذا الحديث الرقيق الذى يعين على العفة والعزة: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " من كانت الآخرة همه تجعل الله غناه

فى قلبه وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة . ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له ، فلا يمسى إلا فقيرا ، ولا يصبح إلا فقيرا . وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب العباد تنقاد إليه بالود والرحمة . وكان الله بكل خير إليه أصع " . إن هذا الحديث شفاء من جنون الشره ، وعبادة الحياة ، والتعلق بالحطام ، ولا يصد عن غنى يجىء مع التماسك والأدب . مما يثير الأسى حول مستقبل الإنسان أنه ينسى ربه ، وتستغرقه مآرب الدنيا ، فلا يكاد يعد شيئا طائلا للقائه ، تكاد الآخرة تكون فى حسابه وهما وهى حق لا ريب فيه ! . وفقدان الذاكرة على هذا النحو لا يثمر إلا الخسار ، ولذلك اتجه السياق القرآنى إلى التذكير بيوم التلاق " ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا * وعرضوا على ربك صفا " . " ولما كان أغلب الناس يغفل ويذهل ، وينسيه يومه الحاضر ما كان ويكون ، فهو يدهش للإحصاء الدقيق الذى يواجهه " ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا " . ويوم الحساب يوم مفاجآت وتغابن ، فإن

المشركين

يوقنون بأنهم كانوا على خطأ ، والعصاة يشعرون بمدى تفريطهم ! .

(225/467)

ويبدو أن العالم المعاصر سوف يبقى منخدعا بالإمهال الإلهى ، فلا يحدث توبة حتى يحاط به " وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا " . وبعد القصتين السابقتين فى سورة الكهف تجىء قصة ثالثة: قصة موسى نبى بنى إسرائيل مع نبى آخر من عباد الله الصالحين اسمه " خضر " كما ذكرت ذلك السنة الشريفة . والقصة فى نظرى تشرح حكمة شائعة هى " رب ضارة نافعة " أو حكمة أخرى مشابهة " لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع " إننا فى هذه الحياة نعمل ما نرى أنه الصواب ، وأنه النفع المحقق ! ! ثم نفاجأ بالأقدار تفد بنتائج أخرى قد تكون محزنة لنا ، أو مجلبة للسخط ، والأولى أن يستسلم المرء للقدر ، وينزل عند قوله تعالى: " وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون " . هل يعنى ذلك أن نفقد الثقة فى أعمالنا وأحكامنا ؟ لا ، أحكم خطتك واحشد الأسباب الصحيحة ودع ما بقى لله ! ! . هل

يعنى ذلك أن نأذن بارتكاب شىء يخالف العقل والشرع بحجة أن العواقب غيب ؟ كلا . . فمن خالف الشرع والعقل حوسب وأوخذ ، ولا تسمع له حجة . . وقصة موسى مع الخضر مسلك خاص ، تم بوحى أعلى ، فكلا الرجلين يؤدى رسالة من ربه كلف بها . وقد انتهى زمان الوحى والرسالات فمن اقترف عملا منكورا وزعم أنه مكلف به من الله فهو كاذب ، ووجبت عقوبته بمقدار ما اقترف وادعى ! . وما حدث لموسى خاصة كان معاتبة من الله له ، لأنه فى غمرة تبليغ الدعوة سئل هل يوجد من هو أعلم منه ؟ فنفى ، وكان ينبغى أن يرد العلم كله لله . . . فشاء الله أن يؤدبه بهذه القصة الغريبة ليشعر بأنه فوق كل ذى علم عليم ! . وبدأت القصة مشيدة بخلقين عظيمين يحتاج إليهما الرجال الأبطال ، هما : العزم الواثق ، والاحتمال الطويل ، ذاك ما تتضح به الآية: " وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا " أى لن يهدأ لى

نشاط حتى أصل إلى " الخضر" ولو طالت دونه أحقاب ! ! . وموسى نبى من أولى العزم ، فليس بدعا أن تكون لديه هذه الشمائل ، وقد شكا عمر قديما

من عجز الصالح وخيانة القوى ، والواقع أن الأعمال الكبار لا تتم إلا بقوى تقى ، أما الطيبون

الضعفاء فلا خير فيهم . والتقى موسى والخضر ، وقال موسى له فى تواضع جم : " هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا " ؟ ورد الخضر مصارحا بما فى اتباعه من مشقة ربما لا يتحملها موسى : " قال إنك لن تستطيع معي صبرا * وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا " ؟ . لكن موسى تعهد بالصبر والانقياد ، وسرعان ما فقد صبره وانقياده عندما وجد الرجل يخرق سفينة ركباها لبعض شأنهما ، فاعترض هذا العمل المستنكر ! .

وتكرر الإنكار عندما تكررت الأعمال التى لا يقرها موسى ، وشرحت الآيات الموضوع كله : " أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا " . كان الملك المغتصب لا يمر بسفينة صالحة إلا أخذها ، فلما وجد هذه معيبة تركها ، فكان خرقها سبب بقائها لأصحابها . أما الغلام الذى قتله الخضر فكان طاغية كفورا ، وقد نجى الله أبويه من شر ، كما قال فى سورة أخرى : " آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا " . والمهم أن خضر قال لموسى آخر الأمر : " وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا " . هذه مهمات خاصة كلف الله بها واحدا من عباده الصالحين ، ولو أن أحدا قام بهذه الأعمال من تلقاء نفسه لكان خارقا لشرائع الله ، مفسدا فى الأرض ، فالغيوب لصاحبها جل شأنه ، وله أن يكلف من شاء بما شاء . أما الذين يتبعون هواهم ويعتدون على غيرهم فلا ينجون من عقاب ! . إن الخضر انطلق لتنفيذ مهمة خاصة كلفه الله بها ، ومنه استمد مشروعية ما فعل . . ! ولا يتاح ذلك

لغيره أبدا . . وقد يقال: هل خضر أفضل عند الله من موسى ؟ . ونجيب: كلا ، فموسى واحد من المرسلين الخمسة أولى العزم الذين أخذ الله عليهم المواثيق بهداية

البشر ، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، ولا يفضل هؤلاء أحد من الناس . والمزية التى ظهرت للخضر هنا لاتقدمه على موسى ، فإن المزية لاتقتضى الأفضلية ، ومكانة الرجل تجيء من مواهب كثيرة تلتقى فى شخصه ، لامن موهبة واحدة يكون فيها مبرزا ، على حين يكون عاديا فى بقية صفاته . قد يكون المريض فى فراشه أحد بصرا من عواده ، فهل يفضلهم بهذه الميزة؟ . إذا ذكر التدين سبق إلى الأذهان الزهد فى الدنيا والبعد عنها ، والحق أن التدين المعزول عن الدنيا أو العاجز فيها لاخير فيه ، ولاجدوى منه . وقد جاءت القصة الرابعة فى سورة الكهف لرجل ملهم أوتى الملك والعلم ، فكان تدينه نموذجا حسنا للصلاح والإصلاح ، أو للتقوى والتمكين فى الأرض ، هذا الرجل هو ذو القزدين . ولايعنينا الاستيقان من أنه كان ملكا لليونان أو للفرس أو للصين أو لليمن ، وإنما يعنينا أن الله مهد له الطريق لأسباب القوة فسلكه ، وكان له ملك عظيم التقى فيه العلم والإيمان والحكمة والإنصاف: "ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا

* إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا * فأتبع سببا " . ما فتح الله له باب خير إلا وتجة ولجه فى مرضاة ربه . وخرج الرجل يسيح فى الأرض بما آتاه الله من قوى ، حتى انتهى إلى شاطئ لا أرض بعده ، ورأى قرص الشمس يسقط فى اللجج - كما تتخيل العين - وهناك وجد قوما أخلاطا فيهم المحسن والمسىء فأوحى الله له: " إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا * قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا * وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى " . وهذه سياسة حسنة لحاكم عادل . . وفى سياحة أخرى نحو المشرق وجد قوما متخلفين لا يسترهم من الشمس شىء ، ولعل ذا القرنين ترك بين هؤلاء من يرفع مستواهم ويصلح أحوالهم . . وفى سياحة أخرى بلغ بين السدين - سلاسل من الجبال - تعيش فيها شعوب يشبهون من سبقهم فى التخلف والعجز ، لكن جيرانهم يغيرون عليهم وينالون

منهم: " قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا " ؟ . فأبدى لهم ذو القرنين أنه مستغن . عن مالهم ، وأن ما آتاه الله خير مما لديهم ، وطلب منهم أن يعاونوه فى إقامة سد عظيم يحجز عنهم الأعداء "

فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما " .

وظهرت عبقرية ذى القرنين الهندسية فقد بنى خطا من الاستحكامات العسكرية ذوب فيه الحديد والنحاس والصخور ، أعلى بناءه ، وقوى أسفله ، وساوى بين حافتى الجبلين ، وأنشأ بذلك حاجزا يصد الأعداء " فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا * قال هذا رحمة من ربي " . إننى عندما أقرأ خبر هذا الرجل أشعر بالحزن ، لأن الخبرة الفنية التى أبداها لا تعرف اليوم بين المسلمين ، لقد انفرد الأجانب بها ، وأمسوا الخبراء المتخصصين فيها . . إن المهارة فى شئون الحياة صارت لديهم ملكة راسخة . والغريب أننا بدل أن نتعلم الإبداع فى شئون الدنيا تعلمنا الابتداع فى شئون الدين ، فأتينا بأمور ما أنزل الله بها من سلطان . وكان من وراء ذلك فوضى عقلية وخلقية ، أخرتنا فى معاشنا ومعادنا . . . ! ! ويأجوج ومأجوج جيل من الهمج لا يضبطهم وحى ولا تحكمهم شريعة ، وهم يعيشون فى الصين ، ويبدو من جرس الكلمة أنها صينية الأصل . وقد ذكر القرآن الكريم فى هذه السورة أن مدنا كثيرة سوف تعذب آخر الزمان : " وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا " . كما جاء فى سورة الإسراء : " وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا . . . " . فهل ذلك على يد يأجوج ومأجوج ؟ أو يصادف خروجهم ؟ قال تعالى فى سورة الأنبياء : " حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار

الذين كفروا . . . " . ذلك . وقد جاء ذكر يأجوج ومأجوج فى التوراة كما جاء فى القرآن الكريم . . وتختم سورة الكهف بالمعانى التى ذكرت أولها ، فالسورة كما أوضحنا

لتقرير عقيدة التوحيد ، ونفى أن يكون لله أولاد أو أنداد "كبرت كلمة تخرج من أفواههم . . . " وهنا يقول: "أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا " .

وفى أول السورة يبين المولى سبحانه أن الناس خلقوا لإحسان العمل ، وتلك وظائفهم فى الحياة " إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا " . وهنا يقول: " قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه . . . . " . وبعد تقرير جزاء المحسن والمسىء تجىء آية تتحدث عن كلمات الله وهو يحيى ويميت ويوجه الكائنات كلها وفق ما يريد ، إنه يأمر فيتحرك العالم أجمع من إنسان وحيوان ونبات ، وتأخذ الموجودات أوصافها وأشكالها وأعمارها ، لا فى لحظة واحدة ، بل على امتداد الزمان "كل يوم هو في شأن" . هل يقدر أحد على إحصاء ذلك ؟ مستحيل حتى لو كانت البحار مدادا

والأشجار أقلاما ! . " قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا " وكلمات الله هنا تعنى بداهة ما توجد به الأشياء ، أو تفنى ، وما تتحرك به أو تسكن ! . وختمت السورة بمعنى نبيل : ما دام الرب واحدا ، فليكن هو وحده المقصد . ماذا يجدى غيره ؟ ولماذا نتجه إلى ما لا يضر ولا ينفع . إن جماهير من العميان اتخذت مع الله - أو من دونه - شركاء هم فى الحقيقة أصفار وأوهام . والتوحيد الصحيح أن تفرد الله بالعبادة والدعاء " قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا " . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 229 . 239 ﴾

(230/467)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرَيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والستون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/468)

الجزء الثامن والستون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الكهف

وحتى الآية ﴿ 12 ﴾ من نفس السورة

(4/468)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/468)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الكهف

قال بعضهم: مناسبة وضعها بعد سورة الإسراء : افتتاح تلك بالتسبيح وهذه بالتحميد ، وهما مقترنان في القرآن وسائر الكلام بحيث يسبق التسبيح التحميد ، نحو: (فسبح بحمدِ ربك) وسبحان الله وبحمده قلت: مع اختتام ما قبلها بالتحميد أيضاً ، وذلك من وجوه المناسبة بتشابه الأطراف ثم ظهر لي وجه آخر أحسن في الاتصال وذلك: أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ثلاثة أشياء : عن الروح ، وعن قصة أصحاب الكهف ، وعن قصة ذي القرنين وقد ذكر جواب السؤال الأول في آخر سورة بني إسرائيل ، فناسب اتصالها بالسورة التي اشتملت على جواب السؤالين الآخرين فإن قلت: هلا جمعت الثلاثة في سورة واحدة ؟ قلت: لما لم يقع الجواب عن الأول بالبيان ، ناسب فصله في سورة

(6/468)

ثم ظهر لي وجه آخر: وهو أنه لما قال فيها: (وما أُوتيتُم مِن العلمِ إلا قليلا) والخطاب لليهود، واستظهر على ذلك بقصة موسى في بني إسرائيل مع الخضر، التي كان سببها ذكر العلم والأعلم، وما دلت عليه من إحاطة معلومات الله عز وجل التي لا تحصى، فكانت هذه السورة كإقامة الدليل لما ذكر من الحكم وقد ورد في الحديث أنه لما نزل: (وما أُوتيتُم مِن العلمِ إلا قليلا) قال اليهود: قد أُوتينا التوراة، فيها علم كل شيء، فنزل: (قُل لو كانَ البحرُ مِداداً لكلمات رَبي لنَفدَ البحر قبل أَن تنفد كلمات ربي ولو جِئنا بمثلِه مدداً) فهذا وجه آخر في المناسبة وتكون السورة من هذه الجهة جواباً عن شبهة الخصوم فيما قدر بتلك وأيضاً فلما قال هناك: (فإِذا جاءَ وعد الآخرةِ جئنا بكُم لفيفاً) شرح ذلك هنا وبسطه، بقوله: (فإِذا جاءَ وعد ربي جعله دكاء) إلى (ونُفِخَ في الصور فجمعناهم جمعاً وعرضنا جهنم يومئذٍ للكافرين عرضاً) فهذه وجوه عديدة في الاتصال. انتهى انتهى. ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 115.113﴾

قوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

لما ختمت تلك بأمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحمد عن التنزه عن صفات النقص لكونه أعلم الخلق بذلك ، بدئت هذه بالإخبار باستحقاقه سبحانه الحمد على صفات الكمال التي منها البراءة عن كل نقص ، منبها بذلك على وجوب حمده بما شرع من الدين على هذا الوجه الأحكم بهذا الكتاب القيم الذي خضعت لجلاله العلماء الأقدمون ، وعجز عن معارضته الأولون والآخرون ، الذي هو الدليل على ما ختمت به تلك من العظمة والكمال ، والتنزه والجلال ، فقال ملقنا لعباده حمده ، معلما لهم كيف يثنون عليه ، مفقها لهم في اختلاف العبارات باختلاف المقامات : ﴿ الحمد ﴾ أي الإحاطة بصفات الكمال ﴿ لله ﴾ أي المستحق لذلك لذاته .

ولما أخبر باستحقاقه ذلك لذاته ، أخبر بأنه يستحقه أيضاً لصفاته وأفعاله ، فقال تعالى :

﴿ الذي ﴾ ولما كان المراد وصف جملة الكتاب بالإعجاز من غير نظر إلى التفريق والتدريج ، عبر بالإنزال دون التنزيل فقال : ﴿ أنزل ﴾ وعدل عن الخطاب بأن يقول :

عليك، كما يقول: فلعلك باخع نفسك، كما في ذلك من الوصف بالعبودية والإضافة إليه سبحانه من الإعلام بتشريفه صلى الله عليه وعلى آله وسلم والتنبيه على علة تخصيصه بالإنزال عليه كما تقدم في سورة البقرة، فقال.

(8/468)

مقدماً له على المنزل لأن المراد الدلالة على صحة رسالته بما لا يحتاج فيه قريش إلى سؤال اليهود ولا غيرهم من تخصيصه بما لا يقدر عليه غيره: ﴿على عبده﴾ وإشارة إلى أنه الذي أسرى به إلى حضرات مجده ليريه من آياته ﴿الكتاب﴾ الجامع لمعاني الكتب المشار إليه في آخر التي قبلها بما أشير إليه من العظمة كما آتى موسى التوراة الآمرة بالعدل في الأحكام، وداود الزبور الحادي إلى الزهد والإحسان، على ما أشير إليه في ﴿سبحان﴾.

ولما كان الجامع لا يخلو من عوج أو قابلية له إلا أن كان من علام الغيوب، نفى القابلية والإمكان دلالة على أنه من عنده لينتفي العوج بطريق الأولى فقال تعالى: ﴿ولم﴾ أي والحال أنه لم ﴿يجعل له﴾ ولم يقل: فيه ﴿عوجاً﴾ أي شيئاً من عوج، أي بل هو مستقيم في جميع معانيه من غير اختلاف أصلاً، هادٍ إلى كل صواب، لأن العوج - بالكسر: فقد

الاستقامة في المعاني ، وبالفتح في الأعيان ؛ وأتبعه حالاً أخرى له بقوله تعالى : ﴿ قيماً ﴾ تصريحاً باللازم تأكيداً له ، ومقيداً أنه مهيمن على ما قبله من الكتب مقيم لغيره ، وقد مضى في الفاتحة ثم في الأنعام عن الإمام سعد الدين التفتازاني الشافعي رحمه الله أن كل سورة افتتحت بالحمد فللإشارة إلى نعمة من أمهات النعم التي هي إيجاد وإبقاء أولاً ، وإيجاد وإبقاء ثانياً ، وأنه أشير في الفاتحة لكونها أم الكتاب إلى الأربع ، وفي الأنعام إلى الإيجاد الأول وهو ظاهر ، وفي هذه السورة إلى الإبقاء الأول ، فإن نظام العالم وبقاء النوع الإنساني يكون بالنبي والكتاب .

انتهى .

ويؤيده أنه في هذه السورة ذكر أنه انتظم بأهل الكهف أمر من اطلع عليهم من أهل زمانهم ثم بالخضر عليه السلام كثير من الأحوال ، ثم بذي القرنين أمر جميع أهل الأرض بما يسر له من الأسباب التي منها السد الذي بيننا وبين ياجوج وماجوج الذين يكون بهم .

إذا أخرجهم الله تعالى - فساد الأرض كلها ، ثم ذكر في التي تليهما من أهل وده واصطفائه من اتبعهم لنظام العالم بما وفقهم له من طاعته ، وبصرهم به من معرفته ، واستمر كذلك في

أكثر السور حتى ذكر السورة التي أشار فيها إلى الإيجاد الثاني ، وأتبعها بالتي أشار فيها إلى الإبقاء الثاني ، ولما كان إبقاء الأول يقتضي مهلة لبلوغ حد التكليف وإجراء القلم ثم مهلة أخرى يكون فيها العمل والاستعداد لما لأجله كان هذا الوجود من العرض على الرحمن ، للجزاء بالإساءة أو الإحسان ، ومهلة أخرى يُحبس فيها السابق من الخلائق إلى ورود مشرع الموت لانتظار اللاحق ، إلى بلوغ ما ضرب سبحانه من الآجال ، لأزمان الإمهال ، وقيام الناس أجمعين ، لرب العالمين ، وهو البرزخ وكان ما قبل التكليف شبيهاً بالعدم إلا في تعلم الكتاب والتوحيد والاجتماع على أهل الدين والوفاء بما تقدموا فيه بالعهد من الأحكام ، ودربوا عليه من الحلال والحرام ، أشير إليه بما بين الفاتحة والأنعام التي هي سورة الإيجاد الأول من السور الأربع ، وكأن سن الاحتلام كان أول الإيجاد من الإعدام ، وأشير إلى بقية العمر وهو زمان التكليف بما بين الأنعام وهذه السورة من السور التي ذُكِرَ فيها مصارع الأولين وأخبار الماضين تحذيراً من مثل أحوالهم ، لمن نسج على منوالهم ، وختمت بالتحميد مقترناً بالتوحيد إشارة إلى أنه يجب الاجتهاد في أن يختم الأجل في أعلى ما يكون من خصال الدين ، وأشير إلى مهلة البرزخ بما بين هذه وسورة الإيجاد الثاني من السور التي ذكر في غالبها مثل ذلك ، وأكثر فيها كلها من ذكر الموت وما بعده من البرزخ الذي يكون لانقطاع العلائق باجتماع الخلائق ، لأجل التجلي في رد العظمة ، والكشف البليغ عن نفوذ الكلمة ، والتحلي بالحكم باستقرار الفريقين في دار النعيم أو غار الجحيم ، وأكثر فيما بين

هذه وبين سبأ من أمر البعث كثرة ليست فيما مضى حتى صدر بعضها به ، وبناها عليه كسورتي

(10/468)

الأنبياء ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ [الأنبياء : 1] والحج ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ [الحج : 1] ولما لم يكن بين البعث وما بعده مهلة لشيء من ذلك ، عقب سورة الإيجاد الثاني بسورة الإبقاء الثاني من غير فاصل ولا حاجز ولا حائل - والله أعلم .

ولما وصف الكتاب بما له من العظمة في جميع ما مضى من أوصافه من الحكمة والإحكام ، والتفصيل والبيان ، والحقية ، والإخراج من الظلمات إلى النور ، والجمع لكل معنى والتبيان لكل شيء ، أتبعه ذكر فائدته مقدماً ما هو الأهم من درء المفسدة بالإنذار ، لأنه مقامه كما هو ظاهر من ﴿ سبحان ﴾ فقال : ﴿ لينذر ﴾ وقصره على المفعول الأول ليعم كل من يصح قبوله الإنذار ولو تقديراً ، وليفيد أن الغرض بيان المنذر به لا المنذر ﴿ بأساً شديداً ﴾ كائناً ﴿ من لدنه ﴾ أي أغرب ما عنده من الخوارق بما في هذا الكتاب من الإعجاز لمن خالف أمره من عذاب الدنيا والآخرة كوقعة بدر وغيرها المفيد لإدخال الإسلام عليهم وهم كارهون ، بعد ما كانوا فيه من القوة وهو من الضعف ﴿ ويبشر

المؤمنين ﴾ أي الراسخين في هذا الوصف ﴿ الذين يعملون الصالحات ﴾ وهو ما أمر به خالصاً له ، وذلك من أسنان مفتاح الإيمان ﴿ أن لهم ﴾ أي من حيث هم عاملون ﴿ أجراً حسناً ﴾ وهو النعيم ، حال كونهم ﴿ ماكثين فيه أبداً ﴾ بلا انقطاع أصلاً ، فإن الأبد زمان لا آخر له ، فجمعت هاتان العلتان جميع معاني الكتاب فإنه لا يكون كذلك إلا وقد جمع أيضاً جميع شرائع الدين وأمر المعاش وأمر المعاد وما يعنيهم فعله أو تركه أو اعتقاده ، وما يتبع ذلك ، وذلك هو القيم ، أي المستقيم في نفسه ، المقيم لغيره . انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 441.444 ﴾

(11/468)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ من لدنه ﴾ بإشمام الدال ﴿ شيئاً ﴾ بالضم وكسر النون ووصل الهاء بالياء : يحيى . الآخرون بضم الدال وسكون النون وضم الهاء ﴿ ويبشر ﴾ مخففاً . حمزة وعلي . الباقون بالتشديد . ﴿ هيىء لنا ﴾ ﴿ ويهيىء لكم ﴾ بتليين الهمزة فيهما إلا أوقية والأعشى في الوقوف ﴿ فاووا ﴾ بإبدال الهمزة ألفاً : أبو عمرو ويزيد والأعشى

والأصبهاني عن ورش وحمزة في الوقف ﴿ مرفقاً ﴾ بفتح الميم وكسر الفاء : أبو جعفر ونافع وابن عامر والأعشى والبرجمي ، الآخرون على العكس ﴿ تزاور ﴾ خفيفاً بحذف تاء التفاعل : عاصم وحمزة علي وخلف ﴿ تزور ﴾ بتشديد الراء : ابن عامر مثل " تحمر " ويعقوب . الباقون ﴿ تزاور ﴾ بتشديد الزاي لإدغام التاء فيه ﴿ المهتدي ﴾ كما مر في " سبحان " ﴿ ولملئت ﴾ مشددة للمبالغة : أبو جعفر ونافع وابن كثير ، وقرأ أبو عمرو ويزيد والأعشى والأصبهاني عن ورش وحمزة في الوقف غير مهموز : ﴿ بورقكم ﴾ بسكون الراء : أبو عمرو وحمزة وحماد وأبو بكر والخزاز عن هبيرة وعباس بكير الراء وإدغام القاف في الكاف الآخرون بكسر الراء مظهراً ﴿ ربي أعلم ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ أن يهديني ﴾ و ﴿ أن ترني ﴾ و ﴿ وأن يؤتيني ﴾ و ﴿ أن تعلمني ﴾ بالياآت في الحالين : سهل ويعقوب وابن كثير غير ابن فليح . وزمعة . وروى ابن شنبوذ عن قنبل كلها بالياء في الحالين . وعن البزي وابن فليح كلها بغير ياء - في الحالين - وافقهم أبو جعفر ونافع وأبو عمرو بالياء في الوصل ﴿ ثلثمائة سنين ﴾ بالإضافة : حمزة وعلي وخلف الباقون بالتنوين ﴿ ولا تشرك ﴾ بالتاء على النهي : ابن عامر وروح وزيد . الآخرون ﴿ ولا يشرك ﴾ بياء الغيبة ورفع الكاف .

الوقوف : ﴿ عوجاً ﴾ ه ط لأن ﴿ قيماً ﴾ ليس بصفة له ولكنه انتصب بمحذوف دل عليه المتلو وهو أنزل أي أنزله قيما ، وللوصل وجه وهو أن يكون حالاً من الكتاب أو العبد وما بينهما اعتراض ﴿ حسناً ﴾ ، 5 لا ﴿ أبداً ﴾ 5 ﴿ ولداً ﴾ ج 5 ، لأن ما بعده يحتمل الصفة أو ابتداء وإخبار ، والوقف أوضح ليكون ادعاء الولد مطلقاً كما هو الظاهر ﴿ لآبائهم ﴾ ط ﴿ من أفواههم ﴾ ط ﴿ كذبا ﴾ 5 ﴿ أسفا ﴾ 5 ﴿ عملا ﴾ 5 ﴿ جرزا ﴾ ، 5 ط لتمام القصة ما بعده استفهام تقرير وتعجيب ﴿ عجباً ﴾ 5 ﴿ رشدا ﴾ 5 ﴿ عددا ﴾ ، لا للعطف ﴿ أمدا ﴾ 5 ﴿ بالحق ﴾ ط ﴿ هدى ﴾ والوصل أولى للعطف ﴿ شططاً ﴾ 5 ﴿ آلهة ﴾ ط لابتداء التحضيض ﴿ بين ﴾ ط ﴿ كذبا ﴾ 5 ﴿ مرفقاً ﴾ 5 ﴿ فجوة منه ﴾ ط ﴿ آيات الله ﴾ ط ﴿ فهو المهتد ﴾ ج ﴿ مرشداً ﴾ 5 ﴿ رقود ﴾ قف والأولى الوصل على أن ما بعده حال أي رقدوا ونحن نقلبهم ﴿ الشمال ﴾ قف والوصل أحسن على أن المعنى نقلبهم وكلبهم باسط ﴿ بالوصيد ﴾ ط ﴿ رعباً ﴾ 5 ﴿ بينهم ﴾ ط ﴿ كم لبثتم ﴾ ط ﴿ بعض يوم ﴾ ط ﴿ أحداً ﴾ 5 ﴿ أبداً ﴾ 5 ﴿ لا ريب فيها ﴾ ج لأن " إذا " يصلح أن يكون طرفاً للإعثار عليهم وأن يكون منصوباً بإضمار " اذكر " ﴿ بنياناً ﴾ ط ﴿ بهم ﴾ ط ﴿ مسجداً ﴾ 5 ﴿ رابعهم كلبهم ﴾ ج فصلاً بين المقالتين مع اتفاق الجملتين ﴿ بالغيب ﴾

ج لوقوع العارض ﴿ كلبهم ﴾ ط ﴿ قليل ﴾ 5 ﴿ ظاهراً ﴾ ص ﴿ أحداً ﴾ 5 ﴿ يشاء الله ﴾ ز لاتفاق الجملتين مع عارض الظرف والاستثناء ﴿ رشداً ﴾ 5 ﴿ تسعاً ﴾ 5 ﴿ لبثوا ﴾ ج لاحتمال أن ما بعده مفعول " قل " أو إخبار مستأنف ﴿ والأرض ﴾ ط لابتداء التعجب ﴿ وأسمع ﴾ ط ﴿ من ولى ﴾ ط لمن قرأ ﴿ ولا تشرك ﴾ على النهي ، ومن قرأ على الغيبة إخباراً جوز وقفه لاختلاف الجملتين ﴿ أحداً ﴾ 5 .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 402 . 403 ﴾

(13/468)

فصل

قال الفخر :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أما الكلام في حقائق قولنا : ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ فقد سبق ، والذي أقوله ههنا أن التسبيح أينما جاء فإنما جاء مقدماً على التحميد ، ألا ترى أنه يقال : سبحان الله والحمد لله إذا عرفت

هذا فنقول : إنه جل جلاله ذكر التسبيح عندما أخبر أنه أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [الإسراء : 1] وذكر التحميد عندما ذكر أنه أنزل الكتاب على محمد صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾ وفيه فوائد :

الفائدة الأولى : أن التسبيح أول الأمر لأنه عبارة عن تنزيه الله عما لا ينبغي وهو إشارة إلى كونه كاملاً في ذاته والتحميد عبارة عن كونه مكملاً لغيره ، ولا شك أن أول الأمر هو كونه كاملاً في ذاته .

ونهاية الأمر كونه مكملاً لغيره .

فلا جرم وقع الابتداء في الذكر بقولنا ﴿ سبحان الله ﴾ ثم ذكر بعده ﴿ الحمد لله ﴾ تنبيهاً على أن مقام التسبيح مبدأ ومقام التحميد نهاية .

إذا عرفت هذا فنقول : ذكر عند الإسراء لفظ التسبيح وعند إنزال الكتاب لفظ التحميد .

وهذا تنبيه على أن الإسراء به أول درجات كماله وإنزال الكتاب غاية درجات كماله ، والأمر في الحقيقة كذلك لأن الإسراء به إلى المعراج يقتضي حصول الكمال له ، وإنزال الكتاب عليه يقتضي كونه مكملاً للأرواح البشرية وناقلاً لها من حضيض البهيمية إلى أعلى درجات الملكية ، ولا شك أن هذا الثاني أكمل .

وهذا تنبيه على أن أعلى مقامات العباد مقاماً أن يصير (العبد) عالماً في ذاته معلماً لغيره ولهذا روي في الخبر أنه عليه الصلاة والسلام قال: " من تعلم وعلم فذاك يدعى عظيماً في السموات "

(14/468)

الفائدة الثانية: أن الإسراء عبارة عن رفع ذاته من تحت إلى فوق وإنزال الكتاب عليه عبارة عن إنزال نور الوحي عليه من فوق إلى تحت، ولا شك أن هذا الثاني أكمل.

الفائدة الثالثة: أن منافع الإسراء به كانت مقصورة عليه ألا ترى أنه تعالى قال هنالك: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ ءاياتنا﴾ [الإسراء: 1] ومنافع إنزال الكتاب عليه متعدية، ألا ترى أنه قال: ﴿لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مّن لَّدُنْهُ وَيُبَشّرَ المؤمنين﴾ والفوائد المتعدية أفضل من القاصرة.

المسألة الثانية:

المشبهة استدلوا بلفظ الإسراء في السورة المتقدمة وبلفظ الإنزال في هذه السورة على أنه تعالى مختص بجهة فوق.

والجواب عنه مذكور بالتمام في سورة الأعراف في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ استوى عَلَى العرش﴾ [الأعراف: 54].

المسألة الثالثة :

إنزال الكتاب نعمة عليه ونعمة علينا ، أما كونه نعمة عليه فلأنه تعالى أطلعه بواسطة هذا الكتاب الكريم على أسرار علوم التوحيد والتنزيه وصفات الجلال والإكرام وأسرار أحوال الملائكة والأنبياء وأحوال القضاء والقدر ، وتعلق أحوال العالم السفلي بأحوال العالم العلوي ، وتعلق أحوال عالم الآخرة بعالم الدنيا ، وكيفية نزول القضاء من عالم الغيب ، وكيفية ارتباط عالم الجسمانيات بعالم الروحانيات ، وتصيير النفس كالمرآة التي يتجلى فيها عالم الملكوت وينكشف فيها قدس اللاهوت فلا شك أن ذلك من أعظم النعم ، وأما كون هذا الكتاب نعمة علينا فلأنه مشتمل على التكاليف والأحكام والوعد والوعيد والثواب والعقاب ، وبالجملة فهو كتاب كامل في أقصى الدرجات فكل واحد ينتفع به بمقدار طاقته وفهمه فلما كان كذلك وجب على الرسول وعلى جميع أمته أن يحمدوا الله عليه فعلمهم الله تعالى كيفية ذلك التحميد فقال : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾ ثم إنه تعالى وصف الكتاب بوصفين فقال : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا قَيِّماً ﴾ وفيه أبحاث :

(15/468)

البحث الأول : أنا قد ذكرنا أن الشيء يجب أن يكون كاملاً في ذاته ثم يكون مكملاً لغيره ويجب أن يكون تاماً في ذاته ثم يكون فوق التمام بأن يفيض عليه كمال الغير (1)

إذا عرفت هذا فنقول في قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ إشارة إلى كونه كاملاً في ذاته وقوله : ﴿ قَيِّماً ﴾ إشارة إلى كونه مكملاً لغيره لأن القيم عبارة عن القائم بمصالح الغير ونظيره قوله في أول سورة البقرة في صفة الكتاب : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] فقوله : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ إشارة إلى كونه في نفسه بالغاً في الصحة وعدم الإخلال إلى حيث يجب على العاقل أن لا يرتاب فيه وقوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ إشارة إلى كونه سبباً لهداية الخلق وإكمال حالهم فقوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ قائم مقام قوله : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وقوله : ﴿ قَيِّماً ﴾ قائم مقام قوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وهذه أسرار لطيفة .

البحث الثاني : قال أهل اللغة العوج في المعاني كالعوج في الأعيان ، والمراد منه وجوه :

أحدها : نفي التناقض عن آياته كما قال : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيراً ﴾ [النساء : 82] .

وثانيها : أن كل ما ذكر الله من التوحيد والنبوة والأحكام والتكاليف فهو حق وصدق ولا خلل في شيء منها ألبتة .

وثالثها : أن الإنسان كأنه خرج من عالم الغيب متوجهاً إلى عالم الآخرة وإلى حضرة جلال الله وهذه الدنيا كأنها رباط بني على طريق عالم القيامة حتى أن المسافر إذا نزل فيه اشتغل

بالمهمات التي يجب رعايتها في هذا السفر ثم يرتحل منه متوجهاً إلى عالم الآخرة فكل ما دعاه في الدنيا إلى الآخرة ومن الجسمانيات إلى الروحانيات ومن الخلق إلى الحق ومن اللذات الشهوانية الجسدانية إلى الاستنارة بالأنوار الصمدانية فثبت أنه مبرأ عن العوج والانحراف والباطل فلهذا قال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ .

---

(1) يظهر أنه وقع في العبارة تحريف ولعل الصواب أن يقال : بأن يفيض على غيره الكمال . وهذا نظير قوله فيما سبق في نفس هذا البحث : ثم يكون مكملا لغيره «الصاوي» .

الصفة الثانية : للكتاب وهي قوله : ﴿ قَيِّماً ﴾ قال ابن عباس يريد مستقيماً وهذا عندي مشكل لأنه لا معنى لنفي الإعوجاج إلا حصول الاستقامة فتفسير القيم بالمستقيم يوجب التكرار وأنه باطل ، بل الحق ما ذكرناه وأن المراد من كونه : ﴿ قَيِّماً ﴾ أنه سبب لهداية الخلق وأنه يجري مجرى من يكون قيماً للأطفال ، فالأرواح البشرية كالأطفال ، والقرآن كالقيم الشفيق القائم بمصالحهم .

البحث الثالث : قال الواحدي جميع أهل اللغة والتفسير قالوا هذا من التقديم والتأخير والتقدير : أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً .

وأقول قد بينا ما يدل على فساد هذا الكلام لأنا بينا أن قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ يدل على كونه كاملاً في ذاته ، وقوله : ﴿ قَيِّماً ﴾ يدل على كونه مكملاً لغيره وكونه كاملاً في ذاته متقدم بالطبع على كونه مكملاً لغيره فثبت بالبرهان العقلي أن الترتيب الصحيح هو الذي ذكره الله تعالى وهو قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا قَيِّماً ﴾ فظهر أن ما ذكروه من التقديم والتأخير فاسد يمتنع العقل من الذهاب إليه .

البحث الرابع : اختلف النحويون في انتصاب قوله : ﴿ قَيِّماً ﴾ وذكروا فيه وجوهاً .

الأول : قال صاحب "الكشاف" لا يجوز جعله حالاً من الكتاب لأن قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أَنزَلَ ﴾ فهو داخل في حيز الصلة فجعله حالاً من ﴿ الكتاب ﴾ يوجب الفصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة ، وأنه لا يجوز .

قال : ولما بطل هذا وجب أن ينتصب بمضمر والتقدير : ولم يجعل له عوجاً وجعله قيماً .

الوجه الثاني : قال الأصفهاني الذي نرى فيه أن يقال قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ حال وقوله : ﴿ قَيِّماً ﴾ حال أخرى وهما حالان متواليان والتقدير أنزل على عبده الكتاب غير مجعول له عوجاً قيماً .

الوجه الثالث : قال السيد صاحب "حل العقد" يمكن أن يكون قوله : ﴿ قَيِّماً ﴾ بدلاً من قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ لأن معنى : ﴿ لَّمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ أنه جعله مستقيماً فكأنه قيل : أنزل على عبده الكتاب وجعله قيماً .

(18/468)

الوجه الرابع : أن يكون حالاً من الضمير في قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ أي حال كونه قائماً بمصالح العباد وأحكام الدين ، واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه : أنزل على عبده الكتاب الموصوف بهذه الصفات المذكورة أردفه ببيان ما لأجله أنزله فقال : ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ وأنذر متعد إلى مفعولين كقوله : ﴿ إِنَّا أنذرناكم عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ [النبأ : 40] إلا أنه اقتصر ههنا على أحدهما وأصله ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ الذين كفروا ﴿ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ كما قال في ضده : ﴿ وَيُبَشِّرُ المؤمنين ﴾ والبأس مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ [الأعراف : 165] وقد بؤس العذاب وبؤس الرجل بأساً وبآسة وقوله : ﴿ مِن لَّدُنْهُ ﴾ أي صادراً من عنده قال الزجاج وفي : لدن لغات يقال لدن ولدي ولد والمعنى واحد ، قال وهي لا تتمكن تمكن عند لأنك تقول هذا القول صواب عندي ولا تقول صواب لدني وتقول عندي مال عظيم والمال غائب عنك ولدني لما يليك لا غير وقرأ عاصم في رواية أبي بكر

بسكون الدال مع إشمام الضم وكسر النون والهاء وهي لغة بني كلاب ثم قال تعالى :

﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ واعلم أن المقصود من إرسال الرسل إنذار المذنبين وبشارة المطيعين ، ولما كان دفع الضرر أهم عند (ذوي) العقول من إيصال النفع لا جرم قدم الإنذار على التبشير في اللفظ ، قال صاحب "الكشاف" وقرىء ﴿ ويبشر ﴾ بالتخفيف والتثقيل وقوله : ﴿ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ يعني خالدين وهو حال للمؤمنين من قوله : ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا ﴾ ، قال القاضي : الآية دالة على صحة قولنا في مسائل ، أحدها : أن القرآن مخلوق وبيانه من وجوه .

الأول : أنه تعالى وصفه بالإنزال والنزول وذلك من صفات المحدثات فإن القديم لا يجوز عليه التغير .

(19/468)

الثاني : وصفه بكونه كتاباً والكتب هو الجمع وهو سمي كتاباً لكونه مجموعاً من الحروف والكلمات وما صح فيه التركيب والتأليف فهو محدث .

الثالث : أنه تعالى أثبت الحمد لنفسه على إنزال الكتاب والحمد إنما يستحق على النعمة والنعمة محدثة مخلوقة .

الرابع : أنه وصف الكتاب بأنه غير معوج وبأنه مستقيم والقديم لا يمكن وصفه بذلك فثبت أنه محدث مخلوق .

وثانيها : مسألة خلق الأعمال فإن هذه الآيات تدل على قولنا في هذه المسألة من وجوه .

الأول : نفس الأمر بالحمد لأنه لو لم يكن للعبد فعل لم ينتفع بالكتاب إذ الانتفاع به إنما يحصل إذا قدر على أن يفعل ما دل الكتاب على أنه يجب فعله ويترك ما دل الكتاب على أنه يجب تركه وهو إنما يفعل ذلك لو كان مستقلاً بنفسه ، أما إذا لم يكن مستقلاً بنفسه لم يكن لعوج الكتاب أثر في اعوجاج فعله ولم يكن لكون الكتاب قيماً أثر في استقامة فعله ، أما إذا كان العبد قادراً على الفعل مختاراً فيه بقي لعوج الكتاب واستقامته أثر في فعله .

والثاني : أنه تعالى لو كان أنزل بعض الكتاب ليكون سبباً لكفر البعض وأنزل الباقي ليؤمن البعض الآخر فمن أين أن الكتاب قيم لا عوج فيه ؟ لأنه لو كان فيه عوج لما زاد على ذلك .

والثالث : قوله : ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ وفيه دلالة على أنه تعالى أراد منه صلى الله عليه وسلم إنذار الكل وتبشير الكل وبتقدير أنه يكون خالق الكفر والإيمان هو الله تعالى لم يبق للإنذار والتبشير معنى لأنه تعالى إذا خلق الإيمان فيه حصل شاء أو لم يشأ وإذا خلق الكفر فيه حصل شاء أو لم يشاء فبقي الإنذار والتبشير على الكفر والإيمان جارياً مجرى الإنذار والتبشير على كونه طويلاً قصيراً وأسود وأبيض مما لا قدرة له عليه .

والرابع : وصفه المؤمنين بأنهم يعملون الصالحات فإن كان ما وقع خلق الله تعالى فلا عمل

لهم ألبتة.

الخامس: إيجابه لهم الأجر الحسن على ما عملوا فإن كان الله تعالى يخلق ذلك فيهم فلا إيجاب ولا استحقاق.

(20/468)

المسألة الرابعة:

قال قوله: ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ يدل على أنه تعالى إنما يفعل أفعاله لأغراض صحيحة وذلك يبطل قول من يقول إن فعله غير معلل بالغرض، واعلم أن هذه الكلمات قد تكررت في هذا الكتاب فلا فائدة في الإعادة. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 62. 65﴾

(21/468)

وقال الماوردى:

قوله عز وجل: ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ﴾

يعني على محمد القرآن ، فتمدح بإنزاله لأنه أنعم عليه خصوصاً ، وعلى الخلق عموماً . ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ في ﴿ عوجاً ﴾ ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني مختلفاً ، قاله مقاتل ، ومنه قول الشاعر :

أدوم بودي للصديق تكرُّماً . . . ولا خير فيمن كان في الود أعوجا

الثاني : يعني مخلوقاً ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه العدول عن الحق الى الباطل ، وعن الاستقامة إلى الفساد ، وهو قول علي بن عيسى .

والفرق بين العوج بالكسر والعوج بالفتح أن العوج بكسر العين ما كان في الدين وفي الطريق وفيما ليس بقائم منتصب ، والعوج بفتح العين ما كان في القناة والخشبة وفيما كان قائماً منتصباً .

﴿ قيِّماً ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنه المستقيم المعتدل ، وهذ قول ابن عباس والضحاك .

الثاني : أنه قيم على سائر كتب الله تعالى يصدقها وينفي الباطل عنها .

الثالث : أنه المعتمد عليه والمرجوع إليه كقيم الدار الذي يرجع إليه في أمرها ، وفيه تقديم وتأخير في قول الجميع وتقديره : أنزل الكتاب على عبده قيماً ولم يجعل له عوجاً ولكن جعله قيماً .

﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه عذاب الاستئصال في الدنيا .

الثاني : أنه عذاب جهنم في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(22/468)

وقال ابن عطية :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) ﴾

(23/468)

كان حفص عن عاصم يسكت عند قوله ﴿ عوجا ﴾ سكتة خفيفة ، وعند ﴿ مرقدنا ﴾ [ص : 52] في سورة يس ، وسبب هذه البداءة في هذه السورة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سألته قريش عن المسائل الثلاث ، الروح ، والكهف ، وذي القرنين ، حسبما أمرتهم بهن يهود ، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم غداً أخبركم ، بجواب سؤالكم ، ولم يقل إن شاء الله ، فعاتبه الله عز وجل بأن استمسك الوحي عنه خمسة عشر

يوماً ، فأرجف به كفار قريش ، وقالوا : إن محمداً قد تركه ربه الذي كان يأتيه من الجن ، وقال بعضهم : قد عجز عن أكاذيبه إلى غير ذلك ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ منه ، فلما انقضى الأمد الذي أراد الله عتاب محمد إليه ، جاءه الوحي من الله بجواب الأسئلة وغير ذلك ، فافتتح الوحي بحمد الله ﴿ الذي أنزل على عبده الكتاب ﴾ أي بزعمكم أنتم يا قريش ، وهذا كما تقول لرجل يحب مساءتك فلا يرى إلا نعمتك الحمد لله الذي أنعم علي وفعل بي كذا على جهة النقمة عليه ، و﴿ الكتاب ﴾ هو القرآن ، وقوله ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ أي لم يزله عن طريق الاستقامة ، و" العوج " فقد الاستقامة ، وهو بكسر العين في الأمور والطرق وما لا يحس متنصباً شخصاً ، و" العوج " بفتح العين في الأشخاص كالعصا والحائط ونحوه ، وقال ابن عباس : معناه ولم يجعله مخلوقاً ، وقوله ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ يعم هذا وجميع ما ذكره الناس من أنه لا تناقض فيه ومن أنه لا خلل ولا اختلاف فيه . وقوله ﴿ قيماً ﴾ نصب على الحال من ﴿ الكتاب ﴾ ، فهو بمعنى التقديم ، مؤخر في اللفظ ، أي أنزل الكتاب قيماً ، واعترض بين الحال وذي الحال قوله : ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ وذكر الطبري هذا التأويل عن ابن عباس ، ويجوز أن يكون منصوباً بفعل مضمر تقديره أنزله أو جعله ﴿ قيماً ﴾ ، وفي بعض مصاحف الصحابة " ولم يجعل له عوجاً لكن جعله قيماً " قاله قتادة ، ومعنى " قيم " مستقيم ، هذا قول ابن عباس والضحاك ،

وقيل معناه أنه قيم على سائر الكتب بتصديقها ، ذكره المهدوي ، وهذا محتمل وليس من الاستقامة ويصح أن يكون معنى " قيم " قيامه بأمر الله عز وجل على العالم ، وهذا المعنى يؤيده ما بعده من النذارة والبشارة اللذين عما العالم . و" البأس الشديد " عذاب الآخرة ، ويحتمل أن يندرج معه في النذارة عذاب الدنيا ببدر وغيرها ، ونصبه على المفعول الثاني ، والمعنى لينذر العالم ، وقوله ﴿ من لدنه ﴾ أي من عنده ومن قبله ، والضمير في ﴿ لدنه ﴾ عائد على الله تعالى ، وقرأ الجمهور من " لدُنْهُ " بضم الدال وسكون النون وضم الهاء ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر " من لدْنِهِ " بسكون الدال وإشمام الضم فيها وكسر النون والهاء ، وفي " لدن " لغات ، يقال " لدن " مثل سبع ، " ولدْن " بسكون الدال " ولُدن " بضم اللام ، " ولَدَن " بفتح اللام والدال وهي لفظة مبنية على السكون ، ويلحقها حذف النون مع الإضافة ، وقرأ عبد الله وطلحة " ويَبْشُر " بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين ، وقوله ﴿ أن لهم أجراً ﴾ تقديره بأن لهم أجراً ، والأجر الحسن نعيم الجنة ، ويتقدمه خير الدنيا ، و﴿ ماكثين ﴾ حال من الضمير في ﴿ لهم ﴾ و﴿ أبداً ﴾ ظرف لأنه دال على زمن غير متناه .

قال القاضي أبو محمد : وقد أشرت في تفسير هذه الآية إلى أمر اليهود قريشاً بسؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن المسائل الثلاث ، وينبغي أن تنص كيف كان ذلك .

ذكر ابن إسحاق عن ابن عباس بسند ، أنه قال : بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ، إلى أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهما سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى أتيا المدينة ، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت لهما أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم ، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول وما كان من أمرهم ؟ فإنه كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح. فأقبل النضر وعقبة إلى مكة وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وكان الأمر ما ذكرناه. انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ الحمد لله ﴾

قد شرحناه في أول "الفاتحة" .

والمراد بعبده هاهنا : محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالكتاب : القرآن ، تمدَّح بانزاله ، لأنه إِنعام على الرسول خاصة ، وعلى الناس عامَّة .

قال العلماء باللغة والتفسير : في هذه الآية تقديم وتأخير ، تقديرها : أنزل على عبده الكتاب ﴿ قيّماً ﴾ أي : مستقيماً عدلاً .

وقرأ أبو رجاء ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وابن يعمر ، والنخعي ، والأعمش : "قِيَماً" بكسر القاف ، وفتح الياء ، وقد فسرناه في [الأنعام : 161] .

قوله تعالى : ﴿ ولم يجعل له عوجا ﴾ أي : لم يجعل فيه اختلافا ، وقد سبق بيان العِوَج في [آل عمران : 99] .

قوله تعالى : ﴿ لينذر بأساً شديداً ﴾ أي : عذاباً شديداً ، ﴿ من لدنه ﴾ أي : من عنده ، ومن قِبَله ، والمعنى : لينذر الكافرين ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم ﴾ أي : بأن لهم ﴿ أجراً حسناً ﴾ وهو الجنة .

﴿ ماكثين ﴾ أي : مقيمين ، وهو منصوب على الحال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(27/468)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا قَيِّماً ﴾

ذكر ابن إسحاق : " أن قريشاً بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود وقالوا لهما : سَلاهم عن محمد وصِفَا لهم صفته وأخبراهم بقوله ؛ فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علمٌ ليس عندنا من علم الأنبياء ؛ فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

فقالت لهما أحبار يهود : سَلُوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبيّ مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل ، فروا فيه رأيكم ؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان أمرهم ؛ فإنه قد كان لهم حديثٌ عَجَب .

وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه .

وسلوه عن الروح ، ما هي ؛ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبيّ ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوِّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط حتى قدما مكة على قريش فقالا : يا معشر قريش ! قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد صلى الله عليه وسلم قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبيّ ، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل ، فروا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوّافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ما هي ؟ قال فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أخبركم بما سألتم عنه غداً" ولم يستثن .

فانصرفوا عنه ، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يزعمون خمس عشرة ليلة ، لا يحدث الله إليه في ذلك وَحْياً ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وَعَدَنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ليلة ، وقد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه ؛

وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مُكْثُ الوحي عنه ، وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف والروح.

قال ابن إسحاق : فذكُر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : "لقد احتبست عني يا جبريل حتى سُؤت ظنًّا" فقال له جبريل : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذلك وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ [مريم : 64] "

فافتتح السورة تبارك وتعالى بحمده ، وذكر نبوّة رسوله صلى الله عليه وسلم لما أنكروا عليه من ذلك فقال : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾ يعني محمداً ، إنك رسول منّي ، أي تحقيق لما سألوا عنه من نبوّتك .

﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا قَيِّماً ﴾ أي معتدلاً لا اختلاف فيه .

﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ ﴾ أي عاجل عقوبته في الدنيا ، وعذاباً أليماً في الآخرة ، أي من عند ربك الذي بعثك رسولاً .

﴿ وَيُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ﴾ أي دار الخلد لا يموتون فيها ، الذين صدّقوك بما جئت به مما كذّبك به غيرهم ، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال .

﴿ وَيُنْذِرَ الذين قَالُوا اتخذ الله وَلَداً ﴾ يعني قريشاً في قولهم: إنا نعبد الملائكة وهي بنات الله.

﴿ مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ ﴾ الذين أعظموا فراقهم وعيب دينهم.

(29/468)

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي لقولهم إن الملائكة بنات الله.

﴿ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً ﴾

لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجوه منهم، أي لا تفعل.

قال ابن هشام: "باخع نفسك" مُهْلك نفسك؛ فيما حدّثني أبو عبيدة.

قال ذو الرُّمّة:

ألا أيّهذا الباخِعُ الوَجْدُ نفسَه . . .

بشيء نَحَتْه عن يَدَيْه المَقادِرُ

وجمعها باخعون وبخعة.

وهذا البيت في قصيدة له.

وتقول العرب: قد بخعت له نُصْحي ونَفْسي، أي جَهَدت له.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ قال ابن إسحاق : أي أيهم أتبع لأمري وأعمل بطاعتي .

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ أي الأرض ، وإن ما عليها لفانٍ وزائل ، وإن المرجع إليّ فأجزي كلاًّ بعمله ؛ فلا تأس ولا يحزنك ما ترى وتسمع فيها .

قال ابن هشام : الصّعيد وجه الأرض ، وجمعه صُعُد .

قال ذو الرُّمّة يصف ظبياً صغيراً .

كأنه بالضُّحَا تَرمي الصعيدَ به . . .

دبّابةٌ في عِظام الرأس خُرطوم

وهذا البيت في قصيدة له .

والصعيد أيضاً : الطريق ، وقد جاء في الحديث : " إياكم والقعود على الصُّعدات " يريد الطرق .

والجُرُز : الأرض التي لا تنبت شيئاً ، وجمعها أجراز .

ويقال : سَنَةٌ جُرُز وسنون أجراز ؛ وهي التي لا يكون فيها مطر .

وتكون فيها جدوبة ويبس وشدّة .

قال ذو الرمّة يصف إبلاً :

طوَى النّحْزُ والأجراز ما في بطونها . . .

فما بقيتْ إلا الضّلوع الجراشعُ

قال ابن إسحاق: ثم استقبل قصة الخبر فيما سألوه عنه من شأن الفتية فقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكهف والرقيم كانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً ﴾ أي قد كان من آياتي فيما وضعت على العباد من حجتي ما هو أعجب من ذلك.

(30/468)

قال ابن هشام: والرقيم الكتاب الذي رُقِم بخبرهم، وجمعه رُقُم.

قال العجّاج:

ومُسْتَقَرِّ المصحف المُرَقَّمِ . . .

وهذا البيت في أُرْجوزة له.

قال ابن إسحاق: ثم قال: ﴿ إذْ أَوَى الفتية إِلَى الكهف فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً فضربْنا على آذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً ﴾ .

ثم قال: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بالحق ﴾ أي بصدق الخبر ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السماوات والأرض لَن نَّدْعُوَاْ

مِن دُونِهِ إِلها لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴾ أي لم يشركوا بي كما أشركتم بي ما ليس لكم به علم .

قال ابن هشام : والشَّطَطُ الغُلُوّ ومجاوزة الحق .

قال أعشى بني قيس بن ثَعْلبة :

أتنتهون ولا يَنْهَى ذَوِي شَطَطٍ . . .

كالطعن يذهب فيه الزَّيت والفُتُلُ

وهذا البيت في قصيدة له .

قال ابن إسحاق : ﴿ هؤلاء قَوْمُنَا اتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ .

قال ابن إسحاق : أي بحجة بالغة .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً وَإِذِ اعتزلتموهم وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ الله فَأْوُوا إِلَى الكهف يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّىءْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقاً وَتَرَى الشمس إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليمين وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشمال وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ قال ابن هشام : تزاور تميل ؛ وهو من الزَّور .

وقال أبو الزحف الكُلَيْبيّ يصف بلداً :

جَدْب المُندَّى عن هوانا أَزْوَرُ . . .

يُنْضِي المطايا خِمْسُه العَشَنْزَرُ

وهذان البيتان في أرجوزة له .

و "تقرضهم ذات الشمال" تجاوزهم وتتركهم عن شمالها .

قال ذو الرُّمّة :

إلى ظُعُن يَقْرِضن أقواز مُشْرِفٍ . . .

شِمالاً وعن أيْمانِهن الفوارِسُ

وهذا البيت في قصيدة له .

والفجوة : السّعة ، وجمعها الفجاء .

قال الشاعر :

ألبسْتَ قومَك مَخْزاة ومنقصةً . . .

حتى أبِيحُوا وحَلُّوا فَجْوة الدار

﴿ ذلك مِنْ آيَاتِ الله ﴾ أي في الحجة على من عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتاب ممن أمر هؤلاء بمسألتك عنهم في صدق نبوّتك بتحقيق الخبر عنهم .

﴿ مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ الشمال وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوصيد ﴾ قال ابن هشام : الوصيد الباب .

قال العبسي واسمه عبد بن وهب :

بأرضِ فَلاةٍ لا يُسَدُّ وَصيدُها . . .

عليّ ومعروفي بها غير مُنْكَرِ

وهذا البيت في أبيات له .

والوصيد أيضاً الفناء ، وجمعه وصائد ووُصُد ووصدان .

﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ إلى قوله : ﴿ الذين غَلَبُواْ على أَمْرِهِمْ ﴾ أهل السلطان والملك منهم .

﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِداً سَيَقُولُونَ ﴾ يعني أحبار اليهود الذين أمروهم بالمسألة عنهم .

﴿ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بالغيب وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل ربي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ ﴾ أي لا تكابرهم ﴿ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾ فإنهم لا علم لهم بهم .

(32/468)

﴿ وَلاَ تَقْوْلَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً ﴾ أي لا تقولنّ لشيء سألوك عنه كما قلت في هذا

إني مخبركم غدا ، واستثن مشيئة الله ، واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربّي لخبر ما سألتموني عنه رَشَدا ، فإنك لا تدري ما أنا صانع في ذلك .

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وازدادوا تِسْعاً ﴾ أي سيقولون ذلك .

﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السماوات والأرض أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ أي لم يخف عليه شيء مما سألوك عنه .

قلت : هذا ما وقع في السيرة من خبر أصحاب الكهف ذكرناه على نَسَقه .

ويأتي خبر ذي القرنين ، ثم نعود إلى أوّل السورة فنقول :

قد تقدّم معنى الحمد لله .

وزعم الأخفش والكسائيّ والفرّاء وأبو عبيد وجمهور المتأوّلين أن في أوّل هذه السورة تقديماً وتأخيراً ، وأن المعنى : الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيّماً ولم يجعل له عوجاً .

و"قَيِّماً" نصب على الحال .

وقال قتادة : الكلام على سياقه من غير تقديم ولا تأخير ، ومعناه : ولم يجعل له عوجاً ولكن جعلناه قيّماً .

وقول الضحاك فيه حُسْن ، وأن المعنى : مستقيم ، أي مستقيم الحكمة لا خطأ فيه ولا فساد ولا تناقض .

وقيل : "قيماً" على الكتب السابقة يصدّقها .

وقيل : "قيّماً" بالحجج أبداً .

"عوجاً" مفعول به ؛ والعوج (بكسر العين) في الدين والرأي والأمر والطريق .

وبفتحها في الأجسام كالخشب والجدار ؛ وقد تقدّم .

(33/468)

وليس في القرآن عوج ، أي عيب ، أي ليس متناقضاً مختلفاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ﴾ [النساء : 82] وقيل : أي لم يجعله مخلوقاً ؛ كما روي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر : 28]

قال : غير مخلوق .

وقال مقاتل : "عِوَجاً" اختلافاً .

قال الشاعر :

أدوم بودّي للصديق تكرُّماً . . .

ولا خير فيمن كان في الودّ أعْوَجَا

﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً ﴾ أي لينذر محمد أو القرآن .

وفيه إضمار ، أي لينذر الكافرين عقاب الله .

وهذا العذاب الشديد قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة .

﴿ مِّن لَّدُنْهُ ﴾ أي من عنده .

وقرأ أبو بكر عن عاصم "من لدنه" بإسكان الدال وإشمامها الضم وكسر النون ، والهاء موصولة بياء .

الباقون "لدُنْهُ" بضم الدال وإسكان النون وضم الهاء .

قال الجوهري : وفي "لدن" ثلاث لغات : لَدُن ، ولَدَى ، ولَدُ .

وقال :

مِن لَدُ لِحْيَيْه إلى مُنْحُوره . . .

المنحور لغة في المَنْحَر .

قوله تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ ﴾ أي بأن لهم .

﴿ أَجْراً حَسَناً ﴾ وهي الجنة : ﴿ مَّاكِثِينَ ﴾ دائمين .

﴿ فِيهِ أَبَداً ﴾ لا إلى غاية .

وإن حملت التبشير على البيان لم يحتج إلى الباء في "بأن" .

والأجر الحسن : الثواب العظيم الذي يؤدي إلى الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ الحمد لِلَّهِ الذى أَنزَلَ على عَبْدِهِ ﴾

محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ الكتاب ﴾ أي الكتابَ الكاملَ الغنيَّ عن الوصف بالكمال المعروفِ بذلك من بين الكتبِ ، الحقيقَ باختصاص اسمِ الكتابِ به ، وهو عبارةٌ عن جميع القرآنِ أو عن جميع المُنْزَل حينئذ كما مر مرارا ً ، وفي وصفه تعالى بالموصول إشعارٌ بعلّيّة ما في حيز الصلةِ لاستحقاق الحمدِ وإيذانٌ بعِظم شأنِ التنزيلِ الجليلِ ، كيف لا وعليه يدور فَلكُ سعادةِ الدارين ، وفي التعبير عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالعبد مضافاً إلى ضمير الجلالةِ تنبيهٌ على بلوغه عليه الصلاة والسلام إلى أعلى معارجِ العبادةِ وتشريفٌ وإشعارٌ بأن شأنَ الرسولِ أن يكون عبداً للمرسِل لا كما زعمت النصارى في حق عيسى عليه السلام ، وتأخيرُ المفعول الصريح عن الجار والمجرور مع أن حقه التقديمُ عليه ليتصل به قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ أي شيئاً من العِوَج بنوع اختلالٍ في النظم وتَنافٍ في المعنى أو انحرافٍ عن الدعوة إلى الحق وهو في المعاني كالعِوَج في الأعيان ، وأما قوله تعالى :

﴿ لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً ﴾ مع كون الجبالِ من الأعيان فللدِلالة على انتفاء ما لا

يُدركُ من العوجِ بحاسةِ البصرِ ، بل إنما يوقف عليه بالبصيرةِ بواسطةِ استعمالِ المقاييسِ الهندسيةِ ولمّا كان ذلك مما لا يُشعَر به بالمشاعرِ الظاهرةِ عُدّ من قبيلِ ما في المعاني ، وقيل : الفتحُ في اعوجاجِ المنتصِبِ كالعُود والحائِط ، والكسرُ في اعوجاجِ غيرِه عيناً كان أو معنى .

(35/468)

﴿ قَيِّماً ﴾ بالمصالحِ الدينيةِ والدنيويةِ للعباد على ما ينبىء عنه ما بعده من الإنذار والتبشيرِ فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وصفِه بالكمال ، أو على ما قبله من الكتب السماويةِ شاهداً بصِحتها ومهيمناً عليها أو متناهياً في الاستقامة ، فيكون تأكيداً لما دل عليه نفيُ العِوجِ مع إفادةِ كونِ ذلك من صفاته الذاتيةِ اللازمةِ له حسبما تنبىء عنه الصيغةُ لا أنه نُفي عنه العوجُ مع كونه من شأنه ، وانتصابُه على تقديرِ كونِ الجملةِ المتقدمةِ معطوفةً على الصلة بمضمرٍ ينبىء عنه نفيُ العِوَجِ تقديرُه جعلَه قيماً ، وأما على تقديرِ كونها حاليةً فهو على الحالية من الكتاب إذ لا فصلَ حينئذ بين أبعاضِ المعطوفِ عليه بالمعطوف وقرىء قيماً ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ متعلقٌ بأنزل والفاعلُ ضميرُ الجلالة كما في الفعلين المعطوفين عليه ، والإطلاقُ عن ذكرِ المفعولِ الأول للإيذان بأن ما سيق له الكلامُ هو المفعولُ الثاني وأن الأولَ

ظاهرٌ لا حاجةَ إلى ذكره ، أي أنزل الكتابَ لينذر بما فيه الذين كفروا به ﴿ بَأْسًا ﴾ أي عذاباً ﴿ شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ أي صادراً من عنده نازلاً من قِبله بمقابلة كفرهم وتكذيبهم ، وقرىء من لدْنِه بسكون الدال مع إشمام الضمةِ وكسر النونِ لالتقاء الساكنين وكسر الهاءِ للإتباع ﴿ وَيُبَشِّرُ ﴾ بالتشديد وقرىء بالتخفيف ﴿ المؤمنين ﴾ أي المصدقين به ﴿ الذين يَعْمَلُونَ الصالحات ﴾ الأعمالَ الصالحةَ التي بيّنت في تضاعيفه ، وإيثارُ صيغةِ الاستقبال في الصلة للإشعار بتجدد الأعمالِ الصالحة واستمرارها ، وإجراءُ الموصولِ على موصوفه المذكورِ لما أن مدارَ قَبولِ الأعمالِ هو الإيمان ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أي بأن لهم بمقابلة إيمانِهم وأعمالِهم المذكورة ﴿ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ هو الجنةُ وما فيها من المثوبات الحُسنى .

(36/468)

﴿ مَّاكِثِينَ ﴾ حال من الضمير المجرور في لهم ﴿ فِيهِ ﴾ أي في ذلك الأجر ﴿ أَبَدًا ﴾ من غير انتهاء أي خالدين فيه ، وهو نصبٌ على الظرفية لماكثين . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(37/468)

وقال الآلوسى :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الحمد لِلَّهِ الذى أَنْزَلَ على عَبْدِهِ ﴾

محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ الكتاب ﴾ الكامل الغني عن الوصف بالكمال المعروف بذلك من بين سائر الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به ، وهو إما عبارة عن جميع القرآن ففيه تغليب الموجود على المترقب وإما عبارة عن جميع القرآن ففيه تغليب الموجود على المترقب وإما عبارة عن الجميع المنزل حينئذ فالأمر ظاهر .

وفي وصفه تعالى بالموصول إشعار بعلية ما في حيز الصلة لاستحقاق الحمد الدال عليه اللام على ما صرح به ابن هشام وغيره وإيذان بعظم شأن التنزيل الجليل كيف لا وهو الهادي إلى الكمال الممكن في جانبي العلم والعمل وفي التعبير عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالعبد مضافاً إلى ضميره تعالى من الإشارة إلى تعظيمه عليه الصلاة والسلام ، وكذا تعظيم المنزل عليه ما فيه ، وفيه أيضاً إشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً للمرسل لا كما زعمت النصارى في حق عيسى عليه السلام وتأخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور مع أن حقه التقديم عليه ليتصل به قوله تعالى :

﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ ﴾ أي للكتاب ﴿ عِوَجَا ﴾ أي شيئاً من العوج باختلال اللفظ من جهة الأعراب ومخالفة الفصاحة وتناقض المعنى وكونه مشتملاً على ما ليس بحق أو داعياً لغير الله تعالى والعوج وكذا العوج الانحراف والميل عن الاستقامة إلا أنه قيل هو بكسر العين ما يدرك بفتح العين وبفتح العين ما يدرك بفتح العين فالأول الانحراف عن الاستقامة المعنوية التي تدرك بالبصيرة كعوج الدين والكلام، والثاني الانحراف عن الاستقامة الحسية التي تدرك بالبصر كعوج الحائط .

(38/468)

والعود وأورد عليه قوله تعالى : في شأن الأرض ﴿ لَّا ترى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً ﴾ [طه : 107] فإن الأرض محسوسة وإعوجاجها وكذا استقامتها مما يدرك بالبصر فكان ينبغي على ما ذكر فتح العين، وأجيب بأنه لما أريد به هنا ما خفي من الاعوجاج حتى احتاج إثباته إلى المقاييس الهندسية المحتاجة إلى أعمال البصيرة الحق بما هو عقلي صرف فأطلق عليه ذلك لذلك وتعقب بأن لا ترى ظاهر في أن المنفي ما يدرك بالبصر فيحتاج إلى أن يراد به الإدراك، وعن ابن السكيت أن المكسور أعم من المفتوح.

واختار المرزوقي في شرح الفصيح أنه لا فرق بينهما .

﴿ قَيِّماً ﴾ أي مستقيماً كما أخرجه ابن المنذر عن الضحاك وروى أيضاً عن ابن عباس ، والمراد مما قبل أنه لا خلل في لفظه ولا في معناه ، والمراد من هذا أنه معتدل لا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف حتى يشق على العباد ولا تفريط فيه بأهمال ما يحتاج إليه حتى يحتاج إلى كتاب آخر كما قال سبحانه : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَىْء ﴾ [الأنعام : 38] ولذا كان آخر الكتب المنزل على خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ، وقيل المراد منه ما أريد مما قبله وذكره للتأكيد .

وقال الفراء : المراد قيماً على سائر الكتب السماوية شاهداً بصحتها .

وقال أبو مسلم : المراد قيماً بمصالح العباد متكفلاً بها وببيانها لهم لاشتماله على ما ينتظم به المعاش والمعاد وهو على هذين القولين تأسيس أيضاً لا تأكيد فكأنه قيل كاتباً صادقاً في نفسه مصدقاً لغيره أو كتاباً خالياً عن النقائض حالياً بالفضائل وقيل المراد على الأخير أنه كامل في نفسه ومكمل لغيره ، ونصبه بمضمر أي جعله قيماً على أن الجملة مستأنفة أو جعله قيماً على أنها معطوفة على ما قبل إلا أنه قيل إن حذف حرف العطف مع المعطوف تكلفّ ؛ وكان حفص يسكت على ﴿ عِوَجَا ﴾ سكتة خفيفة ثم يقول ﴿ قَيِّماً ﴾ .

واختار غير واحد أنه على الحال من الضمير في ﴿ لَهُ ﴾ [الكهف : 1] أي لم يجعل له عوجاً حال كونه مستقيماً ولا عوج فيه على ما سمعت أولاً من معنى المستقيم إذ محصله أنه تعالى صانه عن الخلل في اللفظ والمعنى حال كونه خالياً عن الإفراط والتفريط ، وكذا على القولين الأخيرين ، نعم قيل : إن جعله حالا من الضمير مع تفسير المستقيم بالخالي عن العوج ركيك .

وتعقبه بعضهم بأنه تندفع الركاكة بالحمل على الحال المؤكدة كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : 25] وفيه بحث ، وجوز أن يكون حالا من الكتاب ، واعترض بأنه يلزم حينئذ العطف قبل تمام الصلة لأن الحال بمنزلة جزء منها ، وأجيب بأنه يجوز أن يجعل ﴿ وَلَمْ يَجْعَل ﴾ [الكهف : 1] الخ من تتمة الصلة الأولى على أنه عطف بياني حيث قال تعالى : ﴿ أَنزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾ [الكهف : 1] الكامل في بابه عقبه بقوله سبحانه : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ [الكهف : 1] فحينئذ لا يكون الفصل قبل تمام الصلة ، وهو نظير قوله تعالى : ﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ الله وَكُفْرٌ بِهِ والمسجد الحرام ﴾ [البقرة : 217] وعلى قول .

وأيضاً يجوز أن يكون الواو في ﴿ وَلَمْ يَجْعَل ﴾ [الكهف : 1] للحال والجملة بعده حال من ﴿ الكتاب ﴾ [الكهف : 1] كقيما واختاره الأصبهاني .

وقال أبو حيان : إن ذاك على مذهب من يجوز وقوع حالين من ذي حال واحد بغير عطف

وكثير من أصحابنا على منعه ، وقال آخر : إن قياس قول الفارسي في الخبر أنه لا يتعدد مختلفاً بالأفراد والجملية أن يكون الحال كذلك .

(40/468)

وأجيب بأنه غير وارد إذ ما ذكره الفارسي خلاف مذهب الجمهور مع أنه قياس مع الفارق فلا يسمع ، وكذا ما ذكره أبو حيان عن الكثير خلاف المعول عليه عند الأكثر ، نعم فراراً من القيل والقال جعل بعضهم الواو للاعتراض والجملة اعتراضية ، وفي الكلام تقديم وتأخير والأصل الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجاً ، وروي القول بالتقديم والتأخير عن ابن عباس .

ومجاهد ، وذكر السمين أن ابن عباس حيث وقعت جملة معترضة في النظم يجعلها مقدمة من تأخير ، ووجه ذلك بأنها وقعت بين لفظين مرتبطين فهي في قوة الخروج من بينهما ، ولما كان ﴿ قَيِّماً ﴾ يفيد استقامة ذاتية أو ثابتة لكونه صفة مشبهة وصيغة مبالغة ، وما من شيء كذلك إلا وقد يتوهم فيه أدنى عوج ذكر قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل ﴾ [الكهف : 1] الخ للاحتراس ، وقدم للاهتمام كما في قوله :

ألا يا اسلمي يا دار مي على البلا . . .

ولا زال منهلا بجرعائك القطر

ومن هنا يعلم أن تفسير القيم بالمستقيم بالمعنى المتبادر ، وان قول الزمخشري فائدة الجمع بينه وبين نفي العوج التأكيد فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح غير ذي عوج عند السبر والتصفح ، وأنه لا يرد قول الإمام إن قوله تعالى : ﴿ لَّمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ [الكهف : 1] يدل على كونه مكملاً في ذاته ، وقوله سبحانه : ﴿ قَيِّماً ﴾ يدل على كونه مكملاً لغيره ، فثبت بالبرهان العقلي أن الترتيب الصحيح كما ذكره الله تعالى وان ما ذكروه من التقديم والتأخير فاسد يمتنع العقل من الذهاب إليه انتهى .

(41/468)

ولعمري أن هذا الكلام لا ينبغي من الإمام إن صح عنده أن القول المذكور مروى عن ابن عباس ومجاهد ، فإن الأول ترجمان القرآن وناهيك به جلالة ومعرفة بدقائق اللسان ، وقد قيل في الثاني إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك ، وقال صاحب حل العقد : يمكن أن يكون قيما بدلاً من قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ [الكهف : 1] قال أبو حيان : ويكون حينئذ بدل مفرد من جملة كما قالوا في عرفت زيداً أبو من هو إنه بدل جملة من مفرد ، وفي جواز ذلك خلاف ، هذا وزعم بعضهم أن ضمير ﴿ لَهُ ﴾ [الكهف : 1] عائد

على ﴿ عَبْدِهِ ﴾ [الكهف : 1] وحينئذ لا يتأتى جميع التخاريج الإعرابية السابقة ، وقرأ أبان بن ثعلب ﴿ قَيِّماً ﴾ بكسر القاف وفتح الياء المخففة ؛ وفي بعض مصاحف الصحابة ﴿ ولَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا عِوَجَا قَيِّماً ﴾ وحمل ذلك على أنه تفسير لا قراءة ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ متعلق ب ﴿ انزل ﴾ [الكهف : 1] واللام للتعليل ، واستدل به من قال بتعليل أفعال الله تعالى بالإغراض كالسلف والماتريدية ، ومن يأبى ذلك بجعلها لام العاقبة ، وزعم الحوفي أنه متعلق بقيما وليس بقيم ، والفاعل ضمير الجلالة ، وكذا في الفعلين المعطوفين عليه ، وجوز أن يكون الفاعل في الكل ضمير

(42/468)

﴿ الكتاب ﴾ [الكهف : 1] أو ضميره صلى الله عليه وسلم ، وأنذر يتعدى لمفعولين قال تعالى : ﴿ أنذرناكم عَذَاباً قَرِيباً ﴾ [النبأ : 40] وحذف هنا المفعول الأول واقتصر على الثاني ، وهو قوله تعالى : ﴿ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ إيذاناً بأن ما سيق له الكلام هو المفعول الثاني ، وأن الأول ظاهر لا حاجة إلى ذكره وهو الذين كفروا بقرينة ما بعد ، والمراد الذين كفروا بالكتاب ، والظاهر أن المراد من البأس الشديد عذاب الآخرة لا غير ، وقيل يحتمل أن يندرج فيه عذاب الدنيا ﴿ مِن لَّدُنْهُ ﴾ أي صادرا من عنده تعالى نازلاً من قبله بمقابلة

كفرهم فالجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة ثانية للبأس ، ولدن هنا بمعنى عند كما روي عن قتادة ، وذكر الراغب أنه أخص منه لأنه يدل على ابتداء نهاية نحو أقمت عنده من لدن طلوع الشمس إلى غروبها ، وقد يوضع موضع عند .

وقال بعضهم : إن ﴿ لَّدُنْ ﴾ أبلغ من عند وأخص وفيه لغات ، وقرأ أبو بكر عن عاصم باشمام الدال بمعنى تضعيف الصوت بالحركة الفاصلة بين الحرفين فيكون إخفاء لها وبكسر النون لالتقاء الساكنين وكسر الهاء للاتباع ، ويفهم من كلام بعضهم أنه قرأ بالإسكان مع الاشمام بمعنى الإشارة إلى الحركة بضم الشفتين مع انفراج بينهما فاستشكل في الدر المصون .

وغيره بأن هذا الاشمام إنما يتحقق في الوقف على الآخر وكونه في الوسط كما هنا لا يتصور ، ولذا قيل : إنه يؤتى به هنا بعد الوقف على الهاء .

ودفع الاعتراض بأنه لا يدل حينئذ على حركة الدال وقد علل به بأنه متعين إذ ليس في الكلمة ما يصلح أن يشار إلى حركته غيرها ، ولا يخفى ما فيه ، وما قدمناه حاسم لمادة الإشكال .

وقرأ الجمهور بضم الدال والهاء وسكون النون إلا أن ابن كثير يصل الهاء بواو وغيره لا يصل ﴿ وَيُبَشِّرُ ﴾ بالنصب عطف على ﴿ ينذر ﴾ وقرىء شاذاً بالرفع .

وقرأ حمزة .

(43/468)

والكسائي ﴿ أَقْوَمُ ويُبَشّرُ ﴾ بالتخفيف ﴿ المؤمنين ﴾ أي المصدقين بالكتاب كما يشعر به وكذا بما تقدم ذكر ذلك بعد الامتنان بإنزال الكتاب ﴿ الذين يَعْمَلُونَ الصالحات ﴾ أي الأعمال الصالحة التي بينت في تضاعيفه ، وإيثار صيغة الاستقبال في الصلة للإشعار بتجدد العمل واستمراره ، وإجراء الموصول على موصوفه المذكور لما أن مدار قبول العمل الإيمان ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أي بأن لهم بمقابلة إيمانهم وعملهم المذكور ﴿ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ هو كما قال السدى وغيره الجنة وفيها من النعيم المقيم والثواب العظيم ما فيها ، ويؤيد كون المراد به الجنة ظاهر قوله تعالى :

﴿ مَّاكِثِينَ فِيهِ ﴾

أي مقيمين في الأجر ﴿ أَبَدًا ﴾ من غير انتهاء لزمان مكثهم .

ونصب ﴿ مَّاكِثِينَ ﴾ على الحال من الضمير المجرور في ﴿ لَهُمْ ﴾ والظرفان متعلقان به .

انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(44/468)

وقال القاسمي :

﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ﴾

قدّمنا أن كثيراً ما تفتح السور وتختم بالحمد ، إشارة إلى أنه المحمود على كل حال : ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾ [القصص : 70] ، وتعليماً للعباد أدب افتتاح كل أمر ذي بال واختتامه . وذلك بالثناء على الله تبارك وتعالى بنعمه العظمى ومننه الكبرى . وفي إيثار إنزال التنزيل من بين سائر نعوته العليّة ، تنبيه على أنه أعظم نعمائه . فإنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد ، والداعي إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد . ولا شيء في معناه يماثله . وفي ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية ، تنبيه على عظمة المنزَل والمنزَل عليه . كما تدل عليه الإضافة الاختصاصية ، كما تقدم في سورة الإسراء . وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً للمرسِل لا كما زعمت النصارى في حق عيسى عليه السلام . وتعريف الكتاب للعهد . أي : الكتاب الكامل الغني عن الوصف بالكمال ، المعروف بذلك من بين الكتب ، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به . وهو عبارة عن جميع القرآن . أو عن جميع المنزل حينئذ . وتأخيره عن الجار والمجرور ، مع أن حقه التقديم عليه ، ليتصل به قوله سبحانه : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا ﴾ [الكهف : 1] أي : شيئًا من العوج ، باختلال في نظمه وتناف في معانيه . أو زيغ وانحراف عن الدعوة إلى الحق . بل جعله مزيلا للعوج ؛ إذ جعله :

﴿ قيّما ﴾ أي : قيّما بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من الشرائع . فهو وصف له بأنه مكمل لهم ، بعد وصفه بأنه كامل في نفسه . أو قيما على الكتب السالفة ، مهيمنا عليها . أو متناهياً في الاستقامة والاعتدال . فيكون تأكيداً لما دل عليه نفي العوج . مع إفادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له ، حسبما تنبئ عنه الصيغة . وانتصابه بمضمر تقديره جعله كما ذكرنا . على أنه جملة مستأنفة . وفيه وجوه أخر .

تنبيه :

(45/468)

ذهب القاشاني أن الضمير في " له " وما بعده لقوله : ﴿ عَبْدِهِ ﴾ قال : أي : لم يجعل لعبده زيغاً وميلاً . وجعله قيّما ، يعني مستقيما ، كما أُمر بقوله : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود : 112] ، أو قيّما بأمر العباد وهدايتهم ، إذ التكميل يترتب على الكمال . لأنه : عليه الصلاة والسلام ، لما فُرغ من تقويم نفسه وتزكيتها ، أُقيمت نفوس أمته مقام نفسه . فأُمر بتقويمها وتزكيتها . ولهذا المعنى سمي إبراهيم ، صلوات الله عليه ، أمة . وهذه القيمية أي : القيام بهداية الناس ، داخلة في الاستقامة المأمور هو بها في الحقيقة ، انتهى . والأظهر الوجه الأول .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ ﴾ أي : لينذر من خالفه ولم يؤمن به ، عذاباً شديداً عاجلاً أو آجلاً . والبأس : القهر والعذاب ، وخصصه بقوله : ﴿ مِنْ لَدُنْهُ ﴾ إشارة إلى زيادة هوله . ولذلك عظمه بالتنكير . متعلق بأنزل أو بعامل قيما : ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : به . وقال القاشاني : أي : الموحدين ، لكونهم في مقابلة المشركين ، الذين قالوا اتخذ الله ولداً . وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ أي : من الخيرات والفضائل : ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أي : بأن لهم ، بمقابلة إيمانهم وأعمالهم المذكورة : ﴿ أَجرا حسنا ﴾ وهو الجنة : ﴿ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 7.6 ﴾

(46/468)

وقال ابن عاشور :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) ﴾

موقع الافتتاح بهذا التحميد كموقع الخطبة يفتتح بها الكلام في الغرض المهم .

ولما كان إنزال القرآن على النبي أجزل نعماء الله تعالى على عباده المؤمنين لأنه سبب نجاتهم في حياتهم الأبدية ، وسبب فوزهم في الحياة العاجلة بطيب الحياة وانتظام الأحوال

والسيادة على الناس ، ونعمة على النبي بأن جعله واسطة ذلك ومبلَغه ومبينه ؛ لأجل ذلك استحق الله تعالى أكمل الحمد إخباراً وإنشاءً .

وقد تقدم إفادة جملة الحمد للهالحمد لِلَّهِ الذى أُنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّماً ﴾ استحقاقه أكمل الحمد في صدر سورة الفاتحة .

وهي هنا جملة خبرية ، أخبر الله نبيَّه والمسلمين بأن مستحق الحمد هو الله تعالى لا غيره ، فأجرى على اسم الجلالة الوصف بالموصول تنويهاً بمضمون الصلة ولما يفيده الموصول من تعليل الخبر .

وذكر النبي صلى الله عليه وسلم بوصف العبودية لله تقريب لمنزلته وتنويه به بما في إنزال الكتاب عليه من رفعة قدره كما في قوله تعالى : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ﴾ [الفرقان : 1] .

والكتاب : القرآن .

فكل مقدار منزل من القرآن فهو الكتاب ﴾ .

فالمراد بالكتاب هنا ما وقع إنزاله من يوم البعثة في غار حراء إلى يوم نزول هذه السورة ، ويلحق به ما ينزل بعد هذه الآية ويزاد به مقداره .

وجملة ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ معترضة بين ﴿ الكتاب ﴾ وبين الحال منه وهو ﴿ قيماً ﴾ .

والواو اعتراضية.

ويجوز كون الجملة حالاً والواو حالية.

والعِوج بكسر العين وفتحها وبفتح الواو حقيقته: انحراف جسم ما عن الشكل المستقيم، فهو ضد الاستقامة.

ويطلق مجازاً على الانحراف عن الصواب والمعاني المقبولة المستحسنة.

والذي عليه المحققون من أئمة اللغة أن مكسور العين ومفتوحها سواء في الإطلاقين الحقيقي والمجازي.

وقيل: المكسورُ العينِ يختص بالإطلاق المجازي وعليه درج في "الكشاف".

ويبطله قوله تعالى لما ذكر نسف الجبال ﴿ فيذرها قاعاً صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتاً ﴾ [طه: 106 107] حيث اتفق القراء على قراءته بكسر العين.

وعن ابن السكيت: أن المكسور أعم يجيء في الحقيقي والمجازي وأن المفتوح خاص بالمجازي.

والمراد بالعِوج هنا عوج مدلولات كلامه بمخالفتها للصواب وتناقضها وبعدها عن الحكمة

وإصابة المراد .

والمقصود من هذه الجملة المعترضة أو الحالية إبطال ما يرميه به المشركون من قولهم : افتراه ، وأساطير الأولين ، وقول كاهن ، لأن تلك الأمور لا تخلو من عوج ، قال تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ [النساء : 82] .

وضميره له ﴾ عائد إلى ﴿ الكتاب ﴾ .

وإنما عدي الجعل باللام دون (في) لأن العوج المعنوي يناسبه حرف الاختصاص دون حرف الظرفية لأن الظرفية من علائق الأجسام ، وأما معنى الاختصاص فهو أعم .

فالمعنى : أنه متصف بكمال أوصاف الكتب من صحة المعاني والسلامة من الخطأ والاختلاف .

وهذا وصف كمال للكتاب في ذاته وهو مقتض أنه أهل للانتفاع به ، فهذا كوصفه بـ ﴿ أنه لا ريب فيه ﴾ في سورة البقرة (2) .

وقيماً ﴾ حال من ﴿ الكتاب ﴾ أو من ضميره المجرور باللام ، لأنه إذا جعل حالاً من أحدهما ثبت الاتصاف به للآخر إذ هما شيء واحد ، فلا طائل فيما أطالوا به من الإعراب .

والقيم : صفة مبالغة من القيام المجازي الذي يطلق على دوام تعهد شيء وملازمة صلاحه ، لأن التعهد يستلزم القيام لرؤية الشيء والتيقظ لأحواله ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿

الحي القيوم ﴾ في سورة البقرة (255) .

والمراد به هنا أنه قيم على هدي الأمة وإصلاحها ، فالمراد أن كماله متعدّ بالنفع ، فوزانه وزان وصفه بأنه ﴿ هدى للمتقين ﴾ في سورة البقرة : (2) .

(48/468)

والجمع بين قوله : ولم يجعل له عوجاً ﴾ وقوله : ﴿ قيماً ﴾ كالجمع بين ﴿ لا ريب فيه ﴾ [البقرة : 2] وبين ﴿ هدى للمتقين ﴾ [البقرة : 2] وليس هو تأكيداً لنفي العوج.

لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾

﴿ لينذر ﴾ متعلق بـ ﴿ أنزل ﴾ .

والضمير المرفوع عائد إلى اسم الجلالة ، أي لينذر الله بأساً شديداً من لدنه ، والمفعول الأول ل ﴿ ينذر ﴾ محذوف لقصد التعميم ، أو تنزيلاً للفعل منزلة اللازم لأن المقصود المنذَر به وهو البَأس الشديد تهويلاً له ولتهديد المشركين المنكرين إنزال القرآن من الله .

والبأس : الشدة في الألم.

ويطلق على القوة في الحرب لأنها تؤلم العدو .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ﴾ من سورة

البقرة (177) .

والمراد هنا : شدة الحال في الحياة الدنيا ، وذلك هو الذي أطلق على اسم البأس في القرآن ، وعليه درج الطبري .

وهذا إيماء بالتهديد للمشركين بما سيلقونه من القتل والأسر بأيدي المسلمين ، وذلك بأس من لدنه تعالى لأنه بتقديره وبأمره عباده أن يفعلوه ، فاستعمال (لدن) هنا في معنييه الحقيقي والمجازي .

وليس في جعل الإنذار ببأس الدنيا علّةً لإنزال الكتاب ما يقتضي اقتصار عِلل إنزاله على ذلك ، لأن الفعل الواحد قد تكون له علل كثيرة يذكر بعضُها ويُترك بعض .

وإنما آثَرْتُ الحمل على جعل اليأس الشديد بأسَ الدنيا للتقصي مما يرد على إعادة فعل ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ﴾ [الكهف : 4] كما سيأتي .

ويجوز أن يراد بالبأس عذابُ الآخرة فإنه بأس شديد ، ويكون قوله : من لدنه ﴿ مستعملاً في حقيقته .

وبهذا الوجه فسر جمهور المفسرين .

ويجوز أن يراد بالبأس الشديد ما يشمل بأس عذاب الآخرة وبأس عذاب الدنيا ، وعلى هذا درج ابن عطية والقرطبي ، ويكون استعمال من ﴿ لدنه ﴾ في معنييه الحقيقي والمجازي ، أما في عذاب الآخرة فظاهر ، وأما في عذاب الدنيا فلأن بعضه بالقتل والأسر وهما من أفعال الناس ولكن الله أمر المسلمين بهما فهما من لدنه .

وحذف مفعول ﴿ ينذر ﴾ لدلالة السياق عليه لظهور أنه ينذر الذين لم يؤمنوا بهذا الكتاب ولا بالمنزل عليه ، ولدلالة مقابله عليه في قوله : ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ .

عطف على قوله : ﴿ لينذر بأساً ﴾ ، فهو سبب آخر لإنزال الكتاب أثارته مناسبة ذكر الإنذار ليبقى الإنذار موجهاً إلى غيرهم .

وقوله : ﴿ أن لهم أجراً حسناً ﴾ متعلق بـ ﴿ يبشر ﴾ بحذف حرف الجر مع (أن) ، أي بأن لهم أجراً حسناً .

وذكر الإيمان والعمل الصالح للإشارة إلى أن استحقاق ذلك الأجر بحصول ذلك لأمرين .

ولا يتعرض القرآن في الغالب لحالة حصول الإيمان مع شيء من الأعمال الصالحة كثيرٍ أو قليلٍ ، ولحُكْمِهِ أدلة كثيرة .

والمكث : الاستقرار في المكان ، شُبه ما لهم من اللذات والملائمات بالظرف الذي يستقر فيه حالُّهُ للدلالة على أن الأجر الحسن كالمحيط بهم لا يفارقهم طرفة عين ، فليس قوله : ﴿

أبداً ﴾ بتأكيدٍ لمعنى ﴿ ماكثين ﴾ بل أفيد بمجموعها الإحاطة والدوام. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(50/468)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) ﴾

ختم الحق سبحانه سورة الإسراء بالحمد ، وبدأ سورة الكهف بالحمد ، والحمد لله دائماً هو الشعار الذي أطلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم في خير الكلمات : "سبحان الله والحمد لله" سبحان الله بُدئتْ بها سورة الإسراء ، والحمد لله بُدئت بها سورة الكهف . سبحان الله تنزيه لذاته سبحانه أن يكون له شريك ، لا في الذات ، ولا في الأفعال ، ولا في الصفات ، والحمد لله كذلك تكبرة للذات ، وبعد ذلك جاء العطاء من الذات فقُلْنا : الحمد لله ، فسبحان الله تنزيه ، والحمد لله شكر على العطاء .

والحمد يشترك معه في المعنى العام : ثناء وشُكْر ومدح ، إلا أن هذه الألفاظ وإنْ تقاربت في المعنى العام فلكُلٍّ منها معناه الخاص ، وكل هذه الألفاظ فيها ثناء ، إلا أن الشكر يكون من مُنعَم عليه بنعمة خاصة به ، كأن يُسدي لك إنسان جميلاً لك وحدك ، فتشكره عليه .

أما الحمد فيكون على نعمة عامة لك ولغيرك ، فرُقْعة الحمد أوسع من رُقْعة الشكر ، أما المدح فقد تمدح ما لا يعطيك شيئاً ، كأن تمدح مثلاً الشكل الجميل لمجرد أنه أعجبك .

فقولُ الحق : ﴿ الحمد لِلَّهِ ﴾ بالألف واللام الدالة على الحصر ، فالمراد الحمد المطلق الكامل لله ، الحمد المستوعب لكل شيء ، حتى إنَّ حمدك لأيِّ إنسان قدَّم لك جميلاً فهو إذا سَلْسَلْتَهُ حَمْدٌ لله تعالى الذي أعان هذا الإنسان على أن يحسن إليك ، فالجميل جاء من حركته ، وحركته موهوبة له من خالقه ، والنعمة التي أمدّك بها موهوبة من خالقه تعالى ، وهكذا إذا سلسلتَ الحمد لأيِّ إنسان في الدنيا تجده يصل إلى المنعِم الأول سبحانه وتعالى .

وكلمة ﴿ الحمد لِلَّهِ ﴾ هذه هي الصيغة التي علمنا الله أنْ نحمدَهُ بها ، وإلا فلو ترك لنا حرية التعبير عن الحمد ولم يُحدّد لنا صيغة نحمده ونشكره بها لاختلف الخَلْق في الحمد حَسْب قدراتهم وتمكّنهم من الأداء وحَسْب قدرتهم على استيعاب النعم ، ولوجدنا البليغ صاحب القدرة الأدائية أفصح من العيي والأُمّي . فتحمّل الله عنا جميعاً هذه الصيغة ، وجعلها متساوية للجميع ، الكل يقول ﴿ الحمد لِلَّهِ ﴾ البليغ يقولها ، والعيي

يقولها ، والأُمّي يقولها .

لذلك يقول صلى الله عليه وسلم وهو يحمد الله ويُثنِي عليه : " سبحانك لا نحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك " .

فإنْ أردنا أنْ نُحصي الثناء عليك فلن نستطيع ؛ لأن الثناء عليك لا يعرف مداه إلا أنت ، ولا يُحصيه غيرك ، ولا نملك إلا أنْ نقولَ ما علَّمتنا من حمدك : الحمد لله .

إذن : فاستواء الناس جميعاً في الحمد لله نعمة كبرى في ذاتها تستحق الحمد ، فنقول : الحمد لله على ما عَلمنا من الحمد لله ، والحمْد الأول أيضاً نعمة ، وبذلك نقول : الحمد لله على ما عَلمنا من الحمد لله بالحمد لله .

وهكذا ، لو تتبعتَ الحمدَ لوجدته سلسلةً لا تنتهي ، حَمْد على حَمْد على حَمْد على حَمْد ، فيظل الله محموداً دائماً ، يظل العبد حامداً إلى ما لا نهاية .

والحمد لله استهل بها الحق سبحانه خَمْس سور من القرآن :

﴿ الحمد للَّهِ ربّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] ﴿ الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : 1]

﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب . . ﴾ [الكهف : 1] ﴿ الحمد للَّهِ الذي لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَلَهُ الحمد فِي الآخرة ﴾ [سبأ : 1] ﴿ الحمد للَّهِ فَاطِرِ السماوات والأرض جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً أولي أَجْنِحَةٍ . . ﴾ [فاطر : 1]

ولكن، لكُلِّ حَمْد في كل سورة حيثية خاصة، فالحمد في الأولى لأن الله ربُّ العالمين، وربٌّ يعني الخالق والمتولي للتربية، خلق من عدم، وأمدَّ من عُدم، وتولّى تربية عباده، فهو رَبٌّ لكل العالمين؛ لذلك يجب أنْ نحمدَ الله على أنه هو الربُّ الذي خلق العالمين، وأمدَّهم بفضله.

وفي الثانية: نحمده سبحانه الذي خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وهذه آيات من آيات الله ونِعَم من نِعَمه، فالسماوات والأرض فيها قيام البشر كله بما يمدُّ حياتهم بالقوت، ويستبقي نوعهم بالتكاثر.

والظلمات والنور مِنَ نعم الله، وهما متكاملان لا متضادان، فَلِلظُّلْمة مهمة، كما أن للنور مهمة، الظلمة للسكون والراحة، والنور للسعي والحركة، ولا يمكن لساعٍ أنْ يسعى ويجدّ في عمل، إلا إذا ارتاح وسكن وجدَّد نشاطه، فتقابُل الظلمة والنور للتكامل، فالحياة لا تستقيم في ظلام دائم، كما أنها لا تستقيم في نور دائم.

وفي السورة الثالثة من السور التي افتتحها الحق سبحانه ب ﴿ الحمد لِلَّهِ ﴾ والتي نحن بصددها أراد الحق سبحانه أنْ يوضح أنه لم يُربِّ الخَلْق تربية مادية فقط، بل هناك تربية

أعلى من المادة تربية روحية قيمية ، فذكر هنا الحيثية الحقيقية لخَلْق الإنسان ، فهو لم يُخلق لمادته فحسْب ، ولكن لرسالة أسمى ، خلق ليعرف القيم والرب والدين ، وأنْ يعملَ لحياة أخرى غير هذه الحياة المادية ، فقال تعالى : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب . . ﴾ [الكهف : 1]

فحيثية الحمد هنا إنزالُ الكتاب الذي يجمع كل القيم . وقلنا : إن الحق سبحانه محمود برحمانيته قبل أنْ يخلق الخَلْق وضع له النماذج التي تُصلِح حركة الحياة ، كما قال تعالى : ﴿ الرحمن * عَلَّمَ القرآن * خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان ﴾ [الرحمن : 1-4]

(53/468)

فتعليم القرآن جاء قبل خَلْق الإنسان ، إذن : وضع الحق سبحانه لعباده المنهج المنظِّم لحياتهم قبل أن يخلقهم ، لِعلْمه سبحانه بطبيعة خَلْقه ، وبما يصلحهم ، كالمخترع للآلة الذي يعلم مهمتها ويُحدد قانون صيانتها ، فالكتاب الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو المهمة الأساسية ، فيجب أنْ تُوطّن عليها نفسك ، وتعلَم أنه المنظِّم لحياتك ، وبه قانون صيانتك .

وقوله : ﴿ على عَبْدِهِ . . ﴾ [الكهف : 1] كما قلنا : في سورة الإسراء : إن العبودية

كانت حيثية الرِّفْعة في الإسراء والمعراج، فقال سبحانه: ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ .. ﴾ [الإسراء: 1]

فالعبودية رفعتْه إلى حضرته تعالى؛ لأنه كان عبداً بحقّ، وهذا يعني إنزال الكتاب عليه، فكان عبداً بحق قبل أن يُسرَى به، وحمل منهج الله أولاً فالتفتَ لربه لَفْتةً أراد أنْ يلفتَ بها سواه، فأخلص هو أولاً في العبودية، وتحمَّل ما تحمّل، فكان من جزائه أن يرتفع إلى مقام الحضرة فَعُرِج به، وهناك أعطاه الله الصلاة لينزلَ بها إلى الخَلْق ليرفع بها صوته إلى المقام الذي سعى إليه بالمعراج.

إذن: فالنبي تناول ليناوِل، وتناول لأنه أخلصَ العبودية، فصعد إلى حضرة ربه، وأخذ فريضة الصلاة وبلَّغها لقومه، وكأنه يقول لهم: مَنْ أراد أن يلتقي بالله، فليدخل في الصلاة.

و﴿ الكتاب .. ﴾ [الكهف: 1] هو القرآن الكريم، لكن سورة الكهف ترتيبها الثامنة عشرة بين سور المصحف من المائة والأربعة عشرة سورة، أي: أن القرآن لم يكتمل بعد، فلماذا قال تعالى ﴿ الكتاب ﴾ وهو لم يكتمل بعد؟

نقول: الكتاب يُطلَق ويُرادُ به بعضه، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ ﴾ [القيامة: 18]

فالآية الواحدة تُسمَّى قرآناً، والسورة تُسمَّى قرآناً، والكل نُسمِّيه قرآناً.

أو : يكون المراد أَنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، ثم نزّله بعد ذلك مُنَجّماً حَسْب الوقائع ، فالمراد هنا الإنزال لا التنزيل .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ [الكهف : 1] أي : جعله مستقيماً ، لا عِوجَ فيه ، كما قال في آية أخرى : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ . . ﴾ [الزمر : 28] والاعوجاج ، أن يأخذ الشيءُ امتداداً مُنْحنياً ملتوياً ، أما الاستقامة فهي الامتداد في نفس الاتجاه ، لا يميل يميناً أو شمالاً ، ومعلوم أن الخطَّ المستقيم يمثل أقرب مسافة بين نقطتين ، ولا تستقيم حياة الناس في الدنيا إلا إذا ساروا جميعاً على منهج مستقيم يعصمهم من التصادم في حركة الحياة .

فالحق سبحانه وتعالى خلق الخَلْق متكاملين ، فكُلٌّ منهم لديه موهبة يحتاجها الآخرين ، فهذا طبيب ، وهذا مهندس ، وهذا نجار ، وهذا خياط ، ولا يستطيع أحد أن يقومَ بذاته أو يستغني عن مواهب غيره ، فلا بُدَّ أن يتواجه الناس في الحياة ، وأنْ يتكاملوا .

هذا التواجه إنْ لم يُنظِّم وتوضع له قوانين مرور دقيقة لتصادمت حركات الناس ، كما يحدث على الطريق الملتوي كثير المنحنيات ، فالقادم من هنا لا يرى القادم من هناك ، فيحدث التصادم . إذن : لا بُدَّ من استقامة الطريق ليرى كلٌّ مِنّا الآخر ، فلا يصطدم به . والمنهج الإلهي هو الطريق المستقيم الذي يضمن الحركة في الحياة .

وقد ذُكر الاعوجاج أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً ولا أَمْتاً ﴾ [طه: 105-107]

أي: أرضاً مستوية خالية من أي شيء ﴿ لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً ﴾ [طه: 107] أي: مستقيمة ﴿ ولا أَمْتاً ﴾ [طه: 107].

أي: مُسْتوية لا يُوجد بها مرتفعات ومنخفضات تعوق الرؤية أيضاً وتسبب التصادم، وهذا ما يُسمِّيه رجال المرور (العقبة).

(55/468)

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً القرآن الكريم: ﴿ قَيِّماً لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ المؤمنين.... ﴾.

قوله: ﴿ قَيِّماً ﴾ أي: القرآن، وقالوا: قيِّم يعني مستقيم، كأنها تأكيد لقوله: ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ [الكهف: 1] لأن الاستقامة والعِوَج قد لا يُدرك بالعين المجردة وتحتاج إلى ميزان دقيق يكشف لك مدى العِوَج أو الاستقامة، وهذه الظاهرة تراها في الطرق المستوية المرصوفة، والتي تراها للوَهْلة الأولى مستقيمة تماماً ومستوية، فإذا ما نزل المطر فضح هذا الاستواء وأظهر ما فيه من عيوب؛ لذلك أكّد الاستقامة بقوله: ﴿ قَيِّماً ﴾ [

الكهف : 2]

ومن معاني القَيِّم : المهيمن على ما دونه ، كما تقول : فلان قَيِّم على فلان أي : مُهيمن عليه وقائم على أمره . فالقرآن إذن لا عِوَج فيه ، وهو أيضاً مُهيمن على الكتب السابقة وله الوصاية عليها كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكتاب وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : 48]

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القيم ﴾ [الروم : 43] أي : المهيمن على الأديان السابقة .

ثم يقول تعالى : ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ ﴾ [الكهف : 2]

وهذه هي العِلّة في الإنزال .

والإنذار : التخويف بشَرٍّ قادم ، والمنْذَر هنا هم الكفار ؛ لأنه لا يُنذَر بالعذاب الشديد إلا الكفار ، لكن سياق الآية لم يذكرها ليترك مجالاً للملَكَة العربية وللذِّهْن أنْ يعملَ ، وأنْ يستقبلَ القرآن بفكر مُتفتح وعقل يستنبط ، وليس بالضرورة أن يعطينا القرآنُ كلَّ شيء هكذا على طرف الثُّمام أي قريباً سهل التناول .

ثم ضَخَّم العذاب بأنه شديد ، ليس ذلك وفقط بل ﴿ مِن لَّدُنْهُ ﴾ ، والعذاب يتناسب مع المعذِّب وقوته ، فإنْ كان العذاب من الله فلا طاقة لأحدٍ به ، ولا مهربَ لأحد منه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الكهف : 2] والبشارة تكون بالخير المنتظر في المستقبل ، وتلاحظ أنه في البشارة ذكر المبشَّر ﴿ المؤمنين ﴾ ولم يسكت عنهم كما سكت عن الكفار في الإنذار ، فهذا من رحمة الله بنا حتى في الأسلوب ، والبشارة هنا بالأجر الحسن ؛ لأنه أجر من الكريم المتفضّل سبحانه ؛ لذلك قال الحق سبحانه بعدها :

﴿ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ﴾ .

أي : باقين فيه بقاءً أبدياً ، وكان لا بُدّ أنْ يوصَف أجر الله الحسن بأنه دائم ، وأنهم ماكثون فيه أبداً ؛ لأن هناك فرقاً بين أجر الناس للناس في الدنيا ، وأجر المنعِم سبحانه في الآخرة ، لقد أَلِفَ الناس الأجر على أنه جُعِل على عمل ، فعلى قَدْر ما تعمل يكون أجرك ، فإنْ لم تعمل فلا أجر لك .

أما أَجْر الله لعباده في الآخرة فهو أجر عظيم دائم ، فإنْ ظلمك الناس في تقدير أجرك في الدنيا ، فالله تعالى عادل لا يظلم يعطيك بسخاء ؛ لأنه المنصِف المتفضّل ، وإن انقطع الأجر في الدنيا فإنه دائم في الآخرة ؛ لأنك مهما أخذتَ من نعيم الدنيا فهو نعيم زائل ، إما أنْ تتركه ، وإما أنْ يتركك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل ﴾ : في هذه الجملةِ أوجهٌ ، أحدُها : أنَّها معطوفةٌ على الصلةِ قبلَها . والثاني : أنها اعتراضيةٌ بين الحالِ وهي " قَيِّماً " وبين صاحبِها وهو " الكتابَ " والثالث : أنَّها حالٌ من " الكتابَ " ، ويترتَّبُ على الأوجهِ القولُ في " قَيِّماً " .

قوله : ﴿ قَيِّماً ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنَّه حالٌ من " الكتاب " . والجملةُ مِنْ قولِه " ولم يَجْعَلْ " اعتراضٌ بينهما . وقد مَنَع الزمخشريُّ ذلك فقال : " فإنْ قُلْتَ : بم انتصَبَ " قَيِّماً " ؟ قلت : الأحسنُ أن ينتصِبَ بمضمرٍ ، ولم يُجْعَلْ حالاً من " الكتابَ " لأنَّ قولَه " ولم يَجْعَلْ " معطوفٌ على " أَنْزَلَ " فهو داخلٌ في حَيِّزِ الصلةِ ، فجاعِلُه حالاً فاصِلٌ بين الحالِ وذي الحالِ ببعضِ الصلةِ " . وكذلك قال أبو البقاء . وجوابُ هذا ما تقدَّم مِنْ أنَّ الجملةَ اعتراضٌ لا معطوفةٌ على الصلةِ .

الثاني : أنَّه حالٌ مِنَ الهاءِ في " له " . قال أبو البقاء : " والحالُ موكِّدةٌ . وقيل : منتقلةٌ " .

قلت : القولُ بالانتقالِ لا يَصِحُّ .

الثالث : أنه منصوبٌ بفعلٍ مقدَّرٍ ، تقديرُه : جَعَلَهُ قيِّماً . قال الزمخشريُّ : " تقديرُه : ولم يَجْعَلْ له عِوَجاً ، جعله قيماً ، لأنه إذا نفى عنه العِوَجَ فقد أثبتَ له الاستقامةَ " . قال : "

فإنْ قلتَ : ما فائدة الجمع بين نَفْي العِوَجِ وإثباتِ الاستقامةِ وفي أحدِهما غِنَىً عن الآخر ؟

. قلت : فائدته التأكيدُ فرُبَّ مستقيمٍ مشهودٌ له بالاستقامةِ ، ولا يَخْلو مِنْ أدنى عِوَجٍ عند السَّبْرِ والتصفُّح " .

الرابع : أَنَّه حالٌ ثانيةٌ ، والجملةُ المنفيَّةُ قبلَه حالٌ أيضاً ، وتعدُّدُ الحالِ لذي حالٍ واحدٍ جائزٌ

. والتقديرُ : أنزلَه غيرَ جاعلٍ له عِوجاً قيّماً .

(58/468)

الخامس : أنه حالٌ أيضاً ، ولكنه بدلٌ من الجملةِ قبلَه لأنَّها حال ، وإبدالُ المفردِ من الجملةِ إذا كانت بتقديرِ مفردٍ جائزٌ . والتقديرُ : وهذا كما أُبدِلَتِ الجملةُ من المفردِ في قولهم : " عَرَفْتُ زيداً أبو مَنْ هو " .

والضميرُ في " له " فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّه للكتاب ، وعليه التخاريجُ المتقدمةُ . والثاني : أنَّه يعود على " عبدِه " ، وليس بواضح .

وقرأ العامَّةُ بتشديد الياء . وأبانُ بن تَغْلَبَ بفتحِها خفيفةً . وقد تَقَدَّم القول فيها .

ووقف حفصٌ على تنوين " عِوَجاً " يُبْدله ألفاً ، [ويسكت] سكتةً لطيفةً من غير قَطْعِ نَفَسٍ ، إشْعاراً بأنَّ " قَيِماً " ليس متصلاً ب " عِوَجاً " ، وإنما هو مِنْ صفةِ الكتاب . وغيرُه

لم يَعْبَأْ بهذا الوهمِ فلم يسكتْ اتّكالاً على فَهْمِ المعنى .

قلت : قد يتأيّد ما فعله حفصٌ بما في بعضِ مصاحفِ الصحابةِ : " ولم يَجْعَلْ له عِوَجاً ، لكنْ جَعَلَه قيّماً " . وبعض القراء يُطْلِقُ فيقول : يَقِف على " عِوَجا " ، ولم يقولوا : يُبدل التنوين ألفاً ، فيُحْتمل ذلك ، وهو أقربُ لغرضِه فيما ذكرْتُ .

ورأيتُ الشيْخَ شهابَ الدين أبا شامة قد نقل هذا عن ابنِ غلبون وأبي علي الأهوازيِّ ، أعني الإِطلاقَ . ثم قال : " وفي ذلك نَظَرٌ - أي على إبدالِ التنوين ألفاً - فإنه لو وَقَفَ على التنوين لكان أَدَلَّ على غرضِه ، وهو أنه واقفٌ بنيَّةِ الوصلِ " .

انتهى .

وقال الأهوازيُّ : " ليس هو وَقْفاً مختاراً ، لأنَّ في الكلامِ تقديماً وتأخيراً ، معناه : أَنْزَلَ على عبدِه الكتاب قيّماً ولم يَجْعَلْ له عِوَجاً " . قلت : دَعْوى التقديمِ والتأخيرِ وإنْ كان قاله به غيرُه ، إلا أنها مَرْدودةٌ بأنَّها على خلافِ الأصل ، وقد تقدَّم تحقيقُه .

(59/468)

وفَعَلَ حفص في مواضعَ من القرآن مثلَ فِعْلِه هنا مِنْ سكتةٍ لطيفةٍ نافيةٍ لوَهْمٍ مُخِلٍّ . فمنها : أنَّه كان يقفُ على " مَرْقَدِنا " ، ويَبْتدئ : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن ﴾ [يس : 52] . قال

: "لئلا يُتَوَهَّمَ أنّ" هذا "صفةٌ ل" مَرْقَدِنا" فالوقف يُبيّن أنّ كلامَ الكفارِ انقَضى، ثم ابتُدِئ بكلامِ/غيرِهم. قيل: هم الملائكةُ. وقيل: هم المؤمنون. وسيأتي في يس ما يَقْتضي أنْ يكونَ" هذا" صفةً ل" مَرْقَدِنا" فيفوتُ ذلك.

ومنها: ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ [القيامة: 27]. كان يقف على نونِ "مَنْ" ويَبْتَدِئ" راقٍ" قال: لئلا يُتَوَهَّمَ أنَّها كلمةٌ واحدةٌ على فَعَّال اسمَ فاعلٍ للمبالغةِ مِنْ مَرَق يَمْرُق فهو مَرَّاق.

ومنها: ﴿ بَلْ رَانَ ﴾ [المطففين: 14] كان يقفُ على لامِ بل، ويَبْتَدِئ" رانَ" لِما تقدَّم.

قال المهدويُّ: "وكان يَلْزَمُ حفصاً مثلُ ذلك، فيما شاكَلَ هذه المواضعَ، وهو لا يَفعلُه، فلم يكن لقراءتِه وَجْهٌ من الاحتجاجِ إلا اتباعُ الأَثَرِ في الرواية". قال أبو شامة: "أَوْلَى من هذه المواضعِ بمراعاةِ الوقفِ عليها: "ولا يَحْزُنْكَ قولُهم. ﴿ إِنَّ العزةَ للَّهِ جَمِيعاً ﴾ [يونس: 65]، الوقفُ على" قَوْلُهم" لئلا يُتَوَهَّمَ أنَّ ما بعده هو المقولُ"، وكذا ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النار * الذين يَحْمِلُونَ العرش ﴾ [غافر: 67] ينبغي أن يُعْتَنَى بالوقفِ على" النار" لئلا تُتَوَهَّمَ الصفةُ".

قلت: وتَوَهُّمُ هذه الأشياءِ مِنْ أبعدِ البعيدِ. وقال أبو شامة أيضاً: "ولو لَزِم الوقفُ على اللامِ والنونِ لِيَظْهرا للَزِمَ ذلك في كلِّ مُدْغَمٍ". قلت: يعني في "بَلْ رَان" وفي "مَنْ راقٍ".

قوله: "لِيُنْذِرَ" في هذه اللامِ وجهان، أحدُهما: أنَّها متعلقةٌ ب "قَيِّماً" قاله الحوفيُّ.

والثاني: -وهو الظاهر- أنها تتعلَّق ب "أنزَلَ". وفاعلُ "لِيُنْذِرَ" يجوز أن يكونَ "الكتابَ" وأن يكونَ الله، وأن يكون الرسول.

و"أَنْذَرَ" يتعدَّى لاثنين: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً ﴾ [النبأ: 40] ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً ﴾ [فصلت: 13]. ومفعولُه الأولُ محذوفٌ، فقدَّره الزمخشريُّ: "لِيُنْذِرَ الذين كفروا، وغيره: "لِيُنْذِرَ العبادَ"، أو "لِيُنْذِرَكم"، أو لِيُنْذِرَ العالَم. وتقديرُه أحسنُ لأنه مقابلٌ لقولِه ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، وهو ضِدَّهم.

وكما حَذَفَ المُنْذِرُ وأتى بالمُنْذَرِ به هنا، حَذَفَ المُنْذَرَ به وأتى بالمُنْذَرِ في قوله ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُواْ ﴾ [الكهف: 4] فَحَذَفَ الأولَ مِنَ الأولِ لدلالةِ ما في الثاني عليه، وحذَفَ الثاني مِنَ الثاني لدلالةِ ما في الأوَّلِ عليه، وهو في غايةِ البلاغةِ، ولمَّا تكرر البِشارةُ ذَكَرَ مفعوليها فقال: ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً ﴾.

قوله: ﴿ مِّن لَّدُنْهُ ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بسكون الدالِ مُشَمَّةً الضمَّ وكسرِ النونِ والهاءِ موصلةً بياءٍ، فيقرأ "مِنْ لَدْنِهِي" والباقون يَضُمون الدالَ، ويسكِّنون [النونَ] وَيَضُمُّون الهاءَ، وهم على قواعِدهم فيها: فابنُ كثيرٍ يَصِلها بواوٍ نحو: مِنْهو وعَنْهو، وغيرُه لا يَصِلُها بشيء.

ووَجهُ أبي بكرٍ : أنه سكَّن الدالَ تخفيفاً كتسكين عين " عَضُد " والنونُ ساكنةٌ ، فالتقى ساكنان فكسرَ النونَ لالتقاءِ الساكنين ، وكان حقُّه أن يكسِرَ الأولَ على القاعدةِ المعروفةِ إلا أنَّه يَلْزَمُ منه العَوْدُ إلى ما فَرَّ منه ، وسيأتي لتحقيق هذا بيانٌ في قولِه ﴿ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ ﴾ [الآية : 52] في سورة النور ، فهناك تتكلَّم فيه ، ولمَّا كَسَر النونَ لما ذكرْتُه لك كَسَرَ الهاءَ إتْباعاً على قاعدته ووَصَلَها بياء . وأَشَمَّ الدالَ إشارةً إلى أصلِها في الحركة .

والإِشمامُ هنا عبارةٌ عن ضَمِّ الشفتين مِنْ غير نطق ، ولهذا يختصُّ به البصيرُ دونَ الأَعمى ، هكذا قرَّره القراءُ وفيه نظَرٌ ، لأنَّ الإِشمامَ المشارَ إليه إنما يتحقَّقُ عند الوقفِ على آخرِ الكلمةِ فلا يليق إلا بأَنْ يكونَ إشارةً إلى حركةِ الحرفِ الأخيرِ المرفوعِ إذا وُقف عليه نحو : " جاء الرجل " ، وهكذا ذكره النحويون . وأمّا كونُه يُؤْتى به في وَسَط الكلمةِ فلا يُتَصَوَّرُ إلا أَنْ يقفَ المتكلمُ على ذلك الساكنِ ثم يَنْطِقَ بباقي الكلمة . وإذا جَرَّبْتَ نُطْقَك في هذا الحرفِ الكريم وَجَدْتَ الأمرَ كذلك ، لا تَنْطِقُ بالدالِ ساكنةً مشيراً إلى ضمّها إلا حتى تقفَ عليها ، ثم تأتي بباقي الكلمةِ .

فإن قلتَ : إنما اتي بالإِشارةِ إلى الضمةِ بعد فراغي من الكلمة بأَسْرِها . قيل لك : فاتَتِ

الدلالةُ على تعيينِ ذلك الحرفِ المشارِ إلى حركتِه . ويمكن أَنْ يُجابَ عن هذا بأنه ليس في الكلمة ما يَصْلُح أَنْ يُشارَ إلى حركتِه إلا الدالُ . وقد تقدَّم في " يوسف " أن الإِشمامَ في ﴿ لاَ تَأْمَنَّا ﴾ [الآية : 11] إذا فسَّرْناه بالإِشارةِ إلى الضمة : منهم مَنْ يفعلُه قبل كمالِ الإِدغام ، ومنهم مَنْ يفعلُه بعده ، وهذا نظيرُه . وتقدَّم أنَّ الإِشمامَ يقع بإزاء معانٍ أربعةٍ تقدَّم تحقيقُها .

(62/468)

و ﴿ مِّن لَّدُنْهُ ﴾ متعلق ب " لِيُنْذِرَ " / . ويجوز تعلُّقُه بمحذوفٍ نعتاً ل " بَأْساً " ويجوز أَنْ يكونَ حالاً من الضميرِ في " شديداً " .

وقُرِئَ " ويُبَشِّرُ " بالرفعِ على الاستئنافِ .

قوله : ﴿ مَّاكِثِينَ ﴾ : حالٌ : إمَّا من الضميرِ المجرورِ في " لهم " ، أو المرفوعِ المستترِ فيه ، أو مِنْ " أجراً " لتخصُّصِه بالصفةِ ، إلا أنَّ هذا لا يجيءُ إلا على رأيِ الكوفيين : فإنهم لا يشترطون بروزَ الضميرِ في الصفةِ الجاريةِ على غيرِ مَنْ هي له إذا أُمِنَ اللَّبْسُ ، ولو كان حالاً منه عند البصريين لقال : ماكثين هم فيه . ويجوز على رَأْيِ الكوفيين أن يكونَ صفةً ثانيةً ل " أَجْراً " . قال أبو البقاء : " وقيل : هو صفةٌ ل " أَجْراً " ، والعائدُ : الهاءُ مِنْ " فيه " . ولم

يَتَعَرَّضْ لبروزِ الضميرِ ولا لعدمِه بالنسبة إلى المذهبين .

و" أبداً " منصوبٌ على الظرفِ ب" ماكثين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 439.433 ﴾

(63/468)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى لدن ولدى)

لدُنْ ولَدَن بضم الدال وفتحها ، ولَدْنَ كأَين ، ولُدْنِ بضم اللام وكسر النون, ولَدُ بضم الدال : ولَدَى كعلى ، ست لغات .

وهو ظرف زمان ، وقيل : مكانىّ كعند ، قال تعالى : ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ .

وسمع لَدَى بمعنى هل .

والعِلْم اللدنِىّ : ما يحصل للعبد بغير واسطة ، بل بإِلهام من الله تعالى ؛ كما حصل للخضِر عليه السلام بغير واسطة موسى .

قال تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا ﴾ إذْ لم يكن نيلهما على يد بشر .

وكان من لدنه أخصّ وأقرب ممّا عنده ، ولهذا قال : ﴿ رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ فالسلطان النصير الذى من لدنه سبحانه أخصّ من الذى عنده وأقرب .

وهو نَصْره الذى أيّده به ، والذى عنده نصره بالمؤمنين ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والعلم اللدنِىّ ثمرة العبوديّة والمتابعة والصدق مع الله والإخلاص له ، وبذل الجهد فى تلقّى من المشكاة النبوية المحمدية والكتاب العزيز المجيد ، وكمال الانقياد له .

فيُفتح له من فهم الكتاب والسنّة أمر يُخَصّ به ، كما قال علىٌّ وقد سئل : هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء دون الناس ؟ فقال : لا والذى فَلَقَ الحبَّة ، وبَرَأَ النَسَمة إلاّ فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه ؛ فهذا هو العِلم اللدُنِىّ الحقيقىّ

وأمّا علم مَن أعرض عن الكتاب والسنّة ولم يتقيد بهما فهو من لدن النفس والشيطان .

فهو لدنىّ ولكن من لدن من ؟ .

وإنما يعرف كون العلم لدنيّا روحانيا بموافقته بما جاءَ به الرسول صلّى الله عليه وسلم عن ربّه عزّ وجل .

فالعلم اللَّدُنىّ نوعان : لدّنِىٌّ رحمانىّ ، ولدنىّ شيطانى كما تقدم فى بصيرة العِلْم .

والله أَعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 426 . 427 ﴾

(65/468)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

ما سعدت القلوب إلا بسماع اسم الله ن وما استنارت الأسرار إلا بوجود الله ، وما طربت الأرواح إلا بشهود جلال الله .

سماع (بسم الله) راحة القلوب وضياؤها ، وشفاء الأرواح ودواؤها .

(بسم الله) قوت العارفين ، بها يزول كدهم وعناؤهم ، وبها استقلالهم وبقاؤهم .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) ﴾

إذ حُمِلَ ﴿ الحَمْدُ ﴾ هنا على معنى الشكر فإنزال الكتابِ من أَجَلِّ نعَمِهِ ، وكتابُ الحبيب لدى الحبيب أجل مَوْقِعٍ وأشرفُ محلِّ ، وهو من كمال إنعامه عليه ، وإن سمَّاه -

عليه السلام – عَبْدَه فهو من جلائل نعمه عليه لأنَّ من سمّاه عَبْدَه جَعَلَه من جملة خواصّه .

وإذا حُمِلَ ﴿ الحَمْدُ ﴾ في هذه الآية على معنى المدح كان الأمر فيه بمعنى الثناء عليه – سبحانه ، بأنَّه المِلكُ الذي له الأمرُ والنهيُ والحكمُ بما يريد ، وأنه أعدَّ الأحكامَ التي في هذا الكتاب للعبيد ، وسمَّاه صلى الله عليه وسلم عبدَه لمَّا كان فانياً عن حظوظه ، خالصاً لله بقيامه بحقوقه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ ﴾ .

﴿ قَيِّماً ﴾ : أي صانه عن التعارض والتناقض ، فهو كتابٌ عزيزٌ من ربِّ عزيز .

" واليأس الشديد " : مُعَجَّلُه الفراق ، ومؤجَّلُه الاحتراق .

ويقال هو البقاء عن الله تعالى ، والابتلاء بغضب الله .

ومعنى الآية لينذرهم ببأس شديد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيُبَشِّرَ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴾ .

والعملُ الصالحُ ما يصلح للقبول ، وهو ما يُؤَدَّى على الوجه الذي أُمِرَ به . ويقال العمل الصالح ما كان بنعت الخلوص ، وصاحبُه صادقٌ فيه .

ويقال هو الذي يستعجل عليه صاحبه حَظّاً في الدنيا مِنْ أَخذ عِوَضٍ ، أو قَبُولِ جاهٍ ، أو انعقادِ رياسة . . . وما في هذا المعنى .

وحصلت البشارةُ بأَنَّ لهم أجراً حسناً ، والأجرُ الحَسَنُ ما لا يجري مع صاحبه استقصاءُ

في العمل .

ويقال الأجر الحَسَنُ ما يزيد على مقدار العمل .

ويقال الأجر الحَسَنُ ما لا يُذَكِّر صاحبَه تقصيرَه ، ويستر عنه عيوبَ عمله .

﴿ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3) ﴾

البشارة منه أَنَّ تلك النِّعم على الدوام غير منقطعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 375.377 ﴾

(66/468)

قوله تعالى ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الغالب على الإنسان المخالفة للأوامر ، لما جبل عليه من النقائص ، كان الإنذار

فأهم أعاده لذلك ولأن المقام له كما مضى ، ذاكراً فيه بعض المتعلق المحذوف من الآية التي قبلها ، تبكيتاً لليهود المضلين لهؤلاء العرب ولمن قال بمقالتهم فقال تعالى : ﴿ وينذر ﴾ واقتصر هنا على المفعول الأول ليذهب الفكر في الثاني الذي عبر عما يحتمل تقديره به فيما مضى ب ﴿ لدنه ﴾ - كل مذهب فيكون أهول ﴿ الذين قالوا اتخذ الله ﴾ أي تكلف ذو العظمة التي لا تضاهى كما يتكلف غيره أن أخذ ﴿ ولداً ﴾ وهم بعض اليهود والنصارى والعرب ؛ قال الأصبهاني : وعادة القرآن جارية بأنه إذا ذكر قصة كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيهاً على كون ذلك لبعض أعظم جزئيات ذلك الكل ، ولم أجعل الآية من الاحتباك لنقص المعنى ، ثم استأنف معللاً في جواب من كأنه قال : ما لهم خصوا به الوعيد الشديد ؟ فقال تعالى : ﴿ ما لهم به ﴾ أي القول ﴿ من علم ﴾ أصلاً لأنه مما لا يمكن أن يعلق العلم به لأنه لا وجود له ولا يمكن وجوده ، ثم قرر هذا المعنى وأكد بقوله تعالى : ﴿ ولا لأبائهم ﴾ الذين هم مغتبطون بتقليدهم في الدين حتى في هذا الذي لا يتخيله عاقل ، ولو أخطؤوا في تصرف دنيوي لمن يتبعوهم فيه ، تنبيهاً عل أنه لا يحل لأحد أن يقول على الله تعالى ما لا علم له به ، ولا سيما في أصول الدين ، ثم هول أمر ذلك بقوله تعالى : ﴿ كبرت ﴾ أي مقالتهم هذه ﴿ كلمة ﴾ أي ما أكبرها من كلمة ! وصوّر فظاعة اجترائهم على النطق بها بقوله تعالى : ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ أي لم يكفهم خطورها في نفوسهم ، وترددها في صدورهم ، حتى تلفظوا بها ، وكان تلفظهم بها على وجه التكرير - بما أشار إليه التعبير

بالمضارع؛ ثم بين ما أفهمه الكلام من أنه كما أنهم لا علم لهم بذلك لا علم لأحد به أصلاً ، لأنه لا وجود له فقال تعالى : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ يقولون إلا كذباً ﴾ أي قولاً لا حقيقة له بوجه من الوجوه .

(67/468)

وقال ابن الزبير في برهانه : من الثابت المشهور أن قريشاً بعثوا إلى اليهود بالمدينة يسألونهم في أمر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فأجابت يهود بسؤاله عن ثلاثة أشياء ، قالوا : فإن أجابهم فهو نبي ، وإن عجز فالرجل متقول فروا فيه رأيكم ، وهي الروح ، وفتية ذهبوا في الدهر الأول وهم أهل الكهف ، وعن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، فأنزل الله عليه جواب ما سألوه ، وبعضه في سورة الإسراء ﴿ ويسئلونك عن الروح ﴾ [الإسراء : 85] الآية ، واستفتح سبحانه وتعالى سورة الكهف بحمده ، وذكر نعمة الكتاب وما أنزل بقريش وكفار العرب من البأس يوم بدر وعام الفتح ، وبشارة المؤمنين بذلك وما منحهم الله تعالى من النعيم الدائم ، وإنذار القائلين بالولد من النصارى وعظيم مرتكبهم وشناعة قولهم ﴿ إن يقولون إلا كذباً ﴾ وتسلية نبي الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في أمر جميعهم ﴿ فلعلك باخع نفسك ﴾ [الكهف : 6] ، والتحمت الآي أعظم التحام ،

وأحسن التئام ، إلى ذكر ما سأل عنه الكفار من أمر الفتية ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ [الكهف : 9] ثم بسطت الآي قصتهم ، وأوضحت أمرهم ، واستوفت خبرهم ؛ ثم ذكر سبحانه أمر ذي القرنين وطوافه وانتهاء أمره ، فقال تعالى ﴿ ويسئلونك عن ذي القرنين ﴾ [الكهف : 83] الآيات ، وقد فصلت بين القصتين بمواعظ وآيات مستجدة على أتم ارتباط ، وأجل اتساق ، ومن جملتها قصة الرجلين وجنتي أحدهما وحسن الجنتين وما بينهما وكفر صاحبهما واغتراره ، وهما من بني إسرائيل ، ولهما قصة ، وقد أفصحت هذه الآي منها باغترار أحدهما بما لديه وركونه إلى توهم البقاء ، وتعويل صاحبه على ما عند ربه ورجوعه إليه وانتهاء أمره – بعد المحاورة الواقعة في الآيات بينهما – إلى إزالة ما تخيل المفتون بقاءه ، ورجع ذلك كأن لم يكن ، ولم يبق بيده إلا الندم ، ولا صح له من جنته بعد عظيم تلك البهجة سوى التلاشي والعدم ،

(68/468)

وهذه حال من ركن إلى ما سوى المالك ، ومن كل شيء إلا وجهه سبحانه وتعالى فان وهالك ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ [محمد : 36] ﴿ ففروا إلى الله ﴾ [الذاريات : 50] ثم أعقب ذلك بضرب مثل الحياة الدنيا لمن اعتبر واستبصر ، وعقب تلك الآيات

بقصة موسى والخضر عليها السلام إلى تمامها ، وفي كل ذلك من تأديب بني إسرائيل وتقريعهم وتوبيخ مرتكبهم في توقفهم عن الإيمان وتعنيفهم في توهمهم عند فتواهم لكفار قريش بسؤاله عليه السلام عن القصص الثلاث أن قد حازوا العلم وانفردوا بالوقوف على ما لا يعلمه غيرهم ، فجاء جواب قريش بما يرغم الجميع ويقطع دابرهم ، وفي ذكر قصة موسى والخضر إشارة لهم لو عقلوا ، وتحريك لمن سبقت له منهم السعادة ، وتنبيه لكل موفق في تسليم الإحاطة لمن هو العليم الخبير ، وبعد تقريعهم وتوبيخهم بما أشير إليه عاد الكلام إلى بقية سؤالهم فقال تعالى ﴿ يسئلونك عن ذي القرنين ﴾ إلى آخر القصة ، وليس بسط هذه القصص من مقصودنا وقد حصل ، ولم يبق إلا السؤال عن وجه انفصال جوابهم ووقوعه في السورتين مع أن السؤال واحد ، وهذا ليس من شرطنا فلننسأه بحول الله إلى موضعه إن قدر به – انتهى .

(69/468)

وقد تقدم في سورة الإسراء من الجواب عن هذا أن الروح ضمت إليها ، لأنه من سر الملكوت كالإسراء ، وبقي أنه لما أجمل سبحانه أمرها لما ذكر من عظيم السر ، وعيب عليهم اشتغالهم بالسؤال وترك ما هو من عالمها ، وهو أعظم منها ومن كل ما برز إلى الوجود

من ذلك العالم من الروح المعنوي الذي به صلاح الوجود كله ، وهو القرآن العظيم ، وعظم أمره بما ذكر في الإسراء إلى أن اقتضى الحال في إنهاء عظمته أن يدل على إصلاح الوجود به بما حرره وفصله وقرره من أمر السؤالين الباقيين اللذين هما من ظاهر الملك فيما ضم إليهما مما تم به الأمر ، واتضح به ما له من جليل القدر ، كان الأكمل في ذلك أن يكون ما انتظم به ذلك سورة على حدتها ، ولما كان أمر أهل الكهف من حفظ الروح في الجسد على ما لم يعهد مثله ثم إفاضتها ، قدم الجواب عن السؤال عنهم ليلي أمر الروح ، وختم بذي القرنين لإحاطة أمره بما طاف من الأرض ، ولما جعل من السد علماً على انقضاء شأن هذه الدار وختام أمرها ، وطي ما برز من نشرها والله سبحانه وتعالى أعلم .

ولما كان صلى الله عليه وعلى آله وسلم شديد الحرص على إيمانهم شفقة عليهم وغيرة على المقام الإلهي الذي ملأ قلبه تعظيماً له ، خفض عليه سبحانه بقوله تعالى : ﴿ فلعلك باخع ﴾ أي فتسبب عن قولهم هذا ، المباين جداً لما تريد لهم ، الموجب لإعراضهم عنك أنك تشفق أنت ومن يراك على تلك الحالة من أتباعك من أن تكون قاتلاً ﴿ نفسك ﴾ من شدة الغم والوجد ، وأشار إلى شدة نفرتهم وسرعة مفارقتهم وعظيم مباعدتهم بقوله تعالى : ﴿ على ءاثارهم ﴾ أي حين تولوا عن إجابتك فكانوا كمن قوضوا خيامهم وأذهبوا أعلامهم ﴿ إن لم يؤمنوا ﴾ .

ولما صور بعدهم ، صور قرب ما دعاهم إليه ويسر تناوله بقوله تعالى : ﴿ بهذا الحديث ﴾ أي القيم المتجدد تنزيله على حسب التدريج ﴿ أسفاً ﴾ منك على ذلك ، والأسف : أشد الحزن والغضب ؛ ثم بين علة إرشاده إلى الإعراض عنهم بغير ما يقدر عليه من التبليغ للبشارة والنذارة بأنهم لم يخرجوا عن مراده سبحانه ، وأن الإيمان لا يقدر على إدخاله قلوبهم غيره فقال تعالى : ﴿ إنا ﴾ أي لا نفعل ذلك لأنا ﴿ جعلنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ ما على الأرض ﴾ من المواليد الثلاثة : الحيوان والمعدن والنبات ﴿ زينة لها ﴾ بأن حسنّاه في العيون ، وأبهجنا به النفوس ، ولولا مضرة الحيوانات المؤذية من الحشرات وغيرها كانت الزينة بها ظاهرة ، والظاهر أنه لو أطاع الناس كلهم لذهبت مضرتها فبدت زينتها ، كما يكون على زمن عيسى عليه السلام حيث تصير لعباً للولدان .

ولما أخبر بتزيينها ، أخبر بعلته فقال تعالى : ﴿ لنبلوهم ﴾ أي نعاملهم معاملة المختبر الذي يسأل لخفاء الأمر عليه بقوله تعالى : ﴿ أيهم أحسن عملاً ﴾ أي بإخلاص الخدمة لربه ، فيصير ما كنا نعلمه منهم ظاهراً بالفعل تقام به عليهم الحجة على ما يتعارفونه بينهم بأن من أظهر موافقة الأمر فيما نال من الزينة حاز المثوبة ، ومن اجترأ على مخالفة الأمر بما آتيناه منها فعمل على أنها للتنعم بها فقط استحق العقوبة .

ولما كان دعاء الزينة إلى حقيقة الحياة الدنيا من اللهو واللعب ظاهراً لموافقته لما طبعت عليه النفوس من الهوى لم يحتج إلى التنبيه عليه أكثر من لفظ الزينة .

(71/468)

ولما كان دعاءها إلى الزهد فيها والإعراض عنها جملة والاستدلال بها على تمام علم صانعها وشمول قدرته على إعادة الخلائق كما ابتدأهم وغير ذلك خفياً ، لكونه مستوراً عن العقول بهوى النفوس ، نبه عليه بقوله تعالى : ﴿ وإنا لجاعلون ﴾ أي بما لنا من العظمة ثابت لنا هذا الوصف دائماً ﴿ ما عليها ﴾ من جميع تلك الزينة لا يصعب علينا شيء منه ﴿ صعيداً ﴾ أي تراباً بأن نهلك تلك الزينة بإزالة اخضرارها فيزول المانع من استيلاء التراب عليها ثم نسلط عليها الشموس والرياح فيردها بذلك إلى أصلها تراباً ﴿ جرزاً ﴾ أي يابساً لا ينبت شيئاً بطبعه ، وكذا نفعل بمن سبب تسليط البلاء عليه من الحيوان آدمياً كان أو غيره سواء .

ولما كان من المشاهد إعادة النبات بإذن الله تعالى بإنزال الماء عليه إلى الصورة النباتية التي هي الدليل على إحياء الموتى مرة بعد مرة ما دامت الأرض موجودة على هذه الصورة ، طوي ذكر ذلك ستراً لهذا البرهان المنير عن الأغبياء المشغولين بالظواهر ، علماً منه

سبحانه بظهوره لأولي البصائر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 444 . 447 ﴾

(72/468)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ وَيُنذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَدًا ﴾ معطوف على قوله : ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مّن لَّدُنْهُ ﴾ [الكهف : 2] والمعطوف يجب كونه مغايراً للمعطوف عليه فالأول عام في حق كل من استحق العذاب .

والثاني خاص بمن أثبت لله ولداً ، وعادة القرآن جارية بأنه إذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيهاً على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي كقوله تعالى : ﴿ وَمَلَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وميكال ﴾ [البقرة : 98] فكذا ههنا العطف يدل على أن أقبح أنواع

الكفر والمعصية إثبات الولد لله تعالى .

المسألة الثانية :

الذين أثبتوا الولد لله تعالى ثلاث طوائف .

أحدها : كفار العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله .

وثانيها : النصارى حيث قالوا : المسيح ابن الله .

وثالثها : اليهود الذين قالوا : عزيز ابن الله ، والكلام في أن إثبات الولد لله كفر عظيم ويلزم منه محالات عظيمة قد ذكرناه في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : 100] وتمامه مذكور في سورة مريم ، ثم إنه تعالى أنكر على القائلين بإثبات الولد لله تعالى من وجهين .

الأول : قوله : ﴿ مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لآبائهم ﴾ فإن قيل اتخاذ الله ولداً محال في نفسه فكيف قيل ﴿ ما لهم به من علم ﴾ ؟ قلنا : انتفاء العلم بالشيء قد يكون للجهل بالطريق الموصل إليه ، وقد يكون لأنه في نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به .

ونظيره قوله : ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ [المؤمنون : 117] واعلم أن نفاة القياس تمسكوا بهذه الآية فقالوا : هذه الآية تدل على أن القول في الدين بغير علم باطل ، والقول بالقياس الظني قول في الدين بغير علم فيكون باطلاً وتمام تقريره مذكور في قوله : ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ ﴾ [الإسراء : 36] وقوله : ﴿ وَلَا لِآبَائِهِم ﴾ أي ولا أحد من أسلافهم ، وهذا مبالغة في كون تلك المقالة باطلة فاسدة .

النوع الثاني : مما ذكره الله في إبطاله قوله : ﴿ كَبُرَتۡ كَلِمَةً تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : قرىء : ﴿ كَبُرَتۡ كَلِمَةً ﴾ بالنصب على التمييز وبالرفع على الفاعلية ، قال الواحدي ومعنى التمييز أنك إذا قلت كبرت المقالة أو الكلمة جاز أن يتوهم أنها كبرت كذباً أو جهلاً أو افتراء ، فلما قلت كلمة ميزتها من محتملاتها فانتصبت على التمييز والتقدير كبرت الكلمة كلمة فحصل فيه الإضمار ، أما من رفع فلم يضمر شيئاً كما تقول عظم فلان فلذلك قال النحويون والنصب أقوى وأبلغ ، وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكبرها كلمة .

البحث الثاني : قوله : ﴿ كَبُرَتۡ ﴾ أي كبرت الكلمة .

والمراد من هذه الكلمة ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله : ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ فصارت مضمرة في كبرت وسميت كلمة كما يسمون القصيدة كلمة .

البحث الثالث : احتج النظام في إثبات قوله : أن الكلام جسم بهذه الآية قال : إنه تعالى وصف الكلمة بأنها تخرج من أفواههم والخروج عبارة عن الحركة ؛ والحركة لا تصح إلا على الأجسام .

والجواب أن الحروف إنما تحدث بسبب خروج النفس عن الحلق ، فلما كان خروج النفس سبباً لحدوث الكلمة أطلق لفظ الخروج على الكلمة .

(74/468)

البحث الرابع : قوله : ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ يدل على أن هذا الكلام مستكره جداً عند العقل ؛ كأنه يقول : هذا الذي يقولونه لا يحكم به عقلهم وفكرهم ألبتة لكونه في غاية الفساد والبطلان ، فكأنه شيء يجري به لسانهم على سبيل التقليد ، لأنهم مع أنها قولهم عقولهم وفكرهم تأباها وتنفر عنها ثم قال تعالى : ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ ومعناه ظاهر ، واعلم أن الناس قد اختلفوا في حقيقة الكذب .

فعندنا أنه الخبر الذي لا يطابق المخبر عنه سواء اعتقد المخبر أنه مطابق أم لا ؟ ومن الناس من قال شرط كونه كذباً أن لا يطابق المخبر عنه مع علم قائله بأنه غير مطابق ، وهذا القيد عندنا باطل ، والدليل عليه هذه الآية فإنه تعالى وصف قولهم بإثبات الولد لله بكونه كذباً ،

مع أن الكثير منهم يقول ذلك ، ولا يعلم كونه باطلاً ، فعلمنا أن كل خبر لا يطابق المخبر عنه فهو كذب سواء علم القائل بكونه مطابقاً أو لم يعلم ، ثم قال تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى ءاثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : المقصود منه أن يقال للرسول : لا يعظم حزنك وأسفك بسبب كفرهم فإنا بعثناك منذراً ومبشراً فأما تحصيل الإيمان في قلوبهم فلا قدرة لك عليه .

والغرض تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عنه .

البحث الثاني : قال الليث : بخع الرجل نفسه إذا قتلها غيظاً من شدة وجده بالشيء .

وقال الأخفش والفراء أصل البخع الجهد .

يقال : بخعت لك نفسي أي جهدتها ، وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت عمر فقالت : بخع الأرض أي جهدها حتى أخذ ما فيها من أموال الملوك .

وقال الكسائي : بخعت الأرض بالزراعة إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة وبخع الرجل نفسه إذا نهكها وعلى هذا معنى : ﴿ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ أي ناهكها وجاهدها حتى تهلكها ولكن أهل التأويل كلهم قالوا : قاتل نفسك ومهلكها والأصل ما ذكرناه ، هكذا قال الواحدي .

البحث الثالث : قوله : ﴿ على ءاثارهم ﴾ أي من بعدهم يقال مات فلان على أثر فلان أي بعده وأصل هذا أن الإنسان إذا مات بقيت علاماته وآثاره بعد موته مدة ثم إنها تنمحي وتبطله بالكلية ، فإذا كان موته قريباً من موت الأول كان موته حاصلاً حال بقاء آثار الأول فصح أن يقال مات فلان على أثر فلان .

البحث الرابع : قوله ؛ ﴿ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث ﴾ المراد بالحديث القرآن .

قال القاضي : وهذا يقتضي وصف القرآن بأنه حديث وذلك يدل على فساد قول من يقول : إنه قديم وجوابه أنه محمول على الألفاظ وهي حادثة .

البحث الخامس : قوله : ﴿ أَسَفاً ﴾ الأسف المبالغة في الحزن وذكرنا الكلام فيه عند قوله : ﴿ غضبان أَسِفًا ﴾ في سورة الأعراف [150] وعند قوله : ﴿ يا أسفي على يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 84] وفي انتصابه وجوه .

الأول : أنه نصب على المصدر ودل ما قبله من الكلام على أنه يأسف .

الثاني : يجوز أن يكون مفعولاً له أي للأسف كقولك جئتك ابتغاء الخير .

والثالث : قال الزجاج : ﴿ أَسَفاً ﴾ منصوب لأنه مصدر في موضع الحال .

البحث السادس : الفاء في قوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ ﴾ جواب الشرط وهو قوله : ﴿ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ ﴾ قدم عليه ومعناه التأخير .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال القاضي : وجه النظم كأنه تعالى يقول : يا محمد إني خلقت الأرض وزينتها وأخرجت منها أنواع المنافع والمصالح والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ثم إنهم يكفرون ويتمردون مع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم .

فأنت أيضاً يا محمد ينبغي أن لا تنتهي في الحزن بسبب كفرهم إلى أن تترك الاشتغال بدعوتهم إلى الدين الحق .

المسألة الثانية :

اختلفوا في تفسير هذه الزينة فقال بعضهم النبات والشجر وضم بعضهم إليه الذهب والفضة والمعادن ، وضم بعضهم إلى سائر الحيوانات وقال بعضهم بل المراد الناس فهم زينة الأرض .

وبالجملة فليس بالأرض إلا المواليد الثلاثة وهي المعادن والنبات والحيوان ، وأشرف أنواع الحيوان الإنسان .

وقال القاضي : الأولى أنه لا يدخل في هذه الزينة المكلف لأنه تعالى قال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ ﴾ فمن يبلوه يجب أن لا يدخل في ذلك فأما سائر النبات والحيوان فإنهم يدخلون فيه كدخول سائر ما ينتفع به ، وقوله : ﴿ زِينَةً لَّهَا ﴾ أي للأرض ولا يمتنع أن يكون ما يحسن به الأرض زينة للأرض كما جعل الله السماء مزينة بزينة الكواكب .

أما قوله : ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذهب هشام بن الحكم إلى أنه تعالى لا يعلم الحوادث إلا عند دخولها في الوجود ، فعلى هذا الابتلاء والامتحان على الله جائز ، واحتج عليه بأنه تعالى لو كان عالماً بالجزئيات قبل وقوعها لكان كل ما علم وقوعه واجب الوقوع وكل ما علم عدمه ممتنع الوقوع وإلا لزم انقلاب علمه جهلاً وذلك محال والمفضي إلى المحال محال ولو كان ذلك واجباً فالذي علم وقوعه

يجب كونه فاعلاً له ولا قدرة له على الترك والذي علم عدمه يكون ممتنع الوقوع ولا قدرة له على الفعل وعلى هذا يلزم أن لا يكون الله قادراً على شيء أصلاً بل يكون موجباً بالذات وأيضاً فيلزم أن لا يكون للعبد قدرة لا على الفعل ولا على الترك لأن ما علم الله وقوعه امتنع من العبد تركه وما علم الله عدمه امتنع منه فعله ، فالقول بكونه تعالى عالماً بالأشياء قبل وقوعها يقدح في الربوبية وفي العبودية وذلك باطل فثبت أنه تعالى إنما يعلم الأشياء عند وقوعها وعلى هذا التقدير فالابتلاء والامتحان والاختبار جائز عليه وعند هذا قال : يجري قوله تعالى : ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ على ظاهره .

وأما جمهور علماء الإسلام فقد استبعدوا هذا القول وقالوا : إنه تعالى من الأزل إلى الأبد عالم بجميع الجزئيات فالابتلاء والامتحان محالان عليه وأينما وردت هذه الألفاظ فالمراد أنه تعالى يعاملهم معاملة لو صدرت تلك المعاملة عن غيره لكان ذلك على سبيل الابتلاء والامتحان وقد ذكرنا هذه المسألة مراراً كثيرة .

المسألة الثانية :

قال القاضي : معنى قوله : ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ هو أنه يبلوهم ليبصرهم أيهم أطوع لله وأشد استمراراً على خدمته لأن من هذا حاله هو الذي يفوز بالجنة فبين تعالى أنه كلف لأجل ذلك لا لأجل أن يعصى ، فدل ذلك على بطلان قول من يقول : خلق بعضهم

للنار .

المسألة الثالثة :

(78/468)

اللام في قوله : ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ ﴾ تدل ظاهراً على أن أفعال الله معللة بالأغراض عند المعتزلة ، وأصحابنا قالوا : هذا محال لأن التعليل بالغرض إنما يصح في حق من لا يمكنه تحصيل ذلك الغرض إلا بتلك الواسطة ، وهذا يقتضي العجز وهو على الله محال .

المسألة الرابعة :

قال الزجاج : ﴿ أيهم ﴾ رفع بالابتداء إلا أن لفظه لفظ الاستفهام ، والمعنى لنختبر ونمتحن هذا أحسن عملاً أم ذاك ، ثم قال تعالى : ﴿ وإِن لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ والمعنى أنه تعالى بين أنه إنما زين الأرض لأجل الامتحان والابتلاء لا لأجل أن يبقى الإنسان فيها متنعما أبداً لأنه يزهد فيها بقوله : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا ﴾ الآية ونظيره قوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : 26] وقوله : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعاً ﴾ [طه : 106] الآية ، وقوله : ﴿ وَإِذَا الأرض مُدَّتْ ﴾ [الانشقاق : 3] الآية .

والمعنى أنه لا بد من المجازاة بعد فناء ما على الأرض ، وتخصيص الإبطال والإهلاك بما

على الأرض يوهم بقاء الأرض إلا أن سائر الآيات دلت على أن الأرض أيضاً لا تبقى وهو قوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض ﴾ [إبراهيم : 48] قال أبو عبيدة : الصعيد المستوي من الأرض ، وقال الزجاج : هو الطريق الذي لا نبات فيه ، وقد ذكرنا تفسير الصعيد في آية التيمم ، وأما الجرز فقال الفراء : الجرز الأرض التي لا نبات عليها ، يقال : جرزت الأرض فهي مجروزة ، وجرزها الجراد والشاء والإبل إذا أكلت ما عليها ، وامرأة جروز إذا كانت أكولاً ، وسيف جراز إذا كان مستأصلاً ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ نَسُوقُ الماء إِلَى الأرض الجرز ﴾ [السجدة : 27] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 66.69 ﴾

(79/468)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فلعلك باخعٌ نفسك على آثارهم ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : قاتل نفسك ، ومنه قول ذي الرُّمَّةِ :

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه . . . بشيء نحتَهُ عن يديك المقادِرُ

الثاني : أن الباخع المتحسر الأسِف ، قاله ابن بحر .

﴿ على آثارهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : على آثار كفرهم .

الثاني : بعد موتهم .

﴿ إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ يريد إن لم يؤمن كفار قريش بهذا الحديث يعني القرآن .

﴿ أسفاً ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أي غضباً ، قاله قتادة .

الثاني : جزعاً ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه غمّاً ، قاله السدي .

الرابع : حزناً ، قاله الحسن ، وقد قال الشاعر :

أرى رجلاً منهم أسيفاً كأنما . . . تضُمُّ إلى كشحيه كفّاً مخضّبًا

قوله عز وجل : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : أنها الأشجار والأنهار التي زين الله الأرض بها ، قاله مقاتل .

الثاني : أنهم الرجال لأنهم زينة الأرض ، قاله الكلبي .

الثالث : أنهم الأنبياء والعلماء ، قاله القاسم .

الرابع : أن كل ما على الأرض زينة لها ، قاله مجاهد .

الخامس : أن معنى ﴿ زينة لها ﴾ أي شهوات لأهلها تزين في أعينهم وأنفسهم .

﴿ لنبلوهم أيهم أحْسَنُ عملاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أيهم أحسن إعراضاً عنها وتركاً لها ، قاله ابن عطاء .

الثاني : أيهم أحسن توكلاً علينا فيها ، قاله سهل بن عبد الله .

الثالث : أيهم أصفى قلباً وأهدى سمتاً .

ويحتمل رابعاً : لنختبرهم أيهم أكثر اعتباراً بها .

ويحتمل خامساً : لنختبرهم في تجافي الحرام منها .

قوله عز وجل : ﴿ وإنّا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾ في الصعيد ثلاثة أقاويل :

أحدها : الأرض المستوية ، قاله الأخفش ومقاتل .

الثاني : هو وجه الأرض لصعوده ، قاله ابن قتيبة .

الثالث : أنه التراب ، قاله أبان بن تغلب .

وفي الجُرُز أربعة أوجه :

أحدها : بلقعاً ، قاله مجاهد .

الثاني : ملساء ، وهو قول مقاتل .

الثالث : محصورة ، وهو قول ابن بحر .

الرابع : أنها اليابسة التي لا نبات بها ولا زرع قال الراجز :

قد جرفتهن السُّنون الأجراز . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(81/468)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ﴾ الآية ،

أهل هذه المقالة هم بعض اليهود في عزير ، والنصارى في المسيح ، وبعض العرب في الملائكة ، والضمير في ﴿ به ﴾ يحتمل أن يعود على القول الذي يتضمنه ﴿ قالوا ﴾ المتقدم ، وتكون جملة قوله ﴿ ما لهم به من علم ﴾ في موضع الحال ، أي قالوا جاهلين ، ويحتمل أن يعود على " الولد " الذي ادعوه ، فتكون الجملة صفة للولد ، قاله المهدوي ، وهو معترض لأنه لا يصفه إلا القائل ، وهم ليس في قصدهم أن يصفوه ، والصواب عندي أنه نفي مؤتنف أخبر الله تعالى بجهلهم في ذلك ، فلا موضع للجملة من الإعراب ، ويحتمل أن يعود على الله عز وجل ، وهذا التأويل أذم لهم وأقضى بالجهل التام عليهم ، وهو قول الطبري . وقوله ﴿

ولا لآبائهم ﴾ يريد الذين أخذ هؤلاء هذه المقالة عنهم، وقرأ الجمهور "كبرت كلمةً"

بنصب الكلمة، كما تقول نعم رجلاً زيد، وفسر "الكلمة" ووصفها بالخروج من أفواههم،

وقال بعضهم: نصبها على التفسير على حد نصب قوله تعالى ﴿ وساءت مرتفقاً ﴾ [

الكهف: 29] وقالت فرقة نصبها على الحال، والتقدير ﴿ كبرت ﴾ فريتهم أو نحو هذا

﴿ كلمة ﴾، وسميت هذه الكلمات ﴿ كلمة ﴾ من حيث هي مقالة واحدة، كما

يقولون للقصيدة كلمة، وهذه المقالة قائمة في النفس معنى واحداً، فيحسن أن تسمى كلمة

، وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر وابن محيصن والقواس عن ابن كثير "كبرت كلمةٌ" برفع الكلمة

على أنها فاعلة ب ﴿ كبرت ﴾، وقوله ﴿ إن يقولون ﴾ أي ما يقولون.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) ﴾

هذه الآية تسلية للنبي عليه السلام، وقوله ﴿ فلعلك ﴾ تقرير وتوفيق بمعنى الإنكار عليه

أي لا تكن كذلك، و"الباخع نفسه" هو مهلكها وجداً وحزناً على أمر ما، ومنه قول

الشاعر: [الطويل]

ألا أيها ذا الباخع الوجد نفسه... لشيء نحته عن يديه المقادر

يريد نحته فخفف وقوله ﴿ على آثارهم ﴾ ، استعارة فصيحة ، من حيث لهم إدبار وتباعد عن الإيمان ، وإعراض عن الشرع فكأنهم من فرط إدبارهم قد بعدوا فهو في آثارهم يحزن عليهم ، وقوله ﴿ بهذا الحديث ﴾ أي بالقرآن الذي يحدثك به ، و ﴿ أسفاً ﴾ نصب على المصدر ، قال الزجاج : و" الأسف " المبالغة في حزن أو غضب .

قال القاضي أبو محمد : و" الأسف " في هذا الموضع الحزن ، لأنه على من لا يملكه ولا هو تحت يد الأسف ولو كان الأسف من مقتدر على من هو في قبضته وملكه لكان غضباً ، كقوله تعالى : ﴿ فلما آسفونا ﴾ [الزخرف : 55] أي أغضبونا وإذا تأملت هذا في كلام العرب اطرد ، وذكره منذر بن سعيد وقال قتادة : هنا ﴿ أسفاً ﴾ غضباً ، قال مجاهد ﴿ أسفاً ﴾ جزعاً وقال قتادة أيضاً : حزناً ، ومن هذه اللفظة قول الأعشى : [الطويل]

أرى رجلاً منكم أسيفاً كأنما . . . يضم إلى كشحيه كفّاً مخضبا

(83/468)

يريد حزيناً كأنه مقطوع اليد ، وقوله ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة ﴾ ، الآية بسط في التسلية أي لا تهتم للدنيا وأهلها فأمرها وأمرهم أقل بفنائه وذهابه ، فإنا إنما جعلنا ما على الأرض زينة وامتحاناً وخبرة ، واختلف في المراد ، ب ﴿ ما ﴾ ، فقال ابن جبير عن ابن

عباس : أراد الرجال وقاله مجاهد ، وروى عكرمة عن ابن عباس أن الزينة الخلفاء والعلماء والأمراء ، وقالت فرقة أراد النعم والملابس والثمار والخضرة والمياه ، ونحو هذا مما فيه زينة ، ولم يدخل في هذا الجبال الصم وكلا ما لا زين فيه كالحيات والعقارب ، وقالت فرقة : أراد كل ما على الأرض عموماً وليس شيء إلا فيه زينة من جهة خلقه وصنعته وإحكامه . وفي معنى هذه الآية ، قول النبي عليه السلام : " الدنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء " و﴿ زينة ﴾ مفعول ثاني أو مفعول من أجله بحسب معنى " جعل " . وقوله ﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ أي لنختبرهم وفي هذا وعيد ما ، قال سفيان الثوري : ﴿ أحسنهم عملاً ﴾ أزهدهم فيها ، وقال أبو عاصم العسقلاني : أحسن عملاً : أترك لها .

قال القاضي أبو محمد : وكان أبي رضي الله عنه يقول : أحسن العمل أخذ بحق واتفاق في حق مع الإيمان وأداء الفرائض واجتناب المحارم ، والإكثار من المندوب إليه . وقوله ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾ ، أي يرجع كل ذلك تراباً غير متزين بنبات ونحو ، و" الجرز " الأرض التي لا شيء فيها من عمارة وزينة ، فهي البلقع ، وهذه حالة الأرض العامرة الخالية بالدين لا بد لها من هذا في الدنيا جزءاً جزءاً من الأرض ثم يعمها ذلك بأجمعها عند القيامة ، يقال : جرزت الأرض بقحط أو جراد أو نحوه إذا ذهب نباتها وبقيت لا شيء فيها ولا نفع ، وأرضون أجراز ، قال الزجاج : والجرز الأرض التي لا تنبت .

(84/468)

قال القاضي أبو محمد : وإنما ينبغي أن يقول : التي لم تنبت ، و" الصعيد " وجه الأرض وقيل " الصعيد " التراب خاصة ، وقيل " الصعيد " الأرض الطيبة وقيل ، " الصعيد " الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(85/468)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وينذر ﴾ بعذاب الله ﴿ الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ وهم اليهود حين قالوا : عزيرٌ ابن الله ، والنصارى حين قالوا : المسيح ابن الله ، والمشركون حين قالوا : الملائكة بنات الله ، ﴿ ما لهم به ﴾ أي : بذلك القول ﴿ من عِلْم ﴾ لأنهم قالوا : أفْتَرَى على الله ، ﴿ ولا لآبائهم ﴾ الذين قالوا ذلك ، ﴿ كَبُرَتْ ﴾ أي : عَظُمَتْ ﴿ كلمةً ﴾ الجمهور على النصب .

وقرأ ابن مسعود ، والحسن ، ومجاهد ، وأبو رزين ، وأبو رجاء ، ويحيى بن يعمر ، وابن

محيصن، وابن أبي عبلة: "كلمةٌ" بالرفع.

قال الفراء: من نصب، أضمر: كَبُرتْ تلك الكلمة كلمةً، ومن رفع، لم يضمر شيئاً، كما تقول: عَظُم قولك.

وقال الزجاج: من نصب، فالمعنى: كبرت مقالتهم: اتخذ الله ولداً كلمة، و"كلمةً" منصوب على التمييز.

ومن رفع، فالمعنى: عظمت كلمة هي قولهم: اتخذ الله ولداً.

قوله تعالى: ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ أي: إنها قول بالفم لا صحة لها، ولا دليل عليها، ﴿ إِن يقولون ﴾ أي: ما يقولون ﴿ إِلا كذبا ﴾.

ثم عاتبه على حُزْنِه لفوت ما كان يرجو من إِسلامهم، فقال: ﴿ فلعلك باخع نفسك ﴾ وقرأ سعيد بن جبير، وأبو الجوزاء، وقتادة: "باخعُ نفسِك" بكسر السين، على الإِضافة.

قال المفسرون واللغويون: فلعلك مهلك نفسك، وقاتل نفسك، وأنشد أبو عبيدة لذي الرمَّة:

أَلا أَيُّهذَا الباخِعُ الوجْد نَفْسَهُ . . .

لِشَيْءٍ نَحَتْهُ عَنْ يَدَيْهِ المقَادِرُ

أي: نحّته.

فإن قيل: كيف قال: ﴿ فلعلك ﴾ والغالب عليها الشك، والله عالم بالأشياء قبل كونها؟

فالجواب: أنها ليست بشكّ، إنما هي مقدَّرة تقدير الاستفهام الذي يعنى به التقرير، فالمعنى: هل أنت قاتل نفسك؟! لا ينبغي أن يطول أساك على إعراضهم، فإن من حَكَمْنَا عليه بالشّقْوَةِ لا تجدي عليه الحسرة، ذكره ابن الأنباري.

(86/468)

قوله تعالى: ﴿ على آثارهم ﴾ أي: من بعد تولّيهم عنك ﴿ إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ﴾ يعني: القرآن ﴿ أسفا ﴾ وفيه أربعة أقوال.

أحدها: حَزَنًا، قاله ابن عباس، وابن قتيبة.

والثاني: جزَعاً، قاله مجاهد.

والثالث: غَضَباً، قاله قتادة.

والرابع: نَدَماً، قاله السدي.

وقال أبو عبيدة: نَدَماً وتَلهُّفاً وأَسىً.

قال الزجاج: الأسف: المبالغة في الحزن، أو الغضب، يقال: قد أسف الرجل، فهو

أَسيف ، قال الشاعر :

أَرَى رَجُلاً مِنْهُمْ أَسِيفاً كَأَنَّما . . .

يَضمُّ إِلى كَشْحَيْهِ كَفّاً مُخَضَّبا

وهذه الآية يشير بها إِلى نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كثرة الحرص على إيمان قومه لئلا يؤدّي ذلك إِلى هلاك نفسه بالأسف .

قوله تعالى : ﴿ إِنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾

فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنهم الرجال .

رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : العلماء ، رواه مجاهد عن ابن عباس فعلى هذين القولين تكون "ما" في موضع "مَنْ" لأنها في موضع إِبهام ، قاله ابن الانباري .

والثالث : أَنَّه ما عليها من شيء ، قاله مجاهد .

والرابع : النبات والشجر ، قاله مقاتل .

وقول مجاهد أعمُّ ، يدخل فيه النبات ، والماء ، والمعادن ، وغير ذلك .

فإن قيل : قد نرى بعض ما على الأرض سَمِجاً وليس بزينة .

فالجواب : أنا إِن قلنا : إِن المراد [به] شيء مخصوص ، فالمعنى : إِنا جعلنا بعض ما على

الأرض زينةً لها ، فخرج مخرج العموم ، ومعناه الخصوص .

وإن قلنا : هم الرجال أو العلماء ، فلعبادتهم أو لدلالتهم على خالقهم .

وإن قلنا : النبات والشجر ، فلأنه زينة لها تجري مجرى الكسوة والحلية .

وإن قلنا : إنه عامّ في كل ما عليها ، فلكونه دالاًّ على خالقه ، فكأنَّه زينة الأرض من هذه الجهة .

قوله تعالى : ﴿ لنبلوهم ﴾ أي : لنختبر الخلق ، والمعنى : لنعاملهم معاملة المبتلى .

(87/468)

قال ابن الأنباري : من قال : إن "ما على الأرض" يعني به النبات ، قال : الهاء والميم ترجع إلى سكان الأرض المشاهِدين للزينة ، ومن قال : "ما على الأرض" الرجال ، ردَّ الهاء والميم على "ما" لأنها بتأويل الجميع ، ومعنى الآية : لنبلوهم فنرى أيُّهم أحسن عملاً ، هذا ، أم هذا .

قال الحسن : أيُّهم أزهد في الدنيا .

وقد ذكرنا في هذه الآية أربعة أقوال في سورة [هود : 7] .

ثم أعلم الخلقَ أنه يفني جميع ذلك ، فقال تعالى : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً ﴾ قال

الزجاج: الصعيد : الطريق الذي لا نبات فيه.

وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: الصعيد : التراب، ووجه الأرض.

فأما الجُرُز، فقال الفراء: أهل الحجاز يقولون: أرض جُرُزٌ، وجَرْزٌ.

وأسد تقول: جَرَز، وجُرُز، وتميم تقول: أرض جُرْز، وجَرْز، بالتخفيف، وقال أبو عبيدة: الصعيد الجُرُز: الغليظ الذي لا يُنْبِتُ شيئاً.

ويقال للسَّنَةِ المُجْدِبة: جُرُز، وسِنُون أجراز، لجدوبتها، وقلّة مطرها، وأنشد:

قَدْ جَرّفَتْهُنَّ السِّنُون الأَجْرَازْ . . .

وقال الزجاج: الجرز: الأرض التي لا ينبت فيها شيء، كأنها تأكل النبت أكلاً.

وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: الجرز: [الأرض] التي لا يبقى بها نبات، تحرق كل نبات يكون بها.

وقال المفسرون: وهذا يكون يوم القيامة، يجعل الله الأرض مستويةً لا نبات فيها ولا ماء.

انتهى انتهى. ا هـ ﴿زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَيُنْذِرَ الذين قَالُوا اتخذ الله وَلَداً ﴾

وهم اليهود ، قالوا عزير ابن الله ، والنصارى قالوا المسيح ابن الله ، وقريش قالت الملائكة بنات الله .

فالإنذار في أوّل السورة عام ، وهذا خاص فيمن قال لله ولد .

﴿ مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ "من" صلة ، أي ما لهم بذلك القول علم ؛ لأنهم مقلدة قالوه بغير دليل .

﴿ وَلاَ لآبَائِهِمْ ﴾ أي أسلافهم .

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ "كلمة" نصب على البيان ؛ أي كبرت تلك الكلمة كلمةً .

وقرأ الحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق "كلمةٌ" بالرفع ؛ أي عظمت كلمة ؛ يعني قولهم اتخذ الله ولداً .

وعلى هذه القراءة فلا حاجة إلى إضمار .

يقال : كبر الشيء إذا عظم ، وكبر الرجل إذا أسنّ .

﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ في موضع الصفة .

﴿ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً ﴾ أي ما يقولون إلا كذباً .

قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ ﴾

"باخع" أي مُهلك وقاتل؛ وقد تقدّم.

"آثارهم" جمع أثر، ويقال إثر.

والمعنى: على أثر تولّيهم وإعراضهم عنك.

﴿ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحديث ﴾ أي القرآن.

﴿ أَسَفاً ﴾ أي حزناً وغضباً على كفرهم؛ وانتصب على التفسير.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا ﴾ "ما" و "زينةً" مفعولان.

والزينة كل ما على وجه الأرض؛ فهو عموم لأنه دال على بارئه.

وقال ابن جبير عن ابن عباس: أراد بالزينة الرجال؛ قال مجاهد.

وروى عكرمة عن ابن عباس أن الزينة الخلفاء والأمراء.

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: "إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها" قال: العلماء زينة الأرض.

وقالت فرقة : أراد النّعم والملابس والثمار والخضرة والمياه ، ونحو هذا مما فيه زينة ؛ ولم يدخل فيه الجبال الصم وكل ما لا زينة فيه كالحيات والعقارب .

والقول بالعموم أولى ، وأن كل ما على الأرض فيه زينة من جهة خلقه وصنعه وإحكامه .

والآية بسط في التسلية ؛ أي لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنا إنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلها ؛ فمنهم من يتدّبر ويؤمن ، ومنهم من يكفر ، ثم يوم القيامة بين أيديهم ؛ فلا يعظُمنّ عليك كفرهم فإنا نجازيهم .

الثانية : معنى هذه الآية ينظر إلى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الدنيا خضرة حلوة والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون " وقوله صلى الله عليه وسلم : " إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا قال : وما زهرة الدنيا ؟ قال : "بركات الأرض" " خرجهما مسلم وغيره من حديث أبي سعيد الخدريّ .

والمعنى : أن الدنيا مستطابة في ذوقها معجبة في منظرها كالثمر المستحلى المعجب المرأى ؛ فابتلى الله بها عباده لينظر أيّهم أحسن عملاً .

أي من أزهد فيها وأترك لها ؛ ولا سبيل للعباد إلى بغضة ما زيّنه الله إلا (أن) يعينه على ذلك .

ولهذا كان عمر يقول فيما ذكر البخاري : اللهمّ إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زيّنته لنا ، اللّهمّ إني أسألك أن أنفقه في حقه .

فدعا الله أن يعينه على إنفاقه في حقه.

وهذا معنى قوله عليه السلام: "فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس كان كالذي يأكل ولا يشبع" وهكذا هو المكثر من الدنيا لا يقنع بما يحصل له منها بل همّته جمعها؛ وذلك لعدم الفهم عن الله تعالى ورسوله؛ فإن الفتنة معها حاصلةٌ وعدم السلامة غالبة، وقد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه.

وقال ابن عطية: كان أبي رضي الله عنه يقول في قوله: "أحسن عملاً" أحسن العمل أخذُ بحقّ وإنفاقٌ في حق مع الإيمان، وأداء الفرائض واجتنابُ المحارم والإكثارُ من المندوب إليه.

(90/468)

قلت: هذا قول حسن، وجيز في ألفاظه بليغ في معناه، وقد جمعه النبيّ صلى الله عليه وسلم في لفظ واحد وهو

"قوله لسفيان بن عبد الله الثَّقَفيّ لما قال: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك في رواية: غيرك.

قال: قل آمنت بالله ثم استقم" خرّجه مسلم.

وقال سفيان الثّوريّ : "أحسن عملاً" أزهدهم فيها .

وكذلك قال أبو عصام العسقلاني : "أحسن عملاً" أترك لها .

وقد اختلفت عبارات العلماء في الزهد ؛ فقال قوم : قصرُ الأمل وليس بأكل الخشن ولبس العباء ؛ قاله سفيان الثّوريّ .

قال علماؤنا : وصدق رضي الله عنها فإن من قَصُر أملهُ لم يتأنّق في المطعومات ولا يتفنّن في الملبوسات ، وأخذ من الدنيا ما تيسّر ، واجتزأ منها بما يبلّغ .

وقال قوم : بغضُ المحمدة وحبّ الثناء .

وهو قول الأوزاعيّ ومن ذهب إليه .

وقال قوم : ترك الدنيا كلها هو الزهد ؛ أحَبَّ تركها أم كره .

وهو قول فضيل .

وعن بشر بن الحارث قال : حبُّ الدنيا حبُّ لقاء الناس ، والزهد في الدنيا الزهد في لقاء الناس .

وعن الفضيل أيضاً : علامة الزهد في الدنيا الزهد في الناس .

وقال قوم : لا يكون الزاهد زاهداً حتى يكون ترك الدنيا أحبَّ إليه من أخذها ؛ قاله إبراهيم بن أدهم .

وقال قوم : الزهد أن تزهد في الدنيا بقلبك ؛ قاله ابن المبارك .

وقالت فرقة : الزهد حبّ الموت .

والقول الأول يعم هذه الأقوال بالمعنى فهو أولى .

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8) ﴾

تقدّم بيانه .

وقال أبو سهل : ترابا لا نبات به ؛ كأنه قُطع نباته .

والجَرْز : القطع ؛ ومنه سنة جُرُز .

قال الراجز :

قد جرَفَتْهنّ السِّنون الأجْرَاز . . .

والأرض الجرز التي لا نبات فيها ولا شيء من عمارة وغيرها ؛ كأنه قطع وأزيل .

يعني يوم القيامة ، فإن الأرض تكون مستوية لا مستتر فيها .

النحاس : والجرز في اللغة الأرض التي لا نبات بها .

قال الكسائي : يقال جرزت الأرض تجرز ، وجرزها القوم يجرزونها إذا أكلوا كل ما جاء فيها من النبات والزرع فهي مجروزة وجرز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) ﴾

هي مكية كلها إلا في قوله .

وعن ابن عباس وقتادة إلاّ قوله ﴿ واصبر نفسك ﴾ الآية فمدنية .

وقال مقاتل : إلاّ من أولها إلى ﴿ جرزاً ﴾ ومن قوله ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ الآيتين فمدني .

وسبب نزولها أن قريشاً بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهما : سلاهم عن محمد وصِفا لهم صفته فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى أتيا المدينة فسألاهم فقالت : سلوه فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنه كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان بناؤه ، وسلوه عن الروح فأقبل النضر وعقبة إلى مكة فسألوه فقال : "غداً أخبركم" ولم يقل إن شاء الله ، فاستمسك الوحي خمسة عشر يوماً فأرجف كفار قريش ، وقالوا : إن محمداً قد تركه رئيه الذي كان يأتيه من الجن .

وقال بعضهم : قد عجز عن أكاذيبه فشق ذلك عليه ، فلما انقضى الأمد جاءه الوحي بجواب الأسئلة وغيرها .

وروي في هذا السبب أن اليهود قالت : إن أجابكم عن الثلاثة فليس بنبيّ ، وإن أجاب عن اثنتين وأمسك عن الأخرى فهو نبيّ .

فأنزل الله سورة أهل الكهف وأنزل بعد ذلك ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ ومناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها أنه لما قال ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ وذكر المؤمنين به أهل العلم وأنه يزيدهم خشوعاً ، وأنه تعالى أمر بالحمد له وأنه لم يتخذ ولداً ، أمره تعالى بحمده على إنزال هذا الكتاب السالم من العوج القيم على كل الكتب المنذر من اتخذ ولداً ، المبشر المؤمنين بالأجر الحسن .

(92/468)

ثم استطرد إلى حديث كفار قريش والتفت من الخطاب في قوله ﴿ وكبره تكبيراً ﴾ إلى الغيبة في قوله ﴿ على عبده ﴾ لما في ﴿ عبده ﴾ من الإضافة المقتضية تشريفه ، ولم يجيء التركيب أنزل عليك .

﴿ والكتاب ﴾ القرآن ، والعوج في المعاني كالعوج في الأشخاص ونكر ﴿ عوجاً ﴾ ليعم

جميع أنواعه لأنها نكرة في سياق النفي ، والمعنى أنه في غاية الإستقامة لا تناقض ولا اختلاف في معانيه ، لا حوشية ولا عيّ في تراكيبه ومبانيه .

و ﴿ قيماً ﴾ تأكيد لإثبات الإستقامة إن كان مدلوله مستقيماً وهو قول ابن عباس والضحاك .

وقيل : ﴿ قيماً ﴾ بمصالح العباد وشرائع دينهم وأمور معاشهم ومعادهم .

وقيل : ﴿ قيماً ﴾ على سائر الكتب بتصديقها .

واختلفوا في هذه الجملة المنفية ، فزعم الزمخشري أنها معطوفة على ﴿ أنزل ﴾ فهي داخلة في الصلة ، ورتب على هذا أن الأحسن في انتصاب ﴿ قيماً ﴾ أن ينتصب بفعل مضمر ولا يجعل حالاً من ﴿ الكتاب ﴾ لما يلزم من ذلك وهو الفصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة ، وقدره جعله ﴿ قيماً ﴾ .

وقال ابن عطية : ﴿ قيماً ﴾ نصب على الحال من ﴿ الكتاب ﴾ فهو بمعنى التقديم مؤخر في اللفظ ، أي أنزل الكتاب ﴿ قيماً ﴾ واعترض بين الحال وذي الحال قوله ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ ذكره الطبري عن ابن عباس ، ويجوز أن يكون منصوباً بفعل مضمر تقديره أنزله أو جعله ﴿ قيماً ﴾ .

أما إذا قلنا بأن الجملة المنفية اعتراض فهو جائز ، ويفصل بجمل للإعتراض بين الحال وصاحبها .

وقال العسكري: في الآية تقديم وتأخير كأنه قال: احمدوا الله على إنزال القرآن ﴿ قيماً ﴾ لا عوج فيه، ومن عادة البلغاء أن يقدّموا الأهم.

وقال أبو عبد الله الرازي: ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ يدل على كونه مكملاً في ذاته.

وقوله قيماً يدل على كونه مكملاً بغيره، فثبت بالبرهان العقلي أن الترتيب الصحيح هو الذي ذكره الله، وأن ما ذكروه من التقديم والتأخير فاسد يمتنع العقل من الذهاب إليه.

(93/468)

وقال الكرماني: إذ جعلته حالاً وهو الأظهر فليس فيه تقديم ولا تأخير، والصحيح أنهما حالان من ﴿ الكتاب ﴾ الأولى جملة والثانية مفرد انتهى.

وهذا على مذهب من يجوز وقوع حالين من ذي حال واحد بغير عطف، وكثير من أصحابنا على منع ذلك انتهى.

واختاره الأصبهاني وقال: هما حالان متواليان والتقدير غير جاعل له ﴿ عوجاً قيماً ﴾

وقال صاحب حل العقد: يمكن أن يكون قوله قيماً بدلاً من قوله ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ أي جعله مستقيماً ﴿ قيماً ﴾ انتهى.

ويكون بدل مفرد من جملة كما قالوا في عرفت زيداً أبو من أنه بدل جملة من مفرد وفيه

خلاف .

وقيل : ﴿ قيماً ﴾ حال من الهاء المجرورة في ﴿ ولم يجعل له ﴾ مؤكدة .

وقيل : منتقلة ، والظاهر أن الضمير في ﴿ له ﴾ عائد على ﴿ الكتاب ﴾ وعليه التخاريج الإعرابية السابقة .

وزعم قوم أن الضمير في ﴿ له ﴾ عائد على ﴿ عبده ﴾ والتقدير ﴿ على عبده ﴾ وجعله ﴿ قيماً ﴾ .

وحفص يسكت على قوله ﴿ عوجاً ﴾ سكتة خفيفة ثم يقول ﴿ قيماً ﴾ .

وفي بعض مصاحف الصحابة ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ لكن جعله قيماً ويحمل ذلك على تفسير المعنى لا أنها قراءة .

وأنذر يتعدى لمفعولين قال ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ﴾ وحذف هنا المفعول الأول وصرح بالمنذر به لأنه هو الغرض المسوق إليه فاقتصر عليه ، ثم صرح بالمنذر في قوله حين كرر الإنذار فقال : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ فحذف المنذر أولاً لدلالة الثاني عليه ، وحذف المنذر به لدلالة الأول عليه ، وهذا من بديع الحذف وجليل الفصاحة ، ولما لم يكرر البشارة أتى بالمبشر والمبشر به ، والظاهر أن ﴿ لينذر ﴾ متعلقة بأنزل .

وقال الحوفي : تتعلق بقيماً ، ومفعول لينذر المحذوف قدره ابن عطية ﴿ لينذر ﴾ العالم ، وأبو البقاء ﴿ لينذر ﴾ العباد أو لينذركم .

(94/468)

والزمخشري قدره خاصاً قال : وأصله ﴿ لينذر ﴾ الذين كفروا ﴿ بأساً شديداً ﴾ ، والبأس من قوله ﴿ بعذاب بئيس ﴾ وقد بؤس العذاب وبؤس الرجل بأساً وبأسة انتهى . وكأنه راعي في تعيين المحذوف مقابله وهو ﴿ ويبشر المؤمنين الذين ﴾ والبأس الشديد عذاب الآخرة ويحتمل أن يندرج فيه ما يلحقهم من عذاب الدنيا .

ومعنى من ﴿ لدنه ﴾ صادر من عنده .

وقرأ أبو بكر بسكون الدال وإشمامها الضم وكسر النون ، وتقدّم الكلام عليها في أول هود .

وقرىء ﴿ ويبشر ﴾ بالرفع والجمهور بالنصب عطفاً على ﴿ لينذر ﴾ والأجر الحسن الجنة ، ولما كنى عن الجنة بقوله ﴿ أجراً حسناً ﴾ قال : ﴿ ماكثين فيه ﴾ أي مقيمين فيه ، فجعله ظرفاً لإقامتهم ، ولما كان المكث لا يقتضي التأبيد قال ﴿ أبداً ﴾ وهو ظرف دال على زمن غير متناه ، وانتصب ﴿ ماكثين ﴾ على الحال وذو الحال هو الضمير في ﴿ لهم ﴾ والذين نسبوا الولد إلى الله تعالى بعض اليهود في عزير ، وبعض النصارى في المسيح ،

وبعض العرب في الملائكة ، والضمير في ﴿ به ﴾ الظاهر أنه عائد على الولد الذي ادّعوه .

قال المهدوي : فتكون الجملة صفة للولد .

قال ابن عطية : وهذا معترض لأنه لا يصفه إلاّ القائل وهم ليس قصدهم أن يصفوه ، والصواب عندي أنه نفى مؤتنف أخبر الله تعالى به بجهلهم في ذلك ، ولا موضع للجملة من الإعراب ويحتمل أن يعود على الله تعالى ، وهذا التأويل أذم لهم وأقضى في الجهل التام عليهم وهو قول الطبري انتهى .

قيل : والمعنى ﴿ ما لهم ﴾ بالله ﴿ من علم ﴾ فينزهوه عما لا يجوز عليه ، ويحتمل أن يعود على القول المفهوم من ﴿ قالوا ﴾ أي ﴿ ما لهم ﴾ .

بقولهم هذا ﴿ من علم ﴾ فالجملة في موضع الحال أي ﴿ قالوا ﴾ جاهلين من غير فكر ولا روية ولا نظر في ما يجوز ويمتنع .

وقيل : يعود على الاتخاذ المفهوم من ﴿ اتخذه ﴾ أي ﴿ ما لهم ﴾ بحكمة الاتخاذ من علم إذ لا يتخذه إلاّ من هو عاجز مقهور يحتاج إلى معين يشد به عضده .

وهذا مستحيل على الله .

قال الزمخشري : اتخاذ الله ولداً في نفسه محال ، فيكف ﴿ قيل ما لهم به من علم ﴾ ؟

قلت : معناه ما لهم به من علم لأنه ليس مما يعلم لاستحالته ، وانتفاء العلم بالشيء إما للجهل بالطريق الموصل إليه ، وإما لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به انتهى .

﴿ ولا لآبائهم ﴾ معطوف على ﴿ لهم ﴾ وهم من تقدم من أسلافهم الذين ذهبوا إلى هذه المقالة السخيفة ، بل من قال ذلك إنما قاله عن جهل وتقليد .

وذكر الآباء لأن تلك المقالة قد أخذوها عنهم وتلقفوها منهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ كلمة ﴾ بالنصب والظاهر انتصابها على التمييز ، وفاعل ﴿ كَبُرت ﴾ مضمر يعود على المقالة المفهومة من قوله ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ ، وفي ذلك معنى التعجب أي ما أكبرها كلمة ، والجملة بعدها صفة لها تفيد استعظام اجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم ، فإن كثيراً مما يوسوس به الشيطان في القلوب ويحدث به النفس لا يمكن أن يتفوه به بل يصرف عنه الفكر ، فكيف بمثل هذا المنكر وسميت ﴿ كلمة ﴾ كما يسمون القصيدة كلمة .

وقال ابن عطية : وهذه المقالة هي قائمة في النفس معنى واحداً فيحسن أن تسمى ﴿ كلمة ﴾ وقال أيضاً : وقرأ الجمهور بنصب الكلمة كما تقول نعم رجلاً زيد ، وفسر بالكلمة ووصفها بالخروج من أفواههم فقال بعضهم : نصبها على التفسير على حد نصب قوله تعالى ﴿ وساءت مرتفقاً ﴾ .

وقالت فرقة : نصبها على الحال أي ﴿ كبرت ﴾ فريتهم ونحو هذا انتهى .

فعلى قوله كما تقول نعم رجلاً زيد يكون المخصوص بالذم محذوفاً لأنه جعل ﴿ تخرج ﴾ صفة لكلمة ، والتقدير ﴿ كبرت كلمة ﴾ خارجة ﴿ من أفواههم ﴾ تلك المقالة التي فاهوا بها وهي مقالتهم ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ .

والضمير في ﴿ كبرت ﴾ ليس عائداً على ما قبله بل هو مضمر يفسره ما بعده ، وهو التمييز على مذهب البصريين ، ويجوز أن يكون المخصوص بالذم محذوفاً وتخرج صفة له أي ﴿ كبرت كلمة ﴾ كلمة ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ .

(96/468)

وقال أبو عبيدة : نصب على التعجب أي أكبر بها ﴿ كلمة ﴾ أي من ﴿ كلمة ﴾ .

وقرىء ﴿ كبرت ﴾ بسكون الباء وهي في لغة تميم .

وقرأ الحسن وابن يعمر وابن محيصن والقواس عن ابن كثير بالرفع على الفاعلية والنصب أبلغ في المعنى وأقوى ، و﴿ أن ﴾ نافية أي ما ﴿ يقولون ﴾ و﴿ كذباً ﴾ نعت لمصدر محذوف أي قولاً ﴿ كذباً ﴾ .

﴿ فلعلك باخع ﴾ لعل للترجي في المحبوب وللإشفاق في المحذور .

وقال العسكري : فيها هنا هي موضوعة موضع النهي يعني أن المعنى لا تبخع نفسك .

وقيل : وضعت موضع الاستفهام تقديره هل أنت ﴿ باخع نفسك ﴾ ؟ وقال ابن عطية :

تقرير وتوقيف بمعنى الإنكار عليه أي لا تكن كذلك .

وقال الزمخشري : شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الوجد والأسف

على توليهم برجل فارقته أحبته وأعزته ، فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه

وجداً عليهم وتلهفاً على فراقهم انتهى .

وتكون لعل للإستفهام قول كوفي ، والذي يظهر أنها للإشفاق أشفق أن يبخع الرسول (صلى

الله عليه وسلم) نفسه لكونهم لم يؤمنوا .

وقوله ﴿ على آثارهم ﴾ استعارة فصيحة من حيث لهم إدبار وتباعد عن الإيمان

وإعراض عن الشرع ، فكأنهم من فرط إدبارهم قد بعدوا فهو في إدبارهم يحزن عليهم ،

ومعنى ﴿ على آثارهم ﴾ من بعدهم أي بعد يأسك من إيمانهم أو بعد موتهم على

الكفر .

ويقال : مات فلان على أثر فلان أي بعده ، وقرىء ﴿ باخع نفسك ﴾ بالإضافة .

وقرأ الجمهور : ﴿ باخع ﴾ بالتنوين ﴿ نفسك ﴾ بالنصب .

قال الزمخشري : على الأصل يعني إن اسم الفاعل إذا استوفي شروط العلم فالأصل أن يعمل

، وقد أشار إلى ذلك سيبويه في كتابه .

وقال الكسائي : العمل والإضافة سواء ، وقد ذهبنا إلى أن الإضافة أحسن من العمل بما قررناه في ما وضعنا في علم النحو .

وقرىء : ﴿ إن لم يؤمنوا ﴾ بكسر الميم وفتحها فمن كسر .

(97/468)

فقال الزمخشري : هو يعني اسم الفاعل للإستقبال ، ومن فتح فللمضي يعني حالة الإضافة ، أي لأن ﴿ لم يؤمنوا ﴾ والإشارة بهذا الحديث إلى القرآن .

قال تعالى ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ﴾ و﴿ أسفاً ﴾ قال مجاهد : جزعاً .

وقال قتادة : غضباً وعنه أيضاً حزناً .

وقال السدّي : ندماً وتحسراً .

وقال الزجاج : الأسف المبالغة في الحزن والغضب .

وقال منذر بن سعيد : الأسف هنا الحزن لأنه على من لا يملك ولا هو تحت يد الآسف ، ولو كان الأسف من مقتدر على من هو في قبضته وملكه كان غضباً كقوله تعالى ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ أي أغضبونا .

قال ابن عطية : وإذا تأملت هذا في كلام العرب اطرد انتهى .

وانتصاب ﴿ أسفاً ﴾ على أنه مفعول من أجله أو على أنه مصدر في موضع الحال ، وارتباط قوله ﴿ إنّا جعلنا ﴾ الآية بما قبلها هو على سبيل التسلية للرسول (صلى الله عليه وسلم) لأنه تعالى أخبر أنه خلق ما على الأرض من الزينة للإبتلاء والاختبار أي الناس ﴿ أحسن عملاً ﴾ فليسوا على نمط واحد في الاستقامة واتباع الرسل ، بل لا بد أن يكون فيهم من هو أحسن عملاً ومن هو أسوأ عملاً ، فلا تغتم وتحزن على من فضلت عليه بأنه يكون أسوأ عملاً ومع كونهم يكفرون بي لا أقطع عنهم موادّ هذه النعم التي خلقتها .

و ﴿ جعلنا ﴾ هنا بمعنى خلقنا ، والظاهر أن ما يراد بها غير العاقل وأنه يراد به العموم فيما لا يعقل .

و ﴿ زينة ﴾ كل شيء بحسبه .

وقيل : لا يدخل في ذلك ما كان فيه إيذاء من حيوان وحجر ونبات لأنه لا زينة فيه ، ومن قال بالعموم قال فيه ﴿ زينة ﴾ من جهة خلقه وصنعته وإحكامه .

وقيل : المراد بما هنا خصوص ما لا يعقل .

فقيل : الأشجار والأنهار .

وقيل : النبات لما فيه من الاختلاف والأزهار .

وقيل : الحيوان المختلف الأشكال والمنافع والأفعال .

وقيل : الذهب والفضة والنحاس والرصاص والياقوت والزبرجد والجوهر والمرجان وما يجري مجرى ذلك من نقائس الأحجار .

(98/468)

وقال الزمخشري : ﴿ ما على الأرض ﴾ يعني ما يصلح أن يكون ﴿ زينة لها ﴾ ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها .

وقالت : فرقة أراد النعيم والملابس والثمار والخضرة والمياه .

وقيل : ﴿ ما ﴾ هنا لمن يعقل ، فعن مجاهد هو الرجال وقاله ابن جبير عن ابن عباس وروى عكرمة أن الزينة الخلفاء والعلماء والأمراء .

وانتصب ﴿ زينة ﴾ على الحال أو على المفعول من أجله إن كان ﴿ جعلنا ﴾ بمعنى خلقنا ، وأوجدنا ، وإن كانت بمعنى صيرنا فانتصب على أنه مفعول ثان .

واللام من ﴿ لنبلوهم ﴾ تتعلق بجعلنا ، والابتلاء الاختبار وهو متأوّل بالنسبة إلى الله تعالى .

والضمير في ﴿ لنبلوهم ﴾ إن كانت ما لمن يعقل فهو عائد عليها على المعنى ، وأن لا يعود

على ما يفهم من سياق الكلام وهو سكان الأرض المكلفون و ﴿ أيهم ﴾ يحتمل أن يكون الضمير فيها إعراباً فيكون ﴿ أيهم ﴾ مبتدأ و ﴿ أحسن ﴾ خبره .

والجملة في موضع المفعول ﴿ لنبلوهم ﴾ ويكون قد علق ﴿ لنبلوهم ﴾ إجراءً لها مجرى العلم لأن الابتلاء والاختبار سبب للعلم ، كما علقوا سل وانظر البصرية لأنهما سببان للعلم وإلى أن الجملة استفهامية مبتدأ وخبر ذهب الحوفي ، ويحتمل أن تكون الضمة فيها بناء على مذهب سيبويه لوجود شرط جواز البناء في أي .

وهو كونها مضافة قد حذف صدر صلتها ، فأحسن خبر مبتدأ محذوف فتقديره هو ﴿ أحسن ﴾ ويكون ﴿ أيهم ﴾ في موضع نصب بدلاً من الضمير في ﴿ لنبلوهم ﴾ ، والمفضل عليه محذوف تقديره ممن ليس ﴿ أحسن عملاً ﴾ .

وقال الثوري أحسنهم عملاً أزهدهم فيها .

وقال أبو عاصم العسقلاني : أترك لها .

وقال الزمخشري : حسن العمل الزهد فيها وترك الاغترار بها .

وقال أبو بكر غالب بن عطية : أحسن العمل أخذ بحق مع الإيمان وأداء الفرائض واجتناب المحارم والإكثار من المندوب إليه .

وقال الكلبي : أحسن طاعة .

وقال القاسم بن محمد ما عليها من الأنبياء والعلماء ليبلوَ المرسل إليهم والمقلدين للعلماء أيهم أحسن قبولاً وإجابة .

(99/468)

وقال سهل : أحسن توكلاً علينا فيها .

وقيل : أصفى قلباً وأحسن سمتاً .

وقال ابن إسحاق : أيهم أتبع لأمري وأعمل بطاعتي .

و﴿ إنّا لجاعلون ﴾ أي مصيرون ﴿ ما عليها ﴾ مما كان زينة لها أو ﴿ ما عليها ﴾ مما هو أعم من الزينة وغيره ﴿ صعيداً ﴾ تراباً ﴿ جرزاً ﴾ الأنبات فيه ، وهذا إشارة إلى التزهيد في الدنيا والرغبة عنها وتسلية للرسول (صلى الله عليه وسلم) عن ما تضمنته أيدي المترفين من زينتها ، إذ مآل ذلك كله إلى الفناء والحاق .

وقال الزمخشري : ﴿ ما عليها ﴾ من هذه الزينة ﴿ صعيداً جرزاً ﴾ يعني مثل أرض بيضاء لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة في إزالة بهجته وإماطة حسنة وإبطال ما به كان زينة من إماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار ونحو ذلك انتهى .

قيل : والصعيد ما تصاعد على وجه الأرض .

وقال مجاهد : الأرض التي لا نبات بها .

وقال السدّي الأملس المستوي .

وقيل : الطريق .

وفي الحديث : " إياكم والقعود على الصعدات " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(100/468)

وقال أبو السعود :

وتقديمُ الإنذار على التبشير لإظهار كمال العنايةِ بزجر الكفّارِ عما هم عليه مع مراعاة تقديمِ التخليةِ على التحلية ، وتكريرُ الإنذار بقوله تعالى : ﴿ وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَدًا ﴾ متعلقاً بِفرْقة خاصة ممن عمّه الإنذارُ السابقُ من مستحقي البأسِ الشديدِ للإيذان بكمال فظاعةِ حالِهم لغاية شناعةِ كفرهم وضلالِهم ، أي وينذرَ من بين سائر الكفرةِ هؤلاء المتفوّهين بمثل هاتيك العظيمةِ خاصة وهم كفارُ العرب الذين يقولون : الملائكةُ بناتُ الله تعالى ، واليهودُ القائلون : عزيرٌ ابنُ الله ، والنصارى القائلون : المسيحُ ابن الله ، وتركُ إجراءِ الموصولِ على الموصوف كما فُعل في قوله تعالى : ﴿ وَيُبَشّرُ المؤمنين ﴾ للإيذان بكفاية ما

في حيز الصلةِ في الكفر على أقبح الوجوه ، وإيثارُ صيغةِ الماضي في الصلة للدِلالة على تحقق صدورِ تلك الكلمةِ القبيحة عنهم فيما سبق . وجعلُ المفعولِ المحذوفِ فيما سلف عبارةً عن هذه الطائفة يؤدي إلى خروج سائرِ أصنافِ الكفرة عن الإنذار والوعيدِ ، وتعميمُ الإنذارِ هناك للمؤمنين أيضاً بحمله على معنى مجردِ الإخبارِ بالخبر الضارّ من غير اعتبارِ حُلول المنذَرِ به على المنذرَ كما في قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَنذِرِ الناس وَبَشر الذين ءَامَنُواْ ﴾ يُفضي إلى خلوّ النظمِ الكريم عن الدلالة على حلول البأسِ الشديدِ على مَنْ عدا هذه الفرقةِ ، ويجوز أن يكون الفاعلُ في الأفعال الثلاثة ضميرَ الكتاب أو ضميرَ الرسول عليه الصلاة والسلام .

(101/468)

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ ﴾ أي باتخاذه سبحانه وتعالى ولداً ﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ مرفوعٌ على الابتداء أو الفاعلية لاعتماد الظرفِ ، ومِن مزيدةٌ لتأكيد النفي والجملةُ حاليةٌ أو مستأنفةٌ لبيان حالِهم في مقالهم ، أي ما لهم بذلك شيءٌ من علم أصلاً لا لإخلالهم بطريقه مع تحقيق المعلومِ أو إمكانِه بل لاستحالته في نفسه ﴿ وَلاَ لأَبَائِهِمْ ﴾ الذين قلدوهم فتاهوا جميعاً في تيه الجهالةِ والضلالةِ أو ما لهم علمٌ بما قالوه أهو صوابٌ أم خطأٌ ، بل إنما قالوه رمياً عن عمًى وجهالةٍ من

غير فكر وروية كما في قوله تعالى : ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أو بحقيقة ما قالوه وبعظم رُتبته في الشناعة كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتخذ الرحمن وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًا تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ الآيات وهو الأنسب بقوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ أي عظُمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراءِ لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بجناب كبريائه ، والفاعل في كُبُرت إما ضميرُ المقالةِ المدلولِ عليها بقالوا وكلمةً نُصب على التمييز أو ضميرٌ مبهمٌ مفسَّرٌ بما بعده من النكرة المنصوبةِ تمييزاً كبئس رجلاً ، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ تقديرُه كُبُرت هي كلمةً خارجةً من أفواههم ، وقرىء كبْرتْ بإسكان الباء مع إشمام الضم ، وقرىء كلمةٌ بالرفع ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ صفةٌ للكلمة مفيدةٌ لاستعظام اجترائِهم على التفوه بها ، وإسنادُ الخروجِ إليها مع أن الخارجَ هو الهواءُ المتكيفُ بكيفية الصوتِ لملابسته بها ﴿ إِن يَقُولُونَ ﴾ ما يقولون في ذلك الشأنِ ﴿ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ أي إلا قولاً كذباً لا يكاد يدخُل تحت إمكانِ الصدق أصلاً ، والضميران لهم ولآبائهم .

مُثّل حالُه عليه الصلاة والسلام في شدة الوجدِ على إعراض القومِ وتولّيهم عن الإيمان بالقرآن وكمالِ التحسّر عليهم بحال من يُتوقع منه إهلاكُ نفسِه إثرَ فواتِ ما يُحِبّه عند مفارقة أحبّتِه تأسفاً على مفارقتهم وتلهفاً على مهاجَرتهم ، فقيل على طريقة التمثيلِ حملاً له عليه الصلاة والسلام على الحذر والإشفاق من ذلك :

(103/468)

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ ﴾ أي مُهلكٌ ﴿ نَّفْسَكَ على ءاثارهم ﴾ غماً ووجداً على فراقهم وقرىء بالإضافة ﴿ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث ﴾ أي القرآنِ الذي عبّر عنه في صدر السورةِ بالكتاب ، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ ثقةً بدلالة ما سبق عليه ، وقرىء بأنْ المفتوحةِ أي لأن لم يؤمنوا ، فإعمالُ باخعٌ بجمله على حكاية حالٍ ماضيةٍ لاستحضار الصورةِ كما في قوله عز وجل : ﴿ باسط ﴾ ﴿ الحديث أَسَفاً ﴾ مفعولٌ له لباخعٌ أي لفَرْط الحزنِ والغضبِ أو حالٌ مما فيه الضمير أن متأسفاً عليهم ، ويجوز حملُ النظمِ الكريم على الاستعارة التبعيةِ بجعل التشبيهِ بين أجزاءِ الطرفين لا بين الهيئتين المنتزَعتين منهما كما في التمثيل ، وقد مر تحقيقُه في تفسير قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض ﴾ استئنافٌ وتعليلٌ لما في لعل من معنى الإشفاقِ ، أي إنا جعلنا ما عليها ممن

عدا مَنْ وُجّه إليه التكليفُ من الزخارف حيواناً كان أو نباتاً أو معدِناً كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ ﴿ زِينَةً ﴾ مفعولٌ ثانٍ للجعل إن حُمل على معنى التصييرِ أو حالٌ إن حمل على معنى الإبداعِ ، واللامُ في ﴿ لَهَا ﴾ إما متعلقةٌ بزينةً أو بمحذوف هو صفةٌ لها أي كائنةً لها أي ليتمتع بها الناظرون من المكلفين وينتفعوا بها نظراً واستدلالاً ، فإن الحياتِ والعقاربَ من حيث تذكيرُهما لعذاب الآخرة من قبيل المنافِع بل كلُّ حادثٍ داخلٌ تحت الزينة من حيث دَلالتُه على وجود الصانعِ ووَحدتِه فإن الأزواجَ والأولادَ أيضاً من زينة الحياةِ الدنيا بل أعظمُها ولا يمنع ذلك كونُهم من جملة المكلفين فإنهم من جهة انتسابهم إلى أصحابهم داخلون تحت الزينةِ ومن جهة كونهم مكلفين داخلون تحت الابتلاء .

(104/468)

﴿ لِنَبْلُوَهُمْ ﴾ متعلقٌ بجعلنا أي جعلنا ما جعلنا لنعاملَهم معاملةَ من يختبرهم ﴿ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ فنجازيهم بالثواب والعقابِ حسبما تبين المحسنُ من المسيء وامتازت طبقاتُ أفرادِ كلَ من الفريقين حسب امتيازِ مراتبِ علومِهم المرتبة على أنظارهم وتفاوتِ درجاتِ أعمالِهم المتفرّعةِ على ذلك كما قررناه في مطلع سورة هود ، وأيُّ إما استفهاميةٌ

مرفوعةٌ بالابتداء وأحسنُ خبرُها والجملةُ في محل النصبِ معلّقةٌ لفعل البلوى لما فيه من معنى العلمِ باعتبار عاقبتِه كالسؤال والنظرِ ، ولذلك أجريَ مَجراه بطريق التمثيلِ أو الاستعارةِ التبعية ، وإما موصولةٌ بمعنى الذي وأحسنُ خبرٌ لمبتدأ مضمر ، والجملةُ صلةٌ لها وهي في حيز النصب بدلٌ من مفعول لنبلوَهم والتقديرُ لنبلوَ الذي هو أحسنُ عملاً فحينئذ يحتمل أن تكون الضمةُ في أيُّهم للبناء كما في قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ﴾ على أحد الأقوالِ لتحقق شرط البناءِ الذي هو الإضافةُ لفظاً وحذفُ صدرِ الصلةِ وأن تكون للإعراب لأن ما ذكر شرطٌ لجواز البناءِ لا لوجوبه ، وحُسنُ العملِ الزهدُ فيها وعدمُ الاغترار بها والقناعةُ باليسير منها وصرفُها على ما ينبغي والتأملُ في شأنها وجعلُها ذريعةً إلى معرفة خالقِها والتمتعُ بها حسبما أذِن له الشرعُ وأداءُ حقوقها والشكرُ لها ، لا اتخاذُها وسيلةً إلى الشهوات والأغراضِ الفاسدة كما يفعله الكفرةُ وأصحابُ الأهواء .

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ ﴾

فيما سيأتي عند تناهي عُمرِ الدنيا ﴿ مَا عَلَيْهَا ﴾ من المخلوقات قاطبةً بإفنائها بالكلية وإنما أُظهر في مقام الإضمارِ لزيادة التقريرِ أو لإدراج المكلفين فيه ﴿ صَعِيداً ﴾ مفعولٌ ثانٍ للجعل ، والصعيدُ الترابُ أو وجهُ الأرضِ ، قال أبو عبيدةَ : هو المستوي من الأرض ، وقال الزجاجُ : هو الطريقُ الذي لا نبات فيه ﴿ جُرُزاً ﴾ تراباً لا نباتَ فيه بعد ما كان يَتعجّب من بهجته النُّظارُ وتتشرف بمشاهدته الأبصارُ ، يقال : أرضٌ جرُزٌ لا نباتَ فيها وسَنةٌ جرُزٌ لا مطر فيها . قال الفراء : جُرِزَت الأرضُ فهي مجرُوزة أي ذهب نباتُها بقحط أو جراد ، ويقال : جرَزها الجرادُ والشاةُ والإبلُ إذا أكلت ما عليها ، وهذه الجملةُ لتكميل ما في السابقة من التعليل ، والمعنى لا تحزنْ بما عاينْتَ من القوم من تكذيب ما أنزلنا عليك من الكتاب فإنا قد جعلنا ما على الأرض من فنون الأشياءِ زينةً لها لنختبرَ أعمالَهم فنجازِيَهم بحسبها وإنا لَمُفْنون جميعَ ذلك عن قريب ومجازون لهم بحسب أعمالهم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(106/468)

وقال الآلوسى :

وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه مع مراعاة

تقديم التخلية على التحلية ، وتكرير الإنذار بقوله تعالى :

﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) ﴾

متعلقاً بفرقة خاصة ممن عمه الإنذار السابق من مستحقي البأس الشديد للإيذان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم كما ينبىء عنه ما بعد أن وينذر من بين هؤلاء الكفرة المتفوهين بمثل هاتيك العظيمة خاصة وهم العرب القائلون الملائكة بنات الله تعالى واليهود القائلون عزير ابن الله سبحانه والنصارى القائلون المسيح ابن الله عز وجل ، وترك إجراء الموصول على الموصوف كما في قوله تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرُ المؤمنين ﴾ [الكهف : 2] الخ للإيذان بكفاية ما في حيز الصلة في الكفر على أقبح الوجوه ؛ وإيثار صيغة الماضي في الصلة للدلالة على تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق ، وجعل بعضهم المفعول المحذوف فيما سلف عبارة عن هذه الطائفة ، وفي الآية صنعة الاحتباك حيث حذف من الأول ما ذكر فيما بعد وهو المنذر وحذف مما بعد ما ذكر في الأول وهو المنذر به .

وتعقب بأنه يؤدي إلى خروج سائر أصناف الكفرة عن الإنذار والوعيد .

وإجيب بأنه يعلم إنذار سائر الأصناف ودخولهم في الوعبد من باب الأولى لأن القول بالتبني وان كبر كلمة دون الإشراك وفيه نظر ، وقدر ابن عطية العالم وأبو البقاء العباد فيعم المؤمنين أيضاً ، وتعقب بأن التعميم يقتضي حمل الإنذار على معنى مجرد الأخبار بالأمر الضار من

غير اعتبار حلول المنذر به على المنذر كما في قوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إلى ﴾ [يونس : 2] وهو يفضي إلى خلو النظم الكريم عن الدلالة على حلول البأس الشديد على من عدا هذه الفرقة فتأمل .

(107/468)

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ ﴾ أي باتخاذه سبحانه وتعالى ولدا ﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ مرفوع المحل على الابتداء أو الفاعلية لاعتماد الظرف ، ومن مزيدة لتأكيد النفي والجملة حالة أو مستأنفة لبيان حالهم في مقالهم أي ما لهم بذلك شيء من العلم أصلاً لا لاخلالهم بطريق العلم مع تحقق المعلوم أو إمكانه بل لاستحالته في نفسه ومعها لا يستقيم تعلق العلم ، واستظهر كون ضمير ﴿ بِهِ ﴾ عائداً على الولد وعدم العلم وكذا حال الجملة على ما سمعت ، وزعم المهدوي أن الجملة على هذا صفة لولداً وليس بشيء ، وجوز أن يعود على القول المفهوم من ﴿ قَالُواْ ﴾ [الكهف : 4] أي ليس قولهم ذلك ناشئاً عن علم وتذكر ونظر فيما يجوز عليه تعالى وما يمتنع ، وقال الطبري : هو عائد على الله تعالى على معنى ليس لهم علم بما يجوز عليه تعالى وما يمتنع ﴿ وَلاَ لآبَائِهِمْ ﴾ الذين قالوا مثل ذلك ناسبين التبني إليه عز وجل ، والتعرض لنفي العلم عنهم لأنهم قدوة هؤلاء ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ أي عظمت مقالتهم هذه

في الكفر والافتراء لما فيها من نسبته تعالى إلى ما لا يكاد يليق بكبريائه جل وعلا ، وكبر وكذا كل ما كان على وزن فعل موضوعاً على الضم كظرف أو محولا إليه من فعل أو فعل ذهب الأخفش .

والمبرد إلى الحاقه بباب التعجب فالفاعل هنا ضمير يرجع إلى قوله تعالى : ﴿ اتخذ ﴾ [الكهف : 4] الخ بتأويل المقالة ، و﴿ كَلِمَةً ﴾ نصب على التمييز وكأنه قيل ما أكبرها كلمة وقوله تعالى : ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ صفة ﴿ كَلِمَةً ﴾ تفيد استعظام اجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم فإن كثيراً مما يوسوس به الشيطان وتحدث به النفس لا يمكن أن يتفوه به بل يصرف عنه الفكر فيكف بمثل هذا المنكر .

(108/468)

وذهب الفارسي وأكثر النحاة إلى إلحاقه بباب نعم وبئس فيثبت له جميع أحكامه ككون فاعله معرفاً بأل أو مضافاً إلى معرف بها أو ضميراً مفسرا بالتمييز ، ومن هنا جوز أن يكون الفاعل هنا ضمير ﴿ كَلِمَةً ﴾ وهي أيضاً تمييز والجملة صفتها ولا ضير في وصف التمييز في باب نعم وبئس ، وجوز أبو حيان وغيره أن تكون صفة لمحذوف هو المخصوص بالذم أي كبرت كلمة خارجة من أفواههم ، وظاهر كلام الأخفش تغاير المذهبين .

وفي التسهيل أنه من باب نعم وبئس وفيه معنى التعجب .

والمراد به هنا تعظيم الأمر في قلوب السامعين .

وهذا ظاهر في أنه لا تغاير بينهما وإليه يميل كلام بعض الأئمة .

وقيل نصبت على الحال ولا يخفى حاله .

وتسمية ذلك كلمة على حد تسمية القصيدة بها .

وقرىء ﴿ كَبُرَتْ ﴾ بسكون الباء وهي لغة تميم ، وجاء في نحو هذا الفعل ضم العين وتسكينها ونقل حركتها إلى الفاء .

وقرأ الحسن .

وابن يعمر .

وابن محيصن .

والقواس عن ابن كثير ﴿ كَلِمَةَ ﴾ بالرفع على الفاعلية والنصب أبلغ وأوكد .

واستدل النظام على أن الكلام جسم بهذه الآية لوصفه فيها بالخروج الذي هو من خواص الأجسام .

وأجيب بأن الخارج حقيقة هو الهواء الحامل له وإسناده إلى الكلام الذي هو كيفية مجاز وتعقب بأن النظام القائل بجسمية الكلام يقول هو الهواء المكيف لا الكيفية .

واستدلاله على ذلك مبني على أن الأصل هو الحقيقة إلا أن الخلاف لفظي لا ثمرة فيه ﴿ إِن

يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ أي ما يقولون في ذلك الشأن إلا قولاً كذباً لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلاً والضميران لهم ولآبائهم .

﴿ فَلَعَلَّكَ باخع ﴾

أي قاتل ﴿ نَّفْسَكَ ﴾ وفي معناه ما في صحيح البخاري ملك .

والأول مروى عن مجاهد .

والسدى .

وابن جبير .

وابن عباس .

وأنشد لابن الأزرق إذ سأله قول لبيد بن ربيعة :

لعلك يوماً ان فقدت مزارها . . .

على بعده يوما لنفسك باخع

(109/468)

وفي البحر عن الليث بخع الرجل نفسه بخعا وبخوعا قتلها من شدة الوجد وأنشد قول الفرزدق :

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه . . .

لشيء نحته عن يديه المقادر

وهو من بخع الأرض بالزراعة أي جعلها ضعيفة بسبب متابعة الزراعة كما قال الكسائي ، وذكر الزمخشري أن البخع أن يبلغ الذبح البخاع بالباء وهو عرق مستبطن القفا ، وقد رده ابن الأثير وغيره بأنه لم يوجد في كتب اللغة والتشريح لكن الزمخشري ثقة في هذا الباب واسع الإطلاع ، وقرىء ﴿ باخع نَّفْسَكَ ﴾ بالإضافة وهي خلاف الأصل في اسم الفاعل إذا استوفى شروط العمل عند الزمخشري ، وأشار إليه سيبويه في الكتاب .

وقال الكسائي : العمل والإضافة سواء ، وزعم أبو حيان أن الإضافة أحسن من العمل ﴿ على ءاثارهم ﴾ أي من بعدهم .

يعني من بعد توليهم عن الإيمان وتباعدهم عنه .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن عتبة بن ربيعة .

وشيبة بن ربيعة .

وأبا جهل بن هشام .

والنضر بن الحرث .

وأمية بن خلف .

والعاصي بن وائل .

والأسود بن المطلب .

وأبا البختري في نفر من قريش اجتمعوا .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كبر عليه كا يرى من خلاف قومه إياه وإنكارهم ما جاء به من النصيحة فأحزنه حزناً شديداً فأنزل الله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ باخع ﴾ الخ ،

ومنه يعلم أن ما ذكرنا أوفق بسبب النزول من كون المراد من بعد موتهم على الكفر .

﴿ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث ﴾ الجليل الشأن ، وهو القرآن المعبر عنه في صدر السورة بالكتاب ، ووصفه بذلك لو سلم دلالته على الحدوث لا يضر الأشاعرة واضرابهم القائلين : بأن الألفاظ حادثة ، وإن شرطية ، والجملة بعدها فعل الشرط ، والجواب محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه عند الجمهور ، وقيل الجواب فلعلك الخ المذكور ، وهو مقدم لفظاً مؤخر معنى ، والفاء فيه فاء الجواب ، وقرىء ﴿ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ ﴾ بفتح همزة أن على تقدير الجار أي لأن ، وهو متعلق بباخع على أنه علة له .

(110/468)

وزعم غير واحد أنه لا يجوز أعماله على هذا إذ هو اسم فاعل وعمله مشروط بكونه للحال أو الاستقبال ، ولا يعمل وهو للمضي ، وإن الشرطية تقلب الماضب بواسطة ﴿ لَمْ

﴾ الاستقبال بخلاف أن المصدرية فإنها تدخل على الماضي الباقي على مضيه إلا إذا حمل على حكاية الحال الماضية لاستحضار الصورة للغرابة .

وتعقبه بعض الأجلة بنه لا يلزم من مضي ما كان علة لشيء مضيه ، فكم من حزن مستقبل على أمر ماض سواء استمر أولاً فإذا استمر فهو أولى لأنه أشد نكاية فلا حاجة إلى الحمل على حكاية الحال .

ووجه ذلك في الكشف بإنه إذا كنات علة البخع عدم الإيمان فإن كانت العلة قد تمت فالمعلول كذلك ضرورة تحقق المعلول عند العلة التامة ، وإن كانت بعد فكمثل ضرورة أنه لا يتحقق بدون تمامها ، وتعقب بأنه غير مسلم ، لأن هذه ليست علة تامة حقيقية حتى يلزم ما ذكر ، وإنما هي منشأ وباعث فلا يضر تقدمها ، وقيل إنه تفوت المبالغة حينئذ في وجده صلى الله عليه وسلم على توليهم لعدم كون البخع عقبه بل بعده بمدة بخلاف ما إذا كان للحكاية ، وتعقب أيضاً بأنه لا وجه له بل المبالغة في هذا أقوى لأنه إذا صدر منه لأمر مضي فكيف لو استمر أو تجدد ؟ ولعل في الآية ما يترجح له البقاء على الاستقبال فتدبر ، وانتصاب قوله تعالى : ﴿ أَسَفاً ﴾ بباخع على أنه مفعول من أجله .

وجوز أن يكون حالا من الضمير فيه بتأويل متأسفاً لأن الأصل في الحال الاشتقاق وأن ينتصب على أنه مصدر فعل مقدر أي تأسف أسفاً ، والأسف على ما نقل عن الزجاج المبالغة في الحزن والغضب .

وقال الراغب : الأسف الحزن والغضب معا وقد يقال لكل منهما على الإنفراد ، وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الانتقام فمتى كان على من دونه انتشر فصار غضباً ومتى كان على ما فوقه انقبض فصار حزناً ، ولذلك سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الحزن والغضب فقال : مخرجهما واحد واللفظ مختلف فمن نازع من يقوى عليه أظهره غيظاً وغضباً ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره حزناً وجزعاً ، وبهذا النظر قال الشاعر :

فحزن كل أخى حزن أخو الغضب . . .

وإلى كون الأسف أعم من الحزن والغضب وكون الحزن على من لا يملك ولا هو تحت يد الآسف والغضب على من هو في قبضته وملكه ذهب منذر بن سعد وفسر الأسف هنا بالحزن بخلافه في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ءاسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف : 55] وإذا استعمل الأسف مع الغضب يراد به الحزن على ما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غضبان أَسِفًا ﴾ [الأعراف : 150] وجعل كل منهما فيه بالنسبة إلى بعض من القوم ، وعن قتادة تفسير الأسف هنا بالغضب ، وفي رواية أخرى بالحزن .

وفي صحيح البخاري تفسيره بالندم .

وعن مجاهد تفسيره بالجزع ، وأهل الحزن أكثر ، ولعل للترجي وهو الطمع في الوقوع أو الإشفاق منه ، وهي هنا استعارة أي وصلت إلى حالة يتوقف منك الناس ذلك لما يشاهد من تأسفك على عدم إيمانهم .

(112/468)

وقال العسكري : هي هنا موضوعة موضع النهي كأنه قيل لا تبخع نفسك ، وقيل موضع الاستفهام ، وجعله ابن عطية إنكاريا ً على معنى لا تكن كذلك ، والقول بمجيء لعل للاستفهام قول كوفي ، والذي يظهر أنها هنا للاشفاق الذي يقصد به التسلي والحث على ترك التحزن والتأسف ، ويمكن أن يكون مراد العسكري ذلك ، وفي الآية عندّ غير واحد استعارة تمثيلية وذلك أنه مثل حاله صلى الله عليه وسلم في شدة الوجد على أعراض القوم وتوليهم عن الإيمان بالقرآن وكمال الحزن عليهم بحال من يتوقع منه إهلاك نفسه إثر فوت ما يحبه عند مفارقة أحبته تأسفاً على مفارقتهم وتلهفاً على مهاجرتهم ثم قيل ما قيل ، وهو أولى من اعتبار الاستعارة المفردة التبعية في الأطراف .

وجوز أن تكون من باب التشبيه لذكر طرفيه وهما النبي صلى الله عليه وسلم وباخع بأن يشبه عليه الصلاة والسلام لشدة حرصه على الأمر بمن يريد قتل نفسه لفوات أمر وهو كما

ترى .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض ﴾

الظاهر عموم ما جميع ما لا يعقل أي سواء كان حيواناً أو نباتاً أو معدنا أي جعلنا جميع ما عليها من غير ذوي العقول ﴿ زِينَةً لَّهَا ﴾ تتزين به وتتحلى وهو شامل لزينة أهلها أيضاً وزينة كل شيء بحسبه بالحقيقة وإنما هو زينة لأهلها ، وقيل لا يدخل في ذلك ما فيه إيذاء من حيوان ونبات ، ومن قال بالعموم قال : لا شيء مما على الأرض إلا وفيه جهة انتفاع ولا أقل من الاستدلال به على الصانع ووحدته ، وخص بعضهم ما بالأشجار والأنهار ، وآخر بالنبات لما فيه من الأزهار المختلفة الألوان والمنافع ، وآخر بالحيوان المختلف الأشكال والمنافع والأفعال ، وآخر بالذهب والفضة والرصاص والنحاس والياقوت والزبرجد واللؤلؤ والمرجان والألماس وما يجري مجرى ذلك من نفائس الأحجار .

(113/468)

وقالت فرقة : أريد بها الخضرة والمياه والنعم والملابس والثمار ، ولعمري أنه تخصيص لا يقبله الخواص على العموم ؛ وقيل أن ﴿ مَا ﴾ هنا لمن يعقل والمراد بذلك على ما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جبير .

والحسن وجاء في رواية عن ابن عباس الرجال ، وعلى ما أخرج أبو نصر السجزي في الإبانة عن ابن عباس العلماء وعلى ما روي عكرمة الخلفاء والعلماء والأمراء ، وأنت تعلم أن جعل ما لمن يعقل مع إرادة ما ذكر بعيد جداً ، ولعل أولئك الأجلة أرادوا من ما العقلاء وغيرهم تغليباً للأكثر على غيره وما على الأرض بهذا المعنى ليس إلا بعض العناصر الأربعة والمواليد الثلاثة وأشرف ذلك المواليد وأشرفها نوع الإنسان وهو متفاوت الشرف بحسب الأصناف فيمكن أن يكون ما ذكروه من باب الاقتصار على بعض أصناف هذا الأشرف لداع لذلك اصناف وقد يقال : المراد بما عموم ما لا يعقل ومن يعقل فيدخل من توجه إليه التكليف وغيره ولا ضير في ذلك فإن للمكلف جهتين جهة يدخل بها تحت الزينة وجهة يدخل بها تحت الابتلاء المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ ﴾ وقد نص سبحانه على بعض المكلفين بأنهم زينة في قوله تعالى : ﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 46] ومن هنا يعلم ما في قول القاضي الأولى أن لا يدخل المكلف لأن ما على الألاض ليس زينة لها بالحقيقة وإنما هو زينة لأهلها لغرض الابتلاء فالذي له الزينة يكون خارجاً عن الزينة ، ونصب ﴿ زِينَةُ ﴾ على أنه مفعول ثان للجعل إن حمل على معنى التصيير أو على أنه حال أو مفعول له كما قال أبو البقاء .

وأبو حيان إن حمل على معنى الإبداع ، واللام الأولى إما متعلقة به أو متعلقة بمحذوف وقع صفة له أي زينة كائنة لها واللام الثانية متعلقة بجعلنا والكلام على هذا وجعل زينة مفعولاً له

نحو قمت إجلالاً لك لتقابلني بمثل ذلك ، وضمير الجمع عائد على سكان الأرض من المكلفين المفهوم من السياق .

(114/468)

وجوز أن يعود على ما على تقدير أن تكون للعقلاء ، والابتلاء في الأصل الاختبار ، وجوز ذلك على الله سبحانه هشام بن الحكم بناء على جهله وزعمه أنه عز وجل لا يعلم الحوادث إلا بعد وجودها لئلا يلزم نفي قدرته تعالى على الفعل أو الترك ، ورده أهل السنة في محله وقالوا : إنه تعالى يعلم الكليات والجزئيات في الأزل ، ولولوا هذه الآية أن المراد ليعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿ أَيُّهم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ فنجازي كلا بما يليق به وتقتضيه الحكمة وحسن العمل الزهد في زينة الدنيا وعدم الاغترار بها وصرفها على ما ينبغي والتأمل فيب شأنها وجعلها ذريعة إلى معرفة خالقها والتمتع بها حسبما أذن الشرع وأداء حقوقها والشكر على ما أوتي منها لا اتخاذها وسيلة إلى الشهوات والأغراض الفاسدة كما تفعله الكفرة وأصحاب الأهواء ، ومراتب الحسن متفاوتة وكلما قوى الزهد مثلاً كان أحسن ، وسأل ابن عمر رضي الله تعالى عنهمت النبي صلى الله عليه وسلم عن الأحسن عملا كما أخرج ذلك ابن جرير .

وابن أبي حاتم .

والحاكم في التاريخ فقال عليه الصلاة والسلام : " أحسنكم عقلا وأورع عن محارم الله تعالى وأسرعكم في طاعته سبحانه " .

(115/468)

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال : أحسنهم عملا أشدهم للدنيا تركا ، وأخرج نحوه عن سفيان الثوري وذكر بعضهم أن الأحسن من زهد وقنع من الدنيا بزاد المسافر ووراءه حسن وهو من استكثر من حلالها وصرفه في وجوهه وقبيح من احتطب حلالها وحرامها وأنفقه في شهواته ، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم في بيان الأحسن أحسن ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول ﴾ [الحشر : 7] وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح أيضاً لا إلى الحسن والأحسن فقط للأشعار بأن الغاية الأصلية للجعل المذكور إنما هو ظهور كمال إحسان المحسنين ، وأي إما استفهامية فهي مرفوعة بالابتداء وأحسن خبرها ، والجملة في محل نصب بفعل الابتلاء ولما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالسؤال والنظر ومكان الاستفهام علق عن العمل ، وإما موصولة بمعنى الذي فهي مبنية على الضم محلها النصب على أنها بدل من ضمير

النصب في ﴿ كذلك نَبْلُوهُم ﴾ وأحسن خبر مبتدأ محذوف والجملة صلة لها والتقدير لنبلو الذي هو أحسن عملا .

ويفهم من البحر أن مذهب سيبويه في أي إذا أضيفت وحذف صدر صلتها كما هنا جواز البناء لا وجوبه ، وتحقيق الكلام في مذهبه لا يخلو عن أشكال ، وأفعل التفضيل باق على الصحيح على حقيقته كما أشرنا إليه والمفضل عليه محذوف والتقدير كما قال أبو حيان لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ممن ليس أحسن عملاً .

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ ﴾ فيما سيأتي عند تناهي عمر الدنيا ﴿ مَا عَلَيْهَا ﴾ مما جعلناه زينة ، والإظهار في مقام الإضمار لزيادة التقرير ، وجوز غير واحد أن يكون هذا أعم مما جعل زينة ولذا لم يؤت بالضمير ، والجعل هنا بمعنى التصيير أي مصيرون ذلك ﴿ صَعِيداً ﴾ أي ترابا ﴿ جُرُزاً ﴾ أي لا نبات فيه قاله قتادة ، وقال الراغب : الصعيد وجه الأرض ، وقال أبو عبيدة هو المستوى من الأرض وروي ذلك عن السدى .

وقال الزجاج : هو الطريق الذي لا نبات فيه ، وأخرج ابن أبي حاتم أن الجرز الخراب ، والظاهر أنه ليس معنى حقيقيا والمعنى الحقيقى ما ذكرناه ، وقد ذكره غير واحد من أئمة

اللغة ، وفي البحر يقال جرزت الأرض فهي محروزة إذا ذهب نباتها بقحط أو جراد وأرضون أجراز لإنبات فيها ويقال سنة جرز وسنون أجراز لا مطر فيها وجرز الأرض الجراد والشاة والإبل إذا أكلت ما عليها ورجل جروز أكول أو سريع الأكل وكذا الأنثى قال الشاعر :

أن العجوز خبة جروزا . . .

تأكل كل ليلة قفيزاً

وفي القاموس أرض جرز وجرز وجرز وجرز لا تنبت أو أكل نباتها أو لم يصبها مطر وفي المثل لا ترضى شانئة إلا بجرزة أي بالاستئصال ، والمراد تصيير ما على الأرض تراباً ساذجاً بعدما كان يتعجب من بهجته النظار وتستلذ بمشاهدته الأبصار ، وظاهر الآية تصيير ما عليها بجميع أجزائه كذلك وذلك إنما يكون بقلب سائر عناصر المواليد إلى عنصر التراب ولا استحالة فيه لوقوع انقلاب بعض العناصر إلى بعض اليوم ، وقد يقال إن هذا جار على العرف فإن الناس يقولون صار فلان تراباً إذا اضمحل جسده ولم يبق منه أثر إلا التراب .

وحديث انقلاب العناصر مما لا يكاد يخطر لهم ببال وكذا زعم محققي الفلاسفة بقاء صور العناصر في المواليد ويوشك أن يكون تركب المواليد من العناصر أيضاً كذلك وهذا الحديث لا تكاد تسمعه عن السلف الصالح والله تعالى أعلم ، ووجه ربط هاتين الآيتين بما قبلهما على ما قاله بعض المحققين أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾ [الكهف : 7] الخ تعليل لما في لعل من معنى الاشفاق وقوله سبحانه ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ ﴾ الخ تكميل للتعليل ، وحاصل المعنى لا تحزن بما عاينت من القوم من تكذيب ما أنزلنا عليك من الكتاب فانا قد جعلنا على الأرض من فنون الأشياء زينة لها لنختبر أعمالهم فنجازيهم بحسبها وإنا لمفنون ذلك عن قريب ومجازون بحسب الأعمال وفي معنى ذلك ما قيل إنه تسكين له عليه الصلاة والسلام كأنه قيل : لا تحزن فانا ننتقم لك منهم وظاهر كلام بعضهم جعل ما يفهم من أول السورة تعليلاً للاشفاق حيث قال المعنى لا يعظم حزنك بسبب كفرهم فانا بعثناك منذراً ومبشراً وإما تحصيل الإيمان في قلوبهم فلا قدرة لك عليه قيل ولا يضر جعل ما ذكر تعليلا لذلك أيضاً لأن العلل غير حقيقية ، وقيل : في وجه الربط ان ما تقدم تضمن نهيه صلى الله عليه وسلم عن الحزن وهذا تضمن ارشاده إلى التخلق ببعض اخلاقه تعالى كأنه قيل إني خلقت الأرض وزينتها ابتلاء للخلق بالتكاليف ثم إنهم يتمردون ويكفرون ومع ذلك لا أقطع عنهم نعمي فانت أيضاً يا محمد لا تترك الاشتغال بدعوتهم بعد أن لا تأسف عليهم ،

والجملة الثانية لمجرد التزهيد في الميل إلى زينة الأرض ولا يخفى عليك بعد هذا الربط بل لا يكَاد ينساق الذهن إليه فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(118/468)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) ﴾

علّم عباده كيف يحمدونه على إفاضة نعمه عليهم ، ووصفه بالموصول يشعر بعليّة ما في حيز الصلة لما قبله ووجه كون إنزال الكتاب ، وهو القرآن نعمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم كونه اطلع بواسطته على أسرار التوحيد ، وأحوال الملائكة والأنبياء ، وعلى كيفية الأحكام الشرعية التي تعبده الله وتعبد أمته بها ، وكذلك العباد كان إنزال الكتاب على نبيهم نعمة لهم لمثل ما ذكرناه في النبيّ : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ أي : شيئاً من العوج بنوع من أنواع الاختلال في اللفظ والمعنى ، والعوج بالكسر في المعاني ، وبالفتح في الأعيان كذا قيل ، ويرد عليه قوله سبحانه : ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه : 107] ، يعني : الجبال ، وهي من الأعيان .

قال الزجاج : المعنى في الآية : لم يجعل فيها اختلافاً كما قال : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ

لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : 82] .

والقيم : المستقيم الذي لا ميل فيه ، أو القيم بمصالح العباد الدينية والدنيوية ، أو القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهيمناً عليها ، وعلى الأول يكون تأكيداً لما دل عليه نفي العوج ، فربّ مستقيم في الظاهر لا يخلو عن أدنى عوج في الحقيقة ، وانتصاب ﴿ قيماً ﴾ بمضمر ، أي جعله قيماً ، ومنع صاحب الكشاف أن يكون حالاً من الكتاب ، لأن قوله ﴿ ولم يجعل ﴾ معطوف على ﴿ أنزل ﴾ فهو داخل في حيز الصلة ، فجاعله حالاً من الكتاب فاصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة .

(119/468)

وقال الأصفهاني : هما حالان متواليان إلا أن الأوّل جملة والثاني مفرد ، وهذا صواب لأن قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل ﴾ لم يكن معطوفاً على ما قبله بل الواو للحال ، فلا فصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة ، وقيل : إن ﴿ قيماً ﴾ حال من ضمير ﴿ لم يجعل له ﴾ .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً ، ثم أراد سبحانه أن يفصل ما أجمله في قوله قيماً فقال : ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ وحذف المنذر للعلم به مع قصد التعميم ، والمعنى : لينذر الكافرين ، والبأس : العذاب ،

ومعنى ﴿ مِن لَّدُنْهُ ﴾ : صادراً من لدنه نازلاً من عنده .

روى أبو بكر ، عن عاصم : أنه " قرأ من لدنه " بإشمام الدال الضمة ، وبكسر النون والهاء ، وهي لغة الكلابيين .

وروى أبو زيد عن جميع القراء فتح اللام وضم الدال وسكون النون ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الذين يَعْمَلُونَ الصالحات ﴾ ، قرىء " يبشر " بالتشديد والتخفيف ، وأجرى الموصول على موصوفه المذكور ، لأن مدار قبول الأعمال هو الإيمان ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ وهو الجنة حال كونهم ﴿ مَّاكِثِينَ فِيهِ ﴾ أي : في ذلك الأجر ﴿ أَبَدًا ﴾ أي : مكثاً دائماً لا انقطاع له ، وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار .

ثم كرر الإنذار وذكر المنذر لخصوصه وحذف المنذر به ، وهو البأس الشديد ، لتقدّم ذكره فقال : ﴿ وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَدًا ﴾ وهم : اليهود والنصارى وبعض كفار قريش ، القائلون بأن الملائكة بنات الله ، فذكر سبحانه أوّلاً قضية كلية ، وهي إنذار عموم الكفار ، ثم عطف عليها قضية خاصة هي بعض جزئيات تلك الكلية ، تنبيهاً على كونها أعظم جزئيات تلك الكلية .

فأفاد ذلك أن نسبة الولد إلى الله سبحانه أقبح أنواع الكفر .

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي : بالولد ، أو اتخاذ الله إياه ، و " من " مزيدة لتأكيد النفي ، والجملة في محل نصب على الحال أو هي مستأنفة ، والمعنى : ما لهم بذلك علم أصلاً ﴿ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ علم ، بل كانوا في زعمهم هذا على ضلالة ، وقلدهم أبناؤهم فضلوا جميعاً ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ انتصاب ﴿ كلمة ﴾ على التمييز ، وقرىء بالرفع على الفاعلية .

قال الفراء : كبرت تلك الكلمة كلمة .

وقال الزجاج : كبرت مقالتهم كلمة ، والمراد بهذه الكلمة هي : قولهم اتخذ الله ولداً .

ثم وصف الكلمة بقوله : ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ وفائدة هذا الوصف استعظام اجترائهم على التفوّه بها ، والخارج من الفم وإن كان هو مجرد الهوى ، لكن لما كانت الحروف والأصوات كيفيات قائمة بالهوى أسند إلى الحال ما هو من شأن المحل .

ثم زاد في تقبيح ما وقع منهم فقال : ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ أي : ما يقولون إلا كذباً لا مجال للصدق فيه بحال .

ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى ءاثارهم ﴾ قال الأخفش والفراء : البخع : الجهد .

وقال الكسائي : بخعت الأرض بالزراعة : إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة ، وبخع

الرجل نفسه إذا نهكها .

وقال أبو عبيدة : معناه : مهلك نفسك ، ومنه قول ذي الرمة :

ألا أيها ذا الباخع الوجد نفسه . . . فيكون المعنى على هذه الأقوال : لعلك مجهد نفسك أو مضعفها أو مهلكها ﴿ على ءاثارهم ﴾ على فراقهم ومن بعد توليهم وإعراضهم ﴿ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث ﴾ أي : القرآن وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله .

وقرىء بفتح "أن" .

أي : لأن لم يؤمنوا ﴿ أَسَفاً ﴾ أي : غيظاً وحزناً وهو مفعول له أو مصدر في موضع الحال ، كذا قال الزجاج.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا ﴾ هذه الجملة استئناف .

(121/468)

والمعنى : إنا جعلنا ما على الأرض مما يصلح أن يكون زينة لها من الحيوانات والنبات والجماد ، كقوله سبحانه : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ [البقرة : 29] ، وانتصاب ﴿ زينة ﴾ على أنها مفعول ثانٍ ل ﴿ جعل ﴾ ، واللام في ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ متعلقة ب ﴿ جعلنا ﴾ ، وهي إما للغرض أو للعاقبة ، والمراد بالابتلاء :

أنه سبحانه يعاملهم معاملة لو كانت تلك المعاملة من غيره لكانت من قبيل الابتلاء والامتحان.

وقال الزجاج: ﴿ أيهم ﴾ رفع بالابتداء إلا أن لفظه لفظ الاستفهام، والمعنى: لنمتحن أهذا أحسن عملاً أم ذاك؟ قال الحسن: أيهم أزهد، وقال مقاتل: أيهم أصلح فيما أوتي من المال.

ثم أعلم سبحانه أنه مبيد لذلك كله ومفنيه فقال: ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ أي: لجاعلون ما عليها من هذه الزينة عند تناهي عمر الدنيا ﴿ صعيداً ﴾: ترابا.

قال أبو عبيدة: الصعيد: المستوي من الأرض.

وقال الزجاج: هو الطريق الذي لا نبات فيه.

قال الفراء: الجرز: الأرض التي لا نبات فيها، ومن قولهم: امرأة جرزاً: إذا كانت أكولاً. وسيفاً جرازاً: إذا كان مستأصلاً، وجرز الجراد والشاة والإبل: الأرض إذا أكلت ما عليها.

قال ذو الرمة:

طوى النحز والإجراز ما في بطونها . . . ومعنى النظم: لا تحزن يا محمد مما وقع من هؤلاء من التكذيب، فإنا قد جعلنا ما على الأرض زينة لاختبار أعمالهم، وإنا لمذهبون ذلك عند انقضاء عمر الدنيا فمجازوهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ﴾ الآية قال : أنزل الكتاب عدلاً قيماً ﴿ ولم يجعل له عوجا ﴾ ملتبساً .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ قيّماً ﴾ قال : مستقيماً .

(122/468)

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ من لدنه ﴾ أي : من عنده .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي ﴿ حسنًا ﴾ يعني : الجنة ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدًا ﴾ قال : هم اليهود والنصارى .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية بن خلف والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأبو البحتري في نفر من قريش ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه ، وإنكارهم ما جاء به من النصيحة ، فأحزنه حزناً شديداً ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ فلعلّك باخع نفسك ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه ﴿ باخع نفسك ﴾ يقول : قاتل نفسك ، وأخرج عبد

بن حميد عن مجاهد مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي مثله .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ أَسَفاً ﴾ قال : جزعاً .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ أَسَفاً ﴾ قال : حزناً .

وأخرج ابن المنذر ، وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ قال : الرجال .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير من قوله مثله .

وأخرج أبو نصر السجزي في الإبانة من طريق مجاهد عن ابن عباس في الآية قال : العلماء زينة الأرض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : هم الرجال العباد العمال لله بالطاعة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم والحاكم في التاريخ ، وابن مردويه عن ابن عمر قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ فقلت : ما معنى ذلك يا رسول الله ؟ قال : " ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرعكم في طاعة الله " وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : ليختبرهم ﴿ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ قال : أيهم أتمّ عقلاً .

وأخرج عن الحسن ﴿ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ قال : أشدهم للدنيا تركاً ، وأخرج أيضاً عن الثوري قال : أزهدهم في الدنيا .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ قال : يهلك كل شيء ويبيد .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة قال : الصعيد : التراب والجبال التي ليس فيها زرع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : يعني بالجرز : الخراب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(124/468)

وقال القاسمى :

﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ﴾ وهم مشركو العرب في قولهم الملائكة بنات الله والنصارى في دعواهم المسيح ابن الله وخصهم بالذكر , وكرر الإنذار متعلقا بهم ، استعظاماً لكفرهم . وترك إجراء الموصول على الموصوف كما فعل في قوله تعالى : ﴿

﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ للإيذان بكفاية ما في حيز الصلة، في الكفر على أقبح الوجوه.

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ أي: ما لهم بالولد، أو باتخاذه، أو بالقول، من علم. بل إنما يصدر عن جهل مفرط، وتوهم كاذب، وتقليد للآباء. لا عن علم يقين، ويقين. ويؤيده قوله: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ أي: ما أكبرها كلمة: ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ وذلك لأن الولد مستحيل لا معنى له. إذ العلم اليقيني يشهد أن الوجود الواجبي أحدي الذات، لا يماثله الوجود الممكن. والولد هو المماثل لوالده في النوع، المكافئ له في القوة. وجملة تخرج من أفواههم صفة لكلمةً تفيد استعظام اجترائهم على إخراجها من أفواههم. قال الشهاب: لأن المعنى: كبر خروجها. أي: عظمت بشاعته وقباحته، بمجرد التفوه. فما بالك باعتقاده: ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ أي: قولاً كذبا لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلا. وذلك لتطابق الدليل القطعي، والوجدان الذوقي على إحالته.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ ﴾ أي: مهلكٌ: ﴿ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعني القرآن: ﴿ أَسَفًا ﴾ أي: لتأسف على توليهم وإعراضهم عنه. أو متأسف عليهم. والأسف فرط الحزن والغضب. وفي "العناية": لعل للترجي. وهو الطمع في الوقوع أو

الإشفاق منه . وهي هنا استعارة . أي : وصلت إلى حالة يتوقع منك الناس ذلك . لما يشاهد من تأسفك على عدم إيمانهم . وفي النظم الكريم استعارة تمثيلية بتشبيه حاله معهم ، وقد تولوا ، وهو آسف من عدم هدايتهم ، بحال من فارقته أحبته . فهمّ بقتل نفسه . أو كاد يهلك وجدا عليهم وتحسرا على آثارهم . وسر ذلك - كما قال القاشاني - أن الشفقة على خلق الله والرحمة عليهم من لوازم محبة الله ونتائجه . ولما كان صلى الله عليه وسلم حبيب الله ، ومن لوازم محبوبيته محبته لله لقوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : 54] ، وكلما كانت محبته للحق أقوى ، كانت شفقته ورحمته على خلقه أكثر . لكون الشفقة عليهم ظل محبته لله ، وأشد تعطفه عليهم . فإنهم كأولاده وأقاربه . بل كأعضائه وجوارحه في الشهود الحقيقي . فلذلك بالغ في التأسف عليهم ، حتى كاد يهلك نفسه .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [7] .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ ﴾ أي : من الحيوان والنبات والمعادن : ﴿ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ أي : ليظهر أيهم أقهر لشهواتها ودواعيها ، وأعصى لهواها أي : رضاي ، وأقدر على مخالفتها لموافقتي .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ [8] .

(126/468)

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ أي : تراباً مستوياً لا نبات فيه . بعد ما كان يبهج النظار ، لا شيء فيه يختلف ، ربىً ووهاداً . أي : نفنيها وما عليها ولا نبالي . وفي الآية تسلية له صلوات الله عليه . كأنه قيل لا تحزن عليهم فإنه لا عليك أن يهلكوا جميعاً . لأنا نخرج جميع الأسباب من العدم إلى الوجود للابتلاء . ثم نفنيها ، ولا حيف ولا نقص . أو لا تحزن فإنا مفنون ذلك ومجازون لهم بحسب أعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 9.7 ﴾

(127/468)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) ﴾

تعليل آخر لإنزال الكتاب على عبده ، جعل تالياً لقوله : ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ [الكهف : 2] باعتبار أن المراد هنا إنذار مخصوص مقابل لما بَشر به المؤمنين .

وهذا إنذار بجزاء خالدين فيه وهو عذاب الآخرة ، فإن جَرَيْتَ على تخصيص البأس في قوله : ﴿ بأساً شديداً ﴾ [الكهف : 2] بعذاب الدنيا كما تقدم كان هذا الإنذار مغايراً لما قبله ؛ وإن جريت على شمول البأس للعذابين كانت إعادة فعل ينذر وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَدًا * مّا ﴾ تأكيدا ، فكان عطفه باعتبار أن لمفعوله صفة زائدة على معنى مفعولِ فِعل ﴿ ينذر ﴾ السابق يُعرف بها الفريق المنذرون بكلا الإنذارين ، وهو يُومىء إلى المنذرَين المحذوف في قوله : ﴿ لينذر بأساً شديداً ﴾ [الكهف : 2] ويغني عن ذكره .

وهذه العلة أثارتها مناسبه ذكر التبشير قبلها ، وقد حذف هنا المنذر به اعتماداً على مقابِله المبشر به .

والمراد بالذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ هنا المشركون الذين زعموا أن الملائكة بنات الله ، وليس المراد به النصارى الذين قالوا بأن عيسى ابن الله تعالى ، لأن القرآن المكي ما تعرض للرد على أهل الكتاب مع تأهلهم للدخول في العموم لاتحاد السبب .

والتعبير عنهم بالموصول وصلته لأنهم قد عُرفوا بهذه المقالة بين أقوامهم وبين المسلمين تشنيعاً عليهم بهذه المقالة ، وإيماء إلى أنهم استحقوا ما أنذروا به لأجلها ولغيرها ،

فمضمون الصلة من موجبات ما أنذروا به لأن العلل تتعدد .

والولد : اسم لمن يولد من ذكر أو أنثى ، يستوي فيه الواحد والجمع .

وتقدم في قوله : ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه ﴾ في سورة يونس (68) .

وجملة ما لهم به من علم ﴾ حال من ﴿ الذين قالوا ﴾ .

والضمير المجرور بالباء عائد إلى القول المفهوم من ﴿ قالوا ﴾ .

و(من) لتوكيد النفي .

(128/468)

وفائدة ذكر هذه الحال أنها أشنع في كفرهم وهي أن يقولوا كذباً ليست لهم فيه شبهة ،

فأطلق العلم على سبب العلم كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا

برهان له به فإنما حسابه عند ربه ﴾ [المؤمنون : 117] .

وضمير به ﴾ عائد على مصدر مأخوذ من فعل ﴿ قالوا ﴾ ، أي ما لهم بذلك القول من

علم .

وعطف ﴿ ولا لآبائهم ﴾ لقطع حجتهم لأنهم كانوا يقولون ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة

وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ [الزخرف : 23] ، فإذا لم يكن لآبائهم حجة على ما يقولون

فليسوا جديرين بأن يُقلدوهم .

استئناف بالتشاؤم بذلك القول الشنيع .

ووجه فصل الجملة أنها مخالفة للتي قبلها بالإنشائية المخالفة للخبرية .

وفعل ﴿ كبرت ﴾ بضم الباء .

أصله : الإخبار عن الشيء بضخامة جسمه ، ويستعمل مجازاً في الشدة والقوة في وصف من الصفات المحمودة والمذمومة على وجه الاستعارة ، وهو هنا مستعمل في التعجيب من كِبر هذه الكلمة في الشناعة بقرينة المقام .

ودل على قصد التعجيب منها انتصاب ﴿ كلمة ﴾ على التمييز إذ لا يحتمل التمييز هنا معنى غير أنه تمييز نسبة التعجيب ، ومن أجل هذا مثلوا بهذه الآية لورود فَعُل الأصلي والمحول لمعنى المدح والذم في معنى نعم وبئس بحسب المقام .

والضمير في قوله : ﴿ كبرت ﴾ يرجع إلى الكلمة التي دل عليها التمييز .

وأطلقت الكلمة على الكلام وهو إطلاق شائع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنها كلمة هو قائلها ﴾ [المؤمنون : 100] ، وقول النبي : أصدق كُلمةٍ قالها شاعر كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا اللّهَ باطل

وجملة تخرج من أفواههم ﴾ صفة ل ﴿ كلمة ﴾ مقصود بها من جُرْأتهم على النطق بها

ووقاحتهم في قولها .

والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار صورة خروجها من أفواههم تخييلاً لفظاعتها .

(129/468)

وفيه إيماء إلى أن مثل ذلك الكلام ليس له مصدر غير الأفواه ، لأنه لاستحالته تتلقاه وتنطق به أفواههم وتسمعه أسماعهم ولا تتعقله عقولهم لأن المحال لا يعتقده العقل ولكنه يتلقاه المقلد دون تأمل .

والأفواه : جمع فَم وهو بوزن أفعال ، لأن أصل فم فَوَه بفتحتين بوزن جَمَل ، أو فيهٍ بوزن ريح ، فحذفت الهاء من آخره لثقلها مع قلة حروف الكلمة بحيث لا يجد الناطق حرفاً يعتمد عليه لسانه ، ولأن ما قبلها حرف ثقيل وهو الواو المتحركة فلما بقيت الكلمة مختومة بواو متحركة أبدلت ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها فصار "فاً" ولا يكون اسم على حرفين أحدهما تنوين ، فأبدلت الألف المنونة بحرف صحيح وهو الميم لأنها تشابه الواو التي هي الأصل في الكلمة لأنهما شفهيتان فصار "فم" ، ولما جمعوه ردوه إلى أصله .

وجملة ﴿ إن يقولون إلا كذباً ﴾ مؤكدة لمضمون جملة ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ لأن الشيء الذي تنطق به الألسن ولا تحقق له في الخارج ونفسِ الأمر هو الكذب ، أي تخرج من

أفواههم خروج الكذب ، فما قولهم ذلك إلا كذب ، أي ليست له صفة إلا صفة الكذب .

هذا إذا جعل القول المأخوذ من ﴿ يقولون ﴾ خصوص قولهم : ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ [الكهف : 4] .

ولك أن تحمل يقولون ﴾ على العموم في سياق النفي ، أي لا يصدر منهم قول إلا الكذب ، فيكون قصراً إضافياً ، أي ما يقولونه في القرآن والإسلام ، أو ما يقولونه من معتقداتهم المخالف لما جاء به الإسلام فتكون جملة إن ﴿ يقولون ﴾ تذييلاً .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) ﴾

تفريع على جملة ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ [الكهف : 4] باعتبارهم مكذبين كافرين بقرينة مقابلة المؤمنين بهم في قوله : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ [الكهف : 2] ثم قوله : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ [الكهف : 4] .

و (لعل) حقيقتها إنشاء الرجاء والتوقع ، وتستعمل في الإنكار والتحذير على طريقة المجاز المرسل لأنهما لازمان لتوقع الأمر المكروه .

وهي هنا مستعملة في تحذير الرسول عليه الصلاة والسلام من الاغتمام والحزن على عدم

إيمان من لم يؤمنوا من قومه .

وذلك في معنى التسلية لقلة الاكتراث بهم .

والباخع : قاتل نفسه ، كذا فسره ابن عباس ومجاهد والسدّي وابن جبير .

وفسره البخاري بمهلك .

وتفسيره يرجع إلى أبي عبيدة .

وفي اشتقاقه خلاف ، فقيل مشتق من البِخاع بالباء الموحدة (بوزن كتاب) وهو عرق مستبطن في القفا فإذا بلغ الذابحُ البخاع فذلك أعمق الذبح ، قاله الزمخشري في قوله تعالى : لعلك باخع نفسك في سورة الشعراء (3) وانفرد الزمخشري بذكر هذا الاشتقاق في الكشاف ﴾ و "الفائق" و "الأساس" .

قال ابن الأثير في "النهاية" : "بحثت في كتب اللغة والطب فلم أجد البِخاع بالموحدة" يعني أن الزمخشري انفرد بهذا الاشتقاق وبإثبات البخاع اسماً لهذا العرق .

قلت : كفى بالزمخشري حجة فيما أثبته .

وقد تبعه عليه المطرزي في "المُغرب" وصاحب "القاموس" .

فالبخع : أصله أن يبلغ الذابح بالذبح إلى القفا ثم أطلق على القتل المشوب بغيظ .

والآثار : جمع أثر وهو ما يؤثره ، أي يُبقيه الماشي أو الراكب في الرمل أو الأرض من مواطىء أقدامه وأخفاف راحلته .

والأثر أيضاً ما يبقيه أهل الدار إذا ترحلوا عنها من تافه آلاتهم التي كانوا يعالجون بها شؤونهم كالأوتاد والرماد .

وحرف (على) للاستعلاء المجازي فيجوز أن يكون المعنى : لعلك مهلك نفسك لأجل إعراضهم عنك كما يُعرض السائر عن المكان الذي كان فيه ، فتكون (على) للتعليل .

ويجوز أن يكون المعنى تمثيل حال الرسول صلى الله عليه وسلم في شدة حرصه على اتباع قومه له وفي غمه من إعراضهم .

وتمثيل حالهم في النفور والإعراض بحال من فارقه أهله وأحبتُه فهو يرى آثار ديارهم ويحزن لفراقهم .

(131/468)

ويكون حرف (على) ظرفاً مستقراً في موضع الحال من ضمير الخطاب ، ومعنى (على) الاستعلاء المجازي وهو شدة الاتصال بالمكان .

وكأن هذا الكلام سيق إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في آخر أوقات رجائه في إيمانهم إيماء إلى أنهم غير صائرين إلى الإيمان ، وتهيئة نفسه أن تتحمل ما سيلقاه من عنادهم رأفة من ربه به ، ولذلك قال : ﴿ إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ﴾ بصيغة الفعل المضارع المقتضية

الحصول في المستقبل ، أي إن استمر عدم إيمانهم .

واسم الإشارة وبيانُه مراد به القرآن ، لأنه لحضوره في الأذهان كأنه حاضر في مقام نزول الآية

فأشير إليه بذلك الاعتبار .

وبُيّن بأنه الحديث .

والحديث : الخبر .

وإطلاق اسم الحديث على القرآن باعتبار أنه إخبار من الله لرسوله ، إذ الحديث هو الكلام

الطويل المتضمن أخباراً وقصصاً .

سمي الحديث حديثاً باعتبار اشتماله على الأمر الحديث ، أي الذي حدث وجَد ، أي

الأخبار المستجدة التي لا يعلمها المخاطب ، فالحديث فعيل بمعنى مفعول .

وانظر ما يأتي عند قوله تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ في سورة الزمر (23) .

وأسفاً ﴾ مفعول له من ﴿ باخع نفسك ﴾ أي قاتلها لأجل شدة الحزن ، والشرط

معترض بين المفعولين ، ولا جواب له للاستغناء عن الجواب بما قَبْل الشرط .

إ﴿ نَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) ﴾

مناسبة موقع هذه الآية هنا خفية جداً أعوز المفسرين بيانُها ، فمنهم ساكت عنها ، ومنهم

محاول بيانها بما لا يزيد على السكوت .

والذي يبدو : أنها تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم على إعراض المشركين بأن الله أمهلهم

وأعطاهم زينة الدنيا لعلهم يشكرونه ، وأنهم بطروا النعمة ، فإن الله يسلب عنهم النعمة فتصير بلادهم قاحلة .

وهذا تعريض بأنه سيحل بهم قحط السنين السبع التي سأل رسولُ الله ربه أن يجعلها على المشركين كسنين يوسف عليه السلام .

ولهذا اتصال بقوله : ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ [الكهف : 2] .

وموقع (إن) في صدر هذه الجملة موقع التعليل للتسلية التي تضمنها قوله تعالى : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ﴾ [الكهف : 6] .

ويحصل من ذلك تذكير بعضهم قدرة الله تعالى ، وخاصة ما كان منها إيجاداً للأشياء وأضدادها من حياة الأرض وموتها المماثل لحياة الناس وموتهم ، والمماثل للحياة المعنوية والموت المعنوي من إيمان وكفر ، ونعمة ونقمة ، كلها عِبَر لمن يعتبر بالتغير ويأخذ الأهبة إلى الانتقال من حال إلى حال فلا يثق بقوته وبطشه ، ليقيس الأشياء بأشباهها ويعرض نفسه على معيار الفضائل وحسنى العواقب .

وأوثر الاستدلال بحال الأرض التي عليها الناس لأنها أقرب إلى حسهم وتعقلهم ، كما قال

تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ [الغاشية : 17 20] ، وقال : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ [الذاريات : 20] .

وقد جاء نظم هذا الكلام على أسلوب الإعجاز في جمع معانٍ كثيرة يصلح اللفظ لها من مختلف الأغراض المقصودة ، فإن الإخبار عن خلق ما على الأرض زينةً يجمع الامتنان على الناس والتذكير ببديع صنع الله إذ وضع هذا العالم على أتقن مثال ملائم لما تحبه النفوس من الزينة والزخرف .

والامتنان بمثل هذا كثير ، مثل قوله : ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ [النحل : 6] ، وقال : ﴿ زين للناس حبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ﴾ [آل عمران : 14] .

ولا تكون الأشياء زينة إلا وهي مبثوثة فيها الحياة التي بها نماؤها وازدهارها .

وهذه الزينة مستمرة على وجه الأرض منذ رآها الإنسان ، واستمرارها باستمرار أنواعها وإن كان الزوال يَعرض لأشخاصها فتخلفها أشخاص أخرى من نوعها .

فيتضمن هذا امتناناً ببث الحياة في الموجودات الأرضية .

ومن لوازم هذه الزينة أنها توقظ العقول إلى النظر في وجود منشئها وتسبُر غورَ النفوس في مقدار الشكر لخالقها وجاعلها لهم، فمِن موفٍ بحق الشكر، ومقصر فيه وجاحد كافرٍ بنعمة هذا المنعم ناسبٍ إياها إلى غير موجدها.

ومن لوازمها أيضاً أنها تثير الشهوات لاقتطافها وتناولها فتستثار من ذلك مختلِف الكيفيات في تناولها وتعَارُض الشهوات في الاستيثار بها مما يفضي إلى تغالب الناس بعضهم بعضاً واعتداء بعضهم على بعض.

وذلك الذي أوجد حاجتهم إلى الشرائع لتضبط لهم أحوال معاملاتهم، ولذلك عُلل جعل ما على الأرض زينة بقوله: لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾، أي أفْوَتَ في حسن العمل مِن عمل القلب الراجع إلى الإيمان والكفر، وعلم الجسد المتبدي في الامتثال للحق والحَيدة عنه.

فمجموع الناس متفاوتون في حسن العمل.

ومن درجات التفاوت في هذا الحسن تُعلم بطريق الفحوى درجةُ انعدام الحُسن من أصله وهي حالة الكفر وسوء العمل، كما جاء في حديث".

.

مَثَل المنافق الذي يقرَأ القرآن ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن".

والبَلْو : الاختبار والتجربة .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ﴾ في سورة يونس (30) .

وهو هنا مستعار لتعلق علم الله التنجيزي بالمعلوم عند حصوله بقرينة الأدلة العقلية والسمعية الدالة على إحاطة علم الله بكل شيء قبل وقوعه فهو مستغنٍ عن الاختبار والتجربة .

وفائدة هذه الاستعارة الانتقال منها إلى الكناية عن ظهور ذلك لكل الناس حتى لا يلتبس عليهم الصالح بضده .

وهو كقول قيس بن الخطيم :

وأقبلت والخطي يخطر بيننا

لأعْلَم مَن جَبَانُها من شُجاعها . . .

وقوله : وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾ تكميل للعبرة وتحقيق لفناء العالم .

فقوله : ﴿ جاعلون ﴾ اسم فاعل مراد به المستقبل ، أي سنجعل ما على الأرض كله معدوماً فلا يكون على الأرض إلا تراب جاف أجرد لا يصلح للحياة فوقه وذلك هو فناء العالم ، قال تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ [إبراهيم : 48] .

والصعيد : التراب .

والجُرز : القاحل الأجرد .

وسيأتي بيان معنى الصعيد عند قوله : ﴿ فتصبح صعيداً زلقا ﴾ في هذه السورة (40) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(135/468)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) ﴾

علم الله جل وعلا عباده في أول هذه السورة الكريمة أن يحمدوه على أعظم نعمة أنعمها عليهم . وهي إنزاله على نبينا صلى الله عليه وسلم هذا القرآن العظيم ، الذي لا اعوجاج فيه . بل هو في كمال الاستقامة . أخرجهم به من الظلمات إلى النور . وبين لهم فيه من العقائد ، والحلال والحرام ، وأسباب دخول الجنة والنار ، وحذرهم فيه من كل ما يضرم ،

وحضهم فيه على كل ما ينفعهم ، فهو النعمة العظمى على الخلق ، ولذا علمهم ربهم كيف يحمدونه على هذه النعمة الكبرى بقوله : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أُنزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾ الآية .

(136/468)

وما أشار له هنا من عظيم الإنعام والامتنان على خلقه بإنزال هذا القرآن العظيم ، منذراً من لم يعمل به ، ومبشراً من عمل به – ذكر جل وعلا في مواضع كثيرة ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الناس قَدْ جَآءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ بالله واعتصموا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ [النساء : 174-175] ، وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلك لَرَحْمَةً وذكرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : 51] ، وقوله : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يَقُصُّ على بني إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : 76-77] ، وقوله : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : 82] ، وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت : 44] الآية ، وقوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي هذا لَبَلاَغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 106-

107] ، وقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ ترجوا أَن يلقى إِلَيْكَ الكتاب إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص : 86] الآية ، وقوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات بِإِذُنِ الله ذَلِكَ هُوَ الفضل الكبير ﴾ [فاطر : 32] .

وهو تصريح منه جل وعلا بأن إيراث هذا الكتاب فضل كبير بمثل هذا كثيرة جداً .

(137/468)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ اي لم يجعل في القرآن عوجاً .

أي لا اعوجاج فيه ألبته ، لا من جهة الألفاظ ، ولا من جهة المعاني . أخباره كلها صدق ، وأحكامه عدل ، سالم من جميع العيوب في ألفاظه ومعانيه ، وأخبار وأحكامه . لأن قوله " عوجا " نكرة في سياق النفي . فهي تعم نفي جميع أنواع العوج .

وما ذكره جل وعلا هنا من أنه لا اعوجاج فيه – بينه في مواضع أخر كثيرة كقوله : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر : 27–28] ، وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السميع العليم ﴾ [الأنعام : 115] . فقوله " صدقاً " اي في الأخبار ، وقوله

"عدلاً" أي في الأحكام وكقوله تعالى: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختلافا كَثِيراً ﴾

[النساء: 82]. والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

(138/468)

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ قَيِّماً ﴾ أي مستقيماً لا ميل فيه ولا زيغ. وما ذكره هنا من كونه ﴿ قَيِّماً ﴾ لا ميل فيه ولا زيغ – بينه أيضاً في مواضع أخر، كقوله ﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين مُنفَكِّينَ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة رَسُولٌ مِّنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة: 1–3]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هذا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: 9] الآية، وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ هذا القرآن أَن يفترى مِن دُونِ اللهِ ولكن تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ [يونس: 37]. وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يفترى ولكن تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: 111] وقوله ﴿ الم ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: 1–2]، وقوله ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: 1] وقوله: ﴿ ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن

نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : 52] إلى غير ذلك من الآيات .

وهذا الذي فسرنا به قوله تعالى ﴿ قَيِّماً ﴾ هو قول الجمهور وهو الظاهر . وعليه فهو تأكيد في المعنى لقوله ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ لأنه قد يكون الشيء مستقيماً في الظاهر وهو لا يخلو من اعوجاج في حقيقة الأمر . ولذا جمع تعالى ، بين نفي العوج وإثبات الاستقامة . وفي قوله " قيماً " وجهان آخران من التفسير :

الأول – أن معنى كونه " قيماً " أنه قيم على ما قبله من الكتب السماوية ، اي مهيمن عليه

وعلى هذا التفسير فالآية كقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكتاب وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : 84] الآية .

ولأجل هيمنته على ما قبله من الكتب قال تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يَقُصُّ على بني إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل : 76] الآية . وقال ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بالتوراة فاتلوها إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران : 93] وقال ﴿ يَا أَهْلَ الكتاب قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكتاب ﴾ [المائدة : 15] الآية .

الوجه الثاني – أن معنى كونه " قيما " : أنه قيم بمصالح الخلق الدينية والدنيوية . وهذا

الوجه في الحقيقية يستلزمه الوجه الأول .

واعلم أن علماء العربية اختلفوا في إعراب قوله " قَيِّماً " فذهب جماعة إلى أنه حال من الكتاب . وأن في الآية تقديماً وتأخيراً ، وتقريره على هذا : أنزل على عبده الكتاب في حال كونه قيماً ولم يجعل له عوجاً . ومنع هذا الوجه من الإعراب الزمخشري في الكشاف قائلاً : إن قوله ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ [الكهف : 1] معطوف على صلة الموصول التي هي جملة ﴿ أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ [الكهف : 1] والمعطوف على الصلة داخل في حيز الصلة . فجعل " قَيِّماً " حال من " الكتاب " يؤدي إلى الفصل بين الحال وصاحبها ببعض الثلة ، وذلك لا يجوز .

(140/468)

وذهب جماعة آخرون إلى أن " قَيِّماً " حال من " الكتاب " وا ، المحذور الذي ذكره الزمخشري منتف . وذلك أنهم قالوا : إن جملة ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ ليست معطوفه على الصلة ، وإنما هي جملة حالية . وقوله " قَيِّماً " حال بعد حال ، وتقريره : أن المعنى ا ، زل على عبده الكتاب في حال كونه غير جاعل فيه عوجاً ، وفي حال كونه قيماً . وتعدد الحال لا إشكال فيه ، والجمهورر على جواز تعدد الحال مع اتحاد عامل الحال وصاحبها ،

كما أشار له في الخلاصة بقوله :

والحال قد يجيء ذا تعدد . . . لمفرد فاعلم وغير مفرد

وسواء كان ذلك بعد العطف أو بدون عطف . فمثاله مع العطف : قوله تعالى : ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بيحيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصالحين ﴾ [آل عمران : 39] ومثاله بدون عطف قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ [الأعراف : 150] ث الآية . وقول الشاعر :

على إذا ما جئت ليلى بخفية . . . زيارة بيت الله رجلان حافيا

ونقل عن أبي الحسن بن عصفور منع تعدد الحال ما لم يكن العامل فيه صيغة التفضيل في نحو قوله : هذا بسراً أطيب منه رطباً . ونقل منع ذل أيضاً عن الفارسي وجماعة . وهؤلاء الذين يمنعون تعدد الحال يقولون : إن الحال الثانية إنما هي حال من الضمير المستكن في الحال الأولى . والأولى عندهم هي العامل في الثانية . فهي عندهم أحوال متداخلة ، أو يجعلون الثانية نعتاً للأولى وممن اختار أن جملة ﴿ ولم يجعل ﴾ حالية ، وأن ﴿ قَيِّماً ﴾ حال بعد حال الأصفهاني .

وذهب بعضهم إلى أن قوله ﴿ قَيِّماً ﴾ بدل من قوله ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ لأن انتفاء العوج عنه هو معنة كونه قيماً .

وعزا القول الرازي وأبو حيان لصاحب حل القعد ، وعليه فهو بدل مفرد من جملة .

كما قالوا : في عرفت زيداً أبو من . أنه بدل جملة من مفرد . وفي جواز ذلك خلاف عند علماء العربية .

(141/468)

وزعم قوم أن ﴿ قَيِّماً ﴾ حال من الضمير المجرور في قوله ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾

واختار الزمخشري وغيره أن ﴿ قَيِّماً ﴾ منصوب بفعل محذوف ، وتقديره : ولم يجعل له عوجاً وجعله قيِّماً ، وحذف ناصب الفضلة إذا دل عليه المقام جائز . كما قال في الخلاصة :

ويحذف الناصبها إن علما . . . وقد يكون حذفه ملتزماً

وأقرب أوجه الإعراب في قوله " قَيِّماً " أنه منصوب بمحذوف ، أو حال ثانية من " الكتاب " والله تعالى أعلم .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً ﴾ اللام فيه متعلقة ب ﴿ أُنزَلَ ﴾ [الكهف : 1] وقال الحوفي :

هي متعلقة بقوله ﴿ قَيِّماً ﴾ والأول هو الظاهر .

والإنذار : الإعلام المقترن بتخويف وتهديد . فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذار .

والإنذار يتعدى إلى مفعولين، كما في وقوله تعالى: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى ﴾ [الليل: 14]، وقوله ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً ﴾ [النبأ: 40] الآية.

وفي أول هذه السورة الكريمة كرر تعالى الإنذار، فحذف في الموضع الأول مفعول الإنذار الأول، وحذف في الثاني مفعول الثاني، فصار المذكور دليلاً على المحذوف في الموضعين.

وتقدير المفعول الأول المحذوف في الموضع الأول: لينذر الذين كفروا بأساً شديداً من لدنه.

وتقدير المفعول الثاني المحذوف في الموضع الثاني: وينذر الذين الوا اتخذ الله ولداً باساً شديداً من لدنه.

وقد أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى أن هذا القرآن العظم تخويف وتهديد للكافرين. وبشارة للمؤمنين المتقين. إذ قال في تخويف الكفرة به ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ ﴾ وقال ﴿ وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً ﴾ الآية. وقال في بشارته للمؤمنين: ﴿ وَيُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴾ الآية.

(142/468)

وهذا الذي ذكره هنا من كونه إنذاراً لهؤلاء وبشارة لهؤلاء بينه في مواضع أخر كقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلَسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ [مريم: 97]، وقوله: ﴿

المص كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 1-2] .

وقد أوضحنا هذا المبحث في أول سورة " الأعراف " . وأوضحنا لك المعاني التي ورد بها الإنذار في القرآن . والبأس الشديد الذي أنذرهم إياه : هو العذاب الأليم في الدنيا والآخرة والبشارة : الخبر بما يسر .

وقد تطلق العرب البشارة على الإخبار بما يسوء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ولى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان : 7]

ومنه قوله الشاعر :

وبشرتني يا سعد أن أحبتي . . . جفوني وقالوا الود موعده الحشر

وقول الآخر :

يبشرني الغراب ببين أهلي . . . فقلت له ثكلتك من بشير

والتحقيق : ان إطلاق البشارة على الإخبار بما يسوء ، أسلوب من أساليب اللغة العربية . ومعلوم أن علماء البلاغة يجعلون مثل ذلك مجازاً ، ويسمونه استعارة عنادية ، ويقسمونها إلى تهكمية وتمليحية كما هو معروف في محله .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ الذين يَعْمَلُونَ الصالحات ﴾ بينت المراد به آيات أخر ، فدلت على أن العمل لا يكون صالحاً إلا بثلاثة أمور :

الأول – أن يكون نطابقاً لما جاء به النّبي صلى الله عليه وسلم. فكل عمل مخالف لما جاء به صلوات الله وسلامه عليه فليس بصالح، بل هو باطل، قال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر: 7] الآية، وقال: ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ [النساء: 80] وقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ [آل عمران: 31] الآية، وقال: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُواْ لَهُمْ مِّنَ الدين مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله ﴾ [الشورى: 21] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

الثاني – أن يكون العامل مخلصاً في عمله لله فيما بينه وبين الله، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أمروا إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [البينة: 5] الآية، وقال: ﴿ قُلْ إني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين قُلْ إني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ الله أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي فاعبدوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الخاسرين الذين خسروا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القيامة أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخسران المبين ﴾

[الزمر: 11-15] إلى غير ذلك من الآيات.

الثالث – أن يكون العمل مبنياً على أساس الإيمان والعقيدة الصحيحة، لأن العلم

كالسقف، والعقيدة كالأساس، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [النحل: 97]. الآية، فجعل الإيمان قيداً في ذلك.

(144/468)

وبين مفهوم هذا القيد في آيات كثيرة، كقوله في أعمال غير المؤمنين: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان: 23]، وقوله: ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ﴾ [النور: 39] الآية، وقوله: ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ [إبراهيم: 18] الآية، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه.

والتحقيق: أن مفرد الصالحات في قوله: ﴿ يعملون الصالحات ﴾، وقوله: ﴿ وَعَمِلُوا الصالحات ﴾ [البقرة: 25] ونحو ذلك – أنه صالحة، وأن العرب تطلق لفظة الصالحة على الفعلة الطيبة. كإطلاق اسم الجنس لتناسى الوصيفة، كما شاع ذلك الإطلاق في الحسنة مراداً بها الفعلة الطيبة.

ومن إطلاق العرب لفظة الصالحة على ذلك قول ابي العاص بن الربيع في زوجه زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم:

بنت الأمين جزاك الله صالحة... وكل بعل سيثنى بالذي علما

وقول الحطيئة :

كيف الهجاء ولا تنفك صالحة . . . من آل لأم بظهر الغيب تأتيني

وسئل إعرابي عن الحب فقال :

الحب مشغله عن كل صالحة . . . وسكرة الحب تنفي سكرة الوسن

(145/468)

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴾ أي وليبشرهم بأن لهم أجراً حسناً . الأجر : جزاء العمل ، وجزاء عملهم المعبر عنه هنا بالأجرة : هو الجنة . ولذا قال ﴿ مَّاكِثِينَ فِيهِ ﴾ [الكهف : 3] وذكر الضمير في قوله ﴿ فِيهِ ﴾ لأنه راجع إلى الأجر وهو مذكر ، وإن كان المراد بالأجر الجنة : ووصف أجرهم هنا بأنه حسن ، وبين أوجه حسنه في آيات كثيرة . كقوله ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين على سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الواقعة : 13-16] إلى قوله - ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ [الواقعة : 39-40] ، وكقوله : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً معلومة .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ﴾ اي خالدين فيه بلا انقطاع .

وقد بين هذا المعنى في مواضع أخر كثيرة، كقوله: ﴿ وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ فَفِي الجنة خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: 108] أي غير مقطوع، وقوله: ﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص: 54] اي ما له من انقطاع وانتهاء، وقوله: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الذين صبروا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 96]، وقوله: ﴿ والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ [الأعلى: 17] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿ وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً ﴾ أي ينذرهم بأساً شديداً ﴿ مِّن لَّدُنْهُ ﴾ [الكهف: 2] أي من عنده كما تقدم.

(146/468)

وهذا من عطف الخاص على العام، لأنه قوله ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ ﴾ [الكهف: 2] شامب للذين قالوا اتخذ الله ولداً، ولغيرهم من سائر الكفار.

وقد تقرر في فن المهاني: أن عطف الخاص على العام إذا كان الخاص يمتاز عن سائر أفراد العام بصفات حسنة أو قبيحة – من الإطناب المقبول، تنزيلاً للتغاير في الصفات منزلة التغاير في الذوات.

ومثاله في الممتاز عن سائر أفراد العام بصفات حسنة قوله تعالى : ﴿ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ ﴾ [البقرة : 98] الآية ، وقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ [الأحزاب : 7] .

وثاله في الممتاز بصفات قبيحة الآية التي نحن بصددها ، فإن ﴿ الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ امتازوا عن غيرهم بفرية شنعاء . ولذا ساغ عطفهم على اللفظ الشامل لهم ولغيرهم .

والآيات الدالة على شدة عظم فريتهم كثيرة جداً . كقوله هنا : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [الكهف : 5] الآية ، وكقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ [مريم : 88-92] ، وقوله : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بالبنين واتخذ مِنَ الملائكة إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ [الإسراء : 40]

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة .

وقد قدمنا أن القرآن بين أن الذين نسبوا لله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ثلاثة أصناف من الناس : اليهود ، والنصارى ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ ابن الله

وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله ذلك قَوْلُهُم بأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [التوبة: 30] الآية. والصنف الثالث مشركو العرب. كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: 57]، والآيات بنحوها كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ يعني أن ما نسبوه له جلَّ وعلا من اتخاذ الولد لا علم لهم به. لأنه مستحيل.

والآية تدل دلالة واضحة على أن نفي الفعل لا يدل على إمكانه. ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة: 57] لأن ظلمهم لربنا وحصول العلم لهم باتخاذه الولد – كل ذلك مستحيل عقلاً. فنفيه لا يدل على إمكانه. ومن هذا القبيل قول المنطقيين: السالبة لا تقضى وجود الموضوع، كما بيناه في غير هذا الموضع.

وما نفاه عنهم وعن آبائهم من العلم باتخاذه الولد سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً – بينه في مواضع أخر، كقوله: ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام: 100]، وقوله في آبائهم: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: 104] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ يعني أن ما قالوه بأفواههم من أن الله اتخذ ولداً امر كبير عظيم. كما بينا الآيات الدالة على عظمه آنفاً.

كقوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ [الإسراء : 40] ، وقوله : ﴿ تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً ﴾ [مريم : 90] الآية . وكفى بهذا كبراً وعظماً .

وقال بعض علماء العربية : إن قوله ﴿ كبرت كلمة ﴾ معناه التعجب . فهو بمعن ما أكبرها كلمة . أو أكبر بها كلمة .

والمقرر في علم النحو : أن " فعل " بالضم تصاغ لإنشاء الذم والمدح فتكون من باب نعم وبئس ، ونه قوله تعالى : ﴿ كبرت كلمة ﴾ الآية . وإلى هذا أشار في الخلاصة بقوله :

واجعل كبئس ساء واجعل فعلاً . . . من ذي ثلاثة كنعم مسجلا

وقوله " كنعم " أي اجعله من باب " نعم " فيشمل بئس . وإذا تقرر ذلك ففاعل " كبر " ضمير محذوف و ﴿ كلمة ﴾ نكرة مميزة للضمير المحذوف . على حد قوله في الخلاصة .

ويرفعان مضمراً يفسره . . . مميز كنعم قوماً معشره

والمخصوص بالذم محذوف ، والتقدير : كبرت هي كلمة خارجة من أفواههم تلك المقالة التي فاهوا بها ، وهي قولهم : اتخذ الله ولداً ، وأعرب بعضهم ﴿ كلمة ﴾ بأنها حال ، اي

كبت فريتهم في حال كونها كلمة خارجة من أفواههم. وليس بشيء.

وقال ابن كثير في تفسيره ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم، ولذا قال: ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾.

وهذا المعنى الذي ذكره ابن كثير له شواهد في القرآن. كقوله: ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: 167] ونحو ذلك من الآيات.

والكذب مخالفة الخبر للواقع على أصح الأقوال.

فائدة

لفظة "كبر" إذا أريد بها غير الكبر في السن فهي مضمومة الباء في الماضي والمضارع، كقوله هنا ﴿ كبرت كلمة ﴾ الآية. وقوله: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: 3]، وقوله: ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ [الإسراء: 51] ونحو ذلك.

وإن كان المراد بها الكبر في السن فهي مكسورة الباء في الماضي، مفتوحها في المضارع على القياس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ﴾ [النساء: 6

] ، وقول المجنون :

تعشقت ليلى وهي ذات ذاوئب . . . ولم يبد للعينين من ثديها حجم

صغيرين نرعى إليهم يا ليت أننا . . . إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر اليهم

وقوله في هذا البيت " صغيرين " شاهد عند أهل العربية في إتيان الحال من الفاعل والمفعول معاً .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ كبرت كلمة ﴾ يعني بالكلمة : الكلام الذي هو قولهم ﴿ اتخذ الله وَلَداً ﴾ [الكهف : 4] .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله يطلق اسم الكلمة على الكلام أوضحته آيات أخر . كقوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ [المؤمنون : 100] الآية ، والمراد بها قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ ارجعون لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون : 99-100] .

وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : 119]

وما جاء لفظ الكلمة في القرآن إلا مراداً به الكلام المفيد .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ عِوَجَا ﴾ [الكهف : 1] هو بكسر العين في المعاني كما في هذه الآية الكريمة . وبفتحها فيما كان منتصباً كالحائط .

قال الجوهري في صحاحه : قال ابن السكيت : وكل ما كان ينتصب كالحائط والعود قيل فيه " عوج " بالفتح . والعوج – بالكسر – ما كان في أرض أو دين أو معاش ، يقال في دينه

عوجاه.

وقرأ هذا الحرف حفص عن عاصم في الوصل ﴿ عوجا ﴾ بالسكت على الألف المبدلة من التنوين سكتة يسيرة من غير تنفس، إشعاراً بأن ﴿ قَيِّماً ﴾ [الكهف: 2] ليس متصلاًب ﴿ عوجا ﴾ في المعنى بل للإشارة إلى أنه منصوب بفعل مقدر، اي جعله قيماً كما قدمنا.

(150/468)

وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ مِّن لَّدُنْهُ ﴾ [الكهف: 2] بإسكان ادال مع إشمامها الضم وكسر النونوا الهاء ووصلها بياء في اللفظ.

وقوله: ﴿ وَيُبَشِّرَ المؤمنين الذين ﴾ [الكهف: 2] قرأه الجمهور بضم الياء وفتح الباء الموحدة وكسر الشين مشددة. وقرأه حمزة والكسائي "يبشر" بفتح الياء وإسكان الباء الموحدة وضم الشين.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) ﴾

اعلم أولاً – أن لفظة "لعل" تكون للترجي في المحبوب، وللإشفاق في المحذور. واستظهر أبو حيان في الحرا المحيط – أن "لعل" في قوله هنا ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ للإشفاق عليه

صلى الله عليه وسلم أن يبخع نفسه لعدم إيمانهم به .

وقال بعضهم : أن " لعل " في الآية للنهي . وممن قال به العسكري ، وهو معنى كلام ابن عطية كما نقله عنهما صاحب البحر المحيط .

وعلى هذا فالمعنى : لا تبخع نفسك لعدم إيمانهم . وقيل : هي في الآية للاستفهام المضمن معنى الإنكار . إتيان لعل للاستفهام مذهب كوفي معروف .

وأظهر هذه الأقوال عندي في معنى " لعل " أن المارد بها في الاية النهي عن الحزن عليهم .

فإطلاق لعل مضمة معنى النهي في مثل هذه الآية أسلوب عربي يدل عليه سياق الكلام .

ومن الأدلة على أن المراد بها النهي عن ذلك كثرة ورود النهي صريحاً عن ذلك . كقوله : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر : 8] ، وكقوله : ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الحجر : 88] ، وقوله : ﴿ فَلاَ تَأْسَ عَلَى القوم الكافرين ﴾ [المائدة : 68] إلى غير ذلك من الآيات وخيرما يفسر به القرآن القرآن .

والباخع : المهلك : أي مهلك نفسك من شدة الأسف على عدم إيمانهم ومنه قول ذي الرمة :

إلا أيهذا الباخع الوجد نفسه . . . لشيء نحته عن يديه المقادر

كما تقدم .

وقوله ﴿ على آثارهم ﴾ - قال القرطبي : آثارهم جمع أثر . ويقال إثر . والمعنى : على أثر توليهم وإعراضهم عنك .

وقال أبو حيان في البحر : ومعنى "على آثارهم" من بعدهم ، أب بعد يأسك من إيمانهم . أو بعد موتهم على الكفر . يقال : مات فلان على أثر فلان . أي بعده .

وقال الزمخشري : شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به ، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم برجل فارقته أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم ، وتلهفاً على فراقهم ! والأسف هنا : شدة الحزن . وقد يطلق الأسف على الغضب ! كقوله : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف : 55] .

فإذا حققت معنى هذه الآية الكريمة - فاعلم أن ما ذكره فيه جل وعلا من شدة حزن نبيه صلى الله عليه وسلم عليهم ، وعن نهيه له عن ذلك مبين في آيات أخر كثيرة ، كقوله : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر : 8] ، وكقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] ، وكقوله : ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : 88] ، وكقوله : ﴿ فَلاَ تَأْسَ عَلَى القوم الكافرين ﴾ [المائدة : 68] ، وكقوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ ﴾ [الأنعام : 33] ، وكقوله ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر : 97] كما قدمناه موضحاً .

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ أسفاً ﴾ مفعول من أجله، أي مهلك نفسك من أجل الأسف ويجوز إعرابه حالاً. اي في حال كونك آسفاً عليهم. على حد قوله في الخلاصة:

ومصدر منكر حالاً يقع... بكثرة كبغتة زيد طلع

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8) ﴾

(152/468)

قال الزمخشري في معنى هذه الآية الكريمة: "ما عليها" يعني ما على الأرض مما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها.

وقال بعض العلماء: كل ما على الأرض زينة لها من غر تخصيص. وعلى هذا القول - فوجه كل اليحات وغيرها مما يؤذي زينة للأرض. لأنه يدل على وجود خالقه، واتصافه بصفات الكمال والجلال، ووجود ما يحصل به هذا العلم في شيء زينة له.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان المذكورة فيه - أن يذكر لفظ عام ثم يصرحفي بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فه، كقوله تعالى: ﴿ ذلك وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ ﴾ [الحج: 32] الآية. مع تصريحه بأن البدن داخلة في هذا العموم

بقوله ﴿ والبدن جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللهِ ﴾ [الحج : 36] الآية .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا ﴾ قد صرح في مواضع أخر ببعض الأفراد الداخلة فيه ، كقوله تعالى : ﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 46] الآية ، وقوله : ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل : 8] الآية ، غلى غير ذلك من الآيات .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ صعيداً جرزاً ﴾ أي أرضاً بيضاء لا نبات بها . وقد قدمنا معنى " الصعيد " بشواهده العربية في سورة " المائدة " .

والجرز : الأرض التي لا نبات بها كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ المآء إِلَى الأرض الجرز فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : 27] ومنه قول ذي الرمة :

طوى النحز والأجراز ما في غروضها . . . وما بقيت إلا الضلوع الجرشع

لأن مراده " بالأجراز " الفيافي التي لا نبات فيهان والأجراز : جمع حرزة ، والجرزة : جمع جرز ، فهم جمع الجمع للجرز ، كما قاله الجوهري في صحاحه .

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا ﴾ من هذه الزينة صعيداً أو حرزاً ، أي مثل أرض بيضاء لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة في إزالة بهجته ، وإماطة حسنه ، وإبطال ما به – كان زينة من إماتة الحيوان ، وتجفيف النبات والأشجار اه .

وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبيناً في مواضع أخر ، كقوله : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السمآء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض مِمَّا يَأْكُلُ الناس والأنعام حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأمس كذلك نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : 24] ، وكقوله تعالى : ﴿ واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرياح وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ﴾ [الكهف : 45] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ أي لنختبرهم على ألسنة رسلنا .

وهذه الحكمة التي ذكرها هنا لجعل ما على الأرض زينة لها وهي الابتلاء في إحسان العلم – بين في مواضع أخر أنها هي الحكمة في خلق الموت والحياة والسموات والأرض ، قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الذي خَلَقَ الموت والحياة

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العزيز الغفور ﴾ [الملك : 1-2] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المآء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود : 7] .

(154/468)

وقد بين صلى الله عليه وسلم الإحسان بقوله : " إن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " كما تقدم .

وهذا الذي أوضحنا من أنه جل وعلا جعل ما على الأرض زينة لها ليبتلى خلقه ، ثم يهلك ما عليها ويجعله صعيداً جرزاً - فيه أكبر واعظ للناس ، وأعظم زاجر عن اتباع الهوى ، وإيثار الفاني على الباقي ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : " إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون . فاتقوا الدنيا ، اتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء " . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(155/468)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) ﴾

والإنذار هنا غير الإنذار الأول ، لقد كرّر الإنذار ليكون خاصاً بقمة المعاصي ، إنذار للذين قالوا اتخذ الله ولداً ، أما الإنذار الأول فهو لمطلق الكفر والمعصية ، وأما الثاني فهو لإعادة الخاص مع العام ، كأن لهؤلاء الذين نسبوا لله الولد عذاباً يناسب ما وقعوا فيه من جرأة على الحق سبحانه وتعالى .

وقد أوضح القرآن فظاعة هذه المعصية في قوله : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً * تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً * أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ [مريم : 88-92]

إنها قمة المعاصي أنْ نخوضَ في ذات الله تعالى بمقولة تتفطر لها السماء ، وتنشق لها الأرض ، وتنهدّ لهوْلها الجبال .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ . . . ﴾ .

فهذه القضية التي ادَّعَوْها ، وهذه المقولة التي كذبوها على الله من أين أَتَوْا بها ؟ الحقيقة أنهم ادعَوْها ولا علمَ لهم بها ، والعلم إما ذاتي ، وإما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وهم لا يملكون شيئاً من هذا ويقولون بأمر لا واقع له ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ . . ﴾ [الكهف : 5]

وعدم العلم ينشأ من أمرين : إما أن الشيءَ موجود وأنت لا تعلم به ؛ لأنه مستور عنك ، وإما لأن الشيء لا وجودَ له أصلاً ، وأنت لا تعلم أنه غير موجود ؛ لأن غير الموجود لا يمكن أن يتعلق به علم .

وقوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . . ﴾ [الكهف : 5]

﴿ كَبُرَتْ ﴾ أي : عَظُمَتْ وتناهتْ في الإثم ؛ لأنهم تناولوا مسألة فظيعة ، كَبُرَتْ أنْ تخرجَ هذه الكلمة من أفواههم .

(156/468)

﴿ كَلِمَةً ﴾ الكلمة قول مُفْرد ليس له نسبة كأن تقول : محمد أو ذهب أو في ، فالاسم والفعل والحرف كل منها كلمة مستقلة ، والكلمة تُطلَق ويُراد بها الكلام ، فالآية عَبَّرتْ عن قولهم : ﴿ اتخذ الله وَلَداً ﴾ [الكهف : 4] بأنها كلمة ، كما تقول : ألقى فلان كلمة . والواقع أنه ألقى خُطْبة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ رَبِّ ارجعون * لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ [المؤمنون : 99-100] فسمَّى قولهم هذا ﴿ كَلِمَةً ﴾ .

ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب تَعَالَوْاْ إلى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله . . ﴾ [آل عمران : 64]

فسمَّى كل هذا الكلام كلمة .

وقوله تعالى : ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . . ﴾ [الكهف : 5] أي : أن هذه الكلمة كَبُرت لأنها خرجت منهم وقالوها فعلاً ، ولو أنهم كتموها في نفوسهم ولم يجهروا بها واستعظموا أن تخرجَ منهم لكانوا في عداد المؤمنين ، بدليل أن وفد اليمن حينما أتوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله تدور بأنفسنا أفكار عن الله ، نتعاظم أن نقولها أي : لا نقدر على النطق بها فقال صلى الله عليه وسلم : " ذاك صريح الإيمان " .

إذن : المعيب عليهم أنهم أخرجوا هذه المسألة من أفواههم ، وهذا منتهى القُبْح ، فالأفكار والخواطر مهما بلغتْ من السوء وكتمها صاحبها لا يترتب عليها شيء ، وكأنها لم تكُنْ .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً . . ﴾ [الكهف : 5] أي : ما يقولون إلا كذباً ، والكذب ألاَّ يطابق الكلام واقع الأمر ، فالعاقل قبل أنْ يتكلم يُدير الكلام على ذِهْنه ويَعْرضه على تفكيره ، فتأتي النسبة في ذِهْنه وينطقها لسانه ، وهذه النسبة قبل أن يفكر

فيها وينطق بها لها واقع .

فمثلاً حين تقول : محمد مجتهد . قبل أن تنطق بها جال في خاطرك اجتهاد محمد ، وهذه تُسمّى نسبة ذِهْنية ، فإنْ قلتَ : محمد مجتهد أصبحتْ نسبة كلامية ، فإنْ وُجد شَخص اسمه محمد وهو مجتهد فعلاً ، فإن النسبة الذهنية الكلامية أصبحتْ نسبة واقعية ، والخبر بها خبر صادق .

فإنْ كانت النسبة الكلامية لا واقعَ لها كأنْ لا يوجد شخص اسمه محمد أو وُجِد ولكنه غير مجتهد ، فالخبر هنا كاذب . وهذا هو الأسلوب الخبري الذي يحتمل الصدق أو الكذب .

وهناك الأسلوب الإنشائي الذي لا يحتمل الصِّدْق ، ولا يحتمل الكذب ؛ لأن النسبة الواقعية فيه متأخرة عن النسبة الكلامية كما لو قُلْت : ذاكر دروسك . فواقع هذه العبارة سيحدث في المستقبل ؛ لذلك لا يُوصف الإنشاء بالصدق أو بالكذب .

والتدقيق العلمي يقول : الصدق الحقيقي أنْ تطابقَ النسبة الكلامية الواقع والاعتقاد ، فإن اعتقدتَ شيئاً ولم يحدث ، فالنسبة كاذبة وأنت غير كاذب ؛ لأن هناك فرقاً بين الخبر والمخْبِر .

وهذه المسألة واضحة في قوله تعالى : ﴿ إذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : 1]

فقولهم : إنك لرسول الله نسبة صادقة ؛ لأنها تطابق الواقع ، إنما هل وافقتْ معتقدهم ؟ لم توافق معتقدهم ؛ لذلك شهد الله أنهم كاذبون ؛ لأن كلامهم لم يوافق واقعهم الاعتقادي . أو : لأن التكذيب لم يرد به قولهم : إنك لرسول الله وإنما يُراد به قولهم : نشهد ، فالتكذيب للشهادة لأن الشهادة أنْ يُواطِئ القلب اللسان ، وهم شهدوا بألسنتهم ، ولم تؤمن به قلوبهم .

وهنا لَمّا قالوا ﴿ اتخذ الله وَلَداً ﴾ ، فهذه نسبة كلامية ليس لها واقع ، فهي نسبة كاذبة ، فقال تعالى : ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً . . ﴾ [الكهف : 5]

ثم يُسلِّي الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم لِيُخفِّف عنه ما يلاقي من متاعب وعناد وسَفَه في سبيل الدعوة فيقول تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ . . ﴾ .

ومعنى : ﴿ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ . . ﴾ [الكهف : 6] أي : تجهد نفسك في دعوة قومك إجهاداً يُهلكها ، وفي الآية إشفاق على رسول الله ؛ لأنه حَمّل نفسه في سبيل هداية قومه ما لا يحمله الله ويلزم ما لا يلزمه ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يدعو قومه فيُعرضوا ويتولَّوْا عنه فيُشيِّع آثارهم بالأسف والحزن ، كما يسافر عنك حبيب أو عزيز ، فتسير على أثره تملؤك مرارة الأسى والفراق ، فكأن رسول الله لحبه لقومه وحِرْصه على هدايتهم يكاد

يُهلك نفسه ﴿ أَسَفاً ﴾ .

والأسف : الحزن العميق ، ومنه قَوْلُ يعقوب عليه السلام : ﴿ يا أسفى عَلَى يُوسُفَ . . ﴾ [يوسف : 84] وقوله تعالى عن موسى لما رجع إلى قومه غاضباً من عبادتهم العجل : ﴿ فَرَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً . . ﴾ [طه : 86]

وقد حدّد الله تعالى مهمة الرسول وهي البلاغ ، وجعله بشيرا ونذيراً ، ولم يُكلّفه من أمر الدعوة ما لا يطيق ، ففي الآية مظهر من مظاهر رحمة الله برسوله صلى الله عليه وسلم ، فيقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا . . . ﴾ .

(159/468)

وكأن هذه الآية تعقيب على سابقتها ، وإشارة لرسول الله بأن الدنيا قصيرة ، فالمسألة إذن قريبة فلا داعيَ لأنْ يُهلِك نفسه حُزْناً على عناد قومه ، فالدنيا لكل إنسان مدة بقائه بها وعَيْشه فيها ، ولا دخلَ له بعمرها الحقيقي ؛ لأن حياة غيره لا تعود عليه بشيء ، وعلى هذا فما أقصرَ الدنيا ، وما أسرعَ انتهائها ، ثم يرجعون إلينا فنجازيهم بما عملوا ، فلا تحزن ولا تيأس ، ولا تكدّر نفسك ، لأنهم لم يؤمنوا .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا . . ﴾ [الكهف : 7] أي : كل ما

على الأرض هو زينة ، والزينة هي الزخرف الذي يبرق أمام الأعين فيغريها ، ثم يندثر ويتلاشى ، وقد أوضح لنا القرآن هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرياح . . ﴾ [الكهف : 45]

فإياك أنْ يأخذك هذا الزخرف ؛ لأنه زَهْر سرعان ما يذبل ويصير حُطاماً .

وقوله : ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ . . ﴾ [الكهف : 7] البلاء يعني : الاختبار والامتحان . وليس المصيبة كما يظن البعض ؛ لأن المصيبة تكون على مَنْ يخفق في الاختبار ، والابتلاء لهم من الله مع علمه تعالى بأمرهم وما سيحدث منهم مُسْبقاً ، ولكن لنعرف معرفة الواقع وشهادة الواقع .

وما أشبه هذه المسألة بالتلميذ الذي يتنبأ له أستاذه بالفشل لما يراه من مقدمات يعرفها عن عقليته وعن اجتهاده والتفاته يحكم من خلالها ، فإذا ما دخل التلميذ الاختبار فشل فيه وأخفق ، لكن هل يعني هذا أن نلغي الاختبارات في مدارسنا اعتماداً على خبرة المعلم بتلاميذه؟ لا بُدَّ من الاختبار ليقوم شاهداً واقعياً على مَنْ يخفق .

إذن معنى : ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ . . ﴾ [الكهف : 7] أي : بلاء شهادة منهم على أنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ .

الصعيد : هو طبقة التراب التي تظهر على وجه الأرض ، ولا نباتَ فيها و ﴿ جُرُزاً ﴾ هي الأرض الخالية من النبات ، وقد يكون بها نبات ، إلا أن الجراد أكله أو جاءته جائحة أهلكتْه ، يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ المآء إِلَى الأرض الجرز فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : 27]

وما دام الأمر كذلك والدنيا زُخْرف سرعان ما يزول ، فالأجل قريب ، فدَعْهم لي أختبرهم ، وأُجَازيهم بأعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(161/468)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق علي ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً ﴾ قال : أنزل الكتاب عدلاً قيماً ولم يجعل له عوجاً ملتبساً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿ أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ﴾ قال: هذا من التقديم والتأخير، أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً.

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله: ﴿ قيماً ﴾ قال: مستقيماً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿ لينذر بأساً شديداً ﴾ قال: عذاباً شديداً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ من لدنه ﴾ أي من عنده.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ﴾ يعني، الجنة. وفي قوله: ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ قال: هم اليهود والنصارى.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام والنضر بن الحارث وأمية بن خلف والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأبو البختري في نفر من قريش، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه وإنكارهم ما جاء به من النصيحة، فأحزنه حزناً شديداً . . . فأنزل الله ﴿ فلعلك باخع نفسك ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ فلعلك باخع نفسك ﴾ قال : قاتل نفسك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ فلعلك باخع نفسك ﴾ قال : قاتل نفسك .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ فلعلك باخع نفسك ﴾ قال : قاتل نفسك ﴿ إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ﴾ قال : القرآن : ﴿ أسفاً ﴾ قال : حزناً إن لم يؤمنوا .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ أسفاً ﴾ قال : جزعا .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ قال : حزناً عليهم ، نهى الله نبيه أن يأسف على الناس في ذنوبهم .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف ، عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله

: ﴿ فلعلك باخع نفسك ﴾ ما الباخع ؟ فقال : يقول : قاتل نفسك . قال فيه لبيد بن ربيعة :

لعلك يوماً ان فقدت مزارها . . . على بعده يوماً لنفسك باخع

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾ قال : ما عليها من شيء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾ قال : الرجال .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾ قال : الرجال .

وأخرج أبو نصر السجزي في الإبانة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾ قال : العلماء زينة الأرض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾ قال : هم الرجال العباد العمال لله بالطاعة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في التاريخ ، " عن ابن عمر قال : تلا رسول الله صلى الله علية وسلم هذه الآية ﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ فقلت : ما معنى ذلك يا رسول الله ؟ قال : " ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرعكم في طاعة الله " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ لنبلوهم ﴾ قال : لنختبرهم ﴿ أيهم أحسن عملاً ﴾ قال : أيهم أتم عقلاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ قال : أشدهم للدنيا تركا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان الثوري في قوله : ﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ قال : أزهدهم في الدنيا .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾ قال : يهلك كل شيء عليها ويبيد .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ صعيداً جرزاً ﴾ قال : الصعيد ، التراب . والجزر ، التي ليس فيها فروع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ جرزاً ﴾ قال : يعني بالجرز ، الخراب . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(164/468)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ مَّا لَهُمْ بِهِ ﴾ : أي : بالولدِ ، أو باتخاذه ، أو بالقولِ المدلولِ عليه ب " اتَّخذ " وب " قالوا " ، أو بالله .

وهذه الجملةُ المنفيةُ فيها ثلاثةُ أوجهٍ ، أظهرُها : أنها مستأنفةٌ سِيقَتْ للإِخبارِ بذلك . والثاني : أنها صفةٌ للولدِ ، قال المهدويُّ . وردَّه ابنُ عطيةَ : بأنه لا يَصِفُه بذلك إلا القائلون ، وهم لم يَقْصِدوا وَصْفَه بذلك . الثالث : أنها حالٌ مِنْ فاعلِ " قالوا " ، أي : قالوه جاهلين . و ﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ فاعلاً ، وأن يكون مبتدأ . والجارُّ هو الرافع ، أو الخبر . و " مِنْ " مزيدةٌ على كِلا القولين .

قوله : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ في فاعلِ " كَبُرَتْ " وجهان ، أحدُهما : أنه مضمرٌ عائدٌ على مقالِتهم المفهومة مِنْ قولِه : " قالوا : اتَّخذ الله " ، أي : كَبُرَ مقالُهم ، و " كلمةً " نصبٌ على

التمييز ، ومعنى الكلامِ على التعجب ، أي : ما أكبرَها كلمةً . و " تَخْرُجُ " الجملةُ صفةٌ ل " كلمة " . ودَلَّ استعظامُها لأنَّ بعضَ ما يَهْجِسُ بالخاطرِ لا يَجْسُرُ الإِنسانُ على إظهاره باللفظ .

والثاني : أن الفاعلَ مضمرٌ مفسَّرٌ بالنكرةِ بعد المنصوبةِ على التمييزِ ، ومعناها الذمُّ ك " بِئْس رجلاً " ، فعلى هذا : المخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ تقديره : كَبُرَتْ هي الكلمةُ كلمةً خارجةً مِنْ أفواهِهم تلك المقالةُ الشَّنْعاءُ .

وقرأ العامَّةُ " كلمةً " بالنصبِ ، وفيها وجهان : النصبُ على التمييز ، وقد تقدَّم تحقيقُه في الوجهين السابقين . والثاني : النصبُ على الحالِ . وليس بظاهر .

وقوله : " تَخْرُجُ " في الجملة وجهان ، أحدُهما : هي صفةٌ لكلمة . والثاني : أنها صفةٌ للمخصوصِ بالذمِّ المقدَّرِ تقديره : كَبُرَت كلمةٌ خارجةٌ كلمةً .

(165/468)

وقرأ الحسنُ وابنُ محيصن وابنُ يعمرَ وابن كثير - في رواية القَوَّاس عنه - كلمةٌ " بالرفع على الفاعلية ، " وتَخْرُجُ " صفةٌ لها أيضاً . وقُرِئَ " كَبْرَتْ " بسكون الباء وهي لغةُ تميم .

قوله : " كَذِباً " فيه وجهان ، أحدُهما : هو مفعول به لأنه يتضمَّنُ معنى جملة . والثاني : هو

نعتٌ مصدرٍ محذوفٍ، أي: قولاً كذباً .

قوله: ﴿ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ ﴾ : العامَّةُ على كسرِ "إنْ" على أنها شرطيةٌ، والجوابُ محذوفٌ عند الجمهور لدلالةِ قولِه: "فَلَعَلَّكَ"، وعند غيرِهم هو جوابٌ متقدمٌ . وقُرِئ: "أَنْ لم" بالفتح على حَذْفِ الجارِّ، أي: لأَنْ لم يؤمنوا" .

وقُرِئ "باخِعُ نَفْسِكَ" بالإِضافة، والأصل النصبُ . وقال الزمخشري: "وقُرِئ" باخع نفسك" على الأصل، وعلى الإِضافة . أي: قاتلها ومهلكها، وهو للاستقبال فيمَنْ قرأ "إنْ لم يُؤمنوا"، وللمضيِّ فيمن قرأ "أن لم تُؤْمنوا" بمعنى: لأَنْ لم يؤمنوا" . قلت: يعني أنَّ باخِعاً للاستقبال في قراءةِ كسرِ "إنْ" فإنها شرطيةٌ، وللمضيِّ في قراءةِ فتحها، وذلك لا يجئُ إلا في قراءةِ الإِضافةِ إذ لا يُتَصَوَّر المُضِيُّ مع النصبِ عند البصريين . وعلى هذا يَلْزم أن لا يَقرأ بالفتح إلا مَنْ قرأ بإضافةِ "باخع"، ويُحتاج في ذلك إلى نَقْلٍ وتوقيف .

ولعلَّك" قيل: للإِشفاق على بابها . وقيل: للاستفهام، وهو رأي الكوفيين . وقيل: للنهي أي: لا تَبْخَعْ .

والبَخْعُ: الإِهلاك . يقال: بَخَع الرجُل نفسه يَبْخَعُها بَخْعاً وبُخُوعاً، أهلكها وَجْداً . قال ذو الرمة:

3122- ألا أيُّهذا الباخعُ الوجدُ نفسَه . . . لِشَيْءٍ نَحَتْه عن يديه المَقادِرُ

يريد : نَحَّته بالتشديد ، فخفَّف . / قال الأصمعي : "كان يُنْشِده : " الوجدَ " بالنصب على المفعولِ له ، وأبو عبيدةَ رواه بالرفع على الفاعلية ب " الباخع " .

(166/468)

وقيل : البَخْعُ : أن تُضْعِفَ الأرضَ بالزراعة . قاله الكسائي : وقيل : هو جَهْدُ الأرضِ ، وفي حديثِ عائشةَ رضي الله عنها ، عن عمر : "بَخَعَ جَهْدُ الأرضِ " تعني جَهَدَها حتى أَخَذَ ما فيها من أموالِ ملوكِها ، وهذا استعارةٌ ، ولم يُفَسِّرْه الزمخشري : هنا بغيرِ القَتْلِ والإِهلاك . وقال في سورة الشعراء : " والبَخْعُ " . أن يَبْلُغَ بالذَّبحِ البِخاه بالباء ، وهو عِرْقٌ مستبطنُ الفقار ، وذلك أقصى حَدِّ الذابح " . انتهى . وسمعت شيخنا علاء الدين القُوْنِيّ يقول : " تتبَّعْتُ كُتبَ الطِّبِّ والتشريحِ فلم أجدْ لها أصلاً " . قلت : يُحتمل أنهم لَمَّا ذكروه سَمَّوْه باسمٍ آخرَ لكونِه أشهرَ فيما بينهم .

وقال الراغب : " البَخْعُ : قَتْلُ النفسِ غَمَّاً " . ثم قال : " وبَخَعَ فلانٌ بالطاعةِ ، وبما عليه من الحقِّ : إذا أَقَرَّ به وأَذْعَنَ مع كراهةٍ شديدةٍ ، تجري مَجْرَى بَخْعِ نفسِه في شِدَّته " .

وقوله : " على آثارِهم " متعلقٌ ب " باخعٌ " ، أي : مِنْ بعد هلاكِهم .

قوله : أَسَفَاً " يجوز أن يكونَ مفعولاً من أجله والعامل فيه " باخعٌ " ، وأن يكونَ مصدرا ًفي

موضعِ الحالِ من الضميرِ في " باخعٌ " .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) ﴾

قوله تعالى : ﴿ زِينَةً ﴾ : يجوز أَنْ ينتصِبَ على المفعولِ له ، وأن ينتصِبَ على الحالِ إنْ جعلْتَ " جَعَلْنا " بمعنى خَلَقْنا ، ويجوز ان يكونَ مفعولاً ثانياً إنْ كانَتْ " جَعَلَ " تصييريةً و " لها " متعلِّقٌ ب " زِيْنةً " على العلةِ ، ويجوز أَنْ تكونَ اللامُ زائدةً في المفعول ، ويجوز أنْ تتعلَّقَ بمحذوفٍ صفةً ل " زينة " .

قوله : " لِنَبْلُوَهُمْ " متعلِّقٌ ب " جَعَلْنا " بمعنييه .

(167/468)

قوله : " أيُّهم أحسنُ " يجوز في " أيُّهم " وجهان ، أحدهما : أن تكونَ استفهاميةً مرفوعةً بالابتداء ، و " أحسنُ " خبرُها . والجملةُ في محلِّ نصبٍ معلِّقةً ل " نَبْلُوَهم " لأنه سببُ العلم كالسؤال والنظر . والثاني : أنها موصولةٌ بمعنى الذي " وأحسنُ " خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، والجملةُ صلةٌ ل " أيُّهم " ، ويكون هذا الموصولُ في محلِّ نصب بدلاً مِنْ مفعول " لنبلوَهم " تقديرُه : لِنَبْلُوَ الذي هو أحسنُ . وحينئذٍ تحتمل الضمةُ في " أيُّهم " ، ان تكونَ للبناء كهي في قولِه تعالى : ﴿ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ ﴾ [مريم : 69] على أحدِ الأقوالِ ، وفي

قوله :

3123- إذا ما أَتَيْتَ بني مالكٍ . . . فَسَلِّمْ على أَيُّهم أَفْضَلُ

وشرطُ البناءِ موجودٌ ، وهو الإِضافة لفظاً ، وحَذْفُ صدرِ الصلةِ ، وهذا مذهبُ سيبويه ، وأن تكونَ للإِعراب لأنَّ البناءَ جائزٌ لا واجبٌ . ومن الإِعراب ما قُرِئ به شاذاً ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن ﴾ [مريم : 69] وسيأتي إنْ شاء الله تحقيقُ هذا في مريم .

والضمير في " لِنَبْلُوهم " و " أيُّهم " عائدٌ على ما يُفْهَمُ من السِّياق ، وهم سكانُ الأرض . وقيل : يعودُ على ما على الأرض إذا أُريد بها العقلاء . وفي التفسير : المرادُ بذلك الرُّعاة : وقيل : العلماءُ والصُّلحاءُ والخُلفاء .

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8) ﴾

قوله تعالى : ﴿ صَعِيداً ﴾ : مفعولٌ ثانٍ ، لأنَّ الجَعْلَ هنا تصييرٌ ليس إلا ، والصَّعِيْدُ . الترابُ : والجُرُزُ : الذي لا نباتَ به . يقال : سَنَةٌ جُرُز ، وسِنُونَ أَجْرازٌ : لا مطرَ فيها . وأرض جُرُزٌ وأَرَضُونَ أَجْرازٌ : لا نبات بها . وجَرَزَتِ الأرضُ : إذا ذَهَبَ نباتُها بقَحْطٍ أو جرادٍ وجَرَزَ الأرضَ الجرادُ : أَكَلَ ما فيها . والجَرُوْزُ : المَرْأَةُ الأَكولةُ : قال :

3124- إنَّ العَجوزَ خَبَّةً جَرُوزا . . . تأكلُ كلَّ ليلةٍ قَفيزا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 439.445 ﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) ﴾

قالتُهم القبيحة نتيجة جُهْلِهم بوحدانيةِ الله ، ولقد توارثوا ذلك الجهلَ عن أسلافهم ؛ والحيَّةُ لا تَلِدُ حَيَّةَ !

كَبُرتْ كلمتُهم في الإثم لَمَّا خَصَّت في المعنى . ومَنْ نطق بما لم يحصل له به إذنٌ لَحِقَه هذا الوصف . ومَنْ تكلَّمَ في هذا الشأن قبل أوانه فقد دخل في غمار هؤلاء .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) ﴾

مِنْ فَرْطِ شفقته – صلى الله عليه وسلم – داخَلَه الحزنُ لامتناعهم عن الإيمان ، فهوَّن الله – سبحانه – عليه الحالَ ، بما يشبه العتابَ في الظاهر ؛ كأنه قال له : لِمَ كل هذا ؟ ليس في امتناعهم – في عَدِنا – أثر ، ولا في الدِّين من ذلك ضرر . فلا عليكَ من ذلك .

ويقال أشهده جريانَ التقدير ، وعرَّفَه أنه – وإنْ كان كُفْرِهم منْهِيًّا عنه في الشرع – فهو في الحقيقة مُرادُ الحق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ .

ما على الأرض زينة لها تُدْرَكُ بالأبصار ، ومن على الأرض من هو زينة لها يُعْرَفُ بالأسرار .

وإنَّ قيمةَ الأوطانِ لقُطَّانها ، وزينة المساكن في سُكَّانها .

ويقال العُبَّاد بهم زينة الدنيا ، وأهلُ المعرفة بهم زينة الجنة .

ويقال الأولياءُ زينةُ الأرض وهم أمانُ مَنْ في الأرض .

ويقال إذا تلألأت أنوار التوحيد في أسرار المرحدين أشرقت جميع الآفاق بضيائهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ .

أحسنهم عملاً أصدقهم نِيَّة ، وأخلصهم طوية .

(169/468)

ويقال أحسنهم عملاً أكثرهم احتساباً ؛ إذ لا ثوابَ لمن لا حسبة له ، أعلى من هذا بل وأَوْلى من هذا فأحسنهم عملاً أشدُّهم استصغاراً لفعله ، وأكثرهم استحقاراً لطاعته ؛ لشجة رؤيته لتقصير فيما يعمله ، ولانتقاصه أفعاله في جنب ما يستوجبه الحقُّ بحقِ أمره .

ويقال أحسنُ أعمال المرءِ نَظَرُه إلى أعماله بعين الاستحقار والاستصغار ، لقول الشاعر :

وأكبرهُ من فِعْله وأعظمُه . . . تصغيرُه فِعْلَه الذي فَعَلَه .

معناه : أكبرُ مِنْ فعلِه – الذي هو عطاؤه وبَذْلُه – تقليلُه واستصغارُه لِمَا يُعْطِيه ويجود به .

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8) ﴾

كَوْنُ ما على الأرض زينة لها في الحال سُلِب قَدْرُه بما أخبر أنه سيُفْنِيه في المآل. انتهى

انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 377. 378﴾

(170/468)

قوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان هذا من العجائب التي تضاءل عندها العجائب، والغرائب التي تخضع لديها الغرائب، وإن صارت مألوفة بكثرة التكرار، والتجلي على الأبصار، هذا إلى ما له من الآيات التي تزيد على العد، ولا يحصر بحد، من خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب - وغير ذلك، حقر آية أصحاب الكهف - وإن كانت من أعجب العجب - لاضمحلالها في جنب ذلك، لأن الشيء إذا

كان كذلك كثر ألفه فلم يعد عجباً ، فنبه على ذلك بقوله تعالى عطفاً على ما تقديره : أعلمت أن هذا وغيره من عجائب قدرتنا ؟ : ﴿ أم حسبت ﴾ على ما لك من العقل الرزين والرأي الرصين ﴿ أن أصحاب الكهف ﴾ أي الغار الواسع المنقور في الجبل كالبيت ﴿ والرقيم ﴾ أي القرية أو الجبل ﴿ كانوا ﴾ هم فقط ﴿ من ءاياتنا عجباً ﴾ على ما لزم من تهويل السائلين من الكفرة من اليهود والعرب ، والواقع أنهم – وإن كانوا من العجائب – ليسوا بعجب بالنسبة إلى كثرة آياتنا ، وبالنسبة إلى هذا العجب النباتي الذي أعرضتم عنه بإلفكم له من كثرة تكرره فيكم ، فإنه سبحانه أخرج نبات الأرض على تباين أجناسه ، واختلاف ألوانه وأنواعه ، وتضاد طبائعه ، من مادة واحدة ، يهتز بالينبوع ، يبهج الناظرين ويروق المتأملين ، ثم يوقفه ثم يرده باليبس والتفرق إلى التراب فيختلط به حتى لا يميزه عن بقية التراب ، ثم يرسل الماء فيختلط بالتراب فيجمعه أخضر يانعاً يهتز بالنمو على أحسن ما كان ، وهكذا كل سنة ، فهذا بلا شك أعجب حالاً ممن حفظت أجسامهم مدة عن التغير ثم ردت أرواحهم فيها ، وقد كان في سالف الدهر يعمر بعض الناس أكثر من مقدار ما لبثوا ، وهذا الكهف – قيل : هو في جبال بمدينة طرسوس وهو المشهور ، وقال أبو حيان : قيل : هو في الروم ، وقيل : في الشام ، وقيل : في الأندلس ، قال : في جهة غرناطة بقرب قرية تسمى لوشة كهف فيه موتى ومعهم كلب رمة ، وأكثرهم قد انجرد لحمه ، وبعضهم متماسك وقد مضت القرون

السالفة ولم نجد من عرف شأنهم ، ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف ، ونقل عن ابن عطية قال : دخلت إليهم سنة أربع وخمسمائة فرأيتهم بهذه الحالة وعليهم مسجد وقريب منهم بناء رومي يسمى الرقيم ، وهو في فلاة من الأرض ، وبأعلى حضرة غرناطة مما يلي القبلة آثار مدينة قديمة يقال لها مدينة دقيوس ، ونقل أبو حيان عن أبيه أنه حين كان بالأندلس كان الناس يزورون هذا الكهف ويذكرون أنهم يغلطون في عدتهم إذا عدوهم وأن معهم كلباً ، قال : وأما ما ذكرت من مدينة دقيوس التي بقبلي غرناطة ، فقد مررت عليها مراراً لا تحصى ، قال : ويترجح كون أصحاب الكهف بالأندلس – انتهى ملخصاً .

قلت : وفيه نظر ، والذي يرجح المشهور ما نقل البغوي وغيره عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال : غزونا مع معاوية بحر الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف فإن معاوية لم يصل إلى بلاد الأندلس والله أعلم .

ولما صغر أمرهم بالنسبة إلى جليل آياته وعظيم بيناته وغريب مصنوعاته ، لخص قصتهم التي عدوها عجباً وتركوا الاستبصار على وحدانية الواحد القهار بما هو العجب العجيب ، والنبأ الغريب ، فقال تعالى : ﴿ إذ أوى ﴾ أي كانوا على هذه الصفة حين أووا ، ولكنه أبرز الضمير لبيان أنهم شبان ليسوا بكثيري العدد فليست لهم أسنان استفادوا بها من التجارب والتعلم ما اهتدوا إليه من الدين والدنيا ، ولا كثرة حفظوا بها ممن يؤذيهم أيقاظاً ورقوداً فقال تعالى : ﴿ الفتية ﴾ وهو أصحاب الكهف المسؤول عنهم ، والشبان أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ ﴿ إلى الكهف ﴾ المقارب لقريتهم المشهور ببلدتهم فراراً بدينهم كما أويت أنت والصديق إلى غار ثور فراراً بدينكما ﴿ فقالوا ﴾ عقب استقرارهم فيه : ﴿ ربنا ءاتنا ﴾ ولما كانت الموجودات - كما مضى عن الحرالي في آل عمران - على ثلاث رتب : حكميات جارية على قوانين العادات ، وعنديات خارقة للمطردات ولدنيات مستغرقة في الأمور الخارقات ، طلبوا أعلاها فقالوا : ﴿ من لدنك ﴾ أي من مستبطن الأمور التي عندك ومستغربها ﴿ رحمة ﴾ أي إكراماً تكرمنا به كما يفعل الراحم بالمرحوم ﴿ وهيىء لنا ﴾ أي جميعاً لا تخيب منا أحداً ﴿ من أمرنا رشداً ﴾ أي وجهاً ترشدنا فيه إلى الخلاص في الدارين ، لا جرم صارت قصتهم على حسب ما أجابهم ربهم بديعة الشأن فردة في الزمان ، يتحدث بها في سائر البلدان ، في كل حين وأوان .

ولما أجابهم سبحانه ، عبر عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ فضربنا ﴾ أي عقب هذا القول

وسببه ﴿ على ءاذانهم ﴾ أي سددناها وأمسكناها عن السمع ، وكان أصله ؛ ضربنا عليها حجاباً بنوم ثقيل لا تزعج منه الأصوات ، لأن من كان مستيقظاً أو نائماً نوماً خفيفاً وسمعه صحيح سمع الأصوات ﴿ في الكهف ﴾ أي المعهود .

(173/468)

ولما كانت مدة لبثهم نكرة بما كان لأهل ذلك الزمان من الشرك ، عبر بما يدل على النكرة فقال تعالى : ﴿ سنين ﴾ : ولما كان ربما ظن أنه ذكر السنين للمبالغة لأجل بعد هذا النوم عن العادة ، حقق الأمر بأن قال مبدلاً منها معرفاً لأن المراد بجمع القلة هنا الكثرة :

﴿ عدداً ﴾ أي متكاثرة ؛ قال الزجاج كل شيء مما يعد إذا ذكر فيه العدد ووصف أريد كثرته لأنه إذا قل فهم مقدار عدده بدون التقدير فلم يحتج إلى أن يعد .

﴿ ثم بعثناهم ﴾ أي نبهناهم من ذلك النوم ﴿ لنعلم ﴾ علماً مشاهداً لغيرنا كما كنا نعلم غيباً ما جهله من يسأل فيقول : ﴿ أي الحزبين ﴾ هم أو من عثر عليهم من أهل زمانهم ﴿ أحصى ﴾ أي حسب وضبط ﴿ لما ﴾ أي لأجل علم ما ﴿ لبثوا أمداً ﴾ أي وقع إحصاءه لمدة لبثهم فإنهم هم أحصوا لبثهم فقالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، ثم تبرؤوا من علم ذلك وردوه إلى عالمه وأهل البلد ، أحصوا ذلك بضرب النقد الذي وجد معهم أو غير ذلك

من القرائن التي دلتهم عليه ، ولكنهم وإن صادق قولهم ما في نفس الأمر أو قريباً منه فعلى سبيل الظن والتقريب ، لا القطع والتحديد ، بقوله تعالى

﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ [الكهف : 26] فإذا علم بجهل كل من الحزبين بأمرهم أن الله هو المختص بعلم ذلك ، علم أنه المحيط بصفات الكمال ، وأنه لم يتخذ ولداً ، ولا له شريك في الملك ، وأنه أكبر من كل ما يقع في الوهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 449.447 ﴾

(174/468)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان فقال تعالى : أم حسبت أنهم كانوا عجباً من آياتنا فقط ، فلا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها

عجب ، فإن من كان قادراً على تخليق السموات والأرض ثم يزين الأرض بأنواع المعادن والنبات والحيوان ثم يجعلها بعد ذلك صعيداً جرزاً خالية عن الكل كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلاثمائة سنة وأكثر في النوم ، هذا هو الوجه في تقرير النظم ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

(175/468)

قد ذكرنا سبب نزول قصة أصحاب الكهف عند قوله : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبّى ﴾ [الإسراء : 85] وذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه القصة مشروحاً فقال كان النضر بن الحارث من شياطين قريش وكان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس مجلساً ذكر فيه الله وحدث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم ، وكان النضر يخلفه في مجلسه إذا قام ، فقال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلموا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ، ثم إن قريشاً بعثوه وبعثوا معه عتبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة

وقالوا لهما سلوهم عن محمد وصفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى قدما إلى المدينة فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد فقال أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث : عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإن حديثهم عجب ، وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح وما هو ؟ فإن أخبركم فهو نبي وإلا فهو متقول ، فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا : قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمد ، وأخبروا بما قاله اليهود فجاؤوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أخبركم بما سألتم عنه غداً " ولم يستثن ، فانصرفوا عنه ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمس عشرة ليلة حتى أرجف أهل مكة به ، وقالوا : وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة فشق عليه ذلك ، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف وفيها معاتبة الله إياه على حزنه عليهم ، وفيها خبر أولئك الفتية ، وخبر الرجل الطواف .

المسألة الثالثة :

الكهف الغار الواسع في الجبل فإذا صغر فهو الغار ، وفي الرقيم أقوال .

الأول : روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال : كل القرآن اعلمه إلا أربعة غسلين وحنانا والأواه والرقيم .

الثاني : روى عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن الرقيم فقال زعم كعب أنها القرية التي خرجوا منها وهو قول السدي .

الثالث : قال سعيد بن جبير ومجاهد : الرقيم لوح من حجارة وقيل من رصاص كتب فيه أسماؤهم وقصتهم وشد ذلك اللوح على باب الكهف ، وهذا قول جميع أهل المعاني والعربية قالوا الرقيم الكتاب ، والأصل فيه المرقوم ، ثم نقل إلى فعيل ، والرقم الكتابة ، ومنه قوله تعالى :

﴿كتاب مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين : 9] أي مكتوب ، قال الفراء : الرقيم لوح كان فيه أسماؤهم وصفاتهم ، ونظن أنه إنما سمي رقيماً لأن أسماءهم كانت مرقومة فيه ، وقيل الناس رقموا حديثهم نقراً في جانب الجبل ، وقوله : ﴿كَانُواْ مِنْ ءاياتنا عَجَبًا﴾ المراد أحسبت أن واقعتهم كانت عجيبة في أحوال مخلوقاتنا فلا تحسب ذلك فإن تلك الواقعة ليست عجيبة

في جانب مخلوقاتنا ، والعجب ههنا مصدر سمي المفعول به ، والتقدير كانوا معجوباً منهم ، فسموا بالمصدر والمفعول به من هذا يستعمل باسم المصدر ، ثم قال تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الفتية إِلَى الكهف ﴾ لا يجوز أن يكون إذ هنا متعلقاً بما قبله على تقدير أم حسبت إذ أوى الفتية لأنه كان بين النبي وبينهم مدة طويلة فلم يتعلق الحسبان بذلك الوقت الذي أووا فيه إلى الكهف بل يتعلق بمحذوف ، والتقدير اذكر إذ أوى ، ومعنى أوى الفتية في الكهف صاروا إليه وجعلوه مأواهم قال فقالوا : ﴿ رَبَّنَا ءاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ أي رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وإحسانك وهي الهداية بالمعرفة والصبر والرزق والأمن من الأعداء وقوله ﴿ من لدنك ﴾ يدل على عظمة تلك الرحمة وهي التي تكون لائقة بفضل الله تعالى وواسع جوده ﴿ وهيىء لنا ﴾ أي أصلح من قولك هيأت الأمر فتهيأ : ﴿ مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ الرشد والرشاد نقيض الضلال وفي تفسير اللفظ وجهان .

الأول : التقدير وهيىء لنا أمراً ذا رشد حتى نكون بسببه راشدين مهتدين .

الثاني : اجعل أمرنا رشداً كله كقولك رأيت منك رشداً ثم قال تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا على ءاذَانِهِمْ ﴾ قال المفسرون : معناه أنمناهم وتقدير الكلام أنه تعالى ضرب على آذانهم

حجاباً يمنع من أن تصل إلى أسماعهم الأصوات الموقظة والتقدير ضربنا عليهم حجاباً إلا أنه حذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبة ثم إنه تعالى بين أنه ضرب على آذانهم في الكهف وهو ظرف المكان وقوله ﴿ سنين عدداً ﴾ ظرف الزمان وفي قوله ﴿ عدداً ﴾ بحثان.

الأول: قال الزجاج ذكر العدد ههنا يفيد كثرة السنين وكذلك كل شيء مما يعد إذا ذكر فيه العدد ووصف به أريد كثرته لأنه إذا قل فهم مقداره بدون التعديد أما إذا أكثر فهناك يحتاج إلى التعديد فإذا قلت أقمت أياماً عدداً أردت به الكثرة.

البحث الثاني: في انتصاب قوله عدداً وجهان.

أحدهما: نعت لسنين المعنى سنين ذات عدد أي معدودة هذا قول الفراء وقول الزجاج وعلى هذا يجوز في الآية ضربان من التقدير، أحدهما: حذف المضاف.

والثاني: تسمية المفعول باسم المصدر.

قال الزجاج: ويجوز أن ينتصب على المصدر، المعنى تعد عداً ثم قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بعثناهم ﴾ يريد من بعد نومهم يعني أيقظناهم بعد نومهم وقوله: ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى:

قوله: ﴿ ثُمَّ بعثناهم لِنَعْلَم ﴾ اللام لام الغرض فيدل على أن أفعال الله معللة بالأغراض وقد

سبق الكلام فيه .

المسألة الثانية :

(179/468)

ظاهر اللفظ يقتضي أنه تعالى إنما بعثهم ليحصل له هذا العلم وعند هذا يرجع إلى أنه تعالى هل يعلم الحوادث قبل وقوعها أم لا ، فقال هشام : لا يعلمها إلا عند حدوثها واحتج بهذه الآية والكلام فيه قد سبق ، ونظائر هذه الآية كثيرة في القرآن منها ما سبق في هذه السورة ومنها قوله في سورة البقرة : ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرسول مِمَّن يَنقَلِبُ على عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة : 143] وفي آل عمران ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جاهدوا مِنكُمْ ﴾ [آل عمران : 142] وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ ﴾ [الكهف : 7] وقوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ ﴾ [محمد : 31] .

المسألة الثالثة :

﴿ أَيُّ ﴾ رفع بالابتداء و ﴿ أحصى ﴾ خبره وهذه الجملة بمجموعها متعلق العلم فلهذا السبب لم يظهر عمل قوله : ﴿ لَنَعْلَمَ ﴾ في لفظة ﴿ أَيُّ ﴾ بل بقيت على ارتفاعها ونظيره قوله : اذهب فاعلم أيهم قام قال تعالى : ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بذلك زَعِيمٌ ﴾ [القلم : 40] وقوله

: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ﴾ [مريم : 69] وقرىء ليعلم على فعل ما لم يسم فاعله وفي هذه القراءة فائدتان .

إحداهما : أن على هذا التقدير لا يلزم إثبات العلم المتجدد لله بل المقصود أنا بعثناهم ليحصل هذا العلم لبعض الخلق .

والثانية : أن على هذا التقدير يجب ظهور النصب في لفظة أي ، لكن لقائل أن يقول : الإشكال بعد باق لأن ارتفاع لفظة أي بالإبتداء لا بإسناد يعلم إليه .

ولمجيب أن يجيب فيقول : إنه لا يمتنع اجتماع عاملين على معمول واحد لأن العوامل النحوية علامات ومعرفات ولا يمتنع اجتماع المعرفات الكثيرة على الشيء الواحد ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

اختلفوا في الحزبين فقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما : المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكاً بعد ملك ، فالملوك حزب وأصحاب الكهف حزب .

والقول الثاني : قال مجاهد : الحزبان من هذه الفتية لأن أصحاب الكهف لما انتبهوا اختلفوا في أنهم كم ناموا والدليل عليه قوله تعالى :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف : 19] فالحزبان هما هذان ، وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول .

القول الثالث : قال الفراء : إن طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم .

المسألة الخامسة :

قال أبو علي الفارسي قوله ﴿ أحصى ﴾ ليس من باب أفعل التفضيل لأن هذا البناء من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس فأما قولهم ما أعطاه للدرهم وما أولاه للمعروف وأعدى من الجرب وأفلس من ابن المدلق ، فمن الشواذ والشاذ لا يقاس عليه بل الصواب أن أحصى فعل ماض وهو خبر المبتدأ والمبتدأ والخبر مفعول نعلم وأمداً مفعول به لأحصى وما في قوله تعالى : ﴿ لِمَا لَبِثُوا ﴾ مصدرية والتقدير أحصى أمداً للبثهم ، وحاصل الكلام لنعلم أي الحزبين أحصى أمد ذلك اللبث ، ونظيره قوله : ﴿ أحصاه الله ﴾ [المجادلة : 6] وقوله : ﴿ وأحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ [الجن : 28] .

المسألة السادسة :

احتج أصحابنا الصوفية بهذه الآية على صحة القول بالكرامات وهو استدلال ظاهر ونذكر هذه المسألة ههنا على سبيل الاستقصاء فنقول قبل الخوض في الدليل على جواز

الكرامات نفتقر إلى تقديم مقدمتين :

المقدمة الأولى : في بيان أن الولي ما هو فنقول ههنا وجهان ، الأول : أن يكون فعيلاً مبالغة من الفاعل كالعليم والقدير فيكون معناه من توالت طاعاته من غير تخلل معصية .

الثاني : أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول كقتيل وجريح بمعنى مقتول ومجروح .

(181/468)

وهو الذي يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته على التوالي عن كل أنواع المعاصي ويديم توفيقه على الطاعات واعلم أن هذا الاسم مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الذين ءامَنُواْ ﴾ [البقرة : 257] وقوله : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصالحين ﴾ [الأعراف : 196] وقوله تعالى : ﴿ أَنتَ مولانا فانصرنا عَلَى القوم الكافرين ﴾ [البقرة : 286] وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الذين ءامَنُواْ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ﴾ [محمد : 11] وقوله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [المائدة : 55] وأقول الولي هو القريب في اللغة فإذا كان العبد قريباً من حضرة الله بسبب كثرة طاعاته وكثرة إخلاصه وكان الرب قريباً منه برحمته وفضله وإحسانه فهناك حصلت الولاية .

المقدمة الثانية : إذا ظهر فعل خارق للعادة على الإنسان فذاك إما أن يكون مقروناً

بالدعوى أو لا مع الدعوى والقسم الأول وهو أن يكون مع الدعوى فتلك الدعوى إما أن تكون دعوى الإلهية أو دعوى النبوة أو دعوى الولاية أو دعوى السحر وطاعة الشياطين ، فهذه أربعة أقسام .

القسم الأول : إدعاء الإلهية وجوز أصحابنا ظهور خوارق العادات على يده من غير معارضة كما نقل ، أن فرعون كان يدعي الإلهية وكانت تظهر خوارق العادات على يده وكما نقل ذلك أيضاً في حق الدجال .

قال أصحابنا : وإنما جاز ذلك لأن شكله وخلقته تدل على كذبه فظهور الخوارق على يده لا يفضي إلى التلبيس .

والقسم الثاني : وهو ادعاء النبوة فهذا القسم على قسمين لأنه إما أن يكون ذلك المدعي صادقاً أو كاذباً فإن كان صادقاً وجب ظهور الخوارق على يده وهذا متفق عليه بين كل من أقر بصحة نبوة الأنبياء ، وإن كان كاذباً لم يجز ظهور الخوارق على يده وبتقدير أن تظهر وجب حصول المعارضة .

وأما القسم الثالث : وهو ادعاء الولاية والقائلون بكرامات الأولياء اختلفوا في أنه هل يجوز أن يدعي الكرامات ثم إنها تحصل على وفق دعواه أم لا .

وأما القسم الرابع : وهو ادعاء السحر وطاعة الشيطان فعند أصحابنا يجوز ظهور خوارق العادات على يده وعند المعتزلة لا يجوز .

وأما القسم الثاني : وهو أن تظهر خوارق العادات على يد إنسان من غير شيء من الدعاوى ، فذلك الإنسان إما أن يكون صالحاً مرضياً عند الله ، وإما أن يكون خبيثاً مذنباً .

والأول هو القول بكرامات الأولياء ، وقد اتفق أصحابنا على جوازه وأنكرها المعتزلة إلا أبا الحسين البصري وصاحبه محمود الخوارزمي .

وأما القسم الثالث : وهو أن تظهر خوارق العادات على بعض من كان مردوداً عن طاعة الله تعالى فهذا هو المسمى بالاستدراج فهذا تفصيل الكلام في هاتين المقدمتين ، إذا عرفت ذلك فنقول : الذي يدل على جواز كرامات الأولياء القرآن والأخبار والآثار والمعقول .

أما القرآن فالمعتمد فيه عندنا آيات :

الحجة الأولى : قصة مريم عليها السلام ، وقد شرحناها في سورة آل عمران فلا نعيدها .

الحجة الثانية : قصة أصحاب الكهف وبقاؤهم في النوم أحياء سالمين عن الآفات مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين وأنه تعالى كان يعصمهم من حر الشمس كما قال : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف : 18] إلى قوله : ﴿ وَتَرَى الشمس إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن

كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليمين ﴾ [الكهف : 17] ومن الناس من تمسك في هذه المسألة بقوله تعالى :
﴿ قَالَ الذى عِندَهُ عِلْمٌ مّنَ الكتاب أَنَاْ ءاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : 39] وقد بينا أن ذلك الذي كان عنده علم من الكتاب هو سليمان فسقط هذا الاستدلال .

(183/468)

أجاب القاضي عنه بأن قال : لا بد من أن يكون فيهم أو في ذلك الزمان نبي يصير ذلك علماً له لما فيه من نقض العادة كسائر المعجزات ، قلنا : إنه يستحيل أن تكون هذه الواقعة معجزة لأحد من الأنبياء لأن إقدامهم على النوم أمر غير خارق للعادة حتى يجعل ذلك معجزة لأن الناس لا يصدقونه في هذه الواقعة لأنهم لا يعرفون كونهم صادقين في هذه الدعوى إلا إذا بقوا طول هذه المدة وعرفوا أن هؤلاء الذين جاؤوا في هذا الوقت هم الذين ناموا قبل ذلك بثلثمائة سنين وتسع سنين وكل هذه الشرائط لم توجد فامتنع جعل هذه الواقعة معجزة لأحد من الأنبياء فلم يبق إلا أن تجعل كرامة للأولياء وإحساناً إليهم .

أما الأخبار فكثيرة : الخبر الأول : ما أخرج في "الصحيحين" عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم عليه السلام وصبي في زمن جريج الناسك وصبي آخر ، أما عيسى فقد عرفتموه ، وأما جريج فكان

رجلاً عابداً ببني إسرائيل وكانت له أم فكان يوماً يصلي إذ اشتاقت إليه أمه فقالت : يا جريج فقال يا رب الصلاة خير أم رؤيتها ثم صلى فدعته ثانياً فقال مثل ذلك حتى قال ثلاث مرات وكان يصلي ويدعها فاشتد ذلك على أمه قالت : اللهم لا تمته حتى تريه المومسات ، وكانت زانية هناك فقالت لهم : أنا أفتن جريجاً حتى يزني فأتته فلم تقدر على شيء ، وكان هناك راعٍ يأوي بالليل إلى أصل صومعته قلما أعياها راودت الراعي على نفسها فأتاها فولدت ثم قالت ولدي هذا من جريج فأتاها بنو إسرائيل وكسروا صومعته وشتموه فصلى ودعا ثم نخس الغلام قال أبو هريرة : كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم حين قال بيده يا غلام من أبوك ؟ فقال : الراعي فندم القوم على ما كان منهم واعتذروا إليه .

وقالوا : نبني صومعتك من ذهب أو فضة فأبى عليهم ، وبناها كما كانت ، وأما الصبي الآخر فإن امرأة كان معها صبي لها ترضعه إذ مر بها شاب جميل ذو شارة حسنة فقالت : اللهم اجعل ابني مثل هذا فقال الصبي : اللهم لا تجعلني مثله ثم مرت بها امرأة ذكروا أنها سرقت وزنت وعوقبت فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثل هذا ، فقال الصبي : اللهم اجعلني مثلها .

فقالت له أمه في ذلك : فقال إن الشاب كان جباراً من الجبابرة فكرهت أن أكون مثله وإن هذه قيل إنها زنت ولم تزن وقيل إنها سرقت ولم تسرق وهي تقول حسبي الله " الخبر الثاني : وهو خبر الغار وهو مشهور في "الصحاح" عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم فأواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل وسدت عليهم باب الغار فقالوا : والله لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ، فقال رجل منهم : كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما فناما في ظل شجرة يوماً فلم أبرح عنهما وحلبت لهما غبوقهما فجئتهما به فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أغبق قبلهما فقمت والقدح في يدي انتظر استيقاظهما حتى ظهر الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم إن كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت انفراجاً لا يستطيعون الخروج منه ، ثم قال الآخر : كانت لي ابنة عم وكانت أحب الناس إلي فراودتها عن نفسها فامتنعت حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني وأعطيتها مالاً عظيماً على أن تخلي بيني وبين نفسها فلما قدرت عليها قالت : لا يجوز لك أن تفك الخاتم

إلا بحقها فتحرجت من ذلك العمل وتركتها وتركت المال معها اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال الثالث : اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين وقال : يا عبد الله أد إلي أجرتي ، فقلت له : كل ما ترى من أجرتك من الإبل والغنم والرقيق فقال : يا عبد الله أتستهزئ بي ؟ فقلت : إني لا أستهزئ بك فأخذ ذلك كله اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة عن الغار فخرجوا

يمشون "

وهذا حديث حسن صحيح متفق عليه .

الخبر الثالث : قوله صلى الله عليه وسلم : " رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره " ولم يفرق بين شيء وشيء فيما يقسم به على الله .

الخبر الرابع : روى سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : " بينا رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفتت إليه البقرة فقالت : إني لم أخلق لهذا ، وإنما خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله بقرة تتكلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما " الخبر الخامس : عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينما رجل يسمع رعداً أو صوتاً في السحاب : أن اسق حديقة فلان ، قال فعدوت إلى تلك الحديقة فإذا رجل قائم فيها فقلت له ما اسمك ؟ قال : فلان بن فلان بن فلان قلت : فما تصنع بحديقتك هذه إذا صرمتها ؟ قال : ولم تسأل عن ذلك ؟ قلت : لأني سمعت صوتاً في السحاب أن اسق حديقة فلان ، قال : أما إذ قلت فإني أجعلها أثلاثاً فأجعل لنفسي وأهلي ثلثاً وأجعل للمساكين وابن السبيل ثلثاً وأنفق عليها ثلثاً " "أما الآثار" فلنبدأ بما نقل أنه ظهر عن الخلفاء الراشدين من الكرامات ثم بما ظهر عن سائر الصحابة ، أما أبو بكر رضي الله عنه فمن كراماته أنه لما حملت جنازته إلى باب قبر النبي صلى الله عليه وسلم ونودي السلام عليك يا رسول الله هذا أبو بكر بالباب فإذا الباب قد انفتح وإذا بهاتف يهتف من القبر ادخلوا الحبيب إلى الحبيب ، وأما عمر رضي الله عنه فقد ظهرت أنواع كثيرة من كراماته وأحدها ما روي أنه بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً يدعى سارية بن الحصين فبينا عمر يوم الجمعة يخطب جعل يصيح في خطبته

وهو على المنبر : يا سارية الجبل الجبل قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فكتبت تاريخ تلك الكلمة فقدم رسول مقدم الجيش فقال : يا أمير المؤمنين غزونا يوم الجمعة في وقت الخطبة فهزمونا فإذا بإنسان يصيح يا سارية الجبل الجبل فأسندنا ظهورنا إلى الجبل فهزم الله الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة ذلك الصوت قلت سمعت بعض المذكرين قال : كان ذلك معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه قال

لأبي بكر وعمر أنتما مني بمنزلة السمع والبصر فلما كان عمر بمنزلة البصر لمحمد صلى الله عليه وسلم ، لا جرم قدر على أن يرى من ذلك البعد العظيم .

الثاني : روي أن نيل مصر كان في الجاهلية يقف في كل سنة مرة واحدة (1) وكان لا يجري حتى يلقى فيه جارية واحدة حسناء ، فلما جاء الإسلام كتب عمرو بن العاص بهذه الواقعة إلى عمر ، فكتب عمر على خزفة : أيها النيل إن كنت تجري بأمر الله فاجر ، وإن كنت تجري بأمرك فلا حاجة بنا إليك ! فألقيت تلك الخزفة في النيل فجرى ولم يقف بعد ذلك .

الثالث : وقعت الزلزلة في المدينة فضرب عمر الدرة على الأرض وقال : اسكني بإذن الله

فسكنت وما حدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك .

الرابع : وقعت النار في بعض دور المدينة فكتب عمر على خزفة : يا نار اسكني بإذن الله فألقوها في النار فانطفأت في الحال .

الخامس : روى أن رسول ملك الروم جاء إلى عمر فطلب داره فظن أن داره مثل قصور الملوك فقالوا : ليس له ذلك ، وإنما هو في الصحراء يضرب اللبن فلما ذهب إلى الصحراء رأى عمر رضي الله عنه وضع درته تحت رأسه ونام على التراب ، فعجب الرسول من ذلك وقال : إن أهل الشرق والغرب يخافون من هذا الإنسان وهو على هذه الصفة ! ثم قال في نفسه : إني وجدته خالياً فأقتله وأخلص الناس منه .

فلما رفع السيف أخرج الله من الأرض أسدين فقصداه فخاف وألقى السيف من يده وانتبه عمر ولم ير شيئاً فسأله عن الحال فذكر له الواقعة وأسلم .

وأقول هذه الوقائع رويت بالآحاد ، وههنا ما هو معلوم بالتواتر وهو أنه مع بعده عن زينة الدنيا واحترازه عن التكلفات والتهويلات ساس الشرق والغرب وقلب الممالك والدول لو نظرت في كتب التواريخ علمت أنه لم يتفق لأحد من أول عهد آدم إلى الآن ما تيسر له فإنه مع غاية بعده عن التكلفات كيف قدر على تلك السياسات ، ولا شك أن هذا من أعظم الكرامات .

---

(1) قوله مرة واحدة ، لا مفهوم له ، والمراد بيان أنه يمتنع عن الفيض ويكون ماؤه قليلا وهو إذا كان كذلك لا يجري بل يكون أشبه بالراكد .

(189/468)

وأما عثمان رضي الله عنه فروى أنس قال : سرت في الطريق فرفعت عيني إلى امرأة ثم دخلت على عثمان فقال : ما لي أراكم تدخلون علي وآثار الزنا ظاهرة عليكم ؟ فقلت : أجاء الوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا ولكن فراسة صادقة .

الثاني : أنه لما طعن بالسيف فأول قطرة من دمه سقطت وقعت على المصحف على قوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله وَهُوَ السميع العليم ﴾ [البقرة : 137] الثالث : أن جهجاها الغفاري انتزع العصا من يد عثمان وكسرها على ركبته فوقعت الأكلة في ركبته .

وأما علي كرم الله وجهه فيروي أن واحداً من محبيه سرق وكان عبداً أسود فأتى به إلى علي فقال له : أسرقت ؟ قال نعم .

فقطع يده فانصرف من عند علي عليه السلام فلقيه سلمان الفارسي وابن الكرا ، فقال ابن الكرا : من قطع يدك فقال أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول فقال قطع يدك وتمدحه ؟ فقال : ولم لا أمدحه وقد قطع يدي بحق وخلصني من النار ! فسمع

سلمان ذلك فأخبر به علياً فدعا الأسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات فسمعنا صوتاً من السماء ارفع الرداء عن اليد فرفعناه فإذا اليد قد برأت بإذن الله تعالى وجميل صنعه.

أما سائر الصحابة فأحوالهم في هذا الباب كثيرة فنذكر منها شيئاً قليلاً.

الأول: روى محمد بن المنكدر عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها فركبت لوحاً من ألواحها فطرحني اللوح في خيسة فيها أسد فخرج الأسد إلي يريدني فقلت: يا أبا الحرث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدم ودلني على الطريق ثم همهم فظننت أنه يودعني ورجع.

الثاني: روى ثابت عن أنس أن أسيد بن حضير ورجلاً آخر من الأنصار تحدثا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة لهما حتى ذهب من الليل زمان ثم خرجا من عنده وكانت الليلة شديدة الظلمة وفي يد كل واحد منهما عصا فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها فلما انفرق بينهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فمشى في ضوئها حتى بلغ منزله.

الثالث : قالوا لخالد بن الوليد إن في عسكرك من يشرب الخمر فركب فرسه ليلة فطاف بالعسكر فلقي رجلاً على فرس ومعه زق خمر ، فقال ما هذا ؟ قال : خل ، فقال خالد : اللهم اجعله خلاً .

فذهب الرجل إلى أصحابه فقال : أتيتكم بخمر ما شربت العرب مثلها ! فلما فتحوا فإذا هو خل فقالوا : والله ما جئتنا إلا بخل ؟ فقال هذا والله دعاء خالد بن الوليد .

الرابع : الواقعة المشهورة وهي أن خالداً بن الوليد أكل كفاً من السم على اسم الله وما ضره .

الخامس : روي أن ابن عمر كان في بعض أسفاره فلقي جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع فطرد السبع من طريقهم ثم قال : إنما يسلط على ابن آدم ما يخافه ولو أنه لم يخف غير الله لما سلط عليه شيء .

السادس : روي أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث العلاء بن الحضرمي في غزاة فحال بينهم وبين المطلوب قطعة من البحر فدعا باسم الله الأعظم ومشوا على الماء .

وفي كتب الصوفية من هذا الباب روايات متجاوزة عن الحد والحصر فمن أرادها طالعها .

وأما الدلائل العقلية القطعية على جواز الكرامات فمن وجوه :

الحجة الأولى : أن العبد ولي الله قال الله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62] والرب ولي العبد قال تعالى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الذين ءامَنُواْ ﴾ [البقرة : 257] وقال : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصالحين ﴾ [الأعراف : 196] وقال : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [المائدة : 55] وقال : ﴿ أَنتَ مولانا ﴾ [البقرة : 286] وقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الذين ءامَنُواْ ﴾ [محمد : 11] فثبت أن الرب ولي العبد وأن العبد ولي الرب وأيضاً الرب حبيب العبد والعبد حبيب الرب قال تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : 54] وقال : ﴿ والذين ءامَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾ [البقرة : 165] وقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التوابين وَيُحِبُّ المتطهرين ﴾ [البقرة : 222] وإذا ثبت هذا فنقول : العبد إذا بلغ في الطاعة إلى حيث يفعل كل ما أمره الله وكل ما فيه رضاه وترك كل ما نهى الله وزجر عنه فكيف يبعد أن يفعل الرب الرحيم الكريم مرة واحدة ما يريده العبد بل هو أولى لأن العبد مع لؤمه وعجزه لما فعل كل ما يريده الله ويأمره به فلأن يفعل الرب الرحيم مرة واحدة ما أراده العبد كان أولى ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوْفُواْ بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة : 40] .

الحجة الثانية : لو امتنع إظهار الكرامة لكان ذلك إما لأجل أن الله ليس أهلاً لأن يفعل مثل هذا الفعل أو لأجل أن المؤمن ليس أهلاً لأن يعطيه الله هذه العطية ، والأول : قدح في قدرة الله وهو كفر ، والثاني : باطل فإن معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه

ومحبة الله وطاعاته والمواظبة على ذكر تقديسه وتمجيده وتهليله أشرف من إعطاء رغيف واحد في مفازة أو تسخير حية أو أسد فلما أعطى المعرفة والمحبة والذكر والشكر من غير سؤال فلأن يعطيه رغيفاً في مفازة فأي بعد فيه ؟

(192/468)

الحجة الثالثة : قال النبي صلى الله عليه وسلم حكاية عن رب العزة : " ما تقرب عبد إلي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً وقلباً ويداً ورجلاً بي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يمشي " وهذا الخبر يدل على أنه لم يبق في سمعهم نصيب لغير الله ولا في بصرهم ولا في سائر أعضائهم إذ لو بقي هناك نصيب لغير الله لما قال أنا سمعه وبصره .

إذا ثبت هذا فنقول : لا شك أن هذا المقام أشرف من تسخير الحية والسبع وإعطاء الرغيف وعنقود من العنب أو شربة من الماء فلما أوصل الله برحمته عبده إلى هذه الدرجات العالية فأي بعد في أن يعطيه رغيفاً واحداً أو شربة ماء في مفازة .

(193/468)

الحجة الرابعة : قال عليه السلام حاكياً عن رب العزة : " من آذى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة " فجعل إيذاء الولي قائماً مقام إيذائه وهذا قريب من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ ﴾ [الفتح : 10] وقال : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً ﴾ [الأحزاب : 36] وقال : ﴿ إِنَّ الذين يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدنيا والأخرة ﴾ [الأحزاب : 57] فجعل بيعة محمد صلى الله عليه وسلم بيعة مع الله ورضاء محمد صلى الله عليه وسلم رضاء الله وإيذاء محمد صلى الله عليه وسلم إيذاء الله فلا جرم كانت درجة محمد صلى الله عليه وسلم أعلى الدرجات إلى أبلغ الغايات فكذا ههنا لما قال : " من آذى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة " دل ذلك على أنه تعالى جعل إيذاء الولي قائماً مقام إيذاء نفسه ويتأكد هذا بالخبر المشهور أنه تعالى يقول : " يوم القيامة مرضت فلم تعدني ، استسقيتك فما سقيتني ، استطعمتك فما أطعمتني فيقول يا رب كيف أفعل هذا وأنت رب العالمينا فيقول إن عبدي فلاناً مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدت ذلك عندي " وكذا في السقي والإطعام فدلت هذه الأخبار على أن أولياء الله يبلغون إلى هذه الدرجات فأي بعد في أن يعطيه الله كسرة خبز أو شربة ماء أو يسخر له كلباً أو ورداً . (1)

(1) الورد بفتح الواو وسكون الراء ، اسم من أسماء الأسد . (الصاوي) .

الحجة الخامسة : أنا نشاهد في العرف أن من خصه الملك بالخدمة الخاصة وأذن له في الدخول عليه في مجلس الأنس فقد يخصه أيضاً بأن يقدره على ما لا يقدر عليه غيره ، بل العقل السليم يشهد بأنه متى حصل ذلك القرب فإنه يتبعه هذه المناصب فجعل القرب أصلاً والمنصب تبعاً وأعظم الملوك هو رب العالمين فإذا شرف عبداً بأنه أوصله إلى عتبات خدمته ودرجات كرامته وأوقفه على أسرار معرفته ورفع حجب البعد بينه وبين نفسه وأجلسه على بساط قربه فأي بعد في أن يظهر بعض تلك الكرامات في هذا العالم مع أن كل هذا العالم بالنسبة إلى ذرة من تلك السعادات الروحانية والمعارف الربانية كالعدم المحض .

الحجة السادسة : لا شك أن المتولي للأفعال هو الروح لا البدن ولا شك أن معرفة الله تعالى للروح كالروح للبدن على ما قررناه في تفسير قوله تعالى :

﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ ﴾ [النمل : 20] وقال عليه السلام : " أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني " ولهذا المعنى نرى أن كل من كان أكثر علماً بأحوال عالم الغيب كان أقوى قلباً وأقل ضعفاً ولهذا قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : والله ما قلعت باب خيبر

بقوة جسدانية ولكن بقوة ربانية.

وذلك لأن علياً كرم الله وجهه في ذلك الوقت انقطع نظره عن عالم الأجساد وأشرقت الملائكة بأنوار عالم الكبرياء فتقوى روحه وتشبه بجواهر الأرواح الملكية وتلألأت فيه أضواء عالم القدس والعظمة فلاجرم حصل له من القدرة ما قدر بها على ما لم يقدر عليه غيره وكذلك العبد إذا واظب على الطاعات بلغ إلى المقام الذي يقول الله كنت له سمعاً وبصراً فإذا صار نور جلال الله سمعاً له سمع القريب والبعيد وإذا صار ذلك النور بصراً له رأى القريب والبعيد وإذا صار ذلك النور يداً له قدر على التصرف في الصعب والسهل والبعيد والقريب.

(195/468)

الحجة السابعة: وهي مبنية على القوانين العقلية الحكمية، وهي أنا قد بينا أن جوهر الروح ليس من جنس الأجسام الكائنة الفاسدة المتعرضة للتفرق والتمزق، بل هو من جنس جواهر الملائكة وسكان عالم السموات ونوع المقدسين المطهرين إلا أنه لما تعلق بهذا البدن واستغرق في تدبيره صار في ذلك الاستغراق إلى حيث نسي الوطن الأول والمسكن المتقدم وصار بالكلية متشبهاً بهذا الجسم الفاسد فضعفت قوته وذهبت مكنته ولم يقدر

على شيء من الأفعال ، أما إذا استأنست بمعرفة الله ومحبته وقل انغماسها في تدبير هذا البدن ، وأشرقت عليها أنوار الأرواح السماوية العرشية المقدسة ، وفاضت عليها من تلك الأنوار قويت على التصرف في أجسام هذا العالم مثل قوة الأرواح الفلكية على هذه الأعمال ، وذلك هو الكرامات ، وفيه دقيقة أخرى وهي أن مذهبنا أن الأرواح البشرية مختلفة بالماهية ففيها القوية والضعيفة ، وفيها النورانية والكدرة ، وفيها الحرة والنذلة والأرواح الفلكية أيضاً كذلك ، ألا ترى إلى جبريل كيف قال الله في وصفه : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مطاع ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : 19 21] وقال في قوم آخرين من الملائكة : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى السموات لَا تُغْنِى شفاعتهم شَيْئًا ﴾ [النجم : 26] فكذا ههنا فإذا اتفق في نفس من النفوس كونها قوية ، القوة القدسية العنصرية مشرقة الجوهر علوية الطبيعة ، ثم انضاف إليها أنواع الرياضات التي تزيل عن وجهها غبرة عالم الكون والفساد أشرقت وتلألأت وقويت على التصرف في هيولي عالم الكون والفساد بإعانة نور معرفة الحضرة الصمدية وتقوية أضواء حضرة الجلال والعزة . ولنقبض ههنا عنان البيان فإن وراءها أسراراً دقيقة وأحوالاً عميقة من لم يصل إليها لم يصدق بها ، ونسأل الله الإعانة على إدراك الخيرات ، واحتج المنكرون للكرامات بوجوه .

الشبهة الأولى : وهي التي عليها يعولون وبها يضلون أن ظهور الخارق للعادة جعله الله دليلاً على النبوة فلو حصل لغير نبي لبطلت هذه الدلالة لأن حصول الدليل مع عدم المدلول يقدح في كونه دليلاً ، وذلك باطل .

والشبهة الثانية : تمسكوا بقوله عليه السلام حكاية عن الله سبحانه : " لن يتقرب المتقربون إلي بمثل أداء ما افترضت عليهم " قالوا : هذا يدل على أن التقرب إلى الله بأداء الفرائض أعظم من التقرب إليه بأداء النوافل ، ثم إن المتقرب إليه بأداء الفرائض لا يحصل له شيء من الكرامات فالمتقرب إليه بأداء النوافل أولى أن لا يحصل له ذلك .

الشبهة الثالثة : تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ﴾ [النحل : 7] والقول بأن الولي ينتقل من بلد إلى بلد بعيد لا على الوجه طعن في هذه الآية ، وأيضاً أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يصل من مكة إلى المدينة إلا في أيام كثيرة مع التعب الشديد فكيف يعقل أن يقال أن الولي ينتقل من بلد نفسه إلى الحج في يوم واحد .

الشبهة الرابعة : قالوا : هذا الولي الذي تظهر عليه الكرامات إذا ادعى على إنسان درهماً فهل نطالبه بالبينة أم لا ؟ فإن طالبناه بالبينة كان عبثاً لأن ظهور الكرامات عليه يدل على أنه لا يكذب ، ومع قيام الدليل القاطع كيف يطلب الدليل الظني ، وإن لم نطالبه بها فقد تركنا قوله عليه السلام : " البينة على المدعي " فهذا يدل على أن القول بالكرامة باطل .

الشبهة الخامسة : إذا جاز ظهور الكرامة على بعض الأولياء جاز ظهورها على الباقين ، فإذا كثرت الكرامات حتى خرقت العادة جرت وفقاً للعادة وذلك يقدح في المعجزة والكرامة .

(197/468)

"والجواب" عن الشبهة الأولى : أن الناس اختلفوا في أنه هل يجوز للولي دعوى الولاية ؟ فقال قوم من المحققين : إن ذلك لا يجوز ، فعلى هذا القول يكون الفرق بين المعجزات والكرامات أن المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوة والكرامة لا تكون مسبوقة بدعوى الولاية ، والسبب في هذا الفرق أن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا إلى الخلق ليصيروا دعاة للخلق من الكفر إلى الإيمان ومن المعصية إلى الطاعة فلو لم تظهر دعوى النبوة لم يؤمنوا به وإذا لم يؤمنوا به بقوا على الكفر وإذا ادعوا النبوة وأظهروا المعجزة آمن القوم بهم فإقدام الأنبياء على دعوى النبوة ليس الغرض منه تعظيم النفس بل المقصود منه إظهار الشفقة على الخلق حتى ينتقلوا من الكفر إلى الإيمان ، أما ثبوت الولاية للولي فليس الجهل بها كفراً ولا معرفتها إيماناً فكان دعوى الولاية طلباً لشهوة النفس ، فعلمنا أن النبي يجب عليه إظهار دعوى النبوة والولي لا يجوز له دعوى الولاية فظهر الفرق ؛ أما الذين قالوا : يجوز للولي دعوى الولاية فقد ذكروا

الفرق بين المعجزة والكرامة من وجوه : الأول : أن ظهور الفعل الخارق للعادة يدل على كون ذلك الإنسان مبرءاً عن المعصية ، ثم إن اقترن هذا الفعل بادعاء النبوة دل على كونه صادقاً في دعوى النبوة ، وإن اقترن بادعاء الولاية دل على كونه صادقاً في دعوى الولاية ، وبهذا الطريق لا يكون ظهور الكرامة على الأولياء طعناً في معجزات الأنبياء عليهم السلام .

الثاني : أن النبي صلى الله عليه وسلم يدعي المعجزة ويقطع بها ، والولي إذا ادعى الكرامة لا يقطع بها لأن المعجزة يجب ظهورها ، أما الكرامة (ف) لا يجب ظهورها .

الثالث : أنه يجب نفي المعارضة عن المعجزة ولا يجب نفيها عن الكرامة .

الرابع : أنا لا نجوز ظهور الكرامة على الولي عند ادعاء الولاية إلا إذا أقر عند تلك الدعوى بكونه على دين ذلك النبي ومتى كان الأمر كذلك صارت تلك الكرامة معجزة لذلك النبي ومؤكدة لرسالته وبهذا التقدير لا يكون ظهور الكرامة طاعناً في نبوة النبي بل يصير مقوياً لها .

"والجواب" عن الشبهة الثانية : أن التقرب بالفرائض وحدها أكمل من التقرب بالنوافل ؛ أما

الولي فإنما يكون ولياً إذا كان آتياً بالفرائض والنوافل ، ولا شك أنه يكون حاله أتم من حال من اقتصر على الفرائض فظهر الفرق .

"والجواب" على الشبهة الثالثة : أن قوله تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بالغيه إِلاَّ بِشِقِّ الأنفس ﴾ محمول على المعهود المتعارف ، وكرامات الأولياء أحوال نادرة فتصير كالمستثناة عن ذلك العموم .

وهذا هو "الجواب" عن الشبهة الرابعة وهي التمسك بقوله عليه السلام البينة على المدعي .

"والجواب" عن الشبهة الخامسة أن المطيعين فيهم قلة كما قال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور ﴾ [سبأ : 13] وكما قال إبليس : ﴿ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين ﴾ [الأعراف : 17] وإذا حصلت القلة فيهم لم يكن ما يظهر عليهم من الكرامات في الأوقات النادرة قادحاً في كونها على خلاف العادة .

المسألة السابعة :

في الفرق بين الكرامات والاستدراج، اعلم أن من أراد شيئاً فأعطاه الله مراده لم يدل ذلك على كون ذلك العبد وجيهاً عند الله تعالى سواء كانت العطية على وفق العادة أو لم تكن على وفق العادة بل قد يكون ذلك إكراماً للعبد وقد يكون استدراجاً له ولهذا الاستدراج أسماء كثيرة من القرآن، أحدها: الاستدراج قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 182] ومعنى الاستدراج أن يعطيه الله كل ما يريده في الدنيا ليزداد غيه وضلاله وجهله وعناده فيزداد كل يوم بعداً من الله وتحقيقه أنه ثبت في العلوم العقلية أن تكرر الأفعال سبب لحصول الملكة الراسخة فإذا مال قلب العبد إلى الدنيا ثم أعطاه الله مراده فحينئذ يصل الطالب إلى المطلوب وذلك يوجب حصول اللذة وحصول اللذة يزيد في الميل وحصول الميل يوجب مزيد السعي ولا يزال يتأدى كل واحد منهما إلى الآخر وتتقوى كل واحدة من هاتين الحالتين درجة فدرجة ومعلوم أن الاشتغال بهذه اللذات العاجلة مانع عن مقامات المكاشفات ودرجات المعارف فلا جرم يزداد بعده عن الله درجة فدرجة إلى أن يتكامل فهذا هو الاستدراج.

وثانيها: المكر قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا القوم الخاسرون﴾ [الأعراف: 99]، ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكرين﴾ [آل عمران: 54] وقال: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: 50].

وثالثها: الكيد قال تعالى: ﴿يخادعون اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: 142] وقال:

﴿ يخادعون الله والذين ءامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ [البقرة : 9] .

ورابعها : الإملاء قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرًا لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمَاً ﴾ [آل عمران : 178] .

(200/468)

وخامسها : الإهلاك قال تعالى : ﴿ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أخذناهم ﴾ [الأنعام : 44] وقال في فرعون : ﴿ واستكبر هُوَ وَجُنُودُهُ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ * فأخذناه وَجُنُودَهُ فنبذناهم فِى اليم ﴾ [القصص : 39 ، 40] فظهر بهذه الآيات أن الإيصال إلى المرادات لا يدل على كمال الدرجات والفوز بالخيرات بقي علينا أن نذكر الفرق بين الكرامات وبين الاستدراجات .

فنقول : إن صاحب الكرامة لا يستأنس بتلك الكرامة بل عند ظهور الكرامة يصير خوفه من الله تعالى أشد وحذره من قهر الله أقوى فإنه يخاف أن يكون ذلك من باب الاستدراج ، وأما صاحب الاستدراج فإنه يستأنس بذلك الذي يظهر عليه ويظن أنه إنما وجد تلك الكرامة لأنه كان مستحقاً لها وحينئذ يستحقر غيره ويتكبر عليه ويحصل له أمن من مكر الله وعقابه ولا يخاف سوء العاقبة فإذا ظهر شيء من هذه الأحوال على صاحب الكرامة

دل ذلك على أنها كانت استدراجاً لا كرامة .

فلهذا المعنى قال المحققون : أكثر ما اتفق من الانقطاع عن حضرة الله إنما وقع في مقام الكرامات فلا جرم ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من أنواع البلاء .

والذي يدل على أن الاستئناس بالكرامة قاطع عن الطريق وجوه :

الحجة الأولى : أن هذا الغرور إنما يحصل إذا اعتقد الرجل أنه مستحق لهذ الكرامة لأن بتقدير أن لا يكون مستحقاً لها امتنع حصول الفرح بها بل يجب أن يكون فرحه بكرم المولى وفضله أكبر من فرحه بنفسه فثبت أن الفرح بالكرامة أكثر من فرحه بنفسه وثبت أن الفرح بالكرامة لا يحصل إلا إذا اعتقد أنه أهل ومستحق لها وهذا عين الجهل لأن الملائكة قالوا : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [البقرة : 32] وقال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الأنعام : 91] وأيضاً قد ثبت بالبرهان اليقيني أنه لا حق لأحد من الخلق على الحق فكيف يحصل ظن الاستحقاق .

الحجة الثانية : أن الكرامات أشياء مغايرة للحق سبحانه فالفرح بالكرامة فرح بغير الحق والفرح بغير الحق حجاب عن الحق والمحجوب عن الحق كيف يليق به الفرح والسرور .

الحجة الثالثة : أن من اعتقد في نفسه أنه صار مستحقاً للكرامة بسبب عمله حصل لعمله وقع عظيم في قلبه ومن كان لعمله وقع عنده كان جاهلاً ولو عرف ربه لعلم أن كل طاعات الخلق في جنب جلال الله تقصير وكل شكرهم في جنب آلائه ونعمائه قصور وكل معارفهم وعلومهم فهي في مقابلة عزته حيرة وجهل .

رأيت في بعض الكتب أنه قرأ المقرىء في مجلس الأستاذ أبي علي الدقاق قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : 10] فقال علامة أن الحق رفع عملك أن لا يبقى (ذكره) عندك فإن بقي عملك في نظرك فهو مدفوع وإن لم يبق معك فهو مرفوع مقبول .

الحجة الرابعة : أن صاحب الكرامة إنما وجد الكرامة لإظهار الذل والتواضع في حضرة الله فإذا ترفع وتجبر وتكبر بسبب تلك الكرامات فقد بطل ما به وصل إلى الكرامات فهذا طريق ثبوته يؤديه إلى عدمه فكان مردوداً ولهذا المعنى لما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم مناقب نفسه وفضائلها كان يقول في آخر كل واحد منها ولا فخر يعني لا أفتخر بهذه الكرامات وإنما أفتخر بالمكرم والمعطي .

الحجة الخامسة : أن ظاهر الكرامات في حق إبليس وفي حق بلعام كان عظيماً ثم قيل لإبليس وكان من الكافرين وقيل لبلعام فمثله كمثل الكلب وقيل لعلماء بني إسرائيل : ﴿ مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة : 5]

وقيل أيضاً في حقهم : ﴿ وَمَا اختلف الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ [آل عمران : 19] فبين أن وقوعهم في الظلمات والضلالات كان بسبب فرحهم بما أوتوا من العلم والزهد .

(202/468)

الحجة السادسة : أن الكرامة غير المكرم وكل ما هو غير المكرم فهو ذليل وكل من تعزز بالذليل فهو ذليل ، ولهذا المعنى

قال الخليل صلوات الله عليه : أما إليك فلا (1) ، فالاستغناء بالفقير فقر والتقوى بالعاجز عجز والاستكمال بالناقص نقصان والفرح بالمحدث بله والإقبال بالكلية على الحق خلاص ، فثبت أن الفقير إذا ابتهج بالكرامة سقط عن درجته .

أما إذا كان لا يشاهد في الكرامات إلا المكرم ولا في الإعزاز إلا المعز ولا في الخلق إلا الخالق فهناك يحق الوصول .

الحجة السابعة : أن الافتخار بالنفس وبصفاتها من صفات إبليس وفرعون ، قال إبليس : ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مّنْهُ ﴾ [الأعراف : 12] وقال فرعون : ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ [الزخرف : 51] وكل من ادعى الإلهية أو النبوة بالكذب فليس له غرض إلا تزيين النفس

وتقوية الحرص والعجب ولهذا قال عليه السلام : " ثلاث مهلكات ، وختمها بقوله : وإعجاب المرء بنفسه "

الحجة الثامنة : أنه تعالى قال : ﴿ فَخُذْ مَا ءاتَيْتُكَ وَكُنْ مّنَ الشاكرين ﴾ [الأعراف : 144] ﴿ واعبد رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ [الحجر : 99] فلما أعطاه الله العطية الكبرى أمره بالاشتغال بخدمة المعطى لا بالفرح بالعطية .

الحجة التاسعة : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خيره الله بين أن يكون ملكاً نبياً وبين أن يكون عبداً نبياً ترك الملك ، ولا شك أن وجدان الملك الذي يعم المشرق والمغرب من الكرامات بل من المعجزات ثم إنه صلى الله عليه وسلم ترك ذلك الملك واختار العبودية لأنه إذا كان عبداً كان افتخاره بمولاه وإذا كان ملكاً كان افتخاره بعبيده ، فلما اختار العبودية لا جرم جعل السنة التي في التحيات التي رواها ابن مسعود "وأشهد أن محمداً عبده ورسوله" وقيل في المعراج : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : 1] .

---

(1) هذا من خطابه لجبريل عليه السلام فإنه

لما ألقي في النار سأله جبريل فقال : ألك حاجة ؟ فقال إبراهيم عليه السلام أما إليك

فلا ![. . . . . .]

الحجة العاشرة : أن محب المولى غير ، ومحب ما للمولى غير ، فمن أحب المولى لم يفرح بغير المولى ولم يستأنس بغير المولى ، فالاستئناس بغير المولى والفرح بغيره يدل على أنه ما كان محباً للمولى بل كان محباً لنصيب نفسه ونصيب النفس إنما يطلب للنفس فهذا الشخص ما أحب إلا نفسه .

وما كان المولى محبوباً له بل جعل المولى وسيلة إلى تحصيل ذلك المطلوب .

والصنم الأكبر هو النفس كما قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ [الجاثية : 23] فهذا الإنسان عابد للصنم الأكبر حتى أن المحققين قالوا لا مضرة في عبادة شيء من الأصنام مثل المضرة الحاصلة في عبادة النفس ولا خوف من عبادة الأصنام كالخوف من الفرح بالكرامات .

الحجة الحادية عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : 2 ، 3] وهذا يدل على أن من لم يتق الله ولم يتوكل عليه لم يحصل له شيء من هذه الأفعال والأحوال .

المسألة الثامنة :

في أن الولي هل يعرف كونه ولياً ، قال الأستاذ أبو بكر بن فورك لا يجوز وقال الأستاذ أبو علي الدقاق وتلميذه أبو القاسم القشيري يجوز ، وحجة المانعين وجوه :

الحجة الأولى : لو عرف الرجل كونه ولياً لحصل له الأمن بدليل قوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62] لكن حصول الأمن غير جائز ويدل عليه وجوه : أحدها : قوله مالي : ﴿ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ القوم الخاسرون ﴾ [الأعراف : 99] واليأس أيضاً غير جائز لقوله تعالى : ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾

(204/468)

[يوسف : 87] ولقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضالّون ﴾ [الحجر : 56] والمعنى فيه أن الأمن لا يحصل إلا عند اعتقاد العجز ، واليأس لا يحصل إلا عند اعتقاد البخل واعتقاد العجز والبخل في حق الله كفر ، فلا جرم كان حصول الأمن والقنوط كفراً .

الثاني : أن الطاعات وإن كثرت إلا أن قهر الحق أعظم ومع كون القهر غالباً لا يحصل الأمن .

الثالث : أن الأمن يقتضي زوال العبودية وترك الخدمة والعبودية يوجب العداوة والأمن يقتضي ترك الخوف .

الرابع : أنه تعالى وصف المخلصين بقوله : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خاشعين ﴾ [الأنبياء : 90] قيل رغباً في ثوابنا ، ورهباً من عقابنا .

وقيل : رغباً في فضلنا ، ورهباً من عدلنا .

وقيل رغباً في وصالنا ، ورهباً من فراقنا .

والأحسن أن يقال رغباً فينا ، ورهباً منا .

الحجة الثانية : على أن الولي لا يعرف كونه ولياً ، أن الولي إنما يصير ولياً لأجل أن الحق يحبه لا لأجل أنه يحب الحق ، وكذلك القول في العدو ، ثم إن محبة الحق وعداوته سران لا يطلع عليهما أحد فطاعات العباد ومعاصيهم لا تؤثر في محبة الحق وعداوته لأن الطاعات والمعاصي محدثة ، وصفات الحق قديمة غير متناهية ، والمحدث المتناهي لا يصير غالباً للقديم غير المتناهي .

وعلى هذا التقدير فربما كان العبد في الحال في عين المعصية إلا أن نصيبه من الأزل عين المحبة .

وربما كان العبد في الحال في عين الطاعة ولكن نصيبه من الأزل عين العداوة وتمام التحقيق أن محبته وعداوته صفة ، وصفة الحق غير معللة ، ومن كانت محبته لا لعلة ، فإنه يمتنع أن يصير عدواً بعلة المعصية ، ومن كانت عداوته لا لعلة يمتنع أن يصير محباً لعلة الطاعة ، ولما

كانت محبة الحق وعداوته سرين لا يطلع عليهما لا جرم قال عيسى عليه السلام : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ علام الغيوب ﴾ [المائدة : 116]

الحجة الثالثة : على أن الولي لا يعرف كونه ولياً ؛ أن الحكم بكونه ولياً وبكونه من أهل الثواب والجنة يتوقف على الخاتمة ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : 160] ولم يقل من عمل حسنة فله عشر أمثالها ، وهذا يدل على أن استحقاق الثواب مستفاد من الخاتمة لا من أول العمل ، والذي يؤكد ذلك أنه لو مضى عمره في الكفر ثم أسلم في آخر الأمر كان من أهل الثواب وبالضد ، وهذا دليل على أن العبرة بالخاتمة لا بأول العمل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قُل للَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : 38] فثبت أن العبرة في الولاية والعداوة وكونه من أهل الثواب أو من أهل العقاب بالخاتمة ، فظهر أن الخاتمة غير معلومة لأحد ، فوجب القطع بأن الولي لا يعلم كونه ولياً ، أما الذين قالوا إن الولي قد يعرف كونه ولياً فقد احتجوا على صحة قولهم بأن الولاية لها ركنان .

أحدهما : كونه في الظاهر منقاداً للشريعة .

الثاني : كونه في الباطن مستغرقاً في نور الحقيقة ، فإذا حصل الأمران وعرف الإنسان حصولهما عرف لا محالة كونه ولياً ، أما الانقياد في الظاهر للشريعة فظاهر ، وأما استغراق

الباطن في نور الحقيقة فهو أن يكون فرحه بطاعة الله واستئناسه بذكر الله ، وأن لا يكون له استقرار مع شيء سوى الله .

والجواب : أن تداخل (1) الأغلاط في هذا الباب كثيرة غامضة والقضاء عسر ، والتجربة خطر ، والجزم غرور .

ودون الوصول إلى عالم الربوبية أستار ، تارة من النيران ، وأخرى من الأنوار ، والله العالم بحقائق الأسرار ، ولنرجع إلى التفسير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 83.69 ﴾

---

(1) في الأصل تداخل هكذا ولعل الصواب مداخل لأنه وصفها فيما بعد بقوله كثيرة غامضة .

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾

أما الكهف فهو غار في الجبل الذي أوى إليه القوم . وأما الرقيم ففيه سبعة أقاويل :

أحدها : أنه اسم القرية التي كانوا منها ، قاله ابن عباس . الثاني : أنه اسم الجبل ، قاله الحسن .

الثالث : أنه اسم الوادي ، قاله الضحاك . قال عطية العوفي : هو واد بالشام نحو إبلة وقد روي أن اسم جبل الكهف بناجلوس ، واسم الكهف ميرم واسم المدينة أفسوس ، واسم الملك وفيانوس .

الرابع : أنه اسم كلبهم . قاله سعيد بن جبير ، وقيل هو اسم لكل كهف .

الخامس : أن الرقيم الكتاب الذي كتب فيه شأنهم ، قاله مجاهد . ماخوذ من الرقم في الثوب . وقيل كان الكتاب لوحاً من رصاص على باب الكهف ، وقيل في خزائن الملوك لعجيب أمرهم .

السادس : الرقيم الدواة بالرومية ، قاله أبو صالح .

السابع : أن الرقيم قوم من أهل الشراة كانت حالهم مثل حال أصحاب الكهف ، قاله سعيد بن جبير .

﴿ كانوا مِنْ آياتنا عجباً ﴾ فيه وجهان : أحدهما : معناه ما حسبت أنهم كانوا من آياتنا

عجباً لولا أن أخبرناك وأوحينا إليك .

الثاني : معناه أحسبت أنهم أعجب آياتنا وليسوا بأعجب خلقنا ، قاله مجاهد . قوله عز وجل : ﴿ إذ أوى الفتية إلى الكهف ﴾ اختلف في سبب إيوائهم إليه على قولين :

أحدهما : أنهم قوم هربوا بدينهم إلى الكهف ، قاله الحسن . ﴿ فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرِنا رشداً ﴾ .

الثاني : أنهم أبناء عظماء وأشراف خرجوا فاجتمعوا وراء المدينة على غير ميعاد ، فقال أسَنُّهم : إني أجد في نفسي شيئاً ما أظن أحداً يجده ، إن ربي رب السموات والأرض ، ﴿ فقالوا ﴾ جميعاً ﴿ ربُّنا ربُّ السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شَطَطاً ﴾ ثم دخلوا الكهف فلبثوا فيه ثلاثمائةٍ سنين وازدادوا تسعاً ، قاله مجاهد .

(208/468)

قال ابن قتيبة : هم أبناء الروم دخلوا الكهف قبل عيسى ، وضرب الله تعالى على آذنهم فيه ، فلما بعث الله عيسى أخبر بخبرهم ، ثم بعثهم الله تعالى بعد عيسى في الفترة التي بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم . وفي ﴿ شططاً ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : كذباً ، قاله قتادة .

الثاني : غلوّاً ، قاله الأخفش .

الثالث : جوراً ، قاله الضحاك .

قوله عز وجل : ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ﴾ والضرب على الآذان هو المنع من الاستماع ، فدل بهذا على أنهم لم يموتوا وكانوا نياماً ، ﴿ سنين عدداً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إحصاء .

الثاني : سنين كاملة ليس فيها شهور ولا أيام .

وإنما ضرب الله تعالى على آذانهم وإن لم يكن ذلك من أسباب النوم لئلا يسمعوا ما يوقظهم من نومهم .

قوله عز وجل : ﴿ ثم بعثناهم ﴾ الآية . يعني بالعبث إيقاظهم من رقدتهم . ﴿ لِنعلَم ﴾ أي لننظر ﴿ أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : عدداً ، قاله مجاهد .

الثاني : أجلاً ، قاله مقاتل .

الثالث : الغاية ، قاله قطرب .

وفي الحزبين أربعة أقاويل :

أحدها : أن الحزبين هما المختلفان في أمرهم من قوم الفتية ، قاله مجاهد . الثاني : أن أحد

الحزبين الفتية ،

والثاني : من حضرهم من أهل ذلك الزمان . الثالث : أن أحد الحزبين مؤمنون ، والآخر كفار .

الرابع : أن أحد الحزبين الله تعالى ، والآخر الخلق ، وتقديره : أنتم أعلم أم الله . انتهى انتهى .

اهـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(209/468)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ أم حسبت ﴾ الآية ،

(210/468)

مذهب سيبويه في ﴿ أم ﴾ إذا جاءت دون أن يتقدمها ألف استفهام أنها بمعنى بل وألف الاستفهام كأنه قال : بل أحسبت إضراباً عن الحديث الأول واستفهاماً عن الثاني وقال بعض النحويين : هي بمنزلة ألف الاستفهام ، وأما معنى الكلام فقال الطبري : هو تقرير للنبي

صلى الله عليه وسلم على حسابه أن أصحاب الكهف كانوا عجباً بمعنى إنكار ذلك عليه أي لا تعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة ، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشنع ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن إسحاق ، وذكر الزهراوي : أن الآية تحتمل معنى آخر وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن إسحاق ، وذكر الزهراوي : أن الآية تحتمل معنى آخر وهو أن تكون استفهاماً له هل علم أصحاب الكهف عجباً ، بمعنى إثبات أنهم عجب وتكون فائدة تقريره جمع نفسه لام لأن جوابه أن يقول لم أحسب ولا علمته فيقال له : وصفهم عند ذلك والتجوز في هذا التأويل هو في لفظه حسبت فتأمله ، و﴿ الكهف ﴾ النقب المتسع في الجبل وما لم يتسع منها فهو غار ، وحكى النحاس عن أنس بن مالك أنه قال : ﴿ الكهف ﴾ الجبل وهذا غير شهير في اللغة ، واختلف الناس في ﴿ الرقيم ﴾ ، فقال كعب ، ﴿ الرقيم ﴾ القرية التي كانت بإزاء ﴿ الكهف ﴾ ، وقال ابن عباس وقتادة : ﴿ الرقيم ﴾ الوادي الذي كان بإزائه وهو واد بين عصبان وأيلة دون فلسطين ، وقال ابن عباس أيضاً هو الجبل الذي فيه ﴿ الكهف ﴾ ، وقال السدي : ﴿ الرقيم ﴾ الصخرة التي كانت على ﴿ الكهف ﴾ ، وقال ابن عباس ﴿ الرقيم ﴾ كتاب مرقوم كان عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى ، وقيل من دين قبل عيسى ، وقال ابن زيد : كتاب عمى الله علينا أمره ولم يشرح لنا قصته ، وقالت فرقة : ﴿ الرقيم ﴾ كتاب في لوح نحاس ، وقال ابن عباس : في لوح رصاص كتب فيه القوم

الكفار الذين فر الفتية منهم قصتهم وجعلوها تاريخاً لهم ذكروا وقت فقدهم وكم كانوا وبني من كانوا ، وقال سعيد بن جبير : ﴿

(211/468)

الرقيم ﴾ لوح من حجارة كتبوا فيه قصة ﴿ أصحاب الكهف ﴾ ووضعوه على باب الكهف ، ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوماً مؤرخين للحوادث وذلك من قبل المملكة وهو أمر مفيد ، وهذه الأقوال مأخوذة من الرقم ومنه كتاب مرقوم ، ومنه الأرقم لتخطيطه ، ومنه رقمة الوادي أي مكان جري الماء وانعطافه يقال عليك بالرقمة وخل الضفة وقال النقاش عن قتادة : ﴿ الرقيم ﴾ دراهمهم ، وقال أنس بن مالك والشعبي ﴿ الرقيم ﴾ الكلب ، وقال عكرمة ﴿ الرقيم ﴾ الدواة ، وقالت فرقة : ﴿ الرقيم ﴾ كان لفتية آخرين في السراة جرى لهم ما جرى ل ﴿ أصحاب الكهف ﴾ ، وروي عن ابن عباس أنه قال ما أدري ما ﴿ الرقيم ﴾ أكتاب أو بنيان ، وروي أنه قال : كل بالقرآن أعلمه إلا الحنان والأواه والرقيم .

إ ﴿ ذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) ﴾

﴿ الفتية ﴾ فيما روي ، قوم من أبناء أشراف مدينة دقيوس الملك الكافر ، ويقال فيه دقليوس ، ويقال دقينوس ، وروي أنهم كانوا مطوقين بالذهب ، وهم من الروم واتبعوا دين عيسى ، وقيل كانوا قبل عيسى ، وأما أسماؤهم فهي أعجمية ، والسند في معرفتها واه ، ولكن التي ذكر الطبري هي هذه ، مكسيليمنيا وهو أكبرهم والمتكلم عنهم ، ومجسيلينيا وتمليخا وهو الذي مضى بالورق إلى المدينة عند بعثهم من رقدتهم ، مرطوس وكشوطونس ، ويبرونس ، ودينموس ، ويطونس ، واختلف الرواة في قصص هؤلاء الفتية وكيف كان اجتماعهم وخروجهم إلى الكهف ؟ وأكثر المؤرخون في ذلك ، ولكن نختصر من حديثهم ونذكر ما لا تستغني الآية عنه ، ونذكر من الخلاف عيونه بحول الله ، روى مجاهد عن ابن عباس أن هؤلاء الفتية كانوا في دين ملك يعبد الأصنام ويذبح لها ويكفر بالله ، وقد تابعه على ذلك أهل المدينة فوقع للفتية علم من بعض النحويين حسب ما ذكر النقاش أو من مؤمني الأمم قبلهم بحسب الخلاف الذي ذكرناه ، فآمنوا بالله ورأوا ببصائرهم قبيح فعل الناس ، فأخذوا نفوسهم بالتزام الدين وعبادة الله ، فرفع أمرهم إلى الملك ، وقيل له إنهم قد فارقوا دينك واستخفوا آلهتك وكفروا بها ، فاستحضرهم الملك في مجلسه وأمرهم باتباع

دينه والذبح لآلهته وتوعدهم على فراق ذلك بالقتل ، فقالوا له فيما روي ﴿ ربنا رب السماوات والأرض ﴾ [الكهف : 14] إلى قوله ﴿ وإذ اعتزلتموهم ﴾ [الكهف : 16] ، وروي أنهم قالوا نحو هذا الكلام وليس به ، فقال لهم الملك إنكم شبان أغمار لا عقول لكم ، وأنا لا أعجل بكم ، بل أستأني ، فاذهبوا إلى منازلكم ودبروا رأيكم وارجعوا إلى أمري ، وضرب لهم في ذلك أجلاً ، ثم إنه سافر خلال الأجل فتشاور الفتية في الهروب بأديانهم ، فقال لهم أحدهم إني أعرف كهفاً في جبل كذا كان أبي يدخل فيه غنمه ، فلنذهب إليه فنختفي فيه حتى يفتح الله لنا ، فخرجوا فيما روي يلعبون بالصولجان والكرة وهم

يدحرجونها إلى نحو طريقهم لئلا يشعر الناس بهم ، وقيل إنهم كانوا مثقفين فحضر عيد أخرجوا له فركبوا في جملة الناس ، ثم أخذوا في اللعب بالصولجان حتى خلصوا بذلك ، وروت فرقة أن أمر أصحاب الكهف إنما كان أنهم كانوا من أبناء الأشراف فحضر عيد لأهل المدينة فرأى الفتيان ما يمتثله الناس في ذلك العيد من الكفر وعبادة الأصنام والذبح لها ، فوقع الإيمان في قلوبهم وأجمعوا على مفارقة الناس لئلا ينالهم العذاب معهم ، فزايلوا

الناس ، وذهبوا إلى الكهف ، وروى وهب بن منبه أن أمرهم إنما كان أن حوارياً لعيسى ابن مريم ، جاء إلى مدينة أصحاب الكهف يريد دخولها ، فآجر نفسه من صاحب الحمام فكان يعمل فيه ، فرأى صاحب الحمام في أعماله بركة عظيمة فألقى إليه بكل أمره ، وعرف ذلك الرجل فتيان من أهل المدينة ، فنشر فيهم الإيمان وعرفهم الله تعالى ، فآمنوا واتبعوه على دينه ، واشتهرت خلطتهم به ، فأتى يوماً إلى ذلك الحمام ولد الملك بامرأة بغي أراد الخلوة بها ، فنهاه ذلك الحواري فانتهى ، ثم جاءه مرة أخرى فنهاه فشتمه وأمضى عزمه في دخول الحمام مع البغي ، فدخل فماتا فيه جميعاً ، فاتهم ذلك الحواري وأصحابه بقتله ، ففروا جميعاً حتى دخلوا الكهف ، وقال عبيد بن عمير : إن أصحاب الكهف كانوا فتية أبناء العظماء مطوقين مسورين ذوي ذوائب قد داخلهم الإيمان أفذاذاً ، وأزمع واحد منهم الفرار بدينه من بلد الكفر ، فأخرجهم الله في يوم واحد لما أراده بهم ، فخرج أحدهم فجلس في ظل شجرة على بعد من المدينة ، فخرج ثان ، فلما رأى الجالس جلس إليه ، ثم الثالث ثم الباقون حتى كمل جميعهم في ظل الشجرة ، فألقى الله في نفوسهم أن غرضهم واحد ، فتساءلوا ، ففزع بعضهم من بعض وتكتموا ، ثم تراضوا برجلين منهم ، وقالوا لنفرد أو تواثقا وليفش كل واحد منكما سره إلى صاحبه ، فإن اتفقتما كنا معكما ، فنهضا بعيداً وتكلما فأفصحا بالإيمان والهروب بالدين فرجعا وفضحا الأمر

وتابعهما الآخرون ونهضوا إلى الكهف ، وأما الكلب فروي أنه كان كلب صيد لبعضهم ، وروي أنهم وجدوا في طريقهم راعياً له كلب فاتبعهم الراعي على رأيهم ، وذهب الكلب معهم ، واسم الكلب حمران ، وقل قطير ، فدخلوا الغار على جميع هذه الأقوال فروت فرقة أن الله عز وجل " ضرب على آذانهم " عند ذلك لما أراده من سترهم ، وخفي على أهل المملكة مكانهم ، وعجب الناس من غرابة فقدهم ، فأرخوا ذلك ورقموه في لوحين من رصاص أو نحاس ، وجعلوه على باب المدينة فيه اسماؤهم وأسماء آبائهم وذكر شرفهم ، وأنهم فقدوا بصورة كذا في وقت كذا ، وقيل إن الذي كتب هذا وتهمم به رجلان قاضيان مؤمنان يكتمان إيمانهما من أهل بيت المملكة ، وتسترا بذلك ودفنا اللوحين عندهما :

وقيل على الرواية بأن الملك أتى باب الغار ، وأنهما دفنا ذلك في بناء الملك على الغار ، وروت فرقة أن الملك لما ذهب الفتية أمر بقص آثارهم ، فانتهى ذلك بمتبعيهم إلى باب الغار ، فعرف الملك ، فركب في جنده حتى وقف عليه ، فأمر بالدخول عليهم فهاب الرجال ذلك ، فقال له بعض وزرائه ألست أيها الملك إن أخرجتهم قتلتهم ، قال نعم ، قال فأي قتلة أبلغ من الجوع والعطش ، ابن عليهم باب الغار ودعهم يموتوا فيه ، ففعل ، وقد " ضرب الله على آذانهم " قبل ذلك لما أراد من تأمينهم ، وأرخ الناس أمرهم في اللوحين ، أو أرخه الرجلان بحسب الخلاف ، واسم أحد الرجلين فيما ذكر الطبري بندروس ، واسم الآخر

روناس ، وروي أن هذا الملك الذي فر الفتية من دينه ، كان قد امتحن الله به المؤمنين حيث أحس بهم ، يقتلهم ويعلقهم أشخاصاً ورؤوساً على أسوار مدينته ، وكان يريد أن يذهب فيما ذكر ، دين عيسى ، وكان هو وقومه من الروم ، ثم أخبر الله تعالى عن الفتية أنهم لما أووا إلى الكهف أي دخلوه وجعلوه مأوى لهم وموضع اعتصام ، دعوا الله تعالى بأن يؤتيهم من عنده رحمة ، وهي الرزق فيما ذكر المفسرون ، وأن يهيىء لهم من أمرهم ﴿ رشداً ﴾ أي

خلاصاً جميلاً ، وقرأ الجمهور " رَشَداً " بفتح الراء والشين ، وقرأ أبو رجاء " رُشْداً " بضم الراء وسكون الشين ، والأولى أرجح لشبهها بفواصل الآيات قبل وبعد ، وهذا الدعاء منهم كان في أمر دنياهم ، وألفاظه تقتضي ذلك ، وقد كانوا على ثقة من رشد الآخرة ورحمتها ، وينبغي لكل مؤمن أن يجعل دعاءه في أمر دنياه هذه الآية فقط ، فإنها كافية ، ويحتمل ذكر " الرحمة " أن يراد بها أمر الآخرة وقد اختصرت هذا القصص ، ولم أغفل من مهمه شيئاً بحسب اجتهادي ، والله المعين برحمته ، وقوله ﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ الآية عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم ، ويعبر عن هذا ونحوه ب " الضرب " لتبين قوة

المباشرة وشدة اللصوق في الأمر المتكلم فيه والإلزام ، ومنه ضرب الذلة والمسكنة ، ومنه ضرب الجزية ، ومنه ضرب البعث .

ومنه قول الفرزدق : الكامل]

ضربت عليك العنكبوت بنسجها . . . وقضى عليك به الكتاب المنزل

(216/468)

فهذا يستعمل في اللزوم البليغ ، وأما تخصيص " الآذان " بالذكر فلأنها الجارحة التي منها عظم فساد النوم ، وقلَّما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه ، ولا يستحكم نوم إلا مع تعطل السمع ، ومن ذكر الأذن في النوم قوله صلى الله عليه وسلم " ذلك رجل بال الشيطان في أذنه " أشار عليه السلام إلى رجل طويل النوم لا يقوم بالليل ، وقوله " عدداً " نعت للسنين ، والقصد به العبارة عن التكثير ، أي تحتاج إلى عدد وهي ذات عدد ، قال الزجاج : ويجوز أن يكون نصب ﴿ عدداً ﴾ على المصدر ، و" البعث " التحريك بعد سكون ، وهذا مطرد مع لفظة البعث حيث وقعت ، وقد يكون السكون في الشخص أو عن الأمر المبعوث فيه وإن كان الشخص متحركاً ، وقوله ﴿ لنعلم ﴾ عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود ، وهذا على نحو كلام العرب أي لنعلم ذلك موجوداً ، وإلا فقد كان الله تعالى علم

﴿ أي الحزبين ﴾ أحصى الأمد وقرأ الزهري " ليعلم " بالياء ، و" الحزبان " الفريقان ، والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية ، إذ ظنوا لبثهم قليلاً ، والحزب الثاني هم أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم حين كان عندهم التاريخ بأمر الفتية ، وهذا قول الجمهور من المفسرين ، وقالت فرقة : هما حزبان من الكافرين اختلفا في مدة أصحاب الكهف ، وقالت فرقة : هما حزبان من المؤمنين ، وهذا لا يرتبط من ألفاظ الآية ، وأما قوله ﴿ أحصى ﴾ فالظاهر الجيد فيه أنه فعل ماض ، و﴿ أمداً ﴾ منصوب به على المفعول ، و" الأمد " الغاية ، وتأتي عبارة عن المدة من حيث للمدة غاية هي أمدها على الحقيقة ، وقال الزجاج : ﴿ أحصى ﴾ هو أفعل ، و﴿ أمداً ﴾ على هذا نصب على التفسير ، ويلحق هذا القول من الاختلال أن أفعل لا يكون من فعل رباعي إلا في الشاذ ، و﴿ أحصى ﴾ فعل رباعي ، ويحتج لقول أبي إسحاق بأن أفعل من الرباعي قد كثر ، كقولك ما أعطاه للمال ، وآتاه للخير ، وقال النبي عليه السلام في صفه جهنم :

" هي أسود من القار " وقال في صفة حوضه عليه السلام " ماؤه أبيض من اللبن " وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه " فهو لما سواها أضيع " وهذه كلها أفعل من الرباعي ، وقال

مجاهد : ﴿ أمداً ﴾ معناه عدداً ، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب ، وقال الطبري : نصب ﴿ أمداً ﴾ ب ﴿ لبثوا ﴾ ، وهذا غير متجه . انتهى انتهى . اهـ

﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(218/468)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرَّقيم ﴾

نزلت على سبب قد ذكرناه عند قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ [الإسراء : 85].

وقال ابن قتيبة : ومعنى "أم حسبت" : أحسبت .

فأما "الكهف" فقال المفسرون : هو المغارة في الجبل ، إِلا أنه واسع ، فإذا صغر ، فهو غار .

قال ابن الأنباري : قال اللغويون : الكهف بمنزلة الغار في الجبل .

فأما الرقيم ، ففيه ستة أقوال .

أحدها : أنه لوح من رصاص كانت فيه أسماء الفتية مكتوبة ليعلم من اطّلَع عليهم يوماً من الدهر ما قصتهم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال وهب بن منبِّه ، وسعيد بن جبير

في رواية ، ومجاهد في رواية .

وقال السدي : الرقيم : صخرة كُتب فيها أسماء الفتية ، وجُعلت في سُور المدينة .

وقال مقاتل : الرقيم : كتاب كتبه رجلان صالحان ، وكانا يكتمان إيمانهما من الملك الذي فرَّ منه الفتية ، كتبا أمر الفتية في لوح من رصاص ، ثم جعلاه في تابوت من نحاس ، ثم جعلاه في البناء الذي سَدُّوا به باب الكهف ، فقالا : لعل الله أن يُطْلِعَ على هؤلاء الفتية أحداً ، فيعلمون أمرهم إذا قرؤوا الكتاب .

وقال الفراء : كُتب في اللوح أسماؤهم ، وأنسابهم ، ودينهم ، وممن كانوا .

قال أبو عبيدة : وابن قتيبة : الرقيم : الكتاب ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، ومنه : كتاب مرقوم ، أي : مكتوب .

والثاني : أنه اسم القرية التي خرجوا منها ، قاله كعب .

والثالث : اسم الجبل ، قاله الحسن ، وعطية .

والرابع : أن الرقيم : الدواة ، بلسان الروم ، قاله عكرمة ومجاهد في رواية .

والخامس : اسم الكلب ، قاله سعيد بن جبير .

والسادس : اسم الوادي الذي فيه الكهف ، قاله قتادة ، والضحاك .

قوله تعالى : ﴿ كانوا من آياتنا عجباً ﴾ قال المفسرون : معنى الكلام : أحسبتَ أنهم

كانوا أعجبَ آياتنا ؟ ! قد كان في آياتنا ما هو أعجب منهم ، فإن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصتهم .

(219/468)

وقال ابن عباس الذي آتيتك من الكتاب والسنَّة والعلم ، أفضل من شأنهم .

قوله تعالى : ﴿ إذ أوى الفتية ﴾ قال الزجاج : معنى : أوَوْا إليه ، صاروا إليه ، وجعلوه مأواهم .

والفتية : جمع فتى ، مثل غُلام وغِلمة ، وصبي وصبية .

و"فِعلة" من أسماء الجمع ، وليس ببناء يقاس عليه ؛ لا يجوز غُراب وغِرْبة ، ولا غنيٌّ وغِنية .

وقال بعض المفسرين : الفتية : بمعنى الشبان .

وقد ذكرنا عن القتيبي أن الفتى : بمعنى الكامل من الرجال ، وبيَّنّاه في قوله تعالى : ﴿ من فتياتكم المؤمنات ﴾ [النساء : 25] .

قوله تعالى : ﴿ فقالوا ربنا آتنا من لدنك ﴾ أي : من عندك ﴿ رحمة ﴾ أي : رزقاً ﴿ وهيِّىءْ لنا ﴾ أي : أصلح لنا ﴿ من أمرنا رشداً ﴾ أي : أرشدنا إلى ما يقرِّبنا منك .

والمعنى : هيِّئْ لنا من أمرنا ما نصيب به الرشد .

والرُّشد والرَّشد ، والرشاد : نقيض الضلال .

تلخيص قصة أصحاب الكهف

اختلف العلماء في بُدُوِّ أمرهم ، وسبب مصيرهم إلى الكهف ، على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم هربوا ليلاً من ملكهم حين دعاهم إلى عبادة الأصنام ، فمروا براعٍ له كلب ، فتبعهم على دينهم ، فأووا إلى الكهف يتعبَّدون ، ورجل منهم يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة ، إلى أن جاءهم يوماً فأخبرهم أنهم قد ذُكِروا ، فبَكوا وتعوَّذوا بالله من الفتنة ، فضرب الله تعالى على آذانهم ، وأمر الملك فسدَّ عليهم الكهف ، وهو يظنهم أيقاظاً ، وقد توفَّى الله أرواحهم وفاة النَّوم ، وكلبُهم قد غشيه ما غشيهم .

ثم إن رجلين مؤمنَيْن يكتمان إيمانهما كتبا أسماءهم وأنسابهم وخبرهم في لوح من رصاص ، وجعلاه في تابوت من نحاس في البنيان ، وقالا : لعل الله يُطْلع عليهم قوماً مؤمنين ، فيعلمون خبرهم ، هذا قول ابن عباس .

وقال عبيد بن عمير : فَقَدَهم قومهم فطلبوهم ، فعمّى الله عليهم أمرهم ، فكتبوا أسماءهم وأنسابهم في لوح : فلان وفلان أبناء ملوكنا فَقَدْنَاهم في شهر كذا ، في سنة كذا ، في مملكة فلان ، ووضعوا اللوح في خزانة الملك ، وقالوا : لَيَكُونَنّ لهذا شأن .

والثاني : أن أحد الحوارِيّين جاء إلى مدينة أصحاب الكهف ، فأراد أن يدخلها ، فقيل له : إن على بابها صنماً لا يدخلها أحد إلا سجد له ، فكره أن يدخلها ، فأتى حمّاماً قريباً من المدينة ، فكان يعمل فيه بالأجْر ، وعلقه فتية من أهل المدينة ، فجعل يخبرهم عن خبر السماء والأرض ، وخبر الآخرة ، فآمنوا به وصدّقوه ، حتى جاء ابن الملك يوماً بامرأة ، فدخل معها الحَمّام ، فأنكر عليه الحواريُّ ذلك ، فسبَّه ودخل ، فمات وماتت المرأة في الحمام ، فأتى الملك ، فقيل له : إن صاحب الحمام قتل ابنك ، فالْتُمِس فهرب ، فقال : من كان يصحبه ؟ فسُمي له الفتيةُ ، فالْتُمِسوا فخرجوا من المدينة ، فمروا على صاحب لهم في زرع ، وهو على مثل أمرهم ، فانطلق معهم ومعه كلب حتى آواهم الليل إلى الكهف ، فدخلوه فقالوا : نبيت هاهنا ، ثم نصبح إن شاء الله فتَرَون رأيكم ، فضرب الله على آذانهم فناموا ؛ وخرج الملك ، وأصحابه يتبعونهم ، فوجدوهم قد دخلوا الكهف ، فكلما أراد رجل أن يدخل [الكهف] أُرعب ، فقال قائل للملك : أليس قلتَ : إن قدرتُ عليهم قتلتُهم ؟ قال : بلى ، قال : فابن عليهم باب الكهف حتى يموتوا جوعاً وعطشاً ، ففعل ، هذا قول وهب بن منبِّه .

والثالث : أنهم كانوا أبناء عظماء المدينة وأشرافهم ، خرجوا فاجتمعوا وراء المدينة على غير ميعاد ، فقال رجل منهم ، هو أسنهم : إني لأجد في نفسي شيئاً ما أظن أحداً يجده ، فقالوا : ما تجد ؟ قال : أجد في نفسي أن ربي ربُّ السموات والأرض ، فقاموا جميعاً فقالوا : ربُّنا ربُّ السموات والأرض ، فأجمعوا أن يدخلوا الكهف ، فدخلوا ، فلبثوا ما شاء الله ، هذا قول مجاهد .

وقال قتادة : كانوا أبناء ملوك الروم ، فتفرّدوا بدينهم في الكهف ، فضرب الله على آذانهم .

فصل

فأما سبب بعث أصحاب الكهف من نومهم ، فقال عكرمة : جاءت أمّةٌ مسلمةٌ ، وكان ملكهم مسلماً ، فاختلفوا في الروح والجسد ، فقال قائل : يُبعث الروح والجسد .

وقال قائل : يبعث الروح وحده ، والجسد تأكله الأرض فلا يكون شيئاً ، فشق اختلافهم على الملك ، فانطلق فلبس المسوح ، وقعد على الرماد ، ودعا الله أن يبعث لهم آية تبين لهم ، فبعث الله أصحاب الكهف .

وقال وهب بن منبه : جاء راعٍ قد أدركه المطر إلى الكهف ، فقال : لو فتحت هذا الكهف

، وأدخلته غنمي من المطر ، فلم يزل يعالجه حتى فتحه ، ورد الله إليهم أرواحهم حين أصبحوا من الغد .

وقال ابن السائب : احتاج صاحب الأرض التي فيها الكهف أن يبني حظيرة لغنمه ، فهدم ذلك السدَّ ، فبنى به ، فانفتح باب الكهف .

وقال ابن إسحاق : ألقى الله في نفس رجل من أهل البلد أن يهدم ذلك البنيان فيبني به حظيرة لغنمه ، فاستأجر عاملين ينزعان تلك الحجارة ، فنزعاها ، وفتحا باب الكهف ، فجلسوا فرحين ، فسلَّم بعضهم على بعض لا يرون في وجوههم ولا أجسادهم شيئاً يكرهونه ، إنما هم على هيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن ملكهم في طلبهم ، فصلّوا ، وقالوا ليمليخا صاحب نفقتهم : انطلق فاستمع ، ما نُذكَر به ، وابتغ لنا طعاماً ، فوضع ثيابه ، وأخذ الثياب التي كان يتنكر فيها ، وخرج فرأى الحجارة قد نزعت عن باب الكهف ، فعجب ، ثم مَرَّ مستخفياً متخوّفاً أن يراه أحد فيذهب به إلى الملك ، فلما رأى باب المدينة رأى عليه علامة تكون لأهل الإيمان ، فعجب ، وخُيِّل إليه أنها ليست بالمدينة التي يعرف ، ورأى ناساً لا يعرفهم ، فجعل يتعجب ويقول : لعلّي نائم ؛ فلما دخلها رأى قوماً يحلفون

باسم عيسى ، فقام مسنداً ظهره إلى جدار ، وقال في نفسه : والله ما أدري ما هذا ،

عشية أمس لم يكن على [وجه] الأرض من يذكر عيسى إلا قُتل ، واليوم أسمعهم يذكرونه ،

لعل هذه ليست المدينة التي أعرف ، والله ما أعرف مدينة قرب مدينتنا ، فقام كالحيران ،

وأخرج ورِقاً فأعطاه رجلاً وقال : بعني طعاماً ، فنظر الرجل إلى نقشه فعجب ، ثم ألقاه

إلى آخر ، فجعلوا يتطارحونه بينهم ، ويتعجبون ، ويتشاورون ، وقالوا : إن هذا قد أصاب

كنزاً ، فَفَرِق منهم ، وظنَّهم قد عرفوه ، فقال : أمسكوا طعامكم فلا حاجة بي إليه ، فقالوا

له : من أنت يا فتى ؟ والله لقد وجدتَ كنزاً وأنت تريد أن تخفيه ، شاركنا فيه وإلا أتينا

بك إلى السلطان فيقتلك ، فلم يدر ما يقول ، فطرحوا كساءه في عنقه وهو يبكي ويقول :

فُرِّق بيني وبين إخوتي ، يا ليتهم يعلمون ما لقيتُ ، فأَتوا به إلى رجلين كانا يدبّران أمر المدينة ،

فقالا : أين الكنز الذي وجدتَ ؟ قال : ما وجدتُ كنزاً ، ولكن هذه ورِق آبائي ، ونقش

هذه

المدينة وضربها ، ولكن والله ما أدري ما شأني ، ولا ما أقول لكم ، قال مجاهد : وكان

ورِق أصحاب الكهف مثل أخفاف الإبل ، فقالوا : من أنت ، وما اسم أبيك ؟ فأخبرهم ،

فلم يجدوا من يعرفه ، فقال له أحدهما : أتظن أنك تسخر مِنّا وخزائن هذه البلدة بأيدينا ، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار ؟ ! إني سآمر بك فتعذَّب عذاباً شديداً ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز ، فقال يمليخا : أنبؤني عن شيء أسالكم عنه ، فإن فعلتم صَدَقتكم ، قالوا : سل ، قال : ما فعل الملك دقيانوس ؟ قالوا : لا نعرف اليوم على وجه الأرض مَلِكاً يسمى دقيانوس ، وإنما هذا ملك كان منذ زمان طويل ، وهلكت بعده قرون كثيرة ، فقال : والله ما يصدّقني أحد بما أقوله ، لقد كُنّا فتيةً ، وأكرهنا الملكُ على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت ، فهربنا منه عشية أمسِ فنمنا ، فلما انتبهنا خرجتُ أشتري لأصحابي طعاماً ، فإذا أنا كما ترون ، فانطلقوا معي إلى الكهف أُريكم أصحابي ، فانطلقوا معه وسائر أهل المدينة ، وكان أصحابه قد ظنوا لإبطائه عليهم أنه قد أُخذ ، فبينما هم يتخوّفون ذلك ، إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل ، فظنوا أنهم رُسُل دقيانوس ، فقاموا إلى الصلاة ، وسلَّم بعضهم على بعض ، فسبق يمليخا إليهم وهو يبكي ، فبكَوا معه ، وسألوه عن شأنه ، فأخبرهم خبره ، وقصّ عليهم النبأ كُلَّه ، فعرفوا أنهم كانوا نياماً بأمر الله تعالى ، وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس ، وتصديقاً للبعث ؛ ونظر الناس في المسطور الذي فيه أسماؤهم وقصتهم ، فعجبوا ، وأرسلوا إلى ملكهم ، فجاء ، واعتنق القومَ ، وبكى ، فقالوا له : نستودعك الله ونقرأ عليك السلام ، حفظك الله ، وحفظ ملكك ، فبينا الملك قائم ، رجعوا إلى مضاجعهم ، وتوفَّى الله عزَّ وجلَّ أنفسهم ، فأمر الملك أن يُجعل لكل

واحد منهم تابوت من ذهب ، فلما أَمْسَوا رآهم في المنام ، فقالوا : إِنا لم نُخلَق من ذهب وفضة ، ولكن خُلقنا

من تراب ، فاتركنا كما كُنَّا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله عز وجل منه ، وحجبهم الله عز وجل حين خرجوا من عندهم بالرُّعْب ، فلم يقدر أحد أن يدخل عليهم ، وأمر المَلِك فجُعِل على باب الكهف مسجدٌ يصلَّى فيه ، وجعل لهم عيداً عظيماً يؤتَى كلَّ سنة .

وقيل : إِنه لما جاء يمليخا ومعه الناس ، قال : دعوني أدخل إِلى أصحابي فأبشّرهم ، فانهم إِن رأَوكم معي أرعبتموهم ، فدخل فبشّرهم ، وقبض الله روحه وأرواحهم ، فدخل الناس ، فإذا أجساد لا ينكرون منها شيئاً ، غير أنها لا أرواح فيها ، فقال الملك : هذه آيةٌ بعثها الله لكم .

قوله تعالى : ﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ قال الزجاج : المعنى : أنمناهم ومنعناهم السمع ، لأن النائم إِذا سمع انتبه .

و﴿ عدداً ﴾ منصوب على ضربين .

أحدهما : على المصدر ، المعنى : تُعَدُّ عدداً .

والثاني : أن يكون نعتاً للسنين ، المعنى : سنين ذات عدد ، والفائدة في ذِكْر العدد في الشيء المعدود ، توكيد كثرة الشيء ، لأنه إذا قَلَّ فُهِم مقداره ، وإذا كَثُر احتيج إلى أن يُعَدَّ العدد الكثير .

﴿ ثم بعثناهم ﴾ من نومهم ، يقال لكلِّ مَنْ خرج من الموت إلى الحياة ، أو من النوم إلى الانتباه : مبعوث ، لأنه قد زال عنه ما كان يحبسه عن التصرّف والانبعاث .

وقيل : معنى ﴿ سنين عدداً ﴾ : أنه لم يكن فيها شهور ولا أيام ، إنما هي كاملة ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ لنعلم أيُّ الحزبين ﴾ قال المفسرون : أي : لنرى .

وقال بعضهم : المعنى : لتعلموا أنتم .

وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو عمران ، والنخعي : "لِيُعلَم" بضم الياء ، على ما لم يُسمَّ فاعله "أيُّ الحزبين" ، ويعني بالحزبين : المؤمنين والكافرين من قوم أصحاب الكهف .

﴿ أحصى لما لبثوا ﴾ أي : لنعلم أهؤلاء أحصى للأمد أو هؤلاء ، فكأنه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف بعد خروجهم من بينهم ، فبعثهم الله ليبين ذلك ويظهر .

قال قتادة : لم يكن للفريقين عِلم بلبثهم ، لا لمؤمنيهم ، ولا لكافريهم .

قال مقاتل : لما بُعثوا زال الشك وعُرفت حقيقة اللبث .

وقال القاضي أبو يعلى : معنى الكلام : بعثناهم ليظهر المعلوم في اختلاف الحزبين في مدة لبثهم ، لما في ذلك من العبرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(226/468)

وقال القرطبى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) ﴾

مذهب سيبويه أن "أم" إذا جاءت دون أن يتقدّمها ألف استفهام أنها بمعنى بل وألف الاستفهام ، وهي المنقطعة .

وقيل : "أم" عطف على معنى الاستفهام في لعلك ، أو بمعنى ألف الاستفهام على الإنكار .

قال الطبري : وهو تقرير للنبيّ صلى الله عليه وسلم على حسابه أن أصحاب الكهف كانوا عجباً ، بمعنى إنكار ذلك عليه ؛ أي لا يعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة ، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشيع ؛ هذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة

وابن إسحاق .

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أن المشركين سألوه عن فتية فقدوا ، وعن ذي القرنين وعن الروح ، وأبطأ الوحي على ما تقدّم .

فلما نزل قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : أحسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرّقيم كانوا من آياتنا عجباً ؛ أي ليسوا بعجب من آياتنا ، بل في آياتنا ما هو أعجب من خبرهم .

الكلبي : خَلْقُ السموات والأرض أعجبُ من خبرهم .

الضحاك : ما أطلعتك عليه من الغيب أعجب .

الجنيد : شأنك في الإسراء أعجب .

الماورديّ : معنى الكلام النفي ؛ أي ما حسبت لولا إخبارنا .

أبو سهل : استفهام تقرير ؛ أي أحسبت ذلك فإنهم عجب .

والكهف : النَّقْب المتّسع في الجبل ؛ وما لم يتّسع فهو غار .

وحكى النقاش عن أنس بن مالك أنه قال : الكهف الجبل ؛ وهذا غير شهير في اللغة .

واختلف الناس في الرقيم ؛ فقال ابن عباس : كل شيء في القرآن أعلمه إلا أربعة : غِسْلين وحَنَان والأوّاه والرقيم .

وسئل مرة عن الرقيم فقال : زعم كعب أنها قرية خرجوا منها .

وقال مجاهد : الرقيم وادٍ .

وقال السّدي : الرقيم الصخرة التي كانت على الكهف .

وقال ابن زيد : الرقيم كتاب غمّ الله علينا أمره ، ولم يشرح لنا قصته .

وقالت فرقة : الرقيم كتاب في لوح من نحاس .

(227/468)

وقال ابن عباس : في لوح من رصاص كَتب فيه القوم الكفارُ الذين فرّ الفتية منهم قصتهم وجعلوها تاريخاً لهم ، ذكروا وقت فقدهم ، وكم كانوا ، وبين من كانوا .

وكذا قال الفراء ، قال : الرقيم لوح من رصاص كتب فيه أسماؤهم وأنسابهم ودينهم وممن هربوا .

قال ابن عطية : ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوماً مؤرّخين للحوادث ، وذلك من نبل المملكة ؛ وهو أمر مفيد .

وهذه الأقوال مأخوذة من الرّقْم ؛ ومنه كتاب مرقوم .

ومنه الأرقم لتخطيطه .

ومنه رَقْمة الوادي ؛ أي مكان جَرْي الماء وانعطافه .

وما روي عن ابن عباس ليس بمتناقض ؛ لأن القول الأوّل إنما سمعه من كَعْب .

والقول الثاني يجوز أن يكون عرف الرقيم بعده ، وروى عنه سعيد بن جُبير قال : ذكر ابن عباس أصحاب الكهف فقال : إن الفتية فقدوا فطلبهم أهلوهم فلم يجدوهم فرفع ذلك إلى الملك فقال : ليكونن لهم نبأ ، وأحضر لوحاً من رصاص فكتب فيه أسماءهم وجعله في خزانته ؛ فذلك اللوح هو الرقيم .

وقيل : إن مؤمنين كانا في بيت الملك فكتبا شأن الفتية وأسماءهم وأنسابهم في لوح من رصاص ثم جعلاه في تابوت من نحاس وجعلاه في البنيان ؛ فالله أعلم .

وعن ابن عباس أيضاً : الرقيم كتاب مرقوم كان عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام .

وقال النقاش عن قتادة : الرقيم دراهمهم .

وقال أنس بن مالك والشعبيّ : الرقيم كلبهم .

وقال عكرمة : الرقيم الدواة .

وقيل : الرقيم اللوح من الذهب تحت الجدار الذي أقامه الخضر .

وقيل : الرقيم أصحاب الغار الذي انطبق عليهم ؛ فذكر كلُّ واحد منهم أصلح عمله .

قلت : وفي هذا خبر معروف أخرجه الصحيحان ، وإليه نحا البخاري .

وقال قوم : أخبر الله عن أصحاب الكهف ، ولم يخبر عن أصحاب الرقيم بشيء .

وقال الضحاك : الرقيم بلدة بالروم فيها غار فيه أحد وعشرون نفساً كأنهم نيام على هيئة

أصحاب الكهف ، فعلى هذا هم فتية آخرون جرى لهم ما جرى لأصحاب الكهف .

والله أعلم .

(228/468)

وقيل : الرقيم وادٍ دون فلسطين فيه الكهف ؛ مأخوذ من رقمة الوادي وهي موضع الماء ؛ يقال : عليك بالرقمة ودع الصِّفّة ؛ ذكره الغزنوي .

قال ابن عطية : وبالشام على ما سمعت به من ناس كثير (كهف) فيه موتى ، يزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم ومعهم كلبُ رمّة .

وبالأندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تسمى لوشة كهف فيه موتى ومعهم كلبُ رمّة ، وأكثرهم قد تجرّد لحمه وبعضهم متماسك ، وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم أثارة .

ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف ، دخلت إليهم ورأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة ، وعليهم مسجد ، وقريب منهم بناء رومي يسمى الرقيم ، كأنه قصر مخلق قد بقي بعض جدرانه ، وهو في فلاة من الأرض خربة ، وبأعلى غرناطة مما يلي القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها مدينة دقيوس ، وجدنا في آثارها غرائب من قبور ونحوها .

قلت: ما ذكر من رؤيته لهم بالأندلس فإنما هم غيرهم؛ لأن الله تعالى يقول في حق أصحاب الكهف: ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ وقد قال ابن عباس لمعاوية لما أراد رؤيتهم: قد منع الله من هو خير منك عن ذلك؛ وسيأتي في آخر القصة.

وقال مجاهد في قوله: "كانوا من آياتنا عجباً" قال: هم عجب.

كذا روى ابن جريج عنه؛ يذهب إلى أنه ليس بإنكار على النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يكون عنده أنهم عَجَب.

وروى ابن نجيح عنه قال: يقول ليس بأعجب آياتنا.

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَوَى الفتية إِلَى الكهف ﴾ رُوي أنهم قوم من أبناء أشراف مدينة دقيوس الملك الكافر، [يقال فيه: دقليوس] ويقال فيه دقينوس.

وروي أنهم كانوا مطوّقين مسوّرين بالذهب ذوي ذوائب ، وهم من الروم واتبعوا دين عيسى .

وقيل : كانوا قبل عيسى ، والله أعلم .

وقال ابن عباس : إن ملكا من الملوك يقال له دقيانوس ظهر على مدينة من مدائن الروم يقال لها أُفْسُوس .

وقيل هي طرسوس وكان بعد زمن عيسى عليه السلام فأمر بعبادة الأصنام فدعا أهلها إلى عبادة الأصنام ، وكان بها سبعة أحداث يعبدون الله سرًّا ، فرفع خبرهم إلى الملك وخافوه فهربوا ليلاً ، ومرُّوا براع معه كلب فتبعهم فآووا إلى الكهف فتبعهم الملك إلى فم الغار ، فوجد أثر دخولهم ولم يجد أثر خروجهم ، فدخلوا فأعمى الله أبصارهم فلم يروا شيئاً ؛ فقال الملك : سُدُّوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً .

وروى مجاهد عن ابن عباس أيضاً أن هؤلاء الفتية كانوا في دين ملك يعبد الأصنام ويذبح لها ويكفر بالله ، وقد تابعه على ذلك أهل المدينة ، فوقع للفتية علم من بعض الحواريين حسبما ذكر النقاش أو من مؤمني الأمم قبلهم فآمنوا بالله ورأوا ببصائرهم قبيح فعل الناس ، فأخذوا نفوسهم بالتزام الدين وعبادة الله ؛ فرفع أمرهم إلى الملك وقيل له : إنهم قد فارقوا دينك واستخفّوا آلهتك وكفروا بها ، فاستحضرهم الملك إلى مجلسه وأمرهم باتباع دينه

والذبح لآلهته ، وتوعّدهم على فراق ذلك بالقتل ؛ فقالوا له فيما روي : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السماوات والأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذِ اعتزلتموهم ﴾ .

وروي أنهم قالوا نحو هذا الكلام وليس به ، فقال لهم الملك : إنكم شبان أغمار لا عقول لكم ، وأنا لا أعجل بكم بل أستأني فاذهبوا إلى منازلكم ودبّروا رأيكم وارجعوا إلى أمري ، وضرب لهم في ذلك أجلاً ، ثم إنه سافر خلال الأجل فتشاور الفتية في الهروب بأديانهم ، فقال لهم أحدهم : إني أعرف كهفاً في جبل كذا ، كان أبي يدخل فيه غنمه فلنذهب فلنختف فيه حتى يفتح الله لنا ؛ فخرجوا فيما روي يلعبون بالصَّوْلجان والكرة ، وهم يدحرجونها إلى نحو طريقهم لئلا يشعر الناس بهم .

وروي أنهم كانوا مثقفين فحضر عيد خرجوا إليه فركبوا في جملة الناس ، ثم أخذوا باللّعب بالصولجان حتى خلصوا بذلك .

وروى وهب بن منبّه أن أول أمرهم إنما كان حواريّ لعيسى بن مريم جاء إلى مدينة أصحاب الكهف يريد دخولها ، فأجّر نفسه من صاحب الحمام وكان يعمل فيه ، فرأى صاحب الحمام في أعماله بركة عظيمة ، فألقى إليه بكل أمره ، وعرف ذلك الرجل فتيان

من أهل المدينة فعرفهم الله تعالى فآمنوا به واتبعوه على دينه ، واشتهرت خلطتهم به ؛ فأتى يوماً إلى ذلك الحمام ولد الملك بامرأة أراد الخلوة بها ، فنهاه ذلك الحواري فانتهى ، ثم جاء مرة أخرى فنهاه فشتمه ، وأمضى عزمه في دخول الحمام مع البغيّ ، فدخل فماتا فيه جميعاً ، فاتهم ذلك الحواريّ وأصحابه بقتلهما ، ففروا جميعاً حتى دخلوا الكهف .

وقيل في خروجهم غير هذا .

وأما الكلب فروي أنه كان كلبَ صيد لهم ، وروي أنهم وجدوا في طريقهم راعياً له كلب فاتبعهم الراعي على رأيهم وذهب الكلب معهم ؛ قاله ابن عباس .

واسم الكلب حمران وقيل قطمير .

وأما أسماء أهل الكهف فأعجمية ، والسند في معرفتها واه .

والذي ذكره الطبري هي هذه : مكسلمينا وهو أكبرهم والمتكلم عنهم ، ومحسيميلنينا ويمليخا ، وهو الذي مضى بالورق إلى المدينة عند بعثهم من رقدتهم ، ومرطوس وكشوطوش ودينموس ويطونس ويبرونس .

قال مقاتل : وكان الكلب لمكسلمينا ، وكان أسنّهم وصاحب غنم .

الثانية : هذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة .

وقد خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم فاراً بدينه ، وكذلك أصحابه ، وجلس في الغار حسبما تقدم في سورة "النحل" .

وقد نص الله تعالى على ذلك في "براءة" وقد تقدم .

وهجروا أوطانهم وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم وإخوانهم ، رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين .

فسكنَى الجبال ودخول الغيران ، والعزلة عن الخلق والانفراد بالخالق ، وجواز الفرار من الظالم هي سنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء .

وقد فضّل رسول الله صلى الله عليه وسلم العزلة ، وفضّلها جماعة العلماء لا سيما عند ظهور الفتن وفساد الناس ، وقد نص الله تعالى عليها في كتابه فقال : ﴿ فَأْوُوا إِلَى الكهف ﴾ .

قال العلماء : الاعتزال عن الناس يكون مرّة في الجبال والشّعاب ، ومرة في السواحل والرِّباط ، ومرة في البيوت ؛ وقد جاء في الخبر : "إذا كانت الفتنة فأخف مكانك وكفّ لسانك" .

ولم يخصّ موضعاً من موضع .

وقد جعلت طائفة من العلماء العزلة اعتزال الشر وأهله بقلبك وعملك ، إن كنت بين

أظهرهم.

وقال ابن المبارك في تفسير العزلة: أن تكون مع القوم فإذا خاضوا في ذكر الله فخض معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت.

وروى البغويّ عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم" وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "نعم صوامع المؤمنين بيوتهم" من مراسيل الحسن وغيره.

(232/468)

وقال عقبة بن عامر لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما النجاة يا رسول الله؟ فقال: "يا عقبة أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك" وقال صلى الله عليه وسلم: "يأتي على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنمُ يتبع بها شَعَفَ الجبال ومواقع القطر يَفِرّ بدينه من الفتن"

خرّجه البخاري.

وذكر عليّ بن سعد عن الحسن بن واقد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كانت سنة ثمانين ومائة فقد حلّت لأمتي العزبة والعزلة والترهّب في رؤوس الجبال" وذكر

أيضاً علي بن سعد عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فرّ بدينه من شاهق إلى شاهق أو حجر إلى حجر فإذا كان ذلك لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله فإذا كان ذلك حلّت العُزْبة .

قالوا : يا رسول الله ، كيف تحلّ العزبة وأنت تأمرنا بالتزويج ؟ قال : إذا كان ذلك كان فساد الرجل على يدي أبويه فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدي زوجته فإن لم تكن له زوجة كان هلاكه على يدي ولده فإن لم يكن له ولد كان هلاكه على يدي القرابات والجيران .

قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : يعيِّرونه بضيق المعيشة ويكلّفونه ما لا يطيق فعند ذلك يورد نفسه الموارد التي يهلك فيها " .

قلت : أحوال الناس في هذا الباب تختلف ، فربّ رجلٍ تكون له قوّة على سكنى الكهوف والغيران في الجبال ، وهي أرفع الأحوال لأنها الحالة التي اختارها الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم في بداية أمره ، ونص عليها في كتابه مخبراً عن الفتية ، فقال : ﴿ وَإِذِ اعتزلتموهم وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الكهف ﴾ .

وربّ رجل تكون العزلة له في بيته أخف عليه وأسهل ؛ وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم .

وربَّ رجلٍ متوسّط بينهما فيكون له من القوّة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم ، فهو معهم في الظاهر ومخالف لهم في الباطن .

وذكر ابن المبارك حدّثنا وهيب بن الورد قال : جاء رجل إلى وهب بن منبِّه فقال : إن الناس وقعوا فيما فيه وقعوا وقد حدّثت نفسي ألا أخالطهم .

فقال : لا تفعل ! إنه لا بدّ لك من الناس ، ولا بدّ لهم منك ، ولك إليهم حوائج ، ولهم إليك حوائج ، ولكن كن فيهم أصمَّ سميعاً ، أعمى بصيراً ، سَكوتاً نَطُوقاً .

وقد قيل : إن كل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معنى الجبال والشِّعاب ؛ مثل الاعتكاف في المساجد ، ولزوم السواحل للرّباط والذكر ، ولزوم البيوت فراراً عن شرور الناس .

وإنما جاءت الأحاديث بذكر الشعاب والجبال واتباع الغنم والله أعلم لأن ذلك هو الأغلب في المواضع التي يعتزل فيها ؛ فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معناه ؛ كما ذكرنا ، والله الموفق وبه العصمة .

وروى عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يعجب ربُّك من راعي غنم في رأس شظيّة الجبل يؤذِّن بالصلاة ويصلي فيقول الله عز وجل انظروا إلى عبدي يؤذن ويقيم الصلاة يخاف مني قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة " خرجه النسائيّ .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ لما فرّوا ممن يطلبهم اشتغلوا بالدعاء ولجأوا إلى الله تعالى فقالوا : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ أي مغفرة ورزقاً .

﴿ وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ توفيقاً للرشاد .

وقال ابن عباس : مخرجاً من الغار في سلامة .

وقيل صواباً .

ومن هذا المعنى أنه عليه السلام كان إذا حَزَبَه أمر فَزِع إلى الصلاة .

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ﴾

عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم .

وهذه من فصيحات القرآن التي أقرّت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله .

قال الزجاج : أي منعناهم عن أن يسمعوا ؛ لأن النائم إذا سمع انتبه .

وقال ابن عباس : ضربنا على آذانهم بالنوم ؛ أي سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها .

وقيل : المعنى "فضربنا على آذانهم" أي فاستجبنا دعاءهم ، وصرفنا عنهم شرّ قومهم ، وأنمناهم .

والمعنى كلّه متقارب .

وقال قطرب : هذا كقول العرب ضرب الأمير على يد الرعيّة إذا منعهم الفساد ، وضرب السيد على يد عبده المأذون له في التجارة إذا منعه من التصرف .

قال الأسود بن يعفر وكان ضريراً :

ومن الحوادث لا أبالك أنني . . .

ضُرِبتْ عليّ الأرضُ الأسدادِ

وأما تخصيص الآذان بالذكر فلأنها الجارحة التي منها عظم فساد النوم ، وقلّما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه ، ولا يستحكم نوم إلا من تعطُّل السمع .

ومن ذكر الأذن في النوم قوله صلى الله عليه وسلم : " ذاك رجل بال الشيطان في أذنه " خرّجه الصحيح .

أشار عليه السلام إلى رجل طويل النوم ، لا يقوم الليل .

و"عدداً" نعت للسنين ؛ أي معدودة ، والقصد به العبارة عن التكثير ؛ لأن القليل لا يحتاج إلى عدد لأنه قد عُرِف .

والعدّ المصدر ، والعدد اسم المعدود كالنَّفض والخَبَط .

وقال أبو عبيدة : "عدداً" نصب على المصدر .

ثم قال قوم : بيّن الله تعالى عدد تلك السنين من بعدُ فقال : ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ

سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أي من بعد نومهم .

ويقال لمن أُحْيِيَ أو أقيم من نومه مبعوث ؛ لأنه كان ممنوعاً من الانبعاث والتصرف .

قوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى ﴾ "لنعلم" عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود ومشاهدته ؛ وهذا على نحو كلام العرب ، أي لنعلم ذلك موجوداً ، وإلا فقد كان الله تعالى علم أيّ الحزبين أحصى الأمد .

وقرأ الزُّهريّ "ليعلم" بالياء .

والحزبان الفريقان .

والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليلاً .

والحزب الثاني أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم ، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية .

وهذا قول الجمهور من المفسرين .

وقالت فرقة : هما حزبان من الكافرين ، اختلفا في مدّة أصحاب الكهف .

وقيل : هما حزبان من المؤمنين .

وقيل غير ذلك مما لا يرتبط بألفاظ الآية .

و"أحصى" فعل ماض .

و"أمدا" نصب على المفعول به ؛ قاله أبو عليّ .

وقال الفرّاء : نصب على التمييز .

وقال الزجاج: نصب على الظرف ، أي أيّ الحزبين أحصى للبثهم في الأمد ، والأمد الغاية .

وقال مجاهد : "أمدا" معناه عددا ، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب .

وقال الطبري : "أمدا" منصوب ب"لبثوا" .

ابن عطية : وهذا غير متّجه ، وأما من قال إنه نصب على التفسير فيلحقه من الاختلال أن

أفعل لا يكون من فعل رباعي إلا في الشاذ ، و"أحصى" فعل رباعي .

وقد يحتج له بأن يقال : إن أفعل في الرباعي قد كثر ؛ كقولك : ما أعطاه للمال وآتاه للخير .

" وقال في صفة حوضه صلى الله عليه وسلم : "ماؤه أبيض من اللبن" " وقال عمر بن

الخطاب : فهو لما سواها أضْيع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) ﴾

﴿ أم ﴾ هنا هي المنقطعة فتتقدر ببل والهمزة .

قيل : للإضراب عن الكلام الأول بمعنى الانتقال من كلام إلى آخر لا بمعنى الإبطال ، والهمزة للإستفهام .

وزعم بعض النحويين أن ﴿ أم ﴾ هنا بمعنى الهمزة فقط ، والظاهر في ﴿ أم حسبت ﴾ أنه خطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) .

فقال مجاهد : لم ينهه عن التعجب وإنما أراد كل آيا تنا كذلك .

وقال قتادة : لا يتعجب منها فالعجائب في خلق السموات والأرض أكثر .

وقال ابن عباس : سألوك عن ذلك ليجعلوا جوابك علامة لصدقك وكذبك ، وسائر آيات القرآن أبلغ وأعجب وأدل على صدقك .

وقال الطبري : تقرير له عليه السلام على حسبانه ﴿ أن أصحاب الكهف ﴾ كانوا ﴿ عجباً ﴾ بمعنى إنكار ذلك عليه أن لا يعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة ، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم .

قال : وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن إسحاق .

وقال الزهراوي : يحتمل معنى آخر وهو أن يكون استفهاماً له هل علم ﴿ أن أصحاب

الكهف كانوا من آياتنا عجباً ﴾ بمعنى إثبات أنهم عجب ، ويكون فائدة تقريره جمع نفسه للأمر لأن جوابه أن يقول لم أحسب ولا علمته ، فيقال له وصفهم عند ذلك والتجوز في هذا التأويل هو في لفظة حسبت انتهى .

وقال غيره : معناه أعلمت أي لم تعلمه حتى أعلمتك .

وقال الزمخشري : ذكر من الآيات الكلية تزيين الأرض بما خلق فوقها من الأجناس التي لا حصر لها ، وإزالة ذلك كله كأن لم يكن ثم قال : ﴿ أم حسبت ﴾ يعني ﴿ أن ﴾ ذلك من قصة أهل الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة انتهى .

وقيل : أي أم علمت أي فاعلم أنهم ﴿ كانوا ﴾ ﴿ عجباً ﴾ كما تقول : أعلمت أن فلاناً فعل كذا أي قد فعل فاعلمه .

وقيل : الخطاب للسامع ، والمراد المشركون أي قل لهم ﴿ أم حسبتم ﴾ الآية .

(237/468)

والظن قد يقام مقام العلم ، فكذلك حسبت بمعنى علمت والكهف تقدم تفسيره في المفردات .

وعن أنس : الكهف الجبل .

قال القاضي : وهذا غير مشهور في اللغة .

وقال مجاهد : تفريج بين الجبلين ، والظاهر ﴿ أن أصحاب الكهف والرقيم ﴾ هم الفتية المذكورون هنا .

وعن ابن المسيب أنهم قوم كان حالهم كأصحاب الكهف .

فقال الضحاك ﴿ الرقيم ﴾ بلدة بالروم فيها غار فيه أحد وعشرون نفساً أموات كلهم نيام على هيئة ﴿ أصحاب الكهف ﴾ .

وقيل : هم أصحاب الغار ففي الحديث عن النعمان بن بشير أنه سمع الرسول (صلى الله عليه وسلم) يذكر الرقيم قال : " إن ثلاثة نفر أصابتهم السماء فأووا إلى الكهف فانحطت صخرة من الجبل فانطبقت على باب الكهف " وذكر الحديث وهو حديث المستأجر والعفيف وبارّ والديه ، وفيما أورده فيه زيادة ألفاظ على ما في الصحيح .

ومن قال إنهم طائفتان قال : أخبر الله عن ﴿ أصحاب الكهف ﴾ ولم يخبر عن أصحاب ﴿ الرقيم ﴾ بشيء ، ومن قال : بأنهم طائفة واحدة اختلفوا في شرح ﴿ الرقيم ﴾ فعن ابن عباس : إنه لا يدري ما ﴿ الرقيم ﴾ أكتاب أم بنيان ، وعنه أنه كتاب كان عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين المسيح عليه السلام .

وقيل : من دين قبل عيسى ، وعن ابن عباس ووهب أنه اسم قريتهم .

وقيل : لوح من ذهب تحت الجدار أقامه الخضر عليه السلام .

وقيل : كتب فيه أسماؤهم وقصتهم وسبب خروجهم .

وقيل : لوح من رصاص كتب فيه شأن الفتية ووضع في تابوت من نحاس في فم الكهف .

وقيل : صخرة كتب فيها أسماؤهم وجعلت في سور المدينة .

وقيل : اسم كلبهم وتقدم بيت أمية قاله أنس والشعبي وابن جبير ، وعن الحسن : الجبل الذي به الكهف وعن عكرمة اسم الدواة بالرومية .

وقيل : اسم للوادي الذي فيه الكهف .

وقيل : رقم الناس حديثهم نقراً في الجبل .

و ﴿ عجباً ﴾ نصب على أنه صفة لمحذوف دل عليه ما قبله ، وتقديره آية ﴿ عجباً ﴾ ، وصفت بالمصدر أو على تقدير ذات عجب وأما أسماء فتية أهل الكهف فأعجمية لا تنضبط بشكل ولا نقط ، والسند في معرفتها ضعيف والرواة مختلفون في قصصهم وكيف كان اجتماعهم وخروجهم ، ولم يأت في الحديث الصحيح كيفية ذلك ولا في القرآن إلاّ ما قص تعالى علينا من قصصهم ، ومن أراد تطلب ذلك في كتب التفسير .

ورُوي أن اسم الملك الكافر الذي خرجوا في أيامه عن ملته اسمه دقيانوس .

وروي أنهم كانوا في الروم .

وقيل : في الشام وأن بالشام كهفاً فيه موتى ، ويزعم مجاوروه أنهم ﴿ أصحاب الكهف ﴾ وعليهم مسجد وبناء يسمى ﴿ الرقيم ﴾ ومعهم كلب رمة .

وبالأندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تسمى لوشة كهف فيه موتي ومعهم كلب رمّة وأكثرهم قد انجرد لحمه وبعضهم متماسك ، وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم ويزعم ناس أنهم ﴿ أصحاب الكهف ﴾ .

قال ابن عطية : دخلت إليهم فرأيتهم منذ أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة وعليهم مسجد وقريب منهم بناء رومي يسمى ﴿ الرقيم ﴾ كأنه قصر مخلق قد بقي بعض جدرانه ، وهو في فلاة من الأرض خربة وبأعلى حضرة غرناطة مما يلي القبلة آثار مدينة قديمة يقال لها مدينة دقيوس .

وجدنا في آثارها غرائب من قبور ونحوها وإنما استسهلت ذكر هذا مع بعده لأنه عجب يتخلد ذكره ما شاء الله عز وجل انتهى .

وحين كنا بالأندلس كان الناس يزورون هذا الكهف ويذكرون أنهم يغلطون في عدتهم إذا عدوهم ، وأن معهم كلباً ويرحل الناس إلى لوشة لزيارتهم ، وأما ما ذكرت من مدينة دقيوس التي بقبلي غرناطة فقد مررت عليها مراراً لا تحصى ، وشاهدت فيها حجارة كباراً ، ويترجح كون أهل الكهف بالأندلس لكثرة دين النصارى بها حتى أنها هي بلاد مملكتهم

العظمى ، ولأن الأخبار بما هو في أقصى مكان من أرض الحجاز أغرب وأبعد أن يعرفه أحد إلاّ بوحي من الله تعالى .

والعامل في ﴿ إذ ﴾ .

قيل : أذكر مضمرة .

وقيل ﴿ عجباً ﴾ ، ومعنى ﴿ أوى ﴾ جعلوه مأوى لهم ومكان اعتصام ، ثم دعوا الله تعالى أن يؤتيهم رحمة من عنده وفسرها المفسرون بالرزق .

وقال الزمخشري : هي المغفرة والرزق والأمن من الأعداء .

و﴿ الفتية ﴾ جمع فتى جمع تكسير جمع قلة ، وكذلك كانوا قليلين .

وعند ابن السراج أنه اسم جمع لا جمع تكسير .

ولفظ ﴿ الفتية ﴾ يشعر بأنهم كانوا شباباً وكذا روي أنهم كانوا شباباً من أبناء الأشراف والعظماء مطوقين مسورين بالذهب ذوي ذوائب وهم من الروم ، اتبعوا دين عيسى عليه السلام .

وقيل : كانوا قبل عيسى وأصحابنا الأندلسيون تكثر في ألفاظهم تسمية نصارى الأندلس

بالروم في نثرهم ونظمهم ومخاطبة عامتهم ، فيقولون : غزونا الروم ، جاءنا الروم .

وقل من ينطق بلفظ النصارى ، ولما دعوا بإيتاء الرحمة وهي تتضمن الرزق وغيره ، دعوا الله بأن يهيئ لهم من أمرهم الذي صاروا إليه من مفارقة دين أهليهم وتوحيد الله رشداً وهي الاهتداء والديمومة عليه .

وقال الزمخشري : واجعل ﴿ أمرنا رشداً ﴾ كله كقولك رأيت منك أسداً .

وقرأ أبو جعفر وشيبة والزهري : وهي ويهيي بياءين من غير همز ، يعني أنه أبدل الهمزة الساكنة ياء .

وفي كتاب ابن خالويه الأعشى عن أبي بكر عن عاصم : وهيء لنا ويهي لكم لا يهمز انتهى .

فاحتمل أن يكون أبدل الهمزة ياءً ، واحتمل أن يكون حذفها فالأول إبدال قياسي ، والثاني مختلف فيه ينقاس حذف الحرف المبدل من الهمزة في الأمر أو المضارع إذا كان مجزوماً .

وقرأ أبو رجاء : رشد بضم الراء وإسكان الشين .

وقرأ الجمهور ﴿ رشداً ﴾ بفتحهما .

قال ابن عطية : وهي أرجح لشبهها بفواصل الآيات قبل وبعد ، وهذا الدعاء منهم كان في أمر دنياهم وألفاظه تقتضي ذلك ، وقد كانوا على ثقة من رشد الآخرة ورحمتها ، وينبغي

لكل مؤمن أن يجعل دعاءه في أمر دنياه هذه الآية فإنها كافية ، ويحتمل ذكر الرحمة أن يراد بها أمر الآخرة انتهى .

﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ استعارة بديعة للإنامة المستثقلة التي لا يكاد يسمع معها ، وعبر بالضرب ليدل على قوة المباشرة واللصوق واللزوم ومنه ﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ وضرب الجزية وضرب البعث .

وقال الفرزدق :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها . . .

وقضى عليك به الكتاب المنزل

وقال الأسود بن يعفر :

ومن الحوادث لا أبا لك أنني . . .

ضربت على الأرض بالأشداد

وقال آخر :

إن المروءة والسماحة والندى . . .

في قبة ضربت على ابن الحشرج

استعير للزوم هذه الأوصاف لهذا الممدوح ، وذكر الجارحة التي هي الآذان إذ هي يكون منها السمع لأنه لا يستحكم نوم إلاّ مع تعطل السمع .

وفي الحديث : " ذلك رجل بال الشيطان في أذنه " أي استثقل نومه جداً حتى لا يقوم بالليل .

ومفعول ضربنا محذوف أي حجاباً من أن يسمع كما يقال بني على امرأته يريدون بني عليها القبة .

وانتصب ﴿ سنين ﴾ على الظرف والعامل فيه ﴿ فضربنا ﴾ ، و﴿ عدداً ﴾ مصدر وصف به أو منتصب بفعل مضمر أي بعد ﴿ عدداً ﴾ وبمعنى اسم المفعول كالقبض والنفض ، ووصف به ﴿ سنين ﴾ أي ﴿ سنين ﴾ معدودة .

والظاهر في قوله ﴿ عدداً ﴾ الدلالة على الكثرة لأنه لا يحتاج أن يعد إلاّ ما كثر لا ما قل .

وقال الزمخشري : ويحتمل أن يريد القلة لأن الكثير قليل عنده كقوله ﴿ لم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار ﴾ انتهى وهذا تحريف في التشبيه لأن لفظ الآية كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار ، فهذا تشبيه لسرعة انقضاء ما عاشوا في الدنيا إذا رأوا العذاب كما قال الشاعر :

كأن الفتى لم يعر يوماً إذا اكتسي . . .

ولم يك صعلوكاً إذا ما تمولا

﴿ ثم بعثناهم ﴾ أي أيقظناهم من نومهم ، والبعث التحريك عن سكون إما في الشخص وإما عن الأمر المبعوث فيه ، وإن كان المبعوث فيه متحركاً و ﴿ لنعلم ﴾ أي لنظر لهم ما علمناه من أمرهم ، وتقدم الكلام في نظير هذا في قوله ﴿ لنعلم من يتبع الرسول ﴾ وفي التحرير وقرأ الجمهور : ﴿ لنعلم ﴾ بالنون ، وقرأ الزهري بالياء وفي كتاب ابن خالوية ليعلم ﴿ أي الحزبين ﴾ حكاه الأخفش .

وفي الكشاف وقرىء ليعلم وهو معلق عنه لأن ارتفاعه بالإبتداء لا بإسناد يعلم إليه ، وفاعل يعلم مضمون الجملة كما أنه مفعول يعلم انتهى .

فأما قراءة لنعلم فيظهر أن ذلك التفات خرج من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة ، فيكون معناها ومعنى ﴿ لنعلم ﴾ بالنون سواء ، وأما ليعلم فيظهر أن المفعول الأول محذوف لدلالة المعنى عليه ، والتقدير ليعلم الله الناس ﴿ أي الحزبين ﴾ .

والجملة من الابتداء والخبر في موضع مفعولي يعلم الثاني والثالث ، وليعلم معلق .

وأما ما في الكشاف فلا يجوز ما ذكر على مذهب البصريين لأن الجملة إذ ذاك تكون في موضع المفعول الذي لا يسمى فاعله وهو قائم مقام الفاعل ، فكما أن تلك الجملة وغيرها من الجمل لا تقوم مقام الفاعل فكذلك لا يقوم مقام ما ناب عنه .

وللكوفيين مذهبان :

أحدهما : أنه يجوز الإسناد إلى الجملة اللفظية مطلقاً .

والثاني : أنه لا يجوز إلّا إن كان مما يصح تعليقه .

والظاهر أن الحزبين هما منهم لقوله تعالى ﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم ﴾ الآية .

وكأن الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم علموا أن لبثهم تطاول ، ويدل على ذلك أنه تعالى بدأ بقصتهم أولاً مختصرة من قوله ﴿ أم حسبت ﴾ إلى قوله ﴿ أمداً ﴾ ثم قصها تعالى مطولة مسهبة من قوله ﴿ نحن نقص ﴾ – إلى قوله – ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ .

وقال ابن عطية : والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم ﴿ الفتية ﴾ أي ظنوا لبثهم قليلاً ، والحزب الثاني هم أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم حين كان عندهم التاريخ

بأمر الفتية ، وهذا قول الجمهور من المفسرين انتهى .

وقالت فرقة : هما حزبان كافران اختلفا في مدة أهل الكهف .

قال السدّي من اليهود والنصارى الذين علموا قريشاً السؤال عن أهل الكهف ، وعن الخضر وعن الروح وكانوا قد اختلفوا في مدة إقامة أهل الكهف في الكهف .

وقال مجاهد : قوم أهل الكهف كان منهم مؤمنون وكافرون واختلفوا في مدة إقامتهم .

وقيل : حزبان من المؤمنين في زمن ﴿ أصحاب الكهف ﴾ اختلفوا في مدة لبثهم قاله الفراء .

وقال ابن عباس الملوك الذين تداولوا ملك المدينة حزب وأهل الكهف حزب .

وقال ابن بحر : الحزبان الله والخلق كقوله ﴿ أأنتم أعلم أم الله ﴾ وهذه كلها أقوال مضطربة .

وقال ابن قتادة : لم يكن للفريقين علم بلبثهم لا لمؤمن ولا لكافر بدليل قوله ﴿ الله أعلم بما لبثوا ﴾ .

وقال مقاتل : كما بعثوا زال الشك وعرفت حقيقة اللبث .

و ﴿ أحصى ﴾ جوز الحوفي وأبو البقاء أن يكون فعلاً ماضياً ، وما مصدرية و ﴿ أمداً ﴾ مفعول به ، وأن يكون أفعل تفضيل و ﴿ أمداً ﴾ تمييز .

واختار الزجّاج والتبريزي أن يكون أفعل للتفضيل واختار الفارسي والزمخشري وابن

عطية أن تكون فعلاً ماضياً ، ورجحوا هذا بأن ﴿ أحصى ﴾ إذا كان للمبالغة كان بناء من غير الثلاثي ، وعندهم أن ما أعطاه وما أولاه للمعروف وأعدى من الجرب شاذ لا يقاس .

ويقول أبو إسحاق : إنه قد كثر من الرباعي فيجوز ، وخلط ابن عطية فأورد فيما بني من الرباعي ما أعطاه للمال وآتاه للخير وهي أسود من القار وماؤه أبيض من اللبن .

وفهو لما سواها أضيع .

قال : وهذه كلها أفعل من الرباعي انتهى .

وأسود وأبيض ليس بناؤهما من الرباعي .

(243/468)

وفي بناء أفعل للتعجب وللتفضيل ثلاثة مذاهب يبنى منه مطلقاً وهو ظاهر كلام سيبويه ، وقد جاءت منه ألفاظ ولا يبنى منه مطلقاً وما ورد حمل على الشذوذ والتفصيل بين أن تكون الهمزة للنقل .

فلا يجوز ، أو لغير النقل كأشكل الأمر وأظلم الليل فيجوز أن تقول ما أشكل هذه المسألة ، وما أظلم هذا الليل .

وهذا اختيار ابن عصفور من أصحابنا .

ودلائل هذه المذاهب مذكورة في كتب النحو ، وإذا قلنا بأن ﴿ أحصى ﴾ اسم للتفضيل جاز أن يكون ﴿ أي الحزبين ﴾ موصولاً مبنياً على مذهب سيبويه لوجود شرط جواز البناء فيه ، وهو كون ﴿ أي ﴾ مضافة حذف صدر صلتها ، والتقدير ليعلم الفريق الذي هو ﴿ أحصى ﴾ ﴿ لما لبثوا أمداً ﴾ من الذين لم يحصوا ، وإذا كان فعلاً ماضياً امتنع ذلك لأنه إذ ذاك لم يحذف صدر صلتها لوقوع الفعل صلة بنفسه على تقدير جعل ﴿ أي ﴾ موصولة فلا يجوز بناؤها لأنه فات تمام شرطها ، وهو أن يكون حذف صدر صلتها .

وقال : فإن قلت : فما تقول فيمن جعله من أفعل التفضيل ؟ قلت : ليس بالوجه السديد ، وذلك أن بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس ، ونحو أعدى من الجرب ، وأفلس من ابن المذلق شاذ ، والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع فكيف به ، ولأن ﴿ أمداً ﴾ لا يخلو إما أن ينصب بأفعل فأفعل لا يعمل ، وإما أن ينصب بلبثوا فلا يسد عليه المعنى ، فإن زعمت أني أنصبه بإضمار فعل يدل عليه ﴿ أحصى ﴾ كما أضمر في قوله :

واضرب منا بالسيوف القوانسا . . .

على يضرب القوانس فقد أبعدت المتناول وهو قريب حيث أبيت أن يكون ﴿ أحصى ﴾ فعلاً ثم رجعت مضطراً إلى تقديره وإضماره انتهى .

أما دعواه الشذوذ فهو مذهب أبي عليّ ، وقد ذكرنا أن ظاهر مذهب سيبويه جواز بنائه

من أفعل مطلقاً وأنه مذهب أبي إسحاق وأن التفصيل اختيار ابن عصفور وقول غيره .

والهمزة في ﴿ أحصى ﴾ ليست للنقل .

وأما قوله فافعل لا يعمل ليس بصحيح فإنه يعمل في التمييز ، و﴿ أمداً ﴾ تمييز وهكذا أعربه من زعم أن ﴿ أحصى ﴾ أفعل للتفضيل ، كما تقول : زيداً أقطع الناس سيفاً ، وزيد أقطع للهام سيفاً ، ولم يعربه مفعولاً به .

وأما قوله : وإما أن ينصب بلبثوا فلا يسد عليه المعنى أي لا يكون سديداً فقد ذهب الطبري إلى نصب ﴿ أمداً ﴾ بلبثوا .

قال ابن عطية : وهذا غير متجه انتهى .

وقد يتجه ذلك أن الأمد هو الغاية ويكون عبارة عن المدة من حيث أن للمدة غاية في أمد المدة على الحقيقة ، وما بمعنى الذي و﴿ أمداً ﴾ منتصب على إسقاط الحرف ، وتقديره لما ﴿ لبثوا ﴾ من أمد أي مدة ، ويصير من أمد تفسيراً لما أنهم في لفظ ﴿ ما لبثوا ﴾ كقوله ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة ﴾ ولما سقط الحرف وصل إليه الفعل .

وأما قوله : فإن زعمت إلى آخره فيقول : لا يحتاج إلى هذا الزعم لأنه لقائل ذلك أن يسلك مذهب الكوفيين في أن أفعل التفضيل ينتصب المفعول به ، فالقوانس عندهم منصوب بأضرب نصب المفعول به ، وإنما تأويله بضرب القوانس قول البصريين ، ولذلك ذهب بعض النحويين إلى أن قوله ﴿ أعلم من يضل ﴾ من منصوبة بأعلم نصب المفعول به ، ولو كثر وجود مثل :

واضرب منا بالسيوف القوانسا . . .

لكنا نقيسه ويكون معناه صحيحاً لأن أفعل التفضيل مضمن معنى المصدر فيعمل بذلك التضمين ، ألا ترى أن المعنى يزيد ضربنا بالسيوف القوانسا على ضرب غيرنا . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(245/468)

وقال أبو السعود :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾

الخطابُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمرادُ إنكارُ حُسبانِ أمّته ، وأم منقطعةٌ مقدّرة ببل التي هي للانتقال من حديث إلى حديث لا للإبطال ، وبهمزة الاستئنافِ عند الجمهور

وبل وحدها عند غيرِهم أي بل أحسبت ﴿ أَنَّ أصحاب الكهف والرقيم كَانُواْ ﴾ في بقائهم على الحياة مدةً طويلةً من الدهر ﴿ مِنْ ءاياتنا ﴾ من بين آياتِنا التي من جملتها ما ذكرناه مِنْ جعْل ما على الأرض زينةً لها للحكمة المشارِ إليها ثم جعلِ ذلك كلّه صعيداً جرُزاً كأن لم تغْنَ بالأمس ﴿ عَجَبًا ﴾ أي آيةً ذاتَ عجَب وضْعاً له موضعَ المضاف أو وصفاً لذلك بالمصدر مبالغةً ، وهو خبرٌ لكانوا ومن آياتنا حالٌ منه ، والمعنى أن قصّتَهم وإن كانت خارقةً للعادات ليست بعجيبة بالنسبة إلى سائر الآياتِ التي من جملتها ما ذكر من تعاجيب خلق الله تعالى بل هي عندها كالنزْر الحقير ، والكهفُ الغارُ الواسعُ في الجبل والرقيمُ كلبُهم ، قال أمية بن أبي الصّلت

وليس بها إلا الرقيمُ مجاورا . . . وصيدُهمُ والقومُ في الكهف هُمَّدُ

وقيل : هو لوحٌ رصاصيٌّ أو حجَري رُقمت فيه أسماؤُهم وجُعل على باب الكهفِ ، وقيل : هو الوادي الذي فيه الكهفُ فهو من رَقْمة الوادي أي جانبه ، وقيل : الجبلُ ، وقيل : قريتُهم ، وقيل : مكانُهم بين غضبانَ وأيْلةَ دون فلسطين ، وقيل : أصحابُ الرقيم آخرون وكانوا ثلاثةً انطبق عليهم الغارُ فنجَوْا بذكر كل منهم أحسنَ عمله على ما فُصِّل في الصحيحين .

﴿ إِذْ أَوَى ﴾ ظرفٌ لعجباً لا لحسِبتَ أو مفعولٌ لاذكرُ أي حين التجأ ﴿ الفتية ﴾ أي أصحابُ الكهف ، أوثر الإظهارُ على الإضمار لتحقيق ما كانوا عليه في أنفسهم من حال الفتوةِ فإنهم كانوا فتيةً من أشراف الرومِ أرادهم دقيانوسُ على الشرك فهربوا منه بدينهم ولأن صاحبيّةَ الكهف من فروع التجائِهم إلى الكهف فلا يناسب اعتبارُها معهم قبل بيانه ﴿ إِلَى الكهف ﴾ بجلبهم للجلوس واتخذوه مأوى ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا ءاتِنَا مِن لَّدُنْكَ ﴾ من خزائن رحمتِك الخاصةِ المكنونةِ عن عيون أهلِ العادات ، فمن ابتدائيةٌ متعلقةٌ بآتنا أو بمحذوف وقع حالاً من مفعوله الثاني قُدّمت عليه لكونه نكرةً ، ولو تأخّرت لكانت صفةً له أي آتنا كائنةً من لدنك ﴿ رَحْمَةً ﴾ خاصةً تستوجب المغفرةَ والرزقَ والأمنَ من الأعداء ﴿ وَهَيّىء لَنَا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ الذي نحن عليه من مهاجَرة الكفار والمثابرة على طاعتك ، وأصلُ التهيئةِ إحداثُ هيئةِ الشيء ، أي أصلحْ ورتّب وأتممْ لنا من أمرنا ﴿ رَشَدًا ﴾ إصابةً للطريق الموصلِ إلى المطلوب واهتداءً إليه ، وكِلا الجارّين متعلقٌ بهيّىءْ لاختلافهما في المعنى ، وتقديمُ المجرورَين على المفعول الصريحِ لإظهار الاعتناءِ بهما وإبرازِ الرغبةِ في المؤخر بتقديم أحوالِه فإن تأخيرَ ما حقُّه التقديمُ عما هو من أحواله المرغّبة فيه كما يورث شوقَ السامعِ إلى وروده ينبىء عن كمال رغبةِ المتكلّم واعتنائِه بحصوله لا محالة ، وكذا الكلامُ في تقديم قوله تعالى : ﴿ مِن لَّدُنْكَ ﴾ على تقدير تعلّقِه بآتنا ، وتقديمُ لنا على (من

أمرنا) للإيذان من أول الأمرِ بكون المسؤول مرغوباً فيه لديهم ، أو اجعل أمرَنا راشداً كلَّه على أن من تجريدية مثْلُها في قولك : رأيتُ منك أسداً .

(247/468)

﴿ فَضَرَبْنَا على ءاذَانِهِمْ ﴾ أي أنمناهم على طريقة التمثيل المبنيِّ على تشبيه الإنامةِ الثقيلةِ المانعةِ عن وصول الأصواتِ إلى الآذان بضرب الحجابِ عليها ، وتخصيصُ الآذان بالذكر مع اشتراك سائرِ المشاعرِ لها في الحجْب عن الشعور عند النومِ لما أنها المحتاجُ إلى الحجب عادة ، إذ هي الطريقةُ للتيقظ غالباً لا سيما عند انفرادِ النائم واعتزالِه عن الخلق ، وقيل : الضربُ على الآذان كنايةٌ عن الإنامة الثقيلةِ ، وحملُه على تعطيلها كما في قولهم : ضرب الأميرُ على يد الرعيةِ أي منعهم من التصرف مع عدم ملاءمتِه لما سيأتي من البعث لا يدل على النوع مع أنه المرادُ قطعاً ، والفاء في فضربنا كما في قوله عز وجل : ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ إِذْ نادى ﴾ فإن الضربَ المذكور وما ترتب عليه من التقليب ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال والبعثِ وغيرِ ذلك إيتاءُ رحمةٍ لدنّيةٍ خافيةٍ عن أبصار المتمسكين بالأسباب العادية استجابةً لدعوتهم ﴿ فِى الكهف ﴾ ظرف مكان لضربنا ﴿ سِنِينَ ﴾ ظرفُ زمان له باعتبار بقائِه لا ابتدائِه ﴿ عَدَدًا ﴾ أي ذواتَ عدد أو تُعدّ

عدداً على أنه مصدرٌ أو معدودةً على أنه بمعنى المفعول ، ووصفُ السنين بذلك إما للتكثير وهو الأنسبُ بإظهار كمالِ القدرةِ أو للتقليل وهو الأليقُ بمقام إنكارِ كونِ القصةِ عجباً من بين سائر الآياتِ العجيبة فإن مدة لُبثهم كبعض يومٍ عنده عز وجل .

﴿ ثُمَّ بعثناهم ﴾ أي أيقظناهم من تلك النومةِ الثقيلة الشبيهة بالموت ﴿ لَنَعْلَمُ ﴾ بنون العظمة ، وقرىء بالياء مبنياً للفاعل بطريق الالتفاتِ ، وأياً ما كان فهو غايةٌ للبعث لكن لا بجعل العلمِ مجازاً من الإظهار والتمييز ، أو بحمله على ما يصح وقوعُه غايةً للبعث الحادثِ من العلم الحالي الذي يتعلق به الجزاءُ كما في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرسول مِمَّن يَنقَلِبُ على عَقِبَيْهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الله الذين ءامَنُواْ ﴾ ونظائرِهما التي يتحقق فيها العلمُ بتحقق متعلقِه قطعاً ، فإن تحويلَ القِبلة قد ترتب عليه تحزّبُ الناس إلى متّبعٍ ومنقلب ، وكذا مداولةُ الأيامِ بين الناس ترتب عليه تحزّبهم إلى الثابت على الإيمان والمتزلزلِ فيه وتعلق بكل من الفريقين العلمُ الحالي والإظهارُ والتمييزُ ، وأما بعثُ هؤلاء فلم يترتب عليه تفرقُهم إلى المَحْصيِّ وغيره حتى يتعلق بهما العلم أو الإظهارُ والتمييزُ ويتسنى نظمُ شيء من ذلك في سلك الغاية ، وإنما الذي ترتب عليه تفرقُهم إلى مقدِّر تقديراً غيرَ مصيب

ومفوِّض إلى العلم الرباني وليس شيءٌ منهما من الإحصاء في شيء بل بحمل النظمِ الكريم على التمثيل المبنيِّ على جعل العلمِ عبارةً عن الاختبار مجازاً بطريق إطلاقِ اسمِ المسبَّب على السبب ، وليس من ضرورة الاختبارِ صدورُ الفعل المختبَرِ به عن المختبَرِ قطعاً ، بل قد يكون لإظهار عجزِه عنه على سنن التكاليفِ التعجيزيةِ كقوله تعالى : ﴿ فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب ﴾ وهو المرادُ هاهنا فالمعنى بعثناهم لنعاملهم معاملةَ من يختبرهم .

(249/468)

﴿ أَيُّ الحِزْبَيْنِ ﴾ أي الفريقين المختلفَين في مدة لُبثهم بالتقدير والتفويض كما سيأتي ﴿ أحصى ﴾ أي أضبط ﴿ لِمَا لَبِثُواْ ﴾ أي للبثهم ﴿ أَمَدًا ﴾ أي غايةً فيظهر لهم عجزُهم ويفوضوا ذلك إلى العليم الخبير ويتعرفوا حالَهم وما صنع الله تعالى بهم من حفظ أبدانِهم وأديانِهم فيزدادوا يقيناً بكمال قدرته وعلمِه ويستبصروا به أمرَ البعث ويكون ذلك لطفاً لمؤمني زمانِهم وآيةً بينة لكفارهم ، وقد اقتُصر هاهنا من تلك الغايات الجليلةِ على ذكر مبدئِها الصادرِ عنه عز وجل وفيما سيأتي على ما صدر عنهم من التساؤل المؤدّي إليها ، وهذا أولى من تصوير التمثيلِ بأن يقال : بعثناهم بعْثَ من يريد أن يعلم الخ حسبما وقع في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الله الذين ءامَنُواْ ﴾ على أحد الوجوهِ حيث حُمل على

معنى فعلنا ذلك فِعْلَ مَن يريد أن يعلم مَن الثابتُ على الإيمان من غير الثابت ، إذ ربما يتوهم منه استلزامُ الإرادةِ لتحقق المراد ، فيعود المحذورُ فيصار إلى جعل إرادةِ العلم عبارةً عن الاختبار فاختبر واختر .

هذا وقد قرىء لِيُعْلِمَ مبنياً للمفعول ومبنياً للفاعل من الإعلام على أن المفعولَ الأولَ محذوفٌ والجملة المصدرةُ بأي في موقع المفعولِ الثاني فقط إن جعل العلمُ عِرفانياً ، وفي موقع المفعولين إن جعل يقينياً أي ليُعلِمَ الله الناسَ أيَّ الحزبين أحصى الخ ، وروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أحدَ الحزبين الفتيةُ والآخرَ الملوكُ الذين تداولوا المدينةَ مُلكاً بعد ملك ، وقيل : كلاهما من غيرهم والأولُ هو الأظهر ، فإن اللامَ للعهد ولا عهدَ لغيرهم والأمدُ بمعنى المدى كالغاية في قولهم : ابتداءُ الغاية وانتهاءُ الغاية وهو مفعولٌ لأحصي ، والجارُّ والمجرور حالٌ منه قدمت عليه لكونه نكرةً .

(250/468)

وليس معنى إحصاءِ تلك المدةِ ضبطَها من حيث كميتُها المتصلةُ الذاتيةُ فإنه لا يسمى إحصاءً بل ضبطَها من حيث كميتُها المنفصلةُ العارضةُ لها باعتبار قسمتِها إلى السنينَ

وبلوغها من تلك الحيثيةِ إلى مراتبِ الأعداد على ما يرشدك إليه كونُ تلك المدة عبارةً عما سبق من السنين .

(251/468)

ويجوز أن يراد بالأمد معناه الوضعيُّ بتقدير المضافِ أي لزمان لُبثِهم وبدونه أيضاً فإن اللُبثَ عبارةٌ عن الكون المستمرِّ المنطبق على الزمان المذكورِ فباعتبار الامتدادِ العارضِ له بسببه يكون له أمدٌ لا محالة ، لكن ليس المرادُ به ما يقع عليهم غايةً ومنتهًى لذلك الكونِ المستمرِّ باعتبار كميته المتصلةِ العارضةِ له بسبب انطباقِه على الزمان الممتدِّ بالذات وهو آنُ انبعاثِهم من نومهم فإن معرفتَه من تلك الحيثيةِ لا تخفى على أحد ولا تسمّى إحصاءً كما مر ، بل باعتبار كميّتِه المنفصلةِ معارضةً له بسبب عروضِها لزمانه المنطبقِ هو عليه باعتبار انقسامِه إلى السنين ووصولِه إلى مرتبة معينةٍ من مراتب العددِ كما حقق في الصورة الأولى ، والفرقُ بين الاعتبارين أن ما تعلق به الإحصاءُ في الصورة السابقةِ نفسُ المدة المنقسمةِ إلى السنين فهو مجموعُ ثلاثِمائةٍ وتسعِ سنين ، وفي الصورة الأخيرةِ منتهى تلك المدةِ المنقسمةِ إليها أعني السنةَ التاسعةَ بعد الثلاثِمائةِ ، وتعلقُ الإحصاءِ بالأمد بالمعنى الأول ظاهرٌ ، وأما تعلقُه به بالمعنى الثاني فباعتبار انتظامِه لما تحته من مراتب العددِ واشتمالِه عليها . هذا

تقديرُ كون "ما" في قوله تعالى: ﴿ لِمَا لَبِثُوا ﴾ مصدريةً ويجوز أن تكون موصولةً حُذف عائدُها من الصلة أي للذي لبثوا فيه من الزمان الذي عبّر عنه فيما قبل بسنينَ عدداً ، فالأمدُ بمعناه الوضعيِّ على ما تحققْتَه ، وقيل: اللامُ مزيدةٌ والموصول مفعولٌ وأمداً نصبٌ على التمييز ، وأما ما قيل من أنّ أحصى اسمُ تفضيل لأنه الموافقُ لما وقع في سائر الآيات الكريمةِ نحوُ: ﴿ أَيُّهم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ ﴿ أَيُّهمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ﴾ إلى غير ذلك مما لا يحصى ولأن كونَه فعلاً ماضياً يُشعر بأن غايةَ البعث هو العلمُ بالإحصاء المتقدمِ على البعث لا بالإحصاء المتأخرِ عنه وليس كذلك ، وادعاءُ أن مجيءَ أفعلِ التفضيلِ من

المزيد عليه غيرُ قياسي مدفوعٌ بأنه عند سيبويهِ قياسٌ مطلقاً ، وعند ابن عصفورٍ فيما ليست همزتُه للنقل ولا ريب في أن ما نحن فيه من ذلك القبيلِ ، وامتناعُ عمله إنما هو في غير التمييز من المعمولات ، وأما أن التمييزَ يجب كونُه فاعلاً في المعنى فلمانعٍ أن يمنعَه بصحة أن يقال: أيُّهم أحفظُ لهذا الشعر وزناً أو تقطيعاً ، أو يقالَ: إن العامل في أمداً فعلٌ محذوفٌ يدل عليه المذكورُ أي يُحصي لما لبثوا أمداً كما في قوله

وأضربُ منا بالسيوف القوانسا . . . وحديثُ الوقوع في المحذور بلا فائدة مدفوعٌ بما أشير

إليه من فائدة الموافقةِ للنظائر ، فمع ما فيه من الاعتسافِ والخللِ بمعزل من السَّداد لأن مؤداه أن يكون المقصودُ بالاختبار إظهارَ أفضلِ الحزبين وتمييزَه عن الأدنى مع تحقق أصلِ الإحصاء فيهما ، ومن البيّن أن لا تحقُّقَ له أصلاً وأن المقصودَ بالاختبار إظهارُ عجزِ الكلِّ عنه رأساً فهو فعل ماضٍ قطعاً ، وتوهُم إيذانِه بأن غايةَ البعثِ هو العلمُ بالإحصاء المتقدمِ عليه مردودٌ بأن صيغةَ الماضي باعتبارِ حالِ الحكايةِ والله تعالى أعلم . انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(253/468)

وقال الآلوسى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾

خطاب لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم والمقصود غيره كما ذهب إليه غير واحد ، و﴿ أَمْ ﴾ منقطعة مقدرة ببل التي هي للانتقال من كلام إلى آخر لا للإبطال وهمزة الاستفهام عند الجمهور وببل وحدها عند بعض ، وقيل : هي هنا بمعنى الهمزة والحق الأول أي بل أحسبن ﴿ أَنَّ أَصحاب الكهف والرقيم كَانُواْ ﴾ في بقائهم على الحياة ونومهم مدة طويلة من الدهر ﴿ مِنْ ءاياتنا ﴾ أي من بين دلائلنا الدالة على القدرة والألوهية ﴿

عَجَبًا ﴾ أي آية ذات عجب وضعا له موضع المضاف أو وصفاً لذلك بالمصدر مبالغة ، وهو خبر لكانوا و﴿ مِنْ ءاياتنا ﴾ حال منه كما هو قاعدة نعت النكرة إذا تقدم عليها ، وجوز أبو البقاء أن يكون ﴿ عَجَبًا وَمِنْ ءاياتنا ﴾ خبرين وأن يكون ﴿ عَجَبًا ﴾ حالاً من الضمير في الجار والمجرور وليس بذاك ، والمعنى أن قصتهم وإن كانت خارقة للعادة ليست بعجيبة بالنسبة إلى سائر الآيات التي من جملتها ما تقدم ، ومن هنا يعلم وجه الربط ، وفي "الكشف" أنه تعالى ذكر من الآيات الكلية وإن كان لتسليته صلى الله عليه وسلم وإنه لا ينبغي أن يبخع نفسه على آثارهم فالمسترشد يكفيه أدنى إشارة والزائغ لا تجدي فيه آيات النذارة والبشارة ما يشتمل على أمهات العجائب وعقبه سبحانه بقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ الخ يعني أن ذلك أعظم من هذا فمن لا يتعجب من ذلك لا ينبغي أن يتعجب من هذا وأريد من الخطاب غيره صلى الله عليه وسلم لأنه كان يعرف من قدرته تعالى ما لا يتعاظمه لا الأول ولا الثاني فأنكر اختلافهم في حالهم تعجباً وإضرابهم عن مثل تلك الآيات البينات والاعتراض عليه بأن الإضراب عن الكلام الأول إنما يحسن إذا كان الثاني اغرب ليحصل الترقي ، وإيثار أن الهمزة للتقرير وهو قول آخر في الآية لذلك غير قادح لأن تعجبهم عن هذا دون الأول هو المنكر وهو الأغرب فافهم ، وبأن المنكر ينبغي أن يكون مقرراً عند السامع معلوماً عنده ، وهذا ابتداء إعلام منه تعالى على ما

يعرف من سبب النزول كذلك لأن الإنكار من تعجبهم ويكفي في ذلك معرفتها إجمالاً وكانت حاصلة كيف وقد علمت أنه راجع إلى الغير أعني أصحاب الكتاب الذين أمروا قريشاً بالسؤال وكانوا عالمين ، ثم إنه مشترك الإلزام لأن التقرير أيضاً يقتضي العلم بل أولى انتهى ، وقال الطبري : المراد إنكار ذلك الحسبان عليه عليه الصلاة والسلام على معنى لا يعظم ذلك عندك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة فإن سائر آيات الله تعالى أعظم من قصتهم وزعم أن هذا قول ابن عباس .

ومجاهد .

وقتادة .

وابن إسحاق وفي القلب منه شيء ، وقيل : المراد من الاستفهام إثبات أنهم عجب كأنه قيل اعلم أنهم عجب كما تقول أعلمت أن فلاناً فعل كذا أي قد فعل فاعلمه .

والمقصود بالخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً وليس بشيء ، وزعم الطيبي أن الوجه أن يجري الكلام على التسلي والاستفهام على التنبيه ويقال : إنه عليه الصلاة

والسلام لما أخذه من الكآبة والأسف من إباء القوم عن الإيمان ما أخذه قيل له ما قيل وعلل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾ [الكهف : 7] إلى آخره على معنى أنا جعلنا ذلك لنختبرهم وحين لم تتعلق إرادتنا بإيمانهم تشاغلوا به عن آياتنا وشغلوا عن الشكر وبدلوا الإيمان بالكفران فلم نبال بهم وإنا لجاعلون أبدانهم جزراً لأسيافكم كما إنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ألا ترى إلى أولئك الفتيان كيف اهتدوا وفروا إلى الله تعالى وتركوا زينة الدنيا وزخرفها فأووا إلى الكهف قائلين : ﴿ رَبَّنَا ءاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيّىء لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف : 10] وكما تعلقت الإرادة بإرشادهم فاهتدوا تتعلق بإرشاد قوم من أمتك يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين اه ، ويكاد يكون أعجب من قصة أهل الكهف فتأمل ، والحسبان إما بمعنى الظن أو بمعنى العلم وقد استعمل بالمعنيين ، والكهف النقب المتسع في الجبل فإن لم يكن واسعاً فهو غار ، وأخرج ابن أبي حاتم أنه غار الوادي ، وعن مجاهد أنه فرجة بين الجبلين ، وعن أنس هو الجبل وهو غير مشهور في اللغة ، والرقيم اسم كلبهم على ما روي عن أنس والشعبي وجاء في رواية عن ابن جبير ويدل عليه قول أمية بن أبي الصلت :

وليس بها إلا الرقيم مجاورا . . .

وصيدهمو والقوم في الكهف هجدا

وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن جبير أنه لوح من حجارة كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف

وأمرهم ثم وضع على باب الكهف ، وقيل لوح من حجارة كتب فيه أسماؤهم وجعل في سور المدينة وروي ذلك عن السدي .

(256/468)

وقيل لوح من رصاص كتب فيه شأنهم ووضع في تابوت من نحاس في فم الكهف وقيل لوح من ذهب كتب فيه ذلك وكان تحت الجدار الذي أقامه الخضر عليه السلام ، وروي عن ابن عباس أنه كتاب كان عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام ، وقيل من دين قبل عيسى عليه السلام فهو لفظ عربي وفعيل بمعنى مفعول .

وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس أنه واد دون فلسطين قريب من أيلة والكهف على ما قيل في ذلك الوادي فهو من رقمة الوادي أي جانبه ، وأخرجاهما وجماعة من طريق آخر عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال : لا أدري ما الرقيم وسألت كعباً فقال : اسم القرية التي خرجوا منها ، وعلى جميع هذه الأقوال يكون أصحاب الكهف والرقيم عبارة عن طائفة واحدة ، وقيل إن أصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف وقصتهم في "الصحيحين"

وغيرهما .

فقد أخرج البخاري . ومسلم . والنسائي .

وابن المنذر عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر فأووا إلى غار فانطبق عليهم فقال بعضهم لبعض : إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه فقال واحد منهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمل على فرق من أرز فذهب وتركه وإني عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته فصار من أمره أنني اشتريت منه بقراً وأنه أتاني يطلب أجره فقلت أعمد إلى تلك البقر فسقها فقال لي : إنما لي عندك فرق من أرز فقلت : اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق فساقها فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا فانساخت عنهم الصخرة فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران فكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي فأبطأت عليهما ليلة فجئت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما فيستكينا لشربتهما فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر فإن كنت

تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء .

فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إليّ وإني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار فطلبتها حتى قدرت فأتيتها بها فدفعتها إليها فأمكنتني من نفسها فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله تعالى ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقمت وتركت المائة دينار فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ففرج الله تعالى عنهم فخرجوا " وروي نحو ذلك عن ابن عباس .

وأنس .

(258/468)

والنعمان بن بشير كل يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرقيم على هذا بمعنى محل في الجبل ، وقيل بمعنى الصخرة ، وقيل بمعنى الجبل ، ويكون ذكر ذلك تلميحاً إلى قصتهم وإشارة إلى أنه تعالى لا يضيع عمل أحد خيراً أو شراً فهو غير مقصود بالذات ، ولا يخفى أن ذلك بعيد عن السياق ، وليس في الأخبار الصحيحة ما يضطرنا إلى ارتكابه فتأمل .

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (10)

﴿ إِذْ أَوَى ﴾ معمول ﴿ عَجَبًا ﴾ [الكهف: 9] أو ﴿ كَانُوا ﴾ [الكهف: 9] أو اذكر مقدراً ، ولا يجوز أن يكون ظرفاً لحسبت لأن حسبانه لم يكن في ذلك الوقت أي حين التجأ ﴿ الفتية إِلَى الكهف ﴾ واتخذوه مأوى ومكاناً لهم ، والفتية جمع قلة لفتى ، وهو كما قال الراغب وغيره الطري من الشبان ويجمع أيضاً على فتيان ، وقال ابن السراج : إنه اسم جمع وقال غير واحد أنه جمع فتى كصبي وصبية ، ورجح بكثرة مثله ، والمراد بهم أصحاب الكهف ، وإيثار الإظهار على الإضمار لتحقيق ما كانوا عليه في أنفسهم من حال الفتوة ، فقد روي أنهم كانوا شباناً من أبناء أشراف الروح وعظمائهم مطوقين مسورين بالذهب ذوي ذوائب ، وقيل لأن صاحبية الكهف من فروع التجائهم إلى الكهف ، فلا يناسب اعتبارها معهم قبل بيانه ، والظاهر مع الضمير اعتبارها ، وليس الأمر كذلك مع هذا الظاهر وإن كانت أل فيه للعهد ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا ءاتِنَا مِن لَّدُنْكَ ﴾ أي من عندك ﴿ رَحْمَةً ﴾ عظيمة أو نوعاً من الرحمة فالتنوين للتعظيم أو للنوع ، و ﴿ مِنْ ﴾ للابتداء

متعلق بآتنا ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف وقع حالاً من رحمة قدم عليها لكونها نكرة ولو تأخر لكان صفة لها ، وفسرت الرحمة بالمغفرة والرزق والأمن والأولى تفسيرها بما يتضمن ذلك وغيره ، وفي ذكر ﴿ مِن لَّدُنْكَ ﴾ إيماءً إلى أن ذلك من باب التفضل لا الوجوب فكأنهم قالوا ربنا تفضل علينا برحمة ﴿ وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ الذي نحن عليه من مهاجرة الكفار والمثابرة على طاعتك ، وقرأ أبو جعفر وشيبة والزهري ﴿ وهيى ﴾ بياءين من غير همز يعني أنهم أبدلوا الهمزة الساكنة ياء ، وفي كتاب ابن خالويه قرأ الأعمش عن أبي بكر عن عاصم ﴿ رَّحِيمٌ وَهِىَ ﴾ بلا همز انتهى .

وهو يحتمل أن يكون قد أبدل الهمزة ياءً وأن يكون حذفها ، والأول إبدال قياسي ، والثاني مختلف فيه إينقاس حذف الحرف المبدل من الهمزة في الأمر والمضارع المجزومين أم لا ، وأصل التهيئة إحداث الهيئة وهي الحالة التي يكون عليها الشيء محسوسة أو معقولة ثم استعمل في إحضاء الشيء وتيسيره أي يسر لنا من أمرنا ﴿ رَشَدًا ﴾ إصابة للطريق الموصل إلى المطلوب واهتداءً إليه ، وقرأ أبو رجاء ﴿ رَشَدًا ﴾ بضم الراء وإسكان الشين والمعنى واحد إلا أن الأوفق بفواصل الآيات قراءة الجمهور ، وإلى اتحاد المعنى ذهب

الراغب قال : الرشد بفتحتين خلاف الغي ويستعمل استعمال الهداية وكذا الرشد بضم فسكون .

وقال بعضهم : الرشد أي بفتحتين كما في بعض النسخ المضبوطة أخص من الرشد لأن الرشد بالضم يقال في الأمور الدنيوية والأخروية والرشد يقال في الأمور الأخروية لا غيراه ، وفيه مخالفة لما ذكره ابن عطية فإنه قال : إن هذا الدعاء منهم كان في أمر دنياهم وألفاظه تقتضي ذلك وقد كانوا على ثقة من رشد الآخرة ورحمتها ، وينبغي لكل مؤمن أن يجعل دعاءه في أمر دنياه لهذه الآية فإنها كافية .

ويحتمل أن يراد بالرحمة رحمة الآخرة اه ، نعم فيما قاله نظر ، والأولى جعل الدعاء عاماً في أمر الدنيا والآخرة وإن كان تعقيبه بما بعد ظاهراً في كونه خاصاً في أمر الأولى واللام ومن متعلقان بهيء فإن اختلف معناهما بأن كانت الأولى للأجل والثانية ابتدائية فلا كلام ، وإن كانتا للأجل احتاجت صحة التعلق إلى الجواب المشهور .

وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بهما وإبراز الرغبة في المؤخر وكذا الكلام في تقديم ﴿ مِن لَّدُنْكَ ﴾ على رحمة على تقدير تعلقه بآتنا ، وتقديم المجرور الأول

على الثاني للإيذان من أول الأمر بكون المسؤول مرغوباً فيه لديهم ، وقيل الكلام على التجريد وهو إن ينتزع من أمر ذي صفة آخر مثله مبالغة كأنه بلغ إلى مرتبة من الكمال بحيث يمكن أن يؤخذ منه آخر كرأيت منك أسداً أي اجعل أمرنا كله رشداً .

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11)

﴿ فَضَرَبْنَا على ءاذَانِهِمْ ﴾ أي ضربنا عليها حجاباً يمنع السماع فالمفعول محذوف كما في قولهم : بنى على امرأته والمراد أنمناهم إنامة ثقيلة لاتنبههم فيها الأصوات بأن يجعل الضرب على الآذان كناية عن الإنامة الثقيلة وإنما صلح كناية لأن الصوت والتنبيه طريق من طرق إزالة النوم فسد طريقه يدل على استحكامه وأما الضرب على العين وإن كان تعلقه بها أشد فلا يصلح كناية إذ ليس المبصرات من طرق إزالته حتى يكون سد الأبصار كناية ولو صلح كناية فعن ابتداء النوم لا النومة الثقيلة .

واعترض القطب جعله كناية عما ذكر بما لا يخفى رده وخرج الآية على الاستعارة المكنية بأن يقال شبه الإنامة الثقيلة بضرب الحجاب على الآذان ثم ذكر ضربنا وأريد أنمنا وهو وجه فيها ، وجوز أن تكون من باب الاستعارة التمثيلية واختاره بعض المحققين .

ومن الناس من حمل الضرب على الآذان على تعطيلها كما في قولهم ضرب الأمير على يد الرعية أي منعهم عن التصرف .

وتعقب بأنه مع عدم ملاءمته لما سيأتي ءن شاء الله تعالى من البعث لا يدل على إرادة النوم

مع أنه المراد قطعاً .

وأجيب بأنه يمكن أن يكون مراد الحامل التوصل بذلك إلى إرادة الإنامة فافهم .

(262/468)

والضرب إما من ضربت القفل على الباب أو من ضربت الخباء على ساكنه ، والفاء هنا مثلها في قوله تعالى : ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ بعد قوله سبحانه : ﴿ إِذْ نادى ﴾ [الأنبياء : 76] فإن الضرب المذكور وما يترتب عليه من التقليب ذات اليمين وذات الشمال والبعث وغير ذلك من آثار استجابة دعائهم السابق ﴿ فِى الكهف ﴾ ظرف لضربنا وكذا قوله عز وجل : ﴿ سِنِينَ ﴾ ولا مانع من ذلك لا سيما وقد تغايرا بالمكانية والزمانية ﴿ عَدَدًا ﴾ أي ذوات عدد على أنه مصدر وصف بالتأويل الشائع ، وقيل إنه صفة بمعنى معدودة ، وقيل إنه مصدر لفعل مقدر أي تعد عدداً ، والعدد على ما قال الراغب وغيره قد يراد به التكثير لأن القليل لا يحتاج إلى العد غالباً وقد يذكر للتقليل في مقابلة ما لا يحصى كثرة كما يقال بغير حساب وهو هنا يحتمل الوجهين والأول هو الأنسب بإظهار كمال القدرة والثاني هو الأليق بمقام إنكار كون القصة عجباً من بين سائر الآيات العجيبة فـءن مدة لبثهم وإن كثرت في نفسه فهي كبعض يوم عند الله عز وجل .

وفي "الكشف" أن الكثرة تناسب نظراً إلى المخاطبين والقلة تناسب نظراً إلى المخاطب اه ، وقد خفي على العز بن عبد السلام أمر هذا الوصف وظن أنه لا يكون للتكثير وأن التقليل لا يمكن ههنا وهو غريب من جلالة قدره وله في أماليه أمثال ذلك .

وللعلامة ابن حجر في ذلك كلام ذكره في الفتاوى الحديثية لا أظنه شيئاً .

﴿ ثُمَّ بعثناهم ﴾ أي أيقظناهم وأثرناهم من نومهم ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ ﴾ أي منهم وهم القائلون ﴿ لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ [الكهف : 19] والقائلون : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف : 19] وقيل أحد الحزبين الفتية الذين ظنوا قلة زمان لبثهم ، والثاني أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم وكان عندهم تاريخ غيبتهم ، وزعم ابن عطية أن هذا قول جمهور المفسرين وعن ابن عباس أن أحد الحزبين الفتية والآخر الملوك الذين تداولوا ملك المدينة واحداً بعد واحد وعن مجاهد : الحزبان قوم أهل الكهف حزب منهم مؤمنون وحزب كافرون ، وقال الفراء : الحزبان مؤمنان كانوا في زمنهم ، واختلفوا في مدة لبثهم ، وقال السدي : الحزبان كافران ، والمراد بهما اليهود والنصارى الذي علموا قريشاً سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل الكهف ؛ وقال ابن حرب : الحزبان الله

سبحانه وتعالى ، والخلق كقوله تعالى : ﴿ أأنتم أَعْلَمُ أَمِ الله ﴾ [البقرة : 140] والظاهر هو الأول لأن اللام للعهد ولا عهد لغير من سمعت ﴿ أحصى ﴾ أي ضبط فهو فعل ماض وفاعله ضمير ﴿ أَيُّ ﴾ واختار ذلك الفارسي .

والزمخشري .

وابن عطية ، وما في قوله تعالى : ﴿ لِمَا لَبِثُواْ ﴾ مصدرية ، والجار والمجرور حال مقدم عن قوله تعالى : ﴿ أَمَدًا ﴾ وهو مفعول ﴿ أحصى ﴾ والأمد على ما قال الراغب : مدة لها حد ، والفرق بينه وبين الزمان أن الأمد يقال : باعتبار الغاية بخلاف الزمان فإنه عام في المبدأ والغاية ، ولذلك قال بعضهم : المدى والأمد يتقاربان ، وليس اسماً للغاية حتى يكون إطلاقه على المدة مجازاً كما أطلقت الغاية عليها في قولهم : ابتداء الغاية وانتهاؤها ، أي ليعلم أيهم أحصى مدة كائنة للبثهم ، والمراد من إحصائها ضبطها من حيث كميتها المنفصلة العارضة لها باعتبار قسمتها إلى السنين وبلوغها من تلك الحيثية إلى مراتب الأعداد كما يرشدك إليه كون المدة عبارة عما سبق من السنين ، وليس المراد ضبطها من

حيث كميتها المتصلة الذاتية فإنه لا يسمى إحصاء ، وقيل إطلاق الأمد على المدة مجاز وحقيقته غاية المدة .

(265/468)

ويجوز إرادة ذلك بتقدير المضاف أي لنعلم أيهم ضبط غاية لزمان لبثهم وبدونه أيضاً فإن اللبث عبارة عن الكون المستمر المنطبق على الزمان المذكور فباعتبار الامتداد العارض له بسببه يكون له أمد وغاية لا محالة لكن ليس المراد ما يقع غاية ومنتهى لذلك الكون المستمر باعتبار كميته المتصلة العارضة له بسبب انطباقه على الزمان الممتد بالذات ، وهو آن انبعاثهم من نومهم فإن معرفته من تلك الحيثية لا تخفى على أحد ولا تسمى إحصاء أيضاً ، بل باعتبار كميته المنفصلة العارضة له بسبب عروضها لزمانه المنطبق هو عليه باعتبار انقسامه إلى السنين ووصوله إلى مرتبة معينة من مراتب العدد ، والفرق بين هذا وما سبق أن ما تعلق به الإحصاء في الصورة السابقة نفس المدة المنقسمة إلى السنين فهو مجموع ثلثمائة وتسع سنين وفي الصورة الأخيرة منتهى تلك المدة المنقسمة إليها أعني التاسعة بعد الثلثمائة ؛ وتعلق الإحصاء بالأمد بالمعنى الأول ظاهر ، وأما تعلقه به بالمعنى الثاني فباعتبار انتظامه لما تحته من مراتب العدد ، واشتماله عليها انتهى .

وأنت تعلم أن ظاهر كلام الراغب وهو هو في اللغة يقتضي أن الأمد حقيقة في المدة وأنه في الغاية مجاز وأن توجيه إرادة الغاية هنا بما ذكر تكلف لا يحتاج إليه على تقدير كون ما مصدرية .

نعم يحتاج إليه على تقدير جعلها موصولة حذف عائدها من الصلة أي لنعلم أيهم أحصى أمداً كائناً للذي لبثوه أي لبثوا فيه من الزمان .

وقيل ما لبثوا في موضع المفعول له وجيء بلام التعليل لكونه غير مصدر صريح وغير مقارن أيضاً وليس بذاك .

وقيل اللام مزيدة وما موصولة وهي المفعول به وعائدها محذوف أي ﴿ أحصى ﴾ الذي لبثوه والمراد الزمان الذي لبثوا فيه ، و ﴿ أَمَدًا ﴾ على هذا تمييز للنسبة مفسر لما في نسبة المفعول من الإبهام محول عن المفعول وأصله أحصى أمد الزمان الذي لبثوا فيه .

وزعم أنه لا يصح أن يكون تمييزاً للنسبة لأنه لا بد أن يكون محولاً عن الفاعل ولا يمكن ذلك هنا ليس بشيء لأن اللابدية في حيز المنع .

والذي تحقق في المعتبرات كشروح التسهيل وغيرها أنه يكون محولاً عن المفعول ﴿ وَفَجَّرْنَا

الأرض عُيُوناً ﴾ [القمر : 12] كما يكون محولاً عن الفاعل كتصبب زيد عرقاً .

ولو جعل تمييزاً لما كان تمييزاً لمفرد .

ولم يقل أحد باشتراط التحويل فيه أصلاً .

وجوز في ما على هذا التقدير أن تكون مصدرية وهو بعيد ، وضعف القول بزيادة اللام هنا بأنها لا تزاد في مثل ذلك .

واختار الزجاج والتبريزي كون ﴿ أحصى ﴾ أفعل تفضيل لأنه الموافق لما وقع في سائر الآيات الكريمة نحو ﴿ أيهم أحسن عملاً ﴾ [الكهف : 7] .

﴿ أيهم أقرب لكم نفعاً ﴾ [النساء : 11] إلى غير ذلك مما لا يحصى ولأن كونه فعلاً ماضياً يشعر بأن غاية البعث هو العلم بالإحصاء المتقدم على البعث لا بالإحصاء المتأخر عنه وليس كذلك ، واعترض أولاً بأن بناء أفعل التفضيل من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس وما جاء منه شاذ كاعدى من الجرب وافلس من ابن المدلق ، وأجيب بأن في بناء أفعل من ذلك ثلاثة مذاهب الجواز مطلقاً وهو ظاهر كلام سيبويه والمنع مطلقاً وما ورد شاذ لا يقاس عليه وهو مذهب أبي علي ، والتفصيل بين أن تكون الهمزة للنقل فلا يجوز أو لغيره كأشكل الأمر وأظلم الليل فيجوز وهو اختيار ابن عصفور فلعلهما يريان الجواز مطلقاً كسيبويه أو التفصيل كابن عصفور ، والهمزة في ﴿ أحصى ﴾ ليست للنقل ، وثانياً بأن ﴿ أَمَدًا ﴾ حينئذٍ إن نصب على أنه مفعول به فإن كان بمصمر كما في قول العباس بن

مرداس :

فلم أر مثل الحي حياً مصبحا . . .

ولا مثلنا لما التقينا فوارسا

أكر وأحمى للحقيقة منهم . . .

وأضرب منا بالسيوف القوانسا

(267/468)

لزم الوقوع فيما فرا منه حيث لم يجعلا المذكور فعلاً ثم قدرا وإن كان به فليس صالحاً لذلك ، وإن نصب يلبثوا لا يكون المعنى سديداً لأن الضبط لمدة اللبث وأمده لا للبث في الأمد ، ولا يقال : فليكن نظير قولكم أيكم أضبط لصومه في الشهر أي لأيام صومه والمعنى أيهم أضبط لأيام اللبث أو ساعاته في الأمد ويراد به جميع المدة لما قيل يعضل حينئذٍ تنكير ﴿ أَمَدًا ﴾ والاعتذار بأنهم ما كانوا عارفين بتحديده يوماً أو شهراً أو سنة فنكر على أنه سؤال إما عن الساعات والأيام أو الأشهر غير سديد لأنه معلوم أنه أمد زمان اللبث فليعرف إضافة أو عهداً ويكون الاحتمال على حاله ، ووجه أبو حيان نصبه بأنه على إسقاط حرف الجر وهو بمعنى المدة والأصل لما لبثوا من أمد ويكون من أمد تفسيراً لما أبهم في لفظ ما كقوله

تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءايَةٍ ﴾ [البقرة : 106] ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ [فاطر : 2] ولما سقط الحرف وصل إليه الفعل وهو كما ترى ، وتعقب منع صلاحية أفعل لنصب المفعول به بأنه قول البصريين دون الكوفيين فلعل الإمامين سلكا مذهب الكوفيين فجعلا ﴿ أحصى ﴾ أفعل تفضيل و ﴿ أَمَدًا ﴾ مفعولاً له ، والحق أن الذاهب إلى كون أحصى أفعل تفضيل جعل أمداً تمييزاً وهو يعمل في التمييز على الصحيح والقول بأن التمييز يجب كونه محولاً عن الفاعل قد ميزت حاله ، وثالثاً بأن توهم الإشعار بأن غاية البعث هو العلم بالإحصاء المتقدم علين مردود بأن صيغة الماضي باعتبار حال الحكاية ولا يكاد يتوهم من ذلك الإشعار المذكور ، ورابعاً بأنه يلزم حينئذٍ أن يكون أصل الإحصاء متحققاً في الحزبين إلا أن بعضهم أفضل والبعض الآخر أدنى مع أنه ليس كذلك ، وفي "الكشف" أن قول الزجاج ليس بذلك المردود إلا أن ما آثره الزمخشري أحق بالإيثار لفظاً ومعنى أما الأول فظاهر ، وأما الثاني فلأنه تعالى حكى تساؤلهم فيما بينهم وأنه عن العارف لا عن الأعرف وغيرهم

أولى به انتهى فافهم ، وأي استفهامية مبتدأ وما بعدها خبرها وقد علقت نعلم عن العمل كما هو شأن أدوات الاستفهام في مثل هذا الوضع وهذا جار على احتمالي كون ﴿ أحصى ﴾ فعلاً ماضياً وكونه أفعل تفضيل ، وجوز جعل أي موصولة ففي "البحر" إذا قلنا بأن ﴿ أحصى ﴾ أفعل تفضيل جاز أن تكون أي موصولاً مبنياً على مذهب سيبويه لوجود شرط جواز البناء فيه وهو كون أي مضافة حذف صدر صلتها والتقدير لنعلم الفريق الذي هو أحصى لما لبثوا أمداً من الذين لم يحصوا وإذا كان فعلاً ماضياً امتنع ذلك لأنه حينئذٍ لم يحذف صدر صلتها لوقوع الفعل مع فاعله صلة فلا يجوز بناؤها لفوات تمام الشرط وهو حذف صدر الصلة انتهى .

وقرأ الزهري ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ بالباء على إسناد الفعل إليه تعالى بطريق الالتفات ، وأياً ما كان فالعلم غاية للبعث وليس ذلك على ظاهره وإلا تكن الآية دليلاً لهشام على ما يزعمه تعالى الله تعالى عن ذلك علوا كبيراً فقيل هو غاية بجعله مجازاً عن الإظهار والتمييز ، وقيل : المراد ليتعلق علمنا تعلقاً حالياً مطابقاً لتعلقه أولاً تعلقاً استقبالياً كما في قوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرسول مِمَّن يَنقَلِبُ على عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة : 143] واعترضه بعض الأجلة

بأن بعث هؤلاء الفئة لم يترتب عليه تفرقهم إلى المحصي وغيره حتى يتعلق بهما العلم تعلقاً حالياً أو الإظهار والتمييز ويتسنى نظم شيء من ذلك في سلك الغاية كما ترتب على تحويل القبلة انقسام الناس إلى متبع ومنقلب فصح تعلق العلم الحالي والإظهار بكل من القسمين وإنما الذي ترتب على ذلك تفرقهم إلى مقدر تقديراً غير مصيب ومفوض العلم إلى الله عز وجل وليس في شيء منهما إحصاءً أصلاً ، ثم قال : إن جعل ذلك غاية بحمل النظم الكريم على التمثيل المبني على جعل العلم عبارة عن الاختبار مجازاً بإطلاق اسم المسبب على السبب وليس من ضرورة الاختبار صدور الفعل المختبر به عن المختبر قطعاً بل قد يكون لإظهار عجزه عنه على سنن التكاليف التعجيزية كقوله تعالى : ﴿ فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب ﴾ [البقرة : 258] وهو المراد هنا فالمعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم أيهم أحصى لما لبثوا أمداً فيظهر لهم عجزهم ويفوضوا ذلك إلى العليم الخبير ويتعرفوا حالهم وما صنع الله تعالى بهم من حفظ أبدانهم فيزدادوا يقيناً بكمال قدرته تعالى وعلمه ويستبصروا به أمر البعث ويكون ذلك لطفاً لمؤمني زمانهم وآية بينة لكفارهم ، وقد اقتصر ههنا من تلك الغايات الجليلة على مبدئها الصادر عنه سبحانه وفيما سيأتي إن شاء الله تعالى على ما صدر عنهم من التساؤل المؤدي إليها وهذا أولى من تصوير التمثيل بأن

يقال بعثناهم بعث من يريد أن يعلم إذ ربما يتوهم منه استلزام الإرادة لتحقق المراد فيعود المحذور فيصار إلى جعل إرادة العلم عبارة عن الاختبار فاختبر واختر انتهى .

وتعقبه الخفاجي بأن ما ذكره مع تكلفه وقلة جدواه غير مستقيم لأن الاختبار الحقيقي لا يتصور ممن أحاط بكل شيء علماً فحيث وقع جعلوه مجازاً عن العلم أو ما يترتب عليه فلزمه بالآخرة الرجوع إلى ما أنكره واختار جعل العلم كناية عن ظهور أمرهم ليطمئن بازدياد الإيمان قلوب المؤمنين وتنقطع حجة المنكرين وعلم الله تعالى حيث تعذر إرادة حقيقته في كتابه تعالى جعل كناية عن بعض لوازمه المناسبة لموقعه والمناسب هنا ما ذكر ، ثم قال : وإنما علق العلم بالاختلاف في أمده أي المفهوم من أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً لأنه ادعى لإظهاره وأقوى لانتشاره .

وفي "الكشف" توجيهاً لما في "الكشاف" أراد أن العلم مجاز عن التمييز والإظهار كأنه قيل لنظهر ونميز لهم العارف بأمد ما لبثوا ولينظر من هذا العارف فإنه لا يجوز أن يكون أحداً منهم لأنهم بين مفوض ومقدر غير مصيب ، والفرق بين ما في "الكشف" وما ذكره الخفاجي لا يخفى على بصير وما في "الكشف" أقل مؤنة منه .

وتصوير التمثيل بأن يقال : بعثناهم بعث من يريد أن يعلم أحسن عندي من التصوير الأول ، والتوهم المذكور مما لا يكاد يلتفت إليه فتدبر جداً .

وقرىء ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ مبنياً للفاعل من الإعلام وخرج ذلك على أن الفاعل ضميره تعالى والمفعول الأول محذوف لدلالة المعنى عليه و﴿ أَيُّ الحِزْبَيْنِ ﴾ الخ من المبتدأ والخبر في موضع مفعولي نعلم الثاني والثالث ، والتقدير ليعلم الله الناس أي الحزبين الخ ، وإذا جعل العلم عرفانياً كانت الجملة في موضع المفعول الثاني فقط وهو ظاهر .

وقرىء ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ بالبناء للمفعول وخرج على أن نائب الفعل محذوف أي ليعلم الناس .

(271/468)

والجملة بعد أما في موضع المفعولين أو المفعول حسبما سمعت ، وقال بعضهم : أن الجملة هي النائب عن الفاعل وهو مذهب كوفي ففي "البحر" البصريون لا يجوز كون الجملة فاعلاً ولا نائباً عنه وللكوفيين مذهبان ، أحدهما أنه يجوز الإسناد إلى الجملة مطلقاً ، والثاني أنه لا يجوز إلا إذا كان المسند مما يصح تعليقه وتحقيق ذلك في محله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(272/468)

وقال القاسمي :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً ﴾ أي : آية ذات عجب . على حذف مضاف . أو وصفاً بالمصدر مبالغة و : ﴿ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ حال منه و : ﴿ أَمْ ﴾ للاستفهام التقريري بمعنى الهمزة . أي : أنهم من بين آياتنا آية عجيبة . وجعلها منقطعة مقدرة ببل والهمزة والاستفهام للإنكار – أي : إنكار حسبانهم آية عجيبة بالنسبة إلى آياته الكبرى – فيه بُعدٌ . لأن سياق النظم الكريم ، أعني سوقها مفصلة منوهاً بها ، ما هو إلا لتقرير التعجب منها . و : ﴿ الْكَهْفِ ﴾ الغار الواسع في الجبل . و : ﴿ الرَّقِيم ﴾ اسم كلبهم . وقيل لوح رقيم فيه حديثهم ، وجعل على باب الكهف . وقيل الجبل أو الوادي ، أقوال .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾ [10] .

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ أي : خوفاً من إيذاء الملك على ترك عبادة الأوثان والذبح لها . وإيثار الإظهار على الإضمار لتحقيق حالهم بتغليبهم جانب الله على جانب أهويتهم في حال شبابهم : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا ﴾ أي : من ربانا بنعمة إيثار جانبه على جانب أنفسنا : ﴿ آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ أي : من خزائنك وهي المغفرة والرزق والأمن من

الأعداد : ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ وهو اختيار الكهف لمفارقة الكفار : ﴿ رَشَداً ﴾ وهو توحيدك وعبادتك .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾ [11] .

(273/468)

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾ أي : أنمناهم نومة ثقيلة لا ينبههم صفير الخبير ، ولا دعوة الداعي الخبير ، في الكهف سنين ذوات عدد . أي : كثيرة أو معدودة .

قال الشهاب : ضربنا مستعار استعارة تبعية لمعنى أَنَمْنَاهم إنامة لا ينتبه منها بالصياح . لأن النائم ينتبه من جهة سمعه . وهو إمّا من ضربت القفل على الباب أو ضربت الخباء على ساكنه شُبّه ؛ لاستغراقه في نومه حتى لا ينتبه بمنبه ، بمن كان خلف حجب مانعة من وصول الأصوات إليه ، وقيل إنه استعارة تمثيلية .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً ﴾ [12]

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أي : أيقظناهم إيقاظاً يشبه بعث الموتى : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ

أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً ﴾ أي : لنعلم واقعا ما علمنا أنه سيقع . وهو أي : الحزبين المختلفين في مدة لبثهم ، أشد إحصاء ، أي : إحاطة وضبطا لغاية مدة لبثهم فيعلموا قدر ما حفظهم الله بلا طعام ولا شراب ، وأمنهم من العدو ، فيتمّ لهم رشدهم في شكره ، وتكون لهم آية تبعثهم على عبادته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 10.9 ﴾

(274/468)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) ﴾

(أم) للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض .

ولما كان هذا من المقاصد التي أنزلت السورة لبيانها لم يكن هذا الانتقال اقتضاباً بل هو كالانتقال من الديباجة والمقدمة إلى المقصود .

على أن مناسبة الانتقال إليه تتصل بقوله تعالى : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ [الكهف : 6] ، إذ كان مما صرف المشركين عن الإيمان إحالتهم الإحياء بعد الموت ، فكان ذكر أهل الكهف وبعثِهم بعد خمودهم سنين طويلة مثالاً لإمكان البعث .

و﴿ أم ﴾ هذه هي (أم) المنقطعة بمعنى (بل) ، وهي ملازمة لتقدير الاستفهام معها ، يقدر بعدها حرف استفهام ، وقد يكون ظاهراً بعدها كقول أُفْنُون التغلبي :

أنّى جَزَوا عامراً سُوءاً بضعته

أم كيف يجزونني السُّوأَى عن الحسن . . .

والاستفهام المقدر بعد (أم) تعجيبي مثل الذي في البيت .

والتقدير هنا : أحسبت أن أصحاب الكهف كانوا عجباً من بين آياتنا ، أي أعجب من بقية آياتنا ، فإن إماتة الأحياء بعد حياتهم أعظم من عجب إنامة أهل الكهف .

لأن في إنامتهم إبقاءً للحياة في أجسامهم وليس في إماتة الأحياء إبقاء لشيء من الحياة فيهم على كثرتهم وانتشارهم .

وهذا تعريض بغفلة الذين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم بيان قصة أهل الكهف لاستعلام ما فيها من العجب ، بأنهم سألوا عن عجيب وكفروا بما هو أعجب ، وهو انقراض العالم ، فإنهم كانوا يعرضون عن ذكر فناء العالم ويقولون : ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : 24] .

أي إن الحياة إلا حياتنا الدنيا لا حياة الآخرة وأن الدهر يهلكنا وهو باقٍ .

وفيه لفت لعقول السائلين عن الاشتغال بعجائب القصص إلى أن الأولى لهم الاتعاظ بما فيها من العِبر والأسباب وآثارها .

ولذلك ابتدىء ذكر أحوالهم بقوله : ﴿ إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً ﴾ [الكهف : 10] فأعلم الناس بثبات إيمانهم بالله ورجائهم فيه ، وبقوله : ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ [الكهف : 13] . الآيات الدالِّ على أنهم أبطلوا الشرك وسفهوا أهله تعريضاً بأن حق السامعين أن يقتدوا بهداهم .

والخطاب للنبيء .

والمراد : قومه الذين سألوا عن القصة ، وأهل الكتاب الذين أغروهم بالسؤال عنها وتطلب بيانها .

ويظهر أن الذين لقنوا قريشاً السؤال عن أهل الكهف هم بعض النصارى الذين لهم صلة بأهل مكة من التجار الواردين إلى مكة ؛ أو من الرهبان الذين في الأديرة الواقعة في طريق رحلة قريش من مكة إلى الشام وهي رحلة الصيف .

ومحل التعجب هو قوله : من آياتنا ﴾ ، أي من بين آياتنا الكثيرة المشاهدة لهم وهم لا يتعجبون منها ويقصرون تعجبهم على أمثال هذه الخوارق ؛ فيؤول المعنى إلى أن أهل

الكهف ليسوا هم العجب من بين الآيات الأخرى ، بل عجائب صنع الله تعالى كثيرة منها ما هو أعجب من حال أهل الكهف ومنها ما يساويها .

فمعنى (مِن) في قوله : ﴿ من آياتنا ﴾ التبعيض ، أي ليست قصة أهل الكهف منفردة بالعجب من بين الآيات الأخرى ، كما تقول : سأل فلاناً فهو العالم منا ، أي المنفرد بالعلم من بيننا .

ولك أن تجعلها للظرفية المجازية ، أي كانوا عجباً في آياتنا ، أي وبقية الآيات ليست عجباً .

وهذا نداء على سوء نظرهم إذ يعلقون اهتمامهم بأشياء نادرة وبين يديهم من الأشياء ما هو أجدر بالاهتمام .

وأخبر عن أصحاب الكهف بالعجب وإنما العجب حالهم في قومهم ، فَثمّ مضاف محذوف يدل عليه الكلام .

وأخبر عن حالهم بالمصدر مبالغة ، والمراد عجيب .

والكهف : الشق المتسع الوسط في جبل ، فإن لم يكن متسعاً فهو غار .

والرقيم : فعيل بمعنى مفعول من الرقم وهو الكتابة .

فالرقيم كتاب كان مع أصحاب الكهف في كهفهم .

قيل : كتبوا فيه ما كانوا يدينون به من التوحيد ، وقيل : هو كتاب دينهم ، دينٍ كان قبل عيسى عليه السلام ، وقيل : هو دين عيسى ، وقيل : كتبوا فيه الباعث الذي بعثهم على الالتجاء إلى الكهف فراراً من كفر قومهم .

وابتدأ القرآن من قصتهم بمحل العبرة الصادقة والقدوة الصالحة منه ، وهو التجاؤهم إلى ربهم واستجابته لهم .

وقد أشارت الآية إلى قصة نفَر من صالحي الأمم السالفة ثبتوا على دين الحق في وقت شيوع الكفر والباطل فانزووا إلى الخلوة تجنباً لمخالطة أهل الكفر فأووا إلى كهف استقروا فيه فراراً من الفتنة في دينهم ، فأكرمهم الله تعالى بأن ألقَى عليهم نوماً بقُوا فيه مدة طويلة ثم أيقظهم فأراهم انقراض الذين كانوا يخافونهم على دينهم .

وبعد أن أيقنوا بذلك أعاد نومتهم الخارقة للعادة فأبقاهم أحياء إلى أمد يعلمه الله أو أماتهم وحفظ أجسادهم من البِلى كرامة لهم .

وقد عَرَفَ الناس خبرهم ولم يقفوا على أعيانهم ولا وقفوا على رقيمهم ، ولذلك اختلفوا في شأنهم ، فمنهم من يثبت وقوع قصتهم ومنهم من ينفيها .

ولما كانت معاني الآيات لا تتضح إلا بمعرفة ما أشارت إليه من قصة أهل الكهف تعين أن نذكر ما صح عند أعلام المؤرخين على ما فيه من اختلاف .

وقد ذكر ابن عطية ملخصاً في ذلك دون تعريج على ما هو من زيادات المبالغين والقُصّاص .

والذي ذكره الأكثر أن في بلد يقال له (أَبسُس) بفتح الهمزة وسكون الموحدة وضم السين بعدها سين أخرى مهملة وكان بلداً من ثغور طرسوس بين حلب وبلاد أرمينية وأنطاكية .

وليست هي (أفسس) بالفاء أخت القاف المعروفة في بلاد اليونان بشهرة هيكل المشتري فيها فإنها من بلاد اليونان وإلى أهلها كتب بُولس رسالته المشهورة .

وقد اشتبه ذلك على بعض المؤرخين والمفسرين .

وهي قريبة من (مَرْعش) من بلاد أرمينية ، وكانت الديانة النصرانية دخلت في تلك الجهات ، وكان الغالب عليها دين عبادة الأصنام على الطريقة الرومية الشرقية قبل تنصر قسطنطين ، فكان من أهل (أبسُس) نفر من صالحي النصارى يقاومون عبادة الأصنام .

وكانوا في زمن الأنبراطور (دوقيوس) ويقال (دقيانوس) الذي ملك في حدود سنة 237 .

وكان ملكه سنة واحدة .

وكان متعصباً للديانة الرومانية وشديد البغض للنصرانيّة ، فأظهروا كراهية الديانة الرومانية .

وتوعدهم دوقيوس بالتعذيب ، فاتفقوا على أن يخرجوا من المدينة إلى جبل بينه وبين المدينة فرسخان يقال له (بنجلوس) فيه كهف أووا إليه وانفردوا فيه بعبادة الله .

ولما بلغ خبر فرارهم مسامع الملك وأنهم أووا إلى الكهف أرسل وراءهم فألقى الله عليهم نومةً فظنهم أتباعُ الملك أمواتاً .

وقد قيل : إنه أمر أن تُسد فوهة كهفهم بحائط ، ولكن ذلك لم يتم فيما يظهر لأنه لو بني على فوهة كهفهم حائط لما أمكن خروج من انبعث منهم .

ولعل الذي حال دون تنفيذ ما أمر به الملك أن مدته لم تطل في الملك إذ لم تزد مدته على عام واحد ، وقد بقوا في رقدتهم مدة طويلة قربها ابن العبري بمائتين وأربعين سنة ، وكان انبعاثهم في مدة مُلك (ثاوذوسيوس) قيصر الصغير ، وذكر القرآن أنها ثلاثمائة سنة .

ثم إن الله جعلهم آية لأنفسهم وللناس فبعثهم من مرقدهم ولم يعلموا مدة مكثهم وأرسلوا أحدهم إلى المدينة ، وهي (أبسس) ، بدراهم ليشتري لهم طعاماً .

فعجب الناس من هيئته ومن دراهمه وعجب هو مما رأى من تغيير الأحوال .

وتسامَع أهل المدينة بأمرهم ، فخرج قيصر الصغير مع أساقفةٍ وقسيسين وبطارقة إلى

الكهف فنظروا إليهم وكلموهم وآمنوا بآيتهم ، ولما انصرفوا عنهم ماتوا في مواضعهم ، وكانت آية تأيد بها دين المسيح .

والذي في "كتاب الطبري" أن الذين ذهبوا إلى مشاهدة أصحاب الكهف هم رئيسا المدينة (أريوس) و (أطيوس) ومن معهما من أهل المدينة ، وقيل لما شاهدهم الناس كتبَ واليا المدينة إلى ملك الروم ، فحضر وشاهدهم وأمر بأن يبنى عليهم مسجد .

ولم يذكروا هَل نُفِّذ بناء المسجد أو لم ينفذ .

ولم يذكر أنه وقع العثور على هذا الكهف بعد ذلك .

ولعله قد انهدم بحادث زلزال أو نحوه كرامة من الله لأصحابه ، وإن كانت الأخبار الزائفة عن تعيينه في مواضع من بلدان المسلمين في أقطار الأرض كثيرة .

وفي جنوب القطر التونسي موضع يُدعى أنه الكهف .

وفي مواضع أخرى من بادية القطر مشاهد يسمونها السبعة الرقود اعتقاداً بأن أهل الكهف كانوا سبعة .

وستعلم مثار هذه التوهمات .

وفي "تفسير الألوسي" عن ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال :

غزونا مع معاوية غزو المَضيق نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف .

فقال معاوية : لو كُشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ، فقال ابن عباس : ليس ذلك لك ، قد منع الله ذلك مَن هو خير منك ، فقال:

﴿ لو اطلعتَ عليهم لوليتَ منهم فراراً ﴾ [الكهف : 18] فقال معاوية : لا أنتهي حتى أعلم علمهم فبعث رجالاً وقال : اذهبوا فادخلوا الكهف وانظروا ، فذهبوا فلما دخلوه بعث الله عليهم ريحاً فأخرجتهم .

وروى عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن عكرمة : أن ابن عباس غزا مع حبيب بن مسلمة فمروا بالكهف فإذا فيه عظام .

فقال رجل : هذه عظام أهل الكهف .

فقال ابن عباس : لقد ذهبت عظامهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة .

وفي تفسير الفخر ﴾ عن القفال عن محمد بن موسى الخوارزمي المنجم : "أن الواثق أنفذه ليعرف حال أصحاب الكهف ، فسافر إلى الروم فوجه ملك الروم معه أقواماً إلى الموضع

الذي يقال إنهم فيه ، قال : وإن الرجل الموكل بذلك الموضع فزعني من الدخول عليهم ، قال : فدخلت ورأيت الشعور على صدورهم ، قال : وعرفت أنه تمويه واحتيال ، وأن الناس كانوا قد عالجوا تلك الجثث بالأدوية المجففة لأبدان الموتى لتصونها عن البلى مثل التلطيخ بالصبر وغيره" اهـ .

وقوله : (فسافر إلى الروم) مبني على اعتقادهم أن الكهف كان حول مدينة (أفسوس) بالفاء أخت القاف وهو وهم حصل من تشابه اسمي البلدين كما نبهنا عليه آنفاً ، فإن بلد (أفسس) في زمن الواثق لا تزال في حكم قياصرة الروم بالقسطنطينية ، ولذلك قال بعض المؤرخين : إن قيصر الروم لما بلغته بعثة الجماعة الذين وجههم الخليفة الواثق ، أمر بأن يجعل دليل في رفقة البعثة ليسهل لهم ما يحتاجونه ، أما مدينة (أبسس) بالباء الموحدة فقد كانت حينئذٍ من جملة مملكة الإسلام .

قال ابن عطية : "وبالأندلس في جهة (أغرناطة) بقرب قرية تسمى (لُوشة) كهف فيه موتى ومعهم كلب رمة ، وأكثرهم قد انجرد لحمه وبعضهم متماسك ، وقد مضت القرون السالفة ولم نجدْ مِن علم شأنهم أثارةً ، ويزعم الناس أنهم أصحاب الكهف ، دخلت إليهم ورأيتُهم سنة أربع وخمسمائة ، وهم بهذه الحال وعليهم مسجد وقريب منهم بناء رومي يسمى الرقيم كأنه قصر محلق (كذا بحاء مهملة لعله بمعنى مستدير كالحلقة) وقد بقي بعض جدرانه وهو في فلاة من الأرض حَزِنة ، وبأعلى حَضرة (أغرناطة) مما يلي القبلة آثار مدينة

قديمة رومية يقال لها مدينة (دقيوس) وجدنا في آثارها غرائب في قبورها ونحوها " اه .

وقصة أهل الكهف لها اتصال بتاريخ طور كبير من أطوار ظهور الأديان الحق ، وبخاصة طور انتشار النصرانية في الأرض .

وللكهوف ذكر شائع في اللوْذ إليها والدفن بها .

وقد كان المتنصرون يُضطهدون في البلاد فكانوا يفرون من المدن والقرى إلى الكهوف يتخذونها مساكن فإذا مات أحدهم دفن هنالك ، وربما كانوا إذا قتلوهم وضعوهم في الكهوف التي كانوا يتعبدون فيها .

٧ ولذلك يوجد في رومية كهف عظيم من هذه الكهوف اتخذه النصارى لأنفسهم هنالك ، وكانوا كثيراً ما يستصحبون معهم كلباً ليدفع عنهم الوحوش من ذئاب ونحوها .

وما الكهف الذي ذكره ابن عطية إلا واحد من هذه الكهوف .

غير أن ما ذكر في سبب نزول السورة من علم اليهود بأهل الكهف ، وجعلهم العلم بأمرهم أمارة على نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم يبعد أن يكون أهل الكهف هؤلاء من أهل الدين المسيحي فإن اليهود يتجافون عن كل خبر فيه ذكر للمسيحية ، فيحتمل أن بعض

اليهود أووا إلى بعض الكهوف في الاضطهادات التي أصابت اليهود وكانوا يأوون إلى الكهوف .

ويوجد مكان بأرض سُكرة قرب المرسى من أحواز تونس فيه كهوف صناعية حقق لي بعض علماء الآثار من الرهبان النصارى بتونس أنها كانت مخابىء لليهود يختفون فيها من اضطهاد الرومان القرطاجنيين لهم .

ويجوز أن يكون لأهل كلتا الملتين اليهودية والنصرانية خبراً عن قوم من صالحيهم عرفوا بأهل الكهف أو كانوا جماعة واحدة ادعى أهل كلتا الملتين خبرها لصالحي ملته ، وبُني على ذلك اختلاف في تسمية البلاد التي كان بها كهفهم .

قال السهيلي في "الروض الأنف" : وأصحاب الكهف من أمة عجمية والنصارى يعرفون حديثهم ويؤرخون به اهـ .

وقد تقدم طرف من هذا عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ في سورة الإسراء (85) .

إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10)

(إذ) ظرف مضاف إلى الجملة بعده ، وهو متعلق بـ ﴿ كانوا ﴾ [الكهف : 9] فتكون هذه الجملة متصلة بالتي قبلها .

ويجوز كون الظرف متعلقاً بفعل محذوف تقديره : اذكر ، فتكون مستأنفة استئنافاً بيانياً للجملة التي قبلها .

وأياً ما كان فالمقصود إجمال قصتهم ابتداء ، تنبيهاً على أن قصتهم ليست أعجب آيات الله ، مع التنبيه على أن ما أكرمهم الله به من العناية إنما كان تأييداً لهم لأجل إيمانهم ، فلذلك عطف عليه قوله : فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ﴾ .

وأوى أُوِياً إلى المكان : جعله مسكناً له ، فالمكان : المَأْوَى .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ في سورة يونس (8) .

والفتية : جمع قلة لفتى ، وهو الشاب المكتمل .

وتقدم عند قوله تعالى في سورة يوسف .

والمراد بالفتية : أصحاب الكهف .

وهذا من الإظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال : إذ أووا ، فعدل عن ذلك لما يدل عليه لفظ الفتية من كونهم أتراباً متقاربي السن .

وذكرهم بهذا الوصف للإيماء إلى ما فيه من اكتمال خُلق الرجولية المعبر عنه بالفتوة الجامع لمعنى سداد الرأي ، وثبات الجأش ، والدفاع عن الحق ، ولذلك عدل عن الإضمار فلم يقل

: إذ أووا إلى الكهف .

ودلت الفاء في جملة فقالوا ﴾ على أنهم لما أووا إلى الكهف بادروا بالابتهال إلى الله .

ودعوا الله أن يؤتيهم رحمة من لدنه ، وذلك جامع لخير الدنيا والآخرة ، أي أن يمن عليهم برحمة عظيمة تناسب عنايته باتباع الدين الذي أمر به ، فزيادة ﴿ من لدنك ﴾ للتعلق بفعل الإيتاء تشير إلى ذلك ، لأن في (من) معنى الابتداء وفي (لدن) معنى العندية والانتساب إليه ، فذلك أبلغ مما لو قالوا : آتنا رحمة ، لأن الخلق كلهم بمحل الرحمة من الله ، ولكنهم سألوا رحمة خاصة وافرة في حين توقع ضدها ، وقصدوا الأمن على إيمانهم من الفتنة ، ولئلا يلاقوا في اغترابهم مشقة وألماً ، وأن لا يهينهم أعداء الدين فيصيروا فتنة للقوم الكافرين .

ثم سألوا الله أن يقدر لهم أحوالاً تكون عاقبتها حصول ما خولهم من الثبات على الدين الحق والنجاة من مناواة المشركين .

فعبر عن ذلك التقدير بالتهيئة التي هي إعداد أسباب حصول الشيء .

و(من) في قوله : ﴿ من أمرنا ﴾ ابتدائية .

والأمر هنا : الشأن والحال الذي يكونون فيه ، وهو مجموع الإيمان والاعتصام إلى محل العزلة عن أهل الشرك .

وقد أعد الله لهم من الأحوال ما به رشدهم .

فمن ذلك صرف أعدائهم عن تتبعهم ، وأن ألهمهم موضع الكهف ، وأن كان وضعه على جهة صالحة ببقاء أجسامهم سليمةً ، وأن أنامهم نوماً طويلاً ليمضي عليهم الزمن الذي تتغير فيه أحوال المدينة ، وحصل رَشَدهم إذ ثبتوا على الدين الحق وشاهدوه منصوراً متبعاً ، وجعلهم آية للناس على صدق الدين وعلى قدرة الله وعلى البعث .

والرَّشد بفتحتين : الخير وإصابة الحق والنفع والصلاح ، وقد تكرر في سورة الجن باختلاف هذه المعاني .

والرُشد بضم الراء وسكون الشين مرادف الرَّشَد .

وغلب في حسن تدْبير المال .

لم يقرأ هذا اللفظ هنا في القراءات المشهورة إلا بفتح الراء بخلاف قوله تعالى : ﴿ قد تبين الرشد من الغي ﴾ في البقرة (256) ، وقوله : ﴿ فإن آنستم منهم رشداً ﴾ في سورة النساء (6) فلم يقرأ فيهما إلا بضم الراء .

ووجه إيثار مفتوح الراء والشين في هذه السورة في هذا الموضع وفي قوله الآتي : ﴿ وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا ﴾ [الكهف : 24] : أن تحريك الحرفين

فيهما أنسب بالكلمات الواقعة في قرائن الفواصل ؛ ألا ترى أن الجمهور قرؤوا قوله في هذه السورة : ﴿ على أن تعلمني مما علمت رشدا ﴾ [الكهف : 66] بضم الراء لأنه أنسب بالقرائن المجاورة له وهي ﴿ من لدنا علماً ﴾ [الكهف : 65] ﴿ معي صبراً ﴾ [الكهف : 67] ﴿ ما لم تحط به خُبرا ﴾ [الكهف : 68] ﴿ ولا أعصي لك أمراً ﴾ [الكهف : 69] إلى آخره .

ولم يقرأه هنالك بفتح الراء والشين إلا أبو عمرو ويعقوب .

(283/468)

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12)

تفريع هذه الجملة بالفاء إما على جملة دعائهم ، فيؤذن بأن مضمونها استجابة دعوتهم ، فجعل الله إنامتهم كرامة لهم .

بأن سلمهم من التعذيب بأيدي أعدائهم ، وأيد بذلك أنهم على الحق ، وأرى الناس ذلك بعد زمن طويل .

وإما على جملة ﴿ إذ أوى الفتية ﴾ [الكهف : 10] الخ فيؤذن بأن الله عجَل لهم

حصول ما قصدوه مما لم يكن في حسبانهم .

والضرب : هنا بمعنى الوضع ، كما يقال : ضرب عليه حجاباً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ [البقرة : 61] ، وقد تقدم تفصيله عند قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما ﴾ [البقرة : 26] .

وحذف مفعول ضربنا ﴾ لظهوره ، أي ضربنا على آذانهم غشاوة أو حائلاً عن السمع ، كما يقال : بنَى على امرأته ، تقديره : بنى بيتاً .

والضرب على الآذان كناية عن الإنامة لأن النوم الثقيل يستلزم عدم السمع ، لأن السمع السليم لا يحجبه إلا النوم ، بخلاف البصر الصحيح فقد يحجب بتغميض الأجفان .

وهذه الكناية من خصائص القرآن لم تكن معروفة قبل هذه الآية وهي من الإعجاز .

و﴿ عدداً ﴾ نعتُ ﴿ سنين ﴾ .

والعدد : مستعمل في الكثرة ، أي سنين ذات عدد كثير .

ونظيره ما في حديث بدء الوحي من قول عائشة : فكان يخرج إلى غار حراء فيتحنّث فيه الليالي ذوات العدد" تريد الكثيرة .

وقد أجمل العدد هنا تبعاً لإجمال القصة .

والبعث : هنا الإيقاظ ، أي أيقظناهم من نومتهم يقظة مفزوع .

كما يُبعث البعير من مَبركه .

وحسن هذه الاستعارة هنا أن المقصود من هذه القصة إثبات البعث بعد الموت فكان في ذكر لفظ البعث تنبيه على أن في هذه الإفاقة دليلاً على إمكان البعث وكيفيته .

والحزب : الجماعة الذين توافقوا على شيء واحد ، فالحزبان فريقان : أحدهما مصيب والآخر مخطىء في عد الأمد الذي مضى عليهم .

فقيل : هما فريقان من أهل الكهف أنفسهم على أنه المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ قال قائل منهم كم لبثتم ﴾ [الكهف : 19] .

وفي هذا بعد من لفظ حزب إذ كان القائل واحداً والآخرون شاكين ، وبعيد أيضاً من فعل أحصى ﴾ لأن أهل الكهف ما قصدوا الإحصاء لمدة لبثهم عند إفاقتهم بل خالوها زمناً قليلاً .

فالوجه : أن المراد بالحزبين حزبان من الناس أهل بلدهم اختلفت أقوالهم في مدة لبثهم بعد أن علموا انبعاثهم من نومتهم ، أحد الفريقين مصيب والآخر مخطىء ، والله يعلم المصيب منهم والمخطىء ، فهما فريقان في جانبي صواب وخطأ كما دل عليه قوله : ﴿ أحصى ﴾ .

ولا ينبغي تفسير الحزبين بأنهما حزبان من أهل الكهف الذين قال الله فيهم : ﴿ قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم الآية [الكهف : 19] .

وجُعل حصول علم الله بحال الحزبين علةً لبعثِهِ إياهم كناية عن حصول الاختلاف في تقدير مدتهم فإنهم إذا اختلفوا علم الله اختلافهم عِلْمَ الواقعات ، وهو تعلق للعلم يصح أن يطلق عليه تنجيزي وإن لم يقع ذلك عند علماء الكلام .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ في أول السورة الكهف (7) .

وأحصى ﴾ يحتمل أن يكون فعلاً ماضياً ، أن يكون اسم تفضيل مصوغاً من الرباعي على خلاف القياس .

واختار الزمخشري في "الكشاف" تبعاً لأبي علي الفارسي الأول تجنباً لصوغ اسم التفضيل على غير قياس لقلته .

واختارَ الزجاج الثاني .

ومع كون صوغ اسم التفضيل من غير الثلاثي ليس قياساً فهو كثير في الكلام الفصيح وفي القرآن .

فالوجه ، أن ﴿ أحصى ﴾ اسم تفضيل ، والتفضيل منصرف إلى ما في معنى الإحصاء من الضبط والإصابة .

والمعنى : لنعلم أي الحزبين أتقن إحصاءً ، أي عدا بأن يكون هو الموافق للواقع ونفس الأمر ويكون ما عداه تقريباً ورجماً بالغيب .

وذلك هو ما فصله قوله تعالى : ﴿ سيقولون ثلاثة ﴾ [الكهف : 22] الآية .

(285/468)

ف (أي) اسم استفهام مبتدأ وهو معلق لفعل لنعلم ﴾ عن العمل ، ﴿ وأحصى ﴾ خبر عن (أي) و ﴿ أمداً ﴾ تمييز لاسم التفصيل تمييزَ نسبة ، أي نسبة التفضيل إلى موصوفه كما في قوله : ﴿ أنا أكثر منك مالاً ﴾ [الكهف : 34] .

ولا يريبك أنه لا يتضح أن يكون هذا التمييز محولاً عن الفاعل لأنه لا يستقيم أن تقول : أفضل أمده ، إذ التحويل أمر تقديري يقصد منه التقريب .

والمعنى : ليظهرَ اضطراب الناس في ضبط تواريخ الحوادث واختلال خرصهم وتخمينهم إذا تصدوا لها ، ويعلم تفريط كثير من الناس في تحديد الحوادث وتاريخها ، وكلا الحالين يمت إلى الآخر بصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(286/468)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) ﴾

﴿ أَمْ ﴾ في هذه الآية الكريمة هي المنقطعة عن التحقيق ، ومعناها عند الجمهور " بل والهمزة " وعند بعض العلماء بمعنى " بل " فقط ، فعلى القول الأول فالمعنى : بل أحسبت ، وعلى الثاني – فالمعنى : بل حسبت ، فهي على القول الأول جامعة بين الإضراب والإنكار . وعلى الثاني – فهي للإضراب الانتقالي فقط .

وأظهر الأقوال في معنى الآية الكريمة : ان الله يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : إن قصة أصحاب الككهف وإن استعظمها الناس وعجبوا منها ، فليست شيئاً عجباً بلنسبة إلى قدرتنا وعظيم صنعنا فإن خلقنا السموات الأرض وجعلنا ما على الأرض زينة لها ، وحعلنا إياها بعد ذلك صعيداً جرزاً – أعظم وأعجب مما فعلنا بأصحاب الكهف ، ومن كوننا أنمناهم هذا الزمن الطويل ، قم بعثناهمن ويدل لهذا الذي ذكرنا آيات كثيرة :

منها – أنه قال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرضِ زِينَةً لَّهَاً ﴾ [الكهف : 7] إلى قوله – ﴿ صَعِيداً جُرُزا ﴾ [الكهف : 8] ، ثم اتبع ذلك بقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكهف ﴾ الآية ، فدل ذلك على أن المراد أن قصتهم لا هجب فيها بالنسبة غلى ما خلقنا مما هو أعظم منها .

ومنها – أنه يكثر في القرآن العظيم تنبيه الناس على أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق الناس ، ومن خلق الأعظم فهو قادر على الأصغر بلا شك ، كقوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [غافر : 57] الآية ، وكقوله : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآءُ بَنَاهَا ﴾ [النازعات : 27] إلى قوله ﴿ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [النازعات : 33] كما قدمناه مستوفى في سورة " البقرة والنحل " .

(287/468)

ومن خلق هذه المخلوقات العظام : كالسماء والأرض وما فيهما فلا عجب في إقامته أهل الكهف هذه المدة الطويلة ، ثم بعثه إياهم ، كما هو واضح .

والكهف : النقب المتسع في الجبل ، فإن لم يك واسعاً فهو غار . وقيل كل غار في جلب : كهف . وما يروى عن أنس من أن الكهف نفس الجبل غريب ، غير معروف في اللغة .

واختلف العلماء في المراد بأ ﴿ الرقيم ﴾ في هذه الآية على أقوال كثيرة ، قيل : الرقيم اسم كلبهم ، و هو اعتقاد أمية بن أبي الصلت حيث يقول :

وليس بها إلا الرقيم مجاوراً . . . وصيدهم والقوم في الكهف همد

وعن الضحاك – أن الرقيم : بلدة بالروم ، وقيل : اسم الجبل الذي فيه الكهف . وقيل :

اسم للوادي الذي فيه الكهف . والأقوال فيه كثيرة . وعن ابن عباس أنه قال : لا أدري ما الرقيم ؟ أكتاب أم بنيان ؟ .

وأظهر الأقوال عندي بحسب اللغة العربية وبعض آيات القرآن : أن الرقيم معناه : المرقوم ، فهو فعيل بمعى مفعول ، من رقمت الكتاب إذا كتبته ، ومنه قوله تعالى ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ [المطففين : 9] الآية . سواء قلنا : إن الرقيم كتاب كان عندهم فيه شرعهم الذي تمسكوا به ، أو لوح من ذهب كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقصتهم وسبب خروجهم ، أو صخرة نقشت فيها أسماؤهم .

والعلم عند الله تعالى .

والظاهر أن أصحاب الكهف والرقيم : طائفة واحدة أضيفت إلى شيئين : أحدهما معطوف على الآخر ، خلافاً لمن قال : إن أصحاب الكهف طائفة ، وأصحاب الرقيم طائفة أخرى وأن الله قص علة نبيه في هذه السورة الكريمة قصة أصحاب الكهف ولم يذكر له شيئاً عن أصحاب الرقيم : وخلافاً لمن زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم صخرة فسدت عليهم باب الكهف الذي هم فيه ، فدعوا الله بأعمالهم الصالحة : وهم الابر بوالديه ، والعفيف ، والمستأجر . وقصتهم مشهورة ثابتة في الصحيح ، غلا أن تفسير الآية بأنهم هو المراد – بعيد كما ترى .

واعلم أن قصة أصحاب الكهف وأسماؤهم ، وفي اي محل من الأرض كانوا - كل ذلك لم يثبت فيه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم شيء زائد على ما في القرآن ، وللمفسرين في ذلك أخبار كثيرة إسرائيلية أعرضنا عن ذكرها لعدم الثقة بها .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ عجباً ﴾ صفة لمحذوف ، أي شيئاً عجباً . أو آية عجباً .

وقوله : ﴿ من آياتنا ﴾ في موضع الحال . وقد تقرر في فن النحو أن نعت النكرة إذا تقدم عليها صار حالاً ، وأصل المعنى : كانوا عجباً كائناً من آياتنا ، فلما قدم النعت صار حالاً .

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة من صفة أصحاب الكهف - أنهم فتية ، وا ، هم أووا إلى الكهف ، وأنهم دعوا ربهم هذا الدعاي العظيم الشامل لكل خير ، وهو قوله عنهم ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾ .

وبي ن في غير هذا الموضع اشياء أخرى من صفاتهم وأقوالهم ، كقوله : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : 13] إلى قوله ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ

وَيُهَيِّىءْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقاً ﴾ [الكهف: 16] و ﴿ إذ ﴾ في قوله هنا ﴿ إِذْ أَوَى الفتية ﴾ منصوبة ب ﴿ اذكر ﴾ مقدراً. وقيل: بقوله ﴿ ﴿ عَجَباً ﴾ [الكهف: 9] ومعنى قوله ﴿ إِذْ أَوَى الفتية إِلَى الكهف ﴾ أي جعلوا الكهف مأوى لهم ومكان اعصام.

ومعنى قوله: ﴿ آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ اي أعطنا رحمة من عندك. والرحمة هنا تشمل الرزق والهدى والحفظ مما هربوا خائفين منه من أذى قومهمن والمغفرة.

والفتية: جمع فتى جمع تكسير، وهو من جموع القلة. ويدل لفظ الفتية على قتلهم، وأنهم شباب لا شيب، خلافاً لما زعمه ابن السراج من: أن الفتية اسم جمع لا جمع تكسير. وإلى كون مثل الفتية جمع تكسير من جموع القلة - أشار ابن مالك في الخلاصة بقوله:

أفعله افعل ثم فعله... كذاك أفعال جموع قله

والتهيئة: التقريب والتيسير: اي يسر لنا وقرب لنا من أمرنا رشداً. والرشد ك الاهتداء والديمومة عليه. و ﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من أمرنا ﴾ فيها وجهان: أحدهما - أنها هنا للتجريد، وعليه فالمعنى: اجعل لنا أمرنا رشداً كله. كما تقول: لقيت من زيد أسداً.

ومن عمرة بجراً .

والثاني أنها للتبعيض . وعليه فالمعنى : واجعل لنا بعض أمرنا . أي وهو البعض الذي نحن فيه من مفارقة الكفار رشداً حتى نكون بسببه راشدين مهتدين .

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة – أنه ضرب على آذان أصحاب الكهف سنين عدداً . ولم يبين قدر هذا العدد هنا ، لكنه بينه في موضع آخر . وهو قوله : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وازدادوا تِسْعاً ﴾ [الكهف : 25] .

وضربه جل وعلا على آذانهم في هذه الآية كناية عن كونه أنامهم ومفعول " ضربنا " محذوف ، أي ضربنا على آذانهم حجاباً مانعاً من السماع فلا يسمعون شيئاً يوقظهم .

والمعنى : أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات .

وقوله ﴿ سنين عدداً ﴾ على حذف مضاف . اي ذات عدد ، أو مصدر بمعنى اسم المفعول ، أي سنين معدودة . وقد ذكرنا الآية المبينة لقدر عددها بالسنة القمرية والشمسية ، كما يشير غلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وازدادوا تِسْعاً ﴾ .

وقال أبو حيان في البحر في قوله ﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ عبر بالضرب على قوة المباشرة واللصوق واللزوم ، ومنه ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة ﴾ [آل عمران : 112] وضرب الجزية والضرب البعث . وقال الفرزدق :

ضرب عليك العنكبوت بنسجها . . . وقضى عليك به الكتاب المنزل

وقال الأسود بن يعفر :

ومن الحوادث لا أبالك أنني . . . ضربت على الأرض بالأسداد

وقال الآخر :

إن المروءة والسماحة والندى . . . في قبة ضربت على ابن الحشرج

وذكر الجارحة التي هي الآذان ، غذ هي يكون منها السمع ، لأنه لا يستحكم نوم إلا مع تعطل السمع . وفي الحديث : " ذلك رجل بال الشيطان في أذنه " أس استثقل نومه حتى لا يقوم بالليل اه كلام أبي حيان .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الاية الكريمة : أن من حكم بعثه لأصحاب الكهف بعد هذه النومة الطويلة – أن يبين للناس اي الحزبين المختلفين في مدة لبثهم أحصى لذلك وأضبط له . ولم يبين هنا شيئاً عن الحزبين المذكورين .

وأكثر المفسرين على أن أحد الجزبين – هم أصحاب الكهف . والحزب الثاني – هم أهل

المدينة الذي بعث الفتية على عهدعم حين كان عندهم التاريخ بأمر الفتية . وقيل : عما حزبات من أهل المدينة المذكورة ، كان منهم مؤمنون وكافرونز وقيل : هما حزبان من المؤمنين في زمن اصحاب الكهف . اختلفوا في مدة لبثهم ، قاله الفراء : وعن ابن عباس : الملوك الذين تداولوا ملك المدينة حزب ، وأصحاب الكهف حزب . إلى غير ذلك من الأقوال .

والذي يدل عليه القرآن : أن الحزبين كليهما من أصحاب الكهف . وخير ما يفسر به القرآن القرآن ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وكذلك بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف : 19] . وكأن الذين قالوا ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول . ولقائل أن يقول : قوله عنهم ﴿ ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ يدل على أنهم لم يحصوا مدة لبثهم . والله تعالى أعلم .

(291/468)

وقد يجاب عن ذلك بأن رد العلم إلى الله لا ينافى العلم ، بدليل أن الله أعلم نبيه بمدة لبثهم في قوله : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ﴾ [الكهف : 25] الآية ، ثم أمره برد العلم إليه في قوله : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ [الكهف : 26] الآية .

وقوله ﴿ بعثناهم ﴾ اي من نومتهم الطويلة . والبعث : التحريك من سكون ، فيشمل بعث النائم والميت ، وغير ذلك .

وقد بينا في رجمة هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر الله جل وعلا حكمة لشيء في موضع ، ويكون لذلك الشيء حكم أخر مذكورة في مواضع أخرى - فإنا نبينها . ومثلنا لذلك ، وذكرنا منه أشياء متعددة في هذا الكتاب المبارك .

وإذا علمت ذلك فاعلم أنه تعالى هنا في هذه الآية الكريمة بين من حكم بعثهم إظهاره للناس : اي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً . وقد بين لذلك حكماً أخر في غير هذا الموضع .

منها - أن يتساءلوا عن مدة لبثهم ، كقوله : ﴿ وكذلك بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ [الكهف : 19] الآية .

ومنها - إعلام الناس أن البعث حق ، وأن الساعة حق لدلالة قصة أصحاب الكهف على ذلك . وذلك في قوله : ﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ليعلموا أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَأَنَّ الساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ [الكهف : 21] الآية .

واعلم أن قوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ﴿ ثم بعثناهم لنعلم ﴾ الآية - لا يدل على أنه لم يكن عالماً بذلك قبل بعثهم ، وإنما علم بعد بعثهم .

كما زعمه بعض الكفرة الملاحدة ! بل هو جل وعلا عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون ، لا يخفى عليه من ذلك شيء . والآيات الدالة على ذلك لا تحصى كثر .

وقد قدمنا – أن من أصرح الأدلة على أنه جل وعلا لا يستفيد بالاختبار والابتلاء علماً جديداً سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً – قوله تعالى في آل عمران : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ واللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [آل عمران : 154] فقوله ﴿ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ بعد قوله ﴿ وليبتلي ﴾ دليل واضح في ذلك .

وإذا حققت ذلك فمعنى ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ ﴾ أي نعلم ذلك علماً يظهر الحقيقة للناس ، فلا ينافى أنه كان عالماً به قبل ذلك دون خلقه .

واختلف العلماء في قوله ﴿ أَحصى ﴾ فذهب بعضهم إلى أنه فعل ماض و " أَمداً " مفعوله " وما " في قوله " لما لبثوا " مصدرية . وتقرير المعنى على هذا : لنعلم أي الحزبين ضبط أمداً للبثهم في الكهف .

وممن اختار أن ﴿ أحصى ﴾ فعل ماض : الفارسي والزمخشري . وابن عطين وغيرهم .

وذهب بعضهم إلى أن ﴿ أحصى ﴾ صيغة تفضيل ، " وأمداً " تمييز . وومن اختاره الزجاج والتبريزي وغيرهما . وجوز الحوفى وأبو البقاء الوجهين .

والذين قالوا : إن ﴿ أحصى ﴾ فعل ماض قالوا : لا يصح فيه أن يكون صيغة تفضيل .

لأنها لا يصح بناؤها هي ولا صيغة فعل التعجب قياساً إلا من الثلاثي ، " وأحصى " رباعي فلا تصاغ منه صيغة التفضيل ولا التعجب قياساً . قالوا : وقولهم : ما أعطاه وما أولاه للمعروف ، وأعدى من الجرب ، وأفلس من ابن المذلق - شاذ لا يقاي عليه ، فلا يجوز حمل القرآن عليه .

واحتج الزمخشري في الكشاف أيضاً لأن ﴿ أَحصى ﴾ ليست صيغة تفضيل - بأن ﴿ أَمداَ ﴾ لا يخلو : إما أن ينتصب بأفعل - فأفعل لا يعمل . وإما أن ينتصب ب ﴿ لبثوا ﴾ فلا يسد عليه المعنى أن لا يكون سديداً عل ذلك القول ، وقال : فإن زعمت نصبه بإضمار فعل يدل عليه ﴿ أحصى ﴾ كما أضمر في قوله :

(293/468)

وأضرب منا بالسيوف القوانسا . . . اي نضرب القوانس فقد ابعدت المتناول وهو قريب حيث أبيت أن يكون ﴿ أَحصى ﴾ فعلاً ، ثم رجعت مضطراً إلى تقديره وإضماره - انتهى كلام الزمخشري .

وأجيب من جهة المخالفين عن هذا كله قالوا : لا نسلم أن صيغة التفضيل لا تصاغ من غير الثلاثي ، ولا نسلم ايضاً لأنها لا تعمل .

وحاصل تحرير المقام في ذلك – أن في كون صيغة التفضيل تصاغ من "أفعل" كما هنا ، أو لا تصاغ منه . ثلاثة مذاهب لعلماء النحو :

الأول – جواز بنائها من أفعل مطلقاً ، وهو ظاهر كلام سيبويه ، وهو مذهب أبي إسحاق كما نقله عن أبو حيان في البحر .

والثاني – لا يبنى منه مطلقاً ، وما سمع منه فهو شاذ يحفظ ولا يقاس عليه .

وهو الذي درج عليه ابن مالك في الخلاصة بقوله :

وبالندور احكم لغير ما ذكر . . . ولا تقس على الذي منه أثر

كما قدمناه في سورة "بني إسرائيل" في الكلام على قوله : ﴿ فَهُوَ فِي الآخرة أعمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 72] .

الثالث – تصاغ من أفعل إذا كانت همزتها لغير النقل خاصة . كأظلم الليل ، وأشكل الأمر . لا إن كانت الهمزة للنقل فلا تصاغ منها ، وهذا هو اختيار أبي الحسن بن عصفور .

وهذه المذاهب مذكورة بأدلتها في كتب النحو وأما قول الزمخشري : فأفعل لا يعمل فليس بصحيح . لأن صيغة التفضيل تعمل في التمييز بلا خلاف ، وعليه درج في الخلاصة بقوله :

والفاعل المعنى انصبن بأفعلا . . . مفضلاً كأنت أعلى منزلا

و﴿ أمداً ﴾ تمييز كما تقدم . فنصبه بصيغة التفضيل لا إشكال فيه .

وذهب الطبري إلى أن : ﴿ أمداً ﴾ منصوب ب ﴿ لبثوا ﴾ وقال ابن عطية : إن ذلك غير متجه .

(294/468)

وقال أبو حيان : قدي تجه ذلك . لأن الأمد هو الغاية ، ويكون عبارة عن المدة من حيث إن المدة غاية . و ﴿ ما ﴾ بمعنى الذي ، و ﴿ أمداَ ﴾ منتصب على إسقاط الحرف . اي لما لبثوا من أمد ، اي مدة . ويصير من أمد تفسيراً لما انبهم في لفظ ﴿ ما لبثوا ﴾ كقوله ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ [البقرة : 106] ، ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ [فاطر : 2] ولما سقط الحرف وصل إليه الفعل .

قال مقيدة عفا الله عنه : إطلاق الأمد على الغاية معروف في كلام العرب ومنه قول نا بغة ذبيان :

إلا لمثلك أو من أنت سا بقه . . . سبق الجواد إذا استولى على الأمد

وقد قدمنا في سروة " النساء " – أن علي بن سليمان الأخفش الصغير أجاز النصب بنزع الخافض عند أمن اللبس مطلقاً . ولكن نصب وقوله ﴿ أمداً ﴾ ، بقوله ﴿ لبثوا ﴾ غير سدسد كما ذكره الزمخشري وابن عطية وكما لا يخفى اه .

واجاز الكوفيون نصب المفعول بصيغة التفضيل ، وأعربوا قول العباس بن مرداس السلمي :

فلم ار مثل الحي حياً مصبحاً . . . ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا

أكر وأحمي الحقيقة منهم . . . واضرب منا بالسيوف القوانسا

بأن " القوانس " مفعول به لصيغة التفضيل التي هي أضرب . قالوا ولا حاجة لتقدير فعل محذوف ومن هنا قال بعض النحويينك إن ﴿ من ﴾ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : 117] منصوب بصيغة التفضيل قبله نصب المفعول به .

قال مقيده عفا الله عنه ، وغفر له : ومذهب الكوفيين هذا أجرى عندي على المعنى المعقول . لأن صيغة التفضيل فيها معنى المصدر الكامن فيها فلا مانع من عملها عمله . إلا ترى أن قوله : وأضرب منا السيوف القوانسا معناه : يزيد ضربنا بلاسيوف القوانس على ضرب غيرنا ، كما هو واضح . وعلى هذا الذي قررنا فلا مانع من كون ﴿ أمداً ﴾ منصوب ب ﴿ أحصى ﴾ نصب المفعول به على أنه صيغة تفضيل .

وإن كان القائلون بأن ﴿ أَحصى ﴾ صيغة تفضيل اعربوا ﴿ أَمداً ﴾ بأنه تمييز .

تنبيه

فإن قيل : ما وجه رفه ﴿ أَي ﴾ من قوله : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى ﴾ [الكهف : 12] الآية ، مع أنه في محل نصب مفعول به ؟ فالجواب – أن للعلماء في ذلك أجوبة ، منها ، ان ﴿ أي ﴾ فيها معنى الاستفهام ، والاستفهام يعلق الفعل عن مفعوليه كما قال ابن مالك في الخلاصة عاطفاً على ما يعلق الفعل القلبي عن مفعوليه :

وإن ولا لام ابتداء أو قسم . . . كذا والاستفهام ذا له انحتم

ومنها – ما ذكره الفخر الرازي وغيه : من أن الجملة بمجموعها متعلق العلم . ولذلك السبب لم يظهر عمل قوله ﴿ لنعلم ﴾ في لفظة ﴿ أي ﴾ بل بقيت على ارتفاعها . ولا يخفى عدم اجاه هذا القول كما ترى .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر أووجه الأعاريب عندي في الآية : أن لفظة ﴿ أي ﴾ موصولة استفهامية . و ﴿ أي ﴾ مبنية لأنها مضافة ، وصدر صلتها محذوف على حد قوله في الخلاصة :

أي كما وأعربت ما لم تضف . . . وصدر وصلها ضمير انحذف

ولبنائها لم يظهر نصبها . وتقرير المعنى على هذا : لنعلم الحزب الذي هو أحصى لما لبثوا أمداً ونميزه عن غيره . و ﴿ أحصى ﴾ صيغة تفضيل كما قدمنا توجيهه . نعم ،

للمخالف أن يقول : إن صيغة التفضيل تقتضي بدلالة مطابقتها الاشتراك بين المفضل والمفضل عليه في أصل الفعل ، وأحد الحزبين لم يشارك الآخر في أصل الإحصاء لجهله بالمدة من أصلها ، وهذا مما يقوي قول من قال : إن ﴿ أحصى ﴾ أفعل ، والعلم عند الله تعالى .

فإن قيل : أي فائدة مهمة في معرفة الناس للحزب المحصى أمد اللبث من غيره ، حتى يكون علة غائية لقوله ، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ ﴾ [الكهف : 12] الآية ؟ وأي فائدة مهمة في مساءلة بعضهم بعضاً ، حتى يكون علة غائية لقوله : ﴿ وكذلك بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ [الكهف : 19] ؟ .

(296/468)

فالجواب – أنا لم نر من تعرض لهذا . والذي يظهر لنا والله تعالى أعلم – أن ما ذكر من إعلام الناس بالحزب الذي هو أحصى أمداً لما لبثوا ، ومساءلة بعضهم بعضاً عن ذلك ، يلزمه أن يظهر للناس حقيقة أمر هؤلاء الفتية ، وأن الله ضرب على آذانهم في الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ثم بعثهم أحياء طرية أبدانهم . لم يتغير لهم حال . وهذا من غريب صنعه جل وعلا الدال على كمال قدرته ، وعلى البعث بعد الموت . ولاعتبار هذا اللازم جعل ما ذكرنا علة غائية والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آَيَاتِنَا عَجَبًا (9) ﴾

وقد وردتْ قصة أهل الكهف نتيجة لسؤال كفار مكة الذين أرادوا أنْ يُحرجوا رسول الله ، ويُروى أنهم أرسلوا رجلين منهم هما : النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أهل الكتاب في المدينة ليسألوهم عن صدق رسول الله ، وما خبره عندهم ، وما ورد عنه في كتبهم .

وقد كان يهود المدينة قبل البعثة يتوعدون الأوس والخزرج عباد الأصنام ببعثة النبي الجديد ، يقولون : لقد أطلَّ زمان نبيٍ نتبعه ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم ؛ لذلك رغب أهل مكة في سؤال يهود المدينة عن صدق رسول الله ، فلما ذهب الرجلان إلى يهود المدينة قالوا : إنْ أردتُمْ معرفة صدق محمد فاسألوه عن ثلاثة أشياء ، فإنْ أجابكم فهو صادق ، اسألوه : ما قصة القوم الذين ذهبوا في الدهر مذاهب عجيبة ؟ وما قصة الرجل الطوّاف الذي طاف الأرض شرقاً وغرباً ؟ وما الروح ؟

وفعلاً ذهب الرجلان إلى رسول الله ، وسألاه هذه الأسئلة فقال صلى الله عليه وسلم : "

أخبركم بما سألتم عنه غداً " وجاء غد وبعد غد ومرّت خمسة عشر يوماً دون أنْ يُوحَى لرسول الله شيء من أمر هذه الأسئلة ، فشقّ ذلك على رسول الله وكَبُر في نفسه أنْ يعطِي وَعْداً ولا يُنجزه .

وقالوا : إن سبب إبطاء الوحي على رسول الله في هذه المسألة أنه قال : " أخبركم بما سألتم عنه غداً " ولم يقُلْ : إنْ شاء الله ؛ ولذلك خاطبه ربه تبارك وتعالى بقوله : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . ﴾ [الكهف : 23-24]

(298/468)

وهذه الآية في حَدِّ ذاتها دليل على صدق رسول الله ، وعلى أدبه ، وعلى أمانته في البلاغ عن ربه عز وجل ، وقد أراد الحق سبحانه أن يكون هذا الدرس في ذات الرسول ليكون نموذجاً لغيره ، وحتى لا يستنكف أحد إذا استُدرك عليه شيء ، فها هو محمد رسول الله يستدرك عليه ربه ويُعدّل له .

فكأن قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . ﴾ [الكهف : 23-24] تربية للأمة في شخصية رسولها حتى لا يستنكف المربَّى من توجيه المربِّي ، ما دام الهدف هو الوصول إلى الحقيقة ، فإياكم أن ترفضوا استدراك رأي على رأي

حتى وإنْ كان من الخَلْق ، فما بالك إنْ كان الاستدراك من الخالق سبحانه ، والتعديل والتربية من ناحيته ؟

وإليك مثال لأدب الاستدراك ومشروعية استئناف الحكم ، لقد ورد هذا الدرس في قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 78]

فكان حكم داود عليه السلام في هذه المسألة أنْ يأخذ صاحب الزرع الغنم التي أكلتْ زرعه ، فلما بلغ سليمان هذه الحكومة استدرك عليها قائلاً : بل يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بها ، ويأخذ صاحب الغنم الزرع يُصلحه حتى يعودَ إلى ما كان عليه ، ثم تعود الغنم إلى صاحبها ، والزرع إلى صاحبه .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ . . ﴾ [الأنبياء : 79] ولم يتهم داود بالخطأ ، بل قال : ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً . . ﴾ [الأنبياء : 79]

(299/468)

ونلحظ هنا أن الاستدراك لم يَأْتِ من الأب للابن ، فيكون أمراً طبيعياً ، بل جاء من الابن للأب ليؤكد على أنه لا غضاضة أنْ يستدرك الصغير على الكبير ، أو الابن على الأب ،

فالهدف هو الوصول إلى الحق والصواب ، ونبيّ الله سليمان في هذه المسألة لم يغُضّ الطرف عن هذا القصور في حكومة أبيه ، بل جهر بالحق ونطق به ؛ لأن الحق أعزّ من أيِّ صلة حتى لو كانت صلة الأبوة .

ومن هذه القضية نعلم استدراك الخَلْق على الخَلْق أمر طبيعي ومقبول لا يستنكف منه أحد ، ومن هنا جاءت فكرة الاستئناف في المحاكم ، فلعل القاضي في محكمة الاستئناف يستدرك على زميله في المحكمة الابتدائية ، أو يقف على شيء لم يقف عليه ، أو يرى جانباً من القضية لم يَرَهُ .

ولنا هنا وَقْفة مع أمانته صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن الله ، وأنه لم يكتم من الوحي شيئاً حتى ما جاء في عتابه والاستدراك عليه ، فكأنه أمينٌ حتى على نفسه ، فالرسول هو الذي بلغنا : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ﴾ [الكهف : 23] وهو الذي بلَّغنا :

﴿ يا أيُّهَا النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ ﴾ [التحريم : 1]

وهو الذي بلغنا في شأن غزوة بدر : ﴿ عَفَا الله عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ . . ﴾ [التوبة : 43] وغيرها كثير من آيات القرآن ؛ لذلك مدحه ربه تعالى بقوله : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الغيب بِضَنِينٍ ﴾ [التكوير : 24]

حتى في مجال التهديد والوعيد لم يكتم رسول الله من الوحي حرفاً واحداً ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾

[الحاقة : 44-46]

إنها الأمانة المطلقة والصدق الذي لا يُخفِي شيئاً .

(300/468)

ألم يكُنْ جديراً بالقوم أنْ يفقهوا هذه الناحية من رسول الله ، ويتفكّروا في صِدْقه صلى الله عليه وسلم حين يُخبرهم عن نفسه أشياء لم يعرفوها ، وكان من المنتظر أنْ يُخفيها عنهم؟ أليس في ذلك دليلاً قاطعاً على صدقه فيما يقول؟

والحق تبارك وتعالى حينما يعلمنا أن نقول : إن شاء الله إذا أقدمنا على عمل في المستقبل إنما يُكرّم عبده ويحميه حتى لا يُوصَف بالكذب إذا لم يُحقّق ما وعد به ، وليس في قولنا : إنْ شاء الله حَجْر على أحد ، أو تقييد لطموحات البشر كما يدّعي البعض أن قول إنْ شاء الله يلغي التخطيط للمستقبل .

نقول : خطِّط كما تريد ، ودبِّر من أمرك ما شئت ، واصنع من المقدمات ما تراه مناسباً لإنجاح سعيك ، لكن ما عليك إنْ قرنتَ هذا كله بمشيئة الله ، وهي في حدِّ ذاتها عَوْنٌ لك على ما تريد ، فإنْ أخفقتَ فقد جعلتَ لنفسك حماية في مشيئة الله ، فأنت غير كاذب ، والحق تبارك وتعالى لم يشأ بَعْدُ أنْ تنجزَ ما تسعى إليه .

والحقيقة أن الحدث في المستقبل لا يملكه أحد ، ولا يضمنه أحد إلا الله تبارك وتعالى ؛ لذلك عليك أن تعلق الفعل على مشيئة الله ، فإنْ قُلْتَ مثلاً : سأقابل فلاناً غداً لأكلمه في كذا ، فهل تملك أنت من عناصر هذا الحدث شيئاً ؟

أضمنتَ أن تعيش إلى غد ؟ أضمنتَ حياة فلان هذا إلى الغد ؟ أضمنتَ أن موضوع المقابلة باقٍ لا يتغير فيه شيء ، ولا يطرأ عليه طارئ؟ إذن : فكيف تقطع بالقول أنك ستفعل غداً كذا ؟ قل : إن شاء الله ، واخرج من دائرة الحرج هذه .

نعود إلى الآية التي نحن بصددها فالحق سبحانه يقول : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكهف والرقيم كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً ﴾ [الكهف : 9]

﴿ أَمْ ﴾ حرف من حروف العطف ، ويفيد الإضراب عَمَّا قبله وتوجيه الاهتمام إلى ما بعده ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظلمات والنور . . ﴾ [الرعد : 16]

فالمراد : إنْ سألك كفار مكة عن مسألة أصحاب الكهف على أنها معضلة يريدون إحراجك بها ، فدعْكَ من كلامهم ، ودَعْك من سوء نيتهم ، ولا تحسب أن أهل الكهف

هي العجيبة الوحيدة لدينا ، فالعجائب عندنا كثيرة ، وهذه واحدة منها .

و ﴿ الكهف ﴾ : الفجوة في الجبل و ﴿ والرقيم ﴾ الشيء المرقوم أي : المكتوب عليه كحجر أو نحوه ، ولعله حجر كان على باب الكهف رُقِم عليه أسماء هؤلاء الفتية ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ [المطففين : 9] أي : مكتوب .

وقوله : ﴿ كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً ﴾ [الكهف : 9] أي : ليست هذه هي العجيبة الوحيدة ، فكل آياتنا عجيبة تستحق التأمل .

ثم تأخذ الآيات في تفصيل هذه العجيبة ، فيقول تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الفتية إِلَى الكهف فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً . . ﴾ .

إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10)

﴿ أوَى ﴾ من المأوى ، وهو المكان الذي يأوي إليه الإنسان ويلجأ إليه ﴿ الفتية ﴾ جمع فتى ، وهو الشاب في مُقْتبل العمر ، والشباب هم مَعقِد الآمال في حَمْل الأعباء والنهوض بكل أمر صعب ، وهؤلاء شباب مؤمن وقفوا يحملون راية عقيدتهم وإيمانهم أمام جبروت الكفر وطغيان الشرك ، فالفتاء فيهم فتاء إيمان وعقيدة .

لذلك لجأوا إلى الكهف مُخلِّفين وراءهم أموالهم وأهلهم وكل ما يملكون ، وفرُّوا بدينهم إلى هذا المكان الضيق الخالي من أيّ مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة ؛ لأنهم لا يشغلون أنفسهم بهذه المقوّمات ، بل يعلمون أن لهم رباً سيتولى أمرهم ؛ لذلك ضَرَعُوا إليه قائلين :

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً . . ﴾ [الكهف: 10] أي: رحمة من عندك، أنت ترحم بها ما نحن فيه من انقطاع عن كل مُقوِّمات الحياة، فالرحمة في فجوة الجبل لن تكون من البشر، الرحمن هنا لا تكون إلا من الله: ﴿ وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: 10] أي: يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق.

إن هؤلاء الفتية المؤمنين حينما ألجأهم الكفر إلى ضيق الكهف تضرَّعوا واتجهوا إلى ربهم، فهو وحده القادر على أن يُوسّع عليهم هذا الضيق، كما قال تعالى: ﴿ فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ . . ﴾ [الأنعام: 43]

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فَضَرَبْنَا على ءَاذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَدًا ﴾ .

يُقَال: ضُرِب الفسطاط على الأرض يعني الخيمة، أي: غُطِّيتْ الأرض بها بعد أنْ كانت فضاءً، والضرب: أن تلمس شيئاً بشيء بشدة شريطة أن يكون المضروب به أقوى من المضروب، وإلاَّ كان الضارب ضارباً لنفسه.

لذلك، فالشاعر عندما تكلم عن المعترضين على القدر قال:

أَيا هَازِئاً مِنْ صُنُوفِ القَدَرِ . . . بنفسِكَ تُعنف لاَ بالقَدَرِ

وَيَا ضَارِباً صَخْرةً بالعَصَا . . . ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضربْتَ الحَجَر ؟

فمعنى : ﴿ فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ . . ﴾ [الكهف : 11] أي : غطيناها بغطاء محكم يحجبهم عن العالم الخارجي ، والضرب على آذانهم هو الرحمة التي دعوا الله بها وطلبوها ؛ لأن الإنسان الذي يحمل الفأس مثلاً ويعمل بها إنْ تعب وأجهده العمل يقف بعض الوقت ليستريح ، فإنْ تعب من الوقوف قعد ، فإنْ تعب من القعود استلقى واضطجع ، فإنْ لم يسترح فلا يبقى إلا أن ينام ، ففي النوم تهدأ الأعصاب ، ويستريح الإنسان ، حتى مع الآلام في أعنف الأمراض إذا نام المريض لا يشعر بشيء من الألم ؛ لذلك اختار لهم ربهم هذا الوضع ليريحهم به طوال فترة مُكْثهم في الكهف .

(303/468)

فالحق سبحانه إذن هو الضارب ، والمضروب هو الآذان ، والضرب على الآذان هنا للرحمة لا للعذاب ؛ لأن الله تعالى أراد لهم أقصى درجات الراحة والنوم الهادئ الذي لا يُعكّر صَفْوه شيء ، والنوم هو الراحة التامة التي تطغى على الآلام العضوية في الذات الإنسانية .

وقد أختار الحق سبحانه الضرب على آذانهم ؛ لأن حاسة السمع هي أول الحواس عملاً في الإنسان ، وهي أول آلة إدراك تُؤدّي مهمتها في الطفل ، كما قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ واللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : 78]

هذه الحواس هي منافذ العلم والإدراك للإنسان ، فلو وضعتَ أصبعك أمام عين الطفل المولود تراه لا يرمش ؛ لأنه لا يرى إلا بعد ثلاثة إلى عشرة أيام ، أما لو صرختَ في أُذنه فإنه ينتبه فحاسة السمع تؤدي مهمتها منذ ولادته . وكذلك فالأذن تمتاز أيضاً بأنها الإدراك الوحيد الذي لا يتعطل ولا يتوقف أثناء النوم لأن بها يتم الاستدعاء من النوم .

وهؤلاء الفتية دخلوا وأَووْا إلى الكهف ، وهو فَجْوة في جبل في صحراء وهي عُرْضة للعواصف والرياح وأصوات الحيوانات وأشياء كثيرة يمكن أن تزعج النائم ، فلو تركهم الخالق سبحانه في نومهم هذا على طبيعتهم لأزعجتهم هذه الأصوات وأقلقتْ راحتهم ؛ لذلك عطّل حاسة السمع عندهم ، وبذلك استطاعوا أن يناموا كل هذه المدة .

ثم يقول تعالى : ﴿ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً ﴾ [الكهف : 11] ومعنى عدداً أي : سنين كثيرة ؛ لأن القليل لا يُعَدّ لأنه معروف ، فإنْ ذكر العدّ فاعلم أنه للشيء الكثير ، كما تقول : فلان عنده مليون عَدّاً ونقداً .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى لِمَا لبثوا أَمَداً ﴾ .

﴿ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أي : أيقظناهم من نومهم الطويل ، وما داموا قد ناموا فالأمر إذن ليس موتاً إلا أنهم لما طالتْ مدة نومهم شبَّهها بالموت : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ . . ﴾ [الكهف : 12] أي : الفريقين منهم ؛ لأنهم سأل بعضهم بعضاً عن مُدَّة لُبْثهم فقالوا : يوماً أو بعض يوم .

أو : المراد الفريقان من الناس الذين اختلفوا في تحديد مدة نومهم : ﴿ أحصى لِمَا لَبِثُواْ أَمَداً ﴾ [الكهف : 12] أي : لنرى أيّ الفريقين سيُقدِّر مُدّتهم تقديراً صائباً . والأمد : هو المدة وعدد السنين .

والمتأمل في الآيات السابقة يجد فيها ملخصاً للقصة وموجزاً لها ، وكأنها برقية سريعة بما حدث ، فأهل الكهف فتية مؤمنون فروا بدينهم إلى كهف من الكهوف ، وضرب الله على آذانهم فناموا مدة طويلة ، ثم بعثهم الله ليعلم مَنْ يحصي مدة نومهم ، وهذه البرقية بالطبع لم تُعطِنا تفصيلاً لكل لقطات القصة ؛ لذلك تبدأ الآيات في التفصيل فيقول تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بالحق . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(305/468)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : ﴿ الكهف ﴾ هو غار في الوادي .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي ، عن ابن عباس قال : ﴿ الرقيم ﴾ الكتاب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي ، عن ابن عباس قال : ﴿ الرقيم ﴾ وادٍ دون فلسطين قريب من أيلة .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج ، عن ابن عباس قال : والله ما أدري ما الرقيم ، لكتاب أم بنيان ؟

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن مجاهد قال : ﴿ الرقيم ﴾ منهم من يقول كتاب قصصهم ، ومنهم من يقول الوادي .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن أبي صالح قال : ﴿ الرقيم ﴾ لوح مكتوب .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير قال : ﴿ الرقيم ﴾ لوح من حجارة ، كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف وأمْرهم ، ثم وضع على باب الكهف .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : ﴿ الرقيم ﴾ حين رقمت أسماؤهم في الصخرة ،

كتب الملك فيها أسماؤهم وكتب أنهم هلكوا في زمان كذا وكذا في ملك ريبوس، ثم ضربها في سور المدينة على الباب، فكان من دخل أو خرج قرأها . فذلك قوله : ﴿ أصحاب الكهف والرقيم ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم والزجاجي في أماليه وابن مردويه، عن ابن عباس قال : لا أدري ما الرقيم، وسألت كعباً فقال : اسم القرية التي خرجوا منها .

وأخرج عبد الرزاق عن ابن عباس قال : كل القرآن أعلمه، إلا أربعاً : غسلين، وحناناً، والأواه، والرقيم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك قال : ﴿ الرقيم ﴾ الكلب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا ﴾ يقول : الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب، أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ كانوا بقولهم أعجب آياتنا ، ليسوا بأعجب آياتنا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ قال : ليسوا بأعجب آياتنا ، كانوا من أبناء الملوك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر قال : كان أصحاب الكهف صيارفة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه ، عن النعمان بن بشير أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عن أصحاب الرقيم : " أن ثلاثة نفر دخلوا إلى الكهف ، فوقع من الجبل حجر على الكهف فأوصد عليهم ، فقال قائل منهم : تذكروا أيكم عمل حسنة لعل الله أن يرحمنا .

فقال أحدهم : نعم ، قد عملت حسنة مرة . . . إنه كان لي عمال استأجرتهم في عمل لي ، كل رجل منهم بأجر معلوم . فجاءني رجل ذات يوم وذلك في شطر النهار فاستأجرته بقدر

ما بقي من النهار بشطر أصحابه الذين يعملون بقية نهارهم ذلك ، كل رجل منهم نهاره كله . فرأيت من الحق أن لا أنقصه شيئاً مما استأجرت عليه أصحابه . فقال رجل منهم : يعطي هذا مثل ما يعطيني ولم يعمل إلا نصف نهاره ! ! فقلت له : إني لا أبخسك شيئاً من شرطك ، وإنما هو مالي أحكم فيه بما شئت . فغضب وترك أجره ، فلما رأيت ذلك عزلت حقه في جانب البيت ما شاء الله ، ثم مر بي بعد ذلك بقر فاشتريت له فصيلاً من البقر حتى بلغ ما شاء الله ، ثم مر بي الرجل بعد حين وهو شيخ ضعيف وأنا لا أعرفه ، فقال لي : إن لي عندك حقاً . فلم أذكره حتى عرّفني ذلك ، فقلت له : نعم . . . إياك أبغي . فعرضت عليه ما قد أخرج الله له من ذلك الفصيل من البقر ، فقلت له : هذا حقك من البقر . فقال لي : يا عبد الله ، لا تسخر بي . . . إن لا تتصدق علي أعطني حقي . فقلت : والله ما أسخر منك : إن هذا لحقك . فدفعته إليه ، اللهم فإن كنت تعلم أني قد كنت صادقا وأني فعلت ذلك لوجهك فأفرج عنا هذا الحجر . فانصدع حتى رأوا الضوء وأبصروا .

وقال الآخر : قد عملت حسنة مرة ، وذلك أنه كان عندي فضل فأصاب الناس شدة فجاءتني امرأة فطلبت مني معروفاً ، فقلت : لا والله ، ما هو دون نفسك . فأبت عليّ ثم رَجَعَتْ فذكّرتني بالله ، فأبيت عليها وقلت : لا والله ، ما هو دون نفسك . فأبت عليّ ثم رجَعَت فذكّرتني بالله فأبيت عليها وقلت : لا والله ، ما هو دون نفسك . فأبت عليّ فذكَرَتْ ذلك لزوجها فقال : أعطيه نفسك وأغني عيالك . فلما رأت ذلك سمحت بنفسها ، فلما هممت بها قالت : إني أخاف الله رب العالمين . فقلت لها : تخافين الله في الشدّة ولم أخفه في الرخاء ؟ فأعطيتها ما استغنت هي وعيالها . اللهم فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك لوجهك فأفرج عنا هذا الحجر ، فانصدع الحجر حتى رأوا الضوء وأيقنوا الفرج.

ثم قال الثالث : قد عملت حسنة مرة ، كان لي أبوان شيخان كبيران قد بلغهما الكبر ، وكانت لي غنم فكنت أرعاها . . . وأختلف فيما بين غنمي وبين أبوي أطعمهما وأشبعهما وأرجع إلى غنمي ، فلما كان ذات يوم أصابني غيث شديد فحبسني فلم أرجع إلا مؤخراً ، فأتيت أهلي فلم أدخل منزلي حتى حلبت غنمي ، ثم مضيت إلى أبوي أسقيهما فوجدتهما قد ناما ، فشق عليّ أن أوقظهما وشق عليّ أن أترك غنمي ، فلم أبرح جالساً ومحلبي على يدي حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما ، اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك لوجهك فأفرج عنا هذا الحجر .

ففرّج الله عنهم وخرجوا إلى أهليهم راجعين " .

وأخرج أحمد وابن المنذر ، عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أن ثلاثة نفر فيما سلف من الناس انطلقوا يرتادون لأهليهم ، فأخذتهم السماء فدخلوا غاراً فسقط عليهم حجر ، فجافّ حتى ما يرون منه خصاصة . فقال بعضهم لبعض : قد وقع الحجر وعفا الأثر ولا يعلم مكانكم إلا الله ، فادعوا الله عز وجل بأوثق أعمالكم . فقال رجل منهم :

اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي والدان فكنت أحلب لهما في إنائهما فآتيهما ، فإذا وجدتهما راقدين قمت على رأسيهما كراهة أن أرد سنتهما في رأسيهما حتى يستيقظا متى استيقظا ، اللهم إن كنت تعلم أني إنما فعلت ذلك رجاء رحمتك ومخافة عذابك ففرِّج عنا . فزال ثلث الحجر .

وقال الثاني : اللهم إن كنت تعلم أني استأجرت أجيراً على عمل يعمله فأتاني يطلب أجره وأنا غضبان فزبرته فانطلق وترك أجره فجمعته وثمرته حتى كان منه كل المال فأتاني يطلب أجره فدفعت إليه ذلك كله ، ولو شئت لم أعطه إلا أجره الأوّل ، اللهم إن كنت تعلم أني إنما فعلت ذلك رجاء رحمتك ومخافة عذابك ، فافرج عنا . فزال ثلثا الحجر .

وقال الثالث : اللهم إن كنت تعلم أنه أعجبته امرأة فجعل لها جعلاً فلما قدر عليها وفر لها

نفسها وسلّم لها جَعْلَها . اللهم إن كنت تعلم أني إنما فعلت ذلك رجاء رحمتك ومخافة عذابك ، ففرّج عنا . فزال الحجر وخرجوا معا تيق يمشون " .

وأخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن المنذر ، عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون ، إذ أصابهم مطر فأووا إلى غار فانطبق عليهم ، فقال بعضهم لبعض : إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصّدْق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه . فقال واحد منهم :

اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير يعلم على فرق من أرز فذهب وتركه ، وإني عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته فصار من أمره أني اشتريت منه بقراً ، وأنه أتاني يطلب أجره فقلت له : اعمد إلى تلك البقر فسقْها فقال لي : إنما لي عندك فرق من أرز . فقلت له : اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق فساقها ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرّج عنّا . فانساخت عنهم الصخرة .

فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران فكنت آتيهما كل لية بلبن غنم لي ، فأبطأت عليهما ليلة فجئت وقد رقدا ، وعيالي يتضاغون من الجوع فكنت لا

أسقيهم حتى يشرب أبواي ، فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما فيستكنا بشربتهما ، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر ، فإن كُنْتَ تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرّج عنا .

فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء .

فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إليّ ، وإني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار ، فطلبتها حتى قَدِرْتُ فأتيتها بها فدفعْتها إليها فأمكنتني من نفسها ، فلما قعدت بين رجليها قال : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه .

فقمت وتركت المائة دينار ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنّا . ففرج الله عنهم فخرجوا " .

وأخرج البخاري في تاريخه من حديث ابن عباس مثله .

(311/468)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف الذي ذكر الله في القرآن ، فقال معاوية : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ! فقال له ابن عباس : ليس ذلك لك ، قد منع الله ذلك عمن هو خير منك . فقال : ﴿ لو اطلعت عليهم لَوَلَّيْتَ منهم فراراً

وَلَمُلِئْتَ منهم رعباً ﴾ فقال معاوية : لا أنتهي حتى أعلم علمهم . فبعث رجالاً فقال : اذهبوا فادخلوا الكهف فانظروا . فذهبوا ، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأخرجتهم . فبلغ ذلك ابن عباس فأنشأ يحدث عنهم فقال : إنهم كانوا في مملكة ملك من الجبابرة يعبد الأوثان ، وقد أجبر الناس على عبادتها ، وكان وهؤلاء الفتية في المدينة ، فلما رأوا ذلك خرجوا من تلك المدينة فجمعهم الله على غير ميعاد ، فجعل بعضهم يقول لبعض : أين تريدون . . . ؟ أين تذهبون . . . ! ؟ فجعل بعضهم يخفي على بعض ، لأنه لا يدري هذا على ما خرج هذا ، ولا يدري هذا . فأخذوا العهود والمواثيق أن يخبر بعضهم بعضاً ، فإن اجتمعوا على شيء وإلا كتم بعضهم بعضاً . فاجتمعوا على كلمة واحدة ﴿ فقالوا ربنا رب السماوات والأرض . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ مرفقاً ﴾ قال : فقعدوا فجاء أهلهم يطلبونهم لا يدرون أين ذهبوا ، فرفع أمرهم إلى الملك فقال : ليكونن لهؤلاء القوم بعد اليوم شأن . . . ناس خرجوا لا يدري أين ذهبوا في غير خيانة ولا شيء يعرف . . . ! ! فدعا بلوح من رصاص فكتب فيه أسماؤهم ثم طرح في خزانته . فذلك قول الله : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم ﴾ والرقيم ، هو اللوح الذي كتبوا . فانطلقوا حتى دخلوا الكهف فضرب الله على آذانهم فناموا . فلو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم ، ولولا أنهم يقلبون لأكلتهم الأرض . ذلك قول الله : ﴿ وترى الشمس . . . ﴾ الآية . قال :

ثم إن ذلك الملك ذهب وجاء ملك آخر فعبد الله وترك تلك الأوثان ، وعدل بين الناس ، فبعثهم الله لما يريد ﴿

(312/468)

وقال قائل منهم كم لبثتم ﴿ فقال بعضهم : يوماً . وقال بعضهم يومين . وقال بعضهم أكثر من ذلك . فقال كبيرهم : لا تختلفوا ، فإنه لم يختلف قوم قطّ إلا هلكوا ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة .

فرأى شارة أنكرها ورأى بنياناً أنكره ، ثم دنا إلى خباز فرمى إليه بدرهم وكانت دراهمهم كخفاف الربع – يعني ولد الناقة – فأنكر الخباز الدرهم فقال : من أين لك الدرهم ؟ لقد وجدت كنزاً لتدلّني عليه أو لأرفعنك إلى الأمير . فقال : أَوَتخوّفني بالأمير ؟ وأتى الدهقان الأمير ، قال : من أبوك ؟ قال : فلان . فلم يعرفه . قال : فمن الملك ؟ قال : فلان . فلم يعرفه ، فاجتمع عليهم الناس فرفع إلى عالمهم فسأله فأخبره فقال : عليّ باللوح ، فجيء به فسمى أصحابه فلاناً وفلاناً . وهم مكتوبون في اللوح ، فقال للناس : إن الله قد دلكم على إخوانكم . وانطلقوا وركبوا حتى أتوا إلى الكهف ، فلما دنوا من الكهف قال الفتى : مكانكم أنتم حتى أدخل أنا على أصحابي ، ولا تهجموا فيفزعون منكم وهم لا يعلمون أن

الله قد أقبل بكم وتاب عليكم . فقالوا لتخرجن علينا قال : نعم إن شاء الله . فدخل فلم يدروا أين ذهب ، وعمي عليهم فطلبوا وحرضوا فلم يقدروا على الدخول عليهم ﴿ فقالوا لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ فاتخذوا عليهم مسجداً يصلون عليهم ويستغفرون لهم .

(313/468)

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم ، عن عكرمة رضي الله عنه قال : كان أصحاب الكهف أبناء ملوك ، رزقهم الله الإسلام فتعوذوا بدينهم واعتزلوا قومهم حتى انتهوا إلى الكهف ، فضرب الله على صماخاتهم فلبثوا دهراً طويلاً حتى هلكت أمتهم ، وجاءت أمة مسلمة وكان ملكهم مسلماً ، واختلفوا في الروح والجسد فقال قائل : يبعث الروح والجسد جميعاً . وقال قائل : يبعث الروح وأما الجسد فتأكله الأرض فلا يكون شيئاً ، فشق على ملكهم إختلافهم فانطلق فلبس المسوح وجلس على الرماد ، ثم دعا الله فقال : أي رب ، قد ترى إختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم ، فبعث الله أصحاب الكهف ، فبعثوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً فدخل السوق ، فلما نظر جعل ينكر الوجوه ويعرف الطرق ، ورأى الإيمان ظاهراً بالمدينة . فانطلق وهو مستخف حتى أتى رجلاً يشتري منه طعاماً ، فلما نظر الرجل إلى الورق أنكرها . حسبت أنه قال : كأنها أخفاف الربيع - يعني

الإبل الصغار – فقال الفتى : أليس ملككم فلان ؟ قال الرجل : بل ملكنا فلان . فلم يزل ذلك بينهما حتى رفعه إلى الملك ، فنادى في الناس فجمعهم فقال : إنكم اختلفتم في الروح والجسد وإن الله قد بعث لكم آية ، فهذا رجل من قوم فلان – يعني ملكهم الذي قبله – فقال الفتى : انطلق بي إلى أصحابي . فركب الملك وركب معه الناس حتى انتهى إلى الكهف ، فقال الفتى : دعوني أدخل إلى أصحابي . فلما أبصروه وأبصرهم ضرب على آذانهم ، فلما استبطؤوه دخل الملك ودخل الناس معه ، فإذا أجساد لا يبلى منها شيء غير أنها لا أرواح فيها . فقال الملك : هذه آية بعثها الله لكم ، فغزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة فمروا بالكهف فإذا فيه عظام ، فقال رجل : هذه عظام أهل الكهف .

فقال ابن عباس : ذهبت عظامهم أكثر من ثلثمائة سنة .

(314/468)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه قال : كان أصحاب الكهف أبناء عظماء أهل مدينتهم وأهل شرفهم ، خرجوا فاجتمعوا وراء المدينة على غير ميعاد ، فقال رجل منهم – هو أشبههم – : إني لأجد في نفسي شيئاً ما أظن أحداً يجده . قالوا : ما تجد ؟ قال : أجد في نفسي أن ربي رب السموات والأرض . فقاموا جميعاً فقالوا : ﴿ ربنا

رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً ﴾ وكان مع ذلك من حديثهم وأمرهم ما قد ذكر الله في القرآن ، فأجمعوا أن يدخلوا الكهف وعلى مدينتهم إذ ذاك جبار يقال له (دقيوس) فلبثوا في الكهف ما شاء الله رقوداً ، ثم بعثهم الله فبعثوا أحدهم ليبتاع لهم طعاماً ، فلما خرج إذا هم بحظيرة على باب الكهف ، فقال : ما كانت هذه ههنا عشية أمس . فسمع كلاما من كلام المسلمين بذكر الله – وكان الناس قد أسلموا بعدهم وملك عليهم رجل صالح – فظن أنه أخطأ الطريق ، فجعل ينظر إلى مدينته التي خرج منها وإلى مدينتين وجاهها ، أسماؤهن : اقسوس وايديوس وشاموس . فيقول : ما أخطأت الطريق – هذه اقسوس وايديوس وشاموس ! ! ! . . . فعمد إلى مدينته التي خرج منها ، ثم عمد حتى جاء السوق فوضع ورقة في يد رجل ، فنظر فإذا ورق ليست بورق الناس ، فانطلق به إلى الملك وهو خائف فسأله وقال : لعل هذا من الفتية الذين خرجوا على عهد دقيوس ، فإني قد كنت أدعو الله أن يرينيهم وأن يعلمني مكانهم . ودعا مشيخة أهل القرية – وكان رجل منهم قد كان عنده أسماؤهم وأنسابهم – فسألهم فأخبروه ، فسأل الفتى فقال : صدق . وانطلق الملك وأهل المدينة معه لأن يدلهم على أصحابه ، حتى إذا دنوا من الكهف سمع الفتية حسّ الناس فقالوا : أتيتم . . . ظهر على صاحبكم ، فاعتنق بعضهم بعضاً وجعل يوصي بعضهم بعضاً بدينهم ، فلما دنا الفتى منهم أرسلوه ،

فلما قدم إلى أصحابه ماتوا عند ذلك ميتة الحق . فلما نظر إليهم الملك شق عليه أن لم يقدر عليهم أحياء ، وقال : لا

(315/468)

أدفنهم إذاً ، فائتوني بصندوق من ذهب . فأتاه آت منهم في المنام فقال : أردت أن تجعلنا في صندوق من ذهب ، فلا تفعل ودعنا في كهفنا ، فمن التراب خلقنا وإليه نعود . فتركهم في كهفهم وبنى على كهفهم مسجداً .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر ، عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : جاء رجل من حواريي عيسى عليه السلام إلى مدينة أصحاب الكهف ، فأراد أن يدخلها فقيل : على بابها صنم لا يدخلها أحد إلا سجد له ، فكره أن يدخل فأتى حماماً فكان فيه قريباً من تلك المدينة وكان يعمل فيه يؤاجر نفسه من صاحب الحمام ؛ ورأى صاحب الحمام في حمامه البركة والرزق وجعل يسترسل إليه وعلقه فتية من أهل المدينة ، فجعل يخبرهم عن خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدقوه ، وكانوا على مثل حاله في حسن الهيئة ، وكان يشترط على صاحب الحمام : أن الليل لي ولا تحول بيني وبين الصلاة

إذا حضرت ، حتى أتى ابن الملك بامرأة يدخل بها الحمام فعيره الحواري فقال : أنت ابن الملك وتدخل مع هذه الكداء ؟ ! .

. . فاستحيا فذهب ، فرجع مرة أخرى فسبه وانتهره فلم يلتفت حتى دخل – ودخلت معه المرأة ، فباتا في الحمام جميعاً فماتا فيه . فأتى الملك فقيل له : قتل ابنك صاحب الحمام . فالتمس فلم يقدر عليه وهرب من كان يصحبه ، فسموا الفتية . فالتمسوا فخرجوا من المدينة فمروا بصاحب لهم في زرع له وهو على مثل أمرهم ، فذكروا له أنهم التمسوا فانطلق معه ومعه كلب حتى آواهم الليل إلى الكهف فدخلوا فيه ، فقالوا : نبيت ههنا الليلة حتى نصبح إن شاء الله ثم تروا رأيكم . فضرب على آذانهم ، فخرج الملك بأصحابه يبتغونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف ، فكلما أراد الرجل منهم أن يدخل أرعب فلم يطق أحد أن يدخله ، فقال له قائل : ألست قلت : لو قدرت عليهم قتلتهم ؟ قال : بلى . قال : فابن عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا عطشاً وجوعاً . ففعل . ثم صبروا زماناً ، ثم إن راعي غنم أدركه المطر عند الكهف فقال : لو فتحت هذا الكهف وأدخلت غنمي من المطر ، فلم يزل يعالجه حتى فتح لغنمه فادخلها فيه ، ورد الله أرواحهم في

أجسادهم من الغد حين أصبحوا فبعثوا أحدهم بورق ليشتري لهم طعاماً ، فكلما أتى باب مدينتهم لا يرى أحد من ورقهم شيئاً إلا استنكرها ، حتى جاء رجلاً فقال : بعني بهذه الدراهم طعاماً . فقال : ومن أين لك هذه الدراهم ؟ قال : إني رحت وأصحابي أمس فأتى الليل ثم أصبحنا فأرسلوني . قال : فهذه الدراهم كانت على عهد ملك فلان ! . . . فأنى لك هذه الدراهم ؟ ! ! . . . فرفعه إلى الملك – وكان رجلاً صالحاً – فقال : ومن أين لك هذا الورق ؟ قال : خرجت أنا وأصحابي أمس حتى إذا أدركنا الليل في كهف كذا وكذا ، ثم أمروني أن اشتري لهم طعاماً . قال : وأين أصحابك ؟ قال : في الكهف . فانطلق معه حتى أتوا باب الكهف فقال : دعوني أدخل إلى أصحابي قبلكم . فلما رأوه ودنا منهم ، ضرب على أذنه وآذانهم فأرادوا أن يدخلوا فجعل كلما دخل رجل منهم رعب ، فلم يقدروا أن يدخلوا إليهم ، فبنوا عندهم مسجداً يصلون فيه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أصحاب الكهف أعوان المهدي " .

وأخرج الزجاجي في أماليه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف

والرقيم ﴾ قال : إن الفتية لما هربوا من أهليهم خوفاً على دينهم . فقدوهم فخبروا الملك خبرهم ، فأمر بلوح من رصاص فكتب فيه أسماءهم وألقاه في خزانته وقال : إنه سيكون لهم شأن ، وذلك اللوح هو الرقيم ، والله أعلم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ يقول : أرقدناهم ﴿ ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين ﴾ من قوم الفتية أهل الهدى وأهل الضلالة ﴿ أحصى لما لبثوا ﴾ أنهم كتبوا اليوم الذي خرجوا فيه والشهر والسنة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ أي الحزبين ﴾ قال : من قوم الفتية ﴿ أحصى لما لبثوا أمداً ﴾ قال : عدداً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً ﴾ يقول : ما كان لواحد من الفريقين علم ، لا لكفارهم ولا لمؤمنيهم . انتهى ا . هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(318/468)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ : "أم" هذه منقطعةٌ فتُقَدَّرُ ب "بل" التي للانتقال لا للإِبطال ، وبهمزة الاستفهام عند جمهورِ النحاة ، و "بل" وحدَها ، أو بالهمزةِ وحدَها عند غيرِهم . وتقدَّم تحقيقُ القولِ فيها .

و "انَّ" وما في حَيِّزها سادَّةٌ [مَسَدَّ] المفعولَيْن أو أحدِهما على الخلافِ المشهور .

والكَهْفُ : قيل : مُطْلق الغار . وقيل : هو ما اتَّسع في الجبل ، فإن لم يَتَّسِعْ فهو غارٌ . والجمعُ "كُهوفٍ" في الكثرة ، و "أَكْهُف" في القِلَّة .

والرَّقيم : قيل : بمعنى مَرْقُوم . وقيل : بمعنى راقم . وقيل : هو اسمٌ للكلبِ الذي لأصحاب الكهفِ . وأنشدوا لأميةَ بنِ أبي الصلت :

3125- وليس بها إلا الرَّقيمُ مُجاوِراً . . . وصِيدَهُمُ ، والقومُ بالكهفِ هُمَّدُ

/قوله : "عَجَبا" يجوز أن تكونَ خبراً ، و ﴿ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ حالٌ منه ، وأَنْ يكونَ خبراً ثانياً ، و ﴿ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ خبراً أول ، وأن يكونَ "عجباً" حالاً من الضميرِ المستترِ في ﴿ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ لوقوعه خبراً . ووُحِّدَ وإن كان صفةً في المعنى لجماعة لأنَّ أصلَه المصدرُ .

وقيل : "عَجَباً" في الأصلِ صفةٌ لمحذوفٍ تقديرُه : آيةً عجبا . وقيل : على حذفِ مضاف ، أي : آيةً ذاتَ عَجَب .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى ﴾ : يجوز أن ينتصِبَ ب "عَجَباً" وأَنْ ينتصِبَ ب "اذْكُر" .

قوله : "وهَيِّىءْ" العامَّةُ على همزة بعد الياء المشددة ، وأبو جعفر وشيبة والزهري بياءين :

الثانيةُ خفيفةٌ ، وكأنه أبدل الهمزةَ ياءً ، وإن كان سكونُها عارضاً . ورُوِي عن عاصم " وَهَيَّ " بياءٍ مشددةٍ فقط . فيحتمل أَنْ يكونَ حَذَفَ الهمزةَ مِنْ أول وَهْلَةٍ تخفيفاً ، وأن يكونَ أبدلها كما فعل أبو جعفر ، ثم أجرى الياءَ مُجْرى حرفِ العلةِ الأصلي فحذفه ، وإن كان الكثيرُ خلافَه ، ومنه :

(319/468)

3126- جَرِيْءٍ متى يُظْلَمْ يعاقِبْ بظُلْمِه . . . سريعاً وإلاَّ يُبْدَ بالظلمِ يَظْلِمِ

وقرأ أبو رجاء " رُشْدا " بضمِ الراء وسكونِ الشين ، وتقدم تحقيقُ ذلك في الأعراف .

وقراءةُ العامَّةِ هنا أليقُ لتوافِقَ الفواصل .

قوله : { فَضَرَبْنَا } : مفعولُه محذوفٌ ، أي : ضَرَبْنا الحجابَ المانعَ . و { على آذَانِهِمْ } استعارةٌ للزومِ النوم . كقول الأسود :

3127- ومن الحوادِث لا أبالَكِ أنني . . . ضُرِبَتْ عَلَيَّ الأرضُ بالأَسْدادِ

وقال الفرزدق :

3128- ضَرَبَتْ عليكَ العَنْكَبوتَ بنَسْجِها . . . وقَضَى عليك به الكتابُ المُنَزَّلُ

ونصَّ على الآذان لأنَّ بالضرب عليها خصوصاً يَحْصُلُ النومُ .

وأمال "آذانهم" . . . .

و"سنينَ" ظرفٌ ل "ضَرَبْنا" . و "عَدَدَاً" يجوزُ فيه أن يكونَ مصدراً ، وأن يكونَ فَعَلاً بمعنى مَفْعول كالقَبْض والنَّقَص . فعلى الأول يجوز نصبُه مِنْ وجهين : النعتِ ل "سنين" على حَذْفٍ ، أي : ذوات عدد ، أو على المبالغةِ ، والنصبُ بفعلٍ مقدرٍ ، أي : تُعَدُّ عددا . وعلى الثاني : نعت ليس إلا ، اي : معدودة .

قوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ : متعلقٌ بالبعث . والعامَّةُ على نون العظمة جرياً على ما تقدم . وقرأ الزُّهْري "لِيَعْلم" بياء الغَيْبَةِ ، والفاعلُ اللهُ تعالى . وفيه التفاتٌ من التكلم إلى الغَيْبَة . ويجوزُ أَنْ يكونَ الفاعلُ ﴿ أَيُّ الحِزْبَيْنِ ﴾ إذا جَعَلْناها موصولةً كما سيأتي .

وقرئ "لِيُعْلَمَ" مبنياً للمفعول ، والقائمُ مَقامُ الفاعلِ : قال الزمخشري : "مضمونُ الجملة ، كما أنه مفعولُ العلمِ" . ورَدَّه الشيخ بأنه ليس مذهبَ البصريين . وتقدَّم تحقيقُ هذه أولَ البقرة .

وللكوفيين في قيامِ الجملة مَقامَ الفاعلِ أو المفعولِ الذي لم يُسَمَّ فاعلُه : الجوازُ مطلقاً ، والتفصيلُ بين ما يُعلَّق كهذه الآيةِ فيجوزُ ، فالزمخشري نحا نحوَهم على قَوْلَيْهم . وإذا جَعَلْنا

﴿ أَيُّ الحِزْبَيْنِ ﴾ موصولةً جاز أَنْ يكونَ الفعلُ مسنداً إليه في هذه القراءةِ أيضاً كما جاز إسنادُه إليه في القراءةِ قبلها .

وقُرِئ " ليُعْلَمَ " بضمِّ الياء ، والفاعلُ اللهُ تعالى ، والمفعولُ الأولُ محذوفٌ ، تقديرُه : ليُعْلِمَ اللهُ الناسَ . و ﴿ أَيُّ الحِزْبَيْنِ ﴾ في موضعِ الثاني فقط ، إنْ كانت عِرْفانيةً ، وفي موضعِ المفعولين إن كانَتْ يقينية .

قوله : " أَحْصَى " يجوز فيه وجهان ، أحدهما : أنه أفعلُ تفضيل . وهو خبرٌ ل " أيُّهم " ، و " أيُّهم " ، استفهاميةٌ . وهذه الجملةُ معلَّقَةٌ للعلمِ قبلَها . و " لِما لَبِثُوا " حال مِنْ " أَمَداً " ، لأنه لو تأخَّرَ عنه لكان نعتاً له . ويجوز أَنْ تكونَ اللامُ على بابِها من العلَّة ، أي : لأجل أبو البقاء . ويجوز أن تكونَ زائدةً ، و " ما " مفعولةٌ : إمَّا ب " أَحْصَى " على رأي مَنْ يُعْمِلُ أفعلَ التفضيل في المفعولِ به ، وإمَّا بإضمارِ فعل . و " أمداً " مفعولُ " لَبِثُوا " أو منصوبٌ بفعلٍ مقدرٍ يَدُلُ عليه أَفْعَل عند الجمهور ، أو منصوبٌ بنفسِ أَفْعَلَ عند مَنْ يرى ذلك .

(321/468)

والوجه الثاني : أن يكون " أَحْصَى " فعلاً ماضياً . و " أمَداً " مفعولُه ، و " لِمَا لَبِثوا " متعلقٌ به ، أو حال مِنْ " أَمَداً " أو اللامُ فيه مزيدةٌ ، وعلى هذا : فَأَمَداً منصوبٌ ب لَبِثوا .

و " ما " مصدريةٌ أو بمعنى الذي . واختار الأولَ -أعني كونَ " أَحْصى " للتفضيل -/ الزجاجُ والتبريزي ، واختار الثاني أبو علي والزمخشري وابن عطية . قال الزمخشري : " فإن قلتَ : فما تقول فيمَنْ جعله مِنْ أفعلِ التفضيلِ ؟ قلت : ليس بالوجهِ السديدِ ، وذلك أنَّ بناءَه مِنْ غيرِ الثلاثي ليس بقياسٍ ، ونحو " أَعْدَى من الجَرَب " و " أفلس من ابن المُذَلَّق " شاذٌّ ، والقياسُ على الشاذِّ في غيرِ القرآن ممتنعٌ فكيف به ؟ ولأنَّ " أَمَداً " : إمَّا أَنْ ينتصِبَ بأفعلَ وأفعلُ لا يعملُ ، وإمَّا أَنْ ينتصِبَ ب " لبثوا " فلا يَسُدُّ عليه المعنى : فإنْ زعمتَ أني أنصِبُه بفعلٍ مضمرٍ كما أَضْمَرَ في قوله :

3129 . . . . وأَضْرَبَ منا

بالسيوفِ القَوانِسا

فقد أبعدْتَ المتناوَلَ ، حيث أَبَيْتَ أَنْ يكونَ [" أحصى "] فعلاً ثم رجعتَ مضطراً إليه "

.

وناقشه الشيخ قال : " أمَّا دعواه أنه شاذٌّ فمذهبُ سيبويهِ خِلافُه ، وذلك أنَّ أفعلَ فيه ثلاثةُ مذاهبَ : الجوازُ مطلقاً ، ويُعْزى لسيبويه ، والمنعُ مطلقاً ، وهو مذهب الفارسي ، والتفصيلُ : بين أن تكونَ همزتُه للتعديةِ فيمتنعَ ، وبين أَنْ لا تكونَ فيجوزَ ، وهذا ليسَتِ الهمزةُ فيه للتعدية . وأمَّا قولُه : " أَفْعَلُ لا يعمل " فليس بصحيح لأنه يعملُ في التمييز ، و " أَمَداً " تمييزٌ لا مفعولٌ به ، كما تقول : زيدٌ أقطعُ الناسِ سيفاً ، وزيد أقطعُ للهامِ سيفاً " .

قلت : الذي أحوجَ الزمخشريَّ إلى عَدَمِ جَعْلِه تمييزاً مع ظهوره في بادئ الرأي عدمُ صحةِ معناه . وذلك أنَّ التمييزَ شرطُه في هذا الباب أن تَصِحَّ نسبةُ ذلك الوصفِ الذي قبله إليه ويتصفَ به ، ألا ترى إلى مثاله في قوله : " زيد أقطعُ الناس سيفاً " كيف يَصِحُّ أن يُسْنَدَ إليه فيقال : زيد قَطَعَ سيفُه ، وسيفه قاطع ، إلى غيرِ ذلك . وهنا ليس الإِحصاءُ من صفةِ الأمَد ، ولا تَصِحُّ نسبتُه إليه ، وإنما هو صفات الحزبين ، وهو دقيق .

وكان الشيخُ نقل عن أبي البقاء نصبَه على التمييز ، وأبو البقاء لم يذكر نصبَه على التمييز حالَ جَعْلِه " أَحْصَى " أفعلَ تفصيلٍ ، وإنما ذكر ذلك حين ذكر أنه فعلٌ ماضٍ . قال أبو البقاء : " في أحصى وجهان ، أحدُهما : هو فعلٌ ماضٍ ، " وأَمَداً " مفعوله ، و " لِما لَبِثوا " نعتٌ له ، قُدِّم فصار حالاً أو مفعولاً له ، أي : لأجل لُبْثهم . وقيل : اللامُ زائدةٌ و " ما " بمعنى الذي ، و " أَمَداً " مفعولُ " لبثوا " وهو خطأٌ ، وإنما الوجهُ أن يكونَ تمييزاً والتقدير : لما لبثوه . والوجه الثاني : هو اسمٌ و " أَمَداً " منصوبٌ بفعلٍ دَلَّ عليه الاسمُ " انتهى . فهذا تصريحٌ بأنَّ " أَمَداً " حالَ جَعْلِه " أحصى " اسماً ليس تمييزاً بل مفعولاً به بفعلٍ مقدرٍ ، وأنه جعله تمييزاً عن " لبثوا " كما رأيت .

ثم قال الشيخ : " وأمّا قولُه " وأمّا قوله " وإمّا أَنْ يُنْصَب ب " لبثوا " فلا يَسُدُّ عليه المعنى ، أي : لا يكون معناه سديداً ، فقد ذهب الطبري إلى أنه منصوبٌ ب " لَبثوا " . قال ابن عطية : " وهو غيرُ متجهٍ " انتهى . وقد يتجه : وذلك أنَّ الأَمدَ هو الغاية ، ويكون عبارةً عن المدةِ من حيث إنَّ المدَّةَ غايةٌ هي أَمَدُ المدة على الحقيقة ، و " ما " بمعنى الذي ، و " أمَداً " منصوبٌ على إسقاط الحرفِ ، وتقديره : لِما لبثوا مِنْ أمدٍ ، مِنْ مدةٍ ، ويصيرُ " مِنْ أمدٍ " تفسيراً لما أُبْهِمَ من لفظ " ما " كقوله :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ [البقرة : 106] ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ [فاطر : 2] ولمَّا سقط الحرفُ وصل إليه الفعل " .

قلت : يكفيه أنَّ مِثْلَ ابنِ عطية جعله غيرَ متجهٍ ، وعلى تقديرِ ذلك فلا نُسَلِّم أنَّ الطبريَّ عنى نصبَه بلبثوا مفعولاً به بل يجوز أَنْ يكونَ على نصبه تمييزاً كما قاله أبو البقاء .

ثم قال : " وأمّا قولُه : " فإن زعمت إلى آخره فتقول : لا يُحتاج إلى ذلك ، لأنَّ لقائلِ ذلك أَنْ يذهب مذهبَ الكوفيين في أنه ينصِبُ " القوانسَ " بنفس " أَضْرِبُ " ولذلك جعل بعضُ النحاة أنَّ " أعلم " ناصبٌ ل " مَنْ " في قوله : " أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ " ، وذلك لأنَّ أَفْعَلَ مضمَّنٌ

لمعنى المصدر إذ التقدير : يزيد ضربُنا القوانسَ على ضَرْبِ غيرنا " .

قلت : هذا مذهبٌ مرجوحٌ ، وأفعلُ التفصيلِ ضعيفٌ ولذلك قَصُرَ عن الصفةِ المشبهةِ باسمِ الفاعلِ ، حيث لم يؤنَّثْ ولم يُثَنَّ ولم يُجْمع .

(324/468)

وإذا جعلنا "أَحْصَى" اسماً فجوَّزَ الشيخ في "أيّ" أن تكونَ الموصولةَ ، و"أَحْصَى" خبرٌ لمبتدأ محذوف هو عائدُها ، وأنَّ الضمةَ للبناء على مذهبِ سيبويهِ لوجودِ / شرطِ البناءِ وهو أضافتُها لفظاً ، وحَذْفُ صدرِ صلتِها ، وهذا إنما يكون على جَعْلِ العِلْم بمعنى العرفان ، لأنه ليس في الكلام إلا مفعولٌ واحدٌ ، وتقديرُ آخرُ لا حاجةَ إليه . إلا أنَّ في إسنادِ "عَلِمَ" بمعنى عَرَفَ إلى الله تعالى إشكالاً تقدَّم تحريرُه في الأنفال وغيرِها . وإذا جَعَلْناه فعلاً امتنع أن تكونَ موصولةً إذ لا وجهَ لبنائها حينئذٍ وهو حسن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿الدر المصون حـ 7 صـ 445.452﴾

(325/468)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى ضرب)

ورد الضَّرب فى اللغة والقرآن على وجوه :

الضَّرْب : الخفيف من المطر .

والضَّرْب : الصفة والصّنف من الأَشياء .

والضَّرْب : الرجل الخفيف اللحم .

قال طَرَفة بن العبد .

*أَنا الرجل الضَّرْب الذى تعرفوننى * خِشاشٌ كرأس الحيَّة المتوقّدِ*

الضَّرْبُ الإِسراع فى السّير : ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ﴾ ، ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ﴾ .

الضَّرْب : الإِلزام : ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ ، أَى أُلزموهما .

الضَّرب بالسّيف وباليد : ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ ، أَى بالسّيف ، ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ ، أَى باليد .

الضرب : الوصف : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً﴾ ، أَى وَصَفَ ، ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ ، أَى نَصِفها .

الضرب : البيان : ﴿ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ ﴾ ، ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾ أى بيّنّا .

ويقال : ضرب على يديه : إذا أفسد عليه أَمرًا أَخذ فيه .

وضرب القاضى على يده : حجره .

وضرب على المكتوب .

وضَرَبَ الجُرْحُ والضِّرْسُ : اشتدّ وجعه .

وضرب الشىءَ بالشىء : خلطهُ .

وقوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ ﴾ أَى أَنمناهم ، وقيل : منعناهم السّمع ؛ لأَنّ النّائم إذا سمع انتبه .

وضرب العِرْقُ ضَرَبانا : نَبَض ، ولَحىَ الله زمانًا ضرب ضربانَهُ ، حتى سلّط علينا ظَرِبانه .

وضرب خاتَمًا .

وضرب اللبِن .

وضرب مثلاً .

وأَضْرَبَ فى بيته : إذا لم يبرح منه ، وأَضرب عن الأَمر : عَزَف عنه .

والضريبة : الطبيعة .

وضرب الدّهرُ بينهم : فرّق .

وضربته العقرب: لدغته.

وضَرَبَ مناقب جَمّة واضطربها: حازم.

وهم ضُرَباء أى قرناءُ.

وأَضرب البردّ النباتَ: أفسده.

ورأيت ضَرْب نساء، أَىْ نساء.

قال الراعى:

*وضَرْبُ نساءٍ لو رآهنَّ راهبُ * له ظُلّة فى قُلّة ظل رانيا*

وضرب الزمان: مَضَى.

وقال ذو الرمة:

*فإن تضرب الأَيام يا مىّ بيننا * فلا ناشِرٌ سِرًا ولا متغيّر*

وضَرَبَ الدّراهم اعتبارًا بضربه بالمِطرقة.

وضرب الخَيْمَة لضرب أَوتادها بالمطرقة.

وضَرْب العُود والناى والبُوق يكون بالأَنفس.

والمضاربة : ضرب من الشركة .

والمضرَّبة : ما أُكثر بالخياطة ضَرْبه .

والتضريب : التحريض والإغراء ، كأَنَّه حَثٌّ على الضرب .

والضَّرَبُ محركة : العسل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 465 .

467 ﴾

(327/468)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) ﴾

أزال الأعجوبة عن أوصافهم بما أضافه إلى ربِّه بقوله : ﴿ مِنْ ءَايَاتِنَا ﴾ ؛ فَقَلْبُ العادةِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ غيرُ مُسْتَنْكَرٍ ولا مُبْتَدعٍ .

ويقال مكثوا في الكهف مدةً فأضافهم إلى مُسْتَقَرِّهم فقال : ﴿ أَصْحَابَ الكَهْفِ ﴾ ، وللنفوس مَحَالٌ ، وللقلوب مَقَارٌّ ، وللهمم مَجَال ، وحيثما يعتكف يُطْلَبُ أبداً صاحبه .

ويقال الإشارة فيه ألا تَتَعَجَّبَ من قصتهم ؛ فحالُكَ أعجبُ في ذهابك إلينا في شطر من

الليل حتى قاب قوسين أو أدنى ، وهم قد بقوا في الكهف سنين .

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) ﴾

آواهم إلى الكهف بظاهرهم ، وفي الباطن فهو مُقيلُهم في ظلّ إقباله وعنايته ، ثم أخذهم عنهم ، وقام عنهم فأجرى عليهم الأحوال وهم غائبون عن شواهدهم .

وأخبر عن ابتداء أمرهم بقوله . ﴿ رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ : أي أنهم أخذوا في التبرّي من حوْلِهم وقوّتهم ، ورجعوا إلى الله بصِدْق فاقتهم ، فاستجاب لهم دعوتهم ، ودفع عنهم ضرورتهم ، وبوّأهم في كنف الإيواء مقيلاً حسناً .

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ﴾

أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم ، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه من حقائق ما كاشفناهم به من شهود الاحدية ، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12) ﴾

أي رددناهم إلى حال صحوهم وأوصاف تمييزهم ، وأقمناهم بشواهد التفرقة بعد ما محوناهم عن شواهدهم بما أقمناهم بوصف الجمع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 378. 380 ﴾

(329/468)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والستون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/469)

الجزء التاسع والستون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 13 ﴾ من سورة الكهف

وحتى الآية ﴿ 21 ﴾ من نفس السورة

(4/469)

قوله تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الكلام على اختلاف وقع في مدتهم ، وكان الحزبان معاً هم ومن خالفهم متقاربين في الجهل بإحصائه على سبيل القطع وكان اليهود الذين أمروا قريشاً بالسؤال عن أمرهم تشكيكاً في الدين لا يعلمون أمرهم على الحقيقة ، نبه على ذلك بقوله – جواباً لمن كأنه قال : أيهما أحصاه ؟ : ﴿ نحن ﴾ أو يقال : ولما أخبر الله سبحانه عن مسألة قريش الثانية ، وهي قصة أهل الكهف ، مجملاً لها بعض الإجمال بعد إجمال الجواب عن المسألة الأولى ، وهي الروح ، كان السامع جديراً بأن تستشرف نفسه إلى بيان أكثر من ذلك فيضيق صدره خشية الاقتصار على ما وقع من ذلك من الأخبار ، فقال جواباً لمن كأنه قال : اسأل الإيضاح وبيان الحق من خلاف الحزبين : نحن ﴿ نقص ﴾ أي نخبر إخباراً تابعاً لآثارهم قدماً فقدماً ﴿ عليك ﴾ على وجه التفصيل ﴿ نبأهم بالحق ﴾ أي خبرهم العظيم وليس أحد غيرنا إلا قصاً ملتبساً بباطل : زيادة أو نقص ، فكأنه قيل : ما كان نبأهم ؟ فقال تعالى : ﴿ إنهم فتية ﴾ أي شبان ﴿ ءامنوا بربهم ﴾ المحسن إليهم الناظر في مصالحهم الذي تفرد بخلقهم ورزقهم ، وهداهم بما وهب لهم في أصل الفطرة من العقول الجيدة النافعة .

(5/469)

ولما دل على الإحسان باسم الرب ، وكان في فعله معهم من باهر القدرة ما لا يخفى ، التفت إلى مقام العظمة فقال تعالى عاطفاً على ما تقديره : فاهتدوا بإيمانهم : ﴿ وزدناهم ﴾ بعد أن آمنوا ﴿ هدى ﴾ بما قذفنا في قلوبهم من المعارف ، وشرحنا لهم صدورهم من المواهب التي حملتهم على ارتكاب المعاطب ، والزهد في الدنيا والانقطاع إليه ﴿ وربطنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ على قلوبهم ﴾ أي قويناها ، فصار ما فيها من القوى مجتمعاً غير مبدد ، فكانت حالهم في الجلوة كحالهم في الخلوة ﴿ إذ قاموا ﴾ لله تعالى حق القيام في ذلك الجيل الكافرين بين يدي طاغيتهم دقيانوس ﴿ فقالوا ﴾ مخالفين لهم : ﴿ ربنا ﴾ الذي يستحق أن نفرده بالعبادة لتفرده بتدبيرنا ، هو ﴿ رب السماوات والأرض ﴾ أي موجدهما ومدبرهما ﴿ لن ندعوا من دونه إلهاً ﴾ بعد أن ثبت عجز كل من سواه ، والله ﴿ لقد قلنا إذاً ﴾ أي إذا دعونا من دونه غيره ﴿ شططاً ﴾ أي قولاً ذا بعد مفرط عن الحق جداً ؛ ثم شرعوا يستدلون على كونه شططاً بأنه لا دليل عليه ، ويجوز أن يكونوا لما قالوا ذلك عرض لهم الشيطان بشبهة التقليد فقالوا مجيبين عنها : ﴿ هؤلاء ﴾ وأن يكونوا قالوا ذلك للملك إنقاذاً له من شرك الجهل ، وبين المشار إليهم بقولهم : ﴿ قومنا ﴾ أي وإن كانوا أسن منا وأقوى وأجل في الدنيا ﴿ اتخذوا ﴾ أي مخالفين مع منهاج العقل داعي الفطرة الأولى ﴿ من دونه ءالهة ﴾ أشركوهم معه لشبهة واهية استغواهم بها الشيطان ؛ ثم استأنفوا على طريق التخصيص ما ينبه على أنهم من حين

عبادتهم إلى الآن لم يأتوا على ذلك بدليل ، فقالوا منبهين على فساد التقليد في أصول الدين وأنه لا مقنع فيه بدون القطع : ﴿ لولا ﴾ أي هلا ﴿ يأتون ﴾ الآن .

(6/469)

ولما كانوا بعبادتهم لهم قد أحلوهم محل العلماء ، قال تعالى : ﴿ عليهم ﴾ أي على عبادتهم إياهم ، وحققوا ما أرادوا من الاستعلاء بقولهم : ﴿ بسلطان ﴾ أي دليل قاهر ﴿ بين ﴾ مثل ما نأتي نحن على تفرد معبودنا بالأدلة الظاهرة ، والبراهين الباهرة ، فإن مثل هذا الأمر لا يقنع فيه بدون ذلك ، وقد جمعنا الأدلة كلها في الاستدلال على تفرد الله باستحقاقه للعبادة بأنه تفرد بخلق الوجود ، فتسبب عن عجزهم عن دليل أنهم أظلم الظالمين لافتعالهم الكذب عن ملك الملوك ومالك الملك ، فلذلك قالوا : ﴿ فمن أظلم ممن افترى ﴾ أي تعمد ﴿ على الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ كذباً ﴾ فالآية دالة على فساد التقليد في الوحدانية .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 449 . 451 ﴾

(7/469)

فصل

قال الفخر :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) ﴾

اعلم أنه تعالى ذكر من قبل جملة من واقعتهم ثم قال : ﴿ إنهم فتية آمنو بربهم ﴾ أي على وجه الصدق : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم ﴾ كانوا جماعة من الشبان آمنوا بالله ، ثم قال تعالى في صفاتهم : ﴿ وَرَبَطْنَا على قلوبِهِمْ ﴾ أي ألهمناها الصبر وثبتناها : ﴿ إِذْ قَامُواْ ﴾ وفي هذا القيام أقوال : الأول : قال مجاهد كانوا عظماء مدينتهم فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد ، فقال رجل منهم أكبر القوم إني لأجد في نفسي شيئًا ما أظن أن أحداً يجده ، قالوا ما تجد ؟ قال أجد في نفسي أن ربي رب السموات والأرض .

القول الثاني : أنهم قاموا بين يدي ملكهم دقيانوس الجبار ، وقالوا : ربنا رب السموات والأرض ، وذلك لأنه كان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت ، فثبت الله هؤلاء الفتية ، وعصمهم حتى عصوا ذلك الجبار ، وأقروا بربوبية الله ، وصرحوا بالبراءة عن الشركاء والأنداد .

والقول الثالث : وهو قول عطاء ومقاتل أنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم وهذا بعيد لأن الله استأنف قصتهم بقوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ وقوله : ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ معنى الشطط في اللغة مجاوزة الحد ، قال الفراء يقال قد أشط في السوم إذ جاوز الحد ولم يسمع إلا أشط يشط أشطاطاً وشططاً ، وحكى الزجاج وغيره شط الرجل وأشط إذا جاوز الحد ، ومنه قوله : ﴿ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ [ص : 22] وأصل هذا من قولهم شطت الدار إذا بعدت ، فالشطط البعد عن الحق ، وهو ههنا منصوب على المصدر ، والمعنى لقد قلنا إذا قولاً شططاً ، أما قوله : ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتخذوا مِن دُونِهِ ءالِهَةً ﴾ هذا من قول أصحاب الكهف ويعنون الذين كانوا في زمان دقيانوس عبدوا الأصنام ﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ ﴾ – هلا يأتون – ﴿ عَلَيْهِم بسلطان بَيّنٍ ﴾ بحجة بينة ، ومعنى عليهم أي على عبادة الآلهة ، ومعنى الكلام أن عدم البينة بعدم الدلائل على ذلك لا يدل على عدم المدلول ، ومن الناس من يحتج بعدم الدليل على عدم المدلول ويستدل على صحة هذه الطريقة بهذه الآية .

فقال إنه تعالى استدل على عدم الشركاء والأضداد بعدم الدليل عليها فثبت أن الاستدلال بعدم الدليل على عدم المدلول طريقة قوية ، ثم قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا ﴾ يعني أن الحكم بثبوت الشيء مع عدم الدليل عليه ظلم وافتراء على الله وكذب عليه ، وهذا من أعظم الدلائل على فساد القول بالتقليد . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 83.84 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وربطنا على قلوبهم . . ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : ثبتناها .

الثاني : ألهمناها صبراً ، قاله اليزيدي .

﴿ . . . ولقد قلنا إذاً شططاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : غُلواً .

الثاني : تباعداً .

قوله تعالى : ﴿ . . . لولا يأتون عليهم بسلطان بيّنٍ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : بحجة بينة ، قاله مقاتل .

الثاني : بعذر بيّن ، قاله قتادة .

الثالث : بكتاب بيّن ، قاله الكلبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) ﴾

لما اقتضى قوله ﴿ لنعلم أي الحزبين أحصى ﴾ [الكهف : 12] اختلافاً وقع في أمر الفتية ، عقب بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم ﴿ بالحق ﴾ الذي وقع ، وفي مجموع هذه الآيات جواب قريش عن سؤالهم الذي أمرتهم به بنو إسرائيل . و" القص " الإخبار بأمر يسرد ، لا بكلام يروى شيئاً شيئاً ، لأن تلك المخاطبة ليست بقصص ، وقوله ﴿ وزدناهم هدى ﴾ أي يسرناهم للعمل الصالح والانقطاع إلى الله عز وجل ومباعدة الناس والزهد في الدنيا ، وهذه زيادات على الإيمان . وقوله ﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ عبارة عن شدة عزم وقوة صبر أعطاها الله لهم ، ولما كان الفزع وخور النفس يشبه بالتناسب الانحلال ، حسن في شدة النفس وقوة التصميم أن يشبه الربط ، ومنه يقال : فلان رابط الجأش إذا كان لا تفرق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها ، ومنه الربط على قلب أم موسى ، وقوله ﴿ إذ قاموا فقالوا ﴾ يحتمل معنيين ، أحدهما أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدي الملك الكافر ، فإنه مقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث صلبوا عليه وخالفوا دينه ورفضوا في ذات الله هيبته ، والمعنى الثاني أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله ومنابذة الناس ، كما تقول قام فلان إلى أمر كذا إذا اعتزم عليه بغاية الجد ، وبهذه

الألفاظ التي هي قاموا فقالوا تعلقت الصوفية في القيام والقول ، وقرا الأعمش " إذ قاموا قياماً فقالوا " ، وقولهم : ﴿ لقد قلنا إذاً شططاً ﴾ أي لو دعونا من دون ربنا إلهاً ، والشطط الجور ، وتعدي الحد والغلو بحسب الأمر ، ومنه اشتط الرجل في السوم إذا طلب في سلعته فوق قيمتها ، ومنه شطوط النوى والبعد ، ومن اللفظة قول الشاعر : [الطويل]

ألا يالقومي قد اشتط عواذلي . . . ويزعمن أن أودى بحقي باطلي

(11/469)

وقولهم : ﴿ هؤلاء قومنا ﴾ مقالة تصلح أن تكون مما قالوا في مقامهم بين يدي الملك ، وتصلح أن تكون من قول بعضهم لبعض عند قيامهم للأمر الذي عزموا عليه ، وقولهم : ﴿ لولا يأتون ﴾ تحضيض بمعنى التعجيز ، لأنه تحضيض على ما لا يمكن ، وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن تلفت دعواهم ، و" السلطان " الحجة ، وقال قتادة : المعنى بعذر بين ، وهذه عبارة محلقة ، ثم عظموا جرم الداعين مع الله آلهة وظلمهم بقوله على جهة التقرير ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(12/469)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ نحن نَقُصُّ عليك نبأهم ﴾

أي : خبر الفتية ﴿ بالحق ﴾ أي : بالصدق .

قوله تعالى : ﴿ وزدناهم هدى ﴾ أي : ثبّتناهم على الإيمان ، ﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ أي : ألهمناها الصبر ﴿ إذ قاموا ﴾ بين يدي ملكهم دقيانوس ﴿ فقالوا ربُّنا ربُّ السموات والأرض ﴾ وذلك أنه كان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ، فعصم الله هؤلاء حتى عصَوْا مِلكهم .

وقال الحسن : قاموا في قومهم فدعَوْهم إلى التوحيد .

وقيل : هذا قولهم بينهم لما اجتمعوا خارج المدينة على ما ذكرنا في أول القصة .

فأما الشطط ، فهو الجَوْر .

قال الزجاج : يقال : شَطَّ الرجل ، وأَشَطَّ : إذا جار .

ثم قال الفتية : ﴿ هؤلاء قومُنا ﴾ يعنون الذين كانوا في زمن دقيانوس ﴿ اتخذوا من دونه آلهة ﴾ أي : عبدوا الأصنام ﴿ لولا ﴾ أي : هلاّ ﴿ يأتون عليهم ﴾ أي : على عبادة الأصنام ﴿ بسُلطان بيّن ﴾ أي : بحُجَّةٍ .

وإنما قال : "عليهم" والأصنام مؤنَّثة ، لأن الكفار نحلوها العقل والتمييز ، فجرت مجرى

المذكَّرين من الناس .

قوله تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ فزعم أن له شريكاً ؟ ! . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(13/469)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بالحق ﴾

لما اقتضى قوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى ﴾ اختلافاً وقع في أمد الفتية ، عقّب

بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم بالحق الذي وقع .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ أي شباب وأحداث حكم لهم بالفتوّة حين آمنوا بلا واسطة

؛ كذلك قال أهل اللسان : رأس الفتوّة الإيمان .

وقال الجنيد : الفتوّة بذل النّدى وكفّ الأذى وترك الشكوى .

وقيل : الفتوّة اجتناب المحارم واستعجال المكارم .

وقيل غير هذا .

وهذا القول حسن جداً ؛ لأنه يعمّ بالمعنى جميع ما قيل في الفتوّة .

قوله تعالى : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ أي يسّرناهم للعمل الصالح ؛ من الانقطاع إلى الله تعالى ، ومباعدة الناس ، والزهد في الدنيا .

وهذه زيادة على الإيمان .

وقال السُّدّي : زادهم هُدًى بكلب الراعي حين طردوه ورجموه مخافة أن ينبح عليهم وينبّه بهم ؛ فرفع الكلب يديه إلى السماء كالداعي فأنطقه الله ، فقال : يا قوم ! لِمَ تطردونني ، لِمَ ترجمونني ! لِمَ تضربونني ! فوالله لقد عرفت الله قبل أن تعرفوه بأربعين سنة ؛ فزادهم الله بذلك هُدًى .

قوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾

عبارة عن شدّة عزم وقوّة صبرٍ ، أعطاها الله لهم حتى قالوا بين يدي الكفار : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السماوات والأرض لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إلها لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴾ .

ولما كان الفزع وخَوَر النفس يشبه بالتناسب الانحلال حسن في شدة النفس وقوة التصميم أن يشبه الربط ؛ ومنه يقال : فلان رابط الجأش ، إذا كان لا تفرق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها .

ومنه الرّبط على قلب أمّ موسى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال : 11] وتقدّم .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ يحتمل ثلاثة معان :

أحدها : أن يكون هذا وصفَ مقامهم بين يدي الملك الكافر كما تقدّم ، وهو مقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه ، ورفضوا في ذات الله هيبته .

والمعنى الثاني فيما قيل : إنهم أولاد عظماء تلك المدينة ، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد ؛ فقال أسنُّهم : إني أجد في نفسي أن ربي ربُّ السموات والأرض ؛ فقالوا ونحن كذلك نجد في أنفسنا .

فقاموا جميعاً فقالوا : "رَبُّنا ربُّ السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذاً شَطَطاً" .

أي لئن دعونا إلها غيره فقد قلنا إذاً جوراً ومحالاً .

والمعنى الثالث : أن يعبّر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة الناس ؛ كما تقول : قام فلان إلى أمر كذا إذا عزم عليه بغاية الجدّ .

الثانية : قال ابن عطية : تعلقت الصوفية في القيام والقول بقوله : "إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض" .

قلت : وهذا تعلّق غير صحيح ! هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته ، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته ، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم ؛ وهذه سنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء .

أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام ! وخاصة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان ؛ هيهات ! بينهما والله ما بين الأرض والسماء .

ثم هذا حرام عند جماعة العلماء ، على ما يأتي بيانه في سورة لقمان إن شاء الله تعالى .

وقد تقدّم في "سبحان" عند قوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [الإسراء : 37] ما فيه كفاية .

وقال الإمام أبو بكر الطَّرسوسيّ وسئل عن مذهب الصوفية فقال : وأما الرقص والتواجد فأوّل من أحدثه أصحاب السامريّ ؛ لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون ؛ فهو دين الكفار وعبّاد العجل ، على ما يأتي .

(15/469)

قوله تعالى : ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾

أي قال بعضهم لبعض : هؤلاء قومنا ، أي أهل عصرنا وبلدنا ، عبدوا الأصنام تقليداً من

غير حجة .

﴿ لَّوْلَا ﴾ أي هلاّ .

﴿ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ أن بحجة على عبادتهم الصنم .

وقيل : "عليهم" راجع إلى الآلهة ؛ أي هلا أقاموا بيّنةً على الأصنام في كونها آلهة ؛ فقولهم "لولا" تحضيض بمعنى التعجيز ، وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يلتفت إلى دعواهم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(16/469)

وقال أبو حيان :

ولما ذكر قوله ليعلم مشعراً باختلاف في أمرهم عقب بأنه تعالى هو الذي يقص شيئاً فشيئاً على رسوله (صلى الله عليه وسلم) خبرهم ﴿ بالحق ﴾ أي على وجه الصدق ، وجاء لفظ ﴿ نحن نقص ﴾ موازياً لقوله لنعلم .

ثم قال ﴿ آمنوا بربهم ﴾ ففيه إضافة الرب وهو السيد والناظر في مصلحة عبيده ، ولم يأت التركيب ﴿ آمنوا ﴾ بناء للأشعار بتلك الرتبة وهي أنهم مربوبون له مملوكون .

ثم قال : ﴿ وزدناهم هدى ﴾ ولم يأت التركيب وزادهم لما في لفظة ن من العظمة والجلال

، وزيادته تعالى لهم ﴿ هدى ﴾ هو تيسيرهم للعمل الصالح والإنقطاع إليه ومباعدة الناس والزهد في الدنيا ، وهذه زيادة في الإيمان الذي حصل لهم .

وفي التحرير ﴿ زدناهم ﴾ ثمرات ﴿ هدى ﴾ أو يقيناً قولان ، وما حصلت به الزيادة امتثال المأمور وترك المنهي ، أو إنطاق الكلب لهم بأنه هو على ما هم عليه من الإيمان ، أو إنزال ملك عليهم بالتبشير والتثبيت وإخبارهم بظهور نبي من العرب يكون الدين به كله لله فآمنوا به قبل بعثه أقوال ملخصة من التحرير .

﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ ثبتناها وقوّيناها على الصبر على هجرة الوطن والنعيم والفرار بالدين إلى غار في مكان قفر لا أنيس به ولا ماء ولا طعام ، ولما كان الفزع وخوف النفس يشبه بالتناسب الإنحلال حسن في شدة النفس وقوّة التصميم أن تشبه الربط ، ومنه فلان رابط الجأش إذا كانت نفسه لا تتفرق عند الفزع والحرب .

وقال تعالى : ﴿ إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ والعامل في ﴿ أن ربطنا ﴾ أي ربطنا حين ﴿ قاموا ﴾ ، ويحتمل القيام أن يكون مقامهم بين يديّ الملك الكافر دقيانوس ، فإنه مقام محتاج إلى الربط على القلب حيث صلبوا عليه وخلعوا دينه ورفضوا في ذات الله هيبته ، ويحتمل أن يكون عبارة عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله ومنابذة الناس كما يقال : قام فلان إلى كذا إذا اعتزم عليه بغاية الجد .

وقال الكرماني : ﴿ قاموا ﴾ على أرجلهم .

وقيل : ﴿ قاموا ﴾ يدعون الناس سرّاً .

وقال عطاء ﴿ قاموا ﴾ عند قيامهم من النوم قالوا وقيل : ﴿ قاموا ﴾ على إيمانهم .

وقال صاحب الغنيان : ﴿ إذ قاموا ﴾ بين يديّ الملك فتحركت هرة .

وقيل : فأرة ففزع دقيانوس فنظر بعضهم إلى بعض فلم يتمالكوا أن قالوا ﴿ ربنا رب السموات والأرض ﴾ وكان قومهم عباد أصنام ، وما أحسن ما وحدوا الله بأن ربهم هو موجد السموات والأرض المتصرّف فيها على ما يشاء ، ثم أكدوا هذا التوجيد بالبراءة من إله غيره بلفظ النفي المستغرق تأبيد الزمان على قول .

واللام في ﴿ لقد ﴾ لام توكيد و ﴿ إذا ﴾ حرف جواب وجزاء ، أي ﴿ لقد قلنا ﴾ لن ندعو من دونه إلهاً قولاً ﴿ شططاً ﴾ أي ذا شطط وهو التعدي والجور ، فشططاً نعت لمصدر محذوف إما على الحذف كما قدرناه ، وإما على الوصف به على جهة المبالغة .

وقيل : مفعول به بقلنا .

وقال قتادة : ﴿ شططاً ﴾ كذباً .

وقال أبو زيد : خطأً .

﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾

ولما وحدوا الله تعالى ورفضوا ما دونه من الآلهة أخذوا في ذم قومهم وسوء فعلهم وأنهم لا حجة لهم في عبادة غير الله ، ثم عظموا جرم من افترى على الله كذباً وهذه المقالة يحتمل أن قالوها في مقامهم بين يديّ الملك تقبيحاً لما هو وقومهم عليه وذلك أبلغ في التبرّي من عبادة الأصنام ، وأفتّ في عضد الملك إذا اجترؤوا عليه بذم ما هو عليه ، ويحتمل أن قالوا ذلك عند قيامهم للأمر الذي عزموا عليه و﴿ هؤلاء ﴾ مبتدأ .

و﴿ قومنا ﴾ قال الحوفي : خبر و﴿ اتخذوا ﴾ في موضع الحال .

وقال الزمخشري : وتبعه أبو البقاء : ﴿ قومنا ﴾ عطف بيان و﴿ اتخذوا ﴾ في موضع الخبر .

(18/469)

والضمير في ﴿ من دونه ﴾ عائد على الله ، ولولا تحضيض صحبه الإنكار إذ يستحيل وقوع سلطان بيِّن على ذلك فلا يمكن فيه التحضيض الصرف ، فحضوهم على ذلك على سبيل التعجيز لهم ، ومعنى ﴿ عليهم ﴾ على اتخاذهم آلهة و﴿ اتخذوا ﴾ هنا يحتمل أن يكون بمعنى عملوا لأنها أصنام هم نحتوها ، وأن تكون بمعنى صيروا ، وفي ما ذكروه

دليل على أن الدّين لا يؤخذ إلاّ بالحجة والدعوى إذا لم يكن عليها دليل فاسدة وهي ظلم وافتراء على الله وكذب بنسبة شركاء الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(19/469)

وقال أبو السعود :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾

شروعٌ في تفصيل ما أُجمل فيما سلف من قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الفتية ﴾ الخ ، أي نحن نخبرك بتفاصيل أخبارِهم وقد مر بيانُ اشتقاقِه في مطلع سورة يوسفَ عليه السلام ﴿ نَبَأَهُم ﴾ النبأُ الخبرُ الذي له شأنٌ وخطرٌ ﴿ بالحق ﴾ إما صفةٌ لمصدر محذوف أو حالٌ من صمير نقصّ أو من (نبأهم) أو صفةٌ له على رأي من يرى حذفَ الموصولِ مع بعض صلتِه ، أي نقصّ قَصصاً ملتبساً بالحق أو نقصّه ملتبسين به أو نقص نبأهم ملتبساً به أو نبأهم الملتبسَ به ، ونبأهم حسبما ذكره محمدُ بن إسحاقَ بنِ يسارَ أنه مرِجَ أهلُ الإنجيل وعظُمت فيهم الخطايا وطغت ملوكُهم فعبدوا الأصنامَ وذبحوا للطواغيت ، وكان ممن بالغ في ذلك وعتا عتوّاً كبيراً دقيانوس فإنه غلا فيه غلوّاً شديداً فجاس خلالَ الديار والبلاد

بالعبث والفسادِ وقتل مَنْ خالفه من المتمسكين بدين المسيحِ عليه السلام ، وكان يتبع الناسَ فيخيّرهم بين القتل وعبادةِ الأوثانِ فمن رغِب في الحياة الدنيا الدنية يصنع ما يصنع ومن آثر عليها الحياةَ الأبديةَ قتله وقطع آرابه وعلقها في سور المدينةِ وأبوابها ، فلما رأى الفتيةُ ذلك وكانوا عظماءَ أهلِ مدينتهم ، وقيل : كانوا من خواصّ الملك ، قاموا فتضرعوا إلى الله عز وجل واشتغلوا بالصلاة والدعاء .

(20/469)

فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم أعوانُ الجبار فأحضروهم بين يديه فقال لهم ما قال وخيّرهم بين القتل وبين عبادةِ الأوثان ، فقالوا : إن لنا إلها ملأ السمواتِ والأرضَ عظمتُه وجبروتُه لن ندعوَ من دونه أحداً ، ولن نُقِرّ بما تدعونا إليه إبداً فاقضِ ما أنت قاضٍ ، فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرةِ وأخرجهم من عنده وخرج هو إلى مدينة نينوى لبعض شأنِه وأمهلهم إلى رجوعه ليتأملوا في أمرهم فإن تبعوه وإلا فعل بهم ما فعل بسائر المسلمين ، فأزمعت الفتيةُ على الفرار بالدين والالتجاء إلى الكهف الحصين ، فأخذ كل منهم من بيت أبيه شيئاً فتصدّقوا ببعضه وتزوّدوا بالباقي فأووا إلى الكهف فجعلوا يصلّون فيه آناءَ الليل وأطرافَ النهار ويبتهلون إلى الله سبحانه بالأنين والجُؤار وفوّضوا أمرَ نفقتِهم إلى يمليخا ،

فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابه الحِسانَ ويلبس لباس المساكين ويدخُل المدينة ويشتري ما يُهمّهم ويتحسس ما فيها من الأخبار ويعود إلى أصحابه ، فلبثوا على ذلك إلى أن قدم الجبارُ المدينةَ فطلبهم وأحضر آباءَهم فاعتذروا بأنهم عصَوْهم ونبهوا أموالَهم وبذروها في الأسواق وفرّوا إلى الجبل ، فلما رأى يمليخا ما رأى من الشر رجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه قليلٌ من الزاد فأخبرهم بما شهده من الهول ففزِعوا إلى الله عز وجل وخرّوا له سُجّداً ثم رفعوا رؤوسهم وجلسوا يتحدثون في أمرهم ، فبينما هم كذلك إذ ضرب الله تعالى على آذانهم فناموا ونفقتُهم عند رؤوسهم ، فخرج دقيانوس في طلبهم بخيله ورَجِله فوجدوهم قد دخلوا الكهفَ فأمر بإخراجهم فلم يُطِق أحدٌ أن يدخله فلما ضاق بهم ذرعاً قال قائل منهم : أليس لو كنتَ قدرتَ عليهم قتلتَهم ؟ قال : بلى ، قال : فابْنِ عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعاً وعطشاً وليكن كهفُهم قبراً لهم ، ففعل ثم كان من شأنهم ما قص الله عز وجل عنهم ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ استئنافٌ تحقيقيٌّ مبني على تقدير السؤالِ من قبل

(21/469)

المخاطَب ، والفتيةُ جمعُ قلة للفتى كالصبية للصبى ﴿ ءَامَنُواْ بِرَبّهِمْ ﴾ أوثر الالتفاتُ للإشعار بعلّية وصفِ الربوبية لإيمانهم ولمراعاة ما صدر عنهم من المقالة حسبما

سيُحكى عنهم ﴿ وزدناهم هُدًى ﴾ بأن ثبتناهم على ما كانوا عليه من الدين وأظهرنا لهم مكنوناتِ محاسِنه ، وفيه التفاتٌ من الغيبة إلى ما عليه سبكُ النظمِ سباقاً وسياقاً من التكلم .

﴿ وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ ﴾

(22/469)

أي قويناها حتى اقتحموا مضايقَ الصبر على هجر الأهلِ والأوطانِ والنعيم والإخوان ، واجترأوا على الصدْع بالحق من غير خوف ، وحذِروا الردَّ على دقيانوسَ الجبارِ ﴿ إِذْ قَامُواْ ﴾ منصوبٌ بربطنا والمرادُ بقيامهم انتصابُهم لإظهارِ شعارِ الدين ، قال مجاهد : خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعادٍ ، فقال أكبرُهم : إني لأجد في نفسي شيئاً أن ربي ربُّ السمواتِ والأرض ، فقالوا : نحن أيضاً كذلك فقاموا جميعاً ﴿ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السموات والأرض ﴾ ضمّنوا دعواهم ما يحقق فحواها ويقضي بمقتضاها فإن ربوبيتَه عز وجل لهما تقتضي ربوبيتَه لما فيهما أيَّ اقتضاءٍ ، وقيل : المراد قيامُهم بين يدي الجبارِ من غير مبالاةٍ به حين عاتبهم على ترك عبادةِ الأصنام ، فحينئذ يكون ما سيأتي من قوله تعالى : ﴿ هَؤُلاء ﴾ الخ ، منقطعاً عما قبله صادراً عنهم بعد خروجِهم من عنده ﴿ لَن نَّدْعُوَاْ

﴿ لن نعبدَ أبداً ﴾ ﴿ مِن دُونِهِ إلها ﴾ معبوداً آخرَ لا استقلالاً ولا اشتراكاً ، والعدولُ عن أن يقال : ربًّا للتنصيص على رد المخالفين حيث كانوا يسمون أصنامَهم آلهةً وللإشعار بأن مدارَ العبادة وصفُ الألوهية وللإيذان بأن ربوبيتَه تعالى بطريق الألوهيةِ لا بطريق المالكية المجازية ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطًا ﴾ أي قولاً ذا شططٍ أي تجاوزَ عن الحد أو قولاً هو عينُ الشطط ، على أنه وُصفَ بالمصدر مبالغةً ثم اقتُصر على الوصف مبالغةً على مبالغة ، وحيث كانت العبادةُ مستلزِمةً للقول لما أنها لا تَعرى عن الاعتراف بألوهية المعبودِ والتضرّعِ إليه قيل : لقد قلنا ، وإذاً جوابٌ وجزاءٌ أي لو دعَونا من دونه إلها والله لقد قلنا قولاً خارجاً عن حد العقولِ مُفْرِطاً في الظلم .

(23/469)

﴿ هَؤُلاء ﴾ هو مبتدأ وفي اسم الإشارةِ تحقيرٌ لهم ﴿ قَوْمُنَا ﴾ عطفُ بيان له ﴿ اتخذوا مِن دُونِهِ ءالِهَةً ﴾ خبرُه وفيه معنى الإنكار ﴿ لَّوْلاَ يَأْتُونَ ﴾ تحضيضٌ فيه معنى الإنكارِ والتعجيز أي هلا يأتون ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على ألوهيتهم أو على صحة اتخاذِهم لها آلهةً ﴿ بسلطان بيّنٍ ﴾ بحجة ظاهرةِ الدلالةِ على مُدّعاهم وهو تبكيتٌ لهم وإلقامُ حجرٍ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا ﴾ بنسبة الشريكِ إليه تعالى عن ذلك علواً كبيراً ،

والمعنى أنه أظلمُ من كل ظالمٍ ، وإن كان سبكُ النظمِ على إنكار الأظلميةِ من غير تعرضٍ لإنكار المساواة كما مر تحقيقه في سورة هود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(24/469)

وقال الآلوسى :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم ﴾

شروع في تفصيل ما أجمل فيما سلف أي نحن نخبرك بتفصيل خبرهم الذي له شأن وخطر ﴿ بالحق ﴾ ما أصفة لمصدر محذوف أو حال من ضمير ﴿ نَقُصُّ ﴾ أو ﴿ مِنْ نَبَأَهُم ﴾ أو صفة له على رأي من يرى جواز حذف الموصول مع بعض الصلة أي نقص قصصاً ملتبساً بالحق أو نقصه ملتبسين به أو نقص نبأهم ملتبساً به أو نبأهم الملتبس به ، ولعل في التقييد ﴿ بالحق ﴾ إشارة إلى أن في عهده صلى الله عليه وسلم من يقص نبأهم لكن بالحق .

(25/469)

وفي "الكشف" بعد نقل شعر أمية بن أبي الصلت السابق ما نصه وهذا يدل على أن قصة أصحاب الكهف كانت من علم العرب وإن لم يكونوا عالميها على وجهها ، ونبؤهم حسبما ذكره ابن إسحاق وغيره أنه مرج أهل الإنجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح عليه السلام متمسكين بعبادة الله تعالى وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم وعتا عتواً كبيراً دقيانوس وفي رواية دقيوس فإنه غلا غلواً شديداً فجاس خلال الديار والبلاد وأكثر فيها الفساد وقتل من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام وكان يتتبع الناس فيخيرهم بين القتل وعبادة الأوثان فمن رغب في الحياة الدنيا انقاد لأمره وامتثله ومن آثر عليها الحياة الأبدية لم يبال بأي قتلة قتله فكان يقتل أهل الإيمان ويقطع أجسادهم ويجعلها على سور المدينة وأبوابها فلما رأى الفتية ذلك وكانوا عظماء مدينتهم واسمها على ما في بعض الروايات افسوس وفي بعضها طرسوس ، وقيل كانوا من خواص الملك قاموا فتضرعوا إلى الله عز وجل واشتغلوا بالصلاة والدعاء فبينما هم كذلك دخل عليهم الشرط فأخذوهم وأعينهم تفيض من الدمع ووجوههم معفرة بالتراب وأحضروهم بين يدي الجبار فقالوا لهم : ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا وخيرهم بين القتل وعبادة الأوثان فقالوا : إن لنا إلهاً ملأ السموات والأرض عظمته وجبروته لن ندعو من دونه أحداً ولن نقر بما تدعونا إليه أبداً فاقض ما أنت قاض

وأول من قال ذلك أكبرهم مكسلمينا فأمر الجبار فنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة وأخرجهم من عنده وخرج هو إلى مدينة أخرى قيل هي نينوى لبعض شأنه وأمهلهم إلى رجوعه وقال : ما يمنعني أن أعجل عقوبتكم إلا أني أراكم شباناً فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلاً تتأملون فيه وترجعون إلى عقولكم فإن فعلتم فبها وإلا أهلكتكم فلما رأوا خروجه اشتوروا فيما بينهم واتفقوا على أن يأخذ كل منهم نفقة من بيت أبيه

(26/469)

فيتصدق ببعضها ويتزود بالباقي وينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة يقال له بنجلوس ففعلوا ما فعلوا وأووا إلى الكهف فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلا الصلاة والصيام والتسبيح والتحميد وفوضوا أمر نفقتهم إلى فتى منهم اسمه يمليخا فكان إذا أصبح يتنكر ويدخل المدينة ويشتري ما يهمهم ويتجسس ما فيها من الأخبار ويعود إليهم فلبثوا على ذلك إلى أن قدم الجبار مدينتهم فتطلبهم وأحضر آباءهم فاعتذروا بأنهم عصوهم ونهبوا أموالهم وبذروها في الأسواق وفروا إلى الجبل وكان يمليخا إذ ذاك في المدينة فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه قليل طعام فأخبرهم بما شاهد من الهول ففزعوا إلى الله تعالى وخروا له سجداً ثم رفعوا رؤوسهم وجلسوا يتحدثون في أمرهم فبينما هم كذلك إذ ضرب الله عز

وجل على آذانهم فناموا ونفقتهم عند رؤسهم وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد فأصابه ما أصابهم فخرج الجبار في طلبهم بخيله ورجله فوجدوهم قد دخلوا الكهف فأمر بإخراجهم فلم يطق أحد أن يدخله فلما ضاق بهم ذرعاً قال قائل منهم : أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم ؟ قال : بلى قال : فابن عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعاً وعطشاً وليكن كهفهم قبراً لهم ففعل ثم كان من شأنهم ما قص الله تعالى عز وجل .

وأخرج ابن أبي شيبة .

وابن المنذر .

(27/469)

وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم كانوا في مملكة ملك من الجبابرة يدعو الناس إلى عبادة الأوثان فلما رأوا ذلك خرجوا من تلك المدينة فجمعهم الله تعالى على غير ميعاد فجعل بعضهم يقول لبعض : أين تريدون أين تذهبون ؟ فجعل بعضهم يخفي عن بعض لأنه لا يدري هذا علام خرج هذا ولا يدري هذا علام خرج هذا فأخذوا العهود والمواثيق أن يخبر بعضهم بعضاً فإن اجتمعوا على شيء وإلا كتم بعضهم بعضاً فاجتمعوا على كلمة واحدة فقالوا : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السموات والأرض إلى مَرْفَقًا ﴾ [الكهف : 14

16] ثم انطلقوا حتى دخلوا الكهف فضرب الله تعالى على آذانهم فناموا وفقدوا في أهلهم فجعلوا يطلبونهم فلم يظفروا بهم فرفع أمرهم إلى الملك فقال : ليكونن لهؤلاء القوم بعد اليوم شأن ناس خرجوا لا ندري أين ذهبوا في غير جناية ولا شيء يعرف فدعا بلوح من رصاص فكتب فيه أسماءهم ثم طرح في خزانته ثم كان من شأنهم ما قصه الله سبحانه وتعالى .

وكانوا على ما أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر صيارفة .

وأخرج عبد الرزاق .

(28/469)

وابن المنذر عن وهب بن منبه قال : جاء رجل من حواري عيسى عليه السلام إلى مدينة أصحاب الكهف فأراد أن يدخلها فقيل على بابها صنم لا يدخل أحد إلا سجد له فكره أن يدخل فأتى حماما قريباً من المدينة وآجر نفسه من صاحبه فكان يعمل فيه ورأى صاحب الحمام البركة والرزق وجعل يسترسل إليه وعلقه فتية من أهل المدينة فجعل يخبرهم عن خبر السماء وخبر الآخرة حتى آمنوا وكانوا على مثل حاله في حسن الهيئة وكان يشترط على صاحب الحمام أن الليل لي ولا تحول بيني وبين الصلاة إذا حضرت حتى

جاء ابن الملك بامرأة يدخل بها الحمام فعيره الحواري فقال : أنت ابن الملك وتدخل مع هذه الامرأة التي صفتها كذا وكذا فاستحيا فذهب فرجع مرة أخرى فسبه وانتهره فلم يلتفت حتى دخل ودخلت معه فباتا في الحمام جميعاً فماتا فيه فأتى الملك فقيل له : قتل ابنك صاحب الحمام فالتمس فلم يقدر عليه وهرب من كان يصحبه والتمس الفتية فخرجوا من المدينة فمروا بصاحب لهم في زرع له وهو على مثل أمرهم فذكروا له أنهم التمسوا فانطلق معهم حتى أواهم الليل إلى كهف فدخلوا فيه فقالوا نبيت ههنا الليلة ثم نصبح إن شاء الله تعالى فنرى رأينا فضرب على آذانهم فخرج الملك بأصحابه يتبعونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف فكلما أراد الرجل منهم أن يدخله أرعب فلم يطق أن يدخل فقال للملك قائل : ألست لو قدرت عليهم قتلتهم ؟ قال : بلى قال : فابن عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا عطشاً وجوعاً ففعل ثم كان ما كان ، وروي غير ذلك والأخبار في تفصيل شأنهم مختلفة .

(29/469)

وفي "البحر" لم يأت في الحديث الصحيح كيفية اجتماعهم وخروجهم ولا معول إلا على ما قص الله تعالى من نبأهم ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ استئناف مبني على السؤال من قبل المخاطب

وتقدم الكلام آنفاً في الفتية ﴿ بِرَبِّهِمْ وزدناهم ﴾ أي بسيدهم والناظر في مصالحهم ، وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة ، وأوثر للإشعار بعلية وصف الربوبية لإيمانهم ولما صدر عنهم من المقالة حسبما سيحكى عنهم .

﴿ وزدناهم هُدًى ﴾ بالتثبيت على الايمان والتوفيق للعمل الصالح والانقطاع إلى الله تعالى والزهد في الدنيا .

وفي التحرير المراد زدناهم ثمرات هدى أو يقيناً قولان وما حصلت به الزيادة امتثال المأمور وترك المنهي أو إنطاق الكلب لهم بأنه على ما هم عليه من الايمان أو إنزال ملك عليهم بالتبشير والتثبيت وإخبارهم بظهور نبي من العرب يكون به الدين كله لله تعالى فآمنوا به صلى الله عليه وسلم قبل بعثه اه .

ولا يلزم من القول بإنزال ملك عليهم بذلك القول بنبوتهم كما لا يخفى .

وفي ﴿ زِدْنَاهُمْ ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم الذي عليه سبك النظم الكريم سباقاً وسياقاً ، وفيه من تعظيم أمر الزيادة ما فيه .

﴿ وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ ﴾

قويناها بالصبر فلم تزحزحها عواصف فراق الأوطان وترك الأهل والنعيم والإخوان ولم يزعجها الخوف من ملكهم الجبار ولم يرعها كثرة الكفار ، وأصل الربط الشد المعروف واستعماله فيما ذكر مجاز كما قال غير واحد .

وفي الأساس ربطت الدابة شددتها برباط والمربط الحبل ، ومن المجاز ربط الله تعالى على قلبه صبره ورابط الجاش .

وفي "الكشف" لما كان الخوف والتعلق يزعج القلوب عن مقارها ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر ﴾ [الأحزاب : 10] قيل في مقابله ربط قلبه إذا تمكن وثبت وهو تمثيل .

(30/469)

وجوز بعضهم أن يكون في الكلام استعارة مكنية تخييلية ، وعدي الفعل بعلي وهو متعد بنفسه لتنزيله منزلة اللازم كقوله : يجرح في عراقيبها نصلي ﴿ إِذْ قَامُواْ ﴾ متعلق بربطنا ، والمراد بقيامهم انبعاثهم بالعزم على التوجه إلى الله تعالى ومنابذة الناس كما في قولهم : قام فلان إلى كذا إذا عزم عليه بغاية الجد ، وقريب منه ما قيل المراد به انتصابهم لإظهار الدين .

أخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم أنهم خرجوا من المدينة فاجتمعوا وراءها على غير ميعاد فقال رجل منهم : هو أشبههم إني لأجد في نفسي يئاً ما أظن أحداً يجده قالوا : ما تجد ؟ قال : أجد في نفسي أن ربي رب السموات والأرض فقالوا أيضاً : نحن كذلك فقاموا جميعاً ﴿ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ

السموات والأرض ﴾ وقد تقدم آنفاً عن ابن عباس القول باجتماعهم على غير ميعاد أيضاً إلا أنه قال : إن بعضهم أخفى حاله عن بعض حتى تعاهدوا فاجتمعوا على كلمة فقالوا ذلك .

وقال صاحب الغنيان المراد به وقوفهم بين يدي الجبار دقيانوس ، وذلك أنهم قاموا بين يديه حين دعاهم إلى عبادة الأوثان فهددهم بما هددهم فبينما هم بين يديه تحركت هرة وقيل فارة ففزع الجبار منها فنظر بعضهم إلى بعض فلم يتمالكوا أن قالوا ذلك غير مكترثين به ، وقيل المراد قيامهم لدعوة الناس سراً إلى الايمان .

وقال عطاء : المراد قيامهم من النوم وليس بشيء ، ومثله منا قيل إن المراد قيامهم على الايمان ، وما أحسن ما قالوا فإن ربوبيته تعالى للسموات والأرض تقتضي ربوبيته لما فيهما وهم من جملته أي اقتضاء ، وأردفوا دعواهم تلك بالبراءة من إله غيره عز وجل فقالوا : ﴿ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إلها ﴾ وجاؤا بلن لأن النفي بها أبلغ من النفي بغيرها حتى قيل إنه يفيد استغراق الزمان فيكون المعنى لا نعبد أبداً من دونه إلهاً أي معبوداً آخر لا استقلالاً ولا اشتراكاً ؛ قيل وعدلوا عن قولهم رباً إلى قولهم ﴿ إلها ﴾ للتنصيص على رد المخالفين

حيث كانوا يسمون أصنامهم آلهة ، وللإشعار بأن مدار العبادة وصف الألوهية ، وللإيذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الألوهية لا بطريق المالكية المجازية .

وقد يقال : إنهم أشاروا بالجملة الأولى إلى توحيد الربوبية ، وبالجملة الثانية إلى توحيد الألوهية وهما أمران متغايران وعبدة الأوثان لا يقولون بهذا ويقولون بالأول ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] وحكى سبحانه عنهم أنهم يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرّبُونَا إِلَى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] وصح أنهم يقولون أيضاً : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك .

(32/469)

وجائنا بالجملة الأولى مع أن ظاهر القصة كونهم بصدد ما تشير إليه الجملة الثانية من توحيد الألوهية لأن الظاهر أن قومهم إنما شركوا فيها وهم إنما دعوا لذلك الإشراك دلالة على كمال الايمان ، وابتدأوا بما يشير إلى توحيد الربوبية لأنه أول مراتب التوحيد ، والتوحيد الذي أقرت به الأرواح في عالم الذر يوم قال لها سبحانه : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبّكُمْ ﴾ [الأعراف : 172] وفي ذكر ذلك أولاً وذكر الآخر بعده تدرج في المخالفة فإن توحيد الربوبية يشير إلى توحيد الألوهية بناء على أن اختصاص الربوبية به عز وجل علة لاختصاص الألوهية

واستحقاق المعبودية به سبحانه وتعالى ، وقد ألزم جل وعلا الوثنية القائلين باختصاص الربوبية بذلك في غير موضع ، ولكون الجملة الأولى لكونها مشيرة إلى توحيد الربوبية مشيرة إلى توحيد الألوهية قيل إن في الجملة الثانية تأكيداً لها فتأمل ، ولا تعجل بالاعتراض .

والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من المنكرة بعده ، ولو أخر لكان صفة أي لن ندعوا إلهاً كائناً من دونه تعالى : ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطًا ﴾ أي قولاً ذا شطط أي بعد عن الحق مفرط أو قولاً هو عين الشطط والبعد المفرط عن الحق على أنه وصف بالمصدر مبالغة ثم اقتصر على الوصف مبالغة على مبالغة ، وجوز أبو البقاء كون ﴿ شَطَطًا ﴾ مفعولاً به لقلنا ، وفسره قتادة بالكذب ، وابن زيد بالخطا ، والسدي بالجور ، والكل تفسير باللازم ، وأصل معناه ما أشرنا إليه لأنه من شط إذا أفرط في البعد ، وأنشدوا :

شط المراد بجزوى وانتهى الأمل . . .

وفي الكلام قسم مقدر واللام واقعة في جوابه ، ﴿ وَإِذاً ﴾ حرف جواب وجزاء فتدل على شرط مقدر أي لو دعونا وعبدنا من دونه إلهاً والله لقد قلنا الخ ، واستلزام العبادة القول لما أنها لا تعرى عن الاعتراف بألوهية المعبود ، والتضرع إليه ، وفي هذا القول دلالة

على أن الفتية دعوا لعبادة الأصنام وليموا على تركها ، وهذا أوفق بكون قيامهم بين يدي الملك .

﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾

﴿ هَؤُلَاء ﴾ هو مبتدأ وفي اسم الإشارة تحقير لهم ﴿ قَوْمُنَا ﴾ عطف بيان له لا خبر لعدم إفادته ولا صفة لعدم شرطها والخبر قوله تعالى ﴿ اتخذوا مِن دُونِهِ ﴾ تعالى شأنه ﴿ ءالِهَةً ﴾ أي عملوها ونحتوها لهم .

(34/469)

قال الخفاجي : فيفيد أنهم عبدوها ولا حاجة إلى تقديره كما قيل بناء على أن مجرد العمل غير كاف في المقصود ، وتفسير الاتخاذ بالعمل أحد احتمالين ذكرهما أبو حيان ، والآخر تفسيره بالتصيير فيتعدى إلى مفعولين أحدهما ﴿ ءالِهَةً ﴾ والثاني مقدر ، وجوز أن يكون ﴿ ءالِهَةً ﴾ هو الأول و﴿ مِن دُونِهِ ﴾ هو الثاني وهو كما ترى ، وأياً ما كان فالكلام اخبار فيه معنى الإنكار لا اخبار محض بقرينة ما بعده ولأن فائدة الخبر معلومة ﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ ﴾ تحضيض على وجه الإنكار والتعجيز إذ يستحيل أن يأتوا ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ بتقدير مضاف أي على ألوهيتهم أو على صحة اتخاذهم لها آلهة ﴿ بسلطان بَيّنٍ ﴾ بحجة

ظاهرة الدلالة على مدعاهم فإن الدين لا يؤخذ إلا به ، واستدل به أن ما لا دليل عليه من أمثال ما ذكر مردود ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾ بنسبة الشريك إليه تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وقد مر تحقيق المراد من مثل هذا التركيب ، وهذه المقالة يحتمل أن يكونوا قالوها بين يدي الجبال تبكيتاً وتعجيزاً وتأكيداً للتبري من عبادة ما يدعوهم إليه بأسلوب حسن ؛ ويحتمل أن يكونوا قالوها فيما بينهم لما عزموا عليه ، وخبر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما السابق نص في أن هذه المقالة وما قبلها وما بعدها إلى ﴿ مِّرْفَقًا ﴾ مقولة فيما بينهم ، ودعوى أنه إذا كان المراد من القيام فيما مر قيامهم بين يدي الجبار يتعين كون هذه المقالة صادرة عنهم بعد خروجهم من عنده غير مسلمة كما لا يخفى ، نعم ينبغي أن يكون قوله تعالى :

﴿ وَإِذِ اعتزلتموهم وَمَا يَعْبُدُونَ إَلاَّ اللهَ ﴾ مقولاً فيما بينهم مطلقاً خاطب به بعضهم بعضاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(35/469)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) ﴾

قوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ "أم" : هي المنقطعة المقدّرة ببل والهمزة عند الجمهور ، وببل وحدها عند بعضهم والتقدير : بل أحسبت ، أو بل حسبت ، ومعناها : الانتقال من حديث إلى حديث آخر ، لا لإبطال الأول والإضراب عنه كما هو معنى بل في الأصل .

والمعنى : أن القوم لما تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان ، قال سبحانه : بل أظننت يا محمد أنهم كانوا عجباً من آياتنا فقط ؟ لا تحسب ذلك فإن آياتنا كلها عجب ، فإن من كان قادراً على جعل ما على الأرض زينة لها للابتلاء ، ثم جعل ما عليها صعيداً جرزاً كأن لم تغن بالأمس ، لا تستبعد قدرته وحفظه ورحمته بالنسبة إلى طائفة مخصوصة ، وإن كانت قصتهم خارقة للعادة ، فإن آيات الله سبحانه كذلك وفوق ذلك .

و ﴿ عَجَبًا ﴾ منتصبة على أنه خبر كان أي : ذات عجب ، أو موصوفة بالعجب مبالغة ، و ﴿ من آياتنا ﴾ في محل نصب على الحال ، و ﴿ إِذْ أَوَى الفتية ﴾ ظرف لحسبت أو لفعل مقدّر ، وهو أذكر ، أي : صاروا إليه وجعلوه مأواهم ، والفتية : هم أصحاب الكهف ، والكهف : هو الغار الواسع في الجبل ، فإن كان صغيراً سمي غاراً ، والرقيم قال كعب والسدّي : إنه اسم القرية التي خرج منها أصحاب الكهف .

وقال سعيد بن جبير ومجاهد : إنه لوح من حجارة أو رصاص رقمت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف .

قال الفراء : ويروى أنه إنما سمي رقيماً لأن أسماءهم كانت مرقومة فيه .

والرقم : الكتابة .

وروي مثل ذلك عن ابن عباس .

ومنه قول العجاج في أرجوزة له :

ومستقرى المصحف الرقيم . . . وقيل : إن الرقيم : اسم كلبهم ، وقيل : هو اسم الوادي الذي كانوا فيه ، وقيل : اسم الجبل الذي فيه الغار .

(36/469)

قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله ، لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصة أصحاب الكهف ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا ءاتِنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ أي : من عندك ، و " من " ابتدائية متعلقة ب ﴿ آياتنا ﴾ ، أو لمحذوف وقع حالاً ، والتنوين في ﴿ رحمة ﴾ : إما للتعظيم أو للتنويع ، وتقديم ﴿ من لدنك ﴾ للاختصاص أي : رحمة مختصة بأنها من خزائن رحمتك ، وهي : المغفرة في الآخرة والأمن من الأعداء ، والرزق في الدنيا ﴿ وَهَيّىء لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ أي : أصلح لنا ، من قولك هيأت الأمر فتهيأ ، والمراد بأمرهم : الأمر الذي هم عليه وهو مفارقتهم للكفار ،

والرشد : نقيض الضلال ، و " من " للابتداء .

ويجوز أن تكون للتجريد كما في قولك : رأيت منك رشداً .

وتقدم المجرورين للاهتمام بهما .

﴿ فَضَرَبْنَا على ءاذَانِهِمْ ﴾ قال المفسرون : أنمناهم .

والمعنى : سددنا آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات ، والمفعول محذوف أي : ضربنا على آذانهم الحجاب تشبيهاً للإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها ، و ﴿ فِى الكهف ﴾ ظرف لضربنا ، وانتصاب ﴿ سِنِينَ ﴾ على الظرفية ، و ﴿ عَدَدًا ﴾ صفة لسنين ، أي : ذوات عدد على أنه مصدر ، أو بمعنى : معدودة على أنه لمعنى المفعول ، ويستفاد من وصف السنين بالعدد الكثرة .

قال الزجاج : إن الشيء إذا قلّ فهم مقدار عدده فلم يحتج إلى العدد ، وإن كثر احتاج إلى أن يعدّ .

وقيل : يستفاد منه التقليل لأن الكثير قليل عند الله : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : 47] .

(37/469)

﴿ ثُمَّ بعثناهم ﴾ أي : أيقظناهم من تلك النومة ﴿ لنعلم ﴾ أي : ليظهر معلومنا ، وقرىء بالتحتية مبنياً للفاعل على طريقة الالتفات ، و ﴿ أَيُّ الحِزْبَيْنِ ﴾ مبتدأ معلق عنه العلم لما في أيّ من الاستفهام ، وخبره ﴿ أحصى ﴾ وهو فعل ماض ، قيل : والمراد بالعلم الذي جعل علة للبعث هو : الاختبار مجازاً فيكون المعنى : بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم ، والأولى ما ذكرناه من أن المراد به ظهور معلوم الله سبحانه لعباده ، والمراد بالحزبين : الفريقان من المؤمنين والكافرين من أصحاب الكهف المختلفين في مدة لبثهم .

ومعنى أحصى : أضبط .

وكأنه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف ، فبعثهم الله ليتبين لهم ذلك ، ويظهر من ضبط الحساب ممن لم يضبطه ، و " ما " في ﴿ لِمَا لَبِثُواْ ﴾ مصدرية ، أي : أحصى للبثهم ، وقيل : اللام زائدة ، و " ما " بمعنى : الذي ، و ﴿ أَمَدًا ﴾ تمييز ، والأمد : الغاية ، وقيل : إن ﴿ أحصى ﴾ أفعل تفضيل .

وردّ بأنه خلاف ما تقرر في علم الإعراب ، وما ورد من الشاذ لا يقاس عليه كقولهم : أفلس من ابن المذلق ، وأعدى من الجرب .

وأجيب بأن أفعل التفضيل من المزيد قياس مطرد عند سيبويه وابن عصفور ، وقيل : إنهم الحزبين هم أصحاب الكهف اختلفوا بعد انتباههم كم لبثوا ، وقيل : إن أصحاب الكهف حزب وأصحابهم حزب .

وقال الفراء : إن طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بالحق ﴾ هذا شروع في تفصيل ما أجمل في قوله : ﴿ إِذْ أَوَى الفتية ﴾ أي : نحن نخبرك بخبرهم بالحق ، أي : قصصناه بالحق ، أو متلبساً بالحق ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ أي : أحداث شبان ، و ﴿ آمنوا بربهم ﴾ صفة ل ﴿ فتية ﴾ .

والجملة مستأنفة بتقدير سؤال .

والفتية جمع قلة ، و ﴿ زِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ بالتثبيت والتوفيق ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب .

(38/469)

﴿ وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : قويناها بالصبر على هجر الأهل والأوطان ، وفراق الخلان والأخدان ﴿ إِذْ قَامُوا ﴾ الظرف منصوب بربطنا .

واختلف أهل التفسير في هذا القيام على أقوال فقيل : إنهم اجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد ، فقال رجل منهم هو أكبر القوم : إني لأجد في نفسي شيئاً ، إن ربي ربّ السموات والأرض ، فقالوا : ونحن أيضاً كذلك نجد في أنفسنا ، فقاموا جميعاً ﴿ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السموات والارض ﴾ قاله مجاهد .

وقال أكثر المفسرين : إنه كان لهم ملك جبار يقال له : دقيانوس ، وكان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت ، فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى قاموا بين يديه ﴿ فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٭ السموات والارض ﴾ وقال عطاء ومقاتل : إنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم ﴿ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إلها ﴾ أي : لن نعبد معبوداً آخر غير الله لا اشتراكاً ولا استقلالاً ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطًا ﴾ أي : قولاً ذا شطط ، أو قولاً هو نفس الشطط لقصد المبالغة بالوصف بالمصدر ، واللام هي : الموطئة للقسم ، والشطط : الغلو ومجاوزة الحد .

قال أعشى بن قيس :

أتنتهون ولن ينهى ذوي شطط . . . كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

﴿ هَؤُلاء قَوْمُنَا اتخذوا مِن دُونِهِ ءالِهَةً ﴾ هؤلاء مبتدأ ، وخبره ﴿ اتخذوا ﴾ ، و ﴿ قومنا ﴾ عطف بيان ، وفي هذا الإخبار معنى للإنكار ، وفي الإشارة إليهم تحقير لهم ﴿ لَّوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بسلطان بَيّنٍ ﴾ أي : هلا يأتون بحجة ظاهرة تصلح للتمسك بها ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا ﴾ فزعم أن له شريكاً في العبادة أي : لا أحد أظلم منه .

﴿ وَإِذِ اعتزلتموهم ﴾ أي : فارقتموهم وتنحيتم عنهم جانباً ، أي : عن العابدين للأصنام ، وقوله : ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ ﴾ معطوف على الضمير المنصوب ، و " ما " موصولة أو مصدرية أي : وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم معبودهم أو الذي يعبدونه ، وقوله : ﴿ إِلاَّ اللهَ ﴾ استثناء منقطع على تقدير : أنهم لم يعبدوا إلا الأصنام ، أو متصل على تقدير : أنهم شركوها في العبادة مع الله سبحانه وقيل : هو كلام معترض إخبار من الله سبحانه عن الفتية أنهم لم يعبدوا غير الله فتكون ما على هذا نافية ﴿ فَأْوُواْ إِلَى الكهف ﴾ أي : صيروا إليه واجعلوه مأواكم .

قال الفراء : هو جواب إذ ، ومعناه : اذهبوا إليه واجعلوه مأواكم ، وقيل : هو دليل على جوابه ، أي إذ اعتزلتموهم اعتزالاً اعتقادياً ، فاعتزلوهم اعتزالاً جسمانياً ، وإذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء إلى الكهف ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مّن رَّحْمَتِهِ ﴾ أي : يبسط ويوسع ﴿ وَيُهَيّىء لَكُمْ مّنْ أَمْرِكُمْ مّرْفَقًا ﴾ أي يسهل وييسر لكم من أمركم الذي أنتم بصدده ﴿ مّرْفَقًا ﴾ المرفق بفتح الميم وكسرها لغتان قرىء بهما ، مأخوذ من الارتفاق وهو الانتفاع ، وقيل : فتح الميم أقيس ، وكسرها أكثر .

قال الفراء : وأكثر العرب على كسر الميم من الأمر ومن مرفق الإنسان ، وقد تفتح العرب الميم فيهما فهما لغتان ، وكأن الذين فتحوا أرادوا أن يفرقوا بين المرفق من الأمر ، والمرفق من الإنسان .

وقال الكسائي : الكسر في مرفق اليد ، وقيل : المرفق بالكسر : ما ارتفقت به ، والمرفق بالفتح : الأمر الرافق ، والمراد هنا : ما يرتفقون به وينتفعون بحصوله ، والتقديم في الموضعين يفيد الاختصاص .

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : الرقيم : الكتاب .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم من طريق العوفيّ عنه قال : الرقيم : وادٍ دون فلسطين قريب من أيلة .

والراويان عن ابن عباس ضعيفان .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عنه أيضاً قال : هو الجبل الذي فيه الكهف .

وأخرج ابن المنذر عنه ، قال : والله ما أدري ما الرقيم الكتاب أم بنيان ؟ وفي رواية عنه من طريق أخرى قال : وسألت كعباً فقال : اسم القرية التي خرجوا منها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس قال : الرقيم : الكلب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ كَانُواْ مِنْ ءاياتنا عَجَبًا ﴾ يقول : الذي

آتيتك من العلم والسنّة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ فَضَرَبْنَا على ءاذَانِهِمْ ﴾ يقول : أرقدناهم ﴿ ثُمَّ بعثناهم لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ ﴾ من قوم الفتية ، أهل الهدى ، وأهل الضلالة ﴿ أحصى لِمَا لَبِثُواْ ﴾ ، وذلك أنهم كتبوا اليوم الذي خرجوا فيه والشهر والسنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله : ﴿ وزدناهم هُدًى ﴾ قال : إخلاصاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ ﴾ قال : بالإيمان وفي قوله : ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطًا ﴾ قال : كذباً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي قال : جوراً .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني في قوله : ﴿ وَإِذِ اعتزلتموهم وَمَا يَعْبُدُونَ إَلاَّ الله ﴾ قال : كان قوم الفتية يعبدون الله ويعبدون معه آلهة شتى ، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : هي في مصحف ابن مسعود ، وما يعبدون من دون الله ، فهذا تفسيرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(41/469)

وقال القاسمى :

(42/469)

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ شروع في تمام بسط قصتهم وتفصيلها . والحق الأمر المطابق للواقع : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ أي : بوحدانيته إيمانا يقينيا علمياً على طريق الاستدلال ، مع اتفاق قومهم على الشرك : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً ﴾ أي : بترجيح جانب الله على جانب أنفسهم . قال ابن كثير : الفتية - وهم الشباب - أقبل للحق وأهدى للسبيل ، من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل . ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم شبابا . وأما عامة شيوخ قريش فاستمروا على ضلالهم ولم يسلم منهم إلا القليل . وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابا . وقد يروى عن هؤلاء الفتية روايات مضطربة . أوثقها أن هؤلاء ، كان قدم إلى مدينتهم من يدعو إلى الإيمان بالله تعالى ، وبما جاء به عيسى عليه السلام . ممن كان على قدم الحواريين . فاستجاب لذلك الفتية المنوه بهم . وخلعوا الوثنية التي عليها قومهم وفرّوا بدينهم خشية أن يفتنهم ملكهم عن دينهم أو يقتلهم . فاستخفوا عنه في الكهف . واعتزلوا فيه يعبدون الله تعالى وحده . ثم روي أن الملك طلبهم . فقيل : دخلوا هذا الكهف . فقال قومهم : لا

نريد لهم عقوبة ولا عذابا أشد من أن نردم عليهم هذا الكهف . فبنوه عليهم ثم ردموه . ثم إن الله بعث عليهم ملكا على دين عيسى . فرفع ذلك البناء الذي كان ردم عليهم . فقال بعضهم لبعض : كم لبثتم ؟ فقالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم حتى بلغ : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ وكان ورق ذلك الزمان لدولة أهله . فأرسلوا أحدهم يأتيهم بطعام . فلما ذهب ليخرج رأى على باب الكهف شيئا أنكره فأراد أن يرجع . ثم مضى حتى دخل المدينة . فأنكر ما رأى . ثم أخرج درهما فنظروا إليه فأنكروه وأنكروا الدرهم . وقالوا : من أين لك هذا ؟ هذا من ورق غير هذا الزمان .

واجتمعوا عليه يسألونه . فلم يزالوا به حتى انطلقوا به إلى ملكهم . فأخبره بأمره . فاستبشروا به وبأصحابه . وقيل له : انطلق فأرنا أصحابك . فانطلق وانطلقوا معه ليريهم . فدخل قبل القوم فضرب على آذانهم ف : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ﴾ هذا ما أورده ابن جرير أولا ، وفيه كفاية عن غيره .

وسنذكر في آخر نبئهم ما عند أهل الكتاب النصارى من شأنهم .

وقد قيل إنهم كانوا في مدينة يقال لها طرسوس من أعمال طرابلس الشام . وفيها من الآثار

القديمة العهد ، في جبل بها ، ما يزعم أهلها زعماً متوارثاً ، أنه لأصحاب الكهف . والله أعلم . ثم بين تعالى صبرهم على مخالفة قومهم ، ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد ، بقوله سبحانه :

(44/469)

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : قويناها بالصبر على المجاهدة . وشجعناهم على محاربة الشيطان والفرار بالدين إلى بعض الغيران . ومخالفة النفس وهجر المألوفات الجسمانية واللذات والقيام بكلمة التوحيد . وقيل جسّرناهم على القيام بكلمة التوحيد , وإظهار الدين القويم ، والدعوة إلى الحق عند ملكهم الجبار . لقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا ﴾ أي : بين يديه غير مبالين به . وإذ ظرف لربطنا . قال الشهاب : الربط على القلب مجاز عن الربط بمعنى الشد المعروف . أي : استعارة منه . كما يقال ، رابط الجأش . لأن القلق والخوف ينزعج به القلب من محله ، كما قال تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب : 10] , فشبه القلب المطمئن لأمرٍ ، بالحيوان المربوط في محلٍّ . وعدّى ربط بعلى وهو متعد بنفسه ، لتنزيله منزلة اللازم : ﴿ فَقَالُوا رَبُّنَا ﴾ الذي نعبده : ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ ﴾ بحيث يدخل تحت ربوبيته كل معبود سواه : ﴿ لَنْ نَدْعُوَا ﴾ أي : نعبد : ﴿ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴾ أي : ذا بعد عن الحق ، مفرط في الظلم .

﴿ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ عملوا أو نحتوا لهم آلهة ، فيفيد أنهم عبدوها . وفي الإشارة تحقير لهم : ﴿ لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : على عبادتهم أو آلهيتهم أو تأثيرهم : ﴿ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ أي : حجة بينة وبرهان ظاهر . فإن الدين لا يؤخذ إلا به . قال القاشاني : دليل على فساد التقليد ، وتبكيت بأن إقامة الحجة على إلهية غير الله ، وتأثيره ووجوده ، محال . كما قال : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [النجم : 23] ، أي : أسماء بلا مسميات ، لكونها ليست بشيء : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ أي : لا مساوي له في الظلم والكفر . إشارة إلى أنهم لا يأتون ببرهان . فهم ظالمون في حق الله ، لافترائهم عليه بأن في رتبته العليا شركاء يساوونه فيها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 12.10 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) ﴾

لما اقتضى قوله : ﴿ لنعلم أي الحزبين أحصى ﴾ [الكهف : 12] أن في نبأ أهل الكهف تخرصات ورجماً بالغيب أثار ذلك في النفس تطلعا إلى معرفة الصدق في أمرهم ، من أصل وجود القصة إلى تفاصيلها من مخبر لا يُشك في صدق خبره كانت جملة نحن نقص عليك نبأهم بالحق استئنافاً بيانياً لجملة لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً [الكهف : 12] .

وهذا شروع في مجمل القصة والاهتمام بمواضع العبرة منها .

وقدم منها ما فيه وصف ثباتهم على الإيمان ومنابذتهم قومهم الكفرة ودخولهم الكهف .

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في جملة نحن نقص عليك ﴾ يفيد الاختصاص ، أي نحن لا غيرُنا يقص قصصهم بالحق .

والحق : هنا الصدق .

والصدق من أنواع الحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ حقيق عليّ أن لا أقول على الله إلا الحق ﴾ في سورة الأعراف (105) .

والباء للملابسة ، أي القصص المصاحب للصدق لا للتخرصات .

والقصص : سَرد خبر طويل فالإخبار بمخاطبة مفرقة ليس بقصص ، وتقدم في طالع سورة

يوسف .

والنبأ : الخبر الذي فيه أهمية وله شأن .

وجملة إنهم فتية ﴾ مبينة للقصص والنبأ .

وافتتاح الجملة بحرف التأكيد لمجرد الاهتمام لا لرد الإنكار .

وزيادة الهدى يجوز أن يكون تقوية هُدى الإيمان المعلوم من قوله : ﴿ آمنوا بربهم ﴾ بفتح بصايرهم للتفكير في وسائل النجاة بإيمانهم وألهمهم التوفيق والثبات ، فكل ذلك هدى زائد على هدى الإيمان .

ويجوز أن تكون تقوية فضل الإيمان بفضل التقوى كما في قوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ [محمد : 17] .

والزيادة : وفرةُ مقدار شيء مخصوص ، مثل وفرة عدد المعدود ، ووزن الموزون ، ووفرة سكان المدينة .

(47/469)

وفعل (زاد) يكون قاصراً مثل قوله تعالى : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ [الصافات : 147] ، ويكون متعدياً كقوله : ﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾ [البقرة : 10] .

وتستعار الزيادة لقوة الوصف كما هنا .

والربط على القلب مستعار إلى تثبيت الإيمان وعدم التردد فيه ، فلما شاع إطلاق القلب على الاعتقاد استعير الربط عليه للتثبيت على عقده .

كما قال تعالى : ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ﴾ [القصص : 10] .

ومنه قولهم : هو رابط الجأش .

وفي ضده يقال : اضطرب قلبه ، وقال تعالى : ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ [الأحزاب : 10] .

استعير الاضطراب ونحوه للتردد والشك في حصول شيء .

وتعدية فعل ربطنا ﴾ بحرف الاستعلاء للمبالغة في الشد لأن حرف الاستعلاء مستعار لمعنى التمكن من الفعل .

و﴿ إذ قاموا ﴾ ظرف للربط ، أي كان الربط في وقت في قيامهم ، أي كان ذلك الخاطر الذي قاموا به مقارناً لربط الله على قلوبهم ، أي لولا ذلك لما أقدموا على مثل ذلك العمل وذلك القول .

والقيام يحتمل أن يكون حقيقياً ، بأن وقفوا بين يدي ملك الروم المشرك ، أو وقفوا في مجامع قومهم خطباء معلنين فساد عقيدة الشرك .

ويحتمل أن يكون القيام مستعاراً للإقدام والجَسْر على عمل عظيم ، وللاهتمام بالعمل أو

القول ، تشبيها للاهتمام بقيام الشخص من قعود للإقبال على عمل ما ، كقول النابغة

:

بأن حِصْناً وحياً من بني أسد

قَاموا فقالوا حِمانا غيرُ مقروب . . .

فليس في ذلك قيام بعد قعود بل قد يكونون قالوه وهم قعود .

وعرفوا الله بطريق الإضافة إلى ضميرهم : إما لأنهم عُرفوا من قبل بأنهم عبدوا الله المنزه عن الجسم وخصائص المحدثات ، وإما لأن الله لم يكن معروفاً باسم عَلَم عند أولئك المشركين الذين يزعمون أن رب الأرباب هو (جوبتير) الممثل في كوكب المشتري ، فلم يكن طريق لتعريفهم الإله الحق إلا طريق الإضافة .

(48/469)

وقريب منه ما حكاه الله عن قول موسى لفرعون بقوله تعالى : ﴿ قال فرعون وما رب العالمين قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ [الشعراء : 23 24] .

هذا إن كان القول مَسوقاً إلى قومهم المشركين قصدوا به إعلان إيمانهم بين قومهم وإظهار َ

عدم الاكتراث بتهديد الملك وقومه ، فيكون موقفهم هذا كموقف بني إسرائيل حين قالوا لفرعون ﴿ لا ضيْر إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ [الشعراء : 50] ، أو قصدوا به موعظة قومهم بدون مواجهةِ خطابهم استنزالاً لطائرهم على طريقة التعريض من باب (إيّاكِ أعني فاسمعي يا جارة) ، واستقصاءً لتبليغ الحق إليهم .

وهذا هو الأظهر لحمل القيام على حقيقته ، ولأن القول نُسب إلى ضمير جمعهم دون بعضهم ، بخلاف الإسناد في قوله : ﴿ قال قائل منهم كم لبثتم ﴾ [الكهف : 19] تقتضي أن يكون المقول له ذلك فريقاً آخر ، ولظهور قصد الاحتجاج من مقالهم ، ويكون قوله : رب السماوات والأرض ﴾ خبر المبتدأ إعلاماً لقومهم بهذه الحقيقة وتكون جملة ﴿ لن ندعوا ﴾ استئنافاً .

وإن كان هذا القول قد جرى بينهم في خاصتهم تمهيداً لقوله : ﴿ وإذ اعتزلتموهم ﴾ [الكهف : 16] الخ .

فالتعريف بالإضافة لأنها أخطر طريق بينهم ، ولأنها تتضمن تشريفاً لأنفسهم ، ويكون قوله : رب السماوات والأرض ﴾ صفةً كاشفة ، وجملة ﴿ لن ندعوا من دونه إلهاً ﴾ خبرَ المبتدأ .

وذكرو الدعاء دون العبادة لأن الدعاء يشمل الأقوال كلها من إجراء وصف الإلهية على غير الله ومن نداء غير الله عند السؤال .

وجملة ﴿ لقد قلنا إذاً شططاً ﴾ استئناف بياني لما أفاده توكيد النفي بِ (لن) .

وإن وجود حرف الجواب في خِلال الجملة ينادي على كونها متفرعة على التي قبلها .

واللام للقسم .

والشطط : الإفراط في مخالفة الحق والصواب .

(49/469)

وهو مشتق من الشط ، وهو البعد عن الموطن لما في البعد عنه من كراهية النفوس ،

فاستعير للإفراط في شيء مكروه ، أي لقد قلنا قولاً شططاً ، وهو نسبة الإلهية إلى من

دون الله .

هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى

اللَّهِ كَذِبًا (15)

استئناف بياني لما اقتضته جملة ﴿ لقد قلنا إذا شططاً ﴾ [الكهف : 14] إذ يثور في

نفس السامع أن يتساءل عمن يقول هذا الشطط إن كان في السامعين من لا يعلم ذلك أو

بتنزيل غير السائل منزلة السائل .

وهذه الجملة من بقية كلام الفتية كما اقتضاه ضمير قوله : دونه ﴾ العائد إلى ﴿ ربنا ﴾ [

الكهف : 14] .

والإشارة إلى قومهم بـ ﴿ هؤلاء ﴾ لقصد تمييزهم بما سيخبر به عنهم .

وفي هذه الإشارة تعريض بالتعجب من حالهم وتفضيح صنعهم ، وهو من لوازم قصد التمييز .

وجملة ﴿ اتخذوا ﴾ خبر عن اسم الإشارة ، وهو خبر مستعمل في الإنكار عليهم دون الإخبار إذ اتخاذهم آلهة من دون الله معلوم بين المتخاطبين ، فليس الإخبار به بمفيد فائدة الخبر .

ومعنى ﴿ من دونه ﴾ من غيره ، و (من) ابتدائية ، أي آلهة ناشئة من غير الله ، وكان قومهم يومئذٍ يعبدون الأصنام على عقيدة الروم ولا يؤمنون بالله .

وجملة ﴿ لولا يأتون عليهم بسلطان بين ﴾ مؤكدة للجملة التي قبلها باعتبار أنها مستعملة في الإنكار ، لأن مضمون هذه الجملة يقوي الإنكار عليهم .

و (لولا) حرف تحْضيض .

حقيقتهُ : الحثّ على تحصيل مدخولها .

ولما كان الإتيان بسلطان على ثبوت الإلهية للأصنام التي اتخذوها آلهة متعذراً بقرينة أنهم أنكروه عليهم انصرف التحضيض إلى التبكيت والتغليط ، أي اتخذوا آلهة من دون الله لا برهان على إلهيتهم .

ومعنى ﴿ عليهم ﴾ على آلهتهم ، بقرينة قوله : ﴿ اتخذوا من دونه آلهة ﴾ .

والسلطان : الحجة والبرهان .

والبين : الواضح الدلالة .

(50/469)

ومعنى الكلام : إذ لم يأتوا بسلطان على ذلك فقد أقاموا اعتقادهم على الكذب والخطأ ، ولذلك فرع عليه جملة ﴿ فمن أظلم ممن أفترى على الله كذباً ﴾ .

و(مَن) استفهامية ، وهو إنكار ، أي لا أظلمُ ممن افترى .

والمعنى : أنه أظلم من غيره .

وليس المراد المساواة بينه وبين غيره ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ﴾ [البقرة : 114] .

والمعنى : أن هؤلاء افتروا على الله كذباً ، وذلك أنهم أشركوا معه غيره في الإلهية فقد كذبوا عليه في ذلك إذ أثبتوا له صفة مخالفة للواقع .

وافتراء الكذب تقدم في قوله تعالى : ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ في سورة المائدة (103) .

ثم إن كان الكلام من مبدئه خطاباً لقومهم أعلنوا به إيمانهم بينهم كما تقدم كانت الإشارة في قولهم: ﴿ هؤلاء قومنا ﴾ على ظاهرها، وكان ارتقاء في التعريض لهم بالموعظة؛ وإن كان الكلام من مبدئه دائراً بينهم في خاصتهم كانت الإشارة إلى حاضر في الذهن كقوله تعالى: ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء ﴾ [الأنعام: 89] أي مشركو مكة. انتهى انتهى. ا هـ

﴿التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(51/469)

وقال الشيخ الشنقيطى:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) ﴾

ذكر جل وعلا فيه هذه الآية الكريمة لنبيه صلى الله عليه وسلم -أنه يقص عليه نبأ أصحاب الكهف بالحق. ثم أخبره مؤكداً له أنهم فتية آمنوا بربهم، وأن الله جل وعلا زادهم هدى.

ويفهم من هذه الآية الكريمة - أن من آمن بربه وأطاعه زاده ربه هدى. لأن الطاعة سبب المزيد من الهدى والإيمان.

وهذا المفهوم من هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في مواضع أخر. كقوله تعالى: ﴿ والذين

اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تقوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17] ، وقوله : ﴿ والذين جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : 69] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إَن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ﴾ [الأنفال : 29] الآية ، وقوله : ﴿ فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة : 124] ، وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة فِي قُلُوبِ المؤمنين ليزدادوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح : 4] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ [الحديد : 28] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

وهذه الآيات المذكورة نصوص صريحة في أن الإيمان يزيد – مفهوم منها أنه ينقص ايضاً ، كما استدل بها البخاري رحمه الله على ذلك . وهي تدل عليه دلالة صريحة لا شك فيها ، فلا وجه معها للاختلاف في زيادة الإيمان ونقصه كما ترى . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ ﴾ .

(52/469)

أي ثبتنا قلوبهم وقويناها على الصبر ، حتى لا يجزعوا ولا يخافوا من أن يصدعوا بالحق ، ويصبروا على فراق الأهل والنعيم ، والفرار بالدين في غار في جبل لا أنيس به ، ولا ماء ولا

طعام.

ويفهم من هذه الآية الكريمة : أن من كان في طاعة ربه جل وعلا أنه تعلى يقوي قلبه ، ويثبته على تحمل الشدائد ، والصبر الجميل.

وقد أشار تعالى إلى وقائع من هذا المعنى في مواضع أخر ، كقوله في أهل بدر مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النعاس أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السمآء مَآءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشيطان وَلِيَرْبِطَ على قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأقدام إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الذين آمَنُواْ ﴾ [الأنفال : 11-12] ، الآية ، وكقوله في أم موسى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لولا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [القصص : 10] .

وأكثر المفسرين على أن قوله ﴿ إِذْ قَامُواْ ﴾ أي بين يدي ملك بلادهم ، وهو ملك جبار يدعو إلى عبادة الأوثان ، يزعمون أن اسمه : دقيانوس.

وقصتهم مذكورة في جميع كتب التفسير ، أعرضنا عنها لأنها إسرائيليات . وفي قيامهم المذكور هنا أقوال أخر كثيرة. والعامل في قوله "إذ هو" ربطنا " ، على قلوبهم حين قاموا .

قوله تعالى : ﴿ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السماوات والأرض لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إلها لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴾ .

ذكر جل وعلا هذه الآية الكريمة : أن هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم ربهم هدى قالوا إن ربهم هو رب السموات والأرض ، وأنهم لن يدعوا من دونه إلهاً ، وا ، هم لو فعلوا ذلك قالوا شططاً . اي قولاً ذا شطط . أو هو من النعت بالمصدر للمبالغة . كأن قولهم هو نفس الشطط . والشطط : البعد عن الحق والصواب . وإليه ترجع أقوال المفسرين ، كقول بعضهم " شططا " : جوازاً ، تعدياً ، كذباً ، خطأً ، إلى غير ذلك من الأقوال .

وأصل مادة الشطط : مجاوزة الحد ، ومنه أشط في السوم : إذا جاوز الحد . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ [ص : 22] الآية . أو البعد ، ومنه قول عمر بن ابي ربيعة .

تشط غداً دار جيراننا . . . وللدار بعد غد أبعد

ويكثر استعمال الشطط في الجور والتعدي ، ومنه قول الأعشى :

أتنتهون ولن ينهى ذوي شطط . . . كالطعن يذهب فيه الزين والفتل

وهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن من أشرك مع خالق السموات والأرض معبوداً آخر فقد جاء بأمر شطط بعيد عن الحق والصواب في غاية الجور والتعدي . لأن الذي يستحق العبادة هو الذي يبرر الخلائق من العدم إلى الوجود ، لأن الذي لا يقدر على خلق غيره مخلوق يحتاج غلى خالق يخلقه ويرزقه .

ويد بر شؤونه .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في آيات أخر كثيرة، كقوله: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 21-22]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 17]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الرعد: 16] اي الواحد القهار الذي هو خالق كل شيء هو المستحق للعبادة وحده جل وعلا.

وقوله جل وعلا: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: 191]، وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الفرقان: 3] الآية، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: ﴿ لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴾ أي إذا دعونا من دونه إلهاً – فقد قلنا شططا.

قوله تعالى: ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾.

"لولا" في هذه الآية الكريمة للتخصيص، وهو الطلب بحث وشدة. والمراد بهذا الطلب

التعجيز ، لأنه من المعلوم أنه لا يقدر أحد أن يأتي بسلطان بين على جواز عبادة غير الله تعالى . والمراد بالسلطان البين : الحجة الواضحة .

(55/469)

وما ذكره جل وعلى في هذه الآية الكريمة : من تعجيزهم عن الإتيان بحجة على شركهم وكفرهم وإبطال حجة المشركين على شركهم – جاء موضحاً في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : 148] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات ائتوني بكتاب مِّن قَبْلِ هاذآ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأحقاف : 4] ، وقوله تعالى منكراً عليهم : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ [الزخرف : 21] ، وقوله جل وعلا : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : 35] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ على بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظالمون بَعْضُهُم بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [فاطر : 40] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ

لاَ يُفْلِحُ الكافرون ﴾ [المؤمنون : 117] ، والآيات الدالة على أن المشركين لا مستند لهم في شركهم إلا تقليد آبائهم الضالين كثيرة جداً وقوله في هذه الآية الكريمة " هؤلاء " مبتدأ ، و " قوما " قيل عطف بيان ، والخبر جملة " اتخذوا " وقيل " قومنا " خبر المبتدأ ، وجملة " اتخذوا في محل حال . والأول أظهر ، والله تعالى أعلم .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ .

(56/469)

اي لا أحد ظلم ممن افترى على الله الكذب بادعاء ن له شريكاً كما افتراه عليه قوم أصحاب الكهف ، كما قال عنهم أصحاب الكهف ﴿ هؤلاء قَوْمُنَا اتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ [الكهف : 15] الآية .

وهذا المعنى الذي ذكره هنا من أن افتراء الكذب على الله بجعل الشركاء له هو أعظم الظلم جاء مبيناً في آيات كثيرة ، كقوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ على الله وَكَذَّبَ بالصدق إِذْ جَآءَهُ ﴾ [الزمر : 32] الآية . وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنَ افترى عَلَى الله كَذِباً أولئك يُعْرَضُونَ على رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأشهاد هؤلاء الذين كَذَبُواْ على رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين

﴿ [هود : 18] ، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(57/469)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾

﴿ نَحْنُ ﴾ أي : الحق سبحانه وتعالى ، فهو الذي يقصُّ ما حدث بالحق ، فلو أن القاصَّ غير الله لتُوقِّع منه الخطأ أو النسيان ، أو ترك شيء من الأحداث لِهَوىً في نفسه ، إنما إنْ جاءك القصص من الله فهو الحق ، كما قال في آية أخرى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص . . ﴾ [يوسف : 3]

إذن : هناك قصَص ليس بالحسن ، وهو القَصَص غير الدقيق .

فالقصَصُ القرآني يضمن لك منتهى الدقة في عرض الأحداث ، ويُصوّر لك كل اللقطات ، وكلمة قصة أو قَصَص تدلُّ على دقة التتبع ؛ لأنها من قصَّ الأثر أي : تتبَّعه وكان لهذه المهمة رجال معروفون بقصّاصي الأثر ، وهم الذين يتتبعون الواقع .

و﴿ نَبَأَهُم ﴾ النبأ : هو الخبر العظيم .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . . ﴾ [الكهف : 13]

هذا هو تفصيل القصة بعد أنْ لخَّصها القرآن في المذكرة والبرقية السابقة ، وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله : لقد ذكر ناسٌ هذه القصة من قبل ، لكنها قُصَّتْ بغير الحق ، وغُيِّر فيها ، لكن قَصّنا لها هو القَصَص الحق الذي لا كذبَ فيه .

فحقيقة هؤلاء أنهم فتية آمنوا بالله ، وهذه قضيتهم التي ضَحَّوْا من أجلها ، فلما آمنوا بالله تولاّهم ونوَّر بصائرهم وربط على قلوبهم ، وزادهم إيماناً ، كما قال في آية أخرى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وءاتاهم تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17]

وما أشبه هذه المسألة بالمعلِّم الذي يلمح أمارات النجابة والذكاء على أحد تلاميذه ، ويراه مُجيباً حريصاً على العلم فيُولِيه اهتمامه ويمنحه المزيد من المعلومات .

(58/469)

ونلاحظ هنا أن هؤلاء المؤمنين الذين ضَحَّوْا بكلِّ شيء وفرُّوا بدينهم ما زالوا في مرحلة الشباب ، وهو مظنّة الانشغال بالدنيا والحِرْص على مُتعها ، أما هؤلاء فقد انشغلوا بدينهم منذ صِغَرهم ليكونوا قدْوة ومثَلاً للشباب المؤمن في كل زمان ومكان ، فالفتاء في أهل الكهف : فتاء إيمان و فتاء عقيدة .

والحق سبحانه يقول: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا . . . ﴾ .

والربط يعني أن تربط على الشيء وتشدّ عليه لتحفظ ما فيه، كما تربط القِرْبة حتى لا يسيل الماء، وتربط الدابة حتى لا تنفلت، وقد وردتْ مادة (ربط) في القرآن كثيراً، منها قوله تعالى في قصة أم موسى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا . . ﴾ [القصص: 10]

أي: ربط على ما في قلبها من الإيمان بالله الذي أوحى إليها أن تُلْقِيَ بولدها في الماء، ولولا أنْ ربط الله على قلبها وثبّتها لانطلقتْ خلف ولدها تصرخ وتنتحب وتُلفِت إليه الأنظار: ﴿ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ . . ﴾ [القصص: 10]

أي: تكشف عن الخُطّة التي أمرها الله بها لنجاة موسى عليه السلام، وهكذا اطمأن قلب أم موسى، وأصبح فؤادها فارغاً أي: من الانفعالات الضارة، ومعلوم أن القلب هو محلُّ الانفعالات، بدليل ما يحدث فيه من اضطراب وزيادة ضربات وتدفُّق للدم عند الغضب مثلاً.

ولا يُسمَّى القلب فؤاداً إلا إذا توقّد بالمشاعر وتحرك بها، وربط الله على قلب أم موسى أحدث لها ضَبْطاً للشعور يحكم تصرفاتها فتأتي سليمة مُتمشّية مع الخطة المرادة.

ومن هنا نأمر الغاضب الذي تغلي الدماء في عروقه بالهدوء وضبط النفس ؛ لأن الهدوء سيعينه على الحق ، ويُلجم جماح غضبه الذي لا تُحمد عُقباه ، ألا ترى التوجيه النبوي في حال الغضب ؟ إنه ينصح بتغيير الوضع الذي أنت عليه ؛ لأن هذه العملية تحدث لديك نزوعية ، تصرف عنك الغضب .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ . . ﴾ [إبراهيم : 43]

أي : فارغة خالية ليس فيها شيء ؛ لأن الشيء إذا فرغته من محتواه امتلأ بالهواء . وهنا يقول الحق سبحانه في أهل الكهف : ﴿ وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ . . ﴾ [الكهف : 14]

لتظل بداخلها العقيدة والإيمان بالله لا تتزعزع ولا تُخرجها الأحداث والشدائد ، وهذا من زيادة الهدى الذي أَخبرتْ به الآية السابقة .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السماوات والأرض . . ﴾ [الكهف : 14]

قاموا : القيام هنا دليل على مواجهتهم للباطل ووقوفهم في وجهه ، وأن الباطل أفزعهم فهُبّوا للتصدِّي له بقولهم : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السماوات والأرض . . ﴾ [الكهف : 14] ولا بُدَّ أنهم سمعوا كلاماً يناقض قولهم ، وتعرّضوا في دعوتهم للحرب والاضطهاد ، فالآية تعطي صورة لفريقين : فريق الكفر الذي ينكر وجود الله أو يشرك به ، وفريق الإيمان الذي يُعلنها مُدوّية : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السماوات والأرض . . ﴾ [الكهف : 14]

وإنْ كان فريق الكفر يدعو إلى عبادة آلهة من دون الله فإن فريق الإيمان يقول : ﴿ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إلها ﴾ [الكهف : 14] فإن ادّعيْنَا إلهاً من دون الله ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴾ [الكهف : 14] أي : فقد تجاوزنا الحدّ ، وبَعُدْنا عن الصواب .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ هؤلاء قَوْمُنَا اتخذوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً . . . . ﴾ .

(60/469)

هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15)

وهنا يخبر أهل الكهف الفتية المؤمنون عن قومهم أنهم اتخذوا من دون الله آلهة متعددة ، دون أن يكون لهم دليل أو حُجّة واضحة على صِدْق ما ذهبوا إليه من عبادة هذه الآلهة .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ [الكهف : 15] فأفظع الظلم وأقبحه أنْ نفتريَ على الله الكذب ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(61/469)

"فصل"

قال السيوطي :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) ﴾

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : ما بعث الله نبياً إلا وهو شاب ، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب . وقرأ : ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ ﴿ وإذ قال موسى لفتاه ﴾ و ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله : ﴿ وزدناهم هدى ﴾ قال : إخلاصاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ قال : بالإيمان . وفي قوله : ﴿ لقد قلنا إذاً شططا ﴾ قال : كذباً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ لقد قلنا إذا شططا ﴾ قال : جوراً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال : الشطط ، الخطأ من القول .

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (16)

أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عطاء الخراساني في قوله : ﴿

وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ قال : كان قوم الفتية يعبدون الله ويعبدون معه آلهة شتى ، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ قال : هي في مصحف ابن مسعود : وما يعبدون من دون الله ، فهذا تفسيرها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ فأووا إلى الكهف ﴾ قال : كان كهفهم بين جبلين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ ويهيء لكم من أمركم مرفقاً ﴾ يقول : غذاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(62/469)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) ﴾

قوله تعالى : ﴿ آمَنُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ : فيه التفاتٌ من التكلم إلى الغيبة إذ لو جاء على نَسَقِ

الكلامِ لقيل : إنهم فتيةٌ آمنوا بنا . وقوله : " وزِدْناهُم " " وَرَبَطْنا " التفاتٌ من هذه الغَيْبَة إلى التكلم أيضاً .

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُواْ ﴾ : منصوبٌ ب " رَبَطْنا " والرَّبْط استعارةٌ لتقويةِ قلوبهم في ذلك المكانِ الدَّحْضِ .

قوله : " إذن " جوابٌ وجزاءٌ ، أي : لقد قُلنا قولاً شَطَطاً إنْ دَعَوْنا مِنْ دونِه إلهاً . وشَطَطاً في الأصل مصدرٌ ، يقال : شَطَّ شَطَطاً وشُطُوطاً ، أي : جارَ وتجاوز حَدَّه ، ومنه : شطَّ في السَّوْمِ ، وأَشَطَّ ، أي : جاوَزَ القَدْرَ . وشطَّ المنزل : بَعُدَ ، من ذلك . وشَطَّتِ الجارية شِطاطاً ، طالَتْ ، من ذلك . وفي انتصابه ثلاثةُ أوجهٍ ، مذهبُ سيبويهِ النصبُ على الحالِ من ضميرِ مصدر " قُلْنا " . الثاني : نعتٌ لمصدرٍ ، أي : قولاً ذا شَطَطٍ ، أو هو الشَّطَطُ نفسُه مبالغةً . الثالث : أنه مفعولٌ ب " قُلْنا " لتضمُّنِه معنى الجملة .

قوله تعالى : ﴿ هؤلاء قَوْمُنَا اتخذوا ﴾ : يجوز في " قومُنا " أن يكونَ بدلاً أو بياناً ، و " اتَّخذوا " هو خبرُ " هؤلاء " ، ويجوز أن يكونَ " قومُنا " هو الخبرَ ، و " اتَّخذوا : حالاً . و " اتَّخذ " يجوز أَنْ يتعدَّى لواحدٍ بمعنى عَمِلوا ؛ لأنهم نَحَتوها بأيديهم ، ويجوز أَنْ تكونَ متعدِّيةً لاثنين بمعنى صَيَّروا ، و " مِنْ دونِه " هو الثاني قُدِّم ، و " آلهةً " هو الأولُ . وعلى الوجهِ الأولِ يجوز في " مِنْ دونِه " أن يتعلَّقَ ب " اتَّخذوا " ، وأن يتعلَّقَ بمحذوفٍ حالاً مِنْ " آلهة " إذ لو تأخَّر لجاز أن يكونَ صفوًل " آلهةً " .

قوله : ﴿ لَّوْلاَ يَأْتُونَ ﴾ تخصيصٌ فيه معنى الإِنكار . و " عليهم " ، أي : على عبادتِهم أو على اتِّخاذهم ، فَحُذِفَ المضافُ للعِلْم به . ولا يجوز أن تكونَ هذه الجملةُ التخضيضية صفةً ل " آلهةً " لفسادِه معنى وصناعة ، لأنها جملةٌ طلبيةٌ . فإنْ قلت : أُضْمِرُ قولاً كقوله :

3130- جاؤُوا بِمَذْقٍ هل رَأَيْتَ الذئبَ قطْ . . . لم يساعِدْك المعنى لفسادِه عليه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 454.453 ﴾

(64/469)

فصل فى منزلة الفتوة

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الفتوة هذه المنزلة

حقيقتها هي منزلة الإحسان إلى الناس وكف الأذى عنهم واحتمال أذاهم فهي استعمال حسن الخلق معهم فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله والفرق بينها وبين المروءة: أن المروءة أعم منها فالفتوة نوع من أنواع المروءة فإن المروءة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد أو متعد إلى غيره وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص أيضا به أو متعلق بغيره و الفتوة إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق فهي ثلاثة منازل: منزلة التخلق وحسن الخلق ومنزلة الفتوة ومنزلة المروءة وقد تقدمت منزلة الخلق وهذه منزلة شريفة لم تعبر عنها الشريعة باسم الفتوة بل عبرت عنها باسم مكارم الأخلاق كما في حديث يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال وأصل الفتوة من الفتى وهو الشاب الحديث السن قال الله تعالى عن أهل الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً ﴾ [الكهف: 13] وقال عن قوم إبراهيم أنهم ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء: 60] وقال تعالى عن يوسف ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ [يوسف: 36] وقال لفتيانه: ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ [يوسف: 62]

فاسم الفتى لا يشعر بمدح ولا ذم كاسم الشاب والحدث ولذلك لم يجىء اسم الفتوة في القرآن ولا في السنة ولا في لسان السلف وإنما استعمله من بعدهم في مكارم الأخلاق وأصلها عندهم: أن يكون العبد أبدا: في أمر غيره وأقدم من علمته تكلم في الفتوة جعفر بن محمد ثم الفضيل بن عياض والإمام أحمد وسهل بن عبد الله والجنيد ثم الطائفة فيذكر أن جعفر بن محمد سئل عن الفتوة فقال للسائل: ما تقول أنت فقال: إن أعطيت شكرت وإن منعت صبرت فقال: الكلاب عندنا كذلك فقال السائل: يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم فما الفتوة عندكم فقال: إن أعطينا آثرنا وإن منعنا شكرنا وقال الفضيل بن عياض: الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان وقال الإمام أحمد رضي الله عنه في رواية ابنه عبد الله عنه وقد سئل عن الفتوة فقال: ترك ما تهوى لما تخشى ولا أعلم لأحد من الأئمة الأربعة فيها سواه

(66/469)

وسئل الجنيد عن الفتوة فقال: لا تنافر فقيرا ولا تعارض غنيا وقال الحارث المحاسبي: الفتوة أن تنصف ولا تنتصف وقال عمر بن عثمان المكي: الفتوة حسن الخلق وقال محمد بن علي

الترمذي: الفتوة أن تكون خصما لربك على نفسك وقيل: الفتوة أن لا ترى لنفسك فضلا

على غيرك وقال الدقاق: هذا الخلق لا يكون كماله إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن

كل أحد يقول يوم القيامة: نفسي نفسي وهو يقول: أمتي أمتي وقيل: الفتوة كسر الصنم الذي

بينك وبين الله تعالى وهو نفسك فإن الله حكى عن خليله إبراهيم عليه السلام: أنه جعل

الأصنام جذاذا فكسر الأصنام له فالفتى من كسر صنما واحدا في الله وقيل: الفتوة أن لا

تكون خصما لأحد يعني في حفظ نفسك وأما في حق الله فالفتوة: أن تكون خصما لكل

أحد ولو كان الحبيب المصافيا وقال الترمذي: الفتوة أن يستوي عندكم المقيم والطارىء

وقال بعضهم: الفتوة أن لا يميز بين أن يأكل عنده ولي أو كافر وقال الجنيد أيضا: الفتوة كف

الأذى وبذل الندى وقال سهل: هي اتباع السنة وقيل: هي الوفاء والحفاظ وقيل: فضيلة

تأتيها ولا ترى نفسك فيها وقيل: أن لا تحتجب ممن قصدك وقيل: أن لا تهرب إذا أقبل العافي

يعني طالب المعروف وقيل: إظهار النعمة وإسرار المحنة وقيل: أن لا تدخر ولا تعتذر

وقيل: تزوج رجل بامرأة فلما دخلت عليه رأى بها الجدري فقال: اشتكيت عيني ثم قال:

عميت فبعد عشرين سنة ماتت ولم تعلم أنه بصير فقيل له في ذلك فقال: كرهت أن يحزنها

رؤيتي لما بها فقيل له: سبقت الفتيان وقيل: ليس من الفتوة أن تربح على صديقك

واستضاف رجل جماعة من الفتيان فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصب الماء على أيديهم فانقبض واحد منهم وقال: ليس من الفتوة أن تصب النسوان الماء على أيدي الرجال فقال آخر منهم: أنا منذ سنين أدخل إلى هذه الدار ولم أعلم أن امرأة تصب الماء على أيدينا أو رجلا وقدم جماعة فتيان لزيارة فتى فقال الرجل: يا غلام قدم السفرة فلم يقدم فقالها ثانيا وثالثا فلم يقدم فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: ليس من الفتوة أن يستخدم الرجل من يتعاصى عليه في تقديم السفرة كل هذا فقال الرجل: لم أبطأت بالسفرة فقال الغلام: كان عليها نمل فلم يكن من الأدب تقديم السفرة إلى الفتيان مع النمل ولم يكن من الفتوة إلقاء النمل وطردهم عن الزاد فلبثت حتى دب النمل فقالوا: يا غلام مثلك يخدم الفتيان ومن الفتوة التي لا تلحق: ما يذكر أن رجلا نام من الحاج في المدينة ففقد هميانا فيه ألف دينار فقام فزعا فوجد جعفر بن محمد فعلق به وقال: أخذت همياني فقال: أي شيء كان فيه قال: ألف دينار فأدخله داره ووزن له ألف دينار ثم إن الرجل وجد هميانه فجاء إلى جعفر معتذرا بالمال فأبى أن يقبله منه وقال: شيء أخرجته من يدي لا أسترده أبدا فقال الرجل للناس: من هذا فقالوا: هذا جعفر بن محمد رضي الله عنه

فصل قال صاحب المنازل نكتة الفتوة: أن لا تشهد لك فضلا ولا ترى لك حقا يقول: قلب الفتوة وإنسان عينها: أن تفنى بشهادة نقصك وعيبك عن فضلك

وتغيب بشهادة حقوق الخلق عليك عن شهادة حقوقك عليهم والناس في هذا مراتب فأشرفها: أهل هذه المرتبة وأخسها: عكسهم

وهم أهل الفناء في شهود فضائلهم عن عيوبهم وشهود حقوقهم على الناس عن شهود حقوق الناس عليهم

وأوسطهم: من شهد هذا وهذا فيشهد ما في العيب والكمال ويشهد حقوق الناس عليه وحقوقه عليهم قال: وهي على ثلاث درجات الدرجة الأولى: ترك الخصومة والتغافل عن الزلة ونسيان الأذية هذه الدرجة من باب الترك والتخلي وهي أن لا يخاصم أحدا فلا ينصب نفسه خصما لأحد غيرها فهي خصمه وهذه المنزلة أيضا ثلاث درجات لا يخاصم بلسانه ولا ينوي الخصومة بقلبه ولا يخطرها على باله هذا في حق نفسه وأما في حق ربه: فالفتوة أن يخاصم بالله وفي الله ويحاكم إلى الله كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء الاستفتاح: وبك خاصمت وإليك حاكمت وهذه درجة فتوة العلماء الدعاة إلى الله تعالى وأما التغافل عن الزلة فهو أنه إذا رأى من أحد زلة يوجب عليه الشرع أخذه بها: أظهر أنه لم يرها لئلا يعرض صاحبها للوحشة ويريحه من تحمل العذر وفتوة التغافل: أرفع من

فتوة الكتمان مع الرؤية

قال أبو علي الدقاق: جاءت امرأة فسألت حاتما عن مسألة فاتفق أنه خرج منها صوت في تلك الحالة فخجلت فقال حاتم: ارفعي صوتك فأوهمها أنه أصم فسرت المرأة بذلك وقالت: إنه لم يسمع الصوت فلقب بحاتم الأصم وهذا التغافل هو نصف الفتوة وأما نسيان الأذية فهو بأن تنسى أذية من نالك بأذى ليصفو قلبك له ولا تستوحش منه قلت: وهنا نسيان آخر أيضا وهو من الفتوة وهو نسيان إحسانك إلى

من أحسنت إليه حتى كأنه لم يصدر منك وهذا النسيان أكمل من الأول وفيه قيل:

ينسى صنائعه والله يظهرها . . . إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

فصل قال: الدرجة الثانية: أن تقرب من يقصيك وتكرم من يؤذيك وتعتذر

إلى من يجني عليك سماحة لا كظما ومودة لا مصابرة هذه الدرجة أعلى مما قبلها وأصعب فإن الأولى: تتضمن ترك المقابلة والتغافل وهذه تتضمن الإحسان إلى من أساء إليك ومعاملته بضد ما عاملك به فيكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خطتين فخطتك: الإحسان وخطته: الإساءة وفي مثلها قال القائل:

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم . . . وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

ومن أراد فهم هذه الدرجة كما ينبغي فلينظر إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مع الناس يجدها هذه بعينها ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحد سواه ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة وما رأيت أحدا قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه وما رأيته يدعو على أحد منهم قط وكان يدعو لهم وجئت يوما مبشرا له بموت أكبر أعدائه وأشدهم عداوة وأذى له فنهرني وتنكر لي واسترجع ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم وقال: إني لكم مكانه ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه ونحو هذا من الكلام فسروا به ودعوا له وعظموا هذه الحال منه فرحمه الله ورضى عنه وهذا مفهوم وأما الاعتذار إلى من يجني عليك فإنه غير مفهوم في بادي الرأي إذ لم

(70/469)

يصدر منك جناية توجب اعتذارا وغايتك: أنك لا تؤاخذه فهل تعتذر إليه من ترك المؤاخذة ومعنى هذا: أنك تنزل نفسك منزلة الجاني لا المجني عليه والجاني خليق بالعذر والذي يشهدك هذا المشهد: أنك تعلم أنه إنما سلط عليك بذنب كما قال تعالى: ﴿ وَمَا

أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30] فإذا علمت أنك بدأت بالجناية فانتقم الله منك على يده: كنت في الحقيقة أولى بالاعتذار والذي يهون عليك هذا كله: مشاهدة تلك المشاهد العشرة المتقدمة فعليك بها فإن فيها كنوز المعرفة والبر وقوله: سماحة لا كظما ومودة لا مصابرة يعني: اجعل هذه المعاملة منك صادرة عن سماحة وطيبة نفس وانشراح صدر لا عن كظم وضيق ومصابرة فإن ذلك دليل على أن هذا ليس في خلقك وإنما هو تكلف يوشك أن يزول ويظهر حكم الخلق صريحا فتفتضح وليس المقصود إلا إصلاح الباطن والسر والقلب وهذا الذي قاله الشيخ لا يمكن إلا بعد العبور على جسر المصابرة والكظم فإذا تمكن منه أفضى به إلى هذه المنزلة بعون الله والله أعلم

فصل قال: الدرجة الثالثة: أن لا تتعلق في السير بدليل ولا تشوب

إجابتك بعوض ولا تقف في شهودك على رسم هذه ثلاثة أمور اشتملت عليها هذه الدرجة أما عدم تعلقه في السير بدليل: فقد بين مراده به في آخر الباب إذ يقول:

وفي علم الخصوص: من طلب نور الحقيقة على قدم الاستدلال لم يحل له دعوى الفتوة أبدا وهذا موضع عظيم يحتاج إلى تبيين وتقدير والمراد: أن السائر إلى الله يسير على قدم اليقين وطريق البصيرة والمشاهدة فوقوفه مع الدليل: دليل على أنه لم يشم رائحة اليقين والمراد بهذا: أن المعرفة عندهم ضرورية لا استدلالية وهذا هو الصواب ولهذا لم تدع الرسل قط الأمم إلى الإقرار بالصانع سبحانه وتعالى وإنما دعوهم إلى عبادته وتوحيده وخاطبوهم خطاب من لا شبهة عنده قط في الإقرار بالله تعالى ولا هو محتاج إلى الاستدلال عليه ولهذا: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: 10] وكيف يصح الاستدلال على مدلول هو أظهر من دليله حتى قال بعضهم: كيف أطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء فتقيد السائر بالدليل وتوقفه عليه دليل على عدم يقينه بل إنما يتقيد بالدليل الموصل له إلى المطلوب بعد معرفته به فإنه يحتاج بعد معرفته إلى دليل يوصله إليه ويدله على طريق الوصول إليه وهذا الدليل: هو الرسول فهو موقوف عليه يتقيد به لا يخطو خطوة إلا وراءه وأيضا فالقوم يشيرون إلى الكشف ومشاهدة الحقيقة وهذا لا يمكن طلبه بالدليل أصلا ولا يقال: ما الدليل على حصول هذا وإنما يحصل بالسلوك في منازل السير وقطعها منزلة منزلة حتى يصل إلى المطلوب فوصوله إليه بالسير لا بالاستدلال بخلاف وصول المستدل فإنه إنما يصل إلى العلم ومطلوب القوم وراءه والعلم منزلة من منازلهم كما سيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى ولهذا يسمون أصحاب الاستدلال:

أصحاب القال وأصحاب الكشف: أصحاب الحال والقوم عاملون على الكشف الذي يحصل بنور العيان لا على العلم الذي ينال بالاستدلال والبرهان

(72/469)

وهذا موضع غلط واشتباه فإن الدليل في هذا المقام شرط وكذلك العلم وهو باب لا بد من دخوله إلى المطلوب ولا يوصل إلى المطلوب إلا من بابه كما قال تعالى: ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ [البقرة: 189] ثم إنه يخاف على من لا يقف مع الدليل ما هو أعظم الأمور وأشدها خطرا وهو الانقطاع عن الطلب بالكلية والوصول إلى مجرد الخيال والمحال فمن خرج عن الدليل: ضل سواء السبيل فإن قيل: تعلقه في المسير بالدليل: يفرق عليه عزمه وقلبه فإن الدليل يفرق والمدلول يجمع فالسالك يقصد الجمعية على المدلول فماله ولتفرقة الدليل قيل: هذه هي البلية التي لأجلها أعرض من أعرض من السالكين عن العلم ونهى عنه وجعلت علة في الطريق ووقع هذا في زمن الشيوخ القدماء العارفين فأنكروه غاية الإنكار وتبرأوا منه ومن قائله وأوصوا بالعلم وأخبروا أن طريقهم مقيدة بالعلم لا يفلح فيها من لم يتقيد بالعلم والجنيد كان من أشد الناس مبالغة في الوصية بالعلم وحثا لأصحابه عليه والتفرق في الدليل خير من الجمعية على الوهم والخيال فإنه لا يعرف كون الجمعية حقا إلا

بالدليل والعلم فالدليل والعلم ضروريان للصادق لا يستغنى عنهما نعم يقينه ونور بصيرته وكشفه: يغنيه عن كثير من الأدلة التي يتكلفها المتكلفون وأرباب القال فإنه مشغول عنها بما هو أهم منها وهو الغاية المطلوبة مثاله: أن المتكلم يفني زمانه في تقرير حدوث العالم وإثبات وجود الصانع وذلك أمر مفروغ منه عند السالك الصادق صاحب اليقين فالذي يطلبه هذا الاستدلال الذي هو عرضة الشبه والأسئلة والإيرادات التي لا نهاية لها هو كشف ويقين للسالك فتقيده في سلوكه بحال هذا المتكلم انقطاع وخروج عن الفتوة وهذا حق لا ينازع فيه عارف فترى المتكلم يبحث في الزمان والمكان

(73/469)

والجواهر والأعراض والأكوان وهمته مقصورة عليها لا يعدوها ليصل منها إلى المكون وعبوديته والسالك قد جاوزها إلى جمع القلب على المكون وعبوديته بمقتضى أسمائه وصفاته لا يلتفت إلى غيره ولا يشتغل قلبه بسواه

فالمتكلم متفرق مشتغل في معرفة حقيقة الزمان والمكان والعارف قد شح بالزمان أن يذهب ضائعا في غير السير إلى رب الزمان والمكان وبالجملة: فصاحب هذه الدرجة لا يتعلق في سيره بدليل ولا يمكنه السير إلا خلف الدليل وكلاهما يجتمع في حقه فهو لا يفتقر إلى

دليل على وجود المطلوب ولا يستغني طرفة عين عن دليل يوصله إلى المطلوب فسير الصادق على البصيرة واليقين والكشف لا على النظر والاستدلال وأما قوله: ولا تشوب إجابتك بعوض أي تكون إجابتك لداعي الحق خالصة إجابة محبة ورغبة وطلب للمحبوب ذاته غير مشوبة بطلب غيره من الحظوظ والأعواض فإنه متى حصل لك حصل لك كل عوض وكل حظ به وكل قسم كما في الأثر الإلهي: ابن آدم اطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء فمن أعرض عن طلب ما سوى الله ولم يشب طلبه له بعوض بل كان حبا له وإرادة خالصة لوجهه فهو في الحقيقة الذي يفوز بالأعواض والأقسام والحظوظ كلها فإنه لما لم يجعلها غاية طلبه توفرت عليه في حصولها وهو محمود مشكور مقرب ولو كانت هي مطلوبة لنقصت عليه بحسب اشتغاله بطلبها وإرادتها عن طلب الرب تعالى لذاته وإرادته فهذا قلبه ممتليء بها والحاصل له منها: نزر يسير والعارف ليس قلبه متعلقا بها وقد حصلت له كلها فالزهد فيها لا يفيتكها بل هو عين حصولها والزهد في الله هو الذي يفيتكه ويفيتك الحظوظ وإذا كان لك أربعة عبيد أحدهم:

يريدك ولا يريد منك بل إرادته مقصورة عليك وعلى مرضاتك والثاني: يريد منك ولا يريدك بل إرادته مقصورة على حظوظه منك والثالث: يريدك ويريد منك والرابع: لا يريدك ولا يريد منك بل هو متعلق القلب ببعض عبيدك فله يريد ومنه يريد فإن آثر العبيد عندك وأحبهم إليك وأقربهم منك منزلة والمخصوص من إكرامك وعطائك بما لا يناله العبيد الثلاثة: هو الأول هكذا نحن عند الله سواء وأما قوله: ولا تقف في شهودك على رسم فيعني: أن لا يكون منك نظر إلى السوي عند الشهود كما تقدم مرارا وهذا عند القوم غير مكتسب فإن الشهود إذا صح محا الرسوم ضرورة في نظر الشاهد فلا حاجة إلى أن يشرط عليه عدم الوقوف عليها والشهود الصحيح ماح لها بالذات لكن أوله قد لا يستغني عن الكسب ونهايته لا تقف على كسب قال: واعلم أن من أحوج عدوه إلى شفاعة ولم يخجل من المعذرة إليه: لم يشم رائحة الفتوة يعني أن العدو متى علم أنك متألم من جهة ما نالك من الأذى منه احتاج إلى أن يعتذر إليك ويشفع إليك شافعا يزيل ما في قلبك منه فالفتوة كل الفتوة: أن لا تحوجه إلى الشفاعة بأن لا يظهر له منك عتب ولا تغير عما كان له منك قبل معاداته ولا تطوي عنه بشرك ولا برك وإذا لم تخجل أنت من قيامه بين يديك مقام المعتذر لم يكن لك في الفتوة نصيب ولا تستعظم هذا الخلق فإن للفتيان ما هو أكبر منه ولا تستصعبه فإنه موجود في كثير من الشطار والعشراء الذين ليس لهم في حال المعرفة ولا في لسانها نصيب فأنت أيها العارف أولى به

قال: وفي علم الخصوص: من طلب نور الحقيقة على قدم الاستدلال: لم يحل له دعوى الفتوة أبدا كأنه يقول: إذا لم تحوج عدوك إلى العذر والشفاعة ولم تكلفه طلب الاستدلال على صحة عذره فكيف تحوج وليك وحبيبك إلى أن يقيم لك الدليل على التوحيد والمعرفة ولا تشير إليه حتى يقيم لك دليلا على وجوده ووحدانيته وقدرته ومشيئته فأين هذا من درجة الفتوة وهل هذا إلا خلاف الفتوة من كل وجه ولو أن رجلا دعاك إلى داره فقلت للرسول: لا آتي معك حتى تقيم لي الدليل على وجود من أرسلك وأنه مطاع وأنه أهل أن يغشى بابه لسكنت في دعوى الفتوة زنيما فكيف بمن وجوده ووحدانيته وقدرته وربوبيته وإلهيته: أظهر من كل دليل تطلبه فما من دليل يستدل به إلا ووحدانية الله وكماله أظهر منه فإقرار الفطر بالرب سبحانه خالق العالم: لم يوقفها عليه موقف ولم تحتج فيه إلى نظر واستدلال: ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: 10] فأبعد الناس من درجة الفتوة: طالب الدليل على ذلك

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 340 . 351 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ .

لمَّا كانوا مأخوذين عنهم تولّى الحق - سبحانه - أَنْ قصَّ عنهم ، وفَرْقٌ بين من كان عن نفسه وأوصافه قاصاً ؛ لبقائه في شاهده وكونه غيرَ منتفٍ بجملته . . وبين من كان موصوفاً بواسطة غيره ؛ لفنائه عنه وامتحائه منه وقيام غيره عنه .

ويقال لا تُسمعُ قصةُ الأحباب أعلى وأَجلّ مما تُسمعُ من الأحباب ، قال عزَّ من قائل : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيكَ ﴾ ، وأنشدوا :

وحَدَّثتَنِي يا سَعْدُ عنها فَزِدْتني . . . حنيناً فَزِدْني من حديثكَ يا سعدُ

قوله : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ : يقال إنهم فتية لأنهم آمنوا - على الوهلة - بربِّهم ، آمنوا من غير مهلة ، لمَّا أتتهم دواعي الوصلة .

ويقال فتية لأنهم قاموا لله ، وما استقروا حتى وصلوا إلى الله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ .

لاَطفهم بإحضارهم ، ثم كاشفهم في أسرارهم ، بما زاد من أنوارهم ، فلقَّاهم أولاً التبيين ، ثم رقّاهم عن ذلك باليقين .

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ : بزيادة اليقين حتى متع نهار معارفهم ، واستضاءت شموسُ تقديرهم ، ولم يَبْقَ للتردد مجالٌ في خواطرهم ، و (. . .) في التجريد أسرارهم ، وتَمَّتْ سكينةُ قلوبهم .

ويقال : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ : بأن أفنيناهم عن الأغيار ، وأغنيناهم عن التفكُّر بما أوليناهم من أنوار التبصُّر .

ويقال ربطنا على قلوبهم بما أسكنَّا فيها من شواهِدِ الغيب ، فلم تسنح فيها هواجسُ التخمين ولا وساوس الشياطين .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

قاموا لله بالله ، ومَنْ قام بالله فَقِدَ عمَّا سوى الله .

ويقال من قام لله لم يقعد حتى يصلَ إلى الله .

ويقال قعدت عنهم الشهوات فَصَحَّ قيامُهم بالله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَن نَّدْعُوا مِن دُونِهِ إِلَهاً لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴾ .

مَنْ أحال الشيءَ على الحوادث فقد أشرك بالله ، ومَنْ قال إنَّ الحوادث من غير الله فقد اتخذ إلهاً مِنْ دون الله .

﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15) ﴾

لَمَّا لم يكن لهم حجة اتضح فيما ادعوه كذبُهم ، فمن اكتفى بِنَفْي القالة دون ما يشهد لقوله من أدلته فهو معلول في نحلته .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ ؟ فمن ذَكَرَ في الدّين قولاً لم يؤيّد ببرهان عقلي أو نقْلي فهو مفترٍ ، ومَنْ أظهر مِنْ نَفْسه حالاً لم يوجبه صدق مجاهدته أو منازلته فهو على الله مُفْتَرٍ . والذي يصدق في قوله – في هذه الطريقة – فهو الذي يسمع من الحق بسرِّه ، ثم ينطق بلفظه . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 380 . 382 ﴾

(78/469)

قوله تعالى ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (16) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (17) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما استدلوا على معتقدهم ، وعلموا سفه من خالفهم ، وهم قوم لا يدان لهم بمقاومتهم ، لكثرتهم وقلتهم ، تسبب عن ذلك هجرتهم ليسلم لهم دينهم ، فقال تعالى شارحاً لما بقي من أمرهم ، عاطفاً على ما تقديره : وقالوا أو من شاء الله منهم حين خلصوا من قومهم نجياً : لا ترجعوا إلى قومكم أبداً ما داموا على ما هم عليه ، هذا إن كان المراد قيامهم بين يدي دقيانوس ، وإن كان المراد من القيام الانبعاث بالعزم الصادق لم يحتج إلى هذا التقدير :

﴿ وإذ ﴾ أي حين ﴿ اعتزلتموهم ﴾ أي قومكم ﴿ وما ﴾ أي واعتزلتم ما ﴿ يعبدون إلا الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ، وهذا دليل على أنهم كانوا يشركون ، ويجوز أن يكونوا سموا الانقياد كرهاً لمشيئته والخضوع بزعمهم لاقضيته عبادة ﴿ فأوا ﴾ أي بسبب هذا الاعتزال ، وهذا دليل العامل في ﴿ إذ ﴾ ﴿ إلى الكهف ﴾ أي الغار الذي في الجبل ﴿ ينشر ﴾ أي يحيي ويبعث ﴿ لكم ربكم ﴾ الذي لم يزل يحسن إليكم ﴿ من رحمته ﴾

ما يكفيكم به من المهم من أمركم ﴿ ويهيىء لكم من أمركم ﴾ الذي من شأنه أن يهمكم ﴿ مرفقاً ﴾ ترتفقون به ، وهو بكسر الميم وفتح الفاء في قراءة الجماعة ، وبفتحها وكسر الفاء للنافع وابن عامر ، وهذا الجزم من آثار الربط على قلوبهم بما علموا من قدرته على كل شيء ، وحمايته من لاذ به ولجأ إليه وعبده وتوكل عليه ، ففعلوا ذلك ففعل الله ما رجوه فيه ، فجعل لهم أحسن مرفق بأن أنامهم ثم أقامهم بعد مضي قرون ومرور دهور ، وهدى بهم ذلك الجيل الذي أقامهم فيه ﴿ وترى ﴾ لو رأيت كهفهم ﴿ الشمس إذا طلعت ﴾ .

(79/469)

ولما كان حالهم خفياً ، وكذا حال انتقال الشمس عند من لم يراقبه ، أدغم تاء التفاعل نافع وابن كثير وأبو عمرو ، وأسقطها عاصم وحمزة والكسائي ، فقال تعالى : ﴿ تزاور ﴾ أي تمايل وتنحرف ، ولعل قراءة ابن عامر ويعقوب تزور بوزن تحمر ناظرة إلى الحال عند نهاية الميل ﴿ عن كهفهم ﴾ بتقلص شعاعها بارتفاعها إلى أن تزول ﴿ ذات اليمين ﴾ إذا كنت مستقبلاً القبلة وأنت متوجه إليه أو مستقبلاً الشمس فيصيبهم من حرها ما يمنع عنهم التعفن ويمنع سقف الكهف شدة الحرارة المفسدة في بقية النهار ﴿ وإذا غربت ﴾ أي أخذت في الميل إلى الغروب ﴿ تقرضهم ﴾ أي تعدل في مسيرها عنهم ﴿ ذات الشمال ﴾

كذلك ، لئلا يضرهم شدة الحرارة ، ويصيبهم من منافعها مثل ما كان عند الطلوع ، فلا يزال كهفهم رطباً ، ويأتيه من الهواء الطيب والنسيم الملائم ما يصونهم عن التعفن والفساد ، فتحرر بذلك أن باب الغار مقابل لبنات نعش ، وأن الجبل الذي هم فيه شمالي مكة المشرفة ، ويجوز أن يكون المراد يمين من يخرج من الكهف وشماله ، فلا يلزم ذلك ، وقال الأصبهاني : قيل : إن باب ذلك كان مفتوحاً إلى جانب الشمال إذا طلعت الشمس عن يمين الكهف ، وإذا غربت كانت على شماله .

(80/469)

ومادة (قرض) وليس لها إلا هذا التركيب - تدور على القطع ، ويلزمه الميل عن الشيء والعدول والازورار عنه ، قرضت الشيء ، - بالفتح - أقرضه - بالكسر : قطعته بالمقراض أو بغيره - لأنك إذا وصلت إليه فقد حاذيته فإذا قطعته تجاوزته فانحرفت عنه ، والقرض : قول الشعر خاصة - لأنه لا شيء من الكلام يشبهه فهو مقطوع منه مائل عنه بما خص به من الميزان ، وهل مررت بمكان كذا ؟ فتقول : قرضته ذات اليمين ليلاً ، أي كان عن يميني ، والقرض : ما تعطيه من المال لتقضاه - لأنك قطعته من مالك ، والقرض - بالكسر : لغة فيه عن الكسائي ، والقرض : ما سلفت من إحسان أو إساءة - على

التشبيه ، والتقريض : المدح والذم - لأنه يميز الكلام فيه تمييزاً ظاهراً ، وهما يتقارضان كذا - كأن كلاًّ منهما مقرض لصاحبه وموف له على ما أقرضه ، والمقارضة : المضاربة - لأن صاحب المال قطع من ماله ، والعامل قطع من عمله حصة لهذا المال ، قرض فلان الرباط - إذا مات ، لأنه إذا انقطعت حياته انقطع كل رباط له في الدنيا ، وجاء فلان وقد قرض رباطه - إذا جاء مجهوداً قد أشرف على الموت - كأنه أطلق عليه ذلك للمقاربة ، والمقارضة : المشاتمة - لقطعها العرض وما بين المتشاتمين ، والاقتراض : الاغتياب - من ذلك ومن القرض أيضاً ، لأن من اغتاب اغتيب ، وقرض - بالكسر - إذا زال من شيء إلى شيء - لأنه بوصل الثاني قطع الأول ، وقرض - إذا مات ، والمقارض : الزرع القليل - إما للإزالة على الضد من الكثير ، أو تشبيه بمواضع الاستقاء في البئر القليلة الماء ، فإن المقارض أيضاً المواضع التي يحتاج المستقي إلى أن يقرض منها الماء ، أي يميح ، أي يدخل الدلو في البئر فيملأها لقلة الماء - لأنها مواضع قطع الماء برفعه عن البئر والمقارض أيضاً : الجرار الكبار - كأنها لكبرها وقطعها كثيراً من الماء هي التي قطعت دون الصغار ، وما عليه قراض ، أي ما يقرض عنه العيون فيستره لتعدل عنه العيون - لعدم نفوذها

إلى جلده ، والقرض في السير هو أن تعدل عن الشيء في مسيرك ، فإذا عدلت عنه فقد قرضته ، والمصدر القرض وأصله من القطع ، وابن مقرض - كمنبر : ويبة تقتل الحمام - كأنها سميت لقطعها حياة الحمام ، وقرض البعير جرته : مضغها فهي قريض - لتقطيعها بالمضغ ولقطعها من بطنه بردها إلى حنكه للمضغ .

ولما بين تعالى أنه حفظهم من حر الشمس ، بين أنه أنعشهم بروح الهواء ، وألطفهم بسعة الموضع في فضاء الغار فقال : ﴿ وهم في فجوة منه ﴾ أي في وسط الكهف ومتسعه .

ولما شرح هذا الأمر الغريب ، والنبأ العجيب ، وصل به نتيجته فقال تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي المذكور العظيم من هدايتهم ، وما دبروا لأنفسهم ، وما دبر لهم من هذا الغار المستقبل للنسيم الطيب المصون عن كل مؤذ ، وما حقق به رجاءهم مما لا يقدر عليه سواه ﴿ من ءايات الله ﴾ أي الملك الأعلى المحيط بكل شيء علماً وقدرة ، وإن كان إذا قيس إلى هذا القرآن القيم وغيره مما خصت به هذه الأمة كان يسيراً .

ولما كان انفرادهم بالهدى عن أهل ذلك القرن كلهم عجباً ، وصل به ما إذا تؤمل زال عجبه فقال تعالى : ﴿ من يهد ﴾ ولو أيسر هداية - بما دل عليه حذف الياء في الرسم ﴿ الله ﴾ أي الذي له الأمر كله بخلق الهداية في قلبه للنظر في آياته التي لا تعد والانتفاع بها ﴿ فهو ﴾ خاصة ﴿ المهتد ﴾ في أي زمان كان ، فلن تجد له مضلاً مغوياً ﴿ ومن يضلل ﴾ إضلالاً ظاهرياً بما دل عليه الإظهار بإعمائه عن طريق الهدى ، فهو لا غيره

الضال ﴿ فلن تجد له ﴾ أصلاً من دونه ، لأجل أن الله الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد معه أضله ﴿ ولياً مرشداً ﴾ فتجده يرى الآيات بعينه ، ويسمعها بأذنه ، ويحسها بجميع حواسه ، ولا يعلم أنها آيات فضلاً عن أن يتدبرها وينتفع بها ، فالآية من الاحتباك : ذكر الاهتداء أولاً دليلاً على حذف الضلال ثانياً ، والمرشد ثانياً دليلاً على حذف المضل أولاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 451.453 ﴾

(82/469)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (16) ﴾

اعلم أن المراد أنه قال بعضهم لبعض : ﴿ وَإِذَا اعتزلتموهم ﴾ واعتزلتم الشيء الذي يعبدونه إلا الله فإنكم لم تعتزلوا عبادة الله : ﴿ فَأْوُواْ إِلَى الكهف ﴾ قال الفراء هو جواب إذ كما تقول إذ فعلت كذا فافعل كذا ، ومعناه : إذهبوا إليه واجعلوه مأواكم : ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مّن رَّحْمَتِهِ ﴾ أي يبسطها عليكم : ﴿ وَيُهَيّىء لَكُمْ مّنْ أَمْرِكُمْ مّرْفَقًا ﴾ قرأ نافع وابن

عامر وعاصم في رواية مرفقاً بفتح الميم وكسر الفاء والباقون مرفقاً بكسر الميم وفتح الفاء ، قال الفراء : وهما لغتان واشتقاقهما من الارتفاق ، وكان الكسائي ينكر في مرفق الإنسان الذي في اليد إلا كسر الميم وفتح الفاء ، والفراء يجيزه في الأمر وفي اليد وقيل هما لغتان إلا أن الفتح أقيس والكسر أكثر وقيل المرفق ما ارتفقت به ، والمرفق بالفتح المرافق ثم قال تعالى :

﴿ وَتَرَى الشمس إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليمين وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشمال ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : قرأ ابن عامر تَزْوَرُّ ساكنة الزاي المعجمة مشددة الراء مثل تحمر ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي تزاور بالألف والتخفيف والباقون تزاور بالتشديد والألف والكل بمعنى واحد ، والتزاور هو الميل والانحراف ، ومنه زاره إذا مال إليه والزور الميل عن الصدق ، وأما التشديد فأصله تتزاور سكنت التاء الثانية وأدغمت في الزاي ، وأما التخفيف فهو تفاعل من الزور وأما تزور فهو من الازورار .

البحث الثاني : قوله : ﴿ وَتَرَى الشمس ﴾ أي أنت أيها المخاطب ترى الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم وليس المراد أن من خوطب بهذا يرى هذا المعنى ولكن العادة في

المخاطبة تكون على هذا النحو ، ومعناه أنك لو رأيته على هذه الصورة .

البحث الثالث : قوله : ﴿ ذَاتَ اليمين ﴾ أي جهة اليمين وأصله أن ذات صفة أقيمت مقام الموصوف لأنها تأنيث ذو في قولهم رجل ذو مال ، وامرأة ذات مال ، والتقدير كأنه قيل تزاور عن كهفهم جهة ذات اليمين ، وأما قوله : ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشمال ﴾ ففيه بحثان :

البحث الأول : قال الكسائي قرضت المكان أي عدلت عنه وقال أبو عبيدة القرض في أشياء فمنها القطع ، وكذلك السير في البلاد أي إذا قطعها .

تقول لصاحبك هل وردت مكان كذا فيقول المجيب إنما قرضته فقوله : ﴿ تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشمال ﴾ أي تعدل عن سمت رؤوسهم إلى جهة الشمال .

البحث الثاني : للمفسرين ههنا قولان : القول الأول : أن باب ذلك الكهف كان مفتوحاً إلى جانب الشمال فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف وإذا غربت كانت على شماله فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف ، وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل ، والمقصود أن الله تعالى صان أصحاب الكهف من أن يقع عليهم ضوء الشمس وإلا لفسدت أجسامهم فهي مصونة عن العفونة والفساد .

والقول الثاني : أنه ليس المراد ذلك ، وإنما المراد أن الشمس إذا طلعت منع الله ضوء الشمس من الوقوع .

وكذا القول حال غروبها ، وكان ذلك فعلاً خارقاً للعادة وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف ، وهذا قول الزجاج واحتج على صحته بقوله : ﴿ ذلك مِنْ آيات الله ﴾ قال ولو كان الأمر كما ذكره أصحاب القول الأول لكان ذلك أمراً معتاداً مألوفاً فلم يكن ذلك من آيات الله ، وأما إذا حملنا الآية على هذا الوجه الثاني كان ذلك كرامة عجيبة فكانت من آيات الله ، واعلم أنه تعالى أخبر بعد ذلك أنهم كانوا في متسع من الكهف ينالهم فيه برد الريح ونسيم الهواء ، قال : ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مّنْهُ ﴾ أي من الكهف ، والفجوة متسع في مكان ، قال أبو عبيدة وجمعها فجوات ، ومنه الحديث :

" فإذا وجد فجوة نص " ثم قال تعالى : ﴿ ذلك مِنْ آيات الله ﴾ وفيه قولان الذين قالوا إنه يمنع وصول ضوء الشمس بقدرته قالوا المراد من قوله ذلك أي ذلك التزاور والميل ، والذين لم يقولوا به قالوا المراد بقوله ذلك أي ذلك الحفظ الذي حفظهم الله في الغار تلك المدة الطويلة ، من آيات الله الدالة على عجائب قدرته وبدائع حكمته ، ثم بين تعالى أنه كما أن بقاءهم هذه المدة الطويلة مصوناً عن الموت والهلاك من تدبيراته ولطفه وكرمه ، فكذلك رجوعهم أولاً عن الكفر ورغبتهم في الإيمان كان بإعانة الله ولطفه فقال : ﴿ مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد ﴾

مثل أصحاب الكهف : ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ كدقيانوس الكافر وأصحابه ، ومناظرات أهل الجبر والقدر في هذه الآية معلومة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 85.84 ﴾

(85/469)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ . . . ويهيىء لكم من أمركم مرفقاً ﴾

فيه وجهان : أحدهما : سعة .

الثاني : معاشاً .

ويحتمل ثالثاً : يعني خلاصاً ، ويقرأ ﴿ مِرْفقاً ﴾ بكسر الميم وفتح الفاء ﴿ ومَرِفقاً ﴾ بفتح الميم وكسر الفاء ، والفرق بينهما أنه بكسر الميم وفتح الفاء إذا وصل إليك من غيرك ، وبفتح الميم وكسر الفاء إذا وصل منك إلى غيرك .

قوله عز وجل : ﴿ وترى الشمس إذا طَلَعَتْ تزاور عن كهفهم ذاتَ اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ﴾

فيه وجهان

أحدهما : تعرض عنه فلا تصيبه .

الثاني : تميل عن كهفهم ذات اليمين .

﴿ وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : معنى تقرضهم تحاذيهم ، والقرض المحاذاة ، قاله الكسائي والفراء .

الثاني : معناه تقطعهم ذات الشمال أي أنها تجوزهم منحرفة عنهم ، من قولك قرضته بالمقراض أي قطعته .

الثالث : معناه تعطيهم اليسير من شعاعها ثم تأخذه بانصرافها ، مأخوذ من قرض الدراهم التي ترد لأنهم كانوا في مكان موحش ، وقيل لأنه لم يكن عليهم سقف يظلهم ولو طلعت عليهم لأحرقتهم .

وفي انحرافها عنهم في الطلوع والغروب قولان :

أحدهما : لأن كهفهم كان بإزاء بنات نعش فلذلك كانت الشمس لا تصيبه في وقت الشروق ولا في وقت الغروب ، قاله مقاتل .

الثاني : أن الله تعالى صرف الشمس عنهم لتبقى أجسامهم وتكون عبر لمن يشاهدهم أو يتصل به خبرهم .

﴿ وهم في فجوة منه ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : يعني في فضاء منه ، قاله قتادة .

الثاني : داخل منه ، قاله سعيد بن جبير .

الثالث : أنه المكان الموحش .

الرابع : أنه ناحية متسعة ، قاله الأخفش ، ومنه قول الشاعر :

ونحن ملأنا كلَّ وادٍ وفجوةٍ . . . رجالاً وخيلاً غير ميلٍ ولا عُزْلِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(86/469)

وقال ابن عطية :

وقولهم ﴿ وإذ اعتزلتموهم ﴾ الآية

(87/469)

أن القيام في قوله ﴿ إذ قاموا ﴾ عزماً كما تضمن التأويل الواحد وكان القول منهم فيما بينهم فهذه المقالة يصح أن تكون من قولهم الذي قالوه عند قيامهم ، وإن كان القيام المذكور مقامهم بين يدي الملك فهذه المقالة لا يترتب أن تكون من مقالهم بين يدي الملك ، بل يكون في

الكلام حذف تقديره وقال بعضهم لبعض ، وبهذا يترجح أن قوله تعالى : ﴿ إذ قاموا فقالوا ﴾ إنما المراد به إذ عزموا ونفذوا لأمرهم ، وقوله ﴿ إلا الله ﴾ إن فرضنا الكفار الذين فر أهل الكهف منهم لا يعرفون الله ولا علم لهم به ، وإنما يعتقدون الألوهية في أصنامهم فقط ، فهو استثناء منقطع ليس من الأول ، وإن فرضناهم يعرفون الله ويعظمونه كما كانت تفعل العرب لكنهم يشركون أصنامهم معه في العبادة فالاستثناء متصل ، لأن الاعتزال وقع في كل ما يعبد الكفار إلا في جهة الله تعالى ، وفي مصحف ابن مسعود " وما يعبدون من دون الله " ، قال قتادة هذا تفسيرها ، قال هارون وفي بعض مصاحفه " وما يعبدون من دوننا " ، فعلى ما قال قتادة تكون ﴿ إلا ﴾ بمنزلة غير ، و ﴿ ما ﴾ من قوله ﴿ وما يعبدون ﴾ في موضع نصب عطفاً على الضمير في قوله ﴿ اعتزلتموهم ﴾ ، ومضمن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض إذ فارقنا الكفار وانفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوى ونتكل على الله تعالى فإنه سيبسط لنا رحمته وينشرها علينا ويهيىء لنا من أمرنا ﴿ مرفقاً ﴾ ، وهذا كله دعاء بحسب الدنيا ، وعلى ثقة من الله كانوا في أمر آخرتهم ، وقرأ نافع وابن عامر " مَرفِقاً " بفتح الميم وكسر الفاء ، وهو مصدر كالرفق فيما حكى أبو زيد ، وهي قراءة أبي جعفر والأعرج وشيبة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي والحسن وطلحة والأعمش وابن أبي إسحاق " مِرفَقاً " بكسر الميم وفتح الفاء ، ويقالان

جميعاً في الأمر وفي الجارحة ، حكاه الزجاج ، وذكر مكي عن الفراء أنه قال : لا أعرف في الأمر وفي اليد وفي كل شيء إلا كسر الميم ، وأنكر

(88/469)

الكسائي أن يكون " المرفق " من الجارحة إلا بفتح الميم وكسر الفاء ، وخالفه أبو حاتم ، وقال " المَرفق " بفتح الميم الموضع كالمسجد وهما بعد لغتان .

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾

بين هاتين الآيتين اقتضاب يبينه ما تقدم من الآيات ، تقديره فآووا وضرب الله على آذانهم ومكثوا كذلك ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو " تزّاور " بتشديد الزاي وإدغام التاء ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي " تزَاور " بتخفيفها بتقدير تتزاور فحذفت إحدى التاءين ، وقرأ ابن عامر وابن أبي إسحاق وقتادة " تزور " في وزن تحمر ، وقرأ الجحدري وأبو رجاء " تزوار " بألف بعد الواو ، ومعنى اللفظة على كل هذا التصريف تعدل وتروغ وتميل ، وهذه عبارات المفسرين ، أما أن الأخفش قال " تزور " معناه تنتقض والزور الميل ، والأزور في العين المائل النظر إلى ناحية ، ويستعمل في غير العين كقول ابن أبي ربيعة :

وجنبي خيفة القوم أزور . . . ومن اللفظة قول عنترة : [الكامل]

فازور من وقع القنا بلبانه . . . ومنه قول بشر بن أبي حازم : [الوافر]

تؤم بها الحداة مياه نخل . . . وفيها عن أبانين ازورار

وفي حديث غزوة مؤتة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سرير جعفر وزيد بن حارثة ، وقرأ الجمهور " تقرضهم " بالتاء ، وفرقة " يقرضهم " بالياء ، أي الكهف كأنه من القرض وهو القطع ، أي يقتطعهم الكهف بظله من ضوء الشمس ، وجمهور من قرأ بالتاء ، فالمعنى أنهم كانوا لا تصيبهم شمس البتة وهو قول ابن عباس ، فيتأولون " تقرضهم " بمعنى تتركهم ، أي كأنها عنده تقطع كلّ ما لا تناله عن نفسها ، وفرقة ممن قرأ بالتاء تأول أنها كانت بالعشي تنالهم ، فكأنها " تقرضهم " أي تقتطعهم مما لا تناله ، وقالوا كان في مسها لهم بالعشي صلاح لأجسامهم ، وحكى الطبري أن العرب تقول : قرضت موضع كذا أي قطعته ، ومنه قول ذي الرمة : [الطويل]

إلى ظعن يقرضن أجواز مشرف . . . شمالاً وعن أيمانهن الفوارس

ومنه أقرضني درهماً أي اقطعه لي من مالك ، وهذه الصفة مع ﴿ الشمس ﴾ تقتضي أنه كان لهم حاجب من جهة الجنوب وحاجب من جهة الدبور وهم في زاويته ، وحكى الزجاج وغيره قال : كان باب الكهف ينظر إلى بنات نعش ، وقاله عبد الله بن مسلم وهذا نحو ما قلناه ، غير أن الكهف كان مستور الأعلى من المطر ، وذهب الزجاج إلى أن فعل الشمس كان آية من الله تعالى دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك ، وقوله ﴿ ذات اليمين وذات الشمال ﴾ يحتمل أن يريد ذات يمين الكهف بأن نقدر باب الكهف بمثابة وجه إنسان فإن الشمس تجيء منه أول النهار عن يمين ، وآخره عن شمال ، ويحتمل أن يريد ذات يمين الشمس وذات شمالها ، بأن نقدر الشعاع الممتد منها إلى الكهف بمثابة وجه إنسان ، والوجه الأول أصح و " الفجوة " المتسع وجمعها فجى ، قال قتادة : في فضاء منه ، ومنه الحديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير العنف فإذا وجد فجوة نص ، وقال ابن جبير : ﴿ في فجوة ﴾ في مكان داخل ، وقوله ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ الإشارة إلى الأمر بجملته ، وعلى قول الزجاج إن الشمس كانت تزاور وتقرض دون حجاب تكون الإشارة إلى هذا المعنى خاصة ثم تابع بتعظيم الله عز وجل والتسليم له وما يقتضي صرف الآمال إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإِذ اعزلتموهم ﴾

قال ابن عباس : هذا [قول] يمليخا ، وهو رئيس أصحاب الكهف ، قال لهم : وإِذ اعتزلتموهم ، أي : فارقتموهم ، يريد : عبدة الأصنام ، ﴿ وما يعبدون إِلا الله ﴾ فيه قولان .

أحدهما : واعتزلتم ما يعبدون ، إِلا الله ، فإن القوم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه آلهة ، فاعتزل الفتية عبادة الآلهة ، ولم يعتزلوا عبادة الله ، هذا قول عطاءٍ الخراساني ، والفراء .

والثاني : وما يعبدون غير الله ؛ قال قتادة : هي في مصحف عبد الله : "وما يعبدون من دون الله" ، وهذا تفسيرها .

قوله تعالى : ﴿ فأووا إِلى الكهف ﴾ أي : اجعلوه مأواكم ، ﴿ ينشرْ لكم ربكم من رحمته ﴾ أي : يبسطْ عليكم من رزقه ، ﴿ ويهيِّءْ لكم من أمركم مرفقا ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : "مِرفَقا" بكسر الميم ، وفتح الفاء .

وقرأ نافع ، وابن عامر : "مَرفِقا" بفتح الميم ، وكسر الفاء .

قال الفراء : أهل الحجاز يقولون : "مَرفِقاً" بفتح الميم وكسر الفاء ، في كل مرفق ارتفقت به ، ويكسرون مِرفق الإنسان ، والعرب قد يكسرون الميم منهما جميعاً .

قال ابن الأنباري : معنى الآية : ويهيِّىء لكم بَدلاً من أمركم الصَّعب مرفقاً ، قال الشاعر :

فليتَ لنا من ماءِ زمزمَ شَربَةً . . .

مُبرَّدةً باتت على طَهَيانِ

معناه : فلَيت لنا بدلاً من ماء زمزم .

قال ابن عباس : "ويهيِّىء لكم" : يسهِّلْ عليكم ما تخافون من الملِك وظلمه ويأتِكم باليُسر والرِّفق واللُّطف .

قوله تعالى : ﴿ وترى الشمس إذا طلعت ﴾ المعنى : لو رأيتَها لرأيتَ ما وصفنا .

﴿ تزاور ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : "تَزَّاوَرُ" بتشديد الزاي .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : "تَزَاور" خفيفة .

وقرأ ابن عامر : "تَزْوَرُّ" مثل : "تَحْمَرُّ" .

وقرأ أُبيّ بن كعب، وأبو مجلز، وأبو رجاء، والجحدري: "تَزْوَارُّ" باسكان الزاي، وبألف ممدودة بعد الواو من غير همزة، مشددة الراء.

وقرأ ابن مسعود، وأبو المتوكل، وابن السميفع: "تَزْوَئِرُّ" بهمزة قبل الراء، مثل: "تَزْوَعِرُّ".

وقرأ أبو الجوزاء، وأبو السماك: "تَزَوَّرُ" بفتح التاء والزاي وتشديد الواو المفتوحة خفيفة الراء، مثل: "تَكَوَّرُ"، أي: تميل وتعدل.

قال الزجاج: أصل "تزاور": تتزاور، فأدغمت التاء في الزاي، و ﴿ تقرضهم ﴾ أي: تعدل عنهم وتتركهم، وقال: ذو الرمة:

إلى ظُعُنٍ يَقْرِضْنَ أَجْوَازَ مُشْرِفٍ . . .

شِمالاً وعَنْ أيمانِهِنَّ الفَوَارِسُ

يقرضن: يتركن.

وأصل القرض: القطع والتفرقة بين الأشياء، ومنه قولك: أقرِضني درهماً، أي: اقطع لي من مالك درهماً.

قال المفسرون: كان كهفهم بازاء بنات نعش في أرض الروم، فكانت الشمس تميل عنهم طالعةً وغاربةً لا تدخل عليهم فتؤذيهم بحرِّها وتغير ألوانهم.

ثم أخبر أنهم كانوا في متسع من الكهف ينالهم فيه برد الريح، ونسيم الهواء، فقال: ﴿ وهم في فجوة منه ﴾ قال أبو عبيدة: أي: [في] مُتَّسَع، والجمع: فَجَوات، وفِجاء بكسر

الفاء .

وقال الزجاج : إنما صَرْفُ الشمس عنهم آيةٌ من الآيات ، ولم يرض قول من قال : كان كهفهم بازاء بنات نعش .

قوله تعالى : ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ يشير إلى ما صنعه بهم من اللطف في هدايتهم ، وصرف أذى الشمس عنهم ، والرعب الذي ألقى عليهم حتى لم يقدر الملك الظالم ولا غيره على أذاهم .

"من آيات الله" أي : من دلائله على قدرته ولطفه .

﴿ من يهد اللهُ فهو المهتد ﴾ هذا بيان أنه هو الذي تولَّى هدايةَ القوم ، ولولا ذلك لم يهتدوا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(93/469)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ اعتزلتموهم ﴾

قيل : هو من قول الله لهم .

أي وإذا اعتزلتموهم فأووا إلى الكهف .

وقيل : هو من قول رئيسهم يمليخا ؛ فيما ذكر ابن عطية .

وقال الغزنويّ : رئيسهم مكسلمينا ، قال لهم ذلك ؛ أي إذ اعتزلتموهم واعتزلتم ما يعبدون .

ثم استثنى وقال "إلا الله" أي إنكم لم تتركوا عبادته ؛ فهو استثناء منقطع .

قال ابن عطية : وهذا على تقدير إن الذين فرّ أهل الكهف منهم لا يعرفون الله ، ولا علم لهم به ، وإنما يعتقدون الأصنام في ألوهيتهم فقط .

وإن فرضنا أنهم يعرفون الله كما كانت العرب تفعل لكنهم يشركون أصنامهم معه في العبادة فالاستثناء متصل ؛ لأن الاعتزال وقع في كل ما يعبد الكفار إلا في جهة الله .

وفي مصحف عبد الله بن مسعود "وما يعبدون من دون الله" .

قال قتادة هذا تفسيرها .

قلت : ويدل على هذا ما ذكره أبو نعيم الحافظ عن عطاء الخراسانيّ في قوله تعالى "وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله" قال : كان فتية من قوم يعبدون الله ويعبدون معه آلهة فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله .

ابن عطية : فعلى ما قال قتادة تكون "إلاّ" بمنزلة غير ، و "ما" من قوله "وما يعبدون إلا الله" في موضع نصب ، عطفا على الضمير في قوله "اعتزلتموهم" .

ومضمَّن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض : إذا فارقنا الكفار وانفردنا بالله تعالى فلنجعل

الكهف مأوًى ونتكل على الله ؛ فإنه سيبسط لنا رحمته ، وينشرها علينا ، ويهيّيء لنا من أمرنا مرفقاً .

وهذا كله دعاء بحسب الدنيا ، وعلى ثقة كانوا من الله في أمر آخرتهم .

وقال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه : كان أصحاب الكهف صياقلة ، واسم الكهف حيوم .

﴿ مِّرْفَقاً ﴾ قريء بكسر الميم وفتحها ، وهو ما يرتفق به .

(94/469)

وكذلك مِرْفق الإنسان ومَرْفقه ؛ ومنهم من يجعل "المرفق" بفتح الميم وكسر الفاء من الأمر ، والمرفق من الإنسان ، وقد قيل : المرفق بفتح الميم الموضع كالمسجد ، وهما لغتان .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الشمس إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليمين ﴾

أي ترى أيها المخاطب الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم .

والمعنى : إنك لو رأيتهم لرأيتهم كذا ؛ لا أن المخاطب رآهم على التحقيق .

و"تزاور" تتنحّى وتميل ؛ من الازورار .

والزور المَيَل .

والأزور في العين المائل النظر إلى ناحية ، ويستعمل في غير العين ؛ كما قال ابن أبي ربيعة :

وجنبي خيفةَ القوم أزْوَرُ . . .

ومن اللفظة قول عنترة :

فازوَرّ من وقْع القَنَا بلبَانه . . .

وفي حديث غزوة مؤتة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سرير جعفر وزيد بن حارثة .

وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو "تزاور" بإدغام التاء في الزاي ، والأصل "تتزاور" ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائيّ "تزاور" مخففة الزاي .

وقرأ ابن عامر "تزورّ" مثل تحمر .

وحكى الفراء "تزوارّ" مثل تحمار ؛ كلُّها بمعنًى واحد .

﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ﴾ قرأ الجمهور بالتاء على معنى تتركهم ؛ قاله مجاهد .

وقال قتادة : تدعهم .

النحاس : وهذا معروف في اللغة ، حكى البصريون أنه يقال : قرضه يقرضه إذا تركه ؛ والمعنى : أنهم كانوا لا تصيبهم شمس ألبتة كرامةً لهم ؛ وهو قول ابن عباس .

يعني أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين ، أي يمين الكهف ، وإذا غربت تمرّ بهم ذات الشمال ، أي شمال الكهف ، فلا تصيبهم في ابتداء النهار ولا في آخر النهار .

وكان كهفهم مستقبل بنات نعش في أرض الروم ، فكانت الشمس تميل عنهم طالعةً وغاربة وجارية لا تبلغهم لتؤذيهم بحرّها ، وتغيّر ألوانهم وتبلي ثيابهم .

وقد قيل : إنه كان لكهفهم حاجب من جهة الجنوب ، وحاجب من جهة الدُّبور وهم في زاويته .

(95/469)

وذهب الزجاج إلى أن فعل الشمس كان آية من الله ، دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك .

وقرأت فرقة "يقرضهم" بالياء من القرض وهو القطع ، أي يقطعهم الكهف بظلّه من ضوء الشمس .

وقيل : "وإذا غربت تقرضهم" أي يصيبهم يسير منها ، مأخوذ من قُراضة الذهب والفضة ، أي تعطيهم الشمس اليسير من شعاعها .

وقالوا : كان في مَسِّها لهم بالعشيّ إصلاح لأجسادهم .

وعلى الجملة فالآية في ذلك أن الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفته لا إلى كهف آخر يتأذّون فيه بانبساط الشمس عليهم في معظم النهار .

وعلى هذا فيمكن أن يكون صرف الشمس عنهم بإظلال غمام أو سبب آخر .

والمقصود بيان حفظهم عن تطرّق البلاء وتغيّر الأبدان والألوان إليهم ، والتأذّي بحر أو برد .

﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي من الكهف .

والفجوة المتّسع ، وجمعها فجوات وفجاء ؛ مثل ركوة وركاء وركوات .

وقال الشاعر :

ونحن ملأنا كلّ واد وفجوة . . .

رجالاً وخيلاً غير َميل ولا عُزْل

أي كانوا بحيث يصيبهم نسيم الهواء .

﴿ ذلكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ ﴾ لطف بهم ، وهذا يقوّي قول الزجاج.

وقال أهل التفسير : كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون ؛ فكذلك كان الرائي يحسبهم أيقاظاً .

وقيل : تحسبهم أيقاظاً لكثرة تقلّبهم كالمستيقظ في مضجعه .

و"أيقاظاً" جمع يقظ ويقظان ، وهو المنتبه .

﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ كقولهم : وهم قوم ركوع وسجود وقعود ؛ فوصف الجمع بالمصدر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

و ﴿ إذ اعتزلتموهم ﴾ خطاب من بعضهم لبعض والاعتزال يشمل مفارقة أوطان قومهم ومعتقداتهم فهو اعتزال جسماني وقلبي ، وما معطوف على المفعول في ﴿ اعتزلتموهم ﴾ أي واعتزلتم معبودهم و ﴿ إلاّ الله ﴾ استثناء متصل إن كان قومهم يعبدون الله مع آلهتهم لاندراج لفظ الجلالة في قوله ﴿ وما يعبدون إلاّ الله ﴾ .

وذكر أبو نعيم الحافظ عن عطاء الخراساني أنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه آلهة فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم يعتزلوا عبادة الله .

وقال هذا أيضاً الفرّاء ، ومنقطع إن كانوا لا يعرفون الله ولا يعبدونه لعدم اندراجه في معبوداتهم .

وفي مصحف عبد الله ﴿ وما يعبدون ﴾ من دوننا انتهى وما في مصحف عبد الله فيما ذكر هارون إنما أريد به تفسير المعنى .

وإن هؤلاء الفتية اعتزلوا قومهم ﴿ وما يعبدون ﴾ من دون الله وليس ذلك قرآناً لمخالفتها لسواد المصحف ، ولأن المستفيض عن عبد الله بل هو متواتر ما ثبت في السواد وهو ﴿ وما يعبدون إلاّ الله ﴾ .

وقيل : ﴿ وما يعبدون إلاّ الله ﴾ كلام معترض إخبار من الله تعالى عن الفتية أنهم لم يعبدوا

غير الله تعالى ، فعلى هذا ﴿ ما ﴾ فيه و﴿ إلاّ ﴾ استثناء مفرغ له العامل .

﴿ فأووا إلى الكهف ﴾ أي اجعلوه مأوى لكم تقيمون فيه وتأوون إليه .

وقوله ﴿ ينشر ﴾ فيه ما كانوا عليه من التوكل حيث أووا إلى كهف ، ورتبوا على مأواهم إليه نشر رحمة الله عليهم وتهيئة رفقه تعالى بهم لأن من أخرجه من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان لا يضيعه ، والمعنى أنه تعالى سيبسط علينا رحمته ويهيء لنا ما نرتفق به في أمر عيشنا .

قال ابن عباس : ﴿ ويهيئ لكم ﴾ يسهل عليكم ما تخافون من الملك وظلمه ، ويأتيكم باليسر والرفق واللطف .

وقال ابن الأنباري : المعنى ﴿ ويهيئ لكم ﴾ بدلاً من أمركم الصعب ﴿ مرفقاً ﴾ .

قال الشاعر :

فليت لنا من ماء زمزم شربة . . .

مبردة باتت على طهيان

أي بدلاً من ماء زمزم .

وقال الزمخشري : إما أن يقولوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه ونصوع يقينهم ، وإما أن يخبرهم به نبيّ في عصرهم ، وإما أن يكون بعضهم نبياً .

وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة وحميد وابن سعدان ونافع وابن عامر وأبو بكر في رواية الأعشى والبرجمي والجعفي عنه ، وأبو عمرو في رواية هارون بفتح الميم وكسر الفاء .

وقرأ ابن أبي إسحاق وطلحة والأعمش وباقي السبعة بكسر الميم وفتح الفاء رفقاً لأن جميعاً في الأمر الذي يرتفق به وفي الجارحة حكاه الزجّاج وثعلب .

ونقل مكي عن الفراء أنه قال : لا أعرف في الأمر وفي اليد وفي كل شيء إلاّ كسر الميم ، وأنكر الكسائي أن يكون المرفق من الجارحة إلاّ بفتح الميم وكسر الفاء ، وخالفه أبو حاتم وقال : المرفق بفتح الميم الموضع كالمسجد .

وقال أبو زيد : هو مصدر كالرفق جاء على مفعل .

وقيل : هما لغتان فيما يرتفق به وإما من اليد فبكسر الميم وفتح الفاء لا غير ، وعن الفراء أهل الحجاز يقولون ﴿ مرفقاً ﴾ بفتح الميم وكسر الفاء فيما ارتفقت به ويكسرون مرفق الإنسان ، والعرب قد يكسرون الميم منهما جميعاً انتهى وأجاز معاذ فتح الميم والفاء .

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾

هنا جمل محذوفة دل عليها ما تقدم ، والتقدير ﴿ فأووا إلى الكهف ﴾ فألقى الله عليهم النوم واستجاب دعاءهم وأرفقهم في الكهف بأشياء .

وقرأ الحرميان ، وأبو عمرو ﴿ تزّاور ﴾ بإدغام تتزاور في الزاي .

وقرأ الكوفيون ، والأعمش ، وطلحة ، وابن أبي ليلى ، وابن مناذر ، وخلف ، وأبو عبيد ، وابن سعدان ، ومحمد بن عيسى الأصبهاني ، وأحمد بن جبير الأنطاكي بتخفيف الزاي إذا حذفوا التاء .

وقرأ ابن أبي إسحاق ، وابن عامر ، وقتادة ، وحميد ، ويعقوب عن العمري : تزورّ على وزن تحمرّ .

وقرأ الجحدري ، وأبو رجاء ، وأيوب السختياني ، وابن أبي عبلة ، وجابر ، وورد عن أيوب ﴿ تزوار ﴾ على وزن تحمارّ .

(98/469)

وقرأ ابن مسعود ، وأبو المتوكل : تزوئرُّ بهمزة قبل الراء على قولهم ادهأمّ واشعألّ بالهمز فراراً من التقاء الساكنين ، والمعنى تزوغ وتميل .

و﴿ ذات اليمين ﴾ جهة يمين الكهف ، وحقيقته الجهة المسماة باليمين يعني يمين الداخل إلى الكهف أو يمين الفتية .

و﴿ تقرضهم ﴾ لا تقربهم من معنى القطيعة ﴿ وهم في فجوة ﴾ أي متسع من الكهف .

وقرأ الجمهور : ﴿ تقرضهم ﴾ بالتاء .

وقرأت فرقة بالياء أي يقرضهم الكهف .

قال ابن عباس : المعنى أنهم كانوا لا تصيبهم الشمس البتة .

وقالت فرقة : إنها كانت الشمس بالعشي تنالهم بما في مسها صلاح لأجسامهم ، وهذه الصفة مع الشمس تقتضي أنه كان لهم حاجب من جهة الجنوب ، وحاجب من جهة الدبور ، وهم في زاوية .

وقال عبد الله بن مسلم : كان باب الكهف ينظر إلى بنات نعش وعلى هذا كان أعلى الكهف مستوراً من المطر .

قال ابن عطية : كان كهفهم مستقبل بنات نعش لا تدخله الشمس عند الطلوع ولا عند الغروب ، اختار الله لهم مضجعاً متسعاً في مقناة لا تدخل عليهم الشمس فتؤذيهم وتدفع عنهم كربة الغار وغمومه .

وقال الزمخشري : المعنى أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها مع أنهم في مكان واسع منفتح معرّض لإصابة الشمس لولا أن الله يحجبها عنهم انتهى .

وهو بسط قول الزجّاج .

قال الزجاج : فعل الشمس آية ﴿ من آيات الله ﴾ دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك .

وقال أبو عليّ : معنى ﴿ تقرضهم ﴾ تعطيهم من ضوئها شيئاً ثم تزول سريعاً كالقرض يسترد ، والمعنى عنده أن الشمس تميل بالغدوة وتصيبه بالعشي إصابة خفيفة انتهى .

ولو كان من القرض الذي يعطي ثم يسترد لكان الفعل رباعياً فكان يكون تقرضهم بالتاء مضمومة .

لكنه من القطع ، وإنما التقدير تقرض لهم أي تقطع لهم من ضوئها شيئاً .

(99/469)

قيل : ولو كانت الشمس لا تصيب مكانهم أصلاً لكان يفسد هواؤه ويتعفن ما فيه فيهلكوا ، والمعنى أنه تعالى دبر أمرهم فأسكنهم مسكناً لا يكثر سقوط الشمس فيه فيحمى ، ولا تغيب عنه غيبوبة دائمة فيعفن .

والإشارة بذلك إلى ما صنعه تعالى بهم من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة آية من آياته يعني أن ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم اختصاصاً لهم بالكرامة ، ومن قال إنه كان مستقبل بنات نعش بحيث كان له حاجب من الشمس كان الإشارة إلى أن حديثهم ﴿ من آيات الله ﴾ وهو هدايتهم إلى توحيده وإخراجهم من بين عبدة الأوثان وإيواؤهم إلى ذلك الكهف ، وحمايتهم من عدوّهم وإلقاء الهيبة عليهم ، وصرف الشمس

عنهم يميناً وشمالاً لئلا تفسد أجسامهم وإنامتهم هذه المدة الطويلة ، وصونهم من البلي وثيابهم من التمزّق .

ويدل على أنه إشارة إلى الهداية قوله ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ وهو لفظ عام يدخل فيه ما سبق نسبتهم وهم أهل الكهف ، ﴿ ومن يضلل ﴾ عام أيضاً مثل دقيانوس الكافر وأصحابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(100/469)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذِ اعتزلتموهم ﴾

أي فارقتموهم في الاعتقاد أو أردتم الاعتزالَ الجُسمانيّ ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ إَلاَّ الله ﴾ عطفٌ على الضمير المنصوب وما موصولةٌ أو مصدريةٌ ، أي إذِ اعتزلتموهم ومعبودِيهم إلا الله أو وعبادتَهم إلا عبادةَ الله وعلى التقديرين فالاستثناءُ متصلٌ على تقدير كونِهم مشركين كأهل مكةَ ، ومنقطعٌ على تقدير تمحضهم في عبادة الأوثان ، ويجوز كونُ ما نافيةً على أنه إخبارٌ من الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترضٌ بين إذْ وجوابه ﴿ فَأْوُواْ ﴾ أي التجئوا ﴿ إِلَى الكهف ﴾ قال الفراء : هو جوابُ إذ ، كما تقول : إذْ فعلتَ فافعل كذا ، وقيل : هو دليلٌ

على جوابه أي إذ اعتزلتموهم اعتزالاً اعتقادياً فاعتزلوهم اعتزالاً جُسمانياً ، أو إذا أردتم اعتزالَهم فافعلوا ذلك بالالتجاء إلى الكهف ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ ﴾ يبسُطْ لكم ويوسّعْ عليكم ﴿ ربُّكُمْ ﴾ مالكُ أمركم ﴿ مّن رَّحْمَتِهِ ﴾ في الدارين ﴿ وَيُهَيّىء لَكُمْ ﴾ يسهلْ لكم ﴿ مّنْ أَمْرِكُمْ ﴾ الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين ﴿ مّرْفَقًا ﴾ ما ترتفقون وتنتفعون به ، وقرىء بفتح الميم وكسر الفاء مصدراً كالمرِجع ، وتقديمُ لكم في الموضعين لما مر مراراً من الإيذان من أول الأمر بكون المؤخر من منافعهم والتشويقِ إلى وروده .

(101/469)

﴿ وَتَرَى الشمس ﴾ بيانٌ لحالهم بعد ما أَوَوا إلى الكهف ، ولم يصرح به إيذاناً بعدم الحاجةِ إليه لظهور جرَيانِهم على موجب الأمرِ به لكونه صادراً عن رأي صائبٍ وتعويلاً على ما سلف من قوله سبحانه : ﴿ إِذْ أَوَى الفتية إِلَى الكهف ﴾ وما لحق من إضافة الكهفِ إليهم وكونِهم في فجوة منه ، والخطابُ للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يصلُح للخطاب ، وليس المرادُ به الإخبارَ بوقوع الرؤيةِ تحقيقاً بل الإنباءُ بكون الكهفِ بحيث لو رأيته ترى الشمس ﴿ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ ﴾ أي تتزاورَ وتتنحّى بحذف إحدى التاءين ، وقرىء بإدغام التاء في الزاي ، وتزورّ كتحمرّ ، وتزْوارّ كتحمار وتزوئر ، وكلها من الزَّوَر

وهو الميل ﴿ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ الذي أووا إليه فالإفاضة لأدنى ملابسة ﴿ ذَاتَ اليمين ﴾ أي جهةَ ذاتِ يمينِ الكهفِ عند توجه الداخلِ إلى قعره أي جانبه الذي يلي المغربَ فلا يقع عليهم شعاعُها فيؤذيهم ﴿ وَإِذَا غَرَبَت ﴾ أي تراها عند غروبها ﴿ تَّقْرِضُهُمْ ﴾ أي تقطعَهم من القطيعة والصَّرْم ولا تقربهم ﴿ ذَاتَ الشمال ﴾ أي جهةَ ذاتِ شمال الكهف أي جانبه الذي يلي المشرِق ، وكان ذلك بتصريف الله سبحانه على منهاج خرقِ العادةِ كرامةً لهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مّنْهُ ﴾ جملةٌ حالية مبينة لكون ذلك أمراً بديعاً أي تراها تميل عنهم يميناً وشمالاً ولا تحوم حولهم مع أنهم في متّسع من الكهف معرَّضٍ لإصابتها لولا أن صرفتْها عنهم يدُ التقدير .

﴿ ذلك ﴾ أي ما صنع الله بهم من تزاوُر الشمسِ وقَرْضِها حالتي الطلوعِ والغروب مع كونهم في موقع شعاعِها ﴿ مِنْ آيات الله ﴾ العجيبةِ الدالةِ على كمال علمِه وقدرتِه وحقية التوحيدِ وكرامةِ أهله عنده سبحانه وتعالى .

(102/469)

وهذا قبل أن سد دقيانوسُ بابَ الكهف شمالياً مستقبلَ بناتِ نعْشٍ ، وأقربُ المشارقِ والمغاربِ إلى محاذاته رأسُ مشرقِ السرطان ومغربِه ، والشمسُ إذا كان مدارُها مدارَه

تطلُع مائلةً عنه مقابلةً لجانبه الأيمنِ وهو الذي يلي المغربَ ، وتغرُب محاذيةً لجانبه الأيسرِ فيقع شعاعُها على جنبيه وتحلّل عفونتَه وتعدّل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذي أجسادَهم ويُبْلي ثيابَهم ، ولعل ميلَ الباب إلى جانب الغرب كان أكثر ولذلك أوقع التزاورَ على كهفهم والقرضَ على أنفسهم ، فذلك حينئذ إشارةٌ إلى إيوائهم إلى كهف هذا شأنُه ، وأما جعلُه إشارةً إلى حفظ الله سبحانه إياهم في ذلك الكهفِ تلك المدةَ الطويلةَ أو إلى إطلاعه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم على أخبارهم فلا يساعده إيرادُه في تضاعيف القصة ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ ﴾ إلى الحق بالتوفيق له ﴿ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ الذي أصاب الفلاحَ ، والمرادُ إما الثناءُ عليهم والشهادةُ لهم بإصابة المطلوب والإخبارُ بتحقيق ما أمّلوه من نشر الرحمةِ وتهيئةِ المرافق ، أو التنبيهُ على أن أمثالَ هذه الآيةِ كثيرةٌ ولكن المنتفعَ بها من وفقه الله تعالى للاستبصار بها ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ﴾ أي يخلق فيه الضلالَ لصرف اختياره إليه ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُ ﴾ أبداً وإن بالغتَ في التتبع والاستقصاء ﴿ وَلِيًّا ﴾ ناصراً ﴿ مُّرْشِدًا ﴾ يهديه إلى ما ذكر من الفلاح لاستحالة وجودِه في نفسه ، لا لأنك لا تجده مع وجوده أو إمكانه . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذِ اعتزلتموهم وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ الله ﴾

وفي مجمع البيان عن ابن عباس أن قائله يمليخا ، والاعتزال تجنب الشيء بالبدن أو بالقلب وكلا الأمرين محتمل هنا ، والتعزل بمعناه ومن ذلك قوله :

يا بيت عاتكة الذي أتعزل . . .

حذر العدا وبه الفؤاد موكل

و ﴿ مَا ﴾ يحتمل أن تكون موصولة وإن تكون مصدرية ، والعطف في الاحتمالين على الضمير المنصوب ، والظاهر أن الاستثناء فيهما متصل ، ويقدر على الاحتمال الثاني مضاف في جانب المستثنى ليتأتى الاتصال أي وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم الذين يعبدونهم إلا الله تعالى أو إذا اعتزلتموهم واعتزلتم عبادتهم إلا عبادة الله عز وجل ، وتقدير مستثنى منه على ذلك الاحتمال لذلك نحو عبادتهم لمعبوديهم تكلف ، ويحتمل أن يكون منقطعاً ، وعلى الأول : يكون القوم عابدين الله تعالى وعابدين غيره كما جاء ذلك في بعض الآثار .

أخرج سعيد بن منصور .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وأبو نعيم عن عطاء الخراساني أنه قال : كان قوم الفتية يعبدون الله تعالى ويعبدون معه آلهة

شتى فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله تعالى.

وعلى الثاني: يكونون عابدين غيره تعالى فقط، قيل وهذا هو الأوفق بقوله تعالى أولاً: ﴿ هَؤُلاء قَوْمُنَا اتَّخَذوا مِن دُونِهِ ءالِهَةً ﴾ [الكهف: 15] فتأمل.

وجوز أن تكون ما نافية والاستثناء مفرغ والجملة إخبار من الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترضة بين إذ وجوابه أعني قوله تعالى: ﴿ فَأْوُواْ ﴾ أي التجؤا ﴿ إِلَى الكهف ﴾ ووجه الاعتراض على ما في "الكشف" أن قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا اعتزلتموهم ﴾ فأووا معناه وإذا اجتنبتم عنهم وعما يعبدون فأخلصوا له العبادة في موضع تمكنون منه فدل الاعتراض على أنهم كانوا صادقين وأنهم أقاموا بما وصى به بعضهم بعضاً فهو يؤكد مضمون الجملة.

(104/469)

وإلى كون ﴿ فَأْوُواْ ﴾ جواب إذ ذهب الفراء، وقيل: إنه دليل الجواب أي وإذا اعتزلتموهم اعتزالاً اعتقادياً فاعتزلوهم اعتزالاً جسمانياً أو إذا أردتم الاعتزال الجسماني فافعلوا ذلك.

واعترض كلا القولين بأن إذ بدون ما لا تكون للشرط، وفي "همع الهوامع" أن القول بأنها

تكون له قول ضعيف لبعض النحاة أو تسامح لأنها بمعناه فهي هنا تعليلية أو ظرفية وتعلقها قيل بأووا محذوفاً دل عليه المذكور لا به لمكان الفاء أو بالمذكور والظرف يتوسع فيه ما لا يتوسع في غيره ، وقال أبو البقاء : إذ ظرف لفعل محذوف أي وقال بعضهم لبعض ، وظاهره أنه عنى بالفعل المحذوف قال ؛ وأقول : هو من أعجب العجائب .

وفي مصحب ابن مسعود كما أخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ وقال هرون : في بعض المصاحب ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِنَا ﴾ وهذا يؤيد الاعتراض ، وفي البحر أن ما في المصحفين تفسير لا قراءة لمخالفته سواد الإمام .

وزعم أن المتواتر عن ابن مسعود ما فيه ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ ﴾ يبسط لكم ويوسع عليكم ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ مالك أمركم الذي هداكم للايمان ﴿ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ في الدارين ﴿ وَيُهَيِّىءْ ﴾ يسهل ﴿ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ ﴾ الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين والتوجه التام إلى الله تعالى : ﴿ مِّرْفَقًا ﴾ ما ترفقون وتنتفعون به ، وهو مفعول ﴿ يهىء ﴾ ومفعول ﴿ الكهف يَنْشُرْ ﴾ محذوف أي الخي ونحوه ﴿ وِمِنْ أَمْرِكُمْ ﴾ على ما في بعض الحواشي متعلق بيهىء ومن لابتداء الغاية أو للتبعيض ، وقال ابن الانباري : للبدل والمعنى يهىء لكم بدلاً عن أمركم الصعب مرفقاً كما في قوله تعالى : ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ [التوبة : 38]

.

فليت لنا من ماء زمزم شربة . . .

مبردة باتت على طهيان

(105/469)

وجوز أن يكون حالاً من ﴿ مِّرْفَقًا ﴾ فيتعلق بمحذوف ، وتقديم ﴿ لَكُمْ ﴾ لما مر مراراً من الإيذان من أول الأمر بكون المؤخر من منافعهم والتشويق إلى وروده ، والظاهر أنهم قالوا هذا ثقة بفضل الله تعالى وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه سبحانه ونصوع يقينهم فقد كانوا علماء بالله تعالى .

فقد أخرج الطبراني .

وابن المنذر وجماعة عن ابن عباس قال : ما بعث الله تعالى نبياً إلا وهو شاب ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب وقرأ ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبراهيم ﴾ [الأنبياء : 60] ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لفتاه ﴾ [الكهف : 60] و ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءامَنُواْ بِرَبّهِمْ ﴾ [الكهف : 13] وجوز أن يكونوا قالوه عن أخبار نبي في عصرهم به وأن يكون بعضهم نبياً أوحى إليك ذلك فقاله ، ولا يخفى أن ما ذكر مجرد احتمال من غير داع .

وقرأ أبو جعفر .

والأعرج.

وشيبة .

وحميد .

وابن سعدان .

ونافع .

وابن عامر .

وأبو بكر في رواية الأعشى .

والبرجمي .

والجعفي عنه .

وأبو عمرو في رواية هرون ﴿ مَرْفَقًا ﴾ بفتح الميم وكسر الفاء ولا فرق بينه وبين ما هو بكسر الميم وفتح الفاء معنى على ما حكاه الزجاج.

وثعلب فإن كلاً منهما يقال في الأمر الذي يرتفق به وفي الجارحة ، ونقل مكي عن الفراء أنه قال : لا أعرف في الأمر وفي اليد وفي كل شيء إلا كسر الميم ، وأنكر الكسائي أن يكون المرفق من الجارحة إلا بفتح الميم وكسر الفاء وخالفه أبو حاتم وقال : المرفق بفتح الميم الموضع كالمسجد ، وقال أبو زيد : هو مصدر جاء على مفعل كالمرجع ، وقيل : هما لغتان

فيما يرتفق به وأما من اليد فبكسر الميم وفتح الفاء لاغير ، وعن الفراء أن أهل الحجاز يقولون : ﴿ مَرْفَقًا ﴾ بفتح الميم وكسر الفاء فيما ارتفقت به ويكسرون مرفق الإنسان ، وأما العرب فقد يكسرون الميم منهما جميعاً اه .

(106/469)

وأجاز معاذ فتح الميم والفاء ، وهذا واستدل بالآية على حسن الهجرة لسلامة الدين وقبح المقام في دار الكفر إذ لم يمكن المقام فيها إلا بإظهار كلمة الكفر وبالله تعالى التوفيق .

﴿ وَتَرَى الشمس ﴾

بيان لحالهم بعد ما أووا إلى الكهف ولم يصرح سبحانه به تعويلاً على ما سبق من قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الفتية إِلَى الكهف ﴾ [الكهف : 10] وما لحق من إضافة الكهف إليهم وكونهم في فجوة منه ، وجوز أن يكون إيذاناً بعدم الحاجة إلى التصريح لظهور جريانهم على موجب الأمر لكونه صادراً عن رأي صائب وقد حذف سبحانه وتعالى أيضاً جملاً أخرى لا تخفى ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح له وهو للمبالغة في الظهور وليس المراد الأخبار بوقوع الرؤية بل الأنباء بكون الكهف لو رأيته ترى الشمس ﴿ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ ﴾ أي تتنحى وأصله تتزاور بتاءين فحذف أحدهما تخفيفاً وهي

قراءة الكوفيين والأعمش .

وطلحة وابن أبي ليلى .

وخلف .

وابن سعدان .

وأبي عبيدة .

وأحمد بن جبير الأنطاكي .

ومحمد بن عيسى الأصبهاني ، وقرأ الحرميان .

وأبو عمرو ﴿ تَّزَاوَرُ ﴾ بفتح التاء وتشديد الزاي ، وأصله أيضاً تتزاور إلا أنه أدغمت التاء الزاي بعد قلبها زاياً ، وقرأ ابن أبي إسحاق .

وابن عامر .

وقتادة .

وحميد .

ويعقوب عن العمري ﴿ تزور ﴾ كتحمر وهو من بناء الأفعال من غير العيوب والألوان ، وقد جاء ذلك نادراً .

وقرأ جابر .

والجحدري .

وأبو بحار .

والسختياني .

وابن أبي عبلة .

وردان عن أبي أيوب ﴿ تزوار ﴾ كتحمار وهو في البناء كسابقه ، وقرأ ابن مسعود .

(107/469)

وأبو المتوكل ﴿ تزوئر ﴾ بهمزة قبل الراء المشددة كتطمئن ، ولعله إنما جيء بالهمزة فراراً التقاء الساكنين وإن كان جائزاً في مثل ذلك مما كان الأول حرف مد والثاني مدغماً في مثله وكلها من الزور بفتحتين مع التخفيف وهو الميل ، وقيده بعضهم بالخلقى ، والأكثرون على الإطلاق ومنه الأزور المائل بعينه إلى ناحية ويكون في غير العين قال ابن أبي ربيعة :

وجنبي خيفة القرم أزور . . .

وقال عنترة :

فازور من وقع القنا بلبانه . . .

وشكا إلى بعبرة وتحمحم

وقال بشر بن أبي حازم

تؤم بها الحداة مياه نخل . . .

وفيها عن أبانين ازورار

ومنه زاره إذا مال إليه ، والزور أي الكذب لميله عن الواقع وعدم مطابقته ، وكذا الزور بمعنى الصنم في قوله :

جاءوا بزوريهم وجئنا بالأصم . . .

وقال الراغب : إن الزور بتحريك الواو ميل في الزور بتسكينها وهو أعلى الصدر ، والأزور المائل الزور أي الصدر وزرت فلاناً تلقيته بزوري أو قصدت زوره نحو وجهه أي قصدت وجهه ، والمشهور ما قدمناه ، وحكى عن أبي الحسن أنه قال : لا معنى لتزور في الآية لأن الأزوار الانقباض ، وهو طعن في قراءة ابن عامر ومن معه بما يوجب تغيير الكنية ، وبالجملة المراد إذا طلعت تروغ وتميل ﴿ تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ الذي آووا إليه فالإضافة لأدنى ملابسة ﴿ ذَاتَ اليمين ﴾ أي جهة ذات يمين الكهف عنه توجه الداخل إلى قعره أي جانبه الذي يلي المغرب أو جهة ذات يمين الفتية ومآله كسابقه ، وهو نصب على الظرفية .

قال المبرد : في المقتضب ذات اليمين وذات الشمال من الظروف المتصرفة كيميناً وشمالاً .

﴿ وَإِذَا غَرَبَت ﴾ أي تراها عند غروبها ﴿ تَّقْرِضُهُمْ ﴾ أي تعدل عنهم ، قال الكسائي : يقال قرضت المكان إذا عدلت عنه ولم تقربه ﴿ ذَاتَ الشمال ﴾ أي جهة ذات شمال الكهف أي جانبه الذي يلي المشرق ، وقال غير واحد : هو من القرض بمعنى القطع تقول

العرب : قرضت موضع كذا أي قطعته .

قال ذو الرمة :

إلى طعن يقرضن أقواز مشرف . . .

(108/469)

شمالاً وعن إيمانهن الفوارس

والمراد تتجاوزهم ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي في متسع من الكهف ، وهي على ما قيل من الفجا وهو تباعد ما بين الفخذين يقال رجل افجي وامرأة فجواء ، وتجمع على فجاء وفجا وفجوات .

وحاصل الجملتين أنهم كانوا لا تصيبهم الشمس أصلاً فتؤذيهم وهم في وسط الكهف بحيث ينالهم روح الهواء ، ولا يؤذيهم كرب الغار ولا حر الشمس ، وذلك لأن باب الكهف كما قال عبد الله بن مسلم وابن عطية كان في مقابلة بنات نعش وأقرب المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرق رأس السرطان ومغربه والشمس إذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الأيمن ، وهو الذي يلي المغرب ، وتغرب محاذية لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جانبه ، وتحلل عفونته وتعدل هواه ولا تقع عليهم فتؤذي أجسادهم وتبلي ثيابهم ،

ولعل ميل الباب إلى جانب المغرب كان أكثر ولذلك وقع التزاور على كهفهم والقرض على أنفسهم ؛ وقال الزجاج : ليس ذلك لما ذكر بل لمحض صرف الله تعالى الشمس بيد قدرته عن أن تصيبهم على منهاج خرق العادة كرامة لهم وجيء بقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ حالاً مبينة لكون ما ذكر أمراً بديعاً كأنه قيل ترى الشمس تميل عنهم يميناً وشمالاً ولا تحوم حولهم مع كونهم في متسع من الكهف معرض لإصابتها لولا أن كفها عنهم كف التقدير ، واحتج عليه بقوله تعالى : ﴿ ذلك مِنْ ءايَاتِ الله ﴾ حيث جعل ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من التزاور والقرض في الطلوع والغروب يميناً وشمالاً ، ولا يظهر كونه آية القول السابق ظهوره على قوله فإن كونه آية دالة على كمال قدرة الله تعالى وحقية التوحيد وكرامة أهله عنده سبحانه على هذا أظهر من الشمس في رابعة النهار .

(109/469)

وكان ذلك قبل سد باب الكهف على ما قيل ، وقال أبو علي : معنى تقرضهم تعطيهم من ضوئها شيئاً ثم تزول سريعاً وتستد ضوءها فهو كالقرض يسترده صاحبه ، وحاصل الجملتين عنده أن الشمس تميل بالغدو عن كهفهم وتصيبهم بالعشي إصابة خفيفة ، ورد بأنه لم يسمع للقرض بهذا المعنى فعل ثلاثي ليفتح حرف المضارعة ، واختار بعضهم كون

المراد ما ذكر إلا أنه جعل تقرضهم من القرض بمعنى القطع لا بالمعنى الذي ذكره أبو علي لما سمعت وزعم أنه من باب الحذف والإيصال والأصل تقرض لهم وأن المعنى وإذا غربت تقطع لهم من ضوئها شيئاً ، والسبب لاختياره ذلك توهمه أن الشمس لو لم تصب مكانهم أصلاً لفسد هواؤه وتعفن ما فيه فيصير ذلك سبباً لهلاكهم وفيه ما فيه ، وأكثر المفسرين على أنهم لم تصبهم الشمس أصلاً وإن اختلفوا في منشأ ذلك .

واختار جمع أنه لمحض حجب الله تعالى الشمس على خلاف ما جرت به العادة قالوا : والإشارة تؤيد ذلك أتم تأييد والاستبعاد مما لا يلتفت إليه لا سيما فيما نحن فيه فإن شأن أصحاب الكهف كله على خلاف العادة .

وبعض من ذهب إلى أن المنشأ كون باب الكهف في مقابلة بنات نعش جعل ذلك إشارة إلى إيوائهم إلى كهف هذا شأنه وبعض آخر جعله إشارة إلى حفظ الله تعالى إياهم في ذلك الكهف المدة الطويلة وآخر جعله إشارة إلى إطلاعه سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم على أخبارهم .

واعترض على الأخيرين بأنه لا يساعدهما إيراد ذلك في تضاعيف القصة ، وجعله بعضهم إشارة إلى هدايتهم إلى التوحيد ومخالفتهم قومهم وآباءهم وعدم الاكتراث بهم وبملكهم مع حداثتهم وإيوائهم إلى كهف شأنه ذلك ولا يخلو عن حسن وإليه أميل والله تعالى أعلم .

وقرىء ﴿ يقرضهم ﴾ بالياء آخر الحروف ولعل الضمير عائد على غروب الشمس .

وقال أبو حيان : أي يقرضهم الكهف ﴿ اللهُ مَن يَهْدِ اللهُ ﴾ من يدل سبحانه دلالة موصولة إلى الحق ويوفق لما يحبه ويرضاه ﴿ فَهُوَ المهتد ﴾ الفائز بالحظ الأوفر في الدارين ، والمراد إما الثناء على أصحاب الكهف والشهادة لهم بإصابة المطلوب والإخبار بتحقق ما أملوه من نشر الرحمة وتهيئة المرفق أو التنبيه على أن أمثال هذه الآيات كثيرة ولكن المشفع بها من وفقه الله تعالى للتأمل فيها والاستبصار بها فالمراد بمن إما الفتية أو ما يعمهم وغيرهم وفيه ثناء عليهم أيضاً وهو كما ترى .

وجعله بعضهم ثناء على الله تعالى لمناسبة قوله سبحانه ﴿ وزدناهم هُدًى ﴾ [الكهف : 13] ﴿ وربطنا ﴾ [الكهف : 14] وملاءمة قوله عز وجل ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ﴾ يخلق فيه الضلال لصرف اختياره إليه ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُ ﴾ أبداً وإن بالغت في التتبع والاستقصاء ﴿ وَلِيّاً ﴾ ناصراً ﴿ مُّرْشِدًا ﴾ يهديه إلى الحق ويخلصه من الضلال لاستحالة وجوده في نفسه لا أنك لا تجده مع وجوده أو إمكانه إذ لو أريد مدحهم لاكتفى بقوله تعالى ﴿ فَهُوَ المهتد ﴾ وفيه أنه لا يطابق المقام والمقابلة لا تنافي المدح بل تؤكده ففيه تعريض بأنهم أهل

الولاية والرشاد لأن لهم الولي المرشد ، ولعل في الآية صنعة الاحتباك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(111/469)

وقال القاسمى :

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ ﴾

أي : وإذ اعتزلتم القوم ، بترك متابعتهم ، من إفراط ظلمهم ، وهو موجب بغضهم .

واعتزلتم معبوداتهم غير الله ، فإنهم كانوا يعبدونهم صريحا أو في ضمن عبادتهم له ، فأووا إلى الكهف الذي لا يطلعون عليكم فيه ، فلا يؤذونكم ، ولا تخافوا من الكون فيه ، فوات الطعام والشراب ، فإنكم إذا التجأتم إلى الله بعد ما دعوتموه بنشر الرحمة وتهيئة الرشد ، : ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي : ما يغني عن الطعام والشراب ، بالإمدادات الملكوتية والتأييدات القدسية : ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ ﴾ وهو اختيار جانبه على جانبكم : ﴿ مِرْفَقاً ﴾ أي : ما تنتفعون به . قال المهايمي : يرفق بنفوسكم فيعطيها من لذات عبادته ما ينسيها سائر اللذات . على أنها لذاتها لم تخل من أذية . وهذه خالية عن الأذيات كلها . وجزمهم بذلك لنصوع يقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى .

تنبيه :

زعم قوم أن الآية تفيد مشروعية العزلة واستحبابها مطلقا . وهو خطأ . فإنها تشير إلى التأسي بأهل الكهف في الاعتزال ، إذا اضطُهد المرء في دينه وأريد على الشرك . وممن رد الاحتجاج بهذه الآية على تفضيل العزلة ، الإمام الغزالي حيث قال في " إحيائه " : وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضا وهم مؤمنون . وإنما اعتزلوا الكفار . أي : ولا ريب في مشروعيته فراراً من الفتن .

(112/469)

فقول السيوطي في " الإكليل " : في الآية مشروعية العزلة والفرار من الظلمة وسكون الغيران والجبال عند فساد الزمان كلام مجمل لا بد من التفصيل فيه . وأي عصر خلا من الفساد ؟ . وسياق الآية في الاضطهاد فحسب ، فافهم ولا تغلُ .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ ﴾ أي : صعدت عند طلوعها : ﴿ تَزَاوَرُ ﴾ أي : تميل : ﴿ عَنْ كَهْفِهِمْ ﴾ أي : بابه : ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ أي : يمين الكهف : ﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ ﴾ أي : هبطت للغروب : ﴿ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ أي : تقطعهم وتعدل عن سمت رؤوسهم إلى جهة الشمال : ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ أي : سعة من الكهف يصل

إليهم الهواء من كل جانب دون أذى الشمس . وقد دلت الآية على أن باب ذلك الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال . فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف . و إذا غربت كانت على شماله . فيقع شعاعها على جانبيه . يحلل عفونته ويعدل هواءه . و لا يقع عليهم فيؤذيهم . قال الشهاب : تقرضهم من القرض بمعنى القطع . أي : قطع الاتصال بهم لئلا تغير أبدانهم . قول الفارسي إنه من قرض الدراهم ، و المعنى أنها تعطيهم من تسخينها شيئا ثم يزول بسرعة كالقرض المسترد - مردود ، بأنه لم يسمع له ثلاثي .

وفي " الروض الآنف " تقرضهم كناية عن تعدل بهم . و قيل : تتجاوزهم شيئا . من القرض وهو القطع أي : تقطع ما هنالك من الأرض . و قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي : إرشادهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء ، و شعاع الشمس والريح تدخل عليهم فيه ، لتبقى أبدانهم ، آية من آياته الدالة على عنايته وتوفيقه للمخلصين : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ ﴾ أي : إلى الحق بالتوفيق له : ﴿ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ ﴾ أي : يخلق فيه الضلال لصرف اختياره إليه : ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا ﴾ أي : ناصرا يلي أمره فيحفظه من الضلال : ﴿ مُرْشِدًا ﴾ أي : يهديه إلى ما ذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل جـ 11 صـ 13. 14﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾

يتعين أن يكون هذا من كلام بعضهم لبعض على سبيل النصح والمشورة الصائبة .

وليس يلزم في حكاية أقوال القائلين أن تكون المحكيات كلها صادرة في وقت واحد ، فيجوز أن يكونوا قال بعضهم لبعض ذلك بعد اليأس من ارعِواء قومهم عن فتنتهم في مقام آخر .

ويجوز أن يكون ذلك في نفس المقام الذي خاطبوا فيه قومهم بأن غيروا الخطاب من مواجهة قومهم إلى مواجهة بعضهم بعضاً ، وهو ضرب من الالتفات .

فعلى الوجه الأول يكون فعل ﴿ اعتزلتموهم ﴾ مستعملاً في إرادة الفعل مثل ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة : 6] ، وعلى الوجه الثاني يكون الاعتزال قد حصل فيما بين مقام خطابهم قومهم وبين مخاطبة بعضهم بعضاً .

وعلى الاحتمالين فالقرآن اقتصر في حكاية أقوالهم على المقصد الأهم منها في الدلالة على ثباتهم دون ما سوى ذلك ممّا لا أثر له في الغرض وإنما هو مجرد قصص .

وإذ للظرفية المجازية بمعنى التعليل .

والاعتزال : التباعد والانفراد عن مخالطة الشيء ، فمعنى اعتزال القوم ترك مخالطتهم .

ومعنى اعتزال ما يعبدون : التباعد عن عبادة الأصنام .

والاستثناء في قوله : إلا الله ﴾ منقطع لأن الله تعالى لم يكن يعبده القوم .

والفاء للتفريع على جملة ﴿ وإذ اعتزلتموهم ﴾ باعتبار إفادتها معنى : اعتزلتم دينهم اعتزالاً اعتقادياً ، فيقدر بعدها جملة نحو : اعتزلوهم اعتزالَ مفارقة فأْوُوا إلى الكهف ، أو يقدر : وإذ اعتزلتم دينهم يعذبونكم فأووا إلى الكهف .

وجوز الفراء أن تضمن (إذْ) معنى الشرط ويكون ﴿ فأووا ﴾ جوابها .

وعلى الشرط يتعين أن يكون ﴿ اعتزلتموهم ﴾ مستعملاً في إرادة الاعتزال .

والأوْيُ تقدم آنفاً ، أي فاسكنوا الكهف .

(114/469)

والتعريف في ﴿ الكهف ﴾ يجوز أن يكون تعريف العهد ، بأن كان الكهف معهوداً عندهم يتعبدون فيه من قبل .

ويجوز أن يكون تعريف الحقيقة مثل ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ [يوسف : 13] ، أي فأووا إلى كهف من الكهوف .

وعلى هذا الاحْتمال يكون إشارة منهم إلى سُنة النصارى التي ذكرناها في أول هذه الآيات ، أو عادة المضطهدين من اليهود كما ارتأيناه هنالك .

ونشر الرحمة : توفر تعلقها بالمرحومين .

شبه تعليق الصفة المتكرر بنشر الثوب في أنه لا يُبقي من الثوب شيئاً مخفياً ، كما شبه بالبسط وشبه ضده بالطيّ وبالقبض .

والمَرفق بفتح الميم وكسر الفاء : ما يرتفق به وينتفع .

وبذلك قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ، وبكسر الميم وفتح الفاء وبه قرأ الباقون .

وتهيئته مستعارة للإكرام به والعناية ، تشبيهاً بتهيئة القرى للضيف المعتنى به .

وجزم ﴿ينشر﴾ في جواب الأمر .

وهو مبني على الثقة بالرجاء والدعاء .

وساقوه مساق الحاصل لشدة ثقتهم بلطف ربهم بالمؤمنين .

﴿ وَتَرَى الشمس إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليمين وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشمال وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ .

عطف بعض أحوالهم على بعض .

انتقل إلى ذكره بمناسبة الإشارة إلى تحقيق رجائهم في ربهم حين قال بعضهم لبعض ﴿ ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقاً ﴾ [الكهف : 16] .

وهذا حال عظيم وهو ما هيأ الله لهم في أمرهم من مرفق ، وأن ذلك جزاؤهم على اهتدائهم وهو من لطف الله بهم .

والخطاب لغير معين .

والمعنى : يَرى مَن تمكنه الرؤيةُ .

وهذا كثير في الاستعمال ، ومنه قول النابغة :

ترى عافيات الطير قد وثقت لها

بشبع من السُخل العتاق الأكايل . . .

وقد أوجز من الخبر أنهم لما قال بعضهم لبعض ﴿ فأووا إلى الكهف ﴾ [الكهف : 16]

أنهم أووا إليه .

والتقدير : فأخذوا بنصيحته فأووا إلى الكهف .

(115/469)

ودل عليه قوله في صدر القصة ﴿ إذ أوى الفتية إلى الكهف ﴾ [الكهف : 10] فرُد

عجزُ الكلام على صدره .

وتزاور ﴾ مضارع مشتق من الزور بفتح الزاي ، وهو المَيل .

وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح التاء وتشديد الزاي بعدها ألف وفتح

الواو .

وأصله : تتزاور بتاءين أدغمت تاء التفاعل في الزاي تخفيفاً .

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الزاي على حذف إحدى التاءين وهي تاء المضارعة للتخفيف اجتزاء برفع الفعل الدال على المضارعة .

وقرأه ابن عامر ويعقوب ﴿ تزور ﴾ بفتح التاء بعدها زاي ساكنة وبفتح الواو وتشديد الراء بوزن تَحْمَرُّ .

وكلها أبنية مشتقة من الزَوَر بالتحريك ، وهو الميل عن المكان ، قال عنترة :

فازورّ من وقع القنا بلبَانِه

أي مال بعض بدنه إلى بعض وانقبض .

والإتيان بفعل المضارعة للدلالة على تكرر ذلك كل يوم .

و ﴿ تقرضهم ﴾ أي تنصرف عنهم .

وأصل القَرْض القطع ، أي أنها لا تطلع في كهفهم .

و ﴿ ذات اليمين وذات الشمال ﴾ بمعنى صاحبة ، وهي صفة لمحذوف يدل عليه الكلام ، أي الجهة صاحبة اليمين .

وتقدم الكلام على ﴿ ذات ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ في سورة الأنفال (1) .

والتعريف في اليمين ﴾ ، و ﴿ الشمال ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أي يمين الكهف

وشماله ، فيدل على أن فم الكهف كان مفتوحاً إلى الشمال الشرقي ، فالشمس إذا طلعت تطلع على جانب الكهف ولا تخترقه أشعتُها ، وإذا غربتْ كانت أشعتها أبعد عن فم الكهف منها حينَ طلوعها .

وهذا وضع عجيب يسّره الله لهم بحكمته ليكون داخلُ الكهف بحالة اعتدال فلا ينتاب البِلى أجسادَهم ، وذلك من آيات قدرة الله .

والفجوة : المتسع من داخل الكهف ، بحيث لم يكونوا قريبين من فم الكهف .

وفي تلك الفجوة عون على حفظ هذا الكهف كما هو .

﴿ ذلك مِنْ ءَايَاتِ الله ﴾

الإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى المذكور من قوله : ﴿ وترى الشمس ﴾ .

وآيات الله : دلائل قدرته وعنايته بأوليائه ومؤيدي دين الحق .

(116/469)

والجملة معترضة في خلال القصة للتنويه بأصحابها .

والإشارةُ للتعظيم .

استئناف بياني لما اقتضاه اسمُ الإشارة من تعظيم أمر الآية وأصحابِها .

وعموم (مَن) الشرطية يشمل المتحدَث عنهم بقرينة المقام .

والمعنى : أَنهم كانوا مهتدين لأن الله هداهم فيمن هدى ، تنبيهاً على أن تيسير ذلك لهم من الله هو أثر تيسيرهم لليسرى والهُدى ، فأبلغهم الحق على لسان رسولهم ، ورزقهم أفهاماً تؤمن بالحق .

وقد تقدم الكلام على نظير ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ ، وعلى كتابة ﴿ المهتد ﴾ بدون ياء في سورة الإسراء .

والمرشد : الذي يُبين للحيران وجه الرشد ، وهو إصابة المطلوب من الخير . انتهى ا. هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(117/469)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾

"إذ " في قوله ﴿ وَإِذِ اعتزلتموهم ﴾ للتعليل على التحقيق ، كما قاله ابن هشان وعليه فالمعنى : ولأجل اعتزالكم قومكم الكفار وما يعبدونه من دون الله ، فاتخذوا الكهف مأوى ومكان اعتصام ، ينشر لكم من ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقاً ، وهذا

يدل على أن اعتزال المؤمن قومه الكفار ومعبوديهم من أسباب لطف الله به ورحمته .

وهذا المعنى يدل عليه أيضاً قوله تعالى في نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام :

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عسى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّاً فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ [مريم : 48-50] . واعتزالهم إياهم هو مجانبتهم لهم ، وفرارهم منهم بدينهم .

وقوله : ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ إَلاَّ اللهَ ﴾ اسم موصول في مح نصب معطوف على الضمير المنصوب في قوله : ﴿ اعتزلتموهم ﴾ اي واعتزلتم معبوديهم من دون الله . وقيل : " ما " مصدرية ، أي اعتزلتموهم واعتزلتم عبادتهم غير الله تعالى . والأول أظهر .

وقوله : ﴿ إلا الله ﴾ قيل : هو استثناء متصل ، بناء على انهم كانوا يعبدون الله والأصنام . وقيل : هو استثناء منقطع . بناء على القول بأنهم كانوا لا يعبدون إلا الأصنام ، ولا يعرفون الله ولا يعبدونه .

وقوله: ﴿ مرفقاً ﴾ أي ما ترتفقون به أي تنتفعون به. وقرأه نافع وابن عامر بفتح الميم وكسر الفاء مع تفخيم الراء. وقرأه باقي السبعة بكسر الميم وفتح الفاء وترقيق الراء، وهما قراءتان ولغتان فيما يرتفق به، وفي عضو الإنسان المعروف. وأنكر الكسائي في "المرفق" بمعنى عضو الإنسان – فتح الميم وكسر الفاء، وقال: هو بكسر الميم وفتح الفاء، ولا يجوز غير ذلك.

وزعم ابن الأنباري أن "من" في قوله: ﴿ وَيُهَيِّىءْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ ﴾ بمعنى البديلة، اي يهيىء لكم بدلاً من "أمركم" الصعب مرفقاً: وعلى هذا الذي زعم غاية كقوله تعالى: ﴿ أَرَضِيتُمْ بالحياة الدنيا مِنَ الآخرة ﴾ [التوبة: 38] أي بدلاً منها وعوضاً عنها. ومن هذا المعنى قول الشاعر:

فليت لنا من ماء زمزم شربة... مبردة باتت على طهيان

أي بدلاً من ماء زمزم، والله تعالى أعلم.

ومعنى ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ ﴾: يبسط لكم: كقوله: ﴿ وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ [الشورى: 28] الآية: وقوله ﴿ وَيُهَيِّىءْ ﴾ أي ييسر ويقرب ويسهل.

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الشمس إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليمين وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشمال وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذلك مِنْ آيَاتِ الله ﴾.

اعلم أولاً أما قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التي تضمنها – أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً ، ويكون في نفس الاية قرينة تدل على خلاف ذلك القول .

وذكرنا من ذلك أمثلة متعددة .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن العلماء اختلفوا في هذه الآية على قولين وفي نفس الاية قرينة تدل على صحة أحدهما وعدم صحة الآخر .

(119/469)

أما القول الذي تدل القرينة في الآية على خلافه – فهو أن أصحاب الكهف كانوا في زاوية من الكهف ، وبينهم وبين الشمس حواجز طبيعية من نفس الكهف ، تقيهم حر الشمس عند طلوعها وغروبها . على ما سنذكر تفصيله إن شاء الله تعالى .

وأما القول الذي تدل القرينة في هذه الآية على صحته – فهو أصحاب الكهف كانوا في فجوة من الكهف على سمت تصيبه الشمس وتقابله . إلا أن الله منع ضوء الشمس من الوقوع عليهم على وجه خرق العادة . كرامة لهؤلاء القوم الصالحين ، الذين فروا بدينهم طاعة لربهم جل وعلا .

والقرينة الدالة على ذلك هي قوله تعالى : ﴿ ذلك مِنْ آيَاتِ الله ﴾ إذ لو كان الأمر كما ذكره

أصحاب القول الأول لكان ذلك أمراً معتاداً مألوفاً ، وليس فيه غرابة حتى يقال فيه ﴿ ذلك مِنْ آيَاتِ الله ﴾ وعلى هذا الوجه الذي ذكرناه أنه تشهد له القرينة المذكورة . فمعنى تزوار الشمس عن كهفهم ذات اليمين عند الطلوع ، وإلى جهة الشمال عند الغروب . والله جل وعلا قادر على كل شيء ، يفعل ما يشاء . فإذا علمت هذا – فاعلم أن أصحاب القول الأول اختلفوا في كيفية وضع الكهف . وجزم ابن كثير في تفسيره بأن الآية تدل على أن باب الكهف كان من نحو الشمال ، قال : لأنه تعالى أخبر بأن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ذات اليمين ، أي يتقلص الفيء يمنة . كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة : تزوار أي تميل ، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في ذلك المكان . ولهذا في ذلك المكان . ولهذا قال تعالى ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشمال ﴾ أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه وهو من ناحية الشرق ، فدل على صحة ما قلناه وهذا بين لمن تأمله ، وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب .

وبيانه – أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب . ولو كان من ناحية القبلة لما دخل إليه منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب .
ولا تزاور الفيء يميناً وشمالاً . ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع ، بل بعد الزوال ولم تزل في إلى الغروب ، فتعين ما ذكرناه ، ولله الحمد . انتهى كلام ابن كثير .
وقال الفخر الرازي في تفسيره : أصحاب هذا القول قالوا إن باب الكهف كان مفتوحاً إلى الجانب الشمال ، فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف ، وإذا غربت كانت على شماله ، فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف ، وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل إليه ، انتهى كلام الرزاي . وقال أبو حيان في تفسير هذه الآية : وهذه الصفة مع الشمس تقتضي أنه كان لهم حاجب من جهة الجنوب ، وحاجب من جهة الدبور وهم في زاوية . وقال عبد الله بن مسلم : كان باب الكهف ينظر إلى بنات نعش ، وعلى هذا كان أعلى الكهف مستوراً من المطر .
قال ابن عطية : كان كهفهم مستقبل بنات نعش لا تدخله الشمس عند الطلوع ولا عند الغروب ، اختار الله لهم مضجعاً متسعاً في مقناة لا تدخل عليهم الشمس فتؤذيهم . انتهى الغرض من كلام أبو حيان . والمقناة : المكان الذي لا تطلع عليه الشمس ، وإلى غير ذلك من أقوال العلماء .
والقول الأول أنسب للقرينة القرآنية التي ذكرنا .

وممن اعتمد القول الأول لأجل القرينة المذكورة – الزجاج، ومال إليه بعض الميل الفخر الرازي والشوكاني في تفسيريهما ، لتوجيههما قول الزجاج المذكور بقرينة الآية المذكورة.

وقال الشوكاني رحمه الله في تفسيره: ويؤيد القول الأول قوله تعالى: ﴿ ذلك مِنْ آيَاتِ الله ﴾ فإن صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة إلى مكان تصل إليه عادة أنسب، بمعنى كونها آية. ويؤيده ايضاً إطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها إلى جهة كذا. ومما يدل على أن الفجوة المكان الواسع قول الشاعر:

ألبست قومك مخزاة ومنقصة... حتى أبيحوا وحلوا فجوة الدار

انتهى كلام الشوكاني.

ومعلوم أن الفجوة: هي المتسع. وهو معروف في كلام العرب ومنه البيت المذكور، وقول الآخر:

ونحن ملأنا كل واد وفجوة... رجالاً وخيلاً غير ميل ولا عزل

ومنه الحديث: "فإذا وجد فجوة نص".

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَتَرَى الشمس إِذَا طَلَعَت ﴾ أي ترى أيها المخاطب

الشمس عند طلوعها تميل على كهفهم. والمعنى: أنك لو رأيتهم لرأيتهم كذلك. لا أن المخاطب رآهم بالفعل، كما يدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوْلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾ [الكهف: 18] الآية والخطاب بمثل هذا مشهور في لغة العرب التي نزل بها هذا القرآن العظيم. وأصل مادة التزاور: الميل، فمعنى تزاور: تميل.

والزور: الميل، ومنه شهادة الزور، لأنها ميل عن الحق. ومنه الزيادة، لأن الزائر يميل إلى المزور. ومن هذا المعنى قوله عنترة في معلقته:

فازور من وقع القنا بلبانه... وشكا إلي بعبرة وتحمحم

وقول عمر بن أبي ربيعة:

وخفض عني الصوت أقبلت مشية ال... حبات وشخصي خشية الحي أزور

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ ذات اليمين ﴾ أي جهة اليمين، وحقيقتها الجهة المسماة باليمين. وقال أبو حيان في البحر: وذات اليمين: جهة يمين الكهف، وحقيقتها الجهة المسماة باليمين، يعني يمين الداخل إلى الكهف، أو يمين الفتية اه وهو منصوب على الظرف.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ﴾.

من القرض بمعنى القطيعة والصرم. أي تقطعهم وتتجافى عنهم ولا تقربهم. وهذا المعنى معروف في كلام العرب. ومنه قول غيلان ذي الرمة:

نظرت بجرعاء السبية نظرة . . . ضحى وسواد العين في الماء شامس

إلى ظعن يقرضن أفواز مشرف . . . شمالاً وعن أيمانهن الفوارس

(122/469)

فقوله : " يقرضن أفواز مشرف " أي يقطعنها ويبعدنها ناحية الشمال وعن أيمانهن الفوارس ، وهو موضع أو رمال الدهناء . والأقواز : جمع قوز – بالفتح – وهو العالي من الرمل كأنه جبل . ويروى أجواز مشرف – جمع جوز . نم المجاز بمعنى الطريق . وهذا الذي ذكرنا هو الصواب في معنى قوله تعالى ﴿ تَّقْرِضُهُمْ ﴾ خلافاً لمن زعم أن معنى تقرضهم : تقطعهم من ضوئها شيئاً ثم يزول سريعاً كالقرض يسترد . ومراد قائل هذا القول – أن الشمس تميل عنهم بالغداة ، وتصيبهم بالعشي إصابة خفيفة ، بقدر ما يطيب لهم هواء المكان ولا يتعفن .

قال أبو حيان في البحر : ولو كان من القرض الذي يعطى ثم يسترد لكان الفعل رباعياً ن فتكون التاء في قوله " تقرضهم " مضمومة ، لكن دل فتح التاء من قوله " تقرضهم " على أنه من القرض بمعنى القطع ، أي تقطع لهم من ضوئها شيئاً ، وقد علمت أن الصواب القول الأول . وقد قدمنا أن الفجوة : المتسع .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ فيه ثلاث قراءات سبعيات :

قرأه ابن عامر الشامي " تزور " بإسكان الزاي وإسقاط الألف وتشديد الراء . على وزن تحمر ، وهو على هذه القراءة من الأزورار بمعنى الميل . كقول عنترة المتقدم :

فازور من وقع القنا . البيت . . . وقرأه الكوفيون وهم عاصم وحمزة والكسائي بالزاي المخففة بعدها ألف . وعلى هذه القراءة فأصله " تتزاور " فحذفت منه إحدى التاءين .

على حد قوله في الخلاصة :

وما يتاءين ابتدى قد يقتصر . . . فيه على تا كتبي العبر

وقرأه نافع المدني وابن كثير المكي وأبو عمرو البصري " تزاور " بتشديد الزاي بعدها ألف ، وأصله " تتزاور " أدغمت التاء في الزاي . وعلى هاتين القراءتين : أعني قراءة حذف إحدى التاءين ، وقراءة إدغامها في الزاي فهم من التزاور بمعنى الميل أيضاً . وقد يأتي التفاعل بمعنى مجرد الفعل كما هنا ، وكقولهم : سافر وعاقب وعافى .

وعلى قول من قال : إن في الكهف حواجز طبيعية تمنع من دخول الشمس بحسب وضع الكهف فالإشارة في قوله : ﴿ الك مِنْ آيَاتِ اللَّه ﴾ راجعة إلى ما ذكر من حديثهم .

أي ذلك المذكور إلى هدايتهم إلى التوحيد وإخراجهم من بين عبدة الأوثان ، وإيوائهم إلى ذلك الكهف ، وحمايتهم من عدوهم إلى آخر حديثهم – من آيات الله . وأصل الاية عند المحققين " أيية " بثلاث فتحات ، أبدلت فيه الياء الأولى ألفاً . والغالب في مثل ذلك أنه إذا اجتمع موجبا إعلال في الأخير . لأن التغيير عادة أكثر في الأواخر ، كما في طوى ونوى ، ونحو ذلك . وهنا أعلى الأول على خلاف الأغلب ، كما أشار له في الخلاصة بقوله :

وإن لحرفين ذا الإعلال استحق . . . صحح أول وعكس قد يحق

والآية تطلق في اللغة العربية إطلاقين . وتطلق في القرآن العظيم إطلاقين أيضاً . أما إطلاقاها في اللغة الأول منهما – أنها تطلق بمعنى العلامة ، وهو الإطلاق المشهور ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التابوت ﴾ [البقرة : 248] الآية ، وقول عمر بن أبي ربيعة :

بآية ما قالت غداة لقيتها . . . بمدفع أكنان أهذا المشهر

يعني أن قولها ذلك هو العلامة بينها وبين رسوله إليها المذكور في قوله قبله :

ألكني إليها بالسلام فإنه . . . يشهر إلمامي بها وينكر

وقد جاء في شعر نابغة ذبيان وهو جاهلي تفسير الآية بالعلامة في قوله :

توهمت آيات لها فعرفتها . . . لستة أعوام وذا العام سابع

ثم بين مراده بالآيات علامات الدار بقوله بعده :

رماد ككحل العين لأياً أبينه . . . ونؤدي كجذم الحوض أثلم خاشع

وأما الثاني منهما – فهو إطلاق الآية بمعنى الجماعة ، يقولون : جاء القوم بآيتهم ، أي بجماعتهم . ومنه قول برج بن مسهر أو غيره :

خرجنا من النقبين لاحى مثلنا . . . بآياتنا لزجي اللقاح المطافلا

فقوله " بآياتنا " أي بجماعتنا .

(124/469)

وإما إطلاقها في القرآن فالأول منهما – إطلاقها على الآية الكونية القدرية ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الألباب ﴾ [آل عمران : 190] أي علامات كونية قدرية في القرآن من الآية بمعنى العلامة لغة .

وأما إطلاقها الثاني في القرآن فهو إطلاقها على الآية الشرعية الدينية ، كقوله : ﴿ رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ الله ﴾ [الطلاق : 11] الآية ونحوها من الآيات .

والآية الشرعية الدينية قيل : هي من الآية بمعنى العلامة لغة ، لأنها علامات على صدق من جاء بها . أو أن فيها علامات على ابتدائها وانتهائها .

وقيل : من الآية . بمعنى الجماعة ، لاشتمال الآية الشرعية الدينية على طائفة وجماعة من

كلمات القرآن.

قوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً ﴾ .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الهدى والإضلال بيده وحده جل وعلا، فمن هداه فلا مضل له، ومن أضله فلا هادي له.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة جداً، كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً ﴾

(125/469)

[الإسراء: 97] الآية، وقوله: ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المهتدي وَمَن يُضْلِلْ فأولئك هُمُ الخاسرون ﴾ [الأعراف: 178]، وقوله: ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن اللهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: 56] الآية، وقوله: ﴿ وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ [المائدة: 41] الآية، وقوله: ﴿ إِن تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [النحل: 37]، وقوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي

السمآء ﴾ [الأنعام : 125] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً .

ويؤخذ هذه الآيات وأمثالها في القرآن – بطلان مذهب القدرية : أن العبد مستقل بعمله من خير أو شر ، وأن ذلك ليس بمشيئة الله بل بمشيئة العبد ، سبحانه جل وعلا عن أن يقع في ملكه شيء بدون مشيئته ! وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ! وسيأتي بسط هذا المبحث إن شاء الله تعالى .

وقد أوضحناه أيضاً في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة "الشمس " في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 8] وقوله ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ أي لن يكون بينه وبينه سبب للمولاة يرشده إلى الصواب والهدى ، أي لن يكون ذلك – لأن من أضله الله فل هادي له ، وقوله : ﴿ فَهُوَ المهتد ﴾ قرأه بإثبات الياء في الوصل دون الوقف نافع وأبو عمرو . وبقية السبعة قرؤوه بحذف الياء في الحالين . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(126/469)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ

وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (16) ﴾

هذا حديث الفتية بعضهم إلى بعض : ما دُمْنا اعتزلنا أهل الكفر ، ونأينا عن طريقهم ، وسلكنا مسلكَ الإيمان بالله الذي يسَّره الله لنا ، فهيا بنا إلى الكهف نلجأ إليه ونحتمي فيه فراراً بديننا ، ومخافة أن يفتننا القوم عن ديننا .

ويلفتنا هنا إلى فرار هؤلاء الفتية ليس إلى بلد آخر فيه مُتّسع للحياة ، بل إلى كهف ضيق في جبل في صحراء ، وليس به مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة ؛ لذلك ينبهنا الحق سبحانه : إياك أن تقول : إن الكهف ضيق ، وكيف يعيشون فيه ؟ لأنهم مهاجرون إلى الله لاجئون إليه مُتوكّلون عليه .

لذلك قال بعدها : ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ ﴾ [الكهف : 16] فالضيق يقابله البَسْط والسّعة ، لقد قالوا هذه الكلمة وهم واثقون في رحمة الله معتقدون أن الذي هاجروا إليه لن يُسلمهم ولن يخذلهم ، وسوف يُوسِّع عليهم برحمته هذا الضيق ، وقد وَسَّعه الله عليهم فعلاً حين أنامهم ، أَلاَ ترى النائم يربع في الدنيا هنا وهناك ولا تحدُّه حدود ؟

ومن هذه السعة ما حدث في قصة نبي الله موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام حينما تبعه فرعون بجنود حتى قال أتباعه : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . . ﴾ [الشعراء : 61] ، فقد ضاق عليهم الخناق حيث البحر من أمامهم ، والعدو من خلفهم ، ولا مهربَ لهم فيما يرون من واقع الأمر . فماذا قال موسى لقومه في هذا الموقف ؟ قال بملء فيه قوْلَة الواثق من نصر

الله : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62]

فجاءه التأييد من ربه في التوِّ واللحظة ، وفُرِّج عنه وعن أصحابه ما يُلاقون من ضيق المخرج ، فأوحى الله إليه : ﴿ اضرب بِّعَصَاكَ البحر ﴾ [الشعراء : 63]

(127/469)

كذلك هنا : ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ . . ﴾ [الكهف : 16]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقاً ﴾ [الكهف : 16] والمراد بالمرفق جمع مرافق ، وهي مُقوِّمات الحياة التي لا يستغني عنها الإنسان ، فلما أنامهم الله أغناهم عن مرافق الحياة ، لأنهم إنْ ظلوا في حال اليقظة فلا بُدَّ أنْ يحتاجوا إلى هذه المرافق .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَرَى الشمس إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليمين وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشمال . . . ﴾ .

بعد أنْ ضرب الله على آذانهم فعصمهم من الأصوات التي تُزعجهم وتُقلق نومهم عصمهم أيضاً من ضوء الشمس ، وقد أثبتت الأبحاث خطر الأشعة خاصة على النائم ، وأن للظُّلمة مهمةً ، فبها تهدأ الأعصاب وترتاح الأعضاء ، والشمس خَلْق من خَلْق الله ، لها مَدارٌ ثابت وقانون لا يتخلّف ، كما قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء :

[33

ولكن الخالق سبحانه وتعالى خرق لهم نظام الشمس حتى لا يزعجهم ضوؤها فجعلها ﴿ تَّزَاوَرُ ﴾ أي : تميل عند طلوعها عن الكهف ، ومنه الزُّور : أي الميل عن الحق ، وازورّ عن الشيء أي : مال عنه ، فكانت الشمس إذا طلعتْ تميل عن الكهف جهة اليمين .

(128/469)

﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشمال ﴾ [الكهف : 17] والقرْض كما هو معلوم أنْ تعطي غيرك شيئاً يحتاج إليه ، فكأن الشمس تقرضهم وتسلفهم ، كونها لا تدخل عليهم عند غروبها ، وهذا أمر ليس من حقهم ، فكأنها تقرضهم إياه . ولا شكَّ أن هذه العملية مظهرٌ من مظاهر قدرة الله التي تصنع الشيء وضده .

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل الفعل للشمس في تزاور وتقرضهم ، وكأنها تفعل ذلك من نفسها بعد أنْ ضبط الله تعالى حركتها على هذه الأفعال كما تضبط الآلة اليوم .

وقوله : ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ [الكهف : 17] أي : في الكهف ﴿ ذلك مِنْ آيَاتِ الله ﴾ [الكهف : 17] وما دامت هذه الأفعال للشمس آيةً من آيات الله ، ومعجزة من معجزاته تعالى ، فإياك أنْ تعترضَ : كيف تميل الشمس ؟ وكيف تُغيِّر اتجاهها ؟ لأن الخالق

سبحانه خلق الخَلْق ، وأعطى لكل مخلوق قانونه الذي يسير به ، ومع ذلك لم يترك لكل مخلوق أنْ يفعل بقانونه ما يريد ، بل له سبحانه وتعالى قيُّومية على القانون ، تبطله إنْ شاء ، وتحركه إنْ شاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً ﴾ [الكهف : 17] فقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال ذيول هذه المعركة موجودة إلى الآن ، فهناك دائماً من يقول : إذا كان الله هو الهادي والمُضِل ، فلماذا يعذبني إن ضللت ؟ وشاع هذا السؤال وأخذه المستشرقون والفلاسفة ، ويراد منه إيجاد مبرر للنفس العاصية غير الملتزمة ، ونقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت ؟ ولماذا لم تذكر الثواب إن أحسنت وآمنت ؟ إن اقتصارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التي جاءت لك هي مكسب تركته وأخذت المسألة التي فيها ضرر ، ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم .

(129/469)

والهداية نوعان : هداية دلالة ، وهي للجميع ، للمؤمن والكافر ؛ لأن الحق سبحانه لم يدل المؤمن فقط ، بل يدل المؤمن والكافر على الإيمان به ، فمن يُقبل على الإيمان به ، فإن الحق

تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة ، فيأخذ بيده ويعينه ، ويجعل الإيمان خفيفاً على قلبه ، ويعطي له طاقة لفعل الخير ، ويشرح له صدره وييسر له أمره .

فمن شاء الحق سبحانه هدايته أعطاه الهداية ، ومن شاء له الضلال زاده ضلالاً ، وقد بيّن أن من شاء هدايته يهتدي ، وهذه معونة من الله ، والكافر لا يهتدي ، وكذلك الظالم والفاسق ، لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره ، وهكذا يمنع الحق سبحانه عنهم هداية المعونة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(130/469)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ اعتزلتموهم ﴾ : " إذا " منصوبٌ بمحذوف ، أي : وقال بعضُهم لبعضٍ وقتَ اعتزالِهم . وجوَّز بعضُهم أَنْ تكونَ " إذ " للتعليل ، أي : فَأْووا إلى الكهفِ لاعتزالِكم إياهم ، وهو قول مَقُولٌ لكنَّه لا يَصِحُّ .

قوله : ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ يجوز في " ما " ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أَنْ تكونَ بمعنى الذي ، والعائدُ مقدرٌ ، أي : واعْتَزَلْتُم الذي يعبدونه . و " إلا الله " يجوز فيه أن يكونَ استثناءً

متصلاً ، فقد رُوي أنهم كانوا يعبدون اللهَ ويُشْرِكون به غيرَه ، ومنقطعاً ، فقد رُوي أنهم كانوا يعبدون الأصنام فقط . والمستثنى منه يجوز أن يكونَ الموصولَ ، وأن يكون عائدَه ، والمعنى واحد .

والثاني : أنها مصدريةٌ ، أي : واعتزلتُمْ عبادَتهم ، أي : تركتموها . و " إلا اللهَ " على حَذْفِ مضاف ، أي : إلا عبادةَ الله . وفي الاستثناء الوجهان المتقدمان .

الثالث : أنها نافيةٌ ، وأنَّه مِنْ كلامِ الله تعالى ، وعلى هذا فهذه الجملةُ معترضةٌ بين أثناءِ القصةِ وإليه ذهب الزمخشري . و ﴿ إِلاَّ الله ﴾ استثناءٌ مفرغٌ أخبر الله عن الفتنةِ أنَّهم لا يعبدون غيرَه . وقال أبو البقاء : " والثالث : أنها حرفُ نفيٍ فيخرج في الاستثناء وجهان ، أحدهما : هو منقطعٌ ، والثاني : هو متصلٌ ، والمعنى : وإذ اعتزلتموهم إلا الله وما يعبدون إلا اللهَ " قلت : فظاهرُ هذا الكلامِ : أن الانقطاعَ والاتصالَ في الاستثناءِ مترتبان على القولِ بكون " ما " نافيةً ، وليس الأمرُ كذلك .

قوله : " مِرْفَقا " قرأ بكسرِ الميمِ وفتحِ الفاءِ الجمهورُ . ونافع وابنُ عامر بالعكس ، وفيهما اختلافٌ بين أهلِ اللغة ، فقيل : هما بمعنى واحد وهو ما يَرْتَفَقُ به ، وليس بمصدرٍ . وقيل :

هو بالكسر في الميم لليد ، وبالفتح للأمر ، وقد يُسْتَعْمل كلٌّ واحدٍ منهما موضعَ الآخر ، حكاه الأزهري عن ثعلب . وأنشد الفراءُ جمعاً بين الغتين في الجارِحَة :

3131- بتُّ أُجافي مِرْفقاً عن مَرْفقِ . . . /وقيل : يُسْتعملان معاً في الأمرِ وفي الجارحة ، حكاه الزجاج .

وحكى مكي ، عن الفراء أنه قال : " لا أعرِفُ في الأمر ولا في اليد ولا في كل شيءٍ إلا كسرَ الميمِ " .

قلت : وتواترُ قراءةِ نافعٍ والشاميين يَرُدُّ عليه . وأنكر الكسائيُّ كسرَ الميم في الجارحة ، وقال : لا أعرفُ فيه إلا الفتحَ وهو عكسُ قولِ تلميذِه ، ولكن خالفه أبو حاتم ، وقال : " هو بفتح الميم : الموضعُ كالمسجد . وقال أبو زيد : هو بفتح الميم مصدرٌ جاء على مَفْعَل " وقال بعضهم : هما لغتان فيما يُرْتَفَقُ به ، فأمَّا الجارِحَةُ فبكسرِ الميمِ فقط . وحُكي عن الفرّاء أنَّه قال : " أهلُ الحجاز يقولون : " مَرْفقا " بفتح الميم وكسرِ الفاءِ فيما ارتفقْتَ به ، ويكسِرون مِرْفَق الإنسان ، والعربُ بعدُ يَكْسِرون الميمَ منهما جميعاً " . وأجاز معاذ فتحَ الميم والفاءِ ، وهو مصدرٌ كالمَضْرَب والمَقْتَل .

و ﴿ مِّنْ أَمْرِكُمْ ﴾ متعلِّقُ بالفعلِ قبلَه ، و " مِنْ " لابتداءِ الغايةِ أو للتعيض . وقيل : هي بمعنى بَدَل ، قاله ابن الأنباريّ وأنشد :

3132- فليت لنا مِنْ ماءِ زمزمِ شَرْبَةً . . . مُبرَّدَةً باتَتْ على طَهَيانِ

أي : بَدَلاً . ويجوز أن يكونَ حالاً من " مِرْفَقاً " فيتعلَّقَ بمحذوفٍ .

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾

(132/469)

قوله تعالى : ﴿ تَّزَاوَرُ ﴾ : قرأ ابن عامر " تَزْوَرُّ " بزنةِ تَحْمَرُّ ، والكوفيون " تَزَاوَرُ " بتخفيفِ الزاي ، والباقون بتثقِيلها . ف " تَزْوَرُّ " بمعنى تَميل من الزَّوَر وهو المَيَلُ ، وزاره بمعنى مال إليه ، وقول الزُّور : مَيّلٌ عن الحق ، ومنه الأَزْوَرُ وهو المائلُ بعينه وبغيرها . قال عمر بن أبي ربيعة :

3133- . . . .

وجَنْبي خِيفةَ القومِ أَزْوَرُ

وقيل : تَزْوَرُّ بمعنى تَنْقَبِضُ مِنْ ازوَرَّ ، أي : انقبضَ . ومنه قولُ عنترة :

3134- فازْوَرَّ مَنْ وقعَ القَنا بلبانِه . . . وشكا إليَّ بعَبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ

وقيل : مال . ومثلُه قولُ بِشْر بن أبي خازم :

3135- يَؤُمُّ بها الحداةُ مياهَ نَخْلٍ . . . وفيها عن أبانَيْنِ ازوِرارُ

أي : مَيْلٌ .

وأما " تزاوَرُ " و " تَّوازَرُ " فأصلهما تَتَزاوَرُ بتاءين ، فالكوفيون حذفوا إحدى التَّائين ، وغيرُهم أَدْغم ، وقد تقدَّم تحقيقُ هذا في " تَظَاهَرون " و " تَساءلون " ونحوهما . ومعنى ذلك الميل أيضاً .

وقرأ أبو رجاء والجحدري وابن أبي عبلة وأيُّوب السَّخْتياني " تَزْوَارُّ " بزنة تَحْمارُّ . وعبد الله وأبو المتوكل " تَزْوَئِرُّ " بهمزةٍ مكسورةٍ قبل راءٍ مشددة ، وأصلُها " تَزْوارُّ " كقراءة أبي رجاء ومَنْ معه ، وإنما كَرِهَ الجمعَ بين الساكنين ، فأبدل الألفَ همزةً على حدِّ إبدالها في " جَأَنّ " و " الضَّأّلِّين " . وقد تقدَّم تحقيقُه أولَ هذا التصنيف أخرَ الفاتحة .

و ﴿ إِذَا طَلَعَت ﴾ معمولٌ لـ " تَرَى " أو لـ " تَزَاوَرُ " ، وكذا ﴿ إِذَا غَرَبَت ﴾ معمولٌ للأولِ أو للثاني وهو " تَقْرِضهم " . والظاهرُ تَمَحُّضُه للظرفيةِ ، ويجوزُ أَنْ تكونَ شرطيةً .

ومعنى " تَقْرِضُهم " تَقْطَعهُم لا تقرِّبهم ، لأنَّ القَرْضَ القَطْعُ ، من القَطِيعةِ والصَّرْم . قال ذو الرمة :

3136- إلى ظُعُنٍ يَقْرِضْنَ أَقْوازَ مُشْرِفٍ . . . شِمالاً، وعن أَيْمَانِهِنَّ الفوارِسُ

والقَرْضُ: القَطْعُ. وتقدَّم تحقيقُه في البقرة. وقال الفارسي: "معنى تَقْرِضُهم: تُعْطيهم مِنْ ضوئِها شيئاً ثم تزول سريعاً كالقَرْض يُسْتَرَدُّ". وقد ضُعِّف قولُه بأنه كان ينبغي أن يُقْرأ "تُقْرِضُهم" بضم التاء لأنه مِنْ أَقْرض.

وقرئ "يَقْرِضهم" بالياء مِنْ تحتُ، أي: الكهف، وفيه مخالَفَةٌ بين الفعلين وفاعِلِهما، فالأَوْلى أن يعودَ على الشمس ويكون كقوله:

3137- . . . .

. . . ولا أرضَ أَبْقَلَ إبْقالَها

وهو قولُ ابنِ كَيْسان.

و"ذات اليمين" و"ذات الشّمال" ظرفا مكانٍ بمعنى جهةِ اليمين وجهةِ الشّمال.

قوله: ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ جملةٌ حاليةٌ، أي: نفعلُ هذا مع اتساع مكانِهم، وهو أعجبُ لحالِهم، إذ كان ينبغي أَنْ تصيبَهم الشمسُ لاتّساعِه. والفَجْوَةُ: المُتَّسَعُ، من الفَجا، وهو تباعدُ ما بين الفَخْذَين. يقال: رجل أَفْجَى وامرأة فَجْواء، وجمع الفَجْوَةِ فِجاءٌ كقَصْعَة وقِصاع.

قوله: "ذلك" مبتدأٌ مُشار به إلى جميعِ ما تقدم مِنْ حديثهم. و"من "آياتِ الله" الخبرُ.

ويجوز أن يكونَ " ذلك " خبرَ مبتدأ محذوفٍ ، أي : الأمرُ ذلك . و ﴿ مِنْ آيَاتِ اللهِ ﴾ حالٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 454.459 ﴾

(134/469)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (16) ﴾

العزلةُ عن غير الله توجِبُ الوصلة بالله . بل لا تحصل الوصلةُ بالله إلا بعد العُزْلَةِ عن غير الله .

ويقال لما اعتزلوا ما عَبِدَ من دون الله آواهم الحقُّ إلى كنف رعايته ، ومهد لهم مثوىً في كهف عنايته .

ويقال مَنْ تبرَّأَ مِنَ اختياره في احتياله ، وصَدَقَ رجوعه إلى الله في أحواله ، ولم يستَعِنْ - بغير الله - من أشكاله وأمثاله آواه إلى كَنَفِ أفضاله ، وكفاه جميعَ أشغاله ، وهيَّأ له مَحَلاًّ يتفيؤ فيه بَرْدِ ظِلالِه ، بكمال إقباله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ ﴾ .

كانوا في مُتَّسَعٍ من الكهف ، ولكن كان شعاعُ الشمس لا ينبسط عليهم مع هبوب الرياح عليهم .

ويقال أنوار الشمس تتقاصر وتتصاغر بالإضافة إلى أنوارهم .

إن نورَ الشمس ضياءٌ يستضيء به الخَلْقُ ، ونور معارفهم أنوارٌ يُعْرَف بها الحق ، فهذا نور يظهر في الصورة ، وهذا نور يلوح في السريرة . وبنور الشمس يدرك الخْلق وبنورهم كانوا يعرفون الحق .

وفي قوله – عَزَّ اسمه : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ ﴾ فيه دلالة على أن في الأمر شيئاً بخلاف العادة ، فيكون من جملة كرامات الأولياء ؛ ويحتمل أن يكون شعاعُ الشمسِ إذا انتهى إليهم ازورَّ عنهم ، ومضى دونهم بخلاف ما يقول أصحاب الهبة ، ليكونَ فعلاً ناقضاً للعادة فلا يبعد أن يقال إن نور الشمس يُسْتَهْلَكُ في النور الذي عليهم .

قوله جلّ ذكره: ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ .

فاللَّه يهْدِي قوماً بالأدلةِ والبراهين، وقوماً بكشف اليقين؛ فمعارفُ الأولين قضية الاستدلال، ومعارف الآخرين حقيقة الوصال، فهؤلاء مع برهان، وهؤلاء على بيان كأنهم أصحاب عيان:

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ : أي مَنْ وَسَمَه بِسِمَةِ الحرمان فلا عرفانَ ولا علمَ ولا إيمان. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 382. 383 ﴾

(136/469)

قوله تعالى ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى:

ولما نبه سبحانه هذا التنبيه تسلية للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتثبيتاً أن يبخع نفسه، عطف على ما مضى بقية أمرهم فقال: ﴿ وتحسبهم أيقاظاً ﴾ لانفتاح أعينهم للهواء ليكون أبقى لها، ولكثرة حركاتهم ﴿ وهم رقود ونقلبهم ﴾ بعظمتنا في حال نومهم

تقليباً كثيراً بحسب ما ينفعهم كما يكون النائم ﴿ ذات ﴾ أي في الجهة التي هي صاحبة ﴿ اليمين ﴾ منهم ﴿ وذات الشمال ﴾ لينال روح النسيم جميع أبدانهم ولا يتأثر ما يلي الأرض منها بطول المكث ﴿ وكلبهم باسط ﴾ وأعمل اسم الفاعل هذا ، لأنه ليس بمعنى الماضي بل هو حكاية حال ماضية فقال : ﴿ ذراعيه بالوصيد ﴾ أي بباب الكهف وفنائه كما هي عادة الكلاب ، وذكر هذا الكلب على طول الآباد بجميل هذا الرقاد من بركة صحبة الأمجاد .

ولما كان هذا مشوقاً إلى رؤيتهم ، وصل به ما يكف عنه بقوله تعالى : ﴿ لو اطلعت عليهم ﴾ وهم على تلك الحال ﴿ لوليت منهم فراراً ﴾ أي حال وقوع بصرك عليهم ﴿ ولملئت ﴾ في أقل وقت بأيسر أمر ﴿ منهم رعباً ﴾ لما ألبسهم الله من الهيبة ، وجعل لهم من الجلالة ، وتدبيراً منه لما أراد منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 454 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾

اعلم أن معنى قوله : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ﴾ على ما ذكرناه في قوله : ﴿ وَتَرَى الشمس ﴾ [الكهف : 17] أي لو رأيتهم لحسبتهم ﴿ أَيْقَاظًا ﴾ وهو جمع يقظ ويقظان قاله الأخفش وأبو عبيدة والزجاج وأنشدوا لرؤبة :

ووجدوا إخوانهم أيقاظاً . . ومثله قوله نجد ونجدان وأنجاد ، وهم رقود أي نائمون وهو مصدر سمي المفعول به كما يقال قوم ركوع وقعود وسجود يوصف الجمع بالمصدر ، ومن قال إنه جمع راقد فقد أبعد لأنه لم يجمع فاعل على فعول ، قال الواحدي : وإنما يحسبون ﴿ أَيْقَاظًا ﴾ لأن أعينهم مفتحة وهم نيام وقال الزجاج لكثرة تقلبهم يظن أنهم أيقاظ ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ الشمال ﴾ واختلفوا في مقدار مدة التقليب فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن لهم في كل عام تقليبتين وعن مجاهد يمكثون على أيمانهم تسع سنين ثم يقلبون على شمائلهم فيمكثون رقوداً تسع سنين وقيل لهم تقليبة واحدة في يوم عاشوراء .

وأقول هذه التقديرات لا سبيل للعقل إليها ، ولفظ القرآن لا يدل عليه ، وما جاء فيه خبر صحيح فكيف يعرف ؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما فائدة تقليبهم لئلا تأكل الأرض لحومهم ولا تبليهم .

وأقول هذا عجيب لأنه تعالى لما قدر على أن يمسك حياتهم مدة ثلثمائة سنة وأكثر فلم لا يقدر على حفظ أجسادهم أيضاً من غير تقليب ؟ وقوله : ﴿ ذَاتُ ﴾ منصوبة على الظرف لأن المعنى ﴿ نقلبهم ﴾ في ناحية ﴿ اليمين ﴾ أو على ناحية ﴿ اليمين ﴾ كما قلنا في قوله : ﴿ تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليمين ﴾ وقوله : ﴿ وَكَلْبُهُمْ باسط ذِرَاعَيْهِ ﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين قالوا إنهم هربوا ليلاً من ملكهم ، فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ومعه كلبه ، وقال كعب مروا بكلب فنبح عليهم فطردوه فعاد ففعلوا مراراً ، فقال لهم الكلب ما تريدون مني لا تخشوا جانبي أنا أحب أحباء الله فناموا حتى أحرسكم ، وقال عبيد بن عمير كان ذلك كلب صيدهم ومعنى : ﴿ باسط ذِرَاعَيْهِ ﴾ أي يلقيهما على الأرض مبسوطتين غير مقبوضتين ، ومنه الحديث في الصلاة : " أنه نهى عن افتراش السبع " وقال : " لا تفترش ذراعيك افتراش السبع " قوله : ﴿ بالوصيد ﴾ يعني فناء الكهف قال الزجاج الوصيد فناء البيت وفناء الدار وجمعه وصائد ووصد ، وقال يونس والأخفش والفراء الوصيد والأصيد لغتان مثل الوكاف والإكاف ، وقال السدي : ﴿ الوصيد ﴾ الباب والكهف لا يكون له باب ولا عتبة وإنما أراد أن الكلب منه بموضع العتبة من البيت ، ثم قال : ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ ﴾ أي أشرفت عليهم يقال اطلعت عليهم أي أشرفت عليهم ، ويقال أطلعت فلاناً على الشيء فاطلع وقوله : ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ قال الزجاج قوله

: ﴿ فِرَارًا ﴾ منصوب على المصدر لأن معنى وليت منهم فررت : ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أي فزعاً وخوفاً قيل في التفسير طالت شعورهم وأظفارهم وبقيت أعينهم مفتوحة وهم نيام ، فلهذا السبب لو رآهم الرائي لهرب منهم مرعوباً ، وقيل : إنه تعالى جعلهم بحيث كل من رآهم فزع فزعاً شديداً ، فأما تفصيل سبب الرعب فالله أعلم به .

وهذا هو الأصح وقوله : ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ قرأ نافع وابن كثير لملئت بتشديد اللام والهمزة والباقون بتخفيف اللام ، وروى عن ابن كثير بالتخفيف والمعنى واحد إلا أن في التشديد مبالغة ، قال الأخفش الخفيفة أجود في كلام العرب ، يقال : ملأتني رعباً ، ولا يكادون يعرفون ملأتني ، ويدل على هذا أكثر استعمالهم كقوله :

فيملأ بيتنا أقطاً وسمناً . . (1)

وقول الآخر :

ومن مالىء عينيه من شيء غيره . . إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وقال الآخر :

لا تملأ الدلو وعرق فيها . . وقال الآخر :

امتلأ الحوض وقال قطني . . وقد جاء التثقيل أيضاً ، وأنشدوا للمخبل السعدي :

وإذا قتل النعمان بالناس محرما . . فملأ من عوف بن كعب سلاسله

وقرأ ابن عامر والكسائي رعباً بضم العين في جميع القرآن والباقون بالإسكان . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 87.85 ﴾

---

(1) هذا صدر بيت من أبيات لامرئ القيس منها :

إذا ما لم تكن إبل فمعزى كأن قرون جلتها العصي

فتملأ بيتنا أقطا وسمنا وحسبك من غني شبع وري

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وتحسبهم أيقاظاً وهم رقودٌ ﴾

الأيقاظ : المنتبهون .

قال الراجز :

قد وجدوا إخوانهم أيقاظا . . . والسيف غياظ لهم غياظا

والرقود : النيام . قيل إن أعينهم كانت مفتوحة ويتنفسون ولا يتكلمون .

﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ يعني تقلب النيام لأنهم لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض لطول مكثهم . وقيل إنهم كانوا يقلبون في كل عام مرتين ، ستة أشهر على جنب . وستة أشهر على جنبٍ آخر ، قاله ابن عباس .

قال مجاهد : إنما قلبوا تسع سنين بعد ثلاثمائة سنة لم يقلبوا فيها .

وفيما تحسبهم من أجله أيقاظاً وهم رقود قولان :

أحدهما : لانفتاح أعينهم .

الثاني : لتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال .

﴿ وكلبهم باسِطٌ ذِراعيه بالوصيد ﴾ في ﴿ كلبهم ﴾ قولان :

أحدهما : أنه كلب من الكلاب كان معهم ، وهو قول الجمهور . وقيل إن اسمه كان حمران .

الثاني : أنه إنسان من الناس كان طباخاً لهم تبعهم ، وقيل بل كان راعياً . وفي ﴿ الوصيد ﴾ خمسة تأويلات :

أحدها : أنه العتبة .

الثاني : أنه الفناء قاله ابن عباس .

الثالث : أنه الحظير ، حكاه اليزيدي .

الرابع : أن الوصيد والصعيد التراب ، قاله سعيد بن جبير .

الخامس : أنه الباب ، قاله عطية ، وقال الشاعر :

بأرض فضاءَ لا يُسَدُّ وَصيدها . . . عليَّ ومعروفي بها غيرُ مُنْكَرِ

وحكى جرير بن عبيد أنه كان كلباً ربيباً صغيراً . قال محمد بن إسحاق كان اصفر اللون .

﴿ لو أطّلعت عليهم لوليت منهم فِراراً ولملِئت منهم رُعباً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لطول أظفارهم وشعورهم يأخذه الرعب منهم فزعاً .

الثاني : لما ألبسهم الله تعالى من الهيبة التي ترد عنهم الأبصار لئلا يصل إليهم أحد حتى يبلغ الكتاب فيهم أجله .

(141/469)

حكى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : غزوت مع معاوية رضي الله عنه في بحر الروم فانتهينا إلى الكهف الذي فيه أصحاب الكهف ، فقال معاوية أريد أن أدخل عليهم فأنظر إليهم ، فقلت ليس هذا لك فقد منعه الله من هو خير منك ، قال تعالى ﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ﴾ الآية . فأرسل جماعة إليهم دخلوا الكهف أرسل الله عليهم ريحاً أخرجتهم .

وقيل إن هذه المعجزة من قومهم كانت لنبي قيل إنه كان أحدهم وهو الرئيس الذي اتبعوه وآمنوا به . انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وتحسبهم ﴾ الآية ،

صفة حال قد نقضت وجاءت أفعالها مستقبلة تجوزاً واتساعاً و﴿ أيقاظاً ﴾ جمع يقظ كعضد وأعضاد ، وهو المنتبه قال أهل التفسير : كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون ، فلذلك كان الرائي يحسبهم ﴿ أيقاظاً ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن يحسب الرائي ذلك لشدة الحفظ الذي كان عليهم وقلة التغير ، وذلك أن الغالب على النوام أن يكون لهم استرخاء وهيئات تقتضي النوم ، ورب نائم على أحوال لم يتغير عن حالة اليقظة فيحسبه الرائي يقظاناً وإن كان مسدود العينين ، ولو صح فتح أعينهم بسند يقطع العذر كان أبين في أن يحسب عليهم التيقظ ، وقرأ الجمهور "ونقلبهم" بنون العظمة ، وقرأ الحسن "وَتَقَلُّبُهم" بالتاء المفتوحة وضم اللام والباء ، وهو مصدر مرتفع بالابتداء ، قاله أبو حاتم ، وحكى ابن جني القراءة عن الحسن بفتح التاء وضم اللام وفتح الباء ، وقال هذا نصب بفعل مقدر كأنه قال وترى أو تشاهد تقلبهم ، وأبو حاتم أثبت ، ورأت فرقة أن التقلب هو الذي من أجله كان الرائي يحسبهم ﴿ أيقاظاً ﴾

وهذا وإن كان التقلب لمن صادف رؤيته دليلاً على ذلك ، فإن ألفاظ الآية لم تسقه إلا خبراً مستأنفاً ، وقال أبو عياض : كان هذا التقليب مرتين في السنة ، وقالت فرقة كل سبع سنين مرة ، وقالت فرقة إنما قلبوا في التسع الأواخر ، وأما في الثلاثمائة فلا ، وذكر بعض المفسرين أن تقلبهم إنما كان حفظاً من الأرض ، وروي عن ابن عباس أنه قال لو مستهم الشمس لأحرقتهم ، ولولا التقليب لأكلتهم الأرض .

قال القاضي أبو محمد : وآية الله في نومهم هذه المدة الطويلة وحياتهم دون تغد أذهب في الغرابة من حفظهم مع مس الشمس ولزوم الأرض ولكنها روايات تجلب . وتتأمل بعد ، وظاهر كلام المفسرين أن التقليب كان بأمر الله وفعل ملائكته ، ويحتمل أن يكون ذلك بإقدار الله إياهم على ذلك وهم في غمرة النوم لا ينتبهون كما يعتري كثيراً من النوام ، لأن القوم لم يكونوا موتى . وقوله ﴿ وكلبهم ﴾ أكثر المفسرين على أنه كلب حقيقة كان لصيد أحدهم فيما روي ، وقيل كان لراع مروا عليه فصحبهم وتبعه الكلب .

قال القاضي أبو محمد : وحدثني أبي رضي الله عنه ، قال : سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة : إن من أحب أهل الخير نال

من بركتهم ، كلب أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله ، وقيل كان أنمر ، وقيل أحمر ، وقالت فرقة كان رجلاً طباخاً لهم حكاه الطبري ولم يسم قائله ، وقالت فرقة : كان أحدهم وكان قعد عند باب الغار طليعة لهم .

(144/469)

قال القاضي أبو محمد : فسمي باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع من الناس ، كما سمي النجم التابع للجوزاء كلباً لأنه منها كالكلب من الإنسان ، ويقال له كلب الجبار : أما أن هذا القول يضعفه بسط الذراعين ، فإنهما في العرف من صفة الكلب حقيقة ومنه قول النبي عليه السلام : " ولا يبتسط أحدكم ذراعيه في السجود ابتساط الكلب " ، وقد حكى أبو عمر المطرز في كتاب اليواقيت أنه قرئ " وكالبهم باسط ذراعيه " فيحتمل أن يريد ب " الكالب " هذا الرجل ، على ما روي إذ بسط الذراعين واللصوق بالأرض مع رفع الوجه للتطلع هي هيئة الربيئة ، المستخفي بنفسه ، ويحتمل أن يريد ب " الكالب " الكلب ، وقوله ﴿ باسط ذراعيه ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضي لأنها حكاية حال ، ولم يقصد الإخبار عن فعل الكلب ، و" الوصيد " العتبة لباب الكهف أو موضعها حيث ليست .

وقال ابن عباس ومجاهد وابن جبير " الوصيد " الفناء ، وقال ابن عباس أيضاً " الوصيد "

الباب ، وقال ابن جبير أيضاً " الوصيد " التراب ، والقول الأول أصح ، والباب الموصد هو المغلق ، أي قد وقف على وصيده ، ثم ذكر الله عز وجل ما حفهم من الرعب واكتنفهم من الهيبة ، وقرأ " لوِ اطلعت " بكسر الواو جمهور القراء ، وقرأ الأعمش وابن وثاب " لوُ اطلعت " بضمها . وقد ذكر ذلك عن نافع وشيبة وأبي جعفر ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عباس وأهل مكة والمدينة " لملّئت " بشد اللام على تضعيف المبالغة أي ملئت ثم ملئت ثم ملئت ، وقرأ الباقون " لمُلِئت " بتخفيف اللام والتخفيف أشهر في اللغة ، وقد جاء التثقيل في قول المخبل السعدي : [الطويل]

وإذ فتك النعمان بالناس محرماً . . . فملىء من كعب بن عوف سلاسله

(145/469)

وقالت فرقة إنما حفهم هذا الرعب لطول شعورهم وأظفارهم ، ذكره المهدوي والزجاج ، وهذا قول بعيد ، ولو كانت حالهم هكذا ، لم يقولوا ﴿ لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ [الكهف : 19] وإنما الصحيح في أمرهم ، أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ناموا عليها ، لتكون لهم ولغيرهم فيهم آية ، فلم يبل لهم ثوب ، ولا تغيرت صفة ، ولا أنكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء ، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهم ، ولروي ذلك ،

وقرأ الجمهور " رعْباً " بسكون العين ، وقرأ " رعُباً " بضمها أبو جعفر وعيسى ، قال أبو حاتم : هما لغتان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(146/469)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وتحسَبُهم أيقاظاً ﴾

أي : لو رأيتَهم لحسِبتَهم أيقاظاً .

قال الزجاج : الأيقاظ : المنتبهون ، واحدهم : يَقِظ ، ويَقْظان ، والجميع : أيقاظ ؛ والرقود : النيام .

قال الفراء : واحد الأيقاظ : يَقُظ ، ويَقِظ .

قال ابن السائب : وإِنما يُحسَبون أيقاظاً ، لأن أعينهم مفتَّحة وهم نيام .

وقيل : لتقلُّبهم يميناً وشمالاً .

وذكر بعض أهل العلم : أن وجه الحكمة في فتح أعينهم ، أنه لو دام طَبْقها لذابت .

قوله تعالى : ﴿ ونُقَلِّبهم ﴾ وقرأ أبو رجاء : "وتَقْلِبُهم" بتاء مفتوحة ، وسكون القاف ، وتخفيف اللام المكسورة .

وقرأ أبو الجوزاء، وعكرمة: "ونَقْلِبُهم" مثلها، إِلا أنه بالنون.

﴿ذاتَ اليمين﴾ أي: على أيمانهم وعلى شمائلهم.

قال ابن عباس: كانوا يُقلَّبون في كل عام مرتين، ستة أشهر على هذا الجنب، وستة أشهر على هذا الجنب، لئلا تأكل الأرض لحومهم.

وقال مجاهد: كانوا ثلاثمائة عام على شِقّ واحد، ثم قُلِّبوا تسع سنين.

قوله تعالى: ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ أخبر أن الكلب كان على مثل حالهم في النوم، وهو في رأي العين منتبه.

وفي الوصيد أربعة أقوال.

أحدها: أنه الفِناء فِناء الكهف، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والفراء.

قال الفراء: يقال: الوَصِيد والأَصِيد لغتان، مثل الإكاف والوكاف.

وأرَّخت الكتاب وورَّخت، ووكدت الأمر وأكَّدت؛ وأهل الحجاز يقولون: الوَصيد، وأهل نجد يقولون: الأَصِيد، وهو: الحظيرة والفِناء.

والثاني: أنه الباب، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال السدي.

وقال ابن قتيبة: فيكون المعنى: وكلبهم باسط ذراعيه بالباب، قال الشاعر:

بِأرْضِ فَضَاءٍ لا يُسَدُّ وَصِيدُها . . .

عليَّ ومَعْرُوفي بها غيرُ مُنْكَرِ

(147/469)

والثالث : أنه الصعيد ، وهو التراب ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، ومجاهد في رواية عنهما .

والرابع : أنه عتبة الباب ، قاله عطاء .

قال ابن قتيبة : وهذا أعجب إليّ ، لأنهم يقولون : أَوصِد بابك ، أي : أَغلِقه ، ومنه قوله : ﴿ إنها عليهم مؤصَدة ﴾ [الهُمَزة : 8] ، أي : مُطْبَقة مُغْلَقة ، وأصله أن تلصق الباب بالعتبة إذا أغلقته ، ومما يوضح هذا أنك إذا جعلت الكلب بالفِناء ، كان خارجاً من الكهف ، وإن جعلته بعتبة الباب ، أمكن أن يكون داخل الكهف ، والكهفُ وإن لم يكن له باب وعتبة ، فانما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت ، فاستُعير .

قوله تعالى : ﴿ لو اطّلعتَ عليهم ﴾ [وقرأ الأعمش ، وأبو حصين : "لوُ اطلعت" بضم الواو] ﴿ لولّيْتَ منهم فراراً ﴾ رهبة لهم ﴿ ولملئت ﴾ قرأ عاصم ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : "ولَمُلِئْتَ" خفيفة مهموزة .

وقرأ ابن كثير ، ونافع : "ولَمُلِّئْتَ" مشددة مهموزة ، ﴿ رُعْباً ﴾ [أي] : فزعاً وخوفاً ، وذلك أن الله تعالى منعهم بالرعب لئلا يدخل إليهم أحد .

وقيل : إنهم طالت شعورهم وأظفارهم جداً ، فلذلك كان الرائي لهم لو رآهم هرب مرعوباً ، حكاه الزجاج. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(148/469)

وقال القرطبى :

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ الشمال ﴾

قال ابن عباس : لئلا تأكل الأرض لحومهم .

قال أبو هريرة : كان لهم في كل عام تقليبتان .

وقيل : في كل سنة مرة .

وقال مجاهد : في كل سبع سنين مرة .

وقالت فرقة : إنما قُلبوا في التسع الأواخر ، وأما في الثلثمائة فلا .

وظاهر كلام المفسرين أن التقليب كان من فعل الله ، ويجوز أن يكون من مَلَك بأمر الله ، فيضاف إلى الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوصيد ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ ﴾ قال عمرو بن دينار : إن مما أخذ على العقرب ألا تضر أحداً (قال) في ليله أو في نهاره : صلّى الله على نوح.

وإن مما أخذ على الكلب ألا يضر من حَمَل عليه (إذا قال) : وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد .

أكثر المفسرين على أنه كلب حقيقةً ، وكان لصيد أحدهم أو لزرعه أو غنمه ؛ على ما قال مقاتل .

واختلف في لونه اختلافاً كثيراً ، ذكره الثعلبيّ .

تحصيله : أيّ لون ذكرت أصبت ؛ حتى قيل لون الحجر وقيل لون السماء .

واختلف أيضاً في اسمه ؛ فعن عليّ : ريان .

ابن عباس : قطمير .

الأوزاعي : مشير .

عبد الله بن سلام : بسيط .

كعب : صهيا .

وهب : نقيا .

وقيل : قطفير ؛ ذكره الثعلبي .

وكان اقتناء الكلب جائزاً في وقتهم، كما هو عندنا اليوم جائز في شرعنا .

وقال ابن عباس : هربوا ليلاً، وكانوا سبعة فمرّوا براع معه كلب فاتبعهم على دينهم .

وقال كعب : مرّوا بكلب فنبح لهم فطردوه فعاد فطردوه مراراً، فقام الكلب على رجليه ورفع يديه إلى السماء كهيئة الداعي، فنطق فقال : لا تخافوا مني ! أنا أحبّ أحبّاء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم .

(149/469)

الثانية : ورد في الصحيح عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان " وروي في الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اتخذ كلباً إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط " قال الزهري : وذكر لابن عمر قول أبي هريرة فقال : يرحم الله أبا هريرة ! كان صاحب زرع .

فقد دلّت السنة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشية .

وجعل النقص في أجر من اقتناها على غير ذلك من المنفعة ؛ إما لترويع الكلب المسلمين وتشويشه عليهم بنباحه، أو لمنع دخول الملائكة البيت، أو لنجاسته، على ما يراه

الشافعي ، أو لاقتحام النهي عن اتخاذ ما لا منفعة فيه ؛ والله أعلم .

وقال في إحدى الروايتين "قيراطان" وفي الأخرى "قيراط" .

وذلك يحتمل أن يكون في نوعين من الكلاب أحدهما أشدّ أذًى من الآخر ، كالأسود الذي أمر عليه السلام بقتله ، ولم يدخله في الاستثناء حين نهى عن قتلها كما هو منصوص في حديث جابر ، أخرجه الصحيح .

وقال : " عليكم بالأسود البهيم ذي النقطتين فإنه شيطان " ويحتمل أن يكون ذلك لاختلاف المواضع ، فيكون ممسكه بالمدينة مثلاً أو بمكة ينقص قيراطان وبغيرها قيراط .

وأما المباح اتخاذه فلا ينقص ؛ كالفرس والهِرّة .

والله أعلم .

الثالثة : وكلب الماشية المباح اتخاذه عند مالك هو الذي يسرح معها ، لا الذي يحفظها في الدار من السّراق .

وكلب الزرع هو الذي يحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لا من السراق .

وقد أجاز غير مالك اتخاذها لسراق الماشية والزرع .

وقد تقدّم في "المائدة" من أحكام الكلاب ما فيه كفاية ، والحمد لله .

الرابعة : قال ابن عطية : وحدّثني أبي رضي الله عنه قال سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظة سنة تسع وستين وأربعمائة : إن مَن أحبَّ أهل الخير نال من بركتهم ؛ كلبٌ أحبّ أهل فضلٍ وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله .

قلت : إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين ! بل في هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصّرين عن درجات الكمال ، المحبين للنبيّ صلى الله عليه وسلم وآله خير آل .

روى الصحيح " عن أنس بن مالك قال : بينا أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سدّة المسجد فقال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أعددتَ لها" قال : فكأنّ الرجل استكان ، ثم قال : يا رسول الله ، ما أعددتُ لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكني أحبّ الله ورسوله .

قال : "فأنت مع من أحببت" " في رواية قال أنس بن مالك : " فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشدّ من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "فأنت مع من أحببت" " قال أنس : فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم .

قلت : وهذا الذي تمسّك به أنس يشمل من المسلمين كلّ ذي نفس ، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين ، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين ، كلبٌ أحب قوماً فذكره الله معهم ! فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام ، وحبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البر والبحر وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات وَفَضَّلْنَاهُمْ على كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ .

وقالت فرقة : لم يكن كلباً حقيقة ، وإنما كان أحدهم ، وكان قد قعد عند باب الغار طليعةً لهم ؛ . . .

(151/469)

كما سمي النجم التابع للجوزاء كلباً ؛ لأنه منها كالكلب من الإنسان ؛ ويقال له : كلب الجبّار .

قال ابن عطية : فسمِّي باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع أما إنّ هذا القول يضعفه ذكر بسط الذراعين فإنها في العرف من صفة الكلب حقيقة ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب " .

وقد حكى أبو عمر المطرّز في كتاب اليواقيت أنه قرىء "وكالبهم باسط ذراعيه

بالوصيد " .

فيحتمل أن يريد بالكالب هذا الرجل على ما روى ؛ إذ بسط الذراعين واللصوقُ بالأرض مع رفع الوجه للتطلع هي هيئة الريبة المستخفي بنفسه .

ويحتمل أن يريد بالكالب الكلب .

وقرأ جعفر بن محمد الصادقُ "وكالبهم" يعني صاحب الكلب .

قوله تعالى : ﴿ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضيّ ؛ لأنها حكاية حال ولم يقصد الإخبار عن فعل الكلب .

والذراع من طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى .

ثم قيل : بسط ذراعيه لطول المدّة .

وقيل : نام الكلب ، وكان ذلك من الآيات .

وقيل : نام مفتوح العين .

والوصيد : الفناء ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وابن جبير ، أي فناء الكهف ، والجمع وصائد ووصد .

وقيل : الباب .

وقاله ابن عباس أيضاً .

وأنشد :

بأرض فضاءٍ لا يُسَدّ وصِيدُها . . .

عليّ ومعروفي بها غير منكر

وقد تقدّم .

وقال عطاء : عتبة الباب ، والباب الموصد هو المغلق .

وقد أوصدت الباب وآصدته أي أغلقته .

والوصيد : النبات المتقارب الأصول ، فهو مشترك ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ ﴾ قرأ الجمهور بكسر الواو .

والأعمش ويحيى بن وثّاب بضمها .

﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً ﴾ أي لو أشرفت عليهم لهربت منهم .

﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾ أي لما حفهم الله تعالى من الرُّعب واكتنفهم من الهيبة .

وقيل : لوحشة مكانهم ؛ وكأنهم آواهم الله إلى هذا المكان الوحش في الظاهر لينفر الناس عنهم .

وقيل : كان الناس محجوبين عنهم بالرعب ، لا يجسر أحد منهم على الدنوّ إليهم .

وقيل : الفرار منهم لطول شعورهم وأظفارهم ؛ وذكره المهدويّ والنحاس والزجاج والقشيري .

وهذا بعيد ؛ لأنهم لما استيقظوا قال بعضهم لبعض : لبثنا يوما أو بعض يوم .

ودلّ هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالها ؛ إلا أن يقال : إنما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم .

قال ابن عطية : والصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم آية ، فلم يبل لهم ثوب ولم تغيّر صفة ، ولم ينكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء ، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهم .

وقرأ نافع وابن كثير وابن عباس وأهل مكة والمدينة "لَمُلِّئْتَ منهم" بتشديد اللام على تضعيف المبالغة ؛ أي ملئت ثم ملئت .

وقرأ الباقون "لملئت" بالتخفيف ، والتخفيف أشهر في اللغة .

وقد جاء التثقيل في قول المخبّل السعديّ :

وإذ فَتَكَ النُّعمان بالناس مُحْرِماً . . .

فملِّىء من كعب بن عوف سلاسله

وقرأ الجمهور "رُعْباً" بإسكان العين .

وقرأ بضمها أبو جعفر .

قال أبو حاتم : هما لغتان .

و"فرارا" نصب على الحال و"رعباً" مفعول ثان أو تمييز . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(153/469)

وقال أبو حيان :

والخطاب في ﴿ وتحسبهم ﴾ وفي ﴿ وترى الشمس ﴾ لمن قدر له أنه يطلع عليهم .

قيل : كانوا مفتحة أعينهم وهم نيام فيحسبهم الناظر منتبهين .

قال أبو محمد بن عطية : ويحتمل أن يحسب الرائي ذلك لشدّة الحفظ الذي كان عليهم وقلة التغيير ، وذلك أن الغالب على النوام أن يكون لهم استرخاء وهيئات تقتضي النوم ، فيحسبه الرائي يقظان وإن كان مسدود العينين ، ولو صح فتح أعينهم بسند يقطع العذر كان أبين في أن يحسب عليهم التيقظ ، والظاهر أن قوله ﴿ وتحسبهم أيقاظاً ﴾ إخبار مستأنف وليس على تقدير .

وقيل : في الكلام حذف تقديره لو رأيتهم لحسبتهم ﴿ أيقاظاً ﴾ .

والظاهر أن قوله ﴿ ونقلبهم ﴾ خبر مستأنف .

وقيل : إنما وقع الحسبان من جهة تقلبهم ، ولا سيما إذا كان من اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى اليمين وفي قراءة الجمهور ﴿ ونقلبهم ﴾ بالنون مزيد اعتناء الله بهم حيث أسند التقليب إليه تعالى ، وأنه هو الفاعل ذلك .

وحكى الزمخشري أنه قرىء ويقلبهم بالياء مشدّداً أي يقلبهم الله .

وقرأ الحسن فيما حكى الأهوازي في الإقناع : ويقلبهم بياء مفتوحة ساكنة القاف مخففة اللام .

وقرأ الحسن فيما حكى ابن جنيّ : وتقلبهم مصدر تقلب منصوباً ، وقال : هذا نصب بفعل مقدر كأنه قال : وترى أو تشاهد تقلبهم ، وعنه أيضاً أنه قرأ كذلك إلاّ أنه ضم الياء فهو مصدر مرتفع بالابتداء قاله أبو حاتم ، وذكر هذه القراءة ابن خالويه عن اليماني .

وذكر أن عكرمة قرأ وتقلبهم بالتاء باثنتين من فوق مضارع قلب مخففاً .

قيل : والفائدة في تقليبهم في الجهتين لئلا تُبلي الأرض ثيابهم وتأكل لحومهم ، فيعتقدوا أنهم ماتوا وهذا فيه بعد ، فإن الله الذي قدر على أن يبقيهم أحياء تلك المدة الطويلة هو قادر على حفظ أجسامهم وثيابهم .

وعن ابن عباس : لو مستهم الشمس لأحرقتهم ، ولولا التقليب لأكلتهم الأرض انتهى .

و﴿ ذات ﴾ بمعنى صاحبة أي جهة ﴿ ذات اليمين ﴾ .

ونقل المفسرون الخلاف في أوقات تقليبهم وفي عدد التقليبات، عن ابن عباس، وأبي هريرة، وقتادة، ومجاهد، وابن عياض بأقوال متعارضة متناقضة ضربنا عن نقلها صفحاً وكذلك لم تتعرض لاسم كلبهم ولا لكونه كلب زرع أو غيره، لأن مثل العدد والوصف والتسمية لا يدرك بالعقل وإنما يدرك بالسمع، والسمع لا يكون في مثل هذا إلاّ عن الأنبياء أو الكتب الإلهية، ويستحيل ورود هذا الاختلاف عنها.

والظاهر أن قوله ﴿ وكلبهم ﴾ أريد به الحيوان المعروف، وأبعد من ذهب إلى أنه أسد، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنه رجل طباخ لهم تبعهم، أو أحدهم قعد عند الباب طليعة لهم.

وحكى أبو عمر والزاهد غلام ثعلب أنه قرىء وكالئهم اسم فاعل من كلأ إذا حفظ، فينبغي أن يحمل على أنه الكلب لحفظه للإنسان.

قيل: ويحتمل أن يراد بالكالئ الرجل على ما روي إذ بسط الذراعين واللصوق بالأرض مع رفع الوجه للتطلع هي هيئة الريئة المستخفي بنفسه.

وقرأ أبو جعفر الصادق: وكالبهم بالباء بواحدة أي صاحب كلبهم، كما تقول لابن وتامر

أي صاحب لبن وتمر .

وقال الزمخشري : ﴿ باسط ذراعيه ﴾ حكاية حال ماضية ، لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضي ، وإضافته إذا أضيف حقيقة معرفة كغلام زيد إلا إذا نويت حكاية الحال الماضية انتهى .

وقوله لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضي ليس إجماعاً ، بل ذهب الكسائي وهشام ، ومن أصحابنا أبو جعفر بن مضاء إلى أنه يجوز أن يعمل ، وحجج الفريقين مذكورة في علم النحو .

والوصيد قال ابن عباس : الباب .

وعنه أيضاً وعن مجاهد وابن جبير : الفناء .

وعن قتادة : الصعيد والتراب .

وقيل : العتبة .

وعن ابن جبير أيضاً التراب .

والخطاب في ﴿ لو اطلعت ﴾ لمن هوله في قوله ﴿ وترى الشمس ﴾ ﴿ وتحسبهم أيقاظاً ﴾ .

وقرأ ابن وثاب والأعمش : ﴿ لو اطلعت ﴾ بضم الواو وصلاً .

وقرأ الجمهور : بكسرها ، وقد ذكر ضمها عن شيبة وأبي جعفر ونافع وتملية الرعب لما ألقى الله عليهم من الهيبة والجلال ، فمن رام الإطلاع عليهم أدركته تلك الهيبة .

ومعنى ﴿ لوليت منهم ﴾ أعرضت بوجهك عنهم .

وأوليتهم كشحك ، وانتصب ﴿ فراراً ﴾ على المصدر إما لفررت محذوفة ، وإما ﴿ لوليت ﴾ لأنه بمعنى لفررت ، وإما مفعولاً من أجله .

وانتصب ﴿ رعباً ﴾ على أنه مفعول ثان ، وأبعد من ذهب إلى أنه تمييز منقول من المفعول كقوله ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ على مذهب من أجاز نقل التمييز من المفعول ، لأنك لو سلطت عليه الفعل ما تعدى إليه تعدى المفعول به بخلاف ، ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾

وقيل : سبب الرعب طول شعورهم وأظفارهم وصفرة وجوههم وتغيير أطمارهم .

وقيل : لإظلام المكان وإيحاشه ، وليس هذان القولان بشيء لأنهم لو كانوا بتلك الصفة أنكروا أحوالهم ولم يقولوا ﴿ لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ ولأن الذي بعث إلى المدينة لم ينكر إلاّ العالم والبناء لا حاله في نفسه ، ولأنهم بحالة حسنة بحيث لا يفرق الرائي بينهم وبين الأيقاظ ﴿ وهم في فجوة ﴾ تتخرقه الرياح والمكان الذي بهذه الصورة لا يكون موحشاً .

وقرأ ابن عباس ، والحرميان ، وأبو حيوة ، وابن أبي عبلة بتشديد اللام والهمزة .

وقرأ باقي السبعة بتخفيف اللام والهمزة .

وقرأ أبو جعفر وشيبة بتشديد اللام وإبدال الياء من الهمزة .

وقرأ الزهري بتخفيف اللام والإبدال ، وتقدم الخلاف في ﴿ رعباً ﴾ في آل عمران .

وقرأ هنا بضم العين أبو جعفر وعيسى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(156/469)

وقال أبو السعود :

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ﴾

بفتح السين وقرىء بكسرها أيضاً ، والخطابُ فيه كما سبق ﴿ أَيْقَاظًا ﴾ جمع يَقظ

بكسر القاف وفتحها وهو اليقظانُ ، ومدارُ الحسبانِ انفتاحُ عيونِهم على هيئة الناظرِ ،

وقيل : كثرةُ تقلّبهم ، ولا يلائمه قوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾ ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ أي نيام ، وهو

تقريرٌ لما لم يُذْكَر فيما سلف اعتماداً على ذكره السابقِ من الضرب على آذانهم ﴿ وَنُقَلّبُهُمْ

﴾ في رقدتهم ﴿ ذَاتَ اليمين ﴾ نصبٌ على الظرفية أي جهةً تلي أَيمانهم ﴿ وَذَاتَ

الشمال ﴾ أي جهةً تلي شمالَهم كيلا تأكلَ الأرضُ ما يليها من أبدانهم . قال ابن عباس

رضي الله عنهما : لو لم يقلّبوا لأكلْتهم الأرضُ ، قيل : لهم تقليبتان في السنة . وقيل : تقليبةٌ

واحدةٌ يوم عاشوراءَ ، وقيل : في كل تسع سنين ، وقرىء يقلبهم على الإسناد إلى ضمير

الجلالة ، وتقلّبهم على المصدر منصوباً بمضمر ينبىء عنه وتحسبهم أي وترى تقلّبهم ﴿ وَكَلْبُهُمْ ﴾ قيل : هو كلبٌ مروا به فتبعهم فطردوه مراراً فلم يرجع فأنطقه الله تعالى فقال : لا تخشَوا جانبي فإني أحب أحباءَ الله تعالى فناموا حتى أحرُسَكم ، وقيل : هو كلبُ راعٍ قد تبعهم على دينهم ويؤيده قراءة كالبُهم إذ الظاهرُ لحوقُه بهم ، وقيل : هو كلبُ صيد أحدِهم أو زرعِه أو غنمِه ، واختلف في لونه فقيل : كان أنمرَ ، وقيل : أصفرَ ، وقيل : أصهبَ ، وقيل : غير ذلك ، وقيل : كان اسمُه قطمير ، وقيل : ريان ، وقيل : تتوه ، وقيل : قطمور ، وقيل : ثور . قال خالدُ بنُ مَعْدان : ليس في الجنة من الدواب إلا كلبُ أصحابِ الكهف وحمارُ بلعم ، وقيل : لم يكن ذلك من جنس الكلاب بل كان أسداً ﴿ باسط ذِرَاعَيْهِ ﴾ حكايةُ حالٍ ماضية ولذلك أُعمل اسمُ الفاعل وعند الكسائي ، وهشام ، وأبي جعفر ، من البصريين يجوز إعمالُه مطلقاً ، والذراعُ من المرفق إلى رأس الأُصبَعِ الوسطى ﴿ بالوصيد ﴾ أي بموضع الباب من الكهف ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ ﴾ أي لو عاينتَهم

(157/469)

وشاهدتَهم ، وأصلُ الاطّلاعِ الإشرافُ على الشيء بالمعاينة والمشاهدة ، وقرىء بضم الواو .

﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ هرباً مما شاهدتَ منهم ، وهو إما نصبٌ على المصدرية من معنى ما قبله إذ التوليةُ والفِرارُ من وادٍ واحدٍ وإما على الحالية بجعل المصدرِ بمعنى الفاعل أي فارًّا ، أو بجعل الفاعلِ مصدراً مبالغة كما في قوله

فإنما هيَ إقبالٌ وإدبارُ . . . وإما على أنه مفعولٌ له ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ وقرىء بضم العين أي خوفاً يملأ الصدرَ ويُرعِبه ، وهو إما مفعولٌ ثانٍ أو تمييز ، ذلك لما ألبسهم الله عز وجل من الهيبة والهيئةِ كانت أعينُهم مفتّحةً كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم ، وقيل : لطول أظفارِهم وشعورِهم ولا يساعده قولُهم : ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ فإن الظاهرَ من ذلك عدمُ اختلافِ أحوالِهم في أنفسهم ، وقيل : لِعظم أجرامِهم ، ولعل تأخيرَ هذا عن ذكر التوليةِ للإيذان باستقلال كلَ منهما في الترتب على الاطلاع ، إذ لو رُوعيَ ترتيبُ الوجودِ لتبادر إلى الفهم ترتبُ المجموعِ من حيث هو عليه وللإشعار بعدم زوالِ الرعبِ بالفرار كما هو المعتادُ .

وعن معاوية (لما غزا الروم فمرّ بالكهف ، قال : لو كشفتَ لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ، فقال له ابن عباس رضي الله عنهما : ليس لك ذلك قد منع الله تعالى من هو خيرٌ منك حيث قال : ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ ﴾ الآية ، قال معاوية : لا أنتهي حتى أعلمَ علمَهم ، فبعث ناساً وقال لهم : اذهبوا فانظُروا ، ففعلوا فلما دخلوا الكهفَ بعث الله تعالى ريحاً

فأحرقْتهم) . وقرىء بتشديد اللام على التكثير وبإبدال الهمزة ياءً مع التخفيف والتشديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 5 صـ ﴾

(158/469)

وقال الآلوسى :

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ﴾ بفتح السين .

وقرأ نافع .

وابن كثير .

وأبو عمرو .

والكسائي بكسرها أي تظنهم ، والخطاب فيه كما فيما سبق .

والظاهر أن هذا إخبار مستأنف وليس على تقدير شيء ، وقيل في الكلام حذف والتقدير ولو رأيتهم تحسبهم ﴿ أَيْقَاظًا ﴾ جمع يقظ بكسر القاف كانكاد ونكد كما في "الكشاف" وبضمها كأعضاد وعضد كما في "الدر المصون" .

وفي "القاموس" رجل يقظ كندس وكتف فحكى اللغتين ضم العين وكسرها وهو اليقظان

ومدار الحسبان انفتاح عيونهم على هيئة الناظر كما قال غير واحد .

وقال ابن عطية : يحتمل أن يحسب الرائي ذلك لشدة الحفظ الذي كان عليهم وقلة التغير وذلك لأن الغالب على النيام استرخاء وهيآت يقتضيها النوم فإذا لم تكن لنائم يحسبه الرائي يقظان وإن كان مسدود العينين ولو صح فتح أعينهم بسند يقطع العذر كان أبين في هذا الحسبان .

وقال الزجاج : مداره كثرة تقلبهم ، واستدل عليه بذكر ذلك بعد ، وفيه أنه لا يلائمه ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ جمع راقد أي نائم ، وما قيل إنه مصدر أطلق على الفاعل واستوى فيه القليل والكثير كركوع وقعود لأن فاعلاً لا يجمع على فعول مردود لأنه نص على جمعه كذلك النحاة كما صرح به في المفصل والتسهيل ، وهذا تقرير لما لم يذكر فيما سلف اعتماداً على ذكره السابق من الضرب على آذانهم ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾ في رقدتهم كثيراً ﴿ ذَاتَ اليمين ﴾ أي جهة تلي أيمانهم ﴿ وَذَاتَ الشمال ﴾ أي جهة تلي شمائلهم كيلا تأكل الأرض ما عليها من أبدانهم كما أخرجه سعيد بن منصور .

وابن المنذر عن ابن جبير ، واستبعد ذلك وقال الإمام : إنه عجيب فإن الله تعالى الذي قدر على أن يبقيهم أحياء تلك المدة الطويلة هو عز وجل قادر على حفظ أبدانهم أيضاً من غير تقليب ، وأجيب بأنه اقتضت حكمته تعالى أن يكون حفظ أبدانهم بما جرت به العادة وإن لم نعلم وجه تلك الحكمة ، ويجري نحو هذا فيما قيل في التزاور وأخيه ، وقيل يمكن أن يكون تقليبهم حفظاً لما هو عادتهم في نومهم من التقلب يميناً وشمالاً اعتناء بشأنهم .

وقيل يحتمل أن يكون ذلك إظهاراً لعظيم قدرته تعالى في شأنهم حيث جمع تعالى شأنه فيهم الأنامة الثقيلة المدلول عليها بقوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا على ءاذَانِهِمْ ﴾ [الكهف : 11] والتقليب الكثير ، ومما جرت به العادة أن النوم الثقيل لا يكون فيه تقلب كثير ، ولا يخفى بعده .

واختلف في أوقات تقليبهم فأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم كانوا يقلبون في كل ستة أشهر مرة ، وأخرج غير واحد عن أبي عياض نحوه ، وقيل يقلبون في كل سنة مرة ، وذلك يوم عاشوراء ، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد أن التقليب في التسع سنين الضميمة ليس فيما سواها ، وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أن هذا التقليب في التسع سنين الضميمة ليس فيما سواها ، وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أن هذا التقليب في رقدتهم الأولى يعني الثلثمائة سنة ، وكانوا يقلبون في كل عام مرة ولم يكن في مدة الرقدة الثانية يعني التسع .

وتعقب الإمام ذلك بأن هذه التقديرات لا سبيل للعقل إليها ولفظ القرآن لا يدل عليها وما جاء فيها خبر صحيح انتهى.

(160/469)

فظاهر الآية يدل على الكثرة لمكان المضارع الدال على الاستمرار التجددي مع ما فيه من التثقيل، والظاهر أن ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾ أخبار مستأنف، وجوز الطيبي بناءً على ما سمعت عن الزجاج كون الجملة في موضع الحال وهو كما ترى، وقرىء ﴿ ويقلبهم ﴾ بالباء آخر الحروف مع التشديد والضمير لله تعالى، وقيل للملك.

وقرأ الحسن فيما حكى الأهوازي في الإقناع ﴿ ويقلبهم ﴾ بياء مفتوحة وقاف ساكنة ولام مخففة، وقرأ فيما حكى ابن جني ﴿ وتقلبهم ﴾ على المصدر منصوباً، ووجهه أنه مفعول لفعل محذوف يدل عليه ﴿ مُّرْشِدًا وَتَحْسَبُهُمْ ﴾ أي وترى أو تشاهد تقلبهم، وروي عنه أيضاً أنه قرأ كذلك إلا أنه رفع، وهو على الابتداء كما قال أبو حاتم والخبر ما بعد أو محذوف أي آية عظيمة أو من آيات الله تعالى، وحكى ابن خالويه هذه القراءة عن اليماني وذكر أن عكرمة قرأ ﴿ وتقلبهم ﴾ بالتاء ثالثة الحروف مضارع قلب مخففاً، ووجه بأنه على تقدير وأنت تقلبهم وجعل الجملة حالاً من فاعل ﴿ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ ﴾

وفيه إشارة إلى قوة اشتباههم بالإيقاظ بحيث أنهم يحسبون إيقاظاً في حال سبر أحوالهم وقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴿ وَكَلْبُهُمْ ﴾ الظاهر أنه الحيوان المعروف النباح ، وله أسماء كثيرة أفراد لها الجلال السيوطي رسالة ، قال كعب الأحبار : هو كلب مروا به فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مراراً .

(161/469)

فقال لهم : ما تريدون مني لا تخشوا جانبي أنا أحب أحباء الله تعالى فناموا وأنا أحرسكم ، وروي عن ابن عباس أنه كلب راع مروا به فتبع دينهم وذهب معهم وتبعهم الكلب ، وقال عبيد بن عمير : هو كلب صيد أحدهم ، وقيل : كلب غنمه ؛ ولا بأس في شريعتنا باقتناء الكلب لذلك وأما فيما عداه وما عدا ما ألحق به فمنهي عنه ، ففي "البخاري" عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما من اقتنى كلباً ليس بكلب صيد أو ماشية نقص كل يوم من عمله قيراطان ، وفي رواية قيراط ، واختلف في لونه فأخرج ابن أبي حاتم من طريق سفيان قال : قال لي رجل بالكوفة يقال له عبيد وكان لا يتهم بكذب رأيت كلب أصحاب الكهف أحمر كأنه كساء أنبجاني ، وأخرج عن كثير النواء قال : كان الكلب أصفر ، وقيل كان أنمر وروي ذلك عن ابن عباس ، وقيل غير ذلك ، وفي اسمه فاخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه

قطمير ، وأخرج عن مجاهد أنه قطموراً ، وقيل ريان ، وقيل ثور ، وقيل غير ذلك ، وهو في الكبر على ما روي عن ابن عباس فوق القلطي ودون الكردي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبيد أنه قال رأيته صغيراً زينياً .

قال الجلال السيوطي : يعني صينياً ، وفي التفسير الخازني تفسير القلطي بذلك ، وزعم بعضهم أن المراد بالكلب هنا الأسد وهو على ما في "القاموس" أحد معانيه .

وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم دعا على كافر بقوله : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك فافترسه أسد وهو خلاف الظاهر ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال : قلت لرجل من أهل العلم زعموا أن كلبهم كان أسداً فقال : لعمر الله ما كان أسداً ولكنه كان كلباً أحر خرجوا به من بيوتهم يقال : له قطموراً وأبعد من هذا زعم من ذهب إلى أنه رجل طباخ لهم تبعهم أو أحدهم قعد عند الباب طليعة لهم ، نعم حكى أبو عمرو الزاهدي غلام ثعلب أنه قرىء ﴿ وكالئهم ﴾ بهمزة مضمومة بدل الباء وألف بعد الكاف من كلأ إذا حفظ .

(162/469)

ولا يبعد فيه أن يراد الرجل الربيئة لكن ظاهر القراءة المتواترة يقتضي إرادة الكلب المغروف منه أيضاً وإطلاق ذلك عليه لحفظه ما استحفظ عليه وحراسته إياه .

وقيل في هذه القراءة إنها تفسير أو تحريف .

وقرأ جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه ﴿ وكالبهم ﴾ بباء موحدة وزنة اسم الفاعل والمراد صاحب كلبهم كما تقول لابن وتامر أي صاحب لبن وتمر وجاء في شأن كلبهم أنه يدخل الجنة يوم القيامة .

فعن خالد بن معدان ليس في الجنة من الدواب إلا كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم ، ورأيت في بعض الكتب أن ناقة صالح وكبش إسماعيل أيضاً في الجنة ورأيت أيضاً أن سائر الحيوانات المستحسنة في الدنيا كالظباء والطواويس وما ينتفع به المؤمن كالغنم تدخل الجنة على كيفية تليق بذلك المكان وتلك النشأة وليس فيما ذكر خبر يعول عليه فيما أعلم نعم في الجنة حيوانات مخلوقة فيها ، وفي خبر يفهم من كلام الترمذي صحته التصريح بالخيل منها والله تعالى أعلم .

وقد اشتهر القول بدخول هذا الكلب الجنة حتى أن بعض الشيعة يسمون أبناءهم بكلب علي ويؤمل من سمي بذلك النجاة بالقياس الأولوي على ما ذكر وينشد :

فتية الكهف نجا كلبهم . . .

كيف لا ينجو غداً كلب علي

ولعمري أن قبله علي كرم الله تعالى وجهه كلباً له نجا ولكن لا أظن يقبله لأنه عقور ﴿ وَكَلْبُهُمْ باسط ذِرَاعَيْهِ ﴾ مادهما ، والذراع من المرفق إلى رأس الأصبع الوسطى ونصب

﴿ ذِرَاعَيْهِ ﴾ على أنه مفعول ﴿ باسط ﴾ وعمل مع أنه بمعنى الماضي واسم الفاعل لا يعمل إذا كان كذلك لأن المراد حكاية الحال الماضية .

وذهب الكسائي .

وهشام .

وأبو جعفر بن مضاء إلى جواز عمل اسم الفاعل كيفما كان فلا سؤال ولا جواب ﴿ بالوصيد ﴾ بموضع الباب ومحل العبور من الكهف وأنشدوا :

بأرض فضاء لا يسد وصيدها . . .

على ومعروفي بها غير منكر

وهو المراد بالفناء في التفسير المروى عن ابن عباس .

ومجاهد .

(163/469)

وعطية ، وقيل بالعتبة والمراد بها ما يحاذي ذلك من الأرض لا المتعارف ، فلا يقال إن الكهف لا باب له ولا عتبة على أنه لا مانع من ذلك .

وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن جبير أن الوصيد الصعيد وليس بذاك وذكروا في حكمة

كونه بالوصيد غيرنا ومعهم أن الملائكة عليهم السلام لا تدخل بيتاً فيه كلب وقد يقال: إن ذلك لكونه حارساً كما يشير إليه ما أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج قال: باسط ذراعيه بالوصيد يمسك عليهم باب الكهف وكان فيما قيل يكسر أذنه اليمنى وينام عليها إذا قلبوا ذات اليمين، ويكسر أذنه اليسرى وينام عليها إذا قلبوا ذات الشمال، والظاهر أنه نام كما ناموا لكن أخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن حميد المكي أنه جعل رزقه في لحس ذراعيه فإنه كالظاهر أنه لم يستغرق نومه كما استغرق نومهم ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ ﴾ لو عاينتهم وشاهدتهم وأصل الاطلاع الوقوف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة، وقرأ ابن وثاب. والأعمش ﴿ لوِ اطلعت ﴾ بضم الواو تشبيهاً لها بواو الضمير فإنها قد تضم إذا لقيها ساكن نحو رموا السهام؛ وروي أن ذلك عن شيبة وأبي جعفر.

﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ أي لأعرضت بوجهك عنهم وأوليتهم كشحك، ونصب ﴿ فِرَارًا ﴾ إما على المصدر لوليت إذ التولية، والفرار من واد واحد فهو كجلست قعوداً أو لفررت محذوفاً، وإما على الحالية بتأويله باسم الفاعل أو بجعله من باب فإنما هي إقبال وإدبار، وإما على أنه مفعول لأجله أي لرجعت لأجل الفرار ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أي خوفاً يملأ الصدر، ونصب على أنه مفعول ثان، ويجوز أن يكون تمييزاً وهو محول عن الفاعل، وكون الخوف يملأ مجاز في عظمه مشهور كما يقال في الحسن إنه يملأ العيون.

وفي "البحر" أبعد من ذهب إلى أنه تمييز محول عن المفعول كما في قوله تعالى شأنه : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرضَ عُيُوناً ﴾ [القمر : 12] لأن الفعل لو سلط عليه ما تعدى إليه تعدى المفعول به بخلاف ما في الآية ، وسبب ما ذكر أن الله عز وجل ألقى عليهم من الهيبة والجلال ما ألقى ، وقيل سببه طول شعورهم وأظفارهم وصفرة وجوههم وتغير اطمارهم وقيل : إظلام المكان وإيحاشه .

وتعقب ذلك أبو حيان بأن القولين ليسا بشيء لأنهم لو كانوا بتلك الصفة أنكروا أحوالهم ولم يقولوا

﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [الكهف : 19] ولأن الذي بعث إلى المدينة لم ينكر إلا المعالم والبناء لا حال نفسه ولأنهم بحالة حسنة بحيث لا يفرق الرائي بينهم وبين الإيقاظ وهم في فجوة موصوفة بما مر فكيف يكون مكانهم موحشاً اه .

وأجيب بأنهم لا يبعد عدم تيقظهم لحالهم فإن القائم من النوم قد يذهب عن كثير من أموره ويدعى استمرار الغفلة في الرسول وإنكاره للمعالم لا ينافي إنكار الناس لحاله وكونه على حالة منكرة لم يتنبه لها ، وأيضاً يجوز أنهم لم يطلعوا على حالهم ابتداءً فقالوا : ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [الكهف : 19] ثم تنبهوا له فقالوا : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [

الكهف : 19] ، وأيضاً يجوز أن يكون هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وذلك الحال إنما حدث بعد انتباههم الذي بعثوا فيه رسولهم إلى المدينة .

(165/469)

وعلى هذا لا يضر عدم إنكار الرسول حال نفسه لأنه لم يحدث له ما ينكر بعد ، وإيحاش المكان يجوز أن يكون حدث بعد على هذا أيضاً ، وذلك بتغيره بمرور الزمان اه ، ولا يخفى على منصف ما في هذه الأجوبة فالذي ينبغي أن يعول عليه أن السبب في ذلك ما ألقى الله تعالى عليهم من الهيبة وهم في كهفهم وأن شعورهم وأظفارهم إن كانت قد طالت فهي لم تطل إلى حد ينكره من يراه ، واختار بعض المفسرين أن الله تعالى لم يغير حالهم وهيئتهم أصلاً ليكون ذلك آية بينة ، والخطاب هنا كالخطاب فيما سبق ، وعلى احتمال أن يكون له صلى الله عليه وسلم يلزم أن يكونوا باقين على تلك الحالة التي توجب فرار المطلع عليهم ومزيد رعبه إلى ما بعد نزول الآية فمن لا يقول به لا يقول به .

وأخرج ابن أبي شيبة .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم فمررنا

بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف الذين ذكر الله تعالى في القرآن فقال معاوية : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال له ابن عباس : ليس ذلك لك قد منع الله تعالى ذلك من هو خير منك فقال : ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ فقال معاوية : لا أنتهي حتى أعلم علمهم فبعث رجالاً وقال : اذهبوا فادخلوا الكهف وانظروا فذهبوا فلما دخلوه بعث الله تعالى عليهم ريحاً فأخرجتهم ، قيل وكأن معاوية إنما لم يجر على مقتضى كلام ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ظناً منه تغير حالهم عما كانوا عليه أو طلباً لعلمهم مهما أمكن .

(166/469)

وأخرج ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب قال : كان لي صاحب ماض شديد النفس فمر بجانب الكهف فقال : لا أنتهي حتى أنظر إليهم فقيل لهم : لا تفعل أما تقرأ ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ ﴾ الخ فأبى إلا أن ينظر فأشرف عليهم فابيضت عيناه وتغير شعره وكان يخبر الناس بأن عدتهم سبعة ، وربما يستأنس بمثل هذه الأخبار لوجودهم اليوم بل لبقائهم على تلك الحالة التي لا يستطاع معها الوقوف على أحوالهم وفي ذلك خلاف .

فحكى السهيلي عن قوم القول به ، وعن ابن عباس إنكاره فقد أخرج عبد الرزاق .

وابن أبي حاتم عن عكرمة أن ابن عباس غزا مع حبيب بن مسلمة فمروا بالكهف فإذا فيه عظام فقال رجل هذه عظام أهل الكهف فقال ابن عباس : لقد ذهبت عظامهم منذ أكثر من ثلثمائة سنة ، ولا يخفى ما بين هذا الخبر والخبر السابق عنه بل والآخر أيضاً من المخالفة ، والذي يميل القلب إليه عدم وجودهم اليوم وإنهم إن كانوا موجودين فليسوا على تلك الحالة التي أشار الله تعالى إليها وأن الخطاب الذي في الآية لغير معين وأن المراد منها الإخبار عن أنهم بتلك الحالة في ذلك الوقت ، وما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أصحاب الكهف أعوان المهدي" على تقدير صحته لا يدل على وجودهم اليوم على تلك الحالة وأنه عليه الصلاة والسلام على القول بعموم الخطاب ليس من الأفراد المعينة به لأنه صلى الله عليه وسلم اطلع على ما هو أعظم منهم من ملكوت السموات والأرض ، ومن جعله صلى الله عليه وسلم معيناً قال : المراد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً بحكم جري العادة والطبيعة البشرية وعدم ترتب الجزاء على اطلاعه صلى الله عليه وسلم على ما هو أعظم منهم أمر خارق للعادة ومنوط بقوة ملكية بل بما هو فوقها أو المراد لو اطلعت عليهم بنفسك من غير أن

نطلعك عليهم لوليت منهم فراراً الخ واطلاعه عليه الصلاة والسلام على ما اطلع عليه كان باطلاع الله عز وجل إياه وفرق بين الاطلاعين .

(168/469)

يحكى أن موسى عليه السلام وجعه بطنه فشكى إلى ربه سبحانه فقال له : اذهب إلى نبات كذا في موضع كذا فكل منه فذهب وأكل فذهب ما كان يجد ثم عاوده ذلك بعد سنوات فذهب إلى ذلك النبات فأكل منه فلم ينتفع به فقال يا رب أنت أعلم وجعني بطني في سنة كذا فأمرتني أن أذهب إلى نبات كذا فذهبت فأكلت فانتفعت ثم عاودني ما كنت أجد فذهبت إلى ذلك وأكلت فلم أنتفع فقال سبحانه : أتدري يا موسى ما سبب ذلك ؟ قال : لا يا رب قال : السبب أنك في المرة الأولى ذهبت منا إلى النبات وفي المرة الثانية ذهبت من نفسك إليه .

ومما يستهجن من القول ما يحكى عن بعض المتصوفة أنه سمع قارئاً يقرأ هذه الآية فقال : لو اطلعت أنا ما وليت منهم فراراً وما ملئت منهم رعباً .

وما نقل عن بعضهم من الجواب بأن مراد قائله إثبات مرتبة الطفولية لنفسه فإن الطفل لا يهاب الحية مثلاً إذا رآها ولا يفرق بينها وبين الحبل على تقدير تسليم أن مراده ذلك لا يدفع

الاستهجان ، وذلك نظير قول من قال سبحانه وتعالى لا يعلم الغيب على معنى أنه لا غيب بالنسبة إليه عز وجل ليتعلق به علمه ، ولنعم ما قال عمر رضي الله تعالى عنه كلموا الناس بما يفهمون أتريدون أن يكذب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

هذا وقرأ ابن عباس .

والحرميان .

وأبو حيوة .

وابن أبي عبلة ﴿ وَلَمُلِّئْتَ ﴾ بتشديد اللام والهمزة .

وقرأ أبو جعفر وشيبة بتشديد اللام وقلب الهمزة ياء .

وقرأ الزهري بالتخفيف والقلب .

وقرأ أبو جعفر .

وعيسى ﴿ رُعْبًا ﴾ بضم العين . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(169/469)

فائدة

قال صاحب روح البيان :

ومن بلاغات الزمخشري السوقية والكلاب السلوقية سواء يعني أن السوقية لما فيهم من سوء الخلق ورداءة المعاملة والكلاب السلوقية متساويتان وكلا النوعين في الطبع سواء وفي طبعه الاحتلام وتحيض إناثه.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: كلب أمين خير من صاحب خوان.

وكان للحارث بن صعصعة ندماء لا يفارقهم وكان شديد المحبة لهم فخرج في بعض منتزهاته ومعه ندماؤه فتخلف منهم واحد فدخل على زوجته فأكلا وشربا ثم اضطجعا فوثب الكلب عليهما فقتلهما فلما رجع الحارث إلى منزله فوجدهما قتيلين عرف الأمر فأنشد يقول:

وما زال يرعى ذمتي ويحوطني

ويحفظ عرسي والخليل يخون

فيا عجباً للخل تحليل حرمتي

ويا عجباً للكلب كيف يصون

وفي "عجائب المخلوقات": أن شخصاً قتل شخصاً بأصفهان وألقاه في بئر وللمقتول كلب يرى ذلك فكان يأتي كل يوم إلى رأس البئر وينحى التراب عنها ويشير وإذا رأى القاتل نبح

عليه فلما تكرر منه ذلك حفروا الموضع فوجدوا القتيل ثم أخذوا الرجل فأقر فقتل به .

وعن الحسن البصري رحمه الله قال في الكلب عشر خصال ينبغي لكل مؤمن أن تكون فيه :

الأولى : أن يكون جائعاً فإنه من دأب الصالحين .

والثانية : أن لا يكون له مكان معروف وذلك من علامات المتوكلين .

والثالثة : أن لا ينام من الليل إلا قليلاً وذلك من علامات المحبين .

والرابعة : إذا مات لا يكون له ميراث وذلك من صفات المتزهدين .

والخامسة : أنه لا يترك صاحبه وإن ضربه وجفاه وذلك من علامات المريدين الصادقين .

والسادسة : أنه يرضى من الأرض بأدنى الأماكن وذلك من علامات المتواضعين .

والسابعة : إذا تغلب على مكانه تركه وانصرف إلى غيره وهذه من علامات الراضين .

والثامنة : إذا ضرب وطرد وجفى عليه وطرح له كسرة أجاب ولم يحقد على ما مضى وذلك من علامات الخاشعين .

والتاسعة : إذا حضر الأكل جلس بعيداً ينظر وهذه من خصال المساكين .

والعاشرة : أنه إذا رحل من مكان لا يلتفت إليه وهذه من علامات المحزونين كذا في "روض الرياحين" للإمام اليافعي رحمه الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان جـ 5 صـ 270 .

وقال القاسمي :

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ﴾

خطاب لكل أحد . أي : تظنهم ، يا مخاطب ، أيقاظا لانفتاح أعينهم ، وهم رقود مستغرقون في النوم ، بحيث لا ينبههم الصوت . قال ابن كثير : ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى . فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها . وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عينا ويفتح عينا . ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد . كما قال الشاعر :

~ينامُ بإحدى مُقلتيهِ ويَتَّقِي بأخْرى الرَّزايا فَهُو يقظانُ نائمُ

و : ﴿ أَيْقَاظًا ﴾ جمع يقظ ويقظان . و : ﴿ رُقُودٌ ﴾ جمع راقد . وما قيل أنه مصدر أطلق على الفاعل واستوى فيه القليل والكثير كركوع وقعود ، لأن فاعلاً لا يجمع على فعول - مردود بما نص عليه النحاة كما صرّح به في " المفضل " و " التسهيل " .

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾ أي : في رقدتهم : ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ أي : لئلا تتلف الأرض أجسادهم : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ أي : بفناء الكهف أو الباب . وقد شملت بركتهم كلبهم . فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، قال ابن كثير : وهذا فائدة صحبة الأخيار . فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . وقد قيل أنه كان كلب صيد لهم وهو الأشبه . واختلفوا في لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة إليها . بل هي مما نهي عنه . فإن مستندها رجم بالغيب . ووجود الكلب على هذه الحالة من العناية بهم . فكما حفظهم بالتقليب عن إهلاك الأرض ، حفظهم عن الأعداء بكلب ، ليهابوهم مع هيبةٍ ذاتيةٍ لهم . كما قال تعالى : ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : فنظرت إليهم ، مع غاية قوتك في مكافحة الحروب : ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أي : خوفا يملأ صدرك ، لما ألبسوا من الهيبة . فلا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم وخافهم . وذلك - كما قال ابن كثير : لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس ، حتى يبلغ الكتاب أجله و تنقضي رقدتهم التي شاءها تبارك وتعالى فيهم . لما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة الواسعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل جـ 11 صـ 15.14 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ الشمال ﴾

عطف على بقية القصة ، وما بينهما اعتراض .

والخطاب فيه كالخطاب في قوله : ﴿ وترى الشمس ﴾ [الكهف : 17] .

وهذا انتقال إلى ما في حالهم من العبرة لمن لو رآهم من الناس مُدمَج فيه بيان كرامتهم وعظيم قدرة الله في شأنهم ، وهو تعجيب من حالهم لمن لو رآه من الناس .

ومعنى حسبانهم أيقاضاً : أنهم في حالة تشبه حال اليقظة وتخالف حال النوم ، فقيل : كانت أعينهم مفتوحة .

وصيغ فعل تحسبهم ﴾ مضارعاً للدلالة على أن ذلك يتكرر مدة طويلة .

والأيقاظ : جمع يَقِظ ، بوزن كتف ، وبضم القاف بوزن عَضُد .

والرقود : جمع راقد .

والتقليب : تغيير وضع الشيء من ظاهره إلى باطنه ، قال تعالى : ﴿ فأصبح يقلب كفيه ﴾ [الكهف : 42] .

وذات اليمين وذات الشمال ﴾ أي إلى جهة أيمانهم وشمائلهم .

والمعنى : أنّ الله أجرى عليهم حال الأحياء الأيقاظ فجعلهم تتغير أوضاعهم من أيمانهم إلى

شمائلهم والعكس ، وذلك لحكمة لعل لها أثراً في بقاء أجسامهم بحالة سلامة .

والإتيان بالمضارع للدلالة على التجدد بحسب الزمن المحكي .

ولا يلزم أن يكونوا كذلك حين نزول الآية .

﴿ وَكَلْبُهُمْ باسط ذِرَاعَيْهِ بالوصيد ﴾

هذا يدل على أن تقليبهم لليمين وللشمال كرامة لهم بمنحهم حالة الأحياء وعناية بهم ،

ولذلك لم يذكر التقليب لكلبهم بل استمر في مكانه باسطاً ذراعيه شأن جلسة الكلب .

والوصيد : مدخل الكهف ، شبه بالباب الذي هو الوصيد لأنه يوصد ويغلق .

وعدم تقليب الكلب عن يمينه وشماله يدل على أن تقليبهم ليس من أسباب سلامتهم من

البلى وإلا لكان كلبهم مثلهم فيه بل هو كرامة لهم .

وقد يقال : إنهم لم يفنوا وأما كلبهم ففني وصار رِمة مبسوطةٌ عظامُ ذراعيه .

﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾

الخطاب لغير معين ، أي لو اطلعت عليهم أيها السامع حين كانوا في تلك الحالة قبل أن يبعثهم

الله ، إذ ليس في الكلام أنهم لم يزالوا كذلك زمن نزول الآية .

والمعنى : لو اطلعت عليهم ولم تكن علمت بقصتهم لحسبتهم لصوصاً قطاعاً للطريق ، إذ هم عدد في كهف وكانت الكهوف مخابىء لقطاع الطريق ، كما قال تأبط شراً :

أقولُ للَحْيَانٍ وقد صفّرتْ لهم

وطابي يوَمي ضَيّقُ الجُحْرِ مُعورِ . . .

ففررت منهم وملكك الرعب من شرهم ، كقوله تعالى : ﴿ نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾ [هود : 70] .

وليس المراد الرعب من ذواتهم إذ ليس في ذواتهم ما يخالف خلق الناس ، ولا الخوف من كونهم أمواتاً إذ لم يكن الرعب من الأموات من خلال العرب ، على أنه قد سبق وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ﴾ .

والاطلاع : الإشراف على الشيء ورؤيته من مكان مرتفع ، لأنه افتعال من طَلع إذا ارتقى جبلا ، فصيغ الافتعال للمبالغة في الارتقاء ، وضمن معنى الإشراف فعدي بـ (على) ، ثم استعمل مجازاً مشهوراً في رؤية الشيء الذي لا يراه أحد ، وسيأتي ذكر هذا الفعل عند قوله تعالى:

﴿ أطلع الغيب ﴾ في سورة مريم (78) ، فضلاً عن أن يكون الخطاب للنبيء .

وفي الكشاف ﴾ عن ابن عباس ما يقتضي ذلك وليس بصحيح .

وانتصب ﴿ فراراً ﴾ على المفعول المطلق المبين لنوع ﴿ وليت .

ومُلّئتَ ﴾ مبني للمجهول، أي مَلاك الرعب ومَلّا بتشديد اللام مضاعف مَلاَ وقرىء بهما.

والمَلْء: كون المظروف حالاً في جميع فراغ الظرف بحيث لا تبقى في الظرف سعة لزيادة شيء من المظروف، فمثلت الصفة النفسية بالمظروف، ومُثل عقل الإنسان بالظرف، ومثل تمكن الصفة من النفس بحيث لا يُخالطها تفكير في غيرها بملء الظرف بالمظروف، فكان في قوله: ﴿ ملّئت ﴾ استعارة تمثيلية، وعكسه قوله تعالى: ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ﴾ [القصص: 10].

(175/469)

وانتصب رعباً ﴾ على تمييز النسبة المحول عن الفاعل في المعنى لأن الرعب هو الذي يَمْلأ، فلما بني الفعل إلى المجهول لقصد الإجمال ثم التفصيل صار ما حقه أن يكون فاعلاً تمييزاً. وهو إسناد بديع حصل منه التفصيل بعد الإجمال، وليس تمييزا مُحولاً عن المفعول كما قد يلوح بادىء الرأي.

والرعب تقدم في قوله تعالى: ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ في سورة آل عمران (151).

وقرأ نافع وابن كثير ﴿ ولَمُلِّئْتَ ﴾ بتشديد اللام على المبالغة في الملء ، وقرأ الباقون بتخفيف اللام على الأصل .

وقرأ الجمهور ﴿ رعباً ﴾ بسكون العين .

وقرأه ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بضم العين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(176/469)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ .

الحسبان بمعنى الظن . والإيقاظ : جمع يقظ – بكسر القاف وضمها – ، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة :

فلما رأت من قد تنبه منهم . . . وأيقاظهم قالت أشر كيف تأمر

والرقود : جمع راقد وهو النائم ، أي تظنهم أيها المخاطب لو رأيتهم أيقاظاً والحال أنهم رقود . ويدل على هذا المعنى قوله تعالى في نظيره : ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً ﴾ [الكهف : 18] الآية . وقال بعض العلماء : سبب ظن الرائي أنهم أيقاظ هو أنهم نيام

وعيونهم مفتحة ، وقيل : لكثرة تقلبهم . وهذا القول يشير له قوله تعالى بعده : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ الشمال ﴾ [الكهف : 18] . وكلام المفسرين هنا في عدد تقلبهم من كثرة وقلة لا دليل عليه . ولذا أعرضنا عن ذكر الأقوال فيه .

وقوله في هذه الآية : ﴿ وتحسبهم ﴾ قرأه بفتح السين على القياس ابن عامر وعاصم وحمزة . وقرأه بكسر السين نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ، وهما قراءتان سبعيتان ، ولغتان مشهورتان ، والفتح أقيس والكسر أفصح .

قوله تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوصيد ﴾ .

اختلفت عبارات المفسرين في المراد ب " الوصيد " فقيل : هو فناء البيت . ويروى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقيل الوصيد : الباب ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً . وقيل : الوصيد العتبة . وقيل الصعيد . والذي يشهد له القرآن أن الوصيد هو الباب .

ويقال له " أصيد " أيضاً . لأن الله يقول " ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ [الهمزة : 8] أي مغلقة مطبقة . وذلك بإغلاق كل وصيد أو أصيد ، وهو الباب من أبوابها . ونظير الآية من كلام العرب قول الشاعر :

تحن إلى أجبال مكة ناقتي . . . ومن دونها أبواب صنعاء مؤصدة

وقول ابن قيس الرقيات :

إن في القصر لو دخلنا غزالا . . . مصفقاً مؤصداً عليه الحجاب

فالمراد الإيصاد في جميع ذلك : الإطباق والإغلاق . لأن العادة فيه أن يكون بالوصيد وهو الباب . ويقال فيه أصيد . وعلى اللغتين القراءتان في قوله : " مؤصدة " مهموزاً من الأصيد . . وغير مهموز من الوصيد .

ومن إطلاق العرب الوصيد على الباب قول عبيد بن وهب العبسي ، وقيل زهير :

بأرض فضاء لا يسد وصيدها . . . علي ومعروفي بها غير منكر

أي لا يسد بابها علي ، يعني ليست فيها أبواب حتى تسد علي . كقول الآخر :

ولا ترى الضب بها ينجحر . . . فإن قيل : كيف يكون الوصيد هو الباب في الآية ، والكهف غار في جبل لا باب له ؟

فالجواب : أن الباب يطلق على المدخل الذي يدخل للشيء منه . فلا مانع من تسمية المدخل إلى الكهف باباً . ومن قال : الوصيد الفناء لا يخالف ما ذكرنا . لأن فناء الكهف هو بابه ، وقد قدمنا مراراً أن من أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك : أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً وتكون في الآية قرينة تدل على خلافه .

وقد قال بعض أهل العلم في هذه الآية الكريمة : إن المراد بالكلب في هذه الآية – رجل منهم

لا كلب حقيقي . واستدلوا لذلك ببعض القراءات الشاذة ، كقراءة " وكالبهم باسط ذراعيه بالوصيد " وقراءة " وكالئهم باسط ذراعيه " .

وقوله جل وعلا : ﴿ باسط ذراعيه ﴾ قرينة على بطلان ذلك القول . لأن بسط الذراعين معروف من صفات الكلب الحقيقي ، ومنه حديث أنس المتفق عليه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اعتدلوا في السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب " وهذا المعنى مشهور في كلام العرب ، فهو قرينة على أنه كلب حقيقي . وقراءة " وكالئهم " بالهمزة لا تنافي كونه كلباً ، لأن الكلب يحفظ أهله ويحرسهم . والكلاءة : الحفظ .

فإن قيل : ما وجه عمل اسم الفاعل الذي هو " باسط " في مفعوله الذي هو " ذراعيه " والمقرر في النحو أن اسم الفاعل إذا لم يطن صلة " ال " لا يعمل إلا إذا كان واقعاً في الحال أو المستقبل ؟

فالجواب – أن الآية هنا حكاية حال ماضية ، ونظير ذلك من القرآن قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : 30] ، وقوله تعالى : ﴿ والله مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة : 72] .

واعلم أن ذكره جل وعلا في كتابه هذا الكلب ، وكونه باسطاً ذراعيه بوصيد كهفهم في معرض التنويه بشأنهم – يدل على أن صحبة الأخيار عظيمة الفائدة . قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة : وشملت كلهم بركتهم ، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، وهذا فائدة صحبة الأخيار ، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن اه .

ويد لهذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم لمن قال إني أحب الله ورسوله : " أنت مع من أحببت " متفق عليه من حديث أنس .

ويفهم من ذلك أن صحبة الأشرار فيها ضرر عظيم . كما بينه الله تعالى في سورة " الصافات " في قوله : ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ [الصافات : 51] إلى قوله – ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات : 56-57] .

وما يذكره المفسرون من الأقوال في اسم كلبهم ، فيقول بعضهم : اسمه قطمير . ويقول بعضه اسمه حمران ، إلى غير ذلك – لك نطل به الكلام لعدم فائدته .

ففي القرآن العظيم أشياء كثيرة لم يبينها الله لنا ولا رسوله ، ولم يثبت في بيانها شيء ، والبحث عنها لا طائل تحته ولا فائدة فيه .

وكثير من المفسرين يطنبون في ذكر الأقوال فيها بدون علم ولا جدوى ، ونحن نعرض عن مثل ذلك دائماً . كلون كلب اصحاب الكهف ، واسمه ، والبعض الذي ضرب به القتيل من

بقرة بني إسرائيل، وكاسم الغلام الذي قتله الخضر، وأنكر عليه موسى قتله، وكخشب سفينة نوح من أي شجر هو، وكم طول السفينة وعرضها، وكم فيها من الطبقات، إلى غير ذلك مما لا فائدة في البحث عنه، ولا دليل على التحقيق فيه.

(179/469)

وقد قدمنا في سورة "الأنعام" في الكلام على قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ [الأنعام: 145] الآية – حكم أكل لحم الكلب وبيعه، وأخذ قيمته إن قتل، وما يجوز اقتناؤه منها وما لا يجوز. وأوضحنا الأدلة في ذلك وأقوال العلماء فيه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(180/469)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾

أي: لو أتيح لك النظر إليهم لخُيِّل إليك أنهم أيقاظٌ غير نائمين ذلك لأن ربهم سبحانه حفظهم

على حال اليقظة وعلى هيئتها ، ثم أظهر فيهم آية أخرى من الإعجاز بأنْ يُقلِّبهم في نومهم مرة ناحية اليمين ، وأخرى ناحية الشمال ، لتظل أجسامهم على حالها ، ولا تأكلها الأرض .

ومعلوم أن الإنسان إذا قُدِّر له أنْ ينام فترة طويلة على سرير المرض يُصَاب بمرض آخر يُسمُّونه قرحة الفراش ، نتيجة لنومه المستمر على جانب واحد عافانا الله وإياكم وقد جعل لهم هذا التقليب ذات اليمين وذات الشمال على هيئة الإيقاظ .

وقوله : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوصيد ﴾ [الكهف : 18] ويبدو أنهم كانوا من الرعاة ، فتبعهم كلبهم وجلس مَادّاً ذراعيه بفناء الكهف أو على بابه ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾ [الكهف : 18] فقد ألقى الله مهابتهم والخوف منهم في نفوس الناس ، فإذا ما اطلع عليهم إنسان خاف وولّى هارباً يملؤه الرعب ؛ لأن هيئتهم تُوحي بذلك ، حيث يتقلّبون يميناً وشمالاً ، ومع ذلك لا يصحُو منهم أحد ، ولا يقوم منهم أحد طوال هذه المدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَيْقَاظاً ﴾ : جمعُ " يَقُظ " بضم القاف ، ويُجمع على يِقاظ . ويَقْظ وأيقاظ كعَضُد وأَعْضاد ، ويَقُظ ويِقاظ كرَجُل ورِجال . وظاهر كلام الزمخشري أنه يقال : " يَقِظ " بالكسر ، لأنه قال : " وأيقاظ جمع " يَقِظ " كأَنْكادٍ في " نَكِد " . واليَقَظَةُ : الانتباهُ ضِدُّ النوم .

والرُّقود : جمع راقِد كقاعِد وقُعود ، ولا حاجةَ إلى إضمارِ شيءٍ كما قال بعضهم : إنَّ التقديرَ : لو رَأَيْتَهم لَحَسِبْتَهُم أيقاظاً .

قوله : " ونُقَلِّبهم " قرأ العامَّةُ " نُقَلِّبهم " مضارعاً مسنداً للمعظِّمِ نفسَه . وقرئ كذلك بالياء مِنْ تحتُ ، أي : اللهُ أو المَلَك . وقرأ الحسن : " يُقَلِبُهم " بالياءِ من تحتُ ساكنَ القافِ مخففَ اللامِ ، وفاعلُه كما تقدَّم : إمَّا اللهُ أو المَلَكُ . وقرأ أيضاً " وتَقَلُّبَهم " بفتح التاءِ وضمِّ اللامِ مشددةً مصدرَ " تَقَلَّبَ " ، كقولِه : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَاجِدِينَ ﴾ [الشعراء : 219] ونصب الباء . وخرَّجه أبو الفتح على إضمارِ فعلٍ ، أي : ونَرَى تَقَلُّبَهم أو نشاهِدُ . ورُوِيَ عنه أيضاً رفعُ الباءِ على الابتداءِ ، والخبرُ الظرفُ بعدَه . ويجوز أن يكونَ محذوفاً ، أي : آيةٌ عظيمة . / وقرأ عكرمةُ " وتَقْلِبُهم " بتاءِ التأنيثِ مضارعَ " قَلَب " مخففاً ، وفاعلُه ضميرُ

الملائكةِ المدلولِ عليهم بالسِّياقِ .

قوله : " وكَلْبُهم " العامَّةُ على ذلك . وقرأ جعفر الصادق " كالِبُهم " ، أي : صاحبُ كلبهم ، كلابن وتامِر . ونقل أبو عمر الزاهدُ غلامُ ثعلب " وكالِئُهم " بهمزةٍ مضمومةٍ اسمَ فاعلٍ مِنْ كَلأَ يكلأُ : أي : حَفِظَ يَحْفَظُ .

و " باسِطٌ " اسمُ فاعلٍ ماضٍ ، وإنما عَمِلَ على حكاية الحال . والكسائيُّ يُعْمِله ويَسْتشهد بالآية .

(182/469)

والوَصْيدُ : الباب . وقيل : العَتَبة . وقيل : الصَّعيد والتراب . وقيل : الفِناء . وأنشد :

3138- بأرضِ فضاءٍ لا يُسَدُّ وَصِيْدُها ... عليَّ ومعروفي بها غيرُ مُنْكَرِ

والعامَّةُ على كسرِ الواوِ مِنْ ﴿ لَوِ اطلعت ﴾ على أصلِ التقاءِ الساكنين . وقرأها مضمومةً أبو جعفر وشيبةُ ونافعٌ وابنُ وثاب والأعمش تشبيهاً بواوِ الضمير ، وتقدَّم تحقيقُه .

قوله : فِرارا " يجوز أَنْ يكونَ منصوباً على المصدرِ مِنْ معنى الفعل قبلَه ، لأنَّ التوليَّ والفِرار مِنْ وادٍ واحدٍ . ويجوز أَنْ يكونَ مصدراً في موضعِ الحال ، أي : فارّاً ، وتكونُ حالاً مؤكدة

، ويجوز أن يكونَ مفعولاً له .

قوله : " رُعْباً " مفعولٌ ثانٍ . وقيل : تمييز . وقرأ ابن كثير ونافعٌ " لَمُلِئْتَ " بالتشديد على التكثيرِ . وأبو جعفر وشيبة كذلك إلا أنه بإبدال الهمزةِ ياءً . والزُّهْري بتخفيف اللام والإِبدال ، وهو إبدالٌ قياسيٌّ . وتقدَّم الخلافُ الرعب في آل عمران . انتهى . اهـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 459 . 461 ﴾

(183/469)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ .

هم مسلوبون عنهم ، مُخْتَطَفُون منهم ، مُستَهلَكون فيما كوشِفوا به من وجود الحق ؛ فظاهرهم - في رأي الخَلْق - أنهم بأنفسهم ، وفي التحقيق : القائمُ عنهم غيرُهم . وهم محوٌ فيما كوشفوا به من الحقائق .

ثم قال : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ : وهذا إخبارٌ عن حُسْنِ إيوائه لهم ؛ فلا كشفقةِ الأمهات بل أتم ، ولا كرحمة الآباء بل أعزّ . . . وبالله التوفيق .

ويقال إن أهلَ التوحيد صفتهم ما قال الحقُّ – سبحانه – في صفة أصحاب الكهف : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ فَهُمْ بشواهد الفَرْقِ في ظاهرهم ، لكنهم بعين الجمع بما كُوشِفوا به في سرائرهم ، يُجْرِي عليهم أحوالهم وهم غير متكلّفين ، بل هم يثبتون – وهم خمودٌ عما هم به – أن تصرفاتِهم القائمُ بها عنهم سواهم ، وكذلك في نطقهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ .

كما ذَكَرَهُم ذَكَر كلبَهم ، ومَنْ صَدَقَ في محبة أحدٍ أحبَّ مَنْ انتسب إليه وما يُنْسَبُ إليه .

ويقال كلبٌ خَطَا مع أحبائه خطواتٍ فإلى القيامة يقول الصبيان – بل الحق يقول بقوله العزيز – : ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ﴾ فهل ترى أنّ مُسْلِماً يصحب أولياءَه من وقت شبابه إلى وقت مشيبه يردّه يوم القيامة خائباً ؟ إنه لا يفعل ذلك .

ويقال في التفاسير إنهم قالوا للراعي الذي تبعهم والكلب معه : اصرف هذا الكلب عنّا . .

فقال الراعي : لا يمكنني ، فإني أنا دينه .

ويقال أنطق الله سبحانه – الكلبَ فقال لهم : لِمَ تضربونني ؟

فقالوا : لِتَنْصَرِفَ عنّا .

فقال : لا يمكنني أن أنصرف . . لأنه ربّاني .

ويقال كلبٌ بَسَطَ يده على وصيد الأولياء فإلى القيامة يقال: ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ . . . فهل إذا رَفَعَها مسلمٌ إليه خمسين سنة ترى يردُّها خائبةً؟ هذا لا يكون.

ويقال لما صَحِبَهم الكلبُ لم تضره نجاسةُ صِفتِه، ولا خساسةُ قيمته.

ويقال قال في صفة أصحاب الكهف إن كانوا ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف: 22]، أو ﴿ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ فقد قال في صفة هذه الأمة: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ [المجادلة: 7].

وشتَّان ما هما!

ويقال كُلٌ يُعامَلُ بما يليق به من حالته ورتبته؛ فالأولياء قال في صفتهم: ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾، والكلب قال في صفته: ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾.

ويقال كما كرَّر ذكرَهم، كرر ذكْرَ كلبِهم.

وجاء في القصة أن الكلبَ لما لم ينصرفْ عنهم قالوا: سبيلنا إذا لم ينصرف عنَّا أَنْ نَحْمِله حتى لا يُسْتَدَّلَ علينا بأثر قَدَمِه فحملوه، فكانوا في الابتداء (بل إياه) وصاروا في الانتهاء مطاياه.. كذا مَنْ اقتفى أَثَرَ الأحباب.

ويقال في القصة إن الله أنطق الكلب معهم ، وبِنُطْقِه رَبَطَ على قلوبهم بأَنْ أزدادوا يقيناً بسماع نطقه ، فقال : لِمَ تضربوني ؟ فقالوا : لتنصرف ، فقال : أنتم تخَافون بلاءً يصيبكم في المستقبل وأنتم بلائي في الحال .

ثم إنّ بلاءَكم الذي تخافون أنْ يصيبكم من الأعداء ، وبلائي منكم وأنتم الأولياء .

ويقال لما لزم الكلبُ محلّه ولم يجاوز حَدّه فوضع يديه على الوصيد بقي مع الأولياء . . كذا أدب الخدمة يوجب بقاءِ الوُصلة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ .

(185/469)

الخطاب له – صلى الله عليه وسلم – والمرادُ منه غيره .

ويقال لو اطلعتَ عليهم من حيث أنت لوليت منهم فراراً ، ولو شاهدتَهم من حيث شهود تولِّي الحق لهم لبقيت على حالك .

ويقال لو اطلعتَ عليهم وشاهدْتهم لوَلَّيْت منهم فرارا مِنْ أنْ تُرَدَّ عن عالي منزلتك إلى منزلتهم ؛ والغنيُّ إذا رُدَّ إلى منزلة الفقير فرَّ منه ، ولم تَطِبْ به نَفَسه . ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ بأن يُسْلَبَ عظيمُ ما هو حالك ، وتُقَامَ في مثل حالهم النازلة عن حالك .

ويقال : ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ لأنك لا تريد أن تشهد غيرنا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 384 . 386 ﴾

(186/469)

قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20) وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (21) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

﴿ وكذلك ﴾ أي فعلنا بهم هذا من آياتنا من النوم وغيره ، ومثل ما فعلناه بهم

﴿ بعثناهم ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ ليتساءلوا ﴾ وأظهر بالافتعال إشارة إلى أنه في غاية الظهور .

ولما كان المراد تساؤلا عن أخبار لا تعدوهم قال تعالى : ﴿ بينهم ﴾ أي عن أحوالهم في نومهم ويقظتهم فيزدادوا إيماناً ، وثباتاً وإيقاناً ، بما ينكشف لهم من الأمور العجيبة ، والأحوال الغريبة فيعلم أنه لا علم لأحد غيرنا ، ولا قدرة لأحد سوانا ، وأن قدرتنا تامة ، وعلمنا شامل ، فليعلم ذلك من أنكر قدرتنا على البعث وسأل اليهود البعداء البغضاء عن نبيه الحبيب الذي أتاهم بالآيات ، وأراهم البينات ، فإن كانوا يستنصحون اليهود فليسألوهم عما قصصنا من هذه القصة ، فإن اعترفوا به لزمهم جميعاً الإيمان والرجوع عن الغي والعدوان ، وإن لم يؤمنوا علم قطعاً أنه لا يؤمن من أردنا هدايته بالآيات البينات كأهل الكهف وغيرهم ، لا بإنزال الآيات المقترحات .

ولما كان المقام مقتضياً لأن يقال : ما كان تساؤلهم ؟ أجيب بقوله تعالى : ﴿ قال قائل منهم ﴾ مستفهماً من إخوانه : ﴿ كم لبثتم ﴾ نائمين في هذا الكهف من ليلة أو يوم ، وهذا يدل على أن هذا القائل استشعر طول لبثهم بما رأى من هيئتهم أو لغير ذلك من الأمارات ؛ ثم وصل به في ذلك الأسلوب أيضاً قوله تعالى : ﴿ قالوا لبثنا يوماً ﴾ ودل على أن هذا الجواب مبني على الظن بقوله دالاً حيث أقرهم عليه سبحانه على جواز الاجتهاد والقول

بالظن المخطئ ، وأنه لا يسمى كذباً وإن كان مخالفاً للواقع ﴿ أو بعض يوم ﴾ كما تظنون أنتم عند قيامكم من القبور إن لبثتم إلا قليلاً ، لأنه فرق بين صديق وزنديق في الجهل بما غيبه الله تعالى : فكأنه قيل : على أي شيء استقر أمرهم في ذلك ؟ فأجيب بأنهم ردوا الأمر إلى الله بقوله : ﴿ قالوا ﴾ أي قال بعضهم إنكاراً على أنفسهم ووافق الباقون بما عندهم من التحاب في الله والتوافق فيه في الحقيقة إخوان الصفا وخلان الألفة والوفا ﴿ ربكم ﴾ المحسن إليكم ﴿ أعلم ﴾ أي من كل أحد ﴿ بما لبثتم فابعثوا ﴾ أي فتسبب عن إسناد العلم إلى الله تعالى أن يقال : اتركوا الخوض في هذا واشتغلوا بما ينفعكم بأن تبعثوا ﴿ أحدكم بورقكم ﴾ أي فضتكم ﴿ هذه ﴾ التي جمعتموها لمثل هذا ﴿ إلى المدينة ﴾ التي خرجتم منها وهي طرطوس ليأتينا بطعان فإنا جياع ﴿ فلينظر أيها ﴾ أي أي أهلها ﴿ أزكى ﴾ أي أطهر وأطيب ﴿ طعاماً فليأتكم ﴾ ذلك الأحد ﴿ برزق منه ﴾ لنأكل ﴿ وليتلطف ﴾ في التخفي بأمره حتى لا يتفطنوا له ﴿ ولا يشعرن ﴾ أي هذا المبعوث منكم في هذا الأمر ﴿ بكم أحداً ﴾ أن فطنوا له فقبضوا عليه ، وإن المعنى : لا يقولن ولا يفعلن ما يؤدي من غير قصد منه إلى الشعور بكم فيكون قد أشعر بما كان منه من السبب ، وفي قصتهم دليل على أن حمل المسافر ما يصلحه من المنفعة رأى المتوكلين لا المتآكلين المتكلين على الإنفاقات على ما في أوعية القوم من النفقات ، وفيها صحة الوكالة ؛ ومادة (ورق) بجميع تراكيبها

الخمسة عشر قد تقدم في سورة سبحان وغيرها أنها تدور على الجمع ، فالورق مثلثة وككتف وجبل : الدراهم المضروبة – تشبيهاً بالورق في الشكل وفي الجمال ، وبها جمع حال الإنسان ، وحالها مقتض للجمع ، والورّاق : الكثير الدراهم وهو أيضاً مورّق الكتب ، وحرفته الوراقة ، وما زلت منك موارقاً ، أي قريباً مدانياً – أي كالذي يساجلك في قطاف الورق من شجرة واحدة فهو يأخذ من ناحية وأنت من أخرى ، والمداناة : أول الجمع والورق – محركة : جمال الدنيا وبهجتها – لأنها تجمع ألواناً وأنواعاً ، ولعل منه الورقة ، قال في مختصر العين : إنها سواد في غبرة .

وحمامة ورقاء – أي منه ، وفي القاموس : والأورق من الإبل : ما في لونه بياض إلى سواد ، ورأى رجل الغول على جمل أورق فقال : جاء بأم الربيق على أريق ، أي بالداهية العظيمة ، صغر الأورق كسويد في أسود ، والأصل وريق فقلبت واوه همزة ، والأورق أيضاً من

الكتاب والشجر معروف – لأنك لا تكاد تجد واحدة منه على لون واحد ، ولأنه يجمع الواحدة منه إلى الأخرى ويجمع معنى ما يحمله ، قال في مختصر العين : والورق : أدم رقاق منه ورق المصحف ، والورق أيضاً : الخبط – لأنه لما كانت الإبل تعلفه كان كأنه هو الورق لا غيره ، والورق : الحي من كل حيوان – لأن الحياة هي الجمال ، وبها جماع الأمور ، ولأن الورق دليل على حياة الحي من الشجر ، فهو من إطلاق اسم الدال على المدلول ، والورق أيضاً : ما استدار من الدم على الأرض ، أو ما سقط اسم من الجراحة – لأن الاستدارة أجمع الأشكال ، وهو تشبيه بورق الشجر في الشكل ، والورق : المال من إبل ودراهم وغيرها – لأن جماع حياة الإنسان وكمالها بذلك كما أن كمال حياة الشجر بالورق ، ولرعي المال من الحيوان الورق ، والورق : حسن القوم وجمالهم – من ذلك ، لأنه يجمع أمرهم ويجمع إليهم غيرهم ، والورق من القوم : أحداثهم أو الضعاف من الفتيان – تشبيه بالورق لأنه لا يقيم غالباً أكثر من عام ، ولأنه ضعيف في نفسه ، وضعيف النفع بالنسبة إلى الثمر ، والورقة – بهاء : الخسيس والكريم ، ضد – للنظر تارة إلى كونه نافعاً للمرعى ودالاً على الحياة ، وإلى كونه غير مقصود بالذات أخرى ، ورجل ورق وامرأة ورقة : خسيسان أي لا ثمرة لهما ، ومن ذلك أورق الصائد – إذا رمى فأخطأ أي لم يقع على غير الورق ، أي لم تحصل له ثمرة ، بل وقع على شجرة غير مثمرة ، وكذا أورق القوم : أخفقوا في حاجتهم ، أي

رجعوا بلا ثمرة ، ومن ذلك أيضاً أورقوا : كثر مالهم ودراهمهم – ضد ، هذا بالنظر إلى أن في الورق جمال الشجر وحياته ، والتجارة مؤرقة للمال

(190/469)

كمجلبة أي مكثرة ؛ ومنه قول القزاز في ديوانه : هذا رجل مؤرق له دراهم ، والمؤرق : الذي لا شيء له – ضد ، أو أنه تارة يكون للإيجاب والصيرورة نحو أغدّ البعير ، وتارة للسلب نحو أشكيته ، والوراق ككتاب : وقت خروج الورق من الشجر ، وشجرة وريقة وورقة : كثيرة الورق ، والوارقة : الشجرة الخضراء الورق الحسنته ، والوراق – كسحاب : خضرة الأرض من الحشيش ، وليس من الورق في شيء ، وذلك أن تلك الخضرة لا تخلو عن لون آخر ، والرقة – كعدة : أول نبات النصي والصليان وهما نباتان أفضل مراعي الإبل ، لأنهما سبب لجمع المال للرعي ، والرقة : الأرض التي يصيبها المطر في الصفرية – أي أول الخريف – أو في القيظ فتنبت فتكون خضراء – كأن ذلك النبات يكون أقل خضرة من نبات الربيع ، ويكون اختلاطه لغيره من الألوان أكثر مما في الربيع ، وفي القوس ورقة – بالفتح : عيب ، والورقاء : الذئبة – من أجل أن الورق الخالي عن الثمر تقل الرغبة في شجره وهو

دون المثمر ، ولأن الورق مختلط اللون ، والاختلاط في كل شيء عيب بالنسبة إلى الخالص ، وتورقت الناقة : أكلت الورق .

(191/469)

وقار الرجل يقور : مشى على أطراف قدميه لئلا يسمع صوتهما - لأن فاعل ذلك جدير بالوصول إلى ما أراد مما يجمع شمله ، ومنه قار الصيد : ختله - لأن أهل الخداع أولى بالظفر ، ألا ترى الأسود تصاد به ، ولو غولبت عز أخذها ، وقار الشيء : قطعه من وسطه خرقاً مستديراً كقوّره - لأن الثوب يصير بذلك الخرق يجمع ما يراد منه ، والاستدارة أجمع الأشكال كما سلف ، والقوارة - كثمامة : ما قور الثوب وغيره ، أو يخص بالأديم ، وما قطعت من جوانب الشيء ، والشيء الذي قطع من جوانبه - ضد ، وهو من تسميه موضع الشيء باسمه ، والقارة : الجبل الصغير الصلب المنقطع عن الجبال - لشدة اجتماع أجزائه بالصلابة واجتماعه في نفسه بانقطاعه عن غيره مما لو خالطه لفرقه ، ولم يعرف حد على ما هو ، والقارة : الصخرة العظيمة ، والأرض ذات الحجارة السود - لاجتماعها في نفسها بتميزها عن غيرها بتلك الحجارة ، ودار قوراء : واسعة - تشبيهاً بقوارة الثواب ، ولأنها كلما اتسعت كانت أجمع ، والقار : الإبل أو القطيع الضخم منها ، والاقورار : تشنج

الجلد وانحناء الصلب هزالاً وكبراً – لأن كلاًّ من التشنج والانحناء اجتماع ، والاقورار : الضمر – لأن الضامر اجتمعت أجزاؤه ، والاقورار : السمن – ضد ، لأن السمين جمع اللحم والشحم ، والاقورار : ذهاب نبات الأرض – لأنها تصير بذلك قوراء فتصير أجدر بأن تسع الجموع ، ويمكن أن يكون الأقورار كله من السلب إلا ما للسمن ، والقور : القطن الحديث أو ما رزع من عامة لأنه يلبس فيجمع البدن ، ولقيت منه الأقورين – بكسر الراء ، والأقوريات أي الدواهي القاطعة – تشبيهاً بما قور من الثوب ، فهي للسلب ، والقور – محركة : العين – لأن محلها يشبه القوارة ، والمقور – كمعظم : المطلي بالقطران – لاجتماع أجزائه بذلك ، واقتار : احتاج ، أي صار أهلاً لأن يجمع ، وتقور الليل : تهور ، أي مضى ، من القطع ، وتقورت الحية : تثنت أي تجمعت ، والقار : شجر مر – كأنه

(192/469)

الذي تطلى به السفن ، وهذا أقير من هذا : أشد مرارة – لأن المرارة تجمع اللهوات عند الذوق ، والقارة قبيلة – لأن ابن الشداخ أراد أن يفرقهم فقال شاعرهم :

دعونا قارة لا تذعرونا . . .

فنجفل مثل إجفال الظليم

فسموا القارة بهذا وكانوا رماة ، وفي المثل : قد أنصف القارة من راماها .

والرقوة : فويق الدعص من الرمل ، ويقال رقو ، بلا هاء - كأنه لجمعه الكثير من الرمل ، أو لجمعه من يطلب الإشراف على الأماكن البعيدة بالعلو عليه لترويح النفس - والله الموفق .

(193/469)

ولما نهوا رسولهم عن الإشعار بهم عللوا ذلك فقالوا : ﴿ إنهم ﴾ أي أهل المدينة ﴿ إن يظهروا ﴾ أي يطلعوا عالين ﴿ عليكم يرجموكم ﴾ أي يقتلوكم أخبث قتله إن استمسكتم بدينكم ﴿ أو يعيدوكم ﴾ قهراً ﴿ في ملتهم ﴾ إن لنتم لهم ﴿ ولن تفلحوا إذاً ﴾ أي إذا عدتم فيها مطمئنين بها ، لأنكم وإن أكرهتم ربما استدرجكم الشيطان بذلك إلى الإجابة حقيقة ﴿ أبداً ﴾ أي فبعثوا أحدهم فنظر الأزكى وتلطف في الأمر ، فاسترابوا منه لأنهم أنكروا ورقه لكونها من ضرب ملك لا يعرفونه فجهدوا به فلم يشعر بهم أحداً من المخالفين ، وإنما أشعر بهم الملك لما رآه موافقاً لهم في الدين لأنه لم يقع النهي عنه ﴿ وكذلك ﴾ أي فعلنا بهم ذلك الأمر العظيم من الربط على قلوبهم ، والستر لأخبارهم والحماية من الظالمين والحفظ لأجسامهم على مر الزمان ، وتعاقب الحدثان ، ومثل ما فعلنا بهم ذلك

﴿ أعثرنا ﴾ أي أظهرنا إظهاراً أضطرارياً ، أهل البلد وأطلعناهم ، وأصله أن الغافل عن

الشيء ينظر إليه إذا عثر به نظر إليه فيعرفه ، فكان العثار سبباً لعلمه به فأطلق اسم السبب على المسبب ﴿ عليهم ليعلموا ﴾ أي أهل البلد بعد أن كان حصل لبعضهم شك في حشر الأجساد لأن اعتقاد اليهود والنصارى أن البعث إنما هو للروح فقط ﴿ أن وعد الله ﴾ الذي له صفات الكمال بالبعث للروح والجسد معاً ﴿ حق ﴾ لأن قيامهم بعد نومهم نيفاً وثلاثمائة سنة مع خرق العادة بحفظ أبدانهم عن الفناء من غير أكل ولا شرب مثل قيام من مات بجسمه الذي كان سواء على أن مطلق النوم دال على ذلك كما قال بعض العارفين " علمك باليقظة بعد النوم علم بالبعث بعد الموت ، والبرزخ واحد غير أن للروح بالجسم في النوم تعلقاً لا يكون بالموت ، وتستيقظ على ما نمت عليه كذلك تبعث على ما مت عليه " .

(194/469)

ولما كان من الحق ما قد يداخله شك قال تعالى : ﴿ وأن ﴾ أي وليعلموا أن ﴿ الساعة لا ريب فيها ﴾ مبيناً أنها ليست موضع شك أصلاً لما قام عليها من أدلة العقل ، المؤيد في كل عصر بقواطع النقل ، ومن طالع تفسير (الزيتون) من كتابي هذا حصل له هذا ذوقاً ؛ ثم بين أن هذا الإعثار أتاهم بعلم نافع حال تجاذب وتنازع فقال : ﴿ إذ ﴾ أي ليعلموا ذلك ،

وأعثرنا حين ﴿ يتنازعون ﴾ أي أهل المدينة.

ولما كان التنازع في الغالب إنما يكون ما بين الأجانب، وكان تنازع هؤلاء مقصوراً عليهم كان الأهم بيان محله فقدمه فقال تعالى: ﴿ بينهم أمرهم ﴾ أي أمر أنفسهم في الحشر فقائل يقول: تحشر الأرواح مجردة: وقائل يقول: بأجسادها، أو أمر الفتية فقائل يقول: ناس صالحون، وناس يقولون: لا ندري من أمرهم غير أن الله تعالى أراد هدايتنا بهم ﴿ فقالوا ﴾ أي فتسبب عن هذا الإعثار أو التنازع أن قال أكثرهم: ﴿ ابنوا عليهم ﴾ على كل حال ﴿ بنياناً ﴾ يحفظهم، واتركوا التنازع فيهم، ثم عللوا ذلك بقولهم: ﴿ ربهم ﴾ أي المحسن إليهم بهدايتهم وحفظهم وهداية الناس بهم ﴿ أعلم بهم ﴾ أن كانوا صالحين أو لا، وأما أنتم فلا طريق لكم إلى علم ذلك؛ ثم استأنف على طريق الجواب لمن كأنه قال: ماذا فعلوا؟ فقال: ﴿ قال الذين غلبوا على ﴾ أي وقع أن كانوا غالبين على ﴿ أمرهم ﴾ أي ظهروا عليه وعلموا أنهم ناس صالحون فروا بدينهم من الكفار وضعف من ينازعهم؛ ويجوز - وهو أحسن - أن يكون الضمير لأهل البلد أو للغالبين أنفسهم، إشارة إلى أن الرؤساء منهم وأهل القوة كانوا أصلحهم إيماء إلى أن الله تعالى أصلح بهم أهل ذلك الزمان ﴿ لنتخذن عليهم ﴾ ذلك البنيان الذي اتفقنا عليه ﴿ مسجداً ﴾ وهذا دليل على أنهم حين ظهروا عليهم وكلموهم أماتهم الله بعد أن علموا أن لهم مدة طويلة لا

يعيش مثلها أحد في ذلك الزمان ، وقبل أن يستقصوا جميع أمرهم ، وفي قصتهم ترغيب في الهجرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 454.459 ﴾

(195/469)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

اعلم أن التقدير وكما : زدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم ، فضربنا على آذانهم وأنمناهم وأبقيناهم أحياء لا يأكلون ولا يشربون ونقلبهم فكذلك بعثناهم أي أحييناهم من تلك النومة التي تشبه الموت ليتساءلوا بينهم تساءل تنازع واختلاف في مدة لبثهم ، فإن قيل : هل يجوز أن يكون الغرض من بعثهم أن يتساءلوا ويتنازعوا ؟ قلنا : لا يبعد ذلك لأنهم إذا تساءلوا انكشف لهم من قدرة الله تعالى أمور عجيبة وأحوال غريبة ، وذلك الانكشاف أمر مطلوب لذاته .

ثم قال تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مّنْهُمْ كَم لَبِثْتُمْ ﴾ أي كم مقدار لبثنا في هذا الكهف : ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قال المفسرون إنهم دخلوا الكهف غدوة وبعثهم الله في آخر النهار

، فلذلك قالوا لبثنا يوماً فلما رأوا الشمس باقية قالوا أو بعض يوم ، ثم قال تعالى : ﴿ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ ، قال ابن عباس هو رئيسهم يمليخا رد علم ذلك إلى الله تعالى لأنه لما نظر إلى أشعارهم وأظفارهم وبشرة وجوههم رأى فيها آثار التغير الشديد فعلم أن مثل ذلك التغير لا يحصل إلا في الأيام الطويلة .

(196/469)

ثم قال : ﴿ فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذه إلى المدينة ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم بورقكم ساكنة الراء مفتوحة الواو ومنهم من قرأ (ها) مكسورة الواو ساكنة الراء وقرأ ابن كثير بورقكم بكسر الراء وإدغام القاف في الكاف وعن ابن محيصن أنه كسر الواو وأسكن الراء وأدغم القاف في الكاف ، وهذا غير جائز لالتقاء الساكنين على هذه ، والورق اسم للفضة سواء كانت مضروبة أم لا ، ويدل عليه ما روى أن عرفجة اتخذ أنفاً من ورق ، وفيه لغات ورق وورق وورق مثل كبد وكبد وكبد ، ذكره الفراء والزجاج قال الفراء وكسر الواو أردؤها .

ويقال أيضاً للورق الرقة ، قال الأزهري أصله ورق مثل صلة وعدة ، قال المفسرون كانت معهم دراهم عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم يعني بالمدينة التي يقال لها اليوم

طرسوس ، وهذه الآية تدل على أن السعي في إمساك الزاد أمر مهم مشروع وأنه لا يبطل التوكل وقوله : ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ .

قال ابن عباس : يريد ما حل من الذبائح لأن عامة أهل بلدهم كانوا مجوساً وفيهم قوم يخفون إيمانهم .

وقال مجاهد : كان ملكهم ظالماً فقولهم : ﴿ أَزْكَى طَعَامًا ﴾ يريدون أيها أبعد عن الغضب ، وقيل أيها أطيب وألذ ، وقيل أيها أرخص ، قال الزجاج : قوله : ﴿ أَيُّهَا ﴾ رفع بالابتداء ، و ﴿ أَزْكَى ﴾ خبره و ﴿ طَعَامًا ﴾ نصب على التمييز ، وقوله : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أي يكون ذلك في سر وكتمان يعني دخول المدينة وشراء الطعام ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أي لا يخبرن بمكانكم أحداً من أهل المدينة : ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أي يطلعوا ويشرفوا على مكانكم أو على أنفسكم من قولهم : ظهرت على فلان إذا علوته وظهرت على السطح إذا صرت فوقه ، ومنه قوله تعالى :

﴿ فَأَصْبَحُوا ظاهرين ﴾ [الصف : 14] أي عالين ، وكذلك قوله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ [التوبة : 33] أي ليعليه وقوله : ﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ يقتلوكم ، والرجم بمعنى

القتل كثير في التنزيل كقوله : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لرجمناك ﴾ [هود : 91] وقوله : ﴿ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ [الدخان : 20] وأصله الرمي ، قال الزجاج : أي يقتلوكم بالرجم ، والرجم أخبث أنواع القتل : ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ ﴾ أي يردوكم إلى دينهم ﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذاً أَبَدًا ﴾ أي إذا رجعتم إلى دينهم لن تسعدوا في الدنيا ولا في الآخرة قال الزجاج قوله : ﴿ إِذاً أَبَدًا ﴾ يدل على الشرط أي ولن تفلحوا إن رجعتم إلى ملتهم أبداً ، قال القاضي : ما على المؤمن الفار بدينه أعظم من هذين فأحدهما فيه هلاك النفس وهو الرجم الذي هو أخبث أنواع القتل ، والآخر هلاك الدين بأن يردوا إلى الكفر ، فإن قيل : أليس أنهم لو أكرهوا على الكفر حتى إنهم أظهروا الكفر لم يكن عليهم مضرة فكيف قالوا : ﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذاً أَبَدًا ﴾ قلنا يحتمل أن يكون المراد أنهم لو ردوا هؤلاء المسلمين إلى الكفر على سبيل الإكراه بقوا مظهرين لذلك الكفر مدة فإنه يميل قلبهم إلى ذلك الكفر ويصيرون كافرين في الحقيقة ، فهذا الاحتمال قائم فكان خوفهم منه ، والله أعلم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾

اعلم أن المعنى كما زدناهم هدى وربطنا على قلوبهم وأنمناهم وقلبناهم وبعثناهم لما فيها من الحكم الظاهرة ، فكذلك أعثرنا عليهم أي أطلعنا غيرهم على أحوالهم يقال عثرت على كذا أي علمته وقالوا : إن أصل هذا أن من كان غافلاً عن شيء فعثر به نظر إليه فعرفه ، فكان العثار سبباً لحصول العلم والتبين فأطلق اسم السبب على المسبب

واختلفوا في السبب الذي لأجله عرف الناس واقعة أصحاب الكهف على وجهين : الأول : أنه طالت شعورهم وأظفارهم طولاً مخالفاً للعادة وظهرت في بشرة وجوههم آثار عجيبة تدل على أن مدتهم قد طالت طولاً خارجاً عن العادة .

والثاني : أن ذلك الرجل لما دخل إلى السوق ليشتري الطعام وأخرج الدراهم لثمن الطعام قال صاحب الطعام : هذه النقود غير موجودة في هذا اليوم .

وإنها كانت موجودة قبل هذا الوقت بمدة طويلة ودهر داهر فلعلك وجدت كنزاً ،

واختلف الناس فيه وحملوا ذلك الرجل إلى ملك البلد فقال الملك من أين وجدت هذه الدراهم ؟ فقال : بعت بها أمس شيئاً من التمر ، وخرجنا فراراً من الملك دقيانوس فعرف ذلك الملك أنه ما وجد كنزاً وأن الله بعثه بعد موته ثم قال تعالى : ﴿ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ يعني أنا إنما أطلعنا القوم على أحوالهم ليعلم القوم أن وعد الله حق بالبعث والحشر والنشر روى أن ملك ذلك الوقت كان ممن ينكر البعث إلا أنه كان مع كفره منصفاً فجعل الله أمر الفتية دليلاً للملك ، وقيل بل اختلفت الأمة في ذلك الزمان فقال بعضهم : الجسد والروح

يبعثان جميعاً ، وقال آخرون : الروح تبعث ، وأما الجسد فتأكله الأرض .

ثم إن ذلك الملك كان يتضرع إلى الله أن يظهر له آية يستدل بها على ما هو الحق في هذه المسألة فأطلعه الله تعالى على أمر أصحاب أهل الكهف .

فاستدل ذلك الملك بواقعتهم على صحة البعث للأجساد ، لأن انتباههم بعد ذلك النوم الطويل يشبه من يموت ثم يبعث فقوله : ﴿ إِذْ يتنازعون بَيْنَهُمْ ﴾ متعلق بأعثرنا أي أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم .

واختلفوا في المراد بهذا التنازع فقيل كانوا يتنازعون في صحة البعث ، فالقائلون به استدلوا بهذه الواقعة على صحته ، وقالوا كما قدر الله على حفظ أجسادهم مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين فكذلك يقدر على حشر الأجساد بعد موتها ، وقيل : إن الملك وقومه لما رأوا أصحاب الكهف ووقفوا على أحوالهم عاد القوم إلى كهفهم فأماتهم الله فعند هذا اختلف الناس ، فقال قوم إنهم نيام كالكرة الأولى وقال آخرون بل الآن ماتوا .

والقول الثالث : أن بعضهم قال : الأولى أن يسد باب الكهف لئلا يدخل عليهم أحد ولا يقف على أحوالهم إنسان .

وقال آخرون : بل الأولى أن يبنى على باب الكهف مسجد وهذا القول يدل على أن أولئك الأقوام كانوا عارفين بالله معترفين بالعبادة والصلاة .

والقول الرابع : أن الكفار قالوا : إنهم كانوا على ديننا فنتخذ عليهم بنياناً ، والمسلمون قالوا كانوا على ديننا فنتخذ عليهم مسجداً .

والقول الخامس : أنهم تنازعوا في قدر مكثهم .

والسادس : أنهم تنازعوا في عددهم وأسمائهم ، ثم قال تعالى : ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ وهذا فيه وجهان .

أحدهما : أنه من كلام المتنازعين كأنهم لما تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أسمائهم وأحوالهم ومدة لبثهم ، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا ربهم أعلم بهم .

الثاني : أن هذا من كلام الله تعالى ذكره رداً للخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين ثم قال تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ ﴾ قيل المراد به الملك المسلم ، وقيل : أولياء أصحاب الكهف ، وقيل : رؤساء البلد : ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِدًا ﴾ نعبد الله فيه ونستبقي آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 87.90 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وكذلك بعثناهم ﴾

يعني به إيقاظهم من نومهم . قال مقاتل : وأنام الله كلبهم معهم . ﴿ ليتساءلوا بينهم قال قائلٌ منهم كم لبثتم ﴾ ليعلموا قدر نومهم .

﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ كان السائل منهم أحدهم ، والمجيب له غيره ، فقال لبثنا يوما لأنه أطول مدة النوم المعهود ، فلما رأى الشمس لم تغرب قال ﴿ أو بعض يوما ﴾ لأنهم أنيموا أول النهار ونبهوا آخره .

﴿ قالوا ربُّكم أعْلمُ بما لبثتم ﴾ وفي قائله قولان :

أحدهما : أنه حكاية عن الله تعالى أنه أعلم بمدة لبثهم .

الثاني : أنه قول كبيرهم مكسلمينا حين رأى الفتية مختلفين فيه فقال ﴿ ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ فنطق بالصواب ورد الأمر إلى الله عالمه ، وهذا قول ابن عباس .

﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة ﴾ قرىء بكسر الراء وبتسكينها ، وهو في القراءتين جميعاً الدراهم ، وأما الورَق بفتح الراء فهي الإبل والغنم ، قال الشاعر :

إياك أدعو فتقبل مَلَقي . . . كَفِّرْ خطاياي وثمِّرْ ورقي

يعني إبله وغنمه .

﴿ فلينظر أيها أزكي طعاماً ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أيها أكثر طعاماً ، وهذا قول عكرمة .

الثاني : أيها أحل طعاماً ، وهذا قول قتادة .

الثالث : أطيب طعاماً ، قاله الكلبي .

الرابع : أرخص طعاماً .

﴿ فليأتكم برزق مِنْه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بما ترزقون أكله .

الثاني : بما يحل لكم أكله .

﴿ وليتلطف . . . ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : وليسترخص .

الثاني : وليتلطف في إخفاء أمركم . وهذا يدل على جواز اشتراك الجماعة في طعامهم وإن كان بعضهم أكثر أكلاً وهي المناهدة ، وكانت مستقبحة في الجاهلية فجاء الشرع بإباحتها .

قوله عز وجل : ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يرجموكم بأيديهم استنكاراً لكم ، قاله الحسن .

الثاني : بألسنتهم غيبة لكم وشتماً ، قاله ابن جريج .

الثالث : يقتلوكم . والرجم القتل لأنه أحد أسبابه . ﴿ أو يعيدوكم في ملتهم ﴾ يعني في كفرهم .

﴿ ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾ إن أعادوكم في ملتهم .

قوله عز وجل : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾

فيه وجهان

أحدهما : أظهرنا أهل بلدهم عليهم .

الثاني : أطلعنا برحمتنا إليهم .

﴿ وليعلموا أن وعْدَ الله حقٌّ . . . ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ليعلم أهل بلدهم أن وعد الله حق في قيام الساعة وإعادة الخلق أحياء ، لأن من أنامهم كالموتى هذه المدة الخارجة عن العادة ثم أيقظهم أحياء قادر على إحياء من أماته وأقبره .

الثاني : معناه ليرى أهل الكهف بعد علمهم أن وعد الله حق في إعادتهم . ﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ ذلك أنهم لما بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة ليأتيهم برزق منها وطعام ،

استنكروا شخصه واستنكرت ورقه لبعد العهد فحمل إلى الملك وكان صالحاً قد آمن ومن معه ، فلما نظر إليه قال : لعل هذا من الفتية الذين خرجوا على عهد دقيانوس الملك فقد كنت أدعو الله أن يريناهم ، وسأل الفتى فأخبره فانطلق والناس معه إليهم ، فلما دنوا من أهل الكهف وسمع الفتية كلامهم خافوهم ووصى بعضهم بعضاً بدينهم فلما دخلوا عليهم أماتهم الله ميتة الحق ، فحينئذ كان التنازع الذي ذكره الله تعالى فيهم .

وفي تنازعهم قولان :

أحدهما : أنهم تنازعوا هل هم أحياء أم موتى ؛

الثاني : أنهم تنازعوا بعد العلم بموتهم هل يبنون عليهم بنياناً يعرفون به أم يتخذون عليهم مسجداً .

وقيل : إن الملك أراد أن يدفنهم في صندوق من ذهب ، فأتاه آت منهم في المنام فقال : أردت أن تجعلنا في صندوق من ذهب فلا تفعل فإنا من التراب خلقنا وإليه نعود فدعْنا .

انتهى انتهى . اهـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

(203/469)

الإشارة بذلك إلى الأمر الذي ذكر الله في جهتهم ، والعبرة التي فعلها فيهم ، و" البعث " التحريك عن سكون ، واللام في قوله ﴿ ليتساءلوا ﴾ لام الصيرورة ، لأن بعثهم لم يكن لنفس تساؤلهم ، وقول القائل ﴿ كم ﴾ لبثتم يقتضي أنه هجس في خاطره طول نومهم ، واستشعر أن أمرهم خرج عن العادة بعض الخروج ، وظاهر أمرهم أنهم انتبهوا في حال من الوقت والهواء الزمني ، لا تباين التي ناموا فيها ، وأما أن يجدد الأمر جداً فبعيد ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم " بورِقكم " بكسر الراء وقرأ أبو عمرو وحده وأبو بكر عن عاصم " بورْقكم " بسكون الراء وهما لغتان ، وحكى الزجاج قراءة " بِورْقكم " بكسر الواو وسكون الراء دون إدغام ، وروي عن أبي عمرو الإدغام ، وإنما هو إخفاء ، لأن الإدغام مع سكون الراء متعذر ، وأدغم ابن محيصن القاف في الكاف قال أبو حاتم : وذلك إنما يجوز مع تحريك الراء ، وقرأ علي بن أبي طالب " بوارقكم " ، اسم جمع كالحامل والباقر ، وقرأ أبو رجاء ، " بورقكم " بكسر الواو والراء والإدغام ، ويروى

أنهم انتبهوا جياعاً ، وأن المبعوث هو تلميخا ، وروي أنهم صلوا كأنما ناموا ليلة واحدة ، وبعثوا تلميخا في صبيحتها ، وروي أن باب الكهف انهدم بناء الكفار منه بطول السنين ، وروي أن راعياً هدمه ليدخل فيه غنمه ، فأخذ تلميخا ثياباً رثة منكرة ولبسها ، وخرج من الكهف ، فأنكر ذلك البناء المهدوم إذ لم يعرفه ، ثم مشى فجعل ينكر الطريق والمعالم ويتحير ، وهو في ذلك لا يشعر شعوراً تاماً ، بل يكذب ظنه فيما تغير عنده حتى بلغ باب المدينة ، فرأى على بابها أمارة الإسلام ، فزادت حيرته وقال كيف هذا بلد دقيوس ، وبالأمس كنا معه تحت ما كنا ، فنهض إلى باب آخر فرأى نحواً من ذلك ، حتى مشى الأبواب كلها ، فزادت حيرته ، ولم يميز بشراً ، وسمع الناس يقسمون باسم عيسى ، فاستراب بنفسه وظن أنه جن ، أو انفسد عقله ، فبقي حيران يدعو الله

تعالى ، ثم نهض إلى بائع الطعام الذي أراد شراءه فقال يا عبد الله بعني من طعامك بهذه الورق ، فدفع إليه دراهم كأخفاف الربع فيما ذكر ، فعجب لها البياع ، ودفعها إلى آخر بعجبه ، وتعاطاها الناس وقالوا له هذه دراهم عهد فلان الملك ، من أين أنت ، وكيف وجدت هذا الكنز ؟ فجعل يبهت ويعجب ، وقد كان بالبلد مشهوراً هو وبيته ، فقال : ما

أعرف غير أني وأصحابي خرجنا بالأمس من هذه المدينة فقال الناس هذا مجنون ، اذهبوا به إلى الملك ، ففزع عند ذلك فذهب به حتى جيء به الملك ، فلما لم ير دقيوس الكافر تأنس ، وكان ذلك الملك مؤمناً فاضلاً يسمى ببدوسيس فقال له الملك أين وجدت هذا الكنز ؟ فقال له إنما خرجت أنا وأصحابي أمس من هذه المدينة فأوينا إلى الكهف الذي في جبل الجلوس ، فلما سمع الملك ذلك قال في بعض ما روي ، لعل الله قد بعث لكم أيها الناس آية فلنسر إلى الكهف معه حتى نرى أصحابه ، فسار وروي أنه أو بعض جلسائه قال : هؤلاء هم الفتية الذين أرخ أمرهم على عهد دقيوس الملك ، وكتب على لوح النحاس بباب المدينة ، فسار الملك إليهم ، وسار الناس معه ، فلما انتهوا إلى الكهف قال تمليخا : أدخل عليهم لئلا يرعبوا ، فدخل عليهم ، فأعلمهم بالأمر ، وأن الأمة أمة إسلام ، فروي أنهم سُرُّوا وخرجوا إلى الملك ، وعظموه وعظمهم ، ثم رجعوا إلى كهفهم ، وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حيث حدثهم تمليخا ، فانتظرهم الناس فلما أبطأ خروجهم ، دخل الناس إليهم فرعب كل من دخل ، ثم أقدموا فوجدوهم موتى ، فتنازعوا بحسب ما يأتي في تفسير الآية التي بعد هذه ، وفي هذا القصص من اختلاف الروايات والألفاظ ما تضيق به الصحف ، فاختصرته ، وذكرت المهم الذي به تتفسر ألفاظ هذه الآية ، واعتمدت الأصح ، والله المعين برحمته ، وفي هذه البعثة بالورق الوكالة وصحتها ، وقد وكل علي بن أبي

طالب أخاه عقيلاً عند عثمان رضي الله عنهم ، وقرأ الجمهور " فلْينظر " بسكون لام الأمر ، وقرأ

(205/469)

الحسن " فِلينظر " بكسرها ، و﴿ أزكى ﴾ معناه أكثر فيما ذكر عكرمة ، وقال قتادة معناه خير ، وقال مقاتل : المراد أطيب ، وقال ابن جبير : المراد أحل .

قال أبو القاضي أبو محمد : وهو من جهة ذبائح الكفرة وغير ذلك فروي أنه أراد شراء زبيب ، وقيل بل شراء تمر ، وقوله ﴿ وليتلطف ﴾ أي في اختفائه وتحيله ، وقرأ الحسن " ولِيتلطف " بكسر اللام ، والضمير في ﴿ إنهم ﴾ عائد على الكفار ، آل دقيوس ، و ﴿ يظهروا عليكم ﴾ معناه يثقفوكم بعلوهم وغلبتهم ، وقولهم ﴿ يرجموكم ﴾ قال الزجاج معناه بالحجارة .

قال القاضي أبو محمد : وهو الأصح ، لأنه كان عازماً على قتلهم لو ظفر بهم ، و" الرجم " فيما سلف هي كانت على ما ذكر قتلة مخالف دين الناس ، إذ هي أشفى لحملة ذلك الدين ، ولهم فيها مشاركة ، وقال حجاج ، ﴿ يرجموكم ﴾ معناه بالقول ، وباقي الآية بين .

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾

الإشارة بذلك في قوله ﴿ وكذلك ﴾ إلى ﴿ بعثناهم ليتساءلوا ﴾ [الكهف : 19] أي كما بعثناهم ﴿ أعثرنا عليهم ﴾ ، و" أعثر " تعدية بالهمزة ، وأصل العثار في القدم ، فلما كان العاثر في الشيء منتبهاً له شبه به من تنبه لعلم شيء عن له وثار بعد خفائه ، والضمير في قوله ﴿ ليعلموا ﴾ يحتمل أن يعود على الأمة المسلمة الذين بعث أهل الكهف على عهدهم ، وإلى هذا ذهب الطبري ، وذلك أنهم ، فيما روي ، دخلتهم حينئذ فتنة في أمر الحشر وبعث الأجساد من القبور ، فشك في ذلك بعض الناس واستبعدوه ، وقالوا إنما تحشر الأرواح ، فشق على ملكهم ذلك وبقي حيران لا يدري كيف يبين أمره لهم ، حتى لبس المسوح وقعد على الرماد ، وتضرع إلى الله في حجة وبيان ، فأعثر الله على أهل الكهف ، فلما بعثهم الله ، وتبين الناس أمرهم ، سر الملك ورجع من كان شك في بعث الأجساد إلى اليقين به ، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله ﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ على هذا التأويل ، ويحتمل أن يعمل في ﴿ أن ﴾ على هذا التأويل ، ﴿ أعثرنا ﴾ ، ويحتمل أن يعمل فيه ﴿ ليعلموا ﴾ ، والضمير في قوله ﴿ ليعلموا ﴾ يحتمل أن يعود على أصحاب الكهف ، أي جعل الله أمرهم آية لهم دالة على بعث الأجساد من القبور ، وقوله

﴿ إذ يتنازعون ﴾ على هذا التأويل ابتداء خبر عن القوم الذين بعثوا على عهدهم ، والعامل في ﴿ إذ ﴾ ، فعل مضمر تقديره واذكر ، ويحتمل أن يعمل فيه ﴿ فقالوا ﴾ ﴿ إذ يتنازعون ﴾ ﴿ ابنوا عليهم ﴾ . والتنازع على هذا التأويل ، إنما هو في أمر البناء أو المسجد ، لا في أمر القيامة ، و" الريب " : الشك ، والمعنى أن الساعة في نفسها وحقيقتها لا شك فيها ، وإن كان الشك قد وقع لناس ، فذلك لا يلحقها منه شيء ، وقيل إن التنازع إنما هو في أن اطلعوا عليهم فقال بعض هم أموات ، وبعض هم أحياء ، وروي أن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم ، وتركهم فيه مغيبين ، فقالت الطائفة الغالبة على الأمر : لنتخذن عليهم

(207/469)

مسجداً ، فاتخذوه ، وقال قتادة ﴿ الذين غلبوا ﴾ هم الولاة ، وقرأ الحسن وعيسى الثقفي : " غُلِبوا " بضم الغين وكسر اللام ، والمعنى أن الطائفة التي أرادت المسجد كانت أولاً تريد أن لا يبنى عليهم شيء ، وأن لا يعرض لموضعهم ، فروي أن طائفة أخرى مؤمنة أرادت ولا بد طمس الكهف ، فلما غلبت الأولى على أن يكون بنيان لا بد ، قالت يكون مسجداً ، فكان ، وروي أن الطائفة التي دعت إلى البنيان ، إنما كانت كافرة ، أرادت بناء

بيعة أو مصنع لكفرهم ، فما نعهم المؤمنون ، وقالوا ﴿ لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ ، وروي عن عبيد بن عمير أن الله عمى على الناس حينئذ أثرهم ، وحجبهم عنهم ، فلذلك دعا إلى بناء البنيان ليكون معلماً لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(208/469)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك بعثناهم ﴾

أي : وكما فعلنا بهم ما ذكرنا ، بعثناهم من تلك النومة ﴿ ليتساءلوا ﴾ أي : ليكون بينهم تساؤل وتنازع واختلاف في مدة لبثهم ، فيفيد تساؤلهم اعتبار المعتبِرين بحالهم .

﴿ قال قائل منهم كم لبثتم ﴾ أي : كم مرَّ علينا منذ دخلنا هذا الكهف ؟ ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ وذلك أنهم دخلوا غُدوةً ، وبعثهم الله في آخر النهار ، فلذلك قالوا : ﴿ يوماً ﴾ ، فلما رأوا الشمس قالوا : "أو بعض يوم" ﴿ قالوا ربُّكم أعلم بما لبثتم ﴾ قال ابن عباس : القائل لهذا يمليخا رئيسهم ، ردَّ عِلْم ذلك إلى الله تعالى .

وقال في رواية أخرى : إنما قاله مكسلمينا ، وهو أكبرهم .

قال أبو سليمان : وهذا يوجب أن تكون نفوسهم قد حدَّثْتهم أنهم قد لبثوا أكثر مما ذكروا .

وقيل : إنما قالوا ذلك ، لأنهم رأوا أظفارهم وأشعارهم قد طالت جداً .

قوله تعالى : ﴿ فابعثوا أحدكم ﴾ قال ابن الأنباري : إنما قال : "أحدَكم" ، ولم يقل : واحدَكم ، لئلا يلتبس البعض بالممدوح المعظَّم ، فإن العرب تقول : رأيت أحد القوم ، ولا يقولون : رأيت واحد القوم ، إلا إذا أرادوا المعظَّم ، فأراد بأحدهم : بعضَهم ، ولم يُرِد شريفهم .

قوله تعالى : ﴿ بِوَرِقِكُمْ ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : "بِوَرِقِكُم" الراء مكسورة خفيفة .

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم ساكنة الراء .

وعن أبي عمرو : "بورقكم" مدغمة يُشِمُّها شيئاً من التثقيل ؛ قال الزجاج : تصير كافاً خالصة .

قال الفراء : الوَرِق لغة أهل الحجاز ، وتميم يقولون : الوَرْق ، وبعض العرب يكسرون الواو ، فيقولون : الوِرْق .

قال ابن قتيبة .

الوَرِق : الفضة ، دراهم كانت أو غير دراهم ، يدلك على ذلك حديث عَرْفَجَة أنه اتخذ أنفاً من وَرِق .

قوله تعالى : ﴿ إِلى المدينة ﴾ يعنون التي خرجوا منها ، واسمها دقسوس ، ويقال : هي اليوم طرسوس .

(209/469)

قوله تعالى : ﴿ فلينْظُر أيُّها ﴾ قال الزجاج : المعنى : أيُّ أهلها ﴿ أزكى طعاماً ﴾

وللمفسرين في معناه ستة أقوال .

أحدها : أَحَلُّ ذبيحة ؛ قاله ابن عباس ، وعطاء ، وذلك أن عامة أهل بلدهم كانوا كفاراً ، فكانوا يذبحون للطواغيت ، وكان فيهم قوم يُخفون إِيمانهم .

والثاني : أَحَلُّ طعاماً ، قاله سعيد بن جبير ؛ قال الضحاك : وكانت أكثر أموالهم غصوباً .

وقال مجاهد : قالوا لصاحبهم لا تبتعْ طعاماً فيه ظلم ولا غصب .

والثالث : أكثر ، قاله عكرمة .

والرابع : خير ، أي : أجود ، قاله قتادة .

والخامس : أطيب ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

والسادس : أرخص ، قاله يمان بن رياب .

قال ابن قتيبة : وأصل الزكاء : النماء والزيادة .

قوله تعالى : ﴿ فليأتكم برزق منه ﴾ أي : بما تأكلونه .

﴿ ولْيتلطف ﴾ أي : ليدقِّق النظر فيه ، وليحتلْ لئلا يُطَّلَع عليه .

﴿ ولا يُشْعِرَنَّ بكم ﴾ أي : ولا يُخْبِرَنَّ أحداً بمكانكم .

﴿ إنهم إن يظهروا ﴾ أي : يطَّلعوا ويُشرفوا عليكم ، ﴿ يرجموكم ﴾ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : يقتلوكم ، قاله ابن عباس .

وقال الزجاج : يقتلوكم بالرجم .

والثاني : يرجموكم بأيديهم ، استنكاراً لكم ، قاله الحسن .

والثالث : بألسنتهم شتماً لكم ، قاله مجاهد ، وابن جريج .

قوله تعالى : ﴿ أو يُعيدوكم في مِلَّتهم ﴾ أي : يردُّوكم في دينهم ، ﴿ ولن تُفلحوا إذاً أبداً ﴾

أي : إن رجعتم في دينهم ، لم تسعدوا في الدنيا ولا في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾

أي : وكما أنمناهم وبعثناهم ، أطلعنا وأظهرنا عليهم .

قال ابن قتيبة : وأصل هذا أن من عَثَر بشيء وهو غافل ، نظر إليه حتى يعرفه ، فاستعير العِثار مكان التبيين والظهور ، ومنه قول الناس : ما عثرت على فلان بسوءٍ قط ، أي : ما ظهرت على ذلك منه .

قوله تعالى : ﴿ ليعلموا ﴾ في المشار إليهم بهذا العلم قولان .

أحدهما : أنهم أهل بلدهم حين اختصموا في البعث ، فبعث الله أهل الكهف ليعلموا ﴿ أن وعد الله ﴾ بالبعث والجزاء ﴿ حَقٌّ ﴾ وأن القيامة لا شك فيها ، هذا قول الأكثرين .

والثاني : أنهم أهل الكهف ، بعثناهم ليرَوْا بعد علمهم أن وعد الله حق ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ إذ يتنازعون ﴾ يعني : أهل ذلك الزمان .

قال ابن الأنباري : المعنى : إذ كانوا يتنازعون ، ويجوز أن يكون المعنى : إذ تنازعوا .

وفي ما تنازعوا فيه خمسة أقوال .

أحدها : أنهم تنازعوا في البنيان ، والمسجد .

فقال المسلمون : نبني عليهم مسجداً ، لأنهم على ديننا ؛ وقال المشركون : نبني عليهم بنياناً ، لأنهم من أهل سُنَّتنا ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم تنازعوا في البعث ، فقال المسلمون : تُبعث الأجساد والأرواح ، وقال بعضهم : تُبعث الأرواح دون الأجساد ، فأراهم الله تعالى بعث الأرواح والأجساد ببعثه أهل الكهف ، قاله عكرمة .

والثالث : أنهم تنازعوا ما يصنعون بالفتية ، قاله مقاتل .

والرابع : أنهم تنازعوا في قدْر مكثهم .

والخامس : تنازعوا في عددهم ، ذكرهما الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ ابنوا عليهم بنياناً ﴾ أي : استروهم من الناس بأن تجعلوهم وراء ذلك البنيان .

وفي القائلين لَهذا قولان .

أحدهما : أنهم مشركو ذلك الزمان ، وقد ذكرناه عن ابن عباس .

والثاني : أنهم الذين أسلموا حين رأوا أهل الكهف ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ قال الذين غَلَبوا على أمرهم ﴾ قال ابن قتيبة : يعني المُطاعين والرؤساء ، قال المفسرون : وهم الملك وأصحابه المؤمنون اتخذوا عليهم مسجداً .

قال سعيد بن جبير : بنى عليهم الملك بِيعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(211/469)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾

البعث : التحريك عن سكون .

والمعنى : كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدى وقلّبناهم بعثناهم أيضاً ؛ أي أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيئاتهم في ثيابهم وأحوالهم .

قال الشاعر :

وفِتْيَانِ صِدْقٍ قد بَعثْتُ بسُحْرَةٍ . . .

فقاموا جميعاً بين عاثٍ ونَشْوانِ

أي أيقظت .

واللام في قوله "ليتساءلوا" لام الصيرورة وهي لام العاقبة ؛ كقوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ فبعْثُهم لم يكن لأجل تساؤلهم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وذلك أنهم دخلوه غُدوةً وبعثهم الله في آخر النهار ؛ فقال رئيسهم تمليخا أو مكسلمينا : الله أعلم بالمدّة .

قوله تعالى : ﴿ فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذه إلى المدينة ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى : قال ابن عباس : كانت ورقهم كأخفاف الرُّبع ؛ ذكره النحاس .

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائيّ وحفص عن عاصم "بورقكم" بكسر الراء .

وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم "بورقكم" بسكون الراء ، حذفوا الكسرة لثقلها ، وهما لغتان .

وقرأ الزجاج "بوِرْقكم" بكسر الواو وسكون الراء .

ويروى أنهم انتبهوا جياعاً ، وأن المبعوث هو تمليخا ، كان أصغرهم ؛ فيما ذكر الغزنويّ .

والمدينة : أفْسُوس ويقال هي طَرسوس ، وكان اسمها في الجاهلية أفسوس ؛ فلما جاء الاسلام سمّوها طرسوس .

وقال ابن عباس : كان معهم دراهم عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً ﴾ قال ابن عباس : أحلّ ذبيحةً ؛ لأن أهل بلدهم كانوا يذبحون على اسم الصنم ، وكان فيهم قوم يخفون إيمانهم .

ابن عباس : كان عامتهم مجوساً .

وقيل : "أزكى طعاماً" أي أكثر بركة .

(212/469)

قيل : إنهم أمروه أن يشتري ما يُظن أنه طعام اثنين أو ثلاثة لئلا يُطلّع عليهم ، ثم إذا طبخ كفى جماعة ؛ ولهذا قيل ذلك الطعام الأرز .

وقيل : كان زبيباً .

وقيل تمراً ؛ فالله أعلم .

وقيل: "أزكى" أطيب.

وقيل: أرخص.

﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ أي بقوت.

﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أي في دخول المدينة وشراء الطعام.

﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أي لا يخبرن.

وقيل: إن ظُهر عليه فلا يوقعنّ إخوانه فيما وقع فيه.

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ قال الزجاج: معناه بالحجارة، وهو أخبث القتل.

وقيل: يرموكم بالسب والشتم؛ والأوّل أصح، لأنه كان عازماً على قتلهم كما تقدّم في قصصهم.

والرجم فيما سلف هي كانت على ما ذكر قبله (عقوبة) مخالفة دين الناس إذ هي أشفى لجملة أهل ذلك الدّين من حيث إنهم يشتركون فيها.

الثالثة: في هذه البعثة بالورق دليل على الوكالة وصحتها.

وقد وكّل عليّ بن أبي طالب أخاه عقيلاً عند عثمان رضي الله عنهما؛ ولا خلاف فيها في الجملة.

والوكالة معروفة في الجاهلية والإسلام؛ ألا ترى إلى عبد الرحمن بن عوف كيف وكّل أميّة بن خلف بأهله وحاشيته بمكة؛ أي يحفظهم، وأمية مشرك، والتزم عبد الرحمن لأمية من

حفظ حاشيته بالمدينة مثل ذلك مجازاةً لصنعه .

روى البخاريّ عن عبد الرحمن بن عوف قال : كاتبت أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صاغيتي بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة ؛ فلما ذكرت الرحمن ؛ قال : لا أعرف الرحمن ! كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية ، فكاتبته عبد عمرو . . .

وذكر الحديث .

قال الأصمعي : صاغية الرجل الذين يميلون إليه ويأتونه ؛ وهو مأخوذ من صغا يصغو ويصغَى إذا مال ، وكلّ مائل إلى الشيء أو معه فقد صغا إليه وأصغى ؛ من كتاب الأفعال .

الرابعة : الوكالة عقدُ نيابةٍ ، أذن الله سبحانه فيه للحاجة إليه وقيام المصلحة في ذلك ، إذ ليس كل أحد يقدر على تناول أموره إلا بمعونة من غيره أو بترفّه فيستنيب من يريحه .

وقد استدل علماؤنا على صحتها بآيات من الكتاب ، منها هذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ والعاملين عَلَيْهَا ﴾ [التوبة : 60] وقوله : ﴿ اذهبوا بقميصي هذا ﴾ [يوسف : 93] .

وأما من السنة فأحاديث كثيرة ؛ منها حديث عروة البارقيّ ، وقد تقدّم في آخر الأنعام .

" روى جابر بن عبد الله قال : أردت الخروج إلى خيبر فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : إني أردت الخروج إلى خيبر ؛ فقال : إذا أتيت وكيلي فخذ منه خمسة عشر وَسْقاً فإن ابتغى منك آيةً فضع يدك على تَرْقُوته " خرجه أبو داود .

والأحاديث كثيرة في المعنى ، وفي إجماع الأمة على جوازها كفاية .

الخامسة : الوكالة جائزة في كل حق تجوز النيابة فيه ، فلو وكل الغاصبُ لم يجز ، وكان هو الوكيل ؛ لأن كل محرَّم فعله لا تجوز النيابة فيه .

السادسة : في هذه الآية نكتة بديعة ، وهي أن الوكالة إنما كانت مع التَّقِيّة خوف أن يشعر بهم أحد لما كانوا عليه من الخوف على أنفسهم .

وجواز توكيل ذوي العذر متفق عليه ؛ فأما من لا عذر له فالجمهور على جوازها .

وقال أبو حنيفة وسحنون : لا تجوز .

قال ابن العربي : وكأن سحنون تلقّفه من أسد بن الفُرات فحكم به أيام قضائه ، ولعله كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجبروت ؛ إنصافاً منهم وإذلالاً لهم ، وهو الحق ؛ فإن الوكالة معونة ولا تكون لأهل الباطل .

قلت : هذا حسن ؛ فأما أهل الدين والفضل فلهم أن يوكّلوا وإن كانوا حاضرين أصحّاء .

والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهد الصحيح ما خرّجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال : "كان لرجل على النبيّ صلى الله عليه وسلم سِنّ من الإبل فجاء يتقاضاه فقال : "أعطوه" فطلبوا له سِنّه فلم يجدوا إلا سِنًّا فوقها ؛ فقال : "أعطوه" فقال : أوفَيْتَني أوْفَى الله لك .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : إن خيركم أحسنُكم قضاء " لفظ البخاري .

فدل هذا الحديث مع صحته على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يعطوا عنه السنّ التي كانت عليه ؛ وذلك توكيل منه لهم على ذلك ، ولم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم مريضاً ولا مسافراً .

وهذا يرد قول أبي حنيفة وسحنون في قولهما : إنه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه ؛ وهذا الحديث خلاف قولهما .

السابعة : قال ابن خُوَيْزِ منداد : تضمنت هذه الآية جواز الشركة لأن الورق كان لجميعهم . وتضمنت جواز الوكالة لأنهم بعثوا من وكّلوه بالشراء .

وتضمنت جواز أكل الرفقاء وخلطهم طعامهم معا ، وإن كان بعضهم أكثر أكلاً من الآخر ؛ ومثله قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ حسبما تقدم بيانه في "البقرة" .

ولهذا قال أصحابنا في المسكين يتصدّق عليه فيخلطه بطعام لغنيّ ثم يأكل معه : إن ذلك

جائز .

وقد قالوا في المضارب يخلط طعامه بطعام غيره ثم يأكل معه : إن ذلك جائز .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وكّل من اشترى له أضحية .

قال ابن العربي : ليس في الآية دليل على ذلك ؛ لأنه يحتمل أن يكون كل واحد منهم قد أعطاه منفرداً فلا يكون فيه اشتراك .

ولا معوّل في هذه المسألة إلا على حديثين :

أحدهما : أن ابن عمر مرّ بقوم يأكلون تمراً فقال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاقتران إلا أن يستأذن الرجل أخاه .

الثانية : حديث أبي عبيدة في جيش الخبط .

وهذا دون الأول في الظهور ؛ لأنه يحتمل أن يكون أبو عبيدة يعطيهم كفافاً من ذلك القوت ولا يجمعهم عليه .

قلت : ومما يدل على خلاف هذا من الكتاب قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ [البقرة : 220] وقوله ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ [النور :

16] على ما يأتي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾

أي أطلعنا عليهم وأظهرناهم .

و"أعثر" تعدية عثر بالهمزة ، وأصل العثار في القدم .

﴿ ليعلموا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ يعني الأمة المسلمة الذين بعث أهل الكهف على عهدهم .

وذلك أن دقيانوس مات ومضت قرون وملك أهل تلك الدار رجلٌ صالح ، فاختلف أهل بلده في الحشر وبعث الأجساد من القبور ، فشك في ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا : إنما تحشر الأرواح والجسد تأكله الأرض .

وقال بعضهم : تبعث الروح والجسد جميعاً ؛ فكبر ذلك على الملك وبقي حيران لا يدري كيف يتبيّن أمره لهم ، حتى لبس المسوح وقعد على الرمّاد وتضرّع إلى الله تعالى في حجة وبيان ، فأعثر الله على أهل الكهف ؛ فيقال : إنهم لما بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة ليأتيهم برزق منها استنكر شخصه واستنكرت دراهمه لبعد العهد ، فحمل إلى الملك وكان صالحاً قد آمن وآمن من معه ، فلما نظر إليه قال : لعل هذا من الفتية الذين خرجوا

على عهد دقيانوس الملك ، فقد كنت أدعو الله أن يرينيهم ، وسأل الفتى فأخبره ؛ فسرّ الملك بذلك قال : لعل الله قد بعث لكم آية ، فلنسر إلى الكهف معه ، فركب مع أهل المدينة إليهم ، فلما دنوا إلى الكهف قال تمليخا : أنا أدخل عليهم لئلا يرعبوا فدخل عليهم فأعلمهم الأمر وأن الأمة أمة إسلام ، فروي أنهم سرّوا بذلك وخرجوا إلى الملك وعظّموه وعظّمهم ثم رجعوا إلى كهفهم .

وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدّثهم تمليخا ميتة الحق ، على ما يأتي .

ورجع من كان شكّ في بعث الأجساد إلى اليقين .

فهذا معنى "أعثرنا عليهم" .

"ليعلموا أن وعد الله حق" أي ليعلم الملك ورعيته أن القيامة حق والبعث حق "إذ يتنازعون بينهم أمرهم" .

وإنما استدلوا بذلك الواحد على خبرهم وهابوا الدخول عليهم فقال الملك : ابنوا عليهم بنيانا ؛ فقال الذين هم على دين الفتية : اتخذوا عليهم مسجداً .

وروي أن طائفة كافرة قالت : نبني بيعة أو مضيفاً ، فمانعهم المسلمون وقالوا لنتخذن عليهم مسجداً .

وروي أن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم وتركهم فيه مغيّبين .

وروي عن عبد الله بن عمر أن الله تعالى أعمى على الناس حينئذٍ أثرهم وحجبهم عنهم ،

فلذلك دعا الملك إلى بناء البنيان ليكون مَعْلَماً لهم .

وقيل : إن الملك أراد أن يدفنهم في صندوق من ذهب فأتاه آتٍ منهم في المنام فقال : أردت أن تجعلنا في صندوق من ذهب فلا تفعل ؛ فإنا من التراب خلقنا وإليه نعود ، فدعنا .

وتنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائزة ؛ فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها ، إلى غير ذلك مما تضمّنته السنة من النهي عنه ممنوع لا يجوز ؛ لما روى أبو داود والترمذيّ عن ابن عباس قال :

" لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج "

قال الترمذيّ : وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة حديث ابن عباس حديث حسن .

وروى الصحيحان عن عائشة : " أن أم حبيبة وأمّ سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تلك الصور أولئك شرارُ الخلق عند الله تعالى يوم القيامة " لفظ مسلم .

قال علماؤنا : وهذا يحرم على المسلمين أن يتّخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد .

وروى الأئمة عن أبي مرثد الغنويّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تصلّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها " لفظ مسلم .

أي لا تتخذوها قبلة فتصلّوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى ، فيؤدي إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام .

فحذّر النبيّ صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك ، وسَدَّ الذرائع المؤدّية إلى ذلك فقال : " اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد " .

وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بن عباس قالا : " لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طَفِق يطرح خَميصة له على وجهه فإذا اغتمّ بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " يحذّر ما صنعوا .

وروى مسلم عن جابر قال : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجصّص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه " وخرّجه أبو داود والترمذي أيضاً عن جابر قال : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجصّص القبور وأن يكتب عليها وأن يبنى عليها وأن توطأ "

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

وروى الصحيح عن أبي الهيّاج الأسدي قال : قال لي عليّ بن أبي طالب : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألاّ تدَعَ تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مُشرفاً إلا سوّيته في رواية ولا صورة إلا طمستها .

وأخرجه أبو داود والترمذيّ.

قال علماؤنا : ظاهره منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون لاطئة .

وقد قال به بعض أهل العلم .

وذهب الجمهور إلى أن هذا الارتفاع المأمور بإزالته هو ما زاد على التسنيم ، ويبقى للقبر ما يعرف به ويحترم ، وذلك صفة قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقبر صاحبيه رضي الله عنهما على ما ذكر مالك في الموطأ وقبر أبينا آدم صلى الله عليه وسلم ؛ على ما رواه الدارقطنيّ من حديث ابن عباس .

وأما تعلية البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهلية تفعله تفخيماً وتعظيماً فذلك يهدم ويزال ؛ فإن فيه استعمال زينة الدنيا في أول منازل الآخرة ، وتشبُّهاً بمن كان يعظّم القبور ويعبدها .

وباعتبار هذه المعاني وظاهر النهي ينبغي أن يقال : هو حرام .

والتسنيم في القبر : ارتفاعه قدر شبر ؛ مأخوذ من سنام البعير .

ويُرَشّ عليه بالماء لئلا ينتثر بالريح .

وقال الشافعيّ لا بأس أن يطيّن القبر .

وقال أبو حنيفة : لا يجصص القبر ولا يطين ولا يرفع عليه بناء فيسقط .

ولا بأس بوضع الأحجار لتكون علامة ؛ لما رواه أبو بكر الأثرم قال : حدّثنا مسدّد حدّثنا نوح بن دُرّاج عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد قال : كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تزور قبر حمزة بن عبد المطلب كل جمعة وعلّمته بصخرة ؛ ذكره أبو عمر .

(219/469)

وأما الجائزة : فالدفن في التابوت ؛ وهو جائز لا سيما في الأرض الرّخْوة .

وروي أن دانيال صلوات الله عليه كان في تابوت من حجر ، وأن يوسف عليه السلام أوصى بأن يتخذ له تابوت من زجاج ويلقي في ركيّة مخافة أن يعبد ، وبقي كذلك إلى زمان موسى صلوات الله عليهم أجمعين ؛ فدلّته عليه عجوز فرفعه ووضعه في حظيرة إسحاق عليه السلام .

وفي الصحيح عن سعد بن أبي وقّاص : أنه قال في مرضه الذي هلك فيه : اتخذوا لي لَحْداً وانصبوا عليّ اللّبن نَصْباً ؛ كما صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم .

اللحد : هو أن يشقّ في الأرض ثم يحفر قبر آخر في جانب الشق من جانب القبلة إن كانت الأرض صلبة يدخل فيه الميت ويسدّ عليه باللّبن .

وهو أفضل عندنا من الشق ؛ لأنه الذي اختاره الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم .

وبه قال أبو حنيفة قال : السنة اللحد .

وقال الشافعي : الشق .

ويكره الآجر في اللحد .

وقال الشافعي : لا بأس به لأنه نوع من الحجر .

وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ؛ لأن الآجر لإحكام البناء ، والقبر وما فيه للبلى ، فلا يليق به الإحكام .

وعلى هذا يسوّى بين الحجر والآجر .

وقيل : إن الآجر أثر النار فيكره تفاؤلاً ؛ فعلى هذا يفرق بين الحجر والآجر .

قالوا : ويستحب اللّبن والقَصَب لما روي أنه وضع على قبر النبيّ صلى الله عليه وسلم حزمة من قصب .

وحكي عن الشيخ الإمام أبي بكر محمد بن الفضل الحنفيّ رحمه الله أنه جوّز اتخاذ التابوت في بلادهم لرخاوة الأرض .

وقال : لو اتخذ تابوت من حديد فلا بأس به ؛ لكن ينبغي أن يفرش فيه التراب وتطيّن الطبقة العليا مما يلي الميت ، ويجعل اللّبن الخفيف على يمين الميت ويساره ليصير بمنزلة اللحد .

(220/469)

قلت : ومن هذا المعنى جعل القطيفة في قبر النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإن المدينة سبخة ، قال شُقْران : أنا والله طرحت القطيفة تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبر : قال أبو عيسى الترمذي : حديث شقران حديث حسن صحيح غريب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(221/469)

وقال أبو حيان :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾

الكاف للتّشبيه والإشارة بذلك .

قيل إلى المصدر المفهوم من ﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ أي مثل جعلنا إنامتهم هذه المدة

الطويلة آية ، جعلنا بعثهم آية .

قاله الزجاج وحسنه الزمخشري .

فقال : وكما أنمناهم تلك النومة ﴿ كذلك بعثناهم ﴾ إذكاراً بقدرته على الإماتة والبعث جميعاً ، ليسأل بعضهم بعضاً ويتعرّفوا حالهم وما صنع الله بهم ، فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله ، ويزدادوا يقيناً ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرموا به انتهى .

وناسب هذا التشبيه قوله تعالى حين أورد قصتهم أولاً مختصرة ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ثم بعثناهم ﴾ .

وقال ابن عطية : الإشارة بذلك إلى الأمر الذي ذكره الله في جهتهم والعبرة التي فعلها فيهم ، واللام في ﴿ ليتساءلوا ﴾ لام الصيرورة لأن بعثهم لم يكن لنفس تساؤلهم انتهى .

والقائل .

قيل : كبيرهم مكسلمينا .

وقيل : صاحب نفقتهم تمليخا وكم سؤال عن العدد والمعنى كم يوماً أقمتم نائمين ، والظاهر صدور الشك من المسؤولين .

وقيل : ﴿ أو ﴾ للتفصيل .

قال بعضهم ﴿ لبثنا يوماً ﴾ .

وقال بعضهم ﴿ بعض يوم ﴾ والسائل أحس في خاطره طول نومهم ولذلك سأل .

قيل : ناموا أول النهار واستيقظوا آخر النهار ، وجوابهم هذا مبني على غلبة الظن والقول بالظن الغالب لا يعد كذباً ، ولما عرض لهم الشك في الإخبار ردوا علم لبثهم إلى الله تعالى .

وقال الزمخشري : ﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ إنكار عليهم من بعضهم وأن الله تعالى أعلم بمدة لبثهم كان هؤلاء قد علموا بالأدلة أو بإلهام من الله أن المدة متطاولة وأن مقدارها مبهم لا يعلمه إلاّ الله انتهى .

ولما انتبهوا من نومهم أخذهم ما يأخذ من نام طويلاً من الحاجة إلى الطعام ، واتصل ﴿ فابعثوا ﴾ بحديث التساؤل كأنهم قالوا خذوا فيما يهمكم ودعوا علم ذلك إلى الله .

(222/469)

والمبعوث قيل هو تمليخا ، وكانوا قد استصحبوا حين خرجوا فارين دراهم لنفقتهم وكانت حاضرة عندهم ، فلهذا أشار وإليها بقولهم ﴿ هذه ﴾ .

وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر والحسن والأعمش واليزيدي ويعقوب في رواية ، وخلف وأبو عبيد وابن سعدان ﴿ بورقكم ﴾ بإسكان الراء .

وقرأ باقي السبعة وزيد بن عليّ بكسرها .

وقرأ أبو رجاء بكسر الواو وإسكان الراء وإدغام القاف في الكاف وكذا إسماعيل عن ابن

محيصن ، وعن ابن محيض أيضاً كذلك إلاّ أنه كسر الراء ليصح الإدغام ، وقال الزمخشري : وقرأ ابن كثير ﴿ بورقكم ﴾ بكسر الراء وإدغام القاف في الكاف انتهى .

وهو مخالف لما نقل الناس عنه .

وحكى الزجاج قراءة بكسر الواو وسكون الراء دون إدغام .

وقرأ عليّ بن أبي طالب بوارقكم على وزن فاعل جعله اسم جمع كباقر وجائل .

و﴿ المدينة ﴾ هي مدينتهم التي خرجوا منها ، وقيل وتسمى الآن طرسوس وكان اسمها عند خروجهم أفسوس .

﴿ فلينظر ﴾ يجوز أن يكون من نظر العين ، ويجوز أن يكون من نظر القلب ، والجملة في موضع نصب بفلينظر معلق عنها الفعل .

و﴿ أيها ﴾ استفهام مبتدأ و﴿ أزكى ﴾ خبره ، ويجوز أن يكون ﴿ أيها ﴾ موصولاً مبنياً مفعولاً لينظر على مذهب سيبويه ، و﴿ أزكى ﴾ خبر مبتدأ محذوف .

و﴿ أزكى ﴾ قال ابن عباس وعطاء أحل ذبيحة وأطهر لأن عامة بلدتهم كانوا كفاراً يذبحون للطواغيت .

وقال ابن جبير : أحل طعاماً .

قال الضحاك : وكان أكثر أموالهم غصوباً .

وقال مجاهد : قالوا له لا تبتع طعاماً فيه ظلم .

وقال عكرمة : أكثر .

وقال قتادة : أجود .

وقال ابن السائب ومقاتل : أطيب .

وقال يمان بن ريان : أرخص .

وقيل : أكثر بركة وريعاً .

وقيل : هو الأرز .

وقيل : التمر .

وقيل : الزبيب .

وقيل : في الكلام حذف أي أيّ أهلها ﴿ أزكى طعاماً ﴾ فيكون ضمير المؤنث عائداً على ﴿ المدينة ﴾ وإذا لم يكن حذف فيكون عائده على ما يفهم من سياق الكلام كأنه قيل أي المآكل .

وفي قوله : ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم ﴾ دليل على أن حمل النفقة وما يصلح للمسافر هو رأي المتوكلين على الله دون المتوكلين على الإنفاقات وعلى ما في أوعية الناس .

وقال بعض العلماء : ما لهذا السفر يعني سفر الحج إلا شيئان شد الهميان والتوكل على الرحمن .

﴿ وليتلطف ﴾ في اختفائه وتحيله مدخلاً ومخرجاً .

وقال الزمخشري : وليتكلف اللطف والنيقة فيما يباشره من أمر المبايعة حتى لا يغبن ، أو في أمر التخفي حتى لا يعرف انتهى .

والوجه الثاني هو الظاهر .

وقرأ الحسن : ﴿ وليتلطف ﴾ بكسر لام الأمر ، وعن قتيبة الميال ﴿ وليتطلف ﴾ بضم الياء مبنياً للمفعول .

﴿ ولا يشعرن ﴾ أي لا يفعل ما يؤدي من غير قصد منه إلى الشعور بنا ، سمي ذلك إشعاراً منه بهم لأنه سبب فيه .

وقرأ أبو صالح ويزيد بن القعقاع وقتيبة ﴿ ولا يشعرن بكم ﴾ أحد ببناء الفعل للفاعل ، ورفع أحد .

والضمير في ﴿ أنهم ﴾ عائد على ما دل عليه المعنى من كفار تلك المدينة .

وقيل : ويجوز أن يعود على ﴿ أحداً ﴾ لأن لفظه للعموم فيجوز أن يجمع الضمير كقوله ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ ففي حاجزين ضمير جمع عائد على أحد .

وقال الزمخشري : الضمير في ﴿ أنهم ﴾ راجع إلى الأهل المقدر في ﴿ أيها ﴾ والظهور

هنا الإطلاع عليهم والعلم بمكانهم .

وقيل : العلو والغلبة .

وقرأ زيد بن عليّ ﴿ يظهروا ﴾ بضم الياء مبنياً للمفعول ، والظاهر الرجم بالحجارة وكان الملك عازماً على قتلهم لو ظفر بهم ، والرجم كان عادة فيما سلف لمن خالف من الناس إذ هي أشفى ولهم فيها مشاركة .

وقال حجاج : معناه بالقول يريد السب وقاله ابن جبير ﴿ أو يعيدوكم ﴾ يدخلوكم فيها مكرهين ، ولا يلزم من العود إلى الشيء التلبس به قبل إذ يطلق ويراد به الصيرورة ﴿ ولن تفلحوا ﴾ إن دخلتم في دينهم و﴿ إذاً ﴾ حرف جزاء وجواب ، وقد تقدم الكلام عليها وكثيراً ما يتضح تقدير شرط وجزاء .

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾

قبل هذا الكلام جمل محذوفة التقدير فبعثوا أحدهم ونظر أيها أزكى طعاماً وتلطف ، ولم يشعر بهم أحداً فأطلع الله أهل المدينة على حالهم وقصة ذهابه إلى المدينة وما جرى له مع أهلها ، وحمله إلى الملك وادعائهم عليه أنه أصاب كثيراً من كنوز الأقدمين ، وحمل الملك

ومن ذهب معه إليهم مذكور في التفاسير ذلك بأطول مما جرى والله أعلم بتفاصيل ذلك ، ويقال عثرت على الأمر إذا اطّلعت عليه وأعثرني غيري إذا أطلعني عليه ، وتقدم الكلام على هذه المادة في قوله ﴿ فإن عثر على أنهما استحقا إثماً ﴾ ومفعول ﴿ أعثرنا ﴾ محذوف تقديره ﴿ أعثرنا عليهم ﴾ أهل مدينتهم ، والكاف في ﴿ وكذلك ﴾ للتشبيه والتقدير وكما أنمناهم بعثناهم لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم ، والضمير في ﴿ ليعلموا ﴾ عائد على مفعول ﴿ أعثرنا ﴾ وإليه ذهب الطبري .

و ﴿ وعد الله ﴾ هو البعث لأن حالتهم في نومهم وانتباهتهم بعد المدة المتطاولة كحال من يموت ثم يبعث و ﴿ لا ريب ﴾ فيها أي لا شك ولا ارتياب في قيامها والمجازاة فيها ، وكان الذين أعثروا على أهل الكهف قد دخلتهم فتنة في أمر الحشر وبعث الأجساد من القبور ، فشك في ذلك بعض الناس واستبعدوه .

وقالوا : تحشر الأرواح فشق على ملكهم وبقي حيران لا يدري كيف يبين أمره لهم حتى لبس المسوح وقعد على الرماد ، وتضرع إلى الله في حجة وبيان ، فأعثر الله على أهل الكهف ، فلما بعثهم الله تعالى وتبين الناس أمرهم سرّ الملك ورجع من كان شك في أمر بعث الأجساد إلى اليقين ، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله ﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ و ﴿ إذ ﴾ معمولة لأعثرنا أو ﴿ ليعلموا ﴾ .

وقيل : يحتمل أن يعود الضمير في و﴿ ليعلموا ﴾ على أصحاب الكهف ، أي جعل الله أمرهم آية لهم دالة على بعث الأجساد من القبور .

(225/469)

وقوله ﴿ إذ يتنازعون ﴾ على هذا القول ابتداء خبر عن القوم الذين بعثوا على عهدهم ، والتنازع إذ ذاك في أمر البناء والمسجد لا في أمر القيامة .

وقيل : التنازع إنما هو في أن أطلعوا عليهم .

فقال بعض : هم أموات .

وقال بعض : هم أحياء .

وروي أن الملك وأهل المدينة انطلقوا مع تمليخا إلى الكهف وأبصروهم ثم قالت الفتية للملك : نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والإنس ثم رجعوا إلى مضاجعهم ، وتوفى الله أنفسهم وألقى الملك عليهم ثيابه ، وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب ، فرآهم في المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج ، وبنى على باب الكهف .

والظاهر أن قوله ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾ من كلام المتنازعين داخل تحت القول أي أمروا بالبناء وأخبروا بمضمون هذه الجملة كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم

وأحوالهم ، ومدة لبثهم فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾ .

وقيل : يحتمل أن يكون من كلام الله تعالى رد القول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين أو من الذين تنازعوا فيه على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من أهل الكتاب ، والذين غلبوا .

قال قتادة : هم الولاة .

روي أن طائفة ذهبت إلى أن يطمس الكهف عليهم ويتركوا فيه مغيبين ، وقالت الطائفة الغالبة : ﴿ لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ فاتخذوه .

وروي أن التي دعت إلى البنيان كانت كافرة أرادت بناء بيعة أو مصنع لكفرهم فمانعهم المؤمنون وبنوا عليهم مسجداً .

وقرأ الحسن وعيسى الثقفي : ﴿ غلبوا ﴾ بضم الغين وكسر اللام ، والمعنى أن الطائفة التي أرادت المسجد كانت تريد أن لا يبني عليهم شيء ولا يعرض لموضعهم .

وروي أن طائفة أخرى مؤمنة أرادت أن لا يطمس الكهف ، فلما غلبت الأولى على أن يكون بنيان ولا بد قالت يكون ﴿ مسجداً ﴾ فكان .

وعن ابن عمر أن الله عمى على الناس أمرهم وحجبهم عنه فذلك دعاء إلى بناء البنيان ليكون معلماً لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وكذلك بعثناهم ﴾

أي كما أنمناهم وحفظنا أجسادَهم من البِلى والتحلّل آيةً دالةً على كمال قدرتِنا بعثناهم من النوم ﴿ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ أي ليسأل بعضُهم بعضاً فيترتب عليه ما فُصّل من الحِكَم البالغةِ ، وجعلُه غايةً للبعث المعلّل فيما سبق بالاختبار من حيث إنه من أحكامه المترتبةِ عليه والاقتصارُ على ذكره لاستتباعه لسائر آثارِه ﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ لبيان تساؤلِهم ﴿ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ هو رئيسُهم واسمُه مكسلمينا ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ في منامكم ، لعله قاله لِما رأى من مخالفة حالِهم لما هو المعتادُ في الجملة ﴿ قَالُواْ ﴾ أي بعضُهم ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قيل : إنما قالوه لأنهم دخلوا الكهفَ غُدوةً وكان انتباهُهم آخرَ النهار ، فقالوا : لبثنا يوماً ، فلما رأَوا أن الشمسَ لم تغرُبْ بعْدُ ، قالوا : أو بعضَ يوم ، وكان ذلك بناءً على الظن الغالب فلم يُعْزوا إلى الكذب ﴿ قَالُواْ ﴾ أي بعضٌ آخرُ منهم بما سنح لهم من الأدلة أو بإلهام من الله سبحانه ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ أي أنتم لا تعلمون مدة لبثِكم وإنما يعلمها الله سبحانه ، وهذا ردٌّ منهم على الأولين بأجملِ ما يكون من مراعاة حسنِ الأدب وبه يتحقق التحزبُ إلى الحزبين المعهودين فيما سبق ، وقد قيل : القائلون جميعُهم ولكن في حالتين ، ولا

يساعده النظمُ الكريم فإن الاستئنافَ في الحكاية والخطابَ في المحكيّ يقضي بأن الكلامَ جارٍ على منهاج المحاورةِ والمجاوبةِ ، وإلا لقيل : ثم قالوا : ربنا أعلمُ بما لبثنا .

(227/469)

﴿ فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذه إلى المدينة ﴾ قالوه إعراضاً عن التعمق في البحث وإقبالاً على ما يُهمّهم بحسب الحالِ كما ينبىء عنه الفاءُ والورِقُ الفضةُ مضروبةً أو غيرَ مضروبة ، ووصفُها باسم الإشارةِ يُشعر بأن القائلَ ناولها بعضَ أصحابه ليشتريَ بها قوتَ يومِهم ذلك ، وقرىء بسكون الراء وبإدغام القافِ في الكاف وبكسر الواو وبسكون الراء مع الإدغام ، وحملُهم لها دليلٌ على أن التزودَ لا ينافي التوكلَ على الله تعالى ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا ﴾ أي أهلِها ﴿ أزكى ﴾ أحلُّ وأطيبُ أو أكثرُ وأرخصُ ﴿ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ أي من ذلك الأزكى طعاماً ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ وليتكلّف اللُّطفَ في المعاملة كيلا يُغبَنَ أو في الاستخفاء لئلا يُعرَف ﴿ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ من أهل المدينةِ فإنه يستدعي شيوعَ أخبارِكم أي لا يفعلنّ ما يؤدّي إلى ذلك ، فالنهيُ على الأول تأسيسٌ وعلى الثاني تأكيدٌ للأمر بالتلطف .

﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ تعليلٌ لما سبق من الأمر والنهي أي لِيبالغْ في التلطف وعدمِ الإشعار لأنهم ﴿

إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي يطّلعوا عليكم أو يظفَروا بكم ، والضميرُ للأهل المقدّر في أيُّها ﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ إن ثبتُّم على ما أنتم عليه .

(228/469)

﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ ﴾ أي يصيّروكم إليها ويُدخلوكم فيها كُرهاً ، من العَوْد بمعنى الصيْرورة كقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ وقيل : كانوا أولاً على دينهم ، وإيثارُ كلمةِ في بدل إلى للدِلالة على الاستقرار الذي هو أشدُّ شيءٍ عندهم كراهةً ، وتقديمُ احتمال الإعادةِ لأن الظاهرَ من حالهم هو الثباتُ على الدين المؤدي إليه ، وضميرُ الخطاب في المواضع الأربعةِ للمبالغة في حمل المبعوثِ على الاستخفاء وحثِّ الباقين على الاهتمام بالتوصية ، فإن إمحاضَ النُّصحِ أدخلُ في القَبول واهتمامُ الإنسان بشأن نفسِه أكثرُ وأوفر ﴿ وَلَن تُفْلِحُواْ إِذاً ﴾ أي إن دخلتم فيها ولو بالكرْه والإلجاء لن تفوزوا بخير ﴿ أَبَدًا ﴾ لا في الدنيا ولا الآخرة ، وفيه من التشديد في التحذير ما لا يخفى .

(229/469)

﴿ وكذلك ﴾ أي وكما أنمناهم وبعثناهم لما مرّ من ازديادهم في مراتب اليقين ﴿ أَعْثَرْنَا ﴾ أي أطلعْنا الناسَ ﴿ عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا ﴾ أي الذين أعثرناهم عليهم بما عاينوا من أحوالهم العجيبة ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ ﴾ أي وعدَه بالبعث أو موعودَه الذي هو البعثُ أو أن كلَّ وعدِه أو كُلَّ موعودِه فيدخُل فيه وعدُه بالبعث أو مبعثُ الموعودِ دخولاً أولياً ﴿ حَقٌّ ﴾ صادقٌ لا خُلْف فيه أو ثابتٌ لا مردَّ له لأن نومَهم وانتباهَهم كحال من يموت ثم يُبعث ﴿ وَأَنَّ الساعة ﴾ أي القيامةَ التي هي عبارةٌ عن وقت بعثِ الخلائقِ جميعاً للحساب والجزاء ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ لا شك في قيامها فإن من شاهد أنه جل وعلا توفى نفوسَهم وأمسكها ثلاثُمائة سنة وأكثَر حافظاً أبدانَها من التحلل والتفتّت ثم أرسلها إليها لا يبقى له شائبةُ شك في أن وعدَه تعالى حقٌّ وأنه يبعث مَنْ في القبور فيرد إليهم أرواحَهم فيحاسبهم ويجزيهم بحسب أعمالِهم ﴿ إِذْ يتنازعون ﴾ ظرف لقوله : أعثرنا قُدّم عليه الغايةُ إظهاراً لكمال العنايةِ بذكرها ، لا لقوله : ليعلموا كما قيل لدِلالته على أن التنازعَ يحدُث بعد الإعثار وليس كذلك أي أعثرناهم عليهم حين يتنازعون ﴿ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ ليرتفع الخلافُ ويتبينَ الحقُّ ، قيل : المتنازعُ فيه أمرُ دينهم حيث كانوا مختلفين في البعث فمِن مُقِرّ له وجاحدٍ به وقائلٍ يقول ببعث الأرواحِ دون الأجساد وآخرَ يقول ببعثهما معاً . قيل : كان ملكُ المدينة حينئذ رجلاً صالحاً مؤمناً وقد اختلف أهلُ مملكته في البعث حسبما فُصّل فدخل الملكُ بيتَه وأغلق بابه ولبس مِسْحاً وجلس على رماد وسأل ربه أن يظهر الحقَّ فألقى الله عز وجل في نفس رجل

من رعيانهم فهدَم ما سد به دقيانوسُ بابَ الكهف ليتخذه حظيرةً لغنمه فعند ذلك بعثهم الله تعالى فجرى بينهم من التقاول ما جرى .

(230/469)

روي أن المبعوثَ لما دخل المدينة أخرج الدرهمَ ليشتريَ به الطعامَ وكان على ضرب دقيانوس ، فاتهموه بأنه وجد كنزاً فذهبوا به إلى الملكِ فقصّ عليه القِصة ، فقال بعضُهم : إن آباءَنا أخبرونا بأن فتيةً فرّوا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاءِ ، فانطلق الملكُ وأهلُ المدينة من مسلم وكافر وأبصروهم وكلّموهم ثم قالت الفتيةُ للملك : نستودعك الله ونعيذك به من شر الإنسِ والجنّ ثم رجعوا إلى مضاجعهم فماتوا ، فألقى الملكُ عليهم ثيابَه وجعل لكل منهم تابوتاً من ذهب ، فرآهم في المنام كارهين الذهب فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجداً ، وقيل : لما انتهَوْا إلى الكهف قال لهم الفتى : مكانَكم حتى أدخُل أولاً لئلا يفزَعوا ، فدخل فعمِيَ عليهم المدخل فبنَوا ثَمّةَ مسجداً . وقيل : المتنازَعَ فيه أمرُ الفتية قبل بعثهم أي أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرَهم وما جرى بينهم وبين دقيانوسَ من الأحوال والأهوال ويتلقّوْن ذلك من الأساطير وأفواهِ الرجال ، وعلى التقديرين فالفاء في قوله عز وجل : ﴿ فَقَالُواْ ﴾ فصيحةٌ أي أعثرناهم عليهم فرأَوا فماتوا فقالوا أي

قال بعضهم : ﴿ ابنوا عَلَيْهِمْ ﴾ أي على باب كهفهم ﴿ بنيانا ﴾ لئلا يتطرقَ إليهم الناسُ ضنًّا بتربتهم ومحافظةً عليها وقوله تعالى : ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ من كلام المتنازِعين كأنهم لما رأَوا عدم اهتدائِهم إلى حقيقة حالِهم من حيث النسبُ ومن حيث اللُّبثُ في الكهف قالوا ذلك تفويضاً للأمر إلى علاّم الغيوب ، أو من كلام الله تعالى ردًّا لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازِعين ، وقيل : هو أمرُهم وتدبيرُهم عند وفاتِهم أو شأنُهم في الموت والنومِ حيث اختلفوا في أنهم ماتوا أو ناموا كما في أول مرةٍ فإذْ حينئذ متعلق بقوله تعالى : ﴿ قَالَ الذين غَلَبُواْ على أَمْرِهِمْ ﴾ وهم الملِكُ والمسلمون ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِدًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَقَالُواْ ﴾

(231/469)

معطوفٌ على يتنازعون ، وإيثارُ صيغةِ الماضي للدِلالة على أن هذا القولَ ليس مما يستمر ويتجدد كالتنازُع ، وقيل : متعلقٌ باذكر مضمرًا ، وأما تعلقُه بأعثرنا فيأباه أن إعثارِهم ليس في زمان تنازُعِهم فيما ذكر بل قبلَه ، وجعل وقتِ التنازع ممتداً يقع في بعضه الإعثارُ وفي بعضه التنازعُ تعسفٌ لا يخفى مع أنه لا مخصِّصَ لإضافته إلى التنازُع وهو مؤخرٌ في الوقوع .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(232/469)

وقال الآلوسى :

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ ﴾

﴿ وكذلك بعثناهم ﴾ أي كما أنمناهم هذه الإنامة الطويلة وهي المفهومة مما مر أيقظناهم فالمشبه الإيقاظ والمشبه به الإنامة المشار إليها ووجه الشبه كون كل منهما آية دالة على كمال قدرته الباهرة عز وجل .

﴿ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ أي ليسأل بعضهم بعضاً فيترتب عليه ما فصل من الحكم البالغة وجعله علة للبعث المعلل بما سبق فيما سبق قيل من حيث أنه من أحكامه المترتبة عليه والاقتصار على ذكره لاستتباعه لسائر آثاره ، وجعل غير واحد اللام للعاقبة ، واستظهره الخفاجي وادعى أن من فعل ذلك لاحظ أن الغرض من فعله تعالى شأنه إظهار كمال قدرته لا ما ذكر من التساؤل فتأمل .

(233/469)

﴿ قَالَ ﴾ استئناف لبيان تساؤلهم ﴿ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ قيل هو كبيرهم مكسلمينا ، وقيل صاحب نفقتهم يمليخا ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ أي كم يوماً أقمتم نائمين ، وكأنه قال ذلك لما رأى من مخالفة حالهم لما هو المعتاد في الجملة ، وقيل راعهم ما فاتهم من الصلاة فقالوا ذلك : ﴿ قَالُواْ ﴾ أي قال بعضهم : ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ أو للشك كما قاله غير واحد ، والمراد لم نتحقق مقدار لبثنا أي لا ندري أن مدة ذلك هل هي مقدار مدة يوم أو مقدار مدة بعض يوم منه ، والظاهر أنهم قالوا ذلك لأن لوثة النوم لم تذهب من بصرهم وبصيرتهم فلم ينظروا إلى الأمارات ، وهذا مما لا غبار عليه سواء كان نومهم وانتباههم جميعاً أو أحدهما في النهار أم لا ، والمشهور أن نومهم كان غدوة وانتباههم كان آخر النهار ، وقيل فلم يدروا أن انتباههم في اليوم الذي ناموا فيه أم في اليوم الذي بعده فقالوا ما قالوا ، واعترض بأن ذلك يقتضي أن يكون التردد في بعض يوم ويوم وبعض ، ومن هنا قيل إن أو للإضراب ، وذلك أنهم لما انتبهوا آخر النهار وكانوا في جوف الغار ولوثة النوم لم تفارقهم بعد قالوا قبل النظر ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا ﴾ ثم لما حققوا أن الشمس لم تغرب بعد قالوا : ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وأنت تعلم أن الظاهر أنها للشك والاعتراض مندفع بإرادة ما سمعت منه ، نعم هو في ذلك مجاز ، وحكى أبو حيان أنها للتفصيل على معنى قال بعضهم : لبثنا يوماً ، وقال آخرون : لبثنا بعض يوم وقول كل مبني على غالب الظن على ما قيل فلا يكون كذباً ؛ ولا يخفى أن القول بأنها للتفصيل مما لا يكاد يذهب إليه الذهن ، ولا حاجة إلى بناء الأمر على غالب الظن لنفى أن

يكون كذباً بناءً على ما ذكرنا من أن المراد لم تتحقق مقداره كما ذكره أهل المعاني في قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد سلم سهواً من صلاة رباعية فقال له ذو اليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟ قال : كل ذلك لم يكن ﴾

قَالُواْ ﴾ أي قال بعض آخر منهم استدلالاً أو إلهاماً ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ أي أنتم لا تعلمون مدة لبثكم ، وإنما يعلمها الله سبحانه ، وهذا رد منهم على الأولين على أحسن ما يكون من مراعاة حسن الأدب ؛ وبه كما قيل يتحقق التحزب إلى الحزبين المعهودين فيما سبق ، وقيل قائل القولين متحد لكن الحالة مختلفة .

وتعقب بأنه لا يساعده النظم الكريم فإن الاستئناف في الحكاية والخطاب في المحكي يقضي بأن الكلام جار على منهاج المحاورة والمجاوبة وإلا لقيل ثم قالوا ربنا أعلم بما لبثنا ﴿ فابعثوا أَحَدَكُمْ ﴾ أي واحداً منكم ولم يقل واحدكم لإيهامه إرادة سيدكم فكثيراً ما يقال جاء واحد القوم ويراد سيدهم ﴿ بِوَرِقِكُمْ ﴾ أي بدراهمكم المضروبة كما هو مشهور بين اللغويين ، وقيل الورق الفضة مضروبة أو غير مضروبة ، واستدل عليه بما وقع في حديث عرفجة أنه لما قطع أنفه اتخذ أنفاً من ورق فانتن فاتخذ أنفاً من ذهب فإن الظاهر أنه أطلق

فيه الورق على غير المضروب من الفضة ، وقول الأصمعي كما حكى عنه القتيبي الورق في الحديث بفتح الراء ، والمراد به الورق الذي يكتب فيه لأن الفضة لا تنتن لا يعول عليه والمنتن الذي ذكره لا صحة له ، وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر .

والحسن .

والأعمش .

واليزيدي .

ويعقوب في رواية ، وخلف وأبو عبيد .

وابن سعدان ﴿ بِورِقكُمْ ﴾ بإسكان الراء ، وقرأ أبو رجاء بكسر الواو وإسكان الراء وإدغام القاف في الكاف ، وكذا إسماعيل عن ابن محيصن ، وعنه أيضاً أنه قرأ كذلك إلا أنه كسر الراء لئلا يلزم التقاء الساكنين على غير حدة كما في الرواية الأخرى ، وبهذا اعترض عليها .

وأجيب بأن ذلك جائز وواقع في كلام العرب لكن على شذوذ ، وقد قرىء ﴿ نِعِمَّا ﴾ [النساء : 58] بسكون العين والادغام ، وما قيل إنه لا يمكن التلفظ به قيل عليه إنه سهود وحكى الزجاج أنه قرىء بكسر الواو وسكون الراء من غير إدغام .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه ﴿ بوارقكم ﴾ على وزن فاعل جعله اسم جمع كباقر وحامل ، ووصف الورق بقوله تعالى : ﴿ تَبِيدَ هذه ﴾ يشعر بأن القائل أحضرها ليناً ولها بعض أصحابه وإشعاره بأنه ناولها إياه بعيد ، وفي حملهم لها دليل على أن التأهب لأسباب المعاش لمن خرج من منزله بحمل النفقة ونحوها لا ينافي التوكل على الله تعالى كما في الحديث " اعقلها وتوكل " نعم قال بعض الأجلة : إن توكل الخواص ترك الأسباب بالكلية ، ومن ذلك ما روي عن خالد بن الوليد من شرب السم ، ومشى سعد بن أبي وقاص وأبي مسلم الخولاني بالجيوش على متن البحر ودخول تميم في الغار التي خرجت منه نار الحرة ليردها بأمر عمر رضي الله تعالى عنه .

وقد نص الإمام أحمد .

وإسحاق .

وغيرهما من الأئمة على جواز دخول المفاوز بغير زاد وترك التكسب والتطبب لمن قوي يقينه وتوكله ، وفسر الإمام أحمد التوكل بقطع الاستشراف باليأس من المخلوقين ، واستدل عليه بقول إبراهيم عليه السلام حين عرض له جبريل عليه السلام يوم ألقي في النار وقال له : ألك حاجة ؟ أما إليك فلا ، وليس طرح الأسباب سبيل توكل الخواص عند الصوفية فقط كما يشعر به كلام بعض الفضلاء بل جاء عن غيرهم أيضاً ﴿ إلى المدينة ﴾ المعهودة وهي

المدينة التي خرجوا منها قيل وتسمى الآن طرسوس وكان اسمها يوم خرجوا منها أفسوس ، وبهذا يجمع بين الروايتين السابقتين ، وكان هذا القول صدر منهم إعراضاً عن التعمق في البحث وإقبالاً على ما يهمهم بحسب الحال كما ينبىء عنه الفاء ، وذكر بعضهم أن ذلك من باب الأسلوب الحكيم كقوله :

أتت تشتكي عندي مزاولة القرى . . .

وقد رأت الضيفان ينحون منزلي

فقلت كأني ما سمعت كلامها . . .

هم الضيف جدي في قراهم وعجلي

﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ أي أحل فإن أهل المدينة كانوا في عهدهم يذبحون للطواغيت كما روى سعيد بن منصور وغيره عن ابن عباس ، وفي رواية أخرى أنهم كانوا يذبحون الخنازير ، وقال الضحاك : إن أكثر أموالهم كانت مغصوبة فأزكى من الزكاة وأصلها النمو والزيادة وهي تكون معنوية أخروية وحسية دنيوية وأريد بها الأولى لما في توخي الحلال من الثواب وحسن العاقبة ، وقال ابن السائب .

ومقاتل : أي أطيب فإن كان بمعنى أحل لأنه يطلق عليه رجع إلى الأول وإن كان بمعناه المتبادر فالزيادة قيل حسية دنيوية ، وقال عكرمة : أي أكثر .

وقال يمان بن ريان : أي أرخص ، وقال قتادة : أي أجود وهو أجود ، وعليه وكذا على سابقيه على ما قيل تكون الزيادة حسية دنيوية أيضاً زعم بعضهم أنهم عنوا بالأزكى الأرز وقيل التمر وقيل الزبيب ، وحسن الظن بالفتية يقتضي أنهم تحروا الحلال ، والنظر يحتمل أن يكون من نظر القلب وأن يكون من نظر العين ، وأي استفهام مبتدأ و ﴿ أزكى ﴾ خبره والجملة معلق عنها الفعل للاستفهام .

وجوز أن يكون أي موصولاً مبنياً مفعولاً لينظر و ﴿ أزكى ﴾ خبر مبتدأ محذوف هو صدر الصلة وضمير أيها إما للمدينة والكلام على تقدير مضاف أي أي أهلها وإما للمدينة مراداً بها أهلها مجازاً ، وفي الكلام استخدام ولا حذف ، وإما لما يفهم من سياق الكلام كأنه قيل فلينظر أي الأطعمة أو المآكل أزكى طعاماً ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ أي من ذلك الأزكى طعاماً فمن لابتداء الغاية أو التبعيض ، وقيل الضمير للورق فيكون من للبدل ، ثم إن الفتية إن لم يكن تحروا الحلال سابقاً فليكن مرادهم بالرزق هنا الحلال وإن لم يكن مختصاً به عندنا .

واستدل بالآية وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يعلم منه ما فيه على صحة الوكالة والنيابة .

قال ابن العربي : وهي أقوى آية في ذلك وفيها كما قال الكيا دليل على جواز خلط دراهم الجماعة والشراء بها والأكل من الطعام الذي بينهم بالشركة وإن تفاوتوا في الأكل نعم لا بأس للأكول أن يزيد حصته من الدراهم ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أي وليتكلف اللطف في المعاملة كيلا تقع خصومة تجر إلى معرفته أو ليتكلف اللطف في الاستخفاء دخولاً وخروجاً ، وقيل ليتكلف ذلك كي لا يغبن فيكون قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أي لا يفعلن ما يؤدي إلى شعور أحد من أهل المدينة بكم تأسيساً على هذا وهو على الأولين تأكيد للأمر بالتلطف وتفسيره بما ذكر من باب الكناية نحو لا أرينك ههنا وفسره الإمام بلا يخبرن بكم أحداً فهو على ظاهره ، وقرأ الحسن ﴿ وَلِيَتَلَطَّفْ ﴾ بكسر لام الأمر ، وعن قتيبة الميال ﴿ وَلْيُتَلَطَّفْ ﴾ بضم الياء مبنياً للمفعول .

وقرأ هو وأبو صالح .

ويزيد بن القعقاع ﴿ وَلَا يَشْعُرَنَّ بِكُمْ أَحَدٌ ﴾ ببناء الفعل للفاعل ورفع أحد على أنه الفاعل .

إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20)

﴿ أَنَّهُمْ ﴾ تعليل لما سبق من الأمر والنهي والضمير للأهل المقدر في ﴿ أيها ﴾ [الكهف : 19] أو للكفار الذي دل عليه المعنى على ما اختاره أبو حيان ، وجوز أن يعود على ﴿

أَحَدٌ ﴾ [الكهف : 19] لأنه عام فيجوز أن يجمع ضميره كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجزين ﴾ [الحاقة : 47].

(238/469)

﴿ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم أو يظفروا بكم ، وأصل معنى ظهر صار على ظهر الأرض ، ولما كان ما عليها يشاهد ويتمكن منه استعمل تارة في الاطلاع ، وتارة في الظفر والغلبة وعدى بعلي ، وقرأ زيد بن علي ﴿ يَظْهَرُواْ ﴾ بضم الياء مبنياً للمفعول ﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ إن لم تفعلوا ما يريدونه منكم وثبتم على ما أنتم عليه ، والظاهر أن المراد القتل بالرجم بالحجارة ، وكان ذلك عادة فيما سلف فيمن خالف في أمر عظيم إذ هو أشفى للقلوب وللناس فيه مشاركة ، وقال الحجاج : المراد الرجم بالقول أي السب ، وهو للنفوس الأبية أعظم من القتل ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ ﴾ أي يصيروكم إليها ويدخلوكم فيها مكرهين ، والعود في الشيء بهذا المعنى لا يقتضي التبس به قبل ، وروي هذا عن ابن جبير ، وقيل العود على ظاهره ، وهو رجوع الشخص إلى ما كان عليه ، وقد كان الفتية على ملة قومهم أولاف ، وإيثار كلمة في على كلمة إلى ، قال بعض المحققين للدلالة على الاستقرار الذي هو أشد كراهة ، وتقديم احتمال الرجم على احتمال الإعادة لأن

الظاهر من حالهم هو الثبات على الدين المؤدي إليه ، وضمير الخطاب في المواضع الأربعة للمبالغة في حمل المبعوث على ما أريد منه والباقين على الاهتمام بالتوصية فإن إمحاض النصح أدخل في القبول واهتمام الإنسان بشأن نفسه أكثر وأوفر .

(239/469)

﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ أي إن دخلتم فيها حقيقة ولو بالكره والإلجاء لن تفوزوا بخير لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ووجه الارتباط على هذا أن الإكراه على الكفر قد يكون سبباً لاستدراج الشيطان إلى استحسانه والاستمرار عليه ، وبما ذكر سقط ما قيل إن إظهار الكفر بالإكراه مع إبطان الإيمان معفو في جميع الأزمان فكيف رتب عليه عدم الفلاح أبداً ، ولا حاجة إلى القول بأن إظهار الكفر مطلقاً كان غير جائز عندهم ، ولا إلى حمل ﴿ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ ﴾ على يميلوكم إليها بالإكراه وغيره فتدبر ، ثم إن الفتية بعثوا أحدهم وكان على ما قال غير واحد يمليخا فكان ما أشار الله تعالى إليه بقوله سبحانه .

﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾

أي كما أنمناهم وبعثناهم فالإشارة إلى الإنامة والبعث والإفراد باعتبار ما ذكر ونحوه .

وقال العز بن عبد السلام في أماليه : الإشارة إلى البعث المخصوص وهو البعث بعد تلك

الإنامة الطويلة ، وأصل العثور كما قال الراغب السقوط للوجه يقال عثر عثوراً وعثاراً إذا سقط لوجهه ، وعلى ذلك قولهم في المثل الجواد لا يكاد يعثر ، وقولهم من سلك الجدد أمن العثار ثم تجوز به في الاطلاع على أمر من غير طلبه .

وقال الإمام المطرزي : لما كان كل عاثر ينظر إلى موضع عثرته ورد العثور بمعنى الاطلاع والعرفان فهو في ذلك مجاز مشهور بعلاقة السببية وإن أوهم ذكر اللغويين له أنه حقيقة في ذلك ، وجعله الغوري حقيقة في الاطلاع على أمر كان خفياً وأمر التجوز على حاله ، ومفعول ﴿ أَعْثَرْنَا ﴾ الأول محذوف لقصد العموم أي وكذلك أطلعنا الناس عليهم .

(240/469)

وقال أبو حيان : أهل مدينتهم ﴿ لِيَعْلَمُواْ ﴾ أي الذين أطلعناهم عليهم بما عاينوا من أحوالهم العجيبة ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ ﴾ أي وعده سبحانه وتعالى بالبعث على أن الوعد بمعناه المصدري ومتعلقه مقدر أو موعوده تعالى شأنه الذي هو البعث على أن المصدر مؤول باسم المفعول المراد موعوده المعهود ، ويجوز أن يراد كل وعده تعالى أو كل موعوده سبحانه ويدخل في ذلك ما ذكر دخولاً أولياً ﴿ حَقّ ﴾ صادق لا خلاف فيه أو ثابت متحقق سيقع ولا بد قيل لأن نومهم الطويل المخالف للمعتاد وانتباههم كالموت والبعث .

﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ ﴾ أي القيامة التي هي في لسان الشرع عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعاً للحساب والجزاء .

﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي ينبغي أن لا يرتاب الآن في إمكان وقوعها لأنه لا يبقى بيد المرتابين في ذلك بعد النظر والبحث سوى الاستناد إلى الاستبعاد وعلمهم بوقوع ذلك الأمر الغريب والحال العجيب الذي لو سمعوه ولم يتحققوا وقوعه لاستبعدوه وارتابوا فيه ارتيابهم في ذلك يكسر شوكة ذلك الاستبعاد ويهدم ذلك الاستناد فينبغي حينئذٍ أن لا يرتابوا .

وقال بعض المحققين في توجيه ترتب العلم بما ذكر على الطلاع : إن من شاهد أنه جل وعلا توفى نفوسهم وأمسكها ثلثمائة سنة وأكثر حافظاً أبدانها من التحلل والتفتت ثم أرسلها إليها لا يبقى معه شائبة شك في أن وعده تعالى حق وأنه تعالى يبعث من في القبول فيرد عليهم أرواحهم فيحاسبهم ويجازيهم بحسب أعمالهم اه .

وأنت تعلم أن في استفادة العلم بالمحاسبة والمجازاة من الاطلاع على حال القوم نظراً .

واعترض بأن المطلوب في البعث إعادة الأبدان بعد تفرق أجزائها وما في القصة طول حفظ الأبدان وأين هذا من ذاك ؟ والقول بأنه متى صح طول حفظ الأبدان المحتاجة إلى الطعام والشراب صح قدرته سبحانه على إعادتهما بعد تفرق أجزائها بطريق الأولى غير مسلم .

وأجيب بأن طول الحفظ المذكور يدل على قدرته تعالى على ما ذكر بطريق الحدس فليتدبر .

ولعل الأظهر توجيه الترتب بما ذكره أولا ، وتوضيحه أن حال الفتية حيث ناموا في تلك المدة المديدة والسنين العديدة وحبست عن التصرف نفوسهم وتعطلت مشاعرهم وحواسهم من غير تصاعد أبخرة شراب وطعام أو نزول علل وأسقام وحفظت أبدانهم عن التحلل والتفتت وأبقيت على ما كانت عليه من الطراوة والشباب في سالف الأعوام حتى رجعت الحواس والمشاعر إلى حالها وأطلقت النفوس من عقالها وأرسلت إلى تدبير أبدانها والتصرف في خدامها وأعوانها فرأت الأمر كما كان والأعوام هم الأعوان ولم تنكر شيئاً عهدته في مدينتها ولم تتذكر طول حبسها عن التصرف في سرير سلطنتها ، وحال الذي يقومون من قبورهم بعدما تعطلت مشاعرهم وحبست نفوسهم ثم لما أطلقت وجدت ربوعاً عامرة ومنازل كأنها لم تكن دائرة قائلين قبل أن يشكر عن أنيابه العنا من بعثنا من مرقدنا في الغرابة من صقع واحد ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو معاند ، ووقوع الأول يزيل الارتياب في إمكان وقوع الثاني حيث كان مستنداً إلى الاستبعاد في الحقيقة كما سمعت فيما قبل لبطلان أدلة النافين للحسر الجسماني ، نعم في ترتب العلم بأن البعث سيقع لا محالة على نفس الاطلاع على حال الفتية خفاء فإن الظاهر أن العلم المذكور إنما يترتب على

إخبار الصادق بوقوعه وعلى إمكانه في نفسه لكن لما كان الاطلاع المذكور سبباً للعلم بالإمكان وكان كالجزء الأخير من العلة بالنسبة للكفار الذين بلغهم خبر الصادق قيل يترتب العلم بذلك عليه ، وكذا في ترتب العلم بأن كل ما وعده الله تعالى حق على نفس الاطلاع خفاء ولم أر من تعرض لتوجيهه من الفضلاء فتأمل ، ثم لا يخفى أن ذكر قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ بعد قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ على التفسير الذي سمعت مما لا غبار عليه وليس ذلك من ذكر الإمكان بعد الوقوع ليلغو كما زعمه من زعمه .

(242/469)

وقال بعضهم : إن الظاهر أن يفسر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ بأن كل ما وعده سبحانه متحقق ويجعل قوله تاعلى : ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ تخصيصاً بعد تعميم على معنى لا ريب في تحققها وهو وجه في الآية إة أن في دعوى الظهور مقالاً فلا تغفل ﴿ إِذْ يتنازعون ﴾ ظرف لأعثرنا عليهم قدم عليه الغاية إظهاراً لكمال العناية بكذرها .

وجوز أبو حيان .

وأبو البقاء .

وغيرهما كونه ظرفاً ﴿ لِيَعْلَمُوا ﴾ وتعقب بأنه يدل على أن التنازع يحدث بعد الاعثار مع

أنه ليس كذلك ، وبأن التنازع كان قبل العلم وارتفع به فكيف يكون وقته وقته ؛ وللمناقشة في ذلك مجال .

وجوز أن يكون ظرفاً لحق أو لوعد وهو كما ترى .

وأصل التنازع التجاذب ويعبر به عن التخاصم ، وهو باعتبار أصل معناه يتعدى بنفسه وباعتبار التخاصم يتعدى بفي كقوله تعالى ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [النساء : 59] وضمير ﴿ يتنازعون ﴾ لما عاد عليه ضمير ﴿ لِيَعْلَمُوا ﴾ أي وكذلك أعثرنا على أصحاب الكهف الناس أو أهل مدينتهم حين يتنازعون ﴿ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ ويتخاصمون فيه ليرتفع الخلاف ويتبين الحق ، وضمير ﴿ أَمْرَهُمْ ﴾ قيل عائد أيضاً على مفعول ﴿ أَعْثَرْنَا ﴾ والمراد بالأمر البعث ، ومعنى إضافته إليهم اهتمامهم بشأنه والوقوف على حقيقة حاله .

وقد اختلفوا فيه فمن مقربه وجاحد وقائل يقول تبعث الأرواح دون الأجساد وآخر يقول ببعثهما معا كما هو المذهب الحق عند المسلمين .

روي أنه بعد أن ضرب الله تعالى على آذان الفتية ومضى دهر طويل لم يبق أحد من أمتهم الذين اعتزلوهم وجاء غيرهم وكان ملكهم مسلماً فاختلف أهل مملكته في أمر البعث حسبما فصل فشق ذلك على الملك فانطلق فلبس المسوح وجلس على الرماد ثم دعا الله عز وجل فقال : أي رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم فقيض الله تعالى راعى غنم أدركه المطر فلم يزل يعالج ما سد به دقيانوس باب الكهف حتى فتحه وأدخل غنمه فلما كان الغد بعثوا من نومعم فبعثوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً فدخل السوق فجعل ينكر الوجوه ويعرف الطرق ورأي الإيمان ظاهراً بالمدينة فانطلق وهو مستخف حتى أتى رجلاً يشتري منه طعاماً فلما نظر الورق أنكرها حيث كانت من ضرب دقيانوس كأنها اخفاف الربع فاتهمه بكنز وقال : لتدلني عليه أو لأرفعنك إلى الملك فقال : هي من ضرب الملك أليس ملككم فلاناً ؟ فقال الرجل : لا بل ملكنا فلان وكان اسمه يندوسيس فاجتمع الناس وذهبوا به إلى الملك وهو خائف فسأله عن شأنه فقص عليه القصة وكان قد سمع أن فتية خرجوا على عهد دقيانوس فدعا مشيخة أهل مدينته وكان رجل منهم عنده أسماؤهم وأنسابهم فسأله فأخبره بذلك وسأل الفتى فقال : صدق ثم قال الملك : أيها الناس هذه آية بعثها الله تعالى لكم ثم خرج هو وأهل المدينة ومعهم الفتى فلما رأى الملك الفتية اعتنقهم وفرح بهم ورآهم جلوساً مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فتكلموا معه وأخبروه بما لقوا من دقيانوس فبينما هم بين يديه قالوا له : نستودعك الله تعالى والسلام عليك ورحمة

الله تعالى حفظك الله تعالى وحفظ ملكك ونعيذك بالله تعالى من شر الإنس والجن ثم رجعوا إلى مضاجعهم فتوفاهم الله تعالى فقام الملك إليهم وجعل ثيابه عليهم وأمر أن يجعل كل منهم في تابوت من ذهب فلما كان الليل ونام أتوه في المنام فقالوا : أردت أن تجعل كلا منا في تابوت من ذهب فلا تفعل ودعنا في كهفنا فمن التراب خلقنا وإليه نعود فجعلهم في توابيت من

ساج وبنى على باب الكهف مسجداً .

ويروى أن الفتى لما أتى به إلى الملك قال : من أنت ؟ قال : أنا رجل من أهل هذه المدينة وذكر أنه خرج أمس أو منذ أيام وذكر منزله وأقواماً لم يعرفهم أحد وكان الملك قد سمع أن فتية قد فقدوا في الزمان الأول وأن أسماءهم مكتوبة على لوح في الخزانة فدعا باللوح ونظر في أسمائهم فإذا هو من أولئك القوم فقال الفتى : وهؤلاء أصحابي فركب القوم ومن معه

فلما أتوا باب الكهف قال الفتى : دعوني حتى أدخل على أصحابي فأبشرهم فإنهم إذا رأوكم معي رعبوا فدخل فبشرهم وقبض الله تعالى أرواحهم وعمي على الملك ومن معه أثرهم فلم يهتدوا إليهم فبنوا عليهم مسجداً وكان وقوفهم على حالهم باخبار الفتى وقد اعتمدوا صدقه وهذا هو المراد بالاعثار عليهم ، وروي غير ذلك ، وقيل : ضمير ﴿ أَمۡرَهُمۡ ﴾ للفتية والمراد بالأمر الشأن والحال الذي كان قبل الاعثار أي وكذلك أعثرنا الناس على أصحاب الكهف حين تذاكرهم بينهم أمرهم وما جرى لهم في عهد الملك الجبار من الأحوال والأهوال ، ولعلهم قد تلقوا ذلك من الأساطير وأفواه الرجال لكنهم لم يعرفوا هل بقوا أحياء أم حل بهم الفناء ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَقَالُواْ ابنوا ﴾ بناء على القول الأول فصيحة بلا ريب على دأب اخصارات القرآن كأنه قيل : وكذلك اعثرنا الناس على أصحاب الكهف حين تنازعهم في أمر البعث فتحققوا ذلك وعلموا أن هؤلاء آية من آياتنا فتوفاهم الله تعالى بعد أن حصل الغرض من الاعثار فقالوا ﴿ ابنوا ﴾ إلى آخره ، وكذلك على القول الثاني كأنه قيل وكذلك اعثرنا الناس على أصحاب الكهف حين تذاكرهم أمرهم وما جرى لهم في عهد الملك الجبار ولم يكونوا عارفين بما هم عليه فوقفوا من أحوالهم على ما وقفوا واتضح لهم ما كانوا قد جهلوا فتوفاهم الله تعالى بعد أن حصل الغرض من الاعثار فقالوا ﴿ ابنوا ﴾ إلى آخره أي قال بعضهم ابنوا ﴿ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي على باب كهفهم ﴿ بنيانا ﴾ نصب على أنه مفعول به ، وهو كما قال الراغب واحد لا

جمع له ، وقالوا أبو البقاء : هو جمع بنيانة كشعير وشعيرة ، وقيل : هو نصب على المصدرية ، وهذا القول من البعض عند بعض كان عن اعتناء بالفتية وذلك أنهم ضنوا بتربهم فطلبوا البناء على باب كهفهم لئلا يتطرق الناس إليهم .

وجوزوا في قوله تعالى : ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ بعد القول بأنه اعتراض أن يكون من كلام المتنازعين المعثرين كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك فوضوا العلم إلى الله تعالى علام الغيوب ، وأن يكون من كلامه سبحانه ردا للخائضين في أمرهم إما من المعثرين أو ممن كان في عهده صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب وحينئذ يكون فيه التفات على أحد المذهبين ، وقيل : ضمير ﴿ أَمْرَهُمْ ﴾ للفتية والمراد بالأمر الشأن والحال الذي كان بعد الإعثار على أن المعنى إذ يتنازعون بينهم تدبير أمرهم وحالهم حين توفوا كيف يفعلون بهم وبماذا يجعلون قدرهم أو إذ يتنازعون بينهم أمرهم من الموت والحياة حيث خفي عليهم ذلك بعد الاعثار فلم يدروا هل ماتوا أو ناموا كما في أول مرة ، وعلى هذا تكون ﴿ إِذْ ﴾ معمولا لا ذكر مضمراً أو ظرفاً لقوله تاعلى : ﴿ قَالَ الذين غَلَبُواْ على أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِدًا ﴾ ويكون قوله

تعالى : ﴿ فَقَالُواْ ﴾ معطوفاً على ﴿ يتنازعون ﴾ وإيثار صيغة الماضي للدلالة على أن هذا القول ليس مما يستمر ويتجدد كالتنازع .

وصرح بعض الأجلة أن الفاء على أول المعنيين للتعقيب وعلى ثانيهما فصيحة كأنه قيل : اذكر حين يتنازعون في أنهم ماتوا أو ناموا ثم فرغوا من التنازع في ذلك واهتموا باجلال قدرهم وتشهير أمرهم فقالوا : ﴿ ابنوا ﴾ إلى آخره ، وذكر الزمخشري احتمال كون ضمير ﴿ أَمَرَهُمْ ﴾ للمعثرين وان المراد من أمرهم أمر دينهم وهو البعث واحتمال كون الضمير للفتية ، والمعنى حينئذ إذ يتذاكر الناس بينهم أمر أصحاب الكهف ويتكلمون في قصتهم وما أظهر الله تعالى من الآية فيهم أو إذ يتنازعون بينهم تدبير أمرهم حين توفوا كيف يخفون مكانهم وكيف يسدون الطريق إليهم ، وجعل إذ في الأوجه ظرفاً لأعثرنا .

وذكر صاحب الكشف أن الفاء على الأول فصيحة لا محالة وعلى الأخيرين للتعقيب ، أما على الثاني منهما فظاهر ، وأما على الأول فلأنهم لما تذاكروا قصتهم وحالهم وما أظهر الله تعالى من الآية فيهم قالوا : دعوا ذلك وابنوا عليهم بنياناً أي خذوا فيما هو أهم إلى آخر ما قال ، واحتمال جعل الفاء فصيحة على هذا الأول غير بعيد ، وتعلق الظرف بأعثرنا

على الوجهين الأخيرين وكذا على ما نقلناه آنفاً ليس بشيء لأن اعثارهم ليس في وقت التنازع فيما ذكر بل قبله.

وجعل وقت التنازع ممتداً يقع في بعضه الاعثار وفي بعضه التنازع تعسف لا يخفى مع أنه لا مخصص لإضافته إلى التنازع وهو مؤخر في الوقوع.

(248/469)

وحكى في البحر أن ضمير ﴿ لِيَعْلَمُواْ ﴾ عائد على أصحاب الكهف، والمراد اعثرنا عليهم ليزدادوا علماً بأن وعد الله حق إلى آخره، وجعل ذلك غاية للاعثار بواسطة وقوفهم بسببه على مدة لبثهم بما تحققوه من تبدل القرون، وجعل ﴿ إِذْ يتنازعون ﴾ على هذا ابتداء أخبار عن القوم الذين بعثوا في عهدهم، وخص الأمر المتنازع فيه بأمر البناء والمسجد، ويختار حينئذ تعلق الظرف باذكر، ولا يخفى أن جعل ذلك الضمير للفتية وإن دعا لتأويل يعلموا بما سمعت ليس ببعيد الإرادة من النظم الكريم إذا قطع النظر عن الأمور الخارجية كالآثار، ولم يذهب أحد فيما اعلم إلى احتمال كون الضمائر في قوله تعالى: ﴿ إِذْ يتنازعون بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ عائدة على الفتية كضمير يعلموا، و﴿ إِذْ ﴾ ظرف ﴿ أَعْثَرْنَا ﴾ والمراد بالأمر المتنازع مقدار زمن لبثهم وتنازعهم فيه قول بعضهم

﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [الكهف : 19] وقول الآخر رداً عليه ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف : 19] وحيث لم ينصح الحال ولم يحصل الإجماع على مقدار معلوم كان التنازع في حكم الباقي فكان زمانه ممتداً فصح أن يكون ظرفاً للاعثار وضمير ﴿ فَقَالُواْ ﴾ للمعثرين والفاء فصيحة أي وكذلك أعثرنا الناس على الفتية وقت تنازعهم في مدة لبثهم ليزدادوا علماً بالبعث فكان ما كان وصار لهم بين الناس شأن أي شأن فقالوا : ﴿ ابنوا ﴾ إلى آخره .

وكأن ذلك لما فيه من التكلف مع عدم مساعدة الآثار إياه ، ثم ما ذكر من احتمال كون ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ من كلامه سبحانه جيء به لرد المتنازعين من المعثرين لا يخلو عن بعد ، وإما الاحتمال الأخير فبعيد جداً ، والظاهر أنه حكاية عن المعثرين وهو شديد الملاءمة جداً لكون التنازع في أمرهم من الموت والحياة ، والذي يقتضيه كلام كثير من المفسرين أن غرض الطائفتين القائلين ﴿ ابنوا ﴾ إلى آخره والقائلين ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ ﴾ إلى آخره تعظيمهم وإجلالهم ، والمراد من الذين غلبوا على أمرهم كما أخرج عبد الرزاق .

وابن أبي حاتم عن قتادة الولاة ، ويلائمه ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ ﴾ دون اتخذوا بصيغة الطلب المعبر

بها الطائفة الأولى فإن مثل هذا الفعل تنسبه الولاة إلى أنفسها ، وضمير ﴿ أَمَرَهُمْ ﴾ هنا قيل للموصول المراد به الولاة ، ومعنى غلبتهم على أمرهم أنهم إذا أرادوا أمراً لم يتعسر عليهم ولم يحل بينه وبينهم أحد كما قيل .

في قوله تعالى : ﴿ والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ ﴾ [يوسف : 21] .

وذكر بعض الأفاضل أن الضمير لأصحاب الكهف ، والمراد بالذين غلبوا قيل الملك المسلم ، وقيل أولياء أصحاب الكهف ؛ وقيل رؤساء البلد لأن من له الغلبة في هذا النزاع لا بد أن يكون أحد هؤلاء ، والمذكور في القصة أن الملك جعل على باب الكهف مسجداً وجعل له في كل سنة عيداً عظيماً .

وعن الزجاج أن هذا يدل على أنه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث لأن المساجد إنما تكون للمؤمنين به انتهى .

ويبعد الأول التعبير بما يدل على الجمع ، والثاني إن أريد من الأولياء الأولياء من حيث النسب كما في قولهم أولياء المقتول أنه لم يوجد في أثر أن لأصحاب الكهف حين بعثوا أولياء كذلك .

وفسر غير واحد الموصول بالملك والمسلمين ولا بعد في إطلاق الأولياء عليهم كما في قوله تعالى :

﴿ المؤمنين والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ [التوبة : 71] ويدل هذا على أن الطائفة الأولى لم تكن كذلك ، وقد روي أنها كانت كافرة وأنها أرادت بناء بيعة أو مصنع لكفرهم فمانعهم المؤمنون وبنوا عليهم مسجداً .

وظاهر هذا الخبر أن المسجد مقابل البيعة ، وما أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير من أن الملك بنى عليهم بيعة فكتب في أعلاها أبناء الأراكنة أبناء الدهاقين ظاهر في عدم المقابلة ، ولعله الحق لأنه لا يصح أن يراد بالمسجد هنا ما يطلق عليه اليوم من مصلي المحمديين بل المراد به معبد المؤمنين من تلك الأمة وكانوا على ما سمعت أولا نصارى وإن كان في المسألة قول آخر ستسمعه إن شاء الله تعالى قريباً ومعبدهم يقال له بيعة ، وظاهر ما تقدم أن المسجد اتخذ لأن يعبد الله تعالى فيه من شاء وأخرج أبو حاتم عن السدى أن الملك قال : لأتخذن عند هؤلاء القوم الصالحين مسجداً فلأعبدن الله تعالى فيه حتى أموت ، وعن الحسن أنه اتخذ ليصلي فيه أصحاب الكهف إذا استيقظوا ، وهذا مبني على أنهم لم يموتوا بل ناموا كما ناموا أولاً وإليه ذهب بعضهم بل قيل إنهم لا يموتون حتى يظهر المهدي ويكونوا من أنصاره ولا معول على ذلك وهو عندي أشبه شيء بالخرافات .

ثم لا يخفى أنه على القول بأن الطائفة الأولى الطالبة لبناء البنيان عليهم إذا كانت كافرة لم تكن غاية الاعثار متحققة في جميع المعثرين ، ولا يتعين كون ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ مساقاً

لتعظيم أمر أصحاب الكهف ، ولعل تلك الطائفة لم تتحقق حالهم وأنهم ناموا تلك المدة ثم بعثوا فطلبت انطماس الكهف عليهم وأحالت أمرهم إلى ربهم سبحانه والله تعالى أعلم بحقيقة الحال .

وقرأ الحسن .

(251/469)

وعيسى الثقفي ﴿ غُلِبُواْ ﴾ بضم الغين وكسر اللام على أن الفعل مبني للمفعول ، ووجه بذلك بأن طائفة من المؤمنين المعثرين أرادت أن لا يبني عليهم شيء ولا يتعرض لموضعهم وطائفة أخرى منهم أرادت البناء وأن لا يطمس الكهف فلم يمكن للطائفة الأولى منعها ووجدت نفسها مغلوبة فقالت : إن كان بنيان ولا بد فلنتخذن عليهم مسجداً .

هذا واستدل بالآية على جواز البناء على قبور الصلحاء واتخاذ مسجد عليها وجواز الصلاة في ذلك .

وممن ذكر ذلك الشهاب الخفاجي في حواشيه على البيضاوي وهو قول باطل عاطل فاسد كاسد ، فقد روي أحمد .

وأبو داود .

والترمذي .

والنسائي .

وابن ماجه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لعن الله تعالى زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج " ومسلم " ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فإني أنهاكم عن ذلك " واحمد عن أسامة وهو الشيخان .

والنسائي عن عائشة ، ومسلم عن أبي هريرة : " لعن الله تعالى اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " وأحمد .

والشيخان .

والنسائي " إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق يوم القيامة " وأحمد .

والطبراني " إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ومن يتخذ القبور مساجد " وعبد الرزاق " من شرار أمتي من يتخذ القبور مساجد " وأيضاً " كانت بنوا اسرائيل اتخذوا القبور مساجد فلعنهم الله تعالى " إلى غير ذلك من الأخبار الصحيحة والآثار الصريحة .

وذكر ابن حجر في الزواجر أنه وقع في كلام بعض الشافعية عد اتخاذ القبور مساجد والصلاة إليها واستلامها والطواف بها ونحو ذلك من الكبائر ، وكأنه أخذ ذلك مما ذكر من الأحاديث ، ووجه اتخاذ القبر مسجداً واضح لأنه عليه الصلاة والسلام لعن من فعل ذلك في قبور الأنبياء عليهم السلام وجعل من فعل ذلك بقبور الصلحاء شرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة ففيه تحذير لنا ، واتخاذ القبر مسجداً معناه الصلاة عليه أو إليه وحينئذ يكون قوله والصلاة إليها مكرراً إلا أن يراد باتخاذها مساجد الصلاة عليها فقط ، نعم إنما يتجه هذا الأخذ إن كان القبر قبر معظم من نبي أو ولي كما أشارت إليه رواية : "إذا كان فيهم الرجل الصالح" ومن ثم قال أصحابنا : تحرم الصلاة إلى قبور الأنبياء والأولياء تبركاً وإعظاماً فاشترطوا شيئين أن يكون قبر معظم وأن يقصد الصلاة إليها ، ومثل الصلاة عليه التبرك والاعظم ، وكون هذا الفعل كبيرة ظاهر من الأحاديث ، وكأنه قاس عليه كل تعظيم للقبر كإيقاد السرج عليه تعظيماً له وتبركاً به والطواف به كذلك وهو أخذ غير بعيد سيما وقد صرح في بعض الأحاديث المذكورة بلعن من اتخذ على القبر سراجاً فيحمل قول الأصحاب بكراهة ذلك على ما إذا لم يقصد به تعظيماً وتبركاً بذي القبر .

وقال بعض الحنابلة : قصد الرجل الصلاة عند القبر متبركاً به عين المحادة لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وإبداع دين لم يأذن به الله عز وجل للنهي عنها ثم إجماعاً فإن أعظم

المحرمات وأسباب الشرك الصلاة عندها واتخاذها مساجد أو بناؤها عليها ، وتجب المبادرة لهدمها وهدم القباب التي على القبور إذ هي أضر من مسجد الضرار لأنها أسست على معصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه عليه الصلاة والسلام نهى عن ذلك وأمر بهدم القبور المشرفة ، وتجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر ولا يصح وقفه ولا نذره اه .

(253/469)

وفي المنهاج وشرحه للعلامة المذكور ويكره تجصيص القبر والبناء عليه في حريمه وخارجه في غير المسبلة إلا إن خشى نبش أو حفر سبع أو هدم سيل ويحرم البناء في المسبلة ، وكذا تكره الكتابة عليه للنهي الصحيح عن الثلاثة سواء كتابة اسمه وغيره في لوح عند رأسه أو في غيره ، نعم بحث الأذرعي حرمة كاتبة القرآن لتعريضه للامتهان بالدوس والتنجيس بصديد الموتى عند تكرر الدفن ووقوع المطر ، وندب كتابة اسمه لمجرد التعريف به على طول السنين لا سيما قبور الأنبياء والصالحين لأنه طريق للاعلام المستحب .

ولما روي الحاكم النهي قال : ليس العمل عليه الآن فإن أئمة المسلمين من المشرق والمغرب مكتوب على قبورهم فهو عمل أخذ به الخلف عن السلف .

ويرد بمنع هذه الكلية وبفرضها فالبناء على قبورهم أكثر من الكتابة عليها في المقابر المسبلة كما هو مشاهد لا سيما بالحرمين ومصر ونحوها وقد علموا بالنهي عنه فكذا هي ، فإن قلت : هو إجماع فعلى فهو حجة كما صرحوا به قلت : ممنوع بل هو أكثري فقط إذ لم يحفظ ذلك حتى عن العلماء الذين يرون منعه ، وبفرض كونه إجماعاً فعلياً فمحلحجيته كما هو ظاهر إنما هو عند صلاح الأزمنة بحيث ينفذ فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد تعطل ذلك منذ أزمنة .

(254/469)

ولو بنى نفس القبر لغير حاجة مما مر كما هو ظاهر أو نحو تحويط أو قبة عليه في مقبرة مسبلة كارض موات اعتادوا الدفن فيها أو موقوفة لذلك بل هي أولى هدم وجوباً لحرمته كما في المجموع لما فيه من التضييق مع أن البناء يتأبد بعد انمحاق الميت فيحرم الناس تلك البقعة ، وهل من البناء ما اعتيد من جعل أربعة أحجار مربعة محيطة بالقبر مع لصق كل رأس منها برأس الآخر بجص محكم أولاً لأنه لا يسمى بناء عرفاً ؟ والذي يتجه الأول لأن العلة من التأبيد موجودة هنا ، وقد أفتى جمع بهدم كل ما بقرافة مصر من الأبنية حتى قبة الإمام الشافعي عليه الرحمة التي بناها بعض الملوك ، وينبغي لكل أحد هدم ذلك ما لم يخش منه

مفسدة فيتعين الرفع للإمام أخذاً من كلام ابن الرفعة في الصلح انتهى .

وفي صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال : قال لي كرم الله تعالى وجهه أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً الا سويته ، قال ابن الهمام في فتح القدير : وهو محمول على ما كانوا يفعلونه من تعلية القبور بالبناء الحسن العالي ، والأحاديث وكلام العلماء المنصفين المتبعين لما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وجاء عن السلف الصالح أكثر من أن يحصى ، لا يقال : إن الآية ظاهرة في كون ما ذكر من شرائع من قبلنا وقد استدل بها فقد روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : " من نام عن صلاة أو نسيها "

الحديث ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصلاة لِذِكْرِى ﴾ [طه : 14] وهو مقول لموسى عليه السلام وسياقه الاستدلال .

(255/469)

واحتج محمد على جواز قسمة الماء بطريق المهايأة بقوله تعالى : ﴿ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ [الشعراء : 155] الآية ﴿ وَنَبّئْهُمْ أَنَّ الماء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ [القمر : 28] وأبو يوسف على جرى القود بين الذكر والأنثى بآية ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة : 45] والكرخي

على جريه بين الحر والعبد والمسلم والذمي بتلك الآية الواردة في بني إسرائيل إلى غير ذلك لأنا نقول : مذهبنا في شرع من قبلنا وإن كان إنه يلزمنا على أنه شريعتنا لكن لا مطلقاً بل إن قصه الله تعالى علينا بلا إنكار وإنكار رسوله صلى الله عليه وسلم كانكاره عز وجل ، وقد سمعت أنه عليه الصلاة والسلام لعن الذين يتخذون المساجد على القبور ، على أن كون ما ذكر من شرائع من قبلنا ممنوع ، وكيف يمكن أن يكون اتخاذ المساجد على القبور من الشرائع المتقدمة مع ما سمعت من لعن اليهود والنصارى حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد .

والآية ليست كالآيات التي ذكرنا آنفاً احتجاج الأئمة بها وليس فيها أكثر من حكاية قول طائفة من الناس وعزمهم على فعل ذلك وليست خارجة مخرج المدح لهم والحض على التأسس بهم فمتى لم يثبت أن فيهم معصوماً لا يدل فعلهم فضلاً عن عزمهم على مشروعية ما كانوا بصدده ، ومما يقوى قلة الوثوق بفعلهم القول بأن المراد بهم الأمراء والسلاطين كما روي عن قتادة ؛

وعلى هذا لقائل أن يقول : إن الطائفة الأولى كانوا مؤمنين عالمين بعدم مشروعية اتخاذ المساجد على القبور فأشاروا بالبناء على باب الكهف وسده وكف كف التعرض عن أصحابه فلم يقبل الأمراء منهم وغاظهم ذلك حتى أقسموا على اتخاذ المسجد ، وكان الأولين إنما لم يشريوا بالدفن مع أن الظاهر أنه هو المشروع إذ ذاك في الموتى كما أنه هو

المشروع عندنا فيهم لعدم تحققهم موتهم ، ومنعهم من تحقيقه انهم لم يقدروا كما أخرج عبد الرزاق .

(256/469)

وابن المنذر عن وهب بن منبه على الدخول عليهم لما أفيض عليهم من الهيبة ولهذا قالوا : ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ وإن أبيت إلا حسن الظن بالطائفة الثانية فلك أن تقول : إن اتخاذهم المسجد عليهم ليس على طرز اتخاذ المساجد على القبور المنهى عنه الملعون فاعله وإنما هو اتخاذ مسجد عندهم وقريباً من كهفهم ، وقد جاء التصريح بالعندية في رواية القصة عن السدى .

ووهب ، ومثل هذا الاتخاذ ليس محظوراً إذ غاية ما يلزم على ذلك أن يكون نسبة المسجد إلى الكهف الذي هم فيه كنسبة المسجد النبوي إلى المرقد المعظم صلى الله عليه وسلم ، ويكون قولهم ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ على هذا لمشاكلة قول الطائفة ﴿ ابنوا عَلَيْهِمْ ﴾ وإن شئت قلت : إن ذلك الاتخاذ كان على الكهف فوق الجبل الذي هو فيه ، وفي خبر مجاهد أن الملك تركهم في كهفهم وبني على كهفهم مسجداً وهذا أقرب لظاهر اللفظ كما لا يخفى ، وهذا كله إنما يحتاج إليه على القول بأن أصحاب الكهف ماتوا بعد الاعثار عليهم وأما

على القول بأنهم ناموا كما ناموا أولاً فلا يحتاج إليه على ما قيل ، وبالجملة لا ينبغي لمن له أدنى رشد أن يذهب إلى خلاف ما نطقت به الأخبار الصحيحة والآثار الصريحة معولاً على الاستدلال بهذه الآية فإن ذلك في الغواية غاية وفي قلة النهي نهاية ، ولقد رأيت من يبيح ما يفعله الجهلة في قبور الصالحين من أشرافها وبنائها بالجص والآجر وتعليق القناديل عليها والصلاة إليها والطواف بها واستلامها والاجتماع عندها في أوقات مخصوصة إلى غير ذلك محتجاً بهذه الآية الكريمة وبما جاء في بعض روايات القصة من جعل الملك لهم في كل سنة عيدا وجعله إياهم في توابيت من ساج ومقيسا البعض على البعض وكل ذلك محادة لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وإبداع دين لم يأذن به الله عز وجل .

ويكفيك في معرفة الحق تتبع ما صنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبره عليه الصلاة والسلام وهو أفضل قبر على وجه الأرض بل أفضل من العرش ، والوقوف على أفعالهم في زيارتهم له والسلام عليه عليه الصلاة والسلام فتتبع ذاك وتأمل ما هنا وما هناك والله سبحانه وتعالى يتولى هداك .

ثم أعلم أنهم اختلفوا في تعيين موضع المسجد والكهف وقد مرت عليك بعض الأقوال .

وفي البحر أن في الشام كهفا فيه موتى ويزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم ومعهم كلب رمة ، وبالأندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تسمى لوشة كهف فيه موتى ومعهم كلب رمة وأكثرهم قد انجرد لحمه وبعضهم متماسك وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف ؛ قال ابن عطية : دخلت عليهم فرأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة وعليهم مسجد وقريب منهم بناء رومي يسمى الرقيم كأنه قصر مخلق قد بقي بعض جدرانه وهو في فلاة من الأرض خربة وبأعلا حصن غرناطة مما يلي القبلة آثار مدينة قديمة يقال لها مدينة دقيوس وجدنا في آثارها غرائب انتهى ، وحين كنا بالأندلس كان الناس يزورون هذا الكهف ويذكرون أنهم يغلطون في عدتهم إذا عدوهم وأن معهم كلبا ويرحل الناس إلى لوشة لزيارتهم ، وأما ما ذكره من المدينة القديمة فقد مررت عليها مراراً لا تحصى وشاهدت فيها حجارة كباراً ، ويترجح كون ذلك بالأندلس لكثرة دين النصارى بها حتى أنها هي بلاد مملكتهم العظمى ولأن الأخبار بما هو في أقصى مكان من أرض الحجاز أغرب وأبعد أن يعرف إلا بوحي من الله تعالى انتهى .

وما تقدم من خبر ابن عباس .

ومعاوية يضعف ما ادعى ترجحه لأن معاوية لم يدخل الأندلس ، وتسمية الأندلسيين نصارى الأندلس بالروم في نثرهم ونظمهم ومخاطبة عامتهم كما في البحر أيضاً لا يجدي نفعاً

، وقد عول الكثير على أن ذلك طرسوس والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(258/469)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾

قوله : ﴿ وَتَرَى الشمس إِذَا طَلَعَت ﴾ شرع سبحانه في بيان حالهم ، بعد ما أووا إلى الكهف .

﴿ تَّزَاوَرُ ﴾ قرأ أهل الكوفة بحذف تاء التفاعل ، وقرأ ابن عامر (تزور) قال الأخفش : لا يوضع الازورار في هذا المعنى ، إنما يقال هو مزورّ عني ، أي : منقبض .

وقرأ الباقون بتشديد الزاي وإدغام تاء التفاعل فيه بعد تسكينها ، وتزاور مأخوذ من الزور بفتح الواو ، وهو الميل ، ومنه زاره إذا مال إليه ، والزور : الميل ، فمعنى الآية : أن الشمس إذا طلعت تميل وتتنحى ﴿ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ قال الراجز الكلبي :

جاب المندّا عن هوانا أزور . . . أي : مائل ﴿ ذَاتَ اليمين ﴾ أي : ناحية اليمين ، وهي

الجهة المسماة باليمين، وانتصاب ﴿ ذات ﴾ على الظرف، ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ﴾ القرض: القطع.

قال الكسائي والأخفش والزجاج وأبو عبيدة: تعدل عنهم وتتركهم، قرضت المكان: عدلت عنه، تقول لصاحبك: هل وردت مكان كذا؟ فيقول: إنما قرضته: إذا مرّ به وتجاوز عنه، والمعنى: أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين، أي: يمين الكهف، وإذا غربت تمرّ ﴿ ذَاتَ الشمال ﴾ أي شمال الكهف لا تصيبه.

بل تعدل عن سمته إلى الجهتين، والفجوة: المكان المتسع، وجملة: ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ في محل نصب على الحال، وللمفسرين في تفسير هذه الجملة قولان: الأوّل: أنهم مع كونهم في مكان منفتح انفتاحاً واسعاً في ظلّ جميع نهارهم لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا في غروبها، لأن الله سبحانه حجبها عنهم.

والثاني: أن باب ذلك الكهف كان مفتوحاً إلى جانب الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف، وإذا غربت كانت عن يساره، ويؤيد القول الأوّل قوله: ﴿ ذلك مِنْ آيات الله ﴾ فإن صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة إلى مكان تصل إليه عادة أنسب بمعنى

كونها آية ، ويؤيده أيضاً إطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها إلى جهة كذا ، ومما يدلّ على أن الفجوة المكان الواسع قول الشاعر :

ألبست قومك مخزاة ومنقصة . . . حتى أبيحوا وخلوا فجوة الدار

ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله : ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ ﴾ أي : إلى الحق ﴿ فَهُوَ المهتد ﴾ الذي ظفر بالهدى وأصاب الرشد والفلاح ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ أي : ناصراً يهديه إلى الحق كدقيانوس وأصحابه .

ثم حكى سبحانه طرفاً آخر من غرائب أحوالهم فقال : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا ﴾ جمع يقظ بكسر القاف وفتحها ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ أي : نيام ، وهو جمع راقد كقعود في قاعد .

قيل : وسبب هذا الحسبان أن عيونهم كانت مفتحة وهم نيام .

وقال الزجاج : لكثرة تقلبهم ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ الشمال ﴾ أي : تقلبهم في رقدتهم إلى الجهتين لئلا تأكل الأرض أجسادهم ﴿ وَكَلْبُهُمْ باسط ذِرَاعَيْهِ ﴾ حكاية حال ماضية ، لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان بمعنى المضيّ كما تقرر في علم النحو .

قال أكثر المفسرين : هربوا من ملكهم ليلاً ، فمرّوا براعٍ معه كلب فتبعهم .

والوصيد ، قال أبو عبيد وأبو عبيدة هو فناء الباب ، وكذا قال المفسرون ، وقيل : العتبة ، وردّ بأن الكهف لا يكون له عتبة ولا باب ، وإنما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ قال الزجاج : فراراً منصوب على المصدرية بمعنى : التولية ، والفرار : الهرب ﴿ وَلَمُلِئْتَ ﴾ قرئ بتشديد اللام وتخفيفها ﴿ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ قرئ بسكون العين وضمها أي : خوفاً يملأ الصدر ، وانتصاب ﴿ رعباً ﴾ على التمييز ، أو على أنه مفعول ثانٍ ، وسبب الرّعب الهيبة التي ألبسهم الله إياها ، وقيل : طول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم ووحشة مكانهم ، ويدفعه قوله تعالى : ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ فإن ذلك يدل على أنهم لم ينكروا من حالهم شيئاً ، ولا وجدوا من أظفارهم وشعورهم ما يدل على طول المدّة .

(261/469)

﴿ وكذلك بعثناهم لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ الإشارة إلى المذكور قبله أي : وكما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات بعثناهم من نومهم ، وفيه تذكير لقدرته على الإماتة والبعث جميعاً ، ثم ذكر الأمر الذي لأجله بعثهم فقال : ليتساءلوا بينهم أي : ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع في مدة اللبث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال وظهور القدرة الباهرة ،

والاقتصار على علة التساؤل لا ينفي غيرها ، وإنما أفرده لاستتباعه لسائر الآثار ، وجملة ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ مبينة لما قبلها من التساؤل أي : كم مدّة لبثكم في النوم ؟ قالوا ذلك لأنهم رأوا في أنفسهم غير ما يعهدونه في العادة ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ أي : قال بعضهم جواباً عن سؤال من سأل منهم ، قال المفسرون : إنهم دخلوا الكهف غدوة ، وبعثهم الله سبحانه آخر النهار ، فلذلك قالوا يوماً ، فلما رأوا الشمس قالوا أو بعض يوم ، وكان قد بقيت بقية من النهار ، وقد مرّ مثل هذا الجواب في قصة عزير في البقرة .

﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ أي : قال البعض الآخر هذا القول ، إما على طريق الاستدلال ، أو كان ذلك إلهاماً لهم من الله سبحانه ، أي : أنكم لا تعلمون مدّة لبثكم ، وإنما يعلمها الله سبحانه ﴿ فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذه إلى المدينة ﴾ أعرضوا عن التحاور في مدّة اللبث ، وأخذوا في شيء آخر ، كأنه قال القائل منهم : اتركوا ما أنتم فيه من المحاورة ، وخذوا في شيء آخر مما يهمكم ، والفاء : للسببية ، والورق : الفضة مضروبة أو غير مضروبة .

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم بكسر الراء ، وقرأ أبو عمرو وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم بسكونها ، وقرىء بكسر الراء وإدغام القاف في الكاف .

وقرأ ابن محيصن بكسر الواو وسكون الراء .

وفي حملهم لهذه الورق معهم دليل على أن إمساك بعض ما يحتاج إليه الإنسان لا ينافي التوكل على الله ، والمدينة : دقسوس ، وهي مدينتهم التي كانوا فيها ، ويقال لها اليوم : طرسوس ، كذا قال الواحدي : ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ أي : ينظر أيّ أهلها أطيب طعاماً ، وأحلّ مكسباً ، أو أرخص سعراً ، وقيل : يجوز أن يعود الضمير إلى الأطعمة المدلول عليها في المقام كما يقال : زيد طبت أبا ، على أن الأب هو زيد ، وفيه بعد .

واستدل بالآية على حلّ ذبائح أهل الكتاب لأن عامة أهل المدينة كانوا كفاراً ، وفيهم قوم يخفون إيمانهم ، ووجه الاستدلال أن الطعام يتناول اللحم كما يتناول غيره مما يطلق عليه اسم الطعام ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أي : يدقق النظر حتى لا يعرف أو لا يغبن ، والأوّل أولى ، ويؤيده ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أي : لا يفعلنّ ما يؤدي إلى الشعور ويتسبب له ، فهذا النهي يتضمن التأكيد للأمر بالتلطف .

ثم علل ما سبق من الأمر والنهي فقال : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أي : يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم ، يعني : أهل المدينة ﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ يقتلوكم بالرجم ، وهذه القتلة هي أخبث قتلة .

وكان ذلك عادة لهم ، ولهذا خصه من بين أنواع ما يقع به القتل ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ أي : يردّوكم إلى ملتهم التي كنتم عليها قبل أن يهديكم الله ، أو المراد بالعود هنا : الصيرورة

على تقدير أنهم لم يكونوا على ملتهم ، وإيثار كلمة " في " على كلمة " إلى " للدلالة على الاستقرار ﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ في إذاً معنى الشرط .

كأنه قال : إن رجعتم إلى دينهم فلن تفلحوا إذاً أبداً ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ تَّزَاوَرُ ﴾ قال : تميل ، وفي قوله : ﴿ تَّقْرِضُهُمْ ﴾ قال : تذرهم .

(263/469)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ تَّقْرِضُهُمْ ﴾ قال : تتركهم ، ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مّنْهُ ﴾ قال : المكان الداخل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ، قال : الفجوة : الخلوة من الأرض ، ويعني بالخلوة : الناحية من الأرض .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَنُقَلّبُهُمْ ﴾ الآية قال : ستة أشهر على ذي الجنب اليمين ، وستة أشهر على ذي الجنب الشمال .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر عن سعيد بن جبير في الآية قال : كي لا تأكل الأرض لحومهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أن اسم كلبهم : قطمورا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : اسمه قطمير .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ بالوصيد ﴾ قال : بالفناء .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه قال : بالباب .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ أزكى طعَامًا ﴾ قال : أحلّ ذبيحة ، وكانوا يذبحون للطواغيت .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ أزكى طعَامًا ﴾ يعني : أطهر ، لأنهم كانوا يذبحون للطواغيت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(264/469)

وقال القاسمى :

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ ﴾

أي : وكما أنمناهم تلك النومة ، بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم ، لم يفقدوا من هيئاتهم وأحوالهم شيئًا ، ادّكارا بقدرته على الإنامة والبعث جميعا . قال ابن

كثير : وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين . وقوله تعالى : ﴿ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ أي : ليسأل بعضهم بعضا ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم ، فيعتبروا ، ويستدلوا على عظم قدرة الله تعالى ، ويزدادوا يقينا ، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرِّموا به . أفاده الزمخشري .

(265/469)

وبه يتبين أن البعث علة للتساؤل . ومن جعل اللام للعاقبة ، لَحَظَ أن الغرض من فعله تعالى إظهار كمال قدرته : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ أي : رقدتم . اعترافاً بجهل نفسه أو طلبا للعلم من غيره ، وإن لم يظهر كونه على اليقين : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قال ابن كثير : كأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار ، واستيقاظهم كان في آخر نهار . ولهذا قالوا : أو بعض يوم . وقال المهايمي : فمن نظر إلى أنهم دخلوا غدوة وانتبهوا عشية ، ظن أنهم لبثوا يوما ، ومن نظر إلى أنه قد بقيت من النهار بقية ، ظن أنهم لبثوا بعض يوم . فهم مع ما أعطوا من الكرامات يتكلمون بالظن . فالوليّ يجوز أن يتكلم بالظن فيما ليس من الأصول ، ويجوز أن يخطئ . وقال الزمخشري : جواب مبني على غالب الظن . وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب . وأنه لا يكون كذبا . وأن جاز أن يكون خطأً

.

﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ إنكار عليهم من بعضهم ، وأن الله أعلم بمدة لبثهم . كأن هؤلاء قد علموا بالأدلة ، أو بإلهام من الله ، أن المدة متطاولة ، وأن مقدارها مبهم .

فأحالوا تعيينها على ربهم : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ ﴾ أي : المأخوذة للتزود . والورِق الفضة : ﴿ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ أي : التي فررتم عنها : ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً ﴾ أي : أطيب ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أي : في المبايعة واختيار الطعام . أو في أمره بالتخفي ، حتى لا يشعر بحالكم ودينكم : ﴿ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴾

(266/469)

﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ يطلعوا على مكانكم : ﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ أي : يقتلوكم بالحجارة : ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ أي : يدخلوكم فيها بالإكراه العنيف : ﴿ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴾ أي : إذا صرتم إلى ملتهم . قال القاشاني : ظهور العوام ، واستيلاء المقلدة والحشوية المحجوبين ، وأهل الباطل المطبوعين ، ورجمهم أهل الحق ، ودعوتهم إياهم إلى ملتهم - ظاهر . كما كان في أوائل البعثة النبوية .

لطائف :

الأولى : قال الزمخشري : فإن قلت : كيف وصلوا قولهم فابعثوا بتذاكر حديث المدة ؟ قلت : كأنهم قالوا ربكم أعلم بذلك . لا طريق لكم في علمه . فخذوا في شيء آخر مما يهمكم . انتهى .

ورأى المهايمي أن قولهم : ﴿ فَابْعَثُوا ﴾ من تتمة حديث المدة . قصد به تفحصها . كأنهم لما أحالوا تعيينها على الله تعالى بقوله : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ قالوا هذه الإحالة لا تمنع من طلب العلم بالمدة . ولو في ضمن أمر آخر ، فاطلبوه في ضمن حاجة لنا . وهي أن تبعثوا أحدكم . بورقكم هذه لئلا نحوج إلى السؤال عن المدة . لا سيما في مكان يمنع من الإجابة إلى المسؤول به ، فيفضي إلى الهلاك .

الثانية : قال في " الإكليل " : قوله تعالى : ﴿ فَابْعَثُوا ﴾ الآية ، أصل في الوكالة والنيابة .

قال ابن العربي : وهي أقوى آية في ذلك .

قال الكيا : وفيها دليل على جواز خلط دراهم الجماعة والشراء بها والأكل من الطعام بينهم بالشركة . وإن تفاوتوا في الأكل .

الثالثة : دل قوله تعالى عنهم : ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً ﴾ على مشروعية استجادة الطعام واستطابته بأقصى ما يمكن ، لصيغة التفضيل . فإن الغذاء الأزكى المتوفر فيه الشروط الصحية يفيد الجسم ولا يتعبه ولا يكدره . ولذلك يجب طبّاً الاعتناء بجودته وتزكيته ، كما فصّل في قوانين الصحة .

الرابعة قال الرازي : الرجم بمعنى القتل ، كثير في التنزيل كقوله : ﴿ وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ [هود : 91] وقوله : ﴿ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ [الدخان : 20] ، وأصله الرمي ، أي : بالرجام وهي الحجارة . ولا يبعد إرادة الحقيقة في موارده كلها ، زيادة في التهويل . فإن الرجم أخبث أنواع القتل .

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي : كما أنمناهم وبعثناهم لما في ذلك من الحكمة ، أطلعنا عليهم أهل المدينة حتى دخلها من بعثوه للطعام ، وأخرج ورقهم المتقادمة العهد : ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي : ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم ، أن وعد الله بالبعث حق . لأن حالهم في نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث : ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ ﴾ أي : الموعود فيها بالبعث : ﴿ لا رَيْبَ فِيهَا ﴾ إذ لا بد من الجزاء بمقتضى الحكمة . ثم أشار تعالى إلى ما كان من أمرهم بعد وفاتهم ، وعناية قومهم بحفظ أجداثهم ، بقوله

سبحانه : ﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً ﴾ أي : على باب كهفهم بنيانا عظيما . كالخانقاهات المشاهد والمزارات المبنية على الأنبياء وأتباعهم ، و " إذ " على ما يظهر لي ، ظرف لأذكر مقدراً . والجملة مستأنفة لبيان ختم نبأهم بما جرى بعد مماتهم ، إثر ما أوجز من نبأهم بعد بعثهم والإعثار عليهم وجعله ظرفا لـ : ﴿ أَعْثَرْنَا ﴾ أو لغيره مما ذكروا ليس فيه قوة ارتباط ولا دقة معنى .

وقوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا ﴾ تفسير للمتنازع فيه . وقوله تعالى : ﴿ رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ جملة معترضة . إما من الله ردا على الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين فيهم على عهده صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب ,أو هي من كلام المتنازعين في عهدهم . كأنهم تذاكروا أمرهم العجيب وتحاوروا في أحوالهم ومدة لبثهم . فلما لم يهتدوا أحالوا حقيقة نبيهم إليه تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ ﴾ أي : من المتنازعين ، وهم أرباب الغلبة ونفوذ الكلمة : ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ﴾ أي : نصلي فيه ، تبركا بهم وبمكانهم .

تنبيه :

قال ابن كثير : حكي في القائلين ذلك قولان

أحدهما : أنهم المسلمون منهم

والثاني : أنهم المشركون . والظاهر أنهم هم أصحاب النفوذ . ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر . لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : < لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد > يحذّر ما فعلوا . انتهى .

وعجيب من تردده في كونهم غير محمودين ، مع إيراده الحديث الصحيح بعده ، المسجل بلعن فاعل ذلك . وهو أعظم ما عنون به على الغضب الإلهي والمقت الرباني . والسبب في ذلك أن البناء على قبر النبي والولي مدعاة للإقبال عليه والتضرع إليه . ففيه فتح لباب الشرك وتوسل إليه بأقرب وسيلة . وهل أصل عبادة الأصنام إلا ذلك ؟ كما قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ [نوح : 23] ، قال : هؤلاء كانوا قوما صالحين في قومهم . فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم . فلما طال فيهم الأمد عبدوهم . فهؤلاء لما قصدوا الانتفاع بالموتى ، قادهم ذلك إلى عبادة الأصنام . قال الإمام محمد بن عبد الهادي عليه الرحمة ، في كتابه " الصارم المنكى " بعد إيراده ما تقدم : يوضحه أن الذين تكلموا في زيارة الموتى من أهل الشرك ، صرحوا بأن القصد هو انتفاع الزائر بالمزور . وقالوا : من تمام الزيارة أن يعلق همته وروحه بالميت وقبره . فإذا فاض على روح الميت من العلويات الأنوار ،

فاض منها على روح الزائر بواسطة ذلك التعلق والتوجه إلى الميت . كما ينعكس النور على الجسم الشفاف ، بواسطة مقابلته .

(270/469)

وهذا المعنى بعينه ، ذكره عَبَّاد الأصنام في زيارة القبور . وتلقاه عنهم من تلقاه ممن لم يحط علما بالشرك وأسبابه ووسائله . ومن هاهنا يظهر سر مقصود النبي صلى الله عليه وسلم بنهيه عن تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها والسرج . ولعنه فاعل ذلك وإخباره بشدة غضب الله عليه . ونهيه عن الصلاة إليها ، ونهيه عن اتخاذ قبره عيدا . وسؤاله ربه تعالى أن لا يجعل قبره وثنا يعبد . فهذا نهيه عن تعظيم القبور . وذلك تعليمه وإرشادة للزائر أن يقصد نفع الميت والدعاء له والإحسان إليه ، لا الدعاء به ولا الدعاء عنده .

(271/469)

ثم قال عليه الرحمة : ومن ظن أن ذلك تعظيم لهم فهو غالط جاهل . فإن تعظيمهم إنما هو بطاعتهم واتباع أمرهم ومحبتهم وإجلالهم . فمن عظمهم بما هو عاص لهم به ، لم يكن ذلك

تعظيماً . بل هو ضد التعظيم . فإنه متضمن مخالفتهم و معصيتهم . فلو سجد العبد لهم أو دعاهم من دون الله أو سبحهم أو طاف بقبورهم واتخذ عليها المساجد والسرج، وأثبت لهم خصائص الربوبية ، ونزههم عن لوازم العبودية ، وادعى أن ذلك تعظيم لهم كان من أجهل الناس وأضلهم . وهو من جنس تعظيم النصارى للمسيح حتى أخرجوه من العبودية . وكل من عظّم مخلوقاً بما يكرهه ذلك المعظَّم و يبغضه ، ويمقت فاعله ، فلم يعظمه في الحقيقة ، بل عامله بضد تعظيمه . فتعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم أن تطاع أوامره وتصدق أخباره ولا يقدم على ما جاء به غيره . فالتعظيم نوعان : أحدهما ما يحبه المعظَّم و يرضاه ويأمر به ويثني على فاعله ، فهذا هو التعظيم في الحقيقة . والثاني ما يكرهه ويبغضه ويذم فاعله ، فهذا ليس بتعظيم بل هو غلوّ مناف للتعظيم . ولهذا لم يكن الرافضة معظمين لعلي ، بدعواهم الإلهية والنبوة أو العصمة ونحو ذلك . ولم يكن النصارى معظمين للمسيح . بدعواهم فيه ما ادعوا . والنبي صلى الله عليه وسلم . قد أنكر على من عظمه بما لم يشرعه . فأنكر على معاذ سجوده له وهو محض التعظيم . وفي المسند بإسناد صحيح على شرط مسلم عن أنس بن مالك أن رجلا قال : يا محمد ! يا سيدنا ! وابن سيدنا ! وخيرنا ! وابن خيرنا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < عليكم بتقواكم ، ولا يستهوينكم الشيطان . أنا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله ، ما أحب أن تعرفوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزّ وجلّ > . وقال صلى الله عليه وسلم : < لا

تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم . فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله > وكان يكره من أصحابه أن يقوموا له إذا رأوه . ونهاهم أن يصلوا خلفه قياماً وهو مريض

. وقال : < إن كدتم آنفاً لتفعلون فعل فارس والروم . يقومون على ملوكهم > وكل هذا من التعظيم الذي يبغضه ويكرهه . ولقد غلا بعض الناس في تعظيم القبور حتى قال : إن البلاء يندفع عن أهل البلد أو الإقليم ، بمن هو مدفون عندهم من الأنبياء و الصالحين . وهو غلوّ مخالف لدين المسلمين ، مخالف للكتاب والسنة والإجماع . وللبحث تتمة مهمة فانظره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 20.15 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

عطف لجزء من القصة الذي فيه عبرة لأهل الكهف بأنفسهم ليعلموا من أكرمهم الله به من

حفظهم عن أن تنالهم أيدي أعدائهم بإهانة ، ومن إعلامهم علم اليقين ببعض كيفية البعث ، فإن علمه عظيم وقد قال إبراهيم ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ [البقرة : 260] .

والإشارة بقوله : وكذلك ﴾ إلى المذكور من إنامتهم وكيفيتها ، أي كما أنمناهم قروناً بعثناهم .

ووجه الشبه : أن في الإفاقة آية على عظيم قدرة الله تعالى مثل آية الإنامة .

ويجوز أن يكون تشبيه البعث المذكور بنفسه للمبالغة في التعجيب كما تقدم في قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ [البقرة : 143] .

وتقدم الكلام على معنى البعث في الآية المتقدمة ، وفي حسن موقع لفظ البعث في هذه القصة ، وفي التعليل من قوله : ليتساءلوا ﴾ عند قوله : ﴿ ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى ﴾ [الكهف : 12] .

والمعنى : بعثناهم فتساءلوا بينهم .

وجملة قال قائل منهم ﴾ بيان لجملة ﴿ ليتساءلوا ﴾ .

وسميت هذه المحاورة تساؤلاً لأنها تحاور عن تطلب كل رأيَ الآخر للوصول إلى تحقيق المدة .

والذين قالوا : ﴿ لبثنا يوماً أو بعض ﴾ هم مَن عدا الذي قال : ﴿ كم لبثتم ﴾ .

وأسند الجواب إلى ضمير جماعتهم : إما لأنهم تواطؤوا عليه ، وإما على إرادة التوزيع ، أي

منهم من قال : لبثنا يوماً ، ومنهم قال : لبثنا بعض يوم .

وعلى هذا يجوز أن تكون (أو) للتقسيم في القول بدليل قوله بعد ﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ ، أي لما اختلفوا رجعوا فعدلوا عن القول بالظن إلى تفويض العلم إلى الله تعالى ، وذلك من كمال إيمانهم .

فالقائلون ﴿ ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ يجوز أن يكون جميعهم وهو الظاهر .

ويجوز أن يكون قول بعضهم فأسند إليهم لأنهم رأوه صواباً .

وتفريع قولهم : ﴿ فابعثوا أحدكم ﴾ على قولهم : ﴿ ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ لأنه في معنى فدَعُوا الخوض في مدة اللبث فلا يعلمها إلا الله وخذوا في شيء آخر مما يهمكم ، وهو قريب من الأسلوب الحكيم .

وهو تلقي السائل بغير ما يتطلب تنبيهاً على أن غيره أولى بحاله ، ولولا قولهم : ﴿ ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ لكان قولهم : ﴿ فابعثوا أحدكم ﴾ عين الأسلوب الحكيم .

والوَرِق بفتح الواو وكسر الراءِ : الفضة .

وكذلك قرأه الجمهور .

ويقال وَرْق بفتح الواو وسكون الراء وبذلك قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم ورَوح عن يعقوب وخلف .

والمراد بالورق هنا القطعة المسكوكة من الفضة ، وهي الدراهم قيل : كانت من دراهم (دقيوس) سلطان الروم .

والإشارة بهذه إلى دَراهم معينة عندهم ، والمدينة هي (أَبْسُسْ) بالباء الموحدة .

وقد قدمنا ذكرها في صدر القصة .

و﴿ أيها ﴾ ما صدقه أي مكان من المدينة ، لأن المدينة كل له أجزاء كثيرة منها دكاكين الباعة ، أي فلينظر أي مكان منها هو أزكى طعاماً ، أي أزكى طعامُه من طعام غيره .

وانتصب ﴿ طعاماً ﴾ على التمييز لنسبة (أزكى) إلى (أي) .

والأزكى : الأطْيب والأحسن ، لأن الزَّكْوَ الزيادة في الخير والنفع .

والرزق : القوت .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه ﴾ في سورة يوسف (37) ، والفاء لتفريع أمرهم مَن يبعثونه بأن يأتي بطعام زكي وبأن يتلطف .

وصيغة الأمر في قوله : فليأتكم ﴾ و ﴿ ليتلطف ﴾ أمر لأحدٍ غير معين سيوكَلونه ، أي أن تبعثوه يأتكم برزق ، ويجوز أن يكون المأمور معيناً بينهم وإنما الإجمال في حكاية كلامهم لا في الكلام المحكي .

وعلى الوجهين فهم مأمورون بأن يوصوه بذلك .

قيل التاء من كلمة ﴿ وليتلطف ﴾ هي نصف حروف القرآن عَدًّا .

وهنالك قول اقتصر عليه ابن عطية هو أن النون من قوله تعالى : ﴿ لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ [الكهف : 74] هي نصف حروف القرآن .

والإشعار : الإعلام ، وهو إفعال من شَعَر من باب نصر وكَرُم شُعوراً ، أي علم .

فالهمزة للتعدية مثل همزة أعلم ﴾ من علم الذي هو عِلم العرفان يتعدى إلى واحد .

وقوله : ﴿ بكم ﴾ متعلق بـ ﴿ يُشعِرَنَّ ﴾ .

فمدخول الباء هو المشعور ، أي المعلوم .

والمعلوم إنما يكون معنى من المعاني متعلق الضمير المجرور بفعل ﴿ يشعرن ﴾ من قبيل تعليق الحكم بالذات ، والمراد بعض أحوالها .

والتقدير : ولا يخبرن بوجودكم أحداً .

فهنا مضاف محذوف دلت عليه دلالة الاقتضاء فيشمل جميع أحوالهم من عددهم ومكانهم وغير ذلك .

والنون لتوكيد النهي تحذيراً من عواقبه المضمنة في جملة ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم ﴾ الواقعة تعليلاً للنهي ، وبياناً لوجه توكيد النهي بالنون ، فهي واقعة موقع العلة والبيان ، وكلاهما يقتضي فصلها عما قبلها .

وجملة ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم ﴾ علة للأمر بالتلطف والنهي عن إشعار أحد بهم .

وضمير ﴿ إنهم ﴾ عائد إلى ما أفاده العموم في قوله : ﴿ ولا يشعرن بكم أحداً ﴾ ، فصار ﴿ أحداً ﴾ في معنى جميع الناس على حكم النكرة في سياق شبه النهي .

والظهور أصله : البروز دون ساتر .

ويطلق على الظفر بالشيء ، وعلى الغلبة على الغير ، وهو المراد هنا .

قال تعالى : ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾ [النور : 31] وقال : ﴿ وأظهره الله عليه ﴾ [التحريم : 3] وقال : ﴿ تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ﴾ [البقرة : 85] .

والرجم : القتل برمي الحجارة على المرجوم حتى يموت ، وهو قتل إذلال وإهانة وتعذيب .

وجملة ﴿ يرجموكم ﴾ جواب شرط ﴿ إن يظهروا عليكم ﴾ .

ومجموع جملتي الشرط وجوابه دليل على خبر (إن) المحذوف لدلالة الشرط وجوابه عليه .

ومعنى ﴿ يعيدوكم في ملتهم ﴾ يرجعوكم إلى الملة التي هي من خصائصهم ، أي لا يخلو أمرهم عن أحد الأمرين إما إرجاعكم إلى دينهم أو قتلكم .

والملة .

الدين .

وقد تقدم في سورة يوسف (37) عند قوله : ﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله .

﴾ وأكد التحذير من الإرجاع إلى ملتهم بأنها يترتب عليها انتفاء فلاحهم في المستقبل ، لما دلت عليه حرف (إذاً) من الجزائية .

وأبداً ﴾ ظرف للمستقبل كله .

وهو تأكيد لما دل عليه النفي بـ (لن) من التأبيد أو ما يقاربه .

﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ليعلموا أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَأَنَّ الساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ .

انتقل إلى جزء القصة الذي هو موضع عبرةِ أهل زمانهم بحالهم وانتفاعهم باطمئنان قلوبهم لوقوع البعث يوم القيامة بطرِيقة التقريب بالمشاهدة وتأييد الدين بما ظهر من كرامة أنصاره .

وقد كان القوم الذين عثروا عليهم مؤمنين مثلهم ، فكانت آيتهم آية تثبيت وتقوية إيمان .

فالكلام عطف على قوله : ﴿ وكذلك بعثناهم ﴾ [الكهف : 19] الآية .

والقول في التشبيه والإشارة في وكذلك ﴾ نظيرُ القول في الذي قبله آنفاً .

والعثور على الشيء : الاطلاع عليه والظفَر به بعد الطلب .

وقد كان الحديث عن أهل الكهف في تلك المدينة يتناقله أهلها فيسر الله لأهل المدينة العثور عليهم للحكمة التي في قوله : ﴿ ليعلموا أن وعد الله حق ﴾ الآية .

ومفعول ﴿ أعثرنا ﴾ محذوف دل عليه عموم ﴿ ولا يشعرن بكم أحداً ﴾ [الكهف : 20] .

تقديره : أعثرنا أهل المدينة عليهم .

وضمير ليعلموا ﴾ عائد إلى المفعول المحذوف المقدر لأن المقدر كالمذكور .

ووعد الله هو إحياء الموتى للبعث .

وأما علمهم بأن الساعة لا ريب فيها ، أي ساعة الحشر ، فهو إن صار علمهم بذلك عن مشاهدة تزول بها خواطر الخفاء التي تعتري المؤمن في اعتقاده حين لا يتصور كيفية العقائد السمعية وما هو بريب في العلم ولكنه في الكيفية ، وهو الوارد فيه أنه لا يخطر إلا لصديق ولا يدوم إلا عند زنديق .

الظرف متعلق بـ ﴿ أعثرنا ﴾ ، أي أعثرنا عليهم حين تنازعوا أمرهم .

وصيغ ذلك بصيغة الظرفية للدلالة على اتصال التنازع في أمر أهل الكهف بالعثور عليهم بحيث تبادروا إلى الخوض في كرامة يجعلونها لهم .

وهذا إدماج لذكر نزاع جرى بين الذين اعتدوا عليهم في أمور شتى جمعها قوله تعالى : ﴿ أمرهم ﴾ فضمير ﴿ يتنازعون ﴾ و ﴿ بينهم ﴾ عائدان إلى ما عاد الله ضمير ﴿ ليعلموا ﴾ .

وضمير ﴿ أمرهم ﴾ يجوز أن يعود إلى أصحاب الكهف .

والأمر هنا بمعنى الشأن .

والتنازع : الجدال القوي ، أي يتنازع أهل المدينة بينهم شأن أهل الكهف ، مثل : أكانوا نياماً أم أمواتاً ، وأيبقون أحياء أم يموتون ، وأيبقون في ذلك الكهف أم يرجعون إلى سكنى المدينة ، وفي مدة مكثهم .

ويجوز أن يكون ضمير ﴿ أمرهم ﴾ عائداً إلى ما عاد عليه ضمير ﴿ يتنازعون ﴾ ، أي شأنهم فيما يفعلونه بهم .

والإتيان بالمضارع لاستحضار حالة التنازع .

طوي هنا وصف العثور عليهم ، وذكر عودهم إلى الكهف لعدم تعلق الغرض بذكره ، إذ ليس موضع عبرة لأن المصير إلى مرقدهم وطرو الموت عليهم شأن معتاد لكل حي .

وتفريع ﴿ فقالوا ﴾ على ﴿ يتنازعون ﴾ .

وإنما ارتأوا أن يبنوا عليهم بنياناً لأنهم خشوا عليهم من تردد الزائرين غير المتأدبين ، فلعلهم أن يؤذوا أجسادهم وثيابهم باللمس والتقليب ، فأرادوا أن يبنوا عليهم بناءً يمكن غلق بابه وحراسته .

وجملة ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾ يجوز أن تكون من حكاية كلام الذين قالوا ، ابنوا عليهم بنياناً .

والمعنى : ربهم أعلم بشؤونهم التي تنزعنا فيها ، فهذا تنهية للتنازع في أمرهم .

ويجوز أن تكون معترضة من كلام الله تعالى في أثناء حكاية تنازع الذين أعثروا عليهم ، أي رب أهل الكهف أو رب المتنازعين في أمرهم أعلم منهم بواقع ما تنازعوا فيه .

والذين غلبوا على أمرهم ولاة الأمور بالمدينة ، فضمير ﴿ أمرهم ﴾ يعود إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ فقالوا ﴾ ، أي الذين غلبوا على أمر القائلين : ابنوا عليهم بنياناً .

(278/469)

وإنما رأوا أن يكون البناء مسجداً ليكون إكراماً لهم ويدوم تعهد الناس كهفهم .

وقد كان اتخاذ المساجد على قبور الصالحين من سنة النصارى ، ونهى عنه النبي صلى الله

عليه وسلم كما في الحديث يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت عائشة رضي الله عنها : "ولولا ذلك لأبرز قبرُه" ، أي لأبرز في المسجد النبوي ولم يجعل وراء جدار الحجرة .

واتخاذ المساجد على القبور ، والصلاة فيها منهي عنه ، لأن ذلك ذريعة إلى عبادة صاحب القبر أو شبيهٌ بفعل من يعبدون صالحي ملتهم .

وإنما كانت الذريعة مخصوصة بالأموات لأن ما يعرض لأصحابهم من الأسف على فقدانهم يبعثهم على الإفراط فيما يحسبون أنه إكرام لهم بعد موتهم ، ثم يتناسى الأمر ويظن الناس أن ذلك لخاصية في ذلك الميّت .

وكان بناء المساجد على القبور سنة لأهل النصرانية ، فإن كان شرعاً لهم فقد نسخه الإسلام ، وإن كان بدعة منهم في دينهم فأجدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(279/469)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ

بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه بعث أصحاب الكهف من نومتهم الطويلة ليتساءلوا بينهم ، أي ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة لبثهم في الكهف في تلك النومة ، وأن بعضهم قال إنهم لبثوا يوماً أو بعض يوم ، وبعضهم رد علم ذلك إلى الله جل وعلا .

ولم يبين هنا قدر المدة التي تساءلوا عنها في نفس الأمر ، ولكنه بين في موضع آخر أنها ثلاثمائة سنة بحساب السنة الشمسية ، وثلاثمائة سنة وتسع سنين بحساب السنة القمرية ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً ﴾ [الكهف : 25] كما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾ [الآية] .

في قوله هذه الآية " ازكى " قولان للعلماء .

أحدهما – أن المراد بكونه " أزكى " أطيب لكونه حلالاً ليس مما فيه حرام ولا شبهة .

والثاني – أن المراد بكونه أزكى أنه أكثر ، كقولهم : زكا الزرع إذا كثر ، وكقول الشاعر :

قبائلنا سبع وأنتم ثلاثة . . . وللسبع أزكى من ثلاث وأطيب

أي أكثر من ثلاثة .

والقول الأول هو الذي يدل له القرآن ، لأن أكل الحلال والعمل الصالح أمر الله به المؤمنين كما أمر المرسلين قال : ﴿ يا أيها الرسل كُلُوا مِنَ الطيبات واعملوا صَالِحاً ﴾ [المؤمنون : 51] الآية ، وقال : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ واشكروا للَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : 172] . ويكثر في القرآن إطلاق مادة الزكاة على الطهارة كقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ [الأعلى : 14] الآية ، وقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس : 9] الآية ، وقوله : ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ﴾ [النور : 21] ، وقوله : ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ [الكهف : 81] وقوله : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ [الكهف : 74] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

فالزكاة في هذه الآيات ونحوها : يراد الطهارة من أدناس الذنوب والمعاصي ، فاللائق بحال هؤلاء الفتية الأخيار المتقين أن يكون مطلبهم في مأكلهم – الحلية والطهارة ، لا الكثرة . وقد قال بعض العلماء : إن عهدهم بالمدينة فيها مؤمنون يخفون إيمانهم ، وكافرون . وأنهم يريدون الشراء من طعام المؤمنين دون الكافرين . وإن ذلك مرادهم بالزكاة في قوله ﴿ أزكى طعاماً ﴾ وقيل : كان فيها أهل كتاب ومجوس . والعلم عند الله تعالى .

والورق في قوله تعالى : ﴿ فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ ﴾ الفضة ، وأخذ علماء المالكية وغيرهم من هذه الآية الكريمة مسائل من مسائل الفقه :

(281/469)

المسألة الأولى – جواز الوكالة وصحتها ، لأن قولهم ﴿ فأبعثوا أحدكم بورقكم . . ﴾ الآية تدل على توكيلهم لهذا المبعوث لشراء الطعام . وقال بعض العلماء : لا تدل الآية على جواز التوكيل مطلقاً بل مع التقية والخوف ، لأنهم لو خرجوا كلهم لشراء حاجاتهم لعلم به أعداؤهم في ظنهم فهم معذورون ، فالآية تدل على توكيل المعذور دون غيره .

وإلى هذا ذهب أبو حنيفة . وهو قول سحنون من أصحاب مالك في التوكيل على الخصام .

قال ابن العربي : وكأن سحنون تلقه من أسد بن الفرات ، فحكم به أيام قضائه ، ولعله كان يفعل ذلك لأهل الظلم والجبروت إنصافاً منهم وإذلالاً لهم . وهو الحق ، فإن الوكالة معونة ولا تكون لأهل الباطل اه .

وقال القرطبي : كلام ابن العربي هذا حسن . فأما أهل الدين والفضل فلهم أن يوكلوا وإن كانوا حاضرين أصحاء ، والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهد الصحيح – ما

أخرجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال : كان لرجل على النَّبي صلى الله عليه وسلم سنّ من الإبل ، فجاء يتقاضاه فقال : " أعطوه " فطلبوا سنّه فلم يجدوا إلا سناً فوقها . فقال " أعطوه " فقال : أوفيتني أوفى الله لك . وقال النَّبي صلى الله عليه وسلم : " إن خيركم أحسنكم قضاء " لفظ البخاري .

فدل هذا الحديث مع صحته على جواز توكيل الحاضر صحيح البدن ، فإن النَّبي صلى الله عليه وسلم : أمر لأصحابه أن يعطوا عنه السن التي عليه وذلك توكيل منه لهم على ذلك ، ولم يكن النَّبي صلى الله عليه وسلم مريضاً ولا مسافراً . وهو ذا يرد قول أبي حنيفة وسحنون في قولهما : أنه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح إلا برضا خصمه " وهذا الحديث خلاف قولهما اه كلام القرطبيز ولا يخفى ما فيه ، لأن أبا حنيفة وسحنوناً إنما خالفا في الوكالة على المخاصمة بغير إذن الخصم فقط ، ولم يخالفا في الوكالة في دفع الحق .

(282/469)

وبهذه المناسبة سنذكر إن شاء الله الأدلة من الكتاب والسنة على صحة الوكالة وجوازها ، وبعض المسائل المحتاج إليها من ذلك ، تنبيهاً بها على غيرها .

اعلم أولاً وصحتها في الجملة . فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى هنا : ﴿ فابعثوا

أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ ﴾ هذه الآية ، وقوله تعالى : " " [التوبة : 60] الآية ، فإن عملهم عليها توكيل لهم على أخذها .

واستدل لذلك بعض العلماء أيضاً بقوله : ﴿ اذهبوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِي ﴾ [يوسف : 93] الآية ، فإنه توكيل لهم من يوسف على إلقائهم قميصه على وجه أبيه ليرتد بصيراً .

واستدل بعضهم لذلك ايضاً بقوله تعالى عن يوسف : ﴿ قَالَ اجعلني على خَزَآئِنِ الأَرض ﴾ [يوسف : 55] الاية ، فإن توكيل على ما في خزائن الأرض .

وأما السنة فقد دلت أحاديث كثيرة على جواز الوكالة وصحتها ، كم ذلك حديث أبي هريرة المتقدم في كلام القرطبي ، الدال على التوكيل في قضاء الدين ، وهو حديث متفق عليه . وأخرج الجماعة إلا البخاري من حديث أبي رافع عن النَّبي صلى الله عليه وسلم نحوه .

ومنها حديث عروة بن أبي جعد البارقي : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أعطاه ديناراً ليشتري به له شاة ، فاشترى له به شاتين : فباع إحداهما بدينار وجاءه بدينار وشاة ، فدعا بالبركة في بيعه .

وكان لو اشترى التراب لربح فيه ، رواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجه والدارقطني وفيه التوكيل على الشراء .

ومنها حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أردت الخروج إلى خيبر، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: إني أردت الخروج إلى خيبر؟ فقال: "إذا أتيت وكيلي فخذ منه خمسة عشر وسقاً، فإن ابتغى منك آية فضع يدك على ترقوته" أخرجه أبو داود والدارقطني. وفيه التصريح منه صلى الله عليه وسلم بأن له وكيلاً.

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "واغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها" وهو صريح في التوكيل في إقامة الحدود.

ومنها حديث علي رضى الله عنه قال: "أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقوم على بدنه وأن أتصدق بلحومها وجلودها وأجلتها، وألا أعطي الجازر منها شيئاً – وقال: نحن نعطيه من عندنا" متفق عليه. وفيه التوكيل على القيام على البدن والتصدق بلحومها وجلودها وأجلتها. وعدم إعطاء الجازر شيئاً منها.

ومنها حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه – أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أعطاه غنماً يقسمها على أصحابه فبقي عتود، فذكره للنَّبي صلى الله عليه وسلم فقال "ضح أنت به" متفق عليه أيضاً. وفيه الوكالة في تقسيم الضحايا، والأحاديث بمثل ذلك كثيرة. وقد

أخرج الشيخان في صحيحهما طرفاً كافياً منها ذكرنا بعضه هنا .

وقد قال ابن حجر في فتح الباري في كتاب الوكالة ما نصه : اشتمل كتاب الوكالة – يعني من صحيح البخاري – على ستة وعشرين حديثاً ، المعلق منها ستة ، والبقية موصولة . المكرر منها فيه وفيما مضى اثنا عشر حديثاً ، والبقية خالصة وافقه مسلم على تخريجها سوى حديث عبد الرحمن بن عوف في قتل أميه بن خلف ، وحديث كعب بن مالك في الشاة المذبوحة ، وحديث وفد هوازن من طريقيه ، وحديث أبي هريرة في حفظ زكاة رمضان ، وحديث عقبة بن الحرث في قصة النعيمان وفيه من الآثار عن الصحابة وغيرهم ستة آثار ، والله أعلم . انتهى من فتح الباري . وكل تلك الأحاديث دالة على جواز الوكالة وصحتها .

وأما الإجماع فقد أجمع المسلمون على جواز الوكالة وصحتها في الجملة وقال ابن قدامة في المغني : وأجمعت الأمة على جواز الوكالة في الجملة ، ولأن الحاجة داعية إلى ذلك . فإن لا يمكن كل أحد فعل ما يحتاج إليه فدعت الحاجة إليها ، انتهى منه . وهذا مما لا نزاع فيه .

فروع تتعلق بمسألة الوكالة

الفرع الأول – لا يجوز التوكيل إلا في شيء تصح النيابة فيه .

فلا تصح في فعل محرم ، لأن التوكيل من التعاون ، والله يقول : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى الإثم والعدوان ﴾ [المائدة : 42] الآية .

ولا تصح في عبادة محضة كالصلاة والصوم ونحوهما ، لأن ذلك مطلوب من كل أحد بعينه ، فلا ينوب فيه أحد من أحد ، لأن الله يقول : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] الآية .

أما الحج عن الميت والمعضوب ، والصوم عن الميت – فقد دلت أدلة أخر على النيابة في ذلك . وإن خالف كثير من العلماء في الصوم عن الميت ، لأن العبرة بالدليل الصحيح من الوحي ، لا بآراء العلماء إلا عند عدم النص من الوحي .

الفرع الثاني – ويجوز التوكيل في المطالبة بالحقوق وإثباتها والمحاكمة فيها . سواء كان الموكل حاضراً أو غائباً ، صحيحاً أو مريضاً . وهذا قول جمهور العلماء ، منهم مالك والشافعي وأحمد وابن أبي ليلى ويوسف ومحمد وغيرهم . وقال أبو حنيفة : للخصم أن يمتنع من محاكمه الوكيل إذا كان الموكل حاضراً غير معذور ، لأن حضوره مجلس الحكم ومخاصمته حق لخصمه عليه فلم يكن له نقله إلى غيره بغير رضا خصمه . وقد قدمنا في كلام القرطبي : أن هذا قول سحنون أيضاً من أصحاب مالك . واحتج الجمهور بظواهر النصوص لأن الخصومة أمر لا مانع من الاستنابة فيه .

قال مقيده عفا الله عنه : الذي يظهر لي – والله تعالى أعلم – في مسألة التوكيل على الخصام والمحاكمة : أن الصواب فيها التفصيل .

فإن الموكل ممن عرف بالظلم والجبروت والادعاء بالباطل – فلا يقبل منه التوكيل لظاهر قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ [النساء : 105] . وإن كان معروفاً بغير ذلك فلا مانع من توكيله على الخصومة . والعلم عند الله تعالى .

(285/469)

الفرع الثالث – ويجوز التوكيل بجعل وبدون جعل ، والدليل على التوكيل بغير جعل أنه صلى الله عليه وسلم وكل أنيساً في إقامة الحد على المرأة ، وعروة البارقي في شراء الشاة من غير جعل . ومثال ذلك كثير في الأحاديث التي ذكرنا غيرها .

والدليل على التوكيل بجعل قوله تعالى : ﴿ والعاملين عَلَيْهَا ﴾ [التوبة : 60] فإنه توكيل على جباية الزكاة وتفريقهما بجعل منها كما ترى .

الفرع الرابع – إذا عزل الموكل وكيله في غيبته وتصرف الوكيل بعد العزل وقبل العلم به ، أو مات موكله وتصرف بعد موته وقبل العلم به ، فهل يمضي تصرفه نظراً لاعتقاده ، أو لا يمضي نظراً للواقع في نفس الأمر . في ذلك خلاف معروف بين أهل العلم مبني على قاعدة أصولية ،

وهي :

هل يستقل الحكم بمطلق وروده وإن لم يبلغ المكلف . أو لا يكون ذلك إلا بعد بلوغه للمكلف ، ويبنى على الخلاف في هذه القاعدة الاختلاف في خمس وأربعين صلاة التي نسخت من الخمسين بعد فرضها ليلة الإسراء ، هل يسمى ذلك نسخاً في حق الأمة لوروده ، أو لا يسمى نسخاً في حقهم .

لأنه وقع قبل بلوغ التكليف بالمنسوخ لهم . وإلى هذه المسألة أشار في مراقي السعود بقوله :

هل يستقل الحكم بالورود . . . أو ببلوغه إلى الموجود

فالعزل بالموت أو العزل عرض . . . كذا قضاء جاهل للمفترض

ومسائل الوكالة معروفه مفصلة في كتب فروع المذاهب الأربعة ، ومقصودنا ذكر أدلة ثبوتها بالكتاب والسنة والإجماع ، وذكر أمثلة من فروعها تنبيهاً بها على غيرها . لأنها باب كبير من أبواب الفقه .

المسألة الثاني –أخذ بعض علماء المالكية من هذه الآية جواز الشركة ، لأنهم كانوا مشتركين في الورق التي أرسلوها ليشتري لهم طعام بها .

وقال ابن العربي المالكي : لا دليل في هذه الآية على الشركة ، لاحتمال أن يكون كل واحد منهم أرسل معه نصيبه منفرداً ليشتري له به طعامه منفرداً . وهذا الذي ذكره ابن العربي متجه كما ترى . وقد دلت أدلة أخرى على جواز الشركة . وسنذكر إن شاء الله بهذه المناسبة أدلة ذلك ، وبعض مسائله المحتاج إليها ، وأقوال العلماء في جواز ذلك .

اعلم أولاً – أن الشركة جائزة في الجملة بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين .

أما الكتاب فقد دلت على ذلك منه آيات في الجملة ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ﴾ [النساء : 12] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [ص : 24] عند من يقول : إن الخلطاء الشركاء ، وقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ [الأنفال : 41] الآية ، وهو تدل على الاشتراك من جهتين .

وأما السنة – فقد دلت على جواز الشركة أحاديث كثيرة سنذكر هنا إن شاء الله طرفاً منها . فمن ذلك ما أخرجه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أعتق شركاً له في عبد وكان له مال يبلغ ثمن العبد قوم العبد عليه

قيمة عدل فأعطى شركاءه حصصهم ، وإلا فقد عتق عليه ما عتق " وقد ثبت نحوه نحوه في الصحيح عن أبي هريرة عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه التصريح منه صلى الله عليه وسلم بالاشتراك في الرقيق . وقد ترجم البخاري رحمه الله في صحيحه لحديث ابن عمر وأبي هريرة المذكورين بقوله (باب الشركة في الرقيق) ، ومن ذلك ، ما أخرجه الإمام أحمد والبخاري رحمهما الله عن أبي المنهال قال : اشتريت أنا وشريك لي شيئاً يداً بيد ونسيئه ، فجاءنا البراء بن عازب فسألناه فقال : فعلت أنا وشريكي زيد بن أرقم وسألنا النَّبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : " ما كان يداً بيد فخذوه ، وما كان نسيئة فذروه " وفيه إقرار صلى الله عليه وسلم البراء وزيداً المذكورين على ذلك الاشتراك . وترجم البخاري رحمه الله لهذا الحديث في كتاب الشركة بقوله : (باب الاشتراك في الذهب والفضة وما يكون فيه الصرف) . ومن ذلك إعطاءه صلى الله عليه وسلم أرض خيبر لليهود ليعلموا فيها ويزرعوها ، على أن لهم شطر ما يخرج من ذلك ، وهو اشتراك البخري الخارجة منها ، وقد ترجم البخاري رحمه الله لهذا الحديث في كتاب الشركة بقوله (باب مشاركة الذميين والمشركين في المزارعة) ومن ذلك ما أخرجه احمد والبخاري عن جابر رضي الله عنه : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قضى بالشفعة .

في كل ما لم يقسم ، فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة . وترجم البخاري لهذا الحديث في كتاب الشركة بقوله (باب الشركة في الأرضين وغيرها) . ثم ساق الحديث بسند آخر ، وترجم له أيضاً بقوله (باب إذا قسم الشركاء الدور وغيرها ، فليسلهم رجوع ولا شفعة) ومن ذلك ما رواه أبو داود عن أبي هريرة مرفوعاً قال : إن الله يقول : " أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خانه خرجت من بينهما " قال العلامة الشوكاني رحمه الله تعالى (في نيل الأوطار) في هذا الحديث : صححه الحاكم وأعله ابن القطان بالجهل بحال سعيد بن حيان . وقد ذكره ابن حبان في الثقات ، وأعله ايضاً الن القطان بالإرسال ، فلم يذكر فيه أبا هريرة وقال إنه الصواب . ولم يسنده غير أبي همام محمد بن الزبرقان وسكت أبو داود والترمذي على هذا الحديث ، وأخرج نحوه أبو القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب عن حكيم بن حزام . انتهى منه . ومن المعروف عن أبي داود رحمه الله – أنه لا يسكت الكلام في حديث إلا وهو يعتقد صلاحيته للاحتجاج. والسند الذي أخرجه به أبو داود الظاهر منه أنه صالح للاحتجاج ، فإنه قال : حد ثنا محمد بن سليمان المصيصي ثنا محمد بن الزبرقان عن أبي حيان التيمي عن أبيه عن أبي هريرة رحمه الله رفعه قال : إن الله يقول : " أنا ثالث الشريكين " إلى أخر لالحديث .

فالطبقة الأولى من هذا الإسناد هي محمد بن سليمان ، وهو أبو جعفر العلاف الكوفي . ثم

المصيصي لقبه لوين بالتصغير، وهو ثقة.

والطبقة الثانية منه محمد بن الزبرقان أو همام الأوازي، وو من رجال الصحيحين، وقال في التقريب: صدوق، ربما وهم.

والطبقة الثالثة منه – هي أبو حيان التيمي، وهو يحيى بن سعد بن حيان الكوفي، وهو ثقة.

والطبقة منه – هي أوه سعيد بن حيان المذكور الذي قدمنا في كلام الشوكاني: أن ابن القطان أعل هذا الحديث بأنه مجهول، ورد ذلك بأن ابن حبان قد ذكره في الثقات. وقال ابن حجر (في التقريب): إنه وثقه العجلي أيضاً.

والطبقة الخامسة منه – أبو هريرة رفعه.

فهذا إسناد صالح كما ترى. وإعلال الحديث بأنه روي موقوفاً من جهة أخرى يقال فيه إن الرفع زيادة. وزيادة العدول مقبولة كما تقرر في الأصول وعلوم الحديث. ويؤيده كونه جاء من طريق أخرى عن حكيم بن حزام كما ذكرناه في كلان الشوكاني آنفاً.

ومن ذلك حديث السائب بن أبي السائب أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: كنت

شريكي في الجاهلية فكنت خير شريك، لا تداريني ولا تماريني. أخرجه أبو داود وابن ماجه. ولفظه: كنت شريكي ونعم الشريك. كنت لا تداري ولا تماري. وأخرجه أيضاً النسائي والحاكم وصححه. وفيه إقرار النّبي صلى الله عليه وسلم له على كونه كان شريكاً له. والأحاديث الدال على الشركة كثيرة جداً.

وقد قال ابن حجر في فتح الباري في آخر كتاب الشركة ما نصه: اشتمل الشركة (يعني من صحيح البخاري) من الأحاديث المرفوعة على سبعة وعشرين حديثاً، المعلق منها واحد، والبقية موصولة، المكرر منها فيه وفيما مضى ثلاثة عشر حديثاً، والخالص أربعة عشر، وافقه مسلم على تخريجها سوى حديث النعمان "مثل القائم على حدود الله"، وحديثي عبد الله بن هشام وحديثي عبد الله بن عمر، وحديث عبد الله بن الزبي في قصته، وحديث ابن عباس الأخير. وفيه من الآثار أثر واحد. والله أعلم انتهى كلام ابن حجر. وبهذا تعلم كثرة الأحاديث الدالة على الشركة في الجملة.

وأما الإجماع فقد أجمع جميع علماء المسلمين على جواز أنواع من أنواع الشركات، وإنما الخلاف بينهم في بعض أنواعها.

اعلم أولاً – أن الشركة قسمان شركة أملاك، وشركة عقود.

فشركة الأملاك – أن يملك عيناً اثنان أو أكثر بإرث ، أو شراء ، أو هبة ونحو ذلك . وهي المعروفة عند المالكية بالشركة الأعمية .

وشركة العقود – تنقسم إلى شركة مفاوضة ، وشركة عنان ، وشركة وجوه ، وشركة أبدان ، وشركة مضاربة . وقد تتداخل هذه الأنواه فيجتمع بعضها مع بعض .

أما شركة الأملاك فقد جاء القرآن الكريم بها في قوله تعالى : ﴿ فَإِن كانوا أَكْثَرَ مِن ذلك فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي الثلث ﴾ [النساء : 12] ولا خلاف فيها بين العلماء .

وأما أنواع شركة العقود فسنذكر إن شاء الله هنا معانيها ، وكلام العلماء فيها ، وأمثله للجائز منها تنبيهاً بها على غيرها ، وما ورد من الأدلة في ذلك .

اعلم – أن شركة المفاوضة مستقة من التفويض . لأن كل واحد منهما يفوض أمر التصرف مال الشركة إلى الآخر . ومن هذا قوله تعالى عن مؤمن آل فرعون : ﴿ وَأُفَوِّضُ أمري إِلَى الله إِنَّ الله ﴾ [غافر : 44] الآية .

وقيل : اصلها من المساواة . لاتواء الشريكين فيه في التصرف والضمان . وعلى هذا فهي من الفوضى بمعنى التساوي . ومنه قول الأفوه الأودي :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم . . . ولا سراة إذ جهالهم سادوا

ذا تولى سرةا الناس أمرهم . . . نما على ذاك أمر القوم وازدادوا

فقوله : "لا يصلح الناس فوضى " أي لا تصلح أمورهم في حال كونهم فوضى ، أي متساوين لا أشراف لهم يأمرونهم وينهونهم . والقول الأول هو الصواب .

هذا هو اصلها في اللغة .

وأما شركة العنان – فقد اختلف في أصل اشتقاقها اللغوي . فقيل : أصلها من عن الأمر يعن – بالكسر والضم – عنا وعنوناً : إذا عرض . ومنه قوله امرىء القيس :

فعن لنا سرب كأن نعاجه . . . عذارى دوار في ملاء مذيل

قال ابن منظور في اللسان : وشرك العنان وشرمة العنان : شركة في شيء خاص دون سائر أموالهما . كأنه عن لهما شيء فاشترياه واشتركا فيه . واستشهد لذل بقوله النابغة الجعدي :

فشاركنا قريشاً في تقاها . . . وفي أحسابها شرك العنان

بما ولدت نساء بني هلال . . . وما ولدت نساء بني أبان

وبهذا تعلم : أن شركة العنان معروفه في كلام العرب ، وا ، قوله ابن القاسم من أصحاب مالك : إنه لا يعرف شركة العنان عن مالك ، وأنه لم ير أحداً من أهل الحجاز يعرفها ، وإنما

يروى عن مالك والشافعي من أنهما لم يطلقا هذا الإسم على هذه الشركة، وأنهما قالا: هي كلمة تطرق بها أهل الكوفة ليمكنهم التمييز بين الشركة العامة والخاصة من غير أن يكون مستعملاً في كلام العرب. كل ذلك فيه نظر لما عرفت أن كان ثابتاً عنهم.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له.

اعلم – أن مراد النابغة في بيتيه المذكورين:

بما ولدت نساء بني هلال... ابن عامر بن صعصعة، أن منهم لبابة الكبرى، ولبابة الصغرى، وهما أختان، ابنتا الحارث بن حزن بن بجير بن الهزك بن روبية بن عبد الله بن هلال، وهما أختا ميمونه بنت الحارث زوج للنّبي صلى الله عليه وسلم.

أما لبابة الكبرى – فهي زوج العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وهي أم أبنائه: عبد الله، وعبيد الله، والفضل وبه كانت تكنى، وفيها يقول الراجز:

ما ولدت نجيبة من فحل... كستة من بطن أم الفضل

وأما لبابة الصغرى – فهي أم خالد بن الوليد رضي الله عنه، وعمتهما صفية بنت حزن هي أم أبي سفيان بن حب. وهذا مراده:

بما ولدت نساء بني هلال... وأما نساء بني أبان فإنه يعنى أن أبا العاص، والعاص، وأبا العيص، والعيص أبناء أمية بن عبد شمس، أمهم آمنة بنت أبان بن كليب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فهذه الأرحام المختلطة بن العامريين وبين قريش هي مراد النابغة بمشاركتهم

لهم في الحسب والتقى - شرك العنان .

وقيل : إن شركة العنان أصلها من عنان الفرس . كما يأتي إيضاحه إن شاء الله . وهو المشهور عند العلماء .

(292/469)

وقيل هي من المعاناة بمعنى المعارضة ، يقال عانته إذا عارضته بمثل ماله أو فعاله ، فكل واحد من الشريكين يعارض الآخر بماله وفعاله - وهي بكسر العين على الصحيح خلافاً لمن زعم فتحها ، ويروى عن عياض وغيره وادعاء أن أصلها من عنان السماء بعيد جداً كما ترى .

وأما شركة الوجوه - فأصلها من الوجاهة .

لأت الوجيه تتبع ذمته بالدين ، وإذا باع شيئاً باعه بأكثر مما يبيع به الخامل .

وأما شركة الأبدان - فأصبها اللغوي واضح ، لأنهما يشتركان بعمل أبدانهما ، ولذا تسمى شركة العمل ، إذ ليس الاشتراك فيها بالمال ، وإنما هو بعمل البدن .

وأما شركة المضاربة وهي القراض - فأصلها من الضرب في الأرض ، لأن التاجر يسافر في طلب الربح . والسفر يكنى عنه بالضرب في الأرض ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ

يَضْرِبُونَ فِي الأَرض يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ الله ﴾ [المزمل : 20] الآية ، وقوله : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرض فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصلاة ﴾ [النساء : 101] الآية .

فإذا عرفت معاني أنواع الشركة في اللغة ، فسنذكر لك إن شاء الله تعالى هنا معانيها المرادة بها في الاصطلاح عند الأئمة الأربعة وأصحابهم ، وأحكامها ، لأنهم مختلفون في المراد بها اصطلاحاً ، وفي بعض أحامها .

أما مذهب مالك في أنواع الشركة وأحكامها فهذا تفصيله :

اعلم – أن شركة المفاوضة جائزة عند مالك وأصحابه . والمراد بشركة المفاوضة عندهم هو أن يطلق كل واحد منهما التصرف لصاحبه في المال الذي اشتركا فيه غيبة حضوراً ، وبيعاً وشراء ، وضماناً وتوكيلاً . وكفالة وقراضاً . فما فعل أحدهما من ذلك لزم صاحبه إذا كان عائداً على شركتهما .

ولا يكونان شريكين إلا فيما يعقدان عليه الشركة من أموالهما ، دون ما ينفرد به كل واحد منهما من ماله . وسواء اشتركا في كل ما يملكانه أو في بعض أموالهما ، وتكون يد كل منهما

كيد صاحبه ، وتصرفه ما لم يتبرع بشيء ليس في مصلحة الشركة .

وسواء كانت المفاوضة بينهما في جميع أنواع المتاجر أو في نوع واحد منها ، كرقيق يتفاوضان في التجارة فيه فقط ، ولكل واحد منهما أن يبيع بالدين ويشتري فيه ويلزم ذلك صاحبه وهذا هو الصواب . خلافاً لخليل في مختصره في الشراء بالدين .

وقد أشار خليل في مختصره إلى جواز شركة المفاوضة في مذهب مالك مع تعريفها ، وما يستلزمه عقدها من الأحكام بالنسبة إلى الشريكين بقوله : ثم إن أطلقا التصرف وإن بنوع فمفاوضة ، ولا يفسدها انفراد أحدهما بشيء وله أن يتبرع إن استألف به أو خف كإعارة آلة ودفع كسرة ويبضع ويقارد ويودع لعذر وإلا ضمن ، ويشارك في معين ويقيل ويولي ويقبل المعيب وإن أبي الآخر ، ويقر بدين لمن لا يتهم عليه ، ويبيع بالدين لا الشراء به . ككتابة وعتق على مال ، وإذن لعبد في تجارة ومفاوضة وقد قدمنا أن الشراء بالدين كالبيع به . فللشريك فعله بغير إذن شريكه على الصحيح من مذهب مالك خلافاً لخليل : أما الكتابة والعتق على المال وما عطف عليه – فلا يجوز شيء منه إلا بإذن الشريك .

واعلم – أن الشركة المفاوضة هذه في مذهب مالك لا تتضمن شيئاً من أنواع الغرر التي حرمت من أجلها شركة المفاوضة عند الشافعية ومن وافقهم لأن ما استفاد أحد الشريكين المتفاوضين من طريق أخرى كالهبة والإرث ، واكتساب مباح كاصطياد واحتطاب ونحو ذلك ، لا شيء منه على شريكه ، بل يقتصر كل ما بينهما على ما كان

متعلقاً بمال الشركة ، فكل منهما وكيل عن صاحبه ، وكفيل عليه في جميع ما يتعلق بمال الشركة وهكذا اقتضاه العقد الذي تعاقدا عليه .

(294/469)

فلا موجب للمنع ولا غرر في هذه الشركة عند المالكية ، لأنهم لا يجعلون المتفاوضين شريكين في كل ما اكتسبا جميعاً حتى يحصل الغرر بذلك ، ولا متضامنين في كل ما جنيا حتى يحصل الغرر بذلك . بل هو عقد على أن كل واحد منهما نائب عن الآخر في كل التصرفات في مال اشركة ، وضامن عليه في كل ما يتعلق بالشركة . . وهذا لا مانع منه كما ترى ، وبه تعلم أن اختلاف المالكية والشافعية في شركة المفاوضة خلاف في حال ، لا في حقيقة .

وأما شركة العنان - فهي جائزة عند الأئمة الأربعة . مع اختلافهم في تفسيرها - وفي معناها في مذهب مالك قولان ، وهي جائزة على كلا القولين : الأول وهو المشهور - أنها هي الشركة التي يشترط كل واحد من الشريكين فيها على صاحبه ألا يتصرف في مال الشركة إلا بحضرته وموافقته ، وعلى هذا درج خليل في مختصره بقوله : وإن اشتراطا نفي الاستبداد فعنان ، وهي على هذا القول من عنان الفرس . لأن عنان كل واحد من

الشريكين بيد الآخر فلا يستطيع الاستقلال دونه بعملن كالفرس التي يأخذ راكبها بعنانها فإنها لا تستطيع الذهاب إلى جهة بغير رضاه .

والقول الثاني عند المالكية : أن شركة العنان هي الاشتراك في شيء خاص . وبهذا جزم ابن رشد ونقله عنه المواق في شرح قول خلي وإن اشترطا نفي الاستبداد الخ . وهذا المعنى الأخير أقرب للمعروف في اللغة كما قدمنا عن ابن منظور في اللسان وأما شركة الوجوه - فلها عند العلماء معان :

الأول منها - هو أن يشترك الوجيهان عند الناس بال مال ولا صنعة . بل ليشتري كل واحد منهما بمؤجل في ذمته لهما معاً . فإذا باعا كان الربح الفاضل عن الأثمان بينهما .

وهذا النوع من شركة الوجوه هو المعروف عند المالكية بشركة الذمم ، وهو فاسد عند المالكية والشافعية . خلافاً للحنفية والحنابلة . ووجه فساده ظاهر . لما فيه من الغرر ، لاحتمال أن يخسر ويربح هذا كالعكس . وإلى فساد هذا النوع من الشركة اشار ابن عاصم المالكي في تحفته بقوله :

وفسخها إن وقعت على الذمم . . . ويقسمان الربح حكم ملتزم

المعنى الثاني من معانيها – أن يبيع وجيه مال خامل بزيادة ربح ، على أن يكون له بعض الربح الذي حصل في المبيع بسبب وجاهته . لأن الخامل لو كان هو البائه لما حصل ذلك الربح . وهذا النوع أيضاً فاسد .

لأنه عوض جاه ، كما قاله غير واحد من أهل العلم والمعنى الثالث – أن يتفق وجيه وخامل على أن يشتري الوجيه في الذمة ويبيع الخامل ويكون الربح بينهما . وهذا النوع أيضاً فاسد عند المالكية والشافعية ، لما ذكرنا من الغرر سابقاً .

وأما شركة الأبدان عن المالكية – فهو جائزة بشروط ، وهي أن يكون عمل الشركين متحدا كخياطين . أو متلازماً كأن يغزل أحدهما وينسج الآخر ، لأن النسج لا بد له من الغزل ، وأن يتساويا في العمل جودة ورداءة وبطأ وسرعة ، أو يتقاربا في ذلك ، وأن يحصل التعاون بينهما . إلى جواز هذا النوع من الشركة بشروطه أشارر خليل في مختصره بقوله : وجازت بالعمل إن اتحد أو تلازم وتساويا فيه ، أو تقاربا وحصل التعاون ، وإن بمكانين . وفي جواز إخراج كل آلة واستئجاره من الآخر . أو لا بد من ملك أو كراء تأويلان ، طبيبين اشتركا في الدواء ، وصائدين في البازين ، وهل وإن افترقا رويت عليهما وحافرين بكركاز ومعدن ، ولم يستحق وراثه بقيته وأقطعه الإمام . وقيد بما لم يبد ، ولزمه ما يقبله صاحبه وغن تفاصلا وألغى مرض كيومين الخ .

وبهذا تعلم أن شركة الأبدان جائزة عند المالكية في جميع أنواع العمل : من صناعات بأنواعها ، وطب واكتساب مباح . كالاصطياد والاحتشاش والاحتطاب ، وغير ذلك بالشروط المذكورة . وقال ابن عاصم في تحفته :

شركة بمال أو بعمل . . . أو بهما تجوز لا لأجل

وبقي نوع معروف عند المالكية من أنواع الشركة يسمى في الاصطلاح ب " شركة الجبر " وكثير من العلماء يخالفهم في هذا النوع الذي هو " شركة الجبر " .

وشركة الجبر : هي أن يشتري شخص فيها ، ولم يتكلم أولئك التجار الحاضرون . فإن لهم إن أرادوا الاشتراك في تلك السلعة مع ذلك المشتري أن يجبروه على ذلك ، ويكونون شركاءه في تلك السلعة شاء أو أبي .

وشركتهم هذه معه جبراً عليه - هي " شركة الجبر " المذكورى . فإن كان اشتراها ليقتنيها لا ليتجر بها ، أو اشتراها ليسافر بها إلى محل آخر ولو للتجارة بها فيه - فلا جبر لهم عليه .

وأشار خليل في مختصره إلى " شركة الجبر " بقوله : واجبر عليها إن اشترى شيئاً يسوقه لا لكفر أو قنية ، وغيره حاضر لم يتكلم من تجاره . زهل في الزقاق لا كبيته قولان . أما شركة

المضاربة – فهي القراض ، وهو أن يدفع شخص إلى آخر مالاً ليتجر به على جزء من ربحه يتفقان عليه . هذا النوع جائز بالإجماع إذا استوفى الشروط كما سيأتي إن شاء الله دليله .

وأما أنوع الشركة في مذهب الشافعي رحمه الله فهي أربعة : ثلاثة منها باطلة في مذهبه ، والرابع صحيح .

وأما الثلاثة الباطلة – فالأول مها " شركة الأبدان "كشركة الحمالين ، وسائر المحترفين : كالخياطين ، والنجارين ، والدلالين ، ونحو ذلك ، ليكون بينهما كسبهما متساوياً أومتفاوتاً مع اتفاق الصنعة أو اختلافها .

فاتفاق الصنعة كشركة خياطين ، واختلافها كشركة خياط ونجار ونحو ذلك . كل ذلك باطل في مذهب الشافعي ، ولا تصح عنده الشركة إلا بالمال فقط لا بالعمل .

ووجه بطلان ركة الأبدان عند الشافعية – هو أنها شركة لا مال فيها ، وأن فيها غرراً لأن كل واحد منهما لا يدري أيكتسب صاحبه شيئاً أم لا ، ولأن كل واحد منهما متميز ببدنه ومنافعه فيختص بفوائده ، كما لو اشتركا في ماشيتها وهي متميزة على أن يكون النسل والدر بينهما ، وقياساً على الاحتطاب والاصطياد . هكذا توجيه الشافعية للمنع في هذا النوع من الشركة .

وقد علمت فيما مرّ شروط جوزا هذا النوع عند المالكية ، إذ بتوفر الشروط المذكورة ينتفي الغرر .

(297/469)

والثاني من الأنواع الباطلة عند الشافعية – هو شركة المفاوضة ، وهي عندهم أن يشتركا على أن يكون بينهما جميع كسبهما بأموالهما أو أبدانهما ، وعليهما جميع ما يعرض لكل واحد منهما من غرم ، سواء كان بغصب أو إتلاف أو بيع فاسد أو غير ذلك . ولا شك أن هذا النوع مشتمل على أنواع من الغرر فبطلانه واضح ، وهو ممنوع عند المالكية ، ولا يجيزون هذا ولا يعنونه ب " شركة المفاوضة " كما قدمنا .

وقد قال اشافعي رحمه الله في هذا النوع : إن لم تكن شركة المفاوضة باطلة ، فلا باطل أعرفه في الدنيا – يشير إلى كثرة الغرر والجهالات فيها : لاحتمال أن يكسب كل واحد منهما كسباً دون الآخر ، وأن تلزم كل واحد منهما غرامات دون الآخر ، فالغرر ظاهر في هذا النوع جداً .

والثالث من الأنواع الباطلة عند الشافعية – هو " شركة الوجوه " وهي عندهم أن يشترط الوجيهان ليبتاع كل واحد منهما بمؤجل في ذمته لهما معاً فإذا باعا كان الفاضل من الأثمان

بينهما . وهذا النوع هو المعروف عند المالكية ب " شركة الذمم " . ووجه فساده ظاهر ، لما فيه من الغرر ، لأن كلاًّ منهما يشتري في ذمته ويجعل كل منهما للآخر نصيباً من ربح ما اشترى في ذمته ، مقابل نصيب من ربح ما اشترى الآخر في ذمته . والغرر في مثل هذا ظاهر جداً . وبقية أنواع " شركة الوجوه " ذكرناه في الكلام عليها في مذهب مالك ، وكلها ممنوعة في مذهب مالك ومذهب الشافعي ، ولذا اكتفينا بما قدمنا عن الكلام على بقية أنواعها في مذهب الشافعي أما النوع الرابع من أنواع الشركة الذي هو صحيح عند الشافعية - فهو " شركة العنان " وهي : أن يشتركا في مال لهما ليتجرا فيه . ويشترط فيها عندهم صيغة تدل على الإذن في التصرف في مال الشركة ، فلو اقتصرا عل لفظ " اشتركنا " لم يكف على الأصح عندهم .

(298/469)

ويشترط في الشريكين اهلية التوكيل والتوكل ، وهذا الشرط مجمع عليه . وتصح " شركة العنان " عند الشافعية في المثليات مطلقاً دون المقومات وقيل : تختص بالنقد المضروب . ويشترط عندهم فيها خلط المالين . بحيث لا يتميز أحدهم من الآخر . والحيلة عندهم في الشركة في العروض - هي أن يبيع كل واحد بعض عرضه ببعض عرض الآخر ويأذن له في

التصرف ، ولا يشترط عندهم تساوي المالين . والربح والخسران على قد المالين ، وسواء تساويا في العمل أو تفاوتا . وإن شرطا خلاف ذلك فسد العقد ، ويرجع كل واحد منهما على الآخر بأجرة عمل في ماله .

عقد الشركة المذكورة يسلط كل واحد منهما على التصرف في مال الشركة بلا ضرر ، فلا يبيع بنسيئة ، ولا بغبن فاحش ، ولا يبضعه بغير إذن شريكه ، ولكل منهما فسخها متى شاء .

وأما تفصيل أنواع الشركة في مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله – فهو أن الشركة تنقسم إلى ضربين :

شركة ملك ، وشركة عقد .

فشركة الملك واضحة . كأن يملكان شيئاً بإرث أو هبة ونحو ذلك كما تقدم . وشركة العقد عندهم تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

شركة بالمال ، وشركة بالأعمال ، وشركة بالوجوه . وكل قسم من هذه القسام الثلاثة عندهم ينقسم قسمين : مفاوضة ، وعنان . فالمجموع ستة أقسام .

أما شركة المفاوضة عندهم – فهي جائزة إن توفرت شروطها ، وهي عندهم الشركة التي تتضمن وكالة كل من الشريكين للآخر ، وكفالة كل منهما الآخر ، ولا بد فيهما من مساواة الشريكين في المال ولدين والتصرف .

فبتضمنها الوكاله يصح تصرف كل منهما في نصيب الآخر .

وبتضمنها الكفالة يطلب كل منهما بما لزم الآخر .

وبما ساواتهما في المال يمتنع أحد أن يستبد أحدهما بشيء تصح الشركة فيه دون الآخر .

ولذا لو ورث بعد العقد شيئاً تصح الشركة فيه كالنقد بطلت المفاوضة ، ورجعت الشركة شركة عنان .

وبتضمنها المساواة في الدين تمتنع بين مسلم وكافر .

(299/469)

وبتضمنها المساواة في التصرف تمتنع بين بالغ والصبي ، وبين حر وعبد ، وكل ما اشتراه واحد من شريكي المفاوضة فهو بينهما . إلا طعام أهله وكسوتهم وكل دين لزم أحدهما بتجارة وغصب وكفالة لزم الآخر .

ولا تصح عندهم شركة مفاوضة أو عنان بغير النقدين والتبر والفلوس النافقه . والحيلة في الشركة في العروض عندهم هي ما قدمناه عن الشافعية ، فهم متفقون في ذلك .

وأما شركة العنان فهي جائزة عند الحنفية . وقد قدمنا الإجماع على جوازها على كل المعاني التي تراد بها عند العلماء .

وشكرة العنان عند الحنفية – هي الشركة التي تتضمن الوكالة وحدها ، ولم تتضمن الكفالة . وهي : أن يشتركا في نوع بز أو طعام أو في عموم التجارة ولم يذكر الكفالة .

ويعلم من هذا – أم كل ما اشتراه أحدهما كان بينهما ، ولا يلزم أحدهما ما لزم الآخر من الغرامات ، وتصح عندهم شركة العنان المذكورة مع التساوي في المال دون الربح وعكسه إذا كانت زيادة الربح لأكثرهما عملاً .

لأن زيادة الربح في مقابلة زيادة العلم وفاقاً للحنابلة . وعند غيرهم لا بد أن يكون الربح بحسب المال . ولو اشترى أحد الشريكين " شركة العنان " بثمن فليس لمن باعه مطالبة شريكه الآخر ، لأنها لا تتضمن الكفالة بل يطالب الشريك الذي اشترى منه فقط ، ولكن الشريك يرجع إ\على شريكه بحصته . ولا يشترط في هذه الشركة عندهم خلط المالين ، فلو اشترى أحدهما بماله وهلك مال الآخر كان المشتري بينهما ، ويرجع على شريكه بحصته منه .

(300/469)

وتبطل هذه الشركة عندهم بهلاك المالين أو أحدهما قبل الشراء . وتفسد عندهم باشتراط دراهم مسماة من الربح لأحدهما . ويجوز عندهم لكل من شريكي المفاوضة

والعنان – أن يبضع ويستأجر . ويودع ويضارب ويوكل . ويد كل منهما في مال الشركة يد أمانة ، كالوديعة والعارية وأما شركة الأعمال ففيها تفصيل عند الحنفية . فإن كان العمل من الصناعات ونحوها جازت عندهم شركة الأعمال ، ولا يشترطون اتحاد العلم أو تلازمه – خلافاً للمالكية كما تقدم فيجوز عند الحنفية : أن يشترك خياطان مثلاً ، أو خياط وصباغ على أن يتقبلا الأعمال ، ويكون الكسب بينهما ، وكل عمل يتقبله أحدهما يلزمهما : وإذا علم أحدهما دون الآخر فما حصل من عمله فهو بينهما . وإنما استحق فيه الذي لم يعمل لأنه ضمنه بتقبل صاحبه له ، فاستحق نصيبه منه بالضمان .

وهذا النوع الذي أجازه الحنفية لا يخفى أنه لا يخلو من غرر في الجملة عنند اختلاف صنعة الشريكين . لاحتمال أن يحصل أحدهما أكثر مما حصله الآخر . فالشروط التي أجاز بها المالكية " شركة الأعمال " أحوط وأبعد من الغرر كما ترى .

وأما إن كانت الأعمال من جنس اكتساب المباحات فلا تصح فيها الشركة عند الحنفية ، كالاحتطاب والاحتشاش ، والاصطياد واجتناء الثمار من الجبال والبراري ، خلافاً للمالكية والحنابلة .

ووجه منعه عند الحنفية – أن من اكتسب مباحاً كحطب أو حشيش أو صيد ملكه ملكاً مستقلاً . فلا وجه لكون جزء منه لشريك آخر ، لأ ، ه لا يصح التوكيل فيه ومن أجازه قال : إن كل واحد منهما جعل للآخر نصيباً من ذلك المباح الذي يكتسبه في مقابل النصيب

الذي يكتسبه الآخر . والمالكية القائلون بجواز هذا يشترطون اتحاد العمل أو تقاربه ، فلا غرر في ذلك ، ولا موجب للمنع . وفي اشتراط ذلك عند الحنابلة خلاف كما سيأتي إن شاء الله .

وأما " شركة الوجوه " التي قدمنا أنها هي المعروفة عند المالكية " بشركة الذمم " وقد من منعها عند المالكية والشافعية – فهي جائزة عند الحنفية ، سواء كانت مفاوضة أو عناناً . وقد علمت مما تقدم أن المفاوضة عندهم تتضمن الوكالة والكفالة . وأن العنان تتضمن الوكالة فقط ، وإن اشترط الشريكان في " شركة الوجوه " مناقصفة المشتري أو مثالثته – فلاربح كذلك عندهم وبطل عندهم شرط الفضل .

لأن الربح عندهم لا يستحق إلا بالعمل . كالمضارب أو بالمال كرب المال . أو بالضمان كالأستاذ الذي يتقبل العلم من الناس ويلقيه على التلميذ بأقل مما أخذ ، فيطيب له الفضل بالضمان – هكذا يقولونه . ولا يخفى ما في " شركة الوجوه " من الغرر .

واعلم ان الربح في الشركة الفاسدة على حسب المال إن كانت شركة مال ، وعلى حسب العلم إن كانت شركة عمل ، وهلذا واضح ، وتبطل الشركة بموت أحدهما . اما تفصيل

أنواع الشركة في مذهب الإمام أحمد رحمه الله – فهي أيضاً قسمان : شركة أملاك ، وشركة عقود .

وشركة العقود عند الحنابلة خمسة أنواع : شركة العنان ، والأبدان ، والوجوه ، والمضاربة ، والمفاوضة .

أما شركة الأبدان فهي جائزة عندهم ، سواء كان العمل من الصناعات أو اكتساب المباحات . أما مع اتحاد العمل فهي جائزة عندهم بلا خلاف . وأما مع اختلاف العلم فقال أبو الخطاب : لا تجوز وفاقاً للمالكية . وقال القاضي : تجوز وفاقاً للحنفية في الصناعات دون اكتساب المباحات .

وإن اشتركا على أن يتقبل أحدهما للعمل ويعمله الثاني والأجرة بينهما صحت الشركة عند الحنابلة والحنفية خلافاً لزفر . والربح في شركة الأبدان على ما اتفقوا عليه عند الحنابلة .

(302/469)

وأما شركة الوجوه التي قدمنا أنها هي المعروفة بشركة الذمم عند المالكية فهي جائزة أيضاً في مذهب الأمام أحمد وفاقاً لأبي حنيفة ، وخلافاً لمالك والشافعي . وأما شركة العنان

فهي جائزة أيضاً عند الإمام أحمد . وقد قدمنا الأجماع على جوازها . وهي عندهم : أن يشترك رجلان بماليهما على أن يعملا فيهما بأبدانهما والربح بينهما . وهذه الشركة إنما تجوز عندهم بالدنانير والدراهم ، ولا تجوز بالعروض .

وأما شركة المفاوضة - فهي عند الحنابلة قسمان : أحدهما جائز والآخر ممنوع .

وأما الجائز منهما فهو أن يشتركا في جميع أنواع الشركة . كأن يجمعا بين شركة العنان والوجوه والأبدان فيص ذلك ، لأن كل نوع منها يصح على انفراده فصح مع غيره .

وأما النوع الممنوع عندهم منها فهو أن يدخلا بينهما في الشركة الاشتراك فيما يحصل لكل واحد منهما من ميراث أو يجده من ركاز أو لقطة . ويلزم كل واحد منهما ما لزم الآخر من أرش جناية وضمان غصب ، وقيمة متلف ، وغرامة ضمان ، وكفالة وفساد هذا النوع ظاهر لما فيه من الغرر كما ترى .

وأما شركة المضاربة - وهي القراض - فهي جائزة عند الجميع - وقد قدمنا أنها هي : أن يدفع شخص لآخر مالا يتجر فيه على أن يكون الربح بينهما بنسبة يتفقان عليها ، وكون الربح في المضاربة بحسب ما اتفقا عليه لا خلاف فيه بين العلماء ، سواء كان النصف أو أقل أو كثر لرب المال أو للعامل .

وأما شركة العنان عند الشافعية والحنابلة والحنفية والمالكية ، وشكرة المفاوضة عند المالكية - فاختلف في نسبة الربح ، فذهب مالك والشافعي إلى أنه لا بد من كون الرح

والخسران بحسب المالين ، وذهب أبو حنيفة وأحمد إلى أن الربح بينهما على ما اتفقا عليه ، فلهما أن يتساويا في الربح مع تفاضل المالين .

وحجة القول الأول – أن الربح تبع للمال ، فيلزم أن كيون بحسبه . وحجة القول الأخير أن العلم مما يستحق به الربح ، وقد يكون أحدهما أبصر بالتجارة وأقوى على العمل من الآخر ، فنزاد حصته لزيادة علمه .

هذا خلاصة مذاب الأئمة الأربعة في أنواع الشركة . وقد علمت أنهم أجمعوا على جواز شركة العنان ، وشركة المضاربة ، وشركة الأملاك . واختلفوا فيما سوء ذلك . فأجاز الحنفية والحنابلة شركة الوجوه ، ومنعها المالكية والشافعية .

وأجاز المالكية والحنفية والحنابلة شركة الأبدان إلى في اكتساب المباحات فقط فلم يجزه الحنفية . ومنع الشافعية شركة الأبدان مطلقاً .

وأجاز المالكية شركة المفاوضة ، وصورها بصورة العنان عند الشافعية والحنابلة .

وأجاز الحنفية شركة المفاوضة ، وصورها بغير ما صورها به المالكية ، وأجاز الجنابلة نوعاً من أنواع المفاوضة وصوروه بصورة مخالفة لتصوير غيرهم لها . ومنع الشافعية

المفاوضات كما منعوا شركة الأبدان والوجوه . وصوروا المفاوضة بصورة أخرى كما تقدم .

والشافعية إنما يجيزون الشركة بالمثلى مطلقاً نقداً أو غيره ، لا بالمقومات .

والحنفية لا يجيزونها إلا بالنقدين والتبر والفلوس النافقة . والحنابلة لا يجيزونها إلا بالدنانير والدراهم كما تقدم جميع ذلك .

(304/469)

وقد بينا كيفية الحيلة في الاشتراك بالعروض عند الشافعية والحنفية ، وعند المالكية تجوز بدنانير من كل واحد منهما ، وبدراهم من كل واحد منهما ، وبدنانير ودراهم من كل واحد منهما ، وبنقد من أحدهما وعرض من الآخر ، وبعرض من كل واحد منهما سواء اتفقا أو اختلفا ، وقيل : إن اتفقا لا إن اختلفا ، إلا أن العروض تقوم . وأما خلط الالين فلا بد منه عند الشافعي رحمه الله حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر كما تقدم . ويكفي في مذهب مالك أن يكون المالان في حوز واحد . ولو كان كل واحد من المالين في صرته لم يختلط بالآخر . ولا يشترط خلط المالين عند الحنفية كما تقدم . وكذلك لا يشترط خلط المالين في محل واحد . كحانوت أو صندوق ، وإن كان كل واحد منهما متميزاً عن الآخر .

فإذا عرفت ملخص كلام العلماء في أنواع الشركات ، فسنذكر ما تيسر من أدلتها . أما النوع الذي تسميه المالكية " مفاوضة " وعبر عنها الشافعية والحنابلة بشركة العنان . فقد يستدل له بحدث البراء بن عازب الذي قدمنا عن البخاري والإمام أحمد ، فإنه يدل على الاشتراك في التجارة والبيع ، والشراء لأن المقصود بالاشتراك التعاون على العمل المذكور فينوب كل واحد من الشريكين عن الآخر . ويدل لذلك أيضاً حديث أبي هريرة يرفعه قال : إن الله يقول " أنا ثالث الشريكين . . "

الحديث المتقدم . وقد بينا كلام العلماء فيه ، وبينا أنه صالح للاحتجاج ، وهو ظاهر في أنهما يعملان معاً في مال الشركة بدليل قوله : " ما لم يخن أحدهما صاحبه . . " الحديث . ويدل لذلك أيضاً حديث الاسئب بن أبي السائب المتقدم في أنه كان شريك النَّبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، وهو اشتراك في التجارة والبيع والشراء .

وأما شركة الأبدان فيحتج لها بما رواه أبو عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : اشتركت أنا وعمار وسعد فيما نصيب يوم بدر قال : فجاء سعد بأسيرين ولم أجيء أنا وعمار بشيء : رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه ، وقال المجد في " منفى

الأخبار " بعد أن ساقه : وهو حجة في شركة الأبدان وتملك المباحات . وأعلَّ هذا الحديث بأن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه عبد الله المذكور فالحديث مرسل . وقد قدمنا مراراً أن الأئمة الثلاثة يحتجون بالمرسل خلافاً والمحدثين .

وأما المضاربة فلم يثبت فيها حديث صحيح مرفوع ، ولكن الصحابة أجمعوا عليها لشيوعها وانتشارها فيهم من غير نكير . وقد مضى على ذلك عمل المسلمين من لدن الصحابة إلى الآن من غير نكير . قال ابن حزم في مراتب الإجماع : كل أبواب الفقه فلها أصل من الكتاب والسنة ، حاشا القراض فما وجدنا له أصلاً فيهما ألبتة ، ولكنه إجماع صحيح مجرد . والذي يقطع به أنه كان في عصر النَّبي صلى الله عليه وسلم فعلم به وأقره ، ولولا ذلك لما جازاه . منه بواسطة نقل الشوكاني في نيل الأوطار .

واعلم أن اختلاف الأئمة الذي قدمنا في أنواع الشركة المذكورة راجع إلى الاختلاف في تحقيق المناط ، فبعضهم يقولك هذه الصورة يوجد فيها الغرر وهو مناط المنع فهي ممنوعة ، فيقول الآخر : لا غرر في هذه الصورة يوجب المنع فمناط المنع ليس موجوداً فيها . والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثالثة – أخذ بعض علماء المالكية وغيرهم من هذه الآية الكريمة التي نحن بصصدها ايضاً : جواز خلط الرفقاء طعامهم وأكل بعضهم مع بعض وإن كان بعضهم أكثر أكلاً من الآخر ؛ لأن أصحاب الكهف بعثوا ورقهم ليشتري لهم بها طعام يأكلونه جميعاً .

وقد قدمنا في كلام ابن العربي أنه تحتمل انفراد ورق كل واحد منهم وطعامه ؛ فلا تدل الآية على خلطهم طعامهم . كما قدمنا عنه : أنها لا تدل على الاشتراك للاحتمال المذكور ، وله وجه كما ترى .

وقال ابن العربي : ولا معول في هذه المسألة إلا على حديثين ، أحدهما : أن ابن عمر مر بقول يأكلون تمراً فقال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاقتران إلا أن يستأذن الرجل وأخاه . والثاني : حديث أبي عبيدة في جيس الخبط .

وهذا دون الأول في الظهرو ، لأنه يحتمل أن يكون أبو عبيدة يعطيهم كفافاً من ذلك القوت ولا يجمعهم اه كلام ابن العربي المالكي رحمه الله تعالى .

قال مقيده عفا الله عنه : هذا النوع من الاشتراك وهو خلط الرفقة طعامهم واشتراكهم في الأكل فيه – هو المعروف ب " النهد " بكسر النون وفتحها ، ولجوازه أدلة من الكتاب والسنة .

أما دليل ذلك من الكتاب – فقوله تعالى ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ [البقرة : 220] فإنها تدل على خلط طعام اليتيم مع طعام وصيه وأكلهما جميعاً ، وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ

عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ [النور : 61] ومن صور أكلهم جميعاً أن يكون الطعام بينهم فيأكلون جميعاً .

(307/469)

وأما السنة – فقد دلت على ذلك أحاديث صحيحة . منها حديث ابن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً إلى الساحل ، فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، وهم ثلثمائة نفر ، وأنا فيهم . فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش ، فجمع ذلك كله ، فكان مزودي تمر فكان يقوتنا كل يوم قيلاً حتى فنى ، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة . فقلت : وما تغنى تمرة ؟ فقال لقد وجدنا فقده حين فنيت . ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت " . . الحديث . وهذا الحديث ثابت في الصحيح ، واللفظ الذي سقناه به لفظ البخاري في كتاب " الشركة " وفيه . جمع أبو عبيدة بقية أزواد القوم وخلطها في مزودي تمر ، ولم ينر عليه صلى الله عليه وسلم بعد قدومهم إليه ، ومنها حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : خفت أزواد القوم وأملقوا ، فأتوا النَّبي صلى الله عليه وسلم في نحر إبلهم ، فأذن لهم فلقيهم عمر فأخبروه فقال : ما بقاؤكم بعد إبلكم ، فدخل على النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ،

ما بقاؤهم بعد إبلهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ناد في الناس فيأتون بفضل أزوادهم" فبسط لذلك نطع وجعلوه على النطع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا وبرك عليه، ثم دعاهم بأوعيتهم فاحتثى الناس حتى فرغوا، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أشهد أن لا إليه إلا الله وأني رسول الله" هذا الحديث ثابت في الصحيح، واللفظ الذس سقناه به للبخاري أيضاً في كتاب "الشركة" وفيه: خلط طعامهم بعضه مع بعض.

ومنعها حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: نهى النَّبي صلى الله عليه وسلم أن يقرن الرجل بين التمرتين جميعاً ختى يستأذن أصحابه. في رواية في الصحيح أن النَّبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الإقران إلا أن يستأذن الرجل منكم أخاه. كل هذا ثابت في الصحيح واللفظ للبخاري رحمه الله في كتاب "الشركة".

وإذا صاحبه له يدل على اشتركهما في التمر كما ترى. وهذا الذي ذكرنا جوازه من خلط الرفقاء طعامهم وأكلهم منه جميعاً – هو مراد البخاري رحمه الله بلفظ النهد في قوله "كتاب الشركة. الشركة في كالطعام والنهد – إلى قوله – لم ير المسلمون في النهد بأساً أن يأكل هذا

بعضاً وهذا بعضاً الخ.

فروع تتعلق بمسألة الشركة

الأول - إن دفع شخص دابته لآخر ليعمل عليها وما يرزق الله بينهما نصفين أو أثلاثاً أو كيفما شرطا - ففي صحة ذلك خلاف بين العلماء، فقال بعضهم: يصح ذلك. وهو مذهب الإمام أحمد ونقل نحوه عن الأوزاعي. وقال بعضهم لا يصح ذلك، وما حصل فهو العامل وعليه أجرة مثل الدابة. وهذا هو مذهب مالك: قال ابن قادمة في "المغني" وكره ذلك الحسن والنخعي. وقال الشافعي وأبو ثور وابن المنذر وأصحاب الرأي: لا يصح، والربح كله لرب الدابة، وللعامل أجرة مثله، هذا حاصل كلام أهل العلم في هذه المسألة.

(309/469)

واقوى الأقوال دليلاً عندي فيها - مذهب مالك: من أجاز ذلك، كالإمام أحمد، بدليل حديث رويفع بن ثابت قال: إن كان أحدنا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأخذ نضو أخيه على أن له النصف مما يغنم ولنا النصف، وإن كان أحدنا لطير له النصل والريش وللآخر القدح. هذا الحديث أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي. قال الشوكاني في "نيل

الأوطار " : إسناد ابي داود فيه شيبان بن أمية القتباني وهو مجهول ، وبقية رجاله ثقات . وقد أخرجه النسائي من غير طريق هذا المجهول بإسناد رجاله كهلم ثقات . والحديث دليل صريح على جواز دفع الرجل إلى الآخر راحلته في الجهاد على أن تكون الغنيمة بينهما . وهم عمل على الدابة على أنما يرزقه الله بينهما كما ترى . والتفريق بين العمل في الجهاد وبين غيره لا يظهر . والعلم عند الله تعالى .

الفرع الثاني – أن يشترك ثلاثة : من أحدهم ومن آخر رواية ، ومن الثالث العمل : على أن ما رزقه الله تعالى فهو بينهم ، فهل يجوز هذا ؟ اختلف في ذلك . فمن العلماء من قال لا يجوز هذا . وهو مذهب مالك ، وهو ظاهر قول الشافعي : وممن قال بذلك : القاضي من الحنابلة وأجازه بعض الحنابلة . وقال ابن قدامه في " المغني " : إنه صحيح في قياس قول أحمد رحمه الله .

الفرع الثالث – أن يشترك أربعة : من أحدهم دكان ، ومن آخر رحى ، ومن آخر بغل ، ومن الرابع العمل ، على ان يطحنوا بذلك ، فما رزقه الله تعالى فهو بينهم فهل يصح ذلك أو لا . اختلف فيه ، فقيل : يصح ذلك وهو مذهب الإمام أحمد . وخالف فيه القاضي من الحنابلة وفاقاً للقائلين بمن ذلك كالمالكية .

قال ابن قدامة : ومنعه هو ظاهر قول الشافعي . لأن هذا لا يجوز أن يكون مشاركة ولا مضاربة : فلو كان صاحب الرحى ، وصاحب الدابة ، وصاحب الحانوت اتفقوا على أن يعملوا جميعاً وكان كراء الحانوت والرحى والدابة متساوياً ، وعمل أربابها متساوياً فهو جائز عند المالكية . . وهذه المسألة هي ألتي أشار إليها خليل في مختصره بقوله عاطفاً على ما لا يجوز : وذي رحاً ، وذي بيت ، وذي داب ليعلموا إن لم يتساو الكراء وتساووا في الغلة وترادوا الأكرية . وإن اشترط عمل رب الدابة فالغلة له وعليه كراؤهما . ولا يخفى أن " الشركة " باب كبير من أبواب الفقه ، وأن مسائلها مبينة باستقصاء في كتب فروع الأئمة ومعانيها اللغوية والاصطلاحية ، واختلاف العلماء فيها . وبيان أقوالهم ، وذكر بعض فروعها تنبيها بها على غيرها ، وقد أتينا على جميع ذلك . والحمد لله رب العالمين .

﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن أصحاب الكهف – أنهم قالوا إن قومهم الكفار الذين فروا منهم بدينهم إن يظهروا عليهم ، أي يطلعوا عليهم ويعرفوا مكانهم ، يرجموهم بالحجارة ، وذلك من اشنع أنواع القتل . وقيل : يرجموهم بالشتم والقذف ، أو يعيدوهم في ملتهم ، أي يردوهم إلى ملة الكفر :

وهذا الذي ذكره هنا من فعل الكفار مع المسلمين – من الأذى أو الرد إلى الكفر – ذكر في مواضع أخر أ ، هو فعل الكفار مع الرسل وأتباعهم . كقوله جل وعلا : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [إبراهيم : 13] ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ الملأ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ والذين آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افترينا عَلَى الله كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا الله مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ [الأعراف : 89] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حتى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ استطاعوا ﴾ [البقرة : 217] إلى غير ذلك من الآيات .

مسألة

أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن العذر بالإكراه من خصائص هذه الأمة ، لأن قوله عن أصحاب الكهف ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ ظاهر في إكراههم على ذلك وعدم طواعيتهم ، ومع هذا قال عنهم : ﴿ وَلَن تفلحوا إِذاً أَبَداً ﴾ فدل ذلك على أن ذلك الإكراه ليس بعذر . ويشهد لهذا المعنى حديث طارق بن

شهاب في الذي دخل النار في ذباب قربه مع الإكراه بالخوف من القتل. لأن صاحبه الذي امتنع أن يقرب ولو ذباباً قتلوه.

(312/469)

ويشه له أيضاً دليل الخطاب، أي مفهوم المخالفة في قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه" فإنه يفهم من قوله: "تجاوز لي عن أمتي" أن غير أمته من الأمم لم يتجاوز لهم عن ذلك. وهذا الحديث وإن أعله الإمام أحمد وابن أبي حاتم فقد تلقاه العلماء قديماً وحديثاً بالقبول، وله شواهد ثابتة في القرآن العظيم والسنة الصحيحة. وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة الكهف"، في الكلام على قوله ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ الآية. ولذلك اختصرناها هنا. أما هذه الأمة فقد صرح الله تعالى بعذرهم بالإكراه في في قوله: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمان ﴾ [النحل: 106] والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ الذين غَلَبُوا على أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِداً ﴾.

لم يبين الله هنا من هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم، هل هم من المسلمين أو من الكفار؟

وذكر ابن جرير وغيره فيهم قولين: أحدهما - أنهم كفار، والثاني - أنهم مسلمون، وهي

قولهم: ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً ﴾ لأن اتخاذ المساجد من صفات المؤمنين لا من صفات الكفار. هكذا قال بعض أهل العلم. والقائل أن يقول: اتخاذ المساجد على القبور من فعل الملعونين على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا من فعل المسلمين، وقد قدمنا ذلك مستوفى بأدلته في سورة "الحجر" في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحجر المرسلين ﴾ [الحجر: 80]. انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(313/469)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾

قوله: ﴿ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أي: أيقظناهم من نومهم؛ لأن نومهم الطويل الذي استغرق ثلاثمائة سنة وتسعاً أشبه الموت، فقال ﴿ بَعَثْنَاهُمْ ﴾، والبعْثُ هنا لقضية خاصة بهم، وهي أنْ يسأل بعضهم بعضاً عن مُدّة لُبْثهم في الكهف، وقد انقسموا في سؤالهم هذا إلى فريقين

الفريق الأول: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَم لَبِثْتُمْ.. ﴾ [الكهف: 19]

فردَّ الفريق الآخر بما تقضيه طبيعة الإنسان في النوم العادي فقال: ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ

بَعْضَ يَوْمٍ . . ﴾ [الكهف : 19] فالإنسان لا يستطيع تقدير مدّة نومه بالضبط ، لكن المعتاد في النوم أن يكون كذلك يوماً أو بعض يوم .

وقد أخذ العلماء من هذا القول أنهم حين تساءلوا هذا السؤال لم يجدوا في ذواتهم شيئاً يدلُّ على مرور زمن طويل ، حيث وجدوا أنفسهم على الحال التي ناموا عليها ، فلم يتغير مثلاً حالهم من الشباب إلى الشيخوخة ، ولم يتغير شعرهم مثلاً إلى البياض ؛ لذلك قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، ولو وجدوا أنفسهم شيباً لقدَّروا الزمن المناسب لهذا الشيب .

وهذه وقفة المشدوه حين يُسْأل عن زمن لا يدري مُدته ، إنه طويل عند الله إنما قصير عنده ، وهذا كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فانظر إلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وانظر إلى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ . . ﴾ [البقرة : 259]

لقد حكم على مُدّة لُبْثه بيوم أو بعض يوم ؛ لأنه وجد نفسه على الحال التي عهدها لم يتغير منه شيء ، فكيف يتأتّى الصدق من الحق سبحانه في قوله (مائة عام) والصدق في قول العُزَيْر بيوم أو بعض يوم ؟

لا شكَّ أننا أمام آية من آيات الخالق سبحانه ، ومعجزة من معجزاته لا يقدر عليها إلا المالك للزمان والمكان ، القابض للزمان ليوم أو بعض يوم ، الباسط له إلى مائة عام .

لذلك أظهر الخالق سبحانه في هذه المعجزة الدليل على صدق القولين : ففي طعام العُزَير الذي ظلَّ على حاله طازجاً لم يتغير دليل على يوم أو بعض يوم ، وفي حماره الذي رآه عظاماً بالية دليل على المائة عام ، فسبحان الذي يجمع الشيء وضده في آن واحد .

ثم يقول تعالى حكاية عنهم : ﴿ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ . . ﴾ [الكهف : 19] وهو قَوْل الجماعة الذين أرادوا إنهاء الخلاف في هذه المسألة ، فقالوا لإخوانهم : دعونا من هذه القضية التي لا تفيد ، واتركوا أمرها لله تعالى . ودائماً يأمرنا الحق سبحانه بأنْ ننقلَ الجدل من شيء لا ننتهي فيه إلى شيء ، ونُحوله للأمر المثمر النافع ؛ لذلك قالوا : ﴿ فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذه إلى المدينة فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أزكى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴾ [الكهف : 19]

والوَرِق يعني العملة من الفضة ، فأرادوا أنْ يرسلوا أحدهم بما معهم من النقود ليشتري لهم من المدينة طعاماً ؛ لأنهم بمجرد أن استيقظوا انتهت حالتهم الاستثنائية ، وعادوا إلى طبيعتهم ؛ لذلك طلبوا الطعام ، لكن نلحظ هنا أن الجوع لم يحملهم على طلب مطلق الطعام ، بل تراهم حريصين على تزكية طعامهم واختيار أَطيبه وأَطْهره ، وأبعده عن الحرام .

وكذلك لم يَفُتْهم أنْ يكونوا على حذر من قومهم ، فَمْن سيذهب منهم إلى هذه المهمة عليه

أن يدخل المدينة خِلْسة ، وأن يتلطف في الأمر حتى لا يشعر به أحد من القوم ، ذلك لأنهم استيقظوا على الحالة التي ناموا عليها ، وما زالوا على حَذَر من قومهم يظنون أنهم يتتبعونهم ويبحثون عنهم ، ويسعَوْن للقضاء عليهم .

(315/469)

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ . . . ﴾ .

إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20)

وهذا احتياط منهم للدين ، وحماية للعقيدة التي فَرُّوا بها . فإن يرجموكم فسينتصرون عليكم في الدنيا ، إنما ستأخذون الآخرة ، وإن ردوكم إلى دينهم ، فلن تفلحوا في الدنيا ولا في الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ليعلموا . . . ﴾ .

في قوله تعالى : ﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ليعلموا أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَأَنَّ الساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا . . ﴾ [الكهف : 21] يقيم من أهل الكهف دليلاً على قيام الساعة والبعث بعد الموت ، فها أنتم ما زِلْتم على قَيْد الحياة وفي سَعَة الدنيا ، ومع ذلك أنامكم الله هذه النَّوْمة الطويلة ثم بعثكم وقد عُثِر عليهم ، وما زالت فيهم حياة .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ابنوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ . . ﴾ [الكهف : 21] حدث هذا التنازع من الجماعة الذين عثروا عليهم ، ويبدو أنهم كانوا على مِسْحة من الدين ، فأرادوا أنْ يحافظوا على هذه الآية الإلهية ، ويصحّ أنهم بمجرد أنْ عثروا عليهم قضى أجلهم فماتوا .

وهذه مسألة يجب أن يُؤرّخ لها ، وأن تخلد ؛ لذلك جعلوها مثلاً شَرُوداً للعالم كله لتُعرف قصة هؤلاء الفتية الذين ضَحَّوْا في سبيل عقيدتهم وفَرُّوا بدينهم من سَعَة الحياة إلى ضيق الكهف ؛ ليكونوا مثلاً لكل أهل العقيدة ، ودليلاً على أن الله تعالى ينصر أهله ويدافع عنهم ويُخلِّد ذكراهم إلى قيام الساعة .

(316/469)

لذلك قال بعضهم لبعض : ﴿ ابنوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً . . ﴾ [الكهف : 21] أي : مطلق البنيان ، فعارضهم آخرون بأن البناء يجب أن يكون مسجداً : ﴿ قَالَ الذين غَلَبُواْ على أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً ﴾ [الكهف : 21] ليكون موضعاً للسجود لله وللعبادة ليتناسب مع هذه الآية العظيمة الخالدة .

ثم تحدَّث الحق سبحانه عن الاختلاف التي نشأت عن فضول الناس لمعرفة عدد أهل

الكهف ، وما يتعلَّق بهم من تفصيلات هي في حقيقتها عِلْم لا ينفع وجَهْل لا يضر ، فقال تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(317/469)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴾ .

هذه الآية تدل بظاهرها على أن المكره على الكفر لا يفلح أبدا .

وقد جاءت آية أخرى تدل على أن المكره على الكفر معذور إذا كان قلبه مطمئنا بالإيمان وهي قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً ﴾ . الآية .

والجواب عن هذا من وجهين:

الأول:أن رفع المؤاخذة مع الإكراه من خصائص هذه الأمة فهو داخل في قوله تعالى: ﴿ وَيَضَعُ

عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ ويدل لهذا قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه".

فهو يدل بمفهومه على خصوصه بأمته صلى الله عليه وسلم وليس مفهوم لقب؛ لأن مناط التخصيص هو اتصافه صلى الله عليه وسلم بالأفضلية على من قبله من الرسل واتصاف أمته بها على من قبلها من الأمم.

(318/469)

والحديث وإن أعله أحمد وابن أبي حاتم فقد تلقاه العلماء قديما وحديثا بالقبول ومن أصرح الأدلة في أن من قبلنا ليس لهم عذر بالإكراه, حديث طارق(1)[1]بن شهاب في الذي دخل النار في ذباب قربه لصنم مع أنه قربه ليتخلص من شر عبدة الصنم, وصاحبه الذي امتنع من ذلك قتلوه فعلم أنه لو لم يفعل لقتلوه كما قتلوا صاحبه ولا إكراه أكبر من خوف القتل ومع هذا دخل النار ولم ينفعه الإكراه, وظواهر الآيات تدل على ذلك فقوله: ﴿ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴾ ظاهر في عدم فلاحهم مع الإكراه؛ لأن قوله: ﴿ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ صريح في الإكراه وقوله: ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ مع أنه تعالى قال: "قد فعلت" كما ثبت في صحيح مسلم يدل بظاهره على أن التكليف بذلك كان

معهوداً قبل, وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ مع قوله: ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّه ﴾ فأسند إليه النسيان و العصيان معا يدل على ذلك أيضا وعلى القول بأن المراد بالنسيان الترك فلا دليل في الآية.

وقوله: ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ مع قوله: ﴿ كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ ويستأنس لهذا بما ذكره البغوي في تفسيره عن الكلبي من أن المؤاخذة بالنسيان كانت من الأصر على من قبلنا وكان عقابها يعجل لهم في الدنيا فيحرم عليهم بعض الطيبات.

وقال بعض العلماء: إن الإكراه عذر لمن قبلنا وعليه فالجواب هو:

الوجه الثاني: أن الإكراه على الكفر قد يكون سببا لاستدراج الشيطان إلى استحسانه والاستمرار عليه كما يفهم من مفهوم قوله تعالى: ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ وإلى هذا الوجه جنح صاحب روح المعاني والأول أظهر عندي وأوضح والله تعالى أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 189.191 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ تزاور ﴾ قال : تميل . وفي قوله : ﴿ تقرضهم ﴾ قال : تذرهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ تقرضهم ﴾ قال : تتركهم ﴿ وهم في فجوة منه ﴾ قال : المكان الداخل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وهم في فجوة منه ﴾ قال : يعني بالفجوة ، الخلوة من الأرض . ويعني بالخلوة ، الناحية من الأرض .

وأخرج ابن المنذر عن أبي مالك في قوله : ﴿ وهم في فجوة منه ﴾ قال : في ناحية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وتحسبهم ﴾ يا محمد ﴿ أيقاظاً وهم رقود ﴾ يقول : في رقدتهم الأولى ﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ قال : وهذا التقليب في رقدتهم الأولى ، كانوا يقلبون في كل عام مرة .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ قال : ستة أشهر على ذي الجنب ، وستة أشهر على ذي الجنب .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عياض في قوله : ﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ قال : في كل عام مرتين .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ ونقلبهم ﴾ قال : في التسع سنين ليس فيما سواه .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ قال : كي لا تأكل الأرض لحومهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وكلبهم ﴾ قال : اسم كلبهم قطمور .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : اسم كلب أصحاب الكهف ، قطمير .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قلت لرجل من أهل العلم : زعموا أن كلبهم كان أسداً ، قال : لعمر الله ما كان أسداً ، ولكنه كان كلباً أحمر خرجوا به من بيوتهم يقال له ، قطمور .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كثير النواء قال : كان كلب أصحاب الكهف أصفر .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سفيان قال : قال رجل بالكوفة يقال له : عبيد وكان لا يتهم

بكذب ، قال : رأيت كلب أصحاب الكهف أحمر كأنه كساء انبجاني .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق جويبر ، عن عبيد السواق قال : رأيت كلب أصحاب الكهف صغيراً ، باسطاً ذراعيه بفناء باب الكهف ، وهو يقول : هكذا يضرب بأذنيه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن حميد المكي في قوله : ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ قال : جعل رزقه في لحس ذراعيه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ بالوصيد ﴾ قال : بالفناء .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ بالوصيد ﴾ قال : بالباب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية في قوله : ﴿ بالوصيد ﴾ قال : بفناء باب الكهف .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ بالوصيد ﴾ قال : بالصعيد .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ قال : ممسك عليهم باب الكهف .

وأخرج ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب رضي الله عنه قال : كان لي صاحب شديد النفس ، فمر بجانب كهفهم فقال : لا أنتهي حتى أنظر إليهم ، فقيل له : لا تفعل . . . أما تقرأ ﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ﴾ فأبى إلا أن ينظر ، فأشرف

عليهم فابيضت عيناه وتغير شعره ، وكان يخبر الناس بعد يقول : عدتهم سبعة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ أزكى طعاماً ﴾ قال : أحل ذبيحة ، وكانوا يذبحون للطواغيت .

(321/469)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ أزكى طعاماً ﴾ يعني ، أطهر ؛ لأنهم كانوا يذبحون الخنازير .

وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (21)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾ قال : أطلعنا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : دعا الملك شيوخاً من قومه فسألهم عن أمرهم فقالوا : كان ملك يدعى دقيوس ، وإن فتية فُقِدُوا في زمانه ، وأنه كتب أسماءهم في الصخرة التي كانت عند باب بالمدينة . فدعا بالصخرة فقرأها فإذا فيها أسماؤهم ، ففرح الملك فرحاً شديداً وقال : هؤلاء قوم كانوا قد ماتوا فبعثوا ، ففشا فيهم أن الله يبعث

الموتى . فذلك قوله : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ فقال الملك : لأتخذن عند هؤلاء القوم الصالحين مسجداً ، فلأعبدن الله فيه حتى أموت . فذلك قوله : ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم ﴾ قال : هم الأمراء ، أو قال : السلاطين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : بنى عليهم الملك بيعة فكتب في أعلاها أبناء الأراكنة أبناء الدهاقين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(322/469)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وكذلك بَعَثْناهُمْ ﴾ : الكافُ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ ، أي : كما أَنَمْناهم تلك النَّوْمَةَ كذلك بَعَثْناهم ادِّكاراً بقُدرتِه . والإِشارةُ ب " ذلك " إلى المصدرِ المفهومِ مِنْ قوله " فَضَرَبْنا " ، أي : مثلَ جَعْلِنا إنامتَهم هذه المدةَ المتطاولةَ آيةً جَعَلْنا بَعْثَهم آيةً . قاله الزجاج والزمخشري .

قوله : " ليتساءَلوا " اللامُ متعلقةٌ بالبعث ، فقيل : هي للصَّيْرورة ، لأنَّ البَعْثَ لم يكنْ للتساؤلِ . قاله ابنُ عطيةَ . والصحيحُ أنَّها على بابِها مِن السببية .

قوله : { كَم لَبِثْتُمْ } "كم" منصوبةٌ على الظرف ، والمُمَيِّزُ محذوفٌ ، تقديرُه : كم يوماً ، لدلالةِ الجواب عليه . و " أَوْ " في قوله : " أو بعضَ يوم " للشكِّ فيهم ، وقيل : للتفصيل ، أي : قال بعضُهم كذا وبعضُهم كذا .

قوله : " بِوَرِقكم " حالٌ مِنْ " أحدَكم " ، أي : مصاحباً لها ، وملتبساً بها . وقرأ أبو عمروٍ وحمزةُ وأبو بكر بفتحِ الواوِ وسكونِ الراءِ والفَكِّ . وباقي السبعة بكسر الراء ، والكسرُ هو الأصلُ ، والتسكينُ تخفيفٌ كـ " نَبْق " في نَبِق . وحكى الزجاج كسرَ الواوِ وسكونِ الراء وهو نَقْلٌ ، وهذا كما يقال : كَبِدْ وكَبْد وكِبْد .

وقرأ أبو رجاء وابن محيصن كذلك ، إلا أنه بإدغام القاف . واستضعفوها مِنْ حيث الجمعُ بين ساكنين على غير حَدِّيهما وقد تقدَّم لك في المتواترِ ما يُشبه هذه مِنْ نحو { فَنِعِمَّا } { لاَ تَعْدُّواْ فِي السبت } [النساء : 154] . . . ورُوِيَ عن ابنِ محيصن أنَّه أَدْغَمَ كسرَ الراءَ فِراراً مِمَّا ذَكَرْتَ .

وقرأ أميرُ المؤمنين " بوارِقكم " اسمَ فاعلٍ ، أي : صاحب وَرِقٍ كـ " لابِن " . وقيل : هو اسمُ جمعٍ كجاملٍ وباقر .

والوَرِقُ : الفِضَّةُ المضروبةُ . وقيل : الفضةُ مطلقاً . ويقال لها : " الرِّقَةُ " بحذفِ الفاء .

وفي الحديث : " في الرِّقَةِ رُبْع العُشْر " وجُمعت شذوذاً جَمْعَ المذكرِ السالم ، قالوا : " حُبُّ الرِّقَيْنِ يغطِّي أَفْن الأَفِين " .

قوله : أيُّها أَزْكَى : يجوز في " أيّ " أن تكونَ استفهاميةً ، وأن تكونَ موصولةً . وقد عرَفْتَ ذلك ممَّا تقدَّم لك في قوله : ﴿ أَيُّهم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الكهف : 7] فالعملُ واحدٌ . ولا بد مِنْ حذفٍ : " أيُّ أَهْلِها أزْكَى " . وطعاماً : تمييز . وقيل : لا حَذْفَ ، والضميرُ على الأطعمة المدلول عليها من السياق .

قوله : " وِليَتَلَطَّفْ " قرأ العامَّةُ بسكونِ لامِ الأمر ، والحسنُ بكسرِها على الأصل . وقتيبة المَيَّال " وِليَتَلَطَّفْ " مبنياً للمفعول . وأبو جعفر وأبو صالحٍ وقتيبة " ولا يَشْعُرَن " بفتحِ الياءِ وضمِّ العين ، " أحدٌ " فاعلٌ به .

﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20) ﴾

قوله : ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ هذا الضميرُ يجوز أن يعودَ على " أحد " لأنه في معنى الجمع ، وأَنْ يكونَ عائداً على " أهل " المضاف لضمير المدينة ، قاله الزمخشري . ويجوز أَنْ يعودَ على قومِهم لدلالةِ السِّياقِ عليهم . وقرأ زيدُ بن علي " يُظْهِروا " مبنيّاً للمفعول و " إذن " جوابٌ وجزاءٌ ، أي : إنْ ظَهَروا فلن تُفلِحوا .

قوله : ﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا ﴾ : أي : وكما أَنَمْناهم وبَعَثْناهم أَعْثَرْنا ، أي : أَطْلَعْنا . وقد تقدَّم الكلامُ على مادة " عثر " في المائدة و " لِيَعْلَموا " متعلقٌ بأَعْثَرْنا . والضمير : قيل : يعود على مفعول " أَعْثَرْنا " المحذوفِ تقديره : أَعْثَرْنا الناسَ . وقيل : يعود على أهل الكهف .

(324/469)

قوله : ﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ ﴾ يجوز أَنْ يعملَ فيه " أَعْثَرْنا " أو " لِيَعْلَموا " أو لمعنى " حَقٌّ " أو ل " وَعْدَ " عند مَنْ " يَتَّسع في الظرف . وأمَّا مَنْ لا يَتَّسعُ ، فلا يجوز الإِخبارُ عن الموصولِ قبل تمامِ صِلَته .

قوله : " بُنْياناً " يجوز أَنْ يكونَ مفعولاً به ، جمعَ بُنْيَانَه ، وأن يكونَ مصدراً .

قوله : ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ يجوز أن يكونَ مِنْ كلامِ الباري تعالى ، وأن يكونَ من كلامِ المتنازِعَيْن فيهم .

قوله : " غَلَبوا " قرأ عيسى الثقفي والحسن بضم الغين وكسرِ اللام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 462 . 465 ﴾

(325/469)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ .

استقلوا مدة لُبْثهم وقد لَبثُو (طويلاً) ، لكنهم كانوا مأخوذين عنهم ، ولم يكن لهم عِلْمٌ بتفصيل أحوالهم ، قال قائلهم :

لست أدري أطال لَيْلِي أم لا ؟ . . . كيف يدري بذاك من يتقلّى ؟

لو تفرَّغتُ لاستطالةِ لَيْلِي . . . ورعيت النجومَ كنتُ مُخِلاَّ

ويقال أيامُ الوصالِ عندهم قليلة – وإنْ كانت طويلة ، ولو كان الحال بالضدِّ لكان الأمر بالعكس ، وأنشدوا :

صَبَاحُكَ سُكْرٌ والمساءُ خُمار . . . نَعِمْتَ وأيامُ السرورِ قصارُ

قوله جلّ ذكره : ﴿ يومٍ قَالُوا ربُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ .

لأنه هو الذي خَصَّكُم بما به أقامكم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ .

ما داموا مأخوذين عنهم لم يكن لهم طلبٌ لأكل ولا شربٍ ولا شيء من صفة النَّفْس ، فلمَّا رُدُّوا إلى التمييز أخذوا في تدبير الأكل أوّلَ ما أحسوا بحالهم ، وفي هذا دلالة على شدة ابتداء الخَلْق بالأكل .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴾ .

تَوَاصَوْا فيما بينهم بحسن التَّخَلقِ وجميل الترفُّقِ ، أي ليتلطف مع من يشتري منه شيئاً .

ويقال أوصوا مَنْ يشتري لهم الطعامَ أَنْ يأتيهم بألطف شيءٍ وأطيبه ، ومن كان من أهل المعرفة لا يوافقه الخشن من الملبوس ولا المبتذل في المطعم من المأكول .

ويقال أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات طعامهم الخشن ولباسهم كذلك والذي بلغ المعرفة لا يوافقه إلا كل لطيف ، ولا يستأنس إلا بكل مليح .

(326/469)

﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً (20) ﴾

تواصوا فيما بينهم بكتمان الأسرار عن الأجانب وأخبر أنهم إن اطلعوا عليهم وعلى أحوالهم بالغوا في مخالفتهم إمَّا بالقتل وإما بالضرب وبما أمكنهم من وجوه الفعل ، ولا يرضون إلى بردِّهم إللاما منه تخلصوا ، فمَنْ احترق كدسهُ فما لم يحترق كدس غيره لا تطيب

نَفْسُه .

ويقال من شأن الأبرار حفظ الأسرار عن الأغيار .

ويقال مَنْ أظْهَر لأعدائه سِرَّه فقد جَلَبَ باختياره ضُرَّه ، وفَقَدَ ما سَرَّه .

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾

جعل أحوالَهم عِبْرةً لِمَنْ جاءَ بَعْدَهم حين كشف لأهل الوقت قصتهم ، فعاينهم الناس ، وازداد يقين مَنْ كان يؤمن بالله حين شاهدوا بالعيان ما كان نَقْضاً للعادة المستمرة .

ثم إن الله تعالى ردَّهم إلى ما كانوا عليه من الحالة ، كانوا مأخوذين عن التمييز ، متقلبين في القبضة على ما أراده الحق ، مستودعين فيما كوشفوا ، مستهلكين عنهم في وجود الحق - سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 386 . 388 ﴾

(327/469)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السبعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/470)

الجزء السبعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 22 ﴾ من سورة الكهف

وحتى الآية ﴿ 28 ﴾ من نفس السورة

(4/470)

قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (22) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر تعالى تنازع أولئك الذين هداهم الله بهم ، ذكر ما يأتي من إفاضة من علم قريشاً أن تسأل صلى الله عليه وعلى آله وسلم منهم في الفضول الذي ليس لهم إليه سبيل ، ولا يظفرون فيه بدليل علماً من أعلام النبوة فقال تعالى : ﴿ سيقولون ﴾ أي أهل الكتاب ومن وافقهم في الخوض في ذلك بعد اعترافهم بما قصصت عليك من نبأهم بوعد لا خلف فيه : هم ﴿ ثلاثة ﴾ أشخاص ﴿ رابعهم كلبهم ﴾ ولا علم لهم بذلك ، ولذلك أعراه عن الواو فدل إسقاطها على أنهم ليسوا ثلاثة وليس الكلب رابعاً ﴿ ويقولون ﴾ أي وسيقولون أيضاً : ﴿ خمسة سادسهم كلبهم ﴾ .

ولما تغير قولهم حسن جداً قوله تعالى : ﴿ رجماً بالغيب ﴾ أي رمياً بالأمر الغائب عنهم الذي لا اطلاع لهم عليه بوجه ﴿ ويقولون ﴾ أيضاً دليلاً على أنه لا علم لهم بذلك : ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ وتأخير هذا عن الرجم - وإن كان ظناً - مشعر بأنه حق ، ويؤيده هذه الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل الواو حالاً عن المعرفة في نحو ﴿ إلا ولها كتاب معلوم ﴾ [الحجر : 4] فإن فائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف ، والدلالة على أن اتصاف الموصوف بالصفة أمر ثابت مستقر ، فدلت هذه الواو على أن أهل هذا القول قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ، ولم يرجموا بالظن ، وفي براءة ، كلام نفيس عن اتباع الوصف تارة بواو وتارة مجرداً عنها .

فلما ظهر كالشمس أنه لا علم لهم بذلك كان كأنه قيل : ماذا يقال لهم ؟ فقيل : ﴿ قل ربي ﴾ أي المحسن إليّ بإعلامي بأمرهم وغيره ﴿ أعلم بعدتهم ﴾ أي التي لا زيادة فيها ولا نقص ، فكان كأنه قيل : قد فهم من صيغة " أعلم " أم من الخلق من يعلم أمرهم فقيل : ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ أي من الخلق وهو مؤيد لأنهم أصحاب القول الغالب ، وهو ، قول ابن عباس -رضى الله عنهما - ، وكان يقول : أنا من ذلك القليل .

﴿ فلا ﴾ أي فتسبب عن ذلك أن يقول لك على سبيل البت الداخل تحت النهي عن قفو ما ليس لك به علم : لا ﴿ تمار ﴾ أي تجادل وتراجع ﴿ فيهم ﴾ أحداً ممن يتكلم بغير ما

أخبرتك به ﴿ إلا مرآء ظاهراً ﴾ أدلته ، وهو ما أوحيت إليك به ولا تفعل فعلهم من الرجم بالغيب ﴿ ولا تستفت ﴾ أي تسأل سؤال مستفيد ﴿ فيهم ﴾ أي أهل الكهف ﴿ منهم ﴾ أي من الذين يدعون العلم من بني إسرائيل أو غيرهم ﴿ أحداً ﴾ .

(6/470)

ولما كان نهيه عن استفتائهم موجباً لقصر همته على ربه سبحانه فكان من المعلوم أنه إذا سئل عن شيء ، التفتت نفسه إلى تعرفه من قبله ، فربما قال لما يعلم من إحاطة علم الله سبحانه وكرمه لديه : سأخبركم به غداً ، كما وقع من هذه القصص ، علمه الله ما يقول في كل أمر مستقبل يعزم عليه بقوله تعالى : ﴿ ولا تقولن لشيءٍ ﴾ أي لأجل شيء من الأشياء التي يعزم عليها جليلها وحقيرها ، عزمت على فعله : عزماً صادقاً من غير تردد وإن كنت عند نفسك في غاية القدرة عليه : ﴿ إني فاعل ذلك ﴾ أي الشيء وإن كان مهماً ﴿ غداً ﴾ أي فيما يستقبل في حال من الأحوال ﴿ إلا ﴾ قولاً كائناً معه ﴿ أن يشاء ﴾ في المستقبل ذلك الشيء ﴿ الله ﴾ أي مقروناً بمشيئة الملك الأعلى الذي لا أمر لأحد معه سبحانه تعظيماً لله أن يقطع شيء دونه واعترافاً بأنه لا حول ولا قوة إلا به ، ولأنه إن قيل ذلك دون استثناء فات قبل الفعل أو عاقه عنه عائق كان كذباً منفراً عن القائل .

ولما كان النسيان من شأن الإنسان وهو غير مؤاخذ به قال تعالى : ﴿ واذكر ربك ﴾ أي المحسن إليك برفع المؤاخذة حال النسيان ﴿ إذا نسيت ﴾ الاستثناء بالاستعانة والتوكل عليه وتفويض الأمر كله بأن تقول : إن شاء الله ، ونحوها في أيّ وقت تذكرت ؛ وأخرج الطبراني في معجمه الأوسط في ترجمة محمد بن الحارث الجبيلي - بضم الجيم وفتح الموحدة - عن ابن عباس -رضى الله عنهما - أن هذا خاص برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وليس لأحد منا أن يستثني إلا بصلة اليمين .

(7/470)

ثم عطف على ما أفهمه الكلام وهو : فقل إذا نسيت : إني فاعل ذلك غداً إن شاء الله - ونحو ذلك من التعليق بالمشيئة المؤذن بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله ولا مشيئة لأحد معه قوله : ﴿ وقل عسى أن يهدين ربي ﴾ أي المحسن إليّ ﴿ لأقرب ﴾ أي إلى أشد قرباً ﴿ من هذا ﴾ أي الذي عزمت على فعله ونسيت الاستثناء فيه فقضاه الله ولم يؤاخذني ، أو فاتني أو تعسر عليّ لكوني لم أقرن العزم عليه بذكر الله ﴿ رشداً ﴾ أي من جهة الرشد بأن يوفقني للاستثناء فيه عند العزم عليه مع كونه أجود أثراً وأجل عنصراً فأكون كل يوم في ترق بالأفعال الصالحة في معارج القدس ، و " اقرب " أفعل تفضيل من قرب - بضم الراء - من

الشيء ، لازم ، لا من المكسور الراء المتعدي نحو ﴿ ولا تقربوا الزنى ﴾ [الإسراء : 32] ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾ [الإسراء : 34] الآية ، والأقرب من رشد الاستدلال بقصة أهل الكهف التي الحديث عنها على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ونحو ذلك الاستدلال على وحدانية الصانع وقدرته على البعث وغيره بالأمور الكلية أو الجزئيات القريبة المتكررة ، لا بهذا الأمر الجزئي النادر المتعب ونحو هذا من المعارف الإلهية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 459 . 461 ﴾

(8/470)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الإسرائيليات في قصة أصحاب الكهف :

ومن قصص الماضين التي أكثر فيها المفسرون من ذكر الإسرائيليات قصة أصحاب الكهف ، فقد ذكر ابن جرير ، وابن مردويه ، وغيرهما الكثير من أخبارهم التي لا يدل عليها كتاب الله تعالى ، ولا يتوقف فهم القرآن وتدبره عليها .

فمن ذلك : ما ذكره ابن جرير في تفسيره ، عن ابن إسحاق ، صاحب السيرة في قصتهم ،

فقد ذكر نحو ثلاث ورقات ، وذكر عن وهب بن منبه ، وابن عباس ومجاهد أخبارا كثيرة 1 أخرى وكذلك ذكر السيوطي في "الدر المنثور"2 ، الكثير مما ذكره المفسرون عن أصحاب الكهف ، عن هويتهم ، ومن كانوا ؟ وفي أي زمان ومكان وجدوا ؟ وأسمائهم ؟ واسم كلبهم ؟ وأهو قطمير أم غيره ؟ وعن لونه أهو أصفر أم أحمر ؟ بل روى ابن أبي حاتم من طريق سفيان ، قال : رجل بالكوفة يقال له عبيد وكان لا يتهم بالكذب قال : رأيت كلب أصحاب الكهف أحمر ، كأنه كساء أبنجاني 3 ،

---

1 تفسير ابن جرير ج15 ص 133 وما بعدها .

2 الدر المنثور ج4 ص 211- 218 .

3 نسبة إلى أنبج بلد تعرف بصنع الأكسية .

(9/470)

ولا أدرى كيف كان لا يتهم بالكذب ، وما زعم كذب لا شك فيه ، فهل بقي كلب أصحاب الكهف حتى الإسلام ؟ ! وكذلك ذكروا أخبار غرائب في الرقيم ، فمن قائل : إنه قرية ، وروي ذلك عن كعب الأحبار ، ومن قائل : إنه وادٍ بفلسطين ، بقرب أيلة ، وقيل : اسم جبل أصحاب الكهف إلى غير ذلك مع أن الظاهر أنه كما قال كثير من السلف أنه : الكتاب

أو الحجر الذي دون فيه قصته وأخبارهم ، أو غير ذلك ، مما الله أعلم به ، فهو فعيل بمعنى مفعول ، أي : مرقوم ، وفي الكتاب الكريم : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ، كِتَابٌ مَرْقُومٌ ، يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ 1 ، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ، كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ 2 .

وفي هذه الأخبار : الحق والباطل ، والصدق والكذب ، وفيها : ما هو محتمل للصدق والكذب ، ولكن فيما عندنا غنية عنه ، ولا فائدة من الاشتغال بمعرفته وتفسير القرآن به ، كما أسلفنا عن ابن تيمية ، بل الأولى والأحسن ، أن نضرب عنه صفحًا ، وقد أدّبنا الله بذلك حيث قال لنبيه بعد ذكر اختلاف أهل الكتاب في عدد أصحاب الكهف : ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ 3 .

وغالب ذلك ما أشرنا إليه وغيره متلقى عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، وحمله عنهم بعض الصحابة والتابعين لغرابته ، والعجب منه ، قال العلامة ابن كثير في تفسيره : "وفي تسميتهم بهذه الأسماء ، واسم كلبهم نظر في صحته والله أعلم ، قال : غالب ذلك تُلُقِّيَ من أهل الكتاب ، وقد قال تعالى : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أي : سهلا هينا لينا : فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة "ولا تستفت فيهم منهم أحدا ! أي : فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولون من تلقاء أنفسهم ، رجما بالغيب ، أي : من غير استناد إلى كلام معصوم ، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية فيه ، فهو المقدم على كل

ما تقدمه من الكتب والأقوال"4 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير صـ 240. 241 ﴾

---

1 المطففين 19 ، 20 .

2 المطففين : 8 ، 9 .

3 الكهف : 22 .

4 تفسير ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ .

(10/470)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثلاثة رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾

الضمير في قوله : ﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ عائد إلى المتنازعين .

روى أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد وكان يعقوبياً كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقال العاقب وكان نسطورياً كانوا خمسة سادسهم كلبهم ، وقال المسلمون كانوا سبعة وثامنهم

كلبهم ، قال أكثر المفسرين هذا الأخير هو الحق ويدل عليه وجوه .

الأول : أن الواو في قوله : ﴿ وَثَامِنُهُمْ ﴾ هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في نحو قولك جاءني رجل ومعه آخر ، ومررت بزيد وفي يده سيف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الحجر : 4] وفائدتها توكيد ثبوت الصفة للموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر ، فكانت هذه الواو دالة على صدق الذين قالوا إنهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، وأنهم قالوا قولاً متقرراً متحققاً عن ثبات وعلم وطمأنينة نفس .

الوجه الثاني : قالوا : إنه تعالى خص هذا الموضع بهذا الحرف الزائد وهو الواو فوجب أن تحصل به فائدة زائدة صوناً للفظ عن التعطيل ، وكل من أثبت هذه الفائدة الزائدة قال المراد منها تخصيص هذا القول بالإثبات والتصحيح .

الوجه الثالث : أنه تعالى أتبع القولين الأولين بقوله : ﴿ رَجْماً بِالْغَيْبِ ﴾ وتخصيص الشيء بالوصف يدل على أن الحال في الباقي بخلافه ، فوجب أن يكون المخصوص بالظن الباطل هو القولان الأولان ، وأن يكون القول الثالث مخالفاً لهما في كونهما رجماً بالظن .

والوجه الرابع : أنه تعالى لما حكى قولهم : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ قال بعده : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ فاتباع القولين الأولين بكونهما رجماً بالغيب واتباع هذا القول الثالث بقوله : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ يدل على أن هذا القول ممتاز عن القولين الأولين بمزيد القوة والصحة .

والوجه الخامس : أنه تعالى قال : ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ وهذا يقتضي أنه حصل العلم بعدتهم لذلك القليل وكل من قال من المسلمين قولاً في هذا الباب قالوا إنهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم فوجب أن يكون المراد من ذلك القليل هؤلاء الذين قالوا هذا القول .

كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : كانوا سبعة وأسماؤهم هذا : يمليخا ، مكسلمينا ، مسلثينا وهؤلاء الثلاثة كانوا أصحاب يمين الملك ، وكان عن يساره : مرنوس ، ودبرنوس ، وسادنوس ، وكان الملك يستشير هؤلاء الستة في مهماته ، والسابع هو الراعي الذي وافقهم لما هربوا من ملكهم واسم كلبهم قطمير ، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : أنا من ذلك العدد القليل ، وكان يقول : إنهم سبعة وثامنهم كلبهم .

الوجه السادس : أنه تعالى لما قال : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ والظاهر أنه تعالى لما حكى الأقوال فقد حكى كل ما قيل من الحق والباطل لأنه يبعد أنه تعالى ذكر الأقوال الباطلة ولم يذكر ما هو الحق .

فثبت أن جملة الأقوال الحقة والباطلة ليست إلا هذه الثلاثة ، ثم خص الأولين بأنهما رجم بالغيب فوجب أن يكون الحق هو هذا الثالث .

(12/470)

الوجه السابع : أنه تعالى قال لرسوله : ﴿ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظاهرا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مّنْهُمْ أَحَداً ﴾ فمنعه الله تعالى عن المناظرة معهم وعن استفتائهم في هذا الباب ، وهذا إنما يكون لو علمه حكم هذه الواقعة ، وأيضاً أنه تعالى قال : ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ ويبعد أن يحصل العلم بذلك لغير النبي ولا يحصل للنبي ، فعلمنا أن العلم بهذه الواقعة حصل للنبي عليه السلام ، والظاهر أنه لم يحصل ذلك العلم إلا بهذا الوحي ، لأن الأصل فيما سواه العدم ، وأن يكون الأمر كذلك فكان الحق هو قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ واعلم أن هذه الوجوه وإن كان بعضها أضعف من بعض إلا أنه لما تقوى بعضها ببعض حصل فيه كمال وتمام ، والله أعلم .

بقي في الآية مباحث .

البحث الأول : في الآية حذف والتقدير سيقولون هم ثلاثة فحذف المبتدأ لدلالة الكلام عليه .

البحث الثاني : خص القول الأول بسين الاستقبال ، وهو قوله سيقولون ، والسبب فيه أن حرف العطف يوجب دخول القولين الآخرين فيه .

البحث الثالث : الرجم هو الرمي ، والغيب ما غاب عن الإنسان فقوله : ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾ معناه أن يرى ما غاب عنه ولا يعرفه بالحقيقة ، يقال فلان يرمي بالكلام رمياً ، أي يتكلم من غير تدبر .

البحث الرابع : ذكروا في فائدة الواو في قوله : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ وجوهاً الوجه الأول : ما ذكرنا أنه يدل على أن هذا القول أولى من سائر الأقوال .

وثانيها : أن السبعة عند العرب أصل في المبالغة في العدد قال تعالى :

﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ [التوبة : 80] وإذا كان كذلك فإذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظاً يدل على الاستئناف ، فقالوا وثمانية ، فجاء هذا الكلام على هذا القانون ، قالوا : ويدل عليه نظيره في ثلاث آيات ، وهي قوله : ﴿ والناهون عَنِ المنكر ﴾ [التوبة : 112] لأن هذا هو العدد الثامن من الأعداد المتقدمة وقوله : ﴿ حتى إِذَا جَاءوهَا وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ [الزمر : 73] لأن أبواب الجنة ثمانية ، وأبواب النار سبعة ، وقوله :

﴿ ثيبات وَأَبْكَاراً ﴾ [التحريم : 5] هو العدد الثامن مما تقدم ، والناس يسمون هذه الواو واو الثمانية ، ومعناه ما ذكرناه ، قال القفال : وهذا ليس بشيء ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ هُوَ الله الذى لاَ إله إِلاَّ هُوَ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ [الحشر : 23] ولم يذكر الواو في النعت الثامن ، ثم قال تعالى : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ وهذا هو الحق ، لأن العلم بتفاصيل كائنات العالم والحوادث التي حدثت في الماضي والمستقبل لا تحصل إلا عند الله تعالى ، وإلا عند من أخبره الله عنها ، وقال ابن عباس أنا من أولئك القليل ، قال القاضي : إن كان قد عرفه ببيان الرسول صح ، وإن كان قد تعلق فيه بحرف الواو فضعيف ، ويمكن أن يقال : الوجوه السبعة المذكورة وإن كانت لا تفيد الجزم إلا أنها تفيد الظن ، واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه القصة أتبعه بأن نهى رسوله عن شيئين ، عن المراء والاستفتاء ، أما النهي عن المراء ، فقوله : ﴿ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظاهرا ﴾ والمراد من المراء الظاهر أن لا يكذبهم في تعيين ذلك العدد ، بل يقول : هذا التعيين لا دليل عليه ، فوجب التوقف وترك القطع .

(14/470)

ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَا تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلَّا بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : 46] وأما النهي عن الاستفتاء فقوله : ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مّنْهُمْ أَحَداً ﴾ ، وذلك لأنه لما ثبت أنه ليس عندهم علم في هذا الباب وجب المنع من استفتائهم ، واعلم أن نفاة القياس تمسكوا بهذه الآية قالوا لأن قوله : ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾ وضع الرجم فيه موضع الظن فكأنه قيل : ظناً بالغيب لأنهم أكثروا أن يقولوا : رجم بالظن مكان قولهم ظن ، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين ، ألا ترى إلى قوله :

وما هو عنها بالحديث المرجم . . (1)

أي المظنون هكذا قاله صاحب الكشاف ، وذلك يدل على أن القول بالظن مذموم عند الله ثم إنه تعالى لما ذم هذه الطريقة رتب عليه من استفتاء هؤلاء الظانين ، فدل ذلك على أن الفتوى بالمظنون غير جائز عند الله ، وجواب مثبتي القياس عنه قد ذكرناه مراراً .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

اعلم أن في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال المفسرون إن القوم لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن المسائل الثلاثة ، قال عليه السلام أجيبكم عنها غداً ولم يقل إن شاء الله ، فاحتبس الوحي خمسة عشر يوماً وفي رواية أخرى أربعين يوماً ، ثم نزلت هذه الآية ، اعترض القاضي على هذا الكلام من

وجهين .

الأول : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عالماً بأنه إذا أخبر عن أنه سيفعل الفعل الفلاني غداً فربما جاءته الوفاة قبل الغد ، وربما عاقه عائق آخر عن الإقدام على ذلك الفعل غداً ، وإذا كان كل هذه الأمور محتملاً ، فلو لم يقل إن شاء الله ربما خرج الكلام مخالفاً لما عليه الوجود وذلك يوجب التنفير عنه ، وعن كلامه عليه السلام ، أما إذا قال إن شاء الله كان محترزاً عن هذا المحذور ، وإذا كان كذلك كان من البعيد أن يعد بشيء ولم يقل فيه إن شاء الله .

---

(1) البيت للنابغة الذبياني والرواية المشهورة :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما القول عنها بالحديث المرجم

الثاني : أن هذه الآية مشتملة على فوائد كثيرة وأحكام جمة فيبعد قصرها على هذا السبب ويمكن أن يجاب عن الأول : أنه لا نزاع أن الأولى أن يقول إن شاء الله إلا أنه ربما اتفق له أنه نسي هذا الكلام لسبب من الأسباب فكان ذلك من باب ترك الأولى والأفضل ، وأن يجاب عن الثاني أن اشتماله على الفوائد الكثيرة لا يمنع من أن يكون سبب نزوله واحداً

منها .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ ﴾ ليس فيه بيان أنه شاء الله ماذا ، وفيه قولان : الأول : التقدير : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ ﴾ أن يأذن لك في ذلك القول ، والمعنى أنه ليس لك أن تخبر عن نفسك أنك تفعل الفعل الفلاني إلا إذا أذن الله لك في ذلك الإخبار .

القول الثاني : أن يكون التقدير : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ﴾ إلا أن تقول : ﴿ إِن شَاء اللّهُ ﴾ والسبب في أنه لا بد من ذكر هذا القول هو أن الإنسان إذا قال سأفعل الفعل الفلاني غداً لم يبعد أن يموت قبل مجيء الغد ، ولم يبعد أيضاً لو بقي حياً أن يعوقه عن ذلك الفعل شيء من العوائق ، فإذا كان لم يقل إن شاء الله صار كاذباً في ذلك الوعد ، والكذب منفرد وذلك لا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، فلهذا السبب أوجب عليه أن يقول : ﴿ إِن شَاء اللّهُ ﴾ حتى أن بتقدير أن يتعذر عليه الوفاء بذلك الموعود لم يصر كاذباً فلم يحصل التنفير .

المسألة الثالثة :

اعلم أن مذهب المعتزلة أن الله تعالى يريد الإيمان والطاعة من العبد والعبد يريد الكفر والمعصية لنفسه فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الله فتكون إرادة العبد غالبة وإرادة الله تعالى مغلوبة ، وأما عندنا فكل ما أراد الله تعالى فهو واقع فهو تعالى يريد الكفر من الكافر ويريد الإيمان من المؤمن وعلى هذا التقرير فإرادة الله تعالى غالبة وإرادة العبد مغلوبة إذا عرفت هذا فنقول إذا قال العبد لأفعلن كذا غداً إلا أن يشاء الله والله إنما يدفع عنه الكذب إذا كانت إرادة الله غالبة على إرادة العبد فإن على هذا القول يكون التقدير أن العبد قال أنا أفعل الفعل الفلاني إلا إذا كانت إرادة الله بخلافه فأنا على هذا التقدير لا أفعل لأن إرادة الله غالبة على إرادتي فعند قيام المانع الغالب لا أقوى على الفعل ، أما بتقدير أن تكون إرادة الله تعالى مغلوبة فإنها لا تصلح عذراً في هذا الباب ، لأن المغلوب لا يمنع الغالب .

(17/470)

إذا ثبت هذا فنقول : أجمعت الأمة على أنه إذا قال والله لأفعلن كذا ثم قال : إن شاء الله دافعاً للحنث فلا يكون دافعاً للحنث إلا إذا كانت إرادة الله غالبة ، فلما حصل دفع الحنث بالإجماع وجب القطع بكون إرادة الله تعالى غالبة وأنه لا يحصل في الوجود إلا ما أراده الله

وأصحابنا أكدوا هذا الكلام في صورة معينة وهو أن الرجل إذا كان له على إنسان دين وكان ذلك المديون قادراً على أداء الدين فقال والله لأقضين هذا الدين غداً ، ثم قال إن شاء الله فإذا جاء الغد ولم يقض هذا الدين لم يحنث وعلى قول المعتزلة أنه تعالى يريد منه قضاء الدين وعلى هذا التقدير فقوله : ﴿ إِن شَاءَ اللهُ ﴾ تعليق لذلك الحكم على شرط واقع فوجب أن يحنث ، ولما أجمعوا على أن لا يحنث علمنا أن ذلك إنما كان لأن الله تعالى ما شاء ذلك الفعل مع أن ذلك الفعل قد أمر الله به ورغب فيه وزجر عن الإخلال به وثبت أنه تعالى قد ينهى عن الشيء ويريده وقد يأمر بالشيء ولا يريده وهو المطلوب ، فإن قيل هب أن الأمر كما ذكرتم إلا أن كثيراً من الفقهاء قالوا : إذا قال الرجل لامرأته أنت طالق إن شاء الله لم يقع الطلاق فما السبب فيه ؟ قلنا السبب هو أنه لما علق وقوع الطلاق على مشيئة الله لم يقع إلا إذا عرفنا وقوع الطلاق ولا نعرف وقوع الطلاق إلا إذا عرفنا أولاً حصول هذه المشيئة لكن مشيئة الله تعالى غيب فلا سبيل إلى العلم بحصولها إلا إذا علمنا أن متعلق المشيئة قد وقع وحصل وهو الطلاق فعلى هذا الطريق لا نعرف حصول المشيئة إلا إذا عرفنا وقوع الطلاق ولا نعرف وقوع الطلاق إلا إذا عرفنا وقوع المشيئة فيتوقف العلم بكل واحد منها على العلم بالآخرة ، وهو دور والدور باطل فلهذا السبب قالوا الطلاق غير واقع .

المسألة الرابعة :

(18/470)

احتج القائلون بأن المعدوم شيء بقوله : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَداً * أَن يَشَآءَ اللهُ ﴾ قالوا : الشيء الذي سيفعله الفاعل غداً سماه الله تعالى في الحال بأنه شيء لقوله : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ ﴾ ومعلوم أن الشيء الذي سيفعله الفاعل غداً فهو معدوم في الحال ، فوجب تسمية المعدوم بأنه شيء .

(19/470)

والجواب أن هذا الاستدلال لا يفيد إلا أن المعدوم مسمى بكونه شيئاً وعندنا أن السبب فيه أن الذي سيصير شيئاً يجوز تسميته بكونه شيئاً في الحال كما أنه قال : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [النحل : 1] والمراد سيأتي أمر الله ، أما قوله : ﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ ففيه وجهان : الأول : أنه كلام متعلق بما قبله والتقدير أنه إذا نسي أن يقول إن شاء الله فليذكره إذا تذكره وعند هذا اختلفوا فقال ابن عباس رضي الله عنهما لو لم يحصل التذكر إلا بعد مدة طويلة ثم ذكر إن شاء الله كفى في دفع الحنث وعن سعيد بن جبير بعد سنة أو شهر أو

أسبوع أو يوم ، وعن طاوس أنه يقدر على الاستثناء في مجلسه ، وعن عطاء يستثني على مقدار حلب الناقة الغزيرة ، وعند عامة الفقهاء أنه لا أثر له في الأحكام ما لم يكن موصولاً ، واحتج ابن عباس بقوله : ﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ لأن الظاهر أن المراد من قوله : ﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ هو الذي تقدم ذكره في قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ الله ﴾ وقوله : ﴿ واذكر رَّبَّكَ ﴾ غير مختص بوقت معين بل هو يتناول كل الأوقات فوجب أن يجب عليه هذا الذكر في أي وقت حصل هذا التذكر وكل من قال وجب هذا الذكر قال : إنه إنما وجب لدفع الحنث وذلك يفيد المطلوب ، واعلم أن استدلال ابن عباس رضي الله عنهما ظاهر في أن الاستثناء لا يجب أن يكون متصلاً ، أما الفقهاء فقالوا إنا لو جوزنا ذلك لزم أن لا يستقر شيء من العقود ، والإيمان ، يحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة رحمه الله خالف ابن عباس في الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال أبو حنيفة رحمه الله : هذا يرجع عليك ، فإنك تأخذ البيعة بالإيمان أفترض أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك ؟ فاستحسن المنصور كلامه ورضي به .

واعلم أن حاصل هذا الكلام يرجع إلى تخصيص النص بالقياس وفيه ما فيه .

وأيضاً فلو قال إن شاء الله على سبيل الخفية بلسانه بحيث لا يسمعه أحد فهو معتبر ودافع للحنث بالإجماع مع أن المحذور الذي ذكرتم حاصل فيه .

فثبت أن الذي عولوا عليه ليس بقوي ، والأولى أن يحتجوا في وجوب كون الاستثناء متصلاً بأن الآيات الكثيرة دلت على وجوب الوفاء بالعقد والعهد .

قال تعالى : ﴿ أَوْفُواْ بالعقود ﴾ [المائدة : 1] وقال : ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ ﴾ [الإسراء : 34] فالآتي بالعهد يجب عليه الوفاء بمقتضاه لأجل هذه الآيات خالفنا هذا الدليل فيما إذا كان متصلاً لأن الاستثناء مع المستثنى منه كالكلام الواحد بدليل أن لفظ الاستثناء وحده لا يفيد شيئاً ، فهو جار مجرى نصف اللفظ الواحدة (1) ، فجملة الكلام كالكلمة الواحدة المفيدة ، وعلى هذا التقدير فعند ذكر الاستثناء عرفنا أنه لم يلزم شيء بخلاف ما إذا كان الاستثناء متصلاً فإنه حصل الالتزام التام بالكلام فوجب عليه الوفاء بذلك الملتزم والقول الثاني أن قوله : ﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ لا تعلق له بما قبله بل هو كلام مستأنف وعلى هذا القول ففيه وجوه .

أحدها : واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء ، والمراد منه الترغيب في الاهتمام بذكر هذه الكلمة .

وثانيها : واذكر ربك إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسي .

وثالثها : حمله بعضهم على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها ، وهذا القول بما فيه من الوجوه

الثلاثة بعيد لأن تعلق هذا الكلام بما قبله يفيد إتمام الكلام في هذه القضية وجعله كلاماً مستأنفاً يوجب صيرورة الكلاء مبتدأ منقطعاً وذلك لا يجوز ثم قال تعالى : ﴿ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَدًا ﴾ وفيه وجوه : الأول : أن ترك قوله : ﴿ أَن يَشَاء الله ﴾ ليس بحسن وذكره أحسن من تركه وقوله : ﴿ لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَدًا ﴾ المراد منه ذكر هذه الجملة .

---

(1) . هكذا في الأصل : اللفظ الواحدة ، والصواب أن يقال اللفظ الواحد ، أو اللفظة الواحدة .

(21/470)

الثاني : إذا وعدهم بشيء وقال معه إن شاء الله فيقول عسى أن يهديني ربي لشيء أحسن وأكمل مما وعدتكم به .

والثالث : أن قوله : ﴿ لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَدًا ﴾ إشارة إلى نبأ أصحاب الكهف ومعناه لعل الله يؤتيني من البينات والدلائل على صحة أني نبي من عند الله صادق القول في ادعاء النبوة ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشداً من نبأ أصحاب الكهف .

وقد فعل الله ذلك حيث آتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 90.95 ﴾

(22/470)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾

فأدخل الواو على انقطاع القصة لأن الخبر قد تم .

﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل ﴾ في المختلفين في عددهم قولان :

أحدهما : أنهم أهل المدينة قبل الظهور عليهم .

الثاني : أنهم أهل الكتاب بعد طول العهد بهم . وقوله تعالى : ﴿ رجماً بالغيب ﴾ قال قتادة قذفاً بالظن ، قال زهير :

وما الحرب إلاَّ ما علمتم وذقتم . . . وما هو عنها بالحديث المرجّم .

وقال ابن عباس : أنا من القليل الذي استثنى الله تعالى : كانوا سبعة وثامنهم كلبهم .

وقال ابن جريج ومحمد بن إسحاق : كانوا ثمانية ، وجعلا قوله تعالى :

﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ أي صاحب كلبهم .

وكتب قومهم أسماءهم حين غابوا ، فلما بان أمرهم كتبت أسماؤهم على باب الكهف .

قال ابن جريج : أسماؤهم مكسلمينا ويمليخا وهو الذي مضى بالورق يشتري به الطعام ، ومطرونس ، ومحسيميلنينا ، وكشوطوش ، وبطلنوس ويوطونس ويبرونس .

قال مقاتل : وكان الكلب لمكسلمينا وكان أسنهم وكان صاحب غنم . ﴿ فلا تمار فيهم إلاّ مراءً ظاهراً ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : إلا ما قد أظهرنا لك من أمرهم ، قاله مجاهد .

الثاني : حسبك ما قصصنا عليك من شأنهم ، فلا تسألني عن إظهار غيره ، قاله قتادة .

الثالث : إلا مِراء ظاهراً يعني بحجة واضحة وخبر صادق ، قاله علي بن عيسى .

الرابع : لا تجادل فيهم أحداً ألا أن تحدثهم به حديثاً ، قاله ابن عباس .

الخامس : هو أن تشهد الناس عليهم . ﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ولا تستفت يا محمد فيهم أحداً من أهل الكتاب ، قاله ابن عباس . ومجاهد وقتادة .

الثاني : أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ونهي لأمته .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ قال الأخفش : فيه إضمار وتقديره : إلا أن تقول إن شاء الله ، وهذا وإن كان أمراً فهو على وجه التأديب والإرشاد أن لا تعزم على أمر إلا أن تقرنه بمشيئة الله تعالى لأمرين :

أحدهما : أن العزم ربما صد عنه بمانع فيصير في وعده مخلفاً في قوله كاذباً ، قال موسى عليه السلام ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ [الكهف : 70] ولم يصبر ولم يكن كاذباً لوجود الاستثناء في كلامه .

الثاني : إذعاناً لقدرة الله تعالى ، وإنه مدبر في أفعاله بمعونة الله وقدرته .

الثالث : يختص بيمينه إن حلف وهو سقوط الكفارة عنه إذا حنث .

﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنك إذا نسيت الشيء فاذكر الله ليذكرك إياه ، فإن فعل فقد أراد منك ما ذكرك ، وإلا فسيدلك على ما هو أرشد لك مما نسيته ، قاله بعض المتكلمين .

الثاني : واذكر ربك إذا غضبت ، قاله عكرمة ، ليزول عنك الغضب عند ذكره .

الثالث : واذكر ربك إذا نسيت الاستثناء بمشيئة الله في يمينك . وفي الذكر المأمور به قولان :

أحدهما : أنه ما ذكره في بقية الآية ﴿ وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾

الثاني : أنه قول إن شاء الله الذي كان نسيه عند يمينه .

واختلفوا في ثبوت الاستثناء بعد اليمين على خمسة أقاويل :

أحدها : أنه يصح الاستثناء بها إلى سنة ، فيكون كالاستثناء بها مع اليمين في سقوط الكفارة ولا يصح بعد السنة ، قاله ابن عباس .

الثاني : يصح الاستثناء بها في مجلس يمينه ، ولا يصح بعد فراقه ، قاله الحسن وعطاء .

الثالث : يصح الاستثناء بها ما لم يأخذ في كلام غيره .

الرابع : يصح الاستثناء بها مع قرب الزمان ، ولا يصح مع بعده .

الخامس : أنه لا يصح الاستثناء بها إلا متصلاً بيمينه وهو الظاهر من مذهب مالك والشافعي رحمهما الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(24/470)

وقال ابن عطية :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾

الضمير في قوله ﴿ سيقولون ﴾ يراد به أهل التوراة ، من معاصري محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص ، وقرأ الجمهور

الجمهور " ثلاثة " ، وقرأ ابن محيصن " ثلاث " بإدغام التاء في الثاء ، وقرأ شبل عن ابن كثير " خمَسة " بفتح الميم إتباعاً لعشرة ، وقرأ ابن محيصن " خِمِسة " بكسر الخاء والميم ، وقوله ﴿ رجماً بالغيب ﴾ معناه ظناً ، وهو مستعار من الرجم ، كأن الإنسان يرمي الموضع المشكل المجهول عنده بظنه المرة بعد المرة ، يرجمه به عسى أن يصيب ، ومن هذا هو الترجمان وترجمة الكتاب ، ومنه قول زهير : [الطويل]

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمُ . . . وما هو عنها بالحديث المرجم

والواو في قوله ﴿ وثامنهم ﴾ طريق النحويين فيها أنها واو عطف دخلت في آخر إخبار عن عددهم ، لتفصل أمرهم ، وتدل على أن هذا نهاية ما قيل ، ولو سقطت لصح الكلام . وتقول فرقة منها ابن خالويه : هي واو الثمانية ، وذكر ذلك الثعلبي عن أبي بكر بن عياش أن قريشاً كانت تقول في عددها ستة سبعة وثمانية تسعة ، فتدخل الواو في الثمانية .

(25/470)

قال القاضي أبو محمد : وقد تقدم شرحها ، وهي في القرآن في قوله ﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴾ [التوبة : 112] وفي قوله ﴿ وفتحت ﴾ [النبأ : 19] ، وأما قوله تعالى : ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ [التحريم : 5] ، وقوله ﴿ سبع ليال وثمانية أيام ﴾ [

الحاقة : 7] فتوهم في هذين الموضعين أنها واو الثمانية وليست بها بل هي لازمة لا يستغني الكلام عنها ، وقد أمر الله تعالى نبيه عليه السلام في هذه الآية أن يرد علم " عدتهم " إليه عز وجل ، ثم أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل ، والمراد به قوم من أهل الكتاب ، وكان ابن عباس يقول : أنا من ذلك القليل ، وكانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، ويستدل على هذا من الآية : بأن القرآن لما حكى قول من قال " ثلاثة وخمسة " قرن بالقول أنه رجم بالغيب فقدح ذلك فيها ، ثم حكى هذه المقالة ولم يقدح فيها بشيء ، بل تركها مسجلة ، وأيضاً فيقوي ذلك على القول بواو الثمانية لأنها إنما تكون حيث عدد الثمانية صحيح ، وقوله تعالى : ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ﴾ معناه على بعض الأقوال ، أي بظاهر ما أوحيناه إليك ، وهو رد علم عدتهم إلى الله تعالى ، وقيل معنى " الظاهر " أن يقول ليس كما تقولون ، ونحو هذا ، ولا يحتج هو على أمر مقرر في ذلك فإن ذلك يكون مراء في باطن من الأمر ، وقال التبريزي : ﴿ ظاهراً ﴾ معناه ذاهباً ، وأنشد :

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها . . . . ولم يبح له في هذه الآية أن يماري ، ولكن قوله ﴿ إلا مراء ﴾ استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب ، سميت مراجعته لهم ﴿ مراء ﴾ ، ثم قيد بأنه ظاهر ، ففارق المراء الحقيقي المذموم .

و " المراء " مشتق من المرية ، وهو الشك ، فكأنه المشاككة ، والضمير في قوله ﴿ فيهم ﴾ عائد على أهل الكهف ، وفي قوله ﴿ منهم ﴾ عائد على أهل الكتاب المعاصرين ، وقوله ﴿ فلا تمار فيهم ﴾ يعني في عدتهم ، وحذفت العدة لدلالة ظاهر القول عليها ، وقوله ﴿ ولا تقولن لشيء ﴾ الآية ، عاتب الله تعالى فيها نبيه عليه السلام على قوله للكفار غداً أخبركم بجواب أسئلتكم ، ولم يستثن في ذلك ، فاحتبس عنه الوحي خمسة عشر يوماً حتى شق ذلك عليه ، وأرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السورة مفرجة ، وأمر في هذه الآية أن يقول في أمر من الأمور : إني أفعل غداً كذا وكذا إلا وأن يعلق ذلك بمشيئة الله عز وجل ، واللام في قوله ﴿ لشيء ﴾ بمنزلة في أو كأنه قال لأجل شيء ، وقوله ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ في الكلام حذف يقتضيه الظاهر ، ويحسنه الإيجاز ، تقديره : إلا أن تقول إلا أن يشاء الله ، أو إلا أن تقول إن شاء الله ، فالمعنى إلا أن تذكر مشيئة الله ، فليس ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ من القول الذي نهي عنه وقالت فرقة : قوله ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ استثناء من قوله ﴿ ولا تقولن ﴾ وهذا قول حكاه الطبري ورد عليه ، وهو من الفساد بحيث كان الواجب ألا يحكى ، وقوله ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ قال ابن عباس والحسن معناه ، والإشارة به إلى الاستثناء أي ولتستثن بعد مدة ، إذا نسيت الاستثناء أولاً لتخرج من جملة من لم يعلق فعله بمشيئة الله ، وقال عكرمة : المعنى واذكر ربك إذا غضبت ، وتكلم الناس في

هذه الآية في الاستثناء في اليمين ، والآية ليست في الأيمان ، وإنما هي في سنة الاستثناء في غير اليمين ، ولكن من حيث تكلم الناس فيها ، ينبغي أن نذكر شيئاً من ذلك ، أما مالك رحمه الله وجميع أصحابه ، فيما علمت ، وكثير من العلماء ، فيقولون لا ينفع الاستثناء ويسقط الكفّارة إلا أن يكون متصلاً باليمين ، وقال عطاء له أن يستثني في قدر حلب الناقة الغزيرة ، وقال قتادة إن استثنى قبل أن

(27/470)

يقول أو يتكلم فله ثنياه ، وقال ابن حنبل له الاستثناء ما دام في ذلك الأمر ، وقاله ابن راهويه ، وقال طاوس والحسن ينفع الاستثناء ما دام الحالف في مجلسه ، وقال ابن جبير ينفع الاستثناء بعد أربعة أشهر فقط ، وقال ابن عباس ينفع الاستثناء ولو بعد سنة ، وقال مجاهد بعد سنتين ، وقال أبو العالية ينفع أبداً ، واختلف الناس في التأويل على ابن عباس ، فقال الطبري وغيره إنما أراد ابن عباس أنه ينفع في أن يحصل الحالف في رتبة المستثنين بعد سنة من حلفه ، وأما الكفارة فلا تسقط عنه ، قال الطبري ولا أعلم أحداً يقول ينفع الاستثناء بعد مدة ، يقول بسقوط الكفارة ، قال ويرد ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم

(28/470)

" من حلف على يمين ثم رأى غيرها خيراً منها فليكفر وليأت الذي هو خير " فلو كان الاستثناء يسقط الكفارة لكان أخف على الأمة ، ولم يكن لذكر الكفارة فائدة ، وقال الزهراوي : إنما تكلم ابن عباس في أن الاستثناء بعد سنة لمن قال أنا أفعل كذا . . . لا لحالف أراد حل يمينه ، وذهبت فرقة من الفقهاء إلى أن مذهب ابن عباس سقوط الكفارة وألزموا كل من يقول ينفع الاستثناء بعد مدة ، إسقاط الكفارة ، وردوا على القول بعد إلزامه ، وليس الاستثناء إلا في اليمين بالله ، لا يكون في طلاق ونحوه ، ولا في مشي إلى مكة ، هذا قول مالك وجماعة ، وقال الشافعي وأصحاب الرأي وطاوس وحماد الاستثناء في ذلك جائز ، وليس في اليمين الغموس استثناء ينفع ، ولا يكون الاستثناء بالقول ، وإنما يكون قولاً ونطقاً ، وقوله ﴿ وقل عسى ﴾ الآية ، قال محمد الكوفي المفسر : إنها بألفاظها مما أمر أن يقولها كل من لم يستثن ، وإنها كفارة لنسيان الاستثناء ، وقال الجمهور هو دعاء مأمور به دون هذا التخصيص ، وقرأ الجمهور " يهديني " بإثبات الياء ، وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو ، وقرأ طلحة من مصرف دون ياء في الوصل ، وهي قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ، والإشارة بهذا إلى الاستدراك الذي يقع من ناسي الاستثناء . وقال الزجاج المعنى عسى أن ييسر الله من الأدلة على نبوتي أقرب من دليل أصحاب الكهف . قال القاضي أبو محمد : وما قدمته أصوب ، أي عسى أن يرشدني فيما أستقبل من أمري

وهذه الآية مخاطبة للنبي عليه السلام ، وهي بعد تعم جميع أمته ، لأنه حكم يتردد الناس بكثرة وقوعه والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(29/470)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ سيقولون ثلاثةٌ ﴾

قال الزجاج : "ثلاثة" مرفوع بخبر الابتداء ، المعنى : سيقول الذين تنازعوا في أمرهم [هم] ثلاثةٌ .

وفي هؤلاء القائلين قولان .

أحدهما : أنهم نصارى نجران ، ناظروا رسول الله صلى الله عليه وسلم في عِدَّة أهل الكهف ، فقالت الملكيَّة : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقالت اليعقوبية : هم خمسة سادسهم كلبهم ، وقالت النسطورية : هم سبعة وثامنهم كلبهم ، فنزلت هذه الآية ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنهم أهل مدينتهم قبل ظهورهم عليهم ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ رجماً بالغيب ﴾ أي : ظنّاً غير يقين ، قال زهير :

وَمَا الحَرْبُ إلاَّ ما علمْتُمْ وَذُقْتُمُ . . .

وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالحَدِيثِ المُرَجَّمِ

فأما دخول الواو في قوله : ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ ولم تدخل فيما قبل هذا ، ففيه أربعة أقوال .

أحدها : أن دخولها وخروجها واحد ، قاله الزجاج .

والثاني : أن ظهور الواو في الجملة الثامنة دلالة على أنها مرادة في الجملتين المتقدمتين ، فأعلم بذكرها هاهنا أنها مرادة فيما قبل ، وإنما حذفت تخفيفاً ، ذكره أبو نصر في شرح "اللمع" .

والثالث : أن دخولها يدل على انقطاع القصة ، وأن الكلام قد تمَّ ، ذكره الزجاج أيضاً ، وهو قول مقاتل بن سليمان ، فإن الواو تدل على تمام الكلام قبلها ، واستئناف ما بعدها ؛ قال الثعلبي : فهذه واو الحكم والتحقيق ، كأن الله تعالى حكى اختلافهم ، فتم الكلام عند قوله : ﴿ ويقولون سبعة ﴾ ، ثم حكم أن ثامنهم كلبهم .

وجاء في بعض التفسير أن المسلمين قالوا عند اختلاف النصارى : هم سبعة ، فحقَّق الله قول المسلمين .

والرابع : أن العرب تعطف بالواو على السبعة ، فيقولون : ستة ، سبعة ، وثمانية ، لأن العقد عندهم سبعة ، كقوله : ﴿ التائبون العابدون . . .

﴾ إلى أن قال في الصفة الثامنة : ﴿ والناهون عن المنكر ﴾ [التوبة : 112] ، وقوله في صفة الجنة : ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : 73] وفي صفة النار : ﴿ فتحت أبوابها ﴾ [الزمر : 71] ، لأن أبواب النار سبعة ، وأبواب الجنة ثمانية ، ذكر هذا المعنى أبو إسحاق الثعلبي .

وقد اختلف العلماء في عددهم على قولين .

أحدهما : أنهم كانوا سبعة ، قاله ابن عباس .

والثاني : ثمانية ، قاله ابن جريج ، وابن إسحاق .

وقال ابن الأنباري : وقيل : معنى قوله : ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ : صاحب كلبهم ، كما يقال : السخاء حاتم ، والشِّعر زهير ، أي : السخاء سخاء حاتم ، والشِّعر شِعر زهير .

وأما أسماؤهم ، فقال هُشَيْم : مكسلمينا ، ويمليخا ، وطَرينوس ، وسَدينوس ، وسَرينوس ، ونَواسس ، ويرانوس ، وفي التفسير خلاف في أسمائهم فلم أُطل به .

واختلفوا في كلبهم لمن كان على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان لراعٍ مَرّوا به فتبعهم الراعي والكلب ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه كان لهم يتصيدون عليه ، قاله عبيد بن عمير .

والثالث : أنهم مَرّوا بكلب فتبعهم ، فطردوه ، فعاد ، ففعلوا ذلك به مراراً ، فقال لهم

الكلب : ما تريدون مني ؟ ! لا تخشوا جانبي أنا أُحِبُّ أَحِبَّاءَ الله ، فناموا حتى أحرسَكم ، قاله كعب الأحبار .

وفي اسم كلبهم أربعة أقوال .

أحدها : قطمير ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : اسمه الرقيم ، وقد ذكرناه عن سعيد بن جبير .

والثالث : قطمور ، قاله عبد الله بن كثير .

والرابع : حُمران ، قاله شعيب الجبائي .

وفي صفته ثلاثة أقوال .

أحدها : أحمر ، حكاه الثوري .

والثاني : أصفر ، حكاه ابن إسحاق .

والثالث : أحمر الرأس ، أسود الظهر ، أبيض البطن ، أبلق الذنب ، ذكره ابن السائب .

قوله تعالى ﴿ ربّي أعلمُ بعدّتهم ﴾ حرك الياء ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وأسكنها الباقون .

قوله تعالى : ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ أي : ما يعلم عددهم إلا قليل من الناس .

قال عطاء : يعني بالقليل : أهل الكتاب .

قال ابن عباس : أنا من ذلك القليل ، هم سبعة ، إن الله عدَّهم حتى انتهى إلى السبعة .

قوله تعالى : ﴿ فلا تُمارِ فيهم إلا مراءً ظاهراً ﴾ قال ابن عباس ، وقتادة : لا تُمارِ أحداً ، حسبك ما قصصتُ عليكَ من أمرهم .

وقال ابن زيد : لا تُمارِ في عِدَّتهم إلا مراءً ظاهراً أن تقول لهم : ليس كما تقولون ، ليس كما تعلمون .

وقيل : "إلا مراءً ظاهراً" بحجة واضحة ، حكاه الماوردي .

والمراء في اللغة : الجدال ؛ يقال : مارى يُماري مُماراة ومِراءً ، أي : جادَل .

قال ابن الأنباري : معنى الآية : لا تجادل إلا جدال متيقّنٍ عالِم بحقيقة الخبر ، إذ الله تعالى ألقى إليك ما لا يشوبه باطل .

وتفسير المراء في اللغة : استخراج غضب المجادل ، من قولهم : مَرَيْتُ الشاة : إذا استخرجت لبنها .

قوله تعالى : ﴿ ولا تستفت فيهم ﴾ أي : في أصحاب الكهف ، ﴿ منهم ﴾ قال ابن عباس : يعني : من أهل الكتاب .

قال الفراء : أتاه فريقان من النصارى ، نسطوري ، ويعقوبي ، فسألهم النبي صلى الله عليه

وسلم عن عددهم ، فنُهي عن ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ولا تقولَنَّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ سبب نزولها أن قريشاً سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذي القرنين ، وعن الرُّوح ، وعن أصحاب الكهف ، فقال : غداً أُخبركم بذلك ، ولم يقل : إِن شاء الله ، فأبطأ عليه جبريل خمسة عشر يوماً لتركه الاستثناء ، فشقّ ذلك عليه ، ثم نزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

ومعنى الكلام : ولا تقولن لشيء : إِني فاعل ذلك غداً ، إلا أن تقول : إِن شاء الله ، فحذف القول .

قوله تعالى : ﴿ واذكر ربّكَ إِذا نسيتَ ﴾ قال ابن الأنباري : معناه : واذكر ربّكَ بعد تقضِّي النسيان ، كما تقول : اذكر لعبد الله إِذا صلّى حاجتك ، أي : بعد انقضاء الصلاة .

وللمفسرين في معنى الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المعنى : إِذا نسيتَ الاستثناء ثم ذكرتَ ، فقل : إِن شاء الله ، ولو كان بعد يوم أو شهر أو سنة ، قاله سعيد بن جبير ، والجمهور .

والثاني : أن معنى "إذا نسيتَ" : إِذا غضبتَ ، قاله عكرمة ، قال ابن الأنباري : وليس ببعيد ، لأن الغضب يُنتج النسيان .

والثالث : إِذا نسيتَ الشيء فاذكر الله ليذكِّرك إِياه ، حكاه الماوردي .

فصل

وفائدة الاستثناء أن يخرج الحالف من الكذب إِذا لم يفعل ما حلف عليه ، كقوله في قصة موسى : ﴿ ستجدني إِن شاء الله صابراً ﴾ [الكهف : 70] ، ولم يصبر ، فسَلِم من الكذب لوجود الاستثناء في حقه .

ولا تختلف الرواية عن أحمد أنه لا يصح الاستثناء في الطلاق والعتاق ، وأنه إِذا قال : أنتِ طالق إِن شاء الله ، وأنتَ حُرٌّ إِن شاء الله ، أن ذلك يقع ، وهو قول مالك ؛ وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يقع شيء من ذلك .

وأما اليمين بالله تعالى ؛ فإن الاستثناء فيها يصح ، بخلاف الطلاق ، وكذلك الاستثناء في كل ما يكفِّر ، كالظهار ، والنذر ، لأن الطلاق والعتاق لفظه لفظ إِيقاع ، وإِذا علَّق به المشيئة ، علمنا وجودها ، لوجود لفظ الإِيقاع من جهته ، بخلاف سائر الأيمان ، لأنها ليست بموجبات للحكم ، وإِنما تتعلق بأفعال مستقبلة .

وقد اختُلف في الوقت الذي يصح فيه الاستثناء على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه لا يصح الاستثناء إِلا موصولاً بالكلام ، وقد روي عن أحمد نحو هذا ، وبه

قال أكثر الفقهاء .

والثاني : أنه يصح ما دام في المجلس ، قاله الحسن وطاووس ، وعن أحمد نحوه .

والثالث : أنه لو استثنى بعد سنة ، جاز ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد ابن جبير ، وأبو العالية .

(33/470)

وقال ابن جرير الطبري : الصواب للإنسان أن يستثني ولو بعد حنثه في يمينه ، فيقول : إن شاء الله ، ليخرج بذلك مما ألزمه الله في هذه الآية ، فيسقط عنه الحرج ، فأما الكفَّارة فلا تسقط عنه بحال ، إلا أن يكون الاستثناء موصولاً بيمينه ، ومن قال : له ثُنْياه ولو بعد سنة ، أراد سقوطَ الحرج الذي يلزمه بترك الاستثناء دون الكفَّارة .

قوله تعالى : ﴿ وقل عسى أن يهديَني ربِّي ﴾ قرأ نافع ، وأبو عمرو : "يهديَني ربِّي" بياء في الوصل [دون] الوقف .

وقرأ ابن كثير بياء في الحالين .

وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي بغير ياء في الحالين .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : عسى أن يعطيني ربِّي من الآيات والدلالات على النبوَّة ما يكون أقرب في الرّشد وأدلَّ من قصّة أصحاب الكهف ، ففعل الله له ذلك ، وآتاه من عِلْم غيوب المرسَلين ما هو أوضح في الحُجَّة وأقرب إلى الرَّشد من خبر أصحاب الكهف ، هذا قول الزجاج .

والثاني : أن قريشاً لما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم خبر أصحاب الكهف ، قال : "غداً أُخبركم" كما شرحنا في سبب نزول الآية ، فقال الله تعالى له : ﴿ وقل عسى أن يهديني ربي ﴾ أي : عسى أن يعرِّفني جواب مسائلكم قبل الوقت الذي حدَّدتُه لكم ، ويعجِّل لي من جهته الرشاد ، هذا قول ابن الأنباري . انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(34/470)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾

الضمير في "سيقولون" يراد به أهل التوراة ومعاصري محمد صلى الله عليه وسلم .

وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص .

وقيل : المراد به النصارى ؛ فإن قوماً منهم حضروا النبيّ صلى الله عليه وسلم من نجران

فجرى ذكر أصحاب الكهف فقالت اليعقوبيّة : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم .

وقالت النسطورية : كانوا خمسة سادسهم كلبهم .

وقال المسلمون : كانوا سبعة ثامنهم كلبهم .

وقيل : هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبيّ صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الكهف .

والواو في قوله : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ طريق النحويين أنها واو عطف دخلت في آخر إخبار عن عددهم ؛ لتفصّل أمرهم ، وتدلّ على أن هذا غاية ما قيل ولو سقطت لصح الكلام .

وقالت فرقة منها ابن خالويه : هي واو الثمانية .

وحكى الثعلبيّ عن أبي بكر بن عيّاش أن قريشاً كانت تقول في عددها ستة سبعة وثمانية ؛ فتدخل الواو في الثمانية .

وحكى نحوه القفّال ، فقال : إن قوما قالوا العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة ، فإذا احتيج إلى الزيادة عليها استؤنف خبر آخر بإدخال الواو ، كقوله : ﴿ التائبون العابدون ﴾ [التوبة : 112] ثم قال : ﴿ والناهون عَنِ المنكر والحافظون ﴾ [التوبة : 112] يدلّ عليه أنه لما ذكر أبواب جهنم ﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : 71] بلا واو ، ولما ذكر الجنة قال : ﴿ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : 73] بالواو .

وقال ﴿ خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ ﴾ ثم قال : ﴿ وَأَبْكَاراً ﴾ [التحريم : 5] فالسبعة نهاية العدد عندهم كالعشرة الآن عندنا .

(35/470)

قال القشيري أبو نصر : ومثل هذا الكلام تحكُّم ، ومن أين السبعة نهاية عندهما ثم هو منقوض بقوله تعالى : ﴿ هُوَ اللهُ الذي لاَ إله إِلاَّ هُوَ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ [الحشر : 23] ولم يذكر الاسم الثامن بالواو .

وقال قوم ممن صار إلى أن عددهم سبعة : إنما ذكر الواو في قوله : "سبعة وثامنهم" لينبّه على أن هذا العدد هو الحق ، وأنه مباين للأعداد الأخر التي قال فيها أهل الكتاب ؛ ولهذا قال تعالى في الجملتين المتقدمتين "رجماً بالغيب" ولم يذكره في الجملة الثالثة ولم يقدح فيها بشيء ؛ فكأنه قال لنبيّه هم سبعة وثامنهم كلبهم .

والرجم : القول بالظن ؛ يقال لكل ما يُخرص : رجم فيه ومرجوم ومرجم ؛ كما قال :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتُمُ . . .

وما هو عنها بالحديث المُرَجَّم

قلت : قد ذكر الماوردي والغزنوي : وقال ابن جريج ومحمد بن إسحاق كانوا ثمانية ،

وجعلا قوله تعالى : "وثامنهم كلبهم" أي صاحب كلبهم .

وهذا مما يقوّي طريق النحويين في الواو ، وأنها كما قالوا .

وقال القشيريّ : لم يذكر الواو في قوله : رابعهم سادسهم ، ولو كان بالعكس لكان جائزاً ، فطلب الحكمة والعلة في مثل هذه الواو تكلّف بعيد ، وهو كقوله في موضع آخر ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾

[الحجر : 4] .

وفي موضع آخر : ﴿ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ذِكرى ﴾ [الشعراء : 208-209]

قوله تعالى : ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ أمر الله تعالى نبيّه عليه السلام في هذه الآية أن يردّ علم عدّتهم إليه عز وجل .

ثم أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل .

والمراد به قوم من أهل الكتاب ؛ في قول عطاء .

وكان ابن عباس يقول : أنا من ذلك القليل ، كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، ثم ذكر السبعة بأسمائهم ، والكلب اسمه قطمير كلب أنمر ، فوق القَلَطيّ ودون الكرديّ .

وقال محمد بن سعيد بن المسيّب : هو كلب صيني .

والصحيح أنه زيبري .

وقال : ما بقي بنيسابور محدّث إلا كتب عني هذا الحديث إلا من لم يقدر له .

قال : وكتبه أبو عمرو الحيريّ عني .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا ﴾ أي لا تجادل في أصحاب الكهف إلا بما أوحيناه إليك ؛ وهو ردّ علم عدتهم إلى الله تعالى .

وقيل : معنى المراء الظاهر أن تقول : ليس كما تقولون ، ونحو هذا ، ولا تحتج على أمر مقدّر في ذلك .

وفي هذا دليل على أن الله تعالى لم يبيّن لأحد عددهم فلهذا قال ﴿ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا ﴾ أي ذاهباً ؛ كما قال :

وتلك شَكَاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها . . .

ولم يبح له في هذه الآية أن يماري ؛ ولكن قوله : "إلاّ مراءً" استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب .

سميت مراجعته لهم مراء ثم قيد بأنه ظاهر ؛ ففارق المراء الحقيقي المذموم .

والضمير في قوله : "فيهم" عائد على أهل الكهف .

وفي قوله "منهم" عائد على أهل الكتاب المعارضين .

وقوله : ﴿ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ ﴾ يعني في عدتهم ؛ وحذفت العدّة لدلالة ظاهر القول عليها .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾ روي أنه عليه السلام سأل نصارى نجران عنهم فنهي عن السؤال .

وفي هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قال العلماء : عاتب الله تعالى نبيّه عليه السلام على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذي القرنين : غداً أخبركم بجواب أسئلتكم ؛ ولم يستثن في ذلك .

فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوماً حتى شقّ ذلك عليه وأرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السورة مفرّجة .

وأمر في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور إني أفعل غدا كذا وكذا ، إلاّ أن يعلق ذلك بمشيئة الله عز وجل حتى لا يكون محقّقاً لحكم الخبر ؛ فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذباً ، وإذا قال لأفعلن ذلك إن شاء الله خرج عن أن يكون محقّقاً للمخبر عنه .

واللام في قوله "لشيء" بمنزلة في ، أو كأنه قال لأجل شيء .

الثانية : قال ابن عطية : وتكلّم الناس في هذه الآية في الاستثناء في اليمين ، والآية ليست في الأيمان وإنما هي في سُنّة الاستثناء في غير اليمين .

وقوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ ﴾ في الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويحسّنه الإيجاز ؛ تقديره : إلا أن تقول إلا أن يشاء الله ؛ أو إلا أن تقول إن شاء الله .

فالمعنى : إلا أن تذكر مشيئة الله ؛ فليس "إلا أن يشاء الله" من القول الذي نُهي عنه .

قلت : ما اختاره ابن عطية وارتضاه هو قول الكسائيّ والفرّاء والأخفش .

وقال البصريون : المعنى إلا بمشيئة الله .

فإذا قال الإنسان أنا أفعل هذا إن شاء الله فمعناه بمشيئة الله .

قال ابن عطية : وقالت فرقة "إلا أن يشاء الله" استثناء من قوله : "ولا تقولنّ" قال : وهذا قول حكاه الطبري وردّ عليه ، وهو من الفساد بحيث كان الواجب ألا يُحكَى .

وقد تقدّم القول في الاستثناء في اليمين وحكمه في "المائدة" .

قوله تعالى : ﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ فيه مسألة واحدة ، وهو الأمر بالذكر بعد النسيان واختلف في الذكر المأمور به ؛ فقيل : هو قوله : ﴿ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً ﴾ .

قال محمد الكوفي المفسر : إنها بألفاظها مما أمر أن يقولها كل من لم يستثن ، وإنها كفارة

لنسيان الاستثناء .

وقال الجمهور : هو دعاء مأمور به دون هذا التخصيص .

وقيل : هو قوله "إن شاء الله" الذي كان نسيه عند يمينه .

حكي عن ابن عباس أنه إن نسي الاستثناء ثم ذكر ولو بعد سنة لم يحنث إن كان حالفاً .

وهو قول مجاهد .

(38/470)

وحكى إسماعيل بن إسحاق ذلك عن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ قال : يستثني إذا ذكره .

الحسن : ما دام في مجلس الذكر .

ابن عباس : سنتين ؛ ذكره الغزنويّ قال : فيحمل على تدارك التبرك بالاستثناء للتخلّص عن الإثم .

فأما الاستثناء المفيد حكماً فلا يصح إلا متصلاً .

السُّدّي : أي كل صلاة نسيها إذا ذكرها .

وقيل : استثن باسمه لئلا تنسى .

وقيل اذكره متى ما نسيته .

وقيل : إذا نسيت شيئاً فاذكره يذكّركه .

وقيل : اذكره إذا نسيت غيره أو نسيت نفسك ؛ فذلك حقيقة الذكر .

وهذه الآية مخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهي استفتاح كلام على الأصح ، وليست من الاستثناء في اليمين بشيء ، وهي بعد تعمّ جميع أمته ؛ لأنه حكم يتردّد في الناس لكثرة وقوعه . والله الموفق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(39/470)

وقال أبو حيان :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾

والظاهر أن الضمير في ﴿ سيقولون ﴾ عائد على من تقدم ذكرهم وهم المتنازعون في حديثهم قبل ظهورهم عليهم ، فأخبر تعالى نبيه بما كان من اختلاف قومهم في عددهم وكون الضمير عائداً على ما قلنا ذكره الماوردي .

وقيل : يعود على نصارى نجران تناظروا مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) في عددهم .

فقالت الملكانية : الجملة الأولى ، واليعقوبية الجملة الثانية ، والنسطورية الجملة الثالثة ،

وهذا يروي عن ابن عباس .

وفي الكشاف أن السيد قال الجملة الأولى وكان يعقوبياً ، والعاقب قال الثانية وكان نسطورياً ، والمسلمون قالوا الثالثة وأصابوا وعرفوا ذلك بإخبار الرسول عن جبريل عليهما الصلاة والسلام ، فتكون الضمائر في ﴿ سيقولون ﴾ ﴿ ويقولون ﴾ عائداً بعضها على نصارى نجران ، وبعضها على المؤمنين .

وعن عليّ هم سبعة نفر أسماؤهم تمليخا ، ومكشلبينا ومشلبينا هؤلاء أصحاب يمين الملك ، وكان عن يساره مرنوش ، ودبرنوش ، وشاذنوش وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره ، والسابع الراعي الذي وافقهم ، هربوا من ملكهم دقيانوس واسم مدينتهم أفسوس واسم كلبهم قطمير انتهى .

وقال ابن عطية الضمير في قوله ﴿ سيقولون ﴾ يراد به أهل التوراة من معاصري محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص انتهى .

قيل : وجاء بسين الاستقبال لأنه كانه في الكلام طي وإدماج ، والتقدير فإذا أجبتهم عن سؤالهم وقصصت عليهم قصة أهل الكهف فسلهم عن عددهم فإنهم إذا سألتهم ﴿ سيقولون ﴾ .

وقرأ ابن محيصن ثلاث بإدغام الثاء في التاء ، وحسن ذلك لقرب مخرجهما وكونهما

مهموسين، لأن الساكن الذي قبل الثاء من حروف اللين فحسن ذلك، ويقولون لم يأت بالسين فيه ولا فيما بعده لأنه معطوف على المستقبل فدخل في الاستقبال، أو لأنه أريد به معنى الاستقبال الذي هو صالح له.

وقرأ شبل بن عباد عن ابن كثير بفتح ميم ﴿ خمسة ﴾ وهي لغة كعشرة.

وقرأ ابن محيصن بكسر الخاء والميم وبإدغام التاء في السين، وعنه أيضاً إدغام التنوين في السين بغير غنة.

﴿ رجماً بالغيب ﴾ رمياً بالشيء المغيب عنهم أو ظناً، استعير من الرجم كأن الإنسان يرمي الموضع المجهول عنده بظنه المرة بعد المرة يرجم به عسى أن يصيب، ومنه الترجمان وترجمة الكتاب.

وقول زهير:

وما الحرب إلاّ ما علمتم وذقتم . . .

وما هو عنها بالحديث المرجم

أي المظنون، وأتت هذه عقب ما تقدم ليدل على أن قائل تلك المقالتين لم يقولوا ذلك عن

علم وإنما قالوا ذلك على سبيل التخمين والحدس ، وجاءت المقالة الثالثة خالية عن هذا القيد مشعرة أنها هي المقالة الصادقة كما تقدم ذكر ذلك عن عليّ .

وعن رسول الله عن جبريل عليهما الصلاة والسلام .

وانتصب ﴿ رجماً ﴾ على أنه مصدر لفعل مضمر أي يرجمون بذلك ، أو لتضمين ﴿ سيقولون ﴾ و﴿ يقولون ﴾ معنى يرجمون ، أو لكونه مفعولاً من أجله أي قالوا ذلك لرميهم بالخبر الخفي أو لظنهم ذلك ، أي الحامل لهم على هذا القول هو الرجم بالغيب .

و﴿ ثلاثة ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، والجملة بعده صفة أي هم ثلاثة أشخاص ، وإنما قدرنا أشخاصاً لأن ﴿ رابعهم ﴾ اسم فاعل أضيف إلى الضمير ، والمعنى أنه ربعهم أي جعلهم أربعة وصيرهم إلى هذا العدد ، فلو قدر ﴿ ثلاثة ﴾ رجال استحال أن يصير ثلاثة رجال أربعة لاختلاف الجنسين ، والواو في ﴿ وثامنهم ﴾ للعطف على الجملة السابقة أي ﴿ يقولون ﴾ هم ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ فأخبروا أولاً بسبعة رجال جزماً ، ثم أخبروا أخباراً ثانياً أن ﴿ ثامنهم كلبهم ﴾ بخلاف القولين السابقين ، فإن كلاًّ منهما جملة واحدة وصف المحدث عنه بصفة ، ولم يعطف الجملة عليه .

وذكر عن أبي بكر بن عياش وابن خالويه أنها واو الثمانية ، وأن قريشاً إذا تحدثت تقول ستة سبعة وثمانية تسعة فتدخل الواو في الثمانية ، وكونهما جملتين معطوف إحداهما على الأخرى مؤذن بالتثبيت في الإخبار بخلاف ما تقدم فإنهم أخبروا بشيء موصوف بشيء لم يتأخر عن الإخبار ، ولذلك جاء فيه ﴿ رجماً بالغيب ﴾ ولم يجيء في هاتين الجملتين بشيء يقدح فيهما .

وقرئ وثامنهم كالبهم أي صاحب كلبهم ، وزعم بعضهم أنهم ثمانية رجال ، واستدل بهذه القراءة وأول قوله وكلبهم على حذف مضاف ، أي وصاحب كلبهم .

وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله ﴿ وثامنهم ﴾ ليس داخلاً تحت قولهم بل لقولهم هو قوله : ﴿ ويقولون سبعة ﴾ ثم أخبر تعالى بهذا على سبيل الاستئناف ، وإذا كان استئنافاً من الله دل ذلك على أنهم ثمانية بالكلب ، وأما ﴿ رابعهم كلبهم ﴾ و ﴿ سادسهم كلبهم ﴾ فهو من جملة المحكي من قولهم ، لأن كلاً من الجملتين صفة ، وإلى أن العدة ثمانية بالكلب ذهب الأكثرون من الصحابة والتابعين وأئمة التفسير .

وقال الزمخشري : فإن قلت : فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة ولم دخلت عليها دون الأولتين ؟ قلت : هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في نحو قولك : جاءني رجل ومعه آخر ، ومررت بزيد وفي يده سيف .

ومنه قوله عز وعلا ﴿ وما أهلكنا من قرية إلاّ ولها كتاب معلوم ﴾ وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف ، والدلالة على اتصافه أمر ثابت مستقر ، وهي الواو التي آذنت بأن الذين قالوا ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجموا بالظن كما غيرهم انتهى .

(42/470)

وكون الواو تدخل على الجملة الواقعة صفة دالة على لصوق الصفة بالموصوف وعلى ثبوت اتصاله بها شيء لا يعرفه النحويون ، بل قرروا أنه لا تعطف الصفة التي ليست بجملة على صفة أخرى إلاّ إذا اختلفت المعاني حتى يكون العطف دالاً على المغايرة ، وأما إذا لم يختلف فلا يجوز العطف هذا في الأسماء المفردة ، وأما الجمل التي تقع صفة فهي أبعد من أن يجوز ذلك فيها ، وقد ردوا على من ذهب إلى أن قول سيبويه ، وأما ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل هو على أن وليس باسم ولا فعل صفة لقوله لمعنى ، وأن الواو دخلت في الجملة بأن ذلك ليس من كلام العرب مررت برجل ويأكل على تقدير الصفة .

وأما قوله تعالى ﴿ إلاّ ولها ﴾ فالجملة حالية ويكفي رداً لقول الزمخشري : إنّا لا نعلم أحداً من علماء النحو ذهب إلى ذلك ، ولما أخبر تعالى عن مقالتهم واضطرابهم في عددهم أمره

تعالى أن يقول ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ أي لا يخبر بعددهم إلا من يعلمهم حقيقة وهو الله تعالى ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ والمثبت في حق الله تعالى هو الأعلمية وفي حق القليل العالمية فلا تعارض .

قيل : من الملائكة .

وقيل : من العلماء وعلم القليل لا يكون إلاّ بإعلام الله .

وقال ابن عباس : أنا من القليل ، ثم نهاه تعالى عن الجدال فيهم أي في عدتهم ، والمراء وسمي مراجعته لهم ﴿ مراء ﴾ على سبيل المقابلة لمماراة أهل الكتاب له في ذلك ، وقيده بقوله ظاهراً أي غير متعمق فيه وهو إن نقص عليهم ما أوحي إليك فحسب من غير تجهيل ولا تعنيف كما قال ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ وقال ابن زيد : ﴿ مراء ظاهراً ﴾ هو قولك لهم ليس كما تعلمون .

وحكي الماوردي إلاّ بحجة ظاهرة .

وقال ابن الأنباري : إلاّ جدال متيقن عالم بحقيقة الخبر ، والله تعالى ألقى إليك ما لا يشوبه باطل .

وقال ابن بحر : ﴿ ظاهراً ﴾ يشهده الناس .

وقال التبريزي : ﴿ ظاهراً ﴾ ذاهباً بحجة الخصم .

وأنشد :

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها . . .

(43/470)

أي ذاهب ، ثم نهاه أن يسأل أحداً من أهل الكتاب عن قصتهم لا سؤال متعنت لأنه خلاف ما أمرت به من الجدال بالتي هي أحسن ، ولا سؤال مسترشد لأنه تعالى قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم ، ثم نهاه أن يخبر بأنه يفعل في الزمن المستقبل شيئاً إلاّ ويقرن ذلك بمشيئة الله تعالى ، وتقدم في سبب النزول أنه عليه السلام حين سأله قريش عن أهل الكهف والخضر والروح قال : "غداً أخبركم" .

ولم يقل إن شاء الله ، فتأخر عنه الوحي مدة .

قيل : خمسة عشر يوماً .

وقيل : أربعين و ﴿ إلاّ أن يشاء الله ﴾ استثناء لا يمكن حمله على ظاهره لأنه يكون داخلاً تحت القول ، فيكون من المقول ولا ينهاه الله أن يقول ﴿ إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ لأنه كلام صحيح في نفسه لا يمكن ينهى عنه ، فاحتيج في تأويل هذا الظاهر إلى تقدير .

فقال ابن عطية : في الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويحسنه الإيجاز تقديره إلاّ أن تقول ﴿

إلا أن يشاء الله ﴾ أو إلاّ أن تقول إن شاء الله ، فالمعنى إلاّ أن تذكر مشيئة الله فليس ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ من القول الذي نهى عنه .

وقال الزمخشري : ﴿ إلاّ أن يشاء الله ﴾ متعلق بالنهي لا بقوله ﴿ إني فاعل ﴾ لأنه لو قال ﴿ إني فاعل ﴾ كذا ﴿ إلاّ أن يشاء الله ﴾ كان معناه إلاّ أن تعترض مشيئة الله دون فعله ، وذلك ما لا مدخل فيه للنهي وتعلقه بالنهي على وجهين .

أحدهما : ولا تقولنّ ذلك القول إلا أن يشاء الله أن تقوله بأن ذلك فيه .

والثاني : ولا تقولنه إلاّ بأن يشاء الله أي إلاّ بمشيئته وهو في موضع الحال ، أي إلاّ ملتبساً بمشيئة الله قائلاً إن شاء الله .

وفيه وجه ثالث وهو أن يكون إلاّ أن يشاء الله في معنى كلمة ثانية كأنه قيل : ولا تقولنه أبداً ونحوه ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلاّ أن يشاء الله ربنا ﴾ لأن عودهم في ملتهم مما لن يشاء الله ، وهذا نهي تأديب من الله لنبيه حين قال : "ائتوني غداً أخبركم" . ولم يستثن انتهى .

قال ابن عطية : وقالت فرقة هو استثناء من قوله ﴿ ولا تقولن ﴾ وحكاه الطبري ، ورد عليه وهو من الفساد من حيث كان الواجب أن لا يحكى انتهى .

وتقدم تخريج الزمخشري : ذلك على أن يكون متعلقاً بالنهي ، وتكلم المفسرون في هذه الآية في الاستثناء في اليمين ، وليست الآية في الإيمان والظاهر أمره تعالى بذكر الله إذا عرض له نسيان ، ومتعلق النسيان غير متعلق الذكر .

فقيل : التقدير ﴿ واذكر ربك ﴾ إذا تركت بعض ما أمرك به .

وقيل واذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسيّ ، وقد حمل قتادة ذلك على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها .

وقيل : ﴿ واذكر ربك ﴾ بالتسبيح والاستغفار ﴿ إذا نسيت ﴾ كلمة الاستثناء تشديداً في البعث على الاهتمام بها .

وقيل : ﴿ واذكر ﴾ مشيئة ﴿ ربك ﴾ إذا فرط منك نسيان لذلك أي ﴿ إذا نسيت ﴾ كلمة الاستثناء ثم تنبهت لها ، فتداركها بالذكر قاله ابن جبير .

قال : ولو بعد يوم أو شهر أو سنة .

وقال ابن الأنباري : بعد تقضي النسيان كما تقول : اذكر لعبد الله إذا صلى صاحبك أي إذا قضى الصلاة .

والإشارة بقوله لأقرب من هذا إلى الشيء المنسي أي ﴿ اذكر ربك ﴾ عند نسيانه بأن

تقول ﴿ عسى أن يهديني ربي ﴾ لشيء آخر بدل هذا المنسي أقرب منه ﴿ رشداً ﴾ وأدنى خيراً أو منفعة ، ولعل النسيان كان خيرة كقوله ﴿ أو ننسها نأت بخير منها ﴾ وقال الزمخشري : وهذا إشارة إلى بناء أهل الكهف ، ومعناه لعل الله يؤتيني من البينات والحجج على أني نبيّ صادق ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشداً من بناء أصحاب الكهف ، وقد فعل ذلك حيث آتاد من قصص الأنبياء والأخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك وأدل انتهى .

وهذا تقدمه إليه الزجّاج قال المعنى : ﴿ عسى ﴾ أن ييسر الله من الأدلة على نبوّتي أقرب من دليل أصحاب الكهف .

وقال ابن الأنباري : ﴿ عسى ﴾ أن يعرفني جواب مسائلكم قبل الوقت الذي حددته لكم ويعجل لي من جهته الرشاد .

وقال محمد الكوفي المفسر : هي بألفاظها مما أمر أن يقولها كل من لم يستثن وإنها كفارة لنسيان الاستثناء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ الضميرُ في الأفعال الثلاثة للخائضين في قصتهم في عهد النبيِّ عليه الصلاة والسلام من أهل الكتابِ والمسلمين لكن لا على وجه إسنادِ كلَ منها إلى كلهم بل إلى بعضهم ﴿ ثلاثة رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ أي هم ثلاثةُ أشخاص رابعُهم أي جاعلُهم أربعةً بانضمامه إليهم كلبُهم ، قيل : قالته اليهودُ ، وقيل : قاله السيد من نصارى نَجرانَ وكان يعقوبياً ، وقرىء ثلاثةٌ بإدغام الثاء في التاء ﴿ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ قيل : قالتْه النصارى أو العاقبُ منهم وكان نِسْطوريا ً ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾ رمياً بالخبر الخفيِّ الذي لا مُطّلَعَ عليه أو ظنّاً بالغيب من قولهم : رجَمَ بالظن إذا ظن ، وانتصابُه على الحالية من الضمير في الفعلين جميعاً أي راجمين أو على المصدرية منهما فإن الرجْمَ والقولَ واحد ، أو من محذوف مستأنَفٍ واقعٍ موقعَ الحال من الضمير في الفعلين معاً أي يرجُمون رجماً ، وعدمِ إيرادِ السينِ للاكتفاء بعطفه على ما فيه ذلك .

﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ هو ما يقوله المسلمون بطريق التلقي من هذا الوحي وما فيه مما يرشدهم إلى ذلك من عدم نظمِه في سلك الرجْمِ بالغيب ، وتغييرُ سبكه بزيادة

الواو المفيدةِ لزيادة وكادةِ النسبة فيما بين طرفيها لا بوحي آخر كما قيل ﴿ قُلْ ﴾ تحقيقاً للحق ورداً على الأولين ﴿ رَّبِّى أَعْلَمُ ﴾ أي أقوى علماً ﴿ بِعِدَّتِهِم ﴾ بعددهم ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ ﴾ أي ما يعلم عِدّتهم أو ما يعلمهم فضلاً عن العلم بِعدتهم ﴿ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ من الناس قد وفقهم الله تعالى للاستشهاد بتلك الشواهد . قال ابن عباس رضي الله عنهما : حين وقعت الواوُ انقطعت العِدّةُ وعليه مدارُ قوله رضي الله عنه : أنا من ذلك القليل ولو كان في ذلك وحيٌ آخرُ لما خفيَ عليه ولما احتاج إلى الاستشهاد بالواو ولكان المسلمون أسوةً له في العلم بذلك . وعن علي كرم الله وجهه أنهم سبعةُ نفرٍ أسماؤُهم : يمليخا ومكشليبنا ومشليبنا ، هؤلاء أصحابُ يمينِ الملكِ وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان يستشير هؤلاء الستةَ في أمره ، والسابعُ الراعي الذي رافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوسَ واسمه كفيشيططيوش ﴿ فَلاَ تُمَارِ ﴾ الفاءُ لتفريع النهي على ما قبله أي إذ قد عرفتَ جهلَ أصحابِ القولين فلا تجادلهم ﴿ فِيهِمْ ﴾ في شأن الفتية ﴿ إِلاَّ مِرَآءً ظاهرا ﴾ قدرَ ما تعرّض له الوحيُ من وصفهم بالرجم بالغيب وعدمِ العلم على الوجه الإجمالي وتفويضِ العلم إلى الله سبحانه من غير تصريحٍ بجهلهم وتفضيحٍ لهم فإنه يُخِلّ بمكارم الأخلاق .

﴿ وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ ﴾ في شأنهم ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من الخائضين ﴿ أَحَدًا ﴾ فإن فيما قُص عليك لمندوحةً عن ذلك مع أنه لا علمَ لهم بذلك .

وقال عطاء : إلا قليلٌ من أهل الكتابِ فالضمائرُ الثلاثة في الأفعال الثلاثةِ لهم وما ذكر من الشواهد لإرشاد المؤمنين إلى صحة القولِ الثالثِ وفيه محيصٌ عما في الأول من التكلف في جعل أحدِ الأقوالِ المحكية المنظومةِ في سِمْط واحدٍ ناشئاً عن الحكاية مع كون الأخيرين بخلافه ووضوحٌ في سبب حذف المفعولِ في لا تُمار ، والمعنى حينئذ : وإذ قد وقفتَ على أن كلَّهم ليسوا على خطأ في ذلك فلا تجادِلْهم إلا جدالاً ظاهراً نطَق به الوحيُ المبين من غير تجهيل لجميعهم فإن فيهم مُصيباً وإن قل ، والنهيُ عن الاستفتاء لدفع ما عسى يُتوهم من احتمال جوازِه أو احتمالِ وقوعِه بناءً على إصابة بعضهم ، فالمعنى لا ترجعْ إليهم في شأن الفتيةِ ولا تصدّق القولَ الثالثَ من حيث صدورُه عنهم ، بل من حيث التلقّي من الوحي .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ ﴾ أي لأجل شيءٍ تعزم عليه ﴿ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ ﴾ الشيءَ ﴿ غَدًا ﴾ أي فيما يُستقبل من الزمان مطلقاً فيدخُل فيه الغدُ دخولاً أولياً (فإنه نزل حين قالت اليهودُ لقريش : سلُوه عن الروح وعن أصحاب الكهفِ وذي القرنين ، فسألوه عليه الصلاة والسلام فقال : " ائتوني غداً أُخبرْكم " ولم يستثنِ فأبطأ عليه الوحيُ حتى شق عليه وكذّبته قريشٌ) . وما قيل من أن المدلولَ بالعبارة هو الغدُ وما بعد ذلك مفهومٌ بطريق دِلالة النصِّ يرده أن ما بعده ليس بمعناه في مناط النهي ، فإن وسعةَ المجالِ دليلُ القدرة فليتأمل .

﴿ إِلَّآ أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ استثناءٌ مفرّغ من النهي أي لا تقولن ذلك في حال من الأحوال إلا حالَ ملابستِه بمشيئته تعالى على الوجه المعتادِ وهو أن يقال: إن شاء الله أو في وقت من الأوقات إلا وقتَ أن يشاء الله أن تقوله لا مطلقاً بل مشيئةً إذن، فإن النسيانَ أيضاً بمشيئته تعالى، ولا مساغَ لتعليقه بفاعل لعدم سِدادِ استثناءِ اقترانِ المشيئة بالفعل ومنافاةِ استثناءِ اعتراضها النهي، وقيل: الاستثناءُ جارٍ مَجرى التأبيدِ، كأنه قيل: لا تقولنّه أبداً كقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّآ أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ ﴿ واذكر رَّبَّكَ ﴾ بقولك: إن شاء الله متداركاً له ﴿ إِذَا نَسِيتَ ﴾ إذا فرَطَ منك نسيانٌ ثم ذكرته، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ولو بعد سنةٍ ما لم يحنَثْ، ولذلك جوّز تأخيرُ الاستثناءِ، وعامةُ الفقهاء على خلافه إذ لو صح ذلك لما تقرر إقرارٌ ولا طلاقٌ ولا عَتاقٌ ولم يُعلم صِدقٌ ولا كذِبٌ. قال القرطبيّ: هذا في تدارُك التّرْك والتخلف عن الإثم، وأما الاستثناءُ مبالغةٌ في الحث عليه، أو اذكر ربّك وعقابَه إذا تركت بعضَ ما أمرك به ليبعثك ذلك على التدارُك، أو اذكره إذا اعتراك النسيانُ ليذكّرك المنسيَّ، وقد حُمل على أداء الصلاةِ المَنْسية عند ذكرِها ﴿ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِى رَبّى ﴾ أي يوفقني ﴿ لِأَقْرَبَ مِنْ هذا ﴾ أي لشيء

أقربَ وأظهرَ من نبأ أصحابِ الكهفِ من الآيات والدلائل الدالةِ على نبوتي ﴿ رَشَدًا ﴾ أي إرشاداً للناس ودلالةً على ذلك ، وقد فعل عز وجل ذلك حيث آتاه من البينات ما هو أعظمُ من ذلك وأبينُ كقصص الأنبياءِ المتباعدِ أيامُهم والحوادثِ النازلة في الأعصار المستقبلةِ إلى قيام الساعةِ أو لأقربَ رشداً وأدنى خبراً من المنسيّ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(49/470)

وقال الآلوسى :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾

﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ الضمير فيه وفي الفعلين بعد كما اختاره ابن عطية وبعض المحققين لليهود المعاصرين له صلى الله عليه وسلم الخائضين في قصة أصحاب الكهف ، وأيد بذلك قول الحسن .

وغيره : إنهم كانوا قبل بعث موسى عليه السلام لدلالته ان لهم علماً في الجملة بأحوالهم وهو يستلزم أن يكون لهم ذكر في التوراة وفيه ما فيه .

والظاهر أن هذا إخبار بما لم يكن واقعاً بعد كأنه قيل سيقولون إذا قصصت قصة أصحاب

الكف أو إذا سئلوا عن عدتهم هم ﴿ ثلاثة ﴾ أي ثلاثة أشخاص ﴿ رَّابِعُهُمْ ﴾ أي جاعلهم أربعة بانضمامه إليهم ﴿ كَلْبُهُمْ ﴾ فثلاثة خبر مبتدأ محذوف و ﴿ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ مبتدأ وخبر ولا عمل لاسم الفاعل لأنه ماض والجملة في موضع النعت لثلاثة والضمير أن لها لا للمبتدأ ومن ثم استغنى عنه بالحذف وإلا كان الظاهر أن يقال : هم ثلاثة وكلب لكن بما أريد اختصاصها بحكم بديع الشان عدل إلى ما ذكر لينبه بالنعت الدال على التفضلة والتمييز على أن أولئك الفتية ليسوا مثل كل ثلاثة أصطحبوا ، ومن ثم قرن الله تعالى في كتابه العزيز أخس اليحوانات ببركة صحبتهم مع زمرة المتبتلين إليه المعتكفين في جواره سبحانه وكذا يقال فيما بعد ، وإلى هذا الاعراب ذهب أبو البقاء واختاره العلامة الطيبي وهو الذي أشار إلى ما أشير إليه من النكتة ونظم في سلكها مع الآية حديث " ما ظنك باثنين الله تعالى ثالثهما " فأوجب ذلك أن شنع بعض أجلة الأفاضل عليه حتى أوصله إلى الكفر ونسبه إليه ، ولعمري لقد ظلمه وخفي عليه مراده فلم يفهمه ، ولم يجوز ابن الحاجب كون الجملة في موضع النعت كما لم يجوز هو ولا غيره كأبي البقاء جعلها حالاً وجعلها خبراً بعد خبر للمبتدأ المحذوف ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمام الكلام في ذلك .

وتقدير تمييز العدد أشخاص أولى من تقديره رجال لأنه لا تصير الثلاثة الرجال أربعة بكلبهم لاختلاف الجنسين ، وعدم اشتراط اتحاد الجنس في مثل ذلك يأباه الاستعمال الشائع مع كونه خلاف ما ذكره النحاة .

والقول بأن الكلب بشرف صحبتهم ألحق بالعقلاء تخيل شعري .

وقرأ ابن محيصن ﴿ ثلاثة ﴾ بإدغام الثاء في التاء تقول أبعث تلك وحسن ذلك لقرب مخرجهما وكونهما مهموسين ﴿ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ عطف على ﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ والمضارع وإن كان مشتركاً بين الحال والاستقبال إلا أن المراد منه هنا الثاني بقرينة ما قبله فلذا اكتفى عن السين فيه وإذا عطفته على مدخول السين دخل معه في حكمها واختص بالاستقبال بواسطتها لكن قيل إن العطف على ذلك تكلف .

وقرأ شبل بن عباد عن ابن كثير ﴿ خَمَسَةٍ ﴾ بفتح الميم وهو كالسكون لغة فيها نظير الفتح والسكون في العشرة .

وقرأ ابن محيصن بكسر الخاء والميم وبإدغام التاء في السين ؛ وعنه أيضاً إدغام التنوين في السين بغير غنة ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾ أي رمياً بالخبر الغائب الخفي عنهم الذي لا مطلع لهم عليه وإتياناً به أو ظناً بذلك ، وعلى الأول : استعير الرجم وهو الرمي بالحجارة التي لا تيب غرضاً ومرمى للمتكلم من غير علم وملاحظة بعد تشبيهه به .

وفي "الكشف" أنه جعل الكلام الغائب عنهم علمه بمنزلة الرجام المرمي به لا يقصد به

مخاطب معين ولو قصد لأخطأ لعدم بنائه على اليقين كما أن الرجام قلما يصيب المرجوم على السداد بخلاف السهم ونحوه ولهذا قالوا : قذفاً بالغيب ورجماً به ولم يقولوا رمياً به ، وأما الرمي في السب ونحوه فالنظر إلى تأثيره في عرض المرمى تأثير السهم في الرمية انتهى .

وعلى الثاني : شبه ذكر أمر من غير علم يقيني واطمئنان قلب بقذف الحجر الذي لا فائدة في قذفه ولا يصيب مرماه ثم استعير له ووضع الرجم موضع الظن حتى صار حقيقة عرفية فيه .

وفي "الكشف" أيضاً أنه لما كثر استعمال قولهم : رجماً بالظن فهموا من المصدر معناه دون النظر إلى المتعلق فقالوا رجماً بالغيب أي ظناً به وعلى ذلك جاء قول زهير :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتموا . . .

وما هو عنها بالحديث المرجم

حيث أراد المظنون ، وانتصاب ﴿ رَجْماً ﴾ هنا على الوجهين إما على الحالية من الضمير في الفعلين أي راجمين أو على المصدرية منهما فإن الرجم والقول واحد .

وفي "البحر" أنه ضمن القول معنى الرجم أو من محذوف مستأنف أو واقع موقع الحال من

ضمير الفعلين معاً أي يرجمون رجماً ، وجوز أبو حيان كونه منصوباً على أنه مفعول من أجله أي يقولون ذلك لرميهم بالغيب أو لظنهم بذلك أي الحال لهم على القول هو الرجم بالغيب وهو كما ترى.

﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ المراد الاستقبال أيضاً ، والكلام في عطفه كالكلام في عطف سابقه ، والجملة الواقعة بعد العدد في موضع الصفة له كالجملتين السابقتين على ما نص عليه الزمخشري ، ولم يجعل الواو مانعة عن ذلك بل ذكر أنها الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في قولك : جاءني رجل ومعه آخر ومررت بزيد وفي يده سيف ومنه قوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الحجر : 4] وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن إتصافه بها أمر ثابت مستقر وهي التي أذنت هنا بأن قائلي ما ذكر قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم فهو الحق دون القولين الأولين ، والدليل على ذلك أنه سبحانه وتعالى أتبعهما قوله تبارك اسمه ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾ وابتع هذا قوله عز وجل ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ وعلى إذان الواو بما ذكر يدل كلام ابن عباس رضي

الله تعالى عنهما ، فقد روى أنه قال : حين وقعت الواو انقطعت العدة أي لم يبق بعدها عدة عاد يلتفت إليها ، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والبتات .

وقد نص عطاء على أن هذا القليل من أهل الكتاب ، وقيل من البشر مطلقاً وهو الذي يقتضيه ما أخرجه الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن ابن عباس أنه قال : أنا من أولئك القليل ، وأخرجه عنه غير واحد من طرق شتى ، وأخرج نحوه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود .

(53/470)

وزعم بعضهم أن المراد إلا قليل من الملائكة عليهم السلام لا يرتضيه أحد من البشر ، والمثبت في هذا الاستثناء هو العالمية وذلك لا يضر في كون الأعلمية له عز وجل ، هذا وإلى كون الواو كما ذكر الزمخشري ذهب ابن المنير وقال بعد نقله : وهو الصواب لا كالقول بأنها واو الثمانية فإن ذلك أمر لا يستقر لمثبته قدم ورد ما ذكروه من ذلك ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في موضعه التنبيه عليه .

وقال أبو البقاء : الجملة إذا وقعت صفة للنكرة جاز أن يدخلها الواو وهذا هو الصحيح في إدخال الواو في ثامنهم .

واعترض على ذلك غير واحد فقال أبو حيان : كون الواو تدخل على الجملة الواقعة صفة دالة على لصوق الصفة بالموصوف وعلى ثبوت اتصاله بها شيء لا يعرفه النحويون بل قرروا أنه لا تعطف الصفة التي ليست بجملة على صفة أخرى إلا إذا اختلفت المعاني حتى يكون العطف دالاً على المغايرة ، وأما إذا لم تختلف فلا يجوز العطف ، هذا في الأسماء المفردة ، وأما الجمل التي تقع صفة فهي أبعد من أن جوز ذلك فيها .

وقد ردوا على من ذهب إلى أن قول سيبويه : وأما ما جاء بالمعنى وليس باسم ولا فعل إلى أن وليس باسم الخ صفة لمعنى وأن الواو دخلت في الجملة بأن ذلك ليس من كلام العرب وليس من كلامهم مررت برجل ويأكل على تقدير الصفة ، وأما قوله تعالى : ﴿ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الحجر : 4] فالجملة فيه حالة ويكفى رداً لقول الزمخشري أنا لا نعلم أحداً من علماء النحو ذهب إليه اه .

وقال "صاحب الفرائد" : دخول الواو بين الصفة والموصوف غير مستقين لاتحاد الصفة والموصوف ذاتاً وحكماً وتأكيد اللصوق يقتضي الإثنينية مع أنا نقول ؛ لا نسلم أن الواو تفيد التأكيد وشدة اللصوق غاية ما في الباب أنها تفيد الجمع والجمع ينبىء عن الإثنينية واجتماع الصفة والموصوف ينبىء عن الاتحاد بالنظر إلى الذات .

وقد ذكر صاحب المفتاح أن قول من قال : إن الواو في قوله تعالى :

﴿ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الحجر : 4] داخلة بين الصفة والموصوف سهو منه وإنما هي واو الحال وذو الحال ﴿ قَرْيَةٌ ﴾ [الحجر : 4] وهي موصوفة أي وما أهلكنا قرية من القرى إلا ولها الخ ، وأما جاءني رجل ومعه آخر ففيه وجهان ، أحدهما أن يكون جملتين متعاطفتين وثانيهما أن يكون آخر معطوفاً على رجل أي جاءني رجل ورجل آخر معه ، وعدل عن جاءني رجلان ليفهم أنهما جاءا مصاحبين ، وأما الواو في مررت بزيد وفي يده سيف فإنما جاز دخولها بين الحال وذيها لكون الحال في حكم جملة بخلاف الصفة بالنسبة إلى الموصوف فإن جاء زيد راكباً في حكم جاء وهو راكب بخلاف جاء زيد الراكب فافهمه .

سلمنا أنها داخلة بين الصفة والموصوف لتأكيد اللصوق لكن الدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر غير مسلم وأين الدليل عليه ؟ وكون الواو هي التي آذنت بأن القول المذكور عن ثبات علم وطمأنينة نفس في غاية البعد ، والقول بأن الاتباع يدل على ذلك إن أريد منه أنه يدل على إيذان الواو بما ذكر فبطلانه ظاهر وإن أريد منه أن يدل على صدق قائلي القول الأخير وعدم صدق قائلي القولين الأولين فمسلم أن إتباع القولين الأولين برجما بالغيب يدل على عدم الصدق دلالة لا شبهة فيها لكن لا نسلم أن عدم اتباع القول الأخير به واتباعه بما اتبع يدل على ذلك وإن سلمنا فهو يدل دلالة ضعيفة ، ولا نسلم أيضاً دلالة كلام ابن عباس

على ما ذكر ، والظاهر أنه علم أن القول الأخير صادق من الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم وأن مراده من قوله حين وقعت الواو انقطعت العدة أن الذي هو صدق ما وقعت الواو فيه وانقطعت العدة به ، فالحق أن الواو واو عطف والجملة بعده معطوفة على الجملة قبله .

(55/470)

وانتصر العلامة الطيبي للزمخشري وأجاب عما اعترض به عليه فقال : اعلم أنه لا بد قبل الشروق في الجواب من تبيين المقصود تحريراً للبحث فالواو هنا ليست على الحقيقة ولا يعتبر في المجاز النقل الخصوصي بل المعتبر فيه اعتبار نوع العلاقة ، وذكروا أن المجاز في عرف البلاغة أولى من الحقيقة وأبلغ وأن مدار علم البيان الذوق السليم الذي هو أنفع من ذوق التعليم ولا يتوقف على التوقيف وليس ذلك كعلم النحو ، والمجاز لا يختص بالاسم والفعل بل قد يقع في الحروف .

وقد نقل شارح اللباب عن سيبويه أن الواو في قولهم : بعت الشاة ودرهماً بمعنى الباء ، وتحقيقه أن الواو للجمع والباء للإلصاق وهما من واد واحد فسلك به طريق الاستعارة وكم وكم ، وإذا علم ذلك فليعلم أن معنى قوله : فائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف أن

للصفة نوع اتصال بالموصوف فإذا أريد توكيد اللصوق وسط بينهما الواو ليؤذن أن هذه الصفة غير منفكة عن الموصوف وإليه الإشارة فيما بعد من كلامه ، وإن الحال في الحقيقة صفة لا فرق إلا بالاعتبار ألا ترى أن صفة النكرة إذا تقدمت عليها وهي بعينها تصير حالاً ولو لم يكونا متحدين لم يصح ذلك ، ثم إن قولك : جاءني رجل ومعه آخر وقولك : مررت بزيد ومعه آخر لما كانا سواء في الصورة اللهم إلا في اعتبار المعرفة والنكرة كان حكمهما سواء في الواو وهو مراد الزمخشري من إيراد المثالين لا كما فهم بعضهم ، وأما قول الفرايدي في تعليل امتناع دخول الواو بين الصفة والموصوف لاتحادهما ذاتاً وحكماً وهو مناف لما يقتضيه دخول الواو من المغايرة فمبنى على أن الواو عاطفة لأنها هي التي تقتضي المغايرة كما قال السكاكي وقد بين وجه مجازه لمجرد الربط .

(56/470)

وأما قوله في جاءني رجل ومعه آخر أنه جملتان فهو كما تراه ، وأما قوله : إن جاء زيد راكباً في حكم جاء زيد وهو راكب فمن المعكوس فإن الأصل في الحال الإفراد كما يدل عليه كلام ابن الحاجب وغيره من الأعيان ، وأما تسليمه الدخول لتأكيد اللصوق ومنه الدلالة على أن الاتصاف أمر ثابت مستقر فمن العجائب فكيف يسلم التأكيد ولا يسلم فائدته ، ويدفع

الاعتراضات الباقية أن ما استند إليه الزمخشري ليس من باب الأدلة اليقينية بل هي من باب الإمارات وتكفي في هذه المقامات ، وقال ابن الحاجب : لا يجوز أن يكون ﴿ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ صفة لما قبل ولا حالاً لعدم العامل مع عدم الواو ، ويجوز أن يكون كل منهما خبراً بعد خبر للمبتدأ المحذوف والإخبار إذا تعددت جاز في الثاني منها الاقتران بالواو وعدمه ، وهذا إن سلم أن المعنى في الجمل واحد أما إذا قيل إن قوله تعالى : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ استئناف منه سبحانه لا حكاية عنهم فيفهم أن القائلين سبعة أصابوا ولا يلزم أن يكون خبراً بعد خبر ، ويقويه ذكر ﴿ رَجْماً بِالْغَيْبِ ﴾ قبل الثالثة فدل على أنها مخالفة لما قبلها في الرجم بالغيب فتكون صدقاً البتة إلا أن هذا الوجه يضعف من حيث أن الله تعالى قال : ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ فلو جعل ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ تصديقاً منه تعالى لمن قال سبعة لوجب أن يكون العالم بذلك كثيراً فإن أخبار الله تعالى صدق فدل على أنه لم يصدق منهم أحد ، وإذا كان كذلك وجب أن تكون الجملة كلها متساوية في المعنى ، وقد تعذر أن تكون الأخيرة وصفاً فوجب أن يكون الجميع كذلك انتهى ؛ ويفهم أن الواو هي المانعة من الوصفية والداء هو الداء فالدواء هو الدواء .

وقوله : وإذا كان كذلك وجب الخ كلام بمراحل عن مقتضى البلاغة لألأن في كل اختلاف

فوائد والبليغ من ينظر إلى تلك الفوائد لا من يرده إلى التطويل والحشو في الكلام ، وأيضاً لا بد

من قول صادق من الأقوال الثلاثة لينطبق قوله تعالى : ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ مع قوله

سبحانه ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾ لأنه قد اندفع به القولان الأولان فيكون الصادق هذا .

وتعقيبه به أمارة على صدقة وذلك مفقول على ما ذهب إليه السائل ، ومع هذا أين طلاوة

الكلام وأين اللطف الذي تستلذه الأفهام .

وما ذكره من لزوم كون العالم بذلك كثيراً على تقدير كون ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ استئنافاً منه

تعالى لأن أخبار الله تعالى لأن أخبار الله تعالى صدق لا يخلو عن بحث لأن المصدق حينئذ

هم المسلمون وهم قليل بالنسبة إلى غيرهم ، ولا اختصاص للقليل بما دون العشرة وإن

أخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه أنه قال : كل قليل في القرآن فهو دون العشرة فإن ذلك

في حيز المنع ودون إثباته التعب الكثير ، على أنه يمكن أن يقال : المراد قلة العالمين بذلك قبل

تصديقه تعالى ، ولا يبعد أن يكونوا قليلين في حد أنفسهم من المسلمين كانوا أو من أهل

الكتاب أو منهما ، نعم القول بالاستئناف مما لا ينبغي أن يلتفت إليه وإن ذهب إليه بعض

المفسرين .

هذا ووافق في الانتصار جماعة منهم سيد المحققين وسند المدققين فقال :

الظاهر أن قوله تعالى : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ صفة لسبعة كما يشهد به أخواه ، وأيضاً ليس

سبعة في حكم الموصوفة كما قيل في ﴿ قَرْيَةٌ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الحجر : 4] حتى يصح الحمل على الحال اتفاقاً ، ولا شك أن معنى الجمع يناسب معنى اللصوق وباب المجاز مفتوح فلتحمل هذه الواو عليه تأكيداً للصوق الصفة بالموصوف فتكون هذه أيضاً فرعا للعاطفة كالتي بمعنى مع والحالية والاعتراضية .

(58/470)

وأيد ذلك أيضاً بما روى عن ابن عباس .

وأورد على تعليل منعه للحالية بعدم كون النكرة في حكم الموصوفة أنه لا ينحصر مسوغ مجيء الحال من النكرة في كونها موصوفة أو في حكم الموصوفة كما في الآية التي ذكرها فقد ذكر في "المغنى" أن من المسوغات اقتران الجملة الحالية بالواو فليحفظ .

وقد وافق ابن مالك الرافدين له فقال في "شرح التسهيل" : ما ذهب إليه صاحب الكشاف من توسط الواو بين الصفة والموصوف فاسد من خمسة أوجه ، أحدها : أنه قاس في ذلك الصفة على الحال وبينهما فروق كثيرة لجواز تقدم الحال على صاحبها وجواز تخالفهما في الاعراب والتعريف والتنكير وجواز إغناء الواو عن الضمير في الجملة الحالية وامتناع ذلك في الواقعة نعتاً فكما ثبت مخالفة الحال الصفة في هذه الأشياء ثبتت مخالفتها إياها بمقارنة

الواو والجملة الحالية وامتناع ذلك في الجملة النعتية ، الثاني : أن مذهبه في هذه المسألة لا يعرف بين البصريين والكوفيين فوجب أن لا يلتفت إليه ، الثالث : أنه معلل بما لا يناسب وذلك أن الواو تدل على الجمع بين ما قبلها وما بعدها وذلك مستلزم لتغايرهما وهو ضد لما يراد من التوكيد فلا يصح أن يقال لعاطف مؤكد ، الرابع : أن الواو فصلت الأول من الثاني ولولاها لتلاصقا فكيف يقال إنها أكدت لصوقها ، الخامس : أن الواو لو صلحت لتأكيد لصوق الموصوف بالصفة لكان أولى المواضع بها موضعاً لا يصلح للحال بخلاف جملة تصلح في موضعها الحال اه ، ويعلم ما فيه بالتأمل الصادق فيما تقدم .

والعجب مما ذكره في الوجه الرابع فهو توهم يستغرب من الأطفال فضلاً عن فحول الرجال فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك .

وقال بعضهم : إن ضمائر الأفعال الثلاث للخائضين في قصة أصحاب الكهف في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب والمسلمين لا على وجه إسناد كل من الأفعال إلى كلهم بل إلى بعضهم فالقول الأول لليهود على ما أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي ، وقيل لسيد من سادات نصارى العرب النجرانيين وكان يعقوبياً وكان قد وفد مع جماعة منهم إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر أصحاب الكهف فذكر من عدتهم ما قصه الله تعالى شأنه ، ولعل التعبير بضمير الجمع لموافقة من معه إياه في ذلك ، والقول الثاني على ما روى عن السدي أيضاً النصارى ولم يقيدهم ؛ وقيل العاقب ومن معه من نصارى نجران وكانوا وافدين أيضاً وكان نسطورياً والقول الثالث لبعض المسلمين ، وكأنه عز اسمه لما حكى الأقوال قبل أن تقال على ذلك لقنهم الحق وأرشدهم إليه بعدم نظم ذلك القول في سلك الرجم بالغيب كما فعل بأخويه وتغيير سبكه بإقحام الواو وتعقيبه بما عقبه به على ما سمعت من كون ذلك إمارة على الحقية ، والمراد بالقليل على هذا من وفقه الله تعالى للاسترشاد بهذه الأمارات كابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقد مر غير بعيد أنه عد من ذلك وذكر ما ظاهره الاستشهاد بالواو .

وقيل إنهم علموا تلك العدة من وحي غير ما ذكر بأن يكون قد أخبرهم صلى الله عليه وسلم بذلك عن إعلام الله تعالى إياه به .

وتعقبه بأنه لو كان كذلك لما خفي على الحبر ولما احتاج إلى الاستشهاد ولكان المسلمون أسوة له في العلم بذلك .

وأجيب بأنه لا مانع من وقوف الحبر على الخبر مع جماعة قليلة من المسلمين ، ولا يلزم من إخباره صلى الله عليه وسلم بشيء وقوف جميع الصحابة عليه فكم من خبر تضمن حكماً شرعياً تفرد بروايته عنه عليه الصلاة والسلام واحد منهم رضي الله تعالى عنهم فما ظنك بما هو من باب القصص التي لم تتضمن ذلك ، واستشهاده رضي الله تعالى عنه نصاً لا ينافي الوقوف بل قد يجامعه بنا على ما وقفت عليه آنفاً فهو ليس نصاً في عدم الوقوف .

وقد أورد على القول بأن منشأ العلم التلقن من هذا الوحي لما تضمن من الإمارات أنه يلزم من ذلك كون الصحابة السامعين للآية أسوة لابن عباس في العلم نحو ما ذكره المتعقب بل لأنهم العرب الذين أرضعوا ثدي البلاغة في مهد الفصاحة وأشرقت على آفاق قلوبهم وصفحات أذهانهم من مطالع إيمانهم الاستوائية أنوار النبوة المفاضة من شمس الحضرة الأحدية وقلما تنزل آية ولا تلقى عصاها في رباع أسماعهم لوفور رغبتهم في الاستماع ومزيد حرصه صلى الله عليه وسلم على اسماعهم ، ومتى فهم الزمخشري وإضرابه من هذه الآية ما فهموا فلم لم يفهم أصحابه عليه الصلاة والسلام ذلك وهم هم أيخطر ببال من له أدنى عقل أن الأعجام شعروا وأكثر أولئك العرب لم يشعروا ؟ أم كيف يتصور تجلي أسرار بلاغة القرآن لمن لا يعرف إعجازه إلا بعد المشقة وتحجب عمن يعرف ذلك بمجرد السليقة ؟ ولا يكاد يدفع هذا الايراد إلا بالتزام أن السامعين لهذه الآية قليلون لأنها نزلت في مكة وفي

المسلمين هناك قلة مع عدم تيسر الاجتماع لهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا اجتماع بعضهم مع بعض نحو تيسر ذلك في المدينة أو بالتزام القول بأن الملتفتين إلى ما فيها من الشواهد كانوا قليلين وهذا كما ترى .

(61/470)

وقيل إن الضمائر لنصارى نجران تناظروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدد أصحاب الكهف فقالت الملكانية الجملة الأولى واليعقوبية الجملة لثانية والنسطورية الجملة الثالثة ، ويروى هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وهو أولى من القول السابق المحكى عن بعضهم .

وقال الماوردي واستظهره أبو حيان : إن الضمائر للمتنازعين في حديثهم قبل ظهورهم عليهم فيكون قد أخبر سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بما كان من اختلاف قومهم في عدم ، ولا يخفى أنه يبعد هذا القول من حكاية تلك الأقوال بصيغة الاستقبال مع تعقيبها بقوله تعالى : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ وقد تقدم رواية أن القوم حين أتوا باب الكهف مع المبعوث لاشتراء الطعام قال : دعوني أدخل إلى أصحابي قبلكم فدخل وعمى على القوم أثرهم ، وفي رواية أنهم كلما أراد أن يدخل عليهم أحد منهم رعبوا فتركوا وبنى عليهم

مسجد ، فلو قيل على هذا : إن الضمائر للمعثرين اختلفوا في عددهم لعدم تمكنهم من رؤيتهم والاجتماع معهم فقال كل طائفة منهم ما قالت ، ولعل الطائفة الأخيرة استخبرت الفتى فأخبرها بتلك العدة فصدقته وأخذت كلامه بالقبول وتأيد بما عندهم من أخبار أسلافهم فقالت ذلك عن يقين ورجمت الطائفتان المتقدمتان لعدم ثبوت ما يفيد العلم عندهما ولعلهما كانتا كافرتين لم يبعد بعد ما نقل عن الماوردي فتدبر .

ومن غريب ما قيل : إن الضمير في ﴿ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ ﴾ لله عز وجل والجمع للتعظيم .

(62/470)

وأسماؤهم على ما صح عن ابن عباس مكسلمينا ويمليخا ومرطولس وثبيونس ودردونس وكفاشيطيطوس ومنطنواسيس وهو الراعي والكلب اسمه قطمير ، وروى عن علي كرم الله تعالى وجهه أن أسمائهم يمليخا ومكشلينيا ومثلينيا وهؤلاء أصحاب يمين الملك ومرنوش ودبرنوش وشاذنوش وهؤلاء أصحاب يساره وكان يستشير الستة والسابع الراعي ، ولم يذكر في هذه الرواية اسمه ، وذكر فيها أن اسم كلبهم قطمير ، وفي صحة نسبة هذه الرواية لعلي كرم الله تعالى وجهه مقال ، وذكر العلامة السيوطي في "حواشي البيضاوي" أن الطبراني روى ذلك عن ابن عباس في معجمه الأوسط بإسناد صحيح .

والذي في "الدر المنثور" رواية الطبراني في الأوسط بإسناد صحيح ما قدمناه عن ابن عباس والله تعالى أعلم.

وقد سموا في بعض الروايات بغير هذه الأسماء، وذكر الحافظ ابن حجر في "شرح البخاري" أن في النطق بأسمائهم اختلافاً كثيراً ولا يقع الوثوق من ضبطها.

وفي البحر أن أسماء أصحاب الكهف أعجمية لا تنضبط بشكل ولا نقط والسند في معرفتها ضعيف، وذكروا لها خواصاً فقال النيسابوري عن ابن عباس: إن أسماء أصحاب الكهف تصلح للطلب والهرب وإطفاء الحريق تكتب في خرقة ويرمى بها في وسط النار ولبكاء الطفل تكتب وتوضع تحت رأس في المهد وللحرث تكتب على القرطاس ويرفع على خشب منصوب في وسط الزرع وللضربان وللحمى المثلثة والصداع والغنى والجاه والدخول على السلاطين تشد على الفخذ اليمنى ولعسر الولادة تشد على الفخذ الأيسر ولحفظ المال والركوب في البحر والنجاة من القتل انتهى، ولا يصح ذلك عن ابن عباس ولا عن غير من السلف الصالح، ولعله شيء افتراه المتزيون بزي المشايخ لأخذ الدراهم من النساء وسخفة العقول، وأنا أعد هذا من خواص أسمائهم فإنه صحيح مجرب.

وقرىء ﴿ وَثَامِنُهُمْ ﴾ أي صاحب كلبهم.

واستدل بعضهم بهذه القراءة على أنهم ثمانية رجال وأول القراءة المواترة بأنها على حذف مضاف أي وصاحب كلبهم وهو كما ترى ﴿ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ ﴾ الفاء لتفريع النهي على ماقبله ، والمماراة على ما قال الراغب المحاجة فيما فيه مرية أي تردد ، وأصل ذلك من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب ، وفسرها غير واحد بالمجادلة وهي المحاجة مطلقاً أي إذا قد وقفت على أن في الخائضين مخطئاً ومصيباً فلا تجادلهم ﴿ فِيهِمْ ﴾ أي في شأن الفتية ﴿ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِرًا ﴾ غير متعمق فيه وذلك بالاقتصار على ما تعرض له الوحي المبين من غير تجهيل لجميعهم فإن فيهم مصيباً وإن قل ولا تفضيح وتعنيف للجاهل منهم فإن ذلك مما يخل بمكارم الأخلاق التي بعثت لإتمامها .

وقال ابن زيد : المراء الظاهر القول لهم ليس كما تعلمون .

وحكى الماوردي أن المراء الظاهر ما كان بحجة ظاهرة ، وقال ابن الأنباري : هو جدال العالم المتبقين بحقيقة الخبر ، وقال ابن بحر : هو ما يشهده الناس ، وقال التبريزي : المراد من الظاهر الذاهب بحجة الخصم يقال ظهر إذا ذهب ، وأنشد :

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها . . .

أي ذاهب ﴿ وَلاَ تَسْتَفْتِ ﴾ ولا تطلب الفتيا ﴿ فِيهِمْ ﴾ في شأنهم ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من الخائضين ﴿ أَحَدًا ﴾ فإن فيما أفتيناك غني عن الاستفتاء فيحمل على التفتي المنافي

لمكارم الأخلاق إذ الحال لا تقتضي تطيب الخواطر أو نحو ذلك ، وقيل : المعنى لا ترجع إليهم في شأنهم الفتية ولا تصدق القول الثالث من حيث صدوره منهم بل من حيث التلقي من الوحي ، وقيل : المعنى إذ قد عرفت جهل أصحاب القولين فلا تجادلهم في شأنهم إلا جدالاً ظاهراً قدر ما تعرض له الوحي من وصفهم بالرجم بالغيب ولا تستفت فيهم من أولئك الطائفتين أحداً لاستغنائك بما أوتيت مع أنهم لا علم لهم بذلك وهو خلاف الظاهر كما لا يخفى .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) ﴾

(64/470)

﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ ﴾ أي لأجل شيء تعزم عليه ﴿ لِشَىْء إِنّى فَاعِلٌ ذلك ﴾ الشيء ﴿ غَداً ﴾ أي فيما يستقبل من الزمان مطلقاً وهو تأكيد لما يدل عليه اسم الفاعل بناء على أنه حقيقة في الاستقبال ويدخل فيه الغد بمعنى اليوم الذي يلي يومك وهو المتبادر دخولاً أولياً ، فإن الآية نزلت حين سألت قريش النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين عليه الصلاة والسلام : غداً أخبركم ولم يستثن فأبطأ عليه صلى الله عليه وسلم الوحي خمسة عشر يوماً على ما روى عن ابن إسحاق ، وقيل ؛ ثلاثة أيام ،

وقيل : أربعين يوماً فشق ذلك عليه عليه الصلاة والسلام وكذبته قريش وحاشاه .

وجوز غير واحد أن يبقى على المعنى المتبادر وما بعده بذلك المعنى يعلم بطريق دلالة النص .

وتقعب بأن ما بعده ليس بمعناه في مناطق النهي وهو احتمال المانع فإن الزمان إذا اتسع قد ترتفع فيه الموانع أو تخف وليس بشيء لأن المانع شامل للموت واحتمال في الزمان الواسع أقوى .

﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ ﴾

استثناء متعلق بالنهي على ما اختاره جمع من المحققين ، وقول ابن عطية اغتراراً برد الطبري إنه من الفساد بحيث كان الواجب أن لا يحكى خروج عن الانصاف ، وهو مفرغ من أعم الأحوال .

وفي الكلام تقدير باء للملابسة داخلة على أن والجار والمجرور في موضع الحال أي لا تقولن ذلك في حال من الأحوال إلا حال ملابسته بمشيئة الله عز وجل بأن تذكر ، قال في "الكشف" : إن التباس القول بحقيقة المشيئة محال فبقي أن يكون بذكرها وهو إن شاء الله تعالى ونحوه مما يدل على تعليقه الأمور بمشيئة الله تعالى .

ورد بما يصلح أن يكون تأييداً لا رداً ، وجوز أن يكون المستثنى منه أعم الأوقات أي لا تقولن ذلك في وقت من الأوقات إلا في وقت مشيئة الله تعالى ذلك القول منك ، وفسرت المشيئة على هذا بالإذن لأن وقت المشيئة لا يعلم إلا بإعلامه تعالى به وإذنه فيه فكيون مآل المعنى لا تقولن إلا بعد أن يؤذن لك بالقول .

(66/470)

وجوز أيضاً أن يكون الاستثناء منقطعاً ، والمقصود منه التأبيد أي ولا تقولن ذلك أبداً ، ووجه ذلك في "الكشف" بأنه نهى عن القول إلا وقت مشيئة الله تعالى وهي مجهولة فيجب الانتهاء أبداً ، وأشار إلى أنه هو مراد الزمخشري لا ما يتوهم من جعله مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلا أَن يَشَاء اللهُ ﴾ [الأعراف : 89] من أن التأبيد لعدم مشيئته تعالى فعل ذلك غدا لقبحه كالعود في ملة الكفر لأن القبح فيما نحن فيه على إطلاقه غير مسلم ، والتخصيص بما يتعلق بالوحي على معنى لا تقولن فيما يتعلق بالوحي إني أخبركم به إلا أن يشاء الله تعالى والله تعالى لم يشأ أن تقوله من عندك فإذا لا تقولنه أبداً يأباه النكرة في سياق النهي المتضمن للنفي والتقييد بالمستقبل ، وأن قوله : ﴿ فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا

﴾ أي مخبر عن أمر يتعلق بالوحي غداً غير مؤذن بأن قوله في الغد يكون من عنده لا عن وحي فالتشبيه في أن الاستثناء بالمشيئة استعمل في معرف التأبيد وإن كان وجه الدلالة مختلفاً أخذاً من متعلق المشيئة تارة ومن الجهل بها أخرى ، ولا يخفى أن الظاهر في الآية الوجه الأولى وأن أمته صلى الله عليه وسلم وهو في الخطاب الذي تضمنته سواء مخصوصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن يكون الاستثناء متعلقاً بقوله تعالى : ﴿ إِنّى فَاعِلٌ ﴾ [الكهف : 23] بأن يكون استثناء مفرغاً مما في حيزة من أعم الأحوال أو الأوقات لأنه حينئذاً إما أن تعتبر تعلق المشيئة بالفعل فيكون المعنى إني افعل في كل حال أو في كل وقت إلا في حال أو وقت مشيئة الله تعالى الفعل وهو غير سديد أو يعتبر تعلقها بعدمه فيكون المعنى إني فاعل في كل حال أو في كل وقت إلا في حال أو وقت مشيئة الله تعالى عدم الفعل ، ولا شبهة في عدم مناسبته للنهي بل هو أمر مطلوب .

(67/470)

وقال الخفاجي : إذا كان الاستثناء متعلقاً ب ﴿ أني فاعل ﴾ [الكهف : 23] والمشيئة متعلقة بالعدم صار المعنى إني فاعل في كل حال إلا إذا شاء الله تعالى عدم فعلي وهذا لا يصح النهي عنه ، أما على مذهب أهل السنة فظاهر ، وأما على مذهب المعتزلة

فلأنهم لا يشكون في أن مشيئة الله تعالى لعدم فعل العبد الاختياري إذا عرضت دونه بإيجاد ما يعوق عنه من الموت ونحوه منعت عنه وإن لم تتعلق عندهم بإيجاده وإعدامه ، وكذا لا يصح النهي إذا كانت المشيئة متعلقة بالفعل في المذهبين ، فما قيل : إن تعلق الاستثناء بما ذكر صحيح والمعنى عليه النهي عن أن يذهب مذهب الاعتزال في خلق الأعمال فيضيفها لنفسه قائلاً إن لم تقترن مشيئة الله تعالى بالفعل فإنا فاعله استقلالاً فإن اقترنت فلا لا يخفى ما فيه على نبيه فتأمل .

وقد شاع الاعتراض على المعتزلة في زعمهم أن المعاصي واقعة من غير إرادة الله تعالى ومشيئته وإنه تعالى لا يشاء إلا الطاعات بأنه لو كان كذلك لوجب فيما إذا قال : الذي عليه دين لغيره قد طالبه به والله لأعطيتك حقك غداً إن شاء الله تعالى أن يكون حانثاً إذا لم يفعل لأن الله تعالى قد شاء ذلك لكونه طاعة وإن لم يقع فتلزمه الكفارة عن يمينه ولم ينفعه الاستثناء كما لو قال : والله لأعطينك إن قام زيد فقام ولم يفعل ، وفي التزام الحنث في ذلك خروج عن الإجماع .

وقد أجاب عنه المرتضى بأن للاستثناء الداخل في الكلام وجوهاً مختلفة فقد يدخل في الأيمان والطلاق والعتاق وسائر العقود وما يجري مجراها من الأخبار وهذا يقتضي التوقف عن إمضاء الكلام والمنع من لزوم ما يلزم به ويصير به الكلام كأنه لا حكم له ، ويصح في هذا الوجه الاستثناء في الماضي فيقال : قد دخلت الدار إن شاء الله تعالى ليخرج بذلك من أن يكون خبراً قاطعاً أو يلزم به حكم ، ولا يصح في المعاصي لأن فيه إظهار الانقطاع إلى الله تعالى والمعاصي لا يصلح ذلك فيها قال : وهذا الوجه أحد محتملات الآية ، وقد يدخل في الكلام ويراد به التسهيل والأقدار والتخلية والبقاء على ما هو عليه من الأحوال وهذا هو المراد إذا دخل في المباحات وهو ممكن في الآية ، وقد يدخل لمجرد غرض الانقطاع إلى الله تعالى ويكون على هذا غير معتد به في كون الكلام صادقاً أو كاذباً وهو أيضاً ممكن في الآية ، وقد يدخل ويراد به اللطف والتسهيل وهذا يختص بالطاعات ولا يصح أن تحمل الآية عليه لأنها تتناول كل ما لم يكن قبيحاً .

وقول المديون السابق إن قصد به هذا المعنى لا يلزم منه الحنث إذا لم يفعل ، ويدين المديون . وغيره إن ادعى قصد ما لا يلزمه فيه شيء فلا ورود لما اعترضوا به ، والإنصاف أن الاعتراض ليس بشيء والرد عليهم غني عن مثل ذلك ، هذا ثم اعلم أن إطلاق الاستثناء على التقييد بأن شاء الله تعالى بل على التقييد بالشرط مطلقاً ثابت في اللغة والاستعمال كما نص عليه السيرافي في شرح الكتاب .

وقال الراغب : الاستثناء دفع ما يوجبه عموم سابق كما في قوله تعالى : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مُحَرَّمًا على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ [الأنعام : 145] الخ أو دفع ما يوجبه اللفظ كقوله : امرأته طالق إن شاء الله تعالى انتهى .

(69/470)

وفي الحديث " من حلف على شيء فقال : إن شاء الله تعالى فقد استثنى " فما قيل : إن كلمة إن شاء الله تعالى تسمى استثناء لأنه عبر عنها هنا بقوله سبحانه : ﴿ إِلَّآ أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ ليس بسديد فكذا ما قيل : إنها أشبهت الاستثناء في التخصيص فأطلق عليها اسمه كذا قال الخفاجي ، ولا يخفى أن في الحديث نوع إباء لدعوى أن إطلاق الاستثناء على التقييد بأن شاء الله تعالى لغوي لأنه صلى الله عليه وسلم لم يبعث لإفادة المدلولات اللغوية بل لتبليغ الأحكام الشرعية فتذكر .

﴿ واذكر رَّبَّكَ ﴾ تعالى أي مشيئة ربك فالكلام على حذف مضاف ، وذكر مشيئته تعالى على ما يدل عليه ما قبل أن يقال إن شاء الله تعالى ، وقد قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت ﴿ إِذَا نَسِيتَ ﴾ أي إذا فرط منك نسيان ذلك ثم تذكرته فإنه ما دام ناسياً لا يؤمر بالذكر وهو أمر بالتدارك عند التذكر سواء قصر الفصل أم طال .

وقد أخرج ابن جرير .

والطبراني .

وابن المنذر .

وغيرهم عن ابه عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان يرى الاستثناء ولو بعد سنة ويقرأ الآية ، وروي ذلك عن أئمة أهل البيت رضي الله تعالى عنهم وهو رواية عن الإمام أحمد عليه الرحمة ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جبير في رجل حلف ونسي أن يستثني قال : له ثنياه إلى شهر ، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عمرو بن دينار عن عطاء أنه قال : من حلف على يمين فله الثنيا حلب ناقة قال : وكان طاووس يقول ما دام في مجلسه ، وأخرج ابن أبي حاتم أيضاً عن إبراهيم قال : يستثني ما دام في كلامه ، وعامة الفقهاء على اشتراط اتصال الاستثناء في عدم الحنث ولو صح جواز الفصل وعدم تأثيره في الأحكام لا سيما إلى الغاية المروية عن ابن عباس لما تقرر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يعلم صدق ولا كذب .

ويحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه خالف ابن عباس في هذه المسألة فاستحضره لينكر عليه فقال له أبو حنيفة : هذا يرجع إليك إنك تأخذ البيعة بالأيمان

أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن كلامه .

ومن غريب ما يحكى أن رجلاً من علماء المغرب أحب أن يرى علماء بغداد ويتحقق مبلغ علمهم فشد الرحل للاجتماع معهم فدخل بغداد من باب الكرخ فصادف رجلين يمشيان أمامه يبيعان البقل في أطباق على رؤوسهما فسمع أحدهما يقول لصاحبه : يا فلان أني لأعجب من ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كيف جوز فصل الاستثناء ، وقال بعدم تأثيره في الأحكام ولو كان الأمر كما يقول لأمر الله تعالى نبيه أيوب عليه السلام بالاستثناء لئلا يحنث فإنه أقل مؤنة مما أرشده سبحانه إليه بقوله تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص : 44] وليس بين حلفه وأمره بما ذكره أكثر من سنة فرجع ذلك الرجل إلى بلده واكتفى بما سمع ورأى فسئل كيف وجدت علماء بغداد ؟ فقال : رأيت من يبيع البقل على رأسه في الطرقات من أهلها بلغ مبلغاً من العلم يعترض به على ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فما ظنك بأهل المدارس المنقطعين لخدمة العلم .

والإنصاف أن هذا الاعتراض على علامة يستكثر ممن يبيع البقل والله تعالى أعلم بصحة النقل ، لا يقال : إن ظاهر الآية على ما سمعت يطابق ما ذهب إليه الحبر وإلا لم يكن للتدارك معنى وكذا ما جاء في الخبر لما قالوا : إن التدارك فيما يرجع إلى تفويض العبد يحصل بذكره بعد التنبه أما في التأثير في الحكم حتى يخرجه عن الجزم فليست الآية مسوقة له ولا دالة عليه بوجه .

وقال بعضهم : إن ذلك من خصائصه صلى الله عليه وسلم فله عليه الصلاة والسلام أن يستثنى ولو بعد حين بخلاف غيره .

فقد أخرج ابن أبي حاتم .

وابن مردويه .

والطبراني في الكبير بسند متصل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية : إذا نسيت الاستثناء فاستثن إذا ذكرت ثم قال : هي خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لأحدنا أن يستثني إلا في صلة يمين ، وقيل ليس في الآية والخبر أن الاستثناء المتدارك من القول السابق بل من مقدر مدلول به عليه والتقدير في الآية كلما نسيت ذكر الله تعالى اذكره حين التذكر إن شاء الله تعالى ، وفي الحديث لا أنسى المشيئة بعد اليوم ولا أتركها إن شاء الله تعالى أو أقول إن شاء الله تعالى إذا قلت إني فاعل أمراً فيما بعد ، ولا يخفى أنه خلاف الظاهر جداً .

وجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء ، والمراد من ذلك المبالغة في الحث عليه بإيهام أن تركه من الذنوب التي جيب لها التوبة والاستغفار ،

وقيل المعنى واذكر ربك وعقابه إذا تركت بعض ما أمرك به ليبعثك ذلك على التدارك ، وحمل النسيان على الترك مجاز لعلاقة السببية والمسببية أو اذكر ربك إذا عرض لك نسيان ليذكرك المنسي ، و﴿ نَسِيتُ ﴾ على هذا منزل منزلة اللازم ، ولا يخفى بعد ارتباط الآية على هذين المعنيين بما سبق .

وحمل قتادة الآية على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها فإذا أراد أن المراد من الآية واقض الصلاة المنسية إذ ذكرتها فهو كما ترى وأمر الارتباط كما في سابقه ، وإن أراد أنها تدل على الأمر بقضاء الصلاة المنسية عند ذكرها لما أنها دلت على الأمر بذكر الاستثناء المنسي ، وأمر الصلاة أشد والاهتمام بها أعظم فالأمر أسهل ولكن ظاهر كلامهم أنه أراد الأول .

وأخرج ابن أبي شيبة .

والبيهقي في "شعب الإيمان" وغيرهما عن عكرمة أنه قال في الآية : أي اذكر ربك إذا غضبت ، ووجه تفسير النسيان بالغضب أنه سبب للنسيان ، وأمر ذها القول نظير ما مر .

﴿ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِ رَبّى ﴾ أي يوفقني ﴿ لِاقْرَبَ مِنْ هذا ﴾ أي لشيء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي ﴿ رَشَدًا ﴾ إرشاداً للناس ودلالة على ذلك.

وإلى هذا ذهب الزجاج، وقد فعل ذلك عز وجل حيث آتاه من الآيات البينات ما هو أعظم من ذلك وأبين كقصص الأنبياء عليهم السلام المتباعدة أيامهم والحوادث النازلة في الاعصار المستقبلة إلى قيام الساعة، وكأنه تهوين منه عز وجل لأمر قصة أصحاب الكهف كما هونه جل وعلا أولاً بقوله سبحانه: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ [الكهف: 9] الخ، وهو متعلق بمجموع القصة، وعطفه بعض الأفاضل على العامل في قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَوَى الفتية إِلَى الكهف ﴾ [الكهف: 10] كأنه قيل اذكر إذ أوى الفتية الخ وقل عسى أن يهديني ربي لما هو أظهر من ذلك دلالة على نبوتي.

(73/470)

وقال الجبائي: هو متعلق بقوله تعالى: ﴿ واذكر رَّبَّكَ ﴾ إلى آخره؛ والمعنى عنده أدع ربك سبحانه وتعالى إذا نسيت شيئاً أن يذكرك إياه وقل إن لم يذكرك سبحانه عسى أن يهديني لشيء أقرب من المنسي خيراً ومنفعة ﴿ فهذا ﴾ إشارة إلى المنسي والرشد الخير

والمنفعة و﴿ أَقْرَبُ ﴾ على معناه الحقيقي ، ولا يخفى أن هذا أقرب من جهة المتعلق وأبعد من جهات ، وقيل : إنه متعلق بالمتعاطفات قبله و﴿ هذا ﴾ إشارة ما تضمنته من الخير أمراً ونهياً كأنه قيل افعل كذا ولا تفعل كذا واطمع من ربك أن يهديك لأقرب مما أرشدت إليه في ضمن ما سمعت من الأمر والنهي خيراً ومنفعة ، وقد هدى صلى الله عليه وسلم في ضمن ما أنزل عليه عليه الصلاة والسلام بعد ذلك من الأوامر والنواهي إلى ما هو أقرب من ذلك منفعة ولا يكاد يحصى وهو كما ترى ، ولعله على علاته أقرب مما نقل عن الجبائي ، وقال ابن الأنباري : معنى الآية عسى أن يعرفني ربي جواب مسائلكم قبل الوقت الذي حددته لكم ويعجل لي من جهته الرشاد ، ولا يكاد يستفاد هذا المعنى من الآية ، وعلى فرض الاستفادة تكون نظير استفادة المعاني المرادة من المعميات ويجل كتاب الله تعالى الكريم عن ذلك .

وأخرج البيهقي من طريق المعتمر بن سليمان قال : سمعت أبي يحدث عن رجل من أهل الكوفة أنه كان يقول : إذا نسي الإنسان الاستثناء فتوبته أن يقول : ﴿ عسى أَن يَهْدِيَنِى رَبّى لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَدًا ﴾ وحكاه أبو حيان عن محمد الكوفي المفسر ، والظاهر أنه الرجل الذي ذكره المعتمر ، وهو قول لا دليل عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

لطيفة

قال صاحب روح البيان:

اعلم أن ابن عباس رضي الله عنهما جوز الاستثناء المنفصل بالآية المذكورة وعامة الفقهاء على خلافه إذ لو صح ذلك لما تقرر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يعلم صدق ولا كذب في الإخبار عن الأمور المستقبلة.

قال القرطبي في تأويل الآية: هذا في تدارك التبرّي والتخلص منا لإثم وإما الاستثناء المغير للحكم فلا يكون إلا متصلاً انتهى.

قال في مناقب الإمام الأعظم روي أن محمد بن إسحاق صاحب المغازي كان يحسد أبا حنيفة لما روي من تفضيل المنصور أبي جعفر أبا حنيفة على سائر العلماء فقال محمد بن إسحاق عند أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور لأبي حنيفة ما تقول في رجل حلف وسكت ثم قال: إن شاء الله بعد ما فرغ من يمينه وسكت فقال أبو حنيفة: لا يعمل الاستثناء لأنه مقطوع وإنما ينفعه إذا كان متصلاً فقال محمد بن إسحاق: كيف لا ينفعه وقد قال جد أمير المؤمنين وهو عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- أنه يعمل الاستثناء وإن كان بعد سنة لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فقال أمير المؤمنين: أهكذا قول جدي فقال: نعم فقال المنصور على وجه الغضب لأبي حنيفة: أتخالف جدي يا أبا حنيفة؟ فقال أبو

حنيفة لقول ابن عباس تأويل يخرج على الصحة ثم قال لأمير المؤمنين : إن هذا وأصحابه لا يرونك أهلاً للخلافة لأنهم يبايعونك ثم يخرجون فيقولون

235

إن شاء الله ويخرجون من بيعتك ولا يكون في عنقهم حنث فقال أمير المؤمنين لأعوانه : خذوا هذا يعني محمد بن إسحاق فأخذوه وجعلوا رداءه في عنقه وحبسوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 5 صـ 280 ﴾

(75/470)

فائدة

قال ابن عجيبة :

الإشارة : قد تضمنت إشارة الآية خمس خصال من خصال الصوفية :

الأولى : ترك المراء والجدال ، إلا ما كان على وجه المذاكرة والمناظرة في استخراج الحق أو تحقيقه ، من غير ملاججة ولا مخاصمة ، في سهولة وليونة وسلامة القلوب .

الثانية : استفتاء القلوب فيما يعرض من الأمور ؛ قال صلى الله عليه وسلم « اسْتَفْتِ قَلْبَكَ ، وإِنْ أفتاك المفْتونَ وأفتَوْك ، فالبر ما اطمأن القلب وسكن إليه ، والإثم ما حاك في الصدر

وتردد » ، والمراد بالقلوب التي تُسْتَفْتَى . القلوب الصافية المنورة بذكر الله ، الزاهدة فيما سوى الله ، فإنها إذا كانت بهذه الصفة لا يتجلى فيها إلا الحق ، ولا تسكن إلا إلى الحق ، بخلاف القلوب المخوضة بحب الدنيا والهوى ، فلا تفتي إلا بما يوافق هواها .

الثالثة : التفويض إلى مشيئة الله وتدبيره ، والرضا بما يبرز به القضاء ، بحيث لا يعقد على شيء ، ولا يجزم بفعل شيء ، إلا ملتبسًا بمشيئة الله ، فينظر ما يفعل الله ، فالعاقل إذا أصبح نظر ما يفعل الله به ، والجاهل إذا أصبح نظر ما يفعل بنفسه ، كما قال صاحب الحِكم .

الرابعة : الاشتغال بالذكر والفكر ، حتى يغيب عما سوى المذكور ؛ قال تعالى : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ أي : إذا نسيت ما سواه ، حينئذ تكون ذاكرًا حقيقة ، فالذكر الحقيقي : هو الذي يغيب صاحبه عن شهود نفسه ورسمه وحسه ، حتى يكون الحق تعالى هو المتكلم على لسانه ؛ لشدة غيبته فيه ، وهذا أمر مشاهد لمن عثر على شيخ التربية والتزم صحبته .

الخامسة : التماس الترقي والزيادة في الاهتداء واليقين ، فكل مقام يدركه ينبغي أن يطلب

مقامًا أعلى منه، ولا نهاية لعلمه تعالى ولا لعظمته، ﴿ وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدًا ﴾، وبالله التوفيق. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 3 صـ 263. 264 ﴾

(77/470)

وقال القاسمى :

﴿ سَيَقُولُونَ ﴾

أي : الخائضون في قصتهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب الذين لا علم لهم بالحقيقة : ﴿ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ ﴾ أي : بعض آخر منهم : ﴿ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ ﴾ أي : رميا وتلفظا بالذي غاب عنهم . يعني ظنا خاليا عن اليقين . قال ابن كثير : كالذي يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ حكاية لقول فريق آخر كان يرى عدتهم هذه : ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أي : ممن أطلعه الله عليه : ﴿ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً ﴾ أي : لا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف، إلا جدالا ظاهرا لينا غير متعمق فيه . وذلك على قدر ما تعرض له التنزيل الكريم من وصفهم

بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الإجمالي ، وتفويض العلم إلى الله سبحانه ، من غير تجهيل لهم ، ولا تعنيف بهم ، في الرد عليهم كما قال : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] ، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة . قيل : المماراة المجادلة . وقيل بالفرق . فالمجادلة المحاجّة مطلقاً . والمماراة المحاجة فيما فيه مرية أي : تردد ، لأنها من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحليب : ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾

(78/470)

أي لا تسأل أحداً منهم عن نبئهم . لأن السؤال إما للاسترشاد ، أو للتعنت والمحاورة . ولا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه رجماً بالغيب . من غير استناد إلى كلام معصوم . والتعنت للرد على الخصم وتزييف ما عنده ، ينافي مكارم الأخلاق . والمعنى : جاءك الحق الذي لا مرية فيه ، فهو المقدم الحاكم على ما تقدم من الكتب والأقوال .

تنبيهات :

الأول : ذهب أكثر المفسرين إلى أن قول الخائضين الأخير ، وهو أنهم سبعة وثامنهم كلبهم ، هو الحق . لأنه لم يوصف بكونه رجماً بالغيب كما وصف الأولان .

ولتخصيصه بالواو في قوله : ﴿ وَثَامِنُهُمْ ﴾ وهي الواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، لإفادة تأكيد لصوق الصفة بالموصوف . والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر . وأنه لا عدد وراءه . كما قال ابن عباس : حسن وقعت الواو انقطعت العدة .

وأقول : لا يخفى ضعف التمسك بهذين الوجهين لتقوية القول الأخير . فإن عدم وصفه بالرجم بالغيب إنما هو لدلالة ما قبله عليه . وفي إعادته إخلال بالبلاغة . ومسألة الواو أوهى من بيت العنكبوت . فإن مثل هذا النزاع لا يكتفى بحسمه بمثل هذا الإيماء الدقيق القريب من الإلغاز . كما لا يخفى على من تتبع مواقع حسم الشبه في الكتاب والسنة وكلام البلغاء . لا سيما والواو من المحكي لا من الحكاية . فيدل على ثبوته عند القائل لا عند الله ، فلا يكون من الإيماء في شيء . وجواب بعضهم بأنه تعالى لما حكى قولهم قبل أن يقولوه هكذا ، لقنهم أن يقولوه إذا أخبروا عنه بهذه العبارة ، وبأنه لا مانع أن تكون من الحكاية - بعيد غاية البعد ، وتكلف ظاهر ، وإغراب في القول .

ثم قيل : إن هذه الجملة لا تتعين للوصفية . لجواز كونها حالاً من النكرة ، لأن اقترانها بالواو مسوغ . ويجوز أن يكون خبراً عن المبتدأ المحذوف . لأنه يجوز في مثله إيراد الواو وتركها .

على أنه إنما يتم ما ذكروه لو لم يتبع قولهم بقوله تعالى : ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾ [الكهف : 22] فإن في تأثره للأقوال المتقدمة كلها ، برهاناً ظاهراً على أنهم لم يهتدوا لعدتهم ، وإرشاداً إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام ، رد العلم إليه تعالى .

وإشارة إلى أنه لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم بيّن وبرهان نيّر . وإنه إذا أوقفنا على الفيصل قلنا به ، وإلا وقفنا . وقد تأكد هذا بقوله سبحانه بعده : ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ فإن فيه دلالة على أنه يعلمهم البعض ممن لم يشأ الحق تعيينه . وهو إما نبي ، أو من كان في مدتهم ، أو من نقب عن نبئهم بإثارة صحيحة أو تلق عن المعصوم . وفيه إعلام بأنه لم يضرب على الناس بسدّ من جهالة شأنهم .

وبالجملة ، فالنظم الكريم ، بأسلوبه هذا ، لا يدل على أن الأخير هو الحق كما علمت .

وأما ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله : أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل . كانوا سبعة - فهو من الموقوف عليه . ولو رفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وصح سنده لقلنا به على أنه اختلف على ابن عباس في عدتهم . فروي عنه أنهم ثمانية ، حكاه ابن إسحاق عن مجاهد عنه . وروي عنه سبعة . وهو حكاية قتادة وعكرمة عنه . ثم رأيت الرازي نقل عن القاضي أنه قال : إن كان - ابن عباس - قد عرفه ببيان الرسول ، صح . وإن كان قد تعلق بحرف الواو فضعيف . انتهى . هذا ما ظهر لي الآن .

وبعد كتابتي لما تقدم بمدة ، وقفت على نبأهم في " طبقات الشهداء المسيحيين " وأن عدتهم سبعة عندهم كما ستراه في آخر الآيات فيهم . فسنح لي أن ابن عباس إنما جزم بما جزم به ، مما قوي عنده من إشارة الآية ، كما ذكره أولئك الأكثرون ، ومن تواتر عدتهم من قومهم وممن أثر عنهم . ثم حققه وصدقه عدم النكير فيه . وكذلك جزم بمثله الإمام تقي الدين بن تيمية رحمه الله . حيث قال في قاعدة له في التفسير : اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام – مقام حكاية الأقوال وتعليم ما ينبغي في مثل هذا . فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث . فدل على صحته . إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما . ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته . فيقال في مثل هذا : ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه . فبهذا قال : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أي : لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب . فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل . ويذكر فائدة الخلاف وثمرته ، لئلا يقع النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فيشتغل به عن الأهم . فأما من حكى خلافا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها ، فهو ناقص . إذ قد يكون الصواب في الذي تركه . أو يحكي الخلاف ويطلقه

ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً . انتهى كلامه رحمه الله، وهو الفصل في هذا المقام .

الثاني: قال الرازي: ذكروا في فائدة الواو في قوله: ﴿ وَثَامِنُهُمْ ﴾ وجوها:

الأول: ما ذكروه أنه يدل على أن هذا القول أولى من سائر الأقوال . وقد عرفت ما فيه .

(81/470)

وثانيها : أن السبعة عند العرب أصل في المبالغة في العدد . وإذا كان كذلك فإذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظا يدل على الاستئناف، فقالوا: وثمانية . فجاء هذا الكلام على هذا القانون . قالوا: ويدل عليه نظيره في ثلاث آيات، وهي قوله: ﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [التوبة: 112]، لأن هذا هو العدد الثامن من الأعداد المتقدمة . وقوله: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر: 73]، لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة . وقوله: ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحريم: 5]، لأن قوله: ﴿ وَأَبْكَارًا ﴾ هو العدد الثامن مما تقدم . والناس يسمون هذه الواو واو الثمانية ومعناه ما ذكرناه .

قال القفّال: وهذا ليس بشيء والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ [الحشر : 23] ، ولم يذكر الواو في النعت الثامن . انتهى .

(82/470)

وقال في " الانتصاف " : الصواب في الواو ما تقدم من كونها لتأكيد اللصوق . لا كمن يقول إنها واو الثمانية . فإن ذلك أمر لا يستقر لمثبته قدم . ويعدون مع هذه الواو في قوله في الجنة : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ قالوا لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة وهب أن في اللغة واواً تصحب الثمانية فتختص بها ، فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهي إلى الثامن فتصحبه الواو ؟ وربما عدوا من ذلك : ﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ وهو الثامن من قوله : ﴿ التَّائِبُونَ ﴾ وهذا أيضاً مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة لتربط بينها وبين الأولى التي هي : ﴿ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ لما بينهما من التناسب والربط . ألا ترى اقترانهما في جميع مصادرهما ومواردهما ؟ كقوله : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [التوبة : 71] ، وكقوله : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [لقمان : 17] ، وربما عد بعضهم من ذلك ، الواو في قوله : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ لأنه وجدها مع الثامن . وهذا غلط فاحش . فإن هذه واو التقسيم . ولو ذهبت تحذفها فتقول : ﴿ ثَيِّبَاتٍ أَبْكَاراً ﴾ لم

يستدّ الكلام . فقد وضح أن الواو في جميع هذه المواضع المعدودة ، واردة لغير ما زعمه هؤلاء . والله الموفق . . . انتهى .

الثالث : حكي في " الإكليل " عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً ﴾ إلا بما أظهرنا لك . ومثله قول السدي : إلا بما أوحي إليك . وإن فيه تحريم الجدل بغير علم وبلا حجة ظاهرة .

(83/470)

﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ في هذه الآية وجوه من المعاني . منها أن المعنى لا تقولن إلا وقت أن يشاء الله بأن يأذن لك في القول ، فتكون قائلاً بمشيئته ، فالمشيئة على هذا بمعنى الإذن . لأن وقت مشيئة الله لشيء لا تعلم إلا بإذنه فيه أي : إعلامه به . ومنها لا تقولن لما عزمت عليه من فعل ، إني فاعل ذلك غداً إلا قائلاً معه إن شاء الله تبرؤاً من لزوم التحكم على الله ، ومن الفعل بإرادتك بل بإرادة الله ، فتكون فاعلاً بمشيئته . ولئلا يلزم الكذب لو لم يشاه الله تعالى . ومنها أن المعنى لا تقولن ذلك قاطعا بفعله وباتا له . لأنه : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾ [لقمان : 34] ، فلا ينبغي الجزم والبت على فعل أمر مستقبل مجهول كونه .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أي : أن تقول ذلك القول البات نسياناً فحينئذ ارجع إلى ربك بذكره . ولذا قال : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ وعلى هذه الوجوه كلها ف : ﴿ لا تَقُولَنَّ ﴾ نهي معطوف على النهيين قبله . قال الجاحظ في كتاب " الحيوان " : إنما ألزم جل وعلا عبده أن يقول : إن شاء الله ، ليبقي عادة للمتألي ، ولئلا يكون كلامه ولفظه يشبه لفظ المستبد والمستغني ، وعلى أن يكون عبده ذاكراً لله . لأنه عبد مدبّر ، ومقلّب ميسّر ، ومصرّف مسخّر .

ويقي وجه آخر : وهو أن المعنى لا تقولن ذلك إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول . والجملة خبرية قصد بها الإخبار عن سبق مشيئته تعالى لكل ما يعزم عليه ويقوله . كقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان : 30] وهذا المعنى هو الظاهر ببادئ الرأي كما قاله في " الانتصاف " وفي المعنى تلويح بأنه صلوات الله عليه كان همّ بأمر ما في نبأ هؤلاء الفتية ، وعزم على أمر في غد المحاورة به .

ولعله الاستفتاء عنهم . فلما نهى عنه أخبر بأن كل شيء كائن بمشيئته تعالى ، ليدخل فيه ما كان قاله دخولاً أولياً . أي : ما قلته وعزمت على فعله كان بمشيئة الله ، إذ شاء الله أن

تقوله . فالآية بمثابة العناية به والتلطيف بالخطاب ، إثر ما يومئ إليه النهي إليها من رقيق ولذلك اعترضت بين سابق النهي عن استفتائهم ، ولاحق الأمر بذكره تعالى إذا نسي ، أي : نسي ما وصّي به . وبما ذكرنا يعلم أن هذا المعنى له وجه وجيه .

فدعوى الناصر في " الانتصاف " أنه ليس هو الغرض ، وأن الغرض النهي عن هذا القول إلا مقروناً بمشيئته تعالى - قصرٌ للآية على أحد معانيها ، وذهاب إلى ما هو المشهور في تأويلها ، وعدم تمعن في مثل هذا المعنى الدقيق ، بل وفي بقية المعاني الأخر التي اللفظ الكريم يحتملها . وقد ظهر قوة المعنى الأخير لموافقته لآية : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان : 30] ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً . والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ أي : خيراً ومنفعة . والإشارة للنبأ المتحاوَر فيه .

تنبيهات :

الأول : روي أنه صلوات الله عليه سُئل عن أصحاب الكهف والروح وذي القرنين ، فقال : < أجيبكم عنها غداً > ولم يستثن . فاحتبس الوحي خمسة عشر يوماً ، ثم نزلت : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ ﴾ الآية . وقد زيف هذه الرواية القاضي - كما حكاه الرازي - من أوجه . والحق له . لأنها من مرويات ابن إسحاق مجهول . كما ساقه عنه ابن كثير وغيره ، والله أعلم .

الثاني : يشير قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي ﴾ الآية ، إلى أن هذا النبأ ليس مما تنبغي العناية بتحقيقه وتدقيق أطرافه ، وابتغاء الرشاد فيه ، حتى يتكلف لفتوى أهل الكتاب فيه . العزم على فعل شيء مما يلابسه في المستقبل ، لأنه من الأمور الغابرة التي حق الخائض فيها أن ينظر منها إلى وجه العبرة والفوائد التي حوتها ، كما أحكمته آيات التنزيل في شأنها .

الثالث : اعترضت هذه الآداب أعني من قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُمَارِ ﴾ إلى هنا قبل تتميم نبأهم ، مبادرة إلى الاهتمام بهذه الآداب والاحتفاظ بها ، لتتمكن فضل تمكن ، وترسخ في النفس أشد رسوخ . والله أعلم .

الرابع : روي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ : إذا نسيت الاستثناء بالمشيئة ثم ذكرت فاستثن ، وذلك كما قال القرطبي لتدارك التبرك والتخلص عن الإثم .

وقال في " الانتصاف " : أما ظاهر الآية فمقتضاه الأمر بتدارك المشيئة ، متى ذكرت ولو بعد الطول . وأما حلُّها لليمين حينئذ فلا دليل عليه منها . انتهى .

ودعوى أنه الظاهر هو أحد الوجوه فيها ، مفرعاً على أن المشيئة في الآية قبلها ، مشيئة القول ، وهو أحد معاني الآية . وقد حكي عن ابن عباس جواز الاستثناء وإن طال الزمان . ثم اختلف عنه فقيل إلى شهر وقيل إلى سنة وقيل أبداً . وفي " حصول المأمول " : ومن قال بأن هذه المقالة لم تصح عن ابن عباس ، لعله لم يعلم بأنها ثابتة في " مستدرك الحاكم " وقال : صحيح على شرط الشيخين بلفظ : < إذا حلف الرجل على يمين فله أن يستثني إلا سنة > ومثله عند أبي موسى المديني وسعيد بن منصور وغيرهما من طرق . وبالجملة فالرواية عنه رضي الله عنه قد صحت ، لكن الصواب خلاف ما قاله .

قال ابن القيم في " مدارج السالكين " : إن مراده أنه إذا قال شيئًا ولم يستثن ، فله أن يستثني عند الذكر . وقد غلط عليه من لم يفهم كلامه . انتهى .

وهذا التأويل يدفعه ما تقدم عنه . والاستثناء بعد الفصل اليسير وعند التذكر ، قد دلت عليه الأدلة الصحيحة . منها حديث أبي داود وغيره : < والله ! لأغزون قريشا > ثم سكت ثم قال : < إن شاء الله > . ومنها حديث < ولا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها > فقال العباس : إلا الإذخر . وهو في الصحيح . ومنها قوله صلى الله عليه وسلم

في صلح الحديبية : < إلا سهل ابن بيضاء > انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 20.26 ﴾

(87/470)

وقال ابن عاشور :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ .

لما شاعت قصة أهل الكهف حين نزل بها القرآن صارت حديث النوادي ، فكانت مثار تخرصات في معرفة عددهم ، وحصر مدة مكثهم في كهفهم ، وربما أملى عليهم المتنصرة من العرب في ذلك قصصاً ، وقد نبههم القرآن إلى ذلك وأبهم على عموم الناس الإعلام بذلك لحكمة ، وهي أن تتعود الأمة بترك الاشتغال فيما ليست منه فائدة للدين أو للناس ، ودل عَلَم الاستقبال على أن الناس لا يزالون يخوضون في ذلك .

وضمير "يقولون" عائد إلى غير مذكور لأنه معلوم من المقام ، أي يقول الناس أو المسلمون ، إذ ليس في هذا القول حرج ولكنهم نُبِّهوا إلى أن جميعه لا حجة لهم فيه .

ومعنى سين الاستقبال سارٍ إلى الفعلين المعطوفين على الفعل المقترن بالسين ، وليس في

الانتهاء إلى عدد الثمانية إيماء إلى أنه العدة في نفس الأمر .

وقد أعلم الله أن قليلاً من الخلق يعلمون عدتهم وهم من أطلعهم الله على ذلك .

وفي مقدمتهم محمد صلى الله عليه وسلم لأن قصتهم جاءت على لسانه فلا شك أن الله أطلعه على عدتهم .

وروي أن ابن عباس قال : أنا من القليل .

وكأن أقوال الناس تمالأت على أن عدتهم فردية تيمناً بعدد المفرد ، وإلا فلا دليل على ذلك دون غيره ، وقد سمى الله قولهم ذلك رجماً بالغيب .

والرجم حقيقته : الرمي بحجر ونحوه .

واستعير هنا لرمي الكلام من غير روية ولا تثبت ، قال زهير:

وما هو عنها بالحديث المرجم

والباء في ﴿ بالغيب ﴾ للتعدية ، كأنهم لما تكلموا عن أمر غائب كانوا يرجمون به .

وكل من جملة ﴿ رابعهم كلبهم ﴾ وجملة ﴿ سادسهم كلبهم ﴾ في موضع الصفة لاسم العدد الذي قبلها ، أو موضع الخبر الثاني عن المبتدأ المحذوف .

وجملة ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ الواو فيها واو الحال ، وهي في موضع الحال من المبتدأ المحذوف ، أو من اسم العدد الذي هو خبر المبتدأ ، وهو وإن كان نكرة فإن وقوعه خبراً عن معرفةٍ أكسبه تعريفاً .

على أن وقوع الحال جملة مقترنة بالواو قد عد من مسوغات مجيء الحال من النكرة .

ولا وجه لجعل الواو فيه داخلة على جملة هي صفة للنكرة لقصد تأكيد لصوق الصفة بالموصوف كما ذهب إليه في "الكشاف" لأنه غير معروف في فصيح الكلام : وقد رده السكاكي في المفتاح وغير واحد .

ومن غرائب فتن الابتكار في معاني القرآن قول من زعم : إن هذه الواو واو الثمانية ، وهو منسوب في كتب العربية إلى بعض ضعَفَة النحاة ولمُ يعين مبتكره .

وقد عد ابن هشام في "مغني اللبيب" من القائلين بذلك الحريري وبعض ضعفة النحاة كابن خالويه والثعلبي من المفسرين .

قلت : أقدمُ هؤلاء هو ابن خالويه النحوي المتوفى سنة 370 فهو المقصود ببعض ضعفة النحاة .

وأحسب وصفه بهذا الوصف أخذه ابن هشام من كلام ابن المنير في "الانتصاف على الكشاف" من سورة التحريم إذ روى عن ابن الحاجب : أن القاضي الفاضل كان يعتقد أن الواو في قوله تعالى : ﴿ ثيبات وأبكارا ﴾ في سورة التحريم (5) هي الواو التي سماها

بعض ضعفة النحاة واو الثمانية .

وكان القاضي يتبجح باستخراجها زائدة على المواضع الثلاثة المشهورة ، أحدها : التي في الصفة الثامنة في قوله تعالى : ﴿ والناهون عن المنكر ﴾ في سورة براءة (112) .

والثانية : في قوله : وثامنهم كلبهم ﴾ .

والثالثة : في قوله : ﴿ وفُتِّحَتْ أبوابها ﴾ في الزمر (73) .

قال ابن الحاجب ولم يزل الفاضل يستحسن ذلك من نفسه إلى أن ذكَره يوماً بحَضرة أبي الجُود النحوي المُقْري ؛ فبين له أنه واهم في عدها من ذلك القبيل وأحال البيان على المعنى الذي ذكره الزمخشري من دعاء الضرورة إلى الإتيان بالواو هنا لامتناع اجتماع الصفتين في موصوف واحد إلى آخره .

(89/470)

وقال في المغني ﴾ : سبق الثعلبي الفاضلَ إلى عدها من المواضع في تفسيره .

وأقول : لعل الفاضل لم يطلع عليه .

وزاد الثعلبي قوله تعالى : ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوما ﴾ في سورة الحاقة (7) حيث قرن اسم عدد (ثمانية) بحرف الواو .

ومن غريب الاتفاق أن كان لحقيقة الثمانية اعتلاقٌ بالمواضع الخمسة المذكورة من القرآن إما بلفظه كما هنا وآية الحاقة، وإما بالانتهاء إليه كما في آية براءة وآية التحريم، وإما بكون مسماه معدوداً بعدد الثمانية كما في آية الزمر.

ولقد يعدُّ الانتباه إلى ذلك من اللطائف، ولا يبلغ أن يكون من المعارف.

وإذا كانت كذلك ولم يكن لها ضابط مضبوط فليس من البعيد عد القاضي الفاضلِ منها آية سورة التحريم لأنها صادفت الثامنة في الذكر وإن لم تكن ثامنة في صفات الموصُوفين، وكذلك لعد الثعلبي آية سورة الحاقة؛ ومثل هذه اللطائف كالزهرة تُشم ولا تحك.

وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى: ﴿ والناهون عن المنكر ﴾ في سورة براءة (112).

وجملة قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لما تثيره جملة ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ إلى آخرها من ترقب تعيين ما يعتمد عليه من أمر عدتهم.

فأجيب بأن يحال العلم بذلك على علام الغيوب.

وإسناد اسم التفضيل إلى الله تعالى يفيد أن علم الله بعدتهم هو العلم الكامل وأن علم غيره مجرد ظن وحدس قد يصادف الواقع وقد لا يصادفه.

وجملة ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ كذلك مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن الإخبار عن الله بأنه الأعلم يثير في نفوس السامعين أن يسألوا: هل يكون بعض الناس عالماً بعدتهم علماً غير

كامل ، فأجيب بأن قليلاً من الناس يعلمون ذلك ولا محالة هم من أطلعهم الله على ذلك بوحي وعلى كلّ حال فهم لا يوصفون بالأعلمية لأن علمهم مكتسب من جهة الله الأعلم بذلك .

(90/470)

تفريع على الاختلاف في عدد أهل الكهف ، أي إذا أراد بعض المشركين المماراة في عدة أهل الكهف لأخبار تلقوها من أهل الكتاب أو لأجل طلب تحقيق عدتهم فلا تمارهم إذ هو اشتغال بما ليس فيه جدوى .

وهذا التفريع وما عطف عليه مُعترض في أثناء القصة .

والتماري : تفاعل مشتق من المرية ، وهي الشك .

واشتقاق المفاعلة يدل على أنها إيقاع من الجانبين في الشك ، فيؤول إلى معنى المجادلة في المعتقد لإبطاله وهو يفضي إلى الشك فيه ، فأطلق المراء على المجادلة بطريق المجاز ، ثم شاع فصار حقيقة لما ساوى الحقيقة .

والمراد بالمراء فيهم : المراء في عدتهم كما هو مقتضى التفريع .

والمراء الظاهر : هو الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا يطول الخوض فيه .

وذلك مثل قوله : ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ وقوله : ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ ، فإن هذا مما لا سبيل إلى إنكاره وإبايتهِ لوضوح حجّته وما وراء ذلك محتاج إلى الحجة فلا ينبغي الاشتغال به لقلة جدواه .

والاستفتاء : طلب الفتوى ، وهي الخبر عن أمر علمي مما لا يعلمه كل أحد .

ومعنى ﴿ فيهم ﴾ أي في أمرهم ، أي أمر أهل الكهف .

والمراد من النهي عن استفتائهم الكناية عن جهلهم بأمر أهل الكهف ، فضمير ﴿ منهم ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ سيقولون ثلاثة ﴾ ، وهم أهل مكة الذين سألوا عن أمر أهل الكهف .

أو يكون كناية رمزية عن حصول علم النبي صلى الله عليه وسلم بحقيقة أمرهم بحيث هو غني عن استفتاء أحد ، وأنه لا يُعلم المشركين بما علمه الله من شأن أهل الكهف ، وتكون (من) تعليلية ، والضمير المجرور بها عائداً إلى السائلين المتعنتين ، أي لا تسأل علم ذلك من أجل حرص السائلين على أن تعلمهم بيقين أمر أهل الكهف فإنك عِلمته ولم تؤمر بتعليمهم إياه ، ولو لم يحمل النهي على هذا المعنى لم يتضح له وجه .

وفي التقييد بـ ﴿ منهم ﴾ مُحترز ولا يستقيم جعل ضمير ﴿ منهم ﴾ عائداً إلى أهل الكتاب ، لأن هذه الآيات مكية باتفاق الرواة والمفسرين .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ .

عطف على الاعتراض .

ومناسبة موقعه هنا ما رواه ابن إسحاق والطبري في أول هذه السورة والواحدي في سورة مريم : أن المشركين لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أهل الكهف وذي القرنين وعدهم بالجواب عن سؤالهم من الغد ولم يَقُل " إن شَاءَ الله " فلم يأته جبريل عليه السلام بالجواب إلا بعد خمسة عشرَ يوماً .

وقيل : بعد ثلاثة أيام كما تقدم ، أي فكان تأخير الوحي إليه بالجواب عتاباً رمزياً من الله لرسوله عليه الصلاة والسلام كما عاتب سليمان عليه السلام فيما رواه البخاري : " أن سليمان قال : لأطوفَنّ الليلة على مائة امرأة تَلِد كل واحدة ولداً يقاتل في سبيل الله فلم تحمل منهن إلا واحدة ولدت شِقّ غلام " .

ثم كان هذا عتاباً صريحاً فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن أهل الكهف وعد بالإجابة ونسي أن يقول : "إن شاء الله" كما نسي سليمان ، فأعلم الله رسوله بقصة أهل الكهف ، ثم نهاه عن أن يَعِد بفعل شيء دون التقييد بمشيئة الله .

وقوله : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ استثناء حقيقي من الكلام الذي قبله .

وفي كيفية نظمه اختلاف للمفسرين ، فمقتضى كلام الزمخشري أنه من بقية جملة النهي ، أي

هو استثناء من حكم النهي ، أي لا تقولن : إني فاعل الخ . . .

إلا أن يشاء الله أن تقوله .

ومشيئة الله تُعلم من إذنه بذلك ، فصار المعنى : إلا أن يأذن الله لك بأن تقوله .

وعليه فالمصدر المسبك من ﴿ أن يشاء الله ﴾ مستثنى من عموم المنهيات وهو من كلام الله تعالى ، ومفعول ﴿ يشاء الله ﴾ محذوف دل عليْه ما قبله كما هو شأن فِعل المشيئة والتقدير : إلا قولاً شاءه الله فأنت غير منهي عن أن تقوله .

(92/470)

ومقتضى كلام الكسائي والأخفش والفراء أنه مستثنى من جملة ﴿ إني فاعل ذلك غداً ﴾ ، فيكون مستثنى من كلام النبي صلى الله عليه وسلم المنهي عنه ، أيْ إلا قولاً مقترناً بـ (إن شاء الله) فيكون المصدر المنسبك من (أن) والفعل في محل نصب على نزع الخافض وهو باء الملابسة .

والتقدير : إلا بـ (إن يشاء الله) أي بما يدل على ذكر مشيئة الله ، لأن ملابسة القول لحقيقة المشيئة محال ، فعلم أن المراد تلبسه بذكر المشيئة بلفظ (إن شاء الله) ونحوِه ، فالمراد بالمشيئة إذن الله له .

وقد جمعت هذه الآية كرامة للنبيء صلى الله عليه وسلم من ثلاث جهات:

الأولى : أنه أجاب سؤله ، فبين لهم ما سألوه إياه على خلاف عادة الله مع المكابرين .

الثانية : أنه علمه علماً عظيماً من أدب النبوءة .

الثالثة : أنه ما علمه ذلك إلا بعد أن أجاب سؤله استئناساً لنفسه أن لا يبادره بالنهي عن ذلك قبل أن يجيبه ، كيلا يتوهم أن النهي يقتضي الإعراض عن إجابة سؤاله ، وكذلك شأن تأديب الحبيب المكرّم .

ومثاله ما في الصحيح : أن حكيم بن حزام قال : "سألت رسول الله فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : يا حكيم إن هذا المال خَضِرَةٌ حُلوةٌ فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى .

قال حكيم : يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرزأُ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا ".

فعلم حكيم أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم له ذلك ليس القصد منه منعه من سُؤْله وإنما قصد منه تخليقه بخلق جميل ، فلذلك أقسم حكيم : أن لا يأخذ عن أحد غير رسول الله شيئاً ، ولم يقل : لا أسألك بعد هذه المرة شيئاً .

فنظم الآية أن اللام في قوله : ﴿ لشيء ﴾ ليست اللام التي يتعدى بها فعل القول إلى

المخاطب بل هي لام العلة ، أي لا تقولن : إني فاعل كذا لأجل شيء تَعِدُ به ، فاللام بمنزلة (في) .

(93/470)

و "شيء" اسم متوغل في التنكير يفسره المقام ، أي لشيء تريد أن تفعله .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ عائدة إلى "شيء" .

أي أني فاعل الإخبار بأمر يسألونه .

و﴿ غداً ﴾ مستعمل في المستقبل مجازاً .

وليست كلمة (غداً) مراداً بها اليوم الذي يلي يَومه ، ولكنه مستعمل في معنى الزمان المستقبل ، كما يستعمل اليوم بمعنى زمان الحال ، والأمسُ بمعنى زمن الماضي .

وقد جمعها قول زهير :

وأعلمُ عِلم اليوم والأمس قبله

ولكنني عن علم ما في غدٍ عَمِ . . .

وظاهر الآية اقتصار إعمالها على الإخبار بالعزم على فعل في المستقبل دون ما كان من الكلام إنشاءً مثل الأيمان ، فلذلك اختلف فقهاء الأمصار في شمول هذه الآية لإنشاء الأيمان

ونحوها ، فقال جمهورهم : يكون ذكر ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ حلاًّ لعقد اليمين يُسقط وجوب الكفارة .

ولعلهم أخذوه من معنى (شيء) في قوله : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك ﴾ الخ : بحيث إذا أُعقبت اليمينُ بقول (إلا أن يشاء الله) ونحوه لم يلزم البر في اليمين .

وروى ابن القاسم وأشهب وابنُ عبد الحكم عن مالك أن قوله : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ﴾ الخ .

.

إنما قُصد بذلك ذكر الله عند السهو وليس باستثناء .

يعني أن حكم الثنيا في الأيمان لا يؤخذ من هذه الآية بل هو مما ثبت بالسنّة .

ولذلك لم يخالف مالك في إعمال الثنيا في اليمين ، وهي قول (إن شاء الله) .

وهذا قول أبي حنيفة والشافعي .

عطف على النهي ، أي لا تَعِدْ بوعد فإن نسيتَ فقلت : إني فاعل ، فاذكر ربك ، أي اذكر ما نهاك عنه .

والمراد بالذكر التدارك وهو هنا مشتق من الذُكر بضم الذال ، وهو كناية عن لازم التذكر ، وهو الامتثال ، كما قال عُمر بن الخطاب رضي الله عنه : "أَفْضَلُ من ذكر الله باللسان ذِكْرُ الله عند أمره ونهيه" .

وفي تعريف الجلالة بلفظ الرب مضافاً إلى ضمير المخاطب دون اسم الجلالة العَلَم من كمال الملاطفة ما لا يخفى .

(94/470)

وحُذف مفعول ﴿ نسيت ﴾ لظهوره من المقام ، أي إذا نسيت النهي فقلت : إني فاعل .

وبعض الذين أعْملوا آية ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ في حل الأيمان بذكر الاستثناء بمشيئة الله جعلوا قوله : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ ترخيصاً في تدارك الثنيا عند تذكر ذلك ، فمنهم من لم يحد ذلك بمدة .

وعن ابن عباس : لا تحديد بمدة بل ولو طال ما بين اليمين والثنيا .

والجمهور على أن قوله : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ لا دلالة فيه على جواز تأخير الثنيا ، واستدلوا بأن السنّة وردت بخلافه .

لما أبر الله وعَد نبيه صلى الله عليه وسلم الذي وعده المشركين أن يبين لهم أمر أهل الكهف فأوحاه إليه وأوقفهم عليْه ، أعقب ذلك بعتا به على التصدي لمجارَاتهم في السؤال عما هو خارج عن غرض الرسالة دون إذن من الله ، وأمَره أن يذكر نهي ربه .

ويعزم على تدريب نفسه على إمساك الوعد ببيان ما يُسأل منه بيانُه دون أن يأذنه الله به ،

أمره هنا أن يخبر سائليه بأنه ما بُعث للاشتغال بمثل ذلك ، وأنه يرجو أن الله يهديه إلى ما هو أقرب إلى الرشد من بيان أمثال هذه القصة ، وإن كانت هذه القصة تشتمل على موعظة وهدى ولكن الهدى الذي في بيان الشريعة أعظم وأهم .

والمعنى : وقل لهم عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً .

فجملة ﴿ وقل عسى أن يهدين ﴾ الخ . . .

معطوفة على جملة ﴿ فلا تمار فيهم ﴾ [الكهف : 22] .

ويجوز أن تكون جملة وقل عسى أن يهدين ربي ﴾ عطفاً على جملة ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ ، أي اذكر أمره ونهيه وقل في نفسك : عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً ، أي ادع الله بهذا .

وانتصب ﴿ رشداً ﴾ على تمييز نسبة التفضيل من قوله : ﴿ لأقرب من هذا ﴾ .

ويجوز أن يكون منصوباً على أنه مفعول مطلق مبين لنوع فعل ﴿ أن يهدين ﴾ لأن الرشد نوع من الهداية .

ف ﴿ عسى ﴾ مستعملة في الرجاء تأدباً ، واسم الإشارة عائد إلى المذكور من قصة أهل الكهف بقرينة وقوع هذا الكلام معترضاً في أثنائها .

ويجوز أن يكون المعنى : وارجُ من الله أن يهديك فيُذكرك أن لا تَعِد وعداً ببيان شيء دون إذن الله .

والرّشَد بفتحتين : الهدى والخير .

وقد تقدم القول فيه عند قوله تعالى في هذه السورة ﴿ وهيء لنا من أمرنا رشداً ﴾ [الكهف : 10] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(96/470)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ .

اخبر جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف ، فذكر ثلاثة أقوال . على أنه لا قائل برابع ، وجاء في الآية الكريمة بقرينة تدل على أن القول الثالث هو الصحيح والأولان باطلان ، لأنه لما ذكر القولين الأولين بقوله : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ اتبع ذلك بقوله ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ اي قولاً

بلا علم، كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يكاد يصيب، وإن اصاب بلا قصد، كقوله: ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالغيب مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [سبأ: 53] وقال القرطبي: الرجم القول بالظن، يقال لكل ما يخرص رجم فيه ومرجوم ومرجم كما قال زهير:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم... وما هو عنها بالحديث المرجم

ثم حكى القول الثالث بقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ فاقره، ولم يذكر بعده أن ذلك رجم بالغيب، فدل على أنه صحيح. وقوله ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ قال ابن عباس: أنا من ذلك القليل الذي يعلمهم، كانوا سبعة. وقوله: ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ فيه تعليم للناس أن يردوا علم الأشياء إلى خالقها جل وعلا وإن علموا بها، كما أعلم نبيه صلى الله عليه وسلم بمدة لبثهم في قوله: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وازدادوا تِسْعاً ﴾ [الكهف: 25] ثم أمره مع ذلك برد العلم إليه جل وعلا في قوله جل وعلا: ﴿ قُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُ غَيْبُ السماوات والأرض ﴾ [الكهف: 26] الآية. وما قدمنا من أنه لا قائل برابع قاله ابن كثير أخذاً من ظاهر الآية الكريمة. مع أن ابن إسحاق وابن جريج قالا: كانوا ثمانية. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ .

نهى الله نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة أن يقول : إنه سيفعل شيئاً في المستقبل إلا معلقاً ذلك على مشيئة الله الذي لا يقع شيء في العالم كائناً ما كان إلا بمشيئته جل وعلا فقول : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ ﴾ [الكهف : 23] اي لا تقولن لأجل شيئ تعزم على فعله في المستقبل إني فاعل ذلك الشيء غداً . والمراد بالغد : ما يستقبل من الزمان لا خصوص الغد . ومن أساليب العربية إطلاق الغد على المستقبل من الزمان . ومنه قول زهير :

واعلم علم اليوم والأمس قبله . . . ولكنني عن علم ما في غد عم

يعني أنه لا يعلم ما يكون في المستقبل ، إذ لا وجه لتخصيص الغد المعين بذلك . وقوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف : 24] إلا قائلاً في ذلك إلا أن يشاء الله ، أي معلقاً بمشيئة الله . أو لا تقولنه إلا بإن شاء الله ، أي إلا بمشيئة الله . وهو في موضع الحال ، يعني إلا متلبساً بمشيئة الله قائلاً إن شاء الله ، قاله الزمخشري وغيره .

وسبب نزول هذه الآية الكريمة – أن اليهود قالوا لقريش : سلوا محمداً " صلى الله عليه

وسلم " عن الروح ، وعن رجل طواف في الأرض (يعنون ذا القرنين) ، وعن فتية لهم قصة عجيبة في الزمان الماضي ﴿ يعنون اصحاب الكهف) . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سأخبركم غداً عما سالتم عنه " ولم يقل إن شاء الله ، فلبث عنه الوحي مدة ، قيل خمس عشرة ليلة ، وقيل غير ذلك . فأحزنه تأخر الوحي عنه ، ثم أنزل عليه الجواب عن الأسئلة الثلاثة ، قال في الروح : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : 85] الآية . وقال في الفتية ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بالحق ﴾ [الكهف : 13] الآيات إلى آخر قصتهم . وقال في الرجل الطواف : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً ﴾ [الكهف : 83] الآيات الكريمة إلى آخر قصته .

(99/470)

فإذا عرفت معنى هذه الآية الكريمة وسبب نزولها ، وأن الله عاتب نبيه فيها على عدم قوله إن شاء الله ، لما قال سأخبركم غداً – فاعلم أنه دلت آية أخرى بضميمة بيان السنة لها على أن الله عاتب نبيه سليمان على عدم قوله إن شاء الله ، كما عاتب نبيه في هذه الآية على ذلك . بل فتنة سليمان لذلك كانت أشد . فقد أخرج الشيخان في صحيحهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النّبي صلى الله عليه وسلم قال : " قال سليمان بن

داود عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة وفي رواية تسعين امرأة ، وفي رواية مائة امرأة – تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله "

فقيل له – وفي رواية قال له الملك : " إن شاء الله " فلم يقل . فطاف بهن فلم تلد منهم إلا امرأة واحدة نصف إنسان . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته " . وفي رواية " ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون " اه .

فإذا علمت هذا فاعلم أن هذا الحديث الصحيح بين معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ [ص : 34] الآية . وأن فتنة سليمان كانت بسبب تركه قوله " إن شاء الله " ، وأ ، ه لم يلد من تلك النساء غلا واحدة نصف إنسان ، وأن ذلك الجسد الذس هو نصف إنسان هو الذي ألقي على كرسيه بعد موته في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ الآية ، فما يذكره المفسرون في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ الآية ، من قصة الشيطان الذي أخذ الخاتم وجلس على كرسي سليمان ، وطرد سليمان عن ملكه . حتى وجد الخاتم في بطن السمكة التي أعطاها له من كان يعمل عنده بأجر مطروداً عن ملكه ، إلى آخر القصة – لا يخفى أنه باطل لا أصل له ، وأنه لا يليق بمقام النبوة . فهي من الإسرائيليات التي لا يخفى أنها باطلة .

والظاهر في معنى الآية هو ما ذكرنا ، وقد دلت السنة الصحيحة عليه في الجلة ، واختاره بعض المحققين . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ .

في هذه الآية الكريمة قولان معروفان لعلماء التفسير :

الأول : أن هذه الآية الكريمة متعلقة بما قبلها ، والمعنى : أنك إن قلت سأفعل غداً كذا ونسيت أن تقول إن شاء الله ، ثم تذكرت فقل إن شاء الله . أي اذكر ربك معلقاً على مشيئة ما تقول أنك ستفعله غداً إذا تذكرت بعد النسيان . وهذا القول هو الظاهر . لأنه يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ ﴾ [الكهف : 23-24] وهو قول الجمهور . وممن قال به ابن عباس والحسن البصري أبو العالية وغيرهم .

القول الثاني – أن الآية لا تعلق لها بما قبلها . أن المعنى : إذا وقع منك النسيان لشيء فاذكر الله . لأن النسيان من الشيطان . كما قال تعالى عن فتى موسى : ﴿ وَمَآ أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ [الكهف : 63] ، وكقوله : ﴿ استحوذ عَلَيْهِمُ الشيطان فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ الله ﴾ [المجادلة : 19] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى مَعَ القوم الظالمين ﴾ [الأنعام : 68] وذكر الله تعالى يطرد الشيطان ،

كما يدل لذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : 36] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الناس مَلِكِ الناس إله الناس مِن شَرِّ الوسواس الخناس ﴾ [الناس : 1-4] الآية .

(101/470)

أي الوسواس عند الغفلة عن ذكر الله . الخناس الذي يخنس ويتأخر صاغراً عند ذكر الله ، فإذا ذهب شيطان النسيان . وقال بعضهم : ﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ أي صل الصلاة التي كنت ناسياً لها عند ذكرك لها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة لذكريا ﴾ [طه : 14] وقول من قال إذا نسيت ، أي إذا غضبت ظاهر السقوط .

مسألة

اشتهر على أسنة العلماء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه استنبط من هذه الآية الكريمة . أن الاستثناء يصح تأخيره عن المستثنى منه زمناً طويلاً قال بعضهم إلى شهر . وقال بعضهم : إلى سنة . وقال بعضهم عنه : له الاستثناء ابداً . ووجه أخذه ذلك من الآية : أن الله تعالى نهى نبيه أن يقول : إنه سيفعل شيئًا في المستقبل إلا من الاستثناء بأن شاء الله . ثم قال : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ ، اي نسيت تستثنى بإن شاء الله فاستثن إذا

تذكرت من غير تقييد باتصال ولا قرب .

والتحقيق الذي لا شك فيه – أن الاستثناء لا يصح غلا مقترناً بالمستثنى منه . وأن الاستثناء المتأخر لا أثر له ولا تحل به اليمين . ولو كان الاستثناء المتأخر يصح لما علم في الدنيا أنه تقرر عقد ولا يمين ولا غير ذلك ، لاحتمال طرو الاستثناء بعد ذلك ، وهذا في غاية البطلان كما ترى . ويحكى عن المنصور أنه بلغه أن أبا حنيفة رحمه الله يخالف مذهب ابن عباس المذكور . فاستحضره لينكر عليه ذلك ، فقال الإمام أبو حنيفة للمنصور : هذا يرجع عليك ! إنك تأخذ البيعة بالأيمان ، أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثونوا فيخرجوا عليك ! ؟ فاستحسن كلامه ورضي عنه .

فائدة

قال ابن العربي المالكي : سمعت فتاة ببغداد تقول لجارتها : لو كان مذهب ابن عباس صحيحاً في الاستثناء ما قال الله تعالى لأيوب : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص : 44] بل يقول استثن بإن شاء الله – انتهى منه بواسطة نقل صاحب نشر البنود في شرح وقوله في مراقي السعود :

بشركة وبالتوطي قالا . . . بعض وأوجب فيه الاتصالا

وفي البواقي دون ما اضطرار . . . وأبطلن بالصمت للتذكار

فإن قيل : فما جزاب الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما نسب إليه من القول بصحة الاستثناء المتأخر .

فالجواب – أن مراد ابن عباس رضي الله عنهما أن الله عاتب نبيه على قوله إنه سيفعل كذا غداً ولم يقل إن شاء الله ، وبين له أن التعليق بمشيئة الله هو الذي ينبغي أن يفعل ، لأنه تعالى لا يقع شيء إلا بمشيئته ، فإذا نسي التعليق بالمشيئة ثم تذكر ولو بعد طول فإنه يقول إن شاء الله ، ليخرج بذلك من عهدة عدم التعليق بالمشيئة ، ويكون قد فوض الأمر إلى من لا يقع إلا بمشيئة . فنتيجة هذا الاستثناء – هي الخروج من عهدة تركه الموجب للعتاب السابق ، لا أنه يحل اليمين لأن تداركها قد فات بالانفصال . هذا هو مارد ابن عباس كما جزم به الطبري وغيره . وهذا لا محذور فيه ولا إشكال .

وأجاب بعض أهل العلم بجواب آخر وهو – أنه نوى الاستثناء قلبه ونسي النطق به بلسانه . فأظهر بعد ذلك الاستثناء الذي نواه وقت اليمين ، هكذا قاله بعضهم . والأول هو الظاهر . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾

لقد اختلف القوم في عدد أهل الكهف ، منهم مَنْ قال : ثلاثة رابعهم كلبهم . ومنهم مَنْ قال : خمسة سادسهم كلبهم ، وعلَّق الحق سبحانه على هذا القول بأنه ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾ ؛ لأنه قَوْل بلا عِلْم ، مما يدلُّنا على خطئه ومخالفته للواقع . ومنهم مَنْ قال : سبعة وثامنهم كلبهم ، ولم يعلق القرآن على هذا الرأي مما يدُل على أنه الأقرب للصواب .

ثم يأتي القول الفَصْل في هذه المسألة : ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ . . ﴾ [الكهف : 22] فلم يُبيِّن لنا الحق سبحانه عددهم الحقيقي ، وأمرنا أن نترك هذا لعلمه سبحانه ، ولا نبحث في أمر لا طائل منه ، ولا فائدة من ورائه ، فالمهم أنْ يثبت أَصْل القصة وهو : الفتية الأشدّاء في دينهم والذين فَرُّوا به وضَحَّوْا في سبيله حتى لا يفتنهم أهل الكفر والطغيان ، وقد لجأوا إلى الكهف ففعل الله بهم ما فعل ، وجعلهم آيةً وعبرةً ومثَلاً وقدْوة .

أما فرعيات القصة فهي أمور ثانوية لا تُقدّم ولا تُؤخّر ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِراً . . ﴾ [الكهف : 22] أي : لا تجادل في أمرهم .

ثم يأتي فضول الناس ليسألوا عن زمن القصة ومكانها ، وعن أشخاصها وعددهم وأسمائهم ، حتى كلبهم تكلموا في اسمه . وهذه كلُّها أمور ثانوية لا تنفع في القصة ولا تضرُّ ،

ويجب هنا أن نعلم أن القَصَص القرآني حين يبهم أبطاله يبهمهم لحكمة ، فلو تأملتَ إبهام الأشخاص في قصة أهل الكهف لوجدته عَيْن البيان لأصل القصة ؛ لأن القرآن لو أخبرنا مثلاً عن مكان هؤلاء الفتية لقال البعض : إن هذا الحدث من الفتية خاص بهذا المكان ؛ لأنه كان فيه قدر من حرية الرأي .

ولو حدد زمانهم لَقال البعض : لقد حدث ما حدث منهم ؛ لأن زمانهم كان من الممكن أن يتأّتى فيه مثل هذا العمل ، ولو حدد الأشخاص وعيَّنهم لقالوا : هؤلاء أشخاص لا يتكررون مرة أخرى .

لذلك أبهمهم الله لتتحقّق الفائدة المرجوّة من القصة ، أبهمهم زماناً ، أبهمهم مكاناً ، وأبهمهم عدداً ، وأبهمهم أشخاصاً ليشيع خبرهم بهذا الوصف في الدنيا كلها لا يرتبط بزمان ولا مكان ولا أشخاص ، فحمل راية الحق ، والقيام به أمر واجب وشائع في الزمان والمكان والأشخاص ، وهذا هو عَيْن البيان للقصة ، وهذا هو المغزى من هذه القصة .

وانظر إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ . . ﴾ [غافر : 28]

هكذا ﴿ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ ﴾ دون أن يذكر عنه شيئاً ، فالمهم أن الرجولة في الإيمان ، أياً كان

هذا المؤمن في أيّ زمان، وفي أيّ مكان، وبأيّ اسم، وبأيّ صفة.

كذلك في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ . . ﴾ [التحريم: 10] ولم يذكر عنهما شيئًا، ولم يُشخِّصهما؛ لأن التشخيص هنا لا يفيد، فالمهم والمراد من الآية بيانُ أن الهداية بيد الله وحده، وأن النبي المرسَل من الله لم يستطع هداية زوجته وأقرب الناس إليه، وأن للمرأة حريةً عَقيدة مُطْلقة.

وكذلك في قوله: ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امرأت فِرْعَوْنَ . . ﴾ [التحريم: 11] ولم يذكر لنا مَنْ هي، ولم يُشخِّصها؛ لأن تعيُّنها لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر، المهم أن نعلم أن فرعونَ الذي ادَّعى الألوهية وبكل جبروته وسلطانه لم يستطع أنْ يحمل امرأته على الإيمان به.

إذن: العقيدة والإيمان أمر شخصيّ قلبي، لا يُجبر عليه الإنسان، وها هي امرأة فرعون تؤمن بالله وتقول: ﴿ رَبِّ ابن لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الجنة وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين ﴾ [التحريم: 11]

(105/470)

أما في قصة مريم، فيقول تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابنت عِمْرَانَ . . ﴾ [التحريم: 12]

فشخَّصها باسمها، بل واسم أبيها، لماذا؟ قالوا: لأن الحدث الذي ستتعرّض له حَدَثٌ

فريد وشيء خاصٌّ بها لن يتكرر في غيرها ؛ لذلك عيَّنها الله وعرَّفها ، أما الأمر العام الذي يتكرر ، فمن الحكمة أنْ يظل مُبْهماً غير مرتبط بشخص أو زمان أو مكان ، كما في قصة أهل الكهف ، فقد أبهمها الحق سبحانه لتكون مثالاً وقُدْوة لكل مؤمن في كل زمان ومكان .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ﴾ .

وتتجلى في هذه الآية رحمة الله بالمحبوب محمد صلى الله عليه وسلم فلم يُرِدْ سبحانه وتعالى أن يصدم رسوله بمسألة المخالفة هذه ، بل أعطاه ما أراد ، وأجابه إلى ما طَلب من مسألة أهل الكهف ، ثم في النهاية ذكَّره بهذه المخالفة في أسلوب وَعْظ رقيق : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ . . ﴾ [الكهف : 23-24]

وقد سبق أنْ ذكرنا أنه صلى الله عليه وسلم حينما سأله القوم عن هذه القصة قال : سأجيبكم غداً ولم يَقُلْ : إن شاء الله . فلم يعاجله الله تعالى بالعتاب ، بل قضى له حاجته ، ثم لفت نظره إلى أمر هذه المخالفة ، وهذا من رحمة الله برسوله صلى الله عليه وسلم .

كما خاطبه بقوله : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ . . ﴾ [التوبة : 43]

فقدَّم العفو أولاً وقرَّره ؛ لأن هذه المسألة منتهية ومعلومة للرسول ، ثم عاتبه بعد ذلك . كما لو طلب منك شخص عَوْناً أو مساعدة ، وقد سبق أنْ أساء إليك ، فمن اللياقة ألاَّ تَصدِمه

بأمر الإساءة ، وتُذكّره به أولاً ، بل اقْضِ له حاجته ، ثم ذكّره بما فعل .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ . . ﴾ .

(106/470)

أي : على فَرْض أنك نسيت المشيئة ساعة البَدْء في الفعل ، فعليك أن تعيدها ثانية لتتدارك ما حدث منك من نسيان في بداية الأمر .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً ﴾ [الكهف : 24] أي : يهديني ويعينني ، فلا أنسى أبداً ، وأن يجعل ذِكْره لازمة من لوازمي في كل عمل من أعمالي فلا أبدأ عملاً إلا بقوْل : إنْ شاء الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(107/470)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ

وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) (الكهف : 22) يسأل عن اختصاص الثمانية بالواو ؟ ولِمَ لم ترد الجملة من قوله تعالى : (وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) صفة للنكرة قبلها كما تقدم فيما قبل ؟ ولِمَ عدل (إلى) العطف ؟

وأظهر جواب عن هذا –والله أعلم– أن هذا الإخبار العليّ معرف باختلاف اليهود في فتيو الكهف ، وإنهم أو أكثرهم لم يتحققوا عددهم ، فحكى سبحانه قولهم ، وانجر بإيماء وإشارة تقرير الصحيح من قولهم ، مع أنهم أعني أكثر يهود غير عالمين بذلك ولا مرجحين ، فأتى بالجملة الأولى وهي قوله : (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ) أعني المحكية بعد القول ، إذ التقدير : هم ثلاثة ، ثم سيقت الجملة من قوله : (رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ) صفة للثلاثة ، والجملة تقع صفة للنكرة وحالاً من المعرفة ، ثم قال : (وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ) ، فسادسهم صفة للنكرة كالمتقدمة ، ثم أتبع هذا الكلام من اختلافهم بقوله : (رَجْمًا بِالْغَيْبِ) فأفهم – والله أعلم– أن هذا ليس من نمط ما تقدم ، فكأن (قد) قيل : ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم وأن هذا ليس داخلاً تحت ما تقدم من أنه رجم بالغيب وأن الوصف بتلك الحال إنما يرجع لما قبله من قولهم : ثلاثة رابعهم كلبهم وخمسة سادسهم كلبهم كلام ابن عباس ، رضي الله عنه ، ومن تبعه من المفسرين .

قلت حكى سيبويه أن العرب ستعمل الحذف كثيراً في كلامهم ، ومنه قولهم فيما حكى سيبويه ، رحمه الله ، (اللهم ضبعاً وذيباً) ، وإذا كان القائل يدعو بذلك على غنم رجل قال

: وإذا سألتهم ما يعنون؟ قالوا : اللهم اجمع فيها ضبعاً وذيباً ، وحكى عن أبي الخطاب أنه سمع بعض العرب وقيل له : لم أفسدتم مكانكم فقال : الصبيان بأبي ، كأنه

ذحذر أن يلام فقال : لم الصبيان . وقيل لبعض العرب : أما بمكان كذا وكذا وجذ فقال بلى وجاذا (أي فاعرف بها وجاذا) ، وهو المكان الممسك للماء ، ويحذفون الجملة الاسمية برأسها إذا دل الدليل عليها كما يفعلون في الجملة الفعلية ، قال تعالى : (وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ) (الطلاق : 4) أي فعدتهن ثلاثة أشهر ، والحذف في كلامهم كثير إذا كان في الكلام ما يدل على المحذوف ، فظهر لي هنا (والله أعلم) أن الواو في قوله : (وَثَامِنُهُمْ) إنما عطف بها على جملة اسمية محذوفة كما قدمنا ، ومن المفسرين من جعل هذه الواو داخلة على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، كما تدخل (على الواقعة) حالاً عن المعرفة في نحو جاءني زيد ومعه أخوه ، ومررت بزيد وفي يده سيف ، ومنه قوله عز وجل : (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ) (الحجر : 4) ، وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف ، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر ، وهذه الواو وهي التي آذنت بأن الذين قالوا : (سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ

كَلْبُهُمْ) قالوا عن ثبات علم وطمأنينة نفس ، ولم يرجموا بالظن كما فعل غيرهم ، والدليل عليه أن الله سبحانه أتبع القولين الأولين بقوله : (رَجْمًا بِالْغَيْبِ) ، وأتبع القول الثالث بقوله : (مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) (الكهف : 22) وقال ابن عباس ، رضي الله عنه : (حين وقعت الواو انقطعت العدة) أي لم يبق بعدها عدة عاد يلتفت إليها ، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثابت ، وقيل : (إِلَّا قَلِيلٌ) أي من أهل الكتاب ، والضمير في (سيقولون) على هذا لأهل الكتاب خاصة ، أي سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا ، ولا علم لهم بذلك (إلا) في قليل منهم ، وأكثرهم على ظن وتخمين . انتهى ما قاله

الزمخشري وحكاه ، وقد حصل منه أن قليلاً من أهل الكتاب قد كان يعلم عددهم وهذا لا ينافره المأخذ المتقدم . وحكى المفسرون أن ابن عباس ، رضي الله عنه ، كان يقول في قوله : (مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) أنا من ذلك القليل ، وهذا القدر كاف ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 318.317 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ سيقولون ثلاثة ﴾ قال : اليهود ﴿ ويقولون خمسة ﴾ قال : النصارى .

وأخرج ابن أبي حاتم وعبد الرزاق ، عن قتادة في قوله : ﴿ رجما بالغيب ﴾ قال : قذفا بالظن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ قال : إنا من القليل ، كانوا سبعة .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن سعد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ قال : إنا من القليل ، كانوا سبعة .

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند صحيح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ قال : أنا من القليل ، مكسلمينا وتمليخا ، وهو المبعوث بالورق إلى المدينة ، ومرطوس ونينونس ودردوتس وكفاشطهواس ومنطفوا سيسوس ، وهو الراعي . والكلب اسمه قطمير ، دون الكردي وفوق القبطي الألطم فوق القبطي . قال أبو

عبد الرحمن : بلغني أن من كتب هذه الأسماء في شيء وطرحه في حريق سكن الحريق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه قال : كل شي في القرآن قليل ، وإلا قليل فهو دون العشرة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ فلا تمار فيهم ﴾ يقول : حسبك ما قصصت عليك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ﴾ قال : يقول : إلا ما أظهرنا لك من أمرهم ﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾ قال : يقول لا تسأل اليهود عن أصحاب الكهف ، إلا ما قد أخبرناك من أمرهم .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ فلا تُمارِ فيهم ﴾ الآية . قال : حسبك ما قصصنا عليك .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾ قال : اليهود . والله أعلم .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

أخرج ابن المنذر عن مجاهد ، أن قريشاً اجتمعت فقالوا : "يا محمد ، قد رغبت عن ديننا ودين آبائنا ، فما هذا الدين الذي جئت به ؟ قال : هذا دين جئت به من الرحمن . فقالوا : إنا لا نعرف الرحمن ، إلا رحمن اليمامة – يعنون مسيلمة الكذاب – ثم كاتبوا اليهود فقالوا : قد نبغ فينا رجل يزعم أنه نبي ، وقد رغب عن ديننا ودين آبائنا ، ويزعم أن الذي جاء به من الرحمن . قلنا : لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، وهو أمين لا يخون . . وفيّ لا يغدر . . صدوق لا يكذب ، وهو في حسب وثروة من قومه ، فاكتبوا إلينا بأشياء نسأله عنها .

فاجتمعت يهود فقالوا : إن هذا لوصفه وزمانه الذي يخرج فيه . فكتبوا إلى قريش : أن سلوه عن أمر أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين ، وعن الروح . فإن يكن الذي أتاكم به من الرحمن ، فإن الرحمن هو الله عز وجل ، وإن يكن من رحمن اليمامة فينقطع . فلما أتى ذلك قريشاً أتى الظفر في أنفسها فقالوا : يا محمد ، قد رغبت عن ديننا ودين آبائك . . . فحدثنا عن أمر أصحاب الكهف وذي القرنين والروح . قال : ائتوني غداً . ولم يستثن ، فمكث جبريل عنه ما شاء الله لا يأتيه ، ثم أتاه فقال : سألوني عن أشياء لم يكن عندي بها علم فأجيب حتى شق ذلك عليّ . قال : ألم ترنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة ؟ – وكان في البيت جرو كلب – ونزلت ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾ من علم

الذي سألتموني عنه أن يأتي قبل غد ؟ ونزل ما ذكر من أصحاب الكهف ونزل ﴿ ويسألونك عن الروح . . . ﴾ [الإسراء : 85] الآية " .

(112/470)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم حلف على يمين فمضى له أربعون ليلة ، فأنزل الله ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ واستثنى النبي صلى الله عليه وسلم بعد أربعين ليلة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه ، عن ابن عباس أنه كان يرى الاستثناء ولو بعد سنة ، ثم قرأ ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ قال : إذا ذكرت .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، عن ابن عباس في هذه الآية قال : إذا نسيت أن تقول لشيء ؛ إني أفعله ، فنسيت أن تقول إن شاء الله ، فقل إذا ذكرت : إن شاء الله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن أبي العالية في قوله : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ قال : تستثني إذا ذكرت .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير في رجل حلف ونسي أن يستثني ، قال له : ثنياه إلى

شهر ، وقرأ ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عمرو بن دينار ، عن عطاء أنه قال : من حلف على يمين فله الثنيا حلب ناقة . وكان طاوس يقول : ما دام في مجلسه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم قال : يستثني " ما دام " في كلامه .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ قال : إذا نسيت الاستثناء فاستثن إذا ذكرت . قال : هي خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس لأحدنا أن يستثني إلا في صلة يمينه .

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عمر قال : كل استثناء موصول فلا حنث على صاحبه ، وإذا كان غير موصول فهو حانث .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حلف فقال : إن شاء الله . فإن شاء مضى ، وإن شاء رجع غير حانث " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال سليمان بن داود عليهما السلام :

لأطوفن الليلة على تسعين امرأة ، تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله . فقال له الملك : قل إن شاء الله ، فلم يقل . فطاف فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان " .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده ، لو قال إن شاء الله ، لم يحنث وكان دركاً لحاجته " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان ، عن عكرمة في قوله : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ قال : إذا غضبت .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات ، عن الحسن في قوله : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ قال : إذا لم تقل إن شاء الله .

وأخرج البيهقي من طريق المعتمر بن سليمان قال : سمعت أبا الحارث ، عن رجل من أهل الكوفة كان يقرأ القرآن في الآية قال : إذا نسي الإنسان أن يقول إن شاء الله ، فتوبته من ذلك أن يقول : ﴿ عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين:

قوله: ﴿ سَيَقُولُونَ ﴾: قيل: إنما أُتي بالسّين في هذا لأنَّ في الكلامِ طَيّاً وإدْماجاً تقديرُه: فإذا أَجَبْتَهم عن سؤالِهم عن قصةِ أهلِ الكهفِ فَسَلْهُمْ عددِهم فإنهم سيقولون. ولم يأتِ بها في باقيةِ الأفعالِ لأنها معطوفةٌ على ما فيه السينُ فأُعْطِيَتْ حُكْمَه من الاستقبَال.

وقرأ ابنُ محيصن "ثَلاثٌ" بإدغامِ الثاءِ المثلثةِ في تاء التأنيث لقربِ مَخْرَجَيْهما، ولأنهما مهموسان، ولأنهما بعد ساكنٍ معتلٍّ.

قوله: ﴿ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ الجملةُ في محلِ رفعٍ صفةً ل "ثلاثة".

قوله: "خَمْسَةٌ" قرأ ابن كثيرٍ في روايةٍ بفتحِ الميم، وهي لغةٌ كعشَرَة. وقرأ ابن محيصن بكسرِ الخاءِ والميمِ، وبإدغامِ التاءِ في السين، يعني تاءَ "خمسة" في سين "سادسهم" وعي قراءةٌ ثقيلةٌ جداً، تتوالى كسرتان وثلاثُ سيناتٍ، ولا أظنُّ مثلَ هذا إلا غلطاً على مثِله.

ورُوِيَ عنه إدغامُ التنوينِ في السينِ مِنْ غيرِ غُنَّة.

و"ثلاثةٌ" و"خمسةٌ" و"سبعةٌ" إخبارٌ لمبتدأ مضمرٍ، أي: هم ثلاثةٌ، وهم خمسةٌ، وهم سبعةٌ. وما بعد "ثلاثة" و"خمسة" من الجملةِ صفةٌ لهما، كما تقدَّم. ولا يجوزُ أَنْ تكونَ الجملةُ حالاً لعدمِ عاملٍ فيها، ولا يجوزُ أن يكونَ التقديرُ: هؤلاء ثلاثةٌ، وهؤلاء خمسةٌ، ويكون العاملُ اسمَ الإشارةِ أو التنبيه. قال أبو البقاء: "لأنَّها إشارةٌ إلى حاضرٍ،

ولم يُشيروا إلى حاضر " .

قوله : ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾ فيه أربعةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه مفعولٌ مِنْ أجله ؛ يقولون ذلك لأجل الرمي بالغَيْب . والثاني : أنه في موضعِ الحال ، أي : ظانِّين . والثالث : أنَّه منصوبٌ ب " يقولون " لأنه بمعناه . والرابع : أنه منصوبٌ بمقدَّرٍ مِنْ لفظه ، أي : يَرْجُمون بذلك رَجْماً .

(115/470)

والرَّجْمُ في الأصلِ : الرَّمْيُ بالرِّجامِ وهي الحجارةُ الصِّغارُ ، ثم عُبِّر به عن الظنِّ . قال زهير :

3139- وما الحربُ إلا ما عَلِمْتُمْ وذُقْتُمُ . . . وما هو عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ

أي : المَظْنُون .

قوله : " وثامِنُهُم " في هذه الواوِ أوجهٌ ، أحدُها : أنها عاطفةٌ ، عَطَفَتْ هذه الجملةَ على جملةِ قولِه " هم سبعة " فيكونون قد أَخْبَروا بخبرين ، أحدُهما : أنهم سبعةُ رجالٍ على البَتِّ . والثاني أنَّ ثامنَهم كلبُهم ، وهذا يُؤْذِنُ بأنَّ جملةَ قولِه ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ مِنْ كلام المتنازِعِيْنَ فيهم . الثاني : أنَّ الواوَ للاستئنافِ ، وأنَّه مِنْ كلامِ الله تعالى أخبر عنهم بذلك .

قال هذا القائلُ: وجيءَ بالواوِ لتعطي انقطاعَ هذا ممَّا قبله. الثالث: أنها الواوُ الداخلةُ على الصفةِ تأكيداً، ودلالةً على لَصْقِ الصفةِ بالموصوفِ. وإليه ذهب الزمخشري، ونَظَّره بقولِه: ﴿ مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الحجر: 4].

ورَدَّ الشيخ عليه: بأنَّ أحداً من النحاة لم يَقُلْه، وقد تقدَّم القولُ في ذلك.

الرابع: أنَّ هذه تُسَمَّى واوَ الثمانية، وأنَّ لغة قَريش إذا عَدُّوا يقولون: خمسة ستة سبعة وثمانية تسعة، فيُدْخلون الواوَ على عَقْدِ الثمانيةِ خاصة. ذكر ذلك ابن خالويه وأبو بكر راوي عاصم. قلت: وقد قال ذلك بعضُهم في قولِه تعالى: ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الآية: 73] في الزمر فقال: دخلَتْ في أبوابِ الجنة لأنها ثمانيةٌ، ولذلك لم يُجَأْ بها في أبوابِ جهنم لأنها سبعةٌ وسيأتي هذا إن شاء الله.

وقُرِئ: "كالبُهم"، أي: صاحبُ كلبِهم. ولهذه القراءةِ قدَّر بعضُهم في قراءةِ العامة: وثامنُهم صاحبُ كلبِهم.

وثلاثة وخمسة وسبعة مضافة لمعدودٍ محذوفٍ فقدَّره الشيخ: ثلاثة أشخاص، قال: "وإنما قدَّرْنا أشخاصاً لأنَّ رابعهم اسمُ فاعلٍ أُضيف إلى الضمير، والمعنى: أنه ربَّعَهم، أي

: جَعَلَهم أربعةً ، وصَيَّرهم إلى هذا العددِ ، فلو قدَّرْناه رجالاً استحال أن يُصَيِّر ثلاثةَ رجالٍ أربعةً لاختلافِ الجنسين" . وهو كلامٌ حسنٌ .

وقال أبو البقاء : "ولا يَعْمل اسمُ الفاعلِ هنا لأنه ماضٍ" . قلت : يعني أن رابعَهم فيما مضى ، فلا يعمل النصبَ تقديراً ، والإِضافة محضة . وليس كما زعم فإنَّ المعنى على : يَصير الكلبُ لهم أربعةً ، فهو ناصبٌ تقديراً ، وإنما عَمِل وهو ماضٍ لحكاية الحالِ كباسِط .

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ ﴾ : قاله أبو البقاء : "في المستثنى منه ثلاثةُ أُوجهٍ ، أحدُها : هو مِنَ النَّهْيِ . والمعنى : لا تقولَنَّ : أفعل غداً ، إلا أَنْ يُؤْذَنَ لك في القول . الثاني : هو من "فاعلٌ" ، أي : لا تقولَنَّ إني فاعلٌ غداً حتى تَقْرِنَ به قولَ "إن شاء الله" . والثالث : أنه منقطعٌ . وموضعُ "أَنْ يشاء الله" نصبٌ على وجهين ، أحدُهما على الاستثناءِ ، والتقدير : لا تقولَنَّ ذلك في وقتٍ إلا وقتَ أَنْ يشاء الله ، أي : يَأْذَنَ ، فحذف الوقتَ وهو مُرادٌ . والثاني : هو حالٌ والتقدير : لا تقولَنَّ أفعل غداً إلا قائلاً : إن شاء الله ، وحَذْفُ القولِ كثيرٌ ، وجَعَل قولَه إلا أن يشاء في معنى : إن شاء وهو مِمَّا حُمِل على المعنى . وقيل : التقدير إلا بأَنْ يشاءَ اللَّهُ ، أي : ملتبساً بقولِ : "إن شاء الله" .

قلت: قد رَدَّ الزمخشريُّ الوجهَ الثاني، فقال: "إلا أَنْ يشاء" متعلقٌ بالنهي لا بقولِه "إنّي فاعلٌ" لأنَّه لو قال: إني فاعلٌ كذا إلا أَنْ يشاء الله كان معناه: إلا أن تَعْتَرِضَ مشيئةُ اللهِ دونَ فِعْلِه، وذلك ممَّا لا مَدْخَلَ فيه للنهي". قلت: يعني أنَّ النهي عن مثلِ هذا المعنى لا يَحْسُن.

ثم قال: "وتعلُّقُه بالنهي مِنْ وجهين، أحدهما: ولا تقولَنَّ ذلك القولَ إلا أَنْ يشاءَ اللهُ أَنْ تقولَه بأَنْ يَأْذَنَ لك فيه. والثاني: ولا تقولَنَّه إلا بأَنْ يشاءَ اللهُ أي: إلا بمشيئته، وهو في موضعِ الحال، أي: ملتبساً بمشيئةِ الله قائلاً إنْ شاء الله. وفيه وجهٌ ثالث: وهو أَنْ يكونَ "إلا أَنْ يشاء" في معنى كلمةِ تأبيد كأنَّه قيل: ولا تقولَنَّه أبداً، ونحوُه: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّنَا ﴾ [الأعراف: 89] لأنَّ عَوْدَهم في ملَّتِهم ممَّا لم يَشَأْ الله".

وهذا الذي ذكره الزمخشريُّ قد رَدَّه ابنُ عطية بعد أَنْ حكاه عن الطبري وغيرِه ولم يوضِّحِ وجهَ الفسادِ.

وقال الشيخ: "وإلا أَنْ يشاءَ اللهُ استثناءٌ لا يمكن حَمْلُه على ظاهرِه، لأنه يكونُ داخلاً تحت القولِ فيكونُ من المقول، ولا ينهاه اللهُ أَنْ يقول: إني فاعل ذلك غداً إلا أَنْ يشاءَ اللهُ، لأنه كلامٌ صحيحٌ في نفسِه لا يمكنُ أَنْ يُنْهى عنه، فاحتيج في تأويلِ هذا الظاهرِ إلى تقديرٍ. فقال ابن عطية: "في الكلامِ حَذْفٌ يَقْتضيه الظاهرُ، ويُحَسِّنه الإيجازُ، تقديرُه: إلا أَنْ تقولَ: إلا أَنْ يشاءَ الله، أو إلا أَنْ تقولَ: إنْ شاء الله. والمعنى: إلا أَنْ تذكُرَ مشيئةَ الله،

فليس "إلا أن يشاءَ اللهُ" من القولِ الذي نَهَى عنه" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 465.470﴾

(118/470)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بَالغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ .

أخبر أنّ علومَ الناسِ متقاصرةٌ عن عددهم ؛ فالأحوالُ التي لا يطلع عليها إلا الله في أسرارهم وقلوبهم . . . متى يكون للخَلْق عليها إشرافٌ ؟

أشكل عليهم عددهم ، وعددهم يُعْلَم بالضرورة ، وهم لا يُدْرَكون بالمشاهدة .

ويقال سَعِدَ الكلبُ حيث كرَّرَ الحقُّ - سبحانه - ذِكْرَهم وذكَرَ الكلبَ معهم على وجه التكرار ، ولمَّا ذَكَرَهم عَدَّ الكلب في جملتهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ .

لما كانوا من أوليائه فلا يعلمهم إلا خواص عباده ، ومَنْ كان قريباً في الحال منهم ؛ فهم في كتم

الغَيْرَة وإيواء الستر لا يَطَّلعُ الأجانبُ عليهم؛ ولا يعلمهم إلا قليلٌ؛ لأنَّ الحق – سبحانه يستر أولياءه عن الأجانب، فلا يعلمهم إلا أهل الحقيقة، فالأجانب لا يعرفون الأقارب، ولا تشكل أحوال الأقارب على الأقارب. كذلك قال شيوخ هذه الطائفة: " الصوفية أهل بيتٍ واحدٍ لا يدخل فيهم غيرهم ".

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾.

كما لا يعرفهم من كان بمعزلٍ عن حالتهم، ولا يهتدي إلى أحكامهم من لا يعرفهم.. فلا يصحُّ استفتاءُ مَنْ غاب علمهم عنه في حالهم. ومَنْ لم يكن قلبُه محلاً لمحبة الأحباب لا يكون لسانُه مقراً لذكرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

إذا كانت الحوادث صادرةً عن مشيئة الله فمَنْ عَرَفَ الله لم يَعُدّ من نفسه ما علم أنه لا يتم إلا بالله.

ويقال مَنْ عَرَفَ الله سقط اختيارُه عند مشيئته، واندرجت أحكامه في شهوده لحكم الله.

ويقال المؤمن يعزم على اعتناق الطاعة في مستقبله بقلبه ، لكنه يتبرأ عن حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ بسِرِّه ، والشرعُ يستدعي منه نهوض قلبه في طاعته ، والحقُّ يقف سِرَّه عند شهود ما منه لمحبوبه تحت جريان قسمته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ .

إنْ طرأَتْ عليك طوارقُ النسيان - لا يتعهدك - فجرِّدْ بذكرك قَصْدَكَ عن أوطان غفلتك .

ويقال ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ : في الحقيقة نَفْسُك تمنعك من استغراقك في شهود ذكرك .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت ذكرك لربِّك : فإن العبدَ إذا كان ملاحظاً لذكره كان ذلك آفة في ذكره .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت حَظَّك منه .

ويقال واذكر ربَّك إذا نسيت غيرَ ربِّك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 390.388 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (26) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما فرغ من هذه التربية في أثناء القصة وختمها بالترجية في الهداية للأرشد ، وكان علم مدة لبثهم أدق وأخفى من علم عددهم ، شرع في إكمالها مبيناً لهذا الأخفى ، عاطفاً على قوله ﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ [الكهف : 19] أو على " فأووا إليه " الذي أرشد إلى تقديره قولهم : ﴿ فأووا إلى الكهف ﴾ كما مضى ، المختوم بنشر الرحمة وتهيئة المرفق بعد قوله ﴿ إذ أوى الفتية ﴾ المختوم بقولهم ﴿ وهيىء لنا من أمرنا رشداً ﴾ فقال بياناً لإجمال ﴿ سنين عدداً ﴾ محققاً لقوله تعالى : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ : ﴿ ولبثوا في كهفهم ﴾ نياماً ﴿ ثلاث ﴾ أي مدة ثلاث ﴿ مائة سنين ﴾ شمسية بحساب اليهود الآمرين بهذا السؤال ، وعبر بلفظ السنة إشارة إلى ذمها بما وقع فيها من علو أهل الكفر وطغيانهم بما أوجب خوف الصديقين وهجرتهم وإن كان وقع فيها خصب في النبات وسعة في الرزق ، وذلك يدل على استغراق الكفر لمدة نومهم .

ولما كان المباشرون للسؤال هم العرب قال : ﴿ وازدادوا تسعاً ﴾ أي من السنين القمرية إذا حسب الكل بحساب القمر ، لأن تفاوت ما بين السنة الشمسية والقمرية عشرة أيام وإحدى وعشرون ساعة وخمسا ساعة كما تقدم في النسيء من براءة ، فإذا حسبت زيادة السني القمرية على الثلاثمائة الشمسية باعتبار نقص أيامها عنها كانت تسع سنين ، وكأن مدة لبثهم كانت عند اليهود أقل من ذلك أو أكثر ، فقال على طريق الجواب لسؤال من يقول : فإن قال أحد غير هذا فما يقال له ؟ ﴿ قل الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ أعلم ﴾ منكم ﴿ بما لبثوا ﴾ ثم علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ له ﴾ أي وحده ﴿ غيب السماوات والأرض ﴾ يعلمه كله على ما هو عليه ، ولا ينسى شيئاً من الماضي ولا يعزب عنه شيء من الحاضر ، ولا يعجز عن شيء من الآتي ، فلا ريب فيما يخبر به .

(121/470)

ولما كان السمع والبصر مناطي العلم ، وكان متصفاً منهما بما لا يعلمه حق علمه غيره ، عجب من ذلك بقوله تعالى : ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ ولما كان القائم بشيء قد يقوم غيره مقامه إما بقهر أو شرك ، نفى ذلك فانسد باب العلم عن غيره إلا من جهته فقال تعالى : ﴿ ما لهم ﴾ أي لهؤلاء السائلين ولا المسؤولين الراجمين بالغيب من أصحاب الكهف ﴿ من

دونه ﴾ وأعرق بقوله تعالى : ﴿ من ولي ﴾ يجيرهم منه أو بغير ما أخبر به ﴿ ولا يشرك ﴾ أي الله ﴿ في حكمه أحداً ﴾ فيفعل شيئاً بغير أمره أو يخبر بشيء من غير طريقه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 461.462 ﴾

(122/470)

فصل

قال الفخر :

وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وازدادوا تِسْعًا * قُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُ غَيْبُ السماوات والأرض أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مّن دُونِهِ مِن وَلِىّ وَلاَ يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ فاعلم أن هذه الآية آخر الآيات المذكورة في قصة أصحاب الكهف وفي قوله : ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ﴾ قولان : الأول : أن هذا حكاية كلام القوم والدليل عليه أنه تعالى قال : ﴿ سَيَقُولُونَ ثلاثة رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ وكذا إلى أن قال : ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ﴾ أي أن أولئك الأقوام قالوا ذلك ويؤكده أنه تعالى قال بعده : ﴿ قُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ وهذا يشبه الرد على الكلام المذكور قبله ويؤكده أيضاً ما روي في مصحف عبد الله : وقالوا ولبثوا في كهفهم .

والقول الثاني : أن قوله : ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ﴾ هو كلام الله تعالى فإنه أخبر عن كمية تلك المدة ، وأما قوله : ﴿ سَيَقُولُونَ ثلاثة رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ فهو كلام قد تقدم وقد تخلل بينه وبين هذه الآية ما يوجب انقطاع أحدهما عن الآخر وهو قوله : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظاهرا ﴾ وقوله : ﴿ قُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ لا يوجب أن ما قبله حكاية ، وذلك لأنه تعالى أراد : ﴿ قُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ فارجعوا إلى خبر الله دون ما يقوله أهل الكتاب .

المسألة الثانية :

قرأ حمزة والكسائي ثلثمائة سنين بغير تنوين والباقون بالتنوين وذلك لأن قوله : ﴿ سِنِينَ ﴾ عطف بيان لقوله : ﴿ ثلثمائة ﴾ لأنه لما قال : ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ﴾ لم يعرف أنها أيام أم شهور أم سنون فلما قال سنين صار هذا بياناً لقوله : ﴿ ثلثمائة ﴾ فكان هذا عطف بيان له وقيل هو على التقديم والتأخير أي لبثوا سنين ثلثمائة .

وأما وجه قراءة حمزة فهو أن الواجب في الإضافة ثلثمائة سنة إلا أنه يجوز وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله : ﴿ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أعمالا ﴾ [الكهف : 103] .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ وازدادوا تِسْعًا ﴾ ؟ المعنى وازدادوا تسع سنين فإن قالوا : لم لم يقل ثلثمائة وتسع سنين ؟ وما الفائدة في قوله ﴿ وازدادوا تِسْعًا ﴾ ؟ قلنا : قال بعضهم : كانت المدة ثلثمائة سنة من السنين الشمسية وثلثمائة وتسع سنين من القمرية ، وهذا مشكل لأنه لا يصح بالحساب هذا القول ، ويمكن أن يقال : لعلهم لما استكملوا ثلثمائة سنة قرب أمرهم من الأنبياء ثم اتفق ما أوجب بقاءهم في النوم بعد ذلك تسع سنين ثم قال : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ معناه أنه تعالى أعلم بمقدار هذه المدة من الناس الذين اختلفوا فيها ، وإنما كان أولى بأن يكون عالماً به لأنه موجد للسموات والأرض ومدبر للعالم ، وإذا كان كذلك كان عالماً بغيب السموات والأرض فيكون عالماً بهذه الواقعة لا محالة ثم قال تعالى : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ وهذه كلمة تذكر في التعجب ، والمعنى ما أبصره وما أسمعه ، وقد بالغنا في تفسير كلمة التعجب في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النار ﴾ [البقرة : 175] ثم قال تعالى : ﴿ مَا لَهُم مّن دُونِهِ مِن وَلِىّ ﴾ وفيه وجوه .

الأول : ما لأصحاب الكهف من دون الله من ولي فإنه هو الذي يتولى حفظهم في ذلك النوم الطويل .

الثاني : ليس لهؤلاء المختلفين في مدة لبث أهل الكهف ولي من دون الله يتولى أمرهم ويقيم لهم تدبير أنفسهم فإذا كانوا محتاجين إلى تدبير الله وحفظه فكيف يعلمون هذه الواقعة من

غير أعلامه .

الثالث : أن بعض القوم لما ذكروا في هذا الباب أقوالاً على خلاف قول الله فقد استوجبوا العقاب ، فبين الله أنه ليس لهم من دونه ولي يمنع الله من إنزال العقاب عليهم .

(124/470)

ثم قال : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ والمعنى أنه تعالى لما حكم أن لبثهم هو هذا المقدار فليس لأحد أن يقول قولاً بخلافه .

والأصل أن الاثنين إذا كانا لشريكين فإن الاعتراض من كل واحد منهما على صاحبه يكثر ويصير ذلك مانعاً لكل واحد منهما من إمضاء الأمر على وفق ما يريده .

وحاصله يرجع إلى قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] فالله تعالى نفى ذلك عن نفسه بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ وقرأ ابن عامر ولا تشرك بالتاء والجزم على النهي والخطاب عطفاً على قوله : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ ﴾ أو على قوله : ﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ والمعنى ولا تسأل أحداً عما أخبرك الله به من عدة أصحاب الكهف واقتصر على حكمه وبيانه ولا تشرك أحداً في طلب معرفة تلك الواقعة وقرأ الباقون بالياء والرفع على الخبر والمعنى أنه تعالى لا يفعل ذلك .

المسألة الرابعة :

اختلف الناس في زمان أصحاب الكهف وفي مكانهم ، أما الزمان الذي حصلوا فيه ، فقيل إنهم كانوا قبل موسى عليه السلام وإن موسى ذكرهم في التوراة ، ولهذا السبب فإن اليهود سألوا عنهم ، وقيل : إنهم دخلوا الكهف قبل المسيح وأخبر المسيح بخبرهم ثم بعثوا في الوقت الذي بين عيسى عليه السلام وبين محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل إنهم دخلوا الكهف بعد المسيح ، وحكى القفال هذا القول عن محمد بن إسحق .

وقال قوم : إنهم لم يموتوا ولا يموتون إلى يوم القيامة .

وأما مكان هذا الكهف ، فحكى القفال عن محمد بن موسى الخوارزمي المنجم أن الواثق أنفذه ليعرف حال أصحاب الكهف إلى الروم ، قال : فوجه ملك الروم معي أقواماً إلى الموضع الذي يقال إنهم فيه ، قال : وإن الرجل الموكل بذلك الموضع فزعني من الدخول عليهم ، قال : فدخلت ورأيت الشعور على صدورهم قال وعرفت أنه تمويه واحتيال وأن الناس كانوا قد عالجوا تلك الجثث بالأدوية المجففة لأبدان الموتى لتصونها عن البلى مثل التلطيخ بالصبر وغيره ، ثم قال القفال : والذي عندنا لا يعرف أن ذلك الموضع هو موضع

أصحاب الكهف أو موضع آخر ، والذي أخبر الله عنه وجب القطع به ولا عبرة بقول أهل الروم إن ذلك الموضع هو موضع أصحاب الكهف ، وذكر في الكشاف عن معاوية أنه غزا الروم فمر بالكهف فقال : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس لك ذلك قد منع الله من هو خير منك ، فقال : لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ، فقال لابن عباس : لا أنتهي حتى أعلم حالهم ، فبعث أناساً فقال لهم : اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأحرقتهم ، وأقول العلم بذلك الزمان وبذلك المكان ليس للعقل فيه مجال ، وإنما يستفاد ذلك من نص ، وذلك مفقود فثبت أنه لا سبيل إليه .

المسألة الخامسة :

اعلم أن مدار القول بإثبات البعث والقيامة على أصول ثلاثة .

أحدها : أنه تعالى قادر على كل الممكنات .

والثاني : أنه تعالى عالم بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات .

وثالثها : أن كل ما كان ممكن الحصول في بعض الأوقات كان ممكن الحصول في سائر الأوقات فإذا ثبتت هذه الأصول الثلاثة ثبت القول بإمكان البعث والقيامة ، فكذلك ها هنا ثبت أنه تعالى عالم قادر على الكل ، وثبت أن بقاء الإنسان حياً في النوم مدة يوم ممكن فكذلك بقاؤه مدة ثلثمائة سنة يجب أن يكون ممكناً بمعنى أن إله العالم يحفظه ويصونه عن الآفة .

(126/470)

وأما الفلاسفة فإنهم يقولون أيضاً : لا يبعد وقوع أشكال فلكية غريبة توجب في هيولي عالم الكون والفساد حصول أحوال غريبة نادرة ، وأقول : هذه السور الثلاثة المتعاقبة اشتمل كل واحد منها على حصول حالة عجيبة نادرة في هذا العالم فسورة بني إسرائيل اشتملت على الإسراء بجسد محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الشام وهو حالة عجيبة ، وهذه السورة اشتملت على بقاء القوم في النوم مدة ثلثمائة سنة وأزيد وهو أيضاً حالة عجيبة ، وسورة مريم اشتملت على حدوث الولد لا من الأب وهو أيضاً حالة عجيبة .

والمعتمد في بيان إمكان كل هذه العجائب والغرائب المذكورة في هذه السور الثلاثة المتوالية هو الطريقة التي ذكرناها .

ومما يدل على أن هذا المعنى من الممكنات أن أبا علي بن سينا ذكر في باب الزمان من كتاب الشفاء أن أرسطاطاليس الحكيم ذكر أنه عرض لقوم من المتألهين حالة شبيهة بحالة أصحاب الكهف ، ثم قال أبو علي : ويدل التاريخ على أنهم كانوا قبل أصحاب الكهف .

انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 95.97﴾

(127/470)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾

في قراءة ابن مسعود قالوا لبثوا في كهفهم . وفيه قولان :

أحدهما : أن هذا قول اليهود ، وقيل بل نصارى نجران أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ، فرد الله تعالى عليهم قولهم وقال لنبيه ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾

واتلقول الثاني : أن هذا إخبار من الله تعالى بهذا العدد عن مدة بقائهم في الكهف من حين دخلوه إلى ما ماتوا فيه .

﴿ وازدادوا تسعاً ﴾ هو ما بين السنين الشمسية والسنين القمرية .

﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بما لبثوا بعد مدتهم إلى نزول القرآن فيهم .

الثاني : الله أعلم بما لبثوا في الكهف وهي المدة التي ذكرها عن اليهود إذ ذكروا زيادة ونقصاناً .

قوله عز وجل : ﴿ . . . أبصر به وأسمع ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أن الله أبصر وأسمع ، أي أبصر ، بما قال وأسمع لما قالوا . الثاني : معناه أبصرهم وأسمعهم ، ما قال الله فيهم .

﴿ ما لهم من دونه من وَلِيّ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من ناصر .

الثاني : من مانع . ﴿ ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ولا يشرك في علم غيبه أحداً .

الثاني : أنه لم يجعل لأحد أن يحكم بغير حكمه فيصير شريكاً له في حكمه . انتهى . ا

هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(128/470)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) ﴾

قال قتادة ومطر الوراق وغيرهما ﴿ ولبثوا في كهفهم ﴾ الآية حكاية عن بني إسرائيل أنهم قالوا ذلك ، واحتجا بأن قراءة عبد الله بن مسعود ، وفي مصحفه : " وقالوا لبثوا في كهفهم " ، وذلك عند قتادة ، على غير قراءة عبد الله ، عطف على ﴿ ويقولون سبعة ﴾ [الكهف : 22] ، ذكر الزهراوي ، ثم أمر الله نبيه بأن يرد العلم إليه رداً على مقالهم وتقييداً

له ، قال الطبري : وقال بعضهم : لو كان ذلك خبراً من الله ، لم يكن لقوله ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ وجه مفهوم .

قال القاضي أبو محمد : أي ذهب بهذا القائل ، وما الوجه المفهوم البارع إلا أن تكون الآية خبراً عن لبثهم ، ثم قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ فخبره هذا هو الحق من عالم الغيب فليزل اختلافكم أيها المخرصون ، وقال المحققون : بل قوله تعالى : ﴿ ولبثوا في كهفهم ﴾ الآية خبر من الله تعالى عن مدة لبثهم ، ثم اختلف في معنى قوله بعد الإخبار ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ فقال الطبري : إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعثار عليهم إلى مدة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، فأخبر الله نبيه أن هذه المدة في كونهم نياماً ، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر ، فأمره الله أن يرد علم ذلك إليه فقوله على هذا التأويل ﴿ لبثوا ﴾ الأول ، يريد في نوم الكهف ، و﴿ لبثوا ﴾ الثاني : يريد بعد الإعثار موتى إلى مدة محمد عليه السلام ، إلى وقت عدمهم بالبلى ، على الاختلاف الذي سنذكره بعد ، وقال بعضها إنه لما قال : ﴿ وازدادوا تسعاً ﴾ لم يدر الناس أهي ساعات ، أم أيام ، أم جمع ، أم شهور ،

أم أعوام . واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك ، فأمره الله برد العلم إليه ، يريد في التسع فهي على هذا مبهمة ، وظاهر كلام العرب والمفهوم منه أنها أعوام ، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعد عيسى بيسير ، وقد بقيت من الحواريين بقية ، وحكى النقاش ما معناه : أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية بحساب الأمم ، فلما كان الإخبار هنا للنبي العربي ذكرت التسع ، إذ المفهوم عنده من السنين القمرية ، فهذه الزيادة هي ما بين الحسابين ، وقرأ الجمهور " ثلاثمائةٍ سنينَ " بتنوين مائة ونصب " سنينَ " على البدل من " ثلاثمائةٍ " ، وعطف البيان ، وقيل على التفسير والتمييز وقرأ حمزة والكسائي ويحيى وطلحة والأعمش بإضافة " مائة " إلى " سنين " ، وترك التنوين ، وكأنهم جعلوا " سنين " بمنزلة سنة ، إذ المعنى

(130/470)

بهما واحد قال أبو علي : إذ هذه الأعداد التي تضاف في المشهور إلى الآحاد نحو ثلاثمائة رجل وثوب ، قد تضاف إلى الجموع ، وأنحى أبو حاتم على هذه القراءة ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : " ثلاثمائة سنة " ، وقرأ الضحاك " ثلاثمائة سنون " ، بالواو ، وقرأ أبو

عمرو بخلاف : " تَسعاً " بفتح التاء ، وقرأ الجمهور " تِسعاً " بكسر التاء ، وقوله ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ أي ما أبصره وأسمعه .

(131/470)

قال قتادة : لا أحد أبصر من الله ولا أسمع ، وهذه عبارات عن الإدراك ، ويحتمل أن يكون المعنى : أبصر به أي بوحيه وإرشاده هداك وحججك والحق من الأمور . وأسمع به العالم ، فتكون أمرين ، لا على وجه التعجب ، وقوله ﴿ ما لهم من دونه من ولي ﴾ يحتمل أن يعود الضمير في ﴿ لهم ﴾ على أصحاب الكهف ، أي هذه قدرته وحده ، لم يواليهم غيره بتلطف لهم ، ولا اشترك معه أحد في هذا الحكم ، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿ لهم ﴾ على معاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكفار ومشاقيه ، وتكون الآية اعتراضاً بتهديد ، وقرأ الجمهور " ولا يشرك في حكمه أحداً " بالياء من تحت على معنى الخبر عن الله تعالى ، وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رجاء وقتادة والجحدري " ولا تشرك " بالتاء من فوق ، على جهة النهي للنبي عليه السلام ، ويكون قوله " ولا تشرك " عطفاً على ﴿ أبصر ﴾ ﴿ وأسمع ﴾ ، وقرأ مجاهد " ولا يشركْ " بالياء من تحت وبالجزم ، قال يعقوب لا أعرف وجهه ، وحكى الطبري عن الضحاك بن مزاحم أنه قال : نزلت هذه الآية

: ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة ﴾ فقط ، فقال الناس هي أشهر أم أيام أم أعوام ؟ فنزلت ﴿ سنين وازدادوا تسعاً ﴾ وأما هل دام أهل الكهف وبقيت أشخاصهم محفوظة بعد الموت ؟ فاختلفت الروايات في ذلك ، فروي عن ابن عباس أنه مر بالشام في بعض غزواته ، مع ناس على موضع الكهف وجبله ، فمشى الناس إليه ، فوجدوا عظاماً ، فقالوا هذه عظام أصحاب الكهف ، فقال لهم ابن عباس : أولئك قوم فنوا وعدموا منذ مدة طويلة فسمعه راهب ، فقال ما كنت أحسب أن أحداً من العرب يعرف هذا ، فقيل له هذا ابن عم نبينا فسكت ، وروت فرقة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال " ليحجن عيسى ابن مريم ومعه أصحاب الكهف ، فإنهم لم يحجوا بعد " .

(132/470)

قال القاضي أبو محمد : وبالشام على ما سمعت من ناس كثير ، كهف كان فيه موتى ، يزعم مجاويه أنهم أصحاب الكهف ، وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم ، ومعهم كلب رمة ، وبالأندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تسمى لوشة ، كهف فيه موتى ومعهم كلب رمة ، وأكثرهم قد انجرد لحمه ، وبعضهم متماسك ، وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم إشارة ، ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف ، دخلت إليهم فرأيتهم سنة أربع

وخمسمائة ، وهم بهذه الحالة ، وعليهم مسجد ، وقريب منهم بناء رومي يسمى الرقيم ، كأنه قصر محلق قد بقي بعض جدرانه وهو في فلاة من الأرض حزنة وبأعلى حضرة غرناطة مما يلي القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها مدينة دقيوس ، وجدنا في آثارها غرائب في قبور ونحوها .

قال القاضي أبو محمد : وإنما استسهلت ذكر هذا مع بعده لأنه عجب يتخلد ذكره ما شاء الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(133/470)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاثمائةٍ سنين ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : "ثلاثمائةٍ سنين" منوَّناً .

وقرأ حمزة ، والكسائي : "ثلاثمائةِ سنين" مضافاً غير منوَّن .

قال أبو علي : العدد المضاف إِلى الآحاد قد جاء مضافاً إِلى الجميع ، قال الشاعر :

ومَا زوَّدُوني غير سَحْقِ عِمامةٍ . . .

وَخَمْسِمِىءٍ منها قَسِيٌّ وزائفُ

وفي هذا الكلام قولان .

أحدهما : أنه حكاية عما قال الناس في حقهم ، وليس بمقدار لبثهم ، قاله ابن عباس ، واستدل عليه فقال : لو كانوا لبثوا ذلك ، لما قال : ﴿ الله أعلم بما لبثوا ﴾ ، وكذلك قال قتادة ، وهذا قول أهل الكتاب .

والثاني : أنه مقدار ما لبثوا ، قاله عبيد بن عمير ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن زيد ؛ والمعنى : لبثوا هذا القدر من يوم دخلوه إِلى أن بعثهم الله وأطلع الخلق عليهم .

قوله تعالى : ﴿ سنين ﴾ قال الفراء ، وأبو عبيدة ، والكسائي ، والزجاج : التقدير : سنين ثلاثمائة .

وقال ابن قتيبة : المعنى : أنها لم تكن شهوراً ولا أياماً ، وإِنما كانت سنين .

وقال أبو علي الفارسي : "سنين" بدل من قوله : "ثلاثمائة" .

قال الضحاك : نزلت : ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاثمائةٍ ﴾ فقالوا : أياماً ، أو شهوراً ، أو سنين؟ فنزلت : "سنين" فلذلك قال : "سنين" ، ولم يقل : سنة .

قوله تعالى : ﴿ وازدادوا تسعاً ﴾ يعني : تسع سنين ، فاستغنى عن ذِكْر السنين بما تقدَّم من ذِكْرها .

ثم أعلمَ أنه أعلمُ بقدْر مدة لبثهم من أهل الكتاب المختلفين فيها ، فقال : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ قال ابن السائب : قالت نصارى نجران : أما الثلاثمائة ، فقد عرفناها ، وأما التسع ، فلا عِلْم لنا بها ، فنزل قوله تعالى : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ وقيل : إِن أهل الكتاب قالوا : إِن للفتية منذ دخلوا الكهف إِلى يومنا هذا ثلاثمائة وتسع سنين ، فرد الله تعالى عليهم ذلك ، وقال : "قل الله أعلم بما لبثوا" بعد أن قبض أرواحهم إِلى يومكم هذا ، لا يعلم ذلك غيرُ الله .

وقيل : إِنما زاد التسع ، لأنه تفاوت ما بين السنين الشمسية والسنين القمرية ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ أَبصِرْ به وأَسمِعْ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه على مذهب التعجب ، فالمعنى : ما أسمع الله به وأبصر ، أي : هو عالم بقصة أصحاب الكهف وغيرهم ، هذا قول الزجاج ، وذكر أنه إِجماع العلماء .

والثاني : أنه في معنى الأمر ، فالمعنى : أَبصِر بدِين الله وأَسمِع ، أي : بصّر بهدى الله وسمّعِ ، فترجع الهاء إِما على الهدى ، وإِما على الله عز وجل ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ ما لهم من دونه ﴾ أي : ليس لأهل السموات والأرض من دون الله من ناصر ، ﴿ ولا يُشرِك في حكمه أحداً ﴾ ولا يجوز أن يحكم حاكم بغير ما حكم به ،

وليس لأحد أن يحكم من ذات نفسه فيكون شريكاً لله عز وجل في حكمه .

وقرأ ابن عامر : "ولا تُشرِكْ" جزماً بالتاء ، والمعنى : لا تشرك أيها الإِنسان . انتهى . ا هـ ﴿زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(135/470)

وقال القرطبى :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) ﴾

هذا خبر من الله تعالى عن مدّة لبثهم .

وفي قراءة ابن مسعود "وقالوا لبثوا" .

قال الطبري : إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعثار عليهم إلى مدّة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : إنهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين ، فأخبر الله تعالى نبيّه أن هذه المدّة في كونهم نياماً ، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر .

فأمر الله تعالى أن يردّ علم ذلك إليه .

قال ابن عطية : فقوله على هذا "لبثوا" الأول يريد في نوم الكهف ، و"لبثوا" الثاني يريد بعد الإعثار إلى مدة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو إلى وقت عدمهم بالبلاء .

مجاهد : إلى وقت نزول القرآن .

الضحاك : إلى أن ماتوا .

وقال بعضهم : إنه لما قال : ﴿ وازدادوا تسعاً ﴾ لم يدر الناس أهي ساعات أم أيام أم جُمَع أم شهور أم أعوام .

واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك ، فأمر الله تعالى برد العلم إليه في التسع ، فهي على هذا مبهمة .

وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنها أعوام ، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعد عيسى بيسير وقد بقيت من الحواريين بقية .

وقيل غير هذا على ما يأتي .

قال القشيريّ : لا يفهم من التسع تسع ليال وتسع ساعات لسبق ذكر السنين ؛ كما تقول : عندي مائة درهم وخمسة ؛ والمفهوم منه خمسة دراهم .

وقال أبو علي "وازدادوا تسعاً" أي ازدادوا لبث تسع ؛ فحذف .

وقال الضحاك : لما نزلت ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ ﴾ قالوا سنين أم شهور أم جمع أم أيام ؛ فأنزل الله عز وجل : "سنين" .

وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية بحساب الأيام ؛ فلما كان الإخبار هنا للنبيّ العربي ذكرت التسع ؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية ، وهذه الزيادة هي ما بين

الحسابين .

ونحوه ذكر الغزنوي .

(136/470)

أي باختلاف سني الشمس والقمر ؛ لأنه يتفاوت في كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة سنة فيكون في ثلثمائة تسع سنين .

وقرأ الجمهور "ثلثمائة سنين" بتنوين مائة ونصب سنين ، على التقديم والتأخير ؛ أي سنين ثلثمائة فقدم الصفة على الموصوف ، فتكون "سنين" على هذا بدلاً أو عطف بيان .

وقيل : على التفسير والتمييز .

و"سنين" في موضع سنة .

وقرأ حمزة والكسائي بإضافة مائة إلى سنين ، وترك التنوين ؛ كأنهم جعلوا سنين بمنزلة سنة إذ المعنى بهما واحد .

قال أبو عليّ : هذه الأعداد التي تضاف في المشهور إلى الآحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى الجموع .

وفي مصحف عبد الله "ثلثمائة سنة" .

وقرأ الضحاك "ثلثمائة سنون" بالواو .

وقرأ أبو عمرو بخلاف "تسعاً" بفتح التاء وقرأ الجمهور بكسرها .

وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة : التقدير ولبثوا في كهفهم سنين ثلثمائة .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾

قيل بعد موتهم إلى نزول القرآن فيهم ، على قول مجاهد .

أو إلى أن ماتوا ؛ على قول الضحاك .

أو إلى وقت تغيّرهم بالبِلَى ؛ على ما تقدم .

وقيل : بما لبثوا في الكهف ، وهي المدة التي ذكرها الله تعالى عن اليهود وإن ذكروا زيادة ونقصاناً .

أي لا يعلم علم ذلك إلا الله أو من علّمه ذلك ﴿ لَهُ غَيْبُ السماوات والأرض ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ أي ما أبصره وأسمعه .

قال قتادة : لا أحد أبصر من الله ولا أسمع .

وهذه عبارات عن الإدراك .

ويحتمل أن يكون المعنى "أبصر به" أي بوحيه وإرشاده هداك وحججك والحقّ من الأمور ، وأسمع به العالم ؛ فيكونان أمرين لا على وجه التعجب .

وقيل : المعنى أبصرهم وأسمعهم ما قال الله فيهم .

﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ أي لم يكن لأصحاب الكهف وليّ يتولّى حفظهم دون الله.
ويحتمل أن يعود الضمير في "لهم" على معاصري محمد صلى الله عليه وسلم من الكفار.

(137/470)

والمعنى: ما لهؤلاء المختلفين في مدة لبثهم وليّ دون الله يتولى تدبير أمرهم؛ فكيف يكونون أعلم منه، أو كيف يتعلمون من غير إعلامه إيّاهم.

قوله تعالى: ﴿ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ قرىء بالياء ورفع الكاف، على معنى الخبر عن الله تعالى.

وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رجاء وقتادة والجحدريّ "ولا تشرك" بالتاء من فوق وإسكان الكاف على جهة النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويكون قوله "ولا تشرك" عطفا على قوله "أبصر به وأسمع".

وقرأ مجاهد "يشرك" بالياء من تحت والجزم.

قال يعقوب: لا أعرف وجهه.

مسألة: اختلف في أصحاب الكهف هل ماتوا وفنوا، أو هم نيام وأجسادهم محفوظة، فروي عن ابن عباس أنه مرّ بالشام في بعض غزواته مع ناس على موضع الكهف وجبله،

فمشى الناس معه إليه فوجدوا عظاماً فقالوا : هذه عظام أهل الكهف .

فقال لهم ابن عباس : أولئك قوم فنوا وعدموا منذ مدّة طويلة ؛ فسمعه راهب فقال : ما كنت أحسب أن أحداً من العرب يعرف هذا ؛ فقيل له : هذا ابن عم نبيّنا صلى الله عليه وسلم .

وروت فرقة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليحجنّ عيسى بن مريم ومعه أصحاب الكهف فإنهم لم يحجّوا بعد " .

ذكره ابن عطية .

قلت : ومكتوب في التوراة والإنجيل أن عيسى بن مريم عبدُ الله ورسوله ، وأنه يمر بالروحاء حاجًّا أو معتمراً أو يجمع الله له ذلك فيجعل الله حواريه أصحاب الكهف والرقيم ، فيمرّون حجاجاً فإنهم لم يحجوا ولم يموتوا .

وقد ذكرنا هذا الخبر بكماله في كتاب "التذكرة" .

فعلى هذا هم نيام ولم يموتوا إلى يوم القيامة ، بل يموتون قبيل الساعة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) ﴾

الظاهر أن قوله ﴿ ولبثوا ﴾ الآية إخبار من الله تعالى بمدة لبثهم نياماً في الكهف إلى أن أطلع الله عليهم .

قال مجاهد : وهو بيان لمجمل قوله تعالى ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ﴾ ولما تحرر هذا العدد بإخبار من الله تعالى أمر نبيه أن يقول ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ فخبره هذا هو الحق والصدق الذي لا يدخله ريب ، لأنه عالم ﴿ غيب السموات والأرض ﴾ والظاهر أن قوله ﴿ بما لبثوا ﴾ إشارة إلى المدة السابق ذكرها .

وقال بعضهم : ﴿ بما لبثوا ﴾ إشارة إلى المدة التي بعد الاطلاع عليهم إلى مدة الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : لما قال ﴿ وازدادوا تسعاً ﴾ كانت التسعة منبهمة هي الساعات والأيام والشهور والأعوام ، واختلفت بنو إسرائيل بحسب ذلك فأمره تعالى برد العلم إليه يعني في التسع وهذا بعيد لأنه إذا سبق عدد مفسر وعطف عليه ما لم يفسر حمل تفسيره على السابق .

وحكى النقاش أنها ثلاثمائة شمسية ، ولما كان الخطاب للعرب زيدت التسع إذ حساب العرب هو بالقمر لاتفاق الحسابين .

وقال قتادة ومطر الورّاق : ﴿ لبثوا ﴾ إخبار من بني إسرائيل ، واحتجوا بما في مصحف

عبد الله وقالوا ﴿ لبثوا ﴾ وعلى غير قراءة عبد الله يكون معطوفاً على المحكي بقوله ﴿ سيقولون ﴾ .

ثم أمر الله نبيه أن يرد العلم إليه ﴿ بما لبثوا ﴾ ردّاً عليهم وتفنيداً لمقالتهم .

قيل : هو من قول المتنازعين في أمرهم وهو الصحيح على مقتضى سياق الآية ، ويؤيده ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ جعل ذلك من الغيوب التي هو تعالى مختص بها .

وقرأ الجمهور : مائة بالتنوين .

قال ابن عطية : على البدل أو عطف البيان .

وقيل : على التفسير والتمييز .

وقال الزمخشري : عطف بيان لثلاثمائة .

وحكى أبو البقاء أن قوماً أجازوا أن يكون بدلاً من مائة لأن مائة في معنى مئات ، فأما عطف البيان فلا يجوز على مذهب البصريين ، وأما نصبه على التمييز فالمحفوظ من لسان العرب المشهور أن مائة لا يفسر إلاّ بمفرد مجرور ، وإن قوله إذا عاش الفتى مائتين عاماً من الضرورات ولا سيما وقد انضاف إلى ذلك كون ﴿ سنين ﴾ جمعاً .

وقرأ حمزة والكسائي وطلحة ويحيى والأعمش والحسن وابن أبي ليلى وخلف وابن سعدان وابن عيسى الأصبهاني وابن جبير الأنطاكي مائة بغير تنوين مضافاً إلى ﴿ سنين ﴾ أوقع الجمع موقع المفرد ، وأنحى أبو حاتم على هذه القراءة ولا يجوز له ذلك .

وقال أبو عليّ : هذه تضاف في المشهور إلى المفرد ، وقد تضاف إلى الجمع .

وقرأ أبي سنة وكذا في مصحف عبد الله .

وقرأ الضحاك : سنون بالواو على إضمار هي سنون .

وقرأ الحسن وأبو عمرو في رواية اللؤلؤي عنه ﴿ تسعاً ﴾ بفتح التاء كما قالوا عشر .

ثم ذكر اختصاصه بما غاب في السموات والأرض وخفي فيها من أحوال أهلها ، وجاء بما دل على التعجب من إدراكه للمسموعات والمبصرات للدّلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حد ما عليه إدراك السامعين والمبصرين ، لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها كما يدرك أكبرها حجماً وأكثفها جرماً ، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر والضمير في ﴿ به ﴾ عائد على الله تعالى ، وهل هو في موضع رفع أو نصب وهل ﴿ أسمع ﴾ و ﴿ أبصر ﴾ أمران حقيقة أم أمران لفظاً معناهما إنشاء التعجب في ذلك خلاف مقرر في النحو .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون المعنى ﴿ أبصر ﴾ بدين الله ﴿ وأسمع ﴾ أي بصر بهدى الله وسمع فترجع الهاء إما على الهدى وإما على الله ذكره ابن الأنباري .

وقرأ عيسى : أسمع به وأبصر على الخبر فعلاً ماضياً لا على التعجب ، أي ﴿ أبصر ﴾ عباده بمعرفته وأسمعهم ، والهاء كناية عن الله تعالى .

والضمير في قوله ﴿ ما لهم ﴾ قال الزمخشري : لأهل السموات والأرض من ﴿ وليّ ﴾ متول لأمورهم ﴿ ولا يشرك ﴾ في قضائه ﴿ أحداً ﴾ منهم .

وقيل : يحتمل أن يعود على أصحاب الكهف أي هذه قدرته وحده .

ولم يوالهم غيره يتلطف بهم ولا أشرك معه أحداً في هذا الحكم .

ويحتمل أن يعود على معاصري الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الكفار ومشاقيه ، وتكون الآية اعتراضاً بتهديد قاله ابن عطية .

وقيل : يحتمل أن يعود على مؤمني أهل السموات والأرض أي لن يتخذ من دونه ولياً .

وقيل : يعود على المختلفين في مدة لبثهم أي ليس لهم من دون الله من يتولى تدبيرهم ، فكيف يكونون أعلم منه ؟ أو كيف يعلمون من غير إعلامه إياهم ؟ وقرأ الجمهور : ﴿ ولا يشرك ﴾ بالياء على النفي .

وقرأ مجاهد بالياء والجزم .

قال يعقوب : لا أعرف وجهه .

وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رجاء وقتادة والجحدري وأبو حيوة وزيد وحميد ابن الوزير عن يعقوب والجعفي واللؤلؤي عن أبي بكر : ولا تشرك بالتاء والجزم على النهي . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(141/470)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ﴾

أحياءً مضروباً على آذانهم ﴿ ثلاث مِئَةٍ سِنِينَ وازدادوا تِسْعًا ﴾ وهي جملةٌ مستأنَفةٌ مبيّنةٌ لما أُجمل فيما سلف وأُشير إلى عزة منالِه ، وقيل : إنه حكايةُ كلامِ أهلِ الكتابِ فإنهم اختلفوا في مدة لُبثِهم كما اختلفوا في عِدّتهم فقال بعضهم هكذا وبعضُهم ثلاثمائة .

وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال : عند أهلِ الكتابِ أنهم لبِثوا ثلاثمائةِ سنةٍ شمسيةٍ والله تعالى ذكر السنةَ القمريةَ والتفاوتَ بينهما في كل مائة سنةٍ ثلاث سنين فيكون ثلاثمائةٍ وتسعَ سنين ، وسنينَ عطفُ بيانٍ لثلاثمائة ، وقيل : بدلٌ وقرىء على الإضافة وضعاً للجمع موضعَ المفردِ ومما يحسّنه هاهنا أن علامةَ الجمعِ فيه جبرٌ لما حُذف في الواحد وأن

الأصلَ في العدد إضافتُه إلى الجمع.

﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾

(142/470)

أي بالزمان الذي لبثوا فيه. ﴿ لَهُ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ أي ما غاب فيهما وخفيَ من أحوال أهلِهما، واللامُ للاختصاص العلميِّ دون التكوينيِّ فإنه غيرُ مختص بالغيب ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ دلّ بصيغة التعجبِ على أن شأنَ علمِه سبحانه بالمبصَرات والمسموعاتِ خارجٌ عما عليه إدراكُ المدرِكين لا يحجُبه شيءٌ ولا يحول دونه حائلٌ ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيفُ والكثيفُ والصغيرُ والكبيرُ والخفيُّ والجليُّ، والهاءُ ضميرُ الجلالة، ومحلُّه الرفعُ على الفاعلية والباء مَزيدةٌ عند سيبويهِ وكان أصلُه أبصَرَ أي صار ذا بَصَر، ثم نقل إلى صيغة الأمرِ للإنشاء فبرز الضميرُ لعدم لياقةِ الضيغة له أو لزيادة الباء كما في كفى به، والنصبُ على المفعولية عند الأخفشِ والفاعلُ ضميرُ المأمور وهو كلُّ أحد، والباءُ مزيدة إن كانت الهمزةُ للتعدية، ومتعدّية إن كانت للصيرورة، ولعل تقديمَ أمرِ إبصارِه تعالى لما أن الذي نحن بصدده من قبيل المبصَرات ﴿ مَّا لَهُم ﴾ لأهل السمواتِ والأرض ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ تعالى ﴿ مِن وَلِىٍّ ﴾ يتولى أمورَهم وينصرُهم استقلالاً ﴿ وَلاَ يُشْرِكُ فِى

حُكْمِهِ ﴾ في قضائه أو في علم الغيب ﴿ أَحَدًا ﴾ منهم ولا يُجعل له فيه مدخلاً وهو كما ترى أبلغُ في نفي الشريكِ من أن يقال : من ولي ولا شريكٍ ، وقرىء على صيغة نهي الحاضرِ على أن الخطابَ لكل أحدٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(143/470)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ﴾

أحياء مضروباً على آذانهم ﴿ ثالث مِاْئَةٍ سِنِينَ وازدادوا تِسْعًا ﴾ وهي جملة مستأنفة مبينة كما قال مجاهد لما أجمل في قوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا على ءاذَانِهِمْ فِى الكهف سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف : 11] واختار ذلك غير واحد ، قال في "الكشف" : فعلى هذا قوله تعالى :

﴿ قُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾

تقرير لكون المدة المضروب فيها على آذانهم هي هذه المدة كأنه قيل قل الله أعلم بما لبثوا وقد أعلم فهو الحق الصحيح الذي لا يحوم حوله شك قط ، وفائدة تأخير البيان التنبيه على أنهم تنازعوا في ذلك أيضاً لذكره عقيب اختلافهم في عدة أشخاصهم وليكون التذييل بقل

الله أعلم محاكياً للتذييل بقوله سبحانه : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ [الكهف : 22]
وللدلالة على أنه من الغيب الذي أخبر به عليه الصلاة والسلام ليكون معجزاً له ، ولو قيل :
فضربنا على آذانهم سنين عدداً وأتى به مبيناً أولاً لم يكن فيه هذه الدلالة البتة ، فهذه عدة
فوائد والأصل الأخيرة انتهى ، ويحتاج على هذا إلى بيان وجه العدول عن المتبادر وهو
ثلثمائة وتسع سنين مع أنه أخصر وأظهر فقيل هو الإشارة إلى أنها ثلثمائة بحساب أهل
الكتاب واعتبار السنة الشمسية وثلثمائة وتسع بحساب العرب واعتبار السنة القمرية
فالتسع مقدار التفاوت ، وقد نقله بعضهم عن علي كرم الله تعالى وجهه .

(144/470)

واعترض بأن دلالة اللفظ على ما ذكر غير ظاهرة مع أنه لا يوافق ما عليه الحساب
والمنجمون كما قاله الإمام لأن السنة الشمسية ثلثمائة وخمس وستون يوماً وخمس
ساعات وتسع وأربعون دقيقة على مقتضى الإمام أن السنة الشمسية ثلثمائة وخمس
وستون يوماً وخمس ساعات وتسع وأربعون دقيقة على مقتضى الرصد الإيلخاني والسنة
القمرية ثلثمائة وأربعة وخمسون يوماً وثمان ساعات وثمان وأربعون دقيقة فيكون التفاوت
بينهما عشرة أيام وإحدى وعشرين ساعة ودقيقة واحدة وإذا كان هذا تفاوت سنة كان

تفاوت مائة ألف يوم وسبعة وثمانين يوماً وثلاثة عشرة ساعة وأربع دقائق وهي ثلاثة سنين وأربعة وعشرون يوماً وإحدى عشرة ساعة وست عشرة دقيقة فيكون تفاوت ثلثمائة سنة تسع سنين وثلاثاً وسبعين يوماً وتسع ساعات وثمانياً وأربعين دقيقة ولذا قيل إن روايته عن علي كرم الله تعالى وجهه لم تثبت .

وبحث فيه الخفاجي بأن وجه الدلالة فيه ظاهر لأن المعنى لبثوا ثلثمائة سنة على حساب أهل الكتاب الذين علموا قومك السؤال عن شأنهم وتسعاً زائدة على حساب قومك الذين سألوك عن ذلك ، والعدول عن الظاهر يشعر به ، ودعوى أن التفاوت تسع سنين مبنية على التقريب لأن الزائد لم يبلغ نصف سنة بل ولا فصلاً من فصولها فلم يعبأ به ، وكون التفاوت تسعاً تقريباً جار على سائر الأقوال في مقدار السنة الشمسية والسنة القمرية إذ التفاوت في سائرها لا يكاد يبلغ ربعاً فضلاً عن نصف ، وقال الطيبي في توجيه العدول : إنه يمكن أن يقال : لعلهم لما استكملوا ثلثمائة سنة قربوا من الانتباه ثم اتفق ما أوجب بقاءهم نائمين تسع سنين .

وتعقب بأن هذا يقتضي أن يكون المراد وازدادوا نوماً أي قوي نومهم في تسع سنين ولا يخفى ما فيه .

وقال أيضاً : يجوز أن يكون أهل الكتاب قد اختلفوا في مدة لبثهم كما اختلفوا في عدتهم فجاء قوله تعالى : ﴿ وَلَبِثُواْ ﴾ [الكهف : 25] الخ رافعاً للاختلاف مبيناً للحق ؛ ويكون ﴿ وازدادوا تِسْعًا ﴾ [الكهف : 25] تقريراً ودفعاً للاحتمال نظيراً لاستثناء في قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ [العنكبوت : 14] وسيجيء بيانه إن شاء الله تعالى ولا يخلو عن حسن .

وقيل إنهم انتبهوا قليلاً ثم ردوا إلى حالتهم الأولى فلذا ذكر الازدياد وهو الذي يقتضيه ما أخرجه ابن أبي حاتم عن قتادة المار في قوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾ [الكهف : 18] الخ وهو فيما أرى أقرب مما تقدم من حديث السنين الشمسية والقمرية .

وقال جمع : إن الجملة من كلام أهل الكتاب فهي من مقول ﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ [الكهف : 22] السابق وما بينهما اعتراض ونسب ذلك إلى ابن عباس ، فقد أخرج ابن أبي حاتم .

وابن مردويه عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال : إن الرجل ليفسر الآية يرى أنها كذلك فيهوى أبعد ما بين السماء والأرض ثم تلا ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ﴾ الآية ثم قال : كم لبث القوم ؟ قالوا : ثلثمائة وتسع سنين فقال : لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل الله تعالى : ﴿ قُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ ولكنه سبحانه حكى مقالة القوم فقال تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثلاثة ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾ [الكهف : 22] فأخبر أنهم لا يعلمون وقال : سيقولون

لبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً ولعل هذا لا يصح عن الحبر رضي الله تعالى عنه فقد صح عنه القول بأن عدة أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلبهم مع أنه تعالى عقب القول بذلك بقوله سبحانه : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ [الكهف : 22] ولا فرق بينه وبين قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ فلم دل هذا على الرد ولم يدل ذاك .

(146/470)

نعم قرأ ابن مسعود ﴿ قَالُوا لَبِثُواْ كَهْفِهِمْ ﴾ وهو يقتضي أن يكون من كلام الخائضين في شأنهم إلا أن التعقيب بقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ كتعقيب القول الثالث في العدة بما سمعت في عدم الدلالة على الرد .

والظاهر أن ضمير ﴿ وازدادوا ﴾ [الكهف : 25] على هذا القول لأصحاب الكهف كما أنه كذلك على القول السابق ، وقال الخفاجي : إن الضمير عليه لأهل الكتاب بخلافه على الأول ، ويظهر فيه وجه العدول عن ثلثمائة وتسع سنين لأن بعضهم قال : لبثوا ثلثمائة وبعضهم قال : إنه أزيد بتسعة اه .

ولا يخفى ما فيه ، وعلى القولين الظاهر أن ﴿ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ إشارة إلى المدة السابق ذكرها ، وزعم بعضهم أنه إشارة إلى المدة التي بعد الاطلاع عليهم إلى زمن الرسول صلى الله عليه

وسلم وهو كما ترى ، وقيل إنه تعالى لما قال :

﴿ وازدادوا تِسْعًا ﴾ [الكهف : 25] كانت التسع مبهمة لا يدري أنها سنون أم شهور أم أيام أم ساعات واختلف في ذلك بنو إسرائيل فأمر صلى الله عليه وسلم برد العلم إليه عز وجل في التسع فقط اه وليس بشيء فإنه إذا سبق عدد مفسر وعطف عليه ما لم يفسر حمل تفسيره على السابق فعندي مائة درهم وعشرة ظاهر في وعشرة دراهم وليس بمجمل كما لا يخفى .

هذا ونصب ﴿ تِسْعًا ﴾ على أنه مفعول ﴿ ازدادوا ﴾ وهو مما يتعدى إلى واحد ، وقال أبو البقاء : إن زاد يتعدى إلى اثنين وإذا بنى على افتعل تعدى إلى واحد ، وظاهر كلام الراغب .

وغيره أن زاد قد تتعدى إلى واحد يقال : زدته كذا فزاد هو وازداد كذا ، ووجه ذلك ظاهر فلا تغفل ، والجمهور على أن ﴿ سِنِينَ ﴾ [الكهف : 25] في القراءة بتنوين ﴿ مِائَةٍ ﴾ [الكهف : 25] منصوب لكن اختلفوا في توجيه ذلك فقال أبو البقاء .

وابن الحاجب : هو منصوب على البدلية من ﴿ ثلثمائة ﴾ [الكهف : 25] .

وقال الزمخشري : على أنه عطف بيان لثلثمائة ، وتعقبه في "البحر" بأنه لا يجوز على مذهب البصريين .

وادعى بعضهم أنه أولى من البدلية لأنها تستلزم أن لا يكون العدد مقصوداً ، ويؤيده ما أخرجه ابن أبي شيبة .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن الضحاك قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثلثمائة ﴾ [الكهف : 25] قيل يا رسول الله أياماً أم أشهراً أم سنين ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ سنين ﴾ [الكهف : 25] .

وجوز ابن عطية الوجهين ، وقيل : على التمييز ، وتعقب بأنهي لزم عليه الشذوذ من وجهين ، وستعلم وجهه قريباً إن شاء الله تعالى ، وبما نقل في المفصل عن الزجاج أنه يلزم أن يكونوا لبثوا تسعمائة سنة ، قال ابن الحاجب : ووجهه أنه فهم من لغتهم أن مميز المائة واحد من مائة كما إذا قلت مائة رجل فرجل واحد من المائة فلو كان سنين تمييزاً لكان واحداً من ثلثمائة وأقل السنين ثلاثة فكان كأنه قيل ثلثمائة ثلاث سنين فيكون تسعمائة سنة .

ويرد بأن ما ذكر مخصوص بما إذا كان التمييز مفرداً وأما إذا كان جمعاً فالقصد فيه كالقصد في وقوع التمييز جمعاً في نحو ثلاثة أثواب مع أن الأصل في الجميع الجمع ، وإنما عدلوا إلى المفرد لعلة كما بين في محله فإذا استعمل التمييز جمعاً استعمل على اوصل ، وما قال إنما يلزم لو كان

ما استعمل جمعاً استعمل كما استعمل المفرد فأما إذا استعمل الجمع على أصله في ما وضع له العدد فلا انتهى .

وقد صرح الخفاجي أن ذلك كتقابل الجمع بالجمع ، وجوز الزجاج كون ﴿ سِنِينَ ﴾ [الكهف : 25] مجروراً على أنه نعت

فيها اثنتان وأربعون حلوبة . . .

سوداً كخافية الغراب الأسحم

حيث جعل سوداً نعتاً لحلوبة وهي في المعنى نعت لجملة العدد ، وقال أبو علي : لا يمتنع أن يكون الشاعر اعتبر حلوبة جمعاً وجعل سوداً وصفاً لها وإذا كان المراد به الجمع فلا يمتنع أن يقع تفسيراً لهذا الضرب من العدد من حيث كان على لفظ الآحاد كما يقال عشرون نفراً وثلاثون قبيلاً .

وقرأ حمزة .

والكسائي وطلحة ويحيى والأعمش .

والحسن .

وابن أبي ليلى .

وخلف.

وابن سعدان.

وابن عيسى اوصبهاني.

وابن جبير الأنطاكي ﴿ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ بإضافة مائة إلى سنين وما نقل عن الزجاج يرد هنا أيضاً ويرد بما رد به هناك، ولا وجه لتخصيص الإيراد بنصب سنين على التمييز فإن منشأ اللزوم على فرض تسليمه كونه تمييزاً وهو متحقق إذا جر أيضاً وجر تمييز المائة بالإضافة أحد الأمرين المشهورين فيه استعمالاً، وثانيهما كونه مفرداً ولكون الإفراد مشهوراً في الاستعمال أطلق عليه الأصل فهو أصل بحسب الاستعمال، ولا ينافي هذا قول ابن الحاجب: إن الأصل في التمييز مطلقاً الجمع كما سمعت آنفاً لأنه أراد أنه الأصل المرفوض قياساً نظراً إلى أن المائة جمع كثلاثة وأربعة ونحوهما كذا في "الكشف"، وقد يخرج عن الاستعمال المشهور فيأتي مفرداً منصوباً كما في قوله:

إذا عاش الفتى مائتين عاما ...

فقد ذهب اللذاذة والفتاء

وقد يأتي جمعاً مجروراً بالإضافة كما في الآية على قراءة الكسائي وحمزة ومن معهما لكن قالوا: إن الجمع المذكور فيها قد أجرى مجرى العاري عن علامة الجمع لما أن العلامة فيه

ليست متمحضة للجمعية لأنها كالعوض عن لام مفرده المحذوفة حتى أن قوماً لا يعربونه بالحروف بل يجرونه مجرى حين ، ولم أجد فيما عندي من كتب العربية شاهداً من كلام العرب لإضافة المائة إلى جمع ، وأكثر النحويين يوردون الآية على قراءة حمزة والكسائي شاهداً لذلك وكفى بكلام الله تعالى شاهداً .

وقرأ أبي ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ بالإضافة والإفراد كما هو الاستعمال الشائع وكذا في مصحف ابن مسعود ، وقرأ الضحاك ﴿ ثلثمائة سنون ﴾ بالتنوين ورفع سنون على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي سنون ، وقرأ الحسن .

وأبو عمرو في رواية اللؤلؤي عنه ﴿ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا ﴾ بفتح التاء وهو لغة فيه فاعلم والله تعالى أعلم ﴿ لَهُ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ أي جميع ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلهما فالغيب مصدر بمعنى الغائب والخفي جعل عينه للمبالغة واللام للاختصاص العلمي أي له تعالى ذلك علماً ويلزم منه ثبوت علمه سبحانه بسائر المخلوقات لأن من علم الخفي علم غيره بالطريق الأولى .

﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ صيغتا تعجب والهاء ضميره تعالى ، والكلام مندرج تحت القول

فليس التعجب منه سبحانه ليقال ليس المراد منه حقيقته لاستحالته عليه تعالى بل المراد أن ذلك أمر عظيم من شأنه أن يتعجب منه كما قيل ولا يمتنع صدور التعجب من بعض صفاته سبحانه وأفعاله عز وجل حقيقة من غيره تعالى .

(150/470)

وفي الحديث ما أحلمك عمن عصاك وأقربك ممن دعاك وأعطفك على من سألك ، ولهم في هذه المسألة كلام طويل فليرجع إليه من أراده ؛ ولابن هشام رسالة في ذلك ، وأياً ما كان ففيه إشارة إلى أن شأن بصره تعالى وسمعه عز وجل وهما صفتان غير راجعتين إلى صفة العلم خارج عما عليه بصر المبصرين وسمع السامعين فإن اللطيف والكثيف والصغير والكبير والجلي والخفي والسر والعلن على حد سواء في عدم الاحتجاب عن بصره وسمعه تبارك وتعالى بل من الناس من قال : إن المعدوم والموجود في ذلك سواء وهو مبني على شيئية المعدوم والخلاف في ذلك معلوم ولعل تقديم ما يدل على عظم شأن بصره عز وجل لما أن ما نحن بصدده من قبيل المبصرات والأصل أبصر وأسمع والهمزة للصيرورة لا للتعدية أي صار ذا بصر وصار ذا سمع ولا يقتضي ذلك عدم تحققهما له تعالى تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وفيهما ضمير مستتر عائد عليه سبحانه ثم حولا إلى صيغة الأمر وبرز الضمير

الفاعل لعدم لياقة صيغة الأمر لتحمل ضمير الغائب وجر بالباء الزائدة فكان له محلان الجر لمكان الباء والرفع لمكان كونه فاعلاً، ولكونه صار فضلة صورة أعطى حكمها فصح حذفه من الجملة الثانية مع كونه فاعلاً والفاعل لا يجوز حذفه عندهم، ولا تكاد تحذف هذه الباء في هذا الموضع إلا إذا كان المتعجب منه أن وصلتها نحو أحسن أن تقول، وهذا الفعل لكونه ماضياً معنى قيل إنه مبني على فتح مقدر منع من ظهوره مجيئه على صورة الأمر وهذا مذهب س في هذا التركيب، قال الرضي: وضعف ذلك بأن الأمر بمعنى الماضي مما لم يعهد بل جاء الماضي بمعنى الأمر كما في حديث "اتقى الله امرؤ فعل خيراً يثب عليه" وبان صار ذا كذا قليل ولو كان ما ذكر منه لجاز ألحم بزيد وأشحم بزيد، وبان زيادة الباء في الفاعل قليل والمطرد زيادتها في المفعول.

وتعقب بأن كون الأمر بمعنى الماضي مما لم يعهد غير مسلم ألا ترى أن كفى به بمعنى اكتف به عند الزجاج وقصد بهذا النقل الدلالة على أنه قصد به معنى إنشائي وهو التعجب، ولم يقصد ذلك من الماضي لأن الإنشاء أنسب بصيغة الأمر منه لأنه خبر في الأكثر، وبأن كثرة أفعل بمعنى صار ذا كذا لا تخفى على المتتبع، وجواز ألحم بزيد على معنى التعجب لازم

ولا محذور فيه وعلى معنى آخر غير لازم ، نعم ما ذكر من قلة زيادة الباء في الفاعل مما لا كلام فيه ، والإنصاف أن مذهب س في هذه المسألة لا يخلو عن تعسف .

ومذهب الأخفش وعزاه الرضي إلى الفراء أن أفعل في نحو هذا التركيب أمر لفظاً ومعنى فإذا قلت أحسن بزيد فقد أمرت كل واحد بأن يجعل زيداً حسناً ومعنى جعله كذلك وصفه به فكأنك قلت صفه بالحسن كيف شئت فإن فيه منه كل ما يمكن أن يكون في شخص كما قال الشاعر :

لقد وجدت مكان القول ذا سعة . . .

فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

(152/470)

وهذا المعنى مناسب للتعجب بخلاف تقدير س ، وأيضاً همزة الجعل أكثر من همزة صار ذا كذا وإن لم يكن شيء منهما على ما قال الرضي قياساً مطرداً ، واعتبر الفاعل ضمير المأمور وهو كل أحد لأن المراد أنه لظهور الأمر يؤمر كل أحد لا على التعيين بوصفه بما ذكر ، ولم يتصرف في أفعل على هذا المذهب فيسند إلى مثنى أو مجموع أو مؤنث لما ذكروا من علة كون فعل التعجب غير متصرف وهي مشابهته الحروف في الإنشاء وكون كل لفظ من

ألفاظه صار علماً لمعنى من المعاني ، وإن كان هناك جملة فالقياس أن لا يتصرف فيه احتياطاً لتحصيل الفهم كأسماء الأعلام فلذا لم يتصرف في نعم وبئس في الأمثال ، وسهل ذلك هنا انمحاء معنى الأمر فيه كما انمحى معنى الجعل وصار لمحض إنشاء التعجب ولم يبق فيه معنى الخطاب ، والباء زائدة في المفعول ، وأجاز الزجاج أن تكون الهمزة للصيرورة فتكون الباء للتعدية أي صيره ذا حسن ، ثم إنه اعتذر لبقاء أحسن في الأحوال على صورة واحدة لكون الخطاب لمصدر الفعل أي يا حسن أحسن بزيد وفيه تكلف وسماجة .

وأيضاً نحن نقول أحسن بزيد يا عمرو ولا يخاطب شيئان في حالة إلا أن يقول : معنى خطاب الحسن قد انمحى ، وثمرة الخلاف بين س وغيره تظهر فيما إذا اضطر إلى حذف الباء فعلى مذهب س يلزم رفع مجروره وعلى غيره يلزم نصبه ، هذا وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون معنى الآية : أبصر بدين الله تعالى وأسمع به أي بصر بهدى الله تعالى وسمع به فترجع الهاء إما على الهدى وإما على الاسم الجليل ونقل ذلك عن ابن الأنباري وليس بشيء .

وقرأ عيسى ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ بصيغة الماضي فيهما وخرج ذلك أبو حيان على أن المراد الإخبار لا التعجب، والضمير المجرور لله تعالى أي أبصر عباده بمعرفته سبحانه وأسمعهم، وجوز أن يكون ﴿ أبصار ﴾ أفعل تفضيل وكذا ﴿ أَسْمِعْ ﴾ وهو منصوب على الحالية من ضمير له وضمير ﴿ بِهِ ﴾ عائد على الغيب وليس المراد حقيقة التفضيل بل عظم شأن بصره تعالى وسمعه عز وجل، ولعل هذا أقرب مما ذكره أبو حيان، وحاصل المعنى عليه أنه جل شأنه يعلم غيب السموات والأرض بصيراً به وسميعاً على أتم وجه وأعظمه ﴿ مَّا لَهُم ﴾ أي لأهل السموات والأرض المدلول عليه بذكرهما ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ تعالى ﴿ مِن وَلِيّ ﴾ من يتولى أمورهم ﴿ وَلاَ يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ ﴾ في قضائه تعالى ﴿ أَحَدًا ﴾ كائناً من كان ولا يجعل له فيه مدخلاً، وقيل يحتمل أن يعود الضمير لأصحاب الكهف وإضافة حكم للعهد على معنى ما لهم من يتولى أمرهم ويحفظهم غيره سبحانه ولا يشرك في حكمه الذي ظهر فيهم أحداً من الخلق.

وجوز ابن عطية أن يعود على معاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكفار المشاقين له عليه الصلاة والسلام وجعل الآية اعتراضاً بتهديد، وقيل يحتمل أن يعود على معنى مؤمني أهل السموات والأرض.

والمراد أنهم لن يتخذوا من دونه تعالى ولياً، وقيل: يعود على المختلفين في مدة لبث أصحاب الكهف أي لا يتولى أمرهم غير الله تعالى فهم لا يقدرون بغير إقداره سبحانه

فكيف يعلمون بغير إعلامه عز وجل والكل كما ترى ، ثم لا يخفى عليك أن ما في "النظم الكريم" أبلغ في نفي الشريك من أن يقال من ولي ولا شريك .

وقرأ مجاهد ﴿ وَلَا يُشْرِكْ ﴾ بالياء آخر الحروف والجزم ، قال يعقوب : لا أعرف وجه ذلك ، ووجه بعضهم بأنه سكن بنية الوقف .

وقرأ ابن عامر .

والحسن .

وأبو رجاء .

وقتادة .

والجحدري .

وأبو حيوة .

وزيد .

وحميد بن الوزير عن يعقوب .

والجعفي .

واللؤلؤي عن أبي بكر ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا ﴾ بالتاء ثالث الحروف والجزم على أنه نهي لكل أحد عن الشرك لا نهي له صلى الله عليه وسلم ولو جعل له عليه الصلاة والسلام لجعل تعريضاً بغيرة كقوله :

إياك أعني واسمعي يا جاره . . .

فيكون مآله إلى ذلك ، وجوز أن يكون الخطاب له صلى الله عليه وسلم ويجعل معطوفاً على ﴿ لا تَقُولَنَّ ﴾ [الكهف : 23] والمعنى لا تسأل أحداً عما لا تعرفه من قصة أصحاب الكهف ولبثهم واقتصر على ما يأتيك في ذلك من الوحي أو لا تسأل أحداً عما أخبرك الله تعالى به من نبأ مدة لبثهم واقتصر على بيانه سبحانه ولا يخفى ما فيه من كثرة مخالفة الظاهر وإن كان أشد مناسبة لقوله تعالى :

﴿ واتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن كتاب رَبّكَ ﴾ ووجه الربط على القراءة المشهورة حسبما تقدم من تفسيرها أنه سبحانه لما ذكر قصة أصحاب الكهف وكانت من المغيبات بالإضافة إليه صلى الله عليه وسلم ودل اشتمال القرآن عليها على أنه وحي معجز من حيثية الاشتمال وإن كانت جهة إعجازه غير منحصرة في ذلك أمره جل شأنه بالمواظبة على درسه بقوله سبحانه ﴿ واتل ﴾ الخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 15 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ ﴾

قوله : ﴿ وكذلك أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي : وكما أنمناهم وبعثناهم ، أعثرنا عليهم ، أي : أطلعنا الناس عليهم وسمي الإعلام : إعثاراً ، لأن من كان غافلاً عن شيء فعثر به نظر إليه وعرفه ، فكان الإعثار سبباً لحصول العلم .

﴿ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ الله حَقّٞ ﴾ أي : ليعلم الذين أعثرهم الله عليهم أن وعد الله بالبعث حق .

قيل : وكان ملك ذلك العصر ممن ينكر البعث ، فأراه الله هذه الآية .

قيل : وسبب الإعثار عليهم أن ذلك الرجل الذي بعثوه بالورق ، وكانت من ضربة دقيانوس إلى السوق ، لما اطلع عليها أهل السوق اتهموه بأنه وجد كنزاً ، فذهبوا به إلى الملك ، فقال له : من أين وجدت هذه الدراهم ؟ قال : بعت بها أمس شيئاً من التمر ، فعرف الملك صدقه ، ثم قصّ عليه القصة فركب الملك وركب أصحابه معه حتى وصلوا إلى الكهف

﴿ وَأَنَّ الساعة لَا رَيۡبَ فِيهَآ ﴾ أي : وليعلموا أن القيامة لا شكّ في حصولها ، فإن من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من البعث ﴿ إِذۡ يتنازعون بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡ ﴾ الظرف متعلق بأعثرنا أي : أعثرنا عليهم وقت التنازع والاختلاف بين أولئك

الذين أعثرهم الله في أمر البعث ، وقيل : في أمر أصحاب الكهف في قدر مكثهم ، وفي عددهم ، وفيما يفعلونه بعد أن اطلعوا عليهم ﴿ فَقَالُواْ ابنوا عَلَيْهِمْ بنيانا ﴾ لئلا يتطرق الناس إليهم ، وذلك أن الملك وأصحابه لما وقفوا عليهم وهم أحياء أمات الله الفتية ، فقال بعضهم : ابنوا عليهم بنياناً يسترهم عن أعين الناس .

(156/470)

ثم قال سبحانه حاكياً لقول المتنازعين فيهم وفي عددهم ، وفي مدّة لبثهم ، وفي نحو ذلك مما يتعلق بهم ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ من هؤلاء المتنازعين فيهم ، قالوا ذلك تفويضاً للعلم إلى الله سبحانه ، وقيل : هو من كلام الله سبحانه ، ردّاً لقول المتنازعين فيهم ، أي : دعوا ما أنتم فيه من التنازع ، فإني أعلم بهم منكم ، وقيل : إن الظرف في ﴿ إِذْ يتنازعون ﴾ متعلق بمحذوف هو أذكر ، ويؤيده أن الإعثار ليس في زمن التنازع بل قبله ، ويمكن أن يقال : إن أولئك القوم ما زالوا متنازعين فيما بينهم قرناً بعد قرن ، منذ أووا إلى الكهف إلى وقت الإعثار ، ويؤيد ذلك أن خبرهم كان مكتوباً على باب الغار ، كتبه بعض المعاصرين لهم من المؤمنين الذين كانوا يخفون إيمانهم كما قاله المفسرون ﴿ قَالَ الذين غَلَبُواْ على أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِدًا ﴾ ذكر اتخاذ المسجد يشعر بأن هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم

هم المسلمون ، وقيل : هم أهل السلطان ، والملك من القوم المذكورين فإنهم الذين يغلبون على أمر من عداهم ، والأوّل أولى .

قال الزجاج : هذا يدل على أنه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث والنشور .

لأن المساجد للمؤمنين .

(157/470)

﴿ سَيَقُولُونَ ثلاثة رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ هؤلاء القائلون بأنهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة ، هم المتنازعون في عددهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب والمسلمين ، وقيل : هم أهل الكتاب خاصة ، وعلى كل تقدير فليس المراد أنهم جميعاً قالوا جميع ذلك ، بل قال بعضهم بكذا ، وبعضهم بكذا ، وبعضهم بكذا ﴿ ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ أي : هم ثلاثة أشخاص ، وجملة ﴿ رابعهم كلبهم ﴾ في محل نصب على الحال أي : حال كون كلبهم جاعلهم أربعة بانضمامه إليهم ﴿ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ الكلام فيه كالكلام فيما قبله ، وانتصاب ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾ على الحال ، أي : راجمين أو على المصدر ، أي : يرجمون رجماً ، والرجم بالغيب هو القول بالظن والحدس من غير يقين ، والموصوفون بالرجم بالغيب هم كلا الفريقين القائلين بأنهم ثلاثة ، والقائلين بأنهم خمسة ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ

﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ كأن قول هذه الفرقة أقرب إلى الصواب بدلالة عدم إدخالهم في سلك الراجمين بالغيب .

قيل : وإظهار الواو في هذه الجملة يدل على أنها مرادة في الجملتين الأولين .

قال أبو عليّ الفارسي : قوله ﴿ رابعهم كلبهم ﴾ ، و ﴿ سادسهم كلبهم ﴾ جملتان استغني عن حرف العطف فيهما بما تضمنتا من ذكر الجملة الأولى وهي قوله : ﴿ ثلاثة ﴾ ، والتقدير : هم ثلاثة ، هكذا حكاه الواحدي عن أبي علي ، ثم قال : وهذا معنى قول الزجاج في دخول الواو في : ﴿ وثامنهم ﴾ وإخراجها من الأوّل ، وقيل : هي مزيدة للتوكيد ، وقيل : إنها واو الثمانية ، وإن ذكره متداول على ألسن العرب إذا وصلوا إلى الثمانية كما في قوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ [الزمر : 73] وقوله : ﴿ ثيبات وَأَبْكَاراً ﴾ [التحريم : 5] .

ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبر المختلفين في عددهم بما يقطع التنازع بينهم فقال : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ منكم أيها المختلفون ، ثم أثبت علم ذلك لقليل من الناس فقال : ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ ﴾ أي : يعلم ذواتهم فضلاً عن عددهم ، أو ما يعلم عددهم

على حذف المضاف ﴿ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ من الناس ، ثم نهى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم عن الجدال مع أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف فقال : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ ﴾ المراء في اللغة : الجدال يقال : مارى يماري مماراة ومراءً أي : جادل ، ثم استثنى سبحانه من المراء ما كان ظاهراً واضحاً فقال : ﴿ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا ﴾ أي : غير متعمق فيه وهو أن يقصّ عليهم ما أوحى الله إليه فحسب .

وقال الرازي : هو أن لا يكذبهم في تعيين ذلك العدد ، بل يقول : هذا التعيين لا دليل عليه ، فوجب التوقف ، ثم نهاه سبحانه عن الاستفتاء في شأنهم فقال : ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أي : لا تستفت في شأنهم من الخائفين فيهم أحداً منهم ، لأن المفتي يجب أن يكون أعلم من المستفتي ، وها هنا الأمر بالعكس ، ولا سيما في واقعة أهل الكهف ، وفيما قصّ الله عليك في ذلك ما يغنيك عن سؤال من لا علم له .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ أي : لأجل شيء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان ، فعبر عنه بالغد ، ولم يرد الغد بعينه ، فيدخل فيه الغد دخولاً أوّلياً .

قال الواحدي : قال المفسرون : لما سألت اليهود النبيّ صلى الله عليه وسلم عن خبر الفتية فقال : " أخبركم غداً " ، ولم يقل إن شاء الله ، فاحتبس الوحي عنه حتى شقّ عليه ، فأنزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة الله يقول : إذا قلت لشيء : إني فاعل ذلك غداً ، فقل : إن شاء الله .

وقال الأخفش والمبرد والكسائي والفراء : لا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن تقول إن شاء الله ، فأضمر القول ولما حذف تقول نقل شاء إلى لفظ الاستقبال ، قيل : وهذا الاستثناء مفرّغ ، أي : لا تقولنّ ذلك في حال من الأحوال ، إلا حال ملابسته لمشيئة الله وهو أن تقول إن شاء الله ، أو في وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله مطلقاً ، وقيل : الاستثناء جار مجرى التأبيد كأنه قيل : لا تقولنه أبداً كقوله : ﴿ وَمَا يكون لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلا أَن يَشَاء الله ﴾ [الأعراف : 89] .

لأن عودهم في ملتهم مما لا يشاؤه الله .

﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ الاستثناء بمشيئة الله أي : فقل إن شاء الله ، سواء كانت المدّة قليلة أو كثيرة .

وقد اختلف أهل العلم في المدّة التي يجوز إلحاق الاستثناء فيها بعد المستثنى منه على أقوال معروفة في مواضعها وقيل : المعنى ﴿ واذكر رَّبَّكَ ﴾ بالاستغفار ﴿ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِى رَبّى لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَدًا ﴾ المشار إليه بقوله : ﴿ من هذا ﴾ هو نبأ أصحاب الكهف ، أي : قل يا محمد عسى أن يوفقني ربي لشيء أقرب من هذا النبأ من

الآيات والدلائل الدالة على نبوّتي .

قال الزجاج : عسى أن يعطيني ربي من الآيات والدلالات على النبوّة ما يكون أقرب في الرشد وأدلّ من قصة أصحاب الكهف ، وقد فعل الله به ذلك حيث آتاه من علم غيوب المرسلين وخبرهم ما كان أوضح في الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف ، وقيل : الإشارة إلى قوله : ﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ أي : عسى أن يهديني ربي عند هذا النسيان لشيء آخر بدل هذا المنسيّ ، وأقرب منه رشداً وأدنى منه خيراً ومنفعة ، والأوّل أولى .

﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثلاثمائة سنين وازدادوا تِسْعًا ﴾ قرأ الجمهور بتنوين مائة ونصب سنين ، فيكون سنين على هذه القراءة بدلاً أو عطف بيان .

وقال الفراء وأبو عبيدة والزجاج والكسائي : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير سنين ثلثمائة ، ورجح الأوّل أبو عليّ الفارسي .

وقرأ حمزة والكسائي بإضافة مائة إلى سنين ، وعلى هذه القراءة تكون سنين تمييزاً على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله تعالى :

﴿ بالأخسرين أعمالا ﴾ [الكهف : 103] قال الفراء : ومن العرب من يضع سنين موضع سنة .

قال أبو علي الفارسي : هذه الأعداد التي تضاف في المشهور إلى الآحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى المجموع وفي مصحف عبد الله (ثلثمائة سنة) .

وقال الأخفش : لا تكاد العرب تقول مائة سنين .

وقرأ الضحاك (ثلثمائة سنون) بالواو .

وقرأ الجمهور (تسعاً) بكسر التاء .

وقرأ أبو عمرو بفتحها ، وهذا إخبار من الله سبحانه بمدّة لبثهم .

قال ابن جرير : إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدّة بعد الإعثار عليهم ، فقال بعضهم : إنهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين ، فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن هذه المدّة في كونهم نياماً ، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر ، فأمر الله أن يردّ علم ذلك إليه ، فقال : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ قال ابن عطية : فقوله على هذا : لبثوا الأوّل يريد في يوم الكهف ، ولبثوا الثاني يريد بعد الإعثار عليهم إلى مدة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو إلى أن ماتوا .

وقال بعضهم : إنه لما قال : ﴿ وازدادوا تِسْعًا ﴾ لم يدر الناس أهي ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام ؟ واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك ، فأمر الله برد العلم إليه في التسع ،

فهي على هذا مبهمة .

والأوّل أولى ، لأن الظاهر من كلام العرب المفهوم بحسب لغتهم أن التسع أعوام ، بدليل أن العدد في هذا الكلام للسنين لا للشهور ولا للأيام ولا للساعات .

وعن الزجاج أن المراد : ثلثمائة سنة شمسية وثلثمائة وتسع سنين قمرية ، وهذا إنما يكون من الزجاج على جهة التقريب .

(161/470)

ثم أكد سبحانه اختصاصه بعلم ما لبثوا بقوله : ﴿ لَهُ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ أي : ما خفي فيهما وغاب من أحوالهما ليس لغيره من ذلك شيء ، ثم زاد في المبالغة والتأكيد فجاء بما يدلّ على التعجب من إدراكه للمبصرات والمسموعات فقال : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ فأفاد هذا التعجب على أن شأنه سبحانه في علمه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين ، وأنه يستوي في علمه الغائب والحاضر ، والخفيّ والظاهر ، والصغير والكبير ، واللطيف والكثيف ، وكأن أصله ما أبصره وما أسمعه ، ثم نقل إلى صيغة الأمر للإنشاء ، والباء زائدة عند سيبويه وخالفه الأخفش ، والبحث مقرر في علم النحو ﴿ مَا لَهُم مّن دُونِهِ مِن وَلِىّ ﴾ الضمير لأهل السموات والأرض ، وقيل : لأهل

الكهف ، وقيل : لمعاصري محمد من الكفار ، أي : ما لهم من موالٍ يواليهم أو يتولى أمورهم أو ينصرهم ، وفي هذا بيان لغاية قدرته وأن الكل تحت قهره ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ قرأ الجمهور برفع الكاف على الخبر عن الله سبحانه .

وقرأ ابن عباس والحسن وأبو رجاء وقتادة بالتاء الفوقية وإسكان الكاف على أنه نهي للنبيّ صلى الله عليه وسلم أن يجعل لله شريكاً في حكمه ، ورويت هذه القراءة عن ابن عامر .

وقرأ مجاهد بالتحتية والجزم .

قال يعقوب : لا أعرف وجهها ، والمراد بحكم الله : ما يقضيه ، أو علم الغيب .

والأوّل أولى .

ويدخل علم الغيب في ذلك دخولاً أوّلياً ، فإن علمه سبحانه من جملة قضائه .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ قال : أطلعنا .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ قَالَ الذين غَلَبُواْ على أَمْرِهِمْ ﴾ قال : الأمراء ، أو قال : السلاطين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله : ﴿ سَيَقُولُونَ ثلاثة ﴾ قال : اليهود ﴿ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ ﴾ قال : النصارى .

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾ قال: قذفاً بالظنّ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله: ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ قال: أنا من القليل كانوا سبعة.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال السيوطي بسند صحيح في قوله: ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ قال: أنا من أولئك القليل كانوا سبعة، ثم ذكر أسماءهم.

وحكاه ابن كثير عن ابن عباس في رواية قتادة وعطاء وعكرمة، ثم قال: فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ ﴾ يقول: حسبك ما قصصت عليك.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مّنْهُمْ أَحَداً ﴾ قال: اليهود.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَىْء

﴾ الآية قال : إذا نسيت أن تقول لشيء إني أفعله فنسيت أن تقول : إن شاء الله ، فقل إذا ذكرت : إن شاء الله .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه عنه أنه كان يرى الاستثناء ولو بعد سنة ، ثم قرأ : ﴿ واذكر ربَّكَ إذا نَسيتَ ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال : هي خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لأحد أن يستثني إلا في صلة يمين .

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عمر قال : كل استثناء موصول فلا حنث على صاحبه ، وإذا كان غير موصول فهو حانث .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال سليمان بن داود : لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة – وفي رواية : تسعين – تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، فقال له الملك : قل إن شاء الله ، فلم يقل ، فطاف فلم يلد منهنّ إلا امرأة واحدة نصف إنسان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

والذي نفسي بيده لو قال : إن شاء الله لم يحنث ، وكان دركاً لحاجته"

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عن عكرمة ﴿ إِذَا نَسِيتَ ﴾ قال : إذا غضبت .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن الحسن ﴿ إِذَا نَسِيتَ ﴾ قال : إذا لم تقل إن شاء الله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن الرجل ليفسر الآية يرى أنها كذلك فيهوي أبعد ما بين السماء والأرض ، ثم تلا ﴿ وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ﴾ الآية ، ثم قال : كم لبث القوم ؟ قالوا : ثلثمائة وتسع سنين ، قال : لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل الله ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ ولكنه حكى مقالة القوم فقال : ﴿ سَيَقُولُونَ ثلاثة ﴾ إلى قوله : ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾ فأخبر أنهم لا يعلمون ، ثم قال : سيقولون ﴿ وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثلاثمائة سِنِينَ وازدادوا تِسْعًا ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في حرف ابن مسعود ، وقالوا : ﴿ ولبثوا في كهفهم ﴾ الآية ، يعني : إنما قاله الناس ألا ترى أنه قال : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن الضحاك عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثلاثمائة ﴾ قيل : يا رسول الله أياماً أم أشهراً أم سنين ؟ فأنزل الله ﴿ سِنِينَ وازدادوا

تِسْعًا ﴾ .

وأخرجه ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الضحاك بدون ذكر ابن عباس .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ قال : الله يقوله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(164/470)

وقال القاسمى :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾

حكاية لقول أهل الكتاب في عهده صلى الله عليه وسلم ، في مدة لبثهم نائمين في كهفهم الذي التجأوا إليه ، ليتفرغوا لذكر الله وعبادته . وقد رد عليهم بقوله سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ وإليه ذهب قتادة ومطرف بن عبد الله . وأيده قتادة بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه " وَقَالُوا وَلَبِثُوا " قيل : وعليه فيكون ضمير : ﴿ وَازْدَادُوا ﴾ لأهل الكتاب .

وإنه يظهر فيه وجه العدول عن المتبادر وهو ثلاثمائة وتسع سنين . مع أنه أخصر وأظهر .

وذلك لأن بعضهم قال : ثلاثمائة : وبعضهم قال أزيد بتسعة . ولا يخفى ركاكة ما ذكر ، فإن

الضمير للفتية . ووجه العدول موافقة رؤوس الآي المقطوعة بالحرف المنصوب . ودعوى الأخصرية تدقيق نحوي لا تنهض بمثله البلاغة . وأما الأظهرية فيأباها ذوق الجملتين ذوقاً سليماً . فإن الوجدان العربي يجد بينهما في الطلاوة بعد المشرقين . ودعوى أن فيها إشارة إلى أنها ثلاثمائة بحساب أهل الكتاب بالأيام ، واعتبار السنة الشمسية ، وثلاثمائة وتسع بحساب العرب ، واعتبار القمرية ، بيانا للتفاوت بينهما ، إذ التفاوت بينهما في كل مائة سنة ثلاث سنين – دعوى يتوقف تصحيحها على ثبوت أن أهل الكتاب ازدادوا بالسنة الشمسية وأنه قص علينا ما أرادوه بالسنة الهلالية ، فلذلك قال : ﴿ وَازْدَادُوا تِسْعاً ﴾ لنقف على تحديد ما عنوه ، ومن أين يثبت ذلك ؟ وما الداعي لهذا التعمق المشوش ؟ والآية جلية بنفسها في دعواهم مدة لبثهم . وقد يريدون السنة الشمسية أو الهلالية ، وبأي منها قالوا : فقد رد عليهم بقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ أي : بمقدار لبثهم . فلا تقفوا ما ليس لكم به علم ، وما هو غيب يرد إليه سبحانه ، كما قال : ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : ما غاب فيهما

وخفي من أحوال أهلهما ، أي : أنه هو وحده العالم به : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ أي : ما أبصره لكل موجود ! وأسمعه لكل مسموع لا يخفى عليه شيء ولا يحجب بصره وسمعه شيء .

قال الزمخشري : جاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات ، للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حد ما عليه إدراك السامعين والمبصرين ، لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها ، كما يدرك أكبرها حجماً وأكثفها جرماً ، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر .

لطيفة :

قال في " الإكليل " : استدل بقوله تعالى : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ المنتخب على جواز إطلاق صيغة التعجب في صفات الله تعالى ، كقولك : ما أعظم الله وما أجله . انتهى .

يعني أن يشتق من الصفات السمعية صيغة التعجب قياساً على ما في الآية وقد يقال بالوقف . ينبغي التأمل .

وقوله تعالى : ﴿ مَا لَهُم ﴾ أي : أهل السموات والأرض في خلقه : ﴿ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أي : يتولى أمورهم : ﴿ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ ﴾ أي : قضائه : ﴿ أَحَداً ﴾ أي : من مكوناته العلوية والسفلية . بل هو المنفرد بالحكم والقضاء فيهم ، وتدبيرهم وتصريفهم ، فيما شاء وأحب .

قال المهايمي : فيه إشارة إلى أن علمهم بهم إما من قبيل الغيب ، فهو مختص بالله . أو من قبيل المسموع ، فهو أسمع . أو من قبيل البصر ، فهو أبصر . انتهى . وهو لطيف جداً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 11 صـ 27 ـ 28﴾

(166/470)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) ﴾

رجوع إلى بقية القصة بعد أن تخلل الاعتراض بينها بقوله : ﴿ فلا تمار فيهم ﴾ إلى قوله : ﴿ رشداً ﴾ [الكهف : 22 24] .

فيجوز أن تكون جملة ولبثوا ﴾ عطفاً على مقولهم في قوله : ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ [الكهف : 22] أي ويقولون : لبثوا في كهفهم ، ليكون موقع قوله : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ [الكهف : 26] كموقع قوله السابق ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ [الكهف : 22] ، وعليه فلا يكون هذا إخباراً عن مدة لبثهم .

وعن ابن مسعود أنه قرأ وقالوا لبثوا في كهفهم ﴾ إلى آخره ، فذلك تفسير لهذا العطف .

ويجوز أن يكون العطف على القصة كلها .

والتقدير : وكذلك أعثرنا عليهم إلى آخره ، وهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة وتسعَ سنين .

وعلى اختلاف الوجهين يختلف المعنى في قوله : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ [الكهف : 26] كما سيأتي .

ثم إن الظاهر أن القرآن أخبر بمدة لبث أهل الكهف في كهفهم ، وأن المراد لبثُهم الأول قبل الإفاقة وهو المناسب لسبق الكلام على اللبث في قوله : ﴿ قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ [الكهف : 19] ، وقد قدمنا عند قوله تعالى : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم ﴾ [الكهف : 9] الخ . . .

أن مؤرخي النصارى يزعمون أن مدة نومة أهل الكهف مائتان وأربعون سنة .

وقيل : المراد لبثهم من وقت موتهم الأخير إلى زمن نزول هذه الآية .

والمعنى : أن يقدر لبثهم بثلاثمائة وتسع سنين .

فعُبّر عن هذا العدد بأنه ثلاثمائة سنة وزيادة تسع ، ليعلم أن التقدير بالسنين القمرية المناسبة لتاريخ العرب والإسلام مع الإشارة إلى موافقة ذلك المقدار بالسنين الشمسية التي بها تاريخ القوم الذين منهم أهل الكهف وهم أهل بلاد الروم .

قال السهيلي في الروض الأنف ﴾ : النصارى يعرفون حديث أهل الكهف ويؤرخون به .

وأقول : واليهود الذين لَقّنوا قريشاً السؤالَ عنهم يؤرخّون الأشهر بحساب القمر ويؤرخون السنين بحساب الدورة الشمسية ، فالتفاوت بين أيام السنة القمرية وأيام السنة الشمسية يحصل منه سنة قمرية كاملة في كل ثلاث وثلاثين سنة شمسيةً ، فيكون التفاوت في مائة سنة شمسيةٍ بثلاث سنين زائدة قمرية .

كذا نقله ابن عطية عن النقاش المفسر .

وبهذا تظهر نكتة التعبير عن التسع السنين بالازدياد .

وهذا من علم القرآن وإعجازه العلمي الذي لم يكن لعموم العرب علم به .

وقرأ الجمهور ﴿ ثلاث مائةٍ ﴾ بالتنوين .

وانتصب ﴿ سنين ﴾ على البدلية من اسم العدد على رأي من يمنع مجيء تمييز المائة منصوباً ، أو هو تمييز عند من يجيز ذلك .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف بإضافة مائة إلى سنين على أنه تمييز للمائة .

وقد جاء تمييز المائة جمعاً ، وهو نادر لكنه فصيح .

﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

إن كان قوله تعالى : ﴿ ولبثوا في كهفهم ﴾ [الكهف : 25] إخباراً مِن الله عن مدة لبثهم يكون قوله : قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ قطعاً للمماراة في مدة لبثهم المختلف فيها بين أهل

الكتاب ، أي الله أعلم منكم بمدة لبثهم .

وإن كان قوله : ﴿ ولبثوا ﴾ حكاية عن قول أهل الكتاب في مدة لبثهم كان قوله : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ تفويضاً إلى الله في علم ذلك كقوله : ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ [الكهف : 22] .

وغيبُ السماوات والأرض ما غاب عِلمه عن الناس من موجودات السماوات والأرض وأحوالهم .

واللام في له ﴾ للملك .

وتقديم الخبر المجرور لإفادة الاختصاص ، أي لله لا لغيره ، رداً على الذين يزعمون علم خبر أهل الكهف ونحوهم .

و ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ صيغتا تعجيب من عموم علمه تعالى بالمغيبات من المسموعات والمبصرات ، وهو العلم الذي لا يشاركه فيه أحد .

وضمير الجمع في قوله : ﴿ ما لهم من دونه من ولي ﴾ يعود إلى المشركين الذين الحديث معهم .

وهو إبطال لولاية آلهتهم بطريقة التنصيص على عموم النفي بدخول (من) الزائدة على النكرة المنفية .

وكذلك قوله : ﴿ ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾ هو ردّ على زعمهم بأنّ الله اتخذ آلهتهم شركاء له في ملكه .

وقرأ الجمهور ﴿ ولا يشرك ﴾ برفع ﴿ يشرك ﴾ وبياء الغيبة .

والضمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله : ﴿ قل الله أعلم ﴾ .

وقرأه ابن عامر بتاء الخطاب وجَزْمِ ﴿ يشرك ﴾ على أن (لا) ناهية .

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مراد به أمته ، أو الخطاب لكل من يتلقاه .

وهنا انتهت قصة أصحاب الكهف بما تخللها ، وقد أكثر المفسرون من رواية الأخبار الموضوعة فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(169/470)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ لَهُ غَيْبُ السماوات والأرض ﴾ .

(170/470)

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو المختص بعلم الغيب في السموات والأرض . وذكر هذا المعنى في آيات كثيرة ، كقوله : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلَّا الله وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل : 65] وقوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ [الرعد : 9] ، وقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ الله لِيَذَرَ المؤمنين على مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حتى يَمِيزَ الخبيث مِنَ الطيب وَمَا كَانَ الله لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغيب ﴾ [آل عمران : 179] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ ﴾ [هود : 123] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البر والبحر وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : 59] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : 61] ، وقوله تعالى : ﴿ عَالِمِ الغيب لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 3] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله لاَ يخفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء ﴾ [آل عمران : 5] . وبين في مواضع أخر : أنه يطلع من شاء من خلقه على ما شاء من وحيه ، كقوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ

على غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن : 26-27] الآية . وقد اشار إلى ذلك بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغيب وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن

رُّسُلِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : 179] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ .

أي ما أبصره وما أسمعه جل وعلا . وما ذكره في هذه الآية الكريمة من اتصافه جل وعلا بالسمع والبصر ، ذكره ايضاً في مواضع أخر ، كقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى : 11] وقوله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وتشتكي إِلَى اللهِ واللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : 1] وقوله تعالى : ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : 75] .

والآيات بذلك كثيرة جداً .

قوله تعالى : ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة - أن أصحاب الكهف ليس لهم ولي من دونه جل وعلا ، بل هو وليهم جل وعلا . وهذا المعنى مذكور في آيات أخر ، كقوله تعالى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ

الذين آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [البقرة : 257] ، وقوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَآءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62] فبيت أنه ولي المؤمنين ، وأن المؤمنين أولياؤه - والولي : هو من انعقد بينك وبينه سبب يواليك وتواليه به .

فالإيمان سبب يوالي به المؤمنين ربهم بالطاعة ، ويواليهم به الثواب والنصر والإعانة .

وبين في مواضع أخر : أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، كقوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : 71] الآية . وبين في مواضع أخر : أن نبينا صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : 6] .

(172/470)

وبين في مواضع أخر : أنه تعالى مولى المؤمنين دون الكافرين ، وهو قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الله مَوْلَى الذين آمَنُوا وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ﴾ [محمد : 11] ، وهذه الولاية المختصة بالمؤمنين هي ولاية الثواب والنصر والتوفيق والإعانة ، فلا تنافي أنه مولى الكافرين ولاية ملك وقهر ونفوذ مشيئة ، كقوله : ﴿ وردوا إِلَى الله مَوْلاَهُمُ الحق وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 30] . وقال بعض العلماء : الضمير في قوله : ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ ﴾

راجع لأهل السموات والأرض المفهومين من قوله تعالى : ﴿ لَهُ غَيْبُ السماوات والأرض ﴾ [الكهف : 26] وقيل : الضمير في قوله " ما لهم " راجع لمعاصري النَبي صلى الله عليه وسلم من الكفار . ذكره القرطبي . وعلى كل حال فقد دلت الآيات المتقدمة أن ولاية الجميع لخالقهم جل وعلا ، وأن منها ولاية ثواب وتوفيق وإعانة ، وولاية ملك وقهر ونفوذ مشيئة . والعلم عند اله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ .

قرأ هذا الحرف عامة الشبعة ما عدا ابن عام " ولا يشرك " بالياء المثناة التحتية ، وضم الكاف على الخبر ، ولا نافية – والمعنى : ولا يشرك الله جل وعلا أحداً في حكمه ، بل الحكم له وحده جل وعلا لا حكم لغيره ألبتة ، فالحلال ما أحله تعالى ، والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه . والقضاء ما قضاه . وقرأه ابن عامر من السبعة . " ولا تشرك " بضم التاء المثناة الفوقية وسكون الكاف بصيغة النهي ، اي لا تشرك يا نبي الله . أو لا تشرك أيه المخاطب أحداً في حكم الله جل وعلا ، بل أخلص الحكم لله من شوائب شرك غيره في الحكم . وحكمه جل وعلا المذكور في قوله : ﴿ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ شامل لكل ما يقضيه جل وعلا . ويدخل في ذلك التشريع دخولاً أولياً .

وما تضمنه هذه الآية الكريمة من كن الحكم لله وحده لا شريك له فيه على كلتا القراءتين جاء مبيناً في آيات أخر. كقوله تعالى: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: 40] وقوله تعالى: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [يوسف: 67] الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: 10] الآية، وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ [غافر: 12]، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: 88]، وقوله تعالى: ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

[القصص: 70]، وقوله: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: 50]. وقوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: 114]، إلى غير ذلك من الآيات.

ويفهم من هذه الآيات كقوله ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون بالله . وهذا المفهوم جاء مبيناً في آيات أخر . كقوله فيمن اتبع تشريع الشيطان في إباحة الميتة بدعوى أنه ذبيحة الله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : 121] فصرح بأنهم مشركون بطاعتهم . وهذا الإشراك في الطاعة ، واتباع التشريع المخالف لما شرعه الله تعالى – هو المراد بعبادة الشيطان في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [يس : 60-61] ، وقوله تعالى عن نبيه إبراهيم : ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ [مريم : 44] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ [النساء : 117] اي ما يعبدون إلا شيطاناً ، اي وذلك باتباع تشريعه . ولذا سمى الله تعالى الذين يطاعون فيما زينوا من المعاصي شركاء في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ [الأنعام : 137] الآية . وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم هذا لعدي بن حاتم رضي الله عنه لما ساله عن قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : 31] الآية – فبين له أنهم أحلوا لهم ما حرم الله ، وحرموا عليهم ما

أحل الله فاتبعوهم في ذلك، وأن ذلك هو اتخاذهم إياهم أرباباً. ومن أصرح الأدلة في هذا: أن الله جل وعلا في سورة النساء بين أن من يريدون أن يتحاكموا إلى غير ما

شرعه الله يتعجب من زعمهم أنهم مؤمنون، وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب. وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يتحاكموا إِلَى الطاغوت وَقَدْ أمروا أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشيطان أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ [النساء: 60].

وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور: أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيكان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على ألسنة رسله صلى الله عليهم وسلم، أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته، وأعماه عن نور الوحي مثلهم.

تنبيه

اعلم أنه يجب التفصيل بين النظام قسمان: إداري، وشرعي. أما الإداري الذي يراد به

ضبط الأمور وإتقانها على وجه غير مخالف للشرع ، فهذا لا مانع منه ، ولا مخالف فيه من الصحابة ، فمن بعدهم وقد عمل عمر رضي الله عنه من ذلك أشياء كثيرة ما كانت في زمن النَّبي صلى الله عليه وسلم .

(176/470)

ككتبه اسماء الجند في ديوان لأجل الضبط ، ومعرفة من غاب ومن حضر كما قدمنا إيضاح المقصود منه في سورة " بني إسرائيل " في الكلام على العاقلة التي تحمل دية الخطأ ، مع أن النَّبي صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك ، ولم يعلم بتخلف كعب بن مالك عن غزوة تبوك إلا بعد أن وصل تبوك صلى الله عليه وسلم . وكاشترائه – أعني عمر رضي الله عنه – دار صفوان بن أمية وجعلهه غياها سجناً في مكة المكرمة ، مع أنه صلى الله عليه وسلم لم يتخذ سجناً هو لا أبو بكر . فمثل هذا من الأمور الإدارية التي تفعل لإتقان الأمور مما لا يخاف الشرع – لا بأس به . كتنظيم شؤون الموظفين ، وتنظيم إدارة الأعمال على وجه لا يخالف الشرع . فهذا النوع من الأنظمة الوضعية لا بأس به ، ولا يخرج عن قواعد الشرع من مراعاة المصالح العامة .

وأما النظام الشرعي المخالف لتشريع خالق السموات والأرض فتحكيمه كفر بخالق

السموات والأرض.

كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس بإنصاف، وأنهم يلزم استواؤهما في الميراث. وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم والقطع ونحوهما أعمال وحشية لا يسوغ فعلها بالإنسان، ونحو ذلك.

(177/470)

فتحكيم هذا النوع من النظام في أنفس المجتمع وأموالهم وأعراضهم وأنسابهم وعقولهم وأديانهم - كفر بخالق السموات والأرض، وتمرد على نظام السماء الذي وضعه من خلق الخلائق كلها وهو أعلم بمصالحها سبحانه وتعالى عن أن يكون معه مشرع آخر علواً كبيراً ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: 21]، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: 59]، ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: 116] وقد قدمنا جملة وافية من هذا النوع في سورة "بني إسرائيل" في الكلام على قوله

تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] الآية . انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(178/470)

وقال الشيخ الشعراوى :

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ . . . ﴾ .

وهذه الآية تعطينا لقطةً من المذكرة التفصيلية التي أعطاها الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم عن أهل الكهف ، وهي تُحدِّد عدد السنين التي قضاها الفِتْية في كهفهم بأنها ثلاثمائة سنة ، وهذا هو عددها الفعليّ بحساب الشمس .

لذلك ؛ فالحق سبحانه لم يَقُلْ ثلاثمائة وتسعاً ، بل قال : ﴿ وازدادوا تِسْعاً ﴾ [الكهف : 25] ولما سمع أهل الكتاب هذا القول اعترضوا وقالوا : نعرف ثلاثمائة سنة ، ولكن لا نعرف التسعة ؛ ذلك لأن حسابهم لهذه المدة كان حساباً شمسياً .

ومعلوم أن الخالق سبحانه حينما خلق السماوات والأرض قسَّم الزمن تقسيماً فلكياً ، فجعل الشمس عنواناً لليوم ، نعرفه بشروقها وغروبها ، ولما كانت الشمس لا تدلّنا على بداية الشهر جعل الخالق سبحانه الشهر مرتبطاً بالقمر الذي يظهر هلالاً في أول كل شهر ،

وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ اللهِ اثنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السماوات والأرض . . ﴾ [التوبة : 36]

فلو حسبتَ الثلاثمائة سنة هذه بالحساب القمري لوجدتها ثلاثمائة سنة وتسعاً ، إذن : هي في حسابكم الشمسي ثلاثمائة سنة ، وفي حسابنا القمري ثلاثمائة وتسعاً . ونعرف أن السنة الميلادية تزيد عن الهجرية بأحد عشر يوماً تقريباً في كل عام .

ومن حكمة الخالق سبحانه أن ترتبط التوقيتات في الإسلام بالأهلة ، ولك أن تتصور لو ارتبط الحج مثلاً بشهر واحد من التوقيت الشمسي في طقس واحد لا يتغير ، فإنْ جاء الحج في الشتاء يظل هكذا في كل عام ، وكم في هذا من مشقة على مَنْ لا يناسبهم الحج في فصل الشتاء . والأمر كذلك في الصيام .

(179/470)

أما في التوقيت القمري فإن هذه العبادات تدور بمدار العام ، فتأتي هذه العبادات مرة في الصيف ، ومرة في الخريف ، ومرة في الشتاء ، ومرة في الربيع ، فيؤدي كل إنسان هذه العبادة في الوقت الذي يناسبه ؛ لذلك قالوا : يا زمن وفيك كل الزمن .

والمتأمل في ارتباط شعائر الإسلام بالدورة الفلكية يجد كثيراً من الآيات والعجائب ، فلو

تتبعتَ مثلاً الأذان للصلاة في ظل هذه الدورة لوجدت أن كلمة " الله أكبر " نداء دائم لا ينقطع في ليل أو نهار من مُلْك الله تعالى ، وفي الوقت الذي تنادي فيه " الله أكبر " يُنادي آخر " أشهد ألا إله إلا الله " وينادي آخر " أشهد أن محمداً رسول الله " وهكذا دواليك في منظومة لا تتوقف .

وكذلك في الصلاة ، ففي الوقت الذي تصلي أنت الظهر ، هناك آخرون يُصلّون العصر ، وآخرون يُصلُّون المغرب ، وآخرون يُصلّون العشاء ، فلا يخلو كَوْنُ الله في لحظة من اللحظات من قائم أو راكع أو ساجد . إذن : فلفظ الأذان وأفعال الصلاة شائعة في كُلّ أوقات الزمن ، وبكُلّ ألوان العبادة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السماوات والأرض . . . ﴾ .

الأسلوب في قوله تعالى : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ . . ﴾ [الكهف : 26] وأسلوب تعجُّب أي : ما أشدّ بصره ، وما أشدّ سمعه ؛ لأنه البصر والسمع المستوعب لكلِّ شيء بلا قانون .

وقوله : ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ [الكهف : 26] كأن الحق سبحانه وتعالى يُطمئِن عباده بأن كلامه حَقٌّ لا يتغير ولا يتبدل ؛ لأنه سبحانه واحد أحد لا شريك له يمكن أن يُغيّر كلامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) ﴾

أخرج الخطيب في تاريخه عن حكيم بن عقال قال : سمعت عثمان بن عفان يقرأ : ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين ﴾ منوّنة .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : إن الرجل ليفسر الآية يرى أنها كذلك ، فيهوي أبعد ما بين السماء والأرض ، ثم تلا ﴿ ولبثوا في كهفهم . . . ﴾ الآية . ثم قال : كم لبث القوم ؟ قالوا : ثلاثمائة وتسع سنين . قال : لو كانوا لبثوا كذلك ، لم يقل الله : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ ولكنه حكى مقالة القوم فقال : ﴿ سيقولون ثلاثة ﴾ إلى قوله : ﴿ رجماً بالغيب ﴾ وأخبر أنهم لا يعلمون قال : سيقولون ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في حرف ابن مسعود "وقالوا لبثوا في كهفهم" الآية . يعني ، إنما قاله الناس . ألا ترى أنه قال : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين

وازدادوا تسعاً ﴾ قال : هذا قول أهل الكتاب ، فرد الله عليهم ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الضحاك قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ في كهفهم ثلاثمائة ﴾ قيل : يا رسول الله ، أياماً ، أم شهوراً ، أم سنين ؟ فأنزل الله ﴿ سنين وازدادوا تسعاً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه من وجه آخر ، عن الضحاك عن ابن عباس موصولاً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ يقول : عدد ما لبثوا .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ قال : الله يقوله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ قال : لا أحد أبصر من الله ولا أسمع تبارك وتعالى . والله أعلم بالصواب والحمد لله وحده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) ﴾

قوله : ﴿ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ ﴾ : قرأ الأخوان بإضافة " مِئَةِ " إلى سنين . والباقون بتنوين " مِئَةٍ " . فأمَّا الأولى فأوقع فيها الجمعَ موقعَ المفردِ كقوله : ﴿ بالأخسرين أَعْمَالاً ﴾ [الكهف : 103] . قاله الزمخشري يعني أنه أوقع " أَعْمالاً " موقعَ " عَمَلاً " . وقد أنحى أبو حاتم على هذه القراءةِ ولا يُلْتَفَتُ إليه . وفي مصحفِ عبد الله " سَنَة " بالإِفراد . وبها قرأ أُبَيّ . وقرأ الضحاك " سِنُون " بالواو على أنها خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هي سِنُون .

وأمَّا الباقون : فلمَّا لم يَرَوا إضافةَ " مِئَة " إلى جمعٍ نَوَّنُوا ، وجعلوا " سِنين " بدلاً مِنْ " ثلثمئة " أو عطفَ بيان . ونَقَل أبو البقاء أنَّه بدلٌ مِنْ " مِئَة " لأنها في معنى الجمع . ولا جائزٌ أَنْ يكونَ " سنين " في هذه القراءةِ تمييزاً ، لأنَّ ذلك إنما يجيءُ في ضرورةٍ مع إفرادِ التمييز ، كقوله :

3140- إذا عاش الفَتَى مِئَتين عاماً . . . [فقد] ذَهَبَ اللَّذاذَةُ والفَتَاءُ

قوله : " تِسْعاً " ، أي : تسعَ سنين ، حَذَفَ المُمَيِّزَ لدلالةِ ما تقدَّمَ عليه ، إذ لا يُقال : عندي ثلثمئة درهم وتسعة ، إلا وأنت تعني : تسعة دراهم ، ولو أَرَدْتَ ثياباً ونحوَها لم يَجُزْ لأنه إلغازٌ . و " تِسْعاً " مفعولٌ به . وازداد : افتَعَلَ ، أُبْدِلَتِ التاءُ دالاً بعد الزاي ، وكان متعدِّياً

لاثنين نحو : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : 13] ، فلمّا بُني على الافتعال نَقَص واحداً .

وقرأ الحسن وأبو عمرو في رواية " تَسْعا " بفتح التاء كعَشْر .

﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾

(183/470)

قوله : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ ﴾ : صيغةُ تعجبٍ بمعنى ما أبصرَه ، على سبيل المجاز ، والهاءُ للهِ تعالى . وفي مثلِ هذا ثلاثةُ مذاهبَ : الأصحُّ أنه بلفظِ الأمرِ ومعناه الخبرُ ، والباءُ مزيدةٌ في الفاعل إصلاحاً للَّفْظ . والثاني : أنَّ الفاعلَ ضميرُ المصدرِ . والثالث : أنه ضميرُ المخاطبِ ، أي : أَوْقِعْ أيها المخاطبُ . وقيل : هو أمرٌ حقيقةً لا تعجبٌ ، وأن الهاءَ تعودُ على الهُدَى المفهوم من الكلام .

وقرأ عيسى : " أَسْمَعَ " و " أَبْصَرَ " فعلاً ماضياً ، والفاعلُ اللهُ تعالى ، وكذلك الهاءُ في " به " ، أي : أبصرَ عبادَه وأَسْمعهم .

قوله : " مِنْ وليّ " يجوز أَنْ يكونَ فاعلاً ، وأَنْ يكونَ مبتدأً .

قوله : " ولا يُشْرِك " ، قرأ ابن عامر بالتاءِ والجزم ، أي : ولا تُشْرِكْ أنت أيها الإِنسانُ .

والباقون بالياء من تحتُ ورفعِ الفعلِ ، أي : ولا يُشْرك اللهُ في حكمِه أحداً ، فهو نفيٌ مَحْضٌ .

وقرأ مجاهد : " ولا يُشْرِكْ " بالتاء من تحتُ والجزم .

قال يعقوب : " لا أعرفُ وجهه " . قلت : وجهُه أنَّ الفاعلَ ضميرُ الإِنسانِ ، أُضْمِرَ للعِلْمِ به .

والضميرُ في قولِه/ " مالهم " يعود على معاصري رسولِ الله صلى الله عليه وسلم . قال ابن عطية : " وتكون الآيةُ اعتراضاً بتهديد " . كأنَّه يعني بالاعتراضِ أنهم ليسوا ممَّن سَبَق الكلامُ لأجلهم ، ولا يريد الاعتراضَ الصناعيّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 472.470 ﴾

(184/470)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) ﴾

كانوا مأخوذين عنهم في إحساسهم بأنفسهم لم يقفوا على تطاول مدتهم ، وفي المثل : أيام

السرور قصار والدهور في السرور شهور ، والشهور في المحن دهور ، وفي معناه :

أَعُدُّ الليالي ليلةً بعد ليلةٍ . . . وقد كنت قبلاً لا أعد اللياليا

﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

مَنْ لم يعد أيامه لاشتغاله بالله أحصى اللَّهُ أنفاسه التي الله ، قال تعالى : ﴿ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ [الجن : 28] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 390 391. ﴾

(185/470)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) ﴾

(186/470)

التفسير : ألصق الحمد والتكبير المذكورين في آخر السورة المتقدمة بالحمد على أجزل نعمائه على العباد وهي نعمة إنزال الكتاب على محمد صلى الله عليه وسلم . قال بعض العلماء : نزه نفسه في أوّل سورة " سبحان " عمّا لا ينبغي وهو إشارة إلى كونه كاملاً في ذاته ، وحمد نفسه في أول هذه السورة وهو إشارة إلى كونه مكملاً لغيره ، وفيه تنبيه على أن مقام التسبيح مبدأ ومقام التحميد نهاية موافقاً لما ورد في الذكر " سبحان الله والحمد لله " . وفيه أن الإسراء أول درجات كماله من حيث إنه يقتضي حصول الكمال له وإنزال الكتاب غاية درجات كماله لأن فيه تكميل الأرواح البشرية ونقلها من حضيض البهيمية إلى أوج الملكية ولا شك أن المنافع المتعدية أفضل من القاصيرة كما ورد في الخبر : " من تعلم وعلم وعمل فذاك يدعى عظيماً في السموات " وإنزال الكتاب على النبي صلى الله عليه وسلم نعمة عليه وعلينا . أما أنه نعمة عليه فلأنه اطلع بواسطته على أسرار التوحيد ونعوت الجلال والإكرام وأحوال الملائكة والأنبياء وسائر النفوس المقدسة ، وعلى كيفية القضاء والقدر وتعلق أحوال العالم السفلي بالعالم العلوي والشهادة بالغيب وارتباط أحدهما بالآخر . وأما أنه نعمة علينا فلأنا نستفيد منه أيضاً مثل ذلك ونعرف منه الأحكام الشرعية المفضية إلى إصلاح المعاش والمعاد . وفي انتصاب ﴿ قيماً ﴾ وجوه فاختار صاحب الكشاف أن يكون منصوباً بمضمر أي جعله وأنزله قيماً . وأبى أن يكون حالاً لأن العطف يدل على تمام الكلام وجعله حالاً يدل على نقصانه . قال جامع الأصفهاني : هما

حالان متواليان إلا أن الأولى جملة والثانية مفرد . وقيل : حال من الضمير في قوله : ﴿ ولم يجعل له ﴾ وفائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة هي التأكيد ، فرب مستقيم في الظاهر لا يخرج عن أدنى عوج في الحقيقة هذا تفسير ابن عباس . ويحتمل أن يراد أنه قيم على سائر الكتب مصدّق لها شاهد بصحتها ، وأنه قيم بمصالح

(187/470)

العباد وما لا بد لهم منه من الشرائع والأحكام ، وعلى هذا يكون قوله : ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ إشارة إلى أنه كامل في ذاته ، مبرأ عن الاختلاف والتناقض ، مشتمل على كل ما هو في نفس الأمر حق وصدق .

(188/470)

وقوله : ﴿ قيماً ﴾ إشارة إلى أنه مكمل لغيره مصلح بحسن بيانه وإرشاده لأحوال معاشه ومعاده ، فتكون الآية نظير قوله في أول "البقرة" . ﴿ لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ ثم أراد أن يفصل ما أجمله في قوله فيما قال : ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ وحذف المنذر

للعلم به بعمومه ولتطهير اللسان عن ذكره أي لينذر الذين كفروا عذاباً إليماً صادراً من عنده. والأجر الحسن الجنة بدليل قوله: ﴿ ماكثين فيه ﴾ وهو حال من الضمير في ﴿ لهم ﴾ ثم كرر الإنذار وذكر المنذر لخصوصه وحذف المنذر به وهو البأس الشديد لتقدم ذكره. وقد تذكر قضية كلية ثم يعطف عليها بعض جزئياتها تنبيهاً على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي. ففي عطف الإنذار المخصوص على الإنذار المطلق دليل على أن أقبح أنواع الكفر والمعصية إثبات الولد لله تعالى على ما زعم بعض كفار قريش من أن الملائكة بنات الله، وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله. ثم قال: ﴿ ما لهم به ﴾ أي بالولد أو باتخاذ الله إياه ﴿ من علم ولا لآبائهم ﴾ وانتفاء العلم بالشي إما بالجهل بالطريق الموصل إليه. وإما لأنه في نفسه محال فلا يتعلق به العلم لذلك وهو المراد في الآية، أي قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط وتقليد لآبائهم الذين هم مثلهم في الجهالة. قال جار الله: الضمير في قوله: ﴿ كبرت ﴾ يعود إلى قولهم " اتخذ الله ولداً " وسميت ﴿ كلمة ﴾ كما يسمون القصيدة بها. قلت: ويجوز أن يعود إلى مضمر ذهني يفسره الظاهر كقوله " ربه رجلاً ونعمت امرأة عندي ". قال الواحدي: انتصبت ﴿ كلمة ﴾ على التمييز وذلك أنك لو قلت: كبرت المقالة أو الكلمة جاز أن يتوهم أنها كبرت كذباً أو جهلاً أو افتراءً، فلما قلت: كلمة فقد ميزتها من محتملاتها. وقرىء بالرفع

على الفاعلية كما يقال " عظم قولك " . قال أهل البيان : النصب أقوى وأبلغ لإفادته التعب من جهتين : من جهة الصيغة ومن جهة التمييز كأنه قيل : ما

(189/470)

أكبرها كلمة . وفي وصف الكلمة بقوله : ﴿ يخرج من أفواههم ﴾ مبالغة أخرى من وجهين : الأول أن كثيراً من وساوس الشيطان وهواجس القلوب لا يتمالك العقلاء أن يتفوهوا به حياء وخجلاً ، فبين الله تعالى أن هذا المنكر لم يستحيوا من إظهاره والنطق به فما أشنع فعلتهم وما أعظم فحشهم . الثاني أن هذا الذي يقولونه لا يحكم به عقلهم وفكرهم ألبتة لكونه في غاية البطلان ، وكأنه شيء يجري على لسانهم بطريق التقليد : احتج النظام على مذهبه أن الكلام جسم بأن الخروج عبارة عن الحركة من خواص الأجسام .

(190/470)

والجواب أن الخارج من الفم هو الهواء لأن الحروف والأصوات كيفيات قائمة بالهواء فأسند إلى الحال ما هو من شأن المحل مجازاً . ثم زاد في تقبيح صورتهم بقوله : ﴿ إن يقولون إلا

كذباً ﴿ وفيه إبطال قول من زعم أن الكذب هو الخبر الذي يطابق المخبر عنه مع علم قائله بأنه غير مطابق وذلك لأن القيد الأخير غير موجود ههنا مع أنه تعالى سماه كذباً . ثم سلى رسول الله صلى الله عيله وسلم بقوله : ﴿ فلعلك باخع ﴾ قال الليث : بخع الرجل نفسه إذا قتلها غيظاً : وقال الأخفش والفراء : أصل البخع الجهد . يروى أن عائشة ذكرت عمر فقالت : بخع الأرض أي جهدها حتى أخذ ما فيها من أموال الملوك . وقال الكسائي : بخعت الأرض بالزراعة إذ جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة ، وبخع الرجل نفسه إذا نهكها و ﴿ أسفاً ﴾ منصوب على المصدر أي تأسف أسفاً وحذف الفعل لدلالة الكلام عليه . وقال الزجاج : هو مصدر في موضع الحال أو مفعول له أي لفرط الحزن شبهه وإياهم حين لم يؤمنوا بالقرآن وأعرضوا عن نبيهم برجل فارقته أحبته فهو يتساقط حسرات عليهم . والحاصل أنه قيل له لا تعظم حزنك عليهم بسبب كفرهم فإنه ليس عليك إلا البلاغ ، فأما تحصيل الإيمان فيهم فليس إليك . قال القاضي ، أطلق الحديث على القرآن فدل ذلك على أنه غير قديم . وأجيب بأنه لا نزاع في حدوث الحروف والأصوات وإنما النزاع في الكلام النفسي ، قوله سبحانه : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾ قال أهل النظم : كأنه تعالى يقول : إني خلقت الأرض وزينتها ابتلاء للخلق بالكاليف ، ثم إنهم يتمردون ويكفرون ومع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم ، فأنت أيضاً يا محمد لا تترك الاشتغال بدعوتهم بعد أن لا تأسف عليهم وما على الأرض المواليد الثلاثة أعنى المعادن والنبات

والحيوان وأشرفها الإنسان . وقال القاضي : الأولى أن لا يدخل المكلف فيه لأن ما على الأرض ليس زينة لها بالحقيقة وإنما هو زينة لأهلها الغرض الابتلاء ، فالذي له

(191/470)

الزينة يكون خارجاً عن الزينة . ومضى أنه مجاز بالصورة والمراد أنه تعالى يعاملهم معاملة لو صدرت تلك المعاملة عن غيره لكان من قبيل الابتلاء والامتحان . وقد مر هذا البحث بتمامه في سورة البقرة في تفسير قوله : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه ﴾ [البقرة : 124] . واللام في ﴿ لنبلوهم ﴾ للغرض عند المعتزلة ، أو العاقبة أو استتباع الغاية عند غيرهم حذراً من لزوم الاستكمال . قال الزجاج ﴿ أيهم ﴾ رفع بالابتداء لأن لفظه لفظ الاستفهام والمعنى لنمتحن هذا ﴿ أحسن عملاً ﴾ أم ذلك . ثم زهد في الميل إلى زينة الأرض بقوله : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها ﴾ من هذه الزينة ﴿ صعيداً جرزاً ﴾ أي مثل أرض بيضاء لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة في إزالة بهجته وإماتة سكانه .

(192/470)

قال أبو عبيد : الصعيد المستوي من الأرض التي لا نبات فيها من قولهم " امرأة جروز " إذا كانت أكولاً ، " وسيف جراز " إذا كان مستأصلاً وجرز الجراد والشاء والإبل الأرض إذا أكملت ما عليها . ثم إن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنه الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الامتحان فقال سبحانه ﴿ أم حسبت ﴾ يعني بل أظننت يا إنسان أنهم كانوا عجباً من آياتنا فقط فلا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب ، فإن من كان قادراً على تخليق السموات والأرض ثم تزيين الأرض بأنواع المعادن والنبات والحيوان ، ثم جعلها بعد ذلك صعيداً خالياً عن الكل كيف تستبعدون قدرته وحفظه ورحمته بالنسبة إلى طائفة مخصوصة . وقال جار الله : يعني أن ذلك التزيين وغيره أعظم من قصة أصحاب الكهف يعني أنه ذكر أولاً عظيم قدرته ، ثم أضرب عن ذلك موبخاً للإنسان . والحاصل أنك تعجب من هذا الأدنى فكيف بما فوقه ، والكهف الغار الواسع في الجبل ، والرقيم اسم كلبهم ، وعن سعيد بن جبير ومجاهد أنه لوح من حجارة أو رصاص رقمت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف ، فعلى هذا يكون اللفظ عربياً " فعيلاً " بمعنى " مفعول " ومثله ما روي أن الناس رقموا حديثهم نقراً في الجبل . وعن السدي أنه القرية التي خرجوا منها . وقيل : هو الوادي أو الجبل الذي فيه الكهف . والعجب مصدر وصف به أو المراد ذات عجب . وقوله : ﴿ إذ أوى الفتية إلى الكهف ﴾ صاروا إليه وجعلوه مأواهم منصوب بإضمار " اذكر " ب ﴿ حسبت ﴾ لفساد المعنى ، ولا يبعد أن يتعلق ب ﴿ عجباً ﴾

والتنوين في ﴿ رحمة ﴾ إما للتعظيم أو للنوع . وتقديم ﴿ من لدنك ﴾ للاختصاص أي رحمة مخصوصة بأنها من خزائن رحمتك وهي المغفرة والرزق والأمن من الأعداء ﴿ وهيىء لنا ﴾ أي أصلح لنا من قولك هيأت الأمر فتهيأ ﴿ من أمرنا ﴾ الذي نحن عليه من مفارقة الكفار ﴿ رشداً ﴾ أي أمر إذا رشد حتى نكون بسببه راشدين غير ضالين فتكون " من " للابتداء . ويجوز أن تكون للتجريد كما

في قولك " رأيت منك أسداً " أي اجعل أمرنا رشداً كله . ﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ قال المفسرون : أي أنمناهم والأصل فيه أن المفعول محذوف وهو الحجاب كما يقال : " بنى على امرأته " أي بنى عليها القبة . و ﴿ سنين ﴾ ظرف زمان و ﴿ عدداً ﴾ أي ذوات عدد وهو مصدر وصف به والمراد بهذا الوصف إما القلة لأن الكثير قليل عند الله ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ [الحج : 47] وإما الكثرة . قال الزجاج : إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج إلى العدد وإذا كثر احتاج إلى أن يعدّ ﴿ ثم بعثناهم ﴾ أيقظناهم ﴿ لنعلم ﴾ ليظهر معلومنا وفعل العلم معلق لما في " أي " من معنى الاستفهام فارتفع ﴿ أي الحزبين ﴾ على الابتداء وخبره ﴿ أحصى ﴾ وهو فعل ماض و " ما " في

﴿ لما لبثوا ﴾ مصدرية أي أحصى ﴿ أحداً ﴾ للبثهم فيكون الجار والمجرور صفة للأمد فلما قدم صار حالاً منه .

(194/470)

وقيل : اللام " زائدة " و " ما " بمعنى الذي وأمداً تمييز والتقدير : أحصى لما لبثوه أمداً والأمد الغاية . وزعم بعضهم أن ﴿ أحصى ﴾ أفعل تفضيل كما في قولهم " أعدى من الجرب " و " أفلس من ابن المذلق " ، ولم يستصوبه في الكشاف لأن الشاذ لا يقاس عليه . واختلفوا في تعيين الحزبين فعن عطاء عن ابن عباس أن أصحاب الكهف حزب والملوك الذين تداولوا المدينة ملكاً بعد ملك حزب . وقال مجاهد : الحزبان من أصحاب الكهف . وذلك أنهم لما انتبهوا اختلفوا فقال بعضهم : ﴿ لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ وقال آخرون : ﴿ ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ وذلك حين حدسوا أن لبثهم قد تطاول . وقال الفراء : إن طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ أي على وجه الصدق ﴿ أنهم فتية ﴾ شباب ﴿ آمنوا بربهم ﴾ أي بي فوضع الظاهر موضع المضمر ﴿ وزدناهم هدى ﴾ أي بالتوفيق والتثبيت ﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ قوّيناهم بإلهام الصبر على فراق الخلائق والأوطان والفرار بالدين إلى بعض

الغيران ﴿ إذ قاموا ﴾ وفي هذا القيام أقوال : فعن مجاهد أنهم اجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد فقال رجل منهم : هو أكبر القوم إني لأجد في نفسي شيئاً ما أظن أحداً يجده ، أجد أن ربي رب السموات والأرض . فقالوا : نحن كذلك في أنفسنا فقاموا جميعاً ﴿ فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ وقال أكثر المفسرين : إنه كان لهم ملك جبار - يقال له دقيانوس - وكان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى قاموا بين يديه ﴿ فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ وعن عطاء ومقاتل أنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم . والشطط الإفراط في الظلم والإبعاد فيه من شط إذا بعد والمراد قولاً ذا شطط أي بعيد عن الحق . ﴿ هؤلاء ﴾ مبتدأ و ﴿ قومنا ﴾ عطف بيان أو بدل ﴿ اتخذوا ﴾ خبر وهو إخبار في معنى إنكار . وفي اسم الإشارة تحقير لهم ﴿ لولا يأتون عليهم ﴾ هلا يأتون على حقيقة

إلهيتهم أو على عبادتهم ﴿ بسلطان بين ﴾ بحجة ظاهرة ، استدل بعدم الدليل على عدم الشركاء والأضداد فاستدل بعض العلماء بذلك على أن هذه طريقة صحيحة ، ويمكن أن يجاب بأنه إنما ذكر ذلك على سبيل التبكيت ، فمن المعلوم أن الإتيان بسلطان على

عباده الأوثان محال ، وفيه دليل على فساد التقليد ويؤكده قوله ﴿ فمن أظلم من افترى على الله كذباً ﴾ بنسبة الشريك إليه وخاطب بعضهم بعضاً حين صمم عزمهم على الفرار بالدين .

وقوله : ﴿ وما يعبدون ﴾ عطف على المضمير المنصوب يعني وإذا اعتزلتموهم ومعبوديهم . وقوله : ﴿ إلا الله ﴾ استثناء منقطع على الدهر ، ويجوز أن يكون متصلاً بناءً على أن المشركين يقرون بالخالق الأكبر . وقيل هو كلام معترض إخبار من الله تعالى عن الفتية أنهم لم يعبدوا غير الله ف " ما " نافية .

(196/470)

قال الفراء ﴿ فأووا إلى الكهف ﴾ جواب " إذا " ومعناه إذهبوا إليه واجعلوا مأواكم ﴿ ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ يبسطها لكم و ﴿ مرفقاً ﴾ على القراءتين مشتق من الارتفاق الانتفاع . وقيل : فتح الميم أقيس وكسرها أكثر . وقيل : المرفق بالكسر ما ارتفعت به ، والمرفق بالفتح الأمر الرافق . وكان الكسائي ينكر في مرفق اليد إلا كسر الميم . قالوا ذلك ثقة بفضل الله وتوكلاً عليه ، وإما لأنه أخبرهم نبي في عصرهم منهم أو من غيرهم . ﴿ وترى الشمس ﴾ أيها الإنسان ﴿ إذا طلعت تزاور ﴾ أصله من الزور بفتح

الواو وهو الميل ومنه زاره إذا مال إليه . والمراد أن الشمس تعدل عن سمتهم إلى الجهتين فلا تقع عليهم . والفجوة المتسع إن الشمس تعدل عن سمتهم إلى الجهتين فلا تقع عليهم .

والفجوة المتسع من المكان ومنه الحديث " فإذا وجد فجوة نص " وللمفسرين في الآية قولان : أحدهما أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها مع أنهم في مكان واسع منفتح وإلى هذا الحجب أشار بقوله : ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ وثانيهما أن باب ذلك الكهف كان مفتوحاً إلى جانب الشمال فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف ، وإذا غربت كانت على يساره فلذلك كانت الشمس لا تصل إليهم . ثم إنهم كانوا مع ذلك في منفسح من الغار ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ، واعترض بأن عدم وصول الشمس إليهم لا يكون آية من آيات الله على هذا التقدير . وأجيب بأن المشار إليه حفظهم في ذلك الغار مدة طويلة ، والمقصود من بيان وضع الغار تعيين مكانهم . ثم بين الله سبحانه لطفه بهم بصون أبدانهم عن الفساد في تلك المدة المديدة كما لطف بهم في أول الأمر بالهداية فكان فيه ثناء عليهم وتذكير لغيرهم إن الهداية وضدها كليهما بمشيئة الله وعنايتها الأزلية وبلطفه وقهره الذي سبق به القلم قال جار الله : فيه تنبيه على أن من سلك طريق الراشدين المهديين فهو الذي أصاب الفلاح ، ومن تعرض للخسران فلن يجد من يليه ويرشده .

ثم حكى طرفاً آخر من غرائب أحوالهم فقال ﴿ وتحسبهم أيقاظاً ﴾ هي جمع يقظ بكسر القاف كأنكاد في جمع نكد ﴿ وهم رقود ﴾ جمع راقد كقعود في قاعد . واستبعده في التفسير الكبير . وقيل : عيونهم مفتحة وهم نيام فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظاً . وقال الزجاج : لكثرة تقلبهم . وقيل : لهم تقلبتان في السنة . وقيل : تقلبة واحدة في يوم عاشوراء .

(198/470)

وعن مجاهد : يمكثون رقوداً على أيمانهم سبع سنين ثم يقلبون على شمائلهم فيمكثون رقوداً سبع سنين ، وفائدة تقلبهم ظاهرة وهي أن لا تأكل لحومهم الأرض . قال ابن عباس : وتعجب منه الإمام فخر الدين قال : وإن الله تعالى قادر على حفظهم من غير تقليب . وأقول : لا ريب في قدرة الله تعالى ولكن الوسائط معتبرة في أغلب الأحوال ﴿ وكلبهم باسط ﴾ حكاية الحال الماضية ولهذا عمل في المفعول به . والوصيد الفناء وقيل العتبة أو الباب . قال السدي : الكهف لا يكون له عتبة ولا باب وإنما أراد أن الكلب منه موضع العتبة من البيت . عن ابن عباس : هربوا ليلاً من ملكهم فمروا براع معه كلب فتبعهم على

دينهم ومعه كلبه . وقال كعب : مروا بكلب فنبح عليهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك ثلاث مرات فقال لهم الكلب : ما تريدون مني أنا أحب أحباء الله فناموا حتى أحرسكم . وقال عبيد بن عمرو : كان ذلك كلب صيدهم والاطلاع على الشيء الإشراف عليه . قال الزجاج قوله ﴿ فراراً ﴾ منصوب على المصدر لأنه بمعنى التولية . وسبب الرعب هيبة ألبسهم الله إياهم . وقيل طول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم ووحشة مكانهم منه يحكى أن معاوية غزا الروم فقال : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال له ابن عباس : ليس لك ذلك قد منع الله منه من هو خير منك ؟ فقال : ﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ﴾ فقال معاوية : لا أنتهي حتى أعلم علمهم فبعث ناساً فقال لهم : اذهبوا فانظروا ففعلوا ، فلما دخلوا الكهف بعث الله ريحاً فأخرجتهم ﴿ وكذلك ﴾ إشارة إلى المذكور قبله أي وكما أنمناهم تلك النومة وفعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات كذلك ﴿ بعثناهم ﴾ وفيه تذكير لقدرته على الإنامة والبعث جميعاً ، ثم ذكر غاية بعثهم فقال : ﴿ ليتساءلوا ﴾ أي ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع في مدة اللبث غرض صحيح لما فيه من انكشاف الحال وظهور آثار القدرة ﴿ قال قائل منهم كم لبثتم ﴾ قال ابن عباس : وهو رئيسهم يمليخا رد علم ذلك

إلى الله تعالى حين رأى التغير في شهورهم وأظفارهم وبشرتهم . والفاء في ﴿ فابعثوا ﴾ للتسبيب كأنه قل : واذ قد حصل اليأس من تعيين مدة اللبث فخذوا في شيء آخر مما يهمكم . والورق الفضة مضروبة أو غير مضروبة . وفي تزودهم الورق عند فرارهم دليل على أن إمساك بعض ما يحتاج إليه الإنسان في سفره وحضره لا ينافي التوكل على الله . والمدينة طرسوس . قال في الكشاف : ﴿ أيها ﴾ معناه أيّ أهلها ﴿ أزكى طعاماً ﴾ وأقول : يحتمل أن يعود الضمير إلى الأطعمة ذهناً كقوله : " زيد طيب أباً " على أن الأب هو زيد ، ويجوز أن يراد أي أطعمة المدينة أزكى طعاماً على الوجه المذكور . عن ابن عباس : يريد ما حل من الذبائح لأن عامة أهل بلدهم كانوا مجوساً وفيهم قوم يخفون أديانهم .

وقال مجاهد : احترزوا من المغصوب لأن ملكهم كان ظلماً . وقيل : أيها أطيب وألذ . وقيل : الرخص ﴿ وليتلطف ﴾ وليتكلف اللطف فيما يباشره من أمر المبايعة حتى لا يغبن . والأظهر أنهم طلبوا اللطف في أمر التخفي حتى لا يعرف . يؤيده قوله ﴿ ولا يشعرون بكم أحد ﴾ أي لا يفعلن ما يؤدي إلى الشعور ويسبب له ﴿ إنهم إن يظهروا ﴾

يطلعوا على مكانكم أو ﴿ عليكم يرجموكم ﴾ يقتلوكم أخبث القتلة وهي الرجم وكأنه كانت عادتهم ﴿ أو يعيدوكم في ملتهم ﴾ بالإكراه العنيف . وقال في الكشاف : العود في معنى الصيرورة أكثر شيء في كلامهم يقولون ما عدت أفعل كذا يريدون ابتداء الفعل . قلت : يحتمل أن يكون العود ههنا على معناه الأصلي لاحتمال أن يكون أصحاب الكهف على ملة أهل المدينة قبل أن هداهم الله . وفي " أذن " معنى الشرط كأنه قال : إن رجعتم إلى دينهم فلم تفلحوا أبداً ، قال المحققون : لا خوف على المؤمن الفار بدينه أعظم من هذين . ففي الأول هلاك الدنيا ، وفي الثاني هلاك الآخرة . وإنما نفى الفلاح على التأبيد مع أن كفر المكره لا يضر ، لأنهم خافوا أن يجرهم ظاهر الموافقة إلى الكفر القلبي ، وكما أنمناهم وبعثناهم ﴿ أعثرنا عليهم ﴾ سمى الإعلام إعثاراً والعلم عثوراً لأن من كان غافلاً عن شيء فعثر به نظر إليه وعرفه وكان الإعثار سبباً لحصول العلم واليقين . وفي سبب الإعثار قولان : أحدهما أنه طالت شعورهم وأظفارهم طولاً مخالفاً للعادة وتغيرت بشرتهم فعرفوا بذلك . والأكثرون قالوا : إن ذلك الرجل لما ذهب بالورق إلى السوق وكانت دارهم دقيانوسية اتهموه بأنه وجد كنزاً فذهبوا به إلى الملك فقال له : من أين وجدت هذه الدراهم ؟ قال : بعت به أمس شيئاً من التمر . فعرف الملك أنه ما وجد كنزاً وأن الله بعثه بعد موته فقص عليه القصة . ثم ذكر سبحانه غاية الإعثار فقال : ﴿ ليعلموا أن وعد الله

حق ﴾ يروى أن ملك ذلك العصر من كان ينكر البعث إلا أنه كان مع كفره منصفاً فجعل الله أمر

(201/470)

الفتية دليلاً للملك . وقيل : بل اختلفت الأمة في ذلك الزمان فقال بعضهم : الجسد والروح يبعثان جميعاً . وقال آخرون : الروح تبعث وأما الجسد فتأكله الأرض . ثم إن ذلك الملك كان يتضرع أن يظهر له آية يستدل بها على ما هو الحق في المسألة فأطلعه الله تعالى على أمر أصحاب الكهف حتى تقرر عنده صحة بعث الأجساد ، لأن انتباههم بعد ذلك النوم الطويل يشبه من يموت ثم يبعث . فالمراد بالتنازع هو اختلافهم في حقيقة البعث . والضمائر في قوله : ﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ تعود إلى تلك الأمة . وقيل : أراد إذ يتنازع الناس بينهم أمر أصحاب الكهف ويتكلمون في قصتهم ، أو يتنازعون بينهم تدبير أمرهم حين توفوا كيف يخفون مكانهم وكيف يسدون الطريق إليهم .

(202/470)

﴿ فقالوا ابنوا ﴾ على باب كهفهم ﴿ بنياناً ﴾ يروى أنه انطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم وحمدوا الله على آياته الدالة على البعث . ثم قالت الفتية للملك : نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والإنس ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفى الله أنفسهم ، فألقى الملك عليهم ثيابه وأمر فجعل لكل واحد تابوتاً من ذهب فرآهم في المنام كارهين للذهب ، فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجداً . فيكون فيه دليل على أن أولئك الأقوام كانوا عارفين بالله تعالى ومعترفين بالعبادة والصلاة ، وقيل : إن الكفار قالوا : إنهم كانوا على ديننا ونتخذ عليهم بنياناً ، والمسلمين قالوا : بل كانوا على ديننا فنتخذ عليهم مسجداً ، وقيل : إنهم تنازعوا في عددهم وأسمائهم . قال جار الله : ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾ من كلام المتنازعين كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم ، فلما لم يهتدوا إلى حقيقته قالوا ذلك ، أو هو من كلام الله عز وجل رد القول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين ، أو من الذين تنازعوا عوافيهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب . والذين غلبوا على أمرهم المسلمون وملكهم المسلم لأنهم بنوا عليهم مسجداً يصلى فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم وكانوا أولى بهم بالبناء عليهم حفظاً لتربتهم بها وضناً بها ﴿ سيقولون ﴾ يعنى الخائضين في قصتهم من المؤمنين ومن أهل الكتاب المعاصرين وكان كما أخبر فكان معجزاً ، يروى أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد

وكان يعقوبياً هم ﴿ ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ وقال العاقب وكان نسطورياً هم ﴿ خمسة وسادسهم كلبهم ﴾ فزيف الله قولهما بأن قال : ﴿ رجماً بالغيب ﴾ أي يرمون رمياً بالخبر الخفي يقال : فلان يرمي بالكلام رمياً أي يتكلم من غير تدبر . وكثيراً ما يقال رجم بالظن . مكان قولهم ظن . وقال المسلمون . هم سبعة ثامنهم كلبهم . قال

العلماء : وهذا قول محقق عرفه المسلمون بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لسان جبرائيل عليه السلام . والذي يدل عليه أمور منها ما روي عن علي عليه السلام أنهم سبعة تقرأ أسماؤهم . يمليخا ومكشلينيا ومشلينيا – هؤلاء أصحاب يمين الملك – وكان عن يساره مرنوس ودبرنوش وشادنوش . وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره ، والسابع الراعي الذي وافقهم واسمه كفشططوش . واسم مدينتهم أفسوس ، واسم كلبهم قطمير . وقيل ريان . عن ابن عباس : أن أسماء أصحاب الكهف تصلح للطلب والهرب وإطفاء الحريق تكتب في خرقة ويرمى بها في وسط النار ، ولبكاء الطفل تكتب وتوضع تحت رأسه في المهد ، وللحرث تكتب على القرطاس . وترفع على خشب منصوب في وسط الزرع ، وللضربان وللحمى المثلثة والصداع الغنى والجاه . والدخول على السلاطين تشد

على الفخذ اليمنى ، ولعسر الولادة تشد على فخذها الأيسر ، ولحفظ المال والركوب في البحار والنجاة من القتل .

ومنها قول صاحب الكشاف إن الواو في قوله ﴿ وثامنهم ﴾ هي التي تدخل على الجملة والواقعة صفة للنكرة في قولك " جاءني رجل ومعه آخر " كما تدخل على الجملة الواقعة حالاً من المعرفة في قولك " مررت بزيد ومعه سيف " وفائدته توكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر لأن الواو مقتضاها الجمعية وكأنهم وصفوا بكونهم سبعة مرتين بخلاف القولين الأولين فإنهم وصفوا بما وصفوا مرة واحدة . ولقائل أن يقول : إن العاطف لا يوسط بين الوصف والموصوف ألبتة لشدة الاتصال بينهما ، ومقتضى الواو هو الحالة المتوسطة بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع . بل الواو للعطف عطف الجملة على الجملة وإما للحال وجاز لأنهم لم يسوغوا إذا الحال نكرة ، لا مكان التباس الحال بالصفة في نحو قولك " رأيت رجلاً راكباً " وههنا الالتباس مرتفع لمكان الواو . ومنها بعضهم إن الضمير في قوله : ﴿ ويقولون سبعة ﴾ لله تعالى والجمع للتعظيم . ومنها قول ابن عباس حين وقعت الواو انقطعت العدّة أي لم تبق بعدها عدة عاد يلتفت إليها

وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثبات . ومنها أنه خص القولين الأولين بزيادة قوله : ﴿ رحيماً بالغيب ﴾ وتخصيص الشيء بالوصف يدل على أن الحال في الباقي بخلافه ، فمن البعيد أن يذكر الله تعالى جملة الأقوال الباطلة ولا يذكر الحق على أنه سبحانه منعه عن المناظرة معهم وعن الاستفتاء منهم في هذا الباب ، وهذا المنع إنما يصح إذا علمه حكم هذه الواقعة . وأيضاً الله تعالى قال : ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ ويبعد أن لا يحصل العلم بذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ويحصل لغير النبي صلى الله عليه وسلم كعلي وابن عباس حسين قال : أنا من أولئك القليل . وقد عرفت قولهما في هذا الباب . وإذا حصل فالظاهر أنه حصل بهذا الوحي لأن الأصل فيما سواه العدم . وقيل : الضمير في ﴿ سيقولون ﴾ لأهل الكتاب خاصة أي سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا ولا علم بذلك إلا في

قليل منهم وقوله سبحانه في الموضعين الأخيرين و ﴿ يقولون ﴾ بغير السين لا ريب أنهما للاستقبال أيضاً إلا أن ذلك يحتمل أن يكون لأجل الصيغة التي تصلح له ، وأن يكون لتقدير السين بحكم العطف كما تقول : قد أكرم وأنعم أي وقد أنعم . أما فائدة تخصيص الواو في

قوله : ﴿ وثامنهم ﴾ فقد عرفت آنفاً وقد يقال : إن لعدد السبعة عند العرب تداولاً على الألسنة في مظان المبالغة من ذلك قوله تعالى : ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴾ [التوبة : 8] لأن هذا العدد سبعة عقود ، فإذا وصلوا إلى الثامنة ذكروا لفظاً يدل على الاستئناف كقوله في أبواب الجنة ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : 73] وكقوله

﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ [التحريم : 5] وزيف القفال هذا الوجه بقوله تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ [الحشر : 22] وذلك لم يذكر الواو في النعت الثامن . والانصاف أن هذا التزييف ليس في موضعه لأن وجود الواو هو الذي يفتقر إلى التوجيه ، وأما عدمه فعلى الأصل وبين التوجيه والإيجاب بون بعيد ، والقائل بصدد الأول دون الأخير . ثم نهى نبيه صلى الله عليه وسلم عن الجدال مع أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف ثم قال : ﴿ الأمراء ظاهراً ﴾ فقال جار الله : أي جد إلا غير متعمق فيه وهو أن تقص عليهم ما أوحى الله إليك فحسب ولا تزيد من غير تجهيل ولا تعنيف . وقال في التفسير الكبير : المراد أن لا يكذبهم في تعيين ذلك العدد بل يقول هذا التعيين لا دليل عليه فوجب التوقف . ثم نهاه عن الاستفتاء منهم في

شأنهم لأن المفتي يجب أن يكون أعلم من المستفتي وههنا الأمر بالعكس ولا سيما في باب واقعة أصحاب الكهف كما بينا . ولنذكر ههنا مسألة جواز الكرامات وما تتوقف هي عليه فنقول : الولي مشتق من الولي وهو القرب . فقيل : " فعيل " بمعنى " فاعل "كعليم وقدير وذلك أنه توالت طاعاته من غير تخلل معصية . وقيل : بمعنى " مفعول "كقتيل وذلك أن الحق سبحانه تولى حفظه وحراسته وقرب منه بالفضل والإحسان ، فإذا ظهر فعل خارق للعادة على إنسان فإن كان مقروناً بدعوى الإلهية كما نقل أن فرعون كانت تظهر على يده الخوارق ، وكما ينقل أن الدجال سيكون منه ذلك فهذا القسم جوزه الأشاعرة لأن شكله وخلقه يدل على كذبه فلا يفضي إلى التلبيس وإن كان مقروناً بدعوى النبوة . فإن كان صادقاً وجب أن لا يحصل له المعارض ، وإن كان كاذباً وجب . ويمكن أن يقال : إن الكاذب يستحيل أن يظهر منه الفعل الخارق وإليه ذهب جمهور المعتزلة ، وخالفهم أبو الحسين البصري وصاحبه محمود الخوارزمي وجوزا ظهور خوارق العادات على من كان مردوداً على

طاعة الله وسموه بالاستدراج . وقد يفرق بين النبي الصادق والساحر الخبيث بالدعاء إلى الخير والشر وإن كان مقروناً بدعوى الولاية فصاحبه هو الولي ، ومن المحققين من لم يجوّز للولي دعوى الولاية لأنه مأمور بالإخفاء كما أن النبي مأمور بالإظهار . ثم إن المعتزلة أنكروا كرامات الأولياء وأثبتها أهل السنة مستدلين بالقرآن والأخبار والآثار والمعقول . أما القرآن فكقصة مريم ونبأ أصحاب الكهف . قال القاضي : لا بد أن يكون في ذلك الزمان نبي تنسب إليه تلك الكرامات . وأجيب في التفسير الكبير بأن إقدامهم على النوم أمر غير خارق للعادة حتى يجعل ذلك معجزة لأحد ، وأما قيامهم من النوم بعد ثلثمائة سنة فهذا أيضاً لا يمكن جعله معجزة لأن الناس لا يصدقونهم في هذه الواقعة لأنهم لا يعرف كونهم صادقين في هذه الدعوى إلا إذا بقوا طول هذه المدة وعرفوا أن هؤلاء الذين جاؤا في هذا الوقت هم الذين ناموا قبل ذلك بثلثمائة وتسع سنين ، وكل هذه الشرائط لم توجد فامتنع جعل هذه الواقعة معجزة لأحد من الأنبياء ، فلم يبق إلا أن تجعل كرامة لهم .

ولقائل أن يقول : لم لا يجوز أن يكون نفس بعثهم معجز النبي هذا الزمان ؟ وأما أن ذلك البعث بعد نوم طويل فيعرف بأمارات أخر كما مر من حديث الدرهم وغيره . وأما

الأخبار فمنها ما أخرج في الصحاح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم وصبي في زمان جريج وصبي آخر . أما عيسى فقد عرفتموه ، وأما جريج فكان رجلاً عابداً في بني إسرائيل وكانت له أم وكان يوماً يصلي إذ اشتاقت إليه أمه فقالت : يا جريج فقال : يا رب الصلاة خير أم رؤيتها ثم صلى . فدعته ثانياً مثل ذلك حتى كان ذلك ثلاث مرار . وكان يصلي ويدعها فاشتد ذلك على أمة فقالت : اللَّهم لا تمته حتى تريه المومسات . وكانت في بني إسرائيل زانية فقالت لهم : أنا أفتن جريجاً حتى يزني فأتته فلم تقدر عليه شيئاً وكان هناك راع يأوى بالليل إلى أصل صومعته فأرادت الراعي على نفسها فأتاها فولدت غلاماً وقالت : ولدي هذا من جريج . فأتاه بنو إسرائيل وكسروا صومعته وشتموه فصلى ودعا ثم نخس الغلام . قال أبو هريرة : كأنى أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم حين قال بيده يا غلام من أبوك ؟ فقال : فلان الراعي فندم القوم على ما كان منهم واعتذروا إليه وقالوا نبني صومعتك من ذهب وفضة فأبى عليهم وبناها كما كانت . وأما الصبي الآخر فإن امرأة كانت معها صبي ترضعه إذ مر بها شاب جميل ذو شارة فقالت : اللَّهم اجعل ابني مثل هذا فقال الصبي : اللَّهم لا تجعلني مثله . ثم مر بها امرأة ذكروا أنها سرقت وزنت وعوقبت فقالت : اللَّهم لا تجعل ابني مثل هذه . فقال : اللَّهم اجعلني مثلها . فقالت له أمه في ذلك فقال : إن الراكب جبار من الجبابرة وإن هذه قيل لها سرقت ولم تسرق وزنيت ولم تزن هي تقول حسبي الله " ومنها ما روي عن ابن عمر أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم فأواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم

(209/470)

الغار فقالوا إنه والله لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم فقال رجل منهم كان لي أبوان شيخان كبيران فكنت لا أغبق قبلهما فناما في ظل شجرة يوماً فلم أبرح عنهما وحلبت لهما غبوقهما فجئتهما به فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أغبق قبلهما فقمت والقدح في يدي أنتظر استيقاظهما حتى ظهر الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما اللّهم إن كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت انفراجاً لا يستطيعون الخروج منه . ثم قال الآخر اللّهم إنه كانت في ابنة عم وكانت أحب الناس إليّ فأردتها عن نفسها فامتنعت حتى ألمت سنة من السنين فجاءتني وأعطيتها مالاً عظيماً على أن تخلي بيني وبين نفسها فلما قدرت عليها قالت لا آذن لك أن تفك الخاتم إلا بحقه فتحرجت من ذلك العمل وتركتها وتركت المال معها اللّهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثم قال الثالث اللّهم إني

استأجرت أجراء أعطيتهم أجورهم غير رجل واحد منهم ترك الذي له وذهب فثمرت أجرته حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله أدّ إليّ أجرتي فقلت له كل ما ترى من الإبل والغنم والرقيق من أجرتك فقال يا عبد الله لاتستهزىء بي فقلت إني لا أستهزىء بأحد فأخذ ذلك كله اللّهمّ إن كنت فعلته ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة عن الغار فخرجوا يمشون "

وهذا حديث صحيح متفق عليه .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : " رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره " ولم يفرق بين شيء وشيء فيما يقسم به على الله . ومنها رواية سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينا رجل يسوق بقرة قد حمل عليها إذا التفتت البقرة وقالت إني لم أخلق لهذا وإنما خلقت للحرث فقال الناس : سبحان الله ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر " ومنها رواية أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : " بينا رجل سمع رعداً أو صوتاً في السحاب أن اسق حديقة فلان قال فغدوت إلى تلك الحديقة فإذا رجل قائم فيها فقلت له : ما اسمك ؟ قال :

فلان ابن فلان . فقلت : فما تصنع بحديقتك هذه إذا صرمتها ؟ قال : ولم تسأل عن ذلك ؟ قلت : لأني سمعت صوتاً في السحاب أن اسق حديقة فلان . قال : أما إذ قلت فإني أجعلها أثلاثاً فأجعل لنفسي ولأهلي ثلثاً وأجعل للمساكين وأبناء السبيل ثلثاً وأنفق عليها ثلثاً " وأما الآثار فمن كرامات أبي بكر الصديق أنه لما حملت جنازته إلى باب قبر النبي صلى الله عليه وسلم ونودي السلام عليك يا رسول الله هذا أبو بكر بالباب فإذا الباب قد فتح فإذا هاتف يهتف من القبر أدخلوا الحبيب إلى الحبيب .

ومن كرامات عمر ما روي أنه بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً يدعى سارية بن حصين . فبينا عمر يوم الجمعة يخطب جعل يصيح في خطبته يا سارية الجبل الجبل . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : وكتبت تاريخ هذه الكلمة . فقدم رسول ذلك الجيش . فقال : يا أمير المؤمنين غدونا يوم الجمعة في وقت الخطبة فدعمونا فإذا بإنسان يصيح يا سارية الجبل فأسندنا ظهورنا إلى الجبل فهزم الله الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة . قال بعض العلماء : كان ذلك بالحقيقة معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه قال لأبي بكر وعمر : أنتما مني بمنزلة السمع والبصر . فلما كان عمر بمنزلة البصر لا جرم قدر على رؤية الجيش من بعد .

ومنها ما روي أن نيل مصر كان في الجاهلية يقف في كل سنة مرة واحدة وكان لا يجري حتى يلقى فيه فيه جارية حسناء . فلما جاء الإسلام كتب عمرو بن العاص بهذه الحالة إلى عمر . فكتب عمر على الخزف : من عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد فإن كنت تجري بأمرك فلا حاجة لنا فيك ، وإن كنت تجري بأمر الله فاجر على بركة الله . وأمر أن يلقى الخزف في النيل فجرى ولم يقف بعد ذلك . ووقعت الزلزلة بالمدينة فضرب عمر الدرة على الأرض وقال : اسكني بإذن الله فسكنت . ووقعت النار في بعض دور المدينة فكتب عمر على خزفة : يا نار اسكني بإذن الله تعالى فألقوها في النار فانطفأت في الحال . ويروى أن رسول ملك الروم جاء إلى عمر وطلب داره فظن أن داره مثل قصور الملوك فقالوا : ليس له ذلك إنما هو في الصحراء يضرب اللبن . فلما ذهب إلى الصحراء رأى عمر واضعاً درته تحت رأسه وهو نائم على التراب فتعجب الرسول من ذلك وقال في نفسه : أهل الشرق والغرب يخافون منه وهو على هذه الصفة فسل سيفه ليقتله فأخرج الله أسدين من الأرض فقصداه فخاف فألقى السيف فانتبه عمر وأسلم الرجل . قال أهل السير : لم يتفق لأحد من أول عهد إلى الآن ما تيسر له فإنه مع غاية بعده عن التكلفات كيف قدر على تلك السياسات ، ولا

شك أن هذا من أعظم الكرامات . وأما عثمان فعن أنس قال : مررت في طريق فوقعت عيني على امرأة ثم دخلت على عثمان فقال : ما لي أراكم تدخلون عليّ وآثار الزنا عليكم ؟ ! فقلت : أوحي نزل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لا ولكن فراسة صادقة . وقيل : لما طعن بالسيف فأول قطرة سقطت من دمه سقطت على المصحف على قوله : ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ [البقرة : 137] .

ويروى أن جهجاهاً الغفاري انتزع العصا من يده وكسرها في ركبته فوقعت الآكلة في ركبته .

وأما علي صلوات الله عليه فيروى أن واحداً من أصحابه سرق وكان عبداً أسود فأتي به إلى علي عليه السلام فقال : أسرقت ؟ قال : نعم . فقطع يده فانصرف من عند علي رضي الله عنه فلقيه سلمان الفارسي وابن الكواء فقال ابن الكواء : من قطع يدك ؟ قال : أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول . فقال : قطع يدك وتمدحه . قال : ولم لا أمدحه وقد قطع يدي بحق وخلصني من النار . فسمع سلمان ذلك فأخبر به

علياً رضي الله عنه فدعا الأسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات ، فسمعنا صوتاً من السماء ارفع الرداء عن اليد فرفعنا الرداء فإذا اليد كما كانت بإذن الله تعالى . وأما سائر الصحابة فعن محمد بن المنذر أنه قال : ركبت البحر فانكسرت السفينة التي كنت فيها فركبت لوحاً من ألواحها فطرحني اللوح في أجمة فيها أسد ، فخرج إليّ أسد فقلت : يا أبا الحرث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فتقدم ودلني على الطريق ثم همهم فظننت أنه يودعني ورجع . وروى ثابت عن أنس أن أسيد بن حضير ورجلاً آخر من الأنصار خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذهب من الليل قطع ، وكانت ليلة مظلمة وفي يد كل واحد منهما عصاه فأضاءت عصا أحدهما حتى مشيا في ضوئها ، فلما افترقا أضاءت لكل واحد منهما عصاه حتى مشى في ضوئها وبلغ منزله . وقيل لخالد بن الوليد إن في عسكرك من يشرب الخمر فركب فرسه ليلاً فطاف في العسكر فرأى رجلاً على فرس ومعه زق من خمر فقال : ما هذا ؟ فقال : خل . فقال خالد : اللّهم اجعله خلاً . فذهب الرجل إلى أصحابه وقال : أتيتكم بخمر ما شربت العرب مثلها . فلما فتحوا فإذا هي خل . فقالوا : والله ما جئتنا إلا بخل . فقال : هذه والله دعوة خالد . ومن الوقائع المشهورة أن خالد بن الوليد أكل كفاً من السم على اسم الله وما ضره . وعن ابن عمر أنه كان في بعض أسفاره فلقي جماعة على طريق خائفين من السبع فطرد السبع عن طريقهم ثم قال : إنما

يلسط على ابن آدم ما يخافه ولو أنه لم يخف غير الله لما سلط عليه شيء . وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث العلاء بن الحضرمي في غزاة فحال بينه وبين المطلوب قطعة من البحر فدعا باسم الله الأعظم فمشوا على الماء . وفي كتب الصوفية من هذا الباب روايات كثيرة ولا سيما في كتاب تذكرة الأولياء ومن أرادها فليطالعها .

وأما المعقول فهو أن الرب حبيب العبد والعبد حبيب الرب لقوله ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ [المائدة : 54] فإذا بلغ العبد في طاعته مع عجزه إلى حيث يفعل كل ما أمره الله .

فأي بعد في أن يفعل الرب مع غاية قدرته وسعة جوده مرة واحدة ما يريد العبد . وأيضاً لو امتنع إظهار الكرامة فذلك إما لأجل أن الله تعالى ليس أهلاً له فذلك قدح في قدرته ، وإما لأن المؤمن ليس أهلاً له وهو بعيد لأن معرفة الله والتوفيق على طاعته أشرف العطايا وأجزلها ، وإذا لم يبخل الفياض بالأشرف فلأن لا يبخل بالأدون أولى ومن هنا قالت

الحكماء : إن النفس إذا قويت بحسب قوتها العلمية والعملية تصرفت في أجسام العالم السفلي كما تتصرف في جسده . قلت : وذلك أن النفس نور ولا يزال يتزايد نوريته وإشراقه بالمواظبة على العلم والعمل وفيضان الأنوار الإلهية عليه حتى ينبسط ويقوى على إنارة غيره والتصرف فيه ، والوصول إلى مثل هذا المقام هو المعني بقول علي بن أبي طالب صلوات الله عليه . والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولكن بقوة ربانية . حجة المنكرين للكرامات أن ظهور الخوارق دليل على النبوة ، فلو حصل لغير النبي لبطلت هذه الدلالة . وأجيب بالفرق بين المعجز والكرامة بأن المعجز مقرون بدعوى النبوة والكرامة مقرونة بدعوى الولاية . وأيضاً النبي يدعي المعجزة ويقطع بها . والولي إذا ادعى الكرامة لا يقطع بها ، وأيضاً أنه يجب نفي المعارضة عن المعجزة ولا يجب نفيها عن الكرامة . جميع هذا عند من يجوّز للولي دعوى الولاية ، وأما من لا يجوّز ذلك من حيث إن النبي مأمور بالإظهار لضرورة الدعوة والولي ليس كذلك ولكن إظهاره يوجب طلب الإشهار والفخر المنهي عنهما ، فإنه يفرق بينهما بأن المعجز مسبوق بدعوى النبوة ، والكرامة غير مسبوقة بشيء من الدعاوى قالوا : قال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله سبحانه : " لن يتقرب إليّ المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم " لكن المتقرب إلى الله بأداء الفرائض لا يحصل له شيء من الكرامات ، فالمتقرب إليه بأداء النوافل أولى بأن لا يحصل له ذلك . وأجيب بأن الكلام في المتقرب إليه بأداء الفرائض والنوافل جميعاً . قالوا :

(216/470)

قال تعالى : ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴾ [النحل : 7]

فالقول بطيّ الأرض للأولياء طعن في الآية وطعن في محمد صلى الله عليه وسلم حين لم يصل من المدينة إلى مكة إلا في أيام . وأجيب بأن الآية وردت على ما هو المعهود المتعارف وكرامات الأولياء أحوال نادرة فتصير كالمستثناة من ذلك العموم ، وإن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن قاصراً عن رتبة بعض الأولياء ولكنه لم يتفق له ذلك ، أو لعله اتفق له في غير ذلك السفر قالوا : إذا ادعى الولي على إنسان درهماً فإن لم يطالبه بالبينة كان تاركاً لقوله : " البينة على المدعي . " وإن طالبه كان عبثاً لأن ظهور الكرامة عليه دليل قاطع على أنه لا يكذب ومع الدليل القاطع لا يجوز العمل بالظن .

(217/470)

والجواب مثل ما مر من أن النادر لا يحكم به . قالوا : لو جاز ظهور الكرامة على بعض الأولياء لجاز على كلهم ، وإذا كثرت الكرامات انقلب خرق لعادة وفقاً لها . وأجيب بأن

المطيعين فيهم قلة لقوله تعالى : ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ [سبأ : 13] والولي فيهم أعز من الكبريت الأحمر ، واتفاق الكرامة للولي أيضاً على سبيل الندرة فكيف يصير ما يظهر عليه معتاداً ؟ ! في الفرق بين الكرامات والاستدراج هو أن يعطيه الله كل ما يريده في الدنيا ليزداد غيه وضلاله وقد يسمى مكراً وكيداً وضلالاً وإملاء ، والفرق أن صاحب الكرامة لا يستأنس بها ولكنه يخاف سوء الخاتمة ، وصاحب الاستدراج يسكن إلى ما أوتي ويشتغل به ، وإنما كان الاستئناس بالكرامات قاطعاً للطريق لأنه حينئذ اعتقد أنه مستحق لذلك وأن له حقاً على الخالق فيعظم شأنه في عينه ويفتخر بها لا بالمكرم ، ولا ريب أن الإعجاب مهلك ولهذا وقع إبليس فيما وقع ، والعبد الصالح هو الذي يزداد تذلله وتواضعه بين يدي مولاه بازدياد آثار الكرامة والولاية عليه ، قرأ المقرئ في مجلس الأستاذ أبي علي الدقاق ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [فاطر : 10] فقال : علامة رفع العمل أن لا يبقى منه في نظرك شيء ، فإن بقي فهو غير مرفوع . واختلف في أن الولي هل يعرف كونه ولياً ؟ . قال الأستاذ أبو بكر بن فورك : لا يجوز لأن ذلك يوجب الأمن ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [يونس : 62] والأمن ينافي اعتقاد قهارية الله تعالى ويقتضي زوال العبودية الموجب لسخط الله . وكيف يأمن الولي وقد وصف الله عباده المخلصين بقوله : ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ [الأنبياء : 90] وأيضاً إن طاعة العباد ومعاصيهم لا تؤثر في محبة الحق وعداوته لأنها محدثة متناهية

وصفاته قديمة غير متناهية، والمحدث المتناهي لا يغلب القديم غير المتناهي. فقد يكون العبد في عين المعصية ونصيبه في الأزل هو المحبة وقد يكون في

عين الطاعة ونصيبه المبغضية، ولهذا لا يحصل الجزم بكيفية الخاتمة. قيل: من هنا قال سبحانه: ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام: 160] ولم يقل من عمل حسنة. ومن كانت محبته لا لعلة امتنع أن يصير عدواً لعلة المعصية وبالعكس، ومحبة الحق وعداوته من الأسرار التي لا يطلع عليها إلا الله أو من أطلعه عليها الله. وقال الأستاذ أبو علي الدقاق وتلميذه أبو القاسم القشيري: إن للولاية ركنين: أحدهما انقياد للشريعة في الظاهر، والثاني كونه في الباطن مستغرقاً في نور الحقيقة فإذا حصل هذان الأمران وعرف الإنسان ذلك عرف لا محالة كونه ولياً، وعلامته أن يكون فرحه بطاعة الله واستئناسه بذكر الله. قلت: لا ريب أن مداخل الأغلاط في هذا الباب كثيرة، ودون الوصول إلى عالم الربوبية حجب وأستار من نيران وأنوار، فالجزم بالولاية خطر والقضاء بالمحبة عسر والله تعالى أعلم.

قال المفسرون : إن اليهود حين قالت لقريش : سلوا محمداً عن مسائل ثلاثة عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين فسألوهن قال صلى الله عليه وسلم : " أجيبكم عنها غداً ولم يستثن فاحتبس الوحي عنه خمس عشرة ليلة . " وقيل : أربعين يوماً ثم نزل قوله : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً ﴾ أي لأجل شيء تعزم عليه ليس فيه بيان أنه ماذا ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ فقال العلماء : إنه لا يمكن أن يكون من تمام قوله ﴿ إني فاعل ﴾ إذا يصير المعنى إلا أن يشاء الله أن لا أفعله أي إلا أن تعرض مشيئة الله دون فعله وهذا ليس منهياً عنه . فالصواب أن يقال : إنه من تمام قوله : ﴿ ولا تقولن ﴾ ثم إن قدر المراد إلا أن يشاء الله أن تقول إني فاعل ذلك غداً أي فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد بعينه .

وقوله : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ أن تقوله بأن يأذن لك في ذلك الإخبار كان معنى صحيحاً ، ولكنه لا يكون موافقاً لسبب النزول . فالمعنى الموافق هو أن يكون قوله هذا في موضع الحال أي لا تقولنه إلا متلبساً بأن يشاء الله يعني قائلاً إن شاء الله . وهذا نهي تأديب لنبيه صلى الله عليه وسلم لأن الإنسان إذا قال سأفعل الفعل الفلاني غداً لم يبعد أن يموت قبل مجيء الغد أو يعوقه عن ذلك عائق ، فلو لم يقل إن شاء الله صار كاذباً في هذا الوعد والكذب منهي وجوز في الكشاف أن يكون ﴿ إن شاء الله ﴾ في معنى كلمة تأبيد كأنه قيل : ولا تقولنه أبداً . قال أهل السنة : في صحة الاستثناء بل في وجوبه دلالة على أن إرادة الله تعالى

غالبة وإرادة العبد مغلوبة ويؤكده أنه إذا قال المديون القادر على أداء الدين : والله لأقضين هذا الدين غداً ثم قال : إن شاء الله فإذا جاء الغد ولم يقض لم يحنث بالاتفاق ، وما ذاك إلا لأن الله ما شاء ذلك الفعل مع أنه أمره باداء الدين ، وإنما لم يقع الطلاق في قول الرجل لامرأته : أنت طالبق إن شاء الله ، لأن مشيئة الله غير معلومة فيلزم الدور لتوقف العلم

بالمشيئة على العلم بوقوع الطلاق وبالعكس . واستدل القائلون بأن المعدوم شيء بقوله : ﴿ ولا تقولن لشيء ﴾ وذلك أن الشيء الذي سيفعله غداً معدوم مع أنه سماه شيئاً في الحال . وأجيب بأنه مجاز كقوله : ﴿ أعصر خمراً ﴾ [يوسف : 36] ﴿ واذكر ربك ﴾ أي مشيئة ربك ﴿ إذا نسيت ﴾ كلمة الاستثناء . ثم تنبهت لها ، وللعلماء في مدة النسيان إلى الذكر خلاف ، فعن ابن عباس : يستثني ولو بعد سنة ما لم يحنث .

وعن سعيد بن جبير : ولو بعد يوم أو أسبوع أو شهر أو سنة وهو قول ابن عباس بعينه .

وعن طاوس : هو استثناء ما دام في مجلسه . وعن عطاء : يستثني على مقدار حلب ناقة غزيرة . وعند عامة الفقهاء لا أثر له في الأحكام ما لم يكن موصولاً . قالوا : إن الآيات الكثيرة دلت على وجوب الوفاء بالعهد والعقد فإذا أتى بالعهد وجب عليه الوفاء بمقتضاه خالفنا هذا الدليل فيما إذا كان الاستثناء متصلاً بناء على أن المستثنى منه مع الاستثناء وأداته كالكلام الواحد ، فإذا كان منفصلاً لم يمكن هذا التوجيه فوجب الرجوع إلى أصل الدليل . وقيل : أراد واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء ، وفيه بعث على الاهتمام بها . وقيل : اذكر إذا اعتراك النسيان في بعض الأمور لتذكر المنسي ، أو اذكره إذا تركت بعض ما أمرك به ليس لهذين القولين شديد ارتباط بما قيل ، وكذا قوله من حمله على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها . واختلفوا في المشار إليه بقوله : ﴿ لأقرب من هذا ﴾ الظاهر عند صاحب الكشاف أن المراد إذا نسيت شيئاً فاذكر ربك ، وذكر ربك عند نسيانه أن تقول : عسى ربي أن يهديني لشيء آخر بدل هذا المنسي أقرب منه ﴿ رشداً ﴾ وأدنى خيراً ومنفعة . وقيل : إن ترك قوله "إن شاء الله" ليس بحسن وذكره أحسن . فقوله "هذا" إشارة إلى الترك وأقرب منه ذكر هذه الكلمة ، وقيل : إنه إشارة إلى نبأ أصحاب الكهف ومعناه لعل الله يؤتيني من البينات والحجج على أني صادق ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشداً من نبئهم ، وقد فعل ذلك حيث آتاه من قصص الأنبياء

والأخبار بالمغيبات ما هو أعظم وأدل . عن قتادة . أن قوله سبحانه : ﴿ ولبثوا في كهفهم ﴾ حكاية لأهل الكتاب و ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ رد عليه ويؤيده قراءة عبد الله ﴿ وقالوا لبثوا ﴾ والجمهور على أنه بيان لما أجمل في قوله : ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ﴾ والمراد من قوله ﴿ قل الله أعلم ﴾ أن لا تتجاوزوا الحق الذي

أخبر الله به ولا تلتفتوا إلى ما سواه من اختلافات أهل الأديان نظيره قوله : ﴿ قل ربي أعلم بعدّتهم ﴾ بعد قوله : ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ قال النحويون : سنين عطف بيان لثلثمائة لأن مميز مائة وأخواتها مجرور مفرد . وقيل : فيه تقديم وتأخير أي لبثوا سنين ثلثمائة . ومن قرأ بالإضافة فعلى وضع الجميع موضع الجميع موضع الواحد في التمييز كما مر في قوله : ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ﴾ [الأعراف : 160] قوله : ﴿ وازدادوا تسعاً ﴾ أي تسع سنين لدلالة لما قبله عليه دون أن يقول " ولبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين " . فعن الزجاج المراد ثلثمائة بحساب السنين الشمسية وثلثمائة وتسع بالسنين القمرية وهذا شيء تقريبي . وقيل : إنهم لما استكملوا ثلثمائة سنة قرب أمرهم من الانتباه .

ثم اتفق ما أوجب بقاءهم في النوم بعد ذلك تسع سنين ، ثم أكد قوله : ﴿ الله أعلم بما لبثوا ﴾ بقوله : ﴿ له غيب السموات والأرض ﴾ أي ليس لغيره ما خفي فيهما من أحوالهما وأحوال سكانهما وهو مختص بذلك . ثم زاد في المبالغة فجاء بما دل على التعجب من إدراكه للمبصرات والمسموعات . والضمير في قوله : ﴿ ما لهم ﴾ لأهل السموات والأرض . وفيه بيان لكمال قدرته وأن الكل تحت قهره وتسخيره وأنه لا يتولى أمورهم غيره ﴿ ولا يشرك في حكمه ﴾ وقضائه قبل أصحاب الكهف ﴿ أحداً ﴾ منهم ومن قرأ ﴿ لا نشرك ﴾ على النهي فهو عطف معطوف على ﴿ لا تقولن ﴾ والمراد أنه لا يسأل أحداً عما أخبره الله به من نبأ أصحاب الكهف . واقتصر على بيانه . وقيل : الضمير في ما لهم لأصحاب الكهف أي أنه هو الذي حفظهم في ذلك النوم الطويل وتولى أمرهم . وقيل : ليس للمختلفين في مدة لبثهم من دون الله من يتولى أمورهم فكيف يعلمون هذه الواقعة من دون إعلامه ؟ ! وقيل : فيه نوع تهديد لأنهم لما ذكروا في هذا الباب أقوالاً على خلاف قول الله فقد استوجبوا العقاب فبين الله تعالى أنه : ﴿ ليس لهم من دونه ولي ﴾ يمنع العقاب عنهم . واعلم أن الناس اختلفوا في زمان لبث أصحاب الكهف في مكانهم فقيل : كانوا قبل موسى عليه السلام وأنه ذكرهم في التوراة فلهذا سألت اليهود ما سألوا وقيل : دخلوا الكهف قبل المسيح وأخبروه بخبرهم ثم لبثوا في الوقت الذي بين عيسى ومحمد عليهما

السلام . وحكى القفال عن محمد بن إسحق أنهم دخلوا كهفهم بعد عيسى . وقيل : إنهم لم يموتوا ولا يموتون إلى يوم القيامة . وذكر أبو علي بن سينا في باب الزمان من كتاب الشفاء إن أرسطا طاليس الحكيم زعم أنه عرض لقوم من المتألهين حالة شبيهة بحالة أصحاب الكهف ثم قال أبو علي : ويدل التاريخ على أنهم كانوا قبل أصحاب الكهف . وأما المكان فحكى القفال عن محمد بن موسى الخوارزمي المنجم أن الواثق أنفذه إلى ملك الروم ليعرف أحوال أصحاب الكهف ، فوجهه مع

طائفة إلى ذلك الموضع قال : وإن الرجل الموكل بذلك المقام فزعني من الدخول عليهم ، فدخلت فرأيت الشعور على صدورهم فعرفت أنه تمويه واحتيال وأن الناس كانوا قد عالجوا تلك الجثث بالأدوية المجففة الحافظة لأبدان الموتى عن البلى كالصبر وغيره . قلت : حين لم يملأ الخوارزمي رعباً من الاطلاع عليهم حصل القطع بأنهم ليسوا أصحاب الكهف والرقيم ، ولو صح ما حكينا عن معاوية حين غزا الروم حصل ظن غالب بأنهم منهم والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 403 . 423 ﴾

فصل فى قصة أصحاب الكهف

قال ابن كثير :

قال الله تعالى ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . . . الآيات ﴾

كان سبب نزول قصة أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين ما ذكره محمد بن اسحاق في السيرة وغيره ان قريشا بعثوا إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله صلى الله عليه و سلم ويسألونه عنها ليختبروا ما يجيب به فيها فقالوا سلوه عن أقوام ذهبوا في الدهر فلا يدري ما صنعوا وعن رجل طواف في الأرض وعن الروح فأنزل الله تعالى ويسألونك عن الروح ويسألونك عن ذي القرنين وقال ههنا أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا أي ليسوا بعجب عظيم بالنسبة الى ما اطلعناك عليه من الأخبار العظيمة والآيات الباهرة والعجائب الغريبة والكهف هو الغار في الجبل قال شعيب الجبائي

واسم كهفهم حيزم وأما الرقيم فعن ابن عباس أنه قال لا أدري ما المراد به وقيل هو الكتاب المرقوم فيه اسماؤهم وما جرى لهم كتب من بعدهم اختاره ابن جرير وغيره وقيل هو اسم

الجبل الذي فيه كهفهم قال ابن عباس وشعيب الجبائي واسمه بناجلوس وقيل هو اسم واد عند كهفهم وقيل اسم قرية هنالك والله أعلم

قال شعيب الجبائي واسم كلبهم حمران واعتناء اليهود بأمرهم ومعرفة خبرهم يدل على أن زمانهم متقدم على ما ذكره بعض المفسرين انهم كانوا بعد المسيح وانهم كانوا نصارى والظاهر من السياق أن قومهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام قال كثير من المفسرين والمؤرخين وغيرهم كانوا في زمن ملك يقال له دقيانوس وكانوا من أبناء الأكابر وقيل من أبناء الملوك واتفق اجتماعهم في يوم عيد لقومهم فرأوا ما يتعاطاه قومهم من السجود للأصنام والتعظيم للأوثان فنظروا بعين البصيرة وكشف الله عن قلوبهم حجاب الغفلة والهمهم رشدهم فعلموا أن قومهم ليسوا على شيء فخرجوا عن دينهم وانتموا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ويقال إن كل واحد منهم لما أوقع الله في نفسه ما هداه اليه من التوحيد انحاز عن الناس واتفق اجتماع هؤلاء الفتية في مكان واحد كما صح في البخاري الأرواح جنودة مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف فكل منهم سأل الآخر عن أمره وعن شأنه فأخبره ما هو عليه واتفقوا على الانحياز عن قومهم والتبري منهم والخروج من بين

أظهرهم والفرار بدينهم منهم وهو المشروع حال الفتن وظهور الشرور قال الله تعالى نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين أي بدليل ظاهر على ما ذهبوا اليه وصاروا من الأمر عليه فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا واذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله أي وإذ فارقتموهم في دينهم وتبرأتم مما يعبدون من دون الله وذلك لأنهم كانوا يشركون مع الله كما قال الخليل انني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وهكذا هؤلاء الفتيبة قال بعضهم اذ قد فارقتم قومكم في دينهم فاعتزلوهم بابدانكم لتسلموا منهم أن يوصلوا اليكم شرا فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته

ويهيء لكم من أمركم مرفقا أي يسبل عليكم ستره وتكونوا تحت حفظه وكنفه ويجعل عاقبة أمركم إلى خير كما جاء في الحديث اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا ومن عذاب الآخرة ثم ذكر تعالى صفة الغار الذي آووا اليه وان بابه موجه الى نحو الشمال واعماقه إلى جهة القبلة وذلك انفع الأماكن أن يكون المكان قبليا وبابه نحو

الشمال فقال وترى الشمس اذا طلعت تزاور وقرىء تزور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال فاخبر أن الشمس يعني في زمن الصيف وأشباهه تشرق أول طلوعها في الغار في جانبه الغربي ثم تشرع في

الخروج منه قليلا قليلا وهو ازورارها ذات اليمين فترتفع في جو السماء وتتقلص عن باب الغار ثم إذا تضيفت للغروب تشرع في الدخول فيه من جهته الشرقية قليلا قليلا إلى حين الغروب كما هو المشاهد بمثل هذا المكان والحكمة في دخول الشمس إليه في بعض الاحيان أن لا يفسد هواؤه وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله أي بقاؤهم على هذه الصفة دهرا طويلا من السنين لا يأكلون ولا يشربون ولا تتغذى أجسادهم في هذه المدة الطويلة من آيات الله وبرهان قدرته العظيمة من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا وتحسبهم أيقاظا وهم رقود قال بعضهم لان أعينهم مفتوحة لئلا تفسد بطول الغمض ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال قيل في كل عام يتحولون مرة من جنب إلى جنب ويحتمل أكثر من ذلك فالله أعلم وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد قال شعيب الجبائي اسم كلبهم حمران وقال غيره الوصيد اسكفة الباب والمراد أن كلبهم الذي كان معهم وصحبهم حال

انفرادهم من قومهم لزمهم ولم يدخل معهم في الكهف بل ربض على بابه ووضع يديه على الوصيد وهذا من جملة أدبه ومن جملة ما أكرموا به فإن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ولما كانت التبعية مؤثرة حتى كان في كلب هؤلاء صار باقيا معهم ببقائهم لان من أحب قوما سعد بهم فإذا كان هذا في حق كلب فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للإكرام وقد ذكر كثير من القصاص والمفسرين لهذا الكلب نبأ وخبرا طويلا أكثره متلقى من الإسرائيليات وكثير منها كذب ومما لا فائدة فيه كاختلافهم في اسمه ولونه

وأما اختلاف العلماء في محلة هذا الكهف فقال كثيرون هو بأرض ايلة وقيل بأرض نينوى وقيل بالبلقاء وقيل ببلاد الروم وهو أشبه والله أعلم ولما ذكر الله تعالى ما هو الانفع من خبرهم والاهم من أمرهم ووصف حالهم حتى كأن السامع راء والمخبر مشاهد لصفة كهفهم وكيفيتهم في ذلك الكهف وتقلبهم من جنب إلى جنب وإن كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد قال لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا أي لما عليهم من المهابة والجلالة في أمرهم الذي صاروا إليه ولعل الخطاب ههنا لجنس الإنسان المخاطب لا بخصوصية الرسول صلى الله عليه و سلم كقوله فما يكذبك بعد بالدين أي أيها الإنسان

وذلك لأن طبيعة البشرية تفر من رؤية الأشياء المهيبة غالبا ولهذا قال لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا ودل على أن الخبر ليس كالمعاينة كما جاء في الحديث لأن الخبر قد حصل ولم يحصل الفرار ولا الرعب ثم ذكر تعالى أنه بعثهم من رقدتهم بعد نومهم بثلاثمائة سنة وتسع سنين فلما استيقظوا قال بعضهم لبعض كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة أي بدراهمكم هذه يعني التي معهم إلى المدينة ويقال كان اسمها دفسوس فلينظر أيها أزكى طعاما أي أطيب مالا فليأتكم برزق منه أي بطعام تأكلونه وهذا من زهدهم

(230/470)

وورعهم وليتلطف أي في دخوله إليها ولا يشعرن بكم أحدا إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا أي إن عدتم في ملتهم بعد إذ أنقذكم الله منها وهذا كله لظنهم أنهم رقدوا يوما أو بعض يوم او أكثر من ذلك ولم يحسبوا أنهم قد رقدوا أزيد من ثلثمائة سنة وقد تبدلت الدول اطوارا عديدة وتغيرت البلاد ومن عليها وذهب أولئك القرن الذين كانوا فيهم وجاء غيرهم وذهبوا وجاء غيرهم ولهذا لما خرج أحدهم وهو تيذوسيس (1) فيما قيل وجاء إلى المدينة متنكرا لئلا يعرفه أحد من قومه فيما يحسبه

تنكرت له البلاد واستنكره من يراه من اهلها واستغربوا شكله وصفته ودراهمه فيقال إنهم حملوه إلى متوليهم وخافوا من أمره أن يكون جاسوسا أو تكون له صولة يخشون من مضرتها فيقال إنه هرب منهم ويقال بل أخبرهم خبره ومن معه وما كان من أمرهم فانطلقوا معه ليريهم مكانهم فلما قربوا من الكهف دخل إلى أخوانه فأخبرهم حقيقة أمرهم ومقدار ما رقدوا فعلموا أن هذا أمر قدره الله فيقال إنهم استمروا راقدين ويقال بل ماتوا بعد ذلك

وأما اهل البلدة فيقال إنهم لم يهتدوا إلى موضعهم من الغار وعمي الله عليهم أمرهم ويقال لم يستطيعوا دخوله حسا (2) ويقال مهابة لهم

واختلفوا في أمرهم فقائلون يقولون ابنوا عليهم بنيانا أي سدوا عليهم باب الكهف لئلا يخرجوا أو لئلا يصل إليهم ما يؤذيهم وآخرون وهم الغالبون على أمرهم قالوا لنتخذن عليهم مسجدا أي معبدا يكون مباركا لمجاورته هؤلاء الصالحين وهذا كان شائعا فيمن كان قبلنا فأما في شرعنا فقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا وأما قوله وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها فمعنى أعثرنا أطلعنا على أمرهم

الناس قال كثير من المفسرين ليعلم الناس ان المعاد حق وأن الساعة لا ريب فيها إذا علموا أن هؤلاء القوم رقدوا أزيد من ثلثمائة سنة ثم قاموا كما كانوا من غير تغير منهم فإن من أبقاهم كما هم قادر على إعادة الابدان وإن أكلتها الديدان وعلى إحياء الأموات وإن صارت أجسامهم وعظامهم رفاتا وهذا مما لا يشك فيه المؤمنون إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون هذا ويحتمل عود الضمير في قوله ليعلموا إلى أصحاب الكهف إذ علمهم بذلك من انفسهم أبلغ من علم غيرهم بهم ويحتمل أن يعود على الجميع والله أعلم ثم قال تعالى سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم فذكر اختلاف الناس في كميتهم فحكى ثلاثة أقوال وضعف الأولين وقرر الثالث فدل على أنه الحق إذ لو قيل غير ذلك لحكاه ولو لم يكن هذا الثالث هو الصحيح

لوهاه فدل على ما قلناه ولما كان النزاع في مثل هذا لا طائل تحته ولا جدوى عنده أرشد نبيه صلى الله عليه و سلم إلى الأدب في مثل هذا الحال اذا اختلف الناس فيه أن يقول الله أعلم ولهذا قال قل ربي أعلم بعدتهم وقوله ما يعلمهم إلا قليل أي من الناس فلا تمار فيهم إلا

مراء ظاهرا أي سهلا ولا تتكلف أعمال الجدال في مثل هذا الحال ولا تستفت في أمرهم
أحدا من الرجال ولهذا أبهم تعالى عدتهم في أول القصة فقال إنهم فتية آمنوا بربهم ولو كان
في تعين عدتهم كبير فائدة لذكرها عالم الغيب والشهادة وقوله تعالى ولا تقولن لشيء اني
فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من
هذا رشدا أدب عظيم أرشده الله تعالى اليه وحث خلقه عليه وهو ما اذا قال احدهم إني
سأفعل في المستقبل كذا فيشرع له أن يقول ان شاء الله ليكون ذلك تحقيقا لعزمه لأن العبد لا
يعلم ما في غد ولا يدري أهذا الذي عزم عليه مقدر أم لا وليس هذا الاستثناء تعليقا وانما
هو الحقيقي ولهذا قال ابن عباس يصح إلى سنة ولكن قد يكون في بعض المحال لهذا ولهذا
كما تقدم في قصة سليمان عليه السلام حين قال لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تلد كل
واحدة منهن غلاما يقاتل في سبيل الله فقيل له قل إن شاء الله فلم يقل فطاف فلم تلد منهن
إلا امرأة واحدة نصف انسان قال رسول الله صلى الله عليه و سلم والذي نفسي بيده لو
قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركا لحاجته وقوله واذكر ربك اذا نسيت وذلك لأن
النسيان قد يكون من الشيطان فذكر الله يطرده عن القلب فيذكر ما كان قد نسيه وقوله
وقل عيسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا أي إذا اشتبه آمر وأشكل حال والتبس
أقوال الناس في شيء فارغب إلى الله ييسره لك ويسهله عليك ثم قال ولبثوا في كهفهم ثلثمائة

سنين وازدادوا تسعا لما كان في الأخبار بطول مدة لبثهم فائدة عظيمة ذكرها تعالى وهذه التسع المزيدة بالقمرية وهي لتكميل ثلثمائة

(233/470)

شمسية فإن كل مائة قمرية تنقص عن الشمسية ثلاث سنين قال الله أعلم بما لبثوا أي إذا سئلت عن مثل هذا وليس عندك في ذلك نقل فرد الأمر في ذلك إلى الله عز وجل له غيب السموات والأرض أي هو العالم بالغيب فلا يطلع عليه إلا من شاء من خلقه أبصر به واسمع يعني أنه يضع الأشياء في محالها لعلمه التام بخلقه وبما يستحقونه ثم قال ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا أي ربك المنفرد بالملك والمنصرف وحده لا شريك له.

انتهى انتهى. ا هـ ﴿البداية والنهاية حـ 2 صـ 113. 117﴾

(234/470)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ﴾ والعبد الحقيقي من يكون حراً عن الكونين وهو محمد صلى الله عليه وسلم إذ يقول :

"أمتي أمتي" يوم يقول كل نبي "نفسي نفسي"، ولأنه هو الذي صحح نسبة العبودية كما ينبغي أطلق عليه اسم العبد مطلقاً وقيد لسائر الأنبياء كما قال : ﴿ عبده زكريا ﴾ [مريم : 2] ، ﴿ واذكر عبدنا داود ﴾ [ص : 17] ، ولأنه كان خلقه القرآن قيل : ﴿ ولم يجعل له ﴾ أي لقلبه ﴿ عوجاً ﴾ لا يستقيم فيه القرآن ، ومن استقامة قلبه نال ليلة المعراج رتبة ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ [النجم : 10] بلا واسطة جبرائيل ، ونال قلبه الاستقامة بأمر التكوين بقوله : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ [هود : 112] ﴿ أجراً حسناً ﴾ . هو التمتع من حسن الله وجماله . ﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ كان من عادته عليه الصلاة والسلام أن يبالغ في المأمور به حتى ينهى عنه ، بالغ في الدعوة والشفقة على أمته حتى قيل له لا تبخع نفسك ، وبالغ في الإنفاق إلى أن أعطى قميصه فقعد عرياناً فنهى عنه بقوله : ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ [الإسراء : 29] ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة ﴾ أي زينا الدنيا وشهواتها للخلق ملائماً لطبائعهم وجعلناها محل ابتلاء للمحب وللسائل ﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ في تركها ومخالفة هوى نفسه طلباً لله ومرضاته . ثم أخبر عن سعادة السادة الذين أعرضوا عن الدنيا وأقبلوا على المولى بقوله : ﴿ أم حسبت ﴾ ومعناه لا تعجب من حالهم فإن في أمتك من هو أعجب حالاً منهم ،

ففيهم أصحاب الخلوات الذين كهفهم بيت الخلوة ، ورقيمهم قلوبهم المرقومة برقم المحبة فإنهم أووا إلى الكهف خوفاً من لقاء دقيانوس وفراراً منه ، فهؤلاء أووا إلى الخلوة شوقاً إلى لقائي وفراراً إليّ . وإنهم طلبوا النجاة من شر . والخروج من الغار بالسلامة بقولهم ﴿ ربنا آتنا ﴾ الآية . فهؤلاء طلبوا الخلاص من شر نفوسهم والخروج من ظلمات الغار المجازي للوصول إلى نور الوجود الحقيقي . ﴿ فضربنا ﴾ على آذان باطنه وحواسهم الآخر في مدة الخلوة لمحو النقوش الفاسدة عن ألواح نفوسهم وانتقاشها بالعلوم الدينية والأنوار

الإلهية ليفنيهم الله عنهم ويبقيهم به وهو سر قوله : ﴿ ثم بعثناهم ﴾ أي أحييناهم بنا ﴿ لنعلم أي الحزبين ﴾ أصحاب الخلوة أم أصحاب السلوة : ﴿ أحصى ﴾ أي أكثر فائدة وأتم عائدة لأمد لبثهم في الدنيا التي هي مزرعة الآخرة ﴿ وزدناهم هدى ﴾ فإنهم كانوا يريدون الإيمان الغيبي فأنمناهم ﴿ ثم بعثناهم ﴾ حتى صار الإيمان إيقاناً والغيب عياناً ﴿ اتخذوا من دونه آلهة ﴾ من الدنيا والهوى . ﴿ وترى الشمس إذا طلعت ﴾ قال الشيخ المحقق نجم الدين . المعروف : بداية هذا أخبار من أصناف ألطافه بأضيافه ، وفيه إشارة إلى أن نور ولايتهم يغلب نور الشمس ويرده عن الكهف كما يغلب نور المؤمن نار جهنم

لقول صلى الله عليه وسلم: "إن المؤمن إذا ورد النار تستغيث النار وتقول: حزباً مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي" ﴿ وهم في فجوة منه ﴾ في متسع وفراغ من ذلك النور يدفع عنهم كل ضر ويراعيهم عن بلى أجسادهم وثيابهم. قلت: يحتمل أن يراد أن شمس الروح أو المعرفة والولاية إذا طلعت من أفق الهداية وأشرقت في سماء الواردات – وهو حالة السكر وغلبات الوجد – لا تنصرف في حال خلوتهم إلى أمر يتعلق بالعقبى وهو جانب اليمين ﴿ وإذا غربت ﴾ أي سكنت تلك الغلبات وظهرت حالة الصحو لا تلتفت هممُ أرواحهم إلى أمر يتعلق بالدنيا وهو جانب الشمال، بل تنحرف عن الجهتين إلى المولى وهم في حال دفاع وفراغ ما يشغلهم عن الله ﴿ وتحسبهم إيقاظاً ﴾ متصرفين في أمور الدنيا ﴿ وهم رقود ﴾ عنها لأنهم يتصرفون فيها لأجل الحق لا لحظ النفس، أو تحسبهم أيقاظاً مشغولين بأمور الآخرة لأن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وهم رقود متصرفون في أمور الدنيا لأن الناس بهم يرزقون ويمطرون.

وفي قوله: ﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ إشارة إلى أنهم في التسليم لمقلب القلوب في الأحوال كلها كالميت بين يدي الغسال. قيل: في الآية دلالة على أن المريد الذي

يربيه الله بلا واسطة المشايخ تكامل أمره في ثلثمائة وتسع سنين ، والذي يربيه بواسطتهم تم أمره في أربعينات معدودة ولهذا تكون ثمرة البساتين الزهر وثمرة الجبال وفي قوله : ﴿ وكلبهم باسط ﴾ إشارة أن أكلب نفوسهم نائمة معطلة عن الأعمال بها . ربيت القلوب والأرواح معنى أن هذا النوع من التربية من قبيل القدرة الإلهية التي اختصهم بها ، ويمكن أن يراد أن نفوسهم صارت بحيث تطيعهم في جميع الأحوال وتحرسهم عما يضرهم ﴿ ولملئت منهم رعباً ﴾ بما شاهدت عليهم من آثار الأنوار التي زدناهم ، ولجلاليب الهيبة والعظمة التي ألبسناهم ﴿ لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ لأن أيام الوصال قصيرة ، فما رأوا أنهم في دهشة الوصال وحياة الأحوال ﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ لأنه كان حاضراً معكم وأنتم غيب عنكم ﴿ فابعثوا أحدكم ﴾ من العجب أنهم ما احتاجوا مدة ثلثمائة وتسع سنين بما نالوا من غذاء الروح كقوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني ﴾ فلما رجعوا من عند الله الحق إلى عبدية أنفسهم احتاجوا إلى الغذاء الجسماني ﴿ أزكى طعاماً ﴾ لما رجعوا إلى العالم الجسماني ، تعللوا من جمال الله بمشاهدة كل جميل وتوسلوا إلى تلك الملاطفات بلطافة الأغذية الجسمانية وزكائها . ﴿ ولا يشعرنّ بكم أحد ﴾ فيه أن أرباب المعرفة والمحبة يجب أن يحترزوا عن شعور أهل الغفلة والسلوة ﴿ ليعلموا أن وعد الله حق ﴾ بإحياء القلوب الميتة حق قدره ، الأمر فيما أظهر وأبدى أو أسر وأخفى . ﴿ سيقولون ﴾ أن القوى والأركان الأصلية للإنسان ﴿

ثلاثة ﴾ الحيوانية والطبيعية والنفسانية التي منشؤهن القلب والكبد والدماغ. ﴿ رابعهم كلبهم ﴾ هو النفس الناطقة. ﴿ ويقولون خمسة ﴾ هو الحواس الظاهرة ﴿ سادسهم ﴾ النفس ﴿ ويقولون

سبعة ﴾ هو الحواس الظاهرة مع الوهم المدرك للمعاني والخيال المدرك للصور ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ هو النفس المدرك للكليات ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ لأن القوى الباطنة والظاهرة وأفاعيلها وغاياتها لا يعلمهن إلا الله سبحانه ومن أطلعه الله عليه وذلك قوله: ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ والله أعلم بالصواب. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 423. 425 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (27) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ

عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تقرر أنه لا شك في قوله : ولا يقدر أحد أن يأتي بما يماثله فكيف بما ينافيه مع كونه مختصاً بتمام العلم وشمول القدرة ، حسن تعقيبه بقوله عطفاً على ﴿ قل الله أعلم ﴾ :

﴿ واتل ﴾ أي اقرأ على وجه الملازمة ﴿ ما أوحي إليك ﴾ وبنى الفعل للمجهول لأن الخطاب مع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو على القطع بأن الموحى إليه هو الله سبحانه وتعالى ﴿ من كتاب ربك ﴾ الذي أحسن تربيتك في قصة أهل الكهف وغيرها ، على من رغب فيه غير ملتفت إلى غيره واتبعوا ما فيه واثقين بوعده ووعيده وإثباته ونفيه وعلى غيرهم .

ولما كان الحامل على الكف عن إبلاغ رسالة المرسل وجدان من ينقضها أو عمي على المرسل ، قال تعالى : ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ فلا شك في وقوعها فلا عذر في التقصير في إبلاغها ، والنسخ ليس بتبديل بهذا المعنى بل هو غاية لما كان ﴿ ولن تجد ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ من دونه ﴾ أي أدنى منزلة من رتبته الشماء إلى آخر المنازل ﴿ ملتحداً ﴾ أي ملجأ ومتحيزاً تميل إليه فيمنعك منه إن قصرت في ذلك .

ولما كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم شديد الحرص على إيمانهم كثير الأسف على توليهم عنه يكاد يبخع نفسه حسرة عليهم وكانوا يقولون له إذا رأوا مثل هذا الحق الذي لا يجدون له مدفعاً : لو طردت هؤلاء الفقراء وأبعدتهم عنك مثل عمار وصهيب وبلال فإنه يؤذينا ريح جبابهم ونأنف من مجالستهم جلسنا إليك وسمعنا منك ورجونا أن نتبعك ، قال يرغبه في أتباعه مزهداً فيمن عداهم كائناً من كان ، معلماً أنه ليس فيهم ملجأ لمن خالف أمر الله وأنهم لا يريدون إلا تبديل كلمات الله فسيذلهم عن قريب ولا يجدون لهم ملتحداً : ﴿ واصبر نفسك ﴾ أي احبسها وثبتها في تلاوته وتبيين معانيه ﴿ مع الذين يدعون ربهم ﴾ شكراً لإحسانه ، واعترافاً بامتنانه ، وكنى عن المداومة بما يدل على البعث الذي كانت قصة أهل الكهف دليلاً عليه فقال تعالى : ﴿ بالغداة ﴾ أي التي الانتقال فيها من النوم إلى اليقظة كالانتقال من الموت إلى الحياة ﴿ والعشي ﴾ أي التي الانتقال فيها من اليقظة إلى النوم كالانتقال من الحياة إلى الموت ؛ ثم مدحهم بقوله تعالى معللاً لدعائهم : ﴿ يريدون ﴾ أي بذلك ﴿ وجهه ﴾ لا غير ذلك في رجاء ثواب أو خوف عقاب وإن كانوا في غاية الرثاثة ، وأكد ذلك بالنهي عن ضده فقال مؤكداً للمعنى لقصر الفعل وتضمينه فعلاً آخر : ﴿ ولا

تعد عيناك ﴾ علواً ونبوءاً وتجاوزاً ﴿ عنهم ﴾ إلى غيرهم ، أي لا تعرض عنهم ، حال كونك ﴿ تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ التي قدمنا في هذه السورة أنا زينا بها الأرض لنبلوهم بذلك ، فإنهم وإن كانوا اليوم عند هؤلاء مؤخرين فهم عند الملك الأعلى مقدمون ، وليكونن عن قريب - إذا بعثنا من نريد من العباد بالحياة من برزخ الجهل - في الطبقة العليا من أهل العز ، وأما بعد البعث الحقيقي فلتكونن لهم مواكب يهاب الدنو منها كما كان لأهل الكهف بعد بعثهم من هذه الرقدة بعد أن كانوا في حياتهم قبلها هاربين مستخفين في غاية الخوف والذل ، وأما إن عدّت العينان أحداً لما غفل عنه

من الذكر ، وأحل به من الشكر ، فليس ذلك من النهي في شيء لأنه لم يرد به إلا الآخرة .

ولما بلغ في أمره صلى الله عليه وعلى آله وسلم بمجالسة المسلمين ، نهاه عن الالتفات إلى الغافلين ، وأكد الإعراض عن الناكبين فقال تعالى : ﴿ ولا تطع من أغفلنا ﴾ بعظمتنا ﴿ قلبه ﴾ أي جعلناه غافلاً ، لأن الفعل فيه لنا لا له ﴿ عن ذكرنا ﴾ بتلك الزينة .

ولما كان التقدير : فغفل ، لأن عظمتنا لا يغلبها شيء فلا يكون إلا ما نريد ، عطف على فعل المطاوعة قوله تعالى : ﴿ واتبع هواه ﴾ بالميل إلى ما استدرجناه به منها والأنفة من

مجالسة أوليائنا الذين أكرمناهم بالحماية منها لأن ذكر الله مطلع الأنوار ، فإذا أفلت الأنوار تراكمت الظلمة فجاء الهوى فأقبل على الخلق ﴿ وكان أمره فرطاً ﴾ أي متجاوزاً للحد مسرفاً فيه متقدماً على الحق ، فيكون الحق منبوذاً به وراء الظهر مفرطاً فيه بالتقصير فإن ربك سبحانه سينجي أتباعك على ضعفهم منهم كما أنجى أصحاب الكهف ، ويزيدك بأن يعليهم عليهم ويدفع الجبابرة في أيديهم لأنهم مقبلون على الله معرضون عما سواه ، وغيرهم مقبل على غيره معرض عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 462 . 464 ﴾

(241/470)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ وفجرنا ﴾ بالتخفيف : سهل ويعقوب غير رويس ﴿ له ثمر ﴾ وكذا ﴿ بثمره ﴾ بفتح الثاء والميم : يزيد . وعاصم وسهل ويعقوب وأبو عامر : بضم الثاء وإسكان الميم . الباقون بضم الثاء والميم جميعاً ﴿ منها ﴾ على الوحدة : أبو عمرو وسهل ويعقوب وعاصم وحمزة وعلي وخلف . الآخرون على التثنية ﴿ لكن ﴾

بالتشديد من غير ألف في الحالين : قتيبة وابن عامر وابن فليح ويعقوب بالألف في الوصل . الباقون بغير الألف واتفقوا على الألف في الوقف ﴿ بربي أحد ﴾ مفتوحة الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو . ﴿ أن ترني ﴾ فتح الياء : السرانديبي عن قنبل ﴿ غوراً ﴾ بضم الغين وكذلك في ﴿ الملك ﴾ البرجمي الباقون بفتحها . ﴿ ولم يكن له ﴾ بياء الغيبة ﴿ الولاية ﴾ بكسر الواو : حمزة وعلي وخلف . الآخرون بتاء التأنيث وفتح الواو ﴿ لله الحق ﴾ بالرفع : أبو عمرو وعلي . الآخرون بالجر ﴿ عقباً ﴾ بسكون القاف : عاصم وحمزة وخلف . الباقون بضمها ﴿ الريح ﴾ على التوحيد : حمزة وعلي وخلف .

(242/470)

الوقوف : ﴿ من كتاب ربك ﴾ ط لاختلاف الجملتين ﴿ ملتحداً ﴾ 5 ﴿ عنهم ﴾ ج لأن ما بعده يصلح حالاً واستفهاماً محذوف الألف لدلالة حال العتاب . ﴿ فرطاً ﴾ 5 ﴿ فليكفر ﴾ لا لأن الأمر للتهديد بدليل ﴿ إنا أعتدنا ﴾ فلو فصل صار مطلقاً ﴿ ناراً ﴾ ، لأن ما بعده صفة ﴿ سرادقها ﴾ ط ﴿ الوجوه ﴾ ط ﴿ الشراب ﴾ ط ﴿ مرتفقاً ﴾ 5 ﴿ عملاً ﴾ ج 5 لاحتمال كون ﴿ أولئك ﴾ مع ما بعده خبر ﴿ إن الذين

﴿ وقوله : ﴿ إنا لا نضيف ﴾ جملة معترضة ﴿ الأرائك ﴾ ط ﴿ الثواب ﴾ ط ﴿ مرتفقاً ﴾ 5 ﴿ زرعاً ﴾ 5 ، ط ﴿ شيئًا ﴾ لا للعطف ﴿ نهراً ﴾ 5 ط ﴿ ثمر ﴾ ج للعدول مع الفاء ﴿ نفراً ﴾ ، ج ﴿ لنفسه ﴾ ج لاتحاد العامل بلا عطف ﴿ أبداً ﴾ 5 ط ﴿ قائمة ﴾ لا لأن ما بعده شك من قول الكافر في البعث ﴿ منقلباً ﴾ 5 ﴿ رجلاً ﴾ ، 5 ط لتمام الاستفهام ﴿ أحداً ﴾ 5 ﴿ ما شاء الله ﴾ لا لاتمام المقول ﴿ إلا بالله ﴾ ج لابتداء الشرط المحذوف جوابه مع اتحاد القائل والمقول له ﴿ وولداً ﴾ 5 ، ج لاحتمال كون ما بعده جواباً للشرط ﴿ زلقاً ﴾ 5 ﴿ طلباً ﴾ 5 ﴿ أحداً ﴾ 5 ﴿ منتصرا ﴾ ، ط وقيل : يوقف على ﴿ هنالك ﴾ والأوجه أن يبتدأ ب ﴿ هنالك ﴾ أي عند ذلك يظهر لكل شاك سلطان الله ونفاد أمره ﴿ الحق ﴾ ط على القراءتين ﴿ عقباً ﴾ 5 ﴿ الرياح ﴾ ط ﴿ مقتدراً ﴾ 5 ﴿ زينة الحياة الدنيا ﴾ ج مفصلاً بين المعجل الفاني والمؤجل الباقي مع اتفاق الجملتين ﴿ أملاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 426.427 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (27) ﴾

اعلم أن من هذه الآية إلى قصة موسى والخضر كلام واحد في قصة واحدة ، وذلك أن أكابر كفار قريش احتجوا وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أردت أن نؤمن بك فاطرد من عندك هؤلاء الفقراء الذين آمنوا بك والله تعالى نهاه عن ذلك ومنعه عنه وأطنب في جملة هذه الآيات في بيان أن الذي اقترحوه والتمسوه مطلوب فاسد واقتراح باطل ، ثم إنه تعالى جعل الأصل في هذا الباب شيئاً واحداً وهو أن يواظب على تلاوة الكتاب الذي أوحاه الله إليه وعلى العمل به وأن لا يلتفت إلى اقتراح المقترحين وتعنت المتعنتين فقال : ﴿ واتل مَا أُوْحِىَ إِلَيْكَ مِن كتاب رَبّكَ ﴾ وفي الآية مسألة وهي : أن قوله : ﴿ اتل ﴾ يتناول القراءة ويتناول الإتباع فيكون المعنى الزم قراءة الكتاب الذي أوحى إليك والزم العمل به ثم قال : ﴿ لاَ مُبَدّلَ لكلماته ﴾ أي يمتنع تطرق التغيير والتبديل إليه وهذه الآية يمكن التمسك بها في إثبات أن تخصيص النص بالقياس غير جائز لأن قوله : ﴿ اتل مَا أُوْحِىَ إِلَيْكَ مِن كتاب رَبّكَ ﴾ معناه ألزم العمل بمقتضى هذا الكتاب وذلك يقتضي وجوب العمل بمقتضى ظاهره ، فإن قيل فيجب ألا يتطرق النسخ إليه قلنا هذا هو مذهب أبي مسلم

الأصفهاني فليس يبعد ، وأيضاً فالنسخ في الحقيقة ليس بتبديل لأن المنسوخ ثابت في وقته إلى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالغاية فكيف يكون تبديلاً .

أما قوله : ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ اتفقوا على أن الملتحد هو الملجأ قال أهل اللغة : هو من لحد وألحد إذا مال ومنه قوله تعالى : ﴿ لِّسَانُ الذى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ ﴾ [النحل : 103] والملحد المائل عن الدين والمعنى ولن تجد من دونه ملجأ في البيان والرشاد .

(244/470)

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾

اعلم أن أكابر قريش اجتمعوا وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أردت أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء الفقراء من عندك ، فإذا حضرنا لم يحضروا ، وتعين لهم وقتاً يجتمعون فيه عندك فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ [الأنعام : 52] الآية فبين فيها إنه لا يجوز طردهم بل تجالسهم وتوافقهم وتعظم شأنهم ولا تلتفت إلى أقوال أولئك الكفار ولا تقيم لهم في نظرك وزناً سواء غابوا أو حضروا .

وهذه القصة منقطعة عما قبلها وكلام مبتدأ مستقل .

ونظير هذه الآية قد سبق في سورة الأنعام وهو قوله : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ بهم بالغداة

والعشى ﴾ [الأنعام : 52] ففي تلك الآية نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن طردهم وفي هذه الآية أمره بمجالستهم والمصابرة معهم فقوله : ﴿ واصبر نَفْسَكَ ﴾ أصل الصبر الحبس ومنه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المصبورة وهي البهيمة تحبس فترمى ، أما قوله : ﴿ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشى ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ ابن عامر بالغدوة بضم الغين والباقون بالغداة وكلاهما لغة .

المسألة الثانية :

في قوله : ﴿ بالغداة والعشى ﴾ وجوه : الأول : المراد كونهم مواظبين على هذا العمل في كل الأوقات كقول القائل : ليس لفلان عمل بالغداة والعشي إلا شتم الناس .

الثاني : أن المراد صلاة الفجر والعصر .

الثالث : المراد أن الغداة هي الوقت الذي ينتقل الإنسان فيه من النوم إلى اليقظة وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من الموت إلى الحياة والعشي هو الوقت الذي ينتقل الإنسان فيه من اليقظة إلى النوم ومن الحياة إلى الموت والإنسان العاقل يكون في هذين الوقتين كثير الذكر لله

عظيم الشكر لآلاء الله ونعمائه ، ثم قال : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ يقال عداه إذا جاوزه ومنه قولهم عدا طوره وجاء القوم عدا زيداً وإنما عدي بلفظة عن لأنها تفيد المباعدة فكأنه تعالى نهى عن تلك المباعدة وقرى : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَيْكَ ﴾ ولا تعد عينيك من أعداه وعداه نقلاً بالهمزة وتثقيل الحشو ومنه قوله شعر :

فعد عما ترى إذ لا ارتجاع له . . والمقصود من الآية أنه تعالى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يزدري فقراء المؤمنين وأن تنبو عيناه عنهم لأجل رغبته في مجالسة الأغنياء وحسن صورتهم وقوله : ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ﴾ نصب في موضع الحال .

يعني أنك (إن) فعلت ذلك لم يكن إقدامك عليه إلا لرغبتك في زينة الحياة الدنيا ، ولما بالغ في أمره بمجالسة الفقراء من المسلمين بالغ في النهي عن الالتفات إلى أقوال الأغنياء والمتكبرين فقال : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتبع هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى هو الذي يخلق الجهل والغفلة في قلوب الجهال لأن قوله : ﴿ أَغْفَلْنَا ﴾ يدل على هذا المعنى ، قالت المعتزلة : المراد بقوله تعالى : ﴿ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ أنا وجدنا قلبه غافلاً وليس المراد خلق الغفلة فيه ، والدليل عليه ما روي عن عمرو بن معديكرب الزبيدي أنه قال لبني سليم : قاتلناكم فما أجبناكم ،

وسألناكم فما أبخلناكم ، وهجوناكم فما أفحمناكم ، أي ما وجدناكم جبناء ولا بخلاء ولا مفحمين .

(246/470)

ثم نقول : حمل اللفظ على هذا المعنى أولى ويدل عليه وجوه : الأول : أنه لو كان كذلك لما استحقوا الذم .

الثاني : أنه تعالى قال بعد هذه الآية : ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ ولو كان تعالى خلق الغفلة في قلبه لما صح ذلك .

الثالث : لو كان المراد هو أنه تعالى جعل قلبه غافلاً لوجب أن يقال : ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه .

لأن على هذا التقدير يكون ذلك من أفعال المطاوعة ، وهي إنما تعطف بالفاء لا بالواو ، ويقال : كسرته فانكسر ودفعته فاندفع ولا يقال : وانكسر واندفع .

الرابع : قوله تعالى : ﴿ واتبع هَوَاهُ ﴾ ولو كان تعالى أغفل في الحقيقة قلبه لم يجز أن يضاف ذلك إلى اتباعه هواه .

والجواب : قوله المراد من قوله : ﴿ أَغْفَلْنَا ﴾ أي وجدناه غافلاً ، وليس المارد تحصيل

الغفلة فيه .

قلنا : الجواب عنه من وجهين .

الأول : أن الاشتراك خلاف الأصل فوجب أن يعتقد أن وزن الأفعال حقيقة في أحدهما مجاز في الآخر وجعله حقيقة في التكوين مجازاً في الوجدان أولى من العكس وبيانه من وجوه : أحدها : أن مجيء بناء الأفعال بمعنى التكوين أكثر من مجيئه بمعنى الوجدان والكثرة دليل الرجحان .

وثانيها : أن مبادرة الفهم من هذا البناء إلى التكوين أكثر من مبادرته إلى الوجدان ومبادرة الفهم دليل الرجحان .

وثالثها : أنا إن جعلناه حقيقة في التكوين أمكن جعله مجازاً في الوجدان لأن العلم بالشيء تابع لحصول المعلوم ، فجعل اللفظ حقيقة في المتبوع ومجازاً في التبع موافق للمعقول ، أما لو جعلناه حقيقة في الوجدان مجازاً في الإيجاد لزم جعله حقيقة في التبع مجازاً في الأصل وأنه عكس المعقول فثبت أن الأصل جعل هذا البناء حقيقة في الإيجاد لا في الوجدان .

الوجه الثاني : في الجواب عن السؤال أنا نسلم كون اللفظ مشتركاً بالنسبة إلى الإيجاد وإلى الوجدان إلا أنا نقول يجب حمل قوله : ﴿ أَغْفَلْنَا ﴾ على إيجاد الغفلة وذلك لأن الدليل العقلي دل على أنه يمتنع كون العبد موجداً للغفلة في نفسه والدليل عليه أنه إذا حاول إيجاد الغفلة ، فأما أن يحاول إيجاد مطلق الغفلة أو يحاول إيجاد الغفلة عن شيء معين والأول باطل ، وإلا لم يكن بأن تحصل له الغفلة عن هذا الشيء أولى بأن تحصل له الغفلة عن شيء آخر ، لأن الطبيعة المشترك فيها بين الأنواع الكثيرة تكون نسبتها إلى كل تلك الأنواع على السوية ، أما الثاني فهو أيضاً باطل لأن الغفلة عن كذا عبارة عن غفلة لا تمتاز عن سائر أقسام الغفلات إلا بكونها منتسبة إلى ذلك الشيء المعين بعينه ، فعلى هذا لا يمكنه أن يقصد إلى إيجاد الغفلة عن كذا إلا إذا تصور أن تلك الغفلة غفلة عن كذا ، ولا يمكنه أن يتصور كون تلك الغفلة غفلة عن كذا إلا إذا تصور كذا لأن العلم بنسبة أمر إلى أمر آخر مشروط بتصور كل واحد من المنتسبين .

فثبت أنه لا يمكنه القصد إلى إيجاد الغفلة عن كذا إلا مع الشعور بكذا لكن الغفلة عن كذا ضد الشعور بكذا ؛ فثبت أن العبد لا يمكنه إيجاد هذه الغفلة إلا عند اجتماع الضدين وذلك محال ، والموقوف على المحال محال ، فثبت أن العبد غير قادر على إيجاد الغفلة ، فوجب أن يكون خالق الغفلات وموجدها في العباد هو الله ، وهذه نكتة قاطعة في إثبات هذا المطلوب ، وعند هذا يظهر أن المراد بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ ﴾ هو

إيجاد الغفلة لا وجدانها ، أما حديث المدح والذم فقد عارضناه مرارا وأطوارا بالعلم والداعي ، أما قوله تعالى بعد هذه الآية :

﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] فالبحث عنه سيأتي إن شاء الله تعالى ، أما قوله : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ ﴾ لو كان المراد إيجاد الغفلة لوجب ذكر الفاء ، لا ذكر الواو ، فنقول : هذا إنما يلزم لو كان خلق الغفلة في القلب من لوازمه حصول اتباع الهوى كما أن الكسر من لوازمه حصول الانكسار ، وليس الأمر كذلك لأنه لا يلزم من حصول الغفلة عن الله حصول متابعة الهوى لاحتمال أن يصير غافلاً عن ذكر الله ، ومع ذلك فلا يتبع الهوى بل يبقى متوقفاً لا نافي مقام الحيرة والدهشة والخوف من الكل فسقط هذا السؤال ، وذكر القفال في تأويل الآية على مذهب المعتزلة وجوهاً أخرى .

فأحدها : أنه تعالى لما صب عليهم الدنيا صباً وأدى ذلك إلى رسوخ الغفلة في قلوبهم صح على هذا التأويل أنه تعالى حصل الغفلة في قلوبهم كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلَّا فِرَارًا ﴾ [نوح : 6] .

والوجه الثاني : أن معنى قوله : ﴿ أَغْفَلْنَا ﴾ أي تركناه غافلاً فلم نسمه بسمة أهل الطهارة

والتقوى وهو من قولهم بعير غفل أي لا سمة عليه .

وثالثها : أن المراد من قوله أغفلنا قلبه أي خلاه مع الشيطان ولم يمنع الشيطان منه فيقال في :

الوجه الأول : إن فتح باب لذات الدنيا عليه هل يؤثر في حصول الغفلة في قلبه أو لا يؤثر ، فإن أثر كان أثر إيصال اللذات إليه سبباً لحصول الغفلة في قلبه .

وذلك عين القول بأنه تعالى فعل ما يوجب حصول الغفلة في قلبه ، وإن كان لا تأثير له في حصول هذه الغفلة بطل إسناده إليه ، وقد يقال في : الوجه الثاني : إن قوله أغفلنا قلبه بمنزلة قوله سودنا قلبه وبيضنا وجهه ولا يفيد إلا ما ذكرناه ، ويقال في الوجه الثالث إن كان لتلك التخلية أثر في حصول تلك الغفلة فقد صح قولنا ، وإلا بطل استناد تلك الغفلة إلى الله تعالى .

المسألة الثانية :

(249/470)

قوله : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتبع هَوَاهُ ﴾ يدل على أن شر أحوال الإنسان أن يكون قلبه خالياً عن ذكر الحق ويكون مملوءاً من الهوى الداعي إلى الاشتغال بالخلق وتحقيق القول أن ذكر الله نور وذكر غيره ظلمة لأن الوجود طبيعة النور والعدم منبع الظلمة ،

والحق تعالى واجب الوجود لذاته فكان النور الحق هو الله ، وما سوى الله فهو ممكن الوجود لذاته .

والإمكان طبيعة عدمية فكان منبع الظلمة فالقلب إذا أشرق فيه ذكر الله فقد حصل فيه النور والضوء والإشراق ، وإذا توجه القلب إلى الخلق فقد حصل فيه الظلم والظلمة بل الظلمات ، فلهذا السبب إذا أعرض القلب عن الحق وأقبل على الخلق فهو الظلمة الخالصة التامة ، فالإعراض عن الحق هو المراد بقوله : ﴿ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ والإقبال على الخلق هو المراد بقوله : ﴿ واتبع هَوَاهُ ﴾ .

المسألة الثالثة :

قيل : ﴿ فُرُطًا ﴾ أي مجاوزاً للحد من قولهم : فرس فرط ، إذا كان متقدماً الخيل ، قال الليث : الفرط الأمر الذي يفرط فيه يقال كل أمر فلان فرط ، وأنشد شعراً :

لقد كلفني شططا . . وأمراً خائباً فرطا

أي مضيعاً ، فقوله وكان أمره فرطاً معناه أن الأمر الذي يلزمه الحفظ له والاهتمام به وهو أمر دينه يكون مخصوصاً بإيقاع التفريط والتقصير فيه ، وهذه الحالة صفة من لا ينظر لدينه وإنما عمله لدنياه .

فبين تعالى من حال الغافلين عن ذكر الله التابعين لهواهم أنهم مقصرون في مهماتهم معرضون عما وجب عليهم من التدبر في الآيات والتحفظ بمهمات الدنيا والآخرة ، والحاصل أنه تعالى وصف أولئك الفقراء بالمواظبة على ذكر الله والإعراض عن غير ذكر الله فقال : ﴿ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ ووصف هؤلاء الأغنياء بالإعراض عن ذكر الله تعالى والإقبال على غير الله وهو قوله : ﴿ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ واتبع هَوَاهُ ﴾ ثم أمر رسوله بمجالسة أولئك والمباعدة عن هؤلاء ، روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كنت جالساً في عصابة من ضعفاء المهاجرين وإن بعضهم ليستر بعضاً من العرى وقارىء يقرأ القرآن فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ماذا كنتم تصنعون ؟ قلنا : يا رسول الله كان واحد يقرأ من كتاب الله ونحن نستمع ، فقال عليه السلام : " الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت إلى أن أصبر نفسي معهم " ثم جلس وسطنا وقال : " أبشروا يا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة ، تدخلون الجنة قبل الأغنياء بمقدار خمسين ألف سنة " . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 101.97 ﴾

---

(1) سنن أبي داود ﴿ 3666 ﴾ ولفظه " أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور

التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذاك خمسمائة سنة " .

قال الشيخ الألباني : ضعيف إلا جملة دخول الجنة فصحيحة

وعند أحمد برقم ﴿ 11622 ﴾ " أبشروا يا معشر الصعاليك تدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وذلك خمسمائة عام "

قال الشيخ شعيب الأرنؤوط : حديث حسن , إسناده ضعيف لجهالة العلاء بن بشير المزني .

وعند الطبرانى فى الأوسط برقم ﴿ 8866 ﴾

وعند أبى يعلى برقم ﴿ 1151 ﴾

(251/470)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ . . . ولن تجد من دونه مُلتحداً ﴾

فيه أربعة تأويلات :

أحدها : ملجأ ، قاله مجاهد ، قال الشاعر :

لا تخفيا يا أخانا من مودّتنا . . . فما لنا عنك في الأقوام مُلتحد

الثاني : مهرباً ، قاله قطرب ، قال الشاعر :

يا لهف نفسي ولهفٌ غير مغنيةٍ . . . عني وما مِنْ قضاء الله ملتحدُ

الثالث : معدلاً ، قاله الأخفش .

الرابع : ولياً ، قاله قتادة . ومعانيها متقاربة .

قوله عز وجل : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يريدون تعظيمه . الثاني : يريدون طاعته . قال قتادة : نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فلما نزلت عليه قال : " الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر معهم

" . ﴿ يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يدعونه رغبة ورهبة .

الثاني : أنهم المحافظون على صلاة الجماعة ، قاله الحسن .

الثالث : أنها الصلاة المكتوبة ، قاله ابن عباس ومجاهد .

ويحتمل وجهاً رابعاً : أن يريد الدعاء في أول النهار وآخره ليستفتحوا يومهم بالدعاء رغبة في التوفيق ، ويختموه بالدعاء طلباً للمغفرة .

﴿ يريدون وجهه ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : بدعائهم .

الثاني : بعمل نهارهم . وخص النهار بذلك دون الليل لأن عمل النهار إذا كان لله تعالى فعمل الليل أولى أن يكون له .

﴿ ولا تعد عيناك عنهم . . ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ولا تتجاوزهم بالنظر إلى غيرهم من أهل الدنيا طلباً لزينتها ، حكاه اليزيدي .

الثاني : ما حكاه ابن جريج أن عيينة بن حصن قال للنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم : لقد آذاني ريح سلمان الفارسي وأصحابه فاجعل لنا مجلساً منك لا يجامعونا فيه ، واجعل لهم مجلساً لا نجامعهم فيه ، فنزلت .

﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذِكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ .

قوله ﴿ أغفلنا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : جعلناه غافلاً عن ذكرنا .

الثاني : وجدناه غافلاً عن ذكرنا .

وفي هذه الغفله لأصحاب الخواطر ثلاثة أوجه : أحدها : أنها إبطال الوقت بالبطالة ، قاله سهل بن عبد الله .

الثاني : أنها طول الأمل .

الثالث : أنها ما يورث الغفلة .

﴿ واتبع هواه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في شهواته وأفعاله .

الثاني : في سؤاله وطلبه التمييز عن غيره .

﴿ وكان أمرُه فُرُطاً ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : ضيقاً ، وهو قول مجاهد .

الثاني : متروكاً ، قاله الفراء .

الثالث : ندماً قاله ابن قتيبة .

الرابع : سرفاً وإفراطاً ، قاله مقاتل .

الخامس : سريعاً . قاله ابن بحر . يقال أفرط إذا أسرف وفرط إذا قصر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ واتل ما أوحي إليك ﴾ الآية ،

من قرأ " ولا تشرك " بالنهي ، عطف قوله ﴿ واتلُ ﴾ عليه ، ومن قرأ " ولا يشرك " ، جعل هذا أمراً بدىء به كلام آخر ليس من الأول ، وكأن هذه الآية ، في معنى الإعتاب للنبي عليه السلام ، عقب العتاب الذي كان تركه الاستثناء ، كأنه يقول هذه أجوبة الأسئلة فاتل وحي الله إليك ، أي اتبع في أعمالك ، وقيل اسرد بتلاوتك ما أوحي إليك من كتاب ربك ، لا نقض في قوله ، ﴿ ولا مبدل لكلماته ﴾ ، وليس لك سواه جانب تميل إليه ، وتستند ، و" الملتحد " : الجانب الذي يمال إليه ، ومعنى اللحد كأنه الميل في أحد شقي القبر ، ومنه الإلحاد في الحق ، وهو الميل عن الحق ، ولا يفسر قوله ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أمر النسخ لأن المعنى : إما أن يكون لا مبدل سواه فتبقى الكلمات على الإطلاق ، وإما أن يكون أراد من " الكلمات " الخبر ونحوه ، مما لا يدخله نسخ ، والإجماع أن الذي لا يتبدل هو الكلام القائم بالذات الذي بحسبه يجري القدر . فأما الكتب المنزلة فمذهب ابن عباس أنها لا تبدل إلا بالتأويل .

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾

سبب هذه الآية أن عظماء الكفار قيل من أهل مكة ، وقيل عيينة بن حصن وأصحابه والأول أصوب ، لأن السورة مكية ، قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أبعدت

هؤلاء عن نفسك لجالسناك وصحبناك ، يريدون عمار بن ياسر وصهيب بن سنان وسلمان الفارسي وابن مسعود وغيرهم من الفقراء كبلال ونحوه ، وقالوا إن ريح جباتهم تؤذينا ، فنزلت الآية بسبب ذلك ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إليهم وجلس بينهم ، وقال الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معه ، وروي أنه قال لهم رحباً بالذي عاتبني فيهم ربي ، وروى سلمان أن المؤلفة قلوبهم ، عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وذويهم ، قالوا ما ذكر ، فنزلت الآية في ذلك .

(254/470)

قال القاضي أبو محمد : فالآية على هذا مدنية ، ويشبه أن تكون الآية مكية ، وفعل المؤلفة قريش فرد بالآية عليهم ، ﴿ واصبر ﴾ معناه احبس ، ومنه المصبورة التي جاء فيها الحديث : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صبر الحيوان ، أي حبسه للرمي ونحوه ، وقرأ الجمهور " بالغداة " ، وقرأ ابن عامر " بالغدوة " وهي قراءة نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبي عبد الرحمن والحسن ، وهي في الخط على القراءتين بالواو ، فمن يقرأها " بالغداة " يكتبها " بالغدوة " كما تكتب " الصلوة والزكوة " ، وفي قراءة من قرأ " بالغدوة " ضعف لأن " غدوة " اسم معروف فحقه أن لا تدخل عليه الألف واللام ووجه القراءة

بذلك أنهم ألحقوها ضرباً من التنكير إذ قالوا حيث غدوة يريدون الغدوات فحسن دخول الألف واللام كقولهم الفينة وفينة اسم معرف ، والإشارة بقوله ﴿ يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ إلى الصلوات الخمس . قاله ابن عمر ومجاهد وإبراهيم ، وقال قتادة المراد صلاة الفجر ، وصلاة العصر .

(255/470)

قال القاضي أبو محمد : ويدخل في الآية من يدعو في غير صلاة ، ومن يجتمع لمذاكرة علم ، وقد روى عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " لذكر الله بالغداة والعشي أفضل من حطم السيوف في سبيل الله ، ومن إعطاء المال سحاً " ، وقرأ أبو عبد الرحمن " بالغدو " دون هاء ، وقرأ ابن أبي عبلة " بالغدوات " " والعشيات " على الجمع ، وقوله ﴿ ولا تعد عيناك ﴾ أي لا تتجاوز عنهم إلى أبناء الدنيا والملابس من الكفار ، وقرأ الحسن " ولا تُعَدّ عينيك " بضم التاء وفتح العين وشد الدال المكسورة ، أي لا تجاوزها أنت عليهم ، وروي عنه " ولا تُعْد عينك " بضم التاء وسكون العين ، وقوله ﴿ من أغفلنا ﴾ قيل إنه أراد بذلك معيناً وهو عيينة بن حصن ، والأقرع قاله خباب ، وقيل إنما أراد من هذه صفته ، وإنما المراد أولاً كفار قريش ، لأن الآية ، وقرأ الجمهور " أغفلنا قلبَه " بنصب

الباء على معنى جعلناه غافلاً ، وقرأ عمرو بن فائد وموسى الأسواري " أغفلنا قلبه " على معنى أهمل ذكرنا وتركه ، قال ابن جني المعنى من ظننا غافلين عنه ، وذكر أبو عمرو الداني أنها قراءة عمرو بن عبيد و" الفرط " يحتمل أن يكون بمعنى التفريط والتضييع ، أي أمره الذي يجب أن يلتزم ، ويحتمل أن يكون بمعنى الإفراط والإسراف ، أي أمره وهواه الذي هو بسبيله ، وقد فسره المتأولون بالعبارتين : أعني التضييع والإسراف ، وعبر خباب عنه بالهلاك ، وداود بالندامة ، وابن زيد بالخلاف للحق ، وهذا كله تفسير بالمعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(256/470)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ واتل ما أُوحي إِليك ﴾

في هذه التلاوة قولان .

أحدهما : أنها بمعنى القراءة .

والثاني : بمعنى الاتِّباع .

فيكون المعنى على الأول : اقرأ القرآن ، وعلى الثاني : اتَّبِعْه واعمل به .

وقد شرحنا في [الأنعام : 115] معنى ﴿ لا مبدِّل لكلماته ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾ قال مجاهد ، والفراء : مَلجأً .

وقال الزجاج : مَعْدِلاً عن أمره ونهيه .

وقال غيرهم : موضعاً تميل إِليه في الالتجاء .

قوله تعالى : ﴿ واصبر نفسك ﴾ سبب نزولها "أن المؤلَّفة قلوبُهم جاؤوا إِلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وذووهم ، فقالوا : يا رسول الله : لو أنك جلست في صدر المجلس ، ونحَّيت هؤلاء عنّا ، يعنون سلمانَ وأبا ذَرٍّ وفقراءَ المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصوف جلسنا إِليك ، وأخذنا عنك ، فنزلت هذه الآية إِلى قوله : ﴿ إِنا أعتدنا للظالمين ناراً ﴾ ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتمسهم ، حتى إِذا أصابهم في مؤخَّر المسجد يذكرون الله ، قال : "الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمَّتي ، معكم المحيا ومعكم الممات" " هذا قول سلمان الفارسي .

ومعنى قوله : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ﴾ أي : احبسها معهم على أداء الصلوات ﴿ بالغداة والعشي ﴾ .

وقد فسرنا هذه الآية في [الأنعام : 52] إِلى قوله تعالى : ﴿ ولا تعد عيناك عنهم ﴾ أي : لا تصرف بصرك إِلى غيرهم من ذوي الغنى والشرف ؛ وكان عليه السلام حريصاً على

إِيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم ، ولم يكن مريداً لزينة الدنيا قطُّ ، فأُمر أن يجعل إِقباله على فقراء المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ ولا تُطِع من أغفلنا قلبه عن ذِكْرنا ﴾ سبب نزولها أن أُمية بن خلف الجمحي ، دعا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إِلى طرد الفقراء عنه ، وتقريبِ صناديد أهل مكة ، فنزلت هذه الآية ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

وفي رواية أخرى عنه أنه قال : هو عيينة وأشباهه .

ومعنى "أغفلنا قلبه" : جعلناه غافلاً .

وقرأ أبو مجلز : "من أغفلَنا" بفتح اللام ، ورفع باء القلب .

"عن ذِكْرنا" : عن التوحيد والقرآن والإِسلام ، ﴿ واتبع هواه ﴾ في الشّرك .

﴿ وكان أمره فُرُطاً ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه أفرط في قوله ، لأنه قال : إِنّا رؤوس مضر ، وإِن نُسلِم يُسلم الناس بعدنا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : ضيَاعاً ، قاله مجاهد .

وقال أبو عبيدة : سَرَفاً وتضييعاً .

والثالث : نَدَماً ، حكاه ابن قتيبة عن أبي عبيدة .

والرابع : كان أمره التفريط ، والتفريط : تقديم العجز ، قاله الزجاج . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(258/470)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾

قيل : هو من تمام قصة أصحاب الكهف ؛ أي اتبع القرآن فلا مبدّل لكلمات الله ولا خلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف .

وقال الطبري : لا مغيّر لما أوعد بكلماته أهل معاصيه والمخالفين لكتابه .

﴿ وَلَن تَجِدَ ﴾ أنت ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ إن لم تتبع القرآن وخالفته .

﴿ مُلْتَحَداً ﴾ أي ملجأ .

وقيل موئلاً .

وأصله الميل ؛ ومن لجأت إليه فقد مِلْت إليه .

قال القشيريّ أبو نصر عبد الرحيم : وهذا آخر قصة أصحاب الكهف .

ولما غزا معاوية غزوة المضيق نحو الروم وكان معه ابن عباس فانتهى إلى الكهف الذي فيه أصحاب الكهف ؛ فقال معاوية : لو كشف لنا عن هؤلاء فننظر إليهم ؛ فقال ابن عباس : قد منع الله من هو خير منك عن ذلك ، فقال : ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً ﴾ فقال : لا أنتهي حتى أعلم علمهم ، وبعث قوماً لذلك ، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأخرجتهم ؛ ذكره الثعلبي أيضاً .

(259/470)

وذكر " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سأل الله أن يريه إياهم ، فقال إنك لن تراهم في دار الدنيا ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : كيف أبعثهم ؟ فقال : أبسط كساءك وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر وعلى الطرف الآخر عمر وعلى الثالث عثمان وعلى الرابع عليّ بن أبي طالب ، ثم ادع الريح الرُّخاء المسخرة لسليمان فإن الله تعالى يأمرها أن تطيعك ؛ ففعل فحملتهم الريح إلى باب الكهف ، فقلعوا منه حجراً ، فحمل الكلب عليهم فلما رآهم حرك رأسه وبصبص بذنبه وأومأ برأسه أن ادخلوا فدخلوا

الكهف فقالوا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ فردّ الله على الفتية أرواحهم فقاموا بأجمعهم وقالوا : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ؛ فقالوا لهم : معشر الفتية ، إن النبيّ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليكم السلام ؛ فقالوا : وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض ، وعليكم بما أبلغتم ، وقبلوا دينه وأسلموا ، ثم قالوا : أقرئوا محمداً رسول الله منّا السلام ، وأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدي .

فيقال : إن المهدي يسلم عليهم فيحييهم الله ثم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومون حتى تقوم الساعة ، فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان منهم ، ثم ردّتهم الريح فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كيف وجدتموهم" ؟ فأخبروه الخبر ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اللهم لا تفرّق بيني وبين أصحابي وأصهاري واغفر لمن أحبّني وأحبّ أهل بيتي وخاصّتي وأصحابي" " وقيل : إن أصحاب الكهف دخلوا الكهف قبل المسيح ؛ فأخبر الله تعالى المسيح بخبرهم ثم بعثوا في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم .

وقيل : كانوا قبل موسى عليه السلام وأن موسى ذكرهم في التوراة ؛ ولهذا سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : دخلوا الكهف بعد المسيح ؛ فالله أعلم أيّ ذلك كان .

قوله تعالى : ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي ﴾

هذا مثل قوله ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي ﴾ في سورة "الأنعام" وقد مضى الكلام فيه .

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه : جاءت المؤلّفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : عيينة بن حِصْن والأقرع بن حابس فقالوا : يا رسول الله ؛ إنك لو جلست في صدر المجلس ونحيّت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون سلمان وأبا ذرّ وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ واتل مَآ أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ حتى بلغ ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ .

يتهددهم بالنار .

فقام النبيّ صلى الله عليه وسلم يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله قال : " الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، معكم المحيا ومعكم الممات " ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أي طاعته .

وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن "ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغدوة والعشيّ" وحجتهم أنها في السواد بالواو .

وقال أبو جعفر النحاس : وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو ، ولا تكاد العرب تقول الغدوة لأنها معروفة .

وروي عن الحسن "ولا تعدّ عينيك عنهم" أي لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم من أبناء الدنيا طلباً لزينتها ؛ حكاه اليزيدي .

وقيل : لا تحتقرهم عيناك ؛ كما يقال فلان تنبو عنه العين ؛ أي مستحقراً .

(261/470)

﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ﴾ أي تتزيّن بمجالسة هؤلاء الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجلسك ؛ ولم يرد النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك ، ولكنّ الله نهاه عن أن يفعله ، وليس هذا بأكثر من قوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] .

وإن كان الله أعاذه من الشرك .

و"تريد" فعل مضارع في موضع الحال ؛ أي لا تعد عيناك مريداً ؛ كقول امرىء القيس :

فقلتُ له لا تبْكِ عَيْنُك إنما . . .

نحاول مُلْكا أو نموتَ فنُعْذَرَا

وزعم بعضهم أن حق الكلام : لا تعد عينيك عنهم ؛ لأن "تعد" متعدّ بنفسه .

قيل له : والذي وردت به التلاوة من رفع العينين يؤول إلى معنى النصب فيهما ، إذ كان لا تعد عيناك عنهم بمنزلة لا تنصرف عيناك عنهم ، ومعنى لا تنصرف عيناك عنهم لا تصرف عينيك عنهم ؛ فالفعل مسند إلى العينين وهو في الحقيقة موجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ ﴾ [التوبة : 55] فأسند الإعجاب إلى الأموال ، والمعنى : لا تعجبك يا محمد أموالهم .

ويزيدك وضوحاً قول الزجاج : إن المعنى لا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوي الهيئات والزينة .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ روى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ قال : نزلت في أميّة بن خلف الجُمَحِيّ ، وذلك أنه دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى أمر كرهه من تجرّد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة ؛ فأنزل الله تعالى : "ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا" يعني من ختمنا على قلبه عن التوحيد .

﴿ واتبع هَوَاهُ ﴾ يعني الشرك .

﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ قيل هو من التفريط الذي هو التقصير وتقديم العجز بترك الإيمان .

(262/470)

وقيل : من الإفراط ومجاوزة الحدّ ، وكان القوم قالوا : نحن أشراف مُضَرَ إن أسلمنا أسلم الناس ؛ وكان هذا من التكبر والإفراط في القول .

وقيل : "فُرُطاً" أي قدماً في الشر ؛ من قولهم : فَرَط منه أمر أي سبق .

وقيل : معنى "أغفلنا قلبه" وجدناه غافلاً ؛ كما تقول : لقيت فلاناً فأحمدته ؛ أي وجدته محموداً .

وقال عمرو بن معد يكرب لبني الحارث بن كعب : والله لقد سألناكم فما أبخلناكم وقاتلناكم فما أجبناكم ، وهاجيناكم فما أفحمناكم ؛ أي ما وجدناكم بخلاء ولا جبناء ولا مفحمين .

وقيل : نزلت ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ في عيينة بن حصن الفزاري ؛ ذكره عبد الرزاق ، وحكاه النحاس عن سفيان الثوري . والله أعلم . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

ولما أنزل عليه ما أنزل من قصة أهل الكهف أمره بأن يقص ويتلو على معاصريه ما أوحى إليه تعالى من كتابه في قصة أهل الكهف وفي غيرهم ، وأن ما أوحاه إليه ﴿ لا مبدل ﴾ له و﴿ لا مبدل ﴾ عام و﴿ لكلماته ﴾ عام أيضاً فالتخصيص إما في ﴿ لا مبدل ﴾ أي لا مبدل له سواه ، ألا ترى إلى قوله ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾ وإما في كلماته أي ﴿ لكلماته ﴾ المتضمنة الخبر لأن ما تضمن غير الخبر وقع النسخ في بعضه ، وفي أمره تعالى أن يتلو ما أوحي إليه وإخباره أنه لا مبدّل ﴿ لكلماته ﴾ إشارة إلى تبديل المتنازعين في أهل الكهف ، وتحريف أخبارهم والملتحد الملتجأ الذي تميل إليه وتعدل .

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾

قال كفار قريش لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالسناك وصحبناك ، يعنون عماراً وصهيباً وسلمان وابن مسعود وبلالاً ونحوهم من الفقراء ، وقالوا : إن ريح جبابهم تؤذينا ، فنزلت ﴿ واصبر نفسك ﴾ الآية ، وعن سلمان أن قائل ذلك عيينة بن حصين والأقرع وذووهم من المؤلفة فنزلت ، فالآية على هذا مدنية والأول أصح لأن السورة مكية ، وفعل المؤلفة

فعل قريش فردّ بالآية عليهم ﴿ واصبر نفسك ﴾ أي احبسها وثبتها .

قال أبو ذؤيب :

فصبرت عارفة لذلك حرة . . .

ترسو إذا نفس الجبان تطلع

وفي الحديث النهي عن صبر الحيوان أي حبسه للرمي ، و﴿ مع ﴾ تقتضي الصحبة والموافقة والأمر بالصبر هنا يظهر منه كبير اعتناء بهؤلاء الذين أمر أن يصبر نفسه معهم .

وهي أبلغ من التي في الأنعام ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ﴾ الآية .

وقال ابن عمر ومجاهد وإبراهيم : ﴿ بالغداة والعشي ﴾ إشارة إلى الصلوات الخمس .

وقال قتادة : إلى صلاة الفجر وصلاة العصر ، وقد يقال : إن ذلك يراد به العموم أي ﴿ يدعون ربهم ﴾ دائماً ، ويكون مثل : ضرب زيد الظهر والبطن يريد جميع بدنه لا خصوص المدلول بالوضع .

(264/470)

وتقدّم الكلام على قوله ﴿ بالغداة والعشي ﴾ قراءة وإعراباً في الأنعام .

﴿ ولا تعد ﴾ أي لا تصرف ﴿ عيناك ﴾ النظر عنهم إلى أبناء الدنيا ، وعدا متعد تقول

: عدا فلان طوره وجاء القوم عدا زيداً ، فلذلك قدرنا المفعول محذوفاً ليبقى الفعل على أصله من التعدية .

وقال الزمخشري : وإنما عدّي بعن لتضمين عدا معنى نبا وعلا في قولك : نبت عنه عينه ، وعلت عنه عينه إذا اقتحمته ولم تعلق به .

فإن قلت : أي غرض في هذا التضمين ؟ وهلا قيل ولا تعدهم عيناك أو ﴿ ولا تعد عيناك عنهم ﴾ .

قلت : الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين .

وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ ، ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك ولا تقتحمهم عيناك مجاوزين إلى غيرهم ونحو قوله ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ أي ولا تضموها إليها آكلين لها انتهى .

وما ذكره من التضمين لا ينقاس عند البصريين وإنما يذهب إليه عند الضرورة ، أما إذا أمكن إجراء اللفظ على مدلوله الوضعي فإنه يكون أولى .

وقرأ الحسن : ﴿ ولا تعد ﴾ من أعدى ، وعنه أيضاً وعن عيسى والأعمش ﴿ ولا تعد ﴾ .

قال الزمخشري : نقلاً بالهمزة وبنقل الحشو ومنه قوله .

فعد عما ترى إذ لا ارتجاع له . . .

لأن معناه فعد همك عما ترى انتهى .

وكذا قال صاحب اللوامح .

قال : وهذا مما عديته بالتضعيف كما كان في الأولى بالهمز ، وما ذهبا إليه ليس بجيد بل الهمزة والتكثير في هذه الكلمة ليسا للتعدية وإنما ذلك لموافقة أفعل وفعل للفعل المجرد ، وإنما قلنا ذلك لأنه إذا كان مجرداً متعد وقد أقر بذلك الزمخشري فإنه قال : يقال عداه إذا جاوزه ، ثم قال : وإنما عدّي بعن للتضمين والمستعمل في التضمين هو مجاز ولا يتسعون فيه إذا ضمنوه فيعدونه بالهمزة أو التضعيف ، ولو عدِّي بهما وهو متعد لتعدى إلى اثنين وهو في هذه القراءة ناصب مفعولاً واحداً ، فدل على أنه ليس معدى بهما .

وقال الزمخشري : ﴿ تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ في موضع الحال انتهى .

(265/470)

وقال صاحب الحال : إن قدر ﴿ عيناك ﴾ فكان يكون التركيب تريدان ، وإن قدر الكاف فمجيء الحال من المجرور بالإضافة مثل هذا فيها إشكال لاختلاف العامل في الحال وذي الحال ، وقد أجاز ذلك بعضهم إذا كان المضاف جزءاً أو كالجزء ، وحسن ذلك هنا أن المقصود نهيه عليه الصلاة والسلام عن الإعراض عنهم والميل إلى غيرهم ، وإنما جيء

بقوله ﴿ عيناك ﴾ والمقصود هو لأنهما بهما تكون المراعاة للشخص والتلفت له ،

والمعنى ﴿ ولا تعد ﴾ أنت ﴿ عنهم ﴾ النظر إلى غيرهم .

وقال الزمخشري : ﴿ من أغفلنا قلبه ﴾ من جعلنا قلبه غافلاً عن الذكر بالخذلان أو وجدناه غافلاً عنه كقولك : أجبنته وأفحمته وأبخلته إذا وجدته كذلك ، أو من أغفل إبله إذا تركها بغير سمة أي لم نسمه بالذكر ، ولم نجعلهم من الذين كتبنا في قلوبهم الإيمان ، وقد أبطل الله توهم المجبرة بقوله ﴿ واتبع هواه ﴾ انتهى .

وهذا على مذهب المعتزلة ، والتأويل الآخر تأويل الرماني وكان معتزلياً قال : لم نسمه بما نسم به قلوب المؤمنين بما يبين به ، فلاحهم كما قال : كتب في قلوبهم الإيمان من قولهم بعير غفل لم يكن عليه سمة ، وكتاب غفل لم يكن عليه إعجام ، وأما أهل السنة فيقولون : إن الله تعالى أغفله حقيقة وهو خالق الضلال فيه والغفلة .

وقال المفضل : أخليناه عن الذكر وهو القرآن .

وقال ابن جريج : شغلنا قلبه بالكفر وغلبة الشقاء ، والظاهر أن المراد بمن ﴿ أغفلنا ﴾ كفار قريش .

وقيل : عيينة والأقرع والأول أولى لأن الآية مكية .

وقرأ عمر بن فائد وموسى الأسواري وعمرو بن عبيد ﴿ أغفلنا ﴾ بفتح اللام ﴿ قلبه ﴾ بضم الباء أسند الأفعال إلى القلب .

قال ابن جنيّ من ظننا غافلين عنه .

وقال الزمخشري : حسبنا قلبه غافلين من أغفلته إذا وجدته غافلاً انتهى .

﴿ واتبع هواه ﴾ في طلب الشهوات ﴿ وكان أمره فرطاً ﴾ .

قال قتادة ومجاهد : ضياعاً .

وقال مقاتل بن حيان : سرفاً .

وقال الفرّاء : متروكاً .

وقال الأخفش : مجاوزاً للحد .

قيل : وهو قول عتبة إن أسلمنا أسلم الناس .

وقال ابن بحر : الفرط العاجل السريع ، كما قال ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ وقيل : ندماً .

وقيل : باطلاً .

وقال ابن زيد : مخالفاً للحق .

وقال ابن عطية : الفرط يحتمل أن يكون بمعنى التفريط والتضييع ، أي أمره الذي يجب أن

يلزم، ويحتمل أن يكون بمعنى الإفراط والإسراف أي ﴿ أمره ﴾ و﴿ هواه ﴾ الذي هو بسبيله انتهى. انتهى. ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(267/470)

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ ﴾

أي : اتبع، وقيل : اسْرُدْ بتلاوتك ما أوحِيَ إليك من كتاب ربك، لا نَقْضَ في قوله، ولا مُبَدِّلَ لكلماته، وليس لك سواه جَانِبٌ تَمِيلُ إليه، وتستند، و«المُلْتَحَد» الجانب الذي يُمَالُ إليه؛ ومنه اللَّحْد.

* ت * قال النوويُّ : يستحبُّ لتالي القرآن إذا كان منفرداً أنْ يكون خَتْمُهُ في الصَّلاة، ويستحبُّ أن يكون ختمه أولَ الليلِ أو أول النهار، ورُوِّينا في مسند الإمام المُجْمَعِ على حِفْظِهِ وجلالته وإتقانه وبَرَاعته أبي محمَّدٍ الدَّارِمِيِّ رحمه اللَّه تعالى، عن سَعْدِ بن أبي وقَّاص رَضِيَ الله عنه قال : إذا وَافَقَ خَتْمُ القُرْآن أوَّلَ اللَّيْل، صَلَّت عَلَيْهِ المَلاَئِكَةُ حَتَّى يُصْبِحَ، وإِنْ وَافَقَ خَتْمُهُ أَوَّلَ النَّهَار صَلَّتْ عَلَيْهِ المَلاَئِكَةُ حَتَّى يُمْسِي. قال الدارمي : هذا حديثٌ حسنٌ وعن طلحة بن مُطَرِّفٍ، قال : مَنْ خَتَمَ القُرْآنَ أَيَّةَ سَاعَةٍ كَانَتْ مِنَ النَّهَار،

صَلَّتْ عَلَيْهِ المَلاَئكَةُ حَتَّى يُمْسِيَ ، وأيّةَ سَاعَةٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ صَلَّتْ عَلَيْهِ المَلاِئكَةُ حَتَّى يُصْبِحَ ، وعن مجاهد نحوه انتهى .

وقوله سبحانه : ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم . . . ﴾ الآية : تقدَّم تفسيرها .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ ، أي : لا تتجاوزْ عنهم إلى أبناء الدنيا ، وقرأ الجمهور : «مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ» بنصب الباء على معنى جَعَلْنَاهُ غافلاً ، «والفُرُطُ» : يحتمل أن يكون بمعنى التفريط ، ويحتمل أن يكون بمعنى الإفراط والإسراف ، وقد فسَّره المتأوِّلون بالعبارتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(268/470)

وقال أبو السعود :

ولما دل انتظامُ القرآنِ الكريم لقصة أصحابِ الكهف من حيث إنهم بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم من المغيبات على أنه وحيٌ معجزٌ أمره عليه السلام بالمداومة على دراسته فقال : ﴿ واتل مَا أُوْحِىَ إِلَيْكَ مِن كتاب رَبّكَ ﴾ ولا تسمعْ لقولهم : ائتِ بقرآن غيرِ هذا أو بدّلْه ﴿ لاَ مُبَدّلَ لكلماته ﴾ لا قادرَ على تبديله وتغييره غيرُه ﴿ وَلَن تَجِدَ ﴾ أبدَ الدهر وإن بالغتَ في الطلب ﴿ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ ملجأً تعدل إليه عند إلمام مُلِمّة .

﴿ واصبر نَفْسَكَ ﴾ احبِسها وثبِّتها مصاحِبةً ﴿ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشى ﴾ أي دائبين على الدعاء في جميع الأوقاتِ ، وقيل : في طرفي النهار ، وقرىء بالغُدوة على أن إدخال اللام عليها وهي علمٌ في الأغلب على تأويل التنكيرِ بهم ، والمرادُ بهم فقراءُ المؤمنين مثل صُهيبٍ وعمارٍ وخبابٍ ونحوهم رضي الله عنهم ، وقيل : أصحابُ الصُّفَّة وكانوا نحو سبعِمائة رجل ، قيل : إنه قال قومٌ من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نحّ هؤلاء الموالِيَ الذين كأن ريحَهم ريحُ الضأن حتى نجالسَك كما قال قومُ نوحٍ عليه السلام : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون ﴾ فنزلت . والتعبيرُ عنهم بالموصول لتعليل الأمر بما في حيز الصلة من الخَصلة الداعيةِ إلى إدامة الصحبة ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ بدعائهم ذلك ﴿ وَجْهَهُ ﴾ حالٌ من المستكنّ في يدْعون أي مريدين لرضاه تعالى وطاعته .

(269/470)

﴿ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ أي لا يجاوِزْهم نظرُك إلى غيرهم ، مِن عداه أي جاوزه ، واستعمالُه بعن لتضمينه معنى النبوّ أو لا تصرِفْ عيناك النظرَ عنهم إلى غيرهم ، من عدَوتُه عن الأمر أي صرفتُه عنه على أن المفعولَ محذوفٌ لظهوره ، وقرىء ولا تُعْدِ عينيك من الإعداء والتعدية ، والمرادُ نهيُه عليه السلام عن الازدراء بهم لرثاثة زِيِّهم طموحاً إلى زِيِّ

الأغنياء ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ﴾ أي تطلب مجالسةَ الأشراف والأغنياءِ وأصحابِ الدنيا ، وهي حالٌ من الكاف على الوجه الأولِ من القراءة المشهورة ومن الفاعل على الوجه الثاني منها ، وضمير تريد للعينين وإسنادُ الإرادةِ إليه مجازٌ وتوحيدُه للتلازم كما في قوله

لمن زُحْلوفةٌ زُلُّ . . . بها العينان تنهلُّ

(270/470)

ومن المستكنّ في الفعل على القراءتين الأخيرتين ﴿ وَلَا تُطِعِ ﴾ في تنحية الفقراءِ عن مجالسك ﴿ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ ﴾ أي جعلناه غافلاً لبطلان استعدادِه للذكر بالمرة أو وجدناه غافلاً ، كقولك : أجبَنْتُه وأبخلتُه إذا وجدته كذلك أو هو مِنْ أَغفل إبلَه أي لم نسمّه بالذكر ﴿ عَن ذِكْرِنَا ﴾ كأولئك الذين يدعونك إلى طرد الفقراءِ عن مجلسك فإنهم غافلون عن ذكرنا على خلاف ما عليه المؤمنون من الدعاء في مجامع الأوقاتِ ، وفيه تنبيهٌ على أن الباعثَ له على ذلك الدعاءِ غفلةُ قلبه عن جناب الله سبحانه وجهته وانهماكُه في الحسيات حتى خفيَ عليه أن الشرفَ بحِلْية النفس لا بزينة الجسد ، وقرىء أغفلَنا قلبُه ، على إسناد الفعل إلى القلب أي حسِبَنا غافلين عن ذكرنا إياه بالمؤاخذة ، من أغفلتُه إذا

وجدته غافلاً ﴿ واتبع هَوَاهُ وكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ ضيَاعاً وهلاكاً أو متقدماً للحق

والصواب نابذاً له وراءَ ظهره، من قولهم: فرسٌ فُرُطٌ أي متقدِّمٌ للخيل أو هو بمعنى الإفراط

والتفريطِ فإن الغفلةَ عن ذكره سبحانه تؤدّي إلى اتباع الهوى المؤدّي إلى التجاوز والتباعُدِ

عن الحق والصواب، والتعبيرُ عنهم بالموصول للإيذان بعلية ما في حيز الصلة للنهي عن

الإطاعة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(271/470)

وقال الآلوسى:

﴿ واتل ﴾ الخ.

وهو أمر من التلاوة بمعنى القراءة أي لازم تلاوة ذلك على أصحابك أو مطلقاً ولا تكترث

بقول من يقول لك ﴿ ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴾ [يونس: 15]، وجوز أن يكون ﴿

اتل ﴾ أمراً من التلو بمعنى الاتباع أي اتباع ما أوحي إليك والزم العلم به، وقيل وجه الربط

أنه سبحانه لما نهاه عن المراء المتعمق فيه وعن الاستفتاء أمره سبحانه بأن يتلو ما أوحى

إليه من أمرهم فكأنه قيل اقرأ ما أوحي إليك من أمرهم واستغن به ولا تتعرض لأكثر من

ذلك أو اتبع ذلك وخذ به ولا تتعمق في جدالهم ولا تستفت أحداً منهم فالكلام متعلق بما

تقدم من النواهي ، والمراد بما أوحى الخ هو الآيات المتضمنة شرح قصة أصحاب الكهف ، وقيل : متعلق بقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ [الكهف : 26] أي قل لهم ذلك واتل عليهم أخبار عن مدة لبثهم فالمراد بما أوحى الخ ما تضمن هذا الاخبار ، وهذا دون ما قبله بكثير بل لا ينبغي أن يلتفت إليه ، والمعول عليه أن المراد بما أوحي ما هو أعم مما تضمن القصة وغيره من كتاب تعالى .

﴿ لاَ مُبَدّلَ لكلماته ﴾ لا يقدر أحد على تبديلها وتغييرها غيره وأما هو سبحانه فقدرته شاملة لكل شيء يمحو ما يشاء ويثبت ، ويعلم مما ذكر اندفاع ما قيل : إن التبديل واقع لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءايَةً ﴾ [النحل : 101] الآية ، والظاهر عموم الكلمات الأخبار وغيرها ، ومن هنا قال الطبرسي : المعنى لا مغير لما أخبر به تعالى ولا لما أمر والكلام على حذف مضاف أي لا مبدل لحكم كلماته انتهى ، لكن أنت تعلم أن الخبر لا يقبل التبديل أي النسخ فلا تتعلق به الإرادة حتى تتعلق به القدرة لئلا يلزم الكذب المستحيل عليه عز شأنه .

ومنهم من خص الكلمات بالاخبار لأن المقام للاخبار عن قصة أصحاب الكهف وعليه لا يحتاج إلى تخصيص النكرة المنفية لما سمعت من حال الخبر، وقول الإمام: إن النسخ في الحقيقة ليس بتبديل لأن المنسوخ ثابت في وقته إلى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالمغاير فكيف يكون تبديلاً توهم لا يقتدي به.

ومن الناس من خص الكلمات بمواعيده تعالى لعباده الموحدين فكأنه قيل اتل ما أوحى إليك ولا تبال بالكفرة المعاندين فإنه قد تضمن من وعد الموحدين ما تضمن ولا مبدل لذلك الوعد، ومآله اتل ولا تبال فإن الله تعالى ناصرك وناصر أصحابك وهو كما ترى وإن كان أشد مناسبة لما بعد، والضمير على ما يظهر من مجمع البيان للكتاب، ويجوز أن يكون للرب تعالى كما هو الظاهر في الضمير في قوله سبحانه:

﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ أي ملجأ تعدل إليه عند إلمام ملمة، وقال الإمام في البيان والإرشاد: وأصله من الالتحاد بمعنى الميل، وجوز الراغب فيه أن يكون اسم مكان وأن يكون مصدراً، وفسره ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هنا بالمدخل في الأرض وأنشد عليه حين سأله نافع بن الأزرق قول خصيب الضمري:

يا لهف نفسي ولهف غير مجدية...

عني وما عن قضاء الله ملتحد

ولا داعي فيه لتفسيره بالمدخل في الأرض ليلتجأ إليه، ثم إذا كان المعنى بالخطاب سيد

المخاطبين صلى الله عليه وسلم فالكلام مبني على الفرض والتقدير إذ هو عليه الصلاة والسلام بل خلص أمته لا تخذتهم أنفسهم بطلب ملجأ غيره تعالى ، نسأله سبحانه أن يجعلنا ممن التجأ إليه وعول في جميع أموره عليه فكفاه جل وعلا ما أهمه وكشف عنه غياهب كل غمه .

﴿ واصبر نَفْسَكَ ﴾

أي احبسها وثبتها يقال صبرت زيداً أي حبسته ، وفي الحديث النهي عن صبر الحيوان أي حبسه للرمي ، واستعمال ذلك في الثبات على الأمر وتحمله توسع ، ومنه الصبر بمعناه المعروف ، ولم يجعل هذا منه لتعدي هذا ولزومه ﴿ مَعَ الذين ﴾ أي مصاحبة مع الذين ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشى ﴾ أي يعبدونه دائماً ، وشاع استعمال مثل هذه العبارة للدوام وهي نظير قولهم : ضرب زيد الظهر والبطن يريدون به ضرب جميع بدنه ، وأبقى غير واحد الغداة والعشي على ظاهرهما ولم يرد عموم الأوقات أي يعبدونه في طرفي النهار ، وخصا بالذكر لأنهما محل الغفلة والاشتغال بالأمور ، والمراد بتلك العبادة قيل ذكر الله تعالى وروى ذلك من طريق مغيرة عن إبراهيم ، وقيل : قراءة القرآن ، وروى ذلك عن عبيد

الله بن عبد الله بن عدي بن الخيار ، وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن جبير أن المراد بها

المفاوضة في الحلال والحرام .

وعن ابن عمر .

ومجاهد هي شهود الصلوات الخمس ، وعن قتادة شهود صلاة الصبح والعصر ، وفيما

تقدم ما يؤيد ثاني الأقوال وفيما بعد ما يؤيد ظاهره أولها فتدبر جداً ، والمراد بالموصول

فقراء الصحابة عمار .

وصهيب .

وسلمان .

وابن مسعود .

وبلال .

وإضرابهم قال كفار قريش كأمية بن خلف .

وغيره من صناديد أهل مكة لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالسناك فإن ريح جبابهم تؤذينا

فنزلت الآية ، وأخرج ابن مردويه .

وأبو نعيم في الحلية .

والبيهقي في شعب الايمان عن سلمان قال : جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم عيينة بن بدر .

والأقرع بن حابس فقالوا : يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء

وأرواح جبابهم يعنون سلمان .

وأبا ذر .

وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف جالسناك أو حدثناك وأخذنا عنك فأنزل الله تعالى ﴿ واتل مَا أُوْحِىَ إِلَيْكَ مِن كتاب رَبّكَ ﴾ إلى قوله سبحانه ﴿ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا ﴾ [الكهف : 27-29] يتهددهم بالنار ، وروى أبو الشيخ عن سلمان أنها لما نزلت قام رسول الله عليه الصلاة والسلام يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى فقال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي معكم الحياة والممات .

والآية على هذا مدنية وعلى الأول مكية ، قال أبو حيان : وهو أصح لأن السورة مكية ، وأقول : أكثر الروايات تؤيد الثاني وعليه تكون الآيات مستثناة من حكم السورة وكم مثل ذلك ، وقد أخرج ما يؤيد الأول ابن مردويه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، ولعل الآيات بعد تؤيده أيضاً ، والتعبير عن أولئك بالموصول لتعليل

الأمر بما في حيز الصلة من الخصلة الداعية إلى إدامة الصحبة .

وقرأ ابن عامر ﴿ بالغدوة ﴾ وخرج ذلك على ما ذكره سيبويه .

والخليل من أن بعض العرب ينكر غدوة فيقول : جاء زيد غدوة بالتنوين ، على أن الرضى قال : إنه يجوز استعمالها نكرة اتفاقاً ، والمشهور أن الأكثر استعمالها علم جنس ممنوعاً من الصرف فلا تدخل عليها أل لأنه لا يجتمع في كلمة تعريفان ، ومتى أريد ادخالها عليها قصد تنكيرها فادخلت كما قصد تنكير العلم الشخصي في قوله :

وقد كان منهم صاحب وابن عمه . . .

أبو جندل والزيد زيد المعارك

والقراءة المذكورة مخرجة على ذلك ، واختار بعض المحققين التخريج الأول وقال : إنه أحسن دراية ورواية لأن التنكير في العلم الشخصي ظاهر وأما في الجنسي ففيه خفاء لأنه شائع في إفراده قبل تنكيره إنما يتصور بترك حضوره في الذهن الفارق بينه وبين النكرة ، وهو خفي فلذا أنكره الفناري في "حواشيه على التلويح" في تنكير رجب علم الشهر انتهى ، وللبحث فيه مجال .

وهذه الآية كما في البحر أبلغ من التي في الأنعام وهي قوله تعالى : ﴿ يَتَّقُونَ وَلَا تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشى ﴾ ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ بذلك الدعاء ﴿ وَجْهَهُ ﴾ أي رضاه سبحانه وتعالى دون الرياء والسمعة بناء على ما قاله الإمام السهيلي من أن الوجه إذا أضيف إليه تعالى يراد به الرضا والطاعة المرضية مجازاً لأن من رضى على شخص يقبل عليه ومن غضب يعرض عنه ، وقيل : المراد بالوجه الذات والكلام على حذف مضاف . وقيل : هو بمعنى التوجه ، والمعنى يريدون التوجه إليه تعالى والزلفى لديه سبحانه ، والأول أولى ، والجملة في موضع الحال من فاعل ﴿ يَدّعُونَ ﴾ أي يدعون مريدين ذلك .

(276/470)

﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ أي لا تصرف عيناك النظر عنهم إلى أبناء الدنيا ، والمراد النهي عن احتقارهم وصرف النظر عنهم لرثاثة حالهم إلى غيرهم فعدا بمعنى صرف المتعدي إلى مفعول بنفسه وإلى آخر بعن ، قال في "القاموس" يقال : عداه عن الأمر عدواً وعدواناً صرفه ، واختار هذا أبو حيان وهو الذي قدر المفعول كما سمعت وقد تعدى عدا إلى مفهول واحد بعن كما تعدى إليه بنفسها فتكون بمعنى جاوز وترك ، قال في "القاموس" يقال عدا الأمر وعنه جاوزه وتركه ، وجوز أن يكون معنى الآية على ذلك كأنه

قيل لا تتركهم عيناك ، وقيل : إن عدا حقيقة معناه تجاوز كما صرح به الراغب والتجاوز لا يتعدى بعن إلا إذا كان بمعنى العفو كما صرحوا به أيضاً وهو هنا غير مراد فلا بد من تضمين عدا معنى نبا وعلا في قولك : نبت عنه عينه وعلت عنه عينه إذا اقتحمته ولم تعلق به ، وهو الذي ذهب إليه الزمخشري ثم قال : لم يقل ولا تعدهم عيناك أو ولا تعل عيناك عنهم وارتكب التضمين ليعطي الكلام مجموع معنيين وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك : ولا تقحمهم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم ، وتعقبه أبو حيان بأن التضمين لا ينقاس عند البصريين وإنما يذهب إليه عند الضرورة ، أما إذا أمكن إجراء اللفظ على مدلوله الوضعي فإنه يكون أولى ، واعترض أيضاً ما قيل : بأنه لا يلزم من اتحاد الفعلين في المعنى اتحادهما في التعدية فلا يلزم من كون عدا بمعنى تجاوز أن يتعدى كما يتعدى ليقال : إن التجاوز لا يتعدى بعن إلا إذا كان بمعنى العفو وهو غير مراد ، فلا بد من تضمين عدا معنى فعل متعد بعن ، ويكفي كلام القاموس مستنداً لمن خالف الزمخشري فتدبر ولا تغفل .

وقرأ الحسن ﴿ وَلَا تُعْدُ عَيْنَيْكَ ﴾ بضم التاء وسكون العين وكسر الدال المخففة من أعداه ونصب العينين ، وعنه وعن عيسى .

والأعمشى أنهم قرؤا ﴿ وَلَا تُعْدُ عَيْنَيْكَ ﴾ بضم التاء وفتح العين وتشديد الدال المكسورة من عداه يعديه ونصب العينين أيضاً ، وجعل الزمخشري ، و"صاحب اللوامح" الهمزة والتضعيف للتعدية .

وتعقب ذلك في "البحر" بأنه ليس بجيد بل الهمزة والتضعيف في هذه الكلمة لموافقة أفعل وفعل للفعل المجرد وذلك لأنه قد أقر الزمخشري بأنها قبل ذينك الأمرين متعدية بنفسها إلى واحد وعديت بعن للتضمين فمتى كان الأمران للتعدية لزم أن تتعدى إلى اثنين مع أنها لم تتعدى في القراءتين المذكورتين إليهما .

﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ﴾ أي تطلب مجالسة من لم يكن مثلهم من الأغنياء وأصحاب الدنيا والجملة على القراءة المتواترة حال من كاف ﴿ عَيْنَاكَ ﴾ وجازت الحال منه لأنه جزء المضاف إليه ، والعامل على ما قيل معنى الإضافة وليس بشيء .

وقال في "الكشف" : العامل الفعل السابق كما تقرر في قوله تعالى : ﴿ بَلْ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا ﴾ [البقرة : 135] ولك أن تقول : ههنا خاصة العين مقحمة للتأكيد ولا يبعد أن يجعل حالاً من الفاعل ، وتوحيد الضمير إما لاتحاد الإحساس أو للتنبيه على مكان الإقحام أو للاكتفاء بأحدهما عن الآخر أو لأنهما عضو واحد في الحقيقة ، واستبشاع إسناد الإرادة إلى العين مندفع بأن إرادتها كناية عن إرادة صاحبها ألا ترى إلى ما شاع من

نحو قولهم : يستلذه العين أو السمع وإنما المستلذ الشخص على أن الإرادة يمكن جعلها مجازاً عن النظر للهو لا للعبراه .

ولا يخفى أن فيه عدولاً عن الظاهر من غير داع ، وقول بعضهم : إنه لا يجوز مجيء الحال من المضاف إليه في مثل هذا الموضع لاختلاف العامل في الحال وذيها لا يصلح داعياً لظهور ضعفه ، ثم الظاهر أنه لا فرق في جواز كون الجملة حالاً من المضاف إليه أو المضاف على تقدير أن يفسر ﴿ تَعْدُ ﴾ بتجاوز وتقدير أن تفسر بتصرف .

وخص بعضهم كونها حالاً من المضاف إليه على التقدير الأول وكونها حالاً من المضاف على التقدير الثاني ولعله أمر استحساني ، وذلك لأن في أول الكلام على التقدير الثاني إسناد ما هو من الأفعال الاختيارية ليس إلا وهو الرف إلى العين فناسب إسناد الإرادة إليها في آخره ليكون أول الكلام وآخره على طرز واحد مع رعاية ما هو الأكثر في أحوال الأحوال من مجيئها من المضاف دون المضاف إليه ، وتضمن ذلك عدم مواجهة الحبيب صلى الله عليه وسلم بإسناد إرادة الحياة الدنيا إليه صريحاً وإن كانت مصب النهي ، وليس في أول الكلام ذلك على التقدير الأول إذ الظاهر أن التجاوز ليس من الأفعال

الاختيارية لا غير بل يتصف به المختار وغيره، مع أن في جعل الجملة حالاً من الفاعل على هذا التقدير مع قول بعض المحققين إن المتجاوز في الحقيقة هو النظر احتياجاً إلى اعتبار الشيء وتركه في كلام واحد، وليس لك أن تجعله استخداماً بأن تريد من العينين أولاً النظر مجازاً وتريد عند عود ضمير ﴿ تُرِيدُ ﴾ منهما الحقيقة لأن التثنية تأبى ذلك، وإن اعتبر ذلك أولاً وآخراً ولم يترك احتيج إلى مؤن لا تخفى على المتأمل فتأمل وتدبر، وهي على القراءتين الشاذتين حال من فاعل الفعل المستتر أي لا تعد أو لا تعد عينيك عنهم مريداً ذلك ﴿ وَلَا تُطِعْ ﴾ في تنحية الفقراء عن مجلسك ﴿ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ ﴾ أي جعلنا قلبه غافلاً ﴿ عَن ذِكْرِنَا ﴾ لبطلان استعداده للذكر بالمرة كأولئك الذين يدعونك إلى طرد الفقراء فإنهم غافلون عن ذكرنا على خلاف ما عليه أولئك الفقراء من الدعاء في الغداة والعشي، وفيه تنبيه على أن الباعث لهم إلى استدعاء الطرد غفلة قلوبهم عن جناب الله تعالى شأنه وملاحظة المعقولات وانهماكه في الحسيات حتى خفي عليه أن الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد.

ومعنى الذكر ظاهر وفسره المفضل بالقرآن.

والآية ظاهرة في مذهب أهل النسة ، وأولها المعتزلة فقيل المراد أغفلنا قلبه بالخذلان وهذا هو التأويل المشهور عندهم في أمثال ذلك وحاله معلوم عندك ، وقيل : المراد صادفناه غافلاً كما في قولهم : سألناكم فما أفحمناكم وقاتلناكم فما أجبناكم .

وتعقب بأنه لا ينبغي أن يتجرأ على تفسير فعل أسنده الله تعالى إليه بالمصادفة التي تفهم وجدان الشيء بغتة عن جهل سابق وعدم علم ، وقيل : المراد نسبناه إلى الغفلة كما في قول الكميت :

وطائفة قد أكفروني بحبكم . . .

وطائفة قالوا مسيء ومذنب

وهو كما ترى ، وقال الكرماني : المراد لم نسم قلبه بالذكر ولم نجعله من القلوب التي كتبنا فيها الإيمان كقلوب المؤمنين من قولهم : أغفل فلان إبله إذا تركها غفلاً من غير سمة وعلامة بكي ونحوه ، ومنه إغفال الخط لعدم إعجامه فالإغفال المذكور استعارة لجعل ذكر الله تعالى الدال على الايمان به كالسمة لأنه علامة للسعادة كما جعل ثبوت الايمان في القلب بمنزلة الكتابة ، وهو تأويل رقيق الحاشية لطيف المعنى وإن كان خلاف الظاهر فهو مما لا بأس به لمن لم يكن غرضه منه الهرب من مذهب أهل السنة ، واحتج بعضهم على أنه ليس الراد ظاهر الآية بقوله سبحانه : ﴿ واتبع ﴾ في طلب الشهوات حيث أسند اتباع الهوى إلى العبد فيدل على أنه فعله لا فعل الله تعالى ولو كان ذلك فعل الله سبحانه والإسناد مجازي

لقيل فاتبع بالفاء السببية لتفرعه عليه.

وأجيب بأن فعل العبد لكونه بكسبه وقدرته، وخلق لله تعالى يجوز إسناده إليه بالاعتبار الأول وإلى الله تعالى بالثاني، والتنصيص على التفريع ليس بلازم فقد يترك لنكتة كالقصد إلى الأخبار به استقلالاً لأنه أدخل في الذم وتفويضاً إلى السامع في فهمه ولا حاجة إلى تقدير فقيل واتبع هواه.

وقرأ عمر بن فائد.

وموسى الأسواري.

(280/470)

وعمرو بن عبيد ﴿ مَنْ أَغْفَلْنَا ﴾ بفتح الفاء واللام ﴿ قَلْبَهُ ﴾ بالرفع على أنه فاعل أغفلنا، وهو على هذه القراءة من أغفله إذا وجده غافلاً، والمراد ظننا وحسبنا غافلين عن ذكرنا له ولصنيعه بالمؤاخذة بجعل ذكر الله تعالى له كناية عن مجازاته سبحانه، واستشكل النهي عن إطاعة أولئك الغافلين في طرد أولئك المؤمنين بأنه ورد أنهم أرادوا طردهم ليؤمنوا فكان ينبغي تحصيل إيمانهم بذلك، وغاية ما يلزم ترتب نفع كثير وهو إيمان أولئك الكفرة على ضرر قليل وهو سقوط حرمة أولئك البررة وفي عدم طردهم لزم ترتب

ضرر عظيم وهو بقاء أولئك الكفرة على كفرهم على نفع قليل .

ومن قواعد الشرع المقررة تدفع المفسدة الكبرى بالمفسدة الصغرى .

وأجيب بأنه سبحانه علم أن أولئك الكفرة لا يؤمنون إيمانا حقيقيا بل إن يؤمنوا يؤمنوا إيمانا ظاهريا ومثله لا يرتكب له إسقاط حرمة أولئك الفقراء الأبرار فلذا جاء النهي عن الإطاعة .

وقد يقال : يحتمل أن يكون الله تعالى قد علم أن طرد أولئك الفقراء السابقين إلى الإيمان المنقطعين لعبادة الرحمن وكسر قلوبهم وإسقاط حرمتهم لجلب الأغنياء وتطييب خواطرهم يوجب نفرة القلوب وإساءة الظن برسوله صلى الله عليه وسلم فربما يرتد من هو قريب عهد بإسلام ويقل الداخلون في دينه بعد ذلك عليه الصلاة والسلام ، وذلك ضرر عظيم فوق ضرر بقاء شرذمة من الكفار على الكفر فلذا نهى جل وعلا عن إطاعة من أغفل قلبه واتبع هواه ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ ﴾ في اتباع الهوى وترك الإيمان ﴿ فُرُطًا ﴾ أي ضياعاً وهلاكا قاله مجاهد أو متقدما على الحق والصواب نابذا له وراء ظهره من قولهم : فرس فرط أي متقدم للخيل وهو في معنى ما قاله ابن زيد مخالفاً للحق ، وقال ابن عطية :

يحتمل أن يكون الفرط بمعنى التفريط والتضييع أي كان أمره الذي يجب أن يلزم ويهتم به من الدين تفريطاً ، ويحتمل أن يكون بمعنى الافراط والإسراف أي كان أمره وهواه الذي هو سبيله إفراطاً وإسرافاً ، وبالإسراف فسره مقاتل ، والتعبير عن صناديد قريش المستدعين طرد فقراء المؤمنين بالموصول للإيذان بعلية ما في حيز الصلة للنهي عن الإطاعة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(282/470)

وقال القاسمى :

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾

أي : بتبليغ ما فيه . ومنه ما أوحي إليك من نبأ الفتية ، فإنه الحق الذي لا يحتاج معه إلى استفتاء فيه .

قال القاشاني : يجوز أن تكون مِنْ لابتداء الغاية . والكتاب هو اللوح الأول المشتمل على كل العلوم الذي منه أوحي إلى من أوحي إليه ، وأن تكون بيانا لما أوحي : ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي : لا مغيّر لها ولا محرّف ولا مزيل .

قال القاشاني : كلماته التي هي أصول التوحيد والعد وأنواعهما .

وقصده دفع ما يرد من وقوع نسخ بعض الشرائع السابقة باللاحقة وتبديلها بها . فأشار إلى أن النسخ إنما هو في الفروع لا الأصول .

والأظهر في معنى الآية ؛ أنه لا أحد سواه يبدل حكمه كقوله : ﴿ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [الرعد : 41] ، وأما هو سبحانه فهو فعال لما يريد : ﴿ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ أي : ملجأً .

(283/470)

وذهب ابن جرير في تفسير هذه الآية مذهبا قال : يقول تعالى لنبيه واتبع ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا ، ولا تتركنّ تلاوته واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه والعمل بحلاله وحرامه . فتكون من الهالكين . وذلك أن مصير من خالفه وترك اتباعه يوم القيامة ، إلى جهنم : ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ يقول لا مغير لما أوعد بكلماته التي أنزلها عليك ، أهل معاصيه والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذي أوحيناه إليك . وقوله : ﴿ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ يقول وإن أنت لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك فتتبعه وتأتّم به ، فنالك وعيد الله الذي أوعد فيه المخالفين حدوده ، لن تجد من دون الله موئلاً تئل إليه ، ومعدلاً تعدل عنه إليه . لأن قدرة الله محيطة بك وبجميع خلقه , لا يقدر أحد منهم على الهرب من أمرٍ أراد به . انتهى

.

تنبيه :

لهؤلاء الفتية أصحاب الكهف ذكر في تواريخ المسيحيين ، وعيد سنوي يقام تذكاراً لهم ، في اليوم السابع والعشرين من شهر تموز . لكونهم اضطهدوا من قبل الأمراء اليونانيين ، لإيمانهم بالله تعالى وحده ودخولهم في الملة المسيحية ورفضهم الوثنية التي كانت عليها اليونان . وقد رأيت في كتاب " الكنز الثمين في أخبار القديسين " ترجمة عن أحوالهم واسعة تحت عنوان " فيما يخص السبعة القديسين الشهداء الذين من أفسس " نقتطف منها ما يأتي ، دحضاً لدعوى من يفتري أن نبأهم لا يعرف أصلاً ، كما قرأته في بعض كتب الملحدين .

قال صاحب الترجمة : هؤلاء الشهداء السبعة كانوا إخوة بالجسد . وأسماؤهم : مكسيميانوس ومالخوس . ومرتينيانوس . وديونيسيوس . ويوحنا . وسارابيون . ثم قسطنطين . هؤلاء الشباب قربوا حياتهم ضحية من أجل المسيح, بالقرب من مدينة أفسس نحو سنة 252 مسيحية . في زمن الاضطهاد القاسي الذي صنعه ضد المسيحيين ، الملك داكيوس .

وقد أجلّهم المسيحيون كشهداء حقيقيين [في المطبوع: حقيقين] . فيقام لهم في الكنائس مدائح تنشر فيها صفاتهم الفاضلة يوم استشهادهم ثمة ، في اليوم الرابع من شهر آب ، المختص بتذكار الأعجوبة التي بواسطتها قد ظهرت أجسادهم المقدسة في المغارة الغربية من مدينة أفسس .

ثم قال : وأما نوع استشهادهم فليس بمعروف . لأن أعمالهم الجهادية في سبيل الإيمان لم توجد مدوّنة في التواريخ الكنائسية المدققة . بل إن المؤكد عنهم أن استشهادهم كان زمن الملك داكيوس ، حذاء مدينة أفسس . حيث وجدت فيما بعد أجسادهم في مغارة ليست بعيدة من أهل هذه المدينة .

ثم قال : فالبعض من الكتبة الكنائسيين يرتؤون بأنه لما اختفى هؤلاء الفتية في تلك المغارة هرباً من الاضطهاد ، عرف أمرهم فأغلق عليهم باب المغارة بصخور عظيمة . وهكذا ماتوا فيها . وغيرهم يروون أنهم قتلوا من أجل الإيمان في مدينة أفسس . وبعد موتهم نقلت أجسادهم ودفنت في المغارة المذكورة . وآخرون يظنون أنهم حبسوا أنفسهم أحياء باختبائهم في المغارة المذكورة ، ليموتوا برضاهم ، هرباً من خطر أنواع العذاب القاسية التي كان يتكبدها المسيحيون في ذاك الاضطهاد الوحشي .

ثم قال : فكيفما كان نوع استشهاد هؤلاء السبعة ، فقد تحقق أن الله أراد أن يكرمهم

بإظهار أجسادهم بواسطة رؤيا سماوية . وذلك في 4 آب سنة 447 في زمن ولاية الملك ثاوضوسيوش الصغير .

ثم قال : ودرج على أفواه الشعوب ؛ أن هؤلاء الفتية ، بعد أن أغلق عليهم باب المغارة بأمر داكيوس الملك ، لم يموتوا ضمنها ، لا موتاً طبيعياً ولا قسرياً . بل رقدوا رقاد النوم مدة ، نحو مائتي سنة . ثم نهضوا من نومهم الطبيعي سنة 447 .

(285/470)

ثم قال : وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تأويل ما روي من رقادهم الطويل ، بأنه لما ظهرت أجسادهم سالمة من البلَى ، بعد أن دفنوا في ذلك الغار أحياءً أو أمواتاً ، بواسطة خارقة ما ، ونقلت من مدفنهم الذي كانوا فيه ، اعتبرت تلك الأجساد كأنها صودفت مستيقظة من نوم لذيذ كانت راقدة فيه . إلا أن الذي يبطل هذا التأويل ما نقله بعد عن القنداق ، من أنهم نهضوا بعد أن رقدوا عدة من السنين وانتصروا على ضلال أولئك الوثنيين .

وبظهورهم كذلك أيّدوا حقيّة إيمانهم ووطدوا المؤمنين في رجاء القيامة في الحياة الأبدية .

هذا ما اقتطفناه من كتاب " الكنز الثمين " وبه تعلم ما لدى أهل الكتاب المسيحيين من الاختلاف فيهم ، الذي أشار له القرآن الكريم . وقد جاء في " تاريخ الكنيسة " : إن أقوال

وأعمال الشهداء في المسيحية لم ينقل منها إلا القليل . لأن أكثرها أحرق بالنار مدة العشر سنوات . من سنة 293 إلى 303 وإن من القرن الثامن فصاعداً ، اعتنى الروم واللاتيّون بجمع حياة الشهداء الأولين . غير أن الأكثر حذاقة ، حتى الذين في حضن الكنيسة الرومانية ، يسلّمون الآن بأن أكثر الأخبار أحاديث ملفقة ، غراماً بالبلاغة . وجداول القديسين المسماة " أقوال الشهداء " ليست بأكثر ثقة . التي ألفها أناس جهلاء غير قادرين ، أو دخلها منذئذ أكاذيب . فهذا القسم من تاريخ الكنيسة إذ ذاك مظلم خال من النور . انتهى كلامه بالحرف .

وفيه ميل إلى النصفة من عدم الثقة بما لديهم من هذا الخلاف الذي حسم مادته ، واقتلعه من جذوره ، القرآنُ الكريم .

(286/470)

قال الحافظ ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ ﴾ [الكهف : 50] ، الآية الآتية ، معتذراً عما نقله ، ما مثاله : روي في هذا آثار كثيرة عن السلف . وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها . والله أعلم بحال كثير منها . ومنها ما قد يقطع بكذبه ، لمخالفته للحق الذي بأيدينا . وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة . لأنها

لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان . وقد وضع فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين . كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، والجهابذة النقاد ، والحفاظ الذي دونوا الحديث وحرروه ، وبيّنوا صحيحه من حسنه ومنكره وموضوعه ومتروكه . وعرفوا الوضّاعين والكذابين والمجهولين من أصناف الرجال . كل ذلك صيانة للجناب النبويّ والمقام المحمديّ خاتم الرسل وسيد البشر ، أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس منه . فرضي الله عنهم وأرضاهم . وجعل جنات الفردوس مأواهم . وقد فعل .

(287/470)

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾

أي : احبسها وثبّتها : ﴿ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ أي : مع أصحابك الذين يذكرونه سبحانه طرفي النهار ، بملازمة الصلاة فيهما : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أي : ذاته طلباً لمرضاته وطاعته ، لا عرضاً من أعراض الدنيا : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ أي : لا تجاوز نظرك إلى غيرهم بالإعراض عنهم : ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي : تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء تألفاً لقلوبهم : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾

أي : جعلناه غافلاً لبطلان استعداده للذكر بالمرة . أو وجدناه غافلاً عنه . وذلك لئلا يؤديك إلى الغفلة عنه : ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ أي : متروكاً متهاوناً به مضيَّعاً . أو ندماً أو سرفاً . وفي التعبير عن المأمور بالصبر معهم والمنهي عن إطاعتهم ، بالموصول ، للإيذان بعلّية ما في حيز الصلة .

قال ابن جرير : إن قوماً من أشراف المشركين رأوا النبي صلى الله عليه وسلم جالساً مع خبَّاب وصهيب وبلال . فسألوه أن يقيمهم عنه إذا حضروا . وفي رواية ابن زيد : أنهم قالوا له صلوات الله عليه : إنا نستحي أن نجالس فلاناً وفلاناً وفلاناً ، فجانبْهم وجالس أشراف العرب ، فنزلت الآية : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ . وروى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر . فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع . فحدّث نفسه . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ الآية .

قال ابن كثير : انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 28.32 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾

عطف على جملة ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ [الكهف : 26] بما فيها من قوله : ﴿ ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾ [الكهف : 26] .

والمقصود من هذا الرد على المشركين إذ كانوا أيامئذٍ لا يُبيّن لهم شيء إلا وانتقلوا إلى طلب شيء آخر فسألوا عن أهل الكهف وعن ذي القرنين ، وطلبوا من النبي أن يجعل بعض القرآن للثناء عليهم ، ونحو ذلك ، كما تقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً ﴾ في سورة الإسراء (73) .

"

والمعنى : لا تَعبأ بهم إن كرهوا تلاوة بعضِ ما أوحي إليك واتلُ جميع ما أوحي إليك فإنه لا مبدِّل له .

فلما وعدهم الجواب عن الروح وعن أهل الكهف وأبرَّ اللّهُ وعدَه إياهم قطعاً لمعذرتهم ببيان إحدى المسألتين ذيل ذلك بأن أمر نبيئه أن يقرأ القرآن كما أنزل عليه وأنه لا مبدِّل لكلمات الله ، ولكي لا يُطمعهم الإجابة عن بعض ما سألوه بالطمع في أن يجيبهم عن كل ما طلبوه .

وأصل النفي بـ (لا) النافية للجنس أنه نفي وجود اسمه .

والمراد هنا نفي الإذن في أن يبدل أحد كلمات الله .

والتبديل : التغيير بالزيادة والنقص ، أي بإخفاء بعضه بترك تلاوة ما لا يرضون بسماعه من إبطال شركهم وضلالهم .

وهذا يؤذن بأنهم طعنوا في بعض ما اشتملت عليهم القصة في القرآن كما أشار إليه قوله :

﴿ سيقولون ثلاثة ﴾ [الكهف : 22] وقوله : ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين ﴾ [الكهف : 25] .

وقد تقدم نظير هذا عند قوله تعالى : ﴿ ولا مبدل لكلمات الله ﴾ في سورة الأنعام (34) .

فالأمر في قوله : ﴿ واتل ﴾ كناية عن الاستمرار .

و﴿ ما أوحي ﴾ مفيد للعموم ، أي كل ما أوحي إليك .

ومفهوم الموصول أن ما لم يوح إليه لا يتلوه ، وهو ما اقترحوا أن يقوله في الثناء عليهم وإعطائهم شطراً من التصويب .

والتلاوة : القراءة.

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ﴾ في سورة البقرة (102) وقوله : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ في الأنفال (2) .

والملتحد : اسم مكان ميمي يجيء على زنة اسم المفعول من فِعله .

والملتحد : مكان الالتحاد ، والالتحاد : الميل إلى جانب .

وجاء بصيغة الافتعال لأن أصله تكلف الميل .

ويفهم من صيغة التكلف أنه مفر من مكروه يتكلف الخائف أن يأوي إليه ، فلذلك كان الملتَحد بمعنى الملجأ .

والمعنى : لن تجد شيئاً يُنجيك من عقابه .

والمقصود من هذا تأييسهم مما طمعوا فيه .

﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ﴾ .

هذا من ذيول الجواب عن مسألتهم عن أهل الكهف ، فهو مشارك لقوله : ﴿ واتل ما أوحى إليك من كتاب ﴾ [الكهف : 27] .

الآية وتقدم في سورة الأنعام (52) عند قوله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ أن سادة المشركين كانوا زعموا أنه لولا أن من المؤمنين

ناساً أهل خصاصة في الدنيا وأرقاء لا يدانوهم ولا يستأهلون الجلوس معهم لأَتَوْا إلى مجالسة النبي واستمعوا القرآن ، فاقترحوا عليْه أن يطردهم من حوله إذا غشيه سادة قريش ، فرد الله عليهم بما في سورة الأنعام وما في هذه السورة .

وما هنا آكدُ إذْ أمرَه بملازمتهم بقوله : واصبر نفسك ﴾ ، أي احبسها معهم حبس ملازمة .

والصبر : الشد بالمكان بحيث لا يفارقه .

ومنه سميت المَصْبورة وهي الدابة تشد لتُجعل غَرَضاً للرمي .

ولتضمين فعل (اصبر) معنى الملازمة علق به ظرف (مع) .

و﴿ الغداة ﴾ قرأه الجمهور بألف بعد الدال : اسم الوقت الذي بين الفجر وطلوع الشمس .

والعَشي : المساء .

والمقصود أنهم يدعون الله دعاءً متخللاً سائر اليوم والليلة .

والدعاء : المناجاة والطلب .

والمراد به ما يشمل الصلوات .

والتعبير عنهم بالموصول للإيماء إلى تعليل الأمر بملازمتهم، أي لأنهم أحرياء بذلك لأجل إقبالهم على الله فهم الأجدر بالمقارنة والمصاحبة.

وقرأ ابن عامر ﴿ بالغَدْوَةِ ﴾ بسكون الدال وواو بعد الدال مفتوحة وهو مرادف الغداة.

وجملة ﴿ يريدون وجهه ﴾ في موضع الحال.

ووجه الله: مجاز في إقباله على العبد.

ثم أكّد الأمر بمواصلتهم بالنهي عن أقل إعراض عنهم.

وظاهر ﴿ ولا تعد عيناك عنهم ﴾ نَهْي العينين عن أن تَعْدُوَا عن الذين يدعون ربهم، أي أن تُجاوزاهم، أي تبعُدَا عنهم.

والمقصود: الإعراض، ولذلك ضمن فعل العَدْو معنى الإعراض، فعدي إلى المفعول بـ (عن) وكان حقه أن يتعدى إليه بنفسه يقال: عداه، إذا جاوزه.

ومعنى نهي العينين نهي صاحبهما، فيؤول إلى معنى: ولا تعدّي عينيك عنهم.

وهو إيجاز بديع.

وجملة ﴿ تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ حال من كاف الخطاب، لأن المضاف جزء من المضاف إليه، أي لا تكن إرادة الزينة سبب الإعراض عنهم لأنهم لا زينة لهم من بزة وسمت.

وهذا الكلام تعريض بجماعة سادة المشركين الذين جعلوا همهم وعنايتهم بالأمور الظاهرة وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة والقلوب النيرة وجعلوا همّهم الصور الظاهرة.

هذا نهي جامع عن ملابسة شيء مما يأمره به المشركون.

والمقصود من النهي تأسيس قاعدة لأعمال الرسول والمسلمين تُجاه رغائب المشركين وتأييس المشركين من نوال شيء مما رغبوه من النبي صلى الله عليه وسلم

وما صدق (مَن) كل من اتصف بالصلة، وقيل نزلت في أمية بن خَلَف الجُمَحي، دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى طرد فقراء المسلمين عن مجلسه حين يجلس إليه هو وأضرابه من سادة قريش.

والمراد بإغفال القلب جعله غافلاً عن الفكر في الوحدانية حتى راج فيه الإشراك، فإن ذلك ناشىء عن خلقة عقول ضيفة التبصر مسوقة بالهوى والإلف.

وأصل الإغفال: إيجاد الغفلة، وهي الذهول عن تذكر الشيء، وأريد بها هنا غفلة خاصة، وهي الغفلة المستمرة المستفادة من جعل الإغفال من الله تعالى كناية عن كونه في

خِلقة تلك القلوب ، وما بالطبع لا يتخلف .

وقد اعتضد هذا المعنى بجملة ﴿ واتبع هواه ﴾ ، فإن اتباع الهوى يكون عن بصيرة لا عن ذهول ، فالغفلة خلقة في قلوبهم ، واتباع الهوى كسب من قدرتهم .

والفُرُط بضمتين : الظلم والاعتداء .

وهو مشتق من الفُروط وهو السبق لأن الظلم سبْق في الشر .

والأمر : الشأن والحال .

وزيادة فعل الكون للدلالة على تمكن الخبر من الاسم ، أي حالة تمكن الإفراط والاعتداء على الحق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(292/470)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ واتل مَآ أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبّكَ ﴾ .

(293/470)

أمر جل وعلا نبيه صلى الله عليه و في هذه الأية الكريمة : أن يتلو هذا القرآن الذي أوحاه إليه ربه . والأمر في قوله " واتل " شامل للتلاوة بمعنى القراءة . والتلو : بمعنى الاتباع . وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أمره تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بتلاوة القرآن العظيم واتباعه جاء مبنياً في آيات أخر . كقوله تعالى في سورة " العنكبوت " : ﴿ اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب وَأَقِمِ الصلاة ﴾ [العنكبوت : 45] الآية ، وكقوله تعالى في آخر سورة " النمل " : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة الذي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين وَأَنْ أَتْلُوَ القرآن ﴾ [النمل : 91-92] الآية ، ﴿ وَرَتِّلِ القرآن تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل : 4] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على الأمر بتلاوته ، وكقوه تعالى في الأمر باتباعه ﴿ اتبع مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إله إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ [الأنعام : 106] ، وقوله تعالى : ﴿ فاستمسك بالذي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف : 43] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ وَمَآ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف : 9] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ إني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : 15] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على الأمر باتباع هذا القرآن العظيم . ود بين في مواضع أخر بعض النتائج التي تحصل بسبب تلاوة القرآن

واتباعه. كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَأَقَامُوا الصلاة وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً

(294/470)

يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر: 29]، وقوله تعالى: ﴿ الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أولئك يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فأولئك هُمُ الخاسرون ﴾ [البقرة: 121]

والعبرة في هذه الآية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قوله تعالى: ﴿ لاَ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ ﴾.

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه لا مبدل لكلماته. أي لأن أخبارها صدق: وأحكامها عدل، فلا يقدر أحد أن يبدل صدقها كذباً. ولا أن يبدل عدلها جوراً: وهذا الذي ذكره هنا جاء مبينا في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السميع العليم ﴾ [الأنعام: 115]. فقوله: " صدقاً " يعني في الأخبار. وقوله " عدلاً " أي في الأحكام. وكقوله: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ على مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حتى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله وَلَقدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ المرسلين ﴾ [الأنعام: 34].

وقد بين تعالى في مواضع أخر ، أنه هو يبدل ما شاء من الآيات مكان ما شاء منها . كقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ [النحل : 101] الآية . وقوله : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [البقرة : 106] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي ﴾ [يونس : 15] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ .

(295/470)

أصل الملتحد : مكان الالتحاد وهو الافتعال : من اللحد بمعنى الميل ، ومنه اللحد في القبر ، لأنه ميل في الحفر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ في آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ [فصلت : 40] ، وقوله : ﴿ وَذَرُواْ الذين يُلْحِدُونَ في أَسْمَآئِهِ ﴾ [الأعراف : 180] ، الآية فمعنى اللحد والإلحاد في ذلك : الميل عن الحق . والملحد المائل عن دين الحق . وقد تقرر في فن الصرف أن الفعل إن زاد ماضيه على ثلاثة أحرف فمصدره الميمي واسم مكانه واسم زمانه كلها بصيغة اسم المفعول كما هنا . فالملتحد بصيغة اسم المفعول ،

والمراد به مكان الالتحاد ، اي المكان الذي يميل فيه إلى ملجإ أو منجى ينجيه مما يريد الله أن يفعله به .

وهذا الذي ذكره هنا من أن نبيه صلى الله عليه وسلم لا يجد من دونه ملتحداً . أي مكاناً يميل إليه ويلجأ إليه إن لم يبلغ رسالة ربه ويطعه – جاء مبينا في مواضع أخر . كقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ اللهِ وَرِسَالاَتِهِ ﴾ [الجن : 21–23] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : 44–47] الآية .

(296/470)

وكونه ليس ملتحد ، أي مكان يلجأ إليه تكرر نظيره في القرآن بعبارات مختلفة . كالمناص ، والمحيص ، والملجأ ، والمئل ، والمفر ، والوزر ، كقوله : ﴿ فَنَادَوا وَّلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [ص : 3] وقوله : ﴿ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً ﴾ [النساء : 121] ، وقوله : ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلاَدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ [ق : 36] وقوله : ﴿ مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى : 47] ، وقوله : ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾

[الكهف : 58] ، وقوله : ﴿ يَقُولُ الإنسان يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المفر كَلاَّ لا وزر ﴾ [القيامة : 10-11] فكل ذلك راجع في المعنى إلى شيء واحد ، وهو انتفاء مكان يلجؤون إليه ويعتصمون به

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾

أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة : أن يصبر نفسه ، أي يحبسها مع المؤمنين الذي يدعون ربهم أول النهار وآخره مخلصين له ، لا يريدون بدعائهم إلا رضاه جل وعلا .

(297/470)

وقد نزلت هذه الآية الكريمة في فقراء المهاجرين كعمار ، وصهيب ، وبلال ، وابن مسعود ونحوهم . لما أراد صناديد الكفار من النَّبي صلى الله عليه وسلم سلم أن يطردهم عنه ، ويجالسهم بدون حضور أولئك الفقراء المؤمنين ، وقد قدمنا في سورة " الأنعام " أن الله كما أمره هنا بأن يصبر نفسه معهم أمره بألا يطردهم ، وأنه إذا رآهم يسلم عليهم ، وذلك في قوله : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنعام : 52]

-إلى قوله- ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ الذين يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام : 54]

وقد اشار إلى ذلك المعنى في قوله : ﴿ عَبَسَ وتولى أَن جَآءَهُ الأعمى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذكرى أَمَّا مَنِ استغنى فَأَنتَ لَهُ تصدى وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يزكى وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يسعى وَهُوَ يخشى فَأَنتَ عَنْهُ تلهى كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [عبس : 1-11] . وقد قدمنا أن ما طلبه الكفار من نبينا صلى الله عليه وسلم من طرده فقراء المؤمنين وضعفاءهم تكبراً عليهم وازدراء بهم - طلبه أيضاً قوم نوح من نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وأنه امتنع من طردهم أيضاً ، كقوله تعالى عنهم : ﴿ قالوا أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون ﴾ [الشعراء : 111] ، وقوله عنهم أيضاً : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرأي ﴾ [هود : 27] ، وقال عن نوح في امتناعه من طردهم : ﴿ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ المؤمنين إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء : 114-115] ، وقوله تعالى عنه : ﴿ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الذين آمنوا إِنَّهُمْ مُّلاَقُو رَبِّهِمْ ولكني أَرَاكُمْ قَوْماً

تَجْهَلُونَ وياقوم مَن يَنصُرُنِي مِنَ الله إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود : 29-30] .

وقوله ﴿ واصبر نَفْسَكَ ﴾ فيه الدليل على أن مادة الصبر تتعدى بنفسها للمفعول ، ونظير

ذلك من كلام العرب قول أبي ذؤيب أو عنترة :

فصبرت عارفة بذلك حرة . . . ترسو إذا نفس الجبان تطلع

والغداة : أول النهار . والعشي آخره . وقال بعض العلماء : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي ﴾ اي يصلون صلاة الصبح والعصر . والتحقيق أن الآية تشمل أعم من مطلق الصلاة . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ﴾ .

نهى الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة – أن تعدو عيناه عن ضعفاء المؤمنين وفقرائهم ، طموحاً إلى الأغنياء وما لديهم من زينة الحياة الدنيا . معنى ﴿ لا تعد عيناك ﴾ : أي لا تتجاوزهم عيناك وتنبوا عن رثاثة زيهم ، محتقراً لهم صامحاً إلى أهل الغنى والجاه والشرف بدلاً منهم .

وعدا يعدو : تتعدى بنفسها إلى المفعول وتلزم . والجملة في قوله ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ﴾ في محل حال والرابط الضمير ، على حد قوله في الخلاصة :

وذات بدء بمضارع ثبت . . . حوت ضميرا ومن الواو خلت

وصاحب الحال المذكورة هو الضمير المضاف إليه في قوله " عيناك " وإنما ساغ ذلك لأن المضاف هنا جزء من المضاف إليه ، على حد قوله في الخلاصة :

ولا تجز حالاً من المضاف له . . . إلا إذا اقتضى المضاف عمله

أو كان جزء ماله أضيفا . . . أو مثل جزئه فلا تحيفا

(299/470)

وما نهى الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة من طموح العين إلى زينة الحياة الدنيا ، مع الاتصاف بما يرضيه جل وعلا من الثبات على الحق ، كمجالسة فقراء المؤمنين – أشار له أيضاً في مواضع أخر ، كقوله ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَآءِ الليل فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النهار لَعَلَّكَ ترضى وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحياة الدنيا ﴾ [طه : 130-131] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ المثاني والقرآن العظيم لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ ﴾ [الحجر : 87-88] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتبع هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ .

نهى الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة عن طاعة من أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه ، وكان أمره فرطاً . وقد كرر في القرآن نهى نبيه صلى الله عليه وسلم عن اتباع مثل هذا الغافل عن ذكر الله المتبع هواه ، كقوله تعالى : ﴿ فاصبر لِحُكْمِ

رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ [الإنسان : 24] ، وقوله : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ [الأحزاب : 48] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم : 9-13] إلى غير ذلك من الآيات .

(300/470)

وقد أمره في موضع آخر بالإعراض عن المتولين عن ذكر الله ، والذين لا يريدون غير الحياة الدنيا ، وبين له أن ذلك هو مبلغهم من العلم . وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [النجم : 29-30] .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ ﴾ يدل على أن ما يعرض للعبد من غفلة ومعصية ، إنما هو بمشيئة الله تعالى . إذ لا يقع شيء البتة كائناً ما كان إلا بمشيئة الكونية القدرية ، جل وعلا ، ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان : 30] الآية ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ [الأنعام : 107] ، ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة : 13] ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ ، ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

[البقرة : 7] الآية ، ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وفي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الأنعام : 25] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن كل شيء من خير وشر ، لا يقع إلا بمشيئة خالق السموات والأرض . فما يزعمه المعتزلة ، ويحاول الزمخشري في تفسيره دائماً - تأويل آيات القرآن على نحو ما يطابقه من استقلال قدرة العبد وإرادته فأفعاله دون مشيئة الله ، لا يخفى بطلانه كما تدل عليه الآيات المذكورة آنفاً ، وأمثالها في القرآن كثيرة .

ومعنى اتباعه هواه : أنه يتبع ما تميل إليه نفسه الأمارة بالسوء وتهواه من الشر ، كالكفر والمعاصي .

(301/470)

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ قيل : هو من التفريط الذي هو التقصير ، وتقديم العجز بترك الإيمان . وعلى هذا فمعنى ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ أي كانت أعماله سفهاً وضياعاً وتفريطاً . وقيل : من الإفراط الذي هو مجاوزة الحد ، كقول الكفار المحتقرين لفقراء المؤمنين : نحن أشراف مضر وساداتها ! إن اتبعناك اتبعك جميع الناس . وهذا من التكبر والإفراط في القول . وقيل " فرطاً " أي قدما في الشر . . من قولهم : فرط منه أمر ، اي سبق . وأظهر الأقوال في معنى الآية الكريمة عندي بحسب اللغة العربية التي نزل بها القرآن

أن معنى قوله " فرطاً " : اي متقدماً للحق والصواب ، نابذاً له وراء ظهره . من قولهم : فرس فرط ، اي متقدم للخيل . ومنه قول لبيد في معلقته :

ولقد حميت الخيل تحمل شكتي . . . فرط وشاحي إذ غدوت لجامها

وإلى ما ذكرنا في معنى الآية ترجع أقوال المفسرين كلها ، كقول قتادة ومجاهد " فرطاً " أي ضياعاً . وكقول مقاتل بن حيان " فرطاً " اي سرفاً . كقول الفراء " فرطاً " أي متروكاً . وكقول الأخفش " فرطاً " أي مجاوزاً للحد ، إلى غير ذلك من الأقوال . انتهى . ا هـ

﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(302/470)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾

أي بعد هذه الأسئلة التي سألك كفار مكة إياها ، وأخبرك الله بها فأجبتهم ، اعلم أن لك رباً رفيقاً بك ، لا يتخلّى عنك ولا يتركك لكيدهم ، فإنْ أرادوا أن يصنعوا لك مأزقاً أخرجك الله منه ، وإياك أنْ تظنّ أن العقبات التي يقيمها خصومك ستُؤّثر في أمر دعوتك . وإنْ أبطأتْ نُصْرة الله لك فاعلم أن الله يريد أنْ يُمحِّص جنود الحق الذين يحملون الرسالة إلى

أن تقوم الساعة، فلا يبقى في ساحة الإيمان إلا الأقوياء الناضجون، فالأحداث والشدائد التي تمرُّ بطريق الدعوة إنما لتغربل أهل الإيمان حتى لا يصمد فيها إلا مَنْ هو مأمون على حَمْل هذه العقيدة.

وقوله: ﴿ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ .. ﴾ [الكهف: 27] لأن كلمات الله لا يستطيع أحد أنْ يُبدِّلها إلا أنْ يكون معه سبحانه إله آخر، فما دام هو سبحانه إلهاً واحداً لا شريك له، فاعلم أن قوله الحق الذي لا يُبدّل ولا يُغيّر: ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ [الكهف: 27] أي: ملجأ تذهب إليه؛ لأن حَسْبك الله وهو نِعْم الوكيل، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلك لَرَحْمَةً وذكرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: 51]

(303/470)

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي .. ﴾.

نزلتْ هذه الآية في "أهل الصُّفَّة" وهم جماعة من أهل الله انقطعوا للعبادة فتناولتهم ألسنة الناس واعترضوا عليهم، لماذا لا يعملون؟ ولماذا لا يشتغلون كباقي الناس؟ بل وذهبوا إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : نريد أن تلتفت إلينا ، وأن تترك هؤلاء المجاذيب ، فأنزل الله تعالى : ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم . . ﴾ [الكهف : 28]

لذلك علينا حينما نرى مثل هؤلاء الذين نُسمّيهم المجاذيب الذين انقطعوا لعبادة الله أن لا نحتقرهم ، ولا نُقلّل من شأنهم أو نتهمهم ؛ لأن الله تعالى جعلهم موازين للتكامل في الكون ، ذلك أن صاحب الدنيا الذي انغمس فيها وعاش لها وباع دينه من أجل دُنْياه حينما يرى هذا العابد قد نفض يديه من الدنيا ، وألقاها وراء ظهره ، وراح يستند إلى حائط المسجد مُمدّداً رجلاً ، لا تعنيه أمور الدنيا بما فيها .

ومن العجيب أن صاحب الدنيا هذا العظيم صاحب الجاه تراه إنْ أصابه مكروه أو نزلتْ به نازلة يُهْرَع إلى هذا الشيخ يُقبّل يديه ويطلب منه الدعاء ، وكأن الخالق سبحانه جعل هؤلاء المجاذيب ليرد بهم جماح أهل الدنيا المنهمكين في دوامتها المغرورين بزهرتها .

وأيضاً ، كثيراً ما ترى أهل الدنيا في خِدْمة هؤلاء العباد ، ففي يوم من الأيام قُمْنا لصلاة المغرب في مسجد سيدنا الحسين ، وكان معنا رجل كبير من رجال الاقتصاد ، فإذا به يُخرج مبلغاً من المال ويطلب من العامل صرفه إلى جنيهات ، فأتى العامل بالمبلغ في صورة جنيهات من الحجم الصغير ، فإذا برجل الاقتصاد الكبير يقول له : لا ، لا بُدَّ من جنيهات من الحجم الكبير ؛ لأن فلاناً المجذوب على باب الحسين لا يأخذ إلا بالجنيه الكبير ، فقلت

في نفسي : سبحان الله مجذوب على باب المسجد وشغل أكبر رجل اقتصاد في مصر ، ويحرص الرجل على إرضائه ويعطيه ما يريد .

(304/470)

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ . . ﴾ [الكهف : 28] أي : اجعل عينيك فيهم ، ولا تصرفها عنهم إلى غيرهم من أهل الدنيا ؛ لأن مَدد النظرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم زاد للمؤمن ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا . . ﴾ [الكهف : 28] لأنك إنْ فعلتَ ذلك وانصرفتَ عنهم ، فكأنك تريد زينة الحياة الدنيا وزخارفها .

وفي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بملازمة أهل الصُّفَّة وعدم الانصراف عنهم إلى أهل الدنيا ما يُقوِّي هؤلاء النفر من أهل الإيمان الذين جعلوا ديْدنهم وشاغلهم الشاغل عبادة الله والتقرُّب إليه .

لكن ، هل المطلوب أن يكون الناس جميعاً كأهل الصُّفَّة منقطعين للعبادة؟ بالطبع لا ، فالحق سبحانه وتعالى جعلهم بين الناس قِلّة ، في كل بلد واحد أو اثنان ليكونوا أُسْوة تُذكِّر الناس وتكبح جماح تطلّعاتهم إلى الدنيا .

ومن العجيب أن ترى البعض يدَّعي حال هؤلاء ، ويُوهِم الناس أنه مجذوب ، وأنه وَلِيٌّ نَصْباً

واحتيالاً ، والشيء لا يُدَّعَى إلا إذا كانت من ورائه فائدة ، كالذي يدَّعي الطب أو يدَّعي العلم لما رأى من مَيْزات الطبيب والعالم . فلما رأى البعض حال هؤلاء المجاذيب ، وكيف أنهم عزفوا عن الدنيا فجاءتْ إليهم تدقُّ أبوابهم ، وسعى إليهم أهلها بخيراتها ، فضلاً عَمَّا لهم من مكانة ومنزلة في النفس ومحبة في القلوب .

فلماذا إذنْ لا يدعون هذه الحال ؟ ولماذا لا ينعمون بكل هذه الخيرات دون أدنى مجهود ؟ وما أفسد على هؤلاء العباد حالَهم ، وما خاض الناس في سيرتهم إلا بسبب هذه الطبقة الدخيلة المدَّعية التي استمرأتْ حياة الكسل والهوان .

(305/470)

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا . . ﴾ [الكهف : 28] لأنه لا يأمرك بالانصراف عن هؤلاء والالتفات إلى أهل الدنيا إلا مَنْ غفل عن ذكر الله ، أما مَن اطمأن قلبه إلى ذِكْرنا وذاق حلاوة الإيمان فإنه لا يأمر بمثل هذا الأمر ، بل هو أقرب ما يكون إلى هؤلاء المجاذيب الأولياء من أهل الصُّفَّة ، بل وربما تراوده نفسه أن يكون مثلهم ، فكيف يأمر بالانصراف عنهم ؟

وقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم الموقف من الدنيا في قوله : " أوحى الله إلى الدنيا :

مَنْ خدمني فاخدميه، ومَنْ خدمك فاستخدميه . . " فالدنيا بأهلها في خدمة المؤمن الذي يعمر الإيمانُ قلبه، وليس في باله إلا الله في كل ما يأتي أو يَدَع .

وقوله تعالى : ﴿ واتبع هَوَاهُ . . ﴾ [الكهف : 28] أي : أن هذا الذي يُحرِّضك على أهل الصُّفَّة ما غفل قلبه عن ذكرنا إلا لأنه سار خلف هواه، فأخذه هواه وألهاه عن ذكر الله ، فما دام قد انشغل بشيء يوافق هواه فلن يهتم بمطلوب الله، إنه مشغول بمطلوب نفسه ؛ لذلك يقول صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تِبَعاً لما جئتُ به " .

فالمؤمن الحق سليم الإيمان مَنْ كان هواه ورغبته موافقة لمنهج الله، لا يحيد عنه، وقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض . . ﴾ [المؤمنون : 71]

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ [الكهف : 28] أي : كان أمره ضياعاً وهباءً ، فكأنه أضاع نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ واصبر نَفْسَكَ ﴾ : أي : احبِسْها وثَبِّتْها ، قال أبو ذؤيب :

3141- فصبَرْتُ عارفةً لذلك حُرَّة . . . تَرْسُو إذا نَفْسُ الجبانِ تَطَلَّعُ

وقوله : " بالغَداة " تقدَّم الكلامُ عليها في الأنعام .

قوله : ﴿ ولا تَعْدُ عَيْنَاكَ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنَّ مفعولَه محذوفٌ ، تقديرُه : ولا تَعْدُ عيناك النظرَ . والثاني : أنه ضُمِّنَ معنى ما يتعدَّى ب " عَنْ " . قال الزمخشري : " وإنما عُدِّيَ ب " عَنْ " لتضمين " عَدا " معنى نبا وعلا في قولِك : نَبَتْ عنه عيْنُه ، وعلَتْ عنه عَيْنُه ، إذا اقتحَمَتْه ولم تَعْلَقْ به . فإن قلت : أيُّ غرضٍ في هذا التضمين ؟ وهَلاَّ قيل : ولا تَعْدُهم عيناك ، أو : ولا تَعْلُ عيناك عنهم ؟ قلت : الغرضُ فيه إعطاءُ مجموعِ معنيين ، وذلك أقوى من إعطاءِ معنى فَذٍّ . ألا ترى كيف رَجَعَ المعنى إلى قولك : ولا تَقْتَحِمْهُمْ عيناك متجاوزتَيْن إلى غيرهم . ونحوه ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إلى أَمْوَالِكُمْ ﴾ [النساء : 2] ، أي : ولا تَضُمُّوها إليها آكلين لها " .

وردَّه الشيخُ : بأنَّ مذهبَ البصريين أن التضمينَ لا ينقاس ، وإنما يُصار إليه عند الضرورة . فإذا أمكن الخروجُ عنه فلا يُصار إليه .

وقرأ الحسن " ولا تُعْدِ عَيْنَيْكَ " مِنْ أَعْدى رباعياً . وقرأ هو وعيسى والأعمش " ولا تُعَدِّ " بالتشديد من عَدَّى يُعَدِّي مُضَعَّفاً ، عدَّاه في الأولى بالهمزة وفي الثانيةِ بالتثقيلِ ، كقولِ

النابغة :

3142- فَعَدِّ عَمَّا ترى إذ لا ارْتِجاعَ له . . . وانمِ القُتُودَ على عَيْرانَةٍ أُجُدِ

(307/470)

كذا قال الزمخشري وأبو الفضل . وردَّ عليهما الشيخ : بأنه لو كان تعدّيه في هاتين القراءتين بالهمزةِ أو التضعيفِ لَتَعَدَّى لاثنين ، لأنه قبل ذلك متعدٍّ لواحدٍ بنفسه . وقد أقرَّ الزمخشري بذلك حيث قال : " يقال : عَدَاه إذا جاوزه ، وإنما عُدِّي ب عن لتضمُّنِه معنى علا ونبا ، فحينئذٍ يكون أَفْعَل وفَعَّل مِمَّا وافقا المجردَ " وهو اعتراضٌ حسنٌ .

قوله : " تُريد " جملةٌ حالية . ويجوز أن يكونَ فاعلُ " تريد " المخاطبَ ، أي : تريد أنت . ويجوز أن يكون ضمير العينين ، وإنما وُحِّد لأنهما متلازمان يجوز أَنْ يُخْبِرَ عنهما خبرُ الواحد . ومنه قولُ امرئ القيس :

3143- لِمَنْ زُحْلُوقَةٌ زُلٌّ . . . بها العَيْنان تَنْهَلُّ

وقولُ الآخر :

3144- وكأنَّ في العينين حَبَّ قَرَنْفُلٍ . . . أو سُنْبُلاً كُحِلَتْ به فانهَلَّتِ

وفيه غيرُ ذلك . ونسبةُ الإِرادةِ إلى العينين مجازٌ . وقال الزمخشري : " الجملةُ في موضعِ

الحال" . قال الشيخ : " وصاحبُ الحالِ إنْ قُدِّرَ " عَيْناك " فكان يكون التركيبُ : تريدان " . قلت : غَفَل عن القاعدةِ التي ذكرْتُها : من أنَّ الشيئين المتلازمين يجوز أن يُخْبَرَ عنهما إخبارُ الواحدِ . ثم قال : " وإن قَدَّر الكافَ فمجيءُ الحالِ من المجرورِ بالإِضافةِ مثلَ هذا فيه إشكالٌ ، لاختلافِ العاملِ في الحالِ وذي الحال .

وقد أجاز ذلك بعضُهم إذا كان المضافُ جزءاً أو كالجزءِ ، وحَسَّن ذلك أنَّ المقصودَ نهيُه هو عليه السلام . وإنما جِيْءَ بقوله : " عيناك " والمقصودُ هو لأنهما بهما تكونُ المراعاةُ للشخصِ والتلفُّتُ له " .

(308/470)

قلت : وقد ظهر لي وَجْهٌ حسنٌ لم أرَ غيري ذَكَرَه : وهو أن يكون " تَعْدُ " مُسنداً لضميرِ المخاطب صلى الله عليه وسلم ، و " عيناك " بدلٌ من الضميرِ بدلُ بعضٍ من كل . و " تُريدُ " على وَجهَيْها : مِنْ كونها حالاً مِنْ " عيناك " أو من الضمير في تَعُدْ . إلا أنَّ في جَعْلِها حالاً من الضمير في " ولا تَعْدُ " ضَعفاً : من حيث إنَّ مراعاةَ المبدلِ منه بعد ذِكْرِ البدلِ قليلٌ جداً تقول : " الجارية حسنُها فاتِنٌ " ولا يجوز " فاتنة " إلا قليلاً ، كقوله :

3145- فكأنه لِهقُ السَّراةِ كأنَّه . . . ما حاجبَيْهِ مُعَيَّنٌ بسَوادِ

فقال: "مُعَيَّنٌ" مراعاةً للهاء في "كأنه"، وكان الفصيحُ أن يقولَ: "مُعَيَّنان" مراعاةً لحاجبَيْه الذي هو البدلُ.

قوله: ﴿ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ ﴾ العامَّة على إسنادِ الفعل ل "ن" و "قلبَه" مفعول به. وقرأ عمرو بن عبيد بن فائد وموسى الأسواري بفتح اللام ورفع "قلبُه" أَسْندوا الإغفالَ إلى القلبِ. وفيه أوجهٌ. قال ابن جني: مَنْ ظَنَنَّا غافِلين عنه". وقال الزمخشري: "مَنْ حَسِبْنا قلبُه غافلين، مِنْ أَغْفَلْتُه إذا وَجَدْتَهُ غافلاً". وقال أبو البقاء: "فيه وجهان، أحدُهما: وَجَدْنا قلبُه مُعْرِضين عنه. والثاني: أهمل أَمْرَنا عن تَذَكُّرِنا".

قوله: "فُرُطاً" يحتمل أَنْ يكون وصفاً/ على فُعُل كقولِهم: "فرسٌ فُرُطٌ"، أي: متقدِّمٌ على الخيل، وكذلك هذا، أي: متقدِّماً للحقِّ. وأن يكونَ مصدراً بمعنى التفريط أو الإفراط. قال ابنُ عطية: "الفُرُطُ: يحتمل أن يكون بمعنى التفريط والتضييع، أي: أمرَه الذي يجب أن يَلْزَم، ويُحتمل أَنْ يكونَ بمعنى الإِفراط والإِسراف. انتهى انتهى. اهـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 472.476 ﴾

(309/470)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى صبر)

الصَّبر فى اللغة : الحَبْس والكفّ فى ضيق ، منه قيل : فلانٌ صُبِرَ : إِذا أُمسك وحُبِس للقتل .

قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ ، أَى احبس نفسك معهم .

فالصَّبر : حبس النَّفس عن الجزع والسّخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن التشويش .

قال الإِمام أَحمد – رحمه الله – : ذَكر الله تعالى الصّبرَ فى القرآن فى نحوٍ من تسعين موضعًا ، وهو واجب بإِجماع الأُمّة .

وهو نصف الإِيمان ؛ فإِنَّ الإِيمان نصفان : نصفُ صبر ، ونصف شُكر .

وهو فى القرآن على ستّة عشر نوعا :

الأَوّل : الأَمر به نحو قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ، ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ .

الثاني : النّهى عن ضدّه كقوله : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ ، وقولِه : ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ ، فإِن تَوْلية الأَدبار ترك الصّبر والمصابرة .

الثالث : الثَّناء على أَهله كقوله : ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَائِكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُولَائِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ .

وهو كثير النَّظائر فى التنزيل .

الرّابع : إِيجاب معيّته لهم المعيّةَ التى تتضمّن حفظهم ونصرهم وتأْييدهم ، ليست معيّة عامّة ، أَعنى مَعيَّة العِلْم والإِحاطة ، كقوله : ﴿ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

(310/470)

الخامس : إِيجاب محبّته لهم ، كقوله : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

السّادس : إِخباره بأَنّ الصبر خير لهم ، كقوله : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

السّابع : إِيجابه الجزاء لهم بأَحسن ما كانوا يعملون .

الثامن : إيجابه الجزاء لهم بغير حساب ، كقوله : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

التاسع : إطلاق البُشرى لأهل الصّبر ، كقوله : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ .

العاشر : ضمان النَّصْر والمَدَدِ لهم ، كقوله : ﴿ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ ﴾ وفى الحديث : "إِنَّ النَّصْرَ مع الصبر" .

الحادى عشر : الإخبار أَنَّ أَهل الصّبر مع أَهل العزائم ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ .

الثانى عشر : الإخبار أَنَّه ما يُلقَّى الأَعمال الصّالحة وجزاءَها إِلاَّ أَهل الصّبر ، كقوله : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ .

الثالث عشر : الإخبار أَنَّه ينتفع بالآيات والعِبَر أَهلُ الصّبر ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ

لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ، وقوله فى أهل سبأ : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ، وقوله فى سورة الشورى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

الرّابع عشر : الإخبار بأنّ الفوز بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب ، ودخول الجنّة إنّما نالوه بالصّبر ، كقوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ .

الخامس عشر : يورث صاحبه الإمامة .

وإنّ بالصبر واليقين يُنال الإمامة فى الدّين ، كقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ .

السّادس عشر : اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان ، كما قرنه سبحانه باليقين وبالتّقوى والتوكُّل والشكر ؛

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

ولا إيمانَ لمن لا صَبْرَ له ، كما أنّه لا جَسَد لمن لا رأس له .

قال عمر بن الخطّاب : خير عيش ما أدركناه بالصّبر .

وفى الحديث : "الصّبرُ ضِياء" .

وفيه : "من يتصبّر يُصَبّره الله" .

وأَمَر بالصّبر عند المصيبة ، وأَخبر أنه عند الصّدْمة الأُولى ، وأَمر المصاب بأَنفع الأُمور له وهو الاحتساب ، فإِنّ ذلك يخفّف مُصيبته ويوفّر أَجره .

والجزع والسّخط والتشكِّى يزيد المصيبة ، ويُذهب الأَجر .

(312/470)

والصّبر على ثلاثة أَنواع : صَبْرٌ على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله ، وصبر على امتحان الله .

فالأَولان : الصّبر على ما يتعلق بالكسب .

والثالث : الصّبر على مالا كسب للعبد فيه .

وقال بعض المشايخ : كان صبر يوسف عن طاعة امرأة العزيز أَكمل من صبره على إِلقاءِ إِخْوته إِيّاه فى الجُبّ ، وبيعهم [إِيّاه] ، وتفريقهم بينه وبين أَبيه ، فإِنّ هذه أُمور جرَت عليه بغير اختياره ، لا كسب له فيها ، ليس للعبد فيها حيلة غير الصّبر .

وأَمّا صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضا ، ومحاربة للنّفس ، ولا سيّما مع أَسباب تقوى معها داعية الموافقة ؛ فإِنه كان شابًّا ، وداعية الشاب إِليها قوّته ؛ وكان عزَبًا ليس له ما

يعوّضه ويَرُدّ شهوته؛ وغريبًا، والغريب لا يستحى فى بلدِ غُربته ممّا يستحى منه بين أَصحابه وأَهله؛ ويحسبونه مملوكًا، والمملوك ليس وازعه كوازع الحرّ؛ والمرأَة جميلة وذات مَنْصِب، وقد غاب الرّقيب، وهى الدّاعية له إِلى نفسها، والحريصة على ذلك أَشدّ الحرص، ومع ذلك توعّدته بالسجن إِن لم يفعل.

فمع هذه الدّواعى كلّها صبر اختيارًا، وإِيثارًا لما عند الله.

وأَين هذا من صبره فى الجُبّ على ما ليس من كسبه؟!

والصّبر على أَداءِ الطَّاعات أَكمل من الصّبر على اجْتِنَاب المحرّمات؛ فإِنَّ مصلحة فعل الطَّاعة أَحَبُّ إِلى الشَّارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أَبغض وأَكره من مفسدة وجود المعصية.

ثمّ الصّبر ينقسم بنوع آخر من القسمة على ثلاثة أَنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

فالأَوّل: الاستعانة به، ورؤية أَنَّه هو المصبِّر، وأَنَّ صبر العبد بربّه لا بنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾، يعنى إِنْ لم يُصَبِّرك هو لم تصبر.

والثَّانى: أَن يكون الباعث على الصّبر محبّة الله وإِرادة وجهه، والتقرّب إِليه، لا إِظهار قوّة النفْس، والاستحماد إِلى الخلق، وغير ذلك من الأَغراض.

والثالث : دروان العبد الذى (مُنى مع) الأَحكام الدينيّة صابرًا نفسه معها ، سائرًا بسَيرها ، مقيمًا بإِقامتها ، يتوجّه معها أَينما توجّهت ركائبها ، وينزل حيث استقلّت مضاربُها .

فهذا معنى كونه صابرًا مع الله ، قد جعل نفسه وَقْفا على أَوامره ومحابّه .

وهو أَشدّ أَنواع الصّبر وأَصبعها .

وهو صب الصدّيقين .

قال ذو النُّون : الصبر : التباعد من المخالفات ، والسّكون عند تجرّع غُصص البليّات ، وإِظهار الغنى مع طول الفقر بساحات المعيشة .

وقيل : الصبر : الوقوف مع البلاءِ بحسن الأَدب .

وقيل : هو الفناءُ فى البلوَى ، بلا ظهور شكوَى .

وقيل : إِلزام النَّفْس الهجومَ على المكاره .

وقيل : المُقام مع البلاءِ بحسن الصّحبة كالمقام مع العافية .

وقال عمرو بن عثمان : هو الثبات مع الله ، وتلقِّى بلائه بالرُّحْب والسّعة .

وقال الخّواص : هو الثبات على أَحكام الكتاب والسنة .

وقال يحيى بن مُعَاذ : صبر المحبّين أَشدّ من صبر الزاهدين .

واعجبا كيف يصبرون ! وأَنشد .

*والصّبر يُحْمَدُ فى المواطنِ كلّها * إلاّ عليكَ فإِنّه مذمومُ*

وقيل: الصّبر هو الاستعانة بالله.

وقيل: هو ترك الشكوَى.

وقيل:

*الصّبر مثلُ اسمه مُرٌّ مَذاقته * لكنْ عواقبه أَحلَى من العسلِ*

وقيل: الصّبر أَن ترضى بتلَف نفسك فى رضا مَن تحبّه، كما قيل:

سأَصبر كى ترضَى وأَتْلَفُ حسرةً * وحَسْبِىَ أَن ترضى ويقتلنى صبرى*

وقيل: مراتب الصّبر خمسة: صابر، ومصطبر، ومتصبّر، وصَبُور، وصبّار.

فالصّابر أَعمّها.

والمصطبر: المكتسِب للصبر، والمبتَلى به.

والمتصبّر: متكلِّف الصّبر حامل نُفسِه عليه.

والصّبور: العظيم الصّبر الّذى صَبْره أَشدّ من صبر غيره.

والصّبّار: الشديد الصّبر، فهذا فى القَدْر والكمّ، والّذى قبله فى الوصف والكيف.

وقال علىّ بن أَبى طالب: الصّبر مطيّة لا تَكْبُو.

وقف رجل على الشِّبْلِىّ فقال: أَىّ الصّبر أَشدّ على الصّابرين؟ فقال: الصّبر فى الله.

فقال السّائل : لا .

قال : مع الله .

قال : لا .

قال : فأَيش ؟ قال : الصّبر عن الله .

فصرخ الشّبلىّ صَرخةً كادت نفسه تتلف .

وقال الجَريرىّ : الصّبر أَلاَّ تفرق بين حال النعمة وحال المحنة ، مع سكون الخاطر فيهما .

والتصبّر : السّكون مع البلاءِ ، مع وِجدان أَثقال المِحْنَة .

وقال أَبو على الدّقّاق : فاز الصّابرون بعز الدّاريَين ؛ لأَنهم نالوا مع الله معيّته ؛ فإِنَّ اللهَ مَعَ الصّابرين .

وقيل فى قوله : ﴿ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ ، انتقال من الأَدنى إِلى الأَعلى .

فالصبر دون المصابرة ، والمصابرة دون المرابطة : مفاعلة من الرّبط وهو الشدّ .

وسمّى المرابِط مرابطاً لأَنَّ المرابِطين

يربِطون خيولهم ينتظرون الفَزَع .

ثمّ قيل لكلّ منتظر ، قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها : مرابِط .

وقيل فى تفسيره : اصبروا بنفوسكم ، وصابروا بقلوبكم على البَلْوَى فى الله ، ورابطوا

بأَسراركم على الشوق إِلى الله .

وقيل : اصبروا فى الله ، وصابروا بالله ، ورابطوا مع الله لعلكم تفلحون فى دار البقاءِ .

فالصبر مع نفسك ، والمصابرة بينك وبين عدوّك ، والمرابطة : الثبات وإِعداد العدّة ؛ كما أَن الرّباط ملازمة الثغر لئلاَّ يهجُمه العدوّ .

فكذلك المرابَطة أَيضًا : لزوم ثَغْر القلب ؛ لئلاَّ يهجُم عليه الشيطان فيملكَه .

أَو يُخربه أَو يشعّثه .

وقيل : تَجرَّعِ الصّبرَ ، فإِنْ قَتَلَك قتلك شهيدًا ، وإِن أَحياك أَحياك عزيزًا حميدًا .

وقيل : الصّبر لله عَناء ، وبالله بقاء ، وفى الله بلاء ، ومع الله وفاء ، وعن الله جفاء .

والصّبر على الطَّلب عنوان الظَّفر ، وفى المِحَن عنوان الفَرَج .

وفى كتاب الأَدب للبخارىّ : سئل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن الإِيمان فقال :

"الصّبر والسّماحة" .

(315/470)

وهذا من أَجمع الكلام ، وأَعظمه برهانًا ، وأَوعاه لمقامات الإِيمان من أَوّلها إِلى آخرها ؛ فإِن النَّفس يراد منها شيئان : بذل ما أُمِرَت به وإِعطاؤه ، فالحامل عليه السّماحة ؛ وترك ما

نُهيتْ عنه والبعد عنه ، فاحامل عليه الصّبر .

وقد أضمر الله سبحانه فى كتابه بالصّبر الجميل الذى لا شكو معه ، والصّفح الجميل الّذى لا عِتاب معه ، والهجرِ الجميل الذى لا أَذى معه .

وقال ابن عُيَيْنَة فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ : أَخذوا برأْس الأَمر فجعلهم رُءُوسًا .

واعلم أَنَّ الشكوى إِلى الله عزَّ وجلّ لا تُنافى الصّبر ؛ فإِنَّ يعقوب – عليه السلام – وَعَد بالصّبر الجميل ، والنبىّ إِذا وَعَدَ لا يُخلف ، ثمّ قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ، وكذلك أَيّوب عليه السّلام أَخبر الله عنه أَنه وجده صابرًا مع قوله : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ، وإِنَّما ينافى الصبر شكوى الله لا الشكوى إِلى الله ؛ كما رأَى بعضهم رجلاً يشكو إِلى آخر فاقةً وضرورة ، فقال : يا هذا ، تشكو من يَرْحَمُكَ إِلى مَنْ لا يرحمك ! ثمّ أَنشده :

*وإِذا اعْتَرَتْكَ بليّةٌ فاصبِر لها * صبْرَ الكريمِ فإِنَّه بك أَرحمُ*

*وإِذا شكوتَ إِلى ابن آدم إِنّما * تشكو الرّحيم إِلى الَّذى لا يرحم*

وقال الشيخ عبد الله الأَنصارىّ : الصّبر حبس النفْس على المكروه ، وعقل اللِّسان عن الشكوى .

وهو على ثلاث درجات :

الأُولى : الصّبر عن المعصية بمطالعة الوعيد .

وأَحسن منها الصّبر عن المعصية حياءً .

الثانية : الصّبر على الطاعة بالمحافظة عليها دوامًا ، وبرعايتها إِخلاَصًا ، وبتحسينها عِلمًا .

الثالثة : الصّبر فى البلاءِ بملاحظة حسن الجزاءِ ، وانتظار رَوْح الفَرَج ، وتهوِين البليّة بِعَدّ أَيادى المِنَن ، وتذكُّر سوالف النِّعم .

وأَضعف الصّبر ، الصَّبْرُ لله وهو صبر العامة .

(316/470)

وفوقه الصبر بالله وهو صبر المريدين .

وفوقه الصبر على الله وهو صبر السّالكين .

ومعنى كلامه أَنّ صبر العامّة لله ، أَى رجاءَ ثوابه وخوف عقابه ، وصبر المريدين بالله ، أَى بقوّة الله ومعونته ، فهم لا يرون لأَنفسهم صبرًا ولا قوّة عليه ، بل حالهم التَّحقُّق بلا حول ولا قوّة إِلاَّ بالله عِلمًا ومعرفة وحالاً .

وفوقها الصّبر على الله ، أَى على أَحكامه .

هذا تقرير كلامه رحمه الله .

والصّواب أنَّ الصّبر لله فوق الصّبر بالله ، وأَعلى درجة ، وأَجلّ شأْنًا ؛ فإِنَّ الصّبر لله متعلق بالإِلَهية ، والصّبر به متعلق بربوبيّته ، وما تعلق بالإِلَهية أَكمل وأَعلى مما تعلق بربوبيّته ، ولأَنَّ الصّبر له عبادة ، والصّبر به استعانة ، والاستعانة وسيلة ، والعبادة غاية ، والغاية مرادة لنفسها ، والوسيلة مرادة لغيرها ؛ ولأَنَّ الصّبر به مشترك ، بين المؤمن والكافر ، والبرّ والفاجر ، فكلّ من شهد الحقيقة الكونيّة صَبَر به ، وأَمّا الصّبر له فمنزلة الرُّسُل والأَنبياءِ والصّدّيقين ؛ ولأَن الصّبر له صبر فيما هو حقّ له ، محبوب له ، مرضىّ له ، والصّبر [به] قد يكون فى ذلك ، وقد يكون فيما هو مسخوط له ، وقد يكون فى مكروه أَو مباح .

فأَين هذا من هذا ؟ !

وأَمّا تسمية الصّبر على أحكامه صبرًا عليه فلا مشاحّة فى العبارة بعد معرفة المعنى .

والله أَعلم .

وقد يعبّر عن الانتظار بالصبر لمّا كان حق الانتظار أَلاَّ ينفكّ عن الصّبر ، بل هو نوع من الصّبر ؛ قال تعالى : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أَى انتظر حكمه لك على الكافرين .

وقيل : الصّبر لفظ عامّ ، وربّما خُولِفَ بين أَسمائه بسبب اختلاف مواقعه .

فإِن كان حَبْسُ النّفس لمصيبة سُمِّىَ صبرًا لا غَيْر ، ويضادّه الجزع .

وإِن كان فى محاربة سمّى شجاعة ، ويضادّه الجُبْن .

وإن كان فى نائبة مُضجرة سمّى رُحْب الصّدر ، ويضادّه الضَّجْر .

وإن كان فى إمساك الكلام سُمِّى كتمانًا ، ويضادّه المَذْل .

وقد سمّى الله تعالى كلّ ذلك صبرًا لقوله : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ ، ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 371 . 383 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ .

تَسَلَّ – حينما تتنوع عليك الأحوال – بما نُطْلِعُك عليه من الأخبار ؛ وإنّ كُتُبَ الأحبابِ فيها شفاءٌ لأنها خطابُ الأحباب للأحباب .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ .

أي لا تغيير لِحُكْمِه ؛ فمَنْ أقصاه فلا قبولَ له ، ومَنْ أدناه فلا وصولَ له ، ومَنْ قَبِلَه فلا ردَّ له ، ومَنْ قَرَّبه فلا صدَّ له .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاوةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ .

قال : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ ولم يقل : " قلبك " لأن قلبه كان مع الحقِّ ، فأمره بصحبته جهْرًا بجهر ، واستخلص قلبه لنفسه سِرًّا بِسرّ .

ويقال ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ : معناها مريدين وجهه أي في معنى الحال ، وذلك يشير إلى دوام دُعائِهم ربهم بالغداة والعشيّ وكون الإرادة على الدوام .

ويقال : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ : فآويناهم في دنياهم بعظائمنا ، وفي عقباهم بكرائمنا .

ويقال : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ : فكشف قناعَهم ، وأظهر صفَتَهم ، وشَهَرَهم بعدما كان قد سَتَرَهم ، وأنشدوا :

وكشفنا لكَ القناعَ وقلنا . . . نعم وهتكنا لك المستورا

ويقال لما زالت التُّهمُ سَلِمَتْ لهم هذه الإرادة ، وتحرروا عن إرادةِ كلِّ مخلوقٍ وعن محبةِ كل مخلوق .

ويقال لمَّا تقاصرَ لسانُهم عن السؤال هذه الجملة مراعاةً منهم لهيبة الرسول صلى الله عليه

وسلم ، وحُرْمَةِ باب الحقّ – سبحانه – أمرَه بقوله : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ وبقوله :

﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

أي لا ترفع بصرَك عنهم ، ولا تُقلِعْ عنهم نظرك .

(319/470)

ويقال لما نظروا بقلوبِهم إلى الله أمَرَ رسولَه – عليه السلام – بألا يرفعَ بَصرَه عنهم ، وهذا جزاء في العاجل .

والإشارة فيه كأنه قال : جعلنا نظرك اليوم إليهم ذريعةً لهم إلينا ، وخَلَفَاً عما يفوتهم اليوم من نظرهم إلينا ، فلا تَقْطَعْ اليومَ عنهم نَظَرَكَ فإنا لا نمنع غداً نظرهم عنّا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ .

هم الذين سألوا منه – صلى الله عليه وسلم – أن يُخْلِيَ لهم مجلسَه من الفقراء ، وأن يطردهَم يوم حضورهم من مجلسه – صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

ومعنى قوله : ﴿ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ : أي شغلناهم بما لا يعنيهم .

ويقالك : ﴿ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ أي شغلناهم حتى اشتغلوا بالنعمة عن شهود المنْعِم .

ويقال هم الذين طوّح قلوبَهم في التفرقة ، فهم في الخواطر الرَّدِيّة مُتْبَتُون ، وعن شهود مولاهم محجوبون .

ويقال أغفلنا عن ذكرنا الذين ابْتُلُوا بنسيان الحقيقة لا يتأسَّفُون على ما مُنُوا به ولا على ما فَاتَهُم .

ويقال الغفلة تزجيةُ الوقتِ في غيرِ قضاءِ فَرْضٍ أو أداء نَفْلٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 391 . 393 ﴾

(320/470)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) ﴾

بدء فيه استقامة ، وفيه صرامة . وفيه حمد لله على إنزاله الكتاب ﴿ على عبده ﴾ بهذه الاستقامة ، لا عوج فيه ولا التواء ، ولا مداراة ولا مداورة : ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ .

ومنذ الآية الأولى تتضح المعالم ، فلا لبس في العقيدة ولا غموض : الله هو الذي أنزل الكتاب

، والحمد له على تنزيله ، ومحمد هو عبد الله . فالكل إذن عبيد ، وليس لله من ولد ولا شريك .

والكتاب لا عوج له . . ﴿ قيماً ﴾ . . يتكرر معنى الاستقامة مرة على طريق نفي العوج ، ومرة عن طريق إثبات الاستقامة . توكيداً لهذا المعنى وتشديداً فيه .

والغرض من إنزال الكتاب واضح صريح : ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ﴾ .

ويغلب ظل الإنذار الصارم في التعبير كله . فهو يبدأ به على وجه الإجمال : ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ . ثم يعود إليه على وجه التخصيص : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ . . وبينهما تبشير للمؤمنين ﴿ الذين يعملون الصالحات ﴾ بهذا القيد الذي يجعل للإيمان دليله العملي الظاهر المستند إلى الواقع الأكيد .

ثم يأخذ في كشف المنهج الفاسد الذي يتخذونه للحكم على أكبر القضايا وأخطرها .

قضية العقيدة : ﴿ ما لهم به من علم ولا لآبائهم ﴾ . .

فما أشنع وما أفظع أن يفضوا بهذا القول بغير علم ، هكذا جزافاً :

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ . .

وتشترك الألفاظ بنظمها في العبرة وجرسها في النطق في تفظيع هذه الكلمة التي يقولونها .

فهو يبدأ بكلمة ﴿ كبرت ﴾ لتجبه السامع بالضخامة والفظاعة وتملأ الجو بهما . ويجعل الكلمة الكبيرة تمييزاً لضميرها في الجملة : ﴿ كبرت كلمة ﴾ زيادة في توجيه الانتباه إليها . ويجعل هذه الكلمة تخرج من أفواههم خروجاً كأنما تنطلق منها جزافاً وتندفع منها اندفاعاً ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ . وتشارك لفظة ﴿ أفواههم ﴾ بجرسها الخاص في تكبير هذه الكلمة وتفظيعها ، فالناطق بها يفتح فاه في مقطعها الأول بما فيه من مد : ﴿ أفوا . . . ﴾ ثم تتوالى الهاءان فيمتلئ الفم بهما قبل أن يطبق على الميم في نهاية اللفظة : ﴿ أفواههم ﴾ . وبذلك يشترك نظم الجملة وجرس اللفظة في تصوير المعنى ورسم الظل . ويعقب على ذلك بالتوكيد عن طريق النفي والاستثناء : ﴿ إن يقولون إلا كذباً ﴾ : ويختار للنفي كلمة : ﴿ إن ﴾ لا كلمة ﴿ ما ﴾ لأن في الأولى صرامة بالسكون الواضح ، وفي لفظ ﴿ ما ﴾ شيء من الليونة بالمد . . وذلك لزيادة التشديد في الاستنكار ، ولزيادة التوكيد لكذب هذه الكلمة الكبيرة . .

وفيما يشبه الإنكار يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان يحزنه أن يكذب قومه بالقرآن ويعرضوا عن الهدى ، ويذهبوا في الطريق الذي يعلم صلى الله عليه وسلم أنه مود بهم إلى الهلاك .

. فيما يشبه الإنكار يقول للرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم . إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ !

أي فلعلك قاتل نفسك أسفاً وحزناً عليهم ، إن لم يؤمنوا بهذا القرآن . وما يستحق هؤلاء أن تحزن عليهم وتأسف . فدعهم فقد جعلنا ما على الأرض من زخرف ومتاع ، وأموال وأولاد . . جعلناه اختباراً وامتحاناً لأهلها ، ليتبين من يحسن منهم العمل في الدنيا ، ويستحق نعمتها ، كما يستحق نعيم الآخرة :

﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ .

والله يعلم . ولكنه يجزي على ما يصدر من العباد فعلاً ، وما يتحقق منهم في الحياة عملاً . ويسكت عمن لا يحسنون العمل فلا يذكرهم لأن مفهوم التعبير واضح .

ونهاية هذه الزينة محتومة . فستعود الأرض مجردة منها ، وسيهلك كل ما عليها ، فتصبح قبل يوم القيامة سطحاً أجرد خشناً جدباً :

﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾ .

وفي التعبير صرامة ، وفي المشهد الذي يرسمه كذلك . وكلمة ﴿ جرزا ﴾ تصور معنى

الجدب بجرسها اللفظي . كما أن كلمة ﴿ صعيدا ﴾ ترسم مشهد الاستواء والصلادة !

ثم تجيء قصة أصحاب الكهف ، فتعرض نموذجاً للإيمان في النفوس المؤمنة . كيف تطمئن به ، وتؤثره على زينة الأرض ومتاعها ، وتلجأ به إلى الكهف حين يعز عليها أن تعيش به مع الناس . وكيف يرعى الله هذه النفوس المؤمنة ، ويقيها الفتنة ، ويشملها بالرحمة .

وفي القصة روايات شتى ، وأقاويل كثيرة . فقد وردت في بعض الكتب القديمة وفي الأساطير بصور شتى . ونحن نقف فيها عند حد ما جاء في القرآن ، فهو المصدر الوحيد المستيقن . ونطرح سائر الروايات والأساطير التي اندست في التفاسير بلا سند صحيح . وبخاصة أن القرآن الكريم قد نهى عن استفتاء غير القرآن فيها ، وعن المراء فيها والجدل رجماً بالغيب .

وقد ورد في سبب نزولها ونزول قصة ذي القرنين أن اليهود أغروا أهل مكة بسؤال الرسول صلى الله عليه وسلم عنهما وعن الروح . أو أن أهل مكة طلبوا إلى اليهود أن يصوغوا لهم أسئلة يختبرون بها الرسول صلى الله عليه وسلم وقد يكون هذا كله أو بعضه صحيحاً . فقد جاء في أول قصة ذي القرنين : ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين . قل : سأتلوا عليكم منه ذكراً ﴾ ولكن لم تجيء عن قصة أصحاب الكهف مثل هذه الإشارة . فنحن نمضي في القصة لذاتها وهي واضحة الارتباط بمحور السورة كما بينا .

إن الطريقة التي اتبعت في عرض هذه القصة من الناحية الفنية هي طريقة التلخيص الإجمالي أولاً ، ثم العرض التفصيلي أخيراً . وهي تعرض في مشاهد وتترك بين المشاهد فجوات يعرف ما فيها من السياق .

وهي تبدأ هكذا :

﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً . إذ أوى الفتية إلى الكهف ، فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيىء لنا من أمرنا رشداً . فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ، ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً ﴾ .

وهو تلخيص يجمل القصة ، ويرسم خطوطها الرئيسية العريضة . فنعرف أن أصحاب الكهف فتية لا نعلم عددهم آووا إلى الكهف وهم مؤمنون . وأنه ضرب على آذانهم في الكهف أي ناموا سنين معدودة لا نعلم عددها وأنهم بعثوا من رقدتهم الطويلة . وأنه كان هناك فريقان يتجادلان في شأنهم ثم لبثوا في الكهف فبعثوا ليتبين أي الفريقين أدق إحصاء . وأن قصتهم على غرابتها ليست بأعجب آيات الله . وفي صفحات هذا الكون من العجائب وفي ثناياه من الغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف والرقيم .

وبعد هذا التلخيص المشوق للقصة يأخذ السياق في التفصيل . ويبدأ هذا التفصيل بأن ما سيقصه الله منها هو فصل الخطاب في الروايات المتضاربة ، وهو الحق اليقين :

﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق . إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض ، لن ندعوا من دونه إلهاً . لقد قلنا إذا شططاً . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسلطان بين . فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ؟ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ، ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيىء لكم من أمركم مرفقاً ﴾ .

هذا هو المشهد الأول من مشاهد القصة . ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم ﴾ . . ﴿ وزدناهم هدى ﴾ بإلهامهم كيف يدبرون أمرهم . ﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ فإذا هي ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحق الذي عرفت . معتزة بالإيمان الذي اختارت ﴿ إذ قاموا ﴾ . . والقيام حركة تدل على العزم والثبات . ﴿ فقالوا ربنا رب السماوات والأرض ﴾ . . فهو رب هذا الكون كله ﴿ لن ندعو من دونه إلهاً ﴾ . . فهو واحد بلا شريك . ﴿ لقد قلنا إذن شططاً ﴾ . . وتجاوزنا الحق وحدنا عن الصواب .

ثم يلتفتون إلى ما عليه قومهم فيستنكرونه ، ويستنكرون المنهج الذي يسلكونه في تكوين العقيدة :

﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسلطان بين ؟ ﴾ . .

فهذا هو طريق الاعتقاد : أن يكون للإنسان دليل قوي يستند إليه ، وبرهان له سلطان على النفوس والعقول . وإلا فهو الكذب الشنيع ، لأنه الكذب على الله : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ؟ ﴾ .

وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحاً صريحاً حاسماً ، لا تردد فيه ولا تلعثم . . إنهم فتية ، أشداء في أجسامهم ، أشداء في إيمانهم . أشداء في استنكار ما عليه قومهم . .

ولقد تبين الطريقان ، واختلف المنهجان ، فلا سبيل إلى الالتقاء ، ولا للمشاركة في الحياة . ولا بد من الفرار بالعقيدة . إنهم ليسوا رسلاً إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها ، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل . إنما هم فتية تبين لهم الهدى في وسط ظالم كافر ، ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها ، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ويداوروهم ، ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم لله . والأرجح أن أمرهم قد كشف . فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله ، وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة . وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم :

﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيىء لكم من أمركم مرفقاً ﴾ . .

وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة. فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم، ويهجرون ديارهم، ويفارقون أهلهم. ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة. وهؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم. هؤلاء يستروحون رحمة الله. ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة. ﴿ ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ ولفظة ﴿ ينشر ﴾ تلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح. فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء.. إن الحدود الضيقة لتنزاح، وإن الجدران الصلدة لترق، وإن الوحشة الموغلة لتشف، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق.

إنه الإيمان..

وما قيمة الظواهر؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية؟ إن هنالك عالماً آخر في جنبات القلب المغمور بالإيمان، المأنوس بالرحمن. عالماً تظلله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان.

ويسدل الستار على هذا المشهد. ليرفع على مشهد آخر والفتية في الكهف وقد ضرب الله عليهم النعاس.

﴿ وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين، وإذا غربت تقرضهم ذات

الشمال ، وهم في فجوة منه . ذلك من آيات الله . من يهد الله فهو المهتد . ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا . وتحسبهم أيقاظا وهم رقود . ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال . وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد . لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ، ولملئت منهم رعبا ﴾ .

وهو مشهد تصويري عجيب ، ينقل بالكلمات هيئة الفتية في الكهف ، كما يلتقطها شريط متحرك . والشمس تطلع على الكهف فتميل عنه كأنها متعمدة . ولفظ ﴿ تزاور ﴾ تصور مدلولها وتلقي ظل الإرادة في عملها . والشمس تغرب فتجاوزهم إلى الشمال وهم في فجوة منه . .

وقبل أن يكمل نقل المشهد العجيب يعلق على وضعهم ذاك بأحد التعليقات القرآنية التي تتخلل سياق القصص لتوجيه القلوب في اللحظة المناسبة :

﴿ ذلك من آيات الله ﴾ . . وضعهم هكذا في الكهف والشمس لا تنالهم بأشعتها وتقرب منهم بضوئها . وهم في مكانهم لا يموتون ولا يتحركون .

﴿ من يهد الله فهو المهتد . ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ . . وللهدى والضلال

ناموس . فمن اهتدى بآيات الله فقد هداه الله وفق ناموسه وهو المهتدي حقاً . ومن لم يأخذ بأسباب الهدى ضل ، وجاء ضلاله وفق الناموس الإلهي فقد أضله الله إذن ، ولن تجد له من بعد هادياً .

ثم يمضي السياق يكمل المشهد العجيب . وهم يقلبون من جنب إلى جنب في نومتهم الطويلة . فيحسبهم الرائي أيقاظاً وهم رقود . وكلبهم على عادة الكلاب باسط ذراعية بالفناء قريباً من باب الكهف كأنه يحرسهم . وهم في هيئتهم هذه يثيرون الرعب في قلب من يطلع عليهم . إذ يراهم نياماً كالأيقاظ ، يتقلبون ولا يستيقظون . وذلك من تدبير الله كي لا يعبث بهم عابث ، حتى يحين الوقت المعلوم .

وفجأة تدب فيهم الحياة . فلننظر ولنسمع :

﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم . قال قائل منهم : كم لبثتم ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم . قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ، فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً . إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ، ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾ . .

إن السياق يحتفظ بالمفاجأة في عرض القصة ، فيعرض هذا المشهد ، والفتية يستيقظون وهم لا يعرفون كم لبثوا منذ أن أدركهم النعاس . . إنهم يفركون أعينهم ، ويلتفت أحدهم

إلى الآخرين فيسأل : كم لبثتم ؟ كما يسأل من يستيقظ من نوم طويل . ولا بد أنه كان يحس بآثار نوم طويل . ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ !

ثم رأوا أن يتركوا هذه المسألة التي لا طائل وراء البحث فيها ، ويدعوا أمرها لله شأن المؤمن في كل ما يعرض له مما يجهله وأن يأخذوا في شأن عملي . فهم جائعون . ولديهم نقود فضية خرجوا بها من المدينة : ﴿ قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً ، فليأتكم برزق منه ﴾ . . أي فليختر أطيب طعام في المدينة فليأتكم بشيء منه .

وهم يحذرون أن ينكشف أمرهم ويعرف مخبؤهم ، فيأخذهم أصحاب السلطان في المدينة فيقتلوهم رجماً بوصفهم خارجين على الدين لأنهم يعبدون إلهاً واحداً في المدينة المشركة ! أو يفتنوهم عن عقيدتهم بالتعذيب . وهذه هي التي يتقونها . لذلك يوصون الرسول أن يكون حذراً لبقاً : ﴿ وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً . إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾ . . فما يفلح من يرتد عن الإيمان إلى الشرك ، وإنها للخسارة الكبرى .

وهكذا نشهد الفتية يتناجون فيما بينهم ، حذرين خائفين ، لا يدرون أن الأعوام قد كرت ، وأن عجلة الزمن قد دارت ، وأن أجيالاً قد تعاقبت ، وأن مدينتهم التي يعرفونها قد تغيرت معالمها ، وأن المتسلطين الذين يخشونهم على عقيدتهم قد دالت دولتهم ، وأن قصة الفتية الذين فروا بدينهم في عهد الملك الظالم قد تناقلها الخلف عن السلف ؛ وأن الأقاويل حولهم متعارضة ؛ حول عقيدتهم ، وحول الفترة التي مضت منذ اختفائهم .

وهنا يسدل على مشهدهم في الكهف ليرفع على مشهد آخر . وبين المشهدين فجوة متروكة في السياق القرآني .

ونفهم أن أهل المدينة اليوم مؤمنون ، فهم شديدو الحفاوة بالفتية المؤمنين بعد أن انكشف أمرهم بذهاب أحدهم لشراء الطعام ، وعرف الناس أنه أحد الفتية الذين فروا بدينهم منذ عهد بعيد .

ولنا أن نتصور ضخامة المفاجأة التي اعترت الفتية بعد أن أيقن زميلهم أن المدينة قد مضى عليها العهد الطويل منذ أن فارقوها ؛ وأن الدنيا تبدلت من حولهم فلم يعد لشيء مما ينكرونه ولا لشيء مما يعرفونه وجود ! وأنهم من جيل قديم مضت عليه القرون . وأنهم

أعجوبة في نظر الناس وحسهم ، فلن يمكن أن يعاملوهم كبشر عاديين . وأن كل ما يربطهم بجيلهم من قرابات ومعاملات ومشاعر وعادات وتقاليد . . كله قد تقطع ، فهم أشبه بالذكرى الحية منهم بالأشخاص الواقعية . . فيرحمهم الله من هذا كله فيتوفاهم .

لنا أن نتصور هذا كله . أما السياق القرآني فيعرض المشهد الأخير ، مشهد وفاتهم ، والناس خارج الكهف يتنازعون في شأنهم : على أي دين كانوا ، وكيف يخلدونهم ويحفظون ذكراهم للأجيال . ويعهد مباشرة إلى العبرة المستقاة من هذا الحادث العجيب : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها . إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا : ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم . قال الذين غلبوا على أمرهم : لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ .

إن العبرة في خاتمة هؤلاء الفتية هي دلالتها على البعث بمثل واقعي قريب محسوس . يقرب إلى الناس قضية البعث . فيعلموا أن وعد الله بالبعث حق ، وأن الساعة لا ريب فيها . . وعلى هذا النحو بعث الفتية من نومتهم وأعثر قومهم عليهم .

وقال بعض الناس : ﴿ ابنوا عليهم بنياناً ﴾ لا يحدد عقيدتهم ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾ وبما كانوا عليه من عقيدة . وقال أصحاب السلطان في ذلك الأوان : ﴿ لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ والمقصود معبد ، على طريقة اليهود والنصارى في اتخاذ المعابد على مقابر الأنبياء والقديسين . وكما يصنع اليوم من يقلدونهم من المسلمين مخالفين لهدى الرسول

صلى الله عليه وسلم " لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد "

ويسدل الستار على هذا المشهد . ثم يرفع لنسمع الجدل حول أصحاب الكهف على عادة الناس يتناقلون الروايات والأخبار ، ويزيدون فيها وينقصون ، ويضيفون إليها من خيالهم خيالهم جيلاً بعد جيل ، حتى تتضخم وتتحول ، وتكثر الأقاويل حول الخبر الواحد أو الحادث الواحد كلما مرت القرون :

﴿ سيقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون : خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ، ويقولون : سبعة وثامنهم كلبهم .

قل : ربي أعلم بعدتهم . ما يعلمهم إلا قليل . فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ، ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾ . .

فهذا الجدل حول عدد الفتية لا طائل وراءه . وإنه ليستوي أن يكونوا ثلاثة أو خمسة أو سبعة ، أو أكثر . وأمرهم موكول إلى الله ، وعلمهم عند الله . وعند القليلين الذين تثبتوا من الحادث عند وقوعه أو من روايته الصحيحة . فلا ضرورة إذن للجدل الطويل حول

عددهم. والعبرة في أمرهم حاصلة بالقليل وبالكثير. لذلك يوجه القرآن الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ترك الجدل في هذه القضية، وإلى عدم استفتاء أحد من المتجادلين في شأنهم. تمشياً مع منهج الإسلام في صيانة الطاقة العقلية أن تبدد في غير ما يفيد. وفي ألا يقفو المسلم ما ليس له به عليم وثيق. وهذا الحادث الذي طواه الزمن هو من الغيب الموكول إلى علم الله، فليترك إلى علم الله.

وبمناسبة النهي عن الجدل في غيب الماضي، يرد النهي عن الحكم على غيب المستقبل وما يقع فيه؛ فالإنسان لا يدري ما يكون في المستقبل حتى يقطع برأي فيه:

﴿ ولا تقولن لشيء: إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت، وقل: عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾..

(330/470)

إن كل حركة وكل نأمة، بل كل نفس من أنفاس الحي، مرهون بإرادة الله. وسجف الغيب مسبل يحجب ما وراء اللحظة الحاضرة؛ وعين الإنسان لا تمتد إلى ما وراء الستر المسدل؛ وعقله مهما علم قاصر كليل. فلا يقل إنسان: إني فاعل ذلك غداً. وغداً في غيب الله وأستار غيب الله دون العواقب.

وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان ، لا يفكر في أمر المستقبل ولا يدبر له ؛ وأن يعيش يوماً بيوم ، لحظة بلحظة . وألا يصل ماضي حياته بحاضره وقابله . . كلا . ولكن معناه أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التي تدبره ؛ وأن يعزم ما يعزم ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم ، ويستشعر أن يد الله فوق يده ، فلا يستبعد أن يكون لله تدبير غير تدبيره . فإن وفقه الله إلى ما اعتزم فبها . وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبر لم يحزن ولم ييأس ، لأن الأمر لله أولاً وأخيراً .

فليفكر الإنسان وليدبر ؛ ولكن ليشعر أنه إنما يفكر بتيسير الله ، ويدبر بتوفيق الله ، وأنه لا يملك إلا ما يمده الله به من تفكير وتدبير . ولن يدعو هذا إلى كسل أو تراخ ، أو ضعف أو فتور ؛ بل على العكس يمده بالثقة والقوة والاطمئنان والعزيمة . فإذا انكشف ستر الغيب عن تدبير لله غير تدبيره ، فليتقبل قضاء الله بالرضى والطمأنينة والاستسلام .
لأنه الأصل الذي كان مجهولاً له فكشف عنه الستار .

هذا هو المنهج الذي يأخذ به الإسلام قلب المسلم . فلا يشعر بالوحدة والوحشة وهو يفكر ويدبر . . ولا يحس بالغرور والتبطر وهو يفلح وينجح ، ولا يستشعر القنوط واليأس وهو يفشل ويخفق . بل يبقى في كل أحواله متصلاً بالله ، قوياً بالاعتماد عليه ، شاكراً لتوفيقه إياه ، مسلماً بقضائه وقدره . غير متبطر ولا قنوط . ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ . . إذا نسيت هذا التوجيه والاتجاه فاذكر ربك وارجع إليه .

﴿ وقل : عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا ﴾ . . من هذا المنهج الذي يصل القلب دائماً بالله ، في كل ما يهم به وكل ما يتوجه إليه .

(331/470)

وتجيء كلمة ﴿ عسى ﴾ وكلمة ﴿ لأقرب ﴾ للدلالة على ارتفاع هذا المرتقى ، وضرورة المحاولة الدائمة للاستواء عليه في جميع الأحوال .

وإلى هنا لم نكن نعلم : كم لبث الفتية في الكهف . فلنعرفه الآن لنعرفه على وجه اليقين :

﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين ، وازدادوا تسعاً . قل : الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض . أبصر به وأسمع ﴾ . .

فهذا هو فصل الخطاب في أمرهم ، يقرره عالم غيب السماوات والأرض . ما أبصره ، وما أسمعه ! سبحانه . فلا جدال بعد هذا ولا مراء .

ويعقب على القصة بإعلان الوحدانية الظاهرة الأثر في سير القصة وأحداثها : ﴿ ما لهم من دونه من ولي . ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾ . .

وبتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تلاوة ما أوحاه ربه إليه ، وفيه فصل الخطاب وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل والاتجاه إلى الله وحده ، فليس من حمى إلا حماه . وقد فر

إليه أصحاب الكهف فشملهم برحمته وهداه :

﴿ واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾ . .

وهكذا تنتهي القصة ، تسبقها وتتخللها وتعقبها تلك التوجيهات التي من أجلها يساق القصص في القرآن . مع التناسق المطلق بين التوجيه الديني والعرض الفني في السياق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2259 ـ 2266 ﴾

(332/470)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾ قد تقدم أن مقام العبودية لا يشابهه مقام ولا يدانيه ونبينا صلى الله عليه وسلم في أعلى مراقيه ، وقد ذكر أن العبد الحقيقي من كان حراً عن الكونين وليس ذاك إلا سيدهما صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ [الكهف : 1] ﴿ قَيِّماً ﴾ قد تقدم في التفسير أن الضمير المجرور عائد على ﴿ الكتاب ﴾ وجعله بعض أهل التأويل عائداً على ﴿ عَبْدِهِ ﴾ أي لم يجعل له عليه الصلاة والسلام انحرافاً عن جنابه وميلاً إلى ما سواه وجعله

مستقيماً في عبوديته سبحانه ، وجعل الأمر في قوله تعالى ﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود : 112] أمر تكوين ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ وهو بأس الحجاب والبعد عن الجناب وذلك أشد العذاب ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : 15] ﴿ وَيُبَشِّرُ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات ﴾ وهي الأعمال التي أريد بها وجه الله تعالى لا غير ، وقيل العمل الصالح التبري من الوجود بوجود الحق ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ [الكهف : 2] وهي رؤية المولى ومشاهدة الحق بلا حجاب ﴿ فَلَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ على ءاثارهم إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بهذا الحديث أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] فيه إشارة إلى مزيد شفقته صلى الله عليه وسلم واهتمامه وحرصه على موافقة المخالفين وانتظامهم في سلك الموافقين ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض ﴾ من الأنهار والأشجار والجبال والمعادن والحيوانات ﴿ زِينَةً لَّهَا ﴾ أي لأهلها ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الكهف : 7] فيجعل ذلك مرآة لمشاهدة أنوار جلاله وجماله سبحانه عز وجل ، وقال ابن عطاء : حسن العمل الإعراض عن الكل ، وقال الجنيد : حسن العمل اتخاذ ذلك عبرة وعدم الاشتغال به .

وقال بعضهم : أهل المعرفة بالله تعالى والمحبة له هم زينة الأرض وحسن العمل النظر إليه بالحرمة .

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ [الكهف : 8] كناية عن ظهور فناء ذلك بظهور الوجود الحقاني والقيامة الكبرى ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصحاب الكهف والرقيم كَانُواْ مِنْ ءاياتنا عَجَبًا ﴾ [الكهف : 9] قال الجنيد قدس الله سره : أي لا تتعجب منهم فشأنك أعجب من شأنهم حيث أسرى بك ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وبلغ بك سدرة المنتهى وكنت في القرب كقاب قوسين أو أدنى ثم ردك قبل انقضاء الليل إلى مضجعك .

﴿ إِذْ أَوَى الفتية إِلَى الكهف ﴾ قيل هم فتيان المعرفة الذين جبلوا على سجية الفتوة ، وفتوتهم إعراضهم عن غير الله تعالى فأووا إلى الكهف الخلوة به سبحانه ﴿ فَقَالُواْ ﴾ حين استقاموا في منازل الإنس ومشاهد القدس وهيجهم ما ذاقوا إلى طلب الزيادة والترقي في مراقي السعادة ﴿ رَبَّنَا ءاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ معرفة كاملة وتوحيداً عزيزاً ﴿ وَهَيّىء لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف : 10] بالوصول إليك والفناء فيك ﴿ فضربنا على

ءاذَانِهِمْ فِى الكهف سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف : 11] كناية عن جعلهم مستغرقين فيه سبحانه فانين به تعالى عما سواه ﴿ ثُمَّ بعثناهم لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى لِمَا لَبِثُواْ أَمَدًا ﴾ [الكهف : 21] إشارة إلى ردهم إلى الصحو بعد السكر والبقاء بعد الفناء ، ويقال أيضاً : هو إشارة إلى الجلوة بعد الخلوة وهما قولان متقاربان ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بالحق إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءامَنُواْ بِرَبّهِمْ ﴾ الايمان العلمي ﴿ وزدناهم هُدًى ﴾ [الكهف : 13] بأن أحضرناهم وكاشفناهم ﴿ وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ ﴾ سكناها عن التزلزل بما أسكنا فيها من اليقين فلم يسنح فيها هواجس التخمين ولا وساوس الشياطين ، ويقال أيضاً : رفعناها من حضيض التلوين إلى أوج التمكين .

﴿ إِذْ قَامُواْ ﴾ بنا لنا ﴿ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السموات والأرض ﴾ مالك أمرهما ومدبرهما فلا قيام لهما إلا بوجوده المفاض من بحار جوده ﴿ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إلها ﴾ إذ ما من شيء إلا وهو محتاج إليه سبحانه فلا يصلح لأن يدعى ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف : 14] كلاماً بعيداً عن الحق مفرطاً في الظلم ، واستدل بعض المشايخ بهذه الآية على أنه ينبغي للسالكين إذا أرادوا الذكر وتحلقوا له أن يقوموا فيذكروا قائمين ، قال ابن الغرس : وهو استدلال ضعيف لا يقوم به المدعى على ساق .

وأنت تعلم أنه لا بأس بالقيام والذكر لكن على ما يفعله المتشيخون اليوم فإن ذلك لم يكن في أمة من الأمم ولم يجيء في شريعة نبينا صلى الله عليه وسلم بل لعمري أن تلك الحلق حبائل الشيطان وذلك القيام قعود في بحبوحة الخذلان ﴿ وَإِذِ اعتزلتموهم وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي وإذ خرجتم عن صحبة أهل الهوى وأعرضتم عن السوى ﴿ فَأْوُوا إِلَى الكهف ﴾ فاخلوا بمحبوبكم ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ مطوي معرفته ﴿ وَيُهَيِّىءْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف : 16] ما تنتفعون به من أنوار تجلياته ولطائف مشاهداته ، قال بعض العارفين : العزلة عن غير الله تعالى توجب الوصلة بالله عز وجل بل لا تحصل الوصول إلا بعد العزلة ألا ترى كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجنب بغار حراء حتى جاءه الوحي وهو فيه ﴿ وَتَرَى الشمس إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليمين وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشمال وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ لئلا يكثر الضوء في الكهف فيقل معه الحضور ، فقد ذكروا أن الظلمة تعين على الفكر وجمع الحواس ، ومن هنا ترى أهل الخلوة يختارون لخلوتهم مكاناً قليل الضياء ومع هذا يغمضون أعينهم عند المراقبة .

وفي أسرار القرآن أن في الآية إشارة إلى أن الله تعالى حفظهم عن الاحتراز في السبحات فجعل شمس الكبرياء تزاور عن كهف قربهم ذات يمين الأزل وذات شمال الأبد وهم في

فجوة وصال مشاهدة الجمال والجلال محروسون محفوظون عن قهر سلطان صرف الذات الأزلية التي تتلاشى الأكوان في أول بوادي إشارقها .

(336/470)

وفي الحديث " حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره " وقيل : في تأويله إن شمس الروح أو المعرفة والولاية إذا طلعت من أفق الهداية وأشرقت في سماء الواردات وهي حالة السكر وغلبة الوجد لا تنصرف في خلوتهم إلى أمر يتعلق بالعقبى وهو جانب اليمين وإذا غربت أي سكنت تلك الغلبة وظهرت حالة الصحو لا تلتفت همم أرواحهم إلى أمر يتعلق بالدنيا وهو جانب الشمال بل تنحرف عن الجهتين إلى المولى وهم في فراغ عما يشغلهم عن الله تعالى .

وذكر أن فيه إشارة إلى أن نور ولا يتهم يغلب نور الشمس ويرده عن الكهف كما يغلب نور المؤمن نار جهنم وليس هذا بشيء وإن روي عن ابن عطاء ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ الذي رفعت عنه الحجب ففاز بما فاز ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف : 17] لأنه لا يخذله سبحانه إلا لسوء استعداده ومتى فقد الاستعداد تعذر الإرشاد ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ إشارة إلى أنهم مع الخلق بأبدانهم ومع الحق

بأرواحهم ، وقال ابن عطاء : هم مقيمون في الحضرة كالنومي لا علم لهم بزمان ولا مكان أحياء موتى صرعى مفيقون نومي منتبهون ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ أي ننقلهم من عالم إلى عالم ؛ وقال ابن عطاء : نقلبهم في حالتي القبض والبسط والجمع والفرق ، وقال آخر : نقلبهم بين الفناء والبقاء والكشف والاحتجاب والتجلي والاستتار ، وقيل في الآية إشارة إلى أنهم في التسليم كالميت في يد الغاسل ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ قال أبو بكر الوراق : مجالسة الصالحين ومجاورتهم غنيمة وإن اختلف الجنس ألا ترى كيف ذكر الله سبحانه كلب أصحاب الكهف معهم لمجاورته إياهم .

وقل أشير بالآية إلى أن كلب نفوسهم نائمة معطلة عن الأعمال ، وقيل يمكن أن يراد أن نفوسهم صارت بحيث تطيعهم جميع الأحوال وتحرسهم عما يضرهم ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لو اطلعت من حيث أنت على ما ألبستهم من لباس قهر ربوبيتي وسطوات عظمتي ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ ﴾ أي من رؤية ما عليهم من هيبتي وعظمتي ﴿ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [الكهف : 18] كما فر موسى كليمي من رؤية عصاه حين قلبتها حية وألبستها ثوباً من عظمتي وهيبتي ، وهذا الفرار حقيقة منا لأنه من عظمتنا الظاهرة في هاتيك المرآة كذا

قرره غير واحد وروى عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه.

﴿ وكذلك بعثناهم ﴾ رددناهم إلى الصحو بعد السكر ﴿ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ لأنهم كانوا مستغرقين لا يعرفون اليوم من الأمس ولا يميزون القمر من الشمس، وقيل: إنهم استقلوا أيام الوصال وهكذا شأن عشاق الجمال فسنة الوصل في سنتهم سنة وسنة الهجر سنة، ويقال: مقام الحب مع الحبيب وإن طال قصير وزمان الاجتماع وإن كثر يسير إذ لا يقضي من الحبيب وطروان فني الدهر ومر ولا يكاد يعد المحب الليال إذا كان قرير العين بالوصال كما قيل:

أعد الليالي ليلة بعد ليلة...

وقد عشت دهراً لا أعد اللياليا

ثم إنهم لما رجعوا من السكر إلى الصحو ومن الروحانية إلى البشرية طلبوا ما يعيش به الإنسان واستعملوا حقائق الطريقة وذلك قوله تعالى: ﴿ فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذه إلى المدينة فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أزكى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ والإشارة فيه أولاً: إلى أن اللائق بطالبي الله تعالى ترك السؤال، ويرد به على المتشيخين الذين دينهم وديدنهم السؤال وليته كان من الحلال.

وثانياً : إلى أن اللائق بهم أن لا يختص أحدهم بشيء دون صاحبه ألا ترى كيف قال قائلهم : ﴿ بِوَرِقِكُمْ هذه ﴾ فأضاف الورق إليهم جملة وقد كان فيما يروى فيهم الراعي ولعله لم يكن له ورق .

وثالثاً : إلى أن اللائق بهم استعمال الورع ألا ترى كيف طلب القائل الأزكى وهو على ما في بعض الروايات الأحل ، ولذلك قال ذو النون : العارف من لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، والعجب أن رجلاً من المتشيخين كان يأخذ من بعض الظلمة دنانير مقطوعاً بحرمتها فقيل له في ذلك فقال : نعم هي جمرات ولكن تطفىء حرارة جوع السالكين ، ومع هذا وأمثاله له اليوم مرقد يطوف به من يزور وتوقد عليه السرج وتنذر له النذور ، ورابعاً : إلى أنه ينبغي لهم التواصي بحسن الخلق وجميل الرفق ألا ترى كيف قال قائلهم : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ بناء على أنه أمر بحسن المعاملة مع من يشتري منه .

وقال بعض أهل التأويل : إنه أمر باختيار اللطيف من الطعام لأنهم لم يأكلوا مدة فالكثيف يضر بأجسامهم ، وقيل : أرادوا اللطيف لأن أرواحهم من عالم القدس ولا يناسبها إلا اللطيف ، وعن يوسف بن الحسين أنه كان يقول : إذا اشتريت لأهل المعرفة شيئاً من الطعام فليكن لطيفاً وإذا اشتريت للزهاد والعباد فاشتر كلما تجد .

لأنهم بعد في تذليل أنفسهم ، وقال بعضهم : طعام أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات

ولباسهم الخشن من المؤكولات والملبوسات والذي بلغ المعرفة فلا يوافقه إلا كل لطيف ، ويروى عن الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس الله سره أنه كان في آخر أمره يلبس ناعماً ويأكل لطيفاً .

(339/470)

وعندي أن التزام ذلك يخل بالكمال ، وما يروى عن الشيخ قدس سره وأمثاله إن صح يحتمل أن يكون أمراً اتفاقياً ، وعلى فرض أنه كان عن التزام يحتمل أنه كان لغرض شرعي وإلا فهو خلاف المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن كبار أصحابه رضي الله تعالى عنهم ، فقد بين في الكتب الصحيحة حالهم في المأكل والملبس وليس فيها ما يؤيد كلام يوسف بن الحسين وأضرابه والله تعالى أعلم ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف : 19] الأغيار المحجوبين عن مطالعة الأنوار والوقوف على الأسرار ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ بأحجار الإنكار ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ ﴾ التي اجتمعوا عليها ولم ينزل الله تعالى بها من سلطان ﴿ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف : 20] لأن الكفر حينئذ يكون كالكفر الإبليسي ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ إرشاد إلى محض التجريد والتفريد ، ويحكى عن بعض كبار الصوفية أنه أمر بعض تلامذته

بفعل شيء فقال : أفعله إن شاء الله تعالى فقال له الشيخ بالفارسية ما معناه : يا مجنون فإذا من أنت ، والآية تأبى هذا الكلام غاية الإباء وفيه على مذهب أهل الوحدة أيضاً ما فيه ، وقيل الآية نهي عن أن يخبر صلى الله عليه وسلم عن الحق بدون إذن الحق سبحانه .

ففيه إرشاد للمشايخ إلى أنه لا ينبغي لهم التكلم بالحقائق بدون الإذن ولهم أمارات للإذن يعرفونها .

(340/470)

﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ قيل أي إذا نسيت الكون بإسره حتى نفسك فإن الذكر لا يصفو إلا حينئذ ، وقيل إذا نسيت الذكر ، ومن هنا قال الجنيد قدس سره : حقيقة الذكر الفناء بالمذكور عن الذكر ، وقال قدس سره في قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِ رَبّى لاِقْرَبَ مِنْ هذا رَشَدًا ﴾ [الكهف : 23 ، 24] إن فوق الذكر منزلة هي أقرب منزلة من الذكر وهي تجديد النعوت بذكره سبحانه لك قبل أن تذكره جل وعلا ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ مِئَةٍ سِنِينَ وازدادوا تِسْعًا ﴾

[الكهف : 25] زعم بعض أهل التأويل أن مجموع ذلك خمس وعشرون سنة واعتبر السنة التي في الآية شهراً وهو زعم لا داعي إليه إلا ضعف الدين ومخالفة جماعة المسلمين

وإلا فأي ضرر في إبقاء ذلك على ظاهره وهو أمر ممكن أخبر به الصادق، ومما يدل على إمكان هذا اللبث أن أبا علي بن سينا ذكر في باب الزمان من الشفاء أن أرسطو ذكر أنه عرش لقوم من المتألهين حالة شبيهة بحالة أصحاب الكهف قال أبو علي: ويدل التاريخ على أنهم قبل أصحاب الكهف انتهى.

وفي الآية على ما قيل إشارة إلى أن المريد الذي يربيه الله سبحانه بلا واسطة المشايخ يصل في مدة مديدة وسنين عديدة والذي يربيه جل جلاله بواسطتهم يتم أمره في أربعينيات وقد يتم في أيام معدودات، وأنا أقول لا حجر على الله سبحانه وقد أوصل جل وعلا كثيراً من عباده بلا واسطة في سويعات ﴿ لَهُ ﴾ تعالى شأنه ﴿ غَيْبَ السموات ﴾ عالم العلو ﴿ والأرض ﴾ [الحجرات: 81] عالم السفل، ولا يخفى أن عنوان الغيبية إنما هو بالنسبة إلى المخلوقين وإلا فلا غيب بالنسبة إليه جل جلاله؛ ومن هنا قال بعضهم: إنه سبحانه لا يعلم الغيب بمعنى أنه لا غيب بالنسبة إليه تعالى ليتعلق به العلم، لكن أنت تعلم أنه لا يجوز التكلم بمثل هذا الكلام وإن أول بما أول لما فيه ظاهراً من مصادمة الآيات.

وإلى الله تعالى نشكو أقواماً ألغزوا الحق وفتنوا بذلك الخلق ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ أي ما أبصره تعالى وما أسمعه لأن صفاته عين ذاته ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ إذ لا فعل لأحد سواه تعالى ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : 26] لكمال قدرته سبحانه وعجز غيره عز شأنه، هذا والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل. انتهى انتهى. ا هـ

﴿روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(342/470)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والسبعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/471)

الجزء الحادى والسبعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 29 ﴾ من سورة الكهف

وحتى الآية ﴿ 31 ﴾ من نفس السورة

(4/471)

قوله تعالى ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما رغبه في أوليائه ، وزهده في أعدائه ، ترضية بقدره بعد أن قص الحق من قصة أهل الكهف للمتعنتين ، علمه ما يقول لهم على وجه يعمهم ويعم غيرهم ويعم القصة وغيرها فقال تعالى مهدداً ومتوعداً - كما نقل عن علي .رضى الله عنهم .وكذا عن غيره :

﴿ وقل ﴾ أي لهم ولغيرهم : هذا الذي جئتكم به من هذا الوحي العربي العري عن العوج ، الظاهر الإعجاز ، الباهر الحجج ﴿ الحق ﴾ كائناً ﴿ من ربكم ﴾ المحسن إليكم في أمر أهل الكهف وغيرهم من صبر نفسي مع المؤمنين ، والإعراض عمن سواهم وغير ذلك ، لا ما قلتموه في أمرهم ، ويجوز أن يكون الحق مبتدأ ﴿ فمن شاء ﴾ أي منكم ومن غيركم ﴿ فليؤمن ﴾ بهذا الذي قصصناه فيهم وفي غيرهم ، فهو مقبول مرغوب فيه وإن كان فقيراً زريّ الهيئة ولم ينفع إلا نفسه ﴿ ومن شاء ﴾ منكم ومن غيركم ﴿ فليكفر ﴾ فهو أهل لأن يعرض عنه ولا يلتفت إليه وإن كان أغنى الناس وأحسنهم هيئة ، وإن تعاظمت هيبته لما اشتد من أذاه ، وأفرط من ظلمه ، وسنشفي قلوب المؤمنين في الدارين بالانتقام منه ، والآية دالة على أن كلاًّ من الكفر والإيمان موقوف على المشيئة بخلق الله تعالى ، لأن الفعل الاختياري يمتنع حصوله بدون القصد إليه وذلك القصد إن كان بقصد آخر يتقدمه لزم أن يكون كل قصد مسبوقاً بقصد آخر إلى غير النهاية وهو محال ، فوجب أن تنتهي تلك

القصود إلى قصد يخلقه الله في العبد على سبيل الضرورة يجب به الفعل ، فالإنسان مضطر في صورة مختار ، فلا دليل للمعتزلة في هذه الآية .

(5/471)

ولما هدد السامعين بما حاصله : ليختر كل امرىء لنفسه ما يجده غداً عند الله تعالى ، اتبع هذا التهديد تفصيلاً لما أعد للفريقين من الوعد والوعيد لفاً ونشراً مشوشاً - بما يليق بهذا الأسلوب المشير إلى أنه لا كفوء له من نون العظمة فقال تعالى : ﴿ إنا اعتدنا ﴾ أي هيأنا بما لنا من العظمة تهيئة قريبة جداً ، وأحضرنا على وجه ضخم شديد تام التقدير ﴿ للظالمين ﴾ أي لمن لم يؤمن ، ولكنه وصف إشارة إلى تعليق الحكم به ﴿ ناراً ﴾ جعلناها معدة لهم ﴿ أحاط بهم ﴾ كلهم ﴿ سرادقها ﴾ أي حائطها الذي يدار حولها كما يدار الحظير حول الخيمة من جميع الجوانب .

ولما كان المحرور شديد الطلب للماء قال تعالى : ﴿ وإن يستغيثوا ﴾ من حر النار فيطلبوا الغيث - وهو ماء المطر - والغوث بإحضاره لهم ؛ وشاكل استغاثتهم تهكماً بهم فقال تعالى : ﴿ يغاثوا بماء ﴾ ليس كالماء الذي قدمنا الإشارة إلى أنا نحيي به الأرض بعد صيرورتها صعيداً جرزاً ، بل ﴿ كالمهل ﴾ وهو القطران الرقيق وما ذاب في صفر أو

حديد والزيت أو درديّه – قاله في القاموس .

وشبهه به من أجل تناهي الحر مع كونه ثخيناً ، وبين وجه الشبه بقوله تعالى : ﴿ يشوي الوجوه ﴾ أي إذا قرب إلى الفم فكيف بالفم والجوف ! ثم وصل بذلك ذمه فقال تعالى : ﴿ بئس الشراب ﴾ أي هو ، فإنه أسود منتن غليظ حار ، وعطف عليه ذم النار المعدة لهم فقال تعالى : ﴿ وساءت مرتفقاً ﴾ أي منزلاً يعد للارتفاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 464.465 ﴾

(6/471)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في تقرير النظم وجوه .

الأول : أنه تعالى لما أمر رسوله بأن لا يلتفت إلى أولئك الأغنياء الذين قالوا إن طردت

الفقراء آمنا بك ، قال بعده : ﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أي قل لهؤلاء إن هذا الدين الحق إنما أتى من عند الله فإن قبلتموه عاد النفع إليكم وإن لم تقبلوه عاد الضرر إليكم ولا تعلق لذلك بالفقر والغنى والقبح والحسن والخمول والشهرة .

الوجه الثاني : في تقرير النظم يمكن أن يكون المراد أن الحق ما جاء من عند الله ، والحق الذي جاءني من عنده أن أصبر نفسي مع هؤلاء الفقراء ولا أطردهم ولا ألتفت إلى الرؤساء وأهل الدنيا .

والوجه الثالث : في تقرير النظم أن يكون المراد هو أن الحق الذي جاء من عند الله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وأن الله تعالى لم يأذن في طرد من آمن وعمل صالحاً لأجل أن يدخل في الإيمان جمع من الكفار ، فإن قيل : أليس أن العقل يقتضي ترجيح الأهم على المهم فطرد أولئك الفقراء لا يوجب إلا سقوط حرمتهم وهذا ضرر قليل .

أما عدم طردهم فإنه يوجب بقاء الكفار على الكفر ، وهذا ضرر عظيم ، قلنا : أما عدم طردهم فإنه يوجب بقاء الكفار على الكفر فمسلم إلا أن من ترك الإيمان لأجل الحذر من مجالسة الفقراء فإيمانه ليس بإيمان بل هو نفاق قبيح ، فوجب على العاقل أن لا يلتفت إلى إيمان من هذا حاله وصفته .

المسألة الثانية :

قالت المعتزلة قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ صريح في أن الأمر في الإيمان والكفر والطاعة والمعصية مفوض إلى العبد واختياره .

(7/471)

فمن أنكر ذلك فقد خالف صريح القرآن ، ولقد سألني بعضهم عن هذه الآية فقلت : هذه الآية من أقوى الدلائل على صحة قولنا وذلك لأن الآية صريحة في أن حصول الإيمان وحصول الكفر موقوف على حصول مشيئة الإيمان وحصول مشيئة الكفر وصريح العقل أيضاً يدل له ، فإن العقل الاختياري يمتنع حصوله بدون القصد إليه وبدون الاختيار له . إذا عرفت هذا فنقول حصول ذلك القصد والاختيار إن كان بقصد آخر يتقدمه واختيار آخر يتقدمه لزمه أن يكون كل قصد واختيار مسبوقاً بقصد آخر إلى غير النهاية وهو محال . فوجب انتهاء تلك القصود وتلك الاختيارت إلى قصد واختيار يخلقه الله تعالى في العبد على سبيل الضرورة عند حصول ذلك القصد الضروري والاختيار الضروري يوجب الفعل ، فالإنسان شاء أو لم يشأ إن لم تحصل في قلبه تلك المشيئة الجازمة الخالية عن المعارض لم يترتب الفعل ، وإذا حصلت تلك المشيئة الجازمة شاء أو لم يشأ يجب ترتب الفعل عليه ، فلا حصول المشيئة مترتب على حصول الفعل ، ولا حصول الفعل مترتب

على المشيئة .

فالإنسان مضطر في صورة مختار ، ولقد قرر الشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله هذا المعنى في باب التوكل من كتاب إحياء علوم الدين فقال : فإن قلت إني أجد في نفسي وجداناً ضرورياً أني إن شئت الفعل قدرت على الفعل وإن شئت الترك قدرت على الترك فالفعل والترك بي لا بغيري .

وأجاب عنه ، وقال : هب أنك تجد من نفسك هذا المعنى ولكن هل تجد من نفسك أنك إن شئت مشيئة الفعل حصلت تلك المشيئة ، وإن لم تشأ تلك المشيئة لم تحصل .

بل العقل يشهد بأنه يشاء الفعل لا بسبق مشيئة أخرى على تلك المشيئة ، وإذا شاء الفعل وجب حصول الفعل من غير مكنة واختيار في هذا المقام فحصول المشيئة في القلب أمر لازم وترتب الفعل على حصول المشيئة أيضاً أمر لازم وهذا يدل على أن الكل من الله تعالى .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ فيه فوائد :

الفائدة الأولى : الآية تدل على أن صدور الفعل عن الفاعل بدون القصد والداعي محال .

الفائدة الثانية : أن صيغة الأمر لا لمعنى الطلب في كتاب الله كثيرة ثم نقل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال هذه الصيغة تهديد ووعيد وليست بتخيير .

الفائدة الثالثة : أنها تدل على أنه تعالى لا ينتفع بإيمان المؤمنين ولا يستضر بكفر الكافرين ، بل نفع الإيمان يعود عليهم ، وضرر الكفر يعود عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : 7] ، واعلم أنه تعالى لما وصف الكفر والإيمان والباطل والحق أتبعه بذكر الوعيد على الكفر والأعمال الباطلة ، وبذكر الوعد على الإيمان والعمل الصالح .

أما الوعيد فقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا ﴾ يقول اعتدنا لمن ظلم نفسه ووضع العبادة في غير موضعها والأنفة في غير محلها فعندما استحسن بهواه وأنف عن قبول الحق لأجل أن الذين قبلوه فقراء ومساكين ، فهذا كله ظلم ووضع للشيء في غير موضعه .

فأخبر تعالى أنه أعد لهؤلاء الأقوام ناراً وهي الجحيم ، ثم وصف تعالى تلك النار بصفتين :

الصفة الأولى : قوله : ﴿ وَأَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ والسرادق هو الحجزة التي تكون حول الفسطاط فأثبت للنار شيئاً شبيهاً بذلك يحيط بهم من جميع الجهات ، والمراد أنه لا مخلص لهم منها ولا فرجة يتفرجون بالنظر إلى ما وراءها من غير النار بل هي محيطة بهم من كل الجوانب .

وقال بعضهم: المراد من هذا السرادق الدخان الذي وصفه الله في قوله: ﴿ انطلقوا إلى ظِلٍّ ذِى ثلاث شُعَبٍ ﴾ [المرسلات: 30] وقالوا: هذه الإحاطة بهم إنما تكون قبل دخولهم النار فيغشاهم هذا الدخان ويحيط بهم كالسرادق حول الفسطاط.

(9/471)

والصفة الثانية: لهذه النار قوله: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَاء كالمهل ﴾ قيل في حديث مرفوع إنه دردي الزيت وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه دخل بيت المال وأخرج نفاثة كانت فيه وأوقد عليها النار حتى تلألأت ثم قال: هذا هو المهل، قال أبو عبيدة والأخفش كل شيء أذبته من ذهب أو نحاس أو فضة فهو المهل، وقيل: إنه الصديد والقيح، وقيل إنه ضرب من القطران.

ثم يحتمل أن تكون هذه الاستغاثة لأنهم إذا طلبوا ماء للشرب فيعطون هذا المهل قال تعالى: ﴿ تصلى نَاراً حَامِيَةً * تسقى مِنْ عَيْنٍ ءانِيَةٍ ﴾ [الغاشية: 4، 5] ويحتمل أن يستغيثوا من حر جهنم فيطلبوا ماء يصبونه على أنفسهم للتبريد فيعطون هذا الماء.

قال تعالى حكاية عنهم: ﴿ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الماء ﴾ [الأعراف: 50] وقال في آية أخرى: ﴿ سَرَابِيلُهُم مّن قَطِرَانٍ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار ﴾ [إبراهيم: 50] فإذا

استغاثوا من حر جهنم صب عليهم القطران الذي يعم كل أبدانهم كالقميص وقوله تعالى :

﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كالمهل ﴾ وارد على سبيل الاستهزاء كقوله :

تحية بينهم ضرب وجيع . . ثم قال تعالى : ﴿ بِئْسَ الشراب ﴾ أي أن الماء الذي هو كالمهل بئس الشراب لأن المقصود بشرب الشراب تسكين الحرارة وهذا يبلغ في احتراق الأجسام مبلغاً عظيماً ثم قال تعالى : ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ قال قائلون : ساءت النار منزلاً ومجتمعاً للرفقة لأن أهل النار يجتمعون رفقاء كأهل الجنة .

قال تعالى في صفة أهل الجنة : ﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : 69] وأما رفقاء النار فهم الكفار والشياطين والمعنى بئس الرفقاء هؤلاء وبئس موضع الترافق النار كما أنه نعم الرفقاء أهل الجنة ونعم موضع الرفقاء الجنة .

وقال آخرون مرتفقاً أي متكأ ، وسمي المرفق مرفقاً لأنه يتكأ عليه ، فالإتكاء إنما يكون للاستراحة ، والمرتفق موضع الاستراحة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 101 . 103 ﴾

(10/471)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾

هذا وإن كان خارجاً مخرج التخيير فهو على وجه التهديد والوعيد ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم لا ينفعون الله بإيمانهم ولا يضرونه بكفرهم .

الثاني : فمن شاء الجنة فليؤمن ، ومن شاء النار فليكفر ، قاله ابن عباس .

الثالث : فمن شاء فليعرِّض نفسه للجنة بالإيمان ، ومن شاء فليعرض نفسه للنار بالكفر .

﴿ إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن سرادقها حائط من النار يطيف بهم ، قاله ابن عباس .

الثاني : هو دخانها ولهيبها قبل وصولهم إليها ، وهو الذي قال الله تعالى فيه ﴿ إلى ظلٍّ ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب ﴾ [المرسلات : 30-31] . قاله قتادة .

الثالث : أنه البحر المحيط بالدنيا . روى يعلى بن أمية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " البحر هو جهنم " ثم تلا ﴿ ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾ ثم قال " والله لا أدخلها أبداً ما دمت حياً ولا يصيبني منها قطرة " والسرادق فارسي معرب ، واصله سرادر .

﴿ وإن يستغيثوا يُغَاثوا بماءٍ كالمهل . . . ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أنه القيح والدم ، قاله مجاهد .

الثاني : دردي الزيت ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه كل شيء أذيب حتى انماع ؛ قاله ابن مسعود .

الرابع : هو الذي قد انتهى حره ، قاله سعيد بن جبير ، قال الشاعر :

شاب بالماء منه مهلاً كريهاً . . . ثم علّ المتون بعد النهال

وجعل ذلك إغاثة لاقترانه بذكر الاستغاثة .

﴿ . . . بئس الشراب وساءت مرتفقاً ﴾ في المرتفق أربعة تأويلات :

أحدها : معناه مجتمعاً ، قاله مجاهد ، كأنه ذهب إلى معنى المرافقة .

الثاني : منزلاً قاله الكلبي ، مأخوذ من الارتفاق .

الثالث : أنه من الرفق .

الرابع : أنه من المتكأ مضاف إلى المرفق ، ومنه قول أبي ذؤيب :

نامَ الخَلِيُّ وَبِتُّ اللَّيْلَ مُرْتَفِقاً . . . كأَنَّ عَيْنِي فيها الصَّابُ مَذْبُوحُ. انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(11/471)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وقل الحق ﴾ الآية ،

المعنى وقل لهم يا محمد هذا ﴿ الحق من ربكم ﴾ أي هذا القرآن ، أو هذا الإعراض عنكم ، وترك الطاعة لكم ، وصبر النفس مع المؤمنين ، وقرأ قعنب وأبو السمال " وقلَ " بفتح اللام قال أبو حاتم وذلك رديء في العربية ، وقوله ﴿ فمن شاء فليؤمن ﴾ الآية توعد وتهديد ، أي فليختر كل امرىء لنفسه ما يجده غداً عند الله عز وجل ، وتأولت فرقة ﴿ فمن شاء ﴾ الله إيمانه ﴿ فليؤمن ومن شاء ﴾ الله كفره ﴿ فليكفر ﴾ ، وهو متوجه ، أي فحقه الإيمان وحقه الكفر ، ثم عبر عن ذلك بلفظ الأمر إلزاماً وتحريضاً ، ومن حيث للإنسان في ذلك التكسب الذي به يتعلق ثواب الإيمان وعقاب الكفر ، وقرأ الحسن وعيسى الثقفي " فِليؤمن " " وِليكفر " بكسر اللامين ﴿ وأعتدنا ﴾ مأخوذ من العتاد وهو الشيء المعد الحاضر و " السرادق " وهو الجدار المحيط كالحجرة التي تدور وتحيط الفسطاط ، وقد تكون من نوع الفسطاط أديماً أو ثوباً أو نحوه ، ومنه قول رؤبة : [الرجز]

يا حكم بن المنذر بن الجارود . . . سرادق والمجد عليك ممدود

ومنه قول سلامة بن جندل : [الطويل]

هو المولج النعمان بيتاً سماؤه . . . صدور الفيول بعد بيت مسردق

وقال الزجاج " السرادق " كل ما أحاط بشيء .

قال القاضي أبو محمد : وهو عندي أخص مما قال الزجاج ، واختلف في " سرادق " النار فقال ابن عباس ﴿ سرادقها ﴾ حائط من نار وقالت فرقة ﴿ سرادقها ﴾ دخان يحيط

بالكفار ، وقوله تعالى : ﴿ انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ﴾ [المرسلات : 30]

وقالت فرقة الإحاطة هي في الدنيا ، والسرادق البحر ، وروي هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق يعلى بن أمية ، فيجيء قوله تعالى : ﴿ أحاط بهم ﴾ أي بالبشر ذكر الطبري الحديث عن يعلى قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " البحر هي جهنم " وتلا هذه الآية : ثم قال " والله لا أدخله أبداً أو ما دمت حياً "

(12/471)

، وروي عنه أيضاً عليه السلام من طريق أبي سعيد الخدري أنه قال " سرادق النار أربعة جدور ، كثف عرض كل جدار مسيرة أربعين سنة " ، وقوله عز وجل ﴿ يغاثوا ﴾ أي يكون لهم مقام الغوث وهذا نحو قول الشاعر : [الوافر]

تحية بينهم ضرب وجيع . . . أي القائم مقام التحية و" المهل " قال أبو سعيد عن النبي عليه السلام هو دردي الزيت إذا انتهى حده ، وقالت فرقة هو كل مائع سخن حتى انتهى حره ، وقال ابن مسعود وغيره هو كل ما أذيب من ذهب أو فضة أو رصاص أو نحو هذا من الفلز حتى يميع ، وروي أن عبد الله بن مسعود أهديت إليه سقاية من ذهب أو فضة فأمر بها فأذيبت حتى تميعت وتلونت ألواناً ثم دعا من بباب من أهل الكوفة ، فقال ما رأيت في الدنيا

شيئاً أدنى شبهاً " بالمهل " من هذا ، يريد أدنى شبهاً بشراب أهل النار ، وقالت فرقة " المهل " : الصديد والدم إذا اختلطا ، ومنه قول أبي بكر الصديق في الكفن : " إنما هو للمهلة " ، يريد لما يسيل من الميت في قبره ، ويقوى هذا بقوله ﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ [إبراهيم : 16] الآية . وقوله ﴿ يشوي الوجوه ﴾ روي في معناه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " تقرب الشربة من الكافر ، فإذا دنت منه تكرهها ، فإذا دنت أكثر شوت وجهه ، وسقطت فيها فروة وجهه ، وإذا شرب تقطعت أمعاؤه " و " المرتفق " ، الشيء الذي يرتفق به أي يطلب رفقه ، و " المرتفق " الذي هو المتكأ أخص من هذا الذي في الآية ، لأنه في شيء واحد من معنى الرفق ، على أن الطبري قد فسر الآية به ، والأظهر عندي أن يكون " المرتفق " بمعنى الشيء الذي يطلب رفقه باتكاء وغيره ، وقال مجاهد " المرتفق " المجتمع كأنه ذهب بها إلى موضع الرفاقة ، ومنه الرفقة ، وهذا كله راجع إلى الرفق ، وأنكر الطبري أن يعرف لقول مجاهد معنى ، والقول بين الوجه ، والله المعين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقل الحق مِنْ ربِّكم ﴾

قال الزجاج : المعنى : وقل الذي أتيتكم به ، الحقُّ من ربِّكم .

قوله تعالى : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : فمن شاء الله فليؤمن ، روي عن ابن عباس .

والثاني : أنه وعيد وإِنذار ، وليس بأمر ، قاله الزجاج.

والثالث : أن معناه : لا تنفعون الله بإيمانكم ، ولا تضرُونه بكفركم ، قاله الماوردي .

وقال بعضهم : هذا إِظهار للغنى ، لا إِطلاق في الكفر .

قوله تعالى : ﴿ إِنا أعتدنا ﴾ أي : هيَّأنا ، وأعددنا ، وقد شرحناه في قوله : ﴿ وأعتدتْ لهن متَّكأً ﴾ [يوسف 31] .

فأما الظالمون ، فقال المفسرون : هم الكافرون .

وأما السُّرادِق ، فقال الزجاج : السُّرادِق : كلُّ ما أحاط بشيء ، نحو الشُّقَّة في المِضْرَب ، أو الحائط المشتمل على الشيء .

وقال ابن قتيبة : السُّرادِق : الحُجرة التي تكون حول الفسطاط .

وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي ، قال : السُّرادق فارسي معرَّب ، وأصله بالفارسية سَرَادَارْ ، وهو الدِّهليز ، قال الفرزدق :

تَمَنَّيْتَهُمْ حتى إذا ما لَقِيتَهم . . .

تَركتَ لَهم قبلَ الضِّراب السُّرَادِقا

وفي المراد بهذا السُّرادق قولان .

أحدهما : أنه سُرادق من نار ، قاله ابن عباس .

روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لِسُرادِق النار أربعةَ جُدُرٍ كُثُفٌ ، كلُّ جدار منها مسيرة أربعين سنة" وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس ، قال : السرادق : لسان من النار ، يخرج من النار فيحيط بهم حتى يفرغ من حسابهم .

والثاني : أنه دخان يحيط بالكفار يوم القيامة ، وهو الظِّل ذو ثلاث شعب الذي ذكره الله تعالى في [المرسلات : 30] ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ وإن يستغيثوا ﴾ أي : مما هم فيه من العذاب وشدة العطش ﴿ يُغاثوا بماءٍ كالمُهل ﴾ وفيه سبعة أقوال .

أحدها : أنه ماءٌ غليظ كدُرْدِيِّ الزيت ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنه كل شيء أذيب حتى انماع ، قاله ابن مسعود .

وقال أبو عبيدة ، والزجّاج : كل شيء أذبته من نحاس أو رصاص أو نحو ذلك ، فهو لُمهل .

والثالث : قيح ودم أسود كعكر الزيت ، قاله مجاهد .

والرابع : أنه الفضة والرصاص يذابان ، روي عن مجاهد أيضاً .

والخامس : أنه الذي انتهى حَرُّه ، قاله سعيد بن جبير .

والسادس : [أنه] الصَّديد ، ذكره ابن الأنباري .

قال مُغيث بن سُمي : هذا الماء هو ما يسيل من عَرَق أهل الموقف في الآخرة وبكائهم ، وما يجري منهم من دم وقيح ، يسيل ذلك إلى وادٍ في جهنم ، فتطبخه جهنم ، فيكون أول ما يُغاث به أهل النار .

والسابع : أنه الرماد الذي يُنفض عن الخُبزة إذا خرجت من التَّنُّور ، حكاه ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ يشوي الوجوه ﴾ قال المفسرون : إِذا قرِّبَه إليه سقطت فروة وجهه فيه .

ثم ذمَّه ، فقال : ﴿ بئس الشراب وساءت ﴾ النار ﴿ مُرْتَفَقاً ﴾ وفيه خمسة أقوال .

أحدها : منزلاً ، قاله ابن عباس .

والثاني : مجتمعاً ، قاله مجاهد .

والثالث : متَّكأً ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد لأبي ذؤيب :

إِني أرِقْت فبتُّ اللَّيْل مُرْتَفِقاً . . .

كأنَّ عَيْنِي فِيها الصَّابُ مَذْبُوحُ

وذبحه : انفجاره ؛ قال الزجاج : "مرتفقاً" منصوب على التمييز ؛ ومعنى مرتفقاً : متَّكأً على المِرفق .

والرابع : ساءت مجلساً ؛ قاله ابن قتيبة .

والخامس : ساءت مطلباً للرفق ، لأن من طلب رِفقاً من جهتها ، عَدِمه ، ذكره ابن الأنباري .

ومعاني هذه الأقوال تتقارب .

وأصل المِرفق في اللغة : ما يُرتَفَق به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(15/471)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

"الحقّ" رفع على خبر الابتداء المضمر ؛ أي قل هو الحق .

وقيل : هو رفع على الابتداء ، وخبره في قوله "من ربكم" .

ومعنى الآية : قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا : أيها الناس ! من ربكم الحق

فإليه التوفيق والخذلان ، وبيده الهدى والضلال ، يهدي من يشاء فيؤمن ، ويضل من يشاء فيكفر ، ليس إليّ من ذلك شيء ، فالله يؤتي الحق من يشاء وإن كان ضعيفاً ، ويحرمه من يشاء وإن كان قويّاً غنيّاً ، ولست بطارد المؤمنين لهواكم ؛ فإن شئتم فآمنوا ، وإن شئتم فاكفروا .

وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر ، وإنما هو وعيد وتهديد .

أي إن كفرتم فقد أعدّ لكم النار ، وإن آمنتم فلكم الجنة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ أي أعددنا .

﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أي للكافرين الجاحدين .

﴿ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ قال الجوهري : السُّرادق واحد السُّرادقات التي تمدّ فوق صحن الدار .

وكل بيت من كرسف فهو سرادق .

قال رؤبة :

يا حَكَمُ بنَ المنذر بن الجارُودْ . . .

سُرادِقُ المجد عليك مَمْدُودْ

يقال : بيت مُسردَق .

وقال سلامة بن جندل يذكر أبرويز وقتله النعمان بن المنذر تحت أرجل الفِيَلة :

هو المُدخِل النعمانَ بيتاً سماؤه . . .

صُدورُ الفيولِ بعد بَيت مَسَرْدَقِ

وقال ابن الأعرابي : "سرادقها" سورها .

وعن ابن عباس : حائط من نار .

الكلبي : عنق تخرج من النار فتحيط بالكفار كالحظيرة .

القتبيّ : السرادق الحجزة التي تكون حول الفسطاط .

وقاله ابن عزيز .

وقيل : هو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة ، وهو الذي ذكره الله تعالى في سورة "والمرسلات" حيث يقول : ﴿ انطلقوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ ﴾ [المرسلات : 30] وقوله : ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ [الواقعة : 43] قاله قتادة .

وقيل : إنه البحر المحيط بالدنيا .

(16/471)

وروى يعلى بن أمية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " البحر هو جهنم ثم تلا ناراً أحاط بهم سُرَادقها ثم قال : والله لا أدخلها أبداً ما دمت حياً ولا يصيبني منها قطرة "

ذكره الماورديّ .

وخرج ابن المبارك من حديث أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لسرادق النار أربع جدر كُثُف كل جدار مسيرة أربعين سنة " وخرجه أبو عيسى الترمذي ، وقال فيه : حديث حسن صحيح غريب .

قلت : وهذا يدل على أن السرادق ما يعلو الكفار من دخان أو نار ، وجُدُره ما وُصف .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه ﴾ قال ابن عباس : المُهْل ماء غليظ مثل دُرْدِيّ الزيت .

مجاهد : القَيْح والدّم .

الضحاك : ماء أسود ، وإن جهنم لسوداء ، وماؤها أسود وشجرها أسود وأهلها سُود .

وقال أبو عبيدة : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورَصاص ونُحاس وقَزْدير ، فتموج بالغليان ، فذلك المهل .

ونحوه عن ابن مسعود .

قال سعيد بن جُبير : هو الذي قد انتهى حَره .

وقال : المهل ضرب من القَطِران ؛ يقال : مَهلت البعير فهو ممهول .

وقيل : هو السم .

والمعنى في هذه الأقوال متقارب .

وفي الترمذي " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله "كالمهل" قال : كعَكَر الزيت فإذا قرّبه إلى وجهه سقطت فَروْة وجهه " قال أبو عيسى : هذا حديث إنما نعرفه من حديث رِشْدِين بن سعد ورِشْدين قد تُكُلِّم فيه من قبل حفظه .

(17/471)

وخرج عن أبي أمامة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَيُسْقَى مِن مَاءٍ صَدِيدٍ يتجرعه ﴾ [إبراهيم : 16-17] قال : " يقرّب إلى فيه فيكرهه فإذا أُدْنِيَ منه شوَى وجهه ووقعت فَروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره " يقول الله تعالى ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد : 15] يقول ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ " قال : حديث غريب .

قلت : وهذا يدل على صحة تلك الأقوال ، وأنها مرادة ، والله أعلم .

وكذلك نص عليها أهل اللغة .

في الصحاح "المهل" النحاس المُذاب .

ابن الأعرابي : المهل المذاب من الرصاص .

وقال أبو عمرو : المهل درديّ الزيت .

والمهل أيضاً القيح والصديد .

وفي حديث أبي بكر : ادفنوني في ثَوْبَيّ هذين فإنهما للمهل والتراب .

و ﴿ مُرْتَفَقاً ﴾ قال مجاهد : معناه مجتمعاً ؛ كأنه ذهب إلى معنى المرافقة .

ابن عباس : منزلاً .

عطاء : مقرا .

وقيل مهادا .

وقال القتَبيّ : مجلسا .

والمعنى متقارب ؛ وأصله من المتّكأ ، يقال منه : ارتفقت أي اتكأت على المرفق .

قال الشاعر :

قالت له وارتفقت ألاَ فتًى . . .

يسوق بالقوم غَزالاتِ الضُّحا

ويقال : ارتفق الرجل إذا نام على مِرفقه لا يأتيه نوم .

قال أبو ذُؤيب الهُذَليّ :

نام الخَليّ وبتُّ الليل مُرْتَفِقا . . .

كأنّ عَيْنِيَ فيها الصّاب مَذبُوحُ

الصاب : عصارة شجر مرّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

و﴿ الحق ﴾ يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، فقدره ابن عطية هذا ﴿ الحق ﴾ أي هذا القرآن أو هذا الإعراض عنكم وترك الطاعة لكم وصبر النفس مع المؤمنين .

وقال الزمخشري : ﴿ الحق ﴾ خبر مبتدأ محذوف والمعنى جاء الحق وزاحت العلل فلم يبق إلاّ اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة أو في طريق الهلاك ، وجيء بلفظ الأمر والتخيير لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء فكأنه مخير مأمور بأن يتخير ما شاء من النجدين انتهى .

وهو على طريق المعتزلة ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره ﴿ من ربكم ﴾ .

قال الضحاك : هو التوحيد .

وقال مقاتل : هو القرآن .

وقال مكي : أي الهدى والتوفيق والخذلان من عند الله يهدي من يشاء فيوفقه فيؤمن ، ويضل من يشاء فيخذله فيكفر ليس إليّ من ذلك شيء .

وقال الكرماني : أي الإسلام والقرآن ، وهذا الذي لفظه لفظ الأمر معناه التهديد والوعيد ولذلك عقبه بقوله : ﴿ إنّا أعتدنا للظالمين ﴾ قال معناه ابن عباس .

وقال السدّي : هو منسوخ بقوله ﴿ وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله ﴾ وهذا قول ضعيف ، والظاهر أن الفاعل بشاء عائد على ﴿ من ﴾ .

وعن ابن عباس من شاء الله له بالإيمان آمن ، ومن لا فلا انتهى .

وحكى ابن عطية عن فرقة أن الضمير في ﴿ شاء ﴾ عائد على الله تعالى ، وكأنه لما كان الإيمان والكفر تابعين لمشيئة الله جاء بصيغة الأمر حتى كأنه تحتم وقوعه مأمور به مطلوب منه .

وقرأ أبو السمال قعنب وقلَ الحق بفتح اللام حيث وقع .

قال أبو حاتم : وذلك رديء في العربية انتهى .

وعنه أيضاً ضم اللام حيث وقع كأنه اتباع لحركة القاف .

وقرأ أيضاً ﴿ الحق ﴾ بالنصب .

قال صاحب اللوامح : هو على صفة المصدر المقدر لأن الفعل يدل على مصدره وإن لم يذكر فينصبه معرفة كنصبه إياه نكرة ، وتقديره ﴿ وقل ﴾ القول ﴿ الحق ﴾ وتعلق ﴿ من ﴾ بمضمر على ذلك مثل هو إرجاء والله أعلم .

وقرأ الحسن وعيسى الثقفي بكسر لامي الأمر .

ولما تقدم الإيمان والكفر أعقب بما أعد لهما فذكر ما أعد للكافرين يلي قوله ﴿ فليكفر ﴾ وأتى بعد ذلك بما أعد للمؤمنين ، ولما كان الكلام مع الكفار وفي سياق ما طلبوا من الرسول (صلى الله عليه وسلم) كانت البداءة بما أعد لهم أهم وآكد ، وهما طريقان للعرب هذه الطريق والأخرى أنه يجعل الأول في التقسيم للأول في الذكر ، والثاني للثاني .

والسرادق قال ابن عباس : حائط من نار محيط بهم .

وحكى أقضى القضاة الماوردي أنه البحر المحيط بالدنيا .

وحكى الكلبي : أنه عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار .

وقيل : دخان ﴿ وإن يستغيثوا ﴾ يطلبوا الغوث مما حل بهم من النار وشدة إحراقها واشتداد عطشهم ﴿ يغاثوا ﴾ على سبيل المقابلة وإلاّ فليست إغاثة .

وروي في الحديث أنه عكر الزيت إذا قرب منه سقطت فروة وجهه فيه .

وقال ابن عباس : ماء غليظ مثل دردي الزيت .

وعن مجاهد أنه القيح والدم الأسود .

وعن ابن جبير : كل شيء ذائب قد انتهى حرّه .

وذكر ابن الأنباري أنه الصديد .

وعن الحسن أنه الرماد الذي ينفط إذا خرج من التنور .

وقيل : ضرب من القطران .

و﴿ يشوي ﴾ في موضع الصفة لماء أو في موضع الحال منه لأنه قد وصف فحسن مجيء الحال منه ، وإنما اختص ﴿ الوجوه ﴾ لكونها عند شربهم يقرب حرّها من وجوههم .

وقيل : عبر بالوجوه عن جميع أبدانهم ، والمعنى أنه ينضج به جميع جلودهم كقوله ﴿ كلما نضجت جلودهم ﴾ والمخصوص بالذم محذوف تقديره ﴿ بئس الشراب ﴾ هو أي الماء الذي يغاثون به .

والضمير في ﴿ ساءت ﴾ عائد على النار .

والمرتفق قال ابن عباس : المنزل .

وقال عطاء : المقر .

وقال القتبي : المجلس .

وقال مجاهد : المجتمع ، وأنكر الطبري أن يعرف لقول مجاهد معنى ، وليس كذلك كان مجاهداً ذهب إلى معنى الرفاقة ومنه الرفقة .

وقال أبو عبيدة : المتكأ .

وقال الزجاج : المتكأ على المرفق ، وأخذه الزمخشري فقال : متكأ من المرفق وهذا لمشاكلة قوله ﴿ وحسنت مرتفقاً ﴾ وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء .

وقال ابن الأنباري : ساءت مطلباً للرفق ، لأن من طلب رفقاً من جهنم عدمه .

وقال ابن عطية : قريباً من قول ابن الأنباري .

قال : والأظهر عندي أن يكون المرتفق بمعنى الشيء الذي يطلب رفقه باتكاء وغيره .

وقال أبو عبد الله الرازي : والمعنى بئس الرفقاء هؤلاء ، وبئس موضع الترافق النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(21/471)

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾

المعنى : وقل لهم يا محمَّد هذا القرآن هو الحقُّ ، * ت * : وقد ذم اللَّه تعالى الغافلين عَنْ ذكره والمُعْرِضين عن آياته في غيرما آية من كتابه ، فيجبُ الحذر مما وقَع فيه أولئك ، ولقد أحسن العارفُ في قوله : غَفْلَةٌ ساعةٍ عَنْ رِبّكَ مُكَدِّرة لمرآة قلبك ، فكيف بغفْلتكَ جميعَ

عُمُرِكَ . وقد روي أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : " مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ ، إِلاَّ كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةٌ ، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ " رواه أبو داود والترمذيُّ والنسائي والحاكم وابنُ حِبَّان في «صحيحهما» وهذا لفظ الترمذيِّ ، وقال : حديثٌ حَسَن ، وقال الحاكمُ : صحيحٌ على شرط مسلم ، «والتِّرَةُ» – بكسر التاء المُثَنَّاة من فوقُ وتخفيفِ الراء – النقْصُ ، وقيل : التبعة ، ولفظ ابن حِبَّان : " إِلاَّ كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ القِيَامَةِ ، وإِنْ دَخَلُوا الجَنَّةَ " انتهى من «السلاح» .

(22/471)

وقوله : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن . . . ﴾ الآية : توعُّد وتهديد ، أي : فليخترْ كُلُّ امرىءٍ لنفسه ما يجدُه غداً عند اللَّه عزَّ وجلَّ ، وقال الداووديُّ ، عن ابن عباس : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ يقول : من شاء اللَّه له الإيمان ، آمن ، ومن شاء له الكفر ، كفر ، هو كقوله : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ الله رَبُّ العالمين ﴾ [التكوير : 29] وقال غيره : هو كقوله : ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت : 40] بمعنى الوعيد ، والقولان معاً صحيحان . انتهى و ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ مأخوذٌ من العَتَاد ، وهو الشيءُ المُعَدُّ الحاضر ، «والسُّرادق» هو الجدار المحيط كالحُجْرة التي تدورُ وتحيطُ بالفسْطَاط ، قد تكون من نَوْع

الفُسْطَاط أديماً أو ثوباً أو نحوه ، وقال الزَّجَّاج : «السُّرَادِق» : كل ما أحاط بشيء ، واختلف في سُرَادِقِ النار ، فقال ابن عباس : سرادقها حائطٌ من نار ، وقالت فرقة : سرادقها دُخَانٌ يحيط بالكُفَّار ، وهو قوله تعالى : ﴿ انطلقوا إلى ظِلٍّ ذِي ثلاث شُعَبٍ ﴾ [المرسلات : 30] وقيل غير هذا ، وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من طريق أبي سعيد الخدريّ ؛ أنه قَالَ " سُرَادِقُ النَّارِ أَرْبَعَةُ جُدُرٍ كِثَفُ عَرْض كُلِّ جِدارٍ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً " و«المهل» قال أبو سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : هو دردِيُّ الزيتِ ، إذا انتهى حَرُّه " ، وقال أبو سعيد وغيره : هو كلُّ ما أذيب من ذهب أو فضة ، وقالت فرقةٌ : «المُهْل» هو الصديدُ والدمُ إذا اختلطا ، ومنه قول أبي بكر رضي اللَّه عنه في الكَفَن : إنما هو للمهلة ، يريدُ لما يسيل من المَيِّت في قبره ، ويقوى هذا بقوله سبحانه : ﴿ ويسقى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴾ [ابراهيم : 16] و«المُرتفق» : الشيء الذي يطلب رفقه . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(23/471)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقُلْ ﴾ لأولئك الغافلين المتبعين هواهم ﴿ الحق مِن رَّبّكُمْ ﴾ أي ما أوحيَ إليّ الحقُّ لا

غيرُ كائناً من ربكم أو الحقُّ المعهودُ من جهة ربكم لا من جهتي حتى يُتصور فيه التبديل أُو يُمكنَ الترددُ في اتباعه وقوله تعالى: ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ إما من تمام القولِ المأمورِ به والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها بطريق التهديد لا لتفريعه عليه كما في قوله تعالى: ﴿ هذا عَطَاؤُنَا فامنن أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ أي عَقيبَ تحقق أن ما أوحي إليَّ حقٌّ لا ريب فيه وأن ذلك الحقَّ من جهة ربكم فمن شاء أن يؤمنَ كسائر المؤمنين ولا يتعلل بما لا يكاد يصلُح للتعلل ومن شاء أن يكفرَ به فليفعلْ، وفيه من التهديد وإظهارِ الاستغناءِ عن متابعتهم وعدمِ المبالاةِ بهم وبإيمانهم وجوداً وعدماً ما لا يخفى، وإما تهديدٌ من جهة الله تعالى والفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على الأمر لا على مضمون المأمورِ به، والمعنى قل لهم ذلك، وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدِّقَك فيه فليؤمن ومن شاء أن يكفر به أو يكذُبَك فيه فليفعل، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ وعيدٌ شديدٌ وتأكيدٌ للتهديد وتعليلٌ لما يفيده من الزجر عن الكفر أو لما يُفْهم من ظاهر التخييرِ من عدم المبالاةِ بكفرهم وقلةِ الاهتمامِ بزجرهم عنه، فإن إعدادَ جزائِه من دواعي الإملاءِ والأمهالِ، وعلى الوجه الأول هو تعليلٌ للأمر بما ذكر من التخيير التهديديِّ أي قل لهم ذلك إنا أعتدنا ﴿ للظالمين ﴾ أي هيأنا للكافرين بالحق بعد ما جاء من الله سبحانه، والتعبيرُ عنهم بالظالمين للتنبيه على أن مشيئَةَ الكفر

واختيارَه تجاوزٌ عن الحد ووضعٌ للشيء في غير موضعه ﴿ نَارًا ﴾ عظيمةً عجيبة ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ ﴾ أي يحيط بهم ، وإيثارُ صيغةِ الماضي للدِلالة على التحقق ﴿

(24/471)

سُرَادِقُهَا ﴾ أي فُسطاسُها شُبّه به ما يحيط بهم من النار ، وقيل : السرادِقُ الحجرةُ التي تكون حول الفُسطاطِ ، وقيل : سرادِقُها دُخانُها ، وقيل : حائط من نار ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا ﴾ من العطش ﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ كالحديد المذاب ، وقيل : كدُرْدِيِّ الزيت وهو على طريقة قوله : فاعتُبوا بالصَّيْلم ﴿ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ إذا قدم ليُشرَب انشوى الوجهُ لحرارته . عن النبي عليه الصلاة والسلام : " هو كعَكَر الزيت فإذا قُرب إليه سقطت فروةُ وجهه " ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ ﴾ ذلك ﴿ وَسَاءَتْ ﴾ النار ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ متكأً ، وأصل الارتفاقِ نصبُ المِرْفق تحت الخد وأنى ذلك في النار ، وإنما هو بمقابلة قوله تعالى : ﴿ حَسُنَتْ مُرْتَفَقًا . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(25/471)

وقال الآلوسي :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾

﴿ وَقُلْ ﴾ لأولئك الذين أغفلنا قلوبهم عن الذكر واتبعوا هواهم ﴿ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا الذي أوحى إلى الحق و ﴿ مّن رَّبّكُمْ ﴾ حال مؤكدة أو خبر بعد خبر والأولى أولى ، والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ من تمام القول المأمور به فالفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها بطريق التهديد أي عقيب تحقيق أن ذلك حق لا ريب فيه لازم الاتباع من شاء أن يؤمن به ويتبعه فليفعل كسائر المؤمنين ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل ومن شاء أن يكفر به وينبذه وراء ظهره فليفعل ، وفيه من التهديد وإظهار الاستغناء عن متابعتهم التي وعدوها في طرد المؤمنين وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم وجوداً وعدماً ما لا يخفى .

وجوز أن يكون ﴿ الحق ﴾ مبتدأ خبره ﴿ مّن رَّبّكُمْ ﴾ واختار الزمخشري هنا الأول ، قال في الكشف : ووجه إيثار الحذف أن المعنى عليه أتم التئاماً لأنه لما أمره سبحانه بالمداومة على تلاوة هذا الكتاب العظيم الشأن في جملة التالين له حق التلاوة المريدين وجهه تباك وتعالى غير ملتفت إلى زخارف الدنيا فمن أوتي هذه النعمة العظمى فله بشكرها اشتغال عن كل شاغل ذيله لازاحة الأعداء والعلل بقوله سبحانه ﴿ وَقُلْ ﴾ الخ أي هذا الذي أوحى هو الحق فمن شاء فليدخل في سلك الفائزين بهذه السعادة ومن شاء

فليكن في الهالكين إنهما كا في الضلالة ، أما لو جعل مبتدأ فالتعريف إن كان للعهد رجع إلى الأول مع فوات المبالغة وإن كان للجنس على معنى جميع الحق من ربكم لا من غيره ويشمل الكاتب شمولاً أولياً لم يطبق المفصل إذ ليس ما سيق له الكلام كونه منه تعالى لا غير بل كونه حقاً لازم الاتباع لا غيراه .

(26/471)

وهو كلام يلوح عليه مخايل التحقيق ويشعر ظاهره بحمل الدعاء على ثاني الأقوال فيه وكون المشار إليه اكلاتب مطلقاً لا المتضمن الأمر بصبر النفس مع المؤمنين وترك الطاعة للغافلين كما جوزه ابن عطية ، وعلى تقدير أن يكون الحق مبتدأ قيل المراد به أنه القرآن كما كان المراد من المشار إليه على تقدير كونه خبراً وهو المروى عن مقاتل ، وقال الضحاك : هو التوحيد ، وقال الكرماني : الإسلام والقرآن .

وقال مكي : المراد به التوفيق والخذلان أي قل التوفيق والخذلان من عند الله تعالى يهدي من يشاء فيوفقه فيؤمن ويضل من يشار فيخذله فيكفر ليس إلى من ذلك شيء وليس بشيء كما لا يخفى .

وجوز أن يكون قوله سبحانه ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن ﴾ الخ تهديداً من جهته تعالى غير

داخل تحت القول المأمور به فالفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على نفس الأمر أي قل لهم ذلك وبعد ذلك فمن شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فيه فليفعل ومن شاء أن يكفر به أو أن يكذبك فيه فليفعل، وعلى الوجهين ليس المراد حقيقة الأمر والتخيير وهو ظاهر.

وذكر الخفاجي أن الأمر بالكفر غير مراد وهو استعارة للخذلان والتخلية بتشبيه حال من هو كذلك بحال المأمور بالمخالفة؛ ووجه الشبه عدم المبالاة والاعتناء، وهذا كقول كثير: أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة.

واستدل المعتزلة بالآية على أن العبد مستقل في أفعاله موجد لها لأنه علق فيها تحقق الإيمان والكفر على على محض مشيئته لأن المتبادر من الشرط أنه علة تامة للجزاء فدل على أنه مستقل في إيجادهما ولا فرق بين فعل وفعل فهو الموجد لكل أفعاله.

(27/471)

وأجيب بأنا لو فرضنا أن مشيئة العبد مئثرة وموجدة للأفعال لا يتم المقصود لأن العقل والنقل يدلان على توقفها على مشيئة الله تعالى وإرادته، أما الأول فلأنهم قالوا: لو لم تتوقف على ذلك لزم الدور أو التسلسل، وأما الثاني فلأنه سبحانه يقول: ﴿ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ ﴾ [الإنسان: 30] ومع هذا التوقف لا يتم أمر الاستقلال

ويثبت أن العبد مضطر في صورة مختار وهو مذهب الأشاعرة .

وفي الإحياء لحجة الإسلام فإن قلت : إني أجد في نفسي وجداناً ضرورياً أني إن شئت الفعل قدرت عليه وإن شئت الترك قدرت عليه فالفعل والترك بي لا بغيري قلت : هب أنك تجد من نفسك هذا المعنى ولكن هل تجد من نفسك أنك إن شئت مشيئة الفعل حصلت تلك المشيئة أو لم تشأ تلك المشيئة لم تحصل لأن العقل يشهد بأنه يشاء الفعل لا لسبق مشيئة أخرى على تلك المشيئة وإذا شاء الفعل وجب حصول الفعل من غير مكنة واختيار فحصول المشيئة في القلب أمر لازم وترتب الفعل على حصول المشيئة أيضاً أمر لازم وهذا يدل على أن الكل من الله تعالى انتهى .

وبعضهم يكتفي في إثبات عدم الاستقلال بثبوت توقف مشيئة العبد على مشيئة الله تعالى وتمكينه سبحانه بالنص ولا يذكر حديث لزوم الدور أو التسلسل لما فيه من البحث ، وتمام الكلام في ذلك في كتب الكلام ، وستذكر ان شاء الله تعالى طرفاً لائقاً منه في الموضع اللائق به ، وقال السدي : هذه الآية منسوخة بقوله سبحانه : ﴿ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ [الإنسان : 30] ولعله أراد أن لا يراد المتبادر منها للآية المذكورة وإلا فهو قول باطل ، وحكى ابن عطية عن فرقة أن فاعل ﴿ شَاءَ ﴾ في الشرطيتين ضميره تعالى ، واحتج له بما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الآية : من شاء الله تعالى له الإيمان آمن ومن شاء له الكفر كفر .

والحق أن الفاعل ضمير ﴿ مِنْ ﴾ والرواية عن الحبر أخرجها ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

(28/471)

والبيهقي في الأسماء والصفات فإذا صحت يحتمل أن يكون ذلك القول لبيان ان من شاء الإيمان هو من شاء الله تعالى له الإيمان ومن شاء الكفر هو من شاء الله سبحانه له ذلك لا لبيان مدلول الآية وتحقيق مرجع الضمير ، ويؤيد ذلك قوله في آخر الخبر الذي أخرجه الجماعة وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله رَبُّ العالمين ﴾ [التكوير : 29] والله تعالى أعلم .

وقرأ أبو السمال قعنب ﴿ وَقَالَ الحق ﴾ بفتح اللام حيث وقع ، قال أبو حاتم : وذلك رديء في العربية .

وعنه أيضاً ضم اللام حيث وقع كأنه اتباع لحركة القاف ، وقرأ أيضاً ﴿ الحق ﴾ بالنصب وخرجه صاحب اللوامح على تقدير القول الحق و ﴿ مّن رَّبّكُمْ ﴾ قيل حال أي كائناً من ربكم ، وقيل : صفة أي الكائن من ربكم وفيه بحث .

وقرأ الحسن .

وعيسى الثقفي ﴿ فَلْيُؤْمِن ﴾ بكسر لام الأمر فيهما ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا للظالمين ﴾ للكافرين بالحق بعد ما جاء من الله سبحانه ، والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره تجاوز عن الحد ووضع للشيء في غير موضعه ، والجملة تعليل للأمر بما ذكر من التخيير التهديديد ، وجعلها من جعل ﴿ فَمَن شَاء ﴾ الخ تهديداً من قبله تعالى تأكيداً للتهديد وتعليلاً لما يفيده من الزجر عن الكفر .

وجوز كونها تعليلاً لما يفهم من ظاهر التخيير من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بشأنهم ، و﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ من العتاد وهو في الأصل ادخار الشيء قبل الحاجة إليه ، وقيل : أصله أعددنا فابدل من احدى الدالين تاء والمعنى واحد أي هيأنا لهم ﴿ نَارًا ﴾ عظيمة عجيبة ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أي فسطاطها ، شبه به ما يحيط بهم من لهبها المنتشر منها في الجهات ثم استعير له استعارة مصرحة والإضافة قرينة والإحاطة ترشيح ، وقيل : السرادق الحجزة التي تكون حول الفسطاط تمنع من الوصول إليه ، ويطلق على الدخان المرتفع المحيط بالشيء وحمل عليه بعضهم ما في الآية وهو أيضاً مجاز كإطلاقه على اللهب ،

وكلام القاموس يوهم أنه حقيقة ، والمروى عن قتادة تفسيره بمجموع الأمرين اللهب والدخان .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه حائط من نار ، وحكى الكلبي أنه عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار ، وحكى القاضي الماوردي أنه البحر المحيط بالدنيا يكون يوم القيامة ناراً ويحيط بهم ، واحتج له بما أخرجه أحمد .

والبخاري في التاريخ .

وابن أبي حاتم وصححه .

والبيهقي في البعث .

وآخرون عن يعلى بن أمية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن البحر هو من جهنم ثم تلا ناراً أحاط بهم سرادقها " والسرادق قال الراغب فارسي معرب وليس من كلامهم اسم مفرد ثالثه ألف وبعده حرفان انتهى ، وقد أصاب في دعوى التعريب فإن عامة اللغويين على ذلك ، وأما قوله : وليس من كلامهم الخ فيكذبه ورود علابط وقرأ مص وجنادف وحلاحل وكلها بزنة سرادق ومثل ذلك كثير والغفلة مع تلك الكثرة من هذا الفاضل بعيدة فينظر ما مراده ، ثم إنه معرب سراً يرده أي ستر الديوان ، وقيل : سرا طاق أي طاق الديوان وهو أقرب لفظاً إلا أن الطاق معرب أيضاً وأصله تا أو تاك ، وقال أبو حيان .

وغيره : معرب سرادر وهو الدهليز ووقع في بيت الفرزدق :

تمنيتهم حتى إذا ما لقيتهم . . .

تركت لهم قبل الضراب السرادقا

(30/471)

ويجمع كما قال سيبويه بالألف والتاء وإن كان مذكراً فيقال سرادقات ، وفسره في النهاية بكل ما أحاط بموضع من حائط أو مضرب أو خباء ، وأمر إطلاقه على اللهب أو الدخان أو غيرهما مما ذكر على هذا ظاهر .

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ ﴾ من العطش بقرينة قوله تعالى : ﴿ يُغَاثُواْ بِمَاء كالمهل ﴾ وقيل : مما حل بهم من أنواع العذاب ، والمهل على ما أخرج ابن جرير .

وغيره عن ابن عباس .

وابن جبير ماء غليظ كدردي الزيت ، وفيه حديث مرفوع فقد أخرج أحمد .

والترمذي .

وابن حبان .

والحاكم وصححه .

والبيهقي .

وآخرون عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ كالمهل ﴾ قال : كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه ، وقال غير واحد .

هو ما أذيب من جواهر الأرض ، وقيل : ما أذيب من النحاس ، وأخرج الطبراني .

وابن المنذر .

وابن جرير عن ابن مسعود أنه سئل عنه فدعا بذهب وفضة فإذا به فلما ذات قال : هذا أشبه شيء بالمهل الذي هو شراب أهل النار ولونه لون السماء غير أن شراب أهل النار أشد حراً من هذا .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وغيره عن مجاهد أنه القيح والدم الأسود ، وقيل : هو ضرب من القطران ، وقوله سبحانه : ﴿ يُغَاثُواْ ﴾ الخ خارج مخرج التهكم بهم كقول بشر بن أبي حازم :

غضبت تميم أن تقتل عامرا . . .

يوم النسار فاعتبوا بالصيلم

﴿ يَشْوِى الوجوه ﴾ ينضجها إذا قدم ليشرب من فرط حرارته حتى أنه يسقط جلودها كما سمعت في الحديث ، فالوجوه جمع وجه وهو العضو المعروف ، والظاهر أنه المراد لا غير

، وقيل : عبر بالوجوه عن جميع أبدانهم والجمل صفة ثانية لماء والأولى ﴿ كالمهل ﴾ أو حال منه كما في البحر لأنه قد وصف أو حال من المهل كما قال أبو البقاء .

(31/471)

وظاهر كلام بعضهم جواز كونها في موضع الحال من الضمير المستتر في الكاف لأنها اسم بمعنى مشابه فيستتر الضمير فيها كما يستتر فيه ؛ وفيه ما لا يخفى من التكلف لأنها ليس صفة مشتقة حتى يستتر فيها ولم يعهد مشتق على حرف واحد قاله الخفاجي .

وذكر أن أبا علي الفارسي منع في شرح الشواهد جعل ذؤابتي في قول الشاعر :

رأتني كأفحص القطاه ذؤابتي . . .

مرفوعاً بالكاف لكونها بمنزلة مثل وقال : إن ذلك ليس بالسهل لأن الكاف ليست على ألفاظ الصفات .

وجوز أن تكون في موضع الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور ، وقيل : يجوز أن يكون مراد ذلك البعض إلا أنه تسامح ﴿ بِئْسَ الشراب ﴾ ذلك الماء الذي يغاثون به ﴿ وَسَاءتْ ﴾ النار ﴿ مُرْتَفَقاً ﴾ أي متكأ كما قال أبو عبيدة وروي عن السدي ، وأصل الارتفاق كما قيل الاتكاء على مرفق اليد .

قال في الصحاح يقال : بات فلان مرتفقاً أي متكئاً على مرفق يده ، وقيل : نصب المرفق تحت الخد فمرتفقا اسم مكان ونصبه على التمييز ، قال الزمخشري : وهذا لمشاكلة قوله تعالى : ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ [الكهف : 31] وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء إلا أن يكون من قوله :

إني أرقت فبت الليل مرتفقا . . .

كأن عيني فيها الصاب مذبوح

أي فحينئذ لا يكون من المشاكلة ويكون الكلام على حقيقته بأن يكون لأهل النار ارتفاق فيها أي اتكاء على مرافق أيديهم كما يفعله المتحزن المتحسر ، وقد ذكر في الكشف أن الاتكاء على الحقيقة كما يكون للتنعم يكون للتحزن .

وتعقب بأن ذلك وإن أمكن عقلاً إلا أن الظاهر أن العذاب أشغلهم عنه فلا يتأتى منهم حتى يكون الكلام حقيقة لا مشاكلة .

وجوز أن يكون ذلك تهكماً أو كناية عن عدم استراحتهم .

وروي عن ابن عباس أن المرتفق المنزل .

وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن قتادة ، وفي معناه قول ابن عطاء : المقر ؛ وقول العتبي : الملجس ، وقيل موضع الترافق أي ساءت موضعاً للترافق والتصاحب ، وكأنه مراد مجاهد في تفسيره بالمجتمع فانكار الطبري أن يكون له معنى مكابرة .

وقال ابن الأنباري : المعنى ساءت مطلباً للرفق لأن من طلب رفقاً من جهنم عدمه ، وجوز بعضهم أن يكون المرتفق مصدراً ميمياً بمعنى الارتفاق والاتكاء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(33/471)

وقال القاسمى :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

أي : جاء بالحق وهو ما أوحي إليّ منه تعالى : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ إمّا من تمام المقول المأمور به ، والفاء لترتب ما بعدها على ما قبلها ، بطريق التهديد . أي : عقيب تحقق أن ما أوحي إليّ حق لا ريب فيه ، وأن ذلك الحق من جهة ربكم . فمن شاء أن يؤمن به ، فليؤمن كسائر المؤمنين . ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل . ومن شاء أن يكفر به فليفعل . وفيه من التهديد وإظهار الاستغناء عن متابعتهم ، وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم

، وجوداً وعدماً – ما لا يخفى . وإمّا تهديد من جهة الله تعالى ، والفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على الأمر . والمعنى : قل لهم ذلك . وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فيه فليؤمن . ومن شاء أن يكفر به أو يكذبك فيه فليفعل . أفاده أبو السعود .

وفي " العناية " : الأمر والتخيير ليس على حقيقته . فهو مجاز عن عدم المبالاة والاعتناء به . والأمر بالكفر غير مراد . فهو استعارة للخذلان والتخلية ، بتشبيه حال من هو كذلك بحال المأمور بالمخالفة . ووجه الشبه عدم المبالاة والاعتناء به فيهما . وهذا كقوله : " أَسِيئِي بنا أو أَحْسِنِي لا مَلُومَةً " وهذا رد عليهم في دعائهم إلى طرد الفقراء المؤمنين ليجالسوه ويتبعوه . فقيل لهم : إيمانكم إنما يعود نفعه عليكم ، فلا نبالي به حتى نطردهم لذلك ، بعد ما تبين الحق وظهر . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً ﴾ وعيد شديد ، وتأكيد للتهديد وتعليل لما يفيده من الزجر عن الكفر . أو لما يفهم من ظاهر التخيير ، من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه . فإن إعداد جزائه من دواعي الإملاء والإمهال . وعلى الوجه الأول ، هو تعليل للأمر بما ذكر من التخيير التهديديّ . أي : قل لهم ذلك : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ أي : هيّأنا للكافرين بالحق ، بعد ما جاء من الله

سبحانه . والتعبير عنه بالظالمين للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره ، تجاوز عن الحد ووضع للشيء في غير موضعه . أفاده أبو السعود . وقوله تعالى : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أي : فسطاطها . وهي الخيمة . شبه به ما يحيط بهم من النار . فإن انتشار لهب النار في الجهات شبيه بالسرادق . ويطلق السرادق على الحظيرة حول الفسطاط للمنع من الوصول إليه . شبه ما يحيط بهم من جهنم ، بها . يقال بيت مسردَق ، ذو سرادق : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا ﴾ أي : من الظمأ لاحتراق أفئدتهم : ﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ أي : كالحديد المذاب وكعكر الزيت ، وقال القاشانيّ : من جنس الغَسَّاق والغِسْلين ، أي : المياه المتعفنة التي تسيل من أبدان أهل النار ، مسودّة يغاثون بها . أو غسالاتهم القذرة ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ [إبراهيم : 16 - 17] ، ﴿ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ أي : إذا قدم إليه ليشرب ، من فرط حرارته .

﴿ وَسَاءَتْ ﴾ أي : النار : ﴿ مُرْتَفَقاً ﴾ أي : متكأً . وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد . وذكره لمشاكلة قوله : ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء . وقد يكون تهكماً ، كقوله :

إِني أَرِقْتُ فبتُّ الليلَ مرتفقاً كأن عَيْني فيها الصَّابُ مَذْبُوحُ

والصاب : شجر مرّ يحرق ماؤه العين . ومذبوح : مشقوق . وفي كتاب " تنزيل الآيات " في

الصحاح : بات فلان مرتفقاً ، أي : متكئاً على مرفق يده . وهو هيئة المتحزنين المتحسّرين . فعلى هذا لا يكون من المشاكلة ولا للتهكم ، بل هو على حقيقته . كما يكون للتنعّم يكون للتحزن . وتعقبه في "العناية" فقال : وأما وضع اليد تحت الخدّ للتحزن والتحسر ، فالظاهر أن العذاب يشغلهم عنه . فلا يتأتى منهم حتى يكون هذا حقيقة لا مشاكلة ، فلذا لم يعرّجوا عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 32.34 ﴾

(35/471)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

بعد أن أمر الله نبيئه صلى الله عليه وسلم بما فيه نقض ما يفتلونه من مقترحاتهم وتعريضٍ بتأييسهم من ذلك أمره أن يصارحهم بأنه لا يعدل عن الحق الذي جاءه من الله ، وأنه مبلغه بدون هوادة ، وأنه لا يرغب في إيمانهم ببعضه دون بعض ، ولا يتنازل إلى مشاطرتهم في رغباتهم بشطر الحق الذي جاء به ، وأن إيمانهم وكفرهم موكول إلى أنفسهم ، لا يحسبون أنهم بوعد الإيمان يستنزلون النبي صلى الله عليه وسلم عن بعض ما أوحى إليه .

و ﴿ الحق ﴾ خبر مبتدأ محذوف معلوم من المقام ، أي هذا الحق .

والتعبير بـ ﴿ ربكم ﴾ للتذكير بوجوب توحيده .

والأمر في قوله : ﴿ فليؤمن ﴾ وقوله : ﴿ فليكفر ﴾ للتسوية المكنى بها عن الوعد والوعيد .

وقدم الإيمان على الكفر لأن إيمانهم مرغوب فيه .

وفاعل المشيئة في الموضعين ضمير عائد إلى (من) الموصولة في الموضعين .

وفعل "يؤمن ، ويكفر" مستعملان للمستقبل ، أي من شاء أن يوقع أحد الأمرين ولو بوجه الاستمرار على أحدهما المتلبس به الآن فإن العزم على الاستمرار عليه تجديد لإيقاعه .

وجملة ﴿ إنا أعتدنا للظالمين ناراً ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن ما دل عليه الكلام من إيكال الإيمان والكفر إلى أنفسهم وما يفيده من الوعيد كلاهما يثير في النفوس أن يقول قائل : فماذا يلاقي من شاء فاستمر على الكفر ، فيجاب بأن الكفر وخيم العاقبة عليهم .

والمراد بالظالمين : المشركون قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] .

وتنوين ناراً ﴾ للتهويل والتعظيم .

والسرادق بضم السين قيل : هو الفسطاط ، أي الخيمة .

وقيل : السرادق : الحُجزة بضم الحاء وسكون الزاي ، أي الحاجز الذي يكون محيطاً بالخَيمة يمنع الوصول إليها ، فقد يكون من جنس الفسطاط أديماً أو ثوباً وقد يكون غير ذلك كالخندق .

وهو كلمة معربة من الفارسية.

أصلها (سراطاق) قالوا: ليس في كلام العرب اسم مفرد ثالثه ألف وبعده حرفان.

(36/471)

والسرادق: هنا تخييل لاستعارة مكنية بتشبيه النار بالدار، وأثبت لها سُرادق مبالغة في إحاطة دار العذاب بهم، وشأن السرادق يكون في بيوت أهل الترف، فإثباته لدار العذاب استعارة تهكمية.

والاستغاثة: طلب الغوث وهو الإنقاذ من شدة وبتخفيف الألم.

وشمل ﴿ يستغيثوا ﴾ الاستغاثة من حر النار يطلبون شيئاً يُبرد عليهم، بأن يصبوا على وجوههم ماء مثلاً، كما في آية الأعراف ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء ﴾ [الأعراف: 50].

والاستغاثة من شدة العطش الناشىء عن الحر فيسألون الشراب.

وقد أومأ إلى شمول الأمرين ذكر وصفين لهذا الماء بقوله: يشوي الوجوه بئس الشراب ﴾.

والإغاثة: مستعارة للزيادة مما استغيث مِن أجله على سبيل التهكم، وهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضده.

والمُهل بضم الميم له معانٍ كثيرة أشبهها هنا أنه دُردي الزيت فإنه يزيدها التهاباً قال تعالى: ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ [المعارج: 8].

والتشبيه في سواد اللوْن وشدة الحرارة فلا يزيدهم إلا حرارة، ولذلك عقب بقوله : يشوي الوجوه ﴾ وهو استئناف ابتدائي .

والوجه أشد الأعضاء تألماً من حر النار قال تعالى : ﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ [المؤمنون : 104].

وجملة بئس الشراب ﴾ مستأنفة ابتدائية أيضاً لتشنيع ذلك المَاء مشروباً كما شُنع مغتسَلاً .

وفي عكسه الماءُ الممدوح في قوله تعالى : ﴿ هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ [ص : 42].

والمخصوص بذم بئس ﴾ محذوف دل عليه ما قبله .

والتقدير : بئس الشراب ذلك الماء .

وجملة ﴿ وساءت مرتفقاً ﴾ معطوفة على جملة ﴿ يشوي الوجوه ﴾ ، فهي مستأنفة أيضاً لإنشاء ذم تلك النار بما فيها .

والمرتفق : محل الارتفاق، وهو اسم مكان مشتق من اسم جامد إذ اشتق من المِرْفَقِ وهو مجمع العضد والذراع .

سمي مرفقاً لأن الإنسان يحصل به الرفق إذا أصابه إعياء فيتكيء عليه.

فلما سمي به العضو تنوسي اشتقاقه وصار كالجامد، ثم اشتق منه المُرتفق.

(37/471)

فالمرتفق هو المُتكأ، وتقدم في سورة يوسف.

وشأن المرتفَق أن يكون مكان استراحة، فإطلاق ذلك على النار تهكم، كما أطلق على ما يزاد به عذابهم لفظ الإغاثة، وكما أطلق لى مكانهم السرادق.

وفعل (سَاء) يستعمل استعمالَ (بئس) فيَعمَل عمل (بئس)، فقوله: ﴿ مرتفقاً ﴾ تمييز.

والمخصوص بالذم محذوف كما تقدم في قوله: ﴿ بئس الشراب ﴾. انتهى انتهى. ا هـ

﴿التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(38/471)

وقال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ .

أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة – أن يقول للناس : الحق من ربكم . وفي إعرابه وجهان : أحدهم – أن " الحق " مبتدأ ، والجار والمجرور خبره ، أي الحق الذي جئتكم به في هذا القرآن العظيم ، المتضمن لدين الإسلام كائن مبدؤه من ربكم جل وعلا . فليس من وحي الشيطان ، ولا من افتراء الكهنة ، ولا من أساطير الأولين ، ولا غير ذلك . بل هو من خالقكم جل وعلا ، الذي تلزمكم طاعته وتوحيده ، ولا يأتي من لدنه إلا الحق الشامل للصدق في الأخبار ، والعدل في الأحكام ، فلا حق إلا منه جل وعلا .

الوجه الثاني أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هذا الذي جئتكم به الحق .

وهذا الذي ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة – ذكره أيضاً في مواضع أخر . كقوله في سورة " البقر " : ﴿ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ [البقرة : 147] ، وقوله في " آل عمران " : ﴿ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِّن الممترين ﴾ [آل عمران : 60] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ .

ظاهر هذه الآية الكريمة بحسب الوضع اللغوي – التخيير بين الكفر والإيمان – ولكن المراد من الآية الكريمة ليس هو التخيير، وإنما المراد بها التهديد والتخويق. والتهديد بمثل هذه الصيغة التي ظاهرها التخيير أسلوب من أساليب اللغة العربية. والدليل من القرآن العظيم على أن المراد في الآية التهديد والتخويف – أنه أتبع ذلك بقوله ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه بِئْسَ الشراب وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ [الكهف 29] هذا أصرح دليل على أن المراد التهديد والتخويف. إذ لو كان التخيير على بابه لما توعد فاعل أحد الطرفين المخير بينهما بهذا العذاب الأليم. وهذا واضح كما ترى.

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ أعتدنا ﴾ أصله من الاعتاد، والتاء فيه أصلية وليست مبدلة من دال على الأصح. ومنه العتاد بمعنى العدة للشيء. ومعنى "أعتدنا" : أرصدنا وأعددنا. والمراد بالظالمين هنا : الكفار. بدليل قوله قبله ﴿ وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ وقد قدمنا كثرة إطلاق الظلم على الكفر في القرآن. كقوله : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13]، وقوله : ﴿ والكافرون هُمُ الظالمون ﴾ [البقرة : 254]، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظالمين ﴾ [يونس : 106] ونحو ذلك من الآيات. وقد قدمنا أن الظلم في لغة العرب : وضع الشيء

في غير محله، ومن أعظم ذلك وضع العبادة في مخلوق. وقد جاء في القرآن إطلاق الظلم على النقص في قوله: ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ [الكهف: 33] وأصل معنى مادة الظلم لوضعه ضلاب لبنه في غير موضعه، ولأجل ذلك قيل الذي يضرب اللبن قبل أن يروب: ظالم لوضعه ضرب لبنه في غير موضعه، لأن ضربه قبل أن يروب يضيع زبده.

ومن هذا المعنى قول الشاعر:

(40/471)

وقائله ظلمت لكم سقائي... وهل يخفى على العكد الظليم

فقوله "ظلمت لكم سقائي" أي ضربته لكم قبل أن يروب. ومنه قول الآخر في سقاؤ له ظلمه بنحو ذلك:

وصاحب صدق لم تربني شكاته... ظلمت وفي ظلمي له عامداً أجر

وفي لغز الحريري في مقاماته في الذي يضرب لبنه قبل أن يروب قال: أيجوز أن يكون الحاكم ظالماً؟ قال: نعم، إذا كان عالماً. ومن ذلك أيضاً قولهم للأرض التي حفر فيها وليست محل حفر في السابق: أرض مظلومة، ومنه قول نابغة ذبيان:

إلا الأوادي لأياً ما أبينها... والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد

وما زعمه بعضهم من أن " المظلومة " في البيت هي التي ظلمها المطر بتخلفه عنها وقت إبانة المعتاد - غير صواب. والصواب هو ما ذكرنا إن شاء الله تعالى. ولأجل ما ذكرنا قالوا للترب المخرج من القبر عند حفره ظليم مظلوم، لأنه حفر في غير محل الحفر المعتاد، ومنه قول الشاعر يصف رجلاً مات ودفن:

فأصبح في غبراء بعد إشاحة... على العيش مردد عليها ظليمها

وقوله ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ ﴾ اي أحدق بهم من كل جانب. وقوله ﴿ سُرَادِقُهَا ﴾ أصل السرادق واحد السرادقات التي تمد فوق صحن الدار. وكل بيت من كرسف فهو سرادق. والكرسف: القطن، ومنه قول رؤبة أو الكذاب الحرمازي:

يا حكم بن المنذر بن الجارود... سرادق المجد عليك ممدود

وبيت مسردق: أي مجعول له سرادق، ومنه قول سلامة بن جندل يذكر أبرويز وقتله للنعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة:

هو المدخل النعمان بيتاً سماؤه... صدور الفيول بعد بيت مسردق

هذا هو أصل معنى السرادق في اللغة. ويطلق أيضاً في اللغة على الحجرة التي حول الفسطاط.

وأما المراد بالسرادق في الآية الكريمة ففيه للعلماء أقوال مرجعها إلى شيء واحد ، وهو إحداق النار بهم من كل جانب ، فمن العلماء من يقول "سرادقها " : اي سورها ، قاله ابن الأعرابي وغيره. ومنهم من يقول "سرادقها " : سور من نار ، وهو مروي عن ابن عباس. ومنهم من يقول "سرادقها " : عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار كالحظيرة ، قاله الكلبي : ومنهم من يقلو : هو دخان يحيط بهم. وهو المذكور في "المرسلات" في قوله تعالى : ﴿ انطلقوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللهب ﴾ [المرسلات : 30-31] ، و "الواقعة" في قوله : ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة : 43-44]. ومنهم من يقول : هو البحر المحيط بالدنيا . وروى يعلى بن أمية عن النّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(42/471)

"البحر هم جهنم " - ثم تلا - نارا أحاط بهم سرادقها - ثم قال " والله لا أدخلها أبداً ما دمت حياً ولا تصيبني منها قطرة" ذكره الماوردي. وروى ابن المبارك من حديث أبي سعيد الخدري عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال : " لسرداق النار أربعة حدر كثف ،

كل جدار مسيرة أربعين سنة " وأخرجه أبو عيسى الترمذي وقال فيه : حديث حسن صحيح غريب . انتهى من القطربي . و هذا الحديث رواه أيضاً الإمام أحمد وابن جرير وأبو يعى وابن أبي حاتم وابن حبان ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وابن أبي الدنيا . قاله صاحب الدر المنثور وتبعه الشوكاني . وحديث يعلى بن أمية رواه أيضاً ابن جرير في تفسيره . قال الشوكاني : ورواه أحمد والبخاري وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي . وعلى كل حال ، فمعنى الآية الكريمة : أن النار محيطة بهم من كل جانب ، كما قال تعالى ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : 41] ، وقال : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : 16] ، وقال : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النار وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [الأنبياء : 39] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوزله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ ﴾ يعني إن يطلبوا الغوث مما هم فيه من الكرب يغاثوا ، يؤتوا بغوث هو ماء كالمهل . والمهل في اللغة : يطلق على ما أذيب من جواهر الأرض ، كذائب الحديد والنحاس ، والرصاص ونحو ذلك .

ويطلق أيضاً على دردي الزيت وهو عكره . والمراد بالمهل في الآية : ما أذيب من جواهر الأرض . وقيل : دردي الزيت . وقيل : هو نوع من القطران . وقيل السم .

فإن قيل: أي إغاثة في ماء كالمهل مع أنه من لأأشد العذاب، وكيف قال الله تعالى: ﴿ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ .

(43/471)

فالجواب – أن هذا من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن. ونظيره من كلام العرب قول بشر بن أبي حازم:

غضبت تميم أن تقتل عامر . . . يوم النسار فأعتبوا بالصيلم

فمعنى قوله "أعتبوا بالصليم": أي أرضوا بالسيف. يعني ليس لهم منا إرضاء إلا بالسيف. وقول عمرو بن معد يكرب:

وخيل قد دلفت لها بخيل . . . تحية بينهم ضرب وجيع

يعنى لا تحية لهم إلا الضرب الوجيع. وإذا كانوا لا يغاثون إلا بماء كالمهل – علم من ذلك أنهم لا إغاثة لهم البتة. والياء في قوله "يستغيثوا" الألف في قوله "يغاثوا" كلتاهما مبدلة من واو، لأن مادة الاستغاثة من الأجوف الواوي العين، ولكن العين أعلت للساكن الصحيح قبلها، على حد قوله في الخلاصة:

لساكن صح انقل التحريك من . . . ذي لين عين فعل كأبن

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ يَشْوِي الوجوه ﴾ أي يحرقها حتى تسقط فروة الوجه ، أعاذنا الله والمسلمين منه ! زوعن النَّبي صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية الكريمة أنه قال :

"كالمهل يشوي الوجوه" ، هو كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه . قال ابن حجر رحمه الله في (الكافي الشاف ، في تخريج أحداث الكشاف) : أخرجه الترمذي من طريق رشدين بن سعد ، عن عمرو بن الحارث ، عن دراج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد ، واستغربه وقال : لا يعرف إلا من حديث رشدين بن سعد ، وتعقب قوله بأن أحمد وأبا يعى أخرجاه من طريق ابن لهيعة عن دراج ، وبأن ابن حبان والحاكم أخرجاه من طريق وهب عن عمرو بن الحارث .

(44/471)

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ بِئْسَ الشراب ﴾ المخصوص بالذم فيه محذوف ، تقديره : بئس الشراب ذلك الماء الذي يغاثون به . والضمير الفاعل في قوله "ساءت" عائد إلى النار . والمرتفق : مكان الارتفاق . وأصله أن يتكىء الإنسان معتمداً على مرفقه . وللعلماء في المراد بالمرتفق في الآية أقوال متقاربة في المعنى . قيل مرتفقاً . أي منزلاً ، وهو

مروي عن ابن عباس . وقيل مقراً ، وهو مروي عن عطاء . وقيل مجلساً وهو مروي عن العتبي . وقال مجاهد : مرتفقاً أي مجتمعاً . فهو عنده مكان الارتفاق بمعنى مرافقة بعضهم لبعض في النار .

وحاصل معنى الأقوال - أن النار بئس المستقر هي ، وبئس المقام هي . ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ [الفرقان : 66] ، وكون أصل الارتفاق هو الاتكاء على المرفق - معروف في كلام العرب ، منه قول أبي ذؤيب الهذلي :

نام الخلي وبت الليل مرتفقاً . . . كأن عيني فيها الصاب مذبوح

ويروى " وبت الليل مشتجراً " وعليه فلا شاهد في البيت . ومنه قول أعشر باهلة :

قد بت مرتفقاً للنجم أرقبه . . . حيران ذا حذر لو ينفع الحذر

وقول الراجز :

قالت له وارتفقع إلا فتى . . . يسوق بالقوم غزالات الضحا

وهذا الذي ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من صفات هذا الشراب ، الذي يسقى به أهل النار - جاء نحوه في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام : 70] ، وقوله تعالى : ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد : 15] ، وقوله تعالى : ﴿ تسقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ [الغاشية : 5] ،

وقوله تعالى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن : 44] والحميم الآتي من الماء المتناهي في الحرارة .

(45/471)

وقوله تعالى : ﴿ وسقى مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ [إبراهيم : 16-17] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ [الصافات : 67] ، وقوله تعالى : ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الحميم فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهيم ﴾ [الواقعة : 54-55] . وقوله تعالى : ﴿ لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً ﴾ [النبأ : 24-25] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص : 57و58] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة " يونس " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(46/471)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ . . ﴾ [الكهف : 29] أي : قُلِ الحق جاء من ربكم ، واختار كلمة الرب ولم يَقُلْ من الله ، لأن الكل معتقد أن الرب هو الذي خلق ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف : 87] وقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] فمعنى : ﴿ مِن رَّبِّكُمْ . . ﴾ [الكهف : 29] أي : بإقراركم أنتم ، فالذي خلقكم وربّاكم وتعهدكم هو الذي نزّل لكم هذا الحق و ﴿ رَّبِّكُمْ . . ﴾ [الكهف : 29] أي : ليس ربي وحدي ، بل ربكم وربّ الناس جميعاً .

والحق : هو الشيء الثابت ، وما دام من الله فلن يُغيّره أحد ؛ لأن الذي يتغير كلامه هو الذي يقضي شيئاً ويجهل شيئاً مُقبلاً ، وبعد ذلك يُعدِّل ، فالحق من الله لأنه سبحانه لا يَخْفَى عليه شيء ولا يَعْزُب عن عمله شيء ، لذلك لا استدراك على حُكْم من أحكامه من أحد من خلقه .

فالربوبية عطاء ، فربك الذي خلقك وأمدّك بالنعم ، وهو الذي يُربّيك كما يُربِّي الوالد ولده ؛ لذلك لم يعترض على الربوبية أحد ، أما الألوهية فمطلوبها تكليف : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، فخاطبهم بالربوبية التي فيها مصلحتهم ، ولم يخاطبهم بالألوهية التي تُقيِّد اختياراتهم والإنسان بطبعه لا يميل إلى ما يُقيِّد اختياراته ؛ لذلك يلجأون إلى عبادة آلهة أخرى ؛ لأنها

ليس لها مطلوبات .

فالذي يعبد الشمس أو الصنم أو غيره : بماذا أمرك معبودك ؟ وعَمَّا نهاك ؟ فما العبادة إلا طاعة عابد لمعبود ، إذن : فلهم أن يقولوا : نِعْمَ هذا الإله ، ونِعْمَ هذا الدين ؛ لأنه يتركني بحريتي أفعل ما أريد .

(47/471)

لذلك ؛ نجد الذين يدَّعُون ألوهية ، أو يدعون نُبوّة دائماً يميلون إلى تخفيف المناهج ؛ لأنهم يعلمون أن المناهج السماوية تصعُب على الناس ؛ لأن فيها حَجْراً على حرية حركتهم وحرية اختياراتهم ، فلما ادَّعى مسيلمة النبوة رأى الناس تتبرم من الزكاة فأسقطها عنهم ، وكذلك لما ادعتّ سجاح النبوة خففتْ الصلاة ، وإلا ، فكيف سيجمعون الناس من حولهم ؟

وما أشبه مُدَّعي الأمس بمدعي اليوم الذين يبيعون الدين بعَرَضٍ من الدنيا ، فيُفْتون الناس بتحليل ما حرَّم الله ، مثل الاختلاط وغيره من القضايا حتى هان أمر الدين على الناس .

والدين وإنْ كان فطرياً في النفس الإنسانية إلا أن الإنسان يميل إلى مَنْ يُخفّف عنه ، وتعجب حين ترى بعض المثقفين وحملة الشهادات يذهبون إلى الدجالين ويصدقونهم ، وترى الواحد

منهم يُكذِّب نفسه أنه على دين يريحه ، ويفعل في ظله ما يريد .

إذن : ما دُمْتم مؤمنين بربوبية خلق وربوبية إمداد وإنعام ، فعليكم أن تؤمنوا بما جاء من ربكم ، كما نقول في المثل : (اللي يأكل لقمتي يسمع كلمتي) ، ومع ذلك ورغم فضل الله ونعمه عليهم قُلْ لهم : لا جبر في الإيمان ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] لأن منفعة الإيمان عائدة عليكم أنتم .

وقد جاء في الحديث القدسي : " إنكم لن تملكوا نفعي فتنفعوني ، ولن تملكوا ضُرّي فتضروني ، ولو أن أوّلكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على أتْقَى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً " .

(48/471)

" ولو أن أولكم وآخركم اجتمعوا في صعيد واحد ، وسألني كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندي إلا كمِغْرز إبرة إذا غمسها أحدكم في بحر ، وذلك أنّي جواد واجد ماجد ، عطائي كلام وعذابي كلام ، إنما أمري لشيء إذا أردتُه أنْ أقولَ له كُنْ فيكون " .

إذن : فائدة الإيمان تعود على المؤمن ، كما قال تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا . . ﴾ [فصلت : 46] لكني أحب لخَلْقي أن يكونوا دائماً على خير مني ، فأنا أعطيهم خير الدنيا ، وأحب أيضاً أن أعطيهم خير الآخرة .

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ . . ﴾ [الكهف : 28]

وكان خصوم الإسلام حينما يَرَوْنَ الدعوة تنتشر شيئاً فشيئاً يحاولون إيقافها ، لا من جهتهم بالعدوان على مَنْ يؤمن ، ولكن من جهته صلى الله عليه وسلم ، فأرسلوا إليه وَفْداً ، قالوا : يا محمد إنّا بعثنا إليك لنُعْذِرَ فيك ، لقد أدخلتَ على قومك ما لم يُدخِلْه أحد قبلك ، شتمتَ آلهتنا وسفَّهْتَ أحلامنا وسبَبْت ديننا ، فإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا ، وإنْ كنت تريد جاهاً سوّدناكَ علينا ، وجعلناك رئيسنا ، وإنْ كنت تريد مُلْكاً ملكْناك .

فقال صلى الله عليه وسلم : " والله ما بي ما تقولون ، ولكن ربي أرسلني بالحق إليكم ، فإنْ أنتم أطعتُم فبها ، وإلاَّ فإنَّ الله ناصري عليكم " .

وكانت هذه المحاولة بينهم وبينه صلى الله عليه وسلم لعل الأمر حين يكون سِراً يتساهل فيه رسول الله ، فلما لم يجدوا بُغْيتهم قالوا : نتوسل إليك بمَنْ تحب ، فربما خجل أنْ يقبلَ منا ونحن خصومه ، فلنرسل إليه مَنْ يحبه ، فذهبوا إلى عمه أبي طالب ، فلما كلَّمه عمه قال قولته المشهورة : " والله ، يا عَمِّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أتركَ هذا الأمر ما تركته ، حتى يُظهِره الله ، أو أَهْلِك دونه " .

فلما فشلت هذه المحاولة أيضاً أَتَوْهُ من ناحية ثالثة ، فقالوا : ننتهي إلى أمر هو وسط بيننا وبينك : دَعْكَ من هؤلاء الفقراء ، واصْرِف وجهك عنهم ، ولا تربط نفسك بهم ، ووجِّه وجهك إلينا ، فأنزل الله : ﴿ واصبر نَفْسَكَ . . ﴾ [الكهف : 28]

ثم بيّن الحق سبحانه وتعالى أن الإسلام أو الدين الذي أنزله الله لا يأخذ أحكامه من القوم الذين أُنزِل عليهم ؛ لأن رسول الله إنما أُرسِلَ ليضع لهم موازين الحق ، ويدعو قومه إليها ، فكيف يضعون هم هذه الموازين ، فيأمرون رسول الله بأنْ يصرف وجهه عن الفقراء ويتوجّه إليهم ؟

لذلك قال : ﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ .

. ﴾ [الكهف : 29] لأنه بعثني بالحق رسولاً إليكم ، وما جئت إلا لهدايتكم ، فإنْ كنتم تريدون توجيهي حسْب أهوائكم فقد انقلبتْ المسألة ، ودعوتكم لي أن أنصرف عن هؤلاء الذين يدعُون ربهم بالغداة والعشيّ وأتوجه إليكم ، فهذا دليل على عدم صِدْق إيمانكم ،

وأنكم لستم جادّين في اتباعي ؛ لذلك فلا حاجة بي إليكم .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . ﴾ [الكهف : 29] أي : ادخلوا على هذا الأساس : أن كل حَقٍّ ينزل من الله ، لا أن آخذ الحق منكم ، ثم أردّه إليكم ، بل الحق الذي أرسلني الله به إليكم ، وعلى هذا مَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر .

(50/471)

والأمر في هذه الآية سبق أنْ أوضحناه فقلنا : إذا وجدنا أمراً بغير مطلوب فلنفهم أن الأمر استُعمِل في غير موضعه ، كما يقول الوالد لولده المهمل : العب كما تريد ، فهو لا يقصد أمر ولده باللعب بالطبع ، بل يريد تهديده وتأنيبه .

وهكذا في : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . ﴾ [الكهف : 29] وإلا لو أخذتَ الآية على إطلاقها لكان مَنْ آمن مطيعاً للأمر : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن . . ﴾ [الكهف : 29] والعاصي أيضاً مطيع للأمر : ﴿ وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . ﴾ [الكهف : 29] فكلاهما إذن مطيع ، فكيف تُعذِّب واحداً دون الآخر ؟

فالأمر هنا ليس على حقيقته ، وإنما هو للتسوية والتهديد ، أي : سواء عليكم آمنتم أم لم تؤمنوا ، فأنتم أحرار في هذه المسألة ؛ لأن الإيمان حصيلته عائدة إليكم ، فالله سبحانه غنيّ

عنكم وعن إيمانكم ، وكذلك خَلْق الله الذين آمنوا بمحمد هم أيضاً أغنياء عنكم ، فاستغناء الله عنكم مَسْحوب على استغناء الرسول ، وسوف ينتصر محمد وينتشر دين الله دونكم .

وقد أراد الحق سبحانه أن يصيح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة في مكة ويجهر بها في أُذن صناديد الكفر وعُتَاة الجزيرة العربية الذين لا يخرج أحد عن رأيهم وأمرهم ؛ لأن لهم مكانةً وسيادة بين قبائل العرب .

ولحكمة أرادها الحق سبحانه لم يأْتِ نصر الإسلام على يد هؤلاء ، ولو جاء النصر على أيديهم لقيل : إنهم أَلِفُوا النصر وألفوا السيادة على العرب ، وقد تعصَّبوا لواحد منهم ليسُودوا به الدنيا كلها ، فالعصبية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد ، ولكن الإيمان بمحمد خلق العصبية لمحمد .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا . . ﴾ [الكهف : 29]

(51/471)

والعذاب هنا لمن اختار الكفر، لكن لماذا تُهوّل الآية وتُفخّم أمر العذاب؟ لأن الإعلام بالعقاب وتهويله وتفظيعه الإنذار به لا ليقع الناس في موجبات العقاب، بل لينتهوا عن الجريمة، وينأوْا عن أسبابها، إذن: فتفظيع العقاب وتهويله رحمة من الله بالعباد؛ لأن خَوْف العذاب سيمنعهم من الجريمة.

ومعنى ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ أي: أعددنا، فالمسألة منتهية مُسْبقاً، فالجنة والنار مخلوقة فعلاً ومُعدَّة ومُجهّزة، لا أنها ستُعَدُّ في المستقبل، وقد أُعِدَّتْ إعداد قادر حكيم، فأعدّ الله الجنة لتتسع لكل الخَلْق إنْ آمنوا، وأعدّ النار لتتسع لكل الخلق إنْ كفروا، فإنْ آمن بعض الخلق وكفر البعض، فالذي آمن وَفّر مكانه في النار، والذي كفر وفَّر مكانه في الجنة.

لذلك قال تعالى في هذه المسألة: ﴿ وَتِلْكَ الجنة التي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: 72]

إذن: فخَلْق الله تعالى للجنة وللنار أمر منضبط تماماً، ولن يحدث فيهما أزمة أو زحام أبداً، بل لكلٍّ مكانه المعدّ المخصّص.

وقوله تعالى: ﴿ لِلظَّالِمِينَ.. ﴾ [الكهف: 29] والظلم أن تأخذ حقاً وتعطيه للغير، وللظلم أشكال كثيرة، أفظعها وأعظمها الإشراك بالله، لأنك تأخذ حَقّ الله في العبادة وتعطيه لغيره، وهذا قمة الظلم، ثم يأتي الظلم فيما دون ذلك، فيأخذ كل ظالم من العذاب على قَدْر ظُلْمه، إلا أن يكون مشركاً. فهذا عذابه دائم ومستمر لا ينقطع ولا يفتُر عنه،

فإنْ ظلم المؤمن ظلماً دون الشرك فإنه يُعذَّب به ، ثم يُدخِله الله الجنة ، إنْ لم يتُبْ ، وإنْ لم يغفر الله له .

(52/471)

وقوله تعالى : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا . . ﴾ [الكهف : 29] السرادق ، كما نقول الآن : أقاموا السرادق أي : الخيمة . و معنى سرادق : أي محيط بهم ، فكأن الله تعالى ضرب سرادقاً على النار يحيط بهم ويحجزهم ، بحيث لا تمتد أعينهم إلى مكان خالٍ من النار ؛ لأن رؤيته لمكان خَالٍ من النار قد تُوحي إليه بالأمل في الخروج ، فالحق سبحانه يريد أنْ يؤيسَهم من الخروج .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه بِئْسَ الشراب وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ [الكهف : 29]

الاستغاثة : صَرْخة ألم من متألم لمن يدفع عنه ذلك الألم ، كما قال في آية أخرى : ﴿ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ . . ﴾ [إبراهيم : 22] أي : حين يصرخون من العذاب لا أستطيع أنْ أزيل صراخكم ، وأنتم كذلك لا تزيلون صراخي .

فأهل النار حين يستغيثون من ألم العذاب ﴿ يُغَاثُواْ ﴾ يتبادر إلى الذِّهْن أنهم يُغَاثون بشيء

من رحمة الله ، فتأتيهم نفحة من الرحمة أو يُخفّف عنهم العذاب . . لا ﴿ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل . . ﴾ [الكهف : 29] أي : فإنْ طلبوا الغَوْث بماء بارد يخفف عنهم ألم النار ، فإذا بهم بماء كالمهل .

والمهْل هو عُكَارة الزيت المغلي الذي يسمونه الدُّرْدِيّ ، أو هو المذاب من المعادن كالرصاص ونحوه ، وهذا يحتاج إلى حرارة أعلى من غَلْي الماء ، وهكذا يزدادون حرارة فوق حرارة النار ، ويُعذَّبون من حيث ينتظرون الرحمة .

وقوله تعالى هنا : ﴿ يُغَاثُواْ ﴾ أسلوب تهكميّ ؛ لأن القاعدة في الأساليب اللغوية أنْ تخاطب المخاطب على مقتضى حاله ، فتهنئه حال فرحه ، وتعزيه حال حزنه بكلام موافق لمقتضى الحال ، فإنْ أخرجتَ المقتضى عن الحال الذي يطلبه ، فهذا ينافي البلاغة إلا إنْ أردتَ التهكُّمَ أو الاستهزاء .

(53/471)

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل . . ﴾ [الكهف : 29] تهكّم بهم ، لأن الكلام فيه خرج عن مقتضى الحال ، كما يقول الوالد لولده الذي أخفق في الامتحان : مبارك عليك السقوط .

ومعنى: ﴿ يَشْوِي الوجوه . . ﴾ [الكهف: 29] أن الماء من شدة حرارته يشوي وجوههم، قبل أن يدخل أجوافهم: ﴿ بِئْسَ الشراب . . ﴾ [الكهف: 29] أي: الذي يغاثون به ﴿ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ [الكهف: 29] المرتفق هو الشيء الذي يضع الإنسان عليه مِرْفقه ليجلس مُستريحاً، لكن بالله هل هناك راحة في جهنم؟

إذن: فهذه أيضاً من التهكّم بهم وتبكيتهم، كما قال تعالى مخاطباً جبابرة الدنيا وأعزّتها وأصحاب العظمة فيها مِمَّنْ عَصَوْا الله: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان: 49]

والحق سبحانه وتعالى يتكلم في هذه المسألة بأساليب متعددة منها استخدام كلمة (النُّزُل) وهو ما يُعد لإكرام الضيف، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفردوس نُزُلاً ﴾ [الكهف: 107]

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة وَلَكُمْ فِيهَا مَا تشتهي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: 30-32] فالذي أَعَدَّ هذا النُّزُل وهذه الضيافة هو الغفور الرحيم، والذي يُعِد نُزُلاً لضيفه يُعِدّه على قَدْر غِنَاه وبَسْطة كرمه، فما بالك بنزل أعدّه الله لأحبابه وأوليائه؟

وذيّل الآية بقوله : ﴿ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : 32] لأنه ما من مؤمن إلا وقد عمل سيئة ، أو همَّ بها ، وكأن الحق سبحانه يقول : إياك أنْ تذكرَ ما كان منك وأنت في هذا النُّزُل الكريم ، فالله غفور لسيئتك ، رحيم بك ، يقبل توبتك ، ويمحو أثر سيئتك .

والحديث عن النُّزُل هنا في الجنة ، فهي محلُّ الإكرام والضيافة ، فإن استخدم في النار فهو للتهكُّم والسخرية من أهلها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضآلين * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ [الواقعة : 92-93]

فقد استخدم النزل في غير مقتضاه .

بعد أن جاء الأمر الإلهي في قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . ﴾ [الكهف : 29] أراد سبحانه أنْ يُبيّن حكم كُلٍّ من الاختيارين : الإيمان ، والكفر على طريقة اللَّفِّ والنشر ، وهو أسلوب معروف في العربية ، وهو أن تذكر عدة أشياء ، ثم تُورِد أحكامها حَسْب ترتيبها الأول ، أو تذكرها مُشوَّشة دون ترتيب .

ومن النوع الأول الذي يأتي فيه اللَّفُّ والنشْر على الترتيب قوله تعالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . ﴾ [القصص : 73]

أي : لتسكنوا في الليل ، وتبتغوا من فضل الله في النهار .

فالترتيب إذا كان الحكم الأول للمحكوم عليه الأول ، والحكم الثاني للمحكوم عليه الثاني

وهكذا ، ومن ذلك قول الشاعر :

قَلْبِي وَجَفْنِي وَاللسان وخالقي . . . هذه أربع مُخْبر عنها ، فما قصتها وبماذا أخبرنا عنها ؟ يقول :

قَلْبِي وَجَفْنِي وَاللسَانُ وخالِقِي . . . رَاض وباكٍ شَاكِرٌ وغَفُورُ

فتكون على الترتيب : قلبي راضٍ ، وجفني باكٍ ، ولساني شاكر ، وخالقي غفور .

(55/471)

ومرة يأتي اللف والنشر على التشويش ودون ترتيب ثقةً بأن نباهةَ السامع ستردُّ كل شيء إلى أصله كما في الآية التي نحن بصددها ، فتلاحظ أن الحق سبحانه بعد أن قال : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . ﴾ [الكهف : 29] فبدأ باختيار الإيمان ثم ذكر الكفر ، أما في الحكم على كل منهما فقد ذكر حكم الكفر أولاً : ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً . . ﴾ [الكهف : 29] ثم ذكر بعده حكم المؤمنين : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [الكهف : 30]

وليكُنْ في الاعتبار أن المتكلم ربٌّ حكيم ، ما من حرف من كلامه إلا وله مغزى ، ووراءه حكمة ، ذلك أنه تعالى لما تكلّم عن الإيمان جعله اختياراً خاضعاً لمشيئة العبد ، لكنه

تعالى رجّح أن يكونَ الإيمانُ أولاً وأنْ يسبق الكفر . أما حينما يتكلم عن حكم كل منهما ، فقد بدأ بحكم الكفر من باب أنْ " دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المنفعة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(56/471)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (27) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ ملتحداً ﴾ قال : ملجأ .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف ، عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾ ما الملتحد ؟ قال : المدخل في الأرض ، قال فيه خصيب الضمري :

يا لهف نفسي ولهف غير محدثه . . . عليّ وما عن قضاء الله ملتحد

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان ، عن سلمان قال : جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : عيينة بن بدر ، والأقرع بن حابس ، فقالوا : يا رسول الله ، لو جلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم - يعنون سلمان ، وأبا ذر وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصفوف - جالسناك أو حادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله ﴿ واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك ﴾ إلى قوله : ﴿ أعتدنا للظالمين ناراً ﴾ يهددهم بالنار .

وأخرج أبو الشيخ عن سلمان قال : " قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله ، فقال : " الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، معكم المحيا والممات " " .

وأخرج عبد بن حميد عن سلمان قال : نزلت هذه الآية فيّ وفي رجل دخل على النبي صلى الله عليه وسلم - ومعي شن خوص - فوضع مرفقه في صدري فقال : تَنَحَّ . حتى ألقاني على البساط ، ثم قال : يا محمد ، إنا ليمنعنا كثيراً من أمرك هذا وضرباؤه ، أن ترى لي قدماً وسواداً ، فلو نَحَّيْتَهُمْ إذا دخلنا عليك ، فإذا خرجنا أذنت لهم إذا شئت . فلما خرج أنزل الله ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ﴾ إلى قوله : ﴿ وكان أمره فرطاً ﴾ .

وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه ، " عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بعض أبياته ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ فخرج يلتمسهم فوجد قوماً يذكرون الله ، فيهم ثائر الرأس وجاف الجلد وذو الثوب الواحد ، فلما رآهم جلس معهم وقال : " الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم " " .

وأخرج البزار عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا : " جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل يقرأ سورة الحجر وسورة الكهف ، فسكت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم " " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق عمر بن ذر ، عن أبيه : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى إلى نفر من أصحابه – منهم عبد الله بن رواحة – يذكرهم بالله ، فلما رآه عبد الله سكت ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذكّر أصحابك . فقال : يا رسول الله ، أنت أحق . فقال : أما إنكم الملأ الذين أمرني أن أصبر نفسي معهم ، ثم تلا ﴿ واصبر نفسك ﴾ الآية " .

وأخرج الطبراني في الصغير وابن مردويه من طريق عمر بن ذر : حدثني مجاهد عن ابن عباس قال : " مر النبي صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن رواحة وهو يذكر أصحابه فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما إنكم للملأ الذين أمرني الله أن أصبر نفسي معهم .

ثم تلا ﴿ واصبر نفسك ﴾ الآية . قال : إنه ما جلس عدتكم إلا جلس معه عدتهم

جليسهم من الملائكة ، إن سبّحوا الله سبحوه ، وإن حَمَدوا الله حمدوه ، وإن كبّروا الله

كبروه . . . يصعدون إلى الرب وهو أعلم فيقولون : ربنا ، إن عبادك سبحوك فسبحنا ،

وكبروك فكبرنا ، وحمدوك فحمدنا . فيقول ربنا : يا ملائكتي أشهدكم أني قد غفرت لهم .

فيقولون : فيهم فلان الخطاء . فيقول : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم " " .

(58/471)

وأخرج أحمد عن أبي أمامة قال : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على قاصّ يقص

، فأمسك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قصّ ، فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق

الشمس ، أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب " .

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وأبو نصر السجزي في الإبانة ، "عن أبي

سعيد قال : أتى علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن ناس من ضعفة المسلمين ،

ورجل يقرأ علينا القرآن ويدعو لنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الحمد لله

الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم ، ثم قال : بشر فقراء المسلمين بالنور

التام يوم القيامة ، يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم ، مقدار خمسمائة عام . هؤلاء في الجنة يتنعمون وهؤلاء يحاسبون " " .

وأخرج أحمد في الزهد ، عن ثابت قال : "كان سلمان في عصابة يذكرون الله ، فمر النبي فكفوا فقال : ما كنتم تقولون ؟ قلنا : نذكر الله . قال : فإني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحببت أن أشارككم فيها . ثم قال : الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم " .

وأخرج أحمد عن أنس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه ، إلا ناداهم منادٍ من السماء أن : قوموا مغفوراً لكم ، قد بدلت سيئاتكم حسنات " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن نافع قال : أخبرني عبد الله بن عمر في هذه الآية ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ﴾ أنهم الذين يشهدون الصلوات المكتوبة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده في قوله : ﴿ واصبر نفسَكَ ﴾ الآية . قال : نزلت في صلاة الصبح وصلاة العصر .

وأخرج ابن أبي حاتم، عن عبيد الله بن عبد الله بن عدي بن الخيار في هذه الآية قال: هم الذين يقرأون القرآن.

(59/471)

وأخرج ابن مردويه من طريق جويبر عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ قال: نزلت في أمية بن خلف، وذلك أنه دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة، فأنزل الله ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ يعني، من ختمنا على قلبه، يعني التوحيد ﴿ واتبع هواه ﴾ يعني الشرك ﴿ وكان أمره فرطاً ﴾ يعني فرطا في أمر الله وجهالة بالله.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن بريدة قال: دخل عيينة بن حصن على النبي صلى الله عليه وسلم في يوم حار وعنده سلمان عليه جبة من صوف، فثار منه ريح العرق في الصوف، فقال عيينة: يا محمد، إذا نحن أتيناك فأخرج هذا وضرباءه من عندك؛ لا يؤذونا؛ فإذا خرجنا فأنت وهم أعلم. فأنزل الله ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع قال: " حدثنا أن النبي صلى الله عليه وسلم تصدى لأمية بن خلف وهو ساه غافل عما يقال له، فأنزل الله ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلَبه ﴾ الآية.

فرجع إلى أصحابه وخلى عن أمية ، فوجد سلمان يذكرهم فقال : " الحمد لله الذي لم أفارق الدنيا حتى أراني أقواماً من أمتي أمرني أن أصبر نفسي معهم " " .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق مغيرة ، عن إبراهيم في قوله : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ قال : هم أهل الذكر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر من طريق منصور ، عن إبراهيم في قوله : ﴿ واصبر نفسَكَ ﴾ الآية . قال : لا تطردهم عن الذكر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن أبي جعفر في الآية قال : أمر أن يصبر نفسه مع أصحابه يعلمهم القرآن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ مع الذين يدعون ربهم ﴾ قال : يعبدون ربهم . وقوله : ﴿ ولا تعد عيناك عنهم ﴾ يقول : لا تعداهم إلى غيرهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هاشم في الآية قال : كانوا يتفاضلون في الحلال والحرام .

وأخرج الحكيم الترمذي ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ قال : المفاضلة في الحلال والحرام .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان ، عن إبراهيم ومجاهد ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ قال : الصلوات الخمس .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : نزلت ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ في عيينة بن حصن ؛ قال للنبي صلى الله عليه وسلم : لقد آذاني ريح سلمان الفارسي ، فاجعل لنا مجلساً معك لا يجامعنا فيه ، واجعل لهم مجلساً منك لا نجامعهم فيه . فنزلت .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله ﴿ وكان أمره فرطاً ﴾ قال : ضياعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وقل الحق من ربكم ﴾ قال : الحق هو القرآن .

وأخرج حنيش في الاستقامة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ يقول : من شاء الله له الإيمان آمن ، ومن شاء الله له الكفر كفر ، وهو قوله : ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ [التكوير : 29] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ قال : هذا تهديد ووعيد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن رباح بن زياد قال : سألت عمر بن حبيب عن قوله : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ قال : حدثني داود بن نافع أن مجاهداً كان يقول : فليس

بمعجزي وعيد من الله.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ أحاط بهم سرادقها ﴾ قال: حائط من نار.

وأخرج أحمد والترمذي وابن أبي الدنيا في صفة النار، وابن جرير وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "السرادق النار أربعة جدر كافة، كل جدار منها أربعون سنة".

(61/471)

وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه، وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث، عن يعلى بن أمية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ""إن البحر من جهنم" ثم تلا ﴿ ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾".

وأخرج عبد الرزاق في المصنف، عن قتادة أن الأحنف بن قيس كان لا ينام في السرادق ويقول: لم يذكر السرادق إلا لأهل النار.

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي

صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ بماء كالمهل ﴾ ، قال : كعكر الزيت ، فإذا أقرب إليه سقطت فروة وجهه فيه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ كالمهل ﴾ يقول : أسود كعكر الزيت .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عطية قال : سئل ابن عباس عن المهل قال : ماء غليظ كدردي الزيت .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن جرير ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ كالمهل ﴾ قال : كدردي الزيت .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : المهل ، دردي الزيت .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك في قوله : ﴿ كالمهل ﴾ قال : المهل ، دردي الزيت .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، عن ابن مسعود أنه سئل عن المهل فدعا بذهب وفضة ، فإذا به قلما ذاب . قال : هذا أشبه شيء بالمهل الذي هو شراب أهل النار ، ولونه لون السماء ، غير أن شراب أهل النار أشد حراً من هذا .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ كالمهل ﴾ قال : القيح والدم أسود كعكر الزيت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ كالمهل ﴾ قال : أسود ، وهي سوداء وأهلها سود .

وأخرج ابن المنذر عن خصيف قال : المهل ، النحاس إذا أذيب فهو أشد حراً من النار .

(62/471)

وأخرج عبد بن حميد عن الحكم في قوله : ﴿ كالمهل ﴾ قال : مثل الفضة إذا أذيبت .

وأخرج عبد بن حميد ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ كالمهل ﴾ قال : أشد ما يكون حراً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال : هل تدرون ما المهل ؟ مهل الزيت : يعني آخره .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وساءت مرتفقاً ﴾ قال : مجتمعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وساءت مرتفقاً ﴾ قال : منزلاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ وساءت مرتفقاً ﴾ قال : عليها مرتفقون على الحميم حين يشربون ، والإرتفاق هو المتكأ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَقُلِ الحق ﴾ : يجوز فيه ثلاثة أوجه ، أحدُها : أنه خبرٌ لمبتدأ مضمرٍ ، أي : هذا ، أي : القرآن ، أو ما سمعتم الحقُّ . الثاني " أنه فاعلٌ بفعلٍ مقدرٍ دَلَّ عليه السياقُ ، أي : جاء الحقُّ ، كما صَرَّح به في موضعٍ آخرَ ، إلاَّ أنَّ الفعلَ لا يُضمر إلا في مواضعَ تقدَّمَ التنبيهُ عليها ، منها : أَنْ يُجابَ به استفهامٌ ، أو يُرَدَّ به نفيٌ ، أو يقعَ فعل مبنيّ للمفعول ، لا يَصْلُحُ إسنادُه لما بعده كقراءة ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو ﴾ كما سيأتي إنْ شاء الله تحقيقُه في موضعِه . الثالث : أنه مبتدأٌ وخبرُه الجارُّ بعده .

وقرأ أبو السَّمَّال قعنب : " وقُلُ الحقّ " بضمِّ اللامِ حيث وقع ، كأنه إتباعٌ لحركةِ القاف .

وقرأ أيضاً بنصب " الحقّ " . قال صاحب " اللوامح " : " هو على صفةِ المصدرِ المقدَّر ؛ لأن الفعل يَدُلُّ على مصدره وإن لم يُذْكَرْ ، فتنصِبُه معرفةً كما تنصِبُه نكرةً ، وتقديرُه : وقل القولَ الحقّ وتُعَلَّقُ " مِنْ " بمضمرٍ على ذلك . أي : جاء مِنْ ربكم " انتهى .

وقرأ الحسن والثقفي بكسرِ لامَيْ الأمرِ في قوله : " فَلِيُؤْمِنْ " ، و " فَلِيَكْفُرْ " وهو الأصل .

قوله : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن ﴾ يجوز في " مَنْ " أن تكونَ شرطيةً ، وهو الظاهرُ ، وأَنْ تكونَ موصولةً ، والفاءُ لشَبَهِه بالشرط . وفاعلُ " شاء " الظاهرُ أنه ضميرٌ يعود على " مَنْ " . وقيل : ضميرٌ يعودُ على الله ، وبه فسَّر ابنُ عباس ، والجمهورُ على خلافِه .

(64/471)

قوله : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ في محلِّ نصبٍ صفةً لـ " ناراً " . والسَّرادِقُ : قيل : ما أحاط بشيءٍ كالمَضْرِب والخِباء . وقيل للحائط المشتمل على شيء : سُرادِق . قاله الهَرَوِيُّ . وقيل : هو الحُجْرَةُ تكونُ حول الفُسْطاط . وقيل : هو ما يُمَدُّ على صحنِ الدار . وقيل : كلُّ بيتٍ من كُرْسُفٍ فهو سُرادِق ، قال رؤبة :

3146- يا حَكَمُ بنَ المنذرِ بن الجارُوْدْ . . . سُرادِقُ المجدِ عليك مَمْدودْ

ويُقال : بيت مُسَرْدَق . قال الشاعر :

3147- هو المُدْخِلُ النُّعْمانَ بَيتاً سماؤُه . . . صدورُ الفُيول بعد بيتٍ مُسَرْدَقِ

وكان أبرويز ملكُ الفرس قد قتل النعمان بن المنذر تحت أَرْجُلِ الفِيلة . والفُيول : جمع فِيل . وقيل : السُّرادق : الدّهليز . قال الفرزدق :

3148- تَمَنَّيْتَهم حتى إذا ما لَقِيْتَهُمْ . . . تركْتَ لهم قبلَ الضِّراب السُّرادقا

والسُّرادق : فارسيٌّ معرَّبٌ أصله : سرادَة ، قاله الجواليقي ، وقال الراغب : " فارسيٌّ معرَّبٌ ، وليس في كلامهم اسمٌ مفردٌ ، ثالثُ حروفِه ألفٌ بعدها حرفان " .

قوله : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ ﴾ ، أي : يَطْلُبوا العَوْنَ . والياءُ عن واوٍ ، إذ الأصل : يستَغْوِثوا ، فقُلبت الواو ياءً لتصريفٍ ذُكِر في الفاتحة عند قوله : ﴿ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : 5] ، وهذا الكلامُ من المشاكلةِ والتجانُسِ ، وإلا فأيُّ إغاثةٍ لهم في ذلك ؟ أو من باب التهكُّم كقولِه :

3149- . . . .

. . فَأُعْتِبُوا بالصَّيْلَمِ

[وكقولِه] :

3150- . . . . تَحِيَّةُ بينِهم

ضَرْبٌ وَجيعُ

وهو كثير .

و" كالمُهْلِ " صفةٌ لـ " ماء " . والمُهْلُ : دُرْدِيُّ الزيت ، وقيل : ما أُذِيب من الجواهر كالنُّحاس والرصاص . والمَهَل بفتحتين : التُّؤَدَة والوَقار . قال : ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين ﴾ [الطارق : 17] .

قوله : ﴿ يَشْوِي الوجوه ﴾ يجوز أَنْ تكونَ الجملةُ صفةً ثانيةً ، أن تكونَ حالاً مِنْ " ماء " لأنه تخصَّصَ بالوصف ، ويجوز أَنْ تكونَ حالاً من الجارِّ وهو الكاف .

والشَّيُّ : الإِنضاجُ بالنارِ من غيرِ مَرَقَةٍ تكون مع ذلك الشيءِ المَشْوِيِّ .

قوله : ﴿ بِئْسَ الشراب ﴾ المخصوصُ محذوفٌ تقديره : هو ، أي : ذلك الماءُ المستغاثُ به .

قوله : ﴿ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ " ساءَتْ " هنا متصرفةٌ على بابها . وفاعلُها ضميرُ النار . ومُرْتَفَقَاً تمييز منقولٌ من الفاعلية ، أي : ساء وقَبُحَ مُرْتَفَقُها . والمُرْتَفَقُ : المُتَّكأ . وقيل : المنزل ، وقيل : هو مصدرٌ بمعنى الارتفاق ، وهو من بابِ المقابلة أيضاً كقوله في وصفِ الجنة بعدُ : ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ [الكهف : 31] ، وإلاَّ فأيُّ ارتفاقٍ في النار ؟ قال الزمخشري : إلا أَنْ يكون من قوله :

3151- إني أَرِقْتُ فَبِتُّ الليلَ مُرْتَفِقا . . . كأنَّ عَيْنِي فيها الصابُ مَذْبوحُ

يعني من باب التهكُّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 476. 480 ﴾

(66/471)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾.

قُلْ يا محمد: ما يأتيكم من ربّكم فهو حقٌّ، وقوله صِدْقٌ ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾.. هذا غاية التهديد، أي إنْ آمنتم ففوائدُ إيمانكم عليه مقصورة، وإنْ أَبَيْتُم فَعذابُ الجحود موقوفٌ عليكم، والحقُّ - سبحانه - عزيز لا يعود إليه بإيمان الكافة - أذا وَحَّدُوا - زَيْنٌ، ولا مِنْ كُفْرِ الجميع - إنْ جحدوا - شَيْنٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾.

العقوبة الكبرى لهم أن يشغلهم بالألم حتى لا يتفرغوا عنه إلى الحسرة على ما فاتهم من الحقِّ، ولو علموا ذلك لَعَلَّه كان يرحمهم. والحقُّ - سبحانه - أكرم من أن يعذبَ أحداً يُتَّهَمُ لأَجْلِه.

ويقال لو علموا مَنْ الذي يقول: ﴿ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ لعلَه كان لهم تَسَلٍّ ساعةً، ولكنهم لا يعرفون قَدْرَ مَنْ يقول هذا، وإلا فهذا شِبْهُ مرتبةٍ لهم، والعبارة عن هذا تدق. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات جـ 2 صـ 393 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (31) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فكأنه قيل : فما لمن آمن ؟ فقال تعالى : ﴿ إن الذين ءامنوا ﴾ ولما كان الإيمان هو الإذعان للأوامر ، عطف عليه ما يحقق ذلك فقال تعالى : ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ ثم عظم جزاءهم بقوله تعالى : ﴿ إنا لا نضيع ﴾ أي بوجه من الوجوه لما يقتضيه عظمتنا ﴿ أجر من أحسن عملاً ﴾ مشيراً بإظهار ضميرهم إلى أنهم استحقوا بذلك الوصف بالإحسان ، فكأنه قيل : فما لهم ؟ فقال مفصلاً لما أجمل من وعدهم : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الرتبة ﴿ لهم جنات عدن ﴾ أي إقامة ، فكأنه قيل : ما لهم فيها ؟ فقيل : ﴿ تجري من تحتهم ﴾ أي تحت منازلهم ﴿ الأنهار ﴾ فكأنه قيل : ثم ماذا ؟ فقيل : ﴿ يحلون فيها ﴾ وبنى الفعل للمجهول لأن القصد وجود التحلية ، وهي لعزتها إنما يؤتى بها من الغيب فضلاً من الله تعالى .

ولما كان الله أعظم من كل شيء ، فكانت نعمه لا يحصى نوع منها ، قال تعالى مبعضاً :

﴿ من أساور ﴾ جمع أسورة جمع سوار ، كما يلبس ذلك ملوك الدنيا من جبابرة الكفرة في بعض الأقاليم كأهل فارس .

ولما كان لمقصودها نظر إلى التفضيل والفعل بالاختيار على الإطلاق ، وقع الترغيب في طاعته بما هو أعلى من الفضة فقال مبعضاً أيضاً : ﴿ من ذهب ﴾ أي ذهب هو في غاية العظمة .

ولما كان اللباس جزاء العمل وكان موجوداً عندهم ، أسند الفعل إليهم فقال تعالى : ﴿ ويلبسون ثياباً خضراً ﴾ ثم وصفها بقوله تعالى : ﴿ من سندس ﴾ وهو ما رقّ من الديباج ﴿ وإستبرق ﴾ وهو ما غلظ منه ؛ ثم استأنف الوصف عن حال جلوسهم فيها بأنه جلوس الملوك المتمكنين من النعيم فقال تعالى : ﴿ متكئين فيها ﴾ أي لأنهم في غاية الراحة ﴿ على الأرائك ﴾ أي الأسرع عليها الحجل ، ثم مدح هذا فقال تعالى : ﴿ نعم الثواب ﴾ أي هو لو لم يكن لها وصف غير ما سمعتم فكيف ولها من الأوصاف ما لا يعلمه حق علمه إلا الله تعالى ! وإلى ذلك أشار بقوله تعالى : ﴿ وحسنت ﴾ أي الجنة كلها ، وميز ذلك بقوله تعالى : ﴿ مرتفقاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 465 . 466﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد المبطلين أردفه بوعد المحقين وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يدل على أن العمل الصالح مغاير للإيمان لأن العطف يوجب المغايرة .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ ظاهره يقتضي أنه يستوجب المؤمن بحسن عمله على الله أجراً ، وعند أصحابنا ذلك الاستيجاب حصل بحكم الوعد وعند المعتزلة لذات الفعل وهو باطل لأن نعم الله كثيرة وهي موجبة للشكر والعبودية فلا يصير الشكر والعبودية موجبين لثواب آخر لأن أداء الواجب لا يوجب شيئاً آخر .

المسألة الثالثة :

نظير قوله : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ الخ قول الشاعر :

إن الخليفة إن الله سربله . . سربال ملك به ترجى الخواتيم

كرر أن تأكيداً للأعمال والجزاء عليها .

المسألة الرابعة :

(69/471)

أولئك خبر إن وإنا لا نضيع اعتراض ولك أن تجعل إنا لا نضيع وأولئك خبرين معاً ولك أن تجعل أولئك كلاماً مستأنفاً بياناً للأجر المبهم واعلم أنه تعالى لما أثبت الأجر المبهم أردفه بالتفصيل من وجوه : أولها : صفة مكانهم وهو قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ والعدن في اللغة عبارة عن الإقامة فيجوز أن يكون المعنى أولئك لهم جنات إقامة كما يقال هذه دار إقامة ، ويجوز أن يكون العدن إسماً لموضع معين من الجنة وهو وسطها وأشرف أماكنها وقد استقصينا فيه فيما تقدم وقوله : ﴿ جنات ﴾ لفظ جمع فيمكن أن يكون المراد ما قاله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] ويمكن أن يكون المراد أن نصيب كل واحد من المكلفين جنة على حدة وذكر أن من صفات تلك الجنات أن الأنهار تجري من تحتها وذلك لأن أفضل المساكن في الدنيا البساتين التي يجري فيها الأنهار .

(70/471)

وثانيها : إن لباس أهل الدنيا إما لباس التحلي ، وإما لباس التستر ، أما لباس التحلي فقال تعالى في صفته : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ والمعنى أنه يحليهم الله تعالى ذلك أو تحليهم الملائكة وقال بعضهم على كل واحد منهم ثلاثة أسورة سوار من ذهب لأجل هذه الآية وسوار من فضة لقوله تعالى : ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان : 21] وسوار من لؤلؤ لقوله تعالى : ﴿ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج : 23] ، وأما لباس التستر فقوله : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ والمراد من سندس الآخرة واستبرق الآخرة والأول هو الديباج الرقيق وهو الخز والثاني هو الديباج الصفيق وقيل أصله فارسي معرب وهو استبره ، أي غليظ ، فإن قيل : ما السبب في أنه تعالى قال في الحلي : ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ على فعل ما لم يسم فاعله وقال في السندس والاستبرق ويلبسون فأضاف اللبس إليهم ، قلنا : يحتمل أن يكون اللبس إشارة إلى ما استوجبوه بعملهم وأن يكون الحلي إشارة إلى ما تفضل الله عليهم ابتداء من زوائد الكرم .

وثالثها : كيفية جلوسهم فقال في صفتها متكئين فيها على الأرائك .

قالوا : الأرائك جمع أريكة وهي سرير في حجلة ، أما للسرير وحده فلا يسمى أريكة .

ولما وصف الله تعالى هذه الأقسام قال : ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ والمراد أن

يكون هذا في مقابلة ما تقدم ذكره من قوله : ﴿ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 21 صـ 103 . 104 ﴾

(71/471)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لا نضيع أجْر من أحسن عملاً ﴾

روى البراء بن عازب أن أعرابياً قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فقال : إني رجل متعلم فأخبرني عن هذه الآية ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا أعرابي ما أنت منهم ببعيد ولا هم ببعيد منك ، هم هؤلاء الأربعة الذين هم وقوف ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي فأعلم قومك أن هذه الآية نزلت فيهم

" . قوله عز وجل : ﴿ . . . ويلبسون ثياباً خُضْراً مِن سندس وإستبرق ﴾ أما السندس : ففيه قولان :

أحدهما : أنه من ألطف من الديباج ، قاله الكلبي .

الثاني : ما رَقّ من الديباج ، واحده سندسة ، قاله ابن قتيبة . وفي الاستبرق قولان :

أحدهما : أنه ما غلظ من الديباج ، قاله ابن قتيبة ، وهو فارسي معرب ، أصله استبره وهو الشديد ، وقد قال المرقش :

تراهُنَّ يَلبْسنَ المشاعِرَ مرة . . . وإسْتَبْرَقَ الديباج طوراً لباسُها

الثاني : أنه الحرير المنسوج بالذهب ، قاله ابن بحر .

﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها الحجال ، قاله الزجاج.

الثاني : أنها الفُرُش في الحجال .

الثالث : أنها السرر في الحجال ، وقد قال الشاعر :

خدوداً جفت في السير حتى كأنما . . . يباشرْن بالمعزاء مَسَّ الأرائكِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(72/471)

وقال ابن عطية :

قوله عز وجل : ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾

اعتراض مؤكد للمعنى ، مذكر بأفضال الله ، منبه على حسن جزائه بين قوله تعالى : ﴿ إن

الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وقوله ﴿ أولئك ﴾ ، فقوله تعالى : ﴿ أولئك لهم جنات عدن ﴾ ابتداء وخبر جملة ، هي خبر ﴿ إن ﴾ الأولى ، ونحو هذا من الاعتراض قول الشاعر : [البسيط]

إن الخليفة إن الله ألبسه . . . سربال ملك به ترجى الخواتيم

قال الزجاج : ويجوز أن يكون خبر ﴿ إن ﴾ في قوله ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ لأن المحسنين هم المؤمنون فكأن المعنى : لا يضيع أجرهم .

قال القاضي أبو محمد : ومذهب سيبويه أن الخبر في قوله ﴿ لا نضيع ﴾ على حذف العائد تقديره ، ﴿ من أحسن عملاً ﴾ منهم ، و" العدن " : الإقامة ، ومنه المعدن ، لأن حجره مقيم فيه ثابت ، وقوله ﴿ من تحتهم ﴾ يريد من تحت غرفهم ، ومبانيهم ، وقرأ الجمهور " من أساور " وروى أبان عن عاصم " أسورة " من غير ألف ، وبزيادة هاء .

وواحد الأساور إسوار ، حذفت الياء من الجمع لأن الباب أساوير ، وهي ما كان من الحلي في الذراع . وقيل ﴿ أساور ﴾ جمع إسورة ، وإسورة جمع سوار ، وإنما الإسوار بالفارسية القائد ونحوه ويقال في حلي الذراع أسوار ، ذكره أبو عبيدة معمر ومنه قول الشاعر : [الرجز]

والله لولا صبية صغار . . . كأنما وجوهم أقمار

تضمهم من العتيك دار . . . أخاف أن يصيبهم إقتار

أو لاضم ليس له أسوار . . . لما رآني ملك جبار

(73/471)

ببابه ما وضح النهار . . . أنشده أبو بكر بن الأنباري حاشية في كتاب أبي عبيدة ، و" السندس " : رقيق الديباج ، و" الاستبرق " ما غلظ منه ، وقال بعض الناس هي لفظة أعجمية عربت ، وأصلها استبره ، وقال بعضهم بل هو الفعل العربي ، سمي به فهو استبرق من الريق فغير حين سمي به بقطع الألف ، ويقوي هذا القول أن ابن محيصن قرأ " من سندس وإستبرق " فجاء موصول الهمزة حيث وقع ولا يجزمه ، بل بفتح القاف ، ذكره الأهوازي ، وذكره أبو الفتح ، وقال هذا سهو أو كالسهو و﴿ الأرائك ﴾ جمع أريكة هي السرير في الحجال ، والضمير في قوله ﴿ وحسنت ﴾ للجنات وحكى النقاش عن أبي عمران الجوني أنه قال : " الاستبرق " الحرير المنسوج بالذهب ، وحكى مكي والزهراوي وغيرهما حديثاً مضمنه أن قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، سأل أعرابي رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن الآي فقال النبي صلى الله عليه وسلم للأعرابي : " أعلم قومك أنها نزلت في هؤلاء الأربعة ، وهم حضور " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(74/471)

وقال ابن الجوزى :

إقوله تعالى : ﴿ إِن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾

قال الزجاج : خبر "إِن" هاهنا على ثلاثة أوجه .

أحدها : أن يكون على إِضمار : ﴿ إِنا لا نُضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ منهم ، ولم يحتج إِلى ذكر "منهم" لأن الله تعالى قد أعلَمنا أنه محبطٌ عملَ غيرَ المؤمنين .

والثاني : أن يكون خبر "إِن" : ﴿ أولئك لهم جنات عدن ﴾ ، فيكون قوله : ﴿ إِنا لا نُضيع ﴾ قد فصل به بين الاسم وخبره ، لأنه يحتوي على معنى الكلام الأول ، لأن من أحسن عملاً بمنزلة الذين آمنوا .

والثالث : أن يكون الخبر : ﴿ إِنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ ، بمعنى : إِنّا لا نُضيع أجرهم .

قال المفسرون : ومعنى ﴿ لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ أي : لا نترك أعماله تذهب

ضَياعاً ، بل نُجازيه عليها بالثواب .

فأما الأَساور ، فقال الفراء : في الواحد منها ثلاث لغات : إِسوار ، وسِوار ، وسُوار ؛ فمن قال : إِسوار ، جمعَه أساور ، ومن قال : سِوار أو سُوار ، جمعَه أَسْوِرة ، وقد يجوز أن يكون واحد أَساورة وأَساور : سِوار ؛ وقال الزجاج : الأَساور جمع أَسْوِرَة ، وأَسْوِرَة جمع سِوَار ، يقال : سِوار اليد ، بالكسر ، وقد حكي : سُوار .

قال المفسرون : لما كانت الملوك تلبَس في الدنيا الأساور في اليد والتيجان على الرؤوس ، جعل الله ذلك لأهل الجنة .

قال سعيد بن جبير : يُحلَّى كلُّ واحد منهم بثلاثة من الأساور ، واحدٍ من فضة ، وواحدٍ من ذهب ، وواحدٍ من لؤلؤ ويواقيت .

فأما "السُّنْدُسُ" و"الإِستبرق" ، فقال ابن قتيبة : السُّندس : رقيق الديباج ، والإِستبرق ثخينه .

وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي ، قال : السندس : رقيق الديباج ، لم يختلف أهل اللغة في أنه معرَّب ، قال الراجز :

وليلة من الليالي حِندِسِ . . .

لون حواشيها كلون السندس

والاستبرق : غليظ الديباج ، فارسي معرَّب ، وأصله إِسْتفْرَهْ .

وقال ابن دريد : إِستَرْوَهْ ، ونقل من العجمية إلى العربية ، فلوا حُقِّر "إِستبرق" ، أو كُسِّر ، لكان في التحقير "أُبَيْرِق" ، وفي التكسير "أبارق" بحذف السين ، والتاء جميعاً .

قوله تعالى : ﴿ متكئين فيها ﴾ الاتّكاء : التحامل على الشيء .

قال أبو عبيدة : والأرائك : الفرُش في الحِجَال ، ولا تكون الأريكة إلا بحَجَلة وسرير ، وقال ابن قتيبة : الأرائك : السُّرُر في الحِجال ، واحدها : أريكة .

وقال ثعلب : لا تكون الأريكة إلا سريراً في قُبَّة عليه شَواره ومتاعه ؛ قال ابن قتيبة : الشَّوار ، مفتوح الشين ، وهو متاع البيت .

وقال الزجاج : الأرائك : الفرُش في الحِجال .

قال : وقيل : إنها الفرُش ، وقيل : الأسِرَّة ، وهي على الحقيقة : الفرُش كانت في حِجال لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) ﴾

لما ذكر ما أعدّ للكافرين من الهوان ذكر أيضاً ما للمؤمنين من الثواب .

وفي الكلام إضمار ؛ أي لا نضيع أجر من أحسن منهم عملاً ، فأما من أحسن عملاً من غير المؤمنين فعمله مُحْبطَ .

و"عملا" نصب على التمييز ، وإن شئت بإيقاع "أحسن" عليه .

وقيل : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ كلام معترض ، والخبر قوله ﴿ أولئك لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ و ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ سُرَّةُ الجنة ، أي وسطها وسائر الجنات مُحْدِقَة بها .

وذكرت بلفظ الجمع لسَعتها ؛ لأن كل بُقعة منها تصلح أن تكون جنة .

وقيل : العَدْن الإقامة ، يقال : عَدَن بالمكان إذا أقام به .

وعَدَنْت البلد توطنْته .

وعَدَنَتِ الإبلُ بمكان كذا لزمته فلم تبرح منه ؛ ومنه "جنات عَدْن" أي جنات إقامة .

ومنه سُمّيَ المَعْدِن (بكسر الدال) ؛ لأن الناس يقيمون فيه بالصيف والشتاء .

ومركز كلّ شيء مَعدِنه .

والعادن : الناقة المقيمة في المرعى .

وعَدَن بلد ؛ قاله الجوهري .

﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ تقدّم في غير موضع .

﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ وهو جمع سِوار .

قال سعيد بن جُبَير : على كل واحد منهم ثلاثة أسورة : واحد من ذهب ، وواحد من ورِق ، وواحد من لؤلؤ .

قلت : هذا منصوص في القرآن ، قال هنا ﴿ من ذهب ﴾ [الحج : 23] وقال في الحج وفاطر ﴿ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ﴾ [فاطر : 33] وفي الإنسان ﴿ مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان : 21] .

وقال أبو هريرة : سمعت خليلي صلى الله عليه وسلم يقول : " تبلغ الحِلْية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء " خرّجه مسلم .

وحكى الفرّاء : "يَحْلَون" بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة ؛ يقال : حَلِيت المرأة تَحْلَى فهي حالية إذا لبست الحَلْي .

وحَلِيَ الشي بعيني يَحْلَى ؛ ذكره النحاس .

والسِّوار سِوار المرأة ، والجمع أسورة ، وجمع الجمع أساورة .

وقرئ ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ [الزخرف : 53] وقد يكون الجمع أساور .

وقال الله تعالى ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ ، قاله الجوهري .

وقال عُزيز : أساور جمع أسورة ، وأسورة جمع سِوار وسُوار ، وهو الذي يلبس في الذراع من ذهب ، فإن كان من فضة فهو قُلْب وجمعه قِلَبَة ؛ فإن كان من قَرْن أو عاج فهي مَسَكَة وجمعه مَسَك .

قال النحاس : وحكى قُطْرب في واحد الأساور إسوار ، وقُطْرب صاحب شذوذ ، قد تركه يعقوب وغيره فلم يذكره .

قلت : قد جاء في الصحاح وقال أبو عمرو بن العلاء : واحدها إسوار .

وقال المفسرون : لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتِّيجان جعل الله تعالى ذلك لأهل الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ السُّنْدُس : الرقيق النحيف ، واحده سندسة ؛ قاله الكسائي .

والإستبرق : ما ثخُن منه عن عكرمة وهو الحرير .

قال الشاعر :

تراهنّ يلبسن المشاعر مَرّة . . .

وإستبرقُ الديباج طَوْراً لباسُهَا

فالإستبرق الدِيباج .

ابن بحر : المنسوج بالذهب .

القُتَبِيّ : فارسي معرب .

الجوهري : وتصغيره أُبَيْرِق .

وقيل : هو استفعل من البريق .

والصحيح أنه وفاق بين اللغتين ؛ إذ ليس في القرآن ما ليس من لغة العرب ، على ما تقدّم ،

والله أعلم .

وخص الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر ؛ لأن البياض يبدّد النظر ويؤلم ، والسواد يذمَ ،

والخضرة بين البياض والسواد ، وذلك يجمع الشعاع .

والله أعلم .

روى النسائيّ " عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله

عليه وسلم إذ جاءه رجل فقال : يا رسول الله ، أخبرنا عن ثياب الجنة ، أخَلْقٌ يُخلَق أم

نسيج ينسج ؟ فضحك بعض القوم .

فقال لهم : "ممّ تضحكون من جاهل يسأل عالماً" فجلس يسيراً أو قليلاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين السائل عن ثياب الجنة ؟ فقال : ها هو ذا يا رسول الله ؛ قال لا بل تشّقق عنها ثمر الجنة " قالها ثلاثاً .

وقال أبو هريرة : دار المؤمن درّة مجوّفة في وسطها شجرة تنبت الحُلَل ويأخذ بأصبعه أو قال بأصبعيه سبعين حُلّة منظمة بالدرّ والمَرْجان .

ذكره يحيى بن سلام في تفسيره وابن المبارك في رقائقه .

وقد ذكرنا إسناده في كتاب التذكرة .

وذُكر في الحديث أنه يكون على كل واحد منهم الحلة لها وجهان لكل وجه لون ، يتكلمان بصوت يستحسنه سامعه ، يقول أحد الوجهين للآخر : أنا أكرم على وَلِيّ الله منك ، أنا أَلِي جسده وأنت لا تِلِي .

ويقول الآخر : أنا أكرم على وِليّ الله منك ، أنا أبصر وجهه وأنت لا تبصر .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَآئِكِ ﴾ "الأرائك" جمع أَرِيكة ، وهي السرر في الحجال .

وقيل الفرش في الحِجال ؛ قاله الزجاج .

ابن عباس : هي الأسرّة من ذهب ، وهي مكلّلة بالدُّر والياقوت عليها الحجِال ، الأريكة

ما بين صنعاء إلى أَيْلة وما بين عدن إلى الجابية.

وأصل متكئين مُوْتَكئِين، وكذلك أتكأ أصله أوتكأ، وأصل التُّكَأة وُكَأة؛ ومنه التوكّأ للتحامل على الشيء، فقلبت الواو تاء وأدغمت.

ورجل وُكَأة كثير الاتّكاء.

﴿ نِعْمَ الثواب وحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ يعني الجنات، عكس "وساءت مرتفقا".

وقد تقدّم.

ولو كان "نِعْمَتْ" لجاز لأنه اسم للجنة.

وعلى هذا "وحسنت مرتفقا".

(79/471)

وروى البَرَاء بن عازِب: أن أعرابيًّا قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، والنبيّ صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العَضْباء فقال: إني رجل مسلم فأخبرني عن هذه الآية ﴿ إنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ الآية؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنت منهم ببعيد ولا هم ببعيد منك هم هؤلاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ فأعْلِم قومك أن هذه الآية نزلت فيهم" ذكره الماورديّ، وأسنده

النحاس في كتاب معاني القرآن، قال: حدّثنا أبو عبد الله أحمد بن عليّ بن سهل قال

حدّثنا محمد بن حميد قال حدّثنا يحيى بن الضُّرَيْس عن زهير بن معاوية عن أبي إسحاق

عن البراء بن عازِب قال: قام أعرابي . . .

؛ فذكره.

وأسنده السُّهَيْلي في كتاب الأعلام.

وقد روِّينا جميع ذلك بالإجازة، والحمد لله. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير القرطبى حـ 10

صـ ﴾

(80/471)

وقال أبو حيان:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل الكفر وما أعد لهم في النار ذكر حال أهل الإيمان وما أعد لهم في

الجنة، وخبر ﴿إن﴾ يحتمل أن تكون الجملة من قوله أولئك لهم.

وقوله ﴿إنّا لا نضيع﴾ الجملة اعتراض.

قال ابن عطية: ونحو هذا من الاعتراض قول الشاعر:

إن الخليفة إن الله ألبسه . . .

سربال ملك به ترجى الخواتيم

انتهى ، ولا يتعين في قوله إن الله ألبسه أن يكون اعتراضاً هي اسم إن وخبرها الذي هو ترجى الخواتيم ، يجوز أن يكون إن الله ألبسه هو الخبر ، ويحتمل أن يكون الخبر قوله ﴿ إنّا لا نضيع أجر ﴾ والعائد محذوف تقديره ﴿ من أحسن عملاً ﴾ منهم .

أو هو قوله ﴿ من أحسن عملاً ﴾ على مذهب الأخفش في ربطه الجملة بالاسم إذا كان هو المبتدأ في المعنى ، لأن ﴿ من أحسن عملاً ﴾ هم ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فكأنه قال : إنّا لا نضيع أجرهم ، ويحتمل أن تكون الجملتان خبرين لأن على مذهب من يقتضي المبتدأ خبرين فصاعداً من غير شرط أن يكونا ، أو يكن في معنى خبر .

واحد .

وإذا كان خبر ﴿ إن ﴾ قوله ﴿ إنّا لا نضيع ﴾ كان قوله ﴿ أولئك ﴾ استئناف اخبار موضح لما انبهم في قوله ﴿ إنّا لا نضيع ﴾ من مبهم الجزاء .

وقرأ عيسى الثقفي ﴿ لا نضيع ﴾ من ضيع عداه بالتضعيف ، والجمهور من أضاع عدوّه بالهمزة ، ولما ذكر مكان أهل الكفر وهو النار .

ذكر مكان أهل الإيمان وهي ﴿ جنات عدن ﴾ ولما ذكر هناك ما يغاثون به وهو الماء كالمهل ذكر هنا ما خص به أهل الجنة من كون الأنهار تجري من تحتهم ، ثم ذكر ما أنعم عليهم

من التحلية واللباس اللذين هما زينة ظاهرة .

وقال سعيد بن جبير : يحلى كل واحد ثلاثة أساور سوار من ذهب ، وسوار من فضة ،

وسوار من لؤلؤ ويواقيت .

وقال الزمخشري : و﴿ من ﴾ الأول للابتداء والثانية للتبيين ، وتنكير ﴿ أساور ﴾

لإبهام أمرها في الحسن انتهى .

ويحتمل أن تكون ﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من ذهب ﴾ للتبعيض لا للتبيين .

وقرأ أبان عن عاصم من اسورة من غير ألف وبزيادة هاء وهو جمع سوار .

وقرأ أيضاً أبان عن عاصم وابن أبي حماد عن أبي بكر : ﴿ ويلبسون ﴾ بكسر الباء .

وقرأ ابن محيصن ﴿ واستبرق ﴾ بوصل الألف وفتح القاف حيث وقع جعله فعلاً ماضياً

على وزن استفعل من البريق ، ويكون استفعل فيه موافقاً للمجرد الذي هو برق كما تقول :

قر واستقر بفتح القاف ذكره الأهوازي في الإقناع عن ابن محيصن .

قال ابن محيصن .

وحده : ﴿ واستبرق ﴾ بالوصل وفتح القاف حيث كان لا يصرفه انتهى .

فظاهره أنه ليس فعلاً ماضياً بل هو اسم ممنوع الصرف .

وقال ابن خالويه : جعله استفعل من البريق ابن محيصن فظاهره أنه فعل ماض وخالفهما صاحب اللوامح .

قال ابن محيصن : ﴿ واستبرق ﴾ بوصل الهمزة في جميع القرآن فيجوز أنه حذف الهمزة تخفيفاً على غير قياس ، ويجوز أنه جعله عربية من برق يبرق بريقاً .

وذلك إذا تلالأ الثوب لجدته ونضارته ، فيكون وزنه استفعل من ذلك فلما تسمى به عامله معاملة الفعل في وصل الهمزة ، ومعاملة المتمكنة من الأسماء في الصرف والتنوين ، وأكثر التفاسير على أنه عربية وليس بمستعرب دخل في كلامهم فأعربوه انتهى .

ويمكن أن يكون القولان روايتين عنه فتح القاف وصرفه التنوين ، وذكر أبو الفتح بن جنيّ قراءة فتح القاف ، وقال : هذا سهو أو كالسهو انتهى .

وإنما قال ذلك لأنه جعله اسماً ومنعه من الصرف لا يجوز لأنه غير علم ، وقد أمكن جعله فعلاً ماضياً فلا تكون هذه القراءة سهواً .

قال الزمخشري : وجمع بين السندس وهو ما رقَّ من الديباج ، وبين الاستبرق وهو الغليظ منه جمعاً بين النوعين ، وقدمت التحلية على اللباس لأن الحلي في النفس أعظم وإلى القلب أحب ، وفي القيمة أغلى ، وفي العين أحلى ، وبناء فعله للمفعول الذي لم يسم فاعله إشعاراً بأنهم يكرمون بذلك ولا يتعاطون ذلك بأنفسهم كما قال الشاعر :

غرائر في كن وصون ونعمة . . .

تحلين ياقوتاً وشذراً مفقرا

وأسند اللباس إليهم لأن الإنسان يتعاطى ذلك بنفسه خصوصاً لو كان بادي العورة ، ووصف الثياب بالخضرة لأنها أحسن الألوان والنفس تنبسط لها أكثر من غيرها ، وقد روي في ذلك أثر إنها تزيد في ضوء البصر وقال بعض الأدباء :

أربعة مذهبة لكل هم وحزن . . .

الماء والخضرة والبستان والوجه الحسن

وخص الاتكاء لأنها هيئة المنعمين والملوك على أسرَّتهم .

وقرأ ابن محيصن : ﴿ على الأرائك ﴾ بنقل الهمزة إلى لام التعريف وإدغام لام على ﴿ فيها ﴾ فتنحذف ألف ﴿ على ﴾ لتوهم سكون لام التعريف والنطق به علرائك ومثله قول الشاعر :

فما أصبحت علرض نفس برية . . .

ولا غيرها إلاّ سليمان بالها

يريد على الأرض ، والمخصوص بالمدح محذوف أي نعم الثواب ما وعدوا به ، والضمير في ﴿ حسنت ﴾ عائد على الجنات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(83/471)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾

في محل التعليلِ للحث على الإيمان المنفهِم من التخيير ، كأنه قيل : وللذين آمنوا ، ولعل تغييرَ سبكه للإيذان بكمال تنافي مآلَيْ الفريقين أي إن الذين آمنوا بالحق الذي أوحيَ إليك ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ حسبما بين في تضاعيفه ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ خبرُ إن الأولى هي الثانيةُ مع ما في حيزها والراجعُ محذوفٌ أي من أحسنَ منهم عملاً أو مستغنًى عنه كما في قولك : نعم الرجل زيدٌ أو واقعٌ موقعَه الظاهرَ فإن من أحسن عملاً في الحقيقة هو الذي آمن وعمِل الصالحات .

﴿ أولئك ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ استئنافٌ لبيان الأجر ، أو هو الخبرُ وما بينهما اعتراضٌ أو هو خبرٌ بعد خبر ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا

مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ من الأولى ابتدائية والثانية صفة لأساور والتنكير للتفخيم وهو جمع أسورة أو إسوار جمع سِوار ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا ﴾ خُصت الخضرة بثيابهم لأنها أحسن الألوان وأكثرها طراوة ﴿ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ أي مما رق من الديباج وغلظ ، جمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا على الأرائك ﴾ على السرر على ما هو شأن المتنعمين ﴿ نِعْمَ الثواب ﴾ ذلك ﴿ وَحَسُنَتْ ﴾ أي الأرائك ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ أي متكأً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(84/471)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾

في محل التعليل للحث على الإيمان المنفهم من التخيير كأنه قيل وللذين آمنوا ، ولعل تغيير السبك للإيذان بكمال تنافي حالي الفريقين أي إن الذين آمنوا بالحق الذي يوحي إليك ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ حسبما بين في تضاعيفه .

﴿ أَنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ وقرأ عيسى الثقفي ﴿ لاَ نُضِيعُ ﴾ بالتضعيف ،

وعلى القراءتين الجملة خبر إن الثانية وخبر إن الأولى الثانية بما في حيزها والرابط ضمير محذوف تقديره من أحسن عملاً منهم ، ولا يرد أنه يقتضي أن منهم من أحسن ومنهم من لم يحسن لأن ذلك على تقدير كون من تبعيضية وليس بمتعين لجواز كونها ببيانية ولو سلم فلا بأس به فإن الإحسان زيادة الإخلاص الوارد في حديث الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، لكن يبقى على هذا حكم من لم يحسن بهذا المعنى منهم أو الرابط الاسم الظاهر الذي هو المبتدأ في المعنى على ما ذهب إليه الأخفش من جعله رابطاً فإن من أحسن عملاً في الحقيقة هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

واعترض بأنه يأباه تنكير ﴿ عَمَلاً ﴾ لأنه للتقليل .

وأجيب بأنه غير متعين لذلك إذ النكرة قد تعم في الإثبات ومقام المدح شاهد صدق أو الرابط عموم من بناء على أن العموم قد يكون رابطاً كما في زيد نعم الرجل على قول وفيه مناقشة ظاهرة .

ولعل الأولى كون الخبر جملة قوله تعالى :

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾

وجملة ﴿ أَنَاْ ﴾ [الكهف : 30] الخ معترضة ، ونحوها من الاعتراض كما قال ابن عطية وغيره قوله :

إن الخليفة إن الله ألبسه . . .

سربال ملك به ترجى الخواتيم

(85/471)

وأنت تعلم أن الاعتراض فيه غير متعين أيضاً ، وعلى الاحتمال السابق يحتمل أن تكون هذه الجملة مستأنفة لبيان الأجر ويحتمل أن تكون خبراً بعد خبر على مذهب من لا يشترط في تعدد الأخبار كونها في معنى خبر واحد وهو الحق أي أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة لهم جنات إقامة على أن العدن بمعنى الإقامة والاستقرار يقال عدن بالمكان إذا قام فيه واستقر ومنه المعدن لاستقرار الجواهر فيه .

وعن ابن مسعود عدن جنة من الجنان وهي بطنانها ، ووجه إضافة الجنان إليها بانها لسعتها كأن كل ناحية منها جنة ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ وهم في الغرفات آمنون ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ من الأولى للابتداء والثانية للبيان ، والجار والمجرور في موضع صفة لأساور ، وهذا ما اختاره الزمخشري وغيره .

وجوز أبو البقاء في الأولى أن تكون زائدة في المفعول على قول الأخفش ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَحُلُّواْ أَسَاوِرَ ﴾ [الإنسان : 21] وأن تكون بيانية أي شيئاً أو حلياً من

أساور .

وجوز غيره فيها أن تكون تبعيضية واقعة موقع المفعول كما جوز هو وغيره ذلك في الثانية ،

وجوز فيها أيضاً أن تتعلق بيحلون وهو كما ترى ، والأساور جمع اسورة جمع سوار بالكسر

والضم وهو ما في الذراع من الحلى وهو عربي ، وقال الراغب : معرب دستواره ، وقيل جمع

أسوار جمع سوار وأصله أساوير فخفف بحذف يائه فهو على القولين جمع الجمع ، ولم يجعلوه

من أول الأمر جمع سوار لما رأوا أن فعالاً لا يجمع على أفاعل في القياس .

وعن عمرو بن العلاء أن الواحد اسوار ، وأنشد ابن الأنباري :

والله لولا صبية صغار . . .

كأنما وجوههم أقمار

تضمهم من العتيك دار . . .

أخاف أن يصيبهم أقتار

أو لاطم ليس له اسوار . . .

لما رآني ملك جبار

ببابه ما وضح النهار . . .

وفي القاموس السوار ككتاب وغراب القلب كالأسوار والجمع أسورة وأساور وأساورة

وسور وسؤور وهو موافق لما نقل عن ابن العلاء .

ونقل ذلك أيضاً عن قطرب .

وأبي عبيدة ، ونكرت لتعظيم حسنها من الإحاطة ، وقد أخرج ابن مردويه عن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ لو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدت أساوره لطمس ضوؤه ضوء الشمس كما تطمس ضوء النجوم ﴾ وأخرج الطبراني في الأوسط .

والبيهقي في البعث عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن أدنى أهل الجنة حلية عدلت حليته بحلية أهل الدنيا جميعاً لكان ما يحليه الله تعالى به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعاً "

وأخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر عن عكرمة قال : " إن أهل الجنة يحلون أسورة من ذهب ولؤلؤ وفضة هي أخف عليهم من كل شيء إنما هي نور " وأخرج الشيخان عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الضوء " وأخرج أبو الشيخ .

وغيره عن كعب الأحبار قال : " إن الله تعالى ملكاً وفي رواية في الجنة ملك لو شئت أن اسميه أسميته يصوغ حلى أهل الجنة من يوم خلق إلى أن تقوم الساعة ولو أن حلياً منها أخرج

لرد شعاع الشمس " والسؤال بأن لبس الرجال الأسوار غيب في الدنيا فكيف يحلونها في الآخرة مندفع بأن كونه عيباً إنما هو بين قوم لم يعتادوه لا مطلقاً ولا أظنك في مرية من أن الشيء قد يكون عيباً بين قوم ولا يكون عيباً بين آخرين ، وليس فيما نحن فيه أمر عقلي يحكم بكونه عيباً في كل وقت وفي كل مكان وبين كل قوم ، وإن التزمت إن فيه ذلك فقد حليت نفسك بحلية الجهل وخرجت من ربقة العقل .

هذا وقرأ أبان عن عاصم ﴿ مِنْ أَسْوِرَةٌ ﴾ بحذف ألف وزيادة هاء وهو أحد لسوار كما سمعت ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا ﴾ لأن الخضرة أحسن الألوان والنفس تنبسط بها أكثر من غيرها ، وروي في أثر أنها تزيد في ضوء البصر ، وقيل :

ثلاثة مذهبة للحزن .

الماء والخضرة والوجه الحسن .

(87/471)

والظاهر أن لباسهم غير منحصر فيما ذكر إذ لهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وأخرج ابن أبي حتم عن سليم بن عامر أن الرجل يكسى في الساعة الواحدة سبعين ثوباً وأن أدناها مثل شقيق النعمان ، وقيل يحتمل الانحصار ولهم فيها ما تشتهي الأنفس لا يأباه

لجواز أنهم لايشتهون ولا تلذ أعينهم سوى ذلك من الألوان ، والتنكير لتعريف أنها لا يكاد يوصف حسنها .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن كعب قال : لو أن ثوباً من ثياب أهل الجنة نشر اليوم في الدنيا لصعق من ينظر إليه وما حملته أبصارهم .

وقرأ أبان عن عاصم .

وابن أبي حماد عن أبي بكر ﴿ وَيَلْبَسُونَ ﴾ بكسر الباء ﴿ مِن سُندُسٍ ﴾ قال الجواليقي : هو رقيق الديباج بالفارسية فهو معرب ، وفي القاموس هو ضرب من البزيون أو ضرب من رقيق الديباج معرب بلا خلاف ، وقال الليث : لم يختلف أهل اللغة والمفسرون في أنه معرب ، وأنت تعلم أن فيه خلاف الشافعي عليه الرحمة ، والقول بأنه ليس من أهل اللغة والمفسرين في النفس منه شيء ، وقال شيدله : هو رقيق الديباج بالهندية ، وواحدة على ما نقل عن ثعلب سندسة .

وزعم بعضم : أن أصله سندس وكان هذا النوع من الديباج يجلب من السند فأبدلت الياء سيناً كما فعل في سادي فقيل سادس ، وهو كلام لا يروج إلا على سندي أو هندي .

ويحكى أن جماعة من أهل الهند من بلد يقال له بروج بالجيم الفارسية وكانوا يتكلمون بلة تسمى سنسكريت جاؤوا إلى الاسكندر الثاني بهدية من جملتها هذا الديباج ولم يكن رآه فقال : ما هذا ؟ فقالوا : سندون بالنون في آخره فغيرته الروم إلى سندوس ثم العرب إلى

سندس فهو معرب قطعاً من ذلك اللفظ الذي أطلقته أولئك الجماعة عليه، لكن لا جزم من أنه اسم له في الأصل بلغتهم أو اسم للبلدة المجلوب هو منها أطلق عليه كما في أسماء كثير من الأمتعة اليوم والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ أخرج ابن جرير.

وغيره عن قتادة.

(88/471)

وعكرمة أنه غليظ الديباج، وقال ابن بحر: هو ديباج منسوج بذهب وفي القاموس هو الديباج الغليظ أو ديباج يعمل بالذهب أو ثياب حرير صفاق نحو الديباج أو قدة حمراء كأنه قطع الأوتار اه، والذي عليه الأكثرون من المفسرين واللغويين الأول، وهو كما أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك معرب استبره وهي كلمة عجمية ومعناها الغليظ، والمشهور أنه يقال للغليظ بالفارسية استبر بلا هاء، وقال ابن قتيبة: هو رومي عرب وأصله استبره فابدلوا الهاء قافاً، ووقع في شعر المرقش قال:

تراهن يلبسن المشاعر مرة...

واستبرق الديباج طوراً لباسها

وقال ابن دريد : هو سرياني عرب وذكر من أصله ما ذكروا ، وقيل : أصله استفرح بجرف بعد التاء بين الفاء والباء الموحدة ، وادعى بعضهم أن الاستبرق الديباج الغليظ الحسن في اللغة العربية والفارسية ففيه توافق اللغتين ، ونقل عن الأزهري أنه استصوب هذا ، ويجمع على أباريق ويصغر كما في القاموس .

وغيره على أبيرق ، وقرأ ابن محيصن ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ بوصل الهمزة وفتح القاف حيث وقع جعله كما يقتضيه ظاهر كلام ابن خالويه فعلا ماضياً على وزن استفعل من البريق إلا إن استفعل فيه موافق للمجرد الذي هو برق ، وظاهر كلام الاهوازي في الاقناع أنه وحده قرأ كذلك وجعله اسماً ممنوعاً من الصرف ولم يجعله فعلاً ماضياً .

(89/471)

وقال صاحب اللوامح : قرأ ابن محيصن ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ بوصل الهمزة في جميع القرآن مع التنوين فيجوز أنه حذف الهمزة تخفيفاً على غير قياس ، ويجوز أنه جعله كلمة عربية من برق الثوب يبرق بريقاً إذا تلألأ بجدته ونضارته فيكون وزنه استفعل من ذلك فلما سمى به عامله معاملة الفعل في وصل الهمزة ومعاملة المتمكن من الأسماء في الصرف والتنوين ، وأكثر التفاسير على أنه عربي وليس بمستعرب انتهى ، ولا يخفى أنه مخالف للنقلين السابقين

، ويمكن أن يقال : إن لابن محيصن قراءتين فيه الصرف والمنع منه فنقل بعض قراءة وبعض

آخر أخرى لكن ذكر ابن جنى أن قراءة فتح القاف سهو أو كالسهو ، قال أبو حيان : وإنما

قال ذلك لأن جعله اسماً ومنعه من الصرف لا يجوز أنه غير علم فتكون سهواً وقد أمكن

جعله فعلاً ماضياً فلا تكون سهواً انتهى .

وفي الجمع بين السندس الاستبرق أشعار ما بأن لأولئك القوم في الجنة ما يشتهون ، ونكراً

لتعظيم شأنهما وكيف لا وهما وراء ما يشاهد من سندس الدنيا واستبرقها بل وما يتخيل

من ذلك ، وقد أخرج البيهقي عن أبي الخير مرثد بن عبد الله قال : في الجنة شجرة تنبت

السندس منه تكون ثياب أهل الجنة .

وأخرج الطيالسي .

والبخاري في التاريخ .

والنسائي .

وغيرهم عن ابن عمر قال : قال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلقا تخلق

أم نسجا تنسج ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : بل يتشقق عنها ثمر الجنة ، وظاهره أنها من

سندس كانت أو من استبرق كذلك ، وقدمت التحلية على اللباس لأن الحلى في النفس

أعظم وإلى القلب أحب وفي القيمة أغلى .

وفي العين أحلى ، وبنى فعله للمفعول إشعاراً بأنهم لا يتعاطون ذلك بأنفسهم وإنما يفعله

الخدم كما قال الشاعر :

غرائز في كن وصون ونعمة . . .

يحلين ياقوتاً وشذراً مفقراً

(90/471)

وكذلك سائر الملوك في الدنيا يلبسهم التيجان ونحوها من العلامات المرصعة بالجواهر خدمهم ، وأسند اللبس إليهم لأن الإنسان يتعاطى ذلك بنفسه خصوصاً إذا كان فيه ستر العورة ، وقيل : بنى الأول للمفعول والثاني للفاعل إشارة إلى أن التحلية تفضل من الله تعالى واللبس استحقاقهم .

وتعقب بأن فيه نزغة اعتزالية ويدفع بالعناية ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا على الارائك ﴾ جمع أريكة كما قال غير واحد وهو السرير في الحجلة فإن لم يكن فيها فلا يسمى أريكة .

وأخرج ذلك البيهقي عن ابن عباس ، وقال الراغب : الأريكة حجلة على سرير وتسميتها بذلك إما لكونها في الأرض متخذة من أراك وهو شجر معروف أو لكونها مكاناً للإقامة من قولهم أرك بالمكان أروكا ، وأصل الأروك الإقامة على رعى الإراك ثم تجوز به في غيره من الإقامات ، وروي تفسيرها بذلك عن عكرمة .

وقال الزجاج: الارائك الفرش في الحجال؛ والظاهر أنها على سائر الأقوال عربية،

وحكى ابن الجوزي في فنون الافنان أنها الشرر بالحبشية، وأيا ما كان فالكلام على ما قاله

بعض المحققين كناية عن تنعمهم وترفههم فإن الاتكاء على الأرائك شأن المتنعمين المترفهين،

والآثار ناطقة بأنهم يتكوون ويتنعمون، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن الهيثم بن مالك الطائي

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الرجل ليتكىء المتكأ مقدار أربعين سنة ما

يتحول منه ولا يمله يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه" وأخرج ابن المنذر.

وجماعة عن ابن عباس أن على الأرائك فرشا منضودة في السماء مقدار فرسخ.

وقرأ ابن محيصن ﴿ علرائك ﴾ بنقل حركة الهمزة إلى لام التعريف وإدغام لام ﴿ على ﴾

فيها فيحذف ألف ﴿ على ﴾ لتوهم سكون لام التعريف، ومثله قول الشاعر:

فما أصبحت علرض نفسي برية...

يريد على الأرض.

﴿ نِعْمَ الثواب ﴾ ذلك الذي وعدوا به من الجنة ونعيمها ﴿ وَحَسُنَتْ ﴾ أي الأرائك أو

الجنات ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ متكئاً، وقد تقدم آنفاً الكلام فيه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعانى

حـ 15 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ واتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ ﴾

أمره الله سبحانه أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى إليه ، قيل : ويحتمل أن يكون معنى قوله : ﴿ واتل ﴾ : واتبع ، أمراً من التلوّ ، لا من التلاوة ، و ﴿ مِن كتاب ربّكَ ﴾ بيان للذي أوحي إليه ﴿ لاَ مُبَدّلَ لكلماته ﴾ أي : لا قادر على تبديلها وتغييرها ، وإنما يقدر على ذلك هو وحده .

قال الزجاج : أي ما أخبر الله به وما أمر به فلا مبدّل له ، وعلى هذا يكون التقدير : لا مبدّل لحكم كلماته ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ الملتحد : الملتجأ ، وأصل اللحد : الميل ، قال الزجاج : لن تجد معدلاً عن أمره ونهيه ، والمعنى : أنك إن لم تتبع القرآن وتتله وتعمل بأحكامه لن تجد معدلاً تعدل إليه ومكاناً تميل إليه .

وهذه الآية آخر قصة أهل الكهف .

ثم شرح سبحانه في نوع آخر كما هو دأب الكتاب العزيز فقال : ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ قد تقدّم في الأنعام نهيه صلى الله عليه وسلم عن طرد فقراء المؤمنين بقوله : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ [الأنعام : 52] وأمره سبحانه ههنا بأن يحبس نفسه معهم ، فصبر النفس هو حبسها ، وذكر الغداة والعشي كناية عن الاستمرار على

الدعاء في جميع الأوقات ، وقيل : في طرفي النهار ، وقيل المراد : صلاة العصر والفجر .

وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن وابن عامر (بالغدوة) بالواو ، واحتجوا بأنها في المصحف كذلك مكتوبة بالواو .

قال النحاس : وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو ، ولا تكاد العرب تقول : الغدوة ، ومعنى ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ : أنهم يريدون بدعائهم رضى الله سبحانه ، والجملة في محل نصب على الحال ، ثم أمره سبحانه بالمراقبة لأحوالهم فقال : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ أي : لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم .

(92/471)

قال الفراء : معناه لا تصرف عيناك عنهم ، وقال الزجاج : لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوي الهيئات والزينة ، واستعماله بعن لتضمنه معنى النبوّ ، من عدوته عن الأمر ، أي : صرفته منه ، وقيل : معناه : لا تحتقرهم عيناك ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ﴾ أي : مجالسة أهل الشرف والغنى ، والجملة في محل نصب على الحال ، أي : حال كونك مريداً لذلك ، هذا إذا كان فاعل تريد هو النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وإن كان الفاعل ضميراً يعود إلى العينين ، فالتقدير : مريدة زينة الحياة الدنيا ، وإسناد الإرادة إلى العينين مجاز ، وتوحيد

الضمير للتلازم كقول الشاعر :

لمن زحلوقة زل . . . بها العينان تنهلّ

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ أي : جعلناه غافلاً بالختم عليه ، نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طاعة من جعل الله قلبه غافلاً عن ذكره كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحي الفقراء عن مجلسه ، فإنهم طالبوا تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه وهم غافلون عن ذكر الله ، ومع هذا فهم ممن اتبع هواه وآثره على الحق فاختار الشرك على التوحيد ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ أي : متجاوزاً عن حدّ الاعتدال ، من قولهم : فرس فرط : إذا كان متقدماً للخيل فهو على هذا من الإفراط .

وقيل هو : من التفريط ، وهو التقصير والتضييع .

قال الزجاج : ومن قدم العجز في أمره أضاعه وأهلكه .

ثم بيّن سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم ما يقوله لأولئك الغافلين ، فقال : ﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أي قل لهم : إن ما أوحي إليك وأمرت بتلاوته هو الحق الكائن من جهة الله ، لا من جهة غيره حتى يمكن فيه التبديل والتغيير ، وقيل : المراد بالحق الصبر مع الفقراء .

قال الزجاج : أي الذين أتيتكم به الحق مِن رَّبِّكُمْ يعني : لم آتكم به من قبل نفسي إنما أتيتكم به من الله ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ قيل : هو من تمام القول الذي أمر رسوله أن يقوله ، والفاء لترتيب ما قبلها على ما بعدها ، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه لا من القول الذي أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه تهديد شديد ، ويكون المعنى : قل لهم يا محمد الحق من ربكم وبعد أن تقول لهم هذا القول ، من شاء أن يؤمن بالله ويصدّقك فليؤمن ، ومن شاء أن يكفر به ويكذبك فليكفر .

ثم أكد الوعيد وشدّده فقال : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ أي : أعددنا وهيأنا للظالمين الذين اختاروا الكفر بالله والجحد له والإنكار لأنبيائه ناراً عظيمة ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أي : اشتمل عليهم .

والسرادق : واحد السرادقات .

قال الجوهري : وهي التي تمد فوق صحن الدار ، وكل بيت من كرسف فهو سرادق ، ومنه قول رؤبة :

يا حكم بن المنذر بن جارود . . . سرادق المجد عليك ممدود

وقال الشاعر :

هو المدخل النعمان بيتاً سماؤه . . . صدور الفيول بعد بيت مسردق

يقوله سلام بن جندل لما قتل ملك الفرس ملك العرب النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة .

وقال ابن الأعرابي : سرادقها : سورها .

وقال القتيبي : السرادق : الحجرة التي تكون حول الفسطاط .

والمعنى : أنه أحاط بالكفار سرادق النار على تشبيه ما يحيط بهم من النار بالسرادق المحيط بمن فيه ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ ﴾ من حرّ النار ﴿ يُغَاثُواْ بِمَاء كالمهل ﴾ وهو : الحديد المذاب .

قال الزجاج : إنهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب أو الصفر ، وقيل : هو درديّ الزيت .

وقال أبو عبيدة والأخفش : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس .

وقيل : هو ضرب من القطران .

(94/471)

ثم وصف هذا الماء الذي يغاثون به بأنه ﴿ يَشْوِى الوجوه ﴾ إذا قدّم إليهم صارت وجوههم مشوية لحرارته ﴿ بِئْسَ الشراب ﴾ شرابهم هذا ﴿ وَسَاءتْ ﴾ النار ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ متكأً ، يقال : ارتفقت أي : اتكأت ، وأصل الارتفاق : نصب المرفق ، ويقال : ارتفق الرجل إذا نام على مرفقه ، وقال القتيبي : هو المجلس ، وقيل ، المجتمع .

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات ﴾ هذا شروع في وعد المؤمنين بعد الفراغ من وعيد الكافرين ، والمعنى : إن الذين آمنوا بالحق الذي أوحي إليك وعملوا الصالحات من الأعمال ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ هذا خبر ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ ، والعائد محذوف ، أي : من أحسن منهم عملاً ، وجملة : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ استئناف لبيان الأجر ، والإشارة إلى من تقدّم ذكره ، وقيل : يجوز أن يكون ﴿ أولئك ﴾ خبر ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ ، وتكون جملة : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ ﴾ اعتراضاً ، ويجوز أن يكون ﴿ أولئك ﴾ خبراً بعد خبر ، وقد تقدّم الكلام ﴿ في جنات عدن ﴾ ، وفي كيفية جري الأنهار من تحتها ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ قال الزجاج : أساور جمع أسورة ، وأسورة جمع سوار ، وهي زينة تلبس في الزند من اليد وهي من زينة الملوك ، قيل : يحلى كل واحد منهم ثلاثة أسورة : واحد من فضة ، واحد من لؤلؤ ، وواحد من ذهب ، وظاهر الآية أنها جميعها من ذهب ، ويمكن أن يكون قول القائل هذا جمعاً بين الآيات لقوله سبحانه في آية أخرى : ﴿ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان : 21] ، ولقوله في آية أخرى : ﴿ وَلُؤْلُؤاً ﴾ [الحج : 23] .

و"من" في قوله : ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ للابتداء ، وفي ﴿ من ذهب ﴾ للبيان .

وحكى الفراء " يحلون " بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام ، يقال : حليت المرأة تحلى فهي حالية : إذا لبست الحليّ ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ قال الكسائي : السندس : الرقيق ، واحده سندسة ، والإستبرق : ما ثخن وكذا قال المفسرون ، وقيل : الإستبرق : هو الديباج كما قال الشاعر :

وإستبرق الديباج طوراً لباسها . . . وقيل : هو المنسوج بالذهب .

قال القتيبي : هو فارسيّ معرّب .

قال الجوهري : وتصغيره أبيرق ، وخصّ الأخضر لأنه الموافق للبصر ، ولكونه أحسن الألوان ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ قال الزجاج : الأرائك : جمع أريكة ، وهي السرر في الحجال ، وقيل : هي أسرة من ذهب مكللة بالدرّ والياقوت ، وأصل اتكأ : اوتكأ ، وأصل متكئين : موتكئين ، والاتكاء : التحامل على الشيء ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ ﴾ ذلك الذي أثابهم الله به ﴿ وَحَسُنَتْ ﴾ تلك الأرائك ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ أي متكأً وقد تقدّم قريباً .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ قال : ملتجأً .

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب عن سلمان قال : جاءت المؤلفة قلوبهم : عيينة بن بدر ، والأقرع بن حابس فقالوا : يا رسول الله لو جلست في صدر

المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم ، يعنون : سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف ، جالسناك وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله ﴿ واتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا ﴾ ، زاد أبو الشيخ عن سلمان :

(96/471)

" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى فقال : " الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، معكم المحيا والممات " وأخرج ابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بعض أبياته ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشى ﴾ فخرج يلتمسهم فوجد قوماً يذكرون الله منهم ثائر الرأس وجاف الجلد وذو الثوب الخلق ، فلما رآهم جلس معهم وقال : " الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم " وأخرج البزار عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم " ، وفي الباب روايات .

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن نافع قال: أخبرني عبد الله بن عمر في هذه الآية: ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ أنهم الذين يشهدون الصلوات الخمس.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن ابن عباس مثله.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه في قوله: ﴿ واصبر نَفْسَكَ ﴾ الآية قال: نزلت في صلاة الصبح وصلاة العصر.

وأخرج ابن مردويه من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ قال: نزلت في أمية بن خلف، وذلك أنه دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة، فأنزل الله هذه الآية، يعني: من ختمنا على قلبه يعني: التوحيد ﴿ واتبع هَوَاهُ ﴾ يعني الشرك ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ يعني: فرطاً في أمر الله وجهالة بالله.

(97/471)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن بريدة قال: دخل عيينة بن حصن على النبيّ في يوم حارّ، وعنده سلمان عليه جبة صوف، فصار منه ريح العرق في الصوف، فقال عيينة: يا محمد

إذا نحن أتيناك فأخرج هذا وضرباءه من عندك لا يؤذينا ، فإذا خرجنا فأنت وهم أعلم ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ ﴾ الآية .

وقد ثبت في صحيح مسلم في سبب نزول الآية المتضمنة لمعنى هذه الآية ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشى ﴾ [الأنعام : 52] ، عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ستة نفر ، فقال المشركون للنبيّ صلى الله عليه وسلم : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسمهما ، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع ، فحدّث نفسه ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ قال : ضياعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وَقُلِ الحق ﴾ قال : هو القرآن .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ يقول : من شاء الله له الإيمان آمن ، ومن شاء له الكفر كفر ، وهو قوله : ﴿ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله رَبُّ العالمين ﴾ [التكوير : 29] .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال في الآية: هذا تهديد ووعيد.

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ قال: حائط من نار.

(98/471)

وأخرج أحمد، والترمذي، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "لسرادق النار أربعة جدر، كثافة كل جدار منها مسيرة أربعين سنة"

وأخرج أحمد، والبخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن يعلى بن أمية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن البحر هو من جهنم، ثم تلا ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾" وأخرج أحمد، والترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ بِمَاء كَالْمُهْلِ ﴾ قال: "كعكر الزيت، فإذا قرّب إليه سقطت فروة وجهه فيه" وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ قال: أسود كعكر الزيت.

وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عطية قال:

سئل ابن عباس عن المهل فقال : ماء غليظ كدرديّ الزيت .

وأخرج هناد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني عن ابن مسعود : أنه سئل عن المهل ، فدعا بذهب وفضة فأذابه ، فلما ذاب قال : هذا أشبه شيء بالمهل الذي هو شراب أهل النار ولونه لون السماء ، غير أن شراب أهل النار أشدّ حرّاً من هذا .

وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال : هل تدرون ما المهل ؟ المهل : سهل الزيت ، يعني : آخره .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ قال : مجتمعاً .

وأخرج البخاري ، ومسلم عن أبي هريرة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء " وأخرج البيهقي عن أبي الخير مرثد بن عبد الله قال : في الجنة شجرة تنبت السندس منه يكون ثياب أهل الجنة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير عن عكرمة قال : الإستبرق : الديباج الغليظ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن أبي حاتم عن مجاهد مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الهيثم بن مالك الطائي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الرجل ليتكىء المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحوّل منه ولا يمله ، يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه " وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الأرائك : السرر في جوف الحجال عليها الفرش منضود في السماء فرسخ .

وأخرج البيهقي في البعث عنه قال : لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير عن عكرمة ، أنه سئل عن الأرائك فقال : هي الحجال على السرر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(100/471)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً مراعى فيه حال السامعين من المؤمنين ، فإنهم حين يسمعون

ما أعد للمشركين تتشوف نفوسهم إلى معرفة ما أعد للذين آمنوا ونبذوا الشرك فأعلِموا أن عملهم مرعي عند ربهم .

وجريا على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والترهيب بالترغيب .

وافتتاح الجملة بحرف التوكيد إن) لتحقيق مضمونها .

وإعادةُ حرف (إن) في الجملة المخبر بها عن المبتدأ الواقع في الجملة الأولى لمزيد العناية والتحقيق كقوله تعالى في سورة الحج (17) ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ﴾ [الجمعة : 8] ومثله قول جرير :

إن الخليفة إن الله سَرْبله

سِربال مُلك به تُرجَى الخواتيمُ . . .

وموقع (إن) الثانية في هذه الآية أبلغ منه في بيت جرير لأن الجملة التي وقعت فيها في هذه الآية لها استقلال بمضمونها من حيث هي مفيدة حكماً يعم ما وقعت خبراً عنه وغيره من كل من يماثل الخبر عنهم في عملهم ، فذلك العموم في ذاته حكم جدير بالتأكيد لتحقيق حصوله لأربابه بخلاف بيت جرير .

وأما آية سورة الحج فقد اقتضى طولُ الفصل حرف التأكيد حرصاً على إفادة التأكيد .

والإضاعة : جعل الشيء ضائعاً .

وحقيقة الضيعة : تلف الشيء من مظنة وجوده .

وتطلق مجازاً على انعدام الانتفاع بشيء موجود فكأنه قد ضاع وتلف ، قال تعالى : ﴿ أني لا أضيع عَمَل عامل منكم ﴾ في سورة آل عمران (195) ، وقال : ﴿ وما كان الله لِيُضِيع إيمانكم ﴾ في البقرة (143) .

ويطلق على منع التمكين من شيء والانتفاع به تشبيهاً للممنوع بالضائع في اليأس من التمكن منه كما في هذه الآية ، أي أنا لا نَحْرِم من أحسن عملاً أجرَ عمله .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إنّ الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ [التوبة : 120] .

(101/471)

﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾

الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ، لأن ما أجمل من عدم إضاعة أجرهم يستشرف بالسامع إلى ترقب ما يبين هذا الأجر .

وافتتاح الجملة باسم الإشارة لما فيه من التنبيه على أن المشار إليهم جديرون لما بعد اسم الإشارة لأجل الأوصاف المذكورة قبل اسممِ الإشارة ، وهي كونهم آمنوا وعملوا الصالحات .

واللام في ﴿ لهم جنات عدن ﴾ لام الملك .

و(من) للابتداء ، جعلت جهة تحتهم مَنْشأ لجري الأنهار .

وتقدم شبيه هذه الآية في قوله تعالى : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ في سورة براءة (72) .

وعدن ﴾ تقدم في قوله تعالى : ﴿ ومساكن طيبة في جنات عدن ﴾ في سورة براءة (72) .

ومن تحتهم ﴾ ، بمنزلة ﴿ من تحتها ﴾ لأنّ تحت جناتهم هو تحتٌ لهم .

ووجه إيثار إضافة (تحت) إلى ضميرهم دون ضمير الجنات زيادة تقرير المعنى الذي أفادته لام الملك ، فاجتمع في هذا الخبر عدة مقرارات لمضمونه ، وهي : التأكيد مرتين ، وذكرُ اسم الإشارة .

ولام الملك ، وجر اسم الجهة بـ (مِن) ، وإضافة اسم الجهة إلى ضميرهم ، والمقصود من ذلك : التعريض بإغاظة المشركين لتتقرر بشارة المؤمنين أتَمّ تقرر .

وجملة ﴿ يحلون ﴾ في موضع الصفة "لجنات عدن" .

والتحلية : التزيين ، والحلية : الزينة .

وأسند الفعل إلى المجهول ، لأنهم يجدون أنفسهم محلَّين بتكوين الله تعالى .

والأساور : جمع سِوار على غير قياس .

وقيل : أصله جمع أسورة الذي هو جمع سِوار .

فصيغة جَمع الجمع للإشارة إلى اختلاف أشكال ما يحلون به منها ، فإن الحلية تكون مرصعة بأصناف اليواقيت .

و(مِن) في قوله : ﴿ من أساور ﴾ مزيدة للتأكيد على رأي الأخفش ، وسيأتي وجهه في سورة الحج .

ويجوز أن تكون للابتداء ، وهو متعين عند الذين يمنعون زيادتها في الإثبات .

(102/471)

والسِوار : حلي من ذهب أو فضة يُحيط بموضع من الذراع ، وهو اسم معرب عن الفارسية عند المحققين وهو في الفارسية (دستوارَه) بهاء في آخره كما في "كتاب الراغب" ، وكُتب بدون هاء في "تاج العروس" .

وأما قوله : ﴿ من ذهب ﴾ فإن (من) فيه للبيان ، وفي الكلام اكتفاء ، أي من ذهب وفضة كما اكتفي في آية سورة الإنسان بذكر الفضة عن ذكر الذهب بقوله : ﴿ وحلوا أساور من فضة ﴾ [الإنسان : 21] ، ولكل من المعدنين جماله الخاص .

واللِباس : ستر البدن بثوب من قميص أو إزار أو رداء ، وجميع ذلك للوقاية من الحر والبرد

وللتجمل .

والثياب : جمع ثوب ، وهو الشقة من النسيج .

واللون الأخضر أعدل الألوان وأنفعها عند البصر ، وكان من شعار الملوك .

قال النابغة :

يصونون أجساداً قديماً نعيمُها

بخالصة الأردان خُضْرِ المناكب . . .

والسندس : صنف من الثياب ، وهو الديباج الرقيق يلبس مباشراً للجلد ليقيه غلظ الإستبرق .

والإستبرق : الديباج الغليظ المنسوج بخيوط الذهب ، يلبس فوق الثياب المباشرة للجلد .

وكلا اللفظين معرب .

فأما لفظ (سندس) فلا خلاف في أنه معرب وإنما اختلفوا في أصله ، فقال جماعة : أصله فارسي ، وقال المحققون : أصله هندي وهو في اللغة (الهندية) (سَنْدُون) بنون في آخره . كان قوم من وجوه الهند وفدوا على الإسكندر يحملون معهم هدية من هذا الديباج ، وأن الروم غيروا اسمه إلى (سندوس) ، والعرب نقلوه عنهم فقالوا (سندس) فيكون معرباً عن الرومية وأصله الأصيل هندي .

وأما الإستبرق فهو معرب عن الفارسية .

وأصله في الفارسية (إستبره) أو (إستبر) بدون هاء أو (إستقره) أو (إستفره) .

وقال ابن دريد : هو سرياني عُرب وأصله (إستروه) .

وقال ابن قتيبة : هو رومي عُرب ، ولذلك فهمزته همزة قطع عند الجميع ، وذكره بعض علماء اللغة في باب الهمزة وهو الأصوب ، ويجمع على أبارق قياساً ، على أنهم صغروه على أبيرق فعاملوا السينَ والتاء معاملة الزوائد .

(103/471)

وفي الإتقان ﴿ للسيوطي عن ابن النقيب : لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يَتركوا هذا اللفظ ويأتوا بلفظ يقوم مقامه في الفصاحة لعجزوا .

وذلك : أن الله تعالى إذا حث عباده على الطاعة بالوعد والوعيد .

والوعدُ بما يرغب فيه العقلاء وذلك منحصر في : الأماكن ، والمآكل ، والمشارب ، والملابس ، ونحوها مما تتحد فيه الطباع أو تختلف فيه .

وأرْفع الملابس في الدنيا الحرير ، والحريرُ كلما كان ثوبه أثقل كان أرفع فإذا أريد ذكر هذا فالأحسن أن يذكر بلفظ واحد موضوع له صريح ، وذلك ليس إلا الإستبرق ولا يوجد في العربية لفظ واحد يدل على ما يدل عليه لفظ استبرق .

هذه خلاصة كلامه على تطويل فيه .

و(من) في قوله : ﴿ من سندس ﴾ للبيان .

وقدم ذكر الحلي على اللباس هنا لأن ذلك وقَع صفة للجنات ابتداء ، وكانت مظاهر الحلي أبهج للجنات ، فقدم ذكر الحلي وأخر اللباس لأن اللباس أشد اتصالاً بأصحاب الجنة لا بمظاهر الجنة ، وعكس ذلك في سورة الإنسان في قوله : ﴿ عاليهم ثياب سندس ﴾ [الإنسان : 21] لأن الكلام هنالك جرى على صفات أصحاب الجنة .

وجملة متكئين فيها على الأرائك ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ يلبسون ﴾ .

والاتكاء : جِلسة الراحة والترفهِ .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وأعتدت لهن متكأً ﴾ في سورة يوسف عليه السلام (31) .

والأرائك : جمع أريكة .

وهي اسم لمجموع سرير وحَجَلة .

والحجلة : قبة من ثياب تكون في البيت تجلس فيها المرأة أو تنام فيها .

ولذلك يقال للنساء : ربات الحجال .

فإذا وضع فيها سرير للاتكاء أو الاضطجاع فيه أريكة .

ويجلس فيها الرجل وينام مع المرأة ، وذلك من شعار أهل الترف .

وجملة ﴿ نعم الثواب ﴾ استئناف مدح ، ومخصوص فعل المدح محذوف لدلالة ما تقدم

عليه .

والتقدير : نعم الثواب الجنات الموصوفة .

وعطف عليه فعل إنشاء ثانٍ وهو ﴿ وحسنت مرتفقاً ﴾ لأن (حسن) و (ساء) مستعملان استعمال (نعم) و (بئس) فعملا عملهما .

(104/471)

ولذلك كان التقدير : وحسنت الجنات مرتفقاً .

وهذا مقابل قوله في حكاية حال أهل النار ﴿ وساءت مرتفقاً ﴾ .

والمرتفق : هنا مستعمل في معناه الحقيقي بخلاف مقابله المتقدم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 15 صـ ﴾

(105/471)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن من عمل صالحاً وأحسن في عمله أنه جل وعلا لا يضيع أجره ، أي جزاء عمله : بل يجازي بعمله الحسن الجزاء الأوفى .

ويبن هذا المعنى فيآيات كثيرة جداً ، كقوله تعالى : ﴿ فاستجاب لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى ﴾ [آل عمران : 195] . وقوله تعالى : ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ وَأَنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المؤمنين ﴾ [آل عمران : 171] وقوله ﴿ هَلْ جَزَآءُ الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ [الرحمن : 60] الآيات الدلة على هذه المعنى كثيرة جداً . وفي هذا المعنى الكريمة سؤلان معروفان عند العلماء :

الأول – أن يقال أين خبر " إن " في قوله تعالى ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ ﴾ الآية؟ فإذا قيل : خبرها جملة ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ توجه السؤال .

الثاني – وهو أن يقال : أين رابط الجملة الخبرية بالمبتدأ الذي هو اسم " إن " ؟ .

اعلم أن خبر " إن " في قوله : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ ﴾ قيل هو جملة ﴿ أولئك لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ [الكهف : 31] وعليه فقوله : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ جملة اعتراضية . وعلى هذا فالرابط موجود ولا إشكال يه . وقيل : " إن " الثانية واسمها وخبرها ، كل ذلك خبر " إن " الأولى . ونظير الآية من القرآن في الإخبار عن " إن " ب " إن " وخبرها واسمها قوله تعالى في سورة " الحج " : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَادُواْ والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إِنَّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ [الحج : 17] الآية ،

وقول الشاعر :

إن الخليفة إن الله ألبسه . . . سربال به ترجى الخواتيم

(106/471)

على أظهر الوجهين في خبر " إن " اولى في البيت . وعلى هذا فلاجواب عن السؤال الثاني من وجهين :

الأول – أن الضمير الراب محذوف ، تقديره : لا تضيع أجر من أحسن منهم عملاً : كقولهم : السمن منوان بدرهم ، أي منوان منه بدرهم ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴾ [البقرة : 234] الآية . أي يتربص بعدهم .

الوجه الثاني – أن من ﴿ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ هو الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وإذا كان الذين آمنوا ، ومن أحسن عملاً ينظمها معنى واحد قام ذلك مقام الربط بالضمير . وهذا مذهب الأخفش ، وهو الصواب . لأن الربط حاصل بالاتحاد في المعنى .

﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أجر من أحسن عملاً ، فذكر أنه جنات عدن تجري من تحتهم فيها الأنهار ، ويحلون فيها أساور الذهب ، ويلبسون فيها الثيا الخضر من السندس

والاستبرق ، في حال كونهم متكئين فيها على الآرائك وهي السرر في الحجال والحجال : جمع حجلة وهو بيت يزين للعروس بجميع أنواع الزينة . ثم أثنى على ثوابهم بقوله : ﴿ نِعْمَ الثواب وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ : وهذا الذي بينه هنا من صفات جزاء المحسنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات – جاء مبينا في مواضع كثيرة جداً من كتاب الله تعالى ، وكقوله تعالى في سورة " الإنسان " : ﴿ إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ [الإنسان : 5] – إلى قوله – ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإنسان : 22] وكقوله في سورة " الواقعة " ، ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون فِي جَنَّاتِ النعيم ﴾ [الواقعة : 10-12] إلى قوله ﴿ لأَّصْحَابِ اليمين ﴾ [الواقعة : 38] وأمثال ذلك كثيرة في القرآن :

(107/471)

وقد بين في سورة " السجدة " أن ما أخفاه الله لعم من قرة أعين لا يعلمه إلا هو جل وعلا ، وذلك في قوله : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] الآية . وقوله في هذه الآية الكريمة . ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ أي إقامة لا رحيل بعدها ولا تحول كما قال تعالى : ﴿ لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف : 108] أصله من عدن بالمكان : إذا أقام به . وقد تقدم في سورة " النحل " معنى السندس والاستبرق بما أغنى عن إعادته هنا

، والأساور : جمع سوار . وقال بعضهم : جمع أسورة . والثواب : الجزاء مطلقاً على التحقيق . ومنه قول الشاعر :

لكل أخي مدح ثواب علمته . . . وليس المدح الباهلي ثواب

وقول من قال : إن الثواب في اللغة يختص بجزاء الخير بالخير – غير صواب : بل يطلق الثواب أيضاً على جزاء الشر بالشر . ومنه قوله تعالى : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : 36] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذلك مَثُوبَةً عِندَ الله مَن لَّعَنَهُ الله وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : 60] الآية .

وقوله : ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ الضمير في قوله " حسنت " راجع إلى " جنات عدن " . والمرتفق قد قدمنا أقوال العلماء فيه . وقوله هنا في الجنة " وحسنت مرتفقاً " يبين معناه قوله تعالى : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ [الفرقان : 75–76] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) ﴾

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه عطف على الإيمان العملَ الصالح ؛ لأن الإيمان هو العقيدة التي ينبع عن أصلها السلوك ، فلا جدوى من الإيمان بلا عمل بمقتضى هذا الإيمان ، وفائدة الإيمان أنْ تُوثّق الأمر أو النهي إلى الله الذي آمنتَ به ؛ لذلك جاء الجمع بين الإيمان والعمل الصالح في مواضع عدّة من كتاب الله ، منها قوله تعالى : ﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ [العصر : 1-3]

ذلك لأن المؤمنين إذا ما أثمر فيهم الإيمانُ العملَ الصالح فإنهم سيتعرضون ولا بُدّ لكثير من المتاعب والمشاق التي تحتاج إلى التواصي بالصبر والتواصي بالحق ، ولنا أسوة في هذه المسألة بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تحمّلوا عِبء الدعوة وصبروا على الأذى في سبيل إيمانهم بالله تعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [الكهف : 30]

نلاحظ أن ﴿ مَنْ ﴾ هنا عامة للمؤمن والكافر ؛ لذلك لم يَقُل سبحانه : إنَّا لا نضيع أجر مَنْ أحسن الإيمان ؛ لأن العامل الذي يُحسِن العمل قد يكون كافراً ، ومع ذلك لا يبخسه الله تعالى حَقّه ، بل يعطيه حظه من الجزاء في الدنيا .

فالكافر إن اجتهد واحسن في علم أو زراعة أو تجارة لا يُحرم ثمرة عمله واجتهاده ، لكنها تُعجَّل له في الدنيا وتنتهي المسألة حيث لا حَظَّ له في الآخرة .

ويقول تبارك وتعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23]

(109/471)

ويقول تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً ﴾ [الإسراء : 18]

ويقول تعالى : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحساب ﴾ [النور : 39]

فهؤلاء قد استوفوا أجورهم ، وأخذوا حظهم في الدنيا ألواناً من النعيم والمدح والثناء ، وخُلِّدتْ ذكراهم ، وأقيمت لهم التماثيل والاحتفالات ؛ لذلك يأتي في الآخرة فلا يجد إلا الحسرة والندامة حيث فُوجئ بوجود إله لم يكُنْ يؤمن به ، والإنسان إنما يطلب أجره مِمَّن عمل من أجله ، وهؤلاء ما عملوا لله بل للإنسانية وللمجتمع وللشهرة وقد نالوا هذا كله في الدنيا ، ولم يَبْقَ لهم شيء في الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ أولئك لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ . . . ﴾ .

﴿ أولئك ﴾ أي: الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ . . ﴾ [الكهف: 31] الجنات رأينا منها صورة في الدنيا، وتُطلق إطلاقاً شرعياً وإطلاقاً لغوياً. أما الشرعي: فهو الذي نعرفه من أنها الدار التي أعدَّها الله تعالى لثواب المؤمنين في الآخرة.

أما المعنى اللغوي: فهي المكان الذي فيه زرع وثمار وأشجار تُوارِي مَنْ سار فيها وتستره؛ ومادة الجيم والنون تدور كلها حول الاستتار والاختفاء فالجنون استتار العقل والجن مخلوقات لا ترى والجُنّة بالضم الدرع يستر الجسم عن المهاجم . . الخ.

(110/471)

وقلنا: إن الحق سبحانه حينما يُحدِّثنا عن شيء غيبي يُحدّثنا بما يوجد في لغتنا من ألفاظ، واللغة التي نتكلم بها، يُوجَد المعنى أولاً ثم يوجد اللفظ الدالّ عليه، فإذا عرفنا أن هذا اللفظ موضوع لهذا المعنى، فإنْ نُطِق اللفظ نفهم معناه. فإذا كانت الأشياء التي يُحدِّثنا الله عنها غيباً كما قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فيها ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر"

إذن: فمن أين نأتي بالألفاظ الدّالة على هذه المعاني ونحن لم نعرفها؟ لذلك يُعبِّر عنها الحق

سبحانه بالشبيه لها في لغتنا ، لكن يعطيها الوصف الذي يُميّزها عن جنة الدنيا ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ . . ﴾ [محمد : 15]

ونحن نعرف النهر ، ونعرف الماء ، لكن يأتي قوله : ﴿ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ ليميز ماء الآخرة عن ماء الدنيا ، وكذلك في : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [محمد : 15]

فالخمر في الدنيا معروفة ؛ لكنها ليست لذة لشاربها ، فشاربها يبتلعها بسرعة ؛ لأنه لا يستسيغ لها طعماً أو رائحة ، كما تشرب مثلاً كوباً من العصير رشفة لتلتذ بطعمه وتتمتع به ، كما أن خمر الدنيا تغتال العقول على خلاف خمر الآخرة ؛ لذلك لما أعطاها اسم الخمر لنعرفها ميّزها بأنها لذة ، وخَمْر الدنيا ليست كذلك ؛ لأن لغتنا لا يوجد بها الأشياء التي سيخلقها الله لنا في الجنة ، فبها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، والعين إدراكاتها أقلّ من إدراكات الأذن ؛ لأن العين تعطيك المشهد الذي رأيته فحسب ، أما الأذن فتعطيك المشهد الذي رأيته والذي رآه غيرك ، ثم يقول : " ولا خطر على قلب بشر " فوسَّع دائرة ما في الجنة ، مما لا نستطيع إدراكه .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى . . ﴾ [محمد : 15]

ونحن نعرف العسل فميَّزه هنا بأنه مُصفّى ، ومعروف أن العسل قديماً كانوا يأخذونه من الجبال ، وكان يعلَقُ به الحصى والرمل ؛ لذلك مُيِّز عسل الجنة بأنه مُصفّى .

وكذلك في قوله سبحانه : ﴿ سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ [الواقعة : 28] ونعرف سدر الدنيا ، وهو نوع من الشجر له شوك ، وليس كذلك سِدْر الجنة ؛ لأنه سدر مخضود لا شوك فيه ، ولا يُدْمِي يديك كسِدْر الدنيا .

وهنا ميّز الله الجنة في الآخرة عن جنات الدنيا ، فقال : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ . . ﴾ [الكهف : 31] أي : إقامة دائمة لا تنتهي ولا تزول ، وليست كذلك جنات الدنيا ، فَهَبْ أن واحداً يتمتع في الدنيا بالدُّور والقصور في الحدائق والبساتين التي هي جنة الدنيا ، فهل تدوم له ؟ إن جنات الدنيا مهما عَظُم نعيمها ، إما أنْ تفوتك ، وإما أنْ تفوتها .

والعَدْن اسم للجَنّة ، فهناك فَرْق بين المسكن والمسكن في الجنة ، كما ترى حدائق عامة وحدائق خاصة ، فالمؤمن في الجنة له مسكن خاص في جنة عدن .

ويقول تعالى عن أنهار الجنة : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار . . ﴾ [محمد : 12] وفي آية أخرى يقول : ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار . . ﴾ [التوبة : 100] ليعطينا صورتين لجريان الماء ، ففي قوله : ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار . . ﴾ [التوبة : 100] يدلُّ على أن

الماء يأتيها من بعيد ، وقد تخشى أن يمنعه أحد عنك أنْ يَسُدَّه دونك ؛ لذلك يقول لك : اطمئن فالماء يجري ﴿ مِن تَحْتِهَا ﴾ أي : من الجنة نفسها لا يمنعه أحد عنك .

(112/471)

وفي هذه الآية كأنّ الحق سبحانه وتعالى يعطينا إشارة لطيفة إلى أننا نستطيع أن نجعل لنا مساكن على صفحة الماء ، وأن نستغل المسطحات المائية في إقامة المباني عليها ، خُذْ مثلاً المسطحات المائية للنيل ، أو الريّاح التوفيقي من القناطر الخيرية حتى دمياط لَوجدْتَ مساحات كبيرة واسعة يمكن بإقامة الأعمدة في الماء ، واستخدام هندسة البناء أنْ نقيم المساكن الكافية لسُكْنى أهل هذه البلاد ، وتظل الأرض الزراعية كما هي للخُضْرة وللزرع ولِقُوتِ الناس .

ويمكن أن تُطبّق هذه الطريقة أيضاً في الريف ، فيقيم الفلاحون بيوتهم وحظائر مواشيهم بنفس الطريقة على الترع والمصارف المنتشرة في بلادنا ، ولا نمس الرقعة الزراعية .

لقد هجمتْ الحركة العمرانية على الجيزة والدقي والمهندسين ، وكانت في يوم من الأيام أراضي تغل كل الزراعات ، وتخدم تموين القاهرة . ولما استقدموا الخبراء الأجانب لتوسيع القاهرة توجهوا إلى الصحراء وأنشأوا مصر الجديدة ، ولم يعتد أحد منهم على شبر واحد

من الأرض الزراعية، بل جعلوا في تخطيطهم رقعة خضراء لكل منزل.

إذن: في الآية لفتة يمكن أنْ تحلَّ لنا أزمة الإسكان، وتحمي لنا الرقعة الزراعية الضيقة. ثم يقول تعالى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ.. ﴾ [الكهف: 31] وقد يقول قائل: وما هذه الأساور من الذهب التي يتحلَّى بها الرجال؟ هذه من الزخرف والزينة، نراه الآن في طموحات الإنسان في زُخْرفية الحياة، فنرى الشباب يلبسون ما يُسمَّى (بالانسيال) وكذلك أساور الذهب في الآخرة زينة وزخرف، وفي آية أخرى، يقول تعالى: ﴿ وحلوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ.. ﴾ [الإنسان: 21]

ومرة أخرى يقول: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر: 33]

(113/471)

فالأساور إما من ذهب أو فضة أو لؤلؤ؛ لذلك قال صلى الله عليه وسلم عن هذه الحلية في الآخرة أنها تبلغ ما بلغه الوضوء عند المؤمن.

ونلحظ في قوله تعالى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ.. ﴾ [الكهف: 31] أن التحلية هنا للزينة، وليست من الضروريات، فجاء الفعل ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ أي: حلاَّهم

غيرهم ولم يقل يتحلون ؛ لذلك لما تكلم بعدها عن الملبس ، وهو من الضروريات قال : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الكهف : 31]

فأتى بالفعل مبنياً للمعلوم ؛ لأن الفعل حدث منهم أنفسهم بالعمل ، أما الأولى فكانت بالفضل من الله ، وقد قُدم الفضل على العمل ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ . . ﴾ [يونس : 58]

أي : إياك أن تقول هذا بعملي ، بل بفضل الله وبرحمته ؛ لذلك نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يقر بهذه الحقيقة ، فيقول : " لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته " ذلك لأنك لو نظرتَ إلى عملك لوجدتَه بعد تكليفك الذي كلفت به في سِنِّ البلوغ ، وقد عِشْت طوال هذه المدة ترتع في نِعَم الله ورزقه دون أنْ يُكلِّفك بشيء ؛ لذلك مهما قَدَّمْتَ لله تعالى من طاعات ، فلن تَفِي بما أنعم به عليك .

وما تفعله من طاعات إنما هو وفاء لحق الله ، فإذا أدخلناك الجنة كان فضلاً من الله عليك ، لأنك أخذتَ حقك سابقاً ومُقدَّماً في الدنيا ، لكنه قسم هنا فقال : ﴿ يَلْبَسُونَ . . ﴾ [الكهف : 31] أي : بما عملوا ، أما في الزينة والتحلية فقال : ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ كالرجل الذي يُجهِّز ابنته للزواج ، فيأتي لها بضروريات الحياة ، ثم يزيدها على ذلك من الكماليات وزُخْرف الحياة من نجف أو سَجَّاد أو خلافه .

واللباس من ضروريات الحياة التي امتنّ الله بها على عباده ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ يا بني ءادمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً . . ﴾ [الأعراف : 26]

والريش : هو الكماليات التي يتخذها الناس للفَخْفخة والمتعة ، وهو ما زاد عن الضروريات . والسُّندس : هو الحرير الرقيق ، والإستبرق : الحرير الغليظ السميك .

وقد وقف العلماء عند هذه الكلمة ﴿ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ وغيرها من الكلمات غير العربية مثل : القسطاس ، وهي كلمات فارسية الأصل ، أو كلمة (آمين) التي تتخذها شعاراً في الصلاة وأصلها يمني أو حبشي . وقالوا : كيف يستخدم القرآن مثل هذه الألفاظ ، وهو قرآن عربي ؟

نقول : هل أدخل القرآن هذه الألفاظ في لغة العرب ساعةَ نزل ، أم جاء القرآن وهي سائرة على ألسنة الناس يتكلمون بها ويتفاهمون ؟ لقد عرف العرب هذه الكلمات واستعملوها ، وأصبحت ألفاظاً عربية دارتْ على الألسنة ، وجرتْ مجرى الكلمة العربية .

ومن الكلمات التي دخلتْ العربية حديثاً استخدمت ككلمة عربية (بنك) ، وربما كانت أخفّ في الاستعمال من كلمة (مصرف) ؛ لذلك أقرّها مَجْمع اللغة العربية وأدخلها العربية

.

إذن : فهذا القول يمكن أن يُقبَل لو أن القرآن جاء بهذه الألفاظ مجيئاً أولياً ، وأدخلها في اللغة ولم تكُن موجودة ، لكن القرآن جاء ليخاطب العرب ، وما داموا قد فهموا هذه الألفاظ وتخاطبوا بها ، فقد أصبحت جُزْءاً من لغتهم .

(115/471)

ثم يقول تعالى : ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأرآئك . . ﴾ [الكهف : 31] الاتكاء : أن يجلس الإنسان على الجنب الذي يُريحه ، والأرائك : هي السُّرر التي لها حِلْية مثل الناموسية مثلاً . ﴿ نِعْمَ الثواب . . ﴾ [الكهف : 31] كلام منطقيّ : ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ [الكهف : 31] أي : أن هذا هو مُقْتضى الحال فيها ، على خلاف ما أخبر به عن أهل النار : ﴿ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ [الكهف : 29] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(116/471)

فائدة

قال التستري :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [30] قال : حسن العمل الاستقامة عليه بالسنة ، وإنما مثل السنة في الدنيا مثل الجنة في الآخرة ، ومن دخل الجنة سلم ، كذلك من لزم السنة في الدنيا سلم من الآفات .

وقال مالك بن أنس رضي الله عنه : لو أن رجلاً ارتكب جميع الكبائر ثم لم يكن فيه شيء من هذه الأهواء والبدع لرجوت له .

ثم قال : من مات على السنة فليبشر ثلاث مرات .

وقال سهل : لا يرفع الحجاب عن العبد حتى يدفن نفسه في الثرى .

قيل له : كيف يدفن نفسه في الثرى ؟ قال : يميتها على السنة ، ويدفنها في اتباع السنة ، لأن لكل شيء من مقامات العابدين مثل الخوف والرجاء والحب والشوق والزهد والرضا والتوكل غايةً ، إلا السنة فإنه ليست لها غاية ونهاية .

وسئل عن معنى قوله : « ليست للسنة غاية » متى بن أحمد فقال : لا يكون لأحد مثل خوف النبي صلى الله عليه وسلم أو حبه أو شوقه ، أو زهده أو رضاه أو توكله أو أخلاقه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 4] .

وسئل عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « أجيعوا أنفسكم وأعروها » ، فقال :

أجيعوا أنفسكم إلى العلم وأعروها عن الجهل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 98 ﴾

(117/471)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) ﴾

أخرج ابن المبارك وابن أبي حاتم ، عن المقبري قال : بلغني أن عيسى ابن مريم كان يقول : يا ابن آدم ، إذا عملت الحسنة فاله عنها ، فإنها عند من لا يضيعها . ثم تلا ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ وإذا عملت سيئة فاجعلها نصب عينيك .

وأخرج ابن مردويه عن سعد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدت أساوره ، لطمس ضوءه ضوء الشمس كما يطمس ضوء النجوم " .

وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في البعث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن أدنى أهل الجنة حلية عدلت حليته بحلية أهل الدنيا جميعاً ، لكان ما يحليه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعاً " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة، عن كعب الأحبار قال: "إن لله ملكاً - وفي لفظ -: في الجنة ملك، لو شئت أن أسميه لسميته، يصوغ حلى أهل الجنة من يوم خلق إلى أن تقوم الساعة، ولو أن حلياً منها أخرج لرد شعاع الشمس. وإن لأهل الجنة أكاليل من در، لو أن إكليلاً منها دلي من السماء الدنيا لذهب بضوء الشمس كما تذهب الشمس بضوء القمر".

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر، عن عكرمة قال: إن أهل الجنة يحلون أسورة من ذهب ولؤلؤ وفضة، هي أخف عليهم من كل شيء إنما هي نور.

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله: ﴿ أساور من ذهب ﴾ قال: الأساور، المسك.

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء".

وأخرج النسائي والحاكم عن عقبة بن عامر، "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمنع أهله الحلية والحرير، ويقول: "إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوهما في الدنيا" ".

وأخرج الطيالسي والبخاري في تاريخه والنسائي والبزار وابن مردويه والبيهقي في البعث ، عن ابن عمرو قال : قال رجل : "يا رسول الله ، أخبرنا عن ثياب أهل الجنة . أخلقاً تخلق أم نسجاً تنسج ؟ قال : بل يشقق عنها ثمر الجنة" .

وأخرج ابن مردويه من حديث جابر نحوه .

وأخرج البيهقي عن أبي الخير مرثد بن عبد الله قال : في الجنة شجرة تنبت السندس ، منه يكون ثياب أهل الجنة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم ، عن الضحاك قال : الاستبرق ، الديباج الغليظ ، وهو بلغة العجم استبره .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عكرمة قال : الاستبرق ، الديباج الغليظ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة قال : الاستبرق الغليظ من الديباج .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن سابط قال : يبعث الله إلى العبد من أهل الجنة بالكسوة فتعجبه ، فيقول : لقد رأيت الجنان فما رأيت مثل هذه الكسوة قط ! فيقول الرسول الذي جاء بالكسوة : إن ربك يأمر أن تهيئ لهذا العبد مثل هذه الكسوة ما شاء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب قال : لو أن ثوباً من ثياب أهل الجنة نشر اليوم في الدنيا ،

لصعق من ينظر إليه وما حملته أبصارهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سليم بن عامر قال : إن الرجل من أهل الجنة يلبس الحلة من حلل أهل الجنة فيضعها بين أصبعيه ، فما يرى منها شيء ، وإنه يلبسها فيتعفر حتى تغطي قدميه ، يكسى في الساعة الواحدة سبعين ثوباً . . . إن أدناها مثل شقيق النعمان ، وإنه يلبس سبعين ثوباً يكاد أن يتوارى ، وما يستطيع أحد في الدنيا أن يلبس سبعة أثواب ما يسعه عنقه .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي رافع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كفن ميتاً ، كساه الله من سندس واستبرق الجنة " .

(119/471)

وأخرج ابن أبي حاتم عن الهيثم بن مالك الطائي ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحوّل عنه ولا يمله ، يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ثابت قال : بلغنا أن الرجل يتكئ في الجنة سبعين سنة ، عنده من أزواجه وخدمه وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم ، فإذا حانت منه نظرة ، فإذا أزواج له لم

يكن يراهن من قبل ذلك فيقلن : قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيباً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الأرائك ، السرر في جوف الحجال . . . عليها الفرش منضود في السماء فرسخ .

وأخرج البيهقي في البعث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة ، فإن كان سرير بغير حجلة لم يكن أريكة ؛ وإن كانت حجلة بغير سرير لم تكن أريكة ، فإذا اجتمعا كانت أريكة .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن جرير ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ على الأرائك ﴾ قال : السرر عليها الحجال .

وأخرج عبد بن حميد والبيهقي عن مجاهد رضي الله عنه قال : الأرائك من لؤلؤ وياقوت .

وأخرج عبد بن حميد وابن الأنباري في الوقف والابتداء ، عن الحسن رضي الله عنه قال : لم نكن ندري ما الأرائك حتى لقينا رجلاً من أهل اليمن ، فأخبرنا أن الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي رجاء قال : سئل الحسن رضي الله عنه عن الأرائك فقال : هي الحجال ، أهل اليمن يقولون أريكة فلان .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه ، أنه سئل عن الأرائك فقال :

هي الحجال على السرر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه قال : الأرائك ، الحجال فيها السرر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(120/471)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) ﴾

قوله : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ خبرَ ﴿ إِنَّ الذين ﴾ والرابطُ : إمَّا تكَرُّرُ الظاهرِ بمعناه ، وهو قولُ الأخفش . ومثلُه في الصلة / جائزٌ . ويجوز ان يكونَ الرابطُ محذوفاً ، أي : منهم ، ويجوز أن يكونَ الرابطُ العمومَ ، ويجوز أن يكونَ الخبرُ قولَه : ﴿ أولئك لَهُمْ جَنَّاتُ ﴾ ، ويكونَ قولُه : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ ﴾ اعتراضاً . قال ابن عطية : ونحوُه في الاعتراض قوله :

3152- إنَّ الخليفةَ إنَّ اللهَ أَلْبَسَه ... سِرْبالَ مُلْكٍ به تُزْجى الخواتيمُ

قال الشيخ : " ولا يتعيَّنُ أن يكونَ " إنَّ اللهَ أَلبسه " اعتراضاً لجوازِ أَنْ يكونَ خبراً عن " إنَّ

الخليفة" . قلت : وابن عطية لم يَجْعَلْ ذلك متعيّناً بذلك هو نحوه في أحد الجائزين فيه .

ويجوز أن تكون الجملتان - أعني قوله ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ ﴾ وقوله ﴿ أولئك لَهُمْ جَنَّاتُ ﴾ - خَبَرَيْن ل "إنَّ" عند مَنْ يرى جواز ذلك ، أعني تعدُّدَ الخبر ، وإنْ لم يكونا في معنى خبرٍ واحد .

وقرأ الثقفيُّ "لا نُضَيِّع" بالتشديدِ ، عَدَّاه بالتشديد كما عَدَّاه الجمهورُ بالهمزة .

﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾

قوله : ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ : في "مِنْ" هذه أربعة أوجه ، أحدُها : أنَّها للابتداءِ . والثاني : أنها للتعيض . والثالث : أنها لبيان الجنسِ ، لأي : شيئاً مِنْ أساور . والرابع : أنها زائدةٌ عند الأخفش ، ويَدُلُّ عليه قولُه : ﴿ وحلوا أَسَاوِرَ ﴾ [الإنسان : 21] . ذكر هذه الثلاثةَ الأخيرةَ أبو البقاء .

(121/471)

وأساوِر جمع أَسْوِرة ، وأَسْوِرة جمعُ سِوار ، كحِمار وأَحْمِرة ، فهو جمعُ الجمع . جمع إسْوار . وأنشد :

3153- واللهِ لولا صِبْيَةٌ صِغارُ . . . كأنَّما وجوهُهمْ أَقْمارُ

- أخافُ أَنْ يُصِيبهم إقتارُ . . . أو لاطِمٌ ليس لَه إسْوارُ

- لَمَّا رآني مَلِكٌ جَبّارُ . . . ببابِه ما طَلَعَ النَّهارُ

وقال أبو عبيدة : " هو جمعُ " إسوار " على حذف الزيادة ، وأصله أساوِيرْ .

وقرأ أبان بن عاصم " أَسْوِرة " جمعَ سِوار وستأتي إنْ شاء الله تعالى في الزخرف ها تان القراءتان في المتواتر ، وهناك أذكرُ إن شاء الله تعالى الفرقَ .

والسَّوارُ يُجمع في القِلَّة على " أَسْوِرة " وفي الكثرة على " سُور " بسكون الواو ، وأصلُها كقُذُل وحُمُر ، وإنما سُكِّنَتْ لأجلِ حرفِ العلة . وقد يُضَمُّ في الضرورة ، وقال :

3154- عن مُبْرِقاتٍ بالبُرِيْنَ وتَبْ . . . دُو في الأَكُفِّ اللامعاتِ سُوُرْ

وقال أهل اللغة : السَّوار ما جُعِلَ في الذِّراعِ مِنْ ذهبٍ أو فضةٍ أو نُحاس ، فإن كان مِنْ عاج فهو قُلْبٌ .

قوله : ﴿ مِن ذَهَبٍ ﴾ يجوز أن تكونَ للبيان ، وأَنْ تكونَ للتبعيض . ويجوز أَنْ تتعلَّقَ بمحذوفٍ صفةً لأساوِر فموضعُه جر ، وأن تتعلَّقَ بنفس " يُحَلَّوْنَ " فموضعها نصب .

قوله : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ﴾ عطفٌ على " يُحَلَّوْن " . وبُني الفعل في التحلية للمفعول إيذاناً بكرامتِهم ، وأنَّ غيرَهم يَفعل لهم ذلك ويُزَيِّنُهم به ، كقول امرئ القيس .

3155- غرائرُ في كِنٍّ وصَوْنٍ ونَعْمةٍ . . . يُحَلَّيْنَ ياقُوتاً وشَذْراً مُفَقَّراً

بخلافِ اللَّبس فإنَّ الإنسان يتعاطاه بنفسه . وقُدِّم التحلِّي على اللِّباس لأنه أشْهَى للنفسِ

.

وقرأ أبان بن عاصم "ويَلْبِسُونَ" بكسر الباء .

قوله : ﴿ مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ "مِنْ" لبيانِ الجنس وهي نعتٌ لثياب .

(122/471)

والسُّنْدُسُ : ما رَقَّ من الدِّيباج . والإِستبرق : ما غَلُظَ منه وهما جمعُ سُنْدُسة واسْتَبْرَقَة . وقيل : ليسا جمعَيْنِ . وهل "اسْتَبْرق" عربيُّ الأصلِ مشتق من البريق ، أو معرِّبٌ أصلُه استبره؟ خلافٌ بين اللغويين . وقيل : الإِستبرق اسم للحرير . وأنشد للمرقش :

3156- تراهُنَّ يَلْبِسْنَ المشاعِرَ مَرَّةً . . . وإستبرقُ الديباجُ طَوْراً لِباسُها

وهو صالِحٌ لما تقدَّم . وقال ابن بحر : "الإِستبرق : ما نُسج بالذهب" .

ووزنُ سُنْدُس : فُعْلُل ونونه أصلية .

وقرأ ابن محيصن "واسْتَبرقَ" بوصل الهمزة وفتح القافِ غيرَ منونة . فقال ابن جني : هذا سهوٌ أو كالسهو" . قلت : كأنه زعم أنَّه مَنَعه الصرفَ ولا وجهَ لمنعِه ، لأنَّ شرطَ مَنْعِ الاسمِ الأعجمي أَنْ يكونَ عَلَماً وهذا اسمُ جنسٍ . وقد وجَّهها غيرُه على أنه جَعَلَه فعلاً ماضياً من البريق ، واستَفْعَلَ بمعنى فَعَلَ المجرد نحو : قَرَّ واستقرَّ .

وقال الأهوازيُّ في "الإقناع" : "واستبرق بالوصلِ وفتحِ/ القاف حيث كان لا يَصْرِفُه" فظاهرُ هذا أنه اسمٌ ، وليس بفعلٍ وليس لمنعِه وجهٌ ، كما تقدَّم عن ابن جني ، وصاحب "اللوامح" لَمَّا ذكر وَصْلَ الهمزةِ لم يَزِد على ذلك ، بل نَصَّ على بقائِه منصرفاً ولم يذكر فتح القاف أيضاً فقال : "ابن محيصن "واستبرق" بوصلِ الهمزة في جميع القرآن ، فيجوز أنه حذف الهمزةَ تخفيفاً على غيرِ قياس ، ويجوز أنَّه جعله عربياً مِنْ بَرِق يَبْرُق بَرْقاً ، ووزنُه استفعل ، فلمَّا سُمِّي به عامَلَه معاملةَ الفعل في وَصْلِ الهمزة ، ومعاملةَ المتمكنةِ من الأسماء في الصرف والتنوين ، وأكثرُ التفاسيرِ على أنَّه عربية وليس بمستعربٍ ، دَخَل في كلامِهم فاعربوه" .

(123/471)

قوله : "مُتَّكِئِين" حال والأرائِكُ : جمعُ أَرِيْكَة وهي الأَسِرَّة بشرط أن تكونَ في الحِجال فإن لم تكنْ لم تُسَمَّ أَرِيْكة . وقيل : الأرائِكُ : الفُرُش في الحَجال أيضاً . وقال الارغب : "الأَرِيكة : حَجَلَةٌ على سريرٍ ، وتسميتها بذلك : إمَّا لكونِها في الأرض مُتَّخَذَةً مِنْ أَراك ، أو مِنْ كونِها مكاناً للإقامة من قولهم : أَرَك بالمكان أُرُوكاً ، وأصل الأُرُوك الإقامة على رَعْي الأَراكِ ، ثم تُجُوِّز به في غيره من الإقامات" .

وقرأ ابن محيصن : " عَلَّرَائك " وذلك : أَنَّه نَقَل حركةَ الهمزةِ إلى لامِ التعريف فالتقى مِثْلان : لاَمُ " على " - فإنَّ ألفها حُذِفَتْ لالتقاءِ الساكنين - ولاَمُ التعريف ، واعتدَّ بحركة النقل فأدغم اللامَ في اللامِ ، فصار اللفظُ كما ترى ، ومثلُه قولُ الشاعر :

3157- فما أصبحَتْ عَلَّرْضِ نفْسٌ بريئةٌ . . . ولا غيرُها إلا سليمانُ نالها

يريد " على الأرض " . وقد تقدَّم قراءةٌ قريبةٌ مِنْ هذه أول البقرة : بما أُنْزِلَّيْكَ " ، أي : أُنْزِلَ إليك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 480.485 ﴾

(124/471)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) ﴾

أهلُ الجنة طابتْ لهم حدائقُها ، وأهلُ النار أَحَاط بهم سُرادِقُها .

والحقُّ - سبحانه - مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يعودَ إليه من تعذيبِ هؤلاء عائدة ولا من تنعيم هؤلاء فائدةٌ . . . جَلَّتْ الأحديةُ ، وتَقَدَّسَتْ الصمدية !

ومَنْ وقَعَتْ عليه غَبَرَةٌ في طريقنا لم تَقَعْ عليه قَتَرَةُ فراقنا ، ومَنْ خطا خطوةً إلينا وجَدَ

حظوةً لدينا ، ومَنْ نَقَلَ قَدَمَه نحونا غفرنا له ما قَدَّمَه ، ومَنْ رَفَعَ إلينا يداً أَجْزَلْنا له رَغَداً ، ومَنْ التجأ إلى سُدَّةِ كَرَمِنا آويناه في ظِلِّ نِعَمِنا ، ومن شكا فينا غليلاً مَهَّدْنا له - في دار فضلنا - مقيلاً .

{ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً } : العمل أَحسنُه ما كان مضبوطاً بشرائط الإخلاص .

ويقال : { مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً } بأن غاب عن رؤية إحسانه .

ويقال مَنْ جرَّدَ قَصْدَه عن كلِّ حظٍّ ونصيب .

ويقال الإحسان في العمل ألا ترى قضاء حاجتك إلا في فَضْلِه ، إذا أخلصتَ في توسلِكَ إليه بفضله ، وتوصُّلِكَ على ما موَّلَكَ من طَوْلِه بتبرِّيكَ عن حَوْلِكَ وقُوَّتك استوجبتَ حُسْنَ إقباله ، وجزيل نواله .

قوله { أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ } أولئك هم أصحابُ الجنان ، في رَغَدِ العيش وسعادة الجَد وكمال الرِّفد ، يلبسون حُلَلَ الوُصلة ، ويُتَوَّجُون بتاج القُربة ، ويُحْمَلون على المباسط ، ويتَّكِئون على الأرائك ، ويشمون رياحينَ الأُنس ، ويقيمون في مجال الزُّلفة ، ويُسْقَوْنَ شرابَ المحبة ، ويأخذُون بيدِ الزلفة ما يتحفهم الحقُّ به من غير واسطة ، ويسقيهم شراباً طهوراً يُطَهِّر قلوبهم عن محبة كلِّ مخلوقٍ .

﴿ نِعْمَ الثَّوْابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ : نعم الثواب ثوابُهم ، ونعم الربُّ ربُّهم ، ونعم الدارُ دارُهم ، ونعم الجارُ جارُهم ، ونعم الحالُ حالُهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 394.395 ﴾

(126/471)

من فوائد الإمام الجصاص في الآيات السابقة

قال رحمه الله :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ فِيهِ بَيَانُ أَنَّ مَا جَعَلَهُ زِينَةً لَهَا مِنْ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ سَيَجْعَلُهُ صَعِيدًا جُرُزًا ، وَالصَّعِيدُ : الْأَرْضُ ، وَالصَّعِيدُ : التُّرَابُ .

وَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ إحَالَتِهِ مَا عَلَيْهَا مِمَّا هُوَ زِينَةٌ لَهَا صَعِيدًا هُوَ مُشَاهَدٌ مَعْلُومٌ مِنْ طَبْعِ الْأَرْضِ ؛ إذْ كُلُّ مَا يَحْصُلُ فِيهَا مِنْ نَبَاتٍ أَوْ حَيَوَانٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ رَصَاصٍ أَوْ نَحْوِهِ مِنْ الْجَوَاهِرِ يَسْتَحِيلُ تُرَابًا ، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ مَا عَلَيْهَا يُصَيِّرُهُ صَعِيدًا جُرُزًا وَأَبَاحَ مَعَ

ذَلِكَ التَّيَمُّمَ بِالصَّعِيدِ وَجَبَ بِعُمُومِ ذَلِكَ جَوَازُ التَّيَمُّمِ بِالصَّعِيدِ الَّذِي كَانَ نَبَاتًا أَوْ حَيَوَانًا أَوْ حَدِيدًا أَوْ رَصَاصًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ لِإِطْلَاقِهِ تَعَالَى الْأَمْرَ بِالتَّيَمُّمِ بِالصَّعِيدِ .

وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِ أَصْحَابِنَا فِي النَّجَاسَاتِ إِذَا اسْتَحَالَتْ أَرْضًا أَنَّهَا طَاهِرَةٌ ؛ لِأَنَّهَا فِي هَذِهِ الْحَالِ أَرْضٌ لَيْسَتْ بِنَجَاسَةٍ ، وَكَذَلِكَ قَالُوا فِي نَجَاسَةٍ أُحْرِقَتْ فَصَارَتْ رَمَادًا أَنَّهَا طَاهِرٌ ؛ لِأَنَّ الرَّمَادَ فِي نَفْسِهِ طَاهِرٌ وَلَيْسَ بِنَجَاسَةٍ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ رَمَادِ النَّجَاسَةِ وَبَيْنَ رَمَادِ الْخَشَبِ الطَّاهِرِ ؛ إذْ النَّجَاسَةُ هِيَ الَّتِي تُوجَدُ عَلَى ضَرْبٍ مِنْ الِاسْتِحَالَةِ وَقَدْ زَالَ ذَلِكَ عَنْهَا بِالْإِحْرَاقِ وَصَارَتْ إلَى ضَرْبِ الِاسْتِحَالَةِ الَّتِي لَا تُوجِبُ التَّنْجِيسَ ، وَكَذَلِكَ الْخَمْرُ إذَا اسْتَحَالَتْ خَلًّا فَهُوَ طَاهِرٌ ؛ لِأَنَّهُ فِي الْحَالِ لَيْسَ بِخَمْرٍ لِزَوَالِ الِاسْتِحَالَةِ الْمُوجِبَةِ لِكَوْنِهَا خَمْرًا .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْك رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَهْرُبَ بِدِينِهِ إذَا خَافَ الْفِتْنَةَ فِيهِ ، وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِإِظْهَارِ كَلِمَةِ الْكُفْرِ وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْهِ التَّقِيَّةِ ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إذَا أَرَادَ

الْهَرَبَ بِدِينِهِ خَوْفَ الْفِتْنَةِ أَنْ يَدْعُوَ بِالدُّعَاءِ الَّذِي حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ رَضِيَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ وَأَجَابَ دُعَاءَهُمْ وَحَكَاهُ لَنَا عَلَى جِهَةِ الِاسْتِحْسَانِ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ .

(128/471)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ مَعْنَاهُ : لِيَظْهَرَ الْمَعْلُومُ فِي اخْتِلَافِ الْحِزْبَيْنِ فِي مُدَّةِ لُبْثِهِمْ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الْعِبْرَةِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَوْ اطَّلَعْت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْت مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْت مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ قِيلَ فِيهِ وُجُوهٌ : أَحَدُهَا : مَا أَلْبَسَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ الْهَيْبَةِ لِئَلَّا يَصِلَ إلَيْهِمْ أَحَدٌ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ فِيهِمْ وَيَنْتَبِهُوا مِنْ رَقْدَتِهِمْ ، وَذَلِكَ وَصْفُهُمْ فِي حَالِ نَوْمِهِمْ لَا بَعْدَ الْيَقَظَةِ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُمْ كَانُوا فِي مَكَان مُوحِشٍ مِنْ الْكَهْفِ أَعْيُنُهُمْ مَفْتُوحَةٌ يَتَنَفَّسُونَ وَلَا يَتَكَلَّمُونَ .

وَالثَّالِثُ : أَنَّ أَظْفَارَهُمْ وَشُعُورَهُمْ طَالَتْ فَلِذَلِكَ يَأْخُذُ الرُّعْبُ مِنْهُمْ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ لَمَّا حَكَى اللَّهُ ذَلِكَ عَنْهُمْ غَيْرَ مُنْكِرٍ لِقَوْلِهِمْ عَلِمْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا مُصِيبِينَ فِي إطْلَاقِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ مَصْدَرَهُ إلَى مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنْ مِقْدَارِ اللَّبْثِ وَفِي اعْتِقَادِهِمْ لَا عَنْ حَقِيقَةِ اللَّبْثِ فِي الْمَغِيبِ ، وَكَذَلِكَ هَذَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْت قَالَ لَبِثْت يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وَلَمْ يُنْكِرْ اللَّهُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ

عَمَّا عِنْدَهُ وَفِي اعْتِقَادِهِ لَا عَنْ مَغِيبِ أَمْرِهِ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْخَضِرِ : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ وَ ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ يَعْنِي : عِنْدِي كَذَلِكَ .

(129/471)

وَنَحْوُهُ ﴿ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ حِينَ قَالَ ذُو الْيَدَيْنِ : أَقَصُرَتَ الصَّلَاةَ أَمْ نَسِيتَ ؟ ﴾

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إلَى الْمَدِينَةِ ﴾ الْآيَةَ يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ خَلْطِ دَرَاهِمِ الْجَمَاعَةِ وَالشِّرَى بِهَا وَالْأَكْلِ مِنْ الطَّعَامِ الَّذِي بَيْنَهُمْ بِالشَّرِكَةِ وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ قَدْ يَأْكُلُ أَكْثَرَ مِمَّا يَأْكُلُ غَيْرُهُ ، وَهَذَا الَّذِي يُسَمِّيهِ النَّاسُ الْمُنَاهَدَةَ وَيَفْعَلُونَهُ فِي الْأَسْفَارِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَالُوا : فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إلَى الْمَدِينَةِ ، فَأَضَافَ الْوَرِقَ إلَى الْجَمَاعَةِ ، وَنَحْوُهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ فَأَبَاحَ لَهُمْ بِذَلِكَ خَلْطَ طَعَامِ الْيَتِيمِ بِطَعَامِهِمْ وَأَنْ تَكُونَ يَدُهُ مَعَ أَيْدِيهِمْ مَعَ جَوَازِ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ أَكْثَرَ أَكْلًا مِنْ غَيْرِهِ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ الْوَكَالَةِ بِالشِّرَى ؛ لِأَنَّ الَّذِي بَعَثُوا بِهِ كَانَ وَكِيلًا لَهُمْ .

بَابُ الِاسْتِثْنَاءِ فِي الْيَمِينِ الِاسْتِثْنَاءُ فِي الْيَمِينِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إنِّي فَاعِلٌ

ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذَا الضَّرْبُ مِنْ الِاسْتِثْنَاءِ يَدْخُلُ لِرَفْعِ حُكْمِ الْكَلَامِ حَتَّى يَكُونَ وُجُودُهُ وَعَدَمُهُ سَوَاءً ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَدَبَهُ إِلَى الِاسْتِثْنَاءِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِئَلَّا يَصِيرَ كَاذِبًا بِالْحَلِفِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ حُكْمَهُ مَا وَصَفْنَا .

(130/471)

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ حَاكِيًا عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ فَلَمْ يَصْبِرْ وَلَمْ يَكُ كَاذِبًا لِوُجُودِ الِاسْتِثْنَاءِ فِي كَلَامِهِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَعْنَاهُ مَا وَصَفْنَا مِنْ دُخُولِهِ فِي الْكَلَامِ لِرَفْعِ حُكْمِهِ فَوَجَبَ أَنْ لَا يَخْتَلِفَ حُكْمُهُ فِي دُخُولِهِ عَلَى الْيَمِينِ أَوْ عَلَى إِيقَاعِ الطَّلَاقِ أَوْ عَلَى الْعَتَاقِ .

وَقَدْ رَوَى أَيُّوبُ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَقَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَلَا حِنْثَ عَلَيْهِ ﴾ وَفِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ فَقَدْ اسْتَثْنَى " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ شَيْءٍ مِنْ الْأَيْمَانِ ، فَهُوَ عَلَى جَمِيعِهَا .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ مِنْ قَوْلِهِ مِثْلُهُ .

وَعَنْ عَطَاءٍ وَطَاوُسٍ وَمُجَاهِدٍ وَإِبْرَاهِيمَ قَالُوا : الِاسْتِثْنَاءُ فِي كُلِّ شَيْءٍ " .

وَقَدْ رَوَى إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَيَّاشٍ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ مَالِكٍ اللَّخْمِيِّ عَنْ مَكْحُولٍ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ

قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِعَبْدِهِ أَنْتَ حُرٌّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَهُوَ حُرٌّ، وَإِذَا قَالَ لِامْرَأَتِهِ أَنْتِ طَالِقٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَلَيْسَتْ بِطَالِقٍ ﴾ .

وَهَذَا حَدِيثٌ شَاذٌّ وَاهِي السَّنَدِ غَيْرُ مَعْمُولٍ عَلَيْهِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى صِحَّةِ الِاسْتِثْنَاءِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَصِحُّ فِيهِ

(131/471)

الِاسْتِثْنَاءُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْحَاءٍ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ: " إِذَا اسْتَثْنَى بَعْدَ سَنَةٍ صَحَّ اسْتِثْنَاؤُهُ " .

وَقَالَ الْحَسَنُ وَطَاوُسٌ: " يَجُوزُ الِاسْتِثْنَاءُ مَا دَامَ فِي الْمَجْلِسِ " .

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ وَعَطَاءٌ وَالشَّعْبِيُّ: " لَا يَصِحُّ الِاسْتِثْنَاءُ إِلَّا مَوْصُولًا بِالْكَلَامِ " .

وَرُوِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ فِي الرَّجُلِ يَحْلِفُ وَيَسْتَثْنِي فِي نَفْسِهِ قَالَ: " لَا حَتَّى يَجْهَرَ بِالِاسْتِثْنَاءِ كَمَا جَهَرَ بِيَمِينِهِ "، وَهَذَا مَحْمُولٌ عِنْدَنَا عَلَى أَنَّهُ لَا يُصَدَّقُ فِي الْقَضَاءِ إِذَا ادَّعَى أَنَّهُ كَانَ اسْتَثْنَى وَلَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ وَقَدْ سُمِعَ مِنْهُ الْيَمِينُ .

(132/471)

وَقَالَ أَصْحَابُنَا وَسَائِرُ الْفُقَهَاءِ : " لَا يَصِحُّ الِاسْتِثْنَاءُ إلَّا مَوْصُولًا بِالْكَلَامِ " وَذَلِكَ لِأَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ بِمَنْزِلَةِ الشَّرْطِ وَالشَّرْطُ لَا يَصِحُّ وَلَا يَثْبُتُ حُكْمُهُ إلَّا مَوْصُولًا بِالْكَلَامِ مِنْ غَيْرِ فَصْلٍ ، مِثْلُ قَوْلِهِ : " أَنْتِ طَالِقٌ إنْ دَخَلْت الدَّارَ " فَلَوْ قَالَ : " أَنْتِ طَالِقٌ " ثُمَّ قَالَ : " إنْ دَخَلْت الدَّارَ " بَعْدَ مَا سَكَتَ ، لَمْ يُوجِبْ ذَلِكَ تَعَلُّقَ الطَّلَاقِ بِالدُّخُولِ ، وَلَوْ جَازَ هَذَا لَجَازَ أَنْ يَقُولَ لِامْرَأَتِهِ : أَنْتِ طَالِقٌ ثَلَاثًا ، ثُمَّ يَقُولَ بَعْدَ سَنَةٍ : إنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَيَبْطُلُ الطَّلَاقُ وَلَا تَحْتَاجُ إلَى زَوْجٍ ثَانٍ فِي إبَاحَتِهَا لِلْأَوَّلِ ، وَفِي تَحْرِيمِ اللَّهِ تَعَالَى إيَّاهَا عَلَيْهِ بِالطَّلَاقِ الثَّلَاثِ إلَّا بَعْدَ زَوْجٍ دَلَالَةٌ عَلَى بُطْلَانِ الِاسْتِثْنَاءِ بَعْدَ السُّكُوتِ ، وَلَمَّا صَحَّ ذَلِكَ فِي الْإِيقَاعِ فِي أَنَّهُ لَا يَصِحُّ الِاسْتِثْنَاءُ إلَّا مَوْصُولًا بِالْكَلَامِ كَانَ كَذَلِكَ حُكْمُ الْيَمِينِ .

وَأَيْضًا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ أَيُّوبَ حِينَ حَلَفَ عَلَى امْرَأَتِهِ أَنَّهُ إنْ بَرَأَ ضَرَبَهَا ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَأْخُذَ بِيَدِهِ ضِغْثًا وَيَضْرِبَ بِهِ وَلَا يَحْنَثُ ، وَلَوْ صَحَّ الِاسْتِثْنَاءُ مُتَرَاخِيًا عَنْ الْيَمِينِ لَأَمَرَهُ بِالِاسْتِثْنَاءِ فَيَسْتَغْنِي

بِهِ عَنْ ضَرْبِهَا بِالضِّغْثِ وَغَيْرِهِ .

وَيدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ ﴾، وَلَوْ جَازَ الِاسْتِثْنَاءُ مُتَرَاخِيًا عَنْ الْيَمِينِ لَأَمَرَهُ بِالِاسْتِثْنَاءِ وَاسْتَغْنَى عَنْ الْكَفَّارَةِ.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ إنِّي إنْ شَاءَ اللَّهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي ﴾، وَلَمْ يَقُلْ إلَّا قُلْتُ إنْ شَاءَ اللَّهُ.

فَإِنْ قِيلَ: رَوَى قَيْسٌ عَنْ سِمَاكٍ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ﴿ وَاَللَّهِ لَأَغْزُوَنَّ قُرَيْشًا وَاَللَّهِ لَأَغْزُوَنَّ قُرَيْشًا ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً فَقَالَ: إنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ فَقَدْ اسْتَثْنَى بَعْدَ السُّكُوتِ.

قِيلَ لَهُ رَوَاهُ شَرِيكٌ عَنْ سِمَاكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ وَاَللَّهِ لَأَغْزُوَنَّ قُرَيْشًا ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِهِنَّ: إنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ اسْتَثْنَى فِي آخِرِهِنَّ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي اتِّصَالَهُ بِالْيَمِينِ، وَهُوَ أَوْلَى لِمَا ذَكَرْنَا.

وَفِي هَذَا الْخَبَرِ دَلَالَةٌ أَيْضًا عَلَى أَنَّهُ إذَا حَلَفَ بِأَيْمَانٍ كَثِيرَةٍ ثُمَّ اسْتَثْنَى فِي آخِرِهِنَّ كَانَ الِاسْتِثْنَاءُ رَاجِعًا إلَى الْجَمِيعِ.

وَاحْتَجَّ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَنْ تَابَعَهُ فِي إِجَازَةِ الِاسْتِثْنَاءِ مُتَرَاخِيًا عَنْ الْيَمِينِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ فَتَأَوَّلُوا قَوْلَهُ : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ ، وَهَذَا غَيْرُ وَاجِبٍ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا مُبْتَدَأً مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ تَضْمِينٍ لَهُ بِمَا قَبْلَهُ ، وَغَيْرُ جَائِزٍ فِيمَا كَانَ هَذَا سَبِيلَهُ تَضْمِينُهُ بِغَيْرِهِ .

وَقَدْ رَوَى ثَابِتٌ عَنْ

عِكْرِمَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ قَالَ : " إِذَا غَضِبْتَ " فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ الْأَمْرَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنْ يَفْزَعَ إِلَيْهِ عِنْدَ السَّهْوِ وَالْغَفْلَةِ ، وَقَدْ رُوِيَ فِي التَّفْسِيرِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ : إِنَّمَا نَزَلَ فِيمَا سَأَلَتْ قُرَيْشٌ عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَذِي الْقَرْنَيْنِ ، فَقَالَ : " سَأُخْبِرُكُمْ " فَأَبْطَأَ عَنْهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَيَّامًا ، ثُمَّ أَتَاهُ يُخْبِرُهُمْ ، وَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ بِأَنْ لَا يُطْلِقَ الْقَوْلَ عَلَى فِعْلٍ يَفْعَلُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِلَّا مَقْرُونًا بِذِكْرِ مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَفِي نَحْوِ ذَلِكَ مَا رَوَى هِشَامُ بْنُ حَسَّانَ عَنْ ابْنِ سِيرِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُد : وَاَللَّهِ لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ فَتَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا يَضْرِبُ بِالسَّيْفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَقُلْ إنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَلَمْ تَلِدْ مِنْهُنَّ إلَّا وَاحِدَةٌ وَلَدَتْ نِصْفَ إنْسَانٍ ﴾ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ هَذَا حِكَايَةٌ عَنْ قَوْلِ الْيَهُودِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ : " إنَّهُ إخْبَارٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّ هَذَا كَانَتْ مُدَّةَ لُبْثِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قُلْ إنْ حَاجَّكَ أَهْلُ الْكِتَابِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا " .

وَقِيلَ فِيهِ : " اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا إلَى الْوَقْتِ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ بِهَذَا " .

وَقِيلَ : " قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا إلَى أَنْ مَاتُوا " .

فَأَمَّا قَوْلُ قَتَادَةَ فَلَيْسَ بِظَاهِرٍ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ صَرْفُ أَخْبَارِ اللَّهِ إلَى أَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ غَيْرِهِ إلَّا بِدَلِيلٍ ، وَلِأَنَّهُ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ بَيَانُ مُدَّةِ لُبْثِهِمْ غَيْرَ مَذْكُورٍ فِي الْكِتَابِ ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَرَادَ مِنَّا الِاعْتِبَارَ وَالِاسْتِدْلَالَ بِهِ عَلَى عَجِيبِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَفَاذِ مَشِيئَتِهِ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْكَهْفِ فِيهَا عِشْرُونَ آيَةً الْآيَةُ الْأُولَى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

قَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ ﴾ فَلَا مَعْنَى لِإِعَادَتِهِ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا إنَّهُمْ إنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إذًا أَبَدًا ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إلَى الْمَدِينَةِ ﴾ هَذَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ الْوَكَالَةِ ، وَهُوَ عَقْدُ نِيَابَةٍ أَذِنَ اللَّهُ فِيهِ لِلْحَاجَةِ إلَيْهِ ، وَقِيَامِ الْمَصْلَحَةِ بِهِ ، إذْ يَعْجِزُ كُلُّ أَحَدٍ عَنْ تَنَاوُلِ أُمُورِهِ إلَّا بِمَعُونَةٍ مِنْ غَيْرِهِ ، أَوْ يَتَرَفَّهُ فَيَسْتَنِيبُ مَنْ يُرِيحُهُ ، حَتَّى جَازَ ذَلِكَ فِي الْعِبَادَاتِ ؛ لُطْفًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ ، وَرِفْقًا بِضَعَفَةِ الْخَلِيقَةِ ، ذَكَرَهَا

اللَّهُ كَمَا تَرَوْنَ ، وَبَيَّنَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا تَسْمَعُونَ ، وَهُوَ أَقْوَى آيَةٍ فِي الْغَرَضِ .

(137/471)

وَقَدْ تَعَلَّقَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا فِي صِحَّةِ الْوَكَالَةِ مِنْ الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : { وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا } وَبِقَوْلِهِ : { اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا } .

وَآيَةُ الْقَمِيصِ ضَعِيفَةٌ ، وَآيَةُ الْعَامِلِينَ حَسَنَةٌ .

وَقَدْ رَوَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : { أَرَدْتُ الْخُرُوجَ إلَى خَيْبَرَ ، فَأَتَيْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقُلْت لَهُ : إنِّي أُرِيدُ الْخُرُوجَ إلَى خَيْبَرَ ، فَقَالَ : ائْتِ وَكِيلِي ، فَخُذْ مِنْهُ خَمْسَةَ عَشَرَ وَسْقًا ، فَإِنْ ابْتَغَى مِنْك آيَةً فَضَعْ يَدَك عَلَى تَرْقُوَتِهِ } .

وَقَدْ وَكَّلَ عُمَرَ بْنَ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ عَلَى عَقْدِ نِكَاحِ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ عِنْدَ النَّجَاشِيِّ ، وَوَكَّلَ أَبَا رَافِعٍ عَلَى نِكَاحِ مَيْمُونَةَ فِي

إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ ، وَوَكَّلَ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ عَلَى شِرَاءِ شَاةٍ ، وَالْوَكَالَةُ جَائِزَةٌ فِي كُلِّ حَقٍّ تَجُوزُ النِّيَابَةُ فِيهِ ؛ وَقَدْ مَهَّدْنَا ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْمَسَائِلِ ، تَحْرِيرُهُ فِي خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ مِثَالًا :

الْأَوَّلُ : الطَّهَارَةُ : وَهِيَ عِبَادَةٌ تَجُوزُ النِّيَابَةُ فِيهَا فِي صَبِّ الْمَاءِ خَاصَّةً عَلَى أَعْضَاءِ

الْوُضُوءِ ، وَلَا تَجُوزُ عَلَى عَرَكِهَا ، إلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُتَوَضِّئُ مَرِيضًا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ .

الثَّانِي : النَّجَاسَةُ .

الثَّالِثُ : الصَّلَاةُ : وَلَا تَجُوزُ النِّيَابَةُ فِيهَا بِحَالٍ بِإِجْمَاعٍ مِنْ الْأُمَّةِ ، وَإِنَّمَا يُؤَدِّيهَا الْمُكَلَّفُ ، وَلَوْ بِأَشْفَارِ عَيْنَيْهِ إشَارَةً ، إلَّا فِي رَكْعَتَيْ الطَّوَافِ .

الرَّابِعُ : الزَّكَاةُ : وَتَجُوزُ النِّيَابَةُ فِي أَخْذِهَا وَإِعْطَائِهَا .

(138/471)

الْخَامِسُ : الصِّيَامُ : وَلَا تَجُوزُ النِّيَابَةُ فِيهِ بِحَالٍ ، إلَّا عِنْدَ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَجُمْلَةٍ مِنْ السَّلَفِ الْأَوَّلِ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

السَّادِسُ الِاعْتِكَافُ وَهُوَ مِثْلُهُ .

السَّابِعُ : الْحَجُّ .

الثَّامِنُ : الْبَيْعُ : وَهِيَ الْمُعَاوَضَةُ وَأَنْوَاعُهَا .

التَّاسِعُ : الرَّهْنُ .

الْعَاشِرُ : الْحَجْرُ : يَصِحُّ أَنْ يُوَكِّلَ الْحَاكِمُ مَنْ يَحْجُرُ وَيُنَفِّذُ سَائِرَ الْأَحْكَامِ عَنْهُ ، وَكَذَلِكَ الْحَوَالَةُ ، وَالضَّمَانُ ، وَالشَّرِكَةُ ، وَالْإِقْرَارُ ، وَالصُّلْحُ ، وَالْعَارِيَّةُ ؛ فَهَذِهِ سِتَّةَ عَشَرَ مِثَالًا .

وَأَمَّا الْغَصْبُ : فَإِنْ وَكَّلَ فِيهِ كَانَ الْغَاصِبُ الْوَكِيلَ دُونَ الْمُوَكِّلِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ مُحَرَّمٍ فِعْلُهُ لَا تَجُوزُ النِّيَابَةُ فِيهِ ، وَيَتْبَعُ ذَلِكَ الشُّفْعَةُ ، وَالْقَرْضُ ، وَلَا يَصِحُّ التَّوْكِيلُ فِي اللُّقَطَةِ .

وَأَمَّا قَسْمُ الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ فَتَصِحُّ النِّيَابَةُ فِيهِ .

وَالنِّكَاحُ وَأَحْكَامُهُ تَصِحُّ النِّيَابَةُ فِيهِ ، كَالطَّلَاقِ .

وَالْإِيلَاءُ يَمِينٌ لَا وَكَالَةَ فِيهِ .

وَأَمَّا اللِّعَانُ : فَلَا تَصِحُّ الْوَكَالَةُ فِيهِ بِحَالٍ .

وَأَمَّا الظِّهَارُ : فَلَا تَصِحُّ النِّيَابَةُ فِيهِ ؛ لِأَنَّهُ مُنْكَرٌ مِنْ الْقَوْلِ وَزُورٌ

، وَلَا يَجُوزُ فِعْلُهُ .

وَالْخِيَانَاتُ : لَا يَصِحُّ التَّوْكِيلُ فِيهَا لِهَذِهِ الْعِلَّةِ مِنْ أَنَّهَا بَاطِلٌ وَظُلْمٌ ، وَيَجُوزُ التَّوْكِيلُ عَلَى طَلَبِ الْقِصَاصِ وَاسْتِيفَائِهِ ، وَكَذَلِكَ فِي الدِّيَةِ ، وَلَا وَكَالَةَ فِي الْقَسَامَةِ ؛ لِأَنَّهَا أَيْمَانٌ .

(139/471)

وَيَصِحُّ التَّوْكِيلُ فِي الزَّكَاةِ ، وَفِي الْعِتْقِ وَتَوَابِعِهِ إلَّا فِي الِاسْتِيلَادِ ؛ فَهَذِهِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ مِثَالًا ، تَكُونُ دُسْتُورًا لِغَيْرِهَا ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَبْقَ بَعْدَهَا إلَّا يَسِيرُ فَرْعٍ لَهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الِاجْتِمَاعِ عَلَى الطَّعَامِ

الْمُشْتَرَكِ وَأَكْلِهِ عَلَى الْإِشَاعَةِ .

وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى مَا قَالُوهُ ؛ لِأَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدْ أَعْطَاهُ وَرِقَهُ مُفْرَدًا ، فَلَا يَكُونُ فِيهِ اشْتِرَاكٌ ، وَلَا مُعَوَّلَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ إلَّا عَلَى حَدِيثَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ ابْنَ عُمَرَ مَرَّ بِقَوْمٍ يَأْكُلُونَ تَمْرًا ، فَقَالَ : ﴿ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْإِقْرَانِ إلَّا أَنْ يَسْتَأْذِنَ الرَّجُلُ أَخَاهُ ﴾ .

الثَّانِي : حَدِيثُ أَبِي عُبَيْدَةَ فِي جَيْشِ الْخَبَطِ ﴿ وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَهُمْ وَفَقَدُوا الزَّادَ ، فَأَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِأَزْوَادِ ذَلِكَ الْجَيْشِ ، فَجُمِعَتْ ، فَكَانَ يَقُوتُنَا كُلَّ يَوْمٍ قَلِيلًا ﴾ .

وَهَذَا دُونَ الْأَوَّلِ فِي الظُّهُورِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَبُو عُبَيْدَةَ كَانَ يُعْطِيهِمْ كَفَافًا مِنْ ذَلِكَ الْقُوتِ ، وَلَا يَجْمَعُهُمْ عَلَيْهِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا أَحَادِيثَ ذَلِكَ وَمَسَائِلَهُ فِي شَرْحِ الصَّحِيحِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِي هَذِهِ الْآيَةِ نُكْتَةٌ وَهِيَ أَنَّ الْوَكَالَةَ فِيهَا إنَّمَا كَانَتْ مَعَ التَّقِيَّةِ وَخَوْفِ أَنْ يَشْعُرَ بِهِمْ أَحَدٌ لِمَا كَانُوا يَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْهُمْ ، وَجَوَازُ تَوْكِيلِ ذِي الْعُذْرِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ،

فَأَمَّا مَنْ لَا عُذْرَ لَهُ فَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى جَوَازِ تَوْكِيلِهِ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَا يَجُوزُ .

وَكَانَ سَحْنُونٌ قَدْ تَلَقَّفَهُ عَنْ أَسَدِ بْنِ الْفُرَاتِ ، فَحَكَمَ بِهِ أَيَّامَ قَضَائِهِ .

وَلَعَلَّهُ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِأَهْلِ الظُّلْمِ وَالْجَبَرُوتِ ؛ إنْصَافًا مِنْهُمْ ، وَإِرْذَالًا بِهِمْ .

وَهُوَ الْحَقُّ ، فَإِنَّ الْوَكَالَةَ مَعُونَةٌ ، وَلَا تَكُونُ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى جَوَازِ النِّيَابَةِ فِي ذَلِكَ قَائِمٌ ؛ لِأَنَّهُ حَقٌّ مِنْ الْحُقُوقِ الَّتِي تَجُوزُ النِّيَابَةُ فِيهَا ، فَجَازَتْ الْوَكَالَةُ عَلَيْهِ ؛ أَصْلُهُ دَفْعُ الدَّيْنِ .

وَمُعَوَّلُهُمْ عَلَى أَنَّ الْحُقُوقَ تَخْتَلِفُ ، وَالنَّاسُ فِي الْأَخْلَاقِ يَتَفَاوَتُونَ ، فَرُبَّمَا أَضَرَّ الْوَكِيلُ بِالْآخَرِ .

قُلْنَا : وَرُبَّمَا كَانَ أَحَدُهُمَا ضَعِيفًا فَيَنْظُرُ لِنَفْسِهِ فِيمَنْ يُقَاوِمُ خَصْمَهُ ، وَهَذَا مِمَّا لَا يَنْضَبِطُ ، فَرَجَعْنَا إلَى الْأَصْلِ ، وَهُوَ جَوَازُ النِّيَابَةِ فِي الْإِطْلَاقِ ، وَلِلْوَكَالَةِ مَسَائِلُ يَأْتِي فِي أَبْوَابِهَا ذِكْرُ فُرُوعِهَا إنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ قِيلَ : أَرَادَ أَكْثَرَ .

وَقِيلَ : أَرَادَ أَطْهَرَ ، يَعْنِي أَزْكَى وَأَحَلَّ ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَبْعِدَ طَلَبَهُ أَكْثَرَ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ بَابِ النَّهَامَةِ ، وَإِنَّمَا مَحْمَلُهُ عَلَى أَنَّهُ إِنْ كَانَ مُرَادًا فَمَعْنَاهُ يَرْجِعُ إِلَى أَنَّ رِزْقَهُمْ كَانَ مِنْ عَدَدِهِمْ ، فَاحْتَاجُوا إِلَى وَضْعٍ فِي الْمَطْعُومِ لِيَقُومَ بِهِمْ .

وَالْمَعْنَى الْآخَرُ مِنْ طَلَبِ الطَّهَارَةِ بَيِّنٌ ، وَلَعَلَّهُ أَرَادَ الْمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ فِيهَا سَبْعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، وَاَللَّهِ مَا أَرَانَا إِلَّا قَدْ أَعْذَرْنَا فِي أَمْرِ هَذَا الرَّجُلِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَاَللَّهِ لَئِنْ أَصْبَحْتُ ، ثُمَّ صَنَعَ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ فِي صَلَاتِهِ ، لَقَدْ أَخَذْتُ صَخْرَةً ، ثُمَّ رَضَخْتُ رَأْسَهُ فَاسْتَرَحْنَا مِنْهُ ، فَامْنَعُونِي عِنْدَ ذَلِكَ ، أَوْ أَسْلِمُونِي .

قَالُوا : يَا أَبَا الْحَكَمِ ، وَاَللَّهِ لَا نُسْلِمُكَ أَبَدًا .

فَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ غَدَا إِلَى مُصَلَّاهُ الَّذِي كَانَ يُصَلِّي فِيهِ ، وَغَدَا أَبُو جَهْلٍ مَعَهُ حَجَرٌ ، وَقُرَيْشٌ فِي أَنْدِيَتِهِمْ يَنْظُرُونَ مَا يَصْنَعُ ، فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ إِلَيْهِ أَبُو جَهْلٍ بِذَلِكَ الْحَجَرِ ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ رَجَعَ مُنْهَزِمًا مُنْتَقِعًا لَوْنُهُ ، كَادَتْ رُوحُهُ تُفَارِقُهُ ، فَقَامَ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِمَّنْ سَمِعَ مَا قَالَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، قَالُوا : يَا أَبَا الْحَكَمِ ، مَالَكَ ؟ فَوَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتَ مُجِدًّا فِي أَمْرِكَ ، ثُمَّ رَجَعْتَ بِأَسْوَإِ هَيْئَةٍ رَجَعَ بِهَا رَجُلٌ ، وَمَا رَأَيْنَا دُونَ مُحَمَّدٍ شَيْئًا يَمْنَعُهُ مِنْكَ .

فَقَالَ : وَيْلَكُمْ ، وَاللَّهِ لَعَرَضَ دُونَهُ لِي فَحْلٌ مِنَ الْإِبِلِ ، مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَامَتِهِ وَأَنْيَابِهِ وَقَصَرَتِهِ لِفَحْلٍ قَطُّ ، يَخْطِرُ دُونَهُ ، لَوْ دَنَوْتُ لَأَكَلَنِي .

فَلَمَّا قَالَهَا أَبُو جَهْلٍ قَامَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، وَاللَّهِ لَقَدْ نَزَلَ بِسَاحَتِكُمْ أَمْرٌ مَا أَرَاكُمُ ابْتُلِيتُمْ بِهِ قَبْلَهُ ، قُلْتُمْ لِمُحَمَّدٍ : شَاعِرٌ ، وَاللَّهِ مَا هُوَ بِشَاعِرٍ .

وَقُلْتُمْ : كَاهِنٌ ، وَاللَّهِ مَا هُوَ بِكَاهِنٍ .

وَقُلْتُمْ سَاحِرٌ ، وَاللَّهِ مَا هُوَ بِسَاحِرٍ .

وَقُلْتُمْ : مَجْنُونٌ ، وَاللَّهِ مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ .

وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ أَرْضَاكُمْ فِيكُمْ : أَصْدَقَكُمْ حَدِيثًا ، وَأَعْظَمَكُمْ أَمَانَةً ، وَخَيْرَكُمْ جِوَارًا ، حَتَّى بَلَغَ مِنَ السِّنِّ مَا بَلَغَ ، فَأَبْصِرُوا بَصَرَكُمْ ، وَانْتَبِهُوا لِأَمْرِكُمْ .

فَقَالَتْ قُرَيْشٌ : هَل أَنْتَ يَا نَضْرُ خَارِجٌ إِلَى أَحْبَارِ يَهُودَ بِيَثْرِب ، وَنَبْعَثُ مَعَكَ رَجُلًا ؛ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ ، وَالْعِلمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ نَحْنُ وَمُحَمَّدٌ فِيهِ ، تَسْأَلُهُمْ ، ثُمَّ تَأْتِينَا عَنْهُمْ بِمَا يَقُولُونَ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

فَخَرَجُوا ، وَبَعَثُوا مَعَهُ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ ، فَقَدِمَا عَلَى أَحْبَارِ الْيَهُودِ ، فَوَصَفَا لَهُمْ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، وَخِلَافَهُمْ إِيَّاهُ ، فَقَالُوا لَهُمَا : سَلُوهُ عَنْ ثَلَاثِ خِلَالٍ ، نَأْمُرُكُمْ بِهِنَّ : سَلُوهُ عَنْ فِتْيَةٍ مَضَوْا فِي الزَّمَنِ الْأَوَّلِ ، وَقَدْ كَانَ لَهُمْ خَبَرٌ وَنَبَأٌ ، وَحَدِيثٌ مُعْجِبٌ ، وَأَخْبِرُوهُمْ خَبَرَهُمْ .

وَسَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَّافٍ قَدْ بَلَغَ مِنْ الْبِلَادِ مَا لَمْ يَبْلُغْ غَيْرُهُ مِنْ مَشَارِقِهَا وَمَغَارِبِهَا يُقَالُ لَهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ ، وَأَخْبِرُوهُمْ خَبَرَهُ .

وَسَلُوهُ عَنْ الرُّوحِ مَا هُوَ ؟ فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ بِهَؤُلَاءِ الثَّلَاثِ فَالرَّجُلُ نَبِيٌّ فَاتَّبِعُوهُ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالرَّجُلُ كَذَّابٌ ، فَرَوْا رَأْيَكُم .

فَقَدِمَ النَّضْرُ وَعُقْبَةُ عَلَى قُرَيْشٍ مَكَّةَ ، فَقَالَا : قَدْ أَتَيْنَاكُمْ بِفَصْلِ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ، أَمَرَتْنَا أَحْبَارُ يَهُودَ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ ، فَإِنْ أَخْبَرَنَا بِهِنَّ فَهُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، فَاتَّبِعُوهُ ، وَإِنْ عَجَزَ عَنْهَا فَالرَّجُلُ كَذَّابٌ .

فَمَشَوْا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ؛ أَخْبِرْنَا عَنْ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ ، نَسْأَلُكَ عَنْهَا ، فَإِنْ أَخْبَرْتَنَا عَنْهَا فَأَنْتَ نَبِيٌّ .

أَخْبِرْنَا عَنْ فِتْيَةٍ مَضَوْا فِي

الزَّمَنِ الْأَوَّلِ ، كَانَ لَهُمْ حَدِيثٌ مُعْجِبٌ ، وَعَنْ رَجُلٍ طَوَّافٍ بَلَغَ مِنَ الْبِلَادِ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ غَيْرُهُ ، وَعَنِ الرُّوحِ مَا هُوَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ غَدًا أُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ ﴾ وَلَمْ يَسْتَثْنِ ، فَمَكَثَ عَنْهُ جِبْرِيلُ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، مَا يَأْتِيهِ ، وَلَا يَرَاهُ حَتَّى أَرْجَفَ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ ، قَالُوا : إِنَّ مُحَمَّدًا وَعَدَنَا أَنْ يُخْبِرَنَا عَمَّا سَأَلْنَاهُ عَنْهُ غَدًا ، فَهَذِهِ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، فَكَبُرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لُبْثُ جِبْرِيلَ عَنْهُ ، ثُمَّ جَاءَهُ بِسُورَةِ الْكَهْفِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَقَدْ احْتَبَسْتَ عَنِّي يَا جِبْرِيلُ حَتَّى سُؤْتُ ظَنًّا ﴾ فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ .

ثُمَّ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ .

فَنَزَلَ فِي أَمْرِ الْفِتْيَةِ : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ ﴾ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ .

فَقَالَ حِينَ فَرَغَ مِنْ وَصْفِهِمْ ، وَتَبَيَّنَ لَهُ خَبَرُهُمْ : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ .

يَقُولُ لَا مُنَازَعَةَ ، وَلَا تَبْلُغْ بِهِمْ فِيهَا جَهْدَ الْخُصُومَةِ ، وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ، لَا الْيَهُودُ الَّذِينَ أَمَرُوهُمْ أَنْ يَسْأَلُوكَ ، وَلَا الَّذِينَ سَأَلُوا مِنْ قُرَيْشٍ ، يَقُولُ : قَدْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ خَبَرَهُمْ عَلَى حَقِّهِ وَصِدْقِهِ .

وَنَزَلَ فِي قَوْلِهِ : أُخْبِرُكُمْ بِهِ غَدًا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ فِي ذَلِكَ أَيُخْبِرُهُمْ عَمَّا يَسْأَلُونَكَ عَنْهُ ؟ أَمْ يَتْرُكُهُمْ ؟ ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ الْآيَةَ .

وَجَاءَهُ : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ الْآيَةَ ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ نَادَاهُمُ الرُّوحُ جِبْرِيلُ .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَبَلَغَنَا ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ قَالَ لَهُ أَحْبَارُ يَهُودَ : بَلَغَنَا يَا مُحَمَّدُ أَنَّ فِيمَا تَلَوْتَ

حِينَ سَأَلَكَ قَوْمُكَ عَنِ الرُّوحِ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ، فَإِيَّانَا أَرَدْتَ بِهَا أَمْ قَوْمَكَ ؟ فَقَالَ : كُلًّا أُرِيدُكُمْ بِهَا ﴾ .

قَالُوا : أَوَلَيْسَ فِيمَا تَتْلُو : إِنَّا أُوتِينَا التَّوْرَاةَ فِيهَا بَيَانُ كُلِّ شَيْءٍ ؟ قَالَ : ﴿ بَلَى ، وَالتَّوْرَاةُ فِي عِلْمِ اللَّهِ قَلِيلٌ ، وَهِيَ عِنْدَكُمْ كَثِيرٌ مُجْزِئٌ ﴾ فَيَذْكُرُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ نَزَلْنَ عِنْدَ ذَلِكَ : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ .

وَقَدْ رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ الْيَهُودَ سَأَلُوهُ عَنْ الرُّوحِ بِالْمَدِينَةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ .

وَهُوَ أَصَحُّ .

(146/471)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

قَالَ عُلَمَاؤُنَا : هَذَا تَأْدِيبٌ مِنْ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ، أَمَرَهُ فِيهِ أَنْ يُعَلِّقَ كُلَّ شَيْءٍ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ إذْ مِنْ دِينِ الْأُمَّةِ وَمِنْ نَفِيسِ اعْتِقَادِهِمْ (مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ) لَا جَرَمَ فَلَقَدْ تَأَدَّبَ نَبِيُّنَا بِأَدَبِ اللَّهِ حِينَ عَلَّقَ الْمَشِيئَةَ بِالْكَائِنِ لَا مَحَالَةَ ، فَقَالَ يَوْمًا وَقَدْ خَرَجَ إلَى الْمَقْبَرَةِ : ﴿ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّا إنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ ﴾ .

وَقَالَ أَيْضًا : ﴿ إنِّي وَاَللَّهِ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إلَّا أَتَيْت الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، وَكَفَّرْت عَنْ يَمِينِي ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَقَالَهُ الْمَرْءُ كَمَا يَلْزَمُهُ فِي الِاعْتِقَادِ ، فَهَلْ يَكُونُ اسْتِثْنَاءً فِي الْيَمِينِ أَمْ لَا ؟ قَالَ جُمْهُورُ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ : يَكُونُ اسْتِثْنَاءً .

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ ، وَأَشْهَبُ ، وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ ، وَأُسَامَةُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ مَالِكٍ .

إنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ .

إنَّمَا قَصَدَ بِذَلِكَ ذِكْرَ اللَّهِ عِنْدَ السَّهْوِ وَالْغَفْلَةِ وَلَيْسَ بِاسْتِثْنَاءٍ .

(147/471)

وَهَذَا الَّذِي قَالَ مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ أَجِدْ عَلَيْهِ دَلِيلًا ؛ لِأَنَّ رَبْطَ الْمَشِيئَةِ ، وَذِكْرَهَا قَوْلًا مِنْ الْعَبْدِ لِفِعْلِ الْعَبْدِ ، فَقَالَ لِعَبْدِهِ : لَا تَقُلْ إنِّي فَاعِلٌ شَيْئًا فِيمَا تَسْتَقْبِلُهُ إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، تَقْدِيرُهُ عِنْدَ قَوْمٍ : إلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ .

وَتَقْدِيرُهُ عِنْدَ آخَرِينَ : إلَّا أَنْ تَقُولَ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَقَدْ مَهَّدْنَاهُ فِي رِسَالَةِ الْمُلْجِئَةِ ، وَهَذَا عَزْمٌ مِنْ اللَّهِ لِعَبْدِهِ عَلَى أَنْ يُدْخِلَ قَوْلًا وَعَقْدًا فِي مَشِيئَةِ رَبِّهِ ، فَمَا تَشَاءُونَ إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ؛ وَقَوْلُ ذَلِكَ أَجْدَرُ فِي قَضَاءِ الْأَمْرِ ، وَدَرْكِ الْحَاجَةِ .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُد : لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : إنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَلَمْ يَقُلْ ، فَلَمْ تَحْمِلْ شَيْئًا إلَّا وَاحِدًا سَاقِطًا أَحَدُ شِقَّيْهِ .

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَوْ قَالَهَا لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

فَهَذَا بَيَانُ الثُّنْيَا فِي الْيَمِينِ، وَأَنَّهَا حَالَةٌ لِعَقْدِ الْأَيْمَانِ، وَأَصْلٌ فِي سُقُوطِ سَبَبِ الْكَفَّارَةِ عَنْهَا، وَإِنَّمَا الَّذِي قَالَهُ مَالِكٌ مِنْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ أَنْ يُذْكَرَ اللَّهُ عِنْدَ السَّهْوِ وَالْغَفْلَةِ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرًا لِقَوْلِهِ: ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ .

(148/471)

وَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ بِالِاسْتِثْنَاءِ فِي الْأَيْمَانِ، مَتَى ذَكَرْتَ، وَلَوْ إِلَى سَنَةٍ، وَتَابَعَهُ عَلَى ذَلِكَ أَبُو الْعَالِيَةِ، وَالْحَسَنُ.

الثَّانِي: قَالَ عِكْرِمَةُ: مَعْنَاهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا غَضِبْتَ.

الثَّالِثُ: أَنَّ مَعْنَاهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ بِالِاسْتِثْنَاءِ، فَيَرْفَعُ عَنْهُ ذِكْرُ الِاسْتِثْنَاءِ الْحَرَجَ، وَتَبْقَى الْكَفَّارَةُ.

وَإِنْ كَانَ الِاسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلًا انْتَفَى الْحَرَجُ وَالْكَفَّارَةُ.

فَأَمَّا مَنْ قَالَ: إنَّ مَعْنَاهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ بِالِاسْتِثْنَاءِ فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَإِنِّي وَاَللَّهِ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي ﴾ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مَعْنَاهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا غَضِبْتَ بِالْغَيْنِ وَالضَّادِ الْمُعْجَمَتَيْنِ فَمَعْنَاهُ التَّثَبُّتُ عِنْدَ

الْغَضَبِ فَإِنَّهُ مَوْضِعُ عَجَلَةٍ ، وَمَزَلَّةُ قَدَمٍ ، وَالْمَرْءُ يُؤَاخَذُ بِمَا يَنْطِقُ بِهِ فَمُهُ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ .

وَمَنْ رَوَاهُ بِالْعَيْنِ وَالصَّادِ

الْمُهْمَلَتَيْنِ فَهُوَ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ بِهِ أُمَّتُهُ ، لِاسْتِحَالَةِ الْمَعْصِيَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ شَرْعًا بِالْخَبَرِ الْوَارِدِ الصَّادِقِ فِي تَنْزِيهِهِمْ عَنْهَا .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّ مَعْنَاهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ بِالِاسْتِثْنَاءِ فِي الْيَمِينِ لِيَرْتَفِعَ عَنْكَ الْحَرَجُ دُونَ الْكَفَّارَةِ فَهُوَ تَحَكُّمٌ بِغَيْرِ دَلِيلٍ .

(149/471)

فَتَبَيَّنَ أَنَّ الصَّحِيحَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ إِرَادَةُ الِاسْتِثْنَاءِ الَّذِي يَرْفَعُ الْيَمِينَ الْمُنْعَقِدَةَ بِاَللَّهِ تَعَالَى وَهِيَ رُخْصَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَدَتْ فِي الْيَمِينِ بِهِ خَاصَّةً لَا تَتَعَدَّاهُ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ الْأَيْمَانِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَغَيْرُهُمْ فَقَالُوا : إِنَّ الِاسْتِثْنَاءَ نَافِعٌ فِي كُلِّ يَمِينٍ كَالطَّلَاقِ وَالْعِتْقِ ؛ لِأَنَّهَا يَمِينٌ تَنْعَقِدُ مُطْلَقَةً ، فَإِذَا قَرَنَ بِهَا ذِكْرَ اللَّهِ عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِثْنَاءِ كَانَ ذَلِكَ مَانِعًا انْعِقَادَهَا ، كَالْيَمِينِ بِاَللَّهِ .

وَمُعَوَّلُ الْمَالِكِيَّةِ عَلَى أَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا تُعْلَمُ بِوُقُوعِ الْفِعْلِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَا يَشَاءُ ، فَإِذَا قَالَ : أَنْتِ طَالِقٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، أَوْ أَنْتِ طَالِقٌ إِنْ دَخَلْت الدَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَقَدْ كَانَ

الطَّلَاقِ بِوُجُودِ الْمَشِيئَةِ ؛ لِأَنَّ وُجُودَ الْفِعْلِ عَلَامَةٌ عَلَيْهَا ، وَهَذَا أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ السُّنَّةِ ، وَقَدْ مَهَّدْنَاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي ﴾ الْآيَةَ : فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ :

الْأَوَّلُ : أَمْرٌ قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَعْنَى التَّبَرُّكِ أَوْ التَّأْدِيبِ .

الثَّانِي : أَنَّ الْمَعْنَى عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ مِيعَادِكُمْ .

(150/471)

فَإِنْ قِيلَ : وَأَيُّ قُرْبٍ ، وَقَدْ فَاتَ الْأَجَلُ ؟ قُلْنَا : الْقُرْبُ هُوَ مَا أَرَادَ اللَّهُ وَقْتَهُ وَإِنْ بَعُدَ ، وَالْبُعْدُ مَا لَمْ يُرِدْ اللَّهُ وَقْتَهُ وَإِنْ قَرُبَ الثَّالِثُ : الْمَعْنَى إنَّكُمْ طَلَبْتُمْ مِنِّي آيَاتٍ دَالَّةً عَلَى نُبُوَّتِي ، فَأَخْبَرْتُكُمْ ، فَلَمْ تَقْبَلُوا مِنِّي ، فَعَسَى أَنْ يُعْطِيَنِي اللَّهُ مَا هُوَ أَقْرَبُ لِإِجَابَتِكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَالَ قَوْمٌ : أَيُّ فَائِدَةٍ لِهَذَا الِاسْتِثْنَاءِ وَهُوَ حَقِيقٌ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ؛ لِأَنَّ الدَّلِيلَ قَدْ قَامَ ، وَكُلُّ أَحَدٍ قَدْ عَلِمَ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ .

قُلْنَا : عَنْهُ أَرْبَعَةُ أَجْوِبَةٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ تَعَبُّدٌ مِنْ اللَّهِ ، فَامْتِثَالُهُ وَاجِبٌ ، لِالْتِزَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ ، وَانْقِيَادِهِ إلَيْهِ ، وَمُوَاظَبَتِهِ عَلَيْهِ .

الثَّانِي : أَنَّ الْمَرْءَ قَدْ اشْتَمَلَ عَقْدُهُ عَلَى أَنَّهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ كَانَ مَا وَعَدَ بِفِعْلِهِ أَوْ تَرْكِهِ وَاتَّصَلَ

بِكَلَامِهِ فِي ضَمِيرِهِ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَّصِلَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ فِي كَلَامِهِ بِلِسَانِهِ ، حَتَّى يَنْتَظِمَ اللِّسَانُ وَالْقَلْبُ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ شِعَارُ أَهْلِ السُّنَّةِ ، فَتَعَيَّنَ الْإِجْهَارُ بِهِ ، لِيُمَيِّزَ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعَةِ .

الرَّابِعُ : أَنَّ فِيهِ التَّنْبِيهَ عَلَى مَا يَطْرَأُ فِي الْعَوَاقِبِ بِدَفْعٍ أَوْ تَأَتٍّ ، وَرَفْعَ الْإِيهَامِ الْمُتَوَقَّعِ بِقَطْعِ الْعَقْلِ الْمُطْلَقِ فِي الِاسْتِغْنَاءِ عَنْ مَشِيئَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ .

(151/471)

وَهَذِهِ كَانَتْ فَائِدَةُ الِاسْتِثْنَاءِ دَخَلَتْ فِي الْيَمِينِ بِاَللَّهِ رُخْصَةً ، وَبَقِيَتْ سَائِرُ الِالْتِزَامَاتِ عَلَى الْأَصْلِ ؛ وَلِهَذَا يُرْوَى عَنْ بَعْضِ الْمُتَقَدِّمِينَ أَنَّهُ إذَا قَالَ لِعَبْدِهِ : أَنْتَ حُرٌّ إنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَهُوَ حُرٌّ ؛ لِأَنَّهُ قُرْبَةٌ .

وَلَوْ قَالَهَا فِي الطَّلَاقِ لَمْ تَلْزَمْ ؛ لِأَنَّهُ أَبْغَضُ الْحَلَالِ إلَى اللَّهِ .

وَهَذَا ضَعِيفٌ ؛ لِأَنَّهُ إنْ كَانَ الِاسْتِثْنَاءُ يَرْفَعُ الْعَقْدَ الْمُلْتَزَمَ فِي الْيَمِينِ بِاَللَّهِ وَالطَّلَاقِ فَلْيَرْفَعْهُ فِي الْعِتْقِ ، وَإِنْ كَانَتْ رُخْصَةً فِي الْيَمِينِ بِاَللَّهِ لِكَثْرَةِ تَرَدُّدِهَا فَلَا يُقَاسُ عَلَى الرُّخَصِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : هَذِهِ الْآيَةُ حُجْزَةٌ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ وَالْبِدْعَةِ وَالسُّنَّةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَدَّبَ رَسُولَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِرَبْطِ الْأُمُورِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ ، تَقَدَّسَ تَعَالَى ، وَأَجْمَعَتْ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ

لَوْ قَالَ لِرَجُلٍ آخَرَ لَهُ عَلَيْهِ حَقٌّ : وَاللَّهِ لَأُعْطِيَنَّكَ حَقَّكَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَجَاءَ الْغَدُ وَلَمْ يُعْطِهِ شَيْئًا أَنَّهُ لَا حِنْثَ عَلَيْهِ فِي يَمِينِهِ ، وَلَا يَلْحَقُهُ فِيهِ كَذِبٌ ، وَالتَّأْخِيرُ مَعْصِيَةٌ مِنْ الْغَنِيِّ الْقَادِرِ ، وَلَوْ كَانَ اللَّهُ لَمْ يَشَأْ التَّأْخِيرَ ؛ لِأَنَّهُ مَعْصِيَةٌ ، وَهُوَ لَا يَشَاءُ الْمَعَاصِيَ ، كَمَا يَقُولُونَ ، إِذَنْ كَانَ يَكُونُ الْحَالِفُ كَاذِبًا حَانِثًا .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ قَالَ : وَاللَّهِ لَأُعْطِيَنَّكَ حَقَّكَ إِنْ عِشْت غَدًا ، فَعَاشَ فَلَمْ يُعْطِهِ كَانَ حَانِثًا كَاذِبًا .

(152/471)

وَعِنْدَ مُعْتَزِلَةِ الْبَصْرَةِ وَبَغْدَادَ أَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ لِإِعْطَاءِ هَذَا الْحَالِفِ مَا عَلَيْهِ مِنْ الْحَقِّ أَمْرُهُ ، وَقَدْ عَلِمَ حُصُولَ أَمْرِهِ بِذَلِكَ ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْنَاءُ الْحَالِفِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْمَعْلُومِ حُصُولُهُ بِمَنْزِلَةِ اسْتِثْنَاءِ الْحَالِفِ بِكُلِّ مَعْلُومٍ حُصُولُهُ ، وَكَمَا لَوْ قَالَ : وَاللَّهِ لَأُعْطِيَنَّكَ حَقَّكَ إِنْ أَمَرَنِي اللَّهُ غَدًا بِذَلِكَ .

وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا ، بَيْدَ أَنَّ أَهْلَ الْبَصْرَةِ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ أَرَادَ إِعْطَاءَ حَقِّ هَذَا إِرَادَةً مُتَقَدِّمَةً لِلْأَمْرِ بِهِ ، وَبِذَلِكَ صَارَ الْأَمْرُ أَمْرًا ، وَهِيَ مُتَجَدِّدَةٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَالْحَالِفُ كَاذِبٌ عَلَى كُلِّ قَوْلٍ مِنْ أَقْوَالِهِمْ ، حَانِثٌ .

وَقَدْ زَعَمَ الْبَغْدَادِيُّونَ أَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ هِيَ تَقِيَّةُ الْعَبْدِ إلَى غَدٍ وَتَأْخِيرُهُ لَهُ، وَرَفْعُ الْعَوَائِقِ عَنْهُ.

وَلَوْ كَانَ صَحِيحًا لَوَجَبَ إذَا أَصْبَحَ الْحَالِفُ حَيًّا بَاقِيًا سَالِمًا مِنْ الْعَوَائِقِ أَنْ يَكُونَ كَاذِبًا حَانِثًا إذَا لَمْ يُعْطِهِ حَقَّهُ.

وَقَدْ قَالُوا: إنَّمَا لَمْ يَلْزَمْهُ الْحِنْثُ إذَا قَالَ: إنْ شَاءَ اللَّهُ؛

رُخْصَةً مِنْ الشَّرْعِ.

قُلْنَا: حُكْمُ الشَّرْعِ بِسُقُوطِ الْحَرَجِ وَالْحِنْثِ عَنْهُ إذَا قَالَ: إنْ شَاءَ اللَّهُ، وَبَقَائِهِ عَلَيْهِ إذَا قَالَ: إنْ أَبْقَانِي اللَّهُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا بَيِّنٌ مَعْنًى، كَمَا هُوَ بَيِّنٌ لَفْظًا؛ إذْ لَوْ كَانَ مَعْنًى وَاحِدًا لَمَا اخْتَلَفَ الْحُكْمُ.

(153/471)

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إنَّ مَعْنَاهُ إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إلْجَائِي إلَيْهِ، وَهَذَا فَاسِدٌ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَوْ أَلْجَأَهُ إلَيْهِ لَمْ يُتَصَوَّرْ التَّكْلِيفُ فِيهِ بِالْإِلْزَامِ؛ لِأَنَّ الْإِكْرَاهَ عَلَى فِعْلِ الشَّيْءِ مَعَ الْأَمْرِ بِهِ عِنْدَهُمْ مُحَالٌ، فَلَا وَجْهَ لِقَوْلِهِمْ بِحَالٍ.

وَقَدْ بَسَطْنَاهُ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ بِأَعَمَّ مِنْ هَذَا التَّفْصِيلِ.

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْله: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ مَالِكٌ : الْكَهْفُ مِنْ نَاحِيَةِ الرُّومِ .

وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ يَعْلَى بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : غَزَوْنَا مَعَ مُعَاوِيَةَ غَزْوَةَ الْمَضِيقِ نَحْوَ الرُّومِ ، فَمَرَرْنَا بِالْكَهْفِ الَّذِي فِيهِ أَصْحَابُ الْكَهْفِ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطُولِهِ .

وَاسْمُ الْجَبَلِ الَّذِي فِيهِ الْكَهْفُ بنجلوس .

وَقَالَ الضَّحَّاكُ : الْكَهْفُ الْغَارُ فِي الْوَادِي ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ .

وَقَالَ قَوْمٌ : إنَّ الْكَهْفَ فِي نَاحِيَةِ الشَّامِ عَلَى قُرْبٍ مِنْ وَادِي مُوسَى ، يَنْزِلُهُ الْحُجَّاجُ إذَا سَارُوا إلَى مَكَّةَ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّةِ ذَلِكَ .

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ فِي بَابِ : " أَمْ حَسِبْت أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ " .

ثُمَّ أَدْخَلَ عَلَيْهِ بَابَ " حَدِيثُ الْغَارِ " وَذَكَرَ عَلَيْهِ خَبَرَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ آوَاهُمْ الْمَطَرُ إلَى غَارٍ ، وَانْطَبَقَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : " ﴿ وَاللَّهِ لَا يُنْجِيكُمْ إلَّا الصِّدْقُ ﴾ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي قَوْلِهِ : ﴿ قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ هِيَ الْحُجَّةُ : لِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ﴾ مِنْ كَلَامِهِمْ .

وَقَدْ قَدَّمْنَا فِيمَا قَبْلُ سُكْنَى الْجِبَالِ وَدُخُولَ الْغِيرَانِ لِلْعُزْلَةِ عَنْ الْخَلْقِ وَالِانْفِرَادِ بِالْخَالِقِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِيهِ جَوَازُ الْفِرَارِ مِنْ الظَّالِمِ : وَهِيَ سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، وَحِكْمَةُ اللَّهِ فِي الْخَلِيقَةِ .

وَقَدْ شَرَحْنَاهَا فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(155/471)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ ، يقول : الشكر لله والألوهية لله .

﴿ الذى أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾ ، أي أنزل على عبده محمدٍ صلى الله عليه وسلم القرآن .

﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ ، أي لم ينزله متناقضاً .

﴿ قَيِّماً ﴾ ، بل أنزله مستقيماً ؛ ويقال : في الآية تقديم ، ومعناه الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيماً أي مستقيماً ، ولم يجعل له عوجاً ؛ أي لم ينزله مخالفاً للتوراة والإنجيل .

قال أهل اللغة : "عوجاً بكسر العين في الأقوال وبنصب العين في الأشخاص" ؛ ويقال : في كلامه عوج ، وفي هذه الخشبة عوج .

﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ ، أي لينذركم ببأس شديد ، كما قال : ﴿ إِنَّمَا ذلكم الشيطان يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : 175] أي بأوليائه وهذا قول القتبي" ؛ وقال الزجاج : أي لينذرهم بالعذاب البئيس .

﴿ مِن لَّدُنْهُ ﴾ ، أي من قبله ؛ ويقال : ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ ، أي يخوفهم بالعذاب الشديد بما في القرآن ﴿ مِن لَّدُنْهُ ﴾ ، أي من عنده .

قرأ عاصم في رواية أبي بكر : ﴿ مِن لَّدُنْهُ ﴾ بجزم الدال ؛ وقرأ الباقون بالضم ، ومعناهما واحد .

﴿ وَيُبَشِّرُ المؤمنين ﴾ ، بالجنة .

ثم وصف المؤمنين ، فقال : ﴿ الذين يَعْمَلُونَ الصالحات ﴾ ، فيما بينهم وبين ربهم .

ثم بيّن الذي يبشرهم به ، فقال : ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ في الْجَنَّة ، ﴿ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ ؛ أي مقيمين في الثواب والنعيم خالداً مخلداً و ﴿ مَّاكِثِينَ ﴾ منصوب على الحال في

معنى خالدين.

﴿ وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ ﴾ ، أي يخوف بالقرآن الذين قالوا : ﴿ اتخذ الله وَلَدًا ﴾ ، وهم المشركون والنصارى.

(156/471)

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ ، أي ليس لهم بذلك القول بيان ولا حجة ، ﴿ وَلَا لآبَائِهِمْ ﴾ ؛ أي ولا حجة لآبائهم الذين مضوا ، فأخبر أنهم أخذوا دينهم من آبائهم بالتقليد لا بالحجة والبيان ، لأنهم قالوا كان آباؤنا على هذا .

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ ، أي عظمت الكلمة.

قرأ الحسن بالضم ، ومعناه عظمت كلمة وهي قولهم : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَدًا سبحانه بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض كُلٌّ لَّهُ قانتون ﴾ [البقرة : 116] ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ ، فصارت نصبًا بالتفسير.

﴿ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ ، أي ما يقولون إلا كذبًا .

﴿ فَلَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ ﴾ ، أي قاتل نفسك أسفاً وحزناً ﴿ على ءاثارهم ﴾ ، أي على أعمالهم.

﴿ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ ، أي بهذا القرآن أسفاً ؛ والأسف المبالغة في الحزن والغضب ، وهو منصوب لأنه مصدر في موضع الحال .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ ، أي ما على وجه الأرض من الرجال زينة لها ، أي للأرض ؛ ويقال : جعلنا ما على الأرض من النبات والأشجار والأنهار زينة لها أي للأرض ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ ﴾ ، أي لنختبرهم ﴿ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ، أي أخلص ؛ ويقال : أيهم أخلص في الزهد في الدنيا وأترك لها .

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا ﴾ ، أي ما على الأرض في الآخرة من شيء من الزهرة .

﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ ، أي ترابا أملس لا نبات فيه وقال القتبي : الصعيد المستوي قال : ويقال وجه الأرض ، ومنه يقال للتراب صعيد ، لأنه وجه الأرض والجرز الذي لا نبات فيه . يقال أرض جرز وسنة جرز ، إذا كان فيه جدوبة .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ ﴾ ، أي غار في الجبل ﴿ والرقيم ﴾ الكتاب ؛ وقال قتادة : دراهمهم ؛ وقال عكرمة ، عن ابن عباس قال : كل القرآن أعلمه إلا أربعة غسلين ، وحنان ، والأواه ، والرقيم ، وقال القتبي : الرقيم لوح كتب فيه خبر أصحاب الكهف ،

ونصب على باب الكهف ؛ والرقيم الكتاب وهو فعيل بمعنى مفعول "وبِهِ كِتَابٌ مَرْقُومٌ" أي مكتوب ؛ وقال الزجاج : هو اسم الجبل الذي فيه الكهف ؛ وقال كعب الأحبار : الرَّقِيمُ اسم القرية .

روي عن ابن عباس أن قريشاً اجتمعوا وكان فيهم الوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل السهمي ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية وأبي أبناء خلف والأسود بن عبد المطلب ، وسائر قريش ، فبعثوا منهم خمسة رهط إلى يهود يثرب أي يهود المدينة فسألوهم عن محمد وعن أمره وصفته ، وأنه خرج من بين أظهرنا ويزعم أنه نبي مرسل ، واسمه محمد ، وهو فقير يتيم .

فلما قدموا المدينة ، أتوا أحبارهم وعلماءهم ، فوجدوهم قد اجتمعوا في عيد لهم ، فسألوهم عنه ؛ ووصفوا لهم صفته فقالوا لهم : نجده في التوراة كما وصفتموه لنا ، وهذا زمانه .

ولكن سلوه عن ثلاث خصال ؛ فإن أخبركم بخصلتين ولم يخبركم بالثالثة ، فاعلموا أنه نبي فاتبعوه ؛ فإنا قد سألنا مسيلمة الكذاب عن هؤلاء ، فلم يدر ما هن ، وقد زعمتم أنه يتعلم من مسيلمة الكذاب .

سلوه عن أصحاب الكهف ، أي قصوا عليه أمرهم ؛ وسلوه عن ذي القرنين أن كان ملكاً وكان أمره كذا وكذا ؛ وسلوه عن الروح : فإن أخبركم عن قليل أو كثير فهو كاذب .

ففرحوا بذلك ، فلما رجعوا وأخبروا أبا جهل ، ففرح وأتوه ، فقال أبو جهل : إنا سائلون عن ثلاث خصال .

فسألوه عن ذلك ، فقال لهم : ارجعوا غداً أخبركم ، ولم يقل : إن شاء الله .

(158/471)

فرجعوا ولم ينزل عليه جبريل إلى ثلاثة أيام وفي رواية الكلبي إلى خمسة عشر يوماً ، وفي رواية الضحاك إلى أربعين يوماً فجعلت قريش تقول : يزعم محمد أنه يخبرنا غداً بما سألناه ، وقد مضى كذا وكذا يوماً ؛ فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم أتاه جبريل ، فقال لجبريل : لقد علمت ما سألني عنه قومي ، فلم أبطأت علي ؟ فقال : أنا عبد مثلك ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم : 64] ؛ وقال : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَدًا ﴾ [الكهف : 24/23] .

وكان المشركون يقولون : إن ربه قد ودعه وأبغضه ، فنزل : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 3] ونزل : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصحاب الكهف والرقيم ﴾ ﴿ كَانُواْ مِنْ

ءاياتنا عَجَبًا ﴾ .

فلما قرأ عليهم ، قالوا : هذان ساحران ، يعني : محمداً وموسى عليهما السلام ولم يصدقوه .

وقوله : ﴿ عَجَبًا ﴾ يقول هم عجب ، وأمرهم أعجب ، وغيرهم مما خلقت أعجب منهم ، الشمس والقمر والجبال والسموات والأرض أعجب منهم .

ثم بيَّن أمرهم ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الفتية إِلَى الكهف ﴾ ، أي صاروا إليه وجعلوه مأواهم .

والفتية جمع فتى ، غلام وغلمة ، وصبي وصبية .

﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا ءاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ ، أي ثبتنا على الإسلام .

﴿ وَهَيّىء لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ ، أي هب لنا من أمرنا مخرجاً .

﴿ فَضَرَبْنَا على ءاذَانِهِمْ ﴾ ، أي أنمناهم وألقينا عليهم النوم ؛ وقال الزجاج : ﴿ فَضَرَبْنَا على ءاذَانِهِمْ ﴾ ؛ أي منعناهم أن يسمعوا ، لأن النائم إذا سمع انتبه .

﴿ فِى الكهف سِنِينَ عَدَدًا ﴾ ؛ ويراد بذكر العدد التأكيد ، لأن الكثير يحتاج أن يعد .

وإنما صار نصباً ، لأنه مصدر .

قال ابن عباس في حديث أصحاب الكهف أنه قال : إن مدينة كانت بالروم ظهر عليها ملك من الملوك يقال له دقيانوس ، غلب على مدينتهم وأرضهم ؛ وكانت المدينة تسمى أفسوس ، فجعل يدعوهم إلى عبادة الأوثان ويقتلهم على ذلك ؛ فمن كفر بالله واتبع دينه ، تركه .

فهدى الله شاباً من أهل تلك المدينة إلى دين الإسلام ، فجعل يدعوهم سراً حتى تابعه على ذلك سبعة غلمة ، ففطن لهم الملك ، فأرسل إليهم وأخذهم ودفعهم إلى آبائهم يحفظونهم ، حتى يرسل إليهم من يطلبهم من آبائهم .

فأَرسل إليهم فهربوا ، فقالت آباؤهم : والله لقد خرجوا من عندنا بالأمس ، فما ندري أَين هم .

فمروا بغلام راعٍ ومعه كلب له ، فدعوه إلى أمرهم فأعجبه ذلك ، فتابعهم عليه .

فمضى معهم واتبعه كلبه ، حتى أَتوا غاراً أي كهفاً فدخلوا فيه .

ثم أرسلوا بعضهم إلى السوق ، ليشتري لهم طعاماً من السوق فركب الملك والناس معه في طلبهم ، وهم يسألون عنهم .

فسمع رسولهم بذلك ، فعجَّل أن يشتري لهم كل الذي أرادوا ؛ فاشترى بعضه وأتاهم فأخبرهم أن الملك والناس في طلبهم ، فأكلوا ما أتاهم به ولم يشبعوا .

ثم ناموا على وجوههم ، فضرب الله على آذانهم بالنوم سنين عدداً .

وسار الملك والناس معه ، حتى انتهوا إلى باب الكهف ، فوجدوا آثارهم داخلين ولم يجدوا آثارهم خارجين ؛ فدخلوا الكهف فأعمى الله عليهم ، فطلبوهم فلم يجدوا شيئاً .

فقال الملك : سدوا عليهم باب الكهف ، حتى يموتوا فيه ، فيكون قبرهم إن كانوا فيه .

ثم انصرف الملك والناس معه ، فعمد رجلان مسلمان يكتمان إيمانهما إلى لوح من رصاص ، فكتبا فيه أسماء الفتية وأسماء آبائهم ومدينتهم ، وأنهم خرجوا فراراً من دقيانوس الملك الكافر ؛ فمن ظهر عليهم ، يعلم بأنهم مسلمون .

وأَلْزَقَاهُ في السد من داخل الكهف .

(160/471)

وقال في رواية السدي ، في قصة أصحاب الكهف : كان في المدينة فتية ليس منهم أحد يعرف صاحبه ، فخرج ملكهم مخرجاً له وخرج الفتية ومنهم واحد له كلب ، وليس منهم أحد إلا وهو يقول في نفسه : إن رأيت أحداً استضعف ، دعوته إلى الإيمان بالله .

فلما رجع الناس ، تخلف الفتية فاجتمعوا على باب المدينة ، وقد أغلق الباب دونهم ، فطلبوا أن يدخلوا فلم يفتح لهم .

فقال بعضهم : إني أسر إليكم أمراً ، فإن تابعتموني عليه رشدتم .

فقص عليهم أمره ، فقالوا جميعاً نحن على هذا آنذاك .

قوله عز وجل : ﴿ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السموات والأرض ﴾ الآية ، فصاروا إلى الكهف فدخلوه ورقدوا فيه ، ورقد الكلب بفناء الكهف ؛ فضرب الله على آذانهم بالنوم .

فلما فقدهم أهلوهم ، انطلقوا إلى الملك فأخبروه .

فدعا بصخرة ، فكتب فيها أسماءهم وكتب فيها أنهم هلكوا في زمن كذا ، ثم ضربها في سور المدينة على الباب وهو الرقيم .

وفي رواية وهب بن منبه قال : جاء حواريّ من حواريي عيسى ابن مريم عليهما السلام إلى مدينة أَصحاب الكهف ، فأَراد أن يدخلها فقيل له : إن على بابها صنماً لا يدخلها أحد إلاَّ سجد له .

فكره أن يدخلها ؛ وأتى حماماً كان قريباً من تلك المدينة ، فكان يعمل فيه يعني : أجّرَ نفسه من صاحب الحمام فرأى صاحب الحمام .

في حمامه البركة ، ودر عليه الرزق ، واجتمع إليه فتية من أهل المدينة ، فكان يخبرهم بخبر السماء والأرض وخبر الآخرة ، حتى آمنوا به وصدقوه .

وكانوا على مثل حاله في حسن الهيئة ، فكانوا في ذلك حتى جاء ابن الملك بامرأة ، فدخل

بها الحمام ، فماتا في الحمام جميعاً .

فأتي الملك ، فقيل له : صاحب الحمام قتل ابنك : فالتمسه ، فلم يقدر عليه .

فقال : من كان يصحبه فسموا الفتية ، فالتمسوهم فخرجوا من المدينة .

(161/471)

فمروا بصاحب لهم في زرع له ، وكان على مثل أمرهم ، فذكروا له أنهم التمسوا ؛ فانطلق معهم ومعه الكلب ، حتى آواهم الليل إلى الكهف ، فدخلوه ، وقالوا : نبيت ها هنا الليلة ، ثم نصبح إن شاء الله ، فترون رأيكم .

فضرب على آذانهم .

فخرج الملك في أصحابه يتبعونهم ، حتى وجدوا آثارهم وقد دخلوا الكهف ، فلما أراد رجل منهم أن يدخل الكهف ، أرب فلم يطق أحد أن يدخل عليهم ، فقال له قائل : ألست لو كنت قدرت عليهم قتلتهم ؟ فسد عليهم باب الكهف ودعهم حتى يموتوا عطشاً وجوعاً ، ففعل ذلك .

ثم إن راعياً احتاج أن يبني حظيرة لغنمه ، فهدم ذلك السد وبنى عليه لغنمه ، فصار باب الكهف مفتوحاً .

وكلما غزا تلك المدينة فظهر عليها ، أظهر علامته .

إن كان مسلماً أظهر علامة المسلمين ، وإن كان كافراً أظهر علامة المشركين .

ثم مات دقيانوس ، وملك ملك آخر مسلم ، فأظهر علامة المؤمنين بالمدينة ، وكان يقال له : ستفاد الملك .

ثم إن أصحاب الملك استيقظوا بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، فنظر واحد منهم إلى الشمس وقد دنت إلى الغروب ويقال : عند زوال الشمس فقال : كم لبثتم ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم .

﴿ فقال كبيرهم : لا تختلفوا ، فإنه لم يختلف قوم إلا هلكوا .

ثم قال : فقال الآخرون : ﴿ وكذلك بعثناهم لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذه إلى المدينة فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف : 19] ، أي أحلّ وأطهر ، لأنهم كانوا يذبحون الخنازير .

فدفعوا الدراهم إلى رجل يقال له تمليخا .

فلما انتهى إلى باب الكهف ، رأى حجارة مكسرة على بابه فقال : إن هذا شيء ما رأيناه بالأمس .

فلما خرج ، أنكر الطريق ، فدنا إلى باب المدينة ، فلم يعرفها .

فلما دخل المدينة لم يعرف أحداً من الناس ، فأشكل عليه فقال : لعل هذه غير تلك المدينة .

فسأل إنساناً ، فقال : أي مدينة هذه ؟ فقال : أقسوس .

فقال : لقد أصابني شر وتغير عقلي ؛ فهذه مدينتنا ، ولا أعرفها ولا أعرف أحداً من أهلها .

فأخرج الدراهم ، وجاء إلى الخباز ودفعها إليه ؛ فأخذ الخباز الدراهم فأنكرها ، وقال : من أين لك هذه الدراهم ؟ لقد وجدت كنزاً لتخبرني ، وإلا دفعتك إلى الملك .

وكان كل ملك يحدث بعد آخر ، يضرب دراهم على سكته وختمه ؛ فمن وجد معه دراهم غير تلك الدراهم ، علم أنه كنز .

فلما وجدوا معه تلك الدراهم ، قالوا : هذا كنز .

فقال : هذه الدراهم ما أخرجت من المدينة إلا أمس .

فظن الخباز أنه يتجانن عليه ليرسله ، فقال له : لقد علمت أنك تتجانن علي .

لا أرسلك حتى تعطيني من هذا الكنز ، وإلا دفعتك إلى الملك .

اجتمع الناس عليه وذهبوا به إلى الملك ، فجعل تمليخا يبكي خوفاً من الملك ، وأن يرفع إلى

ملكهم الجبار الذي فرّ منه فلما رأى أنّ الذي أدخل على غيره سكن فقال له الملك : من أين لك هذه الدراهم ؟ فقال : خرجت بها عشية أمس أنا وأصحاب لي فراراً من دقيانوس الملك .

فقال : إنك رجل شاب ، وذلك الملك قد مضى عليه دهر طويل .

فما أنا بالذي أرسلك ، حتى تخبرني من أين لك هذه الدراهم ؟ فقص عليه أمره وأمر أصحابه ، فقال : أُناسٌ من المسلمين قد أخبروا بقصتهم ، أن آباءنا أخبرونا أن فتية قد خرجوا بدينهم وهم مسلمون فراراً من دقيانوس الملك ؛ وإنا والله لا ندري ولعله صادق . فاركب وانظر لعله شيء أراد الله أن يظهرك عليه ، أو يكون في ولايتك ، فركب الملك وركب معه الناس ، المسلم والكافر ، حتى انتهوا إلى الكهف .

فلما رأى أصحابه الناس قد انتهوا إليهم ، عانق بعضهم بعضاً يبكون ولا يشكون ، إلا أنه الملك الجبار الكافر ، فقال لهم تمليخا : امكثوا حتى أدخل أولاً .

فدخل عليهم ، فأخبرهم بالقصة .

قال ابن عباس في رواية أبي صالح : دخل عليهم الملك والناس ، فسألوهم عن أمرهم ،

فقصوا عليهم قصتهم ، فنظروا فإذا اللوح الرصاص الذي كتبه المسلمان فيه أسماؤهم وأسماء آبائهم ، فقال الملك : هم قوم هلكوا في زمن دقيانوس ؛ وأحياهم الله في زماني ، فلم يبق أحد من الكفار مع الملك ، إلا أسلموا كلهم إذا رأوهم .

فبينما هم يتحدثون ، إذ ماتوا كلهم ؛ وقال في رواية سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : إن القوم لما انتهوا إلى الكهف ، قال لهم الفتى : مكانكم حتى أدخل على أصحابي ، لا تهجموا عليهم فيفزعوا منكم .

فدخل فعمي عليهم المكان ، فلم يدروا أين ذهب ولم يقدروا على الدخول عليهم ، فقالوا : ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ ، فجعلوا عليهم مسجداً وصاروا يصلون فيه .

فذلك قوله : ﴿ فَضَرَبْنَا على ءاذَانِهِمْ فِى الكهف سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بعثناهم ﴾ ، أي أيقظناهم .

﴿ لِنعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ ﴾ ، يعني : أي الفريقين المسلم والكافر ﴿ أحصى ﴾ ، أي أحفظ .

﴿ لِمَا لَبِثُواْ أَمَدًا ﴾ ، يعني : لما مكثوا أجلاً ؛ وكان المسلمان كتبا في اللوح ، فظهر لهم مقدار ما لبثوا فيه ، ولم يعلم الكفار مقدار ذلك ؛ ويقال : ﴿ أَيُّ الحِزْبَيْنِ ﴾ ، يعني : الذين كانوا مؤمنين قبل ذلك ، والذين أسلموا في ذلك الوقت ؛ ويقال : أي الفريقين أصدق قولاً ، لأنهم قد اختلفوا في البعث منهم من كان ينكر ذلك ، فظهر لهم أن البعث حق .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم ﴾ ، أي ننزل عليك في القرآن خبر الفتية ﴿ بالحق ﴾ ، أي

بالصدق .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم ﴾ ، أي صدقوا بتوحيد ربهم .

﴿ وزدناهم هُدًى ﴾ ، أي يقيناً وبصيرة في أمر دينهم .

﴿ ورَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ ﴾ ، أي حفظنا قلوبهم على الإيمان : وقيل : ألهمناهم الصبر حتى ثبتوا على دينهم .

﴿ إِذْ قَامُوا ﴾ من نومهم : ويقال : قاموا بإثبات الحجة ؛ ويقال : خرجوا من عند الملك .

﴿ فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السموات والأرض لن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إلها ﴾ ، أي لم نقل من دون الله رباً وإن فعلنا ﴿ فَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطًا ﴾ ، أي كذباً وجوراً ؛ ويقال : ﴿ شَطَطًا ﴾ ، أي علواً ، يقال : قد أشط إذا علا في القول ، أي جاوز الحد .

﴿ هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتخذوا ﴾ ، أي عبدوا .

﴿ مِن دُونِهِ ءالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بسلطان بَيّنٍ ﴾ ، يعني : هلا يأتون بحجة بينة على عبادة آلهتهم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى ﴾ ، أي اختلق ﴿ عَلَى الله كَذِبًا ﴾ أن له شريكاً .

﴿ وَإِذِ اعتزلتموهم ﴾ ، يقول بعضهم لبعض : لو تركتموهم وما يعبدون إلا الله ، يعني : لو تركتم ما يعبدون .

﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ ﴾ ؛ ويقال : لو اعتزلتم عبادتهم إلا الله ، يعني : قولهم : الله خالقنا ، ويقال : ﴿ وَإِذِ اعتزلتموهم ﴾ ؛ هذا قولهم ثم قال حكاية عن قولهم ، فقال : ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ ﴾ يعني : أصحاب الكهف .

﴿ فَأْوُوا إِلَى الكهف ﴾ ، أي فارجعوا إلى الكهف ؛ ويقال : فادخلوا الكهف .

﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ ، أي يهب لكم ربكم من نعمته ؛ ويقال : يبسط لكم من رزقه .

﴿ وَيُهَيِّىءْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ ، أي يجعل لكم من أمركم الذي وقعتم فيه ما يرفق بكم ويصلحكم ؛ ويقال : مخرجاً ونجاة .

﴿ وَتَرَى الشمس إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ ، أي تميل وتنحرف عن كهفهم .

﴿ ذَاتَ اليمين وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ﴾ ، أي تجاوزهم ؛ ويقال : تتركهم وتمر بهم . وأصل القرض القطع ، ومنه سمي المقراض .

﴿ ذَاتَ الشمال ﴾ ، أي شمال الكهف .

﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ ، أي في ناحية من الغار ؛ ويقال : في متسع منه .

فأخبر أنه بوأهم كهفاً مستقبلاً بنات نعش ، والشمس تميل عنه وتستدير طالعة وغاربة ، ولا تدخل عليهم فتؤذيهم ، ولا يحلفهم سمومها فيغير ألوانهم وأبدانهم ، وكانوا في متسع منه ينالهم نسيم الريح ، وينفس عنهم غمة الغار ، وكربه .

الغمة الهواء العفن ، ويجوز الرفع النصب .

﴿ ذلك مِنْ آيات الله ﴾ ، أي ذلك الخبر والذكر ؛ ويقال : ذلك الذي فعل بهم واختار لهم المكان الموافق من عجائب الله ولطفه وكرمه .

﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المهتد ﴾ ، أي من يوفقه الله للهدى فهو المهتدي .

﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّا مُّرْشِدًا ﴾ ، أي موفقاً يرشده إلى التوحيد .

قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر : ﴿ مّنْ أَمْرِكُمْ مّرْفَقًا ﴾ بنصب الميم وكسر الفاء ، والباقون بكسر الميم ونصب الفاء ﴿ مّرْفَقًا ﴾ ، ومعناهما واحد وهو ما يرتفق به ؛ وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو : ﴿ تّزَاوَرُ ﴾ بتشديد الزاي مع الألف ، لأن أصله تتزاور أي : تميل ، فأدغم وشدد الزاي ، وقرأ ابن عامر ﴿ تَزْوَرُّ ﴾ بجزم الزاي وتشديد الراء ؛ ومعنى ذلك كله واحد وهو الميل ، ويجوز الرفع والنصب .

﴿ مُّرْشِدًا وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ لأن عيونهم مفتحة ؛ ويقال : من كثرة تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال .

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ الشمال ﴾ ؛ وذلك أن جبريل عليه السلام كان يقلبهم في كل سنة مرة ؛ لكيلا تأكل الأرض لحومهم ؛ وهو قول ابن عباس ؛ وقال مجاهد : مكثوا ثلاثمائة عام على شق واحد وقلبوا في التسع سنين .

﴿ وَكَلْبُهُمْ باسط ذِرَاعَيْهِ بالوصيد ﴾ ، أي مَاداً ذراعيه بفناء الباب .

﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ ، أي لو هجمت عليهم اليوم ، لأدبرت فراراً من هيئتهم .

(166/471)

وروى سعيد بن جابر ، عن ابن عباس أنه قال : غزا معاوية غزوة نحو الروم ، فمروا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف ؛ فقال : لو كشفنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ، فقال ابن عباس : قد منع الله ذلك عمن هو خير منك ، يعني : قال للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ ؛ فقال معاوية : لا أنتهي حتى أعلم علمهم ، فبعث ناساً ، فقال : اذهبوا فادخلوا الكهف ، فلما ذهبوا ودخلوا ، بعث الله تعالى ريحاً فأخرجتهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وكذلك بعثناهم ﴾ ، أي أيقظناهم من نومهم جياعاً كما رقدوا .

﴿ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ ، أي ليتحدثوا بينهم .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ ، أي كم مكثتم في نومكم ؟ ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا ﴾ ؛ فلما رأوا الشمس قد زالت قالوا : ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذه إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ .

وروى مجاهد ، عن ابن عباس قال : كانت دراهم أصحاب الكهف مثل أخفاف الإبل .

قرأ ابن كثير ونافع ﴿ وَلَمُلِئْتَ ﴾ بتشديد اللام ، وهي لغة لبعض العرب ، وقرأ الباقون بالتخفيف ، وهما لغتان ؛ وقرأ أبو عمرو وحمزة وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ بِوَرِقِكُمْ ﴾ بجزم الراء ؛ وقرأ الباقون بالكسر وهما لغتان .

﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ ، أي أطيب خبزاً أو أحل ذبيحة ؛ وهذا قول ابن عباس ؛ ويقال : أي أهلها أزكى طعاماً ؛ وقال عكرمة : أي أكثر وأرخص طعاماً .

﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ ، أي بطعام مِنْهُ ؛ وَيُقَالُ : أَزْكَى طعاماً أي : لم يكن غصباً ولا من جهة لا تحل .

﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ ، أي وليرفق في الشراء .

﴿ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ ، أي لا يُعلمن بمكانكم أحداً من الناس .

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ ﴾ ، يعني : إن يطلعوا عليكم ﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ ، أي يقتلوكم .

﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُواْ إِذاً أَبَدًا ﴾ ، أي لن تفوزوا ، ولن تسعدوا إذاً أبداً إن عبدتم غير الله تعالى .

﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ ، يقول : أطلعنا الملك عليهم .

قال القتبي : وأصله في اللغة أن من عثر بشيء ، نظر إليه حتى يعرفه فاستعير العثار مكان التبين والظهور ﴿ لِيَعْلَمُواْ أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ ، يعني : البعث بعد الموت ؛ وذلك أن القوم كانوا مختلفين ، منهم من كان مقراً بالبعث ، ومنهم من كان جاحداً .

فلما ظهر حالهم ، عرفوا أن البعث حق وأنه كائن .

﴿ وَأَنَّ الساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا إِذْ يتنازعون بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ ، يعني : إذ يختلفون فيما بينهم ؛ وقال بعضهم : اختلفوا فيما بينهم هو ما ذكر بعد هذا في عددهم ؛ وقال بعضهم : اختلفوا .

فقال المؤمنون : فيما بينهم نبني مسجداً ؟ وقالت النصارى : نبني كنيسة .

فغلب عليهم المسلمون وبنوا المسجد .

فذلك قوله تعالى : ﴿ فَقَالُواْ ابنوا عَلَيْهِمْ بنيانا ﴾ ، أي مسجداً .

﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ ، أي عالم بهم .

﴿ قَالَ الذين غَلَبُواْ على أَمْرِهِمْ ﴾ ، يعني : الذين كانوا على دين أصحاب الكهف وهم المؤمنون .

﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِدًا ﴾ ؛ قال الزجاج : فيه دليل أنه ظهر أمرهم ، وغلب الذين أقروا بالبعث على غيرهم ، لأنهم اتخذوا مسجداً ؛ والمسجد يكون للمسلمين .

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُم ﴾ ؛ قال بعضهم : اختلفوا في أمرهم في ذلك الوقت ؛ ويقال : هذا الاختلاف في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أخبر الله تعالى نبيه أنه لو سأل أهل الكتاب يختلفون عليه .

فسألهم ، فاختلفوا وذلك أن أهل نجران ، السيد والعاقب ومن معهما ، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان السيد صارماً يعقوبياً ، والعاقب نسطورياً ، وصنف منهم ملكانياً فسألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن عدة أصحاب الكهف ، فقال السيد وأصحابه : ثلاثة رابعهم كلبهم .

﴿ ﴾ ؛ قال بعضهم : اختلفوا في أمرهم في ذلك الوقت ؛ ويقال : هذا الاختلاف في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أخبر الله تعالى نبيه أنه لو سأل أهل الكتاب يختلفون عليه .

فسألهم ، فاختلفوا وذلك أن أهل نجران ، السيد والعاقب ومن معهما ، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان السيد صارماً يعقوبياً ، والعاقب نسطورياً ، وصنف منهم ملكانياً فسألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن عدة أصحاب الكهف ، فقال السيد وأصحابه : ثلاثة رابعهم كلبهم .

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ ، أي العاقب وأصحابه : ﴿ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ ، أي ظناً بالغيب لا علم لهم .

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ ، أي صنف منهم : ﴿ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ .

قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ ؛ وهذا إخبار من الله أن عدتهم سبعة .

قال ابن عباس ، وفي رواية أخرى أنه قال : أظن القوم كانوا ثلاثة .

قال واحد منهم : كم لبثتم ؟ فقال الثاني : لبثنا يوماً أو بعض يوم .

فقال الثالث : ربكم أعلم بما لبثتم .

وروي عن ابن عباس أنه قال إنهم سبعة وذكر أسماءهم ، فقال : مكسلينا وهو أكبرهم ، وتمليخاً ، ومطرونس ، وسارينوس ، ونوانس ، وكشطود ، وبيونس ، وبطنبور ، وليونس .

وذكر في رواية وهب أسماؤهم بخلاف هذا إلا تمليخا ، فقد اتفقوا على اسمه ؛ وقال ابن عباس : كان اسم الكلب قطمير ؛ وقال سعيد بن جبير : كان اسمه فرفدين ؛ ويقال : كان لونه خليج ؛ ويقال : كان لونه غلبة بالفارسية ومعناه بالعربية أبلق ؛ وقال بعض المحدثين : إن كلب أهل الكهف يكون معهم في الجنة ؛ وقال بعضهم : يصير تراباً مثل سائر الحيوانات . وإنما الجنة للمؤمنين خاصة .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا ﴾ ؛ قال قتادة : ﴿ فَلَا تُمَارِ ﴾ ، يقول حسبك ما أعلمناك من خبرهم .

﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ ، أي لا تسأل عن أصحاب الكهف من النصارى أحداً .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ، يعني : إلا أن تستثني ، فتقول : إن شاء الله .

﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ ، يعني : إذا نسيت الاستثناء ، فاذكرها بعد ما ذكرت واستثن .

وهذا في غير اليمين ؛ وأما في اليمين ، فاتفق الفقهاء من أهل الفتوى أن الاستثناء لا يكون موصولاً إلا رواية عن ابن عباس ، روى عنه مجاهد قال : يستثني الرجل في يمينه متى ذكر .

ثم قرأ : ﴿ واذكر رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ .

وهذه الرواية غير مأخوذة .

وروى أبو هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كَانَ لِسُلَيْمَانَ بنِ دَاودَ مِائَةُ امْرأَة ، فَقَالَ : لأَطُوفَنَّ اللَّيلةَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعاً وَكُلُّ امْرَأَةٍ تَأْتِي بغلامٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله ، وَنَسِيَ أَنْ يَقُولَ : إِنْ شَاءَ الله .

فَلَمْ تَأْتِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ بِشَيْءٍ ، إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ أَتَتْ بِشِقِّ غُلامٍ .

فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ قَالَ : إِنْ شَاءَ الله ، لَوُلِدَ لَهُ ذَلِكَ وَكَانَ دَرَكاً لَه فِي حَاجَتِهِ " .

(170/471)

ثم قال تعالى : ﴿ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِى رَبّى ﴾ ، أي يرشدني ﴿ لِاقْرَبَ ﴾ ، أي لأسرع ﴿ مّنْ هذا ﴾ الميعاد الذي وعدت لكم ، ﴿ رَشَدًا ﴾ ؛ أي صواباً ؛ وهذا قول مقاتل ؛ وقال الزجاج : معناه عسى ربي أن يعطيني من الآيات والدلائل على النبوة ، ما يكون أقرب في الرشد وأدل على قصة أصحاب الكهف .

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿ أَن يَهْدِيَنِى ﴾ بالياء عند الوصل ، وقرأ الباقون بحذف

الياء .

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وازدادوا تِسْعًا ﴾ ، قرأ حمزة والكسائي ﴿ ثلاث مِا۟ئَةِ ﴾ بشسكسر الهاء بغير تنوين على معنى الإضافة ؛ وقرأ الباقون بالتنوين .

﴿ لَهُ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ ، أي عالم بما لبثوا في رقودهم ؛ وقال الكلبي : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ ، أي هو عالم بقصة أصحاب الكهف وغيرهم .

﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِىٍّ ﴾ ؛ أي أصحاب الكهف .

﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ ؛ قرأ ابن عامر ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا۟ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة ، وقرأ الباقون بالياء ، ومعناه أنه قد جرى ذكر علمه وقدرته ، وأعلم أنه لا يشرك في حكمه أحداً .

كما قال : ﴿ عالم الغيب فَلَا يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ [الجن : 27/26] ، ومن قرأ بالتاء يقول : لا تنسبن أحداً إلى عالم الغيب ، ومعناه أنه لا يجوز لأحد أن يحكم بين رجلين بغير حكم الله ، فيما حكم أو دل عليه حكم الله ؛ فليس لأحد أن يحكم من ذات نفسه .

﴿ واتل مَا أُوْحِىَ إِلَيْكَ ﴾ ، يقول : اقرأ عليهم الذي أنزل إليك ﴿ مِن كتاب رَبِّكَ ﴾ ، يعني : القرآن .

﴿ لاَ مُبَدِّلَ لكلماته ﴾ ؛ يقول : لا مغير لنزول القرآن ولا خلف له ؛ ويقال : ولا ينقص منه ولا يزاد فيه .

(171/471)

﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ ، أي لا ملجأ يمنعك منه ؛ ويقال : ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ ، أي مانعاً يمنعك ؛ ويقال : معدلاً .

وإنما سمي اللحد لحداً ، لأنه في ناحية ؛ ويقال : معناه وإن زدت فيه أو نقصت منه ، لن تجد من عذابه ملجأ .

﴿ واصبر نَفْسَكَ ﴾ ، يقول : واحبس نفسك ﴿ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ ، أي يصلون لله تعالى ﴿ بالغداة والعشى ﴾ ، يعني : الصلوات الخمس .

قال ابن عباس : نزلت الآية في سلمان ، وصهيب ، وعمار بن ياسر ، وخباب بن الأرت ، وعامر بن فهيرة ، ونحوهم من الفقراء قالوا : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ذات يوم ، عنده سلمان على بساط منسق بالخوص أي منسوجاً إذ دخل عليه عيينة بن حصن الفزاري ، فجعل يدفعه بمرفقه وينحيه ، حتى أخرجه من البساط .

وكان على سلمان شملة قد عرق فيها فقال عيينة : إنَّ لنا شرفاً ، فإذا دخلنا عليك

فأخرج هذا واضربه ؛ فوالله إنه ليؤذيني ريحه .

أما يؤذيك ريحه ؟ فإذا خرجنا من عندك ، فأدخلهم وأذن لهم بالدخول إن بدا لك أن يدخلوا عليك أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلساً ، فنزل : ﴿ واصبر نَفْسَكَ ﴾ إلى ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ ، أي يطلبون رضاه .

﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ ، أي لا يتجاوزهم إلى زينة الحياة الدنيا ويقال : لا تحتقرهم ولا تزدرهم .

﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ﴾ ، أي ما قال عيينة بن حصن الفزاري وأمثاله ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ ، أي عن القرآن ، ﴿ واتبع هَوَاهُ ﴾ في عبادة الأصنام .

﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ ، أي ضياعاً ؛ وقال السدي : هلاكاً .

قال أبو عبيدة : ندماً ؛ وقال القتبي : أصله من العجلة والسبق .

قال المفسرون : أي سرفاً ؛ وقال الزجاج : تفريطاً وهو العجز .

ثم قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ ، أي القرآن ، يعني : الذي أعطاكم به الحق من ربكم وهو قول : لا إله إلا الله ، يعني : ادعهم إلى الحق .

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ ، أي من شاء فليقل : لا إله إلا الله ؛ ويقال : معناه من شاء الله له الإيمان آمن ، ومن شاء الله له الكفر كفر ؛ ويقال : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن ﴾ من لفظه لفظ المشيئة ، والمراد به الأمر ، يعني : آمنوا ؛ ومن شاء فليكفر لفظه لفظ المشيئة والمراد به الخبر ومعناه ومن كفر .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا ﴾ ، يعني : للكافرين ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ ، يعني : أن دخانها محيط بالكافرين ، قال الكلبي ومقاتل : يخرج عنق من النار ، فيحيط بهم كالحظيرة .

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا ﴾ من العطش ، ﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ ، أي أسود غليظاً كرديء الزيت ؛ وهذا قول الكلبي والسدي وابن جبير .

وروى عكرمة ، عن ابن عباس مثله ؛ ويقال : هو الصفر المذاب أو النحاس المذاب ، إذ بلغ غايته في الحر ؛ وروى الضحاك ، عن ابن مسعود : أنه أذاب فضة من بيت المال ، ثم بعث إلى أهل المسجد وقال : من أحب أن ينظر إلى المهل ، فلينظر إلى هذا : وقال مجاهد : المهل القيح والدم الأسود كعكر الزيت .

﴿ يَشْوِي الوجوه ﴾ ، يعني : إذا هوى به إلى فيه أنضج وجهه .

﴿ بِئْسَ الشراب ﴾ المهل .

﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ ، يقول بئس المنزل النار ، رفقاؤهم فيها الشياطين والكفار .

﴿ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً ﴾ ، أي مجلساً .

وأصل الارتفاق الاتكاء على المرفق .

(173/471)

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَملاً ﴾ ، أي لا نبطل ثواب من أحسن عملاً في الآخرة : ثم بيّن ثوابهم فقال : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ ، العدن الإقامة ؛ ويقال : العدن بطنان الجنة وهي وسطها ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ ، السندس ما لطف من الديباج ، والاستبرق ما ثخن من الديباج ؛ وقال القتبي : يقول قوم : هو فارسي معرب ، أصله استبرك ، وقال الزجاج في قوله : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ : يجوز أن يكون خبره : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ ، كأنه يقول : إنا لا نضيع أجرهم ، ويحتمل أن يكون الجواب قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ ويجوز أن يكون جوابه لم يذكر ، وقد بيَّن ثواب من أحسن عملاً في موضع آخر ، وهو قوله : ﴿ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ وقوله ﴿ أَسَاوِرَ ﴾ جمع أسورة ، واحدها سوار

والأسورة جمع الجمع .

﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأرائك ﴾ ، أي على السرر في الحجال ، ولا يكون أريكة إلا إذا اجتمعا السرير والحجلة .

﴿ نِعْمَ الثواب ﴾ الجنة ، ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ ، أي منزلاً في الجنة قُرناؤهم الأنبياء والصالحون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 334.346 ﴾

(174/471)

وقال الثعلبى :

﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيّماً مستقيماً . قال ابن عباس : عدلاً . الفرّاء : قيّماً على الكتب كلّها ناسخاً لشرائعها . ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ : مختلفاً ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً ﴾ أي لتنذركم بأساً شديداً ﴿ مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴾ وهي الجنّة .

﴿ مَّاكِثِينَ ﴾ : مقيمين ﴿ فِيهِ أَبَداً * وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً * مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ نصب على التمييز والقطع ، قديره : كبرت الكلمة كلمة ،

﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ ﴾ : ما يقولون ﴿ إِلَّا كَذِباً ﴾ .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ : قاتل نفسك ﴿ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بهذا الحديث ﴾ : القرآن ﴿ أَسَفاً ﴾ : حزناً وجزعاً وغضباً .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرض ﴾ من كل شيء ﴿ زِينَةً لَّهَا ﴾ ، قال الضحّاك من الزاكية خاصّة زينة لها ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ أي أزهد فيها .

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً ﴾ : مستوياً ﴿ جُرُزاً ﴾ : يابساً أملس لا تنبت شيئاً .

(175/471)

﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ ، معناه : بل أم حسبت ، يعني : أظننت يا محمد ﴿ أَنَّ أَصْحَابَ الكهف والرقيم كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً ﴾ ؟ يعني : ليسوا أعجب آياتنا ؛ فإنّ ما خلقت من السماوات والأرض وما فيهنّ من العجائب أغرب منهم . والكهف هو الغار في الجبل .

واختلفوا في الرقيم ، فقال فيه ما روى ابن جريج عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ ثلاثة نفر خرجوا يرتادون لأهلهم ، بينا هم يمشون إذ أصابتهم السماء ، فأووا إلى كهف فسقطت صخرة من الجبل فانطبقت على

باب الكهف فانقفل عليهم ، فقال قائل منهم : اذكروا أيّكم عمل حسنة لعل الله برحمته يرحمنا .

فقال رجل منهم : قد عملت حسنة مرة ، كان لي أُجراء يعملون عملاً استأجرت كل رجل منهم بأجر معلوم ، فجاءني رجل ذات يوم وسط النهار فاستأجرته بشرط أصحابه ، فعمل في بقية نهاره كما عمل الرجل منهم في نهاره كله ، فرأيت عليّ في الذّمام ألاّ أُنقصه ممّا استأجرت به أصحابه ، لما جهد في عمله ، فقال رجل منهم : أتعطي هذا ما أعطيتني ولا يعمل إلاّ نصف النهار ؟ قلت : يا عبد الله لم أبخسك شيئاً من شرطك ، وإنما هو مالي أحكم فيه ما شئت .

قال : فغضب وذهب وترك أجره ، فوضعت حقه في جانب من البيت ما شاء الله ، ثمّ نزل بي بعد ذلك بقر فاشتريت به فصيلة من البقر ، فبلغت ما شاء الله ، فمرّ بي بعد حين شيخ ضعيف لا أعرفه ، فقال لي : إنّ لي عندك حقاً . فذكره حتى عرفته ، قلت : إيّاك أبغي وهذا حقّك . فعرضتها عليه جميعاً فقال : يا عبد الله ، لا تسخر بي إن لم تتصدّق علي فأعطني حقي . قلت : والله لا أسخر ، إنها لحقك ما لي فيه شيء ، فدفعتها إليه . اللّهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنّا . فانصدع الجبل حتى رأوا الضوء فأبصروا .

وقال الآخر : قد عملت حسنة مرّة ، كانت لي فضل ، وأصاب النّاس شدّة ، فجاءتني امرأة تطلب مني معروفاً ، فقلت : والله ما هو دون نفسك . فأبت عليَّ ، وذهبت ورجعت ثلاث مرات وقلت : لا والله ما هو دون نفسك . فأبت علّي وذهبت ، وذكرت لزوجها ، فقال لها : أعطيه نفسك وأغيثي عيالك . فرجعت إليّ ونشدتني بالله ، فأبيت عليها وقلت : والله ما هو دون نفسك . فلّما رأت ذلك أسلمت إلىّ نفسها ، فلّما تكشّفتها وهممت بها ارتعدت من تحتي ، فقلت لها : ما شأنك ؟ قالت : أخاف الله رب العالمين . فقلت لها : خفتِه في الشدّة ولم أخفه في الرخاء فتركتها وأعطيتها ما يحق علىّ بما تكشفتها . اللهمّ إن كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنا . فانصدع حتى تعارفوا وتبيّن لهم .

وقال الآخر : قد عملت حسنة مرّة ، كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكان لي غنم ، فكنت أُطعم أبويَّ وأسقيهما ثمّ أرجع إلى أهلي . قال : فأصابني يوماً غيث حبسني حتى أمسيت فأتيت أهلي فأخذت محلبي وحلبت غنمي وتركتها قائمة فمضيت إليهما ، فوجدتهما ناما ، فشقّ عليَّ أن أُوقضهما ، وشقّ عليَّ أن أترك غنمي فما برحت جالساً ومحلبي على يدي حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما . اللهم إن فعلت ذلك لوجهك فافرج عنّا " .

قال النعمان لكأني أسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الجبل طاق ، ففرج

الله عنهم وخرجوا " .

وقال ابن عباس : الرقيم واد بين غطفان وأيلة ، وهو الوادي الذي فيه أصحاب الكهف .

وقال كعب هي قريتهم . وهو على هذا التأويل من رقمة الوادي وهو موضع الماء منه ، تقول العرب : عليك بالرقمة ، ودع الضّفة .

والضِّفتان : جانبا الوادي . وقال سعيد بن جبير : الرَّقيم لوح من حديد ، وقيل : من رصاص ، كتبوا فيه أسماء أصحاب الكهف وقصتهم ، ثمّ وضعوه على باب الكهف .

وهو على هذا التأويل بمعنى المرقوم ، أي المكتوب . والرّقم : الخط والعلامة ، والرقم : الكتابة .

(177/471)

ثمّ ذكر قصتهم فقال : ﴿ إِذْ أَوَى الفتية إِلَى الكهف ﴾ ، أي رجعوا وصاروا . واختلفوا في مسيرهم إلى الكهف ، فقال محمد بن إسحاق بن يسار : مرج أهل الإنجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت ، وفيهم بقايا على دين المسيح ابن مريم (عليه السلام) ، متمسكين بعبادة الله عزّ وجلّ وتوحيده . وكان ممّن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يُقال له دقيانوس كان قد عبد الأصنام وذبح للطواغيت وقتل

من خالفه في ذلك ممّن أقام على دين المسيح . وكان ينزل بقرى الروم فلا يترك في قرية ينزلها أحداً إلاّ فتنه حتى يعبد الأصنام ، ويذبح للطواغيت ، حتى نزل مدينة أصحاب الكهف وهي أفسوس ، فلما نزلها كبر ذلك على أهل الإيمان فاستخفوا منه وهربوا في كل وجه . وكان دقيانوس قد أمر حين قدمها أن يتتبّع أهل الإيمان ، فيجمعوا له ، واتّخذ شرطاً من الكفار من أهلها ، فجعلوا يتتبعون أهل الإيمان في مساكنهم فيخرجونهم إلى دقيانوس فيقدمهم إلى الجامع الذي يذبح فيه للطواغيت ، فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الأصنام والذبح للطواغيت ، فمنهم من يرغب في الحياة ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله فيُقتل . فلما رأى ذلك أهل الشدّة في الإيمان بالله عز وجّل ، جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل ، فيُقتّلون ويقطّعون ثمّ يربط ما قُطع من أجسامهم على سور المدينة من نواحيها كلّها وعلى كلّ باب من أبوابها ، حتّى عظمت الفتنة على أهل الإيمان فمنهم من أقّر فتُرك ومنهم مَن صُلِبَ على دينه فقتل .

فلما رأى الفتية ذلك حزنوا حزناً شديداً ، فقاموا وصلّوا وصاموا واشتغلوا بالدعاء والتسبيح لله عز وجّل ، وكانوا من أشراف الرّوم ، وكانوا ثمانية نفر ، فبكوا وتضرّعوا

وجعلوا يقولون : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السماوات والأرض لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إلها لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴾ ، اكشف عن عبادك هذه الفتنة ، وارفع عنهم البلاء ، وأنعم على عبادك الذين آمنوا بك حتى يعلنوا عبادتك .

(179/471)

فبينا هم على ذلك إذ أدركهم الشرَط ، وكانوا قد دخلوا في مصلّى لهم فوجدوهم سجوداً على وجوههم يبكون ويتضرّعون إلى الله عز وجّل ويسألونه أن ينجيهم من دقيانوس وفتّنه . فلما رآهم أُولئك الكفرة قالوا لهم : ما خلفكم عن أمر الملك ؟ انطلقوا إليه . ثمّ خرجوا من عندهم فرفعوا أمرهم إلى دقيانوس ، فقالوا : نجمع الجميع وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يسخرون منك ويعصون أمرك ؟ فلما سمع ذلك أُتي بهم تفيض أعينهم من الدّمع ، معفّرة وجوههم في التراب ، فقال لهم : ما منعكم أن تشهدوا لذبح الآلهة الّتي تعبد في الأرض ، وأن تجعلوا أنفسكم كغيركم ؟ اختاروا إمّا أن تذبحوا لآلهتنا كما ذبح النّاس وإما أن أقتلكم . فقال مكسلمينا وكان أكبرهم : إن لنا إلهاً ملأ السماوات والأرض عظمته ، لن ندعو من دونه إلها أبداً ، ولن نقرّ بهذا الذي تدعونا إليه أبداً ، ولكنّا نعبد الله ربّنا ، وله الحمد والتكبير والتّسبيح من أنفسنا خالصاً ، إيّاه نعبد ، وإيّاه نسأل النجاة والخير فأمّا الطواغيت

وعبادتها ، فلن نعبدها أبداً ، فاصنع بنا ما بدا لك . ثمّ قال أصحاب مكسلمينا لدقيانوس مثل ما قال له ، فلما قالوا ذلك أمرهم فنُزع عنهم لبوس كان عليهم من لبوس عظمائهم ، ثمّ قال : أمّا إذا فعلتم فإنّي أُؤخركم ، وسأفرغ لكم فأُنجز لكم ما وعدتكم من العقوبة ، وما يمنعني أن اعجل ذلك لكم إلاّ أنّي أراكم شباباً ، حديثة أسنانكم ، ولا أُحب أن أُهلككم حتى أجعل لكم أجلاً تذكّرون فيه ، وتراجعون عقولكم .

(180/471)

ثمّ أمر بحلية كانت عليهم من ذهب وفضة فنزعت منهم ، ثمّ أمر بهم حتى أُخرجوا من عنده ، وانطلق دقيانوس إلى مدينة سوى مدينتهم التي كانوا بها قريباً منهم لبعض أُموره ، فلما رأى الفتية أن دقيانوس قد خرج من مدينتهم بادروا قدومه ، وخافوا إذا قدم مدينتهم أن يذكرهم ، فائتمروا بينهم أن يأخذ كلّ رجل نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا بها ويتزوّدوا مما بقي ، ثمّ ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة في جبل يقال له ينجلوس (1) فيمكثون فيه ، ويعبدون الله عزّ وجلّ ، حتى إذا جاء دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما شاء . فلما قال ذلك بعضهم لبعض ، عمد كلّ فتى منهم إلى بيت أبيه وأخذ نفقة فتصدّقوا بها ، انطلقوا بما بقي معهم من نفقتهم ، وأتبعهم كلب كان لهم ، حتى إذا أتوا ذلك الكهف الذي في

ذلك الجبل تلبثوا فيه .

وقال كعب الأحبار : مروا بكلب فنبح عليهم فطردوه ، فعاد ففعلوا ذلك مراراً ، فقال لهم الكلب : ما تريدون منّي ؟ لا تخشون إجابتي .

أنا أُحب أحبّاء الله ، فناموا حتى أحرسكم .

وقال ابن عباس : هربوا ليلاً من دقيانوس بن جلانوس حيث دعاهم إلى عبادة الأصنام ، وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب ، وكان على دينهم ، فخرجوا من البلد فأووا إلى الكهف ، وهو قريب من البلدة ، فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلاّ الصلاة والتسبيح والتكبير والتّحميد ابتغاء وجه الله تعالى ، فجعلوا نفقتهم إلى فتىً منهم يُقال له تمليخا ، فكان على طعامهم يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرًّا ، وكان من أجملهم وأجلدهم . وكان تمليخا يصنع ذلك ، فإذا دخل البلد يضع ثيابا كانت عليه حسانا ً، ويأخذ ثيابا ًكثياب المساكين الذين يستطعمون فيها ، ثمّ يأخذ ورقة فينطلق إلى المدينة فيشتري طعاما ًوشرابا ًويسّمّع ويتجسس لهم الخبر : هل ذكروا أصحابه بشيء ؟ ثمّ يرجع إلى أصحابه .

---

(1) قوله ينجلوس هكذا في بعض النسخ وفي بعضها مخلوس وفي حياة الحيوان منحلوس ا

ه .

فلبثوا بذلك ما لبثوا ، ثمّ قدم دقيانوس الجبّار إلى المدينة فأمر العظماء فذبحوا للطواغيت ، ففزع من ذلك أهل الإيمان ، وكان تمليخا بالمدينة يشتري لأصحابه طعامهم وشرابهم ، فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل ، فأخبرهم أنّ الجبّار دقيانوس قد دخل المدينة ، وأنهم ذُكروا والتُمسوا مع عظماء المدينة ليذبحوا للطواغيت . فلما أخبرهم فزعوا ووقعوا سجوداً يدعون الله عز وجّل ويتضرّعون ويتعوّذون به من الفتنة .

ثمّ إنّ تمليخا قال لهم : ارفعوا رؤوسكم فاطعموا من رزق الله وتوكّلوا على باريكم . فرفعوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً وخوفاً على أنفسهم ، فطعموا منه وذلك مع غروب الشمس . ثمّ جلسوا يتحدّثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضاً ، فبينا هم على ذلك إذ ضرب الله على آذانهم في الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف ، فأصابه ما أصابهم ، وهم مؤمنون موقنون ، ونفقتهم عند رؤوسهم . فلما كان من الغد تفقّدهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم ، فقال لبعضهم : لقد ساءني هؤلاء الفتية الذين ذهبوا ، لقد كانوا ظنوني غضِباً عليهم بجهلهم ما جهلوا من أمري ، ما كنت لأحمل عليهم في نفسي ولا لواحد منهم إن تابوا وعبدوا آلهتي فقال له عظماء المدينة : ما أنت بحقيق أن ترحم قوماً فجرة مردة عصاة مقيمين على ظلمهم ومعصيتهم ، وقد كنت أجّلت لهم أجلاً ، فلوا شاؤوا لرجعوا في ذلك الأجل ، ولكنّهم لم يتوبوا .

فلما قالوا له ذلك غضب غضباً شديداً ، ثمّ أرسل إلى آبائهم فسألهم عنهم ، فقال : أخبروني عن أبنائكم المردة الذين عصوني . فقالوا له : أمّا نحن فلم نعصك ، فلم تقتلنا بقوم مردة قد ذهبوا بأموالنا وأهلكوها في أسواق المدينة ثمّ انطلقوا فارتقوا إلى جبل يدعى ينجلوس ؟ فلما قالوا له ذلك خلّى سبيلهم ، وجعل لا يدري ما يصنع بالفتية ، فألقى الله عز وجّل في نفسه أن يأمر بالكهف فيُسد عليهم ، أراد الله عز وجل أن يكرمهم ويجعلهم آية لأُمّة يَستخلف من بعدهم ، وأن يبين لهم أن الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور .

فأمر دقيانوس بالكهف أن يسد عليهم ، وقال : دعوهم كما هم في الكهف يموتوا عطشاً وجوعاً ، وليكن كهفهم الذي اختاروا قبراً لهم . وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم ، قد توفى الله أرواحهم وفاة النوم وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم ، يتقلّبون ذات اليمين وذات الشمال .

ثمّ إن رجلين مؤمنين كانا في بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما ، اسم أحدهما بيدروس ، واسم الآخر روتاس ائتمرا أن يكتبا شأن الفتية وأنسابهم وأسماءهم وخبرهم في لوح من

رصاص يجعلانه في تابوت من نحاس ، ثمّ يجعلان التابوت في البنيان ، وقالا : لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قوماً مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ هذا الكتاب . ففعلا ، ثمّ بنيا عليه ، فبقي دقيانوس ما بقي ، ثمّ مات وقومه وقرون بعد كثيرة ، وخلفت الملوك بعد الملوك .

وقال عبيد بن عمير : كان أصحاب الكهف فتياناً مطوّقين مسوّرين ذوي ذوائب ، وكان معهم كلب صيدهم ، فخرجوا في عيد لهم عظيم في زيّ وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التي يعبدونها من دون الله ، وقد قذف الله في قلوب الفتية الإيمان وكان أحدهم وزير الملك فآمنوا ، وأخفى كل واحد منهم الإِيمان عن صاحبه فقالوا في أنفسهم من غير أن يظهر بعضهم لبعض : نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لا يصيبنا عقاب بجرمهم ، فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه ، ثمّ خرج آخر فرآه جالساً وحده ، فرجا أن يكون على مثل أمره من غير أن يظهر ذلك ، فجلس إليه ثمّ خرج الآخرون فجاؤوا فجلسوا إليهما ، فاجتمعوا وقال بعضهم لبعض : ما جمعكم ، وكل واحد يكتم إيمانه على صاحبه مخافة على نفسه ؟ ثمّ قالوا : ليخرج كل فتيين منكم فيخلوَا ثمّ ليفششِ كل واحد منكم إلى

صاحبه .

فخرج فتيان منهم فتواقفا ثمّ تكلّما فذكر كل واحد منهما أمره لصاحبه ، فأقبلا مستبشرين إلى أصحابهما فقالا : قد اتفقنا على أمر واحد . فإذا هم جميعاً على الإيمان ، وإذا كهف في الجبل قريب منهم ، فقال بعضهم لبعض : ﴿ فَأْوُوا إِلَى الكهف يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً ﴾ . فدخلوا ومعهم كلب صيد ، فناموا ﴿ ثَلاثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً ﴾ .

قال : وفقدهم قومهم ، وطلبوهم فعمّى الله عليهم آثارهم وكهفهم ، فلما لم يقدموا كتب أحدهم في لوح : فلان وفلان أبناء ملوكنا ، فقدناهم في شهر كذا من سنة كذا في مملكة فلان بن فلان . ووضعوا اللوح في خزانة الملك وقالوا : ليكوننّ لهذا شأن . ومات ذلك الملك ، وجاء قرن بعد قرن .

وقال وهب بن منبّه : جاء أحد حواريّ عيسى بن مريم (عليه السلام) الى مدينة أصحاب الكهف ، فأراد أن يدخلها ، فقيل له : إن على بابها صنماً لا يدخلها أحد إلاّ سجد له .

فكره أن يدخلها فأتى حمّاماً قريباً من تلك المدينة ، فكان فيه ، وكان يؤاجر نفسه من الحمامي ويعمل فيه .

ورأى صاحب الحمام في حمامه البركة ، ودرّ عليه الرزق ، وجعل يقوم عليه ، وعلقه فتية من أهل المدينة ، فجعل يخبرهم خبر السماء وخبر الأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدّقوه ، وكانوا على مثل حاله في حسن الهيئة . وكان شرطه على صاحب الحمام : إن الليل لي لا يحول بيني وبين الصلاة أحد ، وكان على ذلك حتى أتى ابن الملك بامراة فدخل بها الحمام ، فعيّره الحواري وقال له : أنت ابن الملك وتدخل مع هذه ؟ فاستحيا ، فذهب ، فرجع مرّة أُخرى فقال له مثل ذلك ، فسبّه وانتهره ولم يلتفت حتى دخلا معاً فماتا جميعاً في الحمام ، فأُتي الملك فقيل له : قتل صاحب الحمام ابنك . فالتُمس فلم يُقدر عليه ، فهرب ، فقال : من كان يصحبه ؟ فسمّوا الفتية فالتُمسوا فخرجوا من المدينة ، فمرّوا بصاحب لهم في زرع وهو على مثل إيمانهم فذكروا له أنهم التُمسوا ، فانطلق معهم ومعه كلب حتى آواهم الليل إلى الكهف فدخلوا وقالوا : نبيت هاهنا الليلة ، ثمّ نصبح إن شاء الله فترون رأيكم . فضرب الله على آذانهم .

فخرج الملك في أصحابه يتبعونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف ، وكلّما أراد الرجل منهم دخوله أُرعب ، فلم يطق أحد دخوله ، وقال قائل : أليس لو قدرت عليهم قتلتهم ؟ قال : بلى . قال : فابنِ عليهم باب الكهف واتركهم فيه يموتوا عطشاً وجوعاً . ففعل .

قال وهب : تركهم بعد ما سدّ عليهم باب الكهف زماناً بعد زمان ، ثمّ إنّ راعياً أدركه المطر عند الكهف فقال : لو فتحت هذا الكهف فادخلته غنمي من المطر فلم يزل يعالجه حتى فتح ، وردّ الله إليهم أرواحهم من الغد حين أصبحوا .

(185/471)

وقال محمد بن إسحاق : ثمّ ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له تيدوسيس ، فلما ملك بقي في ملكه ثمانياً وثلاثين سنة فتحزب الناس في ملكه ، وكانوا أحزاباً ؛ منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق ، ومنهم من يكذّب بها ، فكبر ذلك على الملك الصالح ، وبكى إلى الله عز وجّل ، وتضرّع إليه ، وحزن حزناً شديداً . فلما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق ويقولون : لا حياة إلاّ الحياة الدنيا ، وإنما تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد فأما الجسد فتأكله الأرض . ونسوا ما في الكتاب ، فجعل تيدوسيس يرسل إلى من يظن فيه خيراً وأنه معه في الحق ، فجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا يحولون الناس عن الحقّ وملّة الحواريين .

فلما رأى ذلك الملك الصالح تيدوسيس دخل بيته وأغلقه عليه ولبس مسحاً وجعل تحته رماداً ثمّ جلس عليه فدأب ليله ونهاره زماناً يتضرع إلى الله ويبكي مما يرى فيه الناس ،

ويقول : أي رب ، قد ترى اختلاف هؤلاء الناس ، فابعث إليهم من يبين لهم .

ثمّ إن الرحمن الرحيم الذي يكره هلكة العباد أراد أن يظهر على الفتية أصحاب الكهف وبين للناس شأنهم ويجعلهم آية له وحجة عليهم ، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن يستجيب لعبده الصالح تيدوسيس ويتم نعمته عليه ، ولا ينزع عنه ملكه ولا الإيمان الذي أعطاه ، وأن يعبد الله ولا يشرك به شيئاً ، وأن يجمع من كان ببلده من المؤمنين .

فألقى الله عز وجّل في نفس رجل من أهل ذلك البلد الذي به الكهف وكان اسم ذلك الرجل أولياس أن يهدم ذلك البنيان الذّي على فم الكهف ، فيبني به حظيرة لغنمه ، فأستاجر عاملين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى نزعا ما على فم الكهف ، وفتحا عليهم باب الكهف ، فحجبهم الله تعالى من الناس بالرعب .

فيزعمون أن أشجع من يريد أن ينظر إليهم أن يدخل من باب الكهف لم يتقدم حتى يرى كلبهم دونهم إلى باب الكهف ، نائماً .

فلما نزعا الحجارة وفتحا باب الكهف أذن الله عز وجّل بالقدرة والعظمة والسلطان محيي الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهراني الكهف ، فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة

أنفسهم ، فسلّم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون بها إذا أصبحوا من ليلتهم التي يبيتون فيها . ثمّ قاموا إلى الصلاة فصلوا كالذي كانوا يفعلون ، لا يُرى في وجوههم ولا أبشارهم ولا ألوانهم شيء ينكرونه ، وإنما هم كهيئتهم حين رقدوا ، وهم يرون أن ملكهم دقيانوس الجبّار في طلبهم .

فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم : إيتنا يا أخانا ما الذي قال الناس في شأننا عشية أمسِ عند هذا الجبّار وهم يظنون أنهم قد رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون ، وقد خيّل إليهم أنهم قد ناموا كأطول ما كانوا ينامون في الليلة التي أصبحوا فيها ، حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض : ﴿ كَم لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ .

وكل ذلك في أنفسهم يسير ، فقال لهم تمليخا : افتقدتم والتُمستم بالمدينة وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم فتذبحوا للطواغيت أو يقتلكم ، فما شاء الله بعد ذلك فعل . فقال لهم مكسلمينا : يا إخوتاه ، اعلموا أنكم ملاقوا الله ، فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم غداً . ثمّ قالوا لتمليخا : انطلق إلى المدينة فتسمّع ما يقال [عنّا] بها اليوم وما الذي نُذكر به عند دقيانوس ، وتلطف ولا تشعرنّ بنا أحداً ، وابتع لنا طعاماً فائتنا به ، فإنه قد نالنا الجوع ، وزدنا على الطّعام الذي جئتنا به فإنه كان قليلاً فقد أصبحنا جياعاً . ففعل تمليخا كما كان يفعل ،

ووضع ثيابه ، وأخذ الثياب التي كان يتنكّر فيها ، فأخذ ورقاً من نفقتهم الّتي كانت معهم التي ضربت بطابع دقيانوس ، وكانت كخفاف الربع .

(187/471)

فانطلق تمليخا خارجاً فلمّا مّر بباب الكهف رأى حجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ، ثمّ مّر فلم يبالِ بها ، حتى أتى باب المدينة مستخفياً يصدّ عن الطريق تخوّفاً أن يراه أحد من أهلها فيعرفه فيذهب إلى دقيانوس ، ولا يشعر العبد الصالح أن دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلاثمائة سنة .

فلما رأى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة تكون لأهل الإيمان ، فلمّا رآها عجب وجعل ينطر إليها مستخفياً ، فنظر يميناً وشمالاً ثمّ ترك ذلك الباب فتحوّل إلى باب آخر من أبوابها فنظر فرأى مثل ذلك ، فجعل يخيّل إليه أن المدينة ليست بالتي كان يعرف ورأى ناساً كثيراً محدثين لم يكن رآهم قبل ذلك ، فجعل يمشي ويعجب ويخيل إليه أنه حيران ، ثمّ رجع إلى الباب التي أتى منها ، فجعل يتعجب منه ومن نفسه ويقول : ياليت شعري أمّا هذه عشية أمس فكان المسلمون يخفون هذه العلامة ويستخفون بها ، فأما اليوم فإنها ظاهرة فلعلّي حالم ثمّ يرى أنه ليس بنائم ، فأخذ كساءه فجعله على رأسه ثمّ

دخل المدينة ، فجعل يمشي بين ظهراني سوقها فيسمع ناساً كثيرين يحلفون باسم عيسى بن مريم ، فزاده فرقاً فرأى أنه حيران ، فقام مسنداً ظهره إلى جدار من جدر المدينة ويقول في نفسه : والله ما أدري ما هذا ، أمّا عشية أمسِ فليس على الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلاّ قتل ، وأمّا الغداة فأسمعهم وكلّ إنسان يذكر أمر عيسى ولا يخاف .

ثمّ قال في نفسه : لعلّ هذه المدينة ليست بالمدينة التي أعرفها اسمع كلام أهلها ولا أعرف أحداً منهم والله ما أعلم مدينة قرب مدينتنا فقام كالحيران لا يتوجّه وجهاً ، ثمّ لقي فتىً من أهل المدينة ، فقال : ما اسم هذه المدينة يا فتى ؟ قال : دفسُوس . فقال في نفسه : لعل بي مسّاً أو أمراً أذهب عقلي ، والله يحقّ لي أن أُسرع بالخروج منها قبل أن أُخزى أو يصيبني شر فأهلك .

(188/471)

هذا الذي حدّث به تمليخا أصحابه حين تبين له حالهم . ثمّ إنّه أفاق فقال : والله لو عجّلت الخروج منها قبل أن يفطن بي لكان أكيس بي . فدنا من الذين يبيعون الطعام فأخرج الورق التي كانت معه فأعطاها رجلاً منهم ، فقال : يا عبد الله ، بعني بهذا الورق طعاماً . فأخذها الرجل فنظر إلى ضرب الورق ونقشها ، فعجب منها ثمّ طرحها إلى

رجل من أصحابه ، فنظر إليها . ثمّ جعلوا يتطارحونها من رجل إلى رجل ، ويعجبون منها ، ثمّ جعلوا يتسارّون من أجله ، ففرق فرقاً شديداً وجعل يرتعد ويظن أنهم فطنوا به وعرفوه ، وأنهم إنما يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم دقيانوس ، وجعل أُناس آخرون يأتونه فيتعرّفونه ، فقال لهم وهو شديد الفرق : أفصلوا عليّ ، قد أخذتم ورقي فأمسكوا ، وأما طعامكم فلا حاجة لي به .

فقالوا : من أنت يا فتى ؟ وما شأنك ؟ والله لقد وجدت كنزاً من كنوز الأوّلين ، وأنت تريد أن تخفيه عنا ، انطلق معنا فأرناه وشاركنا فيه نُخفِ عليك ما وجدت ؛ فإنك إن لم تفعل نأتِ بك السّلطان فنسلمك إليه فيقتلك .

فلما سمع قولهم عجب في نفسه ، وقال : قد وقعت في كل شيء أحذر منه ، ثمّ قالوا : يا فتى ، إنك والله ما تستطيع أن تكتم ما حدث ، ولا تظن في نفسك أنك سنُخفي عليك .

(189/471)

فجعل تمليخا ما يدري ما يقول لهم وما يرجع إليهم ، وفرق حتى ما يخبرهم شيئاً ، فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه وطوقوه في عنقه ، ثمّ جعلوا يقودونه في سكك المدينة مكبباً ، حتى سمع به من فيها ، فقيل : أُخذ رجل عنده كنز ، فاجتمع عليه أهل المدينة ، صغيرهم

وكبيرهم ، فجعلوا ينظرون إليه ويقولون : والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة ، وما رأيناه فيها قط ، وما نعرفه . فجعل تمليخا ما يدري ما يقول لهم مع ما يسمع منهم ، فلما اجتمع عليه أهل المدينة فرق وسكت ولم يتكلم ، ولو قال إنه من أهل المدينة لم يُصدّق ، وكان مستيقناً أن أباه وإخوته بالمدينة ، وأن حسبه في أهل المدينة من عظماء أهلها ، وأنهم سيأتونه إذا سمعوا ، وقد استيقن أنه عشية أمس يعرف كثيراً من أهلها وأنه لا يعرف اليوم من أهلها أحداً .

(190/471)

فبينا هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله : أبوه أو بعض إخوته فيخلصه من أيديهم إذ اختطفوه ، فانطلقوا به إلى رئيسي المدينة ومدبرَيها اللذين يدبّران أمرها ، وهما رجلان صالحان اسم أحدهما أرموس واسم الآخر أسطيوس . فلما انطلقوا به إليهما ظن تمليخا أنه يُنطلق به إلى دقيانوس الجبار ملكهم الذي هربوا منه ، فجعل يلتفت يميناً وشمالاً ، وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون والحيران ، فجعل تمليخا يبكي ثمّ رفع رأسه إلى السماء وإلى الله عزّ وجلّ ، ثمّ قال : اللهم إله السماء والأرض أفرغ عليّ اليوم صبراً وأولج معي روحاً منك تؤيّدني به عند هذا الجبار . وجعل يبكي ويقول في نفسه :

فرّق بيني وبين إخوتي ، يا ليتهم يعلمون ما لقيت وأين يُذهب بي ، ولو أنهم يعلمون فيأتون فنقوم جميعاً بين يدي هذا الجبار ، فإنا كنا تواثقنا [لنكونن معاً] لا نكفر بالله ولا نشرك به شيئاً ولا نعبد الطواغيت من دون الله [ف] فُرق بيني وبينهم فلن يروني ولن أراهم أبداً ، وقد كنا تواثقنا على ألاّ نفترق في حياة ولا موت ، يا ليت شعري ما هو فاعل بي ؟ أقاتلي أم لا ؟

هذا ما حدث به تمليخا أصحابه عن نفسه حتى انتهي به إلى الرجلين الصالحين : أرموس وأسطيوس ، فلما رأى تمليخا أنه لم يذهب به إلى دقيانوس أفاق وسكن عنه البكاء ، فأخذ أرموس وأسطيوس الورق ، فنظرا إليه وعجبا منه ثمّ قال أحدهما : أين الكنز الذي وجدت يا فتى ؟ هذا الورق يشهد عليك أنك وجدت كنزاً .

فقال لهم تمليخا : ما وجدت كنزاً ، ولكن هذا الورق ورق آبائي ونقش هذه المدينة وضربها ، ولكن والله ما أدري ما شأني ، وما أدري ما أقول لكما . فقال أحدهما : فمن أنت ؟ فقال له : أمّا ما أرى فكنت أرى أني من أهل القرية . قالوا له : فمن أبوك [ومن] يعرفك بها ؟ فأنبأهم باسم أبيه فلم يجدوا أحداً يعرفه ، ولا أباه ، فقال له أحدهما : أنت

رجل كذّاب لا تخبرنا بالحقّ . ولم يدرِ ما يقول لهم غير أنه نكس بصره إلى الأرض ، فقال بعض من حوله : هذا رجل مجنون . وقال بعضهم : ليس بمجنون ، ولكن يحمّق نفسه عمداً لينفلت منكم . فقال له أحدهما ، ونظر إليه نظراً شديداً : أتظن أنا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال ، أبيك وضرب هذا الورق ونقشها أكثر من ثلاثمئة سنة ، وأنت غلام شاب تظن أنك تأفكنا وتسخر بنا ، ونحن شرط كما ترى ، وحولك سراة أهل المدينة وولاة أمرها ، وخزائن هذه البلدة بأيدينا ، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار ؟ إنني لأظنني سآمر بك فتعذّب عذاباً شديداً ثمّ أُوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدت .

فلّما قال له ذلك ، قال تمليخا : أنبئوني عن شيء أسألكم عنه ، فإن فعلتم صدّقتم ما عندي . قالوا له : سل ، ما نكتمك شيئاً . فقال : ما فعل الملك دقيانوس ؟ قالا له : ليس نعرف ملكاً يُسمى دقيانوس على وجه الأرض ، ولم يكن إلاّ ملكاً قد هلك منذ زمان ودهر طويل ، وهلكت بعده قرون كثيرة . قال لهم تمليخا : فوالله ما هو بمصدّقي أحد من الناس بما أقول ، لقد كنا فتية ، وإن الملك أكرهنا على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فنمنا ، فلما انتبهنا خرجت لأشتري لأصحابي طعاماً وأتجسّس الأخبار فإذا أنا كما ترون ، فانطلقوا معي إلى الكهف الذي في جبل ينجلوس أُرِكم أصحابي . فلما سمع أرموس ما يقول تمليخا ، قال : يا قوم لعلّ هذه آية من آيات الله عزّ وجلّ جعلها لكم على يدي هذا الفتى ، فانطلقوا بنا معه يُرِنا أصحابه كما قال .

فانطلق معهم أرموس وأسطيوس وانطلق معهما أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف ينظرون إليهم .

ولمّا رأى الفتية أصحاب الكهف أن تمليخا قد احتبس عليهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذي كان يأتي به ، ظنوا أنه قد أُخذ فذهب به إلى ملكهم دقيانوس الذي هربوا منه ، فبينا هم يظنون ذلك ويتخوفون إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل مصعدة نحوهم ، وظنوا أنهم رسل دقيانوس الجبّار وأنه بعث إليهم ليؤتى بهم ، فقاموا حين سمعوا ذلك إلى الصلاة ، وسلّم بعضهم على بعض ، وقالوا : انطلقوا بنا نأتِ أخانا تمليخا ، فإنه الآن بين يدي الجبّار دقيانوس ينتظر متى نأتيه ، فبينا هم يقولون ذلك ، وهم جلوس بين ظهراني الكهف ، فلم يروا إلاّ أرموس وأصحابه وقوفاً على باب الكهف ، وسبقهم تمليخا فدخل عليهم وهو ويبكي ، فلما رأوه يبكي ، بكوا معه وسألوه عن شأنه ، فأخبرهم بخبره وقصّ عليهم النبأ كلّه فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا نياماً بأمر الله ذلك الزمان كله ، وإنما أُوقظوا ليكونوا آية للناس ، وتصديقاً للبعث ، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها .

ثمّ دخل على آثر تمليخا أرموس فرأى تابوتاً من نحاس مختوماً بخاتم من فضة فقام بباب

الكهف ، ثمّ دعا رجالاً من عظماء المدينة ففتح التابوت عندهم فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوباً فيها : (إن مكسلمينا ومحسلمينا وتمليخا ومرطولس وكسوطونس وبيوسرس وتكريوس وبطينوس كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم ، فدخلوا هذا الكهف ، فلمّا أُخبر بمكانهم أمر بالكهف فسدّ عليهم بالحجارة ، وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلمه مَن بعدهم إن عثروا عليهم .

(193/471)

فلمّا رأوه عجبوا وحمدوا الله الذي أراهم آية البعث فيهم ، ثمّ إنهم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه ، ثمّ دخلوا على فتية الكهف فوجدوهم جلوساً بين ظهرانيه مشرقة وجوههم ، لم تبلَ ثيابهم ، فخرّ أرموس وأصحابه سجّداً ، وحمدوا الله الذي أراهم آية من آياته ، ثمّ كلّم بعضهم بعضاً وأنبأهم الفتية عن الذي لقوا من ملكهم دقيانوس .

ثمّ إن أرموس وأصحابه بعثوا بريداً إلى ملكهم الصالح تيدوسيس أن عجّل ، لعلك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها الله على ملكك ، وجعلها آية للعالمين لتكون نوراً وضياءً وتصديقاً للبعث ، فاعجل على فتية بعثهم الله تعالى ، وقد كان توفّاهم منذ أكثر من ثلاثمئة سنة .

فلما أتى الملك الخبر قام من المسندة التي كان عليها ورجع إليه عقله ، وذهب عنه همّه ،

ورجع إلى الله عز وجّل ، فقال : أحمدك الله ربّ السماوات والأرض ، وأعبدك وأُسبّح لك تطوّلت علي ، ورحمتني برحمتك ، فلم تطفئ النّور الذي كنت جعلت لآبائي وللعبد الصالح قسطيطوس الملك .

فلمّا نبّأ به أهل المدينة ركبوا وساروا حتى أتوا مدينة دقيانوس فتلقّاهم أهل المدينة وساروا معه حتى صعدوا نحو الكهف وأتوه ، فلما رأى الفتية تيدوسيس فرحوا به وخرّوا سجّداً على وجوههم ، وقام تيدوسيس قدامهم ثمّ اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبّحون الله عزّ وجلّ ويحمدونه ، ثمّ قال الفتية لتيدوسيس : نستودعك الله ، ونقرأ عليك السلام ، وحفظك الله وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شرّ الجن والإنس .

فبينا الملك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفّى الله أنفسهم ، وقام الملك إليهم فجعل ثيابه عليهم وأمر أن يجعل لكل رجل منهم تابوت من ذهب ، فلما أمسوا ونام أتوه في المنام فقالوا : إنّا لم نخلق من ذهب ولا فضّة ، ولكنا خلقنا من تراب وإلى التراب نصير ، فاتركنا كما كنّا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله عزّ وجلّ منه .

فأمر الملك حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله تعالى حين خرجوا من عندهم بالرعب ، فلم يقدر أحد على أن يدخل عليهم ، وأمر الملك فجُعل على باب الكهف مسجدٌ يُصلّى فيه ، وجعل لهم عيداً عظيماً ، وأمر أن يؤتى كل سنة .

وقيل : إنهم لما أتوا إلى باب الكهف قال تمليخا : دعوني حتّى أدخل على أصحابي فأُبشّرهم ؛ فإنهم إن رأوكم معي أرعبتموهم . فدخل فبشّرهم ، وقبض الله روحه وأرواحهم ، وعمي عليهم مكانهم ، فلم يهتدوا إليه . فهذا حديث أصحاب أهل الكهف .

ويقال : " إنّ نبي الله محمداً صلى الله عليه وسلم سأل ربّه أن يريه إيّاهم ، فقال : " إنّك لن تراهم في دار الدنيا ، ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان بك " . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبرئيل (عليه السلام) : "كيف أبعثهم ؟ " . قال : " ابسط كساءً لهم ، وأجلس على طرف من أطرافها أبا بكر ، وعلى الثاني عمر وعلى الثالث عليًّا ، وعلى الرابع أبا ذر ، ثمّ ادعُ الريح الرخاء المسخّر لسليمان بن داود (عليهما السلام) فإن الله تعالى أمرها أن تطيعك "

. ففعل النبي صلى الله عليه وسلم ما أمره ، فحملتهم الريح حتى انطلقت بهم إلى باب الكهف ، فلما دنوا من الباب قلعوا منه حجراً ، فقام الكلب حين أبصر الضوء فهرّ وحمل عليهم ، فلما رآهم حرّك رأسه وبصبص بذنبه وأومأ برأسه أن ادخلوا ، فدخلوا الكهف وقالوا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فردّ الله إليهم أرواحهم ، فقاموا بأجمعهم وقالوا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فقالوا : إنّ نبي الله محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليكم السلام . فقالوا : على محمد رسول الله السلام ما دامت السماوات والأرض ، وعليكم بما بلّغتم . ثمّ جلسوا بأجمعهم يتحدثون ، فآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وقبلوا دين الإسلام ، وقالوا : أقرئوا محمداً منّا السلام . فأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدي .

ويقال : إنّ المهدي يسلّم عليهم ، فيحييهم الله عزّ وجلّ ، ثمّ يرجعون إلى رقدتهم ولا يقومون إلى يوم القيامة .

ثمّ جلس كل واحد منهم على مكانه ، وحملتهم الريح ، وهبط جبرئيل (عليه السلام) [على النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره] بما كان [منهم] ، فلما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كيف وجدتموهم ؟ وما الذي أجابوا ؟ " .

فقالوا : يا رسول الله ، دخلنا عليهم فسلّمنا عليهم ، فقاموا بأجمعهم ، فردّوا السّلام ، وبلّغناهم رسالتك فأجابوا وأنابوا وشهدوا أنّك رسول الله حقاً ، وحمدوا الله عزّ وجلّ

على ما أكرمهم بخروجك وتوجيه رسولك إليهم ، وهم يقرئونك السلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهم لا تفرّق بيني وبين أصهاري وأحبائي وأختاني ، واغفر لمن أحبّني وأحب أهل بيتي وحامّتي ، وأحبّ أصحابي " " .

(196/471)

فذلك قوله عزّ وجلّ ﴿ إِذْ أَوَى ﴾ أي صار وانضم ﴿ الفتية إِلَى الكهف ﴾ ، وهو غار في جبل ينجلوس ، واسم الكهف خيرم ، ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾ أي يسّر لنا ما نلتمس من رضاك . وقال ابن عباس : ﴿ رَشَداً ﴾ أي مخرجاً من الغار في سلامة . وقيل : صواباً .

قوله : ﴿ فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ ﴾ هذا من فصيحات القرآن التي أقرّت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله ، ومعناه : أنمناهم وألقينا وسلّطنا عليهم النوم ، كما يقال : ضرب الله فلانَ بالفالج ، أي ابتلاه به وأرسله عليه . وقيل : معناه حجبناهم عن السمّع ، وسددنا نفوذ الصوت إلى مسامعهم ، وهذا وصف الأموات والنيام . وقال قطرب : هو كقول العرب : ضرب الأمير علي يد الرعية ، إذا منعهم عن العبث والفساد ، وضرب السّيد على يدي عبده المأذون في التجارة ، إذا منعه عن التصرّف فيها . قال الأسود بن يعفر ، وكان ضريراً

:

ومن الحوادث لا أبا لك أنني . . . ضربت عليّ الأرض بالأسداد

﴿ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ أي معدودة ، وهو نعت للسنين ، فالعدّ المصدر ، والعدد الاسم المعدود ، كالنقص والنقض والخبط والحبط . وقال أبو عبيدة : هو نصب على المصدر .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ ، يعني من نومهم ؛ ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحصى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ ، وذلك حين تنازع المسلمون الأوّلون أصحاب الملك ، والمسلمون الآخرون الذين أسلموا حين أوى أصحاب الكهف في قدر مدّة لبثهم في الكهف ، فقال المسلمون الأولون : مكثوا في كهفهم ثلاثمئة سنة وتسع سنين ، وقال المسلمون الآخرون : بل مكثوا كذا وكذا . فقال الأوّلون : الله أعلم بما لبثوا ، فذلك قوله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ ، لتعلموا ﴿ أَيُّ الحِزْبَيْنِ ﴾ : الفريقين ﴿ أحصى ﴾ : أصوب وأحفظ ﴿ لِمَا لَبِثُوا ﴾ في كهفهم نياماً ، ﴿ أَمَدًا ﴾ : غاية .

(197/471)

وقال مجاهد : عدداً . وفي نصبه وجهان : أحدهما على التفسير والثاني لوقوع ﴿ لِمَا لَبِثُوا ﴾ عليه .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ ﴾ ، أي نقرأ وننزل ﴿ عَلَيْكَ نَبَأَهُم ﴾ ، أي خبر أصحاب الكهف ﴿ بالحق إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ : شبان وأحداث ﴿ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ ، حكم الله لهم بالفتوّة حين آمنوا بلا واسطة لذلك . وقال أهل اللسّان : رأس الفتوّة الإيمان . وقال الجنيد : الفتوّة كفّ الأذى وبذل الندى ، وترك الشكوى . وقيل : الفتوّة شيئان : اجتناب المحارم ، واستعمال المكارم . وقيل : الفتى من لا يدّعي قبل الفعل ، ولا يزكّي نفسه بعد الفعل . وقيل : ليس الفتى من يصبر على السياط ، إنما الفتى من جاز على الصراط . وقيل : ليس الفتى من يصبر على السكين ، إنما الفتى من يطعم المسكين .

﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ إيماناً وبصيرة وإيقاناً .

﴿ وَرَبَطْنَا ﴾ : وشددنا ﴿ على قُلُوبِهِمْ ﴾ بالصبر ، وألهمناهم ذلك ، وقوّيناهم بنور الإيمان حتى صبروا على هجران دار قومهم وفراق ما كانوا فيه من خفض العيش ، وفرّوا بدينهم إلى الكهف ، ﴿ إِذْ قَامُوا ﴾ بين يدي دقيانوس ﴿ فَقَالُوا ﴾ حين عاتبهم على تركهم عبادة الصنم : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السماوات والأرض لَن نَّدْعُوَا ﴾ : لن نعبد ﴿ مِن دُونِهِ إلها لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴾ ، يعني إن دعونا غير الله ، لقد قلنا إذن شططاً .

قال ابن عباس ومقاتل : جوراً . قال قتادة : كذباً . وأصل الشطط والإشطاط : مجاوزة القدر ، والإفراط.

﴿ هؤلاء قَوْمُنَا ﴾ ، يعني أهل بلدهم ﴿ اتخذوا مِن دُونِه ﴾ ، أي من دون الله ﴿ آلِهَةً ﴾ ، يعني الأصنام يعبدونها من دون الله ﴿ لَّوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم ﴾ أي هلاّ يأتون على عبادتهم ﴿ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ : بحجة واضحة ؛ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ ، فزعم أنّ له شريكاً وولداً ؟ ثمّ قال بعضهم لبعض : ﴿ وَإِذِ اعتزلتموهم ﴾ ، يعني قومكم ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ الله ﴾ ، أي واعتزلتم أصنامهم التي يعبدونها من دون الله . وكذلك هو في مصحف عبد الله : (وما يعبدون من دون الله) .

﴿ فَأْوُوا إِلَى الكهف ﴾ ، أي صيروا إليه ﴿ يَنْشُرْ ﴾ ، أي يبسط لكم ويظهر ﴿ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقاً ﴾ ، أي رزقاً رغداً . والمرفق : ما يرتفق به الانسان ، وفيه لغتان : مَرفق ، ومِرفق .

﴿ وَتَرَى الشمس إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ ، أي تتزاور ، وقرأ أهل الكوفة بالتخفيف على حذف أحد الزاءين ، وقرأ أهل الشام : ﴿ تَزْوَرُّ ﴾ على وزن تحمرّ ، وكلّها بمعنىً واحد ، أي تميل وتعدل عن كهفهم ﴿ ذَاتَ اليمين ﴾ ، أي جانب اليمين ، ﴿

﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ﴾ ، قال ابن عباس : تدعهم . قال مقاتل بن حيان : تجاوزهم . وأصل القرض : القطع . ﴿ ذَاتَ الشمال وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ ، أي متّسع من الكهف ، وجمعها فجوات وفجىً . أخبرنا الله تعالى بحفظه ايّاهم في مهجعهم ، وعرفنا لطفه بهم في مضجعهم واختياره لهم أصلح المواضع للرقاد فأعلمنا أنّه بوّأهم في مغناة من الكهف مستقبلاً بنات نعش ، تميل عنهم الشمس طالعة وغاربة وجارية ؛ لا تدخل عليهم فتؤذيهم بحرّها وتغيّر ألوانهم وتبلى ثيابهم ، وإنهم في متّسع منه ينالهم فيه بَرد الريح ونسيمها وتنفي عنهم كربة الغار وغمومه ، ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكرت من أمر الفتية ﴿ مِنْ آيَاتِ الله ﴾ : من عجائب صنع اللّه ودلالات قدرته وحكمته . ﴿ مَن يَهْدِ الله ﴾ أي يهدِه اللّه ﴿ فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً ﴾ مُعينا ﴿ مُّرْشِداً ﴾ ؛ لأنّ التوفيق والخذلان بيد الله عزّ وجلّ .

(200/471)

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ﴾ يا محمد ﴿ أَيْقَاظاً ﴾ أي منتبهين ، جمع يقِظ ويقَظ مثل قولك : رجل نجِد ونجَد للشجاع ، وجمعه أنجاد ، ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ : نيام ، جمع راقد مثل قاعد وقعود ، ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾ ، وقرأ الحسن (ونقلِبهم) بالتخفيف ، ﴿ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ الشمال ﴾

مرّة للجنب الأيمن ومرّة للجنب الأيسر . قال ابن عباس : كانوا ينقلبون في السنة مرة إلى جانب من جانب ، لئلا تأكل الأرض لحومهم . ويقال : إنّ يوم عاشوراء كان يوم تقليبهم . وقال أبو هريرة : كان لهم في كل سنة تقليبان . ﴿ وَكَلْبُهُمْ ﴾ ، قال ابن عباس : كان أنمر . وقال مقاتل : كان أصفر . وقال القرظي : شدة صفرته تضرب إلى الحمرة . الكلبي : لونه كالخلنج . وقيل : لون الحجر . وقيل : لون السماء . وقال علي ابن أبي طالب (رضي الله عنه) : "كان اسمه ريان" . وقال ابن عباس : قطمير . وقال الأوزاعي : نتوى . وقال شعيب الجبائي : حمران . عبد الله ابن كثير : اسم الكلب قطمور . [قال] السّدي : نون . عبد الله بن سلام : بُسيط . كعب : أصهب . وهب : نقيا ، وقيل : قطفير .

عن عمر قال : إن مما أُخذ على العقرب ألاّ يضر بأحد في ليله ونهاره : سلام على نوح ، وإن مما أُخذ على الكلب ألاّ يضر من حمل عليه أن يقول : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوصيد ﴾ .

وقرأ جعفر الصّادق (وكالبهم) يعني : صاحب الكلب.

﴿ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوصيد ﴾ ، قال مجاهد والضّحاك : الوصيد : فِناء الكهف ، وهو رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . وقال سعيد بن جبير : الوصيد الصعيد ، وهو التراب . وهذه رواية عطية العوفي عن ابن عباس . وقال السّدي : الوصيد الباب ، وهي

رواية عكرمة عن ابن عباس ، وأنشد :

بأرض فضاء لا يُسدّ وصيدها . . . عليّ ومعروفي بها غير منكر

(201/471)

أي بابها . وقال عطاء : الوصيد : عتبة الباب . وقال القتيبي الوصيد : البناء ، وأصله من قول العرب ، أصدت الباب وأوصدته ، أي أغلقته وأطبقته . ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ ؛ لما ألبسهم الله تعالى من الهيئة حتى لا يصل إليهم واصل ، ولا تلمسهم يدُ لامس حتى يبلغ الكتاب أجله ، فيوقظهم الله من رقدتهم لإرادة الله عزّ وجلّ أن يجعلهم آية وعبرة لمن شاء من خلقه ؛ ﴿ ليعلموا أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَأَنَّ الساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ [الكهف : 21] .

﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾ : خوفاً ، وقرأ أهل المدينة : (لملّئت) بالتشديد . وقيل : إنما ذلك من وحشة المكان الذي هم فيه . وقال الكلبي : لأن أعينهم مفتّحة كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم وهم نيام . وقيل : إن الله تعالى منعهم بالرعب لئلاّ يراهم أحد . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف ، فقال معاوية : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم

قال ابن عباس : ليس ذلك لك ، قد منع الله من هو خير منك ، قال : ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ . فقال معاوية : لا أنتهي حتى أعلم علمهم . فبعث ناساً فقال : اذهبوا فانظروا . ففعلوا ، فلمّا دخلوا الكهف بعث الله عز وجّل عليهم ريحاً فأخرجتهم فلم يستطيعوا الاطلاع عليهم من الرعب .

(202/471)

﴿ وكذلك بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أي كما أنمناهم في الكهف ، ومنعنا من الوصول إليهم ، وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان ، وثيابهم من العفن على مرّ الأيام بقدرتنا ، كذلك بعثناهم من النّومة التي تشبه الموت ﴿ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ : ليتحدّثوا ، ويسأل بعضهم بعضاً . ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ يعني : رئيسهم مكسلمينا : ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ في نومكم ؟ وذلك أنهم استنكروا من أنفسهم طول نومهم . ويقال : إنه راعهم ما فاتهم من الصلاة ، فقالوا ذلك . ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً ﴾ ؛ لأنهم دخلوا الكهف غدوة ، فلما رأوا الشمس قالوا : ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ توقّياً من الكذب ، وكانت قد بقيت من الشمس بقية . ويقال : كان بعد زوال الشمس . فلما نظروا إلى شعورهم وأظفارهم تيقّنوا أن لبثهم أكثر من يوم أو بعض يوم ، ف ﴿ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ . ويقال : إن رئيسهم لما سمع الاختلاف

بينهم قال ذلك . ﴿ فابعثوا أَحَدَكُمْ ﴾ يعني : تمليخا ﴿ بِوَرِقِكُمْ هذه إلى المدينة ﴾ ،

والورِق : الفضّة ؛ مضروبة كانت أو غير مضروبة . والدليل عليه أنّ عرفجة بن أسعد أُصيب أنفه يوم الكلاب فاتّخذ أنفاً من ورِق فأنتن عليه ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ أنفاً من ذهب . وفيه لغات : (بورْقكم) وهي قراءة أبي عمرو وحمزة وخلف ، و (ورقكم) بسكون الراء وإدغام القاف وهي قراءة أهل مكة ، و بفتح الواو وكسر الراء وهي قراءة أكثر القراء . و (ورِق) مثل كبْد وكَبِد وكِلْمة وكَلِمة .

(والمدينة) : أفسوس ، ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أزكى طعَاماً ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير : أحلّ ذبيحةً ، لأن عامّتهم كانوا مجوساً ، وفيهم قوم مؤمنون يخفون إيمانهم . قال الضحّاك : أطيب . وقال مقاتل بن حيّان : أجود . وقال يمان بن رياب : أرفص . قتادة : خير . قال عكرمة : أكثر . وأصل الزكاة الزيادة والنّماء ، قال الشاعر :

قبائلنا سبع وأنتم ثلاثة . . . ولَلسبع أزكى من ثلاث وأطيب

﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ أي قوت وطعام ، ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ : وليترفق في الشراء ، وفي طريقه ، وفي دخول المدينة ، ﴿ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴾ من الناس ، أي ولا يعلمن ، أي

إن ظُهر عليه فلا يوقعن إخوانه فيما يقع فيه .

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ فيعلموا بمكانكم ﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ ، قال ابن جريج : يشتموكم ويؤذوكم بالقول . ويقال : يقتلوكم . ويقال : كان من عادتهم القتل بالرجم وهو من أخبث القتل . وقيل : هو التوبيخ . ويضربوكم ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ : دينهم الكفر ﴿ وَلَن تفلحوا إِذًا أَبَدًا ﴾ إن عدتم إليهم .

﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا ﴾ ، أي أطلعنا ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ ، يقال : عثرت على الشيء إذا اطّلعت عليهم ، فأعثرت غيري إذا أطلعته ، ﴿ ليعلموا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ يعني قوم تيدوسيس ، ﴿ وَأَنَّ الساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ ، قال ابن عباس : تنازعوا في البنيان والمسجد ، قال المسلمون : نبني عليهم مسجداً ، لأنهم على ديننا ، وقال المشركون : نبني عليهم بنياناً ؛ لأنهم من أهل سنّتنا . وقال عكرمة : تنازعوا في الأرواح والأجساد ، فقال المسلمون : البعث للأرواح والأجساد ، و قال بعضهم : البعث للأرواح دون الأجساد ، فبعثهم الله من رقادهم وأراهم أن البعث للأرواح والأجساد . وقيل : تنازعوا في قدر لبثهم ومكثهم . وقيل : تنازعوا في عددهم ، ﴿ فَقَالُوا ابنوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الذين غَلَبُوا على أَمْرِهِمْ ﴾ يعني تيدوسيس الملك وأصحابه : ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِدًا ﴾ ، وقيل : الذين تغلبوا على أمرهم ، وهم المؤمنون . وهذا يرجع إلى الأوّل .

﴿ سيقولون ثلثة ﴾ وذلك أن السيد والعاقب وأصحابهما من نصارى أهل نجران كانوا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم . وكان السيد يعقوبياً ، وقال العاقب : كانوا خمسة سادسهم كلبهم . وكان نسطوريّاً ، وقال المسلمون : كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، فحقق الله قول المسلمين وصدّقهم بعد ما حكى قول النصارى ، فقال ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بالغيب ﴾ أي قذفاً بالظنّ من غير يقين ، كقول الشاعر :

وأجعل منّي الحقّ غيباً مرجّما . . . ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ وقال بعضهم : هذه الواو واو الثمانية ، إن العرب يقولون : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، وثمانية ، لأن العِقد كان عندهم سبعة كما هو اليوم عندنا عشرة . ونظيره قوله تعالى : ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عَنِ المنكر ﴾ [التوبة : 112] .

وقوله في صفة أهل الجنّة ﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : 73] .

وقوله لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ [التحريم : 5] .

وقال بعضهم : هذه واو الحكم والتحقيق ، فكأنه حكى اختلافهم فتمّ الكلام عند قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ ﴾ ، ثمّ حكم أن ثامنهم كلبهم ، والثامن لا يكون إلاّ بعد السّبع ، فهذا

تحقيق قول المسلمين .

﴿ رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ ، قال قتادة : قليل من الناس . وقال عطاء : يعني بالقليل : أهل الكتاب . يحيى بن أبي روق عن أبيه عن الضحّاك عن ابن عباس في قوله تعالى . ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ قال : أنا من أُولئك القليل .

وهم : مكسلمينا ، وتمليخا ، ومرطونس ، وسارينوس ، وآنوانس ، وروانوانس ، ومشططيونس ، وهو الرّاعي ، والكلب واسمه قطمير كلب أنمر فوق القلطي ودون الكردي .

وقال محمد بن المسيب : القلطي : كلب صيني ، وقال : ما بقي بنيسابور محّدث إلاّ كتب عنّي هذا الحديث إلاّ من لم يقدر له . قال : وكتبه أبو عمرو ، والحيري عني . ﴿ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ ﴾ ، أي في عدّتهم وشأنهم ﴿ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِراً ﴾ وهو ما قصّ عليه في كتابه من خبرهم يقول : حسبك ما قصّصت عليك فلا تمارِ فيهم ، ﴿ وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾ من أهل الكتاب .

﴿ وَلاَ تَقْوْلَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ ﴾ ، قال ابن عباس : يعني إذا

عزمت على أن تفعل شيئاً غداً ، أو تحلف على شيء أن تقول : إني فاعل ذلك غداً إن شاء الله . وإن نسيت الاستثناء ثمّ ذكرته فقله ولو بعد سنة ، وهذا تأديب من الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم حين سئل عن المسائل الثلاثة : أصحاب الكهف ، والروح ، وذي القرنين ، فوعدهم أن يخبرهم ولم يستثنِ .

عبد الله بن سعيد المقري عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يتم إيمان العبد حتى يستثني في كلّ كلامه " .

﴿ واذكر ربّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد وأبو العالية والحسن : معناه : إذا نسيت الاستثناء ثمّ ذكرت ، فاستثنِ . وقال عكرمة : معناه : واذكر ربّك إذا غضبت .

حدّثنا عبد الصمّد بن حسان عن وهيب قال : مكتوب في الإنجيل : ابن آدم ، اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق ، وإذا ظُلِمتَ فلا تنتصر ؛ فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك . وقال الضحّاك والسدي : هذا في الصلاة ؛ لقول النبّي صلى الله عليه وسلم " من نسي صلاة أو نام عنها فليصلّها إذا ذكرها " .

وقال أهل الإشارة : معناه واذكر ربك إذا نسيت غيره ؛ لأن ذكر الله تعالى إنما يتحقق بعد نسيان غيره . يؤيده قول ذي النون المصري : من ذكر الله ذكراً على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء ، فإذا نسي في جنب ذكره كل شيء حفظ الله له كلّ شيء ، وكان له عوضاً من كل شيء . وقيل : معناه : واذكر ربّك إذا تركت ذكره ، والنسيان هو الترك . ﴿ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً ﴾ ، أي يثبتني على طريق هو أقرب إليه ، فأرشد . وقيل : معنا لعلّ الله أن يهديني ويسدّدني لأقرب مما وعدتكم وأخبرتكم أنه سيكون إن هو شاء . وقيل : إن الله تعالى أمره أن يذكره إذا نسي شيئاً وسأله أن يذكره فيتذكّر ، أو يهديه لما هو خير له من تذكُّر ما نسيه . ويقال : إن القوم لمّا سألوه عن قصة أصحاب الكهف على وجه العناد أمره الله تعالى أن يخبرهم أن الله سيؤتيه من الحجج والبيان على صحة نبوّته وما دعاهم إليه من الحق ودلّهم على ما سألوه . ثمّ إن الله عز و جلّ فعل ذلك حيث آتاه من علم غيوب المرسلين وخبرهم ما كان أوضح في الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف . وقال بعضهم : هذا شيء أمر أن يقوله مع قوله : ﴿ إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾ [القصص : 27] إذا ذكر الاستثناء بعد ما نسيه ، فإذا نسي الإنسان فيؤتيه من ذلك .

وكفارته أن يقول : ﴿ عسى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً ﴾ .

﴿ وَلَبِثُواْ ﴾ يعني : أصحاب الكهف ﴿ فِي كَهْفِهِمْ ﴾ ، قال بعضهم : هذا خبر عن أهل الكتاب أنهم قالوا ذلك ، وقالوا : لو كان خبراً من الله عز وجّل عن قدر لبثهم في الكهف لم يكن لقوله : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ وجه مفهوم ، وقد أعلم خلقه قدر لبثهم فيه ، هذا قول قتادة . يدل عليه قراءة ابن مسعود : (وقالوا لبثوا في كهفهم) . وقال مطر الورّاق في هذه الآية : هذا شيء قالته اليهود ، فردّه الله عليهم ، وقال : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ . وقال الآخرون : هذا إخبار الله عن قدر لبثهم في الكهف ، وقالوا : معنى قوله : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ ﴾ أن أهل الكتاب قالوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إن للفتية من لدن دخلوا الكهف إلى يومنا هذا ثلاثمئة وتسع سنين فردّ الله عز وجّل ذلك عليهم ، وقال : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ بعد أن قبض أرواحهم إلى يومنا هذا لا يعلم ذلك غير الله وغير من أعلمه الله ذلك . وقال الكلبي : قالت نصارى نجران : أما الثلاثمئة فقد عرفناها ، وأما التسع فلا علم لنا بها فنزلت ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ .

﴿ ثلاثمائة سنين ﴾ مضاف غير منّون ، قرأها حمزة ، والكسائي والباقون بالتنوين يعني : ولبثوا في كهفهم سنين ثلاثمئة . وقال الضحّاك ومقاتل : نزلت : ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ ﴾ فقالوا : أياماً أو سنين ؟ فنزلت ﴿ سِنِينَ ﴾ فلذلك قال : ﴿ سِنِينَ ﴾ ولم يقل : سنة . ﴿ وازدادوا تِسْعاً * قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُ غَيْبُ السماوات والأرض أَبْصِرْ بِهِ

وَأَسْمِعْ ﴾ يعني: ما أبصر الله بكل موجود وأسمعه بكل مسموع ﴿ مَا لَهُم ﴾ ، أي لأهل السماوات والأرض ﴿ مِّن دُونِهِ ﴾ من دون الله ﴿ مِن وَلِيٍّ ﴾ : ناصر ، ﴿ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ من الأصنام وغيرها .

(208/471)

﴿ واتل ﴾ أي واقرأ يا محمد ﴿ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ ، يعني: القرآن ، واتّبع ما فيه ﴿ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ ، قال الكلبي: لا مغير للقرآن . وقال محمد بن جرير : يعني: لا مغير لما أوعد بكلماته أهل معاصيه والمخالفين لكتابه . ﴿ وَلَن تَجِدَ ﴾ أنت ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ إن لم تتبع القرآن وخالفته ﴿ مُلْتَحَداً ﴾ ، قال ابن عباس: حرزا . وقال الحسن: مدخلا . وقيل: معدلا . وقيل: موئلا وقال مجاهد ملجأً ، وأصله من الميل ، ومنه لحد القبر .

﴿ واصبر نَفْسَكَ ﴾ الآية قال المفسرون: نزلت في عيينة بن حصين الفزاري ، وذلك أنه أتى النّبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول هذه الآية ، وعنده بلال وصهيب وخباب وعمار وعامر بن فهيرة ومهجع وسلمان ، وعلى سلمان شملة قد عرق فيها وبيده خوصة يشتقها ثمّ ينسجها ، فقال عيينة للنبّي صلى الله عليه وسلم أما يؤذيك ريح هؤلاء ؟ فوالله لقد آذانا

ريحهم . وقال : نحن سادات مضر وأشرافها فإن أسلمنا أسلم الناس وإن أبينا أبى الناس ، وما يمنعنا من اتّباعك إلاّ هؤلاء ، فنحِّ هؤلاء حتّى نتبعك ، واجعل لنا مجلساً ولهم مجلساً .

(209/471)

فأنزل الله عز وجّل : ﴿ واصبر ﴾ : واحبس ﴿ نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ ﴾ : يعبدون ربهم ويوقّرون ﴿ رَبَّهُم بالغداة والعشي ﴾ ، أي طرفي النهار ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ ، يعني : يريدون الله عزّ وجلّ لا يريدون عرضاً من الدنيا . والمراد منه : الحسنة وترك الريّاء .

قال قتادة : يعني : صلاة الصبح والعصر . وقال كعب الأحبار : والذي نفسي بيده إنّهم لأهل الصّلوات المكتوبة . قال قتادة : نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة ، وكانوا سبعمئة رجل فقراء لزموا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرجعون إلى تجارة ولا إلى زرع ولا ضرع ، يصلّون صلاة وينتظرون أُخرى . قال قتادة : فلما نزلت هذه الآية قال نبي الله صلى الله عليه وسلم " الحمد لله الذي جعل في أُمّتي من أمرت أن أصبر معهم " .

﴿ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ ﴾ : لا تصرف ولا تجاوز عيناك ﴿ عَنْهُمْ ﴾ إلى غيرهم ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ﴾ ، يعني مجالسة الرؤساء والأغنياء والأشراف .

ومعنى الآية : ولا تعدُ عيناك عنهم مريداً زينة الدنيا حال خوضهم في الاستغفار لأنه حكم

على النبّي صلى الله عليه وسلم بإرادته الدنيا . ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ أي تركنا قلبه وأنسيناه ذكرنا . قال أبو العالية : يعني : أُميّة بن خلف الجمحي . وقال غيره : يعني عيينة بن حصين ، ﴿ واتبع هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ ، قال قتادة والضحّاك ومجاهد : ضياعاً . وقال داود : ندماً . وقال حباب : هلاكاً . وقال ابن زيد : مخالفاً للحق . وقال مقاتل بن حيّان : سرفاً . وقال الأخفش : مجاوزاً للحد . وقال الفرّاء : متروكاً . وقيل : باطلاً . وقال أبو زيد البلخي : قُدُماً في الشر . قال أبو عبيد : هو من قول العرب : فرس فرط إذا سبقت الخيل ، وفرط القول منّي أي سبق . وقيل : معناه ضيّع أمره وعطّل أيامه ، قالوا : ان المؤمن من يستعمل الأوقات ، ولا تستعمله الأوقات .

(210/471)

﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ ، الحقُ : رفع على الحكاية ، وقيل : هو رفع على خبر ابتداء مضمر معناه : وقل هو الحقّ من ربكم ، يعني : ما ذكر من القرآن والإيمان وشأن محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : هو رفع على الابتداء وخبره في قوله ﴿ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ ، ومعنى الآية : وقل يا محمّد لهؤلاء الّذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا : أيّها الناس ، مِن ربكم الحقُّ ، وإليه التوفيق والخذلان ، وبيده الضلالة والهدى ، يهدي من يشاء فيؤمن ، ويضل من يشاء

فيكفر ليس إليّ من ذلك شيء ، ولست بطارد المؤمنين لكم ، فإن شئتم فآمنوا ، وإن شئتم فاكفروا ؛ فإنكم إن كفرتم فقد أعدّ لكم ربكم على كفركم ناراً أحاط بكم سرادقها ، وإن آمنتم وأطعتم فإن لكم ما وصف الله عزّ وجلّ لأهل طاعته .

وقوله : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ ليس بترخيص وتخيير ، إنما هو وعيد وتهديد ، كقوله :

﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت : 40] . قال ابن عباس : من شاء الله له الإيمان آمن ، ومن شاء له الكفر كفر ، وهو قوله : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ ﴾ [الإنسان : 30] .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ : أعددنا وهيّأنا ، من العتاد ، وهو العدّة ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ : للكافرين ﴿ نَاراً ﴾ ، وفيه دليل على أن النار مخلوقة ؛ لأنها لو لم تكن مخلوقة موجودة معدّة لكان المخبر كذّاباً ، وتعالى الله عن ذلك .

وقوله : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ ، روى سعيد الخدري عن النبّي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سرادق النار أربعة جدر كُثُف ، كل واحد مسيرة أربعين سنة " وقال ابن عباس : هو حائط من نار . الكلبي : هو عَنَق يخرج من النار فيحيط بالكفّار كالحظيرة . وقال القتيبي : السّرادق الحجرة التي تكون حول الفسطاط . قال رؤبة :

يا حكم بن المنذر بن الجارودْ . . . سرادق المجد عليك ممدودْ

وقال سلامة بن جندل :

(211/471)

هو المدخل النعمان بيتاً سماؤه . . . صدور الفيول بعد بيت مسردق

وهو هاهنا دخان يحيط بالكفار يوم القيامة ، وهو الذي ذكره الله في سورة المرسلات : ﴿ انطلقوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾ [المرسلات : 30] . ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ ﴾ من شدة العطش ﴿ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل ﴾ ، روى أبو مسلم عن أبي سعيد "عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ بِمَآءٍ كالمهل ﴾ قال : كعُكر الزّيت ، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه " وقال ابن عباس : ماء غليظ مثل دردي الزيت . وقال الأعمش : هو عصارة الزيت . ومجاهد : القيح والدم . قال الضحّاك : المهل ماء أسود ، وإن جهنم سوداء ، ماؤها أسود ، وشجرها أسود ، وأهلها سود . وقال أبو عبيدة : كل ما أُذيب من جواهر الأرض .

(212/471)

وروى روح بن عبادة ، عن سعيد ، عن قتادة قال : ذكر لنا أن ابن مسعود أُهديت له سقاية من ذهب وفضّة ، فأمر بأُخدود فخُدّ في الأرض ، ثمّ قذف فيه من جزل الحطب ، ثمّ قذف فيه تلك السقاية ، فلما أزبدت وانماعت ، قال لغلامه : ادعُ من بحضرتك من أهل الكوفة . فدعا رهطاً ، فلما دخلوا عليه قال : أترون هذا ؟ قالوا : نعم . قال : ما رأينا في الدنيا شبهاً بالمهل أدنى من هذا الذهب والفضّة حين أزبد وانماع . وقال سعيد بن جبير : المهل الذي قد انتهى حرّه . وقال أبو عبيدة : سمعت المنتجع بن نبهان وذكر رجلاً ، فقال : هو أبغض إليّ من الطليا والمهل ، فقلت له : ما المهل ؟ قال : الملّة التي تحدّد من جوانب الرغيّف من النار ، أحمر شديد الحمرة كأنّها الرمانة ، وهي جمرة والطليا : الناقة المطليّة بالقطران . ﴿ يَشْوِي الوجوه ﴾ ، قال سعيد بن جبير : إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزّقوم فيأكلون منها فاختلست جلودهم ووجوههم ، فلو ان ماراً مرّ يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها ، ثمّ يصّب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل ، وهو الذي قد انتهى حرّه ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حرّه لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود .

﴿ بِئْسَ الشراب ﴾ هذا ، ﴿ وَسَآءَتْ ﴾ النار ﴿ مُرْتَفَقاً ﴾ ، قال ابن عباس : منزلاً . مجاهد : مجتمعاً . عطاء : مقرّاً . وقيل : مهاداً . وقال القتيبي : مجلساً . وأصل : المرتفق المتّكأ ، يقال منه : ارتفقت ، إذا اتّكأت على المرتفق . قال الشاعر :

قالت له وارتفقت ألا فتى . . . يسوق بالقوم غزالات الضحى

ويقال: ارتفق الرجل، إذا بات على مرفقه لا يأتيه نوم. قال أبو ذويب الهذلي:

نام الخلي وبتّ الليل مرتفقاً . . . كأن عيني فيها الصاب مذبوح

أي مقطوع من معتضده، والصاب: شجر اذا استؤصل خرج منه كهيئة اللبن، وربما ترتفع منه تربة أي فطرة، فيقع في العين فكأنها شهاب نار، وربما أضعف البصر. ويجوز أن يكون قوله: ﴿ مُرْتَفَقاً ﴾ من الرفق والمنفعة.

﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾. ليس قوله: ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ ﴾ خبراً لقوله: ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ ﴾ بل هو كلام معترض، وخبر ﴿ إِنَّ ﴾ الأُولى قوله: ﴿ أولئك لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾. ومثله في الكلام كثير، قال الشاعر:

إنّ الخليفة إنّ الله سربله . . . سربال ملك به ترجى الخواتيم

ومنهم من قال: فيه إضمار؛ فإن معناه: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنا لا نضيع أجره بل نجازيه.

ثمّ ذكر الجزاء فقال: ﴿ أولئك لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾، ووهي الإقامة ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ

الأنهار يُحَلَّوْنَ ﴿ : يلبسون ﴿ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ ، وهو جمع الأسوار ، قال سعيد بن جبير : يُحلّى كل واحد منهم ثلاثةً من الأساور ، واحداً من فضّة ، وواحداً من ذهب ، ووحداً من لؤلؤ ويواقيت . ﴿ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُنْدُسٍ ﴾ ، وهو ما رقّ من الديباج ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ ، وهو ما غلظ منه . وقيل : هو فارسيّ معّرب ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ : في الجنان ﴿ عَلَى الأرآئك ﴾ ، وهي السّرر في الحجال ، واحدتها : أريكة ﴿ نِعْمَ الثواب وَحَسُنَتْ ﴾ يعني : الجنان ﴿ مُرْتَفَقاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 144.169 ﴾

(214/471)

وقال الزمخشرى :

سورة الكهف

(مكية [إلا آية 38 ومن آية 83 إلى غاية آية 101 فمدنية] وآياتها 110 [نزلت بعد الغاشية]) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الكهف (18) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (1) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (2) ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً (3) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (4)

ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً (5)

لقن اللّه عباده وفقههم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي نعمة الإسلام ، وما أنزل على عبده محمد صلى اللّه عليه وسلم من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً ولم يجعل له شيئا من العوج قط ، والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان ، والمراد نفى الاختلاف والتناقض عن معانيه ، وخروج شيء منه من الحكمة والإصابة فيه . فإن قلت : بم انتصب قَيِّماً ؟ قلت : الأحسن أن ينتصب بمضمر ولا يجعل حالا من الكتاب ، لأنّ قوله وَلَمْ يَجْعَلْ معطوف على أنزل ، فهو داخل في حيز الصلة ، فجاعله حالا من الكتاب فاصل بين الحال وذى الحال ببعض الصلة ، وتقديره : ولم يجعل له عوضا جعله قيما ، لأنه إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة . فإن قلت : ما فائدة الجمع بين نفى العوج وإثبات الاستقامة ، وفي أحدهما غنى عن الآخر ؟ قلت : فائدته التأكيد ، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح . وقيل : قيما على سائر الكتب مصدقا لها ، شاهدا بصحتها . وقيل : قيما بمصالح العباد وما لا بدّ لهم منه من الشرائع . وقرئ قيما .

«أنذر» متعدّ إلى مفعولين ، كقوله نَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً

فاقتصر على أحدهما ، وأصله

(215/471)

لِيُنْذِرَ الذين كفروا بَأْساً شَدِيداً والبأس من قوله بِعَذابٍ بَئِيسٍ وقد بؤس العذاب وبؤس الرجل بأسا وبآسة مِنْ لَدُنْهُ صادرا من عنده . وقرئ : من لدنه ، بسكون الدال مع إشمام الضمة وكسر النون ويُبَشِّرَ بالتخفيف والتثقيل . فإن قلت : لم اقتصر على أحد مفعولي أنذر ؟ قلت : قد جعل المنذر به هو الغرض المسبوق إليه ، فوجب الاقتصار عليه .

والدليل عليه تكرير الإنذار في قوله ويُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً متعلقا بالمنذرين من غير ذكر المنذر به ، كما ذكر المبشر به في قوله أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً استغناء بتقدّم ذكره .

والأجر الحسن : الجنة ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ أى بالولد أو باتخاذه ، يعنى أنّ قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط وتقليد للآباء ، وقد اشتملته «1» آباؤهم من الشيطان وتسويله .

فإن قلت : اتخاذ اللّه ولدا في نفسه محال ، فكيف قيل : ما لهم به من علم «2» ؟ قلت : معناه ما لهم به من علم ، لأنه ليس مما يعلم لاستحالته ، وانتفاء العلم بالشيء إمّا للجهل

بالطريق الموصل إليه ، وإما لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به . قرئ : كبرت كلمة ، وكلمة : بالنصب على التمييز والرفع على الفاعلية ، والنصب أقوى وأبلغ . وفيه معنى التعجب ، كأنه قيل : ما أكبرها كلمة .

وَتَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ صفة للكلمة تفيد استعظاما لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم ، فإن كثيرا مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس ويحدّثون به أنفسهم من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوّهوا به ويطلقوا به ألسنتهم ، بل يكظمون عليه تشوّرا «3» من إظهاره ، فكيف بمثل هذا المنكر ؟ وقرئ كبرت بسكون الباء مع إشمام الضمة . فإن قلت : إلام يرجع الضمير في كبرت ؟ قلت : إلى قولهم اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها .

[سورة الكهف (18) : آية 6]

فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (6)

شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الوجد والأسف على توليهم ، برجل فارقه أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجدا عليهم وتلهفا

---

(1) . قوله «وقد اشتملته» لعله : استملته ، بإهمال السين وسكون الميم . (ع)

(2) . قال محمود : «إن قلت اتخاذ اللّه ولدا في نفسه محال فكيف قيل لهم . . . الخ» قال

أحمد : قد مضى له في قوله تعالى وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً أن ذلك وارد على سبيل التهكم ، وإلا فلا سلطان على الشرك حتى ينزل . ونظيره :

ولا يرى الضب بها ينجحر

وقد قدمت حينئذ أن الكلام وارد على سبيل الحقيقة والأصل ، وأن نفى إنزال السلطان تارة يكون لاستحالة إنزاله ووجوده ، وتارة يكون ، لأنه لم يقع وإن كان ممكنا ، واللّه أعلم .

(3) . قوله «تشوروا من إظهاره» أى تباعدا من إظهاره ، كأنه عورة . وفي الصحاح «الشوار» الفرج .

ومنه قيل : شور به ، كأنه أبدى عورته . (ع)

(216/471)

على فراقهم . وقرئ : باخع نفسك ، على الأصل ، وعلى الإضافة : أى قاتلها ومهلكها ، وهو للاستقبال فيمن قرأ : إن لم يؤمنوا . وللمضى فيمن قرأ : أن لم يؤمنوا ، بمعنى : لأن لم يؤمنوا بِهذَا الْحَدِيثِ بالقرآن أَسَفاً مفعول له ، أى : لفرط الحزن . ويجوز أن يكون حالا .

والأسف : المبالغة في الحزن والغضب . يقال : رجل أسف وأسيف .

[سورة الكهف (18) : الآيات 7 إلى 11]

إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (7) وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً (8) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً (10) فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (11)

ما عَلَى الْأَرْضِ يعنى ما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وحسن العمل : الزهد فيها وترك الاغترار بها ، ثم زهد في الميل إليها بقوله وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها من هذه الزينة صَعِيداً جُرُزاً يعنى مثل أرض بيضاء لا نبات فيها ، بعد أن كانت خضراء معشبة ، في إزالة بهجته ، وإماطة حسنه ، وإبطال ما به كان زينة : من إماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار ، ونحو ذلك ذكر من الآيات الكلية تزيين الأرض مما خلق «1» فوقها من الأجناس التي لا حصر لها وإزالة ذلك كله كأن لم يكن ، ثم قال أَمْ حَسِبْتَ يعنى أن ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدّة طويلة . والكهف : الغار الواسع في الجبل وَالرَّقِيمِ اسم كلهم . قال أمية ابن أبى الصلت :

وليس بها إلّا الرّقيم مجاورا وصيدهم والقوم في الكهف همّد «2»

وقيل : هو لوح من رصاص رقمت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف . وقيل : إن الناس رقموا حديثهم نقرا في الجبل . وقيل : هو الوادي الذي فيه الكهف . وقيل : الجبل . وقيل :

(1) . قوله «مما خلق» لعله بما «خلق» . (ع)

(2) . لأمية بن أبى الصلت ، والرقيم : كلب أصحاب الكهف . والوصيد : فناء البيت وبابه وعتبته ، والبيت يحتملها . والهمد : جمع هامد ، أى : راقد . والقوم : عطف على الرقيم . ويقول : ليس في تلك الصحراء إلا الكلب حال كونه مجاورا لفناء غارهم ، وإلا القوم حال كونهم رقودا في الكهف : أى الغار .

(217/471)

قريتهم . وقيل : مكانهم بين غضبان وأيلة دون فلسطين كانُوا آيةً عَجَباً من آياتنا وصفا بالمصدر ، أو على : ذات عجب مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً أى رحمة من خزائن رحمتك ، وهي المغفرة والرزق والأمن من الأعداء وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا الذي نحن عليه من مفارقة الكفار رَشَداً حتى تكون بسببه راشدين مهتدين ، أو اجعل أمرنا رشدا كله ، كقولك : رأيت منك أسدا فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ أى ضربنا عليها حجابا من أن تسمع ، يعنى : أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات ، كما ترى المستثقل في نومه يصاح به فلا يسمع ولا يستنبه ، فحذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال : بنى على امرأته ، يريدون : بنى عليها القبة سِنِينَ عَدَداً ذوات عدد ، فيحتمل أن يريد الكثرة وأن يريد القلة ، لأن الكثير قليل عنده ،

كقوله : لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ . وقال الزجاج : إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج أن يعدّ ، وإذا كثر احتاج إلى أن يعد

[سورة الكهف (18) : آية 12]

ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً (12)

أَيُّ يتضمن معنى الاستفهام ، فعلق عنه لِنَعْلَمَ فلم يعمل فيه . وقرئ ، ليعلم ، وهو معلق عنه أيضا ، لأن ارتفاعه بالابتداء لا بإسناد «يعلم» إليه ، وفاعل «يعلم» مضمون الجملة ، كما أنه مفعول «نعلم» أَيُّ الْحِزْبَيْنِ المختلفين منهم في مدّة لبثهم ، لأنهم لما انتبهوا اختلفوا في ذلك ، وذلك قوله قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم : هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول . أو أى الحزبين المختلفين من غيرهم ، وأَحْصى فعل ماض أى أيهم ضبط «1» أَمَداً لأوقات لبثهم .

فإن قلت : فما تقول فيمن جعله من أفعل التفضيل ؟ قلت : ليس بالوجه السديد ، وذلك أن بناءه من غير الثلاثي المجرّد ليس بقياس ، ونحو «أعدى من الجرب» ، و«أفلس من ابن المذلق» شاذ . والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع ، فكيف به ؟ ولأن أَمَداً لا يخلو : إما أن ينتصب بأفعل «2» فأفعل لا يعمل . وإما أن ينتصب بلبثوا ، فلا يسدّ عليه المعنى . فإن زعمت أنى

---

(1) . قال محمود «أحصى فعل ماض ، أى : لنعلم أيهم ضبط أمدا . . . الخ» قال أحمد :

وقد جعل بعض النحاة بناء افعل من المزيد فيه الهمز قياسا ، وادعى ذلك مذهبا لسيبويه ، وعلله بأن بناءه منه لا يغير نظم الكلمة ، وإنما هو تعويض همزة بهمزة .

(2) . عاد كلامه . قال : وأيضا فلو كان للتفضيل لم يخل انتصاب أمدا إما بأفعل . . . الخ»

قال أحمد : ولقائل أن ينصبه على التمييز ، كانتصاب العدد تمييزا في قوله تعالى أَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ويعضد حمله على أفعل التفضيل وروده في نظير الواقعة واختلاف الأحزاب في مقدار اللبث ، وذلك في قوله تعالى إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً فأمثلهم طريقة : هو أحصاهم لما لبثوا عددا . وكلا الوجهين جائز ، واللّه أعلم .

(218/471)

أنصبه بإضمار فعل يدل عليه أحصى ، كما أضمر في قوله :

وأضرب منّا بالسّيوف القوانسا «1»

على : نضرب القوانس ، فقد أبعدت المتناول وهو قريب ، حيث أبيت أن يكون أحصى فعلا ، ثم رجعت مضطرا إلى تقديره وإضماره . فإن قلت : كيف جعل اللّه تعالى العلم بإحصائهم المدّة غرضا في الضرب على آذانهم ؟ قلت : اللّه عز وجل لم يزل عالما بذلك ، وإنما أراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ، ليزدادوا إيمانا واعتبارا ، ويكون لطفا

لمؤمنى زمانهم ، وآية بينة لكفارة .

[سورة الكهف (18) : الآيات 13 إلى 15]

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً (13) وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً (14) هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً (15)

---

(1) فلم أر مثل الحي حيا مصبحا ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا

أكر وأحمي للحقيقة منهم وأضرب منا بالسيوف القوانسا

إذا ما شددنا شدة نصبوا لنا صدور المذاكي والرماح المداعسا

إذا الخيل حالت عن صريع نكرها عليهم فما يرجعن إلا عوابسا

للعباس بن مرداس السلمى ، والحي بنو زبيد من اليمن . وأكر : أشد كرا . وأحمى : أشد حماية . والحقيقة :

ما يستحق الذب عنه من عرض ومال . والقوانس : جمع قونس ، وهو أعلى بيضة الفارس وأعلى رأس الفرس .

والمذاكي : الخيل العناق العتاق التي أتى عليها بعد قروحها سنة ، جمع المذاكي اسم مفعول . والمداعس : الرماح الصم التي يطعن بها . والدعس بالتحريك الأثر ، والمداعسة

المطاعنة. والمدعس: الرمح الأصم الذي يطعن به.

ويروى: جالت، بدل حالت أى: مالت إلى جول بالجيم أى ناحية. وأما الحول بالحاء فهو التحول. والصريع:

الطريح على الأرض، ونكرها: نرجعها، والعوابس: كالحات الوجوه من الجري في الغبار.

وحيا مصبحا، أى:

مأتيا في الصباح مفعول. ومثل الحي: حال، على أن رأى بصرية. أو مفعول ثان، على أنها علمية، وأكر: بدل من حيا، ولا يصح جعله صفة أو مفعول ثان، لأنك لو قلت: ما رأيت مثل زيد رجلا أفضل منه لم يستقم المعنى إلا على البدلية، لأن المماثلة تنافى المفاضلة، إلا أن تكون المماثلة في صفة والمفاضلة في أخرى، فلا مانع منه حينئذ. وأضرب: أفعل تفضيل، بدل من فوارس على ما تقدم، فهو لف ونشر مرتب. وأفعل التفضيل لا يعمل النصب في المفعول به، بل حكى الإجماع على ذلك، فالقوانس نصب بمحذوف، أى: يضرب القوانس أى الرؤوس، لكن قال محمد بن مسعود في كتابه البديع: غلط من قال: إن اسم التفضيل لا ينصب المفعول به، واستشهد بهذا البيت وغيره. وبين مدح الفريقين بقوله: إذا شددنا عليهم مرة قابلونا بالخيل العتاق والرماح الجيدة، فهم شجعان.

وبقوله: إذا مالت خيلنا أو تحولت عن قتيل منا، نرجعها عليهم لأجل الثأر، فما ترجع إلا كوالح، فنحن أشجع منهم. [.....]

وَزِدْناهُمْ هُدىً بالتوفيق والتثبيت وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ وقويناها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم، والفرار بالدين إلى بعض الغيران، وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام إِذْ قامُوا بين يدي الجبار وهو دقيانوس، من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ . . . شَطَطاً قولا ذا شطط، وهو الإفراط في الظلم والإبعاد فيه، من شط: إذا بعد. ومنه: أشط. في السوم وفي غيره هؤُلاءِ مبتدأ، وقَوْمُنَا عطف بيان واتَّخَذُوا خبر وهو إخبار في معنى إنكار لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ هلا يأتون على عبادتهم، فحذف المضاف بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ وهو تبكيت، لأنّ الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال، وهو دليل على فساد التقليد، وأنه لا بد في الدين من الحجة حتى يصح ويثبت افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً بنسبة الشريك إليه.

[سورة الكهف (18): آية 16]

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً (16)

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ خطاب من بعضهم لبعض، حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم وَما

يَعْبُدُونَ نصب، عطف على الضمير، يعنى: وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم إِلَّا اللَّهَ يجوز أن يكون استثناء متصلا، على ما روى: أنهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه كما أهل مكة. وأن يكون منقطعا. وقيل: هو كلام معترض إخبار من اللّه تعالى عن الفئة أنهم لم يعبدوا غير اللّه مِرفَقاً قرئ بفتح الميم وكسرها، وهو ما يرتفق به: أى ينتفع. إما أن يقولوا ذلك ثقة بفضل اللّه وقوّة في رجائهم لتوكلهم عليه ونصوع يقينهم. وإما أن يخبرهم به نبىّ في عصرهم، وإما أن يكون بعضهم نبيا.

[سورة الكهف (18) : آية 17]

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً (17)

تَتَزاوَرُ أى تمايل، أصله: تتزاور، فخفف بإدغام التاء في الزاى أو حذفها. وقد قرئ بهما. وقرئ: تزورّ. وتزوارّ: بوزن تحمرّ وتحمارّ، وكلها من الزور وهو الميل. ومنه زاره إذا مال إليه. والزور: الميل عن الصدق ذاتَ الْيَمِينِ جهة اليمين. وحقيقتها. الجهة المسماة باليمين تَقْرِضُهُمْ تقطعهم لا تقربهم من معنى القطيعة والصرم. قال ذو الرمة:

إلى ظعن يقرضن أقواز مشرف شمالا وعن أيمانهنّ الفوارس «1»

وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ وهم في متسع من الكهف. والمعنى أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنهم في مكان واسع منفتح معرّض لإصابة الشمس لولا أنّ اللّه يحجبها عنهم. وقيل: في متفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسبون كرب الغار ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ أى ما صنعه اللّه بهم - من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة - آية من آياته، يعنى: أنّ ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم، اختصاصا لهم بالكرامة. وقيل: باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش، فهم في مقنأة «2» أبدا. ومعنى ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ أنّ شأنهم وحديثهم من آيات اللّه مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في اللّه وأسلموا له وجوههم، فلطف بهم وأعانهم، وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة، وأن كل من سلك طريقة المهتدين الراشدين فهو الذي أصاب الفلاح، واهتدى إلى السعادة، ومن تعرّض للخذلان، فلن يجد من يليه ويرشده بعد خذلان اللّه.

[سورة الكهف (18): آية 18]

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (18)

وَتَحْسَبُهُمْ بكسر السين وفتحها : خطاب لكل أحد . والأيقاظ : جمع يقظ ، كأنكاد في نكد . قيل : عيونهم مفتحة وهم نيام ، فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظا . وقيل : لكثرة تقلبهم

---

(1) نظرت بجرعاء السبية نظرة ضحى وسواد العين في الماء شامس

إلى ظعن يقرضن أقواز مشرف شمالا وعن أيمانهن الفوارس

لذي الرمة. وجرعاء السبية : اسم موضع ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف حال من الفاعل. وضحى : ظرف ، وسواد العين . . . الخ. جملة حالية ، في الماء ، أى : الدمع شامس ، أى كثير الحركة والاضطراب. يقال : شمس الفرس والرجل شموسا ، إذا ساء خلقه ، والظعينة : المرأة في الهودج أو المطية عليها امرأة أولا ، أو الهودج فيه امرأة أولا . والجمع ظعن وظعن وأظعان وظعائن ويقرضن أى يقطعن. وأقواز مشرف : أعالى جبل مشرف. ويروى أجواز جمع جوز بمعنى المجاز والطريق ، أى : يفصلناه عنهن ، وشمالا : جهة الشمال ، والفوارس : اسم موضع ، وجعله جمع فارس ، كما قيل : تبعده المقابلة .

(2) . قوله «فهم في مقنأة» في الصحاح : قال أبو عمرو «المقنأة ، والمقنؤة» الذي لا تطلع عليه الشمس .

وقال : غير مقناة. ومقنوة. بغير همز : نقيض المضحاة. (ع)

وقيل : لهم تقلبتان في السنة . وقيل : تقلبة واحدة في يوم عاشوراء . وقرئ : ويقلبهم . بالياء والضمير للّه تعالى . وقرئ : وتقلبهم ، على المصدر منصوبا ، وانتصابه بفعل مضمر يدل عليه وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً كأنه قيل : وترى وتشاهد تقلبهم . وقرأ جعفر الصادق : وكالبهم أى وصاحب كلبهم باسِطٌ ذِراعَيْهِ حكاية حال ماضية ، لأنّ اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضي ، وإضافته إذا أضيف حقيقية معرفة ، كغلام زيد ، إلا إذا نويت حكاية الحال الماضية . والوصيد : الفناء ، وقيل : العتبة . وقيل : الباب . وأنشد :

بأرض فضاء لا يسدّ وصيدها عليّ ومعروفى بها غير منكر «1»

وقرئ : ولملئت ، بتشديد اللام للمبالغة . وقرئ بتخفيف الهمزة وقلبها ياء . ورُعْباً بالتخفيف والتثقيل ، وهو الخوف الذي يرعب الصدر أى يملؤه ، وذلك لما ألبسهم اللّه من الهيبة . وقيل :

لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم . وقيل : لوحشة مكانهم . وعن معاوية أنه غزا الروم فمرّ بالكهف فقال : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ، فقال له ابن عباس رضى اللّه عنه :

ليس لك ذلك، قد منع اللّه تعالى منه من هو خير منك فقال: لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً فقال معاوية، لا أنتهى حتى أعلم علمهم، فبعث ناسا وقال لهم: اذهبوا فانظروا، ففعلوا، فلما دخلوا الكهف بعث اللّه عليهم ريحا فأحرقتهم «2». وقرئ: لو اطلعت، بضم الواو.

[سورة الكهف (18): الآيات 19 إلى 20]

وَكَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَسائَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (19) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً (20)

وَكَذلِكَ بَعَثْناهُمْ وكما أنمناهم تلك النومة كذلك بعثناهم، إذكارا بقدرته على الإنامة والبعث

---

(1). لزهير. والوصيد: الفناء والباب والعتبة. يقول: نزلت في أرض خالية من البناء، تصلني فيها الضيفان والقفاة، ليس فيها بناء له وصيد. فيسد على فتنحجب عنى الضيفان كأهل الحضر، فنفى السد كناية عن نفى الوصيد من أصله، وإحسانى بها معروف لا ينكره أحد من الناس.

(2) . أخرجه ابن أبى حاتم وعبيد بن محمد وأبو بكر بن أبى شيبة من رواية يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . وإسناده صحيح .

(222/471)

جميعا ، ليسأل بعضهم بعضا ويعرفوا حالهم وما صنع اللّه بهم ، فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة اللّه تعالى ويزدادوا يقينا ، ويشكروا ما أنعم اللّه به عليهم وكرموا به قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ جواب مبنى على غالب الظن . وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب ، وأنه لا يكون كذبا وإن جاز أن يكون خطأ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ إنكار عليهم من بعضهم ، وأن اللّه أعلم بمدّة لبثهم ، كأنّ هؤلاء قد علموا بالأدلة أو بإلهام من اللّه أنّ المدة متطاولة ، وأنّ مقدارها مبهم لا يعلمه إلا اللّه . وروى أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم بعد الزوال ، فظنوا أنهم في يومهم ، فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك . فإن قلت : كيف وصلوا قولهم فَابْعَثُوا بتذاكر حديث المدة ؟ قلت : كأنهم قالوا : ربكم أعلم بذلك ، لا طريق لكم إلى علمه ، فخذوا في شيء آخر مما يهمكم .

والورق : الفضة ، مضروبة كانت أو غير مضروبة . ومنه الحديث أنّ عرفجة أصيب أنفه يوم الكلاب «1» فاتخذ أنفا من ورق فأنتن ، فأمره رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن

يتخذ أنفا من ذهب «2» . وقرئ :

بورقكم ، بسكون الراء والواو مفتوحة أو مكسورة . وقرأ ابن كثير : بورقكم ، بكسر الراء وإدغام القاف في الكاف . وعن ابن محيصن أنه كسر الواو وأسكن الراء وأدغم ، وهذا غير جائز لالتقاء الساكنين لا على حده . وقيل : المدينة طرسوس . قالوا : وتزوّدهم ما كان معهم من الورق عند فرارهم : دليل على أنّ حمل النفقة وما يصلح المسافر هو رأى المتوكلين على اللّه ، دون المتكلين على الاتفاقات وعلى ما في أوعية القوم من النفقات .

ومنه قول عائشة رضى اللّه عنها - لمن سألها عن محرم يشدّ عليه هميانه - : أوثق عليك نفقتك «3» . وما حكى عن بعض صعاليك العلماء «

أنه كان شديد الحنين إلى أن يرزق حج بيت اللّه ، وتعولم منه ذلك ، فكانت مياسير أهل بلده كلما عزم منهم فوج على حج أتوه فبذلوا له أن يحجوا به وألحوا عليه ، فيعتذر إليهم ويحمد إليهم بذلهم ، فإذا انفضوا عنه قال لمن عنده : ما لهذا السفر إلا شيئان : شدّ الهميان ، والتوكل على الرحمن أَيُّها أىّ أهلها ، فحذف الأهل كما في قوله وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ ، أَزْكى طَعاماً أحلّ وأطيب وأكثر وأرخص وَلْيَتَلَطَّفْ وليتكلف اللطف والنيقة «5» فيما يباشره من أمر المبايعة حتى لا يغبن . أو في أمر التخفي حتى لا يعرف وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً

---

(1) . قوله «يوم الكلاب» في وقعة الكلاب ، وهو بالضم : اسم ماء كانت عنده الوقعة ، أفاده الصحاح ، (ع)

(2) . أخرجه أصحاب السنن من رواية عبد الرحمن بن طرفة . عن عرفجة . وفي رواية بعضهم «أن عرفجة» .

(3) . أخرجه ابن أبى شيبة بسند صحيح عنها بذلك .

(4) . قوله «عن بعض صعاليك العلماء» أى فقرائهم . (ع)

(5) . قوله «والنيقة» أى : الإتقان . (ع)

(223/471)

يعنى : ولا يفعلنّ ما يؤدى من غير قصد منه إلى الشعور بنا ، فسمى ذلك إشعارا منه بهم ، لأنه سبب فيه الضمير في إِنَّهُمْ راجع إلى الأهل المقدر في أَيُّها . يَرْجُمُوكُمْ يقتلوكم أخبث القتلة وهي الرجم ، وكانت عادتهم أَوْ يُعِيدُوكُمْ أو يدخلوكم فِي مِلَّتِهِمْ بالإكراه العنيف ويصيروكم إليها . والعود في معنى الصيرورة أكثر شيء في كلامهم ، يقولون : ما عدت أفعل كذا . يريدون ابتداء الفعل وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً إن دخلتم في دينهم .

[سورة الكهف (18) : آية 21]

وَكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ

مَسْجِداً (21)

وَكَذٰلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ وكما أنمناهم وبعثناهم، لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم، ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم أَنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وهو البعث، لأن حالهم في نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث. وإِذْ يَتَنازَعُونَ متعلق بأعثرنا. أى: أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم أمر دينهم ويختلفون في حقيقة البعث، فكان بعضهم يقول: تبعث الأرواح دون الأجساد. وبعضهم يقول: تبعث الأجساد مع الأرواح، ليرتفع الخلاف، وليتبين أنّ الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت فَقالُوا حين توفى اللّه أصحاب الكهف ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً أى على باب كهفهم. لئلا يتطرّق إليهم الناس ضنا بتربتهم ومحافظة عليها كما حفظت تربة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالحظيرة قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم لَنَتَّخِذَنَّ على باب الكهف مَسْجِداً يصلى فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم. وقيل: إذ يتنازعون بينهم أمرهم أى: يتذاكر الناس بينهم أمر أصحاب الكهف، ويتكلمون في قصتهم وما أظهر اللّه من الآية فيهم. أو يتنازعون بينهم تدبير أمرهم حين توفوا، كيف يخفون مكانهم؟ وكيف يسدّون الطريق إليهم، فقالوا: ابنوا على باب كهفهم بنيانا. روى أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكرهوا على عبادتها، وممن شدد في ذلك دقيانوس، فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل، فأبوا إلا الثبات

على الإيمان والتصلب فيه ، ثم هربوا إلى الكهف ومرّوا بكلب فتبعهم فطردوه ، فأنطقه اللّه فقال :

ما تريدون منى ، أنا أحبّ أحباء اللّه ، فناموا وأنا أحرسكم . وقيل : مرّوا براع معه كلب فتبعهم «1»

---

(1) . قوله «و قيل : مروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم» لعل بعده سقطا تقديره : وتبعهم الكلب ، كما في الخازن . (ع)

(224/471)

على دينهم ، ودخلوا الكهف فكانوا يعبدون اللّه فيه ، ثم ضرب اللّه على آذانهم ، وقيل أن يبعثهم اللّه ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن . وقد اختلف أهل مملكته في البعث معترفين وجاحدين ، فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحا وجلس على رماد ، وسأل ربه أن يبين لهم الحق ، فألقى اللّه في نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سدّ به فم الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه ، ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياع الطعام وأخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس :

اتهموه بأنه وجد كنزا ، فذهبوا به إلى الملك فقصّ عليه القصة ، فانطلق الملك وأهل المدينة

معه وأبصروهم ، وحمدوا اللّه على الآية الدالة على البعث ، ثم قالت الفتية للملك : نستودعك اللّه ونعيذك به من شرّ الجنّ والإنس ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفى اللّه أنفسهم ، فألقى الملك عليهم ثيابه ، وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب ، فرآهم في المنام كارهين للذهب ، فجعلها من الساج ، وبنى على باب الكهف مسجدا . رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ من كلام المتنازعين ، كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم ، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا : ربهم أعلم بهم . أو هو من كلام اللّه عز وجل ردّ لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين ، أو من الذين تنازعوا فيهم على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من أهل الكتاب .

[سورة الكهف (18) : آية 22]

سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِراءً ظاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (22)

سَيَقُولُونَ الضمير لمن خاض في قصتهم في زمن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من أهل الكتاب والمؤمنين ، سألوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عنهم فأخر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم ، فنزلت إخبارا بما سيجرى بينهم من اختلافهم في عددهم ، وأنّ المصيب منهم من يقول سبعة وثامنهم كلبهم . قال ابن عباس رضى اللّه عنه : أنا من أولئك القليل . وروى

أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فجرى ذكر أصحاب الكهف ، فقال السيد وكان يعقوبيا : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم . وقال العاقب وكان نسطوريا :

كانوا خمسة سادسهم كلبهم . وقال المسلمون : كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، فحقق اللّه قول المسلمين .

وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن لسان جبريل عليه السلام .

وعن عليّ رضى اللّه عنه : هم سبعة نفر أسماؤهم : يمليخا ، ومكشليتيا ، ومشلينيا : هؤلاء أصحاب يمين الملك ، وكان عن يساره : مرنوش ، ودبرنوش ، وشادنوش . وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره .

والسابع : الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس . واسم مدينتهم : أفسوس . واسم كلبهم : قطمير . فإن قلت : لم جاء بسين الاستقبال في الأوّل دون الآخرين ؟ قلت : فيه وجهان : أن تدخل الآخرين في حكم السين ، كما تقول : قد أكرم وأنعم ، تريد معنى التوقع في الفعلين جميعا ، وأن تريد بيفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له رَجْماً بِالْغَيْبِ

رميا بالخبر الخفي وإتيانا به كقوله وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ أى يأتون به. أو وضع الرجم موضع الظنّ، فكأنه قيل: ظنا بالغيب، لأنهم أكثروا أن يقولوا رجم بالظنّ مكان قولهم ظنّ، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين. ألا ترى إلى قول زهير:

وما هو عنها بالحديث المرجّم «1»

أى المظنون. وقرئ: ثلاثّ رابعهم، بإدغام الثاء في تاء التأنيث. وثَلاثَةٌ خبر مبتدإ محذوف، أى: هم ثلاثة. وكذلك خَمْسَةٌ وسَبْعَةٌ ورابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ جملة من مبتدإ وخبر واقعة صفة لثلاثة، وكذلك سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ، وثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ. فإن قلت: فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة، ولم دخلت عليها دون الأوّلين «2»؟ قلت: هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الواقعة حال عن المعرفة في نحو قولك: جاءني رجل ومعه آخر. ومررت بزيد وفي يده سيف. ومنه قوله تعالى: وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت

---

(1) وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم

لزهير من معلقته، ينهى عبسا وذبيان عن القتال. يقول: ليست الحرب إلا التي علمتموها وجربتموها، وشبهها بمطعوم مكروه على طريق الكناية والذوق تخييل، وما هو: أى الحديث عن الحرب، ولما كان الضمير عائدا على المصدر في المعنى صح تعلق المجرور به،

ويبعد تعلقه بما بعده. والترجيم: الرمي بالرجام وهي الحجارة الصغار، استعير لالقاء الكلام بلا روية ولا فكر على طريق التصريحية.

(2). قال محمود: إن قلت «لم دخلت الواو في الجملة الأخيرة... الخ»؟ قال أحمد: وهو الصواب، لا كمن يقول: إنها واو الثمانية فان ذلك أمر لا يستقر لمثبته قدم، ويعدون مع هذه الواو في قوله في الجنة وَفُتِحَتْ أَبْوابُها بخلاف أبواب النار، فانه قال فيها فُتِحَتْ أَبْوابُها قالوا: لأن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة.

وهب أن في اللغة واوا تصحب الثمانية فتختص بها، فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهي إلى الثامن فتصحبه الواو، وربما عدوا من ذلك وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وهو الثامن من قوله التَّائِبُونَ وهذا أيضا مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة، لتربط بينها وبين الأولى التي هي الآمرون بالمعروف، لما بينهما من التناسب والربط.

ألا ترى اقترانهما في جميع مصادرهما ومواردهما، كقوله يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وكقوله وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وربما عد بعضهم من ذلك الواو في قوله ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً لأنه وجدها مع الثامن، وهذا غلط فاحش، فان هذه واو التقسيم، ولو ذهبت تحذفها فتقول: ثيبات أبكارا، لم يسند الكلام، فقد وضح أن الواو في جميع هذه المواضع المعدودة واردة لغير ما زعمه هؤلاء، والله الموفق.

مستقر ، وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا : سبعة وثامنهم كلبهم ، قالوا عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجموا بالظن كما غيرهم . والدليل عليه أنّ اللّه سبحانه أتبع القولين الأولين قوله رَجْماً بِالْغَيْبِ وأتبع القول الثالث قوله ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ وقال ابن عباس رضى اللّه عنه : حين وقعت الواو انقطعت العدّة ، أى : لم يبق بعدها عدّة عادّ يلتفت إليها . وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثبات . وقيل : إلا قليل من أهل الكتاب . والضمير في سَيَقُولُونَ على هذا لأهل الكتاب خاصة ، أى : سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا ، ولا علم بذلك إلا في قليل منهم ، وأكثرهم على ظنّ وتخمين فَلا تُمارِ فِيهِمْ فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدالا ظاهرا غير متعمق فيه ، وهو أن تقص عليهم ما أوحى اللّه إليك فحسب ولا تزيد ، من غير تجهيل لهم ولا تعنيف بهم في الردّ عليهم ، كما قال وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . وَلا تَسْتَفْتِ ولا تسأل أحدا منهم عن قصتهم سؤال متعنت له ، حتى يقول شيئا فتردّه عليه وتزيف ما عنده ، لأن ذلك خلاف ما وصيت به من المداراة والمجاملة ، ولا سؤال مسترشد ، لأن اللّه قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم .

[سورة الكهف (18) : الآيات 23 إلى 24]

وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً (23) إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَقُلْ

عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً (24)

وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ ولا تقولنّ لأجل شيء تعزم عليه إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ الشيء غَداً أى فيما يستقبل من الزمان، ولم يرد الغد خاصة إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ متعلق بالنهى لا بقوله: إنى فاعل، لأنه لو قال: إنى فاعل كذا إلا أنّ يشاء الله، كان معناه: إلا أن تعترض مشيئة اللّه دون فعله، وذلك مما لا مدخل فيه للنهى، وتعلقه بالنهى على وجهين، أحدهما: ولا تقولنّ ذلك القول إلا أن يشاء اللّه أن تقوله، بأن يأذن لك فيه. والثاني: ولا تقولنه إلا بأن يشاء اللّه، أى: إلا بمشيئة اللّه، وهو في موضع الحال، يعنى: إلا ملتبسا بمشيئة اللّه قائلا: «1»

(1). قال محمود: «كان معناه إلا أن تعترض مشيئة اللّه دون فعله... الخ» قال أحمد: ولا بد من حمل الكلام على أحد الوجهين المذكورين، ولولا ذلك لكان المعنى على الظاهر ببادئ الرأى: ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء اللّه أن تقول هذا القول، وليس الغرض ذلك، وإنما الغرض النهى عن هذا القول إلا مقرونا بقول المشيئة، وليت شعري ما معنى قول الزمخشري في تفسير الآية، كأن المعنى: إلا أن تعترض المشيئة دونه، معتقدا أن مشيئة اللّه تعالى لا تعترض على فعل أحد، فكم شاء من الأفعال فتركت، وكم شاء من التروك ففعلت على زعم القدرية، فلا معنى على أصلهم الفاسد لتعليق الفعل بالمشيئة قولا وهو غير متعلق بها وقوعا، حتى أن قول القائل: لا أفعل كذا إلا أن يشاء اللّه

أن أفعله : كذب وخلف بتقدير فعله إذا كان من قبيل المباح ، لأن اللّه تعالى لا يشاؤه على زعمهم الفاسد ، فما أبعد عقدهم من قواعد الشرع : فسحقا سحقا .

(227/471)

إن شاء اللّه وفيه وجه ثالث ، وهو : أن يكون أَنْ يَشاءَ اللَّهُ «1» في معنى كلمة تأبيد ، كأنه قيل ولا تقولنه أبدا . ونحوه قوله وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ لأن عودهم في ملتهم مما لن يشاءه اللّه .

وهذا نهى تأديب من اللّه لنبيه حين قالت اليهود لقريش : سلوه عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وذى القرنين . فسألوه فقال : ائتوني غدا أخبركم ولم يستثن ، فأبطأ عليه الوحى حتى شق عليه وكذبته قريش وَاذْكُرْ رَبَّكَ أى مشيئة ربك وقل : إن شاء اللّه إذا فرط منك نسيان لذلك . والمعنى :

إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبهت عليها فتداركها بالذكر «2» . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه :

ولو بعد سنة ما لم تحنث . وعن سعيد بن جبير : ولو بعد يوم أو أسبوع أو شهر أو سنة .

وعن طاوس : هو على ثنياه «3» ما دام في مجلسه . وعن الحسن نحوه . وعن عطاء :

يستثنى على مقدار حلب ناقة غزيرة. وعند عامة الفقهاء أنه لا أثر له في الأحكام ما لم يكن موصولا. ويحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة خالف ابن عباس رضى اللّه عنه في الاستثناء المنفصل، فاستحضره لينكر عليه: فقال أبو حنيفة: هذا يرجع عليك، إنك تأخذ البيعة بالأيمان، أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك؟

فاستحسن كلامه ورضى عنه. ويجوز أن يكون المعنى:

واذكر «4» ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء، تشديدا في البعث على الاهتمام بها. وقيل: واذكر ربك إذا تركت بعض ما أمرك به. وقيل: واذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى، وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها. وهذا إشارة إلى نبإ أصحاب الكهف. ومعناه: لعل اللّه يؤتينى من البينات والحجج على أنى نبىّ صادق ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشدا من نبأ أصحاب الكهف، وقد فعل ذلك حيث آتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك وأدلّ، والظاهر أن يكون المعنى: إذا نسيت شيئا فاذكر ربك.

وذكر ربك عند نسيانه أن تقول: عسى ربى أن يهديني لشيء آخر بدل هذا المنسى أقرب منه رَشَداً وأدنى خيرا ومنفعة. ولعل النسيان كان خيرة، كقوله أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها.

---

(1). قوله «إن شاء اللّه» لعله أن يشاء اللّه. (ع) [.....]

(2). عاد كلامه. قال: «و قوله وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ أى كلمة الاستثناء ثم تنبهت لها،

فتداركها بالذكر.

وعن ابن عباس: ولو بعد سنة ما لم تحنث إلى قوله: وعند عامة الفقهاء . . . الخ» قال أحمد: أما ظاهر الآية فمقتضاه الأمر بتدارك المشيئة متى ذكرت ولو بعد الطول. وأما حلها لليمين حينئذ فلا دليل عليه منها، والله أعلم

(3). قوله «هو على ثنياه» في الصحاح «الثنيا» بالضم: الاسم من الاستثناء. (ع)

(4). قال محمود: «ويجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح . . . الخ» قال أحمد: ويؤيد هذا التأويل بقوله تعالى أول القصة أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً فافتتح ذكر القصة بتقليل شأنها وإنكار عده من عجائب آيات الله، ثم ختمها بأمره عليه الصلاة والسلام بطلب ما هو أرشد وأدخل في الآية والله أعلم.

(228/471)

[سورة الكهف (18): الآيات 25 إلى 26]

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدادُوا تِسْعاً (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26)

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ يريد لبثهم فيه أحياء مضروبا على آذانهم هذه المدّة ، وهو بيان لما أجمل في قوله فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ومعنى قوله قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا أنه أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدّة لبثهم ، والحق ما أخبرك الله به . وعن قتادة : أنه حكاية لكلام أهل الكتاب . وقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ رد عليهم . وقال في حرف عبد الله : وقالوا لبثوا . وسنين : عطف بيان لثلثمائة . وقرئ : ثلاثمائة سنين ، بالإضافة ، على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز ، كقوله بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا وفي قراءة أبىّ : ثلاثمائة سنة . تِسْعاً تسع سنين ، لأن ما قبله يدل عليه . وقرأ الحسن : تسعا بالفتح ، ثم ذكر اختصاصه بما غاب في السموات والأرض وخفى فيها من أحوال أهلها ومن غيرها وأنه هو وحده العالم به . وجاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات ، للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حدّ ما عليه إدراك السامعين والمبصرين ، لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها ، كما يدرك أكبرها حجما وأكثفها جرما ، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر ما لَهُمْ الضمير لأهل السموات والأرض مِنْ وَلِيٍّ من متول لأمورهم وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ في قضائه أَحَداً منهم . وقرأ الحسن : ولا تشرك ، بالتاء والجزم على النهى .

[سورة الكهف (18) : آية 27]

وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (27)

كانوا يقولون له : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، فقيل له وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ من القرآن ولا

تسمع لما يهذون به من طلب التبديل ، فلا مبدل لكلمات ربك ، أي : لا يقدر أحد على تبديلها وتغييرها ، إنما يقدر على ذلك هو وحده وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ . وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ملتجأ تعدل إليه إن هممت بذلك .

[سورة الكهف (18) : آية 28]

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28)

(229/471)

وقال قوم من رؤساء الكفرة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : نحّ هؤلاء الموالي الذين كأن ريحهم ريح الضأن ، وهم : صهيب وعمار وخباب وغيرهم من فقراء المسلمين ، حتى نجالسك كما قال قوم نوح : أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ فنزلت : وَاصْبِرْ نَفْسَكَ واحبسها معهم وثبتها . قال أبو ذؤيب :

فصبرت عارفة لذلك حرّة ترسو إذا نفس الجبان تطلّع «1»

بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ دائبين على الدعاء في كل وقت . وقيل : المراد صلاة الفجر والعصر .

وقرئ :

بالغدوة ، وبالغداة أجود ، لأن غدوة علم في أكثر الاستعمال ، وإدخال اللام على تأويل التنكير كما قال :

. . . . . . والزّيد زيد المعارك «2»

ونحوه قليل في كلامهم . يقال : عداه إذا جاوزه ومنه قولهم . عدا طوره . وجاءني القوم عدا زيدا . وإنما عدى بعن ، لتضمين عدا معنى نبا وعلا ، في قولك : نبت عنه عينه وعلت عنه عينه :

إذا اقتحمته ولم تعلق به . فإن قلت : أى غرض في هذا التضمين ؟ وهلا قيل : ولا تعدهم عيناك ، أو لا تعل عيناك عنهم ؟ قلت الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين ، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ .

ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك : ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم ؟ ونحوه قوله تعالى وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ أى ولا تضموها إليها آكلين لها . وقرئ : ولا تعد عينيك ، ولا تعدّ عينيك ، من أعداه وعدّاه نقلا بالهمزة وتثقيل الحشو . ومنه قوله :

فعد عمّا ترى إذ لا ارتجاع له «3»

---

(1) . لأبى ذؤيب في مرثية بنيه ، وصبرت : أى حبست نفسا عارفة لذلك البلاء ، وضمن عارفة معنى صابرة فعداه باللام ، جسرة : أى قوية صلبة . ويروى : حرة ، بضم الحاء ، أى جيدة . ترسو : تطمئن وتسكن ، إذا تطلع نفس الجبان وتجزع كأنها تريد الفرار

وأصله تتطلع ، حذف منه إحدى التاءين تخفيفا .

(2) وقد كان منهم حاجب وابن أمه أبو جندل والزيد زيد المعارك

دخلت «أل» المعرفة على «زيد» وهو علم لتأويله بالمسمى بزيد ، ولذلك أضافه للمعارك ، أي أمكنة الحروب .

يقول : وقد كان من هؤلاء القوم حاجب بن لقيط بن زرارة وابن أمه ، أي أخوه أبو جندل والمسمى يزيد ، المعد للحروب . وفيه إشارة إلى أنه يعرف بذلك فيما بين الناس .

(3) فعد عما ترى إذ لا ارتجاع له وأنم القتود على عيرانة أجد

للنابغة الذبياني . ونما ينمى نميا : زاد وارتفع . ونماه ينميه نميا : رفعه وزاده . ونما ينمو نموا من باب دخل .

ونماه ينموه نموا أيضا ، لكن الواوي قليل . والقتود : جمع أقتاد ، جمع قتد : وهي عيدان الرحل بلا أداة .

والعيرانة : الشبيهة بالعير في سرعة السير . والأجد : الصلبة الموثقة الخلق . يقول : انصرف عما ترى من آثار الديار ، أو عما تظن رجوعه ، لأنه لا تدارك له أو لا رجوع له ، وارفع عيدان الرحل على ناقة سريعة صلبة ، كناية عن أمره بالسفر ، لأن شد الرحال لا يكون إلا له .

لأن معناه : فعد همك عما ترى . نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يزدرى بفقراء المؤمنين ، وأن تنبو عينه عن رثاثة زيهم طموحا إلى زىّ الأغنياء وحسن شارتهم «1» تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا في مرضع الحال مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ من جعلنا قلبه غافلا «2» عن الذكر بالخذلان «3» .

أو وجدناه غافلا عنه ، كقولك : أجبنته وأفحمته «4» وأبخلته ، إذا وجدته كذلك . أو من أغفل إبله إذا تركها «5» بغير سمة ، أى : لم نسمه بالذكر ولم نجعلهم من الذين كتبنا في قلوبهم الإيمان وقد أبطل اللّه توهم المجبرة «6» بقوله وَاتَّبَعَ هَواهُ وقرئ : أغفلنا قلبه ، بإسناد الفعل إلى القلب على معنى : حسبنا قلبه غافلين ، من أغفلته إذا وجدته غافلا فُرُطاً متقدّما للحق والصواب «7» نابذا له وراء ظهره من قولهم «فرس فرط» متقدّم للخيل .

[سورة الكهف (18) : آية 29]

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً (29)

(1) . قوله «وحسن شارتهم» في الصحاح : الشوار والشارة : اللباس والهيئة . (ع)

(2) . قال محمود : «معناه جعلنا قلبه غافلا عن الذكر . . . الخ» قال أحمد : هو يشمر للهرب من الحق ، وهو أن المراد خلقنا له ، وجدير به أن يشمر في اتباع هواه ، فان حمل «أغفل» على بابه صرفه إلى الخذلان ، وإلا أخرجه بالكلية عن بابه إلى باب أفعل للمصادفة ، ولا يتجرأ على تفسير فعل أسنده اللّه إلى ذاته بالمصادفة إلى تفهيم وجدان الشيء بغتة عن جهل سابق وعدم علم .

(3) . قوله «غافلا عن الذكر بالخذلان» يتحاشى بذلك عن خلق الغفلة في قلبه ، لأن اللّه لا يخلق الشر عند المعتزلة ، وأهل السنة على خلاف ذلك كما أشار إليه بقوله : توهم المجبرة . ثم إن اتباعه هواه لا ينافي خلق اللّه الغفلة في قلبه ، لجواز أن يكون ذلك ناشئا عن الغفلة . (ع)

(4) . قوله «كقولك أجبنته وأفحمته» في الصحاح «أفحمته» وجدته مفحما لا يقول الشعر . (ع)

(5) . عاد كلامه . قال : «ويجوز أن يكون المعنى من أغفل إبله إذا . . . الخ» قال أحمد : وهذا التأويل فيه رقة حاشية ولطافة معنى ، وغرضه منه الخلاص مما قدمناه ، لأنه وإن أبى خلق اللّه الغفلة في القلب فلا يأبى عدم كتب الايمان ، وإنما غرضنا التنبيه على أن مقصد الزمخشري الحيد عن القاعدة المتقدمة ، والتأويل إنما يصار إليه إذا اعتاص الظاهر

وهو عندنا ممكن، فوجب الاعتصام به، والله الموفق.

(6). عاد كلامه. قال: «وقد أبطل الله توهم المجبرة بقوله: واتبع هواه» قال أحمد: قد تقدم في غير ما موضع أن أهل السنة يضيفون فعل العبد إلى الله تعالى من حيث كونه مخلوقا له، وإلى العبد من حيث كونه مقرونا بقدرته واختياره، ولا تنافى بين الاضافتين، فبراهين السنة تتبعه أينما سلك وأية توجه، فلا محيص له عنها بوجه.

(7). قوله «متقدما للحق والصواب» أى سابق له ومجاوز له، وفي الصحاح: أمر فرط، أى مجاوز فيه الحد.

ومنه قوله تعالى وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً.

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ

الحق خبر مبتدأ محذوف. والمعنى: جاء الحق وزاحت العلل «1» فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة أو في طريق الهلاك. وجيء بلفظ الأمر والتخيير، لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء، فكأنه مخير مأمور بأن يتخير ما شاء من النجدين. شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق، وهو الحجرة التي تكون حول الفسطاط،

وبيت مسردق: ذو سرادق وقيل: هو دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار. وقيل: حائط من نار يطيف بهم «2» يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ كقوله:

. . . . . . فأعتبوا بالصّيلم «3»

وفيه تهكم. والمهل: ما أذيب من جواهر الأرض. وقيل: دردىّ الزيت يَشْوِي الْوُجُوهَ إذا قدم ليشرب انشوى الوجه من حرارته. عن النبي صلى اللّه عليه وسلم: هو كعكر الزيت «4»، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه بِئْسَ الشَّرابُ ذلك وَساءَتْ النار مُرْتَفَقاً متكأ من المرفق، وهذا لمشاكلة قوله وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء، إلا أن يكون من قوله:

إنى أرقت فبتّ اللّيل مرتفقا كأنّ عينى فيها الصّاب مذبوح «5»

[سورة الكهف (18): الآيات 30 إلى 31]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (30) أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (31)

---

(1). قوله «والمعنى جاء الحق وزاحت العلل» في الصحاح «زاح الشيء» بعد وذهب. وأزحت علته فزاحت. (ع) [. . . . .]

(2) . قوله «يطيف بهم» الذي يفيده الصحاح : طاف يطوف حول الشيء : دار حوله ، وطاف يطيف بالشيء :

جاءه وألم به ، فتدبر . (ع)

(3) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص 105 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(4) . أخرجه الترمذي من طريق رشدين بن سعد . عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد .

واستغربه . وقال : لا يعرف إلا من حديث رشدين بن سعد وتعقب قوله : بأن أحمد وأبا يعلى أخرجاه من طريق ابن لهيعة عن دراج ، وبأن ابن حبان والحاكم أخرجاه من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث .

(5) . لأبى ذؤيب الهذلي . ويروى بدل الشطر الأول : مقام الخلى وبت الليل مشتجرا . والارتفاق : الاتكاء على المرفق مع نصب الساعد . والاشتجار : وضع اليد تحت الشجر وهو ما بين اللحيين والاتكاء عليها ، وهي هيئة المتحزن المتحسر . والأرق ، السهر . والصاب : نبت مر كالحنظل . والمذبوح : المشقوق . وهو كناية عن البكاء وانصباب الدموع .

أُولَئِكَ خبر إن وإِنَّا لا نُضِيعُ اعتراض ، ولك أن تجعل إِنّا لا نُضِيعُ وأُولَئِكَ خبرين معا . أو تجعل أُولَئِكَ كلاما مستأنفا بيانا للأجر المبهم . فإن قلت : إذا جعلت إِنّا لا نُضِيعُ خبرا ، فأين الضمير الراجع منه إلى المبتدأ ؟ قلت : مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ينتظمهما معنى واحد ، فقام مَنْ أَحْسَنَ مقام الضمير . أو أردت : من أحسن عملا منهم ، فكان كقولك : السمن منوان بدرهم . من الأولى للابتداء ، والثانية للتبيين . وتنكير أَساوِرَ لإبهام أمرها في الحسن . وجمع بين السندس : وهو ما رقّ من الديباج ، وبين الإستبرق : وهو الغليظ منه ، جمعا بين النوعين . وخص الاتكاء ، لأنه هيئة المنعمين والملوك على أسرتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 72.702 ﴾

(233/471)

وقال النسفى :

﴿ الحمد لِلَّهِ الذى أَنْزَلَ على عَبْدِهِ ﴾

محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ الكتاب ﴾ القرآن ، لقن الله عباده ووفقهم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي نعمة الإسلام ، وما أنزل على محمد صلى

الله عليه وسلم من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ أي شيئاً من العرج والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان ، يقال في رأيه عوج وفي عصاه عوج ، والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه وخروج شيء منه من الحكمة ﴿ قَيِّماً ﴾ مستقيماً وانتصابه بمضمر وتقديره ، جعله قيماً لأنه إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة ، وفائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة وفي أحدهما غنى عن الآخر التأكيد ، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند التصفح ، أو قيماً على سائر الكتب مصدقا لها شاهداً بصحتها ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ "أنذر" متعدٍ إلى مفعولين كقوله : ﴿ إِنَّا أنذرناكم عَذَابًا قَرِيباً ﴾ [النبأ : 40] فاقتصر على أحدهما ، وأصله لينذر الذين كفروا ﴿ بَأْسًا ﴾ عذاباً ﴿ شَدِيداً ﴾ وإنما اقتصر على أحد مفعولي "أنذر" لأن المنذر به هو المسوق إليه فاقتصر عليه ﴿ مِن لَّدُنْهُ ﴾ صادراً من عنده ﴿ وَيُبَشِّرُ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ ﴾ أي بأن لهم ﴿ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ أي الجنة ، ﴿ ويبشر ﴾ حمزة وعليّ.

﴿ مَّاكِثِينَ ﴾ حال من "هم" في ﴿ لهم ﴾ ﴿ فِيهِ ﴾ في الأجر وهو الجنة ﴿ أَبَدًا وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَدًا ﴾ ذكر المنذرين دون المنذر به بعكس الأول استغناء بتقديم ذكره.

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي بالولد أو باتخاذه يعني أن قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط فإن قلت : إتخاذ الله ولداً في نفسه محال فكيف قيل ﴿ ما لهم به من علم ﴾ قلت : معناه ما لهم به من علم لأنه ليس مما يعلم لاستحالته وانتفاء العلم بالشيء إما للجهل بالطريق الموصل إليه ، أو لأنه في نفسه محال .

﴿ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ المقلدين ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ نصب على التمييز وفيه معنى التعجب كأنه قيل : ما أكبرها كلمة ! والضمير في ﴿ كبرت ﴾ يرجع إلى قولهم ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ وسميت كلمة كما يسمعون القصيدة بها ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ صفة ل ﴿ كلمة ﴾ تفيد استعظاماً لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم ، فإن كثيراً مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوهوا به بل يكظمون عليه فكيف بمثل هذا المنكر ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ ما يقولون ذلك إلا كذباً هو صفة لمصدر محذوف أي قولاً كذباً ﴿ فَلَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ ﴾ قاتل نفسك ﴿ على ءاثارهم ﴾ أي آثار الكفار ، شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الأسف على توليهم برجل فارقه أحبته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم وتلهفا على فراقهم ﴿ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بهذا الحديث ﴾ بالقرآن ﴿ أَسَفاً ﴾ مفعول لهُ أي لفرط الحزن ، والأسف المبالغة في الحزن والغضب ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا ﴾ أي

ما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ وحسن العمل الزهد فيها وترك الاغترار بها .

ثم زهد في الميل إليها بقوله :

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا ﴾ من هذه الزينة ﴿ صَعِيداً ﴾ أرضاً ملساء ﴿ جُرُزاً ﴾ يابساً لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة ، والمعنى نعيدها بعد عمارتها خراباً بإماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار وغير ذلك .

ولما ذكر من الآيات الكلية تزيين الأرض بما خلق فوقها من الأجناس التي لا حصر لها وإزالة ذلك كله كأن لم يكن قال : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أصحاب الكهف والرقيم ﴾ يعني أن ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة ، والكهف : الغار الواسع في الجبل والرقيم اسم كلبهم أو قريتهم أو اسم كتاب كتب في شأنهم أو اسم الجبل الذي فيه الكهف ﴿ كَانُواْ مِنْ ءاياتنا عَجَبًا ﴾ أي كانوا آية عجباً من آياتنا وصفاً بالمصدر أو على ذات عجب ﴿ إِذْ ﴾ أي اذكر إذ ﴿ أَوَى الفتية إِلَى الكهف فَقَالُواْ رَبَّنَا ءاتِنَا مِن لَّدُنكَ رحمةً ﴾ أي رحمة من خزائن رحمتك وهي المغفرة والرزق والأمن من الأعداء ﴿ وَهَيّىء

لَنَا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ أي الذي نحن عليه من مفارقة الكفار ﴿ رَشَدًا ﴾ حتى نكون بسببه راشدين مهتدين ، أو اجعل أمرنا رشداً كله كقولك "رأيت منك أسداً" أو يسر لنا طريق رضاك ﴿ فَضَرَبْنَا على ءاذَانِهِمْ فِى الكهف ﴾ أي ضربنا عليها حجاباً من النوم يعني أنمنا هم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات فحذف المفعول الذي هو الحجاب ﴿ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ ذوات عدد فهو صفة لسنين .

(236/471)

قال الزجاج : أي تعد عدداً لكثرتها لأن القليل يعلم مقداره من غير عدد فإذا كثر عُدَّ فأما ﴿ دراهم معدودة ﴾ [يوسف : 20] فهي على القلة لأنهم كانوا يعدون القليل ويزنون الكثير ﴿ ثُمَّ بعثناهم ﴾ أيقظناهم من النوم ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ ﴾ المختلفين منهم في مدة لبثهم لأنهم لما انتبهوا اختلفوا في ذلك وذلك قوله ﴿ قَالَ قَائِلٌ مّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ وكان الذين قالوا ﴿ ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول ، أو أي الحزبين المختلفين من غيرهم ﴿ أحصى لِمَا لَبِثُواْ أَمَدًا ﴾ غاية .

و ﴿ أحصى ﴾ فعل ماض و ﴿ أمدا ﴾ ظرف ل ﴿ أحصى ﴾ أو مفعول له ، والفعل

الماضي خبر المبتدأ وهو أي والمتبدأ مع خبره سد مسد مفعولي "نعلم" .

والمعنى أيهم ضبط أمداً لأوقات لبثهم وأحاط علماً بأمد لبثهم ؟ ومن قال : "أحصى" أفعل من الإحصاء وهو العد فقد زل لأن بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس .

وإنما قال : ﴿ لنعلم ﴾ مع أنه تعالى لم يزل عالماً بذلك ، لأن المراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ليزدادوا إيماناً واعتباراً ، وليكون لطفاً لمؤمني زمانهم ، وآية بينة لكفاره .

أو المراد لنعلم اختلافهما موجوداً كما علمناه قبل وجوده .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بالحق ﴾ بالصدق ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ جمع فتى والفتوة بذل الندى وكف الأذى وترك الشكوى واجتناب المحارم واستعمال المكارم .

وقيل : الفتى من لا يدعي قبل الفعل ولا يزكي نفسه بعد الفعل ﴿ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وزدناهم هُدًى ﴾ يقينا ، وكانوا من خواص دقيانوس قد قذف الله في قلوبهم الإيمان وخاف بعضهم بعضاً وقالوا : ليخل اثنان اثنان منا فيظهر كلاهما ما يضمر لصاحبه ففعلوا فحصل اتفاقهم على الإيمان ﴿ وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ ﴾ وقويناها بالصبر على هجران الأوطان والفرار بالدين إلى بعض الغيران وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام ﴿ إِذْ قَامُواْ

﴿ يين يدي الجبار وهو دقيانوس من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام ﴾ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السماوات والأرض ﴾ مفتخرين ﴿ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إلها ﴾ ولئن سميناهم آلهة ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطًا ﴾ قولاً ذا شطط وهو الإفراط في الظلم والإبعاد فيه من شط يشط ويشط إذا بعد .

﴿ هَؤُلاء ﴾ مبتدأ ﴿ قَوْمُنَا ﴾ عطف بيان ﴿ اتخذوا مِن دُونِهِ ءالِهَةً ﴾ خبر وهو إخبار في معنى الإنكار ﴿ لَّوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم ﴾ هلا يأتون على عبادتهم فحذف المضاف ﴿ بسلطان بَيّنٍ ﴾ بحجة ظاهرة وهو تبكيت لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا ﴾ بنسبة الشريك إليه .

(238/471)

﴿ وَإِذِ اعتزلتموهم ﴾ خطاب من بعضهم لبعض حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ نصب عطف على الضمير أي وإذ اعتزلتموهم وإذ اعتزلتم معبوديهم ﴿ إلاَّ الله ﴾ استثناء متصل لأنهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه غيره كأهل مكة ، أو منقطع أي وإذ اعتزلتم الكفار والأصنام التي يعبدونها من دون الله ، أو هو كلام معترض إخبار من الله تعالى عن الفتية أنهم لم يعبدوا غير الله ﴿ فَأْوُواْ إِلَى الكهف ﴾

صيروا إليه أو اجعلوا الكهف مأواكم ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ من رزقه ﴿ وَيُهَيِّىءْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقًا ﴾ ﴿ مَرفقاً ﴾ مدني وشامي وهو ما يرتفق به أي ينتفع.

وإنما قالوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه ونصوع يقينهم، أو أخبرهم به نبي في عصرهم ﴿ وَتَرَى الشمس إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ ﴾ بتخفيت الزاي: كوفي، ﴿ تزْوَرّ ﴾ شامي، ﴿ تزّاور ﴾ غيرهم وأصله تتزاور فخفف بإدغام التاء في الزاي أو حذفها والكل من الزور وهو الميل، ومنه زاره إذا مال إليه، والزور الميل عن الصدق ﴿ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ أي تميل عنه ولا يقع شعاعها عليهم ﴿ ذَاتَ اليمين ﴾ جهة اليمين وحقيقتها الجهة المسماة باليمين ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ﴾ تقطعهم أي تتركهم وتعدل عنهم ﴿ ذَاتَ الشمال وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ في متسع من الكهف.

والمعنى أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها مع أنهم في مكان واسع منفتح معرض لإصابة الشمس لولا أن الله يحجبها عنهم.

وقيل: منفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار ﴿ ذلك مِنْ آيات الله ﴾ أي ما صنعه الله بهم من إزورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة آية من آيات الله يعني أن ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم اختصاصاً لهم بالكرامة.

وقيل : باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش فهم في مقنأة أبداً ، ومعنى ذلك من آيات الله أن شأنهم وحديثهم من آيات الله ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المهتد ﴾ مثل ما مر في "سبحان" وهو ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله وأسلموا له وجوههم فأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ أي من أضله فلا هادي له .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ﴾ بفتح السين : شامي وحمزة وعاصم غير الأعشى ، وهو خطاب لكل أحد ﴿ أَيْقَاظًا ﴾ جمع يقظ ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ نيام .

قيل : عيونهم مفتحة وهم نيام فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظاً ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ الشمال ﴾ قيل : لهم تقلّبتان في السنة .

وقيل : تقلبة واحدة في يوم عاشوراء ﴿ وَكَلْبُهُمْ باسط ذِرَاعَيْهِ ﴾ حكاية حال ماضية لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضي ﴿ بالوصيد ﴾ بالفناء أو بالعتبة ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ ﴾ لو أشرفت عليهم فنظرت إليهم ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ ﴾ لأعرضت عنهم وهربت منهم ﴿ فِرَاراً ﴾ منصوب على المصدر لأن معنى ﴿ وليت منهم ﴾ فررت منهم ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ وبتشديد اللام : حجازي للمبالغة ﴿ رُعْبًا ﴾ تمييز .

وبضم العين : شامي وعلي ، وهو الخوف الذي يرعب الصدر أي يملؤه وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة أو لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم .

وعن معاوية أنه غزا الروم فمر بالكهف فقال : أريد أن أدخل فقال ابن عباس رضي الله عنهما : لقد قيل لمن هو خير منك ﴿ لوليت منهم فراراً ﴾ فدخلت جماعة بأمره فأحرقتهم ريح .

(240/471)

﴿ وكذلك بعثناهم ﴾ وكان أنمناهم تلك النومة كذلك أيقظناهم إظهاراً للقدرة على الإنامة والبعث جميعاً ﴿ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ ليسأل بعضهم بعضاً ويتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله ويزدادوا يقيناً ويشكروا ما أنعم الله به عليهم ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ رئيسهم ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ كم مدة لبثكم ؟ ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ جواب مبني على غالب الظن ، وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب ﴿ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ بمدة لبثكم إنكار عليهم من بعضهم كأنهم قد علموا بالأدلة أو بإلهام أن المدة متطاولة وأن مقدارها لا يعلمه إلا الله .

ورُوي أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم بعد الزوال فظنوا أنهم في يومهم ، فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك : وقد استدل ابن عباس رضي الله عنهما على أن الصحيح عددهم سبعة لأنه قد قال في الآية : ﴿ قال قائل منهم كم لبثتم ﴾ وهذا

واحد ، وقالوا في جوابه ﴿ لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ وهو جمع وأقله ثلاثة ، ثم قال ﴿ ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة ﴿ فابعثوا أَحَدَكُمْ ﴾ كأنهم قالوا ربكم أعلم بذلك لا طريق لكم إلى علمه فخذوا في شيء آخر مما يهمكم فابعثوا أحدكم أي يمليخا ﴿ بِوَرِقِكُمْ ﴾ هي الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة ، وبسكون الراء : أبو عمرو وحمزة وأبو بكر ﴿ هذه إلى المدينة ﴾ هي طرسوس وحملهم الورق عند فرارهم دليل على أن حمل النفقة وما يصلح للمسافر هو رأي المتوكلين على الله دون المتكلين على الاتفاقات وعلى ما في أوعية القوم من النفقات .

(241/471)

وعن بعض العلماء أنه كان شديد الحنين إلى بيت الله ويقول : ما لهذا السفر إلا شيئان شد الهميان والتوكل على الرحمن ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا ﴾ أي أهلها فخذف كما في ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : 82] و"أي" مبتدأ وخبره ﴿ أزكى ﴾ أحل وأطيب أو أكثر وأرخص ﴿ طَعَامًا ﴾ تمييز ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ وليتكلف اللطف فيما يباشره من أمر المبايعة حتى لا يغبن أو في أمر التخفي حتى لا يعرف ﴿ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ ولا يفعلن ما يؤدي إلى الشعور بنا من غير قصد منه فسمى ذلك إشعاراً منه بهم لأنه سبب

فيه .

والضمير في ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ راجع إلى الأهل المقدر في ﴿ أيها ﴾ ﴿ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ ﴾ يطلعوا عليكم ﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ يقتلوكم أخبث القتلة ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ ﴾ بالإكراه ، والعود بمعنى الصيرورة كثير في كلامهم ﴿ وَلَن تُفْلِحُواْ إِذًا أَبَدًا ﴾ ﴿ إذاً ﴾ يدل على الشرط أي ولن تفلحوا إن دخلتم في دينهم أبداً .

(242/471)

﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ وكما أنمناهم وبعثناهم لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم ﴿ لِيَعْلَمُواْ ﴾ أي الذين أطلعناهم على حالهم ﴿ أَنَّ وَعْدَ الله ﴾ وهو البعث ﴿ حَقّ ﴾ كائن لأن حالهم في نومهم وانتباههم بعدها كحال من يموت ثم يبعث ﴿ وَأَنَّ الساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ فإنهم يستدلون بأمرهم على صحة البعث ﴿ إِذْ يتنازعون ﴾ متعلق ب ﴿ أعثرنا ﴾ أي أعثرناهم عليهم حين يتنازع أهل ذلك الزمان ﴿ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ أمر دينهم ويختلفون في حقيقة البعث فكان بعضهم يقول : تبعث الأرواح دون الأجساد ، وبعضهم يقول : تبعث الأجساد مع الأرواح ليرتفع الخلاف وليتبين أن الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت ﴿ فَقَالُواْ ﴾ حين توفى الله أصحاب الكهف ﴿ ابنوا

عَلَيْهِمْ بنيانا ﴾ أي على باب كهفهم لئلا يتطرق إليهم الناس ضناً بتربتهم ومحافظة عليها كما حفظت تربة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحظيرة ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ من كلام المتنازعين كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم ، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾ أو من كلام الله عز وجل رداً لقول الخائضين في حديثهم ﴿ قَالَ الذين غَلَبُواْ على أَمْرِهِمْ ﴾ من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ على باب الكهف ﴿ مَّسْجِدًا ﴾ يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم .

رُوي أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكرهوا على عبادتها وممن شدد في ذلك دقيانوس ، فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل فأبوا إلا الثبات على الإيمان والتصلب فيه ، ثم هربوا إلى الكهف ومروا بكلب فتبعهم فطردوه .

فأنطقه الله تعالى فقال : ما تريدون مني إني أحب أحباء الله فناموا وأنا أحرسكم .

وقيل : مروا براعٍ معه كلب فتبعهم على دينهم ودخلوا الكهف فضرب الله على آذانهم ،
وقبل أن يبعثهم الله مَلكَ مدينتهم رجل صالح مؤمن ، وقد اختلف أهل مملكته في البعث
معترفين وجاحدين ، فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحاً وجلس على رماد وسأل
ربه أن يبين لهم الحق ، فألقى الله في نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سد به فم الكهف
ليتخذه حظيرة لغنمه .

ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياع الطعام وأخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس اتهموه بأنه
وجد كنزاً فذهبوا به إلى الملك فقص عليه القصة ، فانطلق الملك وأهل المدينة معه
وأبصروهم وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث .

ثم قالت الفتية للملك : نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والإنس ، ثم رجعوا إلى
مضاجعهم وتوفى الله أنفسهم فألقى الملك عليهم ثيابه وأمر فجعل لكل واحد تابوت من
ذهب فرآهم في المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجدا .

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالغيب وَيَقُولُونَ
سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ الضمير في ﴿ سيقولون ﴾ لمن خاض في قصتهم في زمن رسول
الله صلى الله عليه وسلم من المؤمنين ، وأهل الكتاب سألوا رسول الله صلى الله عليه
وسلم عنهم فأخر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم فنزلت إخباراً بما سيجري بينهم من
اختلافهم في عددهم ، وأن المصيب منهم من يقول سبعة وثامنهم كلبهم .

ويُروى أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد : وكان يعقوبيا كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم .

وقال العاقب : وكان نسطوريا كانوا خمسة سادسهم كلبهم .

وقال المسلمون : كانوا سبعة وثامنهم كلبهم .

فحقق الله قول المسلمين .

وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما ذكرنا من قبل .

وعن علي رضي الله عنه : هم سبعة نفر أسماؤهم : يمليخا ومكشلينا ومشلينيار هؤلاء أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره والسابع الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس ، واسم مدينتهم أفسوس واسم كلبهم قطمير .

وسين الاستقبال وإن دخل في الأول دون الآخرين فهما داخلان في حكم السين كقولك "قد أكرم وأنعم" تريد معنى التوقع في الفعلين جميعاً ، أو أريد ب ﴿ يفعل ﴾ معنى الاستقبال الذي هو صالح له ﴿ ثلاثة ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هم ثلاثة ، وكذلك ﴿ خمسة ﴾ و

﴿ سبعة ﴾ و ﴿ رابعهم كلبهم ﴾ جملة من مبتدأ وخبر واقعة صفة ل ﴿ ثلاثة ﴾ وكذلك ﴿ سادسهم كلبهم ﴾ و ﴿ ثامنهم كلبهم رجماً بالغيب ﴾ رمياً بالخبر الخفي وإتيانا به كقوله ﴿ ويقذفون بالغيب ﴾ [سبأ : 53] أي يأتون به ، أو وضع الرجم موضع الظن فكأنه قيل : "ظنا" بالغيب لأنهم أكثروا أن يقولوا رجم بالظن مكان قولهم ظن حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين .

والواو الداخلة على الجملة الثالثة هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة النكرة كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في قولك "جاءني رجل ومعه آخر ومررت بزيد وفي يده سيف" وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف .

والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر ، وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ قالوه عن ثبات علم ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم دليله أن الله تعالى أتبع القولين الأولين قوله ﴿ رجماً بالغيب ﴾ وأتبع القول الثالث قوله ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ أي قل ربي أعلم بعدّتهم وقد أخبركم بها بقوله ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أنا من ذلك القليل .

وقيل : إلا قليل من أهل الكتاب ، والضمير في ﴿ سيقولون ﴾ على هذا لأهل الكتاب خاصة أي سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا ولا علم بذلك إلا في قليل منهم وأكثرهم على ظن وتخمين ﴿ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ ﴾ فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف ﴿ إِلاَّ مِرَآءً ظاهرا ﴾ إلا جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه وهو أن تقص عليهم ما أوحى الله إليك فحسب ولا تزيد من غير تجهيل لهم أو بمشهد من الناس ليظهر صدقك ﴿ وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾ ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت له حتى يقول شيئاً فترده عليه وتزيف ما عنده ولا سؤال مسترشد لأن الله تعالى قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم .

﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ ﴾ لأجل شيء تعزم عليه ﴿ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ ﴾ الشيء ﴿ غَداً ﴾ أي فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ الله ﴾ أن تقوله بأن يأذن ذلك لك فيه ، أو ولا تقولنه إلا بأن يشاء الله أي إلا بمشيئته ، وهو في موضع الحال أي إلا ملتبساً بمشيئة الله قائلاً إن شاء الله .

وقال الزجاج : معناه : ولا تقولن إني أفعل ذلك إلا بمشيئة الله تعالى ، لأن قول القائل "أنا أفعل ذلك إن شاء الله" معناه : لا أفعله إلا بمشيئة الله ، وهذا نهي تأديب من الله لنبيه حين قالت اليهود لقريش : سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذي القرنين فسألوه فقال : ائتوني غداً أخبركم ولم يستثن فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه ﴿ واذكر رَّبَّكَ ﴾ أي

مشيئة ربك وقل إن شاء الله ﴿ إِذَا نَسِيتَ ﴾ إذا فرط منك نسيان لذلك ، والمعنى إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبهت عليها فتداركها بالذكر ، عن الحسن : مادام في مجلس الذكر .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ولو بعد سنة .

(246/471)

وهذا محمول على تدارك التبرك بالاستثناء ، فأما الاستثناء المغير حكماً فلا يصح إلا متصلاً ، وحُكي أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة رحمه الله خالف ابن عباس رضي الله عنهما في الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال له أبو حنيفة : هذا يرجع عليك إنك تأخذ البيعة بالأيمان أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك ؟

فاستحسن كلامه وأمر الطاعن فيه بإخراجه من عنده .

أو معناه واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء تشديداً في البعث على الاهتمام بها ، أو صل صلاة نسيتها إذا ذكرتها ، أو إذا نسيت شيئاً فاذكره ليذكرك المنسي ﴿ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِى رَبّى لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَدًا ﴾ يعني إذا نسيت شيئاً فاذكر ربك ، وذكر ربك عند نسيانه أن تقول : عسى ربي أن يهديني لشيء آخر بدل هذا

المنسي أقرب منه رشداً وأدنى خيراً ومنفعه.

﴿ أن يهدين ﴾ ، ﴿ إن ترن ﴾ ، ﴿ أن يؤتين ﴾ ، ﴿ أن تعلمن ﴾ .

مكي في الحالين، ووافقه أبو عمرو ومدني في الوصل.

﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ ﴾ يريد لبثهم فيه أحياء مضروباً على آذانهم هذه المدة وهو بيان لما أجمل في قوله: ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ﴾ وسنين عطف بيان لثلثمائة.

(247/471)

ثلثمائة سنين بالإضافة: حمزة وعليّ، على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله ﴿ بالأخسرين أعمالاً ﴾ [الكهف: 103] ﴿ وازدادوا تِسْعًا ﴾ أي تسع سنين لدلالة ما قبله عليه ﴿ تسعاً ﴾ مفعول به لأن "زاد" تقتضي مفعولين ف "ازداد" يقتضي مفعولاً واحداً ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ أي هو أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم والحق ما أخبرك به، أو هو حكاية لكلام أهل الكتاب و ﴿ قل الله أعلم ﴾ رد عليهم، والجمهور على أن هذا إخبار من الله سبحانه وتعالى أنهم لبثوا في كهفهم كذا مدة ﴿ لَهُ غَيْبُ السماوات والأرض ﴾ ذكر اختصاصه بعلم ما غاب في السماوات والأرض وخفي فيها

من أحوال أهلها ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ أي وأسمع به والمعنى ما أبصره بكل موجود وما أسمعه لكل مسموع ﴿ مَا لَهُم ﴾ لأهل السموات والأرض ﴿ مّن دُونِهِ مِن وَلِىّ ﴾ من متول لأمورهم ﴿ وَلاَ يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ ﴾ في قضائه ﴿ أَحَدًا ﴾ منهم ، ولا تشرك على النهي : شامي .

كانوا يقولون له ائت بقرآن غير هذا أو بدله فقيل له : ﴿ واتل مَا أُوْحِىَ إِلَيْكَ مِن كتاب رَبّكَ ﴾ أي من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل فإنه ﴿ لاَ مُبَدّلَ لكلماته ﴾ أي لا يقدر أحد على تبديلها أو تغييرها إنما يقدر على ذلك هو وحده ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ ملتجأ تعدل إليه إن هممت بذلك .

ولما قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نحّ هؤلاء الموالي وهم صهيب وعمار وخباب وسلمان وغيرهم من فقراء المسلمين حتى نجالسك نزل :

﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ واحبسها معهم وثبتها ﴿ بالغداة والعشى ﴾ دائبين على الدعاء في كل وقت ، أو بالغداة لطلب التوفيق والتيسير ، والعشي لطلب عفو التقصير ، أو هما صلاة الفجر والعصر .

﴿ بالغُدوة ﴾ شامي ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ رضا الله ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ ولا تجاوز، عداه إذا جاوزه وعدى ب "عن" لتضمن "عدا" معنى "نبا" في قولك "نبت عنه عينه"، وفائدة التضمين إعطاء مجموع معنيين وذلك أقوى من إعطاء معنى قد ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ﴾ في موضع الحال ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ من جعلنا قلبه غافلاً عن الذكر وهو دليل لنا على أنه تعالى خالق أفعال العباد ﴿ واتبع هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ مجاوزاً عن الحق ﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أي الإسلام أو القرآن، و ﴿ الحق ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ أي جاء الحق وزاحت العلل فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة أو في طريق الهلاك.

وجيء بلفظ الأمر والتخيير لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء فكأنه مخير مأمور بأن يتخير ماشاء من النجدين.

ثم ذكر جزاء من اختار الكفر فقال: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ هيأنا ﴿ للظالمين ﴾ للكافرين فقيد بالسياق كما تركت حقيقة الأمر والتخيير بالسياق وهو قوله ﴿ إنا أعتدنا للظالمين ﴾ ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق وهي الحجرة التي تكون حول الفسطاط، أو هو دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار، أو هو حائط من نار يطيف بهم ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ ﴾ من العطش ﴿ يُغَاثُواْ بِمَاءٍ كالمهل ﴾ هو دردى

الزيت أو ما أذيب من جواهر الأرض وفيه تهكم بهم ﴿ يَشْوِى الوجوه ﴾ إذا قدم ليشرب انشوى الوجوه من حرارته ﴿ بِئْسَ الشراب ﴾ ذلك ﴿ وَسَاءتْ ﴾ النار ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ متكأ من الرفق وهذه لمشاكلة قوله : ﴿ وحسنت مرتفقا ﴾ وإلا فلا ارتفاق لأهل النار .

وبين جزاء من اختار الإيمان فقال :

(249/471)

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً * أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ كلام مستأنف بيان للأجر المبهم ، ولك أن تجعل ﴿ إنَّا لا نضيع ﴾ و ﴿ أولئك ﴾ خبرين معاً .

والمراد من أحسن منهم عملاً كقولك "السمن منوان بدرهم" ، أو لأن ﴿ من أحسن عملاً ﴾ و ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ينتظمهما معنى واحد فأقام من "أحسن" مقام الضمير ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ "من" للابتداء ، وتنكير أساور وهي جمع أسورة التي هي جمع سوار لإبهام أمرها في الحسن ﴿ مّن ذَهَبٍ ﴾ "من" للتبيين ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مّن سُنْدُسٍ ﴾ ما رقّ من الديباج ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ ما غلظ منه أي يجمعون بين النوعين ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا على الأرائك ﴾ خص الاتكاء لأنه هيئة

المتنعمين والملوك على أسرتهم ﴿ نِعْمَ الثواب ﴾ الجنة ﴿ وَحَسُنَتْ ﴾ الجنة والأرائك ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ متكأ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 12.2 ﴾

(250/471)

وقال البيضاوى :

﴿ الحمد لِلَّهِ الذى أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾

يعني القرآن ، رتب استحقاق الحمد على إنزاله تنبيهاً على أنه أعظم نعمائه ، وذلك لأنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد والداعي إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد . ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ شيئاً من العوج باختلال في اللفظ وتناف في المعنى ، أو انحراف من الدعوة إلى جانب الحق وهو في المعاني كالعوج في الأعيان .

﴿ قَيِّماً ﴾ مستقيماً معتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط ، أو ﴿ قَيِّماً ﴾ بمصالح العباد فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال ، أو على الكتب السابقة يشهد بصحتها ، وانتصابه بمضمر تقديره جعله قيماً أو على الحال من الضمير في ﴿ لَهُ ﴾ ، أو من ﴿ الكتاب ﴾ على أن الواو ﴿ وَلَمْ يَجْعَل ﴾ للحال دون العطف ، إذ لو كان للعطف لكان المعطوف فاصلاً بين أبعاض المعطوف عليه ولذلك قيل فيه تقديم وتأخير ﴿ قَيِّماً ﴾ .

﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ أي لينذر الذين كفروا عذاباً شديداً ، فحذف المفعول الأول اكتفاء بدلالة القرينة واقتصاراً على الغرض المسوق إليه . ﴿ مِن لَّدُنْهُ ﴾ صادراً من عنده ، وقرأ أبو بكر بإسكان الدال كإسكان الباء من سبع مع الإشمام ليدل على أصله ، وكسر النون لالتقاء الساكنين وكسر الهاء للإتباع . ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ هو الجنة .

﴿ مَّاكِثِينَ فِيهِ ﴾ في الأجر . ﴿ أَبَدًا ﴾ بلا انقطاع .

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ خصهم بالذكر وكرر الإنذار متعلقاً بهم استعظاماً لكفرهم ، وإنما لم يذكر المنذر به استغناء بتقدم ذكره .

(251/471)

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي بالولد أو باتخاذه أو بالقول ، والمعنى أنهم يقولونه عن جهل مفرط وتوهم كاذب ، أو تقليد لما سمعوه من أوائلهم من غير علم بالمعنى الذي أرادوا به ، فإنهم كانوا يطلقون الأب والابن بمعنى المؤثر والأثر . أو بالله إذ لو علموه لما جوزوا نسبة الاتخاذ إليه . ﴿ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ الذين تقولوه بمعنى التبني . ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ عظمت مقالتهم هذه في الكفر لما فيها من التشبيه والتشريك ، وإيهام احتياجه تعالى إلى ولد يعينه

ويخلفه إلى غير ذلك من الزيغ، و﴿ كَلِمَةً ﴾ نصب على التمييز وقرىء بالرفع على الفاعلية والأول أبلغ وأدل على المقصود. ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ صفة لها تفيد استعظام اجترائهم على إخراجها من أفواههم، والخارج بالذات هو الهواء الحامل لها. وقيل صفة محذوف هو المخصوص بالذم لأن كبرها هنا بمعنى بئس وقرىء ﴿ كَبُرَتْ ﴾ بالسكون مع الإشمام. ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ قاتلها. ﴿ على ءاثارهم ﴾ إذا ولوا عن الإيمان، لما يداخله من الوجد على توليهم بمن فارقته أعزته فهو يتحسر على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم. وقرىء ﴿ باخع نَفْسَكَ ﴾ على الإضافة. ﴿ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث ﴾ بهذا القرآن. ﴿ أَسَفاً ﴾ للتأسف عليهم أو متأسفاً عليهم، والأسف فرط الحزن والغضب. وقرىء "أن" بالفتح على لأن فلا يجوز إعمال "باخع" إلا إذا جعل حكاية حال ماضية.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض ﴾ من الحيوان والنبات والمعادن. ﴿ زِينَةً لَّهَا ﴾ ولأهلها ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ في تعاطيه، وهو من زهد فيه ولم يغتر به وقنع منه بما يزجي به أيامه وصرفه على ما ينبغي، وفيه تسكين لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ تزهيد فيه ، والجرز الأرض التي قطع نباتها . مأخوذ من الجرز وهو القطع ، والمعنى إنا لنعيد ما عليها من الزينة تراباً مستوياً بالأرض ونجعله كصعيد أملس لا نبات فيه .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ بل أحسبت . ﴿ أَنَّ أصحاب الكهف والرقيم ﴾ في إبقاء حياتهم مدة مديدة . ﴿ كَانُواْ مِنْ ءاياتنا عَجَبًا ﴾ وقصتهم بالإِضافة إلى خلق ما على الأرض من الأجناس والأنواع الفائتة للحصر على طبائع متباعدة وهيئات متخالفة تعجب الناظرين من مادة واحدة ، ثم ردها إليها ليس بعجيب مع أنه من آيات الله كالنزر الحقير . و ﴿ الكهف ﴾ الغار الواسع في الجبل . و ﴿ الرقيم ﴾ اسم الجبل أو الوادي الذي فيه كهفهم ، أو اسم قريتهم أو كلبهم . قال أمية بن أبي الصلت :

وَلَيْسَ بِهَا إِلاَّ الرَّقِيمُ مُجَاوِرا . . . وَصَيْدَهُمُو وَالقَوْمُ فِي الكَهْفِ هُجَّدُ

أو لوح رصاصي أو حجري رقمت فيه أسماؤهم وجعل على باب الكهف . وقيل أصحاب الرقيم قوم آخرون كانوا ثلاثة خرجوا يرتادون لأهلهم ، فأخذتهم السماء فأووا

إلى الكهف فانحطت صخرة وسدت بابه . فقال أحدهم اذكروا أيكم عمل حسنة لعل الله يرحمنا ببركته ، فقال أحدهم : استعملت أجراء ذات يوم فجاء رجل وسط النهار وعمل في بقيته مثل عملهم فأعطيته مثل أجرهم ، فغضب أحدهم وترك أجره فوضعته في جانب البيت ، ثم مر بي بقر فاشتريت به فصيلة فبلغت ما شاء الله ، فرجع إلي بعد حين شيخاً ضعيفاً لا أعرفه وقال : إنه لي عندك حقاً وذكره لي حتى عرفته فدفعتها إليه جميعاً ، اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنا ، فانصدع الجبل حتى رأوا الضوء . وقال آخر : كان فِيَّ فضل وأصابت الناس شدة ، فجاءتني امرأة فطلبت مني معروفاً فقلت : والله ما هو دون نفسك فأبت وعادت ثم رجعت ثلاثاً ، ثم ذكرت لزوجها فقال أجيبي له وأغيثي عيالك ، فأتت وسلمت إلي نفسها فلما تكشفتها وهممت بها ارْتَعَدَتْ فقلت : ما لكِ قالت أخاف الله ، فقلت لها : خفته في الشدة ولم أخفه في الرخاء فتركتها وأعطيتها ملتمسها ، اللهم إن كنت فعلته لوجهك فافرج عنا ، فانصدع حتى تعارفوا . وقال الثالث كان لي أبوان هرمان وكانت لي غنم وكنت أطعمهما وأسقيهما ثم أرجع إلى غنمي فحبسني ذات يوم غيث فلم أبرح حتى أمسيت ، فأتيت أهلي وأخذت محلبي فحلبت فيه ومضيت إليهما ، فوجدتهما نائمين فشق علي أن أوقظهما ، فتوقعت جالساً ومحلبي على يدي حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما . اللهم إن كنت فعلته لوجهك فافرج عنا . ففرج الله عنهم فخرجوا وقد رفع ذلك نعمان بن بشير .

﴿ إِذْ أَوَى الفتيةإِلَى الكهف ﴾ يعني فتية من أشراف الروم أرادهم دقيانوس على الشرك فأبوا وهربوا إلى الكهف ، ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا ءاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ توجب لنا المغفرة والرزق والأمن من العدو . ﴿ وَهَيّىء لَنَا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ من الأمر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار . ﴿ رَشَدًا ﴾ نصير بسببه راشدين مهتدين ، أو اجعل أمرنا كله رشداً كقولك : رأيت منك أسداً وأصل التهيئة إحداث هيئة الشيء .

﴿ فَضَرَبْنَا على ءاذَانِهِمْ ﴾ أي ضربنا عليهم حجاباً يمنع السماع بمعنى أنمناهم إنامة لا تنبههم فيها الأصوات ، فحذف المفعول كما حذف في قولهم : بنى على امرأته . ﴿ فِى الكهف سِنِينَ ﴾ ظرفان لضربنا . ﴿ عَدَدًا ﴾ أي ذوات عدد ، ووصف السنين به يحتمل التكثير والتقليل ، فإن مدة لبثهم كبعض يوم عنده .

﴿ ثُمَّ بعثناهم ﴾ أيقظناهم . ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ ليتعلق علمنا تعلقاً حالياً مطابقاً لتعلقه أولاً تعلقاً استقبالياً . ﴿ أَيُّ الحِزْبَيْنِ ﴾ المختلفين منهم أو من غيرهم في مدة لبثهم . ﴿ أحصى لِمَا لَبِثُواْ أَمَدًا ﴾ ضبط أمد الزمان لبثهم وما في أي من معنى الاستفهام علق عنه لنعلم ، فهو مبتدأ و﴿ أحصى ﴾ خبره . وهو فعل ماض و﴿ أَمَدًا ﴾ مفعول له و﴿ لِمَا

لَبِثُوا ﴾ حال منه أو مفعول له ، وقيل إنه المفعول واللام مزيدة وما موصولة و﴿ أَمَدًا ﴾ تمييز ، وقيل ﴿ أحصى ﴾ اسم تفضيل من الإِحصاء بحذف الزوائد كقولهم : هو أحصى للمال وأفلس من ابن المذلق ، و﴿ أَمَدًا ﴾ نصب بفعل دل عليه ﴿ أحصى ﴾ كقوله :

وَأضرب مِنّا بِالسُّيُوفِ القَوَانِسَا . . . ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بالحق ﴾ بالصدق .

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ شبان جمع فتى كصبي وصبية . ﴿ ءَامَنُواْ بِرَبّهِمْ وزدناهم هُدًى ﴾ بالتثبيت .

(255/471)

﴿ وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ ﴾ وقويناها بالصبر على هجر الوطن والأهل والمال ، والجراءة على إظهار الحق والرد على دقيانوس الجبار . ﴿ إِذْ قَامُواْ ﴾ بين يديه . ﴿ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السموات والأرض لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إلها لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطًا ﴾ والله لقد قلنا قولاً ذا شطط أي ذا بعد عن الحق مفرط في الظلم .

﴿ هَؤُلاء ﴾ مبتدأ . ﴿ قَوْمُنَا ﴾ عطف بيان . ﴿ اتخذوا مِن دُونِهِ ءالِهَةً ﴾ خبره ، وهو إخبار في معنى إنكار . ﴿ لَّوْلاَ يَأْتُونَ ﴾ هلا يأتون . ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على عبادتهم .

﴿ بسلطان بَيِّنٍ ﴾ ببرهان ظاهر فإن الدين لا يؤخذ إلا به، وفيه دليل على أن ما لا دليل عليه من الديانات مردود وأن التقليد فيه غير جائز. ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾ بنسبة الشريك إليه.

﴿ وَإِذِ اعتزلتموهم ﴾ خطاب بعضهم لبعض. ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ ﴾ عطف على الضمير المنصوب، أي وإذا اعتزلتم القوم ومعبوديهم إلا الله، فإنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون الأصنام كسائر المشركين. ويجوز أن تكون ﴿ مَا ﴾ مصدرية على تقدير وإذ اعتزلتموهم وعبادتهم إلا عبادة الله، وأن تكون نافية على أنه إخبار من الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترض بين ﴿ إِذْ ﴾ وجوابه لتحقيق اعتزالهم. ﴿ فَأْوُواْ إِلَى الكهف يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم ﴾ يبسط الرزق لكم ويوسع عليكم. ﴿ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ في الدارين. ﴿ وَيُهَيِّىءْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقًا ﴾ ما ترتفقون به أي تنتفعون، وجزمهم بذلك لنصوع يقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى، وقرأ نافع وابن عامر ﴿ مِّرْفَقًا ﴾ بفتح الميم وكسر الفاء وهو مصدر جاء شاذاً كالمرجع والمحيض فإن قياسه الفتح.

﴿ وَتَرَى الشمس ﴾ لو رأيتهم ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو لكل أحد . ﴿ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ تميل عنه ولا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم ، لأن الكهف كان جنوبياً ، أو لأن الله تعالى زورها عنهم .

وأصله تتزاور فأدغمت التاء في الزاي ، وقرأ الكوفيون بحذفها وابن عامر ويعقوب "تزور" كتحمر ، وقرىء "تزوار" كتحمار وكلها من الزور بمعنى الميل . ﴿ ذَاتَ اليمين ﴾ جهة اليمين وحقيقتها الجهة ذات اسم اليمين . ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ﴾ تقطعهم وتصرم عنهم . ﴿ ذَاتَ الشمال ﴾ يعني يمين الكهف وشماله لقوله : ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مّنْهُ ﴾ أي وهم في متسع من الكهف ، يعني في وسطه بحيث ينالهم روح الهواء ولا يؤذيهم كرب الغار ولا حر الشمس ، وذلك لأن باب الكهف في مقابلة بنات نعش ، وأقرب المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرق رأس السرطان ومغربه ، والشمس إذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الأيمن وهو الذي يلي المغرب ، وتغرب محاذية لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جانبيه ، ويحلل عفونته ويعدل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذي أجسادهم ويبلي ثيابهم . ﴿ ذلك مِنْ آيات الله ﴾ أي شأنهم وإيواؤهم إلى كهف شأنه كذلك ، أو إخبارك قصتهم ، أو ازورار الشمس عنهم وقرضها طالعة وغاربة من آيات الله . ﴿ مَن يَهْدِ الله ﴾ بالتوفيق . ﴿ فَهُوَ المهتد ﴾ الذي أصاب الفلاح ، والمراد به إما الثناء عليهم أو التنبيه

على أن أمثال هذه الآيات كثيرة ولكن المنتفع بها من وفقه الله للتأمل فيها والاستبصار بها .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ﴾ ومن يخذله . ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّا مُّرْشِدًا ﴾ من يليه ويرشده :

(257/471)

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا ﴾ لانفتاح عيونهم أو لكثرة تقلبهم . ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ نيام . ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾ في رقدتهم . ﴿ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ الشمال ﴾ كيلا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم على طول الزمان . وقرىء "ويقلبهم" بالياء والضمير لله تعالى ، و"تَقَلُّبَهُمْ" على المصدر منصوباً بفعل يدل عليه تحسبهم أي وترى تقلبهم . ﴿ وَكَلْبُهُمْ ﴾ هو كلب مروا به فتبعهم فطردوه فأنطقه الله تعالى فقال : أنا أحب أحباء الله فناموا وأنا أحرسكم . أو كلب راع مروا به فتبعهم وتبعه الكلب ، ويؤيده قراءة من قرأ : و"كالبهم" أي وصاحب كلبهم . ﴿ باسط ذِرَاعَيْهِ ﴾ حكاية حال ماضية ولذلك أعمل اسم الفاعل . ﴿ بالوصيد ﴾ بفناء الكهف ، وقيل الوصيد الباب ، وقيل العتبة . ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ ﴾ فنظرت إليهم ، وقرىء ﴿ لَوِ اطلعت ﴾ بضم الواو . ﴿ لَوْلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ لهربت منهم ، و﴿ فِرَاراً ﴾ يحتمل المصدر لأنه نوع من التولية والعلة والحال . ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ خوفاً يملأ صدرك بما ألبسهم الله من الهيبة أو لعظم أجرامهم وانفتاح عيونهم .

وقيل لوحشة مكانهم . وعن معاوية رضي الله عنه أنه غزا الروم فمر بالكهف فقال : لو كشفت لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ، فقال له ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ليس لك ذلك قد منع الله تعالى منه من هو خير منك فقال ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ فلم يسمع وبعث ناساً فلما دخلوا جاءت ريح فأحرقتهم .

وقرأ الحجازيان ﴿ لَمُلِئْتَ ﴾ بالتشديد للمبالغة وابن عامر والكسائي ويعقوب ﴿ رُعُبًا ﴾ بالتثقيل .

﴿ وكذلك بعثناهم ﴾ وكما أنمناهم آية بعثناهم آية على كمال قدرتنا . ﴿ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ ليسأل بعضهم بعضاً فتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم فيزدادوا يقيناً على كمال قدرة الله تعالى ، ويستبصروا به أمر البعث ويشكروا ما أنعم الله به عليهم . ﴿ قَالَ قَائِلٌ مّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ بناء على غالب ظنهم لأن النائم لا يحصي مدة نومه ولذلك أحالوا العلم إلى الله تعالى . ﴿ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ ويجوز أن يكون ذلك قول بعضهم وهذا إنكار الآخرين عليهم . وقيل إنهم دخلوا الكهف غدوة وانتبهوا ظهيرة وظنوا أنهم في يومهم أو اليوم الذي بعده قالوا ذلك ، فلما نظروا إلى طول أظفارهم

وأشعارهم قالوا هذا ثم لما علموا أن الأمر ملتبس لا طريق لهم إلى علمه أخذوا فيما يهمهم وقالوا : ﴿ فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذه إلى المدينة ﴾ والورق الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة ، وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وحمزة وروح عن يعقوب بالتخفيف . وقرىء بالتثقيل وإدغام القاف في الكاف وبالتخفيف مكسور الواو مدغماً وغير مدغم ، ورد المدغم لالتقاء الساكنين على غير حده ، وحملهم له دليل على أن التزود رأي المتوكلين والمدينة طرسوس . ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا ﴾ أي أهلها . ﴿ أزكى طَعَامًا ﴾ أحل وأطيب أو أكثر وأرخص . ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ وليتكلف اللطف في المعاملة حتى لا يغبن ، أو في التخفي حتى لا يعرف . ﴿ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ ولا يفعلن ما يؤدي إلى الشعور .

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي يطلعوا عليكم أو يظفروا بكم ، والضمير للأهل المقدر في ﴿ أَيُّهَا ﴾ . ﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ يقتلوكم بالرجم . ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ ﴾ أو يصيروكم إليها كرهاً من العود بمعنى الصيرورة . وقيل كانوا أولاً على دينهم فآمنوا . ﴿ وَلَن تُفْلِحُواْ إِذًا أَبَدًا ﴾ إن دخلتم في ملتهم .

﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ وكما أنمناهم وبعثناهم لتزداد بصيرتهم أطلعنا عليهم . ﴿ لِيَعْلَمُوا ﴾ ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم . ﴿ أَنَّ وَعْدَ اللهِ ﴾ بالبعث أو الموعود الذي هو البعث . ﴿ حَقٌّ ﴾ لأن نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث . ﴿ وَأَنَّ الساعة لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ وأن القيامة لا ريب في إمكانها ، فإن من توفى نفوسهم وأمسكها ثلاثمائة سنين حافظاً أبدانها عن التحلل والتفتت ، ثم أرسلها إليها قدر أن يتوفى نفوس جميع الناس ممسكاً إياها إلى أن يحشر أبدانهم فيردها عليها . ﴿ إِذْ يتنازعون ﴾ ظرف ل ﴿ أَعْثَرْنَا ﴾ أي أعثرنا عليهم حين يتنازعون . ﴿ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ أمر دينهم ، وكان بعضهم يقول تبعث الأرواح مجردة وبعضهم يقول يبعثان معاً ليرتفع الخلاف ويتبين أنهما يبعثان معاً ، أو أمر الفتية حين أماتهم الله ثانياً بالموت فقال بعضهم ، ماتوا وقال آخرون ناموا نومهم أول مرة ، أو قالت طائفة نبني عليهم بنياناً يسكنه الناس ويتخذونه قربة ، وقال آخرون لنتخذن عليهم مسجداً يصلى فيه كما قال تعالى : ﴿ فَقَالُواْ ابنوا عَلَيْهِمْ بنيانا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الذين غَلَبُواْ على أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِدًا ﴾ وقوله ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ اعتراض إما من الله رداً على الخائضين في أمرهم من أولئك المتنازعين أو من المتنازعين

في زمانهم ، أو من المتنازعين فيهم على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو من المتنازعين للرد إلى الله بعد ما تذكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم فلم يتحقق لهم ذلك . حكي أن المبعوث لما دخل السوق وأخرج الدراهم وكان عليها اسم دقيانوس اتهموه بأنه وجد كنزاً فذهبوا به إلى الملك وكان نصرانياً موحداً فقص عليه القصص ، فقال بعضهم : إن آباءنا أخبرونا أن فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء ، فانطلق الملك وأهل المدينة من مؤمن وكافر

وأبصروهم وكلموهم ، ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والإِنس ثم ارجعوا إلى مضاجعهم فماتوا فدفنهم الملك في الكهف وبني عليهم مسجداً . وقيل لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى مكانكم حتى أدخل أولاً لئلا يفزعوا ، فدخل فعمي عليهم المدخل فبنوا ثم مسجداً .

﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ أي الخائضون في قصتهم في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب والمؤمنين . ﴿ ثلاثة رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ أي هم ثلاثة رجال يربعهم كلبهم بانضمامه إليهم . قيل هو قول اليهود وقيل هو قول السيد من نصارى نجران وكان يعقوبياً . ﴿ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ قاله النصارى أو العاقب منهم وكان نسطورياً . ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾ يرمون رمياً بالخبر الخفي الذي لا مطلع لهم عليه وإتياناً به ، أو ظناً بالغيب من قولهم رجم بالظن إذا ظن وإنما لم يذكر بالسين اكتفاء بعطفه على ما هو فيه . ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ إنما قاله المسلمون بإخبار الرسول لهم عن جبريل عليهما الصلاة والسلام وإيماء الله تعالى إليه بأن أتبعه قوله ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ وأتبع الأولين قوله رجماً بالغيب وبأن أثبت العلم بهم لطائفة بعد ما حصر أقوال الطوائف في الثلاثة المذكورة ، فإن عدم إيراد رابع في نحو هذا المحل دليل العدم مع أن الأصل ينفيه ، ثم رد الأولين بأن أتبعهما قوله ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾ ليتعين الثالث وبأن أدخل فيه الواو على الجملة الواقعة صفة للنكرة تشبيهاً لها بالواقعة حالاً من المعرفة ، لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت . وعن علي رضي الله عنه هم سبعة وثامنهم كلبهم وأسماؤهم : يمليخا ومكشلينيا ومشلينيا هؤلاء أصحاب يمين الملك ، ومرنوش ودبرنوش وشاذنوش أصحاب يساره وكان يستشيرهم ، والسابع الراعي الذي وافقهم واسم كلبهم قطمير واسم مدينتهم أفسوس . وقيل الأقوال الثلاثة لأهل الكتاب

والقليل منهم . ﴿ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ فلا تجادل في شأن الفتية إلاَّ جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه ، وهو أن تقص عليهم ما في القرآن من غير تجهيل لهم والرد عليهم .

﴿ وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِّنْهُمْ أَحَدًا

(263/471)

﴾ ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال مسترشد فإن فيما أوحي إليك لمندوحة من غيره ، مع أنه لا علم لهم بها ولا سؤال متعنت تريد تفضيح المسؤول وتزييف ما عنده فإنه مخل بمكارم الأخلاق .

(264/471)

﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ نهي تأديب من الله تعالى لنبيه حين قالت اليهود لقريش : سلوه عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين ، فسألوه فقال : "ائتوني غداً أخبركم" ولم يستثن فأبطأ عليه الوحي بضعة عشر يوماً حتى شق عليه وكذبه قريش . والاستثناء من النهي أي ولا تقولن لأجل شيء تعزم عليه إني فاعله فيما يستقبل

إلا ب ﴿ أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ أي إلا ملتبساً بمشيئته قائلاً إن شاء الله أو إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله بمعنى أن يأذن لك فيه ، ولا يجوز تعليقه بفاعل لأن استثناء اقتران المشيئة بالفعل غير سديد واستثناء اعتراضها دونه لا يناسب النهي ﴿ واذكر رَّبَّكَ ﴾ مشيئة ربك وقل إن شاء الله . كما روي أنه لما نزل قال عليه الصلاة والسلام : " إن شاء الله " ﴿ إِذَا نَسِيتَ ﴾ إذا فرط منك نسيان لذلك ثم تذكرته . وعن ابن عباس ولو بعد سنة ما لم يحنث ، ولذلك جوز تأخير الاستثناء عنه . وعامة الفقهاء على خلافه لأنه لو صح ذلك لم يتقرر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يعلم صدق ولا كذب ، وليس في الآية والخبر أن الاستثناء المتدارك به من القول السابق بل هو من مقدر مدلول به عليه ، ويجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء مبالغة في الحث عليه ، أو اذكر ربك وعقابه إذا تركت بعض ما أمرك به ليبعثك على التدارك ، أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسي . ﴿ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِ رَبّى ﴾ يدلني . ﴿ لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَدًا ﴾ لأقرب رشداً وأظهر دلالة على أني نبي من نبأ أصحاب الكهف . وقد هداه لأعظم من ذلك كقصص الأنبياء المتباعدة عنه أيامهم ، والإخبار بالغيوب والحوادث النازلة في الأعصار المستقبلة إلى قيام الساعة ، أو لأقرب رشداً وأدنى خيراً من المنسي .

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وازدادوا تِسْعًا ﴾ يعني لبثهم فيه أحياء مضروباً على آذانهم ، وهو بيان لما أجمل قبل . وقيل إنه حكاية كلام أهل الكتاب فإنهم اختلفوا في مدة لبثهم كما اختلفوا في عدتهم فقال بعضهم ثلاثمائة وقال بعضهم ثلثمائة وتسع سنين .

وقرأ حمزة والكسائي "ثَلاثمائَة سنين" بالإِضافة على وضع الجمع موضع الواحد ، ويحسنه ها هنا أن علامة الجمع فيه جبر لما حذف من الواحد وأن الأصل في العدد إضافته إلى الجمع ومن لم يضف أبدل السنين من ثلثمائة .

﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ له ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلهما ، فلا خلق يخفى عليه علماً . ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ ذكر بصيغة التعجب للدلالة على أن أمره في الإِدراك خارج عما عليه إدراك السامعين والمبصرين ، إذ لا يحجبه شيء ولا يتفاوت دونه لطيف وكثيف وصغير وكبير وخفي وجلي ، والهاء تعود إلى الله ومحله الرفع على الفاعليه والباء مزيده عند سيبويه وكان أصله أبصر أي صار ذا بصر ، ثم نقل إلى صيغة الأمر بمعنى الإِنشاء ، فبرز الضمير لعدم لياق الصيغة له أو لزيادة الباء كما في قوله تعالى ﴿ وكفى بِهِ ﴾ والنصب على المفعولية عند الأخفش والفاعل ضمير المأمور وهو كل أحد والباء مزيدة إن كانت الهمزة للتعدية ومعدية إن كانت للصيرورة . ﴿ مَّا لَهُم ﴾ الضمير لأهل السموات والأرض . ﴿ مِّن دُونِهِ مِن وَلِىّ ﴾ من يتولى أمورهم . ﴿ وَلاَ

يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ ﴾ في قضائه . ﴿ أَحَدًا ﴾ منهم ولا يجعل له فيه مدخلاً . وقرأ ابن عامر وقالون عن يعقوب بالتاء والجزم على نهي كل أحد عن الإِشراك ، ثم لما دل اشتمال القرآن على قصة أصحاب الكهف من حيث إنها من المغيبات بالإِضافة إلى رسول الله على أنه وحي معجز أمره أن يداوم درسه ويلازم أصحابه فقال :

(266/471)

﴿ واتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن كتاب رَبّكَ ﴾ من القرآن ، ولا تسمع لقولهم ﴿ ائت بِقُرْءانٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدّلْهُ ﴾ . ﴿ لاَ مُبَدّلَ لكلماته ﴾ لا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره . ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ ملتجأ عليه إن هممت به .

(267/471)

﴿ واصبر نَفْسَكَ ﴾ واحبسها وثبتها . ﴿ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشى ﴾ في مجامع أوقاتهم ، أو في طرفي النهار . وقرأ ابن عامر "بالغدوة" وفيه أن غدوة علم في الأكثر فتكون اللام فيه على تأويل التنكير . ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ رضا الله وطاعته . ﴿ وَلاَ

تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ ولا يجاوزهم نظرك إلى غيرهم ، وتعديته بعن لتضمينه معنى نبأ .

وقرىء "ولا تعد عينيك" ﴿ وَلَا تَعْدُ ﴾ من أعداه وعداه . والمراد نهي الرسول صلى الله عليه وسلم أن يزدري بفقراء المؤمنين وتعلو عينه عن رثاثة زيهم طموحاً إلى طراوة زي الأغنياء . ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ﴾ حال من الكاف في المشهورة ومن المستكن في الفعل في غيرها . ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ ﴾ من جعلنا قلبه غافلاً . ﴿ عَن ذِكْرِنَا ﴾ كأمية بن خلف في دعائك إلى طرد الفقراء عن مجلسك لصناديد قريش . وفيه تنبيه على أن الداعي له إلى هذا الاستدعاء غفلة قلبه عن المعقولات وانهماكه في المحسوسات ، حتى خفي عليه أن الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد ، وأنه لو أطاعه كان مثله في الغباوة . والمعتزلة لما غاظهم إسناد الإغفال إلى الله تعالى قالوا : إنه مثل أجبنته إذا وجدته كذلك أو نسبته إليه ، أو من أغفل إبله إذا تركها بغير سمة أي لم نسمه بذكرنا كقلوب الذين كتبنا في قلوبهم الإيمان ، واحتجوا على أن المراد ليس ظاهر ما ذكر أولاً بقوله : ﴿ واتبع هَوَاهُ ﴾ وجوابه ما مر غير مرة . وقرىء ﴿ أَغْفَلَنَا ﴾ بإسناد الفعل إلى القلب على معنى حسبنا قلبه غافلين عن ذكرنا إياه بالمؤاخذة . ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ أي تقدماً على الحق ونبذاً له وراء ظهره يقال : فرس فرط أي متقدم للخيل ومنه الفرط .

﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ الحق ما يكون من جهة الله لا ما يقتضيه الهوى ، ويجوز أن يكون الخبر خبر مبتدأ محذوف و﴿ مّن رَّبِّكُمْ ﴾ حالاً . ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ لا أبالي بإيمان من آمن ولا كفر من كفر ، وهو لا يقتضي استقلال العبد بفعله فإنه وإن كان بمشيئته فمشيئته ليست بمشيئته . ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ هيأنا . ﴿ لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ فسطاطها ، شبه به ما يحيط بهم من النار . وقيل السرادق الحجرة التي تكون حول الفسطاط . وقيل سرادقها دخانها وقيل حائط من نار ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ ﴾ من العطش . ﴿ يُغَاثُواْ بِمَاء كَالْمُهْلِ ﴾ كالجسد المذاب . وقيل كدردي الزيت وهو على طريقة قوله : فأعتبوا بالصيلم . ﴿ يَشْوِى الوجوه ﴾ إذا قدم ليشرب من فرط حرارته ، وهو صفة ثانية لماء أو حال من المهل أو الضمير في الكاف . ﴿ بِئْسَ الشراب ﴾ المهل . ﴿ وَسَاءتْ ﴾ النار . ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ متكأ وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد ، وهو لمقابلة قوله وحسنت مرتفقاً وإلا فلا ارتفاق لأهل النار .

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ خبر إن الأولى وهي الثانية بما في حيزها ، والراجع محذوف تقديره من أحسن عملاً منهم أو مستغنى عنه بعموم من أحسن عملاً كما هو مستغنى عنه في قولك : نعم الرجل زيد ، أو واقع موقعه

الظاهر فإن من أحسن عملاً لا يحسن اطلاقه على الحقيقة إلا على الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

(269/471)

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ وما بينهما اعتراض وعلى الأول استئناف لبيان الأجر أو خبر ثان . ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ من الأولى للابتداء والثانية للبيان صفة ل ﴿ أَسَاوِرَ ﴾ ، وتنكيره لتعظيم حسنها من الإحاطة به وهو جمع أسورة أو أسوار في جمع سوار . ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا ﴾ لأن الخضرة أحسن الألوان وأكثرها طراوة . ﴿ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ مما رقّ من الديباج وما غلظ منه جمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين . ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا على الأرائك ﴾ على السرر كما هو هيئة المتنعمين . ﴿ نِعْمَ الثواب ﴾ الجنة ونعيمها . ﴿ وَحَسُنَتْ ﴾ الأَرَائِك ﴿ مُرْتَفَقاً ﴾ متكأ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 474.495 ﴾

(270/471)

وقال ابن جزى :

﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أُنزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾

العبد هنا هو النبي صلى الله عليه وسلم ، ووصفه بالعبودية تشريفاً له ، وإعلاماً باختصاصه وقربه ، والكتاب القرآن ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ العوج بكسر العين في المعاني التي لا تحسن ، وبالفتح في الأشخاص كالعصا ونحوها ، ومعناه عدم الاستقامة ، وقيل فيه هنا : معناه لا تناقض فيه ولا خلل ، وقيل : لم يجعله مخلوقاً ، واللفظ أعم من ذلك ﴿ قَيِّماً ﴾ أي مستقيماً ، وقيل قيماً على الخلق بأمر الله تعالى ، وقيل ، قيماً على سائر الكتب بتصديقها ، وانتصابه على الحال من الكتاب ، والعامل فيه أنزل ، ومنع الزمخشري ذلك للفصل بين الحال وذي الحال ، واختار أن العامل فيه فعل مضمر تقديره جعله قيماً ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً ﴾ متعلق بأنزل أو بقيماً ، والفاعل به ضمير الكتاب أو النبي صلى الله عليه وسلم ، والبأس العذاب ، وحذف المفعول الثاني وهو الناس ، كما حذف المفعول الآخر من قوله : وينذر الذين لدلالة المعنى على المحذوف ﴿ مِّن لَّدُنْهُ ﴾ أي من عنده ، والضمير عائد على الله تعالى ﴿ أَجْراً حَسَناً ﴾ يعني الجنة ﴿ ماكثين فِيهِ ﴾ أي دائمين ، وانتصابه على الحال من الضمير في لهم ﴿ وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً ﴾ هم النصارى لقولهم في عيسى ، واليهود لقولهم في عزير ، وبعض العرب لقولهم في الملائكة ﴿

مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ الضمير عائد على قولهم ، أو على الولد .

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ انتصب على التمييز على الحال ويعني بالكلمة قولهم اتخذ الله ولداً :

وعلى هذا يعود الضمير في كبرت .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ أي قاتلها بالحزن والأسف ، والمعنى تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عن عدم إيمانهم ﴿ على آثَارِهِمْ ﴾ استعارة فصيحة : كأنهم من فرط إدبارهم قد بعدوا فهو يتبع آثارهم تأسفاً عليهم ، وانتصب أسفاً على أنه مفعول من أجله ، والعامل فيه باخع نفسك .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ يعني ما يصلح للتزين كالملابس والمطاعم ، الأشجار والأنهار وغير ذلك ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ أي لنختبرهم أيهم أزهد في زينة الدنيا ﴿ وَإِنَّا لجاعلون مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ المعنى إخبار بفناء الدنيا وزينتها ، والصعيد هو التراب ، والجرز : الأرض التي لا نبات فيها : أي سيفنى ما على الأرض من الزينة وتبقى كالأرض التي لا نبات فيها ، بعد أن كانت خضراء بهجة .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصحاب الكهف والرقيم كَانُواْ مِنْ آياتنا عَجَباً ﴾ أم هنا استفهام ،

والمعنى أحسبت أنهم عجب ، بل سائر آياتنا أعظم منها وأعجب ، والكهف الغار الواسع ، والرقيم : اسم كلبهم ، وقيل : هو لوح رقمت فيه أسماؤهم على باب الكهف ، وقيل كتاب فيهم شرعهم ودينهم ، وقيل هو القرية التي كانت بإزاء الكهف ، وقيل : الجبل الذي فيه الكهف ، وقال ابن عباس : لا أدري ما الرقيم .

﴿ إِذْ أَوَى الفتية إِلَى الكهف ﴾ نذكر من قصتهم على وجه الاختصار ما لا غنى عنه ، إذ قد أكثر الناس فيها مع قلة الصحة في كثير مما نقلوا ، وذلك أنهم كانوا قوماً مؤمنين ، وكان ملك بلادهم كافراً يقتل كل مؤمن ، ففروا بدينهم ، ودخلوا الكهف ليعبدوا الله فيه ويستخفوا من الملك وقومه ، فأمر الملك باتباعهم ، فانتهى المتبعون لهم إلى الغار فوجدوهم ، وعرفوا الملك بذلك فوقف عليه في جنده وأمر بالدخول إليهم ، فهاب الرجال ذلك وقالوا له : دعهم يموتوا جوعاً وعطشاً ، وكان الله قد ألقى عليهم نوماً ثقيلاً ، فبقوا على ذلك مدّة طويلة ثم أيقظهم الله ، وظنوا أنهم لبثوا يوماً أو بعض يوم ، فبعثوا أحدهم يشتري لهم طعاماً بدراهم كانت لهم ، فعجب لها البائع وقال : هذه الدراهم من عهد فلان الملك في قديم الزمان من أي جاءتك ؟ وشاع الكلام بذلك في الناس ، وقال الرجل : إنما خرجت أنا

وأصحابي بالأمس فأوينا إلى الكهف ، فقال : هؤلاء الفتية الذين ذهبوا في الزمان القديم فمشوا إليهم فوجدوهم موتى ، وأما موضع كهفهم ، فقيل إنه بمقربة من فلسطين وقال قوم : إنه الكهف الذي بالأندلس بمقربة من لوشة من جهة غرناطة ، وفيه موتى ومعهم كلب ، وقد ذكر ابن عطية ذلك ، وقال : إنه دخل عليهم ورآهم وعليهم مسجد ، وقريب منهم بناء يقال له الرقيم قد بقي بعض جدرانه ، وروي أن تلك الذي كانوا في زمانه اسمه دقيوس ، وفي تلك الجهة آثار مدينة يقال لها مدينة دقيوس والله أعلم .

(273/471)

ومما يبعد ذلك ما روي أن معاوية مر عليهم وأراد الدخول إليهم ، ولم يدخل معاوية الأندلس قط ، وأيضاً فإن الموتى التي في غار لوشة يراهم الناس ، ولم يدرك أحد منهم الرعب ، الذي ذكر الله في أصحاب الكهف ﴿ فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الكهف ﴾ عبارة عن إلقاء النوم عليهم ، وقال الزمخشري : المعنى ضربنا على آذانهم حجاباً ثم حذف هذا المفعول ﴿ سِنِينَ عَدَداً ﴾ أي كثيرة ﴿ ثُمَّ بعثناهم ﴾ أي أيقظناهم من نومهم ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى لِمَا لَبِثُواْ أَمَداً ﴾ أي لنعلم علماً يظهر في الوجود ، لأن الله قد كان علم ذلك ، والمراد ، بالحزبين الذين اختلفوا في الكهف في مدة لبثهم ، فالحزب الواحد : أصحاب

الكهف والحزب الآخر القوم الذين بعث الله أصحاب الكهف في مدتهم وقيل : إن الحزبين معاً أصحاب الكهف إذ كان بعضهم قد قال : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، وقال بعضهم : ربكم أعلم بما لبثتم ، وأحصى فعل ماض ، وأمداً مفعول به ، وقيل : أحصى اسم للتفضيل ، وأمداً تمييز ، وهذا ضعيف ، لأن أفعل من التي للتفضيل لا يكون من فعل رباعي إلا في الشاذ .

﴿ وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ ﴾ أي قوينا عزمهم وألهمناهم الصبر ، يحتمل أن يريد قيامهم من النوم بين يدي الملك الكافر لما آمنوا ولم يبالوا به ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إذاً شَطَطاً ﴾ أي لو دعونا من دونه إلهاً لقلنا قولاً شططاً ، والشطط الجور والتّعدي ﴿ لَّوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ تحضيض بمعنى التعجيز ، أنهم لا يأتون بحجة بينة على عبادة غير الله .

(274/471)

﴿ وَإِذِ اعتزلتموهم ﴾ خطاب من بعضهم لبعض حين عزموا على الفرار بدينهم ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ عطف على المفعول في اعتزلتموهم : أي تركتموهم وتركتم ما يعبدون ﴿ إِلاَّ الله ﴾ أي ما يعبدون من دون الله ، وإلا هنا بمعنى غير ، وهذا استثناء متصل إن كان قومهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره ، ومنقطع إن كانوا لا يعبدون الله ، وفي مصحف ابن

مسعود " وما يعبدون من دون الله " ﴿ فَأْوُوا إِلَى الكهف ﴾ هذا الفعل هو العامل في إذ اعتزلتموهم والمعنى أن بعضهم قال لبعض إذا فارقنا الكفار فلنجعل الكهف لنا مأوى ، ونتكل على الله فهو يرحمنا ويرفق بنا ﴿ مِّرْفَقاً ﴾ بفتح الميم وكسرها ما يرتفق به وينتفع .

﴿ وَتَرَى الشمس إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليمين وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشمال ﴾ قيل : هنا كلام محذوف تقديره فأوى القوم إلى الكهف ومكثوا فيه ، وضرب الله على آذانهم ، ومعنى تزاور تميل وتزوغ ، ومعنى : تقرضهم تقطعهم : أي تبعد عنهم ، وهو بمعنى القطع ، وذات اليمين والشمال أي جهته ، ومعنى الآية : أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ، ولا عند غروبها لئلا يحترقوا بحرها ، فقيل : إن ذلك كرامة لهم وخرق عادة ، وقيل : كان باب الكهف شمالياً يستقبل بنات نعش ، فلذلك لا تصيبهم الشمس ، والأول أظهر لقوله : " ذلك من آيات الله " ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي في موضع واسع ، وذلك مفتح لإصابة الشمس ، ومع ذلك حجبها الله عنهم ﴿ ذلك مِنْ آيات الله ﴾ الإشارة إلى حجب الشمس عنهم إن كان خرق عادة ، وإن كان لكون بابهم إلى الشمال فالإشارة إلى

أمرهم بجملته ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ أيقاظاً جمع يقظ، وهو المنتبه، كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون، فيحسبهم من يراهم أيقاظاً وفي قوله: أيقاظاً ورقود مطابقة، وهي من أدوات البيان ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ الشمال ﴾ أي نقلبهم من جانب إلى جانب، ولولا ذلك لأكلتهم الأرض، وكان هذا التقليب من فعل الله وملائكته، وهم لا ينتبهون من نومهم، وروي أنهم كانوا يقلبون مرتين في السنة، وقيل من سبع سنين إلى مثلها ﴿ وَكَلْبُهُمْ باسط ذِرَاعَيْهِ ﴾ قيل إنه كان كلباً لأحدهم يصيد به، وقيل كان كلباً لراع فمروا عليه فصحبهم وتبعه كلبه وأعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضيّ لأنه حكاية حال.

(276/471)

﴿ بالوصيد ﴾ أي بباب الكهف، وقيل عتبته وقيل البناء ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾ ذلك لما ألبسهم الله من الهيبة، وقيل: لطول أظافرهم وشعورهم وعظم أجرامهم. وقيل: لوحشة مكانهم، وعن معاوية أنه غزا الروم فمر بالكهف، فأراد الدخول إليه فقال له ابن عباس: لا تستطيع ذلك، قد قال الله لمن هو خير منك: لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً فبعث ناساً إليهم، فلما دخلوا الكهف بعث الله ريحاً فأحرقتهم.

﴿ وكذلك بعثناهم لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ أي كما أنمناهم، كذلك بعثناهم ليسأل بعضهم

بعضاً ، واللام في ليتساءلوا لام الصيرورة ﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ هذا قول من استشعر منهم أن مدة لبثهم طويلة ، فأنكر على من قال يوماً أو بعض يوم ، ولكنه لم يعلم مقدارها فأسند علمها إلى الله . ﴿ فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ ﴾ الوَرِق : الفضة ، وكانت دراهم تزودوها حين خروجهم إلى الكهف ، ويستدل بذلك على أن التزود للمسافر أفضل من تركه ، ويستدل ببعث أحدهم على جواز الوكالة ، فإن قيل : كيف اتصل بعث أحدهم بتذكر مدة لبثهم ؟ .

فالجواب أنهم كانوا قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، ولا سبيل لكم إلى العلم بذلك ، فخذوا فيما هو أهم من هذا وأنفع لكم فابعثوا أحدكم ﴿ إلى المدينة ﴾ قيل : أنها طرسوس ﴿ أزكى طَعَاماً ﴾ قيل : أكثر ، وقيل : أحل ، وقيل : إنه أراد شراء زبيب ، وقيل : تمر ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ في اختفائه وتحيله ﴿ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ أي : إن يظفروا بكم يقتلوكم بالحجارة ، وقيل : المعنى يرجموكم بالقول ، والأول أظهر .

﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي كما أنمناهم وبعثناهم أطلعنا الناس عليهم ﴿ ليعلموا ﴾ الضمير للقوم الذين أطلعهم الله على أصحاب الكهف : أي أطلعناهم على حالهم من

انتباههم من الرقدة الطويلة ليستدلوا بذلك على صحة البعث من القبور ﴿ إِذْ يتنازعون بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ العامل في إذ أعثرنا أو مضمر تقديره اذكر ، والمتنازعون هم القوم الذين كانوا قد تنازعوا فيما يفعلون في أصحاب الكهف ، أو تنازعوا هل هم أموات أو أحياء ، وقيل : تنازعوا هل تحشر الأجساد أو الأرواح بالأجساد ؟ فأراهم الله حال أصحاب الكهف ليعلموا أن الأجساد تحشر ﴿ فقَالُواْ ابنوا عَلَيْهِمْ بنيانا ﴾ أي على باب كهفهم إما ليطمس آثارهم أو ليحفظهم ويمنعهم ممن يريد أخذهم أو أخذ تربتهم تبركاً ، وإما ليكون علماً على كهفهم ليعرف به .

﴿ قَالَ الذين غَلَبُواْ على أَمْرِهِمْ ﴾ قيل : يعني الولاة وقيل : يعني المسلمين لأنهم كانوا أحق بهم من الكفار ، فبنوا على باب الكهف مسجداً لعبادة الله .

﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ الضمير لمن كان في زمان النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود أو غيرهم ممن تكلم في أصحاب الكهف ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾ أي ظنا وهو مستعار من الرجم بمعنى الرمي ﴿ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ قال قوم : إن الواو واو الثمانية لدخولها هنا وفي قوله : سبع ليال وثمانية أيام ، وفي قوله في أهل الجنة : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : 73] وفي قوله في براءة ﴿ والناهون عَنِ المنكر ﴾ [التوبة : 112] وقال البصريون : لا تثبت واو الثمانية وإنما الواو هنا كقوله : جاء زيد وفي يده سيف .

قال الزمخشري : وفائدتها التوكيد . والدلالة على أن الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم صدقوا وأخبروا بحق ، بخلاف الذين قالوا ثلاثة ورابعهم كلبهم ، والذين قالوا خمسة وسادسهم كلبهم ، وقال ابن عطية : دخلت الواو في آخر إخبار عن عددهم لتدل على ان هذا نهاية ما قيل ، ولو سقطت لصح الكلام ، وكذلك دخلت السين في قوله سيقولون الأول ، ولم تدخل في الثاني والثالث استغناء بدخولها في الأول ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أي لا يعلم عدتهم إلا قليل من الناس ، وهم من أهل الكتاب ، قال ابن عباس : أنا من ذلك القليل ، وكانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، لأنه قال في الثلاثة والخمسة : رجماً بالغيب ولم يقل ذلك في سبعة وثامنهم كلبهم ﴿ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظاهرا ﴾ لا تمار : من المراء وهو الجدال والمخالفة والاحتجاج ، والمعنى لا تمار أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف إلا مراء ظاهراً ، أي غير متعمق فيه من غير مبالغة ولا تعنيف في الردُّ عليهم ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾ أي لا تسأل أحداً من أهل الكتاب عن أصحاب الكهف ، لأن الله قد أوحى إليك في شأنهم ما يغنيك عن السؤال .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ سببها أن قريشاً سألوا اليهود عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لهم: اسألوه عن فتية ذهبوا في الزمان الأول وهم أصحاب الكهف، وعن رجل بلغ مشارق الأرض ومغاربها وهو ذو القرنين، وعن الروح، فإن أجابكم في الاثنين وسكت عن الروح فهو نبي، فسألوه فقال غداً أخبركم ولم يقل إن شاء الله، فأمسك عنه الله الوحي خمسة عشر يوماً، فأوجف به كفار قريش وتكلموا في ذلك، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جاء جبريل بسورة الكهف فقص عليه فيها قصة أصحاب الكهف وذي القرنين، وأنزل الله عليه هذه الآية تأديباً لهم وتعليماً، فأمره بالاستثناء بمشيئة الله في كل أمر يريد أن يفعله فيما يستقبل، وقوله: غداً يريد به الزمان المستقبل، لا اليوم الذي بعد يومه خاصة، وفي الكلام حذف يقتضيه المعنى وتقديره: ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن تقول: إن شاء الله أو تقول إلاّ أن يشاء الله، والمعنى أن يعلق الأمر بمشيئة الله وحوله وقوته، ويبرأ هو من الحول والقوة، وقيل: إن قوله إلا أن يشاء الله بقوله لا تقولنّ. والمعنى لا تقولنّ ذلك القول إلا أن يشاء الله أن تقوله بأن يأذن له فيه، فالمشيئة على هذا راجعة إلى القول لا إلى الفعل، ومعناها إباحة القول بالإذن فيه، حكى ذلك الزمخشري، وحكاه ابن عطية، وقال إنه من الفساد بحيث كان الواجب ألا يحكى.

﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ . قال ابن عباس : الإشارة بذلك إلى الاستثناء ، أي استثن بعد مدة إذا نسيت الاستثناء أولاً ، وذلك على مذهبه ، فإن الاستثناء في اليمين ينفع بعد سنة ، وأما مذهب مالك والشافعي فإنه لا ينفع إلا إن كان متصلاً باليمين ، وقيل معنى الآية : اذكر ربك إذا غضبت ، وقيل اذكر إذا نسيت شيئاً ليذكرك ما نسيت ، والظاهر أن المعنى اذكر ربك إذا نسيت ذكره أي ارجع إلى الذكر إذا غفلت عنه ، واذكره في كل حال ، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه ﴿ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَدًا ﴾ هذا كلام أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله ، والإشارة بهذا إلى خبر أصحاب الكهف ، أي عسى الله أن يؤتيني من الآيات والحجج ما هو أعظم في الدلالة على نبوّتي ، من خبر أصحاب الكهف اللفظ يقتضي أن المعنى : يعني أن يوفقني الله تعالى من العلوم والأعمال الصالحات لما هو أرشد من خبر أصحاب أهل الكهف وأقرب إلى الله ، وقيل : إن الإشارة بهذا إلى المنسي أي إذا نسيت شيئاً فقل عسى أن يهديني الله إلى شيء آخر هو أرشد من المنسيّ .

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِي كَهْفِهِمْ ثلاث مِاْئَةٍ سِنِينَ وازدادوا تِسْعاً ﴾ في هذا قولان أحدهما : أنه حكاية عن أهل الكتاب يدل على ذلك ما في قراءة ابن مسعود : وقالوا لبثوا في كهفهم . وهو معطوف على سيقولون ثلاثة فقوله ﴿ قُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾ رد عليهم في هذا العدد المحكي عنه ، القول الثاني : أنه من كلام الله تعالى ، وأنه بيان لما أجمل في قوله : فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ، ومعنى قوله : قل الله أعلم بما لبثوا على هذا أنه أعلم من الذين اختلفوا فيهم ، وقد أخبر بمدة لبثم ، فإخباره هو الحق لأنه أعلم من الناس ، وكان قوله : قل الله أعلم احتجاجاً على صحة ذلك الإخبار ، وانتصب سنين على البدل من ثلاثمائة أو عطف بيان ، أو على التمييز وذلك على قراءة التنوين في ثلاثمائة وقرئ بغير تنوين على الإضافة ووضع الجمع موضع المفرد ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ أي ما أبصره وما أسمعه ، لأن الله يدرك الخفيات كما يدرك الجليات ﴿ مَا لَهُم ﴾ الضمير لجميع الخلق أو للمعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ هو خبر في قراءة من قرأ بالياء ، والرفع وقرئ بالتاء والجزم على النهي ﴿ لاَ مُبَدِّلَ لِكلماته ﴾ يحتمل أن يراد بالكلمات هنا القرآن ، فالمعنى لا يبدل أحد القرآن ولا يغيره ، ويحتمل أن يريد بالكلمات القضاء والقدر ﴿ مُلْتَحَداً ﴾ أي ملجا تميل إليه .

﴿ واصبر نَفْسَكَ ﴾ أي احبسها صابراً ﴿ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ هم فقراء المسلمين : كبلال وخباب وصهيب وكان الكفار قد قالوا له : اطرد هؤلاء نجالسك نحن ، فنزلت الآية ﴿ بالغداة والعشي ﴾ قيل : المراد الصلوات الخمس ، وقيل : الدعاء على الإطلاق ﴿ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ أي لا تتجاوز عنهم إلى أبناء الدنيا ، وقال الزمخشري : يقال عداه إذا جاوزه ، فهذا الفعل يتعدى بنفسه دون حرف ، وإنما تعدى هنا بعن لأنه تضمن معنى : نَبَتْ عينه عن الرجل إذا احتقره ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ﴾ جملة في موضع الحال فهي متصلة بما قبلها ، وهي في معنى تعليل الفعل المنهي عنه في قوله : ولا تعد عيناك عنهم : أي لا تبعد عنهم من أجل إرادتك لزينة الدنيا ﴿ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ ﴾ أي جعلناه غافلاً أو وجدناه غافلاً ، وقيل : يعني أنه عيينه بن حصن الفزاري ، والأظهر أنها مطلقة من غير تقييد ﴿ فُرُطاً ﴾ من التفريط والتضييع ، أو من الإفراط والإسراف .

﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أي هذا هو الحق ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن ﴾ لفظه أمر وتخيير : ومعناه أن الحق قد ظهر فليختر كل إنسان لنفسه : إما الحق الذي ينجيه ، أو الباطل الذي يهلكه ، ففي ضمن ذلك تهديد ﴿ سُرَادِقُهَا ﴾ السرداق في اللغة : ما أحاط بالشيء كالسور والجدار ، وأما سرادق جهنم فقيل : حائط من نار ، وقيل : دخان ﴿ كالمهل ﴾ وهو دردي الزيت إذ انتهى حره روي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وقيل : ما أذيب

من الرصاص وشبهه ﴿ مُرْتَفَقاً ﴾ أي شيء يرتفق به ، فهو من الرفق ، وقيل : يرتفق عليه فهو من الارتفاق بمعنى الاتكاء .

(283/471)

﴿ أولئك لَهُمْ ﴾ خبر إن ، وإنا لا نضيع : اعتراض ، ويجوز أن يكونا خبرين أو يكون إنا لا نضيع الخبر ، وأولئك استئناف ، ويقوم العموم في قوله : من أحسن مقام الضمير الرابط أو يقدر من أحسن عملاً منه ، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنها نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم ﴿ أَسَاوِرَ ﴾ جمع أسوار وسوار ، وهو ما يجعل في اليد ، وقيل : أساور جمع أسورة وأسورة جمع سوار ﴿ مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ السندس : رقيق الديباج ، والإستبرق الغليظ منه ﴿ الأرآئك ﴾ الأسرة والفرش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 2 صـ 181 . 188 ﴾

(284/471)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ﴾

أثنى الله سبحانه وتعالى على نفسه بإنعامه على خلقه وعلم عباده كيف يثنون عليه ، ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي الإسلام وما أنزل على عبده محمد (صلى الله عليه وسلم) من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم خص رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالذكر لأن إنزال القرآن كان نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ أي لم يجعل له شيئاً من العوج قط ولعوج في المعاني ، كالعوج في الأعيان والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معاينة وقيل معناه لم يجعله مخلوقاً روي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ قرآناً عربياً غير ذي عوج ﴾ قال غير مخلوق .

﴿ قيماً ﴾ أي مستقيماً وقال ابن عباس : عدلاً ، وقيل قيماً على الكتب كلّها مصدقاً لها وناسخاً لشرائعها ﴿ لينذر بأساً شديداً ﴾ معناه لينذر الذين كفروا بأساً شديداً وهو قوله سبحانه وتعالى بعذاب بئيس ﴿ من لدنه ﴾ أي من عنده ﴿ ويبشر المؤمنين الذي يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ﴾ يعني الجنة ﴿ ماكثين فيه ﴾ أي مقيمين فيه ﴿ أبداً وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ﴾ أي بالولد وباتخاذه يعني أن قولهم لم يصدر عن علم بل عن جهل مفرط .

فإن قلت اتخاذ الله ولداً في نفسه محال فكيف قيل ما لهم به من علم .

قلت انتفاء العلم يكون للجهل بالطريق الموصل إليه وقد يكون في نفسه محالاً لا يستقيم تعلق العلم به ﴿ ولا لآبائهم ﴾ أي ولا لأسلافهم من قبل ﴿ كبرت ﴾ أي عظمت ﴿ كلمة تخرج من أفواههم ﴾ أي هذا الذي يقولونه لا تحكم به عقولهم وفكرهم البتة لكونه في غاية الفساد والبطلان فكأنه يجري على لسانهم على سبيل التقليد ﴿ إن يقولون إلا كذباً ﴾ أي ما يقولون إلا كذباً قيل حقيقة الكذب أنه الخبر الذي لا يطابق المخبر قولهم عنه وزاد بعضهم مع علم قائله أنه غير مطابق وهذا القيل باطل لأن الله سبحانه وتعالى وصف قولهم بإثبات الولد بكونه كذباً مع أن الكثير منهم يقولون ذلك ولا يعلمون كونه باطلاً فعلمنا أن كل خبر لا تطابق الخبر عنه فهو كذب والكذب خلاف الصدق ، وقيل : هو الانصراف عن الحق إلى الباطل ورجل كذاب وكذوب إذا كان كثير الكذب .

قوله ﴿ فلعلك باخع نفسك ﴾ أي قاتل نفسك ﴿ على آثارهم ﴾ أي من بعدهم ﴿ إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ﴾ يعني القرآن ﴿ أسفاً ﴾ أي حزناً وقيل غيظاً ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾ أي مما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها ، وقيل يعني النبات والشجر والأنهار ، وقيل أراد به الرجال خاصة فهم

زينة الأرض ، وقيل أراد به العلماء والصلحاء وقيل جميع ما في الأرض هو زينة لها .

فإن قلت أي زينة في الحيات والعقارب والشياطين .

قلت زينتها كونها تدل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته ، وقيل إن جميع ما في الأرض ثلاثة معدن ونبات وحيوان وأشرف أنواع الحيوان الإنسان ، قيل الأولى أن لا يدخل في هذه الزينة المكلف ، بدليل قوله تعالى : ﴿ لنبلوهم ﴾ فمن يبلو يجب أن لا يدخل في ذلك ومعنى لنبلوهم نختبرهم ﴿ أيهم أحسن عملاً ﴾ أي أصلح عملاً وقيل أيهم أترك للدنيا وأزهد فيها .

﴿ وإنا لجاعلون ما عليها ﴾ أي من الزينة ، ﴿ صعيداً جرزاً ﴾ يعني مثل أرض لا نبات فيه شيء ، قوله سبحانه وتعالى ﴿ أم حسبت ﴾ أي أظننت يا محمد ﴿ أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ أي هم عجب من آياتنا وقيل معناه أنهم ليسوا بأعجب آياتنا ، فإن خلقنا من السموات والأرض وما فيهم من العجائب أعجب منهم والكهف الغر الواسع في الجبل ، الرقيم هو لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وقصتهم ثم وضع على باب الكهف وكان اللوح من رصاص وقيل من حجارة ، وعن ابن عباس أن

الرقيم اسم الوادي الذي فيه أصحاب الكهف وقال كعب الأحبار : هو اسم للقرية التي خرج منها أصحاب الكهف وقيل اسم للجبل الذي فيه أصحاب الكهف ثم ذكر الله قصة أصحاب الكهف فقال من قائل ﴿ إذ أوى الفتية إلى الكهف ﴾ أي صاروا إليه ، وجعلوه مأواهم ، والفتية جمع فتى وهو الطري من الشباب ﴿ فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ﴾ أي رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وإحسانك وهب لنا الهداية والنصر والأمن من الأعداء ﴿ وهيىء لنا ﴾ أي أصلح لنا ﴿ من أمرنا رشداً ﴾ أي حتى نكون بسببه راشدين مهديين وقيل معناه واجعل أمرنا رشداً كله .

ذكر قصة الكهف وسبب خروجهم إليه :

قال محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار مرج أمر أهل الإنجيل ، وعظمت فيهم الخطايا وطغت الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت ، وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكون بعبادة الله وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس عبد الأصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه وكان ينزل قرى الروم فلا يترك في قرية نزلها أحد إلا فتنه عن دينه حتى يعبد الأصنام أو يقتله .

فلما نزل مدينة أصحاب الكهف واسمها أفسوس استخفى منه أهل الإيمان وهربوا في كل وجه فاتخذ شرطاً من الكفار وأمرهم أن يتبعوهم بين القتل وبين عبادة الأصنام ، فمنهم من يرغب في الحياة ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله فيقتل ، فلما رأى ذلك أهل الشدة في الإيمان جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ويقطعون ويجعل ما قطع من أجسادهم على أسوار المدينة وأبوابها فلما عظمت الفتنة وكثرت ورأى ذلك الفتية حزنوا حزناً شديداً فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والصدقة والتسبيح والدعاء ، وكانوا من أشراف الروم وهم ثمانية نفر وبكوا وتضرعوا إلى الله وجعلوا يقولون : ﴿ ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً ﴾ اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وارفع عنه البلاء حتى يعلنوا عبادتك ؛ فبينما هم على ذلك وقد دخلوا مصلاهم أدركهم الشرط فوجدوهم سجوداً يبكون ويتضرعون إلى الله فقال لهم الشرط ما خلفكم عن أمر الملك ، ثم انطلقوا إلى الملك فأخبروه خبر الفتية فبعث إليهم فأتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة ، وجوههم بالتراب فقال لهم ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التي تعبد في الأرض وتجعلوا أنفسكم أسوة أهل مدينتكم اختاروا إما أن تذبحوا لآلهتنا وإما أن أقتلكم ، فقال مكسلينا وهو أكبرهم : إن لنا إلهاً ملء السموات والأرض عظمته لن ندعوا من دونه إلهاً أبداً له الحمد والتكبير من أنفسنا خالصاً أبداً ، إياه نعبد وإياه نسأل النجاة والخير فأما الطواغيت فلن نعبدها أبداً اصنع بنا ما بدا لك .

وقال أصحابه مثل ذلك فلما سمع الملك كلامهم أمر بنزع ثيابهم وحلية كانت عليهم من الذهب والفضة وقال سأفرغ لكم وأنجز لكم ما أوعدتكم من العقوبة وما يمنعني أن أعجل ذلك لكم إلا أني أراكم شباناً حديثة أسنانكم فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلاً تذكرون فيه فترجعون إلى عقولكم .

ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده ، وانطلق دقيانوس إلى مدينة أخرى قريبة منه لبعض أموره فلما رأى الفتية خروجه بادروا وخافوا إذا قدم أن يذكرهم ، فأتمروا بينهم واتفقوا على أن يأخذ كل واحد منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقي ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة في جبل يقال له ينجلوس ، فيمكثوا فيه ويعبدوا الله حتى إذا جاء دقيانوس أتوه فيصنع بهم ما يشاء فلما اتفقوا على ذلك عمد كل فتى منهم إلى بيت أبيه فأخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقي معهم ، وأتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف فمكثوا فيه .

وقال كعب الأحبار : مرو بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مراراً فقال لهم الكلب : ما تريدون مني لا تخشوا مني أنا أحب أحباب الله فناموا حتى أحرسكم .

وقال ابن عباس : هربوا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براعٍ معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعهم الكلب فخرجوا من البلد إلى الكهف .

قال ابن عباس : فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلا الصلاة والصيام والتسبيح والتحميد ابتغاء لوجه الله وجعلوا نفقتهم إلى فتى منهم اسمه تمليخا فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سراً وكان أجملهم وأجلدهم وكان إذا دخل المدينة لبس ثياباً رثة كثياب المسلمين ثم يأخذ ورقة فينطلق إلى المدينة فيشتري لهم طعاماً وشراباً ، ويتجسس لهم الخبر هل ذلك هو وأصحابه بشيء ثم يرجع إلى أصحابه فلبثوا بذلك ما شاء الله أن يلبثوا .

ثم قدم دقيانوس المدينة وأمر عظماء أهلها أن يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الإيمان وكان تمليخا بالمدينة يشتري لأصحابه طعامهم ، فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل فأخبرهم أن الجبار قد دخل المدينة وأنهم قد ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجداً يدعون الله ويتضرعون إليه ويتعوذون من الفتنة فقال لهم تمليخا : يا أخوتاه ارفعوا رؤوسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم فرفعوا رؤوسهم وأعينهم تفيض من الدمع وذلك عند غروب الشمس ، ثم جلسوا يتحدثون ويذكر بعضهم بعضاً فبينما هم

على ذلك إذ ضرب الله على آذانهم في الكهف ، وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابه ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤوسهم فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض عظماء المدينة لقد ساءني شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد ظنوا أن بي غضباً عليهم لجهلهم ما جهلوا من أمري ما كنت لأجهل عليهم إن هم تابوا وعبدوا آلهتي فقال عظماء المدينة ما أنت بحقيق أن ترحم قوماً فجرة مردة عصاة ، قد كنت أجلت لهم أجلاً ولو شاؤوا لرجعوا في ذلك الأجل ولكنهم لم يتوبوا ، فلما قالوا ذلك غضب غضباً شديداً ثم أرسل إلى آبائهم فأتى بهم فقال : أخبروني عن أبنائكم المردة الذين عصوني ، فقالوا : أما نحن لم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة إنهم ذهبوا بأموالنا وأهلكوها في أسواق المدينة ، ثم انطلقوا إلى جبل يدعى ينجلوس فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم ، وجعل ما يدري ما يصنع بالفتية فألقى الله سبحانه وتعالى في نفسه أن يأمر بسد باب الكهف عليهم وأراد الله أن يكرمهم بذلك ويجعلهم آية لأمة تستخلف من بعدهم ، وأن يبين لهم أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور .

فأمر دقيانوس بالكهف فسد عليهم وقال دعوهم كما هم في كهفهم يموتون جوعاً وعطشاً ويكون كهفهم الذي اختاروه قبراً لهم ، وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم وقد توفى الله أرواحهم وفاة نوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال .

ثم إن رجلين مؤمنين من بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما ، اسم أحدهما بيدروس واسم الآخر روناس اهتما أن يكتبا شأن هؤلاء الفتية ، وأسمائهم وأنسابهم وأخبارهم في لوحين من رصاص ويجعلاهما في تابوت من نحاس ويجعلا التابوت في البنيان ، وقالا : لعل الله أن يظهر على هؤلاء الفتية قوماً مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ الكتاب ففعلا ذلك وبنيا عليه وبقي دقيانوس ما بقي ثم مات هو وقومه ، وقرون بعده كثيرة وخلفت الملوك بعد الملوك وقال عبيد بن عمير : كان أصحاب الكهف فتياناً مطوقين مسورين ذوي ذوائب فخرجوا في عيد لهم عظيم في زي وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها وكان معهم كلب صيد لهم ، وكان أحدهم وزير الملك فقذف الله سبحانه وتعالى الإيمان في قلوبهم فآمنوا وأخفى كل واحد إيمانه وقال في نفسه أخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لئلا يصيبني عقاب بجرمهم ، فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالساً وحده فرجا أن يكون على مثل أمره وجلس إليه من غير أن يظهره على أمره ثم خرج آخر فخرجوا جميعاً فاجتمعوا فقال بعضهم لبعض ما

جمعكم وكل واحد يكتم إيمانه من صاحبه مخافة على نفسه ، ثم قالوا ليخرج كل فتيين فيخلوا ويفشي كل واحد سره إلى صاحبه ففعلوا ذلك فإذا هم جميعاً على الإيمان وإذا الكهف في جبل عظيم قريب منهم فقال بعضهم لبعض فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته .

فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيد فناموا ثلاثمائة سنين وازداد تسعاً ، وفقدهم قومهم وطلبوهم فعمى الله عليه آثارهم وكهفهم فكتبوا أسمائهم وأنسابهم في لوح فلان وفلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم في شهر كذا من سنة كذا في مملكة فلان ابن فلان الملك ووضعوا اللوح في خزانة الملك وقالوا ليكون لهؤلاء شأن وما ذلك الملك ، وجاء قرن بعد قرن .

قال محمد بن إسحاق : ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له بيدروس فلما ملك بقي ملكه ثماني وستين سنة ، فتحزب الناس في ملكه فكانوا أحزاباً منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق ، ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح وتضرع إلى الله وحزن حزناً شديداً لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق ويقولون لا حياة إلا حياة

الدنيا وإنما تبعث الأرواح دون الأجساد .

وجعل بيدروس الملك يرسل إلى من يظن فيهم خيراً وأنهم أئمة في الخلق فلم يقبلوا منه وجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا يخرجون الناس عن الحق وملة الحواريين ، فلما رأى ذلك الملك الصالح دخل بيته وأغلق بابه عليه ، ولبس مسحاً وجعل تحته رماداً فجلس عليه فدأب ليله ونهاره يتضرع إلى الله تعالى ويبكي ويقول رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم بطلان ما هم عليهم .

(292/471)

ثم إن الله سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الذي يكره هلكة عباده أراد أن يظهر على الفتية أصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليم ليعلموا أن الساعة آتية فيها ، ويستجيب لعبده الصالح بيدروس ويتم نعمته عليه وأن يجمع من كان تبدد من المؤمنين ، فألقى الله سبحانه وتعالى في نفس رجل من أهل ذلك البلد الذي فيه ذلك الكهف وكان اسمه أولياس أن يهدم ذلك البنيان الذي على فم الكهف ويبني به حظيرة لغنمه ، فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى نزعا ما كان على باب الكهف ، وفتحا باب الكهف وحجبهم الله تعالى عن الناس بالرعب فلما فتح باب الكهف

أذن الله سبحانه وتعالى ذو القدرة والسلطان محيي الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهراني الكهف ، فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون منها إذا أصبحوا من ليلتهم .

ثم قاموا إلى الصلاة فصلوا كما كانوا يفعلون لا يرى في وجوههم ولا ألوانهم شيء ينكرونه وأنهم كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن دقيانوس في طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم : أنبئنا بما قال الناس في شأننا عشية أمس عند هذا الجبار ، وهم يظنون أنهم قد رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون وقد خيل إليهم أنهم كانوا ينامون حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض كم لبثتم نياماً قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكل ذلك في أنفسهم يسير فقال لهم تمليخا : قد التمستم في المدينة وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم فتذبحوا للطواغيت أو يقتلكم ، فما شاء الله بعد ذلك فعل فقال لهم مكسلمينا : يا إخوتاه اعلموا أنكم ملاقوا الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم عدو الله ، ثم قالوا لتمليخا انطلق إلى المدينة فتسمع ما يقال لنا بها وما الذي يذكر فينا عند دقيانوس وتلطف ولا تشعرن بك أحداً ، وابتغ لنا طعاماً فأتنا به وزدنا على الطعام الذي جئتنا به فقد

أصبحنا جياعاً ، ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التي كان يتنكر فيها وأخذ ورقاً من نفقتهم التي كانت معهم التي ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع ، فانطلق تمليخا خارجاً فلما مر بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منه ثم مر ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفياً يصد عن الطريق تخوفاً أن يراه أحد من أهلها فيعرفه ، ولا يشعر أن دقيانوس وأهله هلكوا قبل ذلك بثلاثمائة سنة . فملا أتى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة كانت لأهل الإيمان .

إذ كان أمر الإيمان ظاهراً فيهما فلما رآها عجب وجعل ينظر إليها يميناً وشمالاً ثم ترك ذلك الباب ومضى إلى باب آخر فرأى مثل ذلك فخيل إليه أن المدينة ليست بالتي كان يعرف ورأى أشخاصاً كثيرة محدثين لم يكن رآهم من قبل ذلك ، فجعل يمشي ويتعجب ويخيل إليه أنه حيران ثم رجع إلى الباب الذي أتى منهم فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول يا ليت شعري ما هذا أما عشية أمس كان المسلمون يخفون هذه العلامة في هذه المدينة ويستخفون بها واليوم ظاهرة لعلي نائم حالم ثم يرى أنه ليس بنائم فأخذ كساءه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشي في أسواقها فسمع ناساً يحلفون باسم عيسى ابن مريم ،

فزاده ذلك تعجباً ورأى أنه حيران فقام مسنداً ظهره إلى جدار من جدران المدينة وهو يقول في نفسه والله ما أدري ما هذا أما عشية أمس فليس كان على الأرض من يذكر عيسى ابن مريم إلا قتل وأما اليوم فأسمع كل إنسان يذكر عيسى ابن مريم لا يخاف ، ثم قال في نفسه : لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف والله ما أعلم مدينة بقرب مدينتنا فقام كالحيران ثم لقي فتى فقال له ما اسم هذه المدينة يا فتى فقل له أفسوس ، فقال في نفسه لعل بي مساً أو أمراً أذهب عقلي والله يحق لي أن أسرع الخروج قبل أن يصيبني فيها شر فأهلك .

فمضى إلى الذين يبتاعون الطعام فأخرج لهم الورق التي كانت معه وأعطاها رجلاً منهم وقال له بعني بهذه الورق طعاماً ، فأخذها الرجل ونظر ألى ضرب الورق ونقشها فعجب منها فناولها رجلاً آخر من أصحابه فنظر ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل ويتعجبون منها ويتشاورون بينهم ، ويقول بعضهم لبعض : إن هذا أصاب كنزاً خبيئاً في الأرض منذ زمن طويل فلما رآهم تمليخا يتحدثون فيه فرق فرقاً شديداً وخاف وجعل يرعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه وأنهم إنما يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم دقيانوس ،

وجعل أناس يأتونه وتعرفونه فلا يعرفونه فقال لهم وهو شديد الخوف منهم : أفضلوا علي قد أخذتم ورقي فأمسكوها وأما طعامك فلا حاجة لي به ، فقالوا له يا فتى من أنت وما شأنك والله لقد وجدت كنزاً من كنوز الأولين وأنت تريد أن تخفيه منا انطلق معنا وأرناه وشاركنا فيه نخفف عليك ما وجدت ، وإنك إن لم تفعل نحملك إلى السلطان فنسلمك إليه فيقتلك فلما سمع قولهم قال والله قد وقعت في كل شيء كنت أحذر منه ، فقالوا له يا فتى إنك والله لا تستطيع أن تكتم ما وجدت وجعل تمليخا ما يدري ما يقول لهم وخاف حتى لم يجر على لسانه إليهم شيء ، فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه فطرحوه في عنقه وجعلوا يسحبونه في سكك المدينة حتى سمع به من فيها ، وقيل قد أخذ رجل معه كنز فاجتمع عليه أهل المدينة وجعلوا ينظرون إليه ويقولون والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأيناه فيها قط وما نعرفه ، وجعل تمليخا لا يدري ما يقول لهم ، وكان متيقناً أن أباه وإخوته بالمدينة وأنه من عظماء أهلها وأنهم سيأتونه إذا سمعوا به فبينما هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله فيخلصه من أيديهم إذا اختطفوه وانطلقوا به إلى رئيسي المدينة ومدبريها ، اللذين يدبران أمرها وهما رجلان صالحان اسم أحدهما أريوس واسم الآخر طنطيوس ، فلما انطلقوا به إليهما ظن تمليخا أنه إنما ينطلق به إلى دقيانوس

الجبار فجعل يلتفت يميناً وشمالاً ، وهو يبكي والناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إله السماء وإله الأرض أفرغ علي اليوم صبراً وأولج معي روحاً منك تؤيدني به عند هذا الجبار ، وجعل يقول في نفسه فرقوا بيني وبين إخوتي يا ليتهم يعلمون ما لقيت ويا ليتهم يأتونني فنقوم جميعاً بين يدي هذا الجبار فإنا قد كنا تواثقنا على الإيمان بالله وأن لا نشرك به أحداً أبداً ولا نفترق في حياة ولا موت فلما انتهى إلى الرجلين الصالحين أريوس وطنطيوس ورأى أنه لم يذهب إلى دقيانوس ، أفاق وذهب عنه البكاء وأخذ أريوس وطنطيوس الورقة ونظرا إليها وعجبا منها وقال أين الكنز الذي وجدت يا فتى فقال تمليخا : ما وجدت كنزاً ولكن هذا ورق آبائي ونقش هذه المدينة وضربها ، ولكن والله ما أدري ما شأني وما أوقول لكم فقال له أحدهما : ممن أنت فقال تمليخا أما أنا فكنت أرى أني من أهل هذه المدينة فقيل له : ومن أبوك ومن يعرفك بها فأخبرهم باسم أبيه ، فلم يوجد من يعرفه ولا أباه فقال له أنت كذاب لا تنبئنا بالحق فلم يدر تمليخا ما يقول غير أنه نكث بصره إلى الأرض فقال بعض من حوله هذا رجل مجنون ، وقال بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمداً لكي ينفلت منكم ، فقال له أحدهما ونظر إليه نظراً شديداً أتظن إنا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ونقش هذه المدينة وضربها ولهذه الورقة أكثر من ثلاث مائة سنة وأنت غلام شاب أتظن أنك تأفكنا وتسخر بنا ونحن

شيوخ شمط وحولك سراة هذه المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه المدينة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار ، وإني لأظنني سآمر بك فتعذب عذاباً شديداً ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدته .

فقال لهم تمليخا : أخبروني عما أسألكم عنه فإن أنتم فعلتم صدقتكم عما عندي ، فقالوا له سل لا نكتمك شيئاً قال : فما فعل الملك دقيانوس فقال : ما نعرف على وجه الأرض من اسمه دقيانوس ولم يكن إلا ملك هلك في الزمان الأول وله دهر طويل وهلك بعده قرون كثيرة ، فقال تمليخا : إني إذاً لحيران وما يصدقني أحد من الناس فيما أقول لقد كنا فتية على دين الواحد وأن الملك أكرهنا على عبادة الأصنام والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس ، فأتينا إلى الكهف الذي في جبل بنجلوس فنمنا فيه فلما انتهينا خرجت لأشتري لأصحابي طعاماً وأتجسس الأخبار فإذا أنا معكم كما ترون فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي ، فلما سمع أريوس قول تمليخا قال يا قوم لعل هذه آية من آيات الله جعلها الله لكم على يد هذا الفتى فانطلقوا بنا معه حتى يرينا أصحابه .

فانطلق أريوس وطنطيوس ومعهما جميع أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب

الكهف لينظروا إليهم فلما رأى الفتية أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذي كان يأتي فيه ظنوا أنه أخذ وذهب به إلى ملكهم دقيانوس فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفونه إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل مصعدة فظنوا أنهم رسل الجبار دقيانوس بعث بهم إليهم ليؤتى بهم فقاموا إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضاً وقالوا انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فإنه الآن بين يدي الجبار وهو ينتظرنا حتى نأتيه .

فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس على هذه الحالة إذ هم بأريوس وأصحابه وقوفاً على باب الكهف فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكي فلما رأوه يبكي بكوا معه ثم سألوه عن خبره فقص عليه الخبر كله ، فعرفوا أنهم كانوا نياماً بأمر الله ذلك الزمن الطويل وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقاً للبعث وليعلموا أن الساعة لا ريب فيها .

ثم دخل على أثر تمليخا أريوس فرأى تابوتاً من نحاس مختوماً بخاتم فضة فوقف على الباب ودعا جماعة من عظماء أهل المدينة وأمر بفتح التابوت بحضرتهم فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوباً فيهما مكسلمينا ومخشلمينا وتمليخا ومرطونس وكشطونس ويبرونس

وديموس وبطيوس وقالوس والكلب اسمه قطمير .

كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف فلما أخبر بمكانهم أمر الكهف فسد عليهم بالحجارة وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم إن عثر بهم فلما قرأوه عجبوا وحمدوا الله سبحانه وتعالى الذي أراهم آية تدلهم على البعث ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه ، ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجودهم جلوساً مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر أريوس وأصحابه سجداً لله وحمدوا الله سبحانه وتعالى الذي أراهم آية من آياته ثم كلم بعضهم بعضاً وأخبرهم الفتية عن الذي لقوا من ملكهم دقيانوس ثم أريوس وأصحابه بعثوا بريداً إلى ملكهم الصالح بيدروس أن عجل لعلك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها الله على ملكك للناس آية لتكون لهم نوراً وضياء وتصديقاً للبعث ، وذلك أن فتية بعثهم الله وقد كان توفاهم منذ ثلاث مائة سنة وأكثر ، فلما أتى الملك الخبر رجع عقله إليه وذهب همه وقال : أحمدك اللهم رب السموات والأرض وأعبدك وأسبح لك تطولت علي ورحمتني ولم تطفىء النور الذي جعلته لآبائي وللعبد الصالح بيدروس الملك ثم أخبر بذلك أهل مدينته فركب وركبوا معه حتى أتوا مدينة أفسوس ، فتلقاهم أهلها وساروا معه نحو الكهف فلما صعد الجبل ورأى الفتية بيدروس فرح بهم وخرا ساجداً على وجهه وقام بيدروس الملك قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبحون لله ويحمدونه .

ثم قال الفتية لبيد روس الملك نستودعك الله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته حفظك الله وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الإنس والجن .

(299/471)

فبينما الملك قائم إذا هم رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أنفسهم ، فقام الملك إليهم وجعل ثيابهم عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم في تابوت من ذهب فلما أمسى ونام أتوه في منامه فقالوا له إنا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكنا خلقنا من تراب وإلى التراب نصير فاتركنا كما كنا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى منه ، فأمر الملك عند ذلك بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب ، ولم يقدر أحد أن يدخل عليهم وأمر الملك أن يتخذوا على باب الكهف مسجداً يصلى فيه وجعل لهم عيداً عظيماً وأمر أن يؤتى كل سنة .

وقيل إن تمليخا حمل إلى الملك الصالح فقال له الملك من أنت قال أنا رجل من أهل هذه المدينة ، وذكر أنه خرج أمس أو منذ أيام وذكر منزله وأقواماً لم يعرفهم أحد وكان الملك قد سمع أن فتية قد فقدوا في الزمان الأول وإن أسماءهم مكتوبة على لوح في خزانته فدعا اللوح ونظر في أسمائهم فإذا اسمه مكتوب وذكر أسماء الآخرين فقال تمليخا : هم أصحابي فلما

سمع الملك ركب ومن معه من القوم فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا : دعوني حتى أدخل على أصحابي فأبشرهم فإنهم إن رأوكم معي أرعبتموهم فدخل تمليخا فبشرهم فقبض الله روحه وأرواحهم وأعمى على الملك وأصحابه أثرهم فلم يهتدوا إليهم فذلك قوله ﴿ إذ أوى الفتية إلى الكهف ﴾ أي صاروا إلى الكهف واسمه خيرم ﴿ فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ﴾ أي هداية في الدين ﴿ وهيىء لنا ﴾ أي يسر لنا ﴿ من أمرنا رشداً ﴾ أي ما نلتمس منه رضاك وما فيه رشدنا ، وقال ابن عباس : أي مخرجاً من الغار في سلامة .

(300/471)

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فضربنا على أذانهم ﴾ أي ألقينا عليهم النوم ، وقيل منعنا نفوذ الأصوات إلى مسامعهم فإن النائم إذا سمع الصوت ينتبه ﴿ في الكهف سنين عدداً ﴾ أي أنمناهم سنين كثيرة فإن العدد يدل على الكثرة ﴿ ثم بعثناهم ﴾ أي من نومهم ﴿ لنعلم ﴾ أي علم مشاهدة وذلك أن الله لم يزل عالماً ، وإنما أراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ليزدادوا إيماناً واعتباراً ﴿ أي الحزبين ﴾ أي الطائفتين ﴿ أحصى لما لبثوا أمداً ﴾ أي أحفظ لما مكثوا في كهفهم نياماً وذلك أن أهل المدينة تنازعوا في مدة لبثهم في الكهف .

قوله تعالى ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ أي نقرأ عليك خبر أصحاب الكهف بالحق أي بالصدق ﴿ إنهم فتية ﴾ أي شبان ﴿ آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ أي إيماناً وبصيرة ﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ أي شددنا على قلوبهم بالصبر والتثبيت وقويناهم بنور الإيمان حتى صبروا على هجران دار قومهم ، ومفارقة ما كانوا عليه من خفض العيش وفروا بدينهم إلى الكهف ﴿ إذ قاموا ﴾ يعني بين يدي دقيانوس الجبار حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام ﴿ فقالوا ﴾ أي الفتية ﴿ ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً ﴾ إنما قالوا ذلك لأن قومهم كانوا يعبدون الأصنام ﴿ لقد قلنا إذاً شططاً ﴾ قال ابن عباس : يعني جوراً وقيل كذباً يعني إن دعونا غير الله ﴿ هؤلاء قومنا ﴾ يعني أهل بلدهم ﴿ اتخذوا من دونه ﴾ أي من دون الله ﴿ آلهة ﴾ يعني أصناماً يعبدونها ﴿ لولا ﴾ أي هلا ﴿ يأتون عليهم ﴾ أي على عبادة الأصنام ﴿ بسلطان بين ﴾ أي بحجة واضحة وفيه تبكيت لأن الإتيان بحجة على عبادة الأصنام محال ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ أي وزعم أنه له شريكاً أو ولداً ثم قال بعضهم لبعض ﴿ وإذ اعتزلتموهم ﴾ يعني قومكم ﴿ وما يعبدون إلا الله ﴾ وذلك أنهم كانوا يعبدون الله ، ويعبدون معه

الأصنام والمعنى وإذا اعتزلتموهم وجميع ما يعبدون إلا الله فإنكم لم تعتزلوا عبادته ﴿ فأووا إلى الكهف ﴾ أي الجؤوا إليه ﴿ ينشر لكم ﴾ أي يبسط لكم ﴿ ربكم من رحمته ويهيىء ﴾ أي يسهل ﴿ لكم من أمركم مرفقاً ﴾ أي ما يعود إليه يسركم ورفقكم .

(302/471)

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وترى الشمس إذا طلعت تزاور ﴾ أي تميل وتعدل ﴿ عن كهفهم ذات اليمين ﴾ أي جانب اليمين ﴿ وإذا غربت تقرضهم ﴾ أي تتركهم وتعدل عنهم ﴿ ذات الشمال وهم في فجوة منه ﴾ أي متسع من الكهف ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ أي من عجائب صنعه ودلالات قدرته وذلك أن ما كان في ذلك السمت تصيبهم الشمس ولا تصيبهم اختصاصاً لهم بالكرامة ، وقيل إن باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش فهم في مقنأة أبداً لا تقع الشمس عليهم عند الطلوع ولا عند الغروب ولا عند الاستواء فتؤذيهم بحرها ، ولكن اختار الله لهم مضجعاً في متسع ينالهم فيه برد الريح ونسيمها ويدفع عنهم كرب الغار وغمه ، وعلى هذا القول يكون معنى قوله ذلك من آيات الله أي إن شأنهم وحديثهم من آيات الله ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ يعني مثل أصحاب الكهف وفيه ثناء عليهم ﴿ ومن يضلل ﴾ أي ومن يضلله الله ولم يرشده ﴿ فلن تجد له ولياً ﴾ أي معيناً

﴿ مرشداً ﴾ أي يرشده.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وتحسبهم ﴾ خطاب لكل أحد ﴿ أيقاظاً ﴾ أي منتبهين لأن أعينهم مفتحة ﴿ وهم رقود ﴾ أي نيام ﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ قال ابن عباس: كانوا يقلبون في السنة مرة من جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض لحومهم، قيل كانوا يقلبون في عاشوراء وقيل كانوا لهم في السنة تقلبتان ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه ﴾ قال ابن عباس: كان كلباً أغر وعنه أنه كان فوق القلطي ودون الكرزي.

(303/471)

والقلطي كلب صيني وقيل كان أصفر وقيل كان شديد الصفرة يضرب إلى حمرة، وقال ابن عباس: كان اسمه قطمير وقيل ريان وقيل صهبان قيل ليس في الجنة دواب سوى كلب أصحاب الكهف وحمار بلعام ﴿ بالوصيد ﴾ أي فناء الكهف، وقيل عتبة الباب وكان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهم، قيل كان ينقلب مع أصحابه فإذا انقلبوا ذات اليمين كسر الكلب أذنه اليمنى ورقد عليها، وإذا انقلبوا ذات الشمال كسر أذنه اليسرى ورقد عليها ﴿ لو اطلعت عليهم ﴾ يا محمد ﴿ لوليت منهم فراراً ﴾ وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة حتى لا يصل إليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله فيوقظهم الله من

رقدتهم ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أي خوفاً من وحشة المكان .

وقيل لأن أعينهم مفتحة كالمتيقظ الذي يريد أن يتكلم وهم نيام وقيل لكثرة شعورهم ، وطول أظافرهم ولتقلبهم من غير حس ولا إشعار وقيل إن الله سبحانه وتعالى منعهم بالرعب لئلا يراهم أحد .

قال ابن عباس : غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف فقال معاوية : لو كشف الله عن هؤلاء لنظرنا إليهم ، فقال ابن عباس : قد منع ذلك من هو خير منك فقيل له لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً .

فبعث معاوية ناساً فقال اذهبوا فانظروا ، فلما دخلوا الكهف بعث الله ريحاً فأحرقهم .

(304/471)

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ يعني كما أنمناهم في الكهف وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان بعثناهم من النومة التي تشبه الموت ﴿ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ أي ليسأل بعضهم بعضاً ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ وهو رئيسهم وكبيرهم مكسلمينا ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ أي في نومكم وذلك ، أنهم استنكروا طول نومهم وقيل إنهم راعهم ما فاتهم من الصلاة فقالوا ذلك ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا ﴾ ثم نظروا فوجدوا الشمس قد بقي منها بقية

فقالوا ﴿ أو بعض يوم ﴾ فلما نظروا إلى طول شعورهم وأظافرهم علموا أنهم لبثوا أكثر من يوم ﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ وقيل إن مكسلمينا لما سمع الاختلاف بينهم قال دعوا الاختلاف ربكم أعلم بما لبثتم ﴿ فابعثوا أحدكم ﴾ يعني تمليخا ﴿ بورقكم ﴾ هي الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة ﴿ هذه إلى المدينة ﴾ قيل هي ترسوس وكان أسمها في الزمن الأول قبل الإسلام أفسوس ﴿ فلينظر أيها أزكى طعاماً ﴾ أي أحلى طعاماً وقيل أمروه أن يطلب ذبيحة مؤمن ، ولا تكون من ذبح من يذبح لغير الله وكان فيهم مؤمنون يخفون إيمانهم ، وقيل أطيب طعاماً وأجود وقيل أكثر طعاماً وأرخصه ﴿ فليأتكم برزق منه ﴾ أي قوت وطعام تأكلونه ﴿ وليتلطف ﴾ أي وليترفق في الطريق وفي المدينة وليكن في ستر وكتمان ﴿ ولا يشعرن ﴾ أي ولا يعلمن ﴿ بكم أحداً ﴾ أي من الناس ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم ﴾ أي يعلموا بمكانكم ﴿ يرجموكم ﴾ قيل معناه يشتموكم ويؤذوكم بالقول وقيل يقتلوكم ، وكان من عادتهم القتل بالحجارة وهو أخبث القتل وقيل يعذبكم ﴿ أو يعيدوكم في ملتهم ﴾ أي الكفر ﴿ ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾ أي إن عدتم إليه .

قوله : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾ أي أطلعنا الناس عليهم ﴿ ليعلموا أن وعد الله حق ﴾ يعني قوم بيدروس الذين أنكروا البعث ﴿ وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ أي لا شك فيها أنها آتية ﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ .

قال ابن عباس : في البنيان فقال المسلمون نبني عليهم مسجداً يصلي فيه الناس لأنهم على ديننا وقال المشركون نبني بنياناً لأنهم على ملتنا وقيل كان يتنازعهم في البعث فقال المسلمون تبعث الأجساد والأرواح وقال قوم تبعث الأرواح فأراهم الله آية وأن البعث للأرواح والأجساد وقيل تنازعوا في مدة لبثهم وقيل في عددهم ﴿ فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم ﴾ يعني بيدروس وأصحابه ﴿ لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ قوله تعالى ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم ﴾ روي أن السيد والعاقب وأصحابهما من نصارى نجران كانوا عند النبي (صلى الله عليه وسلم) فجرى ذكر أصحاب الكهف عندهم فقال السيد وكان يعقوبياً كانوا ثلاثة رابعهم ﴿ كلبهم ويقولون ﴾ أي وقال العاقب وكان نسطورياً ﴿ خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون ﴾ وقال المسلمون ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ فحقق الله قول المسلمين وإنما عرفوا ذلك بأخبار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على لسان جبريل صلى الله عليه سلم بعدما حكى قول النصارى أولاً ، ثم أتبعه بقوله سبحانه وتعالى رجماً بالغيب أي ظناً وحدساً من غير يقين ولم يقل ذلك في السبعة وتخصيص الشيء بالوصف يدل على أن الحال في الباقي

بخلافه ، فوجب أن يكون المخصوص بالظن هو قول النصارى وأن يكون قول المسلمين مخالفاً لقول النصارى في كونه رجماً بالغيب وظناً ، ثم أتبعه بقوله سبحانه وتعالى ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل ﴾ هذا هو الحق لأن العلم بتفاصيل العوالم والكائنات فيه في الماضي والمستقبل لا يكون إلا لله تعالى أو من أخبره الله سبحانه وتعالى بذلك .

قال ابن عباس : أنا من أولئك القليل كانوا سبعة وهم مكسلمينا (1) وتمليخا ومرطونس وبينونس وسارينوس ودنوانس وكشفيططنونس وهو الراعي واسم كلبهم قطمير ﴿ فلا تمار فيهم ﴾ .

---

(1) قوله مكسلمينا وقع اختلاف كبير في أسمائهم وذكر في القاموس في ذلك ثلاثة أقوال فليراجع .

(306/471)

أي لا تجادل ولا تقل في عددهم وشأنهم ﴿ إلا مراء ظاهراً ﴾ أي إلا بظاهر ما قصصنا عليك فقف عنده ولا تزد عليه ﴿ ولا تستفت فيهم ﴾ أي في أصحاب الكهف ﴿ منهم ﴾ أي من أهل الكتاب ﴿ أحداً ﴾ أي لا ترجع إلى قول أحد منهم بعد أن أخبرناك قصتهم .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ يعني إذا عزمت على فعل شيء غداً فقل إن شاء الله ولا تقله بغير استثناء وذلك أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه سلم عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين فقال أخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله فلبث الوحي أياماً ثم نزلت هذه الآية وقد تقدمت القصة في سورة بني إسرائيل ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ قال ابن عباس: معناه إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن وجوز ابن عباس الاستثناء المنقطع، وإن كان بعد سنة وجوزه الحسن ما دام في المجلس وجوزه بعضهم إذا قرب الزمان، فإن بعد لم يصح ولم يجوزه جماعة حتى يكون الكلام متصلاً بالاستثناء وقيل في معنى الآية واذكر ربك إذا غضبت قال وهب مكتوب في التوراة والإنجيل ابن آدم "اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب"، وقيل الآية في الصلاة يدل عليه ما روي عن أنس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

"من نسي صلاة فليصلها إذ ذكرها قال تعالى ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾" متفق عليه زاد مسلم أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها ﴿ وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من

هذا رشداً ﴾ أي يثبتني على طريق هو أقرب إليه وأرشد ، وقيل إن الله سبحانه وتعالى أمره أن يذكره إذا نسي شيئاً ويسأله أن يذكره أو يهديه لما هو خير له من أن يذكر ما نسي وقيل إن القوم لما سألوه عن قصة أصحاب الكهف على وجه العناد أمره الله سبحانه وتعالى أن يخبرهم أن الله سبحانه وتعالى سيؤتيه من الحجج على صحة نبوته ما هو أدل لهم من قصة أصحاب الكهف وقد فعل حيث أتاه من علم غيب المرسلين وقصصهم مما هو أوضح وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف .

وقيل هذا شيء أمره الله أن يقوله إن شاء الله إذا ذكر الاستثناء بعد النسيان وإذا نسي الإنسان قوله إن شاء الله فتوبته من ذلك أن يقول مع قوله إن شاء الله عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً .

قوله ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ قيل هذا خبر عن قول أهل الكتاب ولو كان خبراً من الله عن قدر لبثهم لم يكن لقوله قل الله أعلم بما لبثوا وجه ولكن الله رد قولهم .

قوله : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ والأصح أنه إخبار من الله تعالى عن قدر لبثهم في الكهف ويكون معنى قوله قل الله أعلم بما لبثوا ، يعني إن نازعوك في مدة لبثهم في الكهف فقل أنت الله أعلم بما لبثوا أي هو أعلم منكم وقد أخبر بمدة لبثهم وقيل إن أهل الكتاب قالوا إن المدة من حين دخلوا الكهف إلى يومنا هذا وهو اجتماعهم بالنبي (صلى الله عليه وسلم)

ثلاثمائة سنين فرد الله عليهم بذلك وقال قل الله أعلم بما لبثوا يعني بعد قبض أرواحهم إلى يومنا هذا لا يعلمه إلا الله .

(308/471)

فإن قلت لم قال سنين ولم يقل سنة ، قلت قيل لما نزل قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة ﴾ فقالوا أياماً أو شهوراً أو سنين فنزلت سنين على وفق قولهم وقيل هو تفسير لما أجمل في قوله فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا وازدادوا تسعاً وقيل قالت نصارى نجران أما ثلاثمائة فقد عرفنا وأما التسع فلا علم لنا بها .

فنزلت قل الله أعلم بما لبثوا .

وقيل إن عند أهل الكتاب لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية والله سبحانه وتعالى ذكر ثلاثمائة سنة وتسع سنين قمرية والتفاوت بين القمرية والشمسية في كل مائة سنة ثلاث سنين فتكون الثلاثمائة الشمسية ثلاث مائة وتسع سنين قمرية ﴿ له غيب السموات والأرض ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء من أحوال أهلها فإنه العالم وحده به فكيف يخفى عليه حال أصحاب الكهف ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ معناه ما أبصر الله بكل موجود وأسمعه بكل مسموع لا يغيب عن سمعه وبصره شيء يدرك البواطن كما يدرك الظواهر والقريب

والبعيد والمحجوب وغيره لا تخفى عليه خافية ﴿ ما لهم ﴾ أي ما لأهل السموات والأرض ﴿ من دونه ﴾ أي من دون الله ﴿ من ولي ﴾ أي ناصر ﴿ ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾ قيل معناه لا يشرك الله في علم غيبه أحداً وقيل في قضائه .

قوله تعالى ﴿ واتل ﴾ أي واقرأ يا محمد ﴿ ما أوحي إليك من كتاب ربك ﴾ يعني القرآن واتبع ما فيه واعمل به ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي لا مغير للقرآن ولا يقدر أحد على التطرق إليه بتغيير أو تبديل .

فإن قلت موجب هذا أن لا يتطرق النسخ إليه .

قلت النسخ في الحقيقة ليس بتبديل لأن المنسوخ ثابت في وقته إلى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالمغاير فكيف يكون تبديلاً .

وقيل معناه لا مغير لما أوعد الله بكلماته أهل معاصيه ﴿ ولن تجد من دونه ﴾ أي من دون الله إن لم تتبع القرآن ﴿ ملتحداً ﴾ أي ملجأ وحرزاً تعدل إليه .

قوله ﴿ واصبر نفسك ﴾ الآية نزلت في عيينة بن حصن الفزاري أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء ومنهم سلمان وعليه صوف قد عرق

فيها وبيده خوص يشقه وينسجه فقال عيينة للنبيّ (صلى الله عليه وسلم) : أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها إن أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحهم حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلساً فأنزل الله واصبر نفسك أي احبس يا محمد نفسك ﴿ مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ يعني طرفي النهار ﴿ يريدون وجهه ﴾ أي يريدون وجه الله لا يريدون عرض الدنيا ، وقيل نزلت في أصحاب الصفة وكانوا سبعمائة رجل فقراء في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا يرجعون إلى تجارة ولا زرع ولا ضرع يصلون صلاة وينتظرون أخرى فلما نزلت هذه الآية قال النبيّ (صلى الله عليه وسلم)

(310/471)

"الحمد الله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم" ﴿ ولا تعد ﴾ أي لا تصرف ولا تجاوز ﴿ عيناك عنهم ﴾ إلى غيرهم ﴿ تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ أي تطلب مجالسه الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ أي جعلنا قلبه غافلاً عن ذكرنا يعني عيينة بن حصن وقيل أمية بن خلف ﴿ واتبع هواه ﴾ أي في طلب الشهوات ﴿ وكان أمره فرطاً ﴾ ضياعاً ضيع أمره وعطل أيامه ، وقيل ندماً

وقيل سرفاً وباطلاً وقيل مخالفاً للحق ﴿ وقل الحق من ربكم ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا من ربكم الحق وإليه التوفيق والخذلان وبيده الهدى والضلال ليس إلى من ذلك شيء ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ هذا على طريق التهديد والوعيد كقوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ وقيل معنى الآية وقل الحق من ربكم أي لست بطارد المؤمنين لهواكم فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا ، فإن كفرتم فقد أعد لكم ربكم ناراً وإن آمنتم فلكم ما وصف الله لأهل طاعته ، وعن ابن عباس في معنى الآية : من شاء الله له الإيمان آمن ومن شاء له الكفر كفر ﴿ إنا أعتدنا ﴾ أي هيأنا من العتاد وهو العدة ﴿ للظالمين ﴾ أي الكافرين ﴿ ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾ السرادق الحجزة التي تطيف بالفساطيط عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) " قال سرادق النار أربعة جدر كثف كل جدار أربعون سنة " أخرجه الترمذي قال ابن عباس : هو حائط نار وقيل هو عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار كالحظيرة وقيل هو دخان يحيط بالكفار ﴿ وإن يستغيثوا ﴾ أي من شدة العطش ﴿ ثغاثوا بماء كالمهل ﴾ قال ابن عباس : هو ماء غليظ مثل دردي الزيت ، عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال في قوله سبحانه وتعالى بماء كالمهل قال : "كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه منه " أخرجه الترمذي .

وقال رشدين أحد رواة الحديث قد تكلم بفيه من قبل حفظة الفروة جلدة الوجه وقيل المهل الدم والقيح وقيل هو الرصاص والصفر المذاب ﴿ يشوي الوجوه ﴾ أي ينضج الوجوه من حره ﴿ بئس الشراب ﴾ أي ذلك الذي يغاثون به ﴿ وساءت ﴾ أي النار ﴿ مرتفقاً ﴾ قال ابن عباس : منزلاً وقيل مجتمعاً وأصل المرتفق المتكأ وإنما جاء كذلك لمشاكلة قوله وحسنت مرتفقاً وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا متكأ .

قوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ أي لا نترك أعمالهم الصالحة وقيل إن قوله إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً كلام معترض وتقديره إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ أولئك لهم جنات عدن ﴾ أي دار إقامة سميت عدناً لخلود المؤمنين فيها ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ وذلك لأن أفضل المساكن ما كان يجري فيه الماء ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ قيل يحلى كل إنسان منهم ثلاثة أساور سوار من ذهب لهذه الآية وسوار من فضة لقوله تعالى ﴿ وحلوا أساور من فضة ﴾ وسوار من لؤلؤ لقوله ﴿ ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ ﴿ ويلبسون ثياباً خضراً من سندس ﴾ هو الديباج الرقيق ﴿ وإستبرق ﴾ هو الديباج الصفيق الغليظ وقيل السندس المنسوج بالذهب ﴿ متكئين ﴾ خص الاتكاء لأنه هيئة المتنعمين والملوك ﴿ فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ على الأرائك ﴾ جمع أريكة وهي السرر في الحجال ولما وصف

الله سبحانه وتعالى هذه الأشياء قال ﴿ نعم الثواب ﴾ أي نعم الجزاء ﴿ وحسنت ﴾ أي الجنات ﴿ مرتفقاً ﴾ أي مقراً ومجلساً ، والمراد بقوله وحسنت مرتفقاً مقابلة ما تقدم ذكره من قوله سبحانه وتعالى وساءت مرتفقاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 190.211 ﴾

(312/471)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الكهف

مكية إلا ﴿ واصبر نفسك ﴾ الآية وهي مائة وعشر آيات وألف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة وعدد حروفها ستة آلاف وثلاثمائة وستون حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ الذي لا كفء له ولا شريك ﴿ الرحمن ﴾ الذي أقام عباده على أوضح الطرق بإنزال هذا الكتاب ﴿ الرحيم ﴾ بتفضيل من اختصه بالصواب وهو قوله تعالى:

﴿ الحمد لله ﴾ تقدّم الكلام عليه مستقصى في أوّل الفاتحة : ﴿ الذي أنزل على عبده الكتاب ﴾ ، أي : القرآن رتب تعالى استحقاق الحمد على إنزاله تنبيهاً على أنه أعظم إنعامه وخص رسوله صلى الله عليه وسلم بالذكر لأن إنزال القرآن نعمة عليه على

الخصوص وعلى سائر الناس على العموم ، أمّا كونه نعمة عليه فلأنّ الله تعالى أطلعه بواسطة هذا الكتاب الكريم على أسرار علوم التوحيد والتنزيه . وصفات الجلال والإكرام وأسرار أحوال الملائكة والأنبياء وأحوال القضاء والقدر وتعلق أحوال العالم السفليّ بأحوال العالم العلويّ ، وتعلق أحوال عالم الآخرة بعالم الدنيا ، وكيفية نزول القضاء من عالم الغيب ، وكيفية ارتباط عالم الجسمانيات بعالم الروحانيات ، ولا شكّ أنّ ذلك من أعظم النعم . وأمّا كون هذا الكتاب نعمة علينا فلأنه مشتمل على التكاليف والأحكام والوعد والوعيد والعقاب . وبالجملة فهو كتاب كامل في أقصى الدرجات فكل أحد ينتفع به بمقدار طاقته وفهمه فوجب عليه صلى الله عليه وسلم وعلى أمّته أن يحمدوه على هذه النعم الجزيلة . وقال تعالى : ﴿ على عبده ﴾ لما في كل من الوصف بالعبودية والإضافة إليه سبحانه وتعالى من الإعلام بتشريفه وإشارة إلى أنه الذي أسرى به إلى حضرات مجده ليريه من آياته . ثم إنه تعالى وصف الكتاب بوصفين الأوّل قوله تعالى : ﴿ ولم يجعل له ﴾ ، أي : فيه ﴿ عوجاً ﴾ ، أي : اختلافاً وتناقضاً كما قال تعالى : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (النساء) والجملة حال من الكتاب .

الوصف الثاني : قوله تعالى : ﴿ قيماً ﴾ قال ابن عباس : يريد مستقيما ، أي : معتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط . قال الرازي : وهذا عندي مشكل لأنه لا معنى لنفي الإعوجاج إلا حصول الاستقامة فتفسير القيم بالمستقيم يوجب التكرار بل الحق أنّ المراد من كونه قيما كونه سبباً لهداية الخلق وأنه يجري مجرى من يكون قيماً للأطفال فالأرواح البشرية كالأطفال والقرآن كالقيم المشفق القائم بمصالحهم وقال قبل ذلك أنّ الشيء يجب أن يكون كاملاً في ذاته ثم يكون مكملاً لغيره ، ويجب أن يكون تامّاً في ذاته ثم يكون فوق التمام بأن يفيض عنه كمال الغير فقوله تعالى : ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ إشارة إلى كونه كاملاً في ذاته وقوله : ﴿ قيماً ﴾ إشارة إلى كونه مكملاً لغيره . ونظيره قوله تعالى في سورة البقرة في صفة الكتاب : ﴿ لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ (البقرة ،) فقوله : ﴿ لا ريب فيه ﴾ إشارة إلى كونه في نفسه بالغاً في الصحة وعدم الإخلال إلى حيث يجب على العاقل أن لا يرتاب فيه ، وقوله : ﴿ هدى للمتقين ﴾ إشارة إلى كونه سبباً لهداية الخلق ولكمال حالهم فقوله تعالى : ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ قائم مقام قوله تعالى : ﴿ لا ريب فيه ﴾ قوله تعالى : ﴿ قيماً ﴾ قائم مقام قوله تعالى : ﴿ هدى للمتقين ﴾ .

واختلف النحويون في نصب قوله تعالى : ﴿ قيماً ﴾ على أوجه : الأوّل قال في "الكشاف" : لا يجوز جعله حالاً من الكتاب لأنّ قوله تعالى : ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ معطوف على قوله تعالى : ﴿ أنزل ﴾ فهو داخل في حيز الصلة وأنه لا يجوز . قال : ولما بطل هذا وجب

أن ينتصب بمضمر والتقدير ولم يجعل له عوجاً جعله قيماً لأنه تعالى إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة . قال : فإن قلت فما فائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة وفي أحدهما غنى عن الآخر ؟ قلت : فائدته التأكيد ورب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح .

الوجه الثاني : أنه حال ثانية والجملة المنفية قبله حال أيضاً كما مرّ وتعدّد الحال الذي حال واحد جائز ، والتقدير أنزله غير جاعل له عوجاً قيماً . الوجه الثالث : أنه حال أيضاً ولكنه بدل من الجملة قبله لأنها حال وإبدال المفرد من الجملة إذا كانت بتقدير مفرد جائز . ولما ذكر تعالى أنه أنزل على عبده هذا الكتاب الموصوف بما ذكر أردفه ببيان ما لأجله أنزله بقوله عز وجلّ : ﴿ لينذر ﴾ ، أي : يخوّف الكتاب الكافرين ﴿ بأساً ﴾ ، أي : عذاباً ﴿ شديداً من لدنه ﴾ ، أي : صادراً من عنده ، وقرأ شعبة بإسكان الدال وكسر النون والهاء وصلة الهاء بياء والباقون بضم الدال وسكون النون وضم الهاء ، وابن كثير على أصله بضم الهاء في الوصل بواو . ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ ، أي : الراسخين في هذا الوصف ، وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء التحتية وسكون الموحدة ، وضم الشين مخففة والباقون

بضم التحتية وفتح الموحدة وكسر الشين مشدّدة . ﴿ الذين يعملون الصالحات ﴾ وهي ما أمر به خالصاً له وذانك الشيأان مفتاح الإيمان . ﴿ أنّ لهم ﴾ ، أي : بسبب أعمالهم ﴿ أجراً حسناً ﴾ هو الجنة حال كونهم .

﴿ ماكثين فيه أبداً ﴾ بلا انقطاع أصلاً فإنّ الأبد زمان لا آخر له ، وقوله تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ معطوف على قوله تعالى : ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ والمعطوف يجب كونه مغايراً للمعطوف عليه ، فالأوّل عام في حق كل كافر ، والثاني خاص بمن أثبت لله ولداً . وعادة القرآن جارية بأنه إذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيهاً على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي كقوله تعالى : ﴿ وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ (البقرة ،) فكذا ههنا هذا العطف يدل على أنّ أقبح أنواع الكفر إثبات الولد لله تعالى .

تنبيه : الذين أثبتوا لله ولداً ثلاث طوائف الأولى : كفار العرب الذين قالوا الملائكة بنات الله . الثانية : النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله . الثالثة : اليهود الذين قالوا عزير ابن الله . ثم إنه تعالى أنكر على القائلين ذلك من وجهين الأوّل : قوله تعالى : ﴿ ما لهم به ﴾ ،

أي: القول. ﴿من علم﴾، أي: أصلاً لأنه مما لا يمكن أن يتعلق العلم به لأنه لا وجود له ولا يمكن وجوده، ثم قرّر تعالى هذا المعنى وأكده بقوله: ﴿ولا لآبائهم﴾ الذين يغتبطون بتقليدهم في الدين حتى في هذا الذي لا يتخيله عاقل ولو أخطؤوا في تصرف دنيوي لم يتبعوهم فيه. فإن قيل: اتخاذ الله ولداً محال في نفسه فكيف قيل ما لهم به من علم؟ أجيب: بأن انتفاء العلم بالشيء قد يكن للجهل بالطريق الموصل إليه وقد لا يكون لأنه في نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به، ونظيره قوله تعالى: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به﴾ (المؤمنين،) . الوجه الثاني: ﴿كبرت﴾، أي: مقالتهم ﴿كلمة﴾، أي: ما أكبرها من كلمة وصور فظاظة اجترائهم على النطق بها بقوله تعالى: ﴿تخرج من أفواههم﴾، أي: لم يكفهم خطورها في أنفسهم وتردّدها في صدورهم حتى تلفظوا بها وكان صدورهم بها على وجه التكرير كما يشير إليه التعبير بالمضارع. تنبيه: سميت هذه كلمة كما يسمون القصيدة كلمة. ثم بين تعالى ما أفهمه الكلام من أنه كما أنهم لا علم لهم بذلك لا علم لأحد به أصلاً لأنه لا وجود له فقال تعالى: ﴿إن﴾، أي: ما ﴿يقولون إلا كذباً﴾، أي: قولاً لا حقيقة له بوجه من الوجوه. ولما كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على إيمان قومه شفقة عليهم وغيرة على المقام الإلهي الذي ملأ قلبه تعظيماً خفض عليه سبحانه وتعالى بقوله تعالى:

﴿ فلعلك باخع ﴾ ، أي : قاتل ﴿ نفسك ﴾ من شدّة الغمّ والوجد وأشار تعالى إلى شدّة نفرتهم وسرعة مفارقتهم وعظيم مباعدتهم بقوله عز من قائل : ﴿ على آثارهم ﴾ ، أي : حين تولوا عن التوحيد وعن إجابتك ﴿ إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ﴾ ، أي : القرآن المتجدّد تنزيله على حسب التدريج ﴿ أسفاً ﴾ منك على ذلك والأسف شدّة الحزن والغضب .

فإن قيل : ذلك يدل على حدوث القرآن ؟

أجيب : بأنه محمول على الألفاظ وهي حادثة . ثم بين سبحانه وتعالى علة إرشاده إلى الإعراض عنهم بغير ما يقدر عليه من التبليغ للبشارة والنذارة بأنهم لم يخرجوا عن مراده تعالى ، وأنّ الإيمان لا يقدر على إدخاله قلوبهم غيره بقوله عز وجل :

﴿ إنّا ﴾ ، أي : إنا لا نفعل ذلك لأنا ﴿ جعلنا ما على الأرض ﴾ من الحيوان والنبات والشجر والأنهار والمعادن وغير ذلك . وقال بعضهم : بل المراد الناس فهم زينة الأرض ، وبالجملة فليس في الأرض إلا المواليد الثلاثة وهي المعادن والنبات الشامل للشجر والحيوان وأشرف أنواع الحيوان الإنسان . ﴿ زينة لها ﴾ ، أي : الأرض قيل المراد أهلها ، أي : زينة

لأهلها . قال الرازي : ولا يمتنع أن يكون ما تحسن به الأرض زينة لها كما جعل الله السماء مزينة بالكواكب . ولما أخبر تعالى بزينتها أخبر تعالى بعلته بقوله تعالى : ﴿ لنبلوهم ﴾ ، أي : نعاملهم معاملة المختبر ﴿ أيهم أحسن عملاً ﴾ بإخلاص الخدمة لربه فيصير ما كنا نعلمه منهم ظاهراً فإنّ الله تعالى يعلم السرّ وأخفى ، لتقام به عليهم الحجة على ما يتعارفونه بينهم بأن من أظهر موافقة الأمر فيما نال من الزينة حاز المثوبة ومن اجترأ على مخالفة الأمر بما آتاه منها استحق العقوبة فكأنه تعالى يقول : يا محمد إني خلقت الأرض وزينتها وأخرجت منها أنواع المنافع والمصالح والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ثم إنهم يكفرون ويتمرّدون ومع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم فأنت أيضاً يا محمد لا ينبغي أن تنتهي في الحزن بسبب كفرهم إلى أن تترك الاشتغال بدعوتهم إلى الدين الحق . ثم إنه تعالى لما بين أنه إنما زين الأرض لأجل الامتحان والابتلاء لا لأجل أن يبقى الإنسان فيها متنعماً بها أبداً ، زهد فيها بقوله تعالى:

﴿ وإنا لجاعلون ما عليها ﴾ من جميع تلك الزينة لا يصعب علينا شيء منه ﴿ صعيداً ﴾ ، أي : فتاتاً ﴿ جزراً ﴾ ، أي : يابساً لا ينبت ونظيره قوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان ﴾

(الرحمن ،) . وقوله تعالى : ﴿ فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ (طه : ،) . وتخصيص الإهلاك بما على الأرض يوهم بقاء الأرض إلا أنّ سائر الآيات على أنّ الأرض أيضاً لا تبقى كما قال تعالى : ﴿ يوم تبدّل الأرض غير الأرض ﴾ (إبراهيم ،) . ولما أنّ القوم تعجبوا في قصة أصحاب الكهف وسألوها النبيّ صلى الله عليه وسلم على سبيل الامتحان قال تعالى:

﴿ أم حسبت ﴾ ، أي : ظننت على ما لك من العقل الرزين والرأي الرصين ﴿ أنّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ على ما لزم من تهويل السائلين من الكفرة من اليهود والعرب والواقع أنهم كانوا من العجائب ليسوا بعجب بالنسبة إلى كثرة آياتنا فإنّ من كان قادراً على تخليق السموات والأرض كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدّة ثلاثمائة سنة وأكثر في النوم والكهف الغار الواسع في الجبل ، واختلف في الرقيم فقيل هو اسم كلبهم قال أمية بن أبي الصلت:

وليس بها إلا الرقيم مجاورا

وصيدهم؛ وهو بكسر الصاد مفعول مجاورا ، أي : فناءهم . والقوم في الكهف هجد ؛ ، أي : نوّم ، وقيل هو لوح من رصاص رقمت فيه أسماؤهم وقصصهم جعل على باب الكهف . قال البغويّ : وهذا أظهر الأقاويل . وقيل : إنّ الناس رقموا حديثهم نقراً في الجبل وقيل هو الوادي الذي فيه الكهف ، وقيل الجبل وقيل قريتهم ، وقيل أصحاب الرقيم قوم آخرون غير أصحاب الكهف كانوا ثلاثة يطلبون الكلأ أو نحوه لأهلهم فأخذهم المطر فأووا إلى الكهف فانحطت صخرة وسدّت عليهم بابه فقال أحدهم : اذكروا ايكم عمل حسنة لعلّ الله يرحمنا ببركته فقال واحد : استعملت أجراء ذات يوم فجاء رجل منهم وسط النهار وعمل في بقيته مثل عملهم فأعطيته مثل أجرهم فغضب أحدهم وترك أجره فوضعته في جانب البيت فمرّ بي بقر فاشتريت فصيلة والفصيلة ولد الناقة إذا انفصل عن أمّه فبلغت ما شاء الله فرجع إليّ بعد حين شيخاً ضعيفاً لا أعرفه وقال : إنّ لي عندك حقاً وذكره حتى عرفته فدفعتها إليه جميعاً اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنا فانصدع عنهم الجبل حتى رأوا الضوء والصدع الشق والصداع وجع الرأس . وقال آخر : كان في فضل وأصاب الناس شدّة فجاءتني امرأة تطلب مني معروفاً فقلت : والله ما هو دون نفسك فأبت وعادت ثم رجعت ثلاثاً ثم ذكرت ذلك لزوجها فقال : أجيبي له وأعيني عيالك فأتت وسلمت إليّ نفسها فلما كشفتها وهممت بها ارتعدت فقلت لها : ما لك ؟ فقالت : أخاف الله تعالى : فقلت لها : خفتيه في الشدّة ولم أخفه في الرخاء فتركتها

وأعطيتها ملتمسها اللهمّ إن كنت فعلته لوجهك فافرج عنا فانصدع حتى تعارفوا . وقال الثالث : كان لي أبوان هرمان وكان لي غنم وكنت أطعمهما وأسقيهما ثم أرجع إلى غنمي فحبسني ذات يوم غيم فلم أرجع حتى أمسيت فأتيت أهلي وأخذت محلبي فحلبت فيه ومضيت إليهما فوجدتهما نائمين فشقّ عليّ أنّ أوقظهما فوقفت حابساً محلبي على يديّ حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما اللهمّ إن كنت فعلت ذلك لوجهك الكريم

(320/471)

فافرج عنا ففرج

الله عنهم فخرجوا وقد رفع ذلك النعمان بن بشير وقد قدّمنا سبب نزول قصة أصحاب الكهف عند قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ (الإسراء ،) .

وذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه القصة مشروحاً فقال : كان النضر بن الحرث من شياطين قريش ، وكان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس مجلساً ذكر فيه الله تعالى وحذر قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم ، وكان النضر يخلفه في مجلسه إذا قام وقال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه

فهلموا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه ثم يحدّثهم عن ملوك فارس ثم قال : إنّ قريشاً بعثوه وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما سلاهم عن محمد وصفته فإنهم أهل الكتاب الأوّل وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن أحوال محمد فقال لهم اليهود سلوه عن ثلاثة؛ عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل فإن حديثهم عجيب . وعن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها . وسلوه عن الروح وما هي فإن أخبركم فهو نبيّ وإلا فهو متقول ، فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمد وأخبراهم بما قالته اليهود ، فجاؤوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أخبركم بما سألتم عنه غداً" ، ولم يستثن فانصرفوا عنه فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمس عشرة ليلة لم ينزل عليه وحي وشق عليه ذلك ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله بسورة أهل الكهف وفيها معاتبة الله تعالى إياه على جراءته عليهم وفيها خبر أولئك الفتية وخبر الرجل الطوّاف ثم بدأ بالفتية فقال:

﴿ إذ ﴾ ، أي : واذكر إذ ﴿ أوى الفتية ﴾ وهم أصحاب الكهف المسؤول عنهم جميع فتى وهو الشاب الكامل والشباب أقبل إلى الحق وأهدى للسبيل من الشيوخ ﴿ إلى الكهف ﴾ خائفين على إيمانهم من قومهم الكفار واختلفوا في سبب مصيرهم إلى الكهف ، فقال محمد بن إسحاق بن يسار : مرج اهل الانجيل وكثرت فيهم الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكين بعبادة الله وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له ذقيانوس عبد الأصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه وكان ينزل قرى الروم فلا يترك في قرية نزلها أحد إلا فتنه عن دينه حتى يعبد الأصنام أو يقتله ثم نزل مدينة أهل الكهف وهي أفسوس فلما نزل بها كبر على أهل الإيمان فاستخفوا منه وهربوا في كل وجه واتخذ شرطاً من الكفار وأمرهم أن يتبعوهم في أماكنهم ويخرجوهم إليه فيخيروهم بين القتل وبين عبادة الأوثان والذبح للطواغيت فمنهم من يرغب في الحياة ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله تعالى فيقتل فلما رأى ذلك أهل الشدّة في الإيمان جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ويقطعون ثم جعل ما قطع من أجسامهم على سور المدينة من نواحيها وعلى كل باب من أبوابها حتى عظمت الفتنة فلما رأى ذلك الفتية حزنوا حزناً شديداً فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والدعاء والتسبيح وكانوا من أشراف المدينة ومن أشراف الروم وكانوا ثمانية نفر بكوا وتضرّعوا إلى الله تعالى وجعلوا يقولون ربنا اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وارفع عنهم هذا البلاء

حتى يعلنوا عبادتك فبينما هم على ذلك وقد دخلوا مصلى لهم أدركهم الشرط فوجدوهم سجوداً على وجوههم يبكون ويتضرعون إلى الله تعالى فقالوا لهم : ما خلفكم عن أمر الملك انطلقوا إليه ثم خرجوا فرفعوا أمرهم إلى دقيانوس فقالوا : نجمع الناس للذبح لآلهتك وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يستهزؤون بك ويعصون أمرك فلما سمع ذلك بعث إليهم فأتى بهم

(322/471)

تفيض

أعينهم من الدمع معفرة وجوههم في التراب فقال لهم:

ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التي تعبد في الأرض وتجعلوا أنفسكم بأسوة سراة أهل مدينتكم ؟ اختاروا إمّا إن تذبحوا لآلهتنا وإمّا أن أقتلكم فقال له كبيرهم : واسمه مكسلمينا إنّ لنا إلهاً ملء السموات والأرض عظمته لن ندعو من دونه إلهاً أبداً له الحمد والتكبير والتسبيح من أنفسنا خالصاً ابداً إياه نعبد وإياه نسأل النجاة والخير ، وأمّا الطواغيت فلن نعبدها أبداً ، اصنع ما بدا لك وقال أصحابه مثل ما قال ، فلما قالوا ذلك أمر الملك بنزع لباسهم ، وحلية كانت عليهم من الذهب والفضة ، وقال : سأفرغ لكم

وأنجز لكم ما وعدتكم من العقوبة ، وما يمنعي أن أعجل لكم ذلك إلا أني أراكم شباباً حديثة أسنانكم فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلاً تذكرون فيه وترجعون إلى عقولكم ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده وانطلق إلى مدينة أخرى قريبة منهم لبعض أموره فلما رأى الفتية خروجه بادروا قدومه وخافوا إذا قدم مدينتهم أن يذكرهم فائتمروا بينهم أن يأخذ كل واحد منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدّقوا منها ويتزوّدوا بما بقي ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة فمكثوا فيه ويعبدوا الله تعالى حتى إذا جاء دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما يشاء فلما قال ذلك بعضهم لبعض عمد كل فتى منهم إلى بيت أبيه فاخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقي معهم واتبعهم كلب كان لهم حتى إذا أتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه .

وقال كعب الأحبار : مرّوا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مراراً فقال لهم الكلب ما تريدون مني لا تخشوا جنايتي أنا أحب أحباب الله عز وجل فناموا حتى أحرسكم .

وقال ابن عباس : هربوا ليلاً من دقيانوس وكانوا سبعة ، فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعه كلبه فخرجوا من البلد إلى الكهف وهو قريب من البلد قال ابن اسحق فلبثوا

فيه ليس لهم عمل غير الصلاة و الصيام والتسبيح والتمجيد ابتغاء وجه الله تعالى وجعلوا نفقتهم إلى فتى منهم يقال له تمليخا فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سراً وكان من أجملهم وأجلدهم وكان إذا دخل المدينة يضع ثياباً كانت عليه حساناً ويأخذ ثياباً كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها ثم ياخذ وَرِقه وينطلق إلى المدينة فيشتري لهم طعاماً وشراباً ويتجسس لهم الخبر هل ذكروا أصحابه بشيء ثم يرجع إلى أصحابه فلبثوا في ذلك ما شاء الله أن يلبثوا ثم قدم دقيانوس المدينة وأمر عظماء أهلها أن يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الإيمان وكان تمليخا يشتري لأصحابه طعامهم فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل أخبرهم أنّ الجبار قد دخل المدينة وأنهم قد ذكروا والتمسوا من عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجوداً يدعون ويتضرعون ويتعوذون من الفتنة ثم إن تمليخا قال لهم : يا إخوتاه ارفعوا رؤوسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم ، فرفعوا رؤوسهم وأعينهم تفيض من الدمع فطعموا ذلك مع غروب الشمس ثم جعلوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضاً فبينما هم كذلك إذ ضرب الله على آذانهم في الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابهم ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤوسهم فلما كان الغد تفقدهم دقيانوس فالتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض عظمائه وعظماء المدينة لقد ساءني شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا ، لقد كانوا ظنوا أن بي غضباً عليهم لجهلهم ما جهلوا من أمري ما كنت لأجهل عليهم إن هم تابوا وعبدوا آلهتي .

فقال عظماء المدينة : ما أنت بحقيق أن ترحم قوماً فجرة مردة عصاة ، فقد كنت أجلت لهم أجلاً ولو شاؤوا لرجعوا في ذلك الأجل ولكنهم لم يتوبوا فلما قالوا ذلك غضب غضباً شديداً ثم أرسل إلى آبائهم فأتي بهم فسألهم وقال : أخبروني عن أبنائكم المردة الذين عصوني فقالوا له : أمّا نحن فلم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة قد ذهبوا بأموالنا وأهلكوها في أسواق المدينة ثم انطلقوا فارتقوا إلى جبل يدعى بنجلوس فلما قالوا ذلك خلا سبيلهم وجعل ما يدري ما يصنع بالفتية ، فألقى الله تعالى في قلبه أن يسدّ باب الكهف عليهم واراد الله تعالى أن يكرمهم بذلك ويجعلهم آية لأمة تستخلف من بعدهم وأن يبين لهم ﴿ أنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور ﴾ (الحج ،) ، قوله بنجلوس هكذا في النسخ والذي في حياة الحيوان منحلوس اه . فأمر دقيانوس بالكهف أن يسدّ عليهم وقال : دعوهم كما هم في الكهف يموتون جوعاً وعطشاً ويكون كهفهم الذي اختاروه قبراً لهم وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم ، وقد توفى الله أرواحهم وفاة النوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال ، ثم إنّ رجلين مؤمنين في بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما ائتمرا أن يكتبا شأن الفتية وخبرهم

في لوحين من رصاص ويجعلاهما في تابوت من نحاس ويجعلا التابوت في البنيان وقالا : لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قوماً مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من يفتح عليهم خبرهم حين يقرأ الكتاب ففعلا ذلك وبنيا عليه وبقي دقيانوس ما بقي ثم مات وقومه وقرون بعده كثيرة . وقد حكى الله تعالى عنهم أنهم لما أووا إلى الكهف ﴿ فقالوا ﴾ ، أي : عقب استقرارهم فيه ﴿ ربنا آتنا من لدنك ﴾ ، أي : من عندك ﴿ رحمة ﴾ توجب لنا المغفرة والرزق والأمن من عدوّك ﴿ وهيئ لنا من أمرنا ﴾ ، أي : من الأمر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار ﴿ رشداً ﴾ الرشد والرشد والرشاد نقيض الضلال وفي تفسير اللفظ وجهان

(325/471)

الأوّل أنّ

التقدير هيئ لنا أمراً ذا رشد ، أي : حتى نصير بسببه راشدين مهتدين . الثاني : اجعل أمرنا رشداً كله كقولك رأيت منك رشداً . ولما أجابهم سبحانه وتعالى عبر عن ذلك بقوله تعالى:

﴿ فضربنا ﴾ ، أي : عقب هذا القول وسببه ﴿ على آذانهم ﴾ حجاباً يمنع السماع ، أي

: أنما هم نومة لا تنبههم الأصوات الموقظة فحذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبة . ثم بين تعالى أنه إنما ضرب على آذانهم ﴿ في الكهف ﴾ ، أي : المعهود وهو ظرف مكان وقوله تعالى : ﴿ سنين ﴾ ظرف زمان وقوله تعالى : ﴿ عدداً ﴾ ، أي : ذوات عدد يحتمل التكثير والتقليل فإنّ مدّة لبثهم كبعض يوم عنده كقوله تعالى : ﴿ لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ (الأنفاق ،) . وقال الزجاج : إذا قل الشيء فهم مقدار عدده فلم يحتج إلى أن يعدّ وإذا كثر أحتاج إلى أن يعدّ ﴿ ثم بعثناهم ﴾ ، أي : أيقظناهم من ذلك النوم ﴿ لنعلم ﴾ ، أي : علم مشاهدة وقد سبق نظير هذه الآية في القرآن كثيراً منها ما سبق في سورة البقرة ﴿ إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ (البقرة ،)

. وفي آل عمران : ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ (آل عمران ،)

وقد نبهنا على ذلك في محله ﴿ أيّ الحزبين ﴾ ، أي : الفريقين المختلفين في مدّة لبثهم ﴿ أحصى لما لبثوا أمداً ﴾ واختلفوا في الحزبين المختلفين فقال عطاء عن ابن عباس : المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكاً بعد ملك وأصحاب الكهف . وقال مجاهد : الحزبان من الفتية أصحاب الكهف لما تيقظوا اختلفوا في أنهم كم لبثوا ويدل له قوله تعالى : ﴿ قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ (الكهف ،)

فالحزبان هما هذان وكان الذين ﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ هم الذين علموا أنّ لبثهم قد تطاول. وقال الفرّاء: إنّ طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا في مدّة لبثهم. تنبيه: أحصى فعل ماض، أي: أيهم ضبط أمر أوقات لبثهم وأمّا من جعله أفعل تفضيل فقال في "الكشاف": ليس بالوجه السديد وذلك أنّ بناءه من غير الثلاثي المجرّد ليس بقياس ونحو أعدى من الجرب وأفلس من ابن المذلق شاذ والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع فكيف به. ثم قال الله تعالى:

﴿ نحن ﴾، أي: بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة ﴿ نقص عليك ﴾ يا أشرف الخلق ﴿ نبأهم ﴾، أي: خبرهم العظيم قصاً ملتبساً ﴿ بالحق ﴾، أي: الصدق ﴿ إنهم فتية ﴾، أي: شبان ﴿ آمنوا بربهم ﴾، أي: المحسن إليهم الذي تفرد بخلقهم ورزقهم، ثم وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ وزدناهم ﴾ بعد أن آمنوا ﴿ هدى ﴾ بما قذفناه في قلوبهم من

المعارف ﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ ، أي : قويناها فصار ما فيها من القوى مجتمعاً غير مبدد فكانت حالهم في الجلوة حالهم في الخلوة . ﴿ إذ قاموا ﴾ ، أي : وقت قيامهم بين يدي الجبار دقيانوس من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام ﴿ فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ وذلك لأنه كان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت فثبت الله تعالى هؤلاء الفتية حتى عصوا ذلك الجبار وأقروا بربوبية الله تعالى وصرحوا بالبراءة من الشرك والأنداد بقولهم : ﴿ لن ندعو من دونه إلهاً ﴾ لأنّ ما سواه عاجز والله ﴿ لقد قلنا إذاً ﴾ ، أي : إذا دعونا من دونه غيره ﴿ شططاً ﴾ ، أي : قولاً ذا بعد عن الحق جداً . وقال مجاهد : كانوا أبناء عظماء مدينتهم فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد فقال رجل منهم هو أكبر القوم : إني لأجد في نفسي شيئاً ما أظن أنّ أحداً يجده قالوا : ما تجد ؟ قال : أجد في نفسي أنّ ربي رب السموات والأرض . قالوا : نحن كذلك في أنفسنا فقاموا جميعاً فقالوا : ﴿ ربنا رب السموات والأرض ﴾ . وقال عطاء : قالوا ذلك عند قيامهم من النوم . قال الرازي : وهو بعيد لأنّ الله تعالى استأنف قصتهم بقوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك ﴾ . وقال عبيد بن عمير : كان أصحاب الكهف فتياناً مطوّقين مسورين ذوي ذوائب ، وكان معهم كلب صيدهم فخرجوا في عيد لهم عظيم في زيّ وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التي يعبدونها وقد قذف الله تعالى في قلوب الفتية الإيمان ،

وكان أحدهم وزير الملك فآمنوا وأخفى كل واحد إيمانه فقالوا في أنفسهم : نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لا يصيبنا عقاب بجرمهم فخرج شاب

منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالساً وحده فرجا أن يكون على مثل أمره من غير أن يظهر ذلك ثم خرج آخر فخرجوا كلهم جميعاً فاجتمعوا فقال بعضهم لبعض : ما جمعكم وكل واحد يكتم صاحبه مخافة على نفسه ثم قالوا : ليخرج كل فتيين فيخلوا ثم يفشي كل واحد سرّه إلى صاحبه ففعلوا فإذا هم جميعاً على الإيمان ، وإذا بكهف في الجبل قريب منهم فقال بعضهم لبعض:

﴾

هؤلاء قومنا ﴾ وإن كانوا أسنّ منا وأقوى وأجل في الدنيا ﴿ اتخذوا من دونه آلهة ﴾ أشركوهم معه تعالى لشبهة واهية ﴿ لولا ﴾ ، أي : هلا ﴿ يأتون عليهم بسلطان ﴾ ، أي : دليل ﴿ بين ﴾ ، أي : ظاهر مثل ما نأتي نحن على تقرير معبودنا بالأدلة الظاهرة فتسبب عن عجزهم عن دليل أنهم أظلم الظالمين فلذلك قالوا : ﴿ فمن أظلم ﴾ ، أي : لا أحد

أظلم ﴿ممن افترى﴾ ، أي : تعمد ﴿على الله﴾ ، أي : الملك الأعظم ﴿كذباً﴾ بنسبة الشريك إليه تعالى . ثم قال بعض الفتية لبعض:

(329/471)

﴿وإذ﴾ ، أي : وحين ﴿اعتزلتموهم﴾ ، أي : قومكم ﴿وما يعبدون﴾ ، أي : واعتزلتم معبودهم وقولهم : ﴿إلا الله﴾ يجوز أن يكون استثناء منه متصلاً على ما روي أنهم كانوا يقرّون بالخالق ويشركون معه كما كان أهل مكة ، وأن يكون منقطعاً وقيل هو كلام معترض إخبار من الله تعالى عن الفتية بأنهم لم يعبدوا غير الله تعالى : ﴿فأووا إلى الكهف﴾ ، أي : الغار الذي في الجبل ﴿ينشر﴾ ، أي : يبسط ﴿لكم﴾ ويوسع عليكم ﴿ربكم﴾ ، أي : المحسن إليكم ﴿من رحمته﴾ ما يكفيكم به المهم من أمركم في الدارين ﴿ويهيىء لكم من أمركم﴾ ، أي : الذي من شأنه أن يهمكم ﴿مرفقاً﴾ ، أي : ما ترتفقون به وتنتفعون وجزمهم بذلك لخلوص نيتهم وقوّة وثوقهم بفضل الله . وقرأ نافع وابن عامر بفتح الميم وكسر الفاء والباقون بكسر الميم وفتح الفاء . قال الفراء : وهما لغتان واشتقاقهما من الارتفاق ، وكان الكسائي لا يذكر في مرفق الإنسان الذي في اليد إلا كسر الميم وفتح الفاء ،

والفراء يجيزه في الأمر وفي اليد وقيل هما لغتان إلا أنّ الفتح أقيس والكسر أكثر والخطاب في قوله تعالى:

﴿ وترى الشمس ﴾ للنبيّ صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد وليس المراد أنّ من خوطب بهذا يرى هذا المعنى ولكن العادة في المخاطبة تكون على هذا النحو ومعناه أنك لو رأيته على هذه الصورة ﴿ إذا طلعت تزاور ﴾ ، أي : تميل ﴿ عن كهفهم ذات اليمين ﴾ ، أي : نا حيته ﴿ وإذا غربت تقرضهم ﴾ ، أي : تعدل في سيرها عنهم ﴿ ذات الشمال ﴾ ، أي : فلا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم لأنّ الله تعالى زواها عنهم . وقيل إنّ باب ذلك الكهف كان مفتوحاً إلى جانب الشمال فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف وإذا غربت كانت على شماله . وقرأ السوسي بإمالة ألف ترى المنقلبة بعد الراء في الأصل بخلاف عنه ، والباقون بالفتح في الوصل وهم على أصولهم في الوقف وأبو عمرو وحمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وورش بين اللفظين ، والباقون بالفتح ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وتزاور بتشديد الزاي وتخفيف الراء مضمومة ، وابن عامر بسكون الزاي ولا ألف بعدها وتشديد

الواو على وزن تحمرّ ، والباقون وهم عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الزاي والواو ولا خلاف في ضم الراء .

(331/471)

ولما بين أنه تعالى حفظهم من حرّ الشمس بيّن أنه أنعشهم بروح الهواء وألطفهم بسعة الموضع في فضاء الغار فقال تعالى : ﴿ وهم في فجوة منه ﴾ ، أي : في وسط الكهف ومتسعه ينالهم برد الريح ونسيمها ، ثم بيّن تعالى نتيجة هذا الأمر الغريب في النبأ العجيب بقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ ، أي : المذكور العظيم ﴿ من آيات الله ﴾ ، أي : دلائل قدرته ﴿ من يهد الله ﴾ ، أي : الذي له الملك كله يخلق هذه الهداية في قلبه كأصحاب الكهف ﴿ فهو المهتد ﴾ في ، أي : زمان كان فلن تجد له مضلاً مغويا ففي ذلك إشارة إلى أنّ أهل الكهف جاهدوا في الله وأسلموا له وجوههم فلطف بهم وأعانهم وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة ، وأنّ كل من سلك طريق المهتدين الراشدين فهو الذي أصاب الفلاح واهتدى إلى السعادة ، وقرأ نافع وأبو عمرو بزيادة ياء بعد الدال في الوصل دون الوقف والباقون بحذفها وقفاً ووصلاً . ﴿ ومن يضلل ﴾ ، أي : يضله الله تعالى ولم يرشده كدقيانوس وأصحابه ﴿ فلن تجد له ولياً ﴾ ، أي : معيناً ﴿ مرشداً ﴾ ، أي :

يرشده للحق ، ثم إنه تعالى عطف على ما مضى بقية أمرهم بقوله تعالى:

﴿ وتحسبهم ﴾ ، أي : لو رأيتهم أيها المخاطب ﴿ أيقاظاً ﴾ ، أي : منتبهين لأنّ أعينهم مفتحة للهواء لأنه يكون أبقى لها ، جمع يقظ بكسر القاف ﴿ وهم رقود ﴾ ، أي : نيام جمع راقد قال الزجاج : لكثرة تقلبهم يظنّ أنهم أيقاظ والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ ونقلبهم ﴾ ، أي : في ذلك حال نومهم تقلباً كثيراً بحسب ما ينفعهم كما يكون النائم ﴿ ذات ﴾ ، أي : في الجهة التي هي صاحبة ﴿ اليمين ﴾ منهم ﴿ وذات الشمال ﴾ لينال روح النسيم جميع أبدانهم ولا يتأثر ما يلي الأرض منها بطول المكث .

تنبيه : اختلف في مقدار مدّة التقليب ، فعن أبي هريرة أنّ لهم في كل عام تقليبتين . وعن مجاهد يمكثون رقوداً على أيمانهم تسع سنين ثم ينقلبون على شمائلهم فيمكثون رقوداً تسع سنين وقيل لهم تقليبة واحدة يوم عاشوراء . قال الرازي : وهذه التقديرات لا سبيل للعقل إليها ولفظ القرآن لا يدل عليها وما جاء فيه خبر صحيح فكيف يعرف انتهى . ولهذا قلت بحسب ما ينفعهم . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فائدة تقلبهم لئلا تأكل الأرض لحومهم ولا ثيابهم اه . قال الرازي : وهذا أعجب من ذلك لأنه تعالى لما قدر على أن يمسك

حياتهم ثلاثمائة سنة وأكثر أفلا يقدر على حفظ أجسادهم من غير تقليب اه . وهذا ليس بعجيب لأنّ القدرة صالحة لذلك وأكثر بحسب العادة ، وأمّا إمساك أرواحهم فهو خرق للعادة فلا يقاس عليه . ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه ﴾ ، أي : يديه ، أي : ملقيهما على الأرض مبسوطتين غير مقبوضتين ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "اعتدلوا في السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب" .

وقال المفسرون : كان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهما . تنبيه : باسط اسم فاعل ماض وإنما عمل على حكاية الحال والكسائيّ يعمله ويستشهد بالآية الكريمة وأكثر المفسرين على أنّ الكلب من جنس الكلاب . وروي عن ابن جريج أنه كان أسداً ويسمى الأسد كلباً فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا على عتبة بن أبي لهب فقال : "اللهم سلط عليه كلباً من كلابك فافترسه الأسد" . وقال ابن عباس : كان كلباً أغزّ واسمه قطمير وعن عليّ اسمه ريان واختلف في قوله تعالى : ﴿ بالوصيد ﴾ فقال ابن عباس : هو باب الكهف وقيل العتبة . قال السدي : والكهف لا يكون له باب ولا عتبة ، وإنما أراد موضع الباب والعتبة وقال الزجاج : الوصيد فناء البيت وفناء الدار ، قال الشاعر :

*بأرض فضاء لا يسدّ وصيدها

** عليّ ومعروفي بها غير منكر

وقال مجاهد والضحاك: الوصيد الكهف. ﴿ لو اطلعت عليهم ﴾ بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين، أي: وهم على تلك الحالة ﴿ لوليت منهم ﴾ حال وقوع بصرك عليهم ﴿ فراراً ﴾ لما البسهم الله تعالى من الهيبة وجعل لهم من الجلالة تدبيراً منه لما أراد منهم حتى لا يصل إليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله. ﴿ ولملئت منهم رعباً ﴾، أي: فزعاً، واختلف في ذلك الرعب كان لماذا؟ فقال الكلبيّ: لأنّ أعينهم مفتتحة كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم وهم نيام، وقيل من وحشة الكلام وقيل لكثرة شعورهم وطول أظفارهم وتقلبهم من غير حس كالمستيقظ وقيل: إنّ الله تعالى منعهم بالرعب حتى لا يراهم أحد.

وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال ابن عباس قد منع ذلك من هو خير منك ﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ﴾، فبعث معاوية ناساً فقال: اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأخرجتهم.

وقرأ نافع وابن كثير بتشديد اللام بعد الميم، والباقون بتخفيفها والسوسي بإبدال الهمزة ياء على أصله وقفاً ووصلاً وحمزة في الوقف فقط. وقرأ ابن عامر والكسائي رعباً بضم العين والباقون بسكونها.

﴿ وكذلك ﴾ ، أي : كما فعلنا بهم ما ذكرنا آية ﴿ بعثناهم ﴾ ، أي : أيقظناهم آية ﴿ ليتساءلوا بينهم ﴾ ، أي : ليسأل بعضهم بعضاً عن أحوالهم في نومهم ويقظتهم فيتعرّفوا حالهم وما صنع الله تعالى بهم فيزدادوا يقيناً على كمال قدرة الله تعالى وليستبصروا به أمر البعث ويشكروا ما أنعم الله به عليهم . ﴿ قال قائل منهم ﴾ مستفهماً من إخوانه : ﴿ كم لبثتم ﴾ نائمين في ذا الكهف من ليلة أو يوم ؟ وهذا يدل على أنّ هذا القائل استشعر طول لبثهم مما رأى من هيئتهم أو بغير ذلك من الأمارات ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ لأنهم دخلوا الكهف طلوع الشمس وبعثوا آخر النهار فلما رأوا الشمس باقية قالوا : أو بعض يوم فلما نظروا إلى طول أظفارهم وشعورهم ﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ فأحالوا العلم على الله تعالى قال ابن عباس القائل ذلك هو رئيسهم تمليخا رد علم ذلك إلى الله تعالى ، وعلم أن مثل هذا التغيير لا يحصل إلا في الأيام الطويلة ، وقرأ نافع وابن كثير وعاصم بإظهار الثاء المثلثة عند المثناة والباقون بالإدغام ، ثم لما علموا أنّ الأمر ملتبس عليهم لا طريق لهم إلى علمه أخذوا فيما يهمهم وقالوا : ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه ﴾ ، أي : بفضتكم ، وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة بسكون الراء والباقون بكسرها والورق اسم للفضة سواء

كانت مضروبة أم لا ويدل عليه ما روي أن غرفجة اتخذ أنفاً من ورق ويقال لها الرقة وفي الحديث "في الرقة ربع العشر" . ﴿ إلى المدينة ﴾ ، أي : التي خرجتم منها وهي مدينة طرسوس وهذه الآية تدل على أنّ السعي في إمساك الزاد أمر مهمّ مشروع وأنه لا يبطل التوكل على الله تعالى إذ حقيقة التوكل على الله تعالى تهيئة الأسباب واعتقاد أن لا مسبب للأسباب إلا الله تعالى ، فحمل النفقة وما يصلح المسافر هو رأي المتوكلين على الله دون المتوكلين على الإنفاقات على ما في أوعية القوم من النفقات . ومنه قول عائشة رضي الله تعالى عنها لمن سألها عن محرم يشدّ عليه هميانه أوثق عليك

نفقتك .

وما حكي عن بعض صعاليك العلماء أنه كان شديد الحب إلى أن يرزق حج بيت الله الحرام وعلم منه ذلك فكانت مياسير أهل بلده كلما عزم قوم على حج أتوه أن يحجوا به وألحوا عليه فيعتذر إليهم ويحمد إليهم بذلهم فإذا انفضوا عنه قال لمن عنده ما لهذا السفر إلا شيئان شدّ الهميان والتوكل على الرحمن ﴿ فلينظر أيها أزكى طعاماً ﴾ قال ابن عباس : يريد ما حل من الذبائح لأن عامة أهل بلدهم كانوا مجوساً وفيهم قوم يخفون إيمانهم وقال

مجاهد : كان ملكهم ظالماً فقولهم أيها أزكى طعاماً ، أي : أيها أبعد عن الغصب وكل سبب حرام ، وقيل : أيها أطيب وألذ وقيل أيها أرخص . قال الزجاج : قولهم أيها رفع بالابتداء وأزكى خبره وطعاماً تمييز ولا بدّ هنا من حذف ، أي : أيّ أهلها أزكى ، أي : أحل ، وقيل لا حذف والضمير عائد على الأطعمة المدلول عليها من السياق . ﴿ فليأتكم ﴾ ذلك الأحد ﴿ برزق منه ﴾ لنأكل ﴿ وليتلطف ﴾ ، أي : وليكن في ستر وكتمان في دخول المدينة وشراء الأطعمة حتى لا يعرف ﴿ ولا يشعرنّ ﴾ ، أي : ولا يخبرنّ ﴿ بكم أحداً ﴾ من أهل المدينة .

﴿ إنهم ﴾ ، أي : أهل المدينة ﴿ إن يظهروا ﴾ ، أي : يطلعوا عالين ﴿ عليكم يرجموكم ﴾ ، أي : يقتلوكم والرجم بمعنى القتل كثير في القرآن كقوله تعالى : ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ (هود ،)

وقوله : ﴿ لأرجمنك ﴾ (مريم ،)

وقوله : ﴿ أن ترجمون ﴾ (الدخان ،)

. وقال الزجاج: ، أي : يقتلوكم بالرجم والرجم أخبث أنواع القتل . ﴿ أو يعيدوكم في ملتهم ﴾ إن لنتم لهم ﴿ ولن تفلحوا إذاً ﴾ ، أي : إن رجعتم إلى ملتهم ﴿ أبداً ﴾ بل تكونوا خاسرين . قال بعض العلماء : ولا خوف على المؤمن الفارّ بدينه أعظم من هذين الأمرين أحدهما ما فيه هلاك النفس وهو الرجم الذي هو أخبث أنواع القتل والآخر هلاك الدين .

فإن قيل : أليس أنهم لو أكرهوا على الكفر حتى أظهروا الكفر لم يكن عليهم مضرة فكيف قالوا ﴿ ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾ أجيب : بأنهم خافوا أنهم لو بقوا على الكفر مظهرين له فقد يميل بهم ذلك إلى الكفر الحقيقي فكان خوفهم بسبب هذا الاحتمال . فإن قيل : ما النكتة في العدول عن واحدكم إلى أحدكم وكل ذلك دال على الوحدة ؟

أجيب : بأنّ النكتة فيه أنّ العرب إذا قالوا أحد القوم أرادوا به فرداً منهم وإذا قالوا واحد القوم أرادوا رئيسهم والمراد في القصة ، أي : واحد كان والقرآن الكريم أنزل بلغتهم فراعى ما راعوا .

﴿ وَكَذَالِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾

﴿ وكذلك ﴾ ، أي : ومثل ما فعلنا بهم ذلك الأمر العظيم من الربط على قلوبهم والستر والحماية من الطالبين لهم والحفظ لأجسادهم على ممرّ الزمان وتعاقب الحدثان وغير ذلك ﴿ أعثرنا ﴾ ، أي : أطلعنا غيرهم ﴿ عليهم ﴾ يقال عثرت على كذا علمته وأصله أنّ من كان غافلاً عن شيء فعثر به نظر إليه فعرفه فكان العثر سبباً لحصول العلم فأطلق السبب على السبب بقوله تعالى : ﴿ ليعلموا ﴾ متعلق بأعثرنا والضمير قيل يعود على مفعول أعثرنا المحذوف تقديره أعثرنا الناس وقيل يعود إلى أهل الكهف وهذا هو الظاهر ﴿ أنّ وعد الله ﴾ الذي له صفات الكمال بالبعث للروح والجثة معاً ﴿ حق ﴾ لأنّ قيامهم بعد نومهم يتقلبون نيفاً وثلاثمائة سنة مثل من مات ثم بعث .

قال بعض العارفين : علامة اليقظة بعد النوم علامة البعث بعد الموت .

ولما كان من الحق ما قد يداخله شك قال تعالى : ﴿ وأنّ ﴾ ، أي : وليعلموا أنّ ﴿ الساعة ﴾ ، أي : آتية ﴿ لا ريب ﴾ ، أي : لا شك ﴿ فيها ﴾ .

تنبيه : اختلف في السبب الذي عرف الناس واقعة أصحاب الكهف ، فقال محمد بن إسحاق : إنّ ملك تلك البلاد رجل صالح يقال له تندوسيس ، فلما ملك بقي في ملكه ثمانية وستين سنة فتحزب الناس في مملكته فكانوا أحزاباً ؛ منهم من يؤمن بالله ويعلم أنّ الساعة حق ، ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح فبكى وتضرّع إلى الله تعالى وحزن حزناً شديداً لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق ويقولون : لا حياة إلا الدنيا وإنما تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد ، وجعل الملك يرسل إلى من يظن فيهم خيراً وأنهم أئمة في الخلق فلم يقبلوا منه ، وجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا يخرجون الناس عن الحق وملة الحواريين ، فلما رأى ذلك الملك دخل بيته وأغلق بابه عليه ولبس مسحاً وجعل تحته رماداً ، فجلس عليه ودأب ليله ونهاره زماناً يتضرّع إلى الله تعالى ويبكي ، أي : رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم ، قوله يقال له تندوسيس الذي في حياة الحيوان يقال تاودوسيوس فليحرّر اه .

ثم إنّ الله تعالى الذي يكره هلكة عباده أراد أن يظهر على الفتية أصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أنّ الساعة آتية لا ريب فيها ، ويستجيب

لعبده تندوسيس ويتم نعمته عليه ، وأن يجمع من كان تبدّد من المؤمنين وألقى الله في نفس رجل من تلك البلد الذي فيه الكهف أن يهدم ذلك البنيان الذي على فم الكهف ، فيبني به حظيرة لغنمه فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان تلك الحظيرة حتى إذا نزعا ما على فم الكهف وفتحا باب الكهف أذن الله تعالى ذو القدرة والسلطان محيي الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهري الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون لها إذا أصبحوا من ليلتهم ثم قاموا إلى الصلاة فصلوا كالذي كانوا يفعلون لا يرى في وجوههم ولا في ألوانهم شيء يكرهونه كهيئتم حين رقدوا وهم يرون أنّ ملكهم دقيانوس في طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم ائتنا بما قال الناس في شأننا عشية أمس عند الجبار وهم يظنون أنهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون وقد تخيل لهم أنهم قد ناموا أطول ما كانوا ينامون حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض كم لبثتم نياماً ، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم . قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، وكل ذلك في أنفسهم يسير فقال لهم تمليخا : ألتمستم بالمدينة وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم فتذبحون للطواغيت أو يقتلكم فما شاء الله بعد ذلك فعل فقال لهم مسكلمينا : يا إخوتاه اعلموا أنكم ملاقو الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم عدوّ الله ثم قالوا لتمليخا انطلق إلى المدينة فتسمع ما يقال لنا بها وما الذي يذكر عند دقيانوس وتلطف ولا تشعرنّ بك أحداً وابتع لنا طعاماً وائتنا به وزدنا على الطعام الذي جئتنا به

فقد أصبحنا جياعاً ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التي كان يتنكر فيها وأخذ ورقاً من نفقتهم التي كانت

(340/471)

معهم

التي ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع فانطلق تمليخا خارجاً فلما مر بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مرّ ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفياً يصدّ عن الطريق متخوّفاً أن يراه أحد من أهلها فيعرفه ولا يشعر أن دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلاثمئة سنة فلما أتى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة تكون لأهل الإيمان إذا كان أمر الإيمان ظاهراً فلما رأى عجب وجعل ينظر إليها مستخفياً وينظر يميناً وشمالاً ثم ترك الباب وتحوّل لباب آخر من أبوابها فرأى مثل ذلك ، فجعل يخيل إليه أن المدينة ليست بالتي كان يعرفها ورأى ناساً كثيراً محدثين لم يكن رآهم قبل ذلك فجعل يمشي ويتعجب ويخيل إليه أنه حيران ثم رجع إلى الباب الذي أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ، ويقول:

(341/471)

يا ليت شعري ما هذا أمّا عشية أمس فكان المسلمون يخبؤون هذه العلامة ويستخفون بها ، وأما اليوم فإنها ظاهرة لعلي حالم ثم يرى أنه ليس بنائم فأخذ بكسائه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة ، فجعل يمشي بين ظهري سوقها فيسمع ناساً يحلفون باسم عيسى ابن مريم فزاده فرقاً ورأى أنه حيران فقام مسنداً ظهره إلى جدار من جدران المدينة ويقول في نفسه : والله ما أدري ما هذا عشية أمس فليس على وجه الأرض إنسان يذكر عيسى ابن مريم إلا قتل ، وأمّا اليوم فأسمع كل إنسان يذكر عيسى ولا يخاف ثم قال في نفسه : لعل هذه ليست المدينة التي أعرف ، ووالله ما أعلم مدينة بقرب مدينتنا فقام كالحيران ثم لقي فتى فقال له : ما اسم هذه المدينة يا فتى ؟ فقال : اسمها أفسوس . فقال في نفسه : لعل بي مساً أو أمراً أذهب عقلي والله يحق لي أن أسرع الخروج منها قبل أن أخزى فيها أو يصيبني شرّ فأهلك ثم أنه أفاق فقال : والله لو عجلت الخروج من هذه المدينة قبل أن يفطن بي لكان أكيس فدنا من الذين يبيعون الطعام فأخرج الورق التي كانت معه فأعطاها رجلاً منهم فقال : بعني بهذا الورق طعاماً فأخذها الرجل فنظر إلى ضرب الورق ونقشها فعجب منها ثم طرحها إلى رجل من أصحابه فنظر إليها ثم إلى آخر ، ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل ويتعجبون منها ، ثم جعلوا يتشاورون بينهم ويقول بعضهم لبعض:

إنّ هذا أصاب كنزاً مخبأً في الأرض منذ زمان ودهر طويل فلما رآهم تمليخا يتشاورون من

أجله فرق فرقاً شديداً ، وجعل يرتعد ويظنّ أنهم فطنوا به وعرفوه وأنهم إنما يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم دقيانوس ، وجعل أناس آخرون يأتونه فيتعرّفونه فقال لهم : وهو شديد الفرق أفضلوا عليّ قد أخذتم ورقي فأمسكوها ، وأمّا طعامكم فليس لي حاجة به .

(342/471)

فقالوا : من أنت يا فتى ؟ وما شأنك ؟ والله لقد وجدت كنزاً من كنوز الأوّلين وأنت تريد أن تخفيه انطلق معنا وأرنا وشاركنا فيه نخف عليك ما وجدت وإنك إن لم تفعل نأت بك السلطان فنسلمك إليه فيقتلك ، فلما سمع قولهم قال : ما وجدت شيئاً وقال قد وقعت في كل شيء أحذر منه قالوا : يا فتى إنك والله لا تستطيع أن تكتم ما وجدت فجعل تمليخا لا يدري ما يقول لهم وخاف حتى إنه لم يردّ إليهم جواباً ، فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه وطرحوه في عنقه وجعلوا يقودونه في سكك المدينة حتى سمع من فيها فقيل أخذ رجل عنده كنز واجتمع عليه أهل المدينة صغيرهم وكبيرهم فجعلوا ينظرون إليه ويقولون : والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأيناه قط ، وما نعرفه فجعل تمليخا ما يدري ما يقول لهم ، فلما اجتمع عليه أهل المدينة وكان متيقناً أنّ أباه وإخوته في المدينة وأنه من عظماء أهلها وأنهم سيأتونه إذا سمعوا به ، فبينما هو قائم كالحيران ينظر متى يأتيه بعض أهله

فيخلصه من بين أيديهم إذ اختطفوه وانطلقوا به إلى رئيسي المدينة ومد بريها اللذين يد بران أمرها وهما رجلان صالحان اسم أحدهما أريوس واسم الآخر أسطيوس ، فلما انطلقوا به إليهما ظنّ تمليخا أنه ينطلق به إلى دقيانوس الجبار فجعل يلتفت يميناً وشمالاً وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون وجعل تمليخا يبكي ويرفع رأسه إلى السماء .

وقال : اللهمّ إله السماء وإله الأرض أفرغ اليوم عليّ صبراً وأولج معي روحاً منك تؤيدني بها عند هذا الجبار وجعل يقول في نفسه : فرّق ما بيني وبين إخوتي يا ليتهم يعلمون ما لقيت ويا ليتهم يأتوني فنقوم جميعاً بين يدي هذا الجبار فإنا كنا توافقنا على الإيمان بالله سبحانه وتعالى وأنّ لا نشرك به شيئاً ولا نفترق في حياة ولا موت ، فلما انتهى به إلى الرجلين الصالحين ورأى أنه لم يذهب به إلى دقيانوس أفاق وسكن عنه البكاء فأخذ أريوس وأسطيوس الورق فنظرا إليها وعجبا منها ثم قال أحدهما : أين الكنز الذي وجدت يا فتى ؟ فقال تمليخا : ما وجدت كنزاً ولكن هذا ورق أبائي ونقش المدينة وضربها ولكن والله ما أدري ما شأني وما أقول لكم فقال أحدهما : ممن أنت ؟ فقال تمليخا : أمّا أنا فكنت أرى أني من أهل هذه المدينة قالوا : فمن أبوك ؟ ومن يعرفك بها ؟ فأنبأهم باسم

أبيه فلم يجدوا أحداً يعرفه ولا أباه فقال له : أحدهما أنت رجل كذاب لا تأتينا بالحق فلم يدر تمليخا ما يقول لهم غير أنه نكس بصره إلى الأرض ، فقال بعض من حوله : هذا رجل مجنون . وقال بعضهم : ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمداً حتى ينفلت منكم .

فقال له أحدهما ونظر إليه نظراً شديداً : أتظنّ انا نرسلك ونصدّقك بأن هذا مال أبيك ونقش هذه الورق وضربها أكثر من ثلاثمئة سنة ، وأنت غلام شاب وتظنّ أنك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ وشمط كما ترى وحولك سراة هذه المدنية وولاة أمرها وخزائن هذه البلدة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار وإني لأظنني سآمر بك فتعذب عذاباً شديداً ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدته ، فلما قال ذلك قال لهم تمليخا : أنبئوني عن شيء أسألكم عنه فإن فعلتم صدّقتكم عما عندي فقالوا : سل لا نكتمك شيئاً .

قال : ما فعل الملك دقيانوس ؟ قالوا : ليس نعرف اليوم على وجه الأرض ملكاً يسمى دقيانوس ولم يكن إلا ملكاً هلك منذ زمان ودهر طويل ، وهلكت بعده قرون كثيرة . فقال تمليخا : إني إذا لحيران وما هو بمصدّقي أحد من الناس بما أقول لقد كنا فتية وإن الملك

أكرهنا على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فنمنا فلما انتبهنا خرجت لأشتري طعاماً وأتجسس الأخبار فإذا أنا كما ترون فانطلقوا معي إلى الكهف الذي في جبل بنجلوس أريكم أصحابي فلما سمع أريوس ما يقول تمليخا قال : يا قوم لعلّ هذه آية من آيات الله تعالى جعلها الله تعالى لكم على يد هذا الغلام فانطلقوا بنا معه ليرينا أصحابه فانطلق معه أريوس وأسطيوس ومعهما جميع أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا إليهم فلما رأى الفتية أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذي كان يأتي فيه فظنوا أنه قد أخذ وذهب به إلى ملكهم دقيانوس فبينما هم يظنون ذلك ويتحققونه إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل مصعدة عندهم فظنوا أنهم رسل الجبار دقيانوس بعث إليهم ليأتوا بهم فقاموا إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضاً .

وقالوا : انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فإنه الآن بين يدي الجبار وهو ينتظرنا حتى نأتيه فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس على هذه الحالة إذا هم باريوس وأصحابه وقوف على باب الكهف فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكي فلما رأوه يبكي بكوا معه ثم سألوه عن خبره

فقص عليهم الخبر كله فعرفوا أنهم كانوا نياماً بأمر الله تعالى ذلك الزمن الطويل ، وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقاً للبعث ويعلم الناس أنّ الساعة آتية لا ريب فيها ، ثم دخل على أثر تمليخا أريوس فرأى تابوتاً من نحاس مختوماً بخاتم من فضة فقام بباب الكهف ثم دعا رجالاً من عظماء أهل المدينة ففتح التابوت عندهم فوجد فيه لوحين من رصاص مكتوب فيهما مكسلمينا ومخشلمينا وتمليخا ومطرونس وكشطونس ويبرونس وبيطونس كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف فسدّ عليهم بالحجارة وإنا كتبنا أسماءهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم إن عثر عليهم فلما قرؤوه عجبوا وحمدوا الله تعالى الذي أراهم آية البعث فيهم ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله تعالى وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوساً مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخرّ أريوس وأصحابه سجوداً وحمدوا الله تعالى الذي أراهم آية من آياته ، ثم كلم بعضهم بعضاً وأنبأهم الفتية عن الذي لقوه من ملكهم دقيانوس ثم إنّ أريوس وأصحابه بعثوا بريداً إلى ملكهم الصالح تندوسيس أن عجل لعلك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها الله تعالى على ملكك وجعلها آية للعالمين ليكون لهم نوراً وضياء وتصديقاً للبعث ، فاعجل إلى فتية بعثهم الله تعالى وكان قد توفاهم منذ أكثر من ثلاثمئة سنة ، فلما أتى الملك الخبر قام ورجع إليه عقله وذهب همه ، فقال : أحمد الله ربّ

السموات والأرض وأعبدك وأسبح لك تطوّلت عليّ ورحمتني فلم تطفئ النور الذي جعلته لآبائي وللعبد الصالح قسطيطينوس الملك فلما نبئ به أهل المدينة ركبوا

إليه وساروا معه حتى أتوا مدينة أفسوس فتلقاهم أهل المدينة وساروا معه نحو الكهف فلما صعد الجبل ورأى الفتية تندوسيس فرحوا به وخرّوا سجداً على وجوههم وقام تندوسيس قدّامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبحون الله تعالى ويحمدونه ثم قالوا له:

نستودعك الله السلام عليك ورحمة الله وبركاته وحفظك وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الإنس والجنّ ، فبينما الملك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أنفسهم وقام الملك تندوسيس إليهم فجعل ثيابه عليهم ، وأمر أن يجعل كل رجل منهم في تابوت من ذهب فلما أمسى ونام أتوه في المنام وقالوا له إنا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكن خلقنا من تراب وإلى التراب نصير فاتركنا كما كنا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى منه فأمر الملك حينئذٍ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله تعالى حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد على أن يدخل عليهم ، وقيل إنّ تمليخا لما حمل إلى الملك الصالح قال

له الملك : من أنت ؟

قال : أنا رجل من أهل هذه المدينة وذكر أنه خرج أمس أو منذ أيام وذكر منزله وأقواماً لم يعرفهم أحد وكان الملك قد سمع أنّ فتية فقدوا في الزمان الأوّل وأن أسماؤهم مكتوبة على لوح في خزانته فدعا باللوح فنظر في أسمائهم فإذا اسمه مكتوب في ذكر أسماء الاخرين فقال تمليخا : هم أصحابي فلما سمع الملك ذلك ركب هو ومن معه من القوم فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا : دعوني حتى أدخل على أصحابي وأبشرهم فإنهم إن رأوكم معي أرعبتموهم فدخل فبشرهم فقضبت روحه وأرواحهم وأغمي على الملك وأصحابه أثرهم فلم يهتدوا عليهم .

ثم وقع التنازع في أمرهم بين أهل المدينة كما قال تعالى : ﴿ إذ يتنازعون ﴾ ، أي : أهل المدينة ﴿ بينهم أمرهم ﴾ ، أي : أمر الفتية في البناء حولهم ﴿ فقالوا ﴾ ، أي : الكفار ﴿ ابنوا عليهم ﴾ ، أي : حولهم ﴿ بنياناً ﴾ يسترهم فإنهم كانوا على ديننا وقوله تعالى : ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾ يجوز أن يكون من كلام الله تعالى وأن يكون من كلام المتنازعين فيهم ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم ﴾ ، أي : أمر الفتية وهم المؤمنون ﴿ لنتخذن عليهم ﴾ ،

أي : حولهم ﴿ مسجداً ﴾ يصلى فيه وفعل ذلك على باب الكهف ، وقيل : إنّ بعضهم قال : الأولى أن نسدّ باب الكهف عليهم لئلا يدخل أحد عليهم ولا يقف على أحوالهم إنسان . وقال الآخرون : بل الأولى أن نبني على باب الكهف مسجداً وهذا القول يدل على أنّ أولئك الأقوام كانوا عارفين بالله ومعترفين بالعبادة والصلاة ، وقيل : تنازعوا في مقدار مكثهم وقيل في عددهم وأسمائهم . تنبيه : بنياناً يجوز أن يكون مفعولاً به جمع بنيانة وأن يكون مصدراً . ولما ذكر أصحاب الكهف عند النبيّ صلى الله عليه وسلم وقع الاختلاف في عددهم كما قال تعالى:

أي : الخائضون في قصتهم من أهل الكتاب والمؤمنين فقال بعض أهل الكتاب : ﴿ ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ ، أي : هم ثلاثة رجال ورابعهم كلبهم بانضمامه إليهم ﴿ ويقولون ﴾ ، أي : بعضهم ﴿ خمسة سادسهم كلبهم ﴾ فهذان القولان لنصارى نجران وقيل الأوّل قول اليهود والثاني قول النصارى . فإن قيل : لم جاءت سين الاستقبال في الأوّل دون الأخيرين ؟

أجيب : بانّ في ذلك وجهين أن تدخل الأخيرين في حكم السين كما تقول قد أكرم وأنعم تريد معنى التوقع في الفعلين وأن تريد بيفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له . ولما كان قولهم

ذلك بغير علم كان ﴿ رجماً بالغيب ﴾ ، أي : ظناً في الغيبة عنهم فهو راجع إلى القولين معاً ونصب على المفعول له ، أي : لظنهم ذلك ﴿ ويقولون ﴾ ، أي : المؤمنون ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ قال أكثر المفسرين : هذا الأخير هو الحق ويدل عليه وجوه الأوّل أنه تعالى لما حكى قوله ﴿ ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ قال بعده : ﴿ قل ربي أعلم بعدّتهم ما يعلمهم إلا قليل ﴾ وأتبع القولين الأوّلين بقوله تعالى : ﴿ رجماً بالغيب ﴾ وتخصيص الشيء بالوصف يدل على أنّ الحال في الباقي بخلافه أن يكون المخصوص بالظنّ الباطل هو القولان الأوّلان ، وأن يكون القول الثالث مخالفاً لهما في كونه رجماً بالغيب . الوجه الثاني : أنّ الواو في قوله تعالى : ﴿ وثامنهم ﴾ هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالاً من المعرفة في نحو قولك جاءني رجل ومعه آخر توكيد للصوق الصفة بالموصوف ، والدلالة على أنّ اتصافه بها أمر ثابت مستقرّ فكانت هذه الواو دالة على أنّ الذين كانوا في الكهف كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، وقول محمد بن إسحاق : إنهم كانوا ثمانية مردود فكأنّ الله تعالى حكى اختلافهم وتم الكلام عند قوله : ﴿ ويقولون سبعة ﴾ ثم حقق هذا القول بقوله تعالى : ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ والثامن لا يكون إلا بعد السبع وهذه الواو يسمونها واو الثمانية لأنّ العرب تعد فتقول واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة

وثمانية لأنّ العقد كان عندهم سبعة كما هو اليوم عندنا عشرة ونظير هذه الآية في ثلاث

آيات وهو قوله تعالى : ﴿ والناهون عن المنكر ﴾ (التوبة ،)

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ﴾ (الزمر ،)

لأنّ ابواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة . وقوله تعالى : ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ (التحريم ،)

. قال القفال : وقولهم واو الثمانية ليس بشيء بدليل قوله تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ (الحشر ،) ولم يذكروا الواو في النعت الثامن اه . وقد يجاب بأنّ ذلك جرى على الغالب . الوجه الثالث : أنه تعالى قال : ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ وهذا يقتضي أنه حصل العلم بعدّتهم لذلك القليل . وكان ابن عباس يقول : أنا من أولئك العدد القليل وكان يقول : إنهم سبعة وثامنهم كلبهم . وكان عليّ رضي الله تعالى عنه يقول : كانوا سبعة . وقال الرازي : وأسماؤهم تمليخا مكسلمينا مشلينا وهؤلاء الثلاثة كانوا أصحاب يمين الملك وعن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان الملك يستشير هؤلاء الستة ليتصرّفوا في مهماته ، والسابع كشفططيوش وهو الراعي الذي وافقهم لما هربوا من ملكهم . وروي عن ابن عباس أنه قال

: هم مكشلمينا وتمليخا ومرطونس ويدنونس ودوناقس وكفشططونس وهو الراعي واسم كلبهم قطمير واسم مدينتهم أفسوس .

(350/471)

تنبيه : في الآية حذف والتقدير سيقولون هم ثلاثة كما تقدّم تقديره فحذف المبتدأ لدلالة الكلام عليه وقيل : الأقوال الثلاثة لأهل الكتاب والقليل منهم ، أي : ولا علم بذلك إلا في قليل منهم وأكثرهم على الظنّ . ثم إنه تعالى لما ذكر هذه القصة أتبعها بأن نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن شيئين عن المراء وعن الاستفتاء أمّا النهي عن المراء فبقوله تعالى : ﴿ فلا تمار ﴾ ، أي : تجادل ﴿ فيهم ﴾ ، أي : في شأن الفتية ﴿ إلا مراء ﴾ ، أي : جدالاً ﴿ ظاهراً ﴾ ، أي : غير متعمق فيه وهو أن تقص عليهم ما في القرآن من غير أن تكذبهم في تعيين ذلك العدد ونظيره قوله تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ (العنكبوت ،) ، وأمّا النهي عن الاستفتاء فقوله تعالى : ﴿ ولا تستفت فيهم ﴾ ، أي : ولا تسأل ﴿ منهم ﴾ ، أي : من أهل الكتاب اليهود ﴿ أحداً ﴾ عن قصتهم سؤال مسترشد لأنه لما ثبت أنه ليس عندهم علم في هذا الباب وجب المنع من استفتائهم وفيما أوحى إليك مندوحة عن غيره ولا سؤال متعنت تريد تفضيح المسؤول عنه وتزييف ما عنده فإنه

يخل بمكارم الأخلاق . ولما سأل أهل مكة عن خبر أهل الكهف فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبركم به غداً ولم يقل إن شاء الله ، فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوماً وفي رواية أخرى أربعين يوماً نزل:

﴿ ولا تقولنّ لشيء ﴾ ، أي : لأجل شيء تعزم عليه ﴿ إني فاعل ذلك ﴾ الشيء ﴿ غداً ﴾ ، أي : فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة .

﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ الله إلا متلبساً بمشيئته بأن تقول إن شاء الله والسبب في ذلك أنّ الإنسان إذا قال سأفعل الفعل الفلاني غداً لم يبعد أن يموت قبل مجيء الغد ولم يبعد أيضاً إن بقي حياً أن يعيقه عن ذلك الفعل سائر العوائق فإذا لم يقل إن شاء الله صار كاذباً في ذلك الوعد والكذب منفر لا يليق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلهذا السبب وجب عليه أن يقول إن شاء الله حتى إذا تعذر عليه الوفاء بذلك الوعد لم يصر كاذباً ولم يحصل التنفير .

تنبيه : قال كثير من الفقهاء : إذا قال الرجل لامرأته أنت طالق إن شاء الله لم يقع عليه الطلاق لأنه لما علق وقوع الطلاق على مشيئته تعالى لم يقع عليه الطلاق إلا إذا علمنا حصول المشيئة ومشيئة الله تعالى غيب لا سبيل لنا إلى العلم بحصولها إلا إذا علمنا أن

متعلق المشيئة وقع وهو الطلاق ، وعلى هذا لا يعرف حصول المشيئة إلا إذا وقع الطلاق ولا يعرف وقوع الطلاق إلا إذا عرفت المشيئة فيتوقف العلم بكل واحد منهما على العلم بالآخر وهو دور فلهذا لا يقع الطلاق وقيل المراد إلا أن يشاء الله ، أي : إلا أن يأذن لك الله تعالى في ذلك القول والمعنى أنه ليس لك أن تخبر عن نفسك بأنك تفعل الفعل الفلاني إلا أن يأذن لك الله تعالى في ذلك الإخبار ، وقد احتج القائلون بأنّ المعدوم شيء بهذه الآية لأنّ الشيء الذي سيفعله غداً معدوم في الحال فوجب تسمية المعدوم بأنه شيء . وأجيب : بأنّ هذا الاستدلال لا يفيد إلا أنّ المعدوم يسمى بكونه شيئاً وعندنا أنّ السبب فيما سيصير شيئاً يجوز تسميته بكونه شيئاً في الحال كما قال تعالى : ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ (النحل ،)

والمراد سيأتي أمر الله .

(352/471)

واختلف في معنى قوله تعالى : ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ فقال ابن عباس ومجاهد والحسن : معناه إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن وعند هذا اختلفوا فقال ابن عباس : لو لم يحصل التذكر إلا بعد مدّة طويلة ثم ذكر إن شاء الله كفى في رفع الحنث . وعن

سعيد بن جبير بعد سنة أو شهر أو أسبوع أو يوم ، وعن طاوس لا يقدر على الاستثناء إلا في مجلسه . وعن عطاء يستثنى على مقدار حلب ناقة غزيرة وعند عامّة الفقهاء أنه لا أثر له في الكلام ما لم يكن موصولاً واحتج ابن عباس بأنّ قوله إذا نسيت غير مختص بوقت غير معين بل هو متناول لكل الأوقات وظاهره أنّ الاستثناء لا يجب أن يكون متصلاً أمّا عامّة الفقهاء فقالوا : لو جوّزنا ذلك للزم أن لا يستقرّ شيء من العقود والإيمان يحكى أنّ المنصور بلغه أنّ أبا حنيفة خالف ابن عباس في الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال له الإمام أبو حنيفة : هذا يرجع عليك لأنك تأخذ البيعة بالإيمان أترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن المنصور كلامه ورضي الله عنه واستدل بأنّ الآيات الكثيرة دلت على وجوب الوفاء بالعقد والعهد . قال تعالى : ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ (المائدة ،)

وقال تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ (الإسراء ،)

فإذا أتى بالعقد أو العهد وجب عليه الوفاء بمقتضاه لأجل هذه الآيات خالفنا الدليل فيما إذا كان الاستثناء متصلاً لأنّ الاستثناء مع المستثنى منه كالكلام الواحد بدليل أنّ

الاستثناء وحده لا يفيد شيئاً فهو جار مجرى بعض الكلمة الواحدة فجملة الكلام كالكلمة الواحدة المفيدة ، فإذا لم يكن متصلاً أفاد الالتزام التامّ فوجب الوفاء بذلك الملتزم ، وقيل أنّ قوله تعالى : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله . قال عكرمة : واذكر ربك إذا غضبت وقال وهب : مكتوب في الانجيل ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب . وقال الضحاك والسدي هذا في الصلاة المنسية . قال الرازيّ : وتعلق هذا الكلام بما قبله يفيد إتمام الكلام في هذه القصة وجعله مستأنفاً يصير الكلام مبتدأ منقطعاً وذلك لا يجوز وفي قوله تعالى : ﴿ وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾ وجوه الأوّل : أن يكون قوله تعالى : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ ليس يحسن تركه وذكره أولى من تركه وهو قوله : ﴿ لأقرب من هذا رشداً ﴾ والمراد منه ذكر هذه الجملة . الثاني : أنه لما وعدهم بشيء وقال معه إن شاء الله فيقول وعسى أن يهدين ربي لشيء أحسن وأكمل مما وعدتكم به . الثالث : أنّ قوله : ﴿ عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾ إشارة إلى قصة أصحاب الكهف ، ، أي : لعلّ الله يوفقني من البينات والدلائل على صحة نبوّتي وصدقي في ادعاء النبوّة ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشداً من قصة أصحاب الكهف ، وقد فعل الله تعالى ذلك حين آتاه من قصص الأنبياء والأخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك . ثم شرع تعالى في آية هي آخر الآيات المذكورة في قصة أصحاب الكهف بقوله تعالى:

﴿ ولبثوا في كهفهم ﴾ ، أي : نياماً ﴿ ثلاثمئة ﴾ ، أي : مدّة ثلاثمئة ﴿ سنين ﴾ قال بعضهم : وهذه السنون الثلاثمئة عند أهل الكتاب شمسية وتزيد القمرية عليها تسع سنين وقد ذكرت في قوله : ﴿ وازدادوا تسعاً ﴾ ، أي : تسع سنين لأنّ التفاوت بين الشمسة والقمرية في كل مائة سنة ثلاث سنين لأنّ السنة الشمسية تزيد على السنة القمرية عشرة أيام وإحدى وعشرين ساعة وخمس ساعة فالثلاثمئة سنة الشمسية ثلاثمئة وتسع قمرية قال الرازي : وهذا مشكل لأنه لا يصح بالحساب هذا القول ويمكن أن يقال لعلهم لما استكملوا ثلاثمئة سنة قرب أمرهم من الإنتباه ثم اتفق ما أوجب بقاءهم في النوم بعد ذلك تسع سنين وقرأ حمزة والكسائي بغير تنوين في الوصل والباقون بالتنوين فسنين عطف بيان لثلاثمائة لأنه لما قال : ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاثمئة ﴾ لم يعرف أنها أيام أو شهور أو سنون ، فلما قال : ﴿ سنين ﴾ صار هذا بياناً لقوله ثلاثمئة فكان ذلك عطف بيان له وقيل هو على التقديم والتأخير ، أي : لبثوا سنين ثلاثمئة . وأمّا وجه القراءة الأولى فهو أنّ الواجب في الإضافة أن يقال ثلاثمائة سنة إلا أنه يجوز وضع الجمع موضع الواحد في التمييز ، كقوله تعالى : ﴿ بالأخسرين أعمالاً ﴾ (الكهف ،)

وحذف مميز تسع لدلالة ما تقدّم عليه إذ لا يقال عندي ثلاثمئة درهم وتسعة إلا و أنت تعني تسعة دراهم ، ولو أردت ثياباً أو نحوها لم يجز لأنه ألغاز . ثم إنّ الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم إذا نازعوه في مدّة لبثهم في الكهف بقوله تعالى:

﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ ، أي : فهو أعلم منكم وقد أخبر بمدّة لبثهم ، وقيل إنّ أهل الكتاب قالوا إنّ المدّة من حين دخلوا الكهف إلى يومنا هذا وهو اجتماعهم بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ثلاثمئة سنين وازدادوا تسع سنين ، فرد الله تعالى عليهم ذلك وقال : الله أعلم بما لبثوا يعني بعد قبض أرواحهم إلى يومنا هذا لا يعلمه إلا الله ﴿ له غيب السموات والأرض ﴾ ، أي : ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلهما فالغيب ما يغيب عن إدراكك والله عز ذكره لا يغيب عن إدراكه شيء فيكون عالماً بهذه الواقعة لا محالة وقوله تعالى :

﴿ أبصر به وأسمع ﴾ كلمة تذكر في التعجب ، أي : ما أبصر الله تعالى بكل موجود وما أسمعه بكل بمسموع ﴿ ما لهم ﴾ ، أي : أهل السموات والأرض ﴿ من دونه ﴾ ، أي : الله ﴿ من وليّ ﴾ ، أي : ناصر ﴿ ولا يشرك في حكمه ﴾ ، أي : في قضائه ﴿ أحداً ﴾ منهم ولا يجعل له فيه مدخلاً لأنه غني بذاته عن كل أحد ، وقيل الحكم هنا علم الغيب ، أي : لا

يشرك في علم غيبه أحداً . وقرأ ابن عامر بالمثناة فوق قبل الشين وسكون الكاف على نهي كل أحد عن الإشراك ، والباقون بالتحتية وضمّ الكاف .

تنبيه : احتج أصحابنا رحمهم الله تعالى بهذه القصة على صحة القول بالكرامة للأولياء وقد قدمنا معرفة الوليّ في سورة يونس عند قوله تعالى : ﴿ إلا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (يونس ،)

فمما يدل على جواز كرامات الأولياء القرآن والأخبار والآثار والمعقول ، أمّا القرآن فالمعتمد فيه عندنا آيات الحجة الأولى قصة مريم عليها السلام وقد شرحناها في سورة آل عمران فلا نعيدها . الحجة الثانية : قصة أصحاب الكهف وبقاؤهم في النوم سالمين من الآفات مدّة ثلاثمئة سنة وتسع سنين ، وأنّ الله تعالى كان يعصمهم من حرّ الشمس ، ومن الناس من تمسك أيضاً في هذه المسألة بقوله تعالى : ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك ﴾ (النمل ،)

على أنه غير السيد سليمان والسيد جبريل .

وأما الأخبار فكثيرة منها ما أخرج في الصحيح عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة ؛ عيسى ابن مريم وصبيّ في زمن جريج وصبيّ آخر ؛ وأمّا عيسى فقد عرفتموه ، وأمّا جريج فكان رجلاً عابداً في بني إسرائيل وكانت له أمّ فكان يوماً يصلي إذ اشتاقت إليه أمّه فقالت : يا جريج فقال : يا رب أمّي وصلاتي الصلاة خير أم رؤيتها ثم يصلي فدعته ثانياً فقال : مثل ذلك حتى تم ثلاث مرّات وكان يصلي ويدعها فاشتدّ ذلك على أمّه فقالت : اللهمّ لا تمته حتى تريه الموسات . وكانت زانية في بني إسرائيل فقالت لهم : أنا أفتن جريجاً حتى يزني بي فأتته فلم تقدر على شيء ، وكان هناك راع يأوي بالليل إلى صومعته فلما أعياها جريج راودّت الراعي على نفسها فأتاها فولدت ثم قالت : ولدي هذا من جريج ، فأتاه بنو إسرائيل وكسروا صومعته وشتموه ثم نخس الغلام قال أبو هريرة : كأني أنظر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم حين قال بيده : يا غلام من أبوك ؟ فقال : الراعي . فندم القوم على ما كان منهم واعتذروا إليه وقالوا نبني لك صومعتك من ذهب أو فضة فأبى عليهم وبناها كما كانت . وأمّا الصبيّ الآخر فإنّ امرأة كان معها صبيّ لها ترضعه إذ مرّ بها شاب جميل ذو شارة فقالت : اللهمّ اجعل ابني مثل هذا . فقال الصبيّ : اللهمّ لا تجعلني مثله ، ثم مرّ بها امرأة ذكروا أنها سرقت وزنت وعوقبت فقالت : اللهمّ لا تجعل ابني مثل هذه . فقال الصبيّ : اللهمّ اجعلني مثلها . فقالت له

أمّه في ذلك ، فقال : إنّ الراكب جبار من الجبابرة فكرهت أن أكون مثله وإنّ هذه قيل لها زنيت ولم تزن وقيل له سرقت ولم تسرق وهي تقول : حسبي الله فأحببت أن أكون مثلها " .

ومنها خبر الغار وهو مشهور في الصحيح عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم فأواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت عليهم صخرة من الجبل فسدّت عليهم باب الغار" وقد ذكرت ذلك عند قوله تعالى : ﴿كانوا من آياتنا عجباً﴾ (الكهف ،)

. ومنها قوله صلى الله عليه وسلم "ربّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبره" . ولم يفرق من شيء وشيء فيما يقسم به على الله تعالى . ومنها ما روي عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "بينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها التفتت البقرة ، وقالت : إني لم أخلق لهذا وإنما خلقت للحرث فقال الناس : سبحان الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنت بهذا وأبو بكر وعمر" .

ومنها ما روي عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "بينا رجل سمع رعداً أو صوتاً في السحاب أن اسق حديقة فلان قال : فغدوت إلى تلك الحديقة فإذا رجل قائم فيها

فقلت له : ما اسمك ؟ قال : فلان ابن فلان قلت : فما تصنع بحديقتك هذه إذا صرمتها ؟ قال : ولم تسأل عن ذلك . قلت : لأني سمعت صوتاً في السحاب أن اسق حديقة فلان قال : أمّا إذ قلت فإني أجعلها أثلاثاً فأجعل لنفسي ولأهلي ثلثاً وأجعل للمساكين وأبناء السبيل ثلثاً وأنفق عليها ثلثاً " .

(358/471)

وأمّا الآثار فكثيرة ايضاً ولنبدأ منها ببعض ما نقل أنه ظهر على يد الخلفاء الراشدين من الكرامات ثم ببعض ما ظهر على يد بعض الصحابة . أمّا أبو بكر رضي الله تعالى عنه فمن كراماته أنه لما حملت جنازته إلى باب قبر النبيّ صلى الله عليه وسلم ونودي السلام عليك يا رسول الله ، هذا أبو بكر بالباب فإذا بالباب قد فتح وإذا بهاتف يهتف من القبر أدخلوا الحبيب إلى الحبيب ، وأمّا عمر رضي الله تعالى عنه فقد ظهرت أنواع كثيرة من كراماته النوع الأوّل ما روي أنه لما بعث جيشاً وأمّر عليهم رجلاً يدعى سارية بن الحصين فبينما عمر يوم الجمعة يخطب جعل يصيح في خطبته وهو على المنبر يا سارية الجبل الجبل . قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه كتبت تاريخ هذه الكلمة فلما قدم رسول ذلك الجيش فقال : يا أمير المؤمنين غدونا يوم الجمعة في وقت الخطبة فهزمونا فإذا بإنسان يصيح يا سارية

الجبل فأسندنا ظهرنا إلى الجبل فهزم الله تعالى الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة ذلك الصوت . قال الرازي : قلت سمعت بعض المذكرين قال : كان ذلك معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه قال لأبي بكر وعمر : "أنتما بمنزلة السمع والبصر" ، فلما كان عمر بمنزلة البصر لمحمد صلى الله عليه وسلم لا جرم قدر على أن يرى من ذلك البعد العظيم .

النوع الثاني : ما روي أن نيل مصر كان في الجاهلية يقف في كل سنة مرة واحدة فكان لا يجري حتى تلقى فيه جارية حسناء فلما جاء الإسلام كتب عمرو بن العاص إلى عمر فكتب عمر على خرقة أيها النيل إن كنت تجري بأمر الله فاجر وإن كنت إنما تجري بأمرك لا حاجة بنا إليك فألقيت تلك الخرقة في النيل فجرى ولم يقف بعد ذلك .

النوع الثالث : لما وقعت الزلزلة في المدينة فضرب عمر بالدرّة على الأرض وقال : اسكني بأذن الله فسكنت وما حدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك الوقت .

النوع الرابع : وقعت النار في بعض دور المدينة فكتب عمر على خرقة يا نار اسكني بأذن الله فألقوها في النار فانطفأت في الحال .

النوع الخامس : ما روي أنّ رسول ملك الروم جاء إلى عمر وطلب داره فظنّ أن داره مثل

قصور الملوك فقالوا ليس له ذلك وإنما هو في الصحراء يضرب اللبن فلما ذهب إلى الصحراء رأى عمر وضع درّته تحت رأسه ونام على التراب فتعجب الرسول من ذلك وقال أهل المشرق والمغرب يخافون هذا الإنسان وهو على هذه الصفة ثم قال في نفسه إن وجدته خالياً فاقتله وأخلص الناس منه فلما رفع السيف أخرج الله تعالى من الأرض أسدين فقصداه فخاف وألقى السيف من يده وانتبه عمر ولم ير شيئاً فسأله عن الحال فذكر له الواقعة وأسلم. قال الرازي: وأقول هذه الواقعة رويت بالآحاد وههنا ما هو معلوم بالتواتر وهو أنه مع بعده عن زينة الدنيا واحترازه عن التكلفات والتهويلات ساس الشرق والغرب وغلب الممالك والدول ولو نظرت في كتب التواريخ علمت أنه لم يتفق لأحد من أوّل عهد عمر إلى الآن ما تيسر له، فإنه مع غاية بعده عن التكلفات كيف قدر على تلك السياسات ولا شك أنّ هذا من أعظم الكرامات.

وأما عثمان رضي الله تعالى عنه فأشياء كثيرة، منها ما روي عن أنس قال: سرت في الطريق فوقعت عيني على امرأة ثم دخلتُ على عثمان فقال: ما لي أراكم تدخلون عليّ وآثار الزنا ظاهرة عليكم فقلت أجاء الوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لا ولكن فراسة صادقة، ومنها أنه لما طعن بالسيف فأوّل قطرة من دمه سقطت وقعت على المصحف على قوله تعالى: ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ (البقرة،)

. ومنها أنّ جهجاها الغفاري انتزع العصا من يد عثمان فكسرها على ركبته فوقعت الأكلة في ركبته .

(360/471)

وأما علي رضي الله تعالى عنه فأشياء كثيرة أيضاً ، منها ما روي أنّ واحداً من محبيه سرق وكان عبداً أسود فأتي به إلى عليّ فقال : أسرقت ؟ فقال : بلى . فقطع يده فانصرف من عند علي فلقيه سلمان الفارسي وابن الكواء . فقال ابن الكواء : من قطع يدك ؟ فقال له : أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول . فقال له سلمان : قطع يدك وتمدحه . فقال : ولم لا أمدحه وقد قطع يدي بحق وخلصني من النار ، فسمع سلمان ذلك فأخبر به علياً فدعا الأسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ، ودعا بدعوات فسمعنا صوتاً من السماء : إرفع الرداء عن اليد فرفعناه فإذا اليد قد برئت .

وأما ما روي عن بعض الصحابة فشيء كثير ، ونذكر منها شيئاً قليلاً ، منها ما روى محمد بن المنكدر عن سفينة قال : ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها ، وركبت لوحاً من ألواحها فطرحني اللوح في خيسة فيها أسد فخرج الأسد إليّ يريدني فقلت : يا أبا

الحرث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فتقدّم الأسد إليّ ودلني على الطريق ثم همهم فظننت أنه يودّعني ورجع .

(361/471)

ومنها ما روى ثابت عن أنس أنّ أسيد بن حضير ورجلاً آخر من الأنصار تحدّثا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة لهما حتى ذهب من الليل زمان ثم خرجا من عنده وكانت الليلة شديدة الظلمة وكان في يد كل واحد منهما عصا فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها فلما افترقت بينهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فمشى حتى بلغ منزله . ومنها ما روي أنه قيل لخالد بن الوليد أنّ في عسكرك من يشرب الخمر فركب فرسه ليلة فطاف بالعسكر فلقي رجلاً على فرس ومعه خمر فقال : ما هذا ؟ قال : خل . فقال خالد : اللهم اجعله خلاً فذهب الرجل إلى أصحابه فقال : أتيتكم بخمر ما شربت العرب مثله فلما فتحوا فإذا هو خل فقالوا : والله ما جئتنا إلا بخل فقال : والله هذا دعاء خالد . ومنها الواقعة المشهورة وهي أنّ خالد بن الوليد أكل كفاً من السم على اسم الله وما ضرّه .

ومنها ما روي أنّ ابن عمر كان في بعض أسفاره فلقي جماعة وقفوا على الطريق من خوف

السبع فطرد السبع من طريقهم ، ثم قال : إنما يسلط على ابن آدم ما يخافه ولو أنه لم يخف غير الله لما سلط عليه شيء . ومنها ما روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث العلاء الحضرمي في غزاة فحال بينهم وبين المطلوب قطعة من البحر فدعا باسم الله الأعظم ومشوا على الماء . وفي كتب الصوفية من هذا الباب روايات متجاوزة عن الحدّ والحصر فمن أرادها طالعها .

وأما الدلائل العقلية على جواز الكرامات فمن وجوه : الأوّل : أنه صلى الله عليه وسلم قال حاكياً عن رب العزة : "من آذى لي ولياً فقد بارزته بالمحاربة" فجعل إيذاء الولي قائماً مقام إيذائه وتأكد هذا بالخبر المشهور أنه تعالى يقول يوم القيامة : "يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ، استسقيتك فما سقيتني ، استطعمتك فما أطعمتني ، فيقول : يا رب كيف أفعل هذا وأنت رب العالمين فيقول : إنّ عبدي فلاناً مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدت ذلك عندي" . وكذا في السقي والإطعام فدلت هذه الأخبار على أنّ أولياء الله يبلغون هذه الدرجات العالية والمراتب الشريفة . فإذا جاز اتصال العبد إلى هذه الدرجات فأيّ بعد أن يعطيه الله تعالى كسرة خبز أو جرعة ماء أو يسخر له كلباً أو دودة .

الوجه الثاني : أنه صلى الله عليه وسلم قال عن رب العزة : "ما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترض عليه ، ولا يزال يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً وقلباً ولساناً ويداً ورجلاً فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يمشي" . وهذا الخبر يدل على أنه لم يبق في سمعهم نصيب لغير الله تعالى لما قال : أنا سمعه وأنا بصره ، وهذا المقام أشرف من تسخير الحية والسبع ، وإعطاء عنقود من العنب أو شربة من الماء فلما أوصل برحمته عبده إلى هذه الدرجات العالية فأي بعد في أن يعطيه رغيفاً واحداً أو شربة من الماء في مفازة .

الوجه الثالث : لو امتنع إظهار الكرامة لكان ذلك إمّا لأجل أنّ الله تعالى ليس أهلاً لأن يفعل مثل هذا الفعل أو لأجل أنّ المؤمن ليس أهلاً لأن يعطيه الله هذه العطية والأوّل قدح في قدرة الله تعالى وهو كفر . والثاني باطل فإنّ معرفة الله تعالى ومحبته وطاعته والمواظبة على ذكر تقديسه وتمجيده وتهليله أشرف من إعطاء رغيف واحد في مفازة وتسخير حية أو أسد فإن إعطاءه المحبة والذكر والشكر من غير سؤال أولى من أن يعطيه شربة ماء في مفازة فأي بعد فيه .

واحتج المنكر للكرامات بوجوه : الأوّل : أنّ ظهور الفعل الخارق للعادة جعله الله تعالى دليلاً على النبوّة فلو حصل لغير النبيّ لبطلت هذه الدلالة .

الوجه الثاني : أنّ الله تعالى قال : ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴾ (النحل ،) .

والقول بأنّ الوليّ ينتقل من بلد إلى بلد بعيد لا على هذا الوجه طعن في هذه الآية وأيضاً أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يصل من مكة إلى المدينة إلا في أيام كثيرة مع التعب الشديد فكيف يعقل أن يقال أنّ الوليّ ينتقل من بلد نفسه إلى الحج في اليوم الواحد .

الوجه الثالث : أنّ هذا الوليّ الذي يظهر عليه الكرامات إذا ادّعى على إنسان درهماً واحداً فهل يطلب بالبينة أم لا فإن طالبناه بها كان عبثاً لأنّ ظهور الكرامة عليه يدل على أنه لا يكذب ومع قيام الدليل القاطع كيف يطلب الدليل الظني وإن لم يطالب بها فقد تركنا قوله صلى الله عليه وسلم "البينة على المدّعي" .

فهذا يدل على أنّ القول بالكرامة باطل ، وأجيب عن الأوّل بأنّ الناس اختلفوا هل يجوز للولي دعوى الولاية ؟ فقال قوم من المحققين إنه لا يجوز فعلى هذا الفرق بين المعجزة والكرامة

، أنّ المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوّة والكرامة لا تكون مسبوقة بدعوى الولاية وعلى القول بالجواز الفرق بينهما أنّ النبيّ يدّعي المعجزة ويقطع بها والوليّ إذا ادّعى الكرامة لا يقطع بها لأنّ المعجز يجب ظهوره ، والكرامة لا يجب ظهورها ، وأجيب عن الثاني بأنّ قوله تعالى : ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ إلى آخره محمول على المعهود المتعارف ، وكرامات الأولياء أحوال نادرة فتصير كالمستثنيات من ذلك العموم المتعارف ، وأجيب عن الثالث بأنّ التمسك بالأمور النادرة لا يعول عليه في الشرع فلا ينافي ذلك قوله صلى الله عليه وسلم "البينة على المدّعي" . ومع هذا فصاحب الكرامة يجب عليه أن يكون خائفاً وجلاً ولهذا قال المحققون : أكثر ما حصل الانقطاع عن حضرة الله إنما وقع في مقام الكرامات فلا جرم ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من أشدّ أنواع البلاء .

والذي يدل على أنّ الاستئناس بالكرامة قاطع عن الطريق وجوه : الأوّل : أنّ الكرامات أشياء مغايرة للحق سبحانه وتعالى فالفرح بالكرامة فرح بغير الحق والفرح بغير الحق حجاب والمحجوب عن الحق كيف يليق به الفرح والسرور . الوجه الثاني : أنّ من اعتقد في نفسه أنه صار مستحقاً للكرامة بسبب عمله حصل لعمله وقع عظيم في قلبه ، ومن كان لعمله وقع عظيم في قلبه كان جاهلاً إذ لو عرف ربه لعلم أنّ كل طاعات الخلق في جنب جلاله تقصير وكل شكر في جنب آلائه ونعمائه قصور وكل معارفهم وعلومهم فهي في مقابلة عزته حيرة وجهل .

وجدت في بعض الكتب أنه قرئ في مجلس الأستاذ أبي علي الدقاق قوله تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ (فاطر ،)

فقال : علامة أنّ الحق رفع عملك أن لا يبقى عندك مرتقى عملك في نظرك ، فإن بقي عملك في نظرك فهو غير مرفوع وإن لم يبق عملك في نظرك فهو مرفوع مقبول . الوجه الثالث : أنّ صاحب الكرامة إنما وجد الكرامة لإظهار الذل والتضرّع في حضرة الله تعالى ، فإذا ترفع وتكبر وتجبر بسبب الكرامات فقد بطل ما به وصل إلى الكرامات فهذا طريق يؤدّي ثبوته إلى عدمه فكان مردوداً ولهذا المعنى لما ذكر صلى الله عليه وسلم مناقب نفسه وفضائلها كان يقول في آخر كل واحد منها ولا فخر ، أي : لا أفخر بهذه الكرامات ، وإنما أفخر بالمكرم والمعطي . الوجه الرابع : أنه تعالى وصف عباده المخلصين بقوله تعالى : ﴿ ويدعوننا رغباً ﴾ (الأنبياء ،) ، أي : في ثوابنا ﴿ ورهباً ﴾ ، أي : من عذابنا . وقيل رغباً في وصالنا ورهباً من عقابنا . قال بعض المحققين : والأحسن أن يقال رغباً فينا ورهباً عنا ، وفي هذا القدر كفاية لأولي الألباب ، جعلنا الله تعالى وأحبابنا من أهل ولايته بمحمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحابته . ثم لما دل اشتمال القرآن على قصة أصحاب

الكهف من حيث أنها من المغيبات بالإضافة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم على أنه وحي معجز أمره أن يداوم درسه ويلازم أصحابه بقوله تعالى:

(366/471)

﴿ واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك ﴾ ، أي : القرآن واتبع ما فيه واعمل بما فيه ﴿ لا مبدّل لكلماته ﴾ ، أي : لا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره ، وقال بعضهم : مقتضى هذا أن لا يتطرق النسخ إليه وأجاب بأنّ النسخ في الحقيقة ليس تبديلاً لأنّ المنسوخ ثابت في وقته إلى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالمغاير فكيف يكون تبديلاً وهذا لا يحتاج إليه مع التفسير المذكور ﴿ ولن تجد من دونه ﴾ ، أي : الله ﴿ ملتحداً ﴾ ، أي : ملجأً في البيان والإرشاد وقيل إن لم تتبع القرآن . ونزل في عيينة بن حصن الفزاري لما أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء فيهم سلمان الفارسي وعليه شملة قد عرق فيها وبيده خوص يشقه ثم ينسجه فقال له : أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها فإن أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء ، أي : كما قال قوم نوح :

﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ (الشعراء ،)

فنحهم حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلساً واجعل لهم مجلساً .

﴿ واصبر نفسك ﴾ ، أي : احبسها وثبتها ﴿ مع الذين يدعون ربهم ﴾ ونظير هذه الآية قد سبق في سورة الأنعام وهو قوله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه ﴾ (الأنعام ،)

ففي تلك الاية نهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن طردهم ، وفي هذه الآية أمره بمجالستهم والمصابرة معهم وفي قوله تعالى : ﴿ بالغداة والعشيّ ﴾ وجوه الأوّل : أنهم مواظبون على هذا العمل في كل الأوقات كقول القائل ليس لفلان عمل بالغداة والعشيّ إلا شتم الناس . الثاني : المراد صلاة الفجر والعصر . الثالث : أنّ المراد الغداة وهو الوقت الذي ينتقل فيه الإنسان من النوم إلى اليقظة ، وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من الموت إلى الحياة ، والعشيّ هو الوقت الذي ينتقل الإنسان فيه من الحياة إلى الموت ومن اليقظة إلى النوم ، والإنسان العاقل يكون في هذين الوقتين كثير الذكر لله تعالى عظيم الشكر لآلاء الله ونعمائه وقرأ ابن عامر بضم الغين المعجمة وسكون الدال وبعدها واو مفتوحة والباقون بفتح الغين والدال وألف بعدها والرسم في المصحف بالواو هنا وفي سورة الأنعام .

﴿ يريدون ﴾ بعبادتهم ﴿ وجهه ﴾ تعالى، أي: رضاه وطاعته لا شيئاً من أعراض الدنيا ﴿ ولا تعد ﴾ ، أي: تنصرف ﴿ عيناك عنهم ﴾ إلى غيرهم وعبر بالعينين عن صاحبهما فنهى صلى الله عليه وسلم أن يصرف بصره ونفسه عنهم لأجل رغبته في مجالسة الأغنياء لعلهم يؤمنون وقوله تعالى: ﴿ تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ في موضع الحال، أي: إنك إن فعلت ذلك لم يكن إقدامك عليه إلا لرغبتك في زينة الحياة الدنيا . ولما بالغ تعالى في أمره في مجالسة الفقراء من المسلمين بالغ في النهي عن الالتفات إلى أقوال الأغنياء والمتكبرين بقوله تعالى: ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ ، أي: جعلنا قلبه غافلاً عن ذكرنا ، أي: عيينة بن حصن وقيل أمية بن خلف ﴿ واتبع هواه ﴾ ، أي: في طلب الشهوات ﴿ وكان أمره فرطاً ﴾ ، أي: إسرافاً وباطلاً، وهذا يدل على أنّ أشرّ أحوال الإنسان أن يكون قلبه خالياً عن ذكر الحق ويكون مملوءاً من الهوى الداعي إلى الاشتغال بالخلق، لأنّ ذكر الله تعالى نور وذكر غيره ظلمة لأنّ الوجود طبيعة النور والعدم منبع الظلمة والحق تعالى واجب الوجود لذاته فكان النور الحق هو الله تعالى وما سواه فهو ممكن الوجود لذاته والإمكان طبيعة عدمية فكان منبع الظلمة فالقلب إذا أشرق فيه ذكر الله تعالى فقد حصل فيه النور والضوء والإشراق وإذا توجه القلب إلى الخلق فقد حصل فيه الظلم والظلمة بل الظلمات فلهذا السبب إذا أعرض القلب عن الحق وأقبل على الخلق فهو الظلمة

الخالصة التامّة والإعراض عن الحق هو المراد بقوله تعالى : ﴿ أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ والإقبال على الخلق هو المراد بقوله تعالى : ﴿ واتبع هواه ﴾ .

روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كنت جالساً في عصابة من ضعفاء المهاجرين وأنّ بعضهم ليستتر ببعض من العري وقارئ يقرأ من القرآن فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "ما الذي كنتم تصنعون ؟ قلنا : يا رسول الله كان واحد يقرأ من القرآن ونحن نسمع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي جعل من أمّتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم ثم جلس وسطنا وقال : أبشروا يا صعاليك المهاجرين بالنور التامّ يوم القيامة فتدخلون الجنة قبل الأغنياء بمقدار خمسمائة سنة" . ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا يلتفت إلى أولئك الأغنياء الذين قالوا : إن طردت الفقراء آمنا بك . قال تعالى بعده:

﴿ وقل الحق ﴾ ، أي : وقل لهؤلاء ولغيرهم هذا الذي جئتكم به في أمر أهل الكهف وغيرهم من هذا الوجه العربي المعرى عن العوج الظاهر الإعجاز الباهر الحجج الحق كائناً ﴿ من ربكم ﴾ المحسن إليكم في أمر أهل الكهف وغيرهم من صبر نفسي مع المؤمنين

والإعراض عمن سواهم وغير ذلك لا ما قلتموه في أمرهم ، ويجوز أن يكون الحق مبتدأ وخبره الجار بعده ﴿ فمن شاء ﴾ ، أي : منكم ومن غيركم ﴿ فليؤمن ﴾ بهذا الذي قصصناه فيهم وفي غيرهم فهو مقبول مرغوب فيه وإن كان فقيراً رث الهيئة ولم ينفع إلا نفسه ﴿ ومن شاء ﴾ منكم ومن غيركم ﴿ فليكفر ﴾ فهو أهل لأن يعرض عنه ولا يلتفت إليه وإن كان أغنى الناس وأحسنهم هيئة وإن تعاظمت هيئته وهذا لا يقتضي استقلال العبد بفعله كما تقول المعتزلة ، فعن ابن عباس في معنى الآية من شاء الله له الإيمان آمن ومن شاء له الكفر كفر ونقل عن عليّ رضي الله عنه أنه قال : هذه الصيغة تهديد ووعيد ، أي : فهي كقوله تعالى : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ (فصلت ،)

فإن الله تعالى لا ينتفع بإيمان المؤمنين ولا يستضرّ بكفر الكافرين بل نفع الإيمان يعود على المؤمن وضرر الكفر بعود على الكافر كما قال تعالى : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ (الإسراء ،)

ولما هدد السامعين بما حاصله ليختار كل امرئ لنفسه ما يجده غداً عند الله أتبعه بذلك الوعيد والأفعال الباطلة ، وبذكر الوعد على الإيمان والأعمال الصالحة ، أمّا الوعيد فقوله

تعالى: ﴿إنا أعتدنا﴾ ، أي: هيأنا بما لنا من العظمة والقدرة ﴿للظالمين﴾ ، أي: لمن أنف عن قبول الحق لأجل أنّ الذين قبلوه فقراء ومساكين وكذا كل من لم يؤمن ﴿ناراً﴾ وهي الجحيم ثم وصف الله تعالى تلك النار بصفتين؛ الأولى قوله تعالى: ﴿أحاط بهم﴾ كلهم ﴿سرادقها﴾ ، أي: فسطاطها شبه به ما يحيط بهم من النار وقيل هو الحجرة التي تكون حول الفسطاط وقيل حائط من نار والمراد أنه لا مخلص لهم منها ولا فرجة يتفرّجون بالنظر إلى ما وراءها من غير النار بل هي محيطة من كل الجوانب، وقيل هو دخان يغشاهم قبل دخولهم النار يحيط بهم كالسرداق حول الفسطاط. الصفة الثانية قوله تعالى: ﴿وإن يستغيثوا﴾ ، أي: يطلبوا الغوث ﴿يغاثوا بماء﴾ ووصف هذا الماء بصفتين؛ الأولى قوله تعالى: ﴿كالمهل﴾ وهو كما في حديث مرفوع دردي الزيت، وعن ابن مسعود أنه دخل بيت المال وأخرج نقاعة كانت فيه وأوقد عليها النار حتى تلألأت ثم قال: هذا هو المهل. وقال أبو عبيدة والأخفش: كل شيء أذبته من نحاس أو ذهب أو فضة فهو المهل. وقيل إنه الصديد والقيح وقيل إنه ضرب من القطران ثم يحتمل أن تكون هذه الاستغاثة لأنهم طلبوا ماء للشرب فيعطون هذا المهل قال تعالى: ﴿تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية﴾ (الغاشية: ،)

ويحتمل أن يستغيثوا من حرّ جهنم فيطلبوا ما يصبونه على أنفسهم للتبريد فيعطون هذا الماء قال تعالى حكاية عنهم: ﴿أفيضوا علينا من الماء﴾ (الأعراف،)

. وقال تعالى في آية أخرى : ﴿ سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ﴾ (إبراهيم ،)

(371/471)

. فإذا استغاثوا من حرّ جهنم صب عليهم القطران الذي يعمّ كل أبدانهم كالقميص .

والصفة الثانية للماء : قوله تعالى : ﴿ يشوي الوجوه ﴾ ، أي : إذا قرب إلى الفم ليشرب فكيف بالفم والجوف ثم وصل تعالى بذلك ذمّه فقال تعالى : ﴿ بئس الشراب ﴾ ، أي : ذلك الماء الذي هو كالمهل لأنّ المقصود من شرب الشراب تسكين الحرارة وهذا يبلغ في إحراق الإنسان مبلغاً عظيماً ثم عطف عليه ذمّ النار المعدّة لهم بقوله تعالى :

﴿ وساءت ﴾ ، أي : النار وقوله تعالى : ﴿ مرتفقاً ﴾ تمييز منقول من الفاعل ، أي : قبح مرتفقها وهو مقابل لقوله تعالى الآتي في الجنة : ﴿ وحسنت مرتفقاً ﴾ وإلا فأي ارتفاق في النار . ولما ذكر تعالى وعيد المبطلين أردفه بوعد المحقين فقال تعالى:

﴿ إنّ الذين آمنوا ﴾ ولما كان الإيمان هو الإذعان للأوامر عطف عليه ما يحقق ذلك بقوله تعالى : ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ ثم عظم جزاءهم بقوله تعالى : ﴿ إنا لا نضيع ﴾ ، أي : بوجه من الوجوه ﴿ أجر من أحسن عملاً ﴾ وهذه الجملة خبر إن الذين وفيها إقامة

الظاهر مقام المضمر والمعنى أجرهم ، أي : نثيبهم بما تضمنه .

﴿ أولئك لهم جنات عدن ﴾ ، أي : إقامة فكأنه قيل فما لهم فيها فقيل : ﴿ تجري من تحتهم ﴾ ، أي : من تحت منازلهم ﴿ الأنهار ﴾ وذلك لأنّ أفضل المساكن ما كان تجري فيه الأنهار أو الماء فكأنه قيل ثم ماذا فقيل : ﴿ يحلون فيها ﴾ وبنى الفعل المجهول لأنّ المقصود وجود التحلية وهي لعزتها إنما يؤتى بها من الغيب فضلاً من الله تعالى .

(372/471)

ولما كانت نعم الله لا تحصى نوع منها قال تعالى مبعضاً : ﴿ من أساور ﴾ جمع إسورة كاحمرة جمع سوار كما يلبس ذلك ملوك الدنيا من جبابرة الكفرة في بعض الأقاليم كأهل فارس وقيل من زائدة ، وقيل للابتداء ومن في قوله تعالى : ﴿ من ذهب ﴾ للبيان صفة لأساور وتنكيرها لتعظيم جنسها عن الإحاطة به . وقيل للتبعيض . ولما كان اللباس جزاء العمل فكان موجوداً عندهم أسند الفعل إليهم فقال : ﴿ ويلبسون ثياباً خضراً ﴾ لأنّ الخضرة أحسن الألوان وأكثرها طراوة ثم وصفها بقوله تعالى : ﴿ من سندس ﴾ وهو ما رقّ من الديباج ﴿ وإستبرق ﴾ وهو ما غلظ منه جمع بين النوعين للدلالة على أنّ فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وفي آية أخرى ﴿ بطائنها من إستبرق ﴾ (الرحمن ،)

فيكون الغليظ بطانة للرقيق ، ثم استأنف الوصف عن حال جلوسهم فيها بأنه جلوس الملوك المتمكنين من النعيم فقال تعالى : ﴿ متكئين فيها ﴾ ، أي : لأنهم في غاية الراحة ﴿ على الأرائك ﴾ جمع أريكة وهي السرير في الحجلة وهي بيت يزين بالثياب والستور للعروس ثم مدح هذا بقوله تعالى : ﴿ نعم الثواب ﴾ ، أي : الجزاء الجنة لو لم يكن لها وصف غير ما سمعتم فكيف ولها من الأوصاف ما لا يعلمه حق علمه إلا الله تعالى وإلى ذلك أشار بقوله تعالى : ﴿ وحسنت ﴾ ، أي : الجنة كلها وبين ذلك بقوله تعالى : ﴿ مرتفقاً ﴾ ، أي : مقرّاً ومرتفقاً ومجلساً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 41.5 ﴾

(373/471)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman

Bin Mohammed

AL-QAMMASH

24